2020
8.1.2020

عارف حجاوي



أول الشعر

عصارة الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي



دار المشرق

أوَّل الشعر

عُصارة الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي

الطبعة الثانية

عارف حجاوي



أوَّل الشعر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

حجاوي، عارف
أوّل الشعر: عُصارة الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي/ عارف حجاوي.
٦٨٨ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٦
الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٨

دار المشرق
القاهرة - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

عندما فرغت من رقن هذا الكتاب وتشكيله وتصحيحه وتنضيد فهارس قوافيه على الحاسوب، طبعته حتى أقرأه قرْأةً أخيرة من على الورق. ومع كل دفقة ورق كانت ترميها الناسخة كان يزيد في قلبي الشك في أن أجرؤ على دفع مثل هذا الشيء إلى المطبعة.

أخجلني حجم الكتاب.

حملت كومة الورق، وانصرفت إلى منزلي مغموماً، وألقيتها في ركن. وقعدت أفكر في أن أنصرف عن الأمر كله. من ذا الذي يريد كومة الورق هذه كتاباً؟

ثم فكرت في أن أختصر الكتاب فأنشر نصفه أو ثلثيه. ثم عادت تنتابني عاصفة خجل من فعلتي هذه التي فعلتها بكتابة شيء كبير كهذا، وعن موضوع كهذا. ولبثت في هذه الحالة حتى انتصف الليل. هوَّمت تهويمة قصيرة لعلها لم تدم سوى خمس دقائق، وقمت متثاقلاً.

تناولت بغير قليل من الغضب، وبكثير من الاشمئزاز، الصفحة الأولى. قرأت. فرحت أنْ لم أجد خطأ مطبعياً. تحمست للصفحة الثانية فالثالثة. وقرأت ما اخترته من معلقة امرئ القيس مع الشرح الذي شرحت، ووقفت وقفة مع نفسي. فكرت في الشروح الكثيرة التي مرت بي لديوان امرئ القيس. شروح قديمة وحديثة، ولكنها كلها عتيقة. كلها يناقش مسائل في اللغة، وكلها ـ كلها بلا استثناء ـ يغضي عن بعض دقائق المعنى. وطالت رقبتي. وبدأت أغفر لنفسي كثيراً مما كنت أخذته عليها.

أتشعر بأنني أكتب هذا الكلام فور الفراغ من قراءتي تلك الغافرة؟ هو ذاك.

عندما كنت حملت كومة الورق إلى منزلي اشمأززت أيضاً لأنني أعالج موضوعاً لا يريده أحد، ولا تحتاج إليه نهضتنا في بلاد العرب. خجلت من أنني قاعد أمضغ الشعر الجاهلي والأموي بينما العربي في أمسِّ الحاجة إلى أن يخلع ملابسه ثم يخلع جلده ثم يريق دمه ويستبدل به دماً جديداً.. دماً فيه فكر لا غوغائية، وفيه إحساس بالواقع.

العربي محتاج ليس حتى إلى اكتساب العلم.. هذه نكتة قديمة. لا، العربي محتاج إلى أن يتخلق بأخلاق جديدة. محتاج إلى منظومة (طاهرة) من الأفكار. و«طاهرة» بين قوسين لأن هذا مستحيل. هو في الواقع محتاج إلى كثير من الواقعية وكثير من العزم، وإلى أن يفهم حالته. فإن كنتَ فهمتَ من كلمة «طاهرة» أنني أدعونا إلى خلع ماضينا فقد فهمت نصف ما أريد.

أريدنا أن نتجدد، لا أن نتزيف. وهنا تفريق كمي أحب أن أعرضه عليك: لو كنا ـ نحن العرب ـ مئة ألف إنسان يسكنون بلداً صغيراً، ولو نشأت بيننا دعوة إلى التخلي عن لغتنا وعاداتنا وتراثنا والالتحاق بأمة كبيرة أخرى، فربما كان الأمر محتمِلاً النقاش الجاد. بعض الجماهر الصغيرة ذابت، وهي ما فتئت تذوب في كل سنة في شعوب كبيرة، فاقدة لغتها وقسطاً كبيراً من تاريخها، ومندثرة من حيث هي جماهر مستقلة. الشعوب تنام، والشعوب تنهض، والشعوب أيضاً تندثر. لكننا نحن العرب كتلة كبيرة. وكانت لدينا دولة وحضارة: أكبر من بعض الدول والحضارات، وأصغر من بعض الدول والحضارات. وما تراه الآن من تشعلُق الأثرياء بالثقافات الأجنبية، ومن إرسالهم أولادهم إلى مدارس أجنبية ليس بداية ذوبان ولا اضمحلال. نحن أكبر من ذلك. هو فقط لعقٌ رخيص لنعل الأجنبي كي يأتي لينهب خيراتنا ويعطي فئة السماسرة الفتات.

نهضتنا لا بد أن تكون من الداخل. والبداية أن نطلب الحرية، وأن نطالب أنفسنا بالمثابرة، وأن نرفض إعطاء زمامنا لفئة السماسرة. هذه الفئة هي مثل الولد الأكبر لأسرة مات عائلها، وهذا الولد يحمل بين الفينة والفينة سجادة من البيت ويبيعها في سوق الدلالين ليَسكَر بثمنها، وحتى تسهل عليه المهمة فقد تعلم من لغة الدلالين «على أونه على دوّي على تري».

فئة السماسرة تعلم أبناءها القشور من اللغات الأجنبية لكي تفتح مكاتب الاستيراد فتستورد للبلد السيارات، ولكي تبيع حقوق التنقيب على المعادن والنفط وحقوق الصيد وحقوق استخدام الموقع الاستراتيجي للأجنبي.

لا علاقة مباشرة لهذا بالشعر الجاهلي والأموي. لكن ثمة علاقة، قد أنجح في توضيحها في الأسطر المقبلة.

خلُصت من قراءتي لصفحات من كتابي هذا إلى أنني مثابر. فأثنيت على نفسي. ورأيت شيئاً آخر. رأيتني لا أتناول موضوعي بالتقديس، ولا بالتبجيل، ولا بلهجة المعلم الصارم، بل بكثير من العبث والأريحية. رأيتني أعرض لك تراثنا دون أن أومئ، ولو إيماء، إلى أنه إرث متفوق على أُروث أقوام آخرين. ثمة رسالة كامنة في ثنايا هذا الكتاب الذي أخجلتني ضخامته: لا للتشدد، الدنيا حلوة بتنوعها.

لن نحتاج إلى كتاب «أول الشعر» في بناء نهضتنا، لكننا لن نخلع ملابسنا، ولا جلدنا، ولن نريق دمنا. وسنعود لنتصالح مع ماضينا، لكن مع فهم حقيقي له. ولنا بالشعر الجاهلي والأموي صلة، وفي أعماقنا كثير من أحداث تاريخنا. في دمائنا القادسية، وفيها أيضاً صفين، وفيها مدح الحاكم والتذلل له، وفيها الغضبات المضرية، وفيها أخلاق الكرم والغدر والظلم والسماحة.

وقبل أن أروي لك قصتي مع هذا الكتاب سأروي لك ملاحظة لاحظتها مؤخراً. قرأت من أقل من سنة كتاباً عن تاريخ فرنسا منذ ثورتها الكبرى حتى اليوم؛ كتاباً كبيراً يقترب من حجم هذا الذي بين يديك. ولكن عقلي الشيخوخي لم يُلِقْ منه أي معلومة. تبخر الكتاب كله من رأسي. وبقيت عبرة. الكتاب تفصيلي جداً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. الآن العبرة: كل حدث في فرنسا يرتبط بما قبله. الثورة الفرنسية الكبرى ظلت حتى اليوم فاعلة.. هي في دم الفرنسيين. لقد أراني ذلك الكتاب أحداث ١٨٤٨م، وأراني تسلط نابليون الثالث، وأحداث ١٨٧٠م، والحربين العالميتين.. إلخ، أذهلني في هذا الشريط كله ما يوجد من ترابط فيما بين أحداثه. قفز إلى ذهني «سائقو التاكسي في لندن»، وجلهم من أهل لندن الأصليين، ومن الأحياء العتيقة. وكنت ركبت تكسيات لندن بضع مئات من المرات عندما كنت أعمل هناك. أدهشتُ نفسي عندما لاحظت أن خير وصف لأولئك السائقين: لنفسياتهم، لنظرتهم للحياة، لعفويتهم، لوقاحتهم، لشهامتهم، إنما هو ما كتبه قبل مئتي سنة تشارلز ديكنز. ألم يتغير الإنجليز في هاتين المئتي سنة؟ قليلاً.

ونحن؟ نحن تغيرنا في الألف والخمسمئة سنة التي مضت منذ أن بدأ الشعر العربي مسيرته العجيبة. لكننا لم نخلع جلودنا. الأثر الفارسي موجود،

والبربري موجود، والكردي، والنوبي، والهليني أيضاً، ولكن العقل العربي أيضاً موجود. لا أقول إن كل عربي يشبه كل عربي آخر، ولكننا كتلة كبيرة، ولها ذاكرتها.

تأتي على الأمم مفاصل تشعر فيها بأن عليها أن تخرج من جلدها. اليابانيون مروا بهذا المفصل فيما تلا عام ١٨٦٨م، فهل خرجوا فعلاً من جلدهم؟ قد تغيروا كثيراً، ونهضوا، لكنهم احتفظوا بلغتهم وفنونهم ونفسياتهم.. وكل ذلك تطور تطوراً بطيئاً رغم المفصل الحاد. لعلي أوضحت بعض الإيضاح التناقض الظاهري بين مطالبتي إيانا بالخروج من الجلد وبين عدولي عن هذه المطالبة. نحن بحاجة إلى المرور بمفصل تاريخي حاد. لكنه لن يشطب ثقافتنا القديمة.

أكتب هذه الكلمات وأشعر من جديد بأنني إنما أزيد هذا الكتاب المخجل ضخامة. فعليَّ من الآن فصاعداً أن أقتصد في الكلام.

هذا الكتاب يعرض تراثاً شعرياً قديماً، ويعرضه بطريقة جديدة وخاصة جداً.. يعرضه عرضاً متخففاً من الصرامة الأكاديمية المضحكة، ويعرضه بالمفرق لا بالجملة، فصاحب الكتاب لم ينسخ لك القصيدة بغثها وسمينها، بل انتقى البديع الجميل من أبياتها، وسعى إلى إحكام الربط فيما بين الأبيات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والقصيدة العربية مفككة خلقةً. نعم، قد بحثت طويلاً، ونبشت الدواوين وكتب القدماء والمحدثين نبشاً ذريعاً، وقد تعالمت عليك في مقدماتي، وأخبرتك عن كثير من البحث «الكامن» وراء ما أقدمه لك من أشعار ومن شروح.. لكن البحث بقي «كامناً». فلم أسمح للقدماء بأن يدخلوا حرمي. فهمت كلامهم ووعيته في حَماطة جُلجُلاني، لكنني لم أسمح لهم بالتسلل إلى لساني. شرحت لك بلسان معاصر حيناً، متفاصح حيناً. وكلما أخذت من شارح قديم أو معاصر عبارة، ولو كانت من كلمتين، أشرت إليه. هذه الأشعار اخترتها ثم شرحتها منطلقاً من منصة ليبرالية. وافهم من كلمة ليبرالية كل ما يمكن أن يفهم من هذه الكلمة، فإن تحيرت فاعلم أنني عندما أترك التواضع جانباً فإنني أصف نفسي بأنني «مفكر حر».. هذه أحسن من ليبرالية.

لِيبع هذا الكتاب مئة نسخة، ولتبق النسخ التسعمئة الأخرى في المخازن. قد عزمت، وقد توكلت على الله.

قصة هذا الكتاب:

هذا الكتاب هو أول الغيث، وستأتي بعده كتب تروي قصة الشعر العمودي في كل العصور حتى نصل إلى إيليا أبو ماضي. والمشروع كله يستمد قوته الدافعة من الغريزة النملية. فمنذ نحو خمس وثلاثين سنة بدأت أكتب الأبيات الجميلة التي تمر بي في دفتر، وسرعان ما صار الدفتر عشَرة دفاتر. وسافرت إلى لندن للعمل واصطحبت دفاتري. وانتقلت في العمل من قلم المترجم إلى لسان المذيع، وأخذت أذيع الكثير من هذه الأبيات الجميلة في برامج شتى، وكنت أحليها بقصص لها بها ارتباط أو ليس لها. أذعت هذا من محطة لندن التي يسمونها الآن البي بي سي، وكنا في زمننا نصر على تسميتها هيئة الإذاعة البريطانية، فهذه التسمية تملأ الفم أكثر. وانتقلت في تلك الإذاعة إلى عمل إداري، وظللت أبث الأبيات والقصص. ثم عدت إلى فلسطين حيث عملت في التدريس الجامعي والتدريب الإعلامي سبع سنين طالما وصفتها بأنها أجمل سني حياتي. وفي هذه السنين السمان اشتغلت بالنحو العربي فهذبته وقربته للإعلاميين، وكتبت كتباً لطلبتي نال بعضها نصيباً من الذيوع المحلي.

ومضيت أختار الشعر الجميل. وزدت على دفاتري العشرة دفترين كبيرين.

ثم انتقلت إلى قطر للعمل في قناة الجزيرة. وقضيت ست سنين، لا هنَّ بالسمان ولا العجاف. على أنني فيهِنَّ كتبت ونشرت كتابين عن أحمد شوقي والمتنبي. وبدأت أدخل حرم الشعر القديم. واستقلت من الجزيرة، وعملت في الصحافة في بلدي فلسطين، ثم رجعت إلى الجزيرة كي أكتب كتاباً في اللغة.

سميت الكتاب «اللغة العالية»، وهو معجم لما يحتاجه الإعلامي من اللغة. ورغم أن وضع الكتاب كان جزءاً من وظيفتي، فإنني أقبلت عليه بعزم مضاعف لحاجة عميقة في نفسي. كنت محتاجاً إلى الغوص في المعاجم، وإلى دراسة اللغة القديمة درساً منظماً. كأنني كنت أستعد لخوض غمار الشعر القديم. فكان تأليف كتاب «اللغة العالية» مساقاً دراسياً عقدته لنفسي.

والآن، بعد سنتين من صدور «اللغة العالية»، أشعر بأن اللغة القديمة طبقات فوق طبقات، وأن المعاجم تسعفك في أشياء وتخذلك في معظم الأشياء.

ما جعلني أمضي في لملمة الأبيات الجميلة من عشرات الكتب والدواوين

هو غريزة النملة. وفي البشر من يشبه النملة كثيراً، وفيهم من يشبهها قليلاً. أنا.. كثيراً.

لم أرتب الأشعار في هذا الكتاب بطريقة معينة. قد التزمت في الغالب الترتيب الذي في الدواوين، لكنني صنعت لك فهارس بالقوافي. وجعلت لكل باب مقدمة تطول أو تقصر بحسب ما يواتيني من مزاج للكتابة. فهذا الكتاب ليس فقط عن الشعر القديم، بل هو عني وعن تذوقي لهذا الشعر، وهو ـ في تلك المقدمات التي أكتبها ـ كتاب يُعنى بموضوع «الكتابة الحرة»؛ حرة بمعنيين: أولاً أنها ليست مقيدة بقيد الالتزام بالموضوع، وثانياً أنها نابذة للرواسم، أي الكليشيهات. هذه الكتابة التي اصطنعتها، والتي أبشر بها تبشيراً، هي الكتابة التي تشبه الكلام. هي الكتابة الإذاعية. فمنذ أن عملت في الإذاعة وأنا أغمس سن قلمي في لساني مستمداً ريق الكلام، ساعياً عن وعي إلى أن أحدثك وكأنك جالس بجانبي، ومنصرفاً انصرافاً عن رصف الكلمات بمثل ما رصفها كثيرون قبلي.

طالما تحذلق أساتذة الإعلام بأن للصحافة لغتها وللإذاعة لغتها وللكتاب لغته. ونقول: الكلام أسبق من القلم والورقة، ولغة الإذاعة هي أقرب شيء إلى ما هو طبيعي. وخير ما يصنعه الكاتب أن يحاكي نفسه وهو يتحدث.

مقدماتي لأبواب الكتاب مقصودة لذاتها.

يحلو للمرء ـ كي يبرز محاسن نفسه ـ أن يقع في الآخرين، فيصب على رؤوسهم أوساخ لسانه. وقد فعلت بعض ذلك في مقدماتي لأبواب هذا الكتاب، غير أني سترت أسماء من أهجوهم، وسترت وُسعي ما يمكن أن يقود إليها.

ملأت مقدماتي بقوارع الكلم التي وجهتها إلى الأكاديميين المزيفين. قد بلَّغتهم الصاب تبليغاً، ولعبت بهم لعباً بليغاً. وصارحتك أكثر من مرة، بأنني لا أصنع ذلك أملاً في إصلاح؛ أصنعه كي أتسلَّى، وأسلِّيك، وصنعته تعالماً. سبحان من خلقني.

ليس في كتابي هذا من القصص إلا القليل. لم أستطع أن أمنع نفسي من سرد قصة امرئ القيس عندما أخرج النسوة من الغدير عاريات، ولا قصة جرير عندما دَمغَ نُميراً بقصيدة فأخزاها.

على أن الكتاب كتاب شعر.

في هذا الكتاب زبدة الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي. قد انتقيت لك أجمل وأقوى الأبيات لأهم شعراء ذلك الزمن. ولاحقت لك الشعراء المغمورين بلا كلال، ناخلاً كتب الشعر القديم نخلاً. وكانت تلك مهمة سهلة. فأما المهمة الصعبة فكانت الشرح. وقد شرحت شرحاً أصفه فقط بأنه شرح حقيقي، ذلك الشرح الذي لا يغشك بتفسير الكلمة السهلة دون الصعبة.

كنت أعرض شيئاً من عملي، وأنا في الخضم، على بعض الأصدقاء، وكلهم ألحَّ عليَّ بأن أشرح أكثر. وكنت أستجيب. غير أن اللغة القديمة عسرة، وهي تصبح، فوق عسرها، ملتوية إذ يقسرها الشاعر على أن تقعد في قالب أسمنتي هو الوزن، مغطى بغطاء من الحديدِ السَّكْبِ هو القافية. ثم إن الشاعر القديم يعطيك نصف المعنى تاركاً النصف الآخر لخيالك. شرحت بما فتح الله علي، وما استعنت بشرح شارح قديم أو معاصر إلا ذكرت ذلك في المقدمة.

لاحاني الصديق اللغوي المدقق أحمد عبد الرحيم في اللغة ملاحاةً، وناكفني في الشرح: في طريقتي فيه، وفي فهمي لبعض الأبيات، فإن رأيتني أشرح متخذاً الأقواس حيناً، متخذاً الفواصل حيناً فهذا أثر صاحبي فيّ. وقد كظم غيظه من منهجي المتحرر ما استطاع إلى الكظم سبيلاً. وسقط الصديق الشاعر عمران القفيني على كثير من أغلاطي النحوية والمطبعية سقوط الندى، فكان يستحسن الفقرة أولاً ثم يشير برفق إلى علة فيها؛ يمسح الممرض عضدك بالوفيعة مسحاً لطيفاً ثم يهيِّءُ سن الإبرة. قرأ عمران الكتاب كله، وخلصه من عشرات أغلاط النحو والتواء الأسلوب، علاوة على الأخطاء المطبعية التي التقطها ببراعة، أنفق في إصلاح ما اعوج من هذا الكتاب ساعات طويلة، وبتذوقه النادر والذكي للشعر شد أزري وشجعني مثلما يشجع المعلم تلميذه. وكانت عينا الصديق الإعلامي عبد الرحمن عثمان تحدِّقان فيَّ طول الوقت؛ كنت أكتب ما أكتب مستذكراً تصحيحاته الكثيرة على ما سبق من عملي. وبقيت من الأغلاط بقية سأنوء بها، أنا المتسقط عيوب الأكاديميين المدمن تقريعهم.

الشعر عزيز على قليل الموهبة. ومن قطَّ قلمه قطَّة نثر التوى عليه الشعر، وقلَّ ناثرٌ قضى حياته في النثر فأفلح في الشعر. كأنهما ضدان. والناثر الذي ينثر على مسامعك هذه الكلمات كان قد نثر كلامه في سني عمره في تقارير صحفية وبرامج إذاعية وتلفزية، وفي شرح وفي تعليم، فعز عليه الشعر. اشتاقَ

بعض الشوق إلى أن يقول الشعر، ولكنه لم يشتق بما يكفي. والشاعر الشاعر لا يرى الدنيا ولا يعيش الحياة إلا بالشعر. يقول صاحب هذه السطور واصفاً حالته وهو قاعد يختار لقارئيه قلائد شعر الشعراء، ومخاطباً «القصيدة»:

أُراوغها كي تستقيم قوافيها ... أُخاشنها طوراً وطوراً أداريها
يخادعني منها الذي لا أريده ... ويجلس كالملسوع فوق كراسِيها
أعالجها لم أدَّخر أي حيلة ... وفالجها استعصى على من يداويها
تضاحَكُ مثل البكر سيقت لأشيب ... تظن مزاحاً ما ترى ليس يعنيها
فما انفضَّ عنها العرس حتى اختلى بها ... وضاقت عليها حفرة وقعت فيها
بكت فَرَقاً، والبعل عجزاً وعُنَّةً ... فليس الذي يبكيه ما راح يبكيها
تقول له: دعني، وفي سره لها ... يقول: دعيني، تاه من قد غوى تيها
ملكتُ دنانيراً وتُقت إلى الصبا ... وعجزي عن العذراء منيَ يحميها
أتيت بقاموسي وألفيَّتي إلى الـ ... ـقصيدة أبغيها، وأخشى تعاليها
فألفيتها تهوى البريء ولو به ... جنون، بل المجنون أقصى أمانيها
فيا شعرُ، يا ولَّادُ، يا خَلْقُ، فُتَّني ... لأنَّ علوميِ شوهتنيَ تشويها
أُعاقر نثراً نارُ قلبي به خَبَتْ ... ولكنَّ شوقيِ للقصيدة يُذكيها
وأقطف شعر الآخرين فواكهاً ... محرَّمة، لكنْ لغيريَ أجنيها
جلست على سور الحديقة وانجلى ... لعينيَّ حفل راقص في مغانيها
أراهم وكل اثنين كفاً بخصرها ... وخداً على خدٍّ مشوا في نواحيها
سفينة نوح ذي، وربُّك راعيها ... وما كنتُ، حتى لو دُعيت، بآتيها
ذرونيَ والطوفانَ، لست بمشفق ... ففي النفس طوفان وفيها الذي فيها
وما اعتزل النساك إلَّا لأنهم ... سفينتهم فيهم، وفيهم موانيها
توارى شراع العمر في الموج وانقضت ... حياتيِ، وفي نفسي أمور أُواريها

عارف حجاوي
الدوحة ٢٢ نيسان/ أبريل ٢٠١٦
١٥ رجب ١٤٣٧

امْرُؤ القيس بن حُجْر

(١٢٠ ق هـ - ٨٠ ق هـ)

قالوا قال امرؤ القيس:

(وقبَّلْتُها تِسْعاً وتسعينَ قُبلةً ... وواحدةً أُخرى، وكنتُ على عَجَلْ)

فإن صدَّقت أن هذا الشعر لامرئ القيس، فلن تكذِّبني عندما أقول لك إنني شاهدت الفيل يطير بأذنيه مثلما يطير العصفور بجناحيه

ما قاله المستشرقون ونقادنا القدامى عن نحل الشعر، وما ساقه الفريقان من قرائن على أن كثيراً من شعر الجاهلية إنما قيل في عصور متأخرة يقع في أذني موقع الصدق، بينما تقع في أذني تلك الحملات الضارية التي شنها المحافظون على هذا النهج موقع الأنين الكريه.

ولست أقول إن كل بيت جاهلي منحول. ولكنني وجدت الشعر مفككاً حيناً، أو مصقولاً صقلاً مدهشاً حيناً. ففي الحالة الأولى رأيت أن لهذا الشعر، المفكك، أصلاً قديماً عبث به الرواة كل العبث. وفي الحالة الثانية، حالة الشعر المصقول، رأيت أصابع الوضاعين.

على أن كل ما وصلنا من الشعر القديم تراثنا. لهذا نسوقه ونشرحه ونحفظ بعض أبياته نتندر بها في المجالس؛ ونتمتع بهذا الشعر القديم، ونستدل به على طرائق حياة أسلافنا. فحتى الموضوع منه فإنه ينبئ عن تفكير وطريقة حياة المكذوب عليهم. فقبيلة تغلب التي وقعت بأيديها قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي الجاهلي كانت تحفظها وتزيد فيها وتبالغ في تهذيبها كي تظل راية فخر ترفعها تغلب. فإذا جاء شويعر تغلبي وأضاف إلى القصيدة بيتاً لا يشبه الشعر الجاهلي، جاء آخر أدرى منه بالشعر القديم وأصلح البيت أو نفاه، حتى تظل

القصيدة جاهلية في أسلوبها. وليس بعيداً أن ينشد الخمسون شاعراً تغلبياً الذين كانوا يجتمعون إلى الأخطل ـ فيما زعم جرير ـ ويساعدونه في الشعر، أبيات ابن كلثوم بعد أن يستبد بهم السكر، وليس بعيداً أن يغيروا في تلك الأبيات الكثير. ولعلهم كانوا خمسة شعراء لا خمسين، هل وصلت الفكرة؟

آمنا بجاهلية الشعر الجاهلي أم لم نؤمن، هو تراثنا. وهو يقص علينا قصص الجاهلية، وينقل إلينا قيمها.

وبعد أن بيَّنا لك موقفنا صريحاً من معركة الشعر الجاهلي، نضع السلاح. فلا شأن لنا بمعركة وقعت في النصف الأول من القرن العشرين وكانت ذخيرتها السباب.

حياة امرئ القيس

قد بنى أصحاب الأخبار حياة امرئ القيس من السقف إلى الأساس، لا العكس. فقد تجمعت لديهم كومة من الأشعار، وكومة من الأخبار. وكومة الأشعار أثمن من كومة الأخبار، فجعلوا الشعر منطلقهم وركَّبوا عليه لامرئ القيس حياة. والأشعار والأخبار كلاهما اختلاقات، ولكن لا تنس أن هذه الأساطير وتلك الأشعار قد جعلتها العرب أساساً بنت عليه شعرها، وشكلت بها الذائقة الأدبية لأجيال متعاقبة من أبنائها. نحن في أَسْر هذه الأسطورة التي اسمها امرؤ القيس. ومن كومة الأشعار اخترنا لك ما هو طريف وجميل، ومن كومة الأخبار ـ وما أشد ما هي متضاربة ـ لفقنا لك صورة متسقة.

ولد شاعرنا سنة ١٢٠ قبل الهجرة ـ منظرنا مضحك ونحن نحدد تاريخاً دقيقاً لميلاده، وكأننا شهدنا هذا الميلاد في مستشفى القصر العيني ـ، وكان جده ملكاً كبيراً، وزَّع نفوذه بين أولاده الخمسة. فعلى هذا كان أبو امرئ القيس، واسمه حُجر، ملكاً صغيراً على بني أسد. والملك في العربية القديمة تعني السيد أو الوالي المتصرف في منطقة أو في مجموعة قبائل. وكان حُجر قاسياً قتالاً للناس.

ولكنه لم يسيطر على ابنه، فكان شاعرنا يلهو بالخيل، وبالنساء، ويشرب الخمر. ويفاخر بكل ذلك، وإن رأى الدارسون أنه كان مفرَّكاً، أي تكرهه النساء. ولا عجب فالنساء يكرهن الشهواني، الذي لا يريد منهن إلا ذلك الشيء، ويحببن الرجل الذي يكثر من الغزل الناعم، ولا تظهر في عينيه شرارات الشهوة إلا لماماً. فالمرأة مخلوق طبيعي يريد من الشهوة أن تؤدي غرضاً في حفظ النوع، والرجل مخلوق مريض بِعِلَّتَي الغلمة والتسلط.

ولأن حُجْراً الأب متسلط قاس قتلته بنو أسد. لم تقتله لأنه من قبائل اليمن، من كندة، فهذا لم يكن في اعتبارهم، فقبائل اليمن قد استوطنت الشمال منذ مئات السنين، فحكم العراق المناذرة وهم يمن، وحكم الشام الغساسنة وهم يمن، وعمرت يثربَ الأوس والخزرج وكلتاهما يمن. ثم إن الملك حجر متزوج من ربيعة، فأم امرئ القيس ربعية لا يمانية.

عندما ورد الخبر بقتل حُجر كان ولده الشاعر جالساً يلعب النرد ويشرب الخمر. قال لصاحبه: ارم، لا أفسدُ عليك دستك. وعندما اكتمل دست النرد، انبرى امرؤ القيس وقال عن أبيه: «ضيَّعني صغيراً وحمَّلني دمه كبيراً، لا صحوَ اليوم، ولا سكرَ غداً. اليومَ خمرٌ وغداً أمر». وبدأ شاعرنا رحلة العذاب والقلق.. رحلة الأخذ بالثأر.

وأصاب في أسد مقتلة، ولكنها لم تشف غليله. فتوجه نحو الروم يطلب النجدة، تاركاً أسلحته عند السموأل بن عادياء في حصنه الأبلق بتيماء في شمال الجزيرة العربية. وأخذ معه صاحباً، قيل هو الشاعر عمرو بن قميئة. ورحب به ملك الروم، وقيل إن امرأ القيس أساء الأدب في بلاط سيد بيزنطة، أليس عاهراً يعبث مع النساء؟ فبعث إليه الملك ثوباً مسموماً، فلبسه امرؤ القيس، فأخذ جلده يتقرح. وما وصل أنقرة حتى مات، وبأنقرة دفن. ومن هنا لقب امرئ القيس: ذو القروح.

أشهر شعر امرئ القيس معلقته. وله سوى ذلك قليل من القصائد المشهورة، وبضعة أبيات سائرة، وله قصيدة لا يصدق عاقل أنها قيلت في ذلك الزمن أصلاً، ولكنها منسوبة إليه ومشهورة، وقد أوردنا منها قطعة صالحة.

١ قفا نبك (المعلقة)

قصة القصيدة: بَيْنا امرؤ القيس يسير راكباً ناقته إذ سمع أصواتاً من ناحية الغدير، فمال إليه فإذا فتيات قد خلعن ملابسهن وجعلنها ناحية، ونزلن في الغدير يتردن. فنزل عن ناقته وجلس على ملابسهن. وحلف لا ينصرف أو يخرجن إليه واحدة واحدة فتأخذ كل فتاة ثوبها. فخرجت إليه «أوقحهن»، ـ وأوقحهن هذه أتذكَّرها من شرح الزوزني ـ، فأخذت ثوبها، ثم تلتها أخرى فأخرى. وبقيت، ساترةً جسمها في الماء، ابنةُ عمه عنيزة (أو فاطمة). ثم خرجت. فرآها مقبلة ثم مدبرة. ثم أعطاها ثوبها. ـ ومقبلة ومدبرة هذه من الزوزني، والقصة عموماً رواها الفرزدق، وعنه بإسناد نقلها صاحب الأغاني، ولعلها من بنات خيال الفرزدق الداعر ـ، وقلن له: يا امرأ القيس، نحن

جائعات. فأضرم ناراً وعقر ناقته وشوى لهن لحمها. وقال لي صحبي الموريتانيون إن لحم الناقة ـ ولم أذقه قط ـ طري. وأخذت الفتيات يأكلن ويتضاحكن. وآن أن ينصرفن، فقال لهن امرؤ القيس: فلتحملني عنيزة على ناقتها، فعزمن عليها فحملته، فأخذ يدخل رأسه حيناً بعد حين في هودجها فيقبلها. وقال قصيدته:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حبيبٍ ومنزلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بينَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

يخاطب صديقيه: قفا ناقتيكما (أوقفاهما) كي نبكي على أطلال الحبيب ونتذكره هنا في «سقط اللوى» بين ذينك الموضعين.

فَتُوضِحَ فَالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها   لِمَا نَسجَتْها مِنْ جَنوبٍ وَشَمْأَلِ

وثمة مواضع أخرى منها «توضح» و«المقراة». ولم يعف رسمها ولا امَّحى لأن الريح كانت كأنها تنسج نسيجاً، فريح الشمال تغطي المكان بالرمل وتأتي ريح الجنوب فتبعد الرمل عنه، فلا يتراكم عليه الرمل ويبقى مكشوفاً.

تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصَاتِها   وقيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

ترى بعر الآرام (الظباء) في عرصات (ساحات) ديار المحبوبة وقيعانها (سهولها) كأنه حب الفلفل.

كَأَنِّي غَداةَ البَيْنِ يومَ تَحَمَّلُوا   لَدَى سَمُراتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنظَلِ

يوم الفراق عندما حملوا أمتعتهم ورحلوا كنت واقفاً عند شجرات الطلح، وهي السمرات، أبكي وكأنني ناقف حنظل، أي الذي يشق الحنظل بظفره فيتطاير منه رذاذ فيسيل دمعه.

وُقُوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يقولونَ لا تَهلِكْ أَسَىً وتَجَمَّلِ

يقف أصحابي نياقهم، أي يوقفونها، عليَّ، أي من أجلي، ويقولون لا تهلك نفسك حزناً وتجمل (اصبر).

وإنَّ شِفائي عَبْرَةٌ مُهَراقَةٌ   فهل عندَ رَسْمٍ دارسٍ مِن مُعَوَّلِ

وشفائي مما بي من لوعة دمعة سائلة؛ ولكن، هل هناك فائدة من الوقوف على رسم ممحوّ.

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قبلَها   وجَارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ

يخاطب نفسه: هذا شأنك يا امرأ القيس مع حبيبتين سابقتين في موضعين آخرين:

إذا قامَتا تَضَوَّعَ المسكُ منهما   نسيمَ الصَّبا جاءتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

إذا وقفت هاتان الحبيبتان وتحركتا فاح منهما المسك، كأن رائحته رائحة القرنفل جاءت بها ريح الصبا

فَفاضَتْ دُموعُ العَينِ مِنِّي صَبابَةً   على النَّحْرِ حتى بَلَّ دَمعِيَ مَحْمَلي

تفيض دموعي صبابة وعشقاً فتصل إلى أعلى صدري حتى لتبل محملي، أي عِلاقة سيفي.

أَلَا رُبَّ يومٍ لَكَ مِنهُنَّ صَالِحٍ ولا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

رب يوم غير محزن خلافاً ليوم وقوفك بالأطلال، كان لك معهن، وخصوصاً يوم دارة جلجل، التي فيها لقيت الفتيات المبتردات.

ويَومَ عَقَرْتُ لِلعَذارى مَطِيَّتي فَيا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ

يومها ذبحت ناقتي للعذارى، فيا عجباً من رحل ناقتي ومتاعي كيف بقي ملقىً بينما ذهبت الناقة.

فَظَلَّ العَذارى يَرتَمِينَ بِلَحْمِها وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

صرن من لهوهن يتراشقن بلحم الناقة، وبالشحم الذي يسيلُ على معاصمهن خيوطاً خيوطاً كأنه خيوط الحرير المفتولة.

ويومَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيْزَةٍ فقالتْ لَكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي

وفي ذلك اليوم دخلت خدر عنيزة، أي هودجها، فكانت تقول: ويلك، سترميني عن الناقة.

تقولُ وقد مَالَ الغَبِيطُ بِنا معاً: عَقَرْتَ بَعيري يا امْرَأَ القَيْسِ، فانْزِلِ

ويميل الهودج بنا فتقول: تكاد تجعل بعيري يبرك على قوائمه، فانزل:

فقلتُ لها: سيري وأَرْخي زِمَامَهُ ولا تُبْعِدِينا مِنْ جَناكِ المُعَلَّلِ

قلت لها: سيري وأرخي مقود البعير، ولا تبعديني عن قطف قبلاتك الممتعة التي أتعلل بها وأستأنس.

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ فَأَلْهَيْتُها عن ذي تَمائِمَ مُحْوِلِ

ولي غراميات، فقبلك ربَّ امرأةٍ حبلى أتيتها ليلاً، فجعلتها تنشغل عن طفل رضيع محول، عمره حوْلٌ أي سنة، قد عُلِّقت بعنقه قلادة التمائم (لحفظه من الشر):

إذا مَا بَكَى مِن خلفِها انصرفتْ له بِشِقٍّ وتَحْتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وكانت كلما بكى طفلها مالت بجسمها إليه، ونصفها الآخر ما زال تحتي.

أَفَاطِمُ مَهْلاً بعضَ هذا التَّدَلُّلِ وإنْ كنتِ قد أَزْمَعْتِ صَرمي فَأَجْمِلي

يا فاطمة، لا تكثري من الدلال، وإن كنت ناوية أن تهجريني فافعلي ذلك برفق.

وإنْ كُنتِ قد ساءَتْكِ مِنِّي خَليقَةٌ فَسُلِّي ثِيابي مِن ثيابِكِ تَنْسُلِ

إن ساءك مني طبع، فلنفترق مثلما يبتعد جسمك عن جسمي وينسحب ثوبي عن ملامسة ثوبك

أَغَرَّكِ مِنِّي أنَّ حُبَّكِ قَاتِلي وأَنَّكِ مَهما تَأْمُري القلبَ يَفْعَلِ؟

هل انخدعت لأنك رأيت حبك قاتلي؟ ولأن قلبي يطاوعك في كل ما تأمرين؟

وأنّكِ قَسَّمْتِ الفُؤادَ فنصفُه قَتيلٌ، ونِصْفٌ في حديدٍ مُكَبَّلِ

ولأنك جعلت فؤادي نصفين: نصفاً مات عشقاً، ونصفاً ظل مأسوراً

وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلّا لِتَضْربي بِسهمَيْكِ في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

وما تنزل دموعُكِ إلا كي تضربي بسهمي عينيك في قلبي القتيل. وفسروا السهمين بسهمي الميسر، المعلى والرقيب، اللذين ينالان عشرة أنصباء من الناقة سبعة للأول وثلاثة للثاني

وبَيضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِها غَيرِ مُعْجَلِ

رب فتاة ناعمة بيضاء في خدرها، وراء سترها. وخباؤها، أي خيمتها، لا سبيل لأحد عليه لأنها بنت قوم أقوياء، وهذه الفتاة أتيتها وتمتعت باللهو معها على راحتي

تَجاوَزْتُ أَحْراساً إليها ومعْشَراً عَلَيَّ حِراصاً لو يُسِرُّونَ مَقتَلي

وقد جئتها بعد أن خاتلت الحراس والقوم الحريصين على قتلي لو أنهم يستطيعونه سراً

فقالتْ: يَمينَ اللّهِ مَا لَكَ حيلَةٌ ومَا إِنْ أَرَى عنكَ العَمَايَةَ تَنْجَلي

قالت: والله، لا حيلة لي فيك، ولا أرى أن ضلالك يزول

خرجْتُ بِها أمشي تَجُرُّ وراءَنا على أَثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

خرجت مع فتاتي، وهي تجر وراءنا ذيل ثوبها الموشى لتعفية وإزالة الأثر

فَلَمَّا أَجَزْنا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحى بِنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ..

فلما قطعنا ساحة القوم، وأخذنا ناحية بعيدة في بطن الخبت، أي وراء الكثيب ذي الرمل المتصلب المتعقد..

هَصَرْتُ بِفَوْدي رأسِها فتمايَلَتْ عَلَيَّ، هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

ثنيت رأسها بفودي بجانب رأسي، في عناق، فتمايلت علي، وهي ذات خصر ممشوق، وساقين ممتلئتين، والمخلخل موضع الخلخال من الساق. وأحب العرب، وغير العرب، المرأة ذات الساق المتينة، وكرهوا الساق الحَمْشَة الدقيقة في رجل وفي امرأة. وكأن معيار الجمال الفطري هو أن يكون الشريك قوياً، والساق الغليظة دليل قوة

مُهَفْهَفَةٌ بَيضَاءُ غيرُ مُفاضَةٍ تَرائِبُها مَصقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

هيفاء دقيقة الخصر، بيضاء، غير مكترشة البطن، وترائبها (أعلى صدرها) مصقولة كالسجنجل (المرآة)

وجِيدٍ كَجيدِ الرِّئْمِ ليس بِفَاحِشٍ إذا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

لها عنق كعنق الظبي ليس بالغ الطول عندما تمده، فهو ليس في طول عنق الظبي تماماً، وليس معطلاً أي خالياً من الحلي

وليلٍ كَمَوْجِ البحرِ أَرْخَى سُدُولَهُ   عَلَيَّ بِأنواعِ الهُمومِ لِيَبْتَلي

رب ليل كأنه موج البحر، وقد أرخى أستاره علي، ومعها نزلت الهموم لتبتليني

فقلتُ لهُ لمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وأرْدَفَ أعْجازاً ونَاءَ بِكَلْكَلِ:

قلت لليل لما مد ظهره فوقي، ولما وضع أعجازه أيضاً أي قوائمه الخلفية، وناء بكلكله أي وضع صدره.. يشبه الليل ببعير برك فوقه بكل جسمه فكان ثقيلاً ثقيلاً..

ألا أيُّها اللَّيْلُ الطُّويلُ ألَا انْجَلِ   بِصُبْحٍ وما الإصباحُ مِنْكَ بِأمْثَلِ

انصرف أيها الليل، وليأت بعدك الصباح، ولو أن الصباح ليس أفضل منك حالاً

فيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ   بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

أنت باق لا تنصرف أيها الليل فكأن نجومك مربوطة إلى جبل يذبل بحبال قوية أجيد فتلها

كَأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ في مَصَامِها   بِأَمْراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

وكأن نجوم الثريا معلقة في موضعها بحبال كتان، ومشدودة إلى صخر أصم

وقد أغْتَدي والطَّيْرُ في وُكُناتِها   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكَلِ

إنني لأخرج باكراً، والطير بعد في أعشاشها، على حصان قصير الشعر، سريع إلى درجة أنه يوازي الظباء والسباع في سرعته فكأنه يقيدها تقييداً، وهو هيكل أي ضخم

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

حصاني يتحرك بنشاط يكر ويفر ويقبل ويدبر بسرعة كأنه يفعل كل هذا في الوقت نفسه، وهو سريع سرعة صخرة هوت منحدرة من الأعالي مع سيل جارف

لهُ أيْطَلا ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامَةٍ   وإرْخَاءُ سِرْحَانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

لحصاني خاصرتان دقيقتان كخاصرتي الظبي، وساقان كساقي النعامة، وله إرخاء، أي ركض ذو إيقاع منتظم، كركض الذئب، وله تقريب، أي قفز بوضع الرجلين موضع اليدين، كتقريب الثعلب

أصَاحِ تَرى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ   كَلَمْعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

يا صاحبي هل ترى البرق؟ دعني أريك وميضه، وعلى ضوئه ترى يديك تلمعان في العَتَمة وسط الغيم الكثيف

كَأنَّ ثَبِيراً في عَرانِينِ وَبْلِهِ   كَبِيرُ أُناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ

الغيم يكلل جبل ثبير، فكأن الجبل وسط الغيم الماطر شيخ قبيلة متلفع بثوبه

كَأنَّ ذُرَى رأْسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً   مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاءِ فُلْكَةُ مِغزَلِ

كأن أعالي جبل المجيمر صباحاً، من السيول وما تحمله من أغصان، المغزل المدبب الرأس الذي تنسدل عليه الخيوط

كَـأَنَّ مَـكَـاكِـيَّ الـجِـواءِ غُـدَيَّـةً ... صُـبِحْنَ سُلافاً مِنْ رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأن طيور الوادي في الصباح، وهي تطير مضطربة بسبب المطر، سكرانة قد شربت خمراً

كَـأَنَّ الـسِّـباعَ فـيـه غَـرْقَـى عَـشِـيَّـةً ... بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ

تبدو الحيوانات النافقة الغرقى في السيول ـ ونراها من بعيد ـ مثل البصل البري المنبوش من الأرض نصفه في التراب ونصف فوقه **كيف كنا نستمتع بهذه القصيدة؟** كنا نحفظها ونرددها، لا غير. ولو نظرت في شروح الشراح الكثر، وفي اضطرابهم الشديد في شرح كل بيت من أبياتها، لقلت لنفسك: فعلاً هذا كلام يمكن لكل امرئ أن يفهمه كما يريد. عموماً، كنا ونحن صبية نحفظها ولا نكلف النفس بفهمها. هي ذلك القالب الذي صب فيه الشعر العربي نفسه. هذه هي أم الشعر العربي. والمعنى العام مفهوم على كل حال

٢ صبور غير فرار

فَـلَا وَأَبـيـكِ ابْـنَـةَ الـعَـامِـرِيِّ ... لا يَـدَّعِـي الـقَـوْمُ أَنِّـي أَفِـرّ

قسماً بأبيك يا ابنة العامري، لا يزعمنَّ القوم أنني أفرُّ من القتال

تَـمِـيـمُ بْـنُ مُـرٍّ وأَشْـيَـاعُـهـا ... وكِـنْـدَةُ حَـوْلـي جَـمِـيـعـاً صُـبُـرْ

فقبيلة تميم ومن والاها، وكذا كندة، ينصرونني ويصبرون معي

وأَرْكَـبُ فـي الـرَّوْعِ خَـيْـفَـانَـةً ... كَـسَـا وَجْـهَـهَـا سَـعَـفٌ مُـنْـتَـشِـرْ

وأركب في الروع، أي الحرب، خيفانة، أي فرساً سريعة، ينزل شعر رأسها على وجهها كأنه سعف النخل. وسلق قدماء النقاد امرأ القيس سلقاً على هذا البيت، فالفرس الأصيلة لا توصف بأن شعرها يكسو وجهها.. ولعله يرد عليهم ويقول: تلك فرسي وأنا حر

٣ الطلل البالي

أَلَا عِمْ صَباحَاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالي ... وهلْ يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُرِ الخَالي؟

صباح الخير أيها الطلل الخرب حيث كان ينزل قوم الحبيبة، وأي صباح وأي خير لمن كان ينتسب إلى العُصُر الخالي، أي الزمن القديم!

وهـل يَـعِـمَـنْ إلَّا سَعِـيـدٌ مُـخَـلَّـدٌ ... قَليلُ الهُمومِ، مَا يَبيِتُ بِأَوْجَالِ

وما الخير إلا للسعيد الذي أخلد إلى الراحة بلا هموم ولا مخاوف

وهل يَعِمَنْ مَنْ كان أَحْدَثُ عَهْدِهِ ... ثَـلاثـيـنَ شَـهـراً فـي ثَـلاثَـةِ أَحْـوَالِ

وهل الخير لمن كان آخر عهده بالناس ثلاثين شهراً، أو نحو ثلاث سنين، ومنذ ذلك الحين حل به الخراب، كهذا الطلل البالي؟

دِيارٌ لِسَلْمَى عَافِياتٌ بِذِي خَالِ ... أَلَحَّ عليْها كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ

هذه ديار سلمى العافيات، الممحو أثرهن، في موضع «ذي خال»، وقد زاد في محو الأثر السحاب الأسود الهطال

لَيالِيَ سَلْمَى إذْ تُرِيكَ مُقَصَّباً ... وَجِيداً كَجِيدِ الرِّئْمِ ليس بِمِعْطَالِ

في تلك الليالي كان يبدو من سلمى شعرها ذو الخصل وعنقها الذي كعنق الغزال، غير أن عنقها تميز بأنه ليس معطالاً بل محلى بالقلائد

أَلَا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أَنَّني ... كَبِرْتُ، وأنْ لا يُحْسِنُ اللَّهْوَ أمثالي

زعمت «بسباسة»، هذه الحبيبة الأخرى، أنني كبرت ولم يعد لائقاً بي اللهو

كَذبْتِ، لقد أُصْبي على المَرْءِ عِرْسَهُ ... وأَمْنَعُ عِرسي أَنْ يُزَنَّ بِها الخَالي

كذبتِ يا بسباسة، فأنا أغوي الزوجة عن بعلها، وأمنع زوجتي أن يُزَنَّ بها، يزني بها، رجل أعزب

ويَا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ ولَيْلَةٍ ... بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمْثَالِ

ما أكثر ما لهوت بفتاة جسمها كأنه التمثال

يُضِيءُ الفِراشَ وجهُها لِضجيعِها ... كَمصباحِ زَيْتٍ في قَناديلِ ذُبَّالِ

ووجهها يضيء فراش من ينام بجانبها، فكأن وجهها مصباح فيه زيت وله ذبالة، أي فتيل

إذا ما الضَّجيعُ ابتَزَّها مِن ثِيابِها ... تَميلُ عَليهِ هَوْنَةً غيرَ مِجْبَالِ

إذا أخرجها الضجيع من ثيابها، مثلما يخرج المرء البيضة المسلوقة من قشرتها، فإنها تميل عليه بدلال، وليست مجبالاً ولا خشنة الطباع

لَطيفَةُ طَيِّ الكَشْحِ غيرُ مُفَاضَةٍ ... إذا انْفَلَتَتْ مُرْتَجَّةً غيرَ مِتْفَالِ

دقيقة الخصر، غير سمينة، وإذا انفلتت وتحركت فهي مرتجة الكفل، وهي غير رديئة الرائحة

تَنَوَّرْتُها مِنْ أَذْرِعَاتٍ وأَهْلُها ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِها نَظَرٌ عَالِ

رأيت نار قوم الحبيبة وأنا في أذرعات (لعلها درعا بجنوب سوريا)، وقومها بيثرب؛ مع أن المكان الذي يمكن منه رؤية نارهم هو النظر العالي (والنظر العالي: أقصى ما يحصله البصر من رأس جبل)، فأنا رأيتها بإحساسي لا بنظري

نَظَرْتُ إِلَيْها والنُّجُومُ كَأَنَّها ... مَصابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ

كانت النجوم لامعة كأنها المصابيح التي يضيئها الرهبان لهداية القوافل، ولعل القوافل كانت تلجأ إلى الأديرة في سفرها فيشرب الشاربون ويأكل الآكلون.. ويدفعون

سَمَوْتُ إِلَيْها بعدَمَا نامَ أهلُها ... سُمُوَّ حَبابِ المَاءِ حَالاً على حَالِ

صعدت إلى المحبوبة بعد أن نام أهلها، مثلما تصعد الفقاقيع إلى وجه الكأس

فقالتْ: سَباكَ اللّهُ، إِنَّكَ فَاضِحِي   أَلَسْتَ تَرى السُّمَّارَ والناسَ أَحْوالِي

قالت: سباك الله، أي بعداً لك، ستفضحني، ألا ترى الساهرين والناس حولنا؟

فقلتُ: يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً   ولو قَطَعُوا رأسي لَديكِ وأَوْصَالِي

قلت: والله لن أبرح مكاني، ولو قتلوني وأنا عندك

حَلَفْتُ لها بِاللَّهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ   لَنَامُوا، فَمَا إِنْ مِنْ حَديثٍ ولا صَالِ

حلفت لها كاذباً أن القوم ناموا، وليس هناك صوت حديث ولا هناك من يصطلي بالنار استدفاءً

فَلَمَّا تَنازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ   هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذي شَمارِيخَ مَيَّالِ

لما تبادلنا الحديث، وأسمحت ولانت، هصرتُ، أي عطفت جسمها ومالت بشعرها ذي الشماريخ الذي كأنه عذق نخلة، ولعلها كانت تشنشل أطراف الخصل بالخرز فعل فتيات إفريقيا

وصِرْنَا إلى الحُسْنَى، ورَقَّ كلامُنا   ورُضْتُ، فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِذْلالِ

وانسجم الجو بيننا، ورق الكلام، وأصبحت هينة بعد ترويض كالناقة الصعبة التي يذللها ويروضها صاحبها

فأصبحْتُ مَعشُوقاً، وأَصبَحَ بَعْلُها   عليه القَتَامُ سَيِّءَ الظَّنِّ والبَالِ

وعشقتني، وأما بعلها لعنة الله عليه، فكان سيء ظن بها

يَغُطُّ غَطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ   لِيَقْتُلَنِي والمَرْءُ ليسَ بِقَتَّالِ

نام زوجها وهو يشخر شخير البعير إذا شد خناقه بالحبل، ويحلف أنه سيقتلني ولكنه جبان لا طاقة له بالقتل

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي   ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ

وكيف يقتلني وبجانبي السيف، ومعي رماح ذات أسنة زرق كأنها أنياب الغول

وقد عَلِمَتْ سَلْمَى، وإِنْ كانَ بَعْلَها   بأَنَّ الفَتَى يَهذِي وليس بِفَعَّالِ

وقد علمت سلمى ـ حتى وإن كان هذا الرجل بعلها الذي من حقه أن يغار عليها ـ بأنه يهذي بالكلام فقط، وليس فعالاً لما يقول

وبَيْتِ عَذَارَى يَوْمَ دَجْنٍ وَلَجْتُهُ   يَطُفْنَ بِجَمَّاءِ المَرَافِقِ مِكْسَالِ

ورب بيت للعذارى ـ ما أراه إلا ماخور مومسات لا عذارى ـ دخلته يوم دجن، أي في يوم غائم، والفتيات يتحلقن حول فتاة مدللة كسلانة ممتلئة الجسم، حتى إن مرافقها لا تبين لأنها مكسوة بالشحم

صَرَفْتُ الهَوى عنهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى   ولستُ بِمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قَالِ

ابتعدت عنهن خشية الموت، لا لأنني مقلي الخلال، مكروه الطباع، ولا لأنني كاره لهن

كـأنّـيَ لـمْ أرْكَـبْ جَـواداً لِـلَـذَّةٍ ولـم أتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ

كأنني لم أركب حصاني لمجرد متعة الركوب، وكانني لم ألتصق بطناً لبطن بكاعب، فتاة نهدَ صدرها، ذات خلخال

ولـمْ أسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ، ولـم أقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بعدَ إجْفَالِ

وكأنني لم أشتر زق الخمر الممتلئ، ولم أقل لخيلي كري في المعركة بعد أن أجفلتِ

وقد أغْتَدِي، والطَّيْرُ في وُكُنَاتِها، لِغَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ رَائِدُهُ خَالِ

كثيراً ما كنت أبكر والطير بعد في أعشاشها، مرتاداً لقومي مكان المطر حيث لم يصل رائد قبلي

كَأنّي بِفَتْخَاءِ الجَناحَيْنِ لِقْوَةٍ صَيُودٍ مِنَ العِقْبانِ طَأْطَأْتُ شِملالي

كأنني، إذ أطأطئ رأسي فوق فرسي وهي تعدو، راكب عُقاباً سريعة ذات جناحين

تَخَطَّفُ خِزَّانَ الشَّرَبَّةِ بِالضُّحَى وقَدْ حَجَرَتْ مِنْها ثَعالِبُ أورَالِ

كأن هذه العقاب تحلق ثم تنقضُّ على الخزان، أي الأرانب، في موضع الشربة، والثعالب في موضع أورال قد اختبأت خوفاً من العُقاب

كَأنَّ قُلوبَ الطيرِ رَطْباً ويَابِساً لَدى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي

وفي وكر العقاب قلوب الطيور المتخلفة بعد افتراسها، فمن هذه القلوب ما هو رطب محمر كثمر العناب، ومنها اليابس الذي يشبه التمر الجاف

فَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لِأدْنَى مَعيشَةٍ كَفَاني، ولمْ أطْلُبْ، قَليلٌ مِنَ المَالِ

لو أنني أسعى لتحقيق العيش المتواضع لكفاني ـ دون أن أتجشم الطلب والسعي ـ مال قليل

ولَكِنَّمَا أسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدْرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّلَ أمْثَالي

لكنني أسعى للمجد المؤثل، العريق، ومثلي من سعى لهذا وأدركه

٤ أم جندب

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدُبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ

هيا لنمرَّ يا صاحبيَّ على «أم جندب» كي نقضي حاجات الفؤاد المعذب

ألَمْ تَرَيَاني كُلَّما جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بها طِيباً وإنْ لمْ تَطَيَّبِ

كلما جئتها ليلاً وجدت لها رائحة طيبة وإن لم تتطيب بمسك أو نحوه

وإنَّكَ لم يَفْخَرْ عَليكَ كَفَاخِرٍ ضَعيفٍ، ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

مشكلةٌ أن يفخر عليك شخص ليس لديه ما يفخر به، وأن يغلبك شخص يكون دائماً مغلوباً مع غيرك، والمرأة مخلوق ضعيف ولكنه يغلبني

إذا مَـا رَكِـبْـنـا قـالَ وِلْـدَانُ أهـلِـنـا   تَعالَوْا، إلى أنْ يَأْتِيَ الصَّيْدُ، نَحْطُبِ

نركب للصيد ويقول الفتية اليافعون: هيا لنحتطب ريثما يأتي الرجال بالصيد

فَـظَـلَّ لـنَـا يَـوْمٌ لَـذيـذٌ بِـنِـعْـمَـةٍ   فَـقُـلْ فـي مَـقـيـلٍ نَـحْـسُـهُ مُـتَـغَـيِّـبِ

ظللنا ناعمين في يومنا، فقل ما تشاء في هذا المقيل، نوم الظهيرة، حيث غاب النحس

نَـمُـشُّ بِـأعْـرَافِ الـجِـيـادِ أكُـفَّـنَـا   إذا نَحنُ قُمْنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

نمسح أيدينا بالشعر الذي على أعناق الخيل بعد أن نقوم عن الشواء المضهب، الذي شوي بعض شيّ

فَـلِـلْـسَّـاقِ أُلْـهُـوبٌ ولِـلْـسَّـوْطِ دِرَّةٌ   ولِـلـزَّجْـرِ مـنـهُ وَقْـعُ أهْـوَجَ مِـنْـعَـبِ

ساق الفرس لها ألهوب، أي تثير الغبار عندما أهمزها بمهمازي، ومن وقع سوطي يدر جريها ويزيد، وعندما أزجر الفرس وأصرخ بها يقع ذلك منها موقعه من الأهوج الصخاب فتسرع وتجن جنوناً

كأنَّ عُيونَ الوَحْشِ حوْلَ خِبائِنا   وأرحُلِنا، الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

عيون الوحش، الحيوانات غير الداجنة من ظباء وبقر وحشي، التي نراها حول خيمتنا ومتاعنا تشبه الخرز غير المثقوب

٥ في الطريق إلى قيصر

قال وهو في طريقه إلى بيزنطة للقاء ملك الروم:

تَـقَـطَّـعُ أَسـبـابُ الـلُّـبَـانَـةِ والـهَـوى   عَـشِـيَّـةَ جَـاوَزْنـا حَـمَـاةَ وشَـيْـزَرَا

تتقطع حبال الحاجات والهوى بيننا وبين بلادنا عندما نتجاوز بلدتي حماة وشيزر متجهين شمالاً نحو الروم

نَـشِـيـمُ بُـرُوقَ الـمُـزْنِ، أيْـنَ مَـصَـابُـهُ   ولا شَيْءَ يَشفي منكِ يا ابْنَةَ عَفْزَرَا

نراقب البرق بين السحاب، ونتوقع المكان الذي سينزل فيه المطر، ولكن هذا لا يشغلنا عن المحبوبة فلا شيء ينسينا إياها

مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لوْ دَبَّ مُحْوِلٌ   مِـنَ الـذَّرِّ فـوقَ الإتْـبِ مـنْـهـا لأثَّـرَا

هذه امرأة تغض بصرها خجلاً، وهي ناعمة لو دب نمل صغير فوق إتبها، أي ثوبها المنزلي الذي بلا كُمَّيْن، لأثّر دبيبه في جلدها لنعومتها

فَدَعْ ذا، وَسَلِّ الـهَـمَّ عنكَ بِجَسْرَةٍ   ذَمُـولٍ، إذا صَـامَ الـنَّـهـارُ وهَـجَّـرَا

فاترك هذا الأمر، وتسل عن الهم بجسرة، أي ناقة ضخمة، ذمول سريعة، إذا ما صام النهار، أي ارتفع، وكانت الظهيرة

تُـقَـطِّـعُ غـيـطَـانـاً كـأنَّ مُـتُـونَـهـا إذا أَظْـهَـرَتْ تُـكْـسَـى مُـلاءً مُـنَـشَّـرَا

تقطع هذه الناقة السهول. ومتون السهول، أي ما يتخللها من ربى، تصبح كأنها مكسوة برداء مفروش إذا أظهرت، أي دخلت عليها الظهيرة

كَأنَّ الـحَـصَـى مِن خَـلـفِـها وأَمَامِـها إذا نَـجَـلَـتْـهُ رِجْـلُـهَـا حَـذْفُ أَعْـسَـرَا

تسير الناقة وترمي برجليها الحصى يميناً وشمالاً مع سرعة السير فكأنها تحذفها وترشقها حذف رجل أعسر يعمل بشماله

كَـأنَّ صَـلـيـلَ الـمَـرْوِ حـيـنَ تُـشِـذُّهُ صَـلـيـلُ زُيُـوفٍ يُـنـتَـقَـدْنَ بِـعَـبْـقَـرا

يشبّه صليل المرو، أي صوت الحجارة، حين تفرقها الناقة، بصوت الدراهم الزائفة التي ينقدها الصراف بأصابعه فاحصاً إياها في مكان «عبقر»، وعبقر بلد الجن، وما كنت أعلم من قبل أن فيه محلات صرافة

عليْها فَتىً لـم تَـحْـمِلِ الأرْضُ مثلَه أَبَـرَّ بِـمِـيـثَـاقٍ وأَوْفَـى وأَصْـبَـرا

فوقها فتى ليس في الدنيا مثله من حيث الوفاء بالعهد ومن حيث وفرة الصبر. فوق هذه الناقة أنا

ولو شاءَ كان الغَزْوُ مِنْ أَرضِ حِمْيَرٍ ولـكـنَّـه عَـمْـدَاً إلـى الـرُّومِ أَنْـفَـرَا

لو شاء هذا الفتى جاء بجيش من أرض اليمن، ولكنه اختار أن ينفر إلى بلد الروم

إذا نـحـنُ سِـرْنَـا خَـمْـسَ عَـشْـرَةَ لَيْـلَـةً ورَاءَ الـحِـسَـاءِ مِـنْ مَـدافِـعِ قَـيْـصَـرا

إذا تجاوزنا منطقة الحساء، الأرض المطمئنة السهلية من مدافع، أي حمى وبلاد، قيصر بخمس عشرة ليلة..

بَكَى صَاحبي لَمَّا رأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وأَيْـقَـنَ أَنَّـا لاحِـقَـانِ بِـقَـيْـصَـرا

عندما رأى صاحبي الدرب، الطريق الجبلي المؤدي إلى بلاد الروم، بكى، وتيقن من أننا ذاهبان فعلاً إلى قيصر. كان امرؤ القيس قد اصطحب شاعراً جاهلياً عتيقاً هو عمرو بن قميئة إلى أرض الروم. وقصدها امرؤ القيس يطلب المدد حتى يستعيد ملك أبيه المقتول

فقلتُ لهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ، إنَّـمـا نُـحاوِلُ مُـلْـكـاً أو نَـمُـوتَ فَـنُـعْـذَرا

قلت له: لا تبك، فنحن نسعى وراء ملك، وإن متنا فعذرنا واضح إذ لم نقصر في محاولة استرداد الحق

إذا قُـلْـتُ هـذا صَـاحِـبٌ قد رَضِـيتُهُ وقَـرَّتْ بـهِ الـعَـيْـنـانِ بُـدِّلْـتُ آخَـرَا

كلما قلت هذا صاحب أرضى به ذهب وجاءني غيره

كذلكَ جَدِّي، ما أُصَاحِبُ صَاحِباً مِـنَ الـنـاسِ إلَّا خَـانَـنـي وتَـغَـيَّـرا

كذا حظي، لا أصاحب أحداً إلا خانني وتغير عليّ

وَنَشْرَبُ حتَّى نَحْسَبَ الخَيْلَ حَوْلَنا نِقَادَاً، وحتَّى نَحْسَبَ الجَوْنَ أَشْقَرَا

ونجلس نشرب الخمر ونسكر حتى لنظن الخيل التي حولنا غنماً، وحتى نحسب اللون الأسود أشقرَ (والجون كلمة تعني أسود وتعني أبيض، هي من الأضداد)

٦ عتاب حنظلة

قال يهجو بني حنظلة بعد إذ خذلوه:

أَحَنْظَلَ، لـو حَـامَيْتُـمُ وصَـبَـرْتُـمُ لأَثْنَيْتُ خَيْراً صَالِحَاً ولأَرْضَاني

يا قبيلة حنظلة، لو دافعتم وصبرتم لأثنيت عليكم ورضيت

٧ أعد الحصى

أَعِنِّي عـلى التَّـهْـمَـامِ والـذِّكَـرَاتِ يَـبِتْـنَ عـلـى ذي الـهَـمِّ مُعْـتَـكِـرَاتِ

ساعدني أيها الصديق وأنا أعاني الهموم، وأعالج ذكريات باتت تتراكم وتعتكر على صاحب الهم

ظَلِلْتُ رِدَائي فوقَ رأْسِيَ قَاعِداً أَعُدُّ الحَصَى، ما تَنْقَضي عَبَراتي

ظللت جالساً واضعاً ردائي فوق رأسي أداري دموعي، وأنا حائر أعبث بالحصى

٨ الدنيا فانية

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ أَبْـصَـرْتُـهُ فَـشَـجَـانـي كَخَطِّ الزَّبُورِ في العَسِيبِ اليَمَاني

لمن هذا الطلل الذي يبعث الحزن في قلبي، وهو يشبه خط الزبور، أي القلم، المرقوم على سعف النخل اليماني

لَـيـالِيَ يَـدْعُـونـيِ الـهَـوى فَأُجِـيـبُـهُ وأَعْـيُـنُ مَـنْ أَهْـوَى إِلَـيَّ رَوَانِ

في تلك الأيام الخوالي كان الحب يدعوني فأجيبه، وكانت الحبيبة ترنو إليَّ بعينيها

تَـمَـتَّـعْ مِـنَ الـدُّنْـيَـا فَـإِنَّـكَ فَـانِ مِنَ النَّـشَـوَاتِ والـنِّـسَـاءِ الـحِـسَـانِ

تمتع بالنشوات، بشرب الخمر، وبالنساء فالدنيا فانية

٩ تخفق أكفاني

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وعِرْفَانِ وَرَسْـمٍ عَـفَـتْ آيَـاتُـهُ مـنـذُ أَزْمَـانِ

قفا يا صاحبي نبكي ذكرى الحبيب وقد عرفنا مكان أطلال دياره، ونبكي هذا الرسم، هذا الأثر الممحو، الذي عفت وامّحت آياته، أي علاماته، منذ زمن بعيد

أَتَتْ حِجَجٌ بَعْدي عليْها فأصبَحَتْ كَخَطِّ زَبُورٍ في مَصَاحَفِ رُهْبَانِ

مرت سنين بعد عهدي بهذه الديار، فأصبحت كخط الزبور، أي القلم، في أوراق الرهبان

ذَكَرْتُ بِها الحَيَّ الجَميعَ، فَهَيَّجَتْ عَقابيلَ سُقْمٍ مِنْ ضَميرٍ وأَشْجَانِ

ذكرت عند هذه الأطلال القوم أيام هم مجتمعون لم يتفرقوا؛ فهيجت الذكرى في قلبي عقابيل، أي بقايا، مرض وبقايا أحزان

إذا المرْءُ لم يَخْزُنْ عليهِ لِسَانَهُ فليس على شيءٍ سِواهُ بِخَزَّانِ

إن لم يحفظ الإنسان لسانه فلن يحفظ لا شرفاً ولا سراً

فَإِمَّا تَرَيْنِي في رِحَالَةِ جَابِرٍ على حَرَجٍ كالقَرِّ تَخْفِقُ أَكْفَاني

إن تريني أيتها الحبيبة متمدداً على خشبة مع صاحبي جابر والريح تعبث بثيابي التي فيها سأدفن فهي أيضاً أكفاني..

فَيَا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ وعَانٍ فَكَكْتُ الغِلَّ عنهُ فَفَدَّاني

فلقد طالما اندفعت وراء شخص مكروب اجتمعَ عليه الأعداء في المعركة كي أنفّس عنه، وطالما فككت القيد عن العاني، أي الأسير، فقال لي: فداك أبي

وغَيْثٍ كَأَلْوانِ الفَنَا قَد هَبَطْتُهُ تَعَاوَرَ فيهِ كُلُّ أَوْطَفَ حَنَّانِ

رب سهل مروي بالغيث قد نزلت فيه، وهو عامر بالأزهار الحمراء التي تشبه حب الفنا، وكانت تتوالى على السهل الغيوم بأمطارها ذات الصوت الناعم

على هَيْكَلٍ يُعطِيكَ قبلَ سُؤَالِهِ أَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرَ كَزٍّ ولا وَانِ

وكنت أكون على فرس كبير الجرم، يعطي فارسه أنواعاً من الجري دون حاجة لحث، فالفرس نشيط ولعوب، وهو غير منقبض ولا وانٍ، أي غير كسول. والفرس إذا كان ذكراً فهو هو، وإن كانت أنثى فهي هي

كَتَيْسِ الظِّبَاءِ الأَعْفَرِ انْفَرَجَتْ لَهُ عُقَابٌ تَدَلَّتْ مِنْ شَمارِيخِ ثَهْلانِ

فرسي كغزال فحل أعفر اللون، أبيض محمر، بدت له في الجو عقاب هبطت من قمم جبل ثهلان، فهو يركض هارباً منها

وخَرْقٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ مَضِلَّةٍ قَطَعْتُ بِسَامٍ سَاهِمِ الوَجْهِ حَسَّانِ

ورب خرق، صحراء، مقفر مثل صحراء «جوف العير» يضل فيه المرء، قطعته بحصان عالٍ ساهم الوجه، في وجهه قلق، ولكنه حسن يعجب الرائين

يُدافِعُ أَعْطَافَ المَطَايا بِرُكْنِهِ كَمَا مَالَ غُصْنٌ نَاعِمٌ بينَ أَغْصَانِ

هذا الحصان يكون وسط الإبل فيدفعها بجانبة ويميل عليها مثلما يميل الغصن الناعم بين الأغصان

١٠ الحُزَقَّة

قال يهجو خالد بن سدوس:

وأَعْجَبَنِي مَشْيُ الحُزَقَّةِ خَالِدٍ كَمَشْيِ أَتَانٍ حُلِّئَتْ في المَنَاهِلِ

ما أعجب مشي خالد الحزقة، القصير، فهو يمشي متردداً كأنثى حمار حلئت، منعت من ورود الماء

١١ رضيت من الغنيمة بالإياب

أَرَانَا مُوْضِعِينَ لِحَتْمِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبِالشرابِ

نحن موضعون، مسرعون، في اتجاه أمر غامض لكنه محتوم، وننشغل بتحصيل أكلنا وشربنا

عَصَافِيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ وأَجْرَأُ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذِّئَابِ

نحن كبقية المخلوقات الدنيئة، ولكننا نتصرف بجرأة كالذئاب الهاجمة

فَبَعْضَ اللَّوْمِ عاذِلَتي فَإنِّي سَتكفِينِي التَّجارِبُ وانْتِسَابي

خففي من لومك يا عاذلة، فإنني تكفيني تجاربي ونسبي الوقوعَ في الحماقات. وفسروا البيت بغير ذلك، ناظرين إلى ما بعده

إلى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَتْ عُروقِي وهذا الموتُ يَسْلُبُنِي شَبابي

أصلي من التراب، وسوف يسلبني الموت شبابي

ونَفْسِي سوفَ يسلُبُها وجِرْمِي فَيُلْحِقُنِي وَشِيكاً بالتُّرابِ

وسيسلبني الموت نفسي وجسمي، وسأدفن سريعاً في التراب

وقد طَوَّفْتُ في الآفَاقِ حتَّى رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإيَابِ

سافرت كثيراً، ورضيت ألا أحصل على أي غنيمة سوى العودة سالماً

١٢ نفس تَساقَطُ أنفسا

تَأَوَّبَنِي دَائِي القَدِيمُ فَغَلَّسَا أُحاذِرُ أنْ يَرْتَدَّ دَائِي فَأُنْكَسَا

عاد إليَّ مرضي القديم في الغلس، في الظلمة قبيل الفجر، وأخشى أن تكون هذه انتكاسة فيعود إلي المرض

فَإمَّا تَرَيْنِي لا أُغَمِّضُ ساعَةً مِنَ الليلَ إلَّا أنْ أُكَبَّ فَأنْعَسَا

إن كنتِ ترينني ساهراً لا أكاد أنام إلا من تكبية قليلة، أي تهويم ونعاس خفيف..

فَـيـا رُبَّ مَـكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وَراءَهُ وطَاعَنْتُ عنهُ الخَيْلَ حتى تَنَفَّسَا

فكثيراً ما كنت أندفع وراء المكروب من صحبي، المزنوق في المعركة، فأطعن الخيل المحيطة به وأنفس كربته

ويـا رُبَّ يـومٍ قـد أروُحُ مُـرَجَّـلاً حَبيباً إلى البِيضِ الكَواعِبِ أمْلَسَا

وكثيراً ما كنت أنصرف وشعري مرجل حسن أملس، وأنا محبوب من الفتيات البيض الشابات

أَرَاهُـنَّ لا يُـحْـبِـبْـنَ مَـنْ قَـلَّ مَـالُـه ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيهِ، وَقَوَّسَا

النساء لا يحببن الفقير، ولا ذا الشيب، ولا المقوس الظهر. . شكراً على المعلومة

فَلَوْ أنَّها نَفْسٌ تَموتُ جَميعَةً ولَـكِـنَّـها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْـفُسَا

لو أن نفسي تموت موتة مفاجئة لكان ذلك أهون، ولكنها تتساقط شيئاً بعد شيء

وبُدِّلْتُ قَرْحَاً دَامِياً بعدَ صِحَّةٍ لـعـلَّ مَـنَـايَـانـا تَـحَـوَّلْـنَ أبْـؤُسَـا

وبعد صحة أصبحتُ ذا قروح دامية بجسمي، فالموت قد تحول من فناء سريع إلى معاناة طويلة

١٣ الآن أَشربْ

يهجو بطوناً من بني أسد لخذلانهم إياه:

قُـولا لِـدُودَانَ عَـبـيـدِ الـعَـصَـا مـا غَـرَّكُـمْ بِـالأَسَـدِ الـبَـاسِـلِ

قولا يا صاحبي لقبيلة دودان، العبيد الذين يضربون بالعصا، ما الذي جرَّأكم على الأسد الباسل، والباسل: المتجهم

قـد قَـرَّتِ الـعَـيْـنـانِ مِـنْ مَـالِـكٍ ومِـنْ بَـنـي عـمـروٍ ومِـنْ كَـاهِـلِ

لقد رضيت بما أوقعتُه بتلك القبائل الأخرى

نَـطْـعَـنُـهُـمْ سُـلْـكَى ومَـخْـلُـوجَـةً كَـرَّكَ لأَمَـيْـنِ عـلـى نَـابِـلِ

كنا نطعنهم سلكى، طعناً مستقيماً، ومخلوجةً، طعناً من الجنب، بسرعة عجيبة كما يناول المرء راشق السهام سهمين متواليين بأسرع من قدرته على التسديد

حَـلَّـتْ لِـيَ الـخَـمْـرُ وكـنـتُ امْـرَأً عـنْ شُـرْبِـهـا فـي شُـغُـلٍ شَـاغِـلِ

بعد انتصاري عليهم تحللت من يميني بألا أشرب الخمر، وكنت أصلاً مشغولاً عن الخمر بقتال أعدائي

فـالـيَـوْمَ أَشْـرَبْ غَـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ إثْـمـاً مِـنَ الـلَّـهِ ولا وَاغِـلِ

فالآن أشربُ الخمر غير مستحقب إثماً، غير واضع في حقيبتي إثماً، وأشربها متفضلاً لا واغلاً متطفلاً على القوم. وجعلوا «أسقى» بدل «أشربْ» ليستقيم الإعراب

١٤ قسَم

تَـالـلَّـهِ لا يَـذْهَـبُ شَـيْـخِـي بَـاطِـلا

أقسم ألا يذهب دم أبي هدراً

حـتَّـى أُبِـيـرَ مَـالِـكـاً وكَـاهِـلا

حتى أبير، أي أبيد، هاتين القبيلتين

الـقَـاتِـلَـيـنَ الـمَـلِـكَ الـحُـلاحِـلا

اللتين قتلتا الملك السيد الشجاع

١٥ وحسبك من غنىً شِبع وريّ

سُرقت إبل امرئ القيس وهو في كنف بني نبهان، فأعطوه معزى تقوته، فقال:

أَلَا إِلَّا تَـكُـنْ إِبِـلٌ فَـمِـعْـزَى   كَـأَنَّ قُـرُونَ جِـلَّـتِـهـا الـعِـصِـيُّ

لئن لم يبق عندي إبل فها هي الغنم التي كأن قرون جلتها، أي كبارها، العصيّ

إِذَا مُـشَّـتْ حَـوالِـبُـهـا أَرَنَّـتْ   كَـأَنَّ الـحَـيَّ صَـبَّـحَـهُـمْ نَـعِـيُّ

إذا عصر الحالب حلماتها صدر منها صوت لدى ارتطام الحليب بالعلبة الخشب، يشبه صوت أنين الناس إذا أصبحوا وقد مات لهم ميت

تَـرُوحُ كَـأَنَّـهـا مِـمَّـا أَصَـابَـتْ   مُـعَـلَّـقَـةٌ بِـأَحْـقِـيِـهـا الـدُّلِـيُّ

تعود الغنم من المرعى وقد أصابت العشب الكثير وصارت ضروعها معلقة بجانبيها كأنها الدِّلاء، جمع دلو

فـتُـوسِـعُ أَهـلَـهـا أَقِـطَـاً وسَـمْـنَـاً   وحَـسْـبُـكَ مِـنْ غِـنَـىً شِـبَـعٌ ورِيُّ

فتفضل على أصحابها أقطاً، جبناً، وسمناً، وفي هذين ما يكفي، ويكفيك من الغنى أن تشبع وتروى

١٦ مدح المعلى

قال يمدح المعلَّى من تيم بن ثعلبة من طيء، وقد أجاره:

كَـأَنِّـي إِذْ نَـزَلْـتُ عـلـى الـمُـعَـلَّـى   نَـزَلْـتُ عـلـى الـبَـواذِخِ مِـنْ شَـمَـامِ

كأني إذ نزلت ضيفاً على المعلى نزلت بقمم جبل شمام

فَـمَـا مَـلِـكُ الـعِـراقِ عـلـى الـمُـعَـلَّـى   بِـمُـقْـتَـدِرٍ، ولا الـمَـلِـكُ الـشَّـآمـي

وهو سيد لا يقدر عليه ملك العراق ولا ملك الشآم

أَقَرَّ حَشَا امْرِئِ القيسِ بْنِ حُجْرٍ   بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ الظَّلَامِ

بنو تيم أقروا حشاي، وسكنوا مخاوفي

١٧ وكل غريب للغريب نسيب

قال وهو عليل في بلاد الروم يخاطب قبر امرأة في سفح جبل عسيب:

أَجَارَتَنَا إنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ   وإنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

أيتها المجاورة لنا إن المصائب تتوالى، ويبدو أنني سأقيم هنا ولا أبرح مثلما لا يبرح جبل عسيب

أَجَارَتَنا إنَّا غَرِيبَانِ هَهُنَا   وكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

نحن غريبان ههنا، والغربة تجمع بيننا كما يجمع النسب بين الناس

أَجَارَتَنا مَا فاتَ ليس يَؤُوبُ   ومَا هُوَ آتٍ في الزَّمانِ قَرِيبُ

ما ذهب لا رجعة له، والذي سيأتي حتماً فهو قريب مهما طال به الزمن

وليسَ غَرِيباً مَنْ تَنَاءَتْ دِيارُهُ   ولكنَّ مَنْ وَارَى التُّرابُ غَرِيبُ

من بعُد عن أهله ليس غريباً، الغريب حقاً هو الميت الذي واراه التراب

١٨ ذائد القوافي

قال في صباه:

أَذُودُ القَوافِيَ عَنِّي ذِيَادَا   ذِيَادَ غُلامٍ جَرِيءٍ جَوَادَا

أدفع القوافي عني دفعاً وهي تنهال علي، فأنا كالغلام الجريء الذي يروض جواداً

فَلَمَّا كَثُرْنَ وأَعْيَيْنَهُ   تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتّاً جِيَادَا

لما تكاثرت علي القوافي تخيرت منها ستة جيدة

فَأَعْزِلُ مُرجَانَها جَانِباً   وآخُذُ مِنْ دُرِّها المُسْتَجَادَا

وأنا أبعد المرجان، صغار اللؤلؤ، وآخذ اللآلئ الكبيرة فقط

١٩ هجو حنظلة

أَحَنْظَلَ لَوْ كُنْتُمْ كِراماً صَبَرْتُمُ   وحُطْتُمْ، ولا يُلْفَى التَّمِيمِيُّ صَابِرا

يا قبيلة حنظلة، لو كنتم كراماً لصبرتم ولحميتم، ولكن قبائل تميم لا صبر لها على الحرب

٢٠ أتاني حديث فكذبته

وقال بعد أن بلغه مقتل أبيه:

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بِلَيْلٍ أَهَلّ يُضيءُ سَنَاهُ بِأعْلَى الجَبَلْ

أرقت وأنا أرقب البرق الذي يضيء سناه، لمعانه، عند أعلى الجبل

أَتَانِي حَديثٌ فَكَذَّبْتُهُ بِأَمْرٍ تَزَعْزَعُ منهُ القُلَلْ

جاءني خبر كذبته عن أمر تتزعزع منه قمم الجبال

بِقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ أَلَا كُلُّ شَيْءٍ خَلاهُ جَلَلْ

بأن بني أسد قتلوا ربهم، سيدهم، وكل شي سوى ذلك جلل، أي هين بسيط

فَأينَ رَبِيعَةُ عن رَبِّهَا وأينَ تَميمٌ وأينَ الخَوَلْ

فأين أخوالي من قبائل ربيعة كي تنتقم لسيدها، وأين تميم وأين الخول، العبيد

أَلَا يَحضُرُونَ لَدَى بابِه كما يَحضُرونَ إذا ما اسْتَهَلّ؟

هلَّا حضر هؤلاء جميعاً للانتقام له، كما كانوا يحضرون إذا ما استهل وبدأ يوزع الأرزاق؟

٢١ تعلق قلبي طفلة عربية

تَعَلَّقَ قَلبي طِفْلَةً عَربيَّةً تَنَعَّمُ في الدِّيبَاجِ والحَلْيِ والحُلَلْ

تعلق قلبي بفتاة عربية تتنعم في الحرير والثياب والزينة

لها مُقْلَةٌ لو أنَّها نَظَرَتْ بِها إلى رَاهِبٍ قد صَامَ للَّهِ وابْتَهَلْ..

لو نظرت بعينها لراهب يصوم ويبتهل..

لأَصْبَحَ مَفْتُوناً مُعَنًّى بِحُبِّها كَأَنْ لم يَصُمْ للَّهِ يوماً ولمْ يُصَلّ

لأصبح مفتوناً بها وكأنه لم يصلِّ ولم يصم قط

أَلَا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ بِدَلِّها إذا ما أَبُوها ليلةً غَابَ أو غَفَلْ

لهوت بدلالها ذات يوم وقد غاب أبوها، أو غفل عنا

حِجَازِيَّةُ العَينَيْنِ مَكِّيَّةُ الحَشَا عِرَاقِيَّةُ الأَطْرَافِ رُومِيَّةُ الكَفَلْ

الحشا: البطن

ولاعَبْتُها الشِّطْرَنْجَ خَيْلي تَرَادَفَتْ ورُخِّي عليْها دارَ بِالشَاهِ بِالعَجَلْ

يبدو أنه بحصانه وبفيله في لعبة الشطرنج أكل شاهها وغلبها

وَقد كانَ لَعْبي كُلُّ دَسْتٍ بِقُبْلَةٍ أُقَبِّلُ ثَغْراً كَالهِلالِ إذا أَفَلْ

وكان شرطنا أن تكون بعد كل دست، لعبة، من الشطرنج قبلة للغالب، وكنت أقبل ثغرها الذي يشبه هلالاً في أواخر لياليه، ومن الشفاه الرقاق ما يعجب، ولا عليك بالتقليعة الحاضرة ـ ونكتب في أواخر سنة ٢٠١٥ ـ التي تمجد الشفاه الغلاظ

فَقَبَّلْتُها تِسْعَاً وتِسْعِينَ قُبْلَةً وَوَاحِدَةً أُخْرَى وكنتُ على عَجَلْ
وعَانَقْتُها حتَّى تَقَطَّعَ عِقْدُهَا وحتَّى فُصُوصُ الطَّوْقِ مِنْ جيدِهَا انْفَصَلْ

لا بد من كلمة نصح أخيرة: اسمع هذه القصيدة من هيام يونس أو من طلال المداح، والعن معي التسجيل على تراكات الذي فيه يصبح المغنى آلة من الآلات تسير على خطى المترونوم الرتيبة

٢٢ ألا يا عين

قال يبكي إخوته وقتلهم المنذر بن ماء السماء:

أَلَا يَا عَيْنُ بَكِّي لي شَنِينا وبَكِّي لي الملوكَ الذَّاهبينا

ابكي يا عيني شنيناً، بدمع مصبوب، وابكي الملوك الذين مضوا

مُلُوكاً مِنْ بَني حُجْرِ بنِ عَمْروٍ يُساقُونَ العَشِيَّةَ يُقتَلُونا

ملوك من بني أبي حُجْر، سيقوا للقتل

فَلَوْ في يومِ مَعْرَكَةٍ أُصيبُوا ولكِنْ في دِيارِ بَني مَرِينا

لو قتلوا في المعركة لهان، ولكنهم قتلوا صبراً وإعداماً عند بني مرين بالحيرة

فَلَمْ تُغْسَلْ جَماجِمُهُمْ بِغِسْلٍ ولكِنْ بالدِّمَاءِ مُرَمَّلينا

فلم تغسل رؤوسهم بالطيب، ولكنها تركت ملطخة بدمائها

تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عليْهِمْ وتنتَزِعُ الحَواجِبَ والعُيونا

وألقي بهم في البر، فالطيور مجتمعة عليهم تنتزع حواجبهم وعيونهم

٢٣ الكريم غير منان

أَفْسَدْتَ بِالمَنِّ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ لَيسَ الكريمُ إذا أَسْدَى بِمَنَّانِ

أفسدت إحسانك بالمن، التذكير بالنعمة، والكريم لا يمنُّ إذا أسدى معروفاً

٢٤ نار بلا دخان

حَمَلْتُ رُدَيْنِيَّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

حملت رمحاً كأن سنانه اللامع ضوء لهب لكن من غير دخان

امرؤ القيس

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

زهير بن أبي سُلْمى
(١٠٠ ق هـ ـــ ١٠ ق هـ)

قال البكري في «التنبيه» إنه ليس في العرب «سُلمى» بضم السين إلا أختُ زهير.

أشرح لك الشعر الجاهلي وبجانبي ما تيسر من شروح القدماء، فهذا تفسير من الأصمعي، وذاك تعليق من ثعلب، وهذا شرح مستفيض من الأعلم الشنتمري، أو من صاحب الأغاني الذي كان يشرح بعض ما يورد من قديم الشعر. وأَنظرُ فيما سرقه المحققون المحدثون من شروح القدماء وذيلوا به الأبيات، وأرى بعضهم يضيف وهماً هنا، وتفسيراً قاموسياً هناك، وقلَّما أجد سارقاً عنَّى نفسه بفهم البيت، وكلف قلمه كتابة شرح حقيقي له.

ثم إنني أنظر في بعض ما يعنُّ من كتب مدرسية وجامعية، أفعل ذلك كي أوقد تنور الشرَّ تحت مرجل قلبي. فأجد عند هؤلاء المدرسيين الرُّقَعاء عبارات تثير اشمئزازي: «المقدمة الطللية» و«الصورة الفنية»، وقد يجرب بعضهم حظه في حقل الخاطرة الرومنسية فيكتب «يقف الشاعر وقفة محزون، يندب محبوبته، ويسأل طللها أن يخبره أين ذهبت، و..» ويصعد بخار الاشمئزاز إلى رأسي فأكتب لك في مثل هذه المقدمات أهجيات أعمم بها رؤوس أولئك المدرسيين. وأنت تعرف أنني أفعل ذلك للتسلية.

قد جبلنا على تسقط أخطاء الآخرين. لا أرى نفسي مقنعَك بأن شرحي خير شرح إلا بعد أشتم الشارحين الآخرين.

وقد تستعجل فتظن أنني أسب الأكاديميين لأنني لم أفلح في أن أكون منهم. ولك مسوغ. فأنا لم أحمل من تلك الشهادات الرقيعة سوى الشهادة الجامعية الأولى، وما نلتها إلا بالضغط الشديد من والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد لاحقني

تسع سنين، من جامعة إلى جامعة، ومن بلد بعد بلد، وهو يحثني على نيل تلك الشهادة. وكان على حق في جانب؛ فلولا هي، أقصد لولا تلك الورقة التافهة، لما وجدت وظيفة مريحة أتمكن على هامشها من متابعة مطالعاتي. على أنك لست محقاً في الظن بأنني حاقد على الأكاديميين لأنني لست منهم. أنا لست منهم ولكنني عرفتهم عن قرب وعملت معهم. قد كنت محاضراً في جامعة ـ هي أفضل جامعة في بلدي، جامعة بيرزيت ـ سبع سنين وخمسة أشهر، كنت فيها مديراً لمعهد متميز، وكان مرتبي يصل إلى ضعف مرتب حامل الدكتوراه في معظم تلك السنين. كان ذلك ببركة ما اكتسبت من خبرة في حقل الإعلام. وإنني أذكر ذلك لسبب فرعي وسبب أساسي. فأما السبب الفرعي فهو إزجاء مديح إلى تلك الجامعة لأنها لم تقيد نفسها بتلك القيود التي لا تكاد تخلو منها كلية في كل جامعات العالم العربي، تلك القيود التي تجعل تقييم الأستاذ مستنداً إلى عنصر واحد فقط هو ما يحمله من أوراق تافهة، وقد صرت تعرف الآن ما أعني بالأوراق التافهة. (استطراد: بعض الجامعات العربية تقيم الأستاذ أيضاً بما ينشر من بحوث، وليتها لا تفعل، فالإنتاج المعرفي في جامعاتنا رديء). والسبب الأساسي لحديثي عن عملي في الجامعة هو أن أقنعك بأنني لا أشتم الأكاديميين حسداً، ولا حتى سعياً لإصلاحهم. أما قلت لك إنني أفعل ذلك لوجه التسلية! كأنك تنسى بسرعة.

أشتم فيهم الكسل، والاستسهال، والاستعباط.

عندما كان الاحتلال الجاثم على صدر بلادي يغلق الجامعات أسابيع أو حتى أشهراً، كان الأكاديميون يولولون ويحملون همّاً: كيف سيحضر الطلبة الدروس، وكيف سينتهي الفصل الدراسي، وكيف ستتم «تغطية» المادة. وكان الطلبة في فترات الإغلاق تلك يتعلمون أكثر: اللاهي العابث منهم يتعلم أشياء عن مجتمعه، والجاد منهم يقرأ قراءة حرة، أو يقعد في بيته يتأمل، أو يسافر إن كان أهله من ذوي اليسار، أو يلهو لهواً بريئاً أو غير بريء. و«كل» أولئك خير «لكل» طالب من «كل» ما يلقيه عليه الأكاديميون من محاضرات.

أريد قبل أن أدخل معك إلى عالم زهير بن أبي سلمى، أن أعتذر عن مقالات لي سبقت، ومقالات لا شك ستأتي. فإن كنت ممن يعرفني وجاهياً فالاعتذار مضاعف. أعتذر عن توهجات الحماسة التي تصدر عني كلما قرأتُ

كتاباً جيداً، فلا أعفي معارفي ولا قرائي من الحديث المستفيض والتمجيد الكبير لهذا الذي قرأته. حتى لقد صار بعضهم يسألني: ما أخبار صاحبك فلان مؤلف الكتاب الفلاني؟

أدرك أن القارئ بغير لغته يدخل عليه من الانبهار بما يقرأ نصيب يزيد أو ينقص بقدر ما في نفسه من انبهار بالآخر، وبقدر ما عنده من ميل إلى جلد الذات، وبقدر ما يحس به من استكانة أمام اللغة الأجنبية التي يقرأ بها. على أنني أرى في هذه الدنيا الواسعة إنتاجاً معرفياً طيباً يغيظني.. يؤلمني غياب المترجمين الفحول، ويؤلمني أننا نترجم الروايات كثيراً ولا نلتفت إلى كتب التاريخ والعلم.

وأشتاق أن أترجم شيئاً مفيداً، ولكنني غارق في هذا الشعر العتيق الذي فرضته على نفسي، ويقيدني أن معرفتي باللغة الأجنبية ليست بالقدر الكافي للتصدي للترجمة إلا ببذل جهد إضافي.

على أنني أعيش في الأوان الأخير حمّى قرائية. عندما ينتصف الكتاب الذي بيدي أبدأ أشعر بالخطر.. وآخذ في ارتياد المكتبات بحثاً عن الكتاب المقبل. وعندي الآن بحمد الله كتاب بقيت منه صفحات قليلة، وآخر كبير ينتظر، فلا خطر.

أمَّا الكتاب الذي ينتظر فلا سبيل إلى كيل المديح له. هو بطيخة مقفلة. فأما الذي بين يدي الآن فهو ـ طبعاً ـ أعظم كتاب قرأته حتى الآن. هذا طبعي الطفولي.. آخر كتاب هو الأعظم، والأجمل. سبحان من خلقني.

سأذهب عنك الآن كي أكمل كتابي. وعندما أعود إليك يكون قد خرج من رأسي، فلا أصدع رأسك بما فيه.

زهير بن أبي سُلمى

اشتغل بشعر زهير الأصمعي وأبو عمرو والمفضل، وشرحه ثعلب، والأعلم الشنتمري، وطبع شرح ثعلب في مصر عام ١٩٤٤، وطبع شرح الأعلم قبل ذلك بأربعين سنة، وقبل ذلك بعشرين سنة كان قد طبع في ليدن. ولم يكن الشارحون القدامى متأكدين من معنى كل بيت، فكانوا يسددون ويقاربون. وتبعناهم وسددنا وقاربنا، واجتهدنا أن يكون ذلك بلغة معاصرة. فإن أخذنا من كلماتهم عبارة ـ حتى لو كانت كلمتين أو ثلاثاً ـ فنحن ننسب

ذلك إليهم، فنحن لا نحب أن تتسلط ألسنة القدامى على لساننا. وقد رأينا السارقين المحدثين يأخذون الشرح كله، ويختصرون، ولا يشيرون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولد زهير قبل الهجرة بمئة عام وتوفي قبل الهجرة بعشرة أعوام. . هذا على وجه التقريب. وحضر الإسلام ابناه كعب وبجير وأسلما، ومدح ابنه كعب النبي بقصيدة «بانت سعاد» المشهورة. وكان لزهير أختان شاعرتان، وحفظ الرواة لأبيه شعراً، فأما خاله بشامة بن الغدير فشاعر جاهلي معروف. مات بشامة وقال لزهير وهو يجود بنفسه: قد ورَّثتك الشعر.

عاش زهير طفولته يتيم الأب، وبعد وفاة أبيه تزوجت أمه شاعراً معروفاً هو أَوْس بن حَجَر. وأصبح زهير راوية لأوس، ويرى عمر فروخ في «تاريخ الأدب العربي» أن في شعر زهير الكثير من صفات شعر أوس.

وزهير أستاذ الحطيئة في الشعر. وكان الحطيئة يلوذ بكعب بن زهير ويحفظ له الود. فزهير بن أبي سلمى، على هذا، عاش في شعر من سبقوه ومن عاصروه، وأعاش جيلاً من الناس على شعره وشعر أولاده. وفي هذه الثريا من الشعراء زهير هو النجم الأسطع.

زهير من مُزَيْنَة، وهي قبيلة مضرية صغيرة، وقد التصق والده «ربيعة»، المعروف بكنيته أبي سُلمى، بقبيلة غطفان في قصة طويلة. وعاش زهير في أجواء النزاعات القبيلة رجلاً حكيماً غنياً. فقد قيل إنه ملك في زمنه ألف جمل. على أنه مدح سيدين من قبيلة مرة في الصلح الذي عقداه بين عبس وذبيان ونال عطاياهما.

تزوج زهير «أم أوفى» فولدت له أولاداً ماتوا صغاراً، فتزوج «كبشة» فولدت له كَعْباً وبُجَيْراً.

أحسنُ شعر زهير المعلقة، فها قد قلنا لك إنه من شعراء المعلقات. ونقول أيضاً إنه اشتهر بتنقيح شعره، وزعموا أنه كان يترك القصيدة حولاً كريتاً، أي سنة كاملة، قبل أن يذيعها في الناس، وهو في أثناء ذلك ينقحها ويهذبها. وجعل المتفيهقون من الأكاديميين هذا الصنيع «مدرسة شعرية»، وأجهدوا أنفسهم في إثبات أن الحطيئة من أتباعها. وهذا كله هراء نقدي، وجدناه عند القدماء واتَّبعهم، بغير إحسان، جوقة الأكاديميين البغيضة.

١ ومهما تكن عند امرئ من خليقة.. (المعلقة)

تدخل هرم بن سنان والحارث بن عوف للإصلاح بين عبس وذبيان في سياق حرب داحسٍ والغبراء، وبذلا المال الكثير في الدِّيَات، قيل ثلاثة آلاف بعير، إلَّا أن رجلاً من ذُبْيَّان، اسمه الحصين بن ضمضم، تخلف عن مجلس الصلح، لأمر في نفسه. واختلى يوماً بعبسيٍّ فقتله انتقاماً لرجل من أقاربه. وتدارك الحارث بن عوف الأمر بأن أرسل إلى عبس مئة من الإبل ومعها ولدٌ له. وقال لعبس: هذا ابني تقتلونه بأخيكم، أم الإبل أحب إليكم؟ فأخذوا الإبل، وسلم الولد، ودام الصلح. فقال زهير بن أبي سلمى يمدح الحارثَ وهَرِماً:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ   بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

أهذا الطلل الذي لا يتكلم فيجيب عن سؤالنا هو طلل «أم أوفى»؟ وسمَّى مواضع بعينها

ودَارٍ لها بِالرَّقْمَتَيْنِ كأنَّها   مَراجِيعُ وَشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

رب دار لأم أوفى في الرقمتين، وقد رحلت عنها فبدت آثارها مفرقة كأنها الوشم المكرر الذي أعيد رسمه على عروق المعصم

بِها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً   وأَطْلاؤُها يَنهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

هناك أرى العين، البقر الوحشي ذا العيون الواسعة ـ فها قد تبين لك معنى العِين في تعبير «الحور العِين»، فأما الحور فمن صفا سواد أعينهن في صفاء بياضها ـ وأرى الآرام، أي الظباء، تمشي خلفة، سرباً خلف سرب، والأطلاء، صغار الظباء، ينهضن من المرابض، ليلحقن بأماتهن

وَقَفْتُ بِها مِنْ بعدِ عِشْرِينَ حِجَّةً   فَلأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بعدَ تَوَهُّمِ

وقفت بأطلالها بعد عشرين سنة، فبطء عرفت الدار، وبعد كثير من الظنون

أَثَافِيَّ سُعْفَاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ   ونُؤْيَاً كَجِذْمِ الحَوْضِ لم يَتَثَلَّمِ

رأيت أثافي سعفاً، حجارة قِدْرٍ مسودَّة، في مكان نصب القدر، ورأيت نؤياً، قناة كانت تحفر حول الخيمة درءاً لماء المطر أن يدخل الخيمة، وهذه القناة مثل أصل حوض الماء، فكأن سداً من الرمل المتيبس يكتنف القناة وما زال يبدو للعين لم يتثلم

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدارَ قلتُ لِرَبْعِها   أَلَا انْعَمْ صَباحاً أيها الرَّبْعُ واسْلَمِ

فلما تأكدت وعرفت أن هذا هو منزلها ألقيت عليه التحية

تَبَصَّرْ خَليلِي هل تَرى مِنْ ظَعائِنٍ   تَحَمَّلْنَ بِالعَلْيَاءِ مِنْ فوقِ جُرْثُمِ

ينتقل بخياله إلى ما قبل عشرين سنة. . انظر يا صاحبي أترى النساء الراحلات على الإبل تسير على الهضبة التي تعلو نبع «جرثم»؟

جَعَلْنَ «القَنَانَ» عن يَمينٍ وحَزْنَهُ وكَمْ بِالقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

جعلت الراحلات جبل القنان وحزنه، سفوحه الوعرة، عن اليمين.. وما أكثر ما بهذا الموضع من قاصد بيت الله ومن مقيم لا يقصده

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وكِلَّةٍ وِرَادٍ حَواشِيها مُشَاكِهَةِ الدَّمِ

ركبت النساء جمالهن المجللة بقماش مخطط، وعلى الهوادج الكلل، أي الستور، وحواشيها موردة بالحمرة القانية التي تشاكه، أي تشابه، في لونها الدم

ووَرَّكْنَ في «السُّوبَانِ» يَعْلُونَ مَتْنَهُ عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المُتَنَعِّمِ

ركبن أوراك الإبل في مرتفَع «السوبان»، وهن نسوة ناعمات مدللات

بَكَرْنَ بُكُوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ فَهُنَّ وَوادي الرَّسِّ كَاليَدِ لِلْفَمِ

رحلن باكراً ومضين في وقت السحر قبيل الفجر، يقصدن وادي الرس، وقد قصدنه قصد عارف بموضعه فلا يخطئنه مثلما لا تخطئ يد الآكل موضع فمه

كأنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كلِّ منزِلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ

كأن فتات العهن، الصوف المصبوغ، في كل مكان نزلن فيه للاستراحة، حب الفنا، ثمر أحمر، لم يُفعَصْ ولم يُرهَص ولم يُرضَخ، فهو إذا فُعِصَ زال لونه

فلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

لما وردن الماء الصافي، الذي يبدو صفاؤه في الأحواض العميقة، وضعن عصي الترحال ونزلن ونصبن الخيام

فَأَقْسَمْتُ بِالبَيْتِ الذي طَافَ حولَهُ رِجالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُريشٍ وجُرْهُمِ..

أقسمت بالكعبة التي طاف بها الرجال الذين بَنَوْها من قريش وجرهم..

يَميناً لَنِعْمَ السَّيِّدانِ وُجِدْتُما على كلِّ حَالٍ مِنْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ

أنتما خير سيدين سواء في حال السحيل أو المبرم، فالسحيل الحبل غير المحكم الفتل، والمبرم المحكم الفتل، كناية عن حالَي الرخاء والشدة

تَدارَكْتُما عَبْساً وذُبْيَانَ بعدَمَا تَفَانَوْا ودَقُّوا بينَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ

أنقذتما قبيلتي عبس وذبيان بعد أن كادوا يتفانون، أي يفني بعضهم بعضاً، وبعد أن دقوا بينهم عطر منشم، وقيل إن منشم هذه كانت امرأة تبيع العطر، يتعطر عندها الرجال قبل المضي إلى الحرب. (ذكر الأعلم الشنتمري أربع قصص طريفة تفسر «عطر منشم»، واخترنا منها الأشهر)

وقد قُلْتُما إنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ واسِعاً بِمَالٍ ومَعْرُوفٍ مِنَ القولِ نَسْلَمِ

وحاولتما تحقيق السلم ببذل المال وإرضاء المتحاربين من الطرفين

فأَصْبَحْتُما مِنها على خيرِ مَوْطِنٍ   بَعيدَيْنِ فيها مِنْ عُقوقٍ ومَأْثَمِ

فوفقتما إلى خير موضع.. إلى موضع ابتعدتم فيه عن العقوق والإثم

تَعَفَّى الكُلُومُ بِالمِئِينَ فَأَصبَحَتْ   يُنَجِّمُها مَنْ ليس فيها بِمُجْرِمِ

تتعفى الكلوم، أي تنمحي الجراح، ببذل مئات النياق، وقد أصبح ينجم هذه النياق، أي يعطيها دفعة وراء دفعة، من لم يرتكب أي جرم، ولم يكن طرفاً في الحرب

فأَصبحَ يَجري فيهِمُ مِنْ تِلادِكُمْ   مَغانِمُ شَتَّى مِنْ إِفالِ «المُزَنَّمِ»

أصبح يجري في القوم المتحاربين الخير الكثير من مالكم الموروث، من تلك الإفال، أي النياق الصغيرة، من نسل الفحل المعروف باسم المزنم

أَلَا أَبْلِغِ الأَحلافَ عَنِّي رِسالَةً   وذُبْيانَ، هل أَقْسَمْتُمُ كُلَّ مُقْسَمِ

أبلغ ذبيان والأحلاف رسالتي: هل أقسمتم على القتال وتعاهدتم على رفض الصلح؟

فَلا تَكْتُمُنَّ اللَّه ما في نفوسِكُمْ   لِيخْفَى، ومَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ

فلا تكتموا في نفوسكم حقداً، بعد الصلح، فالله يعلم ما في الصدور

يُؤَخَّرْ فَيوضَعْ في كِتابٍ فَيُدَّخَرْ   لِيومِ الحِسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وكتمان الحقد والتنطح للثأر لاحقاً، أمر يوضع في حسابكم عند الله لعقاب آجل، أو عقاب عاجل

وما الحربُ إلَّا مَا علِمْتُمْ وذُقْتُمُ   ومَا هُوَ عنها بِالحديثِ المُرَجَّمِ

وأنتم تعلمون حقيقة الحرب وقد ذقتموها، وليس الحديث عنها حديث ظنون وأوهام

مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَميمَةً   وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

إذا بدأتم بالحرب فهي ذميمة يقع عليكم الذم بها، وإذا ضريتموها، وأشعلتموها شاملة، فهي تصبح ضارية مفترسة، وتشتعل ناراً

فَتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِها   وتَلْقَحْ كِشَافاً ثم تُنْتِجْ فَتُتْئِمِ

تطحنكم الحرب مثلما تطحن الرحى القمح وتحتها ثفالها، الجلد الذي يوضع ليسقط عليه الجريش، والحرب تكبر وتتعاظم فهي كالشاة التي تتلقى اللقاح مرتين في العام، ثم تلد التوائم. (راجعت نحو خمسة عشر كتاباً من طبعات شتى لديوان زهير ولشروح المعلقات، وكلها يرفع «تعرككم»، غير منتبهٍ إلى وجوب الجزم إلا محمد علي الهاشمي في تحقيقه جمهرة القرشي، ومحمد علي طه الدرة في إعراب المعلقات)

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ، كُلُّهُمْ   كَأَحْمَرِ عَادٍ، ثم تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

ونتيجة الحرب ـ بما أننا نتحدث عن الولادة ـ هي غلمان شؤم مثل أحمر عاد، قُدَار المشؤوم الذي عقر ناقة صالح فسبب لقومه الهلاك. يولد فيكم أبناء شؤم في الحرب، يرضعون حرباً ويفطمون على حرب، ويكبرون ويطلبون الثأر، فهي دائرة شر لا تنتهي

فَتُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِلُّ لِأَهلِها   قُرىً بِالعراقِ مِنْ قَفيزٍ ودِرْهَمِ

يقول ساخراً: تكون غلة الحرب وحصادها مثل حصاد قرى العراق التي تكال بالقفيز وتوزن بالدرهم، فحصادكم كثير لكنه حصاد قتلى وجرحى

لَعَمْري لَنِعْمَ الحَيِّ جَرَّ عَلَيْهِمُ   بِما لا يُؤَاتيهِمْ حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ

القوم طيبون ولكن حصيناً هذا جر عليهم البلاء الذي لا يقوم بمصلحتهم، فهو قد غاب عن مجلس الصلح مضمراً شراً، ثم انتقم لأخيه وقتل رجلاً من عبس

فَشَدَّ فَلم يُفْزِعْ بُيوتاً كثيرةً   لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

لقد شد شدة وهاجم غريمه دون أن يتعرض لغيره، ووجده في المكان الذي ألقت فيه رحلها «أم قشعم» كناية عن الموت. أي أنه قتله

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمانينَ حَوْلاً لا أَبالَكَ يَسْأَمِ

سئمت شدائد العيش، ولا غرابة في أن يسأم من يعيش ثمانين سنة

وأَعْلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قَبْلَهُ   ولكنَّني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

خبرتي جعلتني أعرف تفاصيل ما جرى أمس وما يجري اليوم، ولكنني عمٍ، جاهل، عما سيأتي به الغيب

رَأَيْتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ   تُمِتْهُ ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

الموت كخبط الناقة العشواء، التي لا تبصر في الظلام فهي تدوس كل شيء، وكذا الموت فهو يصيب الناس عشوائياً، فمن أصابه مات، ومن تركه عاش وشاخ

ومَنْ لم يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ   يُضَرَّسْ بِأَنيابٍ ويُوطَأْ بِمَنْسِمِ

ومن لم يجامل الناس يعَضُّوه بأسنانهم ويؤذوه، ويدوسوه كما يدوس البعير الشيء بمناسمه، أي بأخفافه

ومَنْ يَجْعَلِ المَعْروفَ مِنْ دونِ عِرضِه   يَفِرْهُ، ومَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

من يحمي شرفه بتقديم المعروف للناس فإنه يفرهُ، أي يتركه وافراً غير منقوص، ومن لا يجعل لنفسه وقاية من الشتم فالناس تشتمه

ومَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفضلِهِ   على قومِهِ يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

الغني الذي لا يبذل لقومه من ماله يستغني عنه قومه فيصبح منبوذاً، ويذمونه

ومَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ، ومَنْ يُهْدَ قلبُه   إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ

من وفى بالحق لم يلحقه الذم، ومن يهتدِ إلى فعل الخير لا يتجمجم ولا يتردد

وَمَنْ هَابَ أَسْبابَ المنايا يَنَلْنَهُ   وإنْ يَرْقَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

الهائب من أسباب الموت، أي حباله، لا بد له من أن يموت حتى لو صعد إلى أسباب السماء، أي أبوابها، بسلم

وَمَنْ يَجْعَلِ المعروفَ في غيرِ أَهْلِهِ   يَكُنْ حَمْدُهُ ذمّاً عليهِ ويَنْدَمِ

من يحسن إلى من لا يستحق الإحسان ينقلب الحمد المرتقب إلى ذم، ويندم المحسن

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرافَ الزِّجَاجِ فإنَّهُ   يُطِيعُ العَوالي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

من تمرد على الزُّجّ، الحديدة التي في ذيل الرمح، فسيأتي عليه يوم يطيع فيه الرماح العوالي التي ركبت فيها الأسنة المدببة. وكان المتحاربون في القديم إذ يتقابل الجمعان يصوب كل جمع إلى الخصوم ذيول الرماح، فيسعى الساعون في الصلح، فإن لم ينجح الصلح قلب المتحاربون الرماح وتطاعنوا بالأسنة

وَمَنْ لم يَذُدْ عن حَوضِهِ بِسلاحِهِ   يُهَدَّمْ، ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

من لم يدافع عن حوضه الذي يجمع فيه الماء لسقي إبله بسلاحه فسوف يهدم الأعداء حوضه، ومن لم يظلم الناس فهم يبادرون إلى ظلمه

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوّاً صَديقَهُ   ومَنْ لم يُكَرِّمْ نفسَهُ لم يُكَرَّمِ

المغترب غشيم يحسب العدو صديقاً، ومن لم يترفع عن الدنايا سقط في أعين الناس

ومَهْمَا تَكُنْ عندَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ   وإن خَالَها تَخفَى على الناسِ تُعْلَمِ

والمرء لا يستطيع إخفاء خلائقه أي طباعه، فالناس ترى سريرته في وجهه

وكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ   زِيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التَّكَلُّمِ

كثيراً ما يعجبك الرجل الصامت، ولكن حقيقته تبدو عندما يتكلم

لِسانُ الفَتَى نِصفٌ ونِصفٌ فُؤَادُهُ   فلم يَبْقَ إلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

منطق الإنسان نصف قيمته، والنصف الثاني ضميره، وسوى ذلك مجرد لحم ودم

وإنَّ سِفاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ   وإن الفَتى بعدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

إذا رأيت الشيخ أحمق فلا أمل في أن يصبح عاقلاً، وأما الفتى فقد يصبح عاقلاً بعد إذ كان سفيهاً

سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وعُدْنا فَعُدْتُمْ   ومَنْ أَكْثَرَ التَّسْآلَ يوماً سَيُحْرَمِ

قد سألناكم من معروفكم مرة فأعطيتم، وكررنا السؤال وكررتم العطاء، لكنني أعلم أن من يكثر من السؤال سيلقى الحرمان

٢ آخر موعد

فَلَوْ كانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تَمُتْ ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليس بِمُخْلِدِ

لو كان الحمد يجعل الناس تخلد لما أتاك الموت، فالكل لك حامد شاكر، ولكن الحمد لا يخلد أحداً

ولكِنَّ منهُ باقِياتٍ وِرَاثَةً فَأَوْرِثْ بَنيكَ بعضَها وتَزَوَّدِ

غير أن الحمد يبقى بعد موت الإنسان ويرثه الأبناء، فليتزود الإنسان من الأفعال الحسنة كي ينعم بشكر الناس، وينعم أبناؤه بالسمعة الطيبة

تَزَوَّدْ إلى يومِ المماتِ فإنه، ولو كَرِهَتْهُ النفسُ، آخِرُ مَوْعِدِ

وليظل المرء حريصاً على التزود من المكارم حتى يوم مماته، فيوم الممات هو الموعد الأخير. وبعد زهير جاء الإسلام فأصبح الممات الموعد قبل الأخير، إذ يأتي بعده يوم حساب، ولعل زهيراً تأثر في زمنه بيهود يثرب، وكان قومه يسكنون على أطرافها، وإن كان أبو زهير انتقل للسكنى في شرق جزيرة العرب، ولم يكن مفهوم يوم الحساب متبلوراً عند اليهود، على أن زهيراً يذكر يوم الحساب في معلقته

٣ فوق الشمس

قال يمدح هرم بن سنان وإخوته:

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمسِ مِنْ كَرَمٍ قومٌ لِأَوَّلِهِمْ يوماً إِذَنْ قَعَدُوا

لو كان قوم يقعدون فوق الشمس بسبب أولهم، أي بسبب أمجاد أجدادهم، لقعد هؤلاء إذن، لأن أجدادهم أعظم الأجداد

قومٌ أبوهُمْ سِنانٌ حين تَنْسُبُهُمْ طابُوا وطَابَ مِنَ الأولادِ ما وَلَدُوا

أبوهم، أي جدهم، سنان. وأصلهم طيب وفرعهم طيب أيضاً

جِنٌّ إذا فَزِعُوا، إِنْسٌ إذا أَمِنُوا مُمَرَّدُونَ بَهالِيلٌ إذا جَهَدُوا

إذا ألم بهم فزع، من هجوم أو نحوه، فهم شجعان كأنهم الجن، ولكنهم أنيسون في وقت الأمن والدعة، وهم ممردون، أي شامخون، وبهاليل، أي سادة كرام إذا جهدوا، أي قل ما بأيديهم من مال، فالفقر لا يفقدهم الشموخ والسيادة

لو يُعْدَلُون بِوَزْنٍ أو مُكَايَلَةٍ مَالُوا بِرَضْوَى، ولم يُعْدَلْ بِهِمْ أَحَدُ

لو كان يمكن مقارنتهم بوزن أو بكيل لكانوا أثقل وأكبر من جبل رضوى، ولا أحد في الناس يعادلهم

مُحَسَّدُونَ على ما كان مِنْ نِعَمٍ لا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا بِهِ حُسِدُوا

يحسدهم الناس على ما نالهم من نعمة وشرف، وليبقِ الله لهم هذا الشرف الذي عليه حُسِدوا

٤ أنت تخلُقُ وتَفْري

قال يمدح هَرِم بن سنان:

لِـمَـنِ الـديـارُ بِـقُـنَّـةِ الـحَـجْـرِ أَقْـوَيْـنَ مِـنْ حِـجَـجٍ ومِـنْ دَهْـرِ

لمن هذه الديار في ذلك الموضع؟ لقد أقوت، خلتْ وأقفرت، منذ سنين، بل منذ دهر

دَعْ ذَا وعَـدِّ الـقَـولَ فـي هَـرِمٍ خَـيْـرِ الـبُـدَاةِ وسَـيِّـدِ الـحَـضْـرِ

دع ذا، اترك هذا الموضوع، وانقل الكلام إلى هرم بن سنان، فهو خير من سكن البادية، وسيد من سكن القرى

ولَـنِـعْـمَ حَـشْـوُ الـدِّرْعِ أنـتَ إذا دُعِـيَـتْ نَـزَالِ ولُـجَّ فـي الـذُّعْـرِ

أنت أحسن حشو للدرع، أي أنت أحسن مقاتل، إذا قيل «نزال» أي هيا للمنازلة، وإذا ازداد الخوف لوقوع هجوم أو غزو

جَـلْـدٍ يَـحُـثُّ عـلـى الـجَـمـيـعِ إذا كَـرِهَ الـظَّـنُـونُ جَـوامِـعَ الأمْـرِ

هو جلد صبور، ويحث على «الجميع» أي التكاتف والاجتماع، في حين يكره الشخص الظَّنون المتردد التآلف

فَـلَأَنْـتَ تَـفْـري مَـا خَـلَـقْـتَ وبَـعْـ ـضُ الـقـومِ يَـخـلُـقُ ثـم لا يَـفْـري

أنت تفري، أي تقصُّ، ما خلقت، ما خططت.. وبعض الناس يصنع خطوطاً على الجلد، ولكنه لا يتجرأ فيقص الجلد. المعنى: أنت تخطط وتنفذ، وبعضهم يخطط، ويجبن عن التنفيذ

لـو كـنـتَ مِـنْ شـيءٍ سـوى بَـشَـرٍ كـنـتَ الـمُـنَـوِّرَ لـيـلـةَ الـبَـدْرِ

لولا أنك بشر لكنت بدر السماء

٥ أنتم إلى الصلح أفقر

قال زهير لبني سُلَيْم، وبلغه أنهم يريدون الإغارة على غطفان:

رأَيتُ بَني آلِ امْرِئِ القيسِ أَصْفَقُوا علَـيْـنا، وقـالـوا: إنَّـنـا نـحنُ أَكْـثَـرُ

رأيت بني امرئ القيس (وهم هَوازِنُ وسُلَيْم) اجتمعوا علينا وزعموا أنهم أكثر عدداً منا

خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ وُدِّنا، إنَّ قُربَنا إذا ضَـرَّسَـتْـنـا الـحربُ، نَـارٌ تَـسَـعَّـرُ

أنصحكم بالود بدل العداوة، فنحن إذا عضتنا الحرب بأضراسها كالنار المستعرة

وإنَّـا وإيَّـاكُـمْ إلـى مـا نَـسُـومُـكُـمْ لَـمِـثْلانِ، أو أَنْـتُـمْ إلى الصُّلْحِ أَفْقَرُ

وحالنا معكم في هذا الذي نسومكم، وندعوكم إليه، حال متقاربة، أي أننا أنداد، لا بل أنتم أحوج منا إلى الصلح.

٦ أقيمي أم كعب

قال زهير لأم ولده كعب:

وقَـالَـتْ أمُّ كَـعْـبٍ: لا تَـزُرْنـي   فَـلا وَالـلَّـهِ مَـا لَـكَ مِـنْ مَـزَارِ

صدت عنه زوجته أم كعب وفركته ونشزت عليه، ونفرت منه

رأيـتُـكَ عِـبْـتَـنـي وصَـدَدْتَ عَـنِّـي   وكيفَ عليْكَ صَبري واصْطِباري

وهي تقول له إنه يذكر لها عيوباً، ويصد عنها، فلا طاقة لها بالصبر على ذلك ولا بالاصطبار، أي تكلف الصبر

فَـلَـمْ أُفْـسِـدْ بَـنـيـكَ، ولـم أُقَـرِّبْ   إلَـيْـكَ مِـنَ الـمُـلِـمَّـاتِ الـكِـبـارِ

تواصل كلامها: لم أفسد بنيك، ولعلها تقصد أنها لم تشحنهم بالبغض لأبيهم كما يفعلن ويفعلون في الخصومات العائلية، ولم أرتكب شيئاً من الخيانة الكبيرة

أَقـيـمـي أُمَّ كَـعْـبٍ واطْـمَـئِـنِّـي   فَـإِنَّـكِ مَـا أَقَـمْـتِ بِـخَـيـرِ دَارِ

يقول لها: امكثي معي يا أم كعب، واطمئني

٧ ـ يشقُّون إليه الطرق

قال يمدح هرم بن سنان وأباه وإخوته:

إن الـخَـلـيـطَ أَجَـدَّ الـبَـيْـنَ فَـانْـفَـرَقَـا   وعُلِّقَ القلـبُ مِنْ أَسماءَ ما عَلِقَا

جدَّد الخليط، الجيران، الفراق فرحلوا مرة أخرى.. ولكن القلب تعلق به من حب أسماء ما تعلق

وفَـارَقَـتْـكَ بِـرَهْـنٍ لا فَـكَـاكَ لَـهُ   يَومَ الوَداعِ، فأَمْسَى الرَّهْنُ قد غَلِقَا

يخاطب نفسه: فارقتك وقد ارتهنت قلبك ارتهانا لا فكاك له، فقد غلق الرهن، أي مضى وقته المعلوم وأصبح المرتهَن ملكاً ثابتاً للمالك الثاني

قد جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخَيرَ في هَرِمٍ   والسَّائِلونَ، إلى أَبْوابِهِ طُرُقا

يغير الموضوع: الطالبون المعروف من هرم بن سنان ظلوا يأتون إليه حتى لقد شقوا طرقاً جديدة من وقع أقدامهم تنتهي إلى أبوابه، وهم يأتون من أماكن عدة فالطرق التي شقوها كثيرة. وهذا البيت أعجب القدماء كثيراً، قال الأصمعي هو «بيت القصيدة»

إنْ تَلْقَ يَوماً عَلى عِلَّاتِهِ هَرِمَاً   تَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقَا

إذا لقيت هرم بن سنان، حتى في علاته أي وهو يعاني الضيق، فإنك ستجد السماحة والندى، أي السخاء، من طباعه

لَـيْـثٌ بِـعَـثَّـرَ يَـصْـطَـادُ الـرِّجَـالَ إذا   مَـا كَـذَّبَ الـلَّـيْـثُ عَـنْ أَقْـرَانِـهِ صَـدَقَـا

هو أيضاً ليث من ليوث مَأْسَدةِ «عثَّر»، فهو شجاع يصطاد الرجال. فإن كذَّب الليث ما يرتجى منه في لقاء أقرانه فإن هرماً يصدق ويأتي بما كان متوقعاً منه

يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا، حتَّى إذا طَعَنُوا   ضَارَبَ حتَّى إذا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا

يطعن بالرمح عندما يبتعد الخصوم ويرمون بالسهام عن بعد، فإذا طعن الأعداء بالرماح فهو يقترب أكثر ويضاربهم بالسيف، فإذا استعملوا السيوف، فهو أشجع منهم ويقترب أكثر ويعتنق الخصم اعتناقاً كي يرميه أرضاً، فهو دوماً يسبق الخصم درجةً في الشجاعة والجرأة

هَـذا ولَـيـس كَـمَـنْ يَـعْـيَـا بِـخُـطَّـتِـهِ   وَسْـطَ الـنَّـدِيِّ إذا مَـا نَـاطِـقٌ نَـطَـقَـا

وهو فصيح لا يعجز عن بيان رأيه وسط منتدى القوم عندما يكون هناك تبادل للرأي

٨ لا تمعك بعرضك

كان الحارث بن ورقاء الصيداوي من بني أسد أغار على قوم من غطفان، فاستاق إبلاً لزهير، وأسر راعيَه يَسَاراً، فقال زهير:

ارْدُدْ يَـسَـاراً ولا تَـعْـنُـفْ عَـلـيْـهِ، ولا   تَـمْـعَـكْ بِـعِـرْضِـكَ، إنَّ الـغَـادِرَ الـمَـعِـكُ

ردَّ عليَّ خادمي يساراً، ولا تعامله بخشونة، ولا تمعك بعرضك، تمرغ عرضك، فإن الغادر مَعِكٌ ممارٍ

ولا تَـكُـونَـنْ كَـأَقْـوامٍ عَـلِـمْـتَـهُـمُ   يَلْوُونَ ما عِنْدَهُمْ حتَّى إذا نُهِكُوا . .

لا تكن مثل أولئك الذين يلوون ما عندهم، يمتنعون من أداء الحق، حتى إذا نُهكوا، أي شُتموا . .

طابَتْ نُفوسُهُمُ عنْ حَقِّ خَصْمِهِمُ   مَـخَـافَـةَ الـشَّـرِّ فـارتَـدُّوا لِـمَـا تَـرَكـوا

عندئذٍ تسمح نفوسهم بما في أيديهم الذي هو حق لخصمهم، فهم يخافون العواقب فيردون الحق لصاحبه خوفاً لا حباً للعدل

٩ ولكنْ، أمُّ أوفى لا تبالي

قال في زوجته أم أوفى، وكانت ولدت له أولاداً فماتوا، فتزوج أخرى ولدت له كعباً وبجيراً، فآذته الأولى، أم أوفى، فطلقها فندم:

لَـعَـمْـرُكَ والـخُـطـوبُ مُـغَـيِّـرَاتٌ   وفـي طُـولِ الـمُـعَـاشَـرَةِ الـتَّـقَـالـي

المصائب تغير المرء، وطول العشرة يفضي إلى التقالي، أي التباغض وتبادل الكراهية

لَـقَـد بَـالَـيْـتُ مَـظْـعَـنَ أُمِّ أَوْفَـى   ولَـكِـنْ، أُمُّ أَوْفَـى لا تُـبَـالـي

لقد أصابني هم لمظعن، ورحيل، أم أوفى، ولكنها هي لم تبال بذلك

فَـأَمَّـا إذْ نَـأَيْـتِ فَـلا تَـقُـولِـي   لِـذي صِـهْـرٍ أُذِلْـتُ، ولَـم تُـذَالـي

والآن وقد فارقتِني فلا تقولي لأصهاري، أهلكِ، إنني أهنتك، فأنت لم تُهاني

أَصَبْتُ بَنِـيَّ مِـنْكِ، ونِـلْتِ مِـنِّـي   مِـنَ الـلَّـذَّاتِ والـحُـلَـلِ الـغَـوالـي

أنا حصلت منك على أبناء، وأنت حصلت على عيشة رخية، وعلى ثياب غالية. وقيل مات أولاده منها صغاراً

١٠ وهل ينبت الخطي إلا وشيجه!

قال يمدح سنان بن أبي حارثة المري:

وفيهِمْ مَقاماتٌ حِسَانٌ وُجوهُهُمْ   وأَنـدِيَـةٌ يَنـتَـابُـها الـقولُ والـفِـعلُ

تجد في مجالس القوم الوجوه الطيبة الحسنة، وتجد مجالس فيها قول وفعل، فهم يِعدون بالمعروف ويفعلونه أيضاً

على مُكثِريهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ   وعـندَ الـمُقِلِّينَ الـسَّمَاحَةُ والـبَذْلُ

يتكفل أغنياؤهم برزق من يعتريهم فقر، وحتى المقلُّون منهم، الأفقر حالاً، فعندهم سماحة، أي سخاء، وبذل للمال

وإن جِئتَهُـمْ أَلـفَيْتَ حولَ بُيوتِـهِـمْ   مَجَالِسَ قد يُشفَى بِأَحلامِها الجَهلُ

مجالسهم فيها أحلام، أي عقول، تمنع الجهل، والجهل هو التهور واللجوء إلى العنف بغير روية

وإن قـامَ فـيهِـمْ حَـامِـلٌ قَـال قَـاعِـدٌ:   رَشَـدْتَ، فلا غُرْمٌ عليكَ ولا خَذْلُ

إذا قام في المجلس رجل حامل، لديه حَمالة أي عليه دية يجب دفعها، فالقاعد يقول له: لا تحمل هماً ولا غرم عليك، لا تبعة مالية، ولن نخذلك

ومَـا يَـكُ مِـنْ خَـيْـرٍ أَتَـوْهُ فَـإِنَّـمـا   تَـوارَثَـهُ آبَـاءُ آبـائِـهِـمْ قَـبْـلُ

والخير الذي يفعلونه ليس جديداً، بل قد ورثوه عن آبائهم وأجدادهم

وهَـلْ يُـنبِـتُ الـخَـطِـيَّ إلَّا وَشِـيجُـهُ   وتُـغْـرَسُ، إلَّا في مَـنـابِـتِـها، الـنَّـخْـلُ

هل ينبت الخطي، أي الرمح، إلا الوشيج، أي الغصن القوي، وهل تغرس النخلة إلا في المنبت الملائم؟ يقصد أن الكرم يوجد في الأسرة الكريمة

١١ ـ كأنك تعطيه الذي أنت سائله

قال يمدح حصن بن حذيفة بن بدر:

صحَا القلبُ عنْ سَلْمَى وأَقْصَرَ بَاطِلُهْ   وعُـرِّيَ أَفْـراسُ الـصِّـبَـا ورَوَاحِـلُـهْ

هدأ القلب وسلا عن سلمى، وكف عن اللهو والتصابي، وسكنت خيول اللهو ونياقه فتعرت من سروجها ولم تعد تسافر في طريق اللهو

وقالَ العَذارَى: إنَّما أنتَ عَمُّنا وكان الشبابُ كالخَليطِ نُزَايِلُهْ
الآن صارت العذارى يناديني: يا عمنا، وقد رحلنا عن الشباب مثلما نرحل عن الخليط، الجيران

إذا ما غَدَوْنا نَبتغي الصَّيْدَ مَرَّةً متَى نَرَهُ فَإنَّنا لا نُخاتِلُهْ
عندنا خيول سريعة، فإذا رأينا الغزال مثلاً فلا نتحايل عليه بل نسرع إليه ونصطاده

فَبَيْنا نُبَغِّي الصَّيْدَ جاءَ غُلامُنا يَدِبُّ ويُخْفي شَخْصَهُ ويُضائِلُهْ
ونحن نصطاد جاء غلامنا يتسلل ويحني رأسه، ويكاد يخفي شخصه، وهو يرقب الغزال البعيد

وقلتُ: تَعَلَّمْ أنَّ للصَّيْدِ غِرَّةً وإلَّا تُضَيِّعْهَا فإنَّكَ قَاتِلُهْ
قلت له: اعلم أن للصيد غرة، لحظة فاصلة تنال فيها الفريسة، فإن لم تضيع هذه اللحظة فقد أصبت مقتلها

وأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ على مُعْتَفيهِ ما تُغِبُّ فَواضِلُهْ
يغير الموضوع: رب سيد أبيض الوجه فياض، سخي، يداه كالسحابة تعطي المعتفين، القاصدين معروفه، ولا تنقطع عطاياه

بَكَرْتُ عليهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُوداً لَدَيْهِ بالصَّريمِ عَواذِلُهْ
جئته مبكراً فرأيته قاعداً على الرمل وحواليه العاذلات اللائمات

يُفَدِّينَهُ طَوْراً، وطَوْراً يَلُمْنَهُ وأَعْيَا، فَما يَدْرِينَ أَينَ مَخاتِلُهْ
يتحايلن عليه، ولعلهن أخواته وعماته، فأحياناً يقلن له: فديناك، وأحياناً يلمنه على سخائه، وقد أعجزهن فما يدرين أين مخاتله، مواضع النفاذ إلى قناعاته لتغييرها

فَأَقْصَرْنَ مِنْهُ عن كَريمٍ مُرَزَّئٍ عَزُومٍ على الأمرِ الذي هُوَ فاعِلُهْ
فانصرفن عن هذا الكريم المرزَّئ، الذي يهين ماله، والعزوم الذي لا يغير من إصراره على فعل ما يريد

أَخي ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مَالَهُ ولكنَّهُ قد يُهْلِكُ المالَ نَائِلُهْ
وهو صاحب ثقة لا ينفق ماله في الخمر، ولكن ماله قد يهلك لكثرة ما يعطي الناس

تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأَنَّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ
إذا جئته تطلب رأيته مستبشراً فكأنك أنت الذي تعطيه لا العكس

وذي نَسَبٍ نَاءٍ بَعيدٍ وَصَلْتَهُ بِمالٍ، ومَا يَدْري بِأَنَّكَ وَاصِلُهْ
ورب رجل بعيد النسب عنك قد أعطيته المال دون أن يدري بأن هذا المال منك، ذلك أن مالك الذي تعطيه للناس وفير فالناس يعطون الآخرين مما ينالون منك

وذي نِعْمَةٍ تَمَّمْتَها وشَكَرْتَها ... وخَصْمٍ يَكادُ يَغْلِبُ الحَقَّ بَاطِلُهْ

رب رجل أنعمت عليه فتسببت بذلك أن نلت منه شكراً على النعمة فكأنك أنت شكرتها، ورب خصم يكاد باطله يتغلب على الحق

دَفَعْتَ بِمَعْروفٍ مِنَ القولِ صَائِبٍ ... إذا مَا أَضَلَّ النَّاطِقِينَ مَفَاصِلُهْ

دفعت هذا الخصم المكابر بقول حسن صائب، في حين لا يهتدي الناطقون إلى الرأي السديد، مثلما لا يهتدي الغشيم إلى موضع المفصل وهو يقطع أوصال الذبيحة

وذي خَطَلٍ في القولِ يَحسَبُ أنَّهُ ... مُصيبٌ، فمَا يُلْمِمْ بِهِ فَهْوَ قَائِلُهْ

ورب أحمق يحسب نفسه مصيباً في كلامه، وهو من أولئك الذين يقولون أول ما يعن على بالهم دون روية

عَبَأْتَ لهُ حِلْماً، وأَكرَمْتَ غيرَه ... وأَعرَضْتَ عنهُ، وَهْوَ بَادٍ مَقَاتِلُهْ

وقد أعددت لهذا حلماً، صبراً وأناةً، وأنت بصبرك عليه تكرم قومه إذ لا تعاقب أخاهم السفيه، وأنت تعرض عنه مع أن مواضع العيب فيه بادية للعيان

حُذَيْفَةُ يَنْميهِ، وبَدْرٌ كِلاهُما ... إلى بَاذِخٍ يَعْلُو على مَنْ يُطَاوِلُهْ

يصف الممدوح: هو ابن حذيفة بن بدر، وأبوه وجده كلاهما في جبل عالٍ من الشرف لا يستطيعه من يحاول الوصول إليه

ومَنْ مِثْلُ حِصْنٍ في الحروبِ، ومِثْلُهُ ... لإنْكارِ ضَيْمٍ أو لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

و«حصن بن حذيفة بن بدر» الممدوح لا يوجد مثله في الحروب، ولا في إنكار الظلم، ولا في إنجاز ما يسعى لإنجازه

١٢ ليتق الله سائله

تَرَى الجُنْدَ والأَعْرابَ يَغْشَوْنَ بَابَهُ ... كمَا وَرَدَتْ مَاءَ «الكُلابِ» هَوامِلُهْ

يغشى، يأتي، الجند والأعراب باب الممدوح فكأنهم الإبل الضالة التي ترد ماء «الكلاب» لتشرب

فَلَوْ لم يَكُنْ في كفِّهِ غيْرُ نفسِهِ ... لَجَادَ بِها، فَلْيَتَّقِ اللّهِ سَائِلُهْ

لو لم يبق في يديه سوى روحه لأعطاها للناس، فليتق الله من يسأله ولا يكثر في الطلب

١٣ هجاء بالغلط

نزل رجل ببني عُلَيْم فأكرموه، ولكنه ظل يُقامر، وظلوا يحسنونَ إليه، ويرُدُّون عليه ماله، وفي النهاية أخرجوه عنهم، وحبسوا المال الذي خسره. فأتى زهيراً فشكا إليه ما صنعوا به. فهجاهم زهير، غيرَ عارفٍ بسوء صنيع المقامر الشاكي. ثم ندم زهير أشد

الندم على هذا الهجاء. وها هو هجاؤه لهم، (ولعل بني حصن وبني مصاد، المذكورَيْن في القصيدة، من فروع أو من أصول بني عليم، ولعل القبيلة التي تضم كل هذا هي «كلب» كما ذكر الأعلم الشنتمري):

وقـد أَغـدُو عـلـى شَرْبٍ كِرامٍ   نَشَاوَى واجِـدِيـنَ لِمَـا نَشَـاءُ

قد أذهب باكراً على شرْبٍ، أي جماعة جالسين يشربون الخمر. وهم كرام، يقدمون لنا ما نطلب من خمر وطعام

يَـجُـرُّونَ الـبُـرودَ وقـد تَـمَـشَّـتْ   حُـمَيَّا الـكـأْسِ فـيـهِـمْ والـغِـنَـاءُ

يقوم الواحد منهم يتمايل لأن حميًّا الكاس، أي مفعول الخمر، ونشوة الطرب قد سريا في جسمه

تَـمَشَّـى بـيـن قَـتْـلَـى قـد أُصـيـبَـتْ   نـفـوسُـهُـمُ ولـم تُـهْـرَقْ دِمـاءُ

تسري هذه النشوة في قوم أصيبت نفوسهم منها لكن دون إراقة دماء

ومَـا أَدْرِي وسَـوفَ إِخَـالُ أَدْرِي   أَقَـوْمٌ آلُ حِـصْـنٍ أَمْ نِـسَـاءُ

يهزأ بهم: لست أدري أهؤلاء رجال أم نساء؟ ومن هذا البيت استنتج اللغويون أن كلمة قوم تعني الرجال دون النساء

فـإِنْ قَـالـوا الـنِّـسَـاءُ مُـخَـبَّـآتٌ   فَـحُـقَّ لِـكُـلِّ مُـحْـصَـنَـةٍ هِـدَاءُ

يستمر في السخرية: إن كانوا من النساء المخبآت في خدورهن، فالمتوقع لكل أنثى محصنة، مصونة، أن تهدى، أي تزف، إلى زوج

وإِمَّـا أن يـقـولَ بـنُـو مَـصَـادٍ:   إِلـيْـكُـمْ، إِنَّـنـا قـومٌ بَـراءُ

على بني مصاد، وهم من بني حصن، إمَّا أن يتبرأوا من تلك الفعلة بأن يحلفوا بأنهم لم يفعلوها

وإِمَّـا أن يـقـولُـوا: قـد وَفَـيْـنـا   بِـذِمَّـتِـنـا، فَـعـادَتُـنـا الـوَفـاءُ

وإما الوفاء فيعيدون للرجل ماله

وإِمَّـا أنْ يـقـولُـوا: قـد أَبَـيْـنـا   فَـشَـرُّ مَـواطِـنِ الـحَـسَـبِ الإِبَـاءُ

وإما الاعتراف بأنهم يرفضون تأدية ما عليهم، وهذا الخيار شر لاحقٌ بالشرف

وإِنَّ الـحَـقَّ مَـقْـطَـعُـهُ ثَـلاثٌ:   يَـمـيـنٌ أَوْ نِـفَـارٌ أَوْ جِـلَاءُ

وتلخيص القاعدة القانونية: الحق يتم بأن يحلف المرء يميناً، أو بأن يكون هناك نفار، أي احتكام، أو يكون جلاء أي انكشاف للأمر. وكان عمر بن الخطاب معجباً بهذا البيت

فَـذَلِـكُـمُ مَـقـاطِـعُ كُـلِّ حَـقٍّ،   ثَـلاثٌ كُـلُّـهُـنَّ لَـكُـمْ شِـفـاءُ

هذه وسائل بيان الحق

وجَـارٍ سـارَ مُـعْـتَـمِـداً إلـيْـكُـمْ   أجَـاءَتْـهُ الـمَـخَـافَـةُ والـرَّجَـاءُ

هذا الرجل استجار بكم ونزل عندكم، وقد جاء به الخوف من خصومه، والرجاء في الحصول على حمايتكم

فَـجـاوَرَ مُـكْـرَمـاً، حـتـى إذا مـا   دعَاهُ الصَّيْفُ وانقَطَعَ الشِّتاءُ..

فأكرمتموه في الشتاء، وهو وقت الشدة والقحط، وعندما حل الصيف..

ضَمِنْتُمْ مَالَه، وغَدَا جميعاً   عـلـيْكُمْ نَقْصُهُ ولَهُ الـنَّـمَـاءُ

أخذتم ماله، أي إبله، لذا فكل ما نقص منها يجب أن يكون عليكم أداؤه، وكل زيادة فيها فهي من نصيبه

فإنْ تَدَعُوا السَّوَاءَ فليس بَيْني   وبَـيْـنَـكُـمُ بَـنـي حِـصْـنٍ بَـقـاءُ

فيا بني حصن! إن تتركوا العدل فلا بقاء للمودة بيني وبينكم

ويَـبْـقَـى بَـيْـنَـنـا قَـذَعٌ، وتُـلـفَـوْا   إذَنْ قَـوْمـاً بِـأنْـفُـسِـهِـمْ أَسـاءُوا

ويحل محل المودة القذع، أي الشتم، وما تسيئون إلّا إلى أنفسكم

١٤ الجواد على عِلّاته

إنَّ البَخيلَ مَلومٌ حيثُ كانَ، ولَـ   ـكِنَّ الجَوادَ على عِلّاتِهِ هَرِمُ

البخيل يلحقه اللوم في كل مكان، ولا كذلك هرم بن سنان فهو سخي على علاته، أي عندما يكون مضيَّقاً عليه في الرزق

هُوَ الجَوادُ الذي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْواً، ويُظْلَمُ أحياناً فَيَظَّلِمُ

سخي يعطيك النائل، المال، عفواً، بسهولة، وقد يغبنه بعضهم فيتحمل الغبن كرماً منه

وإنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يومَ مَسْأَلَةٍ   يقولُ: لا غائِبٌ مَالِي ولا حَرَمُ

إن جاءه صاحب يسأله لم يقل له إن مالي، أي إبلي، غائبة، ولا ممنوعة عنك

١٥ عوَّد قومه عليه

وعَـوَّدَ قَـومَـهُ هَـرِمٌ عَـلَـيْـهِ   ومِنْ عَادَاتِهِ الخُلُقُ الكريمُ

عوَّدهم على كرمه

كَـمـا قـد كـان عـوَّدَهُـمْ أَبُـوهُ   إذا أَزَمَـتْـهُـمُ يـومـاً أُزُومُ

وكان أبوه قد عود القوم على الكرم وقت الأزمات

كذلك خيمُهُمْ، ولكُلِّ قومٍ إذا مَسَّتْهُمُ الضَّرَّاءُ خيمُ

كذلك خيمهم، طبعهم، والطبع الأصيل لكل قوم يتجلى في وقت الضراء، أي الشدة

١٦ نسيان الموت

أرانَا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بِالطَّعامَ وبِالشَّرابِ

أرانا موضعين، أي مسرعين، لأمر هو في الغيب، ولكننا نهتم بطعامنا وشرابنا غير عارفين المصير بعد الموت

كما سُحِرَتْ بِهِ إِرَمٌ وعَادٌ فَأَضْحَوْا مثلَ أَحلامِ النِّيَامِ

كذا اهتمت إرم وعاد بأمر معاشهما فبادتا

١٧ بيوتنا حصوننا

بلغ زهيراً أن بني تميم يحشدون لغزو غطفان، فقال:

ألا أَبْلِغْ لَديْكَ بني تَمِيمٍ وقد يأْتيكَ بِالخبرِ الظُّنُونُ

أبلغ قبيلة تميم، وأقول قولي هذا عارفاً أن الخبر قد يأتي به شخص ظنون غير ثقة؛ ولكن، بما أنه وردنا الخبر فلا بد من التحذير

بِأَنَّ بيوتَنا بِمَحَلِّ حَجْرٍ بِكُلِّ قَرارَةٍ منها نَكُونُ

أبلغ تميماً بأنَّ بيوتنا في حجر عامرة بأهلها الساكنين وِذْيانها

بِأَوْدِيَةٍ أَسَافِلُهُنَّ رَوْضٌ وأعلاها إذا خِفْنَا حُصُونُ

فالوديان رياض، والهضاب حصون نلجأ إليها عند الخوف، أي وقت حدوث تهديد

فَقَرِّي في بِلادِكِ، إنَّ قَوْماً مَتى يَدَعُوا بِلادَهُمُ يَهُونُوا

فقري يا قبيلة تميم في بلادك ـ بشرق الجزيرة ـ فالقوم الذين يفارقون ديارهم تلحقهم المذلة والهوان

١٨ بعد التسعين

كأَنِّي وقد خَلَّفْتُ تِسعينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بها عَن مَنْكِبَيَّ رِدَائِيا

كأنني بعد بلوغ التسعين قد أصبحت متهيأً للنهاية كمن يخلع رداءه متهيأً للنوم مثلاً

إلى حُفْرَةٍ أُهْدَى إليها مُقيمَةٍ يَحُثُّ إليها سائقٌ مِنْ وَرائِيا

مصيري حفرة يحثني نحوها سائق يدفعني من ورائي

أَرانـيِ إذا مَـا شِـئْـتُ لاقَـيْـتُ آيَـةً ... تُـذَكِّـرُنـي بعضَ الـذي كـنـتُ نَـاسِيَـا

ألاقي علامات تذكرني بعض ما كنت نسيته، فقد أرى آثار قوم ذهبوا فأتذكر أنني أنا ذاهب أيضاً

أَلَا لا أَرَى عـلـى الـحَـوادِثِ بَـاقِـيـا ... ولا خَـالـداً إلَّا الـجـبـالَ الـرَّوَاسِـيـا

كلنا ذاهب إلا هذه الجبال الراسخة

ألَـم تَـرَ أن الـلَّـهَ أَهْـلَـكَ تُـبَّـعـاً ... وأَهْـلَـكَ لُـقـمـانَ بَـنَ عَـادٍ وعَـادِيـا؟

وقد أهلك الله تبعاً ملك اليمن، ولقمان بنَ عادٍ الحكيم، رغم طول عمره، و«عاديا» أبا السموأل صاحب الحصن المنيع

زهير بن أبي سلمى

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

النَّابِغة الذُّبْيانِيّ
(١١٠ ق هـ ـ ١٨ ق هـ)

ما الذي أقدمه لك أيها القارئ، وما الذي يقدمه لك الآخرون؟

يقدمون لك ديوان النابغة محققاً تحقيقاً حسناً مقابَلاً على نسخ كثيرة.. يتعبون في ذلك أشهراً. وأنا أتكلم عن نسخة محمد أبو الفضل إبراهيم الممتازة التي جمع فيها جهوداً طيبة لمستشرقين صنعوا شروحاً بديعة للأعلم الشنتمري والأصمعي، ويعقوب بن السكيت والبَطَلْيوسي. هذا موجود، ويقع في نحو ثلاثمئة صفحة فيها تدقيق كثير وضبط، ولكن الشرح للأقدمين، وما وجد بغير شرح ترك غير مشروح، لكنه قليل.

ويقدم لك بعضهم قصائد للنابغة غير مشروحة؛ هذا تجده في كتب المختارات، وتجده في الإنترنت. فكل شعر النابغة موجود في الشبكة. ثمة نسخ مشكولة شكلاً جيداً ونسخ غير مشكولة. ولم أجد في كل ما ذكرت ـ سواء الديوان المحقق تحقيقاً ممتازاً أم القصائد المنتثرة في الكتب ـ شرحاً جديداً بلغة معاصرة.

وما أقدمه لك ليس ثمرة شقاء أشهر ولا سنين. بل هو ثمرة شغل أسبوعين، بل ثلاثة. أقدم لك ذوقي الخاص في الاختيار، وشرحي الخاص المستفيض المعاصر. وأقدم لك النابغة في نحو خمس وعشرين صفحة أو نحو ذلك. وأقول لك: يا ابن أخي.. هذا هو النابغة. هذا هو في أبدع أشعاره. وأروي لك ما صح عندي من وقائع حياته، وقد نخلت ذلك نخلاً شديداً من كتب الأقدمين.

النابغة الذبياني الذي تراه في الصفحات المقبلة شاعر يحسن صوغ الكلام وتأليفه وتكثيفه. وقد اخترت لك ما وجدته بديعاً، واخترت أيضاً ما وجدَتْه أجيال متعاقبة من المتأدبين بديعاً. فما أكثر الأبيات التي قالها شاعرنا وسارت

سير المثل. أقدم لك، ليس شعر النابغة الذي أحبه أنا فقط، بل شعر النابغة الذي رددته العصور أيضاً.

لأنني لا أجد في المختارات التي تملأ السوق شيئاً شبيهاً بمختاراتي: بطريقة اختيارها، وبطريقة شرحها، فإنني أمضي في تعقب كبار الشعراء بالاختيار والشرح. وصدقني، أن لدي من المشاغل ما هو أعود عليَّ بالمال من ذلك. لا بل إنني ـ في أغلب الظن ـ سأدفع من جيبي الكثير عندما يحين وقت دفع هذا العمل إلى المطبعة.

لن أنسى ما حييت ـ ولم يبق لي كثير ـ صديقاً عزيزاً زارني يوماً وقد انتهيت لتوي من تأليف كتاب يقع في أزيد من أربعمئة صفحة، وقد حمَّلت الكتاب حمل بعير من معارفي وتجاربي الإعلامية واللغوية، فرأى الكتاب، فسأل ما هذا؟ فقلت له ما هذا. فأمسكه بإصبعين من طرف غلافه، وهو بعدُ نسخة ورقية لم يذهب إلى المطبعة، ورفعه بكثير من الاشمئزاز. ونظر فيه نظرة، والتقط فقرة، وزم شفتيه، ثم ألقاه من يده.

وتسألني: كيف أدعو هذا الصديق «عزيزاً»، فأجيبك من شعر النابغة: «أي الرجال المهذب؟» وتتمة القصة أنني طبعت ذلك الكتاب وأسميته «اللغة العالية»، ونال قدراً من الاستحسان.

أقول ذلك، كي أفهمك أن المؤلف رجل مسكين. فاذرفْ بعض الدموع عليَّ، وعلى ما ألاقي.

النابغة صاحب قلائد. له أبيات كثيرة تصلح أن تكون أمثالاً تضرب. وضربت.

أخبار النابغة مبسوطة في الأغاني وفي الشعر والشعراء. ونثق بكثير من شعره لأنه شعر حضري، شهد بلاطات الملوك، وحفظه الناس لما أحاط به من هالة الملك.

حياة النابغة

عاصر النابغة زهيراً، تقاربا في سنة الميلاد وسنة الوفاة، ولكننا لا نجدهما، على قرب الدار، قد التقيا، إلا في حادثة واحدة سيقت بسند ضعيف. فلن نستطيع أن ننسج لك قصة نصف خرافية عن علاقةٍ بين هذين

الشاعرين. كان زهير بيتوتياً قاعداً في قومه بني مزينة لاصقاً بيثرب، وقبيلته الصغيرة لاصقة ببني مرة، أو لعله كان يعيش مع غطفان. وأدار شعره على مدح سيدين من بني مرة سَعَيا في الصلح بين قبائل غطفان المحتربة، وعلى نزاعات صغيرة في محيطه الضيق. ولعل زهيراً لم يكن يرد عكاظَ كما كان يردها الشعراء. ولعله كان يأنف أن يأتي الخيمة الكبيرة التي يجلس فيها النابغة في عكاظ يسمع الشعراء ويحكم بينهم.

ولن نستطيع أن نصنع شيئاً من ذلك عن النابغة والأعشى، وإن كانا التقيا في سوق عكاظ حيث امتدح النابغة شعر الأعشى الذي يصغره بنحو ربع قرن. فلم ترد عنهما معاً أخبار تكفي لتحبير افتراء.

ولن نستطيع أن نزيد كثيراً على قصتين جمعتا النابغة بحسان بن ثابت. وقصة صغيرة امتدح فيها شعر الخنساء.

كان النابغة سياسياً، ثم شاعراً. . وكان كل أولئك شعراء لا غير. . فإذا جاء الإسلام خاض حسان في السياسة، وكان للخنساء موقف، وكان للأعشى موقف مبتور. فأما النابغة فقد مات قبل الهجرة وقبل البعثة.

فالقصة التي يمكن نسجها، حتى تكون عمود حياة النابغة، قصة سياسية تقوم على كونه سيداً من كبار سادة قبيلته ذبيان، والقبيلة الكبرى غطفان.

اشتغل زياد بن معاوية، وهذا اسمه، بالسياسة. فكان سفير قومه إلى دولة الغسانيين في الشمال، ومدبراً للخصومات فيما بين عشائر غطفان. وكانت عشائر من غطفان تسكن شمال يثرب. وغطفان قبيلة عدنانية من عرب الشمال. ولعله بلغ مبلغ السيادة وهو شاب، ولكننا لا نجد شاهداً على هذه الفترة من شعره، فقد قال الشعر كبيراً. . قيل بعد الأربعين، وقيل إن هذا هو سبب تلقيبه بالنابغة. فقد نبغ، أي نبع، منه الشعر في سن ما كان يتوقع أن يصلها شاعر إلا وقد قال شعراً كثيراً.

عاشت غطفان (ومنها ذبيان، ومرة، وأشجع، وفزارة، وثعلبة، وعبس، وأنمار) عيشة بدو رحل. غير أنه كان لبعضهم نخل، ولم يكونوا يتجاوزون في ترحالهم منطقتهم في شمال الحجاز والأطراف الغربية لنجد. وإلى الشمال منهم كانت دولة الغساسنة التي كانت تقوم للروم بمثل ما يقوم به بعض العرب لأميركا في أيامنا. على أنها كانت أيضاً دولةً تخماً. . دولة فاصلة. فكما

أقامت إسرائيل في جنوب لبنان في السبعينات دولة فاصلة تدرأ عنها هجمات المقاومة أقام الروم في حوران والجولان دولة فاصلة تكفيهم هجمات القبائل العربية. وكانت قبيلة غسان عماد هذه الدولة.

ولم يكتف الغساسنة برد القبائل العربية، بل كانوا يدخلون حماها بين الحين والحين، وكان لا بد من قنوات اتصال بين الغساسنة وبين القبائل. وكان زياد بن معاوية، النابغة الذبياني، قناة اتصال. وفي إحدى توغلات الغساسنة في حمى ذبيان نفسها أسروا ابنة للنابغة، وسرعان ما أطلقوها وأطلقوا معها بقية الأسرى إكراماً لصديقهم النابغة.

كان الوضع بشكل عام فيما بن القبائل ودولة الغساسنة وضع سلم. وكان النابغة يزور ملوك الغساسنة في جلق، قرب دمشق، وفي الجابية بالجولان زيارات ودية. وعندما اكتهل قال الشعر فمدح ملوكهم، وأخذ أعطياتهم.

وأما التوتر المستمر والحروب الكثيرة فكانت فيما بين الغساسنة والمناذرة.

كان المناذرة يحكمون جنوب العراق، وعاصمتهم الحيرة، قرب كوفة اليوم. وكانوا لدولة الفرس ما كانه الغساسنة لدولة الروم. كانوا يدرأون عن ملك الأكاسرة غزوات عرب شرق نجد، تميم وربيعة.

يلفت النظر أن المناذرة والغساسنة كليهما من عرب اليمن، بينما كانت القبائل البدوية التي يراد درء زحفها عدنانية من عرب الشمال. وقد شهدت سوريا حروباً طاحنة بين الدولتين العربيتين في موازاة الحروب بين الدولتين الكبريين: فارس والروم. ولم تنقض الثأرات بين دولتي العرب إلا بالإسلام.

قصد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر ملك المناذرة في الحيرة. ومدحه ونال أعطياته، مثلما كان ينال أعطيات الحارث الغساني.

وعاد إلى الغساسنة ومدح عمراً الذي تولى بعد أبيه الحارث. وأعطاه عمرو بن الحارث، فشكره. وغضب النعمان بن المنذر. فاعتذر إليه النابغة بقصائد من أشهر ما قال. ورضي عنه النعمان بن المنذر.

قالوا غضب عليه النعمان بن المنذر (ونذكر اسمه كاملاً كل مرة لأن الغساسنة كان عندهم نعمانٌ آخر)، لأن النابغة وصف زوجته وتغزل بها، وقالوا بل غضب عليه لأنه هجاه، وقالوا بل غضب عليه لأنه لم يستطع أن يجعله خالصته.

ظل النابغة سيداً في قومه، وعاش طويلاً. على أن قوله الشعر واستعطاءه

الملوك غض من مكانته السياسية، ونزل به عن كونه السفير الذي يربأ بنفسه عن مدح من يسفر إليهم. وهذا يشبه وضع الصحفي الذي يزداد التصاقه بالسياسي فينزل في عين مهنة الصحافة، وإن ارتفع رصيده المصرفي.

قضى النابغة السنوات الأخيرة من شيخوخته في قومه بني ذبيان رجلاً ثرياً، له من السيادة نصيب.

ولن نطيل الحديث عن شعر النابغة، فقد انتخبنا قلائده، وهي بين يديك. وقد عده القدماء أحد أهم ثلاثة شعراء جاهليين، والآخران زهير بن أبي سلمى، وامرؤ القيس.

١ يا دار مية (المعلقة)

قال يمدح النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه. وكان النعمان وجد عليه إذ بلغه أن النابغة وصف «المتجردة» زوجة النعمان:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعلياءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ، وطَالَ عليْها سَالِفُ الأَبَدِ

خاطب الأطلال فقال: يا دار المحبوبة «مية» في هذين الموضعين، العلياء فالسند، ثم «التفت» فصار يخاطبنا نحن ويقول: قد أقوت، أي أقفرت وخلت من أهلها، وطال عليها سالف الأبد (والأبد هو الدهر) وهي خاوية

وقفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُها ... عَيَّتْ جَواباً، وما بِالرَّبْعِ مِن أَحَدِ

وقفت وسط أطلال هذه الدار أصيلاناً، أي ذات أصيل قبيل الغروب، أسألها عن أهلها، فعجزت عن الجواب، والجواب معروف.. فليس في المكان أحد وأهله رحلوا

أَمْسَتْ خَلاءً، وأَمْسَى أهلُها احتَمَلُوا ... أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ

أمست الدار خالية من الناس، وأهلها حملوا أمتعتهم وغادروها، وقد أخنى عليها، أي خربها، الزمن الذي كان أخنى على «لبد»، ولبد هو النسر السابع من نسور لقمان. وكانت الصفقة أن يعيش لقمان قدر عمر سبعة أنسر، يموت نسر فيؤتى بفرخ نسر مكانه. وكان آخرها النسر «لبد» وعاش طويلاً، لكنه في النهاية مات، ومات بموته لقمان. وقالوا عاش هذا النسر السابع أربعمئة عام. ليقولوا ما شاءوا فلا نحن حضرنا حياته وموته، ولا العقل حضر في رؤوس أصحاب الأساطير. ما يغيظ المرء أن بعض الباحثين المحدثين ينقل هذه الخرافات دون أدنى إشارة إلى أنها محض أساطير. وهذا اقتراح لبعض أدبائنا: مثلما صنع يوهان غوته الألماني قبل مئتي عام فأخذ خرافة أوروبية عن فاوست الذي اشتهى المعرفة وأراد أن يلتهمها التهاماً فباع روحه للشيطان مقابل سنين، يمكن لنا أن نطور قصة لقمان ونسوره، فلقمان كان يطلب الحكمة. ونالها، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

فَعَدِّ عمَّا تَرى إذْ لا ارْتِجاعَ لَه   وانْمِ القُتُودَ على عَيْرانَةٍ أُجُدِ

اترك هذا الذي تراه، فلا رجعة لما مضى، وانم القتود، أي ارفع السرج والمتاع، على ناقة ضخمة متينة تشبه العَيْر، أي حمار الوحش في النشاط، وهي أجد أي قوية

مَقْذُوفَةٍ بِدَخيسِ النَّحْضِ، بَازِلُها   له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بِالمَسَدِ

هذه الناقة كأنها قذفت قذفاً بدخيس النحض، أي باللحم المتكاثف؛ وبازلها، أي نابها، له صوت إذ تحك أسنانها، كصوت القعو، أي البَكَرة وعليها المسد، أي الحبل عند البئر

كَأنَّ رَحْلي، وقد زالَ النهارُ بِنا   يومَ الجَليلِ على مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ

كأنني أضع سرجي، وقد انتصف النهار وبدأ وقت الزوال وأنا وسط شجر الجليل، وهو الثمام، كأنني أضع السرج على ثور وحشي مستأنس، أي متجنب للإنس، ومتوحد منفرد.. وسيبدأ في وصف الثور الوحشي الآن..

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ   طَاوي المَصيرِ، كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

هذا الثور من وحش موضع «وجرة»، وقوائمه مرقطة موشَّاة، وهو طاوي المصير، أي جائع المصران، يعني ضامر البطن، وجلده يلمع كأنه السيف المفرد بغير غمده وقد خرج من يد الصيقل، أي صانع السيوف

أَسْرَتْ عليهِ مِنَ الجَوْزاءِ سَارِيَةٌ   تُزْجِي الشَّمالُ عليهِ جَامِدَ البَرَدِ

أمطرت على الثور غيمة سارية، أي سائرة ليلاً، سببها نوْء الجوزاء، وكانوا يعرفون مواسم المطر بمواقع النجوم، وقد ساقت عليه ريحُ الشمال البَرَد الصلب

فارتَاع مِنْ صوتِ كَلَّابٍ، فباتَ له   طَوْعَ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ ومِنْ صَرَدِ

خاف الثور من صوت صيَّادٍ صاحبِ كِلاب، فأصبح من خوفه ومن صرده، أي مما به من شدة البرد، طوع الشوامت، مثاراً لفرح الشامتين

فَبَثَّهُنَّ عليهِ، واستَمَرَّ بِه   صُمْعَ الكُعُوبِ بَريئاتٍ مِنَ الحَرَدِ

فأطلق الصياد الكِلاب على الثور؛ واستمر بالثور، أي أنهضه، قوائمُ صمع الكعوب أي شديدة ليس فيها حرد ولا استرخاء

وكانَ «ضُمْرانُ» مِنه حيثُ يُوزِعُهُ   طَعْنَ المُعَارِكِ عند المُحْجَرِ النَّجُدِ

المعنى الملموح: كان الكلب «ضمران» قد اقترب فصار من الثور بحيث استطاع الثور أن يطعنه بقرنه طعنة محارب شجاع

شَكَّ الفَريصَةَ بالمِدْرَى فَأَنْفَذَها   طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذْ يَشْفي مِنَ العَضَدِ

شك الثور فريصة الكلب، وهي عضلة الكتف، وهي مقتل؛ شكها بالمدرى، بالقرن، مثلما يشك طبيب الإبل الجمل كي يشفيه من داء في عضُده. ما الذي يجبرنا على فك كل هذه الألغاز! إن وصف الثور عند النابغة مما قلده فيه الشعراء من بعد.. فاصبر له

كأنَّه، خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفحَتِهِ، سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عندَ مُفْتَأَدِ

كأن قرن الثور وهو خارج من جنب الكلب سفود شرب، سيخ شواء لقوم شاربين، تركوه عند المفتأد، وهو مكان شيِّ اللحم. فالقرن مدمًّى من طرفه المدبب وقد علق فيه الكلب كأنه قطعة لحم

فظَلَّ يَعْجُمُ أعلى الرَّوْقِ مُنقَبِضاً في حالِكِ اللَّوْنِ صَدْقٍ غيرِ ذي أَوَدِ

ظل الكلب يمضغ أعلى القرن، وجسمه يتقبَّض ألماً، والقرن مسودّ اللون، صَدْق، أي صلب، غير ذي اعوجاج

لمَّا رأى «وَاشِقٌ» إقْعَاصَ صَاحِبِهِ ولا سَبيلَ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ

رأى الكلب الآخر واسمه ـ على ذمة النابغة ـ «واشق» إقعاص، أي طعن، صاحبه، ولا سبيل إلى عقل، أي دية، ولا قود، أي أخذ النفس بالنفس. هذه نفهمها على أنها فكاهة من النابغة. فكاهات الجاهلية دلع العجايز، وكل شي جايز حتى..

قالتْ لهُ النَّفسُ: إنِّي لا أرى طَمَعاً وإنَّ مَوْلاكَ لَمْ يَسْلَمْ ولم يَصِدِ

حدث الكلب الثاني نفسه قائلاً: لا أرى مطمعاً في هذا الثور، ومولاي، أي رئيسي، أي الكلب الأول، لم يسلم ولم يصد، فعلام أخاطر بنفسي

فتِلْكَ تُبْلِغُني النُّعمانَ، إنَّ له فَضْلاً على الناسِ في الأَدْنَى وفي البَعَدِ

هذه الناقة، التي شبهتُها بالثور الوحشي، ستبلغني النعمان، وله فضل على الناس: القريب منهم والبعيد

ولا أَرَى فَاعِلاً في الناسِ يُشبِهُهُ ولا أُحَاشِي مِنَ الأقوامِ مِنْ أَحَدِ

لا أرى فاعلاً للخير يشبهه، ولا أستثني أحداً

إلَّا سُلَيْمَانَ إذْ قالَ الإلَهُ لهُ قُمْ في البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عَنِ الفَنَدِ

إلا سليمان إذ أمره الله بأن يقوم في الناس ويمنعهم من الفند، أي الخطأ

وخَيِّسِ الجِنَّ، إنِّي قد أَذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

وقال له الله: خيس الجن، ذلِّلهم، فقد أذنت لهم ببناء تدمر بالصفاح، الحجارة المبسَّطة، والأعمدة. واليوم، بعد أربعة آلاف سنة من بناء تدمر، كائناً من بناها من كان، سعى في تدمير آثارها المتشددون الذين احتلوها، يعينهم في ذلك طيران الحكومة، حدث ويحدث هذا الآن، ونكتب في آخر نوفمبر/تشرين الثاني من عام ٢٠١٥

فمَنْ أَطَاعَكَ فانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ كما أَطاعَكَ، وادْلُلْهُ على الرَّشَدِ

ويأمر الله سليمان بالإحسان إلى من أطاعه جزاء طاعته

ومَنْ عَصَاكَ فَعاقِبْهُ مُعَاقَبَةً تَنْهَى الظَّلُومَ، ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ

وأما العاصي فله عقاب يردع الظالمين. ولا تقعد يا سليمان مكتفياً بالضمد، أي الحقد على الظالم، بل اردعه ردعاً

فلا لَعَمْرُ الذي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ ... ومَا هُرِيقَ عَلى الأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

يحلف النابغة بالله الذي مسَّح كعبته، أي طاف بها، ويحلف بما هريق، أي أُريق على الأنصاب، حجارة الذبح، من جسد، أي دم..

والمُؤْمِنِ العَائِذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُها ... رُكْبانُ مَكَّةَ بينَ الغَيْلِ والسَّعَدِ

ويحلف بالله الذي يضمن الأمان للطير العائذة بالحرم التي يمسحها، أي يمر بها، قُصَّاد مكة الكائنة بين ماءيْ الغيل والسعد

ما قُلْتُ مِنْ سيِّءٍ ممَّا أُتيتَ بِهِ ... إذَنْ فَلا رَفَعَتْ سَوْطِي إليَّ يَدي

ما قلت شيئاً سيئاً من هذا الذي جاءك به الواشون، ولو قلت فلتَشَلَّ يدي، ولا استطاعتْ الإمساك بالسوط على خفته

إلَّا مَقالَةَ أَقْوامٍ شَقِيتُ بِها ... كانتْ مقالَتُهُمْ قَرْعاً على الكَبِدِ

إن هي إلا أقوال ناس ابتُليت بهم، وكان قولهم مثل الدق على كبدي

أُنْبِئْتُ أنَّ أَبا قَابُوسَ أَوْعَدَني ... لا قَرارَ عَلى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

لقد بلغني أن النعمان، أبا قابوس، أوعدني، تهددني، فلا اطمئنان لي، فتهديده إياي مثل زئير الأسد

مَهْلاً، فِدَاءً لَكَ الأَقوامُ كُلُّهُمُ ... ومَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ ومِنْ وَلَدِ

تمهل، يفديك الناس كلهم، ويفديك أولادي وما أجمعُ لهم من مال

لا تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لا كِفَاءَ لَهُ ... وإن تَأَثَّفَكَ الأَعْداءُ بِالرِّفَدِ

لا تقذفني بركن ضخم، هو أنت، لا يوجد من يقوم له ويوازيه، حتى لو تأثَّفك، وتحلق حولك، أعدائي يرفدونك بالأكاذيب

فَمَا الفُرَاتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرمي غَوارِبُهُ العِبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ

فليس نهر الفرات إذا عصفت الرياح وأخذت غواربه، أمواجه، ترمي الشاطئين بالزبد.. بداية تشبيه جديد..

يَمُدُّهُ كُلُّ وَادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيهِ رُكَامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ

ويرفد الفرات وديان مترعة بالماء ولها خرير عالٍ لجب، وفي كل وادٍ ركام من أغصان شجر الينبوت، وهو الخروب، ومن الخضد، الفروع المقصوفة

يَظَلُّ مِنْ خَوفِهِ المَلَّاحُ مُعْتَصِماً ... بِالخَيْزُرَانَةِ بعدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ

ويظل الملاح فيه متشبثاً بالخيزرانة، بعصا يوازن بها القارب، أو لعلها الدفة، وهو يعاني الأين، التعب، والنجد، العَرَق

يـومـاً بِـأَجْـوَدَ مـنـهُ سَيْـبَ نَـافِـلَـةٍ ولا يَـحُـولُ عَـطـاءُ الـيـومِ دُونَ غَـدِ

هذا الفرات الزاخر ليس أجود من النعمان سيب نافلة، أي عطاء. وعطاؤه اليوم لا يمنعه من تكراره غداً

هـذا الـثَّـنَـاءُ فـإنْ تَـسْـمَـعْ بِـهِ حَـسَـنـاً فَلَمْ أُعَرِّضْ - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - بِالصَّفَدِ

هذا ثنائي عليك، تراه حسناً، ولكنني لم ألمّح فيه تلميحاً بقصد طلب الصفد، أي العطاء، بل هو مديح خالص

هـا إنَّ ذي عِـذْرَةٌ، إلَّا تَـكُـنْ نَـفَـعَـتْ فَـإِنَّ صـاحِـبَـهـا مُـشَـارِكُ الـنَّـكَـدِ

هذا اعتذاري، فإن لم يجد في نفسك موقعاً، فما أشد نكدي وحزني

٢ فإنك كالليل

قال يمدح النعمان، ويعتذر إليه، ويقول إن ما بلغه عنه إنما هو وشاية:

عَفَا ذُو حُسىً مِنْ «فَرْتَنى»، فَالفَوَارِعُ فَـجَـنْـبَـا أَرِيـكٍ، فَـالـتِّـلاعُ الـدَّوَافِـعُ

خلا «ذو حُسىً»، هذا الموضع من الحبيبة فرتنى، وكذا خلت كل المواقع المذكورة، فالحبيبة رحلت عنها كلها، ويبدو أن هذه المواقع كانت «منازل» لأولئك القوم وهم يرتحلون في اتجاه معين

كَـأَنَّ مَـجَـرَّ الـرَّامِـسَـاتِ ذُيُـولَـهـا عـلـيـهِ حَـصـيـرٌ نَـمَّـقَـتْـهُ الـصَّـوَانِـعُ

في هذا الموقع، ذي حُسىً، أرى أن مكان جر الرياح الرامسة، الطامسة، ذيولَها صار يشبه الحصير المنمق صنعته النسوة

فَـكَـفْـكَـفْـتُ مِـنِّـي عَـبْـرَةً فَـرَدَدْتُـهـا على النَّحْرِ، مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ ودَامِعُ

كفكفت دمعتي، أي دموعي، التي سقطت على أعلى صدري، ومن الدموع ما كان يسيل ومنها ما كان يترقرق في العين

على حِينَ عاتَبْتُ المَشِيبَ على الصِّبَا وقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ؟

هذا في وقت كنت فيه أعاتب نفسي، وأنا كبير لحق بي المشيب، على الصبا، أي العشق، وأقول: ألا تكف يا رجل، ألا يَزَعُك، يردعك، الشيب؟

وقـد حَـالَ هَـمٌّ دونَ ذَلِـكَ شَـاغِـلٌ مَـكَـانَ الـشِّـغَـافِ تَـبْـتَـغِـيهِ الأَصَـابِـعُ

حال دون سكينة النفس هم شاغل كأنه يغلف القلب بدلاً من غلافه الذي هو «الشغاف»، وهذا القلب تجسه أصابع الطبيب وهو يريد معرفة ما بي من سقم

وَعِيدُ أَبي قَابُوسَ في غيرِ كُنْهِهِ   أَتَانِي ودُوني رَاكِسٌ فالضَّوَاجِعُ

والهم هو تهديد النعمان، أبي قابوس، القائم على غير كنه، حقيقة؛ وقد جاءني هذا الوعيد وأنا قريب من ذينك المكانين

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ   مِنَ الرُّقْشِ في أنيَابِها السُّمُّ نَاقِعُ

بتُّ كأنما هاجمتني حية ضئيلة، والضئيلة في الأفاعي سامة خبيثة، وهي مرقشة وفي أنيابها سم راسخ كامن

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التِّمامِ سَلِيمُها   لِحَلْيِ النِّساءِ في يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

والسليم، أي الملسوع ـ ويسمونه سليماً تيمناً بسلامته ـ يُجبر على السهر، ويعلقون به حلي النساء التي تقعقع لمنعه من النوم خوف سريان السم في جسمه

أَتَانِي ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لُمْتَنِي   وتِلْكَ التي تَسْتَكُّ منها المَسَامِعُ

أتاني أنك لمتني وهذا أمر تستك، تُضرَب ضرباً، به الآذان لهوله

لَعَمْرِي وما عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ   لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأَقَارِعُ

أقسم بحياتي، وليست حياتي بهينة عليَّ، أن ما قاله عني «الأقارع» إنما هو وشاية باطلة

حَلَفْتُ، فلمْ أَتْرُكْ لِنفسِكَ رِيبَةً   وهلْ يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ

قد حلفت لك، وأملي أن يكون في ذلك زوال شكوكك، وهل يحلف آثماً كاذباً رجل له إمة، أي خلق مستقيم

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ، وتَرَكْتَهُ   كَذِي العُرِّ يُكْوَى غيرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ

لقد كلفتني حمل ذنب غيري وتركت المذنب؛ وهذا كفعلهم في الإبل إذ يكوون الجمل السليم ويتركون ذا العُر، المتقرح جلده، راتعاً. وقيل كان بعضهم يفعل ذلك بالإبل

فَإِنَّكَ كاللَّيلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي   وإنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عنكَ وَاسِعُ

أنت كالليل الذي لا مهرب منه، مهما ظنه المرء بعيداً

خَطاطِيفُ حُجْنٌ في حِبالٍ مَتينَةٍ   تَمُدُّ بِهـا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوازِعُ

وسطوتك كبيرة فكأنَّ ثمة خطاطيف، حدائد معقوفة، مربوطة بحبال، وتمسكها الأيدي وتشدها نحوك. أي أن يدك طائلة ولا يفلت منك أحد

أَتُوعِدُ عَبْداً لم يَخُنْكَ أَمَانَةً   وتَتْرُكُ عَبْداً ظَالِمَاً وَهْوَ ضَالِعُ؟

أتهدد أميناً وتترك ظالماً ضالعاً، أي مائلاً عن الحق؟

٣ راعي النجوم وراعي الهموم

وقال النابغة يمدح عمرو بن الحارث الغساني، حين لجأ النابغة إلى الشام لما خاف ملك المناذرة النعمان:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ   وليلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكواكِبِ

دعيني يا أميمة لهم متعب انتابني، والليل طويل أقاسيه كأن كواكبه بطيئة الحركة لا تزول. ورووا «أميمة» بالفتح، وتعبوا في تعليلها. عللها الخليل بأن العرب درجت على ترخيم المؤنث، فهو أراد أن يقول «يا أميمَ» فألجأه الوزن إلى «يا أميمة» فأبقى الفتح

تَطاوَلَ حتى قُلتُ: ليس بِمُنْقَضٍ   وليس الذي يَرعَى النجومَ بِآيِبِ

طال ليلي حتى ظننته لن ينقضي ويزول، وحتى ظننت أن الراعي الذي يرعى الكواكب ـ فكأنها الإبل السارحة ـ لن يؤوب بها. يشبه النجوم بالإبل وهو ينتظر رجوعها إلى مباركها وخلو السماء من النجوم بطلوع الصباح، ولكن راعي الإبل لا يعود بإبله، والصباح لا يطلع.. انتظرْ تشبيهاً عظيماً في البيت التالي:

وصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيلُ عَازِبَ هَمِّهِ   تَضاعَفَ فيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانبِ

تفسير كلمتين: أراح (أرجع الإبل إلى مباركها مساء)، العازب (الراعي البائت في المرعى بعيداً عن أهله). شرح: لئن كان راعي النجوم، في البيت السابق، لم يرجع بنجومه وظلت تتلألأ، فإن العازب (أي الراعي الذي بات في المرعى ولم يعد إلى أهله) قد أراحه الليل (أرجعه) إلى صدري، وهو عازب الهم، أي هو الهم العازب.

شرح أخصَر: هموم صدري العازبة أرجعها الليل إلى صدري

عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعمةٌ ـ بعدَ نعمةٍ   لِوالِدِهِ ـ ليستْ بِذاتِ عَقارِبِ

لعمر بن الحارث عليَّ نعمة ـ وهي تأتي بعد نعمة كان والده أسداها إليّ ـ وهي نعمة خالصة بغير عقارب، أي لا يتبعها منٌّ وتكدير

وَثِقْتُ له بِالنصرِ إذ قيلَ قد غَزَتْ   كتائِبُ مِنْ غَسَّانَ غَيرُ أَشَائِبِ

وثقت أنه سينتصر إذ غزت كتائب قبيلة غسان التي ليس فيها أشائب (أخلاط من قبائل أخرى)

إذا ما غَزَوْا في الجيشِ حَلَّقَ فوقَهُمْ   عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدي بِعصَائِبِ

عندما يغزون تحلق فوقهم أسراب من الطيور تهتدي بأسراب قبلها فتلحق بها

يُصَاحِبْنَهُمْ حتى يُغِرْنَ مَغَارَهُمْ   مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ

تصاحب الطيور المقاتلين حتى تغير مثلهم وتأكل من الجثث، وهي طيور من الضاريات والدوارب بالدم (المتعودة عليه)

تَراهُنَّ خَلْفَ القومِ خُزْراً عُيونُها   جُلوسَ الشُّيوخِ في ثِيابِ المَرَانِبِ

وقبل الالتحام بين المقاتلين ترى الطيور، وهي النسور في الغالب، خلف المقاتلين جالسة جلوس الشيوخ اللابسين المرانب (الأكسية الغليظة). وانظر إلى النسر في صورة من صور الإنترنت جاثماً على الأرض، فهو بحق كما صوره النابغة

جَوانِحَ قد أَيْقَنَّ أنَّ قَبيلَهُ   إذا ما التَقَى الجَمعانِ أَوَّلُ غَالِبِ

الطيور الجوانح (أي المنقضَّة كاسرةً أجنحتَها) أيقنت أن قوم عمرو بن الحارث سيغلبون أعداءهم. قال ابن قتيبة: «الطير قد تتبع العساكر للقتلى، ولكنها لا تعلم أيهما يغلب» ورد عليه محقق «الشعر والشعراء» أحمد شاكر ببعض غضب: «اعتراض غير جيد. وقد فسر الوزير أبو بكر البيت على وجهه، قال: «يريد أنها اعتادت بمصاحبتهم أن تقع على قتلى من يعاديهم، فهذا هو يقينها، لا أنها تعلم الغيب.».»

لَهُنَّ عليْهِمْ عَادَةٌ قد عَرفْنَها   إذا عُرِّضَ الخَطِّيُّ فوقَ الكَواثِبِ

فالطيور متعودة على ما يفعل هؤلاء القوم عندما يُعرض الخطي (ينصب الرمح) فوق كواثب الخيل (الكاثبة مكان قريب من عنق الفرس)

ولا عيبَ فيهِمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

سيوفهم لا عيب فيها سوى أنها مثلمة لكثرة المضاربة مع كتائب الأعداء. المعنى: ليس للورد عيب سوى أنه أحمر الخدين

تُوُرِّثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يومِ حَليمَةٍ   إلى اليومِ قد جُرِّبْنَ كلَّ التَّجارِبِ

ورثوا سيوفهم من زمن معركة يوم حليمة المشهورة، ومنذ ذلك العهد والسيوف تخوض المعارك. وقد أغضب هذا البيت النعمان ملك المناذرة لأن يوم حليمة كان المعركة التي انتصر فيها الغساسنة وقتلوا ملك المناذرة جد النعمان

مَحَلَّتُهُمْ ذاتُ الإلَهِ، ودينُهُمْ   قَويمٌ فمَا يَرْجُونَ غيرَ العَواقِبِ

مكان الغساسنة هو «ذات الإله» أي القدس فهم مسيحيون، ودينهم متين فلا يرتقبون إلا نتائج أعمالهم الخيرة

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ   يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ

نعالهم رقيقة ـ ونعل كل سيد رقيقة لأنه غير مضطر للسعي، فهو مخدوم ـ وحجزاتهم، أي ثيابهم، طيبة كناية عن عفافهم. وهم سادة يحييهم الناس بالرياحين في يوم السباسب (عيد السعانين/الشعانين)

ولا يَحْسَبُونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ   ولا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

وهم عاقلون لا يركنون إلى الرخاء بل يتحسبون أن يأتي بعده ضيق، ولا يحسبون ضيق المعيشة أو كل شر ضربة لازب (أمراً محتماً)

حَبَوْتُ بِها غَسَّانَ إذْ كنتُ لاحِقاً بِقَومِي، وإذْ أَعْيَتْ عَلَيَّ مَذاهِبي

حبوت، أي منحت، قبيلة غسان هذه القصيدة وأنا متجه نحو قومي في وقت لم أكن فيه عارفاً أين أذهب، فالنعمان غاضب علي، وأنا مرتقب شراً من جانبه

٤ المَتالف والمَلاهي

قالتْ: أَراكَ أَخا رَحْلٍ ورَاحِلَةٍ تَغْشَى مَتالِفَ لنْ يُنْظِرْنَكَ الهَرَما

قالت: أراك صاحب متاع ومطية، وتغشى، أي تأتي، أماكن خطرة فيها التلف، وهذا سيميتك ولن يرجئك لكي ترى الشيخوخة. وهذه امرأة لاهية تدعوه إلى نفسها

حَيَّاكِ رَبِّي فَإِنَّا لا يَحِلُّ لَنا لَهْوُ النِّساءِ، وإنَّ الدِّينَ قد عَزَمَا

قال لها: حياك الله، لكن لا يحل لنا اللهو مع النساء، وقد دعانا الدين إلى الحج.. فهو ذاهب في طريقه إلى مكة ليحج حج الجاهلية

٥ أنا والهموم

قال، وذُكر له أن النعمان عليل:

كَتَمْتُكَ لَيْلاً بِالجَمُومَيْنِ سَاهِرا وَهَمَّيْنِ: هَمّاً مُسْتَكِنّاً وظاهِرا

كتمت عنك خبر ليل قضيته ساهراً بموضع «الجمومين»، وكتمتك همَّين من همومي: أحدهما دفين مستكن، والآخر ظاهر

أَحَادِيثَ نفْسٍ تَشْتَكِي ما يَرِيبُها ووِرْدَ هُمُومٍ لن يَجِدْنَ مَصادِراً

كتمتك هواجس نفسي التي تشتكي ما يقلقها، وورود الهموم التي لا تجد لها مصادر، أي طرق انصراف

تُكَلِّفُني أنْ يُغْفِلَ الدهرُ هَمَّهَا وهلْ وجَدَتْ قَبلي على الدهرِ قادِراً؟

نفسي تحثني على الاقتناع بأن الدهر سيغفل عنها ولا يصيبها بالهموم، وهل قدر أحد قبلي على مصائب الدهر؟

٦ أي الرجال المهذب؟

قال يمدح النعمان ويعتذر إليه:

أَتَاني - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أنَّكَ لُمْتَني وتِلْكَ التي أَهْتَمُّ منها وأَنْصَبُ

جاءني أنك لمتني، وهذا ما أهتم منه، يصيبني الهم منه، وأنصب، أي أتعب

فَبِتُّ كأَنَّ العَائِداتِ فَرَشْنَني هَراساً، به يُعْلَى فِراشي ويُقْشَبُ

بت مهموماً كأن زائراتي فرشن لي هراساً، أي شوكاً، يعلو فراشي، وكلما قَدُم به العهد فهو يقشب، أي يجدد

حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لِنفسِكَ رِيبَةً وليسَ وراءَ اللهِ لِلمرءِ مَذْهَبُ

حلفت لك أنني لم أقل شيئاً مما ذكره الوشاة، وليس هناك بعد الحلف بالله ما يمكن فعله

لَئِنْ كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِّي خِيانَةً لَمُبْلِغُكَ الوَاشِي أَغَشُّ وأَكْذَبُ

من بلَّغك عني أنني خنت عهدك كاذب

ولكنَّنِي كنتُ امْرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ الأَرضِ فيهِ مُسْتَرادٌ ومَذْهَبُ

كل ما في الأمر أنه كان لي موضع من البلاد لي فيه مستراد، مكان ورود واستقاء، فكنت أذهب إليه

مُلوكٌ وإِخوانٌ إذا ما أتيتُهُمْ أُحَكَّمُ في أَموالِهِمْ وأُقَرَّبُ

أولئك ملوك وإخوان ـ يقصد الغساسنة ـ كانوا يقربونني ويحكمونني في أموالهم أطلب ما أشاء

كَفِعلِكَ في قَوْمٍ أراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ في شُكْرِ ذلكَ أَذْنَبُوا

وهذا ما تفعله أنت مع قوم اصطنعتهم، أي اتخذتهم صنائع أي مقربين تحسن إليهم، وأنت لم ترهم قد أذنبوا إذ شكروا صنيعك

فلَا تَتْرُكَنِّي بِالوعيدِ كأَنَّني إلى الناسِ مَطْلِيٌّ بهِ القَارُ أَجْرَبُ

فلا تجعلني بين الناس ـ بتهديدك لي ـ كالبعير الأجرب المطلي بالقار يتجنبه الجميع

ألمْ تَرَ أنَّ اللَّهَ أعطاكَ سَوْرَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ

لك سورة، وثبة، ويتذبذب ويضطرب بسببها كل الملوك

فإِنَّكَ شَمْسٌ والملوكُ كواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكبُ

أنت كالشمس تخفي ببهائك كل الملوك الذين هم كالكواكب

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلى شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ؟

لا يحتفظ المرء بأخ، أي بصديق، إلا كان عليه أن يلم شعثه، أي يجمع ما تفرق من طباعه قابلاً الحسن منها والرديء. وهل في الرجال من هو مهذب كامل؟

فإنْ أَكُ مَظلوماً فعبدٌ ظَلَمْتَهُ وإنْ تَكُ ذا عُتْبَى، فمِثْلُكَ يُعْتِبُ

إن كنتُ مظلوماً فأنا عبدك، وإن كنتَ ذا عفو، فمثلك من يعفو

٧ سقط النصيف

وقال النابغة يصف «المتجردة» زوجة النعمان، وكانت، في بعض دخلاته على النعمان، قد فاجأته وفاجأها فسقط نصيفها عنها، والنصيف نصف ثوب، كأنه فستان بلا أكمام معلق بشريط على كتف واحدة ـ كفساتين نجمات هوليوود ـ فإن انزلق هذا الشريط انزلق كل شيء. فعندما انزلق غطت وجهها بمعصمها، فقال النابغة:

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أو مُغْتَدِ ... عَجْلانَ ذا زَادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ

أأنت مرتحل لاحق بأهل المحبوبة صبحاً أو مساء؟ أكان رحيلك على عجل متزوداً بزاد الرحلة أم غير متزود؟ المعنى الملموح: أهل المحبوبة على وشك الرحيل، على أي وجه من الوجوه

زَعَمَ الغُرابُ بِأَنَّ رِحْلَتَنا غَداً ... وكَذاكَ تَنْعَابُ الغُرابِ الأَسْوَدِ

الغراب أنذرني بالرحيل غداً، وكذا نعيب الغراب الأسود، فهو يأتي منذراً بالرحيل

لا مَرحباً بِغَدٍ، ولا أَهلاً بِهِ ... إن كان تَفْريقُ الأَحِبَّةِ في غَدِ

حَانَ الرَّحيلُ ولم تُوَدِّعْ مَهْدَداً ... والصُّبْحُ والإِمْساءُ منها مَوعِدي

حان الرحيل، ولم تودع «مهدد» ـ غيَّر اسم محبوبته على عادة الشعراء ـ وموعدي معها مثل موعدي مع الصبح والمساء، أي أنني سأتذكرها طول الدهر وإن لم يكن لقاء

في إِثْرِ غَانِيَةٍ رَمَتْكَ بِسهمِها ... فأَصابَ قلبَكَ، غيرَ أنْ لم تُقْصِدِ

سترحل إثر غانية جميلة رمتك بسهمها فأصاب قلبك غير أنها لم تُقْصِد، لم تقتل

نَظَرَتْ بِمُقْلَةِ شَادِنٍ مُتَرَبِّبٍ ... أَحْوَى أَحَمِّ المُقْلَتَيْنِ مُقَلَّدِ

عينها عين الشادن، الظبي الصغير، المتربب، الذي في رعاية أمه، الأحوى، ذي الخطين الأسودين على جنبيه، الأحم المقلتين، الأسودهما، المتقلد، الذي في جيده قلادة

والبَطْنُ ذو عُكَنٍ لَطيفٌ طَيُّهُ ... والنَّحْرُ تَنْفُجُهُ بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

بطنها ضامر وفيه عكن، ثنيات.. ولو كانت متكرشة لما كان في بطنها تلك الثنيات، ونحرها قد نفجته، رفعته، بثدي قاعد في مكانه ليس متدلياً

مَخْطُوطَةُ المَتْنَيْنِ غيرُ مُفَاضَةٍ ... رَيَّا الرَّوادِفِ بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

كأنها تلبس ما فيه خطان على الجانبين، وهي غير سمينة، وأردافها ممتلئة، ومعراها يبين عن بضاضة، أي طراوة. ونساء بلدي كن يصفن بعض الفتيات بحسن «المَعرى» إذ يرينها عارية في حمام ونحوه، فأما نحن الرجال فلا نراها إلا وهي متلففة في الثياب فلسنا نستعمل كلمة «مَعْرى»

نَظَرَتْ إِليكَ بِحاجَةٍ لم تَقْضِها نَظَرَ السَّقِيمِ إلى وُجوهِ العُوَّدِ

نظرت تلك المحبوبة إليك، يا نابغة، وفي عينيها حاجة لم تقضها، وتلك الحاجة هي الحديث، ففي ساعة الوداع صعب عليها أن تحادثك وسط قومها، وكانت نظرتها نظرة حزن واستجداء كنظرة المريض في وجوه زائريه

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إِسْقاطَهُ فَتَناوَلَتْهُ، واتَّقَتْنا بِاليَدِ

ههنا وصف لموقف آخر: فقد سقط النصيف، وهو ثوب يغطي نصف الجسم، أو كتفاً دون أخرى، ولم تسقطه عمداً، فتناولته واتقت نظراتنا بيدها. لعلها دفعت بكفها في وجوههم كما يفعل المشاهير في ساعة الفضيحة إذ يدفعون بالأكف في وجه كاميرات المصورين

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأَنَّ بَنانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَّطافَةِ يُعْقَدُ

اتقتنا بكف فيها خضاب، أي حناء، وكأن بنانها، أي أطراف أصابعها، ثمر العنم المحمر من رؤوسه، وأصابعها دقيقة تكاد لدقتها أن تعقد عقداً في أنشوطة. وكانت الملكة إليزابيث الأولى مشهورة بجمال يديها ودقة أصابعها، وتفنن الرسامون في إبراز ذلك منها. وفي القافية إقواء فدال «يعقد» حقها الكسر

زَعَمَ الهُمَامُ بِأَنَّ فاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شَهِيُّ المَوْرِدِ

زعم النعمان بأن ثغرها بارد عذب على التقبيل، شهي الرضاب، أي الريق

زَعَمَ الهُمَامُ ـ ولم أَذُقْهُ ـ أَنَّهُ عَذْبٌ إذا ما ذُقْتَهُ قُلْتَ: ازْدَدِ

وزعم ـ ولم أذق ذلك ـ بأن فاها عذب

زَعَمَ الهُمَامُ ـ ولم أَذُقْهُ ـ أَنَّهُ يُشْفَى بِرَيَّا رِيقِها العَطِشُ الصَّدي

وبأن ريقها يروي العطشان

أخذَ العَذَارَى عِقْدَهُ فَنَظَمْنَهُ مِنْ لُؤْلُؤٍ مُتَتَابِعٍ مُتَسَرِّدِ

كأن ثغرها عقد نظمته الفتيات من لؤلؤ منسوق

لو أَنَّها عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ..

لو أنها بدت لراهب أشمط، قد اختلط بياض شعره بسواده، صرورة، أي معتكف في صومعته يعبد الله..

لَرَنَا لِرُؤْيَتِها وحُسْنِ حديثِها ولَخَالَهُ رَشَداً وإنْ لم يَرْشُدِ

لانتبه لها ولحسن حديثها، ولظن ذلك أمراً حسناً، وإن كانت فيه غواية

بِتَكَلُّمٍ لو تَستَطيعُ كَلامَهُ لَدَنَتْ لَهُ أَرْوَى الهِضابِ الصُّخَّدِ

وهي تتحدث بكلام لو يستطيع المرء ترديده، لأغوى به وعول الهضاب الصخد، الصخرية الملساء، فنزلت من هضابها

وبِفَـاحِـمٍ رَجْـلٍ أثـيـثٍ نَـبْـتُـهُ ... كَالكَرْمِ مَالَ على الدِّعَامِ المُسْنَدِ

ولها شعر أسود كثيف كأنه عناقيد العنب التي تميل بثقلها على الدعامات

وإذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أَجْثَمَ جَاثِماً ... مُـتَـحَـيِّـزاً بِـمَـكَـانِـهِ مِـلْءَ الـيَـدِ

وإذا لمست ذلك الموضع منها وجدته ذا حجم، متحيزاً، أي مالئاً حيزه، جاثماً كالطير، يكاد يملأ كفك

وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في مُسْتَهْدِفٍ ... رَابي المَجَسَّةِ بِالعَبيرِ مُقَرْمَدِ

فإن طعنت في ذلك الموضع من المرأة، فإنما تطعن في عضو مستهدف، مرتفع مشرئب، رابي المجسة، سمين إذ تجسه، ومطلي بالزعفران

وإذا نَزعتَ نَزعتَ عن مُسْتَحْصِفٍ ... نَـزْعَ الـحَـزَوَّرِ بِـالـرِّشَـاءِ الـمُـحْـصَـدِ

فإن نزعت ذلك الشيء في الرجل، فأنت تنزعه من عضو مستحصف، ضيق، كما ينزع الحزور، الشاب، الرشاء، الحبل المفتول من البئر

وإذا يَـعَـضُّ تَـشُـدُّهُ أعـضَـاؤُهُ ... عَضَّ الـكـبـيـرِ مِنَ الـرِّجَالِ الأَدْرَدِ

وذلك العضو يعض كما يعض الشيخ الأدرد الذاهب الأسنان

٨ الاستقاء بالأعجاز

قال يصف نخلات:

منَ الوَارِدَاتِ الماءَ بِالقَاعِ تَستَقي ... بِأَعْجَازِها قبلَ استِقَاءِ الحَناجِرِ

ترد هذه النخلات الماء بالقاع، السهل، وتستقي بأعجازها، بجذورها لا بأفواهها كما تستقي البهائم

٩ ما وراءكَ يا عصام

كان النعمان قد حجب النابغة لِما بلغه عنه من أنه تغزل بزوجته، فكان النابغة إذا أراد الدخول على النعمان جعل عصامٌ حاجب النعمان يخبره أنه عليل، فقال النابغة لعصام:

أَلَـمْ أُقـسـمْ عـلـيـكَ لَـتُـخْـبِـرَنِّـي ... أَمَـحْـمُـولٌ عـلـى الـنَّـعْـشِ الـهُـمَـامُ

أما كنت حلفت عليك أن تخبرني إن كان الزعيم الهمام، أي المقدام، مريضاً مرض موت؟

فـإِنِّـيَ لا أُلامُ عـلـى دُخُـولٍ ... ولـكـنْ، مـا وَراءَكَ يـا عِـصَـامُ

لا يلومني أحد على ترك الزيارة لأنني محجوب أصلاً، ولكن.. أخبرني ما عندك بشأن الزعيم؟

فَإِنْ يَهْلِكْ أبو قَابُوسَ يَهْلِكْ ... رَبيعُ النَاسِ والشهرُ الحَرامُ

إن مات النعمان، أبو قابوس، مات ربيع الناس، أي رزقهم، والشهر الحرام، أي الأمان.. فالناس في زمن الملك يحترمون الأشهر الحرم ولا يقتتلون فيها، ولو مات لدبت الفتنة واحتربوا

ونُمْسِكْ بعدَه بِذُنَابِ عَيْشٍ ... أَجَبُّ الظهْرِ ليس له سَنَامُ

وإن مات فسوف يصبح عيشنا صعباً، كأننا نمسك بناقة من ذيلها، وكأن هذه الناقة مقطوعة الظهر بلا سنام، والناقة يضمحل سنامها في زمن قلة العشب

١٠ مظنة الجهل الشباب

قال عامر بن الطفيل للنابغة في قصة: (أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي زِياداً غَدَاةَ القَاعِ، إذْ أَزِفَ الضِّرَابُ) وزياد هو اسم النابغة. فلما بلغ هذا الشعر شعراء بني ذبيان أرادوا هجاءه، وائتمروا له، فقال لهم النابغة: إن عامراً له نجدة وشعر، ولسنا بقادرين على الانتصار منه، ولكن دعوني أجبه، وأصغِّر إليه نفسَه، وأفضِّلْ عليه أباه وعمه، فإنه يرى أنه أفضل منهما، وأعيره بالجهل، فقال:

فإنْ يَكُ عامِرٌ قد قالَ جَهلاً ... فإن مَظِنَّةَ الجهلِ الشبابُ

لئن قال جهلاً، قولا فيه رعونةً، فإن مظنة، أي موضع، الرعونة هو سن الشباب

فَكُنْ كأبيكَ، أو كأبي بَراءٍ ... تُوافِقْكَ الحُكُومَةُ والصَّوابُ

ليتك كنت كأبيك، أو كأبي براء ـ وهو عم عامر بن الطفيل ـ فعندئذ تصح حكومتك، أي حكمك على الأمور

ولا تذهبْ بِحِلْمِكَ طَامِياتٌ ... مِنَ الخُيَلاءِ ليس لَهُنَّ بَابُ

ولا تدع الأمواج الطامية المرتفعة من الخيلاء والتكبر تذهب بعقلك، فهذه الأمور ليس لها باب يغلق فتنتهي..

فإنَّكَ سوفَ تَحْلُمُ أو تَنَاهَى ... إذا ما شِبْتَ، أو شَابَ الغُرابُ

وسوف تصبح عاقلاً، أو على الأقل تنتهي وتمتنع عن الرعونة إذا لحق بك الشيب.. ولعلك لن تصل إلى هذا أبداً حتى لو شاب الغراب

١١ رياح ومناخل

قال في وقعة عمرو بن الحارث الغساني ببني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان:

أَهَاجَكَ مِنْ أَسماءَ رسْمُ المَنازِلِ ... بِروضَةِ نُعْمِيٍّ فَذَاتِ الأَجَاوِلِ

هل أهاج مشاعرك بقايا مواضع كانت تنزل بها أسماء.. وذَكَر هذه المواضع

أَرَبَّتْ بِهـا الأَرْوَاحُ، حتَّى كأنَّمـا   تَهَادَيْنَ أعلَى تُرْبِها بِالمَنَاخِلِ

أربت، أي مكثت، الرياح بتلك المنازل، تروح عليها وتجيء وكأنها تتناوب الرمل وتنخله بالمناخل.. هذه صورة طيبة جداً: الرياح يهدي بعضها إلى بعض تلك الرمال.. ووسيلة استقبال الرمال هي المناخل.. وينزل بعض الرمل في هذه اللعبة على الأرض منخولاً ناعماً.. وكذا وجه الأرض الرملية التي مرت بها الرياح السافية

تَرى كلَّ ذَيَّالٍ يُعَارِضُ رَبْرَبـاً   على كُلِّ رَجَّافٍ مِنَ الرَّمْلِ هَائِلِ

ترى هناك كل ثور طويل الذيل يتصدى للربرب، القطيع، على كثيب الرمل الرجاف، المتقلقل، الهائل، أي الذي يهيل وتتساقط رماله عن جوانبه

يُثِرْنَ الحَصَى حتى يُباشِرْنَ بَرْدَهُ   إذا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَها بِالكَلاكِلِ

تثير أبقار الوحش الحصى ويحفرن الأرض لكي يصلن إلى التراب البارد تحتُ، هذا والشمس تمجُّ، تبصق، ريقها على الكلاكل، أي الصدور.. وملاحظة الأعلم الشنتمري التي نقلها عن الأصمعي بارعة، يقول: «ريق الشمس شيء تراه بالهاجرة، إذا اشتد الحر، كأنه يسيل»

نَصحتُ بَني عَوْفٍ فلم يَتَقَبَّلُوا   وَصَاتِي، ولم تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ وَسائلي

نصحت بني عوف ولم يقبلوا نصحي..

فخَلُّوا له بينَ الجَنابِ وعَالِجٍ   فِراقَ الخَليطِ ذي الأَذاةِ المُزَايِلِ

قلت لهم: اتركوا للملك الغساني هذه المنطقة بين الجناب وعالج، وفارقوه كما يفارق الخليط، القوم، من هو ذو أذى

ولا أعْرِفَنِّي بعدمَا قد نَهَيْتُكُمْ   أُجَادِلُ يوماً في شَوِيٍّ وجَامِلِ

لن تروني بعد إذ نهيتكم أفاوض في رد الشوي والجامل، الشياه والجمال التي ستؤخذ منكم

وبِيضٍ غَريراتٍ تَفيضُ دُموعُها   بِمُسْتَكْرَهٍ يَذْرِينَهُ بِالأَنَامِلِ

ولن أفاوض في رد نسائكم البيض الغريرات، فتيات غير مجربات، الباكيات بدمع يستخرجنه من أعينهن استخراجاً للتخفيف عما بهن من ألم السبي، ثم يذرينه بالأنامل، يمسحنه بأطراف الأصابع

وقد خِفْتُ حتى قد تَزيدُ مَخافَتِي   على وَعَلٍ في ذِي المَطَارَةِ عَاقِلِ

قد خفت خوف وعل عاقل، متخذ معقِلاً، في موضع ذي المطارة، فالوعل شديد الخوف يفر لأدنى حركة ويعتصم بالقمم

مَخَافَةَ عَمْرٍو أن تكونَ جيادُهُ   يُقَدْنَ إليْنا بينَ حَافٍ ونَاعِلِ

خفت عمراً أن يقود خيله إلينا، ما بحوافره نعال وما ليس بحوافره نعال، أي جميع ما عنده من خيل.. وفسروا أيضاً أن الناعل الفرس، والحافي الجمل

١٢ قصة الحية

وقال فيما كان بينه وبين يزيد بن سنان المري:

ألا أَبْـلِـغَـا ذُبْـيَـانَ عَـنِّـي رِسَـالَـةً   فقد أصبحَتْ عن منهَجِ الحقِّ جَائِرَةْ

يا صاحبيَّ أبلغا بني ذبيان، قبيلتي، رسالة، فقد انحرفت عن طريق الحق

أَجِـدَّكُـمُ، لا تَـزْجُـرُوا عـن ظُـلَامَـةٍ   سَفيهاً، ولن تَرْعَوْا لِذي الوُدِّ آصِرَةْ

أجدكم، أهذا معقول! أنكم لا تزجرون السفيه الذي ظلمَ غيره، ولا ترعون لأصدقائكم آصرة، علاقة

وإنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوي الضِّغْنِ مِنهُمُ   كما أَصْبَحَتْ تَشْكُو مِنَ الوَجْدِ سَاهِرَةْ

أنا ألقى من ذوي الحقد من بني مرة، وهم من ذبيان ولكنهم كانوا على خلاف مع عشيرة النابغة، ما تلقاه امرأة ساهرة من الحزن

كما لَقِيَتْ ذاتُ الصَّفَا مِنْ حَليفِها   وما انْفَكَّتِ الأَمثالُ في الناسِ سَائِرَةْ

وكما لقيت ذات الصفا، الأفعى الملازمة للصفا وهو الصخر، من حليفها، أي المجاور لها، وهذا أمر سارت به الأمثال..

فقـالـتْ لـهُ: أدعُـوكَ لـلعَـقْـلِ وافِـياً   ولا تَـغْـشَـيَـنِّـي منكَ بِـالـظُّـلْـمِ بَـادِرَةْ

قالت الحية لجارها: لأنني لدغت أخاك وقتلته فأنا أدعوك لقبول الدية، شرط ألا تأتي عليَّ منك بادرة ظلم

فَـواثَـقَـهـا بِـالـلَّـه حـيـنَ تَـراضَـيَـا   فكـانـتْ تَـدِيـهِ الـمَـالَ غِـبّاً وظَـاهِـرَةْ

فحلف لها باللّه، فكانت تعطيه الدية بالمال غباً، أي يوماً بعد يوم، وظاهرة، أي كل يوم.. فهي تعطيه الدنانير الذهبية باستمرار.. وإن ليس بانتظام

فَـلَـمَّـا تَـوَفَّـى الـعَـقْـلَ إلَّا أَقَـلَّـهُ   وجَارَتْ بهِ نَفْسٌ عنِ الحَقِّ جَائِرَةْ

لما كاد أن يستوفي العقل، الدية، وبقي القليل، انحرفت به نفسه عن الحق

أَكَـبَّ عـلـى فَـأْسٍ يُـحِـدُّ غُـرَابَـهـا   مُـذَكَّـرَةٍ مِـنَ الـمَـعَـاوِلِ بَـاتِـرَةْ

عكف على فأس، وأخذ يشحذ غرابها، أي حدها، وهي من المعاول المذكرة، القوية، الباترة

فـقـامَ لـهـا مِـنْ فـوقِ جُـحْـرٍ مُـشَـيَّـدٍ   لِـيَـقْـتُـلَـهـا أوْ تُـخْـطِـئَ الـكَـفُّ بَـادِرَةْ

قام للحية عند جحرها، فحاول قتلها، طمعاً ليأخذ كل الدنانير الذهبية، فاخطأتها كفه

فلمَّا وَقاها اللهُ ضَربَةَ فَأسِهِ، ولِلْبِرِّ عينٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَةْ

لما وقاها الله ضربة فأسه، وعين الحق لا تنام

فقالَ: تَعالَيْ نَجْعَلِ اللّه بيْنَنا على مَا لَنا، أوْ تُنْجِزي لِيَ آخِرَةْ

قال للحية: تعالي نحلف بالله على الوفاء، وتكملي لي ما بقي من الدية

فقالتْ: يَمينَ اللّهِ أفْعَلُ إنّني رأيتُكَ مَسْحُوراً يَمينُكَ فاجِرَةْ

حلفت له الحية أنها لن ترضى بذلك، لأن يمينه فاجرة، أي كاذبة، ولأنه مسحور، أي غير عاقل

أبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقابِلي وضَرْبَةُ فأسٍ فوقَ رَأسِيَ فاقِرَةْ

وقالت الحية: أبى القبر الذي أراه مقابلي ودفنتَ فيه أخاك الملدوغ، وأبت لي ضربة الفأس الفاقرة، التاركة أثراً، أن أثق بعهدك أو أن تغفر لي

١٣ الغازي الحنون

ونسب للنابغة في هجاء النعمان بن المنذر. لكن، قال ابن الأعرابي: هذا لعبد القيس بن خفاف البرجمي:

يَجْمَعُ الجيشَ ذا الألُوفِ فَيَغْزُو ثُمَّ لا يَرْزَأُ العَدُوَّ فَتيلا

يجمع جيشاً كبيراً ويغزو، ولكنه لا يُلحق أي ضرر بعدوه

١٤ في وصف طنجرة

وقال النابغة يمدح النعمان بن الجلاح الكلبي:

لهُ بِفِناءِ البيتِ دَهْماءُ جَوْنَةٌ تَلَقَّمُ أوْصالَ الجَزُورِ العُراعِرِ

له في ساحة البيت قدر ضخمة سوداء، يلقّمونها أجزاء الجزور، أي الجمل المذبوح، العراعر، الضخم، فتتسع لها

بَقِيَّةُ قِدْرٍ مِنْ قُدُورٍ تُوُرِّثَتْ لِآلِ الجُلاحِ كَابِراً بعدَ كابِرِ

هذه القدر بقية من قدور موروثة في آل الجلاح أباً عن جد

يَظَلُّ الإماءُ يَبْتَدِرْنَ قَديحَها كما ابتَدَرَتْ كَلْبٌ مِياهَ قُراقِرِ

الجواري يسارعن إلى قديح القدر، ما اغتُرف منها من لحم ومرق، مثلما تغترف قبيلة كلب بدلائها الماء من نبع قراقر

١٥ هذا عليها، وهذا تحتها

وقال النابغة يرثي أخاه لأمه، وأمهما عاتكة بنت أنيس الأشجعي. وكان أخوه ذهب يطلب إبلاً له فمات:

لا يَهْنِئِ النـاسَ مَا يَرْعَوْنَ مِنْ كَلأٍ   ومَـا يَسُـوقُـونَ مِـنْ أهـلٍ ومِـنْ مَـالِ

لا وجد الناس الهناء بما ترتعي إبلهم من عشب فتفيض عليهم لبنا ولحماً، ولا وجدوا هناء في أهلهم ولا في مالهم..

بعدَ ابنِ عَاتِكَةَ الثَّاويِ لَدى أبَوَى   أَمْـسَـى بِـبَـلْـدَةٍ لا عَـمٌّ ولا خَـالِ

.. بعد موت ابن عاتكة الثاوي، الراقد، في موضع «أبوى» البعيد، وقد أمسى غريباً ليس معه لا عم ولا خال

حَسْبُ الخَليلَيْنِ نَأْيُ الأرضِ بينَهُما   هـذا عـليْـهـا، وهـذا تـحتَـهـا بـالِ

يكفي الصديقين من البعد أن تكون الأرض هي مسافة البعد بينهما، إذ أحدهما فوقها والآخر تحتها دفيناً بالي الجثمان

١٦ دار نعم

عُـوجُـوا فَـحَيُّـوا لِنُـعْـمٍ دِمْنَـةَ الـدَّارِ   مَـاذا تُـحَـيُّـونَ مِـنْ نُـؤْيٍ وأَحْـجَـارِ

ميلوا بنا لنحيي داراً كانت تنزل بها الحبيبة نعم، ولكن ما الذي نحييه: مجرد نؤي، أي قناة حول خيمة لمنع ماء المطر من دخول الخيمة، وبضعة أحجار!

فَاسْتَعْجَمَتْ دارُ نُعْـمٍ ما تُكَلِّمُنا   والـدارُ لـو كَـلَّـمَـتْـنَـا ذاتُ أَخـبـارِ

دار نعم عجماء خرساء لا تكلمنا، ولو كلمتنا لقصت علينا أخبار الحبيبة

فـمـا وَجَـدْتُ بِـهـا شيـئـاً أَعُـوجُ بِـهِ   إلَّا الـثُّـمَـامَ وإلَّا مَـوْقِـدَ الـنَّـارِ

لم أجد ما أميل إليه، سوى نبات الثمام، وموقد النار

وقَـد أَرانِـي ونُـعْـمَـاً لاهِـيَـيْـنِ مَـعـاً   في الدهرِ، والعيشُ لم يَهْمُمْ بِإِمْرَارِ

كنت ألهو مع نعم، قبل أن يشتد العيش ويقسو

أَيَّـامَ تُـخْـبِـرُنـي نُـعْـمٌ وأُخْـبِـرُهـا   مَا أَكْتُمُ الناسَ مِنْ حَاجِي وأَسراري

لـولا حَـبائِـلُ مِـنْ نُـعْـمٍ عَـلِقْـتُ بِـهـا   لَأَقْـصَـرَ الـقـلـبُ عـنـهـا أيَّ إقـصَـارِ

لولا ما تعلق بي من حب لها لنسيها القلب

أُنبِئْتُ نُعْمَاً على الهِجْرانِ عَاتِبَةً سَقْيَاً ورَعْيَاً لِذاكَ العَاتِبِ الزَّاري

تعتب علي لطول الهجر، وما لدي سوى التحسر على أيام هذه المحبوبة العاتبة الزارية، اللائمة. هذا شيء يشبه كلام عمر بن أبي ربيعة

رَأَيْتُ نُعْمَاً وأَصحابِي على عَجَلٍ والعِيسُ لِلْبَيْنِ قد شُدَّتْ بِأَكْوَارِ

رأيتها وكنت في جمع من أصحابي، وكانت الجمال تشد عليها الأكوار، أي الرحال وخشبها، استعداداً للرحيل

بَيضاءَ كالشمسِ وافَتْ يومَ أَسْعُدِها لم تُؤْذِ أَهْلاً ولم تُفْحِشْ على جَارِ

كانت بيضاء كأنها الشمس، وهي فتاة لطيفة لا تؤذي أحداً

يُلاثُ، بعدَ افْتِضَالِ الدِّرْعِ، مِنْطَقُها لَوْثاً على مِثْلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ الهَاري

بعد أن تفتضل درعها، أي تخلع ثوبها الداخلي، يلاث، أي يُلَفُّ، منطقها، شالها، على ردفين كأنهما دعص هارٍ، أي كثيب رمل يهيل

والطِّيبُ يَزدَادُ طِيباً أَنْ يكونَ بِها في جِيدِ وَاضِحَةِ الخَدَّيْنِ مِعْطارِ

المسك ونحوه من صنوف الطيب تصبح أطيب رائحة إذا كانت على عنق هذه الفتاة البيضاء الخدين المحبة للعطر

تَسقِي الضَّجيعَ إذا اسْتَسْقَى بِذِي أُشَرٍ عَذْبِ المَذَاقَةِ بعد النومِ مِخْمَارِ

تسقي ضجيعها إن طلب السقي بثغرها ذي الأسنان ذات الأشر أي المحززة، وكذا أسنان الفتيات الصغيرات، وريقها عذب، وهو كالخمر، حتى لو كانت قد أفاقت من نومها.. فنحن ـ البشرَ العاديين ـ يكون ريقنا ذا رائحة رديئة عند الاستيقاظ، ولا كذلك صاحبة النابغة

كأنَّ مَشْمُولَ صِرْفٍ عَلَّ رِيقَتَها مِنْ بعدِ رَقْدَتِها، أو شَهْدَ مُشْتَارِ

كأن ثغرها، إذ تقوم من النوم، قد شرب من خمر مشمولة، باردة ضربتها ريح الشمال، وصافية؛ أو كأن في ثغرها عسل المشتار، جامع العسل

أَقُولُ والنجمُ قد مالتْ أَوَاخِرُهُ إلى المَغيبِ تَبَيَّنْ نَظْرَةً حَارِ

أقول وقد بدا النجم يتجه للمغيب، وبدا الصبح يطلع، دقق النظر يا حار، حارث

أَلَمْحَةً مِنْ سَنَا بَرْقٍ رأَى بَصَرِي أم وَجْهَ نُعْمٍ بَدا لِي أَمْ سَنَا نَارِ؟

أهذا الذي نراه ضوء برق، أم هو وجه نعم، أم هو ضوء نار؟

بل وَجْهُ نُعْمٍ بَدا واللَّيلُ مُعْتَكِرٌ فَلاحَ مِنْ بينِ أَبوابٍ وأَسْتَارِ

لا، بل هو وجه نعم. وقد بدا وسط الليل المعتكر، الدامس، فبدا لنا واخترق الأستار والأبواب

١٧ جئتك على خوف

أَتَــانِــي أَنَّ دَاهِــيَــةً نَــآدَى   عــلــى شَحَطٍ أَتَـاكَ بِـهَـا مَـيُـونُ

جاءني أن هناك مصيبة نآدى، كبيرة، وقد أتى بها على شحط، وأنت بعيد، رجل ميون، كاذب

فَـبِـتُّ كـأَنَّـنـي حَـرِجٌ لَـعِـيـنٌ   نَـفَـاهُ الـنـاسُ أو دَنِـفٌ طَـعِـيـنُ

قضيت الليل وكأنني ملعون، منبوذ، أو كأنني مريض مطعون جريح

أَغيـرَكَ مَـعْـقِـلاً أَبْـغي وحِـصْـنـاً   فَـأَعْـيَـتْـنـي الـمَـعـاقِـلُ والـحُـصُـونُ

كيف لي أن أبتغي غيرك أيها الملك حصناً؟ لقد أتعبتني الحصون، فلا حصن غيرك، ولا أمان إلا عندك

فَـجِـئْـتُـكَ عَـارِيـاً خَـلَـقَـاً ثِـيـابـي   عـلـى خَـوْفٍ تُـظَـنُّ بِـيَ الـظُّـنُـونُ

جئتك معتذراً مشعث الثياب كأنني عارٍ، وخائفاً، وموضع شبهات

فَـأَلْـفَـيْـتُ الأَمَـانَـةَ لـم تَـخُـنْـهَـا   كَـذلِـكَ كـان نُـوحٌ لا يَـخُـونُ

فرأيتك لم تخن العهد، وكنت كالنبي نوح في حفظه للأمانة

١٨ أكل.. وشرب

سَـأَلَـتْـنـي عـن أُنَـاسٍ هَـلَـكُـوا   أَكَـلَ الـدهـرُ عـلـيْـهِـمْ وشَـرِبْ

١٩ مخالب الدهر

مَنْ يَطْلُبِ الدهرَ تُدْرِكْهُ مَخالِبُهُ   والدهرُ بِالوِتْرِ نَاجٍ غَيْرُ مَطلوبِ

من أراد الانتقام من الدهر، فراح يطالبه بثأر، تأذى من مخالب الدهر. فالدهر ينجو ولا يُطلَب بثأر

مَا مِنْ أُنَاسٍ ذَوِي مَجْدٍ ومَكْرُمَةٍ   إِلَّا يَـشُـدُّ عَـلَـيْـهِـمْ شَـدَّةَ الـذِّيـبِ

وكل أهل المجد والقوة سيهجم عليهم الزمن هجمة الذئب المفترس

٢٠ سخيٌّ وناره

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِندَها خَيْرُ مُوقِدِ

إذا أتيت هذا الرجل الكريم وأنت تتبين بعينين أرهقتهما الظلمة ضوء ناره، فستجد أفضل نار عندها أفضل من يوقد النار

٢١ المصير

الـمَـرْءُ يَـأْمُــلُ أنْ يَـعـيــشَ، وطُـولُ عَـيْـشٍ قـد يَـضُـرُّهْ
تَـفْـنَـى بَـشَـاشَـتُـهُ، ويَـبْـقَـى بَـعْـدَ حُـلْـوِ الـعَـيْـشِ مُـرُّهْ
وتَــخُــونُــهُ الأيَّــامُ حـتَّـى لا يَـرى شَـيـئـاً يَـسُـرُّهْ
كَـمْ شَـامِـتٍ بـي إنْ هَـلَـكْـتُ، وقَـائِـلٍ لـلَّـهِ دَرُّهْ

٢٢ عصام

قال في عصام، حاجب النعمان، وكان من أصل ضعيف وصعد بكده، ومن هنا قيل لكل مجتهد رفع نفسه عصامي:

نَـفْـسُ عِـصَـام سَـوَّدَتْ عِـصَـامـا
وعَـلَّـمَـتْـهُ الـكَـرَّ والإقْـدَامـا
وصَـيَّـرَتْـهُ مَـلِـكـاً هُـمَـامـا
حـتَّـى عَـلا وجَـاوَزَ الأقْـوَامـا

٢٣ لكل حاملة تمام

ولَـسْـتُ بِـدَاخِـرٍ أَبَـداً طـعـامـاً ... حِـذَارَ غَـدٍ، لِـكُـلِّ غَـدٍ طَـعـامُ
لن أدَّخر مالاً للغد، فكل يوم له رزقه

تَـمَـخَّـضَـتِ الـمَـنُـونُ لـه بِـيَـومٍ ... أَتَـى، ولِـكُـلِّ حَـامِـلَـةٍ تَـمَـامُ
المنون، أي الموت، كالمرأة الحبلى، تكون في مخاضها، ثم لا بد لها من إتمام حملها.. وكذا الموت لا بد أن يزور المرء يوماً

٢٤ ممتاز، لكنه ممتاز

فَـتىً تَـمَّ فـيـهِ مـا يَـسُـرُّ صَـديـقَـهُ ... عـلـى أنَّ فـيـهِ مـا يَـسُـوءُ الأَعَـادِيَـا
فتى فيه كل الفضائل التي تسر الصديق وتسوء العدو

فَـتىً كَـمُـلَـتْ أَخْـلاَقُـهُ، غَـيْـرَ أنَّـهُ ... جَـوادٌ فَـمـا يُـبْـقِي مِـنَ الـمالِ بَـاقِـيـا
أخلاقه كاملة، لكنه سخي فلا يبقي على ماله.. وهذه فضيلة أخرى ساقها الشاعر وكأنه يستثني. ومثل هذا قوله، وأوردناه سابقاً: ولا عيبَ فيهِمْ، غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ/ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

النابغة الذبياني

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الأعشى الكبير
(٧٠ ق هـ ــ ٧هـ)

أحدثكم عن آخر شعراء الجاهلية: الأعشى ميمون بن قيس.

سمع بالإسلام وكاد يُسلم، ولم يسلم. ومات سنة سبع للهجرة.

سكير ولا كأبي نواس، وداعر ولا كامرئ القيس، مذهبه في الحياة طلب اللذة أيان وجدت.

كنتُ أضربتُ في هذه المختارات عن اقتباس أبيات تداعر فيها ما شاء. كأنما أدركتني غَيْرةٌ وأنا أقرأ الديوان قراءةَ اقتباس وتنخيل؛ على أنني عدت وأثبتُّها، فابحث عنها في هذه المختارات، ولن أقول لك على أي رويٍّ هي حتى لا تترك هذه المقدمة وتنطلق إلى تلك الأبيات. وإنما رجعتُ عن رأيي الأول متأسياً بابن قتيبة في «الشعر والشعراء»، فهذا القاضي الدَّيِّن استحسن للأعشى ثلاثةَ نُتَفٍ، وشاء أن تكونَ اثنتان منهنَّ في الخمر. وهكذا كان أوَّلونا: يكون أحدهم صاحب ورع وتقوى ثم يروي الشعر المتهتك ويستجيده، فكأن للشعر معياراً غير معيار الأخلاق والدين، معياران يتوازيان ولا يلتقيان أبداً. تلك مدرسة الفن للفن.

فماذا صنع الفقهاء بشعر رُميت فيه المحصنات؟ كيف صنعوا بشعر جرير الذي زنَّى فيه نسوة سماهن بأسمائهن؟ لم يصنعوا شيئاً، رووا كل ذلك واستشهدوه على قاعدة نحوية أو على لفظة وردت في حديث أو حتى في قرآن. ذلك كان منهجهم. ولعل بعض معاصرينا ـ من دَيِّن وغير دَيِّن ـ يشمئز من هذا المنهج، ويقول إنه يجب أن يكون للشعر رسالة. ونحن في عملنا نعرض الشعر العربي كما كان، ونسترِطُه إلى معدة تقبل ألواناً كثيرة.

وفي الشعر، سوى المعنى، جَرس، وفيه شيء خفي يميزه عن النثر، ولقد يمر بك شعر أجمع النقاد على أنه قليل «الفائدة»، يعنون أن معناه سطحي، ثم تجدهم يقتبسونه مرة ومرة في كتبهم، وتجده جارياً على كل لسان سائراً إلى كل مكان.

الشعر صورة كما يقول أهل زمننا من النقاد. هو صورة نعم، وليس هذا بالأمر الذي يحتاج إلى برهان، ولا إلى طويل كلام. وقد أغشى أساتيذ الجامعات نفوسنا وهم يشرحون لطلابهم في الصفحات الكثيرة كيف أن الشعر صورة، فيفسرون الأبيات و«يستخرجون» ما فيها من «صور».

لكن الشعر شيء آخر أيضاً.

الشعر كلمة تجاور كلمة فيكون لهما من الأثر ما يحرك في النفس شيئاً.

وهو وزن وقافية.

سنطرفك بأبيات للأعشى طالما تغنى بها المغنون، فهو صناجة العرب. ولكننا سنكتب لك أسطراً عن الرجل.

ولد «ميمون» في الرياض عاصمة السعودية، قبل أن يكون هناك رياض أو سعودية. فإن ذهبتَ إلى الرياض اليوم، فاقصد حي منفوحة الملاصق للدائري الجنوبي. هناك ولد الأعشى. هذه المنطقة هي منطقة اليمامة التي كانت تسكن قراها في أواخر الجاهلية وأوائل الإسلام قبائل حنيفة، وقيس بن ثعلبة، ويربوع. وفيها كان مسيلمة الكذاب وبعض حروب الردة، وفيها عاش جرير شاعر يربوع التميمية.

في الجاهلية سكنت اليمامةَ قبيلة حنيفة وكانوا أهل زراعة، وسكنتها قيس بن ثعلبة وكانوا أهل رعي، وحرب. ويغلب على أهل الرعي أن يكونوا أهل حرب. ويبدو أن العلاقة بين القبيلتين كانت مبنية على تبادل المنافع، وكلتا القبيلتين تنتسبان إلى بكر بن وائل، التي هي فرع من ربيعة. ولعل القارئ يريد خريطة مبسطة لقبائل العرب:

عرب الجنوب منهم طيء وكندة والأوس والخزرج، وغيرها كثير. وهم نصف العرب. ليس لدينا إحصاء، ولكننا نعرف أن نصف المشاهير من شعراء العرب كانوا من اليمانية. ومعظم قبائل الجنوب كانت تسكن في الشمال، في الشام والحجاز والعراق. هاجرت إلى الشمال قبل الإسلام بعشرات السنين.

وكانوا سألوا نسَّابةً أيهم أكثر عرب الشمال أم عرب الجنوب؟ فأجاب: إن تمعددت قضاعة، أي انتسبت إلى معدٍّ أبي عرب الشمال، فنزار أكثر، وإن تيمنت فاليمن أكثر.

وعرب الشمال قسمان: مضر، ومنهم تميم وقريش. وربيعة، ومنهم تغلب وبكر. ومن بكر فرع قيس بن ثعلبة.

ومن قيس بن ثعلبة كان الأعشى ميمون بن قيس بن جندل.

مات أبوه جوعاً في كهف انسد بصخرة عظيمة، فلقبه الناس قتيل الجوع. ولقب الناس ابنه ميموناً أبا بصير، تيمناً لأنه كان أعشى، لا يبصر في العتمة. ولعل ميموناً أحب اللقب فاكتنى به، وسمَّى ولده بصيراً. وهو في شعره يزجي النصح لـ«بصير»، ولكننا لسنا على ثقة من أن هذا الشعر شعره. ولا نحن على ثقة بأن أي شعر جاهلي هو للجاهليين. تلك قضية نفض منها يديه بعض الدارسين، وجادل فيها بعضهم. وفي قصائد كثيرة للأعشى شكك القدماء والمحدثون.

صحة نسبة شعره إليه

كان القدماء يشكون في الشعر الجاهلي، ولكنهم كانوا يحبون هذا الشعر القديم حب تقديس. فهو الأصل، وهو الوعاء الذي يحمل اللغة الصحيحة «الأصليَّة». . فكل ما يتكلمون به في عصرهم العباسي ذاك خليط، وكل أساليبهم في التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم أساليب محدثة دخلها الفساد و«العجمة». كانت نظرتهم إلى اللغة نظرتهم إلى النص المقدس. حتى لقد زعم كثيرون منهم أن اللغة العربية بكلماتها وأساليبها مخلوقة مع آدم.

هؤلاء القدماء شككوا في الشعر الجاهلي، وقدسوه في الوقت نفسه، وبحثوا بإخلاص عن أي مفتاح يعينهم على تخليص ما وصلهم منه من الفاسد الموضوع.

ورأس المشككين من المحدثين المستشرقون الذين استقر في ثقافتهم في بلادهم أن اللغة كائن متغير، وقد عالجوا الشعر الجاهلي بمبضع جراح غير ماهر ـ فأما لماذا غير ماهر، فلأن هؤلاء المستشرقين لا يتذوقون الشعر العربي كأهله ـ على أنهم بقوة المنطق والعلم، شككوا. وجاء طه حسين فاتبعهم بعض اتباع، واقتنع كبير اقتناع. وثار عليه مقدسو اللغة من المحدثين. وأكثر ما

أخاف المحدثين ـ المستمسكين بصحة الشعر الجاهلي كأنه أعراض أمهاتهم ـ أن التشكيك في نص الشعر الجاهلي سيعرض النص المقدس للشك. والأكثر تضرراً من منهج التشكيك الحديث النبوي. فقد روي رواية، ولم يكتب إلا بعد أكثر من مئة سنة من وفاة الرسول.

وقامت معركة الشك في الشعر الجاهلي، وأحسبها لا تزال قائمة. ولا أقف موقفاً وسطاً.

رأيت الناس ينشدون الشعر النبطي الذي قاله شعراء البادية قبل مئة سنة ومئتين. فمنهم من ينشد البيتين والثلاثة من القصيدة، يستشهد على حادثة أو على فكرة. ومنهم من هو أحسن حفظاً وأذلق لساناً فتراه ينشد القصيدة كلها، ويأتي آخر فينشد القصيدة نفسها برواية مختلفة تتغير فيها مواضع الأبيات، وتتبدل عشرات الكلمات، وتنقص القصيدة أو تزيد. ذلك أن الرجلين كليهما تلقيا القصيدة شفاهاً، وكلاهما متقن لهذه اللهجة وقادر أن يصلح ما وصله مختلاً. وبعد عدة أجيال من الرواة يبقى من القصيدة وزنها وقافيتها، وبعض كلماتها. ولعله يبقى أيضاً شيء غير قليل من روحها. ولعل النسخة الحديثة منها أن تكون أضبط ضبطاً وأحلى حلاوة من النسخة الأصلية. ولعل قصائد نبطية كثيرة منسوبة إلى شاعر بعينه لا تكون من شعره أساساً، بل هي لشاعر آخر أحدث منه أو أقدم.

ونقول إن الشعر النبطي القديم الذي يرويه الناس في مضافاتهم، أو ديوانياتهم، في أيامنا هذه يمثل بمجموعه تراث حقبة معينة، ويحمل روحها سواء بأبياته الأصلية أم بأبياته التي دخلها التبديل الكثير أو حتى الوضع والنحل.

وشعرنا الجاهلي مجموعة من القصائد تمثل روح تلك الحقبة، وتشكل أساساً فنياً بنى عليه الشعراء الأمويون والعباسيون شعرهم، واتخذوه نبراساً، وظلوا يحاولون الاقتراب من مبانيه ـ وأحياناً من معانيه ـ في صوغهم شعرهم. حتى المجدد الذي كسر القوالب عارفاً بما يصنع، كأبي نواس وأبي تمام، فقد كان يسعى جاهداً لتخير مفرداته وأساليبه بحيث تكون صحيحة جاهلياً. وهذا موجود في زمننا، فترى المرء إذا أورد كلمة عامية في شعر له أو نثر فزع إلى علامتي تنصيص يضع بينهما الكلمة العامية طالباً من القارئ المعذرة.

ديوان الأعشى

طبع المستشرق ردولف غاير شعر الأعشى سنة ١٩٢٨، ثم رتب هذه الطبعة وزاد عليها شروحاً وفهارس محمد محمد حسين سنة ١٩٥٠، وجاءت طبعته غاية في الوضوح والأناقة والصحة والالتزام بطبعة غاير. لا بل لقد كلف سيِّدةً بترجمة المقدمة الألمانية فجاءت ترجمتها مرآة للأصل لم تنحرف عنه قيد شعرة. وقد عارضتُ طبعة غاير على طبعة محمد حسين بيتاً بيتاً فعجبت من الرجلين. هذا الألماني يصدر ديوان الأعشى في نشرة علمية بديعة خالية من الخطأ وهو مصاب بالفالج، وهذا المصري يعيد طبعها طباعة أنيقة ويزينها بشتى الشروح، ولا يكاد يتسلل إلى طبعته خطأ مطبعي، فإن تسلل، وقليلاً ما تسلل، ضبطه بجريدة للخطأ وصوابه في ذيل الكتاب. وصنع جدولاً طريفاً آخر بالكلمات التي بدَّلها في الطبعة الأوروبية. هذا إلى فهارس أخرى عديدة.

ليت محمد حسين اشتغل بتحقيق الدواوين القديمة أو حتى بضبط التحقيقات القديمة لها، لكنه انصرف فيما يبدو لي إلى تأليف الكتب لتلامذته في الجامعة قبل وبعد عمله في ديوان الأعشى. جزاه الله خيراً.

أقول: ذلك المحقق المصري كان ـ كما يبدو من كتبه الأخرى ـ عروبياً مستمسكاً بعرى الدين، ناعياً على طه حسين تشكيكه في الشعر الجاهلي تشكيكاً ساحقاً. ومع ذلك نراه في الموضع بعد الموضع من طبعته لديوان الأعشى يشكك في العشرات من القصائد، ولا يرى أنه سَلِمَ لنا من ديوان الأعشى سوى بضعٍ وثلاثين قصيدة. فتأمل.

حياة الأعشى

أراه رجلاً قصيراً، على شيء من البدانة، يلبس في أصابع يديه الخواتم: فهذا خاتم عقيق من اليمن، وهذا خاتم ذهب من أمير اليمامة هَوْذة بن علي، وهذا خاتم فضة اشتراه بماله في شبابه، ولم ينزعه من إصبعه لكثرة ما لمس هذا الخاتم من أجساد الحسان اللائي يفتخر الأعشى بأنه عاشرهن.

وكل هذه المعلومات محض افتراء، وما سيلي ليس صافياً كل الصفاء.

كان كثير الأسفار. ونبغ في الشعر شاباً، وصار مشهوراً، ومخشي معرة اللسان. يسافر مع قبائل التجار.

هو هكذا . . يحب السفر.

لي صديق أتعجب منه كثيراً. يقول لي: أعشق السفر، ولا أسأل عن هدف الرحلة ولا عن تفصيلاتها، فما إن تتاح الرحلة حتى أعد حقيبتي. أتعجب منه لأنني أنا لست كذلك. فإذا عرضت لي سفرة حملت همها وتمنيت في أعماقي أن تلغى لأي سبب. فإذا سمعت أنها ألغيت فرحت فرحاً طفولياً.

كان الأعشى كصاحبي. يأتيه الخبر وهو في منفوحة باليمامة أن قافلة ستنطلق إلى اليمن، فيعد حقيبته. ويرحب به التجار رفيق سفر، فسوف ينزلون ببركته على أمراء اليمن وأساقفة نجران، ثم إن رفيقهم سيكون شاعراً يروي لهم من قصيده ويؤنسهم. ويقيم الأعشى في اليمن أشهراً، ويمدح الأمير، وينال عطية جزيلة أو قليلة. وإلى الحيرة على الفُرات يسافر، ويلقي شعره على راويته يحيى، وللأعشى أكثر من راوية.

ويسمع أن قافلة أخرى ستتوجه إلى الحجاز، فيمضي معها، ويحضر سوق عكاظ، ويلقى الشعراء والكبراء.

يلقى هناك عامر بن الطفيل وقد اشتدت خصومته مع ابن عمه علقمة، فينصر الأعشى عامراً، ويهجو علقمة. وتتسامع جزيرة العرب بقصائد الأعشى في تلك المنافرة المشهورة. ويبكي علقمة من قسوة الهجاء. وفي سفرة أخرى للأعشى يقع شاعرنا بيد علقمة، فيحبسه عنده غير ضيف، حتى يخلّص الأعشى نفسه بأبيات يمدح فيها علقمة ويعتذر إليه عما بدر منه.

ويعود الأعشى إلى منفوحة، ويجد ابنته قد كبرت، وأولاده يركضون في الحي ويرعون أغناماً كان ابتاعها لهم. ويأتيه رجال من قبيلة زوجته الجديدة التي تزوجها وظل يتركها ويسافر، فيطالبونه بطلاقها، فيطلقها. ثم تعن له سفرة عراقية، فتتعلق به ابنته، تريده ألا يسافر، ولكنه ـ كزميلي عاشق السفر ـ يسافر، ثم يزعم لنا الرواة أنه حضر مجلس كسرى.

يمدح الأمراء في كل مكان، وينال أعطياتهم، وفي كل حاضرة من حواضر هؤلاء الأمراء يلتمس الأعشى أخبية القيان، يرافقه إليها بعض التجار، فيشربون ويشوون اللحم، وينالون مبتغاهم من النساء.

ويشيب الأعشى ويزداد عَشاً، ولعله كما قال ابن قتيبة فقد بصره. ويحن إلى أيام اللهو ويقول في ذلك شعراً. ويسمع وهو باليمامة أن قريشاً تعاني مع

ابنها الذي تقول إنه يقول إنه نبي. فلا يأتي عكاظاً، فهو شيخ كفيف، ولا يريد أن ينغمس في منافرة أخرى كتلك التي انغمس فيها بين عامر وعلقمة. ثم يسمع أن النبي هاجر إلى يثرب، وأنه بدأ يحقق الانتصارات، فيشد الرحال إليه، ويعد قصيدة يمدحه فيها.

يأتي مكة أولاً، فيراه أبو سفيان، ويعرف أنه قاصد محمداً. فيقنعه بالعدول عن رحلته، ويجمع له مالاً من قريش التي لا تريد أن يتعزز الإسلام بشاعر مشهور. ويرضى الأعشى وينصرف عن مكة عائداً إلى اليمامة، وهو يقول لنفسه: لعلي أعود في مرة قادمة، والأمر قد استتب لمحمد، وإلَّا فقد كسبت نياق قريش. عاد إلى اليمامة. وفيها وقع عن ناقته ـ أوقعه عنها الأخباريون الذين أرادوا له ميتة قاسية لأنه لم يُسلم ـ ومات. وعندما صعد إلى السماء وضعه أبو العلاء المعري في الجنة بسبب قصيدته التي مدح بها النبي، لكنه حرمه من الخمر. وهذه بقية سيرة الأعشى نقتبسها من رسالة الغفران للمعري، والمتكلم الأعشى:

«سحبتني الزبانية إلى سقر، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، والنَّاس يهتفون به من كلِّ أوْبٍ: يا محمَّد يا محمَّد، الشفاعة الشفاعة! نَمُتُّ لكذا ونمتُّ بكذا. فصرختُ في أيدي الزبانية: يا محمّد، أغثني فإنَّ لي بك حرمةً! فقال: يا عليُّ، بادِرْه فانظر ما حرمته؟ فجاءني عليُّ بن أبي طالبٍ، صلوات الله عليه، وأنا أُعْتَلُ كي أُلقى في الدَّرك الأسفل من النَّار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

نـبـيٌّ يـرى مـا لا تَـرَوْنَ، وذكـرُهُ　　أغـارَ لَـعَـمْـري فـي الـبـلادِ وأَنـجـدا

فذهب عليٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا أعشى قيس قد رُوِيَ مدحُه فيك، وشهد أنَّك نبيٌّ مرسلٌ. فقال: هلاَّ جاءني في الدّار السَّابقة؟ قال: عليٌّ: قد جاء، ولكن صدَّته قريشٌ وحبُّه للخمر. فشفع لي، فأُدخلت الجنَّة على أن لا أشرب فيها خمراً؛ فقرَّت عيناي بذلك، وإنَّ لي منادح في العسل وماء الحيوان. وكذلك من لم يتب من الخمر في الدار الساخرة، لم يُسْقَها في الآخرة.» اهـ.

سلْق الأكاديميين

قد رأيتنا أيها القارئ استفدنا من جهد رجل أكاديمي، هو محمد حسين، فمدحناه، ووفيناه حقه. أليس كذلك؟ إذن فالعادة التي جرينا عليها من السخرية من الأكاديميين والاستهزاء بهم لم تكسف عنا صنيع من أتقن عمله منهم. وقد

كتبنا ما كتبنا أعلاه ـ بعد أن كنا انتقينا ما انتقينا من شعر الأعشى ورَقَنّاهُ وشَكَّلْنَاه وشرحناه كما سترى أدناه ـ، وانتهينا من هذه المختارات بصدر منشرح، لم نشتم أحداً ولم نتعرض لأحد.

ثم حدث شيء.

ذكرتُ للصديق اللغوي المدقق أحمد عبد الرحيم، في عرض حديث، أنني انتهيت من عصر الأعشى (أعني عصره عصراً)، وأنني استندت إلى طبعتيْ غاير ومحمد حسين. فهتف بي صديقي: ألم يأتك نبأ الطبعة الجديدة التي تملأ مجلدين وتستند إلى ثلاث نسخ خطية بكر، وتضم من الشعر الكثير مما لا يوجد في تينك الطبعتين؟ قلت: لا.

ثم جاءني بالمجلدين. فرأيته قد زين صفحاتهما التي ناهزت الثمانمئة بالمئات الكثيرة من العلامات والملاحظات، فقلت: مرحى! ننتفع بالطبعة الجديدة، وبملاحظات صديقنا المتمكن من لغته.

أقول لإخوتي الكرام في دول الخليج الثرية ـ والطبعة التي نحن بصدها صادرة في دولة خليجية ثرية ـ: نشدتكم الله يا إخوتي إلَّا ما كففتم عن الخوض فيما ليس لكم فيه! خاصمتكم أمام العرش يا أهل المال، أما تتركون تحقيق الكتب، واستئجار الناس الذي لا يعرفون كيف يحققون الكتب؟ لَعَت نفسي ولقِستْ، وحامت كبدي وخبُثْتُ من هذا المسخ الذي رميتموني به.

هذا الكتاب صنعه رجل وصف نفسه بالدكتور، وصنعت المؤسسة الخليجية تلك ما لم تصنعه دار نشر في طول العالم العربي وعرضه: وظفت رجلاً (دكتوراً أيضاً) ليقوم بـ«المراجعة اللغوية» وصرحت بذلك على قفا صفحة العنوان الداخلي. أرأيتم دكتوراً يحقق ديواناً جاهلياً ثم يحتاج إلى مراجع لغوي يكنس أخطاءه النحوية من ورائه؟

اصبروا، فالمهزلة مستمرة.

على صفحة الغلاف اسم الشاعر (الأعشى الكبِير) وتحت الباء كسرة.. حتى لا نغلط ونظنه «الكُبَيْر». ونقول للناشر: جبر الله كسرك وأقام أَمْتك لهذه الكسرة التي أنعشتَ بها الذاكرة. ثم «ميمون بن قِيْس» ولا ندري من أي المصادر الخطيرة عثر القوم على قِيْسٍ هذه. لكن، هي كسرة أخرى! وسترى معي كسراً كثيراً فيما سيأتي، وسترى قِيْس المكسورة تتكرر في كلمة الناشر.

بدأنا نقرأ. وفي الصفحة الأولى كلمة الناشر، صفحة مكتوبة بقلمٍ هزيل ثرثار، قلمِ من لم يذق شعراً في عمره.

ثم مقدمة «المحقق»: هل أصف للقارئ التسعين صفحة التي سودها السيد الدكتور المحقق؟ سيقتضيني ذلك تسعين صفحة من مُرِّ الكلام. لقد أغثى النفس بتحميداته وتسبيحاته ودعواته لنفسه ولكل من ساعده في الحصول على النسخ، حتى كادت مقدمته أن تصبح خطبة منبرية. ولم ينس في الفقرة الأولى من المقدمة أن يتحفنا بغلطة لغوية ـ أشار إليها وإلى أمثالها صديقي اللغوي أحمد عبد الرحيم ـ. ثم تجده في الصفحة الثانية من المقدمة يثني على الألماني غاير أعطر الثناء، ويقذف المصري محمد محمد حسين بعبارة «أين الثرى من الثريا». وأخذ بعد ذلك يعبث باللغة عبثاً لا نرضاه من طالب في الإعدادية، بلهَ من كاتب في صحيفة، بلهَ ممن سمى نفسه محققاً.

يكتب اسم المستشرق الألماني بجيم مثلثة النقاط حيناً وبجيم ذات نقطة حيناً، ويرتكب ثلاثة أخطاء نحوية في الصفحة الثالثة من المقدمة، وتراه بعد ذلك يبدأ الجملة بمبتدأ، وابحث ـ إن كان معك وقت ـ عن الخبر. ثم يصدر حكماً: «ضربت صفحاً عما أثير من شكوك حول بعض شعر الأعشى، إذ لم تعد لمثل هذه الشبهات في مجال البحث العلمي والتحقيق قيمة تذكر». هذا ما يقوله صاحب «البحث العلمي» الذي بدأ كلامه بعبارة «أستبيح القارئ عذراً»، وهو، وأيم الحق، قد استباح العلم، واستباح القارئ فعلاً.

وفي مطلع الفقرة بعد الفقرة يروي لنا هذا الدكتور كيف أن الأمر الفلاني أو الفلاني قد أذهله (في إحدى رواياته لهذه الكلمة يقول «أذلهتني»، نقول ذلك لكي يعلم الدكتور أن آلاف الأخطاء المطبعية التي حفل بها كتابه لم تنزلق عنها أبصارنا مثلما انزلقت عنها العيون الأربع: عيناه وعينا المراجع اللغوي الذي وظفوه له).

بعد تسعين صفحة من الكلام المضطجع في مراقد الركاكة بدأنا نقرأ شعر الأعشى. ونقول للسيد الذي سمى نفسه محققاً: ليست في الكتاب بجزأيه صفحة واحدة تخلو من خطأ، ومن خطأين، وثلاثة، وعشرة. يا أخي، اتق الله! أليس لأهلك حقل تزرعه، أو دكان تقعد فيه تبيع وتشتري. لقد شكرتَ نصف أمة محمد في مقدمتك لما أسدوه إليك من معونة، قد والله فضحتهم.

قد استغنينا عن كتابك يا سيد.

نخل لنا القدماء شعر الأعشى ومخضوه مخضاً في زمن كان فيه شعر

الأعشى برواياته المختلفة بين أيديهم، واستغنينا. عرفنا عيون شعره مما حصل في أيدينا من انتقاءات القدماء، فلا نريدك ولا نريد كتابك السمين غير الثمين. وكنتَ في المقدمة قد هددتنا بإصدار جزء ثالث، ونظنه إن وفيت سيلتهم ورقاً كثيراً، ونقول لك: رفقاً بالأشجار في الغابات الموسمية.

وكلمة محاسبة أخيرة ـ ولا أتعهد لك أن تكون الأخيرة، فقلبي منك ملآن ـ: وعدتنا بشرح الأبيات شرحاً أفضل من شرح محمد حسين الذي عبته وتنقصت منه بلهجة الأستاذ، فأين شرحك؟ قد اكتفيت من الشرح بسرقة بعض ما خطته أنامل الراحل الذي لن يستطيع أن يقول لك من قبره: امسك حرامي. نحن نقولها لك. ونقول لك: ليس في كتابك شرح.

وكلمة أخرى: هوامشك تخاليط. ومقابلتك بين النسخ تنحط عن أدنى ما يصنعه الشداة في هذا الفن.

١ ودِّع هريرة (المعلقة)

قال ليزيد بن مسهر الشيباني، أبي ثابت:

ودِّعْ «هُرَيْرَةَ» إنَّ الرَّكْبَ مُرتَحِلُ ... وهل تُطيقُ وَداعاً أيُّها الرجلُ

غَرَّاءُ فَرْعاءُ مصقولٌ عَوارِضُها ... تمشي الهُوينا كما يمشي الوَجي الوَحِلُ

غراء (بيضاء) فرعاء (كثيفة الشعر)، مصقولة عوارضها (أسنانها القواطع)، تمشى الهوينا (ببطء) كما يمشي الوجي (الحافي) الوحل (الماشي في الوحل). والماشي في الوحل متمهل لأنه لا يرى إن كان تحت الوحل حجر مسنون أو نحوه، فكيف إذا كان حافياً

كأنَّ مِشيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها ... مَرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

تمشي كالسحابة فلا ريث (بطء) ولا سرعة

تَسمَعُ للْحَلْيِ وَسْواساً إذا انصرفتْ ... كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

تسمع لحليها وسواساً (خشخشة) مثلما يخشخش نبات العشرق الزجل (المخشخش إذ تجف بذوره وأغلفتها) عندما تهب عليه الريح

ليستْ كَمَنْ يكرهُ الجيرانُ طلعتَها ... ولا تَراها لِسِرِّ الجارِ تختَتِلُ

يحب الجيران طلعتها، ولا تختتل (تسترق السمع) على أسرار الجيران

يكادُ يصرعُها لولا تشدُّدُها ... إذا تقومُ إلى جاراتِها الكَسَلُ

يكاد الكسل يصرعها (يلقيها أرضاً) لولا أنها تتشدد عند القيام، وذلك لثقل أردافها

هِـرْكَـوْلَـةٌ فُـنُـقٌ دُرْمٌ مَـرافِـقُـهـا　　　كـأنَّ أخـمَـصَـهـا بـالـشَّـوْكِ مُـنْـتَـعِـلُ

هركولة (عظيمة الوركين) فنق (منعَّمة)، مرافقها درمٌ (مفاصلها مكسوة بالشحم، فلا تبين في المرفق عظمة المفصل)، وكأنها تلبس نعلاً من الشوك تلتصق بأخمصيها، فهي لذلك بطيئة المشي

ما رَوْضَـةٌ مِنْ رياضِ الـحَزْنِ مُعشِبةٌ　　　خضـراءُ جـادَ عـليـهـا مُسْبِـلٌ هَـطِـلُ

بدأ تشبيهاً: ليست الروضة من رياض الحَزن (الهضبة) المعشبة الخضراء التي جادها مطر مسبل (منهمر)، ليست..

يـومـاً بِـأَطْـيَـبَ مـنـهـا نَـشْـرَ رائـحـةٍ　　　ولا بـأحـسَـنَ مـنـهـا إذْ دنَـا الأُصُـلُ

ليست هذه الروضة أطيب من هريرة من حيث النشر (الرائحة)، وليست أحسن منها مع دنو الآصال (قبيل الغروب)

عُـلِّـقْـتُـهـا عَـرَضـاً وعُـلِّـقَـتْ رجـلاً　　　غيريِ وعُلِّقَ أُخرى غيرَهـا الرجلُ

تعلقت بحبها عرضاً (صدفة) وهي تعلقت برجل غيري، وهو تعلق بغيرها

قـالـتْ هُـرَيْـرةُ لـمَّـا جئتُ زائرَهـا:　　　وَيْلي عليكَ ووَيْلي منكَ يا رجلُ

لا اختلاف بين النقاد القدماء على أن هذا أخنث بيت قالته العرب

يـا مَـنْ يـرى عَـارضـاً قـد بِـتُّ أرقُـبُـه　　　كـأنَّـمـا الـبـرقُ فـي حـافـاتِـه الـشُّـعَـلُ

يغير الموضوع: يرى الرائي عارضاً (غيماً) في أطرافه بروق كأنها شعل من نار

لـم يُـلْـهِـنـي الـلَّـهـوُ عـنـه حـينَ أرقُـبُـه　　　ولا الـلَّـذاذةُ مِـنْ كـأْسٍ، ولا الـكَـسَـلُ

لم يشغلني عن هذا الغيم البارق لهوي وكأسي، ولا كسلي

فقلتُ للشَّرْبِ في «دُرْنَى» وقد ثَمِلُوا　　　شِيمُوا، وكيف يَشِيمُ الشاربُ الثَّمِلُ

فقلت للشرب (الشاربين) وقد سكروا: شيموا (راقبوا البروق، والعرب تشيم البرق لتخمين اتجاه الغيم الماطر كي ترتحل في سبيل العشب)، ولكن، كيف يشيم البروق السكران؟

وبـلـدةٍ مـثـلِ ظـهـرِ الـتُّـرْسِ مُـوحـشـةٍ　　　لـلـجنِّ بـالـلـيـلِ فـي حـافـاتِـهـا زَجَـلُ

رب بلدة موحشة جرداء كظهر الترس (ظهره هو ما يواجه الخصم ويكون صقيلاً)، ويسمع فيها زجل الجن، وهو عزيف الجن، ولا أدري كيف يكون صوت الجن فلم أسمعه قط

جـاوزْتُـهـا بِـطَـلـيـحٍ جَـسْـرَةٍ سُـرُحٍ　　　فـي مِـرْفَـقَـيْـهـا إذا اسـتـعـرضْـتُـهـا فَـتَـلُ

قطعت هذه البلدة بطليح (ناقة مهزولة من مشقة السفر) جسرة (ناقة ضخمة) سرح (سلسة السير)، وترى في مرفقيها (الثفنتين اللتين تبرك عليهما الناقة من أمام) الفتل (ولعل هذا الفتل هو تباعد ما بين المرفقين بسبب التعب)

فقد أُخالِسُ ربَّ البيتِ غفْلَتَه وقد يُحاذِرُ مِنّي ثم مَا يَئِلُ

أخالس (أستغفل) الرجل ويحذر مني ثم لا يئل (لا ينجو)، فأنا أواصل زوجته

وقد أَقُودُ الصِّبَا يوماً فَيتْبَعُني وقد يُصاحِبني ذو الشِّرَّةِ الغَزِلُ

أبادر إلى الصبا (اللهو) ويلحق بي، أو يصحبني صديق ذو غزل وشرة (عرامة الشباب)

وقد غَدوْتُ إلى الحانوتِ يتبعُني شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

أذهب إلى الحانوت (الحانة) ويتبعني شاوٍ (من يشوي اللحم) وهو مشل وشلول وشلشل وشول (وكلها تعني نشيط، وانتقد ابن قتيبة البيت لهذه المترادفات، وراح بعضهم يزعم أن لكل لفظة من هذه معنى قائماً برأسه)

في فِتيةٍ كَسيوفِ الهندِ قد عَلِمُوا أنْ ليس يَدْفَعُ عن ذي الحيلةِ الحِيَلُ

أجلسُ وسط فتية تشرق وجوههم وهم يتبعون فلسفتي وهي أن الحيل التي يتخذها المرء ذو الحيلة الواسعة لا تدفع عنه المقدر، لذا فعلينا أن نقطع العمر بطلب اللذة

نازعْتُهُمْ قُضُبَ الريْحَانِ متَّكِئاً وقَهوةً مُزَّة راوُوقُها خَضِلُ

كنت آخذ وأعطي عروق الريحان مع هؤلاء الفتية، وأنا متكئ، وأتعاطى معهم خمرة مزة (طعمها بين الحموضة والمرارة) راووقها خضل (وعاء تصفيتها مبتلٌ دائماً لأنه عامر بالخمر لا يفرغ)

لا يَستَفيقُونَ منها وَهْيَ راهِنَةٌ إلا بِهَاتِ، وإن عَلُّوا وإنْ نَهِلُوا

لا يصحون من سكرهم والخمر راهنة موجودة إلَّا كي يقولوا: هات كأساً أخرى، يقولونها حتى وإن علوا (شربوا أولاً) ونهلوا (شربوا ثانيةً)

يَسعَى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ

الساقي له نطف (لؤلؤات صغيرات، وأتخيل هذا الساقي ولداً في شحمة أذنه شذرة فضة أو خرزة)، والساقي قد شمر عن ساقيه، وهو معتمل (نشيط في عمله)

ومُسْتَجِيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يَسمَعُهُ إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ

ورب عود يستجيب لصوت القينة (المغنية) وتحسب أن الصنج (الصاجات في أصابع الراقصة أو المغنية) يسمع العود ويتابعه، وهذه المغنية ترجع صوتها وهي فُضُل (تلبس القليل)

أَبلِغْ يزيدَ بني شيبانَ مَأْلُكَةً: أبا ثُبَيْتٍ أما تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ

أبلغ يزيد مألكة (رسالة)، فيا يزيد يا أبا ثبيت لماذا تظل تأتكل؟ (تُفسِد)

أَلستَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنا ولستَ ضائِرَها ما حَنَّتِ الإبِلُ

ألا تتوقف عن نحت أثلتنا (التعريض بنا، والأثلة: من الأشجار الكبيرة)، ولست مؤثراً في مجدنا أبداً.. ما دامت الإبل تصدر صوت الحنين

كَناطِحٍ صَخرةً يوماً لِيُوهِنَها   فلم يَضِرْهَا وأَوْهَى قَرنَه الوَعِلُ

أنت كالوعل الذي ينطح الصخرة، فلن يضيرها بل يضعف قرنه

نحن الفوارسُ يومَ الحِنْوِ ضاحِيَةً   جَنْبَيْ «فُطَيْمَةَ» لا مِيلٌ ولا عُزُلُ

نحن فرسان يوم الحِنو (ذي قار) ضاحية هذه الفرسان (مقاتلة في العراء بلا استتار) في فطيمة، ولم نكن ميلاً (غير ثابتين فوق الخيل) ولا عزلاً من السلاح

قالوا الرُّكُوبَ، فقلنا: تلكَ عادتُنا،   أو تنزلونَ، فإنَّا معشَرٌ نُزُلُ

نحارب راكبين، وننزل للمجالدة بالسيوف، فنحن نحارب بكل طريقة

٢ دبلوماسية

سأُوصي بَصيراً إنْ دَنَوْتُ إلى البِلى   وَصاةَ امرئٍ قَاسى الأمورَ وجرَّبا:

البِلى: تحلل الجسم بعد الموت. ولعله كان للأعشى فعلاً ابن اسمه بصير، لا أنه كني بأبي بصير لعشا بصره

بأنْ لا تَبَغَّ الوُدَّ مِنْ مُتباعِدٍ،   ولا تَنْأَ عن ذي بِغْضةٍ إنْ تَقَرَّبا

لا تبتغِ مودة من يبتعد عنك، ولا تبتعد عن ذي بغضة (كراهية) إن هو تقرب إليك

فإنَّ القريبَ مَنْ يُقرِّبُ نفسَه،   لَعَمْرُ أبيكَ الخيرَ، لا مَنْ تَنَسَّبا

٣ وصف الهركولة

بانتْ سعادُ وأمسى حبلُها رابَا   وأحدَثَ النأيُ لي شوقاً وأَوْصَابا

راب الحبل: من الريبة، أي داخل وصلها الشك. أوصاب: أوجاع

وأجمَعَتْ صُرْمَنا سُعدى وهِجْرتَنا   لمَّا رأتْ أن رأسِي اليوم قد شابا

الصُرم: القطيعة

هِرْكَوْلَةٌ مِثْلُ دِعْصِ الرَّملِ أسفلُها   مكسُوَّةٌ مِنْ جمالِ الحُسنِ جِلبابا

هركولة: عظيمة الوركين. الدعص: الكثيب

تُميلُ جَثْلاً على المتنيْنِ ذا خُصَلٍ   يحبُو مَواشِطَهُ مِسْكاً وتَطْيابا

الجثل: الشعر الكثيف. تميل بشعرها الذي يعطي المواشط (جمع ماشطة، أي كوافيرة ذلك الزمن) مسكاً وطيباً

٤ نذير الفناء

إنَّ الـقُـرى يـومـاً سـتـهـ ... ـلِـكُ قـبـلَ حَـقِّ عَـذابِـهـا

ستهلك قبل أن ينزل بها العذاب الذي تستحق

وتَـصـيـرُ بـعـد عِـمـارَةٍ ... يـومـاً لأَمـرِ خـرابِـهـا
أَوَلَـمْ تَـرَيْ حِـجْـراً ـ وأنـ ... ـتِ حـكـيـمـةٌ ـ ولِـمَـا بِـهـا

حجر: بلاد ثمود شمال الحجاز

إن الـثـعـالـبَ بـالـضـحـى ... يَـلـعـبـنَ فـي مِـحـرابِـهـا

المحراب هنا: القصر

٥ الاغتياب

مـا بـالُ مَـنْ قـد كـانَ حـظِّـ ... ـيِ مِـنْ نـصـيـحـتِـه اغـتِـيـابُـهْ

يزعم أنه ينصحني ثم يروح يغتابني

يُـزْجـي عـقـارِبَ قـولِـه ... لـمَّـا رآنـيَ لا أهـابُـهْ

٦ التداوي منها بها

ألـم تَـنْـهَ نـفـسَـكَ عـمَّـا بِـهـا ... بَـلَـى عـادَهـا بـعـضُ أَطْـرابِـهـا

أطرابها: أشواقها

وكـأسٍ شـربـتُ عـلـى لَـذَّةٍ ... وأخـرى تـداويـتُ مـنـهـا بـهـا

قالوا قديماً، وحديثاً أيضاً، إن شرب بعض الخمر في الصباح بعد ليلة ساكرة ينفي الخُمار، أي صداع السكر. وهذا المعنى للأعشى مشهور، أخذه أبو نواس حين قال «وداوني بالتي كانت هي الداء»

لـكـيْ يـعـلـمَ الـنـاسُ أنّـي امْـرُؤٌ ... أتـيـتُ الـمـعـيـشـةَ مِـنْ بـابِـهـا
كُـمَـيْـتٍ يُـرى دونَ قَـعْـرِ الإِنَـى ... كـمـثْـلِ قَـذى الـعـيـنِ يُـقْـذى بِـهـا

الخمر كميت (داكنة اللون) وهي مع ذلك صافية صفاء يجعلك ترى الشائبة الصغيرة بحجم قذى العين في قعر الإناء

وشـاهِـدُنـا الـوردُ والـيـاسـمـيـ ... ـنُ، والـمُـسْـمِـعـاتُ بـقُـصَّـابِـهـا

المسمعات: المغنيات. قصابها: عازفو القصب، أي الناي، فهؤلاء ـ ومعهم الورد والياسمين ـ يحضرون سكرتنا تلك

مضى لي ثمانونَ مِنْ مولدي كذلكَ تفصيلُ حُسَّابِها
فأصبحتُ وَدَّعْتُ لَهْوَ الشبا بِ والخندريسَ لأصحابِها

الخندريس: الخمر المعتقة

٧ تهديد

قال لشيبان الجَحدري:

أبا مِسْمَعٍ إنِّي امْرُؤٌ مِنْ قبيلةٍ بَنى ليَ مجداً موتُها وحياتُها

مجدي هو مجد قبيلتي في حياتها وفي مصارع رجالها

فلا تَلمَسِ الأفعى يداكَ تريدُها ودَعْها إذا ما غيَّبَتْها سَفاتُها

سفاتها: ترابها

أبا مِسْمَعٍ أَقْصِرْ فإنَّ قصيدةً متى تأْتِكُمْ تَلْحَقْ بها أَخَواتُها
أَعَيَّرْتَني فخرِي، وكلُّ قبيلةٍ مُحَدِّثةٌ ما أورَثَتْها سُعاتُها

سعاتها: الساعون لتحقيق مجدها

٨ وقَلَّتِ

يمدح شيبان بن ثعلبة بيوم ذي قار، الذي انتصرت فيه العرب على الفرس:

فِدَىً لِبَني ذُهْلِ بنِ شَيْبانَ ناقتي وراكبُها يومَ اللِّقاءِ، وقَلَّتِ

أفديهم بناقتي وبراكبها (أي بنفسي)، وقليل لهم ذلك

هُمُ ضربوا بالحِنْوِ حِنْوِ قُراقِرٍ مُقَدِّمةَ الهامَرْزِ حتى تَولَّتِ

حنو قراقر: مكان قرب الكوفة. الهامرز: قائد الفرس في ذي قار

٩ نبي يرى ما لا ترون

ألم تغتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أرمَدَا عادَكَ ما عادَ السَّليمَ المُسَهَّدا

لم تغمض لك عين ليلة كنت كالأرمد، المصاب في عينيه بالرمد، ولحق بك ما يلحق بالسليم (الملدوغ، يسمونه سليماً تيمناً بشفائه) المسهد (الساهر، وكانوا يمنعون الملدوغ من النوم كيلا يسري السم في جسمه)

شبابٌ وشِيبٌ وافتقارٌ وثروةٌ فَلِلَّهِ هذا الدهرُ كيفَ تَرَدَّدَا

وما زِلْتُ أبغي المالَ مُذْ أنا يافعٌ   وليداً وكهلاً حينَ شِبْتُ وأَمْرَدا

الأمرد: من لم تنبت له لحية

فإنْ تسألي عني فيا رُبَّ سائلٍ   حَفِيٍّ عَنِ الأعشى به حيثُ أصْعَدَا

حفيّ: مهتم، أصعد: ذهب

ألا أيُّهذا السَّائلي أين يمَّمَتْ   فإنَّ لها في أهلِ يثربَ موعدا

من يسألني: «أين يممت (قصدت) ناقتي»، فالجواب أن لها موعداً في يثرب

فآليتُ لا أَرثي لها مِنْ كَلالَةٍ   ولا مِنْ حَفَىً حتى تَزورَ محمَّدَا

آليت (حلفت) لا أرحم ناقتي من الكلالة (التعب)، ولا من الحفى (تسلخ أخفافها) حتى تزور محمداً

متى ما تُناخي عند بابِ ابنِ هاشِمٍ   تُريحي وتَلْقَيْ مِنْ فواضلِه يدَا

اليدُ: المعروف

نبيٌّ يرى ما لا تَرَوْنَ، وذكرُهُ   أغارَ لَعَمْري في البلادِ وأَنجدا

له صَدَقاتٌ ما تُغِبُّ ونائلٌ   وليس عطاءُ اليومِ مانِعَهُ غدا

ما تغب: لا تنقطع

أَجِدَّكَ لم تسمعْ وَصاةَ محمدٍ   نَبِيِّ الإلهِ حين أوصَى وأَشْهدَا

إذا أنتَ لم ترحَلْ بزادٍ مِنَ التُّقَى   ولاقيْتَ بعد الموتِ مَنْ قد تزوَّدَا

ندِمْتَ على أَلَّا تكونَ كمثلِه   وأنَّكَ لم تُرْصِدْ لِمَا كان أرْصَدا

تُرصد: تدَّخر

وذا النُّصُبُ المنصوبُ لا تَنْسِكَنَّهُ   ولا تعبُدِ الأوثانَ، واللَّهَ فاعبُدَا

وصَلِّ على حينِ العَشِيَّاتِ والضُّحى   ولا تَحمدِ الشيطانَ، واللَّهَ فاحمَدا

ولا تقربَنَّ جارةً إن سِرَّها   عليكَ حرامٌ، فانْكِحَنْ أو تأبَّدا

تأبدَ: تعزَّبَ، وبقي بلا اتصال مع النساء

١٠ الخيال الزائر

إن كنتِ لا تَشفينَ غُلَّةَ عاشقٍ   صَبٍّ بحبِّكِ يا جُبيْرةُ صادِ

غلة: عطش. صاد: عطشان

فانْهَيْ خيالَكِ أن يزورَ، فإنه   في كلِّ مَنزِلَةٍ يَعودُ وِسادي

١١ يؤامرني في الشمول

أَتـانـي يُـؤَامِـرُنـي فـي الـشَّـمـو لِ لـيـلاً، فـقـلـتُ لـه: غَـادِهـا

جاءني يشاورني في شرب الخمر ليلاً، فقلت له غادها، أي انطلق إليها مبكراً

فـقـام فـصـبَّ لـنـا قـهـوةً تُـسَـكِّـنُـنـا بـعـد إرْعـادِهـا

كُـمَـيْـتـاً تَـكَـشَّـفُ عـن حُـمْـرةٍ إذا صَـرَّحَـتْ بـعـد إزْبـادِهـا

صرحت: صفت من الرغوة. وتصريح الحليب زوال الرغوة عن وجهه، ومن هنا قولنا اليوم «بصراحة»

١٢ الليل الأعمى

ألا حَـيِّ مَـيَّـاً إذ أَجَـدَّ بُـكـورُهـا وعَرِّضْ بِقولٍ: هل يُفادَى أسيرُها

أجد بكورها: حدث تبكيرها بالرحيل، وقل لها على سبيل التعريض أما حان أن يفادى (يطلَقَ بفدية) أسيرك؟

فَـيـا مَـيَّ لا تُـدْلـي بـحـبـلٍ يـغُـرُّنـي وشَـرُّ حـبـالِ الـواصِـلـيـنَ غَـرورُهـا

فإن شئتِ أن تُهْدَيْ لِقومِيَ فاسألي عن العزِّ والإحسانِ أين مصيرُها

إن شئت هدايةً ومعرفةً بحقيقة قومي فهم أهل العز والإحسان

تـريْ أنَّ قِـدري لا تـزالُ كـأنَّـهـا لِـذي الـفَـرْوةِ الـمَـقْـرورِ أمٌّ يـزورُهـا

قدري (طنجرتي) مثل الأم التي يلجأ إليها المقرور (البردان) اللابس فروة الذي نزل بنا كي نطعمه

مـبـرَّزَةٌ لا يُـجْـعَـلُ الـسِّـتْـرُ دونَـهـا إذا أُخْـمِـدَ الـنـيـرانُ لاحَ بـشـيـرُهـا

مكشوفة قِدرنا لا يغطيها إلا دخان نارها، وهي تبشر الجائع بالطعام

إذا الشَّوْلُ راحتْ ثم لم تَفْدِ لحمَها بِألْبانِها ذاقَ السِّنَانَ عقيرُها

إذا الشول (النياق) راحت (رجعت من مراعيها) فعليها أن تفدي لحمها بأن تدر لنا اللبن، فإن لم تفعل فسوف يذوق الذبح بالسنان عقيرها (من سيذبح منها)

وإنـي لـتـرَّاكُ الـضَّـغـيـنـةِ قـد أرى قَذَاها مِنَ المَولى فلا أستثيرُها

نسب البيت إلى غير الأعشى، انظر القطعة ١١٧ من باب الحماسة في هذا الكتاب

وَقُورٌ إذا ما الجهلُ أعجبَ أهلَه ومِنْ خيرِ أخلاقِ الرجالِ وقورُها

وليلٍ يقولُ القومُ مِنْ ظُلُماتِه: سَواءٌ بَصيراتُ العيونِ وعورُها

تجاوزْتُه حتى مَضى مُدْلَهِمُّهُ ولاحَ مِنَ الشمسِ المضيئةِ نورُها

١٣ كن كالسموأل

قال يمدح شريح بن حصن بن عمران بن السموأل:

شُرَيْحُ لا تَترُكَنِّي بعدما عَلِقَتْ حبالُكَ اليومَ بعدَ القِدِّ أَظفَاري

لا تتركني يا شريح إذ تعلقت بك بعد القد (بعد أن أسروني وجعلوا في يدي القيود من أشرطة الجلد)

قد طُفْتُ ما بينَ بَانِقْيَا إلى عدنٍ وطالَ في العُجْمِ تَرْحالِي وتَسياري

فكانَ أَوْفاهُمُ عهداً، وأمنعَهُمْ جاراً، أبوكَ بِعُرْفٍ غيرِ إنكارِ

كان أوفى من سمعت به وأحماهم للمستجير به أبوك (يعني جدك الأعلى)، وهذا معلوم لا ينكره أحد

كالغيثِ ما استمطَرُوهُ جادَ وابِلُه وعند ذِمَّتِهِ المستأسِدُ الضَّاري

كنْ كالسَّمَوأَلِ إذ سَارَ الهُمامُ له في جَحفلٍ كَسَوادِ الليلِ جرَّارِ

كن كجدك السموأل عندما قصده الهمام (الشجاع، وهو الحارث بن ظالم) في جيش كبير كأنه سواد الليل..

بِالأبْلَقِ الفَرْدِ مِنْ تَيْمَاءَ منزلُه حِصْنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدَّارِ

كان منزل السموأل الحصن المسمى الأبلق، وهو حصن فرد لا شبيه له، والسموأل يجير ولا يغدر

إذْ سامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ، فقالَ له: مهما تقلْهُ فإنِّي سَامِعٌ «حَارِ»..

سامه الحارث (فرض عليه) خطتي خسف (خيارين ظالمين)، فقال له السموأل: ها أنا ذا أسمعك يا حارِ (يا حارث)

فقال ثُكْلٌ وغَدْرٌ أنتَ بينهُما فاخْتَرْ وما فيهِما حظٌّ لمختارِ

قال الحارث: ابنك بيدي قد أمسكت به خارج الحصن، وكان ذاهباً يصيد، وأمامك الثكل (أن تفقد ولدك)، والخيار الثاني الغدر، بأن تسلمني الدروع التي وضعها عندك امرؤ القيس وتغدر به ولا تفي له بالوعد في حفظ الدروع

فَشَكَّ غيرَ قليلٍ ثم قالَ له: أُقتُلْ أسيرَكَ إنِّي مانعٌ جاري

تردد السموأل، ثم قال للحارث اقتل ابني الذي تأسره، وسأمنع جاري (سأدافع عمن استجار بي)

إنَّ له خَلَفاً إنْ كنتَ قاتِلَه وإن قتلتَ كريماً غيرَ عُوَّارِ..

ولئن قتلت ابني فله من سيخلفة، مع أنه كريم غير عوار (غير جبان)

مالاً كثيراً وعِرضاً غيرَ ذي دَنَسٍ وإخْوَةً مثلَه ليسوا بأشرارِ

سيخلفه مال لي كثير، وعرض نقي، وإخوة له

جَـرَوْا عـلـى أَدَبٍ مِـنِّـي بِـلا نَـزَقٍ   ولا إذا شَـمَّـرَتْ حـربٌ بَـأَغْـمَـارِ

هم على أدب أدبتهم به، وليسوا متسرعين، وفي الحرب غير أغمار (غير قليلي الخبرة)

وسـوف يُـعْـقِـبُـنِـيـهِ إن ظـفِـرتَ بـه   ربٌّ كـريـمٌ وبـيـضٌ ذاتُ أَطْـهَـارِ

وسيعقبنيه (سيعوضني عنه) إن قتلته ربي الكريم، والنساء الشابات ذوات الأطهار (اللائي يأتيهن الحيض ومن بعده الطهر)

لا سِـرُّهُـنَّ لـديـنـا ضـائـعٌ مَـذِقٌ   وكـاتِـمـاتٌ إذا اسـتُـودِعْـنَ أسـراري

سرهن (جماعهن، والسر هو الجماع) لا يضيع سدى بل يؤدي إلى حمل، وهو غير مذق (غير ممزوج/يريد القول إنه جماع للاستيلاد، لا للذة)

فـقـالَ تَـقْـدِمَـةً إذْ قـامَ يـقـتُـلُـه: أَشْرِفْ سَمَوْألُ فانظُرْ للدَّمِ الجاري

أَأَقْتُلُ ابنَكَ صَبراً أو تَجِيءَ بِها   طَوْعـاً، فـأنْـكَـرَ هـذا أَيَّ إنـكـارِ

أأقتل ابنك صبراً (إعداماً) أم ستجيء بالدروع؟ فأنكر السموأل هذا الخيار كل الإنكار

فشَكَّ أوداجَه، والصَّدرُ في مَضَضٍ   عـلـيـه مُـنْـطَـويـاً كـالـلَّـذْعِ بـالـنـارِ

شك الحارث أوداج الفتى (عروق رقبته). وكان صدر الوالد في مضض (عذاب) على ابنه، ينطوي على نار تلذعه

واخـتـارَ أَدْرَاعَـهُ أنْ لا يُـسَـبَّ بـهـا   ولـم يـكـنْ عـهـدُه فـيـهـا بِـخَـتَّـارِ

اختار السموأل الحفاظ على الدروع حتى لا يُسب بقلة الوفاء، ولم يكن عهده ختاراً (خداعاً)

وقـال لا أشـتـرِي عـاراً بـمَـكْـرُمَـةٍ   فاختارَ مكرمةَ الدنيا على العارِ

والـصـبرُ مـنه قَـديـمـاً شيـمـةٌ خُـلُـقٌ   وزَنْـدُهُ فـي الـوفـاءِ الـثَّـاقِـبُ الـواري

الزند: أداة قدح النار، الثاقب: المشتعل، الواري: المتقد

١٤ الثبات

قال لبني جحدَر:

فـقـد صـبَـرْنـا ولـم نُـوَلِّ   ولـيـس مِـنْ شـأنِـنـا الـفِـرارُ

وقـد فَـرَرْتُـمْ ومـا صَـبـرتُـمْ   وذاكَ شَـيْـنٌ لـكُـمْ وعَـارُ

١٥ وقيدني الشعر في بيته

قال في سياق مدح قيس بن مَعْدِيكَرِب:

ففاضَتْ دمُوعِي كفيْضِ الغُرُو ... بِ إِمَّا وَكِيفاً وإمَّا انحِدارا

الغروب: الدلاء، السطول؛ وكيفاً: انهماراً

كما أسلَمَ السِّلْكُ مِنْ نَظْمِه ... لآلِئَ منحدِراتٍ صِغَارا

السلك: خيط العقد. يشبه دموعه بلآلئ قد انفرط عقدها وانتثرت

إلى حاملِ الثِّقْلِ عن أهلِه ... إذا الدهرُ ساق الهَناتِ الكبارا

أتوجه إلى هذا الممدوح الذي يحمل ثقل الهنات (الأزمات) عن أهله

ومَنْ لا تُفَزَّعُ جاراتُه ... ومَنْ لا يُرى حِلْمُه مُستعارا

وهو يجير النساء فلا يصل إليهن العدو لكي يسبيهن، وحلمه خلق أصيل

هو الواهبُ المئةَ المُصطفا ... ةَ إمَّا مِخاضاً وإمَّا عِشارا

يهب الناس المئة ناقة وفيهن المِخاض (من قاربت الوضع)، والعشار (من ثقلت بحملها)

فما أنا، أمْ ما انتِحَالي القَوافِـ ... ـيَ بعدَ المَشيبِ كَفَى ذاكَ عارا

كيف لي أن آخذ شعر غيري، وقد شاب الرأس؟ هذا عار

وقيَّدَني الشعرُ في بيتِه ... كما قَيَّدَ الآسِراتُ الحِمارا

تم تقييدي بسبب الشعر، مثلما تقيد الآسرات (السيور الجلدية) الحمار (الحمار هو الخشبة التي تصل بين قطع السرج/وكنا نسمي الحديدة التي بين مقعد الدراجة وبين مقودها «الجحش» ولعل هذا من ذاك). يتذكر الأعشى حادثة جرت له مع النعمان في شبابه إذ لم يصدق النعمان أنه صاحب الشعر، فحبسه في مكان حتى يصنع شعراً جديداً يثبت به أنه شاعرٌ حقاً

١٦ حكَّمْتموني

قال يهجو علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في منافرة جرت بين الرجلين:

شاقَتْكَ مِنْ «قَتْلَةَ» أطلالُها ... بالشطِّ فالوِتْرِ إلى حاجِرِ

دارٌ لها غيَّرَ آياتِها ... كلُّ مُلِثٌّ صَوْبُهُ، زَاخِرِ

غيَّر آيات (علامات) تلك الديار المطر الملث (المستمر)، الذي صوبه (سحابه) زاخر (مملوء ماء)

وقـد أراهـا وَسْـطَ أتـرابِـهـا   في الحيِّ ذي البهجةِ والسَّامِرِ

يتذكر حبيبته وسط صويحباتها

كَـدُمْـيَـةٍ صُـوِّرَ مـحـرابُـهـا   بِـمُـذْهَـبٍ مِـنْ مَـرْمَـرٍ مَـائِـرِ

كأنها لعبة وهي في محرابها (صدر البيت) المزين بالتذهيب على مرمر لامع يمور كما تمور المياه

يَشْفِي غَلِيلَ النفسِ لَاهٍ بِها   حَوْراءُ تَسْبِي نظرَ الناظرِ

عهدي بها في الحيِّ قد سُرْبِلَتْ   هيفاءَ مثلَ المُهرةِ الضَّامِرِ

على الأقل «قد سربلت»، أي هي لابسة شيئاً

لو أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى صدرِها   عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابِرِ

حتى يقولَ الناسُ ممَّا رَأَوْا: يا عجباً لِلمَيِّتِ النَّاشِرِ

دعْهَا فقد أعذَرْتَ في حبِّها،   واذْكُرْ خَنَا عَلقَمَةَ الفَاجِرِ

دعها (كلمة يذكرها الجاهليون عند الانتقال من موضوع إلى آخر في القصيدة)، فقد بينت عذرك في حبها بعد إذ عددت مفاتنها، فلا لوم عليك أنك أحببتها. ولنذكر خنا (فُحش) علقمة بن علاثة

سُدتَ بنِي الأحْوَصِ لم تَعْدُهُمْ   وعامرٌ سادَ بنِي عامرِ

يا علقمة أنت سيد فرع بني الأحوص ولم تعدهم (لم تتعدَّهم)، وأما عامر بن الطفيل فقد ساد كل القبيلة وهي بنو عامر

حكَّمْتُمونِي فقضَى بينَكُمْ   أَبلَجُ مثلُ القمرِ الباهرِ

حكمتماني في المنافرة بينكما، وأنا الأبلج (ذو الطلعة البهية)

لا يأخذُ الرَّشْوَةَ في حكمِه   ولا يَبالِي غَبَنَ الخاسرِ

علقمَ لا تَسْفَهْ، ولا تَجْعَلَنْ   عِرضَكَ للوَارِدِ والصَّادِرِ

قد قلتُ قولاً فقضى بينَكُمْ   واعترفَ المَنفورُ للنَّافِرِ

قلت لكما قولاً فقضى قولي بينكما، واعترف المنفور (الخاسر في المنافرة) للنافر (الفائز)

ولستَ في السِّلْمِ بذي نائلٍ   ولستَ في الهيجاءِ بالجَاسِرِ

وأنت يا علقمة لست ذا نائل (عطاء للآخرين) في السلم، ولست في الحرب بالجريء

عضَّ بما أبقَى المواسِي له   من أُمِّهِ في الزَّمنِ الغابِرِ

وليعض علقمة هذا ببظر أمه، على الأقل بما بقي من هذا العضو بعد أن أخذته المواسي (السكاكين) في الزمن الماضي

١٧ صيَّرتني الأمور إليك

قال يعتذر إلى علقمة بن علاثة على هجوه له، ذلك بعد أن ظفر به علقمة على بعض الروايات:

أَعَلْقَمَ قد صيَّرتْني الأمورُ إليكَ، وما كان لِي مَنْكَصُ

قد وقعت بيدك ولا منكص لي (رجوع)

كَساكُمْ عُلَاثَةُ أثوابَه ووَرَّثَكُمْ مجدَه الأَحْوَصُ

أبوكم علاثة ورثكم سمعته، والأحوص ورثكم المجد

وإنْ فَحَصَ الناسُ عن سيِّدٍ فسيِّدُكُمْ عنه لا يُفْحَصُ

فهبْ لي ذنوبي فَدَتْكَ النفوسُ ولا زِلْتَ تَنْمِي ولا تَنقُصُ

١٨ مسافر يعني مسافر!

قال يمدح هَوْذَةَ بنَ علي الحنفي:

تقولُ بِنْتي، وقد قَرَّبْتُ مرتحِلاً: يا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصابَ والوَجَعا

قالت بنتي وقد قربت ناقتي للرحيل: جنب يا رب أبي الأوصاب (الأوجاع)

واستَشْفَعَتْ مِنْ سَرَاةِ الحيِّ ذا شَرَفٍ فقد عَصَاها أَبُوها، والذي شَفَعا

طلبت شفاعة أحد ذوي الشرف من سراة الحي (وجهاء العشيرة)، لكن أباها عصاها وعصى الشفيع

مَهلاً بَنِيَّ فإنَّ المرءَ يبعَثُهُ هَمٌّ إذا خالَطَ الحَيْزُومَ والضِّلَعا

يا أبنائي، الذي يبعث المرء (يدفعه للرحيل) الهم الذي ينزل بالحَيزوم (الصدر) والأضلاع

عَليكِ مِثْلُ الذي صَلَّيْتِ، فاغتَمِضي يوماً فإنَّ لِجَنْبِ المرءِ مُضْطجَعا

لك يا ابنتي مني مثل ما صليت (مثل دعوتك لي)، فاغتمضي (اطمئني) فالمرء في النهاية سيضطجع ميتاً

واستَخْبري قافِلَ الرُّكْبانِ، وانتَظري أَوْبَ المسافرِ إن رَيْثاً وإن سَرَعا

اسألي قافل الركبان (العائدين على نياقهم) عن أخباري، وانتظري أوبي (عودتي) إن ريثاً (بطيئاً) وإن سرعا (سريعاً)

١٩ كشفنا عن جماجمنا

قال عن وقعة بين قبيلته بكر، وبين قبيلة أسد:

لما التَقينا كَشفْنا عنْ جَماجِمِنا لِيعلَموا أنَّنا بَكْرٌ فينصَرِفوا

كشفنا عمائمنا ليعرفوا أننا من بكر فينصرفوا، لكنهم قاتلونا

قَالوا: «البَقِيَّةَ»، والهِنديُّ يحصُدُهُمْ ولا بَقِيَّةَ إلّا النارُ فانْكَشَفوا

قالوا «البقية» (و«البقية» كلمة يصرخ بها المقاتلون من الطرفين أو من طرف واحد عندما يتبين أن القتل قد استحر، وأن من الأفضل للطرفين التوقف والإبقاء على من تبقى)، وقالوها والسيوف تحصدهم، ولم يبق لهم إلا الهزيمة فقد انكشف معسكرهم

وجُنْدُ كِسرى غَداةَ الحِنوِ صَبَّحَهُمْ مِنَّا كتائبُ تُزْجِي الموتَ فانصرَفوا

وكذا فإننا في معركة «الحِنو» ـ ذي قار ـ جئنا لجنود كسرى صباحاً بكتائب تزجي (تقدِّمُ) الموت

إذا أَمالوا إلى النُّشّابِ أيدِيَهُمْ مِلْنا ببِيضٍ، فَظَلَّ الهامُ يُختَطَفُ

إذا اختاروا الرمي بالنشاب (النبال) اخترنا البيض (السيوف) وأخذنا نختطف الهام (الرؤوس)

وخَيْلُ بَكْرٍ فما تَنْفَكُّ تَطحَنُهُمْ حتى تَوَلَّوْا وكادَ اليومُ يَنتَصِفُ

لو أنَّ كلَّ مَعَدٍّ كانَ شارَكَنا في يومِ ذي قَارَ ما أخطَاهُمُ الشَّرَفُ

معدّ: جد قبائل عرب الشمال كلهم من ربيعة ومضر معاً، وكانت ربيعة هي التي قامت بذي قار.
أخطاهم: أخطأهم وتجاوزهم

٢٠ وبات على النار الندى والمحلق

نزل الأعشى بالمحلق فأكرمه، وكان للمحلق ثلاث أخوات لم يتزوجن، فمدحه الأعشى بهذه القصيدة، فتهافت الناس على أخواته فتزوجن جميعاً. وثمة رواية تجعل للمحلق هذا ثماني بنات، وتلك الرواية تزوجهن جميعاً أيضاً:

أَرِقْتُ، وما هذا السُّهَادُ المؤَرِّقُ وما بِيَ مِنْ سُقْمٍ وما بِيَ مَعْشَقُ

وقد أَقْطَعُ اليومَ الطَّويلَ بِفِتْيَةٍ مَساميحَ تُسْقَى والخِبَاءُ مُرَوَّقُ

أقطع يومي مع فتية مساميح (ذوي سماحة) يسقَوْن الخمر في خباء مروق
(خيمة ذات رواق في مقدمها)

ورَادِعَةٍ بالمِسْكِ صَفْرَاءَ عندنا لِجَسِّ النَّدَامَى في يَدِ الدِّرْعِ مَفْتَقُ

ومعنا مغنية رادعة (ملطخة) بالمسك، وهي صفراء (شقراء، أو أنها صبغت وجنتيها بالزعفران)، وفي كم درعها (ثوبها) فتق مخصص كي يجس الندامى لحمها. هذا ترتيب رسمي للتجميش، أي التحسيس. وقد يكون الأعشى قصد شيئاً آخر ولكننا رأينا شيئاً كهذا في معلقة طرفة (انظر باب بقية المعلقات رقم ١) ففهمنا البيت هذا الفهم

إذا قُلْتُ غَنِّي الشَّرْبَ قامَتْ بِمِزْهَرٍ يَكادُ إذا دارتْ له الكَفُّ ينطِقُ

المزهر: العود

وشَاوٍ إذا شِئْنا كَمِيشٍ بِمِسْعَرٍ وصَهباءَ مِزْبَادٍ، إذا ما تُصَفَّقُ

رجل يشوي اللحم (لحم الحيوان) كميش (مشمر) ويحمل مسعراً (حديدة تقليب الجمر)، ومعنا صهباء (خمر صفراء) تصبح ذات زَبَد عندما تصفق (تصفًّى)

تُرِيكَ القَذَى مِنْ دونِها وَهْيَ دونَه إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتَمَطَّقُ

تظهر الشوائب الموجودة في قعر الكأس فكأنها في أعلاه. وقدم ثعلب في طبعة ردولف غاير رواية أخرى بكلمة «تحتها» بدل دونها، ولعلنا نخترع رواية أخرى «تريك القذى في سطحها وهو دونه». يريد أن يقول إن الخمر صافية جداً، والسلام. وأما يتمطق فمعناها يلصق لسانه بسقف حلقه وهو يتذوق هذه الخمر

وما كنتُ شَاحَرْدًا ولكنْ حَسِبْتُنِي إذا مِسْحَلٌ سَدَّى ليَ القَولَ أَنْطِقُ

لست شاحردا (فارسية، أي تلميذاً) ولكن، إذا سدَّى (أصلح) مسحل (اسم شيطان الأعشى) لي القول فأنا أنطق بالشعر

شَريكانِ فيما بينَنا مِنْ هَوَادَةٍ صَفِيَّانِ إِنْسيٌّ وجِنٌّ مُوَفَّقُ

أنا وشيطاني شريكان فيما يقع بيننا من هوادة (مخاطبة سلسة)، ونحن صفيان (صاحبان متصافيان)

يقولُ فلا أَعْيَا لِشَيءٍ أقولُه كَفَانِيَ لا عَيٌّ، ولا هُوَ أَخْرَقُ

أنا لست عَيًّا (ألكن، غير فصيح)، وهو ليس بأخرق (أحمق)

جِماعُ الهَوى في الرُّشْدِ أَدنى إلى التُّقَى وتَرْكُ الهَوى في الغَيِّ أَنْجَى وأَوْفَقُ

إذا حاجَةٌ وَلَّتْك لا تستطيعُها فخُذْ طَرَفاً مِنْ غيرِها حين تُسْبَقُ

لا تبك على ما فات، وابدأ بشيء جديد

فذلِكَ أدنَى أن تنالَ جسيمَها ولَلْقَصْدُ أَبْقَى في المَسيرِ وأَلْحَقُ

القصد: الاعتدال، يبقي على قوتك في السير ويجعلك تلحق بما تريد اللحاق به

لَعَمْري لقد لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفَاعِ تَحَرَّقُ

اليفاع: الهضبة

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِها وباتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ

النار تشب (توقد) لمقرورين (شخصين يشعران بالبرد).. وهما الندى (الكرم) والمحلق. أعجب القدماء جداً بما في هذا البيت من اختصار: فالمحلق والسخاء شخصان في شخص واحد، فالمحلق مرادف للكرم

رَضِيعَيْ لِبانِ ثَدْيِ أمٍّ تَحَالَفا بِأَسحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

المحلق والسخاء أخوان رضعا حليباً واحداً، من حلمة نهد سحماءً (سوداء)، وقالا لن نفترق عوض (أبداً). أو أن الأسحم هو الليل الذي قعد فيه المحلق يصطلي

يَـدَاكَ يـدا صِـدْقٍ فَـكَـفٌّ مُـفِـيـدَةٌ   وأخـرى إذا مـا ضُـنَّ بـالـزَّادِ تُـنـفِـقُ
ترى الجودَ يجري ظَاهراً فوق وجهِه   كـمـا زانَ مـتـنَ الـهُـنـدُوانِـيِّ رَوْنَـقُ

الجود يجعل وجه المحلق يشرق كما يزين سطح السيف الرونق (البريق)

نَفَى الذمَّ عن آلِ المحلَّقِ جَفْنَةٌ   كجابِيَـةِ السَّيْـحِ العِـرَاقِيِّ تَفْهَقُ

آل المحلق تجنبوا الذم بجفنة (قصعة) كبيرة مثل جابية السيح العراقي (حوض الفيضان في الفرات بالعراق) تفهق (تفيض)

٢١ ذُوقي غيري

قال وقد طلق امرأته المزنية:

أيـا جَـارتـي بِـيـنـي فـإنَّـكِ طَـالـقـةْ   كَـذاكِ أُمـورُ الـنـاسِ غَـادٍ وطَـارِقَـةْ

يا جارتي (يقصد زوجتي) بيني (فارقي)، فالأمور هكذا غادية (آتية صباحاً) أو طارقة (آتية ليلاً)

ومـا ذاكَ مِـنْ جُـرْمٍ عـظـيـمٍ جَـنَـيْـتِـهِ   ولا أن تَـكُـونـي جـئـتِ فـيـنـا بِـبـائِـقَـةْ

ليس من ذنب لك، ولا أنت جئت ببائقة (مصيبة)

وبِـيـنـي حَـصَـانَ الـفَـرْجِ غـيـرَ ذَمـيـمـةٍ   ومَـومُـوقَـةً فـيـنـا كـذاك ووامِـقَـةْ

فارقي وأنت حصان الفرج (عفيفة)، وموموقة (محبوبة) ووامقة (مُحِبَّة)

وذُوقـي فَـتـى قَـومٍ فـإنِّـيَ ذَائِـقٌ   فـتـاةَ أُنـاسٍ مـثـلَـمـا أنـتِ ذَائـقَـةْ

تمتعي بغيري، وسأتمتع بغيرك

٢٢ درة الغواص

في هذه القصيدة تشبيه طويل، كان صنعه المسيب بن علس، خال الأعشى، وكان شاعرنا راوية له. والحكاية عند المسيب في قصيدته «أصرمت حبل الوصل من فتر» آنق منها عند الأعشى. وسيسرق الفرزدق التشبيه ويمضي به إلى الغاية، على أن تشبيه الفرزدق أقرب إلى تشبيه المسيب بن علس منه إلى تشبيه الأعشى. قال الأعشى:

أَسْهُو لِهَمِّي ودائي، فَهْيَ تُسْهِرُني   بانَتْ بقلبي، وأَمْسى عندَها غَلِقَا

ذهبتْ آخذةً قلبي معها، وأمسى قلبي معها غلقاً (غير ممكن فكاكه، كالرهن الذي ينتهي أمده)، فالحلية المرهونة تصبح ملكاً للحائز الثاني بعد أمد معلوم

كـأَنَّـهـا دُرَّةٌ زَهْـراءُ أَخـرجَـهـا   غَوَّاصُ دَارِينَ يَخْشَى دونَها الغَرَقَا

كأن المحبوبة لؤلؤة لامعة أخرجها غواص من دارين بالبحرين، وكان يخشى بسببها الموت غرقاً

قـد رَامَـهـا حِـجَـجَـاً مُـذْ طَـرَّ شـارِبُـهُ　　　حتى تَـسَـعْـسَـعَ يرجُـوها وقـد خَـفَـقـا

وكان قد رامها (طلبها) سنوات، منذ أن نبت شاربه حتى تسعسع (كبر واهتزت مشيته)، وهو على الدوام يرجو الحصول عليها

لا الـنَّـفْـسُ تُـوئِسُـهُ منهـا فـيتـركَـهـا　　　وقد رأى الرَّغْبَ رأيَ العينِ فاحتَرَقا

لا ييأس منها فيتركها، وقد بدا له هذا الرغب (الشيء المرغوب) ورآه بعينه فاحترق فؤاده

ومَـاردٌ مِـنْ غُـوَاةِ الـجِـنِّ يَـحْـرُسُـهـا　　　ذو نِـيـقَـةٍ مُـسْـتَـعِـدٌّ دونَـهـا تَـرَقـا

وهذه اللؤلؤة يحرسها مارد جني شرير ذو نيقة (تأهب) وقد استعد (أعدَّ) قربها ترقا (درجاً لا بد من الارتقاء فيه للحصول عليها)

ليستْ له غَفْلَةٌ عنها، يُطيفُ بها　　　يَخشَى عليها سُرَى السَّارِينَ والسَّرَقا

الجني لا يغفل عن اللؤلؤة، وهو يحوم حولها، يخشى اعتداء من يمر بجانبها، وسرقتها

مَنْ نالَها نالَ خُلْداً لا انقِطاعَ له　　　وما تمنَّى، فأَضْحَى ناعِماً أَنِقَا

من نال اللؤلؤة كانت له دوام الثروة، والعيش الناعم الأنيق

تلكَ التي كَلَّفَتْكَ النفسُ تأمُلُها　　　وما تعلَّقْتَ إلا الحَيْنَ والحَرَقَا

فمثل هذه اللؤلؤة محبوبتك الصعبة التي تؤمل نفسك بالحصول عليها، ولكنك ما اقتربت إلا من الحيْن (الموت) والحَرَق (النار)

٢٣ إنني منهم

إنَّـــنـي مِــنْــهُــمُ، وإنَّــهُــمُ قَــوْ　　　مــي وإنِّــي إلَــيْــهِــمُ مُــشْــتَــاقُ

اَلـمُـهِـيـنِـيـنَ مَـالَـهُـمْ لِـزمـانِ الـسُّـ　　　ـوءِ حــتــى إذا أَفـــاقَ أفـــاقُـــوا

٢٤ حمَّال الأعباء

قال يمدح هَوْذَةَ بن علي الحنفي، زعيم حنيفة باليمامة:

وخَرْقٍ مَخُوفٍ قد قَطَعْتُ بِجَسْرةٍ　　　إذا الجِبْسُ أَعْيَا أن يَرومَ المَسَالِكا

رب خرق (خلاء) يخافه الناس قطعته بجسرة (ناقة ضخمة)، بينما الجبس (الجبان) يعجز أن يروم (يطلب) سلوك هذه الطرق

بِـأَدْمَـاءَ حُـرجُـوجٍ بَـرَيْـتُ سَـنَـامَـهـا　　　بِـسَـيْـرِي عـلـيـهـا بـعـدَمـا كـانَ تَـامِـكـا

عبرت بأدماء (ناقة بيضاء) حرجوج (قوية) بريت سنامها برياً (والناقة مع المشي الشديد تفقد شحم السنام فيهزل) وكان سنامها من قبل تامكاً (سناماً مكتنزاً)

إلى هَوْذَةَ الوَهَّابِ أَهْدَيْتُ مِدحَتي ... أُرَجِّي نَوالاً فاضِلاً مِنْ عَطائِكا
فتىً يحملُ الأعباءَ لو كان غيرُهُ ... مِنَ الناسِ لم ينهضْ بها مُتَماسِكا
وأنتَ الذي عوَّدتَني أن تَريشَني ... وأنت الذي آويتَني في ظِلالكا

تريشني: تُنبت لي الريش كما ينبت ريش الطائر بالغذاء

وما ذاكَ إلّا أنَّ كَفَّيْكَ بالنَّدَى ... تَجُودانِ بالإعطاءِ قبل سُؤَالِكا
ورَبَّيْتَ أيْتاماً، وألحَقْتَ صِبْيَةً ... وأدْركْتَ جَهْدَ السَّعْيِ قبلَ عَنَائِكا

ربيت الأيتام، واستكملت تربية الصبية، وأدركت جهد السعي (غاية السخاء) قبل أن تتعب

٢٥ كل من فوقها لها

قال في شيء كان بينه وبين بني عباد وبني مالك:

فَيا أخَوَيْنا مِنْ عِبادٍ ومَالِكٍ ... ألم تَعلما أنْ كلُّ مَنْ فوقَها لها

كل من فوق الأرض سيصبح تحتها

وكائِنْ دفَعْنا عنكُمُ مِنْ مُلِمَّةٍ ... وكُرْبَةِ موتٍ قد بَتَتْنَا عِقالَها

وكثيراً ما دفعنا عنكم من ملمة (من أزمة) ومن كربة مميتة بتتنا عقالها (قطعنا حبلها قبل أن تتصل بكم)

وأرملةٍ تسعَى بِشُعْثٍ كأنَّها ... وإيَّاهُمُ رَبْداءُ حَثَّتْ رِئالَها

ورب أرملة تسير بأطفال شعث (جمع أشعث وهو المضطرب الهيئة والثياب) فكأنها معهم ربداء (نعامة) تسوق رئالها (صغار النعام)

هَنَأْنا ولم نَمْنُنْ عليها فأصْبحتْ ... رَخِيَّةَ بالٍ قد أزَحْنا هُزالَها

أنجدناها دون منٍّ، وأرحنا بالها، وأطعمناها

٢٦ ذكرى قُتيلة

صحا القلبُ مِنْ ذكرى «قُتَيْلَةَ» بعدما ... يكونُ لها مثلَ الأسيرِ المكبَّلِ
لها قَدَمٌ رَيَّا سِبَاطٌ بنانُها ... قد اعتدلَتْ في حُسْنِ خَلْقٍ مُبَتَّلِ

يصف صاحبته فقدمها سمينة ذات أصابع طويلة، وهي ذات قد معتدل وخلق مبتل (جسم متناسق)

وساقانِ مَارَ اللَّحْمُ مَوْراً عليهِما ... إلى منتهى خَلْخَالِها المُتَصَلْصِلِ

وساقاها ممتلئتان تترجرجان باللحم الذي يمور (يرتج كالماء)، وساقاها ممتلئتان حتى الخلخال المتصلصل (الرنان)

إذا التُمِسَتْ أُرْبِيَّتاها تَسانَدَتْ لها الكَفُّ في رَابٍ مِنَ الخَلْقِ مُفْضِلِ

إذا التُمست (لُمست) أربيتاها (فلقتا عجيزتها) تساندت الكف لها (استندت إليها) فكانت ذات خَلق راب (خلقة مرتفعة) مفضل (زائد عن المعتاد). يصف عجيزتها بأنها كبيرة

إلى هَدَفٍ فيه ارتفاعٌ تَرى له مِنَ الحُسْنِ ظِلَّاً فوق خَلْقٍ مُكَمَّلِ

ثم ينطلق صاحبنا إلى وصف «هدف»؛ فذلك الشيء الذي لا يسمى مرتفع، ويشكل شبه هضبة تترك على جسم الفتاة ظلاً

إذا انبَطَحَتْ جَافَى عن الأرضِ جنبُها وخَوَّى بها رابٍ كَهَامَةِ جُنْبُلِ

إذا انبطحت على جنبها فخصرها يرتفع عن الأرض، ويظهر ذلك الهدف الرابي الذي يشبه رأس الجنبل (القدح الخشبي). هذا هو المعنى الملموح. ولم يشرح لنا ثعلب في نسخته التي نشرها غاير هذه القصيدة

إذا ما عَلاها فَارسٌ مُتَبَذِّلٌ فنِعْمَ فِراشُ الفارسِ المتبذِّلِ

إذا علاها رجل متبذل (يلبس ثياب المنزل)، فهي خير فراش له

يَنوءُ بها بُوصٌ إذا ما تفضَّلَتْ تَوَعَّبَ عَرْضَ الشَّرْعَبِيِّ المُغَيَّلِ

يتعبها بوصها (مؤخرتها)، وإذا تفضلت (لبست لباساً خفيفاً) فهذا الجزء من جسمها يتوعب (يملأ) الشرعبي (الثوب) المغيل (الواسع)

رَوَادِفُهُ تَثْني الرِّدَاءَ تَسانَدَتْ إلى مثلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ المُتهَيِّلِ

روادف عجيزتها تجعل الرداء يتثنى ـ لا سيما مع دقة خصرها ـ وهذه الأرداف تفضي إلى المؤخرة التي تشبه دعص (كثيب) الرمل المتهيل (غير المتماسك)

وثَدْيانِ كالرُّمَّانتيْنِ، وجِيدُها كَجِيدِ غزالٍ غيرَ أنْ لم يُعَطَّلِ

جيدها (عنقها) كعنق غزال، لكنه لم يعطل (لم يعدم الحلي)

فدعْها وسَلِّ الهَمَّ عنكَ بِجَسْرَةٍ تَزَيَّدُ في فَضْلِ الزِّمَامِ، وتَغْتَلي

فدعها.. يريد أن يغير الموضوع.. وانس الهم بجسرة (ناقة ضخمة) تتزيد (تمد عنقها للأمام ماضية بسرعة) جاذبة بقية الزمام المربوط بعنقها، وتغتلي (تسرع)

فَأَيَّةُ أرضٍ لا أَتَيْتُ سَراتَها وأَيَّةُ أرضٍ لم أَجُبْها بِمِرْحَلِ

زرت السراة (الوجهاء) في كل أرض، وجبت كل أرض بِمِرحل (بجمل قوي)

ونحن رَدَدْنا الفَارسيِّينَ عَنوةً ونحن كسرنا فيهِمُ رُمْحَ عَبدَلِ

رددنا الفرس في «ذي قار» وكسرنا فيهم رمح عبد القيس، كناية عن هزمهم

٢٧ أصبت طحالها

قال يمدح قيس بن معديكَرِب:

رحلَتْ سُميَّةُ غُدْوَةً أجمالَها غَضبَى عليكَ فما تقولُ بَدا لها؟

رحلت سمية أجمالها، أي وضعت الرحال فوق الجمال، صباحاً، وهي غضبى عليك، فما سبب الغضب يا ترى؟

سَفَهاً، وما تَدري سُمَيَّةُ ويحَها أن رُبَّ غانِيَةٍ صَرَمْتُ حِبَالها

لعله سفاهة منها، وهي لا تعلم أن ثمة غانية قد قطعت علاقتي بها، وسمية ليست أحسن من غيرها فلتحذر!

ومَصابِ غادِيَةٍ كأنَّ تِجارَها نَشَرَتْ عليه بُرودَها ورِحالَها

رب مكان هو مصاب غادية (المكان الذي أصيب بمطر السحابة) والمكان فيه أزهار شتى ونبات فكأن التجار نشروا فوقه أقمشتهم ورحالهم (متاعهم)

قد بِتُّ رائدَها؛ وشاةِ مُحاذِرٍ حَذَراً يُقِلُّ بعينِه أَغْفالَها

قد كنت رائد هذه السحابة، والرائد هو الرجل الذي يتقدم قبيلته باحثاً عن مواضع العشب. فقد أتيت إلى هذا الموضع الذي نزل به قوم، وهناك شاة محاذر (زوجة رجل شديد الحذر غيرة عليها) وهو يتعقب بعينيه مواضع الغفلة حفاظاً على امرأته. هذا هو المعنى الملموح

فظَلِلْتُ أرعاها، وظَلَّ يحُوطُها حتى دَنَوْتُ إذا الظلامُ دنَا لها

ظللت أراقبها، وظل يحوطها بنظره، فإذا ما دنا الظلام دنوت إليها

فرميْتُ غَفْلَةَ عينِه عن شاتِه فأصبتُ حَبَّةَ قلبِها وطِحَالَها

رميت غفلته عنها فأصبت هذه المرأة وحصلت عليها. طبعاً هو كذاب.. فقط يحب أن يرى نفسه غازياً زانياً. والنقاد القدامى سخروا من هذا البيت، ليس للزنا، بل لأن الطحال لا يدخل الشعر إلا أفسده

حَفِظَ النهارَ وباتَ عنها غافلاً فخَلَتْ لِصاحِبِ لَذَّةٍ وخَلا لَها

زوجها حفظها بالنهار، وغفل عنها في الليل، فخلا الجو لي

وسَبِيئةٍ ممَّا تُعَتِّقُ بابِلٌ كَدَمِ الذبيح سلَبْتُها جِرْيَالَها

يغير الموضوع: رب سبيئة (خمرة مشتراة) معتقة من زمن بابل، وهي حمراء كالدم، وشربتها وبُلتُها بيضاء فكأنني سلبتها جريالها (لونها). التفسير من ثعلب عن أبي عمرو بن العلاء

وغَريبةٍ تَأتي الملوكَ حكيمةٍ قد قلتُها ليقالَ مِنْ ذا قالَها

ورب قصيدة غريبة (ترتحل على أفواه الرواة فهي موجودة بكل أرض لذا فهي غريبة) وأنا بها مفتخر، وما قلتها إلا لكي يتعجب الناس ويقولوا من الذي قالها؟

وجَزورِ أيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِها   ونِياطِ مُقْفِرَةٍ أخافُ ضَلالَها

ورب جزور أيسار (ناقة يجري عليها الميسر لاقتسام لحمها)، ورب نياط مقفرة (مجال صحراء جدبة) أخاف الضياع فيها، لكنني قطعتها..

ولقد نزلتُ بخيرِ مَنْ وَطِئَ الحَصَى   قَيْسٍ، فَأثْبَتَ نعلَها وقِبالَها

ونزلت ضيفاً على خير البشر، وهو قيس، فأثبت نعل ناقتي وقبالها (شسع النعل، سير يربط به نعلها). وكانت الناقة تشكو الحفا لطول السير فلعلهم كانوا يعينونها بنعل. فالممدوح أراح له ناقته كناية عن أنه كفاه السفر بما أعطاه من مال

فكأنها لم تَلْقَ ستةَ أشهُرٍ   ضُرّاً إذا وَضَعَتْ إليكَ جِلالَها

كأن الناقة، عندما وضعت عندك جلالها (ما يجللها من رحل وسرج)، لم تلق التعب ستة أشهر. الأصمعي يقول: هو كَيْذَبان، ولا أراه سار إلى ممدوحه أكثر من عشرين يوماً

عَوَّدْتَ كِنْدَةَ عادةً فاصْبِرْ لها   اِغفِرْ لِجَاهِلِها، وَرَوِّ سِجَالَها

عودت قبيلتك كندة على كرمك فاصبر لما يصنعه الجاهل، ورَوِّ سجالها (املأ دلاءها)

وإذا تَحُلُّ مِنَ الخُطُوبِ عَظِيمَةٌ،   أهلي فداؤُكَ، فاكْفِهِمْ أثقالَها

وإذا حل بقومك مكروه فاحمل عنهم ثقله

٢٨ ما بكاء الكبير بالأطلال

قال يمدح الأسود بن المنذر اللخمي:

ما بكاءُ الكبيرِ بالإطلالِ   وسؤالي، فهل تَرُدُّ سؤالي؟

ما قيمة بكاء الكبير بأطلال الأحبة؟ وما قيمة سؤالي عمن رحلوا ولا ردَّ عند الطلول؟

دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاوَرَها الصَّيْـ   ـفُ بِريحيْنِ مِنْ صَبَاً وشَمَالِ

هذه دمنة (خربة) مقفرة، تعاورها الصيف (تجاذبها) بريحي الصبا والشمال

لاتَ هَنَّا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ أَوْ مَنْ   جاءَ مِنها بِطَائِفِ الأَهْوالِ

لات هَنَّا ذكرى جبيرة: ليس هذا موضع تذكر جبيرة، أو من حمل أخبار هجرها المؤلمة

رُبَّ خَرْقٍ مِنْ دونِها يُخْرِسُ السَّفْـ   ـرَ، ومِيلٍ يُفضي إلى أَميالِ

رب خرق (صحراء واسعة) بيني وبين جبيرة، يجعل السفْر (المسافرين) يصمتون، ورب ميل يؤدي إلى أميال (الميل قياس مسافة، وهو «مد البصر» فكل ما ناله بصرك داخل في الميل، والميل كلمة يونانية معناها ألف، وعند اليونان والرومان فالميل ألف خطوة، وأخذنا الكلمة في جاهليتنا وفسرناها على كَيْفنا)

وادّلاج بعدَ المَنامِ وتَهجيـ ـرٍ وقُفٍّ وسَبْسَبٍ ورِمَالِ
ورب ادِّلاج (سير ليلي) وتهجير (سير في النهار)، وقفّ (أرض وعرة) وسبسب (أرض مستوية)

فَلَئِنْ شَطَّ بي المَزارُ، لقدْ أغْـ ـدُو قليلَ الهمومِ نَاعِمَ بَالِ
فلئن شط (ابتعد) بي المزار (التغرب) فقد كنت قليل الهموم منعماً من قبل بصحبة الحبيبة

فاذهبي، ما إليكِ أدرَكَني الحِلْـ ـمُ، عَداني عن ذِكْرِكُمْ أشغالي
فاذهبي أيتها الحبيبة فقد أدركني الحلم (كبرت)، وانشغلت بغير ذكرك

٢٩ الأرض حمَّالة

قال يمدح سلامة ذا فائش:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مرتَحَلا وإنَّ في السَّفْرِ ما مَضَى مَهَلا

إن للمرء محلاً وإن له مرتحلاً في هذه الدنيا، والسفر (المسافرون) ما داموا ماضين في طريقهم فليمضوا متمهلين

إستأثَرَ اللَّهُ بالوفاءِ وبالـ ـعدْلِ ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلا

ومن هذا البيت استنتج القدماء أن الأعشى كان يقول بأن الإنسان مخير

والأرضُ حمَّالَةٌ لِمَا حَمَّلَ الـ ـلَّهُ، ومَا إنْ تَرُدُّ ما فَعَلا

ليس في هذه الأبيات معنى غريب، ولكن لها جرساً جميلاً

قَلَّدْتُكَ الشِّعْرَ يا سَلامَة ذا التَّـ ـفْضَالِ، والشَّيءُ حيثُما جُعِلا
أي أنت تستحق هذا المدح، فهذا مكانه المناسب. وأعجب الممدوح بهذا البيت، وأعطى الأعشى كرشاً مملوءة عنبراً، ونبهه على قيمتها حتى لا يخدعه التجار

والشِّعْرُ يَستَنْزِلُ الكريمَ كما اسـ ـتَنْزَلَ رَعْدُ السَّحابَةِ السَّبَلا
الشعر يستنزل (يستدر) المال من الكريم كما يستدر الرعد ـ في كتاب العلوم الذي درسه الأعشى ـ السبل (المطر) من السحاب

٣٠ ستندم

قال الأعشى يهجو عمير بن عبد الله بن المنذر:

لئنْ كنتَ في جُبٍّ ثَمانينَ قَامَةً ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ..

لو كنتَ في بئر عمقها ثمانون قامة، ولو صعدت إلى السماء بسلم..

لَيَسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتَّى تَهِرَّهُ　　　وتعلَمَ أنّي عنكَ لستُ بِمُلْجَمِ
فسوف يستدرجك تبادل الاتهامات حتى تكره ذلك، وحتى تعلم أنني لست ملجماً (صامتاً عنك)

وتَشْرَقُ بالقولِ الذي قد أذعتَه　　　كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ مِنَ الدَّمِ
وستشرق بما قلت ونشرت، مثلما يشرق صدر القناة (أعلى الرمح) بالدم

فمَا أنتَ مِنْ أهلِ الحُجُونِ ولا الصَّفَا　　　ولا لَكَ حَقُّ الشُّرْبِ مِنْ ماءِ زَمْزَم
الحجون والصفا موضعان بمكة

٣١ شارب السخاميَّة

ألَمَّ خيالٌ مِنْ قُتَيْلَةَ بعدَما　　　وَهَى حبلُها مِنْ حبلِنا فَتَصَرَّمَا
جاءني طيفها بعدما وهى حبلها فتصرم (أصبحت علاقتنا واهية ضعيفة، ثم انقطعت)

فبِتُّ كأنِّي شَاربٌ بعدَ هجْعَةٍ　　　سُخَامِيَّةً حمراءَ تُحسَبُ عَنْدَمَا
كأني شربت بعد هجعة (بعدما نام الناس) خمراً سخامية (سلسلة تنزلق في الحلق) يحسبها الرائي عَندماً (والعندم نبات ذو ثمر أحمر)

لها حَارِسٌ ما يبرَحُ الدَّهْرَ بيتَها　　　إذا ذُبِحَتْ صَلَّى عليها وزَمْزَمَا
هذه الخمر يحرسها خمار لا يفارق بيتها، فإذا ذبحت (أي شُقَّ دنها بالمبزل) صلى وزمزم (قال كلاماً غير مفهوم بلغته فكأنه يدعو بدعاء عند ذبح الدن)

٣٢ التي تستل الزكام

قال يمدح إياس بن قَبِيصة الطائي:

وقد قالتْ قُتَيْلَةُ إذْ رأَتْني　　　وقد لا تَعْدَمُ الحسناءُ ذَامَا..
قالت قتيلة، و«لا تعدم الحسناء ذاما» مثل قديم أي أن لكل حسناء عيباً

أراكَ كَبِرْتَ، واستَحدَثْتَ خُلْقاً　　　وودَّعتَ الكَواعِبَ والمُدَاما
تقول له كبرت وتغيرت طباعك ولم تعد تهتم بالكواعب (الفتيات برزت صدورهن)

فإنْ تَكُ لِمَّتي يا «قَتْلُ» أَضْحَتْ　　　كأنَّ على مَفارِقِها ثَغَاما
إن أضحت لمتي (شعري) وكأن عليها الثغام (نبت له زهر أبيض)

وأَقْصَرَ بَاطِلي، وصَحَوْتُ حتَّى　　　كأَنْ لم أجْرِ في دَدَنٍ غُلاما
ولئن أقصر باطلي (كففت عن اللهو) وصحوت عن عبثي حتى كأنني لم أكن أجري في الددن (اللعب) كالغلام

فــإنَّ دوائــرَ الأيــامِ يُــفْــنــي تـتـابُعُ وقـعِهـا الـذكـرَ الـحسـامـا

فإن دوائر (مصائب) الزمن يفني تواليها السيف الذكر (القاطع)

وأدْكَـنَ عـاتِـقٍ جَـحْـلٍ سِـبَـحْـلٍ صَـبَـحْـتُ بـراحِـهِ شَـرْبـاً كِـرامـا

رب دن خمر كبير داكن اللون لما طلي به من قار، وهو جحل وسبحل (كبير) وقد جئت بخمرته صباحاً لشرب (شاربين) كرام

مِـنَ الـلَّاتـي حُـمِلْـنَ عـلى الـرَّوَايا كَـريـحِ الـمسـكِ تَـسْـتَـلُّ الـزُّكَـامَـا

هذا الدن من الدنان التي حملت على الروايا (جمال نقل الماء)، ورائحة خمره كالمسك يضيع منها أثر الزكام

٣٣ قتلنا القَيْل هامَرْز

قال يفتخر بيوم ذي قار:

أُبــاةُ الــضَّــيْــمِ لا يُــعــطــو نَ مَــنْ عَــادَوْهُ مَــا حَــكَــمــا

أَبَــتْ أعــنــاقُــهُــمْ عِــزّاً فَـمَـا يُـعْـطُـونَ مَـنْ غَـشَـمـا

غشم: ظلم

عــلــى جُــرْدٍ مُــسَــوَّمَــةٍ عَــوابِــسَ تَـعـلُـكُ الـلُّـجُـمـا

يركبون الجرد المسومة (الخيل ذات الشعر القصير والمعلمة بعلامة تميزها) وهي كالعابسة وتعلك اللجم (جمع لجام) متحفزة

قَـتَـلْـنـا الـقَـيْـلَ هَـامَـرْزٍ ورَوَّيْـنَـا الـكَـثـيـبَ دَمـا

القيل: الملك، هامرز: قائد الفرس في ذي قار

٣٤ تقول ابنتي حين جد الرحيل

قال يمدح قيس بن معديكرب:

ومـا مُـزْبِـدٌ مِـنْ خـلـيـجِ الـفُـرا تِ جَـوْنٌ غَـوارِبُـهُ تَـلْـتَـطِـمْ . .

يبدأ تشبيهاً: ليس ماء الفرات المزبد (الذي علاه زبد من الموج) الجون (الأبيض) غواربه تلتطم (أمواجه تتلاطم). . (والجون كلمة تعني أسود وتعني أبيض، هي من الأضداد)

يَـكُـبُّ الـخَـلِـيَّـةَ ذاتَ الـقِـلا عِ، قَـدْ كـادَ جُـؤْجُـؤُهـا يَـنْـحَـطِـمْ . .

يكب الخلية (يقلب السفينة) ذات القلاع (الأشرعة) حتى ليكاد جؤجؤها (صدرها) يتحطم . .

تَـكَـأْكَـأَ مَـلَّاحُـهـا وَسْـطَـهـا   مِنَ الـخـوفِ كَـوْثَـلَـها يَـلْـتَـزِمْ . .
والملاح يتكأكأ (يتمايل)، ثم يلتزم كوثَلَها (يمسك بمؤخرتها التي لم تغرق بعد). .

بِـأَجْـوَدَ مِـنْـهُ بِـمـا عِـنْـدَهُ   إذا مـا سـمـاؤُهُـمُ لـم تَـغِـمْ
ليس الفرات الموصوف أعلاه أجود من قيس عندما ينحبس المطر ولا يوجد غيم في سماء القوم

تقولُ ابنَتي حين جَدَّ الرَّحيلُ   أرانـا سَـواءً وَمْـنْ قـد يَـتِـمْ
يتم: صار يتيماً

أبـانـا فَـلَا رِمْـتَ مِـنْ عـنـدِنـا   فـإنَّـا بِـخَـيْـرٍ إذا لـم تَـرِمْ
رام يريم: رحل

ويَـا أَبَـتَـا لا تَـزَلْ عِـنْـدَنـا   فـإنَّـا نـخـافُ بـأنْ تُـخْـتَـرَمْ
تخترم: تموت

أرانَـا إذا أَضْـمَـرَتْـكَ الـبِـلا   دُ نُجْفَى وتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ
إذا أضمرتك البلاد (أخفتك وجعلتك في ضميرها) فسوف يجفونا الأقارب

أفي الطَّوْفِ خِفْتِ عَلَيَّ الرَّدَى؟   وكَـمْ مِـنْ رَدٍ أهْـلَـه لـم يَـرِمْ
يجيبها: السفر لا يميت، وكم من رد (ميت) لم يرحل عن أهله

وقـد طُـفْـتُ لِـلْـمـال آفَـاقَـهُ   عُـمَـانَ فَـحِـمْـصَ فَـأُوريـشَـلِـمْ
أَتَـيْـتُ الـنَّـجَـاشِـيَّ فـي أرضِـه   وأرضَ الـنَّـبِـيـطِ وأرضَ الـعَـجَـمْ
يقول المثل الفلسطيني: «لا أكذبَ من شاب تغرب إلا شيخ ماتت أجياله» والأعشى جمع الاثنتين فهو تغرب كثيراً وعاش حتى الثمانين، ولا شيء يثبت أنه عبر البحر إلى الحبشة

٣٥ خير أهل اليمن

قال يمدح قيس بن معديكرب:

لَـعَـمْـرُكَ مَـا طُـولُ هـذا الـزَّمَـنْ   عـلـى الـمـرءِ إلَّا عَـنـاءٌ مُـعَـنّ
معنّ (أي يُعَنّي ويتعب)

يَـظَـلُّ رَجِـيـمـاً لِـرَيْـبِ الـمَـنـونِ   ولِـلـسُّـقْـمِ فـي أهـلِـه والـحَـزَنْ
المرء يظل رجيماً للموت (معرضاً للرجم من الموت)

ومـا إنْ أرى الـدهـرَ فـي صَـرْفِـهِ　　يُـغـادِرُ مِـنْ شَـارِخٍ أو يَـفَـنْ

شارخ: فتى، يفن: شيخ

فـهـل يَـمْـنَـعَـنِّـي ارتِـيـادي الـبِـلا　　دَ مِـنْ حَـذَرِ الـمـوتِ، أنْ يَـأْتِـيَـنْ

في البيت تقديم وتأخير لا يكاد به المعنى يستقيم وإن كان في غاية الوضوح: الامتناع عن السفر لا يمنع الموت أن يأتي

وأَقْـرَرْتُ عـيـنـي مِـنَ الـغَـانـيـا　　تِ إمَّـا نِـكَـاحـاً وإمَّـا أزَنّ

نلت شبعاً من ذلك الشيء، إما زواجاً وإما زنىً

ومِـنْ كـلِّ بـيـضـاءَ مَـمْـكُـورَةٍ　　لـهـا بَـشَـرٌ نَـاصِـعٌ كـالـلَّـبَـنْ

ممكورة: ممتلئة، البشر: البشرة

ونُـبِّـئْـتُ قَـيْـسـاً ولـم أبْـلُـهُ　　كـمـا زَعـمـوا خَـيْـرَ أهـلِ الـيَـمَـنْ

فـجـئـتُـكَ مُـرتَـادَ مـا خَـبَّـرُوا　　ولـولا الـذي خـبَّـرُوا لـم تَـرَنْ

لم ترن: لم ترني

فـلا تَـحْـرِمَـنِّـي نَـداكَ الـجـزيـلَ　　فـإنِّـي امْـرُؤٌ قَـبْـلَـكُـمْ لـم أُهَـنْ

٣٦ مشغوف بهند

خَـالَـطَ الـقـلـبَ هـمـومٌ وحَـزَنْ　　وادِّكَـارٌ بـعـدمَـا كـان اطْـمَـأَنّ

ادكار: تذكُّر

فَـهْـوَ مَـشـغـوفٌ بـهـنـدٍ هـائِـمٌ　　يَـرعَـوي حِـيـنـاً وأحـيـانـا يَـحِـنّ

يرعوي: يرجع عن غيِّه

خُـلِـقَـتْ هـنـدُ لِـقـلـبـي فـتـنـةً　　هـكـذا تَـعْـرِضُ لـلـنـاسِ الـفِـتَـنْ

وطِـلاءٍ خُـسْـرُوانِـيٍّ إذا　　ذَاقَـهُ الـشـيـخُ تَـغـنَّـى وارْجَـحَـنّ

طلاء: خمر، خسرواني: من عهد خسرو، أي كسرى، ارجحن: تمايل

وطَـنـابـيـرَ حِـسـانٍ صـوتُـهـا　　عـنـد صَـنْـجٍ كُـلَّـمـا مُـسَّ أَرَنّ

الطنبور والصنج من الآلات الموسيقية

٣٧ وصية

سَأُوصي بَصيراً إن دَنَوْتُ مِنَ البِلَى ... وكلُّ امْرِئٍ يوماً سيُصبحُ فانيا

البلى: تحلل الجسم بعد الموت

بأنْ لا تَأَنَّ الوُدَّ مِنْ مُتَبَاعِدِ ... ولا تَنْأَ إنْ أَمْسَى بِقُربِكَ راضِيا

لا تتأنَّى (تنتظر) الود ممن يجفوك، فإن اقترب منك فلا تبتعد أنت عنه

فَذَا الشَّنْءِ فَاشْنَأْهُ، وذا الوُدِّ فَاجْزِهِ ... على وُدِّهِ أو زِدْ عليه العَلانِيا

ذو الشنء (البغض) أبْغِضه، وأما من يودك فبادله وداً وزد عليه بأن تعلن ودك له

وآسِ سَرَاةَ الحَيِّ حيثُ لَقيتَهُمْ ... ولا تَكُ عن حَمْلِ الرَّبَاعَةِ وَانِيا

آس (ساعد) سراة الحي (وجهاء القوم) بأن لا تتوانى عن المشاركة في حمل الرباعة (الدية)

وإنْ بَشَرٌ يوماً أَحَالَ بوجهِهِ ... عليكَ فَحُلْ عنه وإنْ كانَ دانِيا

من أشاح بوجهه فابتعد عنه ولو كان ذا قرابة أو مجاورة

ولا تَعِدَنَّ الناسَ ما لَستَ مُنْجِزاً ... ولا تَشْتُمَنْ جاراً لَطيفاً مُصَافِيا

ولا تَزْهَدَنْ في وَصْلِ أهلِ قَرابةٍ ... ولا تَكُ سَبْعاً في العشيرةِ عَاديا

عادياً: معتدياً

الأعشى الكبير

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

حسان بن ثابت

(٥٠ ق هـ ــ ٤٠ ب هـ)

قيل لم يُحمَل على أحد من الشعر ما حُمِل على حسان، فهو أهم شاهد عيان على عصر النبوة، ليس أنه أهم صحابي، ولا أنه أفصح صحابي، بل لأنه الصحابي الذي قال كلاماً موزوناً يؤتى به في روايات المؤرخين فيجعلونه وثيقة، ثم يأتي مؤرخون آخرون بعد بضع عشرات من السنين تَوَفَّر لهم من أدوات الكتابة أكثر مما توفر للأوائل فيكتبون ما سمعوا منسوباً إلى حسان، ويكتبون ما سمعوا بغير نسبة وينسبونه إلى حسان. فلا يسمع المؤرخ منهم نتفة أو قطعة رويت في رثاء الرسول إلا جعلها لحسان، ويحلو له أن يحمل على حسان كثيراً مما قيل في فتنة الدار يوم قتل الخليفة عثمان، لأن حساناً كان ذا موقف واضح في هذه الفتنة، فكثير مما وافق رأي حسان جُعل له.

وشهدت الدولة العربية بعد موت حسان ببضعة عقود انشطاراً بين خليفتين: عبد الملك في الشام ومصر، وابن الزبير في الحجاز والعراق. فحُمِل على حسان شعر جعل فيه نفسه أموي الهوى، وحمل عليه شعر مدح فيه الزبير بن العوام. وبعد عقود أكثر ذهبت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس، فإذا بشعر حسان ينطق بمدح جد الأسرة العباسية.

وكان بين القبائل من التنافر بعد الفتح ما كان، فأصبح لحسان شعر في هجاء مخزوم وشعر في ذم سُلَيْم.

كانت كتب السيرة من أحفل المصادر بشعر حسان، وأكدت لنا الروايات القديمة أن كتاب السيرة لم يكونوا يتحرون في سوْق الشعر منسوباً إلى حسان.

نعم، لقد أنجب حسان ـ من زوجته سيرين، أخت مارية زوجة الرسول ـ ولداً صار شاعراً معروفاً هو عبد الرحمن بن حسان، وكان له من الأحفاد شاعر

اسمه سعيد. ولا شك في أن الرواة استأنسوا بهذين في معرفة أشعار حسان. غير أن الاضطراب الذي دخل ذلك الشعر كان علة مزمنة. ويقدر وليد عرفات، أهم دارسي حسان، في مقالته عنه في دائرة المعارف الإسلامية، الشعر المنسوب لحسان، وليس له، بما يتراوح بين ستين وسبعين بالمئة.

وعلى هذا فقد كان ديوان شاعرنا حسان بن ثابت ـ الذي عاش في ضوء ساطع من أضواء التاريخ، في فترة مشهودة مشهورة هي ثلاث عشرة سنة من حياة النبي في المدينة، ومثلاها في عصر الراشدين ـ من أكثر الدواوين التي شك النقاد القدماء في نسبة أشعارها إلى صاحب الديوان.

على أن هذا الشعر يظل مع ذلك حاملاً روح عصره. وهو يمثل صدر الإسلام في معانيه، وفي كثير من لغته وطريقته.

ولأننا لا نسوق هذه الصفحات على أنها «دراسة» لشعر حسان، ولا على أنها «تحقيق» للديوان، اكتفينا بما جاء في الديوان المشهور الموجود بأيدي الناس، واخترنا منه أجمل ما فيه من شعر، وشرحناه بما فتح الله علينا. وقد أحسن وليد عرفات إلى ديوان حسان تحقيقاً وتخريجاً، فأصدره في جزئين خاليين من الشرح. وأحسن إلى الديوان عبد الرحمن البرقوقي فشرحه وزينه بالشكل. وأفدنا من هذين الكتابين.

ثم رأينا تلك الكتب السقيمة التي أصدرها بعض خلق الله في الزمن الأخير وجعلوا أنفسهم على أغلفتها «محققين»، واكتفينا بتنحيتها جانباً.. وبكثير من الاشمئزاز.

سمعنا القول المشهور: «العملة الرديئة تطرد العملة الصحيحة»، فلم نصدقه. فالدول تلحق الدينار الزائف، وتلاحق من أعطاه ومن أخذه حتى تقف على رأس التزييف، وله عندها السجن. ولكن هذا القول صادق الصدق كله فيما يخص نشر دواوين الشعر القديمة. انزل إلى السوق وابتغ ديوان حسان. وستجد الطبعات المسروقة تحتل أرفف المكتبات، ولن تجد طبعة أرهق صاحبها نفسه سنين وهو يحققها. تتناول هذا الكتاب المزيف بين كفيك فترى له غلافاً ملوناً يسر العين. وتفتحه فترى صاحبة الدكتور فلان، وأحياناً يضع ألفاً مهموزة قبل الدكتور كي تفهم أن مرتبته الأكاديمية هي «أستاذ دكتور» فصاحبنا اللص ليس دكتوراً فحسب. وتراه قد كتب مقدمة، وما كان أغناه عن فضح نفسه، فطريقته في رصف الكلمات في مقدمته ـ ولنقف وقفة قصيرة عند أسلوبه

قبل أن نمضي في فحوى كلامه ـ طريقة ولد من أولاد المدارس. لغة انحطت عن لغة الجرائد، وانحطت عن لغة رجل من العوام يكتب سطرين في ذيل سند قبض. لغة مقززة. تراه يسوق كلاماً مما كان قاله كل الناس قبله. يقول كلاماً من قبيل «لا شك في أن تمسك كل أمة بتراثها من الأمور المهمة..» أشياء بليدة كهذه. ثم يلخص لك تلخيصاً سمجاً ما ورد عن حسان في الكتب، وقد يتنطح صاحبنا فيأخذ في امتداح الشاعر ورفعه فوق كل شاعر، ويأخذ في الرد على ما أخذه القدماء والمحدثون على حسان، ويدافع وينافح كأنه كان وحساناً رضيعي لبان. ثم يقول لك كلمتين عن «عمله» في الديوان. ولا يذكر صاحبنا للديوان أي طبعة سابقة. ولا يذكر لك مصادره. فكأن حسان جاءه في المنام وألقى في صدره الواسع شعره كله.

حسانٌ شاعر الرسول. هذه ليس فيها شك. وهو كان من بني النجار من الخزرج، الخؤولة البعيدة للرسول. وكانت له في الجاهلية أشعار في مدح قومه وهجاء القبيلة الأخرى في يثرب: الأوس، وفي مدح آل جفنة سادة الشام في الجاهلية، وهم الغساسنة الذين يمتون بصلة نسب إلى قبيلتي يثرب، فالكل يمن. قيل عاش حسان ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام. وهذه من خرافات القدماء. وتدور كلمة الدارسين الجادين على أن حساناً عاش خمسين سنة قبل الهجرة وأربعين بعدها.

كان ذا مال في الجاهلية، وكان له أُطُمٌ، أي حصن، معروف بيثرب. جاءه المال تلاداً، فهو ابن قوم موسرين، وجاءه طريفاً فهو شاعر جوال مداح. كان يزور بلاط الغساسنة في الجابية وجلق بالشام، وكان ينال أعطياتهم. ولعل القصة التي أزارته بلاط النعمان وجمعت هناك بينه وبين النابغة صحيحة في عمومها. وحسان معم مخول، وأمه الفريعة من الخزرج من بيت معروف، وخاله من زوْر الملوك أيضاً.

وقد كان أخو حسان من وفد يثرب الذي دعا الرسول إلى الهجرة. وقد قتل هذا الأخ في أحد، وقتل له أخ ثان في وقعة بعد أحد. فأما حسان فلم يشهد مع الرسول مشهداً. وقال الذين لا يحبون حسان إنه كان جباناً، وعززوا قولهم بقصة يصعب على المرء تصديقها. ويميل وليد عرفات إلى أن جبن حسان خرافة، فقد كان أسنَّ عندما بدأت الغزوات. وقيل كانت به علة بيمناه فلم يكن يستطيع حمل سيف.

لحسان خبر آخر في الجاهلية جمعه بالنابغة وبالخنساء، ولا يصدقه الدارس الجاد بتفاصيله.

يكاد يجمع القدماء على أن شعره في الجاهلية أمتن من شعره في الإسلام. لا جرم أنهم جعلوا الشعر الجاهلي المثال الذي يقاس عليه، وقدسوه تقديساً. وشعر حسان الجاهلي جار على طريقة الجاهليين، يضاف إلى ذلك عنصران نراهما يؤيدان القول إن شعره في الجاهلية أقوى من شعره في الإسلام. فما قاله صاحبنا في جاهليته انطلق من رغبتين: رغبة في صلات الممدوحين، ورغبة في المنافحة عن قبيلته وهجاء خصومها، فكان هذا الشعر ينطلق عن شهوة جشع، وعن اندفاع رجل يقف في ميدان الخصومة القبلية شاهراً لسانه. وأما شعره في الإسلام فكان يواكب حالة صعود.. كان تابعاً للحالة الإسلامية. ألا ترى اليوم فرقاً بين شاعر مناضل تلاحقه السلطات وشاعر يعمل موظفاً في وزارة الإعلام؟ كان حسان في كنف الدولة الإسلامية الناشئة موظفاً في مؤسسة كبيرة صاعدة ناجحة، وأما في الجاهلية فكان لسان الخزرج.

لا نفيض في هذا الأمر لأننا لا نحقق في نسبة ما بين أيدينا من شعر حسان إلى حسان إلا قليلاً. والموضوع عليه في الإسلام أكثر بكثير من الموضوع عليه في الجاهلية.

١ نبوءة

قال قبل فتح مكة، ويهجو شاعر قريش أبا سفيان بن الحارث:

عَدِمْنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْها   تُثيرُ النَّقْعَ، مَوعِدُها كَدَاءُ

فلنفقد خيولنا ولنعدمها إن لم تروها يا أهل قريش قد جاءتكم وأخذت تثير النقع، أي الغبار، والموعد «كَداء» قرب مكة

يُنازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ   على أكتافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ

تحاول الخيول جذب الأعنة، أي المقاود أي الحبال التي بها تقاد، وهي مصغية، مائلة برؤوسها. وعلى أكتاف الخيول الأسل، أي الرماح، الظماء، أي العطشى.. والرمح الظامئ يكون قد أُتقن تجفيفه أثناء صنعه فهذا أخفّ له في يد الفارس، «وحميد من القناة الذبول» (وقال الشراح، ومنهم البرقوقي إن الرماح الظماء إنما هي عطشى لدماء أهل مكة، ولم نر ذلك)

تَـظَـلُّ جِـيَـادُنـا مُـتَـمَـطِّـراتٍ   تُـلَـطِّـمُـهُـنَّ بِـالـخُـمُـرِ الـنـسـاءُ

عندما ستأتيكم خيولنا ستظل متمطرة، أي مسرعة، وستلطمها النساء في مكة على وجوهها بالخُمُر، جمع خمار أي غطاء الرأس، لمنعها من التقدم. قد تحقق ذلك بالفعل وتعجبوا من بصيرة حسان، قالوا كأنما أوحي إليه

فـإمَّـا تُـعْـرِضُـوا عـنَّـا اعْـتَـمَـرْنـا   وكـان الـفـتـحُ وانـكـشـفَ الـغِـطـاءُ

إن تركتمونا اعتمرنا، وكان الفتح وانتهى الأمر. ألا تشير كلمة «الفتح» إلى أن البيت موضوع؟

وإلَّا فـاصـبِـرُوا لِـجِـلادِ يـومٍ   يُـعِـزُّ الـلَّـه فـيـهِ مَـنْ يَـشـاءُ

وإلا فاصبروا لجلاد، مضاربة بالسيوف، في يوم سينصر الله فيه من يشاء

ألا أَبْـلِـغْ أبـا سُـفْـيـانَ عَـنِّـي   فـأنـتَ مُـجَـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـوَاءُ

أبلغ هذا الشاعر القرشي بأنه مجوف نخب، والنخب هو المجوف أيضاً، وهواء.. أي أنه جبان لا قلب له في جوفه

فَـمَـنْ يـهـجُـو رسولَ الـلَّـهِ مـنـكُـمْ   ويَـمْـدَحُـهُ ويَـنْـصُـرُهُ سَـواءُ
هَـجَـوْتَ مـحـمـداً فَـأجـبـتُ عـنـهُ   وعـنـد الـلَّـهِ فـي ذاكَ الـجَـزَاءُ
أَتَـهْـجُـوهُ ولَـسْـتَ لـهُ بِـكُـفْءٍ   فَـشَـرُّكُـمـا لِـخَـيْـرِكُـمـا الـفِـدَاءُ

كيف تهجو محمداً وأنت في المنزلة دونه؟ فليكن الشرير منكما فداء للخيِّر

فَـإِنَّ أَبـي ووالِـدَهِ وعِـرْضـي   لِـعِـرْضِ مـحـمـدٍ مـنـكُـمْ وِقَـاءُ

أقي وأحمي محمداً بأبي وبوالد أبي وبعرضي

وسـوف يُـجِـيـبُـكُـمْ عَـنِّـي حُـسـامٌ   يَـصـوغُ الـمُـحْـكَـمَـاتِ كـمـا يَـشَـاءُ

وسيكون جوابي أيضاً بالسيف الذي يصوغ أبياتاً محكمة النسج، لكن من نوع آخر. البيت أورده «وليد عرفات» في الذيل؛ وجدَه في «المزهر»

لِـسـانـي صَـارِمٌ لا عـيْـبَ فـيـهِ   وبَـحْـري لا تُـكَـدِّرُهُ الـدِّلاءُ

على أن لساني صارم أيضاً، وليس فيه تقصير، ومقدرتي الشعرية واسعة كالبحر الذي لا يتكدر ماؤه مهما انتشلت منه الدلاء، جمع دلو

٢ إنَّ خالي..

قال في يوم أحد، ويهجو عبد الله بن الزِّبَعْرَى الشاعر القرشي:

مَـنَـعَ الـنـومَ بِـالـعِـشـاءِ الـهُـمـومُ   وخَـيـالٌ إذا تَـغُـورُ الـنـجـومُ

الهموم منعتني من النوم وقت العشاء، وخيال المحبوبة زارني فجراً عندما غارت، أي غابت، النجوم

شَأْنُها العِطْرُ والفِرَاشُ، ويَعْلُو هَا لُجَيْنٌ ولُؤْلُؤٌ منظومُ

المحبوبة مهتمة بعطرها وبفراشها الذي لا تغادره إلا متأخرة، لأنها من بنات النعمة، وأعلاها لجين، أي فضة: كأنما يصف نحرها فهي بيضاء يبدو أعلى صدرها كأنه الفضة، وعلى نحرها انتثرت لؤلؤات عقدها. كأنه تخيلها مستلقية على فراشها ذاك (الذي تحبه جداً، ولا تغادره إلا وقد ارتفع النهار) وعقدُها قد تعرج على صدرها

لو يَدِبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عليها لَأَنْدَبَتْها الكُلُومُ

لو يمشي الحولي، أي النمل، من ولد الذر، والذر هو النمل الصغير، على جسمها لصنع فيه ندوباً وكلوماً، أي جروحاً، لفرط نعومتها

إنَّ خَالي خَطِيبُ جَابِيَةِ الجَوْ لانِ عندَ النُّعْمَانِ حينَ يَقُومُ

خال حسان، مسلمة بن مخلد، كان يغشى مجلس النعمان (نعمان الغساسنة لا المناذرة) بالجابية في الجولان بالشام وكان خطيب قومه والمتكلم باسمهم في مجلس الغساسنة

لا تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي إنَّ سِبِّي مِنَ الرجالِ الكريمُ

لا تشتمني فلست سِبَّاً لي، لست مكافئاً لي، ومكافئي من الرجال الكريم، ولست به

رُبَّ حِلمٍ أَضاعَهُ عَدَمُ الما لِ، وجهلٍ غَطَّى عليهِ النَّعِيمُ

حكمة: قد يكونٌ الرجل حليماً ولكن فقره يغطي على هذه الخصلة، ورب جاهل متهور ستر خصلته الرديئة هذه ما عنده من مال

٣ الحرب دول

وقال يجيب ابن الزبعرى بعد أحد:

ولقد نِلْتُمْ ونِلْنَا مِنكُمُ وكذاكَ الحَرْبُ أحياناً دُوَلْ

هزمناكم أولاً ثم هزمتمونا، والحرب دول، أي مرة لك ومرة عليك

إذْ شَدَدْنا شَدَّةً صَادِقَةً فَأَجَأْناكُمْ إلى سفحِ الجبلْ

شددنا عليكم وهجمنا فأجأناكم، أي جعلناكم تجيئون، إلى سفح الجبل

٤ تقتيل الأوس

نَهُزُّ القَنا في صُدورِ الكُمَا ةِ حتَّى نُكَسِّرَ أَعْوَادَها

نهز القنا، الرماح، في صدور الكماة، المسلحين، حتى تنكسر فيهم

وفي كلِّ يومٍ لنا غَارةٌ على الأَوْسِ نَقْتُلُ آسَادَها

وفي كل يوم نغير على قبيلة الأوس، ونقتل أسودها، أي شجعانها. وحسان من الخزرج

٥ عندما ترقص الكأس

لِـلَّـهِ دَرُّ عِـصَـابَـةٍ نَـادَمْـتُـهُـمْ   يَـوماً بِـجِـلَّـقَ فـي الـزمـانِ الأوَّلِ

لله در جماعة صحبتهم على الشراب نديماً لهم في جلق، قرب دمشق، في الزمن القديم

الـخـالِطـونَ فـقـيـرَهُـمْ بِـغَـنِـيِّـهِـمْ   والمنعمونَ على الضعيفِ المُرْمِلِ

يترفق أغنياؤهم بفقرائهم ولا يعتزلونهم، وهؤلاء القوم ينعمون على الضعيف المرمل، أي الفقير الذي قعد على الرمل فاقداً حتى بساطه

أَوْلادُ جَـفْـنَـةَ عـنـد قـبـرِ أَبـيـهِـمُ   قـبرِ ابنِ مَـارِيَـةَ الـكـريـمِ الـمـفْـضِـلِ

آل جفنة مقيمون عند قبر أبيهم، ابن مارية المشهورة وبها ضرب المثل، فهم مستقرون في نعيم ولا يرتحلون طلباً للعشب كالبدو الفقراء

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ «البَريصَ» عليْهِمُ   بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

ويَسقون من يأتيهم في منطقة البريص ماء نهر بردى، لكن بعد أن يصفق، يمزج بالرحيق السلسل، الخمر اللينة على الحلق

يُـغْـشَـوْنَ حـتـى مـا تَـهِـرُّ كِـلابُـهُـمْ   لا يَـسـأَلـونَ عـنِ الـسَّـوَادِ الـمـقْـبِـلِ

يُزارون كثيراً حتى إن كلابهم ملت من الهرير، النباح، لاعتيادها الضيوف. وهم لا يسألون عن السواد المقبل، الجماعة الكبيرة من الناس، لا يسألون: من هؤلاء الضيوف؟ فالخير كثير

بِـيضُ الـوُجـوهِ كَـريـمَـةٌ أَحـسـابُـهُـمْ   شُـمُّ الأُنـوفِ مِـنَ الـطِّـرازِ الأَوَّلِ

البياض صفة السؤدَد عند العرب، فهؤلاء بيض ذوو حسب طيب، وشامخون بأنوفهم وفيهم عزة، ومن الطراز الأول، أفضل الناس

ولقد شَرِبْتُ الـخمرَ في حَانُوتِها   صَـهـبـاءَ صَـافـيـةً كَـطَـعْـمِ الـفُـلْـفُـلِ

يبدو أن حسان ذهب في دمشق إلى حانوت، خمارة، وشرب خمراً صهباء، شقراء، صافية، تلذع اللسان لذْع الفلفل

يَـسْـعَـى عَـلَـيَّ بِـكـأْسِـهـا مُـتَـنَـطِّـقٌ   ويُـعِـلُّـنِـي مـنـهـا وإن لـم أَنْـهَـلِ

يقدمها ولد متنطق، يضع في خصره نطاقاً أي زناراً، وهو يعلني، يسقيني مجدداً، وإن لم أكن نهلت، أي شربت المرة الأولى.. والتفسير في البيت الذي يليه

إنَّ الـتـي نَـاوَلْـتَـنِـي فَـرَدَدْتُـهـا   قُـتِـلَـتْ، قُـتِـلْـتَ، فَـهـاتِـهـا لم تُـقْـتَـلِ

الكأس الأولى التي ناولتنيها رددتها عليك لأنها قد قتلت، مزجت بالماء، فقاتلك الله.. هات كأساً أخرى غير مقتولة.. دون مزجها بالماء

كِلتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ، فَعاطِنِي بِـزُجَاجَـةٍ أَرْخَاهُـمـا لِـلْـمَـفْـصِـلِ

الخمر الممزوجة، والخمر غير الممزوجة كلتاهما من عصير العنب فعاطني، أعطني مرة بعد أخرى، بالزجاجة، أي الكأس، التي تسبب ارتخاء المفاصل أكثر من غيرها. ونقل البرقوقي عن أبي العلاء أن المفصل هو اللسان، فالساكر يرتخي لسانه. و«المِفْصَل» بمعنى اللسان مكسورة الميم مفتوحة الصاد، و«المَفْصِل» بمعنى الغضروف الفاصل الواصل بين العظام بعكسها تشكيلاً

بِزُجَاجَةٍ رَقَصَتْ بِمَا في قَعْرِها رَقْصَ القَلُوصِ بِراكِبٍ مُسْتَعْجِلِ

اسقني الخمر بزجاجة، بكأس، تتحرك وترقص بالقليل الذي في قعرها، كما ترقص القلوص، تتمايل الناقة، وفوقها راكب مستعجل يحثها. والرقص نوع من سير الإبل، وعند العرب رقصت الإبل قبل أن يرقص البشر. هذا البيت من بدائع حسان

ولـقـد تُـقَـلِّـدُنـا الـعـشـيـرةُ أمـرَهـا فـنُـطِـيقُ أمـرَ الـمـعْـضِـلاتِ ونَـعْـتَـلي

يفتخر بقومه: العشيرة تقلدنا أمرها، تكلفنا بشؤونها، فنحتمل كبريات المشكلات ويسمو قدرنا ونسود

وتَـزُورُ أبـوابَ الـمـلـوكِ رِكـابُـنـا ومتى نُحَكَّمْ في الـعـشـيـرةِ نَـعْـدِلِ

وتزور إبلنا الملوك، فنحن الوسطاء بين قومنا وبين الدول ذوات الجيوش، ونحن عادلون في أحكامنا ضمن القبيلة

٦ لنا الجفنات الغر

وإنَّا لَنَقْرِي الضيفَ إن جاءَ طارِقاً مِنَ الشَّحْمِ ما أَمْسَى صَحيحاً مُسَلَّما

نقري الضيف، نطعمه، إن جاءنا طارقاً، والطارق هو الآتي ليلاً، ونطعمه شحم سنام الناقة التي ذبحناها سليمةً لا من مرض

إذا اغْبَرَّ آفَاقُ الـسـمـاءِ فأصبَحَتْ كأنَّ عليها ثَوبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا . .

عندما يصبح الجو قاتماً بالغبار فالسماء داكنة تتخللها أشعة الشمس قليلاً راسمة خيوطاً فكأن السماء لبست ثوباً يمانيا مخططاً . .

حَسِبْتَ قُدورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيُوتِنا قَنابِلَ دُهْماً في الـمَحَلَّةِ صُيَّمَا

. . في هذا الجو الشتائي سترى حول بيوتنا قدور الصاد، النحاس الأصفر، وتحسبها قنابل دهماً، أي خيولاً قاتمة اللون، صُيَّماً، أي واقفة، حول بيوتنا

وَلَدْنَا بَني العَنقاءِ وابْنَيْ مُحَرِّقٍ فَأَكْرِمْ بِنا خَالاً وأكرِمْ بِنا ابْنَما

نحن أخوال بني العنقاء، وابني محرق (وهم ناس مشهورون بالسيادة والملك) فما أكرمنا أخوالاً وما أكرمنا أبناءً لآبائنا، والكرم هو الشرف والنسب العالي. وعابوا على حسان أنهم افتخر بمن وَلَدَت نساء قومه ولم يفتخر بآبائه، فالواجب في عرف نقاد الشعر أن يفتخر المرء بآبائه لا بأبنائه

نُسَوِّدُ ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فينا، وإن كان مُعْدِمَا

نجعل الفقير فينا سيداً إذا كان ذا مروءة، والمروءة أن ينهض المرء لنجدة الناس بهمة، والمعدِم: الفقير

لنَا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعْنَ بِالضُّحَى وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

لنا الجفنات، أوعية الطعام، الغر البيض التي تلمع في شمس الضحى؛ هذا عن السخاء، فأما الشجاعة فإن أسيافنا تقطر من دم الأعداء عندما نهب لنجدة من يُعتدى عليه. وعابوا على حسان في هذا البيت أموراً عدة: قال «جفناتٍ» و«أسيافاً» وهما من جمع القلة. وللكثرة يقال جفان وسيوف. وجعل السيوف تقطر، فهذا دم قليل، ولم يجعلها تسيل بالدماء، وجعل الجفنات يلمعن في الضحى، وفي الضحى كل شيء يلمع، ألا جعلها تلمع في الدجى! هذا ما نسبه النقاد إلى النابغة الذبياني وإلى الخنساء، وهو من خرافات النقاد. ونحن نعيب على حسان أن جعل قصاع الطعام تلمع، فكأنها فارغة

٧ حلو تعتريه مرارة

قال يرد على قيس بن الخطيم:

لَعَمْرُ أبيكَ الخَيْرِ يا «شَعْثُ» ما نَبَا عَلَيَّ لِساني في الخطوبِ ولا يَدي

يخاطب المحبوبة شعثاء: وحياة أبيك الطيب يا شعثاء ما انحرف ولا أخطأ لساني في المواقف الخطيرة، ولا انحرفت يدي وبها السيف

وإنْ أَكُ ذا مَالٍ كثيرٍ أَجُدْ بِهِ وإن يُعْتَصَرْ عُودي على الجَهْدِ يُحْمَدِ

إن كانت موسراً فأنا أجود بالمال، وإن كنت قليل المال ثم أتى الفقراء واعتصروني رغم جهدي، أي قلة مالي، فهم ينالون شيئاً، ويحمدون هذا العود الذي اعتصروه

وأُعْمِلُ ذاتَ اللَّوْثِ حتى أرُدَّهَا إذا حُطَّ عنها رَحْلُها لم تُقَيَّدِ

وأسيِّر ناقتي ذات اللوث، أي الشديدة، حتى أردها، أي أجعلها، إذا وصلتُ إلى الممدوح وأنزلتُ عنها حلسها، أي سرجها، حرة غير مقيدة.. ليس رأفة بها بل لأنها تكون متعبة لا تطيق حراكاً فلا حاجة إلى تقييدها

أُكَلِّفُها أن تُدْلِجَ اللَّيْلَ كلَّهُ تَروحُ إلى بابِ ابنِ سَلمى وتَغْتَدي

فأنا قد جشمتها أن تدلج، أن تسير الليل، حتى تروح، أي تصل.. والرواح هو الوصول ليلاً، والغدوّ الوصول صباحاً. وابن سلمى هو النعمان بن المنذر

تَزورُ امْرَأً أَعْطَى على الحَمْدِ مَالَهُ ومَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ المَحَامِدِ يُحْمَدِ

هذا امرؤ يعطي المال مقابل المدح، لذا فهو يستحق المدح

وإنِّي لَحُلْوٌ تَعتَرِيني مَرارَةٌ وإنِّي لَتَرَّاكٌ لما لم أُعَوَّدِ

أنا لين مع الناس، لكن تنتابني مرارة إذا ما ظلمني أحد. وأنا أبيٌّ لا أرضى بأمور لم أتعود عليها

فَلا تَعْجَلَنْ يا قيسُ، وارْبَعْ فإنَّما قُصَاراكَ أنْ تُلْقَى بِكُلِّ مُهَنَّدِ

فلا تستعجل يا قيس بن الخطيم، واربع، قف مكانك، فمنتهاك وأقصى أمرك أن ترى سيوفنا أشهرت في وجهك

حسامٍ وأرمَاحٍ بِأَيْدي أعِزَّةٍ مَتَى تَرَهُمْ يا ابْنَ الخَطِيمِ تَبَلَّدِ

ترى السيوف والرماح بأيدي قوم ذي عز وقوة، تراهم فتتبلد ارتباكاً

لُيوثٍ لَدَى الأَشْبالِ تَحمي عَرِينَها مَداعِيسَ بِالخَطِّيِّ في كلِّ مَشْهَدِ

السلاح بأيدي أسود تقف عند أشبالها تحمي عرينها؛ ورجالنا هؤلاء مداعيس، طاعنون، بالخطي، بالرمح، في كل معترك

٨ سؤال، ولا جواب

فَلاقَيْناهُمُ مِنَّا بِجَمْعٍ كَأُسْدِ الغَابِ مِنْ مُرْدٍ وشِيبِ

المرد: الشباب لم تنبت لحاهم، والشيب: الكهول

فغَادَرْنا أبا جَهْلٍ صَرِيعاً وعُتْبَةَ قد تَرَكْنا بالجَبُوبِ

فتركنا أبا جهل قتيلاً. وعتبة بن ربيعة تركناه مُلقىً بالجبوب، الأرض الوعرة، وذلك في معركة بدر

يُنادِيهِمْ رسولُ اللَّهِ لما قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ في القَلِيبِ..

قُذفتْ جثث قتلى قريش كباكب في القليب، أي جماعات في البئر، ووقف عليهم الرسول يسائلهم..

أَلم تَجِدُوا حَدِيثي كان حَقّاً وأَمْرَ اللَّهِ يَأْخُذُ بالقلوبِ

يسائلهم الرسول قائلاً: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ أي من سوء العاقبة. فقيل: يا رسول الله، أتنادي جيفاً؟ قال: «ما أنتم بأسمعَ منهم، ولكنْ لا يجيبون»

فمَا نَطَقُوا، ولو نَطَقُوا لَقَالُوا: صَدقْتَ، وكنتَ ذا رأيٍ مُصيبِ

٩ عهد للرسول

فلما أَتَانا رسولُ الإلَـ ـهِ بِالنُّورِ والدِّينِ بعدَ الظُّلَمْ

رَكَنَّا إليهِ، ولم نَعْصِهِ غَداةَ أَتَانا مِنَ ارضِ الحَرَمْ

وقُلنا: صَدقْتَ بما جِئْتَنا هَلُمَّ إلينا، وفِينا أقِمْ

تعال إلينا، وعش بيننا

فَـنَـادِ بِـمَـا كـنـتَ أخْـفَـيْـتَـهُ نِـدَاءً جَـهَـاراً ولا تَـكْـتَـتِـمْ
فَــإِنَّــا وأولادَنـــا جُـــنَّـــةٌ نَـقِـيـكَ، وفـي مـالِـنـا فـاحْـتَـكِـمْ

جُنَّة: وقاية

١٠ جبريل روَّاح بها غدَّاء

الـلَّـهُ أكـرَمَـنـا بِـنَـصـرِ نَـبِـيِّـهِ وبِـنَـا أَقَـامَ دعَـائِـمَ الإِسـلامِ
يَـنْـتَـابُـنـا جِـبـريـلُ فـي أَبـيـاتِـنـا بِـفَـرائِـضِ الإسـلامِ والأحـكـامِ

يأتينا جبريل مرة بعد مرة في بيوتنا، بالآيات وفيها فرائض الإسلام وأحكامه

نـحـن الـخِـيـارُ مِـنَ الـبَـرِيَّـةِ كـلِّـهـا ونِـظَـامُـهـا وزِمَـامُ كـلِّ زِمَـامِ
الـخَـائِـضُـو غَـمَـراتِ كـلِّ مَـنِـيَّـةٍ والـضَّـامِـنُـونَ حَـوادِثَ الأَيَّـامِ

نخوض غمرات الموت، مياهه العميقة، ونضمن السلامة لمن حولنا إذا ألمت بهم مصائب الدهر

١١ بالله عليكم أجيبوني!

وأَنْشُدُكُمْ، والبَغْيُ يَصْرَعُ أَهلَهُ، إذا ما شِتاءُ المحْلِ هَبَّتْ زَعَازِعُهْ..

أسألكم، واصدُقوني، فالظلم يصرع أهله: إذا كان شتاءٌ وكان قحط، وهبت الزعازع، أي الريح التي تحرك الخيام وتزعزع الأشياء..

إذا مَا وَلِيدُ الحَيِّ لم يُسْقَ شَرْبَةً وضَنَّ عليهِ بِالصَّبوُحِ مَراضِعُهْ..

وإذا ما لم يجد الوليد في الحي ما يرضع، وبخلت عليه المرضعات بحليب الصباح لأن أثداءهن جفت من الجوع..

أَلَسْنا نَكُبُّ البُزْلَ وَسْطَ رِحالِنا ونَسْتَصْلِحُ المولَى إذا قلَّ رَافِعُهْ؟

أسألكم.. عندما تكون هذه هي الحال ألسنا ننحر البزل، أي الجمال الكبيرة التي برزت أسنانها، ونصلح من حال المولى، الجار المقيم بين ظهرانيْنا، إذا لم يجد من يرفعه ويعينه؟

وإن رَابَهُ أمرٌ وَقَتْهُ نفوسُنا وما نَالَنا مِنْ وَاسِعٍ فَهْوَ وَاسِعُهْ

وإذا رابه أمر، أخافه شيء، فنحن نحميه بأرواحنا؛ وكل ما ينالنا من سعة في العيش فهو مشاركنا فيه

وأَنْشُدُكُمْ، والبَغْيُ يَصْرَعُ أَهلَهُ، إذا الخصمُ لم يُوجَدْ لهُ مَنْ يُقَارِعُهْ..

وأسألكم، واصدقوني الجواب، إذا لم يوجد للخصم من يقارعه ويتصدى له

أَلَسْنا نُوَازِيهِ بِجَمْعٍ كأَنَّهُ   أَتِيٌّ أَمَدَّتْهُ بِلَيلٍ دَوَافِعُهْ..

ألسنا نقف إزاءه بجمع من رجالنا كأنه الأتيّ، أي السيل، الذي أمدته دوافعه، أي مجاريه، بالمياه الهاطلة طول الليل؟

١٢ ما أحببتُ حبي إياك

انْظُرْ خَلِيلي بِبابِ جِلَّقَ هَلْ   تُؤْنِسُ دونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ

انظر يا صاحبي وأنت بباب جلق، وهي دمشق أو مكان بقربها، هل تؤنس، تبصر، عند البلقاء أحداً؟ والبلقاء اليوم هي منطقة السلط في الأردن، وقال القدماء إنها موقع قرب دمشق

أَجْمَالَ شَعْثَاءَ قد هَبَطْنَ مِنَ الـ   ـمَحْبَسِ بين الكُثْبانِ فَالسَّنَدِ

هل ترى إبل قوم شعثاء وقد جاءت إلى هذا المكان الواقع بين هذين المكانين؟

يَحْمِلْنَ حُوّاً حُورَ المدَامِعِ في الرَّ-   ـيْطِ، وبِيضَ الوُجُوهِ كَالبَرَدِ

تحمل الإبل نساء حُوّاً، سمر الشفاه، وحور المدامع، أي حور العيون، فسواد عيونهن صاف في بياض صاف، ويلبسن الريط، جمع ريطة وهي الملاءة أو الثوب الواسع، ووجوههن بيض كالبرَد

إِنِّي ورَبِّ المُخَيَّسَاتِ ومَا   يَقْطَعْنَ مِنْ كلِّ سَرْبَخٍ جَدَدِ..

يحلف: ورب المخيسات، أي النياق المذللة المروَّضة، ورب ما يقطعن من سربخ، أي أرض وعرة، وجدد، أي طريق ممهد..

ما حُلْتُ عن خيرِ مَا عَهِدْتِ، ومَا   أَحْبَبْتُ حُبِّي إِيَّاكِ مِنْ أَحَدِ

والله ما حلتُ، تَحَوَّلْتُ، عن أفضل ما قد عرفتِه من طباعي، وما أحببت أحداً حبي إياك

تقولُ شَعثاءُ لو تُفِيقُ مِنَ الـ   ـخَمْرِ لأُلْفِيتَ مُثْرِيَ العَدَدِ

تقول لي شعثاء: ليتك تترك الخمر كي تصبح غنياً. وكان الغنى يقاس بعدد ما يملكه المرء من جمال

أَهْوَى حديثَ النَّدْمانِ في فَلَقِ الصُّـ   ـبْحِ، وصوتَ المسَامِرِ الغَرِدِ

لكنني أهوى حديث الندمان، أي النديم صاحبي على الخمر، ونحن نشرب حتى بزوغ شمس الصباح، وأهوى صوت المسامر المغني

لا أَخْدِشُ الخَدْشَ بِالنَّديمِ، ولا   يَخْشَى نَديمي إذا انْتَشَيْتُ يَدي

لا أؤذي نديمي ولا يخشى أن أعربد عليه إذا انتشيت، أي سكرت

١٣ الخلابيس

قال، وقد تهدده قوم وضربوه إثر حديث الإفك:

أَمْسَى الخَلابِيسُ قد عَزُّوا وقد كَثُرُوا وابْنُ الفُرَيْعَةِ أَمْسَى بَيْضَةَ البَلَدِ

الخلابيس، اللئام الذين لا أصل لهم، أصبحوا أقوياء وكُثْراً؛ وغدا ابن الفريعة، أي حسان نفسه لأن الفريعة اسم أمه، بيضة البلد، أي كبيضة النعامة المتروكة في الصحراء

أمَّا قُريشٌ فإنِّي غيرُ تارِكِهِمْ حتَّى يُنِيبُوا مِنَ الغَيَّاتِ لِلرَّشَدِ

وأما قريش فإنني لن أتركهم من كلامي القاسي إلى أن ينيبوا، يرجعوا عن غيهم، ويسلكوا طريق الرشد

ويَتْرُكوا اللَّاتَ والعُزَّى بِمَعْزِلَةٍ ويَسْجُدُوا كلُّهُمْ لِلواحِدِ الصَّمَدِ

وحتى يتركوا عبادة الأصنام

١٤ أكيل السبع

وقال لعتيبة بن أبي لهب، وقد سُلِّط عليه الليث، وكان الرسول دعا الله أن يسلط عليه كلباً من كلابه:

أَسْلَمْتُمُوهُ وَهْوَ يَدعُوكُمُ بِالنَّسَبِ الأَدنَى وبِالجَامِعِ

يعير أصحاب عتيبة: انخذلتم عنه وهو يناديكم ويناشدكم بالقرابة وما يجمعكم من أواصر

واللَيثُ يَعلُوهُ بِأَنْيابِهِ مُنْعَفِراً وَسْطَ الدَّمِ النَّاقِعِ

والليث فوقه يمزقه بأنيابه، والرجل منعفر، ممرغ في التراب، وسط دمه الناقع، أي الطريّ

مَنْ يَرْجِعُ العامَ إلى أهلِهِ فَما أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ

سيرجع كل إلى أهله، فأما الذي أكله السبع فلن يرجع

١٥ تناولْ سُهيلاً

أَهَاجَكَ بِالبَيْدَاءِ رَسْمُ المَنَازِلِ؟ نعمْ، قد عَفَاها كلُّ أَسْحَمَ هَاطِلِ

هل حرك مشاعرك في الصحراء بقايا منازل الأحبة؟ حقاً. وقد عفاها، أي مسح أثرها، كل سحاب أسحم، مسود، هاطل بالمطر

دِيارُ التي رَاقَ الفؤادَ دَلالُها وعَزَّ علينا أن تَجُودَ بِنائِلِ

هذه ديار التي أحب القلب دلالها، وصعب علينا نيل شيء منها

تَناوَلْ سُهَيْلاً في السماءِ فإنَّهُ   سَتُدْرِكُنا إن نِلْتَهُ بالأَنامِلِ

يفتخر: مدَّ يدك كي تتناول نجم سهيل، فإنك ستدرك مجدنا إن استطعت نيل النجم بأصابعك.
يقول: مستحيل أن تلحق بنا في مضمار المجد

أَلَسْنا بِحَلَّالِينَ أَرْضَ عَدُوِّنا   تَأَرَّ قليلاً سَلْ بِنَا في القَبائِلِ

ألسنا ننزل وننصب خيامنا في أرض العدو غير مبالين به فترعى إبلنا حيث شئنا؟ تأرَّ يا هذا، أي انظر وتمهل، واسأل عنا في قبائل العرب لتعرف قدرنا

وإنِّي لَسَهْلٌ للصَّديقِ وإنَّني   لأَعدِلُ رأسَ الأَصْعَرِ المُتَمايِلِ

ألين لصديقي، ولكنني أعاند الأصعر الرأس، المتكبر الذي يميل برأسه كبراً

وأَجعلُ مَالِي دونَ عِرْضِي وِقَايَةً   وأَحْجُبُهُ كي لا يَطيبَ لِآكِلِ

أنا كريم أحفظ عرضي من الذم ببذل المال، وأحجب عرضي بسخائي حتى لا ينهشه أحد

وأيُّ جديدٍ ليس يُدْرِكُهِ البِلَى   وأيُّ نَعيمٍ ليس يوماً بِزائِلِ

البلى: الاهتراء

١٦ وارث اللؤم

قال يهجو الحارث بن هشام:

أَجْمَعْتُ أَنَّكَ أنتَ أَلْأَمُ مَنْ مَشَى   في فُحْشِ مُومِسَةٍ وزَهْوِ غُرابِ

ألأم من مشى: أي ألأم البشر، الزهو: التكبر

واللُّؤْمُ مِنكَ وِراثَةٌ مَعْلومَةٌ   هَيهاتَ مِنْكَ مَكارِمُ الأَنْسابِ

١٧ البغال والعصافير

وقال يهجو بني عبد المدان:

لا بَأْسَ بِالقَوْمِ مِنْ طولٍ ومِنْ عِظَمٍ:   جِسْمُ البِغالِ وأَحْلامُ العَصافيرِ

أحلام: عقول

كأَنَّهُمْ قَصَبٌ جُوفٌ أَسافِلُهُ   مُثَقَّبٌ فيه أرواحُ الأَعاصيرِ

وهم مثل القصب المجوف، تنظر في أسفله فتراه مثقوباً، وتدخل فيه الأرواح، أي الريح. كأنَّ حساناً تخيل قصبة الزمار التي تراها من أسفل وهو يزمر فتجدها مجوفة، ويدخل فيها الهواء فيصفر. ووصْف شخص بأنه مجوف يعني أنه بغير قلب، كناية عن الجبن. وقد جعلت العرب الشجاعة في القلب

١٨ مَنظَر ومَخبَر

وكان مدح بني عبد المدان قائلاً:

وقد كُنَّا نقولُ إذا رأَيْنا لِذي جِسْمٍ يُعَدُّ وذي بَيانِ
كأنَّكَ أيُّها المعْطَى بَياناً وجِسْماً مِنْ بَني عبدِ المدَانِ

١٩ ليس الكريم على القنا بمحرم

لَعَمْرُكَ مَا المُعْتَرُّ يَأتِي بلادَنا لِنَمْنَعَهُ بِالضَّائِعِ المُتَهَضَّمِ

وحياتك لا يكون المعتر، اللاجئ الملتصق بنا، الذي يأتي بلادنا كي نمنعه، أي نحميه، ضائعاً ولا متهضَّماً، مظلوماً

وما ضيفُنا عند القِرَى بِمُدَفَّعٍ ولا جارُنا في النائباتِ بِمُسْلَمِ

وضيفنا لا نمنعه من القرى، الطعام، وجارنا، أي المستجير بنا، لا نُسْلمه، لا نتخلى عنه، عندما تحل به النائبات والمصائب

وما السيِّدُ الجبَّارُ، حينَ يُريدُنا بِكَيْدٍ، على أرْماحِنا بِمُحَرَّمِ

والجبار الذي يريد لنا الشر ليس محرماً على رماحنا، بل هو حلال لنا

نُبيحُ الحِمَى ذي العِزِّ حينَ نُرِيدُهُ ونَحْمي حِمانا بِالوَشيجِ المُقَوَّمِ

نستبيح الأرض المحمية من قوم ذوي عز وقوة إذا أردنا ذلك، ونحمي أرضنا من أن يحل بها ويرعاها غيرنا بالوشيج المقوم، أي بالرماح المستقيمة المثقفة

وتَلقَى على أبْيَاتِنا حينَ تَجْتَدي مَجَالِسَ فيها كلُّ كَهْلٍ مُعَمَّمِ

وتلقى في منازلنا، حين تجتدي، تطلب ذلك، مجالس فيها الكهول المعممون الحكماء

رَفيعِ عِمَادِ البيتِ يَسْتُرُ عِرْضَهُ مِنَ الذَّمِّ مَيْمُونِ النَّقيبَةِ خِضْرِمِ

وكل واحد من هؤلاء الكهول له بيت رفيع العماد، خيمة عمودها عال كناية عن كبرها، وهو يحمي شرفه، وهو ميمون النقيبة، نقي النفس، خضرم، متدفق بالعطاء

جَوادٍ على العِلَّاتِ رَحْبٍ فِناؤُهُ إذا سُئِلَ المَعروفَ لم يَتَجَهَّمِ

وهو يجود بماله على العلات، أي رغم ضيق الحال، وساحته واسعة للضيوف، ولا يتجهم، ينبقبض ويكشر، إذا سئل

٢٠ الجنيَّة

قد أدرَكَ الواشُونَ ما حَاوَلُوا فالحَبْلُ مِنْ شَعْثَاءَ رَثُّ الزِّمَامْ

حقق الوشاة هدفهم، فعلاقتي بشعثاء صارت حبلاً مهترئاً

جِـنِّـيَّـةٌ أَرَّقَـنـي طَـيْـفُـهـا يَـذهَـبُ صُبْحاً ويُـرَى في الـمَـنامْ

هي جميلة كأنها من الجن لا من البشر، ويأتيني طيفها نائماً ويذهب صباحاً

٢١ لا أسرق الشعر

إنَّ الـحَـوادِثَ لا تُـضَـعْـضِـعُـنـي إذْ لا يَـضـيـقُ بِـحـاجَـتـي صَـدْري

لا تزعزعني المصائب، وأحتفظ بهمي لنفسي لصلابتي

لا أَسْرِقُ الـشُّـعَـراءَ مـا نَـطَـقُـوا إذْ لا يُـخَـالِـطُ شِـعْـرَهُـمْ شِـعْـري

مبدع أنا في الشعر لا ألمُّ بمعاني الآخرين ولا أسرق أبياتهم، فشعري متفرد لا يشبه شعر أحد

٢٢ نحن أَوْلى

قال يحتج على أن قدَّم النبي بني سليم يوم الفتح:

عَـلامَ تُـدْعَـى سُـلَـيْـمٌ وَهْـيَ نَـازِحَـةٌ أَمَـامَ قـومٍ هُـمُ آوَوْا وهُـمْ نَـصَـرُوا

لماذا يؤتى بقبيلة سُليم، وهي بعيدة، ويتم تقديمها على الأنصار الذين لهم شرف إيواء النبي والمهاجرين ونصرهم

نُـجَـالِـدُ الـنـاسَ لا نُـبْـقِـي عـلـى أحـدٍ وَلَّـى، ونَـتْـبَـعُ مَـا تُـوحـي بِـهِ الـسُّـوَرُ

نحن نجالد الناس، نضاربهم بالسيوف، ونلحق من ولى وهرب، ونتبع ما أنزله الوحي من سور القرآن

٢٣ خير الخلق

واللَّهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى ولا وَضَعَتْ مِثْلَ النبيِّ رَسولِ الرحمةِ الهَادي

ولا مَشى فوق ظَهْرِ الأرضِ مِنْ أحدٍ أوْفَـى بِـذِمَّـةِ جـارٍ أو بِـمِـيـعَـادِ

٢٤ رثاء النبي

مـا بَـالُ عَـيْـنـيَ لا تَـنـامُ كـأنَّـمـا كُـحِـلَـتْ مِـآقِـيـهـا بِـكُـحْـلِ الأَرْمَـدِ

لا تنام عيني كأن مآقيها، أطرافها حيث تجري الدموع، مكحولة بالكحل الذي يوضع في عين الأرمد، المصاب بالرمد

جَـزَعـاً عـلـى الـمَـهْـدِيِّ أَصـبـحَ ثَـاوِيـاً يـا خـيـرَ مَـنْ وَطِـئَ الـحَـصَـا لا تَـبْـعَـدِ

هذا من جزعي، حزني، على النبي المهديِّ بهداية ربه، الذي أصبح ثاوياً، مقيماً في قبر. فيا خير من وطئ الحصى، أي يا خير البشر، لا تبعد («و«لا تبعد» كلمة تقال للميت، بمعنى لا أبعد الله ذكرك)

واللَّهِ أَسْمَعُ ما بَقِيتُ بِهالِكٍ   إِلَّا بَكَيْتُ على النبيِّ محمَّدِ

والله «لا» أسمع بعد اليوم بموت شخص إلا تذكرت النبي فبكيت عليه

فَرِحَتْ نَصارَى يَثْرِبٍ ويَهُودُها   لَمَّا تَوارَى في سَواءِ المَلْحَدِ

فرحوا عندما ووري النبي في سواء الملحد، وسط القبر

٢٥ رثاء أبي بكر

إذا تَذَكَّرْتَ شَجْواً مِنْ أَخي ثِقَةٍ   فَاذْكُرْ أَخاكَ أَبا بَكْرٍ بِمَا فَعَلا

إذا تذكرت شجواً، شيئاً يحزنك، من شخص كان ذا ثقة فاذكر أبا بكر الصديق

خَيْرُ البَرِيَّةِ أَتْقَاها وأَعْدَلُها   بعدَ النبيِّ وأَوْفَاها بِمَا حَمَلا

أحسن الناس بعد النبي، وقد حمل العبء وأنجز

عاشَ حَمِيداً لِأَمْرِ اللَّهِ مُتَّبِعاً   بِهَدْيِ صَاحِبِهِ المَاضِي وما انْتَقَلا

اتبع أمر الله ولم يتحول عن عهد صاحبه الماضي، الرسول

وكانَ حِبَّ رَسولِ اللَّهِ قد عَلِمُوا،   مِنَ البَرِيَّةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

كان حِب الرسول، حبيبه، ولم يكن الرسول يجد من كل البرية، أي البشر، أحداً يساوي أبا بكر

٢٦ رثاء عمر

وفَجَّعَنا فَيرُوزُ لا دَرَّ دَرُّهُ   بِأَبْيَضَ يَتْلُو المُحْكَماتِ مُنِيبِ

فجَعَنا فيروز، قاتل عمر، بهذا السيد الأبيض، والبياض عندهم من علامات السؤدَد، الذي كان يتلو المحكمات، أي الآيات، وكان منيباً، راجعاً في شؤونه لله

رَؤُوفٍ على الأَدْنَى، غَلِيظٍ على العِدا   أَخي ثِقَةٍ في النَّائِباتِ نَجيبِ

رحيم على القريب، وشديد على العدو، ويوثق به، ولا سيما عند حلول المصائب

متى ما يَقُلْ لا يَكْذِبُ القَوْلَ فِعْلُهُ   سَريعٍ إلى الخيْراتِ غَيْرِ قَطُوبِ

يقول فلا يخالف فعله قوله، وسريع إلى الخير، وليس متجهماً ولا مكشراً

مُطيعٍ لِأَمرِ اللَّهِ بِالحقِّ عارِفٍ   بَعيدُ الأَنامِ عندَهُ كَقَريبِ

٢٧ الموقف من قتل عثمان

إنْ تُمْسِ دَارُ بَني عُثْمَانَ خَالِيَةً   بابٌ صَريعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ . .

لئن أمست دار الخليفة عثمان خالية بعد مقتله، لها باب صريع، مطروح أرضاً، وباب محترق . .

فقد يُصَادِفُ بَاغي الخيرِ حاجَتَهُ   فيها، ويَأْوِي إليها العُرْفُ والحَسَبُ

فقد كان طالب المعروف يلقى في هذه الدار حاجته، وكان يسكن هذه الدار العرف، المعروف، والحسب، الشرف العالي

يا أيُّها الناسُ أَبْدُوا ذاتَ أَنْفُسِكُمْ   لا يَسْتَوِي الصِّدقُ عند اللّهِ والكَذِبُ

أيها الناس أفصحوا عن موقفكم بشأن مقتل عثمان، ولا تقفوا في الوسط. وكان كثيرون من الصحابة اتخذوا هذا الموقف الوسط: لم يحموا عثمان، ولم يناصروا قاتليه

٢٨ رثاء عثمان

قَتَلْتُمْ وَلِيَّ اللَّهِ في جَوْفِ دَارِهِ   وجِئْتُمْ بِأَمْرٍ جَائِرٍ غيرِ مُهْتَدِ

فَهلَّا رَعَيْتُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَسْطَكُمْ   وأَوْفَيْتُمْ بِالعهدِ عهدِ محمَّدِ

٢٩ قتلة عثمان

يا قَاتَلَ اللَّهُ قَوْماً كانَ شَأْنُهُمُ   قَتْلَ الإمَامِ الأمينِ المُسلِمِ الفَطِنِ

ما قَتَلُوهُ على ذَنْبٍ أَلَمَّ بِهِ   إلَّا الذي نَطَقُوا إِفْكاً، ولم يَكُنِ

لم يقتلوه لذنب ارتكبه، بل قالوا عليه الإفك، الكذب، الذي لم يكن، لم يحدث

٣٠ الغدر بعثمان

أَتَرَكْتُمُوهُ مُفْرَداً بِمَضِيعَةٍ   تَنْتَابُهُ الغَوغَاءُ في الأَمْصَارِ

أتركتموه وحده ضائعاً، أيها الصحابة (الذين لم يتخذوا موقفاً حازماً) تنتابه، وتتوالى عليه غوغاء الأمصار؟ فقتلة عثمان جاءوا من الأمصار المفتوحة ولا سيما مصر، وليسوا من أهل المدينة

لَهْفَانَ يَدعُو، غائِباً، أنصارَهُ   يا وَيْحَكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ

تركتموه ملهوفاً يدعو أنصاره وهم غائبون عن نصرته، فالويل لكم يا معشر الأنصار

جِيرانُهُ الأَدْنَوْنَ حولَ بُيوتِهِ   غَدَرُوا ورَبِّ البيتِ ذي الأَسْتَارِ

الساكنون قريباً منه غدروا به ورب الكعبة ذات الأستار. وكان قتلته تسللوا إلى دار عثمان من البيوت المجاورة

لا يَحْسَبَنَّ المُرْجِفُونَ بِأَنَّهُمْ   لن يُطْلَبُوا بِدِماءِ أهلِ الدَّارِ

لا يظنَّنَّ المرجفون، ناشرو الفتنة، بأنه لن ينالهم أذى عندما يثأر الثائرون بدم أهل الدار، أي دار عثمان التي بها قتل

٣١ الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقد رَضيتُ بِأهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً وبِالأَميرِ وبِالإِخْوانِ إِخْوانا

رضيتُ بأهل الشام المطالبين بالثأر لعثمان زافرة، أعواناً، ورضيت بأميرهم، معاوية، ورضيتهم إخواناً لي. وكان النبي عندما آخى بين المهاجرين والأنصار جعل حسَّاناً أخاً لعثمانَ

إنِّي لَمِنْهُمْ وإن غَابُوا وإن شَهِدُوا حتى المَمَاتِ وما سُمِّيتُ حَسَّانا

هم غابوا أم حضروا، وحتى الممات، وما دام اسمي حساناً

صَبْراً فِدَىً لَكُمُ أُمِّي ومَا وَلَدَتْ قد ينفعُ الصبرُ في المَكْرُوهِ أحيانا

فاصبروا يا أهل الشام على هذه المصيبة

يا ليتَ شِعْرِي وليتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُني ما كان شَأْنُ عَلِيٍّ وابْنِ عَفَّانا

ليتني أعرف، وليت الطير تخبرني، والطير عند العرب تبشر وتنذر، ما الذي كان من عداوة بين علي وعثمان بن عفان حتى لا يتقدم علي لنصرته؟

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسبِيحاً وقُرْآنا

قد ضحى القتلة بشيخ أشمط، اختلط سواد شعره ببياضه، وفي وجهه أثر من السجود، ويقطع ليلة بالتسبيح وتلاوة القرآن

لَتَسْمَعُنَّ وَشِيكاً في دِيارِهِمُ اللَّهُ أكبرُ يا ثاراتِ عُثْمَانا

ستسمع قريباً في ديار القتلة صراخ طالبي الثار

٣٢ التنصُّل

حَصَانٌ رَزَانٌ لا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الغَوافِلِ

عائشة امرأة حصان، عفيفة، رزان، وقور رزينة، لا تزن بريبة، لا تتهم بتهمة، وهي غرثى، جائعة من لحوم النساء الغافلات، أي لا تأكل لحم الغائبات، أي لا تغتاب الناس

فإنْ كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمْتُمُ فلا رَفَعَتْ سَوطِي إِلَيَّ أنامِلي

فإن كنت قد قلت فيها شراً كما تزعمون فشَلَّتْ يدي ولم تستطع أناملي الإمساك بالسوط

٣٣ تقريع تميم

قال، وقد علم أن تميماً أتوا الرسول وأنشد شاعرهم بحضرته يفاخر:

مَنَعْنا رسولَ اللَّهِ إذ حَلَّ وَسْطَنا ... على أنفِ راضٍ مِنْ مَعَدٍّ وراغِمِ

منعنا، حمينا، الرسول رغم أنف الراضي والراغم، الرافض، من قبائل معد (عرب الشمال)، وتميم التي جاء وفدها إلى المدينة من أكبر قبائل مَعَدّ

مَنَعْناهُ لَمَّا حَلَّ وَسْطَ بُيوتِنا ... بِأسيافِنا مِنْ كلِّ باغٍ وظَالِمِ

جَعَلْنا بَنِينا دُونَهُ وبَناتِنا ... وطِبْنا له نَفْساً بِفَيْءِ المَغانِمِ

حميناه بأولادنا وبناتنا، وطابت نفوسنا باقتطاع النبي جزءاً من الفيء، المكسوب بغير حرب من المغانم

ونحن ضَرَبْنا الناسَ، حتى تَتابَعُوا ... على دِينِهِ، بِالمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ

ضربنا الناس بالسيوف المرهفة، الحادة، الصوارم، القاطعة، حتى دخلوا في الإسلام قبيلاً بعد قبيل

ونحن وَلَدْنا مِنْ قُرَيْشٍ كَرِيمَها ... وَلَدْنا نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

وذلك أن أم جد الرسول، عبد المطلب، من بني النجار من الخزرج. فكان يقال ـ على بعد الشقة ـ إن الأنصار أخوال النبي

هلِ المَجْدُ إلَّا السُّؤْدَدُ العَوْدُ والنَّدَى ... وجَاهُ المُلوكِ واحتِمَالُ العَظائِمِ

هل المجد إلا السؤدَد العود، القديم، والكرم، وتحصيل الجاه والمرتبة عند الملوك، والقيام بالواجب الثقيل؟

لنا المُلْكُ في الإشْراكِ والسَّبْقُ في الهُدَى ... ونَصْرُ النَّبِيِّ واقتِنَاءُ المَكارِمِ

لنا الملك في الجاهلية أيام الشرك، ولنا السبق إلى الإسلام، ونصر النبي، واقتناء، حيازة، المكارم

بَنِي دَارِمٍ لا تَفْخَرُوا إنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبالاً عند ذِكْرِ القَمَاقِمِ

يا بني دارم، من تميم، لا تفخروا، ففخركم يعود عليكم وبالاً، مكروهاً، عندما تذكر القماقم، السادة الأشراف

هُبِلْتُمْ! عَلَيْنا تَفخَرُون وأَنْتُمُ ... لنا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وخَادِمِ

هبلتم، ثُكِلتم! أتفخرون علينا وأنتم خول لنا، أتباع، فمنكم الظئر، أي المرضع المأجورة، ومنكم الخادم

٣٤ الذوائب من فهر

قال في التعريض بتميم وقد وفدوا على الرسول وفاخره شاعرهم الزبرقان بن بدر:

إنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإِخْوَتَهُمْ ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

إن الذوائب، الأعالي، من فهر، جد قريش، وإخوتهم الأنصار قد بينوا سنة، أي طريقة، يتبعها الناس

قومٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أو حَاوَلُوا النَّفْعَ في أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

حاولوا: سعوا، الأشياع: الحلفاء

سَجِيَّةٌ تلكَ منهُمْ غيرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخَلائِقَ، فاعْلَمْ، شَرُّهَا البِدَعُ

ونفع الصديق والإضرار بالعدو سجية، طبع، قديم فيهم. والخلائق، أي الطباع، شرها ما كان جديداً

إنْ كان في الناسِ سَبَّاقُونَ قَبْلَهُمُ ... فَكُلُّ سَبْقٍ لِأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

إن كان قد سبقهم ناس في الماضي، فكل سبق للمكارم لا يقاس بأدنى سبقهم

لا يَرْقَعُ الناسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عند الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا

لا يرقع الناس ما تهتك أكفهم في مواقف الدفاع عن الشرف، ولا يوهون، لا يضعضون، ما يرقعون. يقول: إذا أنزلوا الضرر بقوم فلا قومة لهم منه، وإذا نصروا قوماً فلا يضعفهم أحد

لا يَجْهَلُون وإن حاولتَ جَهْلَهُمُ ... في فَضْلِ أحلامِهِمْ عن ذاكَ مُتَّسَعُ

أبناء فهر وإخوتهم الأنصار لا يجهلون، لا يتهورون، مهما سعيت في حملهم على التهور، ففي أحلامهم، عقولهم، سعة تقيهم التهور

كم مِنْ مُوالٍ لَهُمْ نَالُوا كَرامَتَهُ ... ومِنْ عَدُوٍّ عليْهِمْ جَاهِدٍ جَدَعُوا

ينالون التكريم من الموالين لهم، ويجدعون أنف عدوهم الجاهد، الدائب في العداوة

خُذْ مِنْهُمُ ما أَتَوْا عَفْواً إذا غَضِبُوا ... ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا

إذا غضبوا فعليك أن تأخذ منهم عفواً، ما يسمحون به، ولا تطمح إلى نيل ما منعوكه

لا فَخْرَ إنْ هُمْ أَصابُوا مِنْ عَدُوِّهِمُ ... وإنْ أُصيبُوا فَلَا خُوْرٌ ولا جُزُعُ

لا يفخرون بالنصر على عدوهم، فهذا مألوف، وإن أصيبوا فليسوا خُوراً، ضعفاء، ولا جازعين، مرتبكين

كأَنَّهُمْ في الوَغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبَيْشَةَ في أَرْسَاغِها فَدَعُ

كأنهم في الحرب، والموت مكتنع، قريب، أسود في مأسدة بيشة المشهورة، في مفاصلها فدع، اعوجاج

أَعْطَوْا نَبِيَّ الهُدَى والبِرِّ طَاعَتَهُمْ فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عنهُ وما نَزَعُوا

المهاجرون والأنصار أطاعوا النبي، وما ونى، أي ما فتر ولا توانى، نصرهم له، وما نزعوا، أي ما أقلعوا، عن نصره

إنْ قَالَ سيرُوا أَجَدُّوا السَّيْرَ جَهْدَهُمْ وقَال عُوجُوا علينا سَاعةً رَبَعُوا

إن قال لهم سيروا إلى الأعداء ساروا بهمة، وإن قال لهم عوجوا، ميلوا إلى ناحية بعض الوقت، ربعوا، أي أقاموا

ما زالَ سَيْرُهُمْ حتى اسْتَقادَ لَهُمْ أَهْلُ الصَّلِيبِ ومَنْ كانتْ له البِيَعُ

يواصلون السير حتى يستقيد لهم، يخضع لهم، المسيحيون. والبيع: الكنائس الصغيرة

أكْرِمْ بِقَوْمِ رسولُ اللَّهِ قَائِدُهُمْ إذا تَفَرَّقَتِ الأَهواءُ والشِّيَعُ

ما أكرم القوم الذين يقودهم رسول الله في وقت تتفرق فيه أهواء الناس وتحالفاتهم

أَهْدَى لَهُمْ مِدَحي قلبٌ يُؤَازِرُهُ فيما يُحِبُّ لِسانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

أهدَى لهم مدائحي قلبي الذي يؤازره ويساعده في رغباته لسان حائك للقصيد صَنَع، أي متقِن لصناعته

٣٥ القدوم على بدر

مُسْتَشْعِري حَلَقِ المَاذِيِّ يَقْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحيزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رِعْدِيدِ

مضوا إلى بدر مستشعري حلق الماذي، لابسين الدروع الماذية البيض شعاراً أي على جلودهم، فالشعار هو الفانيلا التي تلبسها على اللحم، وفي مقدمتهم الرسول وهو جلد النحيزة، أي قوي الطبيعة، وغير رعديد، غير جبان

أَعْني الرَّسُولَ، فإنَّ اللَّهَ فضَّلَهُ على البَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وبِالجُودِ

وقد زَعَمْتُمْ بِأَنْ تَحْمُوا ذِمَارَكُمْ ومَاءُ بَدْرٍ زَعَمْتُمْ غيرُ مَوْرُودِ

زعمتم يا قريش أنكم تحمون ذماركم، شرفكم، وزعمتم أننا لن نرد ماء بدر

ثُمَّ وَرَدْنَاهُ لم نسمعْ لِقَوْلِكُمْ حتى شَرِبْنا رَوَاءً غيرَ تَصْرِيدِ

فقد وردنا، وشربنا حتى الري، وبلا تصريد، والتصريد هو الشرب القليل

فِينا الرسولُ وفينا الحقُّ نَتْبَعُهُ حتى المماتِ، ونَصْرٌ غيرُ مَحدودِ

غير محدود: غير ممتنع علينا

مُبَارَكٌ، كَضِياءِ البدرِ صُورَتُهُ، ما قالَ كانَ قَضاءً غَيْرَ مَرْدُودِ

مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلٍ غيرِ مُنْجَذِمٍ مُسْتَحْكِمٍ مِنْ حبالِ اللّهِ مَمْدُودِ

نستعصم، نحتمي، بحبل التقوى غير المنجذم، غير المقطوع، والمستحكم، المحكم الفتل، وقد مده لنا الله

٣٦ اللين الشديد

قال يمدح سعد بن زيد الأشهلي:

إذا أَرَدْتَ الـلَّـيِّـنَ الأشَـدَّا

مِـنَ الـرِّجـالِ فـعَـلَـيْـكَ سَـعْـدَا

لـيـس يَـرى مِـنْ ضَـرْبِ كَـبْـشٍ بُـدَّا

الكبش: البطل

٣٧ في مدح المهاجرين

أَقَامُوا عَمُودَ الدِّينِ حتى تَمَكَّنَتْ قـواعـدُهُ بِـالـمُـرْهَـفَـاتِ الـبَـواتِـرِ

المرهفات: السيوف الحادة، البواتر: القاطعة

هُـمُ عَـقَـدُوا لِـلَّـهِ ثـم وَفَـوْا لـهُ بِـمَـا ضَـاقَ عـنـهُ كلُّ بَادٍ وحَاضِرِ

عاهدوا الله ووفوا بوعدهم متجشمين صعاباً يضيق عنها البادي والحاضر، البدو والحضر

٣٨ هجاء هوازن

أَبْلِـغْ هَـوَازِنَ أَعْـلاها وأَسْـفَـلَـهـا أنْ لَـسـتُ هَـاجِـيَـهـا إلّا بِـمـا فـيـهـا

أبلغ قبيلة هوازن، أبلغ «عليا هوازن» و«عَجُزَ هوازن» معاً، أنني لن أهجوهم إلا بما فيهم من ذميم الخصال

قـبـيـلـةٌ ألأَمُ الأحـيـاءِ أكـرَمُـهـا وأَغْـدَرُ الـناسِ بـالـجـيـرانِ وافـيـهـا

أكرم من في هوازن هو ألأم البشر، وأوفاهم أكثر الناس غدراً بالجيران، أي المستجيرين بهم

وشَرُّ مَنْ يَحْضُرُ الأَمْصَارَ حَاضِرُهُمْ وشَـرُّ بَـادِيَـةِ الأَعْـرابِ بَـادِيـهـا

أسوأ من يأتي الحواضر، المدن، من يأتون من هوازن؛ وباديهم، الساكن البادية، هو شر الأعراب

تَـبْـلَـى عِـظَـامُـهُـمُ إمَّـا هُـمُ دُفِـنـوا تَـحت الترابِ ولا تَـفْـنَـى مَـخـازِيـهـا

إن دفنوا وبليت عظامهم فإن مخازيهم لا تفنى

كأنَّ أَسْنَانَهُمْ مِنْ خُبثِ طِعْمَتِهِمْ   أظْفارُ خَاتِنَةٍ كَلَّتْ مَواسِيها

أسنانهم ـ لقذارة ما يأكلون من ضب ونحوه ـ تشبه أظفار الخاتنة التي كلت مواسيها، تثلمت سكاكين الختان التي تقص بها ذلك الشي من البنت، فاستعملت أظفارها في الختان. تريد أن تقول لي إنك سمعت تشبيهاً أخبث من هذا؟

٣٩ نصرنا وآوينا

بَنَى العِزُّ بَيْتاً فاستقَرَّتْ عِمَادُهُ   علينا، وأعيَا الناسَ أنْ يَتَحَوَّلا

العز بنى بيتاً، خيمة، فاستقر عمود الخيمة عندنا، وأتعب الناس وهم يحاولون نقله فلم ينتقل من عندنا

وإنَّكَ لن تَلقَى مِنَ الناسِ مَعشراً   أعزَّ مِنَ الأنصارِ عِزّاً وأفْضَلا

لَنا حَرَّةٌ مَأْطُورَةٌ بِجِبالِها   بَنَى العِزُّ فيها بَيْتَهُ فَتَأَهَّلا

لنا حرة، منطقة الحرَّة ذات الحجارة السود قرب المدينة، مأطورة، أي محاطة، بجبالها، وفيها بنى العز بيته وأصبح من أهل المكان

مَنَعْنا بِها خيرَ البَرِيَّةِ كلِّها   إماماً، ووَقَّرْنا الكتابَ المُنَزَّلا

منعنا، أي حمينا، في بلدنا خير البشر واستقبلناه إماماً، وبجَّلنا القرآن

نَصَرْنا وآوَيْنا، وقَوَّمَ ضَرْبُنا   له بِالسُّيُوفِ مَيْلَ مَنْ كان أمْيَلا

نصرناه وآويناه وأصحابه، وقوَّم ضربُنا بسيوفنا ميلَ من مال عن دينه

٤٠ الصفقة الخاسرة

أُتْرُكِ الناسَ فلا تَشْتُمْهُمُ   وإذا سَابَبْتَ فَاسْبُبْ ذا حَسَبْ

إنَّ مَنْ سَبَّ لَئِيماً كالذي   يَشترِي الصُّفْرَ بِعِقْيَانِ الذَّهَبْ

من سب لئيماً خسر من شرفه، ولكن اللئيم لا يخسر سوى القليل لأن شرفه قليل.. فهذا شبيه بمن يبادل الذهب الذي يملكه بالصفر أي النحاس. والعقيان: الذهب الخام

٤١ أشعر بيت

وإنَّما الشِّعرُ لُبُّ المَرْءِ يَعرِضُهُ   على المَجالِسِ: إنْ كَيْساً وإنْ حُمُقا

الشعر لب المرء، أي عقله. والمرء يعرض عقله على الناس في مجالسهم من خلال شعره أكان كيساً، أي كياسة ورجاحة عقل، أم كان حمقاً

وإنَّ أَشْعَرَ بيتٍ أنت قَائِلُهُ   بيتٌ يُقالُ إذا أنشدْتَهُ صَدَقا

٤٢ الشعر والغناء

تَغَنَّ في كلِّ شِعْرٍ أنتَ قائِلُهُ　　إنَّ الغِناءَ لِهذا الشِّعْرِ مِضْمَارُ

٤٣ سُعدى والإنصاف

فَابْكِ مَا شِئتَ على مَنْ قَضَى　　كُلُّ وَصْلٍ مُنْقَضٍ ذَاهِبُ

لَوْ يَرُدُّ الدَّمعُ شيئاً لقد　　رَدَّ شيئاً دمعُكَ السَّاكِبُ

لم تكنْ سُعْدَى لِتُنصِفَني　　قلَّما يُنصِفُني الصَّاحِبُ

٤٤ مدح الزبير

قال حسان وقد حث الزبيرُ الناس على الاستماع لإنشاده:

أَقامَ على عهدِ النَّبِيِّ وهَدْيِهِ　　حَوَارِيُّهُ، والقَولُ بِالفِعْلِ يُعْدَلُ

التزم حواري النبي، أي تلميذه المرافق، الزبير بن العوام بعهد النبي وبهديه، وأفعال الزبير تعادل أقواله

لهُ مِنْ رسولِ اللَّهِ قُربَى قَرِيبَةٌ　　ومِنْ نُصْرَةِ الإسلامِ مَجْدٌ مُؤَثَّلُ

له قربى من الرسول، والزبير ابن عمة الرسول، وله من نصرة الإسلام مجد مؤثل، قديم راسخ

ثَناؤكَ خيرٌ مِنْ فَعالِ مَعَاشِرٍ　　وفِعْلُكَ يا ابْنَ الهَاشِمِيَّةِ أَفْضَلُ

ثناؤك عليَّ بالكلمة أثقل في الميزان من فعلِ آخرين، وفعلك يا ابن الهاشمية ـ فالزبير من بني هاشم أباً وأماً ـ أفضل من القول

٤٥ ميزان يثرب

ويَثْرِبُ تَعلمُ أَنَّا بِها　　إذا التَبَسَ الحَقُّ مِيزانُها

يثرب تعلم أنا ميزان الحق عندما يحصل اللُّبس ويختلط الحق بالباطل

ويَثْرِبُ تَعلمُ أَنَّا بِها　　إذا خَافَتِ الأَوْسَ جِيرانُها

ونحن ـ الخزرج ـ نجير كل أهل يثرب من الأوس

متى تَرَنا الأوسُ في بَيْضِنا　　نَهُزُّ القَنا تَخْبُ نيرانُها

عندما ترانا الأوس وقد لبسنا السلاح وهززنا الرماح تخبو نيران عداوتها

وتُعْطِ القِيَادَ على رُغْمِها　　ويَنْزِلْ مِنَ الهَامِ عِصْيانُها

وتعطينا قيادها وتخضع لنا،　　ويزول ما برأسها من العصيان

٤٦ هجاء العابديين

قال يهجو صيفي بن عابد من مخزوم:

ولن أَنْفَكَّ أَهْجُو عَابِدِيًّاً طَوالَ الدهرِ ما نَادَى المُنادي

سأظل أهجو العابديين طول الدهر، وما دام هناك منادٍ ينادي

وقد سَارَتْ قَصائِدُ بَاقِياتٌ تَنَاشَدَها الرُّوَاةُ بِكُلِّ وَادِ

وقصائدي فيهم قد انتشرت وأنشدها الرواة في كل مكان

٤٧ بقية قوم لوط

ذَهبتْ قريشٌ بِالعَلاءِ، وأَنتُمُ تَمْشُون مَشْيَ المُومِسَاتِ الخُرَّعِ

قريش حازت المكارم، وأنتم تمشون كالمومسات العاهرات الخرَّع، أي المتثنيات

أَنتُمْ بَقيَّةُ قومِ لُوطٍ فاعلَمُوا وإلى خِنَاثِكُمُ يُشَارُ بِإِصْبَعِ

فيكم اللواط، ويشير الناس إلى مخنثيكم بالأصابع

وإذا قُرَيشٌ حُصِّلَتْ أَنسابُها فَبِآلِ شِجْعٍ فَافْخَرُوا في المَجْمَعِ

بعد أن تحصل الأنساب، أي تُميَّز وتُصفَّى، فليس لكم في المجمع، حيث يجتمع الأقوام، إلا الفخر بأشجع، وأشجع قبيلة من غطفان

خُرْقٌ مَعازِيلٌ إذا جَدَّ الوَغَى بُطْنٌ إذا ما جَارُهُمْ لم يَشْبَعِ

خرق، جمع أخرق أي حمقى، ومعازيل، بلا سلاح إذا احتدم القتال؛ وبُطُنٌ، أي أنهم كبيرو البطون، في حين من يجاورهم جائع لم يشبع

٤٨ قصيدة من السماء

أجازت ابنته أبياتاً له ببيت جميل هو (مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا/ كرام يعاطون العشيرة سولها) فغضب من ابنته، فعاهدته ألا تقول شعراً أبداً، فقال:

وقَافِيَةٍ عَجَّتْ بِلَيْلٍ ثَقيلَةٍ تَلَقَّيْتُ مِنْ جَوِّ السماءِ نُزولَها

رب قافية، قصيدة، عجت ليلاً، ازدحمت عليَّ، وقد هبط الإلهام عليَّ من السماء

يَهابُ الذي لا يَنطِقُ الشِّعْرَ مِثلَها ويَعْجِزُ عن أمثالِها أن يقولَها

الذي لا يعرف الشعر يهاب وقع هذه القصيدة ويدرك عجزه عن أن يأتي بمثلها. وكان حق حسان أن يجعل «الشاعر» يهاب فهذا أبلغ وأوقع

٤٩ نبي أتانا

وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِهِ   إذا قال في الخَمْسِ المؤذِّنُ أَشْهَدُ

في الصلوات الخمس يقول المؤذن «أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله»

نَبِيٌّ أتَانا بعد يأسٍ وفَتْرَةٍ   مِنَ الرُّسْلِ، والأوثانُ في الأرضِ تُعْبَدُ

جاءنا النبي بعد يأس من صلاح الحال، وبعد «فترة» من الرسل، والفترة هي المدة بين رسولين. قال البوصيري (ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومَها بك الأنبياء)

وأنذَرَنا ناراً وبَشَّرَ جَنَّةً   وعَلَّمَنا الإسلامَ، فاللهَ نَحْمَدُ

تَعالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قولِ مَنْ دَعَا   سِواكَ إلَهاً أنتَ أعلى وأمْجَدُ

٥٠ هجاء بني عدي بن كعب

قومٌ لِئامٌ أَقَلَّ اللَّهُ خيرَهُمُ   كما تَنَاثَرَ خَلفَ الرَّاكِبِ البَعَرُ

جعل الله خيرهم قليلاً متناثراً كالبعر يرميه البعير خلفه

كأنَّ رِيحَهُمُ في الناسِ إذْ خَرَجُوا   رِيحُ الكِلابِ إذا ما بَلَّها المَطَرُ

رائحتهم كرائحة كلاب تبللت بالمطر

قد أبرَزَ اللَّهُ قَوْلي فوقَ قَولِهِمُ   كما النُّجومُ تَعَالَى فوقَها القَمَرُ

غلبتهم في الهجاء، وعلوت عليهم كما يعلو القمر فوق النجوم

٥١ هند الهنود

قال يهجو هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان:

أَشِرَتْ لَكَاعِ وكان عَادَتُها   لُؤْمٌ إذا أَشِرَتْ مَعَ الكُفْرِ

أشرت، كانت شرسة، لكاع، المرأة اللئيمة، وفوق ذلك كفر

لَعَنَ الإلَهُ، وزَوْجَهَا مَعَها،   هَنْدَ الهُنُودِ طَوِيلَةَ البَظْرِ

لعنها الله ولعن زوجها أبا سفيان، ويعيرها بما لا يَعرف

٥٢ السعيد والحسود

وإنَّ امْرَأً أَمْسَى وأَصْبَحَ سالِماً   مِنَ النَّاسِ، إلَّا مَا جَنَى، لَسَعِيدُ

من أمسى في مسائه ثم أصبح في صباحه وهو سالم من كيد الناس ـ باستثناء ما يستحقه ـ فهو سعيد

وإنَّ امْرَأً عادَى الرجالَ على الغِنى، ولـم يَسـأَلِ اللَّـهَ الغِـنَـى، لَـحَـسُـودُ

من يعادي الناس لأنهم أغنياء، ولم يكن سأل الله الغنى، فهذا حسود

٥٣ النبي الكامل

وأَحْسَـنُ مـنـكَ لـم تَـرَ قَـطُّ عَـيْـنـي وأَجْـمـلُ مـنـكَ لـم تَـلِـدِ الـنِّـسَـاءُ

خُـلِـقْـتَ مُـبَـرَّأً مِـنْ كـلِّ عَـيْـبٍ كـأنَّـكَ قـد خُـلِـقْـتَ كـمـا تَـشَـاءُ

خلقت أيها الرسول خالياً من أي عيب، فكأنك خلقت كما تشاء

٥٤ القوافي والمثاني

ومَـنْ لِـلـقَـوافـي بـعـدَ حَـسَّـانَ وابْـنِـهِ ومَـنْ لِـلْـمَـثـانـي بـعـدَ زَيْـدِ بـنِ ثَـابِـتِ

من للشعر بعدي وبعد ابني عبد الرحمن، وكان ابنه شاعراً، ومن للمثاني ـ والمثاني هي القرآن لاقتران آية الرحمة بآية العذاب فيه. . كذا قالوا، وقالوا غيره ـ بعد زيد بن ثابت كاتب الوحي، وزيدٌ من بني النجار عشيرة حسان

٥٥ مرحباً يا خير داع

لـقـد خَـابَ قـومٌ غَـابَ عـنـهُـمْ نَـبِـيُّـهُـمْ وقُـدِّسَ مَـنْ يَـسْـري إِلـيْـهِـمْ ويَـغْـتـدي

خابت قريش بغياب النبي عنها، وقُدس الأنصار الذين يسري النبي مساء ويغتدي صباحاً وهو يعيش بينهم

تَـرَحَّـلَ عـن قَـوم فَـضَـلَّـتْ عـقـولُـهُـمْ وحَـلَّ عـلـى قـوم بِـنُـورٍ مُـجَـدَّدِ

لـقـد نَـزلَـتْ مـنـهُ عـلـى أهـلِ يَـثْـرِبٍ رِكَـابُ هُـدَىً حَـلَّـتْ عـلـيْـهِـمْ بِـأَسْـعُـدِ

السعد هو الفأل الحسن والأَسْعُد لا بد أن تكون الفؤول الحسان

نَبِيٌّ يَرى ما لا يَرى الناسُ حَولَهُ ويَتلُو كتابَ اللَّهِ في كلِّ مَشْهَدِ

وإن قـالَ فـي يـومٍ مَـقـالَـةَ غَـائِـبٍ فتَصْديقُها في اليومِ أو في ضُحَى الغَدِ

إن قال النبي يوماً قولاً لا برهان عتيداً عليه، فتصديقه بالبرهان سرعان ما يأتي

٥٦ بطيبة رسم

بِـطَـيْـبَـةَ رَسْـمٌ لـلـرَّسـولِ ومَـعْـهَـدُ مُـنـيـرٌ، وقـد تَـعْـفُـو الـرُّسُـومُ وتَـهْـمَـدُ

بطَيْبة، وطيبة اسم ليثرب، رسم للرسول، بقية منه، ومعهد، مكان نعهده ونعود إليه، ومكان الرسول منير بينما رسوم الديار تعفو، أي تمَّحي، وتهمد، أي تهبط

وهَل عَدَلَتْ يوماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ   رَزِيَّةَ يَوم مَاتَ فيهِ مُحمدُ؟

هل تساوي المصيبة في أي ميت مصيبتنا في اليوم الذي مات فيه الرسول؟

وما فقدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحمدٍ   ولا مِثلُهُ حتى القِيامَةِ يُفْقَدُ

٥٧ عروس وعروسها

قال، يحث أبا بكر على عزل خالدٍ بعد اليمامة، بعد إذ قتل عدوه وتزوج زوجته:

أَتَرْضَى بِأَنَّا لم تَجِفَّ دِماؤُنا   وهذَا عَرُوسٌ بِاليَمَامَةِ خَالِدُ

أيرضيك أننا حاربنا المرتدين وقُتل منا القتلى ثم هذا خالد عروساً، والعروس الرجل أيضاً، يلهو مع زوجة جديدة

يَبيتُ يُنَاغي عِرْسَهُ ويَضُمُّها   وهَامٌ لنا مَطرُوحَةٌ وسَوَاعِدُ

يبيت يلهو مع عرسه، زوجته الجديدة، وهامنا، رؤوسنا، وسواعدنا مطروحة في أرض المعركة

إذا نحن جئْنا صَدَّ عنَّا بِوجْهِهِ   وتُلْقَى لِأَعْمَامِ العَروسِ الوَسَائِدُ

العروس هنا المرأة، إلقاء الوسائد: الرجل يلقي لضيفه، إذا دخل مجلسه، وسادة ليتكئ عليها

فإن تَرْضَ هذا فالرِّضَا مَا رَضيتَهُ   وإلَّا فَغَيِّرْ، إنَّ أَمْرَكَ رَاشِدُ

٥٨ من شاء بعدك فليمت

كنتَ السَّوَادَ لِناظِري   فَعَمِي عليكَ النَّاظِرُ

كنت سواد عيني وبموتك عَمِيَ عليك، أي بالبكاء عليك، ناظري، بصري

مَنْ شَاء بَعدَكَ فَلْيَمُتْ   فعلَيْكَ كنتُ أحَاذِرُ

٥٩ بعد العَمَى

إنْ يَأخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُما   ففي لساني وقَلبي مِنْهُما نُورُ

قَلبي ذَكِيٌّ وعِرْضي غيرُ ذي دَخَلٍ   وفي فَمي صَارِمٌ كالسَّيْفِ مَأْثُورُ

عرضي غير ذي دخل، أي فساد، وفي فمي لسان صارم كأنه السيف المأثور، الذي في متنه أثر

٦٠ هجاء بني الحماس

أمَّا «الحِمَاسُ» فإنِّي غيرُ شَاتِمِهِمْ   لا هُمْ كِرامٌ، ولا عِرْضي لَهُمْ خَطَرُ

خطر: عديل ومماثل

قومٌ لِئامٌ أَقلَّ اللَّهُ عِدَّتَهُمْ كما تَساقَطَ حولَ الفَقْحَةِ البَعَرُ

هم لئام، وعددهم قليل ويشبهون في قلتهم وتفرقهم البعر المتساقط حول فقحة، دبر، الشاة

أَوْلادُ حَامٍ فلن تَلقَى لهُمْ شَبَهاً إلّا التُّيوسَ على أَكْتافِها الشَّعَرُ

يبدو أنهم سود، والعرب تنسب السود إلى حام ولد نوح، ويشبههم بالتيوس وشعرها الأسود

٦١ بيان ابن عباس

إذا قَالَ لم يَتْرُكْ مَقالاً ولم يَقِفْ لِعِيٍّ ولم يَثْنِ اللِّسَانَ على هُجْرِ

لم يترك في القضية لغيره ما يقوله، ولا يقف في كلامه لعي، لقلة فصاحة، ولا يحرك لسانه ويثنيه بهجر، بقول شائن

يُصَرِّفُ بِالقولِ اللِّسَانَ إذا انْتَحَى ويَنْظُرُ في أَعْطَافِهِ نَظَرَ الصَّقْرِ

يصرف الكلام بلسانه إذا تصدى للقول، وينظر في عطفيه، في جانبيه بكبرياء نظر الصقر

٦٢ تغريبة بني يمن

قال يذكر انخزاع خزاعة بمكة ومسير الأوس والخزرج إلى المدينة وغسان إلى الشام:

فلمَّا هَبطْنَا بَطْنَ مَرٍّ تَخزَّعَتْ خُزَاعَةُ مِنَّا في حُلُولِ كَراكِرِ

لما هبطت قبائل اليمن هذا المكان تخزعت قبيلة خزاعة، أي تفرقت، في حلول كراكر.. يقصد في أمكنة متعددة.. هذا المعنى الملموح

حَمَوْا كلَّ وادٍ مِنْ تِهَامَةَ، واحْتَمَوْا بِصُمِّ القَنا والمُرْهَفَاتِ البَواتِرِ

حموا وديان تهامة، أي اتخذوها حمى لرعي ماشيتهم، وحموا أنفسهم بصم القنا، بالرماح المصمتة الصلبة، وبالمرهفات البواتر، بالسيوف الحادة القاطعة

خُزاعَتُنَا أَهْلُ اجْتِهادٍ وهِجْرَةٍ وأَنصارُنا جُندُ النَّبِيِّ المُهَاجِرِ
وسِرْنَا فَلَمَّا أَن هَبَطْنا بِيَثْرِبٍ بِلا وَهَنٍ مِنَّا ولا بِتَشَاجُرِ

نحن سرنا شمالاً وهبطنا يثرب لا عن تعب منا، ولا بحدوث مشادات وشجار

بَنُو الخَزْرَجِ الأَخْيارِ والأَوْسُ إِنَّهُمْ حَمَوْها بِفِتيانِ الصباحِ البَواكِرِ

الخزرج والأوس حموا يثرب بفتيان يغيرون صباحاً، والصباح هو وقت الغارة عند العرب

نَفَوْا مَنْ طَغَى في الدهرِ عنهُمْ، وذَبَّبُوا يَهُودَ بِأَطْرافِ الرماحِ الخَواطِرِ

أبعَدوا الظالمين وذببوا، أقصوا، اليهود بالرماح الخواطر، التي تتحرك بالطعن

وسَـارَتْ لـنـا سَـيَّـارَةٌ ذاتُ قُـوَّةٍ بِكُومِ المَطَايا والخُيولِ الجَمَاهِرِ

وسارت سيارة منا، قوم سائرون، ومعهم كوم المطايا، الإبل الكبيرة، والخيول الكثيرة

يَؤُمُّونَ نَحْوَ الشامِ حتَّى تَمَكَّنُوا مُلُوكاً بأرضِ الشامِ فوقَ المَنابِرِ

يتجهون نحو الشام، وهناك أصبحوا ملوكاً لهم منابر يخطبون من عليها بالناس

أُولاكَ بَنُو ماءِ السَّماءِ تَوارَثُوا دِمَشْقَ بِمُلْكٍ كَابِراً بعدَ كَابِرِ

أولاك، أي أولئك، الغساسنة من بني ماء السماء الذين توارثوا دمشق أباً عن جد

٦٣ الشجاع

كَمْ قد وَلَدْنَا مِنْ كريمٍ مَاجِدٍ دامِي الأَظَافِرِ أو ربيعٍ مُمْطِرِ

ما أكثر ما أنجبنا من رجل كريم شجاع تدمى أظفاره من دماء الأعداء،
لكنه أيضاً كالربيع الممطر جوداً

يَلْقَى الرِّماحَ بِوجْهِهِ وبِصدْرِهِ ويُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ المِغْفَرِ

وهو يتصدى لرماح الأعداء بوجهه وبصدره، ويجعل هامته، أي رأسه، مكان المغفر، وهو حلقات حديد تحت الخوذة تحمي الرقبة

ويَقولُ للطِّرْفِ اصْطَبِرْ لِشَبَا القَنا فَهَدَمْتَ رُكْنَ المَجْدِ إن لم تَصْبِرِ

يقول للطرف، للحصان، اصبر لشبا القنا، أسنة الرماح؛ فإنك ستهدم ركن مجدنا إن لم تصبر

وإذا تَأَمَّلَ شَخصَ ضيفٍ مُقْبِلٍ مُتَسَرْبِلٍ سِرْبَالَ ثَوْبٍ أَغْبَرِ . .

إذا رأى ضيفاً مقبلاً نحوه وهو متسربل، أي لابس، ثوباً مغبراً من طول السير في الصحراء . .

أَومَا إلى الكَوْمَاءِ: هذا طَارِقٌ نَحَرَتْنِيَ الأَعداءُ إن لم تُنْحَري

أومأ، أي أشار، إلى الكوماء، الناقة الكبيرة، قائلاً: هذا طارق، زائر ليلٍ، ولتذبحني الأعداء إن لم أذبحك لإكرامه

٦٤ المسير إلى بدر

قَوْمِي الذينَ هُمُ آوَوْا نَبِيَّهُمُ وصَدَّقُوهُ وأَهلُ الأرضِ كُفَّارُ

وقَاسَمُوهُ بِها الأموالَ إذ قَدِمُوا مُهَاجِرينَ، وقِسْمُ الجَاحِدِ النارُ

قومي الأنصار قاسموا النبي والمهاجرين أموالهم، وأما قِسْم، أي نصيب، الجاحد بدعوة النبي، فهو جهنم

سِرْنَا وسَارُوا إلى بَدْرٍ لِحَيْنِهِمُ لو يَعلَمونَ يَقينَ العِلْمِ ما سَارُوا

سرنا وسار الجاحدون إلى بدر لحينهم، أي لهلاكهم، ولو علموا بما ستكون عليه النتيجة لما ساروا

٦٥ عاشوا بلا فرقة

قال في النبي وأبي بكر وعمر:

ثَـلاثَـةٌ بَـرَّزُوا بِـسَـبْـقِـهِـمُ يَـنْـصُـرُهُـمْ رَبُّـهُـمْ إذا نُـشِـرُوا

برزوا: تفوقوا، نشروا: بُعثوا يوم القيامة

عـاشُـوا بـلا فُـرْقَـةٍ حَـيـاتَـهُـمُ واجتَمَعُوا في الـمماتِ إذ قُبِرُوا
فـلـيـسَ مِـنْ مُـسْـلِـمٍ لـهُ بَـصَـرٌ يُـنْـكِـرُ مِـنْ فَـضلِـهِـمْ إذا ذُكِـرُوا

٦٦ قوم همُ شهدوا

قال، وتُروَى لابنه عبد الرحمن بن حسان:

قومٌ هُمُ شَهِدُوا بَدْراً بِأَجْمَعِهِمْ معَ الرسولِ فَما أَلَّوْا ومَا خَذَلُوا

الأنصار شهدوا مع النبي وقعة بدر، فما ألُّوا، ألَّى أي قصَّر وتهاون، وما خذلوا وتراجعوا. قوله بأجمعهم فيه نظر: فحسان نفسه لم يشهد بدراً ولا أي موقعة أخرى، كان يؤثر السلامة

وبَـايَـعُـوهُ فـلـم يَـنْـكُـثْ بـهِ أَحَـدٌ منهُمْ، ولـم يَكُ في إِيمانِهِمْ دَخَلُ

بايعوا الرسول فلم ينكث أحد، يتراجع، ولم يكن في إيمانهم دخل، أي فساد

ويومَ صَبَّحَهُمْ في الشِّعْبِ مِنْ أُحُدٍ ضَرْبٌ رَصِينٌ كَحَرِّ النارِ مُشْتَعِلُ

وشهدوا معه عندما صادفهم في معركة أحد الضرب الرصين، الموجع

ويـومَ خَـيْـبَـرَ كـانـوا فـي كَـتِـيـبَـتِـهِ يَـمْـشُـونَ كـلُّـهُـمُ مُـسْـتَـبْـسِـلٌ بَـطَـلُ
بِالبِيضِ تَرْعَشُ في الأَيْمانِ عَارِيَةً تَعْوَجُّ في الضَّرْبِ أَحياناً وتَعْتَدِلُ

تسلحوا بالسيوف وهي تتحرك وترتعش في الأيمان، الأيدي اليمنى، مسلولة عارية، تضرب الأعداء مائلة ومعتدلة في حركتها

ويـومَ سَـارَ رسـولُ الـلَّـهِ مُـحْـتَـسِـبـاً إلـى تَـبُـوكَ وهُـمْ رَايَـاتُـهُ الأُوَلُ

كانوا في المقدمة في غَزَاةِ تبوك

أُولـئِـكَ الـقـومُ أَنـصَـارُ الـنَّـبِـيِّ هُـمُ قَـومـي أَصِـيـرُ إِلـيْـهِـمْ حـيـنَ أَتَّـصِـلُ

أولئك الأنصار، وهم قومي الذين إليهم أنتسب

ماتُوا كِراماً ولم تُنْكَثْ عُهودُهُم   وقَتْلُهُمْ في سبيلِ اللَّهِ إذْ قُتِلُوا

مات من مات منهم كريماً، وما قتلوا إلا في سبيل الله

٦٧ عيون القطط

ثَرِيدٌ كَأنَّ السَّمْنَ في حَجَراتِهِ   نُجُومُ الثُّرَيَّا أو عُيونُ الضَّيَاوِنِ

يصف ثريداً يلمع السمن في جوانبه كأنه النجوم أو عيون الضياون، أي القطط

٦٨ مني بيت ومنه بيت

إذا مَا تَرَعْرَعَ فينا الغُلامُ   فمَا إنْ يُقَالُ لهُ مَنْ هُوَهْ

ما يكبر غلامنا إلا ويكون معروفاً بأفعاله فلا يسأله أحد من أنت

ولِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصَبانِ   فَطَوْراً أَقُولُ وطَوْراً هُوَهْ

لي رديف من بني الشيصبان، أي من الجن، يلهمني الشعر، فأنا أقول بيتاً وهو يقول بيتاً

حسان بن ثابت

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الأخطل، غِيَاث بن غوث التغلبي
(٢٠هـ ـ ٩٥هـ)

مسكين أيها العجوز النصراني! ظل جرير يعيرك بدينك سنواتٍ طوالاً، وأنت لا تستطيع أن تعيره بدينه. لا نظن هذا أدباً منك، ولا تقوى. فلا أنت مؤدب، ولا أنت تقي. أنت تعيش في كنف الدولة الإسلامية الغالبة، وتصبر على بذاءات جرير، وترقّع روحك المجروحة بالتمسك بدينك، فكنت تعلق صليبك الذهبي في صدرك أينما ذهبت، في مجلس الخليفة تعلقه، وفي إنشادك شعراً أمام القوم تعلقه، وكنت به تفتخر. بهذا فقط رددت على جرير؟ بل لقد رددت بشيء آخر.. رددت بشعر صلب أعجب الراسخين في العربية كثيراً. وكان جل هؤلاء الراسخين متدينين ورعين، لكنهم لم يكونوا يفضلون شعراً على شعر إلَّا بما فيه من شعر.

قد قربك الخليفة الأموي لمصلحة له فيك، ولم يلتفت لما يعتمل في نفسك من ألم بسبب ذلك الهجاء الديني البغيض. ثم مضت ألف سنة ومئة، وانتصر لك الدارسون المسيحيون بأن اهتموا بشعرك كل الاهتمام. فأنفق الأب صالحاني اليسوعي أربعين سنة وهو يجمع شتات ديوانك، وأحسن في ذلك الإحسان كله، وترك لنا شعرك في أحسن صورة ممكنة. وتعصب لك على صاحبيك، جرير والفرزدق دارسون مسيحيون كثر في عصرنا، ولكن من وضع شعرك في طبعة أنيقة وبشرح جميل كان الدكتور فخر الدين قباوة.

ومن الطبعة الثانية لديوان الأخطل بتحقيق وشرح قباوة استفدت كثيراً وأنا أشرح منتخباتي هذه. وكان قباوة في علمه عميقاً، وفي خلقه متيناً، فشكر الأب صالحاني وأقر له بمجهوده الكبير. وفي هذه المنتخبات كنت في بعض الأحيان آخذ برواية جاء بها الأب صالحاني، وفي أحيان أخرى برواية أوردها قباوة.

لقد طبع ديوان الأخطل كثيرون، وسرقوا جهد غيرهم بقحة. ولم نذكر إلا تينك الطبعتين؛ ونرجو أن تتاح لنا سويعة نرجع فيها إلى تلك الطبعات السقيمة كي نبسط اللسان في أولئك الأكاديميين الذين عرضوا مقابحهم وكشفوا عن سوآتهم.

يا أبا مالك، نذكر للمسيحيين الذين اهتموا بشعرك أنهم كانوا غاية في الخلق الحسن فلم يتعرضوا لمسألة الدين، لا بل إن بعضهم فضل جريراً عليك، ذلك مارون عبود في كتابه «الرؤوس».

لست مسكيناً يا أشعر المسيحيين، فقد كنت جاهلياً في تفكيرك وسلوكك، وكنت قبلياً، وجباناً كنت، وسيء الخلق، وسكيراً، وبعيداً عن تعاليم دينك. كنت شاعراً فصيحاً، وكان في شعرك بعض وثبات الخيال الجميلة، ولكننا لا نقر جمهور الدارسين على أنك ذو خيال مجنح. ربما منعنا من إدراك هذا الذي نسبوه إليك من تميُّزٍ بالـ «خيال» لغتك الجاهلية القاسية. فمع أنك ولدت بعد الهجرة بعشرين سنة فنحن نسميك «آخر الجاهليين».

ولماذا أنفق بعض القليل الباقي من ساعات عمري عليك؟

مالت شمس العمر غرباً، وبدأت ألملم أشيائي. وجدت بين هذه الأشياء بضعة آلاف من الأبيات كنت انتقيتها من دواوين اثنين وأربعين شاعراً، هم أهم شعراء العربية، وقلت لنفسي: قدِّم هذه الأبيات، وأولئك الشعراء، للأجيال اللاحقة.. وقدمها لهم مشروحة، وقدم لهم شعراءها بكلام يضعهم في جو كل شاعر.

أعيش هذه الساعات وبلاد العرب تتفكك، أعيشها وشعوب العرب تقيء على نفسها ما أكلته في الستين سنة الماضية من أمجاد زائفة، وأنا أكتب في أيلول سبتمبر عام ٢٠١٥. نصرخ صرخات مغناجة في ردهات الإنترنت شاتمين الغرب، ونبكي على أنفسنا، ونشتم أنفسنا، ونعود بعد شتم الذات لنرفع رؤوساً حشوها الجهل لنقول: لا وألف لا. لسنا الملومين، بل الغرب المجرم هو الملوم. ونصرخ صرخات المظلوم. صرخات ترسم على شفاه أمم الأرض ابتسامات الشفقة والسخرية. نحن أحق أن نشتم أنفسنا ونقف عند ذلك الحد. لا تشمخ أيها العربي وأنت بلا عمود فقري. اقعد، واصنع شيئاً بدل الكلام.

تهورتُ.

فلماذا أكتب هذا عن شاعر شبه جاهلي؟

الشعر يصف الروح العربية والعقل العربي أحسن مما تصفه كتب المفكرين. ولنفترض أن قصيدة عمرو بن كلثوم «إذا بلغ الفطامَ لنا صبي.. تخر له الجبابر ساجدينا» منحولة، وأنها كتبت بعد الجاهلية بمئة سنة، لا ضير. هي تمثل العصر الجاهلي وقيمه. والذي كتبها جعلها تعبر عن روح الجاهلية.

قد عرفتُ العرب في زمني معرفة طيبة. عملتُ في لندن عقداً من الزمن، وكان زملائي هناك من كل بلاد العرب، وعملت في الخليج عقداً ولم يبق بلد عربي إلا والتقيت ببعض أهله؛ حتى البلاد التي لا تعد نفسها عربية، كإثيوبيا وإريتريا، فقد التقيت بناس منها لسانهم عربي. وعرفت وصاحبت البربر والنوبيين والكرد ممن أتقنوا العربية وحذقوها كأهلها.

عرفت المتعلمين كثيراً، وعامة الناس قليلاً. وأحسست عند المتعلمين أن ما تلقوه في المدارس من الشعر العربي القديم رسخ عميقاً في نفوسهم. لست أصدر حكماً بشأن الشبان الصغار، ولا أعرف ما تحتويه كتب المدارس في كل بلد عربي. ولعل الحكم عام: فكل فتى وفتاة يرتبط برباط حب وشوق، وبرباط كره واشمئزاز أيضاً، بما تعلم في المدرسة من نصوص أدبية. ولاحظت أن المرء يرتبط بما فهم وبما لم يفهم من نصوص شعرية. ولعله يرتبط بما لم يفهم أكثر قليلاً. لعل حالة المرء هنا تشبه حالته عندما يرتبط عاطفياً بأغنية سمعها قديماً وتغلغل لحنها في نفسه وفي ذاكرته، وغابت عنه بعض كلماتها، فيظل للأغنية في نفسه سحر، فإذا ما عرف الكلمات التي غابت عنه في صباه زال السحر أو كاد، ثم لقد تراه ينسى الكلمات الصحيحة بعد حين ويعود يدندن الأغنية بالكلمات الخطأ.

ونعود إلى حال العرب قبل أن نعود إلى الأخطل.

قد عرفتني وعرفت تعريفي لكلمة عربي، فأنا ممن يرى أن العربي إنما هو عربي اللسان لا غير. فاللغة ـ التي هي من النظرة السطحية مجرد قالب ـ تقوم بدرجة كبيرة مقام النسب والتاريخ المشترك، والأرض المشتركة. هي قالب آسر.

والعرب اليوم تضعضعوا كثيراً، وعرفوا أنهم في ميزان الأمم شيء صغير. لكن ميراثهم اللغوي والأدبي كبير، وعميق الجذور. وبعد أن تستقر أوضاع

المنطقة العربية سياسياً، ويحدث مزيد من التفكك، ومزيد من إدراك «الحقيقة الاقتصادية» المرة، سيكتشفون أنهم ما زالوا عرباً ـ بحسب تعريفي، لا تنس ـ، وسيلعقون جراحهم. وسينطلقون إلى العمل لبناء حقيقة اقتصادية جديدة ليس فيها أوهام.

«الحقيقة الاقتصادية» كلمتان عليهما سيماء المصطلح. ولأنني لم أسمع به من قبل، ولأنني أحسب أنني سككته الآن، فلا بد من كلمة عنه: أنت تعيش في قرية، وتزرع بأساليبك البدائية، وعندك بندقية تخيف بها اللص، وأنت ـ بنشاطك الليلي ـ تملأ بيتك أفواهاً. وتجلس في ديوانيتك وتنشد أشعاراً وأزجالاً في تمجيد أسلافك الأبطال. هذا كله يسميه المختصون فيما يسمى بعلم الإنسان «طريقة حياة». ويقسم الغربيون المتحضرون النابذون للعنصرية أغلظ الأيمان أنهم من دعاة السماح لكل قوم باتخاذ «طريقة الحياة» التي يريدونها، وأنهم يدينون التعدي على هذه الـ «طريقة حياة». لكن الحقيقة الاقتصادية غلابة. ثمة واقع اقتصادي شرس.

«الحقيقة الاقتصادية» للأقوام المتخلفين عن ركب التمدن الغربي هي أنهم فقراء وضعفاء ـ رغم البندقية الصدئة ـ، ومعرضون للهزيمة في صراع الأقوام. قد يسمح التنافس الاستعماري للدولة العثمانية أن تعيش في غرفة الإنعاش مئتي سنة. ولكن حقيقتها الاقتصادية ستجعلها فريسة في نهاية المطاف.

«الحقيقة الاقتصادية» للعالم العربي اليوم صعبة. الجهل كثير، والمتعلمون أنصاف وأرباع متعلمين، وحملة الشهادات العليا كذابون، والساسة بالطبع كذابون.. كذابون بمعنى أردأ مما تتصور. فكل الساسة في كل العالم كذابون. تعرف ذلك! لكن ساستنا أكذب، بمعنى أنهم يكذبون كذبات طويلة الأمد، بطول جلوسهم على كراسيهم. وأقصد بالساسة: الوزراء والصحفيين المطبلين للوزراء، والمدراء العامين، وكل أفراد «الطبقة الحاكمة». فالجميع يفرز أوهاماً. ليس عن غباء، بل بإحساس عميق ومدرَك بأنهم يصنعون الأوهام. قد يصدقون أوهامهم للحظة، ثم في أول مفاتحة تراهم عارفين كل شيء.

أراضي بلادنا العربية، وهي واسعة، لا تقيم أود الثلاثمئة مليون. ولا تحتمل معدل التكاثر الحالي. ونحن بحاجة حقيقية لتنظيم النسل. والملايين القليلة من البشر الذي صدروا أنفسهم من المنطقة العربية إلى أميركا وكندا وأوروبا هم أولئك الذين تعلموا وأنفق عليهم أهاليهم من خيرات بلادنا

الشحيحة، وأصبحوا قادرين ـ لو أرادوا ـ على أن يساعدوا هذه الأرض كي تنتج أكثر، وأن يساعدوا هذه الشعوب كي تصنع. لكنهم فروا إلى الخارج آخذين في لحم أكتافهم ذلك الخير الذي سرقوه من بلادهم، فروا إلى بلدان غنية أصلاً. وهناك أجبرهم إيقاع الحياة ونظم المجتمع على أن ينتجوا ويشتغلوا بجد. ولست ألومهم لوماً فردياً. ليس لأنني كنت أحدهم، فاغتربت أوروبياً وخليجياً، بل لأن الفرد في مثل هذه المعمعات الكبرى لا يلام. فأما الحكومات فتتحمل قسطاً من اللوم. والبنية الطبقية للمجتمع تتحمل اللوم الأكبر.

الأغنياء يحكمون كل بلد. فإن اغتصبت الحكم عصابة عسكرية فسرعان ما تتحالف مع الأغنياء وتتماهى معهم. وكبار الموظفين والأطباء والمهندسين يساهمون في الحكم، وكل هؤلاء خمسة بالمئة من الناس. يبقى خمسة وتسعون بالمئة. هؤلاء يتدرجون على سلم الفقر. وفي كثير من البلاد العربية يجلس معلم المدرسة على درجة منخفضة في هذا السلم.

الخمسة بالمئة الذين يحكمون البلد يكتفون بالسمسرة للأجنبي، ويبيعونه الخامات وحقوق الصيد والأثر السياسي والموقع الجغرافي بفتات لا يرونه فتاتاً لأنهم فئة صغيرة. ويمنع الثورة على هذه الطبقات الحاكمة ذلك التدرج في الفقر، إذ لا توجد طبقة مسحوقة كبيرة. مثل هذا الوضع الهلامي مكن الثورة المضادة من القفز سريعاً على الربيع العربي. وتدخلت الدول الكبرى كلها: أوروبا وأميركا وروسيا والصين لحماية مصالحها. أستطيع أن أفهم لماذا أغلق ماوتسي تونغ، وستالين قبله، البلد إغلاقاً محكماً: لا يسمح بخروج الكفاءات، ولا بدخول اليد الخارجية العابثة. وأفهم أن ما جرى في ذينك البلدين من إرهاب للشعب، ومن مجازر دنيئة، وكبت للحريات، كان يتم على هامش عملية هندسة اجتماعية طبقية. ولأن التاريخ لا يكرر نفسه بالضرورة فليكن عندنا أمل في أن تنهض الشعوب العربية دون دفع ذلك الثمن الباهظ.

في مثل هذه الظروف العربية أقعد إلى منضدتي وأشرح أبيات الأخطل. أقول لنفسي: لا بأس. العرب ملايين كثيرة، فلن يضير نهضتهم المنشودة أن ينسحب واحد منهم ليجلس في قوقعته ويتسلى بغربلة هذا الإرث العجيب.

ذات يوم كانت أمه ترقصه وهو صغير وتقول له: يا دوبل. أي «أيها الخنزير الصغير». وسمعتها الجارة فتضاحكت، وحفظ الأخطل هذه الحادثة، ولم يقلها إلا لبعض أصحابه الخلص. ثم بعد بضع عشرات من السنين إذا بجرير يذكرها في شعره. قال الأخطل: «والله ما سمتني أمي دوبلاً إلا نهاراً واحداً، فمن أين سقط إلى هذا الخبيث؟»

وتزوج أبو الأخطل زوجة ثانية، غير عابئ بتعاليم دينه. وكانت زوجة الأب قاسية على الصبي «غياث». ترسله ليرعى الأعنز، وتمنعه طرائف الطعام. فيسرق ما اختزنت من زبيب ويأكله، وتغضب. كانت مضارب قومه من قبيلة تغلب في العراق على الفرات، غير بعيد عن الكوفة. ونشأ غياث في قبيلة عربية من قبائل ربيعة هي تغلب. ولد في آخر خلافة عمر، وعندما قتل عثمان كان في الخامسة عشرة من عمره. وشهد مجالس قبيلته، وسمعهم ينشدون تلك الأشعار التي قيلت في مقتل عثمان، وكان موقف تغلب شبيهاً بموقف حسان بن ثابت.. كانوا عثمانيين، ثم سفيانيين. وفي تلك المجالس سمع الأخطل شعر قومه في الجاهلية، كانت تغلب لا تمل إنشاد معلقة شاعرها الجاهلي عمرو بن كلثوم، أما قال القائل «ألهى بني تغلب عن كل مكرمة.. قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم»؟ وكان في تغلب شعر. كان شاعرها آنذاك كعب بن جعيل. ولم تحفل القبيلة بدخول كعب هذا في الإسلام، فكثيرون من تغلب دخلوا في الإسلام، لكن العصبية العربية ظلت هي المظلة التي تجمع كل تغلب، (هذا رأينا، ويرى إيليا الحاوي، الذي كتب كتاباً كبيراً عن الأخطل، أن القبيلة اغتاظت لدخول كعب في الإسلام، ولكنها كظمت). وتعرض الصبي المشاكس غِيَاث لشاعر القبيلة وهجاه. ولفوره أدرك كعب أن شاعراً فحلاً قد نبغ في القبيلة. ولعل كعباً هو الذي أطلق على هذا الصبي لقب الأخطل، أي السفيه.

نشأ الأخطل فاقدَ حنانٍ، فأمه ليلى من قبيلة إياد، وأغلب الظن أنها رجعت إلى قومها بعد طلاقها تاركة ولدها البكر لأبيه، وكان هذا هو الآيين عند عرب ذلك الزمان. وقد شهدت في زمني في مطلع القرن الحادي والعشرين آباء عرباً متحضرين ومتعلمين تُطَلَّق بناتُهم ويقول الواحد منهم لابنته: ارمي له أولاده، وتعالي كي أزوجك خيراً منه.

عاش غِياث في بيت لا يحبه.. ولا يحبه، مع إخوةٍ له لأبيه آثرتهم أمهم

عليه. وكان يجد في مجلس القوم سلواه، فهو في مجلس رجال القبيلة فرد ككل فرد، والرجال يأنسون بهذا الفتى السفيه لأنه يحفظ أشعار القدماء، فما يأخذ أحدهم في المجلس برواية قصيدة ويقف متلجلجاً في وسطها إلا وتأتي النجدة من الفتى السفيه المغرم بالشعر. وشب الأخطل، واكتهل شاعر القبيلة كعب بن جعيل. ولم يكن الأخطل يقدر أن يُطاول شاعر القبيلة كعب بن جعيل كثيراً، رغم أنه أتحفه بأهجية صغيرة. فكعب يغشى بلاط الخليفة في دمشق، وقد شهد مع معاوية صفين، وله في الأمويين مدائح. وله بابن الخليفة يزيد علاقة طيبة، ويزيد شاعر ويقدر الشعر. فأما الأخطل فقاعد في قبيلته يحفظ شعر الأقدمين، وينشد القوم، ولعله تزوج امرأة تغلبية وبدأ يكثِّر قطيع أغنامه. وبلغ الأخطل الثلاثين من العمر. قل ثلاثة وثلاثين، أو قل حتى خمسة وثلاثين. . لا أدري. هذا تقدير وصلت إليه بقرائن كثيرة أعفيك منها. بلغها وهو عند قومه على شاطئ الفرات يرعى غنماته وربما أيضاً نخلاته.

وكان كعب بن جعيل مع يزيد ابن الخليفة معاوية عندما جاء الخبر بأن شاعر الأنصار عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتغزل بأخت يزيد رملة. سمع معاوية بهذا الشعر فلم يأبه به. لكن يزيد اغتاظ. فالأنصار الذين منهم عبد الرحمن هذا وقفوا مع علي في صفين ـ شذ منهم حسان شاعر الرسول، والنعمان بن بشير الذي قاتل مع معاوية ـ. فما لهذا الشاعر يخرج عن خط أبيه ويتعرض للأمويين بالتغزل بابنة الخليفة؟ أراد يزيد الانتقام، ولكنه لا يستطيع المساس بعبد الرحمن بن حسان فأمه أخت زوجة الرسول، وإبراهيم ولد الرسول المتوفى طفلاً ابن خالته. ثم إن التعرض لشاعر إنما يكون بالشعر.

طلب يزيد من كعب أن يهجو الأنصار. فقال له كعب: أرادي أنت عن الإسلام. لا والله لا أهجو قوماً نصروا الرسول. ولكنني أدلك على فتى نصراني من قومنا له لسان كلسان الثور.

وهكذا، أرشد شاعر تغلب الأمويين إلى الأخطل الذي سيصبح شاعر تغلب وشاعر الأمويين.

هجا الأخطل الأنصار وأوجعهم، «ذهبت قريش بالمكارم والعلا. . واللؤم تحت عمائم الأنصار». وفزع النعمان بن بشير إلى معاوية شاكياً. ولكن معاوية استرضاه، وصرفه.

مدح الأخطل يزيد بن معاوية بقصائد عديدة، ثم تولى يزيد الخلافة

والأخطل كهل في الخمسين. كان يشرب ويسمع الغناء ويخرج إلى الصيد مع يزيد الأمير، وظل معه وهو خليفة، ولكن مدة يزيد لم تطل فمات بعد أن قتل الحسين وأشعل نار فتنة جديدة.

ومضت سنوات قليلة، ثم تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، وقضى ثماني سنوات يقارع عبد الله بن الزبير الذي استقل بالحجاز، وأخاه مصعباً الذي تولى لأخيه العراق. ثم قُتل الأخوان. وخلصت الخلافة لعبد الملك. وفي هذه السنوات احتربت قبائل العرب في العراق كثيراً، وكانت بينها أيام قتل فيها الرجال وبقرت بطون الحوامل. وكانت تغلب في المعمعة، وكانت بينها وبين قيس ثارات.

وضع عبد الملك حداً للحروب القبلية في العراق. وقعد على سريره في دمشق، وجاءه الشعراء يمدحونه، وتزلفوا إليه بسب آل الزبير، وتشدد مع أولئك الذين كانوا مدحوا الزبيرية. لكنه رحب بالأخطل الذي كان هواه مع البيت الأموي.

مدح الأخطل عبد الملك، ومدح أخاه بشراً والي العراق. وصار شاعر الأمويين غير منازع. نافسه عليهم جرير. ولكن الأخطل ظل المفضل عند عبد الملك، ثم ابنه الوليد.

لم يفارق الأخطل سفهه. كان يدخل على عبد الملك بن مروان مخموراً، فيدعوه الخليفة إلى الإسلام فيأبى، ويواجه الخليفة بكلام يمجد فيه الخمر، ثم يقول في ذلك شعراً، ويضحك الخليفة. ولسفهه وحمقٍ متأصل في نفسه كان الأخطل يتعرض لجلساء الخليفة. شتم زفر بن الحارث الشيخ القيسي الجليل الذي كان عدواً للأمويين فصالحهم بعد انقضاء عهد ابن الزبير، وحاول الأخطل أن يحمل الخليفة على نقض عهده لزفر والانتقام منه، وكاد أن ينجح في مسعاه.

وجر الأخطل على قومه بسفهه شراً عظيماً عندما تعرض لرجل آخر في مجلس الخليفة.

كان الجحاف السلمي جالساً عند عبد الملك، وكان الأخطل جالساً. وكانوا يأكلون تمراً. فأخذ الأخطل ينشد مذكراً الجحاف بما تعرض له قومه بنو سليم من قتل على أيدي بني تغلب «ألا سائل الجحاف هل هو ثائر.. بقلى أصيبت من سُليم وعامر»، فذهل الجحاف لهذا الاجتراء، ولتأريث العصبية بعد

أن هدأت الأمور. قالوا أخذ يذهب بالتمرة إلى فمه فيضعها في عينه لشدة الغضب. ثم خرج الجحاف من المجلس وقد سقط جانب ردائه، وهو يجره جراً. فحم الأخطل خوفاً. فقال له عبد الملك: أنا أجيرك منه. قال الأخطل: تجيرني يقظان، فمن يجيرني نائماً؟ يعني أن الجحاف سيأتيه في كوابيسه.

خرج الجحاف وجمع جمعاً، وأغار على بني تغلب وقتل منهم كثيراً، حتى لقد أنتنت الجثث ولم يقو بنو تغلب على دفنها فأحرقوها، وبقر الجحاف بطون الحوامل، ونال الأخطل نفسه من ذاك ما ناله فقتل له ابن في هذه الوقعة ـ يوم البشر ـ وأُسر أبوه، وقيل إن الأخطل نفسه كان وقتئذ عند قومه وأسره بنو سليم وعليه ثوب وسخ، فقال لهم إنه عبد فأطلقوه. وتتمة قصة يوم البشر هذا أن الجحاف فر إلى الروم، فاسترضاه عبد الملك على أن يدفع ديات القتلى، فجاء الحجاجَ في العراق فحملَ عنه الديات، وقالوا إن العرب لم تعرف حمالة أبهظ من تلك الحمالة لكثرة من قتلهم الجحاف وقومه.

وأدى سفه الأخطل بالأخطل إلى أن يهجو شاعراً من تميم كان مشتبكاً مع ابن عم له.

كان للأخطل بيت في العراق يستقبل فيه الأضياف فيشربون ويقصفون ويسمعون الغناء. وفي بيته هذا التقى بالفرزدق، وشربا وتصادقا، وجمع بينهما السفه برباط أخوي وثيق. كان الفرزدق يتهاجى مع ابن قبيلته جرير. فكلاهما من تميم المضرية، والأخطل من تغلب الربعية. وأبى للأخطل سفهه أن يترك الجروين في هراشهما، فدخل ثالثاً ينصر الفرزدق على جرير. فسبه جرير بقصائد كثيرة، وسب الأخطل جريراً، وكان بشر بن مروان والي العراق، وأخو الخليفة عبد الملك، سعيداً بهذا التهاجي كل السعادة، وكان يؤجج نار الهجاء بين كل الشعراء.

تحير النقاد القدماء في أي هؤلاء الثلاثة أحسن شعراً. وكان جرير نفسه، عدو الأخطل، أعرف الناس بقيمة خصمه الأدبية، وقال ذلك مراراً. لكنه ظل يهجوه. حتى لقد هجاه بعد موته، فجرير في السفه لا يقل عن صاحبيه. ويقدر الدارسون أن الأخطل والفرزدق لدتان، ومولدهما في عام عشرين للهجرة، وأن جريراً أصغر منهما بعشر سنين.

ثم مات الأخطل، ربما سنة ٩٥ للهجرة، وله خمس وسبعون سنة.

شعر الأخطل مكثف مكتنز، تضيق ألفاظه عن معانيه. زد على هذا صعوبة

ألفاظه تدرك معاناة الأقدمين والمحدثين معه. ولم نجد له شرحاً وافياً نستند إليه، فتوكلنا على الله، وتبلغنا بما صنعه فخر الدين قباوة، فهو قد فتح كثيراً من الأبيات في هوامشه، تاركاً الشرح القديم، شرح أبي سعيد السكري، في المتن تحت الأبيات. ورغم أن الديوان وصلنا بروايات جيدة ومعارضات حسنة، وفي نسخ وافرة، فإن صعوبة الأبيات، وتلك اللغة الجاهلية للأخطل، جعلت القدماء يضطربون في الرواية. غير أننا نثق في أن هذا الذي بين أيدينا هو شعر الأخطل التغلبي. يستحق ديوان الأخطل أن يصنع صنعة جديدة بشرح واف. ويستحق هذا ديوان جرير، وديوان الفرزدق، ودواوين كثيرة جداً. حتى دواوين المحدثين كشوقي وحافظ والزهاوي تنتظر الأكاديمي المخلص كي يشرحها. ولو آنست من نفسي قدرة لكنت فعلت شيئاً من ذلك، ولكنني بددت سنواتي في أشغال أخرى فما تعمقت في تاريخ العرب وشعرهم ولغتهم بما يمكنني من شرح دواوين كاملة. فانتخبت من الشعر ما فهمت، وعللت النفس بأن ما فهمته هو ما يناسب عصرنا، وشرحت بقدر ما فهمت، واجتهدت وما أَلَوْت.

١ سائل الجحَّاف

أَلَا سائِلِ الجَحَّافَ هل هُوَ ثائرٌ بِقتلَى أُصيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وعامِرِ

ثائر: آخذ بالثأر. قال الأخطل هذا البيت في مجلس عبد الملك بن مروان في حضور «الجحاف السُّلَمي» يعيره بمقتلة قبيلته سليم وقبيلة عامر. سمع الجحاف هذا فخرج من المجلس يتميز غضباً فجمع جمعاً وانتقم شر انتقام من قبيلة الأخطل «تغلب»

٢ الخمرية الكبرى

قال الأخطل يمدح خالد بن عبد الله بن أَسيد الأموي، وذكر وقعة البشر:

كَأَنِّي غداةَ انْصَعْنَ لِلبيْنِ مُسْلَمٌ بِضربةِ عُنْقٍ أو غَوِيٌّ مُعَذَّلُ

كأنني صبيحة انصرافهن للبين (الفراق) مُسلَمٌ (تم تسليمه للسلطان) بضربة عنق (لضرب عنقه)، أو كأنني غوي (سكير) معذل (ملوم)، فأنا مستكين حزين

صَريعُ مُدامٍ يَرفعُ الشَّرْبُ رأسَهُ لِيحيَا، وقد ماتتْ عِظامٌ ومَفْصِلُ

صريع مدامٍ (منطرح أرضاً بالخمر) يرفع الشرب (الشاربون) رأسه، كي يحيا (يفيق)، وقد ماتت عظامه ومفاصله

نُهادِيهِ أحياناً، وحيناً نَجُرُّه وما كادَ إلَّا بالحُشاشةِ يَعقِلُ

نهاديه (نرفع رأسه) أحياناً، وأحياناً نجره، ولكنه لا يعقل إلا بالحشاشة (ببقية وعيه)

شَـرِبْـتُ ولاقـانـي لِـحِـلِّ أَلِـيَّـتـي قِطارٌ تَرَوَّى مِنْ فِلَسْطِـينَ مُثْقَلُ

بعد أن شبه نفسه بالسكران لفراق الأحبة يمضي في وصف الخمر والشراب. شربت الخمر ولاقاني لحل أليَّتي (وقت تحللي من قسمي) قطار (صفٌّ من الإبل) تروَّى (حمل الروايا أي الزقاق) من فلسطين. وكان الأخطل حلف لا يشرب الخمر عشرة أيام بعد هزيمة قومه

فقلتُ: اصبَحوني لا أَبا لِأبيكُمُ، وما وَضَعُوا الأثقالَ إلَّا لِيفعَلوا

قلت اصبحوني (ناولوني خمرة الصباح) لا أبا لأبيكم (دعاء تظرف لا شتم)، وهم ما أنزلوا قِرَبَ الخمر إلا كي يسقوني

أَناخُوا فَجَرُّوا شاصِياتٍ كأَنَّها رِجالٌ مِنَ السُّودانِ لم يَتَسَرْبَلُوا

أناخوا جمالهم وجروا شاصيات (قِرَباً) كأنها رجال سود بغير ثياب. فزقاق الخمر من جلود الماشية، وهيئة الزق كهيئة العنز وقد طلي بالزفت حتى لا ينسرب الخمر، فهو أسود

وجاءُوا بِبَيْسانِيَّةٍ هِيَ بعدَما يُعَلُّ بها السَّاقي أَلَذُّ وأَسْهَلُ

جاءوا بخمر من بيسان بفلسطين، وهي بعدما يُعل بها (يسقى مرة بعد مرة) الساقي (المسقيّ) تزداد لذة وسهولة انحدار في الحلق. قلنا الساقي = المسقي، مثل الكاسي أي المكسوّ، وخالفنا في فهمنا الكلمة الأب صالحاني وربما أيضاً السكري صاحب النسخة

تَمُرُّ بِها الأَيدِي سنِيحاً وبَارِحاً وتوضَعُ بِاللَّهُمَّ حَيٍّ وتُحْمَلُ

تمر الأيدي بكؤوس الخمر سنيحاً وبارحاً (من اليمين ومن الشمال)، ويضع الشاربون كؤوسهم ويرفعونها قائلين: اللهم حيّ (يقولون في زمننا للضيف: حيَّا الله!)

وتُوقَفُ أحياناً فيفْصِلُ بينَنا غناءُ مغَنٍّ أو شِوَاءٌ مُرَعْبَلُ

وبين الشرب والشرب نتوقف لنسمع الغناء، أو لنأكل اللحم المشوي المرعبل (المشرَّح)

فما لَبِثَتْنا نَشْوَةٌ لَحِقَتْ بِنا توابِعُها مما نُعَلُّ ونُنْهَلُ

وما لبثتنا (قد عاجلتنا) نشوة الخمر وما تبعها من سكر لكثرة ما نعل وننهل (نشرب مرة بعد مرة، والنَّهَل: الشرب الأول، والعَلَل: الثاني وما بعده)

تَدِبُّ دبيباً في العظامِ كأنهُ دَبيبُ نِمَالٍ في نَقاً يَتهيَّلُ

تتسلل الخمر إلى العظام كأنها دبيب النمل على النقا (كومة الرمل) والرمل يتدحرج من مشي النمل عليه

فقلتُ اقتُلوها عنكُمُ بِمِزاجِها فأَطيِبْ بِها مقتولةً حين تُقتَلُ

قلت اقتلوها عنكم (خففوا أثرها عليكم) بمزجها بالماء، وما أطيبها حين تمزج، فهذا يطيل وقت الشرب

أَعـاذِلَ إلَّا تُـقـصِـرِي عـن مَـلامـتـي   أَدَعْـكِ وأعْـمِـدْ لِـلَّـتي كـنـتُ أفـعـلُ

يا عاذلتي إلّا (إن لم) تقصري (تكُفي) عن لومي أتركك، وأعكف على ما كنت أفعل

وبـيـداءَ مِـمْـحـالٍ كـأنَّ نَـعـامَـهـا   بِـأرجائِـهـا الـقُـصْـوَى أَبَـاعـرُ هُـمَّـلُ

رب صحراء قاحلة تراها من بعيد فترى طيور النعام في أرجائها البعيدة كأنها أباعر (جمال) همل (متروكة)

تَـرى لامـعـاتِ الآلِ فـيـهـا كـأنـهـا   رجـالٌ تَـعَـرَّى تـارةً وتَـسَـرْبَـلُ

ترى الآل (السراب) يلمع فكأن النعام رجال يتعرون حينا ويلبسون حيناً، بحسب حركتها إزاء السراب

مَـلاعِـبُ جِـنَّـانٍ كـأن تـرابَـهـا   إذا اطَّـرَدَتْ فـيـه الـريـاحُ مُـغَـرْبَـلُ

هذه الصحراء كأنها ملاعب الجن، وترابها كأنه يغربل بالغرابيل عندما تطرد (تتوالى) عليه الرياح يمينا ويساراً

أَجَـزْتُ إذا الـحِـرْبـاءُ أَوْفَـى كـأنـه   مُـصَـلٍّ يَـمـانٍ أو أسـيـرٌ مـكـبَّـلُ

هذا الصحراء أجزتها (قطعتها) في عز الظهر، في وقت كان الحرباء فيه قد أوفى (انتصب) كأنه يصلي متجهاً نحو اليمن لتحريكه رأسه باتجاه الشمس، أو كأنه أسير مقيد يحرك رأسه دون الانتقال من مكانه

إلـى ابـنِ أَسِـيـدٍ خـالـدٍ أَرْقَـلَـتْ بـنـا   مـسـانـيـفُ تَـعْـرَوْرِي فَـلاةً تَـغَـوَّلُ

قطعت الصحراء قاصداً أسيد بن خالد، وإليه أرقلت (أسرعت) بنا الأبل المسانيف (المهزولة لطول السير) التي تعروري الفلاة (تركبها وهي عارية من كل نبت) والفلاة تتغول (تُضِلُّ الناس). أما الرجل الذي «يعروري» الفرس فهو الذي يركبه دون سرج

تَـرى الـثَّـعـلـبَ الـحَـوْلِـيَّ فـيـهـا كـأنـه   إذا مـا عَـلا نَـشْـزاً حِـصَـانٌ مُـجَـلَّـلُ

ترى الثعلب الحولي (الذي بلغ عاماً من عمره) في هذه الصحراء وقد علا نشزاً (مرتَفَعاً) كأنه حصان مجلل (عليه السرج)

فـمـا زالَ عـنـهـا الـسَّـيْـرُ حـتى تَـواضَـعَـتْ   عـرائِـكُـهـا مِـمَّـا تُـحَـلُّ وتُـرحَـلُ

فما انقطع سير الإبل حتى تواضعت (هبطت) عرائكها (أسنمتها) لكثرة الحل والترحال. وسنام الجمل يذوب مع الهزال

أخـالِـدُ مَـأواكُـمْ لِـمَـنْ حَـلَّ واسـعٌ   وكَـفَّـاكَ غَـيْـثٌ لـلـصَّـعـالـيـكِ مُـرْسَـلُ

مأواكم (بيتكم) واسع لمن حل ضيفاً، وكفاك مطر مرسل (هاطل) للصعاليك (الفقراء)

أبى عودُكَ المَغْجومُ إلَّا صَلابةً وكفَّاكَ إلّا نائلاً حينَ تُسألُ

أبى عودك المعجوم (طبعُك المختبَر، كما يختبر المرء عوداً ليعرف مدى صلابته) إلا أن يكون صلباً، وأبت كفاك إلا عطاء حين يسألك السائلون

الا أيُّها السَّاعي لِيُدرِكَ خَالداً تَنَاهَ وأَقْصِرْ بعضَ ما كنتَ تفعلُ

يا من يريد إدراك خالد في السخاء، تناه (كُفَّ) وأقصِرْ (كُفَّ)

لقد أوقعَ الجَحَّافُ بِالبِشْرِ وَقْعَةً إلى اللّهِ منها المُشْتَكَى والمُعَوَّلُ

أوقع بنا الجحاف في يوم «البشر» وقعة، نشتكي منها إلى الله، ونعوّل عليه في الانتقام. وكان الجحاف السلمي قتل رجال تغلب وبقر بطون الحوامل في وقعة عظيمة

فسائِلْ بني مَروانَ ما بَالُ ذِمَّةٍ وحبلٍ ضعيفٍ لا يزالُ يوَصَّلُ

فاسأل يا أخطل بني مروان: ما هذه الذمة (العهد)، والحبل الضعيف (الصلة بيننا وبينكم) الذي نصله مرة بعد مرة. وكان لقوم الأخطل من تغلب ذمة (فهم مسيحيون من أهل الذمة)

فإلَّا تغيِّرْها قريشٌ بِمُلْكِها يَكُنْ عن قُريشٍ مُسْتَمازٌ ومَزْحَلُ

فإن لم تغير قريش (وبنو مروان من قريش) موقفها المتردد منا وتنصرنا بما لها من الملك والسلطة، فلنا عنها مستماز (ذهاب) ومزحل (انصراف)

ونَعْرُرْ أُناساً عَرَّةً يكرهُونَها ونحيا كراماً أو نموتُ فنُقْتَلُ

ونعرر (نُخزِ) أناساً بثلب يكرهونه، ونقاتل حتى النصر أو الموت

وإن تَحمِلُوا عنهُمْ فما مِنْ حَمالَةٍ وإن ثَقُلَتْ إلَّا دَمُ القومِ أثقَلُ

فإن حملت قريش الحمالة عن الذين قُتلوا منا (أي تدفع الديات عنهم) فإن أي حمالة لا تفي بالدم المسفوك

وإن تَعْرِضُوا فيها لنا الحقَّ لم نَكُنْ عن الحقِّ عُمياناً بلِ الحَقَّ نسألُ

ونحن نقبل الحق، أي نقبل المال عوضاً عمن قتل

وقد ننزِلُ الثَّغْرَ المَخُوفَ ويُتَّقَى بنا البأسُ واليومُ الأغَرُّ المُحَجَّلُ

ونحن أيضاً نأتي الثغر (جبهة القتال) المشحون بالخوف، ويتقى بنا البأس (تُدفَع بشجاعتنا الشدائد) ويوم القتال الأغر المحجل (المشهور، كالحصان ذي الغرة البيضاء والبياض في قوائمه فهو حصان مشهور)

٣ القضاعي غول

يا أيُّها الراكبُ المُزجي مَطِيَّتَه أَسْرِعْ فإنَّكَ إن أُدرِكْتَ مقتولُ

أيها الراكب الذي يزجي (يسوق) مطيته (دابته)، أسرعْ فإنك إن أُدركت ولحقوا بك فستقتل

لا يـخـدَعَـنَّـكَ كَـلْـبِـيٌّ بِـذِمَّـتِـه   إن الـقُـضَـاعِـيَّ إن جـاوَزْتَـه غُـولُ

لا تنخدع بذمة (عهد) الكلبي (وقبيلة كلب هي بعض قضاعة) والقضاعي إن جاوزته (غادرته) غول (قاتل يغتالك). وهل هناك أقبح ممن يضيفك ويحميك وأنت في جواره، فإذا غادرت مضارب قبيلته تبعك ليقتلك ويسلبك متاعك؟ في هذين البيتين وفي غيرهما كثير صححت طبعة قباوة أوهام طبعة الأب صالحاني، الذي هو «بسبق حائز تفضيلا»

٤ المولجة سوالفها

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

لَعَمْري لقد أَسْريتُ، لا لَيلَ عاجزٍ،   بِسَاهِمَةِ العينينِ طَاوِيَةِ القُرْبِ

والله لقد أسريت (سرت ليلاً) ليس لعجز عن حماية نفسي، ولكن لأن السير في برد الليل أهون وأسرع، وكان مسيري بناقة ساهمة (غائرة) العينين، طاوية (ضامرة) القرب (الخاصرة)

مُعارِضَةً خُوصاً حَراجيجَ شَمَّرَتْ   بِنُجْعَةِ مَلْكٍ لا ضَئيلٍ ولا جَأْبِ

وناقتي هذه كانت معارضة (مسابقة) خوصاً (نياقاً غائرة الأعين) حراجيج (ضامرة) شمرت (أسرعت) كي تنتجع (تطلب العطاء) من ملك لا هو بالضئيل ولا الجأب (الغليظ الجافي)

إذا صَخَبَ الحادي عَليْهِنَّ بَرَّزَتْ   بعيدةَ ما بينَ المَشَافِرِ والعَجْبِ

إذا رفع الحادي (سائق الإبل) صوته صاخباً برَّزت نياقي (سبقت) ومدت كل ناقة جسمها، وإن المسافة بين مشافرها (شفتيها) وعجبها (أصل ذنبها) لطويلة، أي هي ناقة كبيرة الجرم

وكَمْ جاوَزَتْ بَحْراً وليْلاً يَخُضْنَهُ   إليكَ أميرَ المؤمنينَ ومِنْ سَهْبِ

عبرتْ نياقي البحار (يقصد الأنهار) وعبرت الليل والسهوب (الصحارى)، وخاضت هذا كله لتصل إلى أمير المؤمنين

يـخِـذْنَ بِـنـا عـن كـلِّ شـيءٍ كـأنَّـنـا   أَخَارِيسُ عَيُّوا بالسَّلامِ وبِالنَّسْبِ

يخدن (يسرعن) بنا عن كل شيء (متجاوزات كل شيء وغير متوقفات) فكأننا أخاريس (بكم، خرس لا نتكلم) عيوا بالسلام وبالنسب (عجزوا عن الكلام مع الأقوام الذين نمر بهم، وعن الانتساب بذكر قبيلتنا كما ينبغي للضيف)، فنحن نمر سريعاً بالأقوام ولا نكلمهم

إذا طَلَعَ العَيُّوقُ والنَّجْمُ أَوْلَجَتْ   سَوالِفَها بينَ السِّمَاكَيْنِ والقَلْبِ

إذا بدا نجم «العيوق» والنجم (يقصد الثريا)، أدخلت الناقة سوالفها (خديها) بين السماكين (نجمان) والقلب (نجم). في هذا البيت يصف الأخطل المنظر من زاوية راكب الناقة، فهو يقعد منخفضاً قرب ذنبها بينما رأسها عالٍ، ويراها تضع رأسها بين النجمين وتسير في الليل. وأن تضع الناقة رأسها بين نجمين عبارة فيها من الشعر ما فيها

إلـيـك أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ رحـلـتُـهـا   على الطائرِ الميْمونِ والمنزلِ الرَّحْبِ

رحلت ناقتي (جهزتها بالرحل أي بالسرج وتوابعه) إليك، على الطائر ميمون (على أمل أن الطير يتجه يميناً فهذا فأل حسن) وعلى أمل المنزل الرحب في كنفك

إلـى مُـؤمـنٍ تـجـلُـو صَـحـيـفَـةُ وجـهِـه   بَلابِلَ تَغْشَى مِنْ هُمُومٍ ومِنْ كَرْبِ

وجه الخليفة يجلو البلابل (يكشف القلق ويزيله) التي تغشى (تأتي)

مُناخُ ذَوِي الحاجاتِ، يَسْتَمْطِرونَه   عَطاءَ كريمٍ مِنْ أَسَارَى ومِنْ نَهْبِ

الخليفة مناخ ذوي الحاجات (موضع نزول إبلهم) ويستمطرونه (يطلبون أن يمطر عليهم بالعطاء) ويطلبون الجواري والغلمان من الأسارى (الأسرى) والنهب (الغنيمة)

تَرى الحَلَقَ المَاذِيَّ تَجري فضولُه   على مُسْتَخِفٍّ بِالنوائبِ والحَرْبِ

ترى الدرع المسرودة من حلقات ماذية (حديدية) تنسدل وتجري فضولها (ذيولها) على جسم الخليفة، هذا الخليفة المستخف بالمصائب والحروب

أخُوها، إذا شَالَتْ عَضُوضاً سَمَا لها   على كلِّ حالٍ مِنْ ذَلُولٍ ومِنْ صَعْبِ

هو أخو الحرب، فإذا شالت (تهيَّأت، كما تشول الناقة رافعة ذنبها للقاح) عضوضاً (شديدة) سما لها (ارتفع وتهيأ) مهما تكن حالها: أهي ذلول (ناقة أنيسة) أم صعبة جامحة

وفـي كـلِّ عـامٍ مـنـكَ لـلـرومِ غَـزْوَةٌ   بـعـيـدةُ آثـارِ الـسَّـنـابِـكِ والـسَّـرْبِ

تتغلغل في بلاد الروم تاركاً آثار سنابك خيلك (حوافرها)، ولك فيها سرب (دخول) عميق

أَهَلُّوا مِنَ الشهرِ الحرامِ فأصبَحُوا   مَوالِيَ مُلْكٍ لا طَرِيفٍ ولا غَصْبِ

أهل بنو أمية (خرجوا) من الشهر الحرام فإذا هم موالي (أصحاب) ملك غير طريف (غير جديد، فهم ملوك منذ القدم) ولا غصب (لم يغصبوا الملك بل هو حقهم)

ولـم تَـرَ عـيـنـي مِـثْـلَ مُـلْـكٍ رأيـتُـه   أتاكَ بِلا طعنِ الرماحِ ولا الضَّرْبِ

الطعن للرماح، والضرب للسيوف

ولـكـنْ رآكَ الـلَّـهُ مَـوْضِـعَ حـقِّـه   عـلـى رُغْـمِ أعـداءٍ، وصَـدَّادةِ كُـذْبِ

صدادة كذب: الذين يصدون عن الحق ويكذبون

لَحى اللَّهُ صِرْماً منْ كُلَيْبٍ كأنَّهُمْ   جِـدَاءُ حِـجَـازٍ لاجِـئَـاتٌ إلـى زَرْبِ

لحى الله (لعن) صرماً (جماعة) من كليب (قبيلة جرير) كأنهم غنم محجوزة مدجنة تلجأ إلى زرب (زريبة من قصب)

بنـيِ الـكَـلْـبِ لـولا أنَّ أولادَ دَارِمٍ تُذَبِّبُ عنكُمْ في الهَزاهِزِ والحَرْبِ . .

يا بني الكلب (مسبة كالتي نسمعها اليوم، فأما «كلب» وحدها فقبيلة أخرى بعيدة) ولولا أن قبيلة دارم تذبب (تدافع) عنكم في الهزاهز (الشدائد) والحرب. .

إذن لاتَّـقَـيْـتُـمْ مَـالِـكـاً بِـضَـريـبـةٍ كذلكَ يُعطِيها الذليلُ على الغَصْبِ

. . لكنتم اتقيتم شر مالك بن حنظلة بدفع ضريبة،
والذليل يدفع على الغصب (مجبراً)

٥ سبايا

ألا مَـنْ مُـبـلِـغٌ قـيـسـاً رسـولاً فـكـيـف وجَـدْتُـمُ طَـعـمَ الـشِّـقـاقِ
أَصَـبْـنـا نِـسْـوَةً مـنـكُـمْ جِـهَـاراً بِـلا مَـهْـرٍ يُـعَـدُّ، ولا سِـيَـاقِ

مهر يعد: المهر الذي يكون بالدراهم تُعَدُّ عداً، والسياق: ما يساق من إبل في المهر

٦ شماتة بالزبيرية

أَقْفَرَتِ البُلْخُ مِنْ عَيْلانَ فَالرُّحَبُ فَالمـَحْلَبِيَّاتُ فَالخابورُ فَالشُّعَبُ

أقفرت كل هذه الأماكن من قبيلة عيلان التي أجليت عنها بعد هزيمة ابن الزبير في العراق والحجاز، وكانت قيس عيلان زبيرية الهوى

فـأَصبَحُوا لا يُرَى إلَّا مساكِنُهُمْ كـأَنَّـهُـمْ مِـنْ بـقـايـا أُمَّـةٍ ذَهـبُـوا

الشطر الأول بعض آية قرآنية، لعل الأخطل استعمله بعد الفرزدق، الأمم الذاهبة: المنقرضه كعاد وثمود والعماليق

فاللَّهُ لم يَرْضَ عن آلِ الزُّبَيْرِ ولا عن قيسِ عَيْلانَ حَيَّاً طالَما خَرَبُوا

طالما خربوا: كثيراً ما سرقوا

يُعاظِمُونَ أبا العاصِي، وهُمْ نَفَرٌ في هَامَةٍ مِنْ قُريشٍ دونَها شَذَبُ

يعاظمون (يفاخرون) أبا العاصي (عبد الملك بن مروان)، وهم (الأمويون) في هامة (رأس) من قريش دونها شذب (تحتها شوك، فهم كالثمر في رأس الشجرة ودون الوصول إليه شوك يحميه، كناية عن عز الأمويين)

إن يَحْلُمُوا عنكَ فالأحلامُ شيِمَتُهُمْ والموتُ ساعةَ يَحْمَى منهُمُ الغضبُ

الأحلام (العقول الراجحة) شيمتهم (طبيعتهم) فإذا حمي غضبهم فهم الموت

كأنهُمْ عند ذاكُمْ ليس بينَهُمُ وبينَ مَنْ حاربُوا قُرْبَى ولا نَسَبُ

ينسون في الغضب القرابة والنسب. فابن الزبير من قريش وبينه وبين الأمويين القرشيين نسب قريب. لا بل كان بين عبد الملك وبين مصعب ابن الزبير، الذي كان يتولى العراق لأخيه عبد الله، صداقة ومحبة عميقة وصحبة في أيام الشباب. وقتل جند عبد الملك مصعباً، وجاءوه برأسه فقال كلمته المأثورة: «الملك عقيم»

كانوا مَوَالِيَ حَقٍّ يَطْلُبونَ به فأدركوه وما مَلُّوا ولا لَغَبوا

الأمويون موالي (أصحاب) حق (والحق هو ثأر عثمان، كما سيأتي)، وأدركوه (وصلوا إليه) وما لغبوا (تعبوا)

هُمُ سَعَوْا بابْنِ عَفَّانَ الإمَامِ، وهُمْ بعدَ الشِّمَاسِ مَرَوْها ثُمَّتَ احْتَلَبُوا

سعوا في طلب الثأر من قتلة عثمان، وبعد الشماس (جموح الناقة، كناية عن اشتعال الفتنة) مروها (هدّأوها بمسح ضرعها) ثمت (ثم) حلبوها

حَرْباً أَصابَ بني العَوَّامِ جانِبُها بُعْداً لِمَنْ أَكَلَتْهُ النارُ والحَطَبُ

حرباً (يا لها حرباً) أصابت بني العوام (أبناء الزبير بن العوام)

حتى تَناهَتْ إلى مصرٍ، جَماجِمُهُمْ تعدُو بِها البُرْدُ مَنصُوباً بِهَا الخَشَبُ

تناهت (وصلت) الحرب إلى مصر، ومنها عادت جماجم قاتلي عثمان منصوبة فوق الأعواد. وبمصر قتل الأمويون محمد بن أبي بكر الصديق أحد من كانوا بالدار من أعداء عثمان، ومن مصر جاء كثيرون ممن ثاروا على عثمان

٧ وإذا دعونك عمهن

ما إنْ رأيتُ كَمَكْرِهِنَّ إذا جَرى فينا، ولا كَحِبالِهِنَّ حِبَالا

لم أر كمكر النساء ولا كحبالهن (شباكهن)

المُهْدِياتِ لِمَنْ هَوَيْنَ مَسَبَّةً والمُحْسِناتِ لِمَنْ قَلَيْنَ مَقالا

يشتمن من يحببن، ويحسنَّ القول لمن يقلين (يكرهن)

إنَّ الغَوانِيَ إنْ رَأَيْنَكَ طَاوِياً بُرْدَ الشبابِ طَوَيْنَ عنكَ وِصَالا

إذا رأتك الغواني (الحسان) قد طويت برد الشباب (طويت ثياب شبابك، أي ذهب شبابك)، طوين وصالهن (قطعن العلاقة)

وإذا وَعَدْنَكَ نائلاً أَخْلَفْنَهُ ووجدْتَ عند عِداتِهِنَّ مِطَالا

النائل (العطاء، من سهرةٍ تحت نخلة، أو ما فوق ذلك)، وعداتهن ممطولة: وعودهن فيها تسويف

وإذا دَعَـوْنَـكَ عَـمَّـهُـنَّ فـإنـه نَـسَـبٌ يـزيـدُكَ عـنـدَهُـنَّ خَـبَـالا

إذا قالت لك الحسناء يا عمي، فهذا نسب يزيدك خبالاً (فساداً)

وإذا وَزَنْتَ حُلومَهُنَّ إلى الصِّبا رَجَحَ الصِّبَا بِحُلُومِهِنَّ فمَالا

لو وزنت (قارنت) حلومهن (عقولهن) بالصبا (الطيش) لوجدت الطيش أرجح منها فكفته تميل نازلة، وكفة عقولهن تشيل صاعدة

أَهِيَ الصَّرِيمَةُ مِنْكِ أُمَّ مُحَلِّمٍ أم ذا الدَّلالُ، فطَالَ ذاكَ دَلالا

أهذه هي الصريمة (القطيعة) منك يا أم محلم؟ أم هو فقط دلال؟ فما أطول هذا الدلال!

إنَّا نُعجِّلُ بالعَبِيطِ لِضَيْفِنا قبلَ العِيالِ، ونَقتُلُ الأبطالا

نعجل بالعبيط (اللحم) للضيف قبل أولادنا، ونحن شجعان في الحرب

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَ اللَّذا قَتلا الملوكَ وفَكَّكا الأَغْلالا

يا بني كليب (قوم جرير) إن اثنين من أعمامي هما من قتل الملوك، وفكَّ أغلال (قيود) الأسرى. فقد قتل رجلان من تغلب في الجاهلية ملكين من الملوك هما المنذر بن النعمان، وعمرو بن هند

ولقد بَكَى الجَحَّافُ مِمَّا أَوْقَعَتْ بِالشَّرْعَبِيَّةِ إذْ رأَى الأهوالا

بكي الجحاف السلمي مما أوقعت رجالنا بقومه في معركة «الشرعبية» من قتل

ولقد جَشِمْتَ، جريرُ، أمراً عاجِزاً وأَرَيْتَ عَوْرةَ أُمِّكَ الجُهَّالا

لقد جشمت (كلفت نفسك) يا جرير أمراً عاجزاً (معجزاً لك)، ودللت السفهاء على عورة أمك بتعرضك لي وهجائي لك، فأنا قد كشفت عورات أهلك

وإذا سَما لِلمجدِ فَرعَا وَائِلٍ واستَجْمَعَ الوادي عَليكَ فَسَالا . .

إذا سما (ارتفع) فرعا وائل (بكر وتغلب) للمجد، وجمع الوادي ماءه وسال عليك فجأة . .

كُنْتَ القَذَى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأَتِيُّ به فَضَلَّ ضَلالا

كنت في هذا السيل القذى (ما يحمله السيل من أغصان وأوساخ) تسبح في الموج المكدر ذي الزبد، وهذا القذى قذف به الأتيّ (السيل المفاجئ) فأخذ يتخبط وضلَّ ضلالاً

فَانْعَقْ بِضَأْنِكَ يا جريرُ، فإنَّما مَنَّتْكَ نفسُكَ في الخَلاءِ ضَلالا

انعق (اصرخ على غنماتك) ولا تزد على ذلك. فقد تمنيت الأماني المضللة في الخلاء (تمنيت وحدك بلا قريع يردعك، ومن أراد أن يغلب بسهولة لعب الشطرنج وحده، وقالت العرب: كل مجر في الخلاء يسر، أي أن الذي يُجري فرسَه وحده فسوف يأتي سابقاً لا محالة)

مَنَّتْكَ نفسُكَ أن تُسَامِيَ دَارِماً أو أن تُوازِنَ حَاجِباً وعِقَالا

تسامي: تباري، وهؤلاء هم أجداد الفرزدق الشاعر، وكان الأخطل ينصر الفرزدق على جرير

المانِعِينَ الماءَ حتى يَشْرَبوا عِفَواتِهِ، ويُقَسِّمُوهُ سِجَالا

قوم الفرزدق أقوياء يمنعون غيرهم من ارتياد حياض الماء حتى يشربوا عفواته (الصافي منه) وحتى يقسموا الماء بسجالهم (دِلائهم، جمع دلو) على النياق لتحمله إلى مضاربهم

وابنُ المَرَاغَةِ حَابِسٌ أَعْيَارَهُ قَذْفَ الغَرِيبةِ، ما يَذُقْنَ بِلالا

وابن المراغة (ابن الحمارة، لقب جرير عند خصومه) حابس أعياره (حميره، وكان قوم جرير أصحاب حمير)، ينتظر أن يستقي، وحميره قد أقصيت عن الماء مثل الناقة الغريبة التي تدخل ديار قوم فيقذفونها بالحجارة لتذهب عنهم كيلا يتهموا بسرقتها، وحمير جرير لا تذوق بلالاً (ما يبل عطشها)

٨ حليبها أو دمها

ومَحْبُوسَةٍ في الحَيِّ ضَامِنَةِ القِرَى إذا اللَّيْلُ وافَاها بِأَشْعَثَ سَاغِبِ

رب إبل نحتفظ بها في الحي لتضمن القرى (طعام الضيف) عندما يوافيها الليل بضيف أشعث الشعر زري الهيئة ساغب (جائع)

مُعَقَّرَةٍ لا تُنْكِرُ السيفَ وسْطَها إذا لم يَكُنْ فيها مَعَسٌّ لِحَالِبِ

الإبل معقرة (معدة للذبح) ولا تستغرب السيف ونحن نلوح به بينها، فكثيراً ما نأتيها لنذبح إحداها إن لم يكن في هذه الإبل معس لحالب (مطلب لمن يحلبها، أي نذبحها إن لم يكن فيها حليب للضيف)

٩ مطالبة

إذا وُزِن الأقوامُ لم يُلْفَ فيهِمُ كَبِشْرٍ، ولا ميزانُ بِشْرٍ يُعَادِلُهْ

إذا قدرت أقدار الناس لم تُلْفِ (تجد) مثل بشر بن مروان والي العراق، ولم تجد شخصاً يعادل ميزان (مقدار) بشر

أَغَرُّ عليه التَّاجُ، لا مُتَعَبِّسٌ ولا وَرَقُ الدُّنْيا عن الحَقِّ شَاغِلُهْ

ويبدو أن الأمويين اتخذوا التيجان، فعبيد الله بن قيس الرقيات يمدح الخليفة عبد الملك بن مروان بـ «يعتدل التاج فوق مفرقه.. على جبين كأنه الذهب». وهذا بشر أو عبد الملك يلبس تاجاً، وورق الدنيا (نعيمها) لا يشغله عن الحق

إذا انفَرَجَ الأَبْوابُ عنه رَأَيتَه كَصَدْرِ اليَمانِي أَخْلَصَتْهُ صَياقِلُهْ

كأنما كانت تفتح أبواب المجلس حين يؤذن للناس فيدخلون فيرون في صدر المجلس بشراً قاعداً على سريره مهيباً وضاءً كأنه السيف الذي أجاد صقله الصياقل (صانعو وصاقلو السيوف)

فلا تَجْعَلَنِّي يا ابنَ مروانَ كامْرِئٍ غَلَتْ في هَوى آلِ الزُّبَيْرِ مَراجِلُهْ

فلا تعاملني يا بشر بن مروان كمن كانت مراجله (قدوره) تغلي بما ارتزق من آل الزبير قبل زوال حكمهم، وكان مصعب بن الزبير والي العراق يعطي الشعراء بما يملأ قدورهم ويطعم عيالهم. نقل الأخطل «غلي القدور باللحم» إلى «غلي الصدور بالهوى»

يُبَايِعُ بِالكَفِّ التي قد عَرفْتَها وفي قلبِه نَامُوسُهُ وغَوَائِلُهْ

فهذا الذي كان يناصر الزبيريين يصافحكم الآن مبايعاً، وقد انتصرتم، بالكف التي تعرف يا بشر أنها كانت عليكم، وظل في قلبه ناموسه (غشه) وغوائله (أحقاده)

١٠ استغاثة بقريش

قد كَشَفَ الحِلْمُ عنِّي الجَهْلَ فانقَشَعَتْ عنِّي الضَّبَابَةُ: لا نِكْسٌ ولا وَرَعُ

الحلم (العقل) أزاح عني الجهل (التهور) فانقشعت (انكشفت) عني الضبابة (الغمامة) وزالت أوهام صباي، فلا أنا نكس (نكرة، ساقط) ولا ورَع (جبان)

إنِّي وربِّ النَّصَارى عند عيدِهِمُ، والمسلمينَ إذا ما ضَمَّها الجُمَعُ..

يحلف برب النصارى في عيدهم، والمسلمين في أيام الجمعة..

ورَبِّ كلِّ حَبيسٍ فوق صَوْمَعةٍ يُمْسِي ولا همُّهُ الدنيا ولا الطَّمَعُ..

ويحلف برب كل راهب حبس نفسه في صومعته زاهداً..

لقد مَدَحْتُ قُريشاً، واستغثْتُ بِهِمْ إذْ مَا أَنَامُ، إذا ما صُحْبَتِي هَجَعُوا

استغثت بقريش وأنا خائف لا أنام إذا أصحابي هجعوا (ناموا)

وإذْ وَشَى بِيَ أقوامٌ فأَدْرَكَنِي رَهْطُ الذي رفعَ الرحمنُ، فارتَفَعُوا

ذلك عندما وشى بي ناس، ولكن أدركني (نجدني) رهط (قوم) النبي محمد الذي رفعه الله، فارتفعوا به. والأمويون أقرب قريش إلى بني هاشم، فهما كلاهما من عبد مناف

إنِّي دَعانِي إلى بِشْرٍ فَواضِلُهُ والخيرُ، قد عَلِمَ الأقوامُ، مُتَّبَعُ

دعاني إلى مدح بشر بن مروان والي العراق فواضله (تفضله بالعطاء) والخير كما تعلمون متبع (يتبعه الناس).. وكما قال اللاحق: يسقط الطير حيث ينتثر الحب.. وتغشى منازل الكرماء

١١ الحجاج نخاساً

أَحْيَا الإلهُ لنا الإمامَ فإنه خيرُ البَرِيَّةِ، لِلذُّنوبِ غَفُورُ

أبقى الله الإمام، الخليفة، فهو خير البرية (البشر)، وهو يغفر الذنوب

نُورٌ أَضاءَ لنا البلادَ، وقد دَجَتْ ظُلَمٌ تَكادُ بها الهُدَاةُ تَجُورُ

الخليفة نور أضاء البلاد بعد أن دجت (اسودت) ظلم (عتمات) حتى لقد كادت الهداة (الناس الذين يهدون الآخرين) تجور (تنحرف عن الطريق السوي)

فَعليكَ بِالحجَّاجِ لا تَعْدِلْ به أَحداً إذا نَزلَتْ عليكَ أُمورُ

فعليك يا عبد الملك بالحجاج فلا أحد مثله. وعبد الملك، وبعده ابنه الوليد، في غنى عن مثل هذه النصيحة فقد كان الحجاج حبة عين الخليفتين

ولقد عَلِمْتَ، وأنتَ أعلَمُنا به، أنَّ ابْنَ يُوسُفَ حَازِمٌ مَنصورُ

علمت أيها الخليفة أن الحجاج بن يوسف حازم منصور

وأَخُو الصَّفَاءِ فما تزالُ غَنيِمَةٌ منهُ يَجيءُ بها إليكَ بَشيرُ

وهو رجل صافي الضمير لا يحتجن، لا يحتفظ بالغنائم لنفسه، بل يبعث إليك من يبشرك بها.. ثم طبعاً تأتيك الغنائم بعد البشارة

وتَرى الرَّوَاسِمَ يَختَلِفْنَ، وفَوقَها وَرَقُ العِراقِ: سَبائِكٌ وحَريرُ

ترى الرواسم (الإبل المسرعة، التي تسير «الرسيم») يختلفن (يأتين مرة بعد مرة)، وعليها وَرَق (مال) العراق من سبائك وحرير. ومن قرأ ورِق بكسر الراء فتلك الفضة، وبالكسر قرأ قباوة

وبَناتُ فَارِسَ كلَّ يومٍ تُصْطَفَى يَبْلُونَهُنَّ، ومَا لَهُنَّ مُهُورُ

يختارون لك ما يختارون من سبايا الفرس ويبلونهن (يختبرونهن). قال السكري الشارح: «كان قتيبة بن مسلم لما قتل فيروز بن كسرى يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج فأمسك إحداهما وبعث بشاهَفْريد إلى الوليد فأولدها يزيد»

١٢ يزيد والفرات

أبا خالدٍ دافعْتَ عنِّي عَظِيمَةً، وأَدْرَكْتَ لَحْمِي قبلَ أن يتبَدَّدا

أبو خالد: يزيد بن معاوية، دافعت عني عظيمة: دفعت عني مصيبة، أدركت لحمي قبل أن يتقطّع (كان الأخطل مهدداً بقطع لسانه)

وأَطْفَأْتَ عَنِّي نارَ نُعْمَانَ، بَعدَما أَغَذَّ لِأَمْرِ عَاجِزٍ وتَجَرَّدا

أخمدت نار غضب نعمان (النعمان بن بشير الأنصاري الذي غضب لهجاء الأخطل الأنصار) بعدما أغذ (أسرع) لأمر عاجز (شديد يُعجز المرء) وتجرد (استعد). القصة باختصار: هجا الأخطل الأنصار بطلب من يزيد بن معاوية، فجاء النعمان إلى معاوية غاضباً، وطلب أن يسل لسان الأخطل، فجاراه معاوية، ففزع الأخطل إلى يزيد، فكلم أباه فنجا الأخطل

ولَمَّا رأَى النُّعْمانُ دُونِي ابنَ حُرَّةٍ طَوَى الكَشْحَ، إذْ لم يَستَطِعْني وعَرَّدَا

لما رأى النعمان دوني (أمَامي ويحميني) ابن حرة (و«يزيد» ابن ميسون الكلبية لا ابن جارية) طوى الكشح (انصرف) إذ عرف أنه لا ينالني، وعرد (أحجم وهرب)

وما مُزْبِدٌ يَعْلُو جَزائِرَ حَامِزٍ   يَشُقُّ إليها خَيْزُراناً وغَرْقَدا..

يبدأ تشبيهاً: ليس الفرات المزبد (الذي يعلو الزبد صفحته لتدفقه) الذي يعلو جزر حامز (بين الرقة ومنبج) عندما يفيض، شاقاً نحوها غابات الخيزران والغرقد (ضربان من الشجر)..

تَحَرَّزَ منهُ أهلُ عَانَةَ، بعدما   كسا سُورَها الأعلى غُثَاءً مُنَضَّدا..

.. وقد تحرز (تحصن) من النهر أهل قرية عانة بعد أن فاض ورمى فوق أعلى أسوارها بالغثاء المنضد (ورق الشجر والأغصان المتراكمة مما يحمل النهر في فيضانه)..

يُقَمِّصُ بِالملَّاحِ حتَّى يَشُفَّه الـ   ـحِذَارُ، وإن كانَ المُشِيحَ المُعَوِّدا..

هذا النهر الهائج يقمص بالملاح (يتلاعب بسفينته) حتى يشفه الحذار (يُذهب عقله التيقظ الشديد) حتى وإن كان هذا الملاح المشيح (الحاذق) المعوِّد (المجرب)..

بِمُطَّرِدِ الآذِيِّ جَوْنٍ، كأنَّما   زَفَا بِالقَراقيرِ النَّعَامَ المُطَرَّدَا..

يتلاعب الآذي (الموج) المطرد (المتتابع) الجون (الأبيض بما فوقه من زبد)، وتراه قد زفا (طرد وفرّق) القراقير (السفن) وكأنها النعام المطرد (المبعد المطرود)..

كأَنَّ بَنَاتِ الماءِ في حَجَراتِه   أباريقُ أَهْدَتْها دِيَافُ لِصَرْخَدا..

كأن بنات الماء (طيور الماء) في حجراته (نواحيه) أباريق (لطول أعناقها) مما يحمله التجار من قرية دياف لقرية صرخد..

بِأَجْوَدَ سَيْباً مِنْ يَزيدَ إذا غَدَتْ   به بُخْتُه يَحْمِلْنَ مُلْكاً وسُؤْدَدا

ليس هذا الفرات المتدفق بمائه بأجود (بأسخى) من يزيد إذا غدت (سارت) به بخته (والبخت نوع من الإبل الكريمة) وفوقهن الملك والسيادة. وعلى الفرات قتل رجال يزيد الحسين بن علي لتبدأ فتنة جديدة لم تنته بعد

١٣ الحولية الكبرى

خَفَّ القَطِينُ فَراحُوا منكَ أو بَكَروا   وأَزْعَجَتْهُمْ نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

خف (أسرع) القطين (القاطنون بجوارنا) فراحو (ذهبوا مساء) أو بكروا (ذهبوا صباحاً) منك (تركوك)، وأزعجتهم (جعلتهم يرحلون) نوى (نية الرحيل) في صرفها غير (في ظروفها تغير للأسوأ). فهم رحلوا بحثاً عن العشب بعد أن اشتدت بهم الحال

كأنَّني شارِبٌ يومَ استُبِدَّ بِهِمْ   مِنْ قَرْقَفٍ ضُمِّنَتْها حِمصُ أو جَدَرُ

دخلت في مزاج تأملي يوم استبد بهم (غُلبوا على أمرهم)، فكأنني شارب من قرقف (خمر) من خمور حمص أو جدر

جَادَتْ بها مِنْ ذواتِ القَارِ مُتْرَعَةٌ   كَلفاءُ يَنْحَتُّ عن خُرطُومِها المَدَرُ

جادت بتلك الخمر خابية مترعة (مملوءة) من ذوات القار (مما طُلِي بالزفت) كلفاء (داكنة اللون) ينحتُّ (يُقشر) عن فوهتها المدر (الطين)

شوقاً إليْهِمْ ووَجداً يومَ أُتْبِعُهُمْ   طَرْفي، ومنهُمْ، بِجَنْبَيْ «كَوكَبٍ»، زُمَرُ

هذا لشوقي إليهم ووجدي (شغفي) وأنا أُتبعهم طرفي (ألاحقهم ببصري)، ومن هؤلاء القوم زمر (جماعات) في ناحيتي منطقة «كوكب»

حَثُّوا المَطِيَّ فَوَلَّتْنا مَناكِبَها   وفي الخُدورِ إذا بَاغَمْتَها الصُّوَرُ

حثوا المطي (أسرعوا بالإبل) فأعطتنا مناكبها (ظهورها)، وفي الخدور (الهوادج) الصور (الحسان اللائي كالدمى) نراها حين نباغمها (نكلمها بكلام غير مفهوم كأنه بغام الظباء)

يُبْرِقْنَ للقومِ حتى يَخْتَبِلْنَهُمُ   ورأْيُهُنَّ ضعيفٌ حينَ يُخْتَبَرُ

يبرقن (يلمحن تلميحاً) للقوم حتى يحتبلنهم (يصدنهم صيداً)، مع أن رأيهن ضعيف عند التجربة (عقولهن غير ناضجة). احبس رجلاً في خدر تر عقله صار ضعيفاً أيضاً

يا قَاتَلَ اللَّهُ وَصْلَ الغانياتِ إذا   أَيْقَنَّ أنَّكَ مِمَّنْ قد زَهَا الكِبَرُ

زهاك الكبر: أضعفك

أَعْرضْنَ لمَّا حنَى قَوسِي مُوَتِّرُها   وابْيَضَّ بعد سَوادِ اللِّمَّةِ الشَّعَرُ

أعرضت الحسان عندما حنى الله قامتي فصارت كالقوس، والله قد وتَّر القامة فكأنها القوس الذي وضع له وتر، وعندما ابيضت اللمة (الشعر)

ما يَرْعَوِينَ إلى دَاعٍ لِحَاجَتِهِ   ولا لَهُنَّ إلى ذي شَيْبَةٍ وَطَرُ

لا يرعوين (يتركن التكبر) ويلبين صاحب الحاجة، وليس لهن وطر (حاجة) عند شائب

شَرَّقْنَ إذْ عَصَرَ العِيدانَ بَارِحُها   وأَيْبَسَتْ غيْرَ مَجرى السِّنَّةِ الخُضَرُ

رحلن شرقاً عندما عصر العيدان (جففها) بارحها (الريح الباردة)، وأيبست الخضر، أي أصبحت يابسة، ما عدا مجرى السنة (مجرى سن المحراث، فالزرع هناك آخر ما يجف)

وَقَعْنَ أُصْلاً، وعُجْنَا مِنْ نَجائِبِنا،   وقد تُحُيِّنَ مِنْ ذي حَاجَةٍ سَفَرُ..

وقعن (نزلن) أصلاً (مساءً، عند الأصيل)، وعجنا نحن نجائبنا (أملنا إبلنا) عندما حان وقت سفر ذوي الحاجات، أي نحن..

إلى امْرِئٍ لا تُعَرِّينا نَوافِلُهُ   أَظْفَرَهُ اللَّهُ فَلْيَهْنِئْ له الظَّفَرُ

نسافر إلى رجل لا تعرينا نوافله (لا تتركنا عطاياه محرومين)، وقد انتصر فهنيئاً له

الخَائِضِ الغَمْرَ، والمَيْمُونِ طائِرُهُ   خليفةِ اللَّهِ يُستَسْقَى به المطَرُ

ذهبنا إلى الخائض الغمر (الذي يخوض الماء العميق، أي الشدائد/ لا تنس أن الأخطل نشأ بجانب الفرات ويعرف الفيضانات، ومن هنا كثير من تشبيهاته)، وإلى الميمون طائره (ذي الحظ الحسن) وبوجهه الوضيء نستسقي (كانوا يأخذون رجلاً صالحاً وضيء الوجه إذا أرادوا دعاء الاستسقاء)

والمُسْتَمِرِّ به أَمْرُ الجميعِ، فَما   يَغْتَرُّهُ بعدَ تَوكيدٍ له غَرَرُ

المستمر (المفتول بإحكام) به أمر الناس جميعاً، والذي لا يغتره (يخدعه) الغرر (الخداع) بعد أن استقام له أمر الخلافة

وما الفُراتُ إذا جَاشَتْ حَوالِبُهُ   في حَافَتيْهِ وفي أَوْسَاطِهِ العُشَرُ

يبدأ تشبيهاً: ليس الفرات إذا جاشت (امتلأت بالماء) حوالبه (روافده)، وأصبح في حافتيه (شاطئيه) وفي وسطه أغصان شجر العشر.. [وكان محمد النويهي يشرح هذا البيت لطلبته في جامعة الخرطوم، وأخذ يصف شجر العشر، فرآهم يتبسمون.. قالوا له: يا أستاذ، انظر من النافذة، ذاك شجر العشر. وعندما ذهبت إلى الخرطوم، كنت أقف أمام بوابة المركز القومي للإعلام وحولي تلامذتي من الصحفيين المتدربين، قلت لهم: أين أجد شجر العشر؟ فقالوا: انظر هناك. كانت شجرة من هذا الشجر مقصوفة وملقى منها غصن كبير على الرصيف الآخر، وعبرنا الشارع، ورأيت شجر العشر، وله ثمر كبير أجوف ينز حليباً كحليب التين]

وذَعْذَعَتْهُ رياحُ الصيفِ، واضطربتْ   فوقَ الجَآجِئِ مِنْ آذِيِّهِ غُدُرُ

وذعذعت النهر (حركته وفرقته) رياح الصيف، واضطربت فوق جآجئ (صدور) آذيه (أمواجه) غدر (جمع غدير)..

مُسْحَنْفِراً مِنْ جِبالِ الرومِ، يَسْتُرُهُ   منها أَكافيفُ فيها دونَهُ زَوَرُ

مسحنفراً (مسرعاً) وهو يأتي من جبال الروم وهناك بين الجبال تستره أكافيف (مناكب الجبال) التي فيها زور (تعرج). فالمقبل على النهر في تلك الجبال لا يراه من بعيد فالجبال تحتضنه بجوانبها، فإذا أشرف المرء على النهر رآه يتلوى بين الجبال

يوماً بِأَجْوَدَ منه حينَ تسألُه،   ولا بِأَجْهَرَ منه حين يُجْتَهَرُ

هذا النهر الزاخر ليس أسخى من الخليفة، ولا أجهر (أهيب) منه حين تراه

مُفْتَرِشٌ كافتراشِ الليثِ كَلْكَلَهُ   لِوَقْعةٍ كائنٍ فيها له جَزَرُ

يفترش الخليفة كلكله (صدره) كالأسد متأهباً لوقعة (معركة) سيكون له فيها جزر (قتلى)

مُقَدِّماً مِئتَيْ أَلْفٍ لِمَنْزِلَةٍ   ما إن رأى مِثْلَهُمْ جِنٌّ ولا بشرُ

يقدم من جنوده مئتي ألف لمنزلة (مكان النزال في الحرب)،
ولم ير جن ولا إنس من قبل هذا العديد

يَغشَى القناطرَ يبنيها ويهدِمُها، مُسَوَّمٌ فوقَه الراياتُ والقَتَرُ

يغشى (يأتي) الجيشُ القناطر بانياً هادماً، وهو مسوم (عليه سمات الحرب) وفوقه الرايات، والقتر (الغبار)

حتَّى يكونَ لَهُمْ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ وبِالثَّوِيَّةِ لم يُنْبَضْ بها وَتَرُ

حتى تكون المعركة في «الطف»، وفي «الثوية». وهي معركة التحام بالسيوف والرماح، ولم ينبض (يشدّ) بها وتر، أي لم يكن فيها رمي من بعيد فكلها التحام. وتلك المعارك غلب فيها عبد الملك مصعب بن الزبير

وتَستَبينَ لِأَقوامٍ ضَلالَتُهُمْ ويستقيمَ الذي في خدِّهِ صَعَرُ

وحتى يعرف الذين ضلوا وحالفوا ابن الزبير ضلالتهم، ويستقيم الذي في خده صعر (ميل). فإن كنت لاحظت بعض المتعجرفين يميل برأسه وينفخ خده كبراً فأنت تعرف ما «تصعير الخد»

ثم استَقَلَّ بِأثقالِ العراقِ، وقد كانتْ له نِعْمَةٌ فيهِمْ ومُدَّخَرُ

ثم استقل (حمل) أثقال العراق (مشكلاته)، وأنعم على الناس وتألَّفهم وكان له فيهم مدخر (صنيعة يدخرها في نفوسهم)

في نَبْعَةٍ مِنْ قُريشٍ يَعصِبُونَ بها ما إنْ يُوازَى بأعلى نبتِها الشَّجَرُ

عبد الملك راسخ المكانة في نبعة (النبع نوع من الشجر كبير) من قريش، هي بنو أمية، والناس يعصبون بها (يلتفون حولها)، وشجرة النبع هذه أعلى من كل ما حولها

تَعلُو الهِضابَ وحَلُّوا في أَرُومَتِها، أهلُ الرِّبَاءِ، وأهلُ الفخرِ إن فَخَروا

أمية شجرة فوق هضبة، والمروانيون في أرومتها (أصلها)، وهم أهل الرباء (الكثرة) والفخر

حُشْدٌ على الحقِّ، عَيَّافُو الخَنا أُنُفٌ إذا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكرُوهَةٌ صَبروا

حشد (محتشدون) لنصرة الحق، عيافون (كارهون) للخنا (الفحش) أنف (يأنفون الصغائر)، وصابرون على المكروهة (المصيبة)

وإن تَدَجَّتْ على الآفاقِ مُظْلِمةٌ كان لَهُمْ مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَر

إن تدجت (أظلمت) مصيبة كان لهم منها معتصر (مخرج)

أَعطاهُمُ اللَّهُ جَدَّاً يُنْصَرونَ به لا جَدَّ إلّا صغيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرُ

أعطاهم الله جداً (حظاً)، وكل حظ غيره محتقر (ضئيل)

شُمْسُ العَداوةِ حتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وأَعْظَمُ الناسِ أَحْلاماً إذا قَدَرُوا

شمس (عنيدون جامحون) عند العداوة حتى يستقاد لهم (يُستسلَم لهم) وأعظم الناس عفواً عند المقدرة

هُـمُ الـذيـن يُـبَـارُونَ الـرِّيـاحَ إذا   قلَّ الطَّعامُ على العَافِينَ أو قَتَروا

إذا هبت الرياح، وهبوبها نذير جفاف، فهم يبارونها في سرعة تقديم الطعام، للعافين (الفقراء) إذا قتروا (افتقروا)

بَـنـي أُمَـيَّـةَ، نُـعـمَـاكُـمْ مُـجَـلِّـلَـةٌ   تَـمَّـتْ، فـلا مِـنَّـةٌ فـيـهـا ولا كَـدَرُ

نعمتكم مجللة (شاملة)، ولا تمنون على الناس ولا تكدرون العطاء

بَـنـي أُمَـيَّـةَ قـد نَـاضَـلْـتُ دُونَـكُـمُ   أَبـنـاءَ قَـوم هُـمُ آوَوْا وَهُـمْ نَـصَـرُوا

قد ناضلت دونكم (دافعت عنكم) أبناء الأنصار الذين آووا الرسول ونصروه. ذلك، عندما هجا الأخطل شاعر الأنصار بطلب من يزيد بن معاوية

أَفْحَمْتُ عنكُمْ بني النَّجَّارِ، قد عَلِمَتْ   عُـليا مَعَـدٍّ، وكـانـوا طَـالَـمَـا هَـدَرُوا

أفحمت (أسكتُّ) بالنيابة عنكم بني النجار من الأنصار، وقد علمت عليا معد (أشرف قبائل معد العدنانية) بفعلي ذاك مع الأنصار القحطانيين الذين كثيراً ما هدروا (استطالوا بالكلام)

حتى استَكانُوا وهُمْ مِنِّي على مَضَضٍ   والـقـولُ يَـنْـفُـذُ مـا لا تَـنْـفُـذُ الإِبَـرُ

فاستكانوا (خضعوا) وهم كارهون إياي، فالقول ينفذ، ويؤثر أكثر من الإبر (والإبرة زنابى العقرب التي تلسع بها)

بـنـي أُمَـيَّـةَ إنـي نَـاصِـحٌ لَـكُـمُ   فـلا يَـبِـيـتَـنَّ فـيـكُـمْ آمِـنـاً زُفَـرُ

لا تدعوا زفر بن الحارث بينكم. وكان عبد الملك أعطى زفراً، زعيم القيسية، الأمان بعد الانتصار عليه، وأخذ زفر يحضر مجلس عبد الملك مما أغاظ الأخطل

إنَّ الضَّـغِـيـنَـةَ تَلقـاهَـا، وإن قَدُمَـتْ،   كَـالـعَـرِّ يَـكْـمُـنُ حـيـنـاً ثـم يَـنْـتَـشِـرُ

الضغينة (الحقد) تكمن ثم تعود وتظهر، مثل العر (الجرب)

وقـد نُـصِـرْتَ أَمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ بِـنـا   لـمَّـا أتـاكَ بِـبَـطْـنِ الـغُـوطَـةِ الـخَـبَـرُ

نحن ـ بني تغلب ـ نصرناك في موطننا بالعراق، وأتاك خبر النصر وأنت بالشام. وعندما أنشد الأخطل هذا البيت قال عبد الملك: بل الله نصرني

ولـم يَـزَلْ بِـسُـلَـيْـمٍ أَمْـرُ جـاهِـلِـهـا   حـتـى تَـعَـيَّـا بِـهـا الإِيـرادُ والـصَّـدَرُ

وظلت قبيلة سليم تعاني مما أنزله بها جاهلها (زعيمها «المتهور» عمير بن الحباب) حتى تعيا بها (صعب عليها) الإيراد والصدر (الدخول والخروج، أي التصرف في شأنها)

إذْ يـنظرونَ وهُـمْ يَجْنُونَ حَـنظَلَـهُـمْ   إلى الزَّوابِـي، فقُلنا بُعْدَ مَا نَظَرُوا

ينظرون وهم في موطنهم الصحراوي حيث ينبت الحنظل، إلى الزوابي (مناطق نهري الزاب التي تسكنها تغلب)، فقلنا: ما أبعد ما نظروا وطمحوا!

كَرُّوا إلى حَرَّتَيْهِمْ يَعْمُرُونَهُما كَما تَكُرُّ إلى أَوْطانِها البَقَرُ

كروا (رجعوا) بعد الهزيمة إلى حرتيهم (منطقتين في حجارتهما سواد) يعمرونهما (يسكنونهما)، مثلما ترجع البقر إلى زرائبها بعد المرعى

ومَا سَعَى فيهِمُ سَاعٍ لِيُدْرِكَنا إلَّا تَقَاصَرَ عنَّا وَهْوَ مُنْبَهِرُ

لا يحاول منهم من يسعى لإدراكنا إلا قصَّر به سعيه وانبهر (انقطع نفسه)

وقد أَصابَتْ كِلاباً مِنْ عَداوَتِنا إحدى الدَّواهِي التي تُخْشَى وتُنْتَظَرُ

وقبيلة كلاب القيسية أصبناها بداهية مما يخشاه المرء وينتظره (يتوقعه)

أَمَّا كُلَيْبُ بْنُ يَربوعٍ فليس لَهُمْ عِندَ التَّفَارُطِ إِيرادٌ ولا صَدَرُ

وقبيلة كليب بن يربوع ليس لها عند التفارط (التسابق نحو الماء) إيراد ولا صدر (لا يردون الماء ولا يصدرون عنه، لأن غيرهم يسبقهم ويغلبهم عليه)

مُخَلَّفُونَ ويَقْضِي الناسُ أَمْرَهُمُ وَهُمْ بِغَيْبٍ، وفي عَمياءَ ما شَعَروا

مخلفون وراء القوم عند اتخاذ القرارات الصعبة، والناس تتخذ القرار وهم بغيب (بأرض منخفضة، أي أنهم غائبون) وفي عمياء (جهالة)، ولا يشعرون بضعتهم

مُلَطَّمونَ بِأَعْقَارِ الحِياضِ فما يَنْفَكُّ مِنْ دَارِمِيٍّ فِيهِمُ أَثَرُ

يلطمهم الناس في أعقار الحياض (أطراف أحواض الماء) ويبعدونهم، ولا تخلو وجوههم من أثر ضرب أو لطم من دارمي (وبنو دارم، وشاعرهم الفرزدق، كانوا يناكفون بني يربوع، وشاعرهم جرير، مع أنهما كلاهما من تميم)

قومٌ تناهَتْ إِلَيْهِمْ كُلُّ مُخْزِيَةٍ وكُلُّ فَاحِشَةٍ سُبَّتْ بِها مُضَرُ

كل المخازي تناهت (استقرت وتجمعت) في يربوع، وكل فاحشة منسوبة إلى القبيلة العظمى «مضر» فإنما سببها يربوع

الآكِلونَ خَبيثَ الزَّادِ وَحْدَهُمُ والسَّائِلونَ بِظَهْرِ الغيبِ ما الخبرُ

يأكلون وحدهم بخلاً، وزادهم خبيث من لحوم الضب مثلاً [ألم يقل أبو نواس: إذا ما تميمي أتاك مفاخراً/ فقل عَدِّ عن ذا، كيف أكلُك للضب؟]، وهم بعيدون عن مركز القرار ويسألون عما جرى في مجالس القبيلة الكبرى لأنهم غائبون عنها

ثم الإِيَابُ إلى سُودٍ مُدَنَّسَةٍ لا يَسْتَحِينَ إذا ما احْتَكَّتِ النُّقَرُ

ثم يرجعون إلى نساء سود مدنسة، وليس عندها حياء إذا احتكت الفروج، فنساؤهم وقحات

وأَقْسَمَ المجدُ حقاً لا يُحالِفُهُمْ حتى يُحالِفَ بَطْنَ الرَّاحَةِ الشَّعَرُ

المجد لا يقاربهم مثلما لا يقارب الشعر راحة الإنسان

١٤ الثور الراتع

ومَهْمَهٍ طَامِسٍ تُخْشَى غَوائلُهُ قَطَعْتُه بِكَلُوءِ العَيْنِ مِسْهارِ

رب مهمه (خلاء) طامس (مطموس: كما قالوا للأحمق لاسعاً بمعنى ملسوع، وللماء المفقود في الأنابيب فاقداً) تُخشى غوائله (مخاطره المميتة) قطعته بناقة كلوء العين (صاحية) مسهار (قوية على مشي الليل وسهره)

بِحُرَّةٍ كأتانِ الضَّحْلِ، أَضْمَرَها بعدَ الرَّبَالَةِ تَرحالي وتَسْيَاري

قطعت البر بحرة (ناقة كريمة) كأتان الضحل (صخرة الوادي، وتكون ملساء ضخمة لم يستطع السيل جرفها) أضمرها (أنحلها) بعد الربالة (السِّمَن) ترحالي وسيري الكثير

أُخْتِ الفَلاةِ، إذا شُدَّتْ مَعاقِدُها زَلَّتْ قُوَى النِّسْعِ عن كَبْدَاءَ مِسْفَارِ

هي مصاحبة للفلاة (الصحراء) فإذا شُدَّت معاقدها (الحبال التي تَربط الرَحل بالنياق) انزلقت قوى النسع (حبال الرحل) عن جسم ناقة كبداء (كبيرة الصدر) مسفار (قوية على السفر)

كأنَّها بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ لُزَّ بِجَصٍّ وآجُرٌّ وأحجارِ

الناقة كالبرج من أبراج الروم قد لُزَّ (أحكم بناؤه) بجص (جبصين، شيء كالأسمنت) وآجر (طوب، طابوق) وحجارة

أو مُقْفِرٌ خَاضِبُ الأَظْلَافِ جَادَ له غَيْثٌ تَظَاهَرَ في مَيْثَاءَ مِبْكَارِ

أو كأنها ثور مقفر (يعيش في القفر) خاضب الأظلاف (مخضوبها بالعشب) وقد جاد له بالعشب المطر الذي تظاهر (تتابع) في ميثاء مبكار (روضة بكر نبتها)

فَباتَ في جَنْبِ أَرْطَاةٍ. تُكَفِّئُهُ رِيحٌ شَآمِيَةٌ هَبَّتْ بِأَمْطارِ

سكن الثور البري قرب أرطاة (نبتة صحراوية). وتكفئه (تتناوبه) ريح شآمية (ريح الشمال) ومعها المطر

يَجُولُ لَيلَتَهُ والعينُ تَضْرِبُهُ فيها بِغَيْثٍ أَجَشِّ الرَّعْدِ نَثَّارِ

يجول ليلاً والعين (السحابة) تسح عليه مطراً مع رعد صوته أجش (خشن) نثَّار (ينثر المطر)

إذا أَرادَ بِها التَّغْمِيضَ أَرَّقَهُ سَيْلٌ يَدِبُّ بِهَدْمِ التُّرْبِ مَوَّارِ

يمنعه الغمض في ليلته سيل موار (متحرك) يحمل التراب

كأنَّه إذْ أَضاءَ البَرْقُ بَهجَتَه في أَصْفَهانِيَّةٍ أو مُصْطَلي نَارِ

يلمع البرق فيبدو الثور وقد لمع جلده، فكأنه يرتدي حلة أصفهانية مزعفرة صفراء، أو كانه يصطلي ناراً ينعكس ضوءُها عليه

حتَّى إذا انْجَابَ عنه اللَّيلُ، وانْكَشَفَتْ سماؤُه عن أَدِيمٍ مُصْحِرٍ عَارِ

فإذا انجاب (انحسر) الليل، وكشفت السماء أديمها (وجهها) المصحر (الصافي) العاري من الغيوم

آنسَ صَوتَ قَنيصٍ، أوْ أَحَسَّ بِهِمْ كَـالـجِـنِّ يَـهـفُـونَ مِنْ جَرْمٍ وأَنْـمَـارِ

آنس (سمع) صوت قنيص (صائدين) وأحس بهم كأنهم محاربون من قبيلتي جرم وأنمار يهفون (يسرعون) مثل الجن

فَانصَـاعَ كـالـكَـوكَـبِ الـدُّرِّيِّ مَيْعَـتُـه غَـضْـبانَ يَـخْـلِـطُ مِنْ مَـعْـجٍ وإِحْضَـارِ

فانصاع (مضى) كالكوكب الدري (المتوقد) ميعته (سرعته)، يركض وهو غضبان يخلط المعج (الجري الشديد) بالإحضار (الجري المتوسط) وهو يتلوى بين الأشجار

فَـأرسَـلُـوهُـنَّ يَـذْرِيـنَ الـتُّـرابَ كَـمـا يَـذْرِي سَـبـائِـخَ قُـطْـنٍ نَـدْفُ أَوْتَـارِ

فأرسل الصيادون الكلاب يذرين (يُثِرن) التراب المبتل كما يثير ندف أوتار المنجِّد، الذي ينفش قطن الفراش بمندفته، سبائخ قطن (قطع القطن)، فالتراب مبتل وهو كقطع القطن لا بهيئة غبار

حـتـى إذا قُـلْـتُ نَـالَـتْـهُ سَـوابِـقُـهـا وأَرْهَـقَـتْـه بِـأنـيَـابٍ وأَظْـفَـارِ . .

فإذا قلت قد نالت أسبق الكلاب الثورَ وأرهقته بأنيابها وأظفارها . .

أَنْـحَى إِلَـيْـهِـنَّ عَـيْـنـاً غَـيرَ غَـافِـلَـةٍ وطَـعْـنَ مُـحْـتَـقِـرِ الأَقْـرانِ كَـرَّارِ

أنحى (وجَّه) الثور إلى الكلاب عيناً يقظة، وواجههن بطعنِ كرار (مهاجم) يحتقر الأقران (الخصوم) لقوته

فَـعَـفَّـرَ الـضَّـارِيَـاتِ الـلَّاحِـقـاتِ بـه عَـفْـرَ الـغَـريـبِ قِـدَاحـاً بـيـنَ أَيْـسَـارِ

فعفر الكلاب الضارية (رماها أرضاً)، كما يجيل، أي يرمي، الرجل الغريب القداح (السهام التي يقامرون بواسطتها) بين أيسار (مقامرين)، ويختارون غريباً ليقسم بينهم قِداح الميسر

يَـعُـذْنَ مـنـه بِـحُـزَّانِ الـمِـتَـانِ، وقـد فُـرِّقْـنَ عـنـه بِـذِي وَقْـعٍ وآثـار

يعذن منه (يلجأن) بحزان المتان (بالأرض المرتفعة الوعرة) بعد أن فرقهن بقرن له وقع وأثر في أجسام الكلاب

حـتـى شَـتَـا وَهْـوَ مَـغْـبُـوطٌ بِـغَـائِـطِـه يَـرعَـى ذُكُـوراً أَطَـاعَـتْ بـعـدَ أَحْـرارِ

ثم قضى شتاءه مسروراً في غائطه (أرضه المنخفضة) يرعى الذكور (البقل الغليظ) بعد أن يأتي على الأحرار (البقل الطري)

فَـرْدٌ تُـغَـنِّـيـهِ ذِبَّـانُ الـرِّيَـاضِ كـمـا غـنَّـى الـغُـوَاةُ بِـصَـنْـجٍ عـنـدَ إِسْـوارِ

متفرِّد يسمع طنين ذباب الرياض، فهو بالنسبة إليه كغناء الغواة (اللاهين) عند إسوار (قائد الفُرس)

كـأَنَّـه مِـنْ نَـدَى الـقُـرَّاصِ مُـغْـتَـسِـلٌ بِـالـوَرْسِ، أو خَـارِجٌ مِـنْ بـيـتِ عَـطَّـارِ

كأنَّ هذا الثور وقد مسَّ الندى المنتشر على نبات القراص الشوكي ذي الزهر الأصفر، كأنه قد اغتسل بالورس (الكركم، صبغ أصفر) أوْ خرج من دكان عطار

وشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي   لا بِالحَصُورِ ولا فيها بِسَوَّارِ

رب شارب مربح (سخي يذبح لأضيافه) نادمني على الشراب، وهو غير حصور (بخيل)
ولا سوار (معربد)

نَازَعْتُه طَيِّبَ الراحِ الشَّمُولِ، وقد   صَاحَ الدَّجاجُ، وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّاري

عاطيته الخمر الشمول (الباردة) عند الفجر وقت صياح الدجاج (يريد الديكة)، وحانت وقعة (نومة)
الساري (الذي سار ليلته)

مِنْ خَمْرِ عَانَةَ يَنْصَاعُ الفُراتُ لها   بِجَدْوَلٍ صَخِبِ الآذِيِّ مَوَّارِ

هذه الخمر من قرية عانة التي ينصاع (يسرع) لها ماء الفرات بجدول صخب الآذي (الموج) موار
(متحرك) ليسقي كرومها

لَها رِدَاءَانِ: نَسْجُ العنكَبُوتِ، وقد   لُفَّتْ بِآخَرَ مِنْ لِيفٍ ومِنْ قَارِ

للخمر في جرتها رداءان: الخارجي نسج العنكبوت لطول ما عتقت،
والآخر من الليف والقار (الزفت)

عَذْرَاءَ لم تَجْتَلِ الخُطَّابُ بَهجَتَها   حتى اجْتَلاها «عِبَادِيٌّ» بِدينارِ

لم يفضَّ جرة الخمر هذه أحد فهي كالعذراء النى لم يجتل (ير) الخطاب جمالها، حتى جلاها لنا
عبادي (من قوم «العِبَاد» من أهل الحيرة النصارى) مقابل دينار

إِنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصاتِ، ومَا   أضحَى بمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وأَسْتارِ

حلفت برب النياق الراقصات (السائرات المتمايلات المتجهات إلى مكة)،
وبما في مكة من أستار الكعبة

لَأَلْجَأَتْنِي قُريشٌ خَائِفاً وَجِلاً   ومَوَّلَتْنِي قُريشٌ بعدَ إِقْتَارِ

لالجأتني قريش خائفاً وجلاً (لقد آوتني من خوف)، وأعطتني المال بعد إقتار (فقر)

المُنْعِمونَ بَنُو حَرْبٍ وقد حَدَقَتْ   بِيَ المَنِيَّةُ، واسْتَبْطَأْتُ أَنْصاري

أنعم بنو حرب (آل أبي سفيان) وقد حدقت (أحاطت) بي المنية (الموت) واستبطأت النصرة

قَومٌ إذا حارَبوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ   دونَ النِّسَاءِ ولو باتَتْ بِأَطْهَارِ

هؤلاء قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم (ملابسهم) دون النساء (فلا يقربون النساء)
حتى لو باتت بأطهار (غير حائضة)، فهم يوجهون كل همتهم للحرب ويحلفون لا يقربون النساء
إلا بعد ملاقاة العدو

١٥ يا ابن غير المختونة

عَفَا «الجَوُّ» مِنْ سَلْمى فَبادَتْ رسُومُها ... «فذَاتُ الصَّفَا» صَحراؤُها فَقَصيمُها

عفا (خلا) الجو (اسم مكان) من سلمى ورهطها، وبادت (فنيت) رسومها (بقاياها بعد الرحيل)، وكذا من «ذات الصفا» فلم يعد هناك شيء من آثار القوم في الصحراء أو في القصيم (منبت شجر الغضا)

ولو حَمَّلَتْنِي السِّرَّ سَلْمَى حَمَلْتُه ... وهل يَحمِلُ الأَسرارَ إلَّا كَتُومُها

إليكَ أَبا مروانَ يَمَّمَ أركُبٌ ... أَتَوْكَ بِأَنْضَاءٍ خِفافٍ لُحُومُها

يمم إليك (قصدك) يا أبا مروان (بشر بن مروان أمير العراق) أركب (رجال راكبون إبلاً)، جاءوك على أنضاء (إبل مهزولة) وقد خف لحمها لطول السير

تحَسَّرْنَ، واستقبلْنَ لِلْقَيْظِ وَقْدَةً ... تُغَيِّرُ أَلْوانَ الرِّجَالِ سَمُومُها

تحسرن (تعبن) وتعرضن لوقدة القيظ (شدة الحر) التي تجعل سمومها (ريحها الحارة) أوجه الرجال مسمرَّة متغيرة اللون

إذا بَلَغَتْ بِشْرَ بنَ مروانَ ناقتِي، ... سَرَتْ خَوفَها نَفسِي، ونَامَتْ هُمومُها

إذا وصلت ناقتي الأمير، سرت (ألقت) نفسي الخوف، ونامت همومي

أَبُوكَ أَبو العاصِي، عَلَيْكُمْ تَعَطَّفَتْ ... قريشٌ، لَكُمْ عِرْنينُها وصَميمُها

أبوك هو أبو العاصي المعروف، وقد تعطفت (انضمت) عليكم واحتضنتكم قريش التي لكم عرنينها (أنفها الشامخ) وصميمها (أصلها)

بِكُمْ أَدْرَكَ اللَّهُ البَرِيَّةَ، بعدَما ... سعى لِصُّها فيها، وهَبَّ غَشُومُها

بكم أدرك الله (أنقذ) البرية (الخلق) بعدما سعى في الناس اللص (سارق السلطة ابن الزبير) وهب الغشوم (الظالم) يطلب الخلافة لنفسه. وكان بشر بن مروان الممدوح والياً على العراق بعد أن تغلبت بنو أمية على مصعب بن الزبير والي العراق وأخيه عبد الله الذي أعلن نفسه خليفة بمكة

وإِنَّكَ لَلْمَأْمولُ والمُتَّقَى به ... إذا خيفَ مِنْ تِلكَ الأُمورِ عَظيمُها

أنت المأمول، وأنت من نتقي به (نحتمي) إذا خفنا عظائم الأمور

فَلا تُطْعِمَنْ لَحْمِي الأَعادِيَ، إنَّهُ ... سَرِيعٌ إِلَيْكُمْ مَكْرُها ونَمِيمُها

لا تتركني فريسة للأعداء من قبائل قيس، فحقدهم دفين عليكم وسريعاً ما يمكرون (يخدعون) وينمُّون (يُرجفون وينشرون الشائعات). وكان الأخطل يُدِلُّ على بني أمية بأن قومه بني تغلب نصروهم، بينما كانت قبائل قيس مع ابن الزبير، وكان الأمير بشر يحرض الشعراء بعضهم على بعض، ومن هؤلاء الشعراء من كان زبيري الهوى

وَمَا أَنَا إنْ مُدَّ المَدى بِمُقَصِّرٍ ... ولا عَضَّةٌ مِنِّي بِنَاجٍ سَلِيمُها

وما أنا إن مد المدى (في نهاية المطاف) بمقصر في هجاء الشعراء، والعضة مني (الأهجية) لا ينجو سليمها (الملسوع بها)

يُغَنِّي ابْنُ يَربُوعٍ بِشَتْمِيَ أُمَّهُ ... وما انفَلَتَتْ منِّي صَحيحاً أَدِيمُها

ليس لجرير إلا أن يغني بقصائدي في شتم أمه، فما أفلتت مني وأديمها (جلدها) صحيح، بل مزقته تمزيقاً، أي مزق عرضها

وَمَا وَجَدُوا أُمَّاً لـه عَرَبِيَّةً ... وما أَسْهَرَتْها مِنْ خِتانٍ كُلُومُها

وليست أمه عربية، وما جعلتها كلومها (جروحها) بسبب الختان تسهر من الألم. فهي ليست مختونة كبنات العرب

وَجَدْتُ كُلَيْباً أَلْأَمَ الناسِ كُلِّهِمْ ... وأنتَ إذا عُدَّتْ كُلَيْبٌ لَئيمُها

كليب: قبيلة جرير

١٦ خذلتموني

ألا أَبْلِغْ بني شَيْبَانَ عَنِّي ... فَما بَيْنِي وبَينَكُمْ ذُحُولُ

ذحول: ثارات. وشيبان من ربيعة، فهم لتغلب ـ قبيلة الأخطل ـ من الأقارب

وكنتُمْ إخْوَتي فَخَذَلْتُمونِي ... غَدَاةَ تَخَاطَرَتْ تِلْكَ الفُحُولُ

خذلتموني غداة (صبيحة) تخاطرت (تسابقت وتبارت) فحول الرجال في المكارم. وغيركم أعطاني لدفع ديات قومي، وأنتم امتنعتم

١٧ نقيق الضفادع

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هندُ، هندَ بَني بَدْرِ ... وإن كانَ حَيَّانا عِدَىً آخِرَ الدَّهرِ

اسلمي يا هند، وإن كان حيانا (قبيلتانا) متعاديتين حتى آخر الدهر

أَسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ، أَمَّا وِشَاحُها ... فَجَارٍ، وأَمَّا الحِجْلُ منها فَمَا يَجْري

أسيلة مجرى الدمع (طويلة الخد)، ووشاحها على خصرها يجري (يتحرك) لأنها نحيلة الخصر، وحجلها (خلخالها) ثابت لأن ساقها سمينة

تَنِقُّ بِلا شيءٍ شُيوخُ «مُحَارِبٍ» ... وما خِلْتُها كانتْ تَرِيشُ ولا تَبْري

رجال قبيلة محارب يهذرون كنقيق الضفادع، ولا أظنهم يريشون (يضعون الريش على السهم) ولا يبرونه، أي أنهم غير ذوي تأثير

ضَفادِعُ في ظَلْماءِ لَيْلٍ تَجاوَبَتْ فَدَلَّ عليها صَوْتُها حَيَّةَ البحرِ

هم كالضفادع في الظلام تتجاوب أصواتها بالنقيق، فتدل على مكانها حية البحر (السمكة الكبيرة التي تأكل الضفادع). أي أن رجال محارب يقولون كلاماً تافهاً فيجرون على أنفسهم هجاء مؤلماً

ونحنُ رَفَعْنَا عن «سَلُولٍ» رِمَاحَنا وعَمْداً رَغِبْنا عن دِماءِ بَنِي نَصرِ

ترفعنا عن سلول وبني نصر ورغبنا عن دمائهم (كرهنا قتالهم)

ولو بِبَني ذُبْيَانَ بَلَّتْ رماحُنا لَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي، وَبَاءَ بِهِمْ وِتْري

لو بلت (ظفرت) رماحنا ببني ذبيان لقرت عيني (استرحت) وباء وتري (استراح ثأري)

شَفَى النفسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وعَامِرٍ ولم تَشْفِها قَتْلَى غَنِيٍّ ولا جَسْرِ

سليمٌ وعامر وغني وجسر: قبائل

لَعَمري لقد لاقَتْ سُلَيْمٌ وعَامِرٌ على جَانِبِ الثَّرْثَارِ رَاغِيَةَ البَكْرِ

لاقت هاتان القبيلتان على جانب نهر الثرثار في المعركة المشهورة راغية البكر (المصيبة المبيدة)

أَعِنِّي أميرَ المؤمنينَ بِنَائِلٍ وحُسْنِ عَطَاءٍ ليس بالرَّيِّثِ النَّزْرِ

يطلب معونة الخليفة بنائل (عطاء)، ليس بالريث (المؤجل)، ولا النزر (القليل)

ولمَّا تَبَيَّنَّا ضَلالَةَ مُصْعَبٍ فَتَحْنا لأَهْلِ الشَّامِ باباً مِنَ النَّصْرِ

عندما بدا لنا أن مصعب بن الزبير والي العراق ضال، انضممنا لبني أمية وأهل الشام، وبنا بدأت تباشير انتصارهم

إليكَ أميرَ المؤمنينَ نَسِيرُها تَخُبُّ المطايَا بِالعَرانِينِ مِنْ بَكْرِ

نسير (نُسَيِّر) الإبل نحوك يا أمير المؤمنين وهي تخب (تسرع) بالعرانين من بكر (بسادات قبيلة بكر القيسية وهي غير بكر الربعية) نحملهم إليك أسرى

فَأَسْرَيْنَ خَمْساً ثم أَصْبَحْنَ غُدْوَةً يُخَبِّرْنَ أخباراً أَلَذَّ مِنَ الخَمرِ

أسرت الإبل (سارت ليلاً) خمس ليال، وأصبحن صباحاً في الشام ومعهن أخبار سارة

١٨ طِعان فضِراب

وكُنَّا إذا احْمَرَّ القَنا عندَ مَعْرَكٍ نَرى الأرضَ أَحْلَى مِنْ ظُهورِ جِيادِ

إذا احمرت القنا (الرماح) من دماء الأعداء نزلنا عن الخيل لكي نضاربهم بالسيوف

فلا تُوعِدُونا بِاللِّقاءِ، وأَبْرِزُوا إلَيْنا سَواداً نَلْقَهُ بِسَوَادِ

لا توعدونا (تهددونا) باللقاء مجرد تهديد، أبرزوا (أظهروا) لنا سوادكم (جمعكم) لنلقاه بجمعنا

١٩ المطربة البحاء

يمدح مصقلة بن هبيرة الشيباني:

وقد لَبِسْتُ لِهذا الدَّهرِ أَعْصُرَهُ حتَّى تَجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ واشْتَعَلا

لبست لهذا الدهر أعصره (عشته) حتى تجلل (غطى) رأسي الشيب، واشتعل به كأنه نار فوق رأسي

وقد أكونُ عَميدَ الشَّرْبِ، تُسْمِعُنا بَحَّاءُ تَسْمَعُ في ترجيعِها صَحَلا

وقد أكون («قد» هنا تؤكد لا تشكك.. هكذا في لغة أيامهم) عميد الشرب (كبير الشاربين، وكان للأخطل في الحيرة دار ضيافة يستقبل فيها الناس والغرباء وكانت محل منادمة وشراب)، ونسمع الغناء من مغنية بحاء (في صوتها بحة)، وعندما ترجِّع الغناء (يتذبذب صوتها بين درجة ودرجة على سلم النغم فيما يسمونه الـ «تريل») تسمعُ فيه الصحل (البُحَّة)

مِنَ القِيانَ هَتُوفٌ، طالَمَا رَكَدَتْ بِفِتْيَةٍ يَشتهُونَ اللَّهْوَ والغَزَلا

قينة (مغنية) هتوف (صيتة، لها غناء عالٍ) كثيراً ما ركدت (قعدت!) مع فتية يحبون اللهو والغزل

فَبانَ مِنِّي شَبابِي بعد لَذَّتِه كأنَّما كانَ ضَيْفاً نازلاً رَحَلا

بان: فارقَ

إذْ لا أُطَاوِعُ أَمْرَ العاذلاتِ، ولا أُبقِي على المالِ إن ذُو حاجَةٍ سَأَلا

وكنت في شبابي أعصي العاذلات (اللائمات) لي على الإسراف وأعطي من يسألني

وكاشِحٍ مُعرِضٍ عنِّي غَفَرْتُ له وقد أُبَيِّنُ منهُ الضِّغْنَ والمَيَلا

ورب كاشح (منصرف يعطيني جنبه) غفرت له، وقد أبين (أتبيَّنُ وأرى) منه الضغن (الحقد) والميلا (الانحراف عني)

ولَوْ أُواجِهُهُ مِنِّي بِقَارِعَةٍ ما كان كالذِّيبِ مَغْبُوطاً بِما أَكَلا

ولو واجهته بقارعة (قصيدة هجاء) لما كان كالذئب المغبوط بالحمل الذي اختطفه وأكله، بل كان سيدفع ثمن جفائه

٢٠ دواء الشيب

هَلِ الشبابُ الذي قد فاتَ مَردُودُ أم هل دَواءٌ يَرُدُّ الشَّيْبَ مَوْجودُ؟

أيعود الشباب، أم هناك دواء يرد (يصد) الشيب؟

لن يَرجِعَ الشِّيبُ شبَّاناً ولن يَجدُوا عِدْلَ الشبابِ لَهُمْ ما أَوْرَقَ العُودُ

لن يرجع الشيب (الشائبون) شباناً ولن يجدوا عدلاً (مساوياً) لعهد الشباب ما أورق العود (ما دام الغصن يخرج الورق، أي أبداً)

إن الشَّبابَ لَمَحْمودٌ بَشاشَتُه والشَّيْبُ مُنْصَرَفٌ عنه ومَصْدُودُ

بشاشة عهد الشباب يحمدها الناس، وينصرفون عن الشيب وأهله. ترى الشاب ضاحكاً لاهياً فإذا كبر وشاب غلب عليه العبوس وما على الأشيب ألّا يستمتع بشيء آخر! سأذهب إلى كولونيا لأشتري زجاجة كولونيا. وككل شيخ يتعطر ويتأنق، سأبدأ رحلة مع العطر. رأيت مرة في لندن الصحفي الفلسطيني ناصر الدين النشاشيبي وقد قدم من سويسرا، رأيته مجلوّاً كالعروس، حليقاً لابساً ملابس كبار الأثرياء ـ وهو من عائلة ثرية ومعروفة ـ متأنقاً، ورأيت في معصمه سواراً ذهباً، فتعجبت كثيراً من هذا الشيخ، وكان يزحف إلى الثمانين. وهذا الأخطل.. كان ذا أناقة يحنّي شعره ويجلس في بيته الذي جعله منتدى. وقد اعترتني أمس فقط حُمَّى الكولونيا، فلم أكتف بماء الليمون من شبراويشي الذي ظل بالنسبة إليَّ قاتل جراثيم لا عطراً، فابتعت زجاجة من عطر البهار العتيق «أولد سبايس»، وشممت منها رائحة أيام صارت بعيدة. وأنا الآن عازم ـ ولست ثرياً مثل النشاشيبي ﷺ، غير أنني لست فقيراً ـ على الذهاب إلى كولونيا لشراء ماء كولونيا (والألمان يسمون هذا الضرب من العطر «كولنيش فاسر» ويقول الفرنسيون «أيو دي كولون» والمعنى لكليهما: ماء كولونيا). عند الكاتدرائية الكبرى في تلك المدينة دكان رقمه ٤٧١١، ويبيع عطراً اسمه ٤٧١١. ذلك أن نابليون رقم بيوت ودكاكين مدينة كولونيا الألمانية عندما فتحها. فسمى ذلك العطار عطره برقم دكانه. وكانت أمي رحمها الله تحب هذا العطر، فكنت آتيها به من كولونيا. من يدري فقد أدخل أيضاً حرم العطور الزيتية الخليجية، فقد كان يبيع أشباهاً رخيصةً لهذه العطور رجل في بلدنا كان يطوف بسفطه في الأسواق. وكنا نأتيه صغاراً ونصافحه، فيصافحنا ويفرك يده بأيدينا. ثم أصبح الناس يسمون هذا الضرب من العطر «عطر الأموات» فنزل من العيون، أقصد من الأنوف، وانصرف الناس عنه إلى العطور الباريسية الكحولية، وإلى ماء كولونيا. وقد اهتم القدماء بالمشموم مثلما اهتموا بالمأكول والمشروب، وكتبوا في ذلك الكتب. المشموم أبعث للماضي من أي شيء. وما أحوج الشيخ إلى الماضي

أَمَّا يَزيدُ فإنِّي لستُ نَاسِيَهُ حتَّى يُغَيِّبَني في الرَّمْسِ مَلْحُودُ

سأظل ذاكراً معروف يزيد بن معاوية حتى يغيبني في الرمس (القبر) ملحود (شق بجانب القبر)

٢١ مسيحي وأفتخر

قال الأخطل ودعاه بعضهم إلى الإسلام:

ولستُ بِصَائمٍ رمضانَ طَوْعاً ولستُ بِآكِلٍ لَحْمَ الأَضاحي
ولستُ بِقائِمٍ أبداً أُنادي قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ على الفَلاحِ
ولَكِنِّي سَأَشْرَبُها شَمُولاً وأَسْجُدُ عند مُنْبَلَجِ الصَّباحِ

سأشربها شمولاً (خمرة باردة) وأسجد بعد انبلاج (ظهور) الصباح

٢٢ أمير عليك

دعاه عبد الملك بن مروان للإسلام فأبى بحجة أنه لا يصبر عن الخمر فقال له صفها، فقال:

إذا ما نَديمي عَلَّني ثم عَلَّني ثَلاثَ زُجَاجاتٍ لَهُنَّ هَدِيرُ

علني (سقاني)، زجاجات (كؤوس) هدير (غليان). كأنه يرى فقاقيعها فيشبهها بماء يغلي، ولا نظنه عرف النبيذ الساخن «النبيذ اللامع، غلوفاين» الذي يبيعونه في الأسواق في ألمانيا في أيام عيد الميلاد

جَعَلْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ مِنِّي، كأنني عليكَ، أميرَ المؤمنينَ، أميرُ

جررت ذيل ثوبي مفتخراً كأنني أمير عليك، يا أمير المؤمنين

٢٣ شراب كسرى

تَعيبُ الخَمْرَ وهْي شَرابُ كِسْرَى ويَشْرَبُ قَومُكَ العَجَبَ العَجِيبا . .

تعيرني، يا جرير، بشرب الخمر، وكان كسرى يشربها، وقومك يشربون العجب العجيب . .

مَنِيُّ العَبْدِ عَبْدِ أَبِي سُوَاجٍ أَحقُّ مِنَ المُدامَةِ أن تَعِيبا

يشربون منيَّ عبد أبي سواج وهو أحق أن تعيبة من الخمر . . وكان أبو سواج هذا قد جعل عبداً له يأتي أمَة ثم يفرغ منيَّه في قعب، ثم صب فوقه اللبن الحليب، وقدمه لرجل من قبيلة يربوع، قبيلة جرير، ليشربه محتالاً عليه بحيلة، فشربه

٢٤ المنبهر وغير المنبهر

ولقدْ أَكونُ لَهُنَّ صَاحِبَ لَذَّةٍ حتَّى تَغَيَّرَ حَالُهُنَّ وحَالي

قد أكون (و«قد» للتوكيد) صاحب استمتاع بالنساء، ثم تغيرت حالي بالكبر، وتغيرت حال النساء معي فانصرفن عني

والناسُ هَمُّهُمُ الحياةُ، ومَا أَرَى طُولَ الحياةِ يَزيدُ غَيْرَ خَبالِ

كلٌّ همه الحياة، وطول العمر يزيد خبال (فساد) المرء

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذَّخائِرِ لم تَجِدْ ذُخْراً يكونُ كَصالِحِ الأَعمالِ

الذخائر (التحويشة، ما ادخرته من مال)

ولَئِنْ نَجَوْتُ مِنَ الحوادثِ سالماً والنَّفْسُ مُشْرِفَةٌ على الآجَالِ . .

إذا نجوت من حوادث الدهر، مع أن النفس تظل مشرفة (مقبلة) على الآجال (نهاية الرحلة) . .

لأُغَلْغِلَنَّ إلى كريمٍ مِدْحَةً ولأُثْنِيَنَّ بِنائِلٍ وفَعَالِ

فسوف أغلغل (أرسل رسالة) فيها مدح لهذا الكريم وثناء عليه، وسأقدم النائل (المال) وأصنع الفعال الحسن. فمِن ماله سأعطي قومي الذين أرسلوني لطلب المال في حمالة، أي لدفع الديات

إنَّ ابْـنَ رِبْـعِـيٍّ كَـفـانِـيَ سَـيْـبُـهُ   ضِـغْـنَ الـعَـدُوِّ، وَنَـبْـوَةَ الـبُـخَّـالِ

ابن ربعي (عكرمة الفياض) كفاني سيبه (جنبني عطاؤه) ضغن (حقد) العدو، ونبوة البخال (وصدود البخلاء). فهذا الرجل أعطاه بعد أن صده رجل قبله ولم يعطه

إن الـلـئـيـمَ إذا سَـأَلْـتَ بَـهَـرْتَـهُ   وتَـرى الـكـريـمَ يَـراحُ كـالـمُـخْـتَـالِ

إذا سألت اللئيم مالاً بهرته (جعلته يأخذ نفساً عميقاً للتفكير في عذر)، والكريم يراح (تأخذه الأريحية، ويهتز للعطاء) فكأنه سعيد مختال بطلبك وبمنحك المال

وإذا عَـدَلْـتَ بـه رِجـالاً لـم تَـجِـدْ   فَـيْـضَ الـفُـرَاتِ كَـراشِـحِ الأَوْشَـالِ

فإن قارنت به رجالاً آخرين فستجد فرقاً بين الفرات إذ يفيض وبين راشح الأوشال (المياه القليلة التي ترشح رشحاً)

وإذا تَـبـوَّعَ لِـلْـحَـمَـالَـةِ، لـم يَـكُـنْ   عـنـهـا بِـمُـنْـبَـهِـرٍ ولا سَـعَّـالِ

إذا تبوع (بسط باعه واسعاً) ليؤدي الحمالة (مال الديات) لم ينبهر (يأخذ شهيقاً وزفيراً لانقطاع النفَس)، ولم يسعل (يتنحنح متردداً)

٢٥ العيون الزواني

فـلا تَـدْخُـلْ بُـيوتَ بـنـي كُـلَـيْـبٍ   ولا تَـقْـرَبْ لَـهُـمْ أَبَـداً رِحَـالا

بنو كليب: قوم جرير، الرحال: الهوادج فوق الجمال

تَـرَى فـيـهـا الـلَّـوامِـعَ مُـبْـرِقَـاتٍ   يَـكَـدْنَ يَـبِـكْـنَ بِـالـحَـدَقِ الـرِّجَـالا

في هوادجهم نساء لوامع (متزينات) مبرقات (بارزات الوجوه للرجال)، ويكدن يبكن (وصحّف الباء) بالحدق (بعيونهن) الرجال للشبق، أو طلب الفاحشة

٢٦ قطع الضباب

أتـيـتُـكَ سـائِـلاً فَـحَـرَمْـتَ سُـؤْلـي   ومَـا أَعْـطَـيْـتَـنـي غـيـرَ الـتُّـرابِ

السؤل: الطلب

وعـبـدُ الـقـيـسِ مُـصْـفَـرٌّ لِـحَـاهَـا،   كـأَنَّ فُـسَـاءَهـا قِـطَـعُ الـضَّـبَـابِ

كانت هذه القبيلة تسمى «الفساة»

٢٧ سَيْب من الله

هُـمُ الـذيـن أَجـابَ الـلَّـهُ دَعْـوَتَـهُـمْ   لمَّا تَلاقَتْ نَواصِي الخيلِ فاجْتَلَدُوا

أجاب الله دعوة الأمويين عندما تلاقت نواصي (وجوه) الخيل والتحم الفرسان في المعركة واجتلدوا (تضاربوا)

قَومٌ إذا أنعَمُوا كانتْ فَواضِلُهُمْ   سَيْباً مِنَ اللّهِ، لا مَنٌّ ولا حَسَدُ

كانت فواضلهم (عطاياهم) سيباً (عطاء) كأنه من الله بلا واسطة، وعطاء الله لا فيه مَنٌّ ولا حسد

ويَومَ صِفّينَ والأَبْصارُ خاشِعَةٌ   أَمَدَّهُمْ إذْ دَعَوْا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدُ

في يوم صفين، بين معاوية وعلي، كانت الأبصار خاشعة (منخفضة لهول الموقف) وأمد الله بني أميه بمدد من عنده. لعل هذا المدد كان اسمه حيلة عمرو بن العاص

٢٨ رأيتموني وأنا ميت؟

أَعاذِلَتَيَّ اليومَ وَيْحَكُما مَهْلا   وكُفّا الأذى عَنّي، ولا تُكْثِرا عَذْلا

العذل: اللوم

ذَراني تَجُدْ كَفّي بِمالي، فإنني   سأُصبحُ لا أَسْطيعُ جُوداً ولا بُخْلا

اتركاني كي أجود بمالي، فبعد الموت لا أستطيع أن أسخو ولا أن أبخل. فحياة آخرها الموت الجود فيها خير من البخل

إذا وَضَعُوا بعد الضَّريحِ جَنادِلاً   عَلَيَّ وخَلَّيْتُ المَطِيَّةَ والرَّحْلا

هذا عند الموت: عندما يضعون عليَّ بعد الضريح (شق القبر) جنادلَ (صخوراً) وعندما أترك إبلي فلا سفر ولا انتقال

ويا رُبَّ غادٍ وَهْوَ يُرجَى إيابُه   وسوف يُلاقي دونَ أَوْبَتِه شُغْلا

رب رجل غاد (ذاهب) يرجى له إياب (عودة) لكنه يلاقي من الموت ما يشغله عن العودة

ذَكَرْتَ انْقلابَ الدهرِ فاذْكُرْ «وَسِيمَةً»   فقد خِلْتُ حَقّاً حبَّها قاتِلي قَتْلا

هيا يا أخطل اذكر الأمور الجميلة ودعك من الموت وانقلاب الدهر (تغيره).. ظننت حب «وسيمة» سيقتلني قتلاً

غَداةَ بَدَتْ غَرّاءَ غَيْرَ قَصِيرةٍ   تُذَرّي على المَتْنَيْنِ ذَا غُذَرٍ جَثْلا

صبيحة بدت غراء (مشرقة الوجه) ذات طول حسن، تذري (تنشر) على المتنين (الجنبين) شعراً ذا غذر (خصلات) جثلاً (كثيفاً)

٢٩ العوارم المعتلجات

وقال يهجو نابغة بني جعدة:

ومَا أنَا إنْ أردْتُ هِجاءَ قَيْسٍ   بِمَخْذُولٍ ولا خاشي الجَنانِ

لن يخذلني قومي إن هجوت قيساً فغضبوا، ولست خاشي الجنان (خائف القلب)

أَهُـمُّ بِـشَـتْـمِـهِـمْ ويَـكُـفُّ حِـلـمـي   عَـوارِمَ يَـعْـتَـلِـجْـنَ عـلـى لِـسـانـي

أهم بشتمهم ولكن حلمي (سماحة نفسي) يكف (يمنع) عوارم (أبيات عارمة متدفقة) يعتلجن (يصخبن ويتدافعن) على لساني

٣٠ افتخار بالثارات

ومـا تَـرَكَـتْ أَسـيَـافُـنـا مِـنْ قَـبـيـلـةٍ   تُـحـارِبُـنـا إلَّا لـهـا عِـنـدَنـا وِتْـرُ

الوتر: الثأر. فقبيلتنا قتلت ناساً من قبائل كثيرة فعليها ثأرات كثيرة، وهذا دليل قوتها

٣١ نظرات الكراهية

وإنِّـي صَـبُـورٌ مِـنْ سُـلَـيْـمٍ وعَـامـرٍ   ونَصْرٍ على البَغْضَاءِ والنَّظَرِ الشَّزْرِ

صبور من هذه القبائل على البغضاء (الكراهية) والنظرات الحادة، فلست لأعطيهم أي اهتمام

إذا مـا الـتَـقَـيْـنـا عـنـد بِـشْـرٍ رَأَيـتَـهُـمْ   يَغُضُّونَ دُوني الطَّرْفَ بِالحَدَقِ الخُضْرِ

نلتقي عند الأمير بشر بن مروان في الكوفة فيغضون بصرهم بعيونهم الخضر (السود). معاجمنا القديمة مصابة بعمى الألوان، فخذ ما أتاك

وأَوْجُـهِ مَـوْتُـوريـنَ فـيـهـا كَـآبَـةٌ   فَرَغْماً على رَغْمٍ، وَوَقْراً على وَقْرِ

يغضون أوجه ناس موتورين (لهم ثأر) وفي وجوههم كآبة، فليرغم الله وجوههم (يعفرها في التراب)، وليحمل عليهم وقراً (ثقلاً) فوق وقر

٣٢ حاطب العودين

وإنْ أَتَـعَـرَّضْ لِـلـولـيـدِ فـإنـه   نَـمَـتْـه إلـى خـيـرِ الـفُـروعِ مَـضـارِبُـهْ

إن أتعرض للوليد (أطلب العطاء منه) فهو أصيل نمته مضاربه (جذوره) إلى خير فروع قريش

تَـجـيـشُ بِـأَوْصَـالِ الـجَـزُورِ قُـدُورُهُ   إذا المَحْلُ لم يَرْجِعْ بِعُودَيْنِ حَاطِبُهْ

تجيش (تمتلئ) بأوصال الجزور (أطراف الذبيحة) قدوره في وقت المحل (القحط) الذي يذهب فيه المرء يحتطب ثم لا يرجع بعودين لتلف المزروعات

وما بَـلَـغَـتْ خيـلُ امْـرِئٍ كـانَ قـبـلَـه   بـحـيـثُ انـتـهـتْ آثـارُه ومَـحـارِبُـهْ

ولم تبلغ خيل أي خليفة قبله ما بلغته خيله ومحاربه (حروبه) من التعمق في الشرق والغرب. وفي زمن الوليد كان فتح الأندلس وبلاد كثيرة في الشرق

وتُضْحي جبالُ الرومِ غُبْراً فِجَاجُها   بِـمَـا أَشْـعَـلَـتْ غـاراتُـه ومَـقَـانِـبُـهْ

فجاج (دروب الجبال) في بلاد الروم اغبرت من حوافر خيل الخليفة في غاراتها، ومن مقانبه (كتائبه)

٣٣ ضحية المنجنيق

عَدا زُفَرُ الشَّيْخُ الكِلابِيُّ طَوْرَهُ فقدْ أَنْزَلَتْهُ المَنجَنيقُ مِنَ القصرِ

زفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس، كان زبيرياً ولما أدبر حال الدولة الزبيرية صالحه عبد الملك بعد أن نصب عليه المجانيق في معقله بقرقيسيا قرب دير الزور حالياً ثم وسع له في مجلسه. وكان الأخطل يكثر من تذكير عبد الملك بأن زفر ما زال يبطن العداوة

بَني عامِرٍ لم تَثْأَرُوا بِأَخيكُمُ ولكنْ رَضيتُمْ باللِّقاحِ وبالجُزْرِ

يا بني عامر لم تأخذوا ثأر أخيكم عمير بن الحباب، وكانت تغلب قتلته، وعمير هذا صاحب زفر وحليفه، ولكنكم رضيتم باللقاح (النياق) في الدية وبالجزر (الإبل المعدة للذبح، جمع جَزور)

إذا عُطِفتْ وَسْطَ البيوتِ، احْتَلَبْتُمُ لها لَبَناً مَحْضاً أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ

إذا عطفت هذه النياق وسط بيوتكم (أي حنيت رؤوسها كي تشم صغارها وتدر لبناً) حلبتم من لبنها محضاً (صافياً) لكنه أمر من الصبر لأنه حليب جاءكم بدلاً من أخذ الثأر

ولَمَّا رأى الرحمنُ أنْ ليسَ فيهِمُ رشيدٌ ولا ناهٍ أخَاهُ عن الغَدْرِ . .
أَمالَ عليهِمْ تَغْلِبَ ابْنَةَ وَائِلٍ فَكانوا عليهِمْ مِثلَ رَاغِيَةِ البَكْرِ

بعث الله قبيلة الأخطل، تغلب ابنة وائل، لتكون شؤماً على بني عامر كشؤم فصيل ناقة صالح الذي ظل يرغو (يصيح) حول أمه بعد أن قتلها قوم صالح، ثمود، ثم كان فناؤهم بعد ثلاث. راغية البكر: المصيبة

فَسيرُوا إلى أهلِ الحِجازِ فإنَّما نَفيْنَاكُمُ عن مَنْبِتِ القَمْحِ والتَّمْرِ

منبت القمح والتمر: العراق

٣٤ بولي على النار

ما زالَ فينا رِبَاطُ الخيلِ مُعْلَمَةً وفي كُلَيْبٍ رِباطُ الذُّلِّ والعارِ

في قبيلتنا رباط الخيل (مرابطها) المستعدة للغزو وهي معلمة (عليها علامات الحرب)، وقبيلة كليب، قبيلة جرير، فيها ذل وعار

النَّازِلينَ بِدارِ الذلِّ إن نَزَلوا وتَسْتَبيحُ كُلَيْبُ مَحْرَمَ الجارِ

ينزلون بدار الذل، بعد أن يطلبوا من غيرهم السماح لهم بالنزول للرعي، وهم يستبيحون حرمة من يجاورهم أو يستجير بهم

والظاعِنينَ على أهْواءِ نِسْوَتِهِمْ وما لَهُمْ من قَديمٍ غيرُ أَعْيارِ

الظاعنين (الراحلين) بعد استشارة النساء، وليس لهم سوى الأعيار (الحَمير) لفقرهم

قَومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضْيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لِأُمِّهِمُ بُولي على النارِ

إذا استنبح الأضياف كلبهم (نبحوا ليجيبهم الكلب ويعرفوا موضع القوم)، قال بنو كليب لأمهم: بولي على النار، لكيلا يعرف الأضياف مكانهم إذ لا يريدون أن يُضيِّفوهم. وكان التائه في الصحراء يوالي النباح، يريد أن يَسمع كلباً يرد عليه فيعرف موضع البشر، وزعم الأخطل أن بيته هذا أهجى بيت: فقد وصم قوم جرير بأنهم بخلاء، ويهينون أمهم، ونارهم صغيرة تطفئها بولة لذلتهم وضعفهم. واشتكى الأخطل من أن بيت جرير «والتغلبي إذا تنحنح للقرى.. حك استه وتمثل الأمثالا» سار أكثر من بيته هو

فتُمْسِكُ البَوْلَ بُخْلاً أن تَجودَ به وما تَبُولُ لَهُمْ إلَّا بِمِقْدارِ

فتمسك عجوزهم بولها باخلة به، فلا تبول إلا قليلاً. هذا استكمال للصورة الكاريكاتيرية لا يبعد أن يكون أضافَهُ آخرون، فالبيت موجود في نسخ، مفقود من نسخ، وهو أشبه بطريقة جرير منه بصلابة الطريقة الأخطلية

والخبزُ كالعَنْبَرِ الوَرْدِيِّ عندَهُمُ والقَمْحُ سَبعونَ إرْدَبّاً بِدينارِ

الخبز عند قوم جرير كأنه العنبر الوردي الثمين جداً، لبخلهم به، مع أن القمح رخيص

فاقْعُدْ جريرُ فقدْ لاقَيْتَ مُطَّلَعاً صَعباً، ولاقَاكَ بحرٌ مُفْعَمٌ جَارِ

اقعد يا جرير فقد لاقيت طريقاً صاعداً صعباً بتعرضك لي،
ولاقاك مني بحر (نهر) مفعم (زاخر)

هَلَّا كَفَيْتُمْ مَعَدّاً يومَ مُعْضِلَةٍ كَما كَفَيْنا مَعَدّاً يومَ ذي قَارِ..

هلا كنتم كفيتم قبائل معد في الأيام الصعبة مثلما كفينا معداً يوم ذي قار..

جاءتْ كَتائِبُ كِسرى وَهْيَ مُغْضَبَةٌ فَاسْتَأْصَلُوها وأَرْدَوْا كلَّ جَبَّارِ

في يوم ذي قار جاءت كتائب كسرى غاضبة، فاستأصلها بنو ربيعة ـ أساساً بنو شيبان، لكنهم من أقارب تغلب قبيلة الأخطل ـ وأردوا (قتلوا) كل فارس بطل

٣٥ ذئب الأخطل

أَلَا يا اسْلَمَا على التَّقَادُمِ والبِلَى «بِدُومَةِ خَبْتٍ» أَيُّها الطَّلَلانِ

رغم قدم العهد والبِلى (الخراب) اسلما أيها الطللان (الخربتان) في موضع دومة خبت

فلو كنتُ مَحْصُوباً بِدُومَةَ مُدْنَفَاً أُسَقَّى بِرِيقٍ مِنْ سُعادَ شَفاني

لو كنت مصاباً بالحصبة في هذا الموضع، ومدنفاً (مريضاً) وذقت ريق سعاد لشفيت

وكيف يُداوِيني الطَّبيبُ مِنَ الجَوَى و«بَـرَّةُ» عـنـد الأَعْـوَرِ بـنِ بَـيَـانِ

وكيف أشفى من الجوى (حرارة العشق) و«برة» الجميلة عند زوجها «الأعور بن بيان». وكان هذا الرجل، وهو تغلبي من قبيلة الأخطل، استضاف الأخطل فرأى شاعرنا زوجة الرجل الجميلة. سقاه الرجل خمراً وأكرمه وسأله: هل ترى عندنا عيباً. قال الأخطل: ليس لبيتك عيب سواك. وحسده على زوجته الجميلة

وأَرَّقَـنـي مِنْ بَـعْـدِ مـا نِـمْـتُ نَـوْمَـةً وعَضْبٌ جَلَتْ عنهُ القُيونُ بِطَاني..

أرقني بعد أن نمت وبطاني، أي عند بطني، عضب (سيف) جلت عنه القيون (صقله الحدادون)..

تَصاخُبُ ضَيْفَيْ قَفْرَةٍ يَعرفَانِها: غُـرابٍ وذِئْـبٍ دائِـمِ الـعَـسَـلانِ

أرقني صخب اثنين من سكان القفر: غراب وذئب دائم العسلان (التمايل في مشيه)

إذا غَشِياني هِيلَتِ النفسُ منهُما قُشَعْرِيرةً، وازْدَدْتُ خَوفَ جَنانِ

إذا غشياني (أتياني) هيلت النفس (فزعت) منهما، وانتابتني قشعريرة، وخوف جنان (قلب)

إذا حَضَـرانـي عـنـد زَادِيَ لـم أكُـنْ بَـخِـيـلاً، ولا صَـبَّـاً إذا تَـرَكَـانـي

فإن حضرا وأنا آكل من زادي لم أبخل عليهما، وإن تركاني فلست صباً بهما (حريصاً عليهما).. على أن صاحبنا لم يزعم كالفرزدق أنه قعد يتعشى مع الذئب، ولا كالبحتري أنه قتل الذئب

٣٦ أنا وأروى والهماليج

دَنا البيْنُ مِنْ «أَرْوى» فَزالَتْ حُمُولُها لِتَشْغَلَ أَرْوَى عن هَواهَا شُغُولُها

دنا البين (الفراق) وزالت عن المكان حمول (هوادجها) أروى، واشتغلت أروى عن الهوى بالرحيل

ومَا خِفْتُ مِنْها البينَ حتى تَزَعْزَعَتْ هَمالِيجُها، وازْوَرَّ عَنِّي دَليلُها

وما خفت الفراق إلا عندما تزعزعت (تحركت متثاقلة) هماليجها (نياقها)، وازور (مال) بالجمال الدليل مبتعداً في طريقٍ ملتوٍ

وكمْ بَخِلَتْ أَرْوَى بِمَا لا يَضيرُها وكم قَتلتْ، لو كان يُودَى قَتيلُها

كثيراً ما بخلت علينا بأمور لا تضيرها (نظرة، أو..، أو..)، وكثيراً ما قَتلت، وللأسف لا يودى قتيلها (لا ينال أهله ديته)

إذا الشُّعَراءُ أَبْصَرَتْني تَثَعْلَبَتْ مَقاحِيمُها، وازْوَرَّ عَنِّي فُحولُها

إذا رأتني مقاحيم الشعراء (الجريئون منهم) أصبحوا كالثعالب فاختبأوا، وازور (مال مبتعداً) عني الفحول

ومُعْتَرِضٍ لـو كنتُ أَزْمَعْتُ شَتْمَهُ إذنْ لَـكَـفَـتْـهُ كِـلْـمَـةٌ لـو أَقـولُـهـا

ورب شاعر اعترضني لو نويت شتمه لكفته مني كلمة، هذا لو نويت

٣٧ في مدح همَّام

تَبَيَّنْ خَليلي نَاصِحَ الطَّرْفِ هل تَرى بِعيْنِكَ ظُعْناً قد أُقِلَّتْ حُمُولُها؟

انظر يا صاحبي يا ناصح الطرف (صحيح النظر)، هل ترى ظعناً، أي نساء راحلات، قد رُفعت حمولها، أي هوادجها فوق الإبل؟

تَمايَلْنَ لِلأَهْوَاءِ، حتى كأنَّما يَجُورُ بِها في السَّيْرِ عَمْداً دَلِيلُها

يملن بإبلهن بحسب ما يشتهين ويسرن سيراً متعرجاً، فكأن دليل القوم يجور (يميل) بهم عمداً

فلمَّا استَوى نِصفُ النَّهارِ وأظهَرَتْ وقد حَانَ مِنْ عُفْرِ الظِّباءِ مَقِيلُها

عندما أظهرت (حان وقت الظهيرة) وحان وقت هجعة الظباء العفر (المحمرة مع بياض)

حَثْثْنَ المَطايا فَاصْمَعَدَّتْ لِشأْنِها ومَدَّ أَزِمَّاتِ الجِمَالِ ذَمِيلُها

حثثن المطايا (أسرعن بالإبل المركوبة) فاصمعدت (أسرعت)، ومد الذميل (السير السريع) أزِمَّات الجمال (مقاود الجمال) فهي عندما تسرع ترمي أعناقها للأمام وتسحب الحبل الذي به تقاد

فَلَمَّا تَلاحَقْنَا نَبَذْنا تَحيَّةً إليهِنَّ والتَذَّ الحديثَ أَصيلُها

لما تلاحقنا (تلاقينا) نبذنا تحية (رمينا بتحية) إليهن، والتذ بالحديث الرجل الأصيل.. ولا أرى الأصيل في مكانها هنا، ولم أجد رواية أحسن

فكانَ لَدَيْنا السِّرَّ بَيْني وبينَها ولَمْعَ غَضِيضاتِ العيونِ رَسولُها

فكان رسولُ المحبة فيما بيننا السر (السرار والحديث الخافت) ولمع العيون الغضيضة (المطرقة). فالمرأة تنزل جفونها ثم ترفعهما وتبرق عيناها فيما بين ذلك. قالت كاتبة فرنسية ما معناه.. المرأة إذ تحرك جفونها كأنها تتعرى.. إن عثرت على اسم الكاتبة فسأكتبه لك في طبعة قادمة

رأَيتُ قُرُومَ ابْنَيْ نِزارٍ كِلَيْهِما إذا خَطَرَتْ عند الإمامِ فُحولُها..

رأيت قروم (سادات) ابني نزار كليهما (أي كل عرب الشمال من مضر وربيعة) عندما يخطر فحولهم (يأتي كبارهم ماشين مشية افتخار) ويدخلون على الإمام (الخليفة)..

يَرَوْنَ لِهَمَّامٍ عليْهِمْ فَضيلَةٍ إذا ما قُرُومُ الناسِ عُدَّتْ فُضُولُها

.. وجدتهم يرون أن همَّاماً له فضيلة عليهم، إذا نظر الناس في فضائل السادة

سَبُوقٌ لِغاياتِ الحِفَاظِ إذا جَرى، ووهَّابُ أَعْناقِ المِئينَ حَمولُها

هو يسبق غيره لغايات (أقصى مدى) الحفاظ (حفظ الشرف)، ووهاب (منَّاح) أعناق المئين (مئات النياق) حمولها (يحمل الديات)

وَدَفَّـاعُ ضَـيْـمٍ، لا يُـسَـامُ دَنِـيَّـةً وقَـطَّـاعُ أَقْـرانِ الأُمُـورِ وَصُـولُـهـا

ويدفع الضيم (الظلم) ولا يسام دنية (لا يرضى الذل أو الصغائر)، وهو يقطع ويصل أقران (حبال) الأمور، أي أنه رجل واسع الحيلة والتصرف

ثَنَى مُهْرَهُ والخيلُ رَهْوٌ كأنَّها قِدَاحٌ على كَفَّيْ مُفِيضٍ يُجِيلُها

ثنى مهره نحو الأعادي بينما الخيل رهو (متتابعة) كأنها قداح (سهام الميسر) يرميها من كفيه مفيض (رام للقداح) يجيلها (يبعثرها)، فرامي السهام عند الميسر يرشق السهام من يديه رشقاً فتنطلق سريعة

وأَعْلَمُ أن المرءَ ليس بِخالدٍ وأن منايا الناسِ يسعَى دليلُها

نهاية المرء موت، والمنايا (الحتوف، الموت) يسعى دليلها يدلها على الناس واحداً فواحداً

فَإِنْ عاشَ هَمَّامٌ لنا فَهْوَ رحمةٌ من اللَّهِ، لم تُنْفَسْ علينا فُضولُها

فإن عاش همام كان رحمة لنا لم تنفس فضولها (لم نحسد على خيرها) لأن خيره يصيب الجميع

وإن ماتَ لم تَستَبْدِلِ الأرضُ مثلَه لأخذِ نَصيبٍ، أو لأَمرٍ يَعُولُها

وإن مات لم يأت بعده مثله لكي تأخذ الأرض منه نصيبها من الخير أو لكي ينقذها من أمر يعولها (يرهقها)

٣٨ في الكنيسة

إنَّ مَنْ يدخُلِ الكَنيسَةَ يوماً يَلْقَ فيها جَآذِراً وظِباءَ

في الكنيسة نساء كالجآذر (بقر الوحش في سعة العيون) وكالظباء (في ملاحة العيون والأعناق)

مَالَتِ النَّفْسُ بعدَها إذْ رَأَتْها فَهْيَ ريحٌ، وصَارَ جِسمي هَباءَ

مالت نفسي إليها (إلى الجآذر والظباء) فهي كانت كالريح، وجسمي صار كأنه الهباء المعلق في الريح لشدة ما انتابني من شغف

لَيتَ كانَتْ كَنيسةُ الرُّومِ إذًا كَ علَيْنا قَطِيفَةً وخِبَاءَ

ليت الكنيسة كانت قطيفة نجلس عليها وخباء (خيمة) نجالس فيها أولئك النسوة لا معبداً ليس لنا فيه إلا النظر

٣٩ الفرزدق صخرة

إنَّ الفرزدَقَ صخرةٌ عادِيَّةٌ طَالَتْ فليس تنالُها الأَوْعَالُ

الفرزدق صخرة عادية (قديمة من عهد عاد) وقد طالت وبعدت في رأس جبل فلا تصل إليها حتى الأوعال التي مساكنها في الجبال

٤٠ لليدين وللفم

لقد عَثَرَتْ بَكْرُ بنُ وَائِلَ عَثْرَةً   فلو عَثَرَتْ أخرَى فَلِلْيَدِ والفَمِ

عثرت قبيلة بكر بن وائل وأساءت التقدير، ولو كررت الأمر فلليد والفم
(لتسقط على يديها ووجهها/ لا أقال الله عثرتها)

٤١ لبن ودم

فَنَبَّهْتُ سَعْداً بعدَ نوم لِطَارِقٍ   أتَانَا ضَئِيلاً صوتُه حين سَلَّمَا

أيقظت سعداً، بعد أن كان نام، لطارق (لخدمة مسافر أتانا ليلاً)، وصوت هذا الطارق ضئيل حين سلَّم علينا لما به من الإرهاق

إذا لَمْ تَذُدْ ألبَانُها عن لُحومِها   حَلَبْنا له منها بَأَسْيافِنا دَمَا

وإذا لم تذد (تدافع) ألبان الإبل عن لحومها بأن تدر الكثير من اللبن، فسوف نحلب له دماً بأسيافنا
(أي سنذبح له بعيراً)

٤٢ أروى القتول

وكَمْ قَتَلَتْ أَرْوَى بِلا تِرَةٍ لَها   وأَرْوَى لِفُرَّاغِ الرجالِ قَتُولُ

ما أكثر ما قتلت أروى الرجال، ولا ترة (ثأر) لها،
وهي للرجال الفارغين من العشق قتالة إذ يعشقونها هي

فلو كانَ مَبْكَى ساعَةٍ لَبَكَيْتُها   ولكنَّ شَرَّ الغَانياتِ طَويلُ

العشق لا تبدده ساعة بكاء، والتعلق بالحسان شر طويل

وإن امْرَأً لا ينتهي عن غَوايَةٍ   إذا ما اشتَهَتْها نفسُه لَجَهُولُ

٤٣ يمشين على هديره

يَمْشِينَ مَشْيَ الهِجَانِ الأُدْمِ رَوَّحَها   عندَ الأَصيلِ هَديرُ المُصْعَبِ القَطِمِ

تمشي هؤلاء النسوة مشيَ الهجان (الإبل الكريمة) الأدم (البيض) روحها (عاد بها مساء)
عند الأصيل (قرب المغيب) هدير المصعب القطم (صوت الجمل الفحل الهائج)،
فالنياق تمشي متبخترة على صوت الفحل

٤٤ المفتخرة بهودج سيدتها

بَكَرَ العَواذِلُ يَبْتَدِرْنَ مَلامَتي   والعاذلونَ، فكُلُّهُمْ يَلْحَاني

جاءت العواذل (العاذلات) باكراً وبادرنني باللوم، والعاذلون أيضاً، الكل يلحاني (يلومني بشدة)

يَنْظُرْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتورِ بِأَعْيُنٍ نُجْلٍ، يُمِتْنَ العَاشقينَ، حِسانِ

النساء ينظرن من خلل الستور (الفرجات بين ستر وستر) بأعين نجل (واسعة) جميلة تميت العاشقين

وإذا رأَينَ الشَيْبَ لم يقْرَبْنَهُ والغَانِياتُ عن الكبيرِ غَوَانِ

ولا يقربن صاحب الشيب، والغانيات (المستغنيات بجمالهن عن الزينة) غوان (مستغنيات) عن الكبير في السن

يَقْطَعْنَ عنهُ كلَّ حبلِ مَوَدَّةٍ جَهلاً، وهُنَّ إلى الشبابِ رَوَانِ

يقطعن العلاقة الودية مع الكبير جهلاً (طيشاً من جانبهن)، وهن روانٍ (متطلعات) إلى الشباب

إنِّي أُدِيمُ لِذي الصَّفاءِ مودَّتي وإذا تغيَّرَ كنتُ ذا أَلوانِ

أنا أديم المودة مع الصديق المصافي، فإن تغير تغيرت عليه

وأُفارقُ الخُلَّانَ مِنْ غيرِ القِلَى وأُمِيتُ عندي السِّرَّ بِالكِتْمانِ

وأفارق الخلان (الأصحاب) دون قلى (جفاء)، وأحفظ السر

قَبَحَ الإلَهُ بني كُلَيْبٍ، إنهُمْ لا يَحفَظُونَ مَحارِمَ الجِيرانِ

بنو كليب قوم جرير لا يحفظون محارم من جاورهم، إمَّا بالسكنى عندهم أو بطلب الجوار فيهم

أَجَريرُ إنَّكَ والذي تَسْمُو له كَأَسيفَةٍ فَخرَتْ بِحِدْجِ حَصَانِ

يا جرير إنك والله الذي تسمو (ترتفع) نفسي له، كأسيفة (أمة) تفخر بحدج (هودج) حصان (امرأة حرة). فأنت تفخر بقبيلة تميم وإنك لمن أوضع بطونها

حَمَلَتْ لِرَبَّتِها فَلَمَّا عُولِيَتْ نَسَلَتْ تُعارِضُها مع الأَظْعانِ

حملت الأمة لربتها (سيدتها) متاعها فلما عوليت (ركبت سيدتها في الهودج) نسلت (أسرعت) الأمة تلحق بها مع الأظعان (الإبل)

في «دَارِمٍ» تَاجُ الملوكِ وصِهْرُها أيامَ يَربُوعٍ مع الرُّعْيانِ

في قبيلة دارمٍ الملوك (الزعماء) لتميم كلها، وهم يصاهرون الملوك، بينما كانت قبيلة يربوع ترعى مواشيها (وجرير من كليب، وكليب من يربوع، وهما من تميم، أمَّا دارم فمن أشرف بطون تميم)

وإذا وَضَعْتَ أباكَ في مِيزانِهِمْ رَجَحُوا، وشَالَ أَبوكَ في الميزانِ

أبوك لا يعادل دارماً، بل تشيل (تصعد) به كفة الميزان لخفته

٤٥ أحقاد

إذا ما قُلْتُ قد صَالَحْتُ بَكْراً أَبىَ الأَضْغَانُ لا النَّسَبُ البعيدُ

كلما قلت صالحت قبيلة بكر أبت الأضغان (الأحقاد) لا النسب البعيد، فبكر وتغلب كلتاهما من ربيعة

وأَيَّـامٌ لـنـا وَلَـهُـمْ طِـوالٌ يَـعَـضُّ الـهَـامَ فـيـهِـنَّ الـحَـديـدُ

بيننا حروب طويلة كان حديد السيوف يعض فيها الهام، أي الرؤوس

هُـمَـا أَخَـوانِ يَـصْـطَـلِـيَـانِ نـاراً رِداءُ الـمـوتِ بـيـنَـهُـمـا جـديـدُ

٤٦ أشباه العبيد

وكـنـتُ إذا لَـقِـيـتُ عـبـيـدَ تَـيْـمٍ وتَـيْـمـاً قُـلْـتُ أَيُّـهُـمـا الـعـبـيـدُ

لَـئـيـمُ الـعـالَـمِـيـنَ يَـسُـودُ تَـيْـمـاً وسَـيِّـدُهُـمْ وإن كَـرِهُـوا مَـسُـودُ

٤٧ «مصر والسودان لنا.. وانجلترا إن أمكنًا»

ونَحْنُ قَسَمْنا الأرضَ نِصْفَيْنِ: نِصفُها لـنـا، ونُـرامـي أن تَـكـونَ لـنـا مَـعَـا

جعلنا الأرض نصفين: نصف لنا، ونصف لكل الآخرين، ونرامي (نرمي ونهدف) أن يكون النصفان كلاهما لنا

إذا مَا أَكَلْنا الأرضَ رَعْيَاً تَطَلَّعَتْ بِنا الخيلُ حتى نَسْتَبِيحَ المُمَنَّعا

إذا ما رعت إبلنا فأكلت العشب كله، تطلعنا بخيولنا إلى أراضي الآخرين حتى نستبيح الممنع (المحميّ)

٤٨ المستضعفون في الحوض

وقال يهجو قبيلة زيد اللات:

قُـبَـيِّـلَـةٌ مـا يَـغْـدِرُونَ بِـذِمَّـةٍ ولا يَظْلِمونَ الناسَ مِثْقالَ دِرْهَمِ

يهجوهم بأنهم لا يغدرون، ولا يظلمون أحداً لضعفهم

ولا يَـرِدُونَ الـمـاءَ إلَّا عَـشِـيَّـةً على طُولِ أَظْمَاءٍ، وَوَجْهٍ مُلَطَّمِ

ولا يردون حوض الماء لتشرب إبلهم إلا عشاء حين يقل عدد الواردين، رغم طول الظمأ، ويَرِدون بوجوه ملطومة مضروبة من الآخرين الذين يشربون قبلهم ويؤخرونهم

٤٩ لكم دينكم ولي دين

إذا لانَ الـصَّـفَـا عـن طُـولِ نَـحْـتٍ فَـإنَّ صَـفَـاةَ تَـغْـلِـبَ لا تَـلِـيـنُ

إذا لان الصفا (الصخر) لطول ما ينحته المرء، فصخرة قبيلة تغلب لا تلين

فَقَبْلَكَ رامَها الجبَّارُ فينا   فَكانَ لنا ولِلجبَّارِ دِينُ

وقبلك رامها (قصدها) الجبار، فكان لنا وله شأن. في البيت إشارة إلى سعي عمر بن الخطاب إلى فرض الجزية على تغلب، ورفض تغلب الأمر، ورفضها الدخول في الإسلام، وإقامتها على المسيحية

٥٠ كواكب الكأس

ومُتْرَعَةٍ كأنَّ الوَردَ فيها   كَواكِبُ لَيْلَةٍ فَقَدَتْ غَماما

رب كأس مترعة (مليئة) كأن الورد (الخمر الوردية اللون) فيها، وقد علتها الفقاقيع اللامعة، كواكب في ليلة صافية بلا غيوم

سَقَيْتُ بِها عُمارَةَ أو سَقاني   إذا ما الجِبْسُ عن ضَيْفَيْهِ نَاما

سقيت ضيفي عمارة أو سقاني عندما يضيّفني، فأما الجبس (اللئيم) فيترك أضيافه وينام ولا يؤنسهم

٥١ أهل القرقور

وقال الأخطل يرد على جرير عندما قال: «فما لك في نجد حصاة تعدها»:

ولكِنْ لنا بَرُّ العراقِ وبَحْرُهُ   وحيثُ تَرَى القُرْقُورَ في الماءِ يسبَحُ

القرقور: السفينة

إذا ابْتَدَرَ الناسُ السِّجَالَ وجَدْتَنا   لنا مِقْدَحا مَجْدٍ وللناسِ مِقْدَحُ

إذا ابتدر الناس السجال (بدأوا بالتفاخر) فلنا مقدحا (مغرفتا) مجد وللناس كلهم مغرفة واحدة

٥٢ عمائم الأنصار

ذهبَتْ قُريشٌ بِالمَكارِمِ والعُلَا   واللؤمُ تحت عمائِمِ الأنصارِ

أخذت قريش كل المكارم والمجد، وبقي للأنصار اللؤم

فذَرُوا المَعالِيَ لَسْتُمُ من أهلِها   وخُذُوا مَساحِيَكُمْ بَنِي النَّجَّارِ

يا بني النجار (من الخزرج، من الأنصار) اتركوا السعي للمعالي (المجد) فلستم أهلاً لها، وأمسكوا مساحيكم (مجارف التراب) فأنتم زراع لا يد لكم بالمجد والحرب

إنَّ الفَوارِسَ يَعرِفُونَ ظُهورَكُمْ   أَوْلادَ كُلِّ مُقَبَّحٍ أَكَّارِ

الفرسان يعرفون ظهوركم لكثرة ما تفرون في المعارك، يا أولاد كل مقبح (الموصوف بالقبائح والعيوب) أكار (المزارع)

وإذا نَسَبْتَ ابنَ الفُرَيْعَةِ خِلْتَهُ كَالجَحْشِ بينَ حِمَارَةٍ وحِمَارِ

ابن الفريعة (حسان بن ثابت، ويعني ابنه عبد الرحمن بن حسان)، الجحش: الحمار الصغير

٥٣ صيال بلا وصول

تَصُولُ إلى العُلا أَسَدٌ وتَأْبَى مَخازِيها وأَيْدِيها القِصَارِ

تصول (تهجم) قبيلة أسد للوصول إلى العلا، ولكن مخازيها، وأيديها القصار (ضعفها) تمنعها

٥٤ لستم سِبِّي

وأَمَّا تَمَنِّيكُمْ قُريشاً فإنَّها مَصابيحُ يَرمِيها بِعيْنَيْهِ نَاظِرُ

تمنيكم الوصول إلى مرتبة قريش وهُم، فإنهم مصابيح ينظر إليها الناظر لا غير

فما أنتُمُ منهُمْ، ولكنَّكُمْ لَهُمْ عبيدُ العَصا، ما دامَ للزَّيْتِ عاصِرُ

لستم من قريش، بل ستظلون عبيد العصا لهم (عبيداً يضرَبون) ما دام هناك من يعصر الزيت (أي للأبد)

فمَا خُتِمَتْ أكتافُكُمْ لِنُبُوَّةٍ وأَسْتَاهُكُمْ قد أَنْكَرَتْها المنابِرُ

ففي قريش النبوة، وأنتم ليس على أكتافكم ختم النبوة، وأقفاؤكم لم تجلس يوماً على منبر. وربما جلس الخطيب على كرسي فوق المنبر قبل أن يقوم فيخطب

بَني أَسَدٍ لَسْتُمْ بِسِبِّي فَتُشْتَمُوا ولكنَّما سِبِّي سُلَيْمٌ وعَامِرُ

يا بني أسد، أنتم لستم بسبي (كفئاً لي فأسبكم وتسبوني)، فأولئك بنو سليم وبنو عامر

٥٥ يا مرسل الريح

يا مُرسِلَ الريحِ جَنوباً وصَبَا

يا رب، يا مرسل ريح الجنوب وريح الصبا

إنْ غَضِبَتْ «زَيْدٌ» فَزِدْها غَضَبا

واكْسُ بَني زيدِ بنِ عَمْرو نُقَبا

ألحق ببني زيد نقباً (بقعاً من الجرب)

ليستْ مِنَ البَزِّ ولَكِنْ جَرَبا

البز (القماش)

٥٦ فعلت به أفعالها

اربَعْ علـى دِمَنٍ تَقـادَمَ عهـدُهـا   «بِالجَوْفِ» واستَلَبَ الزمانُ حِلالَها

قف على دمن (خرائب) قديمة في موضع الجوف، وقد استلب الزمان (أخذ) حلالها (أهلها الذين حلوا فيها)

دِمَنٌ لِقَاتِلَةِ الغَرانِقِ، ما بِها   إلَّا الوُحوشُ، خَلَتْ له وخَلا لَها

هذه الخرائب هي للتي قتلت الغَرانق (الشبان الوسيمين)، وليس بالخرائب الآن سوى الوحوش التي خلت لموضع الجوف، وخلا من كل أحد وبقي لها وحدها

بَكَرَتْ تُسَائِلُ عن مُتَيِّم اهلَهِ   وَهِيَ التي فَعَلَتْ به أَفعالَها

بكرت (أتت صباحاً) هذه الفتاة التي قتلت الشبان تسأل عن متيم (عاشقٍ) أهله، مع أنها هي التي تيمته. . والبيتان مما أورده أبو تمام في الحماسة منسوباً لغير الأخطل، وجئنا بالبيتين هنا للسياق

كانتْ تُرِيكَ إذا نظرتَ أمامَها   مَجْرَى السُّمُوطِ، ومَرَّةً خَلخَالَها

كانت تريك مجرى السموط (العقود. . أي عنقها) وخلخالها. تفتنك بمفاتنها

اخْسَأْ إليكَ جريرُ، إنَّا معشرٌ   نِلْنا السَّماءَ نجومَها وهِلالَها

اخسأ إليك (خسئت وبعدت) يا جرير فنحن أشرف منك بكثير، وشرفنا وصل السماء

ما رَامَنا مَلِكٌ يُقِيمُ قَناتَنا   إلَّا اسْتَبَحْنا خَيْلَهُ ورِجَالَها

ما رامنا (طلبنا) ملك يريد أن يقيم قناتنا (يخضعنا) إلا استبحنا خيله وفرسانها

٥٧ تميت وتحيي

شَرِبْنا فَمُتْنا مِيتَةً جاهِلِيَّةً   مَضَى أهلُها لم يَعرفوا ما مُحَمَّدُ

ثَلاثَةَ أيام فلمَّا تَنَبَّهَتْ   حُشَاشَاتُ أَنْفاسٍ أَتَتْنا تَرَدَّدُ..

ظللنا سكَّرانين ثلاثة أيام، فلما عادت إلينا حشاشات أنفاس (بقيةٌ من صحو)

حَيِينا حَياةً لم تكنْ مِنْ قِيامَةٍ   علَيْنا ولا حَشْرٍ أَتَانَاهُ مَوْعِدُ

كنا كمن عاش بعد موت، لكن بدون يوم قيامة ولا حشر جاء موعده

حَياةَ مِراضٍ، حَوْلَهُمْ بعدَمَا صَحَوْا   مِنَ الناسِ شَتَّى عاذِلونَ وعُوَّدُ

عشنا حياة قوم مرضى من الخُمار، صداع السكر، وحولنا الناس بعضهم عاذل (لائم) وبعضهم عائد (زائر المريض)

وقُلْنا لِساقِينا عليكَ فَعُدْ بِنا   إلى مثلِها بالأمسِ، فالعَوْدُ أَحْمَدُ

وقلنا لساقينا عد بنا للسكر

فَجاءَ بِها كأنَّما في إنائِه ... بِها الكوكبُ المِرِّيخُ، تَصْفُو وتُزْبِدُ

فجاء بالخمر، كأن في إنائه المريخ، الكوكب الأحمر، وهي تصفو إذا راقت وتزبد إذا مزجت أو سكبت في الأقداح

تَفُوحُ بِماءٍ يشبهُ الطِّيبَ طِيبُهُ ... إذا ما تَعاطَتْ كأسَها مِنْ يدٍ يَدُ

تفوح رائحتها الطيبة مع تداول كؤوسها بين الشاربين

نُميتُ وتُحْيِي بعدَ موتٍ، وموتُها ... لذيذٌ، ومَحْيَاها أَلَذُّ وأَمْجَدُ

٥٨ بيت الدمية

حُلُمٌ سَرى بعد المنامِ، فَزارني ... مِنْ «أُمِّ بَكْرٍ» مَوْهِناً بِخَيالِ

حلم سرى (سار ليلاً) وأتاني وزارني بخيال أم بكر موهناً (في منتصف الليل)

فَلَهَوْتُ لَيْلَةَ نَاعِمٍ ذي لَذَّةٍ ... كَقَرِيرِ عَيْنٍ أوْ كَناعِمِ بَالِ

فاستمتعت باللهو، وكأنني قرير العين (راضٍ) وناعم البال (مسترخٍ، مستريح)

بِغَرِيرَةٍ نَفَجَ النَّعيمُ شبابَها ... غَرْثَى الوِشاحِ، شَبِيعَةِ الخَلْخَالِ

لهوت بغريرة (صغيرة جاهلة) نفج (مثل نفخ، فشبابها منفوخ: وقد استدار من جسمها ما استدار)، غرثى الوشاح (وشاحها جائع: خصرها نحيل)، وخلخالها شبعان (ساقاها ممتلئتان)

في صُورةٍ تَمَّتْ وأُكْمِلَ خَلْقُها ... لِلناظِرِينَ كَصورةِ التِّمْثالِ

هي كاللعبة. كان لنا جار يبرز زوجته للناس مفتخراً بجمالها ـ وكانت نساء مدينتنا لذلك العهد سوافر. . كلهن ـ وكان يقول: انظروا، هذه وردة أشمها! وكنت أجد كلامه مهيناً للمرأة، وأنا بعد صغير لم أسمع عن النسويات والنسويين. على أنني أفتخر بأن مدينتي «نابلس» بفلسطين كان يكاد الطلاق فيها ينعدم أيامئذ، ولم يكن عندنا تعدد زوجات. وكانت أوروبا قبل قرن ونصف قرن لا ترى غرابة في أن تعتبر المرأة لعبة، ثم جاء النرويجي «هنريك إبسن» بمسرحيته «بيت الدمية»، فبدأت عملية شاقة انتهت بأن نالت المرأة كثيراً من الحقوق، والأهم: كثيراً من الاعتبار، فتأكد للقوم أنها ليست لعبة. لكن، سيظل في أعماق عقولنا الذكورية شيء من هذا طويلاً. والحركة النسوية في بلدي تصارع اليوم التاريخ كله، وتصارع متشددي الفقهاء، وتصارع كثيرات من النسوة اللائي يحلو لهن أن يكُنَّ دمىً

تَمَّتْ لِمَنْ نَعَتَ النساءَ، وأُكْمِلَتْ ... نَاهِيكَ مِنْ حُسْنٍ لَها وجَمالِ

امرأة كاملة تشتهي أن ترى في صورتها عيباً. بعض النساء كذلك. يغتاظ الرجل أن يرى جمالاً كاملاً، وصحيح أنه يقول: سبحان الله؛ لكنْ، تتصاعد من صدره أدخنة الرغبة والحسرة

وَمَـلاحَـةٍ فـي مَـنْـطِـقٍ مُـتَـرَخِّـمٍ   مـنـهـا وحُـسْـنِ تَـقَـتُّـلٍ ودَلالِ
جميلة وكلامها رخيم، وفيها التقتل (الغنج) والدلال (التمادي)

تَـرنُـو بِـمُـقْـلَـةِ جُـؤذَرٍ بِـخَـمِـيلَـةٍ   وبِـمُـشْـرِقٍ بَـهِـجٍ، وجِـيـدِ غَـزالِ
ترنو (تنظر) بمقلة جؤذر (بعين بقرة وحشية) في خميلة (روضة)، وبوجه مشرق بهج (فيه لون الزهر)، وبعنق غزال

وبِـوارِدٍ رَجِـلٍ كـأنَّ قُـرُونَـه   مِـنْ طُـولِـهِ مَـوْصُـولَـةٌ بِـحِـبـالِ
وبوارد (شعر) رجل (متكسر) كأن قرونه (خصلاته) موصولة بحبال لطوله. علق أبو سعيد السكري: «لم يصنع الأخطل في هذا التشبيه شيئاً، وينبغي أن يكون قاله في شيخوخته!». إيه، بل صنع كثيراً.. وأي شيء أبعث على وصف الحسان من شيخوخة محرومة من وصالهن يا أبا سعيد!

مـا رَوْضَـةٌ خَـضْـراءُ أَزْهَـرَ نَـوْرُهـا   بِـالـقَـهْـرِ بـيـن شَـقـائِـقٍ ورِمَـالِ..
ليست الروضة الخضراء التي أزهر نوْرها (براعم زهرها) في موضع «القهر»، بين الشقائق (الأراضي الوعرة) والرمال..

بَـهِـجَ الـربـيـعُ لـهـا فـجـادَ نـبـاتُـهـا   ونَـمَـتْ بِـأَسْـحَـمَ وابِـلٍ هـطَّـالِ..
بهج الربيع لها (منحها الزهر)، ونمت هذه الروضة بأسحم (سحاب داكن) يهطل بالمطر..

نَفَتِ الصَّبا عنها الجَهامَ، وأَشْرَقَتْ   لِـلـشـمـسِ غِبَّ دُجُـنَّـةٍ وطِـلَالِ..
ثم إن ريح الصبا نفت (أبعدت) الجهام (الغيم المسود)، وأشرقت الروضة للشمس (أشرقت عليها الشمس) غب (بعد) دجنة (عتمة) وطلال (أمطار)..

يَوْماً بِأَمْلَحَ مِنكِ بَهْجَةَ مَنْطِقٍ   بـيـنَ الـعَـشِـيِّ وسـاعَـةِ الآصـالِ
ليست هذه الروضة بأجمل منك وأنت تتحدثين بين العشي وساعة الأصيل (الغروب). ولعله أراد بين الأصيل والعشي.. لكن، وصلت الفكرة

تَـشـفـي الـضَّـجـيـعَ إذا أَرادَ عِـنـاقَـهـا   بِـمُـقَـبَّـلٍ عَـذْبِ الـمَـذَاقِ زُلالِ
تشفي ضجيعها (ملازمها في المخدع) بمقبل (ثغر) زلال (عذب)

شَـبِـمٍ كـأنَّ الـثـلـجَ شـابَ رُضَـابَـه   بِـسُـلافِ خَـالِـصَـةٍ مِـنَ الـجِـرْيـالِ
فمها شبم (بارد)، كأن الثلج شاب (خالط) رضابه (ريقه)، بسلاف (خمر) خالصة من الجريال (الخمر). والسلاف في الخمور أعلى من الجريال، فكأن تلك الخمر خالصة من الشوائب. وقالوا الجريال لون الخمر، فخمرته على هذا صافية خالصة من الجريال، كالعَرَق مثلاً

صَـهـبـاءَ صَـافِـيَـةٍ تَـنَـزَّلَ تَـجْـرُهـا   بِـبِـلادِ «صَـرْخَـدَ» مِـنْ رُؤُوسِ جِبالِ
هذه الخمر صهباء (صافية اللون) نزل بها تجرها (تجارها) في بلاد صرخد من جبالهم

مِنْ قَهوةٍ نَفَحَتْ، كأنَّ سَعِيطَها مِسْكٌ تَضَوَّعَ في غَدَاةِ شَمَالِ

هذه قهوة نفحت (أطلقت رائحتها) فكأن سعيطها (رائحتها) مسك تضوع (انتشر) في صبحٍ هبت في ليلته ريح الشمال

فَدَعِ الغَوانيَ والنَّشيدَ بِذِكرِها واصْرِفْ لِذِكْرِ مَكارِمٍ وفَعالِ

فدع ذكر الحسان، والإنشاد بمحاسنها، واصرف القول للفَعال (المكارم)

إنَّا لَنَقْتَادُ الجِيادَ على الوَجَا نحوَ العِدَى بِمَسَاعِرٍ أبطالِ

نقود جيادنا نحو الأعداء على الوجا (الحفا)، فنحن نسرع ولا نحذو الخيل لما عندنا من نجدة، وعلى الخيل مساعر (رجال أشداء يسعرون الحرب ويوقدون نارها)

في كلِّ ذي لَجَبٍ كأنَّ زُهاءَه لَيْلٌ تَعَرَّضَ أو رِعَانُ جبالِ

هذه الخيل يتضمنها ذو لجب (جيش له قعقعة وفيه أصوات) كأن زهاءه (كثرته) ليل منتشر أو رعان جبال (رؤوس الجبال)

ما بينَ أوَّلِه وآخِرِ جَمْعِهِ يَوْمٌ يُسارُ ولَيلَةُ البَغَّالِ

بن أول الجيش وآخره مسيرة يوم، ومسيرة ليلة البغال (صاحب البريد الذي يسير طول الليل بلا توقف)

٥٩ جيئوا من مكان واحد

هَجَانيِ الأَلْأَمَانِ ابْنَا دُخَانٍ وأَيُّ الناسِ يقتُلُه الهجاءُ

هجاني هذان الرجلان، والهجاء لا يقتل المهجو!

وُلِدْتُمْ بعدَ إخْوَتِكُمْ مِنَ اسْتٍ فَهَلَّا جِئْتُمُ مِنْ حيثُ جاؤوا

يا بني دخان! ولدتم من وراء، أما كنتم تجيئون من أمام! هذا هجاء جريري المذاق

٦٠ الجندبية

تَنْزُو إذا شَجَّها بِالماءِ مازِجُها نَزْوَ الجَنادِبِ في رَمْضَاءَ تَلْتَهِبُ

تنزو (تثب) فقاقيع الخمر ـ ويبدو أنه يتحدث عن ضرب من الخمر يشبه الشمبانيا ـ إذا شجها (جرحها) بالماء مازجها، كوثب الجنادب (نوع من الجراد صغير) في رمضاء (أرض شديدة السخونة). كأنه توهم تقافز الجنادب مسبباً عن سخونة الأرض، هي تقفز في كل أرض

راحُوا وَهُمْ يَحْسَبونَ الأرضَ في فَلَكٍ، إنْ صُرِعُوا وَقَتِ الرَّاحَاتُ والرُّكَبُ

راح الشاربون يظنون الأرض دائرة في فلك ـ في زمن الأخطل لم تكن الأرض تدور ـ، فهم لسكرهم يتطوحون ويقعون أرضاً وراحات أيديهم وركبهم تقيهم عند السقوط فلا يقعون على وجوههم

الأخطل

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الفرزدق، همَّام بن غالب
(٢٠هـ ــ ١١٤هـ)

شرح شعر الفرزدق صعب. تستنجد المعجم على كلمة فرزدقية أَغلَقت دونك بيتاً فتجد المعجم مستشهداً ببيت الفرزدق نفسه الذي تسعى إلى فهمه؛ فهذا تفسير الماء بالماء. وصاحبنا ذو طريقة عنيفة مضطربة في معانيه وفي رصفِه ألفاظَه، لا يبالي أن يعامل الجمع معاملة المثنى، والمفرد معاملة الجمع، والمنصوب معاملة المرفوع؛ ولا أن يعطيك المعنى بألفاظ نصفها ظاهر لعينيك، ونصفها كامن في بطنه. ولئن كان الاجتزاء بقليل اللفظ عن كثير المعنى معدوداً من البلاغة في أحوال، فإنه يُحشَر في الغوامض والمعمَّيات التي تشين الكلام في أحوال غيرها.

وقد اخترنا من شعر الفرزدق أجمله وأحسنه، ووقع في اختياراتنا شيء من تلك الألغاز، واجتهدنا في حلها.

سنحدثك في هذه المقدمة عن الفرزدق وعصره، وهو أحد ثلاثة متعاصرين يشبه شعر أحدهم شعر أخيه؛ والآخران جرير والأخطل. وكان قدماء النقاد والنحاة وأهل اللغة يجدون لذة في لعبة يلعبونها: كانوا يفاضلون بين الثلاثة، ويتعصب كل واحد منهم لواحد من هؤلاء الشعراء. لا بل إن شعراء معاصرين للثلاثة استمرأوا اللعبة، وقالوا الأشعار في تفضيل أحد الثلاثة على زميليه. ولن نلعب معهم.

أُنظرْ إليَّ الآن قاعداً أكتب هذه المقدمة لمختاراتي من شعر الفرزدق مقوس الظهر متعباً، بعد أن أتممت شرحي للأبيات، والتمسْ لي العذر.

العالم يموج حولي بالأحداث والأفكار. العالم يمشي نحو المستقبل. يستقبل غده بالأمنيات والمخاوف، وتعتلج في جوفه براكين تبحث عن الخاصرة

اللينة حتى تنفجر. وأنا قاعد في ركن هادئ من العالم أراقب. وتأتيني لحظة أقول لنفسي فيها: لأهاجرْ إلى أوروبا القارة العجوز الآمنة، كي أرى العالم منها. ثم أقول: بل إلى أميركا كي أكون في جوف الحدث. ثم أراني قاعداً أشرح شعر الفرزدق. أريد أن أذهب بعيداً عن بلاد العرب كي أرى بلاد العرب بوضوح. ولكنني قاعد أشرح شعر الفرزدق.

لعل ما يجعلني أشرح هذا الشعر القديم، الذي ولد صاحبه في خلافة عمر، أنني مرتحل في الزمن إلى الوراء كي أرى الحاضر بوضوح. ودنيا العرب الآن ـ وأكتب في أكتوبر عام ٢٠١٥ ـ مضطربة، والعرب مضطربون.

استطراد

عندما احتل الأميركيون الفلبين قبل ١١٧ عاماً خسروا أربعة آلاف وثلاثمئة جندي، وقتلوا ربع مليون فلبيني. قالوا إنهم يفعلون ذلك في سياق جلب المدنية والرقي للفلبين. الجنرال لويد ويتون أمر جنوده أن يبيدوا سكان القرى والمدن في دائرة قطرها ٣٥ كيلومتراً، أمرهم أن يقتلوا من هو فوق العاشرة من العمر. وفعلوا. كتب جندي أميركي آنذاك: «دماؤنا تغلي، وكلنا يريد قتل هؤلاء العبيد، هذا أجمل من اصطياد الأرانب بما لا يقاس».

والعراق ماثلة؛ وكما لاحظ بعضهم فإن أميركا تقصف الناس الآن، بطائرات بطيار وبغير طيار، في ست دول إسلامية.

في الفكر السياسي الغربي اليوم اتجاهان: اتجاه يبرز جرائم الغرب إبرازاً. عنوان هذا الفكر «الإمبراطورية الأميركية: أميركا المجرمة». وصوت هذا الاتجاه ضعيف في الغرب، قوي عندنا، فنحن نترجم تشومسكي وصحبه ونقرأهم. واتجاه ينظر إلى الدول المتخلفة، وإلى ما فيها من ظواهر كالإسلام السياسي، ويحاول أن يشخص التخلف.

وكلا الاتجاهين مفيد ما التزم أصحابه الأمانة الفكرية. ولا يغيب عن القارئ أن جماعة «أميركا المجرمة» ينسون أن يعطونا ـ نحن العرب والمسلمين وباقي دول إفريقيا المتخلفة ـ نصيبنا من اللوم، وينصرفون بحماسة زائدة لكشف جرائم الغرب، وأن جماعة «تشخيص التخلف» تركز أنظارها علينا تركيزاً ينسيها أن نصف اللوم في تخلفنا يقع على الغرب.

يسرني أنني قاعد أقرأ هؤلاء وهؤلاء بالتناوب، ويسرني أنني شحذت

حسي النقدي شحذاً طيباً على مِسَنٍّ بضعة كتب في الفكر السياسي قرأتها مؤخراً. أقرأ بين الحين والحين بعض ما نكتبه نحن، ولم أنصرف كل الانصراف عن كثير مما كتبناه في ماضينا القريب أو السحيق في موضوع «الفكر السياسي»: أكان بأقلام أهل الفكر الحر المعاصرين كعلي الوردي، أم بأقلام القدامى من أصحاب التواريخ وكتب السياسة كالطبري والماوردي والطرطوشي. غير أن رؤية أنفسنا بعيون الآخر تكشف من الحجب ما لا تكشفه رؤيتُنا أنفسَنا بعيوننا. وستظل، ولسنين كثيرة، الكتبُ المكتوبة من اليسار إلى اليمين خير ما يصف حالنا في الماضي وفي الحاضر.

هذا الكلام كله لا علاقة له بالفرزدق، وبصراحة.. لا من قريب ولا من بعيد. أنا فقط أضعك في جوِّي النفسي والمعرفي في هذا الأوان، أو أنني على الأصح أحاول أن أتفلَّت من التفكير في أحوال الدنيا فلا أستطيع إلى ذلك سبيلاً. عاش الفرزدق تسعين سنة، وعاشت الخلافة الأموية تسعين سنة. وتواكبا إلى حد كبير.. فقد شهدها تبدأ وهو شاب في نحو العشرين وعاشها سبعين سنة. عاش في زمن كان العرب فيه يصعدون.. وقبيلته تميم ـ أكثر من غيرها ـ قد صعد نجمها، وهي من طليعة من وصل بنفوذ العرب إلى خراسان.

ونحن اليوم نعيش هبوطاً مؤلماً من شأنه أن يفقدنا الثقة بالنفس. فهل تظنُّ أنني أريد استعادة أمجاد الماضي بالحديث عن الفرزدق؟ ما أكثر ما بعُدتَ عن الحق! محدثك لا يحلم بالإمبراطورية، ولم يعد يحلم بالوحدة العربية التي عاش أحلامها يافعاً. أقارن بين عصرين لأن المقارنة خطرت ببالي. ولأنني أبحث عن منصة أنطلق منها إلى الحديث الذي كنت هجرته قبل نصف دقيقة، وهو الحديث عن الشعوب في عصرنا وعن تخلفها، وتقدمها.

يطيب لي كثيراً الحديث عما يمكن لنا نحن أن نفعله كي ننهض، وأميل بعض الميل إلى ترك مسألة أميركا المجرمة، وإسرائيل المجرمة. فرغم أنني من بلد استكملت إسرائيل احتلاله وأنا في الحادية عشرة من عمري، ورغم أنني رأيت تلك الدولة المسخ تأكل بلدي قطعة قطعة بما سموه الاستيطان، ورغم معرفتي العميقة بما يصنعه الغرب بالدول المتخلفة، فإنني أفتقد إلى حرارة الإحساس بالمظلومية التي أجدها عند كثيرين من أبناء العرب، ربما لأنني من تلك الطبقة المتوسطة المائعة التي لم تحس بفداحة ظلم الظالمين، وقد استطعت أن أعيش ـ وبأعجوبة ـ بعيداً عن سجون الاحتلال، وبعيداً في الوقت

نفسه عن النضال، وعندما اشتعلت الانتفاضة الأولى في بلدي حضرت منها ثمانية أشهر فقط، ثم سافرت لأعيش في أوروبا سنوات كثيرات، وعندما اشتعلت الانتفاضة الثانية أحسست بلسعتها، لكنني كنت أعمل مراسلاً إذاعياً، فكان لها بعض الخير على جيبي.

ثمة سبب آخر - وأراه مهماً - يدفعني دفعاً إلى ترك الحديث عن مظلوميتنا، والأخذ بالحديث عن ظلمنا لأنفسنا. ذلك أن كل الناس يفيضون في الكلام على هذه المظلومية، فلا أستطيع أن أضيف شيئاً ذا بال.

تربطني بالتونسي وبالعراقي وبكل من يتكلم العربية وشائج لا أقلل من قيمتها. ولكن مسألة الاتحاد في دولة عربية أمر حالت دونه سايكس بيكو قديماً، وحالت دونه شعوب العرب بعد استقلالها. وحسبنا من التوحد ذلك الشعور العذب بأننا نشترك في كثير. فإن زاد ذلك عن ذلك فكان تضامناً، فنحن بخير.

أكره افتخار العربي بعروبته كرهاً عميقاً. ولكنني أسوق لك من فخر الفرزدق بآبائه - وهذا أسوأ - أبياتاً كثيرة. ولي موقف قد يكون مستغرباً عندك: أدعو دعوة صادقة إلى أن نهجر كثيراً من تراثنا، فقد قامت إمبراطوريتنا الأموية على استعباد العرق العربي للشعوب، وقامت على ما قامت عليه دول تلك العصور من استبداد ولي الأمر بكل الأمر، وجعله نفسه ظل الله على الأرض. ثم قامت الدولة العباسية على استبداد شبيه، وصعد العنصر الفارسي ثم التركي، وظللنا تتقلب علينا الدول المستبدة، وعندما نلنا الاستقلال عن الأوروبيين استمررنا في الاستبداد. العرب - وأعني كل من يتكلم العربية - متربون على الاستبداد. تجده في البيت والعمل وفي الدولة، وفي أعماق النفوس. ونحن متربون على الاستهانة بالمؤسسات التي تسوي بين الناس، أي بالقانون؛ ومتربون على احترام المؤسسات القديمة: أساساً العشيرة. وإلى أن يتغير ذلك سنواصل الهبوط.

في كل مجلس أجلس فيه يَطلُع عليَّ رجل يقول «هذه الأمة». تفقع مرارتي هذه الكلمة. في الغالب يعني صاحبنا الأمة الإسلامية. وقد آمن بهذا بعض الباحثين الغربيين، فأخذوا يعاملون المسلمين جميعاً كأمة واحدة. بعضهم يصنع ذلك بسوء نية، فيصم هذه الأمة بالتعصب والتعالي والإرهاب والجهل. وبعضهم يضعنا في تلك البوتقة الواحدة وينظر فيها بعين فاحصة محاولاً معرفة

سبب المواجهة التي نرى مظاهرها بين الغرب والمسلمين. ولن أقول له: نحن العرب أمة وحدنا، ولن أقول إن الروابط بين المسلم العربي والمسلم الأفغاني أو الإندونيسي وهمية. بل أقول: لا شعوب العرب تمثل أمة، ولا شعوب المسلمين.

على أن الإسلام يشكل رابطة مهمة. وكنت أتمنى لو كان يمثل مؤسسة، لكنه في أيامنا هذه لا يمثل. وقد وجدت المتدينين أكثر التماساً للمعاذير من غيرهم، ووجدتهم يلتمسون في أحكام الفقهاء طرقاً يَجرُّون بها الدنيا إليهم.

فهل آن أن نتحدث عن الفرزدق؟

آن.

حياة الفرزدق

ولد عام ٢٠ للهجرة، في كاظمة، التي نسميها اليوم الكويت. وكانت بها نخلات لقومه، غير أن قومه، بني تميم، كانوا معرقين في البداوة. وكان أبوه غالب يغشى البصرة كثيراً، وبها كان ينحر الإبل تباهياً، وقد نحر في مرة واحدة - قيل - المئات منها. فلا بد أن الأب، غالب، كان يملك مئات كثيرة من الإبل التي ترعى، ومعها عبيده وأبناء عشيرته، في بوادي نجد. والقبيلة الكبرى هي تميم. وقد حافظت هذه القبيلة الكبيرة على قدر من التماسك بعد الإسلام، أمسكها زعماء أقوياء كالأحنف بن قيس.

قيل إن تميمَ كانت في تهامة بالحجاز قبل الإسلام بنحو مئة سنة بل أكثر، وأُجليت عنها إلى شرق الجزيرة العربية بعد حرب كبيرة. هذا ما قاله عبد الله بن الزبير معيراً الفرزدق، ورددته كتب القدماء.

نحن الآن في زمن الخلفاء الراشدين، وتميم تعيش في الكويت وفي قطر وفي عمان وتمتد شمالاً إلى بادية العراق لتحاذي قبائل ربيعة، ويعيش بعض تميم في اليمامة (الرياض) مجاوراً قطعة من قبائل ربيعة هي قبيلة حنيفة التي كانت تحكم اليمامة. كانت حنيفة تفلح الأرض وتجني التمر، وأما تميم اليمامية فكانت ترعى الإبل وتعيش حياة أقرب إلى البداوة. وكان جواراً حسناً. وعندما أسس عمر بن الخطاب البصرة والكوفة كان لتميم خمس من أخماس البصرة وربع من أرباع الكوفة. وكثرت تميم في حاضرتي الإسلام، وامتدت إلى خراسان بقيادة الأحنف، واستقرت طائفة كبيرة من تميم بخراسان. واعتبر

اللغويون الذين كتبوا كتب اللغة في أوائل العصر العباسي لغة تميم في ذروة الفصاحة، لأن تميم ظلت تعيش عيشة البداوة، ولأنها أنجبت جريراً والفرزدق أيضاً. وكثير من فُصْحانا اليوم تميمي. لا نشك في أن تميماً نطقت بالعربية بلهجة معينة، وبأن قريشاً وأهل الحجاز نطقوا بها بلهجة مختلفة، وشواهد أهل اللغة على ذلك بالمئات. لكنَّ مواسم العرب جعلت الشعراء يتقاربون في مفرداتهم وكلماتهم ويلتقون على لغة واحدة، ولعل فيها من لغة الحجاز كثيراً. الفصحى التي ورثها العصر العباسي مخلوق هجين، والقرآن نطق بلهجات عدة، وكانت لهجة تميم على رأسها.

سمع هَمَّام بنُ غالب بن صَعْصَعَة كثيراً من الشعر صغيراً، سمعه من أبيه ومن رجال عشيرته، فقد كان فيهم شعر، وسمع شعر شعراء ربيعة في الجاهلية، وذكر في شعره أنه وارث شعراء كثيرين، من ربيعة وغيرها، سمى منهم نحو عشرة في إحدى قصائده. ولا نظنه تعلم الكتابة. وقد كان له عندما نبغ في الشعر وطار صيته كاتب يكتب عنه، ـ سماه النقاد كاتباً، لا راوية، على أنه كان للفرزدق رواة كثر أيضاً ـ. ولا نلمس من أخباره أنه كان يخط شيئاً بيده.

لقبوه الفرزدق باكراً، وأحبَّ اللقب، وذكره في شعره مرات كثيرة. والفرزدق الرغيف فيما قال لنا القدماء. كان وجهه فيما يبدو كبيراً مضطرب الملامح كرغيف ذلك الزمن. وقالوا كان دميماً، ولعله كان قصير الرجلين وافي الجذع يحمل بين كتفيه رأساً كبيراً.

نشأ في بيت عز، في عشيرة سيادة من عشائر تميم الكثيرة، وفي أسرة حانية، فقد أحبه أبوه، وكان يسميه «هُميِّماً»، أو «هميميماً». وعاش له أبوه حتى كبر وشب، وكان له القدوة؛ وأحبته أمه، عرفنا أنها أرسلته يوماً يرعى الخراف، فأكل الذئب خروفاً منها، فقال الفرزدق في ذلك شعراً، ونعرف أنه حج بأمه. فهذا شاعر نشأ في بيت حنون.

ومثلما أحب أبويه وأحباه، أحب الفرزدق أولاده وبناته، ولا سيما ابنته مكية التي ولدتها له أَمَة سوداء. ولا نصدق أن ابنه لَبَطَة كان عاقاً. لعل الفرزدق غضب مرة على لبطة فقال فيه أبياتاً سرق نصفها من شاعر قديم. لعله ما قال تلك القصيدة إلا ليسرق تلك الأبيات! فأما لبطة فقد كان راوية والده ورسوله في المهمات الملمات.

أحب الفرزدق زوجته النوار حباً جارفاً ثلاثة أرباعه تعلُّقٌ بها لأنها ظلت

ناشزة من يوم تزوجها إلى يوم أصرت على الطلاق فطلقها، وبعد الطلاق ظل يحبها، وإلى يوم وفاتها أحبها. وقد أنجبت له لَبَطة وسبطة وحبطة وركضة وزمعة. ولا نظن أنه كان للنوار، ذات الاسم الجميل، يد في تسمية أولئك الأبناء. ولا نصدق أساساً كل ما قاله مؤرخو الأدب القدامى، لعلهم رأوا اسم لبطة غريباً فشفعوه بأسماء غريبة أخرى. غير أن النوار عاشت في كنف لبطة بعد طلاقها.

رغم كل هذا الحب والحنان الأسري فقد كان الفرزدق يتبعق أنانية وشراسة. كان مزواجاً، وكان زناء، وقاذفاً للمحصنات. وكان فيما بين الكبيرة والكبيرة يخاف الله. كان في عقليته جاهلياً يتذكر بين الفينة والفينة أنه مسلم. وكان في نفسيته غضوباً سريع الاهتياج.

كانت البصرة والكوفة في آخر عهد الخلفاء الراشدين محطة لشتى القبائل، الأزد وتميم وتغلب وغيرها، ينطلق الناس منهما في حملات الفتح. وعندما بدأت الفتنة، وقتل عثمان وتولى الخلافة علي غدا الاستقطاب السياسي الوصف الملائم: فالعراق مع علي، والشام مع معاوية. وفي الفتنة كانت تميم مع علي. وقد وفد غالب والد الفرزدق على الإمام علي ومعه ولده، وله من العمر نحو سبع عشرة سنة، وقال «غالب» لأمير المؤمنين علي إن ابنه بدأ يقول الشعر، فنصح علي للفتى أن يقرأ القرآن.

ثم اغتيل علي، وخلص الأمر لمعاوية.

كان الفرزدق في العشرين عندما استتبَّتْ دولة بني أمية في عام ٤١ للهجرة. كان قد استوى له الشعر، فقد تدرب على هجو الناس وهو يافع. قال أبياتاً في معاوية بن أبي سفيان، فطلبه والي البصرة زياد بن أبيه، ففر منه، وأخذ يتنقل بين القبائل، والخوف مستولٍ عليه. فزياد مخوف الجانب، وعقابه شديد، وعنده للفرزدق ملف سمين، فإذا ما اختار زياد الإغضاء عن كلام الفرزدق لمعاوية حفاظاً على مقام الخلافة، وحتى لا يكون قد جعل الفرزدق ومعاوية خصمين متكافئين، فهناك كثيرون ممن هجاهم الفرزدق وهتك أعراضهم، وما أيسر أن يؤخذ شاعرنا بتلك الجرائر.

قال الفرزدق أبياتاً كثيرة يعتذر فيها لزياد، ويذكر خوفه منه. ونقل إليه أن زياداً عفا عنه وطلبه كي يعطيه، ولكن الفرزدق خاف القدوم على زياد، وواصل فراره حتى أتى المدينة المنورة، وعليها سعيد بن العاص الصحابي الأموي

السخي. بادره الفرزدق بالقول: لم استحلَّ دماً ولا مالاً، فآواه سعيد، فمدحه الفرزدق. وعاش في المدينة يسمع الشعر والغناء، ويرتاد بيوت القيان، ويزني أو يزعم أنه يزني، ويقول في ذلك شعراً، والوالي سعيد بن العاص، وكان فيه لين، يغضي عن أقواله وأفعاله. ثم تولى المدينة مروان بن الحكم، وكان شديداً، فأخرج الفرزدق عن المدينة، فذهب إلى مكة، وعاد سيرته الأولى يرتجف خوفاً من زياد بن أبيه، ولم يمض طويل وقت حتى جاءه خبر موت زياد فتنفس الصعداء، وعاد إلى البصرة وهو رجل في نحو الثالثة والثلاثين.

قد شهد الفرزدق في المدينة ومكة مجالس العلماء والشعراء. لقي شعراء الحجاز وانتبه إلى ما في شعر عمر بن أبي ربيعة من قصة، فكان في شعر الفرزدق قصة. حتى الحطيئة المخضرم، الذي شهد قطعة صالحة من الجاهلية، فقد لقيه الفرزدق في مجلس الوالي سعيد بن العاص. وعندما رجع إلى البصرة كان قد ملأ رئتيه من جو الحجاز المترف. وعاد في مقبل حياته إلى الحجاز مرات كثيرة حاجاً وغير حاج.

عاد الفرزدق من منفاه ليجد ابن زياد قد تولى العراق خلفاً لأبيه، فمدحه وتقرب إليه.

لبث الفرزدق بالبصرة، يزور مسقط رأسه كاظمة، ويقوم على ماله، ويتزوج وينجب. لكن صفته الراسخة هي أنه شاعر يتغنى بأمجاد عشيرته دارم وقبيلته الكبرى تميم. وظل يعطف على أهل البيت غير ناس ذلك الولاء القديم الذي دانت به قبيلته تميم لعلي، غير أنه كغيره من الشعراء يخشى ولي الأمر ويطيعه.. ويمدحه.

مات معاوية سنة ٦٠ وتولى يزيد، وكانت فتنة أخرى سنة ٦١ بمقتل الحسين بن علي وهو يسعى في الخروج على الأمويين. وامتنع عبد الله بن الزبير في الحجاز عن البيعة ليزيد، واستقل بالحجاز، وأرسل أخاه مصعباً والياً على العراق. واستمر العهد الزبيري في الحجاز والعراق عشر سنوات، كان قلب الفرزدق فيها زبيرياً، وإن لم يمدح ابن الزبير. ففي عهده خادع الفرزدق ابنة عمه النوار واحتكما إلى ابن الزبير الذي نصرها عليه.

هذا ملخص قصته مع النوار: أرادت النوار أن تتزوج، فوكلت الفرزدق بتزويجها إلى رجل ارتضته، فزوجها الفرزدق من نفسه خديعة وغصباً. فرحلت إلى الحجاز واستجارت بابن الزبير فنصرها، قال لها: سأقنع الفرزدق بتطليقك،

فإن أبى قتلته. فقالت له: لا أرضى ذلك. ورضيت بالفرزدق على مضض، فرجع بها شاعرنا إلى البصرة.

كان العراق في عهد ابن الزبير يموج بالنزاعات بين القبائل، ولا سيما بين الأزد اليمنية وتميم المضرية. وكان الفرزدق لسان قومه. لكنه في هذا الزمن، في سنة ٦٦ للهجرة على التعيين، انخرط في معركة داخلية سوف تستمر ثمانية وأربعين عاماً.

في هذه السنة بدأ التهاجي بين فحلي تميم: جرير والفرزدق. جرير يرسل قصائده من اليمامة فتتردد أصداؤها في العراق، والفرزدق مقيم بالبصرة يهجو جريراً ويملأ محافل البصرة وغير البصرة بأشعاره.

انتهى العهد الزبيري في الحجاز بمقتل عبد الله بن الزبير، وفي العراق بمقتل مصعب بن الزبير، واستتب الأمر لبني أمية، واستتب الأمر للخليفة عبد الملك بن مروان. أرسل عبد الملك أخاه بشراً والياً على العراق. فمدحه الفرزدق، ومدحه جرير. واستطاب بشر التهاجي بينهما أكثر مما استطاب المدح، فكان يحرض كلاً منهما على صاحبه. ومات بشر بعد قليل، فجاء الحجاج والياً على العراق. وسيظل والياً عشرين سنة. وقد نال من مدح الجريرين كليهما الكثير.

والفرزدق في كل هذه السنوات مقيم في العراق، يمدح الولاة ولا يقترب من الخلفاء، ولا يزور دمشق، لكننا نجد له مدحاً في عبد الملك. أما جرير فكانت له قصائد في عبد الملك ثم في ابنه الوليد، وفيمن تلاهما.

وظل الفرزدق وجرير يتهاديان قصائد الهجاء الشنيعة، وانضم إليهما الأخطل مناصراً الفرزدق.

ومدح الفرزدق بعد الحجاج عمر بن هبيرة، ولم ينس أن يرثي الحجاج، ثم تذكر بعد حين أن يهجوه ميتاً. ومدح بعد عمر بن هبيرة خالد بن عبد الله القسري والي العراق، لكن بعد أن كان هجاه طويلاً.

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك زار الفرزدق الشام مادحاً. كان شيخا أناف على السبعين، وقد أحب سليمان وأكثر من مدحه، لكن سليمان مات بعد ثلاث سنين، وجاء عمر بن عبد العزيز خليفة، وليس للشعراء عند عمر شيء يذكر. ومات عمر بعد سنتين وللفرزدق ثمانون سنة. ومدح الفرزدق يزيد بن

عبد الملك ونال عطاياه، وبعد سنوات أربع، ودع الفرزدق خليفته الأموي التاسع. عاصرهم جميعاً واعياً وشاعراً وإن لم يلقَ إلا المتأخرين منهم، واستقبل خليفته الأموي العاشر هشام بن عبد الملك.

لم ينل حظوة عند هشام الذي لم يكن سخياً على الشعراء. فمدحه قليلاً وعرَّض به في أبيات قليلة فغضب عليه، وقيل سجنه ثم أطلقه، وكان له قبل سنوات كثيرة موقف مع هشام في مكة قبل أن يستخلف هشام، حين عرض بالأمير الشاب مادحاً زين العابدين حفيد الإمام علي في قصيدة طائرة الصيت.

عندما بلغ الفرزدق التسعين تزوج للمرة العاشرة أو العشرين.. وافتضح عجزه، وسبه به جرير.

مات الفرزدق عام ١١٤، في خلافة هشام، وعمره أربع وتسعون سنة قمرية. ورثاه جرير، وعاش بعده أشهراً. وانتهت بذلك أطول وأسخن معركة هجاء في تاريخ الشعر العربي.

انتفعتُ في سيرة الفرزدق بكتاب شاكر الفحام، وبما كتبه القدماء كأبي الفرج الأصفهاني وابن قتيبة وابن سلام الجمحي. وقد رأيت بيتاً من أجمل الشعر نسبه الثعالبي إلى الفرزدق، وليس في الديوان:

وإنَّا وسَعداً كالفَصيلِ وأُمِّه إذا وَطِئَتْهُ لم يَضِرْه اعتمادُها

أي أننا وقبيلة سعد متآخيان، فإن وقع بيننا شر فهو لا يستطير، مثلما تدوس الناقة على فصيلها لكنها لا تؤذيه، لأنها أمه. ونقلوا بيتاً يشبه هذا قاله عبد المسيح بن كلال لأحد ملوك الغساسنة:

نميلُ على جوانبِه كأنَّا نميلُ، إذا نميلُ، على أبينا

وقد أخذنا ما أخذنا من شعر الفرزدق من الدواوين التي بأيدي الناس، وهي ضعيفة التحقيق؛ ونظرنا في النقائض. ولم نجد له ديواناً مشروحاً شرحاً حقيقياً، فأما النسخة التي كتبها إيليا الحاوي لتلامذته فشرْحُها شرحُ مَن كان مستعجلاً. وقد نشر مجموعة من شعره الفرنسي بوشير عن نسخة محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي، وبعده بربع قرن (١٩٠٠) نشر يوزف هيل مخطوطة القسطنطينية مصورة تصويراً، مكملاً عمل بوشير.

ولم أجد طبعة محققة. وكل ما وجدته مما صدر بلبنان منقول عن طبعة

الصاوي بمصر. وقد عقد شاكر الفحام فصلاً ضافياً ذكر فيه النسخ الخطية للديوان ووصفها وصفاً مفصلاً.

ومع توفر كل هذه النسخ من شعر الفرزدق أصبح ميسوراً على الباحث الجاد أن يصنع نشرة محققة تجمع الشتات؛ وأين باحث جاد!

وكنت عثرت برسالة لبعض أكاديميي الزمن الأخير عن الفرزدق، فقلبت أوراقها عسى أن تفتح لي باباً ألجه إلى هُجر الكلام، فأنا ـ قد علمتَ ـ مولع بهؤلاء القوم أستَنحُ السانحة حتى أبسط فيهم لساني وأستطيل عليهم بالقوارع، وأتناول جنوبهم بالمقامع، فوجدت صاحبنا أدق من أن يبرى، وأرق من أن يرى، فهو يشف شفوفاً عما وراءه، فهل أطعن الهباء أو ألطم الهواء؟ ووجدته يتمسح بأستاذه الذي أشرف ـ لا شرُف ـ على رسالته، فلا تمر من سن قلمه فقرة إلا ذيَّلها بهامش ينسب فيه إلى أستاذه رأياً أو يأخذ عنه قولاً. وتذكرت أنني كنت في مرة سابقة قد غضضت من ذلك الأستاذ ومزقت فروته، ووقعت فيه بكلام كشف عوراته ورصد عثراته، وأبان مقاتله. فكففت عن التلميذ، فقاموس السباب يضيق عنه، ومن لم يجد عند الزنبور عسلاً لم يطمع بما في بطن الذبابة. قد مضى زمن قاء فيه الأكاديميون كتباً حشوها الثرثرة والتعالم، ثم عشنا لنرى تلامذتهم يبزونهم في الفهاهة، ويتفيهقون، ويزيدون في الموال آهة، ويترنمون.

فأما كتاب شاكر الفحام، وهو بالمناسبة رسالة جامعية، فقد أفدت منه كثيراً.

وبعد، فهذا ما اخترته من شعر الفرزدق، أبي فراس، همام بن غالب.

١ أرمي عن ربيعة

يمدح عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني:

وما زِلْتُ أَرمي عن رَبيعةَ مَن رَمى إليها، وتُخشَى صَولَتي مِنْ ورائِها

أرمي: أطلق السهام، صولتي: هجمتي/يقول: ظللت أدافع عن قبيلة ربيعة وأردُّ على من يهجوها بالشعر، وظل الشعراء يخشون هجومي عليهم دفاعاً عنها

ستَمْنعُ بَكْراً أن تُرامَ قَصائدي، وأَخْلُفُها مَنْ مات مِنْ شُعرائِها

ترام: يُقصَد إليها بشر، أخلفها: أعوضها/يقول: قصائدي ستمنع إلحاق الأذى بقبيلة بكر، وهي جزء من ربيعة، وسأعوضها عمَّن مات من شعرائها

٢ الآن استقر لكم الملك

يمدح عبد الملك بن مروان، وإن لم يكن وَفَد عليه:

تضاحَكَتْ أن رَأَتْ شيباً تَفَرَّعَني   كأنَّها أَبْصَرَتْ بعضَ الأعاجيبِ

تفرعني: علاني، يقول: ضحكت لرؤيتها شيباً علا رأسي، كأنها أبصرت عجيبة من الأعاجيب

فقلتُ إنَّ الحوارِيَّاتِ مَعْطَبَةٌ   إذا تَفَتَّلْنَ مِنْ تحتِ الجَلابيبِ

الحواريات: الفتيات الناعمات، معطبة: مَهلكة/الفتيات هلاك للرجل عندما تتفتل أجسامهن وتتلوّى ويبصبص عليها، ويتحراها ويتقراها، من وراء الجلابيب

يَأْبَى، إذا قُلْتُ أَنْسَى ذِكرَ غانِيةٍ،   قَلْبٌ يَحِنُّ إلى البِيضِ الرَّعَابيبِ

الرعابيب: الممتلئات، الريَّانات، غانية: حسناء/إن قلت لقلبي: انس ذكر إحدى الحسان أبى، وهو قلب يحن إلى البيض الممتلئات

يا أَيُّها الراكِبُ المُزْجي مَطِيَّتَه   يُريدُ مَجْمَعَ حَاجَاتِ الأَراكيبِ

المزجي مطيته: السائق جمله، الأراكيب: راكبو الإبل/المعنى الملموح: أيها الراكب الذي يسوق جمله إلى ساحة الخليفة، وهي مكان تلبية حاجات الزائرين القادمين على جمالهم

إذا أتيتَ أميرَ المؤمنينَ فقُلْ   بِالنُّصحِ والعلمِ قولاً غيرَ مَكذُوبِ:

قل للخليفة قول ناصح أمين لا يكذب:

أمَّا العِراقُ فقد أعطتْكَ طاعتَها،   وعَادَ يَعْمُرُ منها كُلُّ تَخريبِ

التخريب: الفساد والسرقة/العراق دانت لك بالطاعة، وعمرت بالسلم وانعقد الصلح بين القبائل، بعد أن كف الناس عن الاحتراب والسرقة

فالأَرضُ لِلَّهِ، ولَّاها خَليفتَه   وصاحِبُ اللَّهِ فيها غيرُ مَغلوبِ

هذه نظرية الحكم في العصور الوسطى بأوروبا: الأرض لله والحاكم ظل الله على الأرض. ونحن نسبق أوروبا في مثل هذه الأشياء دائماً

بَعدَ الفَسادِ الذي قد كانَ قامَ به   كذَّابُ مَكَّةَ مِنْ مَكْرٍ وتَخريبِ

بعد الفساد والتخريب، انتهاب الأموال، من جانب كذاب مكة، عبد الله بن الزبير، الذي بويع له بالخلافة بمكة حتى قتل عام ٧٢هـ واستقر الأمر لعبد الملك

رامُوا الخلافَةَ في غدرٍ، فأَخْطَأَهُمْ   منها صُدورٌ، وفَازوا بالعَراقيبِ

راموا: طلبوا، العراقيب: الرُّكَب، وأسفل الأطراف/أرادوا الاستيلاء على الخلافة غدراً، فلم يحصلوا إلا على أمور هامشية، وفاتهم قلب الخلافة

والناسُ في فِتنةٍ عمياءَ، قد تَركتْ أَشرافَهُمْ بين مقتولٍ ومَخْروبِ

محروب: مسلوب/ في ظلهم كان الناس في فتنة تركت أشراف الناس بين قتيل ومسلوب المال والمتاع. وكانت العصبيات القبلية ـ حتى البعيدة عن الصراع السياسي ـ شديدة في زمن حكم آل الزبير ولا سيما في العراق

فأصبحَ اللّهُ وَلّى الأمرَ خيرَهُمُ بعد اختلافٍ وصَدْعٍ غيرِ مَشْعُوبِ

صدع: شق، مشعوب: ملتئم مرتوق (من الأضداد)/ ولاك الله، وأنت خير الناس، بعد خلاف لم يكن يؤمل إصلاحه

تُراثُ عثمانَ كانُوا الأَوْلياءَ له، سِرْبالُ مُلْكٍ عليهِمْ غيرُ مسلوبِ

بنو أمية أولياء ميراث عثمان بن عفان (أصحابه فهو أموي)، وهذا التراث سربال (لباس) ملك لا يجوز سلبهم إياه

٣ نار غالب

ورَكْبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندَهُمْ لها تِرَةً مِنْ جَذْبِها بالعَصائبِ

ركب: مسافرون، ترة: ثأر، العصائب: العمائم/ رب مسافرين تعصف بهم الريح وتجذب عمائمهم كأن لها عندهم ثأراً

يَعَضُّونَ أَطرافَ العِصِيِّ، كأنَّها تُخَزِّمُ بالأطرافِ شَوْكَ العَقارِبِ

تخزم: تخِزُ وتخترق/ يمسكون عصيهم بأسنانهم كي يخفوا أيديهم داخل ملابسهم من البرد، وكأن الريح، وهي تخز الأطراف، إبر العقارب

سَرَوْا يَخْبِطُونَ الليلَ، وَهْيَ تَلُفُّهُمْ على شُعَبِ الأَكْوَارِ مِنْ كلِّ جانبِ

سروا: ساروا ليلاً، شعب الأكوار: أطراف سروج الجمال/ ساروا ليلاً على غير هدى، والريح تلفهم من جوانب رحل الجمل، وتهب عليهم من كل اتجاه

إذا مَا رَأَوْا ناراً يقولونَ: ليتَها، وقد خَصِرَت أَيديهِمُ، نارُ غالِبِ

خصرت: اشتد بها البرد/ إذا رأوا ناراً من بعيد، وقد بردت أيديهم، قالوا: ليتها نار «غالب»، والد الفرزدق، حيث الدفء والضيافة

٤ الباهلي والباهلية

إنِّي أَسُبُّ قبيلةً لم يمنعُوا حوْضاً، ولا شَربوا بِصافي المَشرَبِ

أسب هذه القبيلة الضعيفة التي لم تمنع (تحم) حوض ماء، ولا استطاعت المزاحمة لسقي إبلها باكراً قبل تلوث المياه من حوض عام

والـبـاهِـلِـيُّ، ولـو رأى عِـرْسـاً لـه يُغْشَى حَرامُ فِراشِها، لم يَغضبِ

لو رأى ابن قبيلة «باهلة» عرساً له (زوجة) يغشى (يؤتى) فراشها من قبل غريب، لم يغضب

٥ الطائي والطائية

إذا رفـعَ الـطَّـائـيُّ عـيـنـيـهِ رَفْـعَـةً رآني على الجوزاءِ فوق الكواكبِ

الطائي في منزلة متدنية، ولو رفع عينيه مرة لرآني عالياً فوق الجوزاء في السماء

ومـا طَـيِّءٌ إلَّا قَـبـائـلُ أُنـزِلَـتْ إلى أهلِ «عينِ التَّمْرِ» من كلِّ جانبِ

طيء مجموعة قبائل لا موطن لها وجيء بها إلى «عين التمر» من هنا وهنا،
فهم شراذم لا قبيلة متماسكة

فـمـا عَـلِـمتْ طائيَّةٌ مَن أَبٌ لَـهـا ولو سألتْ عن أصلِها كلَّ نَاسِبِ

الطائية لا تعرف لها أباً، كأنما هي مولودة في فراش سبية من السبايا، ولن تعرف أباها حتى لو سألت كل ناسب (عالم بالأنساب). قد كان أتاك الرد يا فرزدق من حاتم الطائي، وسيأتيك بعد بضعة عقود من أبي تمام والبحتري الطائيين

٦ محتطب الأساود

وإنَّ امْـرَأً يـغـتـابُـنـي لـم أَطَـأْ لـه حَريماً، ولا تَنْهاهُ عنِّي أقارِبُهْ..

الذي يغتابني دون أن أكون وطئت حريمه (زنيت مع امرأة له)، ثم لا تنهاه عن ذلك أقاربه..

كَمُحْتَطِبٍ يوماً أَسَاوِدَ هَضْبَةٍ، أتاهُ بِها في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حاطِبُهْ

.. إنما هو كمن يجمع الحطب ليلاً، فيضم الأساود (الأفاعي) مع العيدان،
جاهلاً خطورة ما يصنع

٧ عين لم تكن لخليفة

حج هشام بن عبد الملك، وهو خليفة، فصحبه الفرزدق من المدينة إلى مكة، ورجع إلى المدينة، ورجع معه، فأمر له بخمسمئة درهم فقال:

يُـرَدِّدُني بـيـنَ «الـمـديـنـةِ» والـتـي إليها قلوبُ الناسِ يَهوي مُنيبُها

منيبها: الراجع لها/يروح ويأتي بي بين المدينة المنورة وبين مكة التي تشتاق إليها قلوب الناس فتهوي نحوها

يُقَلِّبُ عَيْناً لم تكُنْ لِخليفةٍ مُشَوَّهةً حَوْلاءَ بَادٍ عُيوبُها

هذا أول خليفة أحول. وكان هشام أحول

٨ أظفار العشيرة

ألا حَبَّذا البيتُ الذي أنتَ هَايِبُهْ تـزورُ بـيـوتـاً حـولَـهُ وتُـجَـانِـبُـهْ

حبيب إليك هذا البيت الذي تهابه فتزور ما حوله وتتجنبه

تُـجانِبُهُ مِـنْ غيرِ هَـجْرٍ لأهلِهِ ولـكـنَّ عـيْـنـاً مِـنْ عَـدُوٍّ تُـراقـبُـهْ

تتجنبه ليس هجراناً لساكنيه، بل خوفاً من عدو تراقبه (تحذره)

وليس شَبابٌ بعد شَيْبٍ بِراجِعٍ يَدَ الدهرِ، حتَّى يَرجِعَ الدَّرَّ حالِبُهْ

يد الدهر: طول الدهر/لن يرجع الشباب بعد الشيب أبداً، هذا مثل أن يَرجع (يُعيد) حالب الناقة الدر (الحليب) إلى ضرعها

ومَـن يَـتَـخَـمَّـطْ بِـالـمـظـالِـمِ أَهْـلَـهُ ولو كَرُمَتْ فيهِمْ وعَزَّتْ مَضارِبُهْ..

يتخمط: يغمس ويخلط/من يغمس أهله بتصرفات فيها مظالم لهم ولغيرهم، وحتى لو كانت مضاربه (بيوته ونسبه) كريمة وعزيزة..

يُـخَـدَّشْ بِـأَظْـفَـارِ الـعـشـيـرةِ خَـدُّهُ وَتُـجْـرَحْ رُكُـوبـاً صَـفْـحَـتـاهُ وغَـارِبُـهْ

صفحتاه: جنباه، غاربه: ظهره/.. فهو يتعرض للأذى من عشيرته، ويستعلون عليه فكأنهم يركبونه ويوسعونه ضرباً

٩ لو في الجاهلية

يخاطب معاوية بن أبي سفيان:

أَبُـوكَ وعَـمِّـي يـا مُـعـاوِيَ أَوْرَثـا تُـراثـاً فـأَوْلـى بـالـتـراثِ أَقـارِبُـهْ

أبوك، أبو سفيان بن حرب، وعمي الحتات تركا ميراثاً، والأولى به الأقارب

وميراث معاوية هو الملك وما يأتي به من خراج وغنائم، وميراث «الحتات» التميمي هو نصيبه من ثروة الدولة. كان معاوية أعطى الحتات عشرة آلاف درهم، وأعطى الأحنف بن قيس أربعين ألفاً واستكتمه، وانصرف الرجلان وكلاهما سيد في تميم. وباح الأحنف للحتات، فرجع الحتات إلى معاوية، فكتب له بثلاثين ألفاً. وفجأة مات الحتات، فاستردَّ معاوية الثلاثين ألفاً..

فـمـا بـالُ مِـيراثِ الـحُـتَـاتِ أَكَـلْـتَـهُ ومِـيـراثُ حربٍ جَـامِـدٌ لـكَ ذَائِـبُـهْ

فلماذا أخذت نصيب «الحتات» وظل لك ما ورثت عن «حرب» تتصرف به وقتما تشاء؟

فلو كان هذا الحكمُ في جاهليةٍ عرفتَ مَنِ المَولَى القَليلُ حَلائبُهْ

المولى: السيد، حلائبه: أنصاره/لو كنا في الجاهلية لعرفت من السيد القليل الأنصار

١٠ الجلود اللئيمة

إذا لَبِسَتْ قيسٌ ثياباً سمعتَها　　تُسَبِّحُ مِن لُؤمِ الجُلودِ ثيابُها
جُعِلْتُ لِقيسٍ لعنةً نزلتْ بِهِمْ　　مِنَ اللَّهِ، لن يَرتَدَّ عنهُمْ عذابُها

هجائي لقيس لعنة إلهية لن تزول عنهم

١١ أباهل.. أنا جاهل

يهجو الأصم الباهلي:

أَبَاهِلَ، إنَّ الماءَ ليس بِغَاسِلٍ　　مَخازِيَ عنكُمْ، عارُها غيرُ ذاهبِ

يهجو قبيلة باهلة

وإنَّ سِبَابيكُمْ لَجَهْلٌ، وأنتُمُ　　تُباعونَ في الأسواقِ بَيْعَ الجَلائِبِ

سبابيكم (شتمي لكم) جهل مني لأنكم مجرد عبيد تباعون بيع الجلائب (من جلبوا من بعيد)

١٢ هب لي خنيساً

استجارت الأم بالفرزدق، كي يشفع لها عند الوالي تميم بن زيد فيعيد ابنها المقاتل من الثغور، فكتب الفرزدق هذه الأبيات وبعث بها إلى الوالي، ولما وصلت رقعة الفرزدق إلى الوالي لم يحقق اسم الابن أهو خنيس أم حبيش، فأمر بأن يعاد من البعثة كل من اسمه حبيش وخنيس:

تميمَ بنَ زيدٍ! لا تَهونَنَّ حاجتي　　لديكَ، ولا يَعْيا عليَّ جوابُها

أيها الوالي لا تعامل حاجتي التي أصبحت لديك باستهانة، ولا يعيا (يمتنع) عليَّ حصول استجابتك

ولا تَقْلِبَنْ ظَهراً لِبَطْنٍ صحيفتي،　　فشاهِدُ هَاجِيها عليكَ كِتابُها

ولا تقلِب رسالتي على وجهها، فمجرد كتابها (كتابتها) دليل على أن الرسالة الهاجية قد تتبع

وهَبْ لي «خُنَيْساً»، واتَّخِذْ فيهِ مِنَّةً　　لِحَوْبَةِ أُمٍّ ما يَسوغُ شرابُها

هب لي (امنحني) خنيساً، واجعل من ذلك منة (معروفاً) تقدمه لحوبة (حاجة) أُمٍّ لم يعد يسوغ الماء في حلقها لفرط حزنها

١٣ رثاء الأخ

يرثي أخاه:

أَبى الصَّبرَ أَنِّي لا أَرى البدرَ طالعاً　　ولا الشمسَ إلَّا ذَكَّرا بِابنِ غالبِ

منع الصبر عني أنني لا أرى البدر أو الشمس إلا تذكرت أخي، الذي كان يشبههما بهاء

١٤ بعد موتي

زعموا أنه ردد هذين البيتين على فراش الموت:

أَرُونـيِ مَـنْ يـقـومُ لـكُـمْ مَـقـامـيِ إذا مـا الأمـرُ جَـلَّ عـنِ الـعِـتَـابِ

من يسد مسدي إذا تجاوز الخلاف بينكم وبين غيركم مجرد العتاب، فأصبحتم بحاجة إلى شاعر يدافع عن شرفكم

إلـى مَـن تَـفـزَعـونَ إذا حَـثَـوْتُـمْ بِـأيـديـكُـمْ عـلَـيَّ مـن الـتُّـرابِ؟

إلى من ستفزعون (تلجأون) بعد أن تحثوا (تهيلوا) عليَّ تراب قبري؟

١٥ الزواج بالكواكب

يهجو جريراً، وقد عيره جرير بأنه ساق مهراً كبيراً لحدراء بنت زيق:

فلو كنتَ من أكْفاءِ حَدْراءَ لم تَلُمْ عـلـى دارِمِـيٍّ بـيـنَ لـيـلَـى وغـالـبِ

لو كنت كفئاً لحدراء ذات النسب والحسب ما كنت لمتني وأنا رجل من قبيلة دارم، وليلى جدتي ابنة أشرف أشراف القبيلة، وغالب أبي ذو شرف عريض

ولو تُنْكِحُ الشمسُ النجومَ بناتِها إذن لَـنَـكـحـنـاهُـنَّ قـبـلَ الـكـواكـبِ

لو كانت الشمس تزوج بناتها النجوم لتزوجناهن نحن. لم يكن ثمة تفريق علمي في زمنهم بين كوكب ونجم

١٦ الابن العاق

قال لابنه لَبَطَة وقيل إنه كان عاقاً:

أَإِنْ أُرعِشَتْ كفَّا أبيكَ، وأصبحتْ يَـداكَ يَـدَيْ لَـيْـثٍ فـإنَّـكَ جـاذِبُـهْ؟

إإن كبر أبوك وأخذت كفاه ترتعشان، ثم قويت يداك أنت، فإنك تجذبه بغلظة؟

البيت في حماسة أبي تمام، نسخة أبي رياش والتبريزي، ولم يروه المرزوقي، وهو في الحماسة منسوب إلى قُرعان بن الأعرف يقوله لابنه منازل

إذا غَـلـبَ ابـنٌ بـالـشـبـابِ أبـاً لـه كـبـيـراً فـإن الـلَّـهَ لا بُـدَّ غـالِـبُـهْ

ولـمَّـا رآنـي قـد كَـبِـرْتُ، وأنـنـيِ أَخُو الحِيِّ، واستغنَى عنِ المَسْحِ شارِبُهْ..

لما رآني كبرت، وصرت ملازماً للحي (مضارب القبيلة)، واستغنى شارب الابن (شفتاه) عن المسح عند الأكل، أي أنه لم يعد طفلاً. و«استغنى عن المسح شاربه» منسوبة لابن الأعرف في الحماسة

أصــاخَ لِـغِـرْبــانِ الـنَّـعِـيِّ، وإنَّــهُ   لأَزْوَرُ عـن بعـضِ الـمَقـالـةِ جـانـبُهْ

أصاخ (أرخى سمعه) لمن يمكن أن ينقل خبر موتي، أي استعجل موتي، وأصبح يزوَرُّ (يبتعد) عن قولي.. لم يعد يهتم بأحاديث والده الشيخ

١٧ أبوك قَبلك

كان جرير شكا من أن جاريته هجرته لأنه أسن، ولأنه لا يقدم لها أطايب الطعام من مرقق وصناب، فقال له الفرزدق:

لـئِـنْ تَـفْـرُكْـكَ عِـلْـجَـةُ آلِ زيـدٍ   ويُـعـوِزْكَ الـمُـرَقَّـقُ والـصِّـنـابُ

إن كان علجة آل زيد (الجارية التي اشتريتها منهم) فركتك (هجرتك)، وإن كان لا يتيسر لك المرقق (الرغيف) والصناب (إدام من خردل وزبيب)

فَـقِـدْمـاً كـان عـيـشُ أبـيـكَ مُـرّاً   يـعـيشُ بـمـا تـعـيشُ به الـكـلابُ

فقدماً (كثيراً في الماضي) كان أبوك يعيش عيش الكلاب

١٨ رِدَّة متأخرة

أتـابـعـةُ الأوثـانِ بَـكـرُ بـنُ وَائـلٍ   وقد أسلمتْ تِسعينَ عاماً وصَلَّتِ

١٩ في ظل عصفور

ومـا مـنـعـتْـنـا دارَهـا مِـن قـبـيـلـةٍ   إذا ما تـميمٌ بالـسيوفِ استَظلَّتِ

ولـولا حِـذَارٌ أن تُـقـتَّـلَ طَـيِّءٌ   لـمـا سَـجَـدتْ لـلَّـهِ يـومـاً وصَـلَّـتِ

أسلمت طيء خوفاً

ولـو أن عُـصـفُـوراً يَـمُـدُّ جـنـاحَـهُ   على طَيِّءٍ في دارِهـا لاسْـتَـظَـلَّـتِ

قصيدة الفرزدق رد على قصيدة من فاخر الشعر للطرماح بن حكيم. وهذا البيت ينظر إلى أبيات الطرماح المشهورة:

تميمٌ بطُرْق اللؤم أهدى من القَطا ولو سلكت طرق المكارم ضلت//فلو أن يربوعاً يزقِّق مَسكه إذن نهلت منه تميم وعلت//ولو أن برغوثاً على ظهر قملة يكر على صفي تميم لولت//ولو جمعت يوماً تميم جموعها على ذرة معقولة لاستقلت//ولو أن أم العنكبوت بنت لهم مِظلتها يوم الندى لأكنَّتِ

٢٠ أنا والعذارى

إذا ما العَذارَى قلنَ: عَمٌّ! فليتَني، إذا كانَ لي اسْماً، كنتُ تحتَ الصَّفائحِ

إذا بدأت العذارى ينادينني بيا عم، فليتني - إن كان هذا هو اسمي لديهن - كنت تحت الصفائح، والصفائح: حجارة مسطحة يطرد كل واحد منا عن ذهنه فكرة أنه سينام تحتها يوماً

دَنَـوْنَ، وأَدناهُـنَّ لـيِ أَن رأيـنَـنـي أخذْتُ العصَا وابيَضَّ لونُ المَسائحِ

دنون (اقتربن)، وما جعلهن يقتربن مني إنما هو شعورهن بالأمان إذ بيدي عصا وقد ابيض لون المسائح (خصلات الشعر).. في العادة يقول الشاعر إن النساء يبتعدن عنه عندما يشيخ، ولكن الفرزدق كان فاتكاً زناء هجَّاماً على النساء، يبتعدن عنه شاباً ولا يقتربن منه إلا إن حمل العصا وتأكدن من ضعفه

٢١ تخشيني زياداً

وقامتْ تُخشِّيني زياداً، وأجفَلَتْ حَـوالَـيَّ فـي بُـرْدٍ رقـيـقٍ ومِجْـسَـدِ

وقفت وراحت تخشيني (تخوفني) من سطوة زياد بن أبيه، وارتجفت وهي تتحرك حوالي لابسة برداً (رداءً) رقيقاً ومجسداً (ثوباً لاصقاً بجسدها..) الصورة: هو جالس على حشية، وهي تجلس معه، ثم خطر لها زياد وبطشه، فوقفت قلقةً وأخذت تأتي شاعرنا من عن يمينه ومن عن شماله - يفعلن ذلك في السينما كثيراً -، وهي تكلمه عن زياد وتخوفه منه

فـقـلـتُ ذَريـنـي مِـنْ زيـادٍ، فـإنـنـي أرى الموتَ وقَّافاً على كلِّ مَرصَدِ

قلت لها: دعيني من زياد، فالموت واقف على كل مرصد (يراقبني من كل مكان)

حَوارِيَّةٌ تمشي الضُّحَى مُرْجَحِنَّةً، وتَمشي العَشِيَّ الخَيزَلَى رِخْوَةَ اليَدِ

حوارية (فتاة ناعمة) تمشي في وقت الضحى مرجحنة (متمايلة) أكسَلَها ما بها من بقية نوم، فالفتاة المدللة تصحو ضحى، وفي العشي تمشي الخيزلى (مشية هادئة) وقد أرخت يديها، فهي ليست كالنساء العاملات اللائي يمشين وقد ثنين الذراعين متهيئات للشغل. ليتخيل القارئ خادمة تمشي، أيراها ماشية ويداها مرتخيتان على جانبي جسمها؟

٢٢ السيف الخائن

قال الفرزدق وقد طلب إليه قطع عنق أسير في مجلس سليمان بن عبد الملك، فنبا سيفه، ولم يفعل شيئاً:

فإنْ يَكُ سيفٌ خانَ، أو قَدَرٌ أَبَى وتأُخيرُ نفسٍ، حَتْفُها غيرُ شاهِدِ..

إن كان سيفي خانني ولم يقطع رأس الأسير، أو كان القدر قد أبى للأسير القتل، وتأخر أجل هذه النفس التي لم يكن حتفها (موتها) شاهداً (حاضراً) في ذلك الوقت..

فسيفُ بني عبسٍ، وقد ضَربوا به،   نَبَا بِيدَيْ وَرْقَاءَ عن رأسِ خالدِ

. . فإن سيف بني عبس في حادثة سابقة كان قد نبا (انحرف) عن رأس خالد عندما ضربَتْ به يد ورقاء

كَذاكَ سيوفُ الهندِ تنبُو ظُباتُها   ويَقطَعنَ أحياناً نِياطَ القَلائِدِ

وسيوف الهند الأصلية هكذا: تنبو ظباتها (تنحرف شفراتها) أحياناً، لكنها أحياناً تقطع نياط (عروق) القلائد (الرقاب)

٢٣ فثَمَّ مَعدٌّ

أبتْ مُضَرُ الحَمْراءُ إلا تكَرُّماً   على الناسِ، يَعلُو كلَّ جَدٍّ جُدودُها

مضر الحمراء (كذا لقب «مضر»/ قيل لأن الجد الأكبر «مضر» ورث عن أبيه الذهب، بينما ورث أخوه الخيل) أبت إلا أن تكون منعمة على الناس، وجدودها (نصيبها من المجد) تعلو كل جد

إذا ما قضَينا في البلاد قضيَّةً   جرى بينَ عَرضِ المَشرقينِ بريدُها

إذا قررنا أمراً، فالخبر بذلك يحمله البريد بين عرض المشرقين (الشرق والغرب) لأن قرارنا له أثر في كل الناس

لقد علمَ الأحياءُ في كلِّ موطِنٍ   بأنَّ تميماً ليسَ يُغْمَزُ عودُها

الأحياء: القبائل. ليس يغمز عودها: لا يتعرض لها أحد بالمناكفة على سبيل التجريب لهيبتها

ويوماً تميم: يومُ حربٍ ونجدةٍ،   ويومُ مَقاماتٍ تُجَرُّ بُرودُها

تميم إما أن تكونُ محاربة وتهب لنجدة من استجار بها، أو تكون حاضرة المقامات (المحافل) ويكون سادتها في ثياب فاخرة يجرون أطراف البرود (الثياب)

كأنَّكَ لم تعرِفْ غَطارِيفَ خِنْدِفٍ   إذا خَطبتْ فوق المنابرِ صيدُها

كأنك لم تعرف غطاريف (سادة) خندف (القبيلة الكبرى التي تضم تميماً وقريشاً وغيرهما) عندما تخطب على المنابر صيدها (سادتها المزهوون)

إذا اجتمعَ الحَيَّانِ: قيسٌ وخندفٌ   فَثَمَّ مَعَدٌّ: هَامُها وعديدُها

إذا اجتمع الحيان (القبيلتان): قيس عيلان وخندف فثم (فهناك) قبائل معد هامها (رأسها) وعديدها (كثرتها الكاثرة)

وإنَّ امْرَأً يرجُو تميماً وعزَّها   كباسِطِ كفٍّ للنجومِ يريدُها

من طلب أن يكون له مثل عز تميم كمن طلب أن يمسك النجوم بكفه

ومِنَّا نبيُّ اللَّهِ يتلُو كتابَه   به دُوِّخَتْ أوثانُها ويهودُها

منا (من خندف) النبي الذي دوخ بالقرآن الأوثان واليهود

وما باتَ مِنْ قومٍ يُصَلُّونَ قِبْلَةً ولا غيرُهُمْ، إلّا قُريشٌ تَقُودُها

قريش تقود كل من يصلون إلى أي قبلة، وغيرهم ممن لا يصلون لقبلة معينة

٢٤ بنى بيعة فيها الصليب

وأَبلِغْ أميرَ المؤمنينَ رِسالةً فَعَجِّلْ هَداكَ اللَّهُ نزعَكَ خالدا

اعزل يا أمير المؤمنين خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق

بنَى بِيعَةً فيها الصليبُ لأُمِّهِ، وهَدَّمَ مِن بُغضِ الصلاةِ المساجدا

بنى بيعة (صومعة عبادة) لأمه المسيحية، وهدم المساجد

٢٥ هرباً من الحجاج

فإنْ تُنْصِفُونا يَالَ مروانَ نقتربْ إليكُمْ، وإلّا فأْذَنُوا بِبِعادِ

إن تنصفونا يا آل مروان (الخلفاء الأمويين من مروان بن الحكم إلى آخر عهد بني أمية) نقترب، وإلّا فأذنوا (خذوا إشعاراً) بالبعاد

فإن لَنا عنكُمْ مَزاحَاً ومَذْهَباً بِعيسٍ إلى ريحِ الفَلاةِ صَوَادِ

فلنا عنكم مزاح (بديل) ومذهب (ذهاب)، بعيس (إبل شقر) صواد (عطاش) إلى ريح الفلاة (الصحراء)

مُخَيَّسَةٍ بُزْلٍ تَخايَلُ في البُرَى سَوَارٍ على طُولِ الفَلاةِ غَوَادِ

هذه الإبل مخيسة (مذللة) بُزْلٌ (قد بَزَلَتْ، أي خَرجت، أنيابها.. فهي فتية قوية) تتخايل (تتبختر بزهو) في البرى (وبأنوفها الحلقات) وهي سوارٍ (سائرة ليلاً) في الصحراء وغوادٍ (مبكرة في سيرها)

وفي الأرضِ عن ذي الجَوْرِ مَنأىً ومَذهبٌ وكلُّ بِلادٍ أوطَنْتَكَ بِلادي

وفي الأرض منأى (مكان قصي) عن ذي الجور (الظلم)، وكل بلد تحل بها فهي بلدك

وماذا عَسى الحجاجُ يبلُغُ جَهدُهُ إذا نحن خَلَّفْنا حَفيرَ زِيادِ؟

وماذا عسى الحجاج أن يفعل مهما بذل من جهد إن نحن تجاوزنا حفير زياد (قناة زياد) وخلفناه وراءنا؟

٢٦ فخر بالصدأ

يمدح مسلمة بن عبد الملك:

جنودٌ لِدينِ اللَّهِ تَضربُ مَن طَغى ومَسْلَمَةُ السيفُ الحسامُ يقودُها

تـرى صَـدَأَ الـمَـاذِيِّ فـوق جُـلـودِهِـمْ   وفـي الـسِّـلْـمِ أَمْـلاكٌ رِقـاقٌ بُـرودُهـا

أشداء في الحرب حتى لترى صدأ الماذي (حديد السيوف والدروع) على جلودهم، ولكنهم في السلم أملاك (ملوك) يلبسون البرود (الأردية) الرقيقة التي يلبسها المترفون

أَبَـى لِـبَـنـي مَـروانَ إلَّا عُـلُـوُّهُـمْ   إذا ما التقَتْ حُمْرُ المنايا وسودُها

ليس لبني مروان إلا العلو عند التقاء الموت الأحمر بالأسود في الحرب، الموت الأحمر: بالسيف والرمح، والأسود غرقاً أو دعساً بحوافر الخيل. (الأحمر والأسود يجمعان كل شيء، ففي الحديث «بعثت إلى الأحمر والأسود» أي لكل الناس، وكرهوا التعبير عن الإنسان الأبيض بلفظ البياض، لأن البياض البرص، فقالوا الأحمر)

أَرى كلَّ أرضٍ كان صَعباً طريقُها   أُذِلَّ لـكُـمْ بِـالـمَـشـرفـي كَـؤُودُهـا

المشرفي: السيف، كؤودها: صعبها

٢٧ محيي الموؤودات

ألَـم تَـر أنَّـا، بَـنـي دارِمٍ،   زُرَارةُ مِـنَّـا أبـو مَـعْـبَـدِ
ومِـنَّـا الـذي مـنـعَ الـوائِـداتِ،   وأَحْـيَـا الـوئـيـدَ فـلـمْ يُـوأَدِ

منا صعصعة الذي حال دون وأد البنات في الجاهلية، فكأنه أحياهن. وكان صعصعة، جد الفرزدق، يفتدي كل بنت يريد أبوها وأدها بناقتين أو ثلاث. قيل افتدى ستاً وتسعين بنتاً، وقيل بل أربعمئة. على الرقم اختلاف، لكن الفعل مؤكد. البداية كانت أن صعصعة أضاع ناقتين له، وراح ينشدهما، فوجدهما عند قوم، وسمع عند القوم عويلاً، فعرف أن المرأة أنجبت بنتاً، وأن الأب يريد دفنها حية. فقال صعصعة للرجل: خذ ناقتي هاتين وأبقِ على البنت. فقال الرجل: وتعطيني أيضاً جملك الذي تركبه؟ فرضي صعصعة. وعاشت البنت. وقال صعصعة لنفسه: هذه مكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب. ومضى يفتدي البنات

أَلَـسْـنـا الـذيـن تـمـيـمٌ بِـهِـمْ   تَـسامَـى، وتَـفـخَـرُ فـي الـمَـشـهـدِ؟

ألسنا، بني دارم، من تتسامى (ترتفع) بهم قبيلة تميم وتفخر في المحافل؟

أَيَـطْـلُـبُ مـجـدَ بَـنـي دارمٍ   عـطـيَّـةُ كَـالـجُـعَـلِ الأَسـوَدِ؟

وكيف يطلب إحراز مجدنا عطية (والد جرير) وهو قميء كالجعل (الصرصور) الأسود؟

٢٨ أمامك شماريخ

كان الفرزدق في نحو الخامسة والأربعين من العمر. تذكَّر نصيحة علي بن أبي طالب له، عندما أخذه أبوه للقائه قبل ثلاثين سنة، بأن يجمع القرآن. فقيد نفسه في بيته بقيد، وحلف لا يفك نفسه إلا بعد أن يحفظ القرآن. ثم وجد الشعراء يتعرضون لنساء قومه بالشتم، فاستعاذت به النساء، ففك قيده، ومضى يرد على الشعراء:

أَحينَ أَعاذَتْ بي تميمٌ نِساءها　　وجُرِّدْتُ تَجريدَ اليَماني مِنَ الغِمْدِ..

أعندما ألجأت تميم نساءها إليَّ لحمايتهن، وعندما جردت نفسي كما يجرَّد السيف اليماني من جرابه..

ومَدَّتْ بِضَبْعَيَّ الرَّبابُ ودَارِمٌ　　وعمروٌ، وسَالَتْ مِنْ وَرائي بَنُو سعدِ

.. وعندما أسندتْ ضبعي (جانبيَّ) قبائل الرباب ودارم وعمرو، وسالت (تدفقت) بنو سعد من ورائي مؤيدة لي..

تَمَنَّى ابْنُ رَاعي الإِبْلِ حَرْبي، ودُونَه　　شَماريخُ صَعْبَاتٌ تَشُقُّ على العبدِ

بعد كل هذا يتمنى ابن راعي الإبل (واسمه جندل/وهو ابن الشاعر راعي الإبل، وكان شويعراً سفيهاً) أن يحاربني؟ ودونه (قبل وصوله لمبتغاه) شماريخ (رؤوس جبال) يشق (يصعب) على عبد مثله أن يرتقيها

٢٩ الجائحات

يمدح عمر بن عبد العزيز:

وجَائِحَاتٌ ثلاثٌ مَا تَرَكْنَ لنا　　مالاً به بَعْدَهُنَّ الغيثُ يُنتَظَرُ

ثلاث جائحات (مصيبات/سنوات قحط) لم تترك لنا مالاً (إبلاً وشاءً)، فلم نعد ننتظر المطر، لأننا فقدنا البهائم نفسها التي سترعى العشب

عامٌ أتى قبلَه عامانِ ما تَرَكا　　مالاً، ولا بَلَّ عُوداً فيهما مَطَرُ

لم تترك سنوات القحط لنا مالاً (أنعاماً) ولم ينزل فيها مطر يبل عوداً

سِيروا، فإنَّ ابنَ لَيلَى مِنْ أَمَامِكُمُ　　وبَادِرُوهُ، فإنَّ العُرْفَ مُبْتَدَرُ

سيروا إلى ابن ليلى (الخليفة عمر بن عبد العزيز) وبادروا بالسؤال، فالعرف (العطية) يحتاج إلى سؤال

وبَادِرُوا بِابْنِ ليلى الموتَ، إن له　　كفَّينِ ما فيهما بخلٌ ولا حَصَرُ

بادروا (استبقوا) الموت بلقاء الخليفة، فله كفان ليس فيهما حصر (بخل)

أَلَيْسَ مروانُ والفاروقُ قد رفعا　　كفَّيْهِ؟ والعُودُ ماءَ العِرْقِ يَعتَصِرُ

هو سليل بني مروان والفاروق (وأم عمر بن عبد العزيز حفيدة عمر بن الخطاب)، وهذا النسب جعل كفيه عاليتين (واليد العليا هي التي تعطي)، والغصن إنما يستمد ثمره مما يعتصر ويمتص من ماء الجذر

أَلفيْتَ قومَكَ لم يُتْرَكْ لأَثْلَتِهِمْ　　ظِلٌّ، وعنها لِحَاءُ الساقِ يُقْتَشَرُ

قد وجدت قومك لم يبق لأثلتهم (شجرتهم/والأثل نوع من الشجر) ورقٌ فلا ظل لها، وحتى اللحاء فقد أخذ يقتشر عن ساقها

فأَصبَحُوا قد أعادَ اللَّهُ نعمَتَهُمْ. إذْ هُمْ قُريشٌ، وإذْ ما مِثلُهُمْ بَشَرُ

ثم بفضل عمر بن عبد العزيز المأمول سيعيد الله النعمة،
هؤلاء قريش وليس في الناس لهم مثيل

لا يستَثيبونَ نُعماهُمْ إذا سلَفَتْ وليس في فضلِهِمْ مَنٌّ ولا كَدَرُ

لا يطلبون ثواباً مقابل عطاياهم، ولا يكدرون الفضل بالمن (التذكير بالمعروف)

ولن يَزالَ إمامٌ منهُمُ مَلِكٌ إليهِ يَشخَصُ فوقَ المِنبرِ البصرُ

وسيظل منهم إمام (خليفة) مالك الأمور يشخص (يرتفع) إليه بصر الناس وهو على المنبر

٣٠ لا، وشكراً

هدد زياد بن أبيه والي البصرة ذو البطش الفرزدق، ففر منه، وأثناء تنقله بين القبائل فاراً نُقل إلى الفرزدق أن زياداً عفا عنه وتعهد له بعطاء، ولكن الفرزدق أبى العودة، والتجأ إلى المدينة المنورة:

دَعاني زيادٌ للعَطاءِ، ولم أَكُنْ لِأَقرَبَهُ، ما ساقَ ذو حَسَبٍ وَفْرا

دعاني زياد ليقدم لي العطاء، ولكنني لن أقربه أبداً؛ ما دام الرجل ذو الحسب يسوق المال الوفير صداقاً في زواج (أي: أبداً)

وعند زيادٍ لو يريدُ عطاءَهُمْ رجالٌ كثيرٌ قد يَرى بِهِمُ فَقْرا

فليعط زياد الناس الذين عنده من خيره، وليتركني بحالي

قُعُودٌ لَدى الأبوابِ طُلّابُ حاجةٍ: عَوانٍ على الحاجاتِ أو حاجةٍ بِكْرا

عنده ناس قعود (قاعدون) لدى الباب بعضهم يطلب حاجة عواناً (مكررة/ والعوان هي المرأة التي سبق لها زواج وتقدم على زواج آخر)، وبعضهم يطلب بكراً (للمرة الأولى)

فلمَّا خشيتُ أن يكونَ عَطاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً، أو مُحَدْرَجَةً سُمْرا..

عندما خشيت أن يكون العطاء المقصود الذي طلبني له أداهم (قيوداً) سوداً، أو محدرجة (سياطاً) سمراً..

فَزِعْتُ إلى حَرْفٍ أَضَرَّ بِنَيِّها سُرَى اللَّيلِ، واستِعراضُها البلَدَ القَفْرا

عندئذ فزعت (لجأت) إلى حرف (ناقة قوية) أضر بنيها (أهزل لحمها) سرى الليل (السير ليلاً)، واستعراضها (اجتيازها) البلد القفر (الصحراء)

٣١ لا نحالف

قصيدة تصف قصتُها المزاج النفسي للفرزدق. قال ابنه لبطة إن أبي وفد على أسد بن عبد الله الوالي في العراق ـ وأسد هذا يماني من بجيلة ـ وكان أبي قد شاخ فقلت له: أنشد الوالي شيئاً في مدح اليمن مما كنت قلته لآل المهلب. فسكت. ودخلنا على الوالي، فاستنشد أبي، فقال قصيدة مدح فيها مضر، لا اليمن. قال:

يَختلفُ الناسُ ما لم نجتمِعْ لَهُمُ، ولا اختلافَ إذا ما أَجمَعَتْ مُضَرُ

الناس في خلاف ما لم تجتمع مضر وتجمعهم حولها، فعندئذ لا خلاف

منَّا الكَواهِلُ والأَعناقُ تَقْدُمُها والرأسُ منَّا وفيه السَّمْعُ والبصرُ

منا الكواهل (أعالي الظهور/التي تحمل الأحمال) والأعناق منا، وكذا الرأس.. أي أن مضر هي الأساس لكل العرب

ولا نُحَالِفُ، إلَّا اللَّهَ، مِنْ أحدٍ غيرَ السيوفِ إذا ما اغْرَوْرَقَ النظرُ

لا نحالف قبيلة أخرى لقوتنا، نحالف الله وحده، ونحالف السيوف عندما يشتد الأمر ويغيم البصر وتنزل الدموع في غبار المعارك

ومَنْ يَمِلْ يُمِلِ المأثورُ ذِرْوَتَهُ حيثُ التَقى مِن حِفافَيْ رأسِهِ الشَّعَرُ

من مال عن إرادتنا أمال المأثور (السيف) ذروته (رأسه)، وضُرب في موضع التقاء الشعر من حفافي (جانبي الرأس)

أمَّا العدوُّ فإنَّا لا نَلينُ لَهُمْ حتى يَلينَ لِضِرْسِ المَاضِغِ الحجرُ

ولا نلين للعدو حتى يلين لضرس المرء الحجر فيصبح قابلاً للمضغ (أي لا نلين أبداً)

٣٢ شماتة

يهجو مسكين بن عامر الدارمي، لأنه رثى زيادَ بن أبيه:

أَمِسْكينُ أَبْكَى اللَّهُ عينَكَ، إنَّما جرى في ضلالٍ دمعُها إذ تحدَّرا

بكيت في ضلال عندما تحدر (نزل) دمعك في رثاء ذلك الظالم

أتبكي امْرَأً مِن أهلِ مَيْسَانَ كافراً كَكِسرَى على عِدَّانِهِ أو كَقَيْصَرا

أتبكي رجلاً كافراً من أهل ميسان (فهو ليس ابن أبي سفيان كما زعموا)، وهو في الكفر ككسرى على عدانه (في زمانه) أو كقيصر

أقـولُ لـه لـمَّـا أتـانـي نَـعِـيُّـهُ: بهِ لا بِظَبْيٍ في الصَّـرِيمَـةِ أَعْـفَـرَا

قلت عندما جاءني نعي زياد: لينزل الموت به، ولا يفتدى من الموت، ولا حتى بظبي أعفر (بني اللون) في الصريمة (في الرمل). وسار قوله «به لا بظبي في الصريمة أعفرا» مسير المثل، يضرب في الشماتة بميت

٣٣ بعدما غضبت!

يهجو جريراً:

أَتسألُني أن أَخفِضَ الحربَ بعدَما غضبتُ، وشَالتْ بي قُرومٌ هَوادِرُ

أأرسلت تطلب الهدنة بعد أن بلغ مني الغضب، وبعد أن شالت بي (رفعتني، وشجعتني على هجائك) قروم هوادر (جمال ذات صوت هادر/كناية عن رجالات قومه)

هِـزَبْـرٌ تَـفَـادى الأُسْـدُ مِـن وَثَـبـاتِـه لـه مَـرْبِـضٌ عـنـهُ يَـحـيـدُ الـمُـسـافـرُ

أنا هزبر (أسد) تتفادى الأسود وثباته، وله مربض (موطن) يعرفه المسافرون ويحيدون عنه خوفاً

ولو كنتَ حُرَّ العِرْضِ أو ذا حفيظةٍ جَرَيْتَ، ولكنْ لم تلِدْكَ الحرائرُ

لو كنت حراً وذا حفيظة (محاماة عن الشرف) لكنت جريت (سابقت، ولم تنسحب من السباق) لكنك لست ابن نساء حرائر

٣٤ الزاني المفتخر

أَرانـي إذا مـا زرتُ لَـيْـلَـى وبَـعـلَـهـا تَـلَوَّى مِـنَ الـبـغـضـاءِ دُونـي مَـشَـافِـرُهْ

إذا زرت ليلى وزوجَها أخذت مشافره (شفتاه) تتلوى من بغضه لي

وإنْ زُرْتُـهـا يـومـاً فـلـيـسَ بِـمُـخْـلِـفِـي رَقِـيـبٌ يَـرانـي، أو عـدوٌّ أُحـاذِرُهْ

وإن زرتها وهي وحدها فلن يتخلف عن ملاحقتي رقيب، أو عدو لي أحذره

كأنَّ على ذي الظِّنْءِ عيْناً بَصيرةً بِـمَـقْـعَـدِهِ، أَوْ مَـنـظَـرٍ هُـوَ نَـاظِـرُهْ

وحتى لو لم يكن هناك رقيب فعلاً فإن ذا الظنء (الشخص المريب) يشعر أن عليه عيناً بصيرة وهو في مكانه، أو عندما يوجه بصره نحو موضع

يُحاذِرُ حتى يَحْسَبَ الناسَ كُلَّهُمْ من الخوفِ لا تَخْفَى عليهِمْ سَرائِرُهْ

يصبح المريب حذراً، ويحسب من خوفه أن سرائره (مكنونات ضميره) بادية للناس

إذا عَـبْـرَةٌ وَرَّعْـتُـهـا فَـتَـكَـفْـكَـفَـتْ قـلـيـلاً، جَـرَتْ أُخـرى بـدمـعٍ تُـبَـادِرُهْ

الفرزدق المسكين يبكي بعبرة (دمعة)، فإذا ورَّعها (منعها) فتكفكفت (امتنعت عن النزول) قليلاً، جرت دمعة أخرى تستبق دموعاً

فلَوْ أنَّ عَيْناً مِنْ بُكاءٍ تَحَدَّرَتْ دماً كان دمعي إذْ رِدائِيَ سَاتِرُهْ

لو كانت العين تتحدر (تنزل) الدم في بكائها لكان هذا دمعي وأنا أستره بردائي.
كل هذا شوقاً إلى محبوبته!

وجَوْنٍ عليه الجَصُّ فيه مريضةٌ تَطَلَّعُ منه النَّفْسُ، والموتُ حاضِرُهْ

رب جون (قصر) مجصص بالجبس، فيه فتاة مريضة (من عشقها للشاعر الكذاب/أو أن عينيها مرتخيتان، فهما من النوع الذي يصفه الإنجليز بـ «كم تو بد آيز» أي «عينا هَيًّا للسرير»، وقد قالت العرب كثيراً في العيون المراض)، وهذا القَصْر تنقبض النفس من علوه، وتستحضر صورة الموت لرؤيته.. سنعرف لماذا بعد قليل..

حَلِيلَةُ ذي أَلْفَينِ شيخٍ، يَرى لها كثيرَ الذي يُعْطِي قَليلاً يُحَاقِرُهْ

هذه الفتاة حليلة (زوجة) شيخ من الأشراف يبلغ مرتبه في ديوان العطاء ألفي درهم، وهو يعطيها كل ما تحب، ويحاقره (يستقله)، أي يرى ذلك قليلاً عليها

نَهَى أَهْلَهُ عنها الذي يَعْلَمُونَه إليها، وزالتْ عن رَجَاها ضَرَائِرُهْ

نهى أهلَ الرجل عن التعرض لهذه الزوجة ما يعلمونه من منزلتها عند الزوج، وابتعدت عن رجاها (ناحيتها/والجمع الأرجاء) الضرائر (الزوجات الأخريات). الفرزدق يقول «ضرائره» ونحن نفهم «ضرائرها»، والفرزدق يفعل الأفاعيل من أجل القافية، ويفعل الأفاعيل حتى في جوف البيت

أتيتُ لها مِنْ مَخْتِلٍ كنتُ أدَّرِي به الوَحْشَ، ما يُخشَى عَلَيَّ عَوَاثِرُهْ

أتيت لقصر الفتاة هذا من مختل (مكان ختل الصيد) كنت فيه أدَّري (أختبئ عن) الوحش (الصيد من ظباء ونحوه)، وليس هناك خشية علي من التعثر في هذا المكان. ويبدو أن المكان الملاصق للقصر كان غابة فيها ما يصاد

فما زلتُ حتى أَصْعَدَتْني حبالُها إليها، ولَيلي قد تَخَامَصَ آخِرُهْ

دلت له الفتاة الحبال من النافذة ليصعد، وكان الليل قد تخامص (تلاشى) آخره

فلمَّا اجتمعنا في العَلالِيِّ، بيْننا ذَكِيٌّ أَتَى مِنْ أهلِ دَارِينَ تاجِرُهْ..

لما اجتمعنا في العلالي (الدور العلوي) وكان عندنا مسك ذكي الرائحة من واردات «دارين»..

نَقَعْتُ غَليلَ النفسِ، إلَّا لُبانَةً أَبَتْ مِنْ فُؤادي، لم تَرِمْها ضَمائِرُهْ

نقعت (رويت) غليل النفس (عطشها)، وبقيت لبانة (حاجة) في قلبي لم ترمها (تطلبها) مكنونات النفس

فلمْ أَرَ مَنْزُولاً به بعدَ هَجْعَةٍ أَلَذَّ قِرىً، لولا الذي قد نُحَاذِرُهْ

لم أر منزولاً به (مزوراً) بعد هجعة (بعد نوم الناس) ألذ قرى (والقرى في الأصل طعام الضيف، وهنا أطعمته فتاته ما لا نصرح به)، غير أن الحذر كان ينغص علينا بعض الشيء

أُحَاذِرُ بَوَّابَيْنِ قد وُكِّلا بِها وأَسْمَرَ مِن سَاجٍ تَئِطُّ مَسَامِرُهْ

كنت أحاذر (أتحسَّب من) بوابيْن موكلين بحراسة هذه الفتاة، وباباً من خشب الساج، تئط (تصدر صريراً) مسامره (مساميره)

فقلتُ لها: كيفَ النُّزُولُ فإنَّني أَرى الليلَ قد ولَّى، وصَوَّتَ طائِرُهْ

قلت لها كيف لي أن أنزل، فقد ذهب الليل وصوت طائره (صاح الديك)

فقالتْ: أَقاليدُ الرِّتَاجَيْنِ عندَهُ، وطَهْمَانُ بالأبوابِ، كيف تُسَاوِرُهْ؟

قالت: أقاليد (مفاتيح) الرتاجين (البابين) عند زوجي. وطهمان (الحارس) واقف بالأبواب، فكيف تساوره (تنازله)؟

أَبِالسَّيْفِ، أمْ كيف التَّسَنِّي لِمُوثَقٍ عليه رَقيبٌ دائبُ الليلِ ساهِرُهْ؟

هل ستنازله بالسيف؟ وكيف التسني (التأتي والتحايل) للباب الموثق (المغلق) الذي عليه رقيب ساهر طول الليل؟

فقلتُ ابْتَغي مِنْ غيرِ ذاكَ مَحالَةً ولِلأَمْرِ هَيئَاتٌ تُصَابُ مَصَادِرُهْ

قلت لها: اطلبي محالة (حيلة) غير هذه. وللأمر هيئات (جوانب) أخرى لالتماس المصادر (المخارج)

لعلَّ الذي أَصْعَدْتِني أنْ يَرُدَّني إلى الأرضِ إنْ لم يَقْدِرِ الحَيْنَ قادِرُهْ

لعل الحبل الذي به صعدت أن يرجعني إلى الأرض، هذا إن لم يقْدر الحين (يقدر الموت) لي قادره (مقدره وهو الله)

فجاءتْ بأَسْبابٍ طِوالٍ، وأَشْرَفَتْ قَسِيمَةُ ذي زَوْرٍ مَخُوفٍ تَراتِرُهْ

فجاءت بأسباب (بحبال) طويلة، وأطلت علينا في تلك الغرفة قسيمتها (ضرتها) لكي تنقذ الموقف من زائر يخشى أن يجر علينا التراتر (المصاعب).. هذا هو المعنى الملموح

أَخَذْتُ بِأَطْرافِ الحِبالِ، وإنَّما على اللَّهِ مِن عَوْصِ الأُمُورِ مَيَاسِرُهْ

أمسك الفرزدق بطرف الحبل، وتوكل على الله من عوص الأمور (الأمور العويصة الصعبة) طالباً تيسيرها

فقُلتُ اقْعُدَا، إنَّ القِيامَ مَزِلَّةٌ، وشُدَّا معاً بِالحبْلِ إنِّي مُخَاطِرُهْ

قال للمرأتين اقعدا أرضاً فالوقوف مزلة (يؤدي للزلل ولإفلاتكما طرف الحبل)، وأمسكا الحبل وشداه بقوة، وسوف أخاطر بالنزول

إذا قلتُ قد نِلْتُ البَلاطَ تَذَبْذَبَتْ حِبالِيَ في نِيقٍ مَخُوفٍ مَخَاصِرُهْ

وأنا أهبط أشعر أنني نلت البلاط بقدمي، ثم أرى الحبال تتذبذب على جانب النيق (القصر العالي الذي كالجبل) الذي أخاف مخاصره (مرتقياته).. المعنى الملموح: كلما قلت وصلت الأرض رأيت الحبال مشدودة تتذبذب كوتر العود فأعرف أنني ما زلت معلقاً في الهواء

فلما اسْتَوَتْ رِجْلايَ في الأرضِ نادَتَا: أَحَيٌّ يُرَجَّى، أم قَتيلٌ نُحَاذِرُهْ؟

عندما وصلت الأرض أخيراً سمعتهما تناديان: أأنت حي ترجى له النجاة، أم قتيل نحذر أن يجر علينا الفضيحة؟

فقلتُ ارفَعا الأَسبابَ لا يَشْعُروا بِنا، وولَّيْتُ في أعْجَازِ لَيلٍ أُبَادِرُهْ

قلت: ارفعا الأسباب، أي الحبال، حتى لا يشعر أحد بنا، ووليت (مضيت) في أعجاز (أواخر) الليل أبادر بالفرار

هُمَا دَلَّتَاني مِنْ ثَمانينَ قَامَةً كما انْقَضَّ بَازٍ أَقْتَمُ الريشِ كَاسِرُهْ

لقد دلتني المرأتان (كما يدلي المرء الدلو في البئر) من ارتفاع ثمانين قامة (وقامة الإنسان متر وسبعون سنتمتراً، والفرزدق قصير، فكانت قامته كذلك أو أقل)، وهبطت كما ينقض البازي (الصقر) ذو الريش الداكن، الذي يكسر جناحيه ويضمهما عند الانقضاض/ولهذا سميت الطيور الجارحة كواسر

ويَحْسَبُها بَاتَتْ حَصَاناً، وقد جَرَتْ لنا بُرَتَاهَا بالذي أنا شَاكِرُهْ

وزوجها يظنها باتت حصاناً (عفيفة)، ولكن برتاها (خلخالاها) تحركتا حركة أنا لها من الشاكرين

فيَا رَبِّ إنْ تغفِرْ لنا ليلةَ النَّقَا فكلُّ ذنوبِي أنتَ يا ربِّ غافِرُهْ

يا رب، إن غفرت لنا تلك الليلة عند النقا (الكثيب) فلا شك أنك ستغفر ذنوبي كلها

٣٥ تحمل الرزء عامر

قال يرثي عبد الله بن ناشرة من بني عامر وهم من مجاشع:

وقفتُ فأَبْكتْني بِدارِ عشيرتي على رُزْئِهِنَّ الباكياتُ الحَوَاسِرُ

رزئهن: مصيبتهن، الحواسر: الكاشفات رؤوسهن حزناً

فلَوْ أن سَلْمَى نالَها مِثْلُ رُزْئِنا لَهُدَّتْ، ولكنْ تَحْمِلُ الرُّزْءَ عَامِرُ

لو أصاب جبل «سلمى» مثل مصيبتنا لانخسف، غير أننا نتحمل المصيبة بقلب شجاع

٣٦ رثاء بشر

يرثي بشر بن مروان:

أعيْنَيَّ إلَّا تُسْعِدانِي أَلُمْكُمَا فما بعدَ بِشْرٍ مِن عزاءٍ ولا صبرِ

يا عيني إن لم تسعداني (تساعداني) بالبكاء فعليكما اللوم، فبموت بشر ليس هنا عزاء (تهوين) ولا صبر

ولو أن قوماً قاتَلوا الموتَ قبلَنا   بشيءٍ، لقَاتلْنا المَنِيَّةَ عن بِشْرِ

لو كان أحد قاتل الموت قبلنا لقاتلناه دفاعاً عن بشر

٣٧ بكيت على صقوري

بَنِيَّ أَصَابَهُمْ قَدَرُ المنايا   فهل مِنْهُنَّ مِنْ أحدٍ مُجِيري؟

أكان هناك من يحميني من حلول الموت بأبنائي؟

ولو كانوا بَنِي جَبَلٍ فماتُوا   لأَصبَحَ وهْوَ مُخْتَشَعُ الصُّخورِ

لو كنت جبلاً ومات أبنائي لأصبحت مختشع الصخور (هابطاً)

ولو كان البكاءُ يَرُدُّ شيئاً   على الباكي بكيتُ على صُقُوري

إذا حَنَّتْ نَوارُ تَهِيجُ مِنِّي   حَرارةَ مِثلِ مُلْتَهِبِ السَّعيرِ

إذا حنت (أصدرت صوت أنين) زوجتي نوار تهيج (تحرك) فيَّ حزناً كأنه نار جهنم

حَنينَ الوَالِهينَ إذا ذَكَرْنا   فؤادَيْنا اللَّذَيْنِ مَعَ القُبورِ

نحنُّ (نصدر صوت الألم) حنين الوالهين (المعذبين) إذ نتذكَّرُ قلبينا اللذين ذهبا مع من فقدنا للقبور

٣٨ حماة أرض المسلمين

ولو أَنَّ أرضَ المسلمينَ يَحُوطُها   سِوانا مِنَ الأحياءِ ضَاعَتْ ثُغُورُها

يحوطها: يحميها، ثغورها: مدنها الحدودية

لنَا الجِنُّ قد دَانَتْ، وكلُّ قَبيلةٍ   يَدينُ مُصَلُّوها لنا، وكَفُورُها

يزعم أن الجن خضعت لبني تميم، وكذا كل القبائل المسلمة وغير المسلمة

٣٩ بكاء على عمر

قال يرثي عمر بن عبيد الله التيمي القرشي:

أَمَّا قُريشٌ، أبا حَفْصٍ، فقد رُزِئَتْ   بِالشَّامِ إذ فَارَقَتْكَ البأسَ والمَطرا

يا أبا حفص قد رزئت (بليت) قريش بفقدك بالشام البأس (القوة) والمطر (العطاء)

إنَّ الأرامِلَ والأيتامَ إذ هَلَكوا   والخيلَ إذ هُزِمتْ، تَبكِي على عُمَرا

٤٠ تذبيح الكلاب

يمدح الوليد بن عبد الملك:

فقالوا أَغِثنا إنْ بَلَغتَ بِدعوةٍ لنا عندَ خيرِ الناسِ إنَّكَ زائِرُهْ

قال له قومه أنجِدنا إن بلغت (وصلت) خير الناس (الخليفة) الذي ستزوره بدعوة (بإيصال شكوانا إليه)

فقلتُ لَهُمْ: إنْ يُبْلِغِ اللّهُ ناقتي وإيّايَ، أُنْبي بالذي أنا خابِرُهْ

قلت لهم: إن أوصل الله ناقتي وأوصلني معها، سأنبي (سأخبر) بما خبرته من أحوالكم

بحيثُ رأيْتُ الذئبَ كلَّ عشيَّةٍ يَروحُ على مَهْزُولِكُمْ، ويُباكِرُهْ

سأخبر الخليفة كيف رأيت الذئب في كل مساء يروح (يأتي مساء) لكي يفترس مهزولكم (جملاً هزيلاً لفقدان العشب) ويباكره (ويأتيه صباحاً)

لِيَجْتَرَّ منكُمْ إنْ رأى بارِزاً لهُ مِنَ الجِيَفِ اللائي عليكُمْ حَظائِرُهْ

وليجتر (ليجُرَّ) من مضارب القبيلة ما يرى من جيف (جثث النياق النافقة، يضعونها حول الحظائر كي تأخذها الذئاب ولا تفترس النياق الحية)

أَغِثْ مُضَراً، إنَّ السِّنينَ تَتابَعَتْ عليها بِحَزٍّ يَكْسِرُ العَظْمَ جازِرُهْ

أيها الخليفة أغث قبائل مضر فقد تتابعت السنين (مواسم القحط) بما يكسر العظم وينحر الإبل (القحط يفني الماشية)

وهَمَّتْ بِتَذْبيحِ الكِلابِ مِنَ الذي بها أَسَدٌ إنْ أَمْسَكَ الغَيْثَ ماطِرُهْ

وهمت قبيلة أسد أن تذبح وتأكل الكلاب مما بها من جوع إن استمر الجفاف، ولم ينزل مطر

وإنَّكَ راعي اللّهِ في الأرضِ، تَنتهي إليكَ نَواصي كلِّ أمرٍ وآخِرُهْ

وأنت راعي الله في الأرض (فالخليفة الراعي والناس الرعية)، وإليك مصير نواصي الأمور (وجوهها) وأواخرها (أنت الكل في الكل)

وقد خِفْتُ حتى لو أَرى الموتَ مُقْبِلاً لِيَأْخُذَني، والموتُ يُكْرَهُ زائِرُهْ..

يغير الموضوع: خفت حتى لو جاء الموت، مع أن زيارته كريهة..

لَكانَ مِنَ الحَجّاجِ أَهْوَنَ روعَةً إذا هُوَ أَغْضَى، وَهْوَ سامٍ نَواظِرُهْ

.. لكان الموت أهون روعة (إخافة/ وترويعاً) من الحجاج عندما يغضي (يخفض بصره)، مع أنه سامي النظر (ناظر للأعلى، وأبيٌّ لا يخفض بصره خضوعاً) فإغضاء الحجاج بصره إغضاءٌ مؤقت عندما يفكر في قرار خطير. هكذا الجبابرة.. ينظرون في عيون رعاياهم وضحاياهم، ثم يخفضون بصرهم هنيهة، ثم يأتي القول الصاعق: اضربوا عنقه، إلخ

فَأيْقَنْتُ أنِّي إنْ نَأيْتُكَ لم يَرِدْ بِيَ النَّأيُ إلّا كلَّ شيءٍ أحاذِرُهْ

فأيقنت أيها الحجاج أنني إن نأيت عنك فاراً منك، فإن هذا النأي لا يوردني إلا على شيء أحاذره وأخشاه

وأنْ لو رَكبتُ الريحَ ثم طلبتَني لَكنتُ كشيءٍ أدركتْهُ مَقادِرُهْ

وأدركت أنني لو ركبت الريح فراراً منك، لكنت كشيء سعى نحو قدره، فيدُك طائلة ولا بد أن تمسك بي

فلم أرَ شيئاً غيرَ إقبالِ ناقتي إليكَ، وأَمْرِي قد تَعَيَّتْ مَصادِرُهْ

فلم أجد سوى أن أقبل بناقتي إليك، فأمري قد تعيت (استحالت) مصادره (مخارجه)

٤١ لساني لكم

يمدح أسد بن عبد الله القسري:

فمَا أَحْيَ لا أَجعَلْ لِساني لِغيرِكُمْ ولا مِدَحي مَا حَيَّ للزيتِ عاصِرُهْ

ما أحي (ما دمت حياً) فلن أمدح غيركم بشعري، ما حي للزيت عاصر (ما دام هناك من يعصر الزيت/أي أبداً)

فلولا أبو الأَشبالِ أصبحتُ نائياً وأصبحَ في رِجْلَيَّ قَيْدٌ أُحَاذِرُهْ

لولا أبو الأشبال (أسد بن عبد الله) لأصبحت معتقلاً في مكان بعيد

فمَا أنا إلّا منكُمُ ما تعلَّقَتْ حياتِي، إلى اليومِ الذي أنا صائِرُهْ

أنا منكم ما بقيت معي حياتي، وإلى اليوم الذي سأصير إليه (يوم الوفاة)

٤٢ تأخر القدر

قال لسليمان، وقد ضحك سليمان لأن سيف الفرزدق نبا:

أَيَعْجَبُ الناسُ إنْ أضحَكْتُ سيِّدَهُمْ خليفةَ اللَّهِ يُستَسْقَى به المَطَرُ

ضحك الخليفة عندما نبا سيف الفرزدق عن عنق الأسير، والخليفة وضيء الوجه شريف عظيم يطلب الناس به السقيا في المحل، وكانوا إذا انقطع المطر خرجوا لصلاة الاستسقاء واصطحبوا من يرون فيه الشرف والوسامة والتقوى

وما نَبا السيفُ مِنْ جُبْنٍ ولا دَهَشٍ عند الإمامِ، ولكنْ أُخِّرَ القَدَرُ

ما انحرف سيفي عن عنق الأسير جبناً ولا دهشاً (ارتباكاً) في حضرة الإمام (الخليفة)، ولكن قد تأخر قدر ذلك المسكين

٤٣ طلاق فندم

نَـدِمْـتُ نـدامـةَ الـكُـسَـعِـيِّ لَـمَّـا غـدتْ مِـنِّـي مُـطَـلَّـقَـةً نَـوارُ

ندمت ندامة الكسعي عندما طلقت نوارَ (والكسعي رجل كانت لديه قوس عزيزة على قلبه، ورمى بها الظباء بخمسة سهام، وظن أنها طاشت جميعاً، فأهوى بقوسه على صخرة وكسرها حنقاً، ثم اكتشف أن السهام جميعاً كانت صائبة، وقد أردت الظباء الخمسة، فندم).. وكانت نوار زوجته وابنة عمه، وكانت تشارُّه وتضاره كثيراً لأنه تزوجها بخديعة، وطلبت الطلاق مراراً، وأنجبت له عدة أولاد، ثم استجاب وطلقها رغم أنه ظل يحبها، ومع كل هذا الحب فإن الفرزدق ـ ويا لنذالة الرجال ـ اشترط عليها ألا تتزوج، وأن تبيح له مالها بعد الطلاق. وعاشت النوار في كنف ابنها لبطة بقية عمرها، وأما الفرزدق فقد عاش حتى أربى على التسعين، وكان مزواجاً، حتى لقد تزوج بعد التسعين وعجز..

وكـانـت جَـنَّـتِـي فـخـرجْـتُ منـهـا كـآدَمَ حـيـن لَـجَّ بـه الـضِّـرارُ

كانت النوار جنتي وخرجت منها كما خرج آدم حين لج به الضرار (أكثر من المعاندة).. وكل ما صنعه آدم أنه أكل تفاحة، فأما الفرزدق فكان مزواجاً زنَّاءً

وكـنـتُ كـفَـاقِـئٍ عـيـنـيـهِ عَـمْـداً فـأصـبـحَ مـا يُـضـيءُ لـه الـنـهـارُ

كنت كمن قلع عينيه بيديه فعميَ

ولا يُـوفـي بـحـبِّ نَـوارَ عِـنـدي ولا كَـلَـفـي بـهـا إلَّا انـتـحـارُ

لا ينقذني من حبي لها وكلفي (ولوعي) بها إلا الانتحار

ولـو رَضِـيَـتْ يـدايَ بـهـا وقَـرَّتْ لـكـانَ لـهـا عـلـى الـقَـدَرِ الـخِـيـارُ

لو كنت رضيت بعشرتها، ولو قرت هي في بيتها، لتغير سير القدر

ومـا فَـارقْـتُـهـا شِـبَـعَـاً، ولـكـنْ رأيـتُ الـدهـرَ يـأخُـذُ مـا يُـعَـارُ

لم أفارقها أنني شبعت من عشرتها، ولكن الدهر هكذا يسترد ما أعار، في ذلك إشارة لاواعية إلى أنه تزوجها غصباً عنها

٤٤ مدح بني المهلب

لأَمْـدَحَـنَّ بَـنـيِ الـمُـهَـلَّـبِ مِـدْحَـةً غَـرَّاءَ ظـاهـرةً عـلـى الأشـعـارِ

سأمدح بني المهلب بقصيدة غراء (جميلة) ظاهرة (غالبة) على الأشعار الأخرى

مـثـلَ الـنـجـومِ أمـامَـهـا قـمـرٌ لـهـا يَجلُو الدُّجى، ويُضيءُ لَيل السَّاري

يصف قصيدته بالقمر وحوله النجوم، لعله تخيل أبيات القصيدة

وَرِثُوا الطِّعانَ عنِ المُهَلَّبِ والقِرَى   وخَلائقاً كَتَدَفُّقِ الأنهارِ

ورثوا عن أبيهم المهلب بن أبي صفرة الطعان (الطعن بالرماح في الحرب) والقرى (إطعام الضيف) والأخلاق الحميدة المتدفقة بالعطاء كالأنهار

كانَ المُهَلَّبُ للعراقِ سَكِينةً   وَحَيَا الربيعِ، ومَعْقِلَ الفُرَّارِ

كان المهلب للعراق سكينة (اطمئناناً) وحيا الربيع (مطر الربيع) ومعقل الفرار (ملجأ الفارين من بطش)

إني رأيتُ يَزيدَ عندَ شَبابِه   لَبِسَ التُّقَى ومَهَابَةَ الجبَّارِ

رأيت يزيد (ابن المهلب) تقياً، لكنه مهيب ذو جبروت

وإذا الرجالُ رَأَوْا يزيدَ رأيتَهُمْ   خُضُعَ الرِّقَابِ نَواكِسَ الأبصارِ

والرجال يخضعون رقابهم (ينكسون رؤوسهم) ويخفضون أبصارهم لهيبته

٤٥ القدر الباكية

لو أنَّ قِدْراً بكتْ مِنْ طولِ ما حُبِسَتْ   على الحُفوفِ بَكَتْ قِدْرُ ابنِ جَيَّارِ

لو أن القدر (الحلة، الطنجرة) تبكي لطول الحبس على الحفوف (الجفاف) لبكت قدر ابن جيار، فهو لا يطبخ للناس ولا يطعم أحداً

ما مسَّها دسمٌ مُذْ فُضَّ مَعْدِنُها   ولا رأتْ بعد عهدِ القَيْنِ مِنْ نارِ

لم يمسَّها دسم منذ أن فُضَّ معدنها (جُليَ)، ولا عرفت النار بعد أن عالجها القين (الحداد) بناره. لعلهم كانوا يعبرون عن تبييض القدور النحاسية بالتفضيض، مع أن المعدن المستعمل هو شبيه الفضة، القصدير

٤٦ بنو كليب

ألا قَبَحَ الإلهُ بني كُلَيْبٍ   ذَوِي الحُمُراتِ والعَمَدِ القِصارِ

قبحاً لبني كليب أصحاب الحمير (واشتهر بنو كليب، قوم جرير، بحميرهم)، والخيام القصيرة الأعمدة (وكلما طال عمود الخيمة كانت كبيرة وكان صاحبها ثرياً)

ولَوْ تُرْمَى بِلُؤْمِ بني كُلَيْبٍ   نجومُ الليلِ مَا وَضَحَتْ لِسَاري

لو أصاب لؤم الكليبيين النجوم لخمدت ولم تعد تضيء لساري الليل

ولو لَبِسَ النهارَ بنو كليب   لَدَنَّسَ لؤْمُهُمْ وَضَحَ النهارِ

ولو ارتدوا بالنهار لدنسوا بياضه

وما يغدُو عزيزُ بني كليب ... لِيَطْلُبَ حاجةً إلَّا بِجَارِ

لا ينال العزيز (القوي) من بني كليب حاجته إلا مستجيراً بغريب، لضعف قبيلته

٤٧ مجاشع حمَّلتني أموراً

يهجو جريراً:

وجَرَّ المُخْزِياتِ على كُلَيْبٍ ... جريرٌ، ثمَّ ما مَنَعَ الذِّمَارا

جر جرير المخازي على قومه كليب بتعرضه لي، ثم لم يستطع أن يمنع (يحمي) الذمار (الشرف)

عَوى فأثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيَّاً ... فَوَيْلُ ابنِ المَراغَةِ، ما اسْتَثَارا

عوى جرير إذ هجاني، فأثار أغلب (أسداً غليظ الرقبة) ضيغمياً (عضَّاضاً)، فويل لابن المراغة (لقب جرير عند أعدائه) مما أثار

وإنَّ بَني المَراغَةِ لم يُصيبُوا ... إذا اختاروا مُشَاتَمَتي اختيارا

قوم جرير لم يحسنوا الاختيار إذ اختاروا التسابَّ معي

ونامَ ابنُ المَراغَةِ عن كُلَيْبٍ ... فَجَلَّلَها المَخَازِيَ والشَّنَارا

ونام جرير عن نصرة قبيلته كليب لضعفه، فجللها (كساها) مخازي وشناراً (عاراً)

وإنَّ بني كُلَيْبٍ إذْ هَجَوْني ... لَكَالْجُعْلانِ إذ يَغْشَيْنَ نارا

هم بهجائهم إياي كالجعلان (الصراصير) التي تغشى (تأتي) النار

وإن مُجَاشِعَاً قد حَمَّلَتْني ... أموراً لن أُضَيِّعَها كِبارا..

وقبيلتي، مجاشع، حملتني أموراً عظيمة، ولن أضيعها (لن أتهاون فيها)..

قِرَى الأَضيافِ لَيلَةَ كُلِّ ريحٍ ... وقِدْمَاً كنتُ للأَضْيافِ جَارا

حملتني قرى الأضياف (إطعامهم) في الليلة التي تعصف فيها الرياح، وقدماً (دائماً) قد كنت مجيراً للأضياف

رأَيتُ ابنَ المَراغَةِ حينَ ذَكَّى ... تَحَوَّلَ - غَيْرَ لِحْيَتِهِ - حِمارا

رأيت جريراً حين ذكَّى (كبر وأسنَّ) تحول في هيئته - لولا اللحية - إلى حمار

هَلُمَّ نُوَافِ مَكَّةَ، ثم نَسْأَلْ ... بِنا وبِكُمْ، قَضَاعَةَ أو نِزَارا

هيَّا نواف (نأتِ) مكة لنسأل عن أحسابنا وأحسابكم قبيلة قضاعة أو نزار

هُنالِكَ لو نَسَبْتَ بَني كُلَيْبٍ ... وَجَدْتَهُمُ الأَدِقَّاءَ الصِّغَارا

وستجد أن قبيلتك، كليب، أدقَّاء (رقاقاً، ليس لهم المجد المتين) صغاراً في القدر

وَمَا غَرَّ الوِبَارَ بَنِي كُلَيْبٍ   بِغَيْثي حِينَ أَنْجَدَ واسْتَطَارا

ولا أدري ما الذي غرَّ بني كليب الوبار (الأرانب) فلم يروا غيثي حين أنجد (بلغ نجداً) واستطار (تدفق وصار ذا شر مستطير)

هَرَبْنَ إلى مَدَاخِلِهِنَّ منهُ   وجاءَ يُقَلِّعُ الصخرَ انحِدَارا

عندئذ هرب أشباه الأرانب إلى بيوتهن، وجاء السيل يقلع الصخر وهو منحدر، أي أن هجائي كان قاسياً متدفقاً

وإنَّكَ والرِّهَانَ على كُلَيْبٍ   لَكَالْمُجْرِي معَ الفرسِ الحِمَارا

والمراهن على قبيلة كليب كمن يجري (يسابق) الفرس والحمار

٤٨ كم خالة لك يا جرير..

يا ابنَ المَراغَةِ إنَّما جَارَيْتَني   بِمُسَبَّقِينَ لَدى الفَعَالِ قِصَارِ

يا جرير (وابن المراغة لقبه، وقيل إن المراغة هي الأتان التي تتمرغ في التراب) أنت تجاريني (تسابقني) بقومك المسبقين (المسبوقين) لدى الفعال (الأمجاد) القصار

والحَابِسينَ إلى العَشِيِّ لِيَأْخُذُوا   نَزْحَ الرَّكِيِّ، ودِمْنَةَ الأَسْآرِ

وقومك حابسون إبلهم إلى المساء المتأخر لأنهم ضعاف لا يستطيعون المزاحمة على الماء، فيأخذون نزح الركي (بقية ما في الركية أي البئر) ودمنة (وسخ) الأسآر (الصبابات/بقايا القاع).. فهم ينالون من الماء بعد أن يتعكر ويبقى منه سؤر، أي بقية، في قاع البئر

لن تُدْرِكُوا كَرَمِي بِلُؤْمِ أبيكُمُ   وأَوَابِدِي بِتَنَحُّلِ الأشعارِ

لن تلحقوا بكرمي (مجدي) بلؤم أبيكم، ولن تلحقوا أوابدي (قصائدي النادرة المثال) بتنحل الأشعار (سرقتها)

قَبَحَ الإلهُ بَنِي كُلَيْبٍ، إنَّهُمْ   لا يَغْدِرُونَ ولا يَفُونَ لِجَارِ

قبحاً لبني كليب من قوم ضعاف، فهم أضعف من أن يغدروا، ومع ذلك ليس عندهم وفاء لمن يلجأ إليهم

يَستيقظونَ إلى نُهاقِ حِمارِهِمْ،   وتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عن الأَوْتَارِ

يوقظهم نهاق حمارهم (فهم أهل حمير لا إبل)، ولكنهم غافلون عن الأوتار (الثأرات/الأخذ بالثأر)

كم مِن أَبٍ لِيَ يا جريرُ كأنَّه   قمرُ المَجَرَّةِ أو سراجُ نهارِ

آبائي (الآباء والأجداد) كأن الواحد فيهم قمر المجرة (السماء) أو سراج النهار (أي الشمس)

وَرِثَ المكارمَ كابِراً عن كابِرٍ ضخمِ الدَّسيعةِ يومَ كلِّ فَخارِ

هذا الواحد من آبائي ورث مكارم أجداد كبار، وهو ضخم الدسيعة (القصعة الضخمة التي يوضع فيها الطعام للناس) في الأيام التي يتميز فيها الكريم عن غيره ويفتخر

إنَّ البِكارَةَ لا يَدَيْ لِصِغارِها بِزِحامِ أَصْيَدَ رأسُه هَدَّارِ

البكارة (الجمال) لا يدي لصغارها (لا قدرة لها) كي تزاحم أصيد (فحلاً مسيطراً) رأسه هدار (يصدر صوتاً ضخماً). هلّا قال: (بزحام أصيد مصعب هدار) فيخرج من تهمة الإقواء؟ والبيت بالرواية المثبتة محمول على أن رأسه فاعل لأصيد وهدار صفة لأصيد

قَرْمٍ إذا سمعَ القُرومُ هديرَهُ وَلَّيْنَهُ ورَمَيْنَ بالأبعارِ

قرم (فحل شديد) إذا سمع الفحول صوته، هربت ورمت بأبعارها خوفاً منه

كَمْ خَالَةٍ لكَ يا جريرُ وعمَّةٍ فَدْعاءَ قد حَلَبَتْ عليَّ عِشاري

ما أكثر خالاتك وعماتك الفدعاوات (المعوجَّة مفاصلهن) اللائي حلبن لي عشاري (نياقي) يعيره بأن نساء عشيرته خادمات

٤٩ اللؤلؤة القاتلة

ومُرْتَجَّةِ الأَرْدافِ مِن آلِ جعفرٍ مُخَضَّبَةِ الأطرافِ بيضٍ نُحورُها

يتغزل بها وبأردافها المرتجّة وأطراف أصابعها المخضوبة بالحناء، ونحرها الأبيض (النحر بين الصدر والعنق)

كأنَّ نَقاً مِن عالِجٍ أَزَّرَتْ به بِحَيثُ التقَتْ أوراكُها وخُصورُها

كأن مؤخرتها نقا (كثيب رمل) في منطقة «عالج» وقد أزرت به (لبست إزاراً، رداءً) والإزار مخصَّر في مكان التقاء أوراكها (ردفيها) وخصرها

فقد خِفْتُ مِن تَذْرافِ دَمعيَ إثْرَها على بَصري، والعينُ يَعْمَى بَصيرُها

خفت من تذراف دمعي (نزوله) أن يضر ببصري، و«العين يعمى بصيرها» حشو

ومَا خِفْتُ وَشْكَ البينِ حتى رأيتُها يُسَاقُ على ذاتِ الجلاميدِ عيرُها

لم أكن أخشى وشك البين (أن يكون الفراق وشيكاً سريعاً) إلى أن رأيت عيرها (جمالها) تساق على ذات الجلاميد (الأرض الوعرة)

وما زلتُ أُزْجِي الطَّرْفَ مِن حيث يَمَّمَتْ مِن الأرضِ حتى رَدَّ عيني حَسيرُها

وظللت أزجي الطرف (أرسل بصري) من (يقصد إلى) الأرض التي يممتها (قصدتها) حتى عاد بصري حسيراً (عاجزاً)

تَهادَى إلى بيتِ الصلاةِ، كأنَّها على الوَعْثِ ذو سَاقٍ مَهِيضٍ كَسيرُها

تهادى (تمشي وتمايل) ذاهبة إلى بيت الصلاة كأنها إذا تمشي على الوعث (الطريق الوعر) طائر ذو ساق مهيضة (مكسورة) لأنها تتمايل

كَدُرَّةِ غَوَّاصٍ رمَى في مَهِيبَةٍ بِأَجْرامِهِ، والنفسُ يَخشَى ضَميرُها..

يبدأ تشبيهاً طويلاً، هذه المرأة مثل لؤلؤة أراد غواص أن ينالها فرمى بأجرامه (بجسمه) في مهيبة (لجة البحر المخوفة)، و«النفس يخشى ضميرها» أي تخاف..

مُوَكَّلَةً بِالدُّرِّ خَرسَاءَ، قد بَكى إليه مِنَ الغَوَّاصِ منها نَذيرُها

تخاف النفس حية موكلة (مكلفة) بحراسة اللؤلؤة، وقد أنذره الغواص القديم منها باكياً صارخاً

فقال: أُلاقِي الموتَ أو أُدرِكَ المُنى لِنفسيَ، والآجالُ جَاءٍ دُهورُها

فقال الغواص الشاب: إما أن أموت أو أدرك الأماني، والأجل جاءٍ (آتٍ) على كل حال، أي «كلها موتة»

ولما رأى ما دُونَها خَاطَرَتْ به على الموتِ نفسٌ لا يَنامُ فقيرُها

لما رأى الغواص ما دون الأفعى (أي ما بقربها، وهي اللؤلؤة العظيمة)
خاطر بنفسه التي يؤرقها الفقر

فَأَهْوى ونَابَاها حَوالَيْ يَتيمَةٍ هِيَ الموتُ، أو دُنيا يُنادي بَشيرُها

أهوى بكفيه على اللؤلؤة، ونابا الحية يحميان هذه الدرة اليتيمة (النادرة)، واللؤلؤة هي الموت أو هي الحياة الرغدة التي يبشر نفسها بها

فَأَلْقَتْ بِكفَّيْه المَنِيَّةُ إذ دَنا بِعَضَّةِ أَنيابٍ سريعٍ سُؤُورُها

ورمت الحية في كفيه بعضة مميتة وأنشبت فيها أنياباً سريعاً سؤورها (تغلغلها.. لعله يقصد أن سمها يتغلغل ويصل منتهاه بسرعة)

فَحَرَّكَ أَعلَى حَبْلِهِ بِحُشَاشَةٍ ومِن فوقِه خَضْراءُ طامٍ بُحورُها

فظل ممسكاً باللؤلؤة، وهز الحبل الذي دلاه رفاقه به، (وهزة الغواص الحبل معناها: ارفعوني)، هز الحبل بحشاشة نفسه (بما تبقى له من روح) وكان غائصاً وفوقه لجة خضراء (سوداء معتمة) طامية بالماء.. هذا في البحر طبعا، وأمَّا تعبير «طام بحورها» فتركيب فرزدقي لا معنى له سوى الوصول إلى القافية

فما جاءَ حتى مَجَّ، والماءُ دونَه، مِن النفْسِ أَلواناً عَبِيطاً نُحورُها

فما جاء (برز فوق الماء) حتى مج (بصق) من فمه دم قلبه فلوَّن به سطح الماء كما يلون الكبش العبيط (المذبوح) بالدم ما حوله

إذا مـا أرادُوا أن يُـحـيـرَ مَـدُوفـةً   أَبى مِن تَقَضّي نفسِه لا يَحُورُها

كلما أرادوه على أن يحير (يتغرغر بـ) مدوفة (خلطة علاجية ضد السم)، أبى لشدة ما فيه أن يقبلها. . كذا المعنى الملموح

فـلـمَّـا أَرَوْهـا أُمَّـهُ هَـانَ وَجْـدُهـا   رَجَاةَ الـغِـنـى، لـمَّـا أضاءَ مُـنـيرُهـا

فلما أروا أمه اللؤلؤة هان وجدها (خف حزنها)، رجاة الغنى (توقعاً للإثراء) فقد أضاءت اللؤلؤة

وظَلَّتْ تَغالاها التِّجَارُ، ولا تُرى   لـهـا سِـيمَـةٌ إلَّا قـلـيـلاً كـثـيـرُهـا

وظل التجار يتغالونها (يزيدون في السعر)، ولا يرى القوم أي سيمة (تقدير سعر) إلا وهي قليلة عليها. انتهى التشبيه، فهذه الدرة كتلك المرأة. والتشبيه جاهلي تجد مثله عند المسيب بن علس وعند الأعشى

وكـانَ نُـفَـيْـعٌ إذْ هَـجـانـي لِأُمِّـهِ   كِـبـاحـثـةٍ عـن مُـدْيَـةٍ تَـسـتـثـيـرُهـا

نافع هذا عندما هجاني كان - جانياً على أمه - كالعنز الباحثة عن المدية (السكين) تستثيرها (تنبشها) لكي تُذبَح بها، مع فارق أنه سيجني على أمه، لا على نفسه، لأنني سأهتك عرضها. . والقصة أن نفيع هذا هجا الفرزدق، فأسرعت أم نفيع واستجارت بقبر غالب أبي الفرزدق طالبة العفو. . .

عجوزٌ تُصلِّي الخَمْسَ عاذَتْ بِغَالِبٍ   فـلا والـذي عـاذَتْ بـه لا أَضـيـرُهـا

هي عجوز تؤدي الصلوات الخمس، وقد عاذت (لجأت) بقبر غالب، فلا وحق غالب لا أضيرها (أؤذيها)

فإنِّي - على إشْفاقِها مِن مَخافَتي   وإن عَقَّها بي نافِعٌ - لَمُجيرُها

سأجيرها من لساني، لأنها أشفقت على عرضها خوفاً مني، حتى وإن عقها ولدها نافع

إذا اجتمعَ الآفاقُ مِن كلِّ جانبٍ   إلى مَنْسِكٍ، كانتْ إلَيْنا أمورُها

إذا اجتمع الآفاق (الناس من كل مكان) لتأدية منسك من المناسك، فنحن القادة الذين نتولى أمر الناس جميعاً

رمى الناسُ عن قوسٍ تميماً، فما أَرى   مُعاداةَ مَنْ عادَى تميماً تَضيرُها

رمى الناس جميعاً ومرة واحدة، كأنما بقوس واحدة، قبيلةَ تميم، ولكنني لا أرى هذه العداوة تؤثر في تميم

لَعمري لقد لاقتْ مِنَ الشَّرِّ جعفرٌ   بِطِخْفَةَ أياماً طويلاً قصيرُها

قبيلة جعفر لقيت في معركة طخفة، أياماً صعبة طويلة بمآسيها رغم قصرها

وقد علمتْ أفناءُ جعفرَ أنه   يَقِي جعفراً وقعَ العَوالِي ظُهورُها

وقد علمت أفناء جعفر (جيرانهم) أن قبيلة جعفر يتقون وقع العوالي (الرماح) بظهورهم، أي أنهم سريعون إلى الفرار فتُصيبهم في ظهورهم لا في صدورهم

٥٠ نهوض الشيب

إنّ المَلامَةَ مثلَ ما بَكَرَتْ به   مِنْ تحتِ ليلتِها عليكَ نَوارُ

اللوم المؤلم هو مثل الذي صبحتك به زوجتك نوار

وتقولُ كيف يميلُ مِثلُكَ للصِّبَا   وعليكَ مِن سِمَةِ الحليمِ عِذَارُ

تقول نوار: كيف يميل مثلك للصبا (اللهو)، وعليك من سمة الحليم (هيئة العاقل) عذار (العذار السالف، يقصد سالفاً وَخَطَه الشيب)

والشَّيب يَنهَضُ في الشبابِ كأنَّه   ليلٌ يَصيحُ بِجانبيْهِ نَهارُ

الشيب في سالفيك، فكأن وسط رأسك بشعره الأسود ليل، وقد صاح بجانبيه النهار المتمثل في الشيب. النهار لا يصيح طبعاً، ولكن الديك يصيح، فاعلم ذلك. قد طرب القدماء كثيراً لهذا البيت، ولعمري إن المرء ليحس بقعقعة طيبة من كلماته، وإن احتاج إلى ما يحتاج إليه كثير من شعر الفرزدق من التأويل، فالشيب ليس «كأنه ليل» بل الشعر الأسود هو الليل. . في كثير من أبيات الفرزدق عليك أن تفهم المعنى الإجمالي، ثم تبلع ريقك وتهز رأسك

إنَّ الشبابَ لَرابِحٌ مَنْ باعَهُ،   والشَّيبُ ليس لِبائِعيهِ تِجَارُ

الشباب تجارة رابحة على النساء، والشيب ليس لبائعيه تِجار (تُجَّار) يشترونه منهم

يا ابْنَ المَراغَةِ أنتَ ألأمُ مَنْ مَشَى   وأذَلُّ مَنْ لِبَنانِهِ أظْفَارُ

يا جرير أنت ألأم من مشى فوق الأرض، وألأم من لبنانه (أطراف أصابعه) أظفار، أي أنت ألأم الناس

وإذا ذَكَرتَ أباكَ أو أيَّامَهُ   أخزاكَ حيث تُقَبَّلُ الأحجَارُ

إذا ذكرتَ أباك عطية أو أيامه (مواقفه) لحق بك الخزي في مكة، حيث يقبل الناس الحجر الأسود. وكانوا في القديم يحتكمون إلى أقوام بمكة في المفاخرة بالأنساب

وإذا نظرتَ رأيتَ فوقَكَ دارِمَاً   في الجَوّ حيث تُقَطَّعُ الأبصارُ

قبيلتي، دارم، فوقك عالية في الجو في مكان ينقطع فيه البصر ويعجز عن الرؤية لعلوها

إن الزيارةَ في الحياةِ، ولا أرى   مَيْتاً إذا دخلَ القبورَ يُزَارُ

أنت تزور قبر زوجتك. . فأي زيارة هذه لميت في قبره؟

ورَثَيْتَها وفضَحْتَها في قبرِها   ما مثلَ ذلكَ تفعلُ الأبرارُ

ورثيت زوجتك ففضحتها، وليس هذا من فعل أهل الخير

٥١ وصية الأخطل

وزارَ الـقـبـورَ أبـو مَـالِـكٍ بِـرَغْـمِ الـعُـدَاةِ وأوْتـارِهـا

مات أبو مالك (الأخطل) ميتة طبيعية، رغم أعدائه الذين توعدوه بالقتل، ورغم أوتارهم (ثاراتهم)

وأوْصَى الـفـرزدَقَ عـنـد الـمَـماتِ بِـأُمِّ جـريـرٍ وأعـيـارِهـا

وأوصاني عند موته بالاستمرار في هجاء أم جرير وأعيارها (حميرها، يقصد أبناءها)

٥٢ أكل الخبيص

يهجو عمر بن هبيرة:

أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ وأنـتَ والٍ شفيقٌ، لستَ بِالوالِي الحريصِ..

يا أمير المؤمنين، وأنت وال (تتولى الأمور) شفيق (راحم) ولست حريصاً (بخيلاً)..

أأطـعَـمْـتَ الـعـراقَ ورافِـدَيْـه فَـزَارِيّـاً أحَـذَّ يَـدِ الـقـمـيـصِ

أأطعمت خراج العراق ونهريه رجلاً فزارياً أحذَّ يد القميص (مقصوص كم القميص، لعله عنى أن ابن هبيرة مشمر لسرقة ما يجنيه من أموال بالعراق)

ولـم يَـكُ قـبـلَـهـا رَاعـي مَـخَـاضٍ لِـيَـأْمَـنَـهُ عـلـى وَرِكَـيْ قَـمِـيـصِ

ولم يكن أي راعي مخاض (راعي إبل) يأمن ابن هبيرة على وركي قميص (دابة)؛ لعل المعنى أن الراعي لم يكن يحس بالأمان إذا رأى ابن هبيرة متوركاً قميصاً (راكباً على وركي دابته)

تَـفَـيْـهَـقَ بـالـعـراقِ أبـو الـمُـثَـنَّـى وعَـلَّـمَ قـومَـه أكـلَ الـخَـبـيـصِ

تفيهق (تحذلقَ، وتشدق، ووسَّع فمه بالكلام) أبو المثنى (كنية المخنث) عندما تولى أمر العراق، وعلم قومه البدو أكل الخبيص (التمر المعجون بالسمن)

٥٣ عيون المها

مَنَعَ الحياةَ مِنَ الرجالِ وطيبَها حَـدَقٌ تُـقَـلِّـبُـهـا الـنـسـاءُ مِـرَاضُ

قصة الأبيات: كان الفرزدق في دكان سراج، يبيع سروج الخيل، فمرت حسناء، فخرج وتبعها بنظره، وهو ينقدُّ حسرة، وقال: إن ما يمنع الرجال من الاستمتاع بالحياة وطيبها شدة التعلق بالنساء ذوات الحدق (العيون) المراض (المسترخية). ومن بعض دلال المرأة أن تفتح عينيها نصف فتح، ليس خجلاً بل إغواء.. هذا كان كثيراً عند العرب، وهو كثير الآن عند العرب، ولكنه ليس خلقةً في المرأة

فَـكَـأَنَّ أَفْـئِـدَةَ الـرجـالِ إذا رأَوْا حَـدَقَ الـنـسـاءِ لِـنَـبْـلِـهـا أَغْـراضُ

كأن قلوب الرجال أغراض (أهداف) لنبل عيون النساء (سهامها)

خَرَجَتْ إليكَ، ولم تكنْ خَرَّاجَةً فأُصيبَ صَدْعُ فؤادِكَ المُنْهَاضُ

خرجت المرأة إلى السوق، وليست من أولئك النسوة الكثيرات الخروج، فأصابت صدع (شطر) قلبك المنهاض (المكسور). والمنهاض تصف الصدع.. كذا

٥٤ خاضب ساخط

خَضَبْتُ بِجَيِّدِ الحِنَّاءِ رأسِي لِيُعْقِبَ حُمْرَةً بعدَ البَيَاضِ

خضبت (صبغت) بنوع جيد من الحناء رأسي، ليعقب (ليسبب) احمراراً بعد أن كان أبيض بالشيب

هُمَا لَوْنَانِ مِنْ هذا وهذا كلا اللَّوْنينِ لستُ له بِراضِ

هذان لونان، الشيب والحمرة، ولست راضياً أياً منهما

٥٥ حتى لا يجوع الذئب

تلومُ على أنْ صَبَّحَ الذئبُ ضَأْنَها فَأَلْوى بِحُبْشٍ وَهْوَ في الرَّعْي رَاتِعُ

تلومني أمي ـ وقيل: هذا الشعر من أول ما قال الفرزدق ـ لأن الذئب أغار على ضأنها (خرافها) صباحاً، فألوى (ذهب) بحبش (اسم ذلك الخروف) وهو راتع (آكل لاعب) يرعى

وقَدْ مَرَّ حَوْلٌ بعدَ حَوْلٍ وأَشْهُرٌ عليهِ بِبُؤْسٍ، وَهْوَ ظَمْآنُ جائعُ

كان مر على الذئب حول بعد حول (عام بعد عام) وهو جائع

فلمَّا رأى الإِقْدامَ حزماً، وأنَّه أخو الموتِ مَنْ سُدَّتْ عليه المَطالِعُ..

فلما رأى الإقدام (الهجوم) حزماً (قراراً صائباً) وأن أخو الموت (من سيموت) هو الذي سدت في وجهه المطالع (الطرق)..

.. أغارَ على خوفٍ، وصَادفَ غِرَّةً فلاقَى التي كانتْ عليها المَطامِعُ

عندئذ أغار على الماشية وهو خائف، وصادف غرة (فرصة) فلقي ما كان يطمع فيه

وما كنتُ مِضياعاً، ولكنَّ هِمَّتي سوى الرعيِ مفْطوماً، وإذْ أنا يافِعُ

وأنا لست مضياعاً (مهملاً مضيعاً للمال) لكن همتي (طموحي) ليست في رعي الماشية منذ أن فطمت، وحتى شببت

٥٦ تعريف

إذا بَاهِلِيٌّ تحتَه حَنْظَلِيَّةٌ لهُ ولدٌ منها، فَذاكَ المُذَرَّعُ

الباهلي الذي يتزوج حنظلية، وينجب منها، فولده هو المذرع (الذي أمه أشرف نسباً من أبيه)، أي أن قبيلة باهلة أدنى نسباً من حنظلة

٥٧ أولئك آبائي

وِمِنَّا الذي أَحيَا الوَئِيدَ، وغَالِبٌ وعـمـروٌ ومِـنَّـا حـاجِـبٌ والأَقَـارِعُ

من قبيلتنا، دارم، صعصعة الذي أحيا الموؤودات، ومنا غالب وعمرو، إلخ

أولئِكَ آبائِي، فجِئْني بمِثْلِهِمْ إذا جمعَتْنا يا جريرُ المَجامِعُ

هؤلاء آبائي (أجدادي) فهات مثلهم يا جرير عندما نتفاخر في المحافل

فيا عَجبي حتى كُلَيْبٌ تَسُبُّني، كـأنَّ أبـاهـا نَـهْشَـلٌ أو مُـجَاشِـعُ

وكليب قبيلة جرير، ونهشل ومجاشع من أجداد الفرزدق. وقيمة هذه الأبيات الثلاثة أنها منسابة انسياباً، فلو نثرتها ما كان لك إلا أن تؤديها بلفظها

فإنَّكَ إلَّا ما اعتَصَمْتَ بِنَهْشلٍ لَمُسْتَضْعَفٌ يا ابنَ المَراغَةِ ضَائِعُ

وأنت يا جرير ـ وجرير من تميم كالفرزدق، ولكنه من فرع كليب ـ إن لم تعتصم (تحْتمِ) بفرع نهشل ـ ستظل مستضعفاً ضائعاً

إذا أنتَ يا ابْنَ الكلبِ أَلْقَتْكَ نهشلٌ، ولم تَكُ في حِلْفٍ، فمَا أنتَ صانِعُ

إذا تخلت عنك نهشل (نهشل جد للفرزدق ونهشل هي العشيرة المكونة من أبنائه وأحفاده)، ولم تجد من تتحالف معه، فما الذي تصنعه؟

تَنَحَّ عن البَطْحاءِ، إن قَديمَها لنا، والجبالُ الباذِخاتُ الفَوارِعُ

تنح عن البطحاء (أواسط البلد، وهي مكان الأشراف، ومن ذلك بطحاء مكة)، فلنا فيها الأقدمية، ولنا الجبال الباذخات (العاليات) الفوارع (العاليات)

أخَذْنا بآفاقِ السماءِ عليْكُمُ لنا قمراها والنجومُ الطَّوالِعُ

سددنا عليكم الآفاق بحضورنا وشهرتنا، ولنا قمراها (الشمس والقمر) والنجوم الطالعة

أَتعدِلُ أحساباً لئاماً أدِقَّةً بِأَحسابِنا؟ إنِّي إلى اللَّهِ راجِعُ

أتسوي بين أحساب (أفعال) لئيمة دقيقة (نحيلة) بأحسابنا؟ إنا لله وإنا إليه راجعون!

وكنَّا إذا الجبارُ صَعَّرَ خدَّهُ ضربناه حتى تستقيمَ الأَخادِعُ

كنا إذا صعر (أمال) الجبار خده تكبراً، ضربناه حتى تعتدل الأخادع (عروق الرقبة) أي حتى يعتدل رأسه ويكف عن كبره

إذا قيلَ أيُّ الناسِ شَرٌّ قبيلةً أشارتْ: كُلَيْبٌ، بِالأَكُفِّ الأَصابِعُ

إذا سئل عن أسوأ قبيلة أشارت أصابع أكف الناس إلى كليب (التقدير عند من رفع كليباً «أشارت الأصابع، هي كليبٌ»، ومن نصب كليباً فعلى نزع الخافض، ومن جرها فبحرف جر محذوف تقديره إلى)

٥٨ أهون مفقود

يَقولونُ زُرْ حَدْرَاءَ والتُّرْبُ دونَها وكيف بشيءٍ وصلُهُ قد تقَطَّعا

يقولون لي زر قبر زوجتك حدراء، فكيف أزورها والتراب دونها (عليها)، وقد انقطع الوصل بيني وبينها؟

ولستُ وإنْ عَزَّتْ عليَّ بِزائرٍ تُراباً على مَرْسُومَةٍ قد تَضَعْضَعَا

ولست ـ وإن كانت عزيزة علي ـ زائراً تراباً على مرسومة (مدفونة) قد تضعضع (هبط)

وأَهْوَنُ مفقودٍ إذا الموتُ نالَه عَلى المرءِ مِنْ أَصحابِهِ مَنْ تَقَنَّعا

أهون مفقود (الأقل قيمة بين المفقودين) عند الموت من تقنع (من تنقب، أي المرأة)

يقولُ ابنُ خِنزيرٍ بَكيتَ. ولم تَكُنْ على امرأةٍ عيني إخالُ لِتَدْمَعا

يقول جرير إنني بكيت، ولكنني لا إخال (أظن) عيني ستبكي على امرأة أبداً

٥٩ منعوني من زياد

يمدح يزيد بن عبد الملك:

ولا جارَ بعدَ اللَّهِ خَيرٌ مِنَ الذي وضَعْتُ إلى أبوابِه رَحْلَ خائفِ

لا جار (مجير) لي بعد الله أفضل ممن وضعت رحْلي (سرجي ومتاعي) عن جملي ببابه وإنه رحل رجل خائف

فلا بَأسَ إنِّي قد أخذْتُ بِعُرْوَةٍ هِيَ العُرْوَةُ الوُثْقى لِخَيرِ الخَلائِفِ

لا بأس عليَّ وقد استمسكت بعروة (التزمت) هي العروة الوثقى (المأمونة) لخير خليفة

أَبُوهُ أبو العَاصِي وحَرْبٌ تَلاقيا إليه بِمَجْدِ الأَكْرَمِينَ الغَطَارِفِ

أبوه (يعني جده) أبو العاصي وحرب (وهما جَدَّا الفرعين المرواني والسفياني من بني أمية) وقد جمعا له مجد الكرام الغطارف (السادة)

هُمُ مَنعوني مِنْ زِيادٍ وغَيْرِهِ بِأَيْدٍ طِوَالٍ أَمَّنَتْ كلَّ خَائفِ

بنو أمية منعوني (حموْني) من زياد بن أبيه والي العراق، ومن غيره، بأيد طوال (بقدرة وقوة) أَمَّنتْ كل خائف

٦٠ عزفت بأعشاش

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وما كِدْتَ تَعزِفُ وأَنْكَرْتَ مِن حَدراءَ ما كنتَ تعرِفُ

المعنى الملموح: عزفت (انصرفت) عن هذا المكان «أعشاش»، وما انصرف فؤادك عنه كل الانصراف، غير أنك فوجئت بما بدا من الحبيبة «حدراء» فأنكرت ذلك

وَلَجَّ بِكَ الهِجرانُ حتى كأنَّما ترى الموتَ في البيتِ الذي كنتَ تألَفُ

لج (استمر) بك هجرانها حتى لقد صرت ترى الموت في بيتها الذي طالما ألفته

إذا انتبَهَتْ حَذْراءُ مِن نَومَةِ الضُّحَى دَعَتْ، وعَليها دِرْعُ خَزٍّ ومِطْرَفُ . .

إذا استيقظت «حذراء» من نومة الضحى ـ وهي نومة البنت المترفة التي لا شغل لديها ـ دعت (طلبت) وهي تلبس درع خز (قميصاً داخلياً من الحرير) ومطرف (رداء خفيفاً). .

بِأَخْضَرَ مِنْ نَعمانَ، ثم جَلَتْ به عِذَابَ الثَّنايا، طَيِّباً حينَ يُرْشَفُ

طلبت عود سواك أخضر مما ينبت في وادي «نعمان»، ثم استاكت به وجلت ثناياها (أسنانها) العذبة التي يطيب للمرء ارتشافها

فكيف بِمَحْبوسٍ دَعانِي ودُونَه دُرُوبٌ وأبوابٌ وقصرٌ مُشَرَّفُ

فهذه الآن قصة امرأة محبوسة دعتني، ودونها (يحول دون الوصول إليها) دروب وأبواب وقصر مشرف (عال)

وصُهْبٌ لِحَاهُمْ رَاكِزُونَ رِمَاحَهُمْ لَهُمْ دَرَقٌ دونَ العَوَالِي مُصَفَّفُ

ويحميها أيضاً حراس ذوو لحى صهباء (شقراء) يركزون رماحهم، وتحت العوالي (الرماح) درق (تروس) مصفوفة

يُبَلِّغُنا عنها بِغيرِ كلامِها إلينا مِنَ القصرِ البَنَانُ المُطَرَّفُ

تبلغنا بما تريد ولكن دون أن تتكلم، فالذي يبلغنا هو إشارتها بالبنان المطرف (أطراف أصابعها المصبوغة بالحناء)، فكأنها كانت تشير إليه أن تعال. .

دَعوتُ الذي سوَّى السمواتِ أَيْدُهُ، ولَلَّهُ أَدْنَى مِنْ وَريدي وأَلْطَفُ

دعوت الله الذي سوى السموات أيده (قدرته)، والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد، وهو يسمع الدعاء. .

لِيَشْغَلَ عنِّي بعلَها بِزَمَانَةٍ تُدَلِّهُهُ عني وعنها فَنُسْعَفُ

دعوته أن يشغل عني زوجها بمرض مزمن، يدلهه (يذهب بعقله) عني وعنها، فهذا ما سوف يسعفنا

فأَرسَلَ في عيْنيهِ ماءً عَلاهُما، وقد عَلِمُوا أَنِّي أَطَبُّ وأَعْرَفُ

فأرسل الله في عينيه ماء، فعمي، وقد علم القوم أنني خبير بالطب

فَداويْتُه عامَيْنِ وَهْيَ قريبةٌ أراها فتَدنُو لي مِراراً فأَرْشُفُ

ولبثت أطببه عامين وهي بجانبي تدنو مني فأقبّلها وأرشف ريقها

فيَا ليتَنَا كنَّا بَعيريْنِ لا نَرِدْ عـلـى مَنْهَلٍ إلَّا نُشَلُّ ونُقْذَفُ

ليتنا كنا بعيرين، ولا نردُ منهلاً (حوض ماء) إلا نشلُّ (نطرد) ونقذف بالحجارة. ليس بعيداً أن يكون الفرزدق سرق المعنى من كثير عزة، فالفرزدق قال قصيدته هذه وهو في المدينة، وفي المدينة عاش كثير عزة طويلاً، وكان معاصراً للفرزدق. غير أن الشاعرين مشهوران بالاصطراف أي سرقة الأبيات كاملة

كِلانا بِها عَرٌّ يُخاف قِرَافُه على الناسِ مَطْلِيُّ المَسَاعِرِ أَخْشَفُ

وكلانا مصاب بالعر (الجرب)، ويخاف الناس قرافه (مخالطته)، ومطلي المساعر (الأفخاذ) أخشف (يابس الجلد)، فهذا يجعلنا ننفرد وحدنا ولا يقربنا أو يفرق بيننا أحد

إليكَ أميرَ المؤمنينَ رَمَتْ بِنا هُمومُ المُنَى، والهَوْجَلُ المُتَعَسَّفُ

إليك يا أمير المؤمنين رمتنا الهموم والأمنيات بالحصول على المال، ورمانا أيضاً الهوجل (الصحراء) المتعسف (الذي يسير فيه المرء فيضل طريقه)

وعَضَّ زَمانٌ يا ابْنَ مَروانَ لم يَدَعْ مِنَ المَالِ إلَّا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفُ

عضنا الزمان (أنهكنا القحط) يا ابن مروان (عبد الملك بن مروان) ولم يدع لنا من المال (الماشية) إلا المسحَت (ما يأتي بطريق السرقة) أو المجرف (الأعجف المهزول). وحق «مجرف» النصب، وللبيت مع النحاة قصة طويلة

وقد عَلِمَ الجيرانُ أنَّ قُدُورَنا ضَوَامِنُ للأرْزاقِ والرِّيحُ زَفْزَفُ

وقد علم الجيران (من ينزلون بنا ضيوفاً أو مستجيرين) أن قدورنا تضمن لهم الرزق (الطعام) عندما تكون الريح زفزفاً (عاصفة)

تُفَرِّغُ في شِيزَى كَأَنَّ جِفَانَها حِياضُ جِبىً منها مِلاءٌ ونُصَّفُ

تفرغ القدور في شيزى (قصاع كبيرة من خشب الشيز) كأن جفانها (الكبيرة منها) حياض جبى (أحواض جمع الماء) بعضها ملآن وبعضه بلغ الطعام منتصفه.. لو كان جعلها كلها ملأى! لكن هي القافية

تَرى حَوْلَهُنَّ المُعْتَفينَ كأَنَّهُمْ على صَنَمٍ في الجاهِلِيَّةِ عُكَّفُ

ترى حول القصاع المعتفين (الفقراء) كأنهم عاكفون بصمت على صَنم في الجاهلية، والجائع الآكل صامت منشغل بما هو خير من الكلام

قُعُوداً وخلفَ القاعدينَ سُطُورُهُمْ جُنُوحٌ، وأَيْدِيهِمْ جُمُوسٌ ونُطَّفُ

قاعدون في صفوف وهم جنوح (مائلون بأيديهم لتصل إلى القصاع) والأيدي جُموس (جامد عليها الدهن) ونُطّف (يسيل منها السمن والدهن)

ومَا قامَ مِنَّا قائِمٌ في نَدِيِّنا فيَنْطِقَ إلَّا بالتي هِيَ أَعْرَفُ

لا يقوم أحد من رجالنا في النديِّ (المجلس) ليخطب إلا نطق بمعروف وحكمة

وكُنَّا إذا نـامَـتْ كُـلَـيْبٌ عـن الـقِـرى   إلى الضيفِ نَمشي بالعَبيطِ ونَلْحَفُ

إذا نامت قبيلة كليب عن القرى (أهملت إطعام الضيف) مشينا إلى الضيف بالعبيط (اللحم) وباللحاف كي يتغطى من البرد

وَجَدْنا أعزَّ الناسِ أكثرَهُمْ حَصَىً   وأكـرَمَـهُـمْ مَـنْ بـالـمَـكـارِمِ يُـعـرَفُ

أعز الناس (أكثرهم عزاً وقوة) أكثرهم حصى (عدداً)، وأكرمهم من له في المكارم صيت

وبِـالـلَّـه لـولا أن تـقـولـوا تـكـاثَـرَتْ   علينا تميمٌ ظَالمينَ، وأسرَفُوا..

ولولا أن يقول الناس إن قبيلة تميم اجتمعت ضدهم ظالمة وأسرفت..

لَـمَـا تُـرِكَـتْ كـفٌّ تُـشـيـرُ بِـإِصْـبَـعٍ   ولا تُرِكَتْ عينٌ على الأرضِ تَطْرِفُ

.. لما كنا تركنا كفاً تشير بإصبع ولا عين تطرف (ترمش)، أي أننا قادرون على قتل الناس جميعاً لولا أننا نخشى الملامة

لـنـا الـعِـزَّةُ الـعَـلـيـاءُ والـعَـدَدُ الـذي   عـلـيـهِ إذا عُـدَّ الـحَـصَـى يَـتَـخَـلَّـفُ

لنا العزة (القوة) وعدد الرجال الذي يزيد عن عدد الحصى

ولا عِـزَّ إلَّا عِـزُّنـا قـاهـرٌ لـه   ويَسأَلُنا النِّصْفَ الذَّليلُ فَنُنْصِفُ

نقهر كل قوة، وإن طلب المقهور الذليل أن ننصفه أنصفناه

إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ مِنْ مِنَىً   عَشِيَّةَ يومِ النَّحْرِ مِنْ حيثُ عَرَّفُوا..

إذا جاء الناس أماكن الحج في مكة عشية يوم نحر الهديّ بعد أن يقفوا بعرفات..

تَرى الناسَ ما سِرْنا يَسيرونَ خلْفَنا   وإن نحنُ أَوْمَأْنا إلى الناسِ وَقَفُوا

ترى الناس يسيرون خلفنا فإن أشرنا إليهم بالوقوف وقفوا

فـإِنَّـكَ إذ تَـسـعَـى لِـتُـدْرِكَ دارِمـاً   لَأَنـتَ الـمُـعَـنَّى يا جريرُ الـمُـكَـلَّـفُ

إذ تسعى يا جرير لتدرك أمجاد قبيلة دارم فإنك المعنى (المتعَب) الذي كلف نفسه فوق طاقته

٦١ ثمانون لحية

ونحن أَزَحْنا عن «خُوَيْلَةِ جَحْدَرٍ»   شَجاً كان منها في مكانِ المُخَنَّقِ

أزحنا عن هذه المرأة شجاً (شوكةً) كانت في مكان المخنق منها (الحلق)

وكـانـتْ إذا ابْـنَـا مِـسْـمَـعٍ ذُكِـرا لـهـا   جَـرَتْ دُفَـعٌ مِـن دمـعِـهـا الـمُـتَـرَقْـرِقِ

فقد كانت إذا ذكر أمامها ابنا مسمع بكت وجرى دمعها متدفقاً

فَساغَ لها بَرْدُ الشرابِ، ولم يكنْ يَسوغُ لها في صدرِها المُتَحَرِّقِ

فبعدما صنعنا لها ما صنعنا ساغ (طاب) لها الماء، وما كان يطيب لها لما في صدرها من لهيب

أَتَتْها، ولا تَمشي، ثمانونَ لِحْيَةً جَماجِمُها مِنْ مُخْتَلىً ومُفَلَّقِ

أتتها ـ دون أن تمشي ـ ثمانون لحية (ثمانون رأساً مقطوعاً)، والجماجم بين مختلى (مقطوع من العنق) ومفلق (مفلوق من أعلاه). فنحن انتقمنا لها وقتلنا كل هؤلاء

وذاتِ حَليلٍ أَنْكَحَتْنا رماحُنا حَلالاً لِمَنْ يَبْني بها لم تُطَلَّقِ

ورب امرأة ذات حليل (زوج) زوجتْنا بها رماحنا، إذ أخذناها سبية في الحرب، وهي حلال لمن يبني بها (يتزوجها الذي سباها أو كانت من نصيبه) دون أن يطلقها زوجها

وكانتْ أَثافي قِدْرِنا رأسَ بَعْلِها وعَمَّيْه، في أَيْدٍ سَقَطْنَ وأَسْوُقِ

وقبل أن نسبيها كنا قتلنا زوجها وعمَّين من أعمامه وجعلنا رؤوسهم أثافي (حجارة القدر)، هذا إضافة إلى أيدٍ وسيقان مقطوعة

٦٢ الفرزدق في يوم القيامة

إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ عنيفٌ، وسَوّاقٌ يسوقُ الفَرَزْدَقا

الفرق بين القائد والسائق أن القائد يقود المرء وهو ماش أمامه، والسائق يسوقه وهو خلفه، ولأن الفرزدق لم يشهد يوم القيامة بعد فهو يضع الاحتمالين

أخافُ وراءَ القبرِ إن لم يُعافِني أَشَدَّ مِنَ القبرِ التِهاباً وأَضْيَقا

أخاف بعد أن أصير إلى القبر ـ إن لم يعفُ الله عني ـ عذاباً هو أشد من ضيق القبر

إذا شَرِبُوا فيها الصَّديدَ رأَيْتَهُمْ يذوبونَ مِنْ حَرِّ الصَّديدِ تَمَزُّقا

في الجحيم يشربون الصديد (القيح) وتذوب أجسامهم من حرارته وتتمزق

٦٣ الباهلي والباهلية

مَا البَاهِلِيُّ بِصادقٍ لكَ وعدَه ومتى تَعِدْكَ الباهِلِيَّةُ تَصْدُقِ

لا يفي الباهلي بوعده، ولكن الباهلية تفي، أي أنها غير عفيفة

٦٤ منتهى الخوف

إذا ذَكَرَتْ نَفسي زِياداً تَكَمَّشَتْ مِنَ الخوفِ أَحشائي، وشابَتْ مَفَارِقي

إذا مر ببالي زياد بن أبيه، وكان يطلب الفرزدق كي يعاقبه، فإن أمعائي تتكمش (تتقبض) ويشيب رأسي خوفاً

٦٥ عمائم البطارق

قال في الزعل بن عروة الجرمي:

حَباكَ بِوُدِّي يا ابْنَ عُرْوَةَ قَاسِمُ الـ ـحُظُوظِ وربٌّ عالِمٌ بالخلائقِ

حباك بودي (منحك محبتي) قاسم الحظوظ، وهو الرب الذي يعرف أخلاق الناس

حَبَوْتُ بها الجَرْمِيَّ، إني وجدْتُه مِنَ الأُسرةِ الحَامِينَ عند الحَقائقِ

حبوت بهذه القصيدة الجرمي فقد وجدته من أسرة تحمي وتدافع عند الحقائق (مواقف الحفاظ على الشرف)

على عهدِ ذي القرنينِ كانت سُيوفُهُمْ عَمَائِمَ هاماتِ المُلوكِ البَطارِقِ

هم شجعان. ومن عهد ذي القرنين (الإسكندر) وسيوفهم تضرب هامات (رؤوس) الملوك البطارق (رؤساء الروم)، فكأن السيوف عمائم لتلك الرؤوس

٦٦ إقرار بالفضل

يمدح أسد بن عبد الله:

ولا فضلَ - إلَّا فَضْلُ أُمٍّ على ابْنِها - كفضلِ أَبي الأشبالِ عند الفرزدقِ

فضل أبي الأشبال (لقب الممدوح) على الفرزدق أعظم فضل ولا أستثني سوى فضل الأم على ابنها

تَداركَني مِنْ هُوَّةٍ كان قَعْرُها ثَمانينَ باعاً للطَّويلِ العَشَنَّقِ

تداركني (أنقذني) من هوة (حفرة، أو هاوية) عمقها ثمانون باعاً من أبواع رجل عشنق (طويل).. والباع مقدار ما بين أصابع اليدين مع مد الذراعين على الجانبين، وباع الرجل الطويل أكبر من باع القصير

٦٧ استحالة الاستبالة

فإن امْرَأً يَسْعى يُخَبِّبُ زَوجَتي كَساعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَبيلُها

كانت زوجة الفرزدق «النوار» ناشزاً، تطالبه بالطلاق باستمرار، وهو يتوهم أن الناس يحرضونها عليه. يقول: إن من يخبب زوجتي (يحرضها) إنما هو كالساعي إلى الأسود في مربضها بمنطقة الشرى يريد أن يستبيلها (يأخذ بولها). كانت العرب تسعى للإبل تأخذ بولها للتداوي به، ولم يكن سهلاً استبالة البعير، فهو ينفر ممن يحمل علبة يريد أن يجمع بها بوله أو هو يمتنع عن التبول، فما بالك بمن يريد أخذ بول الأسد؟

٦٨ موت الموت

قال يرثي أباه غالباً:

وقد خَمَدَتْ نارُ النَّدى بعد غالبٍ   وقَصَّرَ عن معروفِه كلُّ فاعلِ

بعد غالب خمدت النار التي يوقدونها ليراها الأضياف، والندى هو السخاء، وقصر الناس في المعروف

فَلَيْتَ المَنايا كُنَّ مُوِّتْنَ قبلَه   وعاشَ ابنُ ليلى للنَّدى والأرامِلِ

ليت الموت كان مات قبل ابن ليلى (غالب)، وليت غالباً عاش للندى (للسخاء)، ونجدة الأرامل

٦٩ بنت العز

لا توقِدُ النارَ إلّا أن تُثَقِّبَها   بِالعُودِ في مِفْضَلِ الخَزِّيَّةِ الغَالي

هذه الفتاة لا توقد النار للطبخ أو الاصطلاء، فهي ابنة عز، إنما تثقب النار (توقدها) بعود البخور كي تتطيب، وتكون لابسة مفضلاً (قميص نوم) من الخز (الحرير) الغالي

والطِّيبُ يَزْدَادُ طِيباً أن يكونَ بها،   وإنْ تَدَعْهُ تَدَعْهُ غيرَ مِتْفَالِ

الطيب يزيد طيباً على جسمها، وإن تترك التطيب فهي تتركه ولا تكون متفالاً (رديئة الرائحة)

٧٠ قلنا وقال

يمدح سعيد بن العاص الأموي:

أَرِقْتُ فلم أَنَمْ ليلاً طويلاً   أُراقبُ هل أرى النَّسْرَينِ زالا

أرقتُ وظللت أراقب اختفاء النسرين (وهما نجمان) بحلول الصباح

وكان قِرى الهُموم إذا اعْتَرتْني   زَماعاً لا أُريدُ به بِدَالا

وعندما تعتريني الهموم فإنني أقدم لها من القرى (طعام الضيف) الزماع (العزم) الذي لا أريد التخلي عنه. فهو إذا استضاف الهموم واجهها بعزيمته، ولم يضعف أمامها

فَرَوَّحْتُ القَلُوصَ إلى سعيدٍ   إذا ما الشَّاةُ في الأَرْطَاةِ قَالا

روحت القلوص (مضيت بالناقة) إلى سعيد بن العاص، في وقت الظهيرة عندما يقيل (يغفو غفوة الظهيرة) الشاة (الثور الوحشي) في الأرطاة (بين أشجار الأرطى)

إِليكَ فَرَرْتُ منكَ ومِنْ زيادٍ   ولم أَحْسَبْ دمي لكُما حَلالا

فررت إليك يا سعيد هارباً منك ومن زياد، ودمي ليس حلالاً لكما. وكان الفرزدق يتهاجى مع الشعراء ومنهم من كان من مداحي زياد بن أبيه، فطلبه زياد فهرب من العراق إلى المدينة المنورة ملتجئاً إلى واليها سعيد بن العاص، وكان خائفاً من أن يعاقبه سعيد، لكنه حماه

ولـكِنِّـي هَـجَـوْتُ، وقـد هَـجَـتْـنِـي   مَـعـاشِـرُ قـد رَضَـخْـتُ لَـهُـمْ سِجَـالا

هجوت وهُجيت، ورضخت (شججت) رؤوس الشعراء، وصببت لهم سجالاً (دِلاءً) من الهجاء على رؤوسهم.. هكذا أراد الفرزدق أن يقول، وضاق عن قوله البيت

فـإنْ يَـكُـنِ الـهِـجَـاءُ أَحَـلَّ قـتـلـي   فـقـد قُـلْـنـا لِـشـاعِـرِكُـمْ وقَـالا

علامَ يجعل الهجاءُ قتلي حلالاً؟ لقد هجونا وهجينا، وانتهى الأمر. وعلى قول الجاحظ في البخلاء: «فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال... فهذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً»

تَـرى الـشُّـمَّ الـجَـحَـاجِـحَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ   إذا مـا الأمـرُ فـي الـحَـدَثـانِ عَـالَا..

ترى الشم (رافعي الأنوف) الجحاجح (السادة) من قريش.. إذا عال الأمر (اشتد البلاء) في الحدثان (في الموقف العصيب)..

قِـيـامـاً يـنـظـرونَ إلـى سـعـيـدٍ   كـأنَّـهُـمُ يَـرَوْنَ بـه هِـلالا

.. تراهم قياماً (واقفين) ينظرون إلى سعيد طالبين النجدة، كقوم واقفين ووجوههم نحو السماء يبحثون فيها عن هلال العيد

٧١ حمَّال اللؤم

يهجو جندل ابن الراعي النميري:

ألـم أَرْمِ عنكُمْ، إذ عَجَزْتُمْ، عَدُوَّكُمْ   بِـجَـنْـدَلَـتـي حـتـى تَـكَـسَّـرَ بَـازِلُـهْ

ألم أرم عدوكم، دفاعاً عنكم عندما عجزتم، بجندلتي (بصخرتي) حتى تحطم بازله (سنه)؟.. أي أنني كسرت أسنان أعدائكم بقصائدي

إذا غَـلَـبَ الـلـؤْمُ امْـرَأً أن يُـطـيـقَـهُ   فإنَّ ابْـنَ راعـي الإبْـلِ عـنـهُ لَـحَـامِـلُـهْ

إذا لم يستطع أحد أن يحمل اللؤم والخسة والدناءة، فلا مشكلة، فابن الشاعر «راعي الإبل النميري» يستطيع حمل كل هذا اللؤم

تُـزايِـلُ نـفـسُ الـعَـامـريِّ حـيـاتَـه   فَـيَـبْـلَـى، ويَـأْبَـى لـؤمُـه لا يُـزَايِـلُـهْ

يموت العامري ويبلى جسده في التراب، واللؤم لا يزايله (يتركه)

٧٢ إلى أبطال ذي قار

يمدح عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني:

فَـلَـسْـتُ، وإنْ كـانـتْ ذُؤَابَـةُ دَارِمٍ   نَمَتْنِي إلى قُدْمُوسِ مَجْدٍ حُلاحِلِ..

لست - حتى وإن كانت ذؤابة قبيلة دارم (أعلاها، قمتها) قد نمتني (نسبتني) إلى قدموس مجد حلاحل (مجد قديم ضخم)

وإنْ حَلَّ بيتي مِنْ سَماءِ مُجَاشِعٍ بِمنزلَةٍ فاتَتْ يدَ المُتَناوِلِ . .

وحتى إن حل بيتي في سماء قبيلة مجاشع، تلك المنزلة التي لا ينالها أحد . .

بِناسٍ لِبَكْرٍ حُسْنَ صُنْعِ أخيهِمُ إليَّ لدى الخِذْلانِ مِنْ كُلِّ خَاذِلِ

مع كل ذلك فلست ناسياً معروف أخي بكر (ابن قبيلة بكر) إليَّ عندما خذلني الآخرون

كَفانا أُموراً لم يكنْ لِيُطيقَها مِنَ القومِ إلَّا كامِلٌ وابْنُ كامِلِ

كفانا هذا الرجل، عبد الله الشيباني، وشيبان من قبائل بكر، أموراً عظيمة لا يطيقها إلا الكامل من الرجال ابن الكامل

سَتأْتيكَ مني، إن بَقيتُ، قصائدٌ يُقَصِّرُ عن تَحبيرِها كلُّ قائلِ

سأمدحك، إن حييتُ، بقصائد يقصر عن تحبير وتدبيج وتنميق مثلها كل الشعراء

فَضَلْتُمْ بني شَيْبَانَ فَضْلاً وسُؤْدَداً كما فَضَلَتْ شيبانُ بَكْرَ بْنَ وَائلِ

أنتم خير بني شيبان فضلاً وسيادة، وشيبان خير قبائل بكر وائل

وقد فَضَلَتْ بَكْرٌ رَبيعَةَ كُلَّها بِفِعلِ العُلَى والمَكْرُماتِ الأوائلِ

وبكر خير قبائل ربيعة، لما لها من المكرمات الأوائل (المجد التالد القديم)

حَمَيْتُمْ مَعَدّاً يومَ كِسرى بْنِ هُرْمُزٍ بِضربَةِ فَصْلٍ قَوَّمَتْ كلَّ مَائلِ

حميتم يا شيبان كل قبائل معد (قبائل عرب الشمال جميعاً: مضر وربيعة) يوم تصديتم لكسرى بضربة فاصلة، قومت كل مائل (ردعت كل معتد)

غَلبْتُمْ بِذي قَارٍ، فمَا انْفَكَّ أَمْرُها إلى اليومِ أمرَ الخَاشِعِ المُتَضائلِ

كان ذلك يوم النصر على الفرس في ذي قار، وظل أمر الفرس حتى اليوم أمر الخاضع المتضائل (المنكمش)

فَسُمْتُمْ هَوانَ الذُّلِّ أَحْرارَ فَارِسٍ ولم تَخْفَ فيهِمْ غامِضَاتُ المَقاتِلِ

سمتم (ألحقتم) أحرار فارس الذل، ولم تغب عنكم مواضع المقتل منهم. و«الأحرار» لقب أطلقه العرب على الفرس، وسموهم أيضاً «الأبناء»، فقد كان في الجزيرة فرسٌ من أبناء الفرس الذين غزوا اليمن قبل الإسلام وكانت لهم مع الأحباش وقائع، وقد أسلم هؤلاء مع من أسلم باكراً بغير غزو فلم يكونوا موالي بل أحراراً

وهَابَكُمُ ذو الضِّغْنِ حينَ وَطِئْتُمُ رِقَابَ الأعادي وَطْأَةَ المُتَثاقِلِ

وهابكم ذو الضغن (الحاقد) عندما دستم رقاب الأعداء وثَقُلَتْ وطأتكم عليهم

٧٣ قامع الرشوة

إذا وَعَدَ الحجاجُ أو هَمَّ أَسْقَطَتْ مخافتُه ما في بطونِ الحَوامِلِ

إذا وعد (توعَّد، وهدد) الحجاج أو همَّ بالبطش، أسقطت مخافة بطشه ما في بطون الحوامل من أجنَّة

وكنَّا بأرضٍ يا ابْنَ يُوسُفَ لم يَكُنْ يُبالِي بِها ما يَرْتَشِي كلُّ عامِلِ

كنا نعيش في أرض العراق، أيها الحجاج بن يوسف، ولم يكن العامل (الوالي) فيها يبالي بالأمانة، فتراه يرتشي بسهولة

يَرَوْنَ إذا الخَصْمانِ جَاءا إلَيْهِمُ أحقَّهُما بالحقِّ أَهْلَ الجَعَائِلِ

كان العمال يرون أن أحق الخصمين بأن يحكموا له من يقدم الجعائل (أموال الرشوة)، وجاء الحجاج فأنهى الرشوة

٧٤ وصف الجرح

قال، وفكَّ قيده، الذي قيَّد به نفسه كي يحفظ القرآن، ليحاميَ عن نساء عشيرته:

لَعَمْرِي، لئنْ قَيَّدْتُ نفسِي لَطالَما سَعيتُ وأَوْضَعْتُ المَطِيَّةَ لِلْجَهْلِ

إن كنت قد قيدت نفسي بقيد وحلفت لا أفكه حتى أفقه القرآن، فإنني طالما سعيت وأوضعت (حثثت) المطية (الدابة) في طلب الجهل (الرعونة)

ثلاثينَ عاماً ما أرى مِنْ عَمايَةٍ إذا بَرَقَتْ إلَّا شَدَدْتُ لها رَحلِي

أمضيت ثلاثين عاماً لا أرى عماية (غيمة) يومض في جوانبها البرق إلا أسرعت نحوها بناقتي ورحلي (متاعي الذي فوق الناقة)، لا أرى فرصة لاقتناص الملذات إلا جريت خلفها

أَتَتْنِي أَحاديثُ البَعيثِ ودُونَهُ زَرودٌ فَشَاماتُ الشَّقيقِ إلى الرَّمْلِ

ثم بعد هذا الضلال أتتني أحاديث البعيث وشتمه لنساء قبيلتي، وهو في مكانه بعد «زرود» وتلك المناطق الأخرى

فإنْ يَكُ قَيْدِي كانَ نَذْراً نَذَرْتُه فَمَا بِيَ عن أَحسابِ قَوْمِيَ مِنْ شُغْلِ

لئن كان تقييدي لنفسي نذراً ألزمت نفسي به، فإنني لن أنشغل عن الدفاع عن أحساب قومي (شرفهم)

أنا الضامِنُ الرَّاعِي عليْهِمْ، وإنَّما يُدَافِعُ عن أحسابِهِمْ أنا أو مِثْلِي

أنا من يضمن حفظ شرفهم ويرعاهم ويدافع عنهم

وَلَولا حَيَاءٌ زِدْتُ رأسَكَ هَزْمَةً إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جوانِبُها تَغْلي

لولا الحياء لزدت رأسك هزمة (شجةً) عميقة إذا سبرت (قيس عمقها) ظلت تفور بالدم كأنها تغلي

بَعيدةُ أَطرافِ الصُّدُوعِ كأَنَّها رَكِيَّةُ لُقْمانَ الشبيهةُ بالدَّحْلِ

الشجة في رأسك واسعة وأطرافها بعيدة فكأنها ركية لقمان (الركية البئر غير المحاطة بالحجارة ففمها واسع) الشبيهة بالدحل (الحفرة الواسعة في بيت الأعرابي تستتر فيها المرأة)

إذا نظرَ الآسُونَ فيها تَقَلَّبَتْ حَماليقُهُمْ مِنْ هَوْلِ أنيابِها الثُّعْلِ

إذا نظر الآسون (الأطباء) في هذا الجرح العميق تقلبت حماليقهم (عيونهم)
رعباً لما يرون من شذرات لحم خارجة من أطراف الجرح ومتراكبة كأنها
الأسنان الثعل (المتراكبة)

إذا ما رأَتْها الشمسُ ظَلَّ طبيبُها كَمَنْ ماتَ حتى الليلِ مُخْتَلَسَ العقلِ

إذا برزت هذه الشجة، الجرح، للشمس رآها الطبيب واضحة فأغمي عليه، وظل مسلوب العقل لا يدري ما يصنع

يَوَدُّ لَكَ الأَدْنَوْنَ لو مُتَّ قبلَها يَرَوْنَ بها شَرّاً عليكَ مِنَ القتلِ

يود لك الأدنون (الأقربون) لو مت قبل هذه الضربة، فهي أشد من القتل

تَرَى في نَواحِيها الفِراخَ كأنَّما جَثَمْنَ حَوالَيْ أُمِّ أَرْبعةٍ طُحْلِ

ترى في جوانب الضربة اللحم كأنه فراخ جثمن (أقعين) حوالي دجاجة لها أربعة أفراخ طحل (لونهم مسود). كأن الدم جف على الجرح واسودّ

شَرَنْبَثَةٌ شَمْطَاءُ، مَنْ يَرَ مَا بِها تُشِبْهُ ولو بينَ الخُمَاسِيِّ والطِّفْلِ

هذه الضربة شرنبثة (غليظة) شمطاء (اختلط سواد الدم فيها ببياض اللحم) والناظر إليها يشيب حتى لو كان ابن خمس سنين

إذا ما سَقَوْها السَّمْنَ أَقْبَلَ وجْهُها بِعَيْنَيْ عَجُوزٍ مِنْ عُرَيْنَةَ أو عُكْلِ

ويسقون الجرح الغائر بالسمن فترى السمن يلمع في وسطه وحواليه الدم المسود، فكأن الجرح عين عجوز من عجائز قبيلة عرينة أو عكل..

جُنَادِفَةٍ سَجْرَاءَ تأْخُذُ عينُها إذا اكْتَحَلَتْ نِصفَ القَفيزِ مِنَ الكُحْلِ

هذه العجوز جنادفة (قصيرة) سجراء (حمراء) تضع في عينيها نصف قفيز (كيل كبير) من الكحل

٧٥ المعم المخول

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنى لنا بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطْوَلُ

إن الله الذي سمك (رفع) السماء، قد بنى لنا بيتاً (خيمة) دعائمه (أعمدته) عزيزة وطويلة. وكانت الخيمة العالية رمزاً للعز والقوة.. على أنه كان للفرزدق وقومه في البصرة، وربما أيضاً في كاظمة أي الكويت الحالية، بيوت من خشب ولبن، وكان الوالي في إحدى السنين هدم للفرزدق بيته بسبب تعرضه للناس بالهجاء. لعل الفرزدق هنا يقصد أن دعائم بيته أعز وأطول من السماء، لكنه في الغالب يقصد بأنها عزيزة وقوية فحسب. وكلمة «بيت» فسرناها على المعنى القريب، ولكن الشاعر يقصد بها أيضاً: العشيرة، فمثلما يسألك أهل الشام اليوم: أنت من بيت من؟ يعنون من عائلة ماذا؟ كانت العرب تعني بالبيت العائلة

بيتاً بناهُ لنا المَليكُ، وما بَنى حَكَمُ السماءِ فإنه لا يُنْقَلُ

بيتنا هذا بناه الله، وما بنى الله لا انتقال له

بيتاً زُرَارَةُ مُحْتَبٍ بِفنائِه ومُجَاشِعٌ وأبُو الفَوارِسِ نَهْشَلُ

وفي فناء البيت ترى زرارة محتبياً (قاعداً وقد جمع ظهره وركبتيه بشال)، وترى مجاشع ونهشل، وكل هؤلاء من سادة تميم

يَلِجُونَ بيتَ مُجَاشِعٍ، وإذا احْتَبَوْا بَرَزُوا كأنَّهُمُ الجبالُ المُثَّلُ

يدخلون بيت مجاشع، فإذا ما احتبوا كانوا كالجبال المثل (الشاخصة)

الأكثرونَ إذا يُعَدُّ حَصاهُمُ والأكْرَمُونَ إذا يُعَدُّ الأوَّلُ

نحن الأكثرون إذا يعد حصاهم (عددهم) ونحن الأكرمون إذا يُعد الأول (السابقون، وأولنا: معناها «أجدادنا الكرام»)

ضَرَبَتْ عليكَ العَنكَبُوتُ بِنسْجِها وقَضَى عليكَ بها الكتابُ المُنْزَلُ

أما أنت يا جرير فبيتك بيت العنكبوت، وبيت العنكبوت واهٍ واهنٌ كما جاء في القرآن «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت»

إن الزِّحَامَ لِغَيرِكُمْ، فَتَحَيَّنُوا وِرْدَ العَشِيِّ، إليه يَخْلُو المَنْهَلُ

الزحام على حياض الماء للاستقاء لغيركم ممن يطيق مزاحمة الناس والفوز عليهم، فتحينوا أنتم (ترقبوا الفرصة) ورد العشي (ورود الماء مساء) عندما يخلو منهل الماء من الشاربين

حُلَلُ الملوكِ لِباسُنا في أهلِنا والسَّابِغَاتِ إلى الوَغَى نَتَسَرْبَلُ

نلبس حلل (ثياب) الملوك في السلم بين أهلنا، ونتسربل (نلبس) الدروع السابغات (الطويلة) إلى الوغى (الحرب)

أَحْـلامُـنـا تَـزِنُ الـجـبـالَ رزانَـةً   وتَـخـالُـنـا جِـنّـاً إذا مـا نَـجْـهَـلُ

أحلامنا (عقولنا) رزينة ثقيلة كالجبال، غير أنك تظننا من الجن نشاطاً وحيلة إذا جهلنا (غضبنا)

فـادْفَـعْ بِـكَـفِّـكَ إن أَرَدْتَ بـنـاءَنـا   «ثَهْلانَ» ذَا الهَضَباتِ هَلْ يَتَحَلْحَلُ

إن أردت نيل بنائنا ادفع بكفك جبل ثهلان ذا الهضبات، هل تراه يتحلحل (يتزحزح)؟

وأنـا ابْـنُ حـنـظـلـةَ الأَغَـرَّ، وإنـنـي   فـي آلِ ضَـبَّـةَ لَـلْـمُـعِـمُّ الـمُـخْـوِلُ

أنا ابن حنظلة (أحد أجداده) الأغر (المشهور المشرق الوجه)، وأنا في آل ضبة (أخوالي) معم مخول (ذو شرف من ناحية الأعمام والأخوال). والمرء عند أخواله يعتز بأعمامه، وعند أعمامه يعتز بأخواله. فإذا جاء المرء أخواله وكان أبوه من عائلة لئيمة شعر بأنهم لا يأبهون به، فالفرزدق يقول إنه في آل ضبة معم ومهم..

فَـرْعَـانِ قـد بـلـغَ الـسـمـاءَ ذُرَاهُـمـا   وإلـيْـهِـمـا مِـن كـلِّ خَـوفٍ يُـعْـقَـلُ

فرعان (أعمامي وأخوالي) بلغ السماء ذراهما (الذروة: القمة)، وإليهما يُعقَل (يُلجأ)، فهما المَعقِل عند الخوف

يـا ابْـنَ الـمَـراغَـةِ أيـنَ خـالُـكَ؟ إنـنـي   خَـالـيِ حُـبَـيْـشٌ ذو الـفَـعـالِ الأَفْـضَـلُ

من خالك يا جرير؟ أما أنا فخالي حبيش ذو الفعال (الأعمال المجيدة)

خـالـيِ الـذي غَـصَـبَ الـمـلـوكَ نفوسَهُـمْ،   وإلـيـه كـان حِـبَـاءُ جَـفْـنَـةَ يُـنْـقَـلُ

خالي قتل الملوك، وكان ينال حباء (عطاء) آل جفنة ملوك الشام الغساسنة

إنّـا لَـنَـضْـرِبُ رأسَ كـلِّ قـبـيـلـةٍ   وأبـوكَ خـلـفَ أَتَـانِـهِ يَـتَـقَـمَّـلُ

نحن نضرب بالسيف رأس أي قبيلة شئنا، وأما أبوك فقاعد خلف أتانه (حمارته) ينزع القمل عن جسمه

وشُغِلْتَ عن حَسَبِ الكِرامِ وما بَنَوْا   إن الـلـئـيـمَ عـنِ الـمَـكـارِمِ يُـشْـغَـلُ

وأنت منشغل عن نيل أمجاد الكرام وما بنوا من مفاخر، وهذه حال اللئيم

وَهَبَ القَصائِدَ لِي النَّوَابِغُ إذْ مَضَوْا   وأَبـو يَـزيـدَ وذُو الـقُـروحِ وجَـرْوَلُ

ورثت القصائد عن نوابغ الشعراء الماضين، ومنهم أبو يزيد (المخبل) وذو القروح (امرؤ القيس)، وجرول (الحطيئة) ويسمي الفرزدق في أبيات بعد هذا البيت، لم نوردها، شعراء كُثراً آخرين

لـيـس الـكـرامُ بِـنـاحِـلـيِـكَ أبـاهُـمُ   حـتـى تُـرَدَّ إلـى عَـطِـيَّـةَ تُـعْـتَـلُ

لا ينحلك (يعيرك) الكرام أباً كريماً.. إلا رأيت نفسك تعتل (تحمل حملاً شديداً) وتنسب إلى أبيك عطية

٧٦ عندما أكل الأسد جريراً

إنِّي وجدتُ بَني كُلَيْبٍ إنَّما خُلِقُوا، وأُمِّكَ، مُذْ ثَلاثُ ليالِ

وجدت بني كليب قد خلقوا ـ وأحلفُ بأمِّك ـ منذ ثلاث ليال فقط، فهم غير ذوي حسب ولا نسب

يُروِيهِمُ الثَّمَدُ الذي لو حَلَّهُ جُرَذانِ مَا نَدّاهُما بِبِلالِ

وهم قليلو العدد ويرويهم الثمد (الماء القليل) الذي لو سقط فيها جرذان ما نداهما (بلهما) ببلال (بماء)

تَبْكِي المَراغَةُ بالرَّغامِ على ابْنِها والنَّاهِقَاتُ يَنُحْنَ بِالإعْوالِ

المراغة (الحمارة، وسمى الفرزدق أم جرير بهذا الاسم) ابنها جرير بالرغام (وهي تحثو التراب على نفسها)، والناهقات (الأتن/إناث الحمير) نائحات معولات (باكيات)

قالوا لها: احتَسبِي جَريراً، إنه أوْدَى الهِزَبْرُ به أبو الأشبالِ

قيل لأمك: احتسبي جرير (مات فليكن لك الأجر محسوباً على الصبر عليه)، فقد أودى به (قتله) الهزبر (الأسد)، يعني أنه قتل جريراً بالهجاء

قد كنتُ لو نفعَ النذيرُ نَهَيْتُه أَلَّا يكونَ فَريسةَ الرِّئْبالِ

لو كان ينفع النذير (التحذير) لكنتُ ـ يقول الفرزدق ـ نهيت جريراً أن يعرض نفسه فيكون فريسة الرئبال (الأسد)

٧٧ ميراث جرير

أَلا إنَّ ميراثَ الكُلَيْبِيِّ لابْنِه إذا ماتَ رِبْقَا ثَلَّةٍ وحَبائِلُهْ

ما تركه ابن قبيلة كليب لولده من ميراث ربقا (حبلا) ثلة (قطيع ماشية)

فأَقْبِلْ على رِبْقَيْ أبيكَ، فإنما لكلِّ امرِئٍ ما أَوْرَثَتْهُ أوائِلُهْ

فيا جرير يا ابن قبيلة كليب خذ ربقي (حبليْ) أبيك، ولكل امرئ ما أورثته أوائله (أجداده)

فإن كنتَ تَرجُو أن تُوازِنَ دَارِماً فَرُمْ «حَضَناً» فانْظُرْ متى أنتَ ناقِلُهْ

إن رجوت أن تقارن قومك بقبيلتي ـ دارم ـ فهذا كأنك تروم (تطلب) جبل حضن قاصداً أن تنقله من مكانه

وأَرْسَلَ يرجُو ابْنُ المَراغَةِ صُلْحَنا فَرُدَّ، ولم تَرْجِعْ بِنُجْحٍ رسائِلُهْ

أرسل إلي جرير يطلب الصلح، فرددته خائباً ولم تنل رسائله النجح (التوفيق)

وقالتْ كُلَيْبٌ قَمِّشُوا لأخيكُمُ فَفِرُّوا به، إنَّ الفَرزْدقَ آكِلُهْ

قالت قبيلة كليب قمشوا لأخيكم (اجمعوا له العون) لكي يفر حتى لا يأكله الفرزدق

فهل أَحَدٌ يا ابْنَ المَراغَةِ هَارِبٌ مِنَ الموتِ، إن الموتَ لا بُدَّ نائِلُهْ
ولكنْ، يا ابن المراغة (ابن الحمارة، لقب جرير عند الفرزدق)، هل يهرب أحد من الموت؟

فإنِّي أنا الموتُ الذي هُوَ ذاهبٌ بِنفسِكَ، فانظرْ كيف أنتَ مُحَاوِلُهْ
أنا عليك مثل الموت، فأرني بالله كيف ستحاوله (تتصرف معه)

أنا البدرُ يُغْشي طَرْفَ عينيكَ فالتَمِسْ بِكَفَّيْكَ يا ابْنَ الكلبِ هل أنتَ نَائِلُهْ
أنا البدر يغشي (يغطي) بصرك بغشاوة لشدة لمعانه، فهل تستطيع أن تنال البدر بكفك؟

وقد مُنِيَتْ منِّي كُلَيْبٌ بِضَيْغَمٍ ثقيلٍ على الحُبْلَى جَريرٍ كَلاكِلُهْ
منيت مني كليب بضيغم (أسد) ثقيلة كلاكله (صدوره) على جرير الشبيه بالمرأة الحبلى التي لا تستطيع التصرف بسهولة

شتيمِ المُحَيَّا، لا يُخَاتِلُ قِرْنَهُ ولكنه بالصَّحْصَحَانِ يُنازِلُهْ
وأنا أسد شتيم المحيا (مكشر الوجه)، لا يخاتل قرنه (لا يخادع خصمه)، بل ينازله بالصحصحان (أرض السهل)

هِزَبْرٍ هَريتِ الشِّدْقِ رِئبَالِ غَابَةٍ إذا سارَ عَزَّتْهُ يَداهُ وكَاهِلُهْ
أنا هزبر (أسد) هريت الشدق (واسع الفم) رئبال (أسد) في الغابة، إذا سار عزته (دعمته وقوّته) يداه وكاهله (ظهره)

٧٨ هذا ابن فاطمة

حج هشام بن عبد الملك وهو أمير شاب، وطاف بالبيت واجتهد أن يصل إلى الحجر الأسود فأعياه، فجلس على كرسي، وحوله جماعة من أهل الشام. وأقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (حفيد الإمام علي) فتنحى الناس له، وسار وسطهم حتى لمس الحجر الأسود. فقال هشام: من هذا؟ فقال الفرزدق هذه القصيدة جواباً على سؤاله. وقالوا إن الفرزدق قال أبياتاً قليلة ثم زاد عليها الزائدون:

هَذا الذي تعرفُ البَطحاءُ وَطْأتَهُ والبيتُ يعرِفُهُ، والحِلُّ والحَرَمُ
هذا من تعرف بطحاء مكة (أرضها السهلة التي تسكنها علية قريش) وطأته (خبطة قدمه)، ويعرفه بيت الله، ويعرفه الحل (جوار مكة مما يحل فيه الصيد والقتال) والحرم (الكعبة حيث يحرم الصيد والقتال)

هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللَّهِ كلِّهمُ هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ العَلَمُ
هذا ابن الرسول (حفيده) وهو علم (جبل) أي أنه مشهور

هذا ابْنُ فَاطِمَةٍ إن كنتَ جَاهِلَهُ   بجدِّهِ أنبياءُ اللَّهِ قد خُتِمُوا

وليس قولُكَ «مَنْ هذا؟» بِضائِرِهِ   العُرْبُ تَعرفُ مَنْ أنكَرْتَ والعَجَمُ

قولك «من هذا؟» لا يضيره (لا يهمه)، فالعرب والعجم تعرفه

ما قالَ «لا» قَطُّ إلَّا في تَشَهُّدِهِ   لولا التشهدُ كانتْ لاءَهُ نَعَمُ

زين العابدين لا يقول «لا» أبداً، إلا في التشهد، دعاء «لا إله إلا الله»، ولولا التشهد كانت كل لاء يقولها «نعم». و«لاءَه نعمٌ» لعشاق النحو في محل نصب خبر كان، واسمها محذوف تقديره «القضية»، وتحتمل أوجُهاً أخرى

إذا رأتْهُ قُرَيْشٌ قال قائلُها   إلى مكارمِ هذا ينتهي الكَرَمُ

هو أصل المكارم

يُغْضي حَياءً، ويُغْضَى مِنْ مَهابَتِهِ   فما يُكَلَّمُ إلَّا حينَ يَبْتَسِمُ

فيه حياء فهو يغضي (لا يرفع بصره)، وفيه مهابة فالناس يغضون في حضرته، ولا يتكلمون أمامه إلا إذا ابتسم، لشدة هيبته

بِكَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ في عِرنِينِهِ شَمَمُ

هذه عصا خيزران ذات رائحة طيبة تمسكها كفه، وهي كف هذا الأروع (الشجاع) الذي في عرنينه (أنفه) شمم (ارتفاع قصبة الأنف دلالة على نبل الأصل)

يكادُ يُمْسِكُهُ، عِرْفَانَ راحتِه،   رُكْنُ الحَطيمِ إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ

ركن الحطيم (ذلك الجدار في الكعبة) يكاد يمسك بزين العابدين ويبقيه عنده إذ يميز شخصيته من لمسة راحة يده عندما يأتي ليستلم (يلمس الركن)

اللَّهُ شَرَّفَهُ قِدْماً وعَظَّمَهُ   جرى بِذاكَ له في لَوْحِهِ القلمُ

الله شرفه منذ القدم، وهذا مكتوب في لوح أعماله

أيُّ الخَلائقِ ليستْ في رَقابِهِمُ   لأَوَّلِيَّةِ هذا، أو لَه، نِعَمُ

كل الناس في رقابهم نعمة (معروف) لزين العابدين أو لأوليته (لأجداده)

مَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَشْكُرْ أَوَّلِيَّةَ ذا   فالدينُ مِنْ بيتِ هذا نالَهُ الأُمَمُ

شكر الله يستتبع شكر أولية (أجداد) زين العابدين، فهم أصل الدين

يَنْشَقُّ ثوبُ الدُّجَى عن نورِ غُرَّتِه   كالشمسِ تَنْجَابُ عن إشْراقِها الظُّلَمُ

نور طلعته البهية يشق ثوب الدجى (الظلام)، كما تنجاب (تنكشف) الظلمة بالشمس

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وبُغْضُهُمُ   كفرٌ، وقُربُهُمُ مَنْجىً ومُعْتَصَمُ

وهو من قوم حبهم من الدين، وبغضهم كفر، وقربهم معتصم (ملجأ) ونجاة من النار

مُـقَـدَّمٌ بـعـدَ ذِكْـرِ الـلَّـهِ ذِكْـرُهُـمُ   في كـلِّ بَدْءٍ ومَـخْـتـومٌ بـه الـكَـلِـمُ

بعد ذكر الله يذكر المرء آل النبي، في بدء الكلام وفي ختامه

إن عُـدَّ أهلُ الـتُّـقَى كـانـوا أئِـمَّـتَـهُـمْ   أو قيلَ مَنْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ؟ قيلَ: هُمُ

٧٩ ولداي السِّماكان

يرثي ابنين له:

أرى كـلَّ حَـيٍّ لا يـزالُ طَـلـيـعَـةً   الـمَـنـايـا مِـنْ فُـروجِ الـمَـخَـارِمِ

كل حي يظل الموت طالعاً عليه طلوعاً مفاجئاً من فروج (فتحات) المخارم (جروف الجبال، السفوح الواقفة وقوفاً)

ومـا أَحَـدٌ كـانَ الـمَـنـايـا وَراءَهُ،   ولـو عـاشَ أَيَّـامـاً طِـوالاً، بـسـالـمِ

ولا يكون المرء، والمنايا تلاحقه وتجري وراءه، سالماً، حتى وإن عاش طويلاً

يُـذَكِّـرُنـي ابْـنَـيَّ الـسِّـمَـاكـانِ مَـوْهِـنـاً   إذا ارتـفَـعـا بـيـن الـنجـومِ الـتَّـوائـمِ

يذكرني بولديَّ السماكان (نجمان) إذ يطلعان موهناً (ليلاً) بين النجوم (وكثير منها توائم، كالفرقدين إلخ)

فـقـد رُزِئَ الأقـوامُ قَـبْـلِـيَ بِـابْـنِـهِـمْ   وإخْـوانِـهِـمْ فـاقْـنـي حَـيـاءَ الـكَـرائِـمِ

رزئَ (أصيب) قبلي الناس بفقد الابن والأخ، فاقني (احفظي) حياءك يا امرأة كالنساء الكرائم (ذوات الحسب) ولا تكثري من النوح

فما ابْنَاكِ إلّا ابْنٌ مِنَ الناسِ، فاصبِري   فـلَـنْ يَـرْجِـعَ الـمَـوتَـى حَـنـيـنُ الـمَـآتِـمِ

اصبري فابناك كأبناء الناس، وحنين المآتم (نواح النساء) لا يَرجِعُ الموتى، أي لا يعيدهم

٨٠ حملتهم على الجمر

وكَمْ مِنْ أسيرٍ قد فَكَكْنا، ومِنْ دَمٍ   حَمَلْنا، إذا مَا ضَجَّ بِالثِّقْلِ غارِمُهْ

ما أكثر ما فككنا من أسرى، وما حلمنا من دم (بدفع الديات) عندما يضج (يحتار ويشكو ويبعل بالأمر. هذه اليبعل هي خير ما جاءني، واحمد ربك أن لم أضعها كلمة أولى في التفسير) الغارم (المدين الذي عليه دفع الدية) بثقل الحمل

وكـنـتُ إذا عـادَيْـتُ قـومـاً حَـمَـلْـتُـهُـمْ   على الجَمْرِ حتَّى يَحْسِمَ الدَّاءَ حاسِمُهْ

إذا عاديت قوماً أوجعتهم بعدائي حتى يُحسم الأمر وتنتهي العداوة بنيلي حقي، أو بتمام ظلمي لهم

٨١ هجاء إبليس

أَطَعْتُكَ يا إِبْليسُ سَبعِينَ حِجَّةً فلمَّا انتهى شَيْبي، وتمَّ تَمامي..

أطعتك يا إبليس سبعين حجة (سنة) فلما اكتمل شيبي ووصلت أتم العمر..

فَرَرْتُ إلى ربي، وأَيقنتُ أنني مُلاقٍ لأَيَّامِ المَنونِ حِمامي

.. فررت إلى طاعة الله موقناً أنني سألاقي الموت قريباً

ألا طَالَ مَا قد بِتُّ يُوضِعُ نَاقتي أَبو الجِنِّ إِبليسٌ بِغيرِ خِطَامِ

كثيراً ما كان إبليس يُوضِعُ (يحث) ناقتي ويسير بها على هواه وهي تائهة بلا خطام (مقود)

يَظلُّ يُمَنِّيني على الرَّحْلِ وَارِكاً يَكونُ ورائي مَرَّةً وأَمامي

يجلس لي على رحل الناقة (سرجها) مائلاً على وركه، أراه يكون ورائي حيناً وأمامي حيناً

يُبَشِّرُني أنْ لن أَموتَ، وأنّهُ سَيُخْلِدُني في جَنَّةٍ وسَلامِ

فقلتُ له: هَلَّا أُخَيَّكَ أَخْرَجَتْ يمينُكَ مِنْ خُضْرِ البحورِ طَوَامِ

قلت له: هلَّا أخرجتَ أخاك فرعون عندما غرق في لجة البحر الخضراء (السوداء) الطامية (المفعمة بالماء)؟

فَلَمَّا تَلاقَى فوقَه الموجُ طَامِياً نَكَصْتَ، ولم تَحْتَلْ له بِمَرامِ

لما اجتمع على فرعون الموج وغرق، نكصت يا إبليس (انكفأت راجعاً) ولم تحتل له (تجد حيلة) بمرام (بمخرج)

وما أنتَ يا إِبليسُ بِالمرءِ أَبْتَغي رِضَاهُ، ولا يَقْتادُني بِزِمامِ

لستَ بالمرء الذي ابتغي رضاه، ولا الذي أسمح له أن يقتادني بمقود

٨٢ وصف قصيدة

لقد كَافَحَتْ مِنِّي العراقَ قَصيدةٌ رَجُومٌ مَعَ الماضي رُؤُوسَ المَخَارِمِ

كافحت (أرهقت) العراقَ قصيدة قلتها وهي رَجوم (ترجم) المخارم (جروف الجبال) إذ يمضي الرواة بها يحملونها من مكان إلى مكان

خفيفةُ أَفْواهِ الرواةِ، ثقيلةٌ على قِرْنِها، نَزَّالَةٌ بِالمَواسِمِ

وهي خفيفة في أفواه الرواة يستعذبون إنشادها، ولكنها ثقيلة على قرنها (خصمها)، ونزالة بالمواسم (تنزل هذه القصيدة في المحافل وتُنشَد)

٨٣ بيني وبين الجحيم

يهجو باهلة:

أَلَا كيف البقاءُ لِباهِلِيٍّ هَوى بين الفرزدقِ والجحيمِ

مسكين الباهلي.. كيف له أن يحيا وقد وقع بين الفرزدق وبين الجحيم.. فهو كافر مصيره نار الآخرة، وفي الدنيا له نار الفرزدق

فمنْ يَكُ تاركاً، ما كان، شيئاً، فإنِّي لا أُضيعُ بني تَميمِ

من ترك شيئاً - كائناً ما كان هذا الشيء - فإنني لا أضيع (أتخلى عن) بني تميم

٨٤ هجاء البيروقراطي

قال في أبي عبيدة، وهو مولى لمخزوم كان مع عمر بن عبد العزيز وهو وال، وعطّل حاجة للفرزدق:

أمرَ الأميرُ بِحاجَتي وقضائِها وأبو عُبيدةَ عندنا مَذْمومُ

أَبَتِ المَوالِي أن تكونَ صَميمَها، ونَفَتْكَ عن أحسابِها مَخْزُومُ

حتى الموالي (غير العرب، الملحقين إلحاقاً بالقبيلة العربية) يرفضون أن يكون أبو عبيدة من صميمهم (وسطهم)، ومخزوم قبل ذلك نفتك (أبعدتك) عن نسبها

٨٥ أنا والعذاب وهواك

يا أُخْتَ نَاجِيَةَ بنِ سَامةَ إنَّني أَخْشَى عليكِ بَنِيَّ إن طَلَبُوا دَمي

أيها المحبوبة من بني «ناجية بن سامة» ستقتلينني، وسيطلب أبنائي دمي (سيسعون في الثأر)

لن يَقْبَلُوا دِيَةً، ولَيسُوا - أو يَرَوْا مِنِّي الوَفَاءَ، ولن يَرَوْهُ - بِنُوَّمِ

ولن يقبلوا دية، وليسوا نائمين عن طلب الثأر، إلا أن يروا مني الوفاء (يقتلوا من يفي بي، يساويني في الشرف) ولا يوجد من يساويني شرفاً

ولقد ضَنيتُ مِنَ النساءِ، ولا أَرى كَضَنىً بِنفسِي مِنْكِ أُمَّ الهيثَمِ

أرهقتني النساء، وأنت أرهقتني أكثر من غيرك

كيف السلامةُ بعدما تَيَّمْتِني وتركتِ قلبيَ مِثْلَ قَلْبِ الأَيْهَمِ

تيمتني: خلبت عقلي، الأيهم: اللاسع، الملتاث، المجنون

هل تذكُرينَ إذِ الرِّكَابُ مُناخَةٌ ... بِرِجَالِها لِرَواحِ أهلِ المَوْسِمِ

هل تذكرين إذ الركاب (الإبل) مناخة (جاثمة) والرجال حولها يستعدون للرواح (المغادرة) بعد انتهاء الموسم (ومواسم العرب أسواقها ومحافلها)

إذْ نحن نَستَرِقُ الحديثَ، وفوقَنا ... مثلُ الضَّبابِ مِنَ العَجَاجِ الأَقْتَمِ

عندئذ كنا نتحادث خفية، وفوقنا عجاج أقتم (غبار داكن) كأنه الضباب

إذْ نحن نُخْبِرُ بالحَواجِبِ بيننا ... ما في النفوسِ، ونحن لم نتكلَّمِ

كنا نتحادث بلغة الحواجب، لا بالكلام

٨٦ لا أنامها

قد اقْتَسَمَتْ عيناكِ يومَ لقيتِنا ... حُشَاشَةَ نَفسٍ ما يَحِلُّ اقتِسامُها

اقتسمت عيناك حشاشة نفسي (بقيتها) ـ لكل عين نصف ـ ولا يحل لك ذلك

وكائِنْ مَنَعْتُ القومَ مِنْ نومِ ليلةٍ، ... وقد مَيَّلَتْ أعناقُهُمْ، لا أَنَامُها

وكثيراً ما سهرت مفكراً فيك في ليلة لا أنامها، ومنعت القوم من النوم كي يساهروني ويؤنسوني، بينما أعناقهم تميل نعاساً

٨٧ أمنية

ومما لم يرد في الديوان، وأخذته من كتاب شاكر الفحام:

أَلَا لَيْتَنا نِمْنَا ثَمانينَ حِجَّةً ... تَنامُ مَعي عُرْيانَةً وأَنامُها

يريد أن تنام معه ثمانين سنة

ضَجيعَيْنِ مَسْتُورَيْنِ، والأَرْضُ تَحتَنا ... يكونُ طعامي ضَمُّها والتِزامُها

يناماان على الأرض وعليهما غطاء، وطعامه ضمها والالتصاق بها

٨٨ اخترتكم

يمدح بني أبان بن دارم:

تَجاوَزْتُ أَقواماً إِليكُمْ، وإِنَّهُمْ ... لَيَدْعُونَني، فَاخْتَرْتُكُمْ للعَظائمِ

مررت بأقوام وتجاوزتهم مع أنهم يدعونني للنزول ضيفاً، وجئتكم لأنكم أهل لتلبية عظائم الطلبات

وأيـن مُـنـاخـيِ بـعـدَكُـمْ إنْ نَـبَـوْتُـمُ   عليَّ، وهـل تَـنْـبُـو صـدورُ الصَّـوارِمِ

وأين مناخي (نزولي) بعدكم إن نبوتم علي (انحرفتم عني)، ولكن صدور الصوارم (السيوف) لا تنبو (لا تنحرف بل تصيب)

٨٩ أكفاؤنا

وإنَّ هِـجـاءَ الـبَـاهِـلِـيِّـيـنَ دَارِمـاً   لإِحْدَى الأمورِ المُنْكَراتِ العَظائِمِ

كيف لقبيلة باهلة أن تهجو دارماً ذات الشرف الرفيع؟ تلك من الكوارث

وهـل فـي مَـعَـدٍّ مِـنْ كِـفَـاءٍ نَـعُـدُّهُ   لنا، غيرَ بَيْتَيْ عبدِ شمسٍ وهَاشِمِ

وهل لنا كفاء (مساو) في كل قبائل معد (عرب الشمال كلهم) إلا عبد شمس (الأمويين) وهاشماً (آل النبي)

٩٠ تحمل الرزء دارم

وقال يرثي أحد بني مجاشع من تميم:

أُصِبنا بِمـا لـو أن سَـلْـمَـى أَصَابَـهـا   لَـهُـدَّتْ، ولـكـنْ تَـحْـمِـلُ الـرُّزْءَ دَارِمُ

لو أصاب جبل سلمى ما أصابنا لتهدم. غير أن قبيلة دارم تتحمل الرزء (المصيبة)، قال بيتاً كهذا على قافية الراء يرثي رجلاً من عامر

كَـأَنَّـهُـمْ تـحـتَ الـخَـوافِـقِ، إذ مَـشَـوْا   إلى الموتِ، أُسْدُ الغَابَتَيْنِ الضَّرَاغِمُ

كأن دارم تحت الرايات الخافقة وهم يمشون إلى الحرب المميتة أسود الغابتين (اختر أي غابتين تريد.. ولو جعلها الفرزدق غابة واحدة لانكسر وزنه)

٩١ الحصى والمجد

أَخَذْتُ على الناسِ اثْنَتَيْنِ: لِيَ الحَصَى   معَ المَجْدِ مَا لي فيهما مِنْ مُخَاصِمِ

أخذت على الناس (فقتهم) باثنتين: الحصى (العدد الكثير من أبناء قبيلتي)، والمجد، فلا أحد يخاصمني في هاتين

وما كـنـتُ أَخْـشَـى طَـيِّـئـاً أن تَـسُـبَّـنـي   وَهُـمْ نَـبَـطٌ لـم تَـعْـتَـصِـبْ بِـالـعَـمـائِـمِ

لا أخشى قبيلة طيء وهجاءَها إيَّاي، فهم نبط (قوم من غير العرب) لا يعتصبون (يُحلُّون رؤوسهم) بالعمائم فعلَ العرب

وإنَّ هِـجـائـي طَـيِّـئـاً، وَهْـيَ طَـيِّءٌ،   نَبيطُ القُرَى إِحْدَى الكِبارِ العظائم

ومجرد هجائي لطيء ـ وهي ما هي ـ هي نبيط القرى (من أهل الزراعة وليسوا عرباً أهل صحراء)، هو من العظائم (العجائب)

٩٢ ما الذي حشرك؟

قال لعمر بن لجأ، وقد دخل بينه وبين جرير:

وما أنتَ إن قَرْمَا تَميم تَسامَيا أَخا التَّيْمِ إلَّا كالشَّظِيَّةِ في العَظْمِ

أيها التيمي أنت مثل الشظية (السَّنِّيفة، السَّفِّيرة، العظمة المدببة الصغيرة) بين العظام، فما أدخلك بين قرمي تميم (فحلي تميم) وقد سما أحدهم للآخر (صاوله وخاصمه). ونقل عن جرير أنه قال: ما أنصفني الفرزدق إلا في قوله هذا

ولو كنتَ مَوْلَى العِزِّ أو في ظِلالِه ظَلَمْتَ، ولكنْ، لا يَدَيْ لَكَ بالظُّلْمِ

لو كنت مولى العز (صاحبه) أو حتى في ظلاله (متحالفاً مع قبيلة ذات قوة) لكنَّا توقعنا منك أن تتطاول وتظلم، ولكنك من قوم ضعاف ولا يديْ لك (لا قدرة لك) بالظلم

٩٣ الاستراحة عند الخليفة

يمدح هشام بن عبد الملك:

إلامَ تَلَفَّتينَ وأنتِ تَحتي وخيرُ الناسِ كُلِّهِمُ أمامي

إلى ماذا تتلفتين أيتها الناقة وأنت تحتي، بينما أنا متوجه إلى خير الناس

متى تَأْتي الرُّصافَةَ تَستَريحي مِنَ التَّهجيرِ والدَّبَرِ الدَّوامي

عندما تصلينَ الرصافة تستريحين من التهجير (سير الظهيرة) ومن الدبر الدوامي (الجروح الدامية في مفاصلك)

٩٤ على ساعة..

يهجو رجلاً من بلعنبر كان دليلاً وأضلهم:

وكيفَ يَضِلُّ العَنْبَرِيُّ ببلْدَةٍ بِها قُطِعَتْ عنه سُيورُ التَّمائِمِ

هذا العنبري يزعم أنه ضل الطريق، وكيف يضل الطريق في بلدة نشأ فيها صغيراً، وبها قطعوا سيور (خيوط) التمائم (الخرزات التي تدفع الشر، وكانوا يعلقونها في عنق الطفل) عنه، أي أنه نشأ وكبر هناك، وهناك أزيلت عن عنقه التمائم

أَنَخْنا بِهَجْرٍ بعدَما وَقَدَ الحَصَى وذابَ لُعابُ الشمسِ فوق العَمائِمِ

أنخنا إبلنا في «هجر» والحصى يتوقد حرارة، وقد سلقتنا الشمس بأشعتها على رؤوسنا

ونحن بِذي الأرْطَى يَقيسُ ظِماؤُنا لَنا بِالحَصَى شِرْباً صَحيحَ المَقَاسِمِ

ونحن في مكان ذي الأرطى والظمآنون يقيسون الشِّرب (نصيب كل فرد من الماء) بالحصى بدقة (يضعون حصاة صغيرة في الإناء ويصبون الماء حتى يغمرها.. فهذا نصيب كل نفر منهم عندما يعز الماء في سير الصحراء)

فـلـمَّـا تَـصَـافَـنَّـا الإِدَاوَةَ أَجْـهَـشَـتْ   إليَّ غُـضُـونُ الـعَـنْـبَـرِيِّ الـجُـرَاضِـمِ

لما تصافنَّا الإداوة (تقاسمنا ماء القربة الصغيرة بالحصاة)، أجهش (بدأ يخفق قبل البكاء) العنبري الجراضم (الجشع) وتغضن وجهه

وجـاء بِـجُـلْـمُـودٍ لـه مِـثْـلِ رأْسِـهِ   لِيُسْقَى عليه المـاءَ بين الصَّـرائِمِ

وجاء بجلمود (حجر كبير) مثل رأسه، يريد أن نقسم له الماء عليه ونحن واقفون بين الصرائم (جماعات الإبل)

فـآثَـرْتُـه لـمَّـا رأَيْـتُ الـذي بـه،   على القومِ، أخشَى لاحِقَاتِ المَلاوِمِ..

آثرته (خصصته بنصيبي) خشية أن ألام فيما بعد..

حِـفـاظـاً، ولـو أنَّ الإِدَاوَةَ تُـشْـتَـرى   غَـلَـتْ فـوقَ أثْـمانٍ عِظامِ المَـغَـارِمِ

فعلت ذلك حفاظاً (تكرماً)، وفعلته في وقت لو أن الإداوة (القربة الصغيرة) فيه تشترى لكان ثمنها غالياً يلحق المغارم (الخسائر) بالشاري

على سَاعَةٍ لو كان في القومِ حَاتِمٌ   على جُودِهِ، ضَنَّتْ به نَفْسُ حاتِمِ

وكان هذا في ساعة تضن فيها النفس وتبخل بالماء حتى لو كانت نفس حاتم الطائي

٩٥ عندما ولد جدنا

يمدح سليمان بن عبد الملك، ويهجو جريراً:

جُعِلْتَ لأَهلِ الأرضِ أَمْناً ورحمةً   وبُـرْءاً لآثـارِ الـقُـرُوحِ الـكَـوَالِـمِ

جعلك الله رحمة للناس وبرءاً (شفاء) للقروح الكوالم (الجارحة)

كـمـا بـعـثَ الـلّـهُ الـنـبـيَّ مـحـمـداً   عـلـى فَـتـرةٍ والـنـاسُ مثلُ الـبَـهـائِـمِ

مثلما بعث الله محمداً على فترة (الفترة هي الزمن الذي يفتر فيه البعث فلا نبي فيه) والناس يعبدون الأصنام غير مفكرين في الآخرة كالبهائم

فما بينَ مَنْ لم يُعْطِ سمْعاً وطَاعَةً   وبـيـنَ تَـمـيـمٍ غـيـرُ حَزِّ الـحَـلاقِـمِ

بين تميم وبين العاصي الذي لا يطيع أمر الخليفة لا مهادنة بل حز الحلاقم (قطع الأعناق)

فإنَّ تَـمـيـمـاً لـم تـكـنْ أُمُّـهُ ابْـتَـغَـتْ   لـه صِـحَّـةً فـي مَـهْـدِهِ بـالـتَّـمـائِـمِ

وتميم (جدنا الأعلى) ولدته أمه غير عابثة بوضع التمائم (الخرزات الحاميات من الشر) في عنقه ابتغاء صحته، فقد ولد شديداً

كـأنَّ الأَكُـفَّ الـقَـابِـلاتِ لِأُمِّـهِ رَمَـيْـنَ بِـعَـادِيٍّ الأُسـودِ الـضَّـرَاغِـمِ

كأن الأكف القابلات لأمه (أكف النسوة اللائي ولَّدن أمه) رمين ولداً يشبه عادي الأسود (الأسود العادية، أي القوية المنسوبة إلى قوم عاد، وكل «عاديّ» في لغتنا القديمة هو القوي الشديد القديم)

تَـأَزَّرَ بـيـن الـقـابـلاتِ، ولـم يـكـنْ لــه تَـوْأَمٌ إلَّا دَهَـاءٌ لــحَـازِمِ

تأزر بالثوب هذا الطفل الوليد بين القابلات (الدايات) وهو فرد لا توأم له، إلا أن يكون توأمه الدهاء والحزم

وضَـبَّـةُ أَخْـوالـي هُـمُ الـهَـامَـةُ الـتـي بِـهـا مُـضَـرٌ دَمَّـاغَـةٌ لـلـجَـمَـاجِـمِ

وأخوالي من قبيلة ضبة هم الهامة (الرأس) التي تدمغ (تفلق الدماغ) بها مضر (القبيلة الكبرى) جماجم الأعداء

فـمـا أنـتَ مِـنْ قـيـسٍ فَـتَـنْـبَـحَ دونَـهـا ولا مِـنْ تَـمـيـمٍ فـي الـرؤُوسِ الأَعـاظِـمِ

أنت - يا جرير - لست من قيس فتنبح دونها (تدافع عنها)، ولا من بيت شريف في تميم

تـرى كـلَّ مـظـلـومٍ إلـيـنـا فِـرارُهُ ويـهـرُبُ مـنَّـا جَـهْـدَهُ كـلُّ ظَـالِـمِ

كل مظلوم يفر ويلجأ إلينا، والظالم يهرب من وجوهنا

فلا نَقْتُلُ الأَسْرَى، ولكنْ نَفُكُّهُمْ إذا أَثْقَلَ الأعـناقَ حَمْلُ المَغـارِمِ

ولا نقتل الأسرى بل نفكهم ونعتقهم، في وقت يثقل فيه الأعناقَ حمل المغارم (الأموال التي يفدى بها الأسرى، أو تدفع في الدية). وكان الفرزدق أقدم على أسير رومي يريد ضرب عنقه في مجلس سليمان بن عبد الملك فنبا سيفه، فسخر القوم منه، وهجاه جرير..

فهل ضَرْبَةُ الرُّومِيِّ جَاعِلَةٌ لكُمْ أباً عن كُلَيْبٍ، أو أباً مِثْلَ دَارِمِ

فهل نبو سيفي في ضرب عنق الرومي يجعل لكم أباً (جَدّاً) عن كليب (بديلاً بأبيكم كليب الوضيع)، أو يجعل لكم أباً مثل أبي دارم؟

كَذاكَ سيوفُ الهندِ، تَنْبُو ظُباتُها ويَقْطَعْنَ أَحياناً مَناطَ التَّمائِمِ

كذا هي سيوف الهند، أحياناً تنبو ظباتها (تنحرف شفراتها)، وأحياناً تقطع مناط التمائم (موضع تعليق الحرز، أي تقطع العنق)

٩٦ لو فقّأت عينيك!

يهجو جريراً:

يـقـولُ كِـرامُ الـنـاسِ إذْ جَـدَّ جِـدُّنـا وبَـيَّـنَ عـنْ أَحْـسَـابِـنـا كُـلُّ عَـالِـمِ:

يقول الكرام عندما جد الجد، وعرف أمجادنا كل عالم بالأنساب:

عَلامَ تَعَنَّى يا جَريرُ، ولم تَجِدْ كُلَيْباً لَها عَادِيَّةٌ في المَكَارِمِ

على ماذا تعنّى (تتعنى أي تتعب نفسك) ولم تجد لقومك كليب عادية (مكرمة قديمة) من المكارم

ولَستَ، وإن فَقَّأْتَ عَيْنَيْكَ، وَاجِداً أَباً لَكَ، إنْ عُدَّ المَساعي، كَدَارِمِ

لن تجد مهما فعلت ـ حتى لو فقأت عينيك ـ جداً تنتسب إليه حين تعد المساعي (الأمجاد) مثل جدي دارم

٩٧ الناهض للمعالي

قال في الزعل الجرمي:

وَرِثْتَ ـ فلَمْ تُضَيِّعْ ـ مَأْثُراتٍ وقَصَّرَ عن بِنائِكَ كلُّ بَانِ

ورثت مأثرات (أمجاداً) ولم تضيعها، وقصر عن بنائك المجدَ كلُّ البناة

وتَنْهَضُ حين تَنْهَضُ لِلمْعالي وتَنطِقُ حين تَنطِقُ بِالبَيانِ

وتُعطي العُرْفَ عَفْواً سَائِليهِ وتُروي الزَّاغِبِيَّةَ في الطِّعَانِ

تعطي العرف (العطايا) عفواً (بأريحية) للسائلين، وتروي بدم الأعداء الزاغبية (الرماح) في الطعان (المطاعنة بالرماح في الحرب)

٩٨ وفاة المكارم

يرثي محمد بن موسى، وقتله شبيب بالأهواز:

نامَ الخَلِيُّ، ومَا أُغَمِّضُ ساعةً أَرَقاً، وهَاجَ الشَّوْقُ لي أَحْزاني

نام الخلي (الخالي من الهم) وأنا ساهر أرقاً، وشوقي بعث لي الحزن

وإذا ذَكَرْتُكَ يا ابْنَ مُوسى أَسبَلَتْ عيني بِدَمْعٍ دائمِ الهَمَلانِ

تنزل دموعي لدى تذكري إياك وتسبل عيني (تنهمر) بدمع دائم الهملان (الانهمار)

فالناسُ بَعدَكَ يا ابْنَ موسى أصبحوا كَقَناةِ حَرْبٍ غيرِ ذاتِ سِنانِ

الناس بعدك كالقناة (عصا الرمح) التي لم يعد فيها سنان (حديدة مسنونة)

جُمِعَ ابنُ موسى والمكارمُ والنَّدَى في القبرِ بينَ سَبائِبِ الأكفانِ

جُمِع ابنُ موسى المكارم والندى (السخاء)، وأصبحت هذه كلها بين سبائب (قماش) الأكفان، فالمكارم فقدت من الدنيا بموته

٩٩ في صحبة الذئب

وأَطْلَسَ عَسَّالٍ، وما كان صاحِباً، دَعَوْتُ بِناري مَوْهِناً فَأَتاني

رب ذئب أطلس (مغبر اللون) عسال (يتمايل في مشيته) وليس بصاحب للآدمي، دعوت بناري (أوقدتها) موهناً (مساء) فأتاني

فلمَّا دنا قلتُ: ادْنُ دُونَكَ، إنني وإِيَّاكَ في زادي لَمُشْتَرِكَانِ

لما اقترب قلت له: تعال، ودونك (خذ)، فسوف نشترك في زادي

فَبِتُّ أَقُدُّ الزَّادَ بَيْني وبَيْنَهُ على ضَوْءِ نارٍ مَرَّةً ودُخانِ

وبدأت أقسم الطعام بيني وبينه، والنار تضيء المشهد تارة ويغطينا الدخان أخرى

فقلتُ له لمَّا تَكَشَّرَ ضَاحِكاً وقائِمُ سَيفي مِنْ يَدِي بِمَكانِ:

قلت له لما تكشر فكأنه يضحك، وكانت يدي على قائم سيفي (مقبضه) مستعداً:

تَعَشَّ، فإنْ عَاهَدْتَني لا تَخونُني نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يَصطَحِبانِ

تعش أيها الذئب، فإن لم تخن صحبتي نكن كأننا صاحبان

وأنتَ امْرُؤٌ، يا ذئبُ، والغَدْرُ كنتُما أُخَيَّيْنِ كانا أُرْضِعا بِلِبَانِ

لكنك يا ذئب أخو الغدر، الغدر ملازمك خلقةً، وكأنك رضعت بلبان أمك أنت والغدر معاً

ولو غَيْرَنا نَبَّهْتَ تَلتَمِسُ القِرَى رَمَاكَ بِسَهمٍ أو شَبَاةِ سِنَانِ

لو التمست (طلبت) القرى (طعام الضيف) من غيري لرماك بسهم أو شباة سنان (حد رمح)

وكلُّ رَفيقَيْ كُلِّ رَحْلٍ وإن هُما تَعاطَى القَنا قَوْماهُما أخَوانِ

والرفيقان على الرحل (على سرج الناقة/ وكان الرجلان يركبان الناقة ويتعادلان على جانبيها) أخوان حتى وإن تعاطى (تبادل) القنا (الطعن بالرماح) قوماهما

فهلْ يَرْجِعَنَّ اللّهُ نفساً تشعَّبَتْ على أَثَرِ الغَادينَ كلَّ مَكانِ

هل يعيد الله نفسي إلي بعد أن تشعبت وذهبت تتبع الغادين (الذاهبين) إلى كل مكان

فأَصبَحتُ لا أدري أَأَتْبَعُ ظَاعِناً أمِ الشوقُ مِنّي لِلمُقيمِ دَعَاني

احترت أأتبع الظاعن (الراحل) أم الشوق يدعوني للبقاء مع من ظل مقيماً

وما مِنْهُما إلا تَوَلَّى بِشِقَّةٍ من القلبِ، فالعينانِ تَبْتَدِرانِ

وكلاهما - الراحل والمقيم - قد ذهب بشقة (بقطعة) من القلب، فعيناي تبتدران (تسكبان الدمع)

ولو سُئِلَتْ عَنِّي النَّوَارُ وقَوْمُها إذنْ لَمْ تُوَارِ النَّاجِذَ الشَّفَتَانِ

لو سئلت عني طليقتي النوار وقومها لضحكوا وبدت منهم النواجذ (الأضراس الخلفية)، وذلك بعد أن نالت الطلاق مني بطلبها

لَعَمْري لقد رَقَّقْتِني قبلَ رِقَّتي وأَشْعَلْتِ فيَّ الشيبَ قبلَ زَماني

لقد رققت عظمي (أنهكتني) قبل أواني، وشيبتني يا نوار

وأَمْضَحْتِ عِرضي في الحياةِ، وشِنْتِهِ وأَوْقَدْتِ لي ناراً بِكُلِّ مكانِ

وأمضحت عرضي (فضحتني) وعبتني، وجعلت اللوم ينصب عليَّ من كل مكان. وكانت النوار تطالبه بالطلاق دوماً

تميمٌ إذا تَمَّتْ عليكَ رأَيْتَها كَلَيْلٍ وبَحْرٍ حينَ يَلْتَقِيانِ

تميم إذا اجتمعت عليك فهي كالليل والبحر يلتقيان، فهذا ظلام دامس مخيف

هُمُ دونَ مَنْ أَخْشَى، وإِنِّي لَدُونَهُمْ إذا نَبَحَ العَاوِي، يَدي ولِساني

هم دون من أخشى (يحمونني ممن أخاف)، وأنا دونهم (أدافع عنهم) إذا نبح العاوي (هجاهم الهاجي) بيدي ولساني

وإنَّا لَتَرْعَى الوحشُ آمِنَةً بِنا ويَرهَبُنا أَنْ نَغْضَبَ الثَّقَلانِ

ونحن نجير الخائف فيأمن، حتى إن الوحش (كثيران البر) ترعى آمنة في وجودنا غير خائفة أن يأتي صائد، إذ لا يدخل حمانا أحد. ويرهب غضبنا الثقلان (الإنس والجن)

فَضَلْنا بِثِنْتَيْنِ المَعَاشِرَ كُلَّهُمْ بِأَعْظَمِ أحلامٍ لنا وجِفانِ

تفوقنا على كل الأقوام باثنتين: أحلامنا (عقولنا) كبيرة، وجفاننا (قصاع الطعام) كبيرة

جِبالٌ إذا شَدُّوا الحُبَى مِنْ وَرائِهِمْ وجِنٌّ إذا طَاروا بِكُلِّ عِنانِ

رجال تميم كالجبال رزانة إذا عقدوا الحبى (الحبوة هي الشال يجمع به الرجل بين ظهره وركبتيه)، فأما في الحرب فهم يطيرون كالجن ممسكين بعنان (بمقود) كل فرس

١٠٠ ما ضرَّ تغلب

يا ابنَ المَراغَةِ، والهِجاءُ إذا التَقَتْ أَعناقُهُ، وتَماحَكَ الخَصْمانِ

يا جرير، في الهجاء عندما تلتقي الأعناق مثلما تلتقي أعناق الخيل في المعركة، وعندما يتماحك (يتلاحى ويتشاتم) الخصمان..

ما ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهَجَوْتَها أم بُلْتَ حيث تَناطَحَ البَحْرانِ

في الهجاء لا يؤثر في قبيلة تغلب هجاؤك، مثلما لا أثر لك إن بلت حيث تناطح (تلاقى) البحران (دجلة والفرات)

يـا ابْـنَ الـمَـراغَـةِ إنَّ تَـغْـلِـبَ وائـلٍ   رَفَـعُـوا عِـنـانِـيَ فـوقَ كُـلِّ عِـنـانِ

تغلب رفعت عناني (مقود فرسي) فوق كل عنان، أي أنها فضلتني ورفعتني عالياً

واسْأَلْ بِتَغْلِبَ كيف كان قديمُها   وقـديـمُ قـومِـكَ أَوَّلَ الأَزْمـانِ

اسأل عن مجد تغلب القديم وعن قديم قومك الذين لا مجد لهم..

قـومٌ هُـمُ قَـتَـلُوا ابْـنَ هِـنْـدٍ عَـنْـوَةً   عَمْراً، وهُمْ قَسَطُوا على النُّعْمانِ

تغلب قتلوا الملك عمرو بن هند، وقسطوا (اعتدوا) على النعمان

١٠١ رثاء الأبناء

يرثي ابنيه:

أَبَى الحُزْنُ أنْ أَسْلَى بَنِيَّ، وسَوْرَةٌ   أَرَاها إذا الأَيْدِي تَلاقَتْ غِضَابُها

الحزن لا يدعني أسلى (أنسى) أبنائي المفقودين، والذي يجعلني أتذكرهم أيضاً سورة (هجمة) أشهدها عندما تتلاقى الأيدي الغضبى في عراك. فالمرء يفتقد أولاده الذين من شأنهم أن ينصروه في مواقف كهذه

وكـانـوا هُـمُ الـمـالُ الـذي لا أَبـيـعُـهُ   ودِرْعِي إذا ما الحربُ هَرَّتْ كِلابُها

كانوا مالي، ودرعي في الحرب إذا ما اشتعلت

وكَمْ قَاتِلٍ للجوعِ قد كان منهُمُ   ومِنْ حَيَّةٍ قد كانَ سُمَّاً لُعَابُها

وكان من أولادي من يقتل الجوع بتقديم الطعام للناس، وكان منهم من هو حية ذات لعاب سام (قوي شديد على الأعداء)

فلا تَحْسَبا أَنِّي تَضَعْضَعَ جَانِبي   ولا أنَّ نارَ الحربِ يَخْبُو شِهَابُها

ولكن، لم يتضعضع (يتخلخل) جانبي وبقيت صلباً، ولا تحسبا نار الحرب قد خبا شهابها (خمدت نارها)

بَقِيتُ، وأَبْقَتْ مِنْ قَناتِي مَصَابَتِي   عَشَوْزَنَةً زَوْرَاءَ صُمَّاً كِعَابُها

قد عشت بعدهم، وبقي من قناتي (جسمي) بعد مصابتي (مصيبتي) قامة عشوزنة (قوية) زوراء (تميل بعز وفخر) صم كعابها (صلدة قوية). المعنى الملموح: المصيبة جعلتني أقسى وأشد

عَلى حَدَثٍ لو أنَّ سَلْمَى أصابَها   بِمثْلِ بَنِيَّ ارْفَضَّ منها هِضابُها

هذا رغم حدث لو أصاب جبل سلمى لارفضت (تفرقت وانهارت) هضابها

وأَقْعَتْ على الأَذْنَابِ كلُّ قبيلةٍ   على مَضَضٍ مِنِّي، وذَلَّتْ رِقابُها

وقد أقعت (جلست) كل قبيلة على ذنبها إقعاء الكلب خاضعة الرقاب ذليلة بعد هجائي لها

١٠٢ ضيافة

وَمُسْتَنْبِحٍ والليلُ بيني وبينَه   يُراعِي بِعينيْهِ النجومَ التَّوَالِيَا

رب مستنبح (تائه في الصحراء ينبح التماساً لكلب يجيبه فيعرف مكان قوم لديهم مأوى وطعام)، والليل بيني وبينه، وهو ينظر إلى النجوم

سَرى إذ تَغَشَّى الليلُ، تَحْمِلُ صوتَه   إِلَيَّ الصَّبا، قد ظَلَّ بالأمسِ طَاوِيا

سار وقد تغشى الليل (غطى الأشياء) وريح الصبا تحمل إلي صوت نباحه، وقد قضى أمسه طاوياً (جائعاً)

تَأَنَّيْتُ واسْتَسْمَعْتُ حتى فَهِمْتُها   وقد قَفَّعَتْ نَكْباءُ مَنْ كان سَارِيَا

تمهلت، واستسمعت (أصغيت) حتى فهمتها (تأكدت أنه صوت إنسان) وكانت ريح نكباء (هوجاء جاءت بين ريحين) قد قفعت (جمدت أصابع) من يسري في الليل

فلمَّا رأَيْتُ الريحَ تَخْلِجُ نَبْحَهُ   وقَد هَوَّرَ الليلُ السِّمَاكَ اليَمَانِيَا

لما رأيت الريح تخلج (تذبذب) نباحه وتجعله يتموج في الأذن، وكان الليل قد هور (أسقط) نجم السماك اليماني

حَلَفْتُ لَهُمْ إن لَمْ تُجِبْهُ كلابُنا   لأَسْتَوْقِدَنْ ناراً تُجِيبُ المُنادِيا

حلفت للقوم أنني سأوقد ناراً عظيمة تستجيب لصوته إن لم تجبه كلابنا بنباح

وقُلْتُ لِعَبْدَيَّ اسْعِراها فإنه   كَفَى بِسَناها لابْنِ إِنْسِكَ دَاعِيَا

قلت للعبدين اسعراها (أوقدا النار)، فكفى بسناها (ضوئها) داعياً للإنسان

فَما خَمَدَتْ حتى أَضَاءَ وَقُودُها   أَخَا قَفْرَةٍ يُزْجِي المَطِيَّةَ حَافِيَا

اشتعلت النار ولم تخمد حتى كان أخو القفرة (التائه في الصحراء) قد وصل وأضاءت النار وجهه، وكان يزجي المطية (يسوق ناقته) حافياً

فَقُمْتُ إلى البَرْكِ الهُجُودِ، ولم يكنْ   سِلاحِي يُوَقِّي المُرْبِعاتِ المَتَالِيَا

فقمت إلى البرك الهجود (النياق الراقدة). وأنا رجل لا يوقي سلاحي (لا يوفر، ولا يترك) المربعات المتاليا (النياق الحوامل في الربيع التي يتلوها أولادها)

فَمَكَّنْتُ سَيفِي مِنْ ذَوَاتِ رِمَاحِها   غِشَاشاً، ولم أَحْفِلْ بُكَاءَ رِعَائِيا

أتيت إلى ناقة منها ومكنت سيفي من ذوات رماحها (من قوائمها التي ترمح، أي ترفس، بها) غشاشاً (في وقت يغشاه الظلام)، ولم أهتم ببكاء الرعاة

وقُمْنَا إلى دَهْمَاءَ ضَامِنَةِ القِرَى غَضُوبٍ إذا ما اسْتَحْمَلُوها الأثَافِيَا

وقمنا إلى قدر دهماء (سوداء) تضمن القرى (طعام الضيف) غضوب عندما نحملها فوق الأثافي (الحجارة التي توضع عليها القدر)، لعل غضب القدر لأنها تتقلقل قبل أن تثبت وتتوازن فوق الحجارة، عموماً سنراها تغضب أكثر بعد قليل

رَكُودٍ كَأَنَّ الغَلْيَ فيها مُغِيرَةٌ رَأَتْ نَعَماً قد جَنَّهُ اللَّيْلُ دَانِيا

هذه القدر ركود (ثابتة رصينة) كأن صوت غليان الماء واللحم بداخلها صوت مغيرة (جماعة تشن غارة) قد رأت نعماً (إبلاً) جنه الليل (أخفاه) ولكنه دان (قريب)

إذا اسْتَحْمَشُوها بالوَقُودِ تَغَيَّظَتْ على اللَّحْمِ حتى تَتْرُكَ العَظْمَ بَادِيَا

إذا استحمشوها (أهاجوها) بالوقود (بوضع المزيد من الحطب تحتها) تغيظت على اللحم (هذه غضبة القدر الكبيرة على ما فيها من لحم) تنهكه حتى يتقلص فيبدو العظم

كأنَّ نَهيمَ الغَلْيِ في حُجُراتِها تَمارِي خُصُومٍ عَاقِدِينَ النَّوَاصِيا

كأن نهيم الغليان (صوته المغمغم) في حجراتها (جوانب القدر) تماري خصوم (جدال بين خصوم) عاقدين النواصيا (رابطين رؤوسهم)

فَمَا قَعَدَ العَبْدانِ حتى قَرَيْتُه حَليباً وشَحْماً مِنْ ذُرَى الشَّوْلِ وَارِيا

فما أتم العبدان المهمة وقعدا حتى قريت الضيف (أطعمته) حليباً وشحماً وارياً (سميناً) من ذرى الشول (سنام الناقة)

١٠٣ البكاء راحة

ألَمْ تَرَ أنِّي يومَ جَوِّ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَا لِيا

في ذلك المكان «جو سويقة»، وذلك اليوم، بكيت فنادتني هند: ما لك؟

فقلتُ لَها إنَّ البُكاءَ لَراحَةٌ بِهِ يَشْتَفي مَنْ ظَنَّ ألَّا تَلاقِيَا

البكاء راحة يشتفي به من أحس أن هذا آخر لقاء ولا تلاقيَ بعده

قِفي وَدِّعِينا يَا هُنَيْدُ، فَإنَّني أَرَى الحَيَّ قد شَامُوا العَقِيقَ اليَمَانِيَا

ودعينا يا هند، فالحي (القوم) قد شاموا (تتبعوا بنظرهم) العقيق اليماني (البرق البادي من جهة اليمن) أي أنهم سيرحلون في اتجاه سير السحاب ذي البرق طلباً للعشب

أَرانِي إذا فَارَقْتُ هِنْداً كَأَنَّني دَوَى سَنَةٍ مِمَّا التَقَى في فُؤَادِيَا

بفراقي هنداً كأنني دوى (مريض) مضت على مرضي سنة، مما تجمع في قلبي من أحزان

الفرزدق

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

جرير بن عَطيَّة بن الخَطَفى
(٣٠هـ ـ ١١٥هـ)

هذا شاعر متميز.

لا والله، ليس متميزاً، فعندنا منه نسخة أخرى اسمها الأخطل، وأخرى اسمها الفرزدق. ما الذي جعلني أبدأ بجملة بليدة كتلك الجمل التي يبدأ بها الأكاديميون مقالاتهم؟ لا أدري.

الثلاثة جميعاً كانوا شتامين، فاخرين، قوَّالين. نعم، أقرب مثال أجده القوَّالون في بلاد الشام. يدعو الرجل إلى عرس ابنه زجالاً قوَّالاً، ويدعو زجالاً آخر من طبقته، فيدخل الزجالان في معركة يتبادلان فيها السباب، ثم قد يتغزل أحدهم بمحبوبته السمراء، ويرد عليه الآخر مفضلاً البيضاء. ويمدحان العريس وأهله، والعروس وأهلها. ويتسلَّى المدعوون.

هكذا كان بشر بن مروان أمير الكوفة يدعو الشعراء، ويحرض بعضهم على بعض ويجلس يستمتع. وكان جرير أحدهم.

يصف صاحب مقال «جرير» في موسوعة الإسلام المستشرقية شاعرنا بأنه «شكس» بطبيعته، ويجعل هذا الوصف ـ الذي يمكننا أن نترجمه بالمقاوح، والنكد، والشرس، ومثير الخصومة، وقليل السماحة، الخ ـ مفتاحاً لشخصية جرير. ويراه بعض الدارسين العرب حقوداً لأنه من بيئة فقيرة، ولأنه كان ـ زعموا ـ دميماً قصيراً. ولا نرى رأي المستشرق، ولا رأي أبناء جلدتنا. ونلتفت إلى تلك الأبيات الفكهة المنثورة نثراً في كل قصائد جرير، ونلتفت إلى مكانته الجليلة من قبيلته، ونلتفت إلى قول قديم بأنه كان طويلاً حسن الشَّعر. ونرى جريراً رجلاً سمحاً يحب النكتة، قريب الدمعة، يحب قبيلته وعائلته.. ليس فقط زوجته العزيزة خالدة وأولاده، وقال فيهم جميعاً شعراً رقيقاً، بل

أحب جده البخيل ووالده القميء ـ ولا بد من الاعتراف بأن والده كان قميئاً، فقد أجمع القدامى على هذا ـ، كانت علاقته بوالده علاقة الفقير بوالده، يتسابان قليلاً، ولكنهما يتعايشان.

عندما سب ابنٌ لجرير أباه، قالت له الأم: ويحك، أتقول هذا لأبيك؟ فقال لها جرير: دعيه، فوالله لكأني أسمعها من فمي أقولها لأبي.

بعد قليل سنحدثك عن حياة جرير فاصبر.

ليس لدينا مفتاح واحد يفتح شخصية جرير. مات العقاد وأخذ مفاتيحه. لكننا نقول إنه كان يتسلَّى بحفلات الهجاء، وإنه كان يعرف تقاليد الشعر العربي. قيل كان جده الخطفى شاعراً. ولعل جريراً سمع شعراً كثيراً في مجالس العشيرة. وننبه أنفسنا إلى أن العروض لم يكن قد اخترع بعد ـ وسينتظر الناس سبعين سنة بعد موت جرير ليسمعوا أول مرة بالطويل والخفيف والكامل ـ. ولم يكن علم البلاغة قد اخترع بعد. لا، ولا النحو. جرير عتيق، ولد في خلافة عثمان. ولكنه كان يكتب. تعلم الكتابة في قريته أثيفيَّة باليمامة (غير بعيد من الرياض عاصمة السعودية اليوم).

درج في قريته بين أهله وأغنامهم، وحميرهم أيضاً. ولئن كانت قبيلته يربوع ذات مجد حربي قديم، فقد كانت عشيرته كليب ترعى أغنامها في اليمامة وادعة، لكن غيرَ ناسية أنها من يربوع، ولا أنها تنتمي فوق ذلك إلى تميم إحدى أكبر وأمنع قبائل العرب.

هاجر من تميم من هاجر مع الفتوح، وكانت لهم بالبصرة والكوفة خطط. ولكن جريراً وأهله ظلوا يعيشون في اليمامة على جاهليتهم. قد أسلموا وأدوا الصدقات، ولكن حياتهم لم تتغير كثيراً. قد لا يكون الطفل جرير ابن السابعة فهم حديث الناس عن قتل المسلمين خليفتهم عثمان، لكنه بالتأكيد سمع وقد تجاوز العاشرة بمقتل علي. واستتب الأمر لمعاوية، ولم تكن تميم المضرية القبيلة المقربة للخليفة الجديد، فقد حاربته في صفين مع علي، وظلت قبائل اليمن، لا مضر، ذراع معاوية.

وانشغل جرير بمهاجاة أبناء اليمامة ممن نطقوا بالشعر، ولمع نجمه.

كان الشعر في ذلك الزمن يسافر بأجنحة قوية: هي شهوة العرب المعروفة للشعر، وهي أن الشعر كان سلوتهم الوحيدة، وهي أن ذائقتهم لشعرهم كان حادة.

بايعت تميم معاوية، وظلت على بيعته العشرين سنة التي حكمها، تأخذ أعطياتها وتحتضن قلوباً تكره معاوية، ولكنها عاشت عيشة ناعمة في ظل سيدها الكبير الأحنف بن قيس الذي جمع من الحلم والدهاء ما جمع معاوية.

ومات معاوية وورث الحكم يزيد، ووفد عليه جرير فوجده قد سمع بشعره. ثم جاءت أمور كبار. . قتل يزيد الحسين بن علي، وشدد النكير على عبد الله بن الزبير في مكة كي يبايع، فلم يبايع، فاستقل ابن الزبير بالحرمين ثم أرسل أخاه مصعباً والياً على العراق. فكان من جلساء مصعب في الكوفة الأحنف. كانت تميم زبيرية الهوى، ولكنها عاشت في حلم الأحنف أربعين سنة، ومثلما أغمدت سيوفها في وقعة الجمل قعدت في هذا الزمن الزبيري ـ الأموي الذي دام نحو عشر سنين على السياج تشهد فحول قريش تنتطح على الحكم. وقبل موته لا بد أن الأحنف سمع وهو بالكوفة أن شاعرين من فخذين من تميم بدآ يتشاتمان، أحدهما الفرزدق والآخر جرير. ولعله تسلى بالأمر. ومات الأحنف، ولم تعرف تميم سيداً قوياً تجتمع حوله مثل الأحنف، فلم يجد الشاعران من يقدعهما. وظلا يتهاجيان ثماني أربعين سنة.

نعود إلى جرير نفسه.

ظل باليمامة حتى أواسط الثلاثين من العمر، ورحل إلى الشام، وأتى يزيد، ورجع عن يزيد. وجلس على السياج غير غامس لسانه في الصراع على الحكم، ثم استتب الأمر لعبد الملك بن مروان، وقضى على دولة ابن الزبير في العراق ثم في الحرمين، ودانت له الأمة في عام ٧٣. وولى أخاه بشراً العراق.

ما كان شيء أحب إلى قلب بشر من الوقيعة بين الشعراء. كان يجد في ذلك تسلية عظيمة. وكان جرير سريع الاستثارة، ليس لشكاسة فيه، ولا لشرّ، بل كان يتسلى هو أيضاً. . لم يكن ابن الراعي الفقير يجد غضاضة إذا شَتم وشُتم، وكان يجد من قبيلته يربوع من يشجعه، فالقوم لهم مآثر في الجاهلية، وجهاد في الإسلام، وإن لم تعرف لهم سيادة كسيادة أبناء عمومتهم مجاشع مثلاً.

ومات بشر أمير العراق بعد سنتين وجاء الحجاج، وقضى على «جيوب المقاومة» الخارجية بعض قضاء، وأسس مدينة له هي واسط. ومنع أحداً أن يدخلها إلا بإذن. ودخلها جرير بغير إذن. ولم يبطش به الحجاج الذي وصف نفسه قائلاً «ما أعلم اليوم رجلاً على ظهر الأرض هو أجرأ على دمٍ مني»، بل استمع إليه، وقربه. وأصبح جرير مداحاً للحجاج.

كان الحجاج بطاشاً كبيراً، لكنه لم يكن يتعدَّى مرتبته: هو الرجل الثاني، الذي يعرف أن الأمر لقريش لا لثقيف، فهو خادم مطيع لمن فوقه، جبار على من تحته. غير أنه كان من أفصح العرب، وكان يقدر الشعر. ولعله أخذ يشعر بالضيق من مدائح جرير.. فهذا مما قد يغير قلب الخليفة عليه. وخير ما يصنعه أن يبعث بشاعره هدية إلى الخليفة عبد الملك بن مروان.

كان الحجاج حريصاً الحرص كله على التخلص من جرير. فالخليفة في دمشق لن يكتفي بشاعره الأخطل، شاعر بني أمية الذي وضع مصيره في أيديهم، فهجا عنهم الأنصار قبل بضع سنين عندما غمزهم شاعر الأنصار عبد الرحمن بن حسان وعرَّض نفسه للموت في سبيلهم. وحتى لو اكتفى الخليفة بشاعره الأثير، فهو لن يغفر لواليه المطيع الحجاج أن يكون له شاعر في قامة جرير وقدرته.

كان عبد الملك ذواقة للشعر نقادة، أليس عندما جاءه ابن الرقيَّات وأنشده: «يعتدل التاج فوق مفرقه/ على جبين كأنه الذهب» قال له: تقول لي هذا، تمدحني كأنني من ملوك العجم، وتقول لمصعب: «إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء». ثم حرمه.

بعث الحجاج جريراً إلى عبد الملك هدية، وزيادة في حرصه على أن يقبل الخليفة الهدية بعث معه ابنه محمداً.

عبد الملك لا يريد شاعراً يمدحه مدحاً بارداً بعد إذ مدح واليه مدحاً قوياً. فرده مرة ومرة، ولكن ابن الحجاج ـ بوصية من أبيه ـ لم يبرح دمشق، وظل بباب الخليفة يستعطفه حتى أذن لجرير بالإنشاد، وعلى مضض. قال الخليفة لجرير: إنما أنت شاعر الحجاج. وشتمه بعد البيت الأول. ولكن جريراً مضى ينشد حتى قال: «ألستم خير من ركب المطايا»، فعرف عبد الملك أن الرجل شاعر صاحب صنعة، وأنه سيكون درة ثانية في عمامة خلافته.

وأعطاه عبد الملك مئة ناقة وثمانية رعاء، ورجع جرير إلى قومه باليمامة مظفراً. وتناول في اليمامة بعض الشعراء الذين هجوا قومه فهجاهم وأسكتهم. وعاد إلى دمشق في قدمة أخرى ورأى الأخطل في مجلس عبد الملك لأول مرة، ولم يعرفه حتى عُرِّف به. إذن فهذا شاعر بني أمية العجوز الذي تبرع بمناصرة الفرزدق عليه؟ شتمه واستطال عليه في مجلس الخليفة. ومن حسن حظ جرير أن عبد الملك كان كأخيه بشر يحب أن يتسلى بالشعراء. فما داما

كلاهما من مداحه فلا بأس في أن يستبًّا في حضرته.. وبقبيح الكلام. وعاد جرير إلى اليمامة في نجد، إلى أولاده الكثر وعائلته الكبيرة. فقد كان يعول ثمانين نفساً حسبما زعم.

ثم طلبته يربوع البصرة، فهو شاعرها ولسانها. فأقام في البصرة سنين يتهاجى مع الفرزدق وغير الفرزدق.. أحصوا الشعراء الذين هاجاهم جرير فكانوا ثلاثة وأربعين.

قصة جرير وراعي الإبل النميري

في البصرة نصر الشاعر النميري الملقب براعي الإبل الفرزدق على جرير. وكانت قصة.

قد رويتُ هذه القصة في الإذاعة يوم أن اشتغلت في إذاعة، وكتبتها في مكان آخر، ولكنها طريفة. فهل ترافقني فيها؟ وأنا أكتبها هنا كتْباً جديداً فراراً من معرة القص واللصق.

أراد جرير أن يوفر على نفسه عدوًّاً جديداً. فوقف في مكان خالٍ بالمربد ينتظر انصراف «الراعي» من مجلسه الذي تعود أن يجلس فيه مع الفرزدق، ولم يرد جرير أن يراه أحد، ولا أن يواجه الراعي في المجلس.

وانصرف الراعي راكباً بغلة، ووراءه ابنه جندل يركب مهراً. قال جرير للراعي: «يا أبا جندل، إنك شيخ مضر، وقد بلغني تفضيلك الفرزدقَ عليَّ، فإن أنصفتني وفضلتني كنتُ أحق بذلك، لأني مدحت قومك وهجاهم». ووضع جرير يده على عنق البغلة، وأردف: «الفرزدق ابن عمي، ولا عليك كلفة في أمري معه، وقد يكفيك من ذلك هين: أن تقول كلاهما شاعر كريم، فلا تحمل منه لائمة ولا مني».

سكت الراعي. ثم إذا بابنه جندل يلحق به، ويضرب عجز بغلته قائلاً: أراك واقفاً على كلب بني «كليب»، كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً. فرمحت البغلة جريراً، فوقعت قلنسوته عن رأسه. فتناولها. يقول جرير: «ما كانت القلنسوة بأغيظ أمره إليَّ، لو أنه عاج علي». ولكن الراعي مضى ولم يعج.

فانصرف جرير مُغْضباً إلى بيت رجل من يربوع كان نازلاً عنده بالبصرة.

فلما صلى العشاء، قال أسرجوا لي، وارفعوا لي باطية نبيذ. وصعد إلى عليته مع صاحبه، ومعهما كتف للكتابة. وأخذ يهمهم ويملي على صاحبه. «أقِلّي اللوم عاذل والعتابن. . وقولي إن أصبت لقد أصابن» وكانت في جرير غنة، ينشد فكأنه يُدخل في حروفه نوناً. وسمى أهل اللغة هذه النون في تلك القصيدة نون الترنم.

أطلت امرأة على جرير فرأته عريان يحبو على أربع، فنزلت مسرعة وقالت: جُنَّ صاحبكم. فقالوا لها: دعيه فهذا شأنه عندما يأتيه الشعر. فلما بلغ جرير البيت: «فغض الطرف إنك من نمير. .» ظل يردد هذا الشطر طويلاً، فلصقت ذقن صاحبه بصدره ونالته إغفاءة. وجرير يبحث في تلافيف عقله الشعري عن الشطر الثاني. ثم إذا به يقول «الله اكبر» ويكررها. فصحا صاحبه مذعوراً، فقال له: «اكتب «فلا كعباً بلغت ولا كلابا»، أخزيته ورب الكعبة، وفضلت أخويه عليه».

ثم انطلق جرير إلى مكان الراعي والفرزدق في المربد، بعد أن استيقن أنهما أخذا مجلسهما. ركب حصانه ووقف من غير أن يسلم، وانطلق ينشد قصيدته بأبياتها التي زادت عن الثمانين بيتاً. وعندما سمع الراعي القصيدة قال لقومه: اركبوا فقد فضحكم جرير. وساروا وسارت القصيدة. وكانوا كلما نزلوا بمكان وجدوا القصيدة قد سبقتهم.

تقول الأسطورة إن بني نمير أخذوا يظنون أن لجرير أشياعاً من الجن ينشرون شعره. ولكن الحق أن العرب كانت تتذوق الشعر، وأنه كان يسير ويضرب في الأرض. وقد تركت هذه القصيدة بني نمير يستحون من نسبتهم زمناً. وسميت القصيدة الدامغة، أي التي تصيب الدماغ.

رَجْع إلى جرير الهجّاء

ما استبَّ شاعران منذ كان للعرب شعر مثلما استب جرير والفرزدق. على أن جريراً كان يهاجي سوى الفرزدق اثنين وأربعين شاعراً آخر، ويتفق النقاد على أنه لم يصمد لجرير سوى الفرزدق والأخطل.

وستجد جريراً يسب الأخطل بدينه، ولو كان الخلق مما يوزن به الشعر لسقط جرير بهذا سقوطاً. فالأخطل لم يكن يستطيع ـ إن هو أراد أصلاً ـ أن يتعرض للإسلام وهو شاعر خليفة المسلمين. فهنا كانت مروءة جرير ناقصة

نقصاً معيباً، وكانت مروءته ناقصة وهو يزعم أن أخت الفرزدق زانية، وكان جديراً بأولي الأمر في دولة بني أمية أن يكفوه عن مثل هذا، ولكنهم كانوا يتسلون، وكان يطيب لهم أن يؤججوا العداوة بين القبائل. على أن شاعرنا لقي تعزيراً من والي المدينة عندما لج الهجاء بينه وبين عمر بن لجأ التيمي، فقد قيدا معاً ظهراً لظهر، وتركا في الشمس ساعات. ثم أفرج عنهما على ألا يعودا إلى التهاجي. فكف عمر، لكن جرير كان يستل الواحدة تلو الأخرى ويقول: هذه كانت قبل العهد.

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة، ولجرير من العمر خمس وستون سنة، ووفد عليه جرير، وظن أن الخليفة الجديد يحب التأريث بين الشعراء كوالده وكعمه، فأطلق لسانه في شاعر الخليفة عدي بن الرقاع، فكاد الخليفة أن ينتقم من جرير بجعله مطية لعدي في ذلك المجلس، لولا أن تدخل عمر ابن الخليفة الوليد.

قتل الأسرى وسبي السبايا

استخلف الوليد عشر سنين لم يكن لجرير فيها حظوة. ثم تولى الخلافة سليمان. فمدحه جرير وحضر مجلسه. وكان له في مجلسه حكاية مع الفرزدق، فيها ما يؤلم. فقد جيء بأسرى الروم كي تضرب أعناقهم في مجلس سليمان. وقال الخليفة لكل من جرير والفرزدق: ليضرب كل منكما رقبة علج من هؤلاء.

ضرب جرير رقبة أسير فقتله، وضرب الفرزدق بسيفه فنبا عن عنق الأسير. وكانت حادثة عيَّره جرير بها في أكثر من قصيدة.

وقد قرأت قصة هذه الحادثة في كتب الأدب القديمة والحديثة مراراً كثيرة، ووجدتهم يروونها بكل طريقة، وينشدون ما قاله جرير وما رد به عليه الفرزدق من شعر. ولم أجد أحداً وقف متأملاً في هذه الوحشية البغيضة. بغيض أن يُقتل الأسرى، وبغيض أن يقتلهم الخليفة في مجلسه، وبغيض جداً أن يجعل قتلهم تسلية له ولشعرائه.

لا أشك في أن الروم في القسطنطينية كانوا يقتلون أسرى المسلمين، وأكاد أراهم يفعلون بهم مثلما يفعل المسلمون. ولست أشك لحظة في أن السبايا الروميات اللائي ملأن قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء، كانت توجد مقابلهن سبايا مسلمات يخدمن في قصور القسطنطينية وفي أَسرَّة أثريائها. ولئن كان

المعتصم قد غزا الروم غزوة كبيرة انتقاماً لامرأة «هاشمية» جاءه أنها قالت: وامعتصماه، فإن المعتصم ومن قبله وبعده من الخلفاء لم يسمعوا صرخات سبايا المسلمين وهن يصرخن، ذلك أن السبايا من الطرفين كن من فتيات الفلاحين الفقراء على جانبي الحدود. ولعل آباءهن كانوا يقولون في أنفسهم فلتذهب هذه البنت إلى المعسكر الآخر، ولتعش حياة أهنأ مما نعيشه هنا تحت سوط السلطان ندفع الخراج ونجوع. انتهى سوق العبر.

نورد هذا الكلام ونحن نرى قضية السبايا تتكرر ولكن في غياب الروم، تتكرر على نساء من أقوام ضعاف يتمسكون بطريقة عيشهم وبدينهم، نكتب هذا في آب من عام ألفين وخمسة عشر، ونرجو أن نتغير وأن ننتصف من ظلم العالم، وأن نكون منصفين. وتسألني: فلماذا تورد إذن هذا الشعر الذي يسقط في ميزان الأخلاق؟ فأقول هذا إرثنا الشعري، وأنفُك منك وإن كان أجدع. وعيار الفن غير عيار الأخلاق.

وعهِد سليمان بالخلافة لعمر بن عبد العزيز، ووفد عليه جرير، ولم ينل شيئاً، ولكنه رضي، ومدح عمر ورثاه عندما مات بعد سنتين من خلافته. وجاء هشام فمدحه جرير، ومدح ابنه، ونال العطايا وهو شيخ كبير.

ومات الفرزدق عن تسعين سنة، فشمت به جرير هنيهة وقال بيتاً ندم عليه، ثم رثاه مرتين، وقال: لا أعيش بعده طويلاً. ومات جرير بعد الفرزدق بأشهر. مات جرير بين أهله في اليمامة.

وصلنا شعر جرير بحالة طيبة.. نسبياً. فقد كان له من أولاده وبناته وأحفاده شعراء اهتموا بشعره ورووه. وعندما كتبه الكاتبون بعد عقود كان لديهم ما يستندون إليه من روايات شفوية، وربما أيضاً مخطوطة.

يمكننا أن نطمئن إلى معظم ما في ديوان جرير. ويقول لنا نقاد الشعر القدماء إن البيت الفلاني أو الفلاني نسب إلى جرير خطأ، لكنهم لم يقولوا قط إن الكثير من شعره منحول. هو شعره بعجره وبجره. ولا تسل كثيراً عن ترتيب الأبيات، فجرير كشعراء الجاهلية قبله يقفز من موضوع إلى موضوع، ومن غزل بأمامة إلى غزل بسليمى، ولو بدل الرواة في رواياتهم مواضع الأبيات لما أضروا بشعره كثيراً، بل ربما جبروا بعض ما فيه من خلل. في كثير من الأبيات عليك أن تشتد على نفسك في التأول حتى تخلص إلى معنى البيت، وقد عانينا من ذلك نصباً. كان شاعرنا يريك طرف المعنى، مثلما يريك جبلُ الجليد قمتَه،

ويترك الباقي في بطنه. كذا كان شعر القدماء، وعندما ستسطع أضواء العصر العباسي سنجد الشعر أكثر تماسكاً، والمعنى أكثر التصاقاً بالمفردات، وأكثر التزاماً بقواعد النحو.

لا تنس وأنت تطالع شعر جرير الذي انتخبناه لك، وهو زبدة الزبدة، أن تلتقط أبيات الفكاهة، وفكاهة جرير حارة وجميلة. وقد سودنا لك أبياتاً هنا وهناك حتى نتشارك في الاستمتاع بها. وقد يكون لك رأي غير رأينا في أي الأبيات أجمل. اذهب واصنع مختاراتك أنت. فأما هذه فمختاراتي.

عن جرير قالوا الكثير، هو يغرف من بحر، وهو أستاذ الشعراء في الإسلام، الخ. ذلك تجده بأيسر سبيل في كل كتاب وكل موقع. ولم نكتبه لك. كتبنا لك رؤيتنا نحن لشعر جرير وحياته. ولم نخترع شيئاً؛ وكنا في سياقة حياة شعراء غيره نخترع ونكمل القصة من عندنا، مع الاعتراف بذلك قياماً بحق الأمانة. وتبقى في حياة جرير أمور تضطرب فيها كلمة مؤرخي الشعر، يزيدون سنة أو سنتين في تاريخ ميلاده، ووفاته، ويروون حكاياته بروايات تتقارب وتتباعد.

سلق الأكاديميين

قد عهدتنا نسلق الأكاديميين ببعض الأسطر في كل مرة نتناول فيها شاعراً. قد شرح ديوان جرير إيليا الحاوي لطلابه، ولم يكن رديئاً. واستند تماماً إلى نسخة كرم البستاني. ولم يشرح ما عجز عن شرحه ولم يقل لنا ذلك. ووجدنا نسخة الصاوي بغير شرح. وجاء أكاديمي بأخرة فطبع الديوان في ألف صفحة عن نسخة شارح قديم، ولم يكن شرحُ الشارح القديم كافياً، فقد ترك من الأبيات أكثر مما شرح. على أن الأكاديمي الأخير كسل عن تشكيل كثير من الكلمات. وأشعرنا بالاستسهال، رغم الجهد الذي بذله. ولو رأى ما صنع الأب صالحاني بنقائض جرير والأخطل لتضاءل وعزف عن الوقوف أمام المرآة زمناً، هذا لو كان فيه حياء.

ديوان جرير ينتظر محققاً لا يستسهل.

فإن أردنا أن نعتذر لمن أصدروا الديوان بعذر فهو إقرارنا بأن ما صنعناه أيسر بكثير مما كان عليهم أن يصنعوه، فنحن انتخبنا من ذلك الشعر ما راق لنا وما فهمناه، ولو أقدمنا على الديوان كله لربما كان بدا من عجزنا ما بدا من عجزهم.

وننظر حولنا فنرى مئات الجامعات في العالم العربي، وبها مئات كليات الأدب العربي، فماذا نرى؟ نرى أساتيذ نزلت بهم هممهم عن رتبة الإتقان، وتنطحوا لكتابة أسمائهم على أغلفة الدواوين، وهم يتكثرون في مقدماتهم بفضول القول في مدح النفس، ويتنطعون ما وسعهم بأنهم يخدمون التراث، وقد ترى أحدهم يتلمظ بركيك العبارة ويتمطق بسقيم الكلام وهو ينبئك بأنه ينافح عن العروبة والإسلام. ويصنع لهم طلبتهم رسائل دكتوراه تافهة عن الجانب الفلاني أو الفلاني في شعر فلان أو فلان، فتأتي رسائلهم وقد انحطت دركة عن مستوى أساتذتهم، ويذهب الطلبة فرحين بهذه الأسقاط إلى المطابع، فيجعلونها كتباً تشوه واجهات المكتبات، ثم ينصرفون إلى التدريس الجامعي لكي يتخرج على أيديهم جيل ينحط دركة أخرى عنهم، فيكون كالدرهم المسيح، أو كالكتاب المسروق بالأوفست صورة عن صورة.

١ زينب

لَقَد هَتَفَ اليومَ الحَمامُ لِيُطرِبا وعَنّى طِلابُ الغانياتِ وشَيَّبا

صَوَّت الحمام ليطرب (ليُحزِن)، فقد عنَّاني (أوجعني) طلاب الغنيات (تتبُّع الحسان) وشيَّب رأسي

وأَحبَبْتُ أهلَ الغَوْرِ مِنْ حُبِّ ذي فَناً وأَحبَبْتُ سُلْمانِينَ مِنْ حُبِّ زَينَبا

٢ إخضاع العفاريت

وكائِنْ بِالأَباطِحِ من صديقٍ يَراني لو أُصِبْتُ هُوَ المصابا

وكائنْ (ورُبَّ) صديق في الأباطح يتوجع لمصيبتي كأنها أصابته

ومسرورٍ بِأَوْبَتِنا إليه وآخرَ لا يُحبُّ لنا إِيابا

ورب مسرور برجوعنا، وآخر لا يتمنى لنا رجوعاً

صَبَرْتَ النفسَ يا ابنَ أبي عقِيلٍ مُحافَظَةً فكيف تَرى الثَّوابا

صبرت نفسك (صبَّرتها) أيها الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل محافظة (حفاظاً على الشرف) فهل ترى كيف كان النصر ثوابك

ولو لم يَرضَ ربُّكَ لم يُنزِّلْ مع النَّصْرِ الملائِكَةَ الغِضابا

نصرك الله بالملائكة الذين غضبوا للشرف والدين، وهذا دليل رضا الله. (فالحجاج هدم جانباً من الكعبة بالمنجنيق، فكان لا بد للشاعر المنافق من أن يزوده بصك غفران من ملائكة تقاتل معه)

إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحَجَّاجَ أثقبَها شِهابا

سعر: أوقد، أثقبها: أشدها اشتعالاً، الشهاب: الشعلة من اللهب

عَفَاريتُ العِراقِ شَفيْتَ مِنْهُمْ فَأَمْسَوْا خَاضِعِينَ لكَ الرِّقابا

شفيت نفوسنا من عفاريت العراق (الشياطين الخارجين على الدولة كالخوارج)، فخضعتْ رقابهم لك

وقالوا لن يُجامِعَنا أميرٌ أقامَ الحَدَّ واتَّبَعَ الكتابا

كانوا يقولون لن يجمعنا البلد مع أمير يقيم حدود الله ويتّبع كتابه..

إذا أخذوا، وكيدُهُمُ ضعيفٌ، بِبابٍ يَمْكُرونَ فتحتَ بابا

فأصبحوا كلما دخلوا باباً للفتنة فتحت لهم باباً من الدهاء، وفي النتيجة كان كيدهم ضعيفاً

وأَشمَطَ قد تَرَدَّدَ في عَماهُ جعلتَ لِشَيْبِ لحيتِه خِضابا

ورب رجل أشمط (اختلط سواد شعره ببياض) يروح ويجيء في ضلاله، وقد خضبت (صبغت) لحيته بدمه، (وذلك هو عمير بن ضابئ البرجمي، الذي كان دخل على عثمان يوم قتل وداسه، قتله الحجاج سنة ٧٥هـ)

٣ أنا والغواني

نَعَبَ الغُرابُ فَمَا له مِنْ مَطْلَبِ ما شئتَ إذ ظَعَنوُا لِبَيْنٍ فانْعَبِ

صوَّت الغراب ولا مطلب (غاية) له لأن صوته نذير برحيلهم، وهم الآن قد ظعنوا (رحلوا) فعلاً، فصوِّت كما تشاء

إنَّ الغَوانِيَ قد قَطَعْنَ مودَّتي بعد الهوى ومنعْنَ صَفْوَ المَشْرَبِ
وإذا وَعَدْنَكَ نائلاً أَخْلَفْنَهُ وجَعَلْنَ ذلكَ مثلَ بَرْقِ الخُلَّبِ

النائل: ما يناله المرء، برق الخلب: برق السحاب الخادع، يبشر بمطر ولا يأتي مطر

٤ كل واشرب

فإنكَ يا خِنزيرَ تَغْلِبَ إن تَقُلْ رَبيعَةُ وَزْنٌ مِنْ تَميمٍ تُكَذَّبِ
أبا مالِكٍ لِلحيِّ فضلٌ عليكُمُ فَكُلْ مِنْ خَنانِيصِ الكِناسَةِ واشْرَبِ

الخنانيص: صغار الخنازير، كل لحم الخنزير واشرب الخمر. أو أنه جعل «واشرب» مجرد لاحقة لـ «كُل»!

٥ وظيفة المكارم

لـقـد عـلـمَ الـفـرزدقُ أنَّ قَـوْمـي يُـعِـدُّونَ الـمـكـارمَ لـلـسِّـبَـابِ

نحن ندخر المكارم لكي نرد بها على من يسبنا

إذا عَـدَّتْ مـكـارمَـهـا تـمـيـمٌ فَـخَـرْتَ بِـمِـرْجَـلٍ وبِـعَـقْـرِ نَـابِ

كل فخرك وسط قبيلة تميم هو مرجل (موقد الحداد)، وأن أجدادك كانوا يعقرون النيب (يذبحون النياق).. وكان أبو الفرزدق قد تعاقر مع أحدهم (أي تبارى معه أيهما يذبح نياقاً أكثر) فعقر مئة ناقة وقيل أكثر، والتعاقر تفاخراً مما نهى عنه الإسلام، فلئن كان العقر للضيف وللجوعى محموداً فالتعاقر مذموم

وسيفُ أبـي الفرزدقِ قد علمتُمْ قَـدُومٌ غـيـرُ ثـابـتـةِ الـنِّـصَـابِ

سيف أبيك مثل القَدُوم (المطرقة) الجَرِج ذي اليد القلقة. يهجوه بأنهم أهل صناعة لا حرب، وكان الفرزدق جرب سيفه في أسير عند الخليفة فلم يقطع

أَمَـا يَـدَعُ الـزِّنَـاءَ أبـو فِـراسٍ ولا شُـرْبَ الـخـبـيـثِ مـن الـشَّـرابِ
ولامَـتْ فـي الـحُـدودِ وعـاتَـبَـتْـهُ فـقـد يَـئِـسَـتْ نَـوَارُ مـن الـعِـتَـابِ

لامته زوجته نوار في التعدي على حدود الله، ولكنها يئست منه

٦ ليست عنكبوتة

قـد تَـيَّـمَ الـقـلـبَ حتى زادَهُ خَـبَـلاً مَـنْ لا يُـكَـلِّـمُ إلَّا وَهْـوَ مَـحـجُـوبُ

الخبل: الهوس

تَـمَّـتْ إلى حَسَبٍ ما فوقَهُ حَسَبٌ مَجْداً، وزَيَّنَ ذاكَ الحسْنُ والطِّيبُ
تَـبـدُو فَـتُـبـدي جَـمـالاً زَانَـه خَـفَـرٌ إذا تَـزَأْزَأَتِ الـسُّـودُ الـعَـنـاكِـيـبُ

الخفر: الحياء، تزأزأت: مشت مسرعة واختبأت. فهي امرأة حيية تمشي وئيداً، وليست كالقبيحات اللائي يشبهن العناكب السود منظراً وحركة

٧ صراصير وقنافذ

أمَّـا صُـبَـيْـرٌ فـإنْ قَـلُّـوا وإنْ لَـؤُمُـوا فَـلَـسْـتُ هَـاجِـيَـهُـمْ ما حَنَّتِ النِّيبُ

قبيلة صبير مذمومة بقلة العدد وباللؤم، ومع ذلك لن أهجوهم ما دامت النيب (النياق) تصدر صوت «الحنين».. أي أبداً

أمَّـا الـرجـالُ فَـجِـعْـلانٌ، ونِـسـوتُـهُـمْ مـثـلُ الـقَـنـافِـذِ لا حُـسْـنٌ ولا طِـيـبُ

جعلان: صراصير

٨ داء الركبتين

قال لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة، وقد منعه بعض رزقه:

لقد كان ظَنِّي يا ابْنَ سَعدٍ سَعادةً ... وما الظنُّ إلَّا مُخْطِئٌ ومُصِيبُ
تركتُ عِيالي لا فَوَاكِهَ عندَهُمْ ... وعندَ ابنِ سعدٍ سُكَّرٌ وزَبيبُ
تَحَنَّى العظامُ الراجِفاتُ مِنَ البِلَى ... وليسَ لِدَاءِ الرُّكْبَتَيْنِ طبيبُ

التوت عظامي المرتعشة من البلى (الاهتراء). رحم الله أمي، اشتكت ركبتيها طويلاً، ولم يكن عمرها يسمح بتركيب ركبتين صناعيتين، وكنت كلما سمعت شكواها أتذكر هذا البيت اللعين، ولم أقله لها بالطبع، وكانت إحدى قريباتي تمد كفيها ناظرة إلى أصابعها وتقول: لعنة الله على الكبر، انظروا كيف تتقوس الأصابع

مَنَعتَ عطائي يا ابنَ سعدٍ وإنَّما ... سبقْتَ إليَّ الموتَ، وَهْوَ قريبُ
فإنْ تُرْجِعُوا رزقي إلَيَّ فإنَّه ... متاعُ لَيالٍ، والحياةُ كَذُوبُ

٩ طلبك ليس عندنا

قال لجارية ابتاعها، وكانت قبله عند «زيد» الثري:

تُكَلِّفُني مَعيشَةَ آلِ زيدٍ ... ومَنْ لي بالصَّلائِقِ والصِّنابِ

الصلائق: رقائق اللحم المشوي، الصناب: إدام من خل وزبيب

وقالتْ لا تضُمُّ كَضَمِّ زيدٍ ... وما ضَمِّي وليسَ معي شَبابي

تريده أن يضمها (المهذبون من الشراح قالوا بل الضم هو القيام بأمر البيت لا غير، ويقصّر شرحهم دون الشطر الثاني)

١٠ أخاف عليكم

أَبَني حَنيفَةَ أَحْكِمُوا سفهاءَكُمْ ... إنِّي أخافُ عليْكُمُ أن أَغضَبا
أَبَني حَنيفَةَ إنَّني إنْ أَهْجُكُمْ ... أَدَعُ اليَمامَةَ لا تُواري أَرْنَبا

اليمامة: منطقة بني حنيفة في نجد، وكان يقيم بها قوم من تميم منهم جرير، وباليمامة وُلد

١١ كدت أبوح

أَلا حَيِّ لَيْلى إذْ أَجَدَّ اجتِنابُها ... وهَرَّكَ مِنْ بعدِ ائتلافٍ كلابُها

تحية لليلى وقد جدَّ علينا هجرانها لنا، وصارت كلابها تهرنا (تنبحنا) بعد أن كانت تألفنا لكثرة زياراتنا

إذا ذُكِرَتْ للقلبِ كادَ لِذِكرِها ... يَطيرُ إليها، واعتَراهُ عذابُها

فهل مِنْ شَفيعٍ أو رسولٍ بحاجةٍ ... إليها، وإن صَدَّتْ وقَلَّ ثوابُها

ثوابها: عطاؤها، وصلها

بأَنَّ الصِّبا يوماً بِمَنْعِجَ لم يَدَعْ ... عَزاةً لِنفسٍ ما يُداوَى مُصابُها

هل من رسول يقول لها إن الصِّبا (التشوق لزمن الصبا وللعشق) لم يترك لنا في «منعج» ما نعزي به أنفسنا المصابة بعشق لا دواء له

ويَوماً بِسُلْمانِينَ كِدْتُ مِنَ الهوى ... أَبُوحُ، وقد زُمَّتْ لِبينٍ ركابُها

كدت لفرط الهوى أبوح بحبها عندما زُمَّت (هيِّئت) ركابها (نياقها وعليها رحالها) للبين (الرحيل)

حَمَى أهلُها ما كان مِنَّا فأصبَحَتْ ... سواءٌ علينا نأْيُها واقترابُها

حمى (منع) أهلها ما كان بيننا من وصل، فصار ابتعادها واقترابها سيان

أبا مالِكٍ مَالَتْ بِرأسِكَ نَشْوَةٌ ... وبِالبِشْرِ قَتْلَى لم تَطَهَّرْ ثيابُها

يخاطب الأخطل: مالت برأسك نشوة السكر، بينما في «البشر» قتلى من قبيلتك تغلب لم تكفن وتغسل من دمائها بعد

فإنَّ نَدامَاكَ الذين خَذَلْتَهُمْ ... تَلاقَتْ عليْهِمْ خيلُ قَيْسٍ وغابُها

من كانوا ينادمونك وخذلتهم تعرضوا لخيل قيس وغابها (رماحها)

ظَلَلْتَ تَقِيءُ الخَنْدَريسَ، وتَغْلِبٌ ... مَغَانِمُ يومَ البِشْرِ يُحْوَى نِهَابُها

الخندريس: الخمر، يوم البشر: وقعة كانت لبني سليم، من قيس، على بني تغلب رهط الأخطل، النهاب: الغنائم

لقد تَرَكَتْ قيسٌ دِياراً لِتَغْلِبٍ ... طويلاً بشطِّ الزَّابِيَيْنِ خرابُها

الزابيان: الزاب الصغير والزاب الكبير، رافدان لدجلة

عَجِبْتُ لِفخرِ التَّغْلِبيِّ وتَغْلِبٌ ... تُؤَدِّي جِزَى النَّيْروزِ خُضْعاً رِقابُها

جزى النيروز: ضريبة قديمة كان يفرضها الفرس والرومان على من يحتفلون بعيد الربيع، وفرضت في العصر الأموي غير أن عمر بن عبد العزيز ألغاها

أَيَفْخَرُ عبدٌ أُمُّهُ تَغْلِبِيَّةٌ ... قد اخْضَرَّ مِنْ أَكْلِ الخَنَانيصِ نابُها

أتفخر أيها الأخطل العبد، وأمك تغلبية اسودت أسنانها لكثرة ما أكلت لحوم الخنانيص (والخِنَّوْص: صغير الخنزير). كانوا في القديم ربما عبروا بالخضرة عن السواد

غَليظَةُ جِلْدِ المِنْخَرَينِ مُصِنَّةٌ ... على أَنْفِ خِنْزيرٍ يُشَدُّ نقابُها

هي فطساء، مصنة (كريهة الرائحة)، وأنفها أنف خنزير

أبا مَالِكٍ ليستْ لِتَغْلِبَ نَجْوَةٌ　　إذا ما بُحُورُ المجدِ عَبَّ عُبابُها

لن تنجو تغلب من تدفق بحور المجد الذي للقبائل الأخرى وتغلب لا تملك منه شيئاً

كذلِكَ أَعطَى اللَّهُ قَيْسَاً وخِنْدِفَاً　　خَزائنَ لم يُفْتَحْ لِتغْلِبَ بابُها

خندف: شعب كبير منهم تميم قبيلة جرير

١٢ نتف الشوارب

يا تَيْمُ مَا خَطَبَ الملوكُ بَناتِكُمْ　　رِيحُ الخَنافِسِ في مُسُوكِ ضِبَابِ

رائحة بناتكم كرائحة الخنافس، وهن في مسوك ضباب (في جلود حيوان الضب) أي يشبهن الضباب

قومٌ إذا حَضَرَ المُلوكَ وُفُودُهُمْ　　نُتِفَتْ شوارِبُهُمْ على الأَبوابِ

١٣ وطء الجبين

ونَعْرِفُ حَقَّ النَّازِلينَ ولم تَزَلْ　　فَوَارِسُنَا يَحمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ

نضيف من ينزل بنا، وفرساننا يفرضون حمايتهم على قاصية السرب (الطريق النائية)

على مُقْرَباتٍ هُنَّ مَعْقِلُ مِنْ جَنَى　　وسَمُّ العِدَى والمُنْجِياتُ مِنَ الكَرْبِ

وفرساننا يركبون مقربات (خيل تكون قريبة دوماً ومهيَّأة للركوب) وهي معقل (حصن) من جنى جناية واحتمى بنا، وهي سم في حلوق الأعداء، وتنجينا من اعتداءاتهم

أَلَا رُبَّ جبَّارٍ وَطِئْنَ جَبينَهُ　　صَريعاً، ونَهْبٍ قد حَوَيْنَ إلى نَهْبِ

النهب: الغنيمة

١٤ قواف تلتهب التهابا

لقد طَرِبَ الحَمَامُ فَهاجَ شوقاً　　لِقلبٍ ما يزالُ بِكُمْ مُصَابا

بِنفْسِيَ مَنْ أَزُورُ فلا أَرَاهُ　　ويَضْرِبُ دونَهُ الخَدَمُ الحِجَابا

بنفسي: أفدي بنفسي

أخَالِدَ لَوْ سألْتِ عَلِمْتِ أَنّي　　لقيتُ بِحُبِّكِ العَجَبَ العُجَابا

أخالدَ: يا خالدةُ، وهي زوجته أم حزرة

ستَطْلُعُ مِنْ ذُرَى شُعَبَى قَوافٍ　　على الكِنْدِيِّ تَلتَهِبُ التِهابا

ستخرج من قمم شُعَبَى قواف (قصائد) في هجاء «العباس بن يزيد الكندي» الذي يسكن هناك

١٥ فغض الطرف

قال يهجو «الراعي النميري»، وسميت القصيدة بالدامغة، وقصصنا قصتها في مقدمة هذا الباب:

أَقِلِّي اللَّومَ عاذِلَ والعِتَابا ... وقُولِي إن أَصبْتُ لقد أصابا

أقلي (قللي) يا عاذلة من لومك، واعترفي لي بالصواب حين أقول صواباً

أَجِدَّكَ مَا تَذَكَّرُ أهلَ نجدٍ ... وحَيَّاً طالما انتَظروا الإيابا

يخاطب نفسه: أجدك يا جرير (بربّك) ألا تتذكر أهل نجد، وذلك الحي (القوم) المنتظرين عودتك. قال جرير هذه القصيدة وهو بالبصرة، ولعله فعلاً مشتاق إلى موطنه بنجد

وهاجَ الشوقُ ليلةَ أَذْرِعَاتٍ ... هَوَىً ما تستطيعُ له طِلابا

الشوق هاج (هيَّج وأيقظ) في تلك الليلة بأذرعات (درعا في حوران الشام) عشقاً مستحيلاً لا يمكنك السعي وراءه

ووجدٍ قد طَوَيْتُ يكادُ منهُ ... ضميرُ القلبِ يَلتَهبُ التِهابا

رب وجد كتمته يكاد يحرق قلبي

أَباحَتْ أمُّ حَزْرَةَ مِن فؤادي ... شِعابَ القلبِ، إنَّ له شِعابا

ولا تَمْشي اللئامُ لها بِسِرٍّ ... ولا تُهْدي لِجارتِها السِّبَابا

أَبَى لِيَ مَا مضَى لِيَ في تَميمٍ ... وفي فَرْعَيْ خُزَيْمَةَ أن أُعابا

كأنَّ بَني طُهَيَّةَ رَهْطَ سَلمى ... حِجَارَةُ خَارِئٍ يَرْمي كِلابا

بنو طهية هؤلاء ـ وكان شاعر منهم خطب ابنة عمه «سلمى» ولكن أباها زوجها من غيره فمضى إليها وقتلها ـ ناس قميئون أشكالهم عجيبة غير متناسقة، فكأنهم تلك الحجارة التي يرمي بها رجل قعد القرفصاء يقضي حاجته فنبحته كلاب واقتربت فأخذ يرشقها بها. هذه صورة جريرية اقشعرت منها أبدان بني طهيَّة كثيراً

فَلا وأبيكَ ما لاقيتَ حَيَّاً ... كيَرْبُوعٍ إذا رَفَعوا العُقَابا

لن تجد مثلنا، آل يربوع، عندما نرفع العقاب (راية الحرب)

لنا تَحتَ المَحامِلِ سَابِغاتٌ ... كنسجِ الريحِ تَطَّرِدُ الحَبابا

نرتدي دروعاً سابغة (كاسية طويلة) تبلغ إلى ما تحت محامل السيوف (مكان تعليق السيوف عند الجنب) وهي منسوجة من زَرَدٍ كأنما هي سطح الماء المتكسر وقد مرت الريح فوق جدوله وأخذت تسحب من على السطح الحباب (الفقاقيع)

وذي تـاجٍ لـه خَـرَزَاتُ مُـلْـكٍ   سلـبنَـاهُ الـسُّرادِقَ والـحِجابـا

رب ملك صاحب تاج مرصع قد سلبناه خيمته الكبيرة وستوره

أَعَـدَّ الـلّـهُ لـلـشـعـراءِ مِـنِّـي   صَـواعِـقَ يَـخْـضَـعُونَ لهـا الرِّقَابـا

قَـرَنْـتُ الـعـبدَ عـبدَ بَـنـي نُـمَـيْـرٍ   مَـعَ الـقَـيْـنَـيْـنِ إذْ غُـلِـبـا وخَـابـا

قرنت الراعي الشاعر مع القينين (الحدَّادين، وهما البعيث والفرزدق)

ألـمْ تَـرَ أنَّ جِـعْـثِـنَ وَسْـطَ سَـعْـدٍ   تُـسَـمَّـى بـعـدَ فِـضَّـتِـهـا الـرُّحَـابـا

ألست ترى يا فرزدق أن أختك «جعثن» صارت تُلقب عند بني سعد بالرُّحاب (الواسعة) بعد أن افتضها منهم ذلك الرجل عمران بن مرة. وكان هذا الرجل قد اعترض أخت الفرزدق ونزع ثوبها، فاستنجدت بقومها فهرب الرجل ولما يفعل شيئاً، ولكن جرير في مواضع كثيرة يعير الفرزدق بالحادثة ويزعم المزاعم

تَـرى بَـرَصـاً بِـمَـجْـمَـعِ أَسْـكَـتَـيْـهـا   كَـعَـنْـفَـقَـةِ الـفـرزدقِ حـيـن شـابـا

يرى المرء بمجمع (مكان التقاء) أسْكَتيها (شفري فرجها) بياضاً كأنه البرص وهو يشبه عنفقة الفرزدق (الشعر الذي تحت شفته) حين شاب

أَتَـلْـتَـمِـسُ الـسِّـبَـابَ بـنـو نُـمَـيْـرٍ   فـقـد وأبـيـهِـمُ لاقَـوْا سِـبَـابـا

أجـنـدلُ مـا تـقـولُ بـنـو نُـمـيـرٍ   إذا مـا الأبـرُ فـي اسـتِ أبـيـكَ غـابـا

ويحتاج البيت إلى نقطة في مكان ما حتى يستقيم معناه. وجندل هو ابن الشاعر المهجو، وكان قد أهان جريراً في قصة طويلة، ذكرناها في المقدمة

ولـو وُزِنَـتْ حـلـومُ بـنـي نُـمـيـرٍ   عـلـى الـمـيـزانِ مـا وَزَنَـتْ ذُبـابـا

فَـغُـضَّ الـطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُـمـيـرٍ   فَـلا كَـعـبـاً بـلـغـتَ ولا كِـلابـا

عبقرية البيت بساطته. كعب وكلاب ونمير أبناء عمومة، وكل ما فعله جرير أنه فضل كعباً وكلاباً على نمير، والمفاضلة عند القدماء هي الهجاء «المقذع»

فـيَـا عَـجـبـي أَتُـوعِـدُنـي نُـمـيـرٌ   بِـراعـي الإبْـلِ يَـحْـتَـرِشُ الـضِّـبَـابـا

أتهددني نمير بشاعرها «راعي الإبل» ـ وهذا لقبه لكثرة وصفه للإبل ـ هذا الذي يحترش الضباب (يصيد حيوان الضب مخرجاً إياه من جحره)

إذا نَـهَـضَ الـكـرامُ إلـى الـمـعـالـي   نَـهـضْـتَ بِـعُـلْـبَـةٍ وأَثَـرْتَ نَـابـا

يا راعي الإبل إذا فعل الكرام ما يكسبهم حمداً، فأنت تأخذ العلبة (قصعة من جلد أو خشب يحلبون بها) وأقمت ناباً (ناقة) باركة كي تحلبها

إذا غَـضِـبَـتْ عـلـيـكَ بَـنُـو تَـمـيـمٍ   حَـسِـبْـتَ الـنـاسَ كُـلَّـهُـمُ غِـضَـابـا

١٦ البازي والحباريات

أنا البازِي المُطِلُّ على نُمَيْرٍ ... على رَغمِ الأُنوفِ الرَّاغِمَاتِ
إذا سمِعَتْ نُميرٌ مَدَّ صَوتي ... حَسِبْتُهُمُ نِساءً مُنْصِتَاتِ
رَجَوْتُمْ يا بني وَقْبَانَ مَوْتي ... وأرجُو أن تَطولَ لكُمْ حياتي
إذا اجتَمعوا عليَّ فَخَلِّ عَنهُمْ ... وعَنْ بَازٍ يَصُكُّ حُبَارَيَاتِ

يشبه نفسه بالصقر قد انفرد بطيور الحبارى فهو يصكها صكاً قبل أن يلتقط طيراً منها ويصيده، لست على يقين إن كان الصقر يفعل هكذا، لكن جرير رأى نفسه بازياً وسط ثلاثة وأربعين شاعراً اجتمعوا عليه ينهشونه فنتف ريشهم

١٧ نخاف ثم ننسى

تُرَوِّعُنا الجَنائِزُ مُقْبِلاتٍ ... فَنَلْهُو حينَ تَذْهَبُ مدْبِراتِ
كَرَوْعَةِ هَجْمَةٍ لِمَغَارِ سَبْعٍ ... فَلَمَّا غابَ عادَتْ رَاتِعَاتِ

نخاف من الموت خوْفَة هجمة (قطيع) لمغار سبع (لإغارة سبع)، فلما انصرف عادت راتعة ترعى

١٨ رثاء الفرزدق

فَلا حمَلَتْ بعد الفرزدقِ حُرَّةٌ ... ولا ذَاتُ حَمْلٍ مِنْ نِفَاسٍ تَعَلَّتِ

لا حملت بعدك النساء، ولا تعلت (قامت سالمةً) امرأة نفساء، لأنهن لن ينجبن مثلك

هوَ الوَافِدُ المَجْبورُ، والرَّاتِقُ الثَّأَى ... إذا النَّعْلُ يوماً بِالعشيرةِ زَلَّتِ

كان الفرزدق الوافد على الملوك الذي يجبرون كسره (يعطونه مالاً لأهله)، وهو الراتق الثَّأى (الذي يصلح الخرق) عندما تزل النعل (تقع أزمة) بالعشيرة

١٩ صولة الحجاج

قلْ للجبانِ إذا تأخرَ سرجُهُ ... هل أنتَ مِنْ شَرَكِ المَنِيَّةِ نَاجِ

تأخر سرجه: إذا تأخر بحصانه في الخروج إلى القتال

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ علَيْهِمُ؟ ... أم مَنْ يصولُ كَصَوْلَةِ الحَجَّاجِ؟

من سد على المنافقين المطلع (الموضع العالي الذي يشرف منه المقاتلون على العدو)؟ ومن يصول ويهجم هجوم الحجاج؟

أم مَنْ يغارُ على النساءِ حفيظةً ... إذْ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأَزْواجِ

حفيظة: حفاظاً على الشرف

٢٠ ألستم خير من ركب المطايا؟

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

أَتَصْحُو؟ بل فؤادُكَ غيرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صحبُكَ بالرَّوَاحِ

يخاطب نفسه عشية رحيل صحبه (أهل محبوبته!)

يقولُ العَاذِلاتُ عَلاكَ شَيْبٌ. أهذا الشَّيْبُ يمنعُني مَراحي

تَعَزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ: رَأَيْتُ الوَارِدينَ ذَوِي امْتِياحِ

تعزت (وجدت العزاء والتسرية عن النفس) أم حزرة (زوجته) قائلة إنها ترى الذين يردون الخليفة ذوي امتياح (نائلين العطاء)

تُعَلِّلُ وَهْيَ سَاغِبَةٌ بَنِيها بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِمِ القَراحِ

تصبِّر أولادها وهي ساغبة (جائعة) بسقيهم أنفاساً (جرعات) من الماء الشبم (البارد) القراح (الصافي)

ثِقي بِاللَّهِ ليسَ له شَريكٌ ومِنْ عندِ الخَليفةِ بالنجاحِ

أَغِثْني، يا فِداكَ أَبي وأُمِّي، بِسَيْبٍ منكَ، إنَّكَ ذو ارْتِياحِ

السيب: العطاء. ذو ارتياح: ذو أريحية، يعطي وهو سعيد بنفس طيبة

فإنِّي قد رأيتُ عَلَيَّ حقّاً زِيارَتِيَ الخليفةَ وامتِداحي

سأشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشي وأَثْبَتَّ القَوادِمَ في جَناحي

رددت علي ريشي: أنعشتني. القوادم: الريشات الظاهرات في جناح الطير

أَلَسْتُمْ خيرَ مَنْ ركِبَ المَطَايا وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

دَعَوْتَ المُلْحِدينَ أَبَا خُبَيْبٍ جِمَاحاً، هلْ شُفِيتَ مِنَ الجِماحِ

يخاطب عبد الله بن الزبير: يا أبا خبيب لقد دعوت إليك الملحدين (الخارجين عن الدين) جماحاً (عصياناً). وكان قبيلة جرير تميل إلى ابن الزبير، وها هو يتنصل

فقد وَجَدُوا الخليفةَ هِبْرِزِيّاً أَلَفَّ العِيصِ ليس مِنَ النَّواحي

هبرزياً: خالصاً، نقي النسب. ألفَّ العيص: ذا شجر ملتفٍّ، وليس من النواحي (الفروع)

فَمَا شَجَراتُ عِيصِكَ في قُريشٍ بِعَشَّاتِ الفُروعِ ولا ضَوَاحِ

شجرات عيصك (أصلك ومنبتك) ليست عشات الفروع (متفرقة) ولا ضواحيَ (مفردة بعيدة عن الأصل).. وينظر جرير في اختيار «العيص» ومعناها «الأصل» إلى «الأعياص» وهم أولاد أمية بن عبد شمس

٢١ ترقيع الأكيار

تـقـولُ نَـوارُ فَـضَـحْـتَ الـقُـيُـونَ   فَـلَـيْـتَ الـفَـرزدقَ لـم يُـولَـدِ

تقول نوار، زوجة الفرزدق، لقد فضحت بشعرك يا جرير القيون (الحدادين) وجرير يصم الفرزدق وآباءه بأنهم اتخذوا الحدادة صنعة. وكانت نوار كارهة لزوجها لأنه تزوجها بخديعة، وهي ابنة عمه، وسعت في التخلص منه بطلاق فلم تفلح، وظلت عنده تشاكسه

وقـالـتْ بِـذي حَـوْمَـلٍ والـرِّمَـاحِ:   شَـهِـدْتَ ولَـيْـتَـكَ لـم تَـشْـهَـدِ

قالت نوار في هذين المكانين: يا فرزدق لقد كنت موجوداً، لكن لم يكن لوجودك فائدة

وفَـازَ الـفـرزدقُ بـالـكَـلْـبَـتَـيْـنِ   وعِـدْلٍ مِـنَ الـحُـمَـمِ الأَسْـوَدِ

ورث الفرزدق الكلبتين (ملقط كبير يتشل به الحديد المحمى من النار) وورث عدلاً (شوالاً، كيساً) من الحمم (الفحم) الأسود

فَـرَقِّـعْ لِـجَـدِّكَ أَكْـيَـارَهُ   وأَصـلِـحْ مَـتـاعَـكَ لا تُـفْـسِـدِ

رقع لجدك أكياره (منافيخه، وللحداد كير أي منفاخ يؤجج به الجمر)

وأَدْنِ الـعَـلَاةَ وأَدْنِ الـقَـدُومَ   ووَسِّـعْ لِـكـيـرِكَ فـي الـمَـقْـعَـدِ

العلاة: السَّندان

قَرَنْتُ البَعيثَ إلى ذي الصَّلِيبِ   معَ القَيْنِ في المَرَسِ المُحْصَدِ

في هجائي جمعت بين البعيث المجاشعي (من قوم الفرزدق) وبين ذي الصليب (الأخطل المسيحي)، مع القين (الحداد، يعني الفرزدق) في مرس محصد (حبل مفتول)

٢٢ حفيد الفاروق

إليكَ رَحَلْتُ يا عُمَرَ بنَ ليلَى   على ثقةٍ أزورُكَ، واعتِمَادا

عمر بن ليلى: عمر بن عبد العزيز وأمه ليلى حفيدة عمر بن الخطاب

إلى الفاروقِ ينتسِبُ ابنُ ليلى   ومَرْوانَ الذي رَفَعَ العِمَادا

مروان بن الحكم: جد عمر بن عبد العزيز لأبيه

٢٣ جزاكم الله خيراً

قال وقد مرض وعاده ناس:

نَفْسي الفِداءُ لِقومٍ زَيَّنُوا حَسَبي   وإنْ مَرِضْتُ فَهُمْ أَهلي وعُوَّادي

إنْ تَجْرِ طَيْرٌ بأمْرٍ فيهِ عَافِيَةٌ أو بِالفراقِ، فقد أحْسَنْتُمْ زَادي

إن جرت الطير (أي الفأل) بأن أقوم من مرضي، أو بأن أفارق الدنيا، فعلى كل حال زودتموني زاداً طيباً بزيارتي

٢٤ أذكر تميماً

أَلَا حَيِّ رَبْعاً بِاللِّوى ذَكَرَ العَهْدا مَحَتْهُ الصَّبا جَرَّ اليَمَانِيَّةِ البُرْدا

حيِّ يا صاحبي هذا الموضع الذي ما زالت فيه ذكرى عهدنا مع الأحباب، لقد محته ريح الصبا مثلما تجر اليمانية (الفتاة اللابسة البُرد اليماني) بردها فهي بنت عز تلبس الثوب الكاسي الطويل وتجره جراً على الأرض. وقد رأى شارح هذا الشعر في بلاد العرب بالخليج فتيات يلبسن المسوح الكاسية يجررنها على الأرض وراءهن، وكان يقول لهن في عقله: يا حبيباتي ألا قصرتن برودكن قليلاً، أم أنكن تردن إخفاء الكعوب التي تجعلكن طويلات

لِهِنْدٍ، ولو أنَّ المقيمينَ بعدَها أرادُوا فِراقاً لم أجِدْ لَهُمْ فَقْدا

هذا العهد هو لهند، فأما من أقاموا بالربع بعد رحيلها فلا يهمنا أقاموا أم رحلوا

إذا ذَكَرتْ نفسي تَميماً تَذَكَّرَتْ أموراً تُنَسِّيني الضَغائِنَ والحِقْدا

يفخر بقبيله

فكيفَ تقولُ السَّيْفُ يُحمَلُ نصْلُهُ إذا فارقَ السيفُ المحاملَ والغِمْدا

فالسيف لا يحمل نصله وحده، لا بد له من محامل (سيور وعِلاقات يعلق بها) ولا بد له من غمد، وكذا الفرد لا بد له من قوم حتى يكون فاعلاً

شَكَوْنا إلى سُعْدَى جَوىً وصَبَابَةً وما كُلُّ مَا في النَّفسِ تُخْبَرُهُ سُعْدَى

ما أكثر ما كان الشعراء يغيرون اسم المحبوبة في وسط القصيدة. قال ذلك المزارع الهولندي، ونقل عنه أبراهام لنكولن: «لا تبدل حصانك وأنت تعبر الجدول»

٢٥ ناس بلا قلوب

وَجَدْنا الأَزْدَ أكرَمَكُمْ جِواراً وَأَوْرَاكُمْ إذا قَدَحُوا زِنادا

أوراكم: أشدكم اشتعالاً، الزناد: حجر النار

ولو فَرَّجْتَ قَصَّ مُجَاشِعِيٍّ لِتَنْظُرَ ما وجدتَ له فؤادا

فرجت القص: فتحت عظام الصدر، ومن لا قلب له هو الجبان. ومجاشع قوم الفرزدق

ولو وازَنْتَ لُؤْمَ مُجَاشِعِيٍّ بِلُؤْمِ الخلقِ أَضْعَفَ ثم زَادا

لؤمه يزيد عن ضِعفِ لؤم البشرية

٢٦ حببتموني بالحياة

قال لهشام بن عبد الملك:

وأَعْـلَـمُ أنَّ إِذْنَـكُـمُ نَـجَـاحٌ   وأَنِّـي إِنْ بـلـغْـتُـكُـمُ سـعـيـدُ

مجرد منحكم الإذن بالدخول عليكم نجاح لمسعاي

تَـزيـدونَ الـحـيـاةَ إِلَـيَّ حُـبّـاً   وذِكْـرٌ مِـنْ حِـبـائِـكُـمُ حَـمـيـدُ

تحببون إلي الحياة، ويأتيني ذكر، أي سمعة حسنة بسبب حبائكم، أي عطائكم، لأنني أعطي قومي مما أعطيتموني فيشكرون

٢٧ تدمير

قال يمدح معاوية بن هشام بن عبد الملك:

لقد عَلِمْتُ وما أُخبِرْتُ مِنْ أَحَدٍ   أنَّ الـهـوى بِنَقَا يَبْرِينَ مُعْتَادي

الـلَّـهُ دَمَّـرَ عَـبَّـاداً وشِـيـعَـتَـهُ   عَـاداتُ رَبِّـكَ فـي أَمـثـالِ عَـبَّـادِ

يشمت بعبَّاد الجحافي، وقد خرج على الخلافة باليمن فقتل

مَـنْ يَـهْـدِهِ الـلَّـهُ يَـهْـتَـدْ لا مُـضِـلَّ لـهُ   ومَـنْ أَضَـلَّ فـمـا يَـهـدِيـهِ مِـنْ هَـادِ

لاقَوْا بُعُوثَ أميرِ المؤمنينَ لَهُمْ   كالريحِ إِذْ بُعِثَتْ نَحْساً على عَادِ

فـيـهِـمْ مَـلائـكـةُ الـرحـمـنِ مـا لَـهُـمُ   سوى التوكُّلِ والتسبيحِ مِنْ زَادِ

كانت الملائكة تقاتل مع جيش الخلافة، وكما تعلمون فهؤلاء الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، فقط يتوكلون على الله ويسبحون

٢٨ فعلها أو يكاد

لَعَمْري لقد أَشفقتُ من شَرِّ نظرةٍ   تَقودُ الهوى مِنْ «رَامَةٍ» ويقودُها

خفق قلبي إشفاقاً على نفسي من شر هذه النظرة إلى الحبيبة، فهي نظرة تأتي بالهوى، والهوى يقودني ويقود نظراتي.. شيء من هذا القبيل

ولو صَرَمَتْ حَبلي أُمَامَةُ تبتغي   زيادةَ حُبٍّ لم أَجِدْ ما أَزيدُها

إذا مِتُّ فانعَيْنِي لأَضيافِ ليلةٍ   تَنَزَّلَ مِنْ صُلْبِ السماءِ جليدُها

إذا مت فأبلغي خبري ضيوف الليلة الباردة التي ينزل فيها البَرَد، يقول إنه كريم وسيحزن الضيوف لموته

متَى تَرَ وَجْهَ التَّغْلِبيِّ تَقُلْ لهُ   أَتَى وَجْهُ هَذا سَوْأَةً أو يُرِيدُها

إذا لم يصلك ما في الشطر الثاني من طرافة وقوة فاقرأه ثانية. ترى في معاشك شخصاً كَزَّ الوجه متقبضاً رافعاً أنفه كأنما شم لتوه غائطاً، فتقول: هذا الشخص قد ارتكب فاحشة أو أنه سيرتكبها قريباً

٢٩ شبيه عروة

باتَتْ هُمومي تَغَشَّاها طَوارِقُها   مِنْ خوفِ رَوْعَةِ بَيْنِ الظَّاعِنينَ غَدا

باتت همومي العادية تغشاها (تزورها) طوارقها (مصائبها) كلما انتابني الخوف من روعة (ارتياع) بين (فراق) الظاعنين (الراحلين). المعنى الملموح: أتذكر أنهم سيرحلون غداً فتتضاعف همومي

هل أنتِ شافِيَةٌ قَلباً يَهيمُ بِكُمْ   لم يَلْقَ عُرْوَةُ مِنْ عَفْراءَ ما وَجَدَا

عروة حبيب عفراء، ومات عشقاً

٣٠ غابوا أم حضروا

فَأَنْشِدْ يا فرزدقُ غَيْرَ عالٍ   فقَبْلَ اليومِ جَدَّعَكَ النَّشيدُ

اخفض صوتك، فقبل اليوم كنت قد غلبت في إنشاد الشعر وجُدِعَ أنفك (أُهنت)

خرجتَ مِنَ المدينةِ غيرَ عَفٍّ   وقامَ عليكَ بالحَرَمِ الشُّهودُ

كان الوالي أخرج الفرزدق عن المدينة المنورة لما فعل هناك من موبقات

تَحِبُّكَ يومَ عيدِهِمُ النَّصارَى   ويومَ السبتِ شيعَتُكَ اليهودُ
أَزَيْدَ مَناةَ تُوعِدُ يا ابنَ تَيْمٍ؟   تَبَيَّنْ أَيْنَ تاهَ بِكَ الوَعيدُ

يتحول إلى هجاء التيم، وكان يشتبك مع شاعرهم عمر بن لجأ

أَتُوعِدُنَا وتَمْنَعُ ما أَرَدْنا   ونَأْخُذُ مِنْ وَرائِكَ ما نُريدُ
ويُقضَى الأَمرُ حين تَغيبُ تَيْمٌ   ولا يُسْتَأْمَرُونَ وهُمْ شُهُودُ
ولا حَسَبٌ فَخَرْتَ بِهِ كَريمٌ   ولا جَدٌّ إذا ازْدَحَمَ الجُدودُ
لِئَامُ العالَمِينَ كِرامُ تَيْمٍ   وسَيِّدُهُمْ وإن رَغِمُوا مَسُودُ
وإنَّكَ لو لَقِيتَ عبيدَ تَيْمٍ   وتَيْماً قُلْتَ أَيُّهُمُ العبيدُ
أَرى لَيْلاً يُخالِفُهُ نهارٌ   ولُؤْمُ التَّيْمِ ما اختَلَفا جديدُ

يختلف الليل والنهار ويمضي الزمن، ولؤم تيم يتجدد ما دام هناك ليل ونهار، أي أنه أبدي

تَـمَـنَّـى الـتَّـيْـمُ أنَّ أبَـاهُ سَـعْـدٌ ... فـلا سَـعْـدٌ أبُـوهُ ولا سَـعِـيـدُ

التيم هنا جد قبيلة التيم

وإنَّ الـتَّـيْـمَ قـد خَـبُـثُـوا وقَـلُّـوا ... فـمـا طَـابُـوا ولا كَـثُـرَ الـعَـدِيـدُ

كانت قلة العدد مما يهجى به الأقوام

ثـلاثُ عـجَـائـزٍ لَـهُـمُ وكَـلْـبٌ ... وأشْـيَـاخٌ عـلـى ثُـلَـلٍ قُـعُـودُ

الثلل: أكوام الحجارة والرمل

أتَـرْجُـو أن تُـسَـابِـقَ سَـعْـيَ قـومٍ ... هُـمُ سـبَـقُـوا أبـاكَ وَهُـمْ قُـعُـودُ

فـقـد سَـلَـبَـتْ عَـصـاكَ بَـنُـو تـمـيـمٍ ... فـمـا تَـدري بِـأيِّ عَـصـاً تَـذُودُ

تميم سلبتكم المجد والقوة

إذا تَـيْـمٌ ثَـوَتْ بِـصَـعِـيـدِ أرْضٍ ... بَـكَـى مِـنْ خُـبْـثِ رِيـحِـهِـمُ الصعيدُ

ثوى: مكث، صعيد: تراب

إذا مـا قُـرِّبَ الـشُّـهَـداءُ يـومـاً ... فـمـا لـلـتَّـيْـمِ يـومَـئـذٍ شـهـيـدُ

٣١ هات اليوم وهات غداً

قال يمدح الأمير معاوية بن هشام بن عبد الملك:

يـا ابنَ الـخـليـفـةِ يـا مُـعَـاوِيَ إنَّـنـي ... أرجـو فُـضُـولَـكَ فـاتَّـخِـذْ عِـنـدي يَـدا

فضولك: فضلك، اتخذ عندي يدا: اصنع بي معروفاً أحفظه لك

إنَّـا لَـنَـأْمُـلُ مِـنْـكَ سَـيْـبـاً عـاجِـلاً ... يـا ابنَ الـخـليـفـةِ، ثـم نرجوكُمْ غَدا

٣٢ أصحاب الخنزير

رَهْـطُ الفرزدقِ مِـنْ نَـصارَى تَـغْـلِـبٍ ... أو يَـدَّعـي كَـذِبـاً دَعـاوَةَ زُورِ

حُـجُّـوا الـصَّـلِـيـبَ وقَـرِّبُـوا قـربـانَـكُـمْ ... وخُـذُوا نـصـيـبَـكُـمْ مِـنَ الـخِـنْـزِيـرِ

٣٣ رثاء خالدة

قال يرثي زوجته:

لـولا الـحـيـاءُ لَـهَـاجَـنـي اسْـتِـعْـبَـارُ ... ولَـزُرْتُ قـبـرَكِ والـحـبـيـبُ يُـزارُ

هاجني استعبار: غلبني البكاء

ولقد نظرتُ، وما تَمتُّعُ نظرةٍ   في اللَّحْدِ حيث تَمَكَّنَ المِحْفَارُ

المحفار: الفأس

فَجزاكِ ربُّكِ في عَشيرِكِ نظرةً   وسقَى صَداكِ مُجَلْجِلٌ مِدرَارُ

لينظر إليك الله نظرة رحمة جزاء ما قدمت لزوجك وليسق صداك (جثمانك) مطر مجلجل (صاحب برعوده) مدرار (غزير)

وَلَّهتِ قَلبي إذْ عَلَتْنِيَ كَبْرَةٌ   وذَوو التَّمائِمِ مِنْ بَنيكِ صِغارُ

ذوو التمائم: مَن عليهم القلائد التي فيها الحجب أو الخرزات، وكانوا يعلقونها في رقاب الصبية درءاً للشر عنهم

كانتْ مُكَرَّمَةَ العَشيرِ ولم يكنْ   يَخشَى غَوائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ

غوائل: شرور

ولقد أراكِ كُسِيتِ أجملَ منظرٍ   ومع الجَمالِ سكينةٌ ووَقَارُ

والرِّيحُ طَيِّبةٌ إذا استَقْبَلْتُها   والعِرْضُ لا دَنِسٌ ولا خَوَّارُ

إذا واجهْتُكِ فرائحتك طيبة، وعرضك نقي غير خوار (ضعيف)

وإذا سَريتُ رأيتُ نَارَكِ نَوَّرَتْ   وَجْهاً أَغَرَّ يَزينُهُ الإسْفَارُ

أسري ليلاً فأراك أوقدت ناراً للضيوف، والنار تنور وجهك الأغر (الأبيض) السافر

صَلَّى الملائكةُ الذين تُخُيِّرُوا   والصالحونَ عليكِ والأبرارُ

لا يلبثُ القُرَناءُ أن يتفرَّقُوا   ليلٌ يَكُرُّ عليْهِمُ ونهارُ

كانت إذا هجرَ الحليلُ فِراشَها   خُزِنَ الحديثُ وعَفَّتِ الأسرارُ

حَدْرَاءُ أَنْكَرَتِ القُيونَ وريحَهُمْ   والحُرُّ يمنعُ ضَيمَهُ الإنكارُ

ينتقل إلى هجاء الفرزدق، فخطيبته حدراء أنكرت (استهجنت) القيون (قومه الحدادين) وما ينبعث من رائحة عندهم. والإنسان الحر عندما ينكر شيئاً فهذا الإنكار يحول بينه وبين قبول الظلم

لمَّا رأَتْ صَدَأَ الحديدِ بجلدِهِ   فاللونُ أوْرَقُ والبَنانُ قِصارُ

قد أنكرته حدراء لما رأت صدأ الحديد عليه، وأنكرت لون جلده الأورق (بين بياض وسواد)، وأصابعه القصار

قَالَ الفرزدقُ رَقِّعي أكيارَنا   قَالتْ: وكيفَ تُرَقَّعُ الأكيارُ

الكير: منفاخ الحداد

رَقِّـعْ مَـتَـاعَـكَ، إنَّ جَـدِّي خَـالِـدٌ   والـقَـيْـنُ جَـدُّكَ لـم تَـلِـدْكَ نِـزارُ

تفخر بجدها، وتقول للفرزدق: جدك قين (حداد) ولست من أبناء نزار (أبي عرب الشمال)

قد كان قومُكَ يَحسَبُونَكَ شاعراً   حـتـى غَـرِقْـتَ وضَـمَّـكَ الـتـيَّـارُ

لا يَـخـفَـيَـنَّ عـلـيـكَ أَنَّ مـجـاشـعـاً   لـو يُـنـفَـخـونَ مِـنَ الـخُـؤُورِ لَـطَـاروا

الخؤور: الفراغ، ضده الصلادة

قد يُؤْسَرُونَ فما يُفَكُّ أَسيرُهُمْ   ويُـقَـتَّـلـونَ فَـتَـسْـلَـمَ الأَوْتَـارُ

تسلم الأوتار: لا يؤخذ لهم بثأر لضعفهم

٣٤ نشور مبكر

قال يهجو التيم:

فَـلَـوْ غـيرُ تَـيْـمٍ يَـفـخـرونَ عَـذَرْتُـهُـمْ   أَتَيْمُ ابْنَ تَيْمِ اللُّؤْمِ! يا سَوْأَةَ الدَّهرِ

ولـو يُـدفَـنُ الـتَّـيْـمِـيُّ ثـم دَعَـوْتَـهُ   إلى فَضلِ زادٍ جاءَ يسعى من القبرِ

ولا يـحْـتَـبـي الـتَّـيْـمِـيُّ قُـدَّامَ بـيـتِـه   ولا يَسْتُرُ التَّيْمِيُّ إلَّا على القِدْرِ

الاحتباء أن يجمع المرء ركبتيه إلى ظهره بشال أو نحوه، فيجلس كأنه متّكئ، والسادة يحتبون أمام خيامهم يستقبلون الأضياف، ويسترون حريمهم، لكنهم لا يسترون القدر الكبيرة التي تغلي باللحم خارج الخيمة

ونُـبِّـئْـتُ تـيـمـاً قـد هَـجَـوْنِـي لِـيُـذْكَـرُوا   فـهـذا الـذي لا يـشـتـهـونَ مِـنَ الـذِّكْـرِ

٣٥ المنجنيق

يـا أَهـلَ جُـزْرَةَ لا حِـلْـمٌ فـيـنـفَـعَـكُـمْ   أو تَـنـتَـهـونَ فَـيُـنـجـي الـخَـائـفَ الـحَـذَرُ

يخاطب بني العنبر مو أهل «جزرة» في اليمامة: لن ينفعكم حلمي، فلن أكون حليماً معكم، والحل أن تكفوا عن التعرض لي خوفاً، ففي هذا نجاتكم

يا أهلَ جُزْرَةَ إنِّي قد نَصبْتُ لَكُمْ   بِـالـمَـنْـجَـنِـيـقِ ولـمَّـا يُـرسَـلِ الـحَـجَـرُ

٣٦ متدبرون لا مدبرون

وإنَّ الـذي أعـطـى الـخـلافـةَ أهـلَـهـا   بَـنَـى لِـيَ فـي قـيـسٍ وخِـنْـدِفَ مَـفْـخَـرا

أهلها: مستحقوها، وهم بنو أمية حينذاك

مَـنـابِـرَ مُـلْـكٍ كـلُّـهـا مُـضَـرِيَّـةٌ   يُـصَـلِّـي عـلـيـنـا مَـنْ أَعَـرْنَـاهُ مِـنْـبَـرا

في قيس وخندف ملوك، وهم جميعاً من مضر، (الملك في لغة ذلك العصر الزعيم الذي يتولى ناحية، وقد يكون حكمه وراثياً وقد لا يكون)، وهؤلاء الذين نصبناهم ملوكاً يصلون (يحمدون) القبيلتين اللتين بسواعد رجالهما يقوم الملك

لقد كنتُ يا ابنَ القينِ ذا خِبرةٍ بِكُمْ   وعوفُ أبو قيسٍ بكـمْ كـان أَخْبَـرا

وكان عوف هذا قتل من آل الفرزدق رجلاً في القديم

فلا تتَّقونَ الشرَّ حتى يُصيبَكُـمْ   ولا تـعـرفـون الأمـرَ إلا تَـدَبُّـرا

تدبراً: بعد أن يدبر وينتهي

أَلا قَـبَـحَ الـلَّـهُ الـفـرزدقَ كـلَّـمـا   أَهَـلَّ مُـصَـلٌّ لـلـصـلاةِ وكَـبَّـرا
فلا يَقْرَبَنَّ الـمَرْوَتَيْنِ ولا الـصَّفَا   ولا مسجدَ اللَّهِ الحرامَ المطهَّرا

فالفرزدق يقر في شعره بالزنا والكبائر، وقد أُجلي فعلاً عن المدينة

فإنَّكَ لـو تُـعـطـي الـفـرزدقَ درهـمـاً   عـلـى دِيـنِ نَـصـرانِـيَّـةٍ لَـتَـنَـصَّـرا

٣٧ الضاحكون إلى الخنزير

خابتْ بنو تغلِبٍ إذ ضَلَّ فارِطُهُمْ   حوضَ المكارمِ، إن المجدَ مُبْتَدَرُ

فارطهم (رائدهم الذي يسبقهم كي يبحث عن مواضع العشب والماء) تاه عن حوض المكارم، والناس يتسابقون لتحصيل المجد

الظاعنونَ على العَمْياءِ إن ظَعنوا   والسائلون بِظَهرِ الغيبِ ما الخبرُ

لا تدبير عندهم فهم لا يرحلون بتخطيط لكي يردوا عشباً وماءً بل يرحلون على العمياء (عشوائياً)، وليس عندهم في قبيلتهم جهاز استخباري محكم، فهم لذلك يسألون عما حدث سؤال جاهل

إني رأيتُكُمُ ـ والحقُّ مَغْضَبَةٌ ـ   تَخْزَوْنَ أنْ يُذْكَرَ الجَحَّافُ أو زُفَرُ

يخزيكم ذكر هذين الفارسين اللذين أوقعا بتغلب وقتلا الكثيرين منها

قَادُوا إِليكُمْ صُدورَ الخيلِ مُعْلَمَةً   تَغْشَى الطِّعانَ وفي أعطافِها زَوَرُ

المعلمة: التي عليها شارة الحرب (كانوا يضعون صوفاً أحمر أو أبيض على الفرس عند الحرب)، تغشى الطعان: تأتي مكان المطاعنة بالرماح، وأعطافها (جوانبها) فيها زور (ميلان)

كانتْ وقَائِعُ قُلْنا لَنْ يُرَى أبداً   مِنْ تغلِبٍ بعدَها عينٌ ولا أثَرُ
حتَّى سَمعْتُ بِخِنزيرٍ ضَغَا جَزَعاً   منهُمْ فقلتُ: أَرَى الأمواتَ قد نُشِرُوا

سمعت خنزيراً منهم ضغا (صاح) فقلت: قد نشر (قام) الأموات

أَحـيـاؤُهُـمْ شَـرُّ أحـيـاءٍ وأَلْأَمُـهُ ... والأرضُ تَلْفِظُ مَوْتاهُـمْ إذا قُبِروا
رِجْسٌ يكونُ إذا صَلَّوْا، أَذانُـهُـمُ ... قَرْعُ النَّواقيسِ لا يَدْرُونَ ما السُّوَرُ
فَما مَنَعتُمْ غَداةَ «البِشْرِ» نِسْوَتَكُمْ ... ولا صَبرتُمْ لِقَيْسٍ مِثْلَما صَبَروا
نَرضَى عنِ اللَّهِ أنَّ الناسَ قد عَلِمُوا ... أنْ لـنْ يفاخِرَنا مِنْ خَلْقِهِ بَشَرُ

نرضى: نحمد

ومَا لِتَغْلِبَ إنْ عَدَّتْ مَساعِيَها ... نجمٌ يُضِيءُ ولا شمسٌ ولا قمرُ
الضَّاحِكِينَ إلى الخِنزيرِ شَهوَتَهُ ... يا قُبِّحَتْ تلكَ أفواهاً إذا اكْتَشَروا

شهوته: اشتهاءً له

والمُقْرِعِينَ على الخِنزيرِ مَيْسِرَهُمْ ... بِئْسَ الجَزُورُ وبئسَ القومُ إذ يَسَرُوا

بدلاً من الاقتراع على ناقة يقتسمون لحمها، كما كانت العرب تفعل، يقترعون على خنزير، **فهذا** ميسرهم (قمارهم)

والتَّغلِبِيُّ لئيمٌ حيثُ تَجهَرُهُ ... والتَّغلِبِيُّ لئيمٌ حيثُ يُختَبَرُ

تجهره: تحادثه لتسبر غوره

والتَّغلِبِيُّ إذا تَمَّتْ مروءَتُهُ ... عبدٌ يَسوقُ رِكابَ القومِ مُؤْتَجَرُ
نِسوانُ تغلِبَ لا حِلْمٌ ولا حَسَبٌ ... ولا جَمالٌ ولا دِينٌ ولا خَفَرُ

خفر: حياء

والتَّغْلِبيَّةُ في ثِنيَيْ عباءَتِها ... بَظْرٌ طَويلٌ وفي بَاعِ ابنِها قِصَرُ

قصير الباع: المقصر عن المكارم

ما كانَ يَرضَى رسولُ اللَّهِ دينَهُمُ ... والطَّيِّبَانِ أبو بَكرٍ ولا عمرُ
جاء الرسولُ بِدِينِ الحقِّ فانْتَكَثُوا ... وهل يَضيرُ رسولَ اللَّهِ أنْ كَفَرُوا

انتكثوا: أبطلوا العهد

يا خُزْرَ تغلبَ إن اللؤْمَ حَالَفَكُمْ ... ما دامَ في مَارِدِينَ الزَّيْتُ يُعْتَصَرُ

خزر تغلب= تغلب الخزر (ذوو العيون الضيقة)، ماردين: بلد في جنوب تركيا على الحدود مع سوريا، واليوم يعصرون بها السمسم ويستخرجون زيته، فاللؤم ـ على هذا ـ مستمر في تغلب!

قالَ الكرامُ تَنَحَّوْا إنَّكُمْ نَجَسٌ ... أَفواهُ تَغْلِبَ أَسْتَاهٌ بِها وَضَرُ

أستاه: جمع است وهو فتحة الشرج، وضر: وسخ

٣٨ صابرون.. ولكن

قال في هجاء ربيعة، ويذكر مالك بن حنظلة بن مالك:

أقولُ، وذَاكُمْ لِلعَجيبِ الذي أرى: أَمَالِ بْنَ مَالٍ مَا ربيعةُ والفَخرُ!

أمال بن مال: يا مالك بن مالك

يُحَالِفُهُمْ فَقْرٌ قديمٌ وذِلَّةٌ وبئسَ الحَليفانِ المَذَلَّةُ والفقرُ

فَصَبراً على ذُلٍّ رَبيعَ بنَ مَالِكٍ وكُلُّ ذَليلٍ خيرُ عادَتِهِ الصبرُ

٣٩ المداواة بالسم

ودَاوَيْتُ مِنْ عَرٍّ الفرزدقِ نُقبَةً بِنَفْطٍ فأَمْسَتْ لا يُخَافُ نُشُورُها

العر: الجرب، نقبة: بقعة، النفط: القار، وبه كانوا يداوون الجرب، نشورها: انتشارها

وأَنْهَلْتُهُ بالسُّمِّ ثمَّ عَلَلْتُهُ بِكأسٍ مِنَ الذَّيْفَانِ مُرٌّ عصيرُها

أنهلته: سقيته أولاً، عللته: سقيته ثانياً، الذيفان: الصبر المر

رأيتُكَ لم تَعْقِدْ حِفَاظاً ولا حِجَىً ولكنْ مواخيراً تُؤَدَّى أُجورُها

الحفاظ: المحافظة على الشرف، الحجى: العقل، المواخير: بيوت الدعارة

أثرْتُ عليكَ المُخزياتِ، ولم يَكُنْ لِيَعْدَمَ جانِي سَوْأَةٍ مَنْ يُثِيرُها

لقد نبَّهتُ على أفعالك المخزية، ولا يعدَم جاني السوأة (مكتسب العار) من يفضحه

٤٠ الخلافة قدره

قال يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنَّا لنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخلَفَنا مِنَ الخليفةِ ما نرجُو من المطرِ

إن فاتنا غيث (مطر) السماء نرجو من الخليفة أن يعوضنا

يا رُبَّ سَجْلٍ مُغيثٍ قد نَفَحْتَ به من نائلٍ غيرِ منزوحٍ ولا كَدِرِ

ربَّ سجل (دلو عظيمة) من نائلك (عطائك) قد نفحتنا به (أعطيتنا إياه) وهو غير منزوح (ناقص)

أَأَذْكُرُ الجَهْدَ والبَلْوَى التي نزلتْ أم قد كفاني الذي بُلِّغْتَ من خبري

كم بِالمواسِمِ من شَعثاءَ أَرْمَلَةٍ ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ

ترى الكثيرين في المواسم (الأسواق) من الأرامل الشعث (ذوات الهيئة الزرية المغبرة) ومن اليتامى الذين أنهكهم الجوع

مِـمَّـنْ يَـعُـدُّكَ تـكـفـيـ فَـقْـدَ والِـدِهِ   كالفرخِ في العُشِّ لم يَدْرُجْ ولم يَطِرِ

يتيم كهذا يعدك بدلاً عن والد فقده، وهو كفرخ الطائر، لم يطر بعد ولا حتى درج على الأرض

أنـتَ الـمـبـاركُ والـمـهـديُّ سيـرتُـهُ   تَعصِي الهوى وتَقومُ الليلَ بالسُّوَرِ

نـالَ الـخِـلافَـةَ إذ كـانـتْ لـه قَـدَراً   كـمـا أتَـى ربَّـه مـوسـى عـلـى قَـدَرِ

وكان عمر بن عبد العزيز نال الخلافة بوصية مكتومة من سليمان بن عبد الملك، وفوجئ بنو أمية باختيار عمر للخلافة مثلما فوجئ موسى بربه يكلمه على الطور

٤١ وقوف واستيقاف

لقد طَرَفَتْ عيْنَيَّ في الدارِ دِمْنَةٌ   تَعاوَرَهَا الأزمانُ والريحُ والقَطْرُ

أصابت عينيَّ بقذى دمنة (خربة) هي أطلال الديار، وقد تعاورتها الأزمان (تبادلتها) بالريح والقطر (المطر) مما أسرع في امِّحاء آثارها

فـقـلـتُ لأَدنَـى صَـاحِـبَـيَّ وإِنَّـنـي   لأَكْتُمُ وَجْداً في الجوانحِ كالجمرِ

لَـعَـمْـرُكُـمـا لا تَـعْـجَـلا إنَّ مَـوْقـفـاً   على الدارِ فيه القتلُ أو راحةُ الدهرِ

وقوفي على دار الحبيبة مهم جداً، فإما أن أموت شوقاً، أو أن أنفِّس عما في داخلي فأستريح

فـلِـلَّـهِ مـاذا هـيَّـجَـتْ مـن صَـبـابَـةٍ   على هالِكٍ يَهذي بِهندٍ وما يَدري

طَوى حَزَناً في القلبِ حتَّى كأنما   به نَفْثُ سِحْرٍ أو أَشَدُّ من السِّحْرِ

٤٢ الراحل بفضيحة

وهـل كـان الـفـرزدقُ غـيـرَ قِـرْدٍ   أصـابَـتْـهُ الـصَّـواعِـقُ فـاسـتَـدارا

وكـنـتَ إذا حَـلَـلْـتَ بِـدارِ قَـومٍ   رَحَـلْـتَ بِـخِـزْيَـةٍ وتـركـتَ عـارا

٤٣ هدايا متتالية

يـا تَـيْـمُ تـيـمَ عَـدِيٍّ لا أَبَـالَـكُـمُ   لا يُـوقِـعَـنَّـكُـمُ فـي سَـوْأَةٍ عُـمَـرُ

لا أبا لكم (هُديتم) يا تيم، لا تتركوا شاعركم عمر بن لجأ يجلب عليكم العار

قد خِفْتُ يا ابنَ التي ماتَتْ مُنافِقَةً   من خبثِ بَرْزَةَ أن لا ينزِلَ المطرُ

خفنا من نفاق أمك «برزة» وخبثها أن يحبس الله المطر عنا

أَخْزَيْتَ تَيْماً وما تَحمي مَحارِمَها إذ أنتَ نَفَّاخَةٌ لِلقَيْنِ مُؤْتَجَرُ

أخزيت يا «عمر» قبيلتك تيماً بدل أن تحمي حماها، فأنت قد عملت عند الفرزدق القين (الحداد) نفاخةً (تنفخ على جمره بالمنفاخ)

إنّي لَمُهْدٍ لَكُمْ غُرّاً مُقَشَّبَةً فيها السَّمَامُ وأُخرى بعدُ تُنْتَظَرُ

سأهديكم قصائد غراً (بديعة) مقشبة (جديدة) فيها السم، وستتلوها قصائد

لا تُنْكِرُ التَّيْمُ يوماً أنْ يكونَ لَهُمْ سُؤْرُ العَشِيِّ وشُرْبُ التَّابِعِ الكَدِرُ

التيم ترضى بسؤر العشي (ورود الماء مع إبلهم مساء وشرب السؤر.. البقية في القعر) وشرب التابع الكدر (وشرب بواقي المياه من الحوض وتكون كدرة)

تُخْزِيكَ أحياءُ تَيْمٍ إن فَخَرْتَ بِهِمْ والخِزْيُ أمواتُ تَيْمٍ إنْ هُمُ نُشِرُوا

٤٤ سادتهم على كل حال

إنَّا تُفَضَّلُ في الحياةِ حياتُنا ونَسودُ مَنْ دَخَلَ القبورَ قُبورَا

اللَّهُ فضَّلَنا وأَخْزَى تَغلباً لن تستطيعَ لِمَا قَضَى تغييرا

فينا المساجدُ والإمامُ ولا تَرى في دارِ تغلبَ مسجداً مَعمُورا

تَلقَى إذا اجتمعَ الكرامُ بموطنٍ أشرافَ تغلبَ سائلاً وأجيرا

الجاعِلِينَ لِمَارِ سَرْجِسَ حَجَّهُمْ وحجيجُ مَكَّةَ يُكْثِرُ التَّكبيرا

٤٥ فيم يشتمونني؟

يهجو سراقة البارقي وقومه:

يا صاحِبَيَّ هل الصباحُ مُنيرُ أم هل لِلَومِ عواذلِي تَفْتيرُ

تفتير: تقليل

عاداتُ قلبِكَ حينَ خَفَّ به الهوى لولا تُسَكِّنُهُ لَكادَ يَطيرُ

بِشْرٌ أبو مَروانَ إن عَاسَرْتَهُ عَسِرٌ وعندَ يَسارِهِ مَيْسُورُ

بشر والي الكوفة لأخيه عبد الملك كان يقرب الشعراء ويعبث بهم ويغري بعضهم ببعض، ويعطيهم..

قد كان حَقُّكَ أن تقولَ لِبارقٍ: يا آلَ بارِقَ فيمَ سُبَّ جريرُ

.. وكان الأمير بشر مسروراً بالمهاجاة بين سراقة البارقي وجرير، وجرير يقول له: كان يجب عليك أن تسأل آل بارق «لأي سبب سب شاعرهم جريراً»

أَسُراقَ إِنَّكَ قد غَشِيتَ بِبارِقٍ أمراً مَطالِعُهُ عليكَ وُعُورُ
يا سراقة لقد غشيت ببارق (قدمت بقومك) أمراً مطالعه (طرقه) عليك مليئة بالوعور

يا آلَ بارِقَ لو تقَدَّمَ ناصِحٌ لِلبَارِقِيِّ فإنَّه مَغرورُ
هلّا كنتم نصحتم لأخيكم قبل إقدامه على هجائي فهو مغرور (مغرر به، وواهم)

كالسَّامِرِيِّ غَدَاةَ ضَلَّ بِقَوْمِه والعِجْلُ يُعْكَفُ حولَه، ويَخُورُ
فهو مثل السامري الذي أضل قومه في التيه وجعلهم يعبدون عجلاً من الذهب مفتوحاً من فمه ومؤخرته ويصدر من مرور الهواء بداخله خواراً

تُؤْتَى الكِرامُ مُهورَهُنَّ سِيَاقَةً ونِساءُ بارِقَ ما لَهُنَّ مُهورُ
بنات الكرام تساق إليهن الإبل مهوراً

إنَّ المَلامَةَ والمَذَلَّةَ فاعلَمُوا قَدَرٌ لأَوَّلِ بَارِقٍ مَقْدُورُ
أول بارق: أسلاف البارقيين

أَسُرَاقَ إنكَ لو تُفَاضِلُ خِنْدِفاً بَثَقَتْ عليكَ مِنَ الفُراتِ بُحورُ
بثقت: تدفقت، وخندف: الشعب الكبير الذي منه تميم

٤٦ شماتة بميت

يهجو الأخطل، أبا مالك، بعد موته:

وزارَ القبورَ أبو مَالِكٍ فكانَ كَأَلْأَمِ زُوَّارِها
تَنوحُ بناتُ أبي مَالِكٍ بِبُوقِ النَّصَارَى ومِزْمَارِها

٤٧ رثاء عمر

قال يرثي عمر بن عبد العزيز:

تنعَى النُّعَاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا يا خيرَ مَنْ حَجَّ بيتَ اللَّهِ واعتَمَرا
حُمِّلْتَ أمْراً عظيماً فاصطبرتَ له وقمتَ فيهِ بأَمرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ ليستْ بِطَالِعَةٍ تَبكِي عليكَ، نجومَ اللَّيلِ والقَمَرا
الشمس كاسفة كأنها تبكي لموتك، ولأنها كاسفة لم تُخفِ نجومَ الليل ولا القمرَ.
بيت فيه التواء

٤٨ عبدة الصليب

عَلِقَ الأُخَيْطِلُ في حِبالِيَ بعدَمَا عثرَ الفرزدقُ، لا لَعَاً لِلعاثِرِ

لا لعاً له: لا أقامه الله

إن القصائدَ قد وَطِئْنَ مُجَاشِعاً ووطِئْنَ تغلبَ، ما لها مِن زَاجرِ

مجاشع: قبيلة الفرزدق، تغلب: قبيلة الأخطل

نُبِّئْتُ تغلبَ يَعبُدونَ صليبَهُمْ بِالرَّقَّتَيْنِ إلى جنوبِ المَاخِرِ

يَستنصِرونَ بِمَارِ سَرْجِسَ وابنِه بعد الصليبِ، وما لَهُمْ مِنْ ناصرِ

أَدِّ الجِزَى ودَعِ الفَخارَ بِتَغلبٍ واخْسَأْ بمنزلةِ الذليلِ الصَّاغِرِ

بين الحَواجِبِ واللِّحَى مِنْ تغلبٍ لُؤْمٌ تُوُرِّثَ كابراً عن كابِرِ

بين الحواجب واللحى: أي في الوجوه

٤٩ غدار يا زمن

حَيوُّا المَقَامَ وحَيُّوا ساكِنَ الدَّارِ ما كِدْتَ تَعْرِفُ إلَّا بعدَ إنكارِ

يطلب من صحبه أن يحيوا المكان وصاحبه الراحل عنه، والشاعر لم يميز المكان إلا بعد أن شك فيه وأنكره لتغيره بعد أن هجره أهله

إذا تَقادَمَ عهدُ الحَيِّ هَيَّجَني خيالُ طَيِّبَةِ الأَرْدَانِ مِعْطَارِ

الأردان: الأكمام

لا يأْمَنَنَّ قَوِيٌّ نَقْضَ مِرَّتِه إني أرى الدهرَ ذا نَقْضٍ وإمْرَارِ

على القوي أن لا يأمن الزمن الذي ينقض مرته (يفك فتله، أي يضعف قوته)، فالدهر ذو نقض (فك) وإمرار (فتل). يشبه المرء بالحبل المفتول من قوىً عدة، و«القوة» في الأصل هي الفتلة الواحدة من فَتَلات الحبل

قد أَطلُبُ الحاجةَ القُصْوَى فأُدْرِكُها ولستُ للجارةِ الدُّنْيَا بِزَوَّارِ

قَومِي تميمٌ هُمُ القومُ الذين هُمُ يَنفُونَ تغلبَ عن بُحبُوحَةِ الدارِ

بحبوحة الدار: وسطها المتسع

النَّازِلونَ الحِمَى لم يُرْعَ قبلَهُمُ والمانعونَ بلا حِلْفٍ ولا جَارِ

تميم ينزلون الحمى (الأرض المحمية من جانب قبيلة معينة) الذي لم يجرؤ أحد قبلهم على انتهاكه، وهم يمنعون (يحمون حماهم الخاص) دون حاجة للتحالف مع غيرهم أو الاستجارة به

إن الذين اجْتَنَوْا مَجْداً ومكرمةً   تِلْكُمْ قُرَيْشيَ والأنصارُ أنصاري

وتميم من مضر وقريش من مضر، أما الأنصار فمن اليمن، ولكن جرير يعدهم من أنصاره

لا تَفْخَرُنَّ فإنَّ اللَّهَ أنزَلَكُمْ   يا خُزْرَ تغلبَ دارَ الذُّلِّ والعارِ

عليكم ألا تفخروا يا خزر تغلب (يا تغلب الخزر، يا ذوي العيون الضيقة)

٥٠ الله وقريش والأنصار معنا

يهجو الأخطل:

ورايةِ مَلْكٍ كَظِلِّ العُقَابِ   ضَرَبْنَا على الرأسِ جبَّارَها

رب راية مَلِكٍ كأنها ظل العقاب ضربنا صاحبها الملك على رأسه

وكنَّا إذا حَوْمَةٌ أعْرَضَتْ   نخوضُ إلى الموتِ أغمَارَها

حومة: ساحة حرب

ولو أصبحَ الناسُ حرباً عِدَىً   لِقَيْسٍ وخِنْدِفَ ما ضَارَها

وأَدْعُو الإلهَ وتَدْعُو الصَّلِيبَ   وأدْعُو قُرَيشاً وأَنْصَارَها

٥١ قذف المحصنات

يهجو الفرزدق:

ترجُو الهَوادَةَ يا فرزدقُ بعدَما   أَطفأْتَ نَارَكَ واصطَلَيْتَ بِنَاري

يزعم أن الفرزدق صار يرجو من جرير الهوادة (المهادنة) بعد إذ كف عن التصدي للشعراء والدفاع عن تميم (وهي القبيلة الكبيرة التي تجمعهما) وأخذ يتدفأ بنار جرير

أَبَنِي قُفَيْرَةَ قد أناخَ إليكُمُ   يومَ التَّقَاسُمِ لُؤْمُ آلِ نِزارِ

قفيرة: أم الفرزدق، أناخ إليكم: حل عندكم

يَتلاوَمُونَ وقد أباحَ حريمَهُمْ   قَيْنٌ أحَلَّهُمُ بِدارِ بَوَارِ

يلوم أهل الفرزدق بعضهم بعضاً وقد جعل القين (الحداد، يعني الفرزدق) حريمهم مباحاً للشتم، وأنزلهم بدار البوار (الخراب)

إن القصائدَ لم يَزَلْنَ سَوائِحاً   بِحديثِ جِعْثِنَ ما تَرَنَّمَ سَارِ

جعثن: أخت الفرزدق، ويقول جرير - كاذباً - إنها اغتصبت. وها هو يقول إن القصائد ستروح وتجيء بذكرها إلى الأبد، ما دام هناك سارٍ (سائر ليلاً) يترنم بالشعر

تَبْكي المُغيبَةُ مِنْ بناتِ مُجَاشِعٍ وَلْهَى إذا سمعتْ نَهيقَ حِمارِ

المغيبة (التي غاب زوجها) من بنات مجاشع تبكي ولهاً (شوقاً) إذا سمعت نهيق حمار (ينهق لأنثاه مشتاقاً)

لا تبْتَغي كَمَراً بناتُ مُجَاشِعٍ ويُرِدْنَ مثلَ بَيازِرِ القَصَّارِ

ولا تريد نساء مجاشع كمراً (والكمرة أداة الرجل) بل يردن شيئاً مثل بيزرة القصار (مِدقَّة غاسل الثياب)

٥٢ حي الهدملة

حَيِّ الهِدَمْلَةَ مِنْ ذَاتِ المَواعيسِ فَالحِنْوَ أصبحَ قَفْراً غيرَ مَأْنُوسِ

أسماء أماكن خربة

بينَ المُخَيْصِرِ فالعَزَّافِ مَنزِلَةٌ كالوَحْيِ مِنْ عَهْدِ موسى في القراطيسِ

هذه المنزلة (المكان) أصبحت معالمها ممحوَّة مثل الكلمات في أوراق التوراة

لا يستطيعُ امتِنَاعاً فَقْعُ قَرْقَرَةٍ بين الطَّريقَيْنِ بالبِيدِ الأَمَالِيسِ

فقع القرقرة (الفطر النابت في الوادي) بين طريقين في البيد الأماليس (الصحارى الجرداء) لا يستطيع حماية نفسه من دوس الأرجل

وابنُ اللَّبُونِ إذا مَا لُزَّ في قَرَنٍ لم يَستَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَناعيسِ

ابن اللبون: الصغير الذي فُطم قريباً، إذا ما لُزَّ (حُشِر) في قرن (حبل) لا يستطيع أن يقاوم صولة البزل القناعيس (هجمة الجمال القوية)

هل مِنْ حُلُومٍ لِأقوامٍ فَتُنْذِرَهُمْ ما جَرَّبَ الناسُ مِنْ عَضِّي وتَضْريسي

هل للقوم عقول تحذرهم مما جرب غيرهم من عضي وتضريسي (فتكي بالخصوم بالأسنان والأضراس)

٥٣ أنا جهنم

إنْ تَضْرِساني تَجِدَا مُضَرَّسا

إن تختبراني تجدا رجلاً كثير التجارب

قد لَبِسَ الدهرَ وأَبْقَى مَلْبَسا

لا نعرف كيف يلبس المرء الدهر، غير أن المعنى الملموح هو أنه عاين صنوف الرزايا، وبقيت فيه بقية

مَنْ شَاء مِنْ حَرِّ الجَحِيمِ اقتَبَسا

٥٤ أفنيت الشعر

أَلَا لا تَلُومَا القلبَ أن يَتَخَشَّعَا   فقد هَاجَتِ الأحزانُ قلباً مُفَزَّعَا
وجُودَا لِهِنْدٍ بالكرامةِ منكُما   وما شئتُما أن تَمنَعا بعدُ فامْنَعا

جودا يا صاحبيَّ لهند بالوقوف ساعة على أطلال منازلها، وبعد ذلك لا أسألكما شيئاً

وأَدركتُ مَنْ قد كانَ قَبْلي ولم أَدَعْ   لِمَنْ كان بَعدي في القصائِدِ مَصْنَعا

أدركت الشعراء السابقين (صنعت في الشعر مثلما صنعوا) ولم أترك لمن بعدي في القصائد مصنعاً (شيئاً يصنعه)

٥٥ زعم الفرزدق..

بانَ الخَليطُ بِرامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا   أَوَكُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ

بان الخليط: فارقَ القوم، رفعوا: وضعوا رحالهم فوق الإبل للرحيل

إن الشَّواحِجَ بالضُّحَى هَيَّجْنَني   في دارِ زَينبَ، والحَمامُ الوُقَّعُ

الشواحج: الغربان

كيف العزاءُ ولم أَجِدْ مُذْ بِنْتُمُ   قلباً يَقَرُّ ولا شَراباً يَنْقَعُ

بنتم: فارقتم، ينقع: يروي

ولقد صَدَقْتُكِ في الهوى وكَذَبْتِنِي   وخَلَبْتِني بِمَواعِدٍ لا تَنْفَعُ

خلبتني: خدعتني

بَانَ الشبابُ حَمِيدةً أيَّامُهُ   ولوَ انَّ ذلكَ يُشْتَرى أو يَرجِعُ
وتقولُ بَوْزَعُ قد دَبَبْتَ على العَصَا   هلَّا هَزِئْتِ بِغيرِنا يا بَوْزَعُ
ولقد رأيتُكِ في العَذَارى مَرَّةً   ورأيتُ رَأسِي وَهْوَ دَاجٍ أَفْرَعُ

داجٍ: أسود، أفرع: ذو شعر غزير، والفرع الشَّعر

حَيُّوا الديارَ وسائِلُوا أطلالَها   هل تَرجِعُ الخبرَ الديارُ البَلْقَعُ

البلقع: الخربة

ولقد حَبَسْتُ بِها المَطِيَّ فلم يكنْ   إلَّا السلامُ، ووَكْفُ عينٍ تَدْمَعُ

وَكف: انهمار

لما رأى صحبِي الدموعَ كأنها   سَحُّ الرذاذِ على الرداءِ اسْتَرْجَعُوا

سح الرذاذ: هطول المطر الخفيف، استرجعوا: قالوا «إنا لله وإنا إليه راجعون»

هـل تـذكـريـنَ زمـانَـنـا بِـعُـنَـيْـزَةٍ   والأبْـرَقَـيْـنِ، وذاكَ مـا لا يَـرْجِـعُ
أَعْـدَدْتُ لـلـشـعـراءِ كـأسـاً مُـرَّةً   عندي مُخَالِطُها السِّمامُ المُنْقَعُ

السمام: السم، المنقع: الشديد

وَهَـنَ الـفـرزدقُ يـومَ جَـرَّبَ سيـفَـهُ   قَـيْـنٌ بِـهِ حُـمَـمٌ وآمٍ أَرْبَـعُ

ضعف الفرزدق حين ضرب بسيفه ذلك الأسير فنبا سيفه، والفرزدق قين (حداد) به حمم (فحم)، وآمٍ أربع (أربع إماء، أي أنه سليل جَدَّات أربع من الإماء)

أَخْزَيْتَ قـومَـكَ فـي مَـقـامٍ قُـمْـتَـه   ووجـدْتَ سيفَ مجاشعٍ لا يَقْطَعُ

مجاشع: قوم الفرزدق

ومـجـاشِـعٌ قَـصَـبٌ هَـوَتْ أجـوافُـهُ   غَـرُّوا الـزُّبَـيْـرَ فـأيَّ جَـارٍ ضَـيَّـعُـوا

مجاشع فارغون كالقصب الذي لا شيء في جوفه، وقد غروا الزبير بن العوام حين استجار بهم، فأخذه أعداؤه وقتلوه. والزبير ابن عمة الرسول، وقد خرج مع عائشة في يوم الجمل ضد علي بن أبي طالب، وانصرف عن القتال، فلاقاه رجل من مجاشع، رهط الفرزدق، فقال له: إليَّ إليَّ فأنا أمنعك. فقبل جواره، ولكن قوماً لحقوا به وقتلوه

لـمـا أَتَـى خبـرُ الـزُّبـيـرِ تَـواضَـعَـتْ   سُـورُ الـمـديـنـةِ والـجـبَـالُ الـخُـشَّـعُ

تواضعت: تهدمت، خشعت الجبال: همدت

هـلَّا سـألـتَ بـنـي تَـمـيـمٍ أَيُّـنَـا   يَحمي الذِّمارَ، ويُسْتَجارُ فَيَمْنَعُ

الذمار: العِرض

من كـان يَـستَـلِـبُ الجبابِرَ تَاجَهُمْ   ويَضُرُّ، إذْ رُفِعَ الحديثُ، ويَنْفَعُ

من الذي يجرؤ على الملوك فيقهرهم، ومن الذي بيده أن ينفع ويضر عندما يأتي زمن الفعل ويذهب زمن القول

زعـمَ الـفـرزدقُ أن سَيَقْتُلُ مَرْبَعاً   أَبْـشِـرْ بِـطـولِ سَـلامَـةٍ يـا مَـرْبَـعُ

مربع: راوية جرير

أُخْـتُ الـفـرزدقِ مِـنْ أَبـيـهِ   وأُمِّهِ باتَتْ وسيرتُها الوَجِيفُ الأَرْفَعُ

تلك جِعْثِنُ أخت الفرزدق التي تعرض لها رجل من منقر ولمسها أو سحب ثوبها يريد أن يهين قومها، فصرخت به فهرب، وملأ جرير شعره بقذفها، يقول إن سيرتها باتت الوجيف الأرفع (السائرة سيراً سريعاً كوجيف الإبل)

قـد تـعـلَـمُ الـنَّـخَـبَـاتُ أنَّ فَـتـاتَـهـم   وُطِئَتْ كما وُطِئَ الطريقُ المَهْيَعُ

النخبات (النساء الغلمات الطالبات الجماع) علمن أن فتاتهم جعثن ديست كما يداس الطريق المهيع (الممهد)

نُبِّئْتُ جِعْثِنَ دَافَعَتْهُمْ باسْتِها إذْ لم تَجِدْ لِمُجَاشِعٍ مَنْ يَدْفَعُ

لم تجد من قومها مجاشع من يدفع عنها الأذى فدفعته باستها

يبكي الفرزدقُ والدمَاءُ على اسْتِها قُبْحاً لِتلْكَ غُروبَ عينٍ تَدْمَعُ

غروب: دموع

٥٦ لا يشبعون

أَشكو إليكَ فَأَشْكِني ذُرِّيَّةً لا يَشبعون وأُمُّهُمْ لا تَشبعُ

أشكني (استجب لشكواي) في ذرية (أولاد) جياع

كَثُروا عَلَيَّ فما يموتُ كبيرُهُمْ حتَّى الحسابِ ولا الصَّغيرُ المُرْضَعُ

رِشْنِي، فقد دخلتْ عَلَيَّ خَصَاصَةٌ، مِمَّا جَمَعْتَ وكلَّ خيرٍ تَجْمَعُ

رشني (أنبِت عليَّ ريشاً، أي أنعشني وقوِّني، وعلامة قوة الطائر أن ينبت ريشه) بشيء مما جمعته، وأنت تجمع كل خير، فقد دخلت عليَّ خصاصة (فقر)

٥٧ مدح أمير المؤمنين

يمدح عبد الملك بن مروان:

لولا الخليفةُ والقرآنُ يَقرأُهُ ما قام للناسِ أَحْكَامٌ ولا جُمَعُ

ما عَدَّ قومٌ بِإحسانٍ صَنيعَهُمُ إلَّا صَنيعُكُمُ فوقَ الذي صَنَعوا

أنتَ المباركُ يَهدي اللَّهُ شيعتَه إذا تفرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ

فكلُّ أمرٍ على يُمْنٍ أَمَرْتَ به فينا مُطاعٌ، ومهما قُلْتَ مستَمَعُ

تَلقَى الرجالَ إذا ما خِيفَ صَوْلَتُهُ يَمْشونَ هَوْناً وفي أَعناقِهِمْ خَضَعُ

تجد الرجال إذا ما خيفت صولة عبد الملك (إذا غضب) يمشون هوناً (مشياً وئيداً) وقد نكسوا رؤوسهم

إنَّ البَرِيَّةَ تَرضَى ما رَضِيتَ لها إن سرتَ سَاروا وإنْ قلتَ ارْبَعُوا رَبَعُوا

اربعوا: انزلوا

٥٨ الملك يتبحبح

إذا ما استَضافَتْني الهُمومُ قَرَيْتُها زِماعي ولَيلَ الذَّامِلاتِ الهَوابِعِ

إذا جاءتني الهموم تطلب الضيافة قريتها (أطعمتها) زماعاً (عزيمةً) وليلاً أسير فيه على متون الذاملات الهوابع (النياق الماضية في سيرها وتمد أعناقها)

تَبَحْبَحَ هذا المُلْكُ في مُستَقَرِّهِ فليس إلى قومٍ سِواكُمْ بِراجِعِ
قعد الملك مستريحاً عندكم يا بني أمية

٥٩ صاحب المكرمات

يمدح عبد العزيز بن مروان:

رأيْنَ تَغَيُّرِي فَجَزِعْنَ منهُ كَذُعْرِ الفارِسِ البَقَرَ الرِّتَاعا
رأت الحسان تغيري بمرور الزمن فأصابهن بالجزع مثلما يصيب الفارس بالذعر البقر البرية الراتعة في عشبها

سَما عبدُ العزيزِ إلى المعَالي وفاتَ العالَمينَ نَدَىً وبَاعا
الندى: الكرم، الباع: القدرة

أَلَسْتَ ابنَ الأئِمَّةِ مِنْ قريشٍ وأرحَبَها بمَكْرُمةٍ ذِراعَا

٦٠ صوت الضفادع

يهجو الفرزدق:

إذا أسْفَرَتْ يوماً نساءُ مُجَاشِعٍ بَدَتْ سَوْأَةٌ مِمَّا تُجِنُّ البَراقِعُ
تجن: تخفي

مَباشِيمُ مِنْ غِبِّ الخَزيرِ، كأَنَّما تُصَوِّتُ في أَعْفَاجِهِنَّ الضَّفَادِعُ
مباشيم (مصابات بفساد معدة لكثرة الأكل) وذلك غب (نتيجةَ) أكل الخزير (دقيق يحاس بالماء أو المرق، وهي أكلة يعير بها جرير قوم الفرزدق)، ويصدر عن أعفاجهن (أسافل أمعائهن) صوت كنقيق الضفادع

أَتَعْدِلُ أَحساباً كِراماً حُماتُها بِأَحسابِكُمْ؟ إنِّي إلى اللّهِ راجِعُ
لَقَوميَ أَحْمَى لِلحَقيقةِ مِنْكُمُ وأَضْرَبُ للجبَّارِ، والنَّقْعُ ساطِعُ
الحقيقة: الشرف، النقع: الغبار، ساطع: منتشر

إذا قيلَ أَيُّ الناسِ شَرٌّ قَبيلَةً وأَعْظَمُ عاراً قِيلَ تلكَ مُجَاشِعُ

٦١ هندستان وصينستان

قال في الوليد بن عبد الملك:

طلَبْنا أَميرَ المؤمنينَ ودونَهُ تَنائِفُ غُبْرٌ، واصَلَتْها تَنائِفُ
تنائف: صحارى

إذا قيلَ شَكْوَى بِالإمامِ تَصَدَّعَتْ عليهِ مِنَ الخوفِ القلوبُ الرواجفُ
شكوى: مرض

أَتَتْنَا لكَ البُشْرى فَقَرَّتْ عيونُنا ودارتْ على أهلِ النفاقِ المَخاوِفُ
ثم أتتنا البشرى بشفائه

هداكَ الذي يهدي الخَلائِفَ للتُّقَى وأُعطِيتَ نصراً لم تَنَلْهُ الخَلائفُ
وأَدَّتْ إِليكَ الهندُ ما في حصونِها ومن أَرضِ صِينِسْتَانَ تُجْبَى الطَّرائِفُ
استسلم المقاتلون في الهند ونزلوا من حصونهم، وبعثت الصين بالهدايا درءاً لغزوها

٦٢ أعطوا هنيدة

وقال في يزيد بن عبد الملك:

خَبِّرْ عن الحيِّ سِرّاً أو عَلانِيَةً جَادتْكَ مُدْجِنَةٌ في عيْنِها وَطَفُ
أيها الربع خبرنا عمَّن رحلوا عنك، ولتهطل عليك أمطار سحابة مدجنة معتمة، وكأن للغيمة عين، وكأن بها وطف (سيولة)

ما استَوْصَفَ الناسُ عن شيءٍ يروقُهُمُ إلَّا أرى أمَّ عمرٍو فوقَ ما وَصَفُوا
استوصف: التمسَ وصفاً

كأنها مُزْنَةٌ غَرَّاءُ واضِحَةٌ أو دُرَّةٌ لا يُواري ضَوْءَها الصَّدَفُ
مزنة: سحابة، غراء: بيضاء

قالَ العواذِلُ هل تَنْهاكَ تَجْرِبةٌ أما تَرى الشيبَ، والأخدانَ قد دَلَفُوا
أما ترى أخدانك (رفاقك الذين في سنك) قد دلفوا (مشوا مشياً وئيداً وكبروا)

كَلَّفْتُ صَحبِيَ أهوالاً على ثِقَةٍ لِلَّهُ دَرُّهُمُ رَكْباً، وما كَلِفُوا
كلف صحبه مماشاته في رحلته واثقاً بقبولهم

لا وِرْدَ لِلقومِ إن لم يعرِفُوا بَرَدَى إذا تَجَوَّبَ عن أعناقِهَا السَّدَفُ
لا ورد (ورود على ماء) لصحبي إن لم يجيئوا نهر بردى بالشام وقد تجوَّب (انزاح) عن أعناق الإبل السدف (الظلام)

صَبَّحْنَ تُومَاءَ، والنَّاقُوسُ يَقْرَعُهُ قَسُّ النَّصارَى، حَراجِيجاً بِنا تَجِفُ
عند الصباح تصل الإبل إلى توماء (بدمشق) مع قرع القس الناقوس، وإبلنا هذه الحراجيج (الضامرة الهزيلة لطول السير) تصل وهي تجف (تسرع)

يا ابنَ الأُرومِ، وفي الأعْياصِ مَنْبِتُها لا قادحٌ يرتَقي فيها ولا قَصَفُ

يا ابن الأروم (الجذور) التي منبتها في الأعياص (وسط الشجر المتكائف)، والتي لا يصعد فيها قادح (سوس) ولا قَصَف (ضعف يؤدي إلى انقصاف)

أرجُو الفَواضِلَ إنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ يا قَبلَ نفسِكَ لاقَى نفسِيَ التَّلَفُ

أرجو الفواضل (العطايا)، وليقبض الله نفسي قبلك (كأنه يقول له: تقبرني)

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحدُوها ثَمانِيَةٌ ما في عَطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

لقد أعطوْني هنيدة (مئة ناقة/ قد جاءك أنهم يسمون المليون جنيه «الأرنب»، فهذه الهنيدة مئة ناقة)، ويحدوها (يقودها) ثمانية من الرعاء، وليس في عطائهم منٌّ (استطالة على الآخذ) ولا إسراف

كُوماً مَهارِيسَ مِثلَ الهَضْبِ لو وَرَدَتْ ماءَ الفراتِ لكادَ البحرُ يُنْتَزَفُ

هذه النياق كوم (ضخمة) مهاريس (تهرس العشب هرساً ثم تدر اللبن الغزير) وهي كالهضاب، ولو وردت نهر الفرات لكاد ينتزف (ينضب)

إنِّي شَكَرْتُ، وقد جَرَّبْتُ أَنَّكُمُ على رجالٍ وإن لم يَشْكُروا عُطُفُ

يا رُبَّ قومٍ وقومٍ حاسِدينَ لكُمْ ما فِيهِمُ بَدَلٌ منكُمْ ولا خَلَفُ

ما أكثر الحساد، لكنهم لا يقومون مقامكم

أنتَ المُبارَكُ والميمونُ سيرتُه لولا تُقَوِّمُ دَرْءَ الناسِ لاختَلَفوا

درء: اعوجاج

تدعُو فَيَنْصُرُ أهلُ الشامِ، إنهُمُ قومٌ أطاعُوا وُلاةَ الحقِّ وائْتَلفوا

ما في قُلوبِهِمُ نَكْثٌ ولا مَرَضٌ إذا قَذَفْتَ مُحِلّاً خالِعاً قَذَفُوا

ليس في قلوبهم مرض (نفاق)، وإذا قذفت محلاً (من يحل حرمات الله) خالعاً (خالعاً للطاعة) فهم معك

٦٣ هبيرة ومشيته

أَبَني رَبيعةَ إنَّما أَزْرَى بِكُمْ نَكَدُ الجُدودِ، ودِقَّةُ الأخلاقِ

يمشي هُبَيْرَةُ بعد مَقتَلِ شيخِه مَشيَ المُراسِلِ أُوذِنَتْ بِطَلاقِ

هبيرة يمشي مختالاً ولم يأخذ بثأر أبيه مشيَ المراسل (المطلقة التي تراسل الرجال كي تتزوج) أوذنت (أبلغت) بطلاقها

٦٤ يا زيق.. يا زيق

يا زِيقُ أَنْكَحْتَ قَيْناً بِاسْتِهِ حُمَمٌ ... يا زِيقُ ويحَكَ ما أَنْكَحْتَ يا زِيقُ

زوج زيق ابنته حدراء للفرزدق على مئة ناقة، فهذا جرير يوبخه: قد زوجت قيناً (حداداً) في مؤخرته حمم (سواد من فحم مرجله الذي يحمي به الحديد)

يـا رُبَّ قـائِـلـةٍ بـعـد الـبِـنَـاءِ لَـهُ ... لا الصِّهْرُ راضٍ، ولا ابْنُ القَيْنِ مَعشُوقُ

البناء: الزواج، إذ كان الرجل «يبني» فعلاً على عروسه خيمة جديدة، فغدا كل زواج بناء

٦٥ لولا إسحاق

يهجو سراقة البارقي:

يـا رُبَّ قـائِـلـةٍ تـقـولُ وقـائِـلٍ: ... أَسُـرَاقَ إِنَّـكَ قـد خَـزِيـتَ سُـرَاقـا

إن الـذيـن عَـوَوْا عُـوَاءَكَ قـد لَقُـوُا ... مِنِّـي صَـواعِـقَ تُـخْـضِـعُ الأَعْـنـاقَـا

فـإذا لَـقِـيـتَ مُـجَـيْـلِـساً مِـنْ بَـارِقٍ ... لاقَـيْـتَ أَطْـبَـعَ مـجـلِـسٍ أخْـلاقـا

أطبع: أسوأ

الـنـاقِـصِـيـنَ إذا يُـعَـدُّ حَـصـاهُـمُ ... والـجـامِـعـيـنَ مَـذَلَّـةً ونِـفـاقـا

حصاهم: عددهم

ولـقـد هـمـمْـتُ بـأنْ أُدَمِّـرَ بـارقـاً ... فَـرَقَـبْـتُ فـيـهِـمْ عـمَّـنـا إِسـحَـاقـا

أردت أن أدمرهم ولكنني رقبت (راعيت) عمنا إسحق (فهم يهود من أبناء إسحق الذي هو «عمُّ» العرب، إذ أبو العرب أخوه إسماعيل)

٦٦ عقاب الحجاج

أُعـالِـجُ بَـرْحـاً مِـنْ هـواكِ، وشَـفَّـنـي ... فـؤادٌ إذا مـا تُـذكَـريـنَ خَـفـوقُ

أعالج (أعاني) برحاً (ألماً) من هواك، وشفني (آلمني) فؤاد خافق كلما ذُكِرْتِ

أَوَانِـسُ أَمَّـا مَـنْ أَرَدْنَ عـنـاءَهُ ... فَـعَـانٍ، ومَـنْ أَطْـلَـقْـنَ فَـهْـوَ طَـلِـيـقُ

من أردن عناءه (إيلامه) فهو عانٍ (أسير)

ومَـنْ يَـأْمَـنُ الـحـجَّـاجَ؟ أَمَّـا عِـقـابُـه ... فَـمُـرٌّ، وأمَّـا عَـقْـدُهُ فَـوَثـيـقُ

لا يأمن الحجاج منافق

ومـا ذُقْـتُ طَـعْـمَ الـنَّـوْمِ إلا مُـفَـزَّعـاً ... ومـا سـاغَ لـي بـيـن الـحَـيـازِمِ رِيـقُ

الحيازم (أعالي الصدر التي تضم الحلق)

يُسِرُّ لكَ البَغضَاءَ كلُّ منافقٍ كما كُلُّ ذي دِينٍ عليكَ شَفيقُ
وَأطفَأْتَ نيرانَ العراقِ، وقد عَلا لَهُنَّ دُخَانٌ ساطِعٌ وحريقُ

ساطع: منتشر

٦٧ لسان تميم

يرثي الفرزدق، وقد سبقه بنحو سنة:

لَعَمْري لقد أَشجَى تميماً وهَدَّهَا على نَكَبَاتِ الدهرِ موتُ الفرزْدَقِ

فوق نكبات الدهر جاء موت الفرزدق ليحزن تميماً ويهدها

عشيَّةَ راحُوا للفِراقِ بِنَعشِهِ إلى جَدَثٍ في هُوَّةِ الأرضِ مُعْمَقِ
لقد غادروا في اللَّحْدِ مَنْ كان ينتمي إلى كلِّ نَجْمٍ في السماء مُحَلِّقِ
عِمادُ تميمٍ كلِّها ولِسانُها وناطقُها البَذَّاخُ في كلِّ منطقِ

البذاخ: المتدفق الهدّار

وكم حِصنِ جبَّارٍ هُمامٍ، وسُوقَةٍ إذا ما أَتَى أبوابَه لم تُغَلَّقِ

كان الفرزدق يزور الملوك الجبارين، والسوقة (الأثرياء من غير الملوك، وهي كلمة غير مرذولة في هذا السياق) ولم تكن تغلق دونه الأبواب

لِتَبْكِ عليه الإنسُ والجنُّ، إذ ثَوَى فَتى مُضَرٍ، في كلِّ غربٍ ومَشْرِقِ
فتىً عاشَ يبني المجدَ تسعينَ حِجَّةً وكان إلى الخيراتِ والمجدِ يرتَقي

٦٨ عز تميم

يهجو الأخطل التغلبي:

ألم تَرَ أن عِزَّ بني تميمٍ بناهُ اللَّهُ يومَ بنى الجبالا
إذا ما كان خالُكَ تغلبياً فبادِلْ إن وجدْتَ له بِدالا
ويَرْبُوعٌ تَحُلُّ ذُرى الرَّوابي وتبني فوقَها عَمَداً طِوالا

يربوع: عشيرة جرير، وهي من تميم

٦٩ العاجل والآجل

قال لعمر بن عبد العزيز:

إن الذي بعثَ النبيَّ محمداً جعلَ الخلافةَ في الإمامِ العادلِ

قد نالَ عدلُكَ مَنْ أقامَ بأرضِنا ... وإليكَ حاجةُ كلِّ وفدٍ رَاحلِ
إنّي لآمُلُ منكَ خيراً عاجلاً ... والنفسُ مولَعَةٌ بحُبِّ العاجلِ
واللّهُ أنزلَ في الكتابِ فريضةً ... لابنِ السبيلِ وللفقيرِ العائلِ

يذكِّر عمر بالآية: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين وابن السبيل..» والعائل: ذو العيال

٧٠ مصنوعون من لؤم

قومٌ تَوارَثَ أصلَ اللُّؤمِ أوَّلُهُمْ ... فما لَهُمْ عن ديارِ اللؤمِ تَحويلُ
مُحالِفُو اللؤمِ آلَى لا يُفارِقُهُمْ ... حتى يُرَدَّ على أدراجِه النِّيلُ

ملازمون للُّؤم، وقد آلى، أي حلف، لا يفارقهم حتى ينعكس جريان النيل

قد ارتَدَوْا بِرِدَاءِ اللُّؤمِ واتَّزَرُوا ... وقُطِّعَتْ لَهُمُ منهُ سَرابِيلُ

٧١ بسطام وغالب

أُحِبُّ لِحُبِّ العَاصِمِيَّةِ معشَراً ... مِنَ الناسِ ما كانوا صديقاً ولا أهلا
وأَرعاهُمُ بالغيبِ مِنْ أجلِ حبِّها ... وأُوْلِيهِمُ مِنِّي الكَرامَةَ والبَذْلا
لقد جَمَحَتْ عِرْسُ الفرزدقِ، والْتَوَى ... بِحَدْرَاءَ قومٌ لم يَرَوْكَ لها أَهْلا

جمحت (تمردت) عرس الفرزدق (زوجته) حدراء، والتوى بها أهلها (تحايلوا لمنع زواجها) لأنهم لم يروك كفئاً لها

رَأَوْا أنَّ صِهْرَ القومِ عارٌ عليْهِمُ ... وأنَّ لِبِسطامٍ على غالِبٍ فَضْلا

فأبوهم بسطام خير من أبيك غالب

ومَا رَغِبوا في صِهْرِ آلِ مُجَاشِعٍ ... وما إنْ رَأَوْا شَكْلَ القُيُونِ لَهُمْ شَكْلا

وهم لا يُصْهِرون إلى قيون (حدادين)

٧٢ على أهواء نسوتهم

قيسُ البَراجِمِ شَرُّ الخَلْقِ كُلِّهِمُ ... أَخزاهُمُ ربُّ جِبريلٍ ومِيكالِ
الظَّاعنونَ على أَهْواءِ نِسْوَتِهِمْ ... والخَافِضُونَ بِدارٍ غيرِ مِحْلالِ

الخافضون: النازلون، دار غير محلال: لا تصلح للحلول بها

٧٣ موتي

خُذُوا كُحْلاً ومِجْمَرَةً وعِطْراً فَلَسْتُمْ يا فرزدقُ بالرجالِ

مجمرة: مبخرة

يقولُ المِنْقَرِيُّ، وأَبْرَكُوهَا: رخِيصٌ مَهْرُ جِعْثِنَ غيرُ غَالِ

كان المنقري قد تعرض لأخت الفرزدق جعثن ثم فر، ويزعم جرير ـ كاذباً ـ أن أصحاب المنقري أقاموا الفتاة على أربع للفعل الشنيع

تقولُ قتَلْتَني، ويقولُ مُوتي ولو رَغِمَ الفرزدقُ لا أُبالي

٧٤ أشبالي

يرثي ولده سَوادة، ومات بالشام:

قالوا نَصيبَكَ مِنْ أَجْرٍ، فقلتُ لَهُمْ: مَنْ لِلعَرينِ إذا فارقْتُ أَشبالي

قالوا تأخذ نصيبَك من الأجر لصبرك على ابنك، فقلت لهم: من يحمي العرين إذا فقدت أولادي

لَكِنْ سَوَادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لَحِمٍ بَازٍ يُصَرْصِرُ فوقَ المَرقَبِ العالي

سوادة كان يجلو (يُبرِز) مقلتي لحم (صقر) يصيح فوق المرقب (الموضع الذي يرقب منه الصقر فريسته قبل انقضاضه)

إلّا تَكُنْ لَكَ بالدَّيْرَيْنِ مُعْوِلَةٌ فَرُبَّ بَاكِيةٍ بالرَّمْلِ مِعْوَالِ

إن لم يكن لك يا سوادة من تبكيك بالديرين في الشام، فهناك باكية معوال (باكية) في الرمل ببلاد اليمامة

فَارقْتَني حين كَفَّ الدهرُ مِنْ بَصَرِي وحينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البَالي

الرمة: ما يبقى من الجسم بعد التحلل

إنَّ الثَّوِيَّ بِذي الزَّيتونِ، فاحتَسِبي، قد أَسرعَ اليومَ في عقلي وفي حالي

الثوي: الدفين، ذو الزيتون: الشام، أو موضع بها

٧٥ تحية الطلول

علامَ تَلومُ عاذِلَةٌ جَهُولُ وقد بَلَّى رواحِلَنا الرحيلُ

بلَّى: أبلى، الرواحل: النياق. فقد هزلت لطول السفر

عليكِ، وإنْ بَليتِ كما بَلِينا، سلامُ اللّهِ أَيَّتُها الطُّلولُ

٧٦ صاحب الدنيا والآخرة

إذا قلتَ لي عبدَ العزيزِ كَفَيْتَني زَمانـاً فَشَـتْ عِـلَّاتُـهُ ومَبَـاخِلُـهْ

يكفيني عبد العزيز بن مروان، أخو الخليفة عبد الملك، نوائب هذا الزمن وما فيه من بخل أهله

ولِلتُّرْكِ مِنْ عبدِ العزيزِ وَقيعَةٌ ولِلرومِ يومٌ ما تُتِمُّ حَوَامِلُهْ

للترك منه وقيعة (هزيمة) وللروم يوم لا تتم فيه الحوامل حملها لفظاعته

فما وَجَدُوا عبدَ العزيزِ مُغَمَّراً ولا ذا سِقَاطٍ عندَ أَمْرٍ يُحاوِلُهْ

مغمر: غشيم، ذو سقاط: كثير الخطأ

فلا هُوَ مِنَ الدُّنْيا مُضيعٌ نصيبَه ولا عَرَضُ الدنيا عنِ الدِّينِ شاغِلُهْ

فهذا بَديعٌ ليس في الناسِ مثلُهُ وهذا مديحٌ لا يُكَذَّبُ قائِلُهْ

أَبَيْنا فما يدعُو إلى غيرِكَ الهَوى وما مِنْ خَليلٍ بابْنِ ليلى نُبَادِلُهْ

عبد العزيز الممدوح هو ابن ليلى، وزوجته أيضاً اسمها ليلى. فإذا مدح المادحون ابنه عمر بن عبد العزيز فهم يقولون له «ابن ليلى» مثلما يقولون لأبيه

٧٧ ثيابَكم والدم

فلن تَسْطيعَ يا ابْنَ دَعِيِّ تَيْمٍ على دَحَضٍ مُزاحَمَةَ القُيولِ

لن تستطيع يا ابن الدخيل في قبيلة تيم مزاحمةً القيول (الملوك) وأنت تقف على دحض (على منزلق بسبب لؤم قومك وكون أبيك دعياً). وتيم هذه ليست تيم قريش التي منها أبو بكر الصديق، بل تيم بن عبد مناة وهم من مضر

كأنَّ التَّيْمَ وَسْطَ بَني تَميمٍ خَصِيٌّ بينَ أَحْصِنَةٍ فُحُولِ

وإني قد رميتُكَ مِنْ تميمٍ بِعِبْءٍ لا تقومُ لَهُ ثَقيلِ

فَرَغْتُ مِنَ القُيُونِ وعَضَّ تَيْماً فِرِنْدُ الوَقْعِ ليس بِذي فُلُولِ

فرغت من القيون (الحدادين، يعني الفرزدق وقومه) وعضّ تيماً فرند الوقع (السيف) الحادُّ غير المثلَّم

وقُلْتُ نَصَاحَةً لِبَني عَدِيٍّ ثِيابَكُمُ ونَضْحَ دَمِ القَتيلِ

ينصح بني عدي بن عبد مناة (وهم أبناء عم تيم من قبائل الرباب) أن يبتعدوا حتى لا تتلوث ثيابهم برشاش دم القتيل الذي يريد أن يقتله بشعره. ولعل مما يوهم القارئ أن تأتي تيم وعدي في بيتين متتاليين، فتيم قبيلة أبي بكر الصديق، وعدي قبيلة عمر بن الخطاب وكلتاهما من قريش، وأمَّا تيم وعدي المقصودتان هنا فمن الرباب التي تنتهي أيضاً إلى مضر مثل قريش ومثل تميم نفسها

تَشِينُ الزَّعْفَرانَ عَروسُ تَيْمٍ وتَمشي مِشْيَةَ الجُعَلِ الزَّحُولِ

الجعل الزحول: الصرصور الذي يدخل ذيله قبل رأسه في جحره

يقولُ المُجْتَلُونَ عَروسَ تَيْمٍ شَوَى أُمِّ الحُبَيْنِ ورأْسُ فيلِ

المجتلون عروس تيم (الذين يرونها ليلة عرسها) يقولون الشوى (الأطراف) أطراف أم الحبين (السحلية، وأطرافها صغيرة) والرأس رأس فيل

ولو غُسِلَتْ بِساقِيَتَيْ دُجَيْلٍ لَقالَتْ ما اكْتَفَيْتُ مِنَ الغَسُولِ

وما يَزْدَادُ رِيحُكِ غيرَ خُبْثٍ وما يَزْدادُ قُنْبُكِ غيرَ طُولِ

القنب: البظر

فَقُنْبُكِ إنْ قَعَدْتِ بِهِ تَثَنَّى فَمُدِّي القُنْبَ قَائِمَةً فَبُولي

إن قعدت فبظرك يتثني لطوله، فقفي ومديه وبولي، فهو في طول عضو الرجل

٧٨ القائل الفاعل

دَعُوا الجبنَ يا أهلَ العراقِ فإنما يباعُ ويُشْرَى سَبْيُ مَنْ لا يُقَاتِلُ

لقد جَرَّدَ الحجَّاجُ بِالحقِّ سيفَه لكُمْ فاستقِيمُوا لا يَميلَنَّ مائلُ

وثِنتَانِ في الحجَّاجِ: لا تَرْكُ ظَالِمٍ سَوِيّاً، ولا عندَ المُرَاشَاةِ نَائِلُ

لا يترك الحجاج الظالم سوياً بل يصيبه بعاهة في جسمه، ولا يقبل الرشوة

تقولُ فلا تُلْفَى لِقَولِكَ نَبْوَةٌ وتَفعَلُ ما أَنْبَأْتَ أَنَّكَ فاعلُ

ليس لقولك نبوة (خطأ) فالحجاج فصيح، ويفعل ما يقول إنه سيفعله

٧٩ تصف السيوف

يا أمَّ نَاجِيَةَ السلامُ عليكُمُ قبلَ الرواحِ وقبلَ لومِ العُذَّلِ

وإذا غَدَوْتِ فبَاكَرَتْكِ تحيةٌ سبقتْ سُروحَ الشَاحِجَاتِ الحُجَّلِ

إذا غدوت (بكَّرتِ) فلك تحية تسبق سروح الشاحجات الحجل (قدوم الغربان التي تمشي متمايلة في أطلال القوم بعد رحيلهم)

لو كنتُ أَعْلَمُ أنَّ آخرَ عهدِكُمْ يومَ الرحيلِ فعَلْتُ ما لم أفعلِ

سئل ابن لجرير: وماذا كان يفعل أبوك؟ قال: كان سيفقأ عينيه حتى لا يراهم يرحلون

أعدَدْتُ للشُّعَرَاءِ سُمّاً ناقِعاً فسَقَيْتُ آخِرَهُمْ بكأسِ الأولِ

سما ناقعاً: شديداً

لما وَضَعْتُ على الفرزدقِ مِيسَمي وَضَغَا البَعِيثُ، جَدَعْتُ أنفَ الأخْطَلِ

وضع الميسم (الحديدة المحماة التي تدمغ بها الإبل لتوثّق ملْكيّتها) على الفرزدق فضغا البعيث (صاح) فجدع (قطع) أنف الأخطل.. يريد أن يجمعهم في بيت

أخزَى الذي سَمَكَ السماءَ مُجَاشِعاً وبَنَى بناءَكَ في الحضيضِ الأسفلِ

سمك السماء: رفعها

إنِّي بَنَى لِيَ في المكارمِ أوّلي ونَفَخْتَ كيرَكَ في الزمانِ الأولِ

أولي: أجدادي، الكير: منفاخ الحداد

إنِّي انْصَبَبْتُ منَ السماءِ عليكُمُ حتى اختطفتُكَ يا فرزدقُ مِنْ عَلِ

قُتِلَ الزُّبَيْرُ وأنتَ عاقِدُ حُبْوَةٍ قُبْحاً لحُبْوَتِكَ التي لم تُحْلَلِ

قتل الزبير بن العوام بعدما استجار برجل من قوم الفرزدق، يقول جرير: كنت عاقداً الحبوة (شال يقعد الرجل ويجمع به ما بين ظهره وساقيه) عندما قتل الزبير ولم تقم لتنجده. من هذا البيت نستدل ـ إن صح لنا ـ أن الفرزدق مولود فعلاً في عام ٢٠ للهجرة، وليس بعده. فقد قتل الزبير سنة ست وثلاثين بعيد وقعة الجمل. فلو كان ما قاله نفرٌ عن مولد الفرزدق في عام ثلاثين صحيحاً لكان عمره إذ ذاك ست سنين، فلا مكان للقول إنه كان محتبياً

لا تَذكُروا حُلَلَ الملوكِ فإنَّكُمْ بعدَ الزبيرِ كَحائِضٍ لم تُغْسَلِ

لا تذكروا نيلكم حلل الملوك، وكان الملوك يخلعون على الناس الحلل، أي الثياب، ضمن الهبات

ولقد تَركْتُ مجاشعاً وكأنَّهُمْ فَقْعٌ بِمَدْرَجَةِ الخَميسِ الجَحْفَلِ

تركت مجاشعاً كالفقع (الفطر) النامي في طريق الخميس (الجيش) الجرار، يداسون بالأقدام

كان الفرزدقُ إذ يعوذُ بخالِه مثلَ الذليلِ يعوذُ تحت القَرْمَلِ

القرمل: شجر ضعيف

وافخَرْ بِضَبَّةَ إنَّ أُمَّكَ مِنْهُمُ ليس ابنُ ضَبَّةَ بِالمُعِمِّ المُخْوِلِ

تَصِفُ السيوفَ وغيرُكُمْ يَعصَى بِها يا ابْنَ القيونِ، وذاكَ فِعْلُ الصَّيْقَلِ

يعصى: يضرب، الصيقل: صانع السيوف

قَعَدَتْ قُفَيْرَةُ بالفرزدقِ بعدَما جَهَدَ الفرزدقُ جَهْدَهُ لا يأْتَلي

قفيرة أم الفرزدق، لا يأتلي: لا يوفر جهداً

٨٠ والتغلبي إذا تنحنح..

قال يهجو الأخطل:

إنيِ جُعِلْتُ، فلنْ أُعافِيَ تغلباً، للظالمينَ عقوبةً ونَكالا
والتغلبيُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلقِرَى حَكَّ اسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأمثالا

التغلبي يتنحنح.. ثم يحك استه.. ويتكلم بكلام عام محاولاً التملص عندما يأتيه زائر يطلب طعاماً

أَنَسِيتَ يومَكَ بالجزيرةِ بعدَما كانت عواقِبُهُ عليكَ وَبَالا

انهزم قوم الأخطل بالجزيرة الفراتية، وقيل أُسر الأخطل ولكنه تخلص إذ لم يعرفه آسروه، وظنوه عبداً

حَمَلَتْ عليكَ حُماةُ قيسٍ خيلَها شُعْثاً عَوابِسَ تحملُ الأبطالا

كانت الخيل مشعثة عابسة في تلك المعركة

ما زِلْتَ تَحْسَبُ كلَّ شيءٍ بعدَهُمْ خَيلاً تَشُدُّ عليْكُمُ ورِجالا

لِما أصاب الأخطل من خوف ظل يرى كل شيء كأنه تلك الخيل وأولئك الرجال الذين أوقعوا بقومه. وأخذ المتنبي المعنى ووضعه في إطار سريالي: «إذا رأى غير شيء ظنه رجلا»

زُفَرُ الرئيسُ أبو الهُذَيلِ أَبَادَكُمْ فَسبَى النِّساءَ وأحرَزَ الأموالا
قالَ الأُخَيْطِلُ إذ رأى راياتِهِمْ يا مَارَ سَرْجِسَ لا نُريدُ قِتالا

القديس سرجيس من أولياء تغلب (وقتله الرومان قبل أربعة عقود من تحول الإمبراطورية الرومانية إلى المسيحية)

قيسٌ وخِنْدِفُ إن عَدَدْتَ فَعَالَهُمْ خيرٌ وأكرمُ مِنْ أبيكَ فَعَالا
إن حَرَّمُوكَ لتَحْرُمَنَّ على العِدَى أو حَلَّلُوكَ لَتُؤْكَلَنَّ حلالا
ولَوَ انَّ تغلبَ جَمَّعَتْ أحسابَها يومَ التَّفاضُلِ لم تَزِنْ مِثْقَالا
لا تَطْلُبَنَّ خُؤُولَةً في تغلِبٍ فالزِّنْجُ أَكْرَمُ منهُمُ أَخْوَالا
لولا الجِزَى قُسِمَ السَّوَادُ وتَغْلِبٌ في المسلمينَ فكنْتُمُ أَنْفَالا

لولا أنكم تدفعون الجزية، وينتعش بها بيت المال، لكانت بلادكم بسواد العراق قد قسمت بين المسلمين، ولقسمتم أنتم فكنتم غنائم. وكان عمر بن الخطاب أعفى نصارى تغلب من الجزية، ورضي أن يستوفي بعض قيمتها منهم باسم الصدقة، ولكن ولاة الأمر من بعده تململوا من حكمه

٨١ مقتل الزبير

إنِّـي تُـذَكِّـرُنـيِ الـزُّبَـيْـرَ حَـمَـامَـةٌ   تَـدعُـو بِـمَـجْـمَـعِ نَـخْـلَـتَـيْـنِ هَـدِيـلا

يتذكر جرير الزبير بن العوام، تذكره بمقتله حمامة تدعو الهديل، وقالوا إن «الهديل» ابن الحمامة، وقد فقدته فهي منذ ذلك الوقت تنادي «الهديل» بصوت حزين

قـالـتْ قـريـشٌ: مـا أَذَلَّ مُـجَـاشِـعَـاً   جَـاراً، وأكـرمَ ذا الـقـتـيـلَ قـتـيـلا

قريش تقول إن قبيلة مجاشع، قبيلة الفرزدق ـ التي أجارت الزبير القرشي ثم لم تحمه ـ ذليل جارها لأنها لا تجعله عزيزاً بحمايتها، على أن هذا القتيل شريف كريم

أَفَـبَـعْـدَ مَـتْـرَكِـهِـمْ خَـلـيـلَ مـحـمـدٍ   ترجُـو القُـيونُ معَ الرسولِ سبيلا

متركهم: تركهم، خليل محمد: الزبير، وكان يدعى حَوارِيَّ رسول الله

لـو كـنـتَ حُـرَّاً يـا ابـنَ قَـيْـنِ مـجـاشـعٍ   شَـيَّـعْـتَ ضَـيْـفَـكَ فَـرْسَـخَـيْـنِ ومِـيـلا

لا يمل جرير ولا يكل من تلقيب الفرزدق بالقَين وابن القيون زاعماً أن آباء الفرزدق كانوا يمتهنون الحدادة، وهذه كذبة كبيرة

قُـتِـلَ الـزبـيـرُ وأنـتُـمْ جـيـرانُـهُ   غَـيَّـاً لِـمَـنْ غَـرَّ الـزبـيـرَ طـويـلا

لـو كـنـتَ حـيـن غُـرِرْتَ بـيـن بـيـوتِـنـا   لَـسَـمِـعْـتَ مِـنْ صـوتِ الـحـديـدِ صَـلـيـلا

أيها الزبير لو كنت عندنا لسمعت صليل السيوف إذا حاول أحد الاقتراب منك

لَـحَـمَـاكَ كـلُّ مُـغَـاوِرٍ يـومَ الـوغَـى   ولـكـانَ شِـلْـوُ عَـدُوِّكَ الـمـأكُـولا

شلو: طرف، وجمعها الأشهر منها: أشلاء

٨٢ قاتل الحيات

عُـوجـيِ عـلـيـنـا وارْبَـعـي رَبَّـةَ الـبَـغْـلِ   ولا تَـقـتُـلـيـنـيِ لا يَـحِـلُّ لَـكُـمْ قـتـلـي

ميلي إلينا يا راكبة البغل

تَـمَـنَّـى رجـالٌ مِـنْ تـمـيـمٍ لِـيَ الـرَّدَى   ومـا ذادَ عـن أحـسـابِـهِـمْ ذائـدٌ مِـثـلـي

ذاد: حامى ودافع

فـلـو شـاءَ قَـوْمـي كـان حِـلْـمِـيَ فـيـهِـمُ   وكـان عـلـى جُـهَّـالِ أَعـدائِـهِـمْ جَـهْـلـي

وقـد زَعـمُـوا أنَّ الـفـرزدقَ حَـيَّـةٌ   ومـا قَـتَـلَ الـحـيَّـاتِ مِـنْ أحـدٍ قَـتْـلـي

رأيـتُـكَ لا تَـحـمـيِ عِـقَـالاً، ولـم تُـرِدْ   قِـتـالاً، فَـمَـا لاقَـيْـتَ شَـرٌّ مِـنَ الـقـتـلِ

عقال: بعير

٨٣ شبه الرجال

لا يَخْفَيَنَّ عليكَ أنَّ مُجَاشِعَاً شِبْهُ الرجالِ وما هُمُ بِرجالِ
فانفُخْ بكيرِكَ يا فرزدقُ، وانتظرْ في كَرْنَباءَ هَدِيَّةَ القُفَّالِ

اقعد يا فرزدق عن القتال وانفخ في منفاخك أيها الحداد، وانتظر في «كرنباء» عودة القفال (الراجعين) من القتال ليعطوك هدية مما غنموا

٨٤ أميمة

وَدِّعْ أُمَامَةَ حانَ مِنْكَ رَحيلُ إنَّ الوَداعَ إلى الحبيبِ قليلُ
إن كان طِبُّكُمُ الدَّلالُ فإنَّهُ حَسَنٌ دَلالُكِ يا أُمَيْمَ جميلُ

طبكم: عادتكم، أميم: أميمة

قال العواذِلُ قد جَهِلْتَ بِحُبِّها بل مَنْ يَلومُ على هَواكِ جَهُولُ
كَنَقَا الكثيبِ تَهَيَّلَتْ أعْطافُهُ والريحُ تَجْبُرُ مَتْنَهُ وتُهِيلُ

يصفها: جسمها، وخصوصاً عجيزتها، ككثيب الرمل يهيل رمله ويترجرج، والريح تسفي عليه رملاً ثم تأخذ منه رملاً

أمَّا الفؤادُ فليس ينسى ذكرَكُمْ ما دامَ يهتِفُ في الأَراكِ هَديلُ

الأراك: من الأشجار، والهديل: صغير الحمام

٨٥ مات الهوى

ألمْ تَرَ أنَّ الجهلَ أَقْصَرَ باطِلُهْ وأمسى عَمَاءً قد تجَلَّتْ مَخَايِلُهْ

جهلُ الشباب قد أقصر باطله (انحسر)، وأصبح عماء (سحاباً عالياً) قد تجلت مخايله (تبددت غيماته الخفيفة)

فإنِّي، ولو لامَ العواذلُ، مُولَعٌ بِحُبِّ «الغَضا» مِنْ حُبِّ مَنْ لا يُزَايِلُهْ

الغضا: مكان معين فيه شجر الغضا

و«ذَا مَرَخٍ» أَحببتُ مِنْ حُبِّ أهلِهِ وحيثُ انتهتْ في الرَّوضتيْنِ مَسايِلُهْ
أَتَنْسى لِطولِ العهدِ أمْ أنتَ ذاكِرٌ خليلَكَ ذا الوصلِ الكريمَ شمائِلُهْ
وقد كان أحياناً بيَ الشوقُ مولعاً إذا الطَّرفُ الظَّعَّانُ رُدَّتْ حمائِلُهْ

الطرف: المهر المتطرف في المرعى الظعان: المرتحل، ردت حمائله: رفع رحله فوق الجمل استعداداً للرحيل

فلمَّا التقَى الحَيَّانِ أُلقِيَتِ العصا   وماتَ الهوى لما أُصيبتْ مَقاتِلُهْ

عندما التقى قومي وقومها، ألقيت العصا (كناية عن النزول بالمكان)، وتبدد ألم الشوق وقُتل بحضور الحبيب. لم ينتقد القدماء هذا البيت الذي قَتَل فيه جرير الحب. بل لقد أعجبوا به كل الإعجاب. أولئك ناس جربوا الهوى، وعرفوا كيف يهدأ بالوصال

لقد طالَ كِتْماني أُمامَةَ حبَّها   فهذا أوانُ الحبِّ تبدو شَواكِلُهْ

شواكله: أماراته وعلاماته

إذا حُلِّيَتْ فالحَلْيُ منها بِمَعْقِدٍ   مَليحٍ، وإلَّا لم تَشِنْها مَعاطِلُهْ

معقد الحلي: العنق، وإن لم تُحَلَّ جيدها بشي فليس يشينها العَطَل (عدم الحلي)

وقال اللَّواتي كُنَّ فيها يَلُمنَني   لعلَّ الهوى يومَ المُغَيْزِلِ قاتِلُهْ

ويومٍ كإبهامِ القَطاةِ مُزَيَّنٍ   إِلَيَّ صَبَاهُ غالِبٍ لِيَ باطِلُهْ

يوم قصير كأبهام طائر القطا أشتاق إذ أتذكر صباه، ما فيه من شقاوة، وقد غلبني فيه الباطل، اللهو، عن رزانتي

لَهَوْتُ بِجِنِّيٍّ عليه سُموطُهُ   وإِنْسٍ مجالِيهِ، وأُنْسٍ شَمائِلُهْ

هي كالجنية من جمالها، السموط: العقود، إنس مجاليه: صورته صورة الإنسان، أنس شمائله: طبائعه فيها الأنس والرقة

فَمَا مُغْزِلٌ أدْمَاءُ تَحْنُو لِشَادِنٍ   كَطَوْقِ الفَتاةِ لم تُشَدَّدْ مَفاصِلُهْ

المغزل (الغزالة ومعها ولدها) أدماء: بيضاء، شادن: ولد الغزالة، كأن هذه الغزالة تطوق ولدها وتلتف عليه كطوق في عنق فتاة لكنه طوق رخو

بِأَحْسَنَ منها يومَ قالتْ أَنَاظِرٌ   إلى اللَّيلِ بعضَ النَّيْلِ أم أنتَ عاجِلُهْ

تلك الغزالة ليست بأجمل من المحبوبة يوم قالت لجرير: أتنتظر الليل لتنال بعض ما تريد، أم أنت مستعجل؟

فلو كان هذا الحبُّ حبّاً سَلَوْتُهُ   ولكنَّه داءٌ تعودُ عَقابِلُهْ

عقابله: بقاياه

ولم أنسَ يوماً بالعقيقِ تَخايَلَتْ   ضُحَاهُ، وطابَتْ بِالعَشِيِّ أصائِلُهْ

تخايلت ضحاه: بدت فيه سحب خفيفة وقت الضحى

رُزِقنا به الصيدَ الغَزيرَ، ولم أكن   كَمَنْ نَبْلُهُ مَحْرُومَةٌ وحَبائِلُهْ

صدنا فيه كثيراً، ولم تكن نبالي (سهامي) وحبائلي (شباكي) محرومة، فقد صدت كما صادوا

فَأَيْهاتَ أيهاتَ العَقيقُ ومَنْ به وأَيْهَاتَ وَصْلٌ بَالعَقيقِ نُواصِلُهْ

أيهات: هيهات

يَقُلْنَ إذا ما حَلَّ دينُكَ عندنا، وخيرُ الذي يُقضَى مِنَ الدَّيْنِ عاجِلُهْ..

إذا حل وقت الوفاء بالدين، وقد يكون الدين قبلة أو لقاء، والأفضل ـ يقول جرير ـ تعجيل الوفاء بالدين..

: لكَ الخيرُ، لا نَقضيكَ إلَّا نَسيئَةً مِنَ الدَّيْنِ أو عَرْضاً فهلْ أنْتَ قابِلُهْ؟

يقلن: نقضي دينك نسيئة (تأجيلاً)، أو نعطيك بدلاً منه عرضاً لا نقداً. يقصد أنها تريد إعطاءه قبلة في الهواء، مثلاً، بدل القبلة الحقيقية

عشِيَّةَ بِعْنا الحِلْمَ بالجَهلِ، وانْتَحَتْ بِنا أَريَحِيَّاتُ الصِّبا ومَجاهِلُهْ

حدث هذا عشية تخلينا عن الحلم (العقل) وملنا إلى اللهو، وانتحت بنا (أخذتنا بعيداً) أريحيات الصبا (الانجراف مع اللهو) ومجاهله (رعونته)

وذلكَ يومٌ خيرُهُ دونَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ واشيهِ وأَقْصَرَ عاذِلُهْ

ذلك يوم كان فيه خير، فقد غاب الواشي، وكف العاذل عن اللوم، ثم جاء الشر وهو في الغالب رحيل القوم

أنا البدرُ يُعشي طَرْفَ عينيْكَ فالتَمِسْ بِكَفَّيْكَ يا ابْنَ القَيْنِ هل أنتَ نائِلُهْ

يخاطب الفرزدق، أنا البدر يعشي طرف عينيك (يضعف بصرك)، ولا سبيل لك عليَّ

لَبِسْتُ أداتي، والفرزدقُ لُعْبَةٌ عليهِ وِشَاحَا كُرَّجٍ وجَلاجِلُهْ

يذكر جرير واقعة، فقد طلب الحجاج من جرير والفرزدق أن يأتي كل واحد منهما وقد لبس ملابس قومه في الجاهلية. وجاء الفرزدق لابساً الحرير متزيناً لأن قومه كانوا من السادة الأثرياء، وجاء جرير لابساً درعاً ومتهيئاً للحرب. يقول: لبست أداة الحرب، والفرزدق لعبةُ كُرَّج (خشبة كأنها المهر يلهو بها الصبية) وعليه وشاحان وجلاجل (أجراس)

أَعِدُّوا مَعَ الحَلْيِ المَلابَ، فإنَّما جريرٌ لكُمْ بَعْلٌ وأنتُمْ حَلائِلُهْ

جهزوا مع الزينة الملاب (الطيب)، فأنتم حلائل (نساء) وجرير هو البعل

أنا الدهرُ يُفني الموتَ، والدهرُ خالدٌ فجِئْني بِمِثلِ الدهرِ شيئاً يُطاوِلُهْ
أَمِنْ سَفَهِ الأحلامِ جاءوا بِقِرْدِهِمْ إلَيَّ وما قِرْدٌ لِقَرْمٍ يُصاوِلُهْ

القرم: الفحل، يصاوله: ينازله

تَغَمَّدَهُ آذِيُّ بَحرٍ فَغَمَّهُ وألقاهُ في فِي الحُوتِ، فَالحوتُ آكِلُهْ

لقد تغمد الفرزدقَ (غمره) آذيُّ بحر (موج) فغمه (فغطّاه)، وألقاه الموج في في (فم) الحوت

٨٦ عدي واللؤم

يُماشِي عَدِيّاً لُؤمُها مَا تُجِنُّهُ   مِنَ الناسِ ما مَاشَتْ عَدِيّاً ظِلالُها

تجنه: تخفيه. ولؤمها لاصق بهها كظلها

فقُلْ لِعَدِيٍّ تَسْتَعِنْ بِنِسائِها   عَلَيَّ فقد أَعْيَا عَدِيّاً رجالُها

تَرى اللُّؤمَ ما عَاشَتْ عَدِيٌّ مُخَلَّداً   سَرابِيلُها منهُ، ومِنْه نِعالُها

سرابيل: ثياب

٨٧ اقعدي أو قومي

حَيِّ الدِّيارَ كَوَحْيِ الكافِ والميمِ   ما حَظُّكَ اليومَ منها غيرُ تَسْليم

حي الديار التي صارت كالوحي (كالكتابة) وفيها حروف هنا وهناك من كاف ومن ميم، فهي أطلال خربة، وكل حظك منها أن تلقي عليها السلام

الطَّيِّبُونَ مِنَ الرَّيْحانِ مَنبِتُهُمْ   ومَنْبِتُ التَّيْمِ في الكُرَّاثِ والثُّومِ

تَقضِي القُضاةُ على تيمٍ وإنْ رَغِمَتْ   فاكتُبْ قضاءَكَ واطْبَعْ بالخَواتيمِ

ما بينَ تيمٍ وإسماعيلَ مِنْ نَسَبٍ   إلَّا القَرابَةُ بينَ الزَّنْجِ والرُّومِ

أي أن تيماً ليسوا من العرب

إن ابنَ تيمٍ لَمَنْسوبٌ لِوالِدِهِ   دَانِي القَرابَةِ مِنْ حَامٍ ويَحْمُومِ

إن نسبت التيمي لوالده فهو قريب من حام (ولد نوح، وهو جَدُّ السود) ويحموم (الدخان الأسود)

هَذي التي جَدَعَتْ تَيْماً مَواسِمَها   ثُمَّ اقعُدي بعدَها يا تيمُ أو قُومي

هذه القصيدة هي التي جدعت من التيم مواسمها (أنوفها)، فلتفعل بعدها تيم ما تشاء

٨٨ لومي كما تشائين

أعاذِلَ طالَ لَيْلُكِ لم تنامي   ونامَ العاذلاتُ ولم تُنيمي

إذا ما لُمْتِنِي وعَذَرْتُ نَفسي   فَلُومِي ما بَدا لَكِ أنْ تَلُومي

٨٩ الخزي

قال يهجو الفرزدق:

سَتَخْزَى مَا حيِيتَ ولا يُحَيَّا،   إذا ما مُتَّ، قَبْرُكَ بالسَّلامِ

متَى تَأْتِ الرُّصَافَةَ تَخْزَ فيها   كَخِزْيِكَ في المواسِمِ كُلَّ عامِ

٩٠ يميل ويستقيم

قال يمدح هشام بن عبد الملك:

سمعتُ حمامةً طَرِبَتْ بِنَجْدٍ　　فَمَا هِجْتَ العَشِيَّةَ يا حَمَامَا

طربت: حزنت، فما هذا الشجن الذي تهيجه فينا يا حمام؟

مُطَوَّقَةً تَرَنَّمُ فوقَ غُصْنٍ　　إذا ما قلتُ مَالَ بها، اسْتَقاما

أميرُ المؤمنينَ قَضَى بِعَدْلٍ　　أحلَّ الحِلَّ واجْتَنَبَ الحَراما

فيَا رَبَّ البَرِيَّةِ أَعْطِ شُكْراً　　وعافِيَةً، وأَبْقِ لنا هِشاما

ويَحْسَرُ مَنْ تَرَكْتَ فلم تُكَلِّمْ　　ويُغْبَطُ مَنْ تُراجِعُهُ الكَلاما

يحسر (يغض بصره) من تتجاهله، ومحسود من تراجعه الكلام (تحادثه)

رضِينا بالخليفةِ حين كُنَّا　　له تَبَعاً وكان لنا إماما

كُنَّا هنا للحاضر لا للماضي كما في الذكر «وكان الله بكل شيء عليماً»

ورِيشي مِنْكُمُ، وهَوايَ فيكُمْ　　وإن كانَتْ زيارَتُكُمْ لِمَاما

ريشي: نعمتي، لماماً: متباعدة

٩١ يعطين ويحرمن

ألا قُلْ لِرَبْعٍ بالأُفَاقَيْنِ يَسْلَمِ　　يُحَيًّا على شَحْطٍ وإنْ لم يُكَلَّمِ

على شحط: برغم البعد

ومَنْ يُعْطَ وُدَّ الغَانياتِ فإنه　　غنيٌّ، ومَنْ يَحْرِمْنَهُ فهو يُحْرَمِ

٩٢ مدح عمر بن عبد العزيز

إنَّ طِلابَكَ شيئاً لستَ نائِلَهُ　　جهلٌ، وطُولُ لُبانَاتِ الهوى سَقَمُ

طلابك (ملاحقتك) ما لن تناله جهل، وطول التفكير في لبانات (رغبات)
الهوى سقم (مرض)

حَمَّلْتُ رَحْلِي على الأَهْوالِ نَاجِيَةً　　مثلَ القَرِيعِ المُعَنَّى شَفَّهُ السَّدَمُ

رفعت رحلي، رغم المتوقع من أهوال السفر، على ظهر ناجية (ناقة سريعة) تشبه القريع (البعير)
المتوتر الذي شفه (أتعبه) السدم (طول الحبس عن الإناث)

مِنَ الطَّوامِحِ أَبْصَاراً، إذا خَشَعَتْ عنها ذُرَى عَلَمٍ قالوا بَدا عَلَمُ

ناقتي تطمح ببصرها (ترفع رأسها) فإذا خشعت عنها (انخفضتْ) ذرى علم (قمة جبل) بدا جبل جديد

إلى الأَغَرِّ الذي تُرْجَى نَوافِلُهُ إذا الوُفُودُ على أبوابِهِ ازدَحَمُوا

قد جئت بالناقة إلى الأغر (الصبيح الوجه) الذي ترجى نوافله (عطاياه) عندما تزدحم وفود السائلين ببابه

أَشْبَهْتَ مِنْ عُمَرَ الفَاروقِ سيرَتَه سَنَّ الفَرائِضَ وائْتَمَّتْ بِهِ الأُمَمُ

فعلاً أشبهه، لذا لم يعطِ جريراً سوى القليل

٩٣ عوى الشعراء

أقولُ لِصُحْبَتِي لمَّا ارتحَلْنا ودمعُ العينِ منهمرٌ سِجَامُ
أَتَمْضُونَ الرُّسُومَ ولا تُحَيَّا كَلامُكُمُ عَلَيَّ إذنْ حَرامُ

أتمضون الرسوم: أتمرون بالأطلال، ولا تحيونها، فلا والله ما كلمتكم إذن

أَقِيمُوا إنَّما يومٌ كَيومٍ ولكنَّ الرَّفِيقَ له ذِمامُ
بِنَفْسي مَنْ تَجَنُّبُهُ عَزيزٌ عَلَيَّ ومَنْ زِيارَتُه لِمَامُ

أفدي بنفسي من يصعب عليَّ تجنبه، ومن لا أزوره إلا لماماً (قليلاً)

ومَنْ أُمْسِي وأُصبِحُ لا أَراهُ ويطْرُقُني إذا هَجَعَ النِّيامُ

يأتيني في المنام

أليس لِمَا طَلَبْتُ فَدَتْكِ نفسي قَضاءٌ، أو لِحاجَتِيَ انْصِرامُ

ألا تلبين رغبتي في الوصال؟ أليس لحاجتي انصرام (انقضاء)؟

أَتَنْسَى إذْ تُودِّعُنا سُلَيْمَى بِعُودِ بَشَامَةٍ؟ سُقِيَ البَشَامُ

يخاطب نفسه: أتنسى يوم ودعتنا سليمى ولوحت ـ دون أن تقدر على كلامنا ـ بعود بشامة (من الأشجار)؟ ألا سقى الله البشام

تَرَكْتِ مُحَلَّئِينَ رَأَوْا شِفَاءً فَحامُوا ثم لم يَرِدُوا وحَامُوا

تركت يا سليمى ناساً محلئين (مطرودين عن الماء) رأوا فيه شفاء ظمأهم فحاموا وحاموا ولم يتيسر لهم ورود الماء

فَلَوْ وَجَدَ الحَمامُ كما وَجَدْنا بِسُلْمانِينَ لاكْتَأَبَ الحَمامُ

لو وجد الحمام (حزن/من الوَجْد) مثلنا في سلمانين لاكتأب

عَوى الشعراءُ بعضُهُمُ لِبَعْضٍ عَلَيَّ، فقد أصابَهُمُ انتقامُ
ساعد الشعراء بعضهم بعضاً عليَّ، وأصابهم جميعاً انتقامي

كأنَّهُمُ الثَّعالِبُ حين تَلْقَى هِزَبْراً في العَرينِ له انْتِحَامُ
الهزبر الاسد، الانتحام: هرير الأسد

إذا أَوْقَعْتُ صاعِقَةً عليْهِمْ رَأَوْا أخرى تَحَرَّقُ فاسْتَدَامُوا
استداموا: تأنَّوْا

فَمُصْطَلَمُ المَسَامِعِ أو خَصِيٌّ وآخَرُ عَظْمُ هامَتِهِ حُطَامُ
مصطلم: مقطوع الأذنين

٩٤ مدح رياح

ما كان يُوجَدُ في «رِيَاحِ» نَبْوَةٌ عند الجِوارِ ولا بِضيقِ المَقْدَمِ
قبيلة رياح لا تتأخر عن حماية من يستجير بها، ولو كان فيها ضيق لدى قدومه، كذا المعنى الملموح

السَّالِبينَ عنِ الجَبابِرِ بَزَّهُمْ والخيلُ تَحْجِلُ في الغُبارِ وفي الدَّمِ
يسلبون بز (ملابس) الأبطال بعد قتلهم في معركة تنقل الخيل فيها أرجلها بين الغبار والدم

والخيلُ تُخْبِرُ عن رِياحٍ أنَّهُمْ نِعْمَ الفَوارِسُ في الغُبَارِ الأَقْتَمِ

٩٥ على هوى النسوان

أَمَّا أُسَيْدٌ والهَجيمُ ومَازنٌ فَشِرارُ مَنْ يمشي على الأقدامِ
الظَّاعنونَ على هوى نِسوانِهِمْ والنازلونَ بِشَرِّ دارِ مُقامِ

٩٦ لؤم التيم

نَهَيْتُ التَّيْمَ عن سَفَهٍ، وطَالَتْ أَناتي وانتظَرْتُ ذَوي الحُلُومِ
انتظرت العاقلين من تيم كي يكفوا شاعرهم عن سفهه

ترى الأبطالَ قد كَلِمُوا، وتَيْمٌ صَحيحُو الجِلْدِ مِنْ أَثَرِ الكُلُومِ
تيم جبناء، ترى الأبطال قد كلموا (جرحوا) وتيم ليس بهم جراح

وما لِلتَّيْمِ مِنْ حَسَبٍ حَديثٍ وما للتيمِ من حَسَبٍ قديمِ
مِنَ الأَصْلابِ يَنْزِلُ لُؤْمُ تَيْمٍ وفي الأَرْحامِ يُخْلَقُ والمَشِيمِ

تَرى التَّيْمِيَّ يَزْحَفُ كالقَرَنْبَى إلى سَوداءَ مِثلِ قَفَا القَدُومِ
القرنبى: حشرة، ويشبه امرأة التيمي بقفا القدوم (المطرقة)

٩٧ أعين الحسان

وإذا وَعَدْنَكَ نائِلاً أَخْلَفْنَهُ وإذا طُلِبْنَ لَوَيْنَ كلَّ غَريمِ
إذا وعدنك بنائل (عطاء) أخلفن الوعد، وإذا طولبن لوين (مطلن) كل غريم (دائن)

فاعْصِي مَلامَ عَواذِلٍ يَنْهَيْنَكُمْ فلقد عَصيْتُ إليكِ كلَّ حَميمِ
ينصح محبوبته بعصيان لوم العواذل، فهو قد عصى كل صديق تقرباً إليها

يَرْمِينَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ بِأَعْيُنٍ فيها السَّقَامُ وبُرْءُ كلِّ سَقِيمِ
ترمي النسوة من الشقوق بين الستور بنظرات فيها مرض (ويتغزلون بالعيون المراض الكسولة)، وفيها أيضاً شفاء كل مريض

٩٨ ولدي بلال

إنَّ بِلالاً لم تَشِنْهُ أُمُّهُ
يفخر بولده بلال: لم تكن أمه مما يعيبه

لم يَتَنَاسَبْ خالُهُ وعَمُّهُ
أمه ليست من عائلتنا فلا نسب بين خاله وعمه، وهذا أشد له وأبعد عن الضوى

يَشْفِي الصُّدَاعَ رِيحُهُ وشَمُّهُ
ريحه: رائحته

ويُذهِبُ الهُمومَ عَنِّي ضَمُّهُ
كأنَّ رِيحَ المِسْكِ مُسْتَحَمُّهُ
عندما يستحم يشم المرء رائحة كالمسك

ما يَنبغي للمُسْلِمينَ ذَمُّهُ

٩٩ منيزلة

إذا شاعَ السلامُ بِدارِ قومٍ فليسَ على «عَزْوَلاةَ» السلامُ
مُنَيْزِلَةٌ تَبَرَّا اللَّهُ منها بِها مِنْ مازنٍ نَفَرٌ لِئَامُ

١٠٠ كاد يتكلم

قال يهجو البعيث:

لِمَنْ طَلَلٌ هاجَ الفؤادَ المُتَيَّما وهَمَّ بِسُلْمانِينَ أن يَتَكلَّما
وعهدي بِهندٍ، والشبابُ كأنَّه عَسيبٌ نَمَا في رَيَّةٍ فَتَقَوَّما

عسيب: شتلة نخل، رية: أرض مروية

لقد عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ منها عَلائِقٌ أَبَتْ طُولَ هذا الدهرِ أن تَتَصَرَّما

تتصرم: تنقطع

وعَاوٍ عَوَى مِنْ غيرِ شيءٍ رميتُهُ بِقارِعَةٍ أَنْفَاذُها تَقْطُرُ الدَّمَا

رب عاوٍ عوى دون أن أتعرض له (وذلك هو الشاعر البعيث الذي بدأ جريراً بالهجاء)، فرميته بقارعة (ضربة) نفذت في جسمه فمن أنفاذها (فتحاتها) يقطر الدم، وما القارعة سوى قصيدة

خَرُوجٍ بِأَفْواهِ الرُّوَاةِ كَأَنَّها قَرَا هُنْدُوَانِيٍّ إذا هُزَّ صَمَّمَا

قصيدتي فيه تخرج من أفواه الرواة كأنها قرا هندواني (نصل سيف) إذا هزه المرء صمم (تغلغل وأصاب المفصل)

وإنِّي لَقَوَّالٌ لِكُلِّ غَريبَةٍ وَرُودٍ إذا السَّاري بِلَيْلٍ تَرَنَّما

أقول كل قصيدة غريبة (ترحل بعيداً فهي في أراض غريبة)، وترد على لسان الساري المترنم ليلاً وهو يحدو إبله

فَهَلَّا سألتَ الناسَ إن كنتَ جاهلاً بِأَيَّامِنا يا ابنَ الضَّرُوطِ لِتَعْلَمَا
وما كانَ ذو شَغْبٍ يُمَارِسُ عِيصَنَا فَيَنْظُرَ في كَفَّيْهِ إلَّا تَنَدَّمَا

المشاغب الذي يمارس (يعالج) عيصنا (شجرنا الملتف) ثم ينظر في كفيه يراهما داميتين فيندم

١٠١ هند

لقد وَكَفَتْ عيْنَاهُ أنْ ظَلَّ واقِفاً على دِمْنَةٍ لم يَبْقَ إلَّا رَمِيمُها

وكفت: سالت بالدمع

أَبَيْنا فلم نَسْمَعْ بِهِنْدٍ مَلامَةً كما لم تُطِعْ هندٌ بِنا مَنْ يَلُومُها
وأَنَّى لَهُ هِنْدٌ وقد حَالَ دونَها عُيونٌ وأَعْدَاءٌ كَثيرٌ رُجُومُها

رجومها: ظنونها

١٠٢ ارجعي غداً

ذُمَّ المَنازِلَ بعدَ مَنزِلَةِ اللِّوَى والعيشَ بعدَ أولئكَ الأقوامِ
فإذا وقفتُ على المنازِلِ باللِّوَى فاضَتْ دُموعِي غيرَ ذاتِ نِظامِ
طَرَقَتْكَ صائِدَةُ القلوبِ وليس ذا وقتَ الزِّيارةِ فارجِعِي بِسلامِ

جاءتك في المنام فقلتَ لها ارجعي بسلام، فهو يريد رؤيتها في الصحو لا في المنام..

تُجْرِي السِّوَاكَ على أَغَرَّ كأنَّهُ بَرَدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمامِ

تمر بالسواك على ثغر أغر (أبيض) كأن أسنانه بَرَد انهمر من السحاب

لولا مُراقَبَةُ العيونِ أَرَيْنَنا مُقَلَ المَها وسوالِفَ الآرامِ

لولا الرقباء لأرتنا الحسان مقل المها (عيونهن الشبيهة بعيون بقر الوحش) وسوالف الآرام (أعناقهن الشبيهة بأعناق الظباء)

ونَظَرْنَ حينَ سمعْنَ رَجْعَ تَحيَّتي نَظَرَ الجِيادِ سَمِعْنَ صَوتَ لِجَامِ

جفلن من صوتي

مَهْلاً فرزدقُ إنَّ قَومَكَ فيهِمُ خَوَرُ القُلوبِ وخِفَّةُ الأحلامِ

خور القلوب: فراغها لجبنهم، خفة الأحلام: ضعف العقول

كان العِنانُ على أبيكَ مُحَرَّماً والكِيرُ كان عليهِ غيرَ حَرامِ

كان محرماً على أبيك الإمساك بمقود الفرس، فهو ليس بفارس، ولكنه كان يلتزم بالكير (منفاخ الحداد)

١٠٣ ذاب لعاب الشمس

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونِمْتِ، ومَا لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ

يعاتب ابنته أم غيلان لأنها تلومه على السرى (سفر الليل)، وابنته تنام ولكن المطي (النياق) تسهر الليل وتسير

إذا العُفْرُ لاذَتْ بالكِناسِ وهَجَّجَتْ عيونُ المَهارَى مِنْ أَجِيجِ السَّمائِمِ

وفي هدأة الليل تلوذ العفر (الظباء) بالكناس (بيت الظبي)، وتهجج عيون المهارى (تغور عيون النياق) من أجيج السمائم (من حر رياح السموم)

وظَلَّتْ قَراقِيرُ الفَلاةِ مُناخَةً بِأَكْوارِها مَعْكُوسَةً بِالخَزائِمِ

وبعدئذ تناخ قراقير الفلاة (سفن الصحراء)، وعليها أكوارها (أخشاب الرحال)، وأزمتها معكوسة بالخزائم (مربوطة ما بين رؤوسها وقوائمها لتبرك)

أَنَخْنَ لِتَغْويرٍ وقد وَقَدَ الحَصَى   وذَابَ لُعَابُ الشَّمسِ فوقَ الجَماجِمِ
أنيخت الإبل للتغوير (الاستراحة) وقد أصبح الحصى حاراً، والشمس حارقة فوق الرؤوس

أَلَا إنَّمَا كَانَ الفرزدقُ ثَعلباً   ضَغَا وَهْوَ في أشداقِ لَيثٍ ضُبَارِمِ
ضغا: صاح، ضبارم: من أسماء الأسد

لقد وَلَدَتْ أمُّ الفرزدقِ فاسقاً   وجاءَتْ بِوَزْوَازٍ قصيرِ القَوائمِ
وزواز: طائر كثير الحركة

١٠٤ القرد الزاني

وما كان جارٌ للفرزدقِ مُسْلِمٌ   لِيَأْمَنَ قِرداً لَيْلُه غيرُ نائِمِ
جار الفرزدق، حتى وإن كان مسلماً، لا يأمن الفرزدق القرد الذي ليلُه لا ينام (ليلُه صاحٍ = هو صاحٍ)

يُوَصِّلُ حَبْلَيْهِ إذا جَنَّ ليلُهُ   لِيرقَى إلى جاراتِه بِالسَّلالِمِ
الفرزدق يوصل الحبلين إذا جن الليل (ستر الأشياء) ليصعد إلى من في جوار قومه من نساء

أتيْتَ حدودَ اللَّهِ مُذْ أنتَ يَافِعٌ   وشِبْتَ فما يَنهاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ
اللهازم: اللِّهْزِمَة عظمة تحت الأذن

تَتَبَّعُ في المَاخُورِ كلَّ مُرِيبَةٍ   ولستَ بأهلِ المُحْصَناتِ الكَرائمِ
ترتكب في الماخور (بيت الجماع) كل مريبة (فعلة شنعاء)، ولست أهلاً للزواج من المحصنات (العفيفات) الكرائم (الكريمات)

تَدَلَّيْتَ تَزْنِي مِنْ ثمانينَ قامةً   وقَصَّرْتَ عن بَاعِ العُلَى والمكارمِ
وفي الواقع أن الفرزدق «ارتقى» ليزني ثم بعد ذلك تدلى هارباً كما وصف نفسه في قصيدة له مشهورة

أَكَلَّفْتَ قَيْساً أنْ نَبَا سَيْفُ غالِبٍ   وشَاعَتْ له أُحْدُوثَةٌ في المَواسِمِ
رحت تلوم قبيلة قيس عندما نبا سيفك، الذي هو سيف أبيك غالب، وأخفقت في قتل الأسير. وكانت أحدوثة (فضيحة) في المواسم (الأسواق)

بِسيفِ أَبِي رَغْوانَ، سيفِ مُجَاشِعٍ،   ضربْتَ، ولم تضرِبْ بسيفِ ابنِ ظَالِمِ
لقد ضربت بسيف مجاشع أبي رغوان جدك الأعلى ولذا نبا سيفك، ولم تضرب بسيف الحارث بن ظالم ذلك الفاتك المرِّيّ قاتل ابن السموأل

ضربْتَ بهِ عند الإمامِ فأُرْعِشَتْ   يداكَ، وقالوا مُحْدَثٌ غيرُ صَارِمِ

١٠٥ هجاء مزارع

لقد عَلِقَتْ يمينُكَ قَرنَ ثَوْرٍ   وما عَلِقَتْ يمينُكَ بِاللِّجَامِ

أنت مزارع لا مقاتل

ذَرَنَّ الفخرَ يا ابنَ أَبي خُلَيْدٍ   وأَدِّ خَراجَ رأسِكَ كلَّ عامِ

ذرنَّ: اتركَنَّ

١٠٦ زُهرة وأمها

قال لبني الديان وناصروا الفرزدق عليه:

ستعلَمُ أمُّ زُهْرَةَ مَنْ هَجَاها   إذا قالت لِزُهْرَةَ مَنْ هَجاني

فلا حَسَبي يُقَصِّرُ في تَميمٍ   ولا سَيفي يَكِلُّ ولا لِساني

١٠٧ يا ذا العباءة

يرد على الأخطل:

لِمَنِ الديارُ بِبُرْقَةِ الرَّوْحَانِ   إذْ لا نَبيعُ زمانَنا بِزَمانِ

إن زرتُ أهلَكِ لم يُبَالُوا حاجَتي   وإذا هجرتُكِ شَفَّني هِجْراني

شفني: آلمني

راجعْتُ بعدَ سُلُوِّهِنَّ صَبابَةً   وعرفتُ رَسْمَ منازِلٍ أبكاني

أَخْطَا الربيعُ بلادَهُمْ فَتَيَمَّنُوا   ولِحُبِّهِمْ أحبَبْتُ كلَّ يَمَاني

أخطأ الربيع (العشب والمطر الذي ينبته) بلادهم فاضطروا للهجرة إلى اليمن

بَكَرَتْ حَمامةُ أَيْكَةٍ مَحزونةٌ   تَدْعُو الهَديلَ فَهَيَّجَتْ أَحزاني

والهديل في الخرافة ابن الحمامة الذي ذهب ولم يعد

ولقد أبيتُ ضَجيعَ كلِّ مُخَضَّبٍ   رَخْصِ الأنامِلِ طَيِّبِ الأَرْدَانِ

مخضب: مصبوغ بالحناء، رخص الأنامل: طري الأصابع، الأردان: الأكمام

عَطِرِ الثيابِ مِنَ العبيرِ مُذَيَّلٍ   يَمشي الهُوَيْنَى مِشيَةَ السَّكْرانِ

معطرة تجر أذيال ثوبها وتمشي الهوينى

يـا ذَا الـعَـبـاءةِ إن بِـشْـراً قـد قَـضـى ... أَلَّا تـجـوزَ حـكـومـةُ الـنَّـشْـوانِ

يا أيها الأخطل الذي أعطِيَ عباءة كي يحكم للفرزدق عليَّ، الأمير بشر بن مروان الذي قلت ما قلت في مجلسه قضى بأن الحكومة (الحكم) لا تجوز للنشوان (السكران)

فدَعُوا الحكومةَ لَسْتُمُ مِنْ أهلِها ... إن الـحـكـومـةَ فـي بـنـي شَـيْـبـانِ

الحكم، في قبائل ربيعة، ليس لتغلب بل لشيبان

بَـكْـرٌ أَحَـقُّ بـأن يَـكـونُـوا مَـقْـنَـعـاً ... أو أن يَـفُـوا بـحـقـيـقـةِ الـجـيـرانِ

وقبيلة بكر الربعية هي أحق بأن تكون مقنعاً (كافيةً هذا الجانب) وأن تفي بحقيقة (شرف) الجيران (من يجاورها)

قَـتَـلُـوا كُـلَـيْـبَـكُـمُ بِـلِـقْـحَـةِ جـارِهِـمْ ... يـا خُـزْرَ تـغـلـبَ لَـسْـتُـمُ بِـهِـجـانِ

جساس البكري قتل كليب بن ربيعة التغلبي بلقحة (بسبب ناقة) جارهم (رجل استجار بهم وأقام عندهم)، وأنتم يا تغلب الخزر (الضيقو العيون) لستم بهجان (بأصيلين)

كَـذبَ الأُخَـيْـطِـلُ إنَّ قَـومـي فـيـهِـمُ ... تـاجُ الـمـلـوكِ ورايَـةُ الـنـعـمـانِ

والـتَّـغـلـبِـيُّ مُـغَـلَّـبٌ قَـعَـدَتْ بـه ... مَـسْـعَـاتُـهُ، عَـبْـدٌ بِـكُـلِّ مَـكـانِ

تَـلقَـى الـكَـرائِـمَ إن خُـطِـبْـنَ غَـوالِـيـاً ... والـتَّـغْـلِـبِـيَّـةُ مَـهْـرُهـا فَـلْـسَـانِ

١٠٨ ماذا لقيت من الهوى ولقينا

قال يمدح الخليفة الأموي:

أَمْـسَـيْـتُ إذ رَحَـلَ الـشـبـابُ حَـزيـنـا ... لـيـتَ الـلَّـيـالـيَ قـبـلَ ذاكَ فَـنـيِـنـا

مـا لِـلْـمَـنـازِلِ لا يُـجِـبْـنَ حَـزيـنـا ... أَصُـمِـمْـنَ أم قَـدُمَ الـمـدَى فَـبَـلِـيـنـا

إن الـذيـنَ غَـدَوْا بِـلُـبِّـكَ غَـادَرُوا ... وَشَـلاً بِـعَـيْـنِـكَ مـا يـزالُ مَـعـيِـنـا

الوشل: الماء القليل، مَعين: ظاهراً

غَـيَّـضْـنَ مِـنْ عَـبَـراتِـهِـنَّ وقُـلْـنَ لـي: ... مـاذا لـقـيـتَ مِـنَ الـهـوى ولَـقـيـنـا

بكت لفراقه الحبيبات، ثم غيضن من عبراتهن (جففن دموعهن) وشكون ما لقين من الهوى وما لقي الحبيب

ولـقـد تَـسَـقَّـطَـنـي الـوُشَـاةُ فـصـادفُـوا ... حَـصِـرَاً بِـسِـرِّكِ يـا أُمَـيـمَ ضَـنـيـنـا

تسقطني الوشاة (حاولوا التقاط ما يسقط مني من كلام) فرأوني حصراً بسرك (صامتاً عنه) ضنيناً به

إنَّ الـذي حَـرَمَ الـمكـارمَ تـغـلـبـاً　　جـعـلَ الـنُّـبُـوَّةَ والـخـلافـةَ فـيـنـا

تميم، قبيلة جرير من مضر، وقريش من مضر، فأما تغلب فمن ربيعة

مُضَرٌ أبي وأَبو الملوكِ فهل لكُمْ　　يـا خُزْرَ تـغـلـبَ مِـنْ أَبٍ كَـأَبِـيـنـا

هـذا ابْنُ عَمِّيَ في دِمَشْقَ خَـلـيفـةً　　لـو شِـئْـتُ سـاقَـكُـمُ إِلَـيَّ قَـطِـيـنـا

القطين: الخدم

١٠٩ أطال الله سخطكم

يَــرُوغُ الــقــردُ مِــنِّــي إنْ رَآنــي　　فَــقُــلْ لــلـقِـرْدِ أيـنَ تَـروغُ أيْـنَـا

يفر الفرزدق من وجهي كلما رآني

أَحـيـنَ رأَيـتَـنـي مَـرَسَـتْ حِـبـالـي　　وَجَـدَّ الـجِـدُّ تَـسْـأَلُـنـي الـهُـوَيْـنـا

تطلب مني التخفيف من حدة الهجاء بعد أن مرست حبالي (اشتد فتلها) وجد الجد

فقد أَمْسَى الـبَعيثُ سَخينَ عَيْنٍ　　ومـا أَمْـسَـى الـفـرزدقُ قَـرَّ عَـيْـنـا

لقد آلمتُ البعيث الشاعر، ولم أوفر الفرزدق نفسه

إذا ذُكِـرَتْ مَـسـاعِـيـنَـا غَـضِـبْـتُـمْ　　أَطـالَ الـلَّـهُ سُـخْـطَـكُـمُ عـلـيْـنـا

مساعينا: أمجادنا

١١٠ هجاء الهجيم

إن الـهُـجَـيْـمَ قـبـيـلـةٌ مَـخْـسُـوسَـةٌ　　ثُـطُّ الـلِّـحَـى مُـتَـشَـابِـهُـو الأَلْـوَانِ

مخسوسة: ناقصة، ثط اللحى: لحاهم متفرق شعرها

لـو يَـسـمَـعـونَ بِـأَكْـلَـةٍ أو شُـرْبَـةٍ　　بِـعُـمَـانَ أَصْـبـحَ جـمـعُـهُـمْ بِـعُـمَـانِ

١١١ هجاء التيم

ومـا شَـكَـرَتْ تـيـمٌ لِـقَـوْمٍ كَـرامَـةً　　ومـا غَـضِـبَـتْ تَـيْـمٌ عـلـى مَـنْ يُـهـيـنُـهـا

ولـم يَـدْعُ إبراهيمُ في البيتِ إذ دَعـا　　لِـتَـيْـمٍ ولا مِـنْ طـيـنِ آدَمَ طـيـنُـهـا

ينفيهم عن العروبة، بل عن الإنسانية

ومـا حـمـلَـتْ تَـيْـمِـيَّـةٌ نِـصْـفَ لَـيْـلَـةٍ　　مِـنَ الـدهـرِ إلّا ازْدادَ لُـؤْمـاً جَـنـيـنُـهـا

١١٢ المرخي عمامته

يخاطب فقيهاً داخلاً على عمر بن عبد العزيز:

يا أَيَّها الرَّجُلُ المُرْخِي عِمَامَتَهُ   هذا زمانُكَ إنِّي قد مَضَى زَمَنِي
أبلِغْ خليفَتَنا إن كنتَ لاقِيَهُ   أنِّي لَدَى البابِ كالمَصْفودِ في قَرَنِ

المصفود في قرن: المقيد في حبل

لا تنسَ حاجتَنا لاقَيْتَ مغفِرَةً   قد طالَ مُكْثِيَ عنْ أهلِي وعن وَطَني

١١٣ في طرفها حور

بانَ الخَلِيطُ ولو طُوِّعْتُ ما بَانَا   وقَطَّعُوا مِنْ حِبالِ الوصلِ أقْرَانا

بان الخليط (فارق القوم) ولو طوعت (لو طاوعوني) ما فارقوا، وقطعوا أقران (حبال) الوصل

حَيِّ المنازِلَ إذْ لا نبتغي بَدَلاً   بالدارِ داراً ولا الجيرانِ جيرانا
يا رُبَّ مكتئِبٍ لو قد نُعِيتُ له   بَاكٍ، وآخرَ مَسرورٍ بِمَنْعَانا
لو تَعلَمينَ الذي نَلْقَى أَوَيْتِ لَنا   أو تسمعينَ إلى ذي العَرْشِ شَكوانا

أويت لنا: أشفقت علينا

كَصَاحِبِ الموجِ إذ مَالَتْ سفينتُه   يدعُو إلى اللَّهِ إسْراراً وإعلانا
يا أيُّها الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَه   بَلِّغْ تحيتَنا لُقِّيتَ حُمْلانا

المزجي مطيته: السائقها، حملانا: هدايا

بَلِّغْ رسائلَ عنَّا خَفَّ محمَلُها   على قلائِصَ لم يحمِلْنَ حِيرَانا

بلغ رسالتنا للمحبوبة واركب قلائص (نياقاً) لم يحملن حيراناً (جمع حُوار وهو ولد الناقة، أي نياقاً غير حوامل كي يسرعن أكثر)

يا ليتَ ذا القَلْبَ لاقَى مَنْ يُعَلِّلُه   أو سَاقِياً فَسَقَاهُ اليومَ سُلْوَانا

يعلله: يسليه، السلوان: شراب قيل في أساطيرهم إن الذي يشربه ينسى

أو ليْتَها لم تُعَلِّقْنا عِلاقَتَها   ولم يكنْ دَاخَلَ الحُبُّ الذي كانا

علاقة: عشق

هلَّا تَحَرَّجْتِ مِمَّا تفعلينَ بِنا   يا أَطيَبَ الناسِ يومَ الدَّجْنِ أَرْدَانا

يوم الدجن: اليوم الغائم، الأردان: الأكمام

قالتْ أَلِمَّ بنا إنْ كنتَ منطلقاً، ولا إخالُكَ بعد اليومِ تَلقانا
يا أُمَّ عمروٍ جَزاكِ اللَّهُ مَغفِرَةً رُدِّي عليَّ فُؤادي كالذي كانا
أَلَسْتِ أَحْسَنَ مَنْ يَمشي على قَدَمٍ يا أَمْلَحَ الناسِ كلِّ الناسِ إنسانا

الإنسان: بؤبؤ العين

يَلْقَى غريمُكُمُ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ بِالبَذْلِ بُخْلاً وبالإحسَانِ حِرْمَانا

رغم عدم عسرتكم (فقركم) فغريمكم (صاحب الدين عليكم) يلقى بخلاً منكم رغم بذله محبته وإحسانه إليكم

لا تَأْمَنَنَّ، فَإِنِّي غيرُ آمِنِهِ، غَدْرَ الخليلِ إذا ما كان أَلْوَانا
قد خُنْتِ مَنْ لم يكنْ يخشَى خِيانَتَكُمْ ما كنتِ أَوَّلَ مَوْثُوقٍ به خَانا
لقد كَتَمْتُ الهوى حتَّى تَهَيَّمَني لا أستطيعُ لهذا الحبِّ كِتْمَانا

تهيمني: صيرني هائماً على وجهي حيراناً

كادَ الهوى يومَ سُلْمانِينَ يقتُلُني وكادَ يقتُلُني يوماً بِبَيْدانا
لا بَارَكَ اللَّهُ فيمَنْ كان يحسَبُكُمْ إلَّا على العهدِ حتى كان ما كانا
لا بارَكَ اللَّهُ في الدنيا إذا انقطعتْ أسبابُ دنياكِ من أسبابِ دُنْيانا
ما أَحدَثَ الدهرُ مِمَّا تعلَمينَ لَكُمْ لِلْحَبْلِ صُرْمَاً ولا لِلعَهْدِ نِسيانا

لم يُحدث الزمن ومروره صرما لحبلكم (قطعاً لعهدكم) من جانبي

أَبُدِّلَ الليلُ لا تَسْري كواكِبُه أم طالَ حتى حسِبْتَ النَّجْمَ حَيْرانا
يا رُبَّ عائِذَةٍ بِالغَوْرِ لو شَهِدَتْ عَزَّتْ عليها بِدَيْرِ اللُّجِّ شَكْوانا

العائذة بالغور: النازلة في الغور، لو شهدتني في ذلك المكان لصعب عليها ما ألاقي

إنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا، ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا

طرفها: نظرها، الحور: شدة سواد في شدة بياض في العين

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لا حَرَاكَ به وهُنَّ أَضعفُ خلقِ اللَّهِ إنسانا

حتى العاقل ذو اللب فتلك العيون تصرعه رغم ضعف إنسانها (بؤبؤها)، وأحبوا العيون الناعسة التي كأنها عيون المريض

طارَ الفؤادُ مَع الخَوْدِ التي طَرقَتْ في النومِ طَيِّبَةَ الأَعْطَافِ مِبْدَانَا

الخود: الشابة، طرقت في النوم: حلم الشاعر بها، مبدان: مربربة، ريانة

قالَتْ تَعَزَّ، فإنَّ القومَ قد جَعلُوا ... دونَ الـزِّيـارةِ أبـوابـاً وخُـزَّانـا

خُزَّان: حراس

يـا حَبَّـذا جبـلُ الرَّيَّـانِ مِـنْ جبـلٍ ... وحبَّـذَا سَـاكِـنُ الـريَّـانِ مَـنْ كَـانَـا

وحَبَّـذَا نَـفَـحَـاتٌ مِـنْ يَـمَـانِـيَـةٍ ... تَـأْتـيـكَ مِـنْ قِـبَـلِ الـريـانِ أَحْـيَـانـا

يمانية: ريح قادمة من اليمن

هل يَرْجِعَنَّ، وليس الدهرُ مُرْتَجِعَاً ... عيشٌ بِها طَالَمَا احْلَوْلَى وما لَانا

احلولى: كان حلواً، ما لان: لم يكن زمن رغد وثراء

أَزْمَانَ يَدعُونَنِي الشَّيْطانَ مِنْ غَزَلِي ... وكُنَّ يَـهْـوَيْـنَـنِـي إذ كـنـتُ شَـيْـطَـانـا

١١٤ هجاء بني حنيفة

قـد غَـلَّـبَـتْـنِـي رُوَاةُ الـنـاسِ كـلُّـهِـمُ ... إلَّا حَـنـيـفَـةَ تَـفْـسُـو فـي مـنـاحـيـهـا

يفخر بأن رواة الناس (القبائل) كلهم اعتبروه غالباً للفرزدق في الهجاء، إلا قبيلة حنيفة

تُخزِي حَنيفَةَ أيَّامٌ كَسَتْ حُمَمَاً ... منها الوجوهَ فمَا شيءٌ بِمَاحِيها

حمم: سواد

أيـامَ تُـسـبَـى ولا تَـسـبـي، ويـقـتُـلُـهـا ... مـا لـم تـؤدِّ خَـراجـاً مَـنْ يُـعَـادِيـهـا

وحنيفة في منطقة اليمامة من الزراع، وكان باليمامة ناس من أقارب حنيفة من ربيعة غير زراع، وكان بها ناس من يربوع قوم جرير غير زراع أيضاً. وقد درج العربي قديماً وحديثاً على احتقار الزراعة والافتخار بالرعي والغزو، وحتى قبل الإسلام فإن الرعاة المحاربين كانوا يفرضون على أهل الزراعة الإتاوات إما على هيئة غزو أو ضريبة

قَطْعُ الدِّبَارِ وأَبْرُ النَّخْلِ عادتُهُمْ ... قِدْماً، فَما جَاوَزَتْ هذا مساعِيها

عادتهم منذ القدم قطع الدبار (تقسيم أراضي الزراعة) وأبر النخل (تلقيحه)، وما جاوزت (تعدَّت) هذا مساعيها (أمجادها)

رَأَتْ حنيفةُ إذ عَدَّتْ مَساعِيَها ... أنْ بِئْسَمَا كان يبني المجدَ بانيها

لما رَأَتْ خالِداً بِالعِرْضِ أَهْلَكَها ... قَتلاً، وأَسْلَمَها ما قَال طَاغِيها..

لما أوقع خالد بن الوليد في وادي العِرض باليمامة ببني حنيفة، وأسلمها (خذلها) ما قاله طاغيها (مسيلمة الكذاب الذي ارتد بعد وفاة الرسول)..

دَانَتْ وأَعْطَتْ يَدَاً للسِّلْمِ صَاغِرَةً ... مِنْ بعدِ ما كادَ سيفُ اللَّهِ يُفنيها

عندئذٍ دانت (خضعت) حنيفة، بعد أن كاد خالد يفنيها

صَارَتْ حنيفةُ أثْلاثاً فَثُلْثُهُمُ   مِنَ العَبيدِ وثُلْثٌ مِنْ مَوالِيها

ويبدو أن الثلث الباقي من الأحرار، لكن.. الزراع

١١٥ عف الفقر مشترك الغنى

هذا آخر ما نختاره لجرير، لأنه على الياء، وهو من أوائل قصائده، وقالها في زمن معاوية:

نَظَرْتُ بِرَهْبَى والظَّعَائِنُ باللِّوَى   فَطَارَتْ بِرَهْبَى شُعْبَةٌ مِنْ فُؤادِيا

رَغِبْتُ إلى ذي العرشِ مَولَى محمدٍ   لِيَجْمَعَ شَعْباً أو يُقَرِّبَ نائيا

الشعب: الصدع

أذا العَرْشِ إنِّي لستُ ما عِشْتُ تَاركاً   طِلابَ سُلَيْمَى فَاقْضِ ما كنتَ قاضِيا

ولو أنَّها شاءتْ شَفَتْني بِهَيِّنٍ   وإن كان قد أعْيَا الطَّبيبَ المُداوِيا

وإنِّي لَعَفُّ الفقرِ مُشْتَرَكُ الغِنى   سَريعٌ إذا لم أرْضَ دَارِي احْتِمَالِيا

إن افتقرت عففت عن الطلب، وإن اغتنيت أشركت قومي في مالي، وإذا لم أرض عن وضع معين فأنا سريع الاحتمال (حمل متاعي والارتحال)

وقائِلَةٍ والدمْعُ يَحْدِرُ كُحْلَها   أَبَعْدَ جريرٍ تُكْرِمُونَ المَوالِيا

غضبت له هذه المرأة لأن قومه أهملوه، والتفتوا لناس من الموالي

فأنتَ أَبي ما لم تَكُنْ لِيَ حَاجَةٌ   فإنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أن لا أَبَا لِيَا

يصف حاله مع قومه، ولعله يعني أباه عطية فعلاً، فهو «أبٌ» ما لم يطلب منه ابنه شيئاً، فإن كلفه شيئاً فلا يعود أباً. وقيل كان جرير عاقاً بعض العقوق، ونال عقوقاً من بعض أبنائه

بأَيِّ سِنانٍ تَطْعَنُ القَومَ، بعدَما   نَزَعْتَ سِناناً مِنْ قَناتِكَ ماضِيا

فيا قوم كيف تردون كيد أعدائكم، وقد تخليتم عن شاعركم الذي هو كالسنان نزعتموه من قناتكم (عصا الرمح)

ألمْ أَكُ ناراً يَصطَليها عَدُوُّكُمْ   وحِرْزاً لِمَا أَلْجَأْتُمُ مِنْ وَرائِيا

الحرز: الحارس الحامي

وباسِطَ خَيرٍ فيكُمُ بِيَمينِه   وقَابِضَ شَرٍّ عنكُمُ بِشِمَالِيا

وليس لِسَيْفي في العِظَامِ بَقِيَّةٌ   ولَلسَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيا

سيفي يصل العظام ولا يبقي على من يصيبه، على أن سيفي أشوى (أخف) أثراً من لساني

جرير

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

عمرُ بنُ أبي ربيِعة

(٢٣هـ ــ ٩٣هـ)

المرأة ليست مثلنا.

المرأة لا تأكل رأس بصل مع صحن الفول.

المرأة تحبُّك قوياً متوحشاً، وتعشقك ضعيفاً. كن لها حاميَ الحمى، أو كن لها الطفل. ستعرف صدقَ كلامي عندما تنكسرُ يدُك وتحملها بين صدرك وبطنك مكسوَّةً بالجبس، مربوطةً إلى عنقك. سترى فتاتك عندئذ تسرع إليك وتطعمك بيدها. وستسمع للمرة الأولى في حياتك كلمة يا حبيبي.

إن تعرضت لها بغزل وقلة حياء ثم ارعويت وحسُنَ خلقك فلن تغفرَ لك، إلَّا إن كررتَ المحاولة.

والرجل يكون فاسقاً خشناً كالفرزدق فينال من النساء، ويكون أنيساً ناعماً كشاعرنا فينال من النساء. وبين هذين النموذجين من الرجال يوجد نموذج ثالث، هو نحن كلنا.

والمرأة معذورة في كل ما تصنعه بالرجال، فقد أصروا على أنها فتنة. أصروا على قياس روحها بالمازورة، أي متر الخيَّاطين. وأصروا على أن يكتبوا على قفا العلبة تاريخ الانتهاء. فإذا ما تجاوزت المرأة هذا التاريخ رموا بها.

في كينيا تقضي بعض التقاليد بقتل العجائز بدعوى أنهن ساحرات. وتُقتل في ذلك البلد في كل عام، وأنا أكتب لك هذا في عام ٢٠١٦، عشرات العجائز.

معذورة المرأة، فهي تردُّ على قسوة الرجال بأن تستقطر كل ما يمكن من الإعجاب في أقصى ما يمكن من السنوات فتسوق عليهم الدلال، وتطيل حياتها

الرقيَّة بالنفخ والشفط والتكبير والتصغير. هي أسيرة، والرجل حيوان قاس.

كان أبو عيسى في نحو الخامسة والسبعين عندما سألتُه: أتذهب منَّا الشهوة مع العمر؟ فقال: بل تبقى، وإن ذهبتْ الاستطاعة. فكربني جوابه. كنت أظن أن المرء إن تقدم به العمر عاش سنوات من الراحة لم يشعر فيها بما يشعر به كل واحدٍ منَّا من هذا الافتتان. وقد قُيِّض لي أن أسمع من امرأة شيئاً عن هذا الأمر عندهن. فقد نقلت لي هذه الشابة عن صديقة لها قطعت الخمسين، وقطعَها ما كان يعتادها. قالت لي إن صاحبتها المسنة قالت لها: كل تلك المشاعر تَروحُ تَروح. وقالت ذلك بألم. وفسَّرتُ الأمر في عقلي: أن الرجل يبقى فيه قدرة ـ ولو نظرية ـ على الإنجاب حتى سن متقدمة، فأما المرأة فلها فعلاً تاريخ انتهاء صلاحية من هذه الناحية. هي تستريح من تلك المشاعر، ولكنها نفسياً تبقى محتاجة إلى ما تعودت أن تلقاه من مشاعر الإعجاب.

في الصفحات التالية يأتيك كلام شاعر فاتك غزِل هو عمر بن أبي ربيعة. فإن عجبت كيف يقول الرجل كل هذا الشعر الفاضح وهو عائش بين مكة والمدينة فاعلم أن الناس كانوا غير الناس. كانوا في ذلك الزمن طبيعيين.

ولد شاعرنا سنة ٢٣ للهجرة، قيل في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب الذي كان من خؤولة أبيه. فسمي باسمه وكُنِّي بكنيتيه، فشاعرنا اسمه عمر وكنيتاه: أبو الخطاب، وأبو حفص.

فأما العمومة فهي مخزوم. شاعرنا من قبيلة مخزوم من قريش. وكان من أعلى فروع مخزوم نسباً ومالاً. أبوه عبد الله. . وكان اسم الأب بحيرا، فغيره النبي إلى عبد الله. وولَّاه النبي منطقة الجَنَد باليمن. وجده أبو ربيعة كان من أغنياء قريش. كان طويلاً مهيباً، وبلغ من ثرائه أنه كان يكسو الكعبة سنة وحدَه، وتكسوها قريش كلها سنة، فسموه العِدل لأنه يعادل كل قريش.

كان لهذا الفرع من مخزوم عبيد كثر من الأحباش. وكانوا أهل مال جاءهم من التجارة بين اليمن والشام.

أمُّ شاعرنا سبية نصرانية من حضرموت اسمها مجد. وزعم من يزعمون أن للشعوب خصائص تنتقل بيولوجياً أن الغزل جاء عمرَ من تلقاء أمه اليمانية، وقد قيل «الغزل يماني والدلال حجازي».

غير بعيد أن يكون عمر ولد في اليمن، لكنه عاش طفولته في المدينة

وسرعان ما اتخذ مكة، وفيها عشيرته، وطناً. ومن شعره نحس أن معظم مغامراته كانت بمكة.

وكانت جدة شاعرنا تبيع العطر. كأنما كانت تتاجر به، لا أن لها دكاناً تقعد فيه تبيع العطر.

هذه بيئة حجازية مترفة. لم يغير فيها الإسلام بسماحته، التي لا نعرف عنها اليوم ما يجب أن نعرف، الكثير. فقد دخلت مخزوم في الإسلام وكان منها بطل الإسلام خالد بن الوليد. واستمر التاجر يتاجر، ورغم اضطراب الأحوال في سنوات معينة فإن الحياة لم تتوقف. عندما كان شاعرنا في نحو السابعة عشرة سمع بمعركة صفين، واستقر الأمر بعدها لمعاوية فلم تتأثر الحجاز كثيراً بأحداث العراق والشام، وأغدق معاوية على مكة والمدينة. وعندما بلغ شاعرنا الأربعين وقعت أحداث صعبة في المدينة المنورة، ولعله كان أثناءها قد سكن مكة. وحكم الحجاز ابن الزبير تسع سنين، ثم قتل في الكعبة في أحداث اضطرب لها الحجاز كثيراً. ولعل شاعرنا كان آنذاك في اليمن، أو لعله كان قد نسك ولزم بيته.

وفي كل حال، فإن شاعرنا لا يورد شيئاً من كل تلك الحوادث. فشعره كله مقصور على الغزل، وعلى وصف المرأة. ليكن عمر بن أبي ربيعة في أي مكان فهذا لا يهمنا، فشعره كله نمط واحد. وليس له من السياسة، ولا من أي شيء آخر، سوى المرأة والافتتان بها، نصيب.

كان أخوه الحارث موظفاً في الدولة، وكان تقياً. وعرفنا لعمر ابناً اسمه جَوان، وكان تقياً. وعرفنا له صديقاً هو عبد الله بن أبي عتيق، وهو من قوم أبي بكر الصديق. وكان صاحبه هذا تقياً، غير أنه كان يغفر لعمر كل شيء، وكان يحبه حباً جماً.

لم يكن عمر شاعراً متقناً، لم يكن كحسان والحطيئة ممن سبقوه، ولا كزهير الجاهلي ولا الأعشى. ولا كان كمعاصريه الأخطل والفرزدق وجرير ولا حتى كصديقه الغزِل جميل. كان أقرب إلى الهاوي.

كان الشعر في ذلك الزمن يأتي المرء من محيطه. لم تكن الكتب قد كتبت، فلا كتابَ بين أيدي القوم إلا القرآن، ولم تكن الرقاع التي فيها شعر أمراً مألوفاً، بل هي أبيات يلقيها الناس في أمسياتهم ويتندرون بها. كانت خيام

تغلِبَ في الحيرة، ومضارب تميم في كاظمة واليمامة والبصرة أغنى بالشعر من بيوت مكة والمدينة. وكان البدو، بما أتيح لهم من فراغ وتنقل، يتخذون من الشعر مادة يقَرُّون بها بعض القرار. فالقبيلة التي تسعى وراء العشب تجاور قبيلة أخرى وتسمع شعرها، وتنكفئ إلى نفسها وتقول: وأين شعرنا نحن؟ فتتمسك بشعر شعرائها وتردده في أمسياتها. ويتبارز الشعراء في عكاظ وغير عكاظ، وترحل أشعار الناس معهم بانفضاض السوق.

وكلما سمع شعراء البوادي شعراً حضرياً رفعوا حواجبهم. فهذا شعر بارد، ليس فيه ما في شعر البوادي من قوة. وقوة شعر البوادي ليست أنه ـ كما يحب الأكاديميون أن يقولوا ـ شعر غليظ جاسئ جاف يشبه حياة البدو. فالشعر الذي يقال في القصور يكون رائعاً وبديعاً وذا لغة متينة صحيحة، وذا ألفاظ غريبة مثل الشعر الذي يقال في مضارب البدو. وليس أبو نواس بنازل في المرتبة عن كبار شعراء البادية في زمنه وقبل زمنه.

بل المسألة مسألة خبرة وصنعة.

شعراء البوادي في زمن عمر بن أبي ربيعة كانوا يعيشون للشعر، يسمعونه منذ الصغر، ويقولونه طول الوقت ويتخصصون فيه. هي مسألة الفارق بين الهاوي والمتخصص. وفي زمن عمر كان الحجاز، وكانت قريش، منصرفيْن إلى التجارة وإلى السياسية، وإلى الصراعات الحزبية. وحتى قبل الإسلام فقد كان الحجاز يسمع الشعر في عكاظِهِ ويطرب له، ثم سرعان ما ينصرف أهل الحجاز إلى تجارتهم، وزعامتهم.

وجاء عمر. ولم ينصرف إلى تجارة ولا إلى سياسة. لكنه كان كسولاً عابثاً. ولم يحترف الشعر. احترف الغزل. ولم يكن صائغاً ماهراً. كانت قوافيه تتحير، فيبحث عن مخرج سريع، فتأتي القوافي في أحيان كثيرة قلقة. ويعيا بالبيت فينحرف باللغة عن طرائقها. كلهم كانوا يفعلون شيئاً من هذا في ذلك العصر. ولكن عمر كان أضعف من مشاهير شعراء زمنه في الصناعة.

والصناعة ليست كل شيء في الشعر. فأين عنك حرارة الشعور؟ ذلك لم يكن له كبير نصيب من شخصية عمر. فهو رجل وسيم غني عابث. وأين عنك حلاوة الشخصية والخفة؟ قد كان عند عمر شيء كثير من ذلك. وأين عنك التخصص في موضوع واحد؟ قد كنا قلنا ـ ولم ننس ـ أن عمر لم يكن «متخصصاً» في الشعر، لم يكن من عبيد الشعر، لم يكرس عمره للاستماع إلى

الأشعار المختلفة تأتيه من هنا وهناك، فيتزودَ منها زاداً دسماً. ولم يكن له من شعراء قومه من يصعد فوق أكتافهم فيتعملق في «صناعة» الشعر. انظر إلى معاصره كعب بن زهير! قد كان كعب وريث إمبراطورية شعرية ضاربة الأوتاد عمقاً في الزمن، ومنتشرة في المكان. واسمع معاصره الفرزدق يفتخر في إحدى قصائده بأنه وريث الشعراء الكبار، ويسمي في تلك القصيدة أسماء نحو عشرة من كبار شعراء الجاهلية. لا، لم يكن عمر متخصصاً في صناعة الشعر، بما هي صناعة. لكنه كانت متخصصاً في لون شعري واحد.

هذا ما عنيناه بالتخصص.

قصر عمر شعره على الغزل، وظل يقول فيه حتى طأطأ جرير وأقر له بالشاعرية، وطأطأ الفرزدق وأقر له بالشاعرية، وكانا كلاهما يبرِّدان شعر عمر من قبل. ومثلهما أقر جميل لعمر بالشاعرية.

أبدأ بقراءة القصيدة لعمر فأرى في أحشائها المعاني المبتكرة، وآخذ في تشجيع شاعرنا على أن يمضي ويسجل هدفاً. لكنه يضيع في وسط الطريق، وتخونه القوافي، أو تلتوي عليه القصة. وبالكاد أستخلص من القصيدة أبياتاً قليلة تحمل في جوفها الوعد بالمعنى الجليل.

لا، قد ظلمته.

يكفيه أنه قال «وهل يخفى القمر»، وأنه قال «ليت هنداً أنجزتنا ما تعد». قلائد عمر بن أبي ربيعة قليلة، لكن له جوه الخاص. ولولا أن جاءنا بأخرة نزار قباني لقلنا إن عمر ليس له مثيل في كل الشعر العربي. وحتى لا نجحف بحق معاصرنا المشهور فنحن نضيف أن نزاراً كان شاعر لهو وعبث كثير، وكان صائغاً ماهراً، وعندما قال في السياسة والوطن كان شاعراً فحلاً متصرفاً في اللغة، كان نزار محترفاً.

كنت أفضِّل لو اقتصرت في اختياراتي على مئة بيت لعمر، ففي هذا ما يكفي لتمثيل جوه، ولكن هذا الجو له سحره، ولعلي سحرت مثلما سحر أبو الفرج الذي روى في الأغاني قصص عمر وأشعاره في مئة وتسعين صفحة، من صفحات طبعة دار الكتب.

كانت أشعار عمر، على ما فيها من هَنَات في الصناعة الشعرية، مشهورة. وتحفَّظ الناس أشعاره، لأن الناس فيهم دعارة كامنة. ولأنهم يحبون كل شيء

يحكي لهم عن العلاقة بين الرجل والمرأة. ووصلنا شعره في بضع مئات من الصفحات. وأنا هنا أقلِّب ديوانه كما أخرجه محمد محيي الدين عبد الحميد. ولا أعلم عن نسخة أفضل ضبطاً. فأما النسخ البيروتية والمصرية الأخرى فلم تستطع، ولم تطمح، أي منها إلى تجاوز تلك الطبعة التي لم تصف نفسها بالتحقيق ولم تعطنا أي إشارات إلى مصادرها. وكل رأسمالها اسم محيي الدين عبد الحميد، الذي فسر الألفاظ تفسيراً قاموسياً رفع فيه عن كاهلنا بعض الجهد.

وقد رتبنا الأشعار ترتيب محيي الدين الذي قال إنه أخذه عن «نسخ الديوان الأمهات». وهاك آخر عبارة من مقدمة الشيخ محيي الدين ففيها حُكم طيب: «عمر بن أبي ربيعة وصف المرأة العربية وصفاً دقيقاً، ورسم لنا، رسماً واضح المعالم، ما كان يستملحه العرب يومئذ من المرأة في كل جزء من أجزائها، وأبان إلى حد كبير عن عواطف المرأة العربية وما يثير غضبها وما يثير رضاها، وعما يدفع المرأة إلى الجفوة والصدود والتأبِّي، وما يستل غضبها ويذهب بجفائها، وهو في كل واحدة من أولئك تابع لغيره من الشعراء الذين تعرضوا لوصف النساء، ولكنه يمتاز بين هؤلاء جميعاً بشيئين: أحدهما أنه يتتبع الشيء من ذلك ويفصله تفصيلاً دقيقاً، ويكرره فيطيل أحياناً ويجتزئ أحياناً أخرى، وثانيهما أنه جمع في شعره ما تفرق في شعر غيره، فكان فيه العوض عنهم جميعاً، وليس في غيره عوض عنه، وحسبك أن ديوانه المشتمل على خمس وثلاثين وثلاثمئة قطعة ليس فيها قطعة واحدة في غير وصف النساء والتشبيب بهن.».اهـ. عن محمد محيي الدين عبد الحميد.

والشيخ محيي الدين انقطع للعربية منذ صغره، وتصدى في سنوات الشباب الباكر لطبع نصوص صعبة في الأدب والنحو. ثم قضى عمره يطبع كتب النحو العتيقة بضبط ممتاز، وبهمة عالية. كان من رهبان هذه اللغة. وهو يساوي في الميزان بضعة آلاف من أكاديميي الزمن الرديء الذي نعيش فيه. كان مخلصاً في عمله، وكان متعمقاً في مجاله. ولم يدخل عالم التحقيق، ولا أنفق السنين وهو يصنع «الفهارس الفنية»، فقد ترك هذه المهمات لمن برع فيها، وما أقلهم. على أنه كان حسن الضبط، واسع المعرفة، غزير الإنتاج.

وإذْ ذكرت رهبان المعرفة، فإنني أذكر لك أحد اختراعاتي. وأنا كثير الاختراعات. تراني أكتب صفحة لك في هذا الذي أكتب، أو أشرح قصيدة أو

قصيدتين، ثم تعنُّ لي فكرة، فأقوم عن حاسوبي وأسرع كي أختبرها. وآخر مخترعاتي يتعلق بسلق البيض.

إن كنت من المتزمتين، ورغبت عن معرفة اختراعي في سلق البيض، فيمكنك المضي إلى شعر صاحبنا لتقرأه فهو يأتي بعد هذه المقدمة. فأما إن مكثت معي فاعلم أنني لاحظت أن لسعة بخار الماء أوجع من لسعة الماء المغلي، وتذكرت شيئاً درسناه في كتاب العلوم عن الحرارة الكامنة. وقلت في نفسي: الناس تملأ القِدر ماء وتضعها على النار وتنتظر نصف ساعة حتى تغلي، ثم تضع فيها البيض وتنتظر عشر دقائق حتى ينسلق، فهذه نصف ساعة وعشر دقائق، أي ثلثا ساعة.

وضعت في قِدري مَجَّة ماء لا غير، فوصلتْ إلى الغليان في دقيقة، ثم وضعت البيض وسلقته على البخار في عشر دقائق. فوفرت نصف ساعة من الطاقة. وبعد هذا الاختراع علمت من ابنة أختي التي تعمل خبيرة تغذية في مستشفى أنهم يفعلون هذا بالضبط. فهم يسلقون البيض على البخار.

ثمة مخترعات كثيرة اخترعتها ظاناً أنني سابق إليها، وكنت سرعان ما أكتشف أنني مسبوق.

أردت أن أخترع عدداً من «محمد محيي الدين عبد الحميد»، وإليك التفصيل:

كان رهبان العلم في الأديرة المعلقة في جبال لبنان وفارس وتركيا يكرسون حياتهم للنسخ والترجمة. وقد ترجموا كتب اليونان إلى السريانية، ثم ترجموها، وترجمها غيرهم، إلى العربية. وكانت نهضة فكرية.

وترهبت أم كلثوم لفنها فأنشأت هرماً تعب الكاتبون والسامعون في فك لغزه. وسأُدلي بدلوي. قالوا إن صوت أم كلثوم نادر. هو صوت نادر حقاً، ولكن ليس إلى درجة أن لا يجود الزمن بمثله إلا مرة في القرن والقرنين. هذا هراء لا يرضى به العلم. المسألة ليست مسألة حبال صوتية. أم كلثوم كرست حياتها لعملها. مَنذا الذي يجري بروفات بالعشرات مع الفرقة كاملة، سواها؛ هي التي استدعت بليغ حمدي ليلحن لها وعمره تسع وعشرون سنة، قالت له: اعمل لي حاجات كتلك التي تعملها لشادية. كانت تسمع الراديو وتتعقب الملحنين، وبعدما وقعت الخصومة بينها وبين السنباطي ذات سنة، وحدثت القطيعة، سمعت شهرزاد في الراديو تغني من ألحانه «يا ناسيني» فهاتفته

وصالحته. الخلطة الكلثومية بمجملها شديدة الندور، صوت واجتهاد وشخصية. كانت لها «زعامة الصوت» ـ التعبير لمحمد عبد الوهاب ـ، وكانت ذات شخصية قوية، وكانت راهبة فن.

واللحن المتقن ـ والتعبير مما استقاه كمال النجمي من كتاب الأغاني، وطوره ببراعة ـ، مثل نبتة البطاطا، تراها تطلق الأوراق الخضر فتستعجل أنت فتنبشها، فإذا حباتٌ صغار لا يُسْمِنَّ من جوع. لا بد للحن من أن يأخذ وقته، وينمو. يلحن الملحن الأغنية في يومين، ويتعقبها بالتشذيب شهراً وشهرين، وأكثر. نتحدث عن التلحين المتقن المصنوع، فأما اللحن الشعبي فقد لاكته حناجر الشعب عشرات السنين وصقلته، وما على المغني إلا أن يسمع جيداً ويؤدي باقتدار. وعلى صاحب اللحن المتقن المصنوع أن يخلق اللحن، وعليه أيضاً أن يصقله. ثم يأتي المغني، فإذا كان المغني أم كلثوم فهي تريد أن تصقل اللحن في حنجرتها، وأن تتعقب أدق تفاصيله، وأن تجرب كثيراً ـ ومعها الملحن يهديها تارة ويحنق على مزاجها تارة، ويذعن ويجري بعض التعديلات تارة ـ. ويختلف اللحن عن نبتة البطاطا في أن البطاطا إن مكثت في الأرض أطول مما يجب تلفت، فأما اللحن فهو أشبه بالفول المدمس. قال لي صاحبي: كلما غليت الفول جاد. وكان يترك فوله على نار هادئة طول الليل، فإذا أصبح صنع لعائلته صحن فول مدمس فاخراً.

ثمة شيء يتفق فيه أخو الموسيقى وأخو اللغة: البدء في الصغر. أحد من قرأت لهم كان يتعجَّب من الملحن الأميركي جورج غيرشوين، كيف تأتّى له أن يبرع في الموسيقى وهو قد بدأ يتعلم العزف بعد أن تجاوز العاشرة. والمعهود في كبار الموسيقارين أنهم يبدأون في سن الثالثة والرابعة أو بعد ذلك بقليل. فالموسيقى شيء ينقُش نفسَه في خلايا الدماغ الغضة، فإن نما الدماغ وامتلأ غدا صعباً أن يُدَوزَن على موسيقى غريبة أو لغة جديدة.

والشعر واللغة، وكل علم، بحاجة إلى تلك الصفحة البيضاء.

قد ينفق الصبي سنوات طفولته يسمع الشعر ويحفظ اللغة ولا يمارس من ذلك شيئاً، فإن كبر انطلق. لا شك في أن المَلَكات تختلف بين إنسان وإنسان. والرغبات تختلف. لكنَّ النقش على الحجر ضروري لتحقيق التميز.

نعقد فقرة أو فقرتين لشتم الأكاديميين من أهل زمننا. لأننا لا يطيب لنا أن نمضي في حديثنا دون أن نصنع شيئاً من ذلك.

يبلغ أحدهم منتصف المرحلة الثانوية، فيبدو عليه الكلال، فلا رغبةَ لديه لا في علم ولا في أدب، فيرميه النظام التعليمي في الفرع الأدبي. فيجر قدميه جراً حتى ينال الشهادة الثانوية وتزغرد له أمه. ويدخل الجامعة. وطبعا سيدرس اللغة العربية. أليس قد حصل على معدل خمسة وستين؟ ويجر قدميه. وبقدر ما عند أهله من مال يمضي في الدراسة. ويصبح دكتوراً. فإن علمت أيها القارئ، وأرجو أن تكون علمت، أن الرغبة هي مفتاح التفوق، وهي فقط التي تصنع الإبداع، فقد علمت أن صاحبنا لن يصنع شيئاً سوى أمثال هذه البحوث التافهة التي يقذفنا بها الأكاديميون.

حلم يقظتي الذي هممت بالتحدث إليك عنه، ثم أخذني الاستطراد إلى موضوعات شتى، هو أن أصنع للدراسات اللغوية والأدبية ناساً محبين قديرين من بين الراغبين. وهو كحلم الرجل الأميِّ الذي يريد من ابنه أن يعوضه عما فاته من علم.

فأنا رجل ساقتني الظروف سوقاً إلى كل مجال سوى مجال الأدب واللغة. أنا ذلك الرجل الأمي. أنا من أنفق عمره في أعمال شتى تقوته وتقوت عياله، وانتبه في شيخوخته إلى أنه كبت رغباته الحقيقية. فعندما بدأت أعالج اللغة القديمة، والشعر القديم، وجدت أنني لم أدخل الدير ولم أكرس نفسي لهذا العمل. ففهْم الشعر القديم يقتضيني من الوقت والجهد الكثير، واستيعاب اللغة العربية في عصورها المختلفة كان سيكون أسهل عليَّ بكثير لو أنني كنت بدأت باكراً، ولو أنني كنت فرغت للأمر.

الأزهر كان بيئة صالحة للتفرغ. ومن الأزهر خرج علماء يتقنون العربية حقاً. هذا شيء كان.

الحاصل: أريد أن يكون في مقدور مجتمعاتنا العربية أن تهيِّء لخروج أم كلثومات، وعبد الحميدين كثيرين. أريد لمجتمعاتنا أديرة علم. أقول قولي هذا وقد غسلت يدي من الجامعات غسلاً.

يتحرك الأكاديمي في جامعته كالبزاق، ذلك المخلوق اللزج الذي يخرج قرنيه ويمشي على بطنه. فإذا كان يقظاً وذكياً وجدته فاقداً البوصلة. يظن نفسه أتى برأس كليب إن هو كتب ألف صفحة عن حروف الجر في شعر أبي الشمقمق. هذا مجرد مثال، وأخشى أن يقرأ كلامي هذا بعض أولئك الحلزونات فيكتب مثل ذلك الكتاب.

يبدأ الأكاديمي حياته «العلمية» ـ لُعن وعلمَه، آمين ـ بمجموعة ضخمة من المسلمات. يقدس كتابات القدماء. ويقدس كتابات الأجانب. وتراه يتعبد بالمعجمات. تراه يتظرف ولا يقول «معاجم» بل لا بد أن تكون «معجمات». فإن سميتَها وأنت جالسٌ إليه «قواميس»، فهذا يوم بؤسك. فسوف يصدع الأفندي رأسك وهو يحاول ردَّك إلى صواب يظنه. ويكلمك بالفصحى ويغلط، ويصحح نفسه إن انتبه إلى أنه غلط. وعندي لك وصفة طيبة كي تجعله يتكلم كخلق الله. أغظه. قل له أشياء لم يسمعها من أساتيذه، قل له مثلاً، إن الممنوع من الصرف جدير بالإلغاء.. وسوف تراه يحتد، وسوف تراه.. يتكلم بالعامية.

الأكاديمي عندنا يكتب على جبهته: «كل شيء معلوم، وموجود في كتاب معين». المهم عنده أن يبحث ويجد المعلومة. لم يخطر بباله قط أن الاعتراف بالجهل هو بداية الطريق. لم يخطر بباله قط أن ملايين الصفحات التي سودها آلاف علماء اللغة في مئات السنين تنقصها معلومات كثيرة. وهو لا يتخيل أن هناك مجهولات تنتظر من يجعلها معلومات. هو يظن أن كل شيء معلوم، وأن غاية البحث العلمي هي ـ فقط ـ البحث عن الفقرة المناسبة ووضعها بإزاء فقرة مناسبة أخرى لكي يسمي ذلك بحثاً.

يزعجني أكثر من الأكاديمي الذي يتدرج من ماجستير إلى دكتوراه ذلك الذي يقضي شبابه وكهولته على الماجستير محاضراً في جامعة أو مدرسة، ثم يطمح إلى العلاوة، وإلى حرف الدال، فـ «يسجل» للدكتوراه. هذا أسوأ بمراحل. يدخل الجامعة من جديد بعقل متخشب، وينال الدكتوراه بالتأكيد، ويزيد على كومة المسلمات التي في عقله مسلمات جديدة. ويصبح ثقيل الدم.

يغيظني وأنا أبحث في دواوين الشعراء القدامى أن كل ديوان منها اكتشفه وسهر عليه أول مرة ثم طبعه مستشرق.

أول طبعة جيدة لديوان عمر طبعة المستشرق باول شفارتس، ١٩٠٨، وشفعها بكتاب عن الشاعر، ١٩٠٩. ولقد أخبرنا بروكلمان في ثلاث صفحات عن حياة عمر ما وفر علينا مشقة المقارنة بين روايات القدماء. قد قرأنا كتابات القدماء، لكن بروكلمان قرأها وقارن بينها واستخلص ما يمكن استخلاصه من الحقائق. أعجبتني عنده عبارة في التشكيك بأن عمر ولد في الليلة التي توفي فيها سميه الخليفة، قال الألماني إن هذا القول «متهم ككل ما روي في اقتران أمرين عظيمين».

ونختم هذه المقدمة بالتنبيه على شيء يتعلق بكل الشعر القديم، وربما بكل الشعر:

لا تنثر الشعر. ولا تدقق في معانيه كثيراً. كانت جدة صاحبي تقول له وهو صغير: «الزاد لا يفتَّش»، فإن فتش المرء الزاد وجد على وجه الرغيف قشة وعلى قفاه قذاةً مما يكون على أرضية الفرن، ووجد في طبق الأرز حبة مسودة ضربتها السوسة. سمِّ بالله وكل، واقرأ الأشعار وترنم بها. فإنك واجد ـ إن أمعنت في الفحص ـ هنات كثيرات، وإنك فاقد لمعنى جليل كنت تتوهم أنه كامن هناك. الشعر كتب لكي تترنم به لا لكي تفحصه في المختبر.

١ ليلة غرامية

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ   غَداةَ غَدٍ أم رائِحٌ فَمُهَجِّرُ؟

المعنى الملموح: أتذهب إلى قوم الحبيبة «نُعم» باكراً أم وقت الهاجرة واشتداد الحر؟

أَهِيمُ إلى نُعْمٍ، فَلا الشَّمْلُ جَامِعٌ   ولا الحَبْلُ مَوصُولٌ، ولا القَلْبُ مُقْصِرُ

مغرم بها، ولكن الاجتماع صعب لكثرة الترحال، وليس هناك حبل موصول، لا علاقة، ومع ذلك فالقلب ليس يُقْصِر، أي لا يكف

ولا قُرْبُ نُعْمٍ، إنْ دَنَتْ، لَكَ نَافِعٌ   ولا نَأْيُها يُسْلِي، ولا أنتَ تَصبرُ

وقربها لا ينفع، لأن الوصول إليها صعب، ولا بُعدها يسليني، أي ينسيني، ولا أنت يا عمر ـ يخاطب نفسه ـ صابر

إذا زُرْتُ نُعْماً لم يَزَلْ ذو قَرابَةٍ   لَها، كُلَّما لاقيتُها يَتَنَمَّرُ

إذا زرتها لاقاني قريب لها، متنمراً، متحفزاً للشر

رأَتْ رَجُلاً: أَمَّا إذا الشَّمسُ عارَضَتْ   فَيَضْحَى، وأَمَّا بِالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

رأتني إذا ما الشمس برزت أَضْحَى، أي أبرُزُ للشمس، وفي المساء أَخْصَر، أي أشعر بالبرد

أَخَا سَفَرٍ، جَوَّابَ أَرضٍ، تَقَاذَفَتْ   بِهِ فَلَواتٌ، فَهْوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ

رأتني صاحب أسفار، تتقاذفني الفلوات، أي الصحارى، وأنا مشعث الرأس والثياب، مغبرٌّ

ولَيْلَةَ «ذي دَوْرانَ» جَشَّمَنِي السُّرَى،   وقد يَجْشَمُ الهَوْلَ المُحِبُّ المُغَرَّرُ

في تلك الليلة بموضع «ذي دوْران» تكلفت سير الليل، والمحب الذي خدعه الحب يتجشم كل هول

وبِتُّ أُناجي النَّفْسَ أَيْنَ خِباؤُها وكيف لِمَا آتي مِنَ الأَمْرِ مَصْدَرُ

أخذت أحدث نفسي: يا ترى أين خيمتها بين الخيام؟ وكيف سيكون لي مصدر، رجوع، بعد انتهاء مغامرتي؟

فَدَلَّ عليها القلبَ رَيًّا عَرَفْتُها لَها، وهَوى النَّفْسِ الذي كادَ يَظهرُ

دل قلبي عليها ريا، رائحة عطرة، عرفتها لها. ودلني عليها هواي الذي يكاد يظهر للناس

فلمَّا فَقدْتُ الصوتَ مِنْهُمْ، وأُطفِئَتْ مَصابيحُ شُبَّتْ بِالعِشَاءِ وأَنْؤُرُ

لما خفتت أصوات القوم، وأطفأوا مصابيحهم وأنوارهم..

وغَابَ قُمَيْرٌ كنتُ أَهْوى غُيوبَهُ ورَوَّحَ رُعْيانٌ، ونَوَّمَ سُمَّرُ..

ولما غاب القمر، الذي كنت أحب غيابه لأستتِر في الليل، وعندما روح الرعيان، عادوا من المراعي، ونام السامرون..

وخُفِّضَ عَنِّي الصوتُ، أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الـ ـحُبَابِ، وشَخصي خَشْيَةَ الحَيِّ أَزْوَرُ

وعندما خفت الصوت، مضيت أمشي مشية الحباب، الحيَّة، منساباً، وجسمي يميل ويتضاءل خشية أن يراني القوم

فَحَيَّيْتُ إذْ فَاجَأْتُها، فَتَوَلَّهَتْ وكادتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ

حييتها، فتولهت، دهشت، ولدهشتها كادت ترفع صوتها برد التحية

وقالَتْ، وعَضَّتْ بِالبَنانِ: فَضَحْتَني وأنتَ امْرُؤٌ مَيْسُورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ

عضت على إصبعها، وقالت: فضحتني، وإنك لرجل تجعل السهل من الأمر صعباً بتصرفاتك

فَواللَّهِ ما أدري: أَتَعْجِيلُ حَاجَةٍ سَرَتْ بِكَ، أَمْ قد نامَ مَنْ كنتَ تَحْذَرُ؟

أأنت مستعجل للحصول على حاجتك مني فغامرْت؟ أم أنك وثقت بنوم القوم فرأيت أنه لا بأس من القدوم؟

فقلتُ لها بل قَادَني الشَّوقُ والهوى إليكِ، وما نَفْسٌ مِنَ الناسِ تَشْعُرُ

فَبِتُّ قَريرَ العَيْنِ، أُعطِيتُ حَاجَتي أُقَبِّلُ فَاهَا في الخَلاءِ وأُكْثِرُ

في الخلاء: أي وأنا مُخْتلٍ بها

فيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقاصَرَ طُولُهُ وما كان لَيلي قبلَ ذلكَ يَقْصُرُ

كان ليلي طويلاً وأنا أفكر فيها، والآن صار ليلي قصيراً معها

ويَا لَكَ مِنْ مَلْهىً هُناك ومَجلِسٍ لنا لم يُكَدِّرْهُ علينا مُكَدِّرُ

يا لهذا المجلس الجميل معها

فـلـمَّـا تَـقَـضَّـى الـلـيـلُ إِلّا أَقَـلَّـهُ   وكـادتْ تَـوالـي نَـجْـمِـهِ تَـتَـغَـوَّرُ..

عندما مضى معظم الليل، وبقي القليل، وكادت النجوم تغيب..

أَشَارَتْ بِأَنَّ الحَيَّ قد حانَ مِنْهُـمُ   هُبُوبٌ، ولَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ «عَزْوَرُ»

قالت إن الحي، أي القوم، كادوا يهبُّون من نومهم. وعليك الذهاب، وسنلتقي مرة أخرى في موضع «عزور»

فَمَا رَاعَني إِلّا مُنَادٍ: تَرَحَّلُوا.   وقد شُقَّ مَفتوقٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ

وراعني صوت منادٍ ينادي بالرحيل. وقد فتق الصباح وجه السماء بضيائه

فـلـمَّـا رَأَتْ مَـنْ قـد تَـنَـبَّـهَ مِـنْـهُـمُ   وأَيْقَاظَهُمْ، قالتْ: أَشِرْ كيفَ تَأْمُرُ؟

عندما أدركت أن بعضهم قد صحا، قالت متحيرة: فما العمل الآن؟

فَقُلْتُ أُبَادِيهِمْ، فَإِمَّا أَفُوتُهُمْ،   وإِمَّـا يَـنـالُ الـسَّـيْـفُ ثَـأْراً فَـيَـثْـأَرُ

قلت: أباديهم، أبدو لهم وأُظهر نفسي، فإما أن أهرب فلا يمسكون بي، وإما أن يثأروا فينال السيف مني

فقالتْ: أَتحقيقاً لِمَا قالَ كَاشِحٌ   علينا، وتَصديقاً لِمَا كانَ يُؤْثَرُ؟

قالت: بذلك تؤكد ما قاله الكاشح، المضمر العداوة، عن علاقتنا، ويتوفر الدليل على ما كان يؤثر ويقال عنا

فـإِنْ كـان مـا لا بُـدَّ مـنـهُ فَـغَـيْـرُهُ   مِنَ الأمرِ أَدْنَى لِلْخَفاءِ وأَسْتَرُ

فإن كان لا بد من المخاطرة فلا بد من أمر أستر..

أَقُصُّ عَلى أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنا   ومَا لِيَ مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ

أخبر أختيَّ بما كان، ولا سبيل سوى إعلامهما

لَعلَّهُما أن تطلُبا لَكَ مَخْرَجاً   وأَنْ تَرْحُبَا سِرْباً بِمَا كنتُ أَحْصَرُ

لعلهما أن تتوصلا إلى مخرج لك، وأن ترحبا سرباً، أي يكون لديهما سعة في الرأي، بدل الضيق الذي عندي

فَقامَتْ كَئيباً ليسَ في وجهها دَمٌ   مِنَ الحُزْنِ، تُذْرِي عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ

قامت وهي محزونة مخطوفة اللون، ودمعها يجري

فَقَامَتْ إِليها حُرَّتَانِ عَلَيْهِما   كِساءَانِ مِنْ خَزٍّ: دِمَقْسٌ وأَخْضَرُ

وجاءتها أختاها وعليهما كساءان من حرير

فَقالتْ لأُختَيْها: أَعِينَا على فَتىً أَتَى زَائِراً، والأَمْرُ لِلأَمْرِ يُقْدَرُ

قالت لهما أعيناني على هذا الزائر، ولا بد لكل أمر من حل يناسبه

فَأقْبَلَتَا، فَارْتَاعَتَا، ثم قَالَتَا: أَقِلِّي عليكِ اللَّوْمَ، فَالخَطْبُ أَيْسَرُ

عندما رأتني الفتاتان أصابهما الرعب، ثم طمأنتاها

فقَالَتْ لها الصُّغْرى: سَأُعْطِيهِ مُطْرَفي ودِرْعِي، وهَذا البُرْدَ، إن كان يَحْذَرُ

الصغرى ستعطيني مطرفاً، أي رداءً، ودرعاً، أي قميصاً، وبرداً، أي ثوباً من عندها.. لكي ألبس.. ولكن يجب أن أكون حذراً

يقومُ فَيَمْشي بينَنا مُتَنَكِّراً فَلا سِرُّنا يَفشُو، ولا هُوَ يَظْهَرُ

وليقم ويمشِ بيننا فلا ينتبه أحد

فَكانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنتُ أَتَّقي ثَلاثُ شُخُوصٍ كَاعِبانِ ومُعْصِرُ

وهكذا كان مجني، تُرسي، دون من كنت أحذر من الأعداء، ثلاث نساء: كاعبان قد برز منهما الصدر، ومعصر، أي فتاة في أول البلوغ

فَلَمَّا أَجَزْنا سَاحَةَ الحَيِّ قُلْنَ لي: أَمَا تَتَّقِي الأَعداءَ واللَّيْلُ مُقْمِرُ؟

لما عبرنا ساحة القوم، بدأن باللوم والتأنيب: ألست تتقي الأعداء في ليلة مقمرة؟

وقُلْنَ: أَهَذَا دَأْبُكَ الدَّهْرَ سَادِراً؟ أَمَا تَستَحي أَوْ تَرْعَوِي أو تُفَكِّرُ

أهذا شأنك دائماً سادراً، غيرَ مبالٍ؟ ألا تستحي، ألا ترعوي، أي تكف، ألا تفكر في العواقب؟

إذا جِئْتَ فَامْنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غيرَنا لِكَي يَحسَبوا أن الهوى حيثُ تَنْظُرُ

إذا جئت مرة أخرى فانظر إلى غيرنا حتى لا يعرف أهلنا أنك مشغوف بنا

فآخِرُ عَهْدٍ لي بِهَا حينَ أَعْرَضَتْ ولاحَ لَها خَدٌّ نَقِيٌّ ومَحْجَرُ

آخر عهدي بها كان عندما انفتلت وانصرفتْ، ورأيت طرف خدها الناعم، وجانب عينها

هَنيئاً لِأَهلِ العَامِرِيَّةِ نَشْرُهَا الـ ـلَّذيذُ، ورَيَّاها الذي أَتَذَكَّرُ

هنيئاً لأهلها نشرها اللذيذ، رائحتها الطيبة التي ما زلت أتذكرها

٢ أنت السمع والبصر

هَيْفاءُ لَفَّاءُ مَصْقُولٌ عَوارِضُها تَكادُ مِنْ ثِقَلِ الأَرْدَافِ تَنْبَتِرُ

هيفاء، ضامرة البطن، لفَّاء، سمينة الفخذين، مصقولة العوارض، أي الأسنان، ولدقة خصرها وعظم أردافها تكاد تنبتر من منتصفها

تلكَ التي سَلَبَتْنِي العقلَ وامْتَنَعَتْ،   والغَانِياتُ، وإنْ وَاصَلْنَنا، غُدُرُ
سلبتني عقلي بدلالها وامتنعت من المضي في العلاقة، والغانيات غادرات حتى وإن أنشأن علاقة

لا أَصْرِفُ الدَّهْرَ وُدِّي عنكِ أَمْنَحُهُ   أُخْرى أُوَاصِلُها مَا أَوْرَقَ الشَّجَرُ
لن أحوّل محبتي عنك طول الدهر لامرأة أخرى، لن أفعل ذلك ما دام الشجر يطلق الورق

أنتِ المُنَى وحَديثُ النَّفْسِ خَالِيَةً   وفي الجميعِ، وأنتِ السَّمْعُ والبَصَرُ
أنت منتهى أمنياتي، وأفكر فيك سواء في خلوتي أم عندما أكون في الجميع، أي مع الناس

يا ليتَ مَنْ لامَنا في الحُبِّ، مَرَّ بِهِ   مِمَّا نُلاقِي - وإنْ لم نُحْصِهِ - العُشْرُ
ليت من يلومنا في الحب يمر به عُشْرُ ما نلاقي من عذاب، وإن لم نكن أحصينا عذاباتنا لكثرتها

حتَّى يَذوقَ كما ذُقْنا، فيَمْنَعَهُ   مِمَّا يَلَذُّ حَديثُ النَّفْسِ والسَّهَرُ
كي يذوق مثلما ذقنا، فيمنعه السهر وحديث النفس، أي الخواطر والهواجس، من الاستمتاع بما يلذ من أمور الدنيا

٣ حب بحب

واللَّهِ قد زَادَنا وَجْداً بِهِمْ كَلَفٌ   ومُتْرَعٌ مِنْ رَجيعِ الدَّمْعِ مُبْتَدِرُ
زادنا بها حباً الكلف (المشقة في الحب)، والدمع المترع (الغزير) المتكرر الذي ابتدر (سال) عليها

وأَنَّها حَلَفَتْ بِاللهِ جَاهِدَةً   ومَا أَهَلَّ له الحُجَّاجُ واعْتَمَرُوا..
وزادنا حباً أنها حلفت جاهدة (بلا تقصير) بالله وبما أهلَّ له الحجاج (رفعوا صوتهم بالتكبير قبل التضحية)

مَا وَافَقَ النَّفْسَ مِنْ شيءٍ تُسَرُّ بِهِ   وأَعْجَبَ العينَ إلّا فَوقَهُ عُمَرُ
حلفت وقالت إن عمر أكبر من كل ما أحبته النفس وأعجبها

فذاكَ أَنْزَلَها عِندي بِمَنزِلَةٍ مَا كان يَحْتَلُّها مِنْ قَبْلِها بَشَرُ

فهذا ما جعلها أقرب الناس إلى قلبي

٤ واهاً لعفراء

وَاهاً لِعَفْرَاءَ، إنْ دَارٌ بِها قَرُبَتْ   فَمَا أُبَالِي أَلَامَ النَاسُ أم عَذَرُوا
إن قربت مني عفراء فلا يهمني ألامني الناس أم التمسوا لي عذراً في حبها

تَقولُ، إذْ أَيْقَنَتْ أَنِّي مُفارِقُها: يَا لَيْتَنِي مُتُّ قبلَ اليومِ يَا عُمَرُ

٥ متوسداً معصمها

بِـتُّ فـي نِـعْـمَـةٍ، وبَـاتَ وِسَـادي مِـعْـصَـمـاً بـيـنَ دُمْـلُـجٍ وسِـوَارِ

بت ورأسي على معصمها بين الدملج، أي سوار العضد، وسوار المعصم

ثـم إنَّ الـصـبـاحَ لاحَ، ولاحَـتْ أَنْجُمُ الصُّبْحِ مِثْلَ جَزْعِ العَذَارِي

ثم لاح الصبح وخفتت النجوم فكأنها صارت كجزع العذاري، أي الخرز الذي تتقلده العذارى

فَـنَـهَـضْـنَـا نَـمْـشـي نُـعَـفِّـي بُـرُودَاً ومُـرُوطـاً، وَهْـنَـاً عـلـى الآثـارِ

نهضنا وهناً، في آخر الليل، نعفي الأثر، أي نمحوه، ونجر عليه ذيول المروط، أي الثياب

٦ مظلومة!

فـالـتَـقَـيْـنـا فَـرَحَّـبَـتْ حـيـنَ سَـلَّـمْـ ـتُ، وكَـفَّـتْ دَمْـعاً مِـنَ الـعَـيـنِ مَـارَا

التقينا فرحبت بي حين سلمت عليها ومار الدمع، أي ترقرق

ثـم قـالـتْ عـنـدَ الـعِـتـابِ: رأَيْـنـا فـيـكَ عـنَّـا تَـجَـلُّـداً وازْوِرَارا

عاتبت وقالت: رأيت منك تجلداً، أي صبراً على الفراق، وازوراراً، ابتعاداً وانحرافاً عني

ثـم قـالـتْ، وسَـامَـحَـتْ بـعـدَ مَـنْـعٍ وأَرَتْـنـي كَـفَّـاً تَـزيـنُ الـسِّـوَارا. .

ثم سامحت، لانت وسمحت بالوصال، ولم تعد تزم ثوبها زمّاً بل استرخت فرأيتُ كفها تزين السوار، لا نظنه قصد أن الكف هي التي تزين السوار. . فقط القافية ألجأته إلى ابتكار معنى «أن كفها أجمل من سوارها فهو الذي يزينه»، ففي ذلك الزمن لم يكونوا يتحذلقون كما في العصور التالية

فـتَـنَـاوَلْـتُـهـا، فَـمَـالَـتْ كَـغُـصْـنٍ حَـرَّكَـتْـهُ رِيـحٌ عـلـيـهِ فَـخَـارا

خار: وقع

وأَذَاقَـتْ بـعـدَ الـعِـلاجِ لَـذيـذاً كَـجَنَـى النحلِ شَابَ صِرْفاً عُقَارا

وبعد العلاج، بعد محاولات الاستمالة، أذاقتني ريقها الذي كأنه عسل خالط خمراً صافية

ثـم كـانـتْ دونَ الـلِّـحَـافِ لِـمَـشْـغُـو فٍ مُـعَـنًّـىً بِـهـا صَـبُـوبٍ شِـعَـارا

ثم كانت لي تحت اللحاف ـ وأنا المشغوف المتعب بحبها الصبوب، أي الصب المتيم ـ كانت لي شعاراً، أي لباساً داخلياً. . يقول: التصقت به كأنها ثوبه الملاصق للجسم

واشْـتَـكَـتْ شِـدَّةَ الإِزَارِ مِـنَ الـبَـهْـ ـرِ، وأَلْـقَـتْ عـنْـهـا لَـدَيَّ الـخِـمَـارا

اشتكت ضيق ملابسها من البهر، أي مما اعتراها من ضيق تنفس، فألقت خمارها

حَبَّذَا رَجْعُهـا إِلَيـهـا يَـدَيْـهـا   فِـي يَـدَيْ دِرْعِـهـا تَـحُـلُّ الإِزَارا

ما أجمل حركة يديها وهي تخرجهما من يديْ درعها، أي قميصها، وهي ماضية في خلع ثوبها

: يَا ابنَ عَمِّي فَدَتْكَ نَفسيَ إِنِّي   أَتَّـقِـي كَـاشِـحـاً إذا قَـالَ جَـارا

تقول وهي تفعل ذلك إنها تخشى عدوًّا يفتري عليها فإذا قال عنها شيئاً جارَ وتجاوز الحق.. بعد كل هذا الذي تفعلينه يا آنسة لن يكون قد جار

٧ كيد العواذل كايدني

إنَّ الـعَـواذِلَ قـد بَـكَـرْنَ يَـلُـمْـنَـنِـي   وحَـسِـبْـتُ أكـثـرَ لَـوْمِـهِـنَّ ضِـرارا

العاذلات جئن صباحاً يلمنني، ولكن لومهن معظمه ضرار، أي بغرض إيقاع الأذى

وزَعَـمْـنَ أنَّ وِصَـالَ عَـبْـدَةَ عَـائِـدٌ   عَـاراً عَـلـيَّ، ولـيـس ذلـكَ عَـارا

والنَّفْسُ يمنَعُها الحَياءُ فَتَرْعَوِي   وتـكـادُ تَـغـلِـبُـنـي إِلـيـكِ مِـرَارا

يا عبدة، الحياء يمنع النفس فترعوي، أي تكفُّ، ولكنَّ نفسي تغلبني فأميل إليك

ما يُذْكَرُ اسْمُكِ في حَديثٍ عَارِضٍ   إلَّا اسْـتُـخِـفَّ لـه الـفُـؤادُ فَـطـارا

٨ حبذا المعاكسة

أَبْـصَـرْتُـهـا لـيـلـةً ونِـسْـوَتَـهـا   يَـمْـشِـيـنَ بـيـنَ الـمَـقَـامِ والـحَـجَـرِ

أبصرتها مع رفيقاتها في الحرم بين مقام إبراهيم والحجر الأسود

قَـالـتْ لِـتِـرْبٍ لَـهـا مُـلاطِـفَـةً:   لَـتُـفْـسِـدِنَّ الـطَّـوَافَ فـي عُـمَـرِ

قالت لترب لها، أي لرفيقة في عمرها، على سبيل المزاح: سوف تفسدين الطواف علينا بالحديث عن عمر

قـالـتَ: تَـصَـدَّيْ لـه لِـيُـبْـصِـرَنـا   ثـم اغْـمِـزِيـهِ، يـا أُخْـتُ فـي خَـفَـرِ

قالت لها رفيقتها: واجهيه كي يلاحظنا، واغمزيه في حياء.. حبذا الحياء!

قَـالـتْ لـهـا: قـد غَـمَـزْتُـهُ فَـأَبَـى.   ثُـمَّ اسْـبَـطَـرَّتْ تَـسْـعَـى عـلـى أَثَـرِي

قالت لها: غمزته فأبى ولم يأبه. ويضيف الشاعر معلقاً على حديثهن: ثم اسبطرَّت، أي أسرعت، تلحقني

٩ النوار

تَـلِـيـنُ حـتَّـى يَـقـولُ قـد خُـدِعَـتْ   مَـنْ لـم يَـكُـنْ بِـالـنِّـسَـاءِ ذا خُـبُـرِ

تلين الفتاة حتى لَيَقُولُ ويحسب من ليست له خبرة بالنساء أنها خُدعت

حتـى إذا مـا الـتَـمَـسْـتُ غِـرَّتَـهـا كـانـت نَـوَاراً قَـلـيـلـةَ الـغِـرَرِ

فإذا ما التمست فرصة ضعفها ألفيتها نواراً، أي فتاة مستمسكة لا تعطي صاحبها شيئاً، قليلة الانخداع

١٠ على أطلال الحبيبة

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ مُـوحِـشٌ أَقْـفَـرا فـأَصـبـحَ مَـعـرُوفُـه مُـنْـكَـرا؟

لمن هذا الطلل الموحش الذي أصبحت معالمه الواضحة منكرة لا تكاد تبين؟

ولـو أنَّـهُ يـسـتَـطـيـعُ الـجَـوابَ لأَخـبَـرَ إذ سـيِـلَ أنْ يُـخْـبِـرا

سيل: سئل

ولـكـنَّـهُ غَـيَّـرَتْـهُ الـصَّـبَـا فـأَمْـسَـتْ مَـعـالِـمُـهُ دُثَّـرا

غيرته ريح الصَّبا، فاندثرت معالمه

وكُـلُّ مُـسِـفٌ لـهُ هَـيْـدَبٌ إذا مَـا حَـدَا رَعْـدُهُ أَمْـطَـرا

وغيَّره الغمام المسف، المنخفض، الذي يسيل مطراً كالخيوط، والرعد يحثه على النزول، كأن الرعد حادي الإبل ينشد فتسير على إيقاع نشيده

وقـد كـنـتُ أَلْـقَـى بـه شَـادِنـاً قَـطُـوفَ الـخُـطَـا نَـاعِـمَـاً أَحْـوَرا

في هذا المكان كنت أقابل غزالاً قطوف الخطا، أي خطاه متقاربة، وناعماً وأحور، عيناه «سوادٌ صافٍ على بياض صافٍ» وهذا هو الحَوَر

أَسـيِـلَ الـمُـحَـيَّـا هَـضِـيـمَ الـحَـشـا كـشـمـسِ الـضُّـحَـى واضِـحـاً أَزْهَـرا

أسيل المحيا، طويل الخدين، هضيم الحشا، ضامر البطن، أزهر، أي أبيض

أقـولُ لِـمَـنْ لامَ فـي حُـبِّـهـا أَرى لَـكَ فـي الـرَّأْيِ أنْ تُـقْـصِـرَا

يا من يلومني في حبها، من رأيي أن تكفّ

١١ وهل يخفى القمر

هَـيَّـجَ الـقـلـبَ مَـغَـانٍ وصِـيَـرْ دَارِسَـاتٌ قـد عَـلَاهُـنَّ الـشَّـجَـرْ

هيج مشاعري المغاني، الرياض، والصير، الحظائر، الدارسات، الخربة، التي قد علاها الشجر

ورِيـاحُ الـصَّـيْـفِ قـد أَزْرَتْ بِـهـا تَـنْـسِـجُ الـتُّـرْبَ فُـنـونـاً والـمَـطَـرْ

ورياح الصيف أزرت بها، خربتها، فهي تروح وتجيء عليها فكأنها تنسج التراب نسجاً بأشكال شتى، وخربها المطر أيضاً

ظَـلْـتُ فـيـهـا ذاتَ يـومٍ واقِـفـاً   أسـألُ الـمـنـزلَ هـل فـيـه خَـبَـرْ
لِـلَّـتـي قـالـتْ لِأتْـرابٍ لـهـا   قُـطُـفٍ فـيـهِـنَّ أُنْـسٌ وخَـفَـرْ:

هل عند الديار المقفرة خبر لهذه الفتاة التي قالت لرفيقاتها القطف، البطيئات السير، الخجولات..

قـد خَـلَـوْنَـا فَـتَـمَـنَّـيْـنَ بِـنَـا   إذْ خَـلَـوْنَـا الـيـومَ نُـبْـدي ما نُـسِـرّ

قالت لهن: هيَّا ـ ونحن وحدنا ـ نتكاشف بأسرارنا وأمنياتنا!

فَـعَـرفْـنَ الـشـوقَ فـي مُـقْـلَـتِـهـا   وحَـبَـابُ الـشـوقِ يُـبْـدِيـهِ الـنَّـظَـرْ

أدركن ما بها من شوق، وحَباب الشوق، أعظمه، يبدو في العين

قُـلْـنَ يَـسْـتَـرْضـيـنَـهـا: مُـنْـيَـتُـنـا   لـو أتـانـا الـيـومَ فـي سِـرٍّ عُـمَـرْ

قلن لها: ليت عمر يأتينا سراً

بـيـنَـمـا يَـذْكُـرنَـنـي أَبْـصَـرْنَـنـي   دُونَ قَـيْـدِ الـمِـيـلِ يَـعْـدُو بـيَ الأغَـرّ

وفجأة أبصرنني دون قيد الميل، أي قريباً، يعدو بي فرسي الأغر، ذو البياض في جبهته

قُلْنَ: تَعْرِفْنَ الفَتَى؟ قُلْنَ: نَعَمْ   قد عَرفْناهُ، وهلْ يَخفَى الـقمرْ

قالت بعضهن لبعض: أتعرفن الفتى؟ ثم أجابت بعضهن: وهل يخفى القمر

١٢ حيلة النساء

أَلـم تَـسـأَلِ الأطـلالَ والـمُـتَـرَبَّـعـا   «بِبَطْنِ حُلَيَّاتٍ» دَوَارِسَ بَلْقَعَا؟

ألم تسأل الأطلال والمتربع، المنزل، الدوارس البلقع، أي المقفرة الخربة، في موضع «بطن حليات»؟

فَيَبْخَلْنَ، أو يُخْبِرْنَ بِالعِلْمِ بعدما   نَكَأْنَ فُؤاداً كـان قِـدْماً مُـفَـجَّـعَـا

فتبخل عليك تلك الأطلال الخربة بالجواب، أو لعلها تخبرك بشيء! ذلك بعد أن نكأتْ، جددتْ، جروح القلب الذي كان قد فجع قديماً بالفراق

بِـهـنـدٍ وأَتْـرابٍ لِـهِـنْـدٍ إذِ الـهَـوى   جَميعٌ، وإذْ لـم نَخْشَ أن يَتَصَدَّعا

فُجِع القلب بفراق هند وصويحباتها عندما كان الهوى جميع، أي على اجتماع وبلا فراق، ولم نكن نخشى التصدع، الفراق

فقلتُ لِمُطْرِيهِنَّ بِالحُسْنِ: إنَّما   ضَرَرْتَ، فهلْ تَسطِيعُ نَفْعاً فَتَنْفَعا؟

قلتُ لمن يصف حسنهن: هذا يجدد لي الشجون، فهل تستطيع أن تصنع شيئاً نافعاً؟

فقالَ: تَعالَ انْظُرْ، فقلتُ: وكيفَ بي؟ أَخافُ مَقَاماً أن يَشيعَ فَيَشْنُعا

قال لي: تعال انظر. قلت: أخاف أن ينكشف أمري ويشيع، ونقع في فضيحة شنيعة

فَأَقْبَلْتُ أَهْوي مِثلَما قالَ صاحبي لِمَوْعِدِهِ أُزْجي قَعُوداً مُوَقَّعَا

لكنني مضيت أهوي، أسرع، مثلما أراد، وأنا أزجي، أي أسوق، قعوداً، جملاً، موقَّعاً، مجرَّحاً مدبَّراً

فلمَّا تَواقَفْنَا وسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ وُجوهٌ زَهَاها الحُسْنُ أنْ تَتَقَنَّعا

لما تقابلنا رأيت وجوهاً مفتخرة مزهوّة بجمالها فهي لا تتغطى بالبراقع

تَبَالَهْنَ بالعِرْفَانِ لَمَّا رأينني وقُلْنَ: امْرُؤٌ بَاغٍ أَكَلَّ وأَوْضَعَا

تبالهن، تصنعن البله، وزعمن أنهن لا يعرفنني، وقلن: لعلك رجل يبغي مكاناً وقد أكَلَّ ناقته، أي أرهقها، وأوضع، أي سار مسرعاً عليها

وقَرَّبْنَ أَسبَابَ الصِّبَا لِمُتَيَّمٍ يَقيسُ ذِرَاعاً كُلَّما قِسْنَ إِصْبَعا

وأخذن يتكلمن كلاماً فيه إثارة للشجون، وأنا أندفع اندفاعاً في عواطفي

فَلَمَّا تنازَعْنَا الأَحاديثَ قُلْنَ لي: أَخِفْتَ علَيْنا أنْ نُغَرَّ ونُخْدَعا؟

ولما تبادلنا الحديث، قلن لي: هل ظننت أننا مخدوعات عنك، ولا نعرفك؟

فبِالأَمْسِ أَرسَلْنا بِذلكَ خَالِداً إِلَيْكَ، وبَيَّنَّا لهُ الشَّأْنَ أَجْمَعا

لقد أرسلنا أمس خالداً ـ صاحبه الذي غرر به ـ، ورسمنا الخطة معه

فَمَا جِئْتَنا إِلَّا على وَفْقِ مَوْعِدٍ على مَلَإٍ مِنَّا خَرَجْنا لهُ مَعا

وعندما جئتنا كنا متهيئات، وخرجنا لهذا اللقاء، فهو ليس مصادفة

وقُلْنا كَريمٌ نالَ وَصْلَ كَرائِمٍ فَحُقَّ له في اليومِ أن يَتَمَتَّعَا

فأنت كريم، ونحن كريمات، ولا بأس أن تتمتع بهذا اللقاء

١٣ تشييع

وأَقولُ مِنْ جَزَعٍ لِعَزَّةَ بعدَما ساروا وسالَ بِهِمْ طَريقٌ مَهْيَعُ:

أقول لعزة بعد أن سار أهلها وسال بهم الطريق الواسع:

لو كنتُ أَمْلِكُ دَفْعَ ذا لَدفَعْتُه عنِّي، ولكنْ ما لِهذا مَدْفَعُ

لو كنت أستطيع منع فراقكم لفعلت، ولكن، ما باليد حيلة

قالتْ تُشَيِّعُنا؟ فقلتُ صَبَابَةً: إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُشَيِّعُ

قالت: هل تمضي معنا مسافة وتشيعنا؟ فقلت لفرط عشقي: هذا ما يفعله المحب

فتَبِعْتُهُمْ ومَعي فُؤادٌ مُوجَعٌ صَبٌّ بِقُرْبِهِمُ وعَيْنٌ تَدْمَعُ

فتبعتهم وقلبي موجع، وعيني دامعة

١٤ سمَّع بنا من سمَّع

يَا خَلِيلَيَّ إذا لم تَنْفَعَا فَدَعانِي اليومَ مِنْ لَوْمٍ، دَعَا

وأَلِمَّا بي بِظَبْيٍ شَادِنٍ لستُ أدري اليومَ ماذا صَنَعَا

الشادن: الظبي الذي قوي واستغنى عن أمه

قد جَرى بِالبَيْنِ منها طائرٌ رَفَّ بِالفُرْقَةِ ثم ارْتَفَعَا

رفرف طائر ـ ولعله غراب ـ منذراً بالبين، أي الفراق، ثم طار

سألَتْني: هل تَرَكْتَ اللَّهْوَ أمْ ذَهَبَتْ أزْمانُهُ فَانْقَطَعا؟

تسألني العاذلة: هل تركت اللهو اختياراً، أم قد ذهب زمنه وكبرت عنه؟

قلتُ: لا، بل ذهبَ الدهرُ الذي كنتُ أسْعَى مَعَهُ حيثُ سَعَى

فقصصت عليها قصة ذاك الظبي.. سلمى

ذاكَ إذْ نحنُ وسَلْمَى جِيرَةٌ لا نُبَالي مَنْ وَشَى أَوْ سَمِعَا

حينَ قالتْ: كيفَ أَسْلُو بعدما سَمَّعَ اليومَ بِنا مَنْ سَمَّعَا

كأن سلمى قالت: فلنمض في عشقنا، فقد وقع المحذور وطارت لنا به سمعة

١٥ أنا وعتيق والهوى

قَالَ لي فيها «عَتِيقٌ» مَقَالاً فَجَرَتْ مِمَّا يقولُ الدُّمُوعُ

قال له صاحبه عتيق قولاً أبكاه

قالَ لي وَدِّعْ سُلَيْمَى، ودَعْهَا فَأَجَابَ القلبُ أنْ لا أُطِيعُ

لا تَلُمْني في اشْتِياقي إليها وابْكِ لي مِمَّا تُجِنُّ الضُّلُوعُ

تجن: تخفي

١٦ الحب قديم

أشارَتْ بِطَرْفِ العينِ خِيفَةَ أهلِها إشـارَةَ مَـحـزونٍ، ولـم تَـتَـكَـلَّـمِ
فأيْقَنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قَالَ مَرحَباً وأهـلاً وسهـلاً بـالـحبيـبِ الـمُتَيَّـمِ
ألامُ عـلـى حُـبِّـي كـأنِّـي سَـنَـنْـتُـهُ وقد سُنَّ هذا الحُبُّ مِنْ قَبْلِ جُرْهُمِ

ألام على الحب كأنني أنا اخترعته، وهو موجود من قبل قبيلة جرهم البائدة

١٧ فلم أستطعها

نظرْتُ إليْها بِالمُحَصَّبِ مِن مِنَىً وَلـي نَـظَـرٌ، لـولا الـتَّـحَـرُّجُ، عَـارِمُ

لولا الحرج لكانت نظراتي تحديقاً شديداً

فقلتُ: أَشمسٌ أم مَصابيحُ بِيعَةٍ بَدَتْ لَكَ تَحتَ السِّجْفِ أم أنتَ حَالمُ

أوجهها شمس، أم مصابيح بيعة، صومعة ناسك، بدت تحت السجف، الستر ولعله يقصد الظلام؟ ومصابيح الناسك في الظلام، لتائهٍ في البر، أجمل من ضوء الشمس

مُـهَـفْـهَـفَـةٌ غَـرَّاءُ صِـفْـرٌ وِشَـاحُـهـا وفي الـمِرْطِ منـهـا أَهْيَـلٌ مُتَـراكِـمُ

مهفهفة، ضامرة البطن، غراء، وضيئة الوجه، وشاحها صفر، أي خالٍ لضمور بطنها؛ وأمّا مرطها، أي ثوبها ففي داخله أهيل متراكم، أي كثيب تراكم عليه الرمل فهو يتساقط، يعني أن عجيزتها كبيرة

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ، إمَّا لِنَوْفَلٍ أَبُـوهـا، وإمَّـا عـبـدُ شَـمْـسٍ وهَـاشِـمُ

مهوى القرط، حرفياً: المكان الذي يسقط فيه قرطها.. كناية عن طول عنقها. فهذا ورثته من أعمامها أو من أخوالها، وذكر عشيرتين

ومَدَّ عليْها السِّجْفَ يومَ لَقِيتُها عـلـى عَـجَـلٍ أَتْـبـاعُـهـا والـخَـوادِمُ

غطاها الخدم بالستر بسرعة عندما لقيتها

فلم أَسْتَطِعْها، غيرَ أنْ قد بَدا لنا عَشيَّةَ راحتْ كَفُّـها والـمَـعَـاصِـمُ

فلم أتمكن من رؤيتها، غير أنني رأيت كفيها ومعصميها أوان الرحيل

مَعَاصِمُ لم تَضْرِبْ على البَهْمِ في الضُّحى عَصَاها، وَوَجْهٌ لم تَلُحْهُ السَّمَائِمُ

هاتان اليدان ناعمتان لم تحملا عصا لضرب البهم، أي الماعز، ووجهها نقي لم يسمرَّ من البروز في الشمس، فهي فتاة مدللة بنت نعمة

إذا مَا دَعَتْ أَتْرابَها فَاكتَنَفْنَها تَـمـايَـلْـنَ أو مَـالَـتْ بِـهِـنَّ الـمَـآكِـمُ

إذا دعت صاحباتها فأحطن بها تمايلن دلالاً، أو ربما مالت بهن المآكم، أردافهن

١٨ قولا له

أَلِمـَّا بِذَاتِ الخَالِ فاسْتَطْلِعَا لنا أَكَالعَهْدِ بَاقٍ وُدُّها، أم تَصَرَّما

زورا هذه الفتاة واعرفا إن كانت باقية على العهد، أم تصرم، أي تقطّع، حب الوصل

وقُولا لها: ما في العِبادِ كَريمةٌ أَعَزُّ علينا منكِ طُرّاً وأكرما

وقُولا لها: لم أَجْنِ ذَنباً فتَعْتَبي عَلَيَّ بِحَقٍّ، بل عَتَبْتِ تَجَرُّمَا

فقالا لها، فارْفَضَّ فَيْضُ دُموعِها كما أَسْلَمَ السِّلْكُ الجُمَانَ المُنَظَّمَا

ارفضّ دمعها، أي تفرق، كأنَّ سلكاً فيه جمان، أي لؤلؤ، قد انتثر

وقَالَتْ لأُختَيْها اذْهبَا في حَفيظَةٍ فَزُورا أبَا الخطَّابِ سِرّاً وسَلِّما

اذهبا في تحفُّظ وسلما على عمر، وأبو الخطاب كنيته

وقولا له: واللَّهِ ما الماءُ للصَّدي بِأَشهَى إليْنا مِنْ لِقائِكَ فاعْلَمَا

لقاؤك أشهى إليَّ من الماء للصدي، أي العطشان. اعلما: اعلمَنْ يا فتى، وحذف النون وأطلق

١٩ أليس كثيراً؟

يَلومُونَني في غيرِ جُرْمٍ جَنيْتُهُ وغيريَ، في كلِّ الذي كانَ، أَلْوَمُ

أَمِنْتُ أُناساً أنتُم تَأْمَنُونَهُم فَزَادُوا علينا في الحديثِ، وأَوْهَمُوا

وقالوا لنا ما لم نَقُلْ، ثم أَكْثَرُوا علينا، وبَاحُوا بالذي كنتُ أَكْتُمُ

أليسَ كثيراً أن نكونَ بِبلدةٍ كِلانا بِها ثَاوٍ ولا نَتَكَلَّمُ؟

ثاوٍ: مقيمٌ

٢٠ مع صويحباتها دوني

حَنَا أَتْرابُها دُوني عليها حُنُوَّ العَائِداتِ على سَقِيمِ

اكتنفتها صويحباتها واجتمعن حولها، مثلما تجتمع الزائرات حول المريض،
فلم يكن لي مدخل بينهن

عَقائِلُ لم يَعِشْنَ بِعَيْشِ بُؤْسٍ ولكنْ بِالغَضَارَةِ والنَّعِيمِ

نساء منعمات عشن عيشة نعيم ورغد

٢١ لا ترحل

نظرتْ إليكَ، وذُو شِبَامٍ دُونَها، نَظَراً يكادُ بِسِرِّهَا يَتَكَلَّمُ

نظرت إليك غير قادرة على الكلام فكأن في فمها ذا شِبام، وهو عود يوضع في فم الجدي كيلا يرضع من أمه، ولكن نظرتها كادت تشي بسرها

فَأَبَانَ رَجْعُ الطَّرْفِ أنْ لا تَرْحَلَنْ حتَّى يُجِنَّ الناسَ ليلٌ مُظْلِمُ

فأبان لي طرفها، نظرتها، أنها تقول لي: لا ترحل، وانتظر حتى يُجِنَّ الناسَ الليل، أي يغشاهم ويغطيهم

فلعلَّ غِبَّ الليلِ يَسْتُرُ مَجْلِساً فيهِ يُوَدِّعَ عاشِقٌ ويُسَلِّمُ

فربما تكون عاقبة الليل أن يستر مجلساً يجمعنا للوداع

فَأَتَيْتُ أَمشي بعدما نامَ العِدَا وأَجَنَّهُمْ للنَّوْمِ جَوْنٌ أَدْهَمُ

مشيت إليها بعد نوم الناس وبعد أن غشيهم الليل الجون الأدهم، الحالك السواد، فناموا. (والجون كلمة تعني أسود وتعني أبيض، هي من الأضداد)

حَيَّيْتُها فَتَبَسَّمَتْ، فكأنها عند التَّبَسُّمِ مُزْنَةٌ تَتَبَسَّمُ

كأنها وهي تتبسم غيمة في جانبها يلمع البرق

فَغَنِيتُ جَذْلاناً، وقد جَذِلَتْ بِنا نَبْغي بِذَلكَ رَغْمَ مَنْ يَتَرَغَّمُ

غنيتُ، سعدت، وكنت جذلان، فرحاً، وهي فرحة، وبعض سعادتنا أننا نكيد لمن يعاندنا

ثم انصَرفْتُ وكانَ آخِرُ قولِها أنْ سوفَ يَجْمَعُنا إليكَ المَوْسِمُ

وانصرفت على وعد باللقاء في الموسم المقبل

٢٢ مرارة الحب

ووَجَدْتُ حوضَ الحبِّ حين وَرَدْتُهُ مُرَّ المَذَاقَةِ طَعْمُهُ كالعَلْقَمِ

لا والذي بعثَ النَّبيَّ محمداً بالنورِ والإسلامِ دينِ القَيِّمِ

ما خنتُ عهدَكِ يا عُثَيْمُ، ولا هَفَا قلبي إلى وصلٍ لِغَيْرِكِ فاعلَمي

٢٣ حديثها

طالَ لَيْلي، واعتَادَني اليومَ سُقْمُ وأَصابَتْ مَقاتِلَ القلبِ نُعْمُ

وحديثٍ بِمِثْلِهِ تَنْزِلُ العُصْـ ـمُ، رَخيمٍ يَشوبُ ذلكَ حِلْمُ

حديثها لذيذ تسمعه العصم، الوعول، في جبالها فتنزل؛ وهي حليمة، رقيقة الطباع

٢٤ ليلة في الخلاء

ثـم قـالـتْ، وَهْـيَ تَـذري دَمْـعَ عـيـنـيـهـا سُـجُـومـا:

قالت وهي تذرف الدمع سجوماً، بغزارة

أَخـبِـريـهِ بـالـذي أَلْـقَـى فـإن كـان مُـقـيـمـا،

إن كان مقيماً لم يرحل بعد..

فَـلْـيَـعِـدْنـا مَـوْعِـداً لا نَـتَّـقـي فـيـه نَـمُـومـا

فليكن بيننا موعد لا نخاف فيه من شخص نمام

ولْـيَـكُـنْ ذاكَ إذا مـا انْـتَـصَـفَ الـلـيـلُ بَـهـيـمـا

بَـرَزَتْ بـيـنَ ثَـلاثٍ كـالـمَـهـا تَـقْـرُو الـصَّـريـمـا

برزت بين ثلاث نساء كأنهن المها، بقر الوحش، تقرو، أي تتبع، الصريم، الرمل المتكاثف

قَـمَـرٌ بَـدْرٌ تَـبَـدَّى بَـاهِـراً يُـغْـشـي الـنُّـجُـومـا

وهي بينهن قمر يعشي النجوم، يغلب على ضوئها

قـلـتُ أهـلاً بِـكُـمُ مِـنْ زُوَّرٍ زُرْنَ كَـريـمـا

فـأَذاقَـتْـنـي لَـذيـذاً خِـلْـتُـهُ راحـاً خَـتـيـمـا

أذاقتني ريقها الذي كأنه الخمر المختوم عليها المعتقة

ثـم أَبْـدَتْ إذْ سَـلَـبْـتُ الـمِـرْطَ مُـبْـيَـضّـاً هَـضـيـمـا

وبدا منها بطن أبيض هضيم، ضامر، عندما نزعت عنها المرط، الثوب

فَـلَـهَـوْنـا الـلـيـلَ حـتـى هـجـمَ الـصـبـحُ هُـجُـومـا

قـلـتُ قـد نَـادى الـمُـنـادي وبَـدا الـصُّـبْـحُ فَـقُـومـا

قلت ها قد نادى منادي القوم، وبدا الصبح فقومنْ يا فتيات، وجعل «قومن» «قوما»، ويجوز للشاعر..

ولـقـد قَـضَّـيْـتُ حـاجـاتـي ولاقَـيْـتُ الـنَّـعـيـمـا

٢٥ يرميان الجمرات

لقد عَرَضَتْ لي بِالمُحَصَّبِ مِنْ مِنىً لِحَيْنِيَ شَمسٌ سُتِّرَتْ بِيَمَانِ

برزت لي في ذلك الموضع من مكة لحيني، لموتي وكي تقتلني، فتاة وضاءة كالشمس مستورة ببرد يماني

بَدا ليَ منها مِعْصَمٌ يومَ جَمَّرَتْ وكَفٌّ خَضيبٌ زُيِّنَتْ بِبَنانِ

وهي ترمي الجمار بدا معصمها وكفها الخضيب، المحنَّى، وأصابعها الجميلة

فَلمَّا التَقَيْنا بِالثَّنِيَّةِ سَلَّمَتْ ونَازَعَنِي البَغْلُ اللَّعِينُ عِناني

لما التقينا في المنعطف سلمتْ وهي راكبة بغلها وأنا أمسك بزمامه، والبغل ينزع المقود من يدي

فَواللَّهِ مَا أدرِي، وإنِي لَحَاسِبٌ، بِسَبْعٍ رَمَيْتُ الجَمْرَ أم بِثَمانِ

رغم براعتي في الحساب لا أدرى هل رميت سبع جمرات أم ثمانيَ جمرات

٢٦ هِبتُها

وإذا جئتُها لِأَشكُوَ إليْها بعضَ ما شفَّني ومَا قد شَجاني

شفني: براني برياً

هِبْتُها، وازْدَهَى مِنَ الحُبِّ عقْلِي وعَصانِي بِذاتِ نفسِي لِساني

أحسست بالهيبة وازدهى عقلي، أي أخذته خفَّة واضطراب، ولم أدر ما أقول

ونَسِيتُ الذي جمعتُ منَ القو لِ لديها، وغابَ عنِّي بَيَاني

٢٧ القليل المهنَّا

مَنْ لِقلبٍ أمْسَى حزيناً مُعَنَّى مُسْتَكِنّاً، قد شَفَّهُ ما أَجَنَّا

من ذا يسعف قلباً حزيناً متعباً خاضعاً، شفه، وبراه وأنهكه، ما أجنَّ، أي أخفى، من الحب

إِثْرَ شَخْصٍ، نَفْسِي فَدَتْ ذاكَ شَخصاً، نَازِحِ الدَّارِ بِالمدِينَةِ عَنَّا

قلبي ذاهب إثر تلك الفتاة التي نزحت دارها عنَّا، ابتعدت، إلى المدينة المنورة

ليتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ العينِ منها وكثيرٌ منها القليلُ المُهَنَّا

لا أطلب سوى نظرة، والقليل الذي أحصل عليه منها كثير إذا كان مهنأً، غير مخلوط بتكدير

مَا نَرى رَاكِباً يُخَبِّرُ عنْكُمْ أَو يُرِيدُ الحِجَازَ إلَّا حَزِنَّا

قد يكون قال القطعة وهو باليمن، فقد قيل لنا إن عمر بن أبي ربيعة سافر إلى اليمن ومكث بها بعض الوقت

٢٨ الفاتنة

وغَضيِضِ الطَّرْفِ، مِكْسَالِ الضُّحَى أَحْوَرِ الـمُـقْـلَـةِ، كـالـريـمِ الأَغَـنّْ

رب فتاة غضيضة الطرف، غاضة بصرها خجلاً، مكسال الضحى، تظل كسلانة نائمة حتى الضحى لأنها ابنة نعمة، حوراء العينين، اشتد سوادهما في بياضٍ صافٍ، وكلامها فيه غنة

مَـرَّ بـيِ فـي نَـفَـرٍ يَـحْـفُـفْـنَـهُ مِـثـلَـمـا حَـفَّ الـنَّـصَـارَى بِـالـوَثَـنْ

تحف بها صاحباتها مثلما يحف النصارى بتمثال لهم

قلتُ مَنْ هذا؟ فقالتْ: بعضُ مَنْ فَـتَـنَ الـلَّـهُ بِـكُـمْ فـيـمَـنْ فَـتَـنْ

بـعـضُ مَـنْ كـان أَسـيـراً زَمَـنـاً ثـم أَضْـحَـى لِـهَـواكُـمْ قـد مَـجَـنْ

كنت أسيرة الخجل زمناً وأصبحت ماجنة جريئة في حبك

قـلـتُ: يـا سـيِّـدتـي عَـذَّبْـتِـنـي قـالـتِ: الـلَّـهُـمَّ عَـذِّبْـنـي إِذَنْ

٢٩ النظرة الأخيرة

اِعْـتـادَنـي بـعـدَ سَـلْـوَةٍ حَـزَنـي طَـيْـفُ حـبـيـبـي سَـرَى فَـأَرَّقَـنـي

بعد السلوة، النسيان، اعتادني، عاد إليَّ، طيف حبيبي سارياً في الليل فأرقني

مِـنْ ظَـبـيـةٍ بِـالـعَـقـيِـقِ سَـاكِـنَـةٍ قـد شَـفَّـنـي حـبُّـهـا وعَـذَّبَـنـي

يـا نَـظْـرَةً مـا نَـظَـرْتُ مُـوجِـعَـةً لـم أَرَهـا بـعـدَهـا ولـم تَـرَنـي

ما نظرتُ: أي قد نظرتُ

٣٠ تذكُّر ظبية

إِنَّـنـي الـيـومَ عَـادَنـي أَحْـزانـي وتَـذكَّـرْتُ مَـا مَـضَـى مِـنْ زَمَـانـي

وتَـذكَّـرْتُ ظَـبْـيَـةً أُمَّ ريـمٍ صَـدَعَ الـقـلـبَ ذكـرُهـا فَـشَـجَـانـي

تذكرت فتاة كالظبية الحانية على الريم، والريم الظبي الخالص البياض

لا تَلُمْني «عَتيِقُ» حَسْبِي الذي بي إِنَّ بـيِ يَا «عـتـيـقُ» مـا قـد كَـفـانـي

يخاطب صاحبه عتيقاً: لا تلمني فحسبي ما بي

إن دهـراً يَـلُـفُّ شَـمْـلـي بِـسُـعْـدَى لَـزَمـانٌ يَـهُـمُّ بـالإِحْـسَـانِ

لا تَـلُـمْـنـيِ، وأَنْـتَ زَيَّـنْـتَـهـا لـيِ أنـتَ مِـثْـلُ الـشـيـطـانِ لـلإنـسـانِ

لـو بِـعَـيْـنَـيْـكَ يـا عَـتِـيقُ نَـظَـرْنَـا لـيـلـةَ الـسَّـفْـحِ قَـرَّتِ الـعَـيْـنـانِ

لو نظرتُ إليها بعينيك، وأنت غير عاشق، لقرت عيناي واستراح قلبي،
لكن عيناي أنا عينا عاشق متألم

هِـيَ دَائـي، وَهْـيَ الـدَّوَاءُ لِـدائـي لـو أُدَاوَى بِـريـقِـهـا لَـشَـفَـانـي
لـم تَـدَعْ لـلـنِّـسَـاءِ عِـنـدي نَـصيـبـاً غـيـرَ مـا قُـلْـتُ مَـازِحـاً بِـلِـسَـانـي

ليس لغيرها في قلبي نصيب، وكل الغزل الذي قلته في غيرها مجرد مزاح

٣١ لا أبالي غيركم

لم يُحْبِبِ القلبُ شيئاً مثلَ حُبِّكُمُ ولـم تَرَ العينُ شيئاً بعدَكُمْ حَسَنا
مـا إنْ أُبـالـيِ إذا مـا الـلَّـهُ قَـرَّبَـكُـمْ مَنْ كانَ شَطَّ مِنْ الأَحْبَابِ أو ظَعَنَا

شطَّ: ابتعد، ظعن: رحل

٣٢ قامت تراءى

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هذا القَلْبُ مَعمُودَا إذا أَقُـولُ صَـحَـا يـعـتَـادُه عـيِـدَا

أمسى قلبي معموداً، مولهاً، بأسماء، وكلما قلت إنه صحا يعتاده الهم اعتياداً

كـأنَّـهُ يـومَ يُـمْـسـي لا يُـكَـلِّـمُـهـا ذو بُغْيَةٍ يبتغي ما ليس موجُودا
أَجْرِي على مَوْعِدٍ منها فَتُخْلِفُني فَمَـا أَمَلُّ، ومَا تُوفي المَواعِيدا
قامَتْ تَراءَى، وقد جَدَّ الرحيلُ بِنا لِتَنْكَأَ القَرْحَ مِنْ قَلْبٍ قدِ اصْطِيِدَا

قامت تراءى: تُبرز نفسها، تنكأ القرح: تفتح الجرح من جديد

٣٣ ليت هنداً

لَـيْـتَ هِـنْـداً أَنْـجَـزَتْـنـا مـا تَـعِـدْ وشَـفَـتْ أَنْـفُـسَـنـا مِـمَّـا تَـجِـدْ

ليتها أنجزت وعدها وشفت أنفسنا من الوجْد

واسْـتَـبَـدَّتْ مَـرَّةً واحِـدَةً إِنَّـمـا الـعَـاجِـزُ مَـنْ لا يَـسْـتَـبِـدّ

ليتها كانت ذات قرار فواصلتني بدلاً من الدلال والامتناع والخوف من الأهل. . هذا المعنى الذي لمحته

زَعَـمُـوهـا سَـأَلَـتْ جـاراتِـهـا وتَـعَـرَّتْ ذاتَ يـومٍ تَـبْـتَـرِدْ:

سألت جاراتها وقد تعرت في الحر كي تبترد

أَكَـمَـا يَـنْـعَـتُـنـي تُـبْـصِـرْنَـنـي   عَـمْـرَكُـنَّ الـلَّـهَ، أم لا يَـقْـتَـصِـدْ؟

سألتهن: أترينني جميلة مثلما يصفني؟ أم أنه يبالغ؟

فَـتَـضَـاحَـكْـنَ وقـد قُـلْـنَ لـهـا: حَـسَـنٌ فـي كـلِّ عـيـنٍ مَـنْ تَـوَدّ

قلن لها: هو يراكِ بعين المحب فأنت في عينه حسنة. وتعليق الصديق عمران القفيني: «أي القرد في عين أمه غزال»

حَـسَـداً حُـمِّـلْـنَـهُ مِـنْ شَـأْنِـهـا   وقَـديـمـاً كـان فـي الـنـاسِ الـحَـسَـدْ

وقولهن هذا باعثه الحسد، فكأنهن قلن لها أنت لست جميلة بحق..

غَـادَةٌ تَـفْـتَـرُّ عـن أَشْـنَـبِـهـا   حـيـن تَـجْـلُـوهُ أَقَـاحٍ أو بَـرَدْ

غادة جميلة تنفرج شفتاها عن أسنان بيض، فعندما تجلو أسنانها، أي تظهرها، تظهرُ ما يشبه الأقحوان أو البَرَد

ولـهـا عَـيـنـانِ فـي طَـرْفَـيْـهِـمـا   حَـوَرٌ مـنـهـا، وفـي الـجـيـدِ غَـيَـدْ

في عينيها حور، أي سواد خالص في بياض خالص، وفي عنقها تثنٍّ، فهي تميل بعنقها لشدة الدلال

طَـفْـلَـةٌ بَـارِدَةُ الـقَـيْـظِ إذا   مَـعْـمَـعَـانُ الـصَّـيْـفِ أَضْـحَـى يَـتَّـقِـدْ

كل شيء بارد حسن في عيون أهل المناطق الحارة، فهذه الفتاة باردة

قُـلْـتُ مَـنْ أنـتِ؟ فـقـالـتْ أنـا مَـنْ   شَـفَّـهُ الـوَجْـدُ وأَبْـلاهُ الـكَـمَـدْ

قالت إن الوجد والعشق أرهقاها وإن بها كمداً، كبتاً ومشاعر مختلطة

نـحـنُ أَهْـلُ الـخَـيْـفِ مِـنْ أَهـلِ مِـنَـىً   مَـا لِـمَـقْـتُـولٍ قَـتَـلْـنَـاهُ قَـوَدْ

تقول: القتيل الذي نقتله ليس له دية.. فهي تقتل الرجل بالعشق

قـلـتُ: أهـلاً أنـتُـمُ بُـغْـيَـتُـنـا   فَـتَـسَـمَّـيْـنَ، فـقـالـتْ: أَنَـا هِـنْـدْ

إنَّـمـا أَهْـلُـكِ جـيـرانٌ لَـنـا   إنَّـمـا نَـحـنُ وهُـمْ شَـيءٌ أَحَـدْ

يحدثها عن أهلها وأهله، وهذا الحديث الخفيف مما يتقنه أهل الغزل

حَـدَّثُـونـا أَنَّـهـا لـي نَـفَـثَـتْ   عُـقَـداً، يـا حَـبَّـذَا تـلـكَ الـعُـقَـدْ

يزعم عمر أنها نفثت له عقداً، صنعت له سحراً بعقد خيوط والنفخ عليها، وهو مسرور بهيامها به

كـلَّـمـا قـلـتُ مَـتَـى مـيـعَـادُنـا   ضَـحِـكَـتْ هـنـدٌ وقـالـتْ: بـعـدَ غَـدْ

٣٤ لا كان هذا آخر العهد

والـلّـهِ لا أَنْـسَـى مَـقـالَـتَـهـا   حـتَّـى أُضَـمَّـنَ مَـيِّـتَـاً لَـحْـدِي
اِذْهَـبْ فَـدَيْـتُـكَ غـيـرَ مُـبْـتَـعِـدٍ   لا كـان هـذا آخِـرَ الـعَـهْـدِ

٣٥ أنا وقلبي

أَرِقْتُ ولم أَمْلِكْ لِهذَا الهَوَى رَدًّا   وأَوْرَثَنـي حُبِّي وكِتْمَانُهُ جَهْدا
كَتَمْتُ الهَوى حتَّى بَراني وشَفَّني   وعَزَّيْتُ قلباً لا صَبُوراً ولا جَلْدَا
إذا قُلْتُ لا تَهْلِكْ أَسَىً وصَبابَةً   عَصَاني، وإنْ عاتبْتُهُ زِدْتُهُ وَجْدَا

٣٦ جرى ناصح

جَرَى نَاصِحٌ بِالوُدِّ بَيْني وبيْنَها   فَقَرَّبَني يومَ الحِصَابِ إلى قَتْلِي

سعى صديق في عقد الود بيني وبينها، وفي يوم رمي الجمرات كان اللقاء بيننا محفوفاً بالمخاطر التي تنذر بالقتل

فمَا أَنْسَ مِ الأشياءِ لا أَنْسَ مَوْقِفي   ومَوْقِفَها وَهْنَاً بِقَارِعَةِ النَّخْلِ

لست أنسى لقاءنا وهناً، ليلاً، في ذلك الموضع

فَلَمَّا تَواقَفْنَا عَرفْتُ الذي بِها   كَمِثْلِ الذي بي، حَذْوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ

لما وقفنا واحداً بإزاء الآخر وجدت ما عندها من العشق مثل الذي عندي بالضبط، مثلما تطبق الفردة اليمنى من النعل على اليسرى فيتطابقان

فَسَلَّمْتُ واسْتَأْنَسْتُ خيفَةَ أن يَرَى   عَدُوٌّ مَكاني، أو يَرَى كَاشِحٌ فِعْلِي

استأنست بالمكان على وجل، خوف أن يرى عدو مكاني، أو كاشح، مضمر للعداوة، فعلي

فقالتْ، وأَرْخَتْ جَانِبَ السِّتْرِ إنَّمَا   مَعي ـ فَتَحَدَّثْ غيرَ ذي رِقْبَةٍ ـ أَهْلي

أرخت الستر وطمأنتني قائلة: تحدث ولا ترتقب ولا تخف، فالبنات اللائي معي هن من أهلي

فقلتُ لها: مَا بي لَهُمْ مِنْ تَرَقُّبٍ   ولكنَّ سِرِّي ليس يَحْمِلُهُ مِثْلِي

قلت لها: ليس بي خشية أو ترقب من أهلك، ولكن سري عميق، ولا أبوح به حتى أمام فتيات صديقات

فلمَّا اقْتَصَرْنَا دُونَهُنَّ حَديثَنا   وهُنَّ طَبِيبَاتٌ بِحَاجَةِ ذي التَّبْلِ

لما كان الحديث مقصوراً علينا كلينا، والفتيات طبيبات، خبيرات، بحاجة ذي التبل، العاشق..

عرفْنَ الذي تَهوَى، فقُلْنَ لها ائْذَني　　نَطُفْ سَاعةً في طِيبِ لَيْلٍ وفي سَهْلِ

عرفت الفتيات مبتغاها، فاستأذَنَّ وذهبن ساعة للمشي في جو الليل الطيب

فقالتْ: فلا تَلْبَثْنَ، قُلْنَ: تَحَدَّثي　　أَتَيْنَاكِ، وانْسَبْنَ انْسِيابَ مَهَا الرَّمْلِ

قالت لهن: لا تتأخرن. فقلن لها: هيا تحدثي إلى حبيبك، وسنأتيك بعد حين. وانسحبن بهدوء كالمها، بقرات الوحش

فقُمْنَ وقد أَفْهَمْنَ ذا اللُّبِّ أَنَّما　　فَعَلْنَ الذي يَفْعَلْنَ في ذَاكَ مِنْ أَجْلي

قد قمن، واللبيب يفهم أنهن ذهبن من أجلي.. عندما سمع الفرزدق هذا البيت صاح وقال: هذا والله الذي أرادته فأخطأته الشعراء، وبكت على الديار

وبَاتَتْ تَمُجُّ المِسْكَ في فِيَّ غَادَةٌ　　بَعيدَةُ مَهوَى القُرْطِ صَامِتَةُ الحِجْلِ

وباتت الحبيبة الجميلة تقبلني وتنفث في فمي من فمها ما يشبه في رائحته المسك، وهي بعيدة مهوى القرط، كناية عن طول عنقها، وصامتة الحجل، أي خلخالها لا يتحرك ولا يصدر صوتاً، لأنها ممتلئة الساق

٣٧ الحدق النجل

وأَقْبَلْنَ يَمْشِينَ الهُوَيْنَا عَشِيَّةً　　يُقَتِّلْنَ مَنْ يَرمِينَ بِالحَدَقِ النُّجْلِ

تمشي الفتيات بدلال، ويقتلن الرجال بعيونهن الواسعة

فَسَلَّمْنَ تَسليماً ضَعيفاً، وأَعْيُنٌ　　نُحاذِرُها مِنْ أَهْلِهِنَّ ومِنْ أَهْلِي

سلمن علينا بخفوت، وأهلي وأهلهن يراقبون

٣٨ اندفاع

كِدتُ يومَ الرحيلِ أَقْضِي حَياتي　　لَيتني مُتُّ قبلَ يومِ الرحيلِ

ولقد قالتِ الحبيبةُ: لولا　　كَثْرَةُ الناسِ جُدْتُ بِالتَّقْبيلِ

٣٩ العاشق الأشمط

إِنما أَلْوَتْ بِعَقْلي　　بعدَ حِلْمٍ واكْتِهالِ

ألوت بعقلي، ذهبت به، بعد الحلم، التعقل، والاكتهال، سن الرجولة الناضجة

حينَ لاحَ الشَّيْبُ مِنِّي　　في شَواتي وقَذالي

الشواة: جلدة الرأس، والقذال: مؤخر الرأس

أيــهــا الــنــاصِــحُ، قَــبْــلــي فُــتِــنَــتْ شُــمْــطُ الــرجــالِ

أيها الناصح، لقد فُتن قبلي الرجال الشمط، من اختلط بياض شعرهم بسواده

فَــفُــؤادي فــي هَــواهَــا هَــائِــمٌ أُخْــرَى الــلَّــيــالــي

٤٠ إني أخاف المهر أن يصهلا

أرسلتُ لَمَّا عيلَ صبري إلى أَسْماءَ، والصَّبُّ بِأَنْ يُرْسِلا

أرسلت لها رسولاً بعد أن نفد صبري، والصب، المحب، بأن يرسلَ.. أي جدير به أن يرسل

ثم دَعَتْ مِنْ عَجَبٍ أُختَها هِنْداً فَقالَتْ: عُمَرٌ أَرْسَلا

يَسُومُني مُعْتَذِراً مَجْلِساً كأَنَّهُ يَأْمَنُ أنْ نَبْخَلا

يطلب مني أن أجالسه، وكأنه متأكد بأنني سأرضى

فأَرْسَلَتْ أَرْوَى وقَالَتْ لَها مِنْ قَبْلِ أنْ تَرضَى وأن تَقْبَلا:

أختها الثانية «أروى» تدخلت وبادرت بالقول لأسماء من قبل أن تقرر القبول

فوَاعِديهِ سِدْرَتَيْ مَالِكٍ أو ذا الذي بينَهُما أَسْهَلا

اضربي موعداً معه في ذلك المكان بين شجرتي السدر، أو في المكان الذي بينهما، فذلك أسهل

ولْيَأْتِ إن جَاءَ على بَغْلَةٍ إنِّي أخافُ المُهْرَ أن يَصْهَلا

٤١ قد سألت قليلا

أَرِقْتُ، ولم آرَقْ لِسُقْمٍ أَصَابَني أُرَاقِبُ ليلاً ما يَزولُ طَويلا

أصابني الأرق، لكن ليس لمرض.. وظللت أراقب الليل الطويل الذي يأبى أن يزول

إذا خَفَقَتْ منهُ نُجُومٌ فَحَلَّقَتْ تَبَيَّنْتُ مِنْ تَالي النجومِ رَعِيلا

إذا ارتجفت بعض النجوم وارتفعت وخفتت، رأيت مجموعة أخرى تظهر بعدها

فلمَّا مضتْ مِنْ أولِ الليلِ هَجْعَةٌ وأَيْقَنْتُ مِنْ حِسِّ العُيونِ غُفُولا..

لما مضت هجعة، نومة خفيفة أي مدة قصيرة، من أول الليل، وجاء النوم الحقيقي فأغفت العيون وغفلت عما حولها..

دَخَلْتُ على خوفٍ فَأَرَّقْتُ كاعِباً هَضيمَ الحَشا رَيَّا العِظامِ كَسُولا

دخلت متوجساً وأيقظت فتاة كاعباً، أي برز صدرها، وهي هضيم الحشا، ضامرة البطن، وريا العظام، ممتلئة الخلقة، وكسول، بنت نعمة تنام حتى الضحى

فَهَبَّتْ تُطيعُ الصوتَ نَشْوَى مِنَ الكَرى كَمُغْتَبِقِ الرَّاحِ المُدَامِ شَمُولا
استيقظت على صوتي وهي نشوى، مخدَّرة، من الكرى، النعاس، كمن اغتبق الخمر، شربها مساء

فَعَضَّتْ على الإِبْهامِ منها مَخَافَةً عَليَّ، وقالتْ: قد عَجِلْتَ دُخُولا
عضت على إبهامها خائفة عليَّ من القوم، وقالت: قد عجلت بالمجيء

فهلَّا إذا استَيْقَنْتَ أنَّكَ داخِلٌ دَسَسْتَ إِلَيْنَا في الخَلاءِ رَسُولا
أمَا بعثت رسولاً يخبرنا بأنك قادم

فَنُقْصِرُ عنَّا عَيْنَ مَنْ هُوَ كَاشِحٌ وتَأْتي ولا نَخْشَى عليكَ دَلِيلا
فعندئذ نكف عنا عين العدو المضمر للعداوة، ولا نترك دليلاً على زيارتك

فقُلْتُ: دَعاني حُبُّكُمْ فَأَجَبْتُهُ إِليكِ، فَقَالَتْ: بلْ خُلِقْتَ عَجُولا
فلمَّا أَفَضْنا في الهَوى نَسْتَبِثُّهُ وعَادَ لنا صَعْبُ الحديثِ ذَلُولا
لما أفضنا في الهوى، ومضينا في الحديث نستبثه، نستخرجه ونتبادله، وصار سهلاً علينا أن نتصارح

شَكَوْتُ إِليْها ثم أَظْهَرْتُ عَبْرَةً وأَخْفَيْتُ منها في الفُؤَادِ غَليلا
بدرت مني دمعة، وظلت في قلبي حرارة العشق

فقلتُ صِلي مَنْ قد أَسَرْتِ فُؤادَهُ وعَادَ له فيكِ النَّصُوحُ عَذُولا
قلت لها: أريد وصْلك، فأنا محب ولهان، ولشدة تولهي بك أصبح من كان ينصحني عاذلاً يلومني

فَصَدَّتْ وقَالتْ: مَا تزالُ مُتَيَّماً نَراكَ، وإنْ كنتَ الصَّحيحَ، قَتيلا
فصدَّت عني، وقالت: يا لك من متيم، جسمك صحيح وقلبك قتيل الحب.. شيء كهذا

صُدُودَ شَمُوسٍ، ثم لانَتْ وقَرَّبَتْ إِلَيَّ، وقَالتْ: قد سَأَلْتَ قَليلا
وكان صدودها صدود فتاة شموس، معاندة، لكنها بعد ذلك لانت واقتربت، وقالت: ما طلبته قليل.. كأنها تشجعه على نيل المزيد

لقد حَلِيَتْكَ العينُ أوَّلَ نظرةٍ وأُعطِيتَ مِنِّي يا ابنَ عَمٍّ قَبولا
قد استحلتك العين من النظرة الأولى، ووجدتُ في نفسي قبولاً لك

٤٢ استخبار الطلل

يا صاحِبَيَّ قِفَا نَسْتَخْبِرِ الطَّلَلا عن بَعضِ مَنْ حَلَّهُ بِالأمْسِ، ما فَعَلا

فقالَ لِي الرَّبْعُ لَمَّا أن وَقَفْتُ بِهِ: إنَّ الخَليطَ أجَدَّ البَيْنَ فاحْتَمَلا

قال لي منزل القوم الخرب: إن الخليط، أي القوم، جددوا فراقاً ورحلوا

٤٣ لا تحلفي

جُنَّ قَلبي، فقلتُ: يا قلبُ مَهْلا لا تَبَدَّلْ بالحِلْمِ والعَزْمِ جَهْلا

جُنَّ قلبي بحبها، فقلت له لا تتهور بعد أن كنت ذا حلم وعزيمة

حَلَفَتْ أنَّ مَا أتاها يَقِينٌ، قلتُ: لا تَحْلِفي فَدَيْتُكِ كَلَّا

تحلف لي أن ما بلغها عن معاشرتي لغيرها يقين، فقلت لا تحلفي..

لا أخُونُ الخَليلَ ما عِشْتُ حتَّى يُنْقَلَ البحرُ بِالغَرابيلِ نَقْلا

لا أخون الصديق حتى يكون مستطاعاً نقل البحر بالغرابيل

٤٤ أنتِ أشغالي

أنتِ كنتِ الهوى، ورؤيَتُكِ الخُلْـ ـدَ، وكنتِ الحديثَ والأشْغَالا

حُلْتِ دونَ الفُؤَادِ، والتَذَّكِ القَلْـ ـبُ، وخَلَّى لَكِ النِّسَاءُ الوِصَالا

أغلقتُ فؤادي فلم يعد يتقبل غيرك من النساء، وتركَت النساء وصالي، فهو لك أنت وحدك

أيُّها العَاذِلي أقِلَّ عِتابي لم أُطِعْ في وِصَالِها العُذَّالا

٤٥ حديث الطلل

سَائِلا الرَّبْعَ «بِالبُلَيِّ» وقُولا: هِجْتَ شَوقاً لنا الغَدَاةَ طَويلا

يريد من صاحبيه أن يخبرا الطلل في ذلك الموضع بأنه أهاج القلب وأشعل نار الشوق

أيْنَ حَيٌّ حَلُّوكَ إذْ أنتَ مَحْفُو فٌ بِهِمْ آهِلٌ أراكَ جَميلا؟

أين من كانوا ينزلون بك أيها المكان الخالي، وكانوا يحفون بجوانبك؟

قالَ: سَارُوا بِأَجْمَعٍ فاسْتَقَلُّوا، وبِكُرْهِي لو اسْتَطَعْتُ سَبِيلا

قال ـ وفي هذه المرة استطاع الطلل أن يتكلم ـ إنهم ركبوا جميعاً ورحلوا، وهو كاره رحيلهم، ولو استطاع لمنعهم من الرحيل

٤٦ مبيت عند الحبيبة

بِـتُّ فـي نِـعْـمَـةٍ وبَـاتَـتَ وِسَـادي   ثِـنْـيَ كَـفٌّ حَـدِيـثَـةٍ بِـخِـضَـابِ

بتُّ سعيداً وباتت المحبوبة وسادة لي، يبدو أنه كان يسند رأسه إلى عضدها، وكان يرى كفها مثنية نحوه ويرى ما بهذه الكف من حناء وضعت حديثاً

ثم قُمْـنـا لـمَّـا تَـجَـلَّـى لـنـا الـصُّبْـ   ـحُ نُـعَـفِّـي آثَـارَنـا بِـالـتُّـرابِ

وفي الصباح قاما يعفّيان، أي يزيلان، آثار الخطى بمسح التراب

٤٧ المحتالة والفتاة

قـد بَـعَـثْـنَـا طَـبَّـةً مُـحْـتَـالَـةً   تَـمْـزِجُ الـجِـدَّ مِـراراً بِـالـلَّـعِـبْ

بعث إلى فتاته امرأة طَبَّةً، خبيرة، محتالة، تخلط في كلامها الجد بالمزاح

تَـرفـعُ الـصـوتَ إذا لاَنَـتْ لَـهـا   وتَـرَاخَـى عـنـدَ سَـوْرَاتِ الـغَـضَـبْ

فإذا وجدت الفتاةَ قد لانت رفعت صوتها وهي تقنعها بالوصال، فإذا غضبت الفتاة خفضت المرأة المحتالة صوتها ولانت في كلامها

وَهْـيَ إذْ ذَاكَ عـلـيْـهـا مِـئْـزَرٌ   ولَـهـا بَـيْـتُ جَـوَارٍ مِـنْ لُـعَـبْ

والفتاة عليها مئزر، ثوب منزل كالتنورة، وهي صغيرة تلعب بلعبها

لـم تَـزَلْ تَـصْـرِفُـهـا عَـنْ رَأْيِـهـا   وتَـأنَّـاهـا بِـرِفْـقٍ وأَدَبْ

والمحتالة تتأنَّاها، أي تتحايل عليها باللطف، كي تغير لها رأيها

٤٨ بين عرفات والجمرات

صـادَ قـلـبـي الـيـومَ ظَـبْـيٌ   مُـقْـبِـلٌ مِـنْ عَـرَفَـاتِ

فـي ظِـبَـاءٍ تَـتَـهَـادَى   عَـامِـداً لِـلْـجَـمَـراتِ

وعـلَـيْـهِ الـخَـزُّ والـقَـزُّ   وَوَشْـيُ الـحِـبَـراتِ

الخز والقز: نوعان من الحرير، والحبرات الموشاة: ثياب مزينة يقول محمد محيي الدين عبد الحميد إنها تجلب من اليمن

إِنَّـنـي لَـسْـتُ بِـنَـاسٍ   ذَلِـكَ الـظَّـبْـيَ حَـيَـاتـي

٤٩ لم أعدل به أحدا

أَلْمِمْ بِزينَبَ إنَّ البَيْنَ قد أَفِدَا قَلَّ الثَّوَاءُ لَئِنْ كان الرحيلُ غَدا

ألمم بزينب، زُرْها، فقد اقترب الفراق، ولأن الرحيل سيكون غداً فقد أصبح الثواء، الإقامة، قليلاً

لَعَمْرُها ما أَرَاني إنْ نَوىً نَزَحَتْ ودَامَ ذَا الحُبُّ إلَّا قَاتِلي كَمَدَا

إن رحلت وظل حبها في قلبي فسوف أموت حسرةً

قد حَلَفَتْ لَيلَةَ «الصَّوْرَيْنِ» جاهِدَةً، ومَا على المرْءِ إلَّا الصَّبْرُ مُجْتَهِدَا . .

حلفتْ في تلك الليلة في ذلك المكان . .

لِتِرْبِها ولِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِها لقد وَجَدْتُ بِهِ فوقَ الذي وَجَدَا

حلفت لصديقتها ولفتاة أخرى من مناصفها، وصيفاتها،
بأنها عانت من الشوق أكثر مما عانيت أنا

لو جُمِّعَ الناسُ ثم اخْتيرَ صَفْوَتُهُمْ شَخْصاً مِنَ النَّاسِ لم أَعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

وقالت لهما: إنها لا تعدل بي أحداً من بين كل الناس

٥٠ لا صبر لي

ولقد قُلْتُ إذْ تَطَاوَلَ هَجْرِي: رَبِّ لا صَبْرَ لي على هَجْرِ هِنْدِ
رَبِّ حَمَّلْتَني مِنَ الحُبِّ ثِقْلاً رَبِّ لا صَبْرَ لي، ولا عَزْمَ عِنْدي
ليسَ حُبِّي لَها بِبِدْعَةِ أَمْرٍ قد أَحَبَّ الرجالُ قَبلِي وبَعدِي

٥١ حب تحت المطر

فلستُ بِنَاسٍ لَيْلَةَ الدارِ مَجلساً لِزَيْنَبَ حتَّى يَعْلُوَ الرأْسَ رَامِسُ

لن أنسى ذلك المجلس مع زينب حتى يعلو رأسي الرامس، والرمس هو القبر ولعل الرامس مثله

فما نِلْتُ منها مَحْرَماً غَيْرَ أَنَّنا كِلانا مِنَ الثوبِ المُوَرَّدِ لابِسُ

لم أنل منها ما يحرم الدين، لكننا كنا كلانا لابسين ثوباً واحداً ـ وبالأمارة كان مورَّداً ـ. وعلق صديقه عتيق على هذا البيت: فأي محرم بقي؟ فأخبره عمر بأن السماء أمطرت فأمر غلمانه فستروهما بكساء خز. فقال عتيق: هذا البيت يحتاج إلى حاضنة

٥٢ آخر الشعر

قيل إن عمر حلف في شيخوخته لا يقول بيتاً إلا أعتق عبداً.
فسمع شكوى محبٍّ فهاج شوقه، فقال هذه الأبيات، ثم أعتق عبداً لكل بيت:

تـقـولُ وَلـيـدَتـي لَـمَّـا رَأَتْـنـي طَرِبْتُ، وكنتُ قد أَقْصَرْتُ حِينَا:

رأتني ابنتي، أو جاريتي، وقد اهتززت طرباً واشتياقاً وحسرة ـ والطرب يجمع كل هذه المعاني ـ، وكنتُ منذ زمن قد كففت عن الغزل

أَراكَ الـيـومَ قـد أَحْـدَثْـتَ شَـوْقـاً وعـادَ لَـكَ الـهـوى دَاءً دَفـيـنـا
فـقـلـتُ شَـكَـا إِلَـيَّ أَخٌ مُـحِـبٌّ كَـبـعـضِ زَمَـانِـنـا إذْ تَـعْـلَـمـيـنـا
فـقَـصَّ عَـلَـيَّ مـا يَـلْـقَـى بِـهِـنْـدٍ فَـوافَـقَ بـعـضَ مـا قـد تَـعْـرِفـيـنـا
وذو الـقـلـبِ الـمُـصَـابِ ولـو تَـعَـزَّى مَـشُـوقٌ حيـنَ يَـلـقَـى الـعَـاشِـقِـيـنـا

٥٣ دعوة لسهرة

قـالـتْ لِـنـائِـلَـةَ: اذْهَـبِـي قـوُلـي لَـهُ إنْ كـانَ أَجْـمَـعَ رِحْـلَـةً أَصْـحَـابُـهُ

قالت المحبوبة لنائلة: قولي لعمر أن يتأخر ولا يرحل مع أصحابه إن قرروا رحيلاً

فَـلْـيَـبْـقَ بَـعـدَهُـمُ لَـدَيْـنـا لَـيـلَـةً فَـلَـهُ عَـلَـيَّ بِـأَنْ يُـجَـادَ ثَـوَابُـهُ

ليبق بعدهم ليلة عندي، وله عليَّ أن أكون سخية في مكافأته

قُلْتُ اذْهَبِي قُولِي لها: قد طَالَ مَا حُبِسَتْ لَدَيْكِ على الكَلالِ رِكَابُهُ

قلت لنائلة، قولي للمحبوبة: كثيراً ما وقف ببابك وحبس نياقه رغم الكلال، أي التعب

بِـتْـنَـا بِـأَنـعَـمِ لَـيـلَـةٍ وأَلَـذِّهَـا لـلـنَّـفْـسِ، ما سَتَرَ الصَّبَاحَ حِجَابُهُ

بتنا بليلة لذيذة استمرت ما ظل الصباح محجوباً بالظلمة

٥٤ الزمن المتقلب

خَلِيلَيَّ عُوجَا، حَيِّيَا اليومَ زَيْنَبَا ولا تَـتْـرُكـانـي صَـاحِـبَـيَّ وتَـذْهَـبَـا

يا صاحبيَّ عوجا، ميلا عن الطريق، لكي نحيي أطلال زينب، ولا تتركاني وحدي

فلا مَـرحَـبـاً بـالـشَّـامِـتـيـنَ بِـهَـجْـرِنـا ولا زَمَـنٍ أَضْـحَـى بِـنَـا قـد تَـقَـلَّـبَـا

٥٥ تراجع سريع

أَصْبَحَ القَلبُ قد صَحَا وأَنَابَا   هَجَرَ اللَّهْوَ والصِّبَا والرَّبَابَا

أناب: رجع وتاب، الصِّبا: العشق

كنتُ أَهْوَى وِصَالَها فَتَجَنَّتْ   ذَنْبَ غَيرِي فَما تَمَلُّ العِتَابا

ألصقتْ بي ذنب غيري وتجنَّت عليَّ، وأكثرت من العتاب

فَتَعَزَّيْتُ عن هَواهَا لِرُشْدِي   حينَ لاحَ القَذَالُ مِنِّي فَشَابا

فطيبت نفسي عن تركي هواها، وقد بان في قذالي، أي مؤخر رأسي، الشيب

بَعَثَتْ لِلوِصَالِ نَحْوِي وقَالَتْ:   إنَّ للهِ دَرَّهُ كيفَ تَابا

هي بعثت لي تريد إحياء الهوى متعجبة من توبتي

إنْ لَمَ اصْرِفْهُ للَّذي قد هَوَيْنَا   عنْ هَوَاهُ فَلا أَسَغْتُ الشَّرَابا

وحلفتْ ألا تلذ شربةَ ماء إن لم تنجح في مسعاها

فأَتَاها لِلْحَيْنِ يَغْدُو سَرِيعاً   وعَصَى في هَوى الرَّبَابِ الصِّحَابَا

بسرعة أجابها عمر للحين، للموت.. أي أجابها لما فيه موته عشقاً، وعصى في هواها الناصحين من أصحابه

كنتُ أَعصِي النَّصِيحَ فيكِ مِنَ الوَجْـ   ـدِ وأَنْهَى الخَلِيلَ أن يَرْتَابا

لشدة وجدي وشغفي بك كنت أعصي الناصح، وأنهى الصديق أن يشكك في جدوى هذه العلاقة

فابْتُلِيتُ الغَدَاةَ منهُ بِشَيْءٍ   سَلَّ جِسْمِي وعُدْتُ شيئاً عُجَابَا

واليوم ابتليت من الوجد بشغف مضاعف سل جسمي وبراه برياً، وجعلني أعجوبة

٥٦ لا تلمني عتيق

لا تَلُمْنِي «عَتيقُ»، حَسْبِي الذي بي   والْتَمِسْ لي الدَّواءَ عندَ الطَّبيبِ

إن قَلبِي ما زالَ مِنْ أمِّ عَمْرٍو   ضَمِناً بعدَ لَيلَةِ التَّحْصِيبِ

ما زال قلبي ضمناً، سقيماً، من ذلك اللقاء مع أم عمرو بعد ليلة رمي الجمار

٥٧ الصلح مع «الثريا»

قالَ لي صَاحِبِي لِيَعْلَمَ ما بِي: أَتُحِبُّ القَتولَ أُخْتَ الرَّبَابِ

قلتُ وَجْدي بِهَا كَوَجْدِكَ بِالعَذْ ... بِ، إذا ما مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرابِ

حبي لها كحبك الماء بعد إذ مُنِعتَ منه

مَنْ رَسُولي إلى «الثُّرَيَّا»؟ فَإِنِّي ... ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِها والكِتَابِ

من يسعى في الصلح بيني وبين الثريا؟ فقد ضقت ذرعاً بالهجر وكتاب الله. هذا معنى البيت.. وتكملة القصة أن ابن أبي عتيق ركب من فوره ليصلح بين الثريا وبين عمر، وأخذ عمرَ معه إلى الطائف حيث تقضي الثريا الصيف، وأصلح بينهما

أَزْهَقَتْ أمُّ نَوْفَلٍ إذ دَعَتْهَا ... مُهْجَتِي، مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ

أم نوفل، وصيفة الثريا أو قريبتها، أزهقت روحي عندما نادت الثريا؛ وليس لقاتلي توبة

حينَ قَالَتْ لها أجيبي، فقالتْ: ... مَنْ دَعاني؟ قَالتْ: أبو الخَطَّابِ

قالت لها إن عمر، وكنيته أبو الخطاب، ينتظرك

فَأَجَابَتْ عندَ الدُّعَاءِ كما لَبَّـ ... ـى رِجَالٌ يَرْجُونَ حُسْنَ الثَّوَابِ

لبت الثريا الدعوة، وجاءت مسرعة، مثلما يلبي دعوة ربهم رجال يرجون حسن الثواب بقصد بيت الله الحرام

وَهْيَ مَكْنُونَةٌ تَحَيَّرَ منها ... في أديمِ الخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبابِ

هي مكنونة، مخدرة ومخبأة في البيت لا تظهر للشمس، وفي أديم خديها، أي جلدها نضارة الشباب

أَبْرَزُوهَا مِثْلَ المَهَاةِ تَهَادَى ... بينَ خَمْسٍ كَواعِبٍ أَتْرَابِ

كانت كبقرة الوحش تتهادى بين أترابها الكواعب، الفتيات اللائي نهدت صدورهن

دُمْيَةً عندَ رَاهِبٍ ذي اجْتِهَاد ... صَوَّرُوها في جَانِبِ المِحْرَابِ

هي كتمثال في صومعة راهب مجتهد في العبادة

ثم قالوا: تُحِبُّها؟ قلتُ بَهْراً: ... عَدَدَ النَّجْمِ والحَصَى والتُّرابِ

قالوا لي: أتحبها؟ فقلت مبهوراً، أي بعد أن تنهَّدتُ وأصابني البهر أي انقطاع النفَس: أحبها عدد النجوم وعدد الحصى وحبات الرمل

٥٨ المهريق ماءه

إن تبْذُلي ليَ نَائلاً يَشْفَى بِهِ ... سُقْمُ الفُؤادِ. فقد أَطَلْتِ عَذابي

هلّا بذلت لي من وصلك ما يشفي فؤادي؟ فلقد أطلتِ عذابي بالهجر

وعَصَيْتُ فيكِ أقَارِبي فَتَقَطَّعَتْ بيني وبَيْنَهُمْ عُرَى الأَسْبابِ

وعصيت أقاربي الذي نصحوني بالابتعاد عنك، وتقطعت العلاقات بيني وبينهم. والأسباب في الأصل هي الحبال

وتَرَكْتِني لا بِالوِصَالِ مُمَتَّعاً يوماً، ولا أسْعَفْتِني بِثَوابِ

لم أنل منك شيئاً. لا نلت وصالك، ولا أبقيت على علاقاتي مع أقاربي. كذا أراد أن يقول فالتوى عليه الكلام، وكثيراً ما يلتوي، فقد كان عمر شاعراً مسترخياً يقول الأبيات كيفما اتفق، فيتلقفها أصحابه وينشرونها وهي أحوج ما تكون إلى التنقيح

فقَعَدْتُ كَالمُهَرِيقِ فَضْلَةَ مَائِهِ في حَرِّ هَاجِرَةٍ لِلَمْعِ سَرابِ

أصبحت كمن أراق بقية الماء من قربته في حر الظهيرة عندما رأى سراباً فحسبه ماء

٥٩ العجب العاجب

ولو سَلَكَ الناسُ في جانبٍ مِنَ الأرضِ واعتَزَلْتُ جَانبا

لأَتْبَعْتُ طِيَّتَها، إنَّني أرَى دونَها العَجَبَ العَاجِبا

لتبعتها وتوجهت إلى جهتها، فهي تعجبني جداً

٦٠ قبِّليني

أُحِبُّ لِحُبِّ عَبْلَةَ كُلَّ صِهْرٍ عَلِمْتُ بهِ لِعَبْلَةَ أو صَديقِ

ولَولا أنْ تُعَنِّفَني قُرَيْشٌ وقَوْلُ الناصِحِ الأدْنَى الشَّفِيقِ

لَقُلْتُ إذا التَقَيْنا: قَبِّلِيني، ولو كُنَّا على ظَهْرِ الطَّريقِ

٦١ فقُلن: اسكُتي

فلما التقيْنَا واطْمَأنَّتْ بنا النَّوَى وغُيِّبَ عنَّا مَنْ نَخَافُ ونُشْفِقُ..

لما التقينا وانتهى البعاد، ولم يكن في الجوار من نخاف منه..

أَخَذْتُ بِكَفِّي كفَّها فوضَعْتُها على كَبِدٍ مِنْ خَشْيَةِ البَيْنِ تَخْفِقُ

أخذت كفها ووضعتها على كبدي التي تخفق خشية فراق جديد

فقالتْ لأتْرابٍ لها حينَ أيْقَنَتْ بما قد أُلاقي إنَّ ذا ليسَ يَصْدُقُ

تقول لصاحباتها - رغم أنها تأكدت من مبلغ حبي - إن الرجل ليس صادقاً

فقُلْنَ: أَتَبْكِي عينُ مَنْ ليس مُوجَعاً كَئِيباً ومَنْ هُوَ سَاهِرُ اللَّيْلِ يَأْرَقُ؟

فقلن لها: أَوَيبكي من ليس موجع القلب، ومن هو ساهر عشقاً؟

فَقُمْنَ لِكَيْ يُخْلِينَنا، فَتَرَقْرَقَتْ مَدامِعُ عينيْها، فَظَلَّتْ تَدَفَّقُ
قامت صاحباتها يردن أن يتركن لنا الجو، فبكت المحبوبة..

وقالتْ: أَما تَرحَمْنَني أَنْ تَدَعْنَني لَدَيْهِ، وَهُوَ فيما عَلِمْتُنَّ أَخْرَقُ
قالت لهنَّ: كيف تتركنني لديه وهو أخرق متهور؟

فقُلْنَ: اسْكُتي عَنَّا فَغَيْرُ مُطاعَةٍ لَهُوَ بِكِ مِنَّا، فَاعْلَمي ذَاكَ، أَرْفَقُ
قلن لها: اسكتي. لن نطيعك. هو أرفق بك منَّا

فقَالَتْ: فلا تَبْرَحْنَ ذا السِّتْرَ، إِنَّني أَخافُ ورَبِّ النَّاسِ منهُ وأَفْرَقُ
فقالت لهن: لا تبتعدن عن الستر فأنا أفْرَقُ منه، أي أخاف

٦٢ تحويل طريق

جعلتُ طَريقي على بَابِكُمْ وما كان بَابُكُمْ لي طَريقا
صَرَمْتُ الأَقَارِبَ مِنْ أَجْلِكُمْ وصَافَيْتُ مَنْ لم يكنْ لِي صَدِيقا
صرمتُ: قاطعتُ، صافيتُ: هادنْتُ وصادقت

٦٣ حدثَ في الطواف

أَدْخَلَ اللَّهُ ربُّ مُوسى وعِيسى جنةَ الخُلْدِ مَنْ مَلاني خَلُوقَا
أدخل الله الجنة من ملأني خَلوقاً، أي طيباً

مَسَحَتْهُ مِنْ كَفِّهَا بِقَميصي حينَ طَافَتْ بِالبَيْتِ مَسْحاً رَفِيقَا
غَضِبَتْ أنْ نَظَرْتُ نحوَ نِساءٍ ليس يَعْرِفْنَنا مَرَرْنَ الطَّريقَا
وأرى بينَها وبينَ نِسَاءٍ كنتُ أَهْذي بِهِنَّ بَوْناً سَحيقَا
ما أبعد الفرق بينها وبين غيرها من النساء

٦٤ بانوا بنُعم

بَانُوا بِنُعْم، فَلَسْتُ نَاسِيَها ما اهْتَزَّ في غُصْنِ أَيْكَةٍ وَرَقُ
رحلوا ومعهم نعم، ولن أنساها أبداً، ما اهتز الورق في غصن الأيكة، أي الشجرة

اَلظَّبْيُ فيهِ مِنْ خَلْقِها شَبَهٌ: النَّحْرُ والمُقْلَتانِ والعُنُقُ

٦٥ العين الناطقة

تَكادُ غَداةَ البَيْنِ تَنْطِقُ عينُه   بِعَبْرَتِهِ، لو كانتِ العينُ تَنطِقُ

٦٦ يا حِبْني لهم

ليتَ شِعري، غَداةَ بَانُوا وفيهِمْ   صُورةُ الشمسِ، أينَ يُرْجَى التَّلاقي؟

لست أدري، صبيحة رحيلهم ومعهم المحبوبة التي هي كالشمس، كيف يكون التلاقي من بَعد

إن قلبي لَفيكُمُ اليومَ رَهْنٌ   لِشَقائي، وحُبَّ أَهْلِ العِراقِ!

حُبَّ: أي يا حبي لأهل العراق! هكذا ضبطها وفسرها محيي الدين عبد الحميد. ويقولون في عاميتهم «يا حِبْني له» أي ما أحبه إلى قلبي!

٦٧ الوثيرات

أَسيِلَاتُ أَبْدَانٍ دِقَاقٌ خُصُورُها   وَثيِراتُ مَا الْتَفَّتْ عليهِ المَلاحِفُ

نساء طوال الجسوم، خصورهن نحيلة، ولكن عجيزاتهن، حيث يلففن الملاءات، وثيرة سمينة

إذا قُمْنَ أو حَاوَلْنَ مَشياً تَأَطُّراً   إلى حاجةٍ مَالَتْ بِهِنَّ الرَّوَادِفُ

إن قمن لبعض حاجاتهن، أو إن أردن المشي تأطراً، أي تثنياً، مالت أجسامهن بفعل ثقل الأرداف

٦٨ الباكي

تَأَوَّبَ عَيْنَهُ وَهْناً قَذاها   ودَاوَاها الطَّبيبُ فما شَفاها

عاد إلى عينه القذى وهناً، ليلاً، لكثرة ما بكى

٦٩ ربة البغلة

يا رَبَّةَ البَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ هل لَكُمُ   أنْ تَرْحَمي عُمَراً، لا تُرْهِقي حَرَجا

يا صاحبة البغلة البيضاء ارحميني، ولا ترهقي رجلاً هيَّاباً، يراقب شتى المحاذير

قالتْ بِدائِكَ مُتْ، أو عِشْ تُعَالِجُهُ   فما نَرى لَكَ فيما عِندنا فَرَجا

حتى لو اَسْطيعُ، ممَّا قد فَعَلْتَ بِنا،   أَكَلْتُ لَحْمَكَ مِنْ غيْظي، ومَا نَضِجَا

لو أستطيع لأكلت لحمك نيِّئاً لأنك فضحتني بشعرك

٧٠ رسول شموس

بَـعَـثْـتُ وَلـيـدَتـي سَـحَـراً وقُـلْـتُ لَـهـا: خُـذي حَـذَرَكْ

وليدته: جاريته

وقُـولـي فـي مُـعَـاتَـبَـةٍ لِـزَيْـنَـبَ نَـوِّلـي عُـمَـرَكْ
فَـهَـزَّتْ رأْسَـهـا عَـجَـبـاً وقـالَـتْ: مَـنْ بِـذا أَمَـرَكْ

زينب تخاطب الجارية: من أمرك بهذا؟

أَهَـذا سِـحْـرُكَ الـنِّـسْـوا نَ؟ قـد خَـبَّـرْنَـنـي خَـبَـرَكْ
وقُـلْـنَ إذا قَـضَـى وَطَـراً وأَدْرَكَ حـاجَـةً هَـجَـرَكْ

٧١ كوجد الجن والإنس

إن الـخَـلـيـطَ تَـصَـدَّعُـوا أَمْـسِ وتَـصَـدَّعَـتْ لِـفِـراقِـهِـمْ نَـفْـسـي

الخليط، أي الجيران، تصدعوا، أي تفرقوا، ورحلوا أمس، وتصدعت، أي تحطمت، نفسي بفراقهم

ووَجَـدْتُ وَجْـداً كـان أَهْـوَنُـهُ كـأَشَـدِّ وَجْـدِ الـجِـنِّ والإِنْـسِ

وجدت، أي حزنت كثيراً

وتَـبـيـتُ عُـوَّادي وقـد يَـئِـسُـوا مِـنِّـي، وأُصْـبِـحُ مِـثْـلَـمـا أُمْـسـي

زواري يشعرون باليأس من حياتي

٧٢ العاشقة

ومـحَـدِّثٍ قـد بـاتَ يُـؤْنِـسُـنـي رَخْـصِ الـبَـنـانِ، مُـهَـفْـهَـفِ الـخَـصْـرِ

رب محدثة آنستني وهي رخصة البنان، طرية الأصابع، مهفهفة الخصر، نحيلته

ويُـذيـقُـنـي مـنـهُ عـلـى وَجَـلٍ عَـذْبـاً كَـطَـعْـمِ سُـلافَـةِ الـخَـمْـرِ

وهي تذيقني ريقها الذي طعمه كالخمر

فـي لـيـلـةٍ كـانـتْ مُـبـاركـةً ظَـلَّـتْ عَـلَـيَّ كـلـيـلـةِ الـقَـدْرِ
حـتـى إذا مـا الـصُّـبْـحُ آذَنَـنـا وبَـدَتْ سَـواطِـعُ مِـنْ سَـنَـا الـفَـجْـرِ
جَـعَـلَـتْ تُـحَـدِّرُ مـاءَ مُـقْـلَـتِـهـا وتَـقُـولُ: مـا لـي عـنـكَ مِـنْ صَـبْـرِ

٧٣ عذوبة الريق

ولو تَفَلَتْ في البحرِ، والبحرُ مَالِحٌ   لأَصبحَ ماءُ البحرِ مِنْ ريقِها عَذْبا

٧٤ لولاكَ لم أحجج

أَوْمَتْ بِعيْنَيْها مِنَ الهَوْدَجِ   لولاكَ هذا العامَ لم أحْجُجِ

أومأت إلي بعينيها وهي في هودجها، وقالت: لولا أنت لم آت إلى مكة للحج

أنتَ إلى مَكَّةَ أخْرَجْتَني   ولو تَركْتَ الحجَّ لم أخْرُجِ

٧٥ موقف وقُبلة

لمَّا تَعَاظَمَ أمرُ وَجْدي في الهَوى   وكَلِفْتُ شَوْقاً بِالغَزالِ الأدْعَجِ

لما كبر غرامي وشوقي للغزال ذي العينين الواسعتين

فَوَضَعْتُ كَفِّي عندَ مَقْطَعِ خَصْرِها   فتَنَفَّسَتْ نَفَساً فلم تَتَلَهَّجِ

لم ترتبك، وإن أخذتْ نفَساً عميقاً، إذ لمستُ خصرها

فلَزِمْتُها فَلَثِمْتُها فتَفَزَّعَتْ   مِنِّي وقالتْ: مَنْ؟ فلمْ أتَلَجْلَجِ

ضممتها وقبلتها، فعندئذ جفلت. ولكنني لم أتردد

قالتْ وعَيْشِ أبي وحرمةِ إخْوَتي   لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إن لم تَخْرُجِ

فخَرَجْتُ خوفَ يمينِها، فتَبَسَّمَتْ   فعلِمْتُ أن يَمينَها لم تَحرَجِ

خشي من غضبتها فخرج، فابتسمت، فعلم أن يمينها لم تحرج، أي كانت مجرد لغو

فتَنَاولتْ رَأْسي لِتَعْلَمَ مَسَّهُ   بِمُخَضَّبِ الأطرافِ غيرِ مُشَنَّجِ

أمسكت برأسه ـ ها هي تريد تقبيله بنفسها ـ وكفها مخضبة عند البنان وناعمة

فلثِمْتُ فَاها آخِذاً بِقُرُونِها   شُرْبَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماءِ «الحَشْرَجِ»

أمسك بقرونها، أي بجانبي رأسها، وقبلها وذاق ريقها بشغف مثلما يمتص النزيف، العطشان، ماء ذلك النبع

٧٦ ضرورة العشق

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تَدْرِ مَا الهوى   فكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدا

٧٧ في الصحراء

وناهِدَةِ الثَّدْيَيْنِ قلتُ لها: اتَّكي   على الرَّمْلِ مِنْ جَبَّانَةٍ لم تُوَسَّدِ

رب فتاة قلت لها اتكئي على الرمل في جبانة، أي صحراء، لم يسبق لأحد أن توسَّدها.. كذا فهمت المعنى

فقالتْ على اسْمِ اللّهِ أَمْرُكَ طاعَةٌ   وإن كنتَ قد كَلَّفْتَ ما لم أُعَوَّدِ

فأطاعتني، قائلة إنها تتكلَّف فعل شيء لم تعتد عليه

فما زِلْتُ في ليلٍ طويلٍ مُلَثِّماً   لَذيذَ رُضَابِ المِسْكِ كَالمُتَشَهِّدِ

ظللت ليلي ملثِّماً، أي مقبِّلاً، فمها راشفاً ريقها الذي كالمسك المشوب بالعسل

فلمَّا دَنَا الإصباحُ قالتْ: فَضَحْتَني   فَقُمْ غيرَ مَطْرودٍ، وإنْ شِئْتَ فَازْدَدِ

فقامَتْ تُعَفِّي بِالرِّدَاءِ مَكانَها   وتَطْلُبُ شَذْراً مِنْ جُمَانٍ مُبَدَّدِ

جعلت تعفي بالرداء، تمسح بالثوب الأثر، وتبحث عن حبات لؤلؤ تبددت عندما انتثر عقدها

٧٨ عليها جسم!

أَبَتِ الرَّوَادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها   مَسَّ البُطُونِ، وأنْ تَمَسَّ ظُهُورا

لكبر أردافها وثدييها فقميصها لا يمس البطن ولا الظهر. أعملْ خيالك ولا تُلجئني إلى مزيد من الشرح

وإذا الرياحُ مَعَ العَشِيِّ تَناوَحَتْ   نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وهِجْنَ غَيُورا

فإذا هبت الريح مساء وصدر منها صوت كالنواح، التصق القميص بجسمها فبدت فتنته كاملة فتنبهت الحاسدة واهتاج الزوج أو الأخ الغيور

٧٩ ليته تزوج عشرا

خَبَّرُوها بِأَنَّني قد تَزَوَّجْـ   ـتُ فَظَلَّتْ تُكَاتِمُ الغَيْظَ سِرَّا

ثم قالتْ لأُخْتِها ولأُخْرَى   جَزَعاً: لَيتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرَا

وأَشَارَتْ إلى نِسَاءٍ لَدَيْها   لا تَرى دُونَهُنَّ لِلسِّرِّ سِتْرَا:

ما لِقَلْبي كَأنَّه ليس مِنِّي   وعِظامي إخَالُ فيهِنَّ فَتْرا

مِنْ حَديثٍ نَمَى إليَّ فَظيعٍ   خِلْتُ في القلبِ مِنْ تَلَظِّيهِ جَمْرا

من حديث فظيع نمى إليَّ، أي بلغني، جعل القلب يلتهب ويتلظى

٨٠ الترقيع

رَأَيْنَ الغَواني الشَّيْبَ لاحَ بِمَفْرِقي   فَأَعْرَضْنَ عنِّي بِالخُدودِ النَّواضِرِ

رأت الفتيات الشيب قد بدا وسط رأسي فأعرضن عني، وأشحن بخدودهن النضرة

وكُنَّ إذا أَبْصَرْنَني أو سَمِعْنَني   سَعَيْنَ فَرَقَّعْنَ الكُوَى بِالمَحَاجِرِ

وفي الماضي كن عندما يرينني أو يسمعنني، يلصقن أعينهن بثقوب الخيمة لرؤيتي، فكأنهن يرقِّعن الثقوب بعيونهن

٨١ ألست تبصر من حولي؟

قالتْ وأَبْثَثْتُها سِرِّي وبُحْتُ به   قد كنتَ عِندي تُحِبُّ السِّتْرَ، فاسْتَتِرِ

خبرتها بمكنون عواطفي تجاهها، فقالت: كنت فيما مضى كتوماً! فاستتر الآن

أَلَسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلي؟ فقلتُ لها: غَطَّى هَواكِ، وما أَلْقَى، على بَصَري

ألا ترى الناس حولي؟ فأجبتها: لقد غطَّى حبكِ، وغطى ما ألاقيه من الألم، على بصري فلم أر هؤلاء القوم حولنا

٨٢ منتهى الحبور

لَعَمْرِي لقد نِلْتُ الذي كنتُ أَرْتَجي   وأَصبحتُ لا أَخْشى الذي كنتُ أَحْذَرُ

فليس كَمِثْلِي اليومَ كِسرَى وهُرْمُزٌ   ولا المَلِكُ النُّعْمَانُ مِثْلي وقَيْصَرُ

٨٣ يا عمَّتا

تقولُ: يا عَمَّتَا كُفِّي جَوانِبَهُ،   وَيْلِي بُلِيتُ وأَبْلَى جِيدِيَ الشَّعَرُ

البنت تقول للماشطة: أبعدي جوانب شعري عن وجهي وعنقي، قد ابتليت بهذا الشعر. كذابة، هي به مفتخرة

مِثْلُ الأَسَاوِدِ قد أَعْيَا مَوَاشِطَهُ   تَضِلُّ فيهِ مَدارِيهَا وتَنْكَسِرُ

شعرها مثل الأساود، الحيَّات، يُتعب الماشطات، وتتوه فيه المداري، الأمشاط، وتتكسر لجثولته وكثافته

٨٤ كتب القتل والقتال علينا

إنَّ مِنْ أَعْظَمِ الكَبائِرِ عِنْدي   قَتْلَ حَسْناءَ غَادَةٍ عُطْبُولِ

من الفظائع قتل حسناء عطبول، طويلة العنق

قُتِلَتْ بَاطِلاً على غيرِ ذَنْبٍ   إن للهِ دَرَّهَا مِنْ قَتيلِ
كُتِبَ القتْلُ والقِتالُ عليْنا   وعلى الغَانِياتِ جَرُّ الذُّيولِ

القتل والقتال للرجال؛ والنساء عليهن فقط جر ذيول ملابسهن لفتنة الرجال. تقول القصة إن الوالي قتل عمرة بنت النعمان لأنها دعت بالنبوة للمختار الثقفي، فقال عمر الأبيات

٨٥ يا ذا الذي

يا ذا الذي في الحبِّ يَلحَى أمَا   تَخشَى عِقَابَ اللَّهِ فينا أمَا..

يلحى: يلوم ويؤنب

تَعْلَمُ أنَّ الحُبَّ دَاءٌ أمَا   واللَّهِ لو حُمِّلْتَ مِنْهُ كَما..
حُمِّلْتُ مِنْ حُبِّ حبيبي لَمَا   لُمْتَ على الحُبِّ فَدَعْني وَمَا..
أَطْلُبُ، إنِّي لَسْتُ أدْرِي بِمَا   أُصِبْتُ، إلَّا أَنَّني بيْنَما..
أنا بِبابِ القَصْرِ في بعضِ مَا   أَطْلُبُ مِنْ قَصْرِهِمُ إذْ رَمَى..
شِبْهُ غَزالٍ بِسِهَام فَمَا   أَخْطَأَ سَهْمَاهُ ولكِنَّمَا..
عيْناهُ سَهْمانِ له كُلَّما   أرادَ قَتْلِي بِهِمَا سَلَّمَا

واضح أن القصيدة منحولة، فمثل هذا الشعر كان يعبث به الناس في العصور المتأخرة جداً. لكن، استطرفنا الأبيات، وهي موجودة في الديوان، فنقلناها لك

٨٦ أمنية غريبة

فَيَا لَيتَ أَنِّي حيثُ تَدْنُو مَنِيَّتي   شَمَمْتُ الذي مَا بينَ عينيكِ والفَمِ
وليتَ سُلَيْمَى في المَنامِ ضَجيعَتي   لَدى الجَنَّةِ الخَضْراءِ أو في جَهَنَّمِ

إذا كنت مستعداً لدفع هذا الثمن الباهظ فلماذا تريدها ضجيعة في المنام فقط؟

٨٧ الثريا وسهيل

قيل زوجوا الثريا بنت علي العبشمية، حبيبة عمر، من رجل اسمه سهيل ورحل بها إلى الشام، فقال عمر:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً   عَمْرَكَ اللَّهُ كيفَ يَلْتَقِيَانِ

يا من زوَّج الثريا بسهيل، كيف يلتقيان بحق الله؟

هِـيَ شَـامِـيَّـةٌ إذا مـا اسْـتَـقَـلَّـتْ   وسُـهَـيْـلٌ إذا اسْـتَـقَـلَّ يَـمـانـي

الثريا مجموعة نجوم شامية، تظهر في الشمال، وسهيل نجم، يكون إذا استقلَّ وارتفع، يمانياً جنوبياً

٨٨ لا تكُنْه

خَـانَـكَ مَـنْ تَـهـوَى فَـلا تَـخُـنْـهُ
وكُـنْ وَفِـيّـاً إنْ سَـلَـوْتَ عـنـهُ
واسْـلُـكْ سبـيـلَ وَصْـلِـهِ، وصُـنْـهُ
إنْ كـانَ غَـدَّاراً فَـلَا تَـكُـنْـهُ

أي فلا تكن أنت غداراً

عمر بن أبي ربيعة
فهرس القوافي
(القافية فرقم القطعة)

جميل بثينة
(٤٠ هـ ـــ ٨٢ هـ)

ترى اسم المرأة مركباً من اسم أنثى فاسم ذكر مثل «سناء جميل»، و«سعاد حسني». فها نحن بإزاء ظاهرة مختلفة. . «جميل بثينة»، و«قيس ليلى».

جميل أن يتسمَّى المرء باسم حبيبته. جميل الإخلاص لمحبوبة واحدة.

عاش «جميل بن معمر» في وادي القرى بين مكة والمدينة. وهو من قبيلة عُذْرة، ومنها محبوبته بثينة، وترتفع عذرة إلى قضاعة وترتفع قضاعة إلى مَعَدّ، فهي مضرية من عرب الشمال؛ أو ترتفع إلى حِمْيَر، فهي يمانية من عرب الجنوب، ولأهل الأنساب في انتساب قضاعة إلى اليمن أم إلى معد كلام كثير. وقبيلة «عُذْرَة» هي التي سُمِّي الحب العذري باسمها، فقد شاءت الصدف أن يكون عدد كبير من شعراء العشق المميت من هذه القبيلة.

كان جميل شاباً طويلاً وسيماً، وكان أهله على جانب من اليسار. وكما يجب أن تكون القصة فقد عشق بثينة وهما صغيران وبادلته حباً بحب، ونما حبهما وقال فيها شعراً فمنعوه من الزواج بها. وزوجوها من آخَر، فظل جميل يزورها ويقول فيها شعراً. أصابه في هذا الطور شيء من الحصار النفسي الداخلي ـ انتبهْ إلى أن هذه العبارة مني، وليس لها في علم النفس سند، ولا تحسب أننا نريد إحياء «مدرسة» التحليل النفسي للأدباء التي جعلها العقاد والنويهي تقليعة في أواسط القرن العشرين ـ. انحصر جميل في بثينة، ووقع في شيء شبيه بما وقع فيه مجنون ليلى من عدم القدرة على الإفلات من هذا الحصار الذي تضربه امرأة بعينها.

يقول برنارد شو إن الشبان يبالغون في مدى الفرق بين فتاة وأخرى.

وصاحبنا جميل بن معمر تضخمت في ذهنه صورة بثينة فلم يستطع إلى غيرها سبيلا. وأوصل المقولة الشوئية ـ نسبة إلى برنارد شو ـ إلى غايتها.

وقف جميل شعره على بثينة. ولا نجد له فيما بين أيدينا من شعره إلا قليلاً من الفخر، ثم لا شيء إلا بثينة. ورووا في الكتب القديمة بعض القصص عن اتصاله بالخلفاء، ولعلهم ما رووا ذلك إلا ليزعموا أنه رفض مدح أحد.

لم يشكّك القدماء، ولا شكّك المحدثون في وجود شخصية جميل. فهو قد كان. ونقلوا لنا شيئاً من أخباره مع تلميذه وراويته كثير عزة، وبين أيدينا قصة له مع عمر بن أبي ربيعة. لكننا نشك في كثير من القصص التي أوردها صاحب الأغاني عن غرام جميل. وصدق من قال، ولعله بروكلمان، إن الكثير من أمثال هذه القصص إنما وضعت لكي توفر سياقاً لأشعار وصلت ولم يصل معها سياق.

في آخر حياته القصيرة ـ وعاش ٤٢ سنة ـ توجه جميل إلى مصر، وبها مات.

لئن شكّك المشككون من القدماء في وجود شخصية قيس بن الملوح، مجنون ليلى، وجعلوا كل ما ورد من شعر عنه منحولاً، فإن لجميل شأناً آخر. قلنا إنه قد كان، فقد رأيناه تحت ضوء بعض القرائن التاريخية. على أن الدليل الأدل على وجوده شعره. فهذا الشعر الذي وصلنا عنه يمثل شخصية واضحة المعالم، إن من حيث اللغة أم من حيث المعنى.

كنا نريد أن نعقد بضع فقرات عن الشعر العذري، ولكننا وجدنا كتب المدارس قد فعلت من ذلك ما يكفي ويزيد. ووجدنا العرب يعرفون عن الشعر العذري أكثر مما يجب أن يعرفه الأسوياء. فأضربنا.

والعرب في زمننا مكبوتون رجالاً ونساء.

صديق يعيش في أوروبا، مكث شهراً أو نحو ذلك في بلد عربي، وقال لي: أصبحت مشتهياً في ختام الشهر أن أرى عنق امرأة. قد مررت بشيء من ذلك عندما عشت مدة في بلاد الخليج. وقد أتيت هذه البلاد مرتين: مرة وأنا شاب غضٌ، ومرة وأنا شيخ. وفي المرتين ـ وبينهما ثلاثون سنة ـ كان الوضع هو الوضع: لا ترى من المرأة إلا عطرها. في المرة الثانية قلت:

صُفْرةُ الرملِ في الخليج تَغرُّ ... وأنا طامعٌ، وما بيَ فقرُ

جئتُـه يـافـعـاً، وشَـعـريَ غـابٌ وأمـانــيَّ دون عــقــلــيَ وَقْــرُ
ومضت سبعةٌ من الأشهر غادرْ تُ عـلـى إثـرهـا، وحـلـقـيَ مُـرُّ
وتـرحَّـلْـتُ بـعـدهـا سـنـواتٍ عـددَ التِّـيـهِ أُنـقِـصَـتْ منه عـشرُ
وأتتني الخمسونَ شمطاءَ؛ عُذراً: قد أتتني وليس في الرأس شَعرُ
وتـزوَّدْتُ، لـيـتـنـي مـا تـزودْ تُ، كـأنِّـي إلـى الـخـلـيـجِ أُجَـرُّ
حَـصبـةٌ أنـت لـلـجـمـيع ولـكـنْ، مـزمـنٌ أنـتَ فـيَّ: سِـلٌّ وعُـرُّ
يـا أبـا الـنـفـط! هـل تـأذَّيْتَ شيئاً من لـسـانـيِ، وهـل أصابكَ ضُرُّ؟
إنـهـا شمسُك الـعـنـيـفـةُ تـنسيـ ـنـيِ، وخـيـرٌ مـن الـتـنـكُّـرِ شـرُّ
كم بيوتٍ فتحتَها في فلسطيـ ـنَ، وكم من أبنائها فيك قَرُّوا
بـعـضُـهـمْ شـاكـرٌ وبـعـضُـهـمُ مـثـ ـلـيَ شـاكٍ؛ هـيـهـاتَ مـا لـيَ عـذرُ
يسترُ الشكرُ عورةَ الأخذ، من يشـ ـكـرْ يـنـلْـه خـيـرانِ أخـذٌ وسَـتْـرُ
عـدِّ عـن ذا، فـفـي الـخـلـيـج نـسـاءٌ فـاتـنـاتٌ يـسـبـيكَ مـنـهـن عـطرُ
خـادراتٌ، فـانـظـر بـأنـفِـكَ وارسـمْ صـورَ الـحـسـن، والـخـيـالُ يَـسُـرُّ
كُفَّ عن ذا، باللّه كُفَّ، فإن الشَّـ ـيخَ ضـيـفٌ، والـعـشـقُ كـلـبٌ يَـهُـرُّ
صلعتيِ، سعلتيِ، وكرشيِ، وعمريِ منعتـنـيِ الـقِـرى، فـأيـنَ الـمـفـرُّ
ذاتَ يومٍ أَبَيْتُ صبراً على القيـ ـظِ إبـاءً، والآن كُـلِّـيَ صَـبْـرُ
فـاتَـنـي يـا خـلـيـجُ أنَّـكَ وعـدٌ لـلـفـتـى بِـالـغِـنـى، ولـلـشَّـيـخِ قـبرُ

وليس مزاجي بالسوداوي. فقد قضيت ست ساعات في نهار هذا اليوم الذي أكتب لك في مسائه، وأنا في حبور تام مع فتية وفتيات نتدارس أشياء عن اللغة والإعلام في دورة من تلك الدورات، وسعدت بهم سعادة غمرت ساعات نهاري وفاضت على مسائي. على أنها سعادة الشيخ الذي يفتنه حديث الشباب، ويستمتع بما يحس من زيادته عليهم في المعرفة. تلك متعة خبيثة. هذا شيء والفتون شيء آخر.

ستقرأ في شعر جميل المقبل عليك البيت «لكل حديث بينهن بشاشة، وكل قتيل عندهن شهيد». فقد كان صاحبنا شخصاً طبيعياً، يحب مجالسة النساء، ولم يكن مزاجه انتحارياً كقيس بن الملوح، غير أنه وقع في مصيدة العشق.

١ أبيات فرائد

وِدِدْتُ، ولا تُغني الوَدَادَةُ، أنَّها نَصيبي مِنَ الدنيا وأنّي نَصيبُها

* * *

أُريدُ لِأنْسَى ذِكرَها، فَكأنَّما تَمَثَّلُ لي لَيْلَى على كُلِّ مَرْقَبِ

أريد نسيانها، ولكنها تتراءى لي في كل مكان أرقبه وأراه

* * *

وقالوا يا جميلُ أَتَى أخُوها فقلتُ: أَتَى الحبيبُ أخُو الحبيبِ

* * *

أَحَقّاً عِبادَ اللّهِ أنْ لستُ لاقِياً بُثَيْنَةَ أو يَلْقَى الثُّرَيَّا رقيبُها؟

الثريا ورقيبها مجموعتان متباعدتان من النجوم

* * *

ومَا بَكَتِ النساءُ على قَتيلٍ بِأَشْرَفَ مِنْ قَتيلِ الغانِياتِ

* * *

إذا أنتَ لم تَظْفَرْ بِشيءٍ طَلبتَهُ فبعضُ التأَنّي في اللُّبَانَةِ أَنْجَحُ

اللبانة: الحاجة

ألا لَيتَني أعْمَى أَصَمُّ تَقودُني بُثينةُ لا يَخْفَى عَلَيَّ كلامُها

* * *

لا لا أَبُوحُ بِحُبِّ بَثْنَةَ إنَّها أَخَذَتْ عليَّ مَواثِقاً وعُهُودا

* * *

أُقَلِّبُ طَرْفي في السماءِ لعلَّهُ يُوافِقُ طَرْفي طَرْفَها حين تَنْظُرُ

الطَّرف: العين والنَّظر

* * *

أموتُ وأَلْقَى اللّهَ يا بَثْنَ لم أَبُحْ بِسِرِّكِ، والمُسْتَخبِرُونَ كَثيرُ

* * *

وإنِّيَ لِلمَاءِ المُخالِطِ لِلقَذَى　　إذا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيُوفُ

ذكر لجميل أن بثينة واصلت رجلاً آخر، فقال إنه يعاف شرب ماء خالطته الشوائب وكثر الواردون عليه

* * *

وما كان حُبِّيها لِبَذْلٍ رَجَوْتُهُ　　لديها، فأخشَى أن يُغَيِّرَهُ البُخلُ

لم أحببها بغرض نيل شي، لذا لن يغير بخلها بهذا «الشيء» من عواطفي

* * *

ولستُ على بَذْلِ الصَّفاءِ هَوَيْتُها　　ولكنْ سَبَتْني بِالدَّلالِ معَ البُخْلِ

* * *

يا عَاذِلِيَّ مِنَ المَلامِ دَعانِي　　إنَّ البَلِيَّةَ فوقَ ما تَصِفَانِ

٢ أول المودَّة

وأوَّلُ ما قادَ المَوَدَّةَ بينَنا　　بِوَادِي بَغيضٍ يا بُثَيْنَ سِبَابُ

أول لقاء بينهما حدث وهما صغيران يرعَيان الأغنام في الوادي، سبَّها وسبَّته

وقلتُ لها قَولاً، فجاءتْ بِمِثلِهِ　　لِكلِّ كلامٍ يا بُثَيْنَ جَوابُ

٣ نعم، يقتله

أَلا أَيُّها النُّوَّامُ وَيْحَكُمُ هُبُّوا　　أُسائِلُكُمْ هلْ يقتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ

استيقظوا أيها الناس وأجيبوني: هل يقتل الحب الإنسان قتلاً؟

فقالوا: نَعمْ حتى يَسُلَّ عظامَه　　ويتركَه حَيرانَ ليس لهُ لُبُّ

قالوا: نعم، وقبل أن يقتله يسل عظامه، أي يستلُّها من بين العضلات ويبرزها للعيان فيصبح الإنسان جلداً على عظم، ثم يتركه متحيراً بلا لب، أي بلا عقل

٤ أثر الريح

إذا ضَرَبَتْها الريحُ في المِرْطِ أَجْفَلَتْ　　مَآكِمُهَا، والرِّيحُ في المِرْطِ أَفْضَحُ

تهب الريح على المحبوبة وهي لابسة المرط، الثوب الواسع الذي بلا أزرار، فتجفل مآكمها، أي ترتج مؤخرتها، والريح تفضح وتجسِّم مع ارتداء المرط

تَرى الزُّلَّ يَلْعَنَّ الرِّياحَ إذا جَرَتْ　　وبَثنةُ إنْ هَبَّتْ لها الريحُ تَفْرَحُ

الزُّلُّ، أي النساء الرسحاوات النحيلات الخلفيات، يكرهن هبوب الريح لأنها تفضح نحول تلك الأماكن من أجسامهن؛ ولا كذلك بثينة

٥ بوحة لو أبوحها

لقد ذَرَفَتْ عيني، وطَالَ سُفُوحُها　　وأَصبحَ مِنْ نَفسيِ سَقيماً صحيحُها

ذرفت عيني الدمع من عشق، وأصبح ما كان صحيحاً من جسمي مريضاً

فلا أنا أرجو أن تَعيشَ سَوِيَّةً　　ولا الموتُ فيما قد شجاها يُريحُها

لا أرجو لنفسي أن تعيش حياة سوية، ولا يأتي الموت فيريح هذه النفس

أَلا ليتَنا نحيا جميعاً، فإن نَمُتْ　　يُوافِي لدى المَوتَى ضَريحي ضريحُها

ليتني وبثينة نحيا مجتمعيْن، ونموت مجتمعيْن فيكون قبري قرب قبرها

فَما أنا في طولِ الحياةِ بِراغبٍ　　إذا قيلَ قد سُوِّي عليها صَفِيحُها

فلست أرغب في الحياة إذا ماتت وسوِّيَ فوق قبرها الصفيح، الحجارة المبسَّطة

أَظلُّ نَهارِي لا أراها، وتَلتقي　　مع الليلِ رُوحي في المنامِ وروحُها

فهل لِيَ في كِتمانِ حُبِّيَ رَاحَةٌ　　وهل تَنْفَعَنِّي بَوْحَةٌ لو أَبُوحُها

٦ دعوة عليها

رمَى اللّهُ في عيْنَيْ بثينةَ بِالقَذَى　　وفي الغُرِّ مِنْ أنيَابِها بِالقَوَادِحِ

يدعو عليها بأن تصاب بالرمد، وأن تصاب أسنانها الغر، البيض، بالتسوس

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لم يَضِرْ　　ظَواهِرَ جِلدي فَهْوَ في القلبِ جَارِحي

٧ حلَّت بين الجوانح

لمَّا أَطالُوا عِتابي فيكِ قلتُ لَهُمْ:　　لا تُفْرِطُوا، بَعضَ هَذا اللومِ، واقْتَصِدُوا

بعضَ هذا اللوم: كفوا عن هذا اللوم

حَلَّتْ بُثينةُ مِنْ قَلبي بِمَنزِلَةٍ　　بين الجَوانِحِ لم يَنزِلْ بِها أَحَدُ

وعَاذِلُون لَحَوْني في مَوَدَّتِها　　يَا ليتَهُمْ وَجَدُوا مثلَ الذي أَجِدُ

لحوني: لاموني، وجدوا: أصابهم الوَجْد والعشق

٨ أمصرَ تريد؟

أَلا لَـيْـتَ أيّـامَ الـصَّـفـاءِ جَـديـدُ ... ودَهـراً تَـوَلَّـى يـا بُـثَـيْـنَ يَـعـودُ

لیت أیام الصفاء تتجدد، ولیت الزمن الذي مضى یرجع

فـنَـغْـنَـى كـمـا كـنَّـا نَـكـونُ وأَنْـتُـمُ ... صَـديـقٌ، وإذْ مـا تَـبْـذُلـيِـنَ زَهـيـدُ

لیتنا نغنى، نتمتع، كما كنا في الماضي، إذ كنت لي صدیقة، وإذ كان ما تعطینني قلیلاً

ومَا أَنْسَ مِ الأَشياءِ لا أَنْسَ قولَها، ... وقد قَرَّبَتْ نِضْوِي: أَمِصْرَ تُريدُ؟

لا أنسى بين كل الأشياء قولها وقد أمسكت بعنان حصاني المهزول: أتريد الذهاب إلى مصر؟
وكان جميل قاصداً عبد العزيز بن مروان لمدحه

ولا قَولَها: لولا العُيونُ التي تَرَى ... أَتَـيْـتُـكَ، فـاَعْـذِرْنـي فَـدَتْـكَ جُـدُودُ

لولا عيون القوم لكنت أتيتك للسهر قبل السفر

خليلَيَّ مَا أُخفي مِنَ الوَجْدِ ظَاهِرٌ ... فَدَمْعي بِمَا أُخْفي الغَدَاةَ شَهيدُ

ظهر للعيان ما أخفيه من العشق، ودمعي شاهد عليه

أَلا قـد أَرَى والـلَّـهِ أَنْ رُبَّ عَـبْـرَةٍ ... إذا الـدارُ شَـطَّـتْ بـيْـنَـنـا سَـتَـرُودُ

أرى أن العبرة، الدمعة، سترود، أي تأتي وتسيل، إذا شطت الدار، أي ابتعدت

إذا قـلـتُ مـا بـي يـا بـثـيـنـةُ قَـاتِـلـي ... مِنَ الـوَجْـدِ، قـالـتْ: ثَـابِـتٌ ويَـزيـدُ

تدعو لعشقه أن يثبت ويزيد

وإن قلتُ رُدِّي بعضَ عَقْلي أَعِشْ بِهِ ... معَ الناسِ، قالتْ: ذاكَ منكَ بَعيدُ
فـمـا ذُكِـرَ الـخُـلَّانُ إلّا ذَكَـرْتُـهـا ... ولا البخلُ إلّا قلتُ: سوفَ تَجُودُ
إذا فَـكَّـرَتْ قـالـتْ قـد ادْرَكْـتُ وُدَّهُ ... ومَـا ضَـرَّنـي بُـخْـلٌ فَـفـيِـمَ أَجُـودُ

هي تفكر في الأمر وتقول لنفسها: قد حصلت على مرادي من ابتلائه بالعشق، فلا حاجة بي إلى
أن أجود له بالوصل

فَـلا أنـا مَـرْدُودٌ بِـمـا جـئـتُ طـالـبـاً ... ولا حـبُّـهـا فـيـمـا يَـبـيـدُ يَـبـيِـدُ

فلا أنا مردود، عائد، وقد حصلت على طلبي، ولا حبها يفنى مثلما تفنى الأشياء

فأَفْنَيْتُ عَيْشي بِانتِظاري نَوالَها ... وأَبْلَيْتُ فيها الدهرَ وَهْوَ جَديدُ

أنفقت عمري منتظراً امتلاك قلبها، وضيعت سنواتي. والعمر نفسه یفنى رغم أن الدهر لا يفنى

ويَحْسَبُ نِسوانٌ مِنَ الجَهْلِ أَنَّني ... إذا جِـئْـتُ إِيَّـاهُـنَّ كـنـتُ أُرِيـدُ

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ   وكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

سبحان من ألهمك هذا البيت يا جميل!

عَلِقْتُ الهَوى منها وَلِيداً فلم يَزَلْ   إلى اليومِ يَنْمِي حبُّها ويَزِيدُ
ألَا ليتَ شِعْرِي هل أَبِيتَنَّ لَيْلَةً   بِوادِي القُرَى! إنِّي إذَنْ لَسَعِيدُ
وهَلْ أَلْقَيَنْ سُعْدَى مِنَ الدهرِ مَرَّةً   ومَا رَثَّ مِنْ حَبْلِ الصَّفاءِ جَدِيدُ

السعدى: السعد، الحظ الحسن، ما رثَّ: ما اهترأ

وقد تَلْتَقِي الأَشْتَاتُ بعد تَفَرُّقٍ   وقد تُدْرَكُ الحَاجاتُ وَهْيَ بَعِيدُ
يموتُ الهوى مِنِّي إذا ما لَقِيتُها   ويَحيَا إذا فارقتُها فيَعودُ
يَقُولونَ جَاهِدْ يا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ   وأَيَّ جِهَادٍ غَيرَهُنَّ أُرِيدُ

لَئِنْ كان في حبِّ الحَبيبِ حَبيبَه   حُدودٌ لقد حَلَّتْ عَلَيَّ حُدُودُ

لو كان في الحب حدود، عقوبات، إذن لوجبت علي العقوبات

٩ لا أسأل ولا أستزيد

يُكَذِّبُ أقوالَ الوُشاةِ صُدودُها   ويَحْتَازُها عَنِّي كأَنْ لا أُرِيدُها

صدودها عني يجعل أقوال الوشاة عن عشقنا كاذبة، وهذا الصدود يحتازها عني، يستأثر بها، فكأنني أنا لا أريدها

رَفَعْتُ عنِ الدنيا المُنَى غيرَ وُدِّها   فما أَسْأَلُ الدنيا، ولا أَسْتَزِيدُها

١٠ حبها قضاء وقدر

لقد لامَنِي فيها أخٌ ذُو قَرابَةٍ   حَبيبٌ إليهِ في نَصيحَتِه رُشْدي

كان ابن عمه ينصحه بالابتعاد عن بثينة، وكان يريد الخير له

فقالَ: أَفِقْ حتَّى مَتَى أنتَ هَائِمٌ   بِبَثْنَةَ، فيها قد تُعيدُ وقد تُبدي

أي تعيد فيها، في ذكرها، وتبدأ من جديد فلا تفتأ تذكرها

فقلتُ له: فيها قَضَى اللَّهُ ما تَرى   عليَّ، وهل فيما قَضَى اللَّهُ مِنْ رَدِّ؟

قلت له: هذا قضاء الله عليَّ فيها، ولا رادَّ له

فإنْ يَكُ رُشْداً حبُّها أو غِوَايَةً   فقد جِئْتُهُ ما كانَ مِنِّي على عَمْدِ
أفي الناسِ أَمْثالِي أَحَبُّوا فَحُبُّهُمْ   كَحُبِّيَ، أم أَحْبَبْتُ مِنْ بَينِهِمْ وَحدي

أَكانَ كَذا يَلْقَى المُحِبُّونَ قَبْلَنا   بِما وَجَدُوا أَوْ لم يَجِدْ أَحَدٌ وَجْدي؟

بما وجدوا: بما عانوا من الوجد والعشق

١١ حبٌّ أزليٌّ أبديٌّ

تَعَلَّقَ رُوحي رُوحَها قبل خَلْقِنا   ومِنْ بعدِ مَا كُنَّا نِطَافاً وفي المَهْدِ

حبنا أزلي، مكتوب علينا قبل أن نولد

فزادَ كما زِدنَا، فأَصبَحَ نَامِياً   وليس إذا مُتْنَا بِمُنْتَقَضِ العَهْدِ

ويزيد مع العمر، ولا ينتهي بالموت

ولكِنَّهُ بَاقٍ على كلِّ حَالَةٍ   وزَائِرُنا في ظُلْمَةِ القبرِ واللَّحْدِ

١٢ عندما التفتت

ومِمَّا شَجانِي أَنَّها يومَ وَدَّعَتْ   تَوَلَّتْ ومَاءُ العينِ في الجَفْنِ حَائِرُ

مما أحزنني أنها يوم الوداع تولت، انصرفت، ودمعها يترقرق في جفنيها

فلمَّا أَعَادَتْ مِنْ بَعيدٍ بِنظرةٍ   إِلَيَّ التِفَاتاً أَسْلَمَتْهُ المَحَاجِرُ

فلما ابتعدت والتفتت تنظر إلي أسلمت محاجرها، يقصد عينيها، الدمع فسال

يقولونَ لا تَنْظُرْ، وتِلكَ بَلِيَّةٌ   بَلَى، كلُّ ذي عَيْنَينِ لا بُدَّ نَاظِرُ

١٣ أوله لهو وآخره هول

الحبُّ، أَوَّلَ مَا يكونُ، لَجاجَةٌ   تَأتي بِهِ وتَسوقُهُ الأَقدارُ

الحب ـ في بداياته ـ لجاجةٌ، أي عناد، أي يكون خصاماً وشداً وإرخاء، ويأتي بقدر من الله لا عن إرادتنا الحرة

حتَّى إذا اقْتَحَمَ الفتَى لُجَجَ الهوى   جاءتْ أُمورٌ لا تُطاقُ كِبارُ

فإذا ما دخل الفتى في لجج، أعماق، الحب وردت عليه أمور ما كان يتصورها ولا يطيقها

١٤ حب على الرائحة

لا والذي تسجُدُ الجِباهُ له   ما لي بِمَا دونَ ثوبِها خَبَرُ

لا والله لم يحدث بيننا تماس على عري

ولا بِفيِها، ولا هَمَمْتُ بِها   ما كان إلَّا الحديثُ والنَّظَرُ

ولا حتى قبلات، ولا أنا نويت ذلك. فقط حديث ونظر

١٥ تضليل الأعداء

وآخِرُ عَهْدٍ لي بِها يومَ وَدَّعَتْ ولاحَ لَها خَدٌّ مَليحٌ ومَحْجَرُ

المحجر: العين. فآخر ما يتذكره منها وقد انثنت ومضت خدها الناعم وجانب عينها

عَشِيَّةَ قالتْ: لا تُضيعَنَّ سِرَّنا إذا غِبْتَ عنَّا، وارْعَهُ حينَ تُدْبِرُ

قالت لي: لا تبح بحبنا، وارعه، احفظه، عندما تدبر، أي تنصرف

وأَعْرِضْ إذا لاقَيْتَ عيْناً تَخافُها وظَاهِرْ بِبُغْضٍ، إنَّ ذلكَ أَسْتَرُ

وعندما تراني مرة أخرى ويكون هناك شخص يراقبنا، فظاهرْ ببغض، أي أبدِ أنك لي كارهٌ، فهذا يستر مشاعرك الحقيقية

وقَطَّعَني فيكَ الصَّديقُ مَلامَةً وإنِّي لأَعْصي نَهْيَهُمْ حينَ أُزْجَرُ

الأصدقاء قطعوني تقطيعاً بلومهم، وأنا أعصيهم عندما يزجرونني

وأنتَ امْرُؤٌ مِنْ أهلِ نَجْدٍ، وأَهْلُنا تَهَامٌ، ومَا النَّجْدِيُّ والمُتَغَوِّرُ؟

أنت من نجد وأنا من تهامة، والبون بيننا بعيد

غريبٌ إذا ما جئتَ طالِبَ حاجَةٍ وحَوْلِيَ أعداءٌ وأَنْتَ مُشَهَّرُ

ستكون غريباً عندما تأتينا، وحولي الأعداء، وأنت معروف لأنك غريب فالكل يحس بوجودك

فقلتُ: لَها يا بَثْنَ أَوْصَيْتِ حَافِظاً وكلُّ امْرِئٍ لم يَرْعَهُ اللَّهُ مُعْوَرُ

يا بثينة، أوصيتِ حريصاً بشأن التجاهل، وأمَّا كوني مكشوفاً لهم فإن كل شخص لم ينل رعاية من الله فهو معور، أي عوراته بادية

سأَمْنَحُ طَرفي حينَ أَلْقَاكِ غيرَكُمْ لِكَيْمَا يَرَوْا أَنَّ الهَوى حيثُ أَنْظُرُ

حسناً! سأنظر إلى غيرك عندما آتي، حتى يحسب القوم أنني أهوى فتاة أخرى

وأَكْني بِأَسْمَاءٍ سِواكِ، وأَتَّقي زِيارَتَكُمْ، والحبُّ لا يَتَغَيَّرُ

وعندما سأتحدث سأذكر أسماء أخرى، وسأمتنع عن زيارتك، ولكن الحب لا يتغير

١٦ لهن الوجا

لَهُنَّ الوَجَا لِمْ كُنَّ عَوْناً على النَّوَى ولا زَالَ مِنها ظَالِعٌ وكَسيرُ

يدعو على النياق: ليصبهن الله بالوجا، أي الحفا وتجريح الأخفاف، فقد كن معينات لنا على البعاد والرحيل، وليكن من هذه النياق الظالع، الأعرج، والكسير، مكسور القوائم

كَأَنِّي سُقِيتُ السُّمَّ يَومَ تَحَمَّلُوا   وجَدَّ بِهِمْ حَادٍ، وحَانَ مَسِيرُ

كأني شربت سماً حين حملوا متاعهم على الإبل، واستعد الحادي ليسوق الجمال بنشيده، وحان وقت المسير

١٧ بِتْ عندي

وتقولُ بِتْ عِندِي، فَدَيْتُكَ، ليلةً   أَشكُو إليكَ، فإنَّ ذاكَ يَسيرُ
ولئنْ جَزَيْتِ الوُدَّ مِنِّيَ مِثْلَهُ   إنِّي بِذلكَ يا بُثَيْنَ جَديرُ

١٨ عدمتُك من حبٍّ

أَيبكي حَمامُ الأَيْكِ مِنْ فَقْدِ إِلْفِهِ   وأَصْبِرَ؟ ما بي عن بُثينةَ مِنْ صبرِ

تقول الخرافة إن الحمام ينوح على فقد ولده، واسم ولده «الهديل» فهو يبكي «الهديل»، ثم سموا صوت الحمام هديلاً. فكيف يبكي الحمام ولا أبكي بثينة؟

يقولونَ: مَسحُورٌ يُجَنُّ بِذكرِها   فأُقْسِمُ ما بي مِنْ جُنونٍ، ولا سِحْرِ
فأُقْسِمُ لا أَنْساكِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ   وما خَبَّ آلٌ في مُلَمَّعَةٍ قَفْرِ

أقسم لا أنساك ما ذر شارق، أشرقت الشمس، وما خب، جرى وركض، الآل، أي السراب في الصحراء المقفرة. والملمّعة هي الأرض ذات السراب

وما لاحَ نجمٌ في السماءِ مُعَلَّقٌ   وما أَوْرَقَ الأَغصانُ مِنْ فَنَنِ السِّدْرِ

ولن أنساك ما ظهر نجم معلق في السماء، ولا ما أورقت أغصان شجر السدر

هِيَ البدرُ حُسناً، والنِّسَاءُ كَواكِبٌ   وشَتَّانَ ما بين الكَواكِبِ والبدرِ
لقد فُضِّلَتْ حُسناً على الناسِ مِثْلَمَا   على أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ ليلةُ القَدْرِ
عَدِمْتُكَ مِنْ حُبٍّ، أَمَا مِنْكَ راحَةٌ   ومَا بِكَ عَنِّي مِنْ تَوَانٍ ولا فَتْرِ

عدمتك أيها الحب، ألا أستريح منك؟ ألا تتوانى وتفتر وتخفّ

١٩ إحياء الموتى

مَضَى لي زَمانٌ لو أُخَيَّرُ بينَها   وبينَ حياتي خَالِداً آخِرَ الدهرِ..
لَقُلْتُ ذَروني ساعةً وبُثَينةً   على غَفْلَةِ الوَاشِينَ، ثم اقْطَعُوا أمري

لو خيرت بين الخلود، وبين بثينة لقلت: اتركوني ساعة مع بثينة شرط أن يغفل عني الواشون، ثم اقطعوا حياتي

مُـفَـلَّـجَـةُ الأَنْـيَـابِ، لـو أنْ رِيـقَـهـا يُـدَاوَى بـه الـمَـوتَـى لَقامُوا مِنَ القبرِ

أسنانها فُرُق، وريقها يحيي القلب، فلو ذاقه الموتى لقاموا

٢٠ فكيف كَبِرتُ ولم تكبَري؟

تَـقُـول بـثـيـنـةُ لـمَّـا رأتْ فُـنـونـاً مِـنَ الـشَّـعَـرِ الأَحْـمَـرِ..

رأتني قد خضبت شعري بالحناء، فقالت..

كَـبِـرْتَ جَـمـيـلُ وَأَوْدَى الـشـبـابُ فـقـلـتُ: بُـثَـيْـنَ أَلَا فَـاقْـصِـري

قد كبرتَ وأودى، أي ذهب، الشباب، فقلت لها: أقصري، وكفي عن هذا

أَمَـا كـنـتِ أَبـصَـرْتِـنـي مَـرَّةً لَـيـالـيَ نـحـن «بِـذي جَـوْهَـرِ»

ألم تبصريني مرة عندما كنا في «ذي جوهر»

لَـيـالـيَ أنـتُـمْ لـنـا جِـيـرَةٌ أَلا تَـذْكُـريـنَ؟ بَـلَـى فـاذْكُـري

عندما كنتم جيراناً لنا، تذكَّري جيداً

وإذْ لِـمَّـتـي كَـجَـنـاحِ الـغُـرابِ تُـضَـمَّـخُ بِـالـمِـسْـكِ والـعَـنْـبَـرِ

كانت لمتي، أي شعري، كجناح الغراب لسوادها، وكنت أضمِّخ شعري بالطيب من مسك وعنبر

قَـريـبـانِ مَـرْبَـعُـنـا واحـدٌ فـكـيـفَ كَـبِـرْتُ ولـم تَـكْـبَـري؟

كنا متقاربين سكناً ـ وعمْراً أيضاً ـ فكيف كبرتُ أنا ولم تكبَري؟

٢١ سحابة لا تمطر

يَـا لَـيْـتَـنـي أَلْـقَـى الـمَـنِـيَّـةَ بَـغْـتَـةً إن كـان يـومُ لِـقـائِـكُـمْ لـم يُـقْـدَرِ

لا تَـحـسَـبِـي أَنِّـي هـجَـرتُـكِ طَـائِـعـاً حَـدَثٌ لَـعَـمْـرُكِ رَائِـعٌ أن تُـهْـجَـري

حدث رائع: يروع القلب ويخيفه

يَـهْـوَاكِ ما عِـشْـتُ الفـؤادُ فـإنْ أَمُـتْ يَـتْـبَـعْ صَـدايَ صَـداكِ بـيـنَ الأَقْـبُـرِ

لو متنا فسوف يتبع صداي صداك، يقصد روحي تتبع روحك. وكانت العرب تظن أن طائراً يسمونه الهامة يخرج من قبر القتيل ويصرخ بصوت هو الصَّدَى، ويظل يصيح اسقوني، ولا يكف إلا إذا أخذ بثأر القتيل

إنِّـي إِلَـيـكِ بِـمَـا وَعَـدْتِ لَـنَـاظِـرٌ نَـظَـرَ الـفـقـيـرِ إلى الـغَـنِـيِّ الـمُـكْـثِـرِ

إني ناظر، أي منتظر ما وعدت به، وأنا كالفقير الذي ينظر إلى الغني منتظراً عطاءه

ما أَنـتِ والـوَعْـدَ الـذي تَـعِـدِيـنَـنـي إلَّا كَـبَـرْقِ سَـحـابَـةٍ لـم تُـمْـطِـرِ

أنت كسحابة، ووعدك كالبرق الذي يبشر بالمطر، ثم لا يأتي مطر

٢٢ لن يمنعوني البكاء

فإنْ يَحْجُبُوها، أو يَحُلْ دونَ وَصْلِها مَـقَـالَـةُ وَاشٍ، أو وَعِـيـدُ أمـيـرِ..

إن حجبوها، أو حال دون لقياها قول من واش، أو تهديد من أمير..

فلن يَحْجُبُوا عَينيَّ عن دَائِمِ البُكَا، ولن يَمْلِكُوا ما قد يُجِنُّ ضَميري

فلن يمنعوني من البكاء، ولن يتحكموا بما يخفي ضميري من مشاعر

إلى اللَّهِ أَشْكُو ما أُلَاقِي مِنَ الهَوى ومِـنْ حُـرَقٍ تَـعْـتَـادُنـي، وزَفـيـرِ

الحرَق: جمع حُرقة، شيء يعرفه مَنْ جرَّبه

٢٣ يا ربِّ حبِّبني إليها

إذا قُلْتُ هَذا حينَ أَسْلُو ذَكَرْتُها تَـظَلُّ لـهـا نَـفسـي تَـتُوقُ وتَـنْـزِعُ

إذا قلت: الآن أنسى ذكرها تظل نفسي تتوق، تشتاق، وتميل إليها

ألا تَـتَّـقِـينَ الـلَّـهَ في قـتـلِ عَـاشِـقٍ لـه كَـبِـدٌ حَـرَّى عـلـيـكِ تَـقَـطَّـعُ

فأَصبحتُ مِمَّا أَحْدَثَ الدهرُ مُوجَعاً وكـنـتُ لِـرِيْـبِ الـدهـرِ لا أَتَـخَـشَّـعُ

أصبحت متوجعاً من أحداث الزمن رقيق المشاعر مرتبكاً قلقاً، وكنت لا أتخشع، كنت صلباً لا أذعن للمصائب

فيَا رَبِّ حَبِّبْني إِلَيْها، وأَعْطِني الـ ـمَوَدَّةَ منها، أنـتَ تُعطي وتَمنعُ

وإلَّا فَصَبِّرنـي، وإن كـنـتُ كـارِهـاً فَـإنِّـي بِـهـا يـا ذا الـمَـعَـارِجِ مُـولَـعُ

إن لم تكتب يا رب الوصال، فصبرني على فراقها، وإن كنت أكره هذا الصبر لأنني بها مولع يا ذا المعارج، العلو

جَزِعْتُ غَـدَاةَ البَيْـنِ لَـمَّـا تَـحَـمَّـلُوا ومَـا كـان مِـثـلـي يـا بُـثَـيْـنَـةَ يَـجْـزَعُ

قلقت صبيحة الفراق عندما حملوا أمتعتهم للرحيل، ولم أكن جزوعاً

تَـمَـتَّـعْـتُ منهـا يـومَ بَـانُـوا بِـنظـرَةٍ وهـل عَـاشِـقٌ مِـنْ نَـظْـرَةٍ يَـتَـمَـتَّـعُ

٢٤ الحب المتحرك

لا خيرَ في الحُبِّ وَقْفاً لا تُحَرِّكُهُ عَوارِضُ اليَأْسِ أو يَرتَاحُهُ الطَّمَعُ

لا حلاوة للحب بدون حركة: بدون ما يعترض طريقه أحياناً من يأس، وبدون ما يروح ويغدو عليه من طمع في الوصال

لو كان لي صَبْرُها أو عندَها جَزَعي لـكـنـتُ أَمـلِكُ مـا آتـي ومَـا أَدَعُ

لو كنت صبوراً على بعدها كصبرها على بعدي، أو لو كان عندها ما عندي من قلق وتوتر، لكنت ملكت زمام أمري.. لكن الحال أن كل المعاناة عندي وهي غير عابئة

إذا دَعَا باسمِها دَاعٍ لِيُحْزِنَني كادَتْ لهُ شُعْبَةٌ مِنْ مُهْجَتي تَقَعُ

لا أَحملُ اللومَ فيها والغَرامَ بِها لا حَمَّلَ اللَّهُ نَفْساً فوقَ مَا تَسَعُ

أتحمل لوم اللائمين، وأتحمل الغرام.. فهذا ألم مضاعف

٢٥ حمَّاء المدامع

كَلِفْتُ بِحَمَّاءِ المَدَامِعِ طَفْلَةٍ حَبيبٍ إِلينا قُربُها لو تُنَاصِفُ

أغرمت بطفلة سوداء المآقي، من كحل رباني، وكنت أحب قربها لو أنها منصفة وتبادلني حباً

مِنَ اللُّفِّ أَفْخاذاً، إذا ما تَقَلَّبَتْ مِنَ الليلِ وَهْناً أَثْقَلَتْها الرَّوَادِفُ

ملفوفة الفخذين، وعندما تتقلب في نومها تحس بثقل لضخامة مؤخرتها

٢٦ فخر

فإنْ تَسْأَلِي يا بَثْنَ عنَّا فإِنَّنَا لنا المجدُ قِدْماً، والعَديدُ المُضَعَّفُ

مجدنا قديم، وعشيرتنا كبيرة

قُضَاعَةُ قَوْمِي، إن قَوْمِي ذُؤَابَةٌ بِفَضْلِ المَساعي في المُلِمَّاتِ تُعْرَفُ

قومي قضاعة هم الذؤابة، القمة، وهي مشهورة بالمساعي في الملمات، التصدي للمصائب

وكنَّا إذا ما مَعشرٌ أَجْحَفُوا بِنا ومَرَّتْ جَواري طَيْرِهِمْ، وتَعَيَّفُوا

إذا ظلمنا قوم، ونووا قتالنا، فتعيفوا، أي أطلقوا الطيور ليحددوا، بحسب اتجاهها يميناً او شمالاً، وقتاً يتفاءلون به للإغارة علينا

وَضَعْنا لهم صَاعَ القِصَاصِ رَهِينَةً بِمَا سوف نُوفِيها إذا النَّاسُ طَفَّفُوا

أعددنا لهم صاعاً، مكيالاً، من القصاص، ونعطيهم الصاع وافياً غير مطفف، غير ناقص كما يفعل بعض الناس

تَرى الناسَ ما سِرْنَا يَسيرونَ خلفَنا　　وإن نحن أومَأنا إلى الناسِ وَقَّفُوا

الناس يتبعوننا لأننا السادة، وإذا أشرنا بالوقوف وقفوا. قيل إن هذا البيت سرقه الفرزدق من جميل

فأَيُّ «مَعَدٍّ» كان فَيْءُ رِمَاحِهِ　　كما قد أَفَأْنَا؟ والمُفَاخِرُ يُنْصِفُ

فأي قبيلة في قبائل «معدّ» كانت غنائم رماحهم مثل غنائم رماحنا؟ والذي يفاخر عليه أن يكون منصفاً

بَرَزْنا وأَصْحَرْنا لِكُلِّ قَبيلَةٍ　　بِأَسيافِنا، إذْ يُؤْكَلُ المُتَضَعَّفُ

برزنا في الصحراء بسيوفنا ولم نأخذ استحكاماً وراء جبال، والضعيف يُهزم ويُنتهب ماله

ونحن حَمَيْنا يومَ مَكَّةَ بِالقَنا　　قُصَيّاً، وأَطْرافُ القَنا تَتَقَصَّفُ

وفي الماضي البعيد حمينا قصي بن كلاب زعيم قريش في حرب كانت الرماح فيها تتقصف

فَحُطْنا بِها أَكْنافَ مَكَّةَ بَعدَما　　أَرادتْ بِها ما قد أَبَى اللَّهُ «خِنْدِفُ»

حمينا بالرماح جوانب مكة عندما تكالبت عليها قبائل خندف. المقصود ما جرى بين قريش وخزاعة في الزمن القديم

٢٧ الرعابيب

وبيضٍ رَعَابيبٍ تُثَنِّي خُصورَها　　إذا قُمْنَ أعجازٌ ثِقَالٌ وأَسْؤُقُ

ما يجعل خصور هؤلاء الفتيات البيض الرعابيب، الناعمات، تتثنى عند قيامهن هو مؤخراتهن الضخمة وسيقانهن الممتلئة. قد كنت تجرأت وسألت فتاة يوماً: كيف تتحرك أجسامكن هكذا إذ ترقصن في الأعراس؟ تلك مهارة عجيبة. فقالت لي: ليس ثمة من مهارة، نحن نحرك الجزء السفلي الثقيل أدنى حركة، فيهتز الجسم كله، فشكرت الله شكر اليهودي المتدين الذي يصحو كل صباح فأول ما يفعله أن يشكر الله أن خلقه ذكراً

غَرائِرَ لم يَلْقَيْنَ بُؤْسَ مَعيشَةٍ　　يُجَنُّ بِهِنَّ الناظِرُ المُتَنَوِّقُ

فتيات غرائر، أي بريئات، متنعمات لم يعرفن الفقر، والناظر المتنوق، صاحب المزاج، يجن بهن جنوناً

٢٨ فراق

مَنَعَ النومَ شِدَّةُ الاشْتِياقِ　　وادِّكَارُ الحبيبِ يومَ الفِراقِ

ادّكار: تذكُّر

ليتَ شِعري إذا بُثَينةُ بَانَتْ　　هل لنا بعدَ بَيْنِها مِنْ تَلاقِ

ولقد قُلْتُ يومَ نَادَى المُنَادي   مُسْتَحِثّاً بِرِحْلَةٍ وانطِلاقِ. .

عندما نادى منادي قومها بالرحيل وهو يحث القوم للاستعداد والانطلاق قلت: . .

ليتَ لي اليومَ يا بثينةُ مِنْكُمْ   مجلِساً لِلوَداعِ قبلَ الفِراقِ

. . ليتني أجلس معك للوداع

٢٩ لعلَّها

وبَيْنَا حِبالٌ ذاتُ عَقْدٍ لِبَثْنَةٍ   أُتيحَ لها بعضُ الغُواةِ فَحَلَّها

بينا، أي بينما، كانت بيننا حبال معقودة، علاقة وثيقة، وجاء بعض الغواة الضالون فحلوها

وقَالوا نَراها يا جميلُ تَبَدَّلَتْ   وغيَّرها الوَاشي، فقُلتُ لعلَّها

يقولون لي تغيرت لما سمعت من الواشي، فقلت: ربما!

٣٠ جميل ينصح قلبه

أَلَا مَنْ لِقلبٍ لا يَمَلُّ فَيَذْهَلُ   أَفِقْ فالتَّعَزِّي عن بُثينةَ أجمَلُ

من ذا يساعد قلباً لا يمل من الغرام ولا يذهل عنه، لا ينساه؟ أفق يا قلبي فنسيان بثية أحسن لحالك. وقال هذه القصيدة بعد أن كلمه أبوه وقال له إن بثينة تستهويك وتبدي لك الحب، ولكنها تعود إلى زوجها كما تعود كل امرأة إلى زوجها، فعزم جميل على أن ينقطع عنها

سلا كُلُّ ذي وُدٍّ عَلِمْتُ مَكانَهُ   وأنتَ بِها حتَّى المَمَاتِ مُوَكَّلُ

كل محب عرفته أحب ثم نسي، وأنت يا قلبي كأنك مكلف بحبها حتى الممات

فمَا هكذا أحببتَ مَنْ كان قبلَها   ولا هكذا فيما مضى كنتَ تَفعلُ

يا قلبي! لم تكن تحب بهذه الطريقة الجنونية من قبل

فيا قلبُ دَعْ ذِكرى بثينةَ إنَّها،   وإن كنتَ تَهواها، تَضِنُّ وتَبْخَلُ

اتركها يا قلبي، فهي ضنينة بخيلة بالوصل

وقد أَيْأَسَتْ مِنْ نَيْلِها وتَجَهَّمَتْ   ولَلياسُ إن لم يُقْدَرِ النَّيْلُ أَمْثَلُ

وقد أوصلتك إلى اليأس من نيل حبها، واليأس أفضل لك عندما يتعذر الوصال

وإنَّ التي أحببتَ قد حِيلَ دونَها   فكُنْ حازماً، والحازمُ المُتَحَوِّلُ

وقد حال قومها بينك وبينها، فتحول عنها فهذا هو الحزم

٣١ ولو قُطعت رجلي

ولـو أنَّ أَلْـفـاً دونَ بَـثْـنَـةَ كـلُّـهُـمْ غَـيارَى، وكُلٌّ حارِبٌ مُزْمِعٌ قتلي..

لو كان حول بثينة ألف رجل يغارون عليها، وكلهم متنمِّر ينوي أن يقتلني..

لَـحـاوَلْـتُـهـا إمَّـا نَـهـاراً مُـجَـاهِـراً وإمَّا سُرَى ليلٍ، ولو قُطِعتْ رِجلي

لحاولت وصلها إما في وضح النهار، وإما بسير الليل نحوها، ولو قطعت رجلي في المحاولة

٣٢ طلابيها لما فات من عقلي

لقد فَرِحَ الواشونَ أنْ صَرَمَتْ حبْلِي بُثينةُ، أو أَبْدَتْ لنا جانبَ البُخلِ

فرح الواشون عندما صرمت بثينة حبلي، أي قطعت العلاقة، أو بدا منها بخل بودها

يـقـولـونَ مـهـلاً يـا جـمـيـلُ، وإنـنـي لأُقْسِمُ ما لي عن بثينةَ مِنْ مَهْلِ

أَحِلْـمـاً! فـقَـبـلَ الـيـومِ كـان أوانُـهُ، أم اخْشَى! فقبلَ اليومِ أُوعِدْتُ بالقتلِ

أأتعقل! كان هذا ممكناً قبل العشق. أم أخشى؟ لن أخشى، وكنت سابقاً هُدِّدت بالقتل ولم أخش ذلك

لقد أَنْكَحُوا حَربي «نُبَيْهَاً» ظَعِينَةً لَطيفةَ طَيِّ البَطْنِ ذَاتَ شَوىً خَدْلِ

لقد زوَّجوا حربي، أي خصمي، نُبيهاً ظعينة، أي فتاة، لطيفة طي البطن، أي ضامرة البطن، ذات شوى خدل، ذات أطراف ممتلئة، وكانوا ـ وأيضاً كُنَّا ـ يحبون الساق الممتلئة والذراع العبْلة الممتلئة.. فها قد عرفنا معنى اسم «عبلة»!

وكـم قـد رأيْـنـا سـاعِـيـاً بِـنـمـيـمـةٍ لآخَـرَ لـم يَـعْـمَـدْ بِـكَـفٍّ ولا رِجْـلِ

كثيراً ما رأينا واشياً يسعى بالنميمة لآخر لم يفعل شيئاً

إذا مـا تَـراجَـعْـنـا الـذي كـان بـيـنَـنـا جرى الدمعُ مِنْ عَيْنَيْ بثينةَ بِالكُحْلِ

إذا استعرضنا ما جرى بيننا بكت بدمع أسال كحلها. لا يقولنَّ أحد إن هذا خيال شاعر.. من قال هذا البيت لا بد أنه شهد هذا الموقف

ألا أيُّـهـا الـبـيـتُ الـذي حِـيـلَ دونَـه بِنَا أنتَ مِنْ بيتٍ، وأَهلُكَ مِنْ أَهْلِ

يا بيتها الذي حيل بيني وبينه الآن، أفديك بنفسي وأفدي أهلك

كِلانـا بَـكَـى، أو كـادَ يَـبـكـي صَـبَـابَـةً إلى إلْفِهِ، واستَعْجَلَتْ عَبْرَةً قَبلي

كلانا بكى، أو كاد، لفرط العشق لحبيبه، بل هي بكت قبلي

فلو تَـرَكَـتْ عَـقلي مَعِي ما طَلَبتُها ولكنْ، طِلابِيها لِمَا فاتَ مِنْ عقلي

لو تركت فيَّ عقلاً لكففت عنها بعد زواجها، لكنني لا أكفُّ لأن عقلي لم يعد معي

فإن وُجِدَتْ نَعْلٌ بأرْضٍ مَضِلَّةٍ مِنَ الدهرِ يوماً فاعلَمي أنَّها نَعلي

فإن وجد أحدهم نعلاً ملقاة في أرض مقفرة يضل فيها المرء، فاعلمي أنها نعلي وأنني همت على وجهي.. وأكلتني الصحراء

أَجِدِّيَ لا أَلْقَى بُثَيْنَةَ مَرَّةً مِنَ الدهرِ إلَّا خَائِفاً أو على رَحْلِ

أمعقول أنني لن ألقى بثينة أبداً إلا وأنا خائف، أو مارٌّ مروراً وأنا راكب جملي؟

خليليَّ فيما عِشْتُما هل رأَيْتُما قتيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبلِي

أفي أمِّ عَمْروٍ تَعذِلاني هُدِيتُما؟ وقد تَيَّمَتْ قلبي، وهامَ بِها عقلي

أَبِيتُ مَعَ الهُلَّاكِ ضَيْفاً لِأَهْلِها وأهلي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذَوو فَضْلِ

أبيت مع الصعاليك على أطراف منازل قومها، مع أن أهلي يسكنون قريباً وهم موسعون موسرون ولديهم زيادة من المال

٣٣ سائقة التثاقل

أَبُثَيْنَ إنَّكِ قد مَلَكْتِ فأَسْجِحي وخُذي بِحَظِّكِ مِنْ كَريمٍ وَاصِلِ

قد ملكت قلبي يا بثينة فأسجحي، أي أحسني،
وخذي أنت حظك من الوصل

فَلَرُبَّ عَارِضَةٍ علينا وَصلَها بالجِدِّ تَخْلِطُهُ بِقولِ الهَازِلِ..

فرُبَّ فتاة عرضت علينا وصلها بكلام فيه مزيج من الجد والمزاح..

فأَجَبْتُها بالقولِ بعد تَسَتُّرٍ حُبِّي بثينةَ عن وِصالِكِ شَاغِلي

فقلت لها بعد أن ترددت قليلاً إن حبي لبثينة يشغلني عن وصلك

لو كان في صدري كَقَدْرِ قُلامَةٍ وَصَلَتْكِ كُتْبي أو أَتَتْكِ رَسائلي

ولو كان في صدري فراغ بقدر قلامة الظفر لكنت واصلتك وجاءتك رسائلي

ويَقُلْنَ: إنكَ قد رَضِيتَ بِباطِلٍ منها، فهل لَكَ في اجْتِنابِ البَاطِلِ

تقول لي العاذلات إنني رضيت بالباطل الذي هو غرامي بك

ولَبَاطِلٌ مِمَّنْ أُحِبُّ حديثَه أَشْهى إليَّ مِنَ البَغيضِ البَاذِلِ

ولكن الباطل من شخص أحب حديثه أشهى إليَّ من الشخص البغيض الكريه ولو أنه يمنحني ويبذل لي ما أريد

صَادَتْ فُؤادي يا بُثَيْنَ حِبالُكُمْ   يومَ «الحَجُونِ»، وأَخْطَأَتْكِ حَبائِلي

لما رأيتك في ذلك المكان وقعت في شراكك، ولكنك أنت لم تقعي في شراكي

وتَثاقَلَتْ لَمَّا رأتْ كَلَفي بِها   أَحْبِبْ إليَّ بِذاكَ مِنْ مُتَثاقِلِ

يقول المثل «الثقل صنعة»

وأَطَعْتِ فِيَّ عَواذِلاً فَهَجَرتِني   وعَصيتُ فيكِ، وقد جَهِدْنَ، عَواذلي

طاوعتِ أنتِ العاذلات، أما أنا فقد اجتهدتْ عاذلاتي في ثني عنك وعصيتهن

يَعْضَضْنَ مِنْ غَيْظٍ عَلَيَّ أَنامِلاً   ووَدِدْتُ لو يَعْضَضْنَ صُمَّ جَنادِلِ

الجنادل: الصخور

ويقُلْنَ إنَّكِ يا بثينَ بَخيلَةٌ   نَفسي فِداؤُكِ مِنْ ضَنينٍ باخِلِ

٣٤ أقل من القليل

أيَا ريحَ الشَّمالِ أمَا تَرَيْني   أهيمُ، وأنَّني بَادي النُّحولِ

هَبي لي نَسْمَةً مِنْ ريحِ بَثْنٍ   ومُنِّي بِالهُبوبِ إلى جَميلِ

وقُولي: يا بُثَينةُ حَسْبُ نَفسي   قَليلُكِ أو أقَلُّ مِنَ القَليلِ

قولي أيتها النسمة: يا بثينة يكفيني منك القليل

٣٥ بكر النعيُّ

قيل: هذا آخر ما قاله..

بَكَرَ النَّعِيُّ، وما كَنَى، بِجميلِ   وثَوَى بِمِصْرَ ثَواءَ غيرِ قُفُولِ

جاء خبر موت جميل صباحاً، وورد فيه الاسم صراحة بلا تعريض، وثوى، أي أقام جميل في مصر إقامة دائمة ليس بعدها قفول، أي عودة

ولقد أَجُرُّ الذَّيْلَ في وادي القُرَى   نَشوانَ بينَ مَزارِعٍ ونَخيلِ

مضى زمن كنت فيه أتبختر في وداي القرى بمكة وأجر ذيل ثوبي سعيداً بين النخيل

قُومي بُثينةُ فانْدُبي بِعَويلِ   وابْكي خَليلَكِ دونَ كلِّ خَليلِ

وقيل إن بثينة قالت عندما جاءها نعيه:

سواءٌ علَيْنا يا جَميلَ بنَ مَعْمَرٍ   إذا مُتَّ بَأْساءُ الحَياةِ ولِينُها

٣٦ مغامرة بريئة

رَسْـمُ دارٍ وقـفـتُ فـي طَـلَـلِـهْ   كِـدْتُ أَقْضـي الـغَـدَاةَ مِـنْ جَـلَـلِـهْ

وقفت ببقايا الدار التي رحل عنها الحبيب،
وكدت أقضي لجلل، لهول، الموقف

واقِـفـاً فـي ديـارِ «أُمِّ جُـسَـيْـرٍ»   مِـنْ ضُـحَـى يَـوْمِـهِ إلـى أُصُـلِـهْ

وقفت طول اليوم من الضحى إلى الأصيل قبيل الغروب في ديار «أم جسير» أخت بثينة

بـيـنـمـا هُـنَّ بِـالأَرَاكِ مـعـاً   إذْ بَـدَا رَاكِـبٌ عـلـى جَـمَـلِـهْ

يتذكر الأيام الخوالي: بينما كانت الفتيات في واد فيه شجر الأراك، ظهر راكب على جمله

فَـتَـأَطَّـرْنَ، ثـم قـلْـنَ لـهـا: أَكْـرِمـيـهِ حُـيِّـيـتِ فـي نُـزُلِـهْ

فتثنين دلالاً وقلن لبثينة: أكرمي نزوله بطعام

فَـظَـلِـلْـنـا بِـنـعـمـةٍ، واتَّـكَـأْنَـا   وشَـرِبْـنـا الـحَـلالَ مِـنْ قُـلَـلِـهْ

فمكثنا سعداء متكئين، وشربنا ماء من القلل، الجرار..
كناية عن التمتع بالمتع البريئة

قـد أَصُـونُ الـحـديـثَ دونَ خَـلـيـلٍ   لا أخـافُ الأَذَاةَ مِـنْ قِـبَـلِـهْ

قد أصون الحديث، وأخفيه، عن صاحب رغم عدم خوفي من أذاه

وخـلـيـلٍ صَـافَـيْـتُ مُـرْتَـضِـيـاً   وخَـلـيـلٍ فـارقْـتُ مِـنْ مَـلَـلِـهْ

ورب صاحب أصفيه مودتي، وصاحب آخر أمله وأفارقه

٣٧ لقاء في المنام

شـهِـدْتُ بِـأَنِّـي لـم تَـغَـيَّـرْ مَـوَدَّتـي   وأَنِّـي بِـكُـمْ حتى الـمَـماتِ ضَـنـينُ

لم تتغير مودتي، وأنا ضنين، أي حريص، على هذا الحب حتى الممات

وأنَّ فُـؤادي لا يَـلـيـنُ إلـى هـوىً   سِـواكِ، وإن قَـالـوا: بَـلَـى سَـيَـلِـينُ

وفؤادي لن يميل لغيرك مهما قالوا

وإِنِّـي لأَسْـتَـغْـشي، ومـا بِـيَ نَـعْـسَـةٌ   لـعـلَّ لِـقـاءً فـي الـمـنـامِ يـكـونُ

أستغشي، أتكلف النوم، وما بي من نعاس، حتى أراك في منامي

٣٨ أنا وهي وقومها

ولو أَرْسَلَتْ يوماً بُثينةُ تَبْتَغي يَميني، ولو عَزَّتْ عَلَيَّ يَميني..
لأَعطَيْتُها ما جاءَ يَبغي رسولُها وقلتُ لها بعدَ اليَمينِ سَليِني

سليني: اسأليني

ولستُ، وإنْ عَزَّتْ عَلَيَّ، بِقائلٍ لها بعدَ صَرْمٍ: يا بُثَيْنَ صِلِيني

حتى وإن كانت بثينة عزيزة علي، فلن أطلب منها الود بعد الصرم، أي القطيعة

فليتَ رِجَالاً فيكِ قد نَذَرُوا دَمي وهَمُّوا بِقَتْلي يا بُثَيْنَ لَقُوني

ليت هؤلاء الذي أهدروا دمي وحاولوا قتلي لقوني

إذا ما رَأَوْنـي مُقْبِلاً مِنْ ثَنِيَّةٍ يقولون: مَنْ هذا؟ وقد عَرفُوني

الثنية: الطريق

يقولونَ لي أهلاً وسَهلاً ومَرحباً ولو ظَفِرُوا بي ساعةً قَتلوني
وكيفَ! ولا تُوفي دِماؤُهُم دَمي ولا مَالُهُمْ ذو كَثْرَةٍ فَيَدُوني

كيف لهم أن ينفذوا تهديدهم، وهم ليسوا لي بأكفاء في الدم، فقومي سيأخذون ثأري في مقتلة عظيمة، والأعداء لا يملكون من المال ما يكفي ليدوني، ليدفعوا ديتي

تَجَنَّى عَلَيَّ الذنبَ أهلي وأهلُها ولو عَرفوا وَجدي بِها عَذَرُوني

الوجد: شدة العشق

٣٩ أرجوزة عاشق

أبكي، وما يُدريكِ ما يُبْكيني
أَبكي حِذارَ أن تُفَارِقيني
إنَّ بَني عَمِّكِ أَوْعَدُوني
أنْ يَقطَعُوا رأسي إذا لَقُوني

٤٠ إنقاذ الغزالة

على الدارِ التي لَبِسَتْ بِلاها قِفَا يا صَاحِبَيَّ فَسائِلاها

قفا يا صاحبيَّ عند الدار التي لبست حلة جديدة هي حلة البلى، الدثور والخراب، واسألاها

وقد طالَبْتُها حتى مَلِلْنَا   مَواعِدَها وأعيانَا مُنَاها
طالبت بثينة بتحقيق وعودها، ولكنْ أتعبنا تمني ذلك

فما جَادَتْ لنا حتى وَرَدْنا   حِياضَ الموتِ أوْ كِدْنَا نَراها
فما جادت لنا حتى وردنا أحواض الموت أو كدنا

ذكرتُكِ إذ رأيْنا أُمَّ خِشْفٍ   «بِذي ضَالٍ» تَريعُ إلى طَلَاها
تذكرتكِ عندما رأينا غزالة مع خشفها، صغيرها، في ذلك المكان وهي تريع، أي ترجع، لتلازم طلاها، أي صغيرها

رأتْنا قَاصِدينَ لَها فَوَلَّتْ   أمامَ الخِشْفِ مُضطَرباً حَشاها
رأتنا نقصدها فانصرفت ووقفت أمام صغيرها مضطربة حائرة

وقد حَفَّ الرُّماةُ بِجانِبَيْها   وكُلُّهُمُ على حَنَقٍ يَراها
وقد أحاط رماة السهام بها من الجانبين، وهم على حنق، على استعداد، ينظرون إليها

فَجالَتْ ساعةً ثم استَظَلَّتْ   إلى سَنَدٍ تُحاوِلُ مُلْتَجاها
تمشت قليلاً، واستندت تلتمس ملجأ

إلَيْهِ سَاعَةً تَرمي بِطَرْفٍ   وأُخرَى نَحْوَنا قَلِقاً حَشَاها
ترمي بنظرها إلى صغيرها حيناً، وتنظر إلينا حيناً

وقد آلَيْتُ خَشْيَتَهُمْ عليها   أُكَلِّمُ مِنْهُمُ رجُلاً رَمَاها
وقد حلفت لخشيتي عليها منهم أنني لا أكلمُ بعد اليوم أي شخص يرميها

فقالوا ما دَهَاكَ؟ فقلتُ نَفْسي   وبيتِ اللَّهِ تَعْلَمُ ما دَهَاها
وما بي فَاعْلَموا مِنْ حُبِّ ظَبيٍ   ولكنِّي ذَكَرْتُ بِهِ سِوَاها
ألَا يا شِبْهَ ذاتِ الخَالِ قَرِّي   بِأَرضِكِ، لن تُراعي في رُبَاها
أيتها الغزالة، يا من تشبهين الحبيبة ذات الخال، اطمئني في أرضك، فلن تراعي، لن يصيبك خوف

٤١ خذي من عمري

وقد خِفْتُ أن يَغْتَرَّني الموتُ بَغْتَةً   وفي النفسِ حَاجاتٌ إليكِ كما هِيَا
يغترني: يباغتني

وإنِّي لَتُنْسِيني الحَفيظَةُ كُلَّمَا لَقِيتُكِ يَوماً أنْ أبُثَّكِ ما بِيَا

التحفظ يجعلني أنسى أن أصارحك بحبي

وَدِدْتُ، على حُبِّي الحياةَ، لو انَّها يُزادُ لها في عمرِها مِنْ حَياتِيا

٤٢ صدقَ الواشون

وماذا عَسَى الوَاشُونَ أن يَتحَدَّثُوا سوى أن يَقولُوا إنَّني لكِ وَامِقُ

ماذا يمكن للواشين أن يقولوا سوى أنني لك محب عاشق

نعمْ صَدَقَ الوَاشُونَ أنتِ كريمةٌ علينا، وإنْ لم تَصْفُ منكِ الخَلائِقُ

وقد صدقوا فأنت موضع تكريم عندي، وإن كانت طباعك لا تصفو لي

٤٣ حب بالمراسلة

وإنِّي لأرضَى مِنْ بثينةَ بِالذي لو ابْصَرَهُ الوَاشي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ

أرضى من بثينة بالقليل جداً، الذي لو رآه الواشون لاطمأن بالهم واستقرت مخاوفهم

بِلا، وبأنْ «لا أستَطيعُ»، وبِالمُنَى وبِالأمَلِ المَرْجُوِّ قد خَابَ آمِلُهْ

أرضى منها بكلمة «لا»، وبقولها «لا أستطيعُ»، وأرضى بالأمل.. لكنه أمل خائب

وبِالنَّظْرَةِ العَجْلَى، وبِالحَولِ تَنقضي أَواخِرُهُ، لا نَلتَقي، وأَوَائِلُهْ

وأرضى منها بالنظرة السريعة، وينقضي العام من أوله إلى آخره ولا يكون بيننا لقاء

جميل بثينة

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

بقية المعلقات

كنا قد اخترنا أبياتاً من معلقات امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى ضمن ما اخترناه من شعرهم. وبقيت معلقات ست، بحسب من جعل المعلقات عشراً. فهذه مختارات من الست الباقيات.

وخير من شرح المعلقات العشر وأعربها كلها وبذل فيها الجهد الكبير الشيخ محمد علي طه الدرة، وقد أخذنا بأكثر من رواية وراجعنا المعلقات عند الزوزني والشنقيطي، الذي ساق روايات عدة، لكن ما صنعه الشيخ الدرة في مجلدين كبيرين انتهى من تبييضهما عام ١٩٧٤، جهد كبير جداً. اسمعه يقول في مقدمته: «وبما أنني لا أملك مالاً يكفي لطبعها ونشرها أخذت ألتمس ذلك من الناشرين، ومن المكتبات الشهيرة. . . ثم أرسلت المخطوط بكامله إلى وزارة الثقافة والإرشاد في دمشق والتمست منها طبعه ونشره فاعتذرت الوزارة. . .» وقِف بإزاء هذين المجلدين الكبيرين اللذين حشيا علماً وذوقاً وفهماً للشعر وللغة وللنحو، وتأمل حال ثقافتنا، ومقدار احترامنا لجهد كبير مميز. كلما نظرت في طبَعات المعلقات السبع أو العشر، وهي أكثر من النمل وأقبح من القمل، قلت في نفسي: يا لضياع الورق. غير أن مجلدي الشيخ الدرة ثمينان.

سترى أن عملنا مختلف عن عمل الشيخ الدرة كثيراً، فالرجل شرح شرحاً مستفيضاً مفعماً بالتفسير اللغوي والبياني، وزاد في تفسير كل بيت فلخصه تلخيصاً، ثم زاد فأعرب البيت إعراباً كاملاً. كل ذلك بقلم قدير مبين. ونحن اخترنا أبياتاً من كل معلقة هي فيما نرى أجمل الأبيات وأقواها، وشرحناها بما يجعل القارئ يفهم، ثم إننا لا نمر بكلمة صعبة إلا فسرناها في سياق الشرح. لا نحن أعربنا ولا نحن عرضنا لما في الأبيات من نكت بلاغية، ومن مشكلات نحوية، ولا نحن سردنا الروايات المختلفة. فقد كنا نرى الروايات

المختلفة لكلمة بعينها أو لبيت أو نصف بيت، ونختار أشهرها، ثم لا نثقل على القارئ بذكر ما لم نختره من الروايات. وقد تأثرنا في اختيارنا للأبيات نفسها، بعض التأثر، بذوق القدماء. فإذا رأيناهم أكثروا من التعجب من بيتين لعنترة يصف فيهما الذباب حرصنا على إيراد البيتين. فإن وجدنا الشنقيطي وطبعات عديدة أخرى أهملت بيتي عنترة «ولقد ذكرتك والرماح نواهل/ مني وبيض الهند تقطر من دمي// فوددت تقبيل الرماح لأنها/ لمعت كبارق ثغرك المتبسم» جئنا بالبيتين من رواية قديمة أخرى.

فإن قلت إن هذين البيتين السهلين الجميلين البسيطين عليهما سيما عصر لاحق، ولا يحملان من سمات لغة الجاهلية شيئاً، قلنا لك إن كل معلقة عنترة، وكل المعلقات، وكل الشعر الجاهلي قد دخل فيه ما ليس منه.

هذه مسألة شائكة جداً من مسائل تحقيق مصادر الأدب القديم. ونكتفي هنا بالإشارة إلى الحشد الكبير من الأمثلة الذي ساقه ناصر الدين الأسد ـ في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» هذا الكتاب الذي ظل فذاً، لا ضريب له ـ على أن كثيراً من الشعر الجاهلي دوِّن في مراحل باكرة. قد أكثَرَ الأسد من الأمثلة إكثار مريب يحشد الأعذار. لكنه وقف في وجه الاندفاعة العارمة لأستاذه طه حسين، الذي أنكر جاهلية الشعر الجاهلي، وقفة صارمة وهادئة وفيها الكثير من التأدب وحسن الخلق. ونحن هنا نقف وقفتنا المعتادة، كي نمدح ونذم.

هذا الدارس الأردني، ناصر الدين الأسد، كان يحضر لرسالة الدكتوراه في مصر. وكانت رسالته هذا الكتاب الكبير، كتاباً ظل حتى بعد انقضاء سبعين سنة السند المكين لكل من يدرس موضوع «مصادر الشعر الجاهلي». وتقرأ الكتاب فتتمتع بلغته العالية، وتتمتع بالبحث العميق. وترى بحثاً حقيقياً. رحم الله ناصر الدين الأسد.

فهل لاحظتم أننا لم نقل «الدكتور» ناصر الدين الأسد؟ قد رفعنا قدره عن أن نلحقه بهذه الزمرة الكَلِبة من دكاتير الدكاكين الجامعية الذين يتصاعد الصنان من تلك الأسقاط التي يطبعونها ويسمونها كتباً.

المزيد من إنزال النكال بأهل الابتذال

قد كنا في مواضع من أوراقنا هذه، التي ننتخب فيها الأشعار ونشرحها، قصَبنا الأكاديميين وضرَّسناهم، وتحدثنا في الأسطر السابقة هنا عن رجلين من

جلة العلماء، فذكَّرانا ـ والشيء يُذكَّر بضده ـ بأساتيذ الجامعات والجراء اللاعقة في سبيل الدكتوراهات. فطاب لنا أن نقف وقفة نعالنهم فيها بعضائهم، ونحسر اللثام عن مساويهم، ونصحر لهم، لا نصادي ولا نداجي، بل نجدُّ في فل شباتهم وكف عُرامهم. فما منهم إلا من هو خشارة مدرسته وكساحة صفه. إنهم ـ إلا من رحم ربي ـ أوشاظ رمت بهم مجاميعهم في كليات اللغة العربية في الجامعات، فآض ذلك زؤاناً كثيراً ضاع فيه القمح. ولا والله ما نرجو فيما نكتب أن نرتق فتقاً ولا أن نرأب ثأياً، بله أن نجادل بالتي هي أحسن. بل نقارعهم بالتي هي أسوأ حتى نقيم صعرهم من غير نية إصلاح، ونَجأ أعناقهم حتى نَزَعهم عن صيَدهم. لا نرجو منهم إنابة ولا نزوعاً، قد اتسع الفتق على الراتق؛ ولا نلتمس إنهاضهم من كبوة ولا إقالتهم من عثرة، فقد تمرغوا في وضر السرجين، لا أقام الله لهم ساقاً. وتقول لي: أليس في افتضاح أمرهم ما يكفُّك عما أنت فيه من شتم؟ أولم يسل سخيمة قلبك ما تراه من احتقار الناس في أيامنا لكل أصحاب الشهادات؟ أوليس مما يزيل حسائك صدرك أن لعبة «الدكتوراه» قد انكشفت؟ لا، لا يثنيني ذلك كله عن المضي في انتهاشهم، وجعلهم أحدوثة، فما أصنعه اثّآر لا إنذار. وإن عزب عنك إنني ألهو بهم لهو سيف الدولة بلحية الأحمق، فقد غاب عنك المطرب. أولئك قوم ـ وأعني دارسي الأدب العربي الذي استشروا في الجامعات ـ لم يتصوَّنوا عن عرض الأدب، ولا ارعووا عن التسربل بسربال الشنار في درسه. سأغلظ لهم وأحملهم على مبرد خشن يجرون عليه عضارطهم، وسأماظهم وأراغمهم كعماً كعماً.

وجل غضبي راجع إلى قيح في روحي ليس لي فيه يد. فقد تبرمجت منذ أن شدوت على أن درس اللغة والعربية والشعر العربي، والتعمق فيهما، خير ما يصنعه المرء. ومضت سنوات كنت فيها كالماشي في نومه، فإذا الناس ينصرفون عن هذا كله انصرافاً، وإذا الفصحى تبهت، وإذا العاميات تزحزحها. ولا قبل لي بتغيير ما عليه تبرمجت وفيه نشأت. تولد في نفسي غضب شديد. ثم رأيت صروح التخلف والعفن ـ قد فهمتَ أنني أعني بذلك الجامعات! ـ تقيم للغة الفصحى وللأدب العتيق الصلوات. ورأيت رؤساء الجامعات، رُئسوا، لا يؤمنون بكل هذا الذي اسمه أدب عتيق ولغة فصحى، ولكنهم ينضحون تلك الصروح بماء الرياء، ويحشرون فيها حُسافة الرجال كي يرضى عنهم زمن الانهزام، وكيلا يقال إنهم يتخلون عن تراث أمتهم. ثم يجيء هؤلاء الرؤساء

فيشطبون اللغة العربية شطباً من كليات العلوم. كأن الله لم يخلق العلوم إلا كي تدرس بلغة إفرنجية. فهذه واحدة بواحدة: يترضَّون المتزمتين الرجوعيين برفع الكراسي للغة العتيقة يُجلسون عليها بعض خلق الله ممن رميناهم بالفواقر في الفقرات السابقة، ثم يلعقون أحذية سماسرة الغرب بشطب اللغة العربية من كليات العلوم، وبعضهم يشطبها من كليات الاجتماع والفلسفة والتاريخ أيضاً.

أنا غاضب أنني تعلقت بهذا القديم، ثم ما بلغت أول الشيخوخة إلا وهو مرذول، فبارت بضاعتي.

أصدقك القول إنني أحمل بين جوانحي نفساً غضبى، وإنني أعاني علة الشيخ النكِد الحاقد على الدنيا بلا سبب إلا أنه بدأ يدخل في أرذل العمر.

عود إلى المعلقات

لا تكاد تقرأ سطرين من مقدمة كتاب من مئات الكتب التي كتبها أولئك الفسول عن الشعر الجاهلي إلا قفزت إلى عينيك التسبيحات والتحميدات، والدعوات الحارات إلى المنافحة عن ديننا وشرفنا القومي. كأن هؤلاء الصبية داخلون على ضابط مخابرات فأول ما يجأرون به نفي التهمة عن أنفسهم.

هذه ـ يا سوقة ـ مسألة بحثية لا شأن لها بمشاعركم.

الشعر الجاهلي موضع شك منذ ابن سلام حتى اليوم. قد قتل الناس الأمر بحثاً، وعليك بأبحاث نولدكه وألفرت ومرغوليوث التي نشرها مترجمة إلى العربية عبد الرحمن بدوي، وعليك بطه حسين، ثم عليك بكتاب محمود شاكر الذي محص فيه آراء ابن سلام، ففيه كتابة بديعة غير أنها ملوثة بالغضب. كان شاكر أحسن من فهم الشعر العربي القديم في زمننا، غير أن هذا لا يرفع عنه شبهة الغرض.

لا نخوض في صحة الشعر الجاهلي لأنه ليس عندنا جديد في هذا الأمر. وفي المعلقات نقول بقول مصطفى صادق الرافعي: «.. غير أنه مما لا شك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارُض الألسنة، قل ذلك أو كثر؛ أما أن تكون بجملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ.» نعم نحن لا نراها مولدة بجملتها، ولا نرى أن قريحة حماد الراوية أو خلف الأحمر قادرة على الإتيان بهذا التنوع البديع، وبهذه الأساليب المختلفة. وأما قصة تعليقها في الكعبة فلا يصلح فيها إلا قول الرافعي «ذلك التعليق إنما كان بحبل من التلفيق».

اختياراتنا من المعلقات

ذوقنا في الاختيار ذوق تراكمي: نحب الأبيات التي تعجبنا بصرف النظر عن أي تأثر، ونهش لكثير مما يستحسنه القدماء، فنورده حتى لا يفوت القارئ، أو نورده لأننا وجدناه حسناً. والبيت يصبح حسناً في أذنك إذا تكرر عليك، فإذا اصطلحت كتب الأدب على أبيات تكثر من إيرادها فهي تصبح حسنة بالتكرار. نعم، ذوقي في الاختيار ليس ذوق القادر المحتكم الصارم المتجهم. قطفت لك أطايب المعلقات. ولست بالرجل العتيق يطلب من أمة لا إله إلا الله أن يغرقوا في الشعر القديم، وأن يطالعوه صباح مساء.

ففي الدنيا ما يشغل العاقل عن الشعر القديم. وحسب المتعلم أن يعرف قليلاً من خرافاتنا تكون له حبلاً سرياً يصله بلغته وأمته. ولا حياة لشعب بغير خرافات. قد كنت أتندر ظهيرة اليوم مع نحو أربعين طالباً من طلابي بمقتل المتنبي. أروي لهم النادرة، وبيت الشعر المصاحب لها. وأرى في عيون بعضهم بريقاً: أنهم سمعوا بالنادرة، وأرى بعضهم متحفزاً يريد أن يعرف القصة، بعضهم يحفظ بيت الشعر المشهور الذي زعموا أنه «قتل» المتنبي، وبعضهم يتلكأ فيه. فإذا قلت: الخيل والليل والبيداء.. أكملوا كلهم البيت. تلك في عرف التاريخ خرافة، ولكنها تجمعنا حولها.

ولعلي ألَّا أطيل عليك وأنا أحدثك عن طلبتي الأربعين هؤلاء، وهم في الواقع ثمانية وأربعون.. عدَدتهم أمس.

هذا الصباح جئت إلى مركز التدريب وألقيت محاضرتي التي استغرقت ساعة، وانصرف الطلبة. وسيأتون عصراً للتدريب الطويل. فهل تريد أن تعرف أين أنا الآن إذ أكتب لك هذا؟

أنا في جوبا بجنوب السودان. وطلبتي مذيعون وصحفيون من راديو وتلفزيون دولة جنوب السودان الوليدة. والقوم هنا، في جوبا العاصمة نخبة لا تمثل سكان البلاد. فجوبا ثلث مليون، ودولة جنوب السودان عشرة ملايين.

ثمة اضطراب في نفوس الثمانية والأربعين متدرباً بشأن اللغة وبشأن الانتماء القبلي، وبشأن الدين. أحاول أن أبث فيهم فكرة بسيطة: بسبب هذا التنوع الذي تعيشونه فالاتفاق على محور واحد هو الدولة وقوانينها أمر مجد. في البلد لغات شتى، وفيها صراع بين العربية والإنجليزية. تحاول السلطات

فرض الإنجليزية لغة رسمية ولغة تعليم، وهي ماضية في هذا. ولكن معظم الذين يملكون تعليماً، أو حتى يملكون دوراً اجتماعياً مهماً قد تعلموا في الخرطوم وعاشوا في شمال السودان طفولتهم أو شبابهم، ولغتهم الأولى العربية. سيكون صعباً على الإنجليزية أن تحل محل العربية وتغلبها إلا إذا استمرت مساعي الحكومة في هذا الصدد بضع سنوات أخرى. لكن دولة جنوب السودان ستبقى متعددة اللغات. لن يكون للإنجليزية فيها نصيب أفضل من نصيبها في الهند التي تتخذها لغة تفاهم رسمية دون أن تحلها في الألسنة محل اللغات الهندية الكثيرة.

نرجو لجنوب السودان ألا يجعل الدين محور انتماء وخلاف، لأنه سيخرج من الحرب القبلية القائمة الآن منذ ثلاث سنين ـ وأنا أكتب في ١٨ شباط/ فبراير ٢٠١٦ ـ ليدخل في حرب دينية.

لو حدثت القارئ عن الـ ٤٥ درجة مئوية التي أكتب وأنا أستحم بعرقها لأدرك اضطراب كتابتي، وانتقالي من موضوع إلى موضوع.

ما الذي أدى بي إلى أن أزيد متاعب قلبي الناشئة عن شعر طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وسائر أصحاب المعلقات، بشرح هذا الشعر وتشكيله في مثل هذا الجو الخانق؟ لا بد أنني، في لاوعيي، أعاقب نفسي على خطايا كنت ارتكبتها.

١ معلقة طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ البَكْرِيّ

لِـخَـوْلَـةَ أطـلالٌ بِـبُـرْقَـةِ ثَـهْـمَـدِ   تَلوحُ كَباقي الوَشْمِ في ظاهِرِ اليَدِ

لقوم خولة بقايا منازل بعد رحيلهم عن «برقة ثهمد»، وهي تبدو شاحبة كأنها بقايا الوشم

وُقوفاً بِها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يقولونَ لا تَهلِكْ أَسىً وتَجَلَّدِ

يقف أصحابي نياقهم، أي يوقفونها، عليَّ، أي من أجلي،
ويقولون لا تُمِتْ نفسك حزناً وتجلد (اصبر)

كَـأَنَّ حُـدُوجَ الـمَـالِـكِـيَّـةِ غُـدْوَةً   خَـلايَـا سَـفِـينٍ بِـالـنَّـوَاصِـفِ مِـنْ دَدِ

كأن الحدوج، أي هوادج النساء، المنسوبة إلى مالك بن سعد خلايا سفين، سفن كبيرة، لكنها تسير في النواصف، أي الطرق، في وادي «دَدٍ»

عَـدَوْلِـيَّـةٌ أو مِـنْ سَـفـيـنِ ابْـنِ يَـامِـنٍ   يَـجُـورُ بـهـا الـمَـلَّاحُ طَـوْراً وَيَـهْـتَـدي

كأنها من سفن عَدَوْلَى، على ساحل عمان، أو من سفن البحّار المعروف ابن يامن، وهي تسير والملاح ينحرف بها حينا ويسير مستقيماً حيناً

يَشُقُّ حَبابَ المَاءِ حَيزُومُها بها كَما قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

حيزوم السفينة، أي صدرها، يشق حباب الماء، أي فقاقيعه، ماضياً بها، أي بالسفينة، مثلما يشق المفايل التراب. فالمفايل، اللاعب بالتراب، يدس في كوم التراب شيئاً ثم يشق الكوم نصفين، وعلى خصمه أن يحزر في أي نصف استقر ذلك الشيء

وَوَجْهٍ كَأَنَّ الشمسَ أَلْقَتْ رِداءَها عليهِ نَقِيُّ اللَّوْنِ لم يَتَخَدَّدِ

وللحبيبة وجه كأن الشمس منحته بهجتها. وبشرته صافية لم تتشقق

وإنِّي لأُمْضي الهَمَّ عند احتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدي

وأنا أنفّذ همي، أي مقصدي ومطمحي، عندما يحضر وقته بناقة عوجاء تسير مهملجة يميناً ويساراً لشدة نشاطها، وهي مرقال، سريعة، تروح، أي تسير مساء، وتغتدي، أي تسير صباحاً

لَها فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهِما كأنَّهما بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

اكتمل نحض، أي لحم، فخذيها فكأنهما مصراعا باب قصر منيف، أي عال، ممرد، أي أملس.. من رخام مثلاً

وجُمْجُمَةٌ مِثْلُ العَلَاةِ كَأَنَّما وَعَى المُلْتَقَى مِنها إلى حَرْفِ مِبْرَدِ

وللناقة جمجمة كالعلاة، أي سندان الحداد. ومكان التقاء أطراف الجمجمة عند فم الناقة محدد كطرف السندان الذي يشبه المبرد. السندان حتى في أيامنا يشبه رأس الناقة، ويبدو أن «السندان» لم يتطور كثيراً في الألف والخمسمئة سنة التي تفصلنا عن طرفة

وإنْ شِئْتَ لم تُرْقِلْ وإنْ شِئْتَ أَرْقَلَتْ مَخافَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحْصَدِ

إن أردتها أن تبطئ فعلت، وإن أردتها أن ترقل وتسرع فعلت، وكل ذلك من أثر السوط الذي التوت سيوره الجلدية مجدولةً. والقد: الجلد، والمحصد: المفتول بإحكام

على مِثْلِها أَمضي إذا قال صاحبي أَلَا لَيْتَني أَفْدِيكَ منها وأَفْتَدِي

أسافر على مثل هذه الناقة، إذ يقول لي صاحبي أفديك منها، أي من هول الصحراء، وأفتدي أنا أيضاً

إذا القومُ قالوا مَنْ فَتىً؟ خِلْتُ أَنَّني عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ ولم أَتَبَلَّدِ

إذا قال القوم: هل من فتى؟ ظننتهم يعتونني، فنهضت بالمهمة الصعبة بلا كسل ولا تبلد، أي بلا بطء في الفهم

ولسْتُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مَخَافَةً ولكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ

لا أحل التلاع، السفوح تحت القمم، مختبئاً خائفاً،
لكنني عندما يطلب القوم الرفد والمعونة أرفدهم

وإنْ تَبْغِنِي في حَلْقَةِ القومِ تَلْقَنِي   وإنْ تَلْتَمِسْنِي في الحَوانِيتِ تَصْطَدِ

إن تطلبني في مجلس القوم فأنا هناك، وإن بحثت عني في حوانيت الخمر عثرت عليَّ

وإنْ يَلتَقِ الحَيُّ الجَميعُ تُلاقِني   إلى ذِرْوَةِ البيتِ الكريمِ المُصَمَّدِ

وإن التقى القوم جميعاً فأنا هناك بينهم، ومكاني في أعلى البيوت نسباً، فأسرتنا كريمة مصمدة، أي يقصدها القصاد لنيل العون

نَدامَايَ بِيضٌ كالنُّجومِ، وقَيْنَةٌ   تَروحُ علَيْنا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ

نُدمائي بيض الوجوه من الأشراف، ومعهم قينة، جارية مغنية، تخدمنا وهي ترتدي برداً، ثوباً مخططاً، وترتدي مجسداً، ثوباً مصبوغاً ملاصقاً للجسد

رَحيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفيقَةٌ   بِجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

وثوب الجارية مشقوق شقاً رحيباً واسعاً، وهي مترفقة راضية بأن يتحسس الندامى جسمها، ومتجردها، أي مَعْرَاها، بض طري

إذا نحن قُلنا أَسمِعِينا انْبَرَتْ لنا   على رِسْلِها مَطْرُوفَةً لم تَشَدَّدِ

إذا أردنا غناءها فهي تنبري لنا، تميل علينا، مغنية على رسلها، بهدوء، مطروفة، أي تغمض عينيها نصف إغماض، ولا تتشدد، أي لا تمتنع من تلبية الطلب

ومَا زَالَ تَشْرَابي الخُمُورَ ولَذَّتي   وبَيْعي وإنفاقي طَريفي ومُتْلَدي

هذا دأبي: أشرب وأستمتع، وأبيع طريفي، مالي الذي كسبته، ومتلدي، ما ورثت

إلى أن تَحامَتْني العَشيرةُ كلُّها   وأُفْرِدْتُ إفْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

حتى تجنبتني العشيرة، وصرت منبوذاً كالبعير المعبد، المطلي بالقطران للجرب

ألا أَيُّهذا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى   وأن أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدي؟

يا من يزجرني، ويؤنبني لمغامراتي في الحرب وفي مجالس اللهو، أتستطيع منع الموت أن يأتيني؟

فإن كُنتَ لا تَسْطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي   فَدَعْني أُبادِرْها بِمَا مَلَكَتْ يَدي

فإن كنت لا تستطيع منع الموت عني، فاتركني أبادر، أي أسابق، الموت بإنفاق مالي

ولولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشَةِ الفَتَى   وَجَدِّكَ لم أَحْفِلْ مَتَى قامَ عُوَّدي

لولا ثلاثة أمور، هن خير ما في عيشة المرء، فبحياتك لن أهتم بالموت الذي يقوم عند حضوره العُوَّد، أي زوار المريض، ويروحون إلى بيوتهم

فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ   كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالماءِ تُزْبِدِ

هذه الأمور: أن أسبق حضور العاذلات، اللائي يلمنني على الخمر، بأن أشرب خمراً كميتاً داكنة يعلوها الزبد عندما يضاف إليها الماء

وكَرِّي إذا نَادَى المُضَافُ مَحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ، المُتَوَرِّدِ

ومنها هجومي عندما يناديني المضاف، أي المهموم، بفرسي المحنب، المعوج اليدين مما يجعله سريع الانفتال والمناورة في المعركة. وإن فرسي مثل سيد الغضا، ذئب الغابة، المتورد، الوارد إلى الماء، عندما تتعرض له وتنبهه فيفر مسرعاً

وتَقصيرُ يومِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ،   بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ

ومنها تقصير اليوم الغائم، وما أجمله، باللهو مع بهكنة، امرأة ناعمة، تحت الخيمة ذات العمود. ظلوا حتى العصر العباسي يحبون عقد مجلس اللهو عندما تغيم السماء، أو تمطر

كريمٌ يُرَوِّي نفسَهُ في حَياتِهِ.   سَتعلمُ إنْ مُتْنَا غداً أيُّنَا الصَّدي

أنا كريم أرتوي من الملاذ في حياتي، وستعلم عندما نموت من منا مات صادياً عطشاناً

أَرَى قبرَ نَحَّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ   كَقَبرِ غَوِيٍّ في البَطَالَةِ مُفْسِدِ

القبور تتشابه، فقبر النحام، أي البخيل الذي يأخذُ يتنحنحُ إذا طلبتَ منه شيئاً، كقبر الضال الذي يبدد ماله على شهواته

أرى الموتَ يَعْتَامُ الكرامَ، ويصْطَفي   عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

الموت يعتام، أي يختار، الكرام، وهو بالطبع يختار اللئام أيضاً لكنه فوق ذلك يتخير عقيلة مال الفاحش، السيء الخلق المتشدد ببخله. ذلك أن البخيل يموت فيفقد نفسه، ويفقد فوق ذلك ماله. وعقيلة المال أحسن ما يملك المرء من إبل معقولة أي مربوطة

أرى العيشَ كَنْزاً ناقِصاً كلَّ لَيلَةٍ   وما تَنْقُصِ الأيَّامُ والدهرُ، يَنْفَدِ

العيش مثل كنز يضمحل باستمرار، والذي تنقصُهُ، أي تجعله ينقص، الأيام ويبدده الدهر فهو ينفد وينتهي

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى   لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ في اليَدِ

الموت آت لا محالة، فهو مثل الطِّوَل، الحبل، المرخى للبعير كي يرعى كما يشتهي، ولكن ثني الحبل، ما يثنيه الراعي على كفه من طرف الحبل، في يدي الراعي. فالبعير الذي يرعى بحريته ليس حراً، ولا بد أن يجذبه صاحبه في النهاية، وكذا الموت

مَتَى مَا يَشَأْ يوماً يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ   ومَنْ يَكُ في حَبْلِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

متى أراد صاحب البعير قاده بحبله، ومن كان مربوطاً بحبل الموت فلا بد أيضاً أن ينقاد يوماً

فَمَا لي أَرَاني وابْنَ عَمِّيَ مَالِكاً   مَتَى أَدْنُ منهُ يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ

يَلُومُ ومَا أَدري عَلامَ يَلُومُني   كما لامَني في الحَيِّ قُرْطُ بنُ مَعبَدِ

وإنْ أُدعَ لِلْجُلَّى أكُنْ مِنْ حُمَاتِها   وإنْ يَأْتِكَ الأعْدَاءُ بِالجَهْدِ أجْهَدِ

إذا دعيت للجلى، الأمر العظيم، فإنني ممن يحمون الديار والقوم، وإن أتاك يا ابن عمي الأعداء جاهدين فأنا أتصدى لهم جاهداً

وظُلْمُ ذوِي القُرْبَى أشَدُّ مَضَاضَةً   على المرءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

مضاضة: إيلاماً

أنَا الرجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَهُ   خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

الضرب: النحيل، الخشاش: النشط الفعَّال. وهذه الكلمة تصلح كي تقوم مقام تعبير إنجليزي أراه بديعاً، يقول الإنجليز عن الشخص الفعَّال إنه «يجعل الأشياء تحدث»، فهذا هو الخشاش

فإنْ مُتُّ فَانْعَيْنِي بِمَا أنا أهْلُهُ   وشُقِّي عليَّ الجَيْبَ يا ابْنَةَ مَعْبَدِ

يوصي ابنة أخيه: انعيني بما أستحق، وشقي عليَّ الجيب، أي فتحة الرأس في الثوب

ولا تَجعَلينِي كَامْرِئٍ ليس هَمُّهُ   كَهَمِّي، ولا يُغْنِي غَنائِي ومَشْهَدي

لا تجعليني كمن ليس همه وطموحه مثل طموحي، ولا يقوم بما أقوم به من أفعال، وليس له محضري

سَتُبْدي لَكَ الأيَّامُ مَا كنتَ جَاهِلاً   ويَأْتِيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ستكشف الأيام ما كنت تجهله، وسيأتيك بالأخبار كل الناس، وليس فقط الشخص الذي تزوده بزاد ومال وترسله في طلب الأخبار

ويَأْتِيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ لَهُ   بَتاتاً، ولم تَضرِبْ له وَقْتَ مَوْعِدِ

سيأتيك بالأخبار من لم تشتر له بتاتاً، أي متاعاً، ولم تضرب بينك وبينه موعداً لرجوعه بالأخبار

٢ معلقة لَبِيدِ بنِ رَبيعَةَ العَامِرِيّ

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها   بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها

عفت: امَّحت، محلها: موضع الحلول المؤقت، مقامها: موضع الإقامة مدة طويلة. تأبد: توحش. يقول: لقد امحت تلك الديار سواء منها ما كان للحلول والاستراحة أم للإقامة. وهذه الديار في موضع منى، بين نبع الغيل وجبل الرجام، وأصبحت تردها الوحوش فقط، ولم يعد بها بشر

فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها   خَلَقاً، كما ضَمِنَ الوُحِيُّ، سِلامُها

المَدافع: الشقوق في الجبل التي تندفع منها مياه السيول، الوُحِيُّ، جمع وَحْي: الكتب. السِلام: الصخور. يقول: قد أصبحت مجاري الماء في جبل الريان رسوماً عارية، وخلقاً سلامها، أي عتيقة حجارتها، وهذه الحجارة تشبه النقوش التي تتضمنها الكتب. ولم تكن الكتب مألوفة لعرب الجاهلية، فإذا رأوا كتاباً من كتب اليهود مثلاً، ويسمونه الوحي، فهم يرون الكتابة فيه خرابيش متفرقة ليست بذات معنى

دِمَنٌ تَـجَـرَّمَ بَـعْـدَ عَـهْـدِ أنِـيـسِـهـا   حِـجَـجٌ خَـلَـوْنَ حَـلالُـهـا وحَـرامُـهـا

هذه أطلال تجرم، أي مضى، عليها بعد أن فارقها الأنيس، أي الإنسان، أعوام كثيرة خلت، أعوام كثيرة بما فيها من الشهور الحلال والشهور الحرام (ما يجوز فيه القتال وما يحرُم)

وجَلا السـيولُ عن الطُّلولِ كأنها   زُبُـرٌ تُـجِـدُّ مـتـونَـهـا أقْـلامُـهـا

كشفت السيول ما غطى بقايا الديار، فكأن الطلول هي الزبر، أي الكتب التي تجدد الكتابة عليها الأقلام. وكانوا يكتبون على الجلد أو العظم ثم يمسحون ثم يجددون الكتابة فيبدو وجه الكتاب منقوشاً بنقوش مختلطة. أُعجب القدماء بهذا التشبيه، رووا أن الفرزدق عندما سمعه سجد، فقيل له: ما هذا؟ فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر

فَـوقَـفْـتُ أسْـألُـهـا، وكـيـف سُـؤَالُـنـا   سُـفْـعَـاً خَـوَالِـدَ مـا يَـبـِينُ كَـلامُـهـا؟

فوقفت أسأل الطلول، وكيف للمرء أن يسأل صخوراً صماء سفعاً، محترقة من وضع القدور فوقها والنار تحت القدور، وهي صخور خوالد باقية لم تتحرك بفعل السيول، ولكن.. لا نفهم لها كلاماً

بَـل مَـا تَـذَكَّـرُ مِـنْ نَـوَارَ وقَـدْ نَـأتْ   وتَـقَـطَّـعَـتْ أسْـبـابُـهـا ورِمَـامُـهـا؟

أي شيء تتذكر يا لبيد، يخاطب نفسه، من نوار وقد ابتعدت، وتقطعت أسبابها، أي حبالها، ورمامها، أي الحبال البالية، كناية عن انقطاع الصلات معها

مُـرِّيَّـةٌ حَـلَّـتْ بِـفَـيْـدَ، وجَـاوَرَتْ   أهلَ الِـحجازِ فأينَ مِنْكَ مَرامُـها

نوار من بني مرة، وقد نزلت في قرية فيد على طريق مكة، وجاورت الحجاز، فلا سبيل إلى مرامها، مطلبها والحصول على وصلها

أوَلَـمْ تَـكُـنْ تَـدري نَـوَارُ بِـأنَّـنـي   وَصَّـالُ عَـقْـدِ حَـبـائِـلٍ جَـذَّامُـهـا؟

ألا تدري نوار أنني أصل من أعاهده، وأنني جذام، أي قاطع، هذه الصلات إذا استحق الآخر أن أنصرف عنه؟

تَـرَّاكُ أمْـكِـنَـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا   أو يَعْتَلِقْ بعضَ النُّفُوسِ حِمَامُها

أنا أترك المكان الذي لا يرضيني، لا يمنعني من ذلك إلا أن يتعلق بجسمي الموت

وجَـزُورِ أيْـسَـارٍ دَعَـوْتُ لِـحَـتْـفِـهـا   بِـمَـغَـالِـقٍ مُـتَـشَـابِـهٍ أجْـسَـامُـهـا

رب جزور أيسار، أي ناقة أُعدت للمقامرة على لحمها، جئت بها للذبح، حيث سنقامر عليها بمغالق، أي سهام متشابهة، لا يعرف المقامرون ما الذي كتب على كل سهم. وسنرمي السهام وسيفوز كل مقامر بحصة كبيرة أو صغيرة

أَدْعُـو بِـهِـنَّ لِـعَـاقِـرٍ أو مُـطْـفِـلٍ   بُـذِلَـتْ لِـجِـيرانِ الـشِّـتَـاءِ لِـحَـامُـهـا

وإنما أحضر هذه السهام لكي نذبح في المحصلة ناقة عاقراً، أو ناقة مطفلة لها ولد. وسيتم توزيع اللحم في النهاية على الفقراء المجاورين لنا في الشتاء حيث يشتد البرد ويقل العشب والحليب في ضروع النياق، وجيران الشتاء جائعون

فَالضَّيْفُ والجَارُ الجَنِيبُ كأنَّمَا هَبَطا تَبالَةَ مُخْصِباً أَهْضامُها

فالضيف النازل بنا والجار المقيم قريباً منا وهو غريب عن قبيلتنا، يشعران لسخائنا كأنما نزلا بمنطقة «تبالة» الخصبة أهضامها، أي سهولها ذات النخل

فاقْنَعْ بِما قَسَمَ المَلِيكُ، فإنَّما قَسَمَ الخَلائِقَ بَيْنَنا عَلَّامُها

فارض بما قسم لك الله، فهو يعلم كيف يقسم الرزق

وإذا الأَمَانَةُ قُسِّمَتْ في مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَّامُها

إذا قسمت «الأمانة» في معشر من الناس فنحن ننال النصيب الأوفر من هذا الخلق الكريم

فَبَنَى لنا بيتاً رفيعاً سَمْكُهُ فَسَمَا إليهِ كَهْلُهَا وغُلامُها

بنى الله لنا بيتاً من العز والشرف عاليَ السمك، أي السقف، فالكهل والغلام في عشيرتنا يتطلعان إلى بلوغ ذروة الشرف

وهُمُ السُّعَاةُ إذا العشيرةُ أُفْظِعَتْ وهُمُ فَوارِسُها وهُمْ حُكَّامُها

شباننا وكهولنا يسعون للنجدة إذا حل بالعشيرة أمر فظيع،
وهم الفرسان وهم من يحتكم إليهم الناس

وهُمُ رَبِيعٌ لِلْمُجاوِرِ فيهِمُ والمُرْمِلاتِ إذا تَطَاوَلَ عَامُها

وهم بمثابة خصب وخير لمن يجاورهم، وللمرملات، أي الأرامل، اللائي مر على ترملهن زمن

٣ معلقة عَمْرِو بنِ كُلْثُومَ التَّغْلِبِيّ

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرِينا

استيقظي وقومي من نومك، وتقدمي بصحنك، أي بالقدح الكبير، لتصبحينا، تسقينا خمر الصباح، ولا توفري شيئاً من الخمور المستوردة من منطقة الأندرين

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماءُ خَالَطَها سَخِينا

اسقينا خمراً مشعشعة، مصفرَّة اللون، كأن فيها الحص، وهو الورس الذي يصبغون به للصفرة، وما إن يختلط بها الماء حتى نهتز نحن للكرم والسخاء

تَجُورُ بِذِي اللُّبَانَةِ عن هَواهُ إذا ما ذاقَها حتى يَلِينا

الخمر تجور وتنحرف بصاحب اللبانة، أي الحاجة، عن هواه، رغبته الأصلية، فيغير رأيه إذا ذاق الخمر ويلين

تَرى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إذا أُمِرَّتْ عليهِ لِمَالِهِ فيها مُهِينا

ترى اللحز، النزق السيء الخلق، والشحيح البخيل يهين ماله ويسخو إذا مرت الساقية عليه بالكأس

وكـأسٍ قـد شَـربـتُ بِـبَـعْـلَـبَـكٍّ وأُخـرى فـي دِمَـشْـقَ وقَـاصِـرِيـنـا

هذه أماكن يذكر أنه شرب فيها

وإنَّـا سـوفَ تـدركُـنـا الـمـنـايـا مُـقـدَّرَةً لـنـا ومُـقَـدَّرِيـنـا

فليشرب المرء فالموت سيدركه في النهاية، فالموت مقدر عليه وهو مقدَّر للموت

قِـفـي قـبـلَ الـتـفـرُّقِ يَـا ظَـعـيِـنـا نُـخَـبِّـرْكِ الـيـقـيـنَ وتُـخْـبِـرِيـنـا

قفي أيتها الظعين، المرأة الراكبة للرجيل، كي نخبرك بما ترك فينا خبر رحيلك من ألم، ولنسمع حديثك

ومَـأْكَـمَـةٍ يَـضـيـقُ الـبـابُ عـنـهـا وكَـشْـحٍ قـد جُـنِـنْـتُ بِـهِ جُـنـونـا

رُبَّ أردافٍ لهذه المرأة يضيق باب الخيمة عنها، ولها كشح، أي خصر، جننت به. ولعله جن للفرق بين الخصر النحيل والأرداف العريضة. والرجل جسمه غير ذلك فهو يلاحظ هذا في المرأة فيصيبه شيء شبيه بـ.. الـ.. جنون

فـمـا وَجَـدَتْ كَـوَجْـدي أُمُّ سَـقْـبٍ أَضَـلَّـتْـهُ فَـرَجَّـعَـتِ الـحَـنـيِـنـا

ما حزنتْ كحزني أم سقب، أي بعير صغير، أضاعته فأخذت تردد صوتاً حزيناً يسمونه «الحنين»

ولا شَـمْـطَـاءَ لـم يَـتْـرُكْ شَـقـاهـا لـهـا مِـنْ تِـسـعَـةٍ إلَّا جَـنـيـنـا

ولا حزنتْ كحزني امرأة شمطاء، اختلط بياض شعرها بسواده، لم يترك لها عيشها الشقي من أولادها التسعة أحداً إلا وهو جنين في الأرض، أي مخبوء مدفون فيها

أَبـا هِـنْـدٍ فـلا تَـعـجَـلْ عـلـيـنـا وأَنْـظِـرْنـا نُـخَـبِّـرْكَ الـيَـقـيـنـا

أيها الملك عمرو بن هند تريث، وأنظرنا، أمهلنا، حتى نعْلمك بالحقيقة..

بِـأنَّـا نُـورِدُ الـرَّايـاتِ بـيـضـاً ونُـصْـدِرُهُـنَّ حُـمْـراً قـد رَوِيـنـا

نأتي إلى المعركة بالرايات وهي بيض، ونصدرهن، أي نرجع بهن، وهن حمر من الدم

وأَيَّـــام لـــنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ عَـصَـيْـنـا الـمَـلْـكَ فـيـهـا أن نَـدِيـنـا

ورب أيامٍ لنا، وأيام العرب معاركها، طويلة وغراء، أي مشهورة، وفيها عصينا الملْك، أي الملِك، ولم ندن، أي لم نخضع

مـتـى نَـنْـقُـلْ إلـى قـوم رَحَـانـا يَـكـونُـوا فـي الـلِّـقـاءِ لـهـا طَـحِـيـنـا

إذا نقلنا رحانا، طاحوننا، إلى قوم فسوف يكونون الطحين عند اللقاء في المعركة

يَـكـونُ ثِـفَـالُـهـا شَـرْقِـيَّ نَـجْـدٍ ولَـهْـوَتُـهـا قُـضَـاعَـةَ أَجْـمَـعِـيـنـا

الثفال بساط من جلد يوضع تحت حجري الطاحون كي يتلقَّى الطحين. وطاحوننا ننقله إلى نجد مع الثفال، واللهوة، أي قبضة القمح التي تلقَى بين الرحوين، هي قبيلة قضاعة كلها

نُطَاعِنُ ما تَراخَى الناسُ عنَّا   ونَضْرِبُ بِالسيوفِ إذا غُشِينا

نطعن الأعداء بالرماح إذا تراخى الناس وابتعدوا، فإذا ما غشينا، أُحيط بنا، فنحن نضرب بالسيوف

كأنَّ سيوفَنا فينا وفيهِمْ   مَخارِيقٌ بِأَيدي لاعِبينا

سيوفنا وهي تنهشهم، وسيوفهم وهي تنهشنا، ماضية في التلاقي والضرب كأنها المخاريق، والمخاريق سيوف من خشب، فكأن ذلك اللقاء لعب، ولكنه في الواقع لقاء دموي

كأنَّ ثِيابَنا، منَّا ومنهُمْ،   خُضِبْنَ بِأُرْجُوانٍ أو طُلِينا

كأن ثيابنا مصبوغة بصبغ الأرجوان الأحمر أو مطلية به، وذلك من دمائنا ومن دمائهم هم. وصنفوا قصيدة عمرو بن كلثوم هذه ضمن ما سموه «المنْصِفات»، وهي قصائد أنصف أصحابها أعداءهم ونسبوا إليهم الشجاعة، وأقروا بأن الأعداء أبلوا بلاء حسناً

بِشُبَّانٍ يَرَوْنَ القتلَ مَجْداً   وشِيبٍ في الحروبِ مُجَرِّبِينا

نخوض هذا القتال بشبان يعتبرون الموت قتلاً ضرْباً من المجد، ونخوضه برجال وَخَط رؤوسهم الشيب وجربوا الحروب

ألَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا   فنجْهَلَ فوقَ جهلِ الجَاهلينا

الجهل: الغضب والتهور

بِأَيِّ مَشيئةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ   نَكونُ لِقَيْلِكُمْ فيها قَطِينا

من قال لك يا عمرو بن هند أننا قطين، خدم، لقيلكم، أي مَلِككم؟

بِأَيِّ مشيئةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ   تُطيعُ بِنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِينا

كيف لك أن تطيع الوشاة الذين أفسدوا بيننا، وتحتقرنا؟

تُهَدِّدُنا وتُوعِدُنا! رُوَيْداً   متى كُنَّا لِأُمِّكَ مُقْتَوِينا

متى كنا لأمك مقتوين، أي خدماً. وكانت أم عمرو بن هند هذا قد استضافت أم الشاعر، وطلبت منها أن تناولها شيئاً، فصرخت أم الشاعر لأنها رأت أن مضيفتها أرادت إهانتها

فإنَّ قَناتَنا يا عَمْرُو أَعْيَتْ   على الأعداءِ قبلَكَ أن تَلِينا

رمحنا أعجز الأعداء قبلك أن يلين لهم، كناية عن إرادة صلبة لا تلين

على آثارِنا بِيضٌ حِسَانٌ   نُحَاذِرُ أن تُقَسَّمَ أو تَهُونا

وراءنا نساء بيض جميلات لا نريد لهن الوقوع في الأسر فيقتسمهن الأعداء ويلحق بهن الهوان والذل، لذا فنحن نقاتل بشراسة

يَقُتْنَ جِيادَنا ويَقُلْنَ: لَسْتُمْ بُعُولَتَنا إذا لم تَمْنَعُونا

نساؤنا يطعمن الخيل، ويقلن لنا: لستم لنا بأزواج إذا لم تحمونا

إذا لم نَحْمِهِنَّ فلا بَقِينا لِشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ ولا حَيِينا

وقد عَلِمَ القبائلُ مِنْ مَعَدٍّ إذا قُبَبٌ بِأَبْطُحِها بُنِينا..

لقد علمت قبائل معد، وهي الشعب الكبير من عرب الشمال، عندما نصبنا الخيام في السهول..

بِأَنَّا المُطْعِمُونَ إذا قَدَرْنا وأَنَّا المُهْلِكُونَ إذا ابْتُلِينا

علمت قبائل معد بأننا نطعم الفقير إذا قدرنا، أي نصبنا القدور وطبخنا، ونهلك الأعداء الذين يبلوننا، أي يجربوننا ليعرفوا مواطن ضعفنا

وأَنَّا المَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنا وأَنَّا النازلونَ بِحيثُ شِينا

ونمنع المغيرين من ورود مائنا أو التعدي علينا، وننصب خيامنا في أي مكان شئنا لا نخاف أحداً

وأَنَّا التَّارِكونَ إذا سَخِطْنا وأنا الآخِذونَ إذا رَضِينا

ولا أحد يحبسنا في أرض، فنحن نرحل إذا سخطنا، ونأخذ ما نريد أخذه في حال الرضى

وأَنَّا العَاصِمُونَ إذا أُطِعْنَا وأَنَّا العَارِمُونَ إذا عُصِينا

إذا أطاعنا الناس نعصمهم، نحميهم، وإذا عصانا الناس فنحن عارمون أي أشداء

ونَشْرَبُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفْواً ويَشربُ غيرُنا كَدَراً وَطِينا

نحن، لقوتنا، أول من يشرب ويسقي إبله من الحوض فنشرب ماء صافياً، ونترك للآخرين الحوض وقد تكدر ماؤه، فيشربون الكدر والطين

لنا الدنيا ومَنْ أَمْسى عليها ونبطِشُ حينَ نبطِشُ قَادِرِينا

مَلأْنا البَرَّ حتى ضاقَ عنَّا وماءُ البحرِ نَمْلأُهُ سَفِينا

إذا بَلَغَ الرَّضِيعُ لنا فِطَاماً تَخِرُّ له الجَبَابِرُ سَاجِدِينا

٤ معلقة عَنْتَرَةَ بنِ شَدَّادٍ العَبْسِيّ

هل غَادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أم هل عَرفتَ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

هل ترك الشعراء شيئاً لم يقولوا فيه؟ وهل تركوا طللاً لم يصفوه؟ وهل أنت يا عنترة ـ يخاطب نفسه ـ قد عرفت ديارهم المقفرة بعد أن شككت فيها؟ وللشراح في «المتردم» أقوال لم نرتَضِها

يا دارَ عَبْلَةَ بِالجِواءِ تَكَلَّمي وعِمِي صَباحاً دارَ عَبْلَةَ واسْلَمي

يا دار عبلة بموضع «الجواء» تكلمي وأخبرينا عن أهلك ماذا فعلوا؟ وليكن صباحك طيباً أيتها الدار المقفرة

فـوَقَـفْـتُ فـيـهـا نـاقَـتـي وكـأنَّـهـا   فَـدَنٌ لأَقْـضِـيَ حَـاجَـةَ الـمُـتَـلَـوِّمِ

وقفت ناقتي، أي أوقفتها، عند الدار الخربة، فكأن الناقة فدن، أي قصر؛ لأنها بدت كبيرة ضخمة بالقياس إلى الديار الخربة المهدمة، وأردت أن أقضي حاجة في نفسي أنا المتلوم، أي الماكث بعد رحيلهم

حُـيِّـيـتَ مِـنْ طَـلَـلٍ تَـقَـادَمَ عـهـدُهُ   أَقْـوَى وأَقْـفَـرَ بـعـدَ أُمِّ الـهَـيْـثَـمِ

أقوى وأقفر: خلا. وأم الهيثم عبلة، وكانوا يكنُّون المرأة والرجل قبل الزواج، وربما حتى عند الميلاد، فيولد الطفل فيلصقون به اسماً وكنية في الوقت نفسه

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ   عَسِراً عَلَيَّ طِلَابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

نزلت عبلة ابنة مخرم بأرض الزائرين، أي وسط أهلها الذين يزأرون كالأسود، وتعسر على عنترة اللقاء بها

عُـلِّـقْـتُـهـا عَـرَضـاً، وأَقْـتُـلُ قَـومَـهـا   زَعْـمـاً لَـعَـمْـرُ أَبِـيـكَ لـيـس بِـمَـزْعَـمِ

أحببتها صدفةً، فهل يعقل أن أقتل قومها في حرب؟ ذلك زعم لا يكون

ولـقـد نـزلـتِ، فَـلَا تَـظُـنِّـي غَـيْـرَهُ،   مِـنِّـي بِـمَـنْـزِلَـةِ الـمُـحَـبِّ الـمُـكْـرَمِ

منزلك من قلبي هو منزل المحبوب المكرم، فلا تظني سوى ذلك

وكـأنَّ فـارةَ تـاجـرٍ بِـقَـسِـيـمَـةٍ   سَبقتْ عَوارضَـهـا إليكَ مِنَ الفمِ

كأن فم عبلة في قسيمة، أي في ساعة متأخرة تتغير فيها رائحة أفواه الناس، كأنه فارة مسك عند تاجر عطار، ورائحتها تسبق عوارضها، أي أسنانها.. فهو قبل أن يقبلها يشم لفمها رائحة طيبة. وفارة المسك غشاء فيه مسك

أو رَوْضَـةً أُنُـفـاً تَـضَـمَّـنَ نَـبْـتَـهـا   غَـيْـثٌ قَـلـيـلُ الـدِّمْـنِ لـيـس بِـمُـعْـلَـمِ

وكأن رائحة فمها رائحة روضة أنف، بكر لم يدخلها راعٍ، وقد تعهد نباتَها مطر قليل الدمن، خال من الشوائب، وهذا المكان غير معلَم، غير معروف للناس

ولـقـد مـررتُ بـدارِ عـبـلـةَ بـعـدمـا   لـعـبَ الـربـيـعُ بـربْـعِـهـا الـمُـتَـوَسَّـمِ

مررت بدارها وقد غير موسم الربيع شكلها بالعشب الذي يتوسمه الناس ويطلبونه

وخَـلَا الـذُّبَـابُ بِـهـا فـلـيـس بِـبَـارِحٍ   غَـرِداً كَـفِـعْـلِ الـشَّـارِبِ الـمُـتَـرَنِّـمِ

وانفرد الذباب بهذه الديار لا يبرحها، والذباب يغرد بترنيم وزَنِينٍ مثلما يفعل السكران وهو يترنم بكلام غير مفهوم، ويسكت ثم يعود يترنم

هَـزِجَـاً يَـحُـكُّ ذِراعَـهُ بِـذِراعِـهِ   قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

يترنم الذباب وهو هزجٌ، أي مسرع، يحك ذراعه بذراعه، مثلما قد أكب رجل على زناد، عود قدْح النار، يحكه حكاً، والزناد أجذم، أي قصير، فيدا الرجل متقاربتان كيدي الذبابة وهما تحتكان. نرجح هذا الشرح على شرح الجاحظ في الحيوان، فقد جعل الجاحظ الأجذم صفة للرجل القادح، جعله مقطوع اليدين، وترنَّمَ الجاحظ بوصف عنترة للذباب، وزعم أنه بلغ فيه كل مبلغ حتى تحامت الشعراء هذا المعنى

إنْ تُغْدِفي دونِي القِناعَ فإنَّني   طَبٌّ بِأَخْذِ الفارسِ المُسْتَلْئِمِ

إن تستري نفسك بالقناع أي الخمار مني، فاعلمي أنني طبٌّ، حاذق، بأخذ الفارس المستلئم، اللابس الدرع، فلن يعجزني أمرك

أَثْني عَلَيَّ بِما عَلِمْتِ، فإنَّني   سَمْحٌ مُخَالَقَتي إذا لم أُظْلَمِ

امدحيني بما تعلمين حقاً، فأنا سمح الشمائل ما لم يلحق بي الظلم

فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ   مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ

فإن ظلمت فإن ظلمي باسل، مكشر عن أنيابه، ويذوق الظالم جرَّاءه عقاباً طعمه كالعلقم

ولقد شربتُ مِنَ المُدامَةِ بعدَما   رَكَدَ الهَواجِرُ بِالمَشُوفِ المُعْلَمِ

شربت الخمر بعد أن سكنت الهاجرة، الحر الشديد، ودفعت في الخمر المشوف المعلم، الدينار المجلوّ المنقوش

بِزُجَاجَةٍ صَفْراءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ   قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ في الشِّمَالِ مُفَدَّمِ

شربت بزجاجة، أي بكأس، صفراء ـ لعلها من النحاس الأصفر ـ ذات أسرَّة، أي خطوط، والكأس مقرونة بإبريق أزهر، أبيض، ولعله من فضة، وهو مفدم، مزود بقماشة عند فمه للتصفية. تفسير «في الشمال»: لعله أراد أن الإبريق موضوع في مجرى ريح الشمال، وكانوا يعرضون الخمر لريح الشمال الباردة كي تبرد، ولذا غدت الصفتان «مشمولة» و«شمول» اسمين من أسماء الخمر

فإذا شربتُ فإنَّني مُسْتَهْلِكٌ   مَالي، وعِرضيَ وَافِرٌ لم يُكْلَمِ

أستهلك مالي في الشراب، ويبقى عرضي وافراً لم يجرح لأنني لا أعربد في سكري

وإذا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عن نَدىً   وكما عَلِمْتِ شَمائِلي وتَكَرُّمي

وعند صحوي فإنّي كريم سخي، وهذه هي أخلاقي

هلَّا سألتِ الخيلَ يا ابْنَةَ مَالِكٍ   إن كنتِ جاهِلَةً بما لم تَعلَمي

اسألي الخيل وفرسانها عن بلائي في الحرب إن لم تكوني على علم بذلك

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّني   أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عند المَغْنَمِ

سيخبرك من شهد المعركة بأنني أدخل الحرب، ولكنني عفيف عند توزيع الغنائم

إنّـي عَـدَانِـيَ أن أَزُورَكِ فَـاعْـلَـمـي   ما قد عَلِمْتِ، وبَعْضُ مَا لم تَعْلَمي

منعني من زيارتك أمور تعلمينها، وأخرى لا تعلمينها

ومُـدَجَّـجٍ كَـرِهَ الـكُـمَـاةُ نِـزَالَـهُ   لا مُـمْعِـنٍ هَـرَبـاً ولا مُـسْـتَـسْـلِـمِ

ورب مدجج بالسلاح كره الكماة، الأبطال، نزاله،
وهو ليس بهارب ولا مستسلم بل مقبل على النزال

جَـادَتْ لـه كَـفِّـي بِـعَـاجِـلِ طَـعْـنَـةٍ   بِـمُـثَـقَّـفٍ صَـدْقِ الـكُـعُـوبِ مُـقَـوَّمِ

عاجلته بطعنة من رمح مثقف، مقوَّم، صدق، أي صلب، الكعوب،
والكعب هو العقدة في أنبوب الرمح

فَـشَـكَـكْـتُ بِـالـرُّمْـحِ الأَصَـمِّ ثِـيـابَـهُ   لـيـس الـكـريـمُ على الـقَـنـا بِـمُـحَـرَّمِ

شككته بالرمح المُصْمَت، ولا بأس على الرجل الكريم أن يُقتل في المعركة بالقنا، أي الرماح

فَـتَـرَكْـتُـهُ جَـزَرَ الـسِّـبَـاعِ يَـنُـشْـنَـهُ   يَـقْـضِـمْـنَ حُـسْـنَ بَـنَـانِـهِ والـمِـعْـصَـمِ

تركته جزر السباع، أي ذبيحة تفترسها الوحوش وتتناوشها من هنا وهنا، وتقضم الوحوش تلك
الأنامل وذلك المعصم الحسن ممن كان فارساً شجاعاً

لَـمَّـا رَآنـيَ قـد نَـزلْـتُ أُريـدُهُ   أَبْـدَى نَـوَاجِـذَهُ لِـغَـيْـرِ تَـبَـسُّـمِ

عندما رآني نزلت وتوجهت نحوه أظهر نواجذه، أسنانه الخلفية، في تكشيرة فزع لا ابتسام

فَـطَـعَـنْـتُـهُ بِـالـرُّمْـحِ ثـم عَـلَـوْتُـهُ   بِـمـهـنَّـدٍ صَـافـي الـحَـديـدَةِ مِـخْـذَمِ

طعنته أولاً بالرمح ثم عندما وقع أرضاً أجهزت عليه بالسيف اللامع حديدُهُ والمخذم، أي القاطع

ولـقـد ذَكَـرْتُـكِ والـرمـاحُ نَـواهِـلٌ   مِنِّي، وبِيضُ الهندِ تقطُرُ مِنْ دَمي

ذكرتك يا عبلة والرماح تشرب من دمي، والسيوف الهندية أيضاً

فَـوَدِدْتُ تَـقـبـيـلَ الـسـيـوفِ لأَنَّـهـا   لَـمَـعَـتْ كـبـارِقِ ثَـغْـرِكِ الـمُـتَـبَـسِّـمِ

نُـبِّـئْـتُ عَـمْـراً غَـيْـرَ شَـاكِـرِ نِـعـمَـتـي   والـكُـفْـرُ مَـخْـبَـثَـةٌ لِـنَـفْـسِ الـمُـنْـعِـمِ

أُبلغت أن ذلك الرجل لا يشكر معروفي. وكُفْر النعمة، أي عدم الاعتراف بالفضل، يجعل نفس صانع المعروف تخبث، يدخلها الفساد والشك. ما أقسى أن تحسن إلى إنسان ثم ينسى فضلك تماماً، وقد يكيد لك جزاء معروفك.. كأنه يريد أن يثبت لنفسه أن ما ناله من خير لم يكن على يديك. عشنا وشفنا!

لَـمَّـا رأَيْـتُ الـقـومَ أَقـبـلَ جَـمْـعُـهُـمْ   يَـتَـذامَـرُونَ كَـرَرْتُ غـيـرَ مُـذَمَّـمِ

أقبل الأعداء يتذامرون، يحض بعضهم بعضاً على القتال، فهجمت عليهم فلا ذمَّ عليَّ

يَـدْعُـونَ: عَـنْـتَـرُ! والـرِّمَـاحُ كَـأَنَّـهـا   أَشْـطَـانُ بِـئْـرٍ فـي لَـبـانِ الأَدْهَـمِ

يناديني قومي يا عنتر، يريدون النصرة، ورماح الأعداء في لبان الأدهم، في صدر فرسي الأسود، كأنها حبال مدلاة في بئر

مـا زِلْـتُ أرمـيـهِـمْ بِـثُـغْـرَةِ نَـحْـرِهِ   ولَـبَـانِـهِ حـتَّـى تَـسَـرْبَـلَ بِـالـدَّمِ

ظللت أدفعُ نحو الأعداء ثغرةَ نحر فرسي، التجويف في أعلى صدره، حتى تجلل الفرس بالدم

فَـازْوَرَّ مِـنْ وَقْـعِ الـقَـنـا بِـلَـبَـانِـهِ   وشَـكَـا إِلَـيَّ بِـعَـبْـرَةٍ وتَـحَـمْـحُـمِ

فازور الفرس، مال، لشدة وقع الرماح بصدره، وشكا إلي حاله بدمعة وبصوت متقطع

لو كانَ يَدري ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى   ولَـكَـانَ لـو عَـرَفَ الـكـلامَ مُـكَـلِّـمي

لو عرف الكلام لكلمني

ولـقـد شَـفَـى نَـفْـسِـي وأَبْـرَأَ سُـقْـمَـهـا   قِـيـلُ الفَـوَارِسِ: وَيْـكَ عَـنْـتَـرُ أَقْـدِمِ

اشتفيت، وأذهب ما بنفسي من ألم النبذ والتعيير بالعبودية قولُ الفرسان لي: ويحك يا عنترة تقدم وقاتل

والـخـيـلُ تَـقْـتَـحِـمُ الـغُـبـارَ عَـوابِـسـاً   مِـنْ بـيـنِ شَـيْـظَـمَـةٍ وأَجْـرَدَ شَـيْـظَـمِ

كانت الخيل تدخل في غبار المعركة عابسة، وهي خيل طويلة ما بين حصان ذكر وفرس أنثى.
والشيظم من الخيل: الطويل، والأجرد: القصير الشعر

ولـقـد خَـشِـيـتُ بِـأَنْ أمـوتَ ولـم تَـدُرْ   لِـلْـحَـرْبِ دَائِـرَةٌ عـلـى ابْـنَـيْ ضَـمْـضَـمِ

خشيت أن أقتل قبل أن أقتل ابني ضمضم، وهما رجلان من بني مرة كان عنترة قتل أباهما فظلا يتوعدانه

الـشَّـاتِـمـي عِـرْضِـي ولـم أَشْـتُـمْـهُـمـا   والـنَّـاذِرَيْـنِ إذا لـم الـقَـهُـمَـا دَمِـي

فهما يشتمانني ولم أكن شتمتهما، ويقولان للناس ـ في غيبتي ـ إنهما قد نذرا دمي ويريدان قتلي

إنْ يُـقْـتَـلا فـلـقـد تَـرَكْـتُ أَبَـاهُـمـا   جَـزَرَ الـسِّـبَـاعِ وكُـلِّ نَـسْـرٍ قَـشْـعَـمِ

كنت قتلت أباهما من قبل وتركته ذبيحة للوحوش وللنسور الكبيرة

٥ معلقة الحارثِ بنِ حِلِّزَةَ اليَشْكُرِيِّ البكري

آذَنَـتْـنَـا بِـبَـيْـنِـهـا أَسْـمَـاءُ   رُبَّ ثَـاوٍ يُـمَـلُّ مِـنْـهُ الـثَّـوَاءُ

أخبرتنا أسماء بوشك رحيلها، ورب ثاوٍ مقيم نمل إقامته بيننا، ولا كذلك أسماء

بـعـدَ عـهـدٍ لـنَـا بِـبُـرْقَـةِ شَـمَّـا   ءَ فَـأَدْنَـى دِيَـارِهـا الـخَـلْـصَـاءُ

ذلك بعد أن كان بيننا عهد، أي لقاء، في موضع «برقة شماء»، وفي «الخلصاء» التي هي أقرب ديار قومها إلينا

لا أَرَى مَنْ عَهِدْتُ فيها فَأَبْكِي الـ ـيَوْمَ دَلْهاً، ومَا يَرُدُّ البُكَاءُ؟

لا أرى من عهدت رؤيتهم في هذه الأماكن لذا فأنا اليوم أبكي دلهاً، أي بلا فائدة؛ وما الذي سيرده عليَّ البكاء؟

وبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدَتْ هِنْدٌ النَّا رَ أخيراً تُلْوي بِها العَلْيَاءُ

رأيت بعينيك ـ يخاطب نفسه ـ نار هند وقد أوقدتها أخيراً، أي في آخر عهدك بها، وأخذت تُلوي، أي ترتفع، بالنار العلياء، تلك المنطقة. يقول: ارتفع موضع هند وظهر عندما أوقدتِ النار

فَتَنَوَّرْتَ نَارَها مِنْ بَعيدٍ بِخُزَازٍ، هيْهَاتَ مِنْكَ الصَّلَاءُ

وقد تنورت نارها، رأيتها متفحصاً مصدرها، وأنت بموضع «خزاز»، وهو بعيد جداً فهيهات أن تتمكن من الاستدفاء بتلك النار

غيرَ أنِّي قد أَسْتَعِينُ على الهَمِّـ إذا خَفَّ بِالثَّوِيِّ النَّجَاءُ..

أستعين على الهم، أي على تنفيذ مقاصدي، عندما يعين النجاء، أي الإسراع، الثوي، أي المقيم على التحرك..

بِزَفُوفٍ كَأَنَّها هِقْلَةٌ أُمُّـ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ..

أستعين على حوائجي بزفوف، ناقة خفيفة، كأنها هقلة أم رئال، نعامة ذات أولاد، دوية، أي برية وحشية، سقفاء، معوجة الساقين. يشبه ناقته بالنعامة في خفتها وسرعتها واعوجاج ساقيها..

آنَسَتْ نَبْأَةً، وأَفْزَعَها القَنَّـ ـاصُ عَصْراً، وقد دَنَا الإمْسَاءُ

هذه النعامة آنست نبأة، أحست بصوت خفي، وفزعت من قناص يترصدها عصراً وقد دنا المساء، لذا فالنعامة تفر مسرعة

وأَتَانَا مِنَ الحَوادِثِ والأَنْـ ـبَاءِ خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ ونُسَاءُ

جاءتنا أخبار سيئة..

أَنَّ إخْوانَنا الأَرَاقِمَ يَغْلُو نَ علينا، في قِيلِهِمْ إحْفَاءُ

هذه الأخبار أن «الأراقم»، وهم قوم من تغلب، يغلون علينا، يتجاوزون الحد في ظلمنا، وفي كلامهم إحفاء، أي مبالغة

يَخْلِطُونَ البَرِيءَ مِنَّا بِذِي الذَّنْـ ـبِ، ولا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الخَلَاءُ

ويحمّلون البريء ذنب المذنب، ولا ينتفع البريء ببراءته لأنهم يشملون الجميع بالاتهام

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

اتفقوا ليلاً على قتالنا، وعندما أصبحوا كانت لهم ضوضاء وضجة

مِنْ مُنَادٍ ومِنْ مُجيبٍ ومِنْ تَصْـ ـهَالِ خَيْلٍ خِلالَ ذَاكَ رُغَاءُ

فهذا ينادي وذاك يجيبه، والخيل تصهل، وفي وسط ذلك كله يُسمع رغاء الإبل، أي صوتها

أَيُّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّو هَا إِلَيْنَا تَمْشِي بِهَا الأَمْلاءُ

يخاطبهم: مهما تكن عندكم من خطة للتسوية فقدموها لنا بواسطة الأملاء، السعاة بالخير من الوسطاء

إِنْ نَبَشْتُمْ ما بينَ مِلْحَةَ فَالصَّا قِبِ فِيهِ الأمواتُ والأحياءُ

إن نبشتم عن الماضي وما كان بيننا فيه من قتل ومعارك بين موضعي ملحة والصاقب، فتجدون قتلى بعضهم أحياء ـ أي أخذ بثأرهم فكأن هذا أعادهم إلى الحياة ـ وبعضهم أموات لم يؤخذ بثأرهم بعد

أو نَقَشْتُمْ، فالنَّقْشُ يُجْشِمُهُ النا سُ، وفيهِ الصَّلاحُ والإِبْرَاءُ

وإن نقشتم، أي تتبعتم الحالات واحدة واحدة مثلما يتتبع الناقش بالمنقاش، أي الملقط، الشعرات واحدة واحدة فيزيلها، فالتتبع يجشمه الناس، أي يعانون منه، وفيه كشف للحقائق.. ويتبين منه أنكم كنتم المعتدين

أو سَكَتُّمْ عنَّا فَكُنَّا كَمَنْ أَغْـ ـمَضَ عَيْناً في جَفْنِهَا أَقْذَاءُ

وإن اخترتم السكوت فنحن نغمض أعيننا عن الأمر، ولكن كإغماض المرء عينيه على قذى فيهما، فلن ننسى اعتداءكم

لا يُقيمُ العزيزُ بِالبلدِ السَّهْـ ـلِ، ولا يَنْفَعُ الذَّليلَ النَّجَاءُ

لا يقيم القوي في السهل آمناً يرعى مواشيه، فلا بد له من التوعر ومواجهة الأعداء، ولا ينتفع الضعيف الذليل بالنجاء، الفرار

٦ معلقة عَبيدِ بنِ الأَبْرَص

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

أقفر موضع ملحوب وخلا من أهله، وكذا أقفرت «القُطَبِيَّات» والذنوب. معلقة عبيد مضطربة الوزن، كأنها النسخة الأولى من مخلع البسيط الذي سيكون له شأن في العصر العباسي. قال المعري: «وقد يخطئ الرأي امرؤ وهو حازم/كما اختل في وزن القريض عبيدُ»

وبُدِّلَتْ مِنْهُمُ وُحُوشاً وغَيَّرَتْ حالَهَا الخُطُوبُ

وسكنت الوحوش في هذه الأماكن بدلاً من أهلها الراحلين، وغيرت أحوالها الأحداث

تَصْبُو وأَنَّى لَكَ التَّصَابِي أَنَّى وقد رَاعَكَ المَشِيبُ

يخاطب نفسه: إنك لتميل إلى اللهو، وكيف لك هذا التصابي بعد أن هجم المشيب وأفزعك

فَكُلُّ ذي نِعْمَةٍ مَخْلُوسٌ   وكُلُّ ذي أَمَلٍ مَكْذُوبُ

كل صاحب مال مخلوس، أي مسلوب منه في النهاية، وكل صاحب أمل سيخيب أمله

وكُلُّ ذي إِبِلٍ مَوْرُوثٌ   وكُلُّ ذي سَلَبٍ مَسْلُوبُ

وصاحب الإبل يموت عنها فيرثها عقبه، وكل من سلب الناس شيئاً سيسلب منه ذلك الشيء

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ   وغَائِبُ الموتِ لا يَؤُوبُ

مَنْ يَسْأَلِ الناسَ يَحْرِمُوهُ   وسَائِلُ اللَّهِ لا يَخِيبُ

سَاعِدْ بِأَرْضٍ إن كنتَ فيها   ولا تَقُلْ إِنَّنِي غَرِيبُ

إن كنت مغترباً في غير قومك فساعد من تلتحق بهم، فالغربة ليست سبباً في القعود عن مد يد العون

قد يُوصَلُ النَّازِحُ النَّائي، وقد   يُقْطَعُ ذُو السُّهْمَةِ القَرِيبُ

فالغريب قد ينال من حسن عشرة الناس ما لا يناله صاحب السهمة، أي النصيب، القريب نسباً

والمَرْءُ ما عاشَ في تَكْذِيبٍ   طُولُ الحَياةِ لهُ تَعْذِيبُ

بقية المعلقات

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

(المعلقات الأربع الأخرى في أبواب: امرئ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى).

المفضليات

هذه أشعار جمعها المُفَضَّل الضَّبِّي للخليفة المهدي فسميت المُفَضَّليَّات، ثم زيد فيها أكثر من ضعفي حجمها، ثم لم نعد نعرف الذي اختاره المفضل من الذي ألحقه الناس بعده بمجموعته. لكن المجموعة وقعت إلينا في نسخ كثيرة فاعتنى بها أبو محمد القاسم الأنباري من القدماء، فشرحها شرحاً ضافياً، وحقق هذا الشرح «كارلوس يعقوب لايل» الإنجليزي من المحدثين، وطبعه في بيروت على نفقة «كلية أكسفُرد» ـ كما كتبها على الغلاف ـ في سنة وفاته ١٩٢٠ في نحو من ألف صفحة. ونشرت المفضليات في إنجلترا في «مطبعة جامعة أكسفورد» مترجمة إلى الإنجليزية ترجمة شعرية مرسلة، مع تعليقات ثمينة، في جزأين. ثم فهرسَ الطبعة الإنجليزية أنطوني بيفان بعد موت لايل بأربع سنين.

ونشر المفضليات بمصر حسن السندوبي، ثم نشرها أحمد شاكر وعبد السلام هارون مع شرح موجز.

المفضليات ٣٣٦ من القصائد الكاملة لمئة وخمسة وخمسين شاعراً كلهم من الجاهلية أو صدر الإسلام. وقد اخترت لك ما راقني، وما رأيته راق أهل الأدب عبر مئات السنين. فذوقي ذوقان: ذوق أصيل وذوق مستعار. أستمتع بالبيت أو بمجموعة الأبيات فأضع إزاءها إشارة بالقلم، وتمر بي أبيات طال ترددها في كتب القدماء وتناولوها نقداً أو إعجاباً فلا أضن بها عليك. وقد شرحت ما اخترت بأحسن ما أستطيع، وانتفعت بشرح شاكر وهارون.

١ ستندم

تأبّطَ شرّاً:

سَدِّدْ خِلالَكَ مِنْ مَالٍ تُجَمِّعُهُ ... حتى تُلاقِيَ الذي كلُّ امْرِئٍ لاقِ

خلالك: حاجاتك. قم بما عليك من واجبات ما دمت على قيد الحياة

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدمٍ   إذا تذكَّرْتَ يوماً بعضَ أخلاقي

قرع السن: كعض الإصبع في زمننا، دليل على الندم

٢ سيروا إلى الموت

بَشَامَةُ بنُ الغَدِيرِ: يحث قومة بني سَهْم بن مُرَّة على ألا ينقضوا حلفهم مع بني جُهَيْنة:

نَأَتْكَ «أُمَامَةُ» نَأْياً طَويلا   وحَمَّلَكَ النَّأْيُ عِبئاً ثَقيلا

ابتعدت أمامة عن وصلك مدة طويلة، وتحملتَ بسبب بعدها حزناً شديداً

وحُمِّلْتَ منها على نَأْيِها   خَيالاً يُوافي، ونَيْلاً قليلا

يأتيك خيالها في المنام، ولكنك لا تنال منها وصلاً حقيقياً

ونَظْرَةَ ذي شَجَنٍ وَامِقٍ   إذا ما الرَّكَائِبُ جَاوَزْنَ مِيلا

تنال منها نظرة صاحب شجن وامق، أي محب، وأنت في الركب مبتعداً عن خيام الحي. والميل قياس للمسافة كان معروفاً أيضاً في الزمن القديم والكلمة يونانية

أَتَتْنا تُسَائِلُ مَا بَثُّنا؟   فقلْنا لها: قد عَزَمْنا الرَّحيلا

تسألنا أمامة ما بثنا، خبرنا، فأخبرناها بعزمنا على الرحيل

وخُبِّرتُ قَومي، ولم أَلْقَهُمْ،   أَجَدُّوا على ذي شُوَيْسٍ حُلُولا

علمت أن قومي ـ ودون أن أقابلهم ـ قد أجدوا حلولاً، نزلوا مؤخراً، بموضع ذي شويس

فإمَّا هَلَكْتُ ولم آتِهِمْ   فَأَبْلِغْ أَمَاثِلَ سَهْمٍ رَسُولا . .

إن مت قبل أن آتي إليهم، فأبلغ أماثل، خيار، قبيلة سهم وكن رسولاً . .

بِأَنْ قَومُكُمْ خُيِّرُوا خَصْلَتَيْـ   ـنِ، كِلتَاهُما جَعَلُوها عُدُولا

أبلغهم بأن قومهم مخيرون بين خصلتين، خيارين، كلتاهما عدول، أي جائرتان عن الحق

فَخِزْيُ الحَياةِ وحَرْبُ الصَّدِيقِ   وكُلّاً أَرَاهُ طَعَاماً وَبِيلا

إحداهما التقاعس عن الحرب وفي هذا العار، والثانية محاربة الصديق، وكلتاهما كالطعام الفاسد

فإنْ لم يَكُنْ غَيْرُ إحْداهُما   فَسِيرُوا إلى الموتِ سَيْراً جميلا

فإن لم يتيسر خيار ثالث فعليكم بالحرب

ولا تَقْعُدُوا وبِكُمْ مُنَّةٌ   كَفَى بِالحَوادِثِ لِلمَرْءِ غُولا

ولا تتقاعسوا وبكم منه، أي قوة، فالمرء على كل حال غرض للموت بحوادث الزمن التي تغتاله

وحُـشُّـوا الـحُـروبَ إذا أُوقِـدَتْ   رِمَـاحـاً طِـوالاً وخَـيـلاً فُـحُـولا

حشوا، أي أوقدوا، الحروب برماح طويلة وخيول فحلة قوية

ومِـنْ نَـسْـجِ دَاوُدَ مَـوْضُـونَـةً   تَـرى لِـلـقَـواضِـبِ فيـهـا صَـلـيـلا

وبدروع كأنها من نسج النبي داود، المشهور بنسج الدروع، وهي موضونة، أي مضاعفة النسج، وللقواضب، أي السيوف، صليل ورنين على الدروع

٣ أرباب نخل

المَرّار بنُ مُنْقِذ:

فـإِنَّـكِ إنْ تَـرَيْ إِبِـلاً سِـوَانـا   ونُـصْـبِـحُ لا تَـرَيْـنَ لـنـا لَـبُـونـا..

إن رأيتِ لغيرنا الإبل، ولم تجدي عندنا لبوناً، أي بعيراً قد فُطم..

فـإنَّ لَـنـا حَـظَـائـرَ نَـاعِـمَـاتٍ   عَـطَـاءَ الـلَّـهِ رَبِّ الـعَـالَـمِـيـنـا

فلنا حظائر، نخلات، جيدات

طَـلَـبْـنَ الـبَـحْـرَ بِـالأَذْنَـابِ حتى   شَـرِبْـنَ جِـمَـامَـهُ حـتـى رَوِيـنـا

نخلاتنا طلبن الماء بأذنابهن، بجذورهن، وشربن الجمام، الماء الكثير، حتى ارتوين

كَـأنَّ فُـروعَـهـا فـي كُـلِّ ريـحٍ   جَـوارٍ بِـالـذَّوَائِـبِ يَـنْـتَـصِـيـنـا

كأن فروع النخل عندما تحركها الريح جوارٍ، أي فتيات، ينتصين، أي يتجاذبن، بالذوائب، بخصلات الشعر

بَـنـاتُ الـدهـرِ لا يَـحْـفِـلْـنَ مَـحْـلاً   إذا لـم تَـبْـقَ سَـائِـمَـةٌ بَـقِـيـنـا

النخلات بنات الدهر، يعشن طويلاً، ولا يهمهنَّ القحط.. وعندما تفنى السوائم، الإبل التي ترعى، بجفاف العشب تبقى النخلات

إذا كـانَ الـسِّـنُـونَ مُـجَـلِّـحَـاتٍ   خَـرَجْـنَ ومَـا عَـجِـفْـنَ مِـنَ الـسِّـنِـيـنـا

إن كانت المواسم مجلِّحة، مجدبة، فالنخلات تخرج من زمن الجفاف دون أن تعجف، تهزل

فَـتـلْـكَ لـنـا غِـنَـىً والأَجْـرُ بَـاقٍ   فَـغُـضِّـي بَـعضَ لَـومِـكِ يـا ظَـعِـيـنـا

هذه هي مالنا، ونطعم منها الضيف ونكسب الأجر، فكفي عنا بعض اللوم يا ظعين، يا امرأة

٤ تبليع الغيظ

المَرّارُ بنُ مُنْقِذ:

عَـجَـبٌ خَـوْلَـةُ إذْ تُـنْـكِـرُنـي   أم رَأَتْ خَـولَـةُ شَـيْـخـاً قـد كَـبِـرْ؟

وكَسَاهُ الدهرُ سِبًّاً نَاصِعاً وتَحَنَّى الظَّهْرُ منهُ فَأُطِرْ

سباً ناصعاً: ثوباً أبيض هو الشيب، وأطر جسمه، أي تقوّس

ما أنا اليومَ على شيءٍ مَضى، يَا ابْنَةَ القَوْمِ تَوَلَّى، بِحَسِرْ

لست على شيء تولى وذهب بحسر، أي بنادم

كَمْ تَرى مِنْ شَانِئٍ يَحْسُدُني قد وَرَاهُ الغَيْظُ في صَدْرٍ وَغِرْ

كثيراً ما ترى شانئاً، مبغضاً، يحسدني، وقد وراه الغيظ، أي قد أفسد جوفه، فصدره وغر، مملوء غيظاً

وحَشَوْتُ الغَيْظَ في أَضْلاعِهِ فَهْوَ يَمْشي حَظَلَاناً كالنَّقِرْ

ملأته غيظاً فحتى مِشيته فيها حظلانٌ، أي عرج وميل، كأنه نقِر، أي قد التوى عِرق في ساقه

لم يَضِرْني، ولقدْ بَلَّغتُهُ قِطَعَ الغَيْظِ بِصَابٍ وصَبِرْ

لم يصبني بأذى مع أنني جعلته يبلع قطعاً من الغيظ كأنها قطع من نبات الصاب والصبر، وهما نباتان فيهما مرارة شديدة

هل عرفتَ الدارَ أم أَنْكَرْتَها بين تِبْرَاكٍ فَشَسَّيْ عَبَقُرّ؟

يخاطب نفسه: أعرفت دار الأحبة بين ذينك المكانين؟

جَرَّرَ السيلُ بها عُثْنُونَهُ وتَعَفَّتْها مَداليجُ بُكُرْ

السيل جر عثنونه، أوائل مياهه، فيها وتعفتها، أي محتها، مداليجُ بُكُر، رياح ليلية وأخرى صباحية

وتَرى منها رُسوماً قد عَفَتْ مثلَ خَطِّ اللَّامِ في وَحْيِ الزُّبُرْ

وترى رسوماً، بقايا، من الديار وقد عفت، امَّحت، فكأنها خط اللام، واللام هو الإنسان، المرقوم في الزبر، أي الكتب.. المعنى: أن الديار صارت ككتابة الإنسان على وجه الورقة، والكتابة في عين شخص أمي هي خربشات لا معنى لها متفرقة هنا وهناك

قد نَرى البيضَ بِها مثلَ الدُّمَى لم يَخُنْهُنَّ زَمانٌ مُقْشَعِرّ

كنا نرى البيض، الحِسان، بتلك الديار، وهن مثل الدمى جمالاً وزَواقاً، ولم يخنهن الزمان المقشعر، أي لم يقس عليهن الزمان الصعب لأنهن منعمات

يَتَلَهَّيْنَ بِنَوْمَاتِ الضُّحَى راجِحَاتِ الحِلْمِ والأُنْسِ خُفُرْ

ينمن حتى ترتفع شمس الضحى، وهن عاقلات وفيهن أنس، وهن خُفُر، أي خجولات

يَتَزَاوَرْنَ كَتَقْطَاءِ القَطَا وطَعِمْنَ العيشَ حُلْواً غيرَ مُرّ

يزرن بعضهن بعضاً فيمشين بين البيوت مشياً بطيئاً متمايلاً كمشي طيور القطا، وعيشهن هين هنيء

وهَـوى الـقَـلـبِ الـذي أعـجَـبَـهُ   صـورةٌ أحـسَـنُ مَـنْ لاثَ الأُزُرْ

المعنى الملموح: هوى القلب وما أعجبه صورة فتاة هي أجمل من لاث الأزر، أجمل من لف تنورة على خصره، أي أجمل الناس

راقَـهُ مـنـهـا بَـيـاضٌ نـاصِـعٌ   يُـؤْنِـقُ الـعَـيْـنَ وضَـافٍ مُـسْـبَـكِـرّ

بياضها ناصع يؤنق، أي يعجب، العين.. ويروقه منها شعر ضاف، طويل، مسبكر، مسترسل

تَـهْـلِـكُ الـمِـدْرَاةُ فـي أَفْـنَـائِـهِ   فـإذا مـا أَرْسَـلَـتْـهُ يَـنْـعَـفِـرْ

تختفي المدراة، أي المشط، في أفناء شعرها، أي خصلاته، فإذا أرسلت شعرها انعفر، وصل إلى الأرض

صَـلْـتَـةُ الـخَـدِّ طَـويـلٌ جـيِـدُهـا   نَـاهِـدُ الـثَّـدْيِ ولَـمَّـا يَـنْـكَـسِـرْ

خدها صلت، أملس، وعنقها طويل، وثديها ناهض لم ينكسر بعد.. في لقطة من المسلسل الكوميدي الإنجليزي «مفتوح طول النهار» ينظر الشاب إلى صدر زبونة الدكان الكهلة نظرة تحديق فتقول له: أيها الشاب، هذا ملموم بالصدار، ولو تركته لوصل إلى سرتي.. أو كما قالت

فَـهْـيَ هَـيْـفـاءُ هَـضـيِـمٌ كَـشْـحُـهـا   فَـخْـمَـةٌ حيـثُ يُـشَـدُّ الـمُـؤْتَـزَرْ

هي هيفاء، ضامرة البطن، هضيم كشحها، نحيل خصرها، ولكنها فخمة ممتلئة عند الردفين اللذين يشد عليهما الإزار

وإذا تَـمـشـي إلـى جَـاراتِـهـا   لـم تَـكَـدْ تـبـلُـغُ حتـى تَـنْـبَـهِـرْ

سمينة ولا تصل بيت الجارة إلا وقد كادت تنبهر، ينقطع نفسها

دَفَـعَـتْ رَبْـلَـتُـهـا رَبْـلَـتَـهـا   وتَـهـادَتْ مِـثْـلَ مَـيْـلِ الـمُـنْـقَـعِـرْ

تتماس فخذها بفخذها لسمنها، وتتهادى في مشيها كأنها تريد أن تسقط سقوط النخلة المنقعرة، الساقطة بعد قلعها

وَهْـيَ بَـدَّاءُ إذا مـا أَقـبَـلَـتْ   ضَـخْـمَـةُ الـجِـسْـمِ رَدَاحٌ هَـيْـدَكُـرْ

بداء: ممتلئة، وجسمها ضخم؛ و«رداح» و«هيدكر» كلتاهما بمعنى ضخمة

تَـطَـأُ الـخَـزَّ ولا تُـكْـرِمُـهُ   وتُـطـيِـلُ الـذَّيْـلَ مـنـهُ وتَـجُـرّ

لما هي فيه من نعمة فهي تدوس على الخز، الحرير، وثوبها طويل وتجره

وَهْـيَ لـو يُـعْـصَـرُ مِـنْ أَرْدَانِـهـا   عَـبَـقُ الـمِـسْـكِ لَـكـادَتْ تَـنْـعَـصِـرْ

الأردان: الأكمام

تَـرَكَـتـنـي لَـسـتُ بِـالـحَـيِّ، ولا مَـيِّـتٌ لاقَـى وَفَـاةً فَـقُـبِـرْ
تركتني مدلهاً لا أنا حي ولا ميت

يَـسْـأَلُ الـنـاسُ أَحُـمَّـى دَاؤُهُ، أم بـه كـان سُـلالٌ مُـسْـتَـسِـرّ
يسأل الناس: أمرضه الحمى، أم هو سل مستسر، خفي

وَهْـيَ دَائـي، وشِـفَـائـي عِـنـدَهـا مَـنَـعَـتْـهُ فَـهْـوَ مَـلْـوِيٌّ عَـسِـرْ
والمحبوبة دائي؛ وشفائي عندها ولكنه ملوي، ممنوع عني، وصعب

وَهْـيَ لـو يَـقْـتُـلُـهـا بـي إِخْـوَتـي أَدْرَكَ الـطَّـالِـبُ مـنـهُـمْ وظَـفِـرْ
لو قتلها إخوتي بي، أي مقابل قتلها إياي، لكان طالب الثأر قد أدرك ثأره.. إذ هي قاتلتي

مـا أنـا الـدهـرَ بِـنـاسٍ ذِكْـرَهـا مـا غَـدَتْ وَرْقَـاءُ تَـدعُـو سَـاقَ حُـرّ
لن أنساها ما دامت ورقاء، حمامة، تنادي ساق حر، ذكر الحمام.. أي لن أنساها أبداً

٥ الوصمة

المُزَرِّد أخو الشَّمَّاخ:

وجَاوَزْتُ رأسَ الأَرْبَعينَ فأَصبحتْ قَناتِيَ لا يُلْفَى لها الدهرَ عَادِلُ
بعد أن تجاوزت الأربعين أصبحت قناتي، أي رمحي، صلبة لا يستطيع أحد أن يعدلها، يثنيها.. أي أصبحتُ قاسياً لا ألين لمن يريد كسر إرادتي

زَعـيـمٌ، لِـمَـنْ قَـاذَفْـتُـه، بِـأَوَابِـدٍ يُغَنِّي بها السَّاري وتُحْدَى الرَّوَاحِلُ
أنا كفيل لمن أتبادل معه الهجاء بأوابد، بقصائد قاسية، يغني بكلامها الساري، السائر ليلاً، وتحدى بها الرواحل، تساق بالترنم بها الإبل

فَـمَـنْ أَرْمِـهِ مـنـهـا بِبيـتٍ يَـلُـحْ بِـهِ كَشَامَةِ وَجْهٍ، لـيس لـلشَّام غَاسِـلُ
من رميته ببيت هجاء من هذه القصائد فسوف يعلق بوجهه كالشامة، ولا يزيل الشام، الشامات، الغاسل وجهه

٦ المسبكرَّة

الشَّنْفَرَى الأَزْدِيّ:

ألا أمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ وما وَدَّعَـتْ جِيـرَانَـهـا إذْ تَـوَلَّـتِ
أم عمرو أزمعت، أي عزمت، فاستقلت، أي ركبت وارتحلت.. وما ودعت جيرانها حين تولت وذهبت

لقد أَعجَبَتْنِي لا سَقُوطاً قِنَاعُها إذا ما مَشَتْ، ولا بِذَاتِ تَلَفُّتِ

كانت تعجبني، لا يسقط قناعها عن وجهها، فهي حيية خجول،
ولا تتلفت يميناً ويساراً فعل النساء الخفيفات

فَدَقَّتْ وجَلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ فلَوْ جُنَّ إنسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

دقت، كانت دقيقة ونحيلة في خصرها، وجلت، كانت جليلة سمينة عند ردفيها، واسبكرت، كانت طويلة الجسم، وأكملت.. فلو أن المرأة تلتحق بالجن لشدة الحسن لفعلت.. وكثيراً ما وصفوا الحسناء بأنها جنّيّة

٧ قتل ناقة

عمرو بن الأَهْتَم المِنْقَرِيّ:

أَلَا طَرَقَتْ أسماءُ وَهْيَ طَرُوقُ وبَانَتْ، على أنَّ الخَيالَ يَشُوقُ

طرقت أسماء، أي زارتني ليلاً. ثم بانت، فارقتني، ولكن خيالها يثير شوق قلبي

ذَرِينِي فَإنَّ الشُّحَّ يا أُمَّ هَيْثَمٍ لِصَالِحِ أَخْلاقِ الرجالِ سَرُوقُ

يا أم هيثم دعيني من كلامك فالشح، البخل، يسرق محاسن الرجل وينتقص منها

ذَرِينِي وحُطِّي في هَوايَ فإنَّنِي على الحَسَبِ الزَّاكِي الرفيعِ شَفِيقُ

اتركيني وحطي في هواي، شاركيني في طباعي، فأنا شفيق، حريص، على الحسب الزاكي، على الشرف الرفيع

ومُسْتَنْبِحٍ بعدَ الهُدوءِ دَعَوْتُهُ وقد حانَ مِنْ نَجْمِ السماءِ خُفُوقُ

رب رجل مستنبح، ينبح كالكلب في الصحراء وهو تائه حتى تجاوبه الكلاب فيستدل بنباحها على مضارب القوم، كان ينبح بعد حلول الظلام، وقد بدأ نجم السماء، الثريا، بالخفوق.. متوارياً وراء الغيوم في جو شتائي، وقد دعوته ليكون ضيفي

يُعالِجُ عِرْنِيناً مِنَ اللَّيْلِ بَارِداً تَلُفُّ رِياحٌ ثَوبَهُ وبُرُوقُ

مضطرب يحاول تدبر عرنين الليل، أوله، والريح تلف ثوبه، ويلمع البرق فيبرزه، فكأنه يلفه أيضاً

أَضَفْتُ فَلَمْ أُفْحِشْ عليه، ولم أَقُلْ لِأَحْرِمَهُ: إنَّ المَكانَ مَضِيقُ

جعلته ضيفي، ولم أسئ معاملته بأسئلتي، ولم أتذرع بضيق المكان لحرمانه الضيافة

فقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا صَبُوحٌ رَاهِنٌ وصَدِيقُ

قدمت له الصبوح، لبناً يشربه في الصباح، وكنت له صديقاً

وقُمْتُ إلى البَرْكِ الهَواجِدِ فاتَّقَتْ مَقَاحِيدُ كُومٌ كَالمَجَادِلِ رُوقُ . .

وقمت إلى الجمال الباركة الجاثمة الهواجد، النائمة، فاحتمت هذه الجمال المقاحيد، الكبيرة الأسنمة، الكوم، الكبيرة، التي كأنها المجادل، القصور. . وهي روق. . تعجب الناظر. . هذه الجمال احتمت مني بـ. .

بِأَدْمَاءَ مِرْبَاعِ النِّتَاجِ كأَنَّها إذا عَرَضَتْ دونَ العِشارِ فَنِيقُ

احتمت الجمال خوف الذبح بناقة أدماء، بيضاء، مرباع النتاج، مما يلد وقت الربيع، وكأنها إذ مثلت أمام النياق العشار الحوامل، فنيق، فحل كبير لضخامتها

بِضَرْبَةِ سَاقٍ أو بِنَجْلاءَ ثَرَّةٍ لَها مِنْ أَمَامِ المَنْكِبَيْنِ فَتِيقُ

قمت لها بضربة ساق، أو بنجلاء ثرة، طعنة واسعة غزيرة الدم. . قد ضرب بسيفه ساق الناقة لكي تبرك ثم طعنها في عنقها بين كتفيها طعنة واسعة لها فتيق أي فتق واسع

وقَامَ إلَيْها الجَازِرانِ فَأَوْفَدا يُطِيرَانِ عنها الجِلْدَ وَهْيَ تَفُوقُ

ثم قام الجازران، القصابان، فأوفدا، أي صعدا فوقها، وأخذا يطيران الجلد عن جسم الناقة وهي تفوق، تجود بروحها. . منظر مرعب. .

فَجُرَّ إلَيْنا ضَرْعُها وسَنَامُها وأَزْهَرُ يَحْبُو لِلْقِيَامِ عَتِيقُ

وجُرَّ إلينا ضرع الناقة، ثديها، وسنامها، كما جيء لنا بجنين أزهر، أبيض كان في بطنها، وهو يحبو يحاول الوقوف، وهو عتيق، كريم أصيل

بَقِيرٌ جَلا بِالسَّيْفِ عنهُ غِشَاءَهُ أَخٌ بِإخَاءِ الصَّالِحِينَ رَفِيقُ

هذا الجنين بقير، أي بُقِر عنه بطن أمه، وقد جلا، أي سلخ، مشيمته عن جسمه بالسيف رجل صالح من رجالنا يحب الضيوف

فَباتَ لنا منها ولِلضَّيْفِ مَوْهِناً شِوَاءٌ سَمِينٌ زَاهِقٌ وغَبُوقُ

بات لنا من الناقة موهناً، ليلاً، شواء سمين، كثير الدهن، زاهق، دسم، وغبوق، شراب المساء. . يبدو أنهم حلبوها قبل ذبحها

وبَاتَ لهُ دونَ الصَّبَا وَهْيَ قَرَّةٌ لِحَافٌ ومَصْقُولُ الكِسَاءِ رَقِيقُ

بات للضيف لحاف يقيه ريح الصبا وهي قرة، باردة، وبات له كساء رقيق

وكلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالقِرَى ولِلْحَمْدِ بين الصَّالِحِيَن طَرِيقُ

الكريم يحمي نفسه من الذم بتقديم الطعام لضيفه

لَعَمْرُكَ ما ضَاقَتْ بلادٌ بِأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ

المشكلة ليست أن البلاد ضيقة فالخير كثير، لكن طباع الرجال هي الضيقة

٨ المناديل

عَبْدَة بن الطبيب:

لـمَّـا وَرَدْنَـا رَفـعْـنـا ظِـلَّ أَرْدِيَـةٍ   وفَـارَ بِـالـلَّـحْـمِ لِـلقَـومِ الـمَـراجِـيـلُ

عندما وردنا الماء ونزلنا بالمكان رفعنا الأردية، أي الثياب لكي نستظل بظلها، وفارت المراجيل، القدور، باللحم

وَرْداً وأَشْـقَـرَ لـم يُـنْـهِـئْـهُ طَـابِـخُـهُ،   مَـا غَـيَّـرَ الـغَـلْـيُ مِـنْـهُ فَـهْـوَ مَـأْكُـولُ

كان اللحم ورداً، أحمر غير ناضج، وأشقر، مبيضاً قد نضج بعض النضج، لكن الطابخ لم ينهئه بعد، لم يجعله يستوي، ولشدة الجوع كان القوم يتناولون أي قطعة لحم تغير لونها قليلاً فيأكلونها

ثُـمَّـتَ قُـمْـنَـا إلـى جُـرْدٍ مُـسَـوَّمَـةٍ   أَعْـرافُـهُـنَّ لِأَيْـدِيـنـا مَـنـادِيـلُ

قمنا بعد ذلك إلى خيول جرد، قصيرة الشعر، مسومة، معدة للحرب، وجعلنا من أعرافها، شعر رقابها، مناديل مسحنا بها أيدينا بعد الأكل

والـمَـرءُ سـاعٍ لِأَمـرٍ لـيـس يُـدرِكُـهُ   والـعـيـشُ شُـحٌّ وإِشـفـاقٌ وتَـأْمِـيـلُ

الإنسان يسعى ولا يدرك مبتغاه، لأنه كلما وصل عنَّ له هدف جديد، والحياة بخل وخوف وأمل

٩ النهاية معروفة

عَبْدَة بن الطبيب:

أَبَـنِـيَّ إِنِّـي قَـد كَـبِـرْتُ ورَابَـنـي   بَـصَـرِي، وفِـيَّ لِـمُـصْـلِـحٍ مُـسْـتَـمْـتَـعُ

يا أبنائي قد كبرت وشككت في سلامة بصري، ولكن فيَّ مستمتع، فائدة، لمن يريد إصلاح الحال، فعقلي وخبرتي معي

إنَّ الـكـبـيـرَ إذا عَـصـاهُ أَهـلُـهُ   ضَـاقَـتْ يَـداهُ بِـأَمْـرِهِ مـا يَـصْـنَـعُ

إنَّ الـذيـن تَـرَوْنَـهُـمْ إِخْـوَانَـكُـمْ   يَـشْـفِـي غَـلِيلَ صُـدورِهِـمْ أن تُـصْـرَعُـوا

من تظنون بهم الإخاء هم في الواقع أعداء يسرهم موتكم

ولـقـد عَـلِـمْـتُ بِـأَنَّ قَـصْـرِيَ حُـفْـرَةٌ   غَـبْـراءُ يَـحـمِـلُـنـي إلـيْـهـا شَـرْجَـعُ

قصري، أي قصاراي ومنتهى أمري، حفرة يحملني إليها شرجع، نعش

فَـبَـكَـى بَـنـاتـي شَـجْـوَهُـنَّ وزَوْجَـتـي   والأَقْـرَبـونَ إِلَـيَّ، ثـم تَـصَـدَّعُـوا

بكوا لفقدي، ثم تصدعوا، تفرقوا عن القبر

وتُـرِكْـتُ فـي غَـبـراءَ يُـكْـرَهُ وِرْدُهـا   تَـسـفـي عَـلَـيَّ الـريـحُ حـيـنَ أُوَدَّعُ

تركت في أرض غبراء لا يحب النزول فيها أحد، وتسفي الرياح عليَّ، تحمل التراب، بعد أن يودعني أهلي

١٠ حسرة الأسير

عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

أَلَا لَا تَلُوماني كَفَى اللَّومَ مَا بِيَا   وما لَكُمَا في اللَّوْمِ خيرٌ ولا لِيَا

لا تلوماني يا صاحبيَّ فالذي بي من الهم يكفيكم مؤونة اللوم، ولا خير لكما ولا لي في اللوم أصلاً

أَلَـمْ تَـعلَـمـا أنَّ الـمَـلامَـةَ نَـفْـعُـهـا   قليلٌ، ومَا لَوْمِي أخِي مِنْ شِمَالِيَا

ليس لومي أخي من شمالي، من طبعي

فَـيـا راكِـبـاً إمَّـا عَـرَضْـتَ فَـبَـلِّـغَـنْ   نَـدامَـايَ مِـنْ نَـجْـرانَ أَلَّا تَـلاقِـيـا

أيها الراكب إن عرضت، بلغت العروض وهو مكان، فبلغ أصحابي أهل نجران أنه لا لقاء بعد اليوم

أَبَـا كَـرَبٍ والأَيْـهَـمَـيْـنِ كِـلَـيْـهِـمـا   وقَيْساً بِأعلَى حَضْرَمَوْتَ اليَمانِيا

يعدد أصحابه

جزَى اللَّهُ قَومِي بِالكُلابِ مَلَامَةً   صَرِيـحَـهُـمُ والآخـريـنَ الـمَـوالِـيـا

يلوم قومه على ما حدث في وقعة الكلاب، الصريح منهم نسباً، والموالي، المتحالفين مع قومه

ولو شئتُ نَجَّتْنِي مِنَ الخيلِ نَهْدَةٌ   تَرى خَلْفَهَا الحُوَّ الجِيادَ تَوالِيا

لو شئت لفررت ونجوت على نهدة من الخيل، فرس عالية، تراها سابقة وخلفها الجياد الحو، التي يميل لونها للخضرة، تتوالى ولا تسبقها

ولـكِـنَّـنـي أَحْـمـي ذِمَـارَ أَبـيـكُـمُ   وكان الرِّمَاحُ يَختَطِفْنَ المُحَامِيا

لكنني ثبتُّ لكي أحمي ذمار أبيكم، شرف الأجداد، وكانت الرماح تختطف من يحامي عن الشرف

أَقُولُ وقد شَدُّوا لِساني بِنِسْعَةٍ:   أَمَـعْـشَـرَ تَـيْـمٍ أَطلِقُوا مِنْ لِسانِيا

أقول وقد شد الأعداء، عندما أسروني، لساني بنِسعة، بسير جلدي، يبدو أنهم كمموه، ولكنه رغم التكميم قال: يا معشر تيم أطلقوا لساني

فـإنْ تَـقْـتُـلُـونـي تَـقْـتُـلُـوا بِـيَ سَـيِّـداً   وإنْ تُـطْـلِـقُـونـي تَـحْـرُبُـونـي بِـمَـالِـيـا

إن تقتلوني تقتلوا بقتلكم إياي سيداً، وإن تطلقوني تحربوني بمالي، تسلبون سلاحي.. لعله يقصد أن قتلكم إياي سيؤدي إلى الثأر وسيقتل قومي منكم سيداً

أحَقّاً عِبادَ اللّهِ أنْ لَسْتُ سَامِعاً   نَشِيدَ الرِّعَاءِ المُعْزِبِينَ المَتَالِيا؟

أحقاً لن أسمع بعد اليوم صوت الرعاء، الرعاة، المعزبين المتالي، المبتعدين بالإبل المتالي، التي تتوالى في وضع أجنتها فبعضها قد ولد وبعضها لم يضع بعد؟

وتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عبْشَمِيَّةٌ   كأنْ لم تَرَى قَبْلِي أسِيراً يَمَانِيا

تضحك مني عجوز من أولئك القوم، عبد شمس، كأنها لم تر قبلي أسيراً يمانياً، ـ قيل بل ضحكت لأن الذي أسر الشاعر رجل أحمق ضعيف ـ

وظَلَّ نِساءُ الحَيِّ حَوْلِيَ رُكَّداً   يُرَاوِدْنَ مِنِّي ما تُرِيدُ نِسائِيا

نساء القوم يجلسن حولي، ويطلبن مني ما تطلبه نسائي

وقد عَلِمَتْ عِرسي مُلَيْكَةُ أَنَّنِي   أنا اللَّيْثُ مَعْدُوّاً عَلَيَّ وعَادِيَا

وزوجتي مليكة تعلم أنني أسَد في الحرب عندما أهاجَم وعندما أهاجِم

وقد كنتُ نَحَّارَ الجَزُورِ ومُعْمِلَ الـ   ـمَطِيِّ، وأَمْضي حيثُ لا حَيَّ مَاضِيَا

كنت أذبح الجزور، الجمل، وأركب الإبل وأسافر إلى أماكن لم يقصدها أحد قط.. كنت سخياً مغامراً

وأَنْحَرُ لِلشَّرْبِ الكرامِ مَطِيَّتي   وأَصْدَعُ بينَ القَيْنَتَيْنِ رِدَائِيا

أذبح للشرب، لشاربي الخمر، بعيري، وأشق بين القينتين المغنيتين ردائي من الطرب

وكنتُ إذا ما الخيلُ شَمَّصَهَا القَنا   لَبِيقاً بِتَصْرِيفِ القَناةِ بَنانِيَا

وكنت إذا شمَّصَتِ القنا الخيل، نفَّرت الرماح الخيل، لبيقاً، ماهر البنان بالطعن بالرمح

وعَادِيَةٍ سَوْمَ الجَرادِ وَزَعْتُها   بِكَفِّي وقد أَنْحَوْا إِلَيَّ العَوالِيا

وربَّ خيل مغيرة كثيرة مثل الجراد وزعتها، رددتها، برمح أحمله بكفي، وقد أمال المهاجمون نحوي العوالي، أي الرماح

كأَنِّيَ لم أَرْكَبْ جَواداً ولم أَقُلْ   لِخَيْلِيَ كُرِّي نَفِّسي عن رِجَالِيَا

وأنا الآن أسير فكأنني لم أركب حصاناً ولم أقل لصحبي وهم على خيولهم اهجموا ونفسوا عن الرجال، أبعِدوا الأعداء المحدقين برجالنا

ولم أَسْبَأِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أَقُلْ   لِأَيْسَارِ صِدْقٍ أَعْظِمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

وكأنني لم أسبأِ لم أشترِ، الزق الروي، قربة الخمر الممتلئة، ولم أقل لأيسار صدق، المقامرين على لحم ناقة، أججوا النار كي نشوي اللحم للفقراء

١١ أنا على ابن عمي

ذو الإصبع العَدواني:

يَا مَنْ لِقلبٍ شديدِ الهَمِّ محزونِ أَمسَى تَذَكَّرَ رَيَّا أُمَّ هَارونِ

يا من يعين قلب الحزين الذي تذكر ريًّا

أمسَى تَذَكَّرَها مِنْ بعدِما شَحَطَتْ والدهرُ ذو غِلْظَةٍ حيناً وذُو لِينِ

شحطت: نأت وابتعدت

تَرْمِي الوُشَاةَ فَلا تُخْطي مَقاتِلَهُمْ بِصَادِقٍ مِنْ صَفاءِ الوُدِّ مَكْنُونِ

ريًّا تصد الوشاة صداً وتصيب منهم المقتل بقطع وشاياتهم بمحبتها الصافية وودها العميق لي

ولِي ابْنُ عَمٍّ على ما كان مِنْ خُلُقٍ مُختَلِفَانِ، فَأَقْلِيهِ ويَقْلِينِي

ابن عمي له طباع تختلف عن طباعي، فأكرهه ويكرهني

أَزْرَى بِنا أَنَّنا شَالَتْ نَعامَتُنا فَخَالَنِي دونَه بل خِلْتُهُ دُونِي

أزرى بنا، أضر بحالنا، أننا شالت نعامتنا، أي تفرقْنا،
فكل واحد منا ظن أن الآخر أدنى منه مرتبة

لَاهِ ابْنُ عَمِّكَ، لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ عنِّي، ولا أنتَ دَيَّاني فَتَخْزُوني

لله ابن عمك هذا! لا أنت خير في الحسب والشرف، ولا أنت دياني، مالك أمري، حتى تخزوني، أي تؤنبني وتردني إلى الصواب إذا أسأتُ

فإنْ تُرِدْ عَرَضَ الدنيا بِمَنْقَصَتِي فإنَّ ذلكَ مِمَّا ليس يُشْجِينِي

إن سعيت لنيل السمعة بين الناس بأن تنتقص مني فهذا ليس يهمني

لولا أَوَاصِرُ قُرْبى لَسْتَ تَحْفَظُها ورَهْبَةُ اللَّهِ فيمَنْ لا يُعَادِيني..

لولا علاقات القرابة، التي لا تحفظها أنت، ولولا خوفي من الله في رجل يكرهني ولكن كرهه لا يصل حد العداء..

إذَنْ بَرَيْتُكَ بَرْياً لا انْجِبَارَ له إنِّي رأيتُكَ لا تَنْفَكُّ تَبْرِينِي

لولا ذلك لبريتك برياً، أنحلت جسمك بما أنزله بك من العقاب، ولن يكون لهذا انجبار، أي علاج والتئام

إن الذي يَقْبِضُ الدنيا ويَبْسُطُها إنْ كان أغناكَ عَنِّي سوفَ يُغْنِيني

الله يغنيني عنك مثلما أغناك عني

مـــاذا عَـــلَـــيَّ وإن كُـــنْـــتُـــمْ ذَوِي لَأَ أُحِـــبَّـــكُـــمُ إذْ لـــم تُـــحِـــبُّـــونـــي
لـو تَشـرَبونَ دَمـي لـم يَرْوَ شَارِبُكُمْ ولا دِمَـاؤُكُـمُ جَـمْـعـاً تُـرَوِّيـنِـي
يا عَمْرُو إِلَّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتي أَضْرِبْكَ حتى تَقولَ الهامَةُ اسْقُوني

إن لم تدع شتمي وانتقاصي فسوف اضربك حتى الموت.. وحتى تخرج من قبرك الهامة، وهي ذلك الكائن الخرافي الذي يخرج من قبر القتيل ويصيح «اسقوني» طالباً الثأر

لا يُخْرِجَ القَسْرُ مِنِّي غيرَ مَأْبِيةٍ ولا أَلِينُ لِمَنْ لا يَبْتغي لِيني

القسر، أي الإرغام، لا نتيجة له معي سوى الإباء والرفض، ولا يلين جانبي لمن يخاشنني ولا يبذل جهده لمسايرتي

كُلُّ امْرِئٍ صَائِرٌ يوماً لِشِيمَتِهِ وإن تَخَلَّقَ أخلاقاً إلى حينِ

الشيمة: الطبع

واللَّهِ لو كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحَبَتي لَقُلْتُ إذ كَرِهَتْ قُرْبِي لَها بِيني

بيني: فارقي

١٢ لائكات الشكيم

ربيعة بن مقروم:

وثَـغْـرٍ مَـخُـوفٍ أَقَـمْـنـا بِـهِ يَـهَـابُ بِـهِ غـيـرُنـا أن يُـقـيـمـا

رب ثغر حدودي خطر رابطْنا به، ويخاف غيرنا ذلك

جَـعلْـنـا الـسـيـوفَ بِـهِ والـرِّمَـاحَ مَـعَـاقِـلَـنـا والـحَـديـدَ الـنَّـظِـيـمـا

معاقلنا، أي حصوننا، هي السيوف والرماح والحديد النظيم، أي الدروع المنظومة والمنسوجة من حلقات الحديد

وجُـرْداً يُـقَـرَّبْـنَ دونَ الـعِـيـالِ خِـلالَ الـبـيـوتِ يَـلُـكْـنَ الـشَّـكِـيـمـا

والجرد، الخيل القصيرة الشعر، التي نربطها قريباً منا، أقرب من عيالنا، حتى نكون على أهبة الاستعداد، وهي تقف بين بيوتنا تلوك الشكيم، تمضغ الحديدة التي في فم الفرس

١٣ الحكمة بين الشيب والصلع

سُوَيْدُ بنُ أبي كَاهِلِ اليَشْكُرِيّ، جاهلي إسلامي معمَّر:

بَـسَـطَـتْ «رَابِـعَـةُ» الـحَـبـلَ لـنـا فـوَصَـلْـنـا الـحبلَ مـنـهـا مـا اتَّـسَـعْ

مدت لنا رابعة حبل وصلها، فبادلناها وصلاً بوصل

حُـرَّةٌ تَـجْـلُـو شَـتـيِـتَـاً واضِـحـاً   كَشُعَاعِ الشمسِ في الغَيْمِ سَطَعْ

امرأة حرة تجلو، أي تُبرز، أسناناً شتيتة متفرقة واضحة، أي بيضاء، وأسنانها تبرق كشعاع الشمس وسط الغيوم

صَـقَـلَـتْـهُ بِـقَـضِـيـبٍ نَـاضِـرٍ   مِـنْ أَرَاكٍ طَـيِّـبٍ حـتـى نَـصَـعْ

صقلت أسنانها بعود سواك أخضر ناضر من شجر الأراك الطيب حتى نصعت أسنانها

رُبَّ مَـنْ أَنْـضَـجْـتُ غَـيْـظاً قَـلْـبَـهُ   قـد تَـمَـنَّـى لِـيَ مَـوْتـاً لـم يُـطَـعْ

رب شخص جعلت قلبه ينضج من حر الغيظ، وتمنى لي موتاً، ولكن أمنيته لم يُستَجَبْ لها

ويَـرانـي كـالـشَّـجَـا فـي حَـلْـقِـهِ   عَـسِـراً مَـخْـرَجُـهُ مـا يُـنْـتَـزَعْ

يراني كالشوكة في حلقه، انتزاعها وخروجها صعب

مُـزْبِـدٌ يَـخْـطِـرُ مَـا لـم يَـرَنـي   فـإذا أَسْـمَـعْـتُـهُ صَـوتـيِ انْـقَـمَـعْ

مزبد، يخرج الزبد من فمه كالبعير المتهيج، في غيبتي، فإذا سمع صوتي انقمع، وارتدع

بِـئْـسَـمَـا يَـجْـمَـعُ أَنْ يَـغْـتَـابَـنـي   مَـطْـعَـمٌ وَخْـمٌ وداءٌ يُـدَّرَعْ

بئس الذي يجمعه في قلبه إذ يغتابني، فهو يجمع الطعام الفاسد، والداء الذي يدرعه، يلبسه

ويُـحَـيِّـيِـنـي إذا لاقَـيْـتُـهُ   وإذا يَـخْـلُـو لـهُ لَـحْـمِـي رَتَـعْ

يحييني خوفاً مني، وإذا غبت عنه رتع في لحمي، أي اغتابني

كـيـف يَـرْجُـونَ سِـقَـاطِـي بَـعـدَمـا   لاحَ فـي الـرأسِ بَـيـاضٌ وصَـلَـعْ

كيف يترقب الناس سقاطي، وقوعي في الخطأ، وقد لاح في رأسي بياض الشيب، والصلع

١٤ رماح نصارى.. ولكن

جابر بن حُنَيٍّ التغلبي:

وفـي كـلِّ أَسْـواقِ الـعِـراقِ إِتَـاوَةٌ   وفي كلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

في كل أسواق العراق إتاوة، أي ضريبة، وفي كل عملية بيع هناك مكس درهم،
والمكس: الضريبة المفروضة على المبيعات

نُعَاطِي المُلُوكَ السِّلْمَ ما قَصَدُوا بِنا   ولـيـس عـلـيْـنـا قَـتْـلُـهُـمْ بِـمُـحَـرَّمِ

نأخذ ونعطي مع الملوك بالحسنى ما داموا يقصدون، يعدلون، بنا . .
وإلا فليس محرماً علينا قتلهم

وقـد زَعَـمَـتْ بَـهْـراءُ أنَّ رِمَـاحَـنـا رِمَاحُ نَصَارَى لا تَخُوضُ إلى الدَّمِ..

زعمت قبيلة بهراء أن رماحنا رماح نصارى، إذن فهي مسالمة، ولا تخوض في الدم (والشاعر تغلبي وتغلب قبيلة نصرانية بقي كثير من أبنائها على دينهم في العصر الأموي، وشاعرنا جاهلي)

فيَومَ الكُلابِ قد أَزالَـتْ رِماحُـنا شُرَحْبيلَ إذْ آلَى أَلِيَّةَ مُقْسِـمِ. .

يوم الكلاب، وقعة الكلاب المشهورة في الجاهلية، قتلت رماحنا شرحبيل الذي آلى ألية، أي أقسم قسماً..

لَـيَـنْـتَـزِعَـنْ أَرْمَـاحَـنَـا، فَـأَزَالَـهُ أبو حَنَشٍ عن ظهرِ شَقَّاءَ صِلْدِمِ

أقسم أن ينتزع رماحنا، فأزاله أبو حنش عن ظهر الفرس الشقاء، الطويلة، الصلدم، الصلبة

يَرى الناسُ مِنَّا جِلْدَ أَسْوَدَ سَالِخٍ وفَرْوَةَ ضِرغَامٍ مِنَ الأُسْدِ ضَيْغَمِ

يرى الناس إذ نبدو لهم جلد أسود، والأسود هو الثعبان، سالخ، الذي يبدل جلده، ويرون فروة ضرغام، لبدة أسد ضيغم، أي مفترس

١٥ لقاء مسعود

ربيعة بن مقروم:

لَمَّا تَشَكَّتْ إلَيَّ الأَيْنَ قلتُ لها لا تَستَريحِينَ ما لم أَلْقَ مَسْعُودا

عندما اشتكت ناقتي إليَّ الأين، أي التعب، قلت لها لا راحة إلا بعد أن أصِلَ إلى مسعود

وقد سَمِعْتُ بِقومٍ يُحْمَدُونَ فلم أَسْمَعْ بِمِثْلِكَ لا حِلْماً ولا جُودَا

سمعت بقوم لهم صيت حسن ويحمدهم الناس، ولم أسمع بمثل حلمك، سعة صدرك، ولا سخائك

هذا ثَنائي بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ لا زِلْتَ عَوْضُ قَريرَ العينِ مَحْسُودا

هذا مدحي إياك مقابل ما أعطيت من معروف، وأدعو لك أن تظل عوض، دوماً، قرير العين، مسروراً، ومحسوداً من قبل الأعداء

١٦ المصير المحتوم

الأَسْوَد بن يَعفَر النَّهْشَلي:

أيـن الـذيـن بَـنَـوْا فَطالَ بِنـاؤُهُـمْ وتَـمـتَّـعُـوا بـالأهـلِ والأولادِ

فـإذا الـنـعـيمُ، وكـلُّ مـا يُلْهَـى بِـهِ يـومـاً يَـصـيـرُ إلـى بِـلَـىً ونَـفَـادِ

البلى: اهتراء الجسم بعد الموت، النفاد: الانتهاء

١٧ المنعَّمات

المرقِّش الأكبر، من شعراء ربيعة، وهو جاهلي قديم:

سَرى لـيـلاً خـيـالٌ مِـنْ سُـلَـيْـمَـى ... فـأَرَّقَـنـي وأَصْـحَـابـي هُـجُـودُ

سرى، أي زار ليلاً، خيال المحبوبة سليمى، فصحوت وأصابني أرق بينما أصحابي هجود، نيام

فَـبِـتُّ أُدِيـرُ أَمـرِيَ كـلَّ حَـالٍ ... وأَرْقُـبُ أهـلَـهـا وهُـمُ بَـعِـيـدُ

بت، قضيت ليلي، أقلب أمري على وجوهه، وأرقب، أحسب حساب، أهلها وهم بعيدون عني

يَـرُحْـنَ مَـعـاً بِـطَـاءَ الـمَـشْـيِ بُـدّاً ... عـلـيْـهِـنَّ الـمَـجَـاسِـدُ والـبُـرُودُ

يصف أولئك النسوة، فهن يمشين معاً مشياً بطيئاً، فهن بنات نعمة وترف ولا يسرعن في عمل، وهن بدٌّ، أي بدينات الأسافل، ويرتدين المجاسد، الثياب المصبوغة، والبرود، أي الثياب

سَـكَـنَّ بِـبَـلْـدَةٍ وسَـكَـنْـتُ أُخـرى ... وقُـطِّـعَـتِ الـمَـواثِـقُ والـعُـهـودُ

تفرقت مساكننا ولم تبق عهود بين قومي وقومهن

فَـمـا بَـالـي أَفـي ويُـخَـانُ عَـهْـدي ... ومَـا بَـالـي أُصَـادُ ولا أَصـيـدُ

عندي الوفاء وألاقي خيانة لعهدي

ورُبَّ أَسـيـلَـةِ الـخَـدَّيْـنِ بِـكْـرٍ ... مُـنَـعَّـمَـةٍ لـهـا فَـرْعٌ وجـيـدُ

رب فتاة أسيلة الخدين، طويل خداها، لها فرع، شعر طويل، وعنق جميل

لَـهَـوْتُ بِـهـا زمـانـاً مِـنْ شَـبـابـي ... وزَارَتْـهـا الـنَّـجـائِـبُ والـقَـصـيـدُ

كانت لي صاحبة ولهونا معاً وزرتها بالنجائب، النياق، وبقصائد الغزل

أُنـاسٌ كُـلَّـمَـا أَخْـلَـقْـتُ وَصْـلاً ... عَـنـانِـيَ مِـنْـهُـمُ وَصْـلٌ جَـديـدُ

هؤلاء يتجدد شوقي لهن، فكلما أخلقت وصلاً، أي انقطعت العلاقة، صار يعنيني منهن وصل جديد

١٨ أسرعها وأكثرها

المرقِّش الأكبر:

هَـلَّا سَـأَلْـتِ بِـنـا فَـوارسَ وائـلٍ ... فَـلَـنَـحْـنُ أَسـرعُـهـا إلـى أعـدائِـهـا

أيتها المحبوبة اسألي عنا فرسان قبيلتنا الكبرى «وائل». . فنحن أسرعهم إلى مواجهة الأعداء

وَلَنَحْنُ أكثرُها إذا عُدَّ الحَصَى   ولَنا فَواضلُها ومجدُ لِوائِها

وعشيرتنا، ضمن القبيلة الكبرى، هي الأكثر عدداً، وكثيراً ما عبَّروا بالحصى عن العدد الكثير، ولنا الفضل والمجد الحربي

١٩ يا قصير العمر!

قال المرقِّش الأكبر، والقصيدة من السريع، وزاحَفَ ما شاء:

هلْ بِالدِّيَارِ أنْ تُجِيبَ صَمَمْ   لو كان رَسْمٌ نَاطِقاً كَلَّمْ

هل بالديار صمم فلذا هي لا تجيب عن سؤالنا إذ نسألها أين ذهب قوم المحبوبة؟ فعلاً بها صمم، فلو كان أي رسم، أي طلل، ناطقاً لكلَّمنا هذا الطلل

الدارُ قَفْرٌ، والرُّسُومُ كما   رَقَّشَ في ظهرِ الأديمِ قَلَمْ

دار الأحبة التي نقف بها الآن قفر، خالية، ورسومها، أي بقاياها، تشبه ما يرقشه، ينقشه، القلم على الأديم، الجلد. بهذا البيت لقبوه بالمرقِّش

ديارُ أَسماءَ التي تَبَلَتْ   قَلبي، فَعيْني مَاؤُها يَسْجُمْ

هذه ديار أسماء التي تبلت قلبي، أخضعته، فدمع عيني يسجُم، أي يسيل

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دَنَا   نِيرُ وأَطْرافُ البَنَانِ عَنَمْ

يصف محبوبته وصويحباتها: النشر، أي الرائحة، رائحة مسك، والوجوه مشرقة مدورة كالدنانير الذهبية، وأطراف الأصابع كالعنم، ثمر كالعُنَّاب، فإن لم تعرف العناب فهو ثمر كالعنم، وكلاهما ثمرته تشبه رؤوس الأصابع المحنَّاة بالحمرة

ليس على طُولِ الحَياةِ نَدَمْ   ومِنْ وَراءِ المَرءِ مَا يَعْلَمْ

الشطر الأول فيه معنى معكوس: لا ندم على عدم تمتعك بطول الحياة، والشطر الثاني كذلك: وراء المرء، يقصد أمامه، ما يعلمه من الهرم والضعف في الشيخوخة لو طال عمره. في يومنا هذا يقول أهل العراق «ورا ما قلت لي» بمعنى «بعد أن قلت لي»

يَهْلِكُ والدٌ ويَخْلُفُ مَوْ   لُودٌ، وكلُّ ذي أَبٍ يَيْتَمْ

في الشيخوخة يموت الأب ويخلفه ولده، وكل ولد يصاب باليُتم في أبيه

أَموالُنا نَقي النُّفُوسَ بِها   مِنْ كلِّ ما يُدْنَى إليهِ الذَّمّ

بِبذل الأموال نحمي نفوسنا من كل ما يجلب الذم

٢٠ الاهتزاز

متمِّم بن نُوَيْرة اليَربوعي، يرثي أخاه مالكاً الذي قتل في حروب الردة:

لَعَمْرِي، ومَا دَهري بِتَأْبِينِ هَالِكٍ ... ولا جَـزَعٍ مِـمَّـا أَصـابَ فَـأَوْجَـعَـا..

لعمري ـ وأنا لست ممن ينفق عمره في تأبين ميت، أو في معاناة الجزع من مصيبة أوجعتني..

لـقـد كَـفَّـنَ الـمِـنْـهَـالُ تـحـتَ رِدائِـهِ ... فتىً غيـرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا

لعمري، لقد كفن المنهال، ذلك الرجل الذي وجد أخي قتيلاً فألقى عليه ثوبه، فتىً لم يكن يملأ بطنه في الليل بل يجود بالطعام على حساب نفسه، وكان أروع، أي شجاعاً

تَـرَاهُ كَـصَـدْرِ الـسـيـفِ يَـهْـتَـزُّ لـلـنَّـدَى ... إذا لم تَجِدْ عند امْرِئِ السَّوْءِ مَطْمَعا

كان أخي يهتز للسخاء كما يهتز صدر السيف، في حين لا يلقى الضيف طعاماً عند الرجل السيء.. شرح الاهتزاز للندى: تجد الرجل البخيل إذا طلبت منه شيئاً يقعد مكانه جامداً، يفكر في تبرير لرفض طلبك. فأما الكريم السخي فإنك إذا طلبت منه أمراً رأيت لجسمه حركة فورية، إنه يفرح لأنك طلبت منه، ويهتز لطلبك.. تراه يحرك ذراعيه.. ويسرع في تلبية طلبك

وإنْ شَـهِـدَ الأَيْـسَـارَ لـم يُـلْـفَ مَـالِـكٌ ... على الفَرْثِ يَحْمِي اللَّحْمَ أن يَتَمَزَّعَا

وإن شهد مالك الأيسار، المقامرة على لحم ناقة، لم يلف، لم يُرَ، واقفاً يرقب الفرث، حشو الكرش، فهو لا يقف ولا يشهد ذلك المنظر المقزز، بغرض الحيلولة دون تمزيق اللحم وتفريقه في الفقراء

أَبَـى الـصـبـرَ آيـاتٌ أَرَاهـا، وأَنَّـنـي ... أَرَى كلَّ حَبْلٍ بعد حبلِكَ أَقْطَعَا

منع الصبر عني آيات أراها، معالم من مآثر أخي، ومنع الصبر أنني أرى كل الأواصر والروابط بعد موتك روابط مقطعة قصيرة لا تغني

وأَنِّي متى ما أَدْعُ بِاسْمِكَ لا تُجِبْ ... وكنتَ جَديراً أن تُجِيبَ وتَسْمَعا

ومنع الصبر أنني عندما أناديك لا تجيبني، وكنت تسمع فتجيب دائماً

فَـلَـمَّـا تَـفَـرَّقْـنـا كَـأَنِّـي ومَـالِـكـاً ... لِطُولِ اجتِماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

لما فرق بيننا الموت انتهى كل شيء، فكأننا لطول اجتماع، أي «بعد» طول صحبة، لم نبت ليلة واحدة معاً

وكُـنَّـا كَـنَـدْمَـانَـيْ جَـذِيـمَـةَ حِـقْـبَـةً ... مِنَ الدهرِ حتى قيلَ لن يَتَصَدَّعا

كنا كندماني جذيمة، كنديميْ الأمير جذيمة الأبرش اللذين نادماه طويلاً معاً ثم قتلهما معاً، كنا متلازمين حتى لقد وقع في وهمنا أن الدهر لن يتقطع بنا

فـإن تَـكُـنِ الأيـامُ فَـرَّقْـنَ بَـيْـنَـنـا ... فقد بَانَ مَحْمُوداً أخي حينَ وَدَّعَا

لئن فرقت بيننا الأيام فعزائي أن أخي بان، نأى، وهو محمود السيرة

فلو أنَّ ما أُلْقَى يُصيبُ «مُتَالِعاً» أو الرُّكْنَ مِنْ «سَلْمَى» إذَنْ لَتَضَعْضَعَا

لو أن ما ألاقيه من حزن يصيب جبل «متالع»، أو جانب جبل «سلمى» لتضعضع الجبل

٢١ حديث الناقة

المثقِّب العَبدي:

أَفَاطِمُ قبلَ بَيْنِكِ مَتِّعِيني ومَنْعُكِ ما سَأَلْتُ كأَنْ تَبِيني

متعيني بوصلك قبل مفارقتك إياي، ومنعك الوصل وأنت موجودة شبيه بالفراق

فَلا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِها رِياحُ الصَّيْفِ دُوني

لا تعديني وعوداً كاذبة كأنها رياح الصيف التي تهب ولا تحمل مطراً

فَإِنِّي لو تُخَالِفُني شِمَالي خِلافَكِ مَا وَصَلْتُ بِها يَمِيني

لو خالفتني شمالي مثلما تخالفينني أنت لما أبقيت عليها

إذَنْ لَقَطَعْتُها ولَقُلْتُ بِيني كَذَلكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِيني

لقطعتها، وقلت لها فارقيني، فأنا أجتوي من يجتويني، أكره من يكرهني

ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ وسَدَلْنَ أخرى وثَقَّبْنَ الوَصَاوِصَ لِلعُيونِ

يصف النساء: فقد ظهرن وراء كلة، أي ستر رقيق، وأنزلن على وجوههن ستراً آخر هو الوصاوص، أي البراقع، لكنهن ثقبن البراقع فبدت عيونهن. وقيل بهذا البيت لقب بالمثقِّب

أَرَيْنَ مَحاسِناً وكَنَنَّ أُخرى مِنَ الأَجْيادِ والبَشَرِ المَصُونِ

أبدين بعض مفاتنهن، وكنن مفاتن أخرى، أخفينها، مثل الأجياد، الأعناق، والبشر المصون، البشرة المستورة عن العيون

ومِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ على تَرِيبٍ كَلَوْنِ العَاجِ ليسَ بِذي غُضُونِ

وأخفين نحوراً لامعة كالذهب، والتريب هو الترائب أي أعلى الصدر، ولون نحورهن كلون العاج، والجلد ليست به غضون، تجاعيد

فَسَلِّ الهَمَّ عنكَ بِذَاتِ لَوْثٍ عُذَافِرَةٍ كَمِطْرَقَةِ القُيُونِ

أبعد عنك الهم بناقة ذات لوث، قوية، عذافرة، متينة، كأنها في القوة مطرقة القيون، الحدَّادين

تَقُولُ إذا دَرَأْتُ لَها وَضِيني أَهَذَا دِينُهُ أبداً ودِيني؟

تقول الناقة إذا درأت لها الوضين، شددت الحزام رابطاً الرحل عليها، تقول: أهذا دأبه ودأبي معه؟

أَكُـلَّ الـدهـرِ حِـلٌّ وارْتِـحَـالٌ   أَمَـا يُـبْـقِـي عَـلَـيَّ ومـا يَـقـيِـنـي؟
تقول الناقة: أأقضي العمر في حل ثم ارتحال؟ ألا يبقي على قوتي ولا يحميني من الهزال والتعب؟

فَـرُحْـتُ بِـهـا تُـعَـارِضُ مُـسْـبَـطِـرّاً   عـلـى صَـحْـصَـاحِـهِ وعـلـى الـمُـتُـونِ
رحت بالناقة، سافرت ليلاً، تقطع الطريق المسبطر، الممتد، وتسير على صحصاحه، سهله، وعلى المتون، على الوعر

إلـى عَـمْـرٍو، ومِـنْ عَـمْـرٍو أَتَـتْـنـي   أخـي النَّـجَـدَاتِ والـحِـلْـمِ الـرَّصِـيـنِ
قاصداً عمْرو بن هند الملك، ولعله تلقى دعوة أتته من عمرو! فالملك صاحب النجدة، النخوة، والحلم والوقار

فـإِمَّـا أنْ تـكـونَ أَخـي بِـحَـقٍّ   فَـأَعْـرِفَ منكَ غَـثِّـي مِـنْ سَـمِـيـنـي
إما أن تكون أخي فأعرف ما سأنال منك بوضوح

وإِلّا فَـاطَّـرِحْـنـي واتَّـخِـذْنـي   عَـدُوّاً أَتَّـقِـيـكَ وتَـتَّـقِـيـنـي
وإلا فاتركني، ولتكن بيننا عداوة صريحة، وليتجنب أحدنا الآخر

ومـا أَدري إذا يَـمَّـمْـتُ أَمْـراً   أُريـدُ الـخـيـرَ، أَيُّـهُـمـا يَـلـيـنـي:
إذا قصدت أمراً أريد الخير من ورائه لا أعلم ما الذي سيليني، سيصيبني:

أَأَلـخَـيْـرُ الـذي أنـا أَبْـتَـغِـيـهِ   أمِ الـشَّـرُّ الـذي هُـوَ يَـبْـتَـغِـيـنـي؟
أيصيبني الخير الذي أطلبه، أم الشر الذي يطلبني؟

٢٢ نعم ولا

المثقِّب العَبدي:

لا تَـقُـولَـنَّ إذا مَـا لـم تُـرِدْ   أنْ تُـتِـمَّ الـوَعْـدَ فـي شَـيءٍ «نَـعَـمْ»
لا تقل «نعم» إن كنت غير ناوٍ على الوفاء بالوعد

حَـسَـنٌ قـولُ «نَـعَـمْ» مِـنْ بـعـدِ «لا»   وقَـبِـيـحٌ قـولُ لا بـعـدَ نَـعَـمْ
فكلمة نعم طيبة الوقْع بعد لا، والعكس غير صحيح

إنَّ لا بـعـدَ نَـعَـمْ فَـاحِـشَـةٌ   فَـبِـلا فَـابْـدَأْ إذا خِـفْـتَ الـنَّـدَمْ
فـإذا قُـلْـتَ نَـعَـمْ فـاصْـبِـرْ لَـهـا   بِـنَـجـاحِ الـقـولِ، إنَّ الـخُـلْـفَ ذَمّ
إن قلت نعم فاصبر لها بأن تثابر على نجاح القول، والنجاح هو التحقيق، وخلف الوعد يأتيك بالذم

أُكْـرِمُ الـجَـارَ وأَرْعَـى حَـقَّـهُ   إنَّ عِـرفَـانَ الـفَـتَـى الـحَـقَّ كَـرَمْ
أَنَـا بَـيْـتـي مِـنْ مَـعَـدٍّ فـي الـذُّرَى   ولِـيَ الـهَـامَـةُ والـفَـرْعُ الأَشَـمّ

عشيرتي في قمم قبيلة معد الكبرى، ولي الهامة، الرأس، والفرع العالي، والفرع هو الرأس. وأصل «الفرع» الشعر

لا تَـرانـي رَاتِـعـاً فـي مَـجْـلِـسٍ   في لُحُومِ الناسِ كَالسَّبْعِ الضَّرِمْ

لا أرتع في لحوم الناس، لا أستغيب الناس في المجالس، كأنني السبع الضرم، النهم

إنَّ شَـرَّ الـنـاسِ مَـنْ يَـكْـشِـرُ لِـي   حـيـنَ يَـلـقَـانـي وإنْ غَـبِـتُ شَـتَـمْ

شر الناس من يكشر لي، يظهر أسنانه مبتسماً، في حضوري، فإن غبت عنه شتمني

وكَـلامٍ سَـيِّءٍ قَـدْ وُقِـرَتْ   أُذُنـي عـنـهُ ومَـا بـي مِـنْ صَـمَـمْ

رب كلام سيء قد وقرت، سُدَّت، أذني دونه مع أنني لست بأصمّ

ولَبَعْضُ الصَّفْحِ والإِعْراضِ عن   ذي الخَنَا أَبْقَى، وإنْ كان ظَلَمْ

بعض الصفح والإعراض عن ذي الخنا، صاحب الفحش والإساءة، أبقى للعلاقات حتى لو كان ظالماً وغير محق في شتمه. إن رأيت كثيراً من شعر الجاهليين يعالج أوضاعاً اجتماعية شبيهة بما كان يكون في البصرة والكوفة في العصر الأموي وأوائل العباسي، وإن صادفتك أبيات كهذه فيها حذلقة في تناول كلمتي «نعم» و«لا» فاعلم أن كثيراً من الشعر الذي يوصف بالجاهلي موضوع في عصور لاحقة. قد يجدون للمثقب العبدي ـ وهو جاهلي وصف بأنه أقدم من النابغة ـ بضعة أبيات فيلحقون بها أضعافها لكي تكتمل لهم «قصيدة» ينشدونها في المربد، وفي مجالس الأمراء

٢٣ إما ود وإما انتقاد

يزيد بن الخَذَّاق الشَّنِّي:

لَـن تَـجْـمَـعُـوا وُدِّي ومَـعْـتَـبَـتـي   أو يُـجْـمَـعَ الـسَّـيْـفَـانِ فـي غِـمْـدِ

مثلما لا يجتمع السيفان في غمد، أي قراب أو بيت، واحد فكذلك لا يجتمع ودي لكم وانتقادكم لي

نُـعْـمَـانُ إِنَّـكَ خـائـنٌ خَـدِعٌ   يُـخـفـي ضـمـيـرُكَ غـيـرَ مـا تُـبْـدي

أيها النعمان بن المنذر، أنت خائن لوعودك ومخادع، ويخفي قلبك غير ما تبدي، شأن كل الساسة!

فـإذا بَـدَا لَـكَ نَـحْـتُ أَثْـلَـتِـنـا   فَـعَـلَـيْـكَـهَـا إن كـنـتَ ذَا حَـرْدِ

إن بدا لك نحت أثلتنا ـ انتقاصنا والنيل منا، والأثلة نوع من الشجر ـ فلتفعل إن كنت ذا حرد، ذا قصدٍ إلى هذا الأمر

يَـــأْبَـــى لَـــنـــا أَنَّـــا ذَوُو أَنَـــفٍ　　وأُصُـولُـنـا مِـنْ مَـحْـتِـدِ الـمَـجْـدِ
يأبى لنا القبولَ بانتقاصك أننا ذوو أَنَفٍ، شامخون، وأصولنا من محتد المجد، والمحتد الأصل

إنْ تَـغْـزُ بِـالـخَـرْقَـاءِ أُسْـرَتَـنـا　　تَـلْـقَ الـكَـتـائِـبَ دُونَـنـا تَـرْدي
إذا غزوت بالخرقاء، لعلها كتيبة من كتائب النعمان، أسرتنا فستجد الكتائب تردي، تهرول، لحمايتنا

أَحَـسِـبْـتَـنَـا لَـحْـماً عـلـى وَضَـمٍ　　أم خِلْتَنا في البَأْسِ لا نُجْدي؟
أظننت أننا لحم على وضم، لحم على خشبة الجزار.. فاللحم على خشبة الجزار شيء ميت لا قدرة له بالمقارنة مع البعير الحي الذي يصول ويقاوم، أم ظننت أننا لا نجدي في البأس، لا قدرة لنا في الحرب؟

وهَـزَزْتَ سَـيْـفَـكَ كـي تُـحـارِبَـنـا　　فـانـظـرْ بِـسَـيـفِـكَ مَـنْ بِـهِ تُـرْدي
تردي: تقتل

٢٤ التجهيز

الممزَّق العبدي:

قد رَجَّلُوني ومَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ　　وأَلْبَسُوني ثِـيـابـاً غـيـرَ أَخْـلَاقِ
يصف تجهيزه للدفن: قد رجلوا شعري أي سرحوه.. ليس لأنه كان أشعث، بل لأمر أخطر.. وألبسوني ثياباً غير أخلاق، غير بالية

وأَرسَلُوا فِتْيَةً مِنْ خيرِهِمْ حَسَباً　　لِيُسْنِدُوا في ضريحِ التُّرْبِ أَطْباقي
وأرسلوا فتية كراماً ليسندوا أطباقي، مفاصلي، في القبر

هَـوِّنْ عـلـيْـكَ ولا تَـوْلَـعْ بِـإِشْـفَـاقِ　　فَـإِنَّـمَـا مَـالُـنـا لِـلْـوَارِثِ الـبَـاقـي
يهون الأمر على نفسه.. لا تولع بإشفاق، لا يلزمْك الخوف، فالموت حق والمال سيؤول للوارث

٢٥ إشباع الضباع

عبد المسيح بن عَسَلَة العبدي:

غَـدَوْنـا إِلَـيْـهِـمْ والـسـيـوفُ عِـصِـيُّـنـا　　بِأَيْمَانِنا، نَفْلِي بِهِنَّ الجَمَاجِمَا
ذهبنا إليهم حاملين السيوف بدل العصي، وبهذه السيوف نفلي، أي نضرب، الرؤوس

لَـعَـمْـرِي لَأَشْـبَـعْـنـا ضِـبَـاعَ عُـنَـيْـزَةٍ　　إلى الحوْلِ منها والنُّسُورَ القَشَاعِمَا
والله لقد شبعت الضباع في موضع عنيزة إلى الحول، أي لسنة كاملة، وشبعت النسور القشاعم، الكبيرة، من لحم الأعداء

وَمُـسْـتَـلَـبٍ مِـنْ دِرْعِـهِ وسِـلاحِـهِ   تَـرَكْـنـا علـيـهِ الذِّئْـبَ يَـنْـهَـسُ قَـائِـمـا

ورب محارِب قتلناه وسلبنا درعه وسلاحه، وتركناه والذئب قائم عليه ينهش لحمه نهشاً، والنهس أخت النهش (لا يشير المعجم الوسيط إلى تقارب الكلمتين، وما كان أحراه أن يقول ما قاله ابن دريد نقلاً عن الأصمعي، ووافقهما ابن فارس في المقاييس: النهس والنهش واحد)

٢٦ عَناجيج

قال عامر المُحارِبي:

وَيَـومٍ يَـوَدُّ الـمَـرْءُ لـو مـاتَ قـبـلَـهُ   رَبَطْـنـا لـه جَـأْشـاً وإن كـان مُـعْـظَـمـا

رب يومٍ، أي وقعة، يود المرء لو مات قبله لهوله، وقد كنا رابطي الجأش متماسكين، رغم أنه كان يوماً معظماً، شديداً

ويـومَ رُجَـيْـحٍ صَـبَّـحَـتْ جَـمْـعَ طَـيِّءٍ   عَـنـاجِـيـجُ يَـحْـمِـلْـنَ الـوَشـيـجَ الـمُـقَـوَّمـا

وفي وقعة رجيح هاجمت جمعَ قبيلة طيء في الصباح عناجيجُ، أي خيل طويلة الأعناق، وفرسانها يحملون الوشيج المقوم، أي الرماح المثقفة المستقيمة

٢٧ الحق والحقيق

معاوية بن مالك، مُعَوِّد الحكماء:

نُـعْـطِـي الـعَـشـيـرةَ حـقَّـهـا وحَـقِـيـقَـهـا   فـيـهـا، ونَـغْـفِـرُ ذنـبَـهـا ونَـسُـودُ

نعطي عشيرتنا حقوقها، ونغفر الذنب للمذنب ونسود قومنا. ولم أجد لـ «فيها» موقعاً

وإذا تُـحَـمِّـلُـنـا الـعـشـيـرةُ ثِـقْـلَـهـا   قُـمْـنـا بِـهِ، وإذا تَـعُـودُ نَـعُـودُ

٢٨ أعوِّد مثلها الحكماء

قال معاوية بن مالك، معوِّد الحكماء، وبالبيت الثالث هنا لقب بهذا اللقب:

أَجَـدَّ الـقـلـبُ مِـنْ سَـلْـمَـى اجْـتِـنَـابَـا   وأَقْـصَـرَ بـعـدَمـا شـابـتْ وشَـابـا

جدد القلب شعوراً مختلفاً هو اجتناب سلمى، وأقصر، أي كفَّ، بعدما شاب صاحب القلب وشابت سلمى

حَـمَـلْـتُ حَـمَـالَـةَ الـقُـرَشِـيِّ عـنـهُـمْ   ولا ظُـلْـمـاً أَرَدْتُ ولا اخْـتِـلابـا

حملت الحمالة، أي قمت بالدية، للقرشي، ولم أبغ ظلم الآخرين ولا اختلابهم، خداعهم

أُعَـوِّدُ مِـثْـلَـهـا الـحُـكَـمـاءَ بَـعْـدي   إذا مـا الـحـقُّ فـي الأَشْـيَـاعِ نَـابَـا

أصنع ذلك كي أعود الحكماء بعدي على أداء الحقوق بلا انتقاص إذا نابنا، أي حل بنا، مصاب يستدعي أداء الحقوق عن الأشياع، عن الحلفاء

وكنتُ إذا العَظيمَةُ أَفْظَعَتْهُمْ نَهَضْتُ ولا أَدِبُّ لها دِبَابَا

إذا دهمتهم عظيمة، أي مصيبة كبيرة، نهضت بها نهوضاً ولم أتلكأ كأنني أدب على الأرض وأحبو

إذا نَزَلَ السَّحابُ بِأَرضِ قومٍ رَعَيْناها وإن كانوا غِضَابا

نحن قوم أقوياء إذا نزل السحاب، أي المطر، بأرض قوم آخرين، رعينا ما أخرجه من عشب رغم أنوفهم

٢٩ فارس المزنوق

عامر بن الطُّفَيْل:

لقد عَلِمتْ عُلْيا هَوَازِنَ أَنَّني أنَا الفارسُ الحَامي حَقيقةَ جَعْفَرِ

قد علم هذا الفرع من هوازن أنني الفارس الذي يحمي حقيقة، أي شرف، قوم «جعفر بن كلاب»

وقد عَلِمَ «المَزْنُوقُ» أنِّي أَكُرُّهُ على جَمْعِهِمْ كَرَّ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

علم حصاني واسمه «المزنوق» أنني أهجم به على جمعهم مسرعاً مثل المنيح المشهر، السهم من سهام القمار وكانوا يرمونها رمياً

إذا ازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الرِّمَاحِ زَجَرْتُهُ وقلتُ لهُ: ارْجِعْ مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرِ

إذا ازورَّ الحصان، أي انحرف، من وقع الرماح زجرته ونهرته حتى يتقدم ولا يدبر هارباً

أَلَسْتَ تَرى أَرْمَاحَهُمْ فِيَّ شُرَّعاً وأنتَ حِصَانٌ ماجِدُ العِرْقِ فاصْبِرِ

وقلت للحصان: ألا ترى رماحهم شُرَّعاً فيَّ، مسدَّدة إليَّ، فعليك أن تصبر، وأنت حصان أصيل

٣٠ الاتِّئاد

عبد قيس بن خُفاف:

أَجُبَيْلُ إنَّ أباكَ كارِبُ يومِهِ فإذا دُعيتَ إلى العظائِمِ فاعْجَلِ

يخاطب ابنه جبيلاً: أبوك كاربُ يومه، مقترب من موته، فاعجل بتحصيل المجد

فالضَّيْفَ أَكْرِمْهُ فإنَّ مَبيتَهُ حقٌّ، ولا تَكُ لَعْنَةً لِلنُّزَّلِ

فأكرم الضيف، ولا تكن مذموماً ملعوناً ممن ينزلون بك

واعلمْ بِأَنَّ الضَّيفَ مُخْبِرُ أَهلِهِ بِمَبيتِ لَيلَتِهِ، وإن لم يُسْأَلِ

سيخبر الضيف أهله بما لقي من حفاوة أو سواها حتى وإن لم يسألوه

واتْرُكْ مَحَلَّ السَّوْءِ لا تَحْلُلْ بِهِ وإذا نَبا بِكَ مَنزِلٌ فَتَحَوَّلِ

لا تتلبَّث في موقف شائن، وإذا نبا بك منزل، انزعجت من مكان أقمت به، فتحول عنه

وإذا هَـمَـمْـتَ بِـأَمْـرِ شَـرٍّ فـاتَّـئِـدْ وإذا هَـمَـمْـتَ بِـأَمْـرِ خـيـرٍ فـافْـعَـلِ

إن هممت بشرٍّ فاتئد، تروَّ، وإذا هممت بخير فافعل فوراً

وإذا افْـتَـقَـرْتَ فـلا تـكـنْ مُـتَـخَـشِّـعَـاً تَـرجُـو الفَـواضِـلَ عـنـدَ غـيـرِ المُـفْـضِـلِ

لا تتذلل في حال فقرك راجياً المعروف ممن ليس أهلاً لبذل المعروف

واسْـتَـغْـنِ مـا أَغْـنـاكَ رَبُّـكَ بِـالـغِـنَـى وإذا تُـصِـبْـكَ خَـصَـاصَـةٌ فَـتَـجَـمَّـلِ

إن كنت غنياً فتمتع بالغنى، وإذا أصابتك خصاصة، أي ضيق ذات اليد، فتجمل، أي اصبر وأَخْفِ فقرك عن الناس

واسْـتَـأْنِ حِـلْـمَـكَ فـي أُمُـورِكَ كـلِّـهـا وإذا عَـزَمْـتَ عـلـى الـهـوى فـتـوَكَّـلِ

اطلب الأناة من حلمك، هدوء نفسك، في كل أمر، وإذا عزمت على الهوى، الأمر الذي تريده، فتوكل على الله (قال بعضهم إن الشاعر إسلامي)

وإذا تَـشَـاجَـرَ فـي فـؤادِكَ مَـرَّةً أَمْـرانِ فـاعْـمِـدْ لِـلأَعَـفِّ الأَجْـمَـلِ

إذا اختصم في صدرك أمران فاختر ما يكسبك عفة وحسن ذكر

٣١ الزيال الطويل

عبد قيس بن خُفاف:

صَـحَـوْتُ وزَايَـلَـنـي بَـاطِـلـي لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ زِيَـالاً طَـويـلا

صحوت من غفلة الشباب، وزايلني، أي فارقني، الباطل واللهو

وأَصْـبَـحْـتُ لا نَـزِقَـاً لِـلِّـحَـاءِ ولا لِـلُـحُـومِ صَـديـقـي أَكُـولا

أصبحت غير نزق، غير متسرع، للِّحاء، للجدال والخصومة، وغير آكل للحوم الأصدقاء، لا أغتابهم (البيتان من قطعة أطول. جد بقيتها فيما اخترناه من الحماسة تحت رقم ٧٣)

٣٢ ضرباً على أم رأسه

أوس بن غلفاء الهُجيمي التميمي، وهو جاهلي:

وإنَّـكَ مِـنْ هِـجـاءِ بَـنـي تـمـيـمٍ كَـمُـزْدَادِ الـغَـرامِ إلـى الـغَـرامِ

إذا هجوت بني تميم فأنت تزداد غراماً إلى غرام، أي شراً تغرمه بعد شر

هُـمُ مَـنُّـوا عـلـيـكَ فـلـم تُـثِـبْـهُـمْ فَـتِـيـلاً غـيـرَ شَـتْـمٍ أو خِـصَـامِ

لقد منوا عليك، أحسنوا إليك، فلم تكافئهم فتيلاً، بأقل القليل، اللهم إلا بالشتم والخصام

وهُـمْ تـرَكُـوكَ أَسْلَـحَ مِنْ حُبَـارَى   رَأَتْ صَـقْـراً وأَشْـرَدَ مِـنْ نَـعَـامِ

وهم أخافوك بعد أن شتمتهم فصرت أسلح من حبارى، أكثر سلحاً، أي تغوُّطاً، من حبارى، من الطيور، وقد رأت صقراً فخافت، وصرت أكثر شروداً وفراراً من النعامة

وهُـمْ ضَـرَبُـوكَ ذَاتَ الـرأسِ حـتـى   بَـدَتْ أمُّ الـدِّمَـاغِ مِـنَ الـعِـظَـامِ

ضربوك على رأسك فبدت أم دماغك، أي غشاء المخ، من بين عظام جمجمتك

٣٣ امرأة وناقة

علقمة بن عَبَدَة، الفحل:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ   بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ

طحا بك، ذهب بك، قلبك الطروب، المحزون.. والطرب تعني الفرح وتعني أيضاً الحزن، بسبب الحسان، وذلك بعد انقضاء الشباب وحلول المشيب

يُكَلِّفُني لَـيلَـى وقـد شَـطَّ وَلْيُـهـا   وعَـادَتْ عَـوَادٍ بـيـنـنـا وخُـطـوبُ

قلبي يكلفني وصال ليلى وقد شط، أي ابتعد، وليها، أي قربها،
وقامت بيني وبينها الشواغل والمشاكل

مُـنَـعَّـمَـةٌ مـا يُـسْـتَـطـاعُ كَـلامُـهـا   عـلـى بَـابِـهـا مِـنْ أن تُـزَارَ رقـيـبُ

فتاة ذات نعمة لا يمكن للمرء أن يكلمها لوجود الرقباء

إذا غابَ عنها البَعْلُ لم تُفْشِ سِرَّهُ   وتُرضي إِيَابَ البَعْلِ حين يَؤُوبُ

وفية لزوجها فلا تفشي سره غائباً، وترضيه عندما يعود

فـلا تَـعْـدِلـي بَـيْـنـي وبـيـنَ مُـغَـمَّـرٍ   سَقَتْكِ رَوَايَا المُزْنِ حينَ تَصُوبُ

لا تقارني بيني وبين فتى مغمر، غشيم غير مجرب، ويدعو لها بأن تسقيها روايا المزن، السحب الماطرة، حين تصوب، أي تهطل بالمطر

فإن تَسْأَلُوني بِالنِّسَاءِ فإِنَّني   بَصيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبيبُ:

أنا طبيب، أي خبير، بأدواء النساء، مشاكلهن:

إذا شابَ رأسُ المَرْءِ أو قَلَّ مالُهُ   فـلـيـس لـه فـي وُدِّهِـنَّ نَـصـيـبُ

إيه يا علقمة تقول هذا وقد لقبوك بالفحل إذ مال إليك قلب أم جندب، فماذا نقول نحن!

يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حيثُ عَلِمْنَهُ   وشَرْخُ الشبابِ عِندهُنَّ عجيبُ

تحب النساء الغني، ويحببن الفتى في شرخ الشباب، أي أوله

فَدَعْهَا وسَلِّ الهَمَّ عنها بِجَسْرَةٍ كَهَمِّكَ، فيها بِالرِّدَافِ خَبيبُ

فدع المحبوبة وسل الهم، أي انس الهم، بجسرة، بناقة شديدة كهمك، بحسب ما تريدها أن تكون.. ناقة تخب خبيباً، تسير سريعاً حتى وأنت تركبها مع رديف خلفك

وعِيسٍ بَرَيْناها كأنَّ عُيونَها قَواريرُ في أَدْهَانِهِنَّ نُضُوبُ

ورب عيسى، نياق، بريناها، أهزلنا جسمها لطول السير،
كأن عيونها قوارير في أدهانهن نضوب، غائرة عيون النياق فكأنها حقاق
فيها دهن لكن الدهن ناضب ومستقر في قعرها فقط

إلى الحارثِ الوهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقتِي لِكَلْكَلِها والقُصْرَيَيْنِ وَجيبُ

سيَّرت ناقتي إلى الحارث وأنا أحس لكلكلها، لصدرها، ولقصرييها، لضلعيها الأخيرين، وجيب، أي خفقان

إليكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كان وَجيفُها بِمُشْتَبِهاتٍ هَوْلُهُنَّ مَهيبُ

إليك أيها الملك كان وجيف الناقة، سيرها، في صحارى مشتبهات، قاحلة يشبه بعضها بعضاً لخلوها من المعالم، ويخاف من هولها القلب

٣٤ لكل شيء ثمن

علقمة بن عَبَدَة:

والحمدُ لا يُشْتَرَى إلَّا له ثَمَنٌ مِمَّا يَضِنُّ به الأقوامُ مَعْلُومُ

نيل الذكر الطيب له ثمن معلوم يضن، أي يبخل، به الناس

والجُودُ نَافِيَةٌ لِلمالِ مَهْلَكَةٌ والبخلُ باقٍ لِأَهلِيهِ ومَذْمُومُ

الجود ينفي المال، يبدده، ويهلكه، والبخل يبقي المال على أهله ويُلحق بهم الذم

وكلُّ حِصْنٍ وإن طَالَتْ سَلامَتُهُ على دَعَائِمِهِ لا بُدَّ مَهْدُومُ

٣٥ أجدع ناس

خِراشة العبسي:

فَلَا قَوْمَ إلَّا نحن خَيْرٌ سِياسَةً وخيرٌ بَقِيَّاتٍ بَقِينَ وأَوَّلَا

لا قوم إلا ونحن خير منهم قياماً بالأمور، وخير منهم في حاضرنا الذي بقي لنا، وخير منهم أولاً، أي في «أولنا» أي أجدادنا

وأَطْوَلُ فـي دَارِ الـحِفَـاظِ إِقَـامَـةً وأَرْبَـطُ أَحْلاماً إذا الـبَـقْـلُ أَجْـهَـلا

ونحن أطول الناس مكوثاً في مواقف الحفاظ، أي حماية الشرف، وأكثر الناس كبحاً للغضب إذا جعل البقل، أي العشب، الناس يجهلون، يتهورون.. وكانت العداوات تزداد إذا نبت العشب لنيل حقوق الرعي

وأَكْـثَـرُ مِـنَّـا سَـيِّـداً وابْـنَ سَـيِّـدٍ وأَجْـدَرُ مِـنَّـا أن يَـقـولَ فَـيَـفْـعَـلا

ولا قوم أكثر منا في عدد السادة وأبناء السادة، وأجدر منا بإتّباع القول بالفعل

٣٦ أودى بَنِيَّ

أبو ذؤيب الهذلي، جاهلي إسلامي، فقد خمسة أبناء في طاعون بمصر:

أَمِنَ الـمَـنونِ ورَيْـبِـهـا تَـتَـوَجَّـعُ؟ والـدهـرُ لـيس بِمُعْـتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

أتتوجع، أي أتبدي الجزع، من الموت ومصيبته؟ لكن الدهر لا يعتب، لا يرضي، من يجزع

قالتْ أُمَيْمَةُ: مَا لِـجِسْمِكَ شَاحِباً مـنـذ ابْتُـذِلْـتَ، ومـثـلُ مَـالِـكَ يَـنْـفَـعُ

قالت أميمة ما لجسمك قد شحب وهزل؟ قد أهملت شأنك بعد موت بنيك، ولك في مالك ما ينفعك بعد إذ مات أولادك الذين ينصرونك

أم ما لِـجَـنْـبِـكَ لا يُـلائِـمُ مَـضْـجَـعـاً إِلّا أَقَـضَّ عـلـيـكَ ذاكَ الـمَـضْـجَـعُ

وما لجنبك لا يستقر على فراش إلا أَقَضَّ الفراشُ عليك، أي امتلأ بالقضيض أي الحصى

فـأَجَـبْـتُـهـا: أَمَّـا لِـجِـسْـمِـيَ أَنَّـهُ أَوْدَى بَـنِـيَّ مِـنَ الـبِـلادَ فَـوَدَّعُـوا

أجبتها أمَّا، أي أنَّ ما، لجسمي هو أن أبنائي أودوا من البلاد، ذهبوا وماتوا

أَوْدَى بَـنِـيَّ وأَعْـقَـبُـونِـيَ غُـصَّـةً بـعـدَ الـرُّقَـادِ وعَـبْـرَةً لا تُـقْـلِـعُ

ماتوا وتركوا لي غصة في حلقي أحسها بعد أن أرقد، ودمعة لا تكف عن النزول

سَـبَـقُـوا هَـوَيَّ وأَعْـنَـقُـوا لِـهَـواهُـمُ فَـتُـخُـرِّمُـوا ولِـكُـلِّ جَـنْـبٍ مَـصْـرَعُ

سبقوا هويَّ، أي هواي ورغبتي إذ رغبت في أن أسبقهم أنا، وأعنقوا، أي أسرعوا لهواهم، لما يريدون، فتخرموا، ماتوا، ولكل إنسان يوم سيموت فيه

فَـغَـبَـرْتُ بـعـدَهُـمُ بِـعـيشٍ نَـاصِـبٍ وإِخَـالُ أَنِّـيَ لاحِـقٌ مُـسْـتَـتْـبَـعُ

فغبرت، أي بقيت، بعدهم بعيش ناصب، متعب، وأظنني سألحق بهم وأتبعهم قريباً

ولـقـد حَـرَصْـتُ بِـأَنْ أُدَافِـعَ عـنـهُـمُ فـإِذَا الـمَـنِـيَّـةُ أَقْـبَـلَـتْ لا تُـدْفَـعُ

كنت حريصاً على حمايتهم والدفع عنهم، ولكن المنية إذا جاءت لا دافع لها

وإذا الـمَـنِـيَّـةُ أنْـشَـبَـتْ أَظْـفَـارَهـا   أَلْـفَـيْـتَ كُـلَّ تَـمـيـمَـةٍ لا تَـنْـفَـعُ

إذا أنشب الموت أظفاره فلا تنفع الإنسان أي تميمة، أي حرز أو حجاب أو خرزة زرقاء

فـالـعـيـنُ بـعـدَهُـمُ كـأنَّ حِـدَاقَـهـا   سُـمِـلَـتْ بِـشَـوْكٍ فَـهْـيَ عُـورٌ تَـدْمَـعُ

العين بعدهم كأن أحداقها، سملت، فقئت بشوك فهي عوراء لكنها تدمع

وتَـجَـلُّـدي لِـلـشَّـامِـتـيـنَ أُرِيـهِـمُ   أَنّـي لِـرَيْـبِ الـدهـرِ لا أَتَـضَـعْـضَـعُ

أتجلد، أتماسك، للشامتين لكي أريهم أنني لا أتضعضع، ولا أضطرب لمصائب الدهر

والـنـفْـسُ راغِـبَـةٌ إذا رَغَّـبْـتَـهـا   وإذا تُـرَدُّ إلـى قـلـيـلٍ تَـقْـنَـعُ

نفس الإنسان ترغب في الأمر إذا حملها المرء على ذلك، وتقنع بالقليل بعد ذهاب الكثير

كم مِنْ جَميعي الشَّمْلِ مُلْتَئِمي القُوَى   كـانـوا بِـعَـيْـشٍ قـبـلَـنـا فَـتَـصَـدَّعُـوا

ما أكثر من كانوا قبلنا مجتمعي الشمل ملتئمي القوى، والقوى هي فتلات الحبل المجدولة معاً، ثم تصدعوا، تفرقوا بالموت. ويرى مصححي الصديق الشاعر عمران القفيني أن هذا البيت شبيه جداً ببيت المتنبي: «نبكي على الدنيا وما من معشر/ جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا» قلت: حقاً يشبهه، ولا أتهم أبا الطيب بالسرقة هنا، فهذا لا شيء في عشرات الأبيات التي سرقها، والتي نرجو أن يغفرها الله له.. فقط لأن ذئاب النقد، ونسمي ابن وكيع والحاتمي ولا نزيد، نهشوا لحمه عليها نهشاً

المفضليات

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الأصمعيات

هي قصائد جمعها الأصمعي واختلطت بالمفضليات اختلاطاً ذريعاً، فخلصَها منها، كيفما اتفق لهما، أحمد شاكر وعبد السلام هارون.

ولد الأصمعي سنة ١٢٢هـ أي قبل استهلال الدولة العباسية بعشر سنين. ولمع نجمه في السنوات العشرين التي استَخلف فيها هارون الرشيد، وكان الأصمعي آنئذٍ بين الخمسين والسبعين من العمر. ثم عاش حتى جاوز التسعين، ومات عام ٢١٦هـ.

قدس الأصمعي اللغة العربية «الأصلية». لم يكن يرى أن لغة عصره حلوة وغنية وتناسب زمنها. كان أصولياً. كان يرى أن ما يطرق أذنيه من كلام في البصرة ثم في بغداد ـ التي رآها مدينة يافعة في الخامسة والعشرين من عمرها عندما استقدمه الرشيد من البصرة، ثم رآها بعد قليل حاضرة الدنيا ـ إنما هو تشويه لشيء أصلي. كان الأصمعي قد أدمن ارتياد الصحراء باحثاً عن الأصل، أو عمَّا هو أقرب شيء إلى الأصل. كان رجوعياً. غربل لنا كلام الأعراب وضرب بعضه ببعض، فملأ أندية اللغة والأدب بالكتب التي تصف اللغة القديمة. وهذه القصائد بعض مما جاءنا به. ولو نظرت في المعاجم القديمة فسوف ترى عدداً كبيراً من المفردات ومعانيها منسوباً إلى الأصمعي. وكان الأصمعي مدققاً تقياً بعيداً من الكذب. فأفادنا كثيراً في توثيق اللغة القديمة.

والتوثيق شيء، والتقديس شيء آخر.

أعاشر في هذه الأيام التي أنفض فيها يديَّ من كتاب «أول الشعر» شباناً ممن عشقوا العربية القديمة. عاشرت في الشهرين الماضيين ـ وأكتب هذا الكلام في مطلع أيار/مايو ٢٠١٦ ـ ستة وثلاثين شاباً وفتاة اشتركوا في برنامج تلفزي اسمه «فصاحة». وأنا فيه عضو لجنة تحكيم، ومدرب أيضاً. وسأمضي

معهم شهراً ثالثاً حتى ينتهي هذا البرنامج. ألتقي بهم ساعات طويلة قبل البرنامج في جلسات تدريب طويلة. ثم يأتي يوم تسجيل الحلقة فيلقون على مدى ساعة ونصف خطباً وأشعاراً.

وقد حذرتهم عشرات المرات ـ في جلسات التدريب، وفي البرنامج نفسه، واليوتيوب شاهد عليّ ـ من السجع ومن الوعظ، ومن الكلام المنمق الذي ليس له رصيد من معنى.

سينطلق هؤلاء جميعاً ـ من خرج من السباق سريعاً ومن استمر حتى النهاية ـ في حياتهم فصحاء أبيناء. وسيزيد المعنى وسيقل التنميق في كلامهم مع اكتسابهم المزيد من الخبرة والثقافة. ولكنني لن أستطيع أن أنزع من نفوسهم تقديس اللغة القديمة.

هل أستطيع أصلاً أن أنزع هذا من نفسي أنا؟

لو قيض لي أن أضع منهج اللغة العربية للمدارس في بلد عربي لما فرضت على التلاميذ في سنوات الدراسة الاثنتي عشرة من الشعر العمودي كله، القديم والحديث، سوى مئة وأربعة وأربعين بيتاً. . اثني عشر بيتاً لكل سنة. ولعلي أفرض عليهم حفظ خمسة أبيات منها في كل عام. ولعلي أفرض عليهم في كل عام عشرة أضعاف هذا القدر من الشعر الجديد بأشكاله، كي يقرأوه ويتذوقوه ويلقوه إلقاء، وكي يحفظوا ما لا يزيد عن عشرة أسطر للعام الواحد. وسأفرض عليهم من النثر عشرة أضعاف ما أفرضه من الشعر.

فلماذا ـ ورأيي هذا الرأي ـ أجشم نفسي عناء مخض الشعر القديم وشرحه؟ ذلك شيء أصنعه بفعل ما انغرس في ذهني من تقديس للقديم، غير أنني أصنعه أيضاً لمن يريد أن يتخصص في هذا المجال، وأصنعه لمن يريد أن يفهم نفسية أجدادنا، ثم قد يفيد كتابي هذا القارئَ الهاوي الذي سمع بقصيدة الشنفرى أو بمعلقة امرئ القيس، ويريد أن يقرأ ويفهم.

وأصنع هذا لسبب آخر يعلم الله أني ما كنت لأبوح به لولا ما أحس من أنس بالقارئ. ويعلم الله أني أعرف الناس بما يمكن أن يسبب هذا الذي أقوله من استخفاف بهذا الكتاب في نفوس النقاد الذين أعادت خلقَهم المؤسسات التعليمية في صورة إنسانين آليين، فتلِفت نفوسهم وتعطل مركز الفهم في عقولهم.

لست أسعى في إصلاحهم، إذا خبَّص الأرز في قِدرك فلا تحاول.

أقول هذا لقارئ يبغض أولئك النقاد من أبناء المؤسسات بغضي إياهم، أو نصف بغضي إياهم، فما علمت أحداً يبغضهم بغضي.

إنما جمعت لك هذه الأشعار ورحت أشكلها وأشرحها لأنني رجل حُرَكة. لا أجلس في اجتماع إلا بيدي قلم أكتب وأرسم، ثم تمتلئ الورقة بعد دقيقة فأصنع منها سفينة، أو أمزقها شرائط أصنع بها براميل، أو أفتل الشرائط فتائل مخروطية يدخل بعضها في بعض لتصبح عصاً، ثم إلى الورقة الثانية. فإن طال الاجتماع وجدتَ أمامي ورشة. وأكون في بيتي معتزلاً الناس، وربما لم أخرج منه يومين أو ثلاثة أيام، فهذا حين أقرأ وأنقب تنقيباً. فإن ظننتني، وأنا أُعُد لك في مقدماتي الكتب الكثيرة التي رجعت إليها، باحثاً جاداً فاعلم أنني بالأحرى رجل قلق لا يقر له قرار.

قد فاض الأمر بالمخرجة التلفزية للبرنامج الذي حدثتك عنه، فواجهتني بالحقيقة، قالت: أجتهد اجتهاداً حتى أحصل لك على لقطة لا تعبث فيها بشيء. ذات مرة كنت محتاجة إلى لقطة لك في موضع لا بد فيه من لقطة لك، فإذا أنت تدخل القلم بين عدسة نظارتك وبين عينك. ماذا تُراك تصنع! انتهى كلامها. ولمعلومات القارئ الأنيس فإن المخرجة أخذت لي هذه اللقطة، ورآها الناس على الشاشة.

كلما داهمني الخجل مما أقوم به من عرض هذا القديم ـ حتى وإن في ثوب جديد سداه الصدق ولحمته الخفة ـ ذكرت بيني وبين نفسي شعوباً أخرى تحتفل بقديمها، وتخصص له الكراسي الجامعية، فانحسر خجلي مما أصنع. وإذ وصلت في حديثي إلى الكراسي الجامعية فلا بد من أن أرش في وجوه أصحابها ماء النار.

المؤلف يرش ماء النار في وجوه الأساتيذ

يا لقبحهم، يفرضون علينا أن نؤدي فرض التبجيل كلما خاطبناهم بدس كلمة دكتور قبل أسمائهم. نقول لأحدهم يا دكتور فيقيم جذعه ويميل برأسه ويقول أمم ثم يأخذ، أخذته الصيحة، في الكلام. يشير بيديه متحمساً ثم تدركه زهوة الدكترة، فيرزُن رزانة افتعال، حتى إذا استوثق من الجَلْس واستولى على الجلسة شبك كفيه وأراحهما على رف كرشه وراح ينثر النصائح بلهجة الأب الشفيق على أبنائه. أليس بغيضاً!

في كل مهنة يوجد الحاذق الماهر، ويوجد الأخرق الدخيل. وما عرفت مهنة اختلط فيها هذا بذاك كمهنة الأستذة في بلاد العرب. فمع انحدار المستوى في البلاد كلها، ومع استقالة شعوب العرب من هواية المطالعة أصبح الأستاذ يضع المقياس الذي يقاس به.

أقول هذا عارفاً أن الأساتذة الأجلاء الذين يحملون في صدورهم علماً كثيراً أغيظ مني من زملائهم المشعوذين.

١ أنا ابن جلا

قال سُحَيْمُ بنُ وُثَيْل الرِّيَاحِيّ، وهو من بني حِمْيَرِيّ، وقد تحداه في الشعر اثنان من الفتية:

أَنــا ابــنُ جَـلَا وطَـلَّاعُ الـثَّـنـايَـا مـتـى أَضَـعِ الـعِـمَـامَـةَ تَـعـرِفُـونـي

أنا ابن جلا، المشهور المعروف، وطلاع الثنايا، الصاعد الطرق الجبلية، متى أضع العِمامة عن رأسي وتظهر ملامحي تعرفوني وتعرفوا من أنا. جعل الحجاج بن يوسف الثقفي هذا البيت من محفوظ كل عربي، إذ استشهد به في مطلع خطبته الأولى في الكوفة.. وضعه الحجاج في الحقيبة الذهنية لكل عربي دخل في حياته مدرسة، وغدا البيت جزءاً من «خرافتنا» القومية، فهمه المرء أم لم يفهمه.. جرسه وحده يحمل كل المعنى

وإنَّ مــكــانَــنــا مِــنْ حِــمْــيَــرِيٍّ مَـكـانُ الـلَّـيْـثِ مِـنْ وَسَـطِ الـعَـرِيـنِ

مكاننا من قبيلة حميري كمكان الأسد، ومكانه في الوسط من عرينه

وإنِّــي لا يَــعــودُ إلَــيَّ قِــرْنــي غَــدَاةَ الــغِــبِّ إلَّا فــي قَــريــنِ

وعندما أهزم قرني، أي خصمي، ثم يعود إليَّ ثانية غداة الغب، أي في اليوم التالي، فهو يعود ومعه قرين كي يساعده

عَـذَرْتُ الـبُـزْلَ إذْ هِـيَ خَـاطَـرَتْـنـي فـمـا بَـالـي وبَـالُ ابْـنَـيْ لَـبُـونِ

عذرت البزل، الجمال الكبيرة التي ظهرت أسنانها، إذ تخاطرني، تتحداني في رهان، ولكن، ما لي ولابني لبون، لجملين صغيرين فطما عن اللبن

ومــاذا يَــدَّري الــشـعــراءُ مِــنِّــي وقــد جــاوزْتُ رأسَ الأَربــعــيــنِ

ماذا يدري الشعراء مني، كيف لهم أن يخدعوني، وقد تحنكت وجاوزت آخر الأربعين

أخُـو خـمـسـيـنَ مُـجْـتَـمِـعـاً أَشُـدِّي ونَــجَّــذَنــي مُــداوَرَةُ الــشـؤونِ

أصبحت ابن خمسين مجتمع القوة، وقد نجذتني، حنكتني وجعلت أسناني الخلفية، النواجذ، تسقط، مداورة الشؤون، أي التصدي للخطوب

٢ لم أكن من جناتها

الحارث بن عُبَاد البكري:

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ الـنَّـعَـامَـةِ مِـنِّـي   لَـقِـحَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ عـن حِـيَـالِ

قربا يا صاحبيَّ مكان ربط فرسي «النعامة» مني، أي اربطاها قريباً، فالحرب بين قبيلتي وائل الكبريين بكر وتغلب قد اشتدت، فالحرب مثل الناقة التي تلقح، أي تحمل بعد الحيال، أي بعد طول العقم فيكون حملها صعباً

لـم أَكُـنْ مِـنْ جُـنـاتِـهـا عـلـمَ الـلَّـ   ـهُ وإِنِّـي بِـحَـرِّهـا الـيـومَ صَـالِ

لم أكن من مسببي الحرب، لكنني سأصلى بنارها. تلك حرب البسوس

٣ الاستعانة بالسفيه

كعب بن سعد الغَنَوي:

ولن يَلبَثَ الجُهَّالُ أن يَتَهَضَّمُوا   أَخَا الحِلْمِ ما لم يَسْتَعِنْ بِجَهُولِ

سرعان ما يتهضم، أي يظلم، الجهال المتهورون الرجل الحليم إن لم يستعن بجهول سفيه مثلهم

ولـسـتُ بِـمُـبْـدٍ لـلـرجـالِ سَـرِيـرَتـي   ومـا أنـا عـن أَسـرارِهِـمْ بِـسَـؤُولِ

لا أطلع الناس على سري، ولا أسألهم عن أسرارهم

٤ ينتظرونه

أعشى باهلة، عامر بن الحارث:

إنَّ الذي جِئْتَ مِنْ «تَثْلِيثَ» تَنْدُبُهُ   مِنْهُ السَّمَاحُ ومِنْهُ النَّهْيُ والغِيَرُ

هذا الذي جئت من تثليث، موضع بالحجاز، تندبه وتبكي لموته، رجل سمح وذو نهي وتغيير في الأمور، كذا المعنى الملموح

مَـنْ لـيـس فـي خَـيـرِهِ شَـرٌّ يُـكَـدِّرُهُ   على الصديقِ، ولا في صَفْوِهِ كَدَرُ

طَاوِي المَصِيرِ، على العَزَّاءِ مُنْصَلِتٌ   بِـالـقَـوْمِ لـيْـلَـةَ لا مَـاءٌ ولا شـجـرُ

يطوي مصيره، أي مصرانه أي أمعاءه، ويجوع صابراً على العزاء، الشدة، وينصلت بالقوم، يمضي بهم للغزو في وقت قحط لا ماء فيه ولا شجر

لا يَـأْمَـنُ الـنـاسُ مُـمْـسَـاهُ ومُـصْـبَـحَـهُ   مِـنْ كـلِّ فَـجٍّ وإن لـم يَـغْـزُ يُـنْـتَـظَـرُ

لا أمان للناس منه مساء أو صباحاً، فهو يطلع عليهم من كل فج، أي طريق، وحتى لو لم يأتهم غازياً فهم يترقبون قدومه

فإنْ جَزِعْنَا فقد هَدَّتْ مصيبَتُنا وإن صبرْنا فإنَّا معشرٌ صُبُرُ

إن جزعنا عليه فقد هدتنا المصيبة فيه، وإن صبرنا فنحن قوم صبورون

٥ ادعُ أُخرى

كعب بن سعد الغَنَوي:

أخي! ما أخي، لا فَاحِشٌ عند بيتِهِ ولا وَرَعٌ عند اللِّقاءِ هَيُوبُ

فاحش: بذيء، ورع: جبان، اللقاء: ملاقاة الأعداء

هُوَ العَسَلُ المَاذِيُّ حِلْماً ونائِلاً وليثٌ إذا يَلْقَى العَدُوَّ غَضُوبُ

هو العسل الماذي، الأبيض، في حلمه وفي عطائه، وهو ليث غضوب إذا لقي العدو

أَخُو شَتَواتٍ، يعلَمُ الضيفُ أنه سَيَكْثُرُ ما في قِدْرِهِ ويَطِيبُ

صاحب شتوات، كريم في أيام الشتاء، حين يعم القحط، ويعلم ضيفه أنه سيطبخ له ما طاب وكثر

ودَاعٍ دَعَا: يا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدَى فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاكَ مُجيبُ

رب داعٍ دعا بعد موت أخي طالباً الندى، السخاء بالضيافة، ولا مجيب له

فقلتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَعِ الصَّوْتَ دَعْوَةً لعل أبا المِغْوَارِ منكَ قَرِيبُ

فقلت له: نادِ مرة أخرى وارفع صوتك، لعل أخي أبا المغوار قريب يجيبك.. حتى وهو ميت

فإنِّي لَباكيهِ وإِنِّي لَصَادِقٌ عليهِ، وبعضُ البَاكِياتِ كَذُوبُ

صادق في بكائي عليه، وبعض من يبكين تكون كذوباً في بكائها

لِيَبْكِكَ دَاعٍ لم يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ وطَاوِي الحَشَا نَائِي المَزَارِ غَرِيبُ

ليبكك داعٍ لا يجد من يلبي نداءه، وطاوي الحشا، جائع، نائي المزار، بعيد عن أهله، فقد كنت أنت من يطعم الغريب ويؤويه

٦ لينفلق!

شَمِر بن عمرو الحنفي:

ولقد مَرَرْتُ على اللَّئيمِ يَسُبُّني فمضيْتُ ثُمَّتَ قلتُ: لا يَعنِيني

مررت باللئيم وهو يسبني، فمضيت ثمت، أي ثم، قلت: هذا لا يعنيني

غَضْبَانَ مُمْتَلِئاً عَلَيَّ إِهَابُهُ إِنِّي وربِّكَ سُخْطُهُ يُرضِيني

غضبان وإهابه، أي جلده، منتفخ من الغضب علي.. ووالله إن غضبه ليرضيني

٧ كن خير آكل

الممزَّق العَبدي:

فإنْ كنتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خيرَ آكِلٍ   وإلَّا فَـأَدْرِكْـنـي ولَـمَّـا أُمَـزَّقِ

شهرة هذا البيت أن عثمان بن عفان تمثل به وهو في داره محاصراً؛ قيل بعث به إلى علي بن أبي طالب

٨ الأم والزوجة

صخر بن عمرو بن الشريد، وقد أصيب ولزم بيته:

أرى أمَّ صَخْرٍ ما تَجِفُّ دُمُوعُها   ومَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي ومَكاني

أمي تبكيني بدموع غزيرة، وزوجتي ملت نومي بالبيت وأنا جريح

فـأَيُّ امْـرِئٍ سَاوَى بِـأُمٍّ حَلـيِلَـةً   فـلا عـاشَ إلَّا فـي شَـقَـاً وهَـوانِ

من يساوي أمه بزوجته فلا عاش، أي ليته ما عاش، إلا في شقاء ومذلة

أَهُـمُّ بِـأَمْـرِ الحَـزْمِ لـو أَسْتَطِيعُهُ   وقـد حِيـلَ بـينَ الـعَيْـرِ والـنَّـزَوَانِ

أحاول أن أصنع الأمر الصحيح الحازم، ولكن الجرح قد حال بيني وبين القيام بذلك، مثلما حيل بين العير، حمار الوحش الذي اصطيد وبين الوثوب على أنثاه

٩ الميت الحقيقي

عَدي بن رَعلاء الغساني:

رُبَّـمَـا ضَـرْبَـةٍ بِـسَيْـفٍ صَـقِيـلٍ   دونَ بُـصْـرَى وطَـعْـنَـةٍ نَـجـلاءِ

ربما، أي رُبَّ، ضربة بالسيف ـ في وقعة أباغ عند بصرى الشام ـ ورب طعنة نجلاء، واسعة بالرمح. . وكان الغساسنة أوقعوا بالمناذرة يومذاك وقتلوا ملكهم المنذر بن المنذر

وغَـمُـوسٍ تَـضِـلُّ فـيـهـا يَـدُ الآ   سِي، ويَـعـيَـا طـبـيـبُـهـا بِـالـدَّواءِ

ورب طعنة غموس واسعة تتوه داخلها يد الآسي، الطبيب، ويعجز عن مداواتها

لـيس مَنْ مَـاتَ فـاسـتَـراحَ بِـمَيْـتٍ   إنَّـمـا الـمَـيْـتُ مَـيِّـتُ الأَحـيَـاءِ

الميت استراح وهو حي بذكره، والميت الحقيقي ميت الأحياء الذي. .

إنَّـمـا الـمَـيْـتُ مَـنْ يَـعِيشُ ذَلِـيلاً   سَـيِّـئـاً بَـالُـهُ قَـلـيـلَ الـرَّجَـاءِ

الذي يعيش ذليلاً، سيءَ الظن بالناس، قليل الرجاء في تحقيق المجد

١٠ لولا الريح

مُهَلهِل بن ربيعة:

أَلَـيْـلَـتَـنـا بِـذي حُـسُـمٍ أَنـيـري ... إذا أَنـتِ انـقـضَـيْـتِ فـلا تَـحُـوري

يا ليلتنا في موضع «ذي حسم» انكشفي بالصباح المنير، ولا تحوري، لا تعودي

فـإِنّـي قـد تَـرَكْـتُ بِـوارِدَاتٍ ... «بُـجَـيْـراً» فـي دَمٍ مِـثْـلِ الـعَـبـيـرِ

لقد تركت في موضع واردات بجيراً، وهو الحارث بن عباد، ودمه قد سال كالعبير، الطيب المزَعْفَر

وهَـمّـامَ بْـنَ مُـرَّةَ قـد تَـرَكْـنـا ... عـلَـيْـهِ الـقَـشْـعَـمـانِ مِنَ الـنُّـسُـورِ

وتركنا همَّاماً قتيلاً وعليه قشعمان، نسران مسنَّان ينتفان لحمه

كـأَنّـا غُـدْوَةً وبَـنـي أَبـيـنـا ... بِـجَـوْفِ عُـنَـيْـزَةٍ رَحَـيـا مُـديـرِ

كأننا صباح ذلك اليوم مع بني أبينا في موضع جوف عنيزة حجرا طاحون يطحنان الناس. والحرب كانت بين بكر وتغلب وهما أبناء عمومة

فَـلَـوْلا الـرِّيـحُ أُسـمِـعَ أَهْـلُ حَـجْـرٍ ... صَـلـيـلَ الـبَـيْـضِ تُـقْـرَعُ بِـالـذُّكُـورِ

كان صوت البَيْض، الخُوَذ، وهي تُقرع بالذكور، السيوف القوية، عالياً حتى لقد كاد يسمعه أهل حجر البعيدة، وما منعهم من سماعه إلا أن الريح تبدد الصوت

١١ الممكن والمستحيل

عمرو بن مَعْدِيكَرِب:

إذا لـم تَـسْـتَـطِـعْ شـيـئـاً فَـدَعْـهُ ... وجَـاوِزْهُ إلـى مـا تَـسْـتَـطـيـعُ

وَصِـلْـهُ بِـالـزَّمَـاعِ فَـكُـلُّ أَمْـرٍ، ... سَـمَـا لَـكَ أو سَـمَـوْتَ لَـهُ، وَلُـوعُ

الزماع: الهمة، سما لك: برز لك، وَلوع: مولع بالقلب مُتعلِّقٌ به. المعنى: لا تُصِرَّ على ما لا تستطيع بلوغه، واطلب الممكن، ومع وجود الهمة والمثابرة ستحققه لأن النفس تتعلق بما ترغب فيه

١٢ أنا وقيَّار

ضابئ بن الحارث البُرجُميّ:

فَـمَـنْ يَـكُ أَمْـسَـى بِـالـمَـديـنَـةِ رَحْـلُـهُ ... فَـإِنّـي و«قَـيَّـارٌ» بِـهـا لَـغَـريـبُ

إذا كان أحد قد حط رحل جمله بالمدينة مرتاحاً، فإنني وجملي «قيار» غريبان هنا.. فقد حبسني عثمان بن عفان

وما عَاجِلاتُ الطَّيْرِ تُدْني مِنَ الفَتَى   رَشَاداً ولا عن رَيْثِهِنَّ يَخيبُ

الطير المسرعة في طيرانها التي يتفاءلون بها لا تقرب الرشد من المرء، ولا يخيب المرء من ريث الطير، أي بطء طيرانها

ورُبَّ أُمورٍ لا تَضيرُكَ ضَيْرَةً   ولِلقلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجيبُ

رب أمور عادية لا تضرك، ولكن للقلب من خشيتها وجيب، خفقان

فَلا خيرَ فيمَنْ لا يُوَطِّنُ نفسَهُ   على نَائِباتِ الدهرِ حين تَنُوبُ

لا خير في رجل لا يوطن نفسه، يهيئها، لاستقبال مصائب الدهر حين تنوب، تأتي

وفي الشَّكِّ تَفريطٌ وفي الحَزْمِ قُوَّةٌ   ويُخْطِئُ في الحَدْسِ الفَتى ويُصيبُ

الوقوف موقف المتشكك دون فعل فيه تفريط، والقوة في الحزم. ولكن الإنسان يخطئ ويصيب في حدسه وتقديره لما يضره وينفعه. والذي أخطأ في حدسه خطأ فاحشاً ابنك يا ضابئ، وأنت لا تعلم ماذا جرى له. فابنك عمير دخل الدار حين قتل عثمان ورفسه برجله فكسر له ضلعين انتقاماً لك لأن عثمان حبسك ومت في حبسه. وبعد سنين كثيرة، وكان ابنك قد أسن، جاء يطلب من الحجاج إعفاءه من الغزو. فقال أحدهم للحجاج: هذا عمير بن ضابئ الذي رفس عثمان، فأمر الحجاج بقتل ابنك عمير فوراً

١٣ الفقرُ الفَقْد

أبو دؤاد الإيادي:

لا أَعُدُّ الإِقْتَارَ عُدْمَاً، ولكنْ   فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإِعْدَامُ

لا أعد الإقتار، أي ضيق ذات اليد، عدماً، فقراً مدقعاً. . بل الإعدام، أي الفقر، إنما هو فقد من قد بليت بفقده

وكَذَاكُمْ مَصيرُ كُلِّ أُنَاسٍ   سوف حقَّاً تُبليهِمُ الأَيَّامُ

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطُ نَفْسي   حَسَراتٍ، وذِكْرُهُمْ لي سَقَامُ

١٤ يا خالي

المتلمِّس، جرير بن عبد المسيح، وهو من بني ضُبيعة وتربَّى عند أخواله اليَشْكُريين، ويعاتب في القصيدة خاله الحارث اليشكري. وكان خاله قد قال للملك عمرو بن هند: هذا يزعم تارة أنه منا بني يشكر وتارة أنه من ضبيعة. فقال له الملك: ما أراه إلا كالساقط بين الفِراشَيْن، فقال المتلمس:

تُعَيِّرُني أُمِّي رِجَالٌ، ولن ترى أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بِأَنْ يَتَكَرَّمَا

تعيرني بعض الرجال بالانتساب إلى أمي، والكريم هو من يفعل الكرم بنفسه غير مستند إلى مجرد النسب

وهل لِيَ أُمٌّ غَيْرَهَا إنْ تَرَكْتُها أَبَى اللَّهُ إِلَّا أنْ أكونَ لها ابْنَمَا

ابنما: ابن

أَحَارِثُ إِنَّا لو تُسَاطُ دِماؤُنا تَزَايَلْنَ حتَّى لا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا

يا خالي الحارث، لو يساط، أي يخلط، دمي بدمك لما اختلطا.. قيل إن دماء الأعداء لا يختلط بعضها ببعض

لِذي الحِلْمِ قبلَ اليومِ ما تُقْرَعُ العَصَا وما عُلِّمَ الإنسانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا

كانت العصا تقرع لذي الحلم، والإنسان يعيش ويتعلم. كان هذا الرجل، ولعله عامر بن الظرب، قد بلغ من الكبر عتياً فطلب أن يصاحبه رجل بعصا، فإذا غفل الشيخ وقال شيئاً فيه اختلاط قرع له الفتى العصا وحركها كي يعود الشيخ إلى عقله. وفي البيت «ما تقرع العصا» أي تقرع، و«ما» زائدة

وكنَّا إذا الجبارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقَمْنا له مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَوَّما

كنا إذا الجبار صعر خده، أي أماله تكبراً، قومنا ميله ورددناه إلى منزلته

فَلَوْ غَيْرُ أَخْوالِي أرادُوا نَقِيصَتي جَعَلْتُ لَهُمْ فوقَ العَرانِينِ مِيسَمَا

لو غيركم يا أخوالي أرادوا الانتقاص مني لجعلت لهم فوق العرانين، الأنوف، ميسماً، كيَّاً بالنار كناية عن الإذلال

وما كنتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ بِكَفٍّ لَهُ أُخرى فَأَصبحَ أَجْذَمَا

لو فعلت ذلك بكم لكنت كمن قطع كفه بكفه الأخرى فأصبح أجذمَ، أي مقطوع اليد

الأصمعيات

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الحماسة

يعجبني في لبنان قُراه.

فلبنان ـ من بين كل البلدان العربية قاطبة ـ كانت قراه مهاد ثقافة وعلم وأدب. ابحثْ عن مارون عبود، وستجد بيته في قرية عين كفاع، وعن جبران فستجده خرج من بشَرِّي، وعن ميخائيل نعيمة فهو ابن بسكنتا، والشدياق من عشقوت، وإيليا أبو ماضي من المحيدثة، وابحث عن الشاعر «القروي» فهو بالطبع من «قرية» وهي البربارة، وزميله فرحات فهو من كفر شيما، ومن كفر شيما ناصيف اليازجي ومنها بشارة وسليم تقلا مؤسسا جريدة الأهرام.

أتعبني ذلك ذات سنة وسرني. أتعبني عندما صنعت فلماً وثائقياً عن العظام الذي أنهضوا اللغة العربية من رقدتها، وسميته «عظام العربية في لبنان» كي يفهم المشاهد أن عظام الرجال في لبنان نهضوا بالعربية، وأن العربية أصبحت في لبنان اليوم عظاماً؛ فعندما تهيأت لتصوير الفلم مع الفريق اكتشفت أن المكوث في بيروت لا يفيدني بشيء، وأن عليَّ أن أبكر مع الشمس لأصعد الجبال وألتقط القرى الجاثمة على سفوحها واحدة واحدة. وسرني ذلك، ليس لأنني من محبي الطبيعة، فأنا من القلة الذين يكرهونها، بل لأنه انتابني ذلك الشعور الذي أسميه «حالة الدير».

من أحب أحلام يقظتي، وما أكثرها، إلى نفسي أن أسكن ديراً ليس فيه شيء من قلق وتوتر الحياة الحديثة. وقد قلت في ذلك:

لو أننا نعيش وادعين

في قريةٍ تنام ما بين التلال، لا تُحسُّ بالسنين

ولا تحس لذة ولا ألمْ

بعيدةٍ عن الطريق لمْ

تلمعْ بقربها سيوف الفاتحين
ليس لها مستقبل ولا طموح
ولا لها ماض، ولا تشعر بالحنين
لو أننا نزرع حقلنا
لو أننا نأكل خبزنا
لا نعرف النقودَ والمرتباتِ والوظائفا
لا نعرف الشيوخ والمحرمات والأساقفا
لا نعرف استقالةً لا نعرف استخارة
لو نستقيل من هذا الصداع
لو نستريح من هذا الصراع
لو.. لا نموت
وكاستحالة هذه اللَّو الأخيرة كل ما سبقها من لَوَّات.

على أن أبا تمام عاش بضعة أسابيع أو أشهر في «دير» فرضه عليه تساقط الثلوج.

ولا تطمع في أن أحدثك عن أبي تمام وكتابه «الحماسة» قبل أن آخذك إلى ألمانيا. على أنني سأقص عليك الطريف والمفاجئ، فاحبس أنفاسك من الآن.

الحماسة الألمانية

أحدثك عن ابن قرية ألمانية في شمال بافاريا اسمها معبر الخنازير «شفاين فورت». هذا الرجل كان شاعر قومه، رأى وهو يافع نابليون يحتل بلاده، ورآه في شبابه يُهزم، ورأى دويلات الألمان تحاول التوحد ولا تجد الطريق. وكتب الشعر الوطني فألهب خيال أبناء قومه. ثم كتب أشعاراً للأسرة وفي المرأة وعن الطبيعة. وكثيرون منهم يعدونه الآن رابع العظام في تاريخ الشعر الألماني كله بعد غوته وهايني وريلكة.

ذلك هو فريدريش روكارت.

تخصص في القانون. عجيب هذا بالقياس إلى ما سوف نقصه عليك.

يقول لنا عبد الرحمن بدوي إن الرجل «أوتي قدرة هائلة على التحكم في اللغة الألمانية»، ويقول في فقرة أخرى، من «موسوعة المستشرقين» إن روكارت «كان يملك قدرة عجيبة في السيطرة على اللغة الألمانية». ونقرأ أن روكارت كان يتقن ثلاثين لغة. وهنا تبدأ أعاجيب الرجل. لكنها ليس ههنا تنتهي.

فويكيبيديا الألمانية تصر على أنه كان يحسن أربعاً وأربعين لغة، وتشفع زعمها بقائمة اللغات التي اشتغل بها صاحبنا. وتذكر الموسوعة ترجماته البديعة عن الفارسية وعن اللغات الهندية، وتذكر ما صنعه روكارت مع اللغة العربية في أسطر قلائل. ويزيدنا هيرمان كراينبورغ، القيِّم على أرشيف روكارت، عجباً إذ يزعم أن روكارت أتقن خمسين لغة.

نترك هذا لكتاب غينيس.

هذا الرجل المثابر استدعاه الملك البروسي فريدريش فلهلم الرابع إلى برلين كي يكون أستاذاً ومستشاراً، وبعد بضع سنين استأذن في الرحيل فزوده الملك زاده فانصرف إلى ضيعة ورثتها امرأته، وقعد فيها يؤلف. فانظر إن شئت إلى بعض المثقفين ممن يقترب من كرسي الحكم بعض اقتراب فتصطك ركبتاه، ويتعلق بأهداب ولي النعمة غير قادر أن يفارق هالة السلطان، ويظل يلعق من الإطار حتى يموت. أو انظر - إن شئت - إلى شيخ مؤرخي العرب الطبري يقعد في كسر بيته يؤلف، فتأتيه هدايا السلطان فيردها رداً، ويعيش على أقل القليل. قالوا إنه بعث يوماً بكُمِّ ثوبه، وكانت أكمام أثوابهم واسعة، كي يباع في السوق، ليشتري بثمنه طعاماً. أو انظر إلى المعري وقد حبس نفسه في بيته خمسين سنة يصنع لنفسه العظمة.

ترجم الألماني روكارت مقامات الحريري بما فيها من الألاعيب اللغوية التي لا يظن عاقل أنه يمكن نقلها إلى لغة أخرى. ولكن روكارت لم يكن عاقلاً بالمعنى المألوف، أو أنه كان مجنوناً بمعنى غير مألوف. فقد نقل الألاعيب إلى لغته، وجعل ترجمته الألمانية للمقامات مسجوعة من أولها إلى آخرها. وجعلها قطعة أدب ألمانية ليس يشبهها شيء. وترجم صاحبنا أشعار امرئ القيس. وبعد موته نشروا له ترجمة لثلاثة أرباع القرآن الكريم.

وترجم الحماسة.

فتنته الحماسة، وهي كتاب عربي عتيق جمع فيه الشاعر المشهور أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، المتوفى عام مئتين وثلاثين هجريه، نحو ثمانمئة وثمانين قطعة من أشعار القدماء المغمورين.

وفي الحماسة كانت لروكارت بدَاةٌ أخرى تضاف إلى بَدَواته. فقد قرر أن يحاكي النظم العربي في بحوره وتفعيلاته وقوافيه. وتراه في القصيدة بعد القصيدة يصنع حاشية عروضية يحلل فيها الوزن العربي مستعملاً إشارات العروض كما نعرفها في العربية، ويشرح اجتهاده في نقل الوزن العربي إلى الكلم الألماني، على ما بين اللغتين من اختلاف جارف في توالي الصوامت والصوائت، وعلى ما بينهما من افتراق في كيفية وزن الشعر. لا جرم، صاحبنا مولع بالأوزان، وله في أوزان الشعر عند الجرمان والإغريق بحوث رائدة، وهي ليست بحوث الأكاديميين المتخشبين ـ جعلهم الله حطب الحُطمة ـ بل هي دراسة وتجريب وعبث كثير يرفده علم غزير.

شقي روكارت وهو يبحث للحماسة عن ناشر، وأخيراً وبعد خمس عشرة سنة نشرها في شتوتغارت، ١٨٤٦، في مجلدين. وطبعت بعد ذلك مرات. وصارت قطعة من الأدب الألماني لما نفث فيها من زفرات قلمه.

وبعد سنين كتب روكارت قصيدة عن ترجمته للحماسة، كتبها على قريِّ الشعر العربي بقافية موحدة، وننقلها إلى العربية لكن بقواف مزدوجة، كما يغلب على شعر أولئك القوم:

إنهم كانوا يصومو ... ن زماناً في الزمان
غير أن قد أكرموا الضيـ ... ـف على مرِّ الزمان
يقطعون البيد ليلاً ... فوق ظهر الراحلة
فإذا قالوا بماء ... نعِموا بالقائلة
روضوا بالعزم والحز ... م الخيول الشامسة
وسروْا بالعيس في قلـ ... ـب الفيافي الطامسة
غُصْتُ، واستخرجتُ هذا الدُّ ... رَّ من قلب الحماسة
وحواشيَّ بليغا ... ت تضاهيها نفاسة

ولعل القارئ قد سمع بشعراء ألمان آخرين فتنهم الشعر العربي القديم،

وأشهرهم غوتِهْ. غير أن روكارت، وعاصر غوته ولقي منه مديحاً، كان القلم الذي أدخل شعرنا القديم في جسم الثقافة الألمانية.

حماسة أبي تمام

فضل الحماسة أنها من اختيار شاعر كبير هو أبو تمام، ـ ومضطرون اضطراراً إلى سوق عبارة التبريزي أحد شراحها ـ قال التبريزي إن أبا تمام «كان في حماسته أشعر منه في شعره». ولكن هذا ليس الفضل الأكبر للحماسة. ليس ميزتها الكبرى.

ميزتها الكبرى أنها جمعت خير ما قاله الشعراء المغمورون الذين لم تبق لهم دواوين، أو لم تجمع أشعارهم في دواوين أصلاً. وميزتها أنها اختيار قليل من كثير ومخض وتنخيل، وميزتها الأخرى أن جامعها كان محكوماً بإقامة جبرية، فاحتشد لها، ولم يشغله عنها شيء.

كان أبو تمام عائداً من نيسابور بخراسان، وهي اليوم في أقصى شرق إيران، وعندما وصل إلى همذان، غرب إيران اليوم، نزل بصديقه أبي الوفاء ابن سلمة، فأكرم مثواه. وبدأ الثلج يتساقط. ودرجة الحرارة في همذان من نوفمبر/ تشرين الثاني إلى مارس/آذار تحت الصفر (المتوسط في يناير/كانون الثاني عشرة تحت الصفر).

فقال أبو الوفاء لضيفه: قد قطع الثلج الطرق، ولن ينحسر إلا بعد زمن. ويبدو أن الرجل أعطى أبا تمام مختصراً مفيداً عن شتاء همذان كالذي سقناه لك أعلاه. فوطن أبو تمام نفسه على أن لا فرار. وفتح له مضيفه خزانة كتب عامرة يتسلى بها. فكانت الحماسة.

تيسرت لأبي تمام «حالة الدير» مثلما يسرها لنفسه مترجمه روكارت بعد ألف سنة. فأتحفنا الأول بمجموع شعري لم يجُد تاريخ آداب العرب بمثله، وأتحف الثاني قومه بأدب غريب.

ولن نتوسع في الكلام على محاسن كتاب الحماسة لأبي تمام، فليس عندنا ما نضيفه. قد شرحه الشارحون كثيراً، وعدَّ عبد الله عسيلان خمسة وثلاثين شرحاً للحماسة، وكتب الكاتبون عن الحماسة كتباً كثيرة، قديماً وحديثاً. وقد أفدنا من شروح المرزوقي والتبريزي والأعلم الشنتمري واطلعنا على «أسرار الحماسة» لسيد «بن» علي المرصفي، وهو جزء أول لم يلحقه ثان.

ودققنا أسماء شعراء الحماسة من كتاب طريف لابن جني صاحب الخصائص. وأفدنا من كتاب عبد الله عسيلان، وهو نصف أطروحة دكتوراه. وكونه نصفاً لا يعيبه بل يزيده شرفاً. فالرجل حقق الحماسة ثم أردف تحقيقه بكتاب وصف فيه تاريخ كتاب الحماسة، وكان الكتابان معاً أطروحته.. هذا في زمن كانت أطروحة الدكتوراه فيه شيئاً حقيقياً.

ومما نقتبسه عن العسيلان هذا الإحصاء: الجاهليون بين شعراء الحماسة ١٠٧، والمخضرمون ٥٥ وأهل صدر الإسلام ١٨، وممن وصفوا بأنهم إسلاميون ١٩، والأمويون ١٠٤، ومخضرمو الدولتين ٢٠، والعباسيون ٢٩. هذا إلى نحو مئتين وخمسين قطعة غير منسوبة. وفي الحماسة ما يقرب من خمسين قطعة لشعراء طيء، قبيلة أبي تمام. والعهدة في ذلك كله على الباحث. وأحسن الباحث في سوق البرهان الرقمي على فداحة ما استله التبريزي (صاحب أشهر الشروح) من المرزوقي (صاحب أهم الشروح التي وصلتنا).

لم يتيسر لنا ما تيسر لأبي تمام ولمترجمه الألماني من التمتع بـ «حالة الدير»، فقد ظل هذا محض أمنية. على أننا نجمع نتف الشعر ونضعها في كتب بقدر ما يتيسر لنا من وقت. فلماذا نعدو على مجموعٍ وضعه أبو تمام؟

لم نستطع عنه صبراً. فالشعر الذي في حماسة أبي تمام لا يوجد معظمه إلا عند أبي تمام. وهو كله شعر رائق، وقد اخترنا منه أروَقه. وهو خير متمم لشعر الشعراء الذين عرضنا لهم في هذا العصر.

ما اعتور كلامنا على «حالة الدير» من مبالغة:

لو نظرت إلى الأربعين سنة، التي هي حياة أبي تمام، وما فيها من أسفار شاقة ومن اضطراب لعرفت أن الرجل لم يتمتع بحالة العزلة إلا تلك الأسابيع. وقد أنجز ديوانه الزاخر وهو بين الحل والارتحال. كان يعتزل داخل نفسه.

ولو نظرت إلى حياة روكارت التي قاربت الثمانين سنة، فسوف تراه يجاهد الناشرين جهاداً، ويتألم لأن كتبه لا تلقى رواجاً، وتراه يرثي ابنين له، وتراه قلقاً في كل شأنه، لكن عزلته كانت في داخل نفسه. وتقص علينا المستشرقة الألمانية أنا ماري شيمل طريفة من طرائفه: عندما نزل الثلج، على غير عادة، في أبريل/نيسان نظم روكارت في هذه الحادثة ثماني وثلاثين قصيدة، فتأمل.

١ لو كنت من مازن!

قال قُرَيْطُ بنُ أُنَيْفٍ العَنْبَرِيّ يمدح قبيلةَ مَازِن لاستنقاذِهِم إِبِلَه، ويذمُّ قومَه هو «بَلْعَنْبَرْ» لأنهم ليسوا شَرَّانِيِّين، وليس عندهم خبرة:

لوْ كنتُ مِنْ مازِنٍ لمْ تَستَبِحْ إِبلي ... بنو اللَّقيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانا

لو كنت من قبيلة مازن لما تجرأ «بنو اللقيطة» من قبيلة ذهل بن شيبان على إبلي وسرقوا بعضها

إذن لَقامَ بِنَصري معشرٌ خُشُنٌ ... عندَ الحفيظةِ إنْ ذو لُوثَةٍ لانا

لو كنت من مازن لنصرني ناس خشِنون وقت الحفيظة، والحفيظة هي الغضب للشرف، في الوقت الذي يلين فيه ذو اللُّوثة، أي الضعيف

قومٌ إذا الشرُّ أبْدى ناجِذَيْهِ لَهُمْ ... طاروا إليهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدانا

إذا الشر استطار وكان كالسبع المكشر عن ناجذيه، عن أسنانه القصوى في جانبي فمه، فهم يسرعون إليه زَرافات، جماعات، ووُحداناً، فُرادى

لا يَسألونَ أخاهمْ حينَ يندُبُهُمْ ... في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا

لا يطلبون من ابن قبيلتهم حين يندبهم، يستنجدهم، في المصيبات برهاناً على قوله إنه تعرض للأذى، بل هم ينجدونه فوراً

لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذَوي عَدَدٍ ... ليسوا مِنَ الشَّرِّ في شيءٍ وإنْ هانا

قومي كثر، لكنهم ليسوا شرَّانيِّين أبداً. والشراني ـ وهذه من عامية بلدي فلسطين ـ هو الذي يدفع الشر بالشر

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظلمِ مَغْفِرَةً ... ومِنْ إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحسانا

يغفرون للظالم، ويكافئون المسيء بإحسان

كأنَّ ربَّكَ لمْ يخلُقْ لخَشْيَتِهِ ... سواهُمُ في جميعِ الناسِ إنسانا

يا ليتَ لي بِهِمُ قوماً إذا ركِبوا ... شَنُّوا الإغارةَ فُرساناً ورُكبانا

ليت لي بهم، أي بديلاً عنهم، قوماً يركبون ويشنون الهجمات لدفع الإغارة فرساناً على الخيل، وركباناً يركبون الإبل

٢ بعض الحلم إذعان

الفِنْدُ الزِّمَّاني، جاهلي قديم:

صَفَحْنا عَنْ بَني ذُهْلٍ ... وقلنا: القومُ إخوانُ

عســى الأيــامُ أنْ يَــرْجِــعْــ ـنَ قــوْمــاً كــالَّــذي كــانــوا

ربما تَرجع، أي تُعيد، الأيام بني ذهل لسيرتهم الحميدة الأولى

فــلــمَّــا صَــرَّحَ الــشــرُّ فــأمْــســى وهْــوَ عُــرْيــانُ

بعد أن صفحنا عنهم أملاً في اصطلاح حالهم، صرَّح الشر، أصبح واضحاً، وعرياناً، أي عادوْنا عداءً مكشوفاً

ولــمْ يــبــقَ ســوى الــعُــدْوا نِ، دِنَّــاهُــمْ كــمــا دَانــوا

وعندما لم يبق في المسألة سوى العدوان، فعندئذ دناهم كما دانوا، جزيناهم بمثل عملهم

مَــشْــيْــنــا مِــشْــيــةَ الــلــيْــثِ غــدا والــلــيْــثُ غَــضْــبــانُ

بِــضَــرْبٍ فــيــهِ تَــفْــجــيــعٌ وتــخْــضــيــعٌ وإقْــرانُ

ضربناهم ضرباً فجعهم بقتلاهم وأخضعهم وعرضهم للإقران، وأحسبها الأسر وربط الأسرى بالقَرْن، أي الحبل المفتول. ولم أر ما رآه التبريزي ولا المرزوقي في هذه الكلمة فقد فسراها بتفسيرات حائرة

وطَــعْــنٍ كَــفَــمِ الــزِّقِّ غَــذَا، والــزِّقُّ مَــلآنُ

واجهناهم بطعن يكون موضع الطعنة فيه كفم الزق أي القربة الجلدية غذا، أي سال، وهو ملآن. كأنك طعنت قربة ممتلئة بخمر فسال

وبعضُ الحِلْمِ عندَ الجهْــ ـلِ لِلــذِلَّــةِ إذعــانُ

أحياناً يكون الحلم، التعقل، عند استفحال الجهل، التهور، إذعاناً وخضوعاً

فــلِــلــشَّــرِّ نــجــاةٌ حــيــ ـنَ لا يُــنْــجِــيــكَ إحــســانُ

ومواجهة الشر بالشر تنجي المرء في وقت لا ينفع فيه التراضي بالحسنى

٣ لهم صدر سيفي

جعفر بن عُلْبَةَ الحارثي، وعاش في عصر بني أمية:

إذا ما ابْتَدَرْنا مأزِقاً فَرَجَتْ لنا بأَيْمانِنا بِيضٌ جَلَتْها الصَّياقِلُ

إذا ابتدرنا واستبقنا الأعداء إلى مأزق، أي مضيق في جبل، فإن السيوف البيض التي جلاها الصياقل، صانعو السيوف، ونحملها بأيدينا تفتح لنا الطريق

لَهُمْ صَدْرُ سيفي يومَ «بَطْحاءِ سَحْبَلٍ» ولي مِنْهُ ما ضُمَّتْ عليهِ الأَنامِلُ

في معركة بطحاء سحبل كان للأعداء صدر سيفي، وكان لي منه مقبضه الذي ضممت عليه أصابعي

٤ السجين

وقال جعفر بن عُلْبَة أيضا:

هَوايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ، وجُثْماني بمكةَ مُوثَقُ

قلبي جنيب، أي مرافق، للراكبين اليمانيين، ولكن جسمي مقيد سجين في مكة

عجبتُ لِمَسْراها وأنَّى تخلَّصَتْ إليَّ وبابُ السِّجْنِ دونِيَ مُغْلَقُ

عجبت لمسراها، سيرها ليلاً، وكيف تخلصت من الحرس وجاءتني، رغم أن باب السجن مغلق علي.. ذلك أن الذي زاره خيالها

أَلَمَّتْ فَحَيَّتْ، ثُمَّ قامَتْ فودَّعَتْ فلمَّا تولتْ كادتِ النفسُ تَزْهَقُ

تزهق: تهلك

فلا تحسَبي أنِّي تَخَشَّعْتُ بَعدَكُمْ لِشَيءٍ، ولا أنِّي مِنَ الموتِ أَفْرَقُ

تخشعت: ذللت وخضعت. أفرق: أخاف

ولا أنَّ نفسي يَزْدَهِيها وَعِيدُهُمْ ولا أنَّني بالمَشْيِ في القَيدِ أَخْرَقُ

ولا يزدهي نفسي وعيدهم، لا يخيفني تهديدهم، ولا أمشي والقيود في رجلي مشي الأحمق المرتبك

ولكنْ، عَرَتْني مِنْ هواكِ صَبابةٌ كما كنتُ ألقَى منكِ إذْ أنا مُطْلَقُ

لكن، عرتني من هواك صبابة، جاءتني هزة شعور من حبي إياك،
مثلما كانت تعتريني وأنا حر طليق

٥ نازلٌ كي أنازل

ربيعةُ بنُ مَقْرومٍ الضبِّيّ، وهو شاعر مخضرم:

ولقدْ شهِدْتُ الخيلَ يومَ طِرادِها بسَليمِ أَوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ

رأيت الخيل وبعضها يطارد بعضاً وأنا أركب حصاناً هيكلاً، كبيراً، وقوائمه متينة لا عوج فيها، والأوظفة قصبات سيقان الحصان

فَدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ وعلامَ أركبُهُ إذا لمْ أنزِلِ؟

قالوا نزالِ، أي من ينزل للمبارزة؟ فكنت أول نازل، وما قد ركبت الحصان إلا كي أنزل عنه للمبارزة والمنازلة. «المنازلة» و«النزال» مشتقان من النزول عن ظهر الحصان للمضاربة بالسيوف

وألَــدَّ ذي حَـنَــقٍ عـلــيَّ كـأنَّــمـا   تـغـلـي عَـدواةُ صـدرِهِ فـي مِـرْجَـلِ

رب رجل ألد، عدو لدود، غاضب لشدة عداوته لي، وكأن العداوة في صدره تغلي كما يغلي الماء في المرجل، أي القدر

أَزْجَيـتُـهُ عَـنِّـي، فـأبـصَـرَ قـصـدَهُ   وكَـوَيْـتُـهُ فـوقَ الـنـواظِـرِ مِـنْ عَـلِ

أزجيته، أبعدته، عني فعرف قصده، أي رددته إلى رشده، وكويته فوق عينيه، أي في جبينه.. ووصمته بالجبن، عندما هرب مني وكانوا يكوون الناقة بعلامة ليُعرف صاحبها

٦ منتهى التهور

قال سعدُ بن نَاشِبٍ، وهو شاعر إسلامي جنى جِناية فهَدم والي البصرة دارَه:

سأغسِلُ عني العارَ بالسَّيْفِ جالِباً   عـلـيَّ قـضـاءُ الـلَّـهِ مـا كـانَ جـالِـبـا

سأغسل عاري بالسيف وليجلب قضاءُ الله عليَّ ما يجلب من عقوبة

وأَذْهَـلُ عـنْ داري وأَجْـعَـلُ هَـدمَـهـا   لِعِرْضِيَ مِنْ بَاقِي المَذَمَّةِ حَاجِبا

وإنني لأذهل عن داري، أنسى أمرها، وليكن هدمها فداء لعرضي وحاجباً دونه من الذم

ويَصْغُرُ في عَيني تِلادي إذا انثَنَتْ   يـمـيـنـي بإدراكِ الـذي كنتُ طالِبـا

ويصغر في نظري تلادي، مالي الموروث، إذا ثنيت أصابع يدي اليمنى ممسكاً بما كنت أبتغي ومحققاً هدفي

فإنْ تَـهْـدِمُـوا بـالـغَـدْرِ داري فـإنَّـهـا   تُـراثُ كَـريـمٍ لا يُـبـالـي الـعَـواقِـبـا

العواقب: النتائج

أَخـو غَـمَـراتٍ لا يُـريـدُ عـلـى الـذي   يَـهُـمُّ بِـهِ مِـنْ مُـفْـظِـعِ الأَمْـرِ صـاحِـبـا

هذا الذي هدمتم داره أخو غمرات، مدمن على الشدائد، لا يبالي أن يكون وحده بلا صاحب في تحقيق ما ينويه من مفظع الأمر، أي الأمر الصعب

إذا هَـمَّ لـمْ تُـرْدَعْ عـزيـمـةُ هَـمِّـهِ   ولـمْ يـأتِ ما يَأتي مِنْ الأمرِ هائِبا

إذا نوى لم يكن لعزيمته من رادع، ولا يفعل ما يفعل وهو متهيب خائف

فَـيَـا لَـرِزَامٍ رَشِّـحُـوا بِـيَ مُـقْـدِمـاً   على المـوتِ خَـوَّاضاً إليهِ الكَـتائِبا

يا بني رزام رشحوني لكي أكون مقدِماً على الموت أخوض إليه الكتائب غير هياب. ورشحوني هنا بالمعنى المستحدث، وقد خاض المفسرون القدماء في أنها تعني التربية والتأهيل، ولهم في البيت أقوال كثيرة حميناكها

إذا هَـمَّ ألـقَـى بـيـنَ عـيْـنَـيْـهِ عَـزْمَـهُ   ونَـكَّـبَ عَـنْ ذِكْـرِ الـعـواقـبِ جَـانِـبـا

يجعل هدفه نصب عينيه، ويبتعد عن ذكر النتائج.. هكذا المتهور، وبين التهور والشجاعة إصبع

وَلَمْ يَسْتَشِرْ في رأيِهِ غيرَ نفسِهِ   ولَمْ يَرْضَ إلَّا قائمَ السَّيفِ صاحِبا

ولا يستشير أحداً، ولا يرضى صاحباً سوى مقبض سيفه

٧ يشجع نفسه

قال قَطَرِيُّ بنُ الفُجَاءَة المازِنيُّ، زعيمُ الخوارج، يخاطِبُ نفسَه:

أقولُ لَها وقَدْ طَارتْ شَعَاعاً،   مِنَ الأبطالِ وَيْحَكِ لا تُراعِي

أقول لنفسي وقد طارت متفرقةً، ويحك يا نفسي لا تراعي، لا تخافي، من الأبطال

فإنَّكِ لَوْ سألتِ بقاءَ يومٍ   على الأجلِ الذي لكِ لنْ تُطَاعي

فَصَبْراً في مجالِ الموتِ صَبراً   فما نَيْلُ الخلودِ بمُسْتَطاعِ

الخلود في الدنيا مستحيل، فالموت على هذا أمر هين، فاصبري يا نفسي

ولا ثوبُ البقاءِ بِثوبِ عِزٍّ   فَيُطْوَى عَنْ أخي الخَنَعِ اليَرَاعِ

وثوب البقاء على قيد الحياة ليس ثوب عز، لذا لا تراه مطوياً عن أخي الخنع، حليف الذلة، اليراع، أي الجبان. بل الذليل يلبس ثوب العيش لأنه ليس بثوب عز

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ   وداعِيهِ لأهلِ الأرضِ داعِ

المنادي بالموت ينادي كل أهل الأرض فهذا مصيرهم جميعاً

ومَنْ لا يُعْتَبَطْ يَهْرَمْ ويَسْأَمْ   وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انْقِطاعِ

من لم يعتبط، يمت شاباً، فمصيره الهرم والسأم، ثم بعد ذلك تقطع المنون، الموت، عمره

وما لِلْمَرءِ خيرٌ في حَياةٍ   إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المَتاعِ

سقط المتاع: التالف من الأثاث

٨ مَنْ فارسٌ؟

ويُنسَبُ إلى بَشامَةَ بنِ حَزْنٍ النَّهْشَلِي قولُه:

إنا مُحَيُّوكِ يا سَلْمى فَحيِّينا   وإن سَقيتِ كِرامَ الناسِ فاسْقِينا

وإن دَعوْتِ إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ   يوماً سَراةَ كرامِ الناسِ فادْعِينا

الجلى: العمل الجليل، سراة الناس: سادتهم

إنَّا بَني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لِأَبٍ   عنهُ، ولا هُوَ بِالأبناءِ يَشْرِينا

نحن لا نرضى بأب سوى أبينا، ولا هو يرضى بسوانا أبناءً

إن تُبْتَدَرْ غَايَةٌ يوماً لِمَكْرُمةٍ   تَلْقَ السَّوابِقَ مِنَّا والمُصَلِّينا

إن يستبق الناس إلى بذل المعروف، فالسوابق والمصلون منا، والسابق هو الحصان الذي يأتي أولاً والمصلي الذي يأتي ثانياً

وليس يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَداً   إلَّا افْتَلَيْنا غُلاماً سيِّداً فينا

لا يموت سيد منا إلا افتلينا، أي فطمنا، غلاماً ليصبح سيداً بدلاً منه

إنَّا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنفُسَنا   ولو نُسامُ بِها في الأمنِ أُغْلِينا

يوم الروع، أي الحرب، نبذل أنفسنا رخيصة، ولو نسام، نقايَض، بأنفسنا في السلم أغلينا، أي كنا ذوي ثمن غال

إنِّي لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أوائِلَهُمْ   قِيلُ الكُمَاةِ: ألا أين المُحَامُونا؟

أفنى أوائلَنا، آباءَنا وأجدادَنا، مناداةُ الكماة، أي المسلحين: أين من يحمي الشرف؟.. فإذ نسمع النداء نهب للمحاماة ونموت دون الشرف الرفيع

لو كان في الألْفِ مِنَّا واحِدٌ فَدَعَوْا: «مَنْ فَارِسٌ»؟ خَالَهُمْ إِيَّاه يَعنُونا

لو كان رجل من عشيرتنا وسط ألف من الناس الآخرين فانطلق النداء: من فارس؟ لظنهم يعنونه

إذا الكُمَاةُ تَنَحَّوْا أن يُصيبَهُمُ   حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاها بِأَيْدِينا

إذا تنحى المسلحون حتى لا يصيبهم حد الظبات، جمع ظُبَة وهي حد السيف، فإننا نمد السيوف ونطيلها بأيدينا لتصل إلى العدو

ولا تَراهُمْ، وإنْ جَلَّتْ مُصيبَتُهُمْ،   مع البُكاةِ على مَنْ مات يَبكُونا

ونَرْكَبُ الكُرْهَ أحياناً فَيَفْرِجُهُ   عنَّا الحِفَاظُ وأَسيافٌ تُوَاتِينا

نركب الكره، نقدم على القتال الصعب المكروه، فيفرجه ويبدده عنا الحفاظ، أي الغضب للشرف، والسيوف المهيأة للقتال

٩ إن الكرام قليل

قصيدة السَّمَوْأَل بنُ عَادِياء، ويقال: إنها لعَبدِ المَلِك بنِ عبد الرحيم الحارثي (ورجَّح هذا بروكلمان وشايعه فروخ):

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرضُه   فكُلُّ رِدَاءٍ يرتديهِ جَميلُ

المهم ألا يتسخ شرف الإنسان، وبعد ذلك فكل ما يرتديه من لباس جميل

وإنْ هُوَ لم يحمِلْ على النفسِ ضَيْمَها   فليس إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبيلُ

إذا لم يكن المرء حَسَن التحمل للضيم، المكاره والمصائب، فلن ينال السمعة الحسنة

تُـعَـيِّـرُنـا أنّـا قـلـيـلٌ عَـديـدُنـا   فـقـلـتُ لـهـا إنَّ الـكـرامَ قـلـيـلُ

هذه العاذلة تعيرنا بقلة العدد، ولكن الكرام ليسوا كثراً، ونحن كرام

ومَـا قَـلَّ مَـنْ كـانـتْ بَـقـايَـاهُ مِـثْـلَـنـا   شـبـابٌ تَـسـامَـى لِـلْـعُـلـى وكُـهـولُ

ومن كانت بقاياه، أي قومه الباقون بخلاف الأجداد الراحلين، مثلنا فهو ليس قليل العدد، فبقايانا هم شباب وكهول يتسامون، يرفعون أبصارهم، نحو المجد

ومـا ضَـرَّنـا أنّـا قـلـيـلٌ، وجَـارُنـا   عـزيـزٌ، وجَـارُ الأَكْـثـريـنَ ذَلـيـلُ

لا تضرنا قلة عددنا، ذلك أن جارنا، أي من يستجير بنا، قوي لأننا نجيره وننصره، بينما من يستجير بالقبيلة الكثيرة العدد ذليل

لـنـا جَـبَـلٌ يَـحْـتَـلُّـهُ مَـنْ نُـجـيـرُهُ   مَـنـيـعٌ يَـرُدُّ الـطَّـرْفَ وَهْـوَ كَـلـيـلُ

لنا جبل يأوي إليه من يلتحق بنا طالباً النصرة، وهو منيع عال يرتد عنه البصر كليلاً متعباً

رَسَا أَصلُهُ تحتَ الثَّرَى، وسَمَا بِهِ   إلـى الـنَّـجْـمِ فَـرْعٌ لا يُـرامُ طـويـلُ

أصل جبلنا راسٍ راسخٌ تحت التراب، ورفع هذا الجبل إلى النجم فرع طويل لا يرام، أي قمة عالية لا تُطال

هُوَ «الأَبْلَقُ» الفَرْدُ الذي سارَ ذِكرُهُ   يَـعِـزُّ عـلـى مَـنْ كَـادَهُ ويَـطـولُ

وفوق الجبل حصننا الفرد المشهور، الأبلق، وهو يعز، يمتنع، على من كاده، أراده بشر

وإنّـا لَـقَـوْمٌ مـا نَـرَى الـقـتـلَ سُـبَّـةً   إذا مـا رَأَتْـهُ عـامِـرٌ وسَـلُـولُ

نحن لا نعتبر الموت قتلاً في الحرب سبة، مذمة، في حين ترى ذلك قبيلتا عامر وسلول

يُـقَـرِّبُ حبُّ الـموتِ آجالَـنـا لَـنـا   وتَـكْـرَهُـهُ آجـالُـهُـمْ فَـتَـطُـول

فحب الموت يقرب منا الموت، وأما أعمار أولئك فتطول لفرارهم من المواجهة

ومَـا مـاتَ مِـنَّـا سَـيِّـدٌ فـي فِـراشِـهِ   ولا طُـلَّ مِـنَّـا حـيـثُ كـانَ قَـتـيـلُ

لا يموت السيد منا في فراشه، وكل من مات منا فنحن نأخذ بثأره، ولا يطل دمه، أي لا يذهب هدراً

تَسيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نفوسُنا   وليستْ على غيرِ الظُّبَاتِ تَسيلُ

نفوسنا تسيل مثلما تسيل دماؤنا على الظبات، حد السيوف، ولا نموت غير هذه الميتة

صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ، وأَخْلَصَ سِرَّنَا   إنَـاثٌ أَطَـابَـتْ حـمْـلَـنـا وفُـحُـولُ

أنسابنا صافية لم يكدرها اختلاط، وقد أخلصت سرنا، أي حفظت أصلنا بحفظها للشرف، الإناث اللائي حملننا والذكور

عَلَوْنَا إلى خيرِ الظُّهورِ وحَطَّنَا لِوَقْتٍ إلى خيرِ البطونِ نُزُولُ

فنحن أشراف في ظهور آبائنا، وعندما آن الأوان نزلنا إلى بطون أمهاتنا

فنحنُ كَماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا كَهَامٌ، ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ

نحن كماء السحاب صفاء وليس في نصابنا، أي حدنا، كهام، أي حد كليل غير قاطع، وليس فينا بخيل

ونُنْكِرُ إن شِئْنا على الناسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنكِرُونَ القولَ حين نَقولُ

إذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلا قامَ سَيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قالَ الكرامُ فَعُولُ

إذا مات منا سيد قام سيد ذو منطق سديد وفعل شديد

وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دون طَارِقٍ ولا ذَمَّنا في النَّازِلِينَ نَزيلُ

ولا نخمد نارنا بل تظل موقدة حتى يراها الطارق، زائر الليل. ولا يذمنا من ينزل بنا لأننا نكرمه

وَأيَّامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنا لها غُرَرٌ معلومةٌ وَحُجُولُ

أيامنا، معاركنا، مشهورة، فهي كالخيل التي لها غرر، شعر أبيض على الرأس، وحجول، بياض في القوائم

وأسيافُنا في كلِّ شرقٍ ومغربٍ بِها مِنْ قِراعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

وسيوفنا بها فلول، أي هي مثلّمة غير قاطعة تشرذم حدها، من قراع، مضاربة، الدارعين أي لابسي الدروع

مُعَوَّدَةٌ أن لا تُسَلَّ نِصالُها فَتُغْمَدَ حتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

تعودت سيوفنا ألّا تسل ثم تعاد إلى أغمادها إلا بعد أن تستبيح قبيلة وتفتك بها

سَلي إن جهِلْتِ الناسَ عنَّا وعنْهُمُ وليس سواءً عالِمٌ وجَهُولُ

فإنَّ بَني الديَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ تدورُ رَحاهُمْ حَوْلَهُمْ وتَجولُ

بنو الديان محور الرحى، وسائر العشائر من قومهم تدور حولهم وتتبعهم، مثلما يدور حجرا الطاحون حول المحور

١٠ أصبتُ ولم أُصَب

قَطَرِيُّ بن الفُجَاءة المازني أحد زعماء الخوارج:

لا يَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحْجَامِ يومَ الوَغَى مُتَخَوِّفاً لِحِمَامِ

لا يفيد المرء الركون إلى التراجع في الوغى، أي الحرب، خائفاً من الحمام، أي الموت

فـلـقـد أرانِـيَ لِـلـرِّمـاحِ دَريـئَـةً مِـنْ عـن يَـمـيـنـيَ مَـرَّةً وأمـامـي

فأنا مثلاً أرى نفسي دريئة، أي عرضةً، للرماح من كل جهة

حتى خَضَبْتُ بِما تَحَدَّرَ مِنْ دَمي أَكنافَ سَرجي أوْ عِنانَ لِجَامي

ونزل دمي وتلوثت به أكناف سرجي، أي أطرافه، وعنان حصاني، أي المقود المربوط بلجامه، بتلك الحديدة في فمه

ثم انصَرَفْتُ وقد أَصبْتُ ولم أُصَبْ جَـذَعَ الـبَـصـيـرةِ قَـارِحَ الإِقْـدَامِ

ومع ذلك، انصرفت من المعركة وقد أصبت العدو ولم أصب بأذى مميت، وانصرفت وأنا جذع البصيرة، أفكاري جديدة.. فالجذع من الخيل الذي بلغ سنتين، وقارح الإقدام، قديم الشجاعة.. والقارح من الخيل من بلغ أقصى السن. وكان قطري قد اعتنق فكر الخوارج متأخراً فلذا قال إن بصيرته جذعة جديدة

١١ حمي الحديد عليهم

الأَشْتَر النَّخَعِيّ:

بَقَّيْتُ وَفْرِي، وانْحَرَفْتُ عنِ العُلا ولَقِيتُ أَضْيافي بِوَجْهِ عَبوسِ..

يدعو على نفسه مشترطاً: فلأكن بخيلاً أبقي وفري وأحتفظ بمالي، ولأبتعد عن المجد، ولألقَ ضيوفي بوجه رجل عابس..

إنْ لم أَشُنَّ على ابنِ حَرْبٍ غَارةً لم تَخْلُ يوماً مِنْ ذَهابِ نُفوسِ

.. هذا إن لم أشن غارة على ابن حرب، معاوية بن أبي سفيان بن حرب، لا تخلو من قتل. وكان الأشتر مع علي بن أبي طالب ضد معاوية

خَيْلاً كأَمثالِ السَّعَالي شُزَّباً تَعدُو بِبِيضٍ في الكَريهَةِ شُوسِ

سأقود خيلاً تشبه السعالي، الجنيّات، شزباً، ضامرة، تجري وعلى متونها رجال بيض كرام، شوس في الكريهة، غاضبون عابسون في الحرب

حَمِيَ الحديدُ عليْهِمُ، فكأَنَّهُ وَمَضَانُ بَرْقٍ أو شُعَاعُ شُموسِ

سخن حديد الدروع على المحاربين، وهو يلمع تحت الشمس كأنه البرق يومض أو شعاع الشمس

١٢ لو أنطقتني رماحهم نطقتُ

عمْروُ بنُ مَعْدِيكَرِب الزُّبَيْدِيّ الشاعر المخضرم:

ولَمَّا رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنها جَداولُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ فَاسْبَطَرَّتِ

لما رأيت الخيل زوراً، منحرفة مزورَّة، كأنها جداول الماء المتلوية بين الحقول، وقد أرسلت هذه الخيل لتجري واسبطرت، أي امتدَّت

وجَاشَتْ إِلَيَّ النفسُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ ... ورُدَّتْ على مَكْرُوهِها فاستَقَرَّتِ

جاشت نفسي، أي اضطربت، لأول وهلة ولكنني رددتها وأجبرتها على ما كرهته فاستقرت

عَلامَ تقولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقي ... إذا أنا لم أَطْعَنْ إذا الخيلُ كَرَّتِ

المعنى الملموح: إذا لم أطعن الأعداء بالرمح عندما تكر الخيل وتهجم فلا عذر لي في أن يكون الرمح ثقيلاً فوق كتفي

لَحَا اللَّهُ جَرْماً كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ ... وُجُوهَ كِلابٍ هَارَشَتْ فَازْبَأَرَّتِ

لعن الله قبيلة جرم كلما ذر شارق، كلما بزغت الشمس، فوجوههم كوجوه كلاب هارشت كلاباً أخرى، وواثبتها، فازبأرت، أي تهيأت للعراك

ظَلِلْتُ كأنِّي للرِّمَاحِ دَرِيئَةٌ ... أُقَاتِلُ عن أبناءِ جَرْمٍ وفَرَّتِ

ظللت عرضة للرماح، والدريئة شبه درع توضع للتدرب على الطعن، وأنا أقاتل دفاعاً عن قبيلة جرم بينما هي فرت من القتال

فَلَوْ أنَّ قَومي أَنْطَقَتْني رِماحُهُمْ ... نَطَقْتُ ولكنَّ الرماحَ أَجَرَّتِ

لو أن رماح قومي عملت في المعركة لنطقتُ أنا بمدحهم، ولكن رماحهم أجرَّت لساني، أي وضعتْ عوداً في لساني فلم ينطق، والإجرار شق لسان الفصيل ووضع عود فيه حتى لا يرضع من أمه الناقة

١٣ إن الجمال معادن

عمرو بن معْدِيكَرِب:

ليس الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ... فاعلَمْ، وإن رُدِّيتَ بُرْدَا

الجمال ليس أن تلبس مئزراً، أي ثوباً لما دون الخصر، ولا أن ترتدي فوقه برداً، ثوباً آخر كاسياً

إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ... ومَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدا

الجمال في المعدن الأصيل، وفي المناقب، أي الأعمال الشريفة، التي تورثك المجد

أَعدَدْتُ لِلحَدَثَانِ سَابِغَةً ... وعَدَّاءً عَلَنْدَى

أعددتُ لحوادث الدهر درعاً سابغة طويلة، وفرساً سريعاً علندى، غليظاً شديداً

نَهْداً، وذَا شُطَبٍ يَقُدُّ ... البِيضَ والأَبْدانَ قَدَّا

والفرس نهد، أي عالٍ، وأعددت سيفاً ذا حزوز يقطع البيض، أي الخُوَذ، والأجسام

وعَلِمْتُ أَنِّي يومَذَا ... كَ مُنَازِلٌ كَعْباً ونَهْدَا

قد عرفت أني سأقاتل هاتين القبيلتين

قَــوْمٌ إذا لَــبِـسُــوا الــحـــديـــ ـــدَ تَـنَـمَّــرُوا حَــلَــقَــاً وقِــدَّا

قوم إذا لبسوا الدروع تنمروا، أصبحوا شرسين؛ هم هكذا بدروعهم المنسوجة من حلقات الحديد، ومن القِدّ، أي الدروع المتخذة من الجلود السميكة

كُــلُّ امْــرِئٍ يَــجْــرِي إلــى يــومِ الــهِـيـاجِ بِـمَـا اسْـتَـعَـدَّا

يوم الهياج: المعركة

لَــمَّـــا رأيـــتُ نِــســـاءَنـــا يَـفْـحَـصْـنَ بِـالْـمَـعْـزَاءِ شَـدَّا

لما رأيت نساء قومي يفحصن، يطأن، بأقدامهن المعزاء، الحصى، ويركضن مسرعات

وبَــدَتْ لَـــمِــيــسُ كــأنَّــهـــا بَـــدْرُ الـــسَّـــمـــاءِ إذا تَــبَـــدَّا

وبرزت لميس كالبدر إذ يبدو في السماء

وبَـدَتْ مَـحـاسِـنُـهـا الـتـي تَـخْـفَـى، وكـانَ الأمـرُ جِـدَّا

وبرزت، في موقف الخوف والفرار، مفاتنها التي كانت خافية. وكانوا في معاركهم يصطحبون نساءهم خلف الجيش

نَــازَلْــتُ كَـبْـشَـهُـمُ، ولــم أَرَ مِــنْ نِــزالِ الــكَـبْـشِ بُــدَّا

عندئذ نازلت كبش الأعداء، بطلهم، ولم يكن لي بد من ذلك

هُــمْ يَــنــذِرُونَ دَمـــي وأَنْـــ ـــذِرُ إن لَــقِــيــتُ بِــأَنْ أَشُــدَّا

الأعداء ينذرون دمي، يهددون بقتلي، وأنا أتوعدهم بقتال شديد

كــم مِــنْ أَخٍ لِــيَ صَــالِــحٍ بَــوَّأْتُــهُ بِــيَــدَيَّ لَــحْــدا

ما أكثر ما بوأت، وضعت في، أخاً صالحاً قبره بيدي

مــا إنْ جَـزِعْـتُ ولا هَـلِـعْـــ ـــتُ، ولا يَــرُدُّ بُـكَــايَ زَنْــدَا

لا أضطرب لموت صحبي، ولو اضطربت وبكيت فإن بكائي لا يرد زنداً، أي شيئاً تافهاً، فكيف يرد عليَّ من قد مات؟

أَلْــبَــسْــتُــهُ أَثْــوَابَــهُ وخُـلِـقْـتُ يـومَ خُـلِـقْـتُ جَـلْـدَا

كفنت صاحبي، فأنا جلد، متماسك شديد منذ خلقت

أُغْــنِــي غَــنــاءَ الــذَّاهِــبِــيـــ ـــنَ، أُعَــدُّ لِــلأَعْــدَاءِ عَــدَّا

بموت صحبي فإنني أغني عن فقدهم، وأنا أعَدُّ بإزاء الأعداء برجال كثيرين، أي هو كألف رجل

ذَهَــبَ الــذيــن أُحِــبُّــهُــمْ وبَـقِـيـتُ مـثـلَ الـسـيـفِ فَـرْدَا

فالسيف في غمده منفرد وحيد

١٤ طعنة الثائر

قيسُ بنُ الخَطِيمِ مِنَ الأَوْس وهو مُخضْرَم، ولم يسلم:

طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القيسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ   لَـهـا نَـفَـذٌ لـولا الـشَّـعَـاعُ أَضَـاءَهـا

طعنته طعنة ثائر، آخذ بالثأر، والطعنة لها نفذ، فتحة نافذة من الجهة الأخرى، ولولا الشعاع، أي الدم المنتشر، لرأيت ضوءاً من خلال هذا الثقب

مَلَكْتُ بِها كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَها   يَـرَى قَـائِـمٌ مِـنْ دونِـهـا مَـا وَراءَهـا

تمكن كفي من الرمح فأنهرت فتق الطعنة، وسعته، وغدا الواقف أمام الطعنة يرى ما وراءها لأنها قد اخترقت الجسم

وكـنـتُ امْـرَأً لا أَسْـمَـعُ الـدهـرَ سُـبَّـةً   أُسَـبُّ بِـهـا إِلَّا كَـشـفْـتُ غِـطـاءَهـا

وكنت لا أُذَمُّ إلا غسلت العار وحررت شرفي من المذمة

فَإِنِّيَ في الحربِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ   بِـإِقْـدامِ نـفـسٍ مَـا أُريـدُ بَـقَـاءَهـا

أنا في الحرب الشديدة كفيل بأن أكون مقداماً لا يحرص على بقاء نفسه، فيرمي نفسه على الموت

إذا ما اصْطَبَحْتُ أَرْبَعاً خَطَّ مِئْزَرِي   وأَتْبَعْتُ دَلْوِي في السَّماحِ رِشَاءَها

إذا اصطبحت أربعاً، شربت أربع كؤوس في الصباح، جررت ثوبي فصنع خطاً على الأرض، وسخوت وبذلت مالي، والسماح هو السماح بالمال. . فكأنني بهذا السخاء الزائد كمن أدلى دلوه في البئر وبالغ فألحق بالدلو الرشاء، أي الحبل

مَتَى يَأْتِ هذا الموتُ لا تَبْقَ حَاجَةٌ   لِـنفْـسِـيَ إِلَّا قـد قَـضـيـتُ قَـضـاءَهـا

أبادر بتحقيق مرادي فلا يأتي الموت إلا وقد حققت ما أريد

ثَأَرْتُ عَدِيّاً والخَطيمَ فلم أُضِعْ   وِلايَـةَ أَشْـيَـاخٍ جُـعِـلْـتُ إِزاءَهـا

أخذت ثأري لجدي عدي، ولأبي الخطيم، ولم أُضعْ ما توليته بحق آبائي، أي هذه الولاية التي أنيطت بي

١٥ اعتذار للفرار

الحارث بن هشام المخزومي، أخو أبي جهل، وهو مخضرم
(قالها وقد فرّ يوم بدر وكان مع قريش):

الله يَـعْـلَـمُ مـا تَـركْـتُ قِـتَـالَـهُـمْ   حتى عَلَوْا فَرسي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

ما فررت من المعركة إلا بعد أن جعلوا على فرسي دماً. كذا فسرها المرزوقي والتبريزي

ووجَدْتُ ريحَ الموتِ مِنْ تِلقائِهِمْ   في مَأزِقٍ، والخيلُ لم تَتَبَدَّدِ

ووجدت رائحة الموت من جهتهم وأنا في مأزق والخيل متراصة لم تتفرق

وعلمتُ أنِّي إن أُقاتِلْ واحداً   أُقْتَلْ، ولا يَضْرُرْ عَدُوِّيَ مَشْهَدي

وعلمت أني سأقتل إن بقيت مفرداً، ولن أستطيع إلحاق أذى بالعدو

فَصَدَدْتُ عنهُمْ والأحِبَّةُ فيهِمُ   طَمَعاً لَهُمْ بِعِقابِ يوم مُرْصِدِ

فتراجعت عنهم وقد بقي لديهم أحبتي ممن قتلوا، وقد قتل في بدر أبو جهل وهو أخو الشاعر، وطمعت بأن تكون لنا جولة أخرى

١٦ تأخرت ثم تقدمت

الحُصَينُ بنُ الحُمَامِ المُرِّيّ، الشاعر الجاهلي:

تأَخَّرْتُ أَستَبْقي الحياةَ فلم أَجِدْ   لِنَفسي حَياةً مثلَ أن أَتقَدَّما

تأخرت عن المعركة كي أحفظ حياتي، فوجدت الحياة الشريفة في التقدم والقتال

فلسْنا على الأعقَابِ تَدْمَى كُلُومُنا   ولكنْ، على أَقْدامِنا تَقْطُرُ الدِّمَا

نحن لا تدمى كلومنا، أي تنزف دماً جراحنا، على الأعقاب، على مؤخر القدم، بل تقطر الدماء على أمشاط أقدامنا من الأمام ونحن نواجه العدو

نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ رِجالٍ أَعِزَّةٍ   علينا، وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأظْلَمَا

نفلق رؤوس الأعداء وهم عزيزون على قلوبنا، ولكنهم تميزوا بالعقوق والظلم

فلستُ بِمُبْتاعِ الحياةِ بِسُبَّةٍ   ولا مُبْتَغٍ مِنْ رَهبةِ الموتِ سُلَّما

لا أريد الحياة ومعها مذمة الجبن، ولا أبتغي سلماً أصعد فيه هرباً من الموت

١٧ ونقتلكم كأنا لا نبالي

رجل من بني عُقَيْل، وحارَبَهُ بنو عمه فقتَل منهم:

بِكُرْهِ سَراتِنا يَا آلَ عَمْرٍو   نُغَادِيكُمْ بِمُرْهَفَةٍ صِقَالِ

يا آل عمرو، نغاديكم، أي نصبّحكم بالسيوف المرهفة الحادة والمصقولة، وسراتنا، أي سادتنا، لذلك كارهون

نُعَدِّيهِنَّ يومَ الرَّوْعِ عنكُمْ   وإن كانَتْ مُثَلَّمَةَ النِّصَالِ

نبعد سيوفنا يوم المعركة عنكم، وإن كانت نصالها قد تثلمت من قتالكم، فنحن لا نريد استئصالكم

لـهـا لَـوْنٌ مِـنَ الـهَـامَـاتِ كَـابٍ   وإن كـانَـتْ تُـحَـادَثُ بِـالـصِّـقَـالِ
لسيوفنا لون كاب، داكن، من ضرب الهامات، أي الرؤوس، رغم أننا نجدد لها الصقل

ونَبكي حين نقْتُلُكُمْ عليْكُمْ   ونـقـتُـلُـكُـمْ كـأنَّـا لا نُـبَـالـي

١٨ القاتل النادم

القتَّال الكِلابي، وهو شاعر إسلامي:

نَـشَـدْتُ زِيـاداً والـمَـقَـامَـةُ بـيـنَـنـا   وذَكَّـرْتُـهُ أرْحَـامَ سِـعْـرٍ وهـيـثَـمِ
ناشدت زياداً والمقامة، أي المجلس، بيننا والناس شهود على كلامي، وذكَّرته بالقرابات في معشريْ سعر وهيثم

فـلـمَّـا رأيـتُ أنَّـهُ غـيـرُ مُـنْـتَـهٍ   أَمَـلْـتُ لـه كَـفِّـي بِـلَـدْنٍ مُـقَـوَّمِ
لما رأيته مستمراً على غيه لا ينتهي عنه مالت كفي عليه برمح مرن لكنه مستقيم مقوم مثقف

ولـمَّـا رأيـتُ أنـنـي قـد قـتـلـتُـهُ   نَـدِمْـتُ عـلـيـه أيَّ سـاعـةِ مَـنْـدَمِ

١٩ القاطع بنانه

قيس بن زهير العبسي الشاعر الجاهلي:

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بنِ بَدْرٍ   وسيفِي مِنْ حُذَيْفَةَ قد شَفَاني
شفيت نفسي بقتل هذين الرجلين. فحمل كان قتل أخا الشاعر، فقتله الشاعر وقتل أخاه حذيفة أيضاً

فإنْ أَكُ قـد بَـرَدْتُ بِـهِـمْ غَـلـيـلـي   فـلـم أَقْـطَـعْ بِـهِـمْ إلَّا بَـنـانـي
فإن كان برد غليلي، حقدي، فإنني بقتلي الأقربين كأنما قطعت أصابعي

٢٠ سيصيبني سهمي

الحارث بن وَعْلَة الذُّهْلي وهو جاهلي:

قَـوْمـي هُـمُ قَـتَـلُـوا أُمَـيْـمَ أَخـي   فـإذا رَمَـيْـتُ يُـصـيـبُـنـي سَـهـمـي
فـلـئِـنْ عَـفَـوْتُ لأعْـفُـوَنْ جَـلَـلاً   ولـئِـنْ سَـطَـوْتُ لأوهِـنَـنْ عَـظْـمـي
لو عفوت فسأكون عفوت عن أمر جلل خطير؛ ولو سطوت، هجمت، وانتقمت فسوف أضعف عظمي لأنني إنما أنتقم من أقاربي

لا تَـأْمَـنَـنْ قَـومـاً ظَـلَـمْـتَـهُـمُ   وبَـدَأْتَـهُـمْ بـالـشَّـتْـمِ والـرَّغْـمِ
الرغم: الإذلال

٢١ بين الأخ والابن

أعرابي قتل أخوه ابناً له:

أقولُ للنفسِ تَأْسَاءً وتَعْزِيَةً ... إحدَى يَدَيَّ أصابَتْني ولم تُرِدِ

أواسي نفسي وأعزيها قائلاً إن إحدى يدي أصابت الأخرى عن غير تعمد، فلا حاجة للثأر

كِلاهُمَا خَلَفٌ منْ فَقْدِ صاحِبِه ... هَذا أخي حينَ أدعُوهُ وذَا وَلَدي

كل منهما يسد مسد الآخر: هذا أخي وذاك ولدي

٢٢ سكاب علق

قال رجل من بني تميم، وسماه محققا شرح المرزوقي عبيدة بن ربيعة، وطلب منه ملك من الملوك فرساً يقال لها سكابِ فمنعه إياها:

أَبَيْتَ اللعْنَ إنَّ «سَكَابِ» عِلْقٌ ... نَفيسٌ، لا تُعَارُ ولا تُبَاعُ

أيها الملك فرسي سكابِ علق، أي شيء نفيس، لا تعار ولا تباع

مُفَدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ علينا ... يُجَاعُ لها العِيالُ ولا تُجَاعُ

نفديها بأنفسنا، ونكرمها ونجيع عيالنا لنطعمها

سَلِيلَةُ سَابِقَيْنِ تَناجَلاها ... إذا نُسِبَا يَضُمُّهُما الكُرَاعُ

هي سليلة فرس وحصان من السوابق السريعة، تناجلاها، فهي من أنجالهما، والأب والأم ينتسبان إلى الكراع، وهو حصان قديم مشهور

فلا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فيها ... ومَنْعُكَها بِشَيءٍ يُسْتَطَاعُ

ومن الممكن تعويضك بشيء عنها

٢٣ اللبن أم الدم

فلو أن حَيَّاً يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً ... لَسُقْنا لَهُمْ سَيْلاً مِنَ المالِ مُفْعَما

لو أن أولئك الحي، أي القوم، يقبل المال دية لقتلاه لسقنا مالاً مفعماً كثيراً، والمال تعني عندهم الإبل

ولكنْ أَبَى قومٌ أُصِيبَ أَخُوهُمُ ... رِضَا العَارِ فاخْتَارُوا على اللَّبَنِ الدَّمَا

ولكن أولئك القوم رفضوا الدية ولم يرضوا بالعار، واختاروا الدماء بدل لبن الإبل

٢٤ شعرك حول بيتك

عَنْتَرة بن الأَخرس من طيِّء، وتروى للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهبٍ:

أَطِلْ حمْلَ الشَّناءَةِ لِي وبُغْضِي وعِشْ ما شئتَ فانظرْ مَنْ تَضِيرُ

ابق على كرهك لي حاملاً الشناءة، البغض، وعش ما شئت من العمر وانظر هل تستطيع أن تلحق بي الأذى

فَمَا بِيَدَيْكَ خَيرٌ أَرْتَجِيهِ وغيرُ صُدُودِكَ الخَطْبُ الكبيرُ

فليس في يدك خير أرجو نواله، وصدودك عني ليس بالمشكلة الكبيرة

ألم تَرَ أن شِعريَ سَارَ عَنِّي وشِعْرُكَ حولَ بَيْتِكَ لا يَسيرُ

شعري مشهور يسير عني ويرحل بعيداً، وشعرك يظل حول بيتك لا ينتشر ولا يرويه الرواة

إذا أَبْصَرْتَنِي أَعْرَضْتَ عَنِّي كأنَّ الشمسَ مِنْ قِبَلِي تَدُورُ

عندما تراني تعرض عني مثلما يعرض المرء ويحول وجهه عن الشمس لشدة وهجها

٢٥ لا نحبكم

الفضل بن العباس بن عُتْبة بن أبي لهب وقد عاصر الجريرين:

مَهلاً بني عمِّنا مَهلاً موالِينا لا تَنْبِشُوا بينَنا ما كان مَدفُونا

موالينا: حلفاؤنا

مَهلاً بني عمِّنا عن نَحتِ أَثْلَتِنا سِيرُوا رُوَيْداً كما كنْتُمْ تَسيرونا

لا تنحتوا أثلتنا، والأثلة من الشجر ونحت الأثلة كناية عن الغيبة وتأريث الصدور، وسيروا سيرة حسنة كما كنتم تسيرون

لا تَطمَعُوا أن تُهينُونا ونُكْرِمَكُمْ وأن نَكُفَّ الأذَى عنكُمْ وتُؤْذُونا

اللَّهُ يعلَمُ أنَّا لا نُحِبُّكُمُ ولا نَلُومُكُمُ أنْ لا تُحِبُّونا

كلٌّ لهُ نِيَّةٌ في بُغْضِ صاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ نَقْلِيكُمْ وتَقْلُونَا

نقليكم: نكرهكم

٢٦ ملأت عليه الأرض

الطِّرِمَّاحُ بنُ حكيم الطائيّ، وهو شاعر أموي:

لقد زادَني حُبّاً لِنَفْسِيَ أنَّني بَغيضٌ إلى كلِّ امْرِئٍ غيرِ طَائِلِ

أحببت نفسي أكثر لأنني بغيض، مكروه مُبْغَضٌ، من جانب كل شخص غير طائل، غير ذي فضل

وأنّي شَقِيٌّ بالِلّئامِ ولا تَرى   شقيّاً بِهِمْ إلّا كَريمُ الشَّمائِلِ

وأحببتها لأنني أجد شقاء وتعباً من اللئام، ولن تجد شخصاً يتعبه لئام الناس إلا وجدته كريم الشمائل، أي الخصال

إذا مَا رَآني قَطَّعَ الطَّرْفَ بينَه   وبَيْنِيَ، فِعْلَ العَارِفِ المُتَجَاهِلِ

هذا الشخص إذا رآني قطّع طرفه، أي صرف نظره عني مرة بعد مرة، كما يفعل من يعرف شخصاً لكنه يريد تجاهله

مَلأْتُ عليهِ الأرضَ حتّى كأنّها   مِنَ الضيقِ في عينيهِ كَفَّةُ حَابِلِ

لقد غمرته بشخصيتي وسمعتي فكأنهما ملآ الأرض عليه، فصارت الأرض ضيقة في عينيه كأنشوطة الصائد التي تضيق وتضيق عندما تمسك بالطريدة

أَكُلُّ امْرِئٍ أَلْفَى أَبَاهُ مُقَصِّراً   مُعَادٍ لِأَهْلِ المَكْرُمَاتِ الأَوائِلِ

هل كل شخص وجد نسبه ضئيلاً يعادي أهل المكارم الأولى، العريقة القديمة؟

إذا ذُكِرَتْ مَسْعَاةُ وَالِدِهِ اضْطَنَى   ولا يَضْطَني مِنْ شَتْمِ أهلِ الفَضائلِ

إذا جاء ذكر مسعاة، فضل، والده ورأى أن والده لا يملك شرفاً اضطنى، تألم وشعر بالضنى، ولكنه لا يتألم من شتم أهل الفضل

وما مُنِعَتْ دارٌ ولا عَزَّ أهلُها   مِنَ الناسِ إلّا بِالقَنَا والقَنَابِلِ

ما حُميت دار قوم ولا أصبح أهلها أعزة كراماً إلا بالقنا، أي الرماح، والقنابل، جماعات الخيل

٢٧ دبلوماسية جاهلية

قال بعض بني فَقْعَس:

وذَوي ضِبَابٍ مُظْهِرينَ عَداوَةً   قَرْحَى القُلوبِ مُعَاوِدي الأَفْنَادِ

ذوي ضباب، يحملون في صدورهم حيوان الضب. أي أنهم حاقدون، ويظهرون العداوة، وقلوبهم قرحى، مجروحة حقداً، ويكررون الأفناد، الإساءات

نَاسَيْتُهُمْ بَغْضَاءَهُمْ وتَركتُهُمْ   وهُمُ إذا ذُكِرَ الصَّديقُ أَعَادِ

تظاهرت بنسيان عداوتهم، وتركتهم مع أنهم - إذا عددت الصديق، أي الأصدقاء - يكون تصنيفهم مع الأعداء

كيْمَا أُعِدُّهُمُ لِأَبْعَدَ مِنهُمُ   ولقد يُجَاءُ إلى ذَوي الأَحْقَادِ

وقد تركتهم ليكونوا عوناً لي على ما هو مقبل عليّ، فقد يأتيني عدو أشرس منهم، وعندئذ يجاء، يؤتى إلى الحاقدين لطلب النصرة على من هم أشد حقداً وشراسة

٢٨ أمان من القصاص

عُوَيْف القَوافي، وهو أموي:

الـلُّـؤْمُ أكـرمُ مِـنْ وَبْـرٍ ووالِـدِه　　والـلـؤمُ أكـرمُ مِـنْ وَبْـرٍ ومَـا وَلَـدَا

اللؤم نفسه أكرم من قبيلة وبر، ومن والدها، أي جدها، واللؤم أكرم من أولادهم

والـلـؤمُ داءٌ لِـوَبْـرٍ يُـقـتَـلُـون بِـه　　لا يُـقْـتَـلُـون بِـدَاءٍ غـيـرِه أبـدا

اللؤم داء لهؤلاء القوم فهم يموتون لؤماً، ولا يموتون ميتة الكرام بالحرب مثلاً

قـومٌ إذا مـا جَـنَـى جَـانـيـهِـمُ أَمِـنُـوا　　مِنْ لُؤْمِ أَحسابِهِمْ أن يُقْتَلوا قَوَدَا

فهم لئام أخسة، وإذا جنى الجاني منهم جناية لم يطلب أهل القتيل القود، أي القصاص، لأن قدر قبيلة وبر منحط جداً فلا يعد الرجل منهم مكافئاً لأي رجل من أي قبيلة أخرى

٢٩ الصبر بالحر أجمل

إبراهيم بن كُنَيْف النبهاني:

تَـعَـزَّ فـإنَّ الـصـبـرَ بِـالـحُـرِّ أَجـمـلُ　　ولـيـس عـلـى ريـبِ الـزمـانِ مُـعَـوَّلُ

انس الحزن وتسل عنه، فالصبر أليق بالإنسان الحر، ولا يعول المرء على النجاة من ريب الزمان، أي من مصائبه

فلو كان يُغنِي أن يُرَى المرءُ جَازعاً　　لِحَادثةٍ أو كـان يُـغـنـي الـتـذَلُّـلُ. .

لو كان الجزع والاضطراب لحادثة، لمصيبة، أو لو كان يغني التذلل. .

لـكـانَ الـتَّـعـزِّي عـنـد كـلِّ مُـصـيـبـةٍ　　ونَـائِـبـةٍ بِـالـحُـرِّ أَوْلَـى وأَجْـمَـلُ

لكان الصبر للمصيبة ـ رغم ذلك ـ أولى بالحر. يقول: حتى بافتراض أن الجزع مفيد فمع ذلك الصبر أجمل

فـكـيـف وكـلٌّ لـيـس يَـعْـدُو حِـمـامَـهُ　　وما لِامْرِئٍ عمَّا قَضى اللَّهُ مَزْحَلُ

فكيف والأمر غير ذلك. . فالمرء لا يتجنب حمامه، موته، وليس لأحد مزحل، أي مهرب، عن قضاء الله

٣٠ ذهب الرقاد

عُوَيْف القوافي الفزاري في عُيينة عندما حبسه الحجاج
(رغم أن عيينة كان طلّق أخت عويف):

ذهـبَ الـرُّقـادُ فـمـا يُـحَـسُّ رُقـادُ　　مِـمَّـا شَـجـاكَ، ونـامَـتِ الـعُـوَّادُ

ذهب النوم عنك بسبب ما آلمك، وأما الآخرون من العواد، الزوار، فقد ناموا، فأنت وحدك صاحب المصيبة الكبرى

لـمَّـا أتـانِـيَ عــن عُـيَـيْـنَـةَ أنــه   أمــسـى عــلـيــه تَـظَـاهَـرُ الأَقْـيَـادُ
ذهب نومي لما أتاني أن عيينة تظاهرت عليه الأقياد، تكاثرت على جسمه القيود في السجن

نَـخَلَتْ له نفسي النصيحةَ إنه   عند الشدائدِ تذهبُ الأحقادُ
عندئذ نخلتْ له نفسي النصيحة، أعطيته نصيحة صافية كأنها منخلة تنخيلاً، رغم ما بيننا من خصام، فعند الشدائد تذهب الأحقاد

وذكرتُ: أيُّ فتىً يَسُدُّ مكانَه   بالرِّفْدِ، حين تَقاصَرُ الأَرْفَادُ
ذكرت أنه لا يوازيه في الرفد، أي العطاء، أحد، ولا يسد مسده أحد حين تقل الأعطيات

أم مَنْ يُهينُ لنا كَرائِمَ مالِهِ   ولنا إذا عُدْنا إليه مَعادُ
ومن ذا سواه يهين لنا كرائم ماله، أي يبذل لنا الإبل الكريمة، وإن عدنا نطلب عاد للعطاء؟

ورأيتُ في وجهِ العدوِّ شَكَاسَةً   وتنكَّرتْ ليَ أَوْجُهٌ وبِلادُ
بفقدان النصير رأيت في وجه العدو شكاسة، شراسة، وأحسست أن البلاد والعباد تنكروا لي. البيت يقفز بالمعنى عما قبله قفزاً، ألهذا أغفلته روايتا التبريزي والمرزوقي؟ غير أننا أحببنا معناه فأخذناه عن رواية الجواليقي عن أبي رياش في الكتاب المطبوع بتحقيق عبد المنعم صالح وإصدار وزارة الثقافة العراقية (عمران القفيني يرى البيت حسن الاتصال بما قبله، فبعد حبس الصديق رأى الشاعر أن الأعداء اجترأوا عليه)

٣١ أنا السيف

بشر بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة، وقد جفاه أقاربه:

جَفَانِي الأميرُ والمُغيرةُ قد جَفَا   وأمسى يزيدٌ لِي قد ازْوَرَّ جَانِبُهْ
تنكر لي الأمير، والمغيرةُ تنكر أيضاً، ويزيد قد ازورَّ، انحرف، عني

وكلُّهُمُ قد نالَ شِبْعاً لِبطنِه   وشِبْعُ الفتى لؤمٌ إذا جاعَ صاحبُهْ
لقد شبعوا فلم يأبهوا لي، وهذا لؤم

فيا عَمِّ مهلاً واتَّخِذْني لِنَوْبةٍ   تَنوبُ فإن الدهرَ جَمٌّ نَوائبُهْ
مهلا يا عمي، واجعلني من رجالك كي أنفعك في نوبة تنوب، مصيبة تطرأ، والدهر كثير المصائب

أنا السيفُ إلَّا أن لِلسيفِ نَبْوَةً   ومثليَ لا تنبُو عليكَ مَضارِبُهْ
أنا سيف، والسيف ينبو وينحرف عن الضريبة، ومثلي لا تنحرف مضاربه، أي أهدافه، وأنا معك

٣٢ تراكم المصائب

تنسب لمؤرِّج بن فَيْد السَّدوسي:

رُوِّعْتُ بِالبَيْنِ حتى ما أُراعُ له ... وبِالمَصائبِ في أهلي وجيراني

فجعني الزمن بالبين، بالفراق، حتى إنني تعودت ولم أعد أجزع، وفجعني بالمصائب في الأهل والجيران

لم يَتركِ الدهرُ لي عِلْقاً أَضِنُّ به ... إلا اصْطَفاهُ بِنأْيٍ أو بِهِجْرانِ

لم يترك لي الدهر علقاً، شيئاً ثميناً، أضن به، وأحافظ عليه، إلا اختاره بأن ينأى ويبعد أو بأن يهجرني

٣٣ تمتع بالحياة أينما كنت

وقال آخر، وذكر أنها لإبراهيم بن العباس الصولي:

لا يمنعنَّكَ خَفْضَ العيشِ في دَعَةٍ ... نزوعُ نَفْسٍ إلى أهْلٍ وأوْطانِ

لا يمنعْك نزوع النفس، اشتياقها، إلى الأهل والوطن من أن تتمتع بخفض العيش، الحياة الهانئة الوادعة

تَلقَى بِكُلِّ بِلادٍ إن حَلَلْتَ بِها ... أَهْلاً بِأَهْلٍ وجيراناً بِجيرانِ

ففي كل بلد تحل بها أهل وجيران بدلاً من أهلك وجيرانك الأولين

٣٤ ذل اليتيمة

إسحق بن خلف:

لولا أُميمةُ لم أجْزَعْ مِنَ العَدَمِ ... ولم أَجُبْ في اللَّيالي حِنْدِسَ الظُّلَمِ

لولا ابنتي أميمة لم أخف من العدم، الفقر، ولم أتجشم أهوال السفر وجوب الفيافي في حندس الظلم، في العتمة والظلام

وزادَني رَغبةً في العيشِ مَعرِفَتي ... ذُلَّ اليتيمةِ يَجفُوها ذَوُو الرَّحِمِ

تزداد رغبتي في العيش كلما تذكرت أن اليتيمة تتعرض لقسوة المعاملة من الأقارب

إذا تَذَكَّرْتُ بِنتي حين تَنْدُبُني ... فاضَتْ لِعَبْرَةِ بِنتي عَبرتي بِدَمِ

أتذكر كيف ستنوح علي ابنتي إذا مت، فتفيض عبرتي، دمعتي، مخلوطة بالدم.. أكره الموت لأن موتي سيحزنها

أُحاذِرُ الفقرَ يوماً أن يُلِمَّ بِها ... فَيَهْتِكَ السِّترَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ

أحاذر من الفقر لأنه سيهتك ستر هذه البنت الصغيرة التي لا تقدر على شيء فكأنها قطعة لحم على الوضم، خشبة الجزار

تَهوَى حياتي وأهْوى مَوْتَها شَفَقاً ... والموتُ أكرمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ

أود لو تموت ابنتي خوفاً عليها من الذل، والموت أكرم شيء يحل بالحرم، النساء. معنى قديم تداوله وائدو بناتهم، وظلوا يتداولونه في العصر العباسي، وظل كثير من العرب ـ حتى يومنا ـ يشعرون بهذا الشعور نفسه

أخشَى فَظاظَةَ عَمٍّ أو جَفاءَ أَخٍ ... وكنتُ أخْشَى عليها مِنْ أذَى الكَلِمِ

كنت أخشى على بنتي الكلمة الجارحة، ولو مت فأنا أخشى عليها فظاظة العم وتنكر الأخ

٣٥ أولادنا أكبادنا

حَطَّان بن المُعَلَّى:

أَنْزَلَني الدهرُ على حُكْمِهِ ... مِنْ شَامِخٍ عالٍ إلى خَفْضِ

جعلني الزمن أخضع لحكمه، فبعد الشموخ تطامنت نفسي وذلت للأمر الواقع

وغَالَني الدهرُ بِوَفْرِ الغِنَى ... فليس لي مَالٌ سوى عِرضي

وغالني الدهر، غدر بي، في مالي، فلم يعد لي مال سوى عرضي

أبكانِيَ الدهرُ، ويَا رُبَّما ... أضحَكَني الدهرُ بِما يُرضي

أبكاني الدهر، وكثيراً من أضحكني وأرضاني في الماضي

لولا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ القَطا ... رُدِدْنَ مِنْ بعضٍ إلى بعضٍ..

لولا بناتي اللاتي كأنهن طيور القطا الزغب، ذوات الريش الصغير، واللاتي يلتصقن بعضهن ببعض كتلك الفراخ استدفاء واجتلاباً للأمان..

لكانَ لي مُضْطَرَبٌ واسعٌ ... في الأرضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

لكان لي مضطرب، سعي، واسع في جنبات الأرض

وإنَّما أولادُنا بينَنا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ

لو هبَّتِ الريحُ على بعضِهِمْ ... لامْتَنَعَتْ عيني مِنَ الغَمْضِ

٣٦ حديد ونشيد

لقد عَلِمَ القبائلُ أن قَومي ... ذَوُو جِدٍّ إذا لُبِسَ الحديدُ

قومي جادون إذا لبسوا الدروع وحملوا السلاح

وأنَّـا نِـعْـمَ أَحـلاسُ الـقَـوافـيِ إذا اسْـتَـعَـرَ الـتَّـنـافُـرُ والـنَّـشـيـدُ

ونحن أحلاس القوافي، الملازمون للقصائد كملازمة السرج أو الحلس لظهر الفرس، إذا كان المقام مقام إنشاد وتفاخر

٣٧ الود المستريح

قال رجل من بني أسد:

وما أنا بِالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الذي إذا صَدَّ عَنِّي ذو الـمَـوَدَّةِ أَحْـرَبُ

لست بالجبان الدنيء، الحريص على الصغائر، ولا أحرب، أي أغضب، إذا صد عني وقاطعني صاحب

ولـكـنـنـي إن دامَ دُمْـتُ وإن يَـكُـنْ له مَـذهَـبٌ عـنِّـي فَلِـي عنه مَذْهَـبُ

إن دام الصاحب بمودته دمت له، وإن ذهب فلي عنه ذهاب ولا أتوسل طلباً لمودته

أَلَا إن خـيـرَ الـوُدِّ وُدٌّ تَـطَـوَّعَـتْ به النفسُ لا وُدٌّ أَتَى وَهْوَ مُتْعَبُ

أحسن الود ما جاء طواعية، وليس ما اختلط بكثير من النكد

٣٨ الإكرام والاقتفاء

بُكَيْر بن الأخنس الطائي يمدح آل المهلب:

نـزلـتُ عـلـى آلِ الـمُـهَـلَّـبِ شَـاتِـيـاً غريباً عن الأوطانِ في زمنٍ مَحْلِ

حللت ضيفاً على آل المهلب في الشتاء، والشتاء هو زمن القحط والشدة عند أهل الصحراء

فـمـا زالَ بـيِ إِكـرامُـهُـمْ واقْـتِفَـاؤُهُـمْ وإِلْطَافُهُـمْ حتَّـى حسبْتُـهُـمُ أهـلي

أكرموني وأحسست باقتفائهم، تفقدهم لشأني، حتى حسبتهم أهلي

٣٩ مذاهب الصعلوك

أبو النَّشناش، وهو من اللصوص في دولة بني أمية:

ونـائـيـةِ الأَرجـاءِ طَـامِـسَـةِ الـصُّـوَى خَدَتْ بِأَبي النَّشْنَاشِ فيها ركائِبُهْ

رب صحراء نائية الأرجاء، النواحي، وطامسة الصوى، أي مطموسة المعالم.. فالصوة هي العلامة على الطريق، وفي هذه الصحراء خدت الركائب، سارت الإبل سيراً يسمى الوخيد، وعليها أبو النشناش

لِيُكْسِـبَ مـجـداً أو لِـيُـدْرِكَ مَـغْـنَـمـاً جـزيـلاً وهـذا الـدهـرُ جَـمٌّ عـجَـائِـبُـهْ

أراد أن يُكسبَ قومه مجداً بمقارعة أعدائهم، أو يدرك مغنماً بسرقة إبل لقوم آخرين، فما أعجب الدهر!

وسَـائِلَـةٍ بِـالـغيْـبِ عنِّـي وسـائـلٍ ومَنْ يَسأَلُ الصُّعْلُوكَ أين مَذَاهِبُهْ؟

وفي غيبتي يتساءلون أين ذهب، والصعلوك المشرد لا يُسأل عن مذاهبه، أي الأماكن التي يذهب إليها

فلـم أَرَ مثلَ الفقرِ ضَاجَعَهُ الفَتى ولا كَسَوَادِ اللَّيـلِ أَخْفَقَ طَالِبُهْ

لا شيء أمرُّ من الفقر يصحب الفتى حتى في فراشه،
ولا خيبة كخيبة من يخوض سواد الليل ويخفق

فَعِشْ مُعْدِماً أو مُتْ كريماً، فإنني أرى الموتَ لا يَنجُو مِنَ الموتِ هَارِبُهْ

عش معدماً، فقيراً، أو مت كريماً، وكلنا سيلحق به الموت

٤٠ وأحيانا على بَكرٍ أخينا

القُطامِي، واسمه عُمير التغلبي:

ومَـنْ تَـكُـنِ الـحَـضَـارَةُ أَعـجَـبَـتْـهُ فـأَيُّ رجـالِ بَـادِيَـةٍ تَـرانـا!

لئن أعجبت الحضارة، عيشة الحضر، بعض الناس فيا لنا من رجال بادية!

ومَـنْ رَبَـطَ الـجِـحَـاشَ فَـإِنَّ فـينـا قَـنـاً سُـلُـبـاً وأَفْـراسـاً حِـسَـانـا

هم يربطون الجحاش، الحمير، أمام بيوتهم، وعندنا القنا السلب، الرماح الطويلة،
والجياد الجميلة

وكُـنَّ إذا أَغَـرْنَ عـلـى جَـنَـابٍ وأَعْـوَزَهُـنَّ نَـهْـبٌ حـيـثُ كـانـا..

إذا أغارت خيلنا على قبيلة جناب ولم تجد شيئاً تنهبه..

أَغَـرْنَ مِـنَ الـضِّـبَـابِ عـلـى حُـلُـولٍ وضَـبَّـةَ، إنـه مَـنْ حَـانَ حَـانَـا

أغارت عندئذ على قوم حلول، نازلين، بذلك المكان من «الضباب»، ونغير على قوم «ضبة» ـ
وضبة جزء من الضباب وهم أربع قبائل ـ ومن حان أجله فقد حان

وأَحـيـانـاً عـلـى بَـكْـرٍ أَخـيـنـا إذا مـا لـم نَـجِـدْ إلا أَخَـانـا

وأحياناً نغير على قبيلة بكر، وهي من إخوتنا، إن لم نجد من نغير عليه سواها

٤١ كُلْ ما عُلفت

قال آخر، ورويت لنهشل بن حري:

لَـعَـمـري لَـرَهْـطُ الـمـرءِ خَيْـرٌ بَـقِـيَّـةً عـلـيـه وإن عَـالَـوْا بـهِ كـلَّ مَـرْكَـبِ

والله إن قوم الإنسان أفضل ما يبقي على عيشته وكرامته، حتى لو أركبوه المركب الصعب، أي
حمَّلوه المشقات

إذا كنتَ في قومٍ ولم تكُ منهُمُ   فكلْ ما عُلِفْتَ مِنْ خَبيثٍ وطَيِّبِ

فإن عشت وسط قومٍ آخرين غير قومك، فكُلْ ما علفوك خبيثاً كان أم طيباً.
والعلف طعام الحيوان

٤٢ شُبَّ الحرب

موسى بن جابر، وهو جاهلي نصراني:

وقلتُ لِزيدٍ لا تُتَرْتِرْ، فإنَّهُمْ   يَرَوْنَ المنايا دونَ قتلِكَ أو قَتلي

قلت لزيد لا تترتر، لا تعجل ولا تضطرب، فهم يعلمون أنهم يواجهون الموت قبل أن يصلوا إليك أو إليّ

فإن وضَعُوا حرباً فَضَعْها، وإن أَبَوْا   فَعُرْضَةُ عَضّ الحربِ مثلُكَ أو مثلي

إن وضعوا الحرب، تركوها، فاتركها،
وإن رفضوا ذلك فالجدير بالحرب والتعرض لها نحن

وإن رَفَعُوا الحربَ العَوانَ التي تَرى   فَشُبَّ وَقُودَ الحربِ بِالحَطَبِ الجَزْلِ

فإن جعلوها حرباً متواصلة عواناً، فشُبَّ وقود الحرب بأن تزيد عليها من الحطب الجزل، أي الصلب

٤٣ حميت حقيقتي

موسى بن جابر:

ألم تَرَيا أنِّي حَمَيْتُ حَقيقتي   وباشَرتُ حدَّ الموتِ، والموتُ دُونُها

ألم تريا أنني حفظت حقيقتي، أي شرفي، وواجهت الموت، والموت أهون عليَّ منها، أي من حقيقتي وشرفي

وجُدْتُ بِنفسٍ لا يُجَادُ بمثلِها   وقلتُ اطمَئِنِّي حين ساءتْ ظُنونُها

وسخيتُ بنفسي الكبيرة التي لا يُسخَى بمثلها، وهونت الخطر على نفسي وطمأنتها حين ساءت ظنونها، وداخلها الخوف

وما خيرُ مالٍ لا يَقي الذمَّ ربَّهُ   ونفسِ امْرِئٍ في حقِّها لا يُهينُها

لا خير في مال لا يحمي ربَّه، أي صاحبَه، من الذم. ولا خير في نفس امرئ إلا إن كان يحافظ عليها ولا يهينها في حقها

٤٤ صبرنا

الحصين بن الحُمَام المُرِّي:

ولـمَّـا رأيْـنـا الـصـبـرَ قـد حـيـلَ دونَـهُ ... وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظْلِما . .

لما رأينا الصبر قد حالت دونه المصاعب، وكان اليوم، و«اليوم» عندهم كلمة تنصرف كثيراً إلى الحرب، ذا كواكب مظلماً، كان يوم قتال مظلماً انعقد فيه الغبار فوق الرؤوس وكانت السيوف والأسنة تلمع في غباره كالكواكب . .

صبرْنا وكان الصبرُ منَّا سَجِيَّةً ... بِأَسيافِنَا يَقْطَعْنَ كفَّاً ومِعْصَما

مع ذلك فقد صبرنا والصبر سجية، طبع، فينا، وراحت سيوفنا تقطع الأكف والمعاصم

نُـفَـلِّـقُ هَـاماً مِـنْ رجـالٍ أَعِـزَّةٍ ... علينا، وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَما

نفلق هاماً، رؤوساً، من رجال يعزون علينا، لكنهم كانوا عاقين ظالمين

ولـمَّـا رأيـتُ الـوُدَّ لـيـس بِـنـافِـعـي ... عَمَدْتُ إلى الأمرِ الذي كان أَحْزَما

عندما رأيت الود لا ينفع عمدت إلى ما هو أقرب إلى الحزم والشدة

فـلـسـتُ بِـمُـبْـتَـاعِ الـحـيـاةِ بِـسُـبَّـةٍ ... ولا مُرْتَقٍ مِنْ خَشيةِ الموتِ سُلَّما

لا أشتري الحياة بقبول السبة، الذم، ولا أخاف الموت فأحاول الهرب منه

٤٥ قتل الملوك وقتالها

بَشامَة بن حَزْنٍ:

ولـقـد غَـضِـبـتُ لِـخِـنْـدِفٍ ولِـقَـيْـسِـهـا ... لـمَّـا وَنَـى عـن نـصـرِهـا خُـذَّالُـهـا

غضبت لقبائل خندف ولقيس بالذات، عندما توانى عن نصرها الذين خذلوها

دافَـعْـتُ عـن أَعـراضِـنـا فـمَـنـعـتُـهـا ... ولـديَّ فـي أمـثـالِـهـا أمـثـالُـهـا

دافعت عن أعراضنا فمنعت عنها الظلم، ولديَّ مثل ذلك الدفاع كلما دعت الحاجة

إنِّـي امْـرُؤٌ أَسِـمُ الـقَـصـائِـدَ لـلـعِـدَى ... إن الـقـصـائـدَ شَـرُّهـا أَغْـفَـالُـهـا

أنا اسمِّي الأعداء في قصائدي بأسمائهم لا أخشى، وشر القصائد أغفالها، ما كان الهجاء فيها عاماً غير محدد بالاسم

قَـوْمـي بَـنُـو الحربِ العَوانِ بِجَمْعِهِمْ، ... والـمَـشْـرَفِـيَّـةُ والـقَـنـا إِشْـعَـالُـهـا

قومي هم الذين يصبرون للحرب العوان، المتواصلة، وإشعال هذه الحرب يكون بالمشرفية، السيوف، وبالقنا، الرماح

مـا زالَ مَـعـرُوفـاً لِـمُـرَّةَ فـي الـوَغَـى   عَـلُّ الـقَـنَـا وعـلـيْـهِـمُ إنْـهَـالُـهـا

بنو مرة معروفون في الحرب بعل القنا وإنهالها: والعل هو الشرب للمرة الأولى، والنهل الشرب ثانيةً

مِـنْ عـهـدِ عـادٍ كـان مـعـروفـاً لـنـا   أَسْـرُ الـمُـلـوكِ وقـتـلُـهـا وقـتـالُـهـا

الملك في الجاهلية الزعيم القبلي المعروف، وكانت لفظة الملك في العهد العباسي تطلق على الأمير أو الوالي المتصرف في شؤون منطقته، دون أن تعني الحاكم المستقل عن الخلافة

٤٦ ليموتوا غيظاً

إن يَحْسُدونـي فإنـي غيـرُ لائِمِهِـمْ   قَبْلِي مِنَ الناسِ أَهْلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فـدامَ لـيِ ولَـهُـمْ مـا بـيِ ومـا بِـهِـمُ   ومـاتَ أكـثـرُنـا غـيـظـاً بِـمـا يَـجِـدُ

ليدمْ ما بي من الرفعة، وليدم ما بهم من الحسد، وليمت أكثرنا غيظاً، وهم وحدهم من يشعرون بالغيظ، بما يجد في صدره

٤٧ عدوى الحرب

الـشـرُّ يـبـدَأُهُ فـي الأَصْـلِ أَصْـغَـرُهُ   وليسَ يَصْلَى بِنارِ الحربِ جَانيِها

والحربُ يَلْحَقُ فيها الكارهونَ كما   تَدْنُو الصِّحَاحُ إلى الجَرْبَى فَتُعْدِيها

الكارهون للدخول في الحرب يجبَرون أخيراً على دخولها، فكأنهم يصابون بعدوى الحرب، كما تصاب الإبل الصحيحة بالجرب لمجاورتها الإبل الجربى

٤٨ الحب الممذوق

أُبَيُّ بن حُمامٍ العبسي:

ولـسـتُ بِـهَـيَّـابٍ لِـمَـنْ لا يَـهـابُـنـي   ولـسـتُ أرى لِـلـمرءِ مَا لا يَرى لِيـا

لا أهاب من لا يهابني، ولا أرى لأحد من واجب الاحترام ما لا يرى لي عليه

إذا الـمـرءُ لـم يُـحْـبِـبْـكَ إلا تَـكَـرُّهـاً   عِـرَاضَ الـعَـلُوقِ لـم يَـكُـنْ ذاكَ بَـاقِـيا

إذا أحبك المرء تكرهاً، مع بعض كراهية، عراض العلوق، والعلوق الناقة تحب ولدها فإذا جاء يرضع اعترضته وأبعدته عنها، فإن مثل هذه المحبة لا تدوم. وعند الألمان كلمة «هاس ليبه» ومعناها «الحب ـ الكُره» وهي أن يكون المرء في حبه إياك حالاتياً، تراه حيناً وكأنه كاره إياك، وحيناً كأنه محب. ولعل شاعرنا قد فسر في بيته الأول جانباً من السبب العميق لمثل هذا النوع من الشعور، فالذي يمارس عليك «الحب ـ الكره» ربما يريدك أن ترى له من الفضل ما لا يرى لك.. يريد ترويضك على أن تكون تابعاً له لا صديقاً

٤٩ صعلوك وصعلوك

عُروة بن الوَرد، الشاعر الجاهلي الصعلوك:

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَةَ مُنْذِرِ   ونَامِي، فإنْ لم تَشتَهِي النومَ فاسْهَري

قللي لومك يا امرأتي ونامي، أو إن شئت فاسهري ولكن، بلا لوم

ذَرِينِي أُطَوِّفْ في البِلادِ لَعلَّني   أُخَلِّيكِ، أو أُغنِيكِ عن سوءِ مَحْضَرِ

اتركيني أذرع البلاد لعلني أموت فأخلي سبيلك،
أو أحقق الثروة فأحميك من سوء المحضر بين الناس

لَحَا اللَّهُ صُعْلوكاً إذا جَنَّ لَيلُهُ   مُصافِي المُشَاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ

لعن الله صعلوكاً، أي بدوياً مشرداً مخلوعاً من قبيلته، إذا جنه، أي ستره، الليل ذهب ينتقي المشاش، العظم والغضاريف، مرتاداً أمكنة ذبح الماشية

يَعُدُّ الغِنَى مِنْ نفسِهِ كلَّ ليلةٍ   أَصابَ قِراها مِنْ صَديقٍ مُيَسَّرِ

وهو يعتبر نفسه قد حقق الغنى إذا أصاب قرى ليلته، نال طعام ضيف، عند صديق ذي مال

يُعينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ   ويُمسي طَليحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ

وهذا الصعلوك الذليل يقعد بين نساء الحي يساعدهن في شؤون البيت، ويأتي عليه المساء طليحاً، أي متعباً، كالبعير المحسر، أي المرهق

ولكنَّ صُعْلُوكاً صَفيحَةُ وجهِهِ   كَضَوْءِ شِهابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ..

ولكن الصعلوك الذي يكون وجهه مشرقاً كأنه الشهاب، شعلة النار، الذي يأخذه القابس المتنور، الذي يقبس ناراً لكي ينير بها موضعه..

مُطِلّاً على أعدائِهِ يَزْجُرُونَهُ   بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ..

.. هذا الصعلوك الذي يقترب من مضارب الأعداء فيصرخون به ليبتعد، فيبتعد عدواً كأنه سهم المقامرة الذي يرمى بقوة، والمنيح من أسهم القمار عند القدماء..

إذا بَعُدُوا لا يَأْمَنونَ اقتِرابَه   تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتَنَظَّرِ..

.. إذا ابتعد القوم عن مضاربهم لا يأمنون أن يعود الصعلوك ويقترب كي ينال منهم ويسرق من إبلهم، فهم مترقبون له ترقب أهل الغائب لعودته..

فذلِكَ إنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَها   حَميداً، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فَأَجْدِرِ

هذا الصعلوك إن لقي حتفه فهو يموت غير مذموم، وإن اغتنى فما أجدره بالغنى

٥٠ المعوَجّ والمستقيم

قيس بن زهير يذكر مقتل حُذيفة وحَمَلٍ ابني بدرٍ الفزاريين:

تَعَلَّمْ أنَّ خيرَ الناسِ مَيْتٌ   على «جَفْرِ الهَباءَةِ» لا يَريمُ

تعلَّم، أي اعلَم، أن خير الناس ميت في موضع جفر الهباءة ماكث هناك لا يريم، لا يفارق

ولولا ظُلْمُهُ ما زِلْتُ أبْكي   عليه الدهرَ ما طَلَعَ النجومُ

لولا أنه كان ظالماً لبكيت عليه طول الدهر وما دامت النجوم تطلع

ولكن الفَتى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ   بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخيمُ

لكن حمل بن بدر هذا بغى وظلم، والبغي مرتعه وخيم، عاقبته سيئة..

أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عليَّ قَومي   وقد يُسْتَجْهَلُ الرجلُ الحَليمُ

أظن أن حلمي دل عليَّ قومي، جعلهم يُدِلُّون عليَّ ويتمادون؛ والحليم قد يستجهل، يجعله الناس جاهلاً متهوراً مؤذياً بتماديهم في إيذائه

ومَارَسْتُ الرجالَ ومَارَسُوني   فمُعْوَجٌّ عليَّ ومُستقيمُ

عرفت الرجال وعجنتهم، وعرفت المستقيم والمعوج منهم

٥١ وصف الحرب

عبد الشَّارق بن عبد العُزَّى الجُهَني الجاهلي، وهي من المنصفات، لأنها أنصفت العدو ومدحت شجاعته:

وأرسَلْنا أبا عَمْروٍ رَئِيًّاً   فقال ألا انعَمُوا بِالقومِ عَيْنا

أرسلنا أبا عمرو رئياً، مستطلعاً خبر العدو، فقال: لتقر عيونكم، فلا خطر لهم

ودَسُّوا فارِساً منهُمْ عِشاءً   فلم نَغْدِرْ بِفارِسِهِمْ لدَيْنا

وبعثوا بفارس إلى معسكرنا فلم نغدر به

فنَادَوْا يا لَبُهْثَةَ إذ رأَوْنا   فقلْنا أَحْسِني ضَرباً جُهَيْنا

نادوا بنداء الحرب باسم قبيلتهم بهثة، فنادينا باسم قبيلتنا جهينة

سَمِعْنا دَعْوَةً عن ظَهْرِ غَيْبٍ   فَجُلْنا جَوْلَةً ثم ارْعَوَيْنا

سمعنا نداء من مكان لا نراه، فجلنا بالخيل جولة ثم ارعوينا، راجعنا أنفسنا، توقفنا عن القتال

فـلـمَّـا أن تَـواقَـفْـنـا قـلـيـلاً أَنـخْـنـا لِـلْـكَـلاكِـلِ فَـارْتَـمَـيْـنـا

وتواقفنا، وقف قومنا إزاء قومهم، ثم أنخنا الإبل للكلاكل، لصدورها، وأخذنا نترامى بالسهام عن بعد

فـلـمَّـا لـم نَـدَعْ قَـوْسـاً وسَـهْـمـاً مَـشَـيْـنـا نـحـوَهُـمْ ومَـشَـوْا إِلـيْـنـا

فلما فرغت الكنائن من السهام مشينا نحوهم ومشوا إلينا

تَـلأْلُـؤَ مُـزْنَـةٍ بَـرَقَـتْ لأُخْـرى إذا حَـجَـلُـوا بِـأَسْـيـافٍ رَدَيْـنـا

كأننا غيمة تبرق لغيمة أخرى أمامها لما بأيدينا من سيوف تلمع: فهم يحجلون بسيوفهم، يسعون هرولة، ونحن نردي، نسعى جرياً

شَـدَدْنَـا شَـدَّةً فـقـتَـلْـتُ مِـنْـهُـمْ ثَـلاثَـةَ فِـتْـيـةٍ وقـتـلـتُ قَـيْـنـا

هجمنا، فقتلت منهم ثلاثة وقتلت قيناً، أي عبداً

وشَـدُّوا شَـدَّةً أُخْـرى فَـجَـرُّوا بِـأَرْجُـلِ مِـثْـلِـهِـمْ ورَمَـوْا جُـوَيْـنـا

وهجموا فجروا أرجُل ثلاثة منا، ورموا «جوين»

وكـان أَخـي جُـوَيْـنٌ ذا حِـفَـاظٍ وكـان الـقَـتْـلُ لِـلْـفِـتـيـانِ زَيْـنـا

كان أخي جوين ذا محافظة على الشرف، والقتل لا يعيب الفتى بل يزينه

فـآبُـوا بِـالـرِّمـاحِ مُـكَـسَّـراتٍ وأُبْـنـا بِـالـسُّـيـوفِ قـد انْـحَـنَـيْـنَـا

فرجعوا برماحهم وقد انكسرت فينا، ورجعنا بسيوفنا وقد انحنت لكثرة الضرب فيهم

٥٢ الإخفاق المقبول

عُروة بن الوَرد العبسي:

ومَـنْ يَـكُ مِـثْـلِـي ذا عِـيـالٍ ومُـقْـتِـراً مِنَ المالِ يَطْرَحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ

من كان مثلي ذا عيال ومقتراً، أي فقيراً، فهو يعرض نفسه لكل المخاطر

لِـيَـبْـلُـغَ عُـذْراً أو يـنـالَ رَغـيـبَـةً ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ

حتى يكون له العذر أمام عائلته إن أخفق، أو ينال رغيبة، نجاحاً، ومن سعى فأخفق فنال عذراً وتجنب اللوم كان كمن نجح

٥٣ شاعر القبيلة

هُدْبَة بن خَشْرم الشاعر الإسلامي:

وإِنِّـي مِـنْ قُـضَـاعَـةَ مَـنْ يَـكِـدْهـا أَكِـدْهُ، وَهْـيَ مِـنِّـي فـي أَمـانِ

سأوذي من يؤذي قبيلتي قضاعة، وهي في أمان مني فأنا لا أوذيها

ولستُ بِشَاعِرِ السَّفْسَافِ فيهِمْ ... ولكنْ مِدْرَهُ الحَربِ العَوَانِ
ولست شاعر السفساف، الأبيات الركيكة، بل مدره الحرب العوان، بطل الحرب الطويلة

سَأهجُو مَنْ هَجاهُمْ مِنْ سِواهُمْ ... وأُعرِضُ مِنهُمُ عَمَّنْ هَجانِي
أهجو من هجاهم، وأما إذا هجاني أحد منهم فأنا أتجاهله

٥٤ في الرأس أكثري

الشَّنفَرَى الأزْدي الشاعر الجاهلي الصعلوك:

ولا تَقبُروني إنَّ قَبري مُحَرَّمٌ ... عليْكُمْ، ولكِنْ أَبْشِري أُمَّ عَامِرِ
لا تدفنوني فقبري، أي دفني، محرم عليكم، ولكن أبشري بالطعام يا أم عامر، وأم عامر هي الضبع.. يريد أن تأكل الضباع جسمه عندما يقتل

إذا احتَمَلُوا رأسِي وفي الرأسِ أَكْثَرِي ... وغُودِرَ عند المُلْتَقَى ثَمَّ سائري..
أبشري أيتها الضبع إذا حمل الأعداء رأسي بعد قتلي، وفي رأسي كل الحواس، وتُرك سائر جسمي عند موضع المعركة..

هُنالِكَ لا أرجُو حياةً تَسُرُّني ... سَجِيسَ اللَّيالي مُبْسَلاً بِالجَرائِرِ
في ذلك الموقف لا أرجو حياة تسرني أصلاً لأنني سجيس الليالي، طول الدهر، سأظل مبسلاً بالجرائر، معرضاً للخذلان والتسليم للأعداء بسبب جرائري، أي جرائمي

٥٥ أنا ابن قيس لا براح

سعد بن مالك الشاعر الجاهلي، وقيل هو جد طرفة بن العبد:

يا بُؤسَ لِلحَرْبِ التي ... وضَعَتْ أَرَاهِطَ فاسْتَراحُوا
ما أسوأ الحرب التي وضعت أراهط، أذلت قوماً، فاستراحوا منها وبقي عليهم الذل

كَشَفَتْ لهُمْ عن ساقِها ... وبدا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ
كشفت الحرب عن ساقها لهم، وكأنهم جعلوا كشف الساق للحرب لأنهم هم يرفعون أثوابهم ويشمرون للحرب.. وبدا من الشر الصراح، الواضح الحقيقي

صَبراً بَني قَيْسٍ لَها ... حتى تُريحُوا أو تُرَاحُوا
يا لَيلةً طَالَتْ عَلَيَّ ـ ... تَفَجُّعاً، فَمَتى الصباحُ؟
هيهاتَ حَالَ الموتُ دو ... نَ الفَوْتِ وانْتُضِيَ السلاحُ
حال الموت دون الفوت والنجاة، وسل القوم السيوف

كَـيْـفَ الـحَـيَــاةُ إذا خَـلَـتْ   مِـنَّــا الـظَّـواهِـرُ والـبِـطَــاحُ

كيف تكون الحياة إذا خلت بموتنا الظواهر، النواحي، والبطاح، الأراضي المنخفضة

أيْــنَ الأعِـــزَّةُ والأسِـــنَّـــ   ـةُ عِـنْـد ذلـك والـسَّــمَــاحُ

عندئذ يذهب القوم الأعزة الذين يحملون الرماح ذوات الأسنة، ويذهب السماح والكرم

مَــنْ صَــدَّ عَــن نـيـرانِـهــا   فــأنــا ابــنُ قـيــسٍ لا بَــراحُ

فلئن صد بعض الناس عن الحرب فأنا ابن قيس لا براح، لا أتراجع ولا أغادر موقف الشرف

٥٦ الأخوال

غسان بن وَعْلة أحد بني مرة بن عباد، ويقال: إنها للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا كنتَ في سَعْدٍ وأُمُّكَ مِنْهُمُ   غَريباً فلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ مِنْ سَعْدِ

إذا كنت مقيماً عند أخوالك بني سعد غريباً، فلا تغتر بالأخوال

فإنَّ ابْنَ أُخْتِ القومِ مُصْغَىً إنَاؤُهُ   إذا لم يُزَاحِمْ خَالَهُ بِأَبٍ جَلْدِ

فابن الأخت إناؤه مصغى، مائل.. كناية عن الذلة، إذا لم يزاحم خاله بأب جلد، شجاع.
المعنى أن الرجل عند أخواله لا يكون موضع ترحيب إلا إن كان نسبه لأبيه عزيزاً،
فعندئذ يكرمه أخواله

٥٧ أنزل قيساً بالهوان

بعض بني جُهينة، في وقعةٍ كانت لكلبٍ وفزارة:

أَلَا هل أتى الأنصارَ أنَّ «ابنَ بَحْدَلٍ   حُمَيْداً» شفَا كَلْباً فقَرَّتْ عُيونُها

انتقم حميد بن بحدل لقبيلة كلب فقرت عيونها، فَسُرَّت بذلك

وأَنـزَلَ قَـيْـسـاً بِـالـهَـوانِ ولـم تـكـنْ   لِـتُـقْـلِـعَ إلَّا عـنـدَ أمـرٍ يُـهـيِـنُـهـا

وأذل قيساً، وما كانت لتكف عن ظلمها إلا إذا أُذلت

فقد تُرِكَتْ قَتلى حُمَيْدِ بْنِ بَحْدَلٍ   كثيراً ضَواحِيها قليلاً دَفينُها

تُرك الذين قتلهم حميد هذا ضاحين، معرضين للشمس بالعراء، وقليل منهم من قد دفن

فإنَّا وكَلْباً كَاليَدَيْنِ متى تَقَعْ   شِمَالُكَ في الهَيْجَا تُعِنْها يَمِينُها

فنحن وقبيلة كلب كاليدين في الحرب تعاون إحداهما الأخرى

٥٨ ويحب ناقتها بعيري

وقال المنخَّل بن الحارث اليَشْكُري الشاعر الجاهلي القديم:

إن كـنـتِ عـاذِلـتـي فَـسـيـري ... نـحـوَ الـعـراقِ ولا تَـحُـوري

إن كنت لائمة لي فسيري نحو العراق ولا تحوري، لا ترجعي

لا تَـسـألـي عـن جُـلِّ مَـا ... لـي، وانْـظُـري كَـرَمـي وخِـيـري

لا تسألي عن مالي وما بقي منه، وانظري إلى كرمي، شرفي، وسخائي

وفَـوارِسٍ كَـأُوَارِ حَـرِّ ... الـنـارِ أَحْـلاسِ الـذُّكُـورِ

ورب فوارس، فرسان، كأنهم لهيب النار، وهم أحلاس الذكور أي ملازمون للسيوف. والسيف الذكر ما كان حده من حديد «ذكر» ومتنه من حديد «أنيث». قال صاحب «التاج» إن الحديد الذكر أيبس الحديد وأجوده وأشده

شَـدُّوا دَوابِـرَ بَـيْـضِـهِـمْ ... فـي كـلِّ مُـحْـكَـمَـةِ الـقَـتـيـرِ

شدوا دوابر بيضهم، مؤخر خوذاتهم، بقفا الدروع بالقتير المحكم، بالمسامير المثبتة بقوة

واسْـتَـلأَمُـوا وتَـلَـبَّـبُـوا ... إن الـتَّـلَـبُّـبَ لِـلْـمُـغـيـرِ

استلأموا، لبسوا اللأمات وهي الدروع، وتلببوا، أي تحزموا، كي يشنوا الغارة

وعـلـى الـجِـيَـادِ الـمُـضْـمَـرا ... تِ فَـوارِسٌ مِـثْـلُ الـصُّـقُـورِ

فوق الخيل المضمرة، التي رُكِضَت كي تنحل ويقوى عضلها، فوارس متأهبون مثل الصقور

يَـخْـرُجْـنَ مِـنْ خَـلَـلِ الـغُـبـا ... رِ يَـجِـفْـنَ بِـالـنَّـعَـمِ الـكـثـيـرِ

تخرج الخيل من وسط الغبار، ويجفن، يسرعن، بالإبل الكثيرة.. فقومه سارقو إبل

أقـرَرْتُ عـيْـنـي مِـنْ أُولَـ ... ـئِـكَ والـفَـوائِـحِ بِـالـعَـبـيـرِ

سعدت بقومي أولئك، وسعدت بالنساء اللاتي يفوح منهن العبير

يَـرْفُـلْـنَ فـي الـمِـسْـكِ الـذَّكِـيِّ ... وصَـائِـكٍ كَـدَمِ الـنَّـحـيـرِ

يمشين وحولهن غمامة من ريح المسك، وعليهن الصائك، الزعفران اللاصق بهن المشبه في لونه دم البعير النحير، أي المنحور المذبوح

ولـقـد دخَـلْـتُ عـلـى الـفـتـا ... ةِ الـخِـدْرَ فـي الـيـومِ الـمَـطِـيـرِ

دخلت خدر الفتاة، أي الموضع المغطى بستر داخل الخيمة المخصص للنساء، في يوم مطير

اَلـكـاعِـبِ الـحَـسْـنَـاءِ تَـرْ ... فُـلُ فـي الـدِّمَـقْـسِ وفـي الـحَـريـرِ

الكاعب، الفتاة التي برز ثدياها، التي تتبختر وهي ترتدي الدمقس، أي الحرير الأبيض

فــدفَــعْــتُــهــا فــتَــدافَــعَــتْ   مَــشـيَ الـقَـطـاةِ إلـى الـغَـديـرِ

القطاة: طائر. ويبدو أنه يسير إلى الماء متبختراً

ولَـثِـمْـتُـهـا فـتَـنَـفَّـسَـتْ   كـتـنَـفُّـسِ الـظَّـبْـيِ الـغَـرِيـرِ

لثمتها، قبلتها، فتنفست كأنها الظبي الغرير، الصغير

فـدَنَـتْ وقـالـتْ يـا مُـنَـخَّـ   ـلُ مَـا بِـجِـسْـمِـكَ مِـنْ حَـرُورِ؟

كأنها أحست أن جسمه حار

مـا شَـفَّ جِـسـمـي غـيـرُ حُـبِّـ   ـكِ، فـاهْـدَئـي عـنِّـي وسـيـري

ما شف جسمي وبراه غير حبك، فاهدئي

يـا رُبَّ يـومٍ لِـلْـمُـنَـخَّـ   ـلِ قـد لَـهَـا فـيـهِ قَـصـيـرِ

لها: من اللهو

وأُحِـبُّـهَـا وتُـحِـبُّـنـي   ويُـحِـبُّ نَـاقـتَـهـا بَـعـيـري

يـا هـنـدُ مَـنْ لِـمُـتَـيَّـمٍ   يـا هـنـدُ لِـلْـعَـانـي الأَسـيـرِ

العاني: الأسير

ولـقـد شَـرِبْـتُ مِـنَ الـمُـدا   مَـةِ بِـالـصَّـغـيـرِ وبِـالـكـبـيـرِ

شرب من الخمر بالقدح الصغير والكبير

فـإذا انـتَـشَـيْـتُ فـإنَّـنـي   رَبُّ الـخَـوَرْنَـقِ والـسَّـدِيـرِ

إذا انتشيت، أي سكرت، حسبت نفسي رب، أي صاحب، قصري الخورنق والسدير بالحيرة

وإذا صَـحَـوْتُ فـإنَّـنـي   رَبُّ الـشُّـوَيْـهَـةِ والـبَـعـيـرِ

وإذا صحوت عدت صاحب الشاة والجمل لا غير

٥٩ ولكنه لم يطر

أُبَيّ بن سُلْمِيّ بن ربيعة بن زبَّان الضبي:

وخـيـلٍ تـلافَـيْـتُ رَيْـعَـانَـهـا   بِـعِـجْـلِـزَةٍ جَـمَـزَى الـمُـدَّخَـرْ

رب خيل تلافيت ريعانها، سبقتُ أوائلها وفتُّها، بفرس عجلزة، صلبة، جمزى المدخر، سريعة تدَّخر قوتها للوقت المناسب كي تجري فتسبق

سَبُوحٍ إذا اعترَضَتْ بالعِنَانِ   مَرُوحٍ مُلَمْلَمَةٍ كَالحَجَرْ

سبوح، سريعة، إذا لوت رأسها بالعنان، أي الرسن، فهي مروح، أي تمرح، وهي ململمة كالحجر، لعلها تنطلق بسرعة كما الحجر!

فلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قبْلَها   لَطارَتْ، ولكنَّهُ لم يَطِرْ

لو كان أي ذي حافر، أي فرس، قد طار قبلها لطارت، لكنه - بالمناسبة - لم يطر. هل يريدنا الشاعر أن نضحك مثلاً.. غريبة هذه الفكاهة على الشعر القديم

٦٠ بئري

سِنان بن الفحل من طيء وهو أموي:

وقالوا قد جُنِنتَ، فقلتُ كلَّا   ورَبِّي ما جُنِنْتُ ولا انْتَشَيْتُ

انتشيت: سكرت

ولكنِّي ظُلِمْتُ فكِدْتُ أبكي   مِنَ الظُّلْمِ المُبَيَّنِ أو بَكَيْتُ

فإنَّ الماءَ ماءُ أبي وجَدِّي   وبِئرِي ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

هذه التي اغتصبوها بئري التي حفرتها والتي طويتها، أي زنرتها بالحجارة. و«ذو» في لغة قبيلة طيء معناها التي أو الذي

٦١ جيش تسجد له الجبال

إياس بن مالك الطائي:

سَمَوْنا إلى جيشِ الحَرُورِيِّ بَعدَمَا   تَنَاذَرَهُ أعرابُهُمْ والمُهَاجِرُ

سمونا، صعدنا وتصدينا، لجيش الحروري، الخارجي المقيم بقرية حروراء، بعد أن أخذ الأعراب والمهاجرون من سكان الحواضر ينذرون بعضهم بعضاً منه..

بِجَمْعٍ تَظَلُّ الأُكْمُ سَاجِدَةً لهُ   وأَعْلامُ سَلْمَى والهِضابُ النَّوَادِرُ

تصدينا له بجيش يصعد الأكم، التلال، فكأنها تسجد تحت زحفه، ويصعد أعلام سلمى، قمم جبل سلمى، ويصعد الهضاب النوادر، النادّة الناتئة

فلمَّا ادَّرَكْنَاهُمْ وقد قَلَصَتْ بِهِمْ   إلى الحَيِّ خُوصٌ كالحَنِيِّ ضَوامِرُ..

عندما لحقنا بهم وقد قلصت، أي أسرعت، بهم إبل خوص، ضيقة العيون، كأنها الحني، الأقواس لضمورها ونحولها..

أَنَخْنَا إِلَيهِمْ مِثْلَهُنَّ، وزَادُنا   جِيادُ السيوفِ والرماحُ الخَواطِرُ

أنخنا إبلنا المشابهة لإبلهم في النحول، وكانت عدتنا السيوف الجيدة والرماح الخواطر، التي تتحرك جيئة وذهابا

كلا ثَقَلَيْنَا طَامِعٌ بِغَنيمَةٍ   وقد قَدَرَ الرحمنُ ما هُوَ قَادِرُ

كلا ثقلينا، أي جيشينا، طامع بالانتصار ونيل الغنائم، والأمر لله بعد ذلك

فلم أَرَ يوماً كان أكثرَ سَالِباً   ومُسْتَلَباً سِرْبَالُه لا يُنَاكِرُ

فلم أر يوماً أكثر من ذلك اليوم من حيث عدد السالبين، الآخذين عتاد ولباس صرعاهم، والمسلوبين القتلى الذين تسلب ثيابهم ولا يعترضون على ذلك لأنهم موتى

وأكثرَ مِنَّا يَافِعاً يَبتغي العُلا   يُضَارِبُ قِرْنَاً دَارِعاً وَهْوَ حَاسِرُ

ولم أر أكثر من الشبان اليافعين في جيشنا الذين يريدون من المعركة اكتساب المجد، فالواحد منهم يضارب، أي يبارز بالسيف، قرناً دارعاً، خصماً يلبس درعاً، بينما هو حاسر، لا درع عليه

فمَا كَلَّتِ الأَيْدِي ولا انْأَطَرَ القَنَا   ولا عَثَرَتْ مِنَّا الجُدُودُ العَوَاثِرُ

لم تتعب الأيدي، ولا انأطر القنا، لم تنثنِ الرماح، ولا عثرت جدودنا، ما انتكست حظوظنا

٦٢ لتنهى القبائل جهالها

عُبَيْد بن مَاوِيَّة الطائي:

أَلَا حَيِّ لَيلى وأَطلالَها   ورمْلَةَ رَيَّا وأَجْبَالَها

يرسل تحيته إلى المحبوبة وإلى أطلال منازل قومها، وإلى مكان محبوبة أخرى هي ريا

وأَنْعِمْ بِما أَرْسَلَتْ بَالَها   ونَالَ التحيَّةَ مَنْ نَالَها

ويا لحظٌ من تعطيه المحبوبة انتباهها، ولمن ينال منها تحية. هذا هو المعنى الملموح

فإِنِّي لَذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ   إذا رَكِبَتْ حَالَةٌ حَالَها

أنا صاحب مِرَّة، قوة، مرَّة صعبة على العدو عندما تختلط الأمور

أُقَدِّمُ بِالزَّجْرِ قبل الوَعيدِ   لِتَنْهَى القَبائِلُ جُهَّالَها

أبدأ بالزجر، التحذير القاسي، ثم الوعيد، التهديد، كي تنهى القبائل جهالها، أي المتهورين من أبنائها عن أفعالهم

وقَافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنَا   نِ تَبقَى ويَذهَبُ مَنْ قَالَها

ورب قافية، لعله يقصد بيتاً، قوية فعالة كأنها حد السنان الذي في رأس الرمح، وهي من الخوالد اللاتي يبقين بعد موت الشاعر

تَـجَـوَّدْتُ فـي مَـجْـلِـسٍ واحِـدٍ   قِـرَاهـا وتِـسـعـيِـنَ أَمـثـالَـهـا

وقد قلت في مجلس واحد تسعين بيتاً جيداً. كذا المعنى الملموح

٦٣ نشتم بالأفعال

معبد بن علقمة:

وغُيِّبْتُ عن قَتلِ الحُتَاتِ وليْتَني   شَهِدْتُ حُتَاتاً يومَ ضُرِّجَ بِالدَّمِ

كنت غائباً عند مقتل الحتات، وليتني شهدت حين ضرج بالدم قتيلاً

وفي الكفِّ مِنِّي صَارِمٌ ذُو حَقيقَةٍ   متى ما يُقَدَّمْ في الضَّريبَةِ يُقْدَمِ

في يدي سيف صارم قاطع، ذو حقيقة، أي ذو شرف، إذا كان متقدماً نحو الضريبة، الهدف، فهو صائب لا ينحرف

فَيَعْلَمَ حَيَّا مَالِكٍ ولَفيفُها   بأنْ لَسْتُ عن قَتْلِ الحُتَاتِ بِمُحْرِمِ

ليتني شهدت ذلك اليوم حتى تعلم عشيرة مالك ولفيفها، أتباع تلك القبيلة، أنني لست ممتنعاً عن قتل الحتات ولا هائبا الاشتراك في دمه

فقلْ لِزُهيرٍ إن شتمْتَ سَراتَنا   فلسنا بِشتَّامِينَ للْمُتَشَتِّمِ

قل لزهير: إن شتمت سادتنا، فنحن نرفع أنفسنا عن الرد بالشتم

ولكنَّنا نَأْبَى الظِّلامَ، ونَعْتَصي   بِكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُصَمِّمِ

لكننا نأبى الظلم، ونعتصي، نمتنع ونحتمي، بكل سيف رقيق الحدَّين، قاطع

وتَجْهَلُ أَيْدِينَا ويَحْلُمُ رأيُنا   ونَشْتُمُ بالأفعالِ لا بالتَّكَلُّمِ

أيدينا تجهل، تتهور، ولكن رأينا حليم، وشتمنا يكون بالفعل لا بالكلام

وإن التَّماديِ في الذي كان بينَنا   بِكَفَّيْكَ، فاسْتَأْخِرْ له أو تَقَدَّمِ

والآن فإن التمادي في الخصومة السابقة أصبح بيديك، فإما أن تتراجع وإما أن تتقدم

٦٤ اصطياد العدو

أَوْس بن حَبْنَاء:

إذا المرءُ أَوْلَاكَ الهَوانَ فَأَوْلِهِ   هَواناً وإن كانتْ قَريباً أَوَاصِرُهْ

إذا منحك شخص الهوان، الانتقاص من قدرك فبادله بمثل ما فعل، حتى وإن كانت أواصره، العلاقات معه، قريبة

فإن أنتَ لم تَقْدِرْ على أن تُهِينَه　　فَذَرْهُ إلى اليومِ الذي أنتَ قادِرُهْ

إن لم تقدر على إهانته فاتركه إلى اليوم الذي تقدر فيه على ذلك

وقارِبْ إذا ما لم تَكُنْ لَكَ حيلَةٌ　　وصَمِّمْ إذا أيْقَنْتَ أنكَ عاقِرُهْ

قارب، أي كن قريباً منه مراقباً إياه، إن لم تكن لك حيلة، طريقة، عليه. فإذا أيقنت أنك قادر على عقره، ذبحه، فصمم وأقدم بقوة

٦٥ اللين الفظ

سعد بن ناشِب المازني:

تُفَنِّدُني فيما تَرى مِنْ شَراسَتي　　وشِدَّةِ نفسي أمُّ سَعْدٍ وما تَدري

تفندني، وتسفه رأيي، أم سعد لما تراه من شراستي وشدتي، وهي لا تدري حقيقة أمري

فقلتُ لها إنَّ الكريمَ وإن حَلَا　　لَيُلْفَى على حَالٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ

قلت لها إن الكريم، حتى وإن كان أخلاقه حلوة سمحة، فهو يُرى في وضع آخر وطباعه أمر من نبات الصبار

وفي اللينِ ضَعْفٌ والشَّراسَةُ هَيْبَةٌ　　ومَنْ لم يُهَبْ يُحْمَلْ على مَرْكَبٍ وَعْرِ

اللين فيه ضعف، والشراسة تعزيز للهيبة، ومن لم يجعل الناس يهابونه فسوف يكون وضعه صعباً كمن ركب بعيراً شكساً

وما بي على مَنْ لانَ لي مِنْ فَظَاظَةٍ　　ولكنَّني فَظٌّ أَبِيٌّ على القَسْرِ

من لان لي فلست معه فظاً، ولكنني فظ على من يريد أن يقسرني، يجبرني على الأمور

أُقيمُ صَغَا ذي المَيْلِ حتى أَرُدَّهُ　　وأَخْطِمُهُ حتى يَعودَ الى القَدْرِ

أقيم، أي أعْدل، صغا، أي ميل، المائل وأعيده إلى صوابه، وأخطمه، أي أربطه بحبل كالبعير، حتى يعرف قدره ولا يتجاوزه

فإن تَعذِليني تَعْذِلي بي مُرَزَّأً　　كريمَ نَثَا الإعْسَارِ، مُشتَرَكَ اليُسْرِ

فإن تلوميني فإنما تلومين في شخصي رجلاً مرزأ، كثير الفقد لماله، وكريم نثا الإعسار، كريمة أخباره وهو معسر فقير لأنه يحفظ شرفه عند الفقر؛ ومشترك اليسر، فإذا أيسر واغتنى شارك غيره في ماله

إذا هَمَّ أَلْقَى بين عينيْهِ عَزْمَهُ　　وصَمَّمَ تَصميمَ السُّرَيْجِيِّ ذي الأُثْرِ

إذا هم بأمر وضعه نصب عينيه وصمم تصميم السريجي، السيف، ذي الأثر، النقش

٦٦ التكاتف

قُرَاد بن عبَّاد:

إذا المرءُ لم يغضبْ له حين يَغضبُ فَوارسُ إن قيلَ اركَبُوا الموتَ يَركَبُوا..

إذا لم يغضب لغضب المرء فرسان يلبون نداءه ويركبون خيلهم نحو القتال المميت..

ولم يَحْبُهُ بالنصرِ قومٌ أَعِزَّةٌ مَقاحِيمُ في الأمرِ الذي يُتَهَيَّبُ..

وإذا لم يحبه، لم يمنحه، النصر، النصرة والمؤازرة،
قوم أعزة يقتحمون الأمر المخوف الذي يهابه الناس..

تَهضَّمَهُ أَدنَى العَدُوِّ، ولم يَزَلْ، وإن كان عِضَّاً، بالظُّلَامَةِ يُضْرَبُ

عندئذ يتهضمه، يظلمه، أقل الأعداء شأناً، ويظل يتعرض للظلم حتى وإن كان عضاً، مجرباً قوياً

فآخِ لِحالِ السِّلْمِ مَنْ شئتَ، واعْلَمَنْ بأنَّ سِوى مَولاكَ في الحربِ أَجْنَبُ

في وقت السلم اصنع صداقة مع من تريد، وفي الحرب فالذي يقف معك مولاك، حليفك، فقط
وأما سواه فسيتجنب الخوض في حربك

ومَوْلاكَ مَوْلاكَ الذي إن دَعَوْتَهُ أجابَكَ طَوْعاً والدماءُ تَصَبَّبُ

احفظ مولاك، حليفك، الذي يجيب دعوتك حتى وهو يرى الدماء تتصبب

فلا تَخْذُلِ المَوْلَى وإن كان ظالماً فإنَّ بِهِ تُثْأَى الأُمورُ وتُرْأَبُ

لا تخذل حليفك حتى وإن كان ظالماً. فبالحليف تثأى الأمور،
ترتق، وترأب، تُصلح

٦٧ العمر واحد

قد عَلِمَ المُسْتَأْخِرونَ في الوَهَلْ

قد عرف المتأخرون عن القتال القابعون في الوهل، الخوف

إذا السيوفُ عُرِّيَتْ من الخِلَلْ

إذا السيوف عريت من أغمادها واستلت

أنَّ الفِرارَ لا يَزيدُ في الأَجَلْ

أن فرارهم لا يضمن لهم حياة مديدة

٦٨ المعمُّ المخول

وقال رجل من بني نمير:

نـعـرِّضُ لـلـطِّـعَـانِ إذا الـتـقَـيـنـا وُجـوهـاً لا تُـعَـرَّضُ لـلـسِّـبـابِ

نعرض لطعن الرماح في المعركة وجوهنا التي لا نعرضها للسباب والمذمة

فـآبـائـي سَـراةُ بَـنـي نُـمَـيْـرٍ وأَخـوالـي سَـراةُ بَـنـي كِـلابِ

آبائي سراة، أي سادة، بني نمير، وأخوالي سادة بني كلاب

٦٩ المجرب العتيق

قَبِيصَة بن جابرٍ النصراني الجَرْمي:

وجَـرَّبْـتُ الأُمـورَ وجَـرَّبَـتْـنـي كـأَنِّـي كـنـتُ فـي الأُمَـمِ الـخَـوالـي

جربت كثيراً حتى كأنني حضرت الأمم الخوالي، الأمم البائدة

لنا الحِصْنانِ مِنْ «أَجأٍ» و«سَلْمَى» وشَـرقِـيَّـاهُـمـا غَـيـرَ انـتِـحَـالِ

لنا الحصنان، ويعني الجبلان، أجأ وسلمى.. وهم جبلا قبيلة طيء في شمال الحجاز، ولنا الأرض إلى الشرق منهما ملكاً أصيلاً غير منتحل

وتَـيْـمَـاءُ الـتـي مِـنْ عـهـدِ عـادٍ حَـمَـيْـنـاهـا بِـأَطـرافِ الـعَـوالـي

ولنا حصن تيماء الذي حميناه بأطراف العوالي، أي الرماح، من عهد عاد

٧٠ ترميني الحدق

سالم بن وَابِصَة:

عـليكَ بـالقَصْدِ فيما أنتَ فاعِلُهُ إنِ الـتـخَـلُّـقَ يـأتـي دونَـهُ الـخُـلُـقُ

عليك بالقصد، الاعتدال؛ والتخلقُ، أي التطبع، يسبقه الخلق الأصيل

ومَوقِفٍ مثلِ حَدِّ السيفِ قُمْتُ به أَحمي الذِّمارَ وتَرميني به الحَدَقُ

ورب موقف دقيق كأنه حد السيف وقد قمت بحقه، وحميت الذمار، الشرف، وكانت الحدق ترميني، الأنظار متجهة إليّ

فـمَـا زَلِـقْـتُ ولا أَبْـدَيْـتُ فـاحِـشَـةً إذا الـرجـالُ عـلـى أمـثـالِـهـا زَلِـقُـوا

فما زلقت، انزلقت، ولا فعلت ما هو فاحش معيب، وغيري كان سينزلق في مثل هذا الموقف

٧١ المعمَّر

مجمِّع بن هلالٍ، من بني تيم الله بن ثعلبة:

وإن أَكُ ما شَيْخاً كبيراً فطالَما عَمِرْتُ ولكنْ لا أَرى العُمرَ ينفعُ

لئن كنت شيخاً كبير السن، فإنني قد عشت طويلاً، ولكن طول العمر لا ينفع

مَضَتْ مِئَةٌ مِنْ مَوْلِدي فَنَضَوْتُها وخَمْسٌ تِباعٌ بعدَ ذاكَ وأَرْبَعُ

مضت مئة سنة من عمري فنضوتها، فخلعتها، ثم خمس وأربع

٧٢ حرب الأقارب

أبو الأخْيَل العِجلي:

أَلَا يا اسْلَمي ذاتَ الدَّماليجِ والعِقْدِ وذاتَ الثَّنايَا الغُرِّ والفَاحِمِ الجَعْدِ

اسلمي يا ذات الدماليج، الأساور، والعقد، وذات الثنايا الغر، الأسنان البيض، والشعر الفاحم الجعد

وذاتَ اللِّثَاتِ الحُمِّ والعَارِضِ الذي به أَبْرَقَتْ عَمْداً بِأَبْيَضَ كالشَّهْدِ

وذات اللثات الحم، اللثة المسمرة، والعارض، أي الأسنان الأمامية، الذي أبرقت به، وقصدت أن تشق ثغرها عمداً ثقة بجمال ثناياها التي تلمع بسبب ما كساها من ريق أبيض كأنه الشهد

كأنَّ ثناياها اغْتَبَقْنَ مُدامَةً ثَوَتْ حِجَجاً في رأسِ ذي قُنَّةٍ فَرْدِ

كأن أسنانها شربت خمرة عتيقة ثوت حججاً، أي مكثت سنين، في رأس جبل منفرد ذي قنة، أي قمة. فرائحة فمها طيبة طيب الخمر العتيقة

لَعَمري لقد مَرَّتْ بِيَ الطيرُ آنِفاً بِمَا لم يكنْ إذْ مَرَّتِ الطَّيْرُ مِنْ بُدِّ

لقد مرت بي الطير، وهذا دليل تشاؤم هنا، وكان مرورها يشير إلى الشر الذي لا بد من وقوعه

ظَلِلْتُ أُسَاقِي الموتَ إِخْوَتِيَ الأُلَى أَبُوهُمْ أَبِي عند المُزَاحَةِ والجِدِّ

ظللت أتبادل شراباً هو الموت مع إخوتي الذين يظل أبوهم أبي في حالي المزح والجد

كلانا يُنادي يا نِزارُ، وبيْنَنا قَناً مِنْ قَنَا الخَطِّيِّ أو مِنْ قَنَا الهِنْدِ

كل فريق ينادي: يا نزار، فهم جميعاً ينتسبون إلى جد عرب الشمال القديم نزار، ولكن بينهم قنا، رماحاً، من رماح منطقة الخط بالبحرين، أو من رماح الهند

قُرومٌ تَسَامَى مِنْ نِزارٍ عليْهِمُ مُضَاعَفَةٌ مِنْ نَسْجِ دَاودَ والسُّغْدِ

قروم، أي أبطال، من قبائل نزار تسامى، تتصدى، وعليهم دروع مضاعفة النسج سميكة كالتي اشتهر بنسجها النبي داود، أو تلك المستوردة من بلاد السغد

إذا ما حَمَلْنا حملةً مَثَلُوا لنا بِمُرْهَفَةٍ تُذْري السَّواعِدَ مِنْ صُعُدِ

إذا شددنا عليهم وقفوا لنا بسيوف مرهفة حادة تذري، أي تسقط، السواعد من صعد، من أعلاها

وإن نحن نَازَلْنَاهُمُ بِصَوارِمٍ رَدَوْا في سَرابِيلِ الحديدِ كما نَرْدي

وإن نازلناهم بالسيوف الصوارم القاطعة ردوا، أي أسرعوا، نحونا في سرابيل، أردية من الحديد، مثلما نسرع نحوهم

كَفَى حَزَناً أنْ لا أَزالُ أرى القَنا تَمُجُّ نَجيعاً مِنْ ذِراعِي ومِنْ عَضْدي

كفاني حزناً رؤيتي الرماح تمج نجيعاً، تبصق دماً، من ذراعي ومن عضدي، والعضد أعلى الذراع

أما تَرْهَبانِ النارَ في ابْنَيْ أَبيكُما ولا تَرْجُوانِ اللَّهَ في جنَّةِ الخُلْدِ؟

أيها الفريقان المتحاربان أما ترهبان الجحيم بسبب ما تصنعونه بأبناء أبيكما نزار، ولا ترجوان دخول الجنة؟

فَمَا تُرْبُ أَثْرى لو جَمَعْتَ تُرابَها بأَكْثَرَ مِنْ إِبْنَيْ نِزَارٍ على العَدِّ

المعنى العام: لو جمعت ما في الدنيا من رمل لكان عدد ابني نزار، قبائل مضر وربيعة، أكثر من عدد حبات الرمل

هُمَا كَنَفَا الأرضِ اللَّذَا لو تَزعْزَعَا تَزَعْزَعَ ما بين الجَنوبِ إلى السُّدِّ

هما كنفا، جانبا، الأرض اللذان لو تزعزعا لتزعزعت الدنيا ما بين الجنوب إلى السد، أي من اليمن إلى سد يأجوج ومأجوج

وإنِّي وإن عادَيْتُهُمْ أو جَفَوْتُهُمْ لَتَأْلَمُ مِمَّا عَضَّ أَكبادَهُمْ كَبْدي

كبدي تتألم لما يعض أكبادهم، فهم في النهاية إخوة

فإنَّ أَبي عند الحِفاظِ أَبُوهُمُ وخَالُهُمُ خَالي وجَدُّهُمُ جَدِّي

وأبي عند حفظ الشرف هو أبوهم، وخؤولتنا مشتركة أيضاً

رِمَاحُهُمُ في الطُّولِ مِثلُ رِماحِنا وهُمْ مِثْلُنا قَدَّ السُّيُورِ مِنَ الجِلْدِ

وسلاحهم كسلاحنا، وهم مثلنا في كل شيء كما تقد السيور، الحبال، المتساوية من الجلد

٧٣ صحوت

عبد القيس بن خُفَافٍ البُرْجَمي:

صَحَوْتُ وزَايَلَني بَاطِلي لَعَمْرُ أَبيكَ زِيالاً طويلا

صحوت من غفوة الشباب وتركني الباطل الذي كنت فيه تركاً ذريعاً

وأصبحتُ لا نَزِقاً للَّحاءِ ولا لِلُحومِ صَديقي أكُولا

أصبحت غير نزق للحاء، غير سريع للتلاسن والتشاتم، ولا آكُلُ لحم صديقي، أي لا أغتابه

وأصبحتُ أعددْتُ للنَّائباتِ عِرْضاً بَريئاً وعَضْباً صَقيلا

أعددت لمصيبات الزمن عرضاً نقياً، وعضباً صقيلا، أي سيفاً مصقولاً

ووَقْعَ لِسانٍ كَحَدِّ السِّنَانِ ورُمْحاً طَويلَ القَناةِ عَسُولا

وأعددت لساناً وقعه وتأثيره كتأثير سنان الرمح، وأعددت رمحاً طويلاً عسولاً، مترجرجاً يمينا يساراً وأنا أحمله

وسَابِغَةً مِنْ جِيادِ الدُّروعِ تَسْمَعُ للسَّيفِ فيها صَليلا

وأعددت درعاً سابغة، طويلة، من الدروع الجياد، أي الجيدة، تسمع صوت السيف عليها يرن رنيناً

كَمَتْنِ الغَديرِ زَهَتْهُ الدَّبُورُ يَجُرُّ المُدَجَّجُ منها فُضُولا

ودرعي هذه منسوجة من حلقات الحديد، فهي تبدو كسطح غدير الماء الذي زهته، أي حركته، ريح الدبور، والمدجج بالسلاح يجر بقية هذه الدرع جراً لأنها طويلة (أوردنا أول بيتين من هذه اقطعة ضمن المفضليات/اكتشفنا التكرار بعد صنع الفهارس فصعب علينا حذفهما من هناك)

٧٤ الابن العاق

أميَّة بن أبي الصَّلْت في ابنه وعقه، وتروى لغيره:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً، وعُلْتُكَ يَافِعاً تُعَلُّ بِمَا أُدْنِي إِليكَ وتُنْهَلُ

أطعمتك وأنت وليد، وكنت أعيلك وأنت في أول الشباب وأنت تُعَل، أي تشرب، مما أقدمه لك من لبن النياق وتنهل، أي تشرب مرة أخرى

إذا لَيلةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لم أَبِتْ لِشَكْواكَ إلَّا سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ

إذا أصابتك ليلةٌ بالشكو، أي المرض، لم أبت إلا وأنا ساهر لمرضك أتململ ولا أعرف للنوم طعماً

كَأَنِّي أنا المَطْرُوقُ دونَكَ بالذي طُرِقْتَ به دُونِي وعَيْنِيَ تَهْمُلُ

كأني أنا المطروق دونك، المصاب بدلاً منك، وتظل عيني تسيل بالدمع

فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ التي إليها مَدى ما كنتُ فيكَ أُؤَمِّلُ..

فلما كبرتَ ووصلت سن النضج التي كنت آملها..

جعلتَ جزائي منكَ جَبْهاً وغِلْظَةً   كأنكَ أنتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّلُ

جعلت جزائي جبهاً، أي صداً، وغلظة كأنك أنت المتفضل علي

فليتَكَ إذ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتي   فَعلتَ كما الجارُ المُجاوِرُ يَفعَلُ
وسَمَّيْتَني باسْمِ المُفَنَّدِ رأيُهُ   وفي رأيِكَ التَّفْنيدُ لو كنتَ تَعْقِلُ

صرت تقول إنني ذو الرأي المفند، الخطأ، والخطأ في رأيك أنت لو أنك تفهم

تَراهُ مُعِدّاً لِلْخِلافِ كأنَّهُ   بِرَدٍّ على أهلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ

يا سامعي إنك لترى ولدي هذا متهيأً لمخالفتي في كل شي، وكأنه مكلف بأن يرد على كل ما يقوله أهل الصواب والعقل

٧٥ يؤدبني

قالت امرأة من بني هِزّان، يقال لها: أمُّ ثَوابٍ، في ابنٍ لها عقها:

رَبَّيْتُهُ وَهْوَ مِثلُ الفَرْخِ. أَعْظَمُهُ   أُمُّ الطَّعَامِ تَرى في جِلْدِهِ زَغَبَا

ربيت ابني وكان مثل الفرخ.. والفرخ أكبر شيء في جسمه أم الطعام، أي الحوصلة عند رقبته التي يتجمع فيها الطعام، وجلده ذو زغب، أي ريش صغير

حتى إذا آضَ كالفُحّالِ شَذَّبَهُ   أَبّارُهُ ونَفَى عن مَتْنِهِ الكَرَبا

حتى إذا آض، أي صار، كالفحال، النخلة الذكر التي يؤخذ طلعها لتلقيح النخلات الإناث، وقد شذبه الأبار، الملقح، ونفى الكرب عن متنه، أبعد عن ظهره الكرب وهو القشور الصلبة التي لا بد من تشذيبها في الفحال، أي أنه لما كبر وأصبح في أتم حال من الشباب..

أَنْشا يُمَزِّقُ أثوابي يُؤَدِّبُني   أَبَعْدَ شَيبِيَ عندي يَبْتَغي الأَدَبا

أنشأ، أي بدأ، يمزق ملابسي يبغي تأديبي، أبعد شيبي يريد تأديبي؟

إنِّي لأُبْصِرُ في تَرجيلِ لِمَّتِهِ   وخَطِّ لِحْيَتِهِ في خَدِّهِ عَجَبا

أرى تسريح لمته، أي شعره، وتشذيب لحيته فيعجبني ذلك

قَالَتْ له عِرْسُهُ يوماً لِتُسْمِعَني   مَهْلاً فَإنَّ لَنا في أُمِّنا أَرَبا

قالت له زوجته يوماً وهي تقصد إسماعي: مهلاً ولا تتهور فإن لنا في أمنا غرضاً، وهي لنا نافعة

ولو رَأَتْنِيَ في نارٍ مُسَعَّرَةٍ   ثم اسْتطاعَتْ لَزادَتْ فوقَها حَطَبا

هي تقول ذلك، ولكنها لو رأتني في نار مستعرة لزادت عليها حطباً لو استطاعت

٧٦ الندم

ابن السليماني وهو شاعر إسلامي:

لَـعَـمْـرُكَ إنِّـي يَـومَ سَـلْـعٍ لَـلَائِـمٌ   لِنَفسِـي، ولـكـنْ مَـا يَـرُدُّ التَّـلَوُّمُ؟

لمت نفسي يوم سلع، أي في معركة سلع، وما نفع اللوم؟

أَأَمْكَنْتُ مِنْ نَفسـي عَدُوِّيَ ضَـلَّةً   أَلَهْفَىَ على ما فَاتَ لو كنتُ أَعْلَمُ

أهكذا مكنت العدو من نفسي، ضلةً، ما كان أضلني! ليتني علمت النتيجة قبل أن أفعل ما فعلت

لـو انَّ صُـدورَ الأَمْـرِ يَبْدُونَ لِلْفَتَى   كـأعْـقَـابِـه لـم تُـلْـفِـهِ يَـتَـنَـدَّمُ

لو أن صدور الأمر، أوائله، تبدو للمرء مثلما تبدو أعقابه، أي نتائجه، ما كان ليندم. أي أنه لو عرف منذ البداية ما ستكون النتائج لاتخذ حيطته. يقول: المرء لا يرى الأحداث وهي مقبلة بوضوح، ويراها وهي مدبرة بوضوح.. ولكن بعد أن يكون فات الأوان

٧٧ الكلوم تعفو

أبو خِراش خُويلد بن مُرَّة الهذلي وهو شاعر مخضرم:

حَـمِـدْتُ إلَـهِـي بـعـدَ عُـرْوَةَ إذْ نَـجَـا   خِرَاشٌ، وبعضُ الشرِّ أهوَنُ مِنْ بعضِ

حمدت الله على نجاة خراش بعد مقتل عروة، ونصف الشر أهون من الشر كله

فـوالـلَّـهِ مـا أنـسَـى قـتـيـلاً رُزِئْـتُـه   بِجَانِبِ قُوسَى مَا مَشَيْتُ على الأرضِ

لن أنسى ذلك القتيل الذي رزئته، نكبت به، بموضع «قوسى» طول عمري، وما دمت أمشي على الأرض

عـلـى أنَّـهـا تَـعْـفُـو الـكُـلـومُ؛ وإنَّـمـا   نُـوَكَّـلُ بـالأدنَى وإنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

الكلوم، الجراح، تعفو، أي تندمل؛ ونوكل، أي نهتم بالأمر القريب منا رغم أن ما مضى كان كبيراً في تأثيره

ولـم أَدْرِ مَـنْ أَلْـقَـى عـلـيْـهِ رِدَاءَهُ   على أنَّهُ قد سُلَّ عن مَاجِدٍ مَحْضِ

لا أدري من الذي غطى القتيل بردائه، لكن ذلك الرداء قد سل، سحبَ، عن رجل ماجد محض، خالص المروءة

٧٨ بنيان قوم تهدم

عَبْدَة بن الطَّبيب الشاعر المخضرم:

عـليْكَ سَلامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عاصِمٍ   ورحـمَـتُـهُ مـا شـاءَ أن يَـتَـرَحَّـمَـا

تـحـيَّـةَ مَـنْ غَـادَرْتَـهُ غَـرَضَ الـرَّدَى إذا زَارَ عـن شَـحْـطٍ بِـلادَكَ سَـلَّـمَـا

تحية مني أنا الذي تركتني وأنا هدف للقتل فأنقذتني، أزور بلادك عن شحط، قادماً من مكان بعيد، فأطرح السلام وأتذكرك

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ ولـكـنَّـهُ بُـنـيَـانُ قَـوْمٍ تَـهَـدَّمَـا

موتك لم يكن مجرد موت شخص، بل بنيان قوم تهدم

٧٩ رثاء أخوين

هشام بن عقبة العدوي، يرثي أخويه أوفى وغيلان، وغيلان هو ذو الرمة:

تَـعَـزَّيْـتُ عـن أَوْفَـى بِـغَـيْـلانَ بـعـدَهُ عَـزاءً وجَـفْـنُ الـعَـيـنِ مَـلآنُ مُـتْـرَعُ

تعزيت ونسيت بعض حزني على أخي أوفى عندما توفي غيلان بعده، فهذا عزاء تعزيته وجفني مترع أي ملآن دموعاً

نَعَى الرَّكْبُ أَوْفَى حينَ آبَتْ رِكَابُهُمْ لَعَمْرِي لقد جاؤُوا بِشَرٍّ فَأَوْجَعُوا

حين رجع القوم بإبلهم نقلوا خبر أوفى، فما كان أوجع الخبر!

نَعَوْا بَاسِقَ الأفعالِ لا يَخْلُفُونَهُ تَكـادُ الـجبالُ الشُّمُّ منهُ تَصَدَّعُ

كانت أفعاله باسقة، عالية، وما كانوا يخلفونه، يجدون بديلا يخلفه، وتكاد الجبال العالية تتصدع من ذلك الخبر

خَوَى المَسْجِدُ المَعْمُورُ بعد ابنِ دَلْهَمٍ وأَمْسَى بِأَوْفَى قومُهُ قد تَضَعْضَعُوا

لقد خوى، أي فرغ من الناس، المسجد الذي كان معموراً بوجود «ابن دلهم» الرجل الصالح المعروف، وكذلك تضعضع قومي بفقدان أوفى

فلَمْ تُنْسِنِي أَوْفَى المُصيباتُ بعدَهُ ولـكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

لا، لم تجعلني المصائب التي جاءت من بعد أوفى أنساه، بل إن نكء القرح، فتح الجرح، بجرح آخر أوجع من الجرح الفرد

٨٠ كله قبر مالك

متمم بن نُوَيْرة يرثي أخاه مالكاً الذي قتله خالد بن الوليد:

لقد لامَني عند القبورِ على البُكَا رفيقي لِتَذْرَافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ

لامني رفيقي، ذات يوم عندما رأينا قبوراً، لذرفي الدموع المسفوحة المسفوكة

فـقـالَ أَتَـبْـكـي كُـلَّ قـبـرٍ رأيـتَـهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدَّكَادِكِ؟

قال: أتبكي عند كل قبر تراه متذكراً ذلك القبر الذي ثوى، ومكث بين موضعي اللوى والدكادك؟

فقلتُ له إنَّ الشَّجَا يبعثُ الشَّجَا فـدعْـنـي فَـهـذا كـلُّـهُ قـبرُ مَـالِـكِ

قلت له: الحزن يثير الحزن، فكل قبر هو قبر مالك أخي

٨١ البعيد القريب

أبو عطاء السندي من مخضرمي الدولتين يرثي ابن هبيرة الذي قتله المنصور غيلةً:

أَلَا إنَّ عَـيـنـاً لـم تَـجُـدْ يـومَ واسِـطٍ عـلـيـكَ بِـجَـاريِ دمـعِـهـا لَـجَـمُـودُ

العين التي لم تكن سخية بدمعها يوم مقتلك بواسط عين جامدة

عَـشِـيَّـةَ قـامَ الـنَّـائِـحـاتُ وشُـقِّـقَـتْ جـيـوبٌ بِـأَيـدي مَـأْتَـمٍ وخُـدُودُ

في تلك العشية ناحت عليك النائحات وشققن الجيوب، الملابس من جهة الصدر، ولطمن الخدود. مأتم معناها جماعة النساء النائحات، ثم صارت تعني كل مجلس عزاء

فإنْ تُـمْـسِ مَـهْـجُـورَ الفِـنَـاءِ فربَّـمـا أَقـامَ بـه بـعـدَ الـوُفـودِ وُفُـودُ

إن أصبح فناؤك، أي ساحتك، مهجوراً، فطالما كانت الوفود الكثيرة تقيم بساحتك وهي تأتي لنيل عطائك

فـإنَّـكَ لـم تَـبْـعُـدْ عـلـى مُـتَـعَـهِّـدٍ بَـلى كلُّ مَنْ تَحتَ الـتُّرَابِ بَـعـيـدُ

لم تبتعد ذكراك عن متعهد، ذاكر لعهدك.. لا، بل كل من دفن فهو بعيد

٨٢ أعبدُ الله ذلك الردي؟

دُرَيْد بن الصِّمَّة وقد نصح قومه (بني غَزِيَّة) فتركوا نصيحته وقاتلوا أعداءهم - وهو معهم - فقتل أخوه عبد الله فقال يرثيه:

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وأَصْحَابِ عَارِضٍ ورهْطِ بَني السَّوْدَاءِ والقَوْمُ شُهَّدي:

نصحت لعارض ولأصحابه، ولبني السوداء، والقوم يشهدون على ذلك. في رواية الأصمعيات: «فقلت لعرَّاض وأصحاب عارض» كأنما أراد الناسخ إصلاح الوزن

فـقـلـتُ لـهـم ظُـنُّـوا بِـأَلْـفَـيْ مُـدَجَّـجٍ سَـرَاتُـهُـمُ فـي الـفَـارِسِـيِّ الـمُـسَـرَّدِ

قلت لهم إن أغلب الظن هو أن عدوكم ألفا رجل مدجج بالسلاح، وسادتهم يلبسون الدروع الفارسية المنسوجة بحلقات الحديد

فلمَّا عَصَوْني كنتُ مِنْهُمْ، وقد أَرَى غِـوايَـتَـهُـمْ وأَنَّـنـي غـيـرُ مُـهْـتَـدِ

لما رفضوا النصيحة انصعت لهواهم؛ قد عرفت ضلالهم، وعرفت أنني أنا أيضاً بعيد عن الهداية

أَمَـرْتُـهُـمُ أَمـري بِـمُـنْـعَـرَجِ الـلِّـوَى فلم يَستَبِينُوا الرُّشْدَ إلَّا ضُحَى الغَدِ

أمرتهم أمري ذاك في ذلك الموضع، ولم يتبين لهم سداد رأيي إلا ضحى اليوم التالي

وهل أنا إلَّا مِنْ غَزِيَّةَ؟ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

أنا من قبيلة «غزية»، إن انحرفت القبيلة عن الرشد انحرفت معها، وإن رشدت أرشد

تَنَادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخيلُ فارساً فقلتُ: أَعبْدُ اللَّهِ ذَلِكُمُ الرَّدي؟

صرخوا قائلين إن الخيل قتلت فارساً، فسألت: أعبدُ الله ذلك القتيل؟

فجِئْتُ إليهِ والرمَاحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّياصي في النَّسيجِ المُمَدَّدِ

جئت إليه والرماح تنوشه، تتعاوره وتتناوله، كأنها دخول الصياصي، لفائف الخيوط، في النسيج. فالناسج يدخل خشبة مغزلية ملفوفاً عليها الخيوط بين النسيج الممدود مرة بعد مرة لتشكيل الطبقة المستعرضة في النسيج فهو يُسَدِّي بعد أن يُلْحِم

فكنتُ كَذاتِ البَوِّ ريعَتْ فأقْبَلَتْ إلى جَلَدٍ مِنْ مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ

كنت كالناقة الفاقد التي ترتاع لفقد ولدها فتقبل على البوّ، وهو جلد فصيلها يحشونه تبناً ويجعلونه قربها كي تحن عليه ويدر حليبها.. لا يكتفون بقتل وليدها بل يريدون حليبها أيضاً.. والبو مصنوع من مسك سقب مقدد، أي جلد فصيل مجفف

فَطَاعَنْتُ عنه الخيلَ حتى تَبَدَّدَتْ وحتى عَلاني حَالِكُ اللَّونِ أَسوَدِي

طاعنت الخيل المحيطة بعبد الله حتى تفرقت، وحتى علاني الغبار الأسوديُّ أي الأسود

قِتالَ امْرِئٍ آسَى أَخَاهُ بِنفسِهِ ويَعلَمُ أنَّ المرءَ غَيْرُ مُخَلَّدَ

قاتلت قتال أخ آسى، أي ساوى، أخاه بنفسه، ولا يهمه الموت لأن الإنسان في النهاية ميت

فإنْ يَكُ عبدُ اللَّهِ خَلَّى مَكانَه فما كان وَقَّافاً ولا طَائِشَ اليَدِ

لئن مات وترك مكانه فارغاً، فهو لم يكن وقافاً، متردداً، ولا طائش اليد عندما يرمي السهام

كَمِيشُ الإزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ ساقِهِ بعيدٌ مِنَ الآفاتِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ

كان كميش الإزار، قصير الثوب مشمراً للنجدة، ولم تكن فيه صفات رديئة، وكان يصعد في المرتفعات ساعياً في شؤون قومه

قليلُ التَّشَكِّي لِلْمُصيباتِ، حَافِظٌ مِنَ اليومِ أعقابَ الأَحاديثِ في غَدِ

كان قليل الشكوى، وكان يتكهن بنتائج الأفعال قبل وقوعها

تَراهُ خَميصَ البَطْنِ والزَّادُ حَاضِرٌ عتيدٌ، ويَغْدُو في القَميصِ المُقَدَّدِ

يكون خميص البطن، ضامِرَه بينما الطعام عتيد، أي موجود، إيثاراً، وكان يلبس قميصاً مقدوداً

وإن مَسَّهُ الإقْواءُ والجَهْدُ زَادَهُ سَماحاً وإتْلافاً لِمَا كان في اليَدِ

وكلما ازداد إقواء، أي فقراً، وشدة في العيش ازداد سماحاً، أي سخاء، وتبديداً لماله

صَبَا ما صَبَا حتى عَلا الشَّيْبُ رأسَهُ   فلمَّا عَلاهُ قالَ لِلباطِلِ ابْعَدِ

صبا، أي عاش حياة اللهو، ما صبا، أي مدة صباه وشبابه، ثم شاب رأسه، فأصبح وقوراً وطرد عن حياته اللهو

وطَيَّبَ نفسي أنَّني لم أَقُلْ لَهُ   كذبْتَ ولم أبخَلْ بِما مَلَكَتْ يَدي

الذي طيب نفسي بعد موته أنني لم أكذِّبه في حياته، ولم أبخل عليه

٨٣ الدهر نصفان، كلاهما مخضب بالدم

دريد بن الصمة يرثي قتلى قبيلته، وابن الصمة شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم:

تَقولُ أَلَا تَبكِي أخاكَ؟ وقد أَرَى   مكانَ البُكَا لكنْ بُنِيتُ على الصَّبرِ

تقول لي العاذلة: لم لا تبكي أخاك القتيل؟ وأنا مدرك أن الموقف موقف بكاء، ولكنني صبور

فقلتُ: أَعَبْدَ اللَّهِ أَبْكِي أمِ الذي   له الجَدَثُ الأَعْلى قَتيلَ أبي بَكْرِ

قلت: أأبكي عبد الله؟ أم صاحب الجدث الأعلى، القبر العالي فوق الهضبة، الذي قتل في حروب الردة؟

وعبدَ يَغُوثٍ تَحْجُلُ الطيرُ حَولَهُ   وعَزَّ المُصَابُ حَثْوُ قَبْرٍ على قَبْرِ

أم أبكي «عبد يغوث» الذي تتبختر الطيور حوله وهو قتيل تريد نهشه، وقد كبر المصاب بحثو التراب فوق قبر تلو قبر

أَبَى القَتْلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ، إنَّهُمْ   أَبَوْا غيرَهُ، والقَدْرُ يَجري إلى القَدْرِ

لا يريد القتل سوى آل صمة، وهم لا يريدون سواه، هذا قدرهم وهم مقدَّرون لهذا المصير

فإمَّا تَرَيْنَا لا تَزالُ دِمَاؤُنا   لدى وَاتِرٍ يَسْعَى بِها آخِرَ الدهرِ..

إن رأيت أن دماءنا هي في رقبة واتر، قاتل، قد أراقها فهو يسعى بها هارباً من العقاب..

فإنَّا لَلَحْمُ السيفِ غيرَ نَكيرَةٍ   ونُلْحِمُهُ حيناً وليس بِذي نُكْرِ

.. فنحن لحم مبذول للسيوف ولا ننكر ذلك، وأحيانا نطعم سيوفنا لحوم الأعداء

يُغَارُ علَيْنا وَاتِرِينَ فَيُشْتَفَى   بِنَا إن أُصِبْنا، أو نُغيرُ على وِتْرِ

يغير الأعداء علينا ونحن واترون، أي كنا قد قتلنا منهم، ويشتفون بنا إن أصابونا، أو أننا نحن نغير على وتر، لأخذ الثأر

قَسَمْنا بِذاكَ الدهرَ شَطرَيْنِ بيننا   فما يَنقَضي إلَّا ونحن على شَطْرِ

فالزمن مقسوم نصفين، بين أن نثأر ويثأروا منا، فلا ينتهي الزمن إلا ونحن على أحد هذين النصفين

٨٤ الخبر المصمئل

قال ابن اخت تأبط شراً يرثي ويفتخر بأخذ الثأر، وذُكر أنها لخلف الأحمر في العصر العباسي:

إنَّ بِالشِّعْبِ الذي دونَ سَلْعٍ ... لَقَتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

في الشعب، الطريق، قرب موضع سلع، قتيل دمه لا يطل، لا يذهب هدراً

خَلَّفَ العِبْءَ عَلَيَّ وَوَلَّى ... أنا بِالعِبْءِ له مُسْتَقِلُّ

خلف عبء أخذ الثأر عليَّ ومضى، وأنا مستقل بالعبء، حامل له

ووَراءَ الثَّأْرِ مِنِّي ابنُ أُخْتٍ ... مَصِعٌ عُقْدَتُهُ ما تُحَلُّ

ولأخذ الثأر يدعمني ابن أخت مصع، شديد، عقدته ما تحل، عزيمته لا تتراخى

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ سُمَّاً كَمَا أَطْـ ... ـرَقَ أَفْعَى يَنْفِثُ السُّمَّ، صِلُّ

مطرق برأسه لكنه يرشح سماً، مثلما تطرق الأفعى وتهدأ ولكنها تنفث السم. والصل: الثعبان

خَبَرٌ مَا، نَابَنِي، مُصْمَئِلٌّ ... جَلَّ حتَّى دَقَّ فيهِ الأَجَلُّ

ثمة خبر نابنا، أي طرأ علينا، مصمئل، شديد، والخبر هائل حتى صار كل خبر جليل غيره صغيراً

بَزَّني الدهرُ، وكان غَشوماً، ... بِأَبِيٍّ جارُهُ ما يُذَلُّ

بزني، أي سلبني، الدهر، وكان الدهر ظلوماً، سلبني رجلاً أبياً شامخاً يحمي من يستجير به فلا يستطاع إذلال المستجير

شَامِسٌ في القُرِّ، حتى إذا ما ... ذَكَتِ الشِّعْرَى فَبَرْدٌ وظِلُّ

هذا الرجل شامس أيام القر، أي البرد، فكأنه في وقت الشتاء الصعب الذي تقل فيه ألبان النوق واللحوم يكون كالشمس لضيوفه؛ فإذا ذكت الشعرى، اشتعل نجم الشعرى وجاء الصيف، فهو مثل البرد والظل لضيوفه يقيهم حر الشمس ويؤويهم

يَابِسُ الجَنْبَيْنِ مِنْ غيرِ بُؤْسٍ ... ونَدِي الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلُّ

جنباه يابسان، أي أنه نحيل، ولكن ذلك ليس لفقر بل لأنه يطعم الناس وقليلاً ما يأكل، وكفاه نديان، أي أنه سخي، وشهم مدل، أي أنه ذو دالة على قومه يسمعون كلمته

ظَاعِنٌ بِالحَزْمِ حتى إذا ما ... حَلَّ حَلَّ الحَزْمُ حيثُ يَحُلُّ

ظاعن، راحل، ويصحبه الحزم والتصميم، وإذا حل بمكان فكأنما يحل التصميم في ذلك المكان معه

غَيْثُ مُزْنٍ غَامِرٌ حيثُ يُجْدي ... وإذا يَسْطُو فَلَيْثٌ أَبَلُّ

هو مطر من السحاب يغمر الأرض في المكان الذي يجديه، يهطل عليه، وإن سطا وغضب فهو كالأسد الأبل، الذي لا يبالي العواقب

مُـسْـبِـلٌ فـي الـحَـيِّ أحْـوَى رِفَـلٌ   وإذا يَــغْــزُو فَــسِــمْــعٌ أزَلُّ

يسبل رداءه، ويعيش عيشة هنيئة، في قومه، وهو أحوى، أسمر، ورفل، يرفل في النعمة، وأما إذا غزا قوماً فهو سمع أزل، ذئب نحيل

ولــه طَــعْــمَــانِ أرْيٌ وشَــرْيٌ   وكِـلا الـطَّـعْـمَـيْـنِ قـد ذاقَ كُـلُّ

له طعمان: أري، أي عسل، وشري، أي حنظل. وهو يذيق الناس كلا الطعمين، فللضيف الإكرام، وللعدو مرارة الحنظل

يـرَكـبُ الـهَـولَ وَحـيـداً، ولا يَـصْـ   ـحَـبُـهُ إلّا الـيَـمـانـي الأفَـلُّ

يركب الأهوال وحده ولا يصحبه سوى السيف اليماني المثلم لكثرة ما ضرب به الأعداء

وفُــتُــوٌّ هَــجَّــرُوا ثــم أسْــرَوْا   لَـيـلَـهُـمْ، حتى إذا انْـجَـابَ حَـلُّـوا

رب فتو، فتية، هجروا، ساروا في الشمس، ثم أسروا، ساروا في الليل، ثم لما مضى الليل حلوا، نزلوا

كــلُّ مَــاضٍ قــد تَــرَدَّى بِــمَــاضٍ   كَــسَــنــا الــبَــرْقِ إذا مَــا يُــسَــلُّ

كل رجل ماض، حادّ نحيل، منهم قد تردَّى بماض، قد لبس سيفاً، مثل سنا، أي ضوء، البرق عندما يُسل

فــادَّرَكْــنــا الــثَّــأرَ مــنــهُــمْ ولَــمَّــا   يَــنْــجُ مِــلْــحَــيَّــيْــنِ إلّا الأقَــلُّ

أدركنا ثأرنا منهم، ولم ينج ملحيين، أي من العشيرتين إلا عدد قليل

فــاحْــتَــسَــوْا أنْــفَــاسَ نــومٍ فَــلَــمَّــا   هَــوَّمُــوا رُعْــتُــهُــمُ فَــاشْــمَــعَــلُّــوا

ذاق الفتية بعد الفراغ من مهمتهم بعض النوم، فلما هوموا، ارتخت هاماتهم على صدورهم نوماً، رعتهم، فاجأتهم بإيقاظهم، فاشمعلوا، أسرعوا

صَــلِــيَــتْ مِــنِّــي هُــذَيْــلٌ بِــخِــرْقٍ   لا يَــمَــلُّ الــشــرَّ حــتــى يَــمَــلُّــوا

قبيلة هذيل صليت، اكتوت، بخرق، شجاع، هو أنا، وهذا الشجاع لا يمل من الشر حتى يمل الأعداء ويكفوا عن عدوانهم

يُــنْــهِــلُ الــصَّــعْــدَةَ حــتــى إذا مــا   نَــهِــلَــتْ كــان لــهــا مــنــهُ عَــلُّ

يسقي الصعدة، الرمح، فإذا شربت من دم العدو، كان لها منه عل، والعلُّ هو السقي مرة ثانية

٨٥ إخوان الصفاء

أبو الحِبال البَرَاء بن رِبْعِيّ الفَقْعسي:

أُولئِـكَ إخـوانُ الـصَّـفَـاءِ رُزِيـتُـهُـمْ   ومـا الـكَـفُّ إلّا إصـبـعٌ ثـم إصـبـعُ

رزئت صحبي الأصفياء وفقدتهم واحداً واحداً، شأن الكف تفقد إصبعاً بعد إصبع، وما الكف سوى تلك الأصابع

٨٦ الممدوح المرثي

أشْجَع السُّلَمِيّ، وهو عباسي:

مضَى ابنُ سَعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ ولا مَـغْـرِبٌ إلّا لـه فـيـهِ مَـادِحُ

رحل ابن سعيد في وقت لم يبق فيه مكان في شرق ولا في غرب إلا وفيه من يمدحه

وما كـنـتُ أَدْرِي مـا فَـواضِـلُ كَـفِّـهِ على الناس حتى غَيَّبَتْهُ الصَّفَائِحُ

ما عرفت فضل كفه وكرمه إلا بعد أن غاب تحت الصفائح، حجارة القبر المبسَّطة

فأصبحَ في لَحْدٍ مِنَ الأَرضِ ميِّتاً وكانتْ به حَيَّاً تَضيقُ الصَّحَاصِحُ

أصبح في قبر بعد أن كان في حياته يملأ الصحاصح، الفيافي بذكره الحسن

سَأَبْكيكَ ما فاضَتْ دُموعِي فإنْ تَغِضْ فَحَسْبُكَ مِنِّي ما تُجِنُّ الجَوانِحُ

سأبكيك ما دام لي دمع يجري، فإن غاض دمعي، نضب، فيكفيك مني ما تجن، تخفي، جوانحي، ضلوعي، من حزن

وما أنَا مِنْ رُزْءٍ، وإن جَلَّ، جَازِعٌ ولا بِـسُـرورٍ بـعـد مـوتِـكَ فَـارِحُ

لن أضطرب لرزء، مصاب، حتى وإن كان جليلاً كبيراً، ولن أفرح لشيء بعد موتك

كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواكَ ولم تَقُمْ عـلـى أَحَـدٍ إلّا عـلـيـكَ الـنَّـوَائِحُ

كأنه لم يمت أحد غيرك، ولا ناحت النائحات على أحد قبلك، فالحزن عليك كان فريداً في شدته

لئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المَراثِي وذِكْرُها لقد حَسُنَتْ مِنْ قَبلُ فيكَ المدائِحُ

جميلة هي قصائد الرثاء فيك، وقبلها كانت جميلة قصائد المدح

٨٧ لا حيلة في الموت

يحيى بن زياد الحارثي:

نَعَى نَاعِيَا عَمْرٍو بِلَيْلٍ فأَسْمَعا فَـراعَـا فـؤاداً لا يـزالُ مُـرَوَّعـا

نعى الناعيان عمراً فأفزعا قلباً ظل بعد ذلك فزعاً لموته

ومـا دَنِـسَ الـثـوبُ الـذي زَوَّدُوكَـهُ وإنْ خَـانَـهُ رَيْـبُ الـبِـلَـى فـتـقَـطَّـعـا

لم يتسخ الكفن الذي لفوك به لأن ذكرك حسن، حتى وإن بلي الكفن وتقطع تحت التراب

دفَـعْـنَـا بِـكَ الأَيَّـامَ حـتـى إذا أَتَـتْ تُريدُكَ لم نَسْطِعْ لَها عنكَ مَدْفَعا

حميناك من مصائب الأيام، فلما جاءت تريدك لتأخذك للموت لم نستطع دفعها

٨٨ سأبكيك

لَنِعْمَ الفَتى أَضْحَى بِأكنافِ حَائِلٍ غَدَاةَ الوَغَى أُكْلَ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

نعم الفتى الذي أضحى في جانب حائل صبيحة المعركة أكل الردينية السمر، أي فريسة للرماح السمر

سأبْكيكَ لا مُسْتَبْقِياً فيضَ عَبْرَةٍ ولا طالباً بِالصَّبْرِ عَاقِبَةَ الصبرِ

سأبكيك ولن أبقي دمعة، ولن أكف عن البكاء.. غير مهتم بنيل عاقبة الصبر، أي الثواب على الصبر

٨٩ بيوت تخرب وقبور تعمر

عبد الله بن ثعلبة الحنفي:

لِكُلِّ أناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِمْ فهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبورُ تَزيدُ

لكل قوم مدفن بساحتهم، هم ينقصون والقبور تزيد

وما إن يَزالُ رَسْمُ دَارٍ قد اخْلَقَتْ وبيتٌ لِمَيْتٍ بالفِنَاءِ جَديدُ

وباستمرار يظل ثمة طلل لدار قد اخلقت، تهدمت، وينشأ بيت في الفناء، أي الساحة، جديد يحل به ميت

هُمُ جيرَةُ الأَحْياءِ، أمَّا جِوارُهُمْ فَدَانٍ، وأمَّا المُلْتَقَى فَبَعيدُ

الموتى جيراننا، قريبون منا وملتقانا بهم بعيد

٩٠ ذاهب لا يعود

لا يُبْعِدِ اللَّهُ إخْواناً لنَا ذَهَبُوا أَفْنَاهُمُ حَدَثَانُ الدهرِ والأَبَدُ

لا يبعد الله موتانا الذين أفنتهم مصائب الزمن والأبد، الزمن نفسه. لا يبعد: دعاء للميت بأن تظل ذكراه قريبة

نُمِدُّهُمْ كلَّ يومٍ مِنْ بَقِيَّتِنا ولا يَؤُوبُ إلينا منهُمُ أَحَدُ

نعزز جيش الموتى كل يوم بأفراد من بقيتنا، ولا يعود من يموت

٩١ ما على الدهر معتب

الغَطَمَّش الضَّبِّي:

إلى اللَّهِ أشْكُو، لا إلى الناسِ، أنَّني أرى الأرضَ تبقَى والأَخِلَّاءَ تَذْهَبُ

الأرض تبقى والأحباب يذهبون

أَخِلَّايَ لو غيرُ الحِمامِ أصابَكُمْ عَتَبْتُ، ولكِنْ ما على الدهرِ مَعْتَبُ

يا أحبائي لو أن الذي أصابكم كان شخصاً لكنت عتبت عليه، ولكن.. لا عتب على الدهر

٩٢ بكاء ولا صبر

إذا مَا دَعَوْتُ الصَّبْرَ بعدَكَ والبُكَا أجابَ البُكَا طَوْعاً ولم يُجِبِ الصَّبْرُ

البكاء يلبي دعوتي، والصبر لا يأتيني

فإن يَنْقَطِعْ منكَ الرَّجَاءُ، فإنَّهُ سيَبْقَى عليكَ الحُزنُ ما بَقِيَ الدهرُ

لا رجاء في عودتك، والحزن عليك خالد

٩٣ فحملتها

مُوَيْلك المزموم يرثي امرأته أم العلاء:

أُمْرُرْ على الجَدَثِ الذي حَلَّتْ به أُمُّ العَلاءِ فَحَيِّها لو تَسْمَعُ

الجدث: القبر

أنَّى حَلَلْتِ وكنتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ بَلَداً يَمُرُّ به الشُّجَاعُ فَيَفْزَعُ؟

كيف نزلت وأنت جد فروقة، خوافة جداً، بلداً يفزع منه الرجل الشجاع، وهو المقبرة؟

صَلَّى عليكِ اللَّهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ إذْ لا يُلَائِمُكِ المَكانُ البَلْقَعُ

صلى عليك الله، رحمك، فلا يلائمك المكان البلقع، الخالي المقفر

ولقد تَرَكْتِ صَغيرةً مَرْحُومَةً لم تَدْرِ مَا جَزَعٌ عَليكِ فَتَجْزَعُ

تركت ابنة صغيرة مرحومة، محزون عليها، وهي لا تعرف بعد معنى الجزع

فَقَدَتْ شَمائِلَ مِنْ لِزَامِكِ حُلْوَةً فتَبِيتُ تُسْهِرُ أهلَها وتُفَجِّعُ

لكنها فقدت شمائل، مزايا، من قبيل لزامك، ضمك لها.. لذا تبيت باكية تجعل أهلها يسهرون وهي تشعرهم بفجيعة الفقد

فإذا سمعتُ أنينَها في ليلِها طفِقَتْ عليكِ شؤونُ عيني تَدْمَعُ

شؤون العين: مجاري الدمع

ولَقلَّما لَبِثَتْ خِلافَكَ أن رَأَتْ مَلَكاً دَعَا ودُعاؤُهُ يُتَوَقَّعُ

وبعد موتك بقليل لم تلبث أن رأت رات مَلَكاً من الملائكة يدعوها، ودعوة هذا الملك متوقعة لكل إنسان

فحَمَلْتُها وَحَفَرْتُ عندَكِ قبرَها   جَزَعاً وكنتُ إخالُني لا أجْزَعُ

فدفنتها قربك، وجزعت واضطربت

٩٤ لِيَمُت من شاء بعدك!

قال الشاعر يرثي رجلاً اسمه جارية:

«أَجَارِيَ» ما أَزْدَادُ إلَّا صَبابَةً   إليكَ وما تَزْدادُ إلَّا تَنائِيا

أزداد شوقاً إليك، وأنت تزداد ابتعاداً

«أَجَارِيَ» لو نَفْسٌ فَدَتْ نَفْسَ مَيِّتٍ   فَدَيْتُكَ مَسروراً بِنفسي ومَالِيا

ليت كان ممكناً أن أموت بدلاً منك، وإني لمسرور بذلك

وقد كنتُ أرجُو أن أُمَلَّاكَ حِقْبَةً   فحَالَ قَضاءُ اللَّهِ دونَ رَجائِيا

كنت أرجو أن أملاك، أن أتمتع برؤيتك، بعض الوقت، ولكن قضاء الله حال دون رجائي

ألَا لِيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إنَّما   عليكَ مِنَ الأَقْدارِ كان حِذَارِيَا

فليمت بعدك من شاء أن يموت، فقد كنت خائفاً حذراً عليك وحدك من يد القدر

٩٥ بلا ظل رجل

فاطمةُ بنت الأَحْجَم الخُزاعيَّة:

يا عينُ بَكِّي عندَ كلِّ صباحِ   جُودي بأَرْبَعَةٍ على الجَرَّاحِ

ابكي يا عيني كل صباح وكوني سخية بالدمع من المآقي الأربعة، أطراف العينين كلتيهما، على الجراح

قد كنتَ لي جَبَلاً أَلُوذُ بِظِلِّهِ   فتَرَكْتَني أَضْحَى بِأَجْرَدَ ضَاحِ

كنت جبلاً ألجأ إلى ظله، كناية عن الاحتماء به، فتركتني أضحى، أي أصبح ضاحية أي مكشوفة للشمس، بأجرد ضاح، في مكان أجرد ضاح، أي مكشوف للشمس

قد كنتُ ذَاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْتَ لي   أَمْشي البَرَازَ وكنتَ أنتَ جَناحي

كنت ذات عزة وأنت حي، أمشي بارزة للناس لا أخشى أحداً، وكنت أنت جناحي الذي به أطير

فاليومَ أَخْضَعُ للذَّليلِ وأَتَّقي   منهِ، وأَدْفَعُ ظَالِمي بِالرَّاحِ

بالراح: باليد. كأنها تتخيل وقد أحاط بها الطامعون فهي تدفعهم بيدها دفعاً لتبعدهم.. حتى لو كانوا من الأذلاء

وأَغُضُّ مِنْ بَصَرِي، وأعْلَمُ أَنَّنِي قد بَانَ حَدُّ فَوَارِسِي ورِمَاحِي

أغض بصري دفعاً للطامعين عارفة بأنه قد بان، فارق، حد سيوف ورماح فرساني

٩٦ السُّلَكَة ترثى ابنها

السُّلَكَةُ ترثي ابنها السُّلَيْك، ويقال إنها لأم تأبط شراً:

طافَ يَبْغي نَجْوَةً مِنْ هَلاكٍ، فَهَلَكْ

طاف يطلب رزقاً ينجيه من الموت جوعاً فهلك قتلاً

ليتَ شِعري ضَلَّةً أيُّ شَيءٍ قَتَلَكْ

ضلة: هذه كلمة يحشرها القدماء في أكثر من موضع، وهي مثل قولة الناس اليوم: «كشل»، و«يا خرابي» و«يا للأسف» و«عزا» و«يا للخسارة» و«حسافة»

أَمريضٌ لم تُعَدْ أم عَدُوٌّ خَتَلَكْ

ختلك: خدعك فنالك، والختل للصيد

أم تَوَلَّى بِكَ ما غَالَ في الدهرِ «السُّلَكْ»

أم أنك مت ميتة عادية كما مات في الدهر الغابر أبناء قومك «السلك»

والمَنَايَا رَصَدٌ لِلفَتَى حيثُ سَلَكْ
أيُّ شَيءٍ حَسَنٍ لِفَتَىً لم يَكُ لَكْ
كُلُّ شيءٍ قَاتِلٌ حين تَلقَى أَجَلَكْ
طالَمَا قد نِلْتَ في غيرِ كَدٍّ أَمَلَكْ
إن أَمْراً فادِحاً عن جَوابي شَغَلَكْ
سَأُعَزِّي النفسَ إذْ لم تُجِبْ مَنْ سَأَلَكْ
ليتَ قَلبي ساعةً صَبْرَهُ عنكَ مَلَكْ

ليت قلبي يملك الصبر عن فقدك

ليتَ نَفْسي قُدِّمَتْ لِلمَنَايا بَدَلَكْ

٩٧ المضياف العَذَوَّر

العُجَيْر السَّلُولي:

فَتىً قُدَّ قَدَّ السيفِ لا مُتَضَائِلٌ ولا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وأَبَاجِلُهْ

فتى له قدٌّ كقد السيف، ليس ضئيل الجسم ولا مترهلاً في لباته، في صدره، وأباجله، عروق فخذيه

إذا جَدَّ عنـدَ الـجِـدِّ أرضَـاكَ جِـدُّهُ   وذُو بَـاطِـلٍ إن شـئـتَ أَلْـهَـاكَ بَـاطِـلُـهْ

كان جاداً ولاهياً، ولكل منهما وقته

يَسُرُّكَ مَظْلوماً، ويُرْضِيكَ ظَالماً   وكـلُّ الـذي حَـمَّـلـتَـهُ فَـهْـوَ حَـامِـلُـهْ

إذا كنت مظلوماً أخذ بحقك، وإذا كنت ظالماً أعانك وأرضاك ويحمل عنك ما تريده أن يحمله من ديات مثلاً

إذا نَـزَلَ الأضـيـافُ كـان عَـذَوَّراً   على الحَيِّ حتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ

إذا جاءه الأضياف كان عذوراً على الحي، أي غضوباً على أهله، حتى تستقل المراجل، أي ترفع القدور على النار

٩٨ الجامع الصادع

أبو الحَجْناء مولى بني أسدٍ:

أَعَـاذِلُ مَـنْ يُـرْزَأْ كَـحَـجْـنـاءَ لا يَـزَلْ   كَـئِـيـباً ويَـزْهَـدْ بَـعْـدَهُ فـي الـعَـوَاقِـبِ

يا عاذلتي من يرزأ، يُصَبْ، بشاب كحجناء يظل كئيباً، ويصبح قليل الاهتمام بالعواقب، بما سيأتي

حَبيبٌ إلى الفِتيانِ صُحْبَةُ مِثلِهِ   إذا شَانَ أصحابَ الرِّجَالِ الحَقَائِبُ

يحب الفتيان صحبته، بينما أصحاب الرجال من غيره تشينهم حقائبهم، تعيبهم حقائبهم التي فيها أشياء ولا يمنحون منها لأصحابهم. والحقيبة هي كيس يوضع على حقو الجمل وفيه الثياب والطرائف

نِظَامُ أُنَاسٍ كـان يـجمعُ شَـمْـلَـهُـمْ   ويَـصْـدَعُ عـنـهُـمْ عَـادِيـاتِ الـنـوائِـبِ

كان الفقيد الخيط الناظم لقومه يجمع شملهم ويصدع عنهم، أي يفرق عنهم، المصائب التي تعدو عليهم

وجَـرَّبْـتُ مـا جَـرَّبْـتُ مـنـه فَـسَـرَّنـي   ولا يَكشِفُ الفِتيانَ غيرُ التَّجَارِبِ

٩٩ رثاء الدكتاتور

مُهَلهِل يرثي أخاه كليباً:

نُـبِّـئْـتُ أن الـنَّـارَ بَـعْـدَكَ أُوقِـدَتْ   واسْتَبَّ بَعدَكَ يا كُلَيْبُ المَجْلِسُ

خبروني أن النار التي كنت وحدك من يوقدها لاستقبال الأضياف، قد أوقدت بعد موتك، وخبروني أن القوم في مجلسهم بدأوا يتشاتمون، وما كانوا ليجرؤوا على ذلك في مجلسك

وتَـكَـلَّـمُـوا فـي أمـرِ كـلِّ عـظـيـمـةٍ   لو كـنـتَ شَـاهِـدَهُـمْ بِـهـا لـم يَـنْبِسُوا

صاروا يتبادلون القول في عظائم الأمور ولم يكونوا يتكلمون في حياتك

١٠٠ ثبات حتى الممات

أم الصَّريح الكِنْدية:

أَبَوْا أن يَفِرُّوا والقَنا في نُحُورِهِم وأن يَرتَقُوا مِنْ خَشيَةِ الموتِ سُلَّما

رفضوا الفرار والرماح في نحورهم، في أعالي صدورهم، ورفضوا أن يصعدوا بسلم هرباً من الموت، كناية عن الفرار. لعل العربي القديم كان يصعد شجرة فراراً من ذئب أو ضبع

فلو أنَّهُمْ فَرُّوا لَكانُوا أعِزَّةً ولكنْ رَأَوْا صَبْراً على الموتِ أكرَما

لو فروا لظلوا كراماً، ولكنهم رأوا أن الصبر على الموت أكرم لهم

١٠١ كنت السمع والبصر

صَفِيَّة البَاهِلِيَّة ترثي زوجها:

كُنَّا كَغُصْنَيْنِ في جُرثُومَةٍ سَمَقَا حِيناً بِأَحْسَنِ ما يَسْمُو له الشَّجَرُ

كنا غصنين في جرثومة، أصل النبتة، سمقا، ارتفعا زمناً فكانا كأحسن ما يكون الشجر

حتى إذا قيلَ قد طَالَتْ فروعُهُما وطَابَ فَيْآهُما واسْتُنْظِرَ الثَّمَرُ..

فلما طالت فروعهما وأصبح لهما فيء طيب، أي ظل طيب، وانتظر الناس الثمر..

أَخْنَى على واحِدِي رَيْبُ الزمانِ، وما يُبقِي الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ

أخنى، أي جار، على واحدي، نصيري الأوحد، الزمن الذي لا يبقي على شيء

كنَّا كأَنْجُمِ ليلٍ بينَها قمرٌ يَجْلُو الدُّجَى فَهَوى مِنْ بينِنا القَمَرُ

فاذهَبْ حَمِيداً على ما كان مِنْ مَضَضٍ فقد ذَهَبْتَ وأنتَ السَّمْعُ والبَصَرُ

اذهب محموداً رغم ما سبَّبه رحيلك من مضض، ألم

١٠٢ الجدير بالثناء

عبد الله بن أيوب التيمي، الشاعر العباسي يرثي منصور بن زياد، ورويت لمسلم بن الوليد وقبلها بيت، وتجده في كتابنا عن الشعر في مطلع العصر العباسي، وهو كتاب فرغنا من معظمه، فإن طبع هذا فأخلق بذاك أن يجد طريقه إلى المطبعة:

عَمَّتْ فَواضِلُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ فالناسُ فيهِ كلُّهُمْ مَأْجُورُ

عم فضله فعم الحزن عليه، فلكل الناس أجر عند الله لصبرهم على المصيبة فيه

يُثْني عليكَ لسانُ مَنْ لم تُولِهِ   خَيراً لأنَّكَ بالثَّناءِ جَديرُ

يثني عليك لسان من لم توله خيراً، لم تمنحه من خيرك، فقط لأنك تستحق الثناء

رَدَّتْ صَنائِعُهُ إليهِ حياتَهُ   فكأنَّهُ مِنْ نَشْرِها مَنْشُورُ

صنائع الفقيد، أفعاله الحسنة، جعلته يحيا بعد موت، فكأنه من نشرها، من طيب عبيرها، منشور، مبعوث بعد موت

والناسُ مَأْتَمُهُمْ عليهِ واحِدٌ   في كُلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفيرُ

الرنة: العويل، والزفير: أخو الشهيق

عَجَباً لأربَعِ أذْرُعٍ في خَمْسَةٍ   في جَوْفِها جبلٌ أشَمُّ كَبيرُ

عجباً للقبر بمقاييسه وفي داخله جبل عال كبير. (دعاني مصححي الشاعر عمران القفيني إلى قراءة قصيدة المتنبي «ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى» كي أقارنها بهذه القصيدة.. وأنا ذاهب لأفعل. وتعليقي الآن ـ وقد رجعت ـ أن «المعاني» في الشعر نفدت بسرعة، ربما نقول بسرعة صاروخية عندما نعلم أن عنترة في قلب الجاهلية اشتكى من نفادها، ومن أن الشعراء لم يتركوا شيئاً إلا قالوه. وجاء المتنبي بعد عنترة بأربعمئة سنة وراح يغلف معاني القدماء بأغلفة جديدة. هذا عن المعاني، فأما الروح الكامن في جوف المعنى فلا نفاد له. أسرف القدماء في تعقب المعاني وصنع سلاسل من الأنساب لها. لكنهم هونوا الأمر علينا عندما قالوا إن الشاعر الذي يأخذ المعنى ويضعه في ثوب أجمل وأكمل فهو أحق به. ونضيف إلى قولهم أن من وضع المعنى في ثوب مختلف، أكان أجمل وأكمل أم لم يكن، فهو أحق ببيته وبالروح الكامن في بيته.. ولا بأس بعد ذلك أن نغمزه غمزة نقدية ونقول له: يا سارق! ألا ترى ابن زريق البغدادي يقول «ودعته وبودي لو يودعني/ صفو الحياة وأني لا أودعه» فإذا به يكرر ما قالته أم زهير رحمها الله ـ هي جارتنا في نابلس بفلسطين، وهي شامية المولد ـ «تقبرني»؟ أو ما قالته الأخرى ـ جارة لنا أخرى ـ «جعل يومي قبل يومك»! لكن ابن زريق جعل بيته وسط أبيات بديعة تعبر عن نفسيته فكان بيتاً بديعاً. وأم زهير قالت لحفيدها «تقبرني» مع أن الكلمة قديمة، وجاءت كلمتها حلوة وصادقة لأنها فعلاً ترجو له اكتمال العمر وترجو أن يقبرها.. وقد فعل

١٠٣ ما كان ضرك؟

قُتَيْلَة بنت النَّضْر بن الحارث، وهي من أقارب النبي، وقد قتل النبي أباها، وقالت ترثيه بالقصيدة. وعندما سمع النبي رثاءها بكى وقال: لو جئتني من قبل لعفوت عنه:

يا رَاكِباً إنَّ «الأُثَيْلَ» مَظِنَّةٌ   مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ، وأَنْتَ مُوَفَّقُ

أيها الراكب إن الأثيل مظنة من صبح خامسة، أي أن الأثيل مكان تبلغه صباح الليلة الخامسة من مسيرك، وأرجو لك التوفيق في تبليغ رسالتي

بَلِّغْ بِها مَيْتاً فإنَّ تَحِيَّةً ... ما إنْ تَزالُ بها الرَّكائِبُ تَخفِقُ

بلغ الميت المدفون هناك تحية ظلت الإبل تخفق، تسير، وهي تحملها

مِنِّي إليهِ وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جادَتْ لِمائِحِها، وأُخْرَى تَخْنُقُ

بلغ رسالة مني إليه ودمعة سائلة جادت لمائحها، كانت سخية لطالبها،
ودمعة أخرى تخنقني ولما تنزل

فَلْيَسْمَعَنَّ النَّضْرُ إنْ نادَيْتَهُ ... إن كان يَسمعُ مَيِّتٌ أو يَنْطِقُ

فليسمع أخي «النضر» رسالتي إن كان الميت يسمع

ظَلَّتْ سيوفُ بَني أَبيهِ تَنُوشُهُ ... لِلَّهِ أَرْحامٌ هُناكَ تَشَقَّقُ

ظلت سيوف قومه تتناوله، لله، يا للعجب، كيف يتم تمزيق أواصر القربى

أَمُحَمَّدٌ ولأَنْتَ ضِنْءُ كَريمَةٍ ... مِنْ قَومِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

يا محمد! وأنت ضنء، ابن، أم كريمة من نساء قومها، والأب معرق، قديم في الشرف والنسب

ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

ما كان ضرك لو مننت، عفوت، وقد يعفو المرء وهو حانق

والنَّضْرُ أَقرَبُ مَنْ أَصَبْتَ وَسيلَةً ... وأَحَقُّهُمْ إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

والنضر هو أقرب من أصبت، أقرب الأسرى الذين نلتهم، وسيلة، قرابة، وأحقهم بأن يخلى سبيله

١٠٤ كامل الأوصاف

النابغة الجَعْدي:

فتىً كان فيهِ ما يَسُرُّ صديقَه ... على أنَّ فيهِ ما يَسوءُ الأَعادِيا

فتىً كَمُلَتْ خَيْراتُه، غيرَ أنه ... جَوادٌ فما يُبْقي مِنَ المالِ باقِيا

١٠٥ الضار النافع

قالت امرأة من كِنْدة:

لا تُخبِرُوا الناسَ إلَّا أنَّ سَيِّدَكُمْ ... أَسْلَمْتُمُوهُ ولو قاتَلْتُمُ امْتَنَعا

اعترفوا للجميع بأنكم أسلمتم سيدكم وتخليتم عنه، ولو قاتلتم دونه لامتنع، كان منيعاً لا يناله العدو

أَنْعَى فتىً لم تَذُرَّ الشمسُ طالِعَةً ... يوماً مِنَ الدهرِ إلَّا ضَرَّ أو نَفَعا

كان رجلاً ينفع الصديق ويضر العدو كلما ذرت الشمس، أي طلعت، أي في كل يوم من أيام حياته

١٠٦ المتجشم

رُقَيْبة الجَرْمي من طيء:

أَقُولُ، وفي الأكفانِ أَبيَضُ مَاجِدٌ　　كَغُصْنِ الأَراكِ وجهُهُ حين وَسَّمَا:

أقول وقد أدرج في كفنه رجل أبيض ماجد، سيد شريف، وجهه كغصن شجر الأراك الذكي حين وسَّم، أي ظهر

أَحَقّاً عبادَ اللّهِ أنْ لَسْتُ رَائِياً　　رِفَاعَةَ بعدَ اليومِ إلّا تَوَهُّما؟

هل صحيح أنني لن أراه بعد اليوم إلا في خيالي؟

فأُقْسِمُ ما جَشَّمْتُهُ مِنْ مُلِمَّةٍ　　تَؤُودُ كِرامَ القومِ إلَّا تَجَشَّما

ما كنت حملته من ملمة، مهمة، تؤود الكرام، تثقل كاهل الأشراف، إلا حملها

ولا قلتُ مَهْلاً وَهْوَ غَضْبانُ قد غَلا　　مِنَ الغَيْظِ وَسْطَ القومِ إلَّا تَبَسَّما

ولا استوقفته وهو غضبان يغلي من الغيظ إلا خرج عن غضبه وتبسم

١٠٧ لماذا نحن؟

عَقِيل بن عُلَّفَة المري:

لِتَغْدُ المَنايا حيثُ شَاءَتْ، فإنَّها　　مُحَلَّلَةٌ بعدَ الفَتى ابنِ عَقيلِ

لتغدُ المنايا، لتأت المنايا صباحاً إلى أي مكان تريد فهذا حلال لها بعد أن مات ابن عقيل

كأنَّ المَنايا تَبْتَغي في خِيارِنا　　لها تِرَةً أو تَهتَدي بِدَليلِ

كأن الموت يطلب عند أفضل رجالنا ترة، ثأراً،
أو كأن الموت يهتدي إلى هؤلاء الرجال بدليل

١٠٨ كلنا لها

في بعضِ تَطْوَافِ «ابنِ طُعْـ　　ـمَةَ» آمِناً لاقَى حِمَامَهْ

التطواف: التجوال، الحمام: الموت

رَصَداً لَهُ مِنْ خَلْفِهِ　　يَغْتَرُّهُ لا بَلْ أَمَامَهْ

كان الموت يرصده من خلفه ليغتره، ليفاجئه، لا بل من أمامه

غَرَّ امْرُؤٌ مَنَّتْهُ نَفْسٌ　　أنْ تَدومَ لَهُ السَّلامَهْ

١٠٩ ثكل على كبر

عِكْرِشة أبو الشَّغْب يرثي ابنه شغبا:

قد كان «شَغْبٌ» لو انَّ اللَّهَ عَمَّرَهُ　　عِـزّاً تُـزَادُ بـهِ فـي عِـزِّهـا مُـضَـرُ

لو عُمِّر شغب لزاد في عز قبائل مضر

فارقْتُ شَغْباً وقد قَوَّسْتُ مِنْ كِبَرٍ　　لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الثُّكْلُ والكِبَرُ

الخلتان: الخصلتان

١١٠ الله يرحمك وكفى

قال رجل من بني أسد يرثي أخاً له:

لـو كـان يُـنْجـي مِـنَ الـرَّدَى حَـذَرٌ　　نَـجَّـاكَ مِـمَّـا أَصَـابَـكَ الـحَـذَرُ

يَـرحَـمُـكَ الـلَّـهُ مِـنْ أخـيِ ثِـقَـةٍ　　لـم يَـكُ فـي صَـفْـوِ وُدِّهِ كَـدَرُ

١١١ انقطاع الأنين

أبو عمارٍ الأسدي يرثي ابناً له اسمه معين:

ظَلِلْتُ «بِخُسْرِ سَابُورٍ» مُقيماً　　يـؤَرِّقُـنـي أنـيـنُـكَ يـا مَـعـيِـنُ

ونَاموا عنكَ، واستَيْقَظْتُ حتى　　دَعَـاكَ الـمـوتُ، وانـقَـطَـعُ الأنـيـنُ

١١٢ المشاطرة

قال الشاعر يرثي ابنا له ثانياً:

وقَـاسَـمَـنـي دهـري بَـنِيَّ مُشَـاطِـراً　　فلمَّا تَقَضَّى شَطْرُهُ عادَ في شَطْري

قاسمني زمني أبنائي بالنصف، أي أمات نصفهم، فلما أخذ نصفه، عاد ليأخذ نصفي، فماتوا جميعاً. وهما ولدان على كل حال

ألا ليتَ أُمّي لم تَلِدْني، وليتَني　　سبقتُكَ إذْ كُنَّا إلى غَايةٍ نَجري

بما أننا نسير نحو غاية واحدة هي الموت فليتني قُدِّمت قبلك، يرثي الولد الثاني

وكنتُ به أُكْنَى فأصبحْتُ كلَّما　　كُنيتُ بهِ فَاضَتْ دُموعِي على نَحرِي

كانت كنيتي على هذا الابن الذي مات، فكلما نادوني بالكنية فاضت دموعي على صدري

وقد كنتُ ذا نَابٍ وظُفْرٍ على العِدَى　　فأصبحتُ لا يَخْشَوْنَ نَابِي ولا ظُفْري

١١٣ مؤتمر داخل النفس

قال أعرابي:

لَحَا اللَّهُ دَهْراً شَرُّهُ قبلَ خَيْرِهِ   تَقاضَى فلم يُحْسِنْ إليَّ التَّقَاضِيا

لعن الله الدهر الذي يأتي شره قبل خيره، لقد قاضاني في هذا الفتى، كأنه خاصمني فيه أمام شيخ العشيرة، فلم يكن سهلاً في خصومته

فَتىً كان لا يَطوي على البخلِ نفسَهُ   إذا ائْتَمَرَتْ نَفْسَاهُ في السِّرِّ خَالِيا

هذا الفتى كان إذا ائتمرت نفساه، أي تشاورتا، فازت النفس الخيرة.. فكأنه جعل له نفْسين تتحاوران: واحدة سخية والأخرى بخيلة، والفوز دائماً للسخية

١١٤ السبيل سبيله

إن المَسَاءَةَ لِلمَسَرَّةِ مَوْعِدٌ   أُخْتانِ رَهْنٌ لِلْعَشِيَّةِ أو غَدِ

الشيء السيء والشيء السار يَعِدُ أحدهما بالآخر، هما أختان لا تتأخر إحداهما عن اللحاق بأختها في المساء أو الصباح

فإذا سَمِعْتَ بِهالِكٍ فَتَيَقَّنَنْ   أنَّ السبيلَ سبيلُهُ وتَزَوَّدِ

كلما سمعت بميت فاعلم أن طريقك طريقه فتزود من صالح الأعمال

١١٥ صخرة الأسرار

مِسكين الدارِمي الشاعر الأموي:

وفِتيانِ صِدْقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضِهِمْ   على سِرِّ بَعضٍ غيرَ أنِّي جِماعُها

رب فتيان صدق، حقيقيين، أعرف الكثير عنهم ولا أطلع أحدهم على سر الآخر، والأسرار كلها عندي

لكلِّ امْرِئٍ شِعْبٌ مِنَ القلبِ فارغٌ   ومَوْضِعُ نَجوَى لا يُرامُ اطِّلَاعُها

لكل امرئ منهم طريق في القلب مخصص له، ولكل منهم موضع نجوى، مكان للسر، ولا سبيل للاطلاع على هذه النجوى

يَظَلُّونَ شَتَّى في البلادِ، وسِرُّهُمْ   إلى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالَ انْصِدَاعُها

متفرقون في البلاد، وسرهم موجود عند صخرة أعجز الرجال انصداعها، تشققها

١١٦ المسامحة

يحيى بن زياد:

ولـمَّـا رأيـتُ الـشـيـبَ لاحَ بَـيـاضُـهُ بِـمَفْرِقِ رأسِي قلتُ لِلشَّيبِ مرحبا
ولو خِلْتُ أنِّي إنْ كَفَفْتُ تَحِيَّتِي تَـنَـكَّـبَ عَـنِّـي رُمْـتُ أن يَـتَـنَـكَّـبَـا

لو ظننت أنني بعدم إلقاء التحية على الشيب سيتنكب عني، سيتجنبني، لكنت رجوت أن يتجنبني

ولـكـنْ إذا مـا حَـلَّ كُـرْهٌ فَـسـامَـحَـتْ بـه الـنـفـسُ يَـومـاً كـان لِـلْـكُـرْهِ أَذْهَـبـا

إذا حل المكروه بالمرء فتسامحت النفس وقبلته، فذلك يساعد في ذهاب المكروه.. أي أن القبول بالأمر الواقع يجعله هيناً

١١٧ الأمور تقبل أشباها

شَبِيب بن البَرْصاء المُرِّي:

وإِنِّـي لَـتَـرَّاكُ الـضَّـغِـيـنَـةِ قـد بَـدا ثَـراهـا مِـنَ الـمَـوْلَـى فـلا أَسْـتَـثِـيـرُهـا

أترك الضغينة، الحقد. يبدو هذا الحقد وكأنه الثرى، التراب،
وأنا لا أثير هذا التراب بل أتركه راكداً

مَـخـافَـةَ أن تَـجـنـي عـلَـيَّ، وإِنَّـمـا يَـهِـيـجُ كـبـيـراتِ الأُمـورِ صـغـيـرُهـا

فالحقد على الآخرين يجني عليَّ البلية، والأمور الكبيرة تهيجها، وتحركها، الأمور الصغيرة

لَـعَـمْـرِي لـقـد أشـرفْـتُ يـومَ عُـنَـيْـزَةٍ عـلـى رَغْـبَـةٍ لـو شَـدَّ نَـفْـسِـي مَـرِيـرُهـا!

لقد كانت لي رغبة في معركة عنيزة ـ لعلها رغبة في السلم ـ وليت نفسي قد شدها مريرها، قوِيَت على ذلك القرار!

تَـبَـيَّـنُ أعـقَـابُ الأُمـورِ إذا مَـضَـتْ وتُـقْـبِـلُ أَشـبـاهـاً عـلـيـكَ صُـدُورُهـا

تتبين أعقاب الأمور، نتائجها، بعد انتهائها، ولكن الأمور وهي مقبلة عليك تبدو متشابهة فلا تستطيع التمييز بين حسن وسيء

١١٨ ستقطع يمينك!

معن بن أوس، وكان له صديق ومعن متزوج بأخته فاتفق أن طلقها، وتزوج غيرها، فآلى صديقه أن لا يكلمه أبدا، فأنشأ معن يقول يستعطفه ويحذره:

لَـعَـمْـرِيَ مـا أدرِي، وإِنِّـي لَأَوْجَـلُ عـلـى أَيِّـنـا تَـعْـدُو الـمَـنِـيَّـةُ أَوَّلُ

أوجل: أخاف

وإنِّي أخوكَ الدائِمُ العَهْدِ لم أَخُنْ إنَ ابْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبا بِكَ مَنزِلُ

أبزاك: بطش بك، نبا بك منزل: اضطررت لترك المكان

أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتَ مِنْ ذي عَدَاوَةٍ وأَحْبِسُ مَالِي إن غَرِمْتَ فَأَعْقِلُ

أحارب من تحاربه أنت من الأعداء، وأوفر مالي إن وجب عليك سداد فأعقل، أدفع الإبل سداداً عنك

وإنْ سُؤْتَنِي يوماً صفحتُ إلى غدٍ لِيُعْقِبَ يوماً منكَ آخرُ مُقْبِلُ

أنتظر بعد إساءتك حتى تهدأ الأمور وأصالحك عقب الإساءة

فلا تَغْضَبَنْ قد تُسْتَعَارُ ظَعِينَةٌ وتُرْسَلُ أُخرى كُلُّ ذَلِكَ يُفْعَلُ

فلا تغضب لأنني طلقت أختك، فقد تؤخذ ظعينة، امرأة، وترسل أخرى، تطلق، فهذا شيء يفعله الناس

وإنِّي على أشياءَ منكَ تُرِيبُني قَديماً لَذُو صَفْحٍ على ذاكَ مُجْمِلُ

وأنا أصفح مجملاً، متفضلاً، منذ زمن على أشياء مريبة تأتي منك

ستَقْطَعُ في الدنيا إذا ما قَطَعْتَني يَمينَكَ، فانظُرْ أيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ

وفي الأرضِ إن رَثَّتْ حِبالُكَ وَاصِلٌ وفي الأرضِ عن دارِ القِلَى مُتَحَوَّلُ

إن رثت حبالك، اهترأت أي انقطعت العلاقات، ففي الأرض مَنْ أَصِلُ حبل العلاقة معه سواك، وفي الأرض متحول، تحولٌ، عن دار القِلى، أي مكان البغض

إذا أنتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجَدْتَهُ على طَرَفِ الهِجرانِ إن كان يَعقِلُ

قلة الإنصاف تؤدي إلى القطيعة

ويركَبُ حدَّ السيفِ مِنْ أن تَضيمَهُ إذا لم يَكُنْ عن شَفْرَةِ السيفِ مَزْحَلُ

والمرء يلجأ للسيف إذا أحس أنك تضيمه، تظلمه، هذا إن لم يكن عن حد السيف مزحل، بديل

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظِنَّتي وبَدَّلَ سُوءَاً بالذي كنتُ أَفْعَلُ..

كنت إذا صاحب رام ظنتي، قصد إلى تشويه أفعالي، وبادلني سوءاً بفعلي..

قَلَبْتُ له ظَهرَ المِجَنِّ فلم أَدُمْ على ذاكَ إلَّا رَيْثَما أَتَحَوَّلُ

قلبت له ظهر المجن، قلبت له ترسي.. بمعنى انقلبت عليه، وبسرعة تحولت عن الود إلى العداوة

إذا انْصَرَفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تَكَدْ إليهِ بِوَجْهٍ آخِرَ الدهرِ تُقْبِلُ

١١٩ أغنياء وفقراء

إياس بن القائف:

تُقيمُ الرجالُ الأغنياءُ بِأرضِهِمْ ... وتَرمِي النَّوَى بِالمُقْتِرينَ المَرامِيا

المقترون: الفقراء، النوى: الفراق

فَأكرِمْ أخاكَ الدهرَ ما دُمْتُما مَعاً ... كَفَى بِالمَماتِ فُرْقَةً وتَقالِيا

أكرم صاحبك ولا تفارقه، فكفى بالموت فرقة وتقالياً، تباغضاً وتعادياً

إذا زرتُ أرضاً بعد طولِ اجتنابِها ... فقدتُ صديقِي، والبلادُ كمَا هِيَا

١٢٠ الاحتيال لزلة الصديق

سالم بن وابِصَة:

أُحِبُّ الفَتَى يَنفي الفَوَاحِشَ سَمْعُهُ ... كَأَنَّ به عن كلِّ فاحِشَةٍ وَقْرَا

أذنه ترفض قبول الكلام الفاحش فكأن بها وقراً، أي سداداً

سَليمُ دَواعِي الصَّدْرِ لا بَاسِطاً أَذَىً ... ولا مَانِعاً خيراً ولا قائلاً هُجْرَا

سليم دواعي الصدر، سليم النوايا، لا يبادر بالأذى،
ولا يمنع خيره، ولا يقول هجراً، شتماً

إذا شئتَ أن تُدعَى كريماً مُكَرَّماً ... أديباً ظَريفاً عاقلاً ماجِداً حُرًّا..

إذا مَا أَتتْ مِنْ صاحبٍ لَكَ زَلَّةٌ ... فكنْ أنتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرَا

غِنَى النفسِ ما يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ... فإن زَادَ شيئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرا

سد الخلة: منع الفقر

١٢١ أحاظ وجدود

رجل من بني قُرَيع:

مَتَى ما يَرى الناسُ الغَنِيَّ، وجَارُهُ ... فَقيرٌ، يَقُولوا عاجِزٌ وجَلِيدُ

يقولون إن الفقير عاجز، بينما الغني جليد، قوي

وليس الغِنَى والفقرُ مِنْ حيلَةِ الفَتَى ... ولكنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وجُدُودُ

لكن الفقر والغنى مجرد أحاظ، أي حظوظ، وجدود، أي حظوظ أيضاً

إذا المرءُ أَعْيَتْهُ المُرُوءَةُ نَاشِئاً   فمَطْلَبُها كَهْلاً عليهِ بَعيدُ

المروءة: الكرم والنجدة والشهامة، وهي تكون في المرء أو لا تكون، فإن أعجزته وهو ناشئ يافع فستكون صعبة عليه وهو كهل.. اكتشف الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني المروءة وهو يعمل بمصنع في الولايات المتحدة، رأى زملاء يتكاسلون عن مساعدة غيرهم، وليست فيهم تلك الشهامة، وقال: المروءة أن تهب لمساعدة غيرك دون انتظار أجر، أو كما قال

وكائِنْ رَأَيْنَا مِنْ غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ   وصُعْلُوكِ قَوْمٍ ماتَ وَهْوَ حَميدُ

كثيراً ما رأينا غنياً مذموماً، وصعلوكاً مات وهو محمود السيرة

١٢٢ عاذر نفسه

وإيَّاكَ والأمرَ الذي إن تَوَسَّعَتْ   مَوارِدُهُ ضَاقَتْ عليكَ المَصَادِرُ

لا تدخل في أمر ترى المدخل إليه سهلاً، فإذا أردت الصدور، أي العودة، وجدت المصدر ضيقاً

فمَا حَسَنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَه   وليسَ له مِنْ سَائِرِ الناسِ عَاذِرُ

قبيح أن يجد المرء لنفسه عذراً عن التقصير بينما لا يعذره أحد من الناس

١٢٣ الإنسان والبعير

العباس بن مِرداس:

تَرى الرجلَ النَّحيفَ فتَزْدَرِيهِ   وفي أثوابِهِ أَسَدٌ مَزِيرُ

مزير: يزأر

ويُعْجِبُكَ الطَّريرُ فَتَبْتَليهِ   فَيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرجلُ الطَّريرُ

الطرير، الفتى الذي نبت شاربه، يعجبك فتبتليه، أي تختبره، فيخلف ظنك

فمَا عِظَمُ الرجالِ لَهُمْ بِفَخْرٍ   ولكنْ فخرُهُمْ كَرَمٌ وخيرُ
بُغَاثُ الطيرِ أَكثرُها فِراخاً   وأمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

بغاث الطير، ضعافها، كثيرة الفراخ، وأم الصقر مقلات، كثيرة موت الأولاد، نزور، مقلّة

ضِعَافُ الطيرِ أَطْوَلُها جُسُوماً   ولم تَطُلِ البُزَاةُ ولا الصُّقُورُ

البزاة: إخوة الصقور

لقد عَظُمَ البَعيرُ بغيرِ لُبٍّ   فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البَعيرُ

لب: عقل

يُصَرِّفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهٍ   ويَحْبِسُهُ على الخَسْفِ الجَرِيرُ

الخسف: الظلم، الجرير: الحبل

وتَضْرِبُهُ الوَلِيدَةُ بِالهَرَاوَى   فَلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نَكِيرُ

البنت تضرب البعير بالعصي، فلا غير لديه، لا غيرة وغضب، ولا نكير، لا ينكر فعلها

١٢٤ النصيحة لمن يقبلها

عبيد بن أيوبٍ العنبري:

ولا تَعْتَرِضْ في الأمرِ تُكْفَى شُؤونَه   ولا تَنْصَحَنْ إلَّا لِمَنْ هُوَ قَابِلُهْ

إذا كفاك الشأن الآخرون فلا تتحذلق وتصر على أن يكون لك ضلع في كل أمر، ولا تنصح من لا أمل في أن يقبل نُصحك

ولا تَخْذُلِ المَولى إذا مَا مُلِمَّةٌ   أَلَمَّتْ، ونَازِلْ في الوَغَى مَنْ يُنَازِلُهْ

لا تخذل المولى، الحليف، إذا ألمت ملمة، جاءت مصيبة، وانصره في المعركة

ولا تَحْرِمِ المَولى الكريمَ فإنَّهُ   أَخُوكَ، ولا تَدْرِي مَتى أنتَ سَائِلُهْ

ولا تحرم حليفك الكريم، فلا تدري متى تحتاج إليه

١٢٥ لست كالحطيئة

منظور بن سُحَيم:

ولستُ بِهاجٍ في القِرَى أَهْلَ منزلٍ   على زَادِهِمْ أَبْكي وأُبْكِي البَوَاكِيا

لن أهجو قوماً نزلت بهم ولم يقدموا لي القِرى، أي طعام الضيف

فإمَّا كِرامٌ مُوسِرونَ أَتَيْتُهُمْ   فَحسْبِيَ مِنْ ذُو عندَهُمْ ما كَفَانِيا

فإما أن يكونوا كراماً وموسرين، فمن ذو عندهم، أي الذي عندهم، أكتفي بما يشبعني

وإِمَّا كِرَامٌ مُعْسِرون عذَرْتُهُمْ   وإمَّا لِئَامٌ فادَّكَرْتُ حَيَائِيا

والكرام المعسرون، المفتقرون، أعذرهم،
وأما اللئام فأتذكر حيائي فلا أهجوهم لعدم القرى

وعِرْضِيَ أَبْقَى ما ادَّخَرْتُ ذَخِيرَةً   وبَطْنِيَ أَطْوِيهِ كَطَيِّ رِدَائِيا

وأفضل ما أدخر شرفي وعرضي، وأطوي بطني، أي أجوع، كما أطوي ردائي

١٢٦ عفاف وحياء

وأُعْرِضُ عن مَطاعِمَ قد أَراها فأَتْرُكُها وفي بَطني انْطِواءُ
أبتعد عن مواضع الطعام التي ينالني فيها الذم، رغم أن في بطني انطواء، أي أنني جائع

فلا وأَبيكَ ما في العيشِ خيرٌ ولا الدنيا إذا ذَهَبَ الحَياءُ
يَعيشُ المرءُ ما اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ويَبْقى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ
الحياء خير للمرء وهو يقيه مثلما يقي اللحاء الشجرة، فما دام لها لحاء فهي ستعيش. نسبت هذه الأبيات لنصف دستة من الشعراء

١٢٧ تأديب الذات

الحكم بن عَبْدل، من شعراء الدولة الأموية:

وإنِّي لأَسْتَغْني فَمَا أَبْطَرُ الغِنَى وأَعْرِضُ مَيْسُوري على مُبْتَغي قَرْضي
أكون غنياً ولا أبطر الغنى، أي لا أفتخر بالغنى افتخار تطاول، بل أعرض ما تيسر لي على من يبتغي اقتراضه.. والقرض ليس بالمعنى المصرفي بل بمعنى أن المرء يبذل معروفه ويلقى معروفاً

وأُعْسِرُ أَحياناً فتَشْتَدُّ عُسْرَتي وأُدْرِكُ مَيْسُورَ الغِنَى ومَعي عِرْضي
أعسر أحياناً، أفتقر، ثم يأتي الغنى ولا أكون في وقت عسرتي قد تخليت عن شرفي

وأَبْذُلُ مَعرُوفي وتَصْفُو خَليقَتي إذا كَدِرَتْ أَخْلاقُ كلِّ فَتىً مَحْضِ
أقدم الخير للناس وأخلاقي جميلة لا يكدرها المن، هذا في حين قد تتكدر أخلاق فتى محض، خالص شريف النسب

وأَسْتَنْقِذُ المولى مِنَ الأمرِ بعدَما يَزِلُّ كما زَلَّ البعيرُ عن الدَّحْضِ
أنقذ المولى، الصديق والحليف، بعد أن يزل، يقع، مثلما يزل البعير عن الدحض، المنحدَر.. أي تصيبه ضائقة

وأَمنَحُهُ مَالي ووُدِّي ونُصْرَتي وإن كان مَحْنِيَّ الضُّلُوعِ على بُغْضي
وأمنحه مالي وودي ونصرتي ولو كان يضمر لي البغض

وأَقْضي على نفسي إذا الأمرُ نَابَني وفي الناسِ مَنْ يُقْضَى عليه ولا يَقْضي
إذا وقعت في خطأ فأنا أقر به وأقضي على نفسي، ومن الناس من يكابر فيلزمه الآخرون بخطإه

ولستُ بِذي وَجْهَيْنِ فيمَنْ عرفْتَهُ ولا البخلُ، فاعلَمْ، مِنْ سَمائي ولا أرضي

وإنّي لَسَهْلٌ مَا تُغَيِّرُ شيمَتي صُروفُ ليالي الدهرِ بالفَتْلِ والنَّقْضِ

لا تغير شيمتي، طبيعتي، مصائب الزمن، بالفتل والنقض، وفتل الحبل ونقض قواه، أي جدلاته، كناية عن حاليْ اليسر والعسر

١٢٨ لا أترك صاحبي

حاتِم الطائي:

ومَا أنَا بِالسَّاعي بِفَضْلِ زِمَامِها لِتَشْرَبَ ماءَ الحَوْضِ قبلَ الرَّكَائِبِ

لا أسعى بطرف مقود الناقة لتشرب قبل نياق الآخرين

ومَا أنا بِالطَّاوِي حَقيبَةَ رحْلِها لأَبعَثَها خِفًّا وأَتْرُكَ صَاحبي

ولا أطوي الكيس الذي خلفي على الناقة، كي تكون خفيفة ولا أحمل عليها صاحبي

إذا كنتَ رَبّاً للقَلُوصِ فلا تَدَعْ رفيقَكَ يَمْشي خلفَها غيرَ رَاكِبِ

القلوص: الناقة

أَنِخْها فَأَرْكِبْه فإنْ حَمَلَتْكُما فذاكَ، وإن كان العِقَابُ فَعاقِبِ

أنخ الناقة وأردف صاحبك فإن حملتكما معاً فهذا هذا، وإلا فاركب أنت مرة وهو مرة، متعاقبَيْن

١٢٩ الويل للفقير

مالك بن حَرِيم الهَمْدَاني:

وأُنْبِئْتُ، والأيامُ ذاتُ تَجارِبٍ، وتُبدي لَكَ الأيامُ ما لستَ تَعلَمُ

بِأَنَّ ثَراءَ المالِ يَنفَعُ رَبَّهُ ويُثْني عليهِ الحَمْدَ وَهْوَ مُذَمَّمُ

المال يأتي صاحبه بالحمد، رغم أن صاحبه مذمم، يصنع ما يستحق الذم، فالسخاء يغطي على العيوب

وإنَّ قليلَ المالِ لِلْمَرْءِ مُفْسِدٌ يَحُزُّ كما حَزَّ القَطيعُ المُحَرَّمُ

قليل المال: المال القليل، القطيع المحرم: السوط الخشن المقطَّع، فقلة المال محبطة للكريم مثلما تحبطه الأداة التالفة في عمله

يَرَى دَرجاتِ المجدِ لا يَستَطِيعُها ويقعُدُ وَسْطَ القومِ لا يَتَكَلَّمُ

الكريم الفقير يعرف كيف يصنع مجداً لنفسه، ولكنه عاجز عن ذلك لقلة ماله. الشطر الثاني شرح نفسه، لكنه بديع. أليس كذلك؟

١٣٠ كفاف وكرامة

محمد بن بشير الخارجي:

لأنْ أُزَجِّيَ عند العُرْيِ بِالخَلَقِ وأَجْتَزِي مِنْ كثيرِ الزَّادِ بِالعُلَقِ..

أن أزجي، أمشّي حالي، عند العري بالخلق، الملابس البالية، وأن أجتزئ، أي أكتفي، من الزاد الكثير بالعُلق، أي بالقليل..

خيرٌ وأكرمُ لي مِنْ أن تُرَى مِنَنٌ مَعقُودَةٌ لِلِئامِ الناسِ في عُنقي

خير لي من تحمل منن لئام الناس وتفضلهم عليَّ، فهذه المنن كأنها معقودة في عنقي

إنِّي وإن قَصُرَتْ عن هِمَّتي جِدَتي وكان مَالِيَ لا يَقْوَى على خُلُقي..

إن قصرت جِدَتي، مالي، عن تحقيق همتي، أي طموحي،
وكانت هذه الجِدَة لا تتحمل طبعي السخي

لَتَارِكٌ كُلَّ أَمْرٍ كان يُلْزِمُني عاراً ويُشْرِعُني في المَنْهَلِ الرَّنِقِ

مع ذلك فإنني أترك كل فعل يلصق بي العار، ويشرعني، يَرِدُ بي،
في المنهل الرنق، في الحوض المكدر

١٣١ إدمان قرع الأبواب

محمد بن بشير الخارجي:

كم مِنْ فَتىً قَصُرَتْ في الرِّزقِ خُطْوَتُهُ أَلْفَيتُهُ بِسِهامِ الرزقِ قد فَلَجا

كثيراً ما يمتنع الرزق على إنسان، ثم تراه قد فلج، أصاب المرمى، بسهام الرزق الوفير

إن الأُمورَ إذا انْسَدَّتْ مَسالِكُها فالصبرُ يَفْتُقُ منها كلَّ ما ارْتَتَجا

الصبر يفتق المسالك التي ارتتجت، أغلقت، ويفتحها

لا تَيْأَسَنَّ، وإن طَالَتْ مُطالَبَةٌ، إذا اسْتَعَنْتَ بِصبْرٍ أن تَرَى فَرَجا

أَخْلِقْ بِذي الصبرِ أن يَحْظَى بِحاجَتِه ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلأَبوابِ أن يَلِجَا

مدمن القرع للأبواب لا بد أن يلج، يدخل

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قبل الخَطْوِ موضِعَها فمَنْ عَلَا زَلَقاً عن غِرَّةٍ زَلِجَا

قدر موضع قدمك قبل أن تخطو، فالذي يصعد فوق مكان زلق، منحدر، عن غرة، بتهور، يزلج، ينزلق

ولا يَغُرَّنْكَ صَفْوٌ أنتَ شَارِبُهُ فربَّما كان بِالتَّكْديرِ مُمْتَزِجَا

قد يكون الماء الصافي الذي تشربه مخلوطاً بالشوائب، فلا تغتر برزق يأتيك فلعل في طيه شروطاً

١٣٢ لهم جل مالي

المُقَنَّع الكِنْدي:

يُعَاتِبُنِي في الدَّيْنِ قَوْمِي، وإنَّما دُيُونِيَ في أشياءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا

إنما أستدين لأصنع أموراً تعود على قومي بالحمد

أَسُدُّ بِه ما قد أَخَلُّوُ وضَيَّعُوا: ثُغُورَ حُقوقٍ ما أَطَاقُوا لها سَدَّا

أسد بالمال الذي استدينه ما قد أخلوا، أهملوا، وضيعوا: أسدُّ ثغور حقوق لم يتحملوا سدها

وفي جَفْنَةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دُونَها مُكَلَّلَةٍ لحماً مُدَفَّقَةٍ ثَرْدَا

من الأمور التي أقوم بها تقديم جفنة، دست طعام، متاحة للجميع لا أغلق بابي دونها، وفيها الثريد من خبز مفتوت ولحم يكلله

وفي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتيقٍ جَعلتُه حِجَاباً لِبَيْتي ثم أَخْدَمْتُهُ عَبْدا

وأحتفظ بفرس نهد، عالٍ، عتيق، أي أصيل، كي يكون حجاباً لبيتي، حامياً له، وجعلت له عبداً يقوم على خدمته

وإنَّ الذي بَيْني وبينَ بَني أَبي وبينَ بَني عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جِدًّا

الطبائع بيني وبين أقاربي مختلفة جداً

فإن أَكَلُوا لَحْمي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ وإن هَدَمُوا مَجدي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْداً

إن أكلوا لحمي، أي اغتابوني، وفرت لحومهم، وإن هدموا مجدي بإنكار أفعالي الجيدة فأنا أبني لهم مجداً

وإن ضَيَّعُوا غَيْبي حَفِظْتُ غُيوبَهُمْ وإن هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدَا

إن طعنوني في الظهر حفظت مكانتهم في غيابهم،
ويتمنون لي الضلال وأتمنى لهم الهداية

وإن زَجَرُوا طَيْراً بِنَحْسٍ تَمُرُّ بي زَجَرْتُ لهُمْ طَيراً تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدَا

إن صنعوا لي ذلك مع الطير كي يكون هذا شؤماً علي فعلت العكس لهم

ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَديمَ عَلَيْهِمُ وليس رئيسَ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

لَهُمْ جُلُّ مَالي إن تَتَابَعَ لي غِنىً وإن قَلَّ مَالي لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

الرفد: العطاء

وإنِّي لَعَبْدُ الضيفِ ما دامَ نازِلاً وما شِيمَةٌ لي غَيرَها تُشْبِهُ العَبْدَا

على أن قَوْمي ما تَرى عينُ نَاظِرٍ كَشِيبِهِمُ شِيباً ولا مُرْدِهِمْ مُرْدَا
قومي مع ذلك أحسن الناس: الشيوخ منهم والمرد، الذين لم تنبت لحاهم بعد

بِـفَـضْــلٍ وأَحْـلامٍ وَجُـودٍ وسُـؤْدَدٍ وقَوْمِي رَبِيعٌ في الزَّمانِ إذا اشْتَدَّا
لهم فضل وأحلام، عقول، وهم عندما يشتد الزمن، ويقل الخير، يكونون ربيعاً للناس، فالربيع هو فصل العشب والحليب في البادية

١٣٣ حلاوة المعروف

قال رجل من الفزاريين:

وإلَّا يَكُنْ عَظمي طويلاً فإنَّني له بِالخِلالِ الصَّالِحاتِ وَصُولُ
إلا يكن، أي إن لم يكن، جسمي طويلاً فأنا أصله وصلاً بالفعال الحسنة فيصبح طويلاً

ولا خيرَ في حُسْنِ الجُسُومِ ونُبْلِها إذا لم يَزِنْ حُسْنَ الجُسُومِ عُقُولُ

إذا كنتُ في القَوْمِ الطِّوَالِ عَلَوْتُهُمْ بِعَارِفَةٍ حتى يُقالَ طَويلُ
إن كنت وسط قوم طوال علوتهم بعارفة، بمعروف وسخاء، حتى يروني طويلاً

وكم قد رَأَيْنا مِنْ فُروعٍ كَرِيمةٍ تَمُوتُ إذا لم تُحْيِهِنَّ أُصُولُ
الابن الكريم بذاته تضمحل سمعته إذا كان آباؤه لئاماً

ولم أَرَ كَالمَعْرُوفِ أمَّا مَذَاقُهُ فَحُلْوٌ وأمَّا وجهُهُ فَجَمِيلُ

١٣٤ المعادلة الصعبة

عبد الله بن معاوية بن جعفر:

أرى نَفسي تَتُوقُ إلى أُمُورٍ ويَقْصُرُ دونَ مَبْلَغِهِنَّ مَالي
يقصر مالي عن مبلغ، أي عن بلوغ، الأمور التي أتوق إليها

فنفسي لا تُطاوِعُني ببخلٍ ومَالي لا يُبَلِّغُني فَعَالي
نفسي لا تطيق البخل، ولكن ما أملك من مال لا يوصلني إلى فعالي، والفعال هي الأمجاد

١٣٥ التسريح بإحسان

المتوكل الليثي، وقد عاصر معاوية:

إنِّي إذا ما الخَليلُ أَحْدَثَ لي صُرْماً ومَلَّ الصَّفَاءَ أو قَطَعَا..
إذا صرمني خليلي، هجرني صاحبي، ومل الود بيننا وقطع العلاقة..

لا أَحْتَسي مَاءَهُ على رَنَقٍ ولا يَراني لِبَيْنِهِ جَزِعَا

لا أشرب ماءه على رنق، كدر، ولا أريه أنني مضطرب جزع لفراقه

أَهْجُرُهُ ثم تَنْقَضي غُبَرُ الـ ـهِجْرَانِ عنَّا، ولم أَقُلْ قَذَعَا

أهجره كما هجرني، وتنقضي غبر الهجران عنا، تذهب بقايا الهجران أي الكراهية، دون أن أقول قذعا، فُحشاً

اِحْذَرْ وِصَالَ اللئيمِ إنَّ لَهُ عَضْهاً إذا حَبْلُ وَصْلِهِ انْقَطَعا

العلاقة مع اللئيم يعقبها العَضْه، الافتراء، عندما تنتهي

١٣٦ غنَى النفس

قيس بن الخَطيم، وتُروى للربيع بن الحُقَيق اليهودي:

ومَا بعضُ الإقامَةِ في دِيَارٍ يُهَانُ بِها الفَتَى إلَّا بَلاءُ

الإقامة في مكان يهان فيه الفتى بلاء

وبعضُ خَلائِقِ الأَقوامِ دَاءٌ كَداءِ البَطْنِ ليس له دَوَاءُ

خلائق: طباع

يُريدُ المرءُ أن يُعْطَى مُنَاهُ ويَأْبَى اللَّـهُ إلَّا مَا يَشَاءُ
وكُلُّ شَدِيدَةٍ نزلتْ بِقومٍ سيأْتي بعدَ شِدَّتِها رَخَاءُ
ولا يُعْطَى الحَريصُ غِنىً لِحِرْصٍ وقد يَنْمي على الجُودِ الثَّرَاءُ

الحريص البخيل لا يصبح غنياً لبخله، فربما زاد الثراء مع السخاء

غَنِيُّ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ غَنِيٌّ وفَقْرُ النفسِ ما عَمِرَتْ شَقَاءُ

غني النفس يظل غنياً طول عمره، وفقير النفس يبقى شقياً طول عمره

وليس بِنافِعٍ ذا البخْلِ مالٌ ولا مُزْرٍ بِصاحِبِهِ السَّخَاءُ

السخاء لا يزري بصاحبه، لا يؤذيه

وبعضُ الدَّاءِ مُلْتَمَسٌ شِفَاهُ وداءُ النَّوْكِ ليسَ لهُ شِفَاءُ

النوك: الحمق

١٣٧ نصائح الأب

يزيد بن الحكم الثقفي يعظ ابنه بدراً:

يــا بَــدْرُ! والأَمْـثـالُ يَـضْـــ ـــرِبُـهـا لِـذي الـلُّـبِّ الـحَـكـيـمُ

ذو اللب: ذو العقل

دُمْ لِـلـخـلـيـلِ بِـوُدِّهِ مـا خـيـرُ وُدٍّ لا يَـدُومُ

احفظ ود الصديق، فلا خير في ود قصير الأجل

واعْـرِفْ لِـجـارِكَ حـقَّـهُ والـحـقُّ يـعـرِفُـهُ الـكـريـمُ

واعـلـمْ بـأنَّ الـضَّـيـفَ يـو مـاً سـوف يَـحْـمَـدُ أو يَـلُـومُ

والـنـاسُ مُـبْـتَـنَـيـانِ مُـحْـــ ـــمُـودُ الـبِـنـايَـةِ أو ذَمـيـمُ

الناس مجبولون على طبيعتين: محمودة ومذمومة

واعْـلَـمْ بُـنَـيَّ فـإنَّـهُ بِـالـعِـلْـمِ يَـنْـتَـفِـعُ الـعـلـيـمُ

إنَّ الأُمُـورَ دَقـيـقُـهـا مِـمَّـا يَـهـيـجُ لـه الـعَـظـيـمُ

الصغير من المشكلات يثير الكبير

والـبَـغْـيُ يَـصْـرَعُ أَهْـلَـهُ والـظـلـمُ مَـرْتَـعُـهُ وَخـيـمُ

البغي: الظلم، مرتعه وخيم، كأن الظالم جمل يرعى في أرض موبوءة فالنتيجة سيئة

ولـقـد يـكـونُ لَـكَ الـبـعـيـــ ـــدُ أَخـاً ويَـقْـطَـعُـكَ الـحَـمـيـمُ

الحميم: القريب

والـمـرءُ يُـكْـرَمُ لِـلْـغِـنَـى ويُـهَـانُ لِـلْـعُـدْمِ الـعَـديـمُ

الناس تكرم الإنسان لماله، وتهين العديم، الفقير، لعدمه، أي لفقره

والـمـرءُ يَـبْـخَـلُ فـي الـحـقـو قِ ولِـلْـكَـلالَـةِ مَـا يُـسـيـمُ

يبخل المرء في إعطاء الحقوق لأصحابها، ولكن.. في النتيجة فإن ما يسيم، ما يرعى من إبل، سيؤول للكلالة، للورثة

مـا بُـخْـلُ مَـنْ هُـوَ لِـلْـمَـنـو نِ ورَيْـبِـهـا غَـرَضٌ رَجـيـمُ

ما الحكمة في بخل المرء وهو غرض للموت رجيم، مرجوم بالموت

ويَـرى الـقُـرُونَ أَمَـامَـهُ هَـمَـدُوا كـمـا هَـمَـدَ الـهَـشـيـمُ

ويرى القرون، أي الأجيال، الماضية وقد همدت كالعشب اليابس

وتَــخَـــرَّبُ الــدنــيـــا فَــلا بـــؤسٌ يَــدومُ ولا نَــعـــيـــمُ

تَخرَّب، أي تتخرب وتتلف الدنيا فيزول البؤس والنعيم وكل شيء

كُــلُّ امْــرِئٍ سَــتَــئـيـمُ مـنــــه الـعِــرْسُ أو مـنــهـا يَـئـيـمُ

تئيم: تترمل، والعرس: الزوجة

١٣٨ العَرْك بالجنب

محمد بن أبي شِحَاذٍ الضبي:

إذا أنتَ أُعطيتَ الغِنَى ثم لم تَجُدْ بِفضلِ الغِنىَ أُلفيتَ ما لَكَ حَامِدُ

إذا أنتَ لم تَعْرُكْ بِجَنْبِكَ بعضَ ما يَـريـبُ مِـنَ الأَدْنَـى رَمَـاكَ الأَبَـاعِـدُ

إذا لم تعرك بجنبك، أي تتغاضى وتبلع الموس، ما تلاقيه من الأدنى، القريب، فسوف يرميك الأباعد. يتحمل المرء من أقاربه كل سخافاتهم حتى يراه الأباعد عزيزاً، ذا عزوة، فيهابونه

إذا أنـتَ لـم تَـتـرُكْ طَـعـامـاً تُـحِـبُّـهُ ولا مَـقْـعَـداً تُـدْعَـى إليـهِ الـوَلائِـدُ..

إذا لم تكن عزيز النفس وتترفع عن طعام شهي وتتركه للآكلين، وإذا لم تترك المكان الذي يفترض أن تجلس فيه الولائد، الجواري والخدم..

تَـجَـلَّـلْـتَ عـاراً لا يَـزالُ يَـشُـبُّـهُ سِبابُ الـرجـالِ نَـثْـرُهُـمْ والـقَـصَـائِـدُ

إذا لم تترفع فالعار سيحل بك، وسيزيده سباب الرجال لك بالكلام وبالقصائد

١٣٩ التماس الرزق

الحَكَم بن عَبْدَل:

أَطْلُبُ ما يطلُبُ الكريمُ مِنَ الرِّ ـ زقِ لِـنـفـسـي، وأُجْـمِـلُ الـطَّـلَـبـا

أجمل الطلب: أتجنب الإلحاح

وأَحْـلُـبُ الـثَّـرَّةَ الـصَّـفِـيَّ، ولا أَجْـهَـدُ أَخْـلافَ غَـيْـرِهـا حَـلَـبـا

أحلب الثرة والصفي، الشاة أو الناقة الغزيرة اللبن، ولا أتعب أخلاف، أي ضروع وأثداء، غيرها بالحلب.. فأنا أطلب المال من عند الكريم الذي يملكه ولا أتعب نفسي مع من لا يملك المال فألح عليه في الطلب

إنِّـي رأَيْـتُ الـفَـتَـى الـكـريـمَ إذا رغَّـبْـتَـهُ فـي صَـنـيـعَـةٍ رَغِـبـا

الكريم إذا جعلته يرغب في المعروف فهو سيقوم به،
فهو يحب المدح ويرغب في البذل كي يمدحه الشاعر

والـعـبـدُ لا يَـطـلُـبُ الـعَـلاءَ، ولا   يُـعْـطِـيـكَ شـيـئـاً إلَّا إذا رَهِـبـا

العبد يعطي على الرهبة لا الرغبة

مِـثـلَ الـحِـمَـارِ الـمُـوَقَّـعِ الـسَّـوْءِ لا   يُـحْـسِـنُ مَـشْـيـاً إلَّا إذا ضُـرِبـا

فالعبد مثل الحمار الموقع، المصاب بجروح في ظهره، السيء الذي لا يمشي إلا بالضرب

قـد يُـرْزَقُ الـخَـافِـضُ الـمُـقيـمُ، ومـا   شَـدَّ بِـعَـنْـسٍ رَحْـلاً ولا قَـتَـبَـا

قد يأتي الرزق للخافض، الهانئ، المقيم في بلده دون أن يشد الرحل، السرج ولوازمه، أو القتب، أي البرذعة، على العنس، الناقة الصلبة.. أي يأتيه رزقه دون أن يرتحل وراءه

ويُـحْـرَمُ الـمـالَ ذو الـمَـطِـيَّـةِ والـرَّ ـ   حْـلِ، ومَـنْ لا يَـزالُ مُـغْـتَـرِبـا

١٤٠ تبقى له حاجة

الصَّلَتَان العَبْدي:

أَشَـابَ الـصـغـيـرَ وأَفْـنَـى الـكـبـيـرَ   مُـرورُ الـغَـدَاةِ وكَـرُّ الـعَـشِـي

شيَّب الصغير وأمات الكبير مرور الصباح والمساء، أي الزمن

إذا لـيـلـةٌ هَـرَّمَـتْ يَـومَـهـا   أَتَـى بـعـدَ ذَلِـكَ يـومٌ فَـتِـي

الليلة تهرّم يومها، تجعله هرماً، ثم يأتي بعد ذلك يوم آخر فتيّ جديد

نَـرُوحُ ونَـغـدُو لِـحـاجَـاتِـنـا   وحَـاجَـةُ مَـنْ عَـاشَ لا تَـنْـقَـضـي

ما دمنا على قيد الحياة فلنا حاجة ما.. صغيرة أو كبيرة

تَـمُـوتُ مَـعَ الـمـرءِ حـاجَـاتُـه   وتَـبْـقَـى لـهُ حَـاجَـةٌ مَـا بَـقِـي

١٤١ وداعاً نجد

الصِّمَّة بن عبد الله القُشَيري:

حَنَنْتَ إلى رَيَّا، ونفْسُكَ بَاعَدَتْ   مَزارَكَ مِنْ رَيَّا، وشَعْبَاكُما مَعَا

يخاطب نفسه: حننت إلى ريّا، وأنت بنفسك ستبعد مزارك من ريّا برحيلك، مع أن شَعبيكما، أي قبيلتيكما، متجاوران

فما حَسَنٌ أنْ تَأْتِيَ الأمرَ طَائِعاً   وتَجْزَعَ أنْ دَاعِي الصَّبابَةِ أَسْمَعا

ليس من الحكمة أن ترحل طواعية، ثم بعد ذلك تجزع لأن منادي الصبابة، والشوق، قد هتف في أذنك

قِفَا وَدِّعَا نَجْداً ومَنْ حَلَّ بِالحِمَى   وقَـلَّ لِـنَـجْـدٍ عِـنـدنـا أنْ تُـوَدَّعَـا

يا صاحبيَّ قفا ودعا معي نجداً ومن حل بالحمى، وهذا أقل ما نصنعه لنجد

بِنفْسيَ تلكَ الأرضَ ما أطيبَ الرُّبى   وما أحسنَ المُصطَافَ والمُتَرَبَّعا

بنفسي، أي أفدي بنفسي، تلك الأرض ما أطيب رباها، وما أجمل مكان قضاء الصيف ومكان قضاء الربيع بها

ولَمَّا رأَيْتُ «البِشْرَ» أعرَضَ دُونَنا   وحَالَتْ بَناتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعا..

لما رأيت جبل البشر أصبح بيني وبين الحمى، وحالت، أي تحولت وتحركت، بنات الشوق، أي مشاعره وكل ما ينشأ عنه من ألم، وفيهن حنين ونزوع إلى الوطن..

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حتى وَجَدْتُنِي   وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتَاً وأَخْدَعَا

التفتُّ نحو مكان القوم حتى وجعت، وجدت وجعاً، من الإصغاء، إمالة الرأس، الليت: صفحة العنق والأخدع: عرق في العنق. يقول: ظللت ألتفت حتى آلمني عنقي

بَكَتْ عَيْنِيَ اليُسرى فلمَّا زَجَرْتُها   عن الجهلِ بعد الحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

زجرت عيني اليسرى، أي نهيتها، عن التهور بعد الحلم، أي بعد التعقل، فأسبلتا، سالتا بالدموع، معاً

وأَذْكُرُ أيامَ الحِمَى ثم أَنْثَنِي   على كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أن تَصَدَّعَا

عندما أذكر أيامنا في الحمى أثني جسمي حتى لا تتشقق كبدي حزناً

فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ   عليكَ، ولكنْ خَلِّ عَينيْكَ تَدْمَعَا

١٤٢ هزة الشوق

أبو صَخْر الهُذلي، وهو من شعراء الدولة الأموية:

أَما والذي أَبْكَى وأَضْحَكَ والذي   أَمَاتَ وأَحْيَا والذي أَمْرُهُ الأَمْرُ

لقد تَرَكَتْنِي أَحْسُدُ الوَحْشَ أن أَرَى   أَلِيفَيْنِ منها لا يَروعُهُما الزَّجْرُ

تركتني المحبوبة أحسد وحوش البر إذ أرى اثنين منها لا يخيفهما الزجر، مثلما يخيفنا نحن لوم اللائمين ووشايات الوشاة

فَيَا حُبَّها زِدْني جَوىً كُلَّ لَيلةٍ   ويا سَلْوَةَ الأيامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ

زدني من ألم العشق يا حبها، وليكن موعد السلوة، نسيان العشق، الحشر

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدهرِ بَيْني وبينَها   فلمَّا انْقَضَى ما بينَنا سَكَنَ الدهرُ

كان الدهر، ومصائبه، تسعى بيننا فلما انقضى الوصل بيننا وانقطعت العلاقة هدأ الدهر وصروفه

وما هُوَ إلَّا أن أراها فُجاءَةً فأُبْهَتُ، لا عُرْفٌ لديَّ ولا نُكْرُ

كنت إذ أراها فجأة أبهت ويختلط في ذهني الصواب بالخطأ

وإنِّي لَتَعْرُوني لِذِكْرَاكِ هَزَّةٌ كما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

والآن تنتابني لذكراك هزة مثلما ينتفض العصفور وقد أصابه المطر

١٤٣ خلقتما لبعضكما

عُروة بن أُذَيْنَة:

إنَّ التي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّها خُلِقَتْ هَواكَ كما خُلِقْتَ هَوىً لها

التي قالت إنك مللتها خلقت لك وخلقت لها

بيضاءُ بَاكَرَها النَّعيمُ فَصاغَها بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّها وأَجَلَّها

بيضاء عرفت النعمة والعيش الرغيد منذ صغرها فلا عرفت جوعاً ولا فاقة، فصاغت النعمة جسمها بلباقة فهي دقيقة الخصر جليلة المؤخرة، إن جاز وصف المؤخرة بهذه الكلمة

حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فقلتُ لِصاحِبي ما كان أكثرَها لنا وأَقَلَّها

لم تعد تطرح علي التحية فقلت لصاحبي: كانت التحية كبيرة الأثر، ولكنها مع غياب الوصل قليلة النفع

وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفُؤَادِ فَسَلَّها

إذا وسوست لي نفسي أن أسلوها وأنساها، فإن ما أضمر لها من الحب يستل الهجران من فؤادي

١٤٤ المناظر المتعِبة

وكنتَ متَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رائِداً لِقَلْبِكَ يوماً أَتْعَبَتْكَ المَناظِرُ

يخاطب نفسه: كنت إذا أرسلت نظرك ليكشف الطريق لقلبك، تعبت لما رأته عيناك من جمال المحبوبة. والرائد فارس كانوا يرسلونه أمام القبيلة يستكشف لها مواطن العشب

رأيتَ الذي لا كُلُّهُ أنتَ قَادِرٌ عليْهِ، ولا عن بَعْضِهِ أنتَ صَابِرُ

رأيت ما لا تقدر على نيله، ولا تقدر أن تصبر على مجرد التطلع إليه

١٤٥ عرار نجد

الصِّمَّة بن عبد الله القُشَيري:

أَقولُ لِصاحبِي والعِيسُ تَهوِي بِنا بينَ المُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ

أقول لصاحبي والعيس، أي النياق القوية، تسير بنا بسرعة كأنها تهوي، بين هذين المكانين

تَـمَـتَّـعْ مِـنْ شَـمِـيـمِ عَـرَارِ نَـجْـدٍ فـمـا بـعـد الـعَـشِـيَّـةِ مِـنْ عَـرَارِ

تمتع من رائحة نبات العرار الذكي في نجد، فأنت مغادر ولا عرار بعد هذه العشية. ومن هذا البيت أخذ الشاعر الأردني «مصطفى وهبي التل» لنفسه لقباً: عرار. وسنفرد لعرار الأردن صفحات مليئة بالشعر الجميل في كتاب قد نصدره بعد حين، إن سمح رب الكون الجليل ومد في العمر

ألَا يـا حَـبَّـذَا نَـفَـحَـاتُ نَـجْـدٍ ورَيَّـا رَوْضِـهِ بـعـد الـقِـطَـارِ

ما أجمل نفحات، نسمات، نجد، وما أجمل ريًا، أي رائحة، نجد بعد القطار، بعد المطر

وأَهْـلُـكَ إذْ يَـحُـلُّ الـحَـيُّ نَـجْـداً وأنـتَ عَـلـى زمـانِـكَ غـيـرُ زَارِ

وما أجمل أهلك إذ يحل الحي، القوم، في نجد وتكون أنت في تلك الحال سعيد بالزمن غير زار عليه، غير مستاء منه

شُـهـورٌ يَـنْـقَـضِـينَ ومـا شَـعَـرْنـا بِـأَنْـصَـافٍ لَـهُـنَّ ولا سِـرَارِ

كانت تنقضي الشهور بسعادة فلا نشعر بمرور نصف الشهر، ولا بسراره، أي آخره

١٤٦ اغرورقتا ثم سالتا

ومِمَّا شَجَاني أنَّها يومَ أَعْرَضَتْ تَوَلَّتْ ومَاءُ العينِ في الجَفْنِ حَائِرُ

مما شجاني، أوجع قلبي، أنها يوم أعرضت، ذهبت، تولت، انصرفت، ودمعها حائر في جفنها، أي أن عينيها مغرورقتان بالدمع

فَـلَـمَّـا أَعَـادَتْ مِـنْ بَـعـيـدٍ بِـنـظـرةٍ إِلَـيَّ الـتـفَـاتـاً أَسْـلَـمَـتْـهُ الـمَـحَـاجِـرُ

فلما أعادت النظر إليَّ من بعيد ملتفتة، أسلمت المحاجر الدمع.. فسال من العينين إلى الخارج، والمحاجر العظم المحيط بالعينين

١٤٧ تغيير المسار

بـيـنَـمـا نـحـن بِـالـبَـلاكِـثِ فَـالـقَـا عِ سِـرَاعـاً والـعِـيـسُ تَـهْـوي هُـوِيَّـا

بينما كنا في موضع بين «البلاكث» و«القاع» ونحن نسير مسرعين والعيس، أي النياق القوية، تسرع فكأنها تسقط سقوطاً

خَطَرَتْ خَطْرَةٌ على القلبِ مِنْ ذِكْـ ـراكِ وَهْناً فـمـا اسْـتَـطَـعْـتُ مُـضِـيَّـا

فجأة.. خطرت ببالي ذكراك وهناً، ليلاً، فما استطعت المضي في السير

قلتُ: لَبَّيْكِ، إذْ دَعاني لَكِ الشَّوْ قُ، ولِـلْـحَـادِيَـيْـنِ: كُـرَّا الـمَـطِـيَّـا

قلت: لبيك، وعلى الفور قلت للحاديين، سائقي الإبل: كرَّا المطي.. كأنه أراد أن يغيرا خط سيرهما ليلحقا ببلد المحبوبة. ويقول المفسرون: بل أرادهما أن يحثا الإبل للسير بسرعة

١٤٨ ارحم نفسك

ابن هَرْمَة:

إِسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا يودِ البُكاءُ به   واكْفُفْ مَدامِعَ مِنْ عينيْك تَسْتَبِقُ

أبق بعض دمعك ولا تدع البكاء ينزفه كله، وكف عينيك عن ذرف الدموع التي تتسابق في النزول

ليس الشُّؤونُ وإن جَادَتْ بِباقِيَةٍ   ولا الجُفُونُ على هذا ولا الحَدَقُ

شؤون عينيك، مجاري الدمع فيهما، لن تبقى حتى وإن كانت سخية بالدمع الآن، وعلى هذا المنوال لن تبقى جفونك ولا أحداقك

١٤٩ بَيِّنات الحب

الحسين بن مُطَير:

فيَا عَجَباً لِلناسِ يَسْتَشْرِفُونَني   كأنْ لم يَرَوْا بَعدي مُحِبّاً ولا قَبْلي

عجباً للناس يستشرفونني، ينظرون إليَّ، كأنهم لم يروا محباً من قبل أو كأنهم لا يظنون أنهم سيرون محباً في حياتهم بعدي

يَقولونَ لي اصْرِمْ يَرْجِعِ العقلُ كلُّه   وصُرْمُ حَبيبِ النفسِ أذْهَبُ لِلعقلِ

يقولون لي اصرم، أي اقطع العلاقة، فبهذا تسترد عقلك، ولكنني أعلم أن قطع العلاقة أكثر إذهاباً للعقل

ويا عَجَباً مِنْ حُبِّ مَنْ هُوَ قَاتِلي   كأنِّي أُجَازِيهِ المَوَدَّةَ مِنْ قَتلي

ومِنْ بَيِّناتِ الحُبِّ أن كان أهلُها   أَحَبَّ إلى قلبي وعَيْنَيَّ مِنْ أَهْلي

من علامات الحب أنني أحب أهلها أكثر من حبي أهلي

١٥٠ ويلي من يومي

أبو الطَّمَحَان القَيْني:

أَلا عَلِّلاني قبلَ نَوْحِ النَّوائِحِ   وقبلَ ارتِقَاءِ النفسِ فوقَ الجَوانِحِ

سلياني وآنساني قبل الموت وقبل ارتقاء النفس وخروجها من بين الجوانح، الأضلاع

وقبلَ غَدٍ، يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ   إذا راحَ أَصْحابي ولَسْتُ بِرائِحِ

قبل الغد عندما يضعني أصحابي في القبر ويروحون إلى بيوتهم، وأنا لا أروح معهم

إذا راحَ أَصْحابي تَفِيضُ دُمُوعُهُمْ   وخُلِّيتُ في لَحْدٍ عليَّ صَفَائِحي

الصفائح: حجارة القبر العريضة التي تسد حفرته

يقولونَ هَلْ أَصْلَحْتُمُ لِأَخِيكُمُ   وما الرَّمْسُ في الأرضِ الفَضاءِ بِصَالِحِ

يسأل الناس بعضهم بعضاً بعد انتهاء الدفن: هل أصلحتم له الكفن، وهل وسدتموه في قبره جيداً.. قد رأيت قوماً يفعلون ذلك، يا للسخف! وليس الرمس، أي القبر، في الأرض الفضاء، في البر، بالمكان الصالح

١٥١ يستر على محبوبته

جابر بن الثعلب الجَرْمي:

ومُسْتَخْبِرٍ عن سِرِّ رَيَّا رَدَدْتُهُ   بِعَمْياءَ مِنْ رَيَّا بِغَيْرِ يَقينِ

رب مستخبر يسألني عن علاقتي بريا، وقد رددته بعمياء، قلت له قولاً ممغمغاً لا يفيد بشيء ولا يعطيه يقيناً

فقال: انْتَصِحْني إِنَّني لَكَ نَاصِحٌ   وما أنا إنْ خَبَّرْتُهُ بِأَمينِ

يريد أن يجرني للحديث عنها فيقول لي: اطلب النصح،
ولو أخبرته بأي شيء فلن أكون أميناً لمحبوبتي

١٥٢ أنا قلبي دليلي

الحارث بن خالد المخزومي:

إنِّي وما نَحَرُوا غَدَاةَ مِنَىً   عندَ الجِمارِ تَؤُودُها العُقُلُ..

يحلف بالشياه التي نحرها الحجيج في منى عند موضع رمي الجمرات، والشياه تؤودها العقل، تثقل أعناقها الحبال..

لو بُدِّلَتْ أَعلَى مَسَاكِنِها   سِفْلاً وأَصبحَ سِفْلُها يَعْلُو..

لو انقلبت مساكن المحبوبة رأساً على عقب

فَيَكادُ يَعْرِفُها الخبيرُ بِها   فَيَرُدُّهُ الإِقْوَاءُ والمَحْلُ..

فيشك فيها الخبير العالم بها ويكاد يعرفها لكن يزيد من شكوكه الإقواء والمحل، أي خلوها من أهلها وتبدل الأرض بالقحط..

لَعَرفْتُ مَغْنَاها لِمَا اشْتَمَلَتْ   مِنِّي الضُّلُوعُ لِأَهْلِها قَبْلُ

لعرفت مغناها، منزلها الذي كان عامراً، بحدسِ قلبيّ حيث اشتملت ضلوعي على حب عميق لأهل هذه الديار

١٥٣ المختبئة في شعرها

بكر بن النَّطَّاح:

بَيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ شَعْرَهَا　　وتَغِيبُ فيهِ وَهْوَ جَثْلٌ أَسْحَمُ

حتى وهي واقفة فشعرها يصل الأرض، وهي تغيب في هذا الشعر الجثل، الكثيف، الأسحم، الأسود

وكأنَّها فيهِ نَهَارٌ سَاطِعٌ　　وكأنَّهُ ليلٌ عليها مُظْلِمُ

فوجهها في شعرها كالنهار المضيء، وشعرها كالليل

١٥٤ سباق مع الحمامة

نُصَيْب:

لقد هَتَفَتْ في جُنْحِ ليلٍ حَمامةٌ　　على فَنَنٍ تَدْعُو، وإنِّي لَنائِمُ

فنن: غصن

كذبْتُ، وبيتِ اللهِ، لو كنتُ عاشِقاً　　لما سَبَقَتْني بِالبُكاءِ الحَمائِمَ

١٥٥ صبا نجد

عبد الله بن الدُّمَيْنة الخَثْعمي:

أَلَا يا صَبَا نَجْدٍ متَى هِجْتِ مِنْ نَجْدِ؟　　فقد زَادَني مَسْرَاكِ وَجْداً على وَجْدِ

يا نسيم الصبا القادم من نجد متى هببت من نجد؟ لقد زادني مسراك، قدومك مساء، وجداً فوق وجدي

أإِنْ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ في رَوْنَقِ الضُّحَى　　على فَنَنٍ غَضِّ النَّباتِ مِنَ الرَّنْدِ..

أإن هتفت حمامة في رونق الضحى، في ضيائه، على غصن طري من شجر الرند الذكي..

بَكَيْتُ كمَا يَبْكي الوَلِيدُ، ولم أَكُنْ　　جَليداً وأَبْدَيْتُ الذي لم أَكُنْ أُبْدي

بكيت كالطفل المولود حديثاً، ولم أكن جليداً، صبوراً، وبدا من مشاعري ما لم يكن يبدو

وقد زَعَمُوا أن المُحِبَّ إذا دَنَا　　يَمَلُّ، وأنَّ النَّأْيَ يَشْفي مِنَ الوَجْدِ

بِكُلٍّ تَداوَيْنا فلم يُشْفَ ما بِنا　　على أن قُرْبَ الدَّارِ خيرٌ مِنَ البُعْدِ

تداويت بالقرب وتداويت بالبعد فلم أشف من الحب.. ولكن القرب أحسن على كل حال

ولكنَّ قربَ الدارِ ليس بِنافِعٍ　　إذا كان مَنْ تَهواهُ ليس بِذي عَهْدِ

وما نفع القرب إن كانت الحبيبة لا تحفظ وعودها؟

١٥٦ غادرت شيئاً

كُثَيِّر عزة:

وأَدْنَيْتِني حتى إذا ما ملَكْتِني بِقَوْلٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأَبَاطِحِ..

قرَّبتِني إليك حتى إذا ما ملكت فؤادي بكلامك الذي يحل، أي يُنزل، العصم، أي الوعول الجبلية، إلى الأباطح، السهول..

تَجافَيْتِ عَنِّي، حينَ لا لِيَ حِيلَةٌ وغَادَرْتِ ما غَادَرْتِ بينَ الجَوانِحِ

عندئذ تجافيت عني، وابتعدت، وتركت ما تركت بين ضلوعي

١٥٧ جواب من القبر

تَوْبَة بن الحُمَيِّر وهو من شعراء الدولة الأموية:

ولو أنَّ لَيلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ علَيَّ ودُوني جَنْدَلٌ وصَفَائِحُ..

لو سلمتْ عليَّ ليلى الأخيلية وأنا تحت الجنادل، الصخور، والصفائح، حجارة القبر..

لَسَلَّمْتُ تَسليمَ البَشاشَةِ أو، زَقَا إليها صَدَىً مِنْ جَانِبِ القَبرِ صَائِحُ

لرددت سلامها ببشاشة وجه، أو لزقا، أي صاح، إليها صدى من القبر، والصدى هو الصدى الذي ترده الجبال.. ولكن العرب كانت تزعم أنه يخرج من قبر الميت مخلوق خيالي يسمونه الهامة.. ويصدر عن الهامة صوت هو الصدى

وأُغْبَطُ مِنْ لَيلَى بِما ليس نَافِعي بَلَى كُلُّ مَا قَرَّتْ بِهِ العينُ صَالِحُ

يغبطني الناس على علاقتي بليلى، وما يغبطونني عليه ليس نافعي.. لا بل هو نافع.. ذلك أن كل ما قرت به العين، رضيت به، جيد

١٥٨ القلب في الشرك

كأنَّ القَلْبَ ليلةَ قيلَ يُغْدَى بِلَيلَى العَامِرِيَّةِ أو يُرَاحُ..

كأن القلب عندما قيل إن قوم ليلى سيذهبون غدوة، صباحاً، أو رواحاً، مساء، وهي معهم..

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَباتَتْ تُجَاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَنَاحُ

القلب كأنه طير قطا. والقطاة عزها، أعجزها، شرك، شبكة الصائد، فباتت تجاذب الشبكة وقد علق جناحها بها

لها فَرْخَانِ قد تُرِكَا بِوَكْرٍ وعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحُ

وهذه القطاة قد تركت فرخيها في العش الذي تهب عليه الرياح

فلا في الـلـيـلِ نَـالَـتْ ما تَـمَـنَّـتْ ولا فـي الـصُّـبْـحِ كـان لـهـا بَـراحُ

فلا في الليل نالت صيداً، ولا في الصباح كان لها براح، فكاك

١٥٩ وعود الغواني

تَـمَـتَّـعْ بِـهـا ما سَـاعَـفَـتْـكَ ولا تَـكُـنْ عليكَ شَجاً في القلبِ حين تَبينُ

تمتع بالمحبوبة ما ساعفتك، سايرتك ووافقتك، ولا تجعلها شجاً، شوكة، في قلبك حين تفارقك

وإنْ هِـيَ أَعْـطَـتْـكَ الـلِّـيَـانَ فَـإِنَّـهـا لِـغَـيْـرِكَ مِـنْ خُـلَّانِـهـا سَـتَـلـيـنُ

فإن كانت مسايرة لك وملاينة فاعلم أنها ستلين لغيرك من خلانها، أصحابها

وإنْ حَلَفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَها فـلـيس لِـمَـخْـضُـوبِ الـبَـنـانِ يَـمـيـنُ

فإن حلفت لك ألا تنقض عهدك بالنأي، عند الفراق، فاعلم أنه ليس لمخضوب البنان، لشخص مصبوغ أطراف الأصابع بالحناء.. أي لامرأة، يمين صادقة

١٦٠ دموع وقصائد

فإن تَمنَعُوا لَيلَى وحُسْنَ حَديثِها فلن تَمْنَعُوا مِنِّي البُكَا والقَوافِيا

فهَلَّا مَنَعْتُمْ، إذْ مَنَعْتُمْ حديثَها، خيالاً يُوافِيني مَعَ الليلَ هَادِيا

منعتموني من أن أحدثها فهل بوسعكم منع خيالها من أن يأتيني في المنام وهو يتهادى؟

١٦١ أنا والله كريم

أَسَـجْـنـاً وقَـيْـداً واشْـتِـيـاقـاً وغُـربَـةً وفـقْـدَ حَـبـيـبٍ إنَّ ذا لَـعَـظِـيـمُ

مسجون مقيد ومشتاق ومغترب وفاقد للحبيب.. ما أفظع ذلك..

وإنَّ امْـرأً تَـبـقَـى مَـواثِـيـقُ عَـهْـدِهِ عـلـى مـثـلِ مـا قـاسَـيْـتُـهُ لَـكَـريـمُ

ومن يحفظ عهد المحبوبة رغم كل ذلك فهو رجل كريم، أي أصيل

١٦٢ أسير المحبة

ابن طَرِيف:

وَقَفْتُ لِلَيلَى بِالمَلا بعد حِقْبَةٍ بِـمَـنـزِلَـةٍ فـانْـهَـلَّـتِ الـعـيـنُ تَـدْمَـعُ

وقفت لليلى بالملا، بين الناس، بعد فراق دام زمناً فسالت العين بالدمع

وأَتْبَعُ لَيلَى حيثُ سَارتْ ووَدَّعَتْ ... ومـا الـنـاسُ إلّا آلِـفٌ ومُـوَدِّعُ
وأتبع ليلى إلى كل مكان، والناس هكذا بعضهم يودع وينسى وبعضهم يألف ويواصل

كـأنَّ زِمَـامـاً فـي الـفـؤادِ مُـعَـلَّـقـاً ... تَـقُـودُ بـه حـيـثُ اسْـتَـمَـرَّتْ وأَتْـبَـعُ
كأن حبلاً يربط قلبي بها فهي تقود القلب إلى كل مكان تذهب إليه

١٦٣ خوش هدية

وَرْد الجَعْدي، الشاعر الجاهلي:

خَلِيلَيَّ عُوجَا بَارِكَ اللَّهُ فيكُما ... وإن لم تكنْ هندٌ لِأَرْضِكُما قَصْدا
يا صاحبي ميلا نحو ديار هند حتى وإن لم تكن ديارها على طريقكما

وقولا لها ليس الضَّلالُ أَجَارَنا ... ولكنَّنا جُرْنَا لِنَلْقَاكُمُ عَمْدا
قولا لها لم نضل الطريق، ولكننا جرنا، أي انحرفنا، عمداً لنلقاك

تَخَيَّرْتُ مِنْ «نَعمَانَ» عُودَ أَرَاكَةٍ ... لِهِنْدٍ، ولكنْ مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدا
قطعت من وادي نعمان عود سواك من شجرة «أراك» هدية لهند.
ولكن، من ذا يبلغه هنداً؟

١٦٤ نهر الدموع

قال رجل من بني عكل:

وما في الأرضِ أشقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وإن وَجَدَ الـهوى حُـلْـوَ الـمَذاقِ
تَـراهُ بـاكِـيـاً فـي كـلِّ حـالٍ ... مَـخـافَـةَ فُـرْقَـةٍ أو لِاشْـتِـيَـاقِ
فـيَـبْـكـي إن نَـأَوْا شـوْقـاً إلـيْـهِـمْ ... ويَـبـكـي إن دَنَـوْا خَـوفَ الـفِـراقِ
فَـتَـسْـخَـنُ عـيـنُـهُ عـنـد الـتَّـنَـائـي ... وتَـسْـخَـنُ عـيـنُـهُ عـنـد الـتَّـلاقـي

١٦٥ أفنيت علاتي

يزيد بن الطَّثْرِيَّة:

عُـقَـيْـلِـيَّـةٌ أمَّـا مَـلاثُ إِزَارِهـا ... فَـدِعْـصٌ وأمَّـا خَـصْـرُهـا فَـبَـتِـيـلُ
هي من عُقَيْل، وملاث إزارها، موضع لفّ التنورة أي الأرداف، فدعص، أي كثيب رمل، وأما الخصر فبتيل، نحيل

تَقَيَّظُ أكنافُ الحِمَى، ويُظِلُّها　　بِنَعْمَانَ مِنْ وَادي الأَرَاكِ مَقِيلُ

تشتعل أطراف الحمى، مكان القوم، بالحر الشديد، وتستظل المحبوبة في نعمان وهو واد يكثر فيه شجر الأراك حيث تحلو القيلولة

فَدَيْتُكِ أَعدائي كَثيرٌ، وشُقَّتي　　بَعيدٌ، وأنصاري لَدَيْكِ قليلُ

أنا غريب هنا..

وكنتُ إذا ما جِئتُ جِئتُ بِعِلَّةٍ　　فَأَفْنَيْتُ عِلَّاتي، فكيفَ أَقُولُ؟

كنت كلما جئت إلى مضارب قومك جئت بعلة، بحجة أتحجج بها، ولم يبق لي حجج.. فماذا سأقول هذه المرة؟

١٦٦ منتهى الأمنيات

ولمَّا نَزلْنَا منزلاً طَلَّهُ النَّدَى　　أنِيقَاً، وبُسْتَاناً مِنَ النَّوْرِ حَالِيا

لما نزلنا مكاناً نديّاً أنيقاً، وبستاناً حالياً، أي متحلياً مزيناً، بالنَّوْر، أي النوَّار

أَجَدَّ لنا طِيبُ المَكانِ وحُسْنُهُ　　مُنَىً فَتَمَنَّيْنا فكنْتِ الأَمانِيا

أجد، أي أحدث، لنا طيب المكان وجماله أماني، فتمنينا.. فكنت أنتِ الأماني

١٦٧ البريئة

ابن الدُّمَيْنة:

بِنَفْسي وأَهْلي مَنْ إذا عَرَّضُوا لَهُ　　بَذِكْرِ الهَوى لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ

أفدي بنفسي وبأهلي الحبيب الذي يذكرون أمامه تعريضاً لا تصريحاً الهوى فيرتبك ولا يعرف كيف يجيب

ولم يَعْتَذِرْ عُذْرَ البَرِيِّ، ولم تَزَلْ　　بِهِ سَكْتَةٌ حتَّى يُقَالَ مُرِيبُ

فلا يعتذر الحبيب بكلام يظهر براءته، ويسكت كأنه يخفي شيئاً

لقد ظَلَمُوا ذاتَ الوِشَاحِ، ولم يَكُنْ　　لنا مِنْ هَوى ذاتِ الوِشاحِ نَصيبُ

قد ظلموها.. فلم يكن لنا نصيب من حبها الذي سعينا إليه فلم توافقنا عليه

١٦٨ الزفرات والعبرات

هلِ الحُبُّ إلَّا زَفْرَةٌ بعدَ زَفْرَةٍ　　وحَرٌّ على الأَحْشَاءِ ليس لَهُ بَرْدُ

الحب زفرات حرَّى وعذاب

وفَيْضُ دُموعِ العينِ يا مَيَّ كلَّما بَدا عَلَمٌ مِنْ أرضِكُمْ لم يَكُنْ يَبْدُو

والحب هو انسكاب دمع العين يا ميَّةَ كلما اقتربنا من ديارك وبدا لنا علم، أي جبل، لم يكن يبدو من قبل

١٦٩ قوس كيوبيد

أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِي:

أَقولُ والرَّكْبُ قد مَالَتْ عَمائِمُهُمْ وقد سَقَى القَوْمَ كأسَ النَّعْسَةِ السَّهَرُ

أقول والركب، أي المسافرون على الجمال، قد مالت رؤوسهم ومالت العمائم، وقد سقاهم السهر كأس النعاس

يا ليتَ أَنِّي بِأَثْوابي ورَاحِلَتي عَبْدٌ لِأَهْلِكِ هذا العامَ مُؤْتَجَرُ

يا ليت أني عبد أجير عند أهلكِ أيتها المحبوبة طول السنة وأثوابي وراحلتي، ناقتي، معي لا أكلفهم شيئاً من مؤونتي

جِنِّيَّةٌ أو لَها جِنٌّ يُعَلِّمُها رَمْيَ القلوبِ بِقَوْسٍ مَا لَها وَتَرُ

محبوبتي من الجن لحسنها الذي لا مثيل له في البشر، أو أن لها جنياً يعلمها كيف ترمي القلوب بقوس الحب التي ليس لها وتر

١٧٠ كدت أطير

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود:

تَغَلْغَلَ حُبُّ «عَثْمَةَ» في فُؤادي فَبَادِيهِ مع الخَافي يَسيرُ

تعمق حب عثمة في قلبي والظاهر منه للعيان قليل بالقياس إلى ما خفي

تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرابٌ ولا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرورُ

هذا حب متعمق جداً..

شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيهِ هَواكِ، فَلِيمَ، فَالْتَأَمَ الفُطُورُ

شققت قلبي ثم ذررت، أي رششت، فيه حبك، ثم ليم، أي رُمِّم وأُصلح وتم تخيطه، فالتأم الفطور، أي أغلق وأصلح الشق

أكادُ إذا ذَكَرْتُ العهدَ منها أطيرُ لو انَّ إنْساناً يَطيرُ

١٧١ هذا حبيبها

قال نُصَيْب، وتروى لغيره:

أَهَابُكِ إِجْلالاً، وما بِكِ قُدْرَةٌ   عليَّ، ولَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبيبُها

أهابك إكباراً لقدرك، ليس أن لك علي قدرة، ولكن حبيب المرء ملء عينيه كأنما يراه أكبر من الحجم الطبيعي

وما هَجَرتْكِ النفسُ أنَّكِ عندها   قليلٌ، ولكنْ قَلَّ منكِ نَصيبُها

ابتعادي عنك ليس لهوانك عليّ بل لقلة حظي منك

ولكنَّهُمْ يا أَمْلَحَ الناسِ أَكْثَرُوا   بِقَوْلٍ إذا ما جِئْتُ: هذا حَبيبُها

ومع ذلك فكلما جئت قالوا: هذا حبيبها. ويحك ما أجمل هذا البيت!

١٧٢ منتهى العفاف

ابن الدمينة:

أَحَقّاً عِبادَ اللَّهِ أنْ لَسْتُ وَارِداً   ولا صادِراً إلَّا عَلَيَّ رَقيبُ

لا آتي ولا أذهب إلا وعلي رقيب

ولا زَائراً فَرْداً ولا في جَماعةٍ   مِنَ الناسِ إلَّا قيلَ أنتَ مُريبُ

ولا أزور أحداً أو قوماً إلا قيل لي إنني مريب، أي لدي ما أخفيه مما هو غريب أو معيب

وهل رِيبَةٌ في أنْ تَحِنَّ نَجيبَةٌ   إلى إِلْفِها أو أن يَحِنَّ نَجيبُ

هل ثمة ريبة في أن تحن ناقة إلى صاحبها الجمل، أو أن يحن هو إليها؟

وإنِّي لأَسْتَحْيِيكِ حتى كأنَّما   عليَّ بِظَهْرِ الغيبِ منكِ رَقيبُ

١٧٣ المغرورقتان

أبو حَيَّة النُّمَيْري:

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ   إلى الدارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ

لأن عينيه فيهما دموع فهو يرى دار المحبوبة كما يرى المرء الشيء غائماً من وراء زجاجة، والزجاجة هي الكأس

فَعيْنَايَ طَوْراً تَغْرَقَانِ مِنَ البُكَا   فَأَعْشَى، وطَوْراً تَحْسِرانِ فَأُبْصِرُ

تغرق عيناي حيناً بالبكاء فأصبح أعشى ضعيف النظر، وتحسران، تنكشفان، حيناً فأبصر

١٧٤ الملامة اللذيذة

أبو الشِّيص الخُزَاعِي:

وَقَفَ الهَوى بي حيثُ أنتِ، فليس لي   مُتَأَخَّرٌ عنهُ ولا مُتَقَدَّمُ

تجمدت حياتي فلم يعد لي شغل إلا أنت

أَجِدُ المَلامَةَ في هَواكِ لَذيذَةً   حُبّاً لِذِكْرِكِ، فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ

أستمتع بمن يلومونني في شأنك لأن مجرد ذكركِ ممتع لقلبي،
فليلمني اللوم، أي اللائمون

أَشْبَهْتِ أَعدائي فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ   إذ صارَ حَظِّيَ منكِ حَظِّيَ مِنْهُمُ

أنت مثل أعدائي فهم يبخلون علي بكل ما هو حسن، وكذلك أنت.. لذا صرت أحب أعدائي لحبيكِ

وأَهَنْتِني فَأَهَنْتُ نَفْسِيَ عَامِداً،   ما مَنْ يَهُونُ عليكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ

أهنتني في الحب فقبلت الإهانة فما من أحد يهون عندك وأكرمه،
لذا فأنا أهين نفسي لأنك تهينينها

١٧٥ حوار حبيبين

ابن الدمينة لمحبوبته أمامة:

وأنتِ التي كَلَّفْتِني دَلَجَ السُّرَى   وجُونُ القَطا بِالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ

أنت كلفتني دلج السرى، السير ليلاً، بينما طيور القطا الجون، السود، جثوم راقدات في «الجلهتين»

وأنتِ التي أَحْفَظْتِ قَومي فَكُلُّهُمْ   بَعيدُ الرِّضَا بَادي الصُّدُودِ كَظيمُ

وأنت أحفظت قومي، أغضبتهم عليّ، فكلهم ساخط ويكظم سخطه، يخفيه

فقالت محبوبته تجيبه:

وأنتَ الذي أَخْلَفْتَني ما وَعَدْتَني   وأَشْمَتَّ بي مَنْ كان فيكَ يَلُومُ

أنت أخلفت وعدك، وجعلت اللائمين يشمتون بي

وأَبْرَزْتَني لِلنَّاسِ ثم تَرَكْتَني   لَهُمْ غَرضاً أُرْمَى وأنتَ سَليمُ

وفضحتني بين الناس ثم تركتني غرضاً لسهام الذم، وأنت سليم منها

١٧٦ فعلت أفعالها

أعشى بني تغلب، وتروى لعمرو بن الأصم:

أَلْـمِـمْ عـلـى دِمَـنٍ تَـقـادَمَ عـهـدُهـا   بـالجَـزْعِ واسْـتَـلَـبَ الزمـانُ جـمـالَـهـا

ألمم، زُر من الزيارة، على دمن قديمة، هي خرائب المنازل في موضع الجزع التي ذهب حسنها بمرور الزمن عليها

رسـمٌ لِـقَـاتِـلَـةِ الـغَـرَانِـقِ مـا بِـهـا   إلَّا الـوُحُـوشُ خَـلَـتْ لـهُ وخَـلا لَـهـا

هذا رسم، أي طلل، لدار قاتلة الغَرانق، الشبان الوسيمين، وليس بها إلا الوحوش، حيوانات البر، خلا لها الرسم الموحش وخلت له الوحوش

ظَـلَّـتْ تُـسَـائِـلُ بِـالـمُـتَـيَّـمِ أَهْـلَـهُ   وَهِـيَ الـتـي فَـعَـلَـتْ بـه أَفْـعَـالَـهـا

وهي تسأل أهل المتيم المغرم بها عن حاله،
بينما هي التي فعلت به ما فعلت

١٧٧ أحببت وكفى

عمرو بن ضُبَيْعة الرَّقاشي:

تَـضِـيقُ جُـفـونُ الـعـينِ عن عَـبَـراتِـهـا   فـتَـسْـفَـحُـهـا بـعـد الـتَّـجَـلُّـدِ والـصـبرِ

تضيق الجفون عن الدموع فتسفحها، أي تسكبها، بعد التجلد، التماسك، والصبر

أَلَا لِـيَـقُـلْ مَـنْ شـاءَ مـا شـاءَ إنَّـمـا   يُلَامُ الفتَى فِيما استَطاعَ مِنَ الأمرِ

قَضَى اللَّهُ حُبَّ المالِكِيَّةِ فاصْطَبِرْ   عليه فقد تَجري الأمورُ على قَدْرِ

اصبر على حب المالكية فهذا قضاء الله، والأمور تجري بحسب المقادير

١٧٨ التمتع بالتمني

قال رجل من بني الحارث:

مُنىً إنْ تكُنْ حقّاً تَكُنْ أحسنَ المُنَى   وإلَّا فـقـد عِـشْـنـا بِـهـا زَمـنـاً رَغْـدا

لو تحققت الأماني فهذا أحسن شيء، وإلا، أي إن لم تتحقق، فقد سررنا بالتمني

أَمَـانِـيُّ مِـنْ سُـعْـدَى حِـسـانٌ كـأنَّـمـا   سَـقَـتْـكَ بِها سُعْدَى على ظَمَإٍ بَرْدَا

الأماني بوصل سعدى جميلة وهي تبرد القلب،
فكأن سعدى سقتك ماء بارداً وأنت عطشان

١٧٩ أحلاهما مرّ

إِنِّي وإِيَّاكِ كَالصَّادِي رأى نَهَلاً ... ودُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بِها التَّلَفَا

أنا وأنت أيتها المحبوبة كالصادي، أي العطشان، الذي رأى منهل ماء، وبينه وبين المنهل هوة سحيقة يخشى الموت إن عبرها

رأَى بِعينَيْهِ مَاءً عَزَّ مَوْرِدُهُ ... وليس يَملِكُ دونَ الماءِ مُنْصَرَفَا

يرى الماء ولكن وروده عزيز، صعب، ولكنه لا يستطيع الانصراف دون أن يشرب

١٨٠ النعاس الحائر

ولِي مُقْلَةٌ عهدُها بِالكَرى ... قَديمٌ، وبِالدَّمْعِ عهدٌ قَريبُ

عهدي بالنوم بعيد، وبالدمع قريب

يَحارُ إذا زَارَ طَرْفِي الكَرى ... كمَا حَارَ بِالحَيِّ ضَيْفٌ غَريبُ

عندما يزور النوم طرفي أي عينيّ، فهو يحتار ولا يمكث طويلاً، ويكون نوماً مردداً قلقاً، مثلما يحار ضيف غريب جاء إلى الحي

١٨١ انظري نحولي

خلف بن خليفة:

خُذي بِيَدي ثم ارْفَعي الثَّوْبَ فانظُري ... بِيَ الضُّرَّ إلَّا أَنَّنِي أَتَسَتَّرُ

ارفعي ثوبي لتري نحولي ونحفي، فأنا أتستر بالثوب لئلا يظهر ما بي

فمَا حيلَتي إنْ لم تَكُنْ لَكِ رَحْمةٌ ... عَليَّ ولا لِي عنكِ صبرٌ فَأَصبِرُ

لا أنت راحمة لي ولا أستطيع عنك صبراً

١٨٢ زرع كبد

مجنون ليلى:

ولِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَنْ يَبيعُني ... بِها كَبِداً ليستْ بِذاتِ قُرُوحِ؟

كبدي بها قروح، ندوب، فمن يبادلني بها كبداً صحيحة؟

أَبَى الناسُ بين الناسِ لا يَشتَرُونَها ... ومَنْ ذا الذي يَشْري دَوَىً بِصَحيحِ

الدوى: المريض

١٨٣ الرغبة عن الهجاء

أَرْطَاة بن سُهَيَّة المُرِّي، وقد عاش في الدولة الأموية:

تَمَنَّتْ وذَاكُمْ مِنْ سَفاهَةِ رأيِها ... لِأَهْجُوَها لَمَّا هَجَتْني مُحَارِبُ

قبيلة محارب تمنت أن أرد على هجائها لي بهجاء، وهذا من قلة عقلها

مَعاذَ الإِلَهِ إِنَّني بِقَبيلَتي ... ونَفسيَ عن ذَاكَ المَقَامِ لَرَاغِبُ

معاذ الله، فأنا راغب لقبيلتي ولنفسي عن القيام هذا المقام، أي كاره للوقوف هذا الموقف

١٨٤ هجاء الابن

فُرْعان بن الأعرف، الذي عاش لعهد عمر بن الخطاب، في ابنه منازل، وقد عقه:

لَرَبَّيْتُهُ حتى إذا آضَ شَيْظَماً ... يَكادُ يُسَاوِي غَارِبَ الفَحْلِ غَارِبُهْ

لقد ربيت ولدي «منازلاً» حتى إذا آض، أي أصبح، شيظماً، أي قوياً، يساوي ظهره ظهر الفحل علواً

ورَبَّيْتُهُ حتى إذا ما تَركتُهُ ... أَخَا القومِ واسْتَغْنَى عن المَسْحِ شَارِبُهْ

ربيته حتى أصبح رجلاً في القوم، ولم يعد شاربه يمسح.. واستغناء الشارب عن المسح كناية عن مفارقة الطفولة، فالشارب هو الشفتان اللتان تشربان اللبن، والطفل يمسحون شفتيه بعدما يشرب اللبن

تَغَمَّدَ حَقِّي ظَالماً ولَوَى يَدِي ... لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الذي هُوَ غَالِبُهْ

تغمد، أي أخفى، حقي، ولوى يدي، أي استقوى عليّ

وكان له عِندي إذا جَاعَ أو بَكَى ... على الزَّادِ أَحلَى زَادِنا وأَطَايِبُهْ

عندما كان يجوع أو يبكي على الزاد، أي لأنه لم يحب نوع الطعام، فله أحلى وأطيب ما عندنا من طعام

أَإِنْ أُرْعِشَتْ كَفَّا أَبيكَ، وأصبحَتْ ... يَداكَ يَدَيْ لَيْثٍ فَإِنَّكَ ضَارِبُهْ؟

أإن أصابت الرعشة يديْ أبيك وأصبحت يداك أنت قويتين كيدي الأسد، فأنت تضرب أباك؟

وجَمَّعْتُها دُهْماً جِلَاداً كأَنَّها ... أَشَاءُ نَخيلٍ لم تُقَطَّعْ جَوانِبُهْ

لقد جمعت هذه الخيول الدهم، السود، الجلاد، القوية، التي كأنها أشاء نخيل، نخلات صغار، لم يتم تشذيبها بعد

فَأَخْرَجَني منها سَلِيباً كأنَّني ... حُسامُ يَمانٍ فَارَقَتْهُ مَضَارِبُهْ

فسلب خيلي وأخرجني صفر اليدين، فكأنني سيف يماني ذهبت مضاربه، أي نصله، ولم يبق منه إلا المقبض

١٨٥ بئست الخلتان

قَعْنَب بن أُمّ صَاحب:

إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طَارُوا بِها فَرَحاً   منِّي، ومَا سَمِعُوا مِنْ صالحٍ دَفَنُوا

إن سمعوا سيئة عني فرحوا بها وأذاعوها، ويدفنون ما سمعوا عن حسناتي

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ به   وإنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عندَهُمْ أَذِنُوا

بهم صمم عن حسناتي، وإن ذكرني أحد بسوء أذنوا، فتحوا آذانهم

جَهلاً علينا وجُبْناً عن عَدُوِّهِمُ   لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ

جهلاً علينا، يتطاولون علينا، ويجبنون عن العدو.. وبئست الخصلتان الجهل، أي التهور والتطاول، والجبن

١٨٦ المانّ على بني أسد

حُرَيْث بن عَتَّاب:

بَنِي أَسَدٍ إلّا تَنَحَّوْا تَطَأْكُمُ   مَناسِمُ حتى تُحْطَمُوا وحَوَافِرُ

يا بني أسد، إن لم تتنحوا فسوف تدوسكم مناسم، أي أخفاف الإبل، وحوافر الخيل حتى تتهشموا

تَضَاءَلْتُمُ مِنَّا كمَا ضَمَّ شَخْصَهُ   أَمَامَ البُيوتِ الخَارِئُ المُتَقَاصِرُ

تضاءلتم، انكمشتم، خوفاً منا، مثلما يقعي أمام البيوت ويضم شخصه المتغوط المتقاصر، الذي يحاول تقصير نفسه كي لا يراه أحد

ولما رأيناكُمْ لِئَاماً أَذِلَّةً   وليس لَكُمْ مِنْ سائرِ الناسِ نَاصِرُ

كنا قد رأيناكم ريناكم ذليلين لا ينصركم أحد..

ضَمَمْنَاكُمُ مِنْ غيرِ فَقْرٍ إلَيْكُمُ   كمَا ضَمَّتِ السَّاقَ الكَسِيرَ الجَبَائِرُ

فضممناكم إلينا دون أي حاجة بنا إليكم، فأنتم المنتفعون بهذا الحلف فقط، مثلما تنتفع الساق المكسورة إذ تربط بالجبائر، العصي التي تجبر الكسر

١٨٧ صبغوا رماحنا

جَوَّاس بن القَعْطَل:

صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بِالدِّمَاءِ رِمَاحَنا   وطَوَتْ أُمَيَّةُ دونَنا دُنْيَاها

قاتلنا مع بني أمية فصبغت رماحنا بالدم لكنها أبعدت عنا خيرات الدنيا

فـالـلَّـهُ يَـجـزِي، لا أُمَـيَّـةُ، سَـعْـيَـنـا   وغُـلاً شَـدَدْنـا بِـالـرِّمَـاحِ عُـرَاهـا

فالله يجزينا، وتجزينا المعالي التي عززناها بالرماح وشددنا عراها، مثلما يشد المرء أنشوطة الحبل على عنق الجمل

١٨٨ ركوب المنبر

أبو الأسد، في الحسن بن رجاء:

مـا زِلْـتَ تَـركَـبُ كـلَّ شـيءٍ قـائـمٍ   حتى اجترأْتَ على ركوبِ المِنبرِ

يعيره بالانحراف الجنسي، ويتعجب من اجترائه على صعود المنبر، فهو غير أهل للقيادة

١٨٩ المجد ليس تمراً

قال رجل من بني أسد:

دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ والسَّاعُونَ قد بَلَغُوا   جَهْدَ النُّفوسِ وأَلْقَوْا دوُنَهُ الأُزُرَا

أخذت تدب، وتزحف، نحو المجد بينما الساعون المجتهدون قد بلغوا في سعيهم أقصى الغايات وخلعوا الأزر، أي الأثواب، كناية عن المثابرة الشديدة

فَكَاثَرُوا المَجْدَ حتَّى مَلَّ أكثرُهُمْ   وعانَقَ المجدَ مَنْ أَوْفَى ومَنْ صَبَرا

فكاثروا المجد، أي تحدوه كي ينالوه، فمل أكثرهم، ولم ينل المجد إلا من أوفى، بلغ الغاية، وصبر

لا تَحْسَبِ المجدَ تَمْراً أنتَ آكِلُهُ   لن تَبْلُغَ المجدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبِرا

دون بلوغ المجد لعق الصبر، وهو نبات مر

١٩٠ قوم بخلاء

قال بعض بني المهلب:

قـومٌ إذا أَكَـلُـوا أَخْـفَـوْا كَـلامَـهُـمُ   واسْتَوْثَقُوا مِنْ رِتَاجِ البابِ والدَّارِ

عندما يحين موعد طعامهم يهمسون همساً حتى لا يحس بهم الناس، ويتأكدون من رتاج الباب، قفله

لا يَقْبِسُ الجارُ مِنْهُمْ فَضْلَ نَارِهِمْ   ولا تَـكُـفُّ يَـدٌ عـن حُـرْمَـةِ الـجَارِ

ويبخلون حتى بالنار التي لا يخسرون شيئاً لو اقتبس أحد منها قبساً، وينتهكون حرمة من يجاورهم

١٩١ زفرة المعضوض

مالك بن أسماء بن خارجة، وكان زار صديقاً له، فلما بلغ داره شد عليه كلب صديقه، فعضه، فقال:

لو كنتُ أَحْمِلُ خمراً يومَ زرتُكُمُ ... لم يُنْكِرِ الكلبُ أَنِّي صَاحِبُ الدَّارِ

لو كان معي خمر لظنني الكلب صاحب الدار لأنكم متعودون على حمل الخمر

لكنْ أَتَيْتُ وريحُ المِسْكِ تَفْغَمُنِي ... وعَنْبَرُ الهِندِ أُذْكِيهِ على النَّارِ

لكنني أتيت زائراً متعطراً وريح المسك تفغمني، تملأ أنفي، وعنبر الهند الذي تم تعريضه للنار لتقوية عبيره

فَأَنْكَرَ الكلبُ رِيحِي حينَ أَبْصَرَنِي ... وكان يَعرِفُ رِيحَ الزِّقِّ والقَارِ

فلم يعرف رائحتي كلبكم، فهو يعرف فقط رائحة الزق والقار، قربة الخمر والزفت الذي طليت به لمنع التسرب

١٩٢ سادتهم نساء، وقادتهم عبيد

مدرِك بن حِصن الفَقْعَسي:

لقد كنتُ أرمِي الوَحشَ وَهْيَ بِغِرَّةٍ ... ويَسْكُنُ أَحياناً إِلَيَّ شَرُودُها

كنت أرمي حيوانات البر بسهامي بغرة، فجأة، وأحياناً يأنس إلي الحيوان الشارد منها.. هكذا كانت علاقته بالفتيات شاباً

فقد أَمْكَنَتْنِي الوَحشُ مُذْ رَثَّ أَسْهُمِي ... وما ضَرَّ وَحْشاً قَانِصٌ لا يَصِيدُها

ومنذ أن رثت أسهمي، أصبحت مهترئة، أمكنتني الوحوش من نفسها واقتربت مني، فالوحوش، ومنها الظباء والمها، لا يضرها صائد لا يستطيع صيدها.. كناية عن إقبال النساء عليه عندما صار كهلاً

فَأَعْرَضْتُ عن سَلمَى وقلتُ لِصاحِبِي ... سَواءٌ علينا بُخْلُ سَلمَى وَجُودُها

أعرضتُ عن سلمى، فسواء جادت أم بخلت فلا غرض لنا فيها

فلا تَحْسُدَنْ عَبْساً على ما أصابَها ... وذُمَّ حَياةً قد تَوَلَّى زَهِيدُها

لا تحسد قبيلة عبس على ما أصابت من عز،
وذم حياة تولّى الأمور فيها الزهيد الخسيس من الناس

تُشَبَّهُ عَبْسٌ هَاشِماً أَنْ تَسَرْبَلَتْ ... سَرابِيلَ خَزٍّ أَنْكَرَتْها جُلُودُها

يشبهون عبساً بقبيلة هاشم فقط لأنها تسربلت، لبست، ثياب الخز، الحرير، التي في الواقع قد أنكرتها ولم تألفها جلود عبس

فَلا تَحْسَبَنَّ الخَيْرَ ضَرْبَةَ لازِبٍ   لِعَبْسٍ إذا ما ماتَ عنها وَلِيدُها

الخير ليس ضربة لازب، ليس مؤكداً، لقبيلة عبس إذا مات الوليد بن عبد الملك؛ وكانت زوجته عبسية، وكان يغدق على قومها

فَسَادَةُ عَبْسٍ في الحديثِ نِساؤُها   وقَادَةُ عَبْسٍ في القديمِ عبيدُها

سادة عبس في الحديث نساؤها، زوجة الخليفة، وقادة عبس في القديم عبيدها، أي عنترة بن شداد

١٩٣ اللؤم وغايته

أَناخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَني رِياحٍ   مَطِيَّتَهُ فَأَقْسَمَ لا يَرِيمُ

اللؤم نفسه أناخ دابته، أي أبركها وجعلها تجثم وتقعي، وسط بني رياح، وأقسم ألا يريم، يتحول عنهم.. أي هم لئام

كذلكَ كلُّ ذي سَفَرٍ إذا ما   تَناهَى عند غَايَتِهِ مُقيمُ

وكذا كل مسافر فإذا وصل غايته فهو يقيم ولا يرحل

١٩٤ المزاحم

إذا بَكْرِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلاماً   فيا لُؤْماً لِذلكَ مِنْ غُلامِ

ابن قبيلة بكر لئيم منذ مولده

يُزاحِمُ في المَآدِبِ كلَّ عَبْدٍ   وليس لَدَى الحِفاظِ بِذي زِحَامِ

وعندما يكبر يزاحم العبيد على الطعام، ولكنه لا يزاحم المقاتلين في الحرب للحفاظ على الشرف

١٩٥ تظن نفسها جميلة!

كَنْزة بنت شَمْلة المِنْقَرِيَّة، تهجو مَيَّة صاحبة ذي الرمة:

أَلَا حَبَّذا أَهْلُ المَلا غيرَ أنَّه   إذا ذُكِرَتْ مَيٌّ فَلا حَبَّذَا هِيَا

حبذا أهل الحي باستثناء ميَّة

على وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاحَةٍ   وتَحْتَ الثيابِ الخِزْيُ لو كان بَادِيَا

نعم على وجهها مسحة خفيفة من ملاحة، ولكن تحت ثيابها، أي في شخصيتها، اللؤم الذي كنت ستراه لو كان ظاهراً

ألم تَرَ أنَّ الماءَ يَخْلُفُ طَعْمُهُ   وإن كان لونُ الماءِ أبيضَ صَافِيَا

يكون الماء صافياً في لونه ولكن طعمه يخلف، أي يتغير.. فالمنظر لا يشي بالمخبر

إذا مَـا أَتَـاهُ وَارِدٌ مِـنْ ضَـرُورةٍ تَوَلَّى بِأَضْعَافِ الذي كان ظَامِيَا

فإذا جاء الماء وارد ليشرب مضطراً فإنه يتولى، ينصرف عنه، وقد غثيت نفسه وفسدت أضعاف ما كان به من عطش

كذلكَ مَيٌّ في الثيابِ إذا بَدَتْ وأَثْوابُها يُخفِينَ مِنها المَخَازِيَا

١٩٦ كأن عليه أرزاق العباد

إذا ما الرزقُ أحجَمَ عن كريمٍ وأَلْجَأَهُ الزمانُ إلى زِيَادٍ..

إذا انكمش الرزق عن رجل كريم، واضطره الزمن إلى اللجوء لزياد..

تَلَقَّاهُ بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ كأَنَّ عليهِ أرزاقَ العِبادِ

.. فزياد يستقبله بوجه مكشر، وكأنه مكلف بأرزاق عباد الله

١٩٧ قومي غير صاغرة

مُرَّة بن مَحْكَان، وهو أموي:

أنا ابْنُ مَحْكَانَ أَخْوالِي بَنُو مَطَرٍ أَنْمي إِلَيْهِمْ وكانُوا مَعْشَراً نُجُبا

أنا ابن فلان وأخوالي بنو مطر وأنتسب إليهم، وهم نجباء كرام

يا رَبَّةَ البيتِ قُومي غيرَ صَاغِرةٍ ضُمِّي إليكِ رِحَالَ القومِ والقِرَبَا

يا زوجتي قومي، غير صاغرة، غير ذليلة، واجمعي متاع الضيوف وقِرَب الماء التي جاءوا بها

في لَيلةٍ مِنْ جُمادَى ذاتِ أَنْدِيَةٍ لا يُبْصِرُ الكلبُ مِنْ ظَلْمَائِها الطُّنُبا

في ليلة باردة من جمادى ذات أندية، أي ماطرة، ولا يكاد الكلب يرى لشدة الظلام الطنب، حبل الخيمة. يكون جمادى قد أتى في ذلك الزمن في الشتاء

ماذا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِمْ ونُنْزِلُهُمْ في بَاحَةِ الدارِ أم نَبْني لَهُمْ قُبَبا؟

فهل نقربهم وننزلهم في باحة دارنا، أي خيمتنا، أم نبني لهم قبباً، خياماً؟

١٩٨ الحريص على الضيف

ومُسْتَنْبِحٍ قال الصَّدَى مِثلَ قولِهِ حَضَأْتُ له ناراً لَها حَطَبٌ جَزْلُ

رب مستنبح، رجل ينبح كالكلب في الصحراء وهو تائه حتى تجاوبه كلاب قوم فينزل فيهم ضيفاً، ويتردد صدى نباحه.. وقد أوقدت له ناراً بحطب جزل، صلب

وقُمْتُ إليهِ مُسرعاً فَغَنِمْتُهُ مَخَافَةَ قَوْمِي أنْ يفوُزوا بِهِ قَبْلُ

أسرعت إليه لكي أكسبه قبل أن يفوز به غيري من القوم قبلُ، أي قبل أن أستضيفه

فَأَوْسَعَني حمْداً، وأَوْسَعْتُهُ قِرىً وأَرْخِصْ بِحَمْدٍ كان كَاسِبَهُ الأَكْلُ

بالغت في قراه، طعامه، ومدحني.. وما أرخص الحمد الذي تكسبه بتقديمك الأكل للضيف

١٩٩ لِكِ البيت

ومَا أنا بِالسَّاعي إلى أمِّ عَاصِمٍ لِأَضْرِبَها إنِّي إذن لَجَهُولُ

لا يضرب زوجته

لَكِ البيتُ إلَّا فَيْنَةً تُحْسِنِينَها إذا حانَ مِنْ ضَيْفٍ عَلَيَّ نُزُولُ

البيت لك، وما عليك إلا أن تحسني في فينة، في مرة، عندما ينزل بي ضيف

٢٠٠ إكرام الضيف

وإنَّا لَمَشَّاؤُونَ بين رِحَالِنا إلى الضيفِ، مِنَّا لَاحِفٌ ومُنِيمُ

نمشي بين متاع بيوتنا ونعتني بالضيف ونقدم له اللحاف ولوازم النوم

فَذُو الحِلْمِ مِنَّا جَاهِلٌ دونَ ضَيْفِهِ وذُو الجَهْلِ منَّا عن أَذَاهُ حَليمُ

الحليم منا جاهل متهور في الدفاع عن ضيفه، والجاهل المتهور منا حليم يتحمل أي أذى من الضيف

٢٠١ سخيّ وحييّ

ابن عَنقاء الفَزاري:

رآنِي على ما بِي عُمَيْلَةُ فاشْتَكَى إلى مَالِهِ حالي أَسَرَّ كما جَهَرْ

رأى عميلة حالي، فشكا فقري إلى ماله.. أي طلب من ماله أن ينجدني.. فعل ذلك في السر والعلانية

دعَانِي فَآسَانِي، ولو ضَنَّ لمْ أَلُمْ على حينَ لا بَدْوٌ يُرَجَّى ولا حَضَرْ

دعاني فآساني، خفف عني، ولو ضن علي وبخل لم أكن له لائماً في وقت لا يرجو المرء فيه الخير من بدو ولا من حضر لاشتداد الضيق بالناس

غُلامٌ رَماهُ الله بِالحُسْنِ يَافِعاً له سيمِيَاءٌ لا تَشُقُّ على البَصَرْ

غلام، وكثيراً ما وصفوا الرجل بالغلام ولا ضير، كان جميل الطلعة وهو يافع فتي، وله سيمياء، طلعة بهية، لا تتعب البصر!

كأنَّ الثُّريَّا عُلِّقَتْ في جَبينِهِ وفي نَحْرِهِ الشِّعْرى وفي خَدِّهِ القمرْ

جعل نجوم السماء وقمرها في وجهه!

إذا قـيـلَـتِ الـعَـوْرَاءُ أَغْـضَـى كـأنَّـهُ   ذَلـيـلٌ بِـلا ذُلٍّ ولـو شَـاءَ لانْـتَـصَـرْ

إذا سمع العوراء، الكلمة الرديئة أغضى، خفض بصره، خجلاً.. فكأنه ذليل وليس بذليل، بل هو الحياء الجميل.. ولو أراد كان بمقدوره أن ينتصر، أن يرد ويستدّ

٢٠٢ كانت قذى عينيه

سَأَشْكُرُ عَمْراً ما تَراخَتْ مَنِيَّتي   أيـادِيَ لـم تُـمْـنَـنْ وإنْ هِـيَ جَـلَّـتِ

سأشكر لعمرو ما تراخت منيتي، ما استمر عمري وابتعد موتي، أيادي، أي نِعَماً، لم يمن عليَّ بها مع أنها كبيرة

فتَىً غيرُ مَحْجُوبِ الغِنَى عن صديقِهِ   ولا مُظْهِرُ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

لا يحجب غناه عن صديقه، ولا يشكو إذا النعل زلت، إذا لحق به العسر

رأَى خَلَّتي مِنْ حيثُ يَخْفَى مَكانُها   فكانَتْ قَذَى عينَيْهِ حتى تَجَلَّتِ

رأى خلتي، أي حاجتي، رغم أن فقري خفي، فكانت حاجتي كالقذى في عينيه.. فظل يسعى حتى تجلت، وزالت

٢٠٣ ليس أغناهم بل أكرمهم

أبو زياد الأعرابي:

لـه نَـارٌ تُـشَـبُّ عـلـى يَـفَـاعٍ   إذا الـنِّـيـرانُ أُلْـبِـسَـتِ الـقِـنـاعـا

ناره مشبوبة مشتعلة على التل، في حين نيران غيره يجري تكميمها حتى لا يراها ضيف طارئ

ولـم يـكُ أكـثـرَ الـفِـتْـيـانِ مـالاً   ولـكـنْ كـانَ أَرْحَـبَـهُـمْ ذِراعـا

ليس الأغنى، لكنه الأوسع ذراعاً، أي الأسخى

٢٠٤ هينون لينون

عُبَيْد بن العَرَنْدَس الكلابي:

هَـيْـنُـونَ لَـيْـنُـونَ أَيْـسَـارٌ ذَوُو كَـرَمٍ   سُـوَّاسُ مَـكْـرُمَـةٍ أَبْـنـاءُ أَيْـسَـارِ

في طبعهم السهولة والليونة وهم ذوو مال وكرم، ويسوسون المكارم، يحفظونها، وذوو أصل طيب. والأيسار والموسرون من أصل واحد في اللغة، كان الأغنياء يقامرون بالميسر، يقامرون على لحم ناقة يذبحونها، وكثيراً ما كانوا يوزعون المكسب على الفقراء

وإنْ تَـوَدَّدْتَـهُـمْ لانُـوا، وإن شُـهِـمُـوا   كَـشَّـفْـتَ آسَـادَ حـربٍ غـيـرَ أَشْـرارِ

لينون مع من يتودد إليهم، وإن خاطبت فيهم الشهامة كشفت عن أسود حرب

لا يَنْطِقُونَ عن الفَحشَاءِ إن نَطَقُوا ولا يُـمَـارُونَ إنْ مَـارَوْا بِـإكْـثَـارِ

لا يشتمون، ولا يمارون، لا يجادلون كثيراً

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجومِ التي يَسري بِها السَّاري

أي شخص منهم تلقاه تظن أنه سيدهم، فكلهم سادة كرام. وهم كالنجوم التي يهتدي بها مسافر الليل

٢٠٥ أضاءت أحسابهم الليل

أبو الطَّمَحان القَيْني:

إذا قيـلَ أيُّ الـناسِ خيـرٌ قَبيـلَـةً وأصبَـرُ يـومـاً لا تَـوارَى كَـواكِـبُـهْ..

إن سئل عن خير الناس من حيث النسب القبلي، وعن أصبر الناس في اليوم الذي لا تتوارى كواكبه، أي يشتد فيه القتال وتلمع فيه السيوف كالكواكب في غبار المعركة المظلم..

فـإنَّ بَـنـي لأمِ بْـنِ عَـمْـرٍو أَرُومَـةٌ سَمَتْ فوقَ صَعْبٍ لا تُنَالُ مَراقِبُهْ

فبنو لأم بن عمر أرومة، جذر ارتفع نباته فوق جبل صعب لا يصل المرء إلى مراقبه، أي الأماكن المشرفة التي تستعمل للمراقبة

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ ووُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيلِ حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثَاقِبُهْ

أحسابهم، أي شرفهم، ووجوههم البيض أضاءت لهم ظلام الليل، حتى ليستطيع ثاقب الخرز أن ينظمه في سلك ليصنع عقداً.. وهذا يقتضي ضوءاً ساطعاً. لئن صدقنا أن الوجوه تضيء، فكيف نصدق أن «الأحساب» تضيء.. وعلى ضوئها ينظم عقد الخرز! هنا روعة البيت

٢٠٦ تفضلْ إن استطعت

محمد بن بشير الخارجي:

يَـا أَيُّهـا الـمُـتَـمَـنِّـي أنْ يَكونَ فَـتـىً مثلَ ابْنِ زَيْدٍ لقد خَلَّى لَكَ السُّبُلا

أيها المتمني أن يكون مثل ابن زيد.. تفضل لقد أخلى لك الطريق

أُعْـدُدْ ثَـلاثَ خِـلالٍ قـد عُـرِفْـنَ لـهُ هلْ سَبَّ مِنْ أَحَدٍ، أو سُبَّ، أو بَخِلا؟

ثمة ثلاث خصال عرفت له: لم يشتم أحداً، ولم يشتمه أحد، ولم يبخل بماله

٢٠٧ أستدين باسمهم

شُقْرَان مولى سَلامان، من قضاعة:

ولو كنتُ مَوْلَى قَيسِ عَيْلانَ لم تَجِدْ عَـلَـيَّ لإنْـسَـانٍ مِـنَ الـنـاسِ دِرْهَـمـا

لو كنت مولى قبيلة قيس عيلان، الملتحق بهم، لما استطعت أن أستدين من أحد درهماً، فهم غير ذوي ثقة ولا يحملون عن مولاهم الديْن

ولـكـنَّـنـي مَـوْلَـى قُـضَـاعَـةَ كـلِّـهـا فَـلَـسْـتُ أُبَـالـيِ أن أدِيـنَ وتَـغْـرَمـا

لكنني مولى قضاعة، فأنا أستدين وهي تغرم، تسدد عني

أُولـئِـكَ قَـوْمـي بَـارِكَ الـلَّـهُ فـيـهِـمُ على كُـلِّ حَـالٍ، مَـا أَعَـزَّ وأَكْـرَمـا!

هم قومي فما أعزهم وما أكرمهم!

٢٠٨ المغوار الخجول

ليلى الأَخْيَلِيَّة:

لا تَـغْـزُوَنَّ الـدهـرَ آلَ مُـطَـرِّفٍ لا ظَـالِـمـاً أبـداً ولا مَـظْـلُـومَـا

لا تشن غارة على آل مطرف، لا وأنت ظالم ولا وأنت مظلوم

قَـوْمٌ رِبَـاطُ الـخـيـلِ وَسْـطَ بُـيُـوتِـهِـمْ وأَسِـنَّـةٌ زُرْقٌ يُـخَـلْـنَ نُـجُـومَـا

فهم يربطون خيولهم وسط بيوتهم للدفاع، ويُعِدُّون أسنة زرقاً تلمع كأنها النجوم

ومُـخْـرَّقٍ عـنـهُ الـقَـمـيـصُ تَـخَـالُـهُ وَسْطَ الـبُـيوتِ مِنَ الحَـياءِ سَقِـيمَـا

ورب فتى مشعث الملابس ممزق القميص تخاله سقيماً مريضاً

حـتَّـى إذا رُفِـعَ الـلِّـوَاءُ رَأَيْـتَـهُ تَحتَ اللِّواءِ على الخَميسِ زَعِيما

فإذا رفع اللواء للحرب وجدته تحت اللواء زعيماً للخميس، أي الجيش

٢٠٩ الكريم الخجول.. والمغوار

كَـريـمٌ يَـغُـضُّ الـطَّـرْفَ فَـضْـلُ حَـيـائِـه ويَـدْنُـو وأَطْـرافُ الـرِّمَـاحِ دَوَانِ

كريم ويجعله الحياء يغض بصره، وهو يدنو عندما تكون أطراف الرماح قريبة أي أنه مقدام في الحرب

وكـالـسـيـفِ إنْ لايَـنْـتَـهُ لانَ مَـسُّـهُ وحَـدَّاهُ إنْ خَـاشَـنْـتَـهُ خَـشِـنَـانِ

مسه لين كمس السيف، ولكن حده قاطع

٢١٠ القادح لجارته

سَـأَقْـدَحُ مِـنْ قِـدْرِي نَـصِـيـبـاً لِجَارَتي وإن كان ما فيها كَفَافاً على أَهْلي

سأقدح، أي أغترف قدحاً، من قِدري للجارة، وإن كان ما في القدر لا يكاد يكفي أهلي

إذا أَنـتَ لـم تُـشْـرِكْ رفـيـقَـكَ بِـالـذي يكونُ قَليلاً لم تُشَارِكْهُ في الفَضْلِ

فمن لم يشارك رفيقه في القليل لم يشاركه في الفضل، أي الكثير الذي يفضل عن الحاجة

٢١١ أخلاق الرجال تضيق

عمرو بن الأهتم السعدي:

ذَرِيني فَإِنَّ الشُّحَّ يا أُمَّ هَيْثَمٍ لِصَالِحِ أَخْلاقِ الرجالِ سَروقُ

دعيني يا أم هيثم فالبخل يسرق ما عند الرجل من صالح الأخلاق

ذَرِيني وحُطّي في هَوايَ فإنَّني على الحَسَبِ الزَّاكي الرفيعِ شَفيقُ

دعيني وسخائي، وحطي في هواي، وافقيني على طبعي، فأنا شفيق، حريص، على الحسب الزاكي، الشرف الطيب

وكلُّ كَريمٍ يَتَّقي الذَّمَّ بالقِرَى ولِلْحَمْدِ بين الصَّالحِينَ طَريقُ

الكريم يجتنب الذم ببذل طعامه للضيف، وهذا هو طريق المكارم الني يحرص عليها الصالحون

لَعَمْرُكَ ما ضَاقَتْ بلادٌ بِأهلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضيقُ

البلاد لا تضيق بأهلها عن الرزق، فالرزق موجود ولكن أخلاق الرجال ضيقة وفيها البخل. هذا البيت صار مثل «الجوكر» في لعب الورق يحشره الشعراء في قصائدهم

٢١٢ عدوى

لَمَسْتُ بِكَفّي كَفَّهُ أَبتَغي الغِنَى ولم أَدْرِ أن الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدي

لمست كفه آخذ منه مالاً، وأخذت.. ولم أدرِ أن سخاء كفه يعدي، يصيب بالعدوى

فلا أنا مِنْه ما أفادَ ذَوُو الغِنَى أَفَدْتُ، وأَعْداني فَأَتْلَفْتُ مَا عِندي

فما استفدت مما أخذت منه كما استفاد الأغنياء، لا بل أصابتني عدوى السخاء فأتلفت مالي القديم أيضاً

٢١٣ لا آكل وحدي

الحوَّاس الحارثي، وقيل بل هي لحاتم الطائي، يخاطب امرأته:

إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسي له أَكيلاً فإنِّي لَسْتُ آكُلُهُ وَحْدي

إذا أعددت الطعام فابحثي عن أكيل، مشارك في الأكل، فلست آكلاً وحدي

أَخاً طَارقاً، أو جَارَ بيتٍ فإنَّني أخافُ مَذَمَّاتِ الأَحاديثِ مِنْ بعدي

اطلبي لي طارقاً، زائر ليل، أو جاراً ليأكل معي فأنا أخاف أن أكون عرضة للذم إن أكلت وحدي

ولَلْمَوْتُ خيرٌ مِنْ زِيارَةِ بَاخِلٍ يُلاحِظُ أَطْرافَ الأَكيلِ على عَمْدِ

الموت أفضل من زيارة بخيل يلاحظ بعينيه يديْ مَنْ يشاركه الأكل ملاحظة متعمدة

وإنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دَامَ ثَاوِياً   ومَا فِيَّ إلّا تلكَ مِنْ شِيمَةِ العبدِ

أنا أخدم الضيف كأنني عبد له وهو ثاوٍ، مقيم، عندي، وليس فيَّ من صفات العبد سوى هذه

٢١٤ تنفيذ وصية الأب

منصور بن سَلَمَة النَّمَري:

وَدَاعٍ دَعَا بعدَ الهُدُوءِ كَأنَّما   يُقاتِلُ أَهْوالَ السُّرَى وتُقَاتِلُهْ

رب منادٍ ينادي بعد الهدوء في المساء، فكأنه يحارب أهوال السرى، أي السير ليلاً، وتحاربه

دَعَا بَائِساً شِبْهَ الجُنونِ، ومَا بِهِ   جُنونٌ ولكِنْ كَيْدُ أَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

ينادي وهو بائس وشبه مجنون من جوعه، وليس بمجنون ولكنه يسعى للخروج من كيد، مأزق، هو تيهه في صحرائه

فلمَّا سَمِعْتُ الصوتَ نَادَيْتُ نَحْوَهُ   بِصَوْتِ كريمِ الجَدِّ حُلْوٍ شَمَائِلُهْ

ناديت في اتجاهه، وأنا كريم الجد، كريم الأصل، حلو الشمائل، حسن الصفات

وأَبْرَزْتُ نَارِي ثم أَثْقَبْتُ ضَوْءَها   وأخرجْتُ كَلبي وَهْوَ في البيتِ دَاخِلُهْ

أبرزت ناري ليراها، وأثقبت، أشعلت، ضوءها، وأخرجت كلبي، وكان داخل البيت، كي ينبح فيعرف التائه مكاننا

فلمَّا رآني كَبَّرَ اللَّهَ وَحْدَهُ   وبَشَّرَ قلباً كانَ جَمّاً بَلابِلُهْ

لما رآني الرجل كبر حمداً لله، وبشر قلبه بالخلاص، وكان قلبه جم البلابل، كثير القلق

فقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرحباً   رَشِدْتَ، ولم أَقْعُدْ إليهِ أُسَائِلُهْ

رحبت به، وقلت له: قد وجدت رشدك بعد التيه، ولم أقعد أسائله

وقُمْتُ إلى بَرْكٍ هِجَانٍ أُعِدُّهُ   لِوَجْبَةِ حَقٍّ نَازِلٍ أنا فَاعِلُهْ

بل قمت إلى برك هجان، إبل كريمة، أعددتها لوجبة حق، لطعام للضيف أراه حقاً علي

بِذَلِكَ أَوْصَانِي أَبِي، وبِمِثْلِهِ   كذلكَ أَوْصَاهُ قَدِيماً أَوَائِلُهْ

هذه وصية أبي، ومن قبل أوصاه بهذا أوائله، أسلافه

٢١٥ طبع لا تطبع

حاتم بن عبد الله الطائي:

وعَاذِلَةٍ هَبَّتْ عليَّ تَلومُني   كأنِّي إذا أعطَيْتُ مَالي أضِيمُها

قامت تلومني كأنني عندما أسخو بالمال أضيمها، أي أظلمها

أَعَاذِلَ إن الـجُـودَ لـيـس بِـمُـهْـلِـكِـي ولا مُخْلِدِ النفسِ الشَّحِيحَةِ لُومُها

الجود لا يميتني، ولؤم النفس البخيلة لا يجعلها تخلد

وتُـذْكَـرُ أَخْـلاقُ الـفـتَـى وعِـظَـامُـهُ مُـغَـيَّـبَـةٌ فـي الـلَّـحْـدِ بَـالٍ رَمـيـمُـهـا

أخلاق الفتى تظل مذكورة بعد موته عندما تصبح عظامه في القبر بالية

ومَنْ يَبْتَدِعْ ما ليس مِنْ خِيمِ نفسِهِ يَدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النفسِ خِيمُها

الخيم: الطبع

٢١٦ إيثار

حاتم الطائي:

وإِنِّي لَأَسْتَحيِي صِحَابِيَ أَنْ يَرَوْا مكانَ يَدِي مِنْ جانِبِ الزَّادِ أَقْرَعا

أستحي أن يرى أصحابي ونحن نأكل من الدست مكان يدي أقرع فارغاً.. أي أنني أكلت كل ما أمامي

أَكُفُّ يَدِي عن أَنْ يَنالَ الْتِمَاسُها أَكُفَّ صِحابِي حينَ حاجَتُنَا معَا

أبتعد بيدي حتى لا تلامس أكف أصحابي حين تكون لنا حاجة واحدة في اغتراف الطعام.. أي أنني لا أزاحمهم على الأكل

أَبِيتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مُضْطَمِرَ الحَشَا حَـيـاءً أَخـافُ الـلَّـوْمَ أن أَتَـضَـلَّـعـا

أبيت هضيم الكشح، نحيل الجانب، مضطمر الحشا، ضامر البطن، حياء من أن أكون جشعاً نهماً إذا تضلعت من الطعام، أي امتلأت منه

فـإِنَّـكَ إن أَعْـطَـيْـتَ بَـطْـنَـكَ سُـؤْلَـهُ وفَـرْجَـكَ نَـالا مُـنْـتَـهَـى الـذَّمِّ أَجْـمَـعـا

إذا طاوعت شهوات بطنك وفرجك، فقد نلت أعظم الذم

٢١٧ بناء في الهواء

أبو كَدْرَاء العِجْلِي:

يـا أُمَّ كَـدْرَاءَ مَـهـلاً لا تَـلـومِـيـنـي إِنِّـي كـريـمٌ وإنَّ الـلَّـوْمَ يُـؤْذِيـنـي

لا تلوميني على الكرم، فأنا كريم واللوم يؤذيني

فـإنْ بَـخِـلْـتُ فـإِنَّ الـبُـخْـلَ مُـشْـتَـرَكٌ وإنْ أَجُـدْ أُعْـطِ عَـفْـواً غـيـرَ مَـمْـنُـونِ

إن بخلت كنت مثل سائر الناس، وإن أعط الناس من مالي فأنا أعطيهم بغير منٍّ ولا تطاول

لـيسـتْ بِـبَـاكِـيَـةٍ إِبْـلـي إذا فَـقَـدَتْ   صَـوتـي، ولا وَارِثِـي في الـحَـيِّ يَـبْـكِـيـنِـي

إبلي لن تبكي لموتي، لأنني أذبحها دوماً لإطعام الأضياف، ووارثي في القوم لن يبكيني لأنني لا أبقي له مالاً يرثه

بَـنَـى الـبُـنَـاةُ لـنـا مَـجْـداً ومَـكْـرُمَـةً   لا كَـالـبِـنَـاءِ مِـنَ الآجُـرِّ والـطِّـيـنِ

٢١٨ سبيل الدراهم

جُؤَيَّة بن النَّضْر:

قَـالَـتْ طُـرَيْـفَـةُ مَـا تَـبْـقَـى دَراهِـمُـنـا   ومـا بِـنَـا سَـرَفٌ فـيـهـا ولا خُـرُقُ

الخرق: الإسراف بحمق

إنَّـا إذا اجـتـمَـعَـتْ يـومـاً دَراهِـمُـنـا   ظَـلَّـتْ إلى سُـبُـلِ الـخـيْـراتِ تَـسْـتَـبِـقُ

٢١٩ ماذا سيبقى؟

زيد بن عامر الحارثي:

وإذا الـفَـتـى لاقَـى الـحِـمَـامَ رَأَيْـتَـهُ   لـولا الـثـنـاءُ، كـأنَّـهُ لـم يـولَـدِ

عند الموت لا يبقى من المرء إلا الذكر الحسن

٢٢٠ بناء المكارم

المتوكل الليثي:

لَـسْـنـا وإنْ أَحْـسَـابُـنـا كَـرُمَـتْ   يـومـاً عـلـى الأَحْـسَـابِ نَـتَّـكِـلُ

لا نتكل على شرفنا القديم رغم أننا كرام حقاً

نَـبْـنـي كـمَـا كـانـتْ أَوَائِـلُـنـا   تَـبْـنـي، ونَـفـعـلُ مِـثـلَـمـا فَـعَـلُـوا

نجدد بناء الشرف كأسلافنا

٢٢١ إفشاء الأسرار

سُحَيْم الفقعسي:

ولا أَكْـتُـمُ الأَسْـرارَ لـكَـنْ أَنُـمُّـهـا   ولا أَدَعُ الأَسْـرارَ تَـغـلـي عـلـى قَـلْـبي

أفشي أسرار الناس ولا أتركها تغلي على قلبي، أي تقلقني

وإنَّ قَـلـيـلَ الـعـقـلِ مَـنْ بَـاتَ لَـيْـلَـهُ   تُـقَـلِّـبُـهُ الأَسْـرَارُ جَـنْـبـاً إلـى جَـنْـبِ

ما أقل عقل من بات يحمل أسراراً ولا يفشيها ويتخلص من همها

٢٢٢ النصف الطيب

لا تَنْكِحَنَّ عَجُوزاً إن أُتِيتَ بِها   واخْلَعْ ثِيابَكَ منها مُمْعِناً هَرَبا

لا تتزوج عجوزاً، واهرب منها..

وإن أَتَوْكَ وقَالُوا إِنَّها نَصَفٌ   فإنَّ أَطْيَبَ نِصْفَيْها الذي ذَهَبا

النصف: المرأة في منتصف العمر

٢٢٣ أهجوه لصورته فقط

لو تَسَمَّعْتَ صَوْتَهُ قُلْتَ هذا   صَوْتُ فَرْخٍ في عُشِّهِ مَزْقُوقِ

صوته صوت فرخ تزقه أمه بالحَب

أو تَأَمَّلْتَ رأْسَهُ قُلْتَ هذا   حَجَرٌ مِنْ حِجَارَةِ المَنْجَنِيقِ

ورأسه كبير كحجر المنجنيق

مُعْمِلٌ قَرْضَ لِحْيَةٍ لو تَرَاها   قُلْتَ عُثْنُونُ هِرْبِذٍ مَخْلُوقِ

وهو معمل قرض لحيته، نشط في نتفها، وهي كعثنون، سكسوكة،
هربذ، إمام المجوس في الصلاة

لم أَعِبْهُ أَلَّا يَكُونَ تَقِيَّاً   مُؤْمِناً مُبْغِضاً لِأَهْلِ الفُسُوقِ

لست أهجوه لأنه غير تقي أو غير مؤمن أو غير كاره للفساق

غيرَ أَنِّي أَرَدْتُ أنْ يَنْظُرَ النَّا   سُ إلى خَلْقِ رَبِّنا المَخْلُوقِ

فقط أردت أن ينظر الناس إلى هذه الخلقة المشوهة

الحماسة

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

الوحشيات

هذا كتاب قالوا إن أبا تمام جمع فيه أشعار الأولين، وقد يسمونه «الحماسة الصغرى». قالوا إن أبا تمام صنع في همذان، إذ حبسه الثلج في بيت صديقه أبي الوفاء بن سلمة، خمسة كتب جعل فيها شعر القدماء. وبعد أن انتخبنا ما انتخبنا من الحماسة ها نحن ننتخب من الكتاب الثاني: «الوحشيات»، وهو أقل شهرة بكثير من الحماسة. وفي نسبته إلى أبي تمام شك غير قليل، وفي نسبة بقية المجاميع ـ سوى الحماسة ـ إلى شاعرنا شك غليظ.

على أن ما يعنينا حقاً إنما هو ما في هذا الكتاب من جيد الشعر. وقد حققه عبد العزيز الميمني، وراجعه محمود شاكر. وناهيك بهذين المحققين وفرة علم ودقة ملاحظة وبراعة في تحقيق كتب الأدب. على أنهما لم يشرحا شيئاً. ولا ضير، فالتحقيق شيء والشرح شيء.

التحقيق، في عرف كبار المحققين، نقل الكتاب من النسخ الخطية الكثيرة أو القليلة إلى نسخة مطبوعة ليس لها غرض إلا أن تحاكي الأصل. فأما الشرح فهو ما ستراه مذيّلاً الأبياتَ التي اخترناها. وفي الوحشيات كثير من الشعر العباسي، وتسللت من ذلك قطعة أو اثنتان إلى مختاراتنا هذه، وكان قد ورد في «الحماسة» بعض الشعر العباسي، وسمحنا لبعض هذا البعض بالتسلل. ولئن أخل هذا بشرطنا في كتابنا ـ وقد قصرناه على الشعر من أول ما وصلنا من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ـ فإن الرغبة في التمتع بجميل الشعر غلبتنا.

١ الأيام دول

فَرْوَة بن مُسَيْك المُرادي:

فإنْ نَهْزِمْ فَهَزَّامونَ قِدْماً وإن نُغْلَبْ فغيرُ مُغَلَّبينا

إن هزمناهم فهذا ما درجنا عليه، وإن غلبونا فنحن لسنا مغلَّبين، أي ضعافاً مغلوبين دوماً

فَـمَـا إنْ طِـبُّـنـا جُـبْـنٌ ولـكـنْ   مَـنـايَـانـا، ودُولَـةُ آخَـرِيـنـا

طبنا، عادتنا، ليست الجبن، ولكن يكون في بعض الوقائع قد حل أجلنا، ودارت الدائرة علينا وكانت الدُّولة، الغلبة، لآخرين

ومَـنْ يُـغْـرَرْ بِـرَيْـبِ الـدهـرِ يـومـاً   يَـجِـدْ رَيْـبَ الـمَـنُـونِ لـه خَـؤُونـا

من غره الزمن فسيجد الموت خائناً لأمنياته غداراً

فَـأَفْـنَـى ذَاكُـمُ سَـادَاتِ قَـوْمِـي   كـمـا أَفْـنَـى الـقُـرونَ الأَوَّلِـيـنـا

هذا ما أفنى السادات من قومي، وهو ما أفنى القرون، أي الأجيال، الأولى

فـلـو خَـلَـدَ الـمـلـوكُ إذَنْ خَـلَـدْنـا   ولـو بَـقِـيَ الـمـلـوكُ إذنْ بَـقِـيـنـا

٢ انصر أخاك

ابن برَّاقة الهمْداني:

متى تَجْمَعِ القلبَ الذَكِيَّ، وصَارِماً   وأَنْـفـاً أَبِـيّـاً تَـجْـتَـنِـبْـكَ الـمـظَـالـمُ

إذا كان قلبك ذكياً، فيك شجاعة، ولديك سيف قاطع وأنف أبي، نفس ترفض الذل، فلن يظلمك الناس

ومَنْ يَطْلُبِ الـمالَ الـمُمَنَّعَ بِالقَنا   يَعِشْ مُثْرِياً، أو تَـخْـتَـرِمْهُ الـمَخَارِمُ

من طلب المال، أي النياق والجمال، الممنع، المحميّ، بالرماح عاش ثرياً، أو اخترمته المخارم، مات

وكـنـتُ إذا قَـوْمٌ غَـزَوْنـي غَـزَوْتُـهُـمْ   فـهـل أنـا في ذَا يـالَ هَـمْـدَانَ ظَـالِـمُ؟

فَلا صُلْحَ حتَّى تُقْدَعَ الخيلُ بِالقَنا   وتُضرَبَ بِالبِيضِ الخِفَافِ الجَماجِمُ

لا صلح حتى تقدع، أي تُصدَّ، الخيل بالرماح، وحتى تُضرب بالسيوف الخفيفة جماجم الأعداء

إذا جَـرَّ مَـوْلانـا عـلـيْـنَـا جَـرِيـرَةً   صَـبَـرنـا لـهـا، إنَّـا كِـرَامٌ دَعَـائِـمُ

إذا سبب لنا مولانا، حليفنا، جريرة، جريمة، فنحن ننصره ونصبر لأننا دعائم، أشداء

ونَـنْـصُـرُ مَـوْلانـا، ونـعـلَـمُ أنَّـهُ   كـمـا الـنـاسِ مَـجْـرُومٌ عـلـيـه وجَـارِمُ

ننصر حليفنا عارفين بأنه قد يكون هو المجرم، وقد يكون مظلوماً

٣ حبل بلا بعير

الأُحَيْمِر السَّعْدي:

وإِنِّي لأَستَحْيِي مِنَ اللَّهِ أنْ أُرَى أَطُوفُ بِحَبْلٍ ليس فيهِ بَعيرُ

يا خجلي وأنا أطوف وبيدي حبل لكن بغير بعير يعبر بعنز تعير مروره أي اهتمام

وأَنْ أَسْأَلَ المرءَ اللئيمَ بَعيرَهُ وبُعْرَانُ رَبِّي في البلادِ كَثيرُ

وأن أطلب بعيراً من رجل لئيم، بينما الجمال في بلاد الله كثيرة.. يشجع نفسه على سرقة الإبل

عَوَى الذئبُ فاسْتَأْنَسْتُ لِلذئبِ إذْ عَوَى وصَوَّتَ إنسانٌ فَكِدْتُ أَطيرُ

يؤنسني عواء الذئب، ويريبني صوت الإنسان

يَرى اللَّهُ أنّي لِلأنيسِ لَشَانِئٌ وتُبْغِضُهُمْ لي مُقْلَةٌ وضَميرُ

أنا شانئ، أي كاره، للإنسان، أكرة رؤيته بمقلتي، ويكرهه قلبي

٤ حزازات النفوس

زُفَر بن الحارث الكِلابِيّ:

وقد يَنْبُتُ المَرعَى على دِمَنِ الثَّرى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفوسِ كما هِيَا

قد ينبت العشب على دمن الثرى، أوساخ التراب، فيغطيها فلا يرى المرء إلا العشب الأخضر، ولكن حزازات النفوس، جراح القلوب أي أحقادها، تبقى دفينة لا تتغير

أَبِينِي سِلاحِي لا أَبا لَكِ إِنَّني أرى الحربَ لا تزدادُ إلّا تَمَادِيَا

يا امرأتي أخرجي لي سلاحي، فأنا أرى الحرب تزداد اشتعالاً

٥ أبالأراجيز؟

اللعين المِنقري:

إِنِّي أنا ابْنُ جَلَا إن كنتَ تَعرِفُني يَا «رُؤْبَ»، والحَيَّةُ الصَّمَّاءُ في الجبلِ

أنا ابن جلا، أي المشهور المعروف. يا رؤبة بن العجاج، وأنا حية الجبل الصماء، الشديدة السامة

أَبِالأَراجيزِ يا ابْنَ اللُّؤْمِ تُوعِدُني؟ إنَّ الأراجيزَ رأْسُ اللؤمِ والفَشَلِ

هل تهددني بالهجاء بأراجيزك، ورؤبة من كبار الرجاز، وكانت الشعراء تعد الرجز أدنى من الشعر

٦ الرزق على الله

مُضرِّس بن رِبْعي:

وعَاذِلَةٍ تَخْشَى الرَّدَى أن يُصيبَني تَروحُ وتَغْدُو بالـمَلامَةِ والقَسَمْ

هذه العاذلة اللائمة تخشى عليَّ الموت، ولا تكف عن لومي وأن تقسم عليَّ أن أترك المواجهات

تَقُولُ: هَلَكْنا إن هَلَكْتَ، وإنَّما على اللَّهِ أَرْزاقُ العِبادِ كما زَعَمْ

تقول إننا سنموت إن أنت مت، ولكن أرزاق الناس على الله كما زعم، أي كما وعد

وإنِّي أُحِبُّ الخُلْدَ لو أَسْتَطِيعُهُ وكالخُلْدِ عِنديِ أن أَموتَ ولَمْ أُذَمّ

أحب الخلد، البقاء على قيد الحياة، ولكن الموت بلا مذمة هو عندي كالحياة

٧ أيام سلم حبلى بالحرب

قال ابن عم لسُويد الحارثي بعد مقتل سويد:

ستعلمُ إنْ طَالَ المدى آلُ مَالِكٍ أَبِالرُّشْدِ أم بِالغَيِّ قَرَّتْ عُيونُها

سيعلم آل مالك هل قرت عيونهم، فرحوا، بالحق أم بالباطل

فإنَّا وإيَّاكُمْ وإنْ طَالَ تركُكُمْ كَحَامِلَةٍ يَزدادُ ثِقْلاً جَنِينُها

ونحن وأنتم والزمن طويل.. ولئن تركناكم فالأمر بيننا مثل الحبلى التي يزداد ثقلاً جنينها ولا بد يوماً أن تضع.. أي ستدور عليكم الدوائر بعد حين

٨ مكانكِ!

عمرو بن الإطْنابة الخزرجي:

أَبَتْ لي عِفَّتي وحَياءُ نَفسي وأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

أبت لي الذل عفتي وحيائي ونيلي المكارم ببذل ما تقتضيه

وإِقْدَامي على المَكْرُوهِ نَفْسي وضَرْبي هَامَةَ البطلِ المُشِيحِ

ويأبى لي الذلّ أيضاً شجاعتي إذ أرمي بنفسي على المكروه، القتال، وضربي هامة، رأس، البطل المشيح، الفارس المنحرف نحوي ليقاتلني

وقَوْلي كُلَّمَا جَشَأَتْ وجَاشَتْ مَكَانَكِ! تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحي

وقولي كلما جشأت نفسي وجاشت، كلما فزعت وتوترت، مكانك أيتها النفس واثبتي، فإمَّا أن تنالي الحمد بالثبات في المعركة وإمَّا أن تموتي وتستريحي. سأل معاوية عبيدَ الله بن زياد إن كان يحفظ شعراً، فقال: لا، اكتفيت بالقرآن. فقال له: والله كنت أضع قدمي في الركاب أنوي الفرار مرة بعد مرة في «صفين»، وما كان يمنعني سوى أبيات عمرو بن الإطنابة

٩ قاتل خاله

قال تَوْبَة بن مُضَرِّس السعدي، وقد قتل خاله أخذاً بثأر أخيه «طارق»:

بَكَتْ جَزَعاً أُمِّي رُمَيْلَةُ أَنْ رَأَتْ   دَمَاً مِنْ أَخيها في المُهَنَّدِ بَاقِيا

بكت أمي إذ رأت بقية من دم أخيها على سيفي

فقلتُ لها لا تَجزَعي إن «طَارِقاً»   خَليلي الذي كانَ الخَليلَ المُصَافِيا

قلت لها لا تجزعي فطارق كان خليلي الوفي

وما كنتُ لو أُعْطِيتُ أَلْفَيْ نَجيبَةٍ   وأَوْلادَها لَغْوَاً وسِتِّينَ رَاعِيا . .

وما كنت لو أعطوني دية لطارق ألفي نجيبة، ناقة، مع أولادها لغواً، أي ملغاةً غير محسوبة في الدية، وفوق ذلك ستين من الرعاة . .

لِأَقبَلَها مِنْ «طارقٍ» دونَ أن أَرى   دَمَاً مِنْ بَني حِصْنٍ على السيفِ جَارِيا

ما كنت لأقبلها بدلاً من دم طارق، فلا بد أن أرى دم بني حصن
يجري على سيفي آخذاً بالثأر

وما كانَ في عَوْفٍ قَتيلٌ عَلِمْتُهُ   لِيُوفِيَني مِنْ «طارقٍ» غَيْرُ خَالِيَا

وليس في عشيرة عوف رجل أقتله فيَفِيَ بطارق سوى خالي، لذا قتلته

١٠ لولا بناتي

عيسى بن فاتك الخارجي:

لقد زادَ الحَياةَ إِلَيَّ حُبَّاً   بَناتي، إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ

أُحَاذِرُ أنْ يَذُقْنَ البُؤْسَ بَعدي   وأنْ يَشْرَبْنَ رَنْقاً بَعدَ صَافِ

أحذر إن مت أن تذوق بناتي شظف العيش بعدي، وأن يشربن الماء الرنق، المكدر، بعد شربهن الصافي في حياتي

وأنْ يَضْطَرُّهُنَّ الدهرُ بَعدي   إلى جِلْفٍ مِنَ الأَعْمامِ جَافِ

الجلف والجافي: الخشن الطباع

ولولا هُنَّ قد سَوَّمْتُ مُهْري   وفي الرحمنِ للضُّعَفاءِ كَافِ

لولا بناتي لكنت سومت مهري، أعددته للحرب،
والله يكفل الضعفاء الآخرين من أهلي

١١ بداية الملك العضوض

عبد الله بن همَّام السَّلولي:

إذا مَا مَاتَ كِسرَى قامَ كِسْرَى نَعُدُّ ثَلاثَةً مُتَتَابِعِينا

لعله قال ذلك وقد أوصى معاوية لولده يزيد، فالشاعر يرى أن الخلافة أصبحت كسروية، عثمان ثم معاوية ثم يزيد.. ثلاثة من بني أمية

وإنْ جِئتُمْ بِرَمْلَةَ أو بِهِنْدٍ نُبايِعُها أَمِيرَةَ مُؤْمِنِينا

رملة بنت أبي سفيان زوج الرسول، وهند أم معاوية، وتوفيتا قبل هذا الشعر الذي قيل في بيعة معاوية لابنه يزيد سنة ٥٩ للهجرة، يسخر الشاعر من معاوية

حُشِينَا الغَيْظَ حتَّى لو شَرِبْنا دِماءَ بَنِي أُمَيَّةَ ما رَوِينا

وكافأه معاوية بأن أرسل إليه مالاً. وعاش الشاعر بعد أبياته ثلاثين سنة

١٢ نجاة معاوية

النجاشي الحارثي:

أيَا رَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ تَميماً وهذا الحيَّ مِنْ غَطَفَانِ

أيها الراكب بلغ سلامي لهؤلاء

وكنتُمْ كَذي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحيحَةٍ ورِجْلٍ بِها رَيْبٌ مِنَ الحَدَثَانِ

فَأمَّا التي صَحَّتْ فَأزْدُ شَنُوءَةٍ وأمَّا التي شَلَّتْ فَأزْدُ عُمَانِ

يصنف النجاشي القبائل فمنها ما صمد مع علي ومنها ما انحاز إلى معاوية. وكان الشاعر في صفين مع علي، ثم ضبطه عليٌّ سكران في رمضان فجلده وزاده عشرين جلدة عن الحد، فانحاز إلى معاوية، لكن بعد هذه القصيدة

فَيَا حَسْرتي أَلَّا أكونَ شَهِدْتُهُمْ فأَدْهُنَ مِنْ شَحْمِ العَبيدِ سِنَاني

يتحسر ألا يكون شهد صفين حتى يقتل من وصفهم بالعبيد بسنان رمحه

فأَصْبَحَ أهلُ الشامِ قد رَفَعُوا القَنا عليها كتابُ اللَّهِ خَيْرُ قُرَانِ

رفع أهل الشام في صفين الرماح وعليها المصاحف يطلبون الهدنة والاحتكام للقرآن

ونَادَوْا عَلِيّاً يا ابْنَ عَمِّ مُحمدٍ أمَا تَتَّقِي أن يَهْلِكَ الثَّقَلانِ

نادى أهل الشام بعلي أما تتقي أن يهلك الثقلان، أي الإنس والجن، يقصد أن يهلك الناس جميعاً من الفريقين المتحاربين

وَنَجَّى ابنَ حَرْبٍ سَابِحٌ ذُو عُلاَلَةٍ   أَجَشُّ هَزِيمٌ والرِّمَاحُ دَوَانِ

نجى معاويةَ بن صخر (أبي سفيان) بن حرب سابح، فرس سريع، ذو علالة، ذو جري شديد، أجش هزيم، ذو صهيل عالٍ، والرماح قريبة منه

وما دُفِنَتْ قَتْلَى سُلَيْمٍ وعَامِرٍ   بِصِفِّينَ حتى حُكِّمَ الحَكَمانِ

١٣ الأبعدون أولى بالمعروف

الحارث بن كَلَدَة الثَّقفي:

وفي الناسِ مَنْ يَغْشَى الأَبَاعِدَ نَفْعُهُ   ويَشْقَى بهِ حتى المَمَاتِ أَقَارِبُهْ

يغشى الأباعد نفعه: يأتيهم

فإنْ يَكُ خَيْراً فَالبَعِيدُ يَنالُهُ   وإنْ يَكُ شَرّاً فَابْنُ عَمِّكَ صَاحِبُهْ

١٤ انهيار بيتين

جليلة بنت مرة، أخت جساس، وامرأة كليب، وقد قتل أخوها جساس زوجها كليباً:

يا ابْنَةَ الأَقْوامِ إنْ لُمْتِ فَلا   تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حتى تَسْأَلِي

تخاطب رفيقة لها: إن لمتني فلا تتعجلي..

فإذا أنتِ تَبَيَّنْتِ الذي   يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلُومِي واعْذُلِي

جَلَّ عِنْدِي فِعْلُ جَسَّاسٍ فَيَا   حَسْرَتِي عَمَّا انْجَلَتْ أو تَنْجَلِي

كان ما فعله أخي جساس خطيراً فيا لحسرتي عما انجلت وستنجلي عنه فعلته، أي الويل لي من النتائج

فِعْلُ جَسَّاسٍ، على وَجْدِي بِهِ،   قَاطِعٌ ظَهْرِي ومُدْنٍ أَجَلِي

رغم حبي لجساس ففعله سيقطع ظهري، سيزعزع ما أحتمي به، ويقرب موتي

لو بِعَيْنٍ فُقِئَتْ عَيْنِي سِوَى   أُخْتِها فَانْفَقَأَتْ لم أَحْفِلِ

كأن عيني فقئت بالعين الأخرى.. فكلا الطرفين لي به صلة وثيقة

يا قَتِيلاً قَوَّضَتْ صَرْعَتُهُ   سَقْفَ بَيْتَيَّ جميعاً مِنْ عَلِ

يا قتيلاً، يا زوجي كليب الذي قتله أخي جساس، لقد قوضت صرعته، هدم موته، كلا بيتيَّ من الأعلى للأسفل: بيت أهلي وبيت زوجي

قَوَّضَتْ بَيْتِي الذي استَحْدَثْتُهُ   وانْثَنَتْ في هَدْمِ بَيْتِي الأَوَّلِ

لَـيْـتَـهُ كـان دَمـيِ فـاحْـتَـلَـبُـوا دَرَكـاً مـنـهُ دَمـيِ مِـنْ أَكْـحَـلـي
ليت الدم الذي أريق كان دمي فاحتلبوا، أسالوا، دركاً منه، سيلاً متتابعاً، من أكحلي، الوريد في ذراعي

خَـصَّـنـي قَـتْـلُ كُـلَـيْـبٍ بِـلَـظَـىً مِـنْ وَرِائـي ولَـظَـىً مُـسْـتَـقْـبِـلـي
اللظى: اللهيب

دَرَكُ الـثَّـائِـرِ يَـشْـفـيِـهِ، وفـي دَرَكـي ثَـأْرِيَ ثُـكْـلُ الـمُـثْـكِـلِ
إدراك الثائر، طالب الثأر، لثأره يشفي قلبه، وإدراكي ثأري يثكلني

إنَّــنـي قَـاتِـلَـةٌ مَـقْـتُـولَـةٌ ولَـعَـلَّ الـلَّـهَ أنْ يَـرتَـاحَ لـيِ

١٥ ثقَّاب الأعين

مِحْصَن بن كِنان القُريعي، وأصاب عينَه ماء:

لقَدْ طُفْتُ شَرْقِيَّ البِلادِ وغَرْبَها أُسائِلُ عن ذي الطِّبِّ والمُتَطَبِّبِ
يَقولونَ إسْماعيلُ ثَقَّابُ أعْيُنٍ وما خيرُ عَيْنٍ بعدَ ثَقْبٍ بِمِثْقَبِ
ثقاب الأعين: الطبيب الذي يزيل ماء يطرأ على العين

يَقولونُ ماءٌ طَيِّبٌ خَانَ عَيْنَهُ ومَا مَاءُ عَيْنٍ خَانَ عَيْناً بِطَيِّبِ
يقولون للماء الأبيض الذي يُغَشّي العين «ماء طيب خان العين».. وليس بطيب إن كان يخونها

جَرى فوقَ إنْسَانَيْهِمَا فكأنَّما جَرى فوق إنْسَانَيْهِمَا ماءُ طُحْلُبِ
على عينيه غشاوة فكأن بهما ماء مكدراً بالطحلب

١٦ قاسمني دهري

قال الشاعر ومات بنوه:

أَسُكَّانَ بَطْنِ الأَرضِ لو يُقْبَلُ الفِدَا فَدَيْنا وأَعْطَيْنا بِكُمْ سَاكِنَ الظَّهْرِ
أيها الموتى لو كان يقبل أن نفتديكم بأنفسنا لفعلنا

أَلَا لَيْتَ مَنْ فيها عليْها، ولَيْتَ مَنْ عليْها ثَوَى فيها إلى آخِرِ الدهرِ
ثوى: مكث

وقَاسَمَني دهرِي بَنِيَّ بِشَطْرِهِ فَلَمَّا تَقَضَّى شَطْرُهُ عَادَ في شَطْرِي
قاسمني الزمن أولادي، فأخذ نصفاً وأبقى لي نصفاً، ثم عاد ليأخذ نصفي أنا

كَأَنَّهُمُ لـم يَعْرِفِ الـموتُ غيرَهُـمْ فَثُكْـلٌ إلـى ثُكْـلٍ وقَـبرٌ إلـى قَـبرِ

١٧ مصبح أو ممسٍ

أبو عَدَّاس النَّمَريّ:

لَعَمْرُكَ ما نَدري أفي اليومِ أو غَدٍ نُـنَـادَى إلـى آجـالِـنـا فَـنُـجِـيـبُ

١٨ رجعت عنك

لو كـنـتُ أَصْبِرُ أن أرَى أَثَرَ البِلَى لَـتَرَكْـتُ وَجْهَـكَ ضَـاحِيـاً لـم يُقْبَرِ

لو صبرت على رؤية أثر البلى، تفتت الجسم بعد الموت، لتركت وجهكَ ضاحياً، بارزاً للشمس ولم أدفنه

بِأَبي بَذْلْتُـكَ بعـدَ صَوْنٍ لِلْبِلَـى ورَجَعْتُ عنك، صَبَرْتُ أم لـم أَصْبِرِ

أفديك بأبي يا من بذلتك، سمحت بك، بعد أن كنت أصونك، فتركت البلى يحل بك، ورجعت بعد دفنك. ولا يهم بعد ذلك أصبرت أم لم أصبر

١٩ أيا شجر الخابور!

قالت الفارعة بنت طريف، ترثي أخاها الوليد بن طريف الشيباني الشاري:

ألا يـا لَـقـوم لِـلـحِـمـامِ ولِـلـرَّدَى ودهـرٍ مُـلِـحٍّ بِـالـكـرامِ عَـنـيـفِ

يا لقومي، تستغيث بهم، ما هذا الموت وما هذا الدهر الملح في ملاحقته للكرام، العنيف بهم!

أَيَا شجرَ الخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقاً كـأَنَّكَ لـم تجزعْ على ابنِ طَرِيفِ

تخاطب شجر الخابور: ما لك قد أورقت؟ ألم تجزع على أخي ابن طريف؟

فتىً لا يُحِبُّ الزَّادَ إلَّا مِنَ التُّقَى ولا الـمـالَ إلَّا مِـنْ قَـنـاً وسُـيـوفِ

كان لا يأكل الطعام إلا بعد أن يتقي الذم بإطعام العشيرة، وكان لا يحصل على المال، أي الإبل، إلا برمحه وسيفه، والغزو عند العرب واستياق الإبل أمر محمود.. هو طريقتهم في توزيع الثروة ولا سيما أيام القحط

بِـتَـلِّ نُـبَـاثَـى رَسْـمُ قـبـرٍ كـأَنَّـهُ عـلى جبلٍ فوق الجبـالِ مُـنِـيـفِ

في ذلك الموضع طلل قبر، ولجلالة قدر دفينه فكأنه جبل منيف، مشرف عالٍ

تَـضَـمَّـنَ سَـرْوَاً حـاتِـمـيَّـاً وسُـؤْدَداً وسَـوْرَةَ ضِـرْغـامٍ وقـلـبَ حَـصـيـفِ

تضمن القبر سرواً، سيادةً وعزاً، وسخاء حاتمياً، وسورة ضرغام، هجمة أسد، وقلب رجل حصيف، حكيم

فـإن كـان أَرداهُ يَـزيـدُ بـنُ مَـزْيَـدٍ   فَـرُبَّ زُحُـوفٍ فَـلَّـهـا بِـزُحُـوفِ
لئن كان قتله يزيد بن مزيد فلقد كان أخي في حياته يفل، يفرق، الزحوف المهاجمة بزحوف مثلها

فـقـدنَـاكَ فِـقْـدانَ الـربـيـعِ، ولـيـتَـنـا   فـديْـنـاكَ مِـنْ دَهـمـائِـنـا بِـأُلُـوفِ

فقدنا بك الربيع والخير، وليتنا فديناك بألوف الناس العاديين

فلا تَجْزَعا يا ابْنَيْ طَرِيفٍ فإنَّني   أرى المـوتَ حَلَّالاً بِكلِّ شريفِ

٢٠ التفسخ

قال أعرابي يرثي ابنه:

يـا دارُ بِـالـقَـفْـرِ الـيَـبـابِ   والـمـنـزِلِ الـوَحْـشِ الـخَـرابِ
أيها الدار بالفلاة المقفرة، وأيها المنزل الموحش المهدم..

بِـيَـديَّ فـيـكِ دَفَـنْـتُ نَـصْـ   ـراً بـيـن أَطـبـاقِ الـتـرابِ
دَارَ الـبِـلَـى بِـالـلَّـهِ قُـو   لِـي، لا تَـصَـمِّـي عـن جَـوابـي
يا دار البلى، والبلى تفتت الجسم بعد الموت، لا تصمي، لا تغلقي أذنيك عن سؤالي وأجيبي..

مـاذا فـعـلْـتِ بِـوجـهِـهِ   وبِـسِـنِّـهِ الـغُـرِّ الـعِـذابِ؟
ماذا فعلت بوجهه وبأسنانه الغر، أي البيض، العذبة؟

قـالـتْ لـنـا دارُ الـبِـلَـى   والـدارُ تـنـطِـقُ بِـالـصَّـوابِ:
يقول القبر:

أَوَمَـا عـلـمـتَ بِـأنَّ نـصـ   ـراً يـا أبـا نَـصْـرٍ ثَـوَى بـي
نصر، يا أبا نصر ثوى، أي أقام، بي..

فَـكَـسَـوْتُـهُ ثـوبَ الـبِـلَـى   وسَـلَـبْـتُـهُ جُـدُدَ الـثـيـابِ
كسوته ثوب الاهتراء.. وسلبته الثياب الجديدة، أي لحمه

ومَـحَـوْتُ غُـرَّةَ وَجْـهِـهِ   بِـالـتُّـرْبِ مَـحْـوَكَ لِـلْـكـتـابِ
محوت وجهه الأغر الأبيض بالتراب مثلما يمحو المرء الكتابة، وكانوا يكتبون على الجلد، فإن شاءوا غسلوا الكتابة

فـلـو اسْـتَـبَـنْـتَ رُوَاءَهُ   بـعـدَ الـغَـضَـارَةِ والـشـبـابِ..
لو رأيت رواءه، منظره، بعد أن كان في غضارته، نضارته، وشبابه..

لَـعَـضَـضْـتَ أَطْـرَافَ الـبَـنـا نِ لِـطُـولِ حُـزْنٍ واكـتـئـابِ

لعضضت أصابعك حزناً

ورأيـتَ أَشـنَـعَ مـنـظـرٍ ولَـدَرَّ دمـعُـكَ بِـانـسـكـابِ

فـإِلـيْـكَ رَبِّـي الـمُـشْـتَـكَـى فَـأَعِـنْ بِـصـبْـرٍ واحـتِـسَـابِ

أعنِّي يا رب بالصبر واحتسب لي أجراً على هذا الصبر

٢١ قبل الرحيل

لَبيد بن ربيعة:

تَـمَـنَّـى ابْـنَـتَـايَ أن يَـعيـشَ أبُـوهُـمـا وما أنَـا إلّا مِـنْ رَبـيـعَـةَ أو مُـضَـرْ

تتمنى ابنتاي أن أعيش.. ولكنني إنسان كالناس من قبائل ربيعة أو مضر.. وسأموت

فقُومَا فقُولا بِالذي قد عَلِمْتُما فلا تَخْمِشَا وجهاً ولا تَحْلِقَا شَعَرْ

فإن مت فقوما بما يجب عليكما، ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعراً

وقُولا: هُوَ المَيْتُ الذي لا صَديقَهُ أَضَاعَ، ولا خانَ الخَليلَ ولا غَدَرْ

واذكرا محاسني فأنا لم أتخل عن صديق، ولا خنت ولا غدرت

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسْمُ السَّلامِ عليْكُما ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقدِ اعْتَذَرْ

وليكن الحداد إلى الحول، أي سنة، ثم انتهى الأمر، ومن بكى سنة فقد اعتذر، أي وفى وقام بالواجب

٢٢ موعد المغادرة

عَبْدَة بن الطبيب:

إذا الـرجـالُ وَلَـدَتْ أولادُهـا..

إذا صار للرجال أحفاد

واضْـطَـرَبَـتْ مِـنْ كِـبَـرٍ أَعْـضَـادُهـا..

واضطربت من الشيخوخة الأعضاد، العضد أعلى الذراع

وجَـعَـلَـتْ أَسْـقـامُـهـا تَـعْـتَـادُهـا..

وأخذت أمراضها القديمة تعود إليها

فَـهْـيَ زُرُوعٌ قـد دَنـا حَـصـادُهـا

إذا اجتمعت هذه الشروط في الرجال فهم كالزروع التي نضجت وحان حصادها، أي موتهم

٢٣ أفدح منك؟ لا

قال العتبي:

وكـنـتُ أبـا سِـتَّـةٍ كـالـبُـدو ... رِ، قـد فَـقَـأُوا أعـيُـنَ الـحَـاسِـدِيـنـا

كنت والد ستة من الشبان كأنهم البدور يفقأون عين الحاسد

فَـمَـرُّوا عـلـى حَـادثـاتِ الـزَّمـانِ ... كَـمَـرِّ الـدَّراهِـمِ بِـالـنَّـاقِـدِيـنـا

فمر أبنائي على مصائب الزمن مثلما تمر الدراهم بيد الصرافين الناقدين، الذين يختبرون صحة الدراهم

وحَـسْـبُـكَ مِـنْ حـادثٍ بِـامْـرِئٍ ... تَـرى حَـاسِـدِيـهِ لـه رَاحِـمِـيـنـا

يكفيك أن هذا الحادث جعل من يحسدونني يرحمونني، أي يشعرون بالشفقة عليَّ

٢٤ عفاف

حَوَيْتُ صُنوفَ المالِ مِنْ كلِّ وِجْهَةٍ ... فـمـا نِـلْـتُـهـا إلَّا بِـكَـفٍّ كَـريـمِ

وإِنّـِي لأَرْجُو أن أموتَ وتَنْقَضي ... حَـيـاتـي ومـا عِـنـدي يَـدٌ لِـلَـئـيـمِ

٢٥ على قطع رقبتي

أبو مِحْجن الثقفي:

وقـد أَجُـودُ ومَـا مـالـي بِـذِي فَـنَـعٍ ... وأَكْـتُـمُ الـسِّـرَّ فـيـهِ ضَـرْبَـةُ الـعُـنُـقِ

«قد» أسخو بمالي، أي بالتأكيد أنا أسخو بمالي، ـ و«قد» هنا للتوكيد لا للشك وهذا أسلوب قديم ـ ومالي ليس بذي فنع، ليس بذي كثرة، وأكتم السر على قطع رقبتي

٢٦ ويبك!

قال أعرابي نزل بيحيى بن جبريل فأتاه بشراب:

أَتَانيِ بِها يَحيَى وقد نامَ صُحْبَتي ... وقد غابتِ الجَوْزاءُ وانْغَمَسَ النَّسْرُ

جاءني يحيى بالخمر وقد نام أصحابي وغابت أنجم الجوزاء والنسر

فقلتُ: اصْطَبِحْها، أو لِغَيري فأَهْدِها ... فما أنَا بعدَ الشَّيْبِ وَيْبَكَ والخَمْرُ

قلت له اصطبحها، اشربها صباحاً، أو أعطها لغيري، فما شأني ويبك، أي ويحك، والخمر بعد أن شبت!

٢٧ كل من عليها..

أَلَم تَرَ حَوْشَباً يَبْنِي قُصوراً   يُرَجِّي نَفْعَها لِبَنِي بُقَيْلَةْ
يُؤَمِّلُ أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ   وأَمْرُ اللَّهِ يحدُثُ كلَّ لَيْلَةْ

٢٨ برود

قال عبد العزيز بن زرارة:

كُلّاً لَبِسْتُ فلا النَّعماءُ تُبطِرني   ولا تَخَشَّعْتُ مِنْ لَأْوَائِها جَزَعا

جربت كل شيء فلبست النعماء، تمتعت بالغنى، فما بطرت، ولا تخشعت، أي خضعت، من لأولاء الدنيا، أي مصائبها، جازعاً

لا يَمْلأُ الهمُّ صَدري قبلَ مَوْقِعِهِ   ولا يَضيقُ بهِ صَدري إذا وَقَعا

لا أحمل الهم قبل وقوع المصيبة، فإن وقعت صبرت

٢٩ صخرة ليست بصخرة

ضَعِ السِّرَّ في صَمَّاءَ ليسَتْ بِصخْرةٍ   صَلُودٍ كَما عَايَنْتَ مِنْ سَائِرِ الصَّخْرِ

ضع سرك يا صاحبي في صماء، مصمتة صلبة، لكنها ليست صخرة صلوداً، صلبة مثل بقية الصخور التي رأيتها

ولكنَّها قَلْبُ امْرِئٍ ذي حَفيظَةٍ   يَرى أنَّ بَثَّ السِّرِّ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

لكنها صخرة قلبي ذي الحفيظة، الشرف، وهو قلب رجل يرى أن إفشاء الأسرار يقصم ظهر السمعة الطيبة

٣٠ شروط الصحبة

قال مطيع بن إياس:

إنَّما صَاحِبي الذي يَغْفِرُ الذنـ   ـبَ، ويَكْفيهِ مِنْ أَخيهِ أَقَلُّهْ

صاحبي الحقيقي هو الذي يغفر ذنبي، ولا يطلب الكثير

ليس مَنْ يُظْهِرُ المودَّةَ إفْكاً   وإذا قالَ خالفَ القولَ فِعْلُهْ

ليس صاحبي من يظهر المودة إفكاً، أي كذباً، ويخالف فعله قوله

وَصْلُهُ للصديقِ يَوْمٌ وإن طا   لَ فَيَوْمَانِ، ثم يَنْبَتُّ حَبْلُهْ

هذا الأخير وصله لصديقه يوم، وعلى الأكثر يومان، ثم ينبت، أي ينقطع، حبل العلاقة

٣١ شروط الزوج

قال شُريح القاضي:

خُذي العَفْوَ مِنّي تَسْتَديمي مَوَدَّتي ولا تَنطِقي في سَوْرَتي حينَ أَغْضَبُ

خذي العفو مني، أي ما سمحت به عن طيب خاطر، ففي هذا استدامة المودة، ولا تجادليني في سورة الغضب، في شدته

فإنّي رأيتُ الحُبَّ في القلبِ والأَسَى إذا اجتَمَعا لم يَلْبَثِ الحبُّ يَذْهَبُ

إذا اجتمع الحب والأسى، أي النكد، في القلب خرج الحب

٣٢ «تقبريني» وأقبرك

ولو أنّني إذْ حانَ وقتُ حِمامِها أُحَكَّمُ في عُمْرِي لَقاسَمْتُها عُمْري

لو أنني إذ حان حمامها، موتها، أحكَّم في عمري لأعطيتها نصفه

فَحَلَّ بِنَا الفِقْدانُ في ساعةٍ معاً فمُتُّ ولا تَدْري ومَاتَتْ ولا أَدْري

فمتنا معاً فلم يدر أحدنا بموت الآخر

٣٣ عندما سالت الأباطح

قال الشاعر، ونسب البيتان المشهوران لكثيرين:

ولَمّا قَضَيْنا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجَةٍ ومَسَّحَ بِالأَرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

بعد أن قضينا حاجتنا من منىً وقمنا بالشعائر، ولمسنا أركان بيت الله

أخذْنا بِأطْرافِ الأَحاديثِ بيْنَنا وسَالتْ بِأَعناقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وسالت أباطح مكة، سهولها حيث مسايل الماء، بأعناق الإبل التي كنا نركبها.. هؤلاء انصرفوا من حجهم وأخذوا يتحدثون وهم على ظهور الإبل وقد سالت سهول مكة ـ ليس بسيول الماء بل بأعناق الإبل ـ.. ظلم النقاد القدامى هذا البيت. عرفوا له لذة في آذانهم وقلوبهم، ولكنهم راحوا يفتشون تحته عن معنى جليل فلم يجدوا. حسْبهم ما فيه من صورة حلوة، وحسبهم ما فيه من شعور جميل.. شعور الوناسة

٣٤ الباكون حول المعاصر

أبو مِحْجن الثقفي:

صبرتُ ولم أَجْزَعْ وقد ماتَ إخوَتي ولستُ عنِ الصَّهْباءِ يوماً بِصابِرِ

عندما مات إخوتي صبرت ولم أجزع، ولكنني لا أصبر عن الخمر

رَماها أميرُ المؤمنينَ بِحَتْفِها   فَشُرَّابُها يَبكُونَ حولَ المَعَاصِرِ

منعها أمير المؤمنين، فكأنه قتلها، فالشاربون يبكون حول معاصرها حزناً

٣٥ النعسانة

عدي بن الرقاع العاملي:

لولا الحَياءُ وأنَّ رأْسِيَ قد عَسَا   فيهِ المَشيبُ لَزُرْتُ أمَّ القَاسِمِ

لولا الحياء وأن رأسي عسا فيه المشيب، انتشر واستقر لزرت المحبوبة

وكأنَّها بينَ النِّساءِ أَعَارَها   عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ

كأن جؤذراً، بقرة وحش، أحور، ذا عينين اشتد سوادهما في بياضهما، من جآذر قرية جاسم بالشام قد أعارها عينيه

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ   في عينِه سِنَةٌ وليسَ بِنائِمِ

هذا الجؤذر وسنان، نعسان، أقصده النعاس، أي كسر من حدته، فرنقت، أي طافت، في عينه سنة من النوم لكنه غير نائم.. يصف العيون الناعسة

يَصْطَادُ يَقْظَانَ الرجالِ حديثُها   وتَطيرُ بَهجتُها بِرُوحِ الحَالِمِ

تصطاد هذه الفتاة الرجل في يقظته بحديثها، وبهجتها تطير بروح الحالم، أي الذي يحلم بها ويأتيه طيفها في المنام

٣٦ خوش تشبيه

كثير عزة:

أَلا إنَّما ليلى عَصا خَيْزُرَانَةٍ   إذا لَمَسُوهَا بِالأَكُفِّ تَلِينُ

٣٧ زمن خارج الزمن

أبو الدلهات:

أَلَمْ تَرَني على كَسَلي وفَتْرِي   أَجَبْتُ أَبا حُذَيْفَةَ إذْ دَعاني

رغم كسلي أجبت دعوة أبي حذيفة

وكنتُ إذا دُعِيتُ إلى نبيذٍ   أجبْتُ ولم يكنْ مِنِّي تَوانِ

فأنا إن دعيت إلى نبيذ أجبت بلا توانٍ، ولا إبطاء

كأنَّا مِنْ بَشاشَتِنا ظَلِلْنا   بِيَوْمٍ ليسَ مِنْ هذا الزمانِ

هذا بيت القصيد

٣٨ الفاتنة الشاطرة

دُرَيْد بن الصِّمَّة:

حَـيُّـوا أُمَـامَـةَ وانـظُـروا صَـحْـبـي ... وقِـفُـوا فـإنَّ وُقُـوفَـكُـمْ حَـسْـبـي

حيوا أمامة ويكفيني وقوفكم على محلتها، وقيل إنه يتغزل في هذه الأبيات بالخنساء واسمها تماضر، فما الذي جعلها أمامة؟

مـا إن رأَيْـتُ ولا سـمـعـتُ بـه ... كـالـيـومِ طَـالِـيَ أَيْـنُـقٍ جُـرْبِ

ما أحسن هذا الذي يطلي النياق الجرب..

مُـتَـبَـذِّلاً تَـبْـدُو مَـحَـاسِـنُـهُ ... يَـضَـعُ الـهِـنَـاءَ مَـواضِـعَ الـنُّـقْـبِ

هذا الحبيب، ويقصد هي، يلبس لباس التبذل، لباس العمل، ومحاسنه بادية، ويضع الهناء، القطران، مواضع النقب، في الأماكن التي فيها جرب. هذا افتتان كافتتان الناس بفيديو كليب نانسي عجرم وقد قعدت لجرن الغسيل بجلابيتها المشهورة

٣٩ مع نفسه

قال الخاركي:

لـم أَجِـدْ فـيـمـا تَـصَـرَّفْـ ... ـتُ عـلـى الـكـأُسِ كَـريـمـا

فيما تصرفت في هذه الدنيا وجربت لم أجد رجلاً كريم الأخلاق في جلسة شراب

كـلُّ مَـنْ كَـشَّـفْـتُـهُ أَلْـ ... ـفَـيْـتُـهُ خَـبَّـاً لَـئـيـمـا

كلهم خادعون لئام

فـاصْـطَـفَـيْـتُ الـكـأْسَ نَـدْمَـا ... نـاً وأَقْـصَـيْـتُ الـنَّـديـمـا

فاخترت الكأس نفسها ندماناً، أي نديماً، وأبعدت البشر

٤٠ يسقط العدل

النجاشي الحارثي:

إذا الـلَّـهُ عَـادَى أَهْـلَ لُـؤْمٍ ودِقَّـةٍ ... فَعَادَى بَنِي العَجْلانِ رَهْطَ ابنِ مُقْبِلِ

الدقة: ضعف الأصل وانحطاط المنزلة

قُـبَـيِّـلَـةٌ لا يَـغْـدِرُونَ بِـذِمَّـةٍ ... ولا يَـظْـلِـمُـونَ الـنـاسَ حَبَّـةَ خَرْدَلِ

هذه القبيلة ضعيفة فلا تستطيع أن تغدر بالذمة، العهد، وهي لا تظلم أحداً شيئاً ولو كان صغيراً كحبة الخردل

ولا يَـرِدُونَ الـمـاءَ إلَّا عَـشِـيَّـةً إذا صـدرَ الـوُرَّادُ عـن كـلِّ مَـنْـهَـلِ

ولضعفها ولأنها لا تستطيع المزاحمة لا تورد إبلها الماء إلا ليلاً بعد أن يصدر الوراد، يرجع الواردون، عن كل منهل، حوض

وما سُـمِّيَ الـعَـجْلانَ إلَّا لِقَـوْلِـهِـمْ خُذِ القَعْبَ واحْلُبْ أَيُّها العبدُ واعْجَلِ

سمي جدهم العجلان لقول الناس له: خذ القعب، أي العلبة أو العس الذي يحلبون به، واحلب النياق وأسرع

٤١ سأقول

قال قَعْنب بن أم صاحب:

أتـيـتُ الـولـيـدَ فـأَلْـفَـيْـتُـهُ كـمـا قـد يـقـالُ غـنـيَّـاً بَـخـيـلا
فـإن تَـمـنَـعُـوا مـا بِـأَيْـدِيـكُـمُ فـلـن تـمـنَـعُـونـي إذنْ أن أَقُـولا

٤٢ آخر آخر

زياد الأعجم:

قَضَى اللّهُ خَلْقَ الناسِ ثم خُلِقْتُمُ بَـقِـيَّـةَ خـلـقِ الـلَّـهِ آخِـرَ آخِـرِ
ولو رَدَّ أهلُ الحقِّ مَنْ ماتَ مِنْكُمُ إلى حَقِّهِمْ لـم تُدْفَنُوا في الـمقـابِرِ

أنتم دون البشر وليس من الحق أن تدفنوا في مقابر الناس

٤٣ الزاحفون إلى بيوتهم

أَضَـلَّ الـلَّـهُ سَـعْـيَ بَـنـي جَـدِيـعٍ ولـيـس لِـمَـا أَضَـلَّ الـلَّـهُ هَـادِ
إذا دَخَـلُـوا بُـيـوتَـهُـمُ أَكَـبُّـوا على الـرُّكُـباتِ مِنْ قِـصَـرِ العِـمَـادِ

بنو جديع فقراء وبيوتهم، أي خيامهم، صغيرة ذات أعمدة قصيرة، فإذا دخلوها أكبوا على الركبات، بركوا على ركبهم كي يزحفوا زحفاً للدخول

٤٤ من أبو بيض؟

أبو الحويرث السُّحيمي يهجو حمزة بن بِيض:

أنتَ ابْنُ بِيضٍ لَعَمْري لَسْتُ أُنْكِرُهُ حقّاً يَقِيناً، ولكنْ مَنْ أَبُو بِيضٍ؟

أنت ابن بيض، وهذا معروف، ولكن من هو جدك؟ فأنت غير ذي نسب معروف

٤٥ نسب بلا فعل

خلف الأحمر:

أُنَـاسٌ تـائِـهـونَ لَـهُـمْ رُواءٌ   تَـغـيـمُ سَمَاؤُهُمْ مِنْ غيرِ وَبْلِ

أناس تائهون في منزلتهم الاجتماعية: لهم هيئة حسنة، ولكن دون أن يعني ذلك أن لهم فضلاً على الناس، فهم مثل السماء تغيم ولا تمطر

إذا انـتَسـبُوا فَـفَـرْعٌ مِـنْ قُـريْـشٍ   ولـكـنَّ الـفِـعـالَ فِـعـالُ عُـكْـلِ

نسبتهم إلى قريش ولكن أفعالهم أفعال قبيلة عكل غير ذات السمعة

٤٦ خانق الكلب

أَلَا قَـبَّـحَ الـلَّـهُ الـحُـطَـيْـئَـةَ إِنَّـهُ   على كلِّ ضَيْفٍ ضَافَهُ فَهْوَ سَالِحُ

سالح: متغوط

دُفِعْتُ إِلَيْهِ وَهْوَ يَخْنُقُ كلبَهُ   أَلَا كلُّ كَلْبٍ لا أَبَا لَكَ نَابِحُ

جئته مدفوعاً إليه لأنني تائه، فوجدته يخنق كلبه عقاباً له لأنه نبح ودلني على خيمته، وكل كلب نابح فما ذنبه؟

بَكَيْتَ على زادٍ خَبيثٍ قَرَيْتَهُ   كمَا كُلُّ عَبْسِيٍّ على الزَّادِ نَائِحُ

تبكي على الزاد الخبيث الذي قدمته لي، وكذا كل رجل من قبيلة عبس

٤٧ الكف الخشناء

قال فَضالة بن شريك الأسدي:

دعا ابْنُ مُطيعٍ لِلْبِياعِ فَجِئْتُهُ   إلى بَيْعَةٍ قلبي لها غَيْرُ آلِفِ

دعا ابن مطيع، الوالي الذي عينه ابن الزبير، لأخذ البيْعة فجئت وقلبي غير مرتاح لهذه البيعة

فَنَاوَلَني خَشْنَاءَ لَمَّا لَمسْتُها   بِكَفِّيَ لَيْسَتْ مِنْ أَكُفِّ الخَلَائِفِ

ناولني كفاً خشنة شعرت أنها ليست كفاً لائقة بخليفة

٤٨ الأم وابنتها الزائرة

قال الأُقَيْبل القيني، وتروى لنصيب:

لِعَبْدِ العزيزِ على قومِهِ   وغيرِهِمُ نِعَمٌ غَامِرَةْ

فَـبَـابُـكَ أَلْـيَـنُ أَبْـوابِـهِـمْ ... ودَارُكَ مَـأْهُـولَـةٌ عَـامِـرَةْ

بابك ألين من أبواب قومك، أي أن حاجبك سهل يُدخل الناس عليك، ودارك عامرة بالزائرين

وكـلـبُـكَ آنَـسُ بِـالـمُـعْـتَـفِـيـنَ ... مِـنَ الأُمِّ بِـابْـنَـتِـهـا الـزَّائِـرَةْ

وكلبك أكثر أنساً وارتياحاً بالمعتفين، الفقراء، لكثرة ما يأتيك الفقراء، من الأم بابنتها المتزوجة إذا جاءت تزورها

وكَـفُّـكَ حـيـنَ تَـرى الـزَّائِـريـ ... ـنَ أَنْـدَى مِـنَ الـلـيـلـةِ الـمـاطِـرَةْ

أندى: أسخى

فـمِـنْـكَ الـعَـطـاءُ ومِـنَّـا الـثَّـنـاءُ ... بِـكُـلِّ مُـحَـبَّـرَةٍ سَـائِـرَةْ

المحبرة السائرة: القصيدة المتقنة التي تذيع

٤٩ وجه الكريم خصيب

الخريمي:

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قبلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... ويُخْصِبُ عِندي والمَحَلُّ جَديبُ

أنا بشوش في وجه ضيفي قبل أن ينزل رحله عن جمله، وهو يشعر عندي أن الموسم موسم خصب لوفرة ما أقدم له، حتى لو كنا في زمن القحط

ومَا الخِصْبُ لِلأَضْيافِ أن يَكْثُرَ القِرَى ... ولـكـنَّـمـا وَجْـهُ الـكـريـمِ خَـصِـيـبُ

والخصب للضيف ليس بكثرة القرى، طعام الضيف، بل بالبشاشة وحسن الاستقبال

٥٠ الداء موجود دائماً

حُميد بن ثور:

أَرَى بَصَري قد رَابَني بعدَ صِحَّةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أن تَصِحَّ وتَسْلَمـا

بصري ضعف، وصرت أشك في الأشياء، بعد أن كان صحيحاً. والصحة نفسها داء لأنك تعلم أنها لا تدوم

ولن يَلْبَثَ العَصْرانِ: يَومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبـا أن يُدْرِكَا ما تَيَمَّمَـا

العصران، أي النهار والليل، لا يلبثان أن يدركا طلبهما الذي هو إزالتك عن هذه الدنيا

٥١ الحبَل بلا دنس

ولِي نَظْرَةٌ، إن كانَ يُحْبِلُ نَاظِرٌ ... بِنَظْرَتِهِ أُنْثَى لقد حَبِلَتْ مِنِّي

لي نظرٌ عارمٌ وتحديق في المرأة، ولو كانت تحبل من النظر لقد حبلت مني

فإنْ وَلَدَتْ مَا بينَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ   فَأُشْهِدُكُمْ أنَّ الذي وَلَدَتْهُ ابْني

فإن ولدت بعد تسعة أشهر من هذا التحديق فاشهدوا أنه ابني

٥٢ المرأة حوضاً

وَصَلْتُكِ لَمَّا كانَ لي فيكِ رَغبَةٌ   وأَعْرَضْتُ لَمَّا صِرْتِ نَهْباً مُقَسَّما

وصلتك ونشأت بيننا علاقة لما كانت لي فيك رغبة، وتركتك عندما رأيتك نهباً مقسماً، لك علاقات مع هذا وذاك

ولا يَلْبَثُ الحَوْضُ الجَديدُ بِناؤُهُ   على كَثْرَةِ الوُرَّادِ أن يَتَهَدَّما

حوض الماء الجديد يكثر الواردون عليه فيتهدم

الوحشيات

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

قصائد مشهورات

لمَّا فرغتُ من اختيار أعذب الشعر لعشرة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي، أحسست أنني مقصر. ذلك أن هذا العصر الذي يمتد نحو ثلاثة قرون، والذي اتخذه كل الشعراء فيما بعد مقياساً في اللغة وفي صنعة الشعر، حافل بالشعراء الذين عرفنا لهم قصائد قليلة أو دواوين صغيرة. كان الشعر في هذه القرون الثلاثة بريئاً، يقوله شعراء كثر تنبض قلوبهم بالحزن والغضب والحقد والحب والعصبية القبلية، إلى جانب بعض الشعراء الذين صنفهم أهل النقد «عبيد شعر» يقولونه صناعة وتكسباً.

وجدت شعرائي العشرة الكبار المشهورين عبيد شعر، قالوا كثيراً وأخذت منهم كثيراً، ثم عز عليَّ أن أترك مئات الشعراء الآخرين وما قالوه من بديع الشعر دون أن أدخله في مجموعتي هذه.

قد بدأت أنظر إلى مجموعتي نظرة مختلفة في الواقع. فهي ليست «عرْضاً» لكبار شعراء العصر الأول من عصور الشعر العربي. بل هي تمثيل لشعر هذا العصر. بدأت أزيد من اهتمامي بهذا العصر من حيث هو العصر المؤسِّس لتقليد شعري امتد ألفاً وخمسمئة سنة.

لذا انصرفت بعد الشعراء العشرة الكبار إلى المجموعات الشعرية التي لملمت أشعار المغمورين، فنخلت لك المفضليات والأصمعيات والحماسة والوحشيات، ولم أنس استيفاء المعلقات، فلئن كان أربعة من شعرائي هم من أصحاب المعلقات فإن ست معلقات أخرى تستحق أن تدخل ضمن «أول الشعر».

ثم بعد أن فرغت من كل هذا رأيت بعض القصائد المشهورة قد أفلتت، فها أنا في هذا القسم أتعقبها مختاراً من أبياتها ما طاب لي. فليس معقولاً أن

أطوي هذا العمل دون أن أتعرض للامية العرب للشنفرى، ولبانت سعاد لكعب بن زهير، ولنونية عروة بن حزام.

فهل نسيت بعدُ شيئاً؟ بالتأكيد نسيت، وأغفلت أيضاً، وغفِلت.

فإن طلبت قصيدة من قصائد هذا العصر الطويل ولم تجد لها عندي ذكراً فاعلم أن هذا الكتاب أراد أن يمثل العصر ولم يطمح إلى الإحاطة.

١ الشَّنْفَرَى، وهذه لاميَّة العرب

أَقِيمُوا بَني أُمِّي صُدورَ مَطِيِّكُمْ   فَإنِّي إلى قومٍ سِواكُمْ لَأَمْيَلُ

يا بني أمي، يا إخوتي الصعاليك، لتقم إبلكم من مباركها ولترتفع صدورها، استعداداً للرحيل ولنذهب من هنا، وأنا مائل إلى الإقامة مع غيركم أكثر مما أنا مائل إليكم.. علينا أن نفترق

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ واللَّيلُ مُقْمِرٌ   وشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطايَا وأَرْحُلُ

فقد حمت الحاجات، آن أوانها، وها هو الليل مقمر ومناسب للسير، وقد شدت للطيات، للحاجات، الرحال على المطايا، الإبل

وفي الأرضِ مَنْأىً لِلكريمِ عن الأذَى   وفيها لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

وفي الأرض الواسعة منأى، مكان بعيد، يرتاده الكريم فاراً من الأذى، وفيها لمن خاف القلى، الاختلاف والتباغض، متعزل، مكان يعتزل المرء فيه

ولِي دونَكُمْ أَهْلُونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ   وأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

وسيصحبني دونكم، بدلاً منكم، أهلٌ آخرون: سيدٌ عملس، أي ذئب سريع، وأرقط زهلول، أي ابن آوى مرقط خفيف، وعرفاء جيأل، أي ضبع ذات عرف عند الرقبة

هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ   لَدَيْهِمْ، ولا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

هؤلاء أهلي الذين يحفظون السر، والذين لا يخذلون الجاني بما جرَّ على نفسه وعليهم من جناية بل ينصرونه ظالماً أو مظلوماً

وكُلٌّ أَبِيٌّ بَاسِلٌ غيرَ أَنَّنِي   إذا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرائِدِ أَبْسَلُ

وكل هذه الوحوش أبية باسلة، شجاعة، ولكنني حين تعرض لنا طريدة، غزال أو نحوه، أبسل منها جميعاً

وإنْ مُدَّتِ الأَيْدي إلى الزَّادِ لم أَكُنْ   بِأَعْجَلِهِمْ إذ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ

إن جاء وقت الطعام فأنا لست أعجل الآكلين فهذا من الجشع

وما ذاكَ إِلَّا بَسْطَةً عن تَفَضُّلٍ   عليْهِمْ، وكان الأفضَلَ المُتَفَضِّلُ

هذا تفضل مني على من آكل معهم

وإنّي كَفاني فَقْدَ مَنْ ليس جَازِياً بِحُسْنَى ولا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ . .

ويكفيني فقد الناس الذين لا يقابلون الحسنى بالحسنى، والذين ليس في قربهم متعلل، فائدة . .

ثَلاثَةُ أصحابٍ: فُؤادٌ مُشَيَّعٌ وأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ، وصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

. . ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع، قلب شجاع، وسيف مصلت مجرد من غمده، وصفراء عيطل، قوس طويلة

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ تَزِينُها رَصَائِعُ قد نِيطَتْ إِليها ومِحْمَلُ

هذه القوس هتوف، لها صوت عند انطلاق السهم منها، وملساء غير ذات عُقَد، ومزينة برصائع نيطت بها، علقت عليها، ومحمل، حبل لتعليقها بالكتف

إذا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كأنَّها مُرَزَّأَةٌ ثَكْلَى تُرِنُّ وتُعْوِلُ

إذا زل عنها السهم، انطلق، أصدرت صوتاً كحنين المرزَّأة الثكلى، الفاقد ولداً، التي ترنُّ وتبكي

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتى أُمِيتَهُ وأَضْرِبُ عنه الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ

يدوم بي الجوع وأماطل نفسي حتى لا أعود أشعر به، وأضرب عنه الذكر، أتناساه، وأذهل عنه، أنساه فعلاً

وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرضِ كَيْلَا يَرى له عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

أستف التراب ولا يرى أحد له علي طوْلاً، معروفاً يمن به

ولولا اجْتِنابُ الذَّامِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ ومَأْكَلُ

لولا أنني أجتنب الذام، العار، لما وجدتَ مأكلاً ولا مشرباً إلا هو عندي

ولَكِنَّ نَفْساً مُرَّةً لا تُقِيمُ بِي على الذَّامِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

ولكن لي نفساً مرة لا تدعني أصبر على العار، بل إنني أتحول سريعاً وأفر منه

وأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوايَا كَمَا انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ

أطوي على الخمص، أمسك بطني بقوة على الجوع . . وكانوا ربما وضعوا حجراً على البطن، الحوايا، أي الأمعاء، مثلما تنطوي خيوط الحائك «ماري» التي تغار، تُفتل

وأَغْدُو على القُوتِ الزَّهِيدِ كَما غَدا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ

وأبكر فأتناول قليلاً من الطعام مثلما يبكر أزل، ذئب هزيل، أطحل، أي داكن اللون، تتقاذفه التنائف، أي الصحارى

غَدا طَاوِياً يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِياً يَخُوتُ بِأَذْنَابِ الشِّعَابِ ويَعْسِلُ

أصبح طاوياً، جائعاً، يستقبل الريح بوجهه هافياً، يتمايل يميناً وشمالاً، ثم يخوت بأذناب الشعاب، يمضي مسرعاً في أطراف الطرق الجبلية، ويعسل، يمشي متمايلاً

فَلَمَّا لَواهُ القُوتُ مِنْ حيثُ أَمَّهُ   دَعَا فَأَجابَتْهُ نَظائِرُ نُحَّلُ

لما لواه القوت، عز عليه، من حيث أمه، من حيث قصده، دعا بعوائه فأجابته نظائره الذئاب النحل، المهزولة

مُهَلَّلَةٌ شيبُ الوُجُوهِ كَأَنَّها   قِداحٌ بِأَيْدي يَاسِرٍ تَتَقَلْقَلُ

ذئاب مهللة، نحيلة، شيب الوجوه، مبيضة وجوهها شحوباً، تترجرج في وقفتها كأنها سهام الميسر التي يقلقلها المرء قبل أن يرمي بها

فَضَجَّ وضَجَّتْ بِالبَراحِ كَأَنَّها   وإِيَّاهُ نُوحٌ فوقَ عَلْيَاءَ ثُكَّلُ

ضج الذئب وضجت أصحابه بالبراح، بالأرض الخالية، فكأنها نساء نوح، نائحات، ثاكلات تقف على مكان عال

وأَغْضَى وأَغْضَتْ واتَّسَى واتَّسَتْ بِهِ   مَراميلُ عَزَّاها وعَزَّتْهُ مُرْمِلُ

ثم كفت الذئاب عن العواء، وهي في عوائها ترفع رؤوسها.. فالآن هي أغضت وخفضت الرؤوس، وواسى بعضها بعضاً فهي جميعاً مراميل، جياع

شَكا وشَكَتْ ثم ارْعَوَى بَعْدُ وارْعَوَتْ   ولَلصَّبْرُ إنْ لم ينفعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ

شكا وشكت الذئاب، ثم ارعوى وارعوت، تراجعت عن الشكوى، والصبر أجدر بالمرء إن لم تنفعه الشكوى

فإن تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرى أمُّ قَسطَلٍ   لَمَا اغْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرى بَعْدُ أَطْوَلُ

فإن حزنت أم قسطل، كناية عن الحرب والقسطل هو الغبار، بغيابي فإنها كثيراً ما كانت مسرورة بحضوري

طَرِيدُ جِنايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ   عَقِيرَتُهُ لِأَيِّها حُمَّ أَوَّلُ

أنا طريدٌ ملاحق لجنايات ارتكبتها، فهي تتياسر على لحمي، تتنافس عليَّ، وعقيرتي، أي نفسي، هي لمن حم أول، قدر له أن يكون الأول في القبض علي. كذا المعنى الملموح

وإِلْفُ هُمومٍ ما تَزَالُ تَعُودُهُ   عِيَاداً كَحُمَّى الرِّبْعِ أو هِيَ أَثْقَلُ

ألفت الهموم التي تعودني كما تعود للمرء حمى الربع، التي تنتاب المرء يوماً وتغيب يومين وتعود في اليوم الرابع، بل هي أثقل

فَإِمَّا تَرَيْني كابْنَةِ الرَّمْلِ ضَاحِياً   عَلى رِقَّةٍ أَحْفَى ولا أَتَنَعَّلُ

إن تريني كابنة الرمل، كالأفعى، ضاحياً، بارزاً للشمس، ومن رقة حالي، فقري، أكون حافياً بلا نعل

فَإِنِّي لَمَوْلَى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَزَّهُ   على مِثْلِ قَلبِ السِّمْعِ، والحَزْمَ أَفْعَلُ

أنا صاحب الصبر أجتاب بزه، أقطع ثوبه فألبسه، ولي قلب قوي كقلب السمع، قيل هو حيوان أبواه ذئب وضبع، وأفعالي فيها الحزم

وأُعْـدِمُ أحـيـانـاً وأغْـنَـى وإنَّـمـا يَـنـالُ الـغِـنَـى ذُو الـبُـعْـدَةِ الـمُـتَـبَـذِّلُ

أعدم، أي أفتقر، أحياناً وأغنى أحياناً، فأما الغنى الدائم فهو للذي يقبل ابتذال نفسه فيما يأنف منه مثلي

فَـلا جَـزِعٌ مِـنْ خَـلَّـةٍ مُـتَـكَـشِّـفٌ ولا مَـرِحٌ تـحـتَ الـغِـنَـى أَتَـخَـيَّـلُ

لست جازعاً من خلة، فقر، ولا متكشف، أكشف فقري للناس، ولست غنياً أتباهى بالغنى وأختال

ولَيلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلي القَوْسَ رَبُّهَا وأَقْـطُـعَـهُ الـلَّاتـي بِـهـا يَـتَـنَـبَّـلُ

رب ليلة منحوسة باردة يبلغ بالمرء بردها أن يحرق قوسه ويصطلي بنارها، ويحرق أقطعه، سهامه، التي يتخذها للرمي نبالاً

دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ، وصُحْبَتِي سُـعَـارٌ وإرْزِيـزٌ وَوَجْـرٌ وأفْـكَـلُ

دعست فيها على غطش وبغش، مشيت في الليل وتحت الرذاذ، وصاحبني فيها سعار، جوع، وإرزيز، برد، ووجر، خوف، وأفكل، ارتعاش

فَـأَيَّـمْـتُ نِـسـوانـاً وأَيْـتَـمْـتُ إلْـدَةً وعُـدْتُ كـمـا أَبْدَأْتُ والـلَّـيْـلُ أَلْـيَـلُ

فغزوت قوماً وأيمت نسوة، جعلتهن أرامل، وأيتمت إلدة، يتمت أولاداً، وعدت سالماً والليل حالك

وأصبحَ عني بِالـغُـمَـيْـصَاءِ جالساً فـريـقـانِ: مَـسْـؤولٌ وآخَـرُ يَـسْـأَلُ

وعند الصبح جلس في موضع الغميصاء الناس وانقسموا فريقين يتساءلون عن الذي جرى

فَقالوا: لقد هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلابُنا فقُلْنَا: أَذِئْبٌ عَسَّ أم عَسَّ فُرْعُلُ؟

قالوا قد هرت، نبحت بخفوت، كلابنا بالليل، فقال الآخرون: أهذا بسبب ذئب عسَّ، طاف ليلاً، أم فرعل، ولد الضبع؟

فـإن يَـكُ مِـنْ جِـنٍّ لأَبْـرَحُ طَـارِقـاً وإن يَكُ إنْساً مَا كَهَا الإنْسُ تَفْعَلُ

فإن كان هذا من فعل الجن فما أبرحه من طارق، ما أشده من زائر ليل، وإن كان إنساً فما هكذا تفعل الإنس بكل قوة وشدة ولا نشعر بالأمر إلا متأخرين

ويَوْمٍ مِنَ الـشِّـعْـرَى يَـذُوبُ لُـعَـابُـهُ أَفَـاعِـيـهِ فـي رَمْـضَـائِـهِ تَـتَـمَـلْـمَـلُ

ورب يوم من الشعرى، يوم شديد الحرارة يستدلون عليه بنجوم الشعرى، ويرى المرء أشعة الشمس وكأنها اللعاب السائل، والأفاعي تتململ على الرمل الحار

نَـصَـبْـتُ لَـهُ وَجْـهِـي ولا كِـنَّ دُونَـه ولا سِـتْـرَ إِلَّا الأَتْـحَـمِـيُّ الـمُـرَعْـبَـلُ

نصبت وجهي لهذا الجو وليس هناك من كنٍّ، ستر يقيني الحر، سوى الأتحمي المرعبل، الثوب الممزق

وخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ   بِعَامِلَتَيْنِ، ظَهْرُهُ ليس يُعْمَلُ

ورب خرق، فضاء بلقع، مثل ظهر الترس أملس قطعته بعاملتين، برجليَّ، وظهر هذا المكان ليس مما تمشي فيه الإبل

تَرُودُ الأَرَاوِيِ الصُّحْمُ حَولي كَأَنَّها   عَذَارَى عليْهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ

ترود، تتمشى، حولي الأراوي الصحم، الوعول السمر، كأنها عذارى لابسات ثياباً طويلة

ويَرْكُدْنَ بالآصَالِ حَوْلي كأنَّني   مِنَ العُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحي الكيحَ أَعْقَلُ

ويركدن، تقعي هذه الوعول حولي عند الأصيل، عند الغروب إذ يخف الحر، فكأنني أنا من العصم، من الوعول؛ كأنني أدفى، وعل ذو قرون، ينتحي الكيح، يسكن في الجبل، أعقل، يتخذ الجبل معقلاً

٢ الأَفْوَهُ الأَوْدِيّ، وهو جاهلي قديم

والبيتُ لا يُبْتَنَى إلَّا لَهُ عَمَدٌ   ولا عِمَادَ إذا لم تُرْسَ أَوْتَادُ

البيت، الخيمة، لا يبنى إلا بعمود في الوسط، ولا نفع للعمود بلا أوتاد تدق في الأرض حول الخيمة. فالعمود رئيس القوم، والأوتاد سادة القبيلة

فإن تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وأَعْمِدَةٌ   وسَاكِنٌ بَلَغُوا الأمرَ الذي كادُوا

فبهذا، وبالسكان، يتم الأمر

وإنْ تَجَمَّعَ أقوامٌ ذَوُو حَسَبٍ   اِصْطَادَ أَمْرَهُمُ بالرُّشْدِ مُصْطَادُ

أهل الحسب والشرف يصطاد، ويتناول، رئيسهم أمورهم بالرشد

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ   ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

لا يصلح الناس فوضى بلا سراة، سادة، ولا مكان للسادة إذا سيطر الجهال المتهورون على الأمر

تُلْفَى الأُمورُ بِأَهْلِ الرُّشْدِ مَا صَلَحَتْ   فإنْ تَوَلَّوْا فَبِالأَشْرارِ تَنْقَادُ

إذا صلحت الحال فأهل الرشد هم القيادة، وإن تولى أمر القوم، وذهب عزهم، فالأشرار يقودونهم

إذا تَوَلَّى سَرَاةُ القومِ أَمْرَهُمُ   نَمَا على ذاكَ أَمرُ القومِ فازْدَادُوا

تولي السادة الأشراف القيادة يحقق نماء الحال

٣ كعب بن زهير، بانت سعاد

بَانَتْ سُعادُ فقَلبي اليومَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَها، لم يُفْدَ مَكْبُولُ

بانت سعاد، فارقت، فقلبي اليوم متبول، مريض، متيم يتبعها، ومكبول، مقيد لم يتم فداؤه من أسرها

وَمَا سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلُوا إلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

ما سعاد التي رأيتها غداة البين، صبيحة الفراق، إلا أغن، غزال ذو غنة في صوته، غضيض الطرف، تغض عينيها خجلاً، وهي مكحولة

هَيْفاءُ مُقْبِلَةً، عَجْزاءُ مُدْبِرَةً لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طُولُ

هيفاء، ضامرة البطن، وهي مقبلة عليك، وعجزاء، ثقيلة المؤخرة، وهي مدبرة منصرفة عنك. لا بالقصيرة ولا الطويلة

تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابْتَسمتْ كأنهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

تبرز عوارض، أسناناً أمامية، ذي ظلم، ذي لعاب يلمع على ضواحكها، وكأن الثغر ذا اللعاب هذا منهل ومعلول بالخمر، شارب الخمر مرة أولى ثم ثانية

وما تَدُومُ على حالٍ تكونُ بِها كما تَلَوَّنُ في أثْوابِها الغُولُ

وسعاد لا تظل على حالها من المودة للحبيب، بل تتلون مثل الغول التي تبدو للناس في صور وأثواب شتى

وما تَمَسَّكُ بِالوَصْلِ الذي زَعَمَتْ إلَّا كما تُمْسِكُ الماءَ الغَرابيلُ

لا تتمسك بوصلها المزعوم للحبيب إلا كما تمسك الغرابيل الماء

كانتْ مَواعيدُ «عُرْقُوبٍ» لها مَثَلاً وما مَواعِيدُه إلّا الأباطِيلُ

ومواعيدها كمواعيد عرقوب الكذاب المشهور

فَلا يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ ومَا وَعَدَتْ إنَّ الأَمَانِيَّ والأحلامَ تَضْليلُ

فلا تغتر بوعودها التي تُمنِّيك بها

أَمْسَتْ سَعَادُ بِأرْضٍ لا يُبَلِّغُها إلّا العِتاقُ النَّجِيباتُ المَراسيلُ

وقد رحلت سعاد وصارت في أرض لا يبلّغكها إلا العتاق النجيبات المراسيل، النياق الكريمة النجيبة السريعة

وقَالَ كلُّ خَليلٍ كنتُ آمُلُهُ لا أُلْفِيَنَّكَ إنِّي عنكَ مَشْغُولُ

قال لي كل صاحب كنت آمل أن يحميني، لا ألفينك، لا أريد أن أجدك حولي، فأنا منشغل عنك

فقلتُ خَلُّوا طَريقي لا أَبا لَكُمُ فكلُّ ما قَدَّرَ الرحمنُ مَفْعُولُ

فقلت: انصرفوا عني واتركوني أمضي في سبيلي فكل ما قدر الله سيقع

كلُّ ابنِ أُنثَى، وإنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ، يوماً على آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

كل إنسان سيحمل يوماً على آلة حدباء، هي النعش

أُنبِئْتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي والعفْوُ عندَ رسولِ اللهِ مَأْمُولُ

أوعدني: تهددني

مَهْلاً، هَداكَ الذي أعطاكَ نَافِلَةَ الـ ـقرآنِ فيها مَواعِظٌ وتَفصيلُ

مهلاً يا رسول الله وقد أعطاك الله نافلة القرآن، هدية هي القرآن،
وفيها الموعظة وتفصيل الأحوال

لا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوالِ الوُشَاةِ، ولم أُذْنِبْ، وإن كَثُرَتْ عَنِّي الأقَاويلُ

لا تسمع فيَّ أقوال الوشاة

إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ اللهِ مَسْلُولُ
في عُصْبَةٍ مِنْ قُريشٍ قالَ قائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

الرسول وجماعته من قريش هاجروا من مكة إلى المدينة

زَالُوا فمَا زَالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللِّقاءِ ولا مِيلٌ مَعَازيلُ

هاجروا فما كانوا بالأنكاس، الجبناء، ولا الكشف، المكشوفين بلا تروس في الحرب،
وهم في اللقاء لا ميل، أي لا يحسنون ركوب الخيل، ولا معازيل،
ليسوا عُزلاً بلا سلاح

شُمُّ العَرانِينِ أَبْطالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الهَيْجَا سَرابِيلُ

شم العرانين، شامخو الأنوف، ولباسهم في الهيجاء، الحرب، سرابيل من نسج داود، دروع.
وكان داود النبي مشهوراً بصنع الدروع لأن الله ألان له الحديد

لا يَفرَحُونَ إذا نالتْ رِماحُهُمُ قوماً، وليسوا مَجازيعاً إذا نِيلُوا

لا يفرحون بالنصر، ولا يجزعون للهزيمة

لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلَّا في نُحُورِهِمُ ما إنْ لَهُمْ عن حِياضِ الموتِ تَهْليلُ

في الحرب يواجهون دوماً، فالطعن يقع في صدورهم لا في ظهورهم، وليس لهم تهليل، فرار،
عن أحواض الموت

٤ عدي بن زيد العِبادي، جاهلي من نصارى الحيرة

أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أم بُكُورُ لَكَ فاعْلَمْ لِأيِّ حَالٍ تَصِيرُ

أترحل رواحاً، مساء، أم بكوراً، صباحاً؟
فاعلم كيف سيكون حالك بعد الرحيل عن الأحبة

وابْيِضَاضُ السَّوادِ مِنْ نُذُرِ الشَّرِّ ـ وهــل بَــعْــدَهُ لإنـسٍ نَـذِيـرُ؟

ابيضاض شعرك بعد سواده نذير بالشر والشيخوخة، وهل هناك نذير للإنسان أكثر من هذا؟

لَيْتَ شِعْرِي فكيفَ أنتَ إذا ما ذُرَّ فـي حُـرِّ وَجْـهِـكَ الكـافُـورُ

فكيف أنت عندما يذر، يُرشُّ، في حر وجهك، في وسطه، الكافور.. وهو مسحوق أخضر يرشونه على الميت

رَحِمَ اللَّهُ مَنْ بَكَى لِلْخَطَايا كُلُّ بَاكٍ فَذَنْبُهُ مَغْفُورُ

أَيُّها الشَّامِتُ المُعَيِّرُ بِالدَّهْـ ـرِ أَأَنْتَ المُبَرَّأُ المَوْفُورُ؟

يا من يعيرني بنكبة من نكبات الدهر، أأنت مبرأ موفور، محصن مستثنىً؟

أم لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثيقُ مِنَ الأيَّـ ـامِ بـل أنـتَ جـاهِـلٌ مَـغْـرورُ

الأيام: المصائب

مَنْ رأيتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أم مَنْ ذا عليهِ مِنْ أنْ يُضَامَ خَفِيرُ؟

من قد لقي التخليد في الدنيا؟ أم من عليه خفير، حارس، يمنع عنه الضيم، التعرض للأذى؟

أَيْنَ كِسرى كِسرى المُلُوكِ أَنُو شِرْ وَانَ، أم أيـنَ قَبْلَهُ سَابُورُ؟

وبَنُو الأَصْفَرِ الملوكُ، مُلُوكُ الرُّ ـومِ؟ لـم يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

وتَفَكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذْ أَشْـ ـرَفَ يوماً ولِلْهُدى تَفْكيرُ

فكر في رب الخورنق، صاحب قصر الخورنق وهو النعمان بن امرئ القيس، إذ أشرف من أعلى قصره وتفكر في الدنيا

سَرَّهُ مَالُهُ وكَثْرَةُ مَا يَمْـ ـلِكُ، والبَحْرُ مُعْرِضاً والسَّدِيرُ

سره مرأى ماله، مزارعه وملكه، والبحر، الفرات يمر بين المزارع، وقصر السدير

فَارْعَوَى قَلْبُهُ وقَالَ: ومَا غِبْـ ـطَةُ حَيٍّ إلى المماتِ يَصيرُ؟

ارعوى قلبه، رجع عن ضلاله، وقال لنفسه: ما سعادة امرئ نهايته الموت؟

ثم بعدَ الفَلاحِ والمُلْكِ والإمَّـ ـةِ وَارَتْهُمُ هناكَ القُبورُ

الإمة: النعمة

ثم أَضْحَوْا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبا والدَّبُورُ

ثم بعد الموت صاروا كورق شجر جف فألوت به، ذهبت به، ريح الصبا وريح الدبور

٥ عُرْوَة بن حِزام

خَلِيلَيَّ مِنْ «عُلْيَا هِلالِ بنِ عامِرٍ» بِصنْعَاء عُوجَا اليومَ وانتظِراني

على عادة الشعراء يخاطب صديقين: وعروة رجل من قبيلة عذرة، فهو عذري وشعره عذري، وذهب إلى اليمن يأتي بنياق مهراً لابنة عمه عفراء، ويريد من صاحبيه بصنعاء أن يعوجا، أي يميلا، نحو منزله باليمن وأن ينتظراه حتى يرحلوا جميعاً

أَلا فَاحْمِلانيِ بَارِكَ اللَّهُ فيكُما إلى حاضِرِ «الرَّوْحاءِ» ثم دَعَاني

احملاني إلى الروحاء، قرب المدينة المنورة، واتركاني هناك

على كَبِدي مِنْ حُبِّ عَفْراءَ قَرْحَةٌ وعَيناايَ مِنْ وَجْدٍ بِها تَكِفَانِ

مقروحة كبده من حب عفراء وعيناه تكفان، تسيلان دمعاً من وجده بها، أي حبه لها

فيَا ليتَ كُلَّ اثنينِ بينَهُما هَوىً مِنَ الناسِ والأنعامِ يَلْتَقِيانِ

يقولُ لِيَ الأصحابُ إذْ يَعْذِلُونَني أَشَوْقٌ عِراقِيٌّ، وأنتَ يَماني

ويبدو أن عفراء كانت بالعراق زمناً!

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْراءَ ما ليس لي بِهِ ولا لِلْجِبَالِ الرَّاسِياتِ يَدانِ

ما لي به يدان: أي لا حيلة لي فيه

كأنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحِها على كَبِدي مِنْ شِدَّةِ الخَفَقَانِ

القطاة طير، وفي الزمن القديم كانت الكبد تخفق أيضاً

جَعلْتُ لِعَرَّافِ اليَمامَةِ حُكْمَهُ وعَرَّافِ نَجْدٍ إنْ هُمَا شَفَيَاني

فقالا: نَعَمْ نَشْفي مِنَ الدَّاءِ كلِّهِ وقَامَا مَعَ العُوَّادِ يَبْتَدِرانِ

قام العرافان يبتدران مع العواد: قاما مسرعين مع زوار المريض لكي يجربا فنونهما في الشفاء

فما تَرَكَا مِنْ رُقْيَةٍ يَعلَمَانِها ولا سَلْوَةٍ إلَّا وقد سَقَيَاني

الرقية: الوصفة السحرية من حجاب أو نحوه، السلوة: شراب يسقونه للمتيم فينسى.. زعموا

فقَالا: شَفاكَ اللَّهُ، واللَّهِ ما لَنا بِمَا ضُمِّنَتْ منكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ

عجزا وقالا: شفاك الله فليس لنا يدان، لا حيلة لنا، في الحب الذي تضمنته ضلوعك

أَنَاسِيَةٌ عَفْراءُ ذِكْرِيَ بَعدَما تَرَكْتُ لها ذِكْراً بِكُلِّ مَكانِ

يُكَلِّفُني عَمِّي ثَمانينَ بَكْرَةً ومَا لِيَ يَا عَفْراءُ غَيْرُ ثَمانِ

عمه طلب منه ثمانين بكرة، أي ناقة

تَحَمَّلْتُ زَفْرَاتِ الضُّحَى فَأَطَقْتُها   وما لِي بِزَفْرَاتِ العَشِيِّ يَدانِ
أُصَلِّي فَأبْكِي في الصَّلاةِ لِذِكْرِها   لِيَ الوَيْلُ مِمَّا يكتُبُ المَلَكَانِ

الملكان المكلفان بتسجيل أعمال المرء قاعدان على كتفيه دائماً، وهما رقيب وعتيد، وهما غير مَلَكَيْ القبر منكر ونكير

٦ عدي بن الرقاع العاملي، يمدح الوليد بن عبد الملك

عَرَفَ الدِّيارَ تَوَهُّماً فاعتَادَها   مِنْ بعدِ ما دَرَسَ البِلَى أبْلادَها

يحدث عن نفسه: عرف الديار لكنه غير متأكد تماماً إذ امَّحت معالمها، واعتادها، زارها، بعد أن درسها البلى، محاها الخراب. وأبلادها: بلادها

إلَّا رَواسِيَ كُلُّهُنَّ قد اصْطَلَى   جَمْراً، وأَشْعَلَ أَهْلُها إيقَادَها

سوى رواسي، حجارة، كانت أثافي توضع عليها القدر وقد اصطلت الحجارة وبان فيها أثر الجمر

كانتْ رَواحِلَ لِلقُدُورِ فَعُرِّيَتْ   مِنهُنَّ، واسْتَلَبَ الزمانُ رَمادَها

كانت الحجارة رواحل، كأنها نياق تحمل فوقها القدور، فعريت من القدور، وسلبها الزمان برياحه رمادها

وتَنكَّرَتْ كلَّ التَّنَكُّرِ بَعدَنا   والأرضُ تَعرِفُ بَعْلَها وجَمَادَها

تنكرت المنطقة، تغيرت معالمها، والأرض تعرف بعلها، ما ارتفع منها، وجمادها، ما جف منها.
المعنى الملموح: الأرض معروفة بتضاريسها، ولكن مرور السنين جعلنا نتشكك

ولَرُبَّ واضِحَةِ الجَبينِ خَريدَةٍ   بَيْضاءَ قد ضَرَبَتْ بها أوتَادَها

ورب فتاة بيضاء الجبين خريدة، حيية، كانت تنزل هنا وتغرس أوتاد خيامها

كالظَّبْيَةِ البِكْرِ الفَريدةِ تَرْتَعي   مِنْ أرضِها قُفَّاتِها وعِهَادَها

كأنها ظبية منفردة عن السرب ترعى القفات، والقُفَّة شجرة صغيرة، وعهادها، العشب الذي يخلفه العهاد أي المطر المتواصل

تُزْجي أَغَنَّ كَأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ   قَلَمٌ أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدادَها

هذه الظبية تزجي أمامها، تدفع، ظبياً أغن الصوت كأن إبرة روقه، رأس قرنه الصغير وهو مسود في أعلاه، قلم مغموس طرفه في دواة المداد، أي المحبرة

بَانتْ سُعَادُ وأَخْلَفَتْ مِيعَادَها   وتباعَدتْ عنَّا لِتَمْنَعَ زَادَها

فارقتنا سعاد وأخلفت ميعادها، وابتعدت كي تمنعنا من التزود من حسنها

إمَّا تَرَيْ شَيْبي تَفَشَّغَ لِمَّتي   حتى عَلا وَضَحٌ يَلوحُ سَوادَها

إن كنت ترين الآن شيبي قد تفشغ لمتي، انتشر في شعري، حتى علاني وضح، بياض، يلوح سواد اللمة، يغير لون السواد

فلقدْ ثَنَيْتُ يَدَ الفَتاةِ وِسَادَةً   ليَ جَاعِلاً يُسْرَى يَدَيَّ وِسَادَها

فإنني كنت فيما مضى قد ثنيت يد الفتاة وجعلتها وسادة لي، وجعلت يدي اليسرى وساداً لها.
حاول معي تخيل هذه النومة

ولقد أَصَبْتُ مِنَ المَعِيشَةِ لَذَّةً   ولقِيتُ مِنْ شَظَفِ الخُطوبِ شِدادَها

عرفت لذة العيش الهانئ، ولقيت أيضاً شظفه، شدته

وعَمِرْتُ حتى لَسْتُ أَسأَلُ عالِماً   عن حَرْفِ وَاحِدَةٍ لِكَيْ أَزدادَها

وكبرت حتى لم أعد أحتاج أن أسأل عالماً عن شيء

وأُصاحِبُ الجيشَ العَرَمْرَمَ فَارِساً   في الخيلِ أشهدُ كَرَّها وطِرادَها

أصاحب الجيش العرمرم، الجرار، راكباً فرسي وأشهد كر الخيول ومطاردتها

وقَصِيدَةٍ قد بِتُّ أَجْمَعُ بينَها   حتى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها

ورب قصيدة قد سهرت أجمع بين أبياتها وأصحح ميلها، ثغراتها، وسنادها، الخطأ في قوافيها

نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعوبِ قَناتِهِ   حتى يُقيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَها

كنت أقوم أبيات القصيدة كما يقوِّم المثقف، المقوم، القناة، أي الرمح، حتى يصلح تقويمه منآدها، المعوجَّ منها

وإذا الربيعُ تتابَعَتْ أَنْواؤُهُ   فَسَقَى خُناصِرَةَ الأَحَصِّ فَجَادَها

إذا تتابعت أنواء، أمطار، الربيع فسقى «خناصرة الأحص»، قرية خناصرة قرب جبل الأحص، فجادها، رواها بالمطر

نَزَلَ الوَليدُ بِها فكان لأهلِها   غيْثاً أغاثَ أَنِيسَها وبِلادَها

نزل الوليد بن عبد الملك بها فكان لأهلها غيثاً، مطراً، أغاث الناس والبلاد

أَوَمَا تَرى أنَّ البَرِيَّةَ كلَّها   ألقتْ خَزائِمَها إليهِ فَقَادَها

ألا ترى أن الناس كلهم ألقوا الخزائم إليه، والخِزامة حلقة توضع في أنف البعير وبها حبل يقاد به

٧ عبيد الله بن قيس الرقيات

أَقْفَرَتْ بعدَ عبدِ شمسٍ كَدَاءُ   فَكُدَيٌّ فالرُّكْنُ فالبَطحاءُ

أقفرت هذه الأماكن بعد خروج بني أمية منها

قد أراهُمْ وفي المواسِمِ إذ يَغْـ   ـدونُ حِلْمٌ ونَائِلٌ وبَهاءُ

كنت أراهم في المواسم، كسوق عكاظ، يأتون وعليهم سيماء الحلم والبهاء وفيهم نائل، يمنحون الفقير المال

وحِسانٌ مِثْلُ الدُّمَى عَبْشَمِيَّا ... تٌ عَلَيْهِنَّ بَهجَةٌ وحَيَاءُ

ورب فتيات حسان من عبد شمس كأنهن الدمى جمالاً

ظَاهِراتُ الجَمالِ والسَّرْوِ يَنْظُرْ ... نَ، كما ينظرُ الأَرَاكَ الظِّبَاءُ

بارز جمالهن وسروهن، نسبهن العالي، وينظرن كما تنظر الظباء إلى شجر الأراك

حبَّذا العيشُ حينَ قَوْمي جميعٌ ... لم تُفَرِّقْ أمورَها الأَهْوَاءُ

ما كان أجمل العيش عندما كان قومي متفقين مجتمعين وقبل أن تفرق بينهم الأهواء، النزعات

قبل أن تطمَعَ القبائلُ في مُلْـ ... ـكِ قريشٍ وتَشْمَتَ الأَعْداءُ

أيُّها المُشْتَهي فَناءَ قريشٍ ... بِيَدِ اللَّهِ عمرُها والفَناءُ

إن تُوَدِّعْ مِنَ البلادِ قريشٌ ... لا يَكُنْ بعدَهُمْ لِحَيٍّ بَقاءُ

لو تُقَفِّي وتَتْرُكُ الناسَ كانُوا ... غَنَمَ الذِّئبِ غَابَ عنها الرِّعَاءُ

لو تقفي قريش، أي تذهب، تاركة الناس فسيكونون كالغنم غاب عنها الرعاة
فهي غنم مباحة للذئب

هل تَرى مِنْ مُخَلَّدٍ؟ غيرَ أنَّ الـ ... ـلَّهَ يبقَى، وتذهبُ الأشياءُ

لو بكتْ هذهِ السماءُ على قو ... مٍ كرامٍ بكتْ علينا السماءُ

نحن منَّا النبيُّ الأمِّيُّ والصِّدِّ ... يقُ منَّا التَّقِيُّ والخُلَفاءُ

والزُّبَيْرُ الذي أجابَ رسولَ الـ ... ـلَّهِ في الكَرْبِ، والبلاءُ بَلاءُ

والذي نَغَّصَ ابنَ دَوْمَةَ ما تُو ... حي الشَّيَاطينُ، والسيوفُ ظِماءُ

ومنا مصعب بن الزبير الذي نغص على ابن دومة، وهو المختار الثقفي، سطوته على الناس بما كان يقول لهم من أنه يوحى إليه، وقد قتله مصعب وقتل أصحابه في مشهد مريع

فأَباحَ العراقَ يِضْرِبُهُمْ بالسَّـ ... ـيفِ صَلْتاً وفي الضِّرَابِ غَلاءُ

صلتاً: مسلولاً، في الضراب غلاء: في الضرب بالسيف مغالاة

فَسَعَوْا كيْ يُفَلِّلُوكَ، ويَأْبَى الـ ... ـلَّهُ إلَّا الذي يَرى ويَشاءُ

يفللوك: يضعفوك يا مصعب

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ الـ ... ـلَّهِ تَجلَّتْ عن وجْهِهِ الظَّلماءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ ليس فيهِ ... جَبَرُوتٌ ولا بِهِ كِبْرِيَاءُ

ورجالٌ لو شئتُ سَمَّيْتُهُمْ مِنَّـ ... ـا، ومِنَّا القُضَاةُ والعُلَماءُ

مِنْهُمْ ذُو النَّدَى سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو عِصْمَةُ الجارِ حينَ حُبَّ الوَفَاءُ

سهيل بن عمرو صحابي له مواقف في فتح مكة وأمه من خزاعة

حَاطَ أَخْوَالَهُ خُزَاعَةَ لَمَّا كَثَرَتْهُمْ بِمَكَّةَ الأَحياءُ

دافع عن أخواله من قبيلة خزاعة عندما كثرتهم، تكاثرت عليهم، في مكة الأحياء، العشائر

والذي أُشْرِبَتْ قريشٌ لهُ الحُبَّـ عليْهِ مِمَّا يُحَبُّ رِدَاءُ

يعني عثمان بن عفان

والذي إنْ أَشارَ نَحوكَ لَطْمَاً تَبِعَ اللَّطْمَ نَائلٌ وعَطاءُ

هذا عبد الله بن جدعان من فرع أبي بكر الصديق من قريش: كان غنياً، وعندما كبر منعه بنوه من التصرف بماله فصار كلما جاءه طالب معروف قال له: اقترب كي ألطمك على وجهك، ثم اذهب واطلب من أولادي فدية مقابل اللطمة، وإلا فإنك ستردها لي لطمة مثلها

عيْنِ فَابْكي على قريشٍ وهل يَرْ جِعُ ما فاتَ، إن بَكَيْتِ، البُكَاءُ؟

يا عيني ابكي على قريش، وإن بكيت.. هل يعيد البكاء ما فات؟

تَرَكَ الرأسَ كالثَّغَامَةِ مِنِّي نَكَباتٌ تَسري بِها الأَنْبَاءُ

تركت رأسي مبيضاً كنبات الثغام، الذي يبيض إذ ييبس، النكبات التي تنقلها الأنباء

كيف نَوْمي على الفِراشِ ولَمَّا تَشْمَلِ الشامَ غَارةٌ شَعْوَاءُ

كيف أستريح قبل أن تعم الشام غارة شعواء، منتشرة الفرسان

تُذْهِلُ الشيخَ عن بَنيهِ، وتُبْدي عَنْ بُراهَا العَقِيلَةُ العَذْرَاءُ

غارة تنسي الشيخ أبناءه، وتجعل العقيلة العذراء، المرأة المصونة، تبدي عن براها، ترفع عن ساقيها للهرب فتظهر خلاخيلها

أَنَا عنكُمْ بَني أُمَيَّةَ مُزْوَرٌّ وأَنْتُمْ في نفسِيَ الأَعداءُ

أنا منحرف عنكم، وقد اتخذتكم أعداء

إنَّ قَتْلَى بِالطَّفِّ قد أَوْجَعَتْني كان مِنْكُمْ لَئِنْ قُتِلْتُمْ شِفَاءُ

قد تألمت لقتلى بالطف، قتل الحسين بن علي في كربلاء وهي في الطف من ضواحي الكوفة، وليشتف القلب منكم إذا قتلتم

٨ كُثَيِّر عزة

خَليليَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلا قَلوصَيْكُما ثم ابْكِيَا حيثُ حَلَّتِ

يا صاحبي هذه دار عزة فاربطا ناقتيكما، وابكيا حيث كانت عزة تنزل

ومُسًّا تُراباً كان قد مَسَّ جِلْدَها وبيتًا وظَلَّا حيثُ بَاتَتْ وظَلَّتِ
ولا تَيْأَسَا أنْ يَمْحُوَ اللّهُ عنكُما ذُنوباً إذا صلَّيْتُما حيثُ صَلَّتِ
وما كنتُ أدري قبلَ عَزَّةَ ما البُكَا ولا مُوجِعاتُ القلبِ حتى تَوَلَّتِ

تولت: انصرفت

وما أنْصَفَتْ: أمَّا النساءُ فبَغَّضَتْ إليْنا، وأمَّا بالنَّوَالِ فَضَنَّتِ

لم تنصفني عزة، فقد جعلتني أبغض كل النساء سواها، وأما هي فضنت بنوالها، بخلت بعطائها

وكانتْ لِقَطْعِ الحبلِ بيني وبينَها كَناذِرَةٍ نَذْراً وَفَتْ فَأَحَلَّتِ

كانت مصممة على قطع العلاقة معي فكأنها نذرت نذراً فوفت به وأحلت نفسها،
حررت نفسها من نذرها

فقلتُ لها: يا عَزَّ كلُّ مُصيبَةٍ إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النَّفسُ ذَلَّتِ

كل مصيبة إذا وطنت لها النفس، تعودت عليها، فالمصيبة تذل، تصبح مروَّضة

ولم يَلْقَ إنسانٌ مِنَ الحبِّ مَيْعَةً تَعُمُّ، ولا عَمْياءَ إلَّا تَجَلَّتِ

لم يلق إنسان من الحب ميعة تعم، بداية تهزّه، ولا عمياء، جهالة وتوتر،
إلا تجلى ذلك وذهب عنه فيما بعد

فإنْ سَأَلَ الوَاشُونَ: فِيمَ صَرَمْتَها؟ فقُلْ نفْسُ حُرٍّ سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ

إن سألني الواشون لماذا صرمتها، أي قطعت العلاقة معها؟ قلت: نفسي حرة وقد سليتها فتسلت،
أنسيتُها فنسيت

أَبَاحَتْ حِمَىً لم يَرْعَهُ الناسُ قبلَها وحَلَّتْ تِلاعاً لم تكُنْ قبلُ حُلَّتِ

دخلت عزة مكاناً في قلبي لم يدخله إنسان قط، فهي كمن حل في حمى، مكان محمي يمنع أهله
الآخرين من الرعي فيه، وحلت تلاعاً، هضاباً، ما حلها أحد قبلها

يُكَلِّفُها الخِنزيرُ شَتْمي ومَا بِها هَواني، ولكنْ لِلْمَليكِ اسْتَذَلَّتِ

كان زوج عزة يطلب منها أن تشتم كثيِّراً الشاعر، وكانت تطيعه ليس لأنها تريد إهانتي بل لأنها
استذلت وخضعت لمالك عصمتها، زوجها

هَنيئاً مريئاً، غيرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ، لِعَزَّةَ مِنْ أَعْراضِنا ما اسْتَحَلَّتِ

فهنيئاً لك يا عزة ما تستحلين من أعراضنا، ما لم يكن ذلك الذي تقولين داء مخامراً نفسك،
أي مخالطاً ضميرك.. اشتميني نزولاً عند رغبته شرط ألا يكون الشتم خارجاً من قلبك

وكُنَّا سَلَكْنا في صَعُودٍ مِنَ الهوى فلمَّا تَوافَيْنا ثَبَتُّ وزَلَّتِ

كنت وعزة في علاقتنا كمن يسلك صَعوداً، مرتقىً من الأرض، فلما توافينا، وصلنا، إلى مكان على المرتقى ثبتُّ أنا وزلت هي، تزحلقت

وكُنَّا عَقَدْنا عُقْدَةَ الوصلِ بينَنا فلمَّا تَواثَقْنا شَدَدْتُ وحَلَّتِ

عقدنا عقدة الوصل فلما تواثقنا، شددناها معاً، ظللت أشد ولكنها هي حلت العقدة

فإنْ تَكُنِ العُتْبَى فأَهْلاً ومَرحباً وحُقَّتْ لَها العُتْبَى لَديْنا وقَلَّتِ

فإن أرادت عزة العتبى، الرضا، فأهلا ومرحباً، ولها علينا أن نرضى وما أقل هذا الطلب

وإنْ تَكُنِ الأُخْرى فإنَّ وراءَنا بِلاداً إذا كَلَّفْتُهَا العِيسَ كَلَّتِ

وإن أرادت الأخرى، أي العكس وهو الهجران المؤكد، فإن ورائي، أي أمامي، بلاداً واسعة إذا كلفت الإبل بقطعها كلت، أي تعبت

أَسيئي بِنا أَو أَحْسِني لا مَلومَةً لَديْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

أسيئي بي أو أحسني فلا لوم عليك، ولست مقلية، موضع كراهية، حتى وإن كرهت لقائي

فلا يَحْسَبِ الوَاشونَ أنَّ صَبابَتي بِعَزَّةَ كانتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ

رغم ما قلته فلا يحسب الواشون أن صبابتي، غرامي، بعزة كان غمرة،
أزمة طارئة، ثم تجلت، انكشفت

فَوالَّلهِ ثُمَّ اللَّهِ لا حَلَّ بعدَها ولا قبلَها مِنْ خُلَّةٍ حيثُ حَلَّتِ

فوالله ما حل بعدها ولا قبلها من خلة، حبيبة، في المكان من قلبي الذي حلت فيه عزة

وما مَرَّ مِنْ يومٍ عَلَيَّ كَيَوْمِها وإن عَظُمَتْ أَيَّامُ أُخْرَى وجَلَّتِ

ما مر شيء علي كيوم عشقت عزة، رغم كثرة ما مر بي وخطره

وإنِّي وتَهْيَامي بِعَزَّةَ بعدَما تَخَلَّيْتُ مِمَّا بيْنَنا وتَخَلَّتِ..

وإنني وهيامي بعزة بعدما تخلينا عما كان بيننا من حب..

لَكَالمُرْتَجي ظِلَّ الغَمَامَةِ كُلَّما تَبَوَّأَ منها لِلمَقيلِ اضْمَحَلَّتِ

.. كمن يرجو الاستظلال بغيمة.. ولكنه كلما تبوأ منها للمقيل، جلس للقيلولة تحتها،
اضمحلت، تبددت

كَأنِّي وإيَّاها سَحَابَةُ مُمْحِلٍ رَجَاها فلمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ

كأني مع عزة ذلك الرجل الممحل، الذي يعاني القحط، فجاءت سحابة فرجا أن تمطر، فلما ذهبت عنه أمطرت على غير أرضه

يَـقَـرُّ بِـعـيْـنـي مـا يَـقَـرُّ بِـعـيـنِـهـا   وأجـمـلُ شـيءٍ مـا بِـهِ الـعـيـنُ قَـرَّتِ

يسعدني ما يسعدها

٩ مالك بن الرَّيْب

أَلَا لـيـتَ شِـعـري هـل أَبـيـتَـنَّ لـيـلـةً   بِجَنْبِ الغَضَا أُزْجي القِلاصَ النَّوَاجِيَا

هل سيقدر لي أن أبيت ليلة بجنب شجر الغضا عند أهلي، أدفع القلاص النواجي، النياق السريعة

فليتَ الغَضَا لم يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ   وليتَ الغضَا مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

ليتنا لم نفارق الغضا، وليت الغضا ظل يماشينا ونحن نسير عنه

لقد كانَ في أهلِ الغَضَا لو دَنا الغَضَا   مَـزَارٌ، ولـكـنَّ الـغَـضَـا لـيـس دَانِـيَـا

كان لنا هناك من نزوره لو أنه قريب، لكنه الآن بعيد

أَلـم تَـرَنـي بِـعْـتُ الـضَّـلالَـةَ بِـالـهُـدَى   وأصبحتُ في جيشِ ابنِ عَفَّانَ غَازِيَا

ألم تر كيف تركت الضلال، واشتريت الهدى بدلاً منه وذهبت في جيش ابن عفان غازياً

وأصبحتُ في أرضِ الأَعادِيِّ بعدَما   أَرَانـيَ عـن أرضِ الأَعـادِيِّ قَـاصِـيَـا

أصبحت في أرض محفوفة بالأعداء وكنت بعيداً عنها

دَعاني الهوى مِنْ أهلِ «أَوْدَ» وصُحْبَتي   بِـذي «الـطَّـبَـسَـيْـنِ» فـالـتَـفَـتُّ وَرَائِـيَـا

وأنا مع صحبي في أرض الطبسين، في خراسان، ناداني الهوى من عند الأهل في موضع أود، فالتفت ورائي

أَجَـبْـتُ الـهـوى لـمَّـا دَعـاني بِـزَفْـرَةٍ   تَـقَـنَّـعْـتُ مـنـهـا أنْ أُلَامَ رِدَائِـيَـا

أجبت نداء الهوى بزفرة، فخجلت أن يرى صحبي ذلك فيلومونني فوضعت ردائي على وجهي وجعلته قناعاً

تَقولُ ابْنَتي لمَّا رأتْ طُولَ رِحْلَتي   سِـفَـارُكَ هـذا تَـارِكـي لا أَبـا لِـيَـا

قالت لي ابنتي، وقد رأت أن سفري سيطول: إن سفرك سيتركني بلا أب

لَعَمْري لَئِنْ غَالَتْ خُراسانُ هَامَتي   لقد كنتُ عن بَابَيْ خُراسانَ نَائِيَا

لئن غالت، آذت، خراسان رأسي فقد كنت من قبل بعيداً عنها

فَـلِـلَّـهِ دَرِّي يـومَ أَتْـرُكُ طَـائِـعـاً   بَنِيَّ بِأَعْلَى «الرَّقْمَتَيْنِ» ومَالِيَا

كيف قد تركت بمحض إرادتي أبنائي ومالي في ذلك الموضع؟

وَدَرُّ الظِّبَاءِ السَّانِحَاتِ عَشِيَّةً   يُخَبِّرْنَ أَنِّي هَالِكٌ مَنْ وَرَائِيَا

ولله در الظباء السانحات عشية، النساء المارات في المساء، وهن يخبرن بعضهن بعضاً أنني هالك في غربتي

وَدَرُّ كَبِيرَيَّ اللَّذَيْنِ كِلاهُمَا   عَلَيَّ شَفِيقٌ نَاصِحٌ لو نَهَانِيَا

ولله در الكبيرين، أبي وأمي، اللذين كانا شفيقين علي ناصحين لي، فهلا كانا نهياني!

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فلم أَجِدْ   سِوى السيفِ والرمحِ الرُّدَيْنِيِّ بِاكِيَا

سيبكي علي سيفي ورمحي الرديني، نوع من الرماح

وأَشْقَرَ مَحْبُوكٍ يَجُرُّ عِنَانَهُ   إلى الماءِ لم يَتْرُكْ لهُ الموتُ سَاقِيَا

وسيبكي علي مهري الأشقر المحبوك، أي القوي، الذي يجر رسنه نحو الماء ولم يترك له موتي من يسقيه

ولكِنْ، بِأَكْنَافِ «السُّمَيْنَةِ» نِسْوَةٌ   عزيزٌ عَلَيْهِنَّ العَشِيَّةَ مَا بِيَا

ولكن، في أكناف السمينة، في أطراف ذلك الموضع، نسوة يعز عليهن ما بي

صَرِيعٌ على أَيْدِي الرجالِ بِقَفْرَةٍ   يُسَوُّونَ لَحْدِي حيثُ حُمَّ قَضَائِيَا

صريع يحملني الرجال في موضع مقفر، ويسوون لي لحداً حيث قدر لي أن أموت

ولَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ «مَرْوٍ» مَنِيَّتِي   وخَلَّ بِها جِسْمِي وحَانَتْ وَفَاتِيَا . .

عندما بدا في مرو أن موتي قريب، وخل جسمي بالمنية، اهتز وارتجف . .

أَقُولُ لِأَصحابِي ارْفَعُونِي فَإِنَّهُ   يَقَرُّ بِعَيْنِي أَنْ سُهَيْلٌ بَدا لِيَا

أطلب من صحبي أن يرفعوني كي أرى نجم سهيل

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الموتُ فانْزِلا   بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا

يا صاحبي رحلي، صاحبي السفر، دنا أجلي فحُطَّا الرحال برابية فإنني سأقيم هنا بعض الوقت

أَقِيمَا عَلَيَّ اليومَ أو بَعْضَ لَيْلَةٍ   ولا تُعْجِلانِي قد تَبَيَّنَ شَانِيَا

ابقَيا معي ولا تستعجلا فقد أصبح شأني واضحاً

وقُومَا إذا ما اسْتُلَّ رُوحِي فَهَيِّئَا   لِيَ السِّدْرَ والأَكْفَانَ عند فَنَائِيَا

قوما إذا ما استل روحي، سحب روحي، فأعدا الأكفان والسدر، ورق شجر السدر وكانوا يسحقونه ويضعونه مع ماء غسل الميت

وخُطَّا بِأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي   ورُدَّا على عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا

خطا مكان رقودي بأطراف الرماح، وردا بقية ثوبي على وجهي

ولا تَحْسُدَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا مِنَ الأَرْضِ ذاتِ العَرْضِ أن تُوسِعَا لِيَا

وأوسعا لي في القبر

خُذَانِي فَجُرَّانِي بِثَوْبِي إِلَيْكُما فقد كنتُ قبلَ اليومِ صعباً قِيَادِيَا

جراني بثوبي وأنا ميت، وكنت في حياتي صعب القياد عنيداً

وقد كُنْتُ عَطَّافاً إذا الخيلُ أَدْبَرَتْ سَريعاً لَدَى الهيْجَا إلى مَنْ دَعَانِيَا

كنت أعطف وأتجه إلى خيل العدو بينما الخيول الأخرى تدبر،
وكنت سريع الإجابة إذا دعيت للحرب

وقد كُنْتُ صَبَّاراً على القِرْنِ في الوَغَى وعن شَتْمِيَ ابنَ العمِّ والجَارَ وَانِيَا

وكنت صبوراً على القرن، الخصم، في الحرب لكنني كنت وانياً، متوانياً، عن شتم الأقارب

وقُومَا على بِئرِ «السُّمَيْنَةِ» أَسْمِعَا بِها الغُرَّ والبِيضَ الحِسانَ الرَّوَانِيَا

وعندما تعودان يا صاحبي إلى «السمينة» فاذهبا إلى البئر حيث تجتمع النساء الحسان الرواني، الناظرات إليكما، وأسمعاهن خبري

بِأَنَّكُمَا خَلَّفْتُمَانِي بِقَفْرَةٍ تَهِيلُ عَلَيَّ الرِّيحُ فيها السَّوافِيَا

قولا لهن إنكما خلفتماني، تركتماني وراءكما، في موضع مقفر،
والريح تهيل علي السوافي، الأتربة

ولا تَنْسَيَا عَهْدِي خَلِيلَيَّ بَعدَما تَقَطَّعُ أَوْصَالِي وتَبْلَى عِظَامِيَا

يَقُولُونَ: لا تَبْعَدْ، وَهُمْ يَدفِنونَنِي وأَينَ مَكانُ البُعْدِ إلَّا مَكانِيَا؟

عندما يدفنني القوم يقولون الكلمة المألوفة «لا تبعد»، وهل هناك من بُعد أكثر من الموت؟

غَدَاةَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفسِي على غَدٍ إذا أَدْلَجُوا عَنِّي وأَصبَحْتُ ثَاوِيَا

ما أصعب الغد عندما يدلجون عني، أي ينصرفون عني ليلاً، وأظل ثاوياً، مقيماً

وأَصْبَحَ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وتَالِدٍ لِغَيْرِي، وكانَ المالُ بِالأمسِ مَالِيَا

وعندما يصبح مالي الطريف، المكتسب، والتالد، الموروث، ملكاً لغيري

فَيَا لَيْتَ شِعري هل بَكَتْ أمُّ مَالِكٍ كما كنتُ لو عَالَوْا نَعِيَّكِ بَاكِيَا

هل ستبكي علي أم مالك كما كنت سأبكي لو رفعوا الصوت بنعيها هي؟

فَيَا صَاحِباً إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ بَنِي مَازِنٍ والرَّيْبَ أَنْ لا تَلاقِيَا

بلغ أيها الصاحب العشيرتين أنه لا تلاقيَ بعد الآن فقد قضيت نحبي

وعَرِّ قَلُوصي في الرِّكَابِ فإنَّها سَتَفْلِقُ أكْباداً وتُبْكي بَواكِيا

وأنزل الرحل عن ناقتي، واجعلها تسير بلا سرج، دلالة على أن صاحبها مات، فهذا سيفلق أكباد الناس ويبكي الباكيات

أُقَلِّبُ طَرْفِي حولَ رَحْلِي فَلا أَرى بِهِ مِنْ عُيونِ المُؤْنِسَاتِ مُراعِيَا

هنا أقلب نظري حول رحل جملي فلا أرى من يراعيني
وينظر إلي من نساء قومي اللائي فيهن أنس لقلبي

وبِالرَّمْلِ مِنَّا نِسْوَةٌ لو شَهِدْنَنِي بَكَيْنَ وفَدَّيْنَ الطَّبيبَ المُدَاوِيَا

وهناك بموضع الرمل نسوة لو شهدنني في احتضاري لبكين وقلن للطبيب «نفديك» يردن منه أن يجتهد في شفائي

فَمِنْهُنَّ أُمِّي وابْنَتَايَ وخَالَتي وبَاكِيَةٌ أُخْرَى تَهيجُ البَوَاكِيَا

هؤلاء أقاربي ومعهن أيضاً زوجتي التي ببكائها تهيج قلوب الباكيات الأخريات

١٠ الحطيئة

وَطَاوِي ثَلاثٍ عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ بِبَيْدَاءَ لم يَعرِفْ بها سَاكِنٌ رَسْمَا

رب رجل طاوي ثلاث، جائع لم يأكل منذ ثلاث ليالٍ، وهو يعصب بطنه بحزام كي يخفف ألم الجوع، وهو مرمل، أي فقير، يسكن في بيداء ليس بها رسم، جدباء ليست بها علامة طريق

أَخي جَفْوَةٍ فيهِ مِنَ الإنْسِ وَحْشَةٌ يَرى البُؤْسَ فيها، مِنْ شَراسَتِهِ، نُعْمَى

صاحب جفوة، فيه وحشة، نفور من الناس، ولشراسته يرى البؤس وشدة العيش نعمة

وأَفْرَدَ في شِعْبٍ عَجُوزاً إزاءَها ثلاثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَالُهُمُ بَهْمَا

انفرد في شعب، طريق بالجبل، مع امرأته وثلاثة أشباح كأنهم بهم، أولاد ثلاثة مهزولين تظنهم من ولد الماعز

حُفَاةً عُرَاةً مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مَلَّةٍ ولا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا

ما أكلوا خبز ملة، مخبوزاً بالرماد الحار، ولا عرفوا طعم القمح منذ ولدوا

رَأَى شَبَحاً وَسْطَ الظَّلام فَرَاعَهُ فَلَمَّا بَدا ضَيْفاً تَسَوَّرَ واهْتَمَّا

رأى شبحَ شخصٍ قادمٍ في الظلام، فأخافه ذلك،
وعندما عرف فيه ضيفاً تسور، وثب وثبة، واهتم للأمر

فقالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحَيْرَةٍ: أَيا أَبَتِ اذْبَحْني ويَسِّرْ لهُ طُعْمَا

لما رآه ولده متحيراً قال له: اذبحني ووفر للضيف طعاماً

ولا تَعْتَذِرْ بِالعُدْمِ عَلَّ الذي طَرَا يَظُنُّ لَنا مَالاً فَيُوسِعَنا ذَمَّا

ولا تعتذر بالفقر، فلعل الذي طرأ علينا يظن أن عندنا مالاً فيوسعنا ذماً، فيملأ فمه بذمنا

فَرَوَّى قَليلاً ثم أَحجَمَ بُرْهَةً وإن هُوَ لم يَذبَحْ فَتَاهُ فَقدْ هَمَّا

تروى الأب، ثم أحجم، ولم يذبح ابنه، لكنه كان قد هم بذلك

وقَال: هَيَا رَبَّاهُ! ضَيْفٌ ولا قِرَىً بِحَقِّكَ لا تَحْرِمْهُ تَاللَّيْلَةَ اللَّحْمَا

قال الرجل: يا رب، ضيف ينزل بي ولا قرى عندي له!

بحقك يا رب لا تحرمه هذه الليلة من اللحم

فَبَيْنا هُمَا عَنَّتْ على البُعْدِ عَانَةٌ قد انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِها نَظْمَا

فبينا، أي فبينما، هو وابنه قد خرجا بعيداً إذ عنت لهما، عرضت لهما، عانة، سرب من حمر الوحش، وقد مشت بانتظام خلف مسحلها، فحلها

ظِمَاءً تُرِيدُ الماءَ فانْسَابَ نَحْوَها على أَنَّهُ منها إلى دَمِها أَظْمَا

الحمر عطشى تقصد الماء، فانساب نحوها بهدوء، وهو عطشٌ إلى دمها أكثر منها للماء

فَأَمْهَلَهَا حتى تَرَوَّتْ عِطَاشُها فأَرْسَلَ فيها مِنْ كِنانَتِهِ سَهْمَا

أمهلها حتى روت عطشها، ثم رماها بسهم من كنانته، من علبة سهامه

فَخَرَّتْ نَحُوصٌ ذَاتُ جَحْشٍ فَتِيَّةٌ قد اكْتَنَزَتْ لَحْماً وقد طُبِّقَتْ شَحْمَا

فخرت أرضاً نحوص، أتان وحشية، لها جحش، ولد، بجانبها، وهي فتية مكتنزة باللحم، وعليها أطباق من الشحم

فيَا بِشْرَهُ إذْ جَرَّها نَحْوَ أَهْلِهِ ويَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى

فيا لسعادته إذ جرها نحو أهله، ويا لسعادتهم لما رأوا جرحها دامياً

فَبَاتُوا كِراماً قد قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ فلم يَغْرَمُوا غُرمَاً وقد غَنِمُوا غُنْمَا

باتوا كراماً وقد كسبوا حمد الضيف وقاموا بواجبه

وبَاتَ أبوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَاً لِضَيْفِهِمُ والأُمُّ مِنْ بِشْرِها أُمَّا

وبات أبوهم وكأنه أب للضيف، وأمهم من بشاشتها كأنها أم للضيف

١١ الخنساء

أَعَيْنَيَّ هَلَّا تَبْكِيَانِ على صَخْرِ بِدَمْعٍ حَثيثٍ لا بَكِيءٍ ولا نَزْرِ

ابكيا يا عيني على أخي صخر بدمع حثيث، سريع، لا بكيء، قليل، ولا نزر، قليل

فَتَسْتَفْرِغَانِ الدَّمْعَ أو تُذْرِيَانِهِ   على ذي النُّهَى والبَاعِ والنَّائِلِ الغَمْرِ

أفرغا دمعكما واسكباه على رجل ذي نهى، عقل، وباع، قوة، ونائل غمر، سخاء غامر كثير

فَمَا لَكُمَا عن ذي اليَمِينَيْنِ ـ فابْكِيا   عليهِ مَعَ الباكي المُسَلِّبِ ـ مِنْ صَبْرِ

ليس لكما يا عيني صبر عن أخي صاحب اليمينين، المتصرف في الشؤون البارع، فابكيا عليه مع الباكي المسلب، اللابس سواداً

أَلَا ثَكِلَتْ أُمُّ الذينَ غَدَوْا بِهِ   إلى القَبْرِ، مَاذا يَحْمِلُونَ إلى القَبْرِ؟

ثكلتهم أمهم هؤلاء الذي غدوا به، ذهبوا به صباحاً، إلى قبره، أعرفوا ماذا يحملون إلى القبر؟

وماذا ثَوَى في اللَّحْدِ تحتَ تُرَابِهِ   مِنَ الخيرِ، يَا بُؤْسَ الحَوادثِ والدهرِ!

هل عرفوا ماذا ثوى، أقام، في القبر تحت التراب من خير؟ يا لبؤس الزمن!

مِنَ الحَزْمِ في العَزَّاءِ والجُودِ والنَّدى   لَدى مُلْكِهِ عندَ اليَسَارَةِ والعُسْرِ

أعرفوا ماذا ثوى في القبر من الحزم في العزاء، في وقت الشدة، والكرم؟ وكان سخياً في وقت اليسر والعسر

كأَنْ لم يَقُلْ أهْلاً لِطالِبِ حَاجَةٍ   وكَان بَلِيجَ الوَجْهِ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ

كأن أخي لم يرحب بطالب حاجة، ولم يكن بليج الوجه، مشرق الوجه، منشرح الصدر للأضياف

ولم يَتَنَوَّرْ نَارَهُ الضَّيْفُ مَوْهِناً   إلى عَلَمٍ لا يَسْتَكِنُّ مِنَ السَّفْرِ

وكأنه ما رأى ناره الضيف موهناً، ليلاً، وهي فوق علم، جبل، لا يستكن، لا يختبئ من السفر، من المسافرين. فأخوها كان يرفع ناره عالياً ليراها المسافرون في الصحراء فيأتوا إليه لكي يضيفهم

فَمَنْ يَجْبُرُ المَكْسُورَ أو يَضْمَنُ القِرَى   ضَمَانَكَ أو يَقْرِي الضُّيُوفَ كَمَا تَقْرِي؟

من يجبر المكسور، يصلح كسر من جارت عليه الأيام، ومن يضمن طعام الضيف مثلك؟ يقري: يطعم الضيف

وخَيْلٍ تَنَادَى لا هَوَادَةَ بَيْنَها   ذَبَبْتَ بِأَطْرافِ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ

رب خيل يتنادى فرسانها، ولا هوادة في الأمر فهي خيل مغيرة على القبيلة، ولكنك ذببتها، رددتها بأطراف الرماح الردينية السمر

صَبَحْتَهُمُ بِالخيلِ تَرْدِي كَأَنَّها   جَرادٌ زَفَتْهُ رِيحُ نَجْدٍ إلى البَحْرِ

صبحتهم بالخيل تردي، تسرع، كأنها جراد زفته، دفعته، ريح نجد نحو الفرات بحر العراق

فَشَأْنُ المنايَا إذ أَصابَكَ رَيْبُها   لِتَغْدُ على الفِتيَانِ بَعْدَكَ أو تَسْري

فلتفعل المنايا ما شاءت بعد أن أصابتك، ولتغد، لتصبح، أو تسري، تأتي مساء على الفتيان، أي ليمت بعدك من شاء

وقـائِلَـةٍ والـنَّـعْشُ يَـسبِقُ خَـطْـوَهـا   لِتُدْرِكَهُ: يا لَهْفَ نفسي على صَخْرِ

ورب قائلة والنعش يسبق خطوها وهي تريد اللحاق به: يا لهف نفسي على صخر

١٢ مجنون ليلى

تَذَكَّرْتُ لـيـلى والـسنينَ الـخَوالِيـا   وأيَّامَ لا نَـلْقَى عـلى الـلَّهْوِ نـاهِيـا

تذكرت ليلى في السنين الخوالي، الماضية، حين لم يكن ينهانا عن لهونا أحد

فَيَا لَـيْلَ كـمْ مِنْ حَاجةٍ لي مُهِمَّةٍ   إذا زرتُكُمْ في الليلِ لم أَدْرِ مَا هِيَا

ما أكثر ما كنت أزوركم في الليل وبي حاجة ملحة، لكنني لا أدري ما هي

فَـمـا أُشْـرِفُ الأَيْـفَـاعَ إِلَّا صَـبَـابَـةً   ولا أُنْـشِـدُ الأَشْـعـارَ إِلَّا تَـداوِيَـا

الآن لا أصعد المرتفعات إلا صبابة، هياماً، ولا أنشد الشعر إلا متداوياً به من حرقة الحب

خَـلـيـلَـيَّ لا والـلَّـهِ لا أمْـلِـكُ الـذي   قَضَى اللَّهُ في ليلى، ولا ما قَضَى لِيا

قَضَاها لِغَيْرِي، وابْتَلاني بِحُبِّها   فَهَلَّا بِشَيْءٍ غيرِ لـيـلى ابْـتَـلانِـيـا

وخَـبَّـرْتُـمـانـي أنَّ تَـيْـمَـاءَ مـنـزِلٌ   لِليلى إذا ما الصيفُ أَلقَى المَراسِيا

فَهذي شُهورُ الصيفِ عنَّا قد انقَضَتْ   فما لِلنَّوى تَرمي بِلـيـلى الـمَرامِيا

وجاء الصيف وراح، ولكن النوى، الفراق يرمي بليلى بعيداً عني

وقـد يَجمَعُ الـلَّهُ الـشَّتيتَيْنِ بعدَما   يَـظُـنَّـانِ كـلَّ الـظـنِّ أَنْ لا تَـلاقِـيـا

قد يجمع الله المتباعديْن بعد أن ظنا اللقاء مستحيلاً

فإن تَمْنَعُوا لـيـلى وتَـحْمُوا دِيَارَها   عَـلَيَّ، فـلـن تَـحْـمُوا عَـلَيَّ الـقَوافِـيا

إن منعني أهل ليلى من لقائها ومنعوا ديارها دوني،
فلن يمنعوا عني القصائد أقولها في التشوق لليلى

قصائد مشهورات

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

فهرس القوافي العام
القافية، فرقم القطعة، فالباب الذي تنتمي إليه

أبواب الكتاب: ١ امرؤ القيس، ٢ زهير بن أبي سلمى، ٣ النابغة الذبياني، ٤ الأعشى، ٥ حسان بن ثابت، ٦ الأخطل، ٧ الفرزدق، ٨ جرير، ٩ عمر بن أبي ربيعة، ١٠ جميل بثينة، ١١ بقية المعلقات، ١٢ المفضليات، ١٣ الأصمعيات، ١٤ الحماسة، ١٥ الوحشيات، ١٦ قصائد مشهورات

يضم هذا الكتاب زبدة الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي. قد انتقيت لك أجمل وأقوى الأبيات لأهم شعراء ذلك الزمن. ولاحقت لك الشعراء المغمورين بلا كلال، ناخلاً كتب الشعر القديم نخلاً، وكانت تلك المهمة اليسيرة. فأما المهمة العسرة فكانت الشرح. وقد شرحت شرحاً أصفه فقط بأنه شرح حقيقي، ذلك الشرح الذي لا يغشك بتفسير الكلمة السهلة دون الصعبة.

في الكتاب زبدة دواوين امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى وحسان والأخطل والفرزدق وجرير وعمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة.

وفيه المختار المنتقى من المعلقات العشر جميعاً. وفيه أجمل ما ورد في كتب الأدب الأصول: المفضليات والأصمعيات والحماسة والوحشيات.

وفيه فوق ذلك اثنتا عشرة قصيدة وجدتها أفلتت من كل ما سبق.

وقد ذيلت كل باب بفهرس للقوافي، وذيلت الكتاب بفهرس عام للقوافي.

- مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد كتاب «أول الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب المطبوع.
- تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي.
- مهندس الصوت: محمد ماضي





القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

2020
8.1.2020

عارف حجاوي



تألّق الشّعر

عصر المتنبّي

من ابن الرومي حتى سقوط بغداد

دار المشرق

تألُّق الشعر

عصر المتنبي.. من ابن الرومي حتى سقوط بغداد

عارف حجاوي



تألُّق الشعر

الـفـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر - إعـداد دار الـمـشـرق

حجاوي، عارف
تألُّق الشعر: عصر المتنبي.. من ابن الرومي حتى سقوط بغداد/عارف حجاوي.
٨١٥ ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

في هذا الكتاب ـ ضمن سلسلة الزبدة ـ يصل الشعر العربي إلى الذروة، وفيه يسترخي، فليس بعد بلوغ القمة إلا بدء الهبوط من الجانب الآخر.

يتوهج ابن الرومي، فإذا اكتهل سمع تشبيهات الأمير الشاب ابن المعتز، ويموت ابن الرومي قتيل طول لسانه، وبعده بسنوات قلائل يموت ابن المعتز قتيل طموحه. ثم تمضي سبع سنين ويولد المتنبي ويعيش نصف قرن، وفي كهولته يلمع نجم الأمير الشاب أبي فراس. يموت المتنبي قتيل طول لسانه، وبعده بثلاث سنوات يموت أبو فراس قتيل طموحه. وتمضي ست سنين ويولد المعري. وكان يجب أن يموت قتيل جرأته، لكنه عُمِّر إلى ما بعد الثمانين ومات على فراشه. وسننتظر مئة وثلاثين سنة لنشهد مولد البهاء زهير الذي مات شيخاً بالطاعون.

يبدأ الكتاب بابن الرومي، الشاعر الذي لزم مدينته بغداد لا يكاد يغادرها. كانت بغداد عاصمة الدنيا. ويصدق في تلك البغداد قول صمويل جونسون في لندن «إن مللت لندن فقد مللت الحياة، فلا شيء يمكن للحياة أن تعطيكه إلا وهو في لندن». وقد هضم ابن الرومي شعر عصره وكل عصر سبق عصره، وكان رجل لغة وثقافة وفكر وقلق. كان ابن مدينة، وابن العاصمة بالتحديد. وأخرج لنا شعره من قلب القلق والثقافة لا من قلب العذابات الرومنسية، فكان شاعر الفكرة والصناعة. وكان صاحب مزاج حاد، وأنفة شديدة. وكان من الطبقة الوسطى التي يتميز أبناؤها بالرغبة في البناء وبالحيوية والإيجابية وهم يصعدون السلم الاجتماعي، وبالرغبة في الهدم وبالخمول وبالسلبية وهم يهبطون. وكان ابن الرومي يهبط. امتلأت نفسه بالمرارة، وراح يحارب أي دفقة فرح تلوح في أفقه. وراح يهزأ بالناس وبنفسه، وكان له من خياله الجامح ومرارة قلبه ما يسَّر له أن يترك في ديوان العرب هجاء من أقذع الهجاء.

هذه النفس القلقة المتعالية على الأمراء والوزراء لم تستطع، وربما لم تسع إلى، أن تصل إلى عتبة أي خليفة. وقد رأى القاسم بن عبيد الله الوزير أن هذا الشاعر الذي يغشى مجلسه يكثر من تهديد ممدوحيه الآخرين، وكثيراً ما يُعقِب تهديده بهجاء يتندر به الناس في بغداد وغير بغداد، فتحسَّب منه.

ثم إن ابن الرومي هدد القاسم تهديداً خفيفاً، فأرسله إلى حتفه بخُشكنانجة (بسكوتة) مسمومة وللشاعر من العمر اثنتان وستون سنة.

عاصر ابنَ الرومي شاعرٌ أصغر منه بخمس وعشرين سنة، تربى في حضن أبيه الخليفة. هذا ابن المعتز. تقلبت الدنيا عليه في يفاعته ثم في شبابه، وابتعدت الخلافة عنه، ولكنه ظل يشزُرُها ويتمناها. غير أنه ولد شاعراً، وكان دارساً للشعر وللبلاغة، فقال أشعاراً حلوة، وعاش خمسين سنة قلقة، مر به فيها خمسة خلفاء، كل واحد منهم كان ينظر إليه نظرة توجس. ثم ابتسم الزمان له فصار خليفة في انقلاب. ثم حدث انقلاب مضاد مفاجئ بعد يوم وليلة، فضاعت الخلافة وضاع شاعرنا خنيقَ طموح خفي ظل يكتمه طول عمره.

بعد خنق ابن المعتز ببضع سنين ولد المتنبي. عدنا ثالثةً إلى القلق. إلى أعظم القلق. ولم يكن المتنبي ابن مدينة حقاً فقد شردته الكوفة إلى الصحراء فتى صغيراً؛ ولم يكن ابن ملك، بل يغلب الظن أنه ابن تاجر مياه من شريحة غير عالية في الطبقة الوسطى. وركَّب الله في المتنبي طموحاً، وركب فيه حمقاً يلائم الشعر. فإن كنت تبتغي شعراً عاقلاً فعليك بالقاضي الجرجاني وبالفقهاء الذين كانوا يتدفقون بشعر مصنوع تطل فيه الحياة برأسها في الشطر الأول وتموت في الثاني.

حقق المتنبي شهرة معقولة في صباه، ثم بسرعة طارت شهرته وأصبح أهم شاعر عربي، وعرف ذلك. لكنه طَموح.. أراد أن يصبح والياً. كان كالموظف الذي قضى عمره موظفاً، وقضى عمره يحلم بالأعمال الحرة، ومات موظفاً. قضى المتنبي سنوات حياته الخمسين يسعى لتحقيق «الاستقلال»، يريد أن يكون له مجلس يسلِّم فيه الناس عليه بأيها الأمير، وظل هذا حلماً. لقد تاق أبو تمام قبل بضع عشرات من السنين إلى بعض الراحة، ولم يكن شديد الطلب لمنصب، فنال منصب بريد الموصل ومات عليه؛ وقبله ببضع عقود تاق مسلم بن الوليد إلى بعض الراحة، وبكل يسر نال منصباً في جرجان، ومات عليه. ولكن المتنبي كان شعلة قلق وطموح، وكان أبلغ ما ناله من أمراء زمنه ضيعة صغيرة

قرب حلب أقطعه إياها سيف الدولة، لكنه هجرها ورحل بلا إذن، وذهب إلى خصم سيف الدولة. ذهب إلى مصر فمدح صاحبها وطلب منه ولاية فخيب أمله، فرحل وهجاه.

قضى المتنبي الخمسين سنة التي هي حياته قلقاً. لعله لو عاش عشر سنوات أخرى كان نال منصباً، أو كان بنى داراً كبيرة في الكوفة يعقد فيها مجلساً. لكن فاتكاً الأسدي عاجله بالسيف.

وقد عاصر المتنبي شاعرٌ أصغر منه بعشرين سنة. التقيا في بلاط سيف الدولة: رجلاً في الأربعين تتسامع الدنيا بشعره، وشاباً في العشرين يقول أبياتاً حلوة ويجد تشجيعاً من كبير النحاة في البلاط: ابن خالويه. وكان الشاعر الشاب أميراً. كان ابن عم سيف الدولة لحاً. هو أبو فراس الحمداني. تأثر بالمتنبي، لكنه كان شاعراً حقاً. قال بعض أشعار الفخر على الطريقة المتنبئية مع اختلاف في المعاني، فأبو فراس أمير ابن أمير، وأبوه وأعمامه أعادوا الخليفة إلى بغداد، وحكموا قطعة كبيرة من الدولة العباسية حكماً مستقلاً تمام الاستقلال، ولهم في حلب دولة وفي الموصل دولة.

ونكب أبو فراس نكبة لولا هي لما سمعنا به بأكثر مما سمعنا بالشاعر أبي العباس النامي. لقد أسره الروم، وبقي في أسرهم بضع سنين. فتفجر نبع الشعر. وقال أبو فراس «أراك عصي الدمع»، وقال غيرها شعراً كثيراً من أحلى الشعر. والآن حان الوقت لكي نقتله. لقد قتله طموحه.. فبعد أن افتُدي أبو فراس من الأسر مات أمير حلب سيف الدولة وتولى الحكم ابنه. وحاول شاعرنا وهو في السابعة والثلاثين من العمر أن يستقل بحمص، فكان في تلك المحاولة مقتله.

قد روينا في أبواب هذا الكتاب قصص حياة شعرائنا بشيء من التفصيل، فنكتفي هنا باللمحات.

بعد موت أبي فراس بست سنين، ولد في بلدة بين حلب وحمص أبو العلاء المعري. فتح عينيه في بيت علم وقضاء، ثم أغمضهما إلى الأبد وهو في الرابعة من العمر ليصبح أشهر أعمى في تاريخ العرب. أحب أبو العلاء المتنبي وعرف قيمته كما لم يعرفها أحد. ففي زمنه، وهو قد ولد بعد مقتل المتنبي بتسع سنين، كان حجاب المعاصَرة يستر عن بعض الناس، بعض الستر، روعة شعر المتنبي. فترى المتأدب منهم ينقب عن المعايب في شعر المتنبي ويتعقبه

بالنقد قايساً شعره بشعر القدماء. ولا كذلك أبو العلاء. كان له من سلامة الذوق ما جعله يطرب للمتنبي ويحفظ شعره. وسيعيش أبو العلاء ستاً وثمانين سنة، ولن نتمكن من قتله. سيموت على فراشه رغم أنه قال أشياء من شأنها أن تقتل عشرة شعراء. لقد شتم الدنيا والناس، غير أنه لم يسم المشتومين بأعيانهم، وتعرض للعقائد في مئات الأبيات، ولكنه نجا ببركة العمى أو ببركة عدم وجود قوة سياسية ثابتة في منطقته التي كان يتعاورها الفاطميون والحمدانيون ثم المرداسيون. ولم يكن أبو العلاء شاعراً فحسب. لقد تأنق في رسائله وكتبه النثرية، وكان يبارز في شعره ونثره أهل اللغة، ويجتهد أن يورد عليهم من عويصها ما يعجزهم. وقد أقروا له بالتفوق. ومثلما خطر ببال ملتون الإنجليزي أن يكتب ملحمة شعرية عن الدين في أحد عشر ألف بيت سماها الفردوس المفقود، خطر لأبي العلاء أن يكتب ملحمة شعرية عن الدين والدنيا في أحد عشر ألف بيت سماها اللزوميات.

روينا لك في بضع عشرات من الصفحات، في هذا الكتاب، قصة حياة أبي العلاء، ولا نزيد. غير أننا نحدثك قليلاً عن شعره. ونحن، بعد، في مقام شعر لا نثر. لقد أمسك أبو العلاء بطرف خيط تركه أبو العتاهية قبل مئتي سنة. ولئن كان شعر أبي العتاهية الزهدي كالماء العذب الذي تشربه فلا تحس أنك شربت شيئا، غير أنك ترتوي؛ فإن شعر أبي العلاء كان كجدول اللوغاريتمات تشربه فيثقل على معدتك وعلى رأسك. قد عاش أبو العلاء أوائل زمن اللعب باللغة، فلعب وأسرف. فلماذا إذن أوردنا عليك عشرات الصفحات من أشعاره؟ لأنه شاعر كبير. ولأن في شعره قفزات بديعة. حتى وهو يقلد المتنبي جاء بالروائع. أبو العلاء شخصية مستقلة لا تستطيع أن تقلد إلا في نطاق الشكل، ثم تحلق في جوها.

عاصر أبو العلاء شعراء كثراً، وكان المتنبي قد عاصر شعراء كثراً، ولكننا لم نتعرض في ذلك العصر لشعر أولئك الكثر، واكتفينا بالقمم. وأدخلنا أبا فراس بين المتنبي وأبي العلاء لأنه استحق برومياته أن يدخل. فأما الشريف الرضي فكان شعره مستوياً استواء صدَّنا عنه.

وسنرحل الآن عن أبي العلاء ونقطع مئة وثلاثين عاماً لنصل إلى شاعر كبير آخر.. وأخير في كتابنا. وقبل أن نقطعها رأينا أن نطل على الشعراء الآخرين في ذلك الزمن المتألق إطلالة سريعة، فأخذنا بضع مئات من الأبيات

لبضع عشرات من الشعراء من كتابيْ اليتيمة للثعالبي ودمية القصر للباخرزي.

ثم جئنا إلى هذا الشاعر الكبير، وهو مختلف كثيراً، وما أجدره أن يكونْ، بعد إذ قطعنا إليه مئة وثلاثين عاماً. ذلك هو البهاء زهير. هذا شاعر مصري. ها إن الشعر يرحل من الشام ومن العراق.. إلى مصر. لكن اختلاف البهاء زهير كان في أنه ترك الألاعيب اللغوية، إلا قليلاً، وانصرف إلى وصف الحياة والمجتمع، وإلى التحدث عن مشاعره. وفعل ذلك كله بفصاحة ورسوخ قدم في العربية، وبأرق وأسهل الألفاظ.

طربنا عندما رأيناه يختم عصراً سياسياً. ففي السنة التي مات فيها، ماتت الخلافة العباسية بدخول هولاكو بغداد، وماتت الدولة الأيوبية باستهلال العصر المملوكي. إذن فشاعرنا كان خاتم العصر العباسي كله. وبه يحسن أن نختم. على أننا لم نختر البهاء زهيراً لمجرد قعوده على طريق القافية. وآية ذلك أننا أخذنا له مئات الأبيات، وفرشناه على مساحة كبيرة من كتابنا. ولو كنا اخترناه لمجرد الرغبة في ختم العصر الشعري كي يتزامن مع ختام العصر السياسي لما كنا زدنا على بضع قصائد.

صحبنا البهاء زهير لأنه شاعر كبير. إن كنا وصفنا شعر أبي العتاهية بالماء العذب، فشعر البهاء ماء عذب معطر بالياسمين. هذا شاعر النسيم. تقرأ شعره فتعرف أخلاقه، وتعرف علاقاته وصداقاته، وتراه فصيحاً فصيحاً وسهلاً سهلاً. لو خيروك أن ترافق شاعراً من شعرائنا في الجزيرة النائية فلا نرى لك أن تختار على البهاء أحداً، ففي خلقه سماحة لم نجدها عند شاعر.

كنت قد كتبت وشرحت ابن الرومي والمتنبي قبل بضع سنين، ولعلك تلاحظ أنني في شرحي لهما أتخذ طريقة مختلفة عن شرحي لبقية شعراء هذا الكتاب. على أنني عدت وحررت ما كنت كتبت محاولاً أن يكون الكتاب قماشة واحدة، وهيهات. وستراني في المتنبي أشرح كل بيت لا أغادر صغيرة ولا كبيرة، وستراني في ابن الرومي أتقاعس، وكأنني أخاطب من له بمطالعة الشعر القديم بعض الدربة.

وستراني في مقدمات الأبواب كثير الشكوى من شراح الدواوين الذين يشرحون سهلاً ويهملون صعباً. لا، لم أفعل مثلهم، وقد كنت إذا وقفت ببيت مرتَج قصدت قصداً أن أكتب لك في ذيله أنني ألمح المعنى الفلاني ولكنني غير واثق الثقة كلها. على أنني كنت في هذا الكتاب، وفيما سبقه من هذه السلسلة،

وما سيتبعه ـ فكتابي هذا هو واسطة العقد سبقه كتابان وسيتلوه كتابان ـ صاحب مزاج. لم أكن محققاً شديد التتبع، ولا أكاديمياً من أولئك النفر الذين أناخوا على صدر الثقافة الأدبية وآذونا برُغائهم.

كلام آخر

أعبُر، وأنا أضع اللمسات النهائية على هذا الكتاب، مَخاضةَ مراجعة فكرية انتمائية موحلة.

أنت لا تقعد في المقعد الانتمائي الذي تختاره. أنت لا تختار لغتك ولا لهجتك، ولا معتقداتك، ولا المآكل التي تحبها. الآخرون يختارون لك.

رجعت من سكوتلندة قبل شهرين بحمل ثقيل من الكتب الاستراتيجية، جلها صادر في العام الحالي ٢٠١٦، أو الذي قبله. وكلها، ورغم الربيع العربي، يضعنا في «العالم الإسلامي». وجل هذه الكتب يشيد بتاريخنا الإسلامي المجيد. وكلها يوحي إليك أن العالم العربي، في الحاضر، فضلة.. زائدة دودية في الكرة الأرضية.

وتفكرت في شيء قاله رجل أجبرني الزمن على أن أعرفه وعلى أن أكون قريباً منه، وعلى أن أشقى كثيراً، وأنتفع قليلاً، بعلاقتي به. دخل حياتي كنيزك سقط في حديقة جاري، روعتني جلافته ولـمَّا يؤذني أقل أذى. ولئن كان النيزك يستقر في مكانه بريئاً بعد إذ يخرب ما يخرب، فإن صاحبنا أخذ يحتك بي. وطال أمد العلاقة. هو يعصف عصفاً، وأنا أتحاشى أذاه ما وسعني. أتأمله.. أراه قد صعر خده وملأ فمه بالهواء فانتفخت وجنتاه، وأراه وضع في عينيه تحديقة وقحة، أراه أشدق أحمق فاتكاً فتكَ أذى، لا فتك روبن هود ولا فتك عروة بن الورد، ثم قد يعصف به موقف من المواقف ـ وقال المثل القديم «إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً» ـ فيستكين استكانة ولد فوجئ ويده في علبة الحلوى، ثم يقفز قفزة حمقى فيتصدى ويكابر، ويغير أقوالاً قالها. هو نفاج يفاخر طولاً وعرضاً، ويعد ويخلف، وما أكثر ما يعد على غير نية الوفاء. خير كلمة تصفه أنه مثل حادث السير.. يعيش أصحابه معه عيشة السائقين الذين يقضون عمرهم ولا همَّ لهم إلا تجنب الارتطام. وقد يرتطمون. هذا الصاحب يقعد مع ثلة من أنصار الاشتراكية فيتغنى بالعدالة الاجتماعية، ويصخب عليهم ويعربد ويسرق الجلسة فكأنما يقول لهم: بل أنا أبو اليسار، ويقعد مع القوميين

فيتغنى بالعروبة، ويقعد مع جماعة الإسلام السياسي فلا تراه يتكلم إلا عن «الأمة»، ولا يكاد يسمح لهم بالكلام، فإن قال قائل من جلسائه في أي مجلس فكرة طريفة أنصت صاحبنا هنيهة، ثم انطلق متشدقاً يُلبس تلك الفكرة ثوباً من الثرثرة، وينتهي به الأمر سارقاً لها. وقد أدمن مجالسة أهل الإسلام السياسي لأن الأمر كان لهم في ذلك الزمان والمكان، فطال تشدقه بفتات الأفكار التي تنتهي إلى تمجيد الأمة. ويترك كلمة «الأمة» غارقة وسط ضباب كثيف من عباراته المنمقة، فلا تعرف أي أمة هي.

هذا الرجل قال، فض فوه، إن الأمة في عرفانه هي الأمة العربية الإسلامية. سمعتها منه، وقلت في سري: قد نطق أخيراً، وليته ما نطق. فمنذ عهد اليفاعة وأنا أسمعهم يقولون الأمة العربية الإسلامية.

غير أنني كنت في مخاضة فكرية. فوقعت هذه العبارة من ذهني موقعاً لم تكن تقعه في المرات الكثيرة السابقة. وشكرت لصاحبي المتشدق، الذي هو كالدمل أحمله في «رقعة من جلدي» قَوْلة بشار بن برد، أن ذكَّرني بما نسيت.

وأزعم أنني صرت أشبهه بعض الشبه في الأوان الأخير. ليس في فتكه ولا في عرامته، ولا في الأذى الذي يحيط بشخصه إحاطة الشذى بعقد الياسمين، أو إحاطة القذى بعين أرمد صحا من نومة طويلة.

صرت أشبهه في أنني أنتمي إلى الإسلام وأنتمي إلى العروبة معاً. وعروبتي عروبة اللسان، لا الدم. ولعلي أن أشبه نفسي بقرص التهديف الذي يستعملونه في الرماية. فنقطة الوسط في قرصي هي بلدي فلسطين. ولم أكن عرفت كلمة فلسطين حتى بلغت الحادية عشرة. ليس أنني نشأت في الشتات، فإنني نشأت في نابلس بفلسطين. ولكنني حتى تلك السن كنت أعيش في كنف الدولة الأردنية، وكان حراماً في مناهج الدراسة أن نعرِف أننا فلسطينيون، وكنا ننشد كل صباح «عاش المليك سامياً مقامه»، وندخل غرف الدرس ولا ذكر فيها لفلسطين. ولم يكن بيتنا قد تأثر بنكبات فلسطين تأثراً مباشراً، فلم يصلني من الثقافة السياسية في جو البيت شيء، إلا أننا ككل العرب كنا نحب جمال عبد الناصر. وأذكر جيداً في تلك الحقبة أنني كنت متحمساً ـ ربما بتأثير «صوت العرب» إذاعة القومية العربية وذراع عبد الناصر الإعلامية الممدودة إلى العالم العربي ـ لتحرير اليمن الجنوبي من قبضة الاستعمار البريطاني أكثر من حماستي لتحرير فلسطين.

ثم تمدد الظل الأسود للحلم اليهودي ليشمل مدينتي، وليستكمل احتلال فلسطين كلها، فصرت فلسطينياً رغم أنفي. لم تتغلغل فلسطين في أعماقي تغلغلها في نفوس من أصابتهم النكبة إصابة مباشرة. لكنني أصبحت لا أغفر لفلسطيني أن ينسلخ عن قضيته. وضعت فلسطين في عقلي، المسألة بالنسبة إلي أصبحت مسألة رجل أصابت رصاصةٌ أخاه، فهو لا يتركه.

تلك نقطة القلب، تلك أضيق دوائر الانتماء.

ودائرتي الثانية ـ على قرص التهديف، إن كنت ما زلت تذكر التشبيه ـ دائرة العروبة. وهذه الدائرة تتلخص في اللسان، وخير تعبير عن ذلك كلمة قالتها عمة صاحبي الأمية. كانت تسمي الببسي، ذلك المشروب، «دبسي». فالببس ليس موجوداً في عقلها اللغوي، والدبس موجود. ومثل الدبسي المعكرونة، فنحن في بلاد الشام نقحم حرف العين على اسم ذلك الأكل ونعربه تعريباً. العروبة عندي هي اللغة العربية.

أنا في هذه مثل لودفيغ الأول البافاري، الذي تناسى الحدود السياسية وضم في معبد عظماء الألمان «فالهاله» كل من نطق باللسان الألماني حتى لو كان إمبراطورة روسيا كاترينا، أو ملك الفرنجة شارلمان، فالمهم اللسان. وأنا مثل شاعر الإنجليز ووردسورث الذي قال «نعيش أحراراً أو نموت. . كل من نطق بلسان شكسبير»، ومثل تشرشل الذي جعل كتابه الذي أعطوه عليه جائزة نوبل للأدب تاريخاً للشعوب «الناطقة بالإنجليزية». لا غرو فأمه أميركية.

كثيراً ما ينسينا الانكباب على الجانب الاقتصادي، ونحن نبحث العلاقات بين الدول، ذلك الحبل السري الذي يربط بريطانيا بالولايات المتحدة. لم يقطع.

ودائرتي الثالثة هي الإسلام الذي بدأت كلامي بمسألة الانتماء إليه. هذا الانتماء حقيقي. هو انتماء إلى ثقافة عريضة يشاركني فيها المسيحي العربي كل المشاركة، رغم «التطهير الديني» الذي يحدث حدوثاً فادحاً في كثير من بلاد العرب بفعل الانغماس الغربي في المنطقة، وبفعل التشدد الديني. قد أجبرنا الغرب على أن نكون معسكراً إسلامياً حتى يلعب لعبة الحرب على الإرهاب، وأقبلنا على اللعبة بحماسة شديدة. وأراد الغرب ألا يكون هناك شيء اسمه الانتماء العربي، وأراد كثيرون منا ذلك، وراح المتشددون وبعض غير المتشددين يهزأون من «الوطنية» ومن «القومية» ومن «العروبة» ومن «المواطنة»

ومن «الديمقراطية». ولخصوا انتماءهم في كلمة واحدة هي «الأمة». وافهم ما شئت، ولكن الرجوعيين يفهمون من «الأمة» أنها الأمة الإسلامية التي تلغي كل دائرة داخلها. وفي هذا رجوع إلى زمن أيوبي مملوكي عثماني، ففي تلك العصور أوجبت أيديولوجيا الدولة على الكردي والتركي والعربي والفارسي والأفغاني والجركسي أن يكونوا يداً واحدة تواجه الغزو الصليبي، ثم الغزو الأوروبي لشمال إفريقيا، ثم الاستعمار الغربي. كان فكر ابن تيمية أداة أيديولوجية مفيدة. لكنه ليس تعبيراً عن حقيقة. . الفرس بقوا فرساً والأتراك أتراكاً والعرب عرباً والكرد كرداً.

وعندما تجددت الهجمة الغربية علينا في ثوب محاربة الإرهاب انتعشت المنظومة الأيديولوجية التيمية في العقول كأداة توحد، وللقصور الحنبلي في هذه الأداة أخذ مستعملوها الجدد يحاربون الشيعة والغرب معاً.

الناس خراف. قل لهم «الأمة» عشر مرات، وسوف تتصاعد من أشداقهم: ماء ماء.

وفي قومية عبد الناصر من الوهم قدر لا بأس به. ودعاة «المواطنة» و«الديمقراطية» و«الوطنية» يشكون من أوهام. ولا أقف من كل هذه الأدوات موقف الداعية الذي يريد تفنيدها كي يخرج في نهاية المطاف بفكرة يقول للناس إنها الفكرة الصحيحة. قد تراني أتخذ موقف الداعية عندما أتحمس للانتماء إلى اللسان العربي، لكنني - حتى في هذه - أدرك أن الكردي الذي أصبحت العربية لغته الأولى قد يكون انتماؤه الأول (نقطة الوسط في لوحة التهديف عنده) للقومية الكردية، وقل هذا في الأمازيغي والنوبي وفي ابن الإسكندرون الذي فقد بالتدريج كثيراً من لسانه العربي.

فهل بقيت بعد هذا نواة صلبة يحسن بنا أن نقول إنها تمثل «العرب»؟ قد بقيت فيما أحسب. ويجمع هؤلاء الناس اللغة والإرث الأدبي. . سمعت الموريتانيين والعمانيين وسمعت الناس الذين يقطنون الثمانية آلاف كيلومتر التي تفصل هؤلاء عن هؤلاء ينشدون شعراً لنزار قباني وللمتنبي ولمحمود درويش. ولكن الشامي لا يفهم وصفة طبخ في اليوتيوب تقدمها سيدة مغربية بالعامية؟ لا بأس، فالعاميات موجودة في كل الدنيا، ومع الزمن تتقارب أو تستقل لغاتٍ منفصلةً. ولست هنا داعية، بل مراقب.

قد يتحفنا القرن الثاني والعشرون بلغة مغاربية، ولغة مصرية، ولغة شامية،

ولغة خليجية. ويظل الجميع فاهماً للعربية الفصحى بعض الفهم، ثم في القرن الذي يليه قد تصبح الفصحى اختصاصاً أكاديمياً. لا بأس بذلك إن أراده الناس. وقد تتقارب اللهجات، وتنشأ لغة عربية بيضاء غاب عنها التشكيل واصطلح عليها العرب في مدارسهم وفي كلامهم. فأما أن نصبح كلنا متكلمين بكلام فصيح معرب فهذا ما عجزنا عنه من أيام عبد الملك بن مروان وابنه اللحانة الوليد، أي من ١٤٠٠ سنة، فلا داعي لتفاؤل كاذب. ولتضرب المجامع اللغوية رأسها بأقرب جدار، اللغة يصنعها الناس كيفما شاءوا.

وللتلخيص، فإن ازدواجية الانتماء العربي الإسلامي أمر واقع.

فلماذا أكتب هذه الأشعار القديمة وأشرحها؟

كي أتسلى لا غير، وكي أجد من يستمتع بها مثلي فنتسلى معاً.

قل لي من شق بطنَ اللاتينية فأخرج اللغة الفرنسية؟ الفرنسيون. ومن المسؤول عن انحراف الإسبان حتى أخرجوا من بطن اللاتينية لغة أخرى غير الفرنسية؟ ربما جبال البرانس. ولماذا استقل الإيطاليون بلغة ثالثة؟ ربما بسبب جبال الألب.

ولماذا ظل نحاة الإنجليز يضربون لغتهم بالعصا كي تستقيم على قواعد النحو اللاتينية؟ لأنهم رجعيون. ولماذا فشلوا؟ لأن اللغة يصنعها الناس لا النحاة.

قد أخذتك في جولة طويلة في تلافيف دماغي، شعرت أنا في آخرها بالدوار، فكيف بك!

إقفال حساب

كنت أنتظر دوري على مقعد في فرع المصرف ببلدة بيرزيت الفلسطينية، أريد إقفال حسابي لأنني سأقدم استقالتي من عملي مديراً لمركز الإعلام في جامعة بيرزيت. وهي الاستقالة الثانية من هذا العمل الذي قضيت فيه ما مجموعه سبع سنوات وخمسة أشهر. وقد تتعجب مني لأنني لا أدع فرصة للوقوع في الأكاديميين ونعتهم بأقبح النعوت إلا اقتنصتها، ثم إذا أنا أخبرك أنني قد عملت في هذا المجال طويلاً! قد عاشرتهم فعرفتهم.

ما رأيك ـ قبل أن نمضي في وصف استقالتي تلك ـ في حديث عن هؤلاء الأكاديميين.

استطراد

ابتعت كتاباً سميناً عن الشعر الجاهلي كتبه أكاديمي نعت نفسه بالأستاذ الدكتور. قلت في نفسي: ليكن ما يكون، ألا يورد علي بعض ما غاب عني؟ ألا يسد لي ثلمة في معرفتي؟ ألا يكون في هذه الصفحات التسعمئة فكرة؟ اشتريته. دفعت ذلك المال الحلال فنزل حراماً في جيب ذلك الناشر، وذلك الأكاديمي. لم أجد في الكتاب سطراً مفيداً. وخطرت ببالي فكرة عبقرية. أن أصنع برنامجاً إذاعياً اسمه «كلام فارغ».

إليك الحلقة الأولى من برنامج «كلام فارغ»:

(يقول عبيد بن الأبرص: «وكل ذي غيبة يؤوب/ وغائب الموت لا يؤوب»، فإن وجدت أيها المستمع في البيت تكراراً للغيبة والغائب، فإنك واجد فيه حلاوة الانتقال من العموم إلى الخصوص، وإن وجدت تكراراً في يؤوب ويؤوب فقد اكسبنا هذا التكرار حلاوة التصريع في وسط القصيدة، وذو الغيبة هو نفسه الغائب.. لكن لا.. هو غائب مؤقتاً فأما «الغائب» فهو غائب قد غيبه الموت. في بيت واحد وحيد.. بيت مفرد كالبعير المعبد.. لخص الشاعر بعبقرية، هي عبقرية اللغة العربية، المعاني الكثيرة. والعربية لغة الإيجاز. هي لغة «خير الكلام ما قل ودل». وانظر إلى هذه العبارة، وتأملها، أمعن النظر فيها وأرعها سمعك. أنعم النظر ودقق.. وحدق. واسمع وأصغ وأَصِخْ سمعك. خير الكلام.. أي أفضل الكلام، فلماذا لم نقل أخيَرُ الكلام.. هي عبقرية الإيجاز في هذه اللغة الشريفة. قد صغرت الكلمة بإسقاط همزتها، لكنها ظلت تؤدي المعنى أحسن أداء وأجمله وأوجزه. فهلا نظرت إلى هذه السجعة اللطيفة بين «قل» و«دل». هذه سجعة ختمت العبارة فكانت لها بمثابة السداد المحكم. وانظر إلى المد والاسترخاء في سوْق المسألة بدءاً.. خير الكلام ما.. وبعد هذا المد يأتي الحكم جازماً حازماً «قلَّ ودلّ» وانظر إلى هذين الحرفين المشددين كيف نَطَقا بالشدة والقوة والحزم ومثَّلا كل أولئك خير تمثيل. وسألفتك إلى مسألة أخرى هي مخارج حروف هذه العبارة العبقرية.. تبدأ العبارة بالخاء، ومخرجها من أقصى الحلق.. والخاء حرف له خرير، وهو ينبئ بأن ما سيأتي مهم.. «خير الكلام» وينتهي هذا القسم الأول من العبارة بحرف شفوي هو الميم.. وكيف تكون الانطلاقة إلى القسم الثاني.. من حرف الميم أيضاً ينذغم اندغاماً في الميم السابقة عليها «ما قل ودل» فكأن الميم هنا

والميم هناك اعتنقتا اعتناقاً كي تسبكا العبارة سبكاً في اللفظ وتجعلاها كلاً واحداً. فليسعَ أهل اللغات الأخرى وُسعهم حتى يأتوا بأقل ما تستطيعه العربية. إن سعيهم لشتى. ونعود إلى بيت عبيد بن الأبرص كي نستخرج منه عشر ميزات لم نوردها عليك فيما مضى..).

سأقطع الحلقة الأولى من هذا البرنامج الجديد عند منتصفها. كفى.

أرأيت إلى هذا الكلام الفارغ. هذا كلام شخص يستعرض معلوماته اللغوية ومفرداته، ويحاول أن يوقع في روع العوام أن ما يقوله عظيم. وأشهد أنني أحب بيت عبيد، وأحب العبارة المذكورة، ولكنني في الحلقة الأولى من برنامجي المبتدع ذاك كنت أتمايل غنجاً وتفاخراً وجهلاً.. جهلاً بأن لكل لغة في الدنيا فصاحتها. يستطيع أي دجال أن يصنع هذا الصنيع الفارغ بأي بيت شعر، أو أي حكمة.

قد فكرت جدياً في أي أسجل برنامجاً باسم «كلام فارغ» وأضع حلقاته على اليوتيوب. ثم خشيت شيئاً. خشيت أن يعجب به الناس. ففي الزمن البائد كنت كتبت لتلاميذي في تخصص الإعلام بالجامعة نصاً منمقاً خالياً من المعنى، وقرأته عليهم، ثم قلت لهم الآن انظروا إلى النص نفسه وقد تحول تحولاً كبيراً.. وقرأت عليهم نصاً آخر محكماً واضحاً هو عبارة عن صياغة محترمة للنص الأول، ويحتوي على المعلومة، وفيه العبارة الرشيقة وفيه الاحترام لذهن المستمع. وقلت لهم: ما رأيكم؟ وراعني أن بعضهم أحب النص الأول التافه الفارغ الذي ليس فيه معلومات، وبعضهم سكت ولم ير الفرق. (النصان موجودان في كتابي «الكتابة للراديو»، وهو ككل الأشياء موجود على النت). لا ألوم تلاميذي. بل تعلمت منهم أن الإذاعة ليست دفقاً من المعلومات بل هي أيضاً مداعبة بريئة لأذن المستمع تجعل هذه الأذن تعمل، دون تكليف العقل مشقة أن يعمل. وتعلمت منهم أن العرب يعيشون طفولة فكرية، وأنهم ما زالوا يطربون للفصحى كأنها أغنية، ولا يتخذونها أداة للفهم، ومطية للوصول إلى المعنى.

لكنني لا أغفر لذلك الأكاديمي الذي ارتقى إلى درجة عالية على سلم التفاهة، ما ناله مني من دراهم. لقد راح يتمطق في صفحاته التسعمئة بالعبارات الرخوة ويتمايل بغنج سخيف وهو يستعرض معلومات لا صلة لها بالموضوع.

هل ظننت أنني، وأنا أسوق لك عباراتي الجوفاء في برنامج «كلام فارغ»،

إنما كنت ألمز دعاة اليوتيوب الذين يفسرون الذكر الحكيم ويشنفون آذان مستمعيهم بإعراب بعض الكلمات، وببيان الوجه بلاغي هنا وهناك؟ لا. ليس مجرد لمز. كنت هامزاً، كنت أعنيهم مثلما كنت أعني ذلك الأكاديمي.

رجع إلى إقفال الحساب

كنت أجلس على المقعد في فرع المصرف منتظراً دوري لإقفال حسابي، فأنا سأقدم استقالتي. وقد استقلت في حياتي كثيراً، لذا لم أكن مبلبل الذهن ولا قلقاً من مسألة الاستقالة، على أن الانتظار على مقعد سيورثني القلق بعد قليل إن لم أشغل نفسي بشيء. أخرجت ورقة، وكتبت أبياتاً، وسأدعو هذه القصيدة «القصيدة الأسمنتية الثانية»، ذلك أنني في موقف انتظار مشابه كنت كتبت قصيدة باسم القصيدة الأسمنتية، وستراها عندما أشرح لك البهاء زهيراً:

ما حمَلتْني رجلِي إلى بلد ... إلا تشوَّفْتُ غيرَه بلدا
ولا توظَّفتُ في مؤسسة ... إلا بدا لِي أن أستقيلَ غدا
يا لِطباعي أسعى أشكِّلُها ... هيهاتَ إن الأسمنتَ قد جَمَدا
أبذلُ جُهدي لكي أغيِّرَها ... أعالجُ الميْتَ والعلاجُ سدى
غريزةُ النملِ لستُ تاركَها ... لَمْلَمةٌ لِيس تنتهي أبدا
أجمعُ مالاً ولا أُصمِّدُه ... إن ملكتْه يدِي فلا صَمَدا
وخِبرتي نُتْفةٌ إلى نُتَفٍ ... يحسَبُني بعضُ الناسِ مُجتهدا
مثلُ الفتاةِ اللعوبِ يُعجبني ... أن يخطِبوني، ولا أمدُّ يدا
فإن تسرَّعتُ رحتُ في قلق ... أسعى لِفسْخٍ ولم أَضِرْ أحدا
الاسْتقالاتُ موتُ مرحلةٍ ... كل امرئٍ يستقيلُ منفردا
كتبتُها اليوم كي أقدِّمَها ... قبل انتهائيِ من الدوام غدا

وبالفعل قدمت استقالتي في اليوم التالي.

الدوحة ٣ شباط/فبراير ٢٠١٧
٦ جمادى الأولى ١٤٣٨

عرفان..

لا أدري هل ومتى يطبع هذا الكتاب! أراحني من التفكير في الأمر صديقي محمد عبد العزيز الذي أخذ على عاتقه أمر النشر. وهو أحرص على كتابي مني، صنع لي هذا في كتابين سبقا هما «أول الشعر» و«تجدد الشعر». أعتز بمحمد عبد العزيز صديقاً، والشكر واجب.

وقد وقف بهذا الكتاب «وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه» صديق لي سخا بوقته عليَّ فصحح ما اعوج من كلامي. ذلك هو اللغوي المتمكن أحمد عبد الرحيم. فقد قرأ قراءة فاحصة، وصحح لي بضع مئات من الأخطاء ـ أظنها تجاوزت الألف ـ بعضها ناتج عن غفلة أو عجلة، وأكثرها ناشئ عن جهل. وزاد فناقشني في آراء أبديتها، وحاسبني في أخرى. وتعقب شرحي لكل بيت، وما أكثر ما جعلني أزيد في الشرح أو أعدِل به عن الوجه الذي كنت رأيته. وزاد فشاركني التمتع بالشعر مبدياً استحسانه أبياتاً كثيرة، وقد أشرت إلى ذلك في مواضعه؛ ذلك حتى أُحسِّس القارئ بأنه جالس معنا.

ما أكثر ما أقول في نفسي: ماذا لو لم يتح لهذا الكتاب أن ينال عناية ذلك الصديق؟ وتنتابني قشعريرة. بعد أن يفرغ المرء من كتابه يصبح أعمى. يقرأ مرة أو عشر مرات، وتمر به الأخطاء دون أن يراها.

لا أملك لأحمد عبد الرحيم ما يفيه حقه.

ابن الرومي
(٢٢١هـ ــ ٢٨٣هـ)

بائع الفواكه قد يشابه بائع الخضار في أنهما فقيران، ويسكنان في الزقاق نفسه، ولكن بائع الفواكه يخرج من بيته وهو متأنق أكثر قليلاً من بائع الخضار، فهو يتعامل مع زبائن مختلفين. يتعامل مع الأثرياء، ومع متوسطي الحال. ويتذلل لكل زبون بقدر ثرائه. ويعرض بضاعته أحسن عرض، ويمدح تفاحه وعنبه وبطيخه بلسان فصيح. ويعجبه الزبون الذي يدفع بسخاء، ولا يدنق. يعجبه الثري السخي، ويعجبه صاحب المنصب الكبير في البلد. فإذا كان الثري بخيلاً يكثر من المكاس تجهم له. بائع الفواكه غير بائع الخضار، فهو بائع ذو مزاج، يطرد السائلين شر طردة، ويصرف الفقراء صرفاً غير حميد، ويمنح كل زبون من الابتسام ومن التذلل ومن التجهم بمقياس دقيق. أما بائع الخضار فهو يرمي بالباذنجان في كفة الميزان، ثم يرمي الدراهم في صندوقه، ولا ينظر في وجه الزبائن.

الشاعر العباسي بائع فواكه. لا يستحي أن يطلب على قصيدته الثمن الملائم، وينظر إلى كل ممدوح بعين ثاقبة، فيحدد ثراءه، وسخاءه، ومنزلته. يتذلل بلا خجل لمن يرجوه أو يخافه، ويتجهم لمن يبخل ولمن يعد ويخلف.

وقد كرهت بائعي الفواكه كرهاً شديداً. (ملاحظة عابرة: لا اختلاف بين بائع فواكه في سوق البصل بمدينتي نابلس وبين بائع الفواكه في سوق لويشام بمدينة لندن). على أنني أتأمل، في الصور المنشورة على النت، فُروش بائعي الفواكه بألوانها الخلابة وبما يسلطون عليها من أضواء، وبترتيبها البديع، وأجد في ذلك متعة.

ومثلما تعجبنا الفواكه مصفوفة ملمعة بألوانها نستمتع بأبيات أولئك الشعراء

من بائعي الفواكه. يعجبنا الشاعر ذو المزاج، ونغفر له التذلل البغيض قانعين بما يضع في شعره من فنون القول.

ومن ذا قال إنه يجب أن نخنق كل بائعي الفواكه في البلد؟

ابن الرومي

ابن الرومي، عليّ بن العباس بن جُرَيْج، شاعر بغدادي شهد في طفولته أواخر الأمجاد، وسمع قصة وامعتصماه وقصيدة «السيف أصدق أنباء» وهو طفل؛ وبلغ المراهقةَ والخلافةُ في سامراء المجاورة بيد المتوكل، الذي كان يطوي بيده الأخرى أربعة آلاف جارية. قضى ابن الرومي شبابه الباكر فتى خجولاً يتعلم النحو والصرف ودقائق اللغة في مساجد بغداد، ويقرأ الكتب في دار الحكمة. يرى نفسه «مواطناً» في عاصمة أعظم دولة في الدنيا. وهو، كأغلبية المواطنين في بغداد، عربي اللسان أجنبي الدم. فأمه فارسية وأبوه المتوفى رومي.

لعل جده، كان من سبي المنصور أو المهدي، من أولئك الصبية الذين كان يؤتى بهم غنيمة في حروب الثغور. وقد كان ولاء العائلة لبني العباس، أهل بيت الخلافة. ولكن بني العباس عائلة تعد ثلاثة وثلاثين ألف نفس، حسبما أحصاهم المأمون في خبرٍ نقله المسعودي صاحب مروج الذهب، ومواليهم ربما كانوا أكثر من ذلك. فليس لابن الرومي في هذا الولاء كبير فخر مع هذه الكثرة.

نشأ ابن الرومي في زقاق من أزقة بغداد يتكلم مع أصحابه اللهجة البغدادية التي تُرصِّعها ألفاظ فارسية كثيرة؛ غير أنها لهجة عربية لا غبار عليها إلا ذلك الغبار الحضاري الناشئ عن اختلاط الأقوام، وعن تعايش أساليب حياة شتى في بوتقة. ويشك النقاد في أن يكون شاعرنا تعلم شيئاً من الفارسية، خلا تلك الكلمات التي كان يعرفها كل بغدادي.

عاصر ابن الرومي شيخوخة الجاحظ، وقرأ كتبه، وذكره في شعره. وقد تناهى إلى سمع هذا الفتى المتأدب، وهو في نحو الحادية عشرة، أن أكبر شاعر في البلد قد توفي (أبو تمام ت ٢٣٢). ثم اكتوى شاعرنا حسداً وغيرة من شهرة خَلَف الشاعر الراحل وتلميذه، البحتري، ومن نَفاق سوقه على الخلفاء والأمراء والكتاب؛ وهجا ابن الرومي البحتري حسداً، ثم جمع بينهما الناجم

تلميذ ابن الرومي فتعاتبا وتصالحا، وأقر ابن الرومي للبحتري، الذي يكبره بخمس عشرة سنة، بالشاعرية، وإن لم يسلِّم له بالتفوق. وكانت تطرق أسماع شاعرنا قصائد دعبل الخزاعي طريد الخلفاء، وقصائد علي بن الجهم، وفيما بعد قصائد الأمير الشاب ابن المعتز. وقرأ ابن الرومي أشعار أبناء الجيل السابق: بشار وأبي نواس ومسلم وأبي العتاهية. وعاش يناكف النحاة والنقاد، وله مع المبرد والأخفش الأصغر مواقف. ولا شك في أنه قرأ أشعار القدماء في دواوينهم التي صنعها معاصروه كأستاذه محمد بن حبيب وكأبي بكر الصولي. كانت هذه الدواوين تملأ دكاكين الوراقين، وكان الطلب عليها كبيراً. وليس بعيداً أن يكون اقتنى في بيته جمهرة القرشي التي كانت عقداً فريداً انتظم كبار قصائد شعراء الجاهلية والإسلام، أو كتاب فحول الشعراء لابن سلام الجمحي أو كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة. هذه الكتب خرجت من أيدي مؤلفيها إلى الوراقين والنساخ في شباب ابن الرومي. وقيل لنا إنه قرأ كتب المنطق والفلسفة المنقولة عن السريانية عن اليونانية.

لكن ما لا شك فيه أن ابن الرومي كان يعد نفسه معتزلياً؛ كان في هذه كاليساريين الذين تعلقوا بفلسفة ماركس بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. إذ إن الاعتزال كان قد فقد سنده السياسي بتولي المتوكل الخلافة وابنُ الرومي في نحو العاشرة من العمر. وابن الرومي لم يكن يحسن لبس العقيدة التي تناسب السلطان. كان قلقاً نزقاً قليل الصبر على المداهنة. كان في الحق شاعراً في مزاجه.

كان كالموظف الذي يقول لرئيسه اجعلني مدير فرع وسأريك كفاءتي، لكنه لا يقدم بشيراً بهذه الكفاءة الموعودة بين يدي الوظيفة المنشودة. ولأنه يدرك قصوره كان ابن الرومي ينصرف سريعاً عن مطالباته بـ «الأعمال» أي الوظائف، ويكتفي بأن يلح على الأمراء والكبراء طالباً المال. لا تكاد تجد له مدحاً خالصاً، فلا بد أن تكون قصيدة المدح مشوبة ببعض العتاب وبكثير من الإلحاف، وقد لا تخلو من تهديد مبطن، أو.. غير مبطن. والأمراء يثيبون على المدح لا على العتاب.

كان لابن الرومي زوجة وكان له أولاد. وقبل أن يموت، عن اثنتين وستين سنة، شيع أولاده وجل أهله إلى المقابر ورثاهم. ولقي في حياته محاولات من بعض الجيران للاعتداء على أملاكه البسيطة وشكا في شعره شكوى مرة.

لم يصل ابن الرومي إلى الخلفاء لأنه غير مأمون اللسان، ولا يحسن المجاملة.

كانت لابن الرومي هواية لا نعرف له سواها: النظم. يطيل القصائد تلبية لشهوة قرض الشعر. ويحكي في قصائده عن نفسه وخلجات قلبه. يسرف ويسف، ويتحول إلى ناثر منضبط بالوزن والقافية. رأيته في كثير من شعره شبيهاً بذلك الحوذي الذي حدثنا عنه أنطون تشيخوف: سائق عربة يجرها حصان، يتعب في يومه كثيراً، ويحاول مراراً أن يحدث الناس عن ابنه الذي مات قبل أسبوع. لكنْ، لا أحد يريد أن يصغي إليه. ويعود إلى الإسطبل بحصانه. ويحكي للحصان.. كل شيء.

ديوانه

لا يمل ابن الرومي الاعتذار عن الإطالة، لكنه يعتذر في عشرات الأبيات، وينفق عشرات الأبيات في هذر عجيب. فغير مستغرب أنه ترك لنا أكبر ديوان عرفه العرب. قال من أحصاه إنه تجاوز الثلاثين ألف بيت. وقد طبعه لنا بتحقيق جيد حسين نصار بدءاً بسنة ١٩٧٦ (عن الهيئة المصرية العامة للكتاب). واستوى الديوان ستة أجزاء كبار. فهل تريد أن تقرأها؟ لعلك تفضل هذا الباب من كتابي.

كنت قرأت في الزمن القديم ما اختاره كامل الكيلاني من ديوان ابن الرومي (سبعة آلاف بيت)، وقرأت القسم الذي طبعه الشيخ محمد شريف سليم من ديوانه، وانتخبت منه أبياتاً لدفتري. وقرأت كتاب العقاد (ابن الرومي: حياته من شعره) الذي حفل بمختارات من مختلف حروف الديوان، تضمنت أبياتاً لم يسبق أن نشرت. وأظن أن المازني والعقاد كانا يرجعان إلى مخطوطة الديوان في دار الكتب، وكان المازني ربما نسخ القصيدة تلو القصيدة من المخطوطة.

ثم عندما طبع الديوان كاملاً أقبلتُ عليه بشغف. فقرأته وتحيرت: كيف للمرء أن يختار من هذا البحر الزاخر أبياتاً لقارئ معاصر.

ولكن، ها أنت ترى أنني خرجت من حيرتي. قد اخترت لك، ونخلت ما اخترته بضع مرات.

وشرحت الأبيات: كنت بدأت أشرح شرحاً مستفيضاً ثم رأيت أن من

حقي على القارئ أن يشاطرني التعب فاقتضبت الشرح: فسرت الألفاظ بما يوفر على القارئ الرجوع إلى المعاجم، وفضحت المعاني الملتوية التي قد لا يحلها قارئٌ لم يبحر في الديوان مثلما أبحرت. واستعنت على هذا بالمعاجم لا غير. فأما الذين زعموا أنهم طبعوا شروحاً لديوان ابن الرومي فنحن نسدل عليهم الستر. بعضهم اجتهد وقصر، وبعضهم نسخ الديوان كما حققه نصار ثم زعم أنه شارح، وبعضهم فعل الفعلة الذميمة المعروفة: فسر الكلمة التي يعرفها ونعرفها، وأغفل ما سوى ذلك.

غايتك في التعرف على حياة ابن الرومي كتاب العقاد «ابن الرومي: حياته من شعره»، فما زال أحسن وأكمل ما كتب في الموضوع. وللمازني نظرات عميقة حيناً، طريفة حيناً، في حصاد الهشيم فرشها على مئة صفحة. ولمحمد النويهي تعليق طيب على قصيدة ابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط، ومناقشة عميقة لرأي العقاد في أثر الجينات اليونانية في شعر صاحبنا. فأما القدماء فقد أهملوا ابن الرومي إلا مقتطفات من شعره ظلوا يوردونها، وظلت تفرض نفسها عليهم، لأن الرجل مبتدع معانٍ، وكانوا يعجبون بالمعنى المبتكر.

هذه المختارات

أعجبني من أبيات ابن الرومي ما أعجب القدماء. والتفتُّ في شعره إلى مسألة وحدة القصيدة، وأغرمني ذلك اقتطاف أبيات كثيرة حتى تنجلي هذه الميزة. قد اعترضَ كم شئتَ من النقاد المحدثين على القول إن قصيدة ابن الرومي متماسكة منبنية على نهج «وحدة القصيدة»، والحق أن الرجل كان يصوغ العشرين بيتاً والثلاثين بيتاً صوغاً متماسكاً يخدم معنى واحداً. فقصيدته، إلا تكن وحدة فنية متكاملة، فهي مجموعة من القصائد المتحلية بمزية «وحدة القصيدة».

أحببت في شعر الرجل صدقه، وانجرافه وراء فنه، فهو يصنع القصيدة بعقله وقلبه معاً حتى عندما يكون في حالة من الحزن الشديد قاعداً يرثي ابنه. وأحببت في ابن الرومي سعة علمه باللغة، وكرهت ذلك في آن معاً. فهو يضع الكلمة في مكانها واعياً لمعناها المعجمي دقيقاً في استخدامها، ويسرف في استخدام صيغ صرفية صحيحة الاشتقاق ولكنها غير جارية في كلام الفصحاء. وأعجبني أكثر ما أعجبني أن صاحبنا يقول ما في رأسه، ولا يردد الرواسم.

وهو يصر على أن يقول الشيء كما فكر فيه، ويستعين على ذلك بقدرة لغوية نادرة المثال. ويصر على أن يفصل القول تفصيلاً، فلا يغادر في المعنى شيئاً. أعجبتني صراحته في العبارة عن مكنون نفسه واحتملت بذاءته في الهجاء، وربما ضحكت منها. وصاحبنا كان يكون في أحسن حالاته الشعرية هاجياً ساخراً شاتماً. ولم أغير سوى النقطة هنا وهناك فيما اقتبست من هجر القول، أُخفي بتغيير هذه النقطة تلك العوراء عن عين حدث أو رقيب. واستمتعت بوصفه للحياة اليومية: أكنت ترجو أن ترى شاعراً عاش قبل أكثر من ألف سنة يصف لنا طريقة إعداد الساندويتش بالتفصيل؟ نحتفل بذلك لندرته.

على أنه كان من واجبي أن أقصر هذه المختارات على نحو من ألف وخمسمئة بيت هي نحو خمسة بالمئة مما يضمه الديوان.

وأقول لك: هذه زبدة الزبدة. عرضت عليك ابن الرومي في قصائده الطوال الجياد، وجئتك بكل ما هو طريف ومشهور من قطعه الصغيرة، ولم أغادر قصيدة له إلا وقد أرهقتها درساً فاختياراً.

كنت أندم على اختيار هذا البيت أو ذاك فأعود فأسقطه، ثم أعود فأراه لازماً لإقامة سياق فأثبته مرة أخرى. وكنت أرى البيت الجميل واقفاً وحده فأسنده ببيت آخر. وكنت أرى نفسي اخترت عشرة أبيات أو عشرين تحتوي في داخلها بيتين طريفين بعض الطرافة فأعود وأسقط الأبيات كلها.

قد تعبت تنخيلاً. وما تراه هو النتيجة.

شكلت الكلمات بيدي وراجعتها مراراً. ولست آمن أن تكون فتحة أو ضمة قد وقعت في غير موقعها. كما لست آمن أن أكون فهمت بيتاً على غير وجهه. على أنني اجتهدت. وقد صححت ـ في هذه المختارات وحدها ـ عشرات الأغلاط المطبعية وغير المطبعية التي انتثرت في الديوان. وقطعت البيت شطرين في المكان الذي يجب أن يقطع فيه، وهذا أمر اضطرب فيه محقق الديوان في مواضع كثيرة. على أنني حمدت للمحقق ذكره في الحاشية روايات المخطوطات المختلفة، وكم مرةٍ وجدت رواية الهامش تقوم بمعنى البيت دون رواية المتن. كان من حسن حظ هذا الديوان أن حققه عالم راسخ هو حسين نصار. وما ذكرته من هنات قليل جداً في جنب سعة علم ومتانة خلق الرجل اللذين تجليا في هذا التحقيق مثلما تجليا في جهود حسين نصار العلمية الأخرى.

قد صعب عليَّ أن أرتب المختارات بتسلسل زمني، ولم يكن ممكناً ترتيبها على الأغراض، لأن القصيدة الواحدة قد تحتوي عدة أغراض من مدح وهجاء وعتاب، فتركت الأبيات مرتبة على أحرف الهجاء؛ وصنعت فهرساً للأغراض، وآخر للأعلام. وسوَّدت بالحرف المشدد أبياتاً هنا وهناك لافتاً نظرك إليها، فهذه صفوة الصفوة. سوَّدت ما هو طريف، وما هو دقيق في معناه، وما هو جزل. وقد يكون الطريف بذيئاً، وقد يكون الدقيق عويصاً، وقد يكون الجزل غامضاً. وسميت كل قطعة باسم من عندي. وأعطيتها رقماً حتى يسهل الرجوع إليها، فأرقام الصفحات قد تتغير بنقل الكلام من برنامج حاسوبي إلى آخر.

وسوف أورد عليك الآن ما تيسر لنا من وقائع حياة ابن الرومي. وإمامي في ذلك كتاب العقاد وفصل كتبه أنيس الخوري المقدسي في كتابه «أمراء الشعر العربي في العصر العباسي». فأما ابن خلكان صاحب الوفيات، وابن رشيق صاحب العمدة، والقيرواني صاحب زهر الآداب، والعباسي صاحب معاهد التنصيص فلم يترجموا للرجل بما ينقع غلة أو يملأ قُلة، واكتفوا بالنتفة فالنتفة.

حياة ابن الرومي، علي بن العباس بن جُرَيْج، (٢٢١ ـ ٢٨٣)

ولد عام ٢٢١ في بغداد. جده جريج (أو جرجيوس) رومي، وكان الجد مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور. وأبوه مسلم، وقد نشأ نشأة أولاد المسلمين. والأرجح أن أباه مات وشاعرنا طفل. وكان له أخ أكبر منه كان شاعرنا يتخذه أباً، وعاش في كنف أمه التي ماتت وهو كبير ورثاها. وتزوج ومات له ثلاثة أبناء، وماتت زوجته، وربما كان تزوج امرأة أخرى، ولعلها ماتت في حياته أيضاً. وكانت له ضيعة صغيرة، وبيت أو بيتان. وخاض نزاعين كبيرين مع جارٍ تاجر ومع جارةٍ بشأن العقار. ولعل هذين كانا نزاعين صغيرين كبَّرتهما قصائد شاعرنا.

مدح أبا الصقر (إسماعيل بن بلبل) الشيباني الوزير، ثم عاتبه ثم هجاه. ومدح (عبيد الله بن عبد الله بن طاهر) أمير بغداد ومدح غيره من آل طاهر. وأذاقهم العتاب فالهجاء أيضاً. ومدح من آل وهب (القاسم بن عبيد الله)، وأكثر فيه القول مع عتاب شديد. ومدح وهجا غيره من هذه الأسرة. ومدح آل المنجم وعلى الأخص (علي بن يحيى). ومدح (آل المدبر)، و(آل نوبخت). وعندما نقول مدح فنحن نعني: طالبهم بالمال. فصاحبنا كان يمدح ببيت

ويطلب المال بعشرات الأبيات، ثم تنثال قصائده في العتاب واستنجاز الوعود، والتحذير، ثم التهديد. ثم يأتي الهجاء جارفاً كالسيل. ونظريته أن المدح لا يليق بالشاعر ولا بالأمير، فالشاعر الذي يطيل مدحه قليل الثقة بجود ممدوحه، والأمير الذي يعطي على المدح تاجر؛ وخليق بالكريم أن يكون كالسحاب يعطي بلا حساب وبلا أسباب. وابن الرومي في شعره شديد الإلحاف مليء القلب بالنكد والسخط. لا يمل كلمة هات. ويذكّر الكبراء والأمراء بوعودهم تذكيراً مملاً، ولا يندر أن يهدد تهديداً مبطناً سمجاً غاية السماجة (عندما تسمعه بأُذنَيْ الأمير صاحب الشأن)، ولكننا نرى في هذا التهديد طرافة لا مزيد عليها.

قال القدماء إن القاسم بن عبيد الله خشي أن ينقلب ابن الرومي عليه فيهجوه، فبادر وقتله بالسم. تلك قصة رددها الكثيرون. وقيل بل مرض ابن الرومي وهو في الثانية والستين من العمر ومات ميتة طبيعية.

قالوا إن ابن الرومي كان كثير التطير، يتشاءم من أحدب يراه جالساً على باب بيته فيمتنع من الخروج ويقضي نهاره في البيت. وذكروا عن طيرته قصصاً كثيرة، لا شك في أن بعضها حق. لكن صاحبنا لم يكن مصاباً بالذهان (البارانويا) فيما ظهر لنا من شعره. كان قلقاً فحسب.

لا نشايع النويهي والعقاد والمازني في تفسير نفسية ابن الرومي بالاستناد إلى الدراسات النفسية الحديثة. فنحن نعتقد أننا جميعاً مرضى نفسيون، وفي كل واحد منا عدد من الانحرافات النفسية. كل إنسان يتشاءم كثيراً أو قليلاً، وكل إنسان يؤمن بالغيبيات قليلاً أو كثيراً. على أن النصف الأول من القرن العشرين شهد نشاطاً في مصر في حقل الدراسات النفسية، فنشأت جمعيات لهذه الدراسات، وألفت وترجمت عشرات الكتب. وراح بعض الروائيين ـ واذكرْ إحسان عبد القدوس ـ يبنون رواياتهم لا على شخوص حقيقيين بل على حالات نفسية منمطة. وقد أثر هذا في الدراسات التي كتبت عن الشعراء القدامى، فأسرفت في التحليل النفسي، وفي تطبيق ما تيسر لأصحابها من معارف عن العلل النفسية على حيوات الشعراء القدامى.

نقول فقط إن ابن الرومي كان قلقاً قلق الشاعر والفنان. لم يكن قيادياً في شخصيته، ولكنه كان متمرداً، وكان ذكياً وواسع الاطلاع، وكان متهتكاً كعصره: مؤمناً يخاف يوم الحساب، وشديد الإقبال على ملذاته.

كان أكولاً نهماً. وكان يحب السماع حباً جماً، ويحضر مجالس القيان.

وقد عرفت بغداد عصرئذ بيوتاً تنعقد فيها مجالس الشراب والغناء، شيئاً كالملاهي الليلية في زمننا. وأنا أشبه هذا التشبيه مما رأيت في أفلام الأبيض والأسود لا أنني غشيت هذه الأماكن. على أن ابن الرومي كان حِلْسَ تلكم المجالس لا يكاد يفارقها. وكان له فيها ما لروادها من عربدة ومن عبث بالمطربات والمطربين. ولعله كان يدخل واغلاً متطفلاً في كثير من الأحيان مدلًّا بمعرفته صاحب الدار. على أنه كان يحب الغناء حقاً. وكان يتعشق الجواري، ويمنعه قبحه وشيبه وصلعه واكتهاله وفقره من تحقيق شيء معهن. لا نقول إنه كان عفًّاً ولا إنه لم يزنِ عمره؛ بل في شعره ما يُدحِض ذلك. كان شبقاً لكنه لم يكن فاتكاً. ولا ننتظر من شاعر رقيق أن يجمع الفتك والعرامة إلى الحساسية والرهافة.

كان، كمجتمعه البغدادي في ذلك الزمن، خليع عذارٍ. وسوغ له قوله بالاعتزال أن يستخف بنواهي الدين. فالدين عنده إيمان بالله وباليوم الآخر لا أكثر. كان فيه اجتراء على الدين، على أن زهدياته تشي بأنه كان مستمسكاً بالحد الأدنى من الإيمان. أما اليقين فلا نراه وصل منه إلى أبعد من العتبة.

عاش دنياه رائياً أن خير ما يصنع أن يعب من لذاتها أكبر قدر ممكن. وهو واقعي شهواني. المرأة عنده مثل الدجاجة المحمرة التي وصفها وصفاً مفصلاً يجعلك تشعر بالجوع. وحاجته إلى المرأة «حاجة ديك إلى دجاجة» بتعبيره. لا نراه أدمن الخمر وإن كان شربها كثيراً؛ ولا نشعر أنه مارس اللواط أو كانت به أُبنة، وإن رمى بهما مهجويه وفصل فيهما القول تفصيلاً.

أعود إلى نهم ابن الرومي. جاء في الأخبار قبل أسابيع ـ وأنا أكتب هذه الفقرة المقحَمة في ٢٧ يناير ٢٠١١ ـ أن علماء بريطانيين يرجحون أن النَّهَم، ومن ثم السمنة، يعودان إلى سبب جيني. وما دعاني إلى إقحام هذه الفقرة فراغي من قراءة رواية للصديق حكم عبد الهادي لا تزال في طور المخطوطة اسمها «سليمان الجائع» تصف، بجانب قيمتها الأدبية والتأريخية العالية، الشخص النهم وصفاً بديعاً. وبطل تلك الرواية يشابه شاعرنا كثيراً. فهو يجمع في روحه المتوثبة صفة الغورماند والغورميه معاً. والغورماند هو النهم الشره التِّلْقَامة، والغورميه هو المِذواق الذي يعرف طيِّب الطعام ويقبل عليه. سليمان الجائع، بطل الرواية، التهم في يوم واحد تسع كوسايات محشوات بالأرز واللحم المفروم وهو في الأسبوع الثاني من عمره ـ كذا شاعت الأسطورة ضمن

هذه الرواية التي تقص قصة شخص من لحم ودم عايشه الكاتب ـ ومضى في طريق النهَم حتى وفاته؛ على أنه كان مِذواقاً يأبى أن يأكل إلا ما أجيد طهوه. فنراه إذا قُدِّم له في بيت من بيوت الأقارب طعام على غير ما يهوى من التسبيك والإنضاج والتتبيل بأصناف الأفاويه التي ليس منها بد وبالمقادير التي لا يجوز أن تختل، أمسك عن طعام ذلك البيت إلى الأبد. ولا أجد في أدبنا العربي ما يشرح هذه الظاهرة بمثل ذلك الظرف وخفة التناول اللذين شرحها بهما حكم عبد الهادي، ولعله اتخذ أباه أساساً لبطل روايته.

وأقص عن أبي أنا قصة شهدتها: كان مقبلاً على البيت قادماً من عمله ظهراً، وقبل أن يدخل البيت، وعندما كان يسير بجانب الحديقة التي تفوح منها رائحة زهر الليمون، قال: «أمك لم تطيب الطبخة بجوزة الطيب». ومسحوق جوزة الطيب هذه يرش منه على الطبخة رشة صغيرة فحسب. فهذا والدي بلغ به التدقيق في شأن الطعام أنه شم «عدم» وجود جوزة الطيب في طبخة تقبع على النار بعيدة عنه بضع عشرات من الأمتار.

وأعود بك إلى سليمان الجائع. فقد شارك ابن الرومي في أنه كان شاعراً. وكانت قصيدته الأولى في تمجيد الفلافل، والفلافل في فلسطين كالطعمية في مصر، على أنه يعمل في فلسطين من الحمص المجروش لا من الفول المهروس. ولعمري، لفلافل كل بلد خير مقياس لذائقة أهلها الطعامية. فقد جربت في الدوحة ـ مغتَرَبي الحالي ـ فلافل خمسة أو ستة محلات، وما ارتضيت منها إلا فلافل «العكاوي» بعلامة سبعين في المئة، بل أقل. . ولكنْ أدركتني الرأفة عليه لأنهم هدموا قبل شهرين دكانه بل شارعه كله وهو «شارع الكهرباء» أبهى شوارع الدوحة.

لم ينشأ ابن الرومي فقيراً كل الفقر، ولكن موت أبيه وهو بعد صغير أدخل الأسرة في دوامة الفقر، فتنبهت حليمات التذوق في فمه، واحتفظت في ذاكرتها بطعم طعام أيام العز. فظل مشتاقاً إلى هذا الطعم يتسقطه، ويتنبه إلى حضوره أيان ثِقفه. وربما كان في جسمه ذلك الجين البريطاني المسؤول عن النهم، إن صدق ترجيح العلماء البريطانيين، ولا أحضك على تصديق كل خبر يرد على الصفحة الأخيرة من الجريدة. ولكنني، وقد قرأت نصف دستة من الكتب الرصينة والخفيفة في موضوع الريجيم والحمية، أظن أن ما قاله أولئك العلماء صحيح. غير أنني أستدرك بأنه قد لا يَصْدق على ابن الرومي. كان ابن الرومي

نهماً للطعام الجيد، يقع عليه في الفينة بعد الفينة في بيوت علية القوم فينال منه فيسرف في النيل. ولم يكن بطيناً، بل كان في الواقع أقرب إلى النحافة، ولذا يغلب على ظني أنه من فئة الغورميه: المذواق. وفي مختاراتنا هذه من ديوانه ست عشرة قطعة تشهد على هذه الحالة، فافحص عنها في فهرس الأغراض في ذيل الباب تحت كلمتي: طعام، ونهم.

كان شاعرنا متحللاً من الأعراف الاجتماعية ومن الأخلاق كما يعرفها الناس، وكان متبطلاً غير موفق حتى في صناعته الوحيدة: النظم. لم يفلح في تولي منصب يعتاش منه، وإن كان طلب مثل هذا المنصب. وفي شعره لم يكن ناجحاً في التكسب. فلم يصل إلى خليفة، ولم يبن البيوت ولا اقتنى الضياع، بل لعله ضيع بعض ما ورثه من ذلك. هو فعلاً إنسان فاشل.

لم يكن ابن الرومي رجل سياسة، لكنه كان يتشيع. يحب آل البيت مثل كل الناس من شيعة وسنة، ويغضب لأنهم يلقون صدوفاً من أبناء عمومتهم العباسيين. موقف مستغرب من رجل ولاؤه في بني العباس. لكننا سنرى بعد بضعة عقود أبا الفرج الأصبهاني، وهو من بقية بني أمية، يتشيع.

مات ابن الرومي عام ٢٨٣. لعله مات بنوبة من نوبات مرض السكر. وللعقاد في هذا تحليل طبي طريف. وقد تذكرْنا به تحليلاً طبياً آخر للعقاد عن العقاد: فعندما مرض العقاد في أخريات حياته أصر على تشخيص نفسه ومداواة علته، ولم يلجأ إلى الأطباء في الوقت المناسب كما يخبرنا أنيس منصور الذي يرى أن العقاد شطح كثيراً في تشخيصه، ومات بتلك المرضة.

لم أسرف في ذكر أغراض شعر ابن الرومي. فهذا ما تجده في الصفحات المقبلة. وأضربت عن تنقُّص الأكاديميين وأصحاب الرقاع المسماة شهادات الدكتوراه، لكنني قد أعود إليهم في أثناء الشرح.

كلمات أخيرة عن ابن الرومي وستة أبيات

فأما الأبيات الستة فقد وجدتها وأنا أطالع بعض الكتب، ولم أكن اقتبستها لك. فأعجبتني، فقلت: لا أريدها أن تفلت. وها هي:

قال ابن الرومي:

غَدوْنا إلى ميْمونَ نطلبُ حاجةً   فأَوسَعَنا منعاً وَجِيزاً بِلا مَطْلِ

وقال: اعذِروني إنَّ بُخلي جِبِلَّةٌ	وإنَّ يدي مخلوقةٌ خِلْقَةَ القُفْلِ

وقال:

وما قَتْلُ بعضِ الحيِّ بعضاً بِناهِكٍ	قُواهُ إذا ما جاءَ حَيٌّ يحارِبُهْ
وما لَطْمُ بعضِ الموجِ في البحرِ بعضَهُ	بمانِعِهِ تغريقَ مَنْ هوَ راكِبُهْ

وقال:

إنَّكَ لو تَسْمَعُ ألحانَهُ	تلكَ اللَّواتي ليسَ يعدُوها
لَخِلْتَ مِنْ داخِلِ حُلْقُومِهِ	مُوَسْوَساً يَخْنُقُ معتوُها

وأما الكلمات فهي أن الفن ساحة واسعة يحاول بعضهم تضييقها. يجدون ابن الرومي يمعن في النثرية فينفونه عن وطن الشعر. ونظن نثرية ابن الرومي من ميزاته. ويجدون ابن الرومي بذيئاً فيقولون هذا سباب وليس بشعر. وساحة الشعر فيها سباب وفيها تقوى وفيها كل شيء، وميزانها الصدق. وها نحن أتينا إلى ميزة كبرى لابن الرومي: الصدق. ولا نفسر ذلك، ولا نكتب فيه فقرة أخرى، بل ننبه عليه: الصدق الصدق.

ونعود إلى تشاؤمه فنقول. لعله كان متشائماً بعض الشيء، ولكننا أضربنا عن إطراف القارئ بما حيك حول تشاؤمه من خرافات، لأننا على يقين من أنها.. خرافات. فالتمسها إن أردت في كتب أخرى.

كان كثير الشكوى متنكداً من عيشته، وكان اضطرابه الحقيقي هو التفاوت ما بين مواهبه: ذكاء حاد، وقدرة فائقة على استخدام اللغة استخداماً حراً، وخيال واسع، ونقص فادح في موهبة «العلاقات العامة»، وكسل شديد؛ فهو على هذا قد امتلك ما يجب أن يمتلك ليكون شاعراً كبيراً، وقد كان. ولم يمتلك من النشاط ولا من القدرة على المداهنة، ولا من الكذب في المدح ما يجعله يقنع الأمراء باصطناعه.

وامتلك ابن الرومي الوقت. كان في حياته فراغ. لا يبرح بغداد، ويكره السفر. ولا يعالج من أمور الفلسفة والعقائد شيئاً، مكتفياً بالاطلاع عليها. ولا يقضي أوقاته في مجالس الأمراء نديماً أو جليساً، وما أكثر ما كان يرسل شعره مكتوباً في رقعة. كان يحضر مجالس اللهو والطرب، ويقضي نهاره يتسلى بكتابة الشعر. وأصبح النظم إدماناً، لذا أطال كثيراً.

هذه السلسلة

على مدى قرون كثيرة عاش تراث شعري لعله أطول تراث شعري متماسك يشبه بعضه بعضاً عرفته الدنيا، تراث شعري ذو أسس واحدة واضحة المعالم. حافظ عليه أهله بعناد وجمدوه تجميداً. تمسكوا ببحور الخليل كأنها العرض والشرف؛ كانوا يخرجون من جاهلية إلى إسلام إلى عصر ازدهار إلى عصر انحطاط إلى عصر إحياء وهم ممسكون بهذا التقليد الشعري المحدد لا يتركونه. وفي الخمسينات من القرن العشرين قرروا أن يتركوه. اخترعوا الشعر المرسل فشعر التفعيلة فالشعر الحر ثم قصيدة النثر. وما زال العرب متحيرين كيف يكتبون الشعر. ولكنهم على مدى السنوات السبعين الماضية (وأنا أكتب في أواخر سنة ٢٠١٠) ظلوا مصممين على هجر الشعر العمودي. هجروه نظماً وهجرته نفوسهم، وانطفأ إيقاعه في آذانهم. يقرأ الشاب في أيامنا البيت فيكسره ولا يحس بأنه كسره. ولا نصف هذه الحال التي نحن عليها اليوم مادحين ولا قادحين. هذا واقع وكفى. على أننا نرى في تراثنا الشعري ثروة وجدانية مهمة. ومن الجدير أن نقدمه للقارئ المعاصر في ثوب مناسب.

لقد نقل الشعر إلينا «الوجدان التاريخي» إن دق التعبير. اقرأ كتب المسعودي والطبري وابن الأثير وابن خلدون واليعقوبي في التاريخ وستعرف الكثير؛ ولكنك ستجد في الشعر معلومات أخرى غفلت عنها كتب التاريخ. ستجد فيه طريقة تفكير الناس في العصور المختلفة، وطريقة حياتهم، وتفاعلهم مع الأحداث. الشعر يُسِرُّ إليك بأمور غابت عن كتب التاريخ. ولا أظن أحداً من المؤرخين الذين ذكرتهم وصف لنا طريقة صنع الزلابية، ولا كيف يدحو الخباز رقاقته، ولا طريقة إعداد الساندويتش، ولا أن مترفي بغداد كانوا لا يجيزون لك أن تعض الخبزة بأسنانك ثم تغمسها في الطبق المشترك. كل هذا وصفه ابن الرومي، وكله موجود في مختاراتنا.

لا أزعم لهذه السلسلة ما ليس لها. هي ليست أكثر من مختارات. وحتى في شعرائها فهي كذلك. فلن تضم كل الشعراء ولا نصفهم ولا عشرهم. ستضم فقط من أعتقدُ أنهم أبرزهم. فأنا أختار الشعر بذوقي؛ وبذوقي أختار الشعراء أيضاً.

وأما التمثيل التاريخي فلا شأن لي به. قد أهمل قرناً أو قروناً ليس فيها شاعر عظيم. هذه سلسلة لكبار الشعراء لا لكبار الحوادث. كل ما أضمنه لك

أن أنفق ما تَقَرُّ به عيناك من نور عينَيَّ في تدقيق ما أختاره لك وتشكيله حتى يأتي صحيحاً تطمئن إليه نفسك.

الدوحة ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠
٢٥ ذو الحجة ١٤٣١

١ حميمية

يا حبَّذا ليلُ أيلولٍ إذا بَرَدَتْ فيهِ مضاجِعُنا، والريحُ سَجْواءُ

أيلول: سبتمبر، المضاجع: أماكن النوم، سجواء: ساكنة

وجَمَّشَ القُرُّ فيهِ الجلدَ، فائْتلَفتْ مِنَ الضَّجِيعيْنِ أَحْشاءٌ فَأَحْشاءُ

جمش: قَرَصَ، القر: البَرْد

٢ سماء الكرم

قال ابن الرومي في علي بن يحيى:

بِحَقِّكَ أمطرْتَ الوَرى، وبِحقِّهِمْ، لأَنَّهُمُ أرضٌ، وأنتَ سماءُ

الورى: البشر

٣ فائدة الجفون

ليس حَمْدُ الجفونِ في مَرْيِهَا النو مَ، ولا نَفْيِها أذى الأَقذاءِ

ليس حمد الجفون (سبب شكرنا لها) في مريها النوم (استجلابها النوم، فهي تستجلبه بالحيلة كما يحلب المرء الناقة قليلاً قليلاً)، ولا في إبعادها أذى الأقذاء (ما يقع في العين من قشة أو وسخة)

إنَّما حمدُها: إذا هِيَ حالَتْ بينَ طَرْفِ العُيونِ والبُغَضاءِ

البُغضاء: الثقلاء

٤ الموز.. ممم

وقال (في الحسن بن عبيد الله بن سليمان):

إنَّما الموزُ، حينَ تُمْكَنُ مِنْهُ، كَاسْمِهِ، مُبْدَلاً مِنَ الميمِ فَاءَ

تمكن منه: يصبح في حوزتك؛ أي هو (فوز)

يَـشْـهَـدُ الـلَّـهُ إنَّـهُ لَـطَـعـامٌ خُـرَّمِـيٌّ يُـغَـازِلُ الأحـشـاءَ

الخُرَّم: الناعم من العيش (لسان العرب)، والكلمة فارسية ولها في الفارسية المعاصرة وجود

لـو تَـكُـونُ الـقـلـوبُ مَأْوَى طعـامٍ نـازَعَـتْـهُ قُـلـوبُـنـا الأمْـعَـاءَ

٥ حوار مع العيوب

قال ابن الرومي يعاتب أبا القاسم التوزي الشطرنجي:

يـا أخـيٍ: أيـنَ ريعُ ذاكَ الـلِّـقـاءِ؟ أيـنَ مـا كـان بـيـنَـنـا مِـنْ صَـفـاءِ؟

ريع: ثمرة

كَـشَـفَـتْ مِـنْـكَ حـاجَـتـي هَـنَـوَاتٍ غُـطِّـيَـتْ بُـرْهَـةً بـحُـسـنِ الـلِّـقـاءِ

حاجتي التي أطلبها عندك كشفت لي عن هنوات (عيوب) كانت مغطاة بحسن اللقاء والبشاشة

تَـرَكَـتْـنـيٍ؛ ولـم أكُـنْ سـيِّءَ الـظـنِّ أُسِـيءُ الـظُّـنـونَ بـالأصـدقـاءِ

هذه العيوب تركتني (جعلتني) أسيء الظنون بالأصدقاء، ولم أكن قبلئذٍ كذلك

قلـتُ، لـمَّـا بَدَتْ لِعَيْنِيَ شُنْعَاً: رُبَّ شَـوهَـاءَ فـي حَـشَـا حَـسْـنَـاءِ

قلت، عندما ظهرت العيوب لعيني شنيعة: رب خصلة شوهاء (مشوهة) تكون مطوية في أحشاء خصلة جميلة (يعني العيوب مستترة في جوف بشاشة اللقاء)

لـيـتَـنـيٍ مـا هَـتَـكْـتُ عـنـكُـنَّ سِـتْـراً فَـثَـوَيْـتُـنَّ تـحـتَ ذاكَ الـغِـطـاءِ

الآن بدأ ابن الرومي يخوض حواراً مع العيوب. قلت للعيوب: ليتني تركتكن بستركن، فثويتن (مكثتن) تحت الستر

قُلْنَ: لـولا انْكِـشـافُـنـا مـا تـجـلَّـتْ عـنـكَ ظَـلـمـاءُ شُـبْـهـةٍ قَـتْـمَـاءِ

العيوب قالت: لولا ظهورنا لما انجلت عنك ظلماء (ريبة) الشبهة القتماء (القاتمة)

قـلـتُ: تَـالـلَّـهِ لـيـس مِـثْـلِـيَ مَـنْ وَدَّ ضَـلالاً، وحَـيْـرةً بِـاهْـتِـداءِ

قلت للعيوب: والله أنا لا أود الضلال والحيرة، بدلاً من الاهتداء للحقيقة.. ولكن..

غـيـرَ أنِّـي وَدِدْتُ سَـتْـرَ صَـديـقٍ بَـدلاً بِـاسْـتِـفَـادَةِ الأنْـبَـاءِ

لكنني فضلت أن أستر صديقي على استفادة (معرفة) الأنباء عن عيوبه

قُلْنَ: هذا هَوىً، فَعَرِّجْ على الحقِّ وخَـلِّ الـهَـوى لِـقَـلْـبٍ هَـواءِ

قالت العيوب: هذا هوى (ضلال)، فعرج على الحق (تعال للحق)، واترك الضلال لقلب هواء (قلب ضعيف)..

لـيسَ فـي الـحـقِّ أنْ تَـوَدَّ لِـخِـلٍّ   أَنَّــه الــدَّهــرَ كــامــنُ الأَدواءِ

فليس حقاً أن تود لخل (صديق) أن يبقى الدهرَ (طول الدهر) كامن الأدواء (مخفيَّ الأمراض)

بـل مِـنَ الـحـقِّ أنْ تُـنَـقِّـرَ عَـنْـهُـنَّ   وإلّا فــأنــتَ كــالــبُــعَــداءِ

تنقر: تفحص

إنَّ بحثَ الطَّبيبِ عنْ داءِ ذي الدَّا   ءِ لأُسُّ الـشِّـفَـاءِ قـبـلَ الـشِّـفـاءِ

بحث الطبيب عن سبب الداء هو أساس للشفاء

دونَكَ الـكـشـفَ والـعـتـابَ، فَقَوِّمْ   بِــهِــمَــا كُــلَّ خَــلَّــةٍ عَــوْجَــاءِ

دونك (خذ) الكشف عنا ـ العيوب ما زالت تتكلم ـ وخذ العتاب، وقوّم كل خلة (خصلة) معوجة

وإذا مــا بَــدا لــكَ الـعُـرُّ يـومـاً   فَــتَــتَــبَّــعْ نِــقَــابَــهُ بِــالــهَــنــاءِ

إذا ظهر لك العر (الجَرَب) فتتبَّع نقابه (مواضع انتقاب الجلد) بالهناء (القطران)

قلتُ: في ذاك موتُكُنَّ، وما الـمو   تُ بِـمُـسـتَـعْـذَبٍ لـدى الأحـيـاءِ

قلت للعيوب: في فعلي هذا موتٌ لَكُنَّ، وهل يجد الحي الموت عذباً؟

قلنَ: ما الـموتُ بالـكريهِ إذا كا   ن بـحـقٍّ؛ فـلا تَـزِدْ فـي الـمِـرَاءِ

قالت العيوب: الموت غير كريه بالحق، فلا تزد في المراء (الجدال). انتهى الحوار بين الشاعر وبين عيوب أبي القاسم. وهذه محاورة غريبة طريفة، تدل على خيال جامح، وعلى اجتراء من ابن الرومي على قول أشياء في شعره لم ترد في أي شعر قبله، هذا دليل على التفرد

يا أبا القاسمِ، الذي كنت أرجو   ه لِـدَهـري، قَـطَـعْـتَ متـنَ الـرَّجاءِ
لا أُجــازِيــكَ مِــنْ غُــرُورِكَ إيَّــا   يَ غُـروراً؛ وُقِـيـتَ سـوءَ الـجَـزاءِ

لا أجازيك (أردُّ عليك) بغرورك إياي (بخداعك إياي) غروراً (خداعاً)؛ وقاك الله الجزاء السيء

بل أَرى صِدْقَكَ الحديثَ، وما ذا   كَ لِـبُـخْـلٍ عـلـيـكَ بِـالإغْـضـاءِ

وما أراه هو أن أصدقك القول، وهذا ليس لأنني أبخل عليك بإغضاء الطرف على عيوبك. .

أنتَ عيني، وليسَ مِنْ حَقِّ عيني   غَـضُّ أجـفـانِـهـا عـلـى الأَقْـذاءِ

فأنت مثل عيني، وليس من حقها أن تغمض أجفانها على القذى (وسخ العين)

مـا بِـأَمـثـالِ مـا أَتَـيْـتَ مِـنَ الأمــ   ـرِ يَـحُـلُّ الـفـتـى ذُرَا الـعَـلـيـاءِ

ليس بمثل الأعمال التي قمت بها يبلغ المرء ذرا العلياء (قمم المجد)

ليس مَنْ حَلَّ بالمَحَلِّ الذي أنـ تَ بِهِ مِنْ سماحةٍ أو وفاءِ

ليس من هو في محلك العالي من السماحة (طيب النفس) والوفاء..

بَذَلَ الوعدَ للأخلَّاءِ سَمْحاً، وأبى بعدَ ذاكَ بَذْلَ الغَناءِ

هذا الشخص لا يبذل الوعود للأصدقاء بسماحة وكثرة، ثم يأبى بعد ذلك الغَناء (إعطاء ما يُغني ويسمن)

فغَدا كالخِلافِ: يُورِقُ للعيـ نِ، ويَأبَى الإثمارَ كلَّ الإباءِ

مثل هذا الشخص يصبح كشجر الخلاف (الصفصاف) يورق ولكنه يأبى أن يثمر

يا أخي! يا أَخا الدماثةِ والرقَّـ ـةِ والظَّرْفِ والحِجَا والدَّهاءِ

الحجا: العقل

رُبَّما هَالَني وحَيَّرَ عَقْلِي أَخْذُكَ اللَّاعِبِينَ بالبَأْسَاءِ

ربما (كثيراً ما)، البأساء (الشدة)

واحتراسُ الدُّهاةِ منكَ، وإِعْضَا فُكَ بالأقوياءِ والضُّعَفاءِ

وتدابيرُكَ اللِّطافُ اللواتي هُنَّ أخْفَى مِنْ مُسْتَسِرِّ الهَبَاءِ

اللطاف (الخفية)، مستسر الهباء (الهباء المستخفي)

بل مِنَ السِّرِّ في ضميرِ مُحِبٍّ أدَّبَتْه عقوبةُ الإفشَاءِ

بل إن تدابيرك وخططك الجهنمية في الشطرنج أكثر خفاء من السر في ضمير عاشق أفشى السر سابقاً وعوقب فتأدب، فهو يخفي السر بقوة الآن

فإِخَالُ الذي تُدِيرُ على القَوْ مِ حروباً دَوائـرَ الأَرْحاءِ

يخيل إليَّ أن ما تديره على اللاعبين حروب دائرة الأرحاء (حجارة طواحينها تدور)

وأظنُّ افْتِراسَكَ القِرْنَ فالقِرْ نَ مَنايا وَشيكةَ الإرْداءِ

ويهيأ إلي أن افتراسك القرن (الخصم) بعد الخصم منايا (ميتات) وشيكة الإرداء (سريعة الفتك)

وأرى أنَّ رُقْعَةَ الأَدَمِ الأحـ ـمَرِ أرضٌ عَلَلْتَها بِدِمَاءِ

أرى رقعة الأدم (الجلد) الأحمر، رقعة الشطرنج، كأرض المعركة وقد عللتها (سقيتها) بالدم

غَلِطَ الناسُ: لستَ تلعبُ بِالشِّطْـ ـرَنْجِ، لكنْ بأَنْفُسِ اللُّعَباءِ

والشطرنج لعبة نفسية حقاً. إذا أربكت خصمك وأوهمته شللت عقله عن التفكير في الخطوات البعيدة

لكَ مَكْرٌ يَدِبُّ في القومِ، أخفَى مِنْ دَبِيبِ الغِذَاءِ في الأَعْضَاءِ

مكرك في اللعب يتسلل لنفوس القوم بخفية كما يتسلل الغذاء في أعضاء الإنسان

أو دبيبِ المَلالِ في مُسْتَهَامِيـ ـنَ إلى غَايَةٍ مِنَ البَغْضَاءِ

أو يتسلل مكرك كتسلل الملل في نفوس المستهامين (العاشقين) بحيث يتحول العشق إلى أقصى البغض، لكن بالتدريج

أو مَسِيرِ القضاءِ في ظُلَمِ الغيْـ ـبِ إلى مَنْ يُريدُهُ بالْتِواءِ

ومكرك مثل سير القضاء والقدر في ظلمات الغيب (بدون معرفتنا فكأنه يسير في الظلام)، ليصل إلى المرء من طريق ملتوٍ

أو سُرَى الشيبِ تحتَ ليلِ شبابٍ مُسْتَحِيرٍ في لِمَّةٍ سَحْمَاءِ

ويشبه مكرك سرى (السير ليلاً) الشيب تحت ليل الشباب (الشعر الأسود)، وهذا الشباب مستحير (هادئ وادع) في لمة (شعر) سحماء (سوداء). يقول: إن الشيب يسير مستخفياً بينما الشباب مطمئن في كتلة الشعر الأسود غير عارف بما سيأتي عليه من مشيب

تَقْتُلُ الشَّاهَ حيثُ شئتَ مِنَ الرُّقْـ ـعَةِ، طَبّاً بالقَتْلَةِ النَّكْرَاءِ

تقتل الشاه (ملك الشطرنج) في أي مكان شئت من الرقعة، طباً (مغرَماً) بالقتلة النكراء الفظيعة

غيرَما نَاظِرٍ بِعَيْنَيكَ في الدَّسْـ ـتِ، ولا مُقْبِلٍ على الرُّسَلاءِ

ولا تكاد تنظر إلى الدست، ولا تقبل بوجهك على الرسلاء (الخصوم) بل أنت تلاعبهم وأنت مشيح بوجهك محدثاً الآخرين لقلة اهتمامك، ولثقتك بقدرتك

بل تَراها، وأنتَ مُسْتَدْبِرُ الظَّهْـ ـرِ بِقَلْبٍ مُصَوَّرٍ مِنْ ذَكَاءِ

ترى الدست وأنت تعطيه ظهرك، وتراه بقلبٍ (عقل) مخلوق من ذكاء صرف

والفؤادُ الذَّكِيُّ، لِلْمُطْرِقِ المُعْـ ـرِضِ، عَيْنٌ يَرى بِها مِنْ وَرَاءِ

وتُلَقَّى الصَّوابَ فيما سِوَى ذَا كَ، إذا جَارَ جَائِرُ الآرَاءِ

تلقى (تُعطى) الصواب، في غير الشطرنج، في حين يجور الجائر (المنحرف) من الآراء

فَتَرَى أنَّ بُلْغَةً، مَعَهَا الرَّا حَةُ، خيرٌ مِنْ ثَرْوَةٍ وشَقَاءِ

فأنت في الحياة ترى أن بلغة (قليلاً من المال) مع وجود الراحة أفضل من الثروة المصحوبة بالشقاء (التعب)

وقَدِيماً رَغِبْتَ عنْ كلِّ مَصْحُو بٍ مِنَ المُتْرَفِينَ والأُمَراءِ

كنت فيما مضى قد رغبت عن (ابتعدت عن) كل من يصاحَب من الأغنياء والأمراء

ورفضتَ التجارةَ الجَمَّةَ الرِّبْـ ـحِ، وما في مِرَاسِها مِنْ جَدَاءِ

ورفضت التجارة الكثيرة الربح، ورفضت ما في ممارستها من جداء (نفع)

لـم تَـبِـعْ طِـيـبَ عِـيـشَـةٍ بِـفُـضـولٍ دُونَـهـا خُـبْـثُ عِـيـشَـةٍ كَـدْرَاءِ

لم تبع العيشة الهنيئة بفضول (زيادات في المال) يكون دونها (قبل الوصول إليها) القلق والعيشة الكدراء (المكدرة)..

تَـعَـبُ الـنَّـفْـسِ والـمَـهَـانَـةُ والـذِّلَّـ ـةُ والـخـوفُ واطِّـرَاحُ الـحَـيـاءِ

وهذه العيشة المكدرة قوامها التعب والهوان وفقدان المرء حياءه في حضرة الأمراء

بـل أَطَـعْـتَ الـنُّـهَـى، فَـفُـزْتَ بِـحَـظٍّ قَـصَّـرَتْ عـنـه فِـطـنـةُ الأغـبِـيـاءِ

أطعت النهى (العقل) ففزت بحظ لم يفطن إليه الأغبياء

رَاحَـةِ الـنَّـفْـسِ والـصِّـيَـانَـةِ والـعِـفَّـ ـةِ والأمْـــنِ فـــي حَـــيـــاءٍ رَوَاءِ

فزتَ براحة النفس والصيانة (صون النفس عن المذلة) وعشت في حياء رَوَاء (عذب)

عـالِـمـاً بـالـذي أَخـذْتَ وأَعْـطَـيْـ ـتَ، حكيماً في الأَخْذِ والإعْطَاءِ

وأنت تعرف جيداً ما الذي اخترته، وكنت حكيماً

قـائـلاً لـلـمُـشِـيـرِ بِـالـكَـدْحِ: مَـهْـلاً! مـا اجـتـهـادُ الـلـبـيـبِ بَـعْـدَ اكْـتِـفَـاءِ؟

وقلت لمن يشير عليك بالكدح: ما فائدة اجتهاد العاقل وإتعابه نفسَه بعد نيله كفايته؟

مَـرْحـبـاً بِـالـكَـفـافِ يـأتِـي هـنـيـئـاً، وعـلـى الـمُـتْـعِـبَـاتِ ذَيْـلُ الـعَـفَـاءِ

مرحباً بالكفاف من العيش (ما يكفي فقط)، وعلى الأمور المتعبة ذيل العفاء (يجر ذيل العفاء: يتناسى)

ضَـلَّـةً لامْـرِئٍ يُـشَـمِّـرُ فـي الـجَـمْـ ـعِ لِـعَـيْـشٍ مُـشَـمِّـرٍ لِـلْـفَـنـاءِ

ما أضل المرء يشمر ساعديه يجمع المال لعيش، بينما هذا العيش يشمر ساعديه للفناء؟ فعمر الإنسان ينقضي يوماً فيوماً

دائـبـاً يـكـنِـزُ الـقَـنـاطـيـرَ لِـلْـوا رِثِ، والـعـمـرُ دائـبٌ فـي انـقـضـاءِ

هذا الشخص مواظب على اكتناز قناطير الذهب لكي يرثها الوارث. والقنطار كمية مختلف عليها لكنها في المال تعني الكثير الكثير

حـبَّـذَا كَـثْـرَةُ الـقَـنـاطِـيـرِ لـو كـا نـتْ، لِـرَبِّ الـكـنـوزِ، كَـنْـزَ بَـقَـاءِ

ما أحسن القناطير لو كانت لصاحب الكنوز كنزاً من البقاء، وزيادة في العمر

يَـحْـسَـبُ الـحـظَّ كـلَّـهُ فـي يَـدَيْـهِ وَهْـوَ مـنـه عـلـى مَـدَى الـجَـوْزَاءِ

صاحب الكنوز يحسب أنه حاز الحظ، والحظ بعيد منه بعد الأرض عن الجوزاء (نجوم في السماء)

لـيـس فـي آجِلِ الـنَّـعـيـمِ لَـهُ حَـظٌّ   ومَـا ذاقَ عـاجِـلَ الـنَّـعْـمَـاءِ

ويكون صاحب المال قد ضيع نصيبه في آجل النعيم (النعيم المؤجل = الجنة)، ولم يذق النعيم العاجل في الدنيا أيضاً

يـا أبـا الـقـاسـمِ الـذي لـيـس يَـخْـفَـى   عـنـه مَـكْـنُـونُ خُـطَّـةٍ عَـوْصَـاءِ

عوصاء: عويصة

ثَـقُـلَـتْ حـاجَـتِـي عـلـيـكَ، فـأضـحَـتْ   وَهْـيَ عِـبْءٌ مِـنْ فـادِحِ الأَعْـبـاءِ

ظُـلِـمَـتْ حـاجـتـي، فَـلاذَتْ بِـحَـقْـوَيْـ   ـكَ، فَـأَسْـلَـمْـتَـهـا بِـكَـفِّ الـقَـضـاءِ

ظلمت حاجتي (وضعت في غير موضعها) عند الآخرين فلاذت بحَقويك (استجارت بجانبيك)، فوضعتها أنت بكف القضاء بدل أن تصنع شيئاً

وقَـضـاءُ الإلَـهِ أَحْـوَطُ لـلـنَّـا   سِ مِـنَ الأُمَّـهَـاتِ والآبَـاءِ

قضاء الله أحوط (أكثر حماية) للناس من أمهاتهم وآبائهم، ولكن..

غـيـرَ أنَّ الـيـقـيـنَ أضـحَـى مَـرِيـضـاً   مـرضـاً بـاطِـنـاً شـديـدَ الـخَـفَـاءِ

لكن اليقين بأن يحمينا الله صار مريضاً مرضاً باطناً. فنحن البشر نقول بألسنتنا إننا نؤمن بحماية الله لنا، ولكننا في قلوبنا نشك في ذلك

مـا وَجَـدْتُ امْـرَأً يَـرَى أنَّـهُ يُـو   قِـنُ إلَّا وفِـيـهِ شَـوْبُ امْـتِـراءِ

ما وجدت شخصاً يظن أنه يوقن (يؤمن) إلا وجدت فيه شوب امتراء (مسحة من شك)

لـو يَـصِـحُّ الـيَـقِـيـنُ مـا رَغِـبَ الـرا   غِـبُ إلَّا إلـى مَـلـيـكِ الـسَّـمَـاءِ

وعَـسِـيـرٌ بُـلُـوغُ هـاتِـيـكَ جِـدَّاً؛   تِـلـكَ عُـلْـيـا مَـراتِـبِ الأنـبِـيـاءِ

كـنـتُ مُـسْـتـوحِـشَـاً، فـأظـهَـرْتَ بَـخْـسَـاً   زَادَنـي وَحْـشَـةً مِـنَ الـخُـلَـطـاءِ

كنت مستوحشاً (أشعر بحصار نفسي) فأظهرت أنت بخساً لحقي زادني وحشة من الناس الذين أخالطهم

وعَـزيـزٌ عَـلَـيَّ عَـضِّـيـكَ بِـالـلَّـوْ   مِ، ولـكـنْ أَصَـبْـتَ صَـدْري بِـدَاءِ

عزيز علي عضيك (أن أعضك) بلومي، لكنك شحنت صدري بالغضب

أنـتَ أَدْوَيْـتَ صَـدْرَ خِـلِّـكَ، فـاعـذِرْ   هُ عـلـى الـنَّـفْـثِ؛ إنَّـه كـالـدَّوَاءِ

أنت أدويت (أدخلت الداء) إلى صدر خلك (صديقك)، فاعذره على النفث (إخراج ما في الصدر من بلغم)، فهذا يريحه. يشبه العتاب بإخراج البلغم من الصدر

قد قَضَينا لُبانَةً مِنْ عِتابٍ   وجَميلٌ تَعاتُبُ الأَكْفاءِ

ها قد قضينا لبانة (حاجة) من عتاب. وجميل أن يتعاتب الأكفاء. لاحظ: بعد كل هذا العتاب الجميل البليغ المليء بالفن، نراه بكلمة واحدة يعيد رسم خريطة العلاقة: فهو وأبو القاسم من الأكفاء الأنداد المتساوين، ولا فضل لواحد على الآخر

ولكَ العُذْرُ، مِثْلَ قَافِيَتي فيـ   ـكَ اتِّسَاعاً، فَإِنَّها كالفَضَاءِ

لك العذر الواسع سعة قافيتي الهمزية هذه، فهي واسعة كالفضاء (ذلك أن الكلمات المنتهية بالهمزة كثيرة جداً يختار منها الشاعر ما يشاء)

وتَأَمَّلْ فإنها أَلِفُ المَدِّ ـ   لَها مَدَّةٌ بِغَيْرِ انتهاءِ

فألف المد لها امتداد لا ينتهي من حيث عدد الكلمات

والذي أطلَقَ اللِّسانَ فعاتَبْـ   ـتُكَ عَدِّيكَ أوَّلَ الفُهَماءِ

وما جعلني أعاتبك عديك (عدي إياك/أنني أعتبرك) أول الفهماء

إنَّ مَنْ لامَ جَاهِلاً لَطَبيبٌ   يَتَعاطَى عِلاجَ دَاءٍ عَيَاءِ

وأما الذي يلوم الجاهل فهو كالطبيب الذي يحاول علاج داء عياء (مستعص)، لذلك فعتابي لك دليل على أنني أعتبرك فاهماً ذكياً

٦ والأمراء أيضاً

﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ مَسَبَّةٌ   مِنَ اللَّهِ مَسبوبٌ بها الشعراءُ

هذا القول الوارد في القرآن مسبة للشعراء..

وما ذاك فيهِمْ وحْدَهُ بلْ زِيادةٌ:   يقولونَ ما لا يفعلُ الأُمَراءُ

وليس هذا هو العيب الوحيد فيهم، بل هم أيضاً يقولون ما لا يفعل الأمراء. يقصد أن مدحهم للأمراء كاذب، فالأمراء ليسوا أسخياء ولا شجعاناً

٧ الأمير ناقداً

وقال في محمد بن عبد الله بن طاهر، وكان صاحب شعر ونقد:

قد بُلِينا في دهرِنا بِملوكٍ   أدباءٍ ـ عَلِمْتُهُمْ ـ شُعراءِ
إنْ أَجَدْنا في مدحِهِمْ حَسدُونا   فَحُرِمنا منهُمْ ثوابَ الثَّناءِ
أو أَساْنا في مدحِهِمْ أَنَّبُونا   وهَجَوْا شعرَنا أشدَّ هِجَاءِ
قد أقاموا نفوسَهُمْ، لِذَوي المد   حِ، مَقامَ الأندادِ والنُّظَراءِ

٨ خجلان منك، ولكن.. هات

وقال يشكر ويستسقي نبيذا:

عـاقَـنَـا أن نَـعـودَ أنَّـكَ أَوْلَـيْـــ ـتَ أموراً يَـضـيـقُ عـنـهـا الـجَـزاءُ

عاقنا عن القدوم إليك أنك أوليت (أعطيت) الكثير مما يضيق عنه جزاؤنا لك بالشكر

غـمـرَتْـنـا مـنـكَ الأيـادِي الـلَّـواتـي مَـا لِـمِـعـشـارِهـا لـديْـنـا كِـفَـاءُ

الأيادي (الخيرات) منك غمرتنا، ولا نستطيع مكافأة عُشرها

فَـنـهـانـا عـنـكَ الـحـيـاءُ طـويـلاً ثـم قـد رَدَّنـا إلـيـكَ الـحَـيـاءُ

نهانا الخجل عن القدوم عليك، ثم إن خجلنا من الابتعاد عنك جعلنا نرجع

فـاسْـقِـنـا مِـنْ شـرابِـكَ الـرَّائـقِ الـعَـذْ بِ، ولا تَـحْـمِـنـا، سَـقَـتْـكَ الـسَّـمـاءُ!

ابعث لنا نبيذاً عذباً، ولا تحمنا (تمنعنا)، سقتك السماء (يدعو له بالسقيا.. دعوة مألوفة)

٩ ضحايا الطبيب

قال ابن الرومي في طبيب (واستفدتهما من نفح الطيب للمقَّري وليسا في الديوان):

أفـنَـى وأعـمَـى ذا الـطـبـيـبُ بـطِـبِّـهِ وبِـكُـحْـلِـهِ الأحـيـاءَ والـبُـصَـرَاءَ

أمات هذا الطبيب ناساً بطبه، وأعمى ناساً آخرين بكحله (تطبيبه العيون)

فـإذا مَـرَرْتَ رأيـتَ مِـنْ عُـمْـيَـانِـه أُمَـمـاً عـلـى أمْـواتِـه قُـرَّاءَ

١٠ لطف الله

وقال في القاسم بن عبيد الله:

كُـلُّ شـيءٍ أراهُ مـنـكَ بَـشـيـرٌ صَـدَّقَ الـلَّـهُ هـذهِ الـبُـشَـرَاءَ

كل ما يبدو منك بشير بخير، وأرجو أن يصدق الله هذه البشراء (جمع بشير) ويحول ذلك إلى أفعال

وإذا مـا مَـخَـابِـرُ الـنـاسِ غـابـتْ عـنكَ، فـاسْـتَـشْـهِـدِ الـوُجـوهَ الـوِضَـاءَ

فإذا اختفت مخابر الناس (حقيقة أمرهم)، فلك في وجوههم الوضيئة شاهد على تلك الحقيقة الدفينة، وكذا البشارة فهي إرهاص بوقوع الخير

قـد غَـدا يُـوسِـعُ الـرَّعِـيَّـةَ عـدلاً غـيـرَ أنِّـي لَـقِـيـتُ مـنـه اعْـتِـداءَ

ولكن هذا الممدوح أشبع الناس عدلاً، ولكنني لقيت منه اعتداء على حقوقي

كـان يَـأتـيِنِـيَ الـرسـولُ فَـيُـهْـدِي لـي سُـروراً، ويَـكْـبِـتُ الأعـداءَ

كان مبعوثه يأتيني فأُسرُّ به، وأكبت أعدائي (أغيظهم)

فَـقـطـعْـتَ الـرسـولَ عـنِّـيَ، ضَـنّـاً بـاتِّـخـاذِيـهِ مَـفْـخَـراً وبَـهَـاءَ

ثم إنك يا هذا الممدوح قطعت رسولك عني، كأنك تضن علي بأن أتخذ قدومه مفخرة وبهاء (مباهاة) أمام الناس

أنـت ذاكَ الـذي إذا لاحَ عَـيْـبٌ جـعـلَ الـسِّـتْـرَ دونَـه الإغْـضَـاءَ

وأنت إذا بدا عيب سترته بالإغضاء عنه

أنـا عَـارٍ مِنْ كـلِّ شيءٍ سوى فَضْـ ـلِـكَ، لا زِلْـتَ كُـسْـوةً وغِـطَـاءَ

أنا ليس لي سوى فضلك عليَّ، أدعو الله لك أن تظل كسوة وغطاء يقيني الفقر

يا لِقَوْمِ! أَأَثْقَلَ الأرضَ شَخْصِي؟ أم شَكَتْ مِنْ جَفَاءِ خَلْقِي امْتِلاءَ؟

هل أصبح جسمي ثقيلاً فوق الأرض؟ أم شكت الأرض امتلاءها من جفاء خلقي (ضخامة جسمي)؟

أنـا مَـنْ خَـفَّ واسْـتَـدَقَّ، فَـمَـا يُـثْـ ـقِـلُ أرضـاً، ولا يَـسُـدُّ فَـضَـاءَ

أنا قد خف وزني واستدق (نحُف) جسمي

إنَّ مِنْ أضعَفِ الضِّعَافِ لدَى اللَّـ ـهِ قـويّـاً يـسـتـضـعِـفُ الـضُّـعَـفـاءَ

وضعيف عند الله ذلك القوي الذي يستضعف الضعفاء

وتَـعَـلَّـمْ، مَـتَـى حَـمَـيْـتَ عـلـى عَـبْـ ـدِكَ تـلـكَ الـمـيـاهَ والأكْـلاءَ

وتعلمْ (اعلَمْ) متى حميت (عندما تمنع) عن عبدك الماء والأكلاء (الأعشاب/ يقصد القوت)..

أنَّ لـلَّـهِ غـيـرَ مَـرعَـاكَ مَـرْعـىً يَـرْتَـعِـيـهِ، وغـيـرَ مـائِـكَ مـاءَ

..أن لله مرعى غير مرعاك يرتعيه هذا المظلوم، ولله ماء غير مائك. والماء والعشب هما قوام حياة عرب الصحراء

وتَـيَـقَّـنْ، متى جَـنَـيْـتَ عـلـى عَـبْـ ـدِكَ ضَـيْـمـاً وضَـيْـعَـةً وعَـنـاءَ

تيقن عندما تجني على عبدك الضيم (الظلم) وتضيعه وتتعبه..

أَنَّ لـلَّـهِ بـالـبـريَّـةِ لُـطْـفـاً سَـبَـقَ الأمـهـاتِ والآبـاءَ

..أن لطف الله يسبق لطف الأمهات والآباء (مثل هذا البيت المدهش في سهولته لا يقع للشعراء بسهولة)

أنا ذو القصدِ، غيرَ أنّيِ، مَتى آ نَسْتُ جَوْراً، رأيتَ لي غُلَوَاءَ

أنا ذو القصد (صاحب اعتدال)، غير أني إذا آنست (لمست) جوراً فإن لي غلواء (اشتداد)

والغِنَى واسعٌ بِكَفَّيْ جَوَادٍ يَرْزُقُ الأغنياءَ والفقراءَ

الغنى عند الجواد (يقصد الله) واسع، والله يرزق الغني والفقير

ليَ خَمسونَ صاحباً، لو سَألْتُ الـ قُوتَ فيهِمْ ألْفَيْتُهُمْ سُمَحَاءَ

ولي خمسون صاحباً كلهم سمحاء (كرماء يسمحون بمالهم)

فَلْيَقُمْ كاشِحِي بِنَقْضِ الذي قُلْـ ـتُ، وإلّا فَلْيُطْرِقِ استِحْياءَ

فهلا قام كاشحي (عدوي الذي يضمر العداوة) بإثبات عكس ما قلت، أو ليطرق خجلاً

إنّني إنْ نَفَرْتُ أَمْعَنْتُ في النَّفْـ ـرِ، ومِثْلِي عَمَّنْ تَناءَى تَنَاءَى

إنني إذا نفرت (تمردت) أمعن في التمرد، ورجل مثلي يتناءى (يبتعد) عمن يبتعد عنه

والعلاءُ بنُ صَاعِدٍ قَبْلَ هَذا قد حَمَى دونَ رَائدِي الأَحْمَاءَ

وكان العلاء بن صاعد قد حمى (منع) دون رائدي الأحماء (منع رائدي الذي يذهب يبحث لي عن العشب من أحمائه - جمع حمى وهو مكان الرعي الذي يخصصه المرء لنفسه). يشبه نفسه بشيخ قبيلة بعث رائداً يرتاد له مكاناً معشباً للرعي، ولكن العلاء بن صاعد منع الرائد من دخول أحمائه (مناطقه الخاصة)

فَارْمِ بالطَّرْفِ شَخْصَهُ هَلْ تَراهُ؟ وادْعُهُ الدَّهْرَ هل يجيبُ دُعَاءَ؟

فارم بطرفك (انظر) إلى العلاء فهل تراه؟ لقد نكب، وادعه الدهرَ (ناده طول الدهر) هي يجيب نداءك؟

ليس إلّا لأنّني كنتُ شمساً قابَلَتْ منهُ مُقْلَةً عَشْواءَ

وما حدث له هو أنني كنت كالشمس، ولكنه لم يلتفت إلي وكانت مقلته (عينه) عشواء (ضعيفة النظر)

فأَرانِيهِ نَاصِرِي وأباهُ - ولهُ الحمدُ - مُثْلَةً شَوْهَاءَ

فأراني إياه ناصري (الله) - وأراني الله أباه أيضاً - مثلة شوهاء (جثة تم التمثيل بها وتشويهها)

أنا ذو صفحَتَيْنِ: مَلسَاءَ حَسْنَا ءَ، وأُخرى تَمَسُّهَا خَشْنَاءَ

خَاشِعٌ تارةً، وجَبَّارٌ اخْرَى فَتَراني أرضاً، وطَوْراً سَماءَ

لا بِحَوْلٍ، ولا بِقُوَّةِ رُكْنٍ غيرَ لُبْسِي تَجَلُّداً وحَيَاءَ

وأرى ذِلَّتِي تُرِيكَ هَوَانِي ودُنُوِّي يَزِيدُنِي إقْصَاءَ

أظن أن ذلتي تريك هواني (تجعل رأيك: أنني جدير بالهوان)، وأظن دنوي (اقترابي) يزيدني إقصاء من جانبك

ومتى مَا فَزِعْتُ منكَ إلى الصَّبْـ ـرِ فـنـاديْـتُـهُ أجـابَ الـنِّـدَاءَ

وإذا فزعت (التجأت) منك واعتصمت بالصبر وناديته فسوف يجيبني. وانظر ما صنع صبري بالعلاء، فقد صبرت عليه حتى حلت به النكبة

ومتى مَا دعوتُ رَبِّي على الدَّهْـ ـرِ، وظُلْمِ الخُطوبِ لَبَّى الدُّعَاءَ

١١ الساعي وراء الهجاء

وقال في خالد القحطبي:

يا خالدَ ابنَ الخالِداتِ مَخازِياً ماذا دعاكَ إلى اكتسابِ هجائي؟

الخالدات مخازياً: ذوات المخازي الخالد ذكرها

لما بدا لكَ أن خِزْيَكَ قد غَدا أُحدوثةَ الرُّكْبانِ والأمْلاءِ

الأملاء: جمع الملأ، وهو القوم. كقولك: أيها الملأ، أي أيها الناس

عرَّضْتَ للشعراءِ عِرْضَكَ عامِداً كيْمَا يُقالَ: تَكَذُّبُ الشُّعَراءِ

أنت تعرّض نفسك للشعراء لتنال هجاءهم حتى يقول الناس: إن كل ما نسمعه عنه تكذُّب (افتراء) من الشعراء

يا شاعراً يَهجُو نُسَيَّةَ خالِدٍ عَنْكَ الهِجَاءَ! كَفَاكَ بالأسماءِ

يخاطب ابن الرومي شاعراً افتراضياً: أيها الشاعر الذي يهجو نسية (نساء) خالد، عنك (دع عنك) الهجاء ويكفي فقط ذكر أسمائهن

أسماؤُهُنَّ هِجاؤُهُنَّ، ومَنْ يَقُلْ: أَفْعَى، يُبِنْ، لا شَكَّ، عنْ صَمَّاءِ

قل أسماءهن فقط فهذا هجاء لأن سمعتهن معروفة، والذي يقول عن الأفعى أفعى يبين (يشير) إلى صماء (أفعى مؤذية)

لا تَحْسَبَنَّكَ في هجائكَ تَفتَرِي ما لم يَجِئنَ به مِنَ الفَحْشاءِ

اهج كما تشاء، فهن قد جئن (فَعَلْنَ) كل ما تقول

١٢ إيوان كسرى

وقال في خالد القحطبي:

مَنْ يَكُنْ قَرْنُهُ كقَرنِكَ هذا فَلْيَكُنْ بابُه كإيوانِ كِسْرَى

نعت الرجل بأنه ذو قرن أو قرون كناية عن أنه منتهَك العرض. وإذا كان باب بيته مفتوحاً فهذا يحتمل أنه كريم سخي، أو أنه فتح بابه لطلاب اللهو. وقد عرفت بغدادُ تلك بيوتاً كان أصحابها يستقبلون الناس كي يلهوا بالجواري، وكان ابن الرومي نفسه كثير الغشيان لهذه البيوت. الإيوان: مجلس مفتوح من جهة واحدة لا باب عليها

١٣ سألعبُ بأشلائك

وقال في ابن الخبازة (وهو رجل فاضل صاحب شعر في الزهد. ومن قال إن ابن الرومي كان يهجو الأشرار!):

يا ابنَ بُورَانَ، يا جُعِلْتَ فِدَائِي، عِشْتَ في غِبْطَةٍ وفي نَعْمَاءِ

يدعو له ـ هازئاً ـ عاكساً الدعاء المألوف (بدل أن يقول «فديتُك» قال جُعلتَ أنت فدائي)

كيف أهجُو امرَأً كَريماً لئيماً واحدَ الأمِّ، خِلْفَةَ الآباءِ؟

خلفة الآباء: أي آباؤه كثر لِمَا تَعاوَرَ على أمه من رجال. في ذلك الزمن لم يكونوا متأكدين من أن الإنسان يولد من حيوان منوي واحد لرجل واحد

إنَّما أَستَطيبُ كَدَّكَ في شِعْـ ـرِكَ، يا ابْنَ الخَبَّازَةِ البَظْراءِ

البظراء: ذات البظر البارز، مسبة قديمة

فاهْجُنيِ؛ إنما هِجاؤُكَ عندي ضَحِكاتٌ تزيدُ في السَّرَّاءِ

أنا في غبطةٍ بها وسرورٍ مِلْءَ صدريِ، وأنتَ في بُرَحاءِ

برحاء: ألم شديد

أنا هاجِيكَ ما سَكَتَّ؛ ومُعْفِيـ ـكَ، إذا ما هجَوْتَني، مِنْ هِجائي

ليسَ يُنجِيكَ مِنْ يَدَيَّ سوى ذا كَ، ولوْ كنتَ في بُروجِ السَّمَاءِ

ويميناً لأَلْعَبَنَّ بِأَشْلا ئِكَ بينَ الإشْوَاءِ والإصْمَاءِ

الإشواء: عدم الإصابة في الصيد أو المعركة، الإصماء: الإصابة في مقتل

هاجياً، مادِحاً، ومُتَّخِذاً إيَّـ ـاكَ مَلْهَىً، وعُرْضَةَ اسْتِهزَاءِ

ملهىً: مادة للَّهو، عرضةَ استهزاء: هدفاً للسخرية

١٤ غناء كالعواء

ليسَ كالسُّكْرِ دواءٌ لِغِناءٍ كالدَّواءِ

فاسْقِنيِ عِشْرينَ رَطلاً لا تَشُبْهُنَّ بِمَاءِ

الرطل: مكيال للشراب، لا تشبهنَّ: لا تخلِطْهن

فلعلَّ السُّكْرَ يَكْفِيـ ـنيِ أَذَى هَذا العُوَاءِ

مَنْ رَأَى مُنْتَحِباً غَيْـ ـريِ على سُوءِ الغِناءِ

١٥ صانعة الشعراء

وقال في وهب بن سليمان:

ما لَقِينَا مِنْ ظَرْفِ ضَرْطَةِ وَهْبٍ! صَيَّرَتْ أهلَ دهرِنا شعراءَ

ما هذا الذي لقيناه من ضرطة الرجل الظريفة! لقد صيرت الناس كلهم شعراء (وقد وصف تلك الضرطة التي أفلتت من الرجل في مجلس الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان شعراء كثر من بينهم البحتري الذي قال فيها تسع قطع، وقصة هذه الريح مع أشعار كثيرة فيها لشعراء كثر موجودة في ثمار القلوب للثعالبي)

هيَ عندي كَجُودِ فَضْلِ بنِ يَحيى غيرَ أنْ ليسَ تَنْعَشُ الفقراءَ

الفضل بن يحيى البرمكي وزير الرشيد قتل قبل ولادة ابن الرومي بنحو أربعين سنة

١٦ كن ما شئت، تبق غبياً

وقال في المفضل بن سلمة (وهو لغوي فاضل، ومن قال إن ابن الرومي لم يهج الأفاضل!):

لوْ تَلَفَّفْتَ في كِساءِ الكِسائِي وتَلَبَّسْتَ فَرْوَةَ الفَرَّاءِ

الكسائي والفراء: نحويان

وتَخَلَّلْتَ بِالخليلِ، وأَضْحَى سِيبَوَيْهِ لديْكَ رَهْنَ سِبَاءِ

الخليل بن أحمد: رجل لغة ونحو، وسيبويه هو من تعرفون. ورهنَ سباء: أي مسبياً، مأسوراً

وتَكَوَّنْتَ مِنْ سَوادِ أَبِي الأَسْـ ـوَدِ شخصاً يُكْنَى أَبَا السَّوْدَاءِ

أبو الأسود الدؤلي: صاحب لغة

لأَبَى اللَّهُ أَنْ يَعُدَّكَ أهلُ الـ ـعِلْمِ إلَّا مِنْ جُمْلَةِ الأغبياءِ

١٧ وفرت حمدي عليك

وقال في إسماعيل بن بلبل:

أتيتُكَ لم أَشْفَعْ إليكَ بِشَافِعٍ ولو شئتُ كانَ الناسُ لي شُفَعَاءَ

ولَكِنَّني وَفَّرْتُ حَمْدِي بِأَسْرِهِ عليكَ، ولم أُشْرِكْ بِكَ الشُّرَكاءَ

نَداكَ مَعِينٌ، كالذي قد عَلِمْتَهُ، ولوْ كان غَوْراً لالتَمَسْتُ رِشَاءَ

معين: ماء فائض، كالذي قد علمته: يعني أنك تعرف عمقه وغزارته، غور: غائر قليل الماء، رشاء: حبل. يقول للممدوح: كرمك فائض، كما تعلم، ولو كان كرمك بئراً قليلة الماء لطلبت حبلاً أنتشل الماء به، وعلى هذا فأنا لم أشفع لك بشافع لوفرة كرمك

وهــذا شِــتَــاءٌ قــد أَظَــلَّ رِوَاقُــهُ　　وجَــارُكَ جَــارٌ لا يَــخــافُ شِــتَــاءَ

جارك: المستجير بك، وليست الجيرة المكانية

١٨ النرجس

وإذا مـا تَـحَـلَّـتِ الأرضُ بـالـنَّـرْ　　جِسِ بَـاهَـتْ بـه نـجـومَ الـسـمـاءِ

١٩ ما قلَّ ودلَّ

كــلُّ امــرِئٍ مَــدَحَ امْــرَأً لِــنَــوالِــه　　فــأطــالَ فــيــه فــقــد أرادَ هِــجــاءَهُ

لَوْ لـمْ يُقَدِّرْ فـيه بُعْدَ الـمُـسْتَقَى　　عــنــدَ الــوُرودِ لــمَـا أطـالَ رِشَـاءَهُ

الذي يطيل قصيدة المدح يكون كمن يهجو، وهو مثل المستقي من بئر يقدر أن ماءها قليل فيطيل رشاءه (حبله)

غَيْري. فإنِّيَ لا أُطِـيـلُ مَدائـحـيِ　　إلَّا لأُوفــي مَــنْ مَــدَحْــتُ ثَــنــاءَهُ

وأَعُـدُّ ظُـلْـمـاً أَنْ أُقِـلَّ مـديـحَـه　　عَـمْـداً، وأَسْـخَـطُ إنْ أَقَـلَّ عـطـاءَهُ

٢٠ المعجب برأيه

وقال في ابن المسيب:

أبــو الــحــســيــنِ مُــعْــجَــبٌ بِــرَائــهِ　　لا يــقــبــلُ الــشــورى مِــنَ اصْــدِقــائــهِ

برائه: برأيه

فَــلَــعْــنَــةُ الــلَّــهِ عــلــى إخــائــهِ　　وأَدْخَــلَ الأَجْــرَدَ فــي وَجْــعَــائــهِ

الأجرد: ذلك الشيء، الوجعاء: الدبر

٢١ العَوْسج

عَـذَرْنـا الـنـخـلَ فـي إبـداءِ شَـوكٍ　　يَـذودُ بــه الأنــامــلَ عــنْ جَــنــاهُ

جناه: ثمره

فـمـا لِـلْـعَـوْسَـجِ الـمـلـعـونِ أبـدى　　لــنــا شــوكــاً، بــلا ثــمــرٍ نــراهُ

العوسج: نبت شوكي

تُــراهُ ظَــنَّ فــيــهِ جَــنَــىً كــريــمــاً　　فــأظــهــرَ عُــدَّةً تَــحــمــي حِــمَــاهُ؟

فـلا يَـتَـسَـلَّـحَـنَّ لِـدَفْـعِ كَـفٍّ كَـفـاهُ لـؤمُ مَـجْـنـاهُ، كـفـاهُ

مجناه: ثمره

٢٢ لا صديق إلا بعد التجربة

صَـرَّحَـتْ عَـنْ طَـويَّـةِ الأصـدقـاءِ واضِـحَـاتُ الـتَّـجْـريـبِ والإبْـتِـلاءِ

طوية: حقيقة المرء وضميره، الابتلاء: التجريب

وخَـبِـيءُ الـفـؤادِ يَـعـلَـمُـهُ الـعـا قِـلُ، قـبـلَ الـسَّـمَـاعِ، بـالإيـمـاءِ

وظُـنـونُ الـذَّكِـيِّ أنـفـذُ فـي الـحـقِّ سِـهـامـاً مـنْ رُؤيـةِ الأغـبـيـاءِ

توقعات الذكي، دون أن يرى بعينه، أقرب إلى الحقيقة من رؤية الغبي عياناً

لا يَـغُـرَّنَّـكَ الـمُـمَـاذِقُ بـالـظَّـا هِـرِ فـي حـالِ مُـدَّةِ الإلْـتِـقَـاءِ

المماذق: المخادع

عَـبْـدُ عَـيْـنٍ فـإنْ تَـغَـيَّـبْـتَ عـنـه أَكَـلَ الـلَّـحْـمَ، وارْتَـعَـى فـي الـدماءِ

عبد عين: العبد الذي لا يشتغل إلا وعينك ترقبه، ارتعى: رعى العشب في الأصل

إنما الصاحبُ: الذي يحفَظُ الصَّا حِـبَ فـي كـلِّ شِـدَّةٍ ورَخـاءِ

٢٣ استغفار

وقال في امرأة خالد:

لَـوْ أَنَّ رِجْـلَـيْ عِـرْسِـهِ يَـداهـا مـا أَخْـطَـأَتْـهُ رحـمـةٌ تَـغْـشَـاهـا

عرسه: زوجته

مَرْفُوعـةٌ تـحـت الـدُّجـى رِجْلاهـا كـأنـمـا تَـسْـتـغـفِـرانِ الـلَّـهَ

٢٤ النفس مرآة صدئة

وله في أبي حفص الوراق:

قـد تَـسـتُـرُ الـمِـرْآةُ عـنـ ـكَ خُـدوشَ وجـهِـكَ مَـعْ صَـدَاهـا

وكـذاكَ نـفـسُـكَ: لا تُـريـ ـكَ عـيـوبَ نـفـسِـكَ مَـعْ هَـواهـا

٢٥ الهجاء يستر العيوب

وقال يهجو خالدا:

قَسَماً إنَّ في الهِجَاءِ لَسِتْراً وغِطَاءً لِلسَّوْءَةِ السَّوْآءِ
لو هَجا الأنبياءُ كلباً، لقالَ النَّـ ـاسُ: هذا تَكَذُّبُ الشعراءِ

٢٦ فسر الماء بالماء

وقال يهجو شاعراً:

وشاعرٍ أَوْقَدَ الطَّبْعُ الذَّكاءَ به فكادَ يُحْرِقُه من فَرْطِ إِذْكَاءِ
أقامَ يُجْهِدُ أياماً قريحتَه وفَسَّرَ الماءَ بعدَ الجَهْدِ بالماءِ

٢٧ قصيدة في هجاء القمر

رُبَّ عِرْضٍ مُنَزَّهٍ عَنْ قبيحٍ دَنَّسَتْهُ مُعَرِّضَاتُ الهِجاءِ

معرضات الهجاء: القصائد التي تحتوي تعريضاً وقدحاً

لو أرادَ الأديبُ أنْ يهجوَ البَدْ رَ رَماهُ بالخُطَّةِ الشَّنْعاءِ

الخطة: الأمر

قالَ: يا بدرُ، أنتَ تَغْدِرُ بالسَّا رِي، وتُزْرِي بِزَوْرَةِ الحَسْناءِ

الساري: السائر ليلاً، تزري بزورة الحسناء: تؤذي زيارة المرء للمرأة الحسناء لأنك تكشفه

كَلَفٌ في شُحُوبِ وجهِكَ يَحْكِي نُكَتاً فوقَ وَجْنَةٍ بَرْصاءِ

يا بدر وجهك شاحب اللون وفيه كلف (بثور)، يحكي (يشبه) نكتاً (نقرات) في خد مصاب بالبرص

يَعتَرِيكَ المَحَاقُ، ثُمَّ يُخَلِّيـ ـكَ شَبِيهَ القُلامَةِ الحَجْنَاءِ

يصيبك المحاق ثم يتركك شبيهاً بقلامة الظفر الحجناء (المعوجة)

ويَلِيكَ النُّقْصانُ في آخرِ الشهـ ـرِ، فيَمحوكَ من أديمِ السَّماءِ

يليك (يلحقك)، أديم السماء (وجهها)

فإذا البدرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هلْ يأْ مَنُ ذُو الفضلِ أَلْسُنَ الشعراءِ؟
لا لأَجلِ المديحِ، بلْ خِيفَةَ الهجْـ ـوِ أَخَذْنا جَوائزَ الخُلَفاءِ

٢٨ الخضاب حِداداً

وقال في يحيى بن علي المنجم:

شابَ رأسِي ولاتَ حينَ مَشيبِ وعَجيبُ الزمانِ غيرُ عجيبِ

لات حين مشيب: لم يأت أوان المشيب

فاجعلي مَوْضِعَ التعجُّبِ منْ شيـ ـبيَ عُجْباً بِفَرْعِكِ الغِرْبِيبِ

فرعك الغربيب: شَعرك الأسود

قَد يَشْيبُ الفَتى، وليسَ عجيباً أنْ يُرَى النَّوْرُ في القضيبِ الرَّطيبِ

ساءَها أنْ رأتْ حَبيباً إليْها ضَاحِكَ الرَّأسِ عن مَفَارِقَ شِيبِ

مفارق شيب: مفارق الشعر الشائبة في الرأس

فَدَعتْهُ إلى الخِضابِ، وقالتْ: إنَّ دفْنَ المَعِيبِ غَيْرُ مَعِيبِ

خَضَبَتْ رأسَهُ فباتَ بِتَبْرِيـ ـحٍ، وأضحى فَظَلَّ في تَأْنيبِ

ليس يَنْفَكُّ مِنْ مَلامَةِ زَارٍ قَائلٍ بَعْدَ نَظْرَتَيْ مُسْتَرِيبِ:

ضَلَّةً ضَلَّةً لِمَنْ وَعَظَتْهُ غِيَرُ الدَّهْرِ وَهْوَ غَيْرُ مُنِيبِ

غير الدهر: تقلباته

يا حَليفَ الخِضَابِ لا تخدَعِ النَّفْـ ـسَ، فما أنتَ للصِّبَا بِنَسيبِ

ليس يُجْدِي الخضابُ شيئاً مِنَ النَّفْـ ـعِ، سوى أنَّه حِدَادُ كئيبِ

٢٩ الحبْل مرة أخرى

وقال يعتذر إلى صاعد من طول قصيدته:

لم أُطِلْهَا كما أَطَالَ رِشَاءً مَاتِحٌ سَاءَ ظَنُّهُ بِقَلِيبِ

الرشاء: الحبل، الماتح: المستقي من البئر، القليب: البئر. وقد كرر ابن الرومي هذا المعنى كثيراً وقصدنا إلى إيراده بضع مرات، مرت منها اثنتان

٣٠ هجاؤه مدحه

إذا ما مَدحتُ المرءَ يوماً ولم يُثِبْ مَديحي، وحَقُّ الشعرِ في الحُكْمِ واجِبُ

كَفاني هِجائيهِ قِيامي بمدحِهِ خطيباً، وقولُ الناسِ لِي: أنتَ كاذِبُ

٣١ اصنع مجدك بنفسك

قال ابن الرومي في محمد بن عبد الله بن طاهر:

وما الحَسَبُ الموروثُ، لا دَرَّ دَرُّهُ، بِمُحْتَسَبٍ إلَّا بِآخَرَ مُكْتَسَبْ
إذا العُودُ لم يُثْمِرْ، وإنْ كانَ شُعْبَةً مِنَ المُثْمِرَاتِ، اعتَدَّهُ الناسُ في الحَطَبْ
وأنتَ لَعَمْري شُعْبَةٌ مِنْ ذَوِي العُلا فَلا تَرْضَ أنْ تُعْتَدَّ مِنْ أوْضَعِ الشُّعَبْ
ولِلْمَجْدِ قومٌ ساوَرُوهُ بِأَنْفُسٍ كِرامٍ، ولم يَرْضَوْا بِأُمٍّ ولا بِأَبْ

ساوروه: صارعوه لامتلاكه

رأَيْتُكَ قد عَوَّلْتَ بي في مَدَائحي على نَائلِ الآباءِ في سالِفِ الحِقَبْ
وذلك شيءٌ كان غَيْرِيَ نالَه ولو كنتُ أيضاً نِلْتُهُ كان قد ذَهَبْ
أتجعلُ نَيْلاً نالَهُ ابنُ مُحَلَّمٍ ثوابَ مَديحي فيكَ؟ هذا هوَ العَجَبْ
فما رِفْدُ عبدِ اللَّهِ والقَرْمِ طَاهرٍ سِوايَ بِقَاضٍ عنكَ حَقِّيَ الذي وَجَبْ

القرم: السيد

فلا تتَّكِلْ إلَّا على ما فعلتَه ولا تَحْسَبَنَّ المجدَ يُورَثُ بِالنَّسَبْ
فليس يَسودُ المرءُ إلَّا بنفسِه وإنْ عَدَّ آباءً كراماً ذَوِي حَسَبْ

٣٢ العلاقة العكسية

إذا غَمَرَ المالُ البخيلَ وجدتَهُ يَزيدُ بِهِ يُبْساً وإنْ ظُنَّ يَرْطُبُ
وليسَ عجيباً ذاك منه فإنَّهُ إذا غَمَرَ الماءُ الحجارةَ تَصْلُبُ

٣٣ أرضاني من الزمان

وقال في أبي عبد الله بن أبي العباس بن بدر:

يَمَّمْتُ بَدْرَ بَني بَدْرٍ فمَا انْتَسَبَتْ أَلفاظُهُ ليَ، لَكِنْ وجهُهُ انتَسَبا
لاقَيْتُهُ وأَنا المَمْلوءُ مِنْ غَضَبٍ على الزمانِ، فَسَرَّى عَنِّيَ الغَضَبا

٣٤ عجِّل بالكساء

وقال، وطلب كساء من أبي جعفر محمد بن علي بن إسحاق النوبختي:

طلبتُ كِسَاءً مِنْكَ إذْ أنتَ عَامِلٌ على قَرْيَةِ النُّعْمَانِ تُعْطِي الرَّغَائبَا

الرغائب: العطايا

فَأَوْسَعْتَنِي مَنْعاً إِخَالُكَ نَادِماً   عليه، وفي تمحيصِهِ الآنَ راغبا

تمحيصه: محوه

فإِنْ حَقَّ ظَنِّي فاسْتَقِلْنِي بِمُطْرَفٍ   يَقِينِي إذا ما القُرُّ أَبْدَى المخَالِبَا

استقلني: استعفِني، واطلب مني أن أُقيلك عثرتك، مطرف: ثوب محبوك الأطراف، القر: البرد

فَعَجِّلْ كِسَائي طَيِّباً نحوَ شاكِرٍ   سَيُجْنِيكَ مِنْ حُرِّ الثَّنَاءِ الأَطايِبَا

يجنيك: يجعلك تجني

عَجَائِبُ هذا الدَّهْرِ عندي كثيرةٌ،   فَيَا ابنَ عَلِيٍّ لا تَزِدْنِي عَجَائِبا

٣٥ وصفة لتطييب الفم

وقال يمدح أبا العباس بن ثوابة ويهجو الكوكبي:

أَنَّى تَسُبُّ بَنِي ثَوَا   بَةَ أو عَبِيدَ بَنِي ثَوَابَةْ؟
ما كانَ قَدْرُكَ أنْ تَفُو   هَ بِمَدْحِهِمْ بَلْهَ المَعَابَةْ

بَلْهَ المعابة (ناهيك من معابتهم)

لا سِيَّمَا بِفَمٍ يَظَلُّ   مَنِيُّ باكَتِهِ شَرَابَهْ
تَمْرِي الأُبُورَ بِهِ إذا   أَهدَى حَشَاكَ لها خِضَابَهْ

تمري: تحلب

أَقْذِرْ وأَخْبِثْ بالمَنِيِّ -   إذا عَبِيطُ السَّلْحِ شَابَهْ

عبيط السلح: الغائط الطري

هَتْماً لِفِيكَ، فما تَخَيَّـ -   ـرَ ما يَشُوبُ بِهِ لُعَابَهْ

هتماً لفيك: فلتتكسر أسنانك

وإِخالُ ذلكَ لم يَزِدْ   في خُبْثِهِ، لَكِنْ أَطَابَهْ

لعابه أصبح أطيب من ذي قبل بمخالطته غائطه، فتأمل في خبث ذلك اللعاب

سَتَذُمُّ ما اكتَسَبَتْ يَدا   كَ إذا لَقِيتَ غداً عِقَابَهْ
وتُقِرُّ أنَّكَ جاهِلٌ   لم تأْتِ مِنْ أَمْرٍ صَوَابَهْ
مَن بَاتَ يَحْتَطِبُ الأفا   عِيَ ليلَهُ ذَمَّ احتِطَابَهْ

فالمحتطب في الليل لا يعرف ما الذي جمعه من حطب وغيره

٣٦ تهديد

قال في جحظة:

أبا حسنٍ، وأنت فتىً أديبُ ... له في كلِّ مَكْرُمَةٍ نصيبُ
أتأْمَنُ أنْ تُواقِعَكَ القوافي ... ويومُ وِقَاعِها يومٌ عصيبُ؟

تواقعك: تحاربك

أَبِنْ لي: ما الذي تأوي إليهِ ... إذا ما القَذْعُ صَدَّرَهُ النَّسِيبُ؟

فقط صيارفة الشعر القديم يعرفون قدر هذا البيت. القذع: الشتم. وتقول يا قارئ، ما لهذا الرجل يزعج نفسه بالاختيار من ابن الرومي وشرح الأبيات؟ إنما أختارها لكي أتسلى بها أنا وعصبة الفتاك ممن يسكرون بخمرة الشعر العتيق؛ ولعلك لاحظت أنني بدأت أختصر الشرح. فأنا منذ بدء قافية الباء أخذت أوجه كلامي إلى هذه العصبة

أَمُعتَصِمٌ بأنَّكَ ذو صِحَابٍ ... من الشعراءِ نصرُهُمُ قريبُ؟
وما تُجْدي عليكَ لُيُوثُ غابٍ ... بِنُصْرتِها إذا دَمَّاكَ ذِيبُ؟
تَوقِّي الداءِ خيرٌ من تَصَدٍّ ... لأَيسَرِهِ، وإنْ قَرُبَ الطبيبُ
أَذَلِكَ، أمْ تُدِلُّ بِعِزِّ قومٍ ... قد انقَرَضوا فما مِنْهُمْ عَرِيبُ

ما منهم عريب: لم يبق منهم أحد

أَلا نَادِ البرامِكَةَ: انصُرُوني ... على الشعراءِ، وانظرْ هلْ مُجِيبُ؟
وكيف يُجيبُكَ الشخصُ المواري؟ ... وكيف يُعِزُّكَ الخَدُّ التَّرِيبُ؟

الشخص المواري: المدفون، الخد التريب: المعفر بتراب القبر

ولو نُشِرُوا لما نَصَروا، وقَالوا: ... أَرَبْتَ فَكَانَ حقُّكَ ما يُرِيبُ

أربت: جئت أمراً مريباً

أَتدْعُونا إلى حربِ القَوافي ... لِتَحْرُبَنَا السلامةَ، يا حَرِيبُ؟

لتحربنا: لتسلبنا، حريب: مسلوب المال والثياب

ألم تَرَ بَذْلَنا المعروفَ قِدْماً ... مَخَافَةَ أن يَقومَ بِنَا خَطيبُ؟
أَذَلْنَا دونَ ذلك كلَّ عِلْقٍ ... ومُلْتَمِسُ السَّلامَةِ لا يَخِيبُ

أذلنا: أهنّا، علق: نفيس

عليكَ بِبَذْلِ عُرْفِكَ، فَاسْتَجِرْهُ؛ ... كذلكَ يفعلُ الرجلُ الأريبُ

٣٧ المحبوبة الذائبة، والمسحوبة الساحبة

وقال في أبي شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه:

نجّاكَ يا ابْنَ الحاجِبِ الحاجِبُ ... وأيـنَ يَـنْـجُـو مِـنِّـيَ الـهـاربُ؟

والـقـومُ لاقَـوْلَكَ فـأَعْـدِدْ لـهُـمْ ... مَـا يَـرْتَـضِـي الآكِـلُ والـشَّـاربُ

فَـاسْـقِ حـلـيـبَ الـكَـرْمِ شُـرَّابَـهُ ... إذْ لـيـس مـن شَـأْنِـهِـمُ الـرَّائـبُ

حليب الكرم: الخمر، الرائب: اللبن

أَحْضِرْهُمُ البِكْرَ التي ما اصْطَلَتْ ... نـاراً، فَـكُـلٌّ خَـاطِـبٌ راغِـبُ

البكر: الخمر العذراء التي لم يكن افتُضَّ دنها قبل اليوم

تـلـك الـتـي مـا بَـايَـتَـتْ راهـبـاً ... إلّا جَـفَـا قِـنْـديـلَـهُ الـرَّاهِـبُ

لا تبيت الخمر في دير راهب إلا جعلته يجفو (يترك) قنديله، ذلك أنها تشع ضوءاً

تـلـك الـتـي لـيـس لـهـا مُـشْـبِـهٌ ... في الـكـأسِ إلّا الـذَّهَـبُ الـذَّائـبُ

أَعْجِبْ بِتِلْكَ البِكْرِ مَحْجُوبَةً ... مَـكْـرُوبـةً يُـجْـلَـى بِـهَـا الـكَـارِبُ

ما أعجب الخمر، هي كالفتاة البكْر المحجوبة المكروبة (المحزونة)، ولكنها تزيل الكارب (سبب الحزن) عمن يشربونها

مَـغْـلُـوبـةً فـي الـدَّنِّ مَـسْـلُـوبَـةً ... لـهـا انـتِـصَـارٌ غـالِـبٌ سَـالِـبُ

الدن: خابية الخمر الضخمة، انتصار: انتقام

بَـيْـنَـا تُـرَى فـي الـزِّقِّ مَـسْـحُـوبَـةً ... إذْ حَـكَـمَـتْ أن يُـسْـحَـبَ الـسَّـاحِـبُ

يسحبون زقاق الخمر سحباً لثقلها، وهي قِرَبٌ كبيرة مصنوعة من جلد أو قماش ومطلية بالقار حتى لا تنزّ، وفي العاقبة فهي تسكر الشاربين الذين سحبوها حتى لَيُسحبون سحباً وهم سكارى

تَـقْـتَـصُّ مـن واتِـرِهَـا صَـرْعَـةً ... لـيـس لـهـا بَـاكٍ ولا نَـادِبُ

تصرع واترها (الجاني عليها) أرضاً، فلا يبكيه أحد إذ هي صرعة محببة

لا تُـطْـعِـمَـنَّـا لَـحْـمَـكَ الـمُـتَّـقَـى ... فَـلَـيْـسَ مِـمَّـا يَـأْكُـلُ الـسَّـاغِـبُ

المتقى: الذي يجتنبه الناس، الساغب: الجائع

وكـيـف أكـلُ الـنـاسِ لـحـمَ امـرِئٍ ... مِـقْـوَلُـهُ صَـمْـصَـامَـةٌ قَـاضِـبُ؟

مقوله: لسانه، صمصامة قاضب: سيف قاطع

واعـلَـمْ بـأن الـنـاسَ مـن طِـيـنـةٍ ... يَـصْـدُقُ فـي الـثَّـلْـبِ لـهـا الـثَّـالِـبُ

لـولا عِـلاجُ الـنـاسِ أخـلاقَـهُـمْ إذن لَـفـاحَ الـحَـمَـأُ الـلَّازِبُ

الحمأ اللازب: الطين اللاصق المتماسك. يقصد أن الطين الذي هو أصل الإنسان يفوح بريح خبيثة لولا مغالبة الناس أنفسهم

٣٨ لا تحسد الأغنياء

إذا ما كَساكَ اللَّهُ سِرْبَالَ صِحَّةٍ ولـم تَخْلُ من قُوتٍ يَحِلُّ ويَعْذُبُ

سربال: ثوب

فلا تَغْبِطَنَّ الـمُتْرَفِينَ، فإنَّهُمْ على قَدْرِ ما يَكْسُوهُمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ

٣٩ غضب القوافي

وقال في إسماعيل بن بلبل:

أبا الـصـقـرِ: لـستُ أَرَى مُـهْـدِيَاً لَـكَ الـمـدحَ غَـيْـرِيَ إلَّا مُـثَـابَـا

وقـد كِـدْتُ مـن فَـرْطِ مـا شَـفَّـنِـي جَـفَـاؤُكَ ألَّا أُسِـيـغَ الـشَّـرَابَـا

أَتَـهْـتِـكُ سِـتْـرِيَ عَـنْ خُـلَّـتـي وتُـغْـلِـقُ دونَ عـطـايـاكَ بَـابـا

خلتي: فقري

حَلَفْتُ: لَئنْ أنتَ لم تُرْضِني لَتَنْصَرِفَنَّ القَوافي غِضَابا

٤٠ الخادم العجيب

وقال في غلام لبعض إخوانه يقال له نصر:

لِـي خَـادِمٌ لا أَزَالُ أَحْـتَـسِـبُـهْ يَـغـيـبُ حـتـى يَـرُدَّهُ سَـغَـبُـهْ

أحتسبه: أَعُدُّهُ في حسابي عند الله (أي أنه لا ينفعني في الحياة الدنيا)، سغبه: جوعه

كم قـال ضَـيْـفِي، وقـد بعثتُ بِـهِ: هَـيْـهَـاتَ، يـومَ الـحِـسَـابِ مُـنْـقَـلَـبُـهْ

هَـلْ مُـشْـتَـرٍ؟ والـسـعـيـدُ بـائـعُـهُ هـل قـابـلٌ؟ والـسـعـيـدُ مَـنْ يَـهَـبُـهْ

٤١ حفيد صهيب

وقال يعاتب بعض من طعن في شعره:

تـأمُّـلُ الـعـيـبِ عـيـبُ مـا فـي الـذي قـلـتُ ريـبُ

والـشِّـعـرُ كـالـشَّـعـرِ، فـيـهِ مَـعَ الـشَّـبِـيـبَـةِ شَـيْـبُ

كـــم عـــائـــبٍ كـــلَّ شـــيءٍ   وكـــلُّ مـــا فـــيـــه عـــيـــبُ
قـــد تُـــحْـــسِـــنُ الـــرومُ شِـــعـــراً   مـــا أَحْـــسَـــنَـــتْـــهُ الـــعُـــرَيْـــبُ
يـــا مُـــنْـــكِـــرَ الـــمـــجـــدِ فِـــيـــهِـــمْ   ألـــيـــسَ مِـــنْـــهُـــمْ صُـــهَـــيْـــبُ؟

٤٢ فراقه عيد

وقال في شهر رمضان:

إذا بـــارَكْـــتَ فـــي صَـــوْمٍ لِـــقَـــوْمٍ   دَعَـــوْتَ لـــهُـــمْ بِـــتَـــطْـــويـــلِ الـــعـــذابِ
ومـــا الـــتَّـــبْـــريـــكُ فـــي شـــهـــرٍ طـــويـــلٍ   يُـــطَـــاوِلُ يـــومُـــهُ يَـــوْمَ الـــحِـــســـابِ
فَـــلَـــيْـــتَ الـــلـــيـــلَ فـــيـــهِ كـــانَ شـــهـــراً   ومَـــرَّ نـــهـــارُهُ مَـــرَّ الـــسَّـــحَـــابِ
فـــلا أهـــلاً بـــمـــانِـــعِ كـــلِّ خَـــيْـــرٍ   وأهـــلاً بـــالـــطـــعـــامِ وبـــالـــشَّـــرابِ

٤٣ العمُّو

أصبحتُ شيخاً له سَمْتٌ وأُبَّهَةٌ   يَدْعُونَنِي البِيضُ عَمَّاً تَارَةً وأَبَا

السمت: الوقار، البيض: الحِسان. كانت له مندوحة عن «يدعونني». ولا تظنن أنه فات ابن الرومي أن «يدعونيَ» أو «تدعونيَ» تقومان بالبيت خير قيام. غير أنه أحب أن يترك شيئاً من لغة «أكلوني البراغيث» في شعره

وتـــلـــكَ دَعْـــوَةُ إجْـــلالٍ وتَـــكْـــرِمَـــةٍ   وَدِدْتُ أَنِّـــيَ مُـــعْـــتَـــاضٌ بِـــهـــا لَـــقَـــبَـــا

اللقب يكون في العادة تسمية بهدف الذم. وعند بنات بلاد الشام لفظة تغيظ: يضعن أل التعريف أمام كلمة عَمُّو زيادة في الاستخفاف بالرجل الكبير

٤٤ الموز.. ثانيةً

لِـــلـــمـــوزِ إحـــســـانٌ بِـــلا ذُنـــوبِ   لـــيـــس بِـــمَـــعْـــدُودٍ ولا مَـــحْـــسُـــوبِ
يـــكـــادُ مـــن مَـــوقِـــعِـــه الـــمـــحـــبـــوبِ   يَـــدْفَـــعُـــهُ الـــبَـــلْـــعُ إلـــى الـــقـــلـــوبِ

موقعه: مكانته في النفوس

٤٥ مساحة للصديق

أتـــانـــيَ مَـــقَـــالٌ مـــن أخٍ فـــاغـــتَـــفَـــرْتُـــهُ   وإن كـــان فـــيـــمـــا دونَـــه وَجْـــهُ مَـــعْـــتَـــبِ
وذَكَّرْتُ نفسيَ منه عند امتِعاضِها   محاسِنَ تَعْفُو الذَّنْبَ عن كلِّ مُذْنِبِ

ومِثْلي رأى الحُسْنَى بِعَينٍ جَلِيَّةٍ وأَغْضَى عنِ العَوْرَاءِ غيرَ مُؤَنِّبِ

العوراء: الكلمة النابية

ولستُ بِتَقْليبِ اللسانِ مُصَارِمَاً خَلِيلي إذا ما القلبُ لم يتَقَلَّبِ

٤٦ مشقات السفر

وقال يمدح أحمد بن ثَوابة (وكان طلب إليه أن يسافر ويأتيه لكي يصله، فاستفظع ابن الرومي فكرة السفر واعتذر بقصيدة طويلة):

دَعِ اللومَ، إن اللومَ عَوْنُ النَّوائبِ ولا تتجَاوَزْ فيه حدَّ المُعَاتِبِ

لا تلمني لأنني امتنعت من السفر، فاللوم يساعد المصائب المحدقة بي، ولا تتجاوز في لومك عتاب المعاتِب

فما كلُّ من حَطَّ الرِّحَالَ بِمُخْفِقٍ، ولا كلُّ من شدَّ الرِّحَالَ بِكَاسِبِ

ليس كل ماكث في مكانه فاشلاً، ولا كل من شد رحاله وسافر كاسباً

وفي السَّعْيِ كَيْسٌ، والنُّفوسُ نَفَائسٌ، وليس بِكَيْسٍ بَيْعُها بِالرَّغَائبِ

كيس: حنكة، الرغائب: العطايا

حضَضْتَ على حَطْبي لِنارِي، فَلا تَدَعْ ـلكَ الخيرُـ تَحذِيري شُرُورَ المَحَاطِبِ

حثثني على أن أسعى، فالمرء يجب أن يجمع الحطب لكي يكون له نار يصطلي بها، ولكنك نسيت أن تحذرني من شرور المحاطب (الاحتطاب)

ومن يَلْقَ ما لاقَيْتُ في كل مُجْتَنَىً من الشَّوْكِ يَزْهَدْ في الثِّمَارِ الأَطايِبِ

مجتنىً: جني الثمار

أَذَاقَتْنِيَ الأسفارُ ما كَرَّهَ الغِنَى إليَّ، وأَغْرانيِ برفضِ المَطالِبِ

المطالب: العطايا، وما يطلبه المرء من الأمراء

فأصبحتُ في الإثراءِ أزهَدَ زاهِدٍ وإن كنتُ في الإثراءِ أرغَبَ راغِبِ

حريصاً، جباناً، أشتهي ثم أَنْتَهي بِلَحْظي جَنَابَ الرِّزْقِ لَحْظَ المُرَاقِبِ

بلحظي جناب الرزق: برؤيتي لطرف الرزق، فهو ينظر شزرا بطرف عينه ولذا فهو يرى جانباً من الرزق فقط

ومَنْ رَاحَ ذا حِرْصٍ وجُبْنٍ فَإنَّهُ فقيرٌ أتاهُ الفقرُ من كلِّ جانِبِ

ولـمَّـا دَعـانـيِ لِـلْـمَـثـوبَـةِ سَـيِّـدٌ يرى المدحَ عَاراً قبل بَذْلِ المَثَاوِبِ

المثاوب: مثل الرغائب والمطالب، هي العطايا التي تكون ثواباً على المدح

تَنَازَعَني رَغْبٌ ورَهْبٌ، كِلاهُما قَوِيٌّ، وأَعيَاني اطِّلاعُ المَغَايِبِ

اطلاع المغايب: معرفة الغيب

فَقَدَّمْتُ رِجْلاً راغِباً في رَغِيبَةٍ وأَخَّرْتُ أُخْرَى رَهْبَةً لِلمَعَاطِبِ

الرغيبة: صلة الأمير، المعاطب: الأخطار التي تتلف المرء

أخافُ على نَفسي وأَرْجُو مَفَازَها وأَسْتَارُ غَيْبِ اللَّهِ دونَ العواقِبِ

العواقب (النتائج) محجوبة بأستار الله لأنها في الغيب

ألا مَنْ يُريني غايتي قبلَ مذهبي؟ ومِنْ أينَ! والغَاياتُ بعدَ المَذاهِبِ؟

ومِنْ نكبةٍ لاقيتُها بعدَ نكبةٍ رَهِبْتُ اعْتِسَافَ الأرضِ ذاتِ المناكِبِ

الاعتساف: السير على غير هدى، مناكب الأرض: قيل: ما ارتفع منها.. المعنى: من النكبات، أي بسببها، رهبت السير

وصَبْري على الإقْتارِ أَيْسَرُ مَحْمَلاً عليَّ من التَغْريرِ بعدَ التَّجارِبِ

الإقتار: الفقر، التغرير: المخاطرة

لَقِيتُ مِنَ البرِّ التَّباريحَ، بعدمَا لَقِيتُ مِنَ البحرِ ابْيِضَاضَ الذَّوَائبِ

التباريح: المصاعب، الذوائب: خصلات الشَّعر

سُقِيتُ على رِيٍّ بهِ ألفَ مَطْرَة شُغِفْتُ لِبُغْضِيها بِحُبِّ المَجَادِبِ

كثيراً ما دهمني المطر وأنا غير عطشان، فأبغضت هذه المطرات إلى حد أنني أحببت المجادب (الجدب وقلة المطر، صاغها مثل «مخاوف» من الخوف)

إلى اللّهِ أَشْكُو سُخفَ دَهري، فإنه يُعَابِثُني مُذْ كنتُ غيرَ مُطَايِبِ

دهري يعبث معي، لكن ليس عبث المطايبة (التودد) بل عبث الأذى

أَبى أن يُغِيثَ الأرضَ حتى إذا ارْتَمَتْ بِرَحْلِي أَتاها بالغُيوثِ السَّواكِبِ

رفض الدهر أن يرسل على الأرض المطر وينعشها، فإذا ارتمى رحلي (متاعي) بالأرض جاءها الدهر بالغيوث السواكب (المنهمرة)

سقى الأرضَ من أجْلي فأضْحَتْ مَزِلَّةً تَمَايَلَ صَاحِيها تَمَايُلَ شارِبِ

فقط لأنني سافرت سقى الدهر الأرض بالمطر الغزير فأصبحت مزلة (مكان انزلاق)، ولذا أخذ السائر فيها يسير متمايلاً كالسكران خوف الانزلاق

لِتَعْويقِ سَيْري أو دُحُوضِ مَطِيَّتي   وإخْصَابِ مُزْوَرٍّ عن المجدِ نِاكِبِ

جاء المطر ليعوق سيري ويجعل ناقتي تنزلق، ولكي يأتي بالخصب لمزارع مزور (مبتعد) عن طلب المجد والسفر وناكب (منصرف) عن الارتحال

فَمِلْتُ إلى خانٍ مُرِثٍّ بِناؤُهُ   مَمِيلَ غَريقِ الثَّوْبِ لَهْفَانَ لاغِبِ

لاغب: متعَب

فلم أَلْقَ فيهِ مُسْتَراحاً لِمُتْعَبٍ   ولا نُزُلاً، أَيَّانَ ذاكَ لِسَاغِبِ؟

ساغب: جائع

فما زِلْتُ في خوفٍ وجوعٍ ووَحْشَةٍ   وفي سهرٍ يستغرقُ الليلَ واصِبِ

واصب: متعِب

يُؤَرِّقُني سَقفٌ، كأَنِّيَ تَحْتَهُ،   مِنَ الوَكْفِ، تحت المُدْجَنَاتِ الهَوَاضِبِ

الوكف: الدلف وتسلل الماء من السقف، المدجنات: الغيوم، الهواضب: الغيوم الماطرة

تَراه إذا مَا الطِّينُ أَثْقَلَ مَتْنَهُ   تَصِرُّ نَواحِيهِ صَرِيرَ الجَنَادِبِ

وكَمْ خَانِ سَفْرٍ خَانَ فَانْقَضَّ فوقَهُمْ   كما انقضَّ صقرُ الدَّجْنِ فوقَ الأَرانبِ

صقر الدجن: أراه قصد الصقر الداجن الذي يصيدون به

ولم أنسَ ما لاقيْتُ أيامَ صَحْوِهِ   من الصِّرِّ فيهِ والثُّلُوجِ الأشَاهِبِ

الصر: البرد الشديد، الأشاهب: البيضاء

وما زال ضَاحِي البَرِّ يَضربُ أهلَه   بِسَوْطَيْ عَذابٍ جَامِدٍ بعدَ ذائبِ

الضاحي: المكشوف، يقول: السير في البر المكشوف يعرض المرء للثلج الجامد وللمطر

فإنْ فاتَه قَطْرٌ وثَلْجٌ فإنَّهُ   رَهِينٌ بِسَافٍ تَارةً أو بِحَاصِبِ

القطر: المطر، السافي: هواء يحمل التراب، الحاصب: هواء يحمل الحصى

فذَاكَ بَلاءُ البَرِّ عنديَ شَاتِياً   وكم ليَ مِنْ صيفٍ بِهِ ذي مَثَالبِ

ألا ربَّ نَارٍ بالفضاءِ اصْطَلَيْتُها   مِنَ الضِّحِّ يُودي لَفْحُهَا بِالحَواجِبِ

الفضاء: الأرض المكشوفة، الضح: الشمس

إذا ظلَّتِ البيداءُ تَطْفُو إكامُها   وتَرْسُبُ في غَمْرٍ من الآلِ نَاضِبِ

تطفو الإكام (المرتفعات) ثم ترسب في غمر (بحر) من الآل (السراب) لكنه بالطبع ناضب (ليس فيه ماء)

فدَعْ عنكَ ذِكْرَ البَرِّ؛ إنِّي رأيتُهُ، لِمَنْ خافَ هَوْلَ البحرِ، شَرَّ المَهَارِبِ
كِلا نُزُلَيْهِ: صَيفُهُ وشِتاؤُهُ خِلافٌ لِمَا أَهْوَاهُ غَيْرُ مُصَاقِبِ
غير مصاقب: غير مقارب لهواي ومزاجي

وأمَّا بَلاءُ البحرِ عندي فإنَّهُ طَوَاني على رَوْعٍ مع الرُّوحِ وَاقِبِ
روع: خوف، مع الروح واقب: متغلغل في الروح

ولِمْ لا، وَلَوْ أُلْقِيتُ فيهِ وصَخْرَةً لَوَافَيْتُ منه القَعْرَ أولَ رَاسِبِ
لو رموني أنا وصخرة في الوقت نفسه في البحر لرسبت قبلها

ولم أَتَعَلَّمْ قطُّ من ذي سباحةٍ سِوى الغوصِ، والمَضْعُوفُ غَيْرُ مُغَالِبِ
كل ما تعلمته من ذي السباحة (السبَّاح) الغوص (الغرق) - يهزأ -

فَأَيْسَرُ إِشْفَاقِي من الماءِ أنني أَمُرُّ به في الكُوزِ مَرَّ المُجَانِبِ
أقل علائم خوفي من الماء أنني أمر قرب إبريق الماء منحرفاً بجنبي كالخائف - يهزأ -

وأَخشَى الرَّدَى منهُ على كُلِّ شَارِبٍ فكيفَ بِأَمْنِيه على نَفْسِ رَاكِبِ
أَظَلُّ إذا هَزَّتْهُ رِيحٌ ولألأَتْ له الشَّمْسُ أَمْواجاً طِوَالَ الغَوَارِبِ
الغوارب: أعالي الأمواج

كأنِّي أرى فِيهِنَّ فُرْسَانَ بُهْمَةٍ يُلِيحُونَ نَحْوِي بالسيوفِ القَواضبِ
بهمة: ساحة المعركة المغبرة المبهمة الجو، يليحون: يلوحون، القواضب: القواطع

فإن قلتَ لِي: «قد يُركَبُ اليَمُّ طَامِياً ودِجْلَةُ عندَ اليَمِّ بعضُ المَذَانِبِ
طامياً: فائضاً، دجلة عند اليم: دجلة بالنسبة إلى البحر، المذانب: الجداول

فلا عُذْرَ فِيها لامْرِئٍ هَابَ مِثْلَها وفي اللُّجَّةِ الخَضْرَاءِ عُذْرٌ لِهَائبِ»
اللجة الخضراء: البحر الأزرق

فإن احْتِجَاجِي عنكَ ليس بِنَائمٍ وإن بَيَانِي ليس عنِّي بِعَازِبِ
عازب: بعيد

لِدِجْلَةَ خَبٌّ ليس لِلْيَمِّ، إنَّها تُرَائي بِحِلْمٍ تَحتَه جَهْلُ وَاثِبِ
خب: غدر

تَطَامَنُ حتَّى تطمئنَّ قلوبُنا وتغضبُ من مَزْحِ الرياحِ اللَّواعِبِ
تطامن: تنخفض دجلة بموجها

تَرانا إذا هاجَتْ بها الريحُ هَيْجَةً نُزَلْزَلُ في حَوْمَاتِها بِالقَوارِبِ

حوماتها: حومات دجلة أي مياهها الغامرة

ولِلْيَمِّ إنْذَارٌ بِعُرْضِ مُتُونِه وما فيهِ من آذِيِّهِ المُتَراكِبِ

البحر الكبير يعطي المرء إنذاراً لأنه متسع جداً، ومن خلال آذيه (موجه) المتراكب، أما دجلة فغدارة

ولستَ تَراهُ في الرِّياحِ مُزَلْزَلاً بِمَا فيه إلَّا في الشِّدَادِ الغَوَالِبِ

وما أنا بِالرَّاضِي عن البحرِ مَرْكَباً ولكنَّني عارضتُ شَغْبَ المُشَاغِبِ

أنا بالطبع لا أرضى عن البحر الكبير ولكنني فقط أردت أن أعاند من يهوّن أمر دجلة ويشاغبني

وجَرَّبْتُ حتى ما أرى الدهرَ مُغْرِباً عَلَيَّ بشيءٍ لم يَقَعْ في تَجَارِبي

مغرباً عليَّ: آتياً بأمر غريب عليَّ

أرَى المرءَ ـ مُذْ يَلْقَى التُّرابَ بِوجهِه إلى أن يوارَى فيه ـ رَهْنَ النوائبِ

ولو لم يُصَبْ إلَّا بِشَرْخِ شَبَابِه لكانَ قدِ اسْتَوفَى جميعَ المصائبِ

شرخ الشباب: أوله

فلا تَنْصِبَنَّ الحربَ لي بِمَلامَتي وأنتَ سِلاحي في حُرُوبِ النَّوائبِ

وأجدَى من التَّعنيفِ حُسْنُ مَعُونَةٍ: بِرأْيٍ ولِينٍ من خِطابِ المُخَاطِبِ

وفي النُّصْحِ خيرٌ من نَصِيحٍ مُوَادِعٍ ولا خيرَ فيهِ من نصيحٍ مُوَاثِبِ

الموادع: المسالم، المواثب: الذي يريد خوض نزاع فيثب على خصمه وخصمه يثب عليه

ومثلِيَ محتاجٌ إلى ذي سَماحَةٍ كريمِ السَّجَايَا أرْيَحِيِّ الضَّرائبِ

الضرائب: الطبائع

إلى مَاجِدِ الأخلاقِ حُرٍّ فَعَالُهُ، تُبَارِي عَطايَاهُ عطايَا السَّحائبِ

كَمِثْلِ أبي العباسِ، إن نَوالَه نوالُ الحَيَا يَسعَى إلى كلِّ طالِبِ

الحيا: المطر

ومن يَكُ مِثْلاً لِلْحَيَا في عُلُوِّهِ يَكُنْ مِثْلَه في جُودِهِ بالمَواهِبِ

المواهب: العطايا

وإن قُعُودي عنه خِيفَةَ نَكْبَةٍ لَلُؤْمُ مَهَزٍّ، وانثِنَاءُ مَضَارِبِ

المهزّ: النخوة والنجدة (فالكريم يهتز للطرب وللطلب، ويسارع لتلبية طلبات الناس). تأخري عنك لؤم مني

أُقِرُّ على نَفْسي بِعَيْبي لأنني أرى الصدقَ يمحُو بيِّنَاتِ المَعايِبِ
لَؤُمْتُ ـ لَعَمْرُ اللَّهِ ـ فيما أَتَيْتُهُ وإن كنتُ من قَوْمٍ كِرامِ المَنَاصِبِ

المنصب: المقام

لهُمْ حِلْمُ إنْسٍ في عَرَامَةِ جِنَّةٍ وبَأْسُ أُسُودٍ في دَهَاءِ ثَعَالِبِ

عرامة: هياج، الجِنة: الجنّ

ولا بُدَّ من أَنْ يَلْؤُمَ المرءُ نازِعَاً إلى الحَمَأِ المَسْنُونِ ضَرْبَةَ لازِبِ

لا بد لكل إنسان من أن يكون لئيماً في موقف مَّا نازعاً إلى (مشدوداً نحو) الحمأ المسنون (الطين الأملس) الذي منه خلق الإنسان كما قيل لنا، ضربة لازب (حتماً)

فَقُلْ لأبي العباسِ، لُقِّيتَ وجْهَهُ، وحَسْبُكَ مِنِّي تلكَ دَعْوَةَ صاحِبِ:

لقيت وجهه: أدعو لك أن تلقاه

تُكلِّفُني هَوْلَ السِّفَارِ وغَوْلَهُ رفيقَ شتاءٍ مُقْفَعِلَّ الرَّوَاجِبِ

تريد تكليفي بهول السفر وغوله (مشقته) بحيث أكون رفيقاً للشتاء مقفعل الرواجب (متشنج مفاصل الأصابع)

كأنَّ تَمامَ الوُدِّ والمَدْحِ كلِّهِ هُوِيُّ الفَتى في البحرِ أو في السَّبَاسِبِ

هُوِيُّ: سقوط (من هَوَى)، السباسب: الصحارى

أَيَعْزُبُ عنكَ الرأيُ في أن تُثِيبَني مُقِيماً مَصُوناً عن عَناءِ المَطَالِبِ؟

أيعزب: هل يغيب؟

فَتُلفَى وأُلْفَى بينَ صَافي صَنِيعَةٍ وصَافي ثَنَاءٍ لم يُشَبْ بِالمَعَاتِبِ
وأحسَنُ عُرْفٍ مَوْقِعاً ما تَنَالُهُ يَدي، وغُرَابِي بالنَّوَى غَيْرُ نَاعِبِ

غرابي غير ناعب: أي دون أن أرحل

وأنتَ مَتَى ثَوَّبْتَني في مشقةٍ رأيتُكَ في شخصِ المُثِيبِ المُعَاقِبِ

ثوبتني: كافأتني

ألم تَرَني أتعبْتُ فِكْرِي مُحَكِّكَاً لكَ الشِّعْرَ كيْ لا أُبْتَلى بالمتاعِبِ
نَحَلْتُكَ حَلْياً من مَدِيحٍ كأنه هَوَى كلِّ صَبٍّ من عِنَاقِ الحَبائبِ

حَلياً: مفرد حُلِيٍّ

وأنتَ له أهلٌ، فإن تَجْزِني به أَزِدْكَ، وإن تُمْسِكْ أَقِفْ غيرَ عاتِبِ

ولستُ كَمَنْ يعدوُ وفي كلماتِه تَظَلُّمُ مغصوبٍ وعُدوانُ غَاصِبِ

يعدو: يعتدي

فلا تَحْرِمَنِّي كي تُجِدَّ عَجِيبَةً لِقومٍ، فَحَسْبُ الناسِ مَاضِي العَجَائبِ

لا تحرمني لأنك بهذا تُجِدّ (تبتكر) عجيبة من العجائب، ومش ناقصين!

أُثَقِّلُ إِدْلالي لِتَحْمِلَ ثِقْلَهُ بِطَوْعِ المُرَاضِي، لا بِكُرْهِ المُغَاضِبِ

الإدلال: الغَشَم

أَقَمْتُ لِكَيْ تزدادَ نُعْماكَ نِعْمَةً وتَغْنَى بِوجهٍ ناضرٍ غيرِ شاحبِ

بقيتُ مكاني ولم أرتحل إليك لكي تكون عطيتك إلي مضاعفة فأنا آخذ العطية دون تجشم التعب، ولا أريك وجهاً شاحباً من وعثاء السفر

وكيلا يقولَ القائلونَ: أثابَه وعاقَبَه، والقولُ جَمُّ المَشَاعِبِ

المشاعب: الطرقات

وفي الناسِ أيْقَاظٌ لِكُلِّ كريمةٍ كأنهُمُ العِقْبَانُ فوقَ المَراقِبِ

المراقب: مجاثم الصقور التي منها يرقبون الصيد. فالناس الكرام عيونهم يقظة ترقب فرصة سانحة لصنع معروف

يُراعُونَ أَمثالي فَيَسْتَنْقِذونَهُمْ وهُمْ في كُرُوبٍ جَمَّةٍ وذَبَاذِبِ

ذباذب: أمور مقلقة (طبعاً، وقد أطال ابن الرومي قصيدته لتبلغ ١٨٢ بيتاً، لا بد أن يتحفنا بالذباذب وأمثالها من القوافي)

إلى اللَّهِ أشكُو غُمَّةً، لا صَبَاحُها يُنِيرُ، ولا تَنْجَابُ عنِّي بِجَانِبِ

تنجاب: تزول

نُشُوبَ الشَّجَا في الحَلْقِ: لا هُوَ سائغٌ ولا هُوَ ملفوظٌ. كَذا كُلُّ نَاشِبِ

هذه الغمة ناشبة في نفسي نشوب (علوق) الشجا (الشوكة في الحلق) لا هي سائغة (نازلة في البلعوم) ولا هي ملفوظة إلى الخارج. وأما «كذا كل ناشب فزيادة لكي يتم البيت وتتم به القصيدة. ابن الرومي مثل المذيع الذي يعشق الميكروفون، يسأل الضيف سؤالاً طوله سبعة أسطر يضم في أثنائه كل عناصر الجواب، ولا يبقى للضيف سوى أن يقول: نعم، بالضبط. ولكن شاعرنا الهمام يأتي في أثناء كلامه بدرر نفيسة. وهذه القصيدة من مشهوراته، وقد أخذنا منها أبياتاً كثيرة كي يحس القارئ بأسلوب الرجل وطريقته. ولعل ما شجعنا على ذلك أنها متماسكة، فيها بناء محكم من المعاني والحجج. و.. نعم، فيها نثرية عالية، وفيها كل مميزات ابن الرومي. فإن أردت أن ترى صورة هذه القصيدة في شعرنا المعاصر فاقرأ بائية إلياس فرحات الكبرى. وسنوردها في الكتاب الخامس والأخير من كتب هذه السلسلة التي بيدك الآن كتابها الثالث

٤٧ الطيلسان المغني

وقال على مذهب الحمدوي:

يا ابنَ حربٍ كَسَوْتَني طَيْلَساناً   يَتَجَنَّى على الرياحِ الذُّنُوبا

صار الطيلسان (الرداء) القديم يتجنى على الرياح ويزعم أنها اقترفت ذنوباً، فهي التي أدت إلى اهترائه

هذه الأبيات آية محبة ابن الرومي كتابة الشعر لوجه الهواية. فهو رجل لا يستطيعُ يقعدُ ساكناً منتظراً فرصة لمدح كبير كي يشحذ قلمه ويكتب أبياتاً ثم يحككها. ليس هكذا ابن الرومي. بل هو يمدح ويقدح ويتسلى بالشعر، ويطيل جداً، لأن النظم هوايته. وقد استطرف ابن الرومي ما فعله معاصره الحمدوي الشاعر فجرى معه في الميدان. وكان الحمدوي نال كسوة من ابن حرب: طيلساناً. ثم أخذ ابن حرب يذكِّره بها، ولا يحبوه بشيء سواها. فكتب الحمدوي عشرات القطع الهزلية عن هذا الطيلسان، والمعنى فيها كلها واحد: أن الطيلسان أصبح قديماً رثاً

طَيْلَسانٌ إذا تنفَّسْتُ فيهِ   صاحَ يشكُو الصَّبا ويشكُو الجَنُوبا

وحتى لو تنفست في الطيلسان فإنه لرقته يظن الأنفاس ريحي الصبا والجنوب

تتغنَّى إحدى نواحيهِ صوتاً   فتَشُقُّ الأخرى عليهِ الجُيُوبا

تغني ناحية من الطيلسان صوتاً (أغنية) فتشق الناحية الأخرى على هذا الصوت الجيوب. وكانوا في القديم إذا طربوا وضعوا يدهم في جيب الرداء (فتحته التي عند العنق) وشقوه شقاً

فإذا ما عَذَلْتُه، قال: مهلاً   لا يكونُ الكريمُ إلَّا طَرُوبا

طالَ رَفْوِي له فَأَوْدَى بِكَسْبِي   يا ابنَ حربٍ تركْتَني مَحْرُوبا

رفوي له: رتقي له، المحروب: مَن سلبَ اللصوص ثيابه

٤٨ الحكمة في قلة الأصدقاء

عدوُّكَ مِن صديقِكَ مُستَفادٌ   فلا تَسْتَكْثِرَنَّ من الصِّحَابِ

مستفاد: مكتسب

فإنَّ الدَّاءَ أكثَرَ ما تراهُ   يَحُولُ من الطَّعامِ أو الشرابِ

يحول: يتحول

إذا انقلبَ الصديقُ غدا عدُوّاً   مُبِيناً، والأمورُ إلى انقلابِ

ولو كان الكثيرُ يَطيبُ كانتْ   مُصَاحَبةُ الكثيرِ مِنَ الصَّوابِ

ولكنْ قلَّما استَكْثَرْتَ إلَّا   سقطتَ على ذئابٍ في ثيابِ

فدعْ عنكَ الكثيرَ، فكمْ كثيرٍ يُعَافُ، وكم قليلٍ مُستَطابِ
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بِمُرْوِيَاتٍ وتَلقَى الرِّيَّ في النُّطَفِ العِذَابِ

اللجج الملاح: المياه الغزيرة المِلْحة، النطفة: الماء القليل

٤٩ دموع تطفئ جمر الحزن

وقال يرثي ابنه:

أَعَيْنَيَّ جودا لي، فقد جُدْتُ للثَّرى بأكثرَ ممَّا تَمْنَعانِ وأطيَبا:

منحت التراب أكثر وأطيب من الدموع التي تمنعانها.. منحت الثرى ولدي

بُنَيَّ الذي أهديْتُه أمسِ للثَّرَى، فَلِلَّه ما أَقوى قَناتِي وأَصْلَبا
فإنْ تمنعانِي الدمعَ أَرْجِعْ إلى أَسىً إذا فَتَرَتْ عنه الدموعُ تَلَهَّبَا

٥٠ خوف من السلطان حتى لو ذهب

لا أَقذَعُ السلطانَ في أيَّامِه خوفاً لِسَطْوَتِه ومُرِّ عِقابِه

أقذع: أشتم

وإذا الزمانُ أصابَهُ بِصُرُوفِهِ حاذرتُ رَجْعَتَهُ ووَشْكَ مَثابِهِ

مثابه: عودته

وأَعُدُّ لُؤْماً أن أَهُمَّ بِبَعْضِهِ إذ فَلَّتِ الأيامُ من أنيابِه

٥١ شكل الحياة بعد الشباب

وقال في عبيد الله بن عبد الله:

لَعَمرُكَ: ما الحياةُ لكلِّ حيٍّ إذا فَقَدَ الشبابَ سوى عَذابِ
يُذكِّرُنِي الشبابُ جِنانَ عَدْنٍ على جَنَباتِ أنهارٍ عِذابِ

٥٢ البحتري لص محظوظ

قد قلتُ إذْ نَحَلُوهُ الشعرَ: حَاشَ له، إنَّ البُرُوكَ به أَوْلَى مِنَ الخَبَبِ
لَهْفِي على ألفِ مُوسَى في طَوِيلَتِه إذا ادَّعَى أنَّه من سادةِ العربِ

موسى: شفرة حادة، طويلته: لحيته

الحظُّ أعمى، ولولا ذاكَ لم نَرَهُ ... لِلبُحْتُرِيِّ بِلا عقلٍ ولا حَسَبِ
قُبْحاً لأشياءَ يأتي البحتريُّ بها ... من شِعرِه الغَثِّ بعد الكدِّ والتَّعَبِ
كأنها حين يُصغِي السامعونَ لها ... مِمَّنْ يُمَيِّزُ بين النَّبْعِ والغَرَبِ

النبع: شجر الجبال الصلب، الغرب: شجر طري

رُقَى العَقارِبِ، أو هَذْرُ البُنَاةِ إذا ... أَضْحَوْا على شَعَفِ الجُدْرانِ في صَخَبِ

رقى العقارب: كلام غامض يكتب في رُقية (رقعة) ليصد العقارب، شعف الجدران: أعالي الجدران

وقد يجيءُ بِخَلْطٍ: فالنُّحاسُ له ... ولِلأوائلِ ما فيهِ من الذهبِ
سَمِينُ ما نَحَلُوهُ من هُنا وهُنا، ... والغَثُّ منه صريحٌ غيرُ مجتَلَبِ
يُسيءُ عَفَّاً، فإن أَكْدَتْ وسائلُه ... أجادَ لِصَّاً شديدَ البأسِ والكَلَبِ

الكلب: شدة الحرص

عبدٌ يُغِيرُ على الموتى فَيَسْلُبُهُمْ ... حُرَّ الكلامِ بجيشٍ غيرِ ذِي لَجَبِ

لجب: ضجة

ما إن تزالُ تَراهُ لابِساً حُلَلاً ... أَسلابَ قومٍ مَضَوْا في سالِفِ الحِقَبِ
يَعيبُ شعرِي، وما زالتْ بصيرتُهُ ... عمياءَ عن كلِّ نُورٍ ساطِعِ اللَّهَبِ
كم قائلٍ لكَ ـ إذ مَسَّتْكَ قارِعَتِي ـ: ... دَعِ السُّكُونَ، فهذا حينَ مُضْطَرَبِ
قد كنتَ تعرفُ منِي في الرِّضَا رجلاً ... حُلْوَ المَذَاقةِ، فاعْرِفْنِي لدى الغضبِ

٥٣ ثور بالتأكيد

وقال في أبي بكر الحريثي:

لِلحُرَيْثِيِّ أبي بَكْرٍ غَبَبْ ... ولَه قَرْنانِ أيضاً وذَنَبْ

غبب: ما يتدلى من عنق الثور

فإذا ما قالَ: إنَّا عَجَمٌ ... قالَ قَرْناهُ جميعاً: قد كَذَبْ
وإذا ما قالَ: إنَّا عَرَبٌ ... دَفَعَتْ ذاكَ ولم ترضَ العَرَبْ
كَتَمَتْهُ أُمُّهُ آباءَهُ ... فَلِهذا أنكرَ القومُ النَّسَبْ
لَيْتَها أَنْبَتْهُ عن آبائِهِ ... فلقدْ صُوِّرَ في خَلْقٍ عَجَبْ

أنبته: أنبأته، أخبرته

جُثَّةُ الكَشْخانِ تُنْبي أنها جُمِعَتْ نُطْفَتُها مِنْ ألفِ أبْ

الكشخان: الديوث، من يتاجر بزوجته جنسياً

كلَّ يومٍ لكَ فيه نَسَبٌ زادَكَ الرحمنُ في هذا التَّعَبْ
أنتَ ما تَنْفَكُّ في تَصْحِيحِهِ من عَناءٍ واشْتِغالٍ ونَصَبْ
عابَ أشعاريَ، وفي منزِلِهِ كلُّ عيبٍ ومَخازٍ ورِيَبْ

٥٤ ما أجملك مصلوباً

طولٌ وعرضٌ بِلا عقلٍ ولا أدبٍ فليسَ يَحْسُنُ إلَّا وَهْوَ مصلوبُ

٥٥ صائم عنده رغم أنفك

أَبديْتَ صفحةَ قَسْوَةٍ وخُشونةٍ من دونِ تافِهِ نَيْلِكَ المطلوبِ
فكأنَّكَ اليَنْبُوتُ في إبدائِه شوكاً يَذودُ به عن الخَرُّوبِ

الينبوت: شجر الخروب

يا ضَيْفَه: أَبْشِرْ فإنكَ غانِمٌ أجْرَ الصِّيامِ، وليس بالمكتوبِ
يتنفَّسُ الصُّعَدَاءَ من كِظَّاتِهِ لا فَارقَتْه زَفْرَةُ المَكْرُوبِ

كظاته: اكتظاظه بالطعام

يا حَسْرَتا لِقَصيدةٍ أغلَقْتُها بمديحِه، وفتحْتُها بِنَسيبِ
لأُبدِّلَنَّ مديحَه قَذْعاً له، ولأَجْعَلَنَّ بأُمِّه تَشْبيبي

٥٦ الانجذاب والانقياد

وقال يهجو أم أحدهم:

كانتْ إذا لاحَظَها فاسِقٌ أدارَها اللَّحْظُ بِلا لَوْلَبِ

لاحظها: حدجها بنظراته، فهي تتلوى تحت نظرات الفاسق كما يتلوى البرغي وإن لم يكن لها لولب كلولبه

تُجْذَبُ باسْتِنْشَاقَةٍ رَخْوَةٍ وربما انقادَتْ ولم تُجْذَبِ

٥٧ تستحق الضرب

غَـنَّـتْ فَـمَـسَّ الـقـلـبَ كـلُّ كَـرْبِ
واسـتـوجَـبَـتْ مـنَّـا أَلِـيـمَ الـضَّـرْبِ
لـهـا فَـمٌ مـثـلُ اتِّـسـاعِ الـدَّرْبِ
حَـسـبـيَ مـنـهـا يـا نَـديـمـي حَـسْـبـي
قـد أَصْـدَأَتْ سَـمْـعـي وغَـمَّـتْ قـلـبـي

٥٨ المنحوس منحوس

وكتب إلى القاسم بن عبيد الله وقد كان عزم على الشخوص إلى ناحية آمد مع المعتضد لقتال ابن عيسى بن شيخ:

إنَّ مـن جَـاءَ يَـمْـتَـري دَرَّةَ الـلَّـبْـ ـوَةِ غَـرْثَـى لَـلْـحَـائِـنُ الـمَـخْـلُـوبُ
من جاء يمتري (يحلب) درة (حليب) اللبوءة وهي غرثى (جائعة) حائن (هالك) مخلوب (مخدوع)

حـالِـبٌ جـاءَ يَـسْـتَـدِرُّ حَـلُـوبـاً، دَمُـهُ، دونَ دَرِّهَـا، الـمـخـلُـوبُ
رامَ من ضَرْعِها شُخُوباً، فكانتْ من وَتِينِ الشَّقِيِّ تلكَ الشُّخُوبُ
الشخوب (صوت اللبن الحليب وهو يحلب)، وتين (عِرق)

وإليكَ الشَّكَاةَ يا ابنَ الوَزيرَيْـ ـنِ، فإنِّي في مِحْنَتي أيُّوبُ
عَكَسَتْ أمرِيَ النُّحُوسُ، فَعَنْزِي أبداً حائِلُ، وتَيْسِي حَلُوبُ
حائل (عاقر)

مَنْ عَذِيرِي من دَوْلَةٍ يَدِيَ المنْـ ـكُوحُ فيها، ورِجْلِيَ المرْكوبُ
فهو يمارس العادة السرية، وليس له بغل لذا يركب رجليه لا غير

٥٩ سأريه ما لم يكن في حسابه

صديقٌ ليس يُمْكِنُ من خِطابِهْ ولا يَرعَى ذِمَامَ ذَوِي طِلابِهْ
لَقِيتُ البُرْحَ يوماً من لِقاءٍ له قاسٍ، ويوماً من حِجَابِهْ
البرح: الشدة

يُعذِّبُني، وأصبِرُ كلَّ يومٍ فَيَنْقِمُ أنْ صَبَرْتُ على عَذَابِهْ

سَتَأْتِيهِ، بما اكتَسَبَتْ يدَاه،   قَوَافٍ لم تُدَوَّنْ في حِسَابِهْ

٦٠ شيب وخضاب

وقال، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم:

طَرِبْتُ إلى المِرَاةِ فَرَوَّعَتْني   طَوَالِعُ شَيْبَتَيْنِ أَلَمَّتَا بي
فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزِعْتُ منها   إلى المِقْرَاضِ حُبَّاً لِلْتَّصَابي

فزع إلى: سارع إلى، المقراض: المقص

وأمَّا شيبةٌ فَصَفَحْتُ عنها   لِتَشْهَدَ بالبراءَةِ من خِضَابي
فَأَعْجِبْ بالدَّلِيلِ على مَشيبي   أَقَمْتُ به الدليلَ على شَبابي

٦١ قالي الزلابية

ومُسْتَقِرٌّ على كُرْسِيِّهِ تَعِبٍ   رُوحي الفِدَاءُ له من مُنْصَبٍ تَعِبِ
رأيْتُهُ سَحَراً يَقْلي زَلَابِيَةً   في رِقَّةِ القِشْرِ، والتَّجْويفِ كالقَصَبِ

الزلابية: المشبَّك، حلوى بقدر الكف كأنها الشبكة، وطريقة صنعها فيما يأتي.. (في بعض البلاد يسمون العوامة المكورة زلابية، وفي نابلس بفلسطين فالزلابية هي حلوى القرع الأصفر)

كأنَّما زيتُه المَغْلِيُّ حينَ بَدَا   كالكِيمِياءِ التي قالوا ولم تُصِبِ

الكيمياء في ذلك الزمن كانت علم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب

يُلْقي العَجينَ لُجَيْناً من أناملِه   فيستَحيلُ شَبابِيكاً من الذَّهَبِ

لجيناً: فضة

٦٢ كفارة الكذب

مَدَحْتُكُمْ طَمَعاً فيما أُؤَمِّلُهُ   ولم أَنَلْ غيرَ حَظِّ الإثْمِ والوَصَبِ

الوصب: التعب

إن لم تكنْ صِلَةٌ مِنْكُمْ لِذِي أَدَبٍ   فَأُجْرَةُ الخَطِّ، أو كَفَّارَةُ الكَذِبِ

٦٣ أخنزيراً وميْتة!

وقال في أبي يوسف الدقاق:

لِأَبي يُوسُفَ بِنْتٌ   لَيْتَهُ أَعْقَمَ، لَيْتَهْ

تُشبِهُ القِردَ أوِ الشيـ ـطانَ، إن كنتَ رأيْتَهْ
قلتُ، لما سَامَنِيها بعضُ من يألفُ بَيْتَهْ:

سامنيها: ساومني عليها

أزِناً وابْنَةَ يَعْقُو بَ، أَخِنْزِيراً ومَيْتَةْ؟

٦٤ عِفْتها.. عِفْتها

وقال في إسماعيل بن بلبل:

فَكَّرْتُ في خمسينَ عاماً خَلَتْ كانتْ أمامي ثمَّ خَلَّفْتُها
لو أنَّ عُمْري مِئَةٌ هَدَّني تَذَكُّري أَنّيَ نَصَّفْتُها
كَنْزُ حياةٍ كانَ أنفقْتُهُ على تَصارِيفَ تَصَرَّفْتُها
لا عُذْرَ لِي في أَسَفِي بعدَها على العَطايا. عِفْتُها، عِفْتُها

٦٥ منطق أرسطو في ريح خرج

وقال أيضا يهجو إنسانا ضرط بحضرته، فضحك ابن الرومي، وغضب الضارط:

بُلِيتَ بِفَلْتَةٍ فَضَحِكْتُ فَلْتَةْ فَلا تغضبْ، كِلا الأمرَيْنِ بَغْتَةْ
ولِي فَضْلٌ عليكَ، لأنَّ فِعْلي بِغَيْرِ أَذىً عليكَ، فَلِمْ كَرِهْتَهْ؟
أَتُسْمِعُني الأذى وتُشِمُّنِيهِ وتَجْشُمُني رِضَى مَا قد فَعَلْتَهْ
وتغضبُ أنْ ضحكتُ بغيرِ عَمْدٍ ولم تَسْمَعْ أذايَ ولا شَمِمْتَهْ؟

٦٦ مبادلة

أنتَ تَيْسٌ، والتَّيْسُ أشْـ ـبَهُ شَيءٍ بِخِلْقَتِكْ
أنتَ أَوْلَى بِقَرْنِهِ وَهْوَ أَوْلَى بِلِحْيَتِكْ

٦٧ العيش المدبر

قد كنتُ أبكي على من ماتَ من سَلَفِي وأهلُ وُدِّي جَميعٌ غيرُ أَشْتَاتِ
فاليومَ - إذْ فَرَّقَتْ بيني وبيْنَهُمُ نَوىً - بكيتُ على أهلِ المَوَدّاتِ
وما حياةُ امرئٍ أضحتْ مدامِعُهُ مَقْسومَةً بينَ أحياءٍ وأمواتِ؟

التسويد من الصديق اللغوي أحمد عبد الرحيم

٦٨ المتعة الباقية

ولــقــد ســئــمــتُ مَـآرِبـي   فَـكـأَنَّ طَـيِّـبَـهـا خَـبـيـثْ
إلا الـــحــديـــثَ، فـــإنَّـــهُ،   مِـثْـلَ اسـمِـهِ، أَبـداً حَـدِيـثْ

٦٩ المراودة والندم

أستغفرُ اللَّهَ مِن تَرْكي عَلانِيَةً   ذنباً هَمَمْتُ به في شَادِنٍ خَنِثِ

شادن: غزال

ظَبْيٌ دَعَتْنِيَ عيناهُ ومَنْطِقُهُ   بِنِيَّةٍ صَدَقَتْ عن ظَاهِرٍ عَبِثِ
فلم أُجِبْهُ، وحَظِّي في إِجابَتِه،   لَكِنْ سَكَتُّ كأني غيرُ مُكْتَرِثِ
لا بل فَرَرتُ، وظَلَّ الصَّيْدُ يَطْلُبُني!   واللَّهِ ما كنتُ فيها بِالفَتَى الدَّمِثِ
أَقْسَمْتُ باللَّهِ لـمَّا قمتُ مُحْتَجِزَاً   أَنِّي انْبَعثْتُ بِقَلْبٍ غيرِ مُنْبَعِثِ

وهكذا ظل ابن الرومي بعيداً عن اللواط؛ ونادماً على تفويت فرصته

٧٠ المتاحة البائرة

وقال يهجو الجارية دريرة:

ويْـلَـكِ يـا قَـدَّ الـبَـرَسْـتُـوجَـةْ   مـا أنـتِ والـلَّـهِ بِـمَـغْـنـوجَـةْ

البرستوجة: لعلها ثمرة مكوَّرة الشكل (لم أعثر عليها في اللسان ولا تاج العروس ولا في تكملة دوزي)

يـا كَـعْـبَـةً لـلـنَّـيْـكِ مَـنْـصُـوبَـةً   لـكـنَّـهـا لـيـسـتْ بِـمَـحْـجُـوجَـةْ

٧١ باختصار

يـا طَـيِّـبَ الـثَّـغْـرِ والـمُـجَـاجَـةْ   اِقْـضِ لـنـا حَـاجَـةً بـحـاجَـةْ

المجاجة: الريق

خـذْ مـن دنـانـيـرِنـا وبِـعْـنَـا   نَـبْـكـاً، ودَعْـنـا مـن الـلَّـجَـاجَـةْ
عَـرِّجْ عـلـيـنـا نُـصِـبْ غَـدَاءً   ونُـعْـمِـلِ الـعـودَ والـزُّجـاجَـةْ
هـل مَـانِـعـي حـاجَـتـي مَـلـيـحٌ   خِـلْـوٌ مـن الـبُـغْـضِ والـفَـجَـاجَـةْ
وإنَّـمـا حـاجَـتـي إلـيـهِ   حَـاجَـةُ ديـكٍ إلـى دجـاجَـةْ

٧٢ مقمّلون مقرّنون

لــو أن قَـمْـلَ رؤوسِـكُـمْ ذاتِ الـقُـرونِ إذا دَرَجْ
القرون للرجل كناية عن أن زوجته تخونه وهو غافل أو متغافل
شـاءَ الـعُـروجَ إلـى الـسَّـمـا ءِ عـلـى قُـرُونِـكُـمُ عَـرَجْ

٧٣ آكلة القلوب

وقال في شاجي:

ذاتُ جِيدٍ يُزْهَى على كلِّ عِقْدِ وجبينٍ يُزْهَى على كلِّ تَاجِ
يـتَـلَـقَّـاكَ في الـغَـلائِـلِ منها وجهُ شمسٍ، وجسمُ دُمْيَةِ عاجِ
أَسْبَلَتْ من ذُرَاهُ جَعْدَاً أَثِيثَاً جَائِزاً حدَّ متنِها الرَّجْرَاجِ
جعداً أثيثاً: شعراً أجعد كثيفاً، جائزاً: متجاوزاً
جَارياً فوق متنِها جِرْيَةَ الما ءِ، وإن كان حالِكَ الأمواجِ
فَهْيَ: أمَّا السِّرَاجُ منها فَوَهَّا جٌ، وأما الظَّلامُ منها فَدَاجِ
فَلِأَعْطَافِها صُنوفُ اهتِزازٍ، ولِأَردافِها صُنوفُ ارتِجَاجِ
مَنْ مُجِيرِي مِنْ أضعفِ الناسِ رُكْناً ولِعَيْنَيْهِ سَطْوَةُ الحجَّاجِ؟
شَادِنٌ يَرْتَعِي القُلوبَ بِبَغْدَا دَ، ولا يَرتَعِي الخَلا بِالنِّبَاجِ
شادن: ظبي، الخلا: النبات الرطب، النباج: موضع قرب البصرة
أَوْرَثَ القلبَ سِحْرُ عينيهِ داءً ما له، غيرَ رِيقِهِ، من عِلاجِ

٧٤ الجيمية الكبرى

وقال يرثى أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي:

أَمامَكَ فانظُرْ أيَّ نَهجَيْكَ تَنْهَجُ؟ طَريقَانِ شَتىً: مستقيمٌ وأعوجُ
أَكُلَّ أَوَانٍ للنبيِّ محمدٍ قَتِيلٌ ذَكِيٌّ بالدماءِ مُضَرَّجُ؟
تَبيعونَ فيه الدِّينَ، شرَّ أَئمَّةٍ، فَلِلَّهِ دينُ اللَّهِ، قد كَادَ يَمْرَجُ
تبيعون في هذا الأوان الدين، وقد كاد يمرَج (يفسد)
بَنِي المُصْطَفى: كمْ يأكُلُ الناسُ شِلْوَكُمْ؟ لِبَلْوَاكُمُ عمَّا قليلٍ مُفَرَّجُ
شلوَكم: مفرد «أشلاءكم»

أمـا فِـيـهِـمُ راعٍ لِـحَـقِّ نَـبِـيِّـهِ ولا خـائـفٌ مـن ربِّـهِ يَـتَـحَـرَّجُ؟
أَبَعْدَ المُكَنَّى بالحسينِ، شَهِيدِكُمْ، تُضِيءُ مصابيحُ السماءِ فَتُسْرَجُ؟
وكـنَّـا نُـرَجِّـيـهِ لِـكَـشـفِ عَـمَـايَـةٍ بِـأمـثـالِـهِ أمـثـالُـهـا تَـتَـبَـلَّـجُ
فساهَمَنا ذو العرشِ في ابنِ نبيِّه فـفـازَ بـه، والـلَّـهُ أعْـلَـى وأَفْـلَـجُ

ساهمنا: قامرنا (وكانوا يقسمون الذبيحة أقساما ويستهمون عليها ويقترعون)، أفلج: أظفر

لِمَنْ تَستَجِدُّ الأرضُ بعدَكَ زينَةً فَـتُـصْـبِـحَ فـي أثـوابِـهـا تَـتَـبَـرَّجُ
سـلامٌ وريْـحَـانٌ ورَوْحٌ ورحـمـةٌ عليك، وممدودٌ من الظلِّ سَجْسَجُ

روْح: نسيم، سجسج: رائق لا حار ولا بارد

ولا بَـرِحَ الـقـاعُ الـذي أنـتَ جـارُهُ يَـرِفُّ عـلـيـهِ الأُقْـحُـوانُ الـمُـفَـلَّـجُ

القاع: السهل، المفلج: المتفتح

ويـا أَسَـفـيِ أَلَّا تَـرُدَّ تـحـيـةً سوى أَرَجٍ من طيبِ رَمْسِكَ يَأْرَجُ

أرج: عبير، رمسك: قبرك

ألا أيُّـهـا الـمـسـتـبـشِـرونَ بِـيـومِـه أظـلَّـتْ عـلـيـكُـمْ غُـمَّـةٌ لا تُـفَـرَّجُ
كـأنِّي بـه كـالـليـثِ يـحـمـي عرينَهُ وأشـبـالَـه، لا يَـزْدَهِـيـهِ الـمُـهَـجْـهَـجُ

يزدهيه: يستخفه ويرعبه، المهجهج: النار

يَـكُـرُّ عـلـى أعـدائِـهِ كَـرَّ ثَـائِـرٍ ويَـطْـعَـنُـهُـمْ سُـلْـكَـى، ولا يَـتَـخَـلَّـجُ

يطعنهم سلكى: بطعنة مستقيمة، يتخلج: يضطرب

كَـدَأْبِ عـلـيٍّ فـي الـمـواطنِ قَـبْـلَـه أبي حسنٍ، والغصنُ مِنْ حيثُ يخرُجُ
فَحُبَّ به جِسْمَاً إلى الأرضِ إذ هَوى وحُـبَّ بـه رُوحـاً إلـى الـلَّـهِ تَـعْـرُجُ
أَجِنُّوا بَنِي العباسِ من شَنَآنِكُمْ وأَوْكُوا على ما في العِيَابِ وأَشْرِجُوا

أجنوا: أخفُوا، شنآنكم: بغضكم، أوكوا: اربطوا، العياب: الصناديق، والقرب، والصدور، أشرجوا: خِيطوا

أَكُـلُّـكُـمُ أمـسـى اطْـمَـأَنَّ مِـهَـادُهُ بِأَنَّ رسولَ اللَّهِ في القبرِ مُزْعَجُ؟
نَـظَـارِ لَـكُـمْ أنْ يَـرْجِـعَ الـحَـقَّ راجِـعٌ إلى أهلِه يوماً، فَتَشْجَوْا كما شَجُوا

يَرجع: يُرجع، يردّ

غُـرِرْتُـمْ إذا صـدَّقْـتُـمُ أن حَـالَـةً تَـدومُ لكُمْ، والدهرُ لَوْنَانِ أَخْرَجُ

الأخرج: ذو اللونين

لعلَّ لهُمْ في مُنْطَوَى الغيبِ ثائراً سيَسْمُو لكُمْ، والصبحُ في الليلِ مُولَجُ

ثائراً: آخذاً بالثأر، يسمو لكم: يظهر لكم

بِمَجْرٍ تضيقُ الأرضُ عن زَفَراتِه له زَجَلٌ يَنْفي الوحوشَ، وهَزْمَجُ

مجر: جيش، زجل: صوت عال، هزمج: صوت عال، مثل هزيم الرعد

تُوامِضُهُ شمسُ الضُّحَى، فكأنَّما يُرَى البحرُ في أعْراضِهِ يَتَمَوَّجُ

وميض الشمس يقع على أسلحة الجيش فكأنه البحر

يؤيِّدُهُ رُكنانِ ثَبْتَانِ: رَجْلُهُ وخيلٌ كأَرْسَالِ الجرادِ وأَوْثَجُ

رجله: مُشَاته، أرسال: أفواج، أوثج: أكثف

يَوَدُّ الذي لاقَاهُ أنَّ سلاحَهُ هنالكَ خَلخَالٌ عليه ودُمْلُجُ

الدملج: السوار، الذي يلاقي هذا الجيش يتمنى أنه امرأة حتى لا يحارب

فَيُدْرِكُ ثأرَ اللَّهِ أنصارُ دينِه ولِلَّهِ أوْسٌ آخرونَ وخَزْرَجُ

هنا قعدت القافية مرتاحة بغير لفظة معجمية تتعب القلب

وتَظْعَنُ، خوفَ السَّبْيِ بعدَ إقامةٍ، ظَعائِنُ لم يُضْرَبْ عليهِنَّ هَوْدَجُ

تظعن (ترحل) الظعائن (النساء) خوف السبي لكن بعجلة وبدون هوادج رحيل خوف وفزع

مَحَضْتُكُمْ نُصْحِي، وإنِّيَ بَعدَها لأُعْنِقُ فيما ساءَكُمْ وأُهَمْلِجُ

أعنق: أسرع، أهملج: أسرع

أَفي الحقِّ أن يُمْسُوا خِمَاصاً، وأَنْتُمْ يكادُ أَخُوكُمْ بِطْنَةً يَتَبَعَّجُ

خماصاً: جائعين، يتبعج: ينشق بطنه

تَمَشَّوْنَ مُخْتَالينَ في حُجُراتِكُمْ ثِقَالَ الخُطَا أَكْفَالُكُمْ تَتَرجْرَجُ

وإن كُنْتُمُ منهُمْ، وكان أبوكُمُ أباهُمْ، فإنَّ الصَّفْوَ بِالرَّنْقِ يُمْزَجُ

الرنق: الكدر، تراب الماء

وإنِّي على الإسلامِ منكُمْ لَخَائِفٌ بَوَائِقَ شَتَّى بَابُها الآنَ مُرْتَجُ

البوائق: الدواهي

٧٥ أمواج الحبيبة

يـا قـمـراً فـوق رأسِـه تـاجُ ... يَخجَلُ من حُسْنِ لونِه العَاجُ
إذا تـمـشَّـى يـكـادُ يـجـذِبُـه ... رِدْفٌ لـه كـالـكَـثِـيـبِ رَجْرَاجُ
كـأنـمـا فـي جُـيـوبِـه قـمـرٌ ... وفـي الـسَّـراويـلِ مـنـه أمْـواجُ

الجيب: فتحة الرأس في الجلابية أو فيما أشبهها من ملابس

٧٦ طار الغراب عن رأسي

شَعَراتٌ في الرأسِ بِيضٌ ودُعْجُ، ... حَلَّ رأسـي جِـيـلانِ: رُومٌ وزَنْـجُ

دعج: سود

طارَ عن هامتي غُرابُ شبابٍ، ... وعلاهُ مكانَهُ شَاهُمُرْجُ

شاهمرج: معرب شاه مرغ: وهو طائر أبيض

حلَّ في صَحْنِ هامتي منه لونا ... نِ، كـمَـا حَـلَّ رُقْـعَـةً شِـطْـرَنْـجُ
أيها الشيبُ لِمْ حللْتَ برأسي؟ ... إنـمـا لـيِ عَـشْـرٌ وعَـشْـرٌ وبَـنْـجُ

بنج بالفارسية خمسة

٧٧ السفر إلى طنجة

قال ابن الرومي في كنيزة:

وقَـيْـنَـةٍ أَبْـرَدَ مـن ثَـلْـجَـةْ ... تـظـلُّ مـنـهـا الـنـفسُ في ضَجَّةْ
مـا جُـنَّ مـن عِـشْـقٍ فـؤادٌ بـهـا ... كـلَّا، ولا ذابـتْ بـهـا مُـهْـجَـةْ
خَـرَّاجَـةٌ لـلـفِـسْـقِ دَخَّـالَـةٌ ... تُـعْـجِـبُـهـا الـدَّخْـلَـةُ والـخَـرْجَـةْ
لـو حُـدِّثَـتْ عـن فَـيْـشَـةٍ ضَـخْـمَـةٍ ... بِـطَـنْـجَـةٍ سـارتْ إلـى طَـنْـجَـةْ

الفيشة: أعلى عضو الرجل

٧٨ شعري مرآة

وكتب إلى أبي عثمان سعيد بن الحسين بن شداد المسمعي الناجم في قوم عابوا شعره:

نظَرَتْ في وُجُوهِ شِعري وجوهٌ ... أُوسِعَتْ قبلَ خَلْقِها تَقبيحَا

أَبْصَرَتْ في صِقَالِهِ صُوَراً منـ ـها قِبَاحاً، فَأَظْهَرَتْ تَكْلِيحَا
عَايَنَتْ فيه قُبْحَها فاجْتَوَتْهُ ظَالِمَاتٍ هناكَ ظُلْماً صَرِيحا

اجتوته: عافته

والمَرايا تُرِي الجميلَ جميلاً وكذاكُمْ تُرِي القبيحَ قبيحا

٧٩ لا تتعب نفسك.. الزمان تغير

يا مادحَ القومِ اللئا م، وطالباً نَيْلَ الشِّحَاحِ
ما أنتَ في زمنِ المديـ ـحِ، ولا الهجاءِ، ولا السَّمَاحِ
فاشْغَلْ قَرِيضَكَ بالنَّسِيـ ـبِ، وبالفُكاهةِ والمُزَاحِ

٨٠ أمدحك وديوني تهجوك

وقال في إسماعيل بن بلبل:

لي لِسانٌ ما زالَ يُطْرِيكَ في النَّثْـ ـرِ، وفي النَّظْمِ غيرَمَا مُسْتريحِ
وارتِكابُ الدُّيونِ إيَّايَ في ظِلِّـ ـكَ يهجوكَ باللسانِ الفصيحِ

ارتكاب: ركوب

٨١ جهز القدح قبل المدح

وقال في عبد الله بن محمد بن يزداد:

إذا ما مدحتَ أبا صالحٍ فأَعْدِدْ له الشَّتْمَ قبلَ المديحِ
فإنِي ضَمِينُكَ عن لُؤْمِه بِبُخْلٍ عَتِيدٍ ورَدٍّ قَبيحِ

عتيد: حاضر

وأنَّى يجودُ؟ ولا عِرْقُهُ كريمٌ، ولا وجهُه بالصَّبِيحِ

٨٢ السابحون والعطشان

وقال في إسماعيل بن بلبل:

عقيدَ النَّدَى: أَطلِقْ مدائحَ جَمَّةً حَبَائِسَ عندي قد أَنَى أنْ تُسَرَّحَا

عقيد الندى: ملازم السخاء، أنى: آن

ولـم أَحْـتَبِسْـها إذْ حَبَسْتَ مَثُوبَتي   لأنَّ مَدِيحاً لم يَجِدْ بعدُ مَمْدَحَا . .

لم أحبس القصائد بسبب أن المديح لم يجد مكاناً له، ولكن . .

ولـكـنَّ لـيِ نَـفْسَـاً عـلـيكَ شَـفِـيقةً   تُحَاذِرُ وِجْدانَ العِدا فيكَ مَقْدَحا

. . أشفق عليك إذ أمدحك فلا تكافئني فينتقدك أعداؤك

فيا لكَ بحراً لم أَجِدْ فيه مَشْرَباً   وإن كان غيري واجداً فيه مَسْبَحا

٨٣ اللائم على الراح

يـا لائـمـيِ فـي الـراحِ غيرَ مُقَصِّرٍ   لا زَالَ رأيُـكَ سَـيِّـئـاً فـي الـرَّاحِ
فَـأَقَلُّ ما في تَرْكِ مِثْلِكَ شُرْبَـها   تَـوفـيـرُهـا، وطـهـارةُ الأَقْـدَاحِ

٨٤ لا نجاح بعد الاجتياح

وقال في نجح الخادم (وكان خصياً، أو أن الشاعر يفتري عليه ذلك):

قُلْ لِنُجْحٍ: أخطأْتَ بابَ النَّجاحِ   بَـل تَـعـاطَـيْـتَـهُ بِـلا مِـفـتـاحِ
إنَّ وُدَّانَ لا تَـوَدُّ خَـصِـيَّـاً   فَاصْحُ عنها، فَقَلْبُها عنكَ صَاحِ
لـيتَ شِعْرِي بمـا تظُنُّكِ تُصْبي   قـلـبَ وُدَّانَ يـا كَـسِيـرَ الـجَـنـاحِ؟

تصبي: تغري

أَبِـوَجـهٍ، كـأنَّـه وَجْـهُ قِـرْدٍ،   حَـائِلِ الـلونِ خَـامِدِ الـمصباحِ؟
أمْ بـأَبْـرٍ أتَـى الـخِـصَـاءُ عـلـيـه   غيرَ مُبْقٍ، فاجْتِيحَ أيَّ اجتياحِ؟
أم بِـقَـدٍّ كـأنَّـهُ قَـدُّ زِقٍّ   زِيـدَ عَـرضـاً بِـبَطْـنِكَ الـمُـنْـدَاحِ؟

الزق: قربة ضخمة من جلد تكون للخمر، المنداح: المترهل

أنـتَ لا مِـنْ ذَوِي الأُبُـورِ فَـتَـهْـوا   كَ، ولا مِنْ ذَوِي الوُجُوهِ الصِّبَاحِ
إنَّ مَـنْ يَـعـشَـقُ الـنـسـاءَ بـلا أَبْـ   ـرٍ كَـمِـثْـلِ الـغَـازِي بِـغـيـرِ سِـلاحِ
مَنْ عَذِيري مِنْ جَوْرِكُمْ، مَعشرَ الخِصْـ   ـيانِ، إذ تَـطـلُـبونَ وَصْـلَ الـمِـلاحِ

من عذيري: من نصيري!

مَـعـشَـرٌ أَشْـبَـهـوا الـقُـرُودَ، ولـكـنْ   خَـالَـفُـوهـا فـي خِـفَّـةِ الأَرْوَاحِ

٨٥ غاية العبث

وقال في عبد الله بن خرداذبه:

أيُّـــهـــا الـــعـــاذلُ لا أخـــ ... ـطــأَكَ الـحَـيْـنُ الـمُـتـاحُ

الحين: الهلاك، المتاح: المقدَّر بقضاء

إن يـكـنْ عـنـدَكَ لـي نـصـ ... ـحٌ، فـمـا عِـنـدِي انـتِـصَـاحُ

كـلُّ شـيءٍ غُـلِـبَ الـصَّـبْـ ... ـرُ إلـيـه فَـمُـبـاحُ

إنـمـا الـدنـيـا مَـلاهٍ ... واغـتـبـاقٌ واصْـطِـبـاحُ

الاغتباق: الشرب مساء، الاصطباح: الشرب صباحاً

والـمُـزَاحُ الـجِـدُّ - إنْ فـكَّـ - ... ـرْتَ - والـجِـدُّ الـمُـزَاحُ

٨٦ سأطحنك

وقال مجيبا عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن العلاء بن صاعد:

ألا أَهْـوِنْ عـلـى الـبـدرِ ... بِـكـلـبٍ لَـجَّ فـي الـنَّـبْـحِ

نَـهَـتْ عـن نـفـسِـهـا الـنـارُ ... بـمـا فـيـهـا مـن الـلَّـفْـحِ

حَـذارِ الـحِـلْـمَ! إن الـحِـلْـ ... ـمَ ذو أَسْـوٍ، وذو جَـرْحِ

ومـا عـنـد الـرَّحـى بُـقْـيَـا ... إذا دارتْ عـلـى الـقـمـحِ

بقيا: إبقاء المرء حياً وعدم قتله عند التمكن منه

٨٧ الارتجال

نـارُ الـرَّوِيَّـةِ نـارٌ جِـدُّ مُـنْـضِـجَـةٍ ... ولِـلـبـديـهـةِ نـارٌ ذاتُ تَـلْـوِيـحِ

وقـد يُـفَـضِّـلُـهـا قـومٌ لِـعـاجِـلِـهـا ... لـكـنَّـه عـاجـلٌ يـمـضـي مع الـرِّيـحِ

٨٨ استهتار*

إن كـنـتُ قـد عَـرْبَـدْتُ فـي سَـكْـرَتـي ... فـمـا عـلـى الـسـكـرانِ أصـلاً جُـنَـاحْ

أو كـنـتُ قـد أخـطـأتُ فـي لـفـظـةٍ ... فـأنـتَ يـا مـولايَ ربُّ الـسَّـمَـاحْ

فـبِـالـذي وَلَّاكَ فـي مُـهـجـتـي ... لا تَـسْـقِـنـي الـكـاسـاتِ إلَّا طِـفَـاحْ

* ينبهني الصديق أحمد عبد الرحيم إلى لامعجمية لفظة «استهتار» ويقترح «استهانة». الاستهانة شيء يختلف قليلاً، وعندي كلمة «استخفاف» ولكنها لا تعني ما تعنيه استهتار كما درجت حديثاً

٨٩ الشاة المرعوبة

وقال يهجو البحتري:

مـا مَـجْـزَعُ الـشَّـاةِ إذا ذُبِـحَـتْ   مـن ألـمِ الـذَّبْـحِ ولا الـسَّـلْـخِ
ولا مـن الـتـفـصـيـلِ مَـنْـكُـوسَـةً   ولا مـن الـشَّـيِّ ولا الـطـبـخِ
لـكـنـهـا تـجـزَعُ مـن خَـلَّـةٍ   تَـقْـدَحُ فـي الأحـشـاءِ بـالـمَـرْخِ

خلة: خصلة، أمر، المرخ: الدعك

تُـشْـفِـقُ أن يُـكْـتَـبَ فـي جـلـدِهـا   شِـعْـرُكَ يـا ذا الـقَـرْنِ والـكَـشْـخِ

ذو القرن: كناية عن كونه يغضي عن زنا زوجته، ذو الكشخ: الديوث

٩٠ الطيلسان العتيق

وقال على مذهب الحمدوي:

يا ابنَ حَرْبٍ كَسوْتَني طَيْلَساناً   يُـزْرَعُ الـرَّفْـوُ فـيـه وَهْـوَ سِـبَـاخُ

سباخ: مستنقعات، يقول: الرقع تزرع زرعاً في هذا الثوب وهو كالسباخ التي لا ينبت زرعها

مـاتَ نَـسَّـاجُـهُ ومـاتَ بَـنـوهُ   وبدا الشيبُ في بَنِيهِمْ وشاخُوا

لقدم الثوب فإن نساجه مات، وأبناؤه ماتوا، والأحفاد شاخوا

تَـسْـتَـمِـرُّ الـصُّـدُوعُ طولاً وعـرضـاً   فـيـه، حـتـى كـأنَّـهُـنَّ رِخَـاخُ

الصدوع: الشقوق، رخاخ: حجارة القلعة في الشطرنج (وحركتها أفقية وعمودية ليس غير)

نَسْرُ دَهْرٍ؛ نُسورُ لُقْمَانَ، والنَّسْـ   ـرانِ إنْ قِـسْـتَـهـا إلـيـه فِـراخُ

هذا الطيلسان نسر يعيش مدى الدهر. ونسور لقمان المشهورة بطول عمرها، وكذا النسران ذانك، النجمان في السماء، إذا قيست جميعاً إلى هذا الطيلسان فهي مجرد فراخ

٩١ تعاسة من المهد إلى اللحد

يمدح صاعد بن مخلد:

أَبَـيْـنَ ضُـلـوعـي جـمـرةٌ تـتـوقَّـدُ   على ما مضى أم حَسْرةٌ تتجدَّدُ؟
كـفَـى حَـزَنـاً أنَّ الـشـبـابَ مـعـجَّـلٌ   قَصيرُ الليالي، والمشيبَ مُخَلَّدُ
إذا حَلَّ، جارى المرءَ شأْوَ حياتِه   إلى أن يَضُمَّ المرءَ والشَّيبَ مَلْحَدُ

شأو حياته: شوط حياته، يعني مدى حياته

أرى الدَّهرَ أجْرَى ليلَه ونهارَه بِعَدلٍ، فلا هذا ولا ذاك سَرْمَدُ
وجارَ على ليلِ الشبابِ فَضَامَهُ نهارُ مَشِيبٍ سَرْمَدٍ ليس يَنْفَدُ
وعَزَّاكَ عن ليلِ الشبابِ مَعَاشِرٌ فقالوا: نهارُ الشيبِ أهدَى وأرْشَدُ
وكانَ نهارُ المرءِ أهدَى لِسَعْيِه ولكنَّ ظِلَّ الليلِ أنْدَى وأبْرَدُ
أأيَّامَ لَهْوِي: هل مَوَاضِيكِ عُوَّدُ؟ وهَلْ لِشَبابٍ ضَلَّ بالأمسِ مَنْشَدُ؟

يا أيام لهوي! هل ما مضى منك عائد؟ وهل للشباب الذي ضاع أمس من منشد (تفتيش عنه)

أقولُ، (وقد شابَتْ شَوَاتِي، وقَوَّسَتْ قَناتِي، وأَضْحَتْ كِدْنَتِي تَتَخَدَّدُ

الشواة: قرعة الرأس، القناة: القد، وفي الأصل الرمح، كدنتي: سمنتي وشحمي، تتخدد: تهزل

ودبَّ كَلالٌ في عظامِي أدَبَّنِي جَنِيبَ العَصا أنْأَدُّ، أو أَتَأَوَّدُ

كلال: تعب، أدبَّني بشدة على الباء: جعلني أدب دبيباً وأمشي ببطء، جنيب العصا: الأعرج ذو العصا، فالجنيب هو الذي يمشي مائلاً إلى جنبه، أنأدُّ: أتشدد، أتأود: أتمايل

وبُورِكَ طَرْفي فالشِّخَاصُ حِيَالَهُ قَرَائِنُ مِنْ أَدْنَى مَدَىً وَهْيَ فُرَّدُ

يرى الواحد اثنين من مسافة قصيرة، فهذه هي «البَرَكة» في طرفه (نظره)

ولَذَّتْ أَحادِيثي الرِّجالَ، وأعرضتْ سُلَيْمَى ورَيَّا عن حَديثي ومَهْدَدُ
وبُدِّلَ إعجَابُ الغَواني تَعَجُّباً فَهُنَّ رَوَانٍ يَعْتَبِرْنَ وصُدَّدُ):

روانٍ: رانيات ببصرهن، يعتبرن: يأخذن عبرة، صدد: صادات متبعدات

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به من صُرُوفِها يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُولَدُ

الذي يقوله - وإعراب الأبيات الخمسة المنصرمة جميعاً «حال» - هو: بسبب ما تنذر به الدنيا من مصايبها يبكي الطفل عند ولادته

وإلَّا فَما يُبْكِيهِ منها، وإنها لأَفْسَحُ مِمَّا كان فيه وأرْغَدُ
إذا أبصَرَ الدُّنيا اسْتَهَلَّ كأنَّه بِمَا سوف يَلْقَى من أذَاهَا يُهَدَّدُ

استهل: بكى

مَحَارُ الفَتى شَيْخوخَةٌ أو مَنِيَّةٌ ومَرْجوعُ وهَّاجِ المصابيحِ رِمْدَدُ

محار: مصير، رمدد: رماد

ومَا لِيَ عَزاءٌ عن شَبابِي عَلِمْتُه سوى أنَّنِي من بَعدِهِ لا أُخَلَّدُ

بيت في ذيل القصيدة:

وآنَقُ مِنْ عِقْدِ العَقِيلَةِ جِيدُها، وأحسَنُ من سِربَالِها المُتَجَرَّدُ

آنق: أكثر أناقة، سربالها: ثوبها، المتجرد: المَعْرَى، ومتجردها عريها

٩٢ المدح الرديد

وقال يهجو ابن المدبر:

رَدَدْتَ علَيَّ مَدْحي بعدَ مَطْلٍ وقد دَنَّسْتَ مَلْبَسَهُ الجديدا
وقلتَ: امْدَحْ به مَنْ شئتَ غيري. ومن ذَا يقبلُ المدحَ الرَّدِيدا؟
ولا سِيَما وقد أعبَقْتَ فيهِ مَخَازِيَكَ اللَّواتي لن تَبِيدا
وما لِلْحَيِّ في أكفانِ مَيْتٍ لَبُوسٌ بعدَمَا امتلأتْ صَدِيدا

٩٣ ساهر على راحتنا

وقال في إسماعيل بن بلبل:

فَمَنْ مُبْلِغٌ عنَّا الأميرَ رسالةً فَلَا بَرِحَتْ نُعماكَ دَاءَ حَسُودِها
رأيْناكَ تَرْعانا بِعينٍ ذكيَّةٍ أَتَى النَّاسَ طُرَّاً نومُهُمْ من سُهُودِها

ذكية: متقدة صاحية، ألا يسمون الشمس ذُكاء؟ ويقولون يذكي النار؟

٩٤ صبور

وقال في خالد القحطبي:

يا عجباً من خالدٍ في صبرِهِ وجَلَدِهْ
قاتَلَهُ اللَّهُ، فَما أبعَدَهُ مِنْ رَشَدِهْ
يُولِجُ في زوجَتِهِ أيْرَ سِواهُ بِيَدِهْ

٩٥ أُرسوا بي على برّ

وقال في القاسم بن عبيد الله:

يا ابنَ الوزيريْنِ سمْعَاً من أخي طَلَبٍ بينَ الرجاءِ وبين اليأسِ مَكْدُودِ
لا تبخَلَنَّ على مَنْ لستَ كافِيَهُ بأنْ تقولَ: تَزَحْزَحْ غيرَ مطْرودِ

لا تبخل على من لست معطيه كفايته بعبارة: انصرف غير مطرود

كم آنِفٍ لكُمُ من أنْ تُرَى مِدَحي مَنقُودَةً، وجَدَاكُم غيرَ مَنقُودِ
كثيرون يأنفون لأجلكم أن يروا قصائدي فيكم مدفوعة نقداً، وجداكم (عطاؤكم) مؤجل غير منقود

وبَيِّنُوا ليَ أمري: إنني مَعَكُمْ في سَرْمَدٍ من ظَلامِ الشكِّ مَمْدُودِ

٩٦ واسطة العقد

يرثي ابنه الأوسط:

بكاؤكُما يَشْفي، وإن كانَ لا يُجْدِي فَجُودَا فقدْ أَوْدَى نظيرُكُما عِندي
يخاطب عينيه

بُنَيَّ الذي أَهْدَتْهُ كفَّايَ للثَّرَى فيَا عِزَّةَ المُهْدَى، ويا حسرةَ المُهْدي
نظير عينيه هو ابنه الذي دفنه، فما كان أعزه (أغلاه)

ألا قاتَلَ اللّهُ المنايا ورَمْيَها مِنَ القومِ حَبَّاتِ القلوبِ على عَمْدِ
تَوَخَّى حمامُ الموتِ أَوْسَطَ صِبْيَتي فَلِلَّهِ كيفَ اختارَ واسِطَةَ العِقْدِ
واسطة العقد: الجوهرة الوسطى، وهي أكبر وأغلى جواهر العقد

على حينَ شِمْتُ الخيرَ مِنْ لَمَحَاتِه وآنَسْتُ من أفعالِه آيةَ الرُّشْدِ
شمت: توسمت

طَواهُ الرَّدَى عني فأضحَى مزارُهُ بعيداً على قربٍ، قريباً على بُعْدِ
موصول بالبيت السابق. عندما توسمت الخير من نظراته طواه الردى

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها وأخلفَتِ الآمالُ ما كان من وَعْدِ
لقد قلَّ بين المهدِ واللحدِ لَبْثُهُ فلم يَنْسَ عهدَ المهدِ إذ ضُمَّ في اللحدِ
تَنَغَّصَ قبلَ الرِّيِّ ماءُ حياتِهِ وفُجِّعَ منه بالعُذوبَةِ والبَرْدِ
قبل أن يرتوي بماء الحياة تنغص (تكدر) هذا الماء، وفجع الصبي (نُكب) بزوال العذوبة والبرد من ماء حياته (في مدينة حارة كبغداد يكون البرد صفة حسنة للماء)

ألحَّ عليه النَّزْفُ حتى أحالَه إلى صُفْرَةِ الجَادِيِّ عن حُمْرَةِ الوَرْدِ
الجادي: الزعفران

وظلَّ على الأيدِي تَسَاقَطُ نَفْسُهُ ويَذْوِي كما يَذْوِي القَضِيبُ من الرَّنْدِ
فيا لَكِ من نَفْسٍ تَسَاقَطُ أَنْفُساً تَسَاقُطَ دُرٍّ من نِظامٍ بِلا عِقْدِ

عجبتُ لِقَلْبِي كيفَ لم ينفَطِرْ له ... ولو أنه أقسَى من الحَجَرِ الصَّلْدِ

ينفطر: يتصدَّع

بِـوُدِّيَ أنـي كـنـتُ قُـدِّمْـتُ قـبـلَـه ... وأنَّ المنايا دونَهُ صَمَدَتْ صَمْدِي

صمدت صمدي: وضعت قردها على طحيناتي بالتعبير العامي، يعني تفرغت لي

ولـكـنَّ ربـي شـاءَ غـيـرَ مـشـيـئـتـي ... ولـلرَّبِّ إمْضَاءُ المشيئةِ، لا العَبْدِ

ومـا سَـرَّنـي أن بِـعْـتُـهُ بِـثَـوابِـهِ ... ولو أنه التَّخْليدُ في جنةِ الخُلْدِ

الاعتقاد أن المرء يثاب بالمصيبة تحل به، ولكن شاعرنا لا يسره أن يبادل ولده ولو بالخلود في الجنة

ولا بِعْتُهُ طَوْعاً، ولـكِنْ غُـصِبْتُهُ ... وليس على ظلمِ الحوادثِ مِنْ مُعْدِ

معدٍ: نصير

وإنـي، وإن مُـتِّـعْـتُ بِـابْنَـيَّ بَـعْـدَهُ، ... لَذَاكِرُهُ ما حَنَّتِ النِّيبُ في نَجْدِ

النيب: النياق. يقول سأظل أذكره طول الدهر، فالنياق في نجد لن تكف عن الحنين (صوت الناقة تحن إلى فصيلها المذبوح)

وأولادُنـا مـثـلُ الـجَـوارحِ، أيُّـهـا ... فَقَدْناهُ كانَ الفَاجِعَ البَيِّنَ الفَقْدِ

الجوارح: الأعضاء

لِـكُـلٍّ مـكـانٌ، لا يَـسُـدُّ اخـتـلالَـهُ ... مَـكـانُ أخـيـهِ فـي جَزُوعٍ ولا جَلْـدِ

لكل ولد مكان في قلب الأب، ولا يسد اختلال هذا المكان بفقد الولد وجودُ أولاد غيره، يستوي في ذلك الأب الجزوع (المظهر حزنه) والجلْد (المتصبر)

هلِ العينُ بعدَ السَّمْعِ تَكْفِي مكانَهُ، ... أَمِ السَّمْعُ بعدَ العينِ يَهدي كما تَهدي؟

لَعَمْرِي: لقد حالتْ بيَ الحَالُ بعدَهُ ... فيا ليتَ شِعْرِي كيفَ حالتْ بِه بَعْدي؟

ثَـكِـلْـتُ سُـروري كـلَّـهُ إذ ثَـكِـلْـتُـهُ ... وأصبحتُ في لذَّاتِ عَيْشي أخَا زُهْدِ

أَرَيْحَانَةَ العَيْنَيْنِ والأنفِ والحَشَا: ... ألا ليتَ شِعْرِي هلْ تغيَّرْتَ عن عَهدي

سَأسقِيكَ ماءَ العينِ ما أَسْعَدَتْ به، ... وإن كانتِ السُّقْيا من الدَّمْعِ لا تُجْدِي

أسعدت: ساعدت

أَعَيْنَيَّ: إن لا تُسْعِداني أَلُمْكُمَا ... وإنْ تُسْعداني اليومَ تَسْتَوْجِبا حَمْدي

عَذَرتُكُما لو تُشغَلانِ عن البُكا ... بِنَومٍ، وما نَوْمُ الشَّجِيِّ أخي الجَهْدِ؟

أَقُرَّةَ عينيِ: قد أطَلْتَ بُكَاءَهَا وغَادرتَها أَقْذَى من الأَعْيُنِ الرُّمْدِ
أَقُرَّةَ عينيِ: لو فَدَى الحَيُّ مَيِّتاً فَديْتُكَ بالحَوْبَاءِ أَوَّلَ من يَفْدِي

الحوباء: النفس

كأنيَ ما استمتعتُ منكَ بنظرةٍ ولا قُبلةٍ أحلى مذاقاً من الشَّهْدِ
كأنيَ ما استمتعتُ منكَ بضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في مَلْعَبٍ لكَ أو مَهْدِ
أَلامُ لِمَا أُبْدي عليكَ منَ الأسى وإني لأُخْفِي منه أضْعَافَ ما أُبْدِي
مُحَمَّدُ، مَا شيءٌ تُوُهِّمَ سَلْوَةً لِقلبيَ إلا زادَ قلبي من الوَجْدِ
أرى أَخَوَيْكَ الباقِيَيْنِ كِليْهِما يَكونَانِ للأحزانِ أَوْرَى من الزَّنْدِ

أورى من الزند: أشد إيقاداً من حجر القدح

إذا لَعِبَا في ملعبٍ لكَ لَذَّعَا فؤادي بِمِثْلِ النَّارِ عن غيرِ ما قَصْدِ
فما فِيهما لي سَلْوَةٌ بل حَزَازةٌ يَهِيجَانِها دُوني، وأَشْقَى بها وَحْدِي
وأنتَ، وإنْ أُفْرِدْتَ في دارِ وَحْشَةٍ، فإني بِدَارِ الأُنْسِ في وَحْشَةِ الفَرْدِ
أَوَدُّ، إذا ما الموتُ أَوْفَدَ مَعْشَراً إلى عَسْكَرِ الأَمْوَاتِ، أَنِّي من الوَفْدِ
ومَنْ كان يَسْتَهدِي حبيباً هَديَّةً فَطَيْفَ خَيالٍ منكَ في النومِ أَسْتَهدِي
عليكَ سلامُ اللّهِ منيِ تحيةً ومِنْ كلِّ غَيْمٍ صَادِقِ البَرْقِ والرَّعْدِ

صادق البرق والرعد: ماطر

٩٧ شكوى قائدتي

وقال في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وصلحه لأخيه سليمان بعد الشر الذي كان بينهما:

لِلْنَّاسِ عِيدٌ ولي عِيدانِ في العِيدِ إذا رأيتُكَ يا ابنَ السادةِ الصِّيدِ

الصيد: السادة

ما اليومُ يَمْضي ـ وعيني غيرُ فائزةٍ بحظِّها منكَ ـ في عُمْري بِمَعدودِ

ما اليوم يمضي: ما اليوم الذي يمضي (في هذا الأسلوب القديم يسقطون «الذي»)

لكنْ تَطَاوَلَتِ الشَّكوى بِقَائِدَتي فكنتُ شهراً وحالي حالُ مَصْفُودِ

الشكوى: المرض، قائدتي: عيني، مصفود: مقيد

شُغِلْتُ عنكَ بِعُوَّارٍ أكابِدُه ... لا بالمَلاهي ولا ماءِ العناقيدِ

عوار: رمد، ماء العناقيد: الخمر

ولو قَعَدْتُ بلا عُذْرٍ لمهَّدَ لي ... جميلُ رأيكَ عذري أيَّ تمهيدِ

قاسيتُ بعدَكَ ـ لا قاسيْتَ مِثْلَهُما ـ ... نهارَ شَكوى يُباري ليلَ تَسْهيدِ

أُمسي وأُصبحُ في ظلماءَ مِنْ بَصَري ... فما نهاريَ مِنْ ليلي بِمَحدودِ

نهاري ليس محدوداً (مميزاً) من ليلي إذ إنني لا أرى

كأنني مِنْ كِلَا يَومي ولَيْلَتِه ... في سَرْمَدٍ من ظلامِ الليلِ ممدودِ

إذا سمعتُ بِذِكرِ الشمسِ آسَفَني ... فَصُعِّدَتْ زَفَراتي أيَّ تَصعيدِ

لا يطمئنُّ بِجَنْبي لِينُ مُضْطَجَعٍ ... وما فِراشُ أخي شَكوى بِمَمْهودِ

أرعى النُّجومَ، وأنَّى لي بِرِعْيَتِها ... وطَرْفُ عينيَ في أَسْرٍ وتقييدِ؟

ساهر أرعى النجوم، لكن.. كيف لي أن أرعاها وأنا مقيد البصر؟

وإنَّ مَنْ يتمنَّى أنْ يُواتِيَه ... رَعْيُ النجومِ لَمَجْهودُ المَجاهيدِ

العاشق الذي يرعى النجوم يكون مسكيناً معذباً، فما بالك بمن لا يتاح له حتى رعي النجوم؟
لا جرم هو مجهود المجاهيد (معذب جداً)

وقد تَبَدَّلْتُ من بَلوايَ عافيةً ... بحمدِ ربٍّ على الحالَيْنِ محمودِ

٩٨ حتى الأمير يموت

وقال يرثي محمد بن عبد الله بن طاهر:

إن المنيَّةَ لا تُبْقي على أحدِ ... ولا تَهابُ أخا عِزٍّ ولا حَشَدِ

هذا الأميرُ أتتْهُ وَهْوَ في كِثَفٍ ... كاللَّيلِ من عَدَدٍ ما شئتَ أو عُدَدِ

ولم تزلْ طَوْعَ كفَّيْهِ يُصَرِّفُها ... بين الأنامِ، ولا تَعْصِيه في أحدِ

كان يوزع الموت على الناس، والموت يطيعه

حتى أتاهُ رسولُ الموتِ يُؤْذِنُه ... أنَّ البقاءَ لوجهِ الواحدِ الصَّمدِ

٩٩ تنفس من منخر واحد

وقال في رجل اسمه عيسى:

يُقَتِّرُ عيسى على نفسِهِ ... وليس بِباقٍ ولا خالدِ

لن يبقى ولن يخلد

فلَوْ يستطيعُ لِتقتيرِه   تَنَفَّسَ من مِنْخَرٍ واحدِ
عذَرْنَاهُ أيّامَ إعدَامِهِ   فما عُذْرُ ذي بَخَلٍ واجِدِ؟

إعدامه: فقره، واجد: غني

رَضِيتُ - لِتَفريقِ أموالِه -   يَدَيْ وارِثٍ ليس بالحامِدِ

١٠٠ تخاف الموت؟ بسيطة

عَجَباً لمن يَلقَى الحُرو   بَ فلا يُقَاتِلُ أو يُجَالِدْ
لا سِيَّما من كانَ يُو   قِنُ أنه إنْ ماتَ عائدْ
إنْ قالَ: إنَّ النَّفْسَ وا   حِدةٌ، فإنَّ الموتَ واحدْ

١٠١ حسدوني سلفاً

وقال في العباس بن القاشي:

كُفِّي الدموعَ وإنْ كانَ الفراقُ غَدَا   فَرِحْلَتي لِتَعيشي عِيشَةً رَغَدَا

على طريقة المداحين المحترفين يبدأ بمنظر فراق الزوجة وهي تحثه على القعود، فيقول لها إنه ذاهب إلى أكرم الناس ليعطيه أجزل عطاء

بَنِيَّ: قد قعدَ الدهرُ الخَؤونُ بِنَا   وليس مِثْلِيَ في أمثالِهِ قَعَدَا

يخاطب أبناءه

قالتْ: أَتَرْحَلُ والمَشْتَاةُ قد حَضَرَتْ   فقلتُ: مِثليَ في أمثالِها انْجَرَدَا

انجردَ: اشتد في سيره

قالتْ: أتنتَجِعُ العباسَ، قلتُ لها: بلِ الطليقَ مُحَيَّاً والجَوَادَ يَدَا

تنتجع: الأصل «ترحل طلباً للعشب»، ثم صاروا ينتجعون الأمراء، ثم صرنا ننتجع المنتجعات السياحية/ التسويد لأحمد عبد الرحيم

يا مَنْ غَدا مالُه في الناسِ مُشْتَرَكاً   ومن تَوَحَّدَ بالمعروفِ وانفَرَدَا
ومن تَحَلَّى مِنَ الآدابِ أَحْسَنَها   فما يَرَى أحدٌ في ظَرْفه أَحدَا

لا يرى أحدٌ أحداً له مثل ظرفه

أشكو إليكَ خُطوباً قد بَعِلْتُ بِهَا   لم تَتْرِكْ سَبَداً عندي ولا لَبَدا

بعلت: تحيرت، سبد: شعر، لبد: صوف، (لا سبد عندي ولا لبد: ليس عندي شيء)

بيني وبينَكَ أسبابٌ أَمُتُّ بِها   لو رُمْتُ إحصاءَها لم أُحْصِها عَدَدا

أسباب: حبال، أمت: في أصل المعنى أسحب الدلو من البئر

مقالةُ العدلِ والتَّوحيدِ تجمعُنا   دونَ المُضاهينَ مَنْ ثَنَّى ومَنْ جَحَدَا

مقالة العدل والتوحيد: أهم مبادئ المعتزلة، المضاهين: الذين يجعلون مع الله من يضاهيه، ومنهم من ثنى وهم الذين يعتقدون بالنور والظلام والخير والشر الخ، ومن جحد أي ألحد

ما عُذْرُ مُعْتَزِلِيٍّ مُوسَعٍ مَنَعَتْ   كَفَّاهُ مُعتزِليّاً مُقْتِراً صَفَدا؟

صفدَ الرجل: خلا من الصَفَدِ وهو العطاء

أَيَزْعُمُ القَدَرَ المحتومَ ثَبَّطَهُ؟   إن قالَ ذاكَ فقد حَلَّ الذي عَقَدَا

المعتزلة يقولون إن الإنسان مخير

لا تَحْرِمَنَّ امْرَأً ساقَ الرَّجاءُ به   وقد تَسَلَّفَ من جيرانِه الحَسَدَا

حسده جيرانه سلفاً لأنه قصد العباس ثقة بأنه لا بد سيعطيه مالاً كثيراً

١٠٢ الكريم جبان أمام السفيه

اِعْلَمْ، وإن كنتَ صَلِيباً مارِدَا

صليب: قوي، مارد: طاغية

أنَّ الكريمَ يَتَّقي القَصائِدَا

إذا غَدتْ أعناقُها شَوارِدَا

مثل الإبل وهي تمد أعناقها في السير تنتشر القصائد في البلاد

واعْلَمْ بأنَّ الشِّعرَ ليس بَائِدَا

بل خالدٌ، إن كان شيءٌ خالِدَا

١٠٣ صرت في غيره.. بكيت عليه

وقال في القاسم بن عبيد الله:

دهرٌ يُشيِّعُ سبتَه أَحَدُهْ   مُتَتَابِعٌ ما يَنْقَضي أَمَدُهْ

يومٌ يُبَكِّينا، وآونَةً   يومٌ يُبَكِّينَا عليهِ غَدُهْ

نَبْكي على زمنٍ ومِنْ زَمَنٍ   فبُكاؤُنا مَوْصُولَةٌ مُدَدُهْ

تسويد البيتين: أ. عبد الرحيم

١٠٤ دعه يأكل نفسه

لِـيَـكْـفِـكَ حـاسـداً حَـسَـدُهْ   ومـا تَـصْـلَـى بـه كَـبِـدُهْ

حسبك من الحاسد ما يلاقي من ألم بسبب حسده

فـلـو أَسْـعَـرْتَـه نـاراً   لَـكـانَـتْ دونَ مـا يَـجِـدُهْ

١٠٥ المبالغة والنتيجة العكسية

إذا مـا وَصَـفْـتَ امْـرَءاً لامْـرِئٍ   فـلا تَـغْـلُ فـي وصـفِـه واقْـصِـدِ
فـإنَّـكَ إنْ تَـغْـلُ تَـغْـلُ الـظُّـنـو   نُ فـيـه إلـى الـغَـرَضِ الأَبْـعَـدِ
فَـيَـضْـؤُلُ مـن حـيـثُ فَـخَّـمْـتَـهُ   لِفَضْلِ المَغيبِ على المَشْهَدِ

لفضل: لزيادة، يقول: المبالغة تؤدي إلى عكس المراد منها

١٠٦ عندما يسود السفهاء

وقال في الخلّال:

ولـيـس بِـمَـتْـبُـولٍ كـريـم تَـصيـدُهُ   سِـهـامُ الـغـوانـي تـارةً ويَـصيـدُهـا

متبول: هائم. الكريم العاشق لا يؤذي محبوبته مثلما تؤذيه، بل يتلقى الأذى صابراً

ولكنَّما المتْبولُ مَنْ ليس بَارِحاً   على تِرَةٍ منْهُنَّ لا يَسْتَقِيدُها

العاشق لا يبرح (لا يفتأ/ ويظل) على ترة (له ثأر عندهن) لا يستقيدها (لا يأخذ بثأره)

سقَى اللَّهُ أيامَ الوُشَاةِ فإنها   هيَ الصَّالحاتُ الطالعاتُ سُعودُها
ألا إنَّ في الدنيا أعاجِيبَ جَمَّةً   وأعجَبُها أنْ لا يَشيبَ وَليدُها
ومـا الخَسْفُ أن تَلقَى أسَافلُ بَلدةٍ   أعـالِيَـهـا، بـل أن يَسُودَ عَبِيدُها
أرى كلَّ نُعْمَى ذاتَ رَنْقٍ يَشُوبُها   سوى نِعْمَةِ الخَلَّالِ قَلَّ حسودُها

العطية مشوبة بحسد الحاسدين فالرنق هو الكدر في الماء، ولكن عطية الخلال هذا قليلة فلا حسود عليها

على أنه بَادي العُبُوسِ كأنه   حديثَةُ ثُكْلٍ قد تَوالَتْ فُقُودُها
وما ذَاكَ إلَّا أنَّ نَفْسَاً لئيمةً   عليها من النَّعماءِ ثِقْلٌ يؤُودُها

يؤودها: يرهقها

أَمُفْتَرِشَ النُّعْمَى التي لستَ كُفْأَهَا   وأكفاؤُها هَلْكَى نيامٌ جُدودُها

يا من ينام على المال وهو ليس كفأ له! إن مستحقي النعمة لهم جدود (حظوظ) هالكة نائمة فهم أشراف لكن لا سعدَ لهم

أَتُصْبِحُ موفوراً سليماً، وهذه   قُرُومُ بَنِي العباسِ تَخْطِرُ صِيدُها؟

قروم: سادة، صيدها: سادتها. عجيب أن تبقى سالماً، مع أن سادة بني العباس موجودون وجدير بهم أن يزيلوا النعمة عنك

سأزهَدُ في الدنيا الدنِيَّةِ كاسْمِها   فلم يَبْقَ ـ أيْمُ اللَّهِ ـ إلَّا زهيدُها

وأَنْصِبُ للأيَّامِ فيكَ عَدَاوَةً   ولِمْ لا أُعَادِيها وأنتَ سعيدُها

إذا ذَلَّ في الدنيا الأَعِزَّةُ، واكْتَسَتْ   أَذِلَّتُها عِزّاً، وسادَ مَسُودُها

هناكَ فَلا جادَتْ سَماءٌ بِصَوْبِها   ولا أَمْرَعَتْ أرضٌ ولا اخْضَرَّ عودُها

الصوب: المطر، أمرعت: أخصبت

لَعَمْري لقد نَبَّهْتُ ما اسْطَعْتُ هاشِماً   لِكَشْفِ المخازِي لو يَهُبُّ رَقُودُها

هاشم: يقصد بني العباس وهم من بني هاشم. وكثيراً ما أشار المؤرخون القدامى إلى الدولة العباسية بدولة بني هاشم

١٠٧ قرصة أذن

وقال في محمد بن علي حين قيده صاعد:

ولقد رأيتُكَ والياً مُسْتَعْلِياً   ولقد رأيتُكَ في الحَديدِ مُقَيَّدَا

مستعلياً: عالي القدر

إذْ لم تَزِدْكَ وِلايَةٌ في سُؤْدَدٍ   كلَّا، ولا الأُخرى مَحَتْ لكَ سُؤْدَدَا

لا يَستَطيعُكَ بالتَّنَقُّصِ حادِثٌ   وأَبَى لكَ التَّكْميلُ أن تَتَزَيَّدا

ولِذي الوِزَارَةِ والإمارَةِ صَاعِدٍ   رَأْيٌ أَبى أَلَّا يكونَ مُسَدَّدَا

وأبو العلاءِ يَرَاكَ نَصْلاً قاطعاً   يأْبى عظيمُ غَنائِهِ أن يُغْمَدَا

أبو العلاء: هو صاعد الوزير، تأبى الفائدة العظمى لهذا السيف أن يظل مغمداً، وأنت أيها المنكوب مثل ذلك السيف، وستشهر من جديد إذ لا غنى عنك

وهُوَ المُثَقِّفُ فاصْطَبِرْ لِثِقَافِهِ   وَلِحَدِّ مِبْرَدِهِ لكَيْ تَحْظَى غَدا

المثقف: الذي يهذب الرماح، يشبه به الرئيسَ الكبير إذ يهمش مرؤوسه كي يربيه فقط

وَلَرُبَّما امتحنَ الوليُّ وَلِيَّهُ   لِيَرَى له جَلَداً يَغِيظُ الحُسَّدا

الولي: الرئيس، الولي الثانية: المرؤوس (كلمة لها معنيان متضادان)

١٠٨ شراء ألسنة السفهاء

وقال يعتذر إلى القاسم:

عفوُ الملوكِ عن الهُجَاةِ مدائحٌ   مَدحُوا نفوسَهُمُ بها فأجَادُوا

وَهَبوا لِجَانِيها الذنوبَ، وأقسَموا   أن لو يَعُودُ إلى الذُّنوبِ لَعَادُوا

وهب الملوك للمذنبين ذنوبهم، أي أعفوهم من العقاب

قَطَعُوا لِسَانَ سَفَاهَةٍ فاسْتَوْثَقُوا   منه، وأمَّا عن أذَاهُ فَحَادُوا

١٠٩ بلغت اليقين؟ عليك بالشهادة

لا تَجْبُنَنَّ لأنَّ النَّفْسَ واحدةٌ   فإنما الموتُ أيضاً واحدٌ، فَقَدِ

قدِ: يكفيك، حسبك

ما يَجْبُنُ المرءُ إلّا وَهْوَ معتَقِدٌ   أَوْ مُشْفِقٌ أنه إنْ مَاتَ لم يَعُدِ

١١٠ حقود وأفتخر

شُكري عَتيدٌ وكذاكَ حِقدي

عتيد: جاهز، حاضر

للخيرِ والشرِ بقاءٌ عِندي
كالأرضِ مهما استُودِعَتْ تؤدِّي
وأيْنَ عن طِينَتِنَا نُعَدِّي

١١١ الحمَّال

رأيتُ حَمَّالاً مُبِينَ العَمَى   يَعْثُرُ بِالأَكْمِ، وفي الوَهْدِ

حمالاً مبين العمى: شيالاً عتالاً واضح العمى (كلمة «مبين» أثيرة عند ابن الرومي يقيم بها وزنه)، الأكم: ما ارتفع من الأرض، الوهد: ما انخفض

مُحْتَمِلاً ثِقْلاً على رأسِه   تضعُفُ عنه قُوَّةُ الجَلْدِ

محتملاً: حاملاً، الجلد: الصبور

بَيْنَ جِمَالاتٍ وأشباهِهَا مِنْ بشرٍ ناموا عن المجدِ

جمالات: إبل

أضْحَى بأخْزَى حالةٍ بينَهُمْ وكلُّهُمْ في عِيشَةٍ رَغْدِ
وكلُّهُمْ يَصْدِمُهُ عامِداً أو تَائِهَ اللُّبِّ بِلا عَمْدِ
والبائِسُ المسكينُ مستَسْلِمٌ أَذَلُّ للمكروهِ من عَبْدِ
وما اشْتَهَى ذاكَ، ولكنَّهُ فَرَّ من اللُّؤْمِ إلى الجَهْدِ
فرَّ إلى الحَمْلِ، على ضَعْفِهِ، مَنْ كَلَحَاتِ المُكْثِرِ الوَغْدِ

كلحات: تكشيرات، المكثر: الغني

١١٢ لابس الشيب

وقال يمدح عبيد الله بن سليمان:

فرَّ منكَ الغَزالُ يا لابِسَ الشَّيْـ ـبِ فِرارَ الغزالِ من صَيَّادِهْ
وإذا اصْطَادَكَ المشيبُ فَطَارَدْ تَ غزالاً، فلسْتَ بِالمُصْطَادِهْ

١١٣ قيود من العطاء التافه

قال يهجو القاسم:

وصديقٍ أجبْتُهُ إذ دَعاني نحوَ معروفِه فلم ألقَ رُشْدَا
لم يَدَعْ لي عِزَّ القُنُوعِ، ولا جَا دَ بِرِفْدٍ يَعُدُّهُ النَّاسُ رِفْدَا
حادَ ثم الْتَوَى؛ فلا أَنَا بالرَّا ضي ولا المُشْتَكي فَأَشْفِيَ وَجْدَا

وجداً: ما يجده المرء من غضب، يقال وجدت عليه أي غضبت

هاضَ حُرِّيتي، وأوثَقَ بالمَنْـ ـزُورِ مِنْ نَيْلِه لِسانِيَ عَقْدَا

هاض: كسر، المنزور: القليل

فإلى اللَّهِ أشتكي ما أُلاقي من زمانٍ يُجَشِّمُ الحرَّ جَهْدَا
حُرِمَتْ لَذَّةَ الشِّكايَةِ نفسي وَجَدَا صاحبي، وأصبحتُ عَبْدا

جدا: عطاء

ولقد قلتُ عندَ ذاكَ، وأضمَرْ تُ على بَاخِسي حقوقِيَ حِقْدَا:

باخسي حقوقي: المنتقص إياي حقوقي

شَكَرَ اللَّهُ مَاجِداً جَادَ، أو وَغْـ ـدَاً كَفَى الناسَ نائِلاً منه وَغْدَا

الكريم مستحق شكر الله، وكذلك الوغد الذي لا يعطي الناس من نائله (عطائه) الوغد مثله

ولَحَا اللَّهُ بينَ هَذينِ مَنْ غرَّ ـ عفيفاً من نفسِه ثمَّ أَكْدَى

ولحا (لعن) الله من يكون بين هاتين المنزلتين، ذلك الذي يغر (يخدع) الشخص العفيف، ثم يكدي (يبخل)

يَبذُلُ التَّافِهَ الذي يُلْبِسُ الحُرَّ ـ خُشُوعاً، ولا يَسُدُّ مَسَدَّا

هذا الشخص يعطيك التافه القليل الذي يجعلك تخشع له وتبجله، ولكن عطاءه لا يجدي

بَاخِلٌ حينَ يبذُلُ القومُ رِفْدَا مَاطِلٌ حين يُنجِزُ القومُ وَعْدَا

يشتري بالنَّسِيئَةِ المِدَحَ الغُرَّ ـ وأَثمانُهُنَّ يُنْقَدْنَ نَقْدَا

النسيئة: البيع المؤجل

١١٤ ربنا لك الحمد

وقال في أبي حفص:

قالوا، هجاكَ أبو حَفْصٍ، فقلتُ لَهُمْ: لا تَدْخُلوا بينَنا يا معشرَ الحَسَدَةْ

ما استَأْثَرتْ دونَكُمْ كَفِّي بِصَلعَتِه فَتَحْسُدُوني عليها معشرَ القَفَدَةْ

القفدة: الصافعون. وكانوا في القديم يتصافعون في مجالسهم. ورأيت في زمننا السفلة يفعلون ذلك، يصفع بعضهم بعضاً في مزاحهم السوقي. وللتيفاشي فصل في القفد رأيت منه أن الأمر كان يريحهم نفسياً، وكان له دور اجتماعي ما

كَمْ ركعَةٍ ركعَ الصَّفْعَانُ تحتَ يديِ ولم يقُلْ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهْ»

الصفعان: الذي يُصفع كثيراً

١١٥ أنا جهنم

وقال في أبي يوسف الدقاق:

أنا النارُ التي بالخلقِ تُغْذَى وتُوقَدُ بالحجارةِ والحديدِ

هذه نار الله يا ابن الرومي

إذا نَضِجَتْ جلودُ القومِ فيها أُعيدُ لَهُمْ سوى تلكَ الجُلودِ

يقالُ: هلِ امتلأْتِ؟ وكلُّ خلقٍ بِها، فتقولُ: لا، هل مِنْ مزيدِ

إذا عَطِشوا سقيتُهُمُ صديداً فويلُ القومِ من شُرْبِ الصَّدِيدِ
الصديد: قيح الجروح

فأينَ، هُبِلْتَ، تهربُ من هجائِي؟ وأين، هبلتَ، تهربُ من قصيدي
هبلت: ثُكلت

١١٦ شعري مقدس

وقال في علي بن سليمان الأخفش:

قلتُ لمنْ قالَ لي: عرضْتُ على الـ أَخْفَشِ ما قُلْتَهُ فمَا حَمِدَهْ:
قَصَّرْتَ بالشعرِ حينَ تعرِضُهُ على مُبِينِ العَمَى إذا انتقَدَهْ
ما قالَ شعراً ولا رَوَاهُ، فلا ثَعلَبَهُ كانَ، لا ولا أَسَدَهْ
فإنْ يَقُلْ: إنني رَوَيْتُ فَكَالْدَّ ـ فتَرِ جَهلاً بكلِّ ما اعْتَقَدَهْ
أَرُمْتَ زَيْنِي بأنْ تُعَرِّضَنِي لِمَدْحِه؟ فالذَّليلُ مَنْ عَضَدَهْ
عضده: أيده (من ينل تأييد الأخفش يكن ذليلاً)

أم رُمْتَ شَيْنِي بأن تعرِّضَنِي لِثَلْبِهِ؟ فَالسَّليمُ مَنْ قَصَدَهْ
السليم: السالم، فالأخفش لا يضر انتقاصه للشعر لأنه جاهل به

شِعْرِيَ شِعْرٌ إذا تَأَمَّلَهُ الـ إِنْسانُ ذو الفَهْمِ والحِجَا عَبَدَهْ
لكنَّهُ ليسَ منطِقاً بعثَ الـ لهُ بهِ آيةً لِمَنْ جَحَدَهْ
ولا أنا المُفْهِمُ البَهائمَ والطَّ ـيْرَ، سُلَيْمانُ قاهِرُ المَرَدَهْ
ما أنا سليمان (سليمان بدل)

ما بلَغَتْ بي الخطوبُ رُتْبَةَ من تَفهمُ عنه الكلابُ والقِرَدَهْ
لا رَحِمَ اللَّهُ أمَّ أخفَشِكُمْ ولا سقَى قَبْرَ والدٍ وَلَدَهْ
ماذا عليهِ، وقد رَأى وَلَداً أَعْوَرَ جَمَّ العُوَارِ، لو وَأَدَهْ؟

١١٧ هو باز صائد

وقال في بني طاهر:

يا بَنِي طَوْدِ المَعالِي طَاهِرٍ يا ثِقَاتِي وثِقَاتِ المُعْتَمِدْ
طود: جبل

أنتُمُ السَّاداتُ، والقَوْمُ الأُلى تُنْجِزُ الآمالُ فيهِمْ ما تَعِدْ
إنْ أَكُنْ أحسنتُ في مَدْحِكُمُ فَأخو الإحسانِ أَوْلَى مَنْ رُفِدْ
أو أَكُنْ قَصَّرَ جُهْدِي عَنْكُمُ فَأَثِيبوني ثَوابَ المُجْتَهِدْ

فالمجتهد في الدين حتى لو أخطأ فله نصف ثواب

أو فَرُدُّوا المَدْحَ مَسْتوراً، ولا تُشْمِتُوا بي أَعْيُناً نَحْوِي تَقِدْ

تقد: تتّقد

هُوَ بَازٌ صائِدٌ أرسلتُهُ فَارْجِعُوهُ سالماً إن لم يَصِدْ

١١٨ فقط.. جرِّبوني

وقال يعاتب:

ما لي أُسَلُّ من القِرابِ وأُغْمَدُ لِمَ لا أُجَرَّدُ والسيوفُ تُجَرَّدُ؟
لِمَ لا أُجَرَّبُ في الضَّرائِبِ مرةً - يا لِلرِّجالِ - وإنني لمهنَّدُ؟
أنا مَنْ عَلِمْتَ مكانَه، وابنُ الذي ما زالَ فيكُمْ يُسْتَعانُ فَيُحْمَدُ
ما بالُ عزمِكَ، حينَ تنظُرُ نظرةً في بابِ مَصلَحَتِي، يُحَلُّ ويُعْقَدُ؟
فَكِّرْ - لَقِيتَ الرُّشْدَ - فيَّ، فَلَمْ يَزَلْ لكَ رأيُ صِدْقٍ في الأمورِ مُسَدَّدُ
فاسْعَدْ بِفضلِ أمانتي وكِفايتي ونصيحتِي مَعَ أنني بِكَ أسْعَدُ
إن لا أَكُنْ في كلِّ ذلكَ أَوْحَداً فَرْداً، فإنيَ في المَوَدَّةِ أَوْحَدُ

١١٩ بخل الدجاج

وقال في ابن الدجاجي، وهو رجل كان فيما يبدو يبيع الدجاج:

يُذْكي على رُغْفانِه عَيْنَهُ وعينُه عن عِرْسِه رَاقِدَةْ

الرغفان: الأرغفة، يذكي عينه: يحدد بصره، عرسه: زوجته

إجْتَثَّهُ الخالقُ من خَلْقِه فإنه في خَلْقِه زائِدَةْ
أَعْدَى دَجاجاً عندَه بخلُه ولؤمُ تلكَ الشِّيمَةِ الجاحِدَةْ
فأصبحتْ عَشْرُ دجاجاتِه تبيضُ فيمَا بينَها واحدَةْ
وصارَ لا يَعْلِفُها ذَرَّةً تُعْلَمُ إلّا فَضْلَةَ المائدَةْ
لا تَخْلُ من أمثالِه حُفْرَةٌ ولا تَقُمْ عن مثلِه والِدَةْ

وقال في «وحيد» المغنية:

يـا خـلـيـلـيَّ تـيَّـمَـتْـنـي «وَحِـيـدُ» فـفـؤادي بِـهـا مُـعَـنَّـىً عَـمِـيـدُ

عميد: مريض

غـادةٌ زَانَـهـا مـن الـغـصـنِ قَـدٌّ ومـن الـظـبـيِ مـقـلـتـانِ وجِـيـدُ
وزَهَاهـا مـن فَرْعِهـا ومِـنَ الـخَـدَّ ـ يْـنِ ذاكَ الـسَّـوادُ والـتَّـوْرِيـدُ
أَوْقَـدَ الـحُـسْـنُ نَـارَهُ مـن وَحِـيـدٍ فـوقَ خَـدٍّ مـا شَـانَـه تَـخْـدِيـدُ

تخديد: هزال

فَـهْـيَ بَـرْدٌ بِـخَـدِّهـا وسَـلامٌ وَهْـيَ لِـلـعـاشِـقـيـنَ جَـهْـدٌ جَـهِـيـدُ
لـم تَـضِـرْ قَـطُّ وجـهَـهـا، وَهْـوَ مَـاءٌ وتُـذِيـبُ الـقُـلـوبَ وَهْـيَ حَـديـدُ

النار التي أوقدها الجمال علي خدها لم تؤثر في وجهها مع رقيق كالماء (يصفون الخِلقة الجميلة بأنها كثيرة الماء)

مَـا لِـمَـا تَـصْـطَـلـيهِ من وَجْـنَـتَـيْـهـا غَـيـرَ تَـرْشَـافِ رِيـقِـهـا تَـبْـرِيـدُ

أيها الناظر إليها! إن ما يصيبك من وجنتيها من نار لا يبرده إلا رشف ريقها

مِـثْـلُ ذاكَ الـرُّضَـابِ أَطْـفَـأَ ذاكَ الـ ـوَجْـدَ لـولا الإبـاءُ والـتَّـصْـرِيـدُ

التصريد: التدنيق والتقليل، فهي بخيلة بوصالها

وغَـرِيـرٍ بِـحُـسْـنِـهـا قـال: صِـفْـهـا قـلـتُ: أَمْـرانِ: هَـيِّـنٌ وشَـدِيـدُ

غرير: غره حسنها وذهب بعقله

يَـسْـهُـلُ الـقـولُ إنـهـا أَحـسـنُ الأَشْـ ـيـاءِ طُـرَّاً، ويَـعْـسُـرُ الـتَّـحْـدِيـدُ
تـتـجَـلَّـى لِـلـنـاظِـرِيـنَ إلـيْـهـا: فـشَـقِـيٌّ بِـحُـسْـنِـهـا وسـعـيـدُ
ظَـبـيـةٌ تَـسْـكُـنُ الـقـلـوبَ وتَـرعَـا هَـا، وقُـمْـرِيَّـةٌ لـهـا تَـغْـرِيـدُ

قمرية: حمامة

تَـتَـغـنَّـى كـأنَّـهـا لا تُـغَـنِّـي من سكونِ الأوصالِ؛ وَهْيَ تُجِيدُ
لا تَـراهـا هـنـاكَ تَـجْـحَـظُ عَـيْـنٌ لَـكَ مـنـهـا، ولا يَـدِرُّ وَرِيـدُ
مـن هُـدُوٍّ ولـيـس فـيـه انـقـطـاعٌ وشُـجُـوٍّ ومـا بـه تَـبْـلِـيـدُ

مَدَّ في شَأْوِ صوتِها نَفَسٌ كَا ... فٍ كأنفاسِ عاشِقِيها مَدِيدُ
وأرَقَّ الدَّلالُ والغُنْجُ منه ... وبَرَاهُ الشَّجا فَكادَ يَبِيدُ

أرق: جعله رقيقاً

فَتَراهُ يموتُ طَوْراً ويَحيَا ... مُسْتَلَذّاً بَسِيطُهُ والنشيدُ
فيه وَشْيٌ، وفيه حَلْيٌ مِنَ النَّغْـ ... ـمِ مَصوغٌ يَخْتَالُ فيه القصيدُ
ما تُعاطي القلوبَ إلا أصابَتْ ... بِهَواها مِنْهُنَّ حيثُ تُرِيدُ

المعاطاة تكون بكؤوس الخمر، أعطيك وتعطيني، وهي هنا للقلوب

وَتَرُ العزفِ في يَديْها مُضَاهٍ ... وَتَرَ الزَّحْفِ؛ فيه سَهْمٌ شَديدُ
وإذا أَنْبَضَتْهُ لِلْشَّرْبِ يوماً ... أَيْقَنَ القومُ أنها ستصيدُ

أنبضت وترها للشرب: جذبت وتر العود لتسمع الشاربين الأنغام.. وإنباض الوتر أيضاً هو شد وتر القوس قبل أن يرمي الرامي الصيد

ليَ حيثُ انصرفتُ عنها رَفيقٌ ... من هَواهَا، وحيثُ حَلَّتْ قَعِيدُ

بعد انصرافي يظل حبها رفيق دربي

عن يَميني وعن شِمالِي وقُدَّا ... مِي وخَلفِي، فأينَ عنه أَحِيدُ؟
ليت شِعْرِي، إذا أدامَ إليها ... كَرَّةَ الطَرْفِ مُبْدئٌ ومُعِيدُ،
أَهْيَ شيءٌ لا تَسْأَمُ العينُ منه ... أم لها كلَّ ساعةٍ تَجْديدُ؟

١٢١ بلدي يذكرني بشبابي

وقال في بعض أسفاره يذكر بغداد:

بلدٌ صَحِبْتُ به الشَّبيبَةَ والصِّبَا ... ولَبِسْتُ فيه العيشَ وَهْوَ جديدُ
فإذا تمثَّلَ في الضميرِ رأيتُه ... وعليه أفْنانُ الشبابِ تَمِيدُ

١٢٢ عاقبة الإهمال

قال أبو عثمان الناجم: أنشدت ابن الرومي أبيات أبي مسلم صاحب الدولة فزاد فيها:

ومن رعَى غَنَماً في أرضِ مَسْبَعَةٍ ... ونامَ عنها، تولَّى رَعْيَها الأَسَدُ

تسويد أ. عبد الرحيم

١٢٣ جزر بغير مد

وقال في إسماعيل بن بلبل:

كـأنَّ الـلَّـهَ خَـيَّـرَهُ الـسَّـجـايـا ... فـكـان مـن الـرِّجَـالِ كـمـا يَـوَدُّ

ينسب إلى حسان بن ثابت قوله في صفة الرسول: (وأحسن منك لم تر قط عيني/ وأجمل منك لم تلد النساء/ / خلقت مبرأ من كل عيب/ كأنك قد خلقت كما تشاء)

لـه خُـلُـقَـانِ مـن بَـأْسٍ وَجُـودٍ ... يَـسُـوسُ كِـلَـيْـهِـمـا الـرَّأْيُ الأَسَـدُّ

يَـحُـلُّ عـلـيـه بـالـرَّغَـبـاتِ وَفْـدٌ، ... ويَـرْحَـلُ بـالـرغَـائِـبِ عـنـه وَفْـدُ

الرغائب: العطايا

فـتـىً سَـهُـلَـتْ مَـحَـافِـرُهُ لِـغَـيْـرِي ... ومَـحْـفَـرُهُ لـديَّ الـدَّهْـرَ صَـلْـدُ

محافره: أمكنة الحفر فيه، فالرجل مثل منجم ذهب، والناس يحفرون في أماكن سهلة منه، وابن الرومي قاعد يحفر في مكان صلد صلب

خَـلا وَعْـدٍ مَـدَدْتُ إلـيـه عـيـنـي ... فَـأَعْـرَضَ دونَـه مَـطْـلٌ يُـمَـدُّ

فتَى شَيْبَانَ! لِمْ أَعْمَلْتَ مَطْلي ... بِـلا حَـدٍّ، ولـلأَعْـمَـارِ حَـدُّ؟

يُـحَـدِّثُـنـي بِـجُـودِكَ كـلُّ رَكْـبٍ ... وكُـلُّـهُـمُ بِـشِـعـريَ فـيـكَ يَـشْـدُو

صَـدَدْتَ ومـا تَـقَـدَّمَ مـنـكَ عَـطْـفٌ ... ولـيـس يـكـونُ قـبـلَ الـعَـطْـفِ صَـدُّ

جَـزَرْتَ ومـا تَـقَـدَّمَ مـنـكَ مَـدٌّ ... وقِـدْمَـاً كـان قـبـلَ الـجَـزْرِ مَـدُّ

١٢٤ يا منتهى أملي

بـاتَ يـدعُـو الـواحـدَ الـصَّـمَـدَا ... فـي ظـلامِ الـلـيـلِ مُـنْـفَـرِدَا

خـادِمٌ لـم تُـبْـقِ خـدمَـتُـه ... مـنـه لا رُوحـاً ولا جَـسَـدا

قـد جَـفَـتْ عـيـنَـاهُ غَـمْـضَـهُـمـا ... والـخَـلِـيُّ الـقـلـبِ قـد رَقَـدا

فـي حَـشَـاهُ مـن مَـخَـافَـتِـه ... حُـرُقـاتٌ تَـلْـذَعُ الـكَـبِـدَا

قـائـلٌ: يـا مُـنْـتَـهَـى أَمَـلـي ... نَـجِّـنـي مـمـا أخَـافُ غَـدا

١٢٥ مشغول عن صفعه

وقال يهجو أبا حفص الوراق:

قالوا: هجاكَ أبو حفْصٍ، فقلتُ لَهُمْ: ... اِسْتَبْطَأَتْ هَامَةُ الصَّفْعَانِ عادتَها

هامة: رأس، الصفعان: الذي يُصفع كثيراً

فأَبْلِغُوها سَلامي، لا عَدِمْتُكُمُ، واسْتَنظِروُها، سَأُعطِيها إرادتَها

استنظروها: اطلبوا منها أن تنتظر

لولا النبيذُ وأشغالٌ شُغِلْتُ بِها إذنْ لما أَغْفَلَتْ كَفِّي عِيادَتَها

١٢٦ ستنساه

وقال يعزي القاسم عن مولود له:

غَدَا الموتُ والسُّلْوَانُ حَتْماً على الوَرَى كِلا ذَا وهَذَا لِلْفَريقَيْنِ رَاصِدُ

فلا تَجْعَلَنَّ الموتَ نُكْراً، فإنما حياةُ الفَتى سَيْرٌ إلى الموتِ قاصِدُ

السير القاصد: السير السهل

ولا تحسبَنَّ الحُزنَ يَبْقَى، فإنه شهابُ حَريقٍ واقِدٌ ثم خامِدُ

سَتَأْلَفُ فِقْدانَ الذي قد فَقَدْتَه كإِلْفِكَ وِجْدَانَ الذي أنت واجِدُ

تسويد أ. عبد الرحيم

١٢٧ ثانية.. الخضاب حداداً

وقال يعتذر عن الخضاب:

لم أَخْضِبِ الشَّيْبَ لِلْغواني أَبْغي بِه عِندها وِدَادَا

لكِنْ خِضَابي على شَبابي لَبِسْتُ من بعدِه حِدَادَا

١٢٨ هجاء أب

وقال يهجو أباه، ولعله قالها وهو صغير في أخيه الأكبر وكان يعده والداً:

لو كان مثلُكَ في زمانِ محمدٍ ما جاءَ في القرآنِ بِرُّ الوالِدِ

١٢٩ الإخوة الأعداء

وإخوانٍ تَخِذْتُهُمُ دُرُوعاً فكانُوهَا، ولَكِنْ لِلأَعادي

وخِلْتُهُمُ سِهاماً صَائباتٍ فَكَانُوهَا، ولَكِنْ في فُؤادي

وقالوا: قد صَفَتْ منَّا قلوبٌ لقدْ صَدَقُوا، ولَكِنْ من وِدَادي

١٣٠ إياك إياك

وقال في القاسم بن عبيد الله:

لا تُسْلِمَنِّي إلى الزمانِ، وقد ... أنقذْتَني منه أيَّما نَقَذِ
لا تَحْقِرَنِّي، فربَّما نَفَذَتْ ... في هَدْمِ يأجُوجَ حِيلَةُ الجُرَذِ

يأجوج: يعني به ذلك السد العظيم الذي قيل بناه الإسكندر، وقيل بل هو سور الصين العظيم

يا آلَ وَهْبٍ! غَدَا عَدُوُّكُمُ ... مُفْتَرَسَ الشِّلْوِ، غَيْرَ مُنْتَقَذِ

الشلو: مفرد أشلاء

فَلا يُقَطِّعْ جَفاؤُكُمْ كَبِدي ... فحُبُّكُمْ بين تِلْكُمُ الفِلَذِ

الفلذ: فصوص الكبد، والكبد ذات فصوص

١٣١ سقياً لأيام مضت

بانَ الشبابُ فلا يَدٌ ... نَحْوِي، ولا عينٌ، تشيرُ
ولقد أسَرْتُ به القلو ... بَ فقلبيَ اليومَ الأسيرُ
سَقياً لأيامٍ مَضَتْ ... وطويلُها عِندي قصيرُ
أيامَ لي بينَ الكَوا ... عِبِ رَوضةٌ فيها غَدِيرُ

١٣٢ قليل لا أرضاه

تَرَبَّصْتَ بي رَيْبَ المنونِ تَجُرُّني ... على مَطْلِكَ الممدودِ عصراً إلى عصرِ
وأعطيتَني زادَ المسافرِ عالماً ... بِقِلَّةِ ما أبقى مِطالُكَ من عُمْري
ومثلُ امرئٍ أفنَى مِطالُكَ عُمْرَهُ ... كَفَاهُ لَعَمْرِي مِثْلُ نَائِلِكَ النَّزْرِ

النزر: القليل

١٣٣ سيبريه شعري

وقال في محمد بن عبد الله بن طاهر:

مَدحتُ أبا العباسِ أَطلُبُ رِفْدَه ... فَخيَّبَنِي من رِفْدِه وهَجا شِعري
فَهَبْنيَ قد أَعْفَيْتُه من مَثُوبَتي ... أَيُغْضِي له شِعري على مَضَضِ الوِتْرِ؟

مضض الوتر: مرارة الثأر

سَيَبْرِيهِ شِعْرِي، حَسْبَما كانَ راشَه، ولا خيرَ في شِعْرٍ يَرِيشُ ولا يَبْري

المرء يريش السهم (يضع في ذيله الريش) ثم يبري رأسه

وإنـي عَـلِـيـمٌ أنَّ فَـرْيَ أَدِيـمِـه يَسيرٌ عليه، ما غَدا سالـمَ الوَفْرِ

فري أديمه: تشقيق جلده، سالم الوفر: لم تمسَّ أمواله، فالرجل لئيم لا يهمه الهجاء ما دام ماله سالماً

١٣٤ حقق الله الأماني

وقال يهجو المبرد:

وَدَّ الـمـبـرَّدُ أنَّ الـلَّـهَ بَـدَّلَـه مِن كلِّ جارِحَةٍ في جِسْمِه دُبُرَا

لعل ابن الرومي قالها المبرَّد بفتح الراء، ولقبه المبرِّد بكسرها عند محبيه

فـأَعْـطِـه يـا إِلَـهَ الـنـاسِ مُـنْـيَـتَـه ولا تُـبَـقِّ لـه سـمـعـاً ولا بَـصَـرا

١٣٥ تعبان بلحية غيره

وقال في لحية الليف المعلم:

إنْ تَطُلْ لـحيـةٌ عـليـكَ وتَعْـرُضْ فـالـمَخَـالـي مَـعْـرُوفَـةٌ لِـلْـحَـمِـيـرِ
عَـلَّـقَ الـلَّـهُ فـي عِـذارَيْـكَ مِـخْـلا ةً ولـكِـنَّـهـا بِـغَـيـرِ شَـعـيـرِ

عذاريك: خديك، مخلاة: كيس شعير يوضع في رأس الدابة

لـو غَـدَا حـكـمُـهـا إلـيَّ لَـطَـارَتْ فـي مَـهَـبِّ الـريـاحِ كـلَّ مَـطِـيـرِ
أَرْعِ فـيـهـا الـمُـوسَى، فإنَّـكَ منـهـا شَـهِـدَ الـلَّـهُ فـي أَثَـامٍ كـبـيـرِ

أرع الموسى: اجعل الشفرة ترعى

أيُّـمَـا كَـوْسَـجٍ يَـرَاهـا فَـيَـلْـقَـى ربَّـه بَـعـدَهـا صَـحـيـحَ الـضَّـمِـيـرِ؟

كوسج: أجرودي لا تنبت له لحية، فالكوسج يعتقد أن الله غير عادل في القسمة عندما يرى لحية هذا المعلم المهجو

هـو أَحْـرَى بِـأَنْ يَـشُـكَّ ويُـغْـرَى بـاتِّـهَـامِ الـحَـكـيـمِ فـي الـتَّـقـديـرِ
مـا تَـلَـقَّـاكَ كَـوْسَـجٌ قَـطُّ إلَّا جَـوَّرَ الـلَّـهَ أيَّـمَـا تَـجْـويـرِ

البيتان السابقان يشرحان ما سبقهما، وإنما أتينا بهما لبيان طريقة ابن الرومي في استقصاء المعنى

لِحْيَةٌ أُهْمِلَتْ، فَسَالَتْ وفَاضَتْ فـإلـيْـهـا تُـشـيـرُ كـفُّ الـمُـشِـيـرِ

مـا رَأَتْـهـا عـيـنُ امرئٍ، مـا رَآهـا قـطُّ، إلَّا أَهَـلَّ بـالـتـكـبِـيـرِ

ما رأتها عين شخص ـ لم يكن رآها من قبل ـ إلا قال متعجباً: الله أكبر

روعـةٌ تَـسْـتَـخِـفُّـه لـم يُـرَعْـهَـا مـن رأى وجـهَ مُـنْـكَـرٍ ونَـكِـيـرِ

روعة تستخفه: خشيه تُربكه

فـاتَّـقِ الـلَّـهَ ذا الـجَـلالِ، وغَـيِّـرْ مُـنْـكَـراً فـيـكَ مُـمْـكِـنَ الـتَّـغْـيـيـرِ

أو فَـقَـصِّـرْ منها، فَـحَـسْـبُـكَ مِـنْـهـا نِـصْـفُ شِـبْـرٍ عَـلامَـةَ الـتَّـذْكـيـرِ

لـو رَأَى مـثـلَـهـا الـنـبـيُّ لأَجْـرى في لِـحَـى الـنَّـاسِ سُـنَّـةَ الـتَّـقْـصـيـرِ

واسْـتَـحَـبَّ الإحْـفَـاءَ فِـيـهِـنَّ والـحَـلْـقَ مَـكَـانَ الإعْـفَـاءِ والـتَّـوْفِـيـرِ

١٣٦ أنا مادح وأنت ممدوح فعلام النكد؟

وقال يعاتب محمد بن عبد الله:

ألا ليتَ شِعْري: لِمْ مِطَلْتَ مَثوبَتِي ولم تُؤْتَ من بُخْلٍ، ولم تُؤْتَ من عُسْرِ؟

إِخـالُـكَ إذْ جَـوَّدْتُ فـيـكَ مَـدائِـحي مَنَعتَ ثوابي حاسِداً لي على شِعْري

أَتَـحْـسُـدُنـي تَـجْـويـدَ رَيْـطٍ نَـسَـجْـتُـه لِـتَـلْـبَـسَـه؟ يا لِـلـعَـجـيـبِ من الأَمْـرِ!

ريط: ثوب

تَـذَكَّـرْ ـ هَـداكَ الـلَّـهُ ـ أَنِّـيَ مَـادحٌ وأَنَّكَ ممدوحٌ، فلا تَعْدُ بي قَدري

يُـنَـافِـسُ في الـشِّـعْـرِ الـنظيـرُ نظيـرَه وجَلَّ ملوكُ الناسِ عن ذلكَ النَّجْرِ

النجر: الصفة

عـلـيْـكَ بـأَفْـعـالِ الـمـلـوكِ، وخَـلِّـنـي وتَقْرِيظَ مَا تَأْتِي من العُرْفِ والنُّكْرِ

افعل أفعال الملوك ودعني أقرظ (أمدح) كل أفعالك حتى المنكرة

أقـولُ، وتُـعْـطـي نـائِـلاً بـعـدَ نـائـلٍ؛ فَتَغْرِفُ من بَحْرٍ، وأَقْلَعُ من صَخْرِ

إذا الـشَّـاعِـرُ الـرُّومِـيُّ أطْـرَى أمـيـرَه فَنَاهِيكَ من مُطْرىً، ونَاهِيكَ من مُطْرِ

١٣٧ القبر خدراً

وقال يعزي على بن عبد الله بن المسيب، عن ابنته:

أخَـا ثِـقَـتـي! أَعْـزِزْ عـلـيَّ بِـنَـوبَـةٍ مَـنَـاكَ بـهـا صَـرْفُ الـقـضـاءِ الـمُـقَـدَّرُ

تَعزَّيْتَ عَمَّنْ أثْمَرَتْكَ حياتُهُ، وَوَشْكُ التَّعَزِّي عن ثِمَارِكَ أَجْدَرُ
تَعَذَّرَ أن نَعْتَاضَ من أُمَّهاتِنا وآبائِنا؛ والنَّسْلُ لا يَتعذَّرُ
فلا تَهْلِكَنْ حزناً على ابنَةِ جَنَّةٍ غَدَتْ وَهْيَ عندَ اللَّهِ تُحْبَى وتُحْبَرُ

تحْبَر: تُلبَس الثياب الفاخرة

لَعَلَّ الذي أَعْطاكَ سِتْرَ حياتِها كَسَاهَا من اللَّحْدِ الذي هُوَ أَسْتَرُ
وفي الماءِ طُهْرٌ ليس في الطُّهْرِ مثْلُه، ولَلْتُّرْبُ أحياناً من الماءِ أَطْهَرُ
وليس بِمَأْمونٍ عليها عِثَارُها مَدى الدَّهْرِ، أو يُقْضَى عليها وتُقْبَرُ

كاد أن يجعلها زانية لحاه الله

١٣٨ دجاجة من ذهب

عظُمَتْ فكادتْ أن تكونَ إِوَزَّةً ونَوَتْ فكادَ إِهابُها يَتَفَطَّرُ

كبرت هذه الدجاجة فكادت أن تكون إوزة، وعقدت النية حقاً على أن تكون إوزة فكاد إهابها (جلدها) يتفطر (يتشقق)

ظَلْنَا نُقَشِّرُ جلدَها عن لحمِها وكأنَّ تِبْراً عن لُجَيْنٍ يُقْشَرُ

الجلد مشوي ذهبي اللون، وعندما يقشر يظهر تحته لحم الدجاجة الأبيض كاللجين (الفضة)

وتَقَدَّمَتْها قبلَ ذاكَ ثَرائِدٌ مِثْلُ الرِّياضِ، بِمِثْلِهِنَّ يُصَدَّرُ
وأَتَتْ قطائِفُ بعدَ ذاكَ لَطَائِفٌ تَرْضَى اللَّهَاةُ بِها، ويَرضَى الحُنْجُرُ

اللهاة: اللحمة في أقصى الحلق

من مالِ ذي فَخْرٍ كأنَّ بَنَانَه خُلُجُ الفُراتِ إذا غَدَتْ تَتَفَجَّرُ

الخلج: الترع المشتقة من النهر الكبير

شَمسٌ يَحُفُّ يَمينَها وشِمالَها بدرُ السماءِ ومُشْتَريها الأَزْهَرُ
لِلَّهِ دَرُّهُمُ، ثلاثةُ إِخْوَةٍ حَسُنَتْ مناظِرُهُمْ وطَابَ المَخْبَرُ
وأقولُ بعدَ مديحِهِمْ مُسْتَعتِباً: ما لِلوفَاءِ من الكرامِ يُؤَخَّرُ؟
قد جاءَكُمْ تمرٌ، وأَوْجَبَ قَسْمَهُ قُرْبُ المَصِيفِ، فما لنا لا نُتْمَرُ؟

١٣٩ زاد المسافر

إذا اختطَّ قومٌ خُطَّةً لمدينةٍ تَقَاضَتْهُمُ أضعافَها للمقابرِ

وفي ذاكَ ما يَنهاهُم أن يُشَيِّدُوا   وأن يقتَنُوا إلّا كَزَادِ المسافرِ

١٤٠ رحمة للعباد

أحلَّ العراقيُّ النَّبيذَ وشُرْبَه   وقالَ: الحَرامَانِ المُدَامَةُ والسُّكْرُ
وقالَ الحِجازِيُّ: الشَّرَابانِ وَاحِدٌ   فَحَلَّتْ لنا بينَ اختلافِهِما الخَمْرُ

١٤١ اعتمد على أيهما شئت

قال يستبطئ جحظة:

أبا حسنٍ إن حبلَ المِطا   لِ إن مُدَّ كانَ بِلا آخِرِ
فإمَّا اصْطَنَعْتَ إلى شاكرٍ   وإمَّا اعتَذرتَ إلى عاذِرِ

اصطنعت: صنعت معروفاً

١٤٢ فتى البصرة

وقال في ابن أبي قرة:

أبو عَلِيِّ بنُ أبي قُرَّةْ   أبو عَيِيٍّ بنُ أبي عُرَّةْ

عيي: ألكن غير فصيح، عرة: عار

نُبِّئْتُ عن شيخَتِهِ أنَّها   تَفعلُ ما لا تَفعلُ الحُرَّةْ

شيخته: أمه

تلكَ التي صادَفَها بعلُها   عذراءَ لا شكَّ من السُّرَّةْ

يهزأ، كانت عذراء مقفلة.. لكن من سرتها لا من موضع آخر

لم يشهدِ الفَتْحَ، ولا سَيَّلَتْ   طَعْنَتُهُ من دمِها قَطْرَةْ

أبو المهجو لا فتح ولا أسال دماً

طَهَّرَني اللَّهُ كَتَطهيرِهِ،   ليلةَ زُفَّتْ، من دَمِ العُذْرَةْ

وقام أبوه من ليلته الأولى طاهراً من دم العذرة (البكارة)، لأنه لم يتزوج بكراً. وسخرية شاعرنا تتجلى في قوله (طهرني الله كتطهيره)

وابنُهُما النَّغْلُ يَرَى أنَّه،   في الظَّرْفِ والعِلْمِ، فتَى البَصْرَةْ

النغل: ولد الزنا

١٤٣ الأمير الشاعر

وقال في ابن أبي طاهر:

فـقـدتُـكَ يـا ابْـنَ أبـيِ طـاهـرِ　　　وأُطْـعِـمْـتُ ثُـكْـلَـكَ مـن شَـاعِـرِ

فقدتك: عدمتك، وأطعمني الله ثكلك (حباني الله بموتك)

فـلَـسْـتَ بِـسُـخْـنٍ ولا بـاردٍ؛　　　ومـا بـيـنَ ذَيْـنِ سـوى الـفـاتِـرِ

وليس بين هذين سوى الفاتر، والفاتر يوصف عادة بأنه أسوأ من الحار ومن البارد

رأيـتُـكَ تَـنْـبَـحُـنـي سَـادِراً　　　كـفِـعْـلِـكَ بـالـقـمـرِ الـبـاهـرِ

سادراً: مندفعاً

ومـا زالَ ذلـكَ دأبَ الـكـلابِ،　　　ومـا ذاكَ لِـلـبـدرِ بـالـضَّـائـرِ

١٤٤ لم أكن من جناتها علم الله

رأيتُ جُنَاةَ الحربِ غيرَ كُفَاتِها　　　إذا اختَلَفَتْ فيها الرِّمَاحُ الشَّواجِرُ

جناة الحرب: مسببوها، كفاتها: من يقومون بها ويكونون أكفاء لها، الرماح الشواجر: المتشابكة

كذاكَ زنادُ النارِ عنها بِنَجْوَةٍ　　　ولكنَّما تَصْلَى صَلاهَا المَسَاعِرُ

زناد النار: حجر القدح، بنجوة: بعيداً ناجياً، المساعر: الحدائد التي يحركون بها الجمر ليزداد اضطراماً. يقول: حجر القدْح بعيد عن النار مع أنه سبب اشتعالها، ولكن قضيب تحريك الجمر يصلى بها مع أنه ليس الذي أشعلها/ تسويد البيتين: أ. عبد الرحيم

١٤٥ العنب الرازقي

ورازِقِـيٍّ مُـخْـطَـفِ الـخُـصـورِ

ضرب من العنب الأبيض، حبته مخصورة من وسطها

كـأنـه مـخـازنُ الـبَـلُّـورِ

قـد ضُـمِّـنَـتْ مِـسْـكـاً إلـى الـشُّـطُـورِ

حباته تتضمن المسك إلى الشطور (إلى منتصفها) ذلك أن لون الجزء السفلي من العنبة داكن

وفـي الأعَـالـيِ مـاءُ وَرْدٍ جُـوري

وفي أعلى العنبة لون فاتح كلون ماء الورد

لـم يُـبْـقِ مـنـهُ وَهَـجُ الـحَـرورِ

إلَّا ضِـيـاءً فـي ظُـرُوفِ نُـورِ

لـو أنـه يـبـقَـى عـلـى الـدُّهـورِ

لو هذا العنب يبقى على حاله زمناً طويلاً ولا يتلف..

قَـرَّطَ آذانَ الـحِـسـانِ الـحُـورِ

.. لاتُّخذت منه أقراط لآذان الحسان

لـه مَـذاقُ الـعَـسَـلِ الـمَـشُـورِ

المشور: المجنيّ من خلاياه

ونَـكْـهَـةُ الـمِـسْـكِ مـع الـكَـافـورِ

بـاكَـرْتُـهُ والـطَّـيْـرُ فـي الـوُكـورِ

بِـفِـتـيَـةٍ مـن وَلَـدِ الـمـنـصـورِ

خرج باكراً مع أصحابه والطيور بعد في أوكارها

أَمـلأَ لـلـعـيـنِ مـن الـبُـدُورِ

أصحابه يملأون العين بشبابهم وجمالهم

حـتـى أَتـيْـنـا خَـيْـمَـةَ الـنَّـاطـورِ

قـبـلَ ارتـفـاعِ الـشـمـسِ لـلـذُّرُورِ

الذرور: بروز قرص الشمس

فَـنِـيـلَـتِ الأَوْطَـارُ فـي سـرورِ

وكـلُّ مَـا نَـقـضـي مـن الأمـورِ

تَـعِـلَّـةٌ عـن يـومِـنـا الـمـنـظُـورِ

ومـتـعـةٌ مـن مُـتَـعِ الـغُـرورِ

كل ما نفعل تعلة (حيلة نتلهى بها) ونحن نحاول نسيان يومنا المنظور (الموت) ونَغُرُّ أنفسنا بالمتع الصغيرة. وإذا قرأتها الغَرور بفتح الغين فهذه القراءة المشهورة للآية، ومعنى الغرور فيما زعم أهل التفسير: الشيطان

١٤٦ أمان من الدهر

وقال في علي بن يحيى المنجم:

قـرأتُ عـلـى أهـلـي كـتـابَـكَ إذ أتـى   وقـلـتُ لَـهُـمْ: هـذا أمـانٌ من الـدهـرِ

فكلُّ امرئٍ منهُمْ إذا خافَ دهرَه مُعَوَّلُهُ ضَمُّ الكتابِ إلى الصَّدْرِ

معوله (ملجأه)

أُذَكِّرُكَ الوعدَ الذي كانَ بينَنا وما مرَّ من يومٍ عليه ومن شهرِ

وقطرةَ غيْثٍ كنتَ أَنبأْتَ أنها سيَتْبعُها قَطْرٌ مُلِثٌّ على قَطْرِ

قطر ملث: مطر متواصل

١٤٧ الطبيعة متبرجة

أصبحَتِ الدنيا تروقُ من نَظَرْ

بِمَنظرٍ فيه جِلاءٌ للبصرْ

جلاء: صقل

تَبَرَّجَتْ بعدَ حياءٍ وخَفَرْ

تَبَرُّجَ الأنثى تصدَّتْ للذَّكرْ

١٤٨ طيلسان بقدرة الله

يا ابنَ حَرْبٍ كَسوْتَني طَيْلَساناً حَمْلُهُ لاسمِهِ كثيرٌ كثيرُ

يتَجلَّى تَنَسُّمَ الريحِ من غا يةِ تِسعينَ فَرسخاً فيطيرُ

يتجلى: بمعنى يحس بالريح الخفيفة عن بعد تسعين فرسخاً (٩٠ × ٨ =٧٢٠ كيلومتراً) فيطير لرقته

إن من يُمْسِكُ السماءَ على الأر ضِ وباقي حَوْبائِه لَقَديرُ

الذي يمسك السماء فوق الأرض، ويمسك ما تبقى من حوباء (روح) هذا الرداء، هو قدير حقاً

١٤٩ شمس وقمر

لا شيءَ إلَّا وفيها منه أحسَنُهُ فأينَ يُصْرَفُ عنها القلبُ والنظرُ

ما كان ضَرَّ سماءً تَستظِلُّ بها لو امَّحى نَيِّرَاها الشمسُ والقمرُ

١٥٠ انتفها نتفاً

وقال في لحية الليف:

إن أنتَ صادفْتَ أخَا لِحْيَةٍ قد جَلَّلَتْ من كِبَرٍ صَدْرَهْ

فاقبِضْ بِيُسراكَ على أَصلِها ... وضعْ على حُلْقُومِه الشَّفْرَةْ
فإن خَشيتَ اللَّهَ في قتلِهِ ... وخِفْتَ منهُ سَطْوَةً مُرَّةْ

خِفتَ منه: خِفتَ من الله

فَثِبْ إلى عُثْنونِه ناتِفاً ... فَأْتِ عليهِ شَعرَةً شَعْرَةْ

ثب: اقفز، عثنونه: لحيته

١٥١ قيمة الشعر عند عارفيه

وقال في أبي العباس بن ثوابة، وقد نالته علة من برد:

ما أنتَ والبردَ، يا من كلُّ جارِحَةٍ ... من جسمِه ذاتُ نيرانٍ وأَنْوارِ
أبْشِرْ فإنَّكَ طَوْدُ اللَّهِ أسَّسَهُ ... وشادَ منه بناءً غيرَ مُنهارِ

طود: جبل

وليس يَصْلُحُ لاسْتصلاحِ مملكةٍ ... غيرُ امرِئٍ نافعٍ بالحقِّ ضَرَّارِ
لئنْ سَبَقتَ إليَّ الناسَ كلَّهُمُ ... لقد سَبقتَ إلى شُكري وأَشعاري
أَبْكَرْتَ فاصْطَدْتَني، والقومُ في سِنَةٍ ... وصاحبُ الصَّيْدِ قِدْماً كلُّ مِبْكارِ
أنتَ الذي صانَ لي عِرْضي ومَسألَتي ... عن كلِّ كلبٍ على الأحرارِ هَرَّارِ
ومُسْتَخِفٍّ بِقَدْرِ الشِّعرِ قلتُ له: ... لن يَنْفُقَ العِطرُ إلا عندَ مِعْطَارِ

معطار: معطير، رجل يحب العطر ويعرف قميته

لا تُصْغِرِ الشعرَ إن أَصْغَرْتَ قائلَه ... فإنه غيرُ محقوقٍ بإِصغارِ
أما تَرَى المِسْكَ بَيْنَاهُ على حَجَرٍ ... يُذِلُّهُ كلَّ ذُلٍّ فِهْرُ عَطَّارِ

فهر: حجر، فهم يدقون المسك كي تفوح رائحته

إذْ بَلَّغَتْهُ صروفُ الدهرِ غايتَه ... فاحْتَلَّ منزلةً من رأسِ جبَّارِ
أَبْني البديعَ وأُهْديهِ إلى مَلِكٍ ... يَبْني الرَّفيعَ، وما يَبني بأَحْجارِ

١٥٢ الشعر شوك وثمر

وقال في وصف الشعر:

قُولا لِمَنْ عابَ شِعْرَ مادِحِه ... أما تَرى كيفَ رُكِّبَ الشجرُ؟

رُكِّبَ فيه اللِّحَاءُ والخشبُ الـ — يابِسُ، والشَّوْكُ بينَه الثَّمَرُ
وكان أَوْلَى بأنْ يُهَذِّبَ مَا — يَخْلُقُ ربُّ الأربابِ، لا البشرُ
فلم يكنْ ذاكَ، بلْ سِواهُ من الـ — أمْرِ لِشَيْءٍ جَرى به القَدَرُ
واللَّهُ أدْرَى بِمَا يُدَبِّرُهُ — مِنَّا، وفي كلِّ ما قَضى الخِيَرُ
فَلْيَعْذِرِ الناسُ من أساءَ، ومن — قَصَّرَ في الشعرِ، إنه بَشَرُ
مَطْلَبُه كالمَغَاصِ في دَرَكِ الـ — لُجَّةِ مِنْ دونِ دُرِّهَا خَطَرُ
ولْيَذكُروا أنه يُكَدُّ له الـ — عقلُ وتُنْضَى في قَرْضِه الفِكَرُ
وفيه ما يأخُذُ التَّخَيُّرُ مِنْ — غالٍ ثمينٍ، وفيهِ ما يَذَرُ
وليس بدٌّ لِمَنْ يغوصُ مِنَ الـ — جَرْفِ لِمَا يُصْطَفَى ويُحْتَقَرُ

هذه نظريتك يا ابن الرومي في الشعر! الشعر فيه الخشب اليابس وفيه الثمر. وقصيدتك هذه خالفت نظريتك، فقد جئنا نتخير منها شيئاً ونترك شيئاً فإذا هي ثمرة يانعة ليس فيها بيت رديء. وجئنا نشرح العويص فما وجدنا عويصاً. هذه بيضة ديكك في هذا الشأن

١٥٣ الحقد بالحق

حقدتُ عليكَ ذنباً بعدَ ذنبٍ — ولو أحسنتَ كان الحقدُ شُكرا
أديمي من أَدِيمِ الأرضِ، فاعلَمْ، — أُسِيءُ الرَّيْعَ حينَ تُسِيءُ بَذْرَا

الريع: المحصول

ولم تكُ، يا لكَ الخيراتُ، أرْضٌ — لِتُزْرَعَ خِرْبِقَاً فَتُرِيعَ بُرَّا

لم تكن (لم توجد) أرض تزرع خربقاً (الخربق نبات سام) فتعطي قمحاً

أُؤَدِّي إنْ فعلتَ الخيرَ خيراً — إليكَ، وإن فعلتَ الشرَّ شرَّا
ولستُ مُكافِئاً بالنُّكْرِ عُرْفاً — ولستُ مكافئاً بالعُرْفِ نُكْرا
يُسَمَّى الحقدُ عَيْباً، وَهْوَ مَدْحٌ؛ — كما يَدْعُونَ حُلْوَ الحقِّ مُرَّا

١٥٤ اشتعال الرأس

أولُ بدءِ المشيبِ واحدةٌ — تُشعلُ ما جاورتْ من الشَّعَرِ
مثلَ الحريقِ العظيمِ تبدَأُهُ — أولَ صَوْلٍ صَغيرةُ الشَّرَرِ

الصول: الهجوم

١٥٥ وحدي مرتاح

ذقتُ الطُّعومَ فما التَذَذْتُ كَرَاحَةٍ | مِن صُحْبَةِ الأَشرارِ والأَخيارِ

سمعت عن سيدة في مصر عافت البشر فهي تعود من شغلها وتنام بقية نهارها، وتصحو في جوف الليل لتعيش.. وحدها

أَرِني الذي عاشَرتَه فَوَجَدْتَه | مُتَغاضِياً لكَ عن أقلِّ عِثارِ

أَأُحِبُّ قوماً لم يُحِبُّوا رَبَّهُمْ | إلا لِفِرْدَوْسٍ لديه ونارِ؟

١٥٦ لتكن مشهوراً، لتكن خالداً

ثَنَى شوقَهُ، والمرءُ يصحُو ويَسْكَرُ، | رُسومٌ كأَخْلاقِ الصَّحائِفِ دُثَّرُ

الذي خفف من اشتياقه إنما كان زيارته لرسوم (لأطلال) المحبوبة التي هي كأخلاق الصحائف (كالأوراق الممزقة) دثر (مندثرة)

لأيدي البِلَى فيها سُطورٌ مُبِينَةٌ | عبارتُها: أنْ كلُّ بيتٍ سيُهْجَرُ

البلى: الاهتراء

معاهدُ رَبْعٍ كنتُ آلَفُ أهلَهُ | تغيَّرَ بَعدي، والأمورُ تَغَيَّرُ

وقفتُ بِها صَحبِي، فَظَلَّتْ عِراصُهُ | بِدمعي وأنفاسِي تُرَاحُ وتُمْطَرُ

أوقفت صحبي بالمعاهد (الديار التي كنا نعهدها) فظلت عراص الربع (ساحاته) تراح بأنفاسي (يأتيها ريح من أنفاسي)، وتمطر بدمعي

سلامٌ على الأيامِ إذْ أنا سِلْمُهَا | وإذْ أنتَ مِنِّي، أيها الرَّبْعُ، مُعْمَرُ

وإذْ فيكَ أَمثالُ الظِّباءِ مَلاحَةً | ونَفراً عن الفَحْشاءِ، بل هُنَّ أَنْفَرُ

كُسِينَ لَبُوسَ الحُسْنِ من كلِّ غادةٍ | لَهَا خُلُقٌ عَفٌّ، وخَلْقٌ مُصَوَّرُ

تَقَسَّمَها نِصفَانِ: نِصْفٌ مؤنَّثٌ | ونِصفٌ كَخُوطِ الخَيْزُرَانِ مُذَكَّرُ

الخوط: الغصن. يحبون المرأة المؤنثة من تحت: الكبيرة العجيزة، والمذكرة من فوق: النحيلة الخصر وما فوق الخصر، وربما أحبوها غلامية تشبه في قدها الغلام

إذا هِيَ عِيبَتْ، عابَها أنَّ طَرْفَها | يُرِيقُ دماءَ المسلمينَ فتُهدَرُ

سقَى اللَّهُ ريعانَ الشبابِ، وإن غَدا | يُخَوَّنُ في إخوانِه ويُغَدَّرُ

يخوَّن: يتهم بالخيانة، يغدَّر: يتهم بالغدر

تَذَكَّرْتُهُ والشيبُ قد حالَ دونَه | فَظَلَّتْ بناتُ العَيْنِ مني تَحَدَّرُ

أنا ابنُ ذَوِي التِّيجانِ غيرَ مُدافَعٍ   وهلْ يُدفَعُ الصُّبحُ الأغرُّ المشَهَّرُ

غير مدافع: غير منازَع، لا يشكك أحد في انتسابي إليهم

نَمَتْنِي ملوكُ الرومِ في رأسِ باذِخٍ   من المجدِ يعلُو كلَّ مجدٍ ويَقْهَرُ

نمتني: نسبتني إليها، باذخ: جبل عالٍ

فقلْ للَّذي يَسمُو إليَّ مُنَاوِئاً:   هنالِكَ أَسْهِلْ، إنَّ مَرْقَاكَ أَوْعَرُ

أسهل: ابق في السهل فمرقاك وعر (صعودك صعب)

فما أَسَدٌ جَهْمُ المُحَيَّا شَتِيمُهُ   قُصَاقِصَةٌ وَرْدُ السِّبَالِ غَضَنْفَرُ

جهم المحيا (الوجه) وشتيمُهُ: عبوسُهُ، قصاقصة: القصاقص الأسد، ورد السبال: محمر الشعر

مُسَمَّىً بَأسماءٍ، فَمِنْهُنَّ ضَيْغَمٌ   ومنهنَّ ضِرغَامٌ، ومِنْهُنَّ قَسْوَرُ

تَظَلُّ له غُلْبُ الأُسُودِ خَواضِعاً   ضَوارِبَ بِالأَذْقانِ حينَ يُزَمْجِرُ

الغلب: غلاظ الرقاب

يراهُ سُرَاةُ الليلِ، والدَّوُّ دونَه،   قَريباً بِأَدنَى مَسْمَعٍ حينَ يَزْأَرُ

يراه (يظنه) الماشون في الليل قريباً منهم، رغم أن بينهم وبينه الدو (الخلاء)، وذلك لضخامة صوته

يُدِيرُ، إذا جَنَّ الظلامُ، حِجَاجُهُ   شِهابَ لَظَىً يَعْشَى له المُتَنَوِّرُ

يدير حجاجُه (أي فتحة عينه) يدير بداخله عيناً كأنها شهاب نار يعشَى ويحسر بسببه بصر المتنور (المتطلع إلى النار)

بِأَرْبَى على الأقرانِ مِنِّيَ صَوْلَةً   وقد أَنْذَرَ التجريبُ من كان يُنْذَرُ

ليس هذا الأسد الموصوف في الأبيات الخمسة المنصرمة بأربى (أقدر) مني في الصولة (الهجوم) على الأقران من الشعراء، وقد أعذر من أنذر

فأَنَّى تَعاوَى لي الثَّعالِبُ، وَيْبَهَا،   وقَد رَأَتِ الآسادَ مِنِّيَ تَجْحَرُ

فكيف تعوي علي الثعالب ويبها (الويل لها)، وقد رأت الأسود تدخل جحورها خوفاً مني؟

أَفي كلِّ حِينٍ لا يَزالُ يَهِيجُني   سَفِيهٌ له في اللُّؤْمِ فَرْعٌ وعُنْصُرُ؟

عَفَتْ ذِكْرَهُ آباءُ سُوءٍ أَدِقَّةٌ؛   فماتَ خُمولاً، غيرَ أنْ ليسَ يُقْبَرُ

عفت ذكره (محت سمعته) آباء سوء أدقة (صِغار، من الصَّغار وهو الحقارة)، فهو ميت خمولاً

يَسُومُ هِجائي كيْ يُنَوِّهَ باسِمِه،   وفي السَّبِّ ذِكْرٌ للَّئِيمِ ومَفْخَرُ

يستدر هجائي له كي يفتخر به. وللمتنبي بيت فاخر في هذا المعنى (سيقوله بعد ستين سنة):
صغُرْتَ عن المديح، فقلتَ: أُهجَى. كأنك ما صَغُرتَ عن الهجاءِ

أَخَالِدُ! لم أُنْكِرْ لكَ النُّكْرَ والخَنَا، بلِ العُرْفُ من أفعالِ مثلِكَ مُنْكَرُ

الخنا: الفحش

على أنَّني هاجِيكَ لا متكَلِّفاً خَلا أنَّ تَيَّاراً من البَحْرِ يَزْخَرُ
ولو مَلَكَتْ كَفِّي على الشِّعْرِ غَربَهُ لَكَانَ له مَعْدَىً سِواكَ ومَقْصَرُ

غربه: حدَّه، معدى: بديل، مقصر: انكفاف

أخالدُ ما أغْرَاكَ بي من عَداوَةٍ ولا تِرَةٍ، لولا الشَّقَاءُ المُقَدَّرُ

ترة: ثأر

حَدَاكَ إليَّ الحَيْنُ حتَّى اسْتَثَرْتَني عليكَ، وإنِي في عَرِيني لَمُخْدِرُ

حداك: أتى بك، الحين: الهلاك، مخدر: لازم مكاني

فَدُونَكَ ما حاولتَه فبَلَغْتَهُ؛ وَرَدْتَ، ولكنْ لا إِخَالُكَ تَصْدُرُ

دونك: خذ

فقد كنتَ نِسْيَاً لا تُحَسُّ ولا تُرَى زماناً طَويلاً، فاصْبِرِ: الآنَ تُذْكَرُ
سَتَرْوِي رواةُ الشِّعْرِ فيكَ قصائداً يُغَنَّى بها ما نُودِيَ: اللَّهُ أكبرُ
تَهُبُّ هُبوبَ الرِّيحِ في كُلِّ وِجْهَةٍ عَبادِيدَ، منها مُنْجِدٌ ومُغَوِّرُ

الرياح العباديد: المتفرقة في كل اتجاه، منجد: ذاهب في المرتفعات، مغور: ذاهب في الوديان

سَدَاهَا مَخازِيكَ التي قد عَلِمْتَها ولُحْمَتُها مِنِّي الكلامُ المُحَبَّرُ

السَّدى: الخيط الممتد طولاً في الثوب، اللحمة: الخيط الذاهب عرضاً، فثوب الهجاء مكون من مخازي الرجل، ومن كلام ابن الرومي المحبر (المنمق)

قَوافٍ إذا مَرَّتْ بِسَمْعِكَ خِلْتَها مَلاطِيسَ، تُزْجِيها مَجانِيقُ، تَخْطِرُ

الملطاس: الحجر الضخم، تزجيها: تدفعها، يقول: أبياتي حجارة منجنيق تخطر، وأخَّر كلمة تخطر للقافية فيما نحسب، فلا نرى للمجانيق أن تتجول، ونرى ذلك لحجارتها

لها هَزَماتٌ في الرُّؤوسِ كأَنَّها رَكَايَا ابْنِ عادٍ غَوْرُها ليس يُسْبَرُ

هزمات: هدير، ركايا ابن عاد: آبار من عهد عاد. كأنه تخيل صوت إلقاء حجر في بئر عميقة الغور

وإن كنتُ لا أَهْجُوكَ إلَّا كَحَالِمٍ يَرَى ما يَراهُ النَّائِمُونَ فَيَهْجُرُ

يهجر: يقول الهجر وهو الفحش

لأنَّـكَ مـعـدومُ الـوجـودِ، وإنَّـمـا   يُـرِيـنِـيـكَ ظَـنِّـي رِيـثَـمـا أَتَـدَيَّـرُ

قبل أن أدير وجهي نحوك متكاسلاً أراك بعين الذهن

فـإن كـنـتَ شـيـئـاً ثـابـتـاً فَـهَـبـاءَةٌ   تَـضـاءَلُ في عينِ اليقينِ وتَـصْـغُـرُ

ولِلْشَّتْمِ في أَدْنى مَخَازِيكَ مَسْبَحٌ   طـويـلٌ تُـجَـارِيـهِ الـقَـوافـي فَـتُـحْـسَـرُ

تُحسَر: تعجز

بِقَوْدِكَ لِلْعُهَّارِ عِرْسَكَ طائعاً   كـأنَّـك مَـصْـيُـورٌ عـلـى ذاكَ مُـجْـبَـرُ

عرس: زوجة، مصيور: مجبر أن يكون مصيرك كذلك

تَبيتُ قَرِيرَ العينِ جَذْلانَ ضاحكاً   إذا هِيَ باتَتْ بينَ فَحلَيْنِ تَشْخُرُ

وَقَفْتَ على فَيْشِ الزُّنَاةِ مَبالَها   وبَيْتاً قديماً كانَ بالفِسْقِ يُعْمَرُ

فيش: حشفات الذكور

إذا هِيَ بيكَتْ بِيكَ أُجْرَةَ بيكِها   أَلا ساءَ ما يُجْزَى عليه ويُؤْجَرُ

إذا فُعل بها يُفعل بزوجها المهجو أجرة له على سماحه بزوجته، فكأنه متلهف على ذلك

تَعيشُ اسْتُه في فَضْلِ كَعْثَبِ عِرْسِه   فَقُبِّحَ من شيخٍ يَعُولُ اسْتَهُ حِرُ

الكعثب، ومثله الحر: ذلك العضو من المرأة

يَبِيتُ قِرَى ضِيفانِهِ كُلَّ ليلةٍ   بَغِيٌّ وخِنزيرٌ وخمرٌ ومَيْسِرُ

إذا طَيِّءٌ عَدَّتْ بُنَاةَ بِنائِها   فَحاتِمُها البَانِي، وأنتَ المُتَبِّرُ

المتبر: المهلك

ولو قَبِلوا نُصْحِي لهُمْ بِقَبُولِه   لَوَارَوْكَ حَيّاً فالثَّرى لكَ أَسْتَرُ

أَيُوحِشُهُمْ فِقدانُ قِرْدٍ، وفِيهِمُ   بُناةُ المَعالِي والعديدُ المُجَمَّرُ؟

المجمر: المجتمع

ولا أنتَ مِمَّنْ يَنْقُصُ القومَ فَقْدُهُ   ولكنَّهُمْ مِنْ بعدِ فَقْدِكَ أكثرُ

لَؤُمْتَ، فلو كنتَ السماءَ لأمسَكَتْ   حَيَاها، وأمسَى جَوُّهَا وَهْوَ أَغْبَرُ

حياها: مطرها

نَطُفْتَ، فلو مَاسَسْتَ كَعْبَةَ مَكَّةٍ   بِثَوْبِكَ حَاضَتْ حَيْضَةً لا تَطَهَّرُ

نطفت: كنت قذراً

قَبُحْتَ، فَجاوَزْتَ المدَى قُبْحَ منظرٍ ويا حُسْنَه من مَنْظَرٍ حينَ تُخْبَرُ
نَشَرْتُكَ من موتِ الخُمولِ بقدرَةٍ لِمَا هَوُ أدهىَ ـ لو عَلِمْتَ ـ وأنْكَرُ

النشور: الحياة بعد الموت

ولَلْمَوتُ خيرٌ لامْرِئٍ من نُشُورِهِ إذا كانَ لِلْتَّخْليدِ في النارِ يُنْشَرُ

١٥٧ بئس التعويض

وقال في أبي حفص الوراق:

قالوا: هَجاكَ أبو حَفْصٍ، فقلتُ لهُمْ: قد طالَ قرنُ أبِي حفصٍ على قِصَرِهْ
قد عاشَ دهراً خَفيفَ الرأسِ نَعلَمُهُ حتَّى تَزَوَّجَها بِكْراً على كِبَرِهْ

عاش بلا زوجة فكان رأسه خفيفاً بلا قرنين، والقرنان كناية عن غفلة الزوج عن زنا زوجته

والبِكْرُ لا تَتْرُكُ الشُّبَّانَ طَائِعَةً لِلْشَّيْخِ في أَرْذَلِ النِّصْفَيْنِ من عُمُرِهْ
أقولُ لمَّا علا قرنَاهُ صَلْعَتَه: لَبِئْسَ مَا عُوِّضَ المسكينُ من شَعَرِهْ

عند الإنجليز ضرب من الفكاهة يسمونه «تهوين الفظيع». هذه نادرة تشرحه: رجل إيطالي كان مشغوفاً بهذا الضرب من الفكاهة، زار صديقاً إنجليزياً وقال له: أريد فقط أن تعلمني كيف تصنعون ذلك. ثم مضى بهم الحديث فقص عليه الإيطالي بحرارة كيف ذهب إلى مطعم، فإذا أرضه زلقة من الدهن والوسخ، وجاءه النادل بقطعة لحم تحتاج مطرقة وإزميلاً، ورمى الطبق أمامه بلا مبالاة حتى لقد كادت قطعة اللحم تقفز إلى وجهه وتسبب له جرحاً. عندئذ قال له الإنجليزي ببرود: فأنت لا تنصح بهذا المطعم! فانفجر الإيطالي قائلاً: بالضبط هذا هو نوع الفكاهة الذي لا قبل لنا نحن الطليان به.

وابن الرومي بارع في هذا الضرب من الفكاهة. هو أحد أساليبه الكثيرة في السخرية، بجانب ما شهر به من رسم صور كاريكاتيرية

١٥٨ بدون مبالغة

وقال في اللحياني:

للَّهِ لِحْيةُ حائكٍ أبصرتُها، ما أبصَرَتْ عيناايَ في مِقدارِها
إنـي لأَحسَبُ أنَّ مِنْ أَشْعَارِهَا هَـذا الأثاثَ معاً، ومِنْ أَوْبَارِها

١٥٩ بيت العتمة

وجهُكَ، يا جعفرُ، في قبحِه أوْلَى من العَورَةِ بالسَّتْرِ

كـأنـمـا تَـأْوِي إلـيــه الـدُّجَـى   إذا هِـيَ انْـفَـضَّـتْ عـنِ الـفـجْـرِ

الدجى: الظلمة يقول: عندما تنصرف الظلمة ويأتي الفجر، فهي تذهب لكي تحل في وجه جعفر

١٦٠ ديدنها وديدني

وقال في أبي يوسف الدقاق:

أَأُبَيَّ يُوسُفَ، دَعْوَةَ الـمُسْتَصْغِرِ،   ويـلَ الـتي حـمَـلَـتْـكَ تـسـعـةَ أشـهـرِ

صغرتُ كلمة «أبا يوسف» فجعلتها «أأبيّ يوسف» مستصغراً قدرك. ومعروف عند أهل الصرف أن التصغير يكون للتعظيم ويكون للتحبب، ويكون للقرب الزماني، ويكون للتحقير وتصغير الشأن، وابن الرومي يكتب شعره والأخفش وأضرابه في ذهنه

مـاذا الـذي أَصْـلَـيْـتَـهـا فـي قـبـرِهـا   قبلَ النُّشورِ من اللَّظَى الـمُتَسَعِّرِ؟

أَسْلَمْتَـهـا لِـلْـقَـذْعِ يـلـفـحُ وجـهَـهـا   صـبـرتْ لـه كَـرْهـاً، وإنْ لـم تَـصْـبِـرِ

يا ابنَ التي حَرَمَتْ جَنَابَيْ قبرِها   ومُجَاوِرِيه حَيَا السَّحابِ الـمُمْطِرِ

لما ارتكبت من فواحش لم ينزل الحيا: المطر على قبرها ولا على القبور المجاورة له، والمطر رحمة للميت زعموا

قَـطَـعَـتْ شـبـيـبَـتَـهـا زِنـاً وسَـمَـاحَـةً   وتِـجَـارَةً، خُـسْـراً لـذاكَ الـمَـتْـجـرِ

سماحة: تساهلاً في النيل منها

فَـقَـتِ الـفَـيَـاشِـلُ عـيـنَـه فـي بـطـنِـهـا   فَـأَتَـتْ بـه أَعـمَـىً قـبـيـحَ الـمـنـظـرِ

فقت: فقأت، الفياشل: جمع فيشلة وهي رأس ذكر الذكر

وتـقـولُ لـلـضـيـفِ الـمُـلِـمِّ سَـمَـاحَـةً:   إنْ شئتَ في اسْتِي فَأْتِني أوْ في حِرِي

الحر: عضو المرأة

أَنَا كَعْبَةُ البيكِ التي نُصِبَتْ له   فَـتَـلَـقَّ مـنـهـا حـيـثُ شـئـتَ فَـكَـبِّـرِ

وتَـبِـيـتُ بـيـن مُـقَـابِـلٍ ومُـدَابِـرٍ   مِـثْـلَ الـطـريـقِ لِـمُـقْـبِـلٍ ولِـمُـدْبِـرِ

يَتكـافَـآنِ الـرَّهْـزَ من جِـهَـتَـيْـهِـمـا   فَـكـلاهُـمـا فـي ذاكَ غـيـرُ مُـقَـصِّـرِ

الرهز: تلك الحركة التي لا يجوز لنا أن نفصل القول فيها

كـأَجِـيـرَيِ الـمِـنْـشَـارِ يَـجْـتَـذِبَـانِـه   مُـتَـنَـازِعَـيْـهِ فـي فَـلِـيـجِ صَـنَـوْبَـرِ

فليج: لعلها جذع

دَعْ أُمَّهُ، واخْـصُـصْ قَـعـيـدَةَ بـيـتِـه   من هَـاجِـراتِـكَ بـالـنـصـيـبِ الأوفَـرِ

هاجراتك: قصائد الهُجر أي الفحش

يا زَوْجَةَ الأعمى المُبَاحِ حَريمُهُ يا عِرْسَ ذي القَرنَيْنِ لا الإسْكَنْدَرِ
هل تذكرينَ العهدَ ليلةَ ليلةٍ ناشَدْتُكِ الأبْرَ العَظيمَ المِغْفَرِ؟

المغفر: الخوذة

باتَتْ إذا أَفْرَدْتُ عِدَّةَ بَيْكِها قالتْ: عَدِمْتُ الفَرْدَ، عَيْنَ الأَعْوَرِ

أفردتُ: صنعتُ فرداً أي مرة واحدة، فهي لا تريد الإفراد لأنه مثل عين الأعور

فإذا أَضَفْتُ إلى الفَريدِ قَرينَهُ قالتْ: عَدِمْتُ مُصَلِّياً لم يُوتِرِ

المصلي: المثني، وهي لا تريد المثني، بل تريده أن يوتر (يفرد) فيصنع ثلاثة

هَذاكَ دَيْدَنُها، وذلك دَيْدَني حتى بدَا فَلَقُ الصَّباحِ المُسْفِرِ

ديدنها: عادتها

أرمي مَشِيمَتَها بِرأسٍ مُلَمْلَمٍ رَيَّانَ من ماءِ الشَّبيبةِ أعْجَرِ

ململم: غليظ، أعجر: ذو عقد كالعصا العجراء

عَبْلٍ إذا فَتَقَ النِّسَاءَ بِحَدِّهِ نِلْنَ الأمانَ من الوِلادِ الأعْسَرِ

عبل: مكتنز. يقول: هو يوسع الطريق ويجعل الولادة سهلة

١٦١ خمسون توأماً

وقال في أبي منذر، وكان حذر أخاه النضر من تزويج الشاعر من ابنته قائلاً: أما تنظر إلى مشيته مثل مشية المخنثين:

أبا منذرٍ بِاللَّهِ إلَّا صَدَقْتَني عَلامَ، ولِمْ خَنَّثْتَني يا أخَا النَّضْرِ؟
أَذَمَّتْ لِقائي حُرْمَةٌ لكَ بِكتُها فلَمْ أَشْفِها، أمْ قلتَ ما قلتَ بالحَزْرِ؟
فكيفَ، وألحاظي حِدَادٌ كأنها نِصَالٌ، وألفاظي أَشَدُّ من الصَّخْرِ؟
وكيفَ، ولي في كلِّ عُضْوٍ ومَفْصِلٍ وجارِحَةٍ قَلبانِ شَهْمَانِ مِنْ جَمْرِ؟
ولو مَسَّ ثوبي ثَوْبَ أمِّكَ مَسَّةً لأَوْلَدَها خَمْسينَ مِثْلَكَ في شهرِ

١٦٢ فضلة وصغير

وقال في فُضَيْل الأعرج:

أنتَ فضلٌ، وفَضْلَةُ الشَّيءِ لَغْوٌ ثم أُرْدِفْتَ ذِلَّةَ التَّصْغيرِ
فَقَبولُ النُّفوسِ إيَّاكَ عِندي آيةٌ فيكَ لِلَّطيفِ الخبيرِ

١٦٣ مصنع الشعراء

وقال في وهب بن سليمان:

أَتَـتْ مـن بَـرِيـدِيِّـنـا ضَـرْطَـةٌ فـأَرسَـلَـهـا مـثـلاً سـائِـرا
أبَـا حـسـنٍ يـا لَـهـا ضَـرْطَـةً تَـركْـتَ الـسَّـمِـيـرَ بـهـا سـامِـرا
وزِدْتَ بـهـا شـاعـراً فِـطْـنـةً وأَنْـبَـغْـتَ مـن لـم يـكـنْ شـاعـرا

نبغ المرء: صار شاعراً فجأة

١٦٤ معيرة غير مستعيرة

وقال في شنطف:

تـخَـلَّـفَـتْ شُـنْـطُـفٌ فـقُـلـنـا: مـا فَـعَـلَـتْ أختُـنـا الـضَّـريـرَةْ
قـالـوا: هَـوَتْ مـن ذُرَا جِـدارٍ عـالٍ، فـقـالَ الـجـمـيـعُ: خِـيـرَةْ
يـا حَـبَّـذا أن تَـغـيـبَ عـنَّـا غـيَّـبَـهـا الـلَّـهُ فـي الـحَـفِـيـرَةْ

الحفيرة: القبر

فـي بَـظْـرِهـا ألـفُ ألـفِ رطـلٍ وإنَّـمـا وَزْنُـهـا شَـعِـيـرَةْ

في بظرها: أي وزنه، كأن تقول «فلان فيه مئة كيلو» وتعني وزنه كذا

ومـن قـبـيـحِ الـقـبـيـحِ عِـنـدي بَـظْـرٌ طـويـلٌ عـلـى قَـصـيـرَةْ
والـوجْـهُ بَـرٌّ بـغـيـرِ مـاءٍ والـضِّـيـزُ بَـحْـرٌ بِـلا جَـزِيـرَةْ
أضْـحَـتْ تُـعِـيـرُ الـقـرودَ قُـبـحـاً أَصْـنـافُـه عـنـدهـا كَـثـيـرَةْ
فـهـنَّ يَـشـكُـرْنَ فِـعْـلَ أخـتٍ مُـعِـيـرةٍ غـيـرِ مُـسْـتَـعِـيـرَةْ

١٦٥ يوم تقول يا ليتني كنت تراباً

وقال ابن الرومي في إبراهيم بن المدبر:

بِوَجهِ أبـي إسحقَ صَدْعٌ كَضيزِهِ لـه قـصَّـةٌ غـيرُ الـذي هُـوَ مُـظْـهِـرُ

صدع: شق

يـخـبِّـرُ عـنـه أنَّـه أُثْـرُ ضَـربـةٍ بِبَعضِ سيوفِ الزَّنْجِ حينَ يُخَبِّرُ

الأُثر: أَثَرُ الجرح بعد برئه

وما ضَرَبتْه الزَّنْجُ في الوجهِ، بل رأى أُبُـورَهُـمُ فـانْـشَـقَّ فـي وجـهِـهِ حِـرُ

حر: عضو المرأة

فـبـاكُـوهُ فـي وجـهٍ قـلـيـلٍ حـيـاؤُهُ وفـي دُبُـرٍ يَـلـقَـى الـرِّمَـاحَ فـيَـصـبِـرُ

ومـا فَـرَّ مـنـهُـمْ بـل نَـفَـوْهُ، وإنَّـه لَـيُـورِدُ رَأيـاً فـي الـرُّجـوعِ ويُـصْـدِرُ

سـأُهـدي إلـيـه كـلَّ يـومٍ قَـصـيـدةً يَـوَدُّ لـهـا أنْ لـم يَـلِـدْهُ الـمُـدَبِّـرُ

١٦٦ واقفاً على خمس وخمسين

كَبِرْتَ وفي خمسٍ وخمسينَ مَكْبَرُ وشِبْتَ فألحاظُ المَها منكَ نُفَّرُ

أَعِرْ طرفَكَ المِرآةَ وانظُرْ، فإنْ نَبَا بِعينيْكَ عَنْكَ الشَّيْبُ فالبِيضُ أَعْذَرُ

إذا شَنِئَتْ عينُ الفَتى وجهَ نفسِه فـعـيـنُ سـواهُ بـالـشَّـنَـاءَةِ أَجْـدَرُ

شنئت: كرهت

١٦٧ أرجوها وأحذرها

غصنٌ رطيبٌ أعالِي خَلْقِها، ونَقَاً تـحـتَ الـنِّـطاقِ، إذا تـهـتَـزُّ يَـبْـهَـرُها

نقا: كثيب، يبهرها: يثقل أنفاسها

يقولُ لِي الناسُ، إذْ مَالَ الوُشَاةُ بها عـنـي، وغـيَّـرَهـا بَـعْـدي مُـغَـيِّـرُهـا:

عليكَ بالهجرِ، علَّ الهجرَ يَرْجِعُها إلى الوصالِ، ولا أسْطِيعُ أَهْجُرُها

وكيف أهجُرُ مَنْ نَفسيِ مُعَلَّقةٌ بِذكرِه، وَهْوَ ناسٍ ليس يذكُرُها؟

ومن عجائبِ ما يُبْلَى المحِبُّ به أَنِّـي عـلـى ذاكَ أرجُـوهـا وأَحْـذَرُهـا

١٦٨ لا نشتريه بالجنة

وقال في جحظة:

تَـخـالُـهُ أبـداً مـن قـبـحِ مـنـظـرِه مُـجَـاذِبـاً وتَـراً، أو بـالـعـاً حَـجَـرا

كـأنـه ضِـفْـدَعٌ، فـي لُـجَّـةٍ، هَـرِمٌ إذا شَـدا نَـغَـمـاً أو كَـرَّرَ الـنَّـظَـرا

لـو كـانَ لـلَّـهِ فـي تـخـلـيـدِنـا قَـدَرٌ مَـعْ قُـرْبِـه، مـا أَرَدْنـا ذلـكَ الـقَـدَرا

١٦٩ وقتما يتيسر

وكتب إلى إبراهيم بن المدبر يقول: «خادمك المؤمل يومك وغدك، المستنسم ريح دولتك بإزاء ما بلغه من استبطائك نفسك له، واستحثاثك إياها على قضاء حقه، قول العاذر بل الشاكر»، ثم أنشد:

دَعِ الفِكْرَ في أمرِي، فَقَدْرِيَ لا يَفِي بِحَمْلِكَ يوماً فيَّ عِبْءَ المُفَكِّرِ

ولا تتكلَّفْ لي التَّكالِيفَ، إنَّني مَلِيءٌ بِعُذْرِ النَّائِلِ المُتَعَذِّرِ

مليء: جدير

ولكنْ إذا ما عَادَ في العُودِ ماؤُه فَأَوْرِقْ لِمُسْتَذْرِي ذَرَاكَ وأَثْمِرِ

مستذري ذراك: المحتمي بحماك

١٧٠ وظيفتكم لا تعجبني

وقال في مرضه الذي مات فيه قبل موته بخمسة أيام أو ستة في أبي عبد الله محمد بن داود بن الجراح:

أيادِي بني الجَرَّاحِ عندي كثيرةٌ وأكثرُ منها أنها لا تُكَدَّرُ

هُمُ القومُ! يَنْسَوْنَ الأيادِيَ مِنْهُمُ عليكَ، ولكنَّ المواعيدَ تُذْكَرُ

وإن كنتُ قد أُهمِلْتُ بعدَ رِعايَةٍ وأُغْفِلْتُ حتى قيلَ: أَشْعَثُ أَغْبَرُ

وقُلِّدْتُ شُغْلاً ضَرُّهُ لي مُعَجَّلٌ سريعٌ، وأما نَفْعُهُ فَمُؤَخَّرُ

شغل: وظيفة

أروحُ وأَغْدو فيه أَنْصَبَ عَامِلٍ وأَصْفَرَهُ كَفّاً، فَكَمْ أَتَصَبَّرُ

أَعِنِّي - أبا عبدِ الإلَهِ - ولا تَقُلْ: أَعَنْتُ، فَأَعيَانِي القَضَاءُ المُقَدَّرُ

أَيَعْطَشُ أمثالِي ووادِيكَ فائضٌ ويُجْدِبُ أمثالِي ووادِيكَ أخضَرُ؟

١٧١ اصبر لها

وقال في أحمد بن حريث:

مِنِّي الهجاءُ، ومنكَ الصَّبْرُ، فاصْطَبِرِ لِشَرِّ مُنْتَظَرٍ، يا شَرَّ مُنْتَظِرِ

أنتَ اللَّئيمُ، فإنْ تَصْبِرْ فَمِنْ قِحَةٍ على الهَوانِ، وإنْ تَجْزَعْ فَمِنْ خَوَرِ

١٧٢ الساعي للناس

وقال في جحظة:

سَـأَلْـتُـكَ حـاجـةً فَـسَـعَـيْـتَ فـيـهـا ... بِـتَـعْـذِيـرٍ نـتـيـجَـتُـه اعـتـذارُ

ولـيـس لِـصَـاحِـبِ الـحـاجَـاتِ إلَّا ... كـريـمٌ فـيـهِ جِـدٌّ وانْـشِـمَـارُ

انشمار: تعجيل

إذا مـا نَـامَ عـنـهـا سـائِـلُـوهـا ... تَـنَـبَّـهَ لا يَـقَـرُّ لـه قَـرَارُ

لـه عـنـدَ الـغُـدُوِّ لَـهـا، وفِـيـهـا، ... حِـذَارَ الـفَـوْتِ، قَـلْـبٌ مُـسْـتَـطَـارُ

١٧٣ الخباز

مـا أَنْـسَ لا أَنْـسَ خَـبَّـازاً مَـرَرْتُ بـه ... يَدْحُو الرُّقَاقَةَ وَشْكَ اللَّمْحِ بِالبَصَرِ

يدحو: يبسط

مـا بـيـنَ رؤيَـتِـهـا فـي كَـفِّـه كُـرَةً ... وبـيـنَ رؤيَـتِـهـا قَـوْرَاءَ كـالـقَـمَـرِ

إلا بِـمِـقْـدَارِ مـا تَـنْـدَاحُ دَائِـرَةٌ ... في صَفْحَةِ الماءِ يُرْمَى فيه بِالحَجَرِ

تنداح: تتمدد

١٧٤ خطأ طبي

وقال في إسماعيل الطبيب وقد سقاه دواء غلط فيه:

غَـلِـطَ الـطَّـبـيـبُ عـلـيَّ غَـلْـطَـةَ مُـورِدٍ ... عَـجَـزَتْ مَـوارِدُهُ عـنِ الإصْـدَارِ

والـنـاسُ يَـلْـحُـونَ الـطَّـبـيـبَ، وإنـمـا ... خَـطَـأُ الـطـبـيـبِ إصـابَـةُ الـمِـقْـدَارِ

يلحون: يلومون، المقدار: واحد المقادير، قضاء وقدر

١٧٥ حصرم

وقال في خالد القحطبي:

هِـيَ الـدارُ يُـؤْوِي لـيـلُـهـا كـلَّ فـاسِـقٍ ... وفـاسِـقَـةٍ مـقـبـوحَـةِ الـسِّـرِّ والـجَـهْـرِ

لـهـا رَبُّ سُـوءٍ مِـثْـلُـهـا، خُـلِـقَـتْ لـه ... وِفـاقـاً، وكـانَ الأمـرُ يُـقْـدَرُ لـلأمـرِ

إذا جُـمِـعَـتْ ضِـيـفَـانُـه ونِـسـاؤُه ... فَبَطْنٌ على بَطْنٍ، ونَحْرٌ على نَحْرِ

خَليطانِ فَوضَى من رجالٍ ونِسْوَةٍ ... يَبِيتونَ يُحْيُونَ الفُسُوقَ إلى الفجرِ

١٧٦ ما لا يليق

وقال يقتضي أبا العباس أحمد بن صالح بن علي الهاشمي كساء كان وعده به:

ولـيـس يَـلـيـقُ بـالـسَّـاداتِ مَـطْـلٌ ... يُـزَوِّرُ فـي عَـواقِـبِـه اعـتـذارُ

يزوِّر: يُرتِّب؛ المرء «يزور في نفسه كلاماً» أي يعد كلاماً ويرتبه ليقوله في موقف معين

١٧٧ إنذار أول

وقال في علي بن يحيى المنجم:

أَرَانـي دَهَـا شِـعـري لـديْـكَ اقْـتِـصـارُه ... عـلـيـكَ، وأنْ لـم تـبـتَـذِلْـه الـمـعـاشِـرُ
وأنْ لـم يُـنَـوِّهْ ربُّـه بـاسْـمِ نـفـسِـه ... فـأنـتَ لـه مـن أجـلِ ذلـكَ حـاقِـرُ
سَـيَـسْـأَلُـنـي الأقـوامُ عـمَّـا أثـبْـتَـنـي ... بـه، فـبِـمَـاذا أنـتَ إيَّـايَ آمِـرُ؟
أَأُخْـبِـرُهُـمْ بـالـحَـقِّ، وَهْـيَ شَـكِـيَّـةٌ، ... أمِ الإفْـكُ؟ فالإسلامُ عن ذاكَ زاجِرُ
أَتَـحْـرِمُـنـي الـجَـدوَى وأُطْـرِيكَ كـاذبـاً ... فـتَـحْـظَـى، وأَشـقَـى بـالـذي أنـا وَازِرُ؟
شَـهِـدْتُ إذن أَنِّـي لِـنَـفْـسِـيَ ظـالِـمٌ ... وأنَّـكَ إنْ كـلَّـفْـتَـنـي ذاكَ جَـائِـرُ
وهَـبْـنِـي كَـتَـمْـتُ الـحـقَّ، أو قـلـتُ غيرَه ... أَتَـخْـفَـى عـلـى أهـلِ الـعـقـولِ الـسَّـرَائِـرُ؟

السرائر: الضمائر

أَبىَ ذاكَ أنَّ الـسِّـرَّ في الوجهِ ناطقٌ ... وأنَّ ضميرَ القلبِ في العينِ ظَاهِرُ
وحَسْبُكَ مِن شَكوَايَ في كلِّ مَجْلِسٍ ... نئِيـمـي وأَنْـفَـاسِـي عـلـيـكَ الـزَّوَافِـرُ

نئيم: أنين

وصَمْتِي، ومَطِّي حَاجِبي، وإشَاحَتِي ... بوجْهِي إذا سَمَّى لِيَ اسمَكَ ذَاكِرُ
سُـئِـلْـتَ فَـلَـمْ تَـحْـرِمْ سِـوايَ، وإنـه ... لَـوِتْـرٌ، وإنِّـي لـو أشـاءُ لَـثَـائِـرُ

وتر: ثأر، ثائر: آخذ بالثأر

١٧٨ كتابة على جلدة الرأس

أمـا رأيْـتَ الـدَّهـرَ كـيـفَ يـجـري؟
يُـظْـهِـرُ مـا أَكْـتُـمُـه مـن عُـمْـري
بِـأَحْـرُفٍ يَـخُـطُّـهـا فـي شَـعْـري

١٧٩ إعطاء بلا حساب

وقال في إبراهيم بن المدبر:

رأَيْتُكَ تُعْطِي المالَ إعطاءَ واهِبٍ إذا المرءُ أَعْطَى المالَ إعطاءَ مُشْتَرِ
وفي النَّاسِ من يُعْطِي عَطاءَ مُتَاجِرٍ وآخَرُ يُعْطِي كالسَّحابِ المُسَخَّرِ

١٨٠ له يوم

أَمَلِي فيهِ لِيَأْسِي قَاهِرُ فَلِذَا قلبِي عليهِ صَابِرُ
وَهُوَ المحْسِنُ والمُجْمِلُ بِي وأنا الرَّاجِي له والشَّاكِرُ
طَرْفُه يُخْبِرُنِي عن قلبِه أَنَّنِي يوماً عليهِ قَادِرُ

١٨١ صابر عليك

وقال في القاسم بن عبيد الله:

أَقاسمُ: دَعْ قَدْرِي وما يستحقُّه، وقدرُكَ فارفعْهُ، فما مِثلُه قَدْرُ
أَأَغْدُو وأَمرِي لا يَسُوءُ مُنافِسِي وأمرُك أمرٌ لا يعارِضُه أمرُ؟
وقد أَمَّلَتْكَ النفسُ بعدَ تَحَوُّمٍ؛ لَأَبْرَدُ من هذا على قلبيَ الجمرُ
عرضْتُ على نفسِي الغِنَى منكَ تارةً ومِنِّيَ أخرى، والغِنى مِنِّيَ الصبرُ
فمَالتْ إلى نَيْلِ الغِنى منكَ، إنه غِنَىً خالصٌ، والصَّبْرُ قِدْماً غنىً فَقْرُ
وأُقسِمُ إنْ لمْ تُغْنِنِي أَهْنَأَ الغِنَى لأَمتَطِيَنَّ الصبرَ إذْ حَرَنَ الدهرُ
ألا فامتَعِضْ من قَوْلَتِي لكَ عندَها: رَوِيتُ بِرِيقِي حينَ أَظْمَأَنِي البحرُ

١٨٢ يا من كنت أنتظره

وقال يرثي خاله علان:

أَعِلَّانُ: مَنْ يُصْغِي لِسَمْعِ شَكِيَّتِي وأُصْغِي إلى مَردُودِهِ وحِوَارِهِ؟
ومن ذا يُحَامِي عن ذِمارِيَ غائباً أشدَّ مُحَامَاةِ امْرِئٍ عن ذِمَارِهِ؟

حماية الذمار: حماية النفس والشرف

ومن ذا تَظَلُّ النفسُ عندَ مغيبِه مُعَلَّقَةً آمالُها بانتظارِهِ؟
سَقَى الغيثُ مَيْتاً خُطَّ بالدَّيْرِ قبرُه فَوارَاهُ، إلَّا سُؤْدَداً لم يُوَارِهِ

١٨٣ خصيمك الله

وقال يرثي يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

يا قاتلَ ابنِ عليٍّ وابنِ فاطمةٍ: تَبّاً لِسَعيِكَ في الإيرَادِ والصَّدَرِ
بِأَيِّ وجهٍ تُلاقي اللَّهَ معتَذراً جَلَّتْ خطيئتُكَ العظمَى عن العُذُرِ
خَصِيمُكَ اللَّهُ، فانظُرْ كيفَ تَخْصِمُهُ بل أنتَ أَدْحَضُ خَصْمٍ، فُوكَ لِلْحَجَرِ
لو شاركَتْكَ بنو حَوَّاءَ في دمِهِ لَكُبْكِبُوا يا ابنَ بنتِ النارِ في سَقَرِ

كُبكبوا: أُسقطوا على وجوههم

١٨٤ سمعاً للشيب وطاعة

ألا أيُّهذَا الشيبُ سمْعَاً وطاعةً فأنتَ المُنَاوِي، ما علمتُ، المظَفَّرُ

المناوئ: الخصم

أبَى الخِطْرُ والحِنَّاءُ حَرْبَكَ، إنَّه بَدا لهُمَا، لا شَكَّ، أنْ سوفَ تظهَرُ

الخطر: نبات يُختَضَب به، تظهر: تنتصر

إذا كنتَ تَمْحُو صِبْغَةَ اللَّهِ قادراً فأنتَ على ما يَصْبِغُ الناسُ أَقْدَرُ

١٨٥ قصار الأيام

خُذْ نصيباً من عَيْشِكَ المُسْتَعارِ قبلَ ليلٍ مُصَرَّفٍ ونهارِ
فكأنْ قد سَفَتْ عليكَ السَّوَافي في بطونِ المُلَمَّعَاتِ القِفَارِ

سفت السوافي: رمت رملها الرياح، الملمعات: الصحارى اللامعة بالسراب

يا قِصَارَ الأيامِ! مُتِّعْتُ لو كنـ ـتِ قِصاراً مَوْصُولَةً بِقِصَارِ

١٨٦ ضد الأناة

عَيْبُ الأَناةِ، وإن كانتْ مُبارَكَةً، أنْ لا خُلُودَ، وأنْ ليسَ الفتَى حَجَرا

التسويد: أ. عبد الرحيم

١٨٧ رنات المثاني

لابن الرومي في عبيد الله بن سليمان بن وهب، ونسبت الأبيات لغيره:

إذا أبـو قـاسِـمٍ جـادَتْ لـنـا يَـدُهُ   لم يُحْمَدِ الأَجْوَدَانِ: البحرُ والمطرُ
ولـو أضـاءَتْ لـنـا أنـوارُ غُـرَّتِـهِ   تَضاءَلَ النَيِّرانِ: الشمسُ والقمرُ
وإنْ مَـضَـى رأيُـه أو حَـدُّ عَـزْمَـتِـهِ   تَأَخَّرَ الماضِيانِ: السيفُ والقدرُ
منْ لم يَبِتْ حَذِراً من خوفِ سَطْوَتِهِ   لم يَدْرِ ما المُزْعِجانِ: الخوفُ والحذرُ
كـأَنَّـه وزِمـامُ الـدَّهْـرِ فـي يـدِهِ   يَـرَى عَـوَاقِـبَ مـا يَـأتـي ومـا يَـذَرُ

كأنه يمسك بيده زمام الزمن، فلذا يعرف نتائج الأمور قبل حدوثها لحكمته وحصافته

١٨٨ كانون في تموز

وقال في مغنية:

زَمْـهَـرِيـرٌ غِـنـاؤُهـا يَـدَعُ الـمَـحْـ   ـرورَ فـي مِـثْـلِ حـالـةِ الـمَـكْـزُوزِ

المكزوز: المصاب بالكزاز وهو التشنج من البرد. الديوان يريدها «مكروز»، أو «مكنوز»، ولكن «مكروز» هذه لم ألقها في اللسان، ولا في تاج العروس، و«المكنوز» بعيدة

كـمْ مَـشُـوقٍ إلـى الـشـتـاءِ دَعَـاهَـا   فَـأَرَتْـهُ كَـانُـونَ فـي تَـمُّـوزِ

١٨٩ اغتنم الفرصة

مـاطَـلْـتَ بِـالـلَّـهْـوِ والأَيَّـامُ تَـنْـتَـجِـزُ   فَنَلْ مِنَ اللَّهْوِ حَظّاً قبلَ تُحْتَجَزُ
لا تَـتْـرُكَـنْ بـيـنَ طَـوْرَيْ لَـذَّةٍ خَـلَـلاً   إنَّ الـشـبـابَ وأيَّـامَ الـصِّـبـا نُـهَـزُ

١٩٠ مساوئ الإيجاز

وحديثُها السحرُ الحلالُ لو انَّها   لم تَجْنِ قتلَ المسلمِ المُتَحَرِّزِ

المتحرز: المتقي الوقوع في الإثم

إن طالَ لمْ يُمْلِلْ، وإنْ هِيَ أَوْجَزَتْ   وَدَّ الـمُـحَـدَّثُ أنَّـهـا لـم تُـوجِـزِ

١٩١ كلنا لها

أَبَـتْ نَـفـسـي الـهُـلَاعَ لِـرُزْءِ شـيءٍ   كَفَى شَجْواً لِنفسي رُزْءُ نَفسي

أَتَهْلَعُ وَحْشَةً لِفِراقِ إِلْفٍ وقد وَطَّنْتُها لِحُلولِ رَمْسِ؟

١٩٢ قمر يقبل شمساً

ومُهَفْهَفٍ تَمَّتْ مَحاسِنُهُ حتى تَجاوَزَ مُنْيَةَ النَّفْسِ

مهفهف: الضامر البطن

أَبْصَرْتُهُ والكأسُ بينَ فمٍ منهُ وبينَ أَنامِلٍ خَمْسِ

فَكأَنَّها وكَأَنَّ شارِبَها قمرٌ يُقَبِّلُ عارِضَ الشمسِ

عارض: خد

١٩٣ فراسة المستجدي

وقال في أبي المهند بن عيسى بن شيخ:

لا تَقْصِدَنَّ لِحَاجَةٍ إِلَّا امْرَأً فَرِحَاً بِنفسِهْ

أَنَّى يُسَرُّ بِمَدْحِهِ من لا يُسَرُّ بِضَوْءِ شمسِهْ؟

أم كيف يَهْتَزُّ امرُؤٌ غَرِضٌ بِمُهْجَتِهِ وعِرْسِهْ

غرض: سائم من السأم

نَكِّبْ، هُدِيتَ، مِنَ الرِّجا لِ يُوَقَّ جِدُّكَ جُلَّ تَعْسِهْ:

نكب: تجنب

مِمْراضَهُمْ وذَمِيمَهُمْ وقَرِيبَهُمْ مِنْ وِرْدِ رَمْسِهْ

قريبهم من ورد رمسه: القريب من القدوم على قبره

سَخِطَ الإلَهُ على أولـ ـئِكَ، إنَّهُمْ من شَرِّ غَرْسِهْ

لَلْنَّجْمُ أقرَبُ منهُمُ مِنْ كَفِّ مُلْتَمِسٍ ولَمْسِهْ

١٩٤ لا أرى لك تجلسُ

وقال يهجو دبسا:

إن كانَ أنفُكَ هكذا فالفيلُ عندكَ أَفْطَسُ

وإذا جلستَ على الطَّريـ ـقِ، ولا أرى لكَ تجلسُ

هذه الـ «ولا أرى لك تجلس» من أمتع ما يكون. يعني يقول لك: ورأيي أن لا تجلس. وهي جملة ألصقها الشاعر لكي يصل إلى القافية فكانت تحفة من التحف

قيلَ: السلامُ عليكُما فتُجيبُ أنتَ، ويَخْرَسُ

١٩٥ اصبغ كل ثلاث

وقال في الخضاب:

رأيْتُ خِضابَ المرءِ عِندَ مشيبِه حِداداً على شَرْخِ الشبيبةِ يُلْبَسُ

شرخ الشبيبة: أولها

وإلّا فمَا يُغْرِي امْرَءاً بِخِضَابِهِ أَيَطْمَعُ أنْ يَخْفَى شَبابٌ مُدَلَّسُ؟

مدلس: مزور

وكيف بِأَنْ يَخْفَى المشيبُ لِخَاضِبٍ وكلَّ ثَلاثٍ صبحُهُ يَتَنَفَّسُ

كل ثلاثة أيام ينمو الشعر بما يسمح بظهور البياض في أصوله

وهَبْهُ يُوَارِي شَيبَه، أينَ مَاؤُهُ وأينَ أديمٌ للشبيبةِ أَمْلَسُ؟

التسويد: أ. عبد الرحيم. قد فررت من تسويد البيت لأن قليل شَعري أبيض، وسوده صديقي ومصححي أحمد لأن غزير شَعره أسود

١٩٦ رثاء قصيدة

وقال يهجو صاعدا وابنه العلاء «أبا عيسى»، ويرثي داليته فيهما:

قلتُ داليَّةً أعانَتْنِيَ الجِنُّ ـ عليها، لا شكَّ، دونَ الأنيسِ

مَادحاً صَاعِداً بها، وعَلاءً مُطْنِباً في الخَسيسِ وابنِ الخَسيسِ

يا لَهَا حُلَّةً نَسِيجَةَ وَحْدٍ لم يكنْ حظُّهَا سِوى التَّدْنيسِ

يا لَهَا حِلْيَةً أُجِيدَتْ لِشَمْطَا ءَ، وأخرى مُبِينَةِ التَّقْويسِ

صَاعِدٍ وابنِه، ومَا لِلْخَسِيسَيْـ ـنِ ولِلْمَدْحِ بِالكلامِ النَّفِيسِ؟

لاحَظَاها بِغَيْرِ عَيْنَيْ سُلَيْما نَ فلم يَصْبُوَا إلى بِلْقِيسِ

رأيا القصيدة بعيون لا تفهم الشعر فلم يصبوا إليها (يُفتنا بها)

وكذا الخَنْدَرِيسُ: تُضْحِي وتمسي آفَةَ العقلِ غيرِ ذي التَّأْسِيسِ

الخندريس: الخمر

ذاتُ طَعْمٍ ومنظرٍ ونَسِيمٍ وحُمَيَّا وهِزَّةٍ ورَسِيسِ

الخمر لها طعم ومنظر ورائحة، وحميا (طُغيان)، وهزة (تهز المرء وتحركه للكرم) ورسيس (أثر باق)

حُكْمُها في العقولِ تَذْكِيَةُ الأَقْـ ـوى، ورَمْيُ الضعيفِ بالتَّهْوِيسِ

التذكية: التقوية، فشارب الخمر إذا كان عاقلاً أصبح أعقل وأهدأ وإذا كان سفيهاً ازداد سفاهة على السكر

لـم يـكُـنْ آفَـةُ الـقـصـيـدةِ إلَّا ذاكَ، فـاتـرُكْ مَـقَـالَ ذي التَّـلْبيسِ

التلبيس: التخليط

ظَـلَـمَ الـشـعـرُ صـاعـداً، وكـذاكُـمْ ظَـلَـمَـتْـهُ الـمـلـوكُ بـالـتَّـفْـرِيـسِ

فراسة الملوك أخطات في الرجل، فهو غير جدير بالمناصب

ومـن الـنُّـكْـرِ حَـوْكِـيَ الـمَـدْحَ فـيـهِ وَهْـوَ أَوْلَـى بِـالـوَطءِ والـتَّـضْـريـسِ

التضريس: العض بالإضراس

لـم يـكـنْ صَـاعِـدٌ مَـكَـانـاً لِـمَـدْحٍ لا، ولا مَـوضِـعـاً لِـقَـوْدِ خَـمِـيـسِ

خميس: جيش

١٩٧ الأكف اللوامس

وقال يهنيء عبيد الله بن عبد الله بولاية وليها:

ألم تسألِ اليومَ الظِّبَاءُ الكَوَانِسُ: متى ظَعَنَتْ أشبَاهُهُنَّ الأَوَانِسُ؟

الكوانس: القابعة في الكِناس وهو بيت الظبي، ظعنت: رحلت، الأوانس: الآنسات

لَرُبَّتَ يومٍ قد جَلاهُنَّ لِي ضُحَىً ولِلأرضِ من وَشْيِ الرَّبيعِ مَلابِسُ

خَـرَجْـنَ يُـبَـارِيـنَ الـربـيـعَ وروضَـهُ بِمَا هُنَّ من تلكَ البُرُودِ لَوابِسُ

بُـدورٌ وكُـثْـبَـانٌ تُـوَاصِـلُ بـيـنَـهـا غـصـونٌ رَوِيَّـاتُ الـمُـتـونِ مَـوَائِـسُ

البدور: وجوههن، والكثبان: أردافهن، ويصل بين هذه وتلك قدود كالغصون والمتون رويات موائس (الظهور ممتلئات ومتمايلات)

غُـصـونٌ غَـذَاهُـنَّ الـنـعـيـمُ بِـمَـائِـهِ ولم يَسْقِهِنَّ الماءَ في الأرضِ غارِسُ

حَـمَـلْـنَ ثُـدِيَّـاً لـم يَـجُـدْنَ بِـدَرَّةٍ ولـم تَـبْـتَـذِلْـهُـنَّ الأَكُـفُّ الـلَّـوَامِـسُ

هذه الغصون تحمل من الثمار أثداء لم تعط درة (حليباً) ولم تعبث بها الأيدي

١٩٨ جرذان في حلقه

ولـقـدْ تَـرَبَّـعَ، لا تَـرَبَّـعَ بـعـدَهـا، وغَـدا يَـتِـيـهُ بِـعُـودِهِ مُـتَـقـاعِـسَـا

متقاعساً: دافعاً صدره للأمام

وكـأنَّ جُـرْذَانَ الـمَـحَـلَّـةِ كـلَّـهـا في حَلْقِهِ يَقْرِضْنَ خُبْزاً يابَسَا

كأن كل جرذان الحارة قاعدة في حلقه تقرض الخبز اليابس، كذا صوته

١٩٩ صداقة مؤقتة

مـودَّةُ إِخْـوَانِ الـنـبـيـذِ سُـلافَـةٌ يَبُولونَها عندَ انقضاءِ المجالِسِ
فـبَـيْـنَـا نَـراهُـمْ أهـلَ إِلْـفٍ وأُثْـرَةٍ وبَيْنَا نَرَاهُمْ بَيْنَهُمْ حربُ دَاحِسِ

الأثرة: المكرمة

فـأَمَّـا إذا نَـاديْـتَـهُـمْ لِـمُـلِـمَّـةٍ فَنَادِ التَّصاويرَ التي في الكنائِسِ

ملمة: حادثة

٢٠٠ المطربة الصاعدة

وقال يهجو كنيزة:

رِيحُـهـا، وَهْـيَ حَـيَّـةٌ، رِيحُ مَـيْـتٍ بَـاتَ في الـقـبـرِ، ثـم أَبْـدَاهُ نَـبْـشُ
عُــوِّضَــتْ مــن ذَوَائِـبٍ وقُــرونٍ حَمْلَ أنفٍ فيهِ لِفَرْخَيْنِ عُشُّ

بدل أن يكون لها خصلات شعر لها أنف كبير

وتُـغَـنِّـي فَـتُـورِثُ الـسَّـمْـعَ وَقْـراً فَـعَـلَـيْـهـا لِـمَـنْ تَـغَـنَّـتْـهُ أَرْشُ

الوقر: ثقل السمع، أرش: دية العضو

تَـدَّعِـي غُـنَّـةَ الـشـبـابِ، ويَـأْبَـى ذاكَ صَـوْتٌ لَـهـا جَـرِيـشٌ أَجَـشُّ
فـإذا رَقَّـقَـتْـهُ بـالـجَـهْـدِ مـنـهـا خِلْتَ في حلقِها شَعيراً يُجَشُّ
تَـتَـنـاغَـى وَعُـودَهـا بِـنَـهِـيـقٍ كـنـهـيـقِ الـحـمـارِ نَـاغـاهُ جَـحْـشُ

٢٠١ مقارنة

وقال في خالد القحطبي:

يـا مُـسْـتَـقَـرَّ الـعـارِ والـنَّـقْـصِ أَغْـنَـتْ مَـخَـازِيكَ عـن الـفَـحْـصِ
أنـتَ الـذي لـيـسـتْ لِـسَـوْآتِـهِ ولا لِـنُـعْـمَـى الـلَّـهِ مـن مُـحْـصِ

المحصي: الذي يعد ويحصي

مَـعـايِـبُ الـنـاسِ وسَـوْآتُـهُـمْ قد جُمِعَتْ لي منكَ في شَخْصِ

٢٠٢ إغضاء، لكن لأمر الله

وقال يعزي:

تَعَزَّ عنِ الماضي وإنْ هَصَرَتْ بِه   يدُ الدهرِ غُصْنَاً من غُصُونِكُمُ غَضَّا

الماضي: الذاهب الذي مضى ومات، هصرت الغصن: كسرته، غض: طري

وكنْ ماجداً لم يُغْضِ عندَ هَضِيمَةٍ   فلمَّا أَحَبَّ اللَّهُ إغضَاءَهُ أَغْضَى

يغضي: ينصاع، هضيمة: ظلم/تسويد: أ. عبد الرحيم

وعُدَّ الذي أَضْحَى الزمانُ استَرَدَّهُ   لدَى اللَّهِ كَنْزَاً لا يُضَيَّعُ أو قَرْضَا

٢٠٣ حبذا الحقد

وما الحقدُ إلَّا تَوْأَمَ الشكرِ في الفَتى   وبعضُ السَّجَايا ينتَسِبْنَ إلى بَعْضِ

فحيثُ تَرَى حِقْداً على ذي إساءَةٍ   فَثَمَّ ترى شُكراً على حَسَنِ القَرْضِ

ثَمَّ: هناك

إذا الأرضُ أَدَّتْ رَيْعَ ما أنتَ زَارِعٌ   مِنَ البَذْرِ فيها فَهْيَ نَاهِيكَ من أَرْضِ

٢٠٤ مقراض الأعراض

وقال في سوار بن أبي شراعة:

وما تَكَلَّمْتَ إلَّا قُلْتَ فاحِشَةً   كأنَّ فَكَّيْكَ لِلأعراضِ مِقْرَاضُ

المقراض: المقص. سيأتي ابن عُنيْن بعد ثلاثمئة سنة ليسمي قصيدته الهجائية الكبرى «مقراض الأعراض»

٢٠٥ العرض والجوهر

وقال في صاعد:

دَعْ صاعِداً يقتَنِي الدنيا وزِبْرِجَها   في العِلْمِ باللَّهِ مِمَّا نَالَهُ عِوَضُ

زبرجها: زينتها

ما بَالُ مَنْ جَوْهَرُ الأشياءِ قُنْيَتُهُ   يَأْسَى ويَحْسُدُ قوماً حَظُّهُمْ عَرَضُ

قنيته: ممتلكاته، يقول: مالي وأنا أملك الجوهر وهو المعرفة بالله، أحسد من كان حظهم امتلاك العرض (الشيء المادي الزائل)

أَلَيْسَ جُرْماً تَنَاسِي المَرْءِ خَالِقَهُ   إذا أُلِيحَتْ له الأَذْهَابُ والفِضَضُ؟

أليحت الأذهاب والفضض: أخذت تلوح وتبدو لعينيه نقود الذهب والفضة

لو آمنتْ أَنْفُسٌ باللَّهِ ما شُغِلَتْ   عنهُ بِمَا ليس في فِقْدَانِه مَضَضُ

٢٠٦ الهارب من نفسه

وقال يهجو ابن فراس:

فتىً ما زالَ يَنْهَضُ لِلمخَازِي   وليس له إلى العلياءِ نَهْضُ

ولؤمُ الناسِ طولٌ دونَ عَرْضٍ   ولكنْ لُؤْمُه طولٌ وعَرْضُ

تَعَادَى كلُّ شيءٍ منه لُؤْمَاً   فَبَعْضٌ منه يَهْرُبُ منه بَعْضُ

٢٠٧ ما الذي جاء بك؟

وقال يهجو ابن خنساء صاحب الطائي:

نُبِّئْتُ أنَّ ابنَ خَنْسَا   ءَ قد تَنَاوَلَ عِرْضِي

وقالَ قومٌ: عَهِدْنَا   كَ لا تُرَامُ فتُغْضِي

ترام: تُقصَد، أي تقصد بشر، تغضي: تتجاهل الأمر

خُذْهَا فَقَصْرُكَ منها   شَتْمٌ سيبقَى وتَمضِي

خذ هذه القصيدة وقصرك (حظك) منها شتم سيظل باقياً بعد موتك

وقد هَجَمْتَ لَعَمْرِي   فانظرْ إلى أين تُفْضِي

٢٠٨ إما مالك وإما عرضك

يا من يَتِيهُ بِمَوْعِدٍ لم يَقْضِهِ   ذُقْ غِبَّ صَوْلَةِ شاعرٍ لم تُرْضِهِ

يا من يفتخر بموعد (وعد) لم ينجزه، ذق غب (عاقبة) صولة (هجمة) شاعر لم ترضه

قَصَدَتْ سِهَامُ الشِّعْرِ غُرَّةَ مالِه   فَأَصَبْنَ دونَ المالِ غُرَّةَ عِرْضِهِ

قصد سهم شعري أن يصيب ماله (أن أنال عطاءه)، فبخل فأصبت عرضه بالشتم

ما مرَّ مِنْ يومٍ عليهِ وليلةٍ   إلَّا وبعضُ غلامِهِ في بَعْضِهِ

٢٠٩ كرش المطربة

قَيْنَةٌ مَلعونَةٌ من أجلِها رفضَ اللهوَ معاً مَنْ رَفَضَهْ
تَضغطُ الصوتَ الذي تشدُو به غُصَّةٌ في حلقِها مُعْتَرِضَهْ
فإذا غَنَّتْ بَدَا في جِيدِها كلُّ عِرْقٍ مثلَ بيتِ الأَرَضَهْ

الأرضة: سوسة الخشب

يَتَجَافَى عودُها عن سَخْلَةٍ أبَداً في بطنِها مُرْتَكِضَهْ

عودها يبتعد عن جسمها لأن بطنها كبير فكأن فيه سخلة (شاة) مرتكضة (متحركة كحركة الجنين في بطن أمه)

٢١٠ بإذن الله

إذا أَذِنَ اللَّهُ في حَاجَةٍ أَتَاكَ النَّجَاحُ بِهَا يَرْكُضُ

٢١١ قوس قزح

وساقٍ صَبِيحٍ للصَّبُوحِ دعوْتُه فقامَ، وفي أجفانِه سِنَةُ الغَمْضِ
يطوفُ بكاساتٍ علينا كأنْجُمٍ فمِنْ بينِ مُنْقَضٍّ ومِنْ غيرِ مُنْقَضِّ
وقد نَشَرَتْ أيدي الجَنوبِ مَطَارِفاً على الجوِّ دُكْناً وَهْيَ خُضْرٌ على الأرْضِ

ريح الجنوب كأنها نشرت مطارف (أثواباً) تكون داكنة في الجو (سحاباً قاتماً) وتصبح خضراء إذ تمس الأرض (عشباً)

يُطَرِّزُها قَوْسُ السَّحابِ بِحُمْرَةٍ على أخضرٍ في أصفرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ

والتطريز على هذه الأثواب قوس قزح

كأَذْيَالِ خَوْدٍ أقبَلَتْ في غَلائِلٍ مُصَبَّغَةٍ، والبعضُ أقصرُ مِنْ بَعْضِ

قوس قزح مثل ذيل ثياب الخود (الفتاة) التي أقبلت في غلائل (أردية) مصبوغة بألوان شتى، وهي متفاوتة في طولها

٢١٢ مسمار المقص

وقال يصف ساعية بين الرجال والنساء:

تسعَى لِكَيْ تجمعَ وَسْطَيْهِمَا كأنَّها مِسْمَارُ مِقْرَاضِ

هذه المرأة تسعى لجمع وسطي الشاب والفتاة، فكأنها مسمار المقص

٢١٣ لا يصلحون لمدح ولا لذم

أَيِسْتُ مِنْ دهري ومن أَهلِه فليس فيهِمْ أحدٌ يُرْضَى
إن رُمْتُ مدحاً لم أَجِدْ أهلَه أو رُمْتُ هَجْوَاً لم أَجِدْ عِرْضَا

٢١٤ المطربة العتيقة

وقال في شنطف:

أقسمتُ أنْ لو كانَ لي أنفُها قَطَطْتُ من خُرْطُومِهِ قَطَّةْ
كأنَّما خِلْقَتُها نِقْمَةٌ مُنْزَلَةٌ تَقْدُمُها سَخْطَةْ
قَمِيئَةُ الخَلْقِ على أنَّها أَعْتَقُ في الدُّنيا من الحِنْطَةْ

قميئة: قصيرة

٢١٥ بدا الشيب

بَدَا الشيبُ إلَّا ما تُدَاوي المَواشِطُ وفي وَضَحِ الإصْباحِ لِلَّيْلِ كَاشِطُ
وحَظُّ أخي الشيبِ المُسَوِّدِ شَيْبَهُ مَقَالَةُ أهلِ الرُّشْدِ: غَاوٍ مُغَالِطُ
يُخَادِعُ بالإفْكِ النِّسَاءَ عَنِ الصِّبا وهل بينَ لونِ الإفكِ والحقِّ غَالِطُ؟
فلا كُلَفُ التَّسْوِيدِ تُحْذِيهِ حُظْوَةً ولا مُؤَنُ التَّزْويرِ عنه سَوَاقِطُ

تحذيه: تمنحه، مؤن: تكاليف

٢١٦ هارموني الرذيلة

وقال يهجو خالداً القحطبي:

نِمْتَ عَنْ عِرْسِكَ الحَصَانِ إلى الصُّبْـ ـحِ، وبَاتَتْ بِرَاكِبِ الليلِ تَمْطُو

عرسك: زوجتك، الحصان: العفيفة، تمطو: تسير

تُسْمِعَانِ الأَصَمَّ صَوْتَيْنِ شَتَّى: هِيَ في نَخْرَةٍ، وأَنْتَ تَغُطُّ

٢١٧ لغيرك تمتشط

وقال في إبراهيم البيهقي:

تُرَاعِي سِقاطَ المُنْشدِينَ، ولا تَرَى سِقاطَ التي أَضْحَتْ لِغَيْرِكَ تَمْتَشِطْ

تلاحق أغلاط الشعراء، ولا تلاحق غلط زوجتك التي تتزين لعشاقها

٢١٨ فضل قيراط

وقال في أبي حفص الوراق:

بُؤْساً لِقَومٍ تَحَدَّوْني بِجَهْلِهِمُ ... والجهلُ يُورِطُ قوماً شرَّ إِيرَاطِ
هَبْهُمْ أَدَلُّوا على حِلْمي؛ أما عَلِمُوا ... أنَّ القَوافيَ لا تَرْضَى بإِسْخَاطي؟

أدلوا على حلمي: تعشموا أن أغفر لهم

قالوا: أَتَشْتُمُ مجنوناً؟ فقلتُ لَهُمْ: ... لا بُدَّ لِلْمَسِّ من كَيٍّ وإِسْعَاطِ

المس: الجنون، الإسعاط: إدخال بعض الأدوية من الأنف

عندي دواءُ أبي حَفْصٍ ورُقْيَتُهُ ... إن كان ذلكَ أعْيَا طِبَّ بُقْرَاطِ
قد كان أجْدَى عليهِ من مُشَاتَمَتي ... شُغْلٌ يَرُدُّ عليهِ فَضْلَ قِيراطِ

٢١٩ هيهات

هَبَّتْ لِوَهْبٍ ريحُ سُوءٍ عاصِفٌ ... بارَى بِهَا شَهْرَ الرياحِ شُبَاطَا

وكان وهب بن سليمان أخرج ريحاً في حضرة وزير وعيب بذلك

لو أنها هبَّتْ خِلالَ مُعَسْكَرٍ ... لم يُبْقِ فيه حفيفُها فُسْطاطَا

فسطاط: خيمة

دَعْ خِدْمَةَ الخُلَفَاءِ، لا تَعْرِضْ لها ... وتَعَاطَ - وَيْحَكَ - غيرَ مَا تَتَعاطَى
يَحْتَاطُ لِلْخلفاءِ في سلطانِهِمْ ... من كان في أمرِ اسْتِه مُحْتَاطَا
يا آلَ وَهْبٍ حَدِّثُوني عنكُمُ ... لِمَ لا تَرَوْنَ العدلَ والإِقْسَاطَا؟

الإقساط: العدل

ما بالُ ضَرْطَتِكُمْ يُحَلُّ رِبَاطُها ... عَفْواً، ودِرْهَمُكُمْ يُشَدُّ رِبَاطَا؟
صُرُّوا ضُراطَكُمُ المُبَذَّرَ صَرَّكُمْ ... عندَ السؤالِ الفَلْسَ والقِيراطَا
أو فَاسمَحوا بِضُراطِكُمْ ونَوالِكُمْ ... هيهاتَ! لَسْتُمْ للنَّوَالِ نِشَاطَا

٢٢٠ خوش تشبيه

وقال يهجو الورد:

يا مَادحَ الوردِ لا يَنْفَكُّ عن غَلَطِهْ ... أَلَسْتَ تُبْصِرُهُ في كَفِّ مُلْتَقِطِهْ

كـأنَّـه سُـرْمُ بَـغْـلٍ حيـنَ يُـخْـرِجُـهُ عندَ الرِّيَاثِ وبَاقِي الرَّوْثِ في وَسَطِهْ

السرم: فتحة الدبر، الرياث: إخراج الروث

٢٢١ شاعراً ناثراً في خدمتكم

وقال في أبي محمد الحسن بن عبيد الله بن سليمان يهنئه بشهر رمضان:

بَقِيتُـمْ بَنـي وَهْـبٍ فـإنَّ بـقـاءَكُـمْ صَـلاحٌ، وإنْ سـاءَ العـدُوَّ المُغَـايِظَـا

يدعو لهم بالبقاء

عَـجِبْتُ لِقومٍ يَنْفِسُونَ حُظُوظَكُمْ وأنـتـمْ أُنَـاسٌ تـحـمِـلـونَ البَـواهِـظَـا

ينفسون: يحسدون، البواهظ: الأحمال الثقيلة

ألـم تَـجِـدُونـيِ آلَ وهـبٍ لِـمَـدْحِـكُـمْ بِنَظْمِـي ونَثْرِيَ أَخْطَلاً ثُمَّ جَاحِظَا؟

٢٢٢ داوني بالتي كانت هي الداء

وقال في إدمانه لبس العمامة:

تـعـمَّـمْـتُ إحْـصَـانـاً لِـرأْسِـيَ بُـرْهَـةً مِـنَ الـقُـرِّ طَـوْراً والـحَـرُورِ إذا سَـفَـعْ

إحصاناً: حمايةً، القر: البرد، الحرور: الحر، سَفَعَ: لفح وصَلَى

فـلَـمَّـا دَهَـى طـولُ الـتَّـعَـمُّـمِ لِـمَّـتـي فـأَزْرَى بِـهـا بـعـدَ الـجَـثَـالَـةِ والـفَـرَعْ

لمتي: شَعري، أزرى بها: بَهدَلها، الجثالة: قوة الشَّعر، الفَرَع: غزارة الشَّعْر

عَزَمْتُ على لُبْسِ العِمَامَةِ حِيلَةً لِتَسْتُرَ مَا جَرَّتْ عَلَيَّ من الصَّلَعْ

فـيـا لَـكَ مِـنْ جَـانٍ عـلـيَّ جِـنَـايَـةً جَـعَـلْـتُ إلـيـهِ مِـنْ جـنـايَـتِـهِ الـفَـزَعْ

الفزع: الالتجاء

وأَعجِبْ بِشَيْءٍ كان دَائي، جعلتُه دوائي على عَمْدٍ، وأَعْجِبْ بِأَنْ نَفَعْ

٢٢٣ يهجو نفسه

من كـان يـبـكـي الـشـبـابَ مـن جَـزَعٍ فـلـسـتُ أبـكـي عـلـيـه مـن جَـزَعِ

لأنَّ وجـهـي بِـقُـبْـحِ صـورتِـه مـا زالَ لـي، كـالـمَـشـيـبِ والـصَّـلَـعِ،

أَشَـبَّ مـا كـنـتُ قـطُّ أهْـرَمَ مَـا كـنـتُ، فـسـبـحـانَ خـالـقِ الـبِـدَعِ

ظل وجهي على قبح صورته، ومثله مشيبي وصلعي، ظل قبيحاً في زمان الهرم كعهده في الشباب

إذا أخذتُ المرآةَ أسْلَفَني وَجْهي، ومَا مُتُّ، هَوْلَ مُطَّلَعي
إذا نظرت في المرآة أراني وجهي سلفاً ـ ولـمَّا أَمُتْ ـ هول المطَّلَع (ما يخبره الميت مع حلول الموت)

شُغِفْتُ بالخُرَّدِ الحسانِ، ومَا يَصْلُحُ وَجهِي إلَّا لِذي وَرَعِ
الخرد: العذارى

كيْ يَعْبُدَ اللَّهَ في الفلاةِ، ولا يَشْهَدُ فيهِ مَشاهِدَ الجُمَعِ
الفلاة: الصحراء، يشهد فيه: أي يحضر بهذا الوجه صلاة الجمعة

٢٢٤ يوم صيد

وقد أَغْتَدي للطَّيْرِ، والطَّيْرُ هُجَّعٌ ولو أَوْجَسَتْ مَغْدَايَ ما بِتْنَ هُجَّعَا
أغتدي: أذهب صباحاً، هجع: نائمة، أوجست: خافت، مغداي: ذهابي صباحاً

بِخِلَّيْنِ تَمَّا بي ثَلاثَةَ إِخْوَةٍ جُسَومُهُمُ شَتَّى، وأرواحُهُمْ مَعَا
أذهب مع صديقين أنا ثالثهما، وهؤلاء الثلاثة أجسامهم متفرقة، لكن أرواحهم متآلفة

بَنِي خُلَّةٍ لم يُفْسِدِ المَحْلُ بينَهُمْ ولا طَمِعَ الواشونَ في ذاكَ مَطْمَعا
بني خلة: أهل محبة، المحل: ضيق العيش

إذا ما دَعا منَّا خليلٌ خليلَه «بِأَفديكَ»، لبَّاهُ مجيباً فَأَسرَعا
كأنَّ لهُ في كلِّ عُضْوٍ ومَفْصِلٍ وجَارِحَةٍ قَلباً من الجَمْرِ أَصْمَعَا
القلب الأصمع: القلب الذكي

إذا رَنَّقَتْ شمسُ الأصيلِ ونَفَّضَتْ على الأُفْقِ الغَربيِّ وَرْساً مُذَعْذَعا
رنقت: قاربت الغروب، نفضت: نثرت، الورس: نبات أصفر، مذعذع: منتشر

ووَدَّعَتِ الدنيا لِتقضِيَ نَحْبَها وشَوَّلَ باقي عُمْرِها فَتَشَعْشَعا
شول: انحسر وتبدد، تشعشع: تفرق وانتشر

ولاحَظَتِ النُّوَّارَ وَهْيَ مَريضَةٌ وقد وَضَعَتْ خدَّاً إلى الأَرض أَضْرَعا
لاحظت الشمس (رمقت) زهر النبات وهي مريضة مرض موتها وقد وضعت خدها الأضرع (المستكين) على الأرض

كما لاحَظَتْ عُوَّادَهُ عينُ مُدْنَفٍ تَوَجَّعَ من أَوْصَابِهِ ما تَوَجَّعا
وهذا شبيه بعين المدنف (المريض) التي تلاحظ (ترمق) عواده (زائريه) وهو يتوجع من أوصابه (آلامه)

وظَلَّتْ عيونُ النَّوْرِ تَخْضَلُّ بالنَّدَى كما اغْرَوْرَقَتْ عينُ الشَّجِيِّ لِتَدْمَعا

النوْر: زهر النبات، تخضل: تبتلّ، اغرورقت: غرقت بالدمع قبل أن ينحدر، الشجي: المحزون

يُرَاعِينَها صُوراً إِليها رَوانِيَاً ويَلْحَظْنَ أَلحاظاً من الشَّجْوِ خُشَّعَا

زهور النبات يراعين الشمس (ينظرن إليها) صوراً (مائلات بأعناقهن) روانياً (ناظرات)، ويلحظن (ينظرن) بنظرات خاشعة من شجوهن (حزنهن)

وبَيَّنَ إِغْضاءُ الفِرَاقِ عليْهِما كأَنَّهُمَا خِلَّا صَفاءٍ تَوَدَّعا

ظهر الإغضاء (تنكيس البصر) من الطرفين (من الزهور ومن الشمس) فكأنهما خلا صفاء (حبيبان) في لحظة وداع

وقد ضَربَتْ في خُضْرَةِ الروضِ صُفْرَةٌ من الشمسِ فاخْضَرَّ اخضِرَاراً مُشَعْشَعا

وأَذْكَى نسيمَ الروضِ رَيْعَانُ ظِلِّهِ وغَنَّى مُغَنِّي الطيرِ فيه فَسَجَّعا

أذكى نسيمَ الروض (جعله ذكياً) رَيعانُ ظل هذا الروض (نمو الظل مع انحدار الشمس للمغيب)، وغنى من الطير من يغني بتسجيع (ترديد)

وغَرَّدَ رِبْعِيُّ الذُّبَابِ خلالَه كما حَثْحَثَ النَّشْوانُ صَنْجَاً مُشَرَّعَا

ربعي الذباب: ذباب الربيع، حثحث: حرك، النشوان: السكران، صنجاً مشرعاً: قرصاً مرفوعاً، من تلك الأقراص التي تثبت في الأصابع ويرفع بها الراقصون والساكرون أيديهم ليزيدوا بهجتهم، ويسميها موسيقيو زمننا الكاستانييت، وأما أن أصوات ذباب ابن الرومي تشبه أصواتها فذلك ما يشي به البيت المقبل

فكانتْ أَرَانِينُ الذبابِ هُنَاكُمُ على شَدَوَاتِ الطيرِ ضَرْباً مُوَقَّعا

وفاضَتْ أحاديثُ الفُكَاهَاتِ بيْنَنا كأَحْسَنِ ما فاضَ الحديثُ وأَمْتَعَا

هنالِكَ تَغدُو الطيرُ ترتادُ مَصْرعاً وحُسْبانُها المَكذُوبُ يَرتَادُ مَرْتَعا

فَظَلَّ صِحابي نَاعِمِينَ بِبُؤْسِها وظَلَّتْ على حوضِ المنيَّةِ شُرَّعا

شُرَّعاً: واردة للشرب

طَرائِحَ من سُودٍ وبِيضٍ نَواصِعٍ تَخَالُ أديمَ الأرضِ منهُنَّ أَبقَعا

نُؤَلِّفُ منها بينَ شتَّى، وإنما نُشَتِّتُ من أُلَّافِها ما تَجَمَّعا

فكَمْ ظَاعِنٍ مِنْهُنَّ مُزْمِعِ رِحْلَةٍ قَصَرْنا نَواهُ دونَ ما كانَ أَزْمَعَا

بعض الطيور كان ظاعناً (راحلاً) على عادة الطير، وقصرنا نواه (وضعنا حداً لنيته) دون ما كان أزمع (نوى)

وكَـمْ قـادمٍ مـنـهُـنَّ مُـرْتَـادِ مَـنْـزِلٍ   أَنـاخَ بـه مِـنَّـا مُـنْـيـخٌ فَـجَـعْـجَـعَـا
وبعضها قادم من رحلة ومرتاد لموطنه الأصلي، وأناخ به (طرحه أرضاً) أحدنا فجعجع (انطرح يهتز)

٢٢٥ الأحدب

قَـصُـرَتْ أَخَـادِعُـهُ وطَـالَ قَـذَالُـه   فـكـأنَّـه مُـتَـرَبِّـصٌ أن يُـصْـفَـعـا
أخادعه: عروق العنق، قذاله: الرقبة من جهة الظهر، متربص: متحسّب. يقول: رقبته قصيرة من أمام، طويلة من خلف (فهو أحدب) فكأنه يتوقع أن يصفع

وكـأنـمـا صُـفِـعَـتْ قَـفـاهُ مَـرَّةً   فَـأَحَـسَّ ثـانـيـةً لـهـا فَـتَـجَـمَّـعـا

٢٢٦ قوام الليل

تَـتَـجَـافَـى جُـنُـوبُـهُـمْ   عـن وَطِـيءِ الـمَـضَـاجِـعِ
هؤلاء العُبَّاد تتجافى جنوبهم (تبتعد) عن المضاجع الوطيئة (الفراش الوثير) ليقوموا الليل

كُـلُّـهُـمْ بـيـنَ خَـائِـفٍ   مُـسْـتَـجِـيـرٍ وطَـامِـعِ
وهم إما خائف من عذاب الله وقف يستجير، أو طامع في ثوابه

تَـرَكُـوا لَـذَّةَ الـكَـرى   لـلـعـيـونِ الـهَـواجِـعِ
الهواجع (النائمة)

ورَعَـوْا أَنْـجُـمَ الـدُّجَـى   طـالِـعـاً بـعـدَ طَـالِـعِ
لـو تَـرَاهُـمْ إذا هُـمُ   خَـطَـرُوا بـالأَصَـابِـعِ
لو تراهم يخطرون بهدوء على رؤوس أصابعهم حتى لا يزعجوا النائمين

وإذا هُـمْ تَـأَوَّهُـوا   عـنـدَ مَـرِّ الـقَـوارِعِ
القوراع: الآيات التي تذكر يوم القارعة (القيامة)

وإذا بَـاشَـرُوا الـثَّـرَى   بِـالـخُـدُودِ الـضَّـوَارِعِ
الضوارع: الضارعة لله الراجية إياه

واسْـتَـهَـلَّـتْ عـيـونُـهُـمْ   فَـائِـضَـاتِ الـمَـدامِـعِ
استهل: بكى

ودَعَـوْا: يـا مَـلِـيـكَـنَـا   يـا جـمـيـلَ الـصَّـنَـائِـعِ

أعـــفُ عـــنَّـــا ذنـــوبَـــنـــا　　لِـــلْـــوُجُـــوهِ الـــخَـــوَاشِـــعِ
أُعْـــفُ عـــنَّـــا ذنـــوبَـــنـــا　　لِـــلْـــعُـــيـــونِ الـــدَّوَامِـــعِ
أنـــتَ ـ إنْ لـــم يَـــكُـــنْ لـــنـــا　　شَـــافِـــعٌ ـ خـــيـــرُ شـــافِـــعِ
فَـــأُجِـــيـــبُـــوا إجـــابَـــةً　　لـــم تَـــقَـــعْ فـــي الـــمَـــسَـــامِـــعِ:

الإجابة ضمنية وليست مما يقع في المسامع (الآذان) بل هي إحساس في قلوبهم

لـــيـــسَ مـــا تَـــصْـــنَـــعُـــونَـــه　　أَوْلـــيَـــائـــي بِـــضَـــائِـــعِ

٢٢٧ توبة غير نصوح

وقال في إبراهيم بن المدبر:

يـا لـيـتَ شِـعـرِي لـوْ سُـئِـلْـتَ وقـد　　أَنْشَدْتَ مَدْحيَ فيكَ مَنْ سَمِعَهْ:
مــاذا أَثَـبْـتَ عــلـيـهِ قــائِـلَـهُ؟　　هلْ كنتَ تَلْقَى في الجَوَابِ سَعَةْ؟
أَتُـرَاكَ تُـوهِـمُـهُـمُ، إذا سَـأَلـوا　　فَـسَـكَـتَّ، أمـراً لا تُـلامُ مَـعَـهْ
كَـتَـمَ الـلِّـسَـانُ عـلـيـكَ فَـاسـتَـمَـعَـتْ　　فِـطَـنٌ لِـمَـا جَـمْـجَـمْـتَ مُـسْـتَـمِـعَـةْ

لن يقولوا لك شيئاً بألسنتهم، ولكن الفطن (العقول الفطنة الذكية) ستستمع إلى ما جمجمت (ما دار بخلدك)

قـد كـنـتُ تُـبْـتُ مـن الـهـجـاءِ، فـإن　　شَـاءَ الـلِّـئَـامُ أَعَـدْتُـهـا جَـذَعَـةْ

أعدتها جذعة: ولَّعتُها توليعاً

٢٢٨ طيلسان كضوء الشمس

وقال في مذهب الحمدوي:

ولـي طَـيْـلَـسـانٌ نَـاحِـلٌ غـيـرَ أنَّـه　　ثَـبُـوتٌ لِـهَـبَّـاتِ الـرِّيـاحِ الـزَّعَـازِعِ

طيلسان: رداء، الزعازع: الشديدة. والقصيدة على مذهب الشاعر الحمدوي (ت ٢٥٠هـ) المعاصر لابن الرومي. فقد أهدى رجل يسمى ابن حرب للحمدوي رداء وظل يذكِّره به مدة طويلة فأنشأ الحمدوي قطعاً كثيرة من ألذ الشعر الساخر الهازل في وصف هذا الطيلسان/ الرداء. وأراد ابن الرومي أن يباريه فأنشأ نحواً من عشر قطع شبيهة، هذه واحدة منها

ومـــا ذاكَ إلّا أنـــه مُـــتَـــهَـــتِّـــكٌ　　يُخَلِّي سبيلَ الريحِ غيرَ مُنَازِعِ

متهتك: ممزق، يسمح للريح بالدخول ولا يمنعها أو ينازعها

أَراهُ كَضَوْءِ الشمسِ بالعينِ رُؤْيَةً   وَيَمْنَعُني من لَمْسِه بالأَصابِعِ

لأن الكساء اهترأ وصار رقيقاً جداً تحول إلى شيء شبيه بضوء الشمس فهو يرى بالعين ولا سبيل إلى لمسه

شَكَا ثِقَلَ اسم الطَيْلَسَانِ لِضَعْفِهِ   فَسَمَّيْتُهُ سَاجاً، فهلْ ذَاكَ نافِعِي؟

اشتكى لي الطيلسان أن اسمه ثقيل ولا يناسب نحوله فأطلقت عليه اسم ساج (رداء منسوج)، فهل في هذا ما يخفف شكواه؟

٢٢٩ رقة شكوى سبقت دمعة

وقال في بدعة الكبرى المغنية:

يا أَيُّها السائلُ عن حَظِّها   لِلناسِ جزءٌ، ولَها تِسْعَةْ

لها مَسِيرٌ في أَغانِيِّها   تَوَسَّطَ الإبْطاءَ والسُّرْعَةْ

كأنما رِقَّةُ مَسْمُوعِها   رِقَّةُ شَكْوى سَبَقَتْ دَمْعَةْ

المسموع: الغناء

طَفِّلْ على مَنْ حَصَلَتْ عندَهُ   فبعضُ تَطْفِيلِ الفَتى رِفْعَةْ

طفِّل (تطفَّلْ) على الشخص الذي حصلت عنده هذه الجارية (الذي اشتراها فصارت عنده) ففي بعض التطفيل (التطفل) رفعة

تلكَ ربيعٌ فانْتَجِعْ رَوْضَهُ   فَلَنْ يُعابَ الحُرُّ بالنُّجْعَةْ

النجعة في الأصل النزول في الموضع المعشوشب

٢٣٠ على الحالين ممدوح

فتىً إن أُجِدْ في مَدْحِهِ فَلأَنَّني   وَجَدْتُ مجالاً فيه للقولِ واسِعا

وإنْ لا أُجِدْ في مَدْحِهِ فَلِأَنَّني   وَثِقْتُ به حتَّى اختَصَرْتُ الذَّرائِعا

الذرائع: الوسائل

٢٣١ الأمنية المزعجة

وقال يمدح أبا ليلى بن عبد العزيز بن أبي دلف:

إذا المرءُ طالَتْ به مُدَّةٌ   عَلا الشَّيْبُ مَفْرِقَهُ أو صَلِعْ

وشَيخُوخَةُ المرءِ أُمْنِيَّةٌ   متى ما تَناهَى إلَيْها هَلِعْ

تناهى: وصل

٢٣٢ دين لا يسترد

سُـــهـــولـــةُ الـــشَّـــرِيـــعَـــةْ

الشريعة: مورد الماء

تُـــغْـــنـــي عـــنِ الـــذَّرِيـــعَـــةْ

الذريعة: الوسيلة

يـــا ذا الـــيَـــدِ الـــمَـــنِـــيـــعَـــةْ
والأُذُنِ الـــسَّـــمِـــيـــعَـــةْ
والـــهِـــمَّـــةِ الـــرَّفِـــيـــعَـــةْ
يـــا قـــابِـــلَ الـــخَـــدِيـــعَـــةْ

يمدحون الرجل بأنه ينخدع للناس، ويتغافل عليهم مظهراً أنه لم يعرف مرادهم، وهذا من علامات السؤدد. ولولا هذا البيت لظنناه يخاطب الله بهذه الأبيات المنهوكة

وفـــاعـــلَ الـــبَـــدِيـــعَـــةْ
هـــل لـــكَ فـــي صَـــنِـــيـــعَـــةْ

صنيعة: معروف

تـــجـــعَـــلُـــهَـــا وَدِيـــعَـــةْ؟

٢٣٣ وحدي المحروم

وقال في القاسم بن عبيد الله:

أَمِـنْ بَـعْـدِ مَـا سـارَ مـعـرُوفُـكُـمْ إلـى سـاكِـنِ الـبـلـدِ الـشَّـاسِـعِ
وقـامَ الـخـطـيـبُ بـإِحـسَـانِـكُـمْ عـلـى مِـنْـبَـرِ الـمسجِـدِ الـجَـامِـعِ
يَـشِـيـعُ شَـقـائـي بِـحِـرمَـانِـكُـمْ وشُـكـرِي، معَ الـشَّـائِـعِ الـذَّائِـعِ؟

أي يشيع خبر حرمانكم إياي وخبر شكري لكم مع الشائع الذائع من أخبار معروفكم

٢٣٤ اللائعات تلوعها

وقال في صاعد وابنه العلاء:

جَهِدْنَاكُمْ مَرْياً، فَقالَ ذَوُو النُّهَى: لقدْ أَشْبَهَتْ أَظْلافَ شَاةٍ ضُرُوعُها

مرياً: حلْباً، ذوو النهى: العاقلون، أثداء هذه الشاة مثل أظلافها ولن ينزل منها حليب

وإنـي إذا مـا ضِـقْـتُ ذَرْعـاً بِـبَـلْـدةٍ　　لَـجَـوَّابُ أقـطَـارِ الـبـلادِ ذَرُوعُـهـا

نَـكَـحْـتُـمْ بِـلا مَـهْـرٍ قَـوَافِـيَّ لَـسْـتُـمُ　　بِـأَكْـفَـائِـهـا، فَـالـلائِـعَـاتُ تَـلُـوعُـهـا

قوافيَّ: قصائدي، اللائعات تلوعها: المُحرقات تُحرقها

وكـانـتْ إذا أَبْـدَتْ خُـشـوعـاً فَـخُـيِّـبَـتْ　　أبـىَ عِـزُّهَـا أوْ يُـسْـتَـقَـادَ خُـشُـوعُـهـا

إذا خشعت قصائدي وتذللت وهي تمدح، ثم بعد ذلك لقيت الخيبة بعدم العطاء، فإن عزها سيأبى إلا أن يأخذ ثأراً مقابل الخشوع السابق

ومَنْ لم تَجِدْ في فضلِ كَفَّيْهِ مَرْتَعاً　　فَفِي عِرْضِهِ، لا في سِواهُ، رُتُوعُها

من لم تجد قصائدي مرتعاً في عطاء يديه، فسترتع في عرضه

تَـسَـرْبَـلْـتُـمُ الـنُّـعْـمَـى فَـطالَ عِـثَـارُكُـمْ　　بِـأَذْيَـالِـهـا، واسْـوَدَّ مـنـهـا نَـصُـوعُـهـا

تسربلتم: لبستم

ومـا عَـطِـرَتْ أثـوابُـهـا إذ عَـلَـتْـكُـمُ　　ولا حَـسُـنَـتْ فـي عَـيْـنِ راءٍ دُرُوعُـهـا

لم تتعطر أثواب النعمة عندما لبستموها، ولا كانت دروعها (أثوابها) حسنة

بَسَقْتُمْ بُسُوقَ النَّخْلِ ظُلماً، فأَبْشِروا　　سَتَسْمُو بِكُمْ عمَّا قَليلٍ جُذُوعُها

بسقتم: علوتم، ستسمو: ستعلو. يبشرهم بالصلب

٢٣٥ إرضاع الكبير

وقال في شنطف:

لا تـعـرفُ الـلَّـهَ، ولـكـنَّـهـا　　سَـجَّـادَةٌ لـلأَبْـرِ رَكَّـاعَـةْ

لـهـا حِـرٌ أَشْـمَـطُ مُـسْـتَـكْـرِشٌ　　شَـابَ، ومـا تَـتْـرُكُ إِرْضَـاعَـهْ

حر: عضو المرأة، أشمط: مختلط سواد شعره ببياضه، مستكرش: منتفخ

٢٣٦ غودر يوماً وعِرضه قطع

وقال في ابن عروس:

أَبَـا عَـلِـيٍّ لِـلْـنَّـاسِ أَلْـسِـنَـةٌ　　إنْ قـلـتُ قـالـوا بـهـا ولـم يَـدَعُـوا

والـبَـغْـيُ عَـوْنٌ عـلـى الـمُـدِلِّ بـه　　فَـاشْـنَـأْهُ، واجْـعَـلْـهُ بـعـضَ مـا تَـدَعُ

البغي (الظلم) يكون عونا على (ضد) المدل به (المرتكن إليه) فاشنأه (أبغضه) واتركه

أو لا، فَكُنْ رامِياً، وكُنْ غَرَضاً   تَرمِي وتُرْمَى وتَحصُلُ الشُّنَعُ

غرضاً: هدفاً

يا ليتَ شِعْرِي وليتَ شِعْرَكَ إنْ   قلتَ وقلْنا واستَحْكَمَ القَذَعُ

القذع: الشتم

ما يَنفَعُ الصَّارِمَ اللِّسَانِ إذا   غُودِرَ يوماً وعِرْضُهُ قِطَعُ؟

ما الذي ينفع الشَّخصَ الحادَّ اللسان إذا تمزق عرضه؟

فارجِعْ وبُقْيا أَخيكَ بَاقِيَةٌ   وانْدَمْ، وفي الحِلْمِ فُسْحَةٌ تَسَعُ

البُقيا: الإبقاء على الأرواح بعد الاشتباك في المعركة، كانت العرب تصرخ في المعركة إذا هزمت «البقية البقية» أي: أبقوا علينا ولا تستأصلونا، وصرختهم هذه تسمى البُقيا

ومَنْ هَجَا ماجِداً أخا شَرَفٍ   فليس إلّا مِنْ نَفْسِه يَضَعُ

يضع: يخفض

وكلُّ سَهْمٍ رَمَتْ يَدايَ به   فليسَ إلّا في مَقْتَلٍ يَقَعُ

أنا الذي تَحْشُدُ الرُّوَاةُ له   فَكُلُّ أيَّامِ دهرِهِ جُمَعُ

٢٣٧ اللاحق بالأرض

وطويلِ القَرْنِ إلّا أنه   لاحِقٌ بالأرضِ كالقِرْدِ الجَزِعْ

الجزع: الخائف

طالَ قَرنَاهُ معاً فارتَفَعا   وأَبَتْ قامَتُه أنْ تَرتَفِعْ

٢٣٨ اللحية الغواصة

وقال في كبر اللحية:

ولِحْيَةٍ يحمِلُها مَائِقٌ   مِثْلِ الشّرَاعَيْنِ إذا أُشْرِعَا

مائق: أحمق، ويبدو أن لحيته كانت من ذاك النوع المقسوم نصفين

تَقُودُهُ الريحُ بها صَاغِراً   قَوْداً عَنِيفاً يُتْعِبُ الأَخْدَعا

الأخدع: العنق، مسمى باسم عرق فيه

لو غَاصَ في البحرِ بِهَا غَوْصَةً   صَادَ بها حِيتَانَه أَجْمَعا

٢٣٩ نادم على إراقة ماء الوجه

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنيا به من شُرورِها   يكونُ بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُوضَعُ

لابن الرومي قصيدة أخرى يكرر فيها مباني ومعاني هذه القطعة (انظر القطعة ٩١)

وإلَّا فَمَا يُبْكِيِه منها، وإنَّها   لأَفْسَحُ ممَّا كانَ فيه وأوسَعُ

إذا أبصرَ الدنيا اسْتَهَلَّ كأنَّه   يرَى ما سيَلْقَى من أذاها، ويسمَعُ

استهل: بكى

كَأَنِّي إذا اسْتَهْلَلْتُ بينَ قَوابِلِي   بَدَا لِيَ مَا أَلْقَى بِبَابِكَ أَجْمَعُ

استهللت بين قوابلي: بكيت بين الدايات المولدات. يقول ابن الرومي إنه بكى وقت ولادته فكأنما عرف ما سيلحق به بباب هذا الأمير من ذل وهوان

وذِي بَعضُ أحوالِ النُّفوسِ: كَأَنَّها   تَرَى خلفَ سِتْرِ الغيبِ ما تَتَوَقَّعُ

أقُولُ لِوَجْهٍ حالَ بعدَ بياضِهِ   وإِسْفَارِه، فاللونُ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

يخاطب شاعرنا وجهه الذي غدا أسفع مسمراً بعد بياضه وإسفاره (أشراقه)

ذُقِ الهُونَ والذُّلَّ الطويلَ عُقُوبَةً   كذا كلُّ وَجْهٍ لا يَعِفُّ ويَقْنَعُ

وفَرْتُ عليهِ المَاءَ عِشْرِينَ حِجَّةً   ففَرَّقَ منه الحِرْصُ مَا كُنْتُ أَجْمَعُ

لقد وفرت ماء وجهي وكرامتي عشرين سنة، ففرق الحرص والطمع كل هذا وبدده

سَعَيْتُ لإيقَاظِ المَقَادِيرِ ضَلَّةً   وما كانتِ الأَقْدَارُ لو نِمْتُ تَهْجَعُ

يا لضلالي إذ سعيت لإيقاظ الأقدار، والأقدار لا تنام حتى لو نمت أنا

ولو جَهِدَ السَّاعُونَ في الرزقِ جَهْدَهُمْ   لَمَا وَقَعَتْ إلَّا بما هِيَ وُقَّعُ

٢٤٠ الإنسان الجيفة

كيفَ يَزْهُو مَنْ رَجِيعُهْ   أَبَدَ الدهرِ ضَجِيعُهْ

رجيعه: غائطه، ضجيعه: الملازم له في الفراش؛ ذلك أنه موجود بداخل أحشائه

ليس يَخْلُو منهِ إلَّا   وقتَمَا لا يَسْتَطِيعُهْ

ثم يُلْجِيهِ إلى الحُشِّ ـ   بِصُغْرٍ فَيُطِيعُهْ

الغائط يلجئ المرء إلى بيت الخلاء فلا بد أن يطيعه المرء

فإنِ استَعْصَى عليهِ   فَهْوَ لا شَكَّ صَرِيعُهْ

فإن لم يخرج قتل الإنسان

ثـــم يُــبْــدِي مــنــه صَــوْتــاً وَدَّ لـــو صُـــمَّ سَـــمــيــعُـــهْ
وإن خرج خرج معه صوت يود سميعه (من يسمعه) أن يكون أصم

٢٤١ أنا استأهل

لـئِـنْ أخـطَـأْتُ فـي مَـدحـيـ ـكَ مـا أَخْـطَـأْتَ فـي مـنـعِـي
لــقــد أَنْــزَلْــتُ حَــاجــاتــي بِـــوَادٍ غـــيـــرِ ذي زَرْعِ

٢٤٢ خلقته تهجوه

وقال يهجو أبا إسحاق البيهقي:

قالوا: هجاكَ أبو المَزَّاقِ، قلتُ لَهُمْ: ولِمْ هَجاني؟ فقالوا: للَّذي بَلَغَهْ
لا يَهْجُونِّي فِإنِّي لستُ هَاجِيَهُ ولا يَرى ذاكَ مِنِّي أوْ يَرَى صُدُغَهْ
يرى صدغه: يرى سالفه، وهذا مستحيل
وما امْتِهاني به شِعْري، وخِلْقَتُهُ تَهجُوهُ عنِّي، وعن غَيري بِكُلِّ لُغَةْ

٢٤٣ جبان

قال في سليمان بن عبد الله:

قِــرْنُ سُــلَــيْــمَــانَ قــد أَضَــرَّ بِــه شَــوْقٌ إلــى وجْــهِــهِ سَــيُــدْنِــفُــهُ
قرن: منازل، سيدنفه: سيجعله مريضاً من الشوق
أَعْـرَضَ عـن قِـرْنِـه، وَصَـدَّ، فَـمَـا أصـبـحَ شـيءٌ عـلـيـهِ يَـعْـطِـفُـهُ
سليمان أعرض عن خصمه، ولا يعطفه عليه (يوجهه نحوه) شيء
كـم يَـعِـدُ الـقِـرْنَ بـالـلِّـقـاءِ؟ وكـم يـكـذِبُ فـي وَعْـدِهِ ويُـخْـلِـفُـهُ؟
لا يَـعـرِفُ الـقِـرْنُ وجـهَـهُ، ويَـرَى قَـفَـاهُ مـن فَـرْسَـخٍ فَـيَـعْـرِفُـهُ

٢٤٤ رجال وحمير

هَـمُّ الـرِّجَـالِ الـعُـلا، تَـنَـافُـسُـهُـمْ فـيـهـا، وهَـمُّ الـحَـمِـيرِ في الـعَـلَـفِ

٢٤٥ الزمن الرديء

دهـرٌ عَـلا قَـدْرُ الـوَضِـيـعِ بـه وهـوَى الـشـريـفُ يَـحُـطُّـهُ شَـرَفُـهْ
كـالـبـحـرِ يَـرْسُـبُ فـيـه لُـؤْلُـؤُهُ سِـفْـلاً، وتَـطْـفُـو فـوقَـه جِـيَـفُـهْ

٢٤٦ عارف قدر نفسي

نـظـرتُ بِـعـيـنِ إنـصَـافٍ وعـدلٍ   فَـلَـمْ أرَ قَـطُّ مـيـزانـي خَـفـيـفـا
ولـــم أَرَ هـــائِـــبـــي إلَّا قـــويَّـــاً   ولا مُـسْـتَـضْـعِـفـي إلَّا سَـخِـيـفَـا

٢٤٧ طلب الستر

وقال في الطائي:

إليكَ رَادَفْتُ عَزْمي فوقَ نَاجِيَةٍ   كالريحِ تُعْصِفُ بالرُّكْبانِ إعصَافَا
رادفت عزمي فوق ناجية: جعلت عزيمتي تركب رديفة لي فوق ناقة سريعة كالريح

سفِينَةٌ من سَفِينِ البَرِّ مُحْكَمَةٌ   تَجري إذا ما اتَّخَذْتَ السَّوْطَ مِجْدَافا
جاءتْ بِعَسَّافِ أهوالٍ على ثِقَةٍ   أن سوفَ تَلقَاكَ للأموالِ عَسَّافَا
عساف الأهوال: من يسير على غير هدى مخترقاً الأهوال، وعساف الأموال: الذي يفرقها بلا حساب

أَهْدَى إليكَ هَدِيَّاً مِنْ كَرائِمِهِ   يَحُفُّها حَشَدُ الآمَالِ زَفَّافَا
أهدى إليك هدياً (عروساً) من كرائمه (بناته/ يعني قصيدة) وهي محفوفة بحشد زفَّاف (يزف العروس) من الآمال في العطاء

حَسناءُ مُعْجِبَةٌ للناسِ مُطْرِبَةٌ   لا تَستعينُ على الإطْرَابِ عَزَّافَا
من سَيِّدَاتِ القَوافي ما يَزَالُ لها   رَاوٍ تَظَلُّ به السَّادَاتُ حُفَّافَا
أَذَالَ فيها لكَ النَّفْسَ التي لَقِيَتْ   من العَفافِ وطُولِ الظَّلْفِ إقْشَافَا
ذلل نفسه في قصيدته، وكان حفظ على نفسه عفافها طويلا وعانى الظلف (خشونة العيش) والإقشاف (شظف العيش)

فَحاكَها، والذي يَبْغي كِفَايَتُهُ،   وإنْ شَتَا غيرُهُ في الرِّيفِ أو صَافَا
حَوْكَ امْرِئٍ لم يَكُنْ من قَبْلُ مكتَسِباً   بالشِّعْرِ سَئَّالَةً للناسِ مِلْحَافَا
تعليق أحمد عبد الرحيم: كذاب يا خيشة!

كَخَصْفِ آدمَ من أوراقِ جَنَّتِهِ   ولم يَكُنْ، قبلَ ذاكَ الخَصْفِ، خَصَّافَا
كَسَاكَ من زينةِ الدنيا لِتَكْسُوَهُ   من سِتْرِها، فَاكْسُهُ؛ يا خيرَ من كَافَا
كافا: كافأ

٢٤٨ أهل القريض

يمدح عبيد الله بن عبد الله:

صُنْ مديحي ومَطْلبي عن أُناسٍ　　لـم أَزَلْ عـن لـقـائِـهِـمْ صَـدَّافـا
فَلْيَعِظْكَ امْرُؤٌ غـدا فـي يَـدَيْه　　حَـسَـبٌ مُبْتَـلـىً ومَـالٌ مُـعَـافـى
إنَّ أَهْـلَ الـقَـرِيـضِ طـوراً يَـرِقُّـو　　نَ، وطـوراً تَـراهُـمُ أَجْـلافـا
وإذا أُسْـخِـطُـوا رَأَوْا ذَمَّ سَـابُـو　　رَ، ولـو كـانَ يَـنْـزِعُ الأَكْـتَـافـا

سابور: ملك الفرس، انتصر على العرب وعاقب رؤساءهم بخلع أكتافهم

هُمْ إذا شئتَ نَحْلُ شَهْدٍ وإنْ شئـ　　ـتَ أَفَـاعٍ رُقْـشٌ تَـمُـجُّ الـزُّعَـافـا

رقش: مرقطة، تمج الزعافا: تنفث السم الهاري

لا يَكُـونَـنَّ مَـا سمِـعْـناهُ مِـن جُـو　　دِكَ فـي كـلِّ مَـحْـفِـلٍ إرْجَـافَـا

الإرجاف: الإشاعات

٢٤٩ أمان لقائه بلقائه

نسبت اليتيمة البيتين لأبي أحمد الكاتب، وأوردناهما هناك سهواً، ولم نحذفهما حفاظاً على الترقيم:

قد قلتُ إذ مَدَحُوا الحياةَ فَأَكْثَرُوا:　　لِلْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لا تُعْرَفُ
فـيـهِ أَمـانُ لـقـائِـهِ بِـلـقَـائِـهِ　　وفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لا يُنْصِفُ

٢٥٠ ندم على المدح

رُدُّوا عـلـيَّ صَـحـائِـفـاً سَـوَّدتُـهـا　　فـيـكُـمْ بـلا حَـقٍّ، ولا اسـتِـحـقـاقِ
مـا كـان مِـثـلـي مـادِحـاً أمـثـالَـكُـمْ　　لـولا اتِّـهَـامـي ضـامِـنَ الأرزاقِ

٢٥١ الحلف الحاضر

وإنـي لَـذُو حَـلِـفٍ حـاضِـرٍ　　إذا ما اضْطُرِرْتُ وفي الحالِ ضِيقُ
وهـلْ مِـنْ جُـنَـاحٍ عـلـى مُـرْهَـقٍ　　يُـدَافِـعُ بـالـلَّـهِ مـا لا يُـطِـيـقُ؟

٢٥٢ الخروج من الجنة

وكتب إلى القاسم بن عبيد الله حين خرج مع المعتضد إلى «بلد» وواقع الأعراب بها:

أُخْـرِجْـتُ مِـن جَـنَّـتـي مُـفَـاجَـأَةً　　آمَـنُ مـا كـنـتُ فـي حـدائـقِـهـا

بينَا استِماعي هَديلَ هادِلِها إذْ راعَ قلبي نعيقُ ناعِقِها
فَارَقَني قَاسِمٌ لِطِيَّتِه يا لَهْفَ نفسي على مُفَارِقِها

لطيته: لشأنه

بانَ عن العينِ وَهْوَ في فِكَري أدنى إلى النفسِ من مُعَانِقِها
واللَّهِ لولا تَطَيُّري سَفَحَتْ عيني دَمَ القلبِ من حَمَالِقِها

حمالقها: بواطن أجفانها. يقول إنه كان سيبكي عليه دماً لولا أن هذا من دواعي التشاؤم.. فالرجل غاب ولكنه لم يمت

٢٥٣ المزاد المشقوق

وقال يصف السحاب:

مُتَهَلِّلٌ زَجِلٌ تَحِنُّ رَوَاعِدٌ في حَجْرَتَيْهِ، وتَستَطِيرُ بُرُوقُ

متهلل: لامع بالبرق، زجل: صائت بالرعد، حجرتيه: جانبيه

سَدَّتْ أوائِلُهُ سبيلَ أواخِرٍ لم يَدْرِ سائِقُهُنَّ كيف يَسوقُ

يصفه بالتكاثف فالسحابات الأولى لم تتزحزح، والسحابات القادمة إليها تتراكم فوقها، والريح التي تسوقها لا تدري أيان تذهب بها

طَفِقَتْ رَوَايَاهُ تَجُرُّ مَزَادَها فوقَ الرُّبَا، ومزَادُها مَشْقوقُ

الروايا: النياق التي يُحمل عليها الماء، مزادها: قِرَبَتها. يقول: السحاب كالجمال التي تحمل الماء داخل قِرَب وتجرها فوق الربا، وهذه القرب مشقوقة ويسيل منها الماء

وتَضاحَكَ الروضُ الكئيبُ لِصَوْبِه حتى تَفَتَّقَ نَوْرُهُ المَرْتُوقُ

صوبه: مطره، المرتوق: المخيط

٢٥٤ غرسْتني فارْوِني

تناسَيْتَ أمريِ، واطَّرَحْتَ حُقوقيِ وعادَيْتَ بِرِّي، واصْطَفَيْتَ عُقوقي

اصطفيت عقوقي: اخترت أن تجحد فضلي

أَتُغْفِلُ رَبِّي بعدَمَا قد غَرَسْتَنيِ قديماً، وسَاخَتْ في ثَراكَ عُرُوقي
ولاحَتْ بُروقٌ منكَ أَخْلَفَ رَعْدُها على أنني ما أَخْلَفَتْكَ بُروقي

٢٥٥ الغريق في أمواله

وقال فيمن جمع المال ومنعه من حقوقه:

ألـم تَـرَ أنَّ الـمـالَ يُـهـلِـكُ أهـلَـه   إذا جَـمَّ آتِـيـهِ، وسُـدَّ طـريـقُـهُ

جم: كثُر، آتيه: الأتيُّ هو السيل، والآتي لعلها السيل أيضاً فهو ماء يأتي

ومـن جَـاورَ الـمـاءَ الـغَـزيـرَ مَـجَـمُّـهُ   وسَـدَّ سـبـيـلَ الـمـاءِ فَـهْـوَ غـريـقُـهُ

معجمه: كثرته

٢٥٦ أنشوطة الوهق

وقال في عبد الملك بن صالح الهاشمي، وطلب منه وصف جارية له سوداء:

يَـسْـقـي الـنَّـدَامـىَ فَـيـشـربـونَ لـه   كَـشُـرْبِ فِـرْعَـوْنَ سـاعـةَ الـغَـرَقِ

أبـو سـلـيـمـانَ ذُو الإصـابَـةِ وال   إحسـانِ، وابـنُ الـمـلـوكِ لا الـسُّـوَقِ

وَقَّـاهُ قُـوَّامُـهُ قِـيـامَـهُـمُ   وأَنْـفَـقَـتْ كَـفُّـهُ بِـلا فَـرَقِ

قُوَّامه: خَدَمه القائمون على ضيوفه، فَرَق: خوف

عـلـى دِنَـانٍ كَـأَنَّـهـا جُـثَـثٌ   مـن قـومِ عـادٍ عَـظـيـمـةُ الـخِـلَـقِ

قالوا كان قوم عاد عمالقة

فـجـاءَ شـيءٌ إذا الـذُّبَـابُ دَنَـا   مـنـه دُنُـوّاً دنـا مـن الـزَّهَـقِ

جاء من الدنان شيء هو الخمر، ولشعاعها فإذا دنا منها الذباب اقترب من الزهق، أي الموت احتراقاً

تُـدِيـرُهُ جَـوْنَـةٌ تُـحَـرِّقُ بـالـدَّ ـ   لِّ إذا الـبِـيـضُ جُـدْنَ بـالـدَّمَـقِ

تدير كؤوس الخمر على الشاربين فتاة جونة (سوداء) تحرق القوم بدلالها، في حينِ الفتيات البيض يمنحن القوم الدمق (البرودة)

اختار الديوان «الرمق» بالراء، وجعل في الهامش الدمق منقولة عن إحدى النسخ. ولعل الدمق (البرودة) هي الصحيحة كي تقابل الإحراق. فالسوداء، بالنظر إلى سوادها، تحرق القوم إحراقاً جميلاً بدلالها، والبيضاء تضفي عليهم برودة، تناسب بياضها. وابن الرومي رجل عرف الثلج وحدثنا عن الثلوج الأشاهب في قصيدته البائية الكبرى (رقم ٤٦ هنا)

سَوداءُ لم تَنتَسِبْ إلى بَرَصِ الشُّ ـ   ـقْـرِ ولا كُـلْـفَـةٍ ولا بَـهَـقِ

الكلفة: الكَلَف، البهق: البهاق، ابيضاض الجلد من مرض. والكلف ينزل بالبيض وحدهم، فأما هذه السوداء فلا كلف ولا برص ولا بهق

لَيسَتْ من العُبَّسِ الأكُفِّ ولا الـ ـفُلْحِ الشِّفَاهِ الخَبائِثِ العَرَقِ

العبس الأكف (الوسخي الأيدي)، الفلح الشفاه (المشقوقي الشفاه)، الخبائث العرق (المنتني رائحة العرق)

بلْ من بناتِ الملوكِ نَاعِمَةٌ تَنْشُرُ بالدَّلِّ مَيِّتَ الشَّبَقِ

تنشر: تحيي بعد موت

غُصْنٌ من الآبَنُوسِ أُلِّفَ مِنْ مُؤْتَزَرٍ مُعْجِبٍ ومُنْتَطَقِ

المؤتزر: مكان الإزار، لعله يقصد الصدر، المنتطق: مكان النطاق، الزنار، ولعله الخصر

يَهْتَزُّ مِنْ نَاهِدَيْهِ في ثَمَرٍ ومِنْ دَوَاجِي ذُرَاهُ في وَرَقِ

هذا الغصن ثمراته النهدان، ودواجي ذراه (أعاليه الداجية المسودَّة أي الشعر) هي ورقه

يَفْتَرُّ ذاكَ السَّوَادُ عن يَقَقٍ من ثَغْرِهَا كالَّلآلئِ النَّسَقِ

يقق: بياض

كأنها والمُزَاحُ يُضْحِكُهَا لَيلٌ تَفَرَّى دُجَاهُ عن فَلَقِ

تفرى: تفتق، والفلق: انبلاج الفجر

لها هَنٌ تَسْتَعيرُ وَقْدَتَهُ من قلبِ صَبٍّ، وصَدْرِ ذي حَنَقِ

هن: عضو المرأة، له حرارة كأنها آتية من قلب صب عاشق أو من صدر ذي حنق (غضب)

كأنَّما حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ما أَلْهَبَتْ في حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ

حره لمن يختبره ـ أي ليس لي أنا ـ يشبه ما أشعلت هذه الفتاة من لهيب في قلب هذا الشخص

يَزْدادُ ضِيقاً على المِرَاسِ كما تَزْدادُ ضِيقاً أُنْشوطَةُ الوَهَقِ

المراس: الاحتكاك، أنشوطة الوهق: عقدة الحبل

لهُ إذا مَا القُمُدُّ خالَطَهُ أَزْمٌ كأَخْذِ الخِنَاقِ بِالعُنُقِ

القمد: عضو الرجل، الأزم: العض

خُذْهَا أبا الفضلِ كُسْوَةً لكَ مِنْ حُرِّ الأمادِيحِ لا من الخِرَقِ

خذ هذه القصيدة يا أبا الفضل

وَصَفْتُ فيها الذي هَوَيْتَ على الـ ـوَهْمِ، ولم تُخْتَبَرْ ولم تُذَقِ

وصفت جاريتك بحسب طلبك وليس عن اختبار شخصي

٢٥٧ البلاء المضاعف

وقال في إبراهيم بن أحمد المادرائي:

لا تُكْثِرَنَّ ملامَةَ العشاقِ		فكفاهُمُ بالوجدِ والأشواقِ
إن البلاءَ يُطَاقُ غيرَ مضاعَفٍ		فإذا تضاعَفَ كان غيرَ مُطَاقِ
لا تُطْفِئَنَّ جَوىً بِلَوْمٍ، إنه		كالريحِ تُغْرِي النارَ بالإحراقِ
أَخَذَ الإلهُ لنا بثأرِ قلوبِنا		من مُصْمِياتٍ للقلوبِ رِشَاقِ

مصميات: صائبات الرمي قاتلات

رَقَّتْ مياهُ وجوهِهِنَّ لِنَاظِرٍ		وقلوبُهُنَّ عليه غيرُ رِقَاقِ
للهِ إبراهيمُ واحِدُ عصرِهِ		ما أَشْبَهَ الأخلاقَ بالأعْرَاقِ
أوفَى بأَعْلَى رُتْبَةٍ، وتواضَعَتْ		آلاؤُهُ فَأَحَطْنَ بالأعناقِ

أوفى: وصل، تواضعت: انخفضت، آلاؤه: نعمه. هو عالي المنزلة وعطاياه نزلت لكي تحيط بالأعناق

كالشمسِ في كَبِدِ السماءِ مَحَلُّها		وشُعَاعُها في سائرِ الآفاقِ

٢٥٨ أحسنت

أيُّها البَيْهَقيُّ أحسنْتَ في شعـ		ـرِكَ إحسانَ ذي طِبَاعٍ وحِذْقِ
قَرَّطَ اللَّهُ بَظْرَ أمِّكَ بالدُّرِّ		فقد أَنْجَبَتْ بِشاعِرِ صِدْقِ

جعل الله بظر أمك محلى بقرط (حلق) من الدر

٢٥٩ فتَّتا كبدي

وقال في الفراق:

أَطْبَقْتُ للنَّوْمِ جَفْناً ليس يَنْطَبِقُ		وبِتُّ والدمعُ في خَدَّيَّ يَسْتَبِقُ
لم يسترِحْ مَنْ له عينٌ مُؤَرَّقَةٌ		وكيف يعرِفُ طَعْمَ الرَّاحَةِ الأَرِقُ؟
محمدٌ وعليٌّ فَتَّتا كَبِدي		إذا ذَكَرْتُهُما والعِيسُ تَنْطَلِقُ

العيس: الجمال

خِلَّانِ حَلَّ بقلبي مِنْ فراقِهِما		ما كنتُ أخشى عليه قبلَ نَفْتَرِقُ
قلبٌ رقيقٌ تَلَظَّتْ في جوانِبِه		نارُ الصَّبابَةِ حتى كادَ يحترقُ

٢٦٠ عذارى

وثُــــدِيٌّ نَـــــاهِـــــدَاتٌ   لـــم يُـخَـضِّـدْهـا الـعِـنـاقُ

يخضدها: يهرسها

بـيْـنَـهــا حَـلْـيٌ نَـفـيـسٌ   كُـفْـؤُهُ تـلـكَ الـحِـقَـاقُ

كفؤه: تناسبه، الحقاق: علب الجواهر

فـــي صُـــدُورٍ سَـــالِـيـــاتٍ   لــم يُـلَـذِّعْـهَـا الـفِـراقُ

٢٦١ مصداقاً لقولي

ما قلتُ فيكَ هِجاءً خِلْتُهُ كَذِباً   إلّا بَدَتْ منكَ سَوْءاتٌ تُحَقِّقُهُ

٢٦٢ حجة الزنديق

وقال يهجو إسماعيل بن بلبل:

خَفِّضْ أبا الصقرِ فَكَمْ طائرٍ   خَرَّ صريعاً بعدَ تحليقِ
زُوِّجْتَ نُعْمَى لم تَكُنْ كُفْئَهَا   فَصَانَها اللَّهُ بِتَطْليقِ
وكُلُّ نُعْمَى غيرِ مَشكورَةٍ   رَهْنُ زَوالٍ بعد تَمْحِيقِ
لا قُدِّسَتْ نُعْمَى تَسَرْبَلْتَها   كَمْ حُجَّةٍ فيها لِزِنْدِيقِ

النعمة التي تسربلتها (لبستها) كانت حجة للزنديق الذي يقول: غير عدل من الله أن يعطي النعمة لمن لا يستحقها

٢٦٣ بغيض العراق

وثقيلٍ جَلِيسُهُ في سِياقِ   ساعةٌ منه مثلُ يومِ الفراقِ

لفظة الديوان: في سباق، ونحسبها (في سياق)، والسياق النزع والاحتضار

كَشَجا الحَلْقِ لا يَسُوغُ، ولا يُلْـ   ـفَظُ بينَ اللُّهَى وبينَ التَّراقي

شجا الحلق: ما يعلق بالحلق من شوك أو عظم، فلا ينزل في بلعوم ولا يلفظ، واللهى تلك اللحمة في الحلق التي تراها مبيضة بالقيح عندما تُفَلْوِز، والتراقي: جمع ترقوة وهي عظمة تصل النحر بالكتف

قد قضَى اللَّهُ مَوْتَه منذُ حينٍ   واحْتَوى الموتُ نفسَه، وَهْوَ بَاقِ
لا أُسَمِّيهِ باسمِه، قد كَفاني   أنه وَحْدَهُ بغيضُ العِراقِ

٢٦٤ الهجاء أحلى

يقولونَ لي: أَلفاظُ هَجْوِكَ عندَنا إلى القلبِ، مِنْ ألفاظِ مدحِكَ، أَسْبَقُ
فقلتُ لَهُمْ: كِذْبٌ مَديحِيَ فِيكُمُ وهَجْوِي لَكُمْ صِدْقٌ، ولِلْصِّدْقِ رَوْنَقُ

٢٦٥ لطف صنعة الخلاق

وَقَفَتْ وَقْفَةً بِبابِ الطَّاقِ ظَبيةٌ مِنْ مُخَدَّراتِ العراقِ

مخدرات: فتيات مصونات في بيوتهن

بنتُ سَبْعٍ وأَرْبَعٍ وثَلاثٍ أَسرَتْ قَلبَ صَبِّها المشتاقِ
قلتُ: من أنتَ يا غزالُ؟ فقالتْ: أَنا مِنْ لُطْفِ صَنْعَةِ الخَلَّاقِ
لا تَرُمْ وصلَنا فَهذَا بَنانٌ قَدْ صَبَغْنَاهُ مِنْ دَمِ العُشَّاقِ

وبنانها، أي أطراف أصابعها، مصبوغة بالحناء

٢٦٦ كل واشكر

يمدح المنصوري:

عِشْ في ذَرَاهُ، ودَعْ عَدَاوَتَهُ وأنتَ في الخُلْدِ تَرْتَعي رَغَدَكْ

ذراه: حمايته

يا مَنْ يُعَادِي السَّماءَ أَنْ رُفِعَتْ كُلْ خيرَها تَحتَها ودَعْ نَكَدَكْ

٢٦٧ بيتي جسد لروحي

يمدح سليمان بن عبد الله:

أَعُوذُ بِحَقْوَيْكَ العَزيزينِ أَنْ أُرَى مُقِرّاً بِضَيْمٍ يَترُكُ الوجهَ حَالِكا

أنا ألجأ إلى حقويك (جانبيك) حتى لا أسلِّم بالظلم الذي يسوِّد الوجه

ولِي وَطَنٌ آليتُ أَلَّا أبيعَه وأَلَّا أَرَى غيرِي له الدَّهرَ مالِكا

وطن: بيت، آليت: حلفت. يتكلم عن بيته وليس عن الوطن كما نفهمه اليوم

عَهِدْتُ به شَرْخَ الشبابِ ونِعْمَةً كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالِكا

شرخ الشباب: أوله

فقدْ أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنه لها جسدٌ، إنْ بَانَ غُودِرْتُ هالِكا

بيتي كالجسد لروحي، وإذا بانَ (فارَقَ) غودرتُ (تُركتُ) هالكاً

وحَبَّبَ أوطانَ الرجالِ إليْهِمُ   مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالِكا

مآرب: حاجات

إذا ذَكَرُوا أوطانَهُمْ ذَكَّرَتْهُمُ   عهودَ الصِّبا فيها، فَحَنُّوا لذلِكا
وقد ضَامَنِي فيه لَئيمٌ وعَزَّنِي   وهَا أنا منه مُعْصِمٌ بحِبَالِكا

ضامني: ظلمني، عزني: أرغمني، معصم: متمسك

وأَحْدَثَ أَحْدَاثاً أَضَرَتْ بِمَنْزلي   يُرِيغُ إلى بَيْعِيهِ منه المَسَالِكا

يريغ المسالك: يتحايل، بيعيه منه: يريد مني أن أبيعه منزلي

وراغَمَنِي فيما أتَى من ظُلامَتِي   وقالَ ليَ: اجْهَدْ فيَّ جَهْدَ احتيالِكا
فمَا هُوَ إلَّا نَسْجُكَ الشِّعْرَ سادِراً   وما الشعرُ إلَّا ضَلَّةٌ من ضَلالِكا

سادراً: سائراً على غير هدى. يقول له ذلك الجار: قصاراك أن تكتب شعراً أيها الضال

يُعَيِّرُ سُؤَّالَ الملوكِ، ولم يكنْ   بِعَارٍ على الأحرارِ مثلُ سُؤَالِكا
مُدِلّاً بِمَالٍ لم يُصِبْهِ بِحِلِّهِ   وحَقِّ جلالِ اللَّهِ ثم جَلالِكا

مدلاً (مفتخراً) بمال لم يصبه (يكسبه) بحله (حلالاً).. ثم يحلف ابن الرومي

وإنِّي، وإنْ أضحَى مُدِلّاً بمالِه،   لآمُلُ أنْ أُلْفَى مُدِلّاً بِمَالِكا
فإنْ أَخْطَأَتْنِي من يَمِينِكَ نِعْمَةٌ   فَلا تُخْطِئَنْهُ نِقْمَةٌ من شِمالِكا
فَكَمْ لقِيَ العَافُونَ عَوْداً وبَدْأَةً   نَوالَكَ، والعَادُونَ مُرَّ نَكَالِكا

العافون: الفقراء، العادون: المعتدون، نكالك: تنكيلك بهم

٢٦٨ اعتذار

وقال في الحسن بن عبيد الله بن سليمان:

قد أَوْبَقَتْنِي ذنوبٌ لستُ أعْرِفُها   فاجْعَلْ تَغَمُّدَها من بعضِ إحسانِكْ

أوبقتني: أهلكتني

بحقِّ مَنْ أنتَ رَاجِيهِ وخَائِفُهُ   جُدْ باغْتِفَارٍ، وأَخْمِدْ بعضَ نِيرانِكْ
وزِنْ ذُنوبِي بما أَسْلَفْتُ من حَسَنٍ   فإنَّنِي لَستُ أخشَى ظُلْمَ ميزانِكْ

٢٦٩ أما يستفزك التحريك؟

وقال في ابن حريث وجاريته بنان:

إنـمـا يَـقْـتَـنـي الـدجَـاجَـةَ دِيـكٌ   بِعْ (بُنَـانـاً) فـأنـتَ عـنـهـا غَـنِـيٌّ
مَـلَـكَـتْـهـا الـفُـحـولُ دونَـكَ يا شيـ   ـخُ جَـهَـاراً، ولـم يَـقَـعْ تَـمْـلِـيـكُ
كـلَّ يـومٍ لَـهَـا بِـغـيـرِكَ عِـرْسٌ   لَـكَ مـنـه الـدُّعَـاءُ والـتَّـبْـريـكُ

عِرس: زوج

يـا ثـقـيـلَ الـقُـرونِ، يـا جَـبَـلَ الـعَـا   رِ، أَمَـا يَـسْـتَـفِـزُّكَ الـتَّـحْـرِيـكُ؟

٢٧٠ خشية التقصير

وقال في خالد القحطبي:

وكـنـتُ إذا أَنْـفَـذْتُ فـيـكَ قـصـيـدةً   فأنجزْتُها، استغفرتُ ربِّي هنالِكا
فَـيَـحْـسَـبُ قَومي ذاكَ مِنِّي تَأَثُّماً؛   ومِنْ خَشْيةِ التَّقصيرِ أَفْعَلُ ذَلِكا

تأثماً: خوفاً من الإثم

٢٧١ الطويل البطيء

شهرٌ طويلٌ ثقيلُ الظلِّ والحَرَكَةْ   شهرُ القِيامِ، وإنْ عَظَّمْتَ حُرمَتَه،
فَلا السُّلَيْكُ يُدَانِيهِ ولا السُّلَكَةْ   يمشي الهُوَيْنا، وأمَّا حينَ يَطْلُبُنا

السليك: من عدائي العرب، والسلكة: أمه، ولها فيه مرثية محفوظة

كـأنـه طَـالِـبٌ ثَـأْراً عـلـى فَـرَسٍ   أَجَدَّ في إِثْرِ مَطْلوبٍ على رَمَكَةْ

رمكة: فرس بطيئة

أَذُمُّـهُ غـيـرَ وقـتٍ فـيـه أَحْـمَـدُهُ   منذُ العِشَاءِ إلى أنْ تَسْقَعَ الدِّيَكَةْ

تسقع: تصيح

وكـيـفَ أَحْـمَـدُ أَوْقـاتـاً مُـذَمَّـمَـةً   بينَ الذُّؤوبِ وبيَن الجوعِ مُشْتَرَكَةْ؟
يـا صِـدْقَ مـن قـالَ: أيَّـامٌ مُـبَـارَكَـةٌ   إن كانَ يَكْنِي عنِ اسمِ الطُّولِ بالبَرَكَةْ

٢٧٢ سل ولا تمدح

إذا ما مَدَحْتَ المرءَ تَطْلُبُ رِفْدَهُ   ولـم تَـرْجُ فـيـه الـخَـيْـرَ إلَّا بِـبَـذْلِـكـا

فأنتَ له أَهْجَى البَرِيَّةِ نِيَّةً وإنْ كنتَ قد أَطْرَيْتَه في مَقَالِكا
وأَمْدَحُ ما تُلْفَى لِمَنْ أنتَ سَائِلٌ إذا مَا طَرَحْتَ المَدْحَ عندَ سُؤَالِكا

طرحت: ألغيت

وطالَبْتَ جَدْوَاهُ بِغيرِ وَسِيلةٍ كما طَالَبَتْ يُمْنَاكَ ما في شِمَالِكا

٢٧٣ يا صاحب المعالي، يا بغل

وقال في إسحاق بن دُليل:

هُوَ بغلٌ وعَدْتَنِيهِ فإنْ أَخْـ ـلَفْتَ ضَاهَتْ أخْلاقَهُ أخلاقُكْ

وأخلاق البغل على ما وصفها الجاحظ، معاصر ابن الرومي، أنه متلون وقتال لصاحبه

فاتَّقِ اللَّهَ أن يَشِينَكَ خُلْفٌ فالمَعَالِي وأهلُها عُشَّاقُكْ
والقَوافي إذا طَلَبْنَكَ يوماً غيرُما مُعْجِزٍ لَهُنَّ لِحاقُكْ
لا سَلالِيمُكَ الطِّوَالُ يُنَجِّيـ ـنَكَ مِنْ سَطْوَتِي ولا أَنْفَاقُكْ

٢٧٤ استعارة الكتب

وقال في أبي الحسين محمد بن أحمد المعلي، وكان قد استعار منه كتابا فضيعه:

مَنحتُكَ مِصباحاً فَأَعْشَاكَ ضَوْؤُهُ وقد كان ظَنِّي أنه سَيُرِيكَا

أعشاك: أضعف بصرك

نَسَخْتَ كِتابي ثم كَافَأْتَ نَسْخَهُ بِتَضْيِيعِهِ، أَخْلَفْتَ ظَنِّيَ فِيكَا

٢٧٥ أتاني عنك

وقال في أبي عيسى بن القنوط، وقد بلغه أنه عاب شعره:

وَثَبْتَ على الهِزَبْرِ وأنت كَلْبٌ ولم تَحْسَبْهُ يَنْشَطُ لافتِرَاسِكْ

الهزبر: الأسد

أتاني عنكَ أنكَ عِبْتَ شِعري وما زِلْتَ المُضَلَّلَ في قِياسِكْ
فقلتُ: عَسَاهُ كان به نُعَاسٌ وعِنديِ ما يُطَيِّرُ مِنْ نُعَاسِكْ
هِجَاءٌ إن سَكَنْتَ له تَمَادَى وإنْ شَامَسْتَ ذَلَّلَ مِنْ شِمَاسِكْ

شامست: تمردت

٢٧٦ التفسير لغيرك

وقال وقد مدح عبيد الله بن عبد الله، ونسخ القصيدة له، وفسر غريبها. وكان فعل مثل ذلك بعلي بن يحيى بن أبي منصور المنجم:

لـم أُفَسِّرْ غَـريبَـهـا لَـكَ، لـكـنْ ... لامْـرِئٍ يَـجـهَـلُ الـغَـريـبَ سِـواكَـا

غريبها: كلماتها الصعبة

غـيـرَ أنّـي أَمَّـلْـتُ حُـظْـوَةَ شِـعـري ... حـيـنَ تَـرعَـى رِيَـاضَـهُ عَـيْـنـاكَـا
فَـشَـرَحْـتُ الـغَـريـبَ فـيـهِ رَجَـاءً ... أَنْ يُــرَوَّاهُ ذاتَ يــومٍ فَــتَــاكَــا

٢٧٧ يا أخي!

وقال في خالد القحطبي:

أَخـالـدُ قـد عَـادَيْـتَ فِـيَّ كَـراكَـا ... وأَتْـعَـبْـتَ فـي حَـوْكِ الـقَـرِيضِ قُـوَاكَـا

كراك: نومك

فَـلا تَـهْـجُـنـي إِنّـي أَخُـوكَ لآدَمٍ ... وَحَـسْـبـي هِـجَـاءً أَنْ أَكُـونَ أَخَـاكَـا

٢٧٨ صدأ الذهب

وقال في ابن موسى الزمن:

أَتَـأْمُـرُ بِـالـتَّـقَـزُّزِ مِـنْ كَـلامـي ... وذِكْـرُكَ يُـصْـدِئُ الـذَّهَـبَ الـسَّـبِـيـكَـا
أَتَـنْـتَـحِـلُ الـتَّـقَـزُّزَ يَـا ابْـنَ حُـسْـنٍ ... وحَـجَّـامُ الـقَـبـيـلـةِ يَـمْـتَـطِـيـكَـا؟

تنتحل: تدَّعي

٢٧٩ افرح بالشهرة

وقال في لحية الليف:

أَبِـعَـقْـلِ الـمُـعَـلِّـمـيـنَ يُـعَـابُ الـشِّـ ... ـعرُ؟ أَبْرِي في القَعْرِ مِنْ بَظْرِ أُمِّكْ!
لستَ عِندي إنْ عِبْتَ شِعري مَلُوماً ... لَـكَ عُـذْرٌ لَـدَيَّ فـي ضِـيـقِ عِـلْـمِـكْ
لِـقَـرِيـضـي يـا ابـنَ الـزَّوانـي مَـعَـانٍ ... قَـصَّـرَتْ دونَـهَـا مَـذاهِـبُ فَـهْـمِـكْ
هُـنْـتَ عِـنـدي، فـلا مَـديـحُـكَ يُـهْـدِي ... لـي سُـروراً، ولا أُسَـاءُ بِـذَمِّـكْ
قد أَرَدْتُ الإعْـرَاضَ عـنـكَ احـتِـقـاراً ... لَـكَ، لا أَنَّـنـي جَـنَـحْـتُ لِـسِـلْـمِـكْ

فَـتَـذَكَّـرْتُ مُـوبِـقَـاتِ ذُنـوبـي   فَرَجَوْتُ الخُرُوجَ منها بِشَتْمِكْ
فـاحْـمَـدِ الـلَّـهَ قـد رُزِقْـتَ هِـجـاءً   بعدَ طُولِ الخُمولِ نَوَّهَ باسْمِكْ

الخمول: عدم الشهرة

٢٨٠ وحيداً على القمة

ومـنْ كَـثُـرَتْ فـي مـالِـهِ شُـرَكَـاؤُهُ   غَـدَا فـي مَـعـالِـيـهِ قـلـيـلَ الـمُـشَـارِكِ
حَـبَـانـي بِـمَـا يَـغْـيَـا بـه كُـلُّ رَافِـدٍ   وحَـبَّـرْتُ مـا يَـعْـيَـا بـه كُـلُّ حَـائِـكِ

حبَّرت: صنعت الثوب الفاخر (من الحِبَرَة أي الثوب)

٢٨١ انظر عاقبتك

نَـبْـلُ الـرَّدَى يَـقْـصِـدْنَ قَـصْـدَكْ   فَـأَحِـدَّ قـبـلَ الـمـوتِ حَـدَّكْ
قـد عَـدَّ قَـبْـلَـكَ مـن رَأَيْـ   ـتَ، ولَـسْـتَ تَـلْـبَـثُ أَنْ يَـعُـدَّكْ
فَـدَعِ الـبِـطَـالَـةَ والـغَـوَا   يَـةَ جَـانِـبـاً، وعَـلَـيْـكَ رُشْـدَكْ

البطالة: اللهو والأعمال الباطلة

فَـكـأَنَّـنـي بِـكَ قـد نُـعِـيـ   ـتَ، وقـد بَـكَـى الـبَـاكـونَ فَـقْـدَكْ
وتَـرَكْـتَ مـنـزلَـكَ الـمَـشِـيـ   ـدَ مُـعَـطَّـلاً، وسَـكَـنْـتَ لَـحْـدَكْ
وسَـلاكَ أهـلُـكَ كُـلُّـهُـمْ   ونَـسُـوا عـلـى الأيّـامِ عَـهْـدَكْ
يـتـمَـتَّـعـونَ وأَنْـتَ تـحـ   ـتَ الـرَّمْـسِ يَـرعَـى الـدُّودُ جِـلْـدَكْ

الرمس: القبر

قـد سَـلَّـمُـوكَ إلـى الـضَّـرِيـ   ـحِ وَوَسَّـدُوا بِـالـتُّـرْبِ خَـدَّكْ
كـم قـد دَفَـنْـتَ أَحِـبَّـةً   حَـلُّـوا مَـحَـلَّ الـنَّـفْـسِ عِـنْـدَكْ
أُنْـظُـرْ إلـى أَهْـلِـيـهِـمُ   فَـكـذلـكَ الـبَـاقُـونَ بَـعْـدَكْ

٢٨٢ لك أنثى

وقال في خالد القحطبي:

أيُّـهـا الـقَـحْـطَـبِـيُّ مَـا ضَـرَّ نَـاري   ما هَوَى في جَحِيمِها مِنْ فَرَاشِكْ
ضَحِكَتْ مِنْكَ مُحْكَمَاتُ القَوافي   حينَ عَارَضْتَ وَابِلي بِرَشَاشِكْ

لـكَ أُنْـثَـى تَـزِيـفُ فـي كُـلِّ عُـشٍّ   وتُـرَبِّـي الـفِـرَاخَ فـي أَعْـشَـاشِـكْ

تزيف: تسحب جناحيها

٢٨٣ قمة الشماتة

قال لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل لما نكبه الموفق أبو أحمد:

لـو تَـسْـجُـدُ الأيَّـامُ مـا سَـجَـدَتْ   إلَّا لِـيَـوْمٍ فُـتَّ فـي عَـضُـدِكْ

فُتَّ في عضدك: أضعفت قوتُك

يَـا نِـعْـمَـةً وَلَّـتْ غَـضَـارَتُـهـا   مـا كـانَ أَقْـبَـحَ حُـسْـنَـهـا بِـيَـدِكْ

غضارتها: طيبها

لـم يَـبْـقَ لـي مِـمَّـا بَـرَى جَـسَـدِي   إلَّا بَـقَـاءُ الـرُّوحِ فـي جَـسَـدِكْ

٢٨٤ البيت الأخير

قال أبو عثمان الناجم: دخلت على ابن الرومي في اليوم الذي توفي فيه، فلما قمت للانصراف قال لي:

تَـمَـتَّـعْ مِـنْ أَخِـيـكَ فـمَـا أَراهُ   يَـراكَ، ولا تَـراهُ بـعـدَ يَـوْمِـكْ

٢٨٥ المعجل والمؤجل

وقال يعاتب أبا سهل بن نوبخت:

أرى العُرْفَ شُرْباً لا يَصِحُّ صَفَاؤُهُ   إذا وَقَـعَـتْ فـيـه قَـذَاةٌ مِـنَ الـمَـطْـلِ

قذاة: قشة أو وسخة، المطل: التسويف

تَـأَمَّـلْ - أبا سَهْلٍ - بِعَيْنٍ بَصيرةٍ   ولا تَـخْلِطَنَّ الجِدَّ في ذَاكَ بِالهَزْلِ

أَسَخَّى عنِ الدَّارِ المُقِيمِ نَعيمُها   سوى أَنَّها شيءٌ يُنَالُ على مَهْلِ؟

هل جعلنا نسخو عن الجنة (نتنازل عنها) سوى أنها بطيئة مؤجلة؟

أمِ اخْتِيرَتِ الدُّنْيا على تِلْكَ زَوْجَةً   لِشَيءٍ سِوى تَعْجيلِها حَاجَةَ البَعْلِ؟

٢٨٦ لا لعمري كلا

لاحَ شَـيْـبـي فَـرُحْـتُ أَمْـرَحُ فـيـهِ   مَرَحَ الطِّرْفِ في العِذَارِ المُحَلَّى

الطرف: الحصان، العذار المحلى: كمامة عيني الحصان المزركشة. وتسألني لماذا قالوا إن ابن الرومي غواص على المعاني؟

وتَوَلَّى الشبابُ، فازْدَدْتُ رَكضاً   في مَيادِينِ بَاطِلي، إذ تَوَلَّى
إنَّ مَنْ ساءَهُ الزَّمانُ بِشَيءٍ   لأَحَقُّ امْرِئٍ بأنْ يَتَسَلَّى
أَتَرَى أنْ أَسُوءَ نفسيَ لَمَّا   ساءَني الدَّهْرُ؟ لا لَعَمْريَ كَلَّا

٢٨٧ كونوا لا عليها ولا لها

وقال في آل وهب:

تَخِذْتُكُمُ دِرْعاً وتُرْساً لِتَدْفَعُوا   نِبَالَ العِدَا عَنِّي، فَكُنْتُمْ نِصالَها
وقد كنتُ أرجُو منكُمُ خيرَ نَاصِرٍ   على حينِ خِذْلانِ اليَمِينِ شِمَالَها
فإن أَنْتُمُ لم تحفَظُوا لِمَوَدَّتي   ذِمَاماً، فَكُونُوا لا عَلَيْها ولا لَها
قِفُوا مَوْقِفَ المَعْذُورِ عني بِمَعْزِلٍ   وخَلُّوا نِبَالي، والعِدَا ونِبَالَها

٢٨٨ تثور وتبرك بحمدكم

وقال في القاسم:

آلَ وَهْبٍ هُنِّيتُمُ هِبَةَ اللـ   ـهِ، فما زِلتُمُ لَها أَشْكَالا
كم رَجَاءٍ فيكُمْ أَثَارَ جِمَالاً   وعَطاءٍ منكُمْ أَنَاخَ جِمَالا

الراجون خيركم يثيرون جمالهم (يبعثونها من مباركها ليبدأوا رحلتهم)، وعندما يغادرون يكون عطاؤكم ثقيلاً على ظهورها ينيخها فلا تقوم إلا بمشقة

٢٨٩ مروض النحو

بلغه عن الأخفش الأصغر كلام كرهه فهجاه، فاعتذر إليه الأخفش، فقبل عذره وقال:

ذُكِرَ الأخْفَشُ القديمُ فقُلْنا: إنَّ لِلأَخْفَشِ الحَدِيثِ لَفَضْلا

الأخفش القديم معلم سيبويه، والحديث صاحبنا هذا الذي كان يكثر من ممازحة ابن الرومي ويثقل عليه (ولعل ما قصده ابن الرومي بالأخفش القديم من أخذ أهل النحو يدعونه بالأخفش الأوسط، فقد جعل ابن الرومي الأخافش أخفشين فقط كما يتضح من البيت التالي)

بَدَأَ النَّحْوُ نَاشِئاً فَغَذَاهُ   أَحْدَثُ الأخْفَشَيْنِ فَانْصَاتَ كَهْلا

انصات: استقام، كهلاً: مكتمل الرجولة (والكهل في اللغة بين الثلاثين والخمسين من العمر، ويحسبه المحدثون العجوز الهرم)

وتَـعَـاصَـى فَـقَـادَهُ بِـيَـدَيْـهِ   أَحْدَثُ الأَخْفَشَيْنِ فانْقَادَ رَسْلا

تعاصى: عصلج وامتنع، رسلاً: سهلا مسترخياً

٢٩٠ التعزي بمصائب الغير

خَلِيلَيَّ قد عَلَّلْتُمَانيَ بالأَسَى   فَأَنْعَمْتُما، لو أنني أتَعَلَّلُ

هوَّنْتما علي مصابي بالأسى (الحزن) الذي أصاب غيري

وما رَاحَةُ المَرْزُوءِ في رُزْءِ غيرِه   أَيَحْمِلُ عنه بَعْضَ ما يَتَحَمَّلُ؟

فهل المرزوء (المصاب) يستريح بمصيبة غيره؟

وضَرْبٌ منَ الظُّلْمِ الخَفِيِّ مَكَانُهُ   تَعَزِّيكَ بِالمَرْزُوءِ حينَ تَأَمَّلُ

وثمة ظلم خفي الموضع في هذا، لو تأملت: أن تجد راحة في مصيبة غيرك

٢٩١ لا تفرح بالصلح

وقال في الأخفش بعد ما صالحه:

ولا تَحْسَبَنَّ الصُّلْحَ أَنْصَلَ آلَتِي   ولا أنني في هُدْنَةِ السِّلْمِ أَغْفُلُ

أنصل: أضعف، آلتي: سلاحي

فإن هَاجَتِ الهَيْجَاءُ أو عَادَ عَوْدُها   على بَدْئِها لم يُلْفَ مِنِّيَ أَعْزَلُ

ولِي بعدَ إِعطائِي الوَثِيقَةَ حَقَّها   بَدَائِهُ لا يَخْذُلْنَني حينَ أَعْجَلُ

بدائه: جمع بديهة، ومعناها هنا: سداد الرأي عند المفاجأة

٢٩٢ ستر الصلعة

يَسُوقُ من نُقْرَتِهِ طُرَّةً   إلى مَدًى يَقْصُرُ عن نَيْلِهْ

نقرته: مؤخر رأسه، طرة: غرة، فهو يرفع شعر مؤخر الرأس ليغطي الصلعة

فَوَجْهُهُ يَأْخُذ من رَأْسِهِ   أَخْذَ نهارِ الصيفِ من ليلِهْ

يا أَيُّها الهَارِبُ من دَهرِهِ   أدرَكَكَ الدهرُ على خَيْلِهْ

٢٩٣ بالوعة العقل

تَفَرَّسْتُ في الشِّطْرَنْجِ حتى عَرَفْتُها   فإنْ صَحَّ رَأْيِي فَهْيَ بَالُوعَةُ العقلِ

البالوعة: مصرف القاذورات

إليها يُغيِضُ العقلُ ما شَابَ صَفْوَهُ   من الـهَـذَيـانَـاتِ الشَّـنِيعَـةِ والـهَـزْلِ

يُغيض: يَصُبّ. فلعب الشطرنج يلتهم أحلام اليقظة ويلتهم الأفكار السوداء ويشغل البال عن الهذيان

٢٩٤ لعاب الليل

وقال في أبي حفص الوراق:

حِبْـرُ أبـي حَـفْـصٍ لُـعَـابُ الـلَّـيْـلِ
كـــأنَّـــهُ ألـــوانُ دُهْـــمِ الـــخَـــيْـــلِ

دهم الخيل: الخيل السود

٢٩٥ التدرب على البخل

وقال يعاتب أبا بكر الطالقاني:

رأيـتُ الـمَـطْـلَ مَـيْـدَانـاً طـويـلاً   يَـرُوضُ طِـبَـاعَـهُ فـيـه الـبَـخِـيـلُ

كأن البخيل يتدرب على البخل ويروض طبعه في ميدان التسويف

يُـرَاوِدُ عـن جَـدَاهُ نَـفْـسَ سُـوءٍ   تَـرَى أن الـجَـدَا رُزْءٌ جـلـيـلُ

يراود البخيل نفسه السيئة عن الجدا (العطاء).. أي يحاول منعها من المنح

فَـمـا هـذا الـمِـطَـالُ، فِـداكَ أهـلـي   وبـاعُـكَ بـالـنَّـدَى بـاعٌ طَـويـلُ؟
أَظُـنُّـكَ حـيـنَ تَـقْـدُرُ لـي نَـوَالاً   يَـقِـلُّ لـدَيْـكَ لـي مـنـه الـجَـزيـلُ
ويُـعْـوِزُكَ الـذي تَـرْضَـى لِـمِـثْـلـي   وإن لـم يُـعْـوِزِ الـرأيُ الـجـمـيـلُ
وفـيـمـا بـيـنَ مَـطْـلِـكَ واخْـتِـلالـي   يَـمُـوتُ بِـدائِـه الـرجـلُ الـهـزيـلُ
فـلا تَـقْـدُرْ بِـقَـدْرِكَ لـي نَـوَالاً،   ولا قَـدْرِي فَـتَـحْـقِـرُ مـا تُـنِـيـلُ

لا تعين لي نوالاً (عطاء) كبيراً بقدر قيمتك، ولا عطاء ضيئلاً بقدر قيمتي

وأَطْـلِـقْ مـا تَـهُـمُّ بـهِ، عَـسَـاهُ   كَـفَـانـي أيُّـهـا الـرجـلُ الـنَّـبـيـلُ
وإلَّا فـالـسَّـلامُ عـلـيْـكَ مِـنِّـي؛   نَـبَـتْ دارٌ فَـأَسْـرَعَ بـي رَحـيـلُ
ومَـنْ يَـكُ مـن ثَـنـائـيَ مُـسْـتَـقِـيـلاً   فـإنِّـيَ مِـنْ جَـدَاهُ مُـسْـتَـقِـيـلُ
سَتَحْكُمُ بينَنا القُلُصُ النَّواجي   ويُـبْـعِـدُ بـيـنَ دَارَيْـنـا الـذَّمِـيـلُ

القلص: النياق، النواجي: السريعة، الذميل: ركض الإبل

لَـجَـأْتُ إلـيْـكُـمْ فـخَـذَلْـتُـمـونـي   وضِـفْـتُـكُـمُ فـمَـا قُـرِيَ الـنَّـزِيـلُ

قري: أطعِم

وأَحْـسَـبُ أنَّ عِـرْضَـكَ عـنْ قَـلـيـلٍ   ـ أَبَـا بَـكْـرٍ ـ هُـوَ الـعِـرْضُ الـفَـتـيـلُ

عن قليل: بعد قليل، الفتيل: المفتول. هل تعرف حكاية موظف المالية الذي ذهب إلى الخياط بقطعة قماش؟ هاكها: موظف محترم في وزارة المالية جاءته كوبونة (قطعة قماش فريدة ليس في البلد مثل نقشتها) هدية، فذهب بها إلى الخياط. قال له: «فصل لي بذلة. لكن لا أريد القلم معوجاً، والأكمام لا أريدها مشنَّكة (تتغضن برفع الذراع) ولا تجعل لها حشوة سميكة خشنة كبردعة الحمار، وإياك أن تجعل لها فتحتين من الخلف كالشباب الصائعين، ثم إنني قد أعود وأراك جعلت البنطلون قصيراً أو حبكت البطانة بغرزة بارزة، ألا لعنة الله على كل الخياطين. هات. هات الكوبونة.» وأخذها وانصرف، والخياط لم يقل كلمة واحدة. هكذا صنع ابن الرومي مع أبي بكر الطالقاني المسكين

٢٩٦ قومي بنو العباس

قَـوْمـي بَـنُـو الـعـبـاسِ حِـلْـمُـهُـمُ   حِـلـمـيِ هـنـاكَ، وجَـهْـلُـهُـمْ جَـهـلِـي

الجهل: المواجهة بالعنف

نَـبْـلـي نِـبَـالُـهُـمُ إذا نَـزَلَـتْ   بـي شِـدَّةٌ، ونِـبَـالُـهُـمْ نَـبْـلـي
لا أَبْـتَـغـي أبـداً بِـهِـمْ بَـدَلاً   لَـفَّ الإلـهُ بِـشَـمْـلِـهِـمْ شَـمْـلـي
ومـتـى وَرَدْتُ حِـيـاضَـهُـمْ مَـعَـهُـمْ   لـم يَـشْـرَبـوا صَـفَـواتِـهَـا قَـبْـلـي
قَـومٌ غَـدَا بِـرِّي وتَـكْـرِمَـتـي   من شُغْلِهِمْ، ومَـدِيـحُـهُـمْ شُـغْـلـي
مـولاهُـمُ وغَـذِيُّ نِـعْـمَـتِـهِـمْ   والـرُّومُ حـيـنَ تَـنُـصُّـنـي أَصْـلـي

تنصني: تنسُبني

ومتَى اعتَصَمْتُ بِهِمْ فَهُمْ جَبَلي   ومـتـى رَعَـيْـتُـهُـمُ فَـهُـمْ سَـهْـلِـي

٢٩٧ قليل قذاة العين

طَـرَفْـتُ عـيـونَ الـغـانِـيـاتِ، وربـمـا   أَمَـالَـتْ إلـيَّ الـطَـرْفَ كَـلُّ مَـمِـيـلِ
ومـا شِـبْـتُ إلا شَـيْـبَـةً غـيـرَ أنـه   قَـلـيـلُ قَـذَاةِ الـعـيـنِ غـيـرُ قـلـيـلِ

قذاة العين: الوسَخة تقع فيها

٢٩٨ أرزاق

يهجو بني ثوابة:

أطاقَتْ براذِينُكُم حَمْلَكُمْ   لأنَّ البهائِمَ لا تَعقِلُ

البرذون: الحصان غير العربي يتخذ للركوب، يصفهم بالثقلاء

ولِلَّهِ في خلقِه حكمةٌ   بها خُوِّلَ الناسُ ما خُوِّلُوا

خُوِّل: وُهِب

٢٩٩ محصل الضرائب

يمدح إبراهيم بن المدبر:

لِمَ لا تَكونُ لدَى إمَامِكَ مرتَضىً   لا يَبْتَغي بكَ في الكُفَاةِ بَديلا؟

الكفاة: الأكفاء

تَجْبي لهُ مالَ البِلادِ وحَمْدَها   إذْ لا تُضِيعُ من الحقوقِ فَتِيلا

أنت تجبي الضرائب والخراج وأيضاً تجبي شكر الناس للخليفة لأنك تراعي الحق، والفتيل (في الأصل): ذلك الخيط في شق نواة التمرة

قالَ الإمامُ، وقد جمعْتَهُمَا له   حَظَّانِ مِثْلَهُمَا بمثلِكَ نيلا:

أنتَ الذي يَمْرِي اللِّقاحَ برفْقِهِ   مِلءَ الوِطَابَ، ولا يُجِيعُ فَصِيلا

يمري اللقاح: يحلب النياق، الوطاب: الوعاء، الفصيل: ولد الناقة

أَسْمَعْتَهُ شُكْرَ الرَّعِيَّةِ بعدَما   جَارَ الوُلاةُ فَأَسْمَعُوهُ عَوِيلا

ولقد بَلاكَ الطَّالِبُونَ فَثُبِّطُوا   أنْ يُدْرِكُوكَ، وخُذِّلُوا تَخْذِيلا

بلاك: اختبرك، الطالبون: المنافسون الذين يطلبون وظيفتك لأنفسهم، ثبطوا: أحبطوا

ورَأَوْا مكانَكَ رَيْثَما أخْلَيْتَهُ   كَمَكانِ بعضِ الرَّاسِيَاتِ أُزِيلا

ريثما: عندما، الراسيات: الجبال

فَسَرَوْا على حَرَدٍ إليْكَ، وأَعْمَلُوا   طَلباً يَحُثُّ بهِ الرَّعِيلُ رَعِيلا

على حرد: بسرعة، الرعيل: الجماعة من الناس

فَسُتِرتَ دونَهُمُ بِسِتْرِ كَثَافَةٍ   حتى خَفِيت، ومَا خَفِيتَ ضَئِيلا

فَثَنَوْا أَعِنَّةَ راجِعِينَ بِخَيْبَةٍ   كَرُجُوعِهِمْ أيامَ سَاقُوا الفِيلا

هجومهم لنيل منصبك شبيه بهجوم أبرهة الحبشي على مكة ثم ارتد خائباً

ولعلَّهُمْ لو أدْرَكُوكَ لأرسَلَتْ طَيْرُ العَذَابِ عليْهِمُ السِّجِّيلا
ولَعَمْرُ جَمْعِ الزَّنْجِ يومَ لَقِيتَهُمْ مَا صَادَفُوك يَراعَةً إِجْفِيلا

يراعة: جبان، إجفيل: خواف

شَهِدَتْ بِذلكَ في جَبِينِكَ ضَرْبَةٌ كانتَ على صِدْقِ اللِّقَاءِ دَليلا

انظر القطعة رقم ١٦٥ تر ابن الرومي يسبه بهذه الضربة سباً ذريعاً

للَّهِ نَفْسٌ يومَ ذاكَ أَذَلْتَها؛ ولَرُبَّ شَيءٍ صِينَ حينَ أُذِيلا
والحرْبُ تَغلي بِالكُمَاةِ قُدُورُها والموتُ يَأكلُ ما طَهَتْهُ نَشِيلا

الكماة: المسلحون، نشيلاً: منتشلاً من القدر قبل نضجه. أي أن الحرب وضعت المسلحين في قدورها وجعلتهم يغلون، وكان الموت ينتشلهم واحداً واحداً على عجل.
لم أر من نوه بهذه الصورة البديعة، أعجبهم فقط البخيل الذي يغلق أحد منخريه!

تَخِذُوا الحديدَ مَغَافِراً وأَشِلَّةً وتَخِذْتَ صبرَكَ مِغْفَراً وشَلِيلا

المغافر: الخوذات، الأشلة: قُمُص تُلبس تحت الدروع

وإذا أَذَلْتَ النفسَ في طَلَبِ العُلا فَلَتُلْفَيَنَّ لِمَا مَلَكْتَ مُذِيلا
أَتُراكَ بعدَ النفسِ تَبْخَلُ باللُّهَى اللَّهُ جارُكَ أن تكونَ بَخِيلا

اللهى: الصلات

يَفْدِيكَ مَنْ تَفْدي بِمَالِكَ عِرْضَهُ وتَذُودُ عنه الذَّمَّ والتَّبْخِيلا

ليكن البخلاء فداء لك، فأنت تحمي عرضهم..

لولاكَ أصبحَ عِرْضُ كلِّ مُبَخَّلٍ شِلْواً يُمَزِّقُه الهِجَاءُ أَكِيلا

فلولا أنك تعطينا لطلبنا من البخلاء فمنعونا فمزقنا أعراضهم أشلاءً وأكلناهم أكلاً

يَفْتَنُّ فيكَ المادِحونَ، وكُلُّهُمْ يَتَجَنَّبُ التشبيهَ والتَّمثِيلا
فُتَّ العَدِيلَ، فَما يُقَالُ «كَأَنَّه» مَنْ ذا رأى لكَ في الأنامِ عَدِيلا؟
يا مَنْ تَكَفَّلَ لِلعِبادِ بِرِزقِهِمْ أَتَخالُني فِيمَنْ كَفَلْتَ دَخِيلا؟

هل أنا دخيل (داخل) ضمن الذين كفلتهم برعايتك وكرمك؟

سَوَّيْتَ بينَ الخَلْقِ، إلَّا واحداً قد كان يَأْمُلُ عندكَ التَّفْضِيلا
أصبحتُ بينَ خَصَاصَةٍ وتَجَمُّلٍ والمرءُ بينهُما يَموتُ هَزِيلا

خصاصة: جوع، تجمل: ستر للفقر

فـامْـدُدْ إلـيَّ يَـداً تَـعَـوَّدَ بَـطـنُـهـا بَذْلَ النَّوَالِ، وظهرُها التَّقْبِيلا
إنــي رأيـتُــكَ جَـنَّــةً عَـذْنِـيَّــةً قـد هُـدِّلَـتْ ثَـمَـراتُـهـا تَـهْـدِيـلا
حَمَلَتْ فَذَلَّلَتِ الغصونَ بِحَمْلِها وكَفَتْ أَكُفَّ جُنَاتِها التَّذْليِلا

الثمار أثقلت الغصون فتراخت وهبطت وكفت أكف جناتها (قاطفيها) شد الغصون إلى أسفل

خُذْهَا أبا إسْحَقَ صَنْعَةَ شَاعِرٍ صَنِعٍ أطالَ لِفِكْرِهِ التَّمْهِيلا

الصنِع: البارع

وأَطَاعَهُ حَرْفُ الرَّوِيِّ فَلَمْ يَجِئْ فِيه بِمَفْعُولٍ يَشُوبُ فَعِيلا

فالقصيدة كلها (وعدة أبياتها في الديوان ١٥٥ بيتاً) تنتهي بـ «فعيلا»، رغم أن العروض يبيح للشاعر المراوحة بين «فعيل» و«فعول»، غير أنه ـ اقتداراً ـ اقتصر على «فعيل»

كَثُرَتْ مَعَانِي المَدْحِ فيكَ فَهَيَّأَتْ للمَادِحِ التَّكْثِيرَ والتَّطْوِيلا
فَأَطَلْتُ إِيفَاءَ لِمَجْدِكَ حَقَّهُ بل لَسْتُ فيكَ، وإنْ أَطَلْتُ، مُطِيلا

٣٠٠ ترغيب وترهيب

وقال في ابن فراس:

وَسِعْتَ الناسَ إنصافاً وبِرّاً وإفضالاً، فَهُمْ لَكَ كالعِيالِ
سِوَايَ، فإنَّنِي أُوسِعْتُ خَسْفاً بَلا جُرْمٍ، وأَعْجَبَكَ احْتِمالي

خسف: ظلم

على أَنِّي أُعَادِي مَنْ تُعَادِي كما أنِّي أُوَالِي مَنْ تُوَالِي
أَعِدْ نَظَراً أبا حَسَنٍ، فإنِّي أراكَ وَهِمْتَ في أَمرِي وحَالي
أَزُورُ فَلا أَرَى منكَ اهْتِشَاشاً كَما أَنِّي أَغِيبُ فلا تُبَالي

اهتشاشاً: بشاشة

وقَدْ يُؤْتَى هَجُورٌ مِنْ سُلُوٍّ كما يُؤْتَى زَؤُورٌ مِنْ مَلالِ

الذي يكثر الهجران قد يُنسى، ومكثر الزيارة يُمل

ولم أُكْثِرْ فَأُوجِبْ عُذْرَ قَالٍ ولم أَهْجُرْ فَأُوجِبْ عُذْرَ سَالِ

وأنا لم أكثر الزيارة لذا فالقالي (الجافي إياي) لا عذر له، ولم أهجر فالسالي (الناسي إياي) لا عذر له

فمَا بَالُ الجَفَاءِ جَفَاءَ سالٍ ومَا بَالُ اللِقَاءِ لِقَاءَ قَالِ

ولكنك تجفوني جفاء من نسيني، وتلاقاني لقاء كاره لي

أَرَاكَ إِنِ اعـتَـزَلْـتُـكَ ذاتَ يـومٍ، أبـا حـسـن، سَيُـوحِشُـكَ اعتِزالـي

تهديدٌ مبطن بالهجاء

رُوَيْـدَكَ إنـنـي كَـاسِـيكَ بُـرْداً جَـديـداً مـنْ قَـرِيضٍ غـيـرِ بـالِ

مَـديـحـاً، إنْ تُـثِـبْـهُ يَـكُـنْ مَـديـحـاً مِـنَ الـحُـلَـلِ الـمُـحَـبَّـرَةِ الـغَـوَالـي

المحبرة: المتقنة

وإنْ تَـظْـلِـمْـهُ تـجـعَـلْـهُ هِـجَـاءً أَشَـدَّ عـلـى الـكـريـم مِـنَ الـنِّـبَـالِ

ولـيـس بِـلَـفْـظَـةٍ لـيَ فـيـكَ، لَـكِـنْ بِـمَـا لِـلْـنَّـاسِ مِـنْ قـيـلٍ وقَـالِ

يَـرَوْنَ مَـدائِـحـاً جُـزِيَـتْ بِـظُـلْـمٍ فَـأَلْـسُـنُـهُـمْ أَحَـدُّ مـن الـنِّـصَـالِ

٣٠١ منتهى الدمامة

وقال في شنطف:

أَزْرَى بِـهـا الـلَّـهُ فـلـم يُـعْـطِـهـا، إلا بِـطُـولِ الـبَـظْـرِ، تَـفْـضِـيـلا

إذا بـدَا الـفـيـلُ وخُـرطـومُـه قُـلْـنـا: أَعَـارَتْ بظـرَهـا الـفِـيـلا

غُـولٌ يَـبـيـتُ الـشَّـرْبُ مِـنْ قُـبْـحِـهَـا يَـرَوْنَ فـي الـنـومِ الـتَّـهَـاوِيـلا

الشرب: الشاربون

لَـوْ حَـسُـنَـتْ مِـعْـشَـارَ مـا قُـبِّـحَـتْ خُـوِّلَـتِ الأَهْـوَاءَ تَـخْـوِيـلا

خُوِّلتْ: وُهِبتْ، الأهواء: جمع هوى

مـا أَحـسَـنَ الأَرْقَـمَ طَـوْقـاً لـهـا وأَحْـسَـنَ الأَسَـوْدَ إِكْـلِـيـلا

الأرقم: الأفعى الذكر، الأسود: الحية الكبيرة وفيها سواد

لا تَـعْـبُـدُ الـلَّـهَ، ولـكِـنَّـهـا تَـعْـبُـدُ بِـالـلَّـيْـلِ الـغَـرَامِـيـلا

الغراميل: ذكور الذكور

٣٠٢ مساوئ البقل والنخل.. والمطل

وقال في أبي سهل بن نوبخت:

إذا أَنْـتَ أَزْمَـعْـتَ الـصَّـنِـيـعَـةَ مَـرَّةً فـلا تَـعْـتَـصِـرْ ماءَ الـصَّـنِـيـعَـةِ بالـمَـطْلِ

الصنيعة: المعروف

ولا تَخْلِطِ الحُسْنَى بِسوُءٍ، فإنه يُجَشِّمُنا أن نَخْلِطَ الشُّكْرَ بِالعَذْلِ

يجشمنا: يُتعبنا

أَنِفْتُ لِعُشَّاقِ المَكارِمِ أنْ تُرَى مَواعِيدُهُمْ مثلَ البَوَارِقِ في المَحْلِ

البوارق: غيوم تبرق ولا تمطر

مَطَلْتَ مِطَالَ النَّخْلِ، فَاثْبُتْ ثَبَاتَهُ وأَجْنِ جَنَاهُ، أَوْ فَدَعْ نَكَدَ النَّخْلِ

أجن: ليكن عندك جنىً أي محصول

ولا يَكُ مَا تُجْدِيهِ كالبَقْلِ خِسَّةً وكالنَّخْلِ تَأْخِيراً، فمَا ذَاكَ بالعَدْلِ

تجديه: تعطيه

٣٠٣ قمة المجون

سُئِلَ الأَبْرُ: مَا تُرِيدُ إلى الكَعْـ ـثَبِ؟ قالَ: الدُّخُولَ، قيلَ: ألا ادْخُلْ

هذا حوار بين عضوين

قالَ: أَبْغِي الخروجَ، قيلَ: أَلا فَاخْـ ـرُجْ، فقالَ: الخُرُوجُ ما لَيسَ يَسْهُلْ

إنَّمَا شَأْنِيَ التَّرَدُّدَ فيهِ داخلاً خارجاً أَغِيبُ وأَنْصُلْ

أنصل: أنسلّ خارجاً كما يخرج نصل السيف من غمده

شَهْوَةُ القَلْبِ لَبْثُهُ بينَ أَيْدٍ وشِفَائي تَرَدُّدِي بينَ أَرْجُلْ

القلب يشتهي أن يحتضه الحبيب بين يديه

هَمُّ ذَاكَ العِنَاقُ؛ والنَّبْكُ هَمِّي، وكِلانَا في شأنِه ليسَ يَغْفُلْ

ذاك أي القلب

ولِيَ - الدهرَ - طَعْنَةٌ ذاتُ غَوْرٍ غيرَ أنْ لَسْتُ حينَ أَطْعَنُ أَقْتُلْ

كلُّ حُبٍّ تَعَمُّلٌ، وهَوَى الحَسْـ ـنَاءِ إيَّايَ مِنْ خِلافِ التَّعَمُّلْ

تعمل: تصنع

ومَتَى طَاوَعَتْ فَذَاكَ طِبَاعٌ ومتى مَانَعَتْ فذاكَ تَدَلُّلْ

وعَلَيْهَا تَجَمُّلٌ، فإذا مَا عَايَنَتْنِي فما عَلَيْها تَجَمُّلْ

ولَدَيْهَا تَبَتُّلٌ، فإذا مَا غَابَ في الحَاقِ بَاقِ زَالَ التَّبَتُّلْ

تبتل: عفة، والحاق باق لم أجدها ولا أظنك تحتاج إلى تفسيرها (على أن في تاج العروس أبياتاً تجعل الحُوق اسماً لعضو الرجل، والخاقِ باقِ في اللسان صوت عضو المرأة عند الجماع)

وبَهَا تَرْعَوِي حَياتي إذا مُتُّ ـ وتَشْتَدُّ قُوَّتي حينَ أَذْبُلْ

ترعوي: ترجع

٣٠٤ شامت بنفسه، شامت بغيره

هذا أبو الحسن علي بن العباس (ابن الرومي) يحدث نفسه:

أبا حَسَنٍ قد قُلْتَ لو كَانَ فَعَّالُ فحَسْبُكَ قد سَارَتْ بِخَطْبِكَ أَمثالُ

يخاطب نفسه، يقول يا أبا الحسن ابن الرومي قلت مدحاً كثيراً ولكن ليس هناك من يثيب عليه

وأصبحَ ما قد قُلْتَه وثَوابُه: عَناؤُكَ والحِرْمانُ والقِيلُ والقَالُ

ظَلَلْتَ على شَرِّ الحِجَارَةِ عاكِفاً ولَيْسَتْ لِعُبَّادِ الحِجَارَةِ أعمَالُ

كنت تمدح صنماً، أعمال: أعمال صالحة يلقى المرء بها ربه

ذهبتَ وإسماعيلَ في غيرِ مَذْهَبٍ وأكثرُ تُبَّاعِ المَطَامِعِ ضُلَّالُ

ذهبت يا ابن الرومي مذاهب شتى مع إسماعيل بن بلبل، مدحاً وعتباً، طمعاً في عطائه

فَمَنَّاكَ ظَنٌّ أنْ تَنَالَ نوالَهُ ومَنَّاهُ ظَنٌّ أنْ تَدُومَ له الحَالُ

كأَنِّي بِه في مَحْبِسٍ وثِيابُه، من العُمْرِ والنَّعْمَاءِ والعِزِّ، أَسْمَالُ

يتخيله وقد سُجن. أسمال: ثياب مهترئة

غَلائِلُهُ الأَمْسَاحُ يأْكُلْنَ جِلْدَهُ وحِلْيَتُه أقْيَادُ سُخْطٍ وأَغْلالُ

الأمساح: المسوح، الثياب الخشنة المنسوجة من الشعر، أقياد: قيود

يُغَنِّيهِ، بعدَ المُسْمِعَاتِ، إذا مَشَى حَدِيدٌ لَهُ مِنْهُ سِوَارٌ وخَلْخَالُ

المسمعات: المغنيات

٣٠٥ لا بد لي من مقالة

يعاتب أبا عبد الله الباقطاني:

إلَيْكَ أبا عَبْدِ الإلَهِ بعَثْتُها على ثِقَةٍ بالحِلمِ منكَ وبالبَذْلِ

بعثتها: أرسلت القصيدة

جَرَيْتُ معَ الإدْلالِ شَأْوَاً مُغَرِّباً فإنْ قُلْتَ لِي مهلاً مَشَيْتُ على مَهْلِ

شأواً: شوطاً

ولـكـنـنـيِ لا بُدَّ لـيِ مِـنْ مَـقَـالَـةٍ أَقُولُ بِـهَـا لـيستْ بِظُلْـمٍ ولا هَـزْلِ
أَلَـسْـتَ الـذي أَمَّـلْـتُـهُ وادَّخَـرْتُـهُ فَمَا لي وقَدْ أَمْرَعْتَ أَرْتَعُ في المَحْلِ؟
أمرعت: جاءك الخصب

أَتهجُرُني والحبلُ في خَيْرِ مَعْقِدٍ وتحنُو وتدنُو عندَ مُضْطَرِبِ الحَبْلِ
تَـأَمَّـلْ: فـإِنَّـا والـبَـهَـائِـمَ أُسْـوَةٌ سِوَى عَدْلِنا في النَّقْضِ طَوْراً وفي الفَتْلِ
النقض: إرخاء فتائل الحبل

الحبل المفتول بشدة كناية عن ضيق الحال، والمرخى كناية عن الرخاء (زهير: على كل حال من سحيل ومبرم)

فَضَـلْـنَـا بِإِيثَـارِ الـجـمـيـلِ وفِعْـلِهِ ونـحـنُ سَـواءٌ والبَـهـائِـمَ في الأكْـلِ
فضلنا: كنا مفضَّلين

ألـم تَـرَ أنَّ الـغَـدْرَ أَرْدَى ابْـنَ بُـلْـبُـلٍ وقد كان ذَا خَيْلٍ، وقد كان ذَا رَجْلِ؟
إلـى الله أشـكـو أن شـعـريِ مـظـلَّـمٌ وأَنِّـيِ من الأَيامِ في مَنْهَلٍ ضَحْلِ
مظلَّم: مظلوم

ثَـنَـاؤُكُـمْ لِـلْـبُـحْـتُـرِيِّ ووُدُّكُـمْ ومَدْحِي لَكُمْ، حَاشَا هَوَاكُمْ، مِنَ الخَبْلِ
الخبل: الجنون

ومَـا بِيَ قَـصْـبُ الـبُـحـتريِّ وثَـلْـبُـهُ وإنْ صَالَ فَحْلٌ ذاتَ يومٍ على فَحْلِ
قصب: شتم

شَهِدْتُ لهُ بِالعِتْقِ في الشِّعْرِ مُخْلِصاً ومَـا أَنَـا فـيـهِ بـالـهَـجِـينَ ولا الـنَـغْـلِ
العتق: الجودة، الهجين والنغل: غير الأصيل

٣٠٦ مستفعلن فاعلن فعول

وقال يخاطب القاسم:

يـا سَـيِّـداً لـم تَـزَلْ فُـروعٌ مِـنْ رأْيِـهِ تـحـتَـهـا أُصُـولُ
رأيك في الناس ليس سطحياً بل له أصول راسخة

أَمِـثْـلُ عَـمْـروٍ يَـسُـومُ مِـثْـلـيِ خَـسْـفـاً، وأَيَّـامُـهُ تَـطُـولُ؟
يسومني الخسف: يظلمني

أَمِـثْـلُ عَـمْـروٍ يُـهِـيـنُ مِـثْـلِـي   عَـمْـداً ولا تُـنْـتَـضَـى الـنُّـصُـولُ؟
وَجْـهُـكَ يـا عَـمْـرُو فـيـهِ طُـولُ   وفـي وُجُـوهِ الـكِـلابِ طُـولُ
فـأَيْـنَ مـنـكَ الـحَـيَـاءُ قُـلْ لـي   يـا كَـلْـبُ؟ والـكَـلْـبُ لا يَـقُـولُ
مَـقَـابِـحُ الـكَـلْـبِ فـيـكَ طُـرّاً   يَـزُولُ عـنـهـا ولا تَـزُولُ
وفـيـهِ أَشْـيَـاءُ صَـالِـحَـاتٌ   حَـمَـاكَـهـا الـلَّـهُ والـرَّسُـولُ
فـيـهِ هَـرِيـرٌ وفـيـهِ نَـبْـحٌ   وحَـظُّـه الـذُّلُّ والـخُـمُـولُ

نبح الكلب خير للتائهين في الصحراء إذ به يستدلون على وجود بشر، وهو لا ينال سوى الإهمال

والـكَـلْـبُ وَافٍ وفـيـكَ غَـدْرٌ   فـفِـيـكَ عـن قَـدْرِهِ سُـفُـولُ
وقـد يُـحَـامـي عـنِ الـمَـواشـي   ومـا تُـحَـامـي ولا تَـصُـولُ
وأنـتَ مـن أهـلِ بـيـتِ سُـوءٍ   قِـصَّـتُـهُـمْ قِـصَّـةٌ تَـطُـولُ
وُجُـوهُـهُـمْ لِـلْـوَرَى عِـظَـاتٌ   لـكِـنَّ أقْـفَـاءَهُـمْ طُـبُـولُ

المفارقة بين الشطرين غير واضحة تماماً: ربما جعل وجوههم جالبة للتقوى لأن الناس يتعظون برؤية قبحها، لكن أقفاءهم جديرة بالصفع فهي.. طبول

نَـسْـتَـغْـفِـرُ الـلَّـهَ قـد فَـعَـلْـنـا   مـا يـفـعـلُ الـمَـائِـقُ الـجَـهـولُ

المائق: الأحمق

ومـا سَـأَلْـنَـاكَ مـا سَـأَلْـنـا   إلَّا كَـمَـا تُـسْـأَلُ الـطُّـلُـولُ

أي لا ننتظر جواباً، وكان الشعراء يقفون بالطلول ويسألونها أين ذهبت المحبوبة

وَجْـهٌ طَـويـلٌ يَـسِـيـلُ فُـوهُ   أَحْـسَـنُ مـنـهُ حِـرٌ يَـبُـولُ

حر: عضو المرأة

مـسـتـفـعـلٌ فـاعـلٌ فـعـولُ   مـسـتـفـعـلٌ فـاعـلٌ فـعـولُ
بـيـتٌ كَـمَـعْـنَـاكَ، لـيـسَ فـيـهِ   مَـعْـنـىً سِـوَى أنـه فُـضُـولُ

فضول: زيادة

٣٠٧ حبلي قصير

يمدح ابن مارِمَّة:

يـا عَـلِـيَّ الـعُـلَا ابـنَ قَـاسِـمِ الـقَـا   سِـمِ فـي طَـالِـبِـي الـنَّـوَالِ نَـوَالَـهْ

وابنَ مَارِمَّةَ الذي يَضْرِبُ المَجْـ ـدُ بِـهِ أو بِـمِـثْـلِـهِ أَمْـثَـالَـهْ
مَا تَـرَى في اصْطِناعِ حُرٍّ شَكُورٍ قـد أَرَاه الـرِّجـالُ مَـالَـكَ مـالَـهْ؟

ما رأيك في اصطناع حر شكور (اتخاذه صنيعة أي حليفاً مقيداً بالمعروف) وهذا الرجل هو ابن الرومي طبعاً، وقد جعله الناس يشعر أنك كريم إلى درجة أن يصبح ما تملك ملكاً له هو أيضاً

سَاقَهُ نـحـوَكَ الـزَّمـانُ، وقَـادَتْـ ـهُ أَفَـاعِـيـلُ كَـفِّـكَ الـفَـعَّـالَـةْ
وعَـلـى ظَـهْـرِهِ مِـنَ الـدَّيْـنِ ثِـقْـلٌ يَـرْتَـجِـي أن تَـحُـطَّـهُ لا مَـحَـالَـةْ
واعْـتِـقَـادُ الـرَّجَـاءِ يُـوجِـبُ حَـقَّـاً عِـنـدَ مَـنْ هَـذَّبَ الإلَـهُ خِـصَـالَـهْ

اعتقاد (عقد) الرجاء عليك يوجب عليك أن تحقق هذا الرجاء

وشَـهِـيـدي عـلـى رَجَـائِـكَ أنْ لـم أَتَـوَسَّـلْ، وأنْ تَـرَكْـتُ الإطَـالَـةْ
وإذا الـمُـسْـتَـقـي دَنَـا مُـسْـتَـقَـاهُ فَـحَـقِـيـقٌ أَلَّا يُـطِـيـلَ حِـبَـالَـهْ

٣٠٨ أحاديث الشيخ

يمدح محمد بن عبد الله:

وأَعْـذَرُ شُـرَّابِ الـمُـدَامَـةِ شَـارِبٌ لِـتَـقْـصِـيرِ أيَّـامِ الـمَـشِـيـبِ الأَطَـاوِلِ

أعذرهم: أوفرهم عذراً ذلك الذي يشرب لتقصير أيام الشيخوخة الطويلة

وحَدَّثْتُ نُدْمَاني أحَادِيثَ مَا مَضَى من الـعَـيـشِ أَقْـفُـوها بِـأَنَّـةِ ثَـاكِـلِ

أقفوها: أتبعها/التسويد: أ. عبد الرحيم

٣٠٩ بي عن عرضه كسل

وقال في أبي حفص الوراق:

قالوا: هَجَاكَ أبو حَفْصٍ، فقلتُ لَهُمْ: بـالـلَّـهِ أَدْفَـعُ مـا لا تَـدْفَـعُ الـحِـيَـلُ

أدفع بالله، أي استعين به، عما لا تنفع فيه حيلتي

أَلَا لَـئـيـمٌ جَـزَاهُ الـلَّـهُ صَـالِـحَـةً يَهجُوهُ عنِّي، فَبِي عَنْ عِرْضِهِ كَسَلُ

تعليق أ. عبد الرحيم: فظيع!

٣١٠ مدح الناقصين

إذا ما مَـدَحْـتَ الـنَّـاقِـصِـينَ فَـإِنَّـمَـا تُـذَكِّـرُهُـمْ ما في سِـوَاهُـمْ من الفَضْلِ

فَتُهْدِي لَهُمْ حُزْناً طَوِيلاً وحَسْرَةً وإنْ مَنَعُوا مِنكَ النَّوَالَ فَبِالعَذْلِ

٣١١ مرجل القريض

وقال في أبي يوسف الدقاق:

ولقد وَزَعْتُ الشِّعْرَ عنكَ تَعَظُّماً وتَنَزُّهاً، وكَفَفْتُ غَرْبَ المِقْوَلِ

وَزَعْتُ: منعتُ، غرب المقول: حدّ اللسان

فأَبَتْ جَوَامِحُ لِلْقَرِيضِ غَوَالِبُ جَاشَ الضَّمِيرُ بِهِنَّ جَيْشَ المِرْجَلِ

تسويد أ. عبد الرحيم، وتعليقه: بيتان فخمان، فيهما روح الفرزدق!

٣١٢ كيف عاتبها

وقال في وهب بن سليمان:

حَيَّا أَبُو حَسَنٍ وَهْبٌ أَبَا حَسَنٍ بِضَرْطَةٍ طَيَّرَتْ عُثْنُونَهُ خُصَلا

هذا رجل ضرط في حضرة كنيّه الوزير، واتخذ الشعراء منها تكأة ليريحوا أشعارهم من عناء المدح

ثم استَمَرَّتْ فَصارَتْ في البلادِ لهُ كأنَّها أُرْسِلَتْ مِنْ دُبْرِهِ مَثَلا

بِئْسَ التَّحِيَّةُ حَيَّاهَا الوَزِيرَ ضُحىً والحَفْلُ مِنْ سَرَوَاتِ القومِ قد حَفِلا

يا لَيْتَ شِعْرِيَ عنْ وَهْبٍ وفَقْحَتِهِ وكَيفَ عاتَبَها في الحُشِّ حينَ خَلا

فقحته: دبره، الحش: المرحاض

٣١٣ المال المصون

وقال في إسماعيل بن بلبل:

ولِلأَوْغَادِ أموالٌ تَراها مَصُونَاتٍ بِأَعْراضٍ مُذَالَهْ

ولم يَكُ مَن نَمَاهُ أبٌ كريمٌ لِيَبْذُلَ عِرْضَهُ ويَصُونَ مَالَهْ

٣١٤ حسبي تصرمه

وقال في شهر رمضان:

إنِّي لَيُعْجِبُني تَمامُ هِلالِهِ وأُسَرُّ بعدَ تَمامِهِ بِنُحُولِهِ

شهرٌ يَصُدُّ المَرْءَ عن مَشْرُوبِهِ مِمَّا يَحِلُّ لَهُ وعنْ مَأْكُولِهِ

لا أَسْتَثِيبُ على قَبولِ صِيامِه حَسْبي تَصَرُّمُه ثوابَ قَبولِهِ

أستثيب: أطلب الثواب، تصرمه: انصرافه

٣١٥ ابحث عنها تجدْها

إنَّ العُيُوبَ مَعَ التَّتَبُّعِ جَمَّةٌ وكَثيرُهُنَّ، إذا اغْتَفَرْتَ، قليلُ

٣١٦ عائب الراح

وقال فيمن عاب شرب النبيذ:

يا منْ يَعيبُ لديْنَا الرَّاحَ مُجْتَهِداً أَسَأْتَ قولاً وقد أَحْسَنْتَ في العملِ

تركتَها مُؤْثِراً للأكْرمينَ بِها وعِبْتَها عَيْبَ ذي جَهْلٍ وذي خَطَلِ

فَبُؤْ بِحَمْدٍ وذَمٍّ تَسْتَحِقُّهُما كما خَلَطْتَ الذي أَسْدَيْتَ بِالعَذَلِ

فبؤ (فارجع)

٣١٧ عقار ووظيفة ومعاش فقط

وقال وقيل هي آخر قصيدة قالها:

أَلَسْتُ أَصْلُحُ سِمْسَاراً لِبِرِّكُمُ ولا وَكِيلاً ولا عَوْناً على عَمَلِ؟

إنـي لأَخْوضُ لِلأَهْوالِ مِنْ أَسَدٍ عَادٍ، وأَنْهَضُ بِالأَثْقَالِ من جَمَلِ

عادٍ: معتدٍ هاجم

فَهَبْ لِرَاجيكَ إِذْناً مِنْكَ تَلْقَ بِهِ مُؤَدَّباً غيرَ ذي جَهْلٍ ولا خَطَلِ

لا يَسْأَلُ الحَاجَةَ المُعْوَجَّ مَسْلَكُها ولا يَحَاوِلُ أَمْراً بَيِّنَ الحَوَلِ

الحول: الاستحالة

بلْ كلَّ ما يُوجِبُ الإنْصَافَ مِنْكَ له مَعَ الوَسَائِلِ والأَسْبَابِ والوُصَلِ

مِنَ ارتِجَاعِ عَقَارٍ لَجَّ غَاصِبُهُ وَرَدِّ دَيْنٍ له بالظُّلْمِ مُعْتَقَلِ

وشُعْبَةٌ مِنْ مَعَاشٍ لا تُكَلِّفُهُ مُرَّ السُّؤَالِ ولا مُسْتَثْقَلَ الرِّحَلِ

الرِّحَل: الرحلات

٣١٨ أعراضكم مناديلي

وقال في آل طاهر:

بَني طاهرٍ إمَّا مَنعتُمْ نَوالَكُمْ ... فلا تَمنَعوا مني شِفاءَ غَليلي

دَعُوني ألومُ النَّفسَ إذْ أَمَّلَتْكُمُ ... وأَنْدُبُ مَدْحي فِيكُمُ بِعَويلي

ولا تَبْخَلوا عنِّي بِعِرْضٍ، فَكُلُّكُمْ ... بَني طَاهرٍ بِالعِرْضِ غيرُ بخيلِ

صِلُوني بأَعْرَاضٍ لَكُمْ قد تَمزَّقَتْ ... تَمَزُّقَ أَطْمَارٍ على ابنِ سَبِيلِ

أطمار: ملابس مهترئة

يَكُنَّ مَنادِيلي إذا ما تَنَازَعَتْ ... لُحُومَكُمْ كَفِّي وكَفُّ أَكيلي

أكيلي: شريكي في الأكل

٣١٩ مبارك عليك الشحم

وقال يمدح علي بن يحيى النديم ويعاتبه:

أيها العَائِبي بِخِفَّةِ لحمي ... بَجَلي منهُ كُسْوَةُ الأَوْصَالِ

بجلي: يكفيني، الأوصال: جمع وُصْل، الأطراف

وهَنيئاً لكَ الفُضُولُ منَ اللَّحْـ ... ـمِ، فَفَاخِرْ بها ذَواتَ الحِجَالِ

قَلَّمَا توجَدُ الفَضَائِلُ إلَّا ... في خِفَافِ الرِّجالِ دونَ الثِّقَالِ

يُنْظَمُ الدُّرُّ في السُّلوكِ، وتَأْبَى ... عِزَّةُ الدُّرِّ نَظْمَهُ في الحِبَالِ

٣٢٠ وجه كآخر الصك

قال ابن الرومي (وجدتهما في ثمار القلوب للثعالبي وخلا منهما الديوان المطبوع):

لَكَ وجهٌ كآخِرِ الصَّكِّ، فيهِ ... لَمَحَاتٌ كثيرةٌ مِنْ رِجَالِ

كَخُطوطِ الشُّهُودِ مُشْتَبِهَاتٌ ... مُعْلِمَاتٍ أنْ لَسْتَ بِابْنِ حَلالِ

آخر صك البيع أو الإيجار فيه تواقيع الشهود بخطوط شتى وخرابيش، ووجه المهجو فيه معالم شتى فلا بد أن يكون اشترك في إنتاجه رجال عدة

٣٢١ إقرار

وقال يمدح أبا الصقر:

خُذْهَا إليكَ مُقِرَّةً بِمَعَايِبٍ ... تَرْجُو تَغَمُّدَهَا لديكَ وتَأْمُلُ
وأَقَلُّ حَقِّكَ أنْ تُرَى مُتَجاوِزاً ... عن شاعرٍ في القولِ منه تَهَلْهُلُ
ما ضَرَّهُ أَلَّا يُجِيدَ، ومَا لَهُ ... بِسِوَى نَداكَ إلى جَدَاكَ تَوَسُّلُ

٣٢٢ دع الظنون

وقال في القاسم بن عبيد الله:

أَقَاسِمُ لا تَسْدُدْ سَبِيلِي إلى الرِّضَا ... فأنتَ المُوَلَّى فتحَ كلِّ سبيلِ
ولا تَجْعَلَنَّ الظنَّ ما عِشْتَ صاحباً ... فلستَ تَراهُ صَاحِباً لِنَبِيلِ
أطالَ عليَّ الليلَ أنْ قد مَنَعْتَنِي ... رِضاكَ، وكانَ الليلُ غيرَ طويلِ
وأنَّكَ صدَّقْتَ الظُّنونَ؛ وما أتَتْ ... على ما ادَّعَتْ من قِصَّتي بِدَليلِ

٣٢٣ إذن الوجه

وإِذْنُ الوَجْهِ، لا الحُجَّابِ، إِذْنٌ ... وفي الأَحْشَاءِ، لا الدارِ، الدُّخُولُ

٣٢٤ سألتَ عني

وقال في القاسم:

أتانِيَ أنَّكَ راعَيْتَنِي ... وساءَلْتَ عنِّي سؤالاً طويلا
فأَكْبَرْتُ ذاكَ وأَعْظَمْتُهُ ... وإنْ كانَ - فيما تُسَدِّي - قليلا

فيما تسدِّي: بالقياس إلى ما تسديه من معروف

وأصبحتُ أَخْطِرُ ذا نَخْوَةٍ ... عزيزاً، وأضحَى عَدُوِّي ذَليلا
وأقسمتُ باللَّهِ أنْ لا يَزا ... لُ مِقْدارُ نفسيَ عندي جَليلا
ولَمْ لا يُجِلُّ امْرُؤٌ نفْسَهُ ... وأنتَ تَرَى فيهِ رأياً جميلا؟
أَيَطْلُبُنِي سَيِّدٌ لا أَزا ... لُ أَبْغي بِجُهْدِي إليهِ سبيلا
لِيُمْطِرَنِي مَطْرَةً لا يَزا ... لُ عُوديَ منها وَرِيقاً ظَليلا
سَيَطْلُبُنِي فَضْلُه عائِداً ... كما يَتَتَبَّعُ سَيْلٌ مَسِيلا

ولـن أتَـقـاضَـاهُ؛ حَـسْـبـي بِـه عـلـى نفـسِهِ لِلْـمَـعـالـي وَكِـيـلا

٣٢٥ بنت المجوس

وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله: (القصيدة في الديوان ٣٠٣ أبيات)

ورُبَّ مَهَـاةٍ صِدْتُّها بيـنَ نَظْـرَتي ونَظْـرَتِها، أيـامَ رأسِيَ أسْحَـمُ

أسحم: أسود

رَأَيْتُ سوادَ الرأسِ واللَّهْوَ تَحْتَهُ كَلَيْلٍ وحُلْـم بـاتَ رائِيـهِ يَنْعَمُ

فَلمَّا اضْمَحَلَّ الليلُ زالَ نعيمُه فـلـم يَبْقَ إلَّا عَـهْدُهُ الْمُتَـوَهَّمُ

وصـفـراءَ بِكْـرٍ لا قَـذَاهـا مُـغَـيَّبٌ ولا سِرُّ من حَلَّتْ حَشاهُ مُكَتَّمُ

رب خمر صفراء بكر (لم يُنزَل دنها من قبل)، قذاها (ما بها من شائبة) ظاهر بوضوح لشدة صفائها، وهي تجعل المرء يبوح بأسراره

يَنِمُّ على الأمْرَيْنِ فَرْطُ صَفائِها وسَوْرَتُها حتى يَبُوحَ المُجَمْجِمُ

المجمجم: المتلعثم في القول الذي لا يُبين

هِيَ الوَرْسُ في بِيضِ الكؤوسِ، وإن بَدَتْ لِعيْنَيْكَ في بِيضِ الوَجُوهِ فَعَنْدَمُ

في الكؤوس البيضاء تكون الخمر ورساً (نباتاً أصفر معيناً)، فإذا شربها الناس صارت عَنْدماً (نباتاً أحمر معيناً) في وجوههم البيضاء التي تحمر بعد إذ يشربون

مَذاقٌ ومَسْرىً في العُرُوقِ كِلاهُما أَلَـذُّ مـن البُـرْءِ الجديدِ وأَنْعَمُ

أقامَتْ بِبَيْتِ النارِ تسعينَ حِجَّةً وعَـشْـراً يُصَلَّى حولَـها ويُـزَمْـزَمُ

كانت مخزونة في معبد مجوسي مئة سنة، وقد شهدت صلواتهم وزمزماتهم (تلاوتهم غير المفهومة) كل هذا الزمن

سقتْنِي بها بيضاءُ، فُوها وكأْسُها شَبيِهـا مَذاقٍ عنـدَ من يَتَطَعَّمُ

يُعَدُّ رجائي فيكَ مالاً مُحَصَّلاً أُدَنَّـرُ فـي قـومـي بـه وأُدَرْهَـمُ

فقط لأنني رجوتك أيها الأمير فإن قومي أخذوا ينسبونني للدنانير والدراهم فيقولون فلان أبو الدنانير وأبو الدراهم

ويُلْـزِمُـنـي فيـه الـزَّكـاةَ مـعـاشِرٌ ولم يَحْوِهِ مِلْكي، وبالحَقِّ أَلْزَمُوا

بلغ من ثقتهم بعطائك إياي أن اعتقد قوم بوجوب أن أدفع زكاة هذا المال الذي لم آخذه بعد، لكنهم على حق فأنا واثق بأنك ستعطيني

مَنَحْتُكَها حَوْلِيَّةَ النَّسْجِ لم تَزَلْ   تُعَانَى مَدىَ حَوْلٍ دَكِيكٍ وتُخْدَمُ

منحتك القصيدة حولية النسج (كتبت في عام كامل) فظلت حولاً دكيكاً (ربما قصد كاملاً) وهي تُعانى، أي يُعتَنى بها، وتُخدم بالتنقيح. من المؤكد أن ابن الرومي النظام الماهر نظمها في بضع ليال، لكنه يشبهها بحوليات زهير

يَرَى جَاهِلِيُّ الشعرِ تَبجيلَ قَدْرِها   بِحَقٍّ وإِسْلامِيُّهُ والمُخَضْرَمُ

٣٢٦ ثواب على السماع

وقال في كنيزة:

شاهدْتُ في بعضِ ما شاهدْتُ مُسْمِعَةً   كأنَّما يومُها يَومانِ في يَوْمِ

مسمعة: مغنية، يومها: اليوم الذي تحضرنا فيه

تَظَلُّ تُلْقِي على مَنْ ضَمَّ مجلسَها   قولاً ثقيلاً على الأسماعِ كاللَّوْمِ

لها غناءٌ يُثيبُ اللَّهُ سامِعَهُ   ضِعْفَيْ ثوابِ صلاةِ الليلِ والصَّوْمِ

ظَلِلْتُ أشرَبُ بِالأرْطَالِ، لا طَرَباً   عليه، بل طَلَباً للسُّكْرِ والنَّوْمِ

٣٢٧ نتف السود

إذا رُمْتُ بِالمِنْقاشِ نَتْفَ أَشَاهِبي   أُتِيحَ لَهُ مِنْ دُونِهِنَّ الأَدَاهِمُ

المنقاش: الملقاط، أشاهبي: شعراتي الشهباء البيضاء، الأداهم: السود

فَأَنْتِفُ ما أَهْوَى بِغَيرِ إرادتي   وأَتْرُكُ ما أَقْلي وأنفِيَ راغِمُ

أقلي: أكره

٣٢٨ أكلة الثوم

وقال يعيب من أكل ثوما وحضر مع القوم في مجلسهم:

تَرَى الأَفْدَامَ يَعْتَلِفونَ ثُوماً   ويَغْشَوْن المجالسَ كالهُمُومِ

الأفدام: الثقلاء الأغبياء

فَشَهْمُ القومِ مَأْثُومٌ بِخَمْرٍ   وفَدْمُ القومِ مَأْثُومٌ بِثُومِ

٣٢٩ أنت لنا جنة ونار

وقال يصف إمرأة:

أُحِـــبُّ كُـــلَّ غَـــادَةٍ   أَلْـحَـاظُـهـا تَـكَـلَّـمُ
فَـالـوَجْـهُ مـنـهـا جَـنَّـةٌ   وَحِـرُهَـا جَـهَـنَّـمُ

الحر: عضو المرأة، ولا تقرأها «حَرُّها» كما فعل صاحب التحقيق، وكلاهما جائز في الوزن على متفعلن ومتعلن

٣٣٠ تقاسيم على منشار كهربائي

وقال في أبي سليمان المغني:

ومُـسْـمِـعٍ لا عَـدِمْـتُ فُـرْقَـتَـه   فـإنَّـهـا نِـعـمـةٌ مـن الـنِّـعَـمِ

مسمع: مغنٍّ

كـأنـنـي طُـولَ مَـا أُشَـاهِـدُهُ   أَشـرَبُ كـأسـي ممـزُوجَـةً بِـدَمـي
يـشْـدُو بـصـوتٍ يَسُـوءُ سـامـعَـه   تـبـارَكَ الـلَّـهُ بَـارِئُ الـنِّـسَـمِ

النسم: الأرواح

أَبَـحَّ، فـيـهِ شُـذُورُ حَـشْـرَجَـةٍ   مـنـظـومـةٍ فـي مَـقـاطِـعِ الـنَّـغَـمِ
لـو قُـدِّسَ الـلَّـهُ ذو الـجَـلالِ بـه   لـم يَـرفـعِ الـلَّـهُ طَـيِّـبَ الـكَـلِـمِ
يُـفَـزِّعُ الـصِّـبْـيَـةُ الـصـغـارُ بـه   إذا بَـكَـى بـعـضُـهُـمْ ولـم يَـنَـمِ

٣٣١ الشيب والكتاب حرَّماها

شرِبتَ، وقد كان الشَّبابُ محلِّلاً   مِنَ الرَّاحِ ما كان الكتابُ مُحَرِّمَا

كنت أشرب وشبابي يحل لي ما حرم الكتاب (القرآن)

وقد طَابَقَ الشيبُ الكتابَ، فَحُرِّمَتْ   على فيكَ تَحْرِيمَيْنِ إن كنتَ مُسْلِمَا
فَدَعْ شُربَها إذْ أَصْبَحَ الرأسُ مُشْرِقاً   مُحَاذَرَةً أنْ يُصْبِحَ القلبُ مُظْلِمَا

٣٣٢ العودة إلى بغداد

وقال في المعتضد:

قَـدِمْـتَ قُـدومَ الـبُـرْءِ بـعـدَ سَـقـامِ   عــلــى دارِ إســلامٍ ودارِ سَــلامِ

مدينةِ بغدادَ التي كان جَدُّكُمْ تَخَيَّرَها لِلْمُلْكِ دارَ مُقَامِ
يُبَشِّرُنا النَّصْرُ الذي قد مُنِحْتَهُ بأنَّكَ عندَ اللَّهِ خَيْرُ إمامِ
ظَفِرْتَ بما تَبْغي وسَيْفُكَ مُغْمَدٌ وما كان، لو جَرَّدْتَهُ، بِكَهَامِ

كهام: مثلم

٣٣٣ أجرة الحمَّام

ولقد مُنِعْتُ مِنَ المرافِقِ كلِّها حتى مُنِعْتُ مَرافِقَ الأحلامِ
مِنْ ذَاكَ أنيَ ما أَرَانِيَ طَاعِمَاً في النَّوْمِ أو مُتَعَرِّضاً لِطَعامِ
إلَّا رَأَيْتُ، من الشَّقاءِ، كأنني أُثْنَى وأُكْبَحُ دونَهُ بِلِجَامِ
وأَرى الحبيبَ، إذا ألَمَّ خيالُه، ومَرَامُ قُبْلَتِهِ أَعَزُّ مَرَامِ
إلَّا مُنَازَعَةً تَجُرُّ جَنَابَةً وتُشِبُّ في الأحْشَاءِ أيَّ ضِرَامِ
فَأَهُبُّ قد وَجَبَ الطُّهُورُ، ولم أَنَلْ مِمَّنْ هَوَيْتُ سوى جَوىً وسَقَامِ
طَرَدَ الكَرَى عَنِّي ورَاغَ بِحَاجَتي وقَضَى عَلَيَّ بِأُجْرَةِ الحَمَّامِ

٣٣٤ غبار السنين

راعَ المَها شَيْبي، وفيهِ أَمَانُها مِن أَنْ تَصِيدَ رَمِيَّهُنَّ سِهامي

رميهن: أهدافهن

وعَقَقْنَني لمَّا ادَّعَيْنَ عُمُومَتي ومِنَ النِّسَاءِ مَعَقَّةُ الأعْمَامِ
أَذْرَى غبارَ الشيبِ فوقَ مَفارِقي رَكْضُ السنينَ الرَّاكِضَاتِ أَمَامي

أذرى: رشَّ

وأَرَاهُ عَمَّمَني وعَمَّمَ زَوْجَتي واخْتَصَّني مِنْ دونِهَا بِلِثَامِ

فهو شابَ من لحيته أيضاً

٣٣٥ بنو اليونان

ونحنُ، بني اليونانِ، قومٌ لنا حِجاً ومَجْدٌ وعِيدَانٌ صِلابُ المَعاجِمِ

اليونان: الروم من ساكني آسيا الصغرى (تركيا الحديثة)، صلاب المعاجم: إذا عَجَمَنا المرء (اختبرنا) وجدنا صلاباً

وما تَتَراءَى في المَرايَا وجوهُنا   بَلَى في صِفَاحِ المُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ

نرى وجوهنا في نصال السيوف القاطعة لا في المرايا

إذا ما انْتَضَيْناها لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ   أَرَتْنَا وجوهَ المُخْدَرَاتِ الضَّرَاغِمِ

إذا سللنا سيوفنا ليوم الكريهة (الحرب) فإننا نرى فيها وجوه المخدرات الضراغم (الأسود المختفية في عرينها)

٣٣٦ رثاء الأم

وإنِّي لأَسْتَحْيِيكِ يا أمّ أن يُرَى   قَرِينِيَ إلَّا مِنْ بَكَى لكِ أو وَجَمْ
وأن أَتَلَهَّى بالحديثِ عن الأَسَى   وأَلْقَى جَلِيسي بابتسامٍ إذا ابتَسَمْ
أأَمْرَحُ فوق الأرضِ يا أمّ والثَّرَى   عليكِ مَهِيلٌ قد تَطَابَقَ وارْتَكَمْ؟
عزيزٌ علَيْنا أن تموتي، وأنَّنا   نَعيشُ، ولكنْ حُكِّمَ الموتُ فاحْتَكَمْ

٣٣٧ المعضوضة والإيتيكيت

وقال يهجو رجلا عاب أكله:

كم جَارِعٍ جُرَعَ المَكَارِهِ عالماً   أنَّ المَكَارِهَ يَكتَسِينَ مَكَارِمَا
يا صَاحِباً رَضِيَ النَّذَالةَ صاحباً   وغَدا يَعُدُّ مُؤَاكِلِيهِ أَرَاقِمَا

الأراقم: الأفاعي

أَبْغَضْتَ مَنْ طَعِمَ الطَّعَامَ، فَرِيقُهُ   سُمٌّ لَدَيْكَ، فَما تُجَامِلُ طَاعِمَا
أَئِنِ اصْطَبَغْتُ ولُقْمَتِي مَعْضُوضَةٌ   أنشأْتَ تَهْجُوني بِذلكَ ظَالما؟

فقط لأنني اصطبغت (غمست خبزتي) بعد أن عضضتها بأسناني أنشأت (بدأت) تهجوني؟

عَيْبٌ لَعَمْرُكَ، غيرَ أَنْ لَمْ آتِهِ   عَمْداً، فَهَبْنِي هافِياً لا جَارِما

هذا في الواقع عيب في الإيتيكت، لكن هبني (افرض أنني) هفوت هفوة لا أنني ارتكبت جريمة

ولأَنْتَ إذْ رَاعَيْتَ كَفَّ مُؤَاكِلٍ   أَوْلَى بِأنْ تُهْجَى وأَكْثَرُ لائِمَا

وأنت أولى بالهجاء لأنك تراعي (تراقب) يد المؤاكل (زميل الطعام)، ولائموك (الذين يلومونك) أكثر ممن يلومونني

قَبَحَ الإلَهُ مَعاشِراً لم يَسْلَمُوا   مِمَّا يَعِيبُهُمُ فَعابُوا السَّالِمَا
رَشَفُوا المَنِيَّ من الفِيَاشِ، وحَرَّمُوا   رِيقَ الصَّدِيقِ مُؤَاكِلاً ومُنَادِمَا

لـو كـان رِيقـي مِثْلَ رِيقِكَ قـاتِلاً ... أَلْـفَـيْـتَـنـي مُـتَـنَـبِّـهَـاً لا نـائِـمـا

لو أن ريقي سام مثل ريقك لكنت حريصاً ألا أسم به الناس

وخَـشـِيـتُ رَبِّـيَ أن أَسُـمَّ مُـوَحِّـداً ... ظُـلْـمـاً فـأَكْـتَـسِـبَ الـعذابَ الدَّائِـمـا

لَـكِـنَّـه ريـقٌ وَثِـقْـتُ بِـطُـهْـرِهِ ... ثِقَةً سَهَوْتُ لَها، فَثُرْتَ مُخاصِمَا

هَـلَّا لَـقِـيـتُـكَ عِـنْـدَ أَوَّلِ زَلَّـةٍ ... مِنِّي كريـمَ الـعـفْـوِ أو مُـتَـكَـارِمـا

لَـكِـنْ أَبَـى كـرمَ الـلِّـئَـامِ مُـدَبِّـرٌ ... مَـنَـعَ الـخَـوافـيَ أنْ تَـكُـونَ قَـوَادِمَـا

أبى الله مدبر الكون الذي جعل الخوافي (الريشات الصغار في جناح الطائر) صغاراً، والقوادم (الريشات الكبار) كباراً، أبى كرم اللئام (أن يكون اللئام كراماً)

٣٣٨ أنا والسلطان

وقال في القاسم:

لَعَمْرِي لقد غابَ الرِّضا فتَطاوَلَتْ ... بغَيْبَتِهِ البَلْوَى، فهلْ هُوَ قادِمَ؟

تَعَرَّفْتُ في أهلِي وصَحْبِي وخَادِمِي ... هَوَانِي عليْهِمْ مُذْ جَفانِيَ قَاسِمُ

وهَبْنِي جَفانِي الإذْنُ منكَ عُقُوبَةً ... على غيرِ جُرْمٍ لِمْ جَفَتْنِي الدَّرَاهِمُ؟

فَأَشْبِعْ وأَوْجِعْ بالبِعَادِ مُؤَدِّباً ... فقد يُعْدَمُ التَّقريبُ، والبِرُّ دائِمُ

وعاقِبْ بِمَحْمودِ العِقابِ، فإنَّه ... سيَكفِيكَ مَذْمُومَ العِقَابِ الأَلائِمُ

عاقبني عقاباً حميداً، فالعقاب الشديد يقوم به اللئام ويكفونك شره

وأَحْسَنُ مِنْ حُسْنِ العقابِ اطِّرَاحُهُ ... إذا قَلَّبَ الرأْيَ الرجالُ الأكارِمُ

أَمُسْتَأْثِرٌ بالحِلْمِ قَيْسُ بنُ عاصِمٍ ... عليكَ، ولم يَعْشُرْكَ قَيْسٌ وعاصِمُ

قيس بن عاصم: صحابي كان سيد قومه، يعشرك: يبلغ عشر ما عندك

متى تَنْظُرُ الدنيا إليَّ بِنظْرَةٍ ... بِعَيْنِكَ نَحْوِي أيُّها المُتَنَاوِمُ

سيحمِيكَ أنْ تَلقَى لِسانِيَ صارِماً ... تَذَكُّرُ قلبي أن سيْفَكَ صارِمُ

لن أهجوك، لأنني أخاف سيفك

وإنِّي لأَعفُو عن رجالٍ، وأَتَّقِي ... رِجالاً، وأَدْرِي أَيَّ قِرْنٍ أُصَادِمُ

قرن: خصم

وأُقْسِمُ أَنِّي لم أُمِتْ لَكَ نِعْمَةً   عَلَيَّ، ولا أَحْيَيْتُ ما أنتَ كاتِمُ

أنا أشيد بذكر كل نعمة تغدقها علي ولا أجعلها تموت، وأكتم سرك

ولا حَارَبَتْ نَفسي عَليكَ، ولا اصْطَفَتْ   عِداكَ، ولا لاءَمْتُ مَنْ لا تُلائِمُ

وسَائِلْ بِمَا أُخْفيهِ عَيْني فإِنَّها   تُتَرْجِمُ عنِّي، والعُيونُ تَرَاجِمُ

اسأل عيني عن ضميري فالعين فضاحة

ولَسْتُ بِشَتَّامِ الملوكِ، وإنْ حَمَوْا   جَدَاهُمْ، وهلْ لي في الملوكِ مَشَاتِمُ؟

حموا جداهم: منعوا عطاءهم

عَدَانِيَ عن تلكَ العَرَامَةِ أنني   عَلِيمٌ بأنَّ السيفَ مِثْلِيَ عَارِمُ

العرامة: التهور

وإنَّ امْرَأً يُمْسي ويصبحُ سالماً   من الناسِ في دارِ البَلاءِ لَسَالِمُ

ومَنْ رامَ ثَلْمي وانتِقَاصي فإِنَّني   لَمُنْتَقِصٌ ما اسْطَعْتُ منه وَثَالِمُ

ولِلَّهِ في حَاوي يَدَيْهِ وأَرْضِهِ   مَنَادِيحُ تَرْضَاها القِلاصُ الرَّوَاسِمُ

مناديح: بدائل، القلاص الرواسم: الأبل السريعة، يقول: لي عنك بديل ويمكنني أن أرحل

ومَا جَلْجَلَ الوَجْنَاءَ بينَ قُتُودِها   كَغَضْبَةِ حُرٍّ شَيَّعَتْها عَزَائِمُ

جلجل: حرك، الوجناء: الناقة القوية، قتودها: أخشاب سرجها

سودنا الأبيات السابقة لأنها في غاية الجزالة وفيها فحولة في سبك الكلام، وفوق ذلك لم نر القدماء والمحدثين يقتبسونها في كتبهم. على أن فيها فوق ذلك تعبير دقيق عن خلجات النفس وهي تمثل طريقة ونفسية ابن الرومي خير تمثيل

٣٣٩ الآن عرفنا قيمة الشبيبة

لا تَلْحُ من يبكي شبيبَتَه   إلَّا إذا لم يبكِها بِدَمِ

لا تلح: لا تلمْ

لسْنَا نَراها حقَّ رؤيتِها   إلَّا زمانَ الشيبِ والهَرَمِ

كالشمسِ لا تبدُو فضيلتُها   حتى تُغَشَّى الأرضُ بالظُّلَمِ

٣٤٠ نصائح قبل ركوب البحر

وقال في ابن الخبازة:

يـا قـاصـداً بُـورانَ! شـاوِرْ تَـسْـلَـمِ
واسـتَـثْـبِـتِ الـرأيَ ولا تَـقَـحَّـمِ
قَـبـلَ الـنِّـدَامِ لاتَ حـيـنَ مَـنْـدَمِ
لا تـأتِـهَـا شَـائِـلَـةَ الـمُـخَـدَّمِ

شائلة المخدم: رافعة الساق التي فيها الخَدَمَة أي الخلخال

بـل دَانِ بـيـنَ الـفَـخِـذَيْـنِ واضْـمُـمِ
واقـبِـضْ عـلـى أعـضَـادِهَـا واسْـتَـعْـصِـمِ
فـإنَّـمَـا تَـركَـبُ بـحـرَ الـقُـلْـزُمِ

بحر القلزم: البحر الأحمر

٣٤١ فارسي رومي عباسي

وقال يعاتب:

وكيفَ أُغْضِي على الدَّنِيَّةِ والـ ـفُرسُ خُؤُولِي، والرُّومُ أَعْمامي
وقد تَتَوَّجْتُ مِنْ وَلاءِ بنِي الـ ـعَبَّاسِ تَاجاً يَسمُو به السَّامي

٣٤٢ البورانية الكبرى

وقال في ابن الخبازة:

يا ابنَ بُورانَ! ما نَجَوْتَ من الوَأْ دِ لخيرٍ، لكِنْ لِشَرٍّ عظيمِ
لو تَبِعْتَ الأُلَى مَضَوْا مِنْ شهيدٍ ووَئيدٍ إلى جِنانِ النعيمِ
كانَ خيراً مِنَ البقاءِ لِحَربي، بلْ أَبَى شُؤْمُ جَدِّكَ المشؤومِ
أنا مَنْ أَذْعَنَتْ له الإنسُ والجِنُّ ـ جميعاً بالقَسْرِ والتَّرْغِيمِ
واسعُ العفوِ لِلْمُنِيبِ، وعِندي نَقَماتٌ تَدومُ لِلْمُسْتَديمِ

المنيب: التائب

شَمِلَ الناسَ عدلُ أُمِّكَ حتَّى سارَ فيهِمْ كَسَيْرِ جَوْرِ سَدُومِ

مثلما كان جور (ظلم) أهل سدوم (قوم لوط) شاملاً كل الناس (فكلهم فنوا بسببه) كذلك عدل أمك

كيفَ نَدْعُوهُمُ لآبائِهِمْ رَبِّـ ـ ـيِ ومِنهُمْ أمْثالُ هذا الزَّنِيمِ

الزنيم: الدعي المشكوك في نسبه

كلُّ فَحْلٍ أبوكَ، عَدْلاً مِنَ اللَّـ ـهِ، وعيسى بِلا أَبٍ كاليتيمِ

تَطْمِثُ الأرضُ من مَواطِئِ بُورا نَ وَلَوْ بينَ زَمْزَمٍ والحَطِيمِ

كلُّ عُضوٍ مِنْ جِسمِها فيهِ فَرْجٌ يَقتضِيها الزِّنا اقتِضاءَ الغَريمِ

اقتضاء الغريم: إلحاح الدائن في المطالبة

أفْحَشُ القَذْفِ والهِجاءِ لِبُورا نَ طَهورٌ كالرَّجْمِ لِلْمَرْجُومِ

شتم بوران قد يطهرها مثلما يزيل الرجم الإثم عن المرجوم حيث يكون عقاب الدنيا بدلاً من عقاب الآخرة

كيفَ لا تسقُطُ السماءُ على الأر ضِ، ونُرْمَى من أجلِها بالرُّجُومِ

من أجلها: من أجل بوران وأفعالها، الرجوم: الشهب

كَثُرَتْ مُوبِقاتُ بُورانَ حتَّى ضاقَ عنها عفوُ الغَفورِ الرَّحيمِ

غَلَبَتْهُ خَلاعةً ومجوناً يا لِقَوْمِ لِلْشَّيْخَةِ المِغْلِيمِ

المغليم: الشبقة. يقصد غلبت زوجها بخلاعتها

ذَلَّلَتْ أنفَهُ، فَكيْفَ أرادتْ صَرَّفَتْهُ كالكَوْدَنِ المَخْطُومِ

الكودن المخطوم: البغل المربوط

فإذا لِيمَ في تغاضيِهِ عنها قالَ: مِنْ شَأْنِيَ اطِّرَاحُ الهُمُومِ

رَضيَ الشيخُ بالذي قدَّرَ اللَّـ ـهُ، فَأَلْقَى مَقالِدَ التَّسليمِ

مقالد التسليم: مفاتيح الاستسلام

غيرَ أنْ لم تَغْبُنْهُ طَرْفَةَ عينٍ بِفُجورٍ ولا زِناً مَكْتُومِ

بلْ بِسَحْنَاءِ وجْهِ سَهْلٍ طَليقٍ وبِطِيبٍ من نفسِ سَمْحٍ كريمِ

لو أطاعَتْ كما عَصَتْ لاستَحَقَّتْ خُلَّةَ اللَّهِ دونَ إبراهيمِ

خُلَّة: محبة

ليسَ لي من هِجَاءِ بُورانَ إلَّا نَقْلُ مَنْثُورِهِ إلى المنظُومِ

ومَعَانِيَّ كُلُّهُنَّ اتِّبَاعٌ لا ابْتداعٌ، والعلمُ بالتَّعليمِ

هِـيَ تَـفْـري لِـيَ الـفَـرِيَّ فَـأَحْـذُو حَـذْوَهـا كـالإمَـامِ والـمـأْمُـومِ

تفري الفري: تأتي بالأعاجيب، فأنا فقط ألاحق أفاعيلها بالوصف مثلما يفعل المصلي المأموم خلف الإمام

مـا أرانـيِ أُسَـيِّـرُ الـشـعـرَ فـيـهـا سَـيْـرَهـا فـي سُـهـولِـهَـا والـحُـزُومِ

الحزوم: الحزون أي الوعور، فرغم أن شعري ينتشر ويسير في السهل والوعر، فهي خراجة ولاجة وأكثر منه سيراً

هِـيَ أَهْـدَى مـن الـقَـوافـيِ وأَسْـرَى فـي دُجَـى الـلـيـلِ والـفَـلا الـدَّيْـمُـومِ

الديموم: لعله البر الممتد إلى ما لانهاية

حَـمَـلاهـا: الـنَّـهـارُ والـلـيـلُ دَأْبـاً يُـعْـمِـلانِ الـرَّسِـيـمَ بـعـدَ الـرَّسِـيـمِ

الرسيم: سير الأبل السريع

لـيـس يُـخْـلـي منـهـا مَـكـانٌ مَـكـانـاً هِـيَ شـيءٌ خُـصُـوصُـهُ كـالـعُـمُـومِ

تَـتَـأَنَّـى مَـحِـيـضَـهـا ثـم تَـزْنـيِ فـي الـمـحـاريـبِ طـاعـةً لـلـرَّجِـيـمِ

تنتظر انصراف الحيض بفارغ الصبر لتزني، وأين؟ في المحراب!

هِـيَ طـيْـفُ الـخَـيـالِ يَـطـرُقُ أهـلَ الْـ أَرْضِ مِـنْ بـيـنِ ظَـاعِـنٍ ومُـقـيـمِ

صَـمَـدَتْ فـي الـزِّنَـا تُـنَـاسِـلُ حَـوَّا ءَ، فَـحَـوَّاءُ عـنـدَهـا كـالـعَـقـيـمِ

ظلت تزني كأنها تناسل حواء، تباريها في النسل، فحواء أم البشرية لكنها بالنسبة إليها كالعاقر. وفي البيت ما يسمونه إحالة، أي استحالة وجود أي قدر من الحقيقة وراء المعنى، وفيه أيضاً خطأ في المعنى، فالزنا شيء والإنجاب شيء آخر.. لكن.. خاطر خطر لابن الرومي فلا بد أن يحشره في القصيدة

أيُّـهـا الـجَـالِـدو عُـمَـيْـرَةَ طُـرّاً لا عَـدِمْـتُـمْ ظُـلامَـةً مِـنْ ظَـلُـومِ

أيها الجالدو عميرة (ممارسو العادة السرية) لا فاتتكم ظلامة (أرجو ألا يفوتكم حق مغصوب) عند امرأة ظلوم

كـيـفَ ضِـعْـتُـمْ وفَـرْجُ بُـورانَ مَـوْقُـو فٌ عـلـى ابـنِ الـسـبـيـلِ والـمـحـرومِ

نَـزَعَ الـلَّـهُ غَـيْـرَةَ الـفَـحْـلِ مـنْـهُ فَـهْـوَ مـا شـئـتَ مـن فـؤادٍ سَـلِـيـمِ

يتكلم عن ابن بوران، فهو صاحب فؤاد سليم (أي مغفل)

يـا ابـنَ بُـورانَ قـد أَظَـلَّـكَ زَجْـرٌ كـالـدُّخَـانِ الـمـذكـورِ فـي حَـامِـيـمِ

الدخان المبين الذي يغشى الناس ويكون عذاباً عظيماً مذكور في سورة الدخان، وتبدأ بـ حم

يـا ابـنَ بُـورانَ لا مَـفَـرَّ مِـنَ الـلَّـ ـهِ، ولا مـن قـضـائِـه الـمـحـتـومِ
كنـتَ فـيمَـا أَرَى حَسِبْتَ هِجَائِـ ـكَ هِـجَـاءً أَبْـقَـى مَـصَـحَّ أَدِيـمِ

مصح أديم: أديما (جلداً) سليماً

فَـتَـغَـاضَـيْـتَ خَـوْفَ أَعْـرَمَ مـنـهُ رَاضِـياً خُطَّـةَ الـذَّلـيـلِ الـمَضِـيـمِ

أعرم: أكثر تهوراً، المضيم: المظلوم

فـإذا الأمـرُ فـوقَ مـا كـنـتَ قـدَّرْ تَ، ولـيـس الـيـقـيـنُ كـالـتَّـرْجِـيـمِ

الترجيم: الظن

صَدَمَتْ مِسْمَعَيْكَ شُنْعُ القوافي صَـدْمَـةً غـادَرَتْـكَ كـالـمَـأْمُـومِ

مسمعيك: أذنيك، المأموم: المضروب على أم رأسه (وأم الرأس الدماغ)

لا تُـبَـالـي مَنْ بَـاكَ أمَّـكَ جَـهْـراً مِـن عَـدُوٍّ، ومِـنْ وَلِـيٍّ حَـمـيـمِ
أَفَـتَـرْضَـى بـبَـيْـكِـهـا وتُـبَـالـي شَتْمَها، يا ضَلالَ حِلْمِ الحَليمِ؟
غيرَ أَنِّي أَنْضَجْتُ جلدَكَ كَيّاً فَـتَـمَـلْـمَـلْ، فـأنـتَ غـيرُ مَلُـومِ
لَـكَ عُـذْرٌ أَنْ لا تَـنـامَ، لَـعَـمْـري، أنـا أَدْهَـى مـن أَنْ يَـنَـامَ سَـلـيـمي

سليمي: ملسوعي (وكانوا يسمون الذي لسعته الحية السليم تفاؤلاً بأنه سيسلم)

هَـاكَـها حُـلَّـةً، سَيُودي بِـكَ الـدَّهْـ ـرُ وفـيـهـا طَـرَائِـقُ الـتَّـسْـهِـيـمِ

طرائق التسهيم: الخطوط في الثوب المقلم المخطط

لا يَـرانـي الإلـهُ أَهْـجُـوكَ عُـمْـرِي، أنـتَ عِـنـدِي فـي حـالـةِ الـمَـرْحـومِ
لِلْقَـوافـي فـي وَصْـفِ أمِّـكَ شُـغْـلٌ يـا ابـنَ بُـورانَ عـن صِـفـاتِ الرُّسُـومِ

الرسوم: الأطلال

٣٤٣ العفَّة الإجبارية

وقال يمدح:

حَـرُمَـتْ بـالـمـشـيـبِ أشـيـاءُ حَـلَّـتْ لِـي زمـانـاً بِـإِذْنِ جَـعْـدٍ سُـخَـامِ

جعد سخام: شعر أجعد أسود. أي أن شبابه وسواد شعره أحلّا له أموراً أصبحت الآن حراماً بسبب الشيب

لـم تُـحَـلَّـلْ لـمـنْ أَتـاهـا، ولـكـنْ لـم يكُنْ دونَـهـا مـن الـشـيـبِ حَـامِ

سَوْأَتي أَنْ أَطَعْتُ شيبيَ فِيمَا　　لم أُطِعْ فيهِ حاكمَ الحُكَّامِ

حاكم الحكام: الله

وَعَظَ اللَّهُ والكتابُ، فَصَمَّمْـ　　ـتُ وأقدَمْتُ أَيَّمَا إقدامِ

ونَهَى الشَّيْبُ بعدَ ذاكَ، فَسَلَّمْـ　　ـتُ وأحْجَمْتُ أَيَّمَا إحْجَامِ

صُمْتُ عن كلِّ لَذَّةٍ لِمَشيبي　　أَفَلا كانَ للإلهِ صِيامي؟

واحَيائي أنْ لا يكونَ من اللَّـ　　ـهِ حَيائي، وليسَ منه احْتِشامي

كادَ هذا المَتَابُ يُعْتَدُّ إجْرا　　ماً، وبعضُ المَتَابِ كالإجرامِ

التوبة بسبب المشيب لا بسبب التحريم كالإجرام (ارتكاب الجرم)

كم بَدَا في الكتابِ لِي من ضِياءٍ　　كان من قبلُ دونَهُ كالقَتَامِ

الكتاب: القرآن، القتام: الغبار

هَتَكَ الشيبُ ذلكَ السِّتْرَ لي عنْـ　　ـهُ، فَزَالَ العَمَى ورَاحَ التَّعَامي

وكِلا الشيبِ والكتابِ جميعاً　　واعظٌ زاجِرٌ عنِ الآثامِ

غيرَ أنَّ الكتابَ يُكْتَبُ بالأقْـ　　ـلامِ والشيبُ ليسَ بالأقلامِ

بلْ بِرَدْعِ الحوادِثِ المُصْمَئِلَّا　　تِ ومَرِّ الشُّهُورِ والأعوامِ

المصمئلات: الشديدة

لن ترى مثلَه كتاباً مُبِيناً　　لا بِشَكْلٍ له ولا إعْجَامِ

ليس هناك كتاب واضح مبين مثل الشيب، ووضوحه ليس بالتشكيل ولا بالإعجام (التنقيط)

خُطَّ غُفْلَ الحُروفِ، يَقْرَأُهُ الأُمِّـ　　ـيُّ كالصُّبْحِ، غيرَ ذِي اسْتِعْجَامِ

استعجام: غموض

لَهْفَ نَفْسِي على الشبابِ الذي أصـ　　ـبحَ خَلْفِي، وذِكْرُهُ قُدَّامي

لَهْفَ نفسِي على الظِّبَاءِ اللواتِي　　عاقَني عن قَنِيصِها إحْرَامي

الآن يعوقني عن صيدها إحرامي (لبسي للشيب)

لَهْفَ نفسِي على احْتِكامِي على البِيـ　　ـضِ، وإذْعَانِهِنَّ عندَ احتِكَامي

ودَعَتْني النساءُ عَمّاً، وقد كنـ　　ـتُ لَدَيْهِنَّ مِنْ بَني الأَعمَامِ

مَلِكٌ حَلَّ في سَماءِ المَعالي　　فوق شمسِ الضُّحَى وبَدْرِ الظَّلامِ

بدأ يمدح

وعَطايا كَوَامِنٌ في المواعِيـ ... ـدِ كُمُونَ الثِّمَارِ في الأكمامِ
سَاعِيَاتٌ إلى رجالٍ قُعُودٍ ... سارياتٌ إلى أُنَاسٍ نِيَامِ
مُعْفِيَاتٌ من السُّؤَالِ، مُصَفَّا ... ةٌ، ألا هَكذا عَطَاءُ الكِرامِ

تعفي الناس من السؤال، ومصفاة من المن

٣٤٤ واحيائي من النبي

وقال يرثي أهل البصرة ويذكر ما نالهم من الورزنيني صاحب الزنج:

ذَادَ عن مُقْلَتي لذيذَ المَنامِ ... شُغْلُها عنه بالدموعِ السِّجَامِ

ذاد (أبعدَ) عن عيني النوم اللذيذ انشغالها عنه بالدموع السجام (المنهمرة)

أيُّ نومٍ من بعدِ ما حَلَّ بالبَصْـ ... ـرَةِ مِنْ تِلْكُمُ الهَنَاتِ العِظَامِ؟

الهنات: الأحداث

أيُّ نوم من بعدِ ما انتَهَكَ الزَّنْـ ... ـجُ جَهاراً محارِمَ الإسلامِ؟
أَقْدَمَ الخائنُ اللعينُ عليها ... وعلى اللَّهِ أيَّمَا إقدامِ
لَهْفَ نفسي عليكِ أيَّتُها البَصْـ ... ـرَةُ لَهْفاً كَمِثْلِ لَهْبِ الضِّرَامِ
بينما أهلُها بأحسنِ حالٍ ... إذْ رَمَاهُمْ عبيدُهُمْ باصْطِلامِ

اصطلام: استئصال

دَخلوُها كأنَّهُمْ قِطَعُ اللَّيْـ ... ـلِ إذا رَاحَ مُدْلَهِمُّ الظَّلامِ

دخلوا البصرة كأنهم قطع الليل عندما يروح (يعود ليلاً) الظلامُ المدلهم. كأن الظلام كان يشتغل طول النهار في حقله وراح (عاد مساء) إلى بيته

طَلَعُوا بالمُهَنَّداتِ جَهْراً، فألْقَتْ ... حَمْلَهُا الحامِلاتُ قبلَ التَّمامِ
كمْ ضَنينٍ بنفسِه رامَ مَنْجَىً ... فتَلَقَّوْا جبينَه بالحُسامِ
كم أخٍ قد رأى أخاهُ صَريعاً ... تَرِبَ الخَدِّ بينَ صَرْعَى كِرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بَنِيهِ ... وَهْوَ يُعلَى بِصَارمٍ صَمْصَامِ
كم رَضيعٍ هناكَ قد فَطَمُوهُ ... بِشَبَا السَّيفِ قبلَ حينِ الفِطَامِ

شبا: حدّ

كم فتاةٍ بِخَاتِمِ اللَّهِ بِكْرٍ ... فَضَحُوها جَهْراً بِغيرِ اكتِتامِ

كم فتاةٍ مَصونةٍ قد سَبَوْها بَارِزاً وجهُها بِغيرِ لِثَامِ
صَبَّحُوهُمْ فَكابَدَ القومُ منْهُمْ طُولَ يومٍ كأنَّه ألفُ عَامِ
أَلْفُ أَلْفٍ في ساعةٍ قتلوُهُمْ ثم ساقُوا السِّبَاءَ كالأغنامِ

السباء: النساء المسبيات

مَن رَآهُنَّ يُتَّخَذْنَ إمَاءً بعدَ مِلْكِ الإمَاءِ والخُدَّامِ؟
عَرِّجَا صاحِبَيَّ بالبصرةِ الزَّهْـ ـراءِ تَعْريجَ مُدْنَفٍ ذي سَقَامِ

مدنف: مريض

فاسْألاها، ولا جَوابَ لديْها لِسُؤالٍ، ومن لها بالكَلامِ
أينَ ضوْضاءُ ذلكَ الخَلْقِ فيها أينَ أسواقُها ذَوَاتُ الزِّحَامِ؟
أينَ فُلْكٌ منها وفُلْكٌ إليْها مُنْشَآتٌ في البحرِ كالأعْلامِ؟

فلك: سفن، منشآت: قال ابن كثير إنها السفن الشراعية وقال غيره غير ذلك، الأعلام: الجبال

أينَ تلكَ القُصورُ والدُّورُ فيها أينَ ذاكَ البُنْيانُ ذُو الإحْكَامِ؟
سُلِّطَ البَثْقُ والحَرِيقُ عليْهِمْ فَتَدَاعَتْ أركانُها بانهِدَامِ

البثق: الماء المنبثق

وخَلَتْ من حُلُولِهَا فَهْيَ قَفْرٌ لا تَرَى العَيْنُ بين تِلْكَ الأكَامِ..

حلولها: أهلها الذين يحلون فيها، الأكام: الأكوام، والأكمة التلة، وهي هنا تلال من ركام

غيرَ أَيْدٍ وأَرْجُلٍ بائِنَاتٍ نُبِذَتْ بَيْنَهُنَّ أَفْلاقُ هَامِ

بائنات: مفارقات الجسوم فهي أشلاء، أفلاق هام: رؤوس مفلقة

ووُجوهٍ قد رَمَّلَتْهَا دِماءٌ بِأَبِي تِلْكُمُ الوُجوهُ الدَّوَامي

الترميل يكون بالرمل ويكون بالدم، وهنا بالدم

وُطِئَتْ بِالهَوَانِ والذُّلِّ قَسْراً بعدَ طولِ التَّبْجيلِ والإعْظَامِ
فَتَراها تَسْفِي الرِّيَاحُ عليها جَارِيَاتٍ بِهَبْوَةٍ وقَتَامِ

هبوة: غبار، قتام: غبار

وانَدَامي على التَّخَلُّفِ عنهُمْ وقليلٌ عَنْهُمْ غَنَاءُ نَدَامي
كيف تَرْضَى الحَوْرَاءُ بالمرءِ بَعْلاً وَهْوَ من دونِ حُرْمَةٍ لا يُحَامي؟

واحَيـائـيِ مـن الـنَّـبِـيِّ إذا مـا لامَـنـي فِـيـهِـمُ أَشَـدَّ الـمَـلامِ
والانْقِطَاعِـيِ إذا هُـمُ خَـاصَـمُـونـيِ وتَـوَلَّـى الـنبيُّ عـنـهُـمْ خِـصَـامـي

انقطاعي: إفحامي، خاصموني: أخذوني للقاضي

مَـثِّـلُـوا قـولَـه لَـكُـمْ أيُّـهـا الـنَّـا سُ إذا لامَـكُـمْ مَـعَ الـلُّـوَّامِ:
أُمَّـتـي أيـنَ كُـنْـتُـمُ إذْ دَعَـتْـنـي حُـرَّةٌ مـن كَـرائِـمِ الأقْـوامِ
صَـرَخَـتْ: «يـا مُـحَـمَّـدَاهُ»، فَـهَـلَّا قـامَ فـيـهـا رُعَـاةُ حَـقِّـي مَـقَـامـي
اِنْـفِـرُوا أيـهـا الـكـرامُ خِـفَـافـاً وثِـقَـالاً إلـى الـعـبـيـدِ الـطَّـغـامِ

الطغام: السِّفْلَة

أَبْـرَمُـوا أمـرَهُـمْ وأنـتُـمْ نِـيَـامٌ سَـوْأَةً سَـوْأَةً لِـنَـوْمِ الـنِّـيَـامِ
صَـدِّقُـوا ظَـنَّ إخْـوَةٍ أَمَّـلُـوكُـمْ ورَجَـوْكُـمْ لِـنَـبْـوَةِ الأيَّـامِ
أدْرِكُـوا ثَـأْرَهُـمْ فَـذَاكَ لَـدَيْـهِـمْ مِـثْـلُ رَدِّ الأرواحِ فـي الأجـسـامِ
لـم تُـقِـرُّوا الـعُـيونَ مِـنْـهُـمْ بِـنَـصْـرٍ فَـأَقِـرُّوا عُـيُـونَـهُـمْ بـانـتِـقـامِ
أَنْـقِـذُوا سَـبْـيَـهُـمْ، وقَـلَّ لَـهُـمْ ذَا كَ، حِـفَـاظـاً ورَعْـيَـةً لـلـذِّمَـامِ

٣٤٥ المدح والسؤال

وقال في الرجل لا يُطمع في رفده إلا بعد مدحه:

مَـدِيـحُـكَ مـن تُـطَـالِـبُـه بِـرِفْـدٍ هـجـاءٌ مـنـكَ فـيـهِ بِـلا كَـلامِ

بلا كلام: أي هو هجاء دون لفظ الهجاء

لأنَّـكَ لـم تَـثِـقْ مـنـهُ بِـمَـجْـدٍ فَـتَـقْـنَـعَ بِـالـلِّـقَـاءِ وبِـالـسَّـلامِ

٣٤٦ لكنه يتكلم

وقال في بعض آل نوبخت:

يَـقْـري الـضُّـيُـوفَ ولـكـنْ يَـقْـرِي الـضـيـوفَ ويَـنْـدَمْ
ولـيـسَ يَـنْـدَمُ سِـرّاً لـكـنَّـهُ يَـتَـكَـلَّـمْ

٣٤٧ الشعراء غير نيام

وقال في علي بن محمد بن العباس:

ومَغَارِمُ الشُّعَراءِ في أَشْعَارِهِمْ ... إنفاقُ أعْمارٍ وهَجْرُ مَنامِ

مغارم: مخاسر

وتَشاغُلٌ عن ذِكْرِ رَبٍّ لم يَزَلْ ... حَسَنَ الصَّنائِعِ، سَابِغَ الإنْعَامِ

لم أَحْتَسِبْ فيكَ الثَّوابَ بِمِدْحَتي ... إيَّاكَ، يا ابنَ أكارِمِ الأقوامِ

أحتسب: أصنع الشيء لوجه الله، ليحسبه لي عنده

لو كانَ مَدْحي حِسْبَةً لم أَكْسُهُ ... أَحَداً أَحَقَّ به من الأيْتامِ

فاقبلْ مديحاً والْقَهُ بِثَوابِهِ، ... أوْ لا، فَدَعْهُ لِغَارِمٍ غَنَّامِ

لا تَقْبَلَنَّ المَدْحَ ثُمَّ تَعُقَّهُ ... وتَنامَ، والشُّعَراءُ غَيْرُ نِيامِ

واعلمْ بأنَّهُمُ إذا لم يُنْصَفُوا ... حَكَمُوا لأنفسِهِمْ على الحُكّامِ

وظُلامَةُ العَادي عليْهِمْ تَنْقَضي ... وعِقَابُهُمْ يَبْقَى على الأيّامِ

٣٤٨ ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت

إنْ أَقْبَلَتْ فالبدرُ لاحَ، وإنْ مَشَتْ ... فالغصنُ رَاحَ، وإنْ رَنَتْ فالرِّيمُ

نَعِمَتْ بها عيني فَطَالَ عذابُها ... ولَكَمْ عذابٍ قد جَنَاهُ نَعِيمُ

نَظَرَتْ فأَقْصَدَتِ الفُؤادَ بسهمِها ... ثم انْثَنَتْ نَحْوي فَكِدْتُ أَهِيمُ

أقصدت: أصابت

وَيْلاهُ إنْ نَظَرَتْ وإنْ هِيَ أعرَضَتْ ... وَقْعُ السهامِ ونَزْعُهُنَّ أَلِيمُ

٣٤٩ أدبني فأحسن تأديبي

وقال في القاسم بن عبيد الله:

لِلَّهِ دَرُّ ثِقَافٍ منهُ قَوَّمَني ... لَئِنْ لَؤُمْتُ لقدْ أَبْقَى وما لَؤُمَا

ثقاف: تقويم وعقاب

ما زَال يَرْفُقُ في تقويمِه أَوَدي ... حتَّى تَقَوَّمَ لي عُودي وما انْحَطَمَا

هذا الممدوح ظل يقوم أودي (اعوجاجي) برفق

٣٥٠ يا ضد عيسى

وقال يهجو خالدا القحطبي:

يـا ضِـدَّ عـيـسـى! جـاءَ مـن لا أَبٍ   وجِـئْـتَـنـا أنـتَ مـن الـعـالَـمِ
يَـنْـزِلُ فـيـهِ كُـلُّ ذي غُـرْبَـةٍ   كَـأَنَّـهُ خـانُ بَـنـي عَـاصِـمِ

أي أن خالداً القحطبي قد نزل في خلقته كلُّ الآباء (تعريضاً بأن أمه لم تترك رجلاً إلا ومارسته)

٣٥١ التهنئة بسلامة المهزوم

وقال يهجو سليمان بن عبد الله الطاهري:

كَثُرَتْ فُتُوحُ أميرِنا وتَتَابَعَتْ   فَجَزَاهُ رَبُّ الناسِ دارَ كرامَتِهْ
ما إنْ يزالُ مُعَزِّيَاً خلفاءَنا   عَنْ كُورَةٍ، ومُهَنَّئاً بِسَلامَتِهْ

كورة: إقليم

ضَرْطٌ كَتَشْقِيقِ الحَرِيرِ، وسَلْحَةٌ   في عَارِضَيْهِ، وفي مَفَارِقِ هَامَتِهْ

مثل صوت شق الحرير، سلحة: غائط، في عارضيه: في خديه. هذا البيت شتم بحت

٣٥٢ ما لم تتكلم

وقال يهجو (والأشهر أن البيتين قيلا في أبي تمام لحبسة كانت في لسانه، ونسبهما العباسي صاحب معاهد التنصيص لعبد الصمد بن المعذل أو لأبي العميثل، والشك منه):

يـا نَـبِـيَّ الـلَّـهِ فـي الـشِّـعْـ   ـرِ، ويـا عـيـسـى بْـنَ مَـرْيَـمْ

وعيسى تكلم في المهد

أنـتَ مـن أشـعَـرِ خَـلْـقِ الـلَّـ   ـهِ مـا لـم تَـتَـكَـلَّـمْ

٣٥٣ فتح بيولوجي

كـأنَّ أبـاهُ حـيـنَ وَاقَـعَ أمَّـهُ   أتَـاهـا، وفي إحْلِيلِهِ كُوزُ بَلْغَمِ

واقع: جامع، إحليل: عضو الرجل

فـجـاءتْ بـه قِرْدَاً قـبـيـحـاً مُقَبَّحاً   عـلـى مـا بِـهِ مـن قِـلَّـةٍ وتَـبَـظْـرُمِ

تبظرم: حمق

٣٥٤ النفس الخضراء

أقامَ مَشيبي عليَّ القِيامَةْ وعَمَّمَني منه أَخزَى عِمَامَةْ
فَأَفْسَدَ بيْني وبينَ المِلاحِ وأَوْحَشَ مني كُؤوسَ المُدَامَةْ
ظُلِمْتُ، ولا حَاكِمٌ عادِلٌ على الشَّيْبِ يسمعُ مني الظُّلامَةْ
ولما رَأَيْتُ سِهامَ المشيبِ جعلْتُ الخِضَابَ مِجَنًّا ولامَةْ

مجن: ترس، لامة: لأمة: درع

ومَا زِلْتُ أَلْطُفُ في حِيلَةٍ تُعِيدُ الشَّبِيبةَ لي والوَسَامَةْ
تبيَّنْتُ منذُ خَضَبْتُ المشِيـ ـبَ بعدَ اعْوِجَاجِ أُموري استِقامَةْ
وعادَتْ إليَّ خِلالُ الشبابِ جَميعاً سوى فَتْكِهِ والعَرَامَةْ

خلال: صفات، الفتك: الجرأة على الغزل، العرامة: الاندفاع

سَوادُكَ فيه دَليلٌ على شبابٍ، وفيه عليْهِ عَلامَةْ
سَتَنْدَمُ إن أنتَ لم تختَضِبْ فَسَوِّدْ خِضَابَكَ قبلَ النَّدَامَةْ
ولا تَلْحُني في طِلابِ الشَّبابِ فنفْسِي به لم تَزَلْ مُسْتَهامَةْ

٣٥٥ الفطام الصعب

لن يَطِيبَ الهوى إذا لم تُنِرْهُ وتُسَدِّي أثوابَهُ الآثَامُ

الهوى لا يطيب إلا بالذنوب تنيره وتسديه (تحكم نسجه عرضاً وطولاً)

لستُ مُسْتَعْذِباً وِصَالَ حَبيبٍ أو تُرَى فيهِ لي ذنوبٌ عِظَامُ
فَحَلالُ الهوى نَبِيذٌ مُدَارٌ وحَرَامُ الهوى شَمُولٌ مُدَامُ

ليس أن نبيذهم الحلال كان كالبيرة التي بدون كحول، بل إن بعض فقهاء العراق كانوا أحلوا أنواعاً من الخمر وجدوا في بعض كتب اللغة أنه لا يقع عليها لفظ الخمر

مَنْ أَطالَ ارْتِضَاعَ أَخْلافِ لَهْوٍ شَقَّ فيما أرى عليهِ الفِطَامُ

أخلاف: ضروع

فُتْ بِلَذَّاتِكَ العَواذِلَ والعذْ لَ، وإلَّا فَاتَتْ بها الأيامُ
سَيُمَحِّي الذنوبَ منكَ صَلاةٌ وخُضُوعٌ وخِيفَةٌ وصِيَامُ
لن تَمَسَّ الجَحِيمُ، ظَنِّيَ، جِلْداً قد كَسَاهُ أثوابَهُ الإسلامُ

٣٥٦ الشبق والقرم

أَنْسَى نَصيبي من الفتاةِ سِوى ... نَصيبِ أُذْني وناظِري وفَمي
ليسَ يُحِبُّ الكِرَامُ مِنْ شَبَقٍ ... ولا يَصِيدُ الملوكُ مِنْ قَرَمِ

القرم: اشتهاء أكل اللحم

٣٥٧ دار البطيخ

وقال يمدح إسماعيل بن بلبل:

أَجْنَتْ لكَ الوَجْدَ أغصانٌ وكُثْبانُ ... فِيهِنَّ نوعانِ تفاحٌ ورُمَّانُ

أجنت لك الوجد: سببت لك جني (قطف) الوجد نساء قدودهن أغصان وأردافهن كثبان، وخدودهن تفاح، ونهودهن رمان

هذه القصيدة نبزها أحد آل طاهر «دار البطيخ»، ودار البطيخ اسم دكان الفواكه في ذلك الزمن

وفوقَ ذَيْنِكَ أعنابٌ مُهَدَّلَةٌ ... سُودٌ لَهُنَّ من الظَلْمَاءِ ألوانُ

وفوق ذينك (هذين: أي الخدود والنهود) شعر كقطوف العنب الأسود

ومِنْ عجائِبِ ما يُمْنَى الرجالُ به ... مُسْتَضْعَفَاتٌ له مِنْهُنَّ أَقْرَانُ
مُناضِلاتٌ بِنَبْلٍ لا تَقُومُ له ... كتائبُ التُّرْكِ يُزْجِيهِنَّ خَاقَانُ

يزجيهن: يدفعهن، خاقان: أمير الترك

ولا يَدُمْنَ على عهدٍ لِمُعْتَقِدٍ ... أَنَّى، وَهُنَّ كما شُبِّهْنَ بُستانُ؟

معتقد: من عقد معهن عقداً على الوفاء

يَمِيلُ طَوْراً بِحِمْلٍ ثم يَعْدَمُهُ ... ويَكْتَسي ثم يُلْفَى وَهْوَ عُرْيَانُ
إنْ لم أَزُرْ مَلِكاً أُشْجِي الخُطوبَ به ... فلم يَلِدْني أبو الأمْلاكِ يُونَانُ

أُشجي الخطوب: أغيظ المصائب

بل إن تَعَدَّتْ فلم أُحْسِنْ سِياسَتَها ... فلم يَلِدْني أبو السُّوَّاسِ سَاسانُ

الخطوب إن تعدت علي ولم أحسن التحايل عليها فلا نُسبتُ إلى ساسان (يقصد الفرس، فأمه فارسية)

قالوا: أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ، قلتُ لَهُمْ: ... كَلَّا لَعَمْرِي ولكنْ منه شَيْبَانُ

قصت علينا الكتب القديمة حكاية غضب أبي الصقر من هذا البيت. العربي يرضى منك أن تمدح قبيلته وتنساه، أما أن تقول إن قبيلته عظيمة بسببه فتلك مسبة. وسعى القوم مع أبي الصقر، ولفتوا نظره إلى الأبيات التالية التي تمجد شيبان، ولكن بلا فائدة، وحرم ابن الرومي العطاء. وبالطبع سلق شاعرنا أبا الصقر بهجاء مر

وكَمْ أَبٍ قد عَلا بِابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ ... كـمـا عَـلا بـرسُـولِ الـلَّـهِ عـدنـانُ
تَـسْـمُـو الـرِّجـالُ بـآبـاءٍ، وآونَـةً ... تسـمـو الـرجـالُ بـأبـنـاءٍ وتَـزْدَانُ
ولـم أُقَصِّرْ بِشَيْبَانَ التي بَلَغَتْ ... بِـهَـا الـمبـالـغَ أَعْـرَاقٌ وأَغْـصَـانُ
لا يَرهَبُونَ، إذا الأبطالُ أرهَبَهُمْ ... يومٌ عصيبٌ، وَهُمْ في السِّلْمِ رُهْبَانُ
حَلُّوا الفَضَاءَ ولـم يَبْنُوا فَلَيْسَ لَهُمْ، ... إلا الـقَـنـا وإِطـارَ الأُفْـقِ، حِـيطَـانُ

منزلهم الفضاء (البر)، وليس لهم حيطان تحميهم ـ اللهم إلا القنا (الرماح) والأفق. أي أن لهم كل أنحاء البلاد

٣٥٨ سقى الله أيام زمان

ذهـبَ الـذيـن تَـهُـزُّهُـمْ مُـدَّاحُـهُـمْ ... هَـزَّ الـكُـمَـاةِ عَـوالِـيَ الـمُـرَّانِ

الكماة: المسلحون، عوالي المران: الرماح الصلبة والمرنة في الوقت نفسه

كـانـوا إذا امتُدِحُوا رَأَوْا ما فِيهِمُ ... فَـالأَرْيَـحِـيَّـةُ مِـنْـهُـمُ بِـمَـكَـانِ

الأريحية: خلق يتحلى به بعض الناس في بعض الظروف. يكون المرء مرتاحاً في مكانه واثقاً بنفسه فيكون أريحياً قادراً على الإعطاء، ثم يكون هذا الشخص نفسه في منصب كبير عليه، فتراه خائفاً هياباً لا يأخذ قراراً إلا بالرجوع إلى رئيسه، وليس مستعداً لحمل أية مسؤولية، فيفقد أريحيته. وقد عرفت امرأً كان مديراً على مئة شخص ويزيد، وكان قليل الأريحية؛ وكنت أظن أنه لو كان عاملاً بسيطاً لتجلت أريحيته وحسن تعامله مع الناس

والـمدْحُ يَقْرَعُ قلـبَ من هُوَ أَهْلُهُ ... قَرْعَ الـمَـوَاعِـظِ قـلـبَ ذي إيـمـانِ
فَدَعِ الـلـئـامَ فـمـا ثوابُ مديحِهِمْ ... إلَّا ثـــوابُ عِـــبَـــادَةِ الأوثـــانِ

٣٥٩ الله أدرى بلوعة الحزن

وقال في بعض من كان يألفه ثم هجره:

حـارَبَ أجـفـانَـهُ الـرُّقَـادُ، فـمـا ... يَـسْـكُـنُ مـن لـيـلِـه إلـى سَـكَـنِ
لا تَـنْـفِـسَـا عَـبْـرَةً أجـودُ بِـهـا ... فَلَسْتُ أبكـي بـهـا عـلـى الـدِّمَنِ

تنفسا: تحسدا، الدمن: الخرائب

لـم يُـخْـلَـقِ الـدمـعُ لامْـرِئٍ عَـبَـثـاً ... الـلَّـهُ أدرى بِـلَـوْعَـةِ الـحَـزَنِ

ليت أعثر على من يساعدني، على من يشرح لي سبب حبي الشديد لهذا البيت من الشعر. بيت كأنه الفتاة الفاتنة، اجتمع فيها الجمال والجاذبية، فلا تستطيع لها لا وصفاً ولا تشبيهاً

أساءَ بيِ ما أتَيْتَ من حَسَنٍ	إليَّ فيما مضَى من الزمنِ
منعْتَنيِ بعدَكَ العَزَاءَ به	يا ليتَ ما كانَ منكَ لم يَكُنِ

منعتني من نسيانك والتسلي عن فقدك لكثرة إحسانك في حياتك، فيا ليتك ما كنت محسناً

٣٦٠ الطبيب المجرم

وقال في إسماعيل اليهودي المتطبب وكان قد غلط عليه في علاج عالجه به:

إنَّ إسماعيلَ قِرْدٌ مجرمٌ	إنْ سَقانيِ دَمَهُ اللَّهُ شَفاني
لو رأى آدمُ جَهْليِ لَمْحَةً	يومَ شَاوَرْتُ اليَهُوديَّ نَفَاني

نفاني: تبرأ مني

٣٦١ توصية لمنكر ونكير

وقال لما توفي أبو حسان الزيادي:

أقولُ إذْ هَتَفَ الدَّاعيِ بِمَصْرَعِهِ:	لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ مِنْ دَاعٍ بِتَبْيينِ
نَعَيْتَ من جَمَدَتْ غُزْرُ العُيونِ له	فلمْ تَفِضْ عَبْرَةٌ من عَيْنِ مَحْزُونِ

العيون الغزيرة بالدموع جمدت فلم تبك عليه

يا مُنْكَراً ونَكِيراً أَوْجِعَاهُ فَقَدْ	خَلَوْتُمَا بِقليلِ الخيرِ مَلعونِ

٣٦٢ أرجوحة الحمائم

حَيَّتْكَ عنَّا شَمَالٌ طافَ طائِفُها	بجنَّةٍ، فَجَرَتْ رَوْحاً ورَيْحَانا

شمال (ريح شمالية) طافت بجنة (روضة) فأخذت تجري روْحاً (نسيماً) وريحاناً (عطراً) ثم جاءتك لكي تؤدي التحية بالنيابة عنا

هَبَّتْ سُحَيْراً فنَاجَى الغصنُ صاحبَه	مُوَسْوِساً وتَنَادَى الطَّيْرُ إعْلانا

موسوساً: مصدراً صوتاً خفيفاً

وُرْقٌ تُغَنِّيِ على خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ	تَسْمُو بها، وتَشَمُّ الأرضَ أَحيانا

ورق: حمام، وهي تغني على أغصان خضر متدلية، ترتفع حيناً بالحمام وتهبط، بهبوب الريح، فتشم الحمائم الأرض

تَخَالُ طائِرَها نَشوانَ من طَرَبٍ	والغصنَ مِنْ هَزِّهِ عِطْفَيْهِ نَشوانَا

٣٦٣ الأعداء كامنة فينا

نَبني المَعاقِلَ، والأعداءُ كامنةٌ　　فينا بِكُلِّ طَريرِ الحَدِّ مَسْنُونِ

طرير الحد: قاطع الحد

ونَجْمَعُ المالَ نرجُو أن يُخَلِّدَنا　　وقَبْلَنا قد أَبَى تَخْلِيدَ قَارُونِ

٣٦٤ ذنب سألت الله ألا يغفره

وقال في خالد القحطبي:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ من ذنبِي ومن خَطَإِي　　إلَّا هِجائي دَعِيَّ القَحْطَبِيِّينا

فإنَّ ذلكَ ذَنْبٌ لَسْتُ أَحْفِلُهُ　　لا يَغْفِرِ اللَّهُ ذاكَ الذَّنْبَ، آمِينا

أحفله: أحفل به، لا يغفرِ: بالكسر، أدعو الله ألا يغفر

٣٦٥ ثالثة الأثافي

كان لِلأرضِ مَرَّةً ثَقَلانِ　　فَلَها اليومَ ثالِثٌ بِفُلانِ

الثقلان: الإنس والجن

أَتَّقي غُصَّةَ اسمِهِ عَلِمَ اللَّـ　　ـهُ فَأَكْني عن ذِكرِهِ بالمَعاني

يا ثقيلَ الثِّقَالِ! أَقْذَيْتَ عَيْني　　ليتَ أني كما أَرَاكَ تَراني

٣٦٦ آذان وشفاه

وقال في دريرة الجارية، وكان أبو العباس المرثدي يعشقها، وسأل ابنَ الرومي أن يصفها:

ذاتُ وجهٍ كأنما قيلَ: كُنْ فَرْ　　داً بديعاً بلا نَظيرٍ، فَكَانا

قد أَرَتْنَا وأَسْمَعَتْنا، ولكِنْ　　تركَتْ كلَّ عاشقٍ ظَمْآنا

مَتِّعي هذهِ المَرَاشِفَ مِنْ ريـ　　ـقِكِ يا مَنْ يُمَتِّعُ الآذانا

المراشف: الشفاه

واقْسِمي العدلَ في جَوارِحِ قومٍ　　تَركَ الظلمُ بعضَها هَيْمَانا

العدل: بعدل، جوارح: أعضاء، أي أنك لا تعدلين بين آذاننا التي تسمع غناءك، وبين شفاهنا المحرومة من قبلاتك

أنَـا والـلَّــهِ يــا دُرَيْــرَةُ أَهْــوا كِ، وإنْ ذُقْتُ في هَـواكِ الـهَـوانـا
أَشْـتَـهـي أنْ أَعَـضَّ مـنـكِ بَـنَـانـاً طـالَ عَـضِّـي عـلـيـهِ مِنِّـي البَـنَـانـا

عضي البنان: غيظي، والمرء إذا اغتاظ أو ندم عض أصابعه، أو وجب أن يفعل

لـم أَنَـلْ منكِ مُـذْ هَـوِيْـتُـكِ حَـظَّـاً مــن نَــوَالٍ سِــرّاً ولا إعــلانــا
غـيـرَ أنِّـي أَبِـيـتُ لَـيْـلِـيَ حَـيْـرا نَ، أُرَاعـي مِـنْ نَـجْـمِـهِ حَـيْـرانـا

٣٦٧ امتزاج الروحين

أُعَانِقُـهـا والـنـفْـسُ بـعـدُ مَـشُـوقَـةٌ إلـيْـهـا، وهـلْ بـعـدَ الـعِـنـاقِ تَـدانِ؟

تدانٍ: اقتراب

فَـأَلْـثِـمُ فَـاهَـا كـيْ تـمـوتَ حَـرارَتـي فَـيَـشْـتَـدُّ مـا أَلْـقَـى مِـنَ الـهَـيَـمَـانِ

ألثم: أقبّل

ومَا كان مِقْدَارُ الذي بي مِنَ الجَوَى لِـيَـرْوِيَـهُ مـا تَـرْشُـفُ الـشَّـفَـتَـانِ
كـأنَّ فـؤادي لـيـسَ يَـشْـفـي غـلـيـلَـه سوى أن يَرى الرُّوحَيْنِ يَـمْـتَـزِجَانِ

٣٦٨ شعراء وكتاب

وقال في أبي الحسين كاتب أبي العباس بن أبي الإصبع:

فَـمَـنْ يَـكُ سـائـلاً مـا وَجْـهُ فَـخْـري فـإنــي فَــاخِــرٌ؛ أَدَبــي زَهَــانــي
ونـحـنُ، مَـعـاشِـرَ الـشُّـعَـراءِ، نَـنْـمي إلـى نَـسَـبٍ مـن الـكُـتَّـابِ دَانِ
وإنْ كــانــوا أَحَــقَّ بِــكُــلِّ فَــضْــلٍ وأَبْـلَـغَ بِـالـلـسـانِ وبـالـبَـنـانِ
أَبُـونَـا عـنـدَ نِـسـبَـتِـنـا أبُـوهُـمْ عُـطَـارِدُ الـسَّـمَـاوِيُّ الـمـكـانِ

قال الأزهري في التهذيب (٣/٣٤٦): عطارد كوكب الكُتَّاب، ونسخها عنه ابن منظور في اللسان منسوبة، والزبيدي في التاج. وهذا صدى لأقوال اليونان فيما يرمز إليه عطارد (الإله والكوكب)

٣٦٩ الموت اللذيذ في أحضان القيان

ولاحٍ فـي الـقِـيـانِ فـقـلْـتُ: مَـهْـلاً رُمِـيـتَ بِـنَـبْـلِ أَوْتَـارِ الـقِـيَـانِ
مِنَ الـسُّـمْـرِ الـلِّـدَانِ إذا اسْـبَـكَـرَّتْ وصِـرْفُ الـموتِ في الـسُّـمْـرِ اللِّدَانِ

السمر اللدان: الرماح، اسبكرت: اعتدل قوامها. والصرف بفتح الصاد الخطب، وبكسرها المحض الخالص

٣٧٠ ازرع الحَبّ

وقال في جحظة:

أَنفِقِ المالَ قبلَ إنفاقِكَ العُمْـ ـرَ، ففي الدَّهْرِ رَيْبُهُ ومَنُونُهْ
اِزْرَعِ الحَبَّ تَسْتَدِمْهُ، فَمِمَّا رَدَّ مَزْرُوعُهُ أَتَى مَطْحُونُهْ

إنفاقك المال يعود عليك بالمال، مثل الحبوب تزرعها فتعود عليك بحبوب أكثر لتطحنها. لا تقرأها الحُبَّ، كما قرأها محقق الديوان، فلا يعود لها معنى

٣٧١ زراعة الحصى

وقال يتنجز وعداً:

قد حَالَ لِلْموعِدِ المأمولِ حَوْلانِ وقد تَلا ذَيْنِكَ الحَوْلَيْنِ شَهْرانِ
ولو زَرَعْتُ حَصىَ المَعْزاءِ أَثْمَرَ لِي مُذْ ذَاكَ شيئاً، ولو في مَتْنِ صَفْوانِ

المعزاء: الأرض الصلبة، صفوان: صخر

٣٧٢ شبق غانية

قال ابن الرومي (على لسان غانية):

نحنُ الحِسَانُ اللَّواتي ليس يُعْجِبُنا إلَّا الحِسانُ فَلا نَخْدَعْكَ بِالمَيْنِ

الحسان (النساء) يعجبهن الحسان (من الذكور) المين: الكذب

لا تَخْلِطِ الحُبَّ بالتَّقْوى لِتَعْطِفَنا علی مُحْبٍّ أَذَقْنَاهُ الأَمَرَّيْنِ
فلم نَبِعْ قَطُّ دُنْيانَا بِآخِرَةٍ، ومثلُنا لا يَبيعُ النَّقْدَ بالدَّيْنِ
نُحِبُّ كلَّ غلامٍ فيه مَيْعَتُهُ يَنْزُو إذا ما اسْتَبَكْنَاهُ بأَبْرَيْنِ

ينزو: يثب

ذاكَ الذي يُخْلَصُ الودُّ الصحيحُ له ونَشْتَرِي بَيْكَةً منه بِألفَيْنِ

٣٧٣ لم أطلبه كفناً

جُعِلْتُ فِداكَ لم أَسْأَلْـ ـكَ ذاكَ الثوبَ لِلْكَفَنِ
سَأَلْتُكُمُ لأَلْبَسَهُ ورُوحي بعدُ في البَدَنِ
وقد طالَ المِطَالُ به وخِفْتُ حوادِثَ الزمنِ

٣٧٤ العيون تلوذ بأجفانها

وقال في ابن حريث:

إذا بـــدا وجـــهُـــهُ لِـــقـــومٍ لاذَتْ بـأجْـفـانِـهَـا الـعـيـونُ
كـأنـه عـنـدَهُـمْ غَـريـمٌ حَـلَّـت لـه عِـنـدَهُـمْ دُيُـونُ

٣٧٥ أطفال في أحضان القيان

وقال يهنئ عبيد الله بن عبد الله بالمهرجان:

وقِـيـانٍ كـأنَّـهـا أُمَّـهَـاتٌ عَـاطِـفَـاتٌ عـلـى بَـنِـيـهـا حَـوانِ

عاطفات: مقبلات منحنيات، حوان: حانيات جسومهن حناناً ورحمة

مُـطْـفِـلاتٌ ومـا حَـمَـلْـنَ جَـنِـيـنـاً مُـرْضِـعَـاتٌ ولَـسْـنَ ذاتَ لِـبَـانِ

مطفلات: ذوات أطفال، يصف هيئة احتضان هؤلاء المغنيات لأعوادهن

مُـلْـقِـمَـاتٌ أَطْـفـالَـهُـنَّ ثُـدِيَّـاً نَـاهِـدَاتٍ كـأَحْـسَـنِ الـرُّمَّـانِ

كـلُّ طِـفْـلٍ يُـدْعَـى بِـأَسْـمَـاءَ شَـتَّـى بَـيـنَ عـودٍ ومِـزْهَـرٍ وكِـرانِ

كران: عود (عن اللسان)

أُمُّـهُ دَهـرَهـا تُـتَـرْجِـمُ عـنـه وَهْـوَ بـادي الغِـنَـى عن التَّـرْجُـمـانِ

رأيت العازف القوي يقول النغم بتفاصيله بعفق جيد وعُرَبٍ واضحة، ورأيت العازف الضعيف يختبئ وراء صوت المطرب ويتركه يفسر النغم. وعازفاتنا مغنيات أيضاً لكن عزفهن قائم بذاته

أُوتِـيَ الـحُـكْـمَ والـبَـيـانَ صَـبِـيَّـاً مثلَ عيسى بنِ مَرْيَمٍ ذي الحَنانِ

الحنان: الرحمة

فَـنَـفَـشْـنَ الـسَّـمَـاعَ فـي أُذْنِ خِـرْقٍ أَرْيَـحِـيٍّ عـلـيـه ثَـرِّ الـبَـنَـانِ

السماع: الغناء، خرق: رجل سخي، أريحي عليه: كريم على الغناء يسمعه فيجود بالمال، ثر البنان: غزير اليد بالعطاء

وتَـغَـنَّـتْـهُ بـالـمَـدَائِـحِ فـيـهِ كـلُّ غَـيْـدَاءَ غَـادَةٍ مِـفْـتَـانِ

فـأقـامَ الأمـيـرُ فـي ظِـلِّ يـومٍ فـيـه مِـنْ كـلِّ نِـعْـمـةٍ زَوْجَـانِ

أَعْـجَـمـيٌّ آيِـيـنُـهُ، عَـرَبـيٌّ مَـجْـدُهُ، يَـنـتـمـي إلـى عَـدنـانِ

آيين: إيتيكيت

هـاكَـهـا! لا أقـولُ ذاكَ مُـدِلّاً   قـولَ ذي نَـخْـوَةٍ بِـهَـا وامْـتِـنـانِ

مدلاً: مفتخراً، نخوة: هنا معناها افتخار

بـيـنَ أثـنـائِـهـا مـديـحٌ نـفـيـسٌ   مَـنْ لَـبُـوسِ الـمـلـوكِ والـفُـرْسـانِ

راقَ معنىً، ورَقَّ لفظاً فَيَحْكي   رَائِـقَ الـخـمـرِ في رقـيـقِ الصِّحَانِ

الصحان: الأقداح

إن تَـكُـنْ سَـهْـلَـةَ الـقَـوافـي فـلـيـسَـتْ   في الـمـعـانـي بِـسَـهْـلَـةِ الـوِجْـدَانِ

قوافي هذه القصيدة سهلة، فالنون عليها كلام كثير، ولكن معانيها ليست سهلة الوجدان (ليس سهلاً إيجادها)

فابْتَـذِلْـهـا فـي يـومِ لـهـوِكَ واعـلَـمْ   أنَّـهـا بـعـدُ مـن ثـيـابِ الـصِّـيَـانِ

ثياب الصيان: الثياب التي تصان وتحفظ للمناسبات

وابْسُطِ العُذْرَ في ارتِخَاصِ القَوافي   واتِّـبَـاعـي سُـهُـولَـةَ الأوزانِ

أنـتَ ألـجَـأْتَـنـي إلـى مـا تـراهُ   بـالـذي فـيـكَ من فـنـونِ الـمـعـانـي

أيُّ وَزْنٍ وأيُّ حَـــرْفِ رَوِيٍّ   لـهـمـا بـالـمـديـحِ فـيـكَ يَـدانِ؟

لهما فيك يدان: يستطيعان توفيتك حقك

ضـاقَ عـن مَـأثُـرَاتِـكَ الـشـعـرُ إلّا   فَـاعِـلاتُـنْ مُـسْـتَـفْـعِـلُـنْ فَـاعِـلانِ

وهكذا فابن الرومي يرى البحر الخفيف وزناً سهلاً. ولعمري هذا الشاعر لم يصعب عليه وزن ولم تحرن بين يديه قافية

٣٧٦ سأغسلك بالصابون

وقال في إسماعيل بن بلبل:

أقـلُّ مـا يُـوجِـبُ الـكـريـمُ لِـمَـنْ   يَـحْـرِمُ: ألّا يُـذِيـقَـهُ الـهُـونَـا

ورُبَّ هُـونٍ لَـقِـيـتُ مـنـكَ ومِـنْ   حَـاجِـبِـكَ الـدُّونِ لـم يَـكُـنْ دُونَـا

فَـافْـكُـكْ لِـسـانـاً رهَـنْـتَـهُ: بِـجَـداً   أو بِـاعـتِـذَارٍ، فَـلَـسْـتَ قَـارُونـا

فك لساني الذي اتخذته رهينة، وذلك بتقديم جدا (عطاء)، أو باعتذار؛ وأنا مدرك أنك لست غنياً جداً

أَزْمَـعْـتَ مَـنـعـي وأنـتَ تُـطْـمِـعُـنـي   ولـيـسَ ذَمِّـي عـلـيـكَ مَـأْمُـونَـا

فـاصْـدُقْ فـإنـي أراكَ إنْ بَـخِـلَـتْ   نـفـسُـكَ بـالـصِّـدْقِ رُحْـتَ مَـغْـبُـونـا

أَمَـا رأيـتَ الـفِـجَـاجَ وَاسِـعَـةً　　والـلَّـهَ حَـيّـاً، والـرزقَ مَـضْـمُـونـا؟
أَظْهِرْ من الـمَنْعِ ما تُجَمْجِمُهُ　　فَـشَـرُّهُ مـا يَـكـونُ مَـكْـنُـونـا

تجمجمه: تتردد فيه

وانـفُـثْ مـن الـصَّـدْرِ مـا يَـضُـرُّ بـه　　لا تـتْـرُكِ الـدَّاءَ فـيـه مَـدْفُـونـا
قلِ: اعْفُ عنيِ عَثَرْتُ في عِدَتيِ　　يِـأْتِـكَ عَـفْـوِي ولـيـسَ مَـمْـنُـونـا
ولا تـقـلْ لـيِ: نـعـمْ، وعَـزْمُـكَ لا،　　فَـيَـلْـعَـنَ الـشـعـرُ منـكَ مَـلْـعُـونـا
إنــيِ امْـرُؤٌ إنْ أرَادَ مَـيْـمَـنَـتـيِ　　كـريـمُ قَـوْمٍ غَـدَوْتُ مَـيْـمُـونـا
وإن أرادَ الـلـئـيـمُ مَـشْـأَمَـتـيِ　　كـنـتُ لـه طَـعْـنَـةً وطَـاعُـونـا
منْ دَنَّسَ العِرْضَ بالـمَوَاعِدِ والـ　　ـخُلْفِ جَعَلتُ الهِجاءَ صَابُونا
ولـسـتُ أَرْمـيِ بِـنَـبْـلِ قـافـيـةٍ　　ذَوِي مَـعـاذِيـرَ لا يَـجُـودُونـا
لـكـنـنـيِ أَنْـتَـحـيِ بـهـا أبـداً　　ذَوِي مَـواعِـيـدَ لا يُـنِـيـلُـونـا

أنتحي: أقصد نحوهم

قـد أتْـعَـبُـونـا بِـحَـوْكِ مَـدْحِـهِـمُ　　وبـالـتَّـقَـاضـيِ، ومَـا يُـرِيـحُـونـا

أتعبونا نحن بالنظم وبالمطالبة، وهم أنفسهم لا يُريحون (أي لا يستريحون)

٣٧٧ طاب لي الرحيل

وقال يرثي ابنه هبة الله:

أَبُـنَـيَّ إنَّـكَ والـعَـزاءَ مـعـاً　　بـالأمـسِ لُـفَّ عـلـيـكُـمَـا كَـفَـنُ
تَـالـلَّـهِ لا تَـنْـفَـكُّ لـي شَـجَـنـاً　　يَمْـضيِ الـزمـانُ وأنـتَ لـيِ شَـجَـنُ
والآنَ حـيـنَ ظَـعَـنْـتَ عـن وَطَـنـيِ　　سَـمُـجَ الـمُـقَـامُ وطَـابَ لـيِ الـظَّـعَـنُ

وطني: بيتي

يـا حَـسْـرَتَـا فَـارَقْـتَـنـيِ فَـنَـنـاً　　غَـضَّـاً، ولـم يُـثْـمِـرْ لـيَ الـفَـنَـنُ
أولادَنَــا! أنــتُــمْ لــنَــا فِــتَــنٌ　　وتُـفَـارِقُـونَ، فَـأَنْـتُـمُ مِـحَـنُ

٣٧٨ كدت أسأله رد الشباب

يُعْطيِ الرَّغائِبَ جُوداً مِن طَبِيعَتِه　　لا كـالـمُـتَـاجِـرِ بـالـمَـعْـرُوفِ أحـيَـانـا

لا يَسْتَثِيبُ بِبَذْلِ العُرْفِ مَحْمَدَةً ولا تَـرَاهُ بـمـا أَسْدَاهُ مَـنَّـانـا

لا يطلب ثواب المعروف مدحاً

سَأَلْتُهُ الحَاجَ حتَّى كِدْتُ أَسْأَلُه ردَّ الشبابِ جديداً كالذي كانا

فمَا تَجَهَّمَ حَاجَاتي لِكَثْرَتِها ولا تَلَوَّنَ منه الوَجْهُ أَلْوَانا

٣٧٩ عبوس ملول متلون ظالم

قَرأتُ في وجهِكَ عُنْوانا آذَنَنِي بالغَدْرِ إِيذَانا

طَلَعْتَ من بُعْدٍ فأَوْهَمْتَني أنَّكَ قد عايَنْتَ شَيْطانا

لاقَيْتَني ساعةَ لاقَيْتَني أَثْقَلَ خَلْقِ اللَّهِ أَجْفَانا

كأنما كنتَ تَضَمَّنْتَ لي رَدَّ شَبابي كالذي كانا

أَوْ طَمَّ بَحْرِ الصِّينِ في طَرْفَةٍ أو كَسْحَ أَرْوَنْدٍ وثَهْلانا

أروند وثهلان: جبلان معلومان

أو كُلَّ ما لم يَسْتَطِعْ فعلَهُ عيسى ولا موسى بنُ عِمْرانا

يا حَسَنَ الوجْهِ لقد شِنْتَه فاضْمَنْ إلى حُسْنِكَ إِحْسَانا

أنتَ مَلُولٌ حَائِلٌ عَهْدُهُ تَصْبِغُكَ السَّاعَاتُ أَلْوَانا

حائل: متحول

تَصْرِمُ ذا الوَصْلِ، وتُضْحي إلى من يَجْتَوي وَصْلَكَ ظَمْآنا

تصرم: تهجر، يجتوي: يكره

حتى إذا وَاصَلَ صَارَمْتَهُ أو سُمْتَهُ صَدّاً وهِجْرانا

وتَسْتَلِينُ الدَّهرَ ذا خُشْنَةٍ فَظّاً، وتَسْتَخْشِنُ مَنْ لانا

وتَعقِدُ الوَعْدَ، فإِنْجَازُهُ خُلْفٌ إذا إِنْجَازُهُ آنا

حتَّى إذا أَنْجَزْتَهُ مَرَّةً مَنَنْتَهُ سِرّاً وإِعْلانا

وما أُحِبُّ الوَاعِدِي مُخْلِفاً كَلَّا، ولا المُمْتَنَّ مَنَّانا

حَذَّرْتَنِي الناسَ، فقد أَصْبَحَتْ نَفْسِيَ لا تَأْلَفُ إِنْسَانا

حذرتني الناس: سلوكك جعلني أَحْذَرُ الناس

أَهَنْتَنِي جِدّاً، فَأَعْزَزْتَني رُبَّ امرئٍ عَزَّ بِأَنْ هَانَا

٣٨٠ استحسانه الحسنا

وقال يصف الكرم:

لَيس الكريمُ الذي يُعطي عَطِيَّتَه   على الثَّناءِ، وإنْ أَغْلَى به الثَّمَنا
بَلِ الكريمُ الذي يُعْطي عَطِيَّتَه   لِغَيْرِ شَيْءٍ سوى اسْتِحْسَانِه الحَسَنا

٣٨١ حتى الريان يتعطش إليها

فَضَّلَ الرَّاحَ أنَّها لَذَّةُ المَشْـ   ـرَبِ عندَ الظَّمْآنِ والرَّيَّانِ

لذة: لذيذة

وجَمِيعُ الشَّرابِ مِمَّا سِوَاها   غَيرُ لَذٍّ إلا لَدَى الظَّمْآنِ

٣٨٢ الشهيد

كَسَتْهُ القَنَا حُلَّةً مِنْ دَمٍ   فَأَضْحَتْ لدى اللَّهِ من أُرْجُوَانِ
حَذَتْهُ مُعَانَقَةُ الدَّارِعِينَ   مُعَانَقَةَ القاصِرَاتِ الحِسَانِ

حذته: منحته، الدارعون: لابسو الدروع، القاصرات: الحوريات

٣٨٣ غافل جاهل

وقال في البيهقي:

رَجُلٌ يَدَّعِي الصَّرامةَ والفَتْـ   ـكَ، وحَوْلاؤُهُ تُبَاكُ بِإِذْنِهْ

حولاؤه: يعني امرأته الحولاء

مِثْلَمَا يَدَّعِي من العِلْمِ بالنَّحْـ   ـوِ على جَهْلِهِ وكَثْرَةِ لَحْنِهْ

٣٨٤ «غناء» الطنبوري

وقال في أبي سليمان الطنبوري:

أبو سُلَيْمانَ لا تُرْضَى طَرِيقَتُه   لا في غِنَاءٍ ولا تَعليم صِبْيَانِ
عُوَاءُ كَلْبٍ على أَوْتَارِ مِنْدَفَةٍ   في قُبْحِ قِرْدٍ، وفي اسْتِكْبَارِ هَامَانِ
وتَحْسَبُ العينُ فَكَّيْهِ إذا اخْتَلَفَا   عندَ التَّنَغُّمِ فَكَّيْ بَغْلِ طَحَّانِ

٣٨٥ عجائب كيمياء الحظ

وقال في إسماعيل بن بلبل:

عَجِبَ الناسُ من أبي الصَّقْرِ إذْ وُلِّـ ـيَ بعدَ الإجَارَةِ الدِّيْوَانا

الإجارة: تأجير الفتى نفسه لجماعة من اللاطة يذهبون به يوماً ويتعاورونه. كلمة عباسية لا توردها القواميس لكن صاحب الأغاني أفادناها

ولَعَمْرِي ما ذَاكَ أَعْجَبُ من أنْ كان عِلْجاً فصارَ مِنْ شَيْبَانا

إن لِلْجَدِّ كِيمِياءُ إذا مَا مَسَّ كَلْباً أَحَالَهُ إنسانا

الجد: الحظ، كيمياء: علم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب

يفعلُ اللَّهُ ما يشاءُ، كما شَا ءَ، متى شَاء، كائِناً ما كانا

٣٨٦ تطليق الهجاء

يا من قَسَا لمَّا شَكَوْ تُ إلى تَطَوُّلِهِ زَماني

واغْتَدَّني لما رَخُصْـ ـتُ عليه مِنْ سَقَطِ المعَاني

سأَصُونُ مَالَكَ عن يَدِي وأَصُونُ عِرْضَكَ عن لساني

آلَيْتُ لا أهجو طَوا لَ الدَّهْرِ، إلَّا من هَجاني

لا بل سَأَطَّرِحُ الهجا ءَ، وإن رَماني من رَماني

أَمِنَ الخلائقُ كلُّهُمْ فَلْيَأْخُذُوا مِنِّي أَمَاني

حِلْمي أعزُّ عَلَيَّ مِنْ غضبي، إذا غضبي عَراني

فَلأَصْبِرَنَّ وأَكْظِمَنَّ وإن لَظَى غيظي كَوَاني

لكنَّني سَأُحِبُّ نفـ ـسِي إذ قَلانيَ من قَلانِي

وأُرِيدُها كُلَّ الإرا دَةِ إذْ أَبَانِيَ من أَبانِي

وأَرَى مَكانِيَ إذ تَعَا مَهَ مَنْ تَعَامَهَ عَنْ مَكاني

تعامه: تجاهل

حتى يَرَانِي اللَّهُ كيـ ـفَ صِيانَتِي قَدْرِي وشَاني

ويَعُولُنِي، فَعِيَالَتِي حَقٌّ عليه، كما بَراني

٣٨٧ صديق في الشدة، موبِّخ في الرخاء

وقال في أبي سهل بن نوبخت:

لـيِ صـديـقٌ إذا تُـنُـووِلَ عِـرضـي   أو رأى يـومَ نَـوْبَـتـي ذَبَّ عـنـي

يوم نوبتي: يوم مصيبتي

فـإذا مـا رأى مُـشِـيـداً بِـذِكـري   أو رأى يـومَ غِـبْـطَـتـي حَـطَّ مِـنّـي

نَـفْـعُـهُ فـي شـدائِـدي لا رَخـائـي   فَـهْـوَ لـي كَـالـطَّـبـيـبِ لا كـالـمُـغَـنّـي

ليس يُجْدي عليَّ في يومِ سِلْمي   وَهْوَ في الحربِ مُنْصُلي ومِجَنّي

منصل: سيف، مجن: ترس

لـسـتُ أَنْـفَـكُّ بـيـنَ ضِـدَّيْـنِ مـنـهُ   واعْـتِـدَادي بـه شـديـدٌ، وضَـنّـي

سودنا أبيات هذه القطعة كي نلفت نظرك إلى هذا الوصف الدقيق لنوع نادر من البشر. وصف ابن الرومي هذا النوع وصفاً جعلني أتذكر من رأيت ممن ينطبق عليهم

٣٨٨ عانس عمرها مئتان

عُتِّقَتْ في الدِّنَانِ حتى استفادَتْ   بـعـدَ حِـيـنٍ نَـسـيـمَ جنـةِ عَـدْنِ

يصف الخمر، استفادت: اكتسبت

عـانِـسٌ تَـقْـهَـرُ الـشـبـابَ عَـجُـوزٌ   بِـنْـتُ قَـرْنٍ مـن الـزمـانِ وقَـرْنِ

٣٨٩ عزة نفس

قَـبَـحَ الإلَـهُ إِخَـاءَ ظُـلْـمٍ بـيـنَـنـا   أرعـاكَ فـيـه وأنـتَ لا تَـرعـانـي

هيهاتَ قد حَلَفَتْ عليَّ حَزَامَتي   أَلَّا أَبِـيـعَ كَـرامَـتـي بِـهَـوانِ

الحزامة: الحزم

٣٩٠ اغفر جنوني وظنوني

يـا كـريـمـاً لـم يـزلْ مُـحْـتَـمِـلاً   مِـحَـنـاً فـي عـبـدِهِ بـعـدَ مِـحَـنْ

يَـتَـلَـقّـى فـيَّ مَـا يـأْذَى بـه   وأُكَـافِـيـهِ بِـأَنـواعِ الـظِّـنَـنْ

أُعْـفُ عـنّـي وأَقِـلْـنـي عَـثْـرَتـي   يـا عِـيَـاذي لِـمُـلِـمَّـاتِ الـزمَـنْ

عياذي: ملجأي

لا تُـعَـاقِـبْـنـي، فـقـدْ عَـاقَـبَـنـي نَـدَمٌ أَقْـلَـقَ رُوحِـيَ فـي الـبَـدَنْ
لا تُـطَـيِّـرْ وَسَـنـاً عـن مُـقْـلَـةٍ أنـتَ أَهْـدَيْـتَ لـهـا حُـلْـوَ الـوَسَـنْ
لـكَ سُـلْـطـانٌ عـزيـزٌ، فـإذا أنـتَ لـم تَـعْـفُ عـن الـجَـانـي وَهَـنْ
كُـنْ عَـزيـزاً بـالـتَّـغَـاضـي، إنَّـه يَـتْـرُكُ الـجَـانـيَ مَـسْـلُـوبَ الـلَّـسَـنْ

اجعل عزتك (قوتك) بالتغاضي (بالتجاوز) فهذا يترك المذنب مفحماً

ومـتـى لاحَـظْـتَـهُ فـي مـجـلِـسٍ ضَـرَبَ الـزَّوْرَ ذَلـيـلاً بـالِـذَّقَـنْ

ضرب الزور بالذقن: كسر عينه وخفض رأسه فكأنما يضرب بذقنه أعلى صدره حيث الزور أي الحنجرة

هُـوَ عِـزٌّ غَـامِـضٌ فـافْـطِـنْ لـه وذَكِـيُّ الـقـلـبِ والـعـيـنِ فَـطِـنْ

ابن الرومي في الشعر العربي كله بطل المعنى. هو الشاعر الذي يحلل النفسيات ويغوص على المعاني، وهنا يعبر عن نفسيته هو تعبيراً بالغ الصدق والحساسية. أسرف القدماء في الإشادة باعتذاريات البحتري. ولم أر أحداً تكلم في اعتذاريات ابن الرومي، ربما لأنها تأتي قصيرة وسط حشد حاشد من الأبيات في قصائد تطول فتبلغ مئات الأبيات. ومن بعض همنا في هذا الكتاب أن نستخلص لك الذهب الإبريز من جبل التراب. فانظر إليه وتمتع، وردد معنا شعارنا في هذه الكتب التي نصدرها: الشاعر بجيده لا برديئه

٣٩١ حب من طرفين

مُـطْـلِـعٌ مـن جَـيْـبِـهِ شَـمْـ ـسـاً بَـدَتْ فـي يـومِ دَجْـنِ

مطلع من جيبه: مخرج من الشق في أعلى ثوبه، يوم دجن: يوم غائم

لائِـــثٌ مِـــئْـــزَرَهُ فـــو قَ كَـثِـيـبٍ تـحـتَ غُـصْـنِ

لائث (لافٌ) مئزره (ثوبه) فوق كثيب (كفل/ردفين) تحت غصن (قدّ)

رَشَــأٌ قــد جَــاوَزَ الــحُــسْـ ـنُ بــه حَــدَّ الـتَّـمَـنِّـي

الرشأ: صغير الظبي

لَـسْـتُ عـنـهُ صَـابِـراً يـو مـاً، ولا يَـصْـبِـرُ عـنِّـي

٣٩٢ مشهد في الجنة

يـا فـؤادي غـلـبْـتَـني عِـصـيـانـا فـأَطِـعْـنـي فـقـد عـصـيـتَ زَمـانـا
مَـثِّـلِ الأوْلِـيـاءَ فـي جَـنَّـةِ الـخُـلْـ ـدِ إذا مـا تَـقَـابَـلـوا إِخْـوَانـا

قـد تَـعَـالَـوْا عـلـى أَسِـرَّةِ دُرٍّ   لابِـسِـيـنَ الـحَـرِيـرَ والأُرْجُـوَانـا
وعـلـيْـهِـمْ تـيـجـانُـهُـمْ، والأَكَـالـيـ   ـلُ تُـبَـاهـي بِـحُـسْـنِـهـا الـتِّـيـجـانـا
يَـتَـعَـاطَـوْنَـهـا سُـلافـاً شَـمُـولاً   فـي جِـنَـانٍ مُـجَـاوِرَاتٍ جِـنَـانـا
ثـم آبُـوا فـاسـتَـقْـبَـلَـتْـهُـمْ حِـسَـانٌ   من بناتِ النعيمِ قُقْنَ الحِسانا
فَـتَـراهُـنَّ مُـقْـبِـلاتٍ عَـلَـيْـهِـمْ   بـابْـتِـهَـاجٍ قـد عَـصْـفَـرُوا الأَلْـوَانـا

ذكروا أن خلفاء ذلك الزمن كانوا إذا نووا عقد مجلس مجون وشراب لبسوا، وألبسوا جلساءهم، الثياب الصفراء المعصفرة

رَاشِـفَـاتٍ أَفْـوَاهَـهُـمْ رَشْـفَـكَ الـمـا   ءَ إذا مـا شَـرِبْـتَـهُ ظَـمْـآنـا
تَـارَةً بَـعْـضُـهُـمْ يَـزُورُونَ بَـعـضـاً   ويَـزُورُونَ رَبَّـهُـمْ أحـيـانـا
ثـم يَـخْـلُـونَ بـعـد ذلـكَ بـالـحُـو   رِ إذا مـا تَـشَـوَّقُـوا الأَوْطـانـا

الأوطان: البيوت. فبعد زيارتهم بعضهم بعضاً يشتاقون إلى بيوتهم وإلى.. ممم.. الحور

٣٩٣ مفتاح العود

وإنَّ امْرَءاً يَقْوَى على لَثْمِ ثَغْرِها   على الضَّغْطِ والتَّعْذِيبِ في قبرِهِ يَقْوَى

من يصبر على تقبيل فمها سيكون قادراً على عذاب القبر

جَـفَـتْ هَـامَـةٌ مـنـهـا ودُقِّـقَ سـاقُـهـا   فَـمـا صَـلَـحَـتْ إلَّا لِـبَـنْـجَـقِـهـا مَـلْـوَى

جفت: كبُرت هامتها (رأسها)، وأما ساقها فدقيقة رفيعة، فهي أشبه شي بملوى (مفتاح شد الوتر) في البنجق (بيت المفاتيح في العود، ويسميه المحدثون أيضاً بيت الملاوي). ومفتاح شد الوتر يكون رأسه مفلطحاً وبقيته رفيعة، بعكس خلقة الإنسان الذي رأسه أصغر من سائر جسمه

٣٩٤ كذب الشهوة

إذا مـا شِـئْـتَ أن تَـعْـرِ   فَ يـومـاً كَـذِبَ الـشَّـهْـوَةْ
فَـكُـلْ مـا شِـئْـتَ يَـصْـدُدْكَ   عـنِ الـعَـذْبَـةِ والـحُـلْـوَةْ
وطَـأْ مَـنْ شِـئْـتَ يَـصْـدُدْكَ   عـنِ الـحـسـنـاءِ فـي الـذِّرْوَةْ
وكَـمْ أَسْـلاكَ مـا تَـهْـوا   هُ نَـيْـلُ الـشَّـيْءِ لـم تَـهْـوَهْ

٣٩٥ شاور

إِفْزَعْ إلى شُورَى الرِّجَالِ، فإِنَّها ... لِفَسادِ رأيِكَ حينَ يَفْسُدُ نَافِيَةْ
لا تَرْضَيَنَّ بِرَأْيِ نفسِكَ وحدَها ... فَلَرُبَّ خَافِيَةٍ عليكَ وخَافِيَةْ

٣٩٦ سهولة شتم الساقطين

وقال يهجو ابن حريث:

هِجَائِيكَ يَشفِيني وإنْ لم تُبَالِهِ ... وحَسْبُكَ داءً أنْ أَنالَ شِفَائِيا
حَلَفْتُ لئنْ أَصْبَحْتَ تَضحَكُ هَازِئاً ... بِشِعري لقد أَمْسَى ضَمِيرُكَ بَاكِيا
عسى ابنُ حُرَيْثٍ تَسْتَريحُ ظُنونُه ... إلى أنني عَانَيْتُ فيهِ القَوافِيا
فَيَشْفَى جَوَاهُ أَوْ يُنَفَّسَ كَرْبُهُ ... تَظَنِّيهِ أنْ قد شَقَّني وعَنَانِيا

شقني: شق علي وأرهقني

فلا يَتَخَيَّلْ فيَّ ذاكَ بِجَهْلِهِ ... فَلَسْتُ لما أُهْدِي إليه مُعَانِيا
وأَنَّى أُعَانِي فيه شِعْراً أقولُه ... وهَاجِيه لا يَبْغِي إليهِ المَرَاقِيا؟

المراقي: الدرجات الصاعدة

وذاكَ لأنَّ الشَّتْمَ في كلِّ سَاقِطٍ ... يَجِيءُ مَجِيءَ السَّيْلِ يَطلُبُ وَادِيا

٣٩٧ ليتني أعور

تُغْضِي الجفونُ إذا بَدا ... من هَوْلِ منظرِهِ الكَرِيهِ
قد قلتُ إذ قَذِيَتْ به ... عَيني، وأَعْيُنُ مُبْصِرِيهِ:
يا لَيتَ لي بِصَحِيحَتي ... عَوْرَاءَةً مِمَّا يَلِيهِ

ليت عيني الصحيحة مما يليه (من جهته) عوراء

٣٩٨ الهدم أسهل

يا قَابِلَ المدحِ فيهِ مِنَّا ... وبَاخِلاً منه بالعَطايا

يا قابل مدحنا فيه (قولنا المدح فيه)

جُرْتَ علينا، وكنتَ مِمَّنْ ... يجورُ في الحُكمِ والقَضايا
نحن على هَدْمِ ما بَنَيْنا ... أَقْدَرُ مِنَّا على البِنَايَا

لَيَأْتِيَنْكَ الهِجَاءُ، فيهِ صَوَاعِقٌ تَقْدُمُ المَنَايا
مَثَالِبٌ لا يُخَافُ فيها إِثْمٌ، ولا تُتَّقَى خَطايا
يَسري بِهَا في البلادِ شِعْرٌ تَحْمِلُ أعبَاءَهُ المَطايا

٣٩٩ الشهوة والقدرة

منْ مَاتَ ماتَتْ، كما قد قِيلَ، حاجَتُهُ إِلَّا الشبابَ، وحَاجَاتٍ يُبَقِّيها

قال القديم: تموت مع المرء حاجاته//وتبقى له حاجة ما بقي (من الحماسة) ويقول ابن الرومي: يموت الشباب ولكن حاجاته تبقى

يَمضي الشبابُ، ويُبْقِي من لُبَانَتِه شَجْواً على النفسِ يَشْجُوها ويُشْجِيها

لبانة: شهوة، الشجو: الهم، يشجو: يُحزن، يُشجي: يقهر

ليتَ اللُّبَانَةَ كانتْ تَنْقَضِي معَهُ أو كانَ يَبْقَى، ويبقَى الدهرَ بَاقِيها

سألت أبا عيسى (زميلاً شيخاً عملت معه في مؤسسة إعلامية قبل عشرين سنة): يا أبا عيسى! هل تخف الشهوة مع العمر، فقال جازماً: أبداً، بل تبقى على حالها، وتقل القدرة

كلَّا، ولكنَّه يَمضي وقد بَقِيَتْ في النفسِ منه بَقِيَّاتٌ تُعَنِّيها
وإِنَّ أَبْرَحَ ما اسْتَوْدَعْتَهُ خَلَداً لُبَانَةٌ لَكَ، لا تَسْطِيعُ تَقْضِيها
وكانَتِ النفسُ يَنْهَاها إذا غَوِيَتْ نَاهٍ سِوَاها، فَمِنْها الآنَ نَاهِيها

٤٠٠ الشيب قنبلة ضوئية

أَمِنْ بعدِ إِبْدَاءِ المشيبِ مَقَاتِلي لِرَامِي المنايا تَحْسَبِينِيَ نَاجيا؟
غدا الدهرُ يَرميني فَتَدْنُو سهامُه لِشَخصِي، ويُخْلِي ما يُصِيبُ سَوَادِيا

كان الدهر يرميني فيخلي (يخطئ) لأنني غير ظاهر له بشعري الأسود

وكانَ كَرَامِي الليلِ، يَرمي ولا يَرى؛ فلما أضاءَ الشَّيبُ شَخْصِي رَآنِيا

٤٠١ أسير الطيلسان

لي طَيْلَسَانٌ أَنَا في يَدَيْهِ
مَثَلُ الأسيرِ خَانِعٌ لَدَيْهِ
زَعْزَعَتِ الأيامُ جانِبَيْهِ
قد هَدَّمَتْ أيامُهُ رُكْنَيْهِ

تُـــسْـــرِعُ كـــلُّ آفَـــةٍ إلـــيـــهِ

كَـأَنَّ كـلَّ صَـيْـحَـةٍ عَـلَـيْـهِ

في سورة المنافقون «يحسبون كل صيحة عليهم»، وفسرها ابن كثير بأنهم لجبنهم يحسبون وراء كل صيحة مصيبة ستنزل بهم، وهذا الطيلسان ركيك ومهدم ومخلوع القلب

٤٠٢ الأيام تمضي علينا ثم تمضي بنا

ويـأتـي لِـلـفـتـى يـومٌ فَـيَـوْمٌ   ومـا يَـأتـي لـه يَـأْتـي عـلـيْـهِ

سيقولها الشريف الرضي بعد مئة سنة آنق: ما أسرع الأيام في طينا//تمضي علينا ثم تمضي بنا

٤٠٣ الشطيرة

يـا سائِلـي عـن مَجْمَعِ اللَّذَّاتِ   سَـأَلْـتَ عـنـهُ أَنْـعَـتَ الـنُّـعَّـاتِ

الجامع لكل اللذات هو الساندويش، وها هو ابن الرومي ـ أوصف الوصافين ـ يصفه لنا

خُـذْ يَـا مُـرِيـدَ الـمَـأْكَـلِ الـلَّـذِيـذِ   جَـرْدَقَـتَـيْ خُـبْـزٍ مِـنَ الـسَّـمِـيـذِ

مريد: طالب، جردقتي خبز: رغيفين، السميذ: الطحين الخشن

لـم تَـرَ عَـيْـنـا نـاظِـرٍ شِـبْـهَـيْـهِـمـا   فـاقْـتَـسِـرِ الـحَـرْفَـيْـنِ مِـنْ وَجْـهَـيْـهِـمـا

اختر رغيفين جميلين، واقتسر (اقطع) الحرف الخارجي الناتئ من كل رغيف

حتَّـى إذا مـا صَـارَتَـا صَـفَـاصِـفَـا   فـانْـتِـفْ عـلـى إِحْـدَاهُـمـا نَـتَـائِـفا..

فإذا صار الرغيفان صفاصف (مستويين) انتف على أحدهما فقط نتائف من..

مـن لَـحْـمِ فَـرُّوجٍ ولَـحْـمِ فَـرْخِ   يَـدُورُ جُـوذَابُـهُـمَـا بِـالـفَـسْـخِ

.. من لحم الدجاج. والجوذاب: طعام من لحم وأرز. فافهم أن الرجل يأخذ من طبيخ يوم أمس ما فيه من لحم وينتفه فوق الرغيف

واجْـعَـلْ عـلـيْـهـا أَسْـطُـراً مـن لَـوْزِ   مُـعَـارِضَـاتٍ أَسْـطُـراً مـن جَـوْزِ

اجعل على هذه الخبزة اللوز والجوز: سطراً لوزاً يقاطعه سطرٌ جوزاً

إعـجَـامُـهَـا الـجُـبْـنُ والـزَّيْـتُـونُ   وشَـكْـلُـهـا الـنَّـعْـنَـعُ والـطَّـرْخُـونُ

وبما أننا جعلنا اللوز والجوز كالأسطر فلا بد الآن من الإعجام (التنقيط) لكلمات هذه الأسطر، فلتكن النقط من فتافيت الجبن وحبات الزيتون؛ ثم لا بد من تشكيل الكلمات، فليكن التشكيل بالنعنع والطرخون (وهو نبات عطري شبيه بالنعنع)

واعْمَدْ إلى البَيْضِ السَّلِيقِ الأَحْمَرِ   فَـدَرْهِـمِ الـجُـبْـنَ بِـهِ ودَنِّـرِ

وهات البيض المسلوق واقطعه أقماراً أقماراً، فوسطه كالدنانير تدنر بها سندويشك، وأطرافه البيضاء كالفضة تدرهم بها (تجعلها دراهم) الرغيف

وتَـرِّبِ الأَسْـطُـرَ بِـالـمِـلْـحِ، ولا   تُـكْـثِـرْ، ولـكـنْ قَـدَراً مُـعَـدَّلا

وضع ملحاً ولا تكثر، فسندويشك حتى الآن كفيل لك بالكوليسترول والدهون الثلاثية، ونصف دستة من الأمراض الأخرى، فلا داعي لكثرة الملح درءاً لضغط الدم

ورَدِّدِ الـعَـيْـنـيْـنِ فِـيـهـا لَـحْـظَـا   فـإنَّ لِـلـعـيـنـيـنِ مـنـهـا حَـظَّـا

لا تنس أن تتأمل المنظر

ومَـتِّـعِ الـعَـيْـنَ بـهـا مَـلِـيَّـا   وأَطْـبِـقِ الـخُـبْـزَ وكُـلْ هَـنِـيَّـا

ثم ضع الخبزة الثانية فوق الأولى ليصير السندويش سندويشاً

هَـيِّءْ ثَـنَـايـاكَ، وكَـدْمَـاً كَـدْمَـا   تُـسْـرِعُ فـيـمَـا قـد بَـنَـيْـتَ الـهَـدْمَـا

حضر ثناياك (أسنانك) وابدأ كدماً (عضاً/أمي تقول كزماً)، والنتيجة أنك تهدم ما بنيت

فهرس الأعلام

كل رقم هو رقم القطعة لا الصفحة

اجتهدنا في ضبط هذه الأسماء ما وسعنا. ورتبناها على اسم العائلة ـ مخالفين ما درج عليه الأكاديميون في رصف جداولهم ـ حتى يكون أبناء العائلة الواحدة معاً، ولا يخفى ما لهذا من فائدة. ثم إننا نلقى العنت من الترتيب بحسب الاسم الأول، فكل الناس اسمهم محمد وعلي وإبراهيم. لعل هذا الفهرس يعين من يريد تتبع سلوك شاعرنا مع أحد ممدوحيه أو مهجويه ضمن مختاراتنا هذه. فأما من أراد دراسة ابن الرومي دراسة تاريخية فعليه بالديوان، وقد صنع له محققه الفاضل حسين نصار فهارس جيدة.

فهرس الأغراض

الرقم هو رقم القطعة لا الصفحة

شتم وشماتة

مجون وخلاعة

بين المدح والقدح

زهد وقناعة

شكوى وضراعة

اجتماعيات

وصف وكاريكاتير

سياسة ورياسة

فنه الشعري

فهرس القوافي

(القافية، فرقم القطعة)

ابن المعتز
(٢٤٧هـ ـ ٢٩٦هـ)

المقدمة

في المقدمة شيء عن المرآة المهشمة، وشيء عن حياة ابن المعتز، وقدح في الأكاديميين.

عن شعره

شعر ابن المعتز مرآة مهشمة؛ ترى فيها عيناً جميلة هنا، وخدّاً نضراً هناك، وشفة لعساء ههناك. تتأمل فيعجبك ما ترى، ويظل في نفسك شوق أن ترى الوجه كاملاً في مرآة صحيحة.

قد فتنتْ لبَّه التشبيهات، فراح يجتهد في التقاطها، فغاب عن قصيدته اكتمال الوجه. على أن له من الأبيات ما سار مسير الشمس.

رووا أنه قال عن نفسه: «إن قلت «كأنَّ» ثم لم آتِ بتشبيه ففضَّ الله فايَ». وذكروا أنه قيل لابن الرومي: لم لا تشبِّه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال لهم: عندما يقول ماذا؟ فقالوا له إنه يشبه القمر بمنجل من فضة يحصد النجوم التي كالبنفسج، ويشبه القمر تارة أخرى بزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر. فصاح ابن الرومي: واغوثاه! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك ابن خليفة يصف ماعون بيته.

ولا نمضي في تحليل شعر ابن المعتز فهذا نتركه للثقلاء من دكاترة الجامعات، وسنهتك أعراضهم الأكاديمية بعد صفحات، بل نعرض عليك عصارة شعره، ونشرحه لك بقدر. لكن، نقص عليك أولاً قصة حياته.

قصة حياته

ابن المعتز ابن خليفة حقاً. هو ابن الخليفة العباسي «المعتز بالله». ليس هذا فقط، بل إن جده المتوكل خليفة، وأبا المتوكل المعتصم خليفة، وأباه هرون الرشيد خليفة، وأباه المهدي خليفة، وأباه المنصور خليفة. فابن المعتز، شاعرنا، سليل ستة خلفاء متعاقبين. وسيأتيك أيضاً أنه هو نفسه كان خليفة.

هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب جد الرسول. وندعوه عبد الله كيلا نخلط بينه وبين أبيه المعتز.

كان لعبد الله ـ شاعرنا ـ من العمر شهران عندما قتل جده الخليفة المتوكل (٢٤٧هـ). قتله القادة الترك متآمرين مع ابنه المنتصر.

وتولى المنتصر الخلافة (٢٤٧هـ) بعد تآمره على أبيه. ودامت له ستة أشهر، مات بعدها، قيل مسموماً. وجاء بعده المستعين (٢٤٨هـ)، وتولى الخلافة أربع سنوات ثم ثار به جنده، وحملوه على خلع نفسه بعد معارك، فخلع نفسه فحبس.

ثم تولى الخلافة المعتز (٢٥٢هـ) والد شاعرنا عبد الله. كان المعتز في نحو الثالثة والعشرين من عمره، وكان لقي في صباه الذل والقهر على أيدي القادة الترك، وعلى أيدي أقاربه من البيت العباسي. فقد كان أمراء البيت العباسي يتعرضون للحبس أو القتل كلما انتقلت الخلافة من رجل إلى رجل، ونال المعتز نصيبه من الحبس والرعب. فلما تولى الخلافة كانت نفسه مشحونة بالعنف. كان المعتز شاعراً، وكان صاحب شطرنج ولهو، غير أنه لم يلق رقة عند أسلافه فيرثها، فنفى أخاً له، وقتل أخاً، وأرسل قائداً من قادته إلى عمه المستعين، الخليفة المخلوع، ليذبحه في سجنه. فذبحه، وجاءه برأسه. جاءه برأسه والمعتز يلعب الشطرنج، فقيل له: هذا رأس المستعين، فقال: ضعوه ناحيةً حتى أُتِمَّ دَستي، وما التفت إليه إلا بعد أن فرغ من دست الشطرنج.

كان شاعرنا عبد الله في الخامسة من عمره عندما تولى أبوه الخلافة. ولم نعرف شيئاً عن أمه سوى أنها كانت جارية رومية. نعرف أن جدته أم أبيه المعتز كانت حفيَّة به.

وهذه الجدة جارية رومية أيضاً واسمها قَبِيحة، سميت هكذا لفرط

جمالها، وكان لها تأثير كبير على ولدها الخليفة الشاب. كانت توعز إليه بتقتيل الناس. قيل أخرجتْ لولدها يوماً قميص أبيه المتوكل الذي قتله الترك، تحرضه على قتلهم، فقال لها: ارفعيه حتى لا يصير القميص قميصين. وكانت قبيحة تخزن الأموال الطائلة والجواهر النادرة.

كان العمال يجبون صنوف الضرائب من خراج وجزية وعشور من الأقاليم، يحتجنون شيئاً ويرسلون ما لا يستطيعون احتجانه إلى الخليفة في بغداد فيجعله في بيت المال، فينفق منه على لهوه وجواهره وجواهر أمه، وعلى شعرائه، وينال من ذلك ابن الجصاص تاجر المجوهرات نصيبه، وينال الجند أعطياتهم. فإن نفد ما في بيت المال ثار الجند بقادتهم، فثار قادتهم بالخليفة وطالبوه بالمال.

حدث هذا كثيراً في العصر العباسي.

وحدث هذا في شعبان من سنة (٢٥٥هـ) في سامراء، وبها كان الخليفة المعتز. جاءه القادة يطلبون المال، وكان بيت المال فارغاً. فطلب خمسين ألفاً من أمه قبيحة، فلم تعطه. فجره الترك وضربوه، وأعطشوه حتى مات. كان الابن، عبد الله، في الثامنة من عمره عندما قتل أبوه الخليفة المعتز. ولعله كان منزوياً مع مؤدب له في مكان ببغداد أو سامراء، يأخذ عنه الشعر والأدب. لكنه أحس أن الدنيا انقلبت. فهذا الصبي كان يلقى من والده الخليفة الحب والرعاية، إذ لم يبلغ من العمر ما يستوجب استعمال القسوة في تربيته. وجدته قبيحة كانت تحوطه برعايتها.

قتل أبوه فخبأت الجدة المال والجواهر، واختبأت هي أيضاً في سرداب. وجدَّ الترك في البحث عنها فوجدوها بعد شهر، ووجدوا في حوزتها مئات الألوف، وجواهر مخبوءة في زنابيل، فجردوها من مالها، وأوعزوا إلى الخليفة الجديد، المهتدي، بنفيها إلى مكة.

حملت قبيحة حفيدها عبد الله بن المعتز وهو في الثامنة من العمر إلى مكة. وملأت قبيحة الحرم المكي بالدعاء على من جردها من مالها وقتل ولدها. واستجيبت دعواتها. فلم تمض أشهر حتى قُتل صالح بن وصيف الذي أوعز بنفيها إلى مكة. وبعده بأشهر قتل الخليفة المهتدي (٢٥٦هـ) ولما يمكث في الخلافة سنة. وتولى الخلافة المعتمد.

مكثت قَبِيحة وحفيدها عبد الله بن المعتز في مكة بضع سنين، ثم أعادهما المعتمد إلى العراق. وماتت الجدة ولحفيدها ثلاثة عشر عاماً.

للقارئ أن يشعر الآن ببعض الاستقرار، فسوف تدوم خلافة المعتمد ثلاثاً وعشرين سنة (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ). ولا بد أن الشاعر الأمير استرد أنفاسه في هذه المدة، واسترخى.

والخليفة المعتمد أيضاً استرخى. كان رجلاً لاهياً يقرض الشعر، ويعيش حياة الترف. وترك لأخيه طلحة أن يدبر الجيوش. وكان لا بد من كثير من التدبير، ففي كل مكان ثورة وخروج. كان الزنج قد خرجوا على الخلافة في البصرة، وثاروا ثورة جياع، ولبثوا يَقتلون ويُقتلون خمس عشرة سنة. ورثى ابن الرومي البصرة ووصف ما حل بها من خراب وصفاً بليغاً.

كان عبد الله بن المعتز في هذه السنين صبياً فيافعاً فشاباً يرى الدنيا من بغداد وسامراء. فيقربه الخليفة المعتمد ويجالسه، ثم يبعده ويصرف وجهه عنه، والمعتمد نفسه لا يملك من أمره شيئاً، فالجيوش بيد أخيه طلحة، والحكم بيد أخيه، وهو يأخذ مصروفه من الخزانة معدوداً عليه ويشكو حاله بأشعار نقلها لنا المؤرخون. على أن ابن المعتز الشاب كان ينهل من علم كبار العلماء، ويسمع شعر كبار الشعراء، والبحتري في هذا الزمن ما زال يملأ بغداد وسامراء بأشعاره، وابن الرومي قاعد في بغداد لا يبرحها ويرسل القصائد في مدح الوزراء من آل وهب وآل ثوابة وآل طاهر، وابن المعتز يقترب من هذه الأسر التي كانت بمثابة المنابع الوزارية للخلافة العباسية في ذلك الزمن. ويتلقى عبد الله بن المعتز علوم العربية عن المبرد الذي كان يكثر صحبته، وثعلب الذي رآه مراراً وراسله مراراً، والبلاذري وأحمد بن سعيد الدمشقي مؤدبه الذي لم يكن يفارقه، ويلتقي بأعراب كانوا يلمون بسامراء كما قال لنا الصولي في «أوراقه». ليس أن عبد الله فتح عينيه على العلم يافعاً، لا بل هو كان يتلقى العلم صبياً صغيراً ووالده ما زال في الحياة. كان في نحو السابعة من عمره وهو يقرأ القرآن على محمد بن عمران الضبي. ولعله التقط جرثومة الشعر وأغرم به في هذه السن أو بعدها بقليل. ولا نعرف إن كان أخذ شيئاً من العلم في منفاه بمكة، غير أنه سمع القرآن والحديث في مكة. ويغلب على الظن أن جرثومة الشعر كانت قد تمكنت من نفسه قبل النفي وهو في الثامنة من العمر.

ظل الخليفة المعتمد يعيش في ظل أخيه طلحة، حتى مات طلحة فاستراح

منه. ولكن ابن طلحة تولى قيادة الجيوش بعد أبيه، فضيق على المعتمد. وفي سنة ٢٧٩هـ عزل الخليفة. وأشهَدَ على نفسه بالعزل. ثم مات في هذه السنة نفسها. عزله ابن أخيه طلحة ونصب نفسه خليفة باسم المعتضد بالله.

كان الشاب عبد الله بن المعتز في الثانية والثلاثين من عمره عندما تولى الخلافة المعتضد (٢٧٩هـ). وكان قد بلغ أشده، وسار في الناس أن البيت العباسي نبغ فيه شاعر كبير. ولم يكن شاعرنا حِلْس أشياخ. فالعصر عصر كتب أيضاً.

قبل مولده بسنتين كان قد مات الجاحظ، تاركاً في خزائن الأمراء والخلفاء كتبه الكثيرة التي أوعبها تراث أمته. وكان المبرد قد كتب «الكامل» وكتبه الأخرى، ولم تكن كتب الأصمعي وأبي عبيدة مفقودة في ذلك الزمن. وكان الوراقون ومن يوظفونهم من النُّساخ ينشرون الكتب والدواوين، ولا تكاد مكتبة وزير أو أمير تخلو من أمهات الكتب. وكان أبو بكر الصولي، صديق عبد الله بن المعتز وراويته، يجمع أشعار المحدثين في دواوين. فأما أشعار الأقدمين فكانت متيسرة قبل هذا الزمن، جمعها ابن حبيب والأصمعي وخلف والضبي.

أحب ابن المعتز الغناء، وقيل كانت له فيه صنعة. لكنه كان مغرماً بالشعر: يقرضه، ويتعمق في فهم أسراره. رأى ما في شعر أبي تمام وبشار من المحسنات من جناس وطباق وقلدهما واستحضر من محفوظه الواسع من الشعر والقرآن والحديث ما يشبه تلك المحسنات. فهي كانت موجودة إذن قبل هذا الزمن! وطفق ابن المعتز يضم الشيء إلى مثيله حتى خرج بكتاب «البديع». وبه قعَّد ابن المعتز هذا العلم الذي سيظل حِلْيَة وعِلَّة للأدب العربي ألف سنة.

ومنذ أن بلغ ابن المعتز العشرين أو نحوها أخذ يشرف على أملاكه، ويحاسب وكلاءه، ولم يكن ذا ثروة عريضة. له دار ببغداد غمرتها دجلة ذات سنة فأتلفت ما أتلفت، وله في سامراء دار أو قصر، وله من الأطيان ما يدر عليه مالاً يمكنه من العيش عيشة أمير له مجلس فيه شراب وسماع. قالوا تزوج وقالوا لم. وقالوا له ولد، وله بنت، وقالوا بل لم يكن له. وقيل لم يعاشر النساء. لعله عاش حياته يعابث جواريه ويحلم بالحب العميق، ولعل «شَرَّة» كانت الحبيبة الافتراضية، وهي في شعره شرٌّ حيناً وشُرَيْرةُ حيناً. ومن ربيَ في حجر قَبيحة لا غرابة أن يسمي حبيبته «الافتراضية» شرَّة. أم أنها كانت جارية من لحم ودم؟

كان الشعر العربي قد رحل عن موانئه الأولى مع استهلال الخلافة العباسية فجاء بشار بن برد بالجديد، وتبعه أبو العتاهية وأبو نواس ثم أبو تمام فالبحتري فابن الرومي. دخل الشعر عصر الصنعة. ورأى ابن المعتز الدارسين الشعرَ يؤرخون للشعراء القدماء، قرأ طبقات ابن سلام، والشعر والشعراء لابن قتيبة. وبذوقه الأدبي أدرك أن القدم ليس معيار الجودة. فصنع كتاب طبقاتٍ للشعراء المحدثين. ووصلنا هذا الكتاب الذي ضمنه أخباراً وأشعاراً تنبئ عن ذوق رفيع.

تركْنا ابن المعتز في الثالثة والعشرين من عمره وقد تولى الخلافة المعتضد (٢٧٩هـ). وكان المعتضد مختلفاً. كان صاحب جيوش، وذا همة عالية وقسوة، وكان حقَّانياً. لقبوه بالسفاح الثاني لأنه جدد الخلافة العباسية وأعاد للخليفة هيبته، فإن يكن الترك قادة جندٍ فهو أيضاً قائد، والناس تحب الزعيم القوي. وأحبت الناس المعتضد، وأحبه عبد الله بن المعتز.

نهاه المعتضد عن مجالس الشراب فانتهى أو ارعوى بعض الشيء، والمعتضد يكبره بخمس سنين، ثم إنه أمير المؤمنين. ومدح شاعرنا المعتضد بقصائد لم ننقل شيئاً منها، وقال في عهده أرجوزة مزدوجة طويلة نقلنا أبياتاً منها في ختام مختاراتنا. وعاش ابن المعتز في خلافة المعتضد آمناً بقدر ما يمكن لسليل ستة خلفاء أن يكون آمناً. وفي شعره ما يشي بأنه يتمنى شيئاً، ويرى يونس السامرائي الدارس المحقق، الذي درس شعر ابن المعتز وكتب فيه كتاباً جيداً، أن هذه الأمنية إنما كانت الخلافة، وليس ذلك ببعيد أبداً، بل بعيد ألا يكون ابن المعتز قد كان يعيش على هذا الأمل. وقد أخبرنا الصولي أن ابن المعتز قال يوماً إنه لو نال الخلافة فسوف يزوج كل عباسي بطالبية وكل طالبي بعباسية حتى ينهي إلى الأبد هذا الخلاف المستحكم بين بني علي بن أبي طالب وبني العباس. لكن شاعرنا رأى في المعتضد مثله الأعلى. واكتفى من السياسة بأن يجادل في بعض شعره الطالبيين الذين لا يفتأون يخرجون على الخلافة العباسية رائين أنهم أحق بالخلافة لمكان علي بن أبي طالب ومكان فاطمة.

ومات المعتضد على فراشه في عام ٢٨٩هـ. وبويع لابنه المكتفي بالخلافة وهو بالرَّقة، أخذ له البيعة ببغداد الوزير القاسم بن عبيد الله، وبادر الوزير فحبس ما تيسر له من الأمراء العباسيين احتراساً. وكان من بينهم ابن المعتز. وشق الحبس على شاعرنا، ونقل عنه أنه توجس شراً، فقد قيل إنه رأى في

حبسه طائراً في السحر فتمنى لو كان طليقاً كهذا الطائر. وقدم الخليفة الجديد إلى بغداد وأطلق الأمراء، ومنح كلاً منهم ألف دينار. فشكر ابن المعتز للمكتفي هذه اليد، وعاتب الوزير الذي حبسه بشعر ختمه بقوله:

فيا جود كفيه امح آثار بأسه فإن عليه أرش حبسي ولم أجنِ

وعاش ابن المعتز ست سنين يمدح الوزراء ويتقبل عطاياهم، ويمدح المكتفي. وكان مجلسه عامراً بأهل الأدب يطارحهم الشعر، وينقلون أشعاره.

ثم مات المكتفي في أواخر سنة ٢٩٥، وعهد بالخلافة لولده البالغ ثلاث عشرة سنة. وبايعه الناس وسمي المقتدر. وكان ولداً يلهو مع جواري في القصر، فاستصباه أهل الحل والعقد، واجتمع نفر منهم على خلعه بعد نحو أربعة أشهر من توليه الخلافة، وكلموا عبد الله بن المعتز فماشاهم، واشترط ألا يكون في الأمر دم. غير أن هذا الحِلف لم يكن قوياً، فقد تخاذل أطرافه. هذا ابن الفرات يقول للعباس بن الحسن الوزير عن عبد الله بن المعتز: «وأي شيء تعمل برجل متأدب قد تحنك وتدرب.. وحاسب وكلاءه على ما تولوه وضايقهم وناقشهم وعرف خياناتهم واقتطاعاتهم. أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك في حوائجه فلا تقضيها، ويسألك في معاملاته فلا تمضيها، وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر، ويتوسل في الوصول إليك فلا تأذن؟» واتفق ابن الفرات والعباس بن الحسن على أن يخرجا من حلف ابن المعتز.

هذا نقلناه عن يونس السامرائي الذي نقله عن تحفة الأمراء لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي.

على أن ابن المعتز كان قد تورَّط، فعين قاضياً ووزيراً وتقبل البيعة من أنصاره، وصلَّى بهم في ٢٠ ربيع الأول عام ٢٩٦. ولقبوه بلقب اختلف فيه المؤرخون كثيراً. ودعا ابن المعتز الخليفة الصبي إلى ترك دار الخلافة، فأغلق الصبي الأبواب، وقعد يلعب مع جارية من جواري القصر. وجرت مناوشات قليلة تبين فيها أن الكثرة التي ناصرت ابن المعتز كانت متخاذلة، والقلة التي ناصرت الخليفة الصبي كانت مصممة. فالتجأ ابن المعتز إلى دار ابن الجصاص الجوهري، فوشى به خادم فأخذوه، وحبسوه. وبعد عشرة أيام سلموا جثمانه إلى من دفنه. فكانت خلافة شاعرنا يوماً وليلة. وعاد المقتدر إلى سدة الخلافة، وظل بها إلى أن قتل بعد أربع وعشرين سنة.

وهكذا مات عبد الله ابن المعتز في ربيع الآخِر سنة ٢٩٦هـ قتيل أمنيته التي عاش عليها، ولم يجعله المؤرخون ضمن الخلفاء العباسيين رغم مبايعته وتوليه يوماً وليلة، ذلك أن الخليفة القائم استرد الخلافة فلم ينقطع خيطها.

ما كان لشاعر حقٌّ أن يكون خليفة، هذا ليس في طبع الأشياء. منذ أفلاطون وحتى أول أمس والمثقفون يحلمون بأن يتولى الحكم عاقل، ولكن ربك شاء ألا يتولى الحكم إلا فظ أو أبله.

لم نختر لابن المعتز من شعره إلا ما يدخل في عيارنا لما هو شعر، فأما سيرته فرويناها هنا بما استطعنا من إيجاز، والمرجع في أخباره وأشعاره وما له من نثر جميل كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي الذي عاصره ولازمه، فقد خصه بنحو مئتي صفحة في طبعة الصاوي ١٩٣٦.

الأكاديميون

بقي أن نسلق الأكاديميين ببعض ما تعودنا أن نسلقهم به.

هذا رجل زعم أنه حقق ديوان ابن المعتز، وذكر أنه استند إلى كذا وكذا من المخطوطات، ولسنا نكذبه في هذا. ثم صنع مقدمة جاءت في مئتي صفحة زعم فيها لابن المعتز العصمة في كل شيء، وراح ينافح عنه شاهراً سيفاً صقيلاً يلوح به في وجه كل من انتقد الشاعر من قدماء ومحدثين. وكاد يعلن ابن المعتز أميراً على شعراء العربية في كل تاريخها. وفي أثناء هذا كله لم يترك أحداً من المحققين إلا عابه، ولا غادر طبعة إلا ثلبها. وتاه تيهاً، ومدح نفسه. وهو في كل ذلك يكتب بلغة تكاد تتثنى غنجاً وقلة فائدة، ويغلط في الإملاء أغلاطاً لا تجوز من ابن المدرسة. وتداركه مصححو المطبعة فصنعوا جدولاً بالأغلاط وتصحيحها، ولا فائدة. فأغلاطه أضعاف ما جاء في جريدة التصحيح تلك.

وجاء إلى القصيدة الأولى بعد مقدمته النافلة تلك، فحشر فيها اثنتي عشرة غلطة، أشارت جريدة التصحيح إلى غلطتين منها فقط. ومضينا نقرأ «تحقيق» هذا الفهَّامة، وهو يقع في أكثر من ألف صفحة فإذا صاحبنا لا يقيم بيت الشعر، وإذا به يتذاكى فيقطع البيت في منتصف الكلمة فيصيب مرة ويخيب مرة، ويصر على أن يزيدنا من فوائده فيكتب في صدر القصيدة اسم بحرها، وما كان أغناه عن ذلك، فهو دخيل على العروض يغلط المرة تلو المرة من

الصفحة الأولى إلى الصفحة الألف. وما كنا لنتعرض لهذا «الدكتور» الفاضل لولا ما صدع به رؤوسنا من الزهو، وما أغثى به نفوسنا من ثلب من هم خير منه علماً وأدباً.

قد رأينا من أمثاله كثيرين. وخليق بمن يحمل شهادة الدكتوراه أن يكون أحنق مني على هؤلاء المدعين ممن يتزينون بلقب دكتور، فهم يسيئون إلى اللقب ويجعلونه أضحوكة. بل، قد أصبح لقب «الدكتور» أضحوكة فعلاً. أمُرُّ بالكتاب وعلى غلافه اسم المؤلف مسبوقاً بلقب الدكتور فتصدف نفسي عنه، فإذا راوغتُ نفسي عنه وفتحته فحَّت في وجهي أفاعي السقم الأكاديمي، وانبعثت روائح كريهة.

هذا الفساد في حياتنا الأكاديمية ابن شرعي للفساد في شتى مناحي حياتنا العربية. ولا يخطرْ ببالك أنني أكتب هذه الأسطر كي أصلح حالاً، أو أشن حملة. أنا رجل ناقم من طراز قد لا تكون ألفته.

كان لي قريب يجلس في المجلس من غروبها إلى ما بعد العشاء يقيء مرارة نفسه فتخرج الكلمات من فمه صفراء مخضوضرة كأنها سم الأفعى. لا يغادر زعيماً ولا عظيماً إلا مرغ بسيرته التراب، ولا يؤتى في محضره على ذكر شيء إيجابي إلا فلَّاه وأخرج منه قملاً. كان رَحِمَهُ اللهُ سلبياً، وكفى. وكان يريح صدره المليء ببلغم الاستياء بأن ينفث في وجوهنا.

طرازي أنا غير ذلك الطراز.

أنا مستاء غاية الاستياء من نفسي. فاجأتني الشيخوخة وأنا ألهو ببنيات الطريق. وأفقت على عمر ضاع وأنا أصانع الناس لغيرما غرض، وغيرما منفعة تعود علي من مصانعتهم. فقط أجاملهم وأوزع الابتسامات، وأحتمل دعاواهم العريضة، وأكبح نفسي فلا أسد منخريَّ إذ تنبعث من أفواههم روائح الزهو والعُجب. وانتهبت متأخراً، فإذا اللطف الزائد قد صار طبعاً فيَّ لا أملك له تغييراً.

وأنا مستاء من الزمن الذي وجدت نفسي فيه.

وكل هذا يشبه ما كان يعتلج في صدر ذلك الرجل من أقربائي. غير أنني من طراز مختلف. . أنا أنفث مرارة نفسي على الورق فقط. وهنا خيار للقارئ، فإن شاء قرأ وإن شاء قفز.

إن وصلت إلى هنا فاعلم أن ما سيأتيك بعد ذلك مجموعة صغيرة من أشعار ابن المعتز. وهي صغيرة لأنه لم يتميز في القصائد الكبيرة، وتميز كل التميز في التشبيهات اللطيفة التي عاشت مئات السنين على ألسنة وأقلام الناس، ودارت في مجالسهم، وكانت تحفاً أدبية أنيقة.

عاش ابن المعتز خمسين سنة هي أول عقود سقوط الخلافة العباسية وضياع هيبتها. وعندما اكتمل هذا السقوط، وقامت الدويلات في المشارق والمغارب، ولم يعد للخليفة إلا داره في بغداد يقيم فيها لاهياً أو غاضباً إلى أن يحين موعد قتله أو سمل عينيه، جاد الزمان بالمتنبي، ثم جاد الزمان مرة أخرى وأخيرة بالمعري. ثم أظلم وجه الأدب.

١ أعين في السماء تراقبنا

داوِ الـهـمـومَ بـقـهـوةٍ صـفـراءِ　　وامـزُجْ بـنـارِ الـرَّاحِ نـورَ الـمـاءِ
وتـوقَّـدتْ فـي لـيـلـةٍ مـن قـارِهـا　　كـتـوقُّـدِ الـمِـرِّيـخِ فـي الـظَّـلـماءِ

توهجت الخمر إذ خرجت من الدن المطلي بالقار (الزفت)، فهي كالمريخ متوهجاً وسط ظلام الليل

كـم لـيـلـةٍ شـغَـلَ الـرقـادُ عـذولَـهـا　　عـن عـاشـقـيْـنِ تـواعَـدا لِـلِـقـاءِ

النوم شغل العذول عن العاشقين

عـقـدا عِـنـاقاً طولَ لـيـلِـهـمـا مـعـاً　　قـد أَلـصـقـا الأحـشـاءَ بـالأحـشـاءِ
ما راعَنا تحتَ الدُّجى شيءٌ سوى　　شَبَـهِ الـنجـومِ بـأَعـيُـنِ الـرُّقـبـاءِ

٢ اتركوها لنا

ألا مَـن لِـعـيـنٍ وتَـسـكـابِـهـا　　تَـشَـكَّـى الـقـذى وبُـكـاهـا بِـهـا

تشتكي العين من القذى وإنما بكاها هو الذي بها (بها: تعني يؤلمها، كقولك بي ألم)

ويـا رُبَّ ألـسـنـةٍ كـالـسـيـو　　فِ تـقـطـعُ أعـنـاقَ أصـحـابِـهـا
ومـا يَـنـتـقِـصْ من شـبـابِ الـرجـالِ　　يَـزِدْ فـي نُـهـاهـا وأَلـبـابِـهـا

النُّهى: العقول

دَعُـوا الأُسْـدَ تـسـكُـنُ فـي غـابِـهـا　　ولا تـدخُـلـوا بـيـن أنـيـابِـهـا

يخاطب العلويين الذين يسرون أو يعلنون أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم العباسيين

ونحن ورِثنا ثيابَ النبيِّ | فَلِمْ تجذِبونَ بأهدابِها
لكُمْ رَحِمٌ يا بني بنتِهِ، | ولكنْ بنو العمِّ أوْلى بِها
فمَهلاً بني عمِّنا، إنَّها | عطيَّةُ ربٍّ حَبانا بِها
وأُقسِمُ أنكُمُ تَعلمونَ | بِأَنَّا لها خيرُ أربابِها

٣ تهين ثياب الوشي

وقمتُ إلى الكُومِ الصَّفايا بمُنصُلِي | فصيَّرتُها مجداً لقومِي وأَحسابا

قمت إلى الكوم (النياق ذوات الأسنمة العالية) الصفايا (النياق الغزيرة اللبن) بمنصلي (بسيفي) كي أذبح للأضياف، وأجعل من هذه المأدبة مجداً لقومي

وخِلْتُ نجومَ الليلِ في ظُلَمِ الدُّجى | خِصاصاً أرى منها النهارَ وأَنقابا

كأن النجوم خصاص (ثقوب) وأنقاب (ثقوب) أرى من خلالها النهار. التشبيه طريف

وكأسٍ تلقَّيتُ الصباحَ بشُربِها | وأَسقيتُها شَرْباً كِراماً وأصحابا

الشرْب: الشاربون

ثَوَتْ تحت ليلِ القارِ خمسينَ حِجَّةً | تَرُدُّ مُهوراً غالياتٍ وخُطَّابا

ثوت (مكثت) هذه الخمر داخل الدن المطلي بالقار (الزفت) خمسين سنة، وهي تأبى أن تمنح نفسها لمن يدفعون فيها المال الكثير وترد هؤلاء الخطاب رداً

وكنتُ كما شاءَ النَّديمُ، ولم أكُنْ | عليها سفيهاً يفرِسُ الناسَ صَخَّابا
وقُمْرِيَّةِ الأَصواتِ حُمْرٍ ثيابُها | تُهينُ ثيابَ الوَشْيِ جَرّاً وتَسْحَابا

هذه المغنية لها صوت كالقمرية (الحمامة)، وثيابها حمر، والثياب الحمر دليل على الثروة عند البدو، قيل لغلاء الصباغ الأحمر، وهي تهين الثياب الموشاة بجر ذيولها وسحبها على الأرض

وتَلْقُطُ يُمْناها إذا ضَربَتْ به | وتنثُرُ يُسْراها على العُودِ عُنَّابا

وتضرب العود بالتقاط أوتاره باليمين، وتنثر رؤوس أصابع يسراها الشبيهة بالعُنَّاب على أصل الأوتار بالضغط عليها

٤ الزفت في القاع

وشَبابٍ كان يُعجِبني | وبهِ قد كنتُ لَعَّابا
جَاهُ حُسْنٍ ما رُدِدْتُ بهِ | وشفيعٌ قَطُّ ما خَابا

الشباب جاه، لكنه جاهٌ ليس من نسب ولا حسب بل من حسن، وهو شفيعي إلى الحسان، ولم يكن يخيب

ثُـمَّ أُدِّيـنـا إلـى شَـمَـطٍ   مُـسْـبِـلٍ فـي الـرأسِ أَهـدابـا

الشمط اختلاط بياض الشعر بسواده، والمعنى الملموح: كأن الشعرات البيض أهداب وسط هذا السواد

خَـضَـبَـتْ رأسـي فـقـلـتُ لـهـا: إخـضِـبـي قَـلـبـي فـقـد شَـابـا
فـأَمـامـي الـمُـرُّ مِـنْ عُـمُـري   وورائـي مـنْـهُ مـا طَـابـا

٥ مرفق بالرسالة

لـيـتَ أنَّ الـرَّسـولَ كـان يُـؤَدِّي   لَـحْـظَ عـيـنـي كـمـا يُـؤَدِّي كـتـابـي

٦ للدمع لا للنوم

لاحَ لـهُ بـارِقٌ فـأَرَّقَـهُ   فـبـاتَ يَـرعَـى الـنجـومَ مُـكـتـئـبـا

البارق: غيمة يتخللها برق

يُـطـيـعُـهُ الـطَّـرفُ عـنـدَ دمـعـتِـه   حـتـى إذا حـاولَ الـرقـادَ أَبَـى

الطرف (العين) يطيعه بالبكاء، ويعصيه إذا أراد نوماً

٧ ميت فراقاً

لُمْتَني يا مُسيءُ، والذَّنْبُ ذنبُكْ   وَيحَ نفسي! حَسيبُكَ اللَّهُ ربُّكْ
لا تحاوِلْ بحبْسِ كُتْبِكَ قتلي،   قد تولَّى الفراقُ قتلي، فَحسْبُكْ

٨ «قف يا زماني»

جـاء الـرسـولُ مـبـشِّـراً بـزيـارةٍ   مِـن بـعـدِ طـولِ تـهـجُّـرٍ وتَـغَـضُّـبِ
يـا لـيْـلـتـي بـالـكَـرْخِ دُومـي هـكـذا   يـا لـيـلـتـي لا تـذهـبـي، لا تـذهـبـي

هذا التكرار في آخر البيت يحمل دفقة فرح

٩ مواقعة الذنب

أَتـانـا بـهـا صـفـراءَ يَـزعُـمُ إنَّـهـا   لَـتِـبْـرٌ، فَـصـدَّقْـنـاهُ، وَهْـو كـذوبُ

يشبه الخمر بالتبر، أي الذهب

ومـا هِـيَ إلَّا لـيـلـةٌ طـابَ نـجـمُـهـا   أُواقِـعُ فـيـهـا الـذَّنْـبَ ثـم أتـوبُ

١٠ عناق الأرواح

يـا رُبَّ إخـوانٍ صـحـبـتُـهُـمُ لا يَـمـلِـكـون لِـسَـلْـوةٍ قَـلْـبـا

قلبهم لا يطاوعهم على نسيان الصداقة

لـو تـسـتـطـيـعُ نـفـوسُـهُـمْ فَـقَـدتْ أَجـسـادَهـا، وتـعـانـقـتْ حُـبَّـا

١١ مدح علي بن أبي طالب

عـلـيٌّ! يَـظُـنُّـونَ بـيِ بُـغْـضَـهُ فـهـلَّا سِـوى الـكـفـرِ ظَـنُّـوهُ بـي

يوضح ابن المعتز موقفاً يجاهد كثيرون من أهل السنة في توضيحه حتى اليوم لإخوانهم الشيعة، وهو أنهم يحبون علياً

إِذَنْ لا سَـقَـتْـنـي غَـداً كـفُّـهُ مِـن الـحوضِ والـمَـشْـرَبِ الأَعْـذَبِ

فعلي سيكون على الحوض يوم القيامة مع النبي

وأَوَّلُ مَـنْ ظَـلَّ فـي مـوقـفٍ يُـصـلِّـي مـعَ الـطـاهـرِ الـطـيِّـبِ

يشير إلى سابقة علي في الإسلام

وفـي لـيـلـةِ الـغـارِ وقَّـى الـنـبـيَّ عِـشَـاءً إلـى الـفَـلَـقِ الأشـهَـبِ

علي بات في فراش الرسول ليلة هجرته السرية إلى يثرب ووقاه بنفسه حتى الفلق الأشهب (الفجر الأبيض)

١٢ اقعدوا يا جنادب

أَبى اللَّهُ إلَّا ما تَرَوْن، فما لكمْ عتابٌ على الأقدارِ، يا آلَ طالِبِ

ظل الطالبيون طوال الدولة العباسية يخرجون على السلطة استناداً إلى أنهم أحق بالخلافة، وظل العباسيون يقولون: الخلافة حقنا، فنحن ننتمي إلى العباس عم الرسول، وأنتم تنتمون إلى علي ابن عمه، وإلى الحسين ابن بنته، والعم أحق بالوراثة، فيما قالوا

تـركـنـاكُـمُ حيـنـاً فـهـلَّا أخـذتُـمُ تـراثَ الـنـبـيِّ بـالـقَـنـا والـقَـواضِـبِ

تركناكم في زمن دولة بني أمية التي استمرت ٩٠ سنة، فلم تأخذوا إرث النبي منهم بالقنا (الرماح) والقواضب (السيوف)

زمانَ بني حربٍ ومروانَ مُمْسِكو أَعِنَّةِ مُلْكٍ جائرِ الحكمِ غاصبِ

بنو حرب: فرع معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد من الأمويين، بنو مروان: أبناء مروان بن الحكم، وهم الفرع الأموي الذي تولى الخلافة بعد بني حرب

ألا رُبَّ يوم قد كَسَوْكُمْ عمائماً — مِنَ الضَّربِ في الهاماتِ، حُمْرَ الذَّوائبِ

كان الأمويون يضرِّبون هاماتكم (رؤوسكم) بالسيف فتصبح الدماء على رؤوسكم عمائم ذات ذوائب (أهداب) حمر

وليس يريدُ الناسُ أن تَملِكوهُمُ — فلا تَثِبُوا فيهِمْ وُثوبَ الجنادبِ

كان الطالبيون ـ العلويون ـ يخرجون على السلطان باستمرار في العهد العباسي، والجندب حشرة بقدر عقلة الإصبع كثيرة الوثب

١٣ المجد والحساد

قد عَضَّني صَرْفُ النَّوائبْ — ورأيتُ آمالي كَواذِبْ

وإذا مَلَكْتَ المجدَ لم — تَملِكْ مودَّاتِ الأَقارِبْ

والمجدُ والحسَّادُ مَقْـ — ـرونانِ، إنْ ذهبوا فذَاهِبْ

١٤ سفرة بغير إياب

آهِ مِنْ سَفْرَةٍ بِغيرِ إِيابِ — آهِ مِنْ حسرةٍ على الأحبابِ

آهِ مِنْ مَضْجعي وحيداً فريداً — فوقَ فَرْشٍ مِنْ الحَصَى والتُّرابِ

١٥ نقر العصافير

في «المصون» للعسكري البيتان لابن المعتز:

وكَمْ عِناقٍ لنا وكَمْ قُبَلٍ — مُخْتَلَساتٍ حِذَارَ مرتَقِبِ

نَقْرَ العَصافيرِ، وهْيَ خائفةٌ — مِنَ النَّواطيرِ، يانِعَ الرُّطَبِ

١٦ الكسروية المشكوك في وجودها

وقد يباكِرُني السَّاقي فأَشربُها — راحاً تُريحُ مِنَ الأحزانِ والكُرَبِ

وأَمطَرَ الكأسَ ماءً مِن أَبارِقِه — فَأَنْبَتَ الدُّرَّ في أرضٍ من الذَّهبِ

الساقي أمطر الكأس ماء من إبريقه فكأنه سقى هذه الأرض الذهبية فأنبت فيها الدر أي اللؤلؤ لما تولد على سطحها من فقاقيع

وسبَّحَ القومُ لما أنْ رأَوْا عجباً — نوراً مِن الماءِ في نارٍ مِن العِنَبِ

لم يُبْقِ فيها البِلى شيئاً سِوى شبحٍ — يُقيمُه الظَّنُّ بينَ الصِّدقِ والكَذِبِ

الخمر قد عتقت زمناً طويلاً فكأنها مدفونة في دنانها، وعلى هذا جاز عليها البِلى (تحلل الجسم)، ولم يبق منها سوى شبح. والواقع أن كمية عصير العنب لا تنقص كثيراً مع التخمير، ولكن العصير يصفو بالترقيد وبالتحول إلى خمر، فهي شبح من حالتها الأصلية

سُلافَةٌ ورِثَتْها عادُ عن إِرَمٍ كانتْ ذخيرةَ كِسرى عن أبٍ وأبِ

١٧ أمنيات

عَرفتُ زماني: بؤسَه ورخاءَهُ، ولاقيتُ مكروهَ الخطوبِ وعانيْتُ
وأُمنِيَّةٌ لم أَمنعِ النَّفْسَ رَوْمَها بلغتُ، وأُخرى بعدَها قد تمنَّيْتُ

روْمها: طلبها

وحربٍ عَوانٍ يُثْقِلُ الأرضَ حملُها ويلمَعُ في أطرافِ أرماحِها الموتُ

حرب عوان: حرب ذات معارك يأتي بعضها بعد بعض

شهدتُ بصبرٍ لا تُوَلِّي جنودُه فحَاسَيْتُ أكوابَ المنايا وساقَيْتُ

كان صبري ثابتاً لا تهرب جنوده، فكأنَّ صبري جيش، وقد اشتركت مع الأعداء في احتساء أكواب المنايا (الموت) وكان بعضنا يسقي بعضاً

وقالوا: مَشيبُ الرأسِ يحْدُو إلى الرَّدى فقلتُ: أَراني قد قَرُبْتُ ودَانيْتُ

١٨ يلوم قلبه

لا تَلُمْني يا صاحِ في حُبِّ «مَكْتو مَةَ»، نفسي لها الفِداءُ وأَنتا
هاكَ قلبي، قَطِّعْهُ لَوْماً فإنْ أنْـ ـسَيْتَه حبَّها فقد أَحسنتا
أيُّها القلبُ هل تُطيقُ اصطبارا طالما قد أَطَقْتَني فصَبرتا
طالما كنتَ حائداً قبلَ هذا عن حبالِ الهوى فكيفَ وقعتا
ما أرى في الهوى لإبليسَ ذنباً إنَّ عيني قادَتْ، وأنت اتَّبعتا
فَذُقِ الحبَّ، قد نُهِيتَ فخالفْـ ـتَ، أَلَسْتَ الذي عصيتَ ألستا؟

١٩ غسيل وتلويث

لِي في التصابي واللَّهوِ حاجاتُ ليس لِقلبي مِنْهُنَّ إِفْلاتُ
كَمْ توبةٍ قد فَضَضْتُ خَاتِمَها عنِّي، وللتائبينَ رَجْعَاتُ

كثيراً ما تبت ثم فضضت خاتم التوبة (كسرت توبتي)

٢٠ رثاء

أبا حَسَنٍ قَرَاكَ اللَّهُ حُسْناً يَعِزُّ على المكارمِ أن تَموتا

يرثيه. قراك الله (أطعمك طعام الضيف) حسناً. المعنى الملموح أنه يدعو له بأن يحسن الله إليه، فقد كان صعباً على المكارم موته

٢١ مدح وزير

يا ثالِثَ الوُزَراءِ كَمْ مِن حَلْقَةٍ لِلكرْبِ والأَحزانِ قد فرَّجْتَها
ويدٍ بِوجْهٍ مُطْلَقٍ شَيَّعتَها كَبُرَتْ على عافيك، واستصغَرتَها

رب يد (منحة) شيعتها (بعثتها) بوجه طلق، وقد رآها عافيك (سائلك) كبيرة، ورأيتها أنت صغيرة

فنسيتَها، وأَعدتَها، فنسيتَها، حتى مُدِحْتَ بِذِكرِها فذكرتَها
ولَرُبَّ معنَى حِكمَةٍ أفرَغْتَه في قَالَبٍ مِن لَفظَةٍ أَوْجزْتَها
ووِزارةٍ كانتْ عليك خَريصَةً حتى أتتْك، فلم تَزِدْك، وزِدْتَها

٢٢ أنا كالمنيَّة

يا مَنْ يَدُسُّ ليَ العداوةَ صَنْعَةً أَسْرَيْتَ لي فاصبِرْ على الإدْلاجِ

يا من صارت صناعته أن يدس لي العداوة، لقد أسريت (سرت ليلاً)، فانتظر الإدلاج (التوغل في الليل)

أَنا كالمَنِيَّةِ سُقمُها قُدَّامَها طوراً، وطوراً تبتدي فتُفَاجي

أنا كالموت يأتي المرض قبله، ولكنه أحياناً يفاجئ

٢٣ شباب زائف

قَبُحَتْ طلعةُ المشيبِ كما أنَّ ـ الخِضابَ الكُمَيْتَ أيضاً قبيحُ

الخضاب الكميت: الصبغ الداكن

ذا شبابٌ مُلَفَّقٌ ليسَ يخفَى ومَضى ذلكَ الشبابُ الصحيحُ

٢٤ لا يرعوي

فتنَتْ قلبَكَ العيونُ المِلاحُ واغْتِباقٌ بِقَهْوةٍ واصْطِباحُ

الاغتباق: الشرب مساء، الاصطباح: الشرب صباحاً، والقهوة: الخمر

وقُدودٌ كأنَّهُنَّ غُصونٌ وخدودٌ كأنَّها التفاحُ
أنتَ في الأربَعينَ مِثلَكَ في العشْـ ـرينَ، قُلْ لي متى يكونُ الفلاحُ؟

٢٥ طار نومي

طارَ نوْمي وعاوَدَ القلبَ عِيدُ ... وأبى لي الرُّقادَ حزنٌ شديدُ
جلَّ ما بي وقلَّ صبري، ففي قلـ ... ـبي جراحٌ، وحَشْوُ جَفْني السُّهودُ
سَهَرٌ يَفْتُقُ الجفونَ، ونيرا ... نٌ تَلَظَّى، قلبي لهُنَّ وَقُودُ
لامَني صاحبي وقلبي عميدُ ... أينَ ممَّا يريدُه ما أريدُ
شيَّبَتْني، وما يُشَيِّبُني السِّنُّ ... ، هُمومٌ تَتْرَى ودهرٌ مَريدُ

شيبتني الهموم المتابعة، والدهر المَريد: الشيطاني

٢٦ الرحيل

قالوا: الفراقُ غداً لا شَكَّ، قلتُ لهمْ: ... بل موتُ نفسي مِنَ الفراقِ غَدَا
إنِّي إذنْ لَصبورٌ إنْ بقيتُ وقد ... قالوا الرَّحيلَ، وإنْ لم يرحلوا أَبدا

سأعتبر نفسي صبوراً إذا عشت بعد قولهم سنرحل.. حتى لو لم يرحلوا أبداً

٢٧ اختلاس

أَرُدُّ الطَّرْفَ مِنْ حَذَري عليهِ ... وأمنحُهُ التجنُّبَ والصدودا
وأَرصُدُ غَفْلَةَ الرُّقباءِ عنه ... لِتَسرِقَ مقلتي نَظراً جديدا

٢٨ عن طول الليل وقصره

ما أقصرَ الليلَ على الرَّاقدِ ... وأهونَ السُّقمَ على العائدِ

النائم لا يشعر بطول الليل، والعائد (زائر المريض) لا يتألم من المرض

يَفديكِ ما أبقيتِ مَنْ مهجتي ... لستُ لِما أَوْلَيْتِ بالجاحدِ

القليل الذي تركتِه من مهجتي (نفسي) أفديك به، وعموماً لا أجحد (أنكر) ما أوليت (منحتِ)

٢٩ من صفات الليل

لا تَلْقَ إلَّا بِلَيْلٍ مَنْ تُواصلُه ... فالشمسُ نَمَّامَةٌ، والليلُ قَوَّادُ

سودنا البيت لشهرته، وتشبيه الليل بالقواد طريف بعدُ

كَمْ عاشقٍ وظلامُ الليلِ يستُرُه ... لاقَى أحبَّتَه والناسُ رُقَّادُ

٣٠ صبَّاغ الحياء

يا مَنْ يَجودُ بموعدٍ مِن لحظِه، ويصُدُّ حينَ أقولُ: أينَ الموعدُ
ويظَلُّ صَبَّاغُ الحَياءِ بِخدِّه تَعِباً يُعَصْفِرُ تارةً ويُوَرِّدُ

جعل شاعرنا للحياء صبَّاغاً يعمل عمله في الخدود، فيصبغها بصفرة العصفر حيناً وبحمرة الورد حيناً

ماذا يضُرُّكَ لو رَثَيْتَ لعاشقٍ قَلِقٍ يقومُ به هواكَ ويَقعُدُ

٣١ تراب حارتي وحصاها

ليتَ شِعريِ أفي المنامِ أرى ذا: قمراً زارنِي على غيرِ وعدِ
صار تُرْبُ الصَّراةِ مسكاً، وكافُو راً حَصاها، وماؤُها ماءَ وردِ

شاطئ الصراة ببغداد، وفيه بيت لابن المعتز ورثه عن جدته

٣٢ تشرب عقلي

علِّلاني بصوتِ نايٍ وعودِ واسقياني دَمَ ابنةِ العُنقودِ
أَشرَبُ الراحَ وهْيَ تشربُ عقلِي، وعلى ذاك كان قتْلُ الوليدِ

الوليد بن يزيد الخليفة الأموي الشاعر قتلوه بعد أن أسرف في الشراب والملاهي

٣٣ الشيب

قد أَرسَلَ الشيبُ في رأسيِ ومَفْرِقِه بُزَاتَهُ البيضَ في غِربانِه السُّودِ

البزاة: شواهين الصيد البيض. وكلمة «مفرقه» حشو لإقامة الوزن، ولولا هي لسودنا البيت

٣٤ المجبوذ جبذاً

وخَليلٍ صافٍ هَنيٍّ مَريٍّ جَبَذَتْهُ الأيامُ مِنِّيَ جَبْذا

جبذ: جذب

سَرَّهُ اللَّهُ حيثُ كانَ، فما كا نَ أَسَرَّ الدنيا به وأَلَذَّا

كانت الدنيا بوجوده سارَّة ولذيذة

وأنا الواضحُ الذي إن تَبَدَّى يَعرِفُوهُ، ولا يقولونَ مَنْ ذا؟

يفتخر بنفسه

ومشى الشَّيبُ قبل عَقدِ الثلاثيـ ـنَ، فلـمَّـا انتـهـى إلـيـهـا أَغَـذَّا

قبل الثلاثين كان الشيب يمشي في رأسي فلما انتهى إليها (وصلها) أغذَّ (أسرع) في سيره

٣٥ نحن وبنو عمنا

ويـا رُبَّ يـومٍ لا تُـوَرِّي نـجـومُـه　　مَددتُ إلى المظلومِ فيه يدَ النصرِ

أي لا تضيء نجومه، فهو يوم مظلم، وفيه نصرت المظلوم

فسبحانَ ربي ما لِقَومٍ أرى لهمْ　　كَوامِنَ أضغانٍ عقارِبُها تَسري

إذا ما اجتمعنا في النَّدِيِّ تضاءَلوا　　كما خَفِيَتْ مَرضَى الكواكِبِ في الفجرِ

كثيرون كانوا يشيعون عن ابن المعتز أنه يشتم علياً، ووكان يتأذى بذلك كثيراً، كما يفصل الصولي في كتاب «الأوراق». وابن المعتز كان يشكو أنه يدافع عن بني العباس بكلام متزن فيتأولون كلامه ويجعلونه انتقاصاً لعلي. وهؤلاء الأعداء يتضاءلون عندما يجتمع بهم في الندي (المجلس)، كأنهم الكواكب المريضة (الضئيلة) التي تكون أول ما يختفي فجراً

بنو العمِّ، لا بل هم بنو الغمِّ والأذى،　　وأعوانُ دهري إن تظلَّمْتُ مِنْ دهري

بنو العم: أي الطالبين، فأبو طالب أخو العباس، وهما عمَّا النبي

نَـمتْـنـي إلـى عَـمِّ الـنـبـيِّ خَـلائِـقٌ　　عَلَوْا فوقَ أَفلاكِ الكواكبِ والبدرِ

خلائق: أفراد من خلق الله، هم أسلاف ابن المعتز الذي يرتفع نسبه إلى العباس عم النبي

ونحنُ رفعْنا سيفَ مروانَ عنكُمُ　　فهلْ لكُمُ يا آلَ أحمَدَ في الشكرِ

نحن، بني العباس، أنهينا الدولة الأموية المروانية، فوجب أن تشكرونا يا آل النبي

٣٦ الباصق على الكوكب

ويـا عـائبـي والـعـيـبُ حشـوُ فـؤادِهِ　　تـأمَّلْ رُويداً، لستَ مِمَّنْ أُحَاذِرُهْ

وكـنـتَ كَـرَامٍ كـوكـبـاً بِـبُـصـاقِـه　　فَـرُدَّ عـلـيـه وَبْـلُـهُ ومَـوَاطِـرُهْ

٣٧ أنا الجيش

أنـا جـيـشٌ إذا غَـدوْتُ وحـيـداً　　ووحـيـدٌ فـي الـجَـحـفـلِ الـجـرَّارِ

هو وحده عن جيش، وإذا كان ضمن الجيش فهو وحيد متميز بشجاعته

٣٨ ذلك دهر وهذا دهر

هِيَ الـدَّارُ، إلَّا أنَّـهـا منـهـمُ قَـفْـرُ   وأنِّـي بـهـا ثَـاوٍ وأنَّـهُـمُ سَـفْـرُ

هذه دار الأحبة، وأنا واقف بإزائها، ولكنهم ارتحلوا عنها. ثاوٍ: مقيم، سفْر: مسافرون

حَبستُ بها لحظِي، وأطلقتُ عَبرتِي   وما كان لِي في الصبرِ، لو كانَ لِي، عُذْرُ

تفسيير الشطر الثاني كما فهمته: وما كان لي عذر في الصبر.. هذا لو كان لي أصلاً صبر

فَدَعْ ذكرَ بَثْنَى قد مضى ليس راجعاً   فـذلـكَ دهـرٌ قـد تـولَّـى، وذا دهـرُ

٣٩ فخر

سـقـى الإلـهُ «سُـرَّ مـن را» الـقَـطْـرا

والـكـرخَ والـخـمسَ الـقرى والـجِـسـرا

هذه قرى حول سامراء كانت فيها الحانات، والجسر قرية منها

قـد عَـجَـمـوا عـودِي وكـنـتُ مُـرَّا

حـرَّاً إذا لـم يَـكُ حـرٌّ حُـرَّا

لا تـأمَـنـوا مِـنْ بـعـدِ حِـلْـمٍ شَـرَّا

كَـمْ غُـصُـنٍ أخـضَـرَ صـارَ جَـمـرا

لا تظنوا حلمي سيدوم، فالغصن الأخضر يتحول إلى جمر بعد حين

٤٠ قف لنا

يـا هـلالاً يـدورُ فـي فَـلَـكِ الـمـا   وَرْدِ رفـقـاً بـأعـيُـنِ الـنَّـظَّـارَةْ

أليست الجميلة العَطِرة تكتنفها هالة من الماورد (ماء الورد)؟

قفْ لنا في الطريقِ إن لم تَزُرْنا   وَقْفَةٌ في الطريقِ نصفُ الزيارةْ

٤١ العاصرة نفسها

صَـبـوْتُ إلـى الـنَّـدامَـى والـعُـقـارِ   وشُـرْبٍ بـالـصِّـغـارِ وبِـالـكـبـارِ

وسـاقـي حـانـةٍ يـغْـدُو عـلـيـنـا   بـزُنَّـارٍ وأقْـبِـيَـةٍ صِـغَـارِ

أقبية جمع قباء أي ثوب، والزنار كان يتخذه النصارى وهم أصحاب الحانات

ويَـخـجَـلُ إذ يُـلاقـيـنِـي كـأنِّـي   أُنَـقِّـطُ خَـدَّهُ بـالـجُـلَّـنَـارِ

الجلنار: زهر الرمان

وبَيضاءِ الخِمَارِ إذا اجْتَلَتْها عيونُ الشَّرْبِ، صَفراءِ الإزارِ

للخمر خمار (شال) أبيض هو الرغوة على وجه الكأس، ولكن إزارها (ثوبها) أصفر

فضضتُ خِتامَها عن رُوح راحٍ لها جَسَدانِ مِنْ خَزَفٍ وقَارِ

الخمر روح داخل جسد هو الدن، وجسد الدن جسدان: خزف (فخار)، وقار (زفت) يطلى به الخزف

تَلَقَّاها لِكِسْرى رَبُّ كَرْمٍ يُعَدُّ مِنَ الفلاسفةِ الكبارِ

زارع كرم العنب فيلسوف لا شك عند المدمنين

أَقَرَّ غِراسَها بِثَرىً وَطِيٍّ وأَنْهارٍ كَحَيَّاتٍ سَوَارِ

زرع الزارع كرومه في تراب سهلي، وبين أنهار تسري ملتوية كأنها الأفاعي

نَوَاعِمُ لا تَذِلُّ بِوَطْءِ رِجْلٍ وتَعصِرُ نفسَها قبل اعتِصَارِ

العناقيد ناعمة لا تتعرض لذل العصر بالأرجل، فهي ناضجة إلى حد أنها تعصر نفسها قبل اعتصارها، ذلك أنهم يضعون أكوام العناقيد في حوض، فيبدأ سريان العصير بفعل ثقل العناقيد قبل الدوس بالأرجل، وهذا الذي يأتي قبل الدوس يسمى السلافة، وقالوا هو أجود الخمر، فلا يصحبه الطعم المز الناشئ عن ضغط القشور والبزر والعراميش

٤٢ خيل الملاهي

شربنا بالصغيرِ وبالكبيرِ ولم نحفِلْ بأحداثِ الدُّهورِ
وقد ركضتْ بنا خيلُ الملاهي وقد طِرْنا بأجنحةِ السُّرورِ

٤٣ موعد في الدير

سَقَى المُطَيرَةَ ذاتَ الظِّلِّ والشَّجرِ وديرَ عَبدونَ هَطَّالٌ مِنَ المطرِ
فَطالما نَبَّهَتْني للصَّبوحِ بِها في غُرَّةِ الفجرِ والعُصفورُ لم يَطِرِ
أَصْواتُ رُهبانِ ديرٍ في صَلاتِهِمُ سُودِ المَدَارِعِ نَعَّارينَ في السَّحَرِ

نعارين: مصوِّتين في صلواتهم

مُزَنَّرينَ على الأوسَاطِ قد جَعَلوا على الرُّؤوسِ أَكَاليلاً مِنَ الشَّعَرِ

الرهبان حلقوا شعورهم، وتركوا أعاليها كأنها أكاليل فوق رؤوسهم

كَمْ فِيهِمُ مِنْ مَليحِ الوجهِ مُكتحِلٍ بالسِّحْرِ، يُطْبِقُ جَفْنَيْهِ على حَوَرِ

لاحظْتُه بالهوى حتى استقادَ له طَوعاً، وأسْلَفني الميعادَ بالنَّظرِ

استقاد: استُدرج

وجاءني في قميصِ الليلِ مستتراً يستعجلُ الخَطْوَ مِنْ خوفٍ ومِنْ حَذَرِ
فقمتُ أَفْرُشُ خَدِّي في الطَّريقِ له ذُلّاً، وأَسْحَبُ أذيالي على الأَثَرِ

يسحب أذيال ثوبه على أثر الأقدام ليخفيها

ولاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كادَ يفضحُنا مِثْلِ القُلامَةِ قد قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ
فكانَ ما كانَ ممَّا لستُ أَذكُرُهُ فَظُنَّ خيْراً، ولا تسألْ عن الخبرِ

هذه القصيدة من أشهر ما قال ابن المعتز، وهي شديدة الشبه بشعر أبي نواس الذي مات قبل مولد شاعرنا بنحو خمسين سنة. ولعل أبا نواس يتقلب في قبره حسداً لابن المعتز على بيته الأخير

٤٤ زورق من فضة

أهلاً بِفِطْرٍ قد أنارَ هلالُه فالآن فاغْدُ إلى المُدامِ وبَكِّرِ

قد بدا هلال شوال، وجاء عيد الفطر، فاغدُ (بكِّر) إلى الخمر

وانظرْ إليه كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قد أثقلتْهُ حُمولَةٌ مِنْ عَنْبرِ

يشبه الهلال بزورق فضة والنجوم فيه بالعنبر، أو لعله يشبه ما بقي من القمر بالعنبر. عليَّ أن أشاهد الهلال كي أفسر البيت، ولكنني أكتب هذا في ١٥ رمضان ١٤٣٦، والقمر بدر ولا سبيل للفحص. من سيئات كتب المدارس أنها تكتفي بمثل هذا البيت لابن المعتز، فيظن التلميذ طول عمره أن ابن المعتز هو هذه الصورة المصنوعة فحسب. قد وصف كامل كيلاني هذا البيت بالسخيف وتعجب كيف أن كل من تعرض لابن المعتز قد ذكر هذا البيت. واستطراداً فقد نسب كيلاني لابن المعتز الموشحة المشهورة: «أيها الساقي إليك المشتكى» ولم نجدها في الديوان

٤٥ بوابة جهنم

كأنَّما صَبَغَتْهُ وَجْنتا خَجِلٍ إذْ حَلَّ عَقْدَ سَراويلٍ، وأَزْرارا
فَلَوْ رآهُ حبيسٌ فوقَ صَوْمَعةٍ لَقالَ: في مِثلِ هذا فادخُلوا النارا

الحبيس: الراهب الحابس نفسه في صومعته على العبادة

٤٦ ليلة

يا ليلةً نَسِيَ الزمانُ بِها أحداثَه، كُوني بِلا فجرِ

راحَ الـزمـانُ بـبـدرِهـا، ووَشَـتْ فـيـهـا الـصَّـبـا بِـمَـواقِـعِ الـقَـطْـرِ

ريح الصبا وشت (أخبرت) بالأماكن التي نزل فيها المطر

ثـمَّ انـقـضَـتْ والـفـجـرُ يـتْـبَـعُـهـا في حـيـثُـمـا سَـقَـطَـتْ مِنَ الـدهـرِ

٤٧ رثاء

لـسـتُ مُـسـتـسـقـيـاً لـقـبـرِكَ غَـيْـثـاً كـيـف يَـظْـمَـا وقـد تَـضَـمَّـنَ بَـحْـرا

٤٨ غبار وقائع الدهر

صَـدَّتْ شُـرَيْـرُ وأَزمـعـتْ هَـجـريِ وصَـغَـتْ ضـمـائـرُهـا إلى الـغـدرِ

شُرير: صاحبته شَرَّة، صغت: مالت

قـالـتْ كَـبِـرتَ وشِـبْـتَ، قـلـتُ لـهـا: هــذا غُــبــارُ وقــائِــعِ الــدهــرِ

٤٩ منجل من فضة

انـظُـرْ إلـى حُـسْـنِ هـلالٍ بَـدا يـهـتِـكُ مِـنْ أنـوارِهِ الـحِـنْـدِسـا

الحندس: الظلام

كَـمِـنـجـلٍ قـد صِـيـغَ مِـنْ فِـضَّـةٍ يَـحْـصُـدُ مِـنْ زهـرِ الـدُّجى نَـرجِـسـا

٥٠ أسنان المشط

قُـنِّـعَ الـرأسُ مَـشـيـبـاً واكـتَـسـى لـونَ الـشَّـمَـطْ

لا أَرى فـيـهِ سَـواداً غـيـرَ أَسـنـانِ الـمُـشُـطْ

٥١ السير والسر

أَبْـطِ ما شـئـتَ، وسِـرْ سَـيْـراً وئـيـداً إنَّ سـيـرَ الـدهـرِ بـالـمـرءِ سـريـعْ

واكـتُـمِ الـسِّـرَّ حـبـيـبـاً وعـدواً فَـهْـوَ مِـنْ هـذا وهـذاكَ يَـشـيـعْ

٥٢ أنا والعاذل

يَـتـيـهُ عـنـدي وأنـا أخـضَـعُ إن كـانَ ذا بَـخْـتـيِ فـمـاذا أصـنـعُ

يـا عـاذلـيِ! عـذلُـكَ لـيِ ضـائـعٌ أسـمـعْـتَـنـيِ، والـحُـبُّ لا يَـسـمَـعُ

٥٣ قلبي يراك

أَيَـا مَـنْ فـؤادي بـه مُـدْنَـفُ   حُـجِـبْـتَ فَـلـي دمـعـةٌ تُـذْرَفُ

مدنف: مريض

إذا مَـنـعُـوا مُـقـلـتـيِ أن تَـراكَ   فـقـلـبـيِ يَـراكَ ولا يَـطْـرِفُ

٥٤ كذبوا على عليّ

لـقـد قـالَ الـرَّوَافِـضُ فـي عَـلِـيٍّ   مَـقـالاً جـامِـعـاً كُـفْـراً ومُـوقـا

قال الروافض (المتشددون في التشيع) عن علي قولاً جارفاً فيه كفر وموق (حمق)

زَنَـادقَـةٌ أرادتْ كَـسْـبَ مـالٍ   مِـن الـجُـهَّـالِ فـاتَّـخـذتْـهُ سُـوقـا

وأشـهـدُ أنـهُ مـنـهُـمْ بَـرِيءٌ   وكـانَ بـأَنْ يُـقَـتِّـلَـهُـمْ خـلـيـقـا

كـمـا كَـذبـوا عـلـيـهِ وَهْـوَ حَـيٌّ   فـأَطْـعَـمَ نـارَه مِـنـهُـمْ فَـريـقـا

تقول بعض المصادر إن علياً حرَّق بعض الزنادقة

٥٥ هالك عند هالك

فَـلا جَـزَعٌ إنْ رَابَ دهـرٌ بِـصَـرفِـهِ   وبَـدَّلَ حـالاً، فـالـخُـطوبُ كَـذلِـكِ

ومَـا الـعـيـشُ إلَّا مُدَّةٌ سوفَ تنقضيِ   ومـا الـمـالُ إلَّا هـالِـكٌ عـنـد هـالِـكِ

٥٦ أنت الخمر

أراكَ بـعـيـنِ قـلـبٍ لا تَـراهـا   عـيونُ الـنـاسِ مِـنْ حَـذَرٍ عـلـيْـكـا

فأنـتَ الـحُـسْـنُ لا صِـفَـةٌ بِـحُـسْـنٍ   وأنـتَ الـخَـمْـرُ لا ما فـي يـديْـكـا

٥٧ قصيرة وإن طالت

أَلا عَـلِّـلانيِ، إنَّـمـا الـعـيـشُ تَـعـلـيـلُ   ومـا لِـحـيـاةٍ بـعـدَهـا مِـيـتَـةٌ طُـولُ

عللاني: سلِّياني

دعانيِ مِنَ الدنيا أَنَلْ مِن نعيمِها   فـإِنِّـيَ عـنـهـا بـعـد ذلـكَ مـشـغُـولُ

٥٨ في وصف جبل يسير

قـدِ استَوى الـنـاسُ ومـاتَ الـكـمـالْ   ونـادتِ الأيـامُ: أيـنَ الـرِّجـالْ

بموت المرثي أصبح الناس متساوين في نظري، فهو وحده كان المتفرد

هـذا أبـو الـقـاسِـمِ فـي نـعـشِـه   قُوموا انظروا كيفَ تسيرُ الجبالْ

٥٩ النار تأكل بعضها

إصـبِـرْ عـلـى كَـيْـدِ الـحـسـو   دِ فـإنَّ صـبـرَكَ قـاتِـلُـهْ
فـالـنـارُ تـأكُـلُ بـعـضَـهـا   إن لـم تـجِـدْ مـا تـاكُـلُـهْ

هل بقي بعد هذين البيتين الشهيرين شك في أن ابن المعتز ملك التشبيهات في شعرنا العربي؟ واقرأ الكلمة الأخير «تاكله» بغير همزة حتى لا تقع فيما يسميه العروضيون سناد التأسيس

٦٠ بين شقي الرحى

دامَ كَـرُّ الـنـهـارِ والـلـيـلِ مَـحْـثُـو   ثَـيْـنِ، ذا مُـنْـبِـهٌ وهـذا مُـنِـيـمُ

محثوثين: مدفوعين باستعجال

ورَحـىً تـحـتَـنـا وأخـرى عـلـيـنـا   كـلُّ مَـرْءٍ فـيـهـا طَـحـيـنٌ هَـشِـيـمُ

طحين: مطحون

ومُـعَـافَـىً وذو سَـقـامٍ وحـيٌّ   وحـبـيـسٌ تـحـت الـتُّـرابِ مُـقيـمُ
وبَـخـيـلٌ وذو سَـخـاءٍ، ولـولا   بُـخْـلُ هـذا مـا قـيـلَ هـذا كـريـمُ
ونَـرى صَـنْـعَـةً تُـخَـبِّـرُ عـن خَـا   لِـقِـنـا أنَّـه لَـطـيـفٌ حـكـيـمُ
يـا بـنـيِ عـمِّـنـا إلـى كَـمْ وحتَّـى،   لـيـسَ مـا تَـطْـلُـبـونَـه يَـسـتـقـيـمُ

يخاطب العلويين المطالبين بالخلافة. وحتَّى: حتى متى. وحذفَ

أأبـو طَـالِـبٍ كـمِـثْـلِ أبـي الـفـضـ   ـلِ، أَمَـا مـنـكُـمُ بـهـذا عـلـيـمُ

أبو طالب عم النبي، وأبو الفضل هو العباس عم النبي

سَـائِـلـوا مـالِـكـاً ورِضْـوَانَ عـن ذا: أيـنَ هـذا، وأيـنَ هـذا مُـقـيـمُ

اسألوا مالكاً (خازن جهنم) ورضوان (حارس الجنة) عن هذا الأمر. ففي معتقد بعض أهل السنة أن أبا طالب لم يُسلِم فهو في النار، وأن العباس في الجنة. والشيعة يقولون بل أسلم أبو طالب وأخفى إسلامه كي يتمكن من حماية النبي. وقد جر هذا البيت على ابن المعتز لوماً شديداً من قبل الشيعة في زمنه وبعده

فَدَعُوا المُلْكَ، نحن بالمُلْكِ أوْلَى   قـد أَقَـرَّتْ لـنـا بِـذاكَ الـخُـصُـومُ
واحـذَروا مَـاءَ غَـابَـةٍ لـم يـزَلْ طـا   ئـرُ حِـرْصٍ عـلـيـه مـنـكُـمْ يَـحُـومُ

تحومون حول الخلافة التي هي مثل الغابة، وأنتم كطائر (والطائر هو الحرص والطمع)

إنَّ فيـهـا أُسْـداً ضَـراغِـمَ أشْبـا ... لَ رَعيـلٍ لـم يَـنْـجُ مـنـهـا كَـلـيـمُ

في الغابة أسود لا ينجو كليمها (جريحها)، ولعله يقصد بالرعيل العباسيين الأوائل الذين أنهوا حكم بني أمية

وعَـزيـزٌ عَـلَـيَّ أن يـصـبِـغَ الأر ... ضَ دمٌ مـنـكُـمُ عـلـيَّ كـريـمُ

٦١ الشمس وقد مسخت

أقـولُ وقـد طـالَ لـيـلُ الـهُـمـومِ ... وقـاسـيـتُ حُـزنَ فـؤادٍ سـقـيـمِ

هـلِ الـشـمـسُ قـد مُسختْ كـوكـبـاً ... وقـد طَـلَـعـتْ فـي عِـدادِ الـنُّـجـومِ؟

٦٢ بات حبيبي معي

الـبَـرْقُ فـي مُـبْـتَـسَـمِـهْ ... والـخـمـرُ فـي مُـلْـتَـثَـمِـهْ

المبتسم: الابتسام، الملثم: التقبيل. ابتسامته ينبعث منها برق لبياض أسنانه

ووجـهُـه فـي شَـعْـرِهِ ... كَـقَـمَـرٍ فـي ظُـلَـمِـهْ

نَـامَ رقـيـبـي سَـكَـراً ... يَـحـرُسُـنـي فـي حُـلُـمِـهْ

الرقيب نائم، ويسخر منه قائلاً إنه يحرسني في أحلامه

وبـاتَ مَـن أهـوى مـعـي ... يُـذيـقُـنـي رِيـقَ فَـمِـهْ

٦٣ صرعى الخمارة

قَـتَـلَـتْـهُـمُ خَـمَّـارةٌ ... عَـمْـداً ولـم تُـؤخَـذْ بِـدَمْ

صاحبة الحانة قتلتهم بخمرها ولم تؤخذ (لم تعاقَب) بدم (بقتل)

وسَـقَـتْـهُـمُ مَـشْـمُـولـةً ... ظَـلَّـتْ تُـحَـدِّثُ عـن إرَمْ

مشمولة: خمر. وهي قديمة وتروي قصة إرم ذات العماد

لـمـا أرتْـهُـمْ كـأسَـهـا ... شَـرِبُـوا، ومـا قـالـوا بِـكَـمْ

٦٤ الداء القديم

يـا رُبَّ يـومٍ قـد مَـضَـى ... بـالـقـادِسِـيَّـةِ لـو يَـدومُ

فـي ظِـلِّ كَـرْمٍ لا يـطـو ... فُ بـه الـهـجـيـرُ ولا الـسَّـمُـومُ

وسـمـاؤه الـوَرَقُ الـجـديـ ... ـدُ، وأرضُـهُ الـوَرَقُ الـقـديـمُ

إذن فالوقت آخر الخريف

ويـحُـثُّـنـي بـالـكـأسِ سَـا قٍ لَـحْـظُ مـقـلـتِـه سـقـيـمُ
أُغْـرَى بـقُـبـلـتِـه كـمَـا يُـغْـرَى بِـمُـرْضِـعَـةٍ يـتـيـمُ
يـا مَـن يـلـومُ عـلـى الـهـوى، دعـنـي فـذَا دَاءٌ قـديـمُ

٦٥ المال والنسب

إذا كـنـتَ ذا ثَـروةٍ مِـن غِـنَـىً فـأنـتَ الـمُـسَـوَّدُ فـي الـعَـالَـمِ
وحـسْـبُـكَ مِـن نَـسَـبٍ صـورةٌ تُـخَـبِّـرُ أنَّـكَ مِـن آدمِ

تكفيك من النسب صورة وجهك التي تثبت أنك من نسل آدم

٦٦ سهري ونومهم

أَسْرَرْتُ حُزْناً بِها والقلبُ مضْطَرِبٌ وراحَ يُنْبي بِغيرِ الحقِّ إعلاني
وقد أَرِقْتُ لِبرقٍ طارَ طائرُه والنومُ قد خاطَ أجفاناً بأجفانِ

هو يأرق والنوم يخيط أجفان الناس فهم نائمون

٦٧ المجانين في نعيم

قالوا جُننتَ بلا شكٍّ، فقلتُ لهمْ: ما لذَّةُ العيشِ إلَّا للمجانينِ

٦٨ أخرستنا قبلة

ولمَّا التقيْنا بعد حينٍ مِنَ الحَيْنِ حَلفنا بأنَّا لا نعودُ إلى البَيْنِ

بعد فترة من الحيْن (الموت/ يقصد الفراق المميت) التقينا، وحلفنا لا نعودُ للبين (الفراق)

وقد أَخْرَسَتْنا قُبلةٌ عن حديثِنا إلى الصبحِ حتى غرَّدَ الديكُ صوْتين
وقلتُ تعاليْ يا شُرَيْرَةُ نمتزجْ كمثلِ امتزاجِ الماءِ والخمرِ نِصفينِ
وطُولُ عتابٍ في التلاقي يُريبُني ويُنْبي بعجزٍ، أو تَغَيُّرِ قلبيْنِ

٦٩ جلاء الهم

مَنْ عائِدي مِ الهمومِ والحَزَنِ وذِكْرِ ما قد مضى مِنَ الزَّمنِ
وشُرْبِ كأسٍ في مجلسٍ بَهِجٍ لم أرَ فيهِ همَّاً ولم يَرَني
مِنْ كفِّ ظبْيٍ مُقَرْطَقٍ غَنِجٍ يعشقُه مَنْ عليهِ يَعذِلُني

مقرطق: يلبس قُرْطُقاً أي بجامة. القرطق قميص كان يلبسه الصبية والبنات

٧٠ زيارة ليلية

صَحَوْتُ، ولكنْ بعدَ أيِّ فُتونِ   فلا تسأليني صَبْوَةً ودَعيني

صبوة: عودة للهو الصبا

ودَبَّ مشيبي بعضُه فوقَ بعضِه   وأخرجني مِنْ أَنْفُسٍ وعيونِ

وخَمَّارَةٍ، تَعْني المسيحَ بربِّها،   طَرقتُ، وضَوْءُ الصبحِ غيرُ مُبينِ

طرقت (أتيت ليلاً) بائعة خمر نصرانية ممن يتماهى عندهم الرب والمسيح

فجاءتْ بها في كأسِها ذهبيَّةً   لها حَدَقٌ لم تتَّصِلْ بجفونِ

للكأس عيون هي الفقاقيع، غير أنها عيون بلا جفون

٧١ إيقاع الزمان

إذا أحسستَ في خَطَّي فُتوراً   وحَظِّي والبلاغةِ والبيانِ

فلا تَرْتَبْ بِفَهْمي، إنَّ رقْصي   على مِقدارِ إيقاعِ الزَّمانِ

٧٢ راحة الموت

يا شاكيَ الدهرِ إنَّ الدهرَ ألوانُ   فيهِ لِصاحبِه بؤسٌ وأحزانُ

وفي المماتِ غِنَىً لِلمرءِ يسْتُرُه   وليس مستغْنياً ما عاشَ إنسانُ

٧٣ قهقهة الإبريق

وكأنَّ إبريقَ المُدامَةِ بينَنا   ظبيٌ على شَرَفٍ أنافَ مُدَلَّها . .

يشبه الإبريق بظبي يقف على شرف (تلة) وقد أناف (أشرف) مدلهاً (عاشقاً)

لما استَحَثَّتْه السُّقاةُ حنَى لها   فبكى على قدحِ النديمِ وقَهقها

لما استحثته (باشرته) السقاة حنى الإبريق رأسه فسالت منه الخمر فكأنه بكى، وصدر لجريان الخمر صوت فكأن الإبريق يقهقه. صورة مصنوعة.. لكن مصنوعة بإتقان

٧٤ يرثُ نفسه

ألا مَنْ لِقلبٍ في الهوى غيرِ مُنْتَهِ   وفي الغَيِّ مِطواعٍ، وفي الرُّشدِ مُكْرَهِ

أُشاورُه في توبةٍ فيقولُ: لا   فإن قلتُ: تأتي فِتنةً؟ قال: أَينَ هِي

ويا ساقِيَيَّ اليومَ عُودَا وثَنِّيا بإبريقِ راحٍ في الكؤوسِ مُقَهْقِهِ
أُوَرِّثُ نفسي مالَها قبلَ وارِثي وأُنفِقُهُ فيما تُحِبُّ وتشتهي

٧٥ حتى القبيحة

قال وقد عابَتْ جارية دميمة فسأله جليسه عن ذلك:

قلبيَ وَثَّابٌ إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيَأْباهُ
يَهيمُ بالحسنِ كما يَنبغي ويرحَمُ القبحَ فيهواهُ

كما ينبغي: كما هو معتاد

٧٦ لحية القاضي

ذا شَارِبٍ وظُفُرٍ طويلِ يُنغِّصُ الزَّادَ على الأَكيلِ
تَخالُ تحتَ إبْطِهِ إذا عَرِقْ لِحيَةَ قاضٍ قد نجا مِنَ الغرَقْ

عندما يصبح التشبيه صناعة!

٧٧ أرجوزة في التاريخ

لابن المعتز أرجوزة طويلة من المزدوج، مدح فيها الخليفة أبا العباس المعتضد وحكى ما يحدث في ذلك الزمن:

باسمِ الإلهِ المَلِكِ الرَّحمنِ ذي العِزِّ والقدرةِ والسلطانِ
هذا كتابُ سِيَرِ الإمامِ مهذَّباً؛ مِنْ جوهرِ الكلامِ
أعني أبا العباسِ خيرَ الخلقِ للمُلْكِ، قَوْلَ عالِمٍ بالحقِّ
قامَ بأمرِ المُلْكِ لمَّا ضاعا وكان نَهْباً في الوَرى مُشاعا
مُذَلَّلاً ليستْ لهُ مَهابَةْ يَخافُ إن طَنَّتْ به ذبابَةْ
وكلَّ يومٍ مَلِكٌ مقتولُ أو خائفٌ مُرَوَّعٌ ذليلُ
وكلَّ يومٍ شَغَبٌ وغَضْبُ وأَنْفُسٌ مقتولةٌ وحربُ
ويَطلبونَ كلَّ يومٍ رِزْقا يَرَوْنَهُ دَيْناً لهمْ وحَقَّا
كذاكَ حتى أفقَرُوا الخِلافَةْ وعوَّدوها الرُّعْبَ والمخافَةْ

وكان الجند الأتراك طلبوا من والد شاعرنا، الخليفة المعتز، المال، فلم يعطهم فقتلوه. وتكرر ذلك قبل المعتز وبعده

فهرس القوافي

(القافية، فرقم القطعة)

أبو الطيب المتنبي
(٣٠٣هـ - ٣٥٤هـ)

انقضت ألف وإحدى وخمسون سنة شمسية على مقتل المتنبي، وما زال مالئها وشاغلهم. وقد صقلت شعرَه محاريبُ الأدب ومنابر الدرس فصار قرآن الشعر. ينشأ الفتى العربي وهو يحفظ منه عشرات الأبيات، ومئات أنصاف الأبيات، ويتَّكئ عليه كتاب المقالات لإقامة حججهم أو لتزيين كلامهم؛ ويغترف منه كل العرب، واعين أو غافلين، مواقفَ يقفونها من الأشياء. فهو ما زال مؤثراً في النفسية العربية.

هذه النفسية العربية التي تنتقل بسهولة ما بين التذمر والمكابرة، بين الشكوى والاعتزاز، بين التسليم برداءة الدنيا والتصميم على خلق الظروف، تجد تعبيراً قوياً عنها في أبيات المتنبي.

ولكن المتداوَل المفهوم من شعره قليل. ولغته صعبة، وكانت صعبة حتى في زمانه. كان يلتوي في تعبيره متعمداً، يباهي النحاة وأهل اللغة، ويتفاصح على الشعراء في بَلاطات أمراء طبرية وحلب والفسطاط وبغداد وشيراز.

انتقيت لك من شعر المتنبي ١٤٣٣ بيتاً هي العصارة. وتمثل ربع ديوانه. ثم شرحتها شرحاً وافياً، فما غادرت كلمة مهجورة أو عبارة ملتوية أو فكرة غامضة إلا فسَّرتها تفسيراً. وجعلت شرح كل بيت تحته، على طريقة القدماء. وجعلت الشرح بخط دقيق حتى ينماز عن الأبيات؛ فمن استقام له المعنى واستغنى عن الشرح هان عليه أن يقفز بعينيه إلى البيت الذي يليه.

اسمع كيف يقسِّم ابن الأثير في المثل السائر شعر المتنبي: «وجدتُهُ أقساماً خمسة: خُمسٌ في الغاية التي انفرد بها دون غيره، وخُمس من جيِّد الشعر الذي يساويه فيه غيرُه، وخُمس من متوسِّط الشعر، وخُمس دونَ ذلك، وخُمس في

الغايةِ المتقهقِرة التي لا يُعبأ بها، وعدمُها خيرٌ من وجودها، ولو لم يقُلْها أبو الطيب لوقاه الله شرَّها.» اهـ كلام ابن الأثير.

الشكوى المرة من الحاسدين، وامتهان إلقاء اللوم على الآخرين حاضران في شعر المتنبي حضورهما على ألسنة العرب اليوم. لكن المتنبي لم يخلد بهذا وحسب.

اجتمع العرب عليه كما لم يجتمعوا على شاعر. وظلت شهرته تزيد.

سأحاول في هذه المقدمة استكشاف أسباب خلوده. وبعد ذلك سأكتب ملخصاً لحياته.

وكتابة سيرة للمتنبي أهون من تجفيف الغسيل في جهنم. فهي وقائع محددة متفق عليها، ونكاد نعرف بدقة نسبة الأسطورة ونسبة الحق في كل عنصر من عناصر هذه الوقائع. لكنني سأظل أرجئها مثلما يرجئ التلميذ المذاكرة لامتحانه.

لا أستغرب أن العرب يعدونه أعظم شاعر. هو يشبهنا جداً. الزعامة طموح حياته، ولا يرضى أن يكون أي شيء سوى زعيم.

كان دونكيشوتاً؛ ولم يضحك منه العرب، بل أحبوه.

كل شعره عنتريات، وكل أخلاقياته تقوم على حماية الشرف بحد السيف. وما الشرف عنده؟ هو الأنا، ليس الأنا القبليَّة القديمة التي نعرفها جيداً، ولكن «أنا» جديدة علينا وعلى الشعر العربي، أنا الفرد. والفرد بمعنى من المعاني المعاصرة أيضاً. الفرد الوجودي الذي يتشهّى الانفصال عن جسم مجتمعه مثلما تجاهد دفقة اللهب كي تتخلص من أسر الشمس وتنطلق في الفضاء وحدها، لكنها تحمل في داخلها كل عناصر الأمّ، وتذهب وتفنى وتبرد في الفضاء، لكن بعد أن تشع إشعاعاً يدْفئ كرتنا الأرضية.

لهذا جعل المعاصرون ديوان المتنبي قرآن الشعر القديم؛ لأنهم رأوه مشبهاً ما قرأوه في الأدب الأوروبي (كافكا، دستوييفسكي، كامو، سارتر). وعلى هذا، فجزء من إعجاب المعاصرين بالمتنبي إنما هو اشتياق للصيغة التي وضعها الأديب الأوروبي لعلاقة الفرد المميز بمجتمعه.

عقيدة المتنبي الغزو. فحتى في ذلك الجزء الكبير من ديوانه، الذي وصف فيه حروب العرب والروم، لا نجد سوى إشارات ضئيلة إلى الدين. حتى تلك

الحروب كانت عنده غزواً. ليست عنده مواقف فروسية، بل هناك تنكيل، واحتقار للعدو، وتمجيد للسيوف التي تطيح بالجماجم، وهناك أنشودة ملحمية نادرة المثال في الضرب والقتل.. ليس فقط على جماجم الروم، فجماجم الأعراب نالت نصيبها من قوافي سيد القوافي.

يقول مظفر النواب: «لأمر يهاجر هذا الذي اسمه المتنبي، وتعشقه بالعذاب النساء». ولا نعرف أن امرأة عشقت المتنبي، ولا تخبرنا سيرته أنه عشق امرأة، ودع عنك ما كان يصدِّر به قصائده من غزل قد يأتي سمجاً. أما الهجرة فنعم. أرى مَشابه بين حياة المتنبي وحياة أولئك الرجال الشُّعث الذين انضموا إلى الجماعات المتشددة في الدين ورحلوا إلى أفغانستان فالبوسنة رحلة المثالي الذي استطاع أن يُغَلِّب الفكرة الحافرة نفسها في ذهنه كالدودة على مقتضيات المعيشة. هاجسهم فكرة، وهجرتهم ضياع، وخطتهم.. الفوضى. وكأن وضوح الفكرة الواحدة في ذهنهم ـ بغض النظر عن قيمتها ـ ناب مناب واقعيتها وقابليتها للتطبُّق.

المتنبي رجل يتكبر على الملوك ثم يمدحهم للمال، ثم يهجو، ثم يرحل.

رجل قلق.

كانت له طريقته في اعتداده بنفسه، وفي تيهه. كأنَّ العبقري لا بد أن يكون متغطرساً! كرهوه في كل محل، وكادوا له عند ذوي الأمر، وتوجَّعَ من المكائد. كان يريد أن يسحق الجميع تحت قدمه. لم يكتف بأن يكون أكبر وأهم شاعر في بلاط سيف الدولة، بل ظل يردد نغمة أن زملاءه، مداحي السلطان الآخرين، يسرقون معانيه. كان نكِداً، بارعاً في استقطاب العداوات. في كل محطة يجمع على نفسه الأعداء مثلما يجمع العسل الذباب؛ ولم يكن عسلاً ولا كانوا ذباباً. وكان إذا أحس أن الحصار النفسي بلغ مداه رحل. ثم يقول لك في شعره إنه يرحل إعزازاً لنفسه وصوناً لكرامته. ولا يقر أبداً بأنه كان كما يقولون «فاشلاً اجتماعياً». لكن، منذ متى كان شرطاً على الفنان أن يكون ناجحاً اجتماعياً؟

أحببناه لأنه آمن بشريعة الغاب؛ ونحن العرب فينا جينات تدفعنا دفعاً إلى الإيمان بشريعة الغاب. ولعل هذا سيكون سبب بقائنا أو فنائنا. لست متأكداً.

على أنني أحب المتنبي. ولا أرى شعراً أقوى من شعره.

فإذا أردت أن تحل هذه المعادلة الصعبة (بين هجوي المتقدم له، وبين إعجابي بشعره) فواصل القراءة لعلك أن تهتدي، ولعلني.

معجزته البارزة الإيجاز: يعطيك النتيجة النهائية في كُليمات، ويوفر عليك المقدمات. يفكر في المعنى كثيراً ويخرجه كالرصاصة. وأنت تتلذذ بالمفاجأة، وتفكر في البيت أو في نصف البيت، وتقول: ما أصدق ذلك!

أليس قد سألوه: كيف تنبَّأت؟ فأجاب: تنبأت على الشعراء. فقيل بماذا؟ فقال: بقولي: ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد.

هذا بيت يلخص تجربة في الحياة كبيرة، وكتبناه كما يكتب النثر لأننا نكره الاستشهاد بالشعر ونحن نتكلم على الشعراء. فمن أراد أن يقرأ الشعر فالصفحات المقبلة عامرة بأجمل وأقوى وأعظم ما قال أبو الطيب المتنبي. ولا تذهب إليها الآن، فثمة أفكار في هذه المقدمة لم تأتني إلا بعد كد، وأريدك أن تسمعها.

اشدد يدك على كلمة الإيجاز، ففيها سر من أسرار أبي الطيب. وقف معي ننظر فيما كُتِب عنه.

كلمة عن الكتب والشروح

فأما الكتب القديمة فلها شرف القدم، وما وصلنا منها طيب. لم ينل شاعر آخر مثل هذا الاهتمام. لن تقف كثيراً بعبارات صاحب «اليتيمة» المليئة بالمجاملات، وما كان أخلقه ـ وهو المعاصر لشاعرنا ـ أن يقول لنا أشياء ثمينة عنه كانت معروفة في ذلك الزمن ثم طوتها القرون. لن أترك الثعالبي قبل أن أنقل لك عبارة له في وصف المتنبي: «يدور حب الولاية في رأسه، ويُظهِرُ ما يضمر من كامن وسواسه في الخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف».

حقاً كان المتنبي «يظهر ما يضمر»، كان صدقه في التعبير عن عواطفه يغلب حكمته.

(الوساطة) كتاب طيب، وكاتبه قاضٍ أبى في كتابه أن يقضي. كان ككاتب المحضر: عرض لنا أقوال الادعاء والدفاع، وتهرب من الحكم.

و(الموضحة) كاسمها تصل العظم. ولن يعرف أحد إن كان ما قصَّه

الحاتمي عن لقائه بالمتنبي صحيحاً، فهو على مدى صفحات كثيرة يقول: قال لي المتنبي، وقلت له. على أن الرجل يعرف الشعر العربي معرفة نادرة. وكتابه مرجع في السرقات الشعرية. ومثله في الضغينة وفي قوة المعرفة بالشعر العربي ابن وكيع، ومثلهما العميدي. وألاحظ هنا أن الاختلاف على المتنبي، وما حرَّكته شخصيته القلقة وكِبْره من عداوات صيَّر موضوع السرقات الشعرية في النقد العربي القديم عِلماً قائماً برأسه؛ فقد تكالب أدباء مصر وبغداد والريّ، في حياة المتنبي وبُعيد موته، على التأليف في سرقاته. وعادوا إلى ما كتبه الأقدمون ففصلوا أنواع السرقات، وأبانوا مستحسنها ومستقبحها، وضربوا لكل نوع أمثلة من شعر المتنبي ومن شعر غيره، وصنعوا سلسلة نسب لكل معنى. وأخذوا يدققون في المعاني ويحصونها، ويجمعون كل طائفة منها في ناحية.

ورسالة الصاحب «الكشف عن مساوئ المتنبي» لها لذع السُّخر، وفيها حلاوة التهكم، وروح العداء الصارخة. وفيها نظرات نقدية صائبة موجزة كقوله، يبكِّت المتنبي على البيت (إني على شغفي بما في خُمْرها/ لأعِفُّ عما في سراويلاتها)، «كثير من العهر أحسن من عفاف هذا الشاعر». وكوصفه المتنبي بـ (المتكلف المتعسف الذي لا يقف حيث يعرف)، وذلك تقريعاً للمتنبي على إيراده الألفاظ البدوية التي قد لا تكون معانيها متمكنة من نفسه بما يسوغ استخدامها؛ يقول الصاحب: «ومِن أَطَمِّ ما يتعاطاه التفاصُحُ بالألفاظ النافرة، والكلمات الشاذة، حتى كأنه وليدُ خِباء وغَذِيُّ لبن، ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر.» وعن بيت البوقات والطبول يقول الصاحب: «هذا التحاذق كغزل العجائز قُبحاً، ودلال الشيوخ سماجة.» وعن ضمائر متشابكة وردت في بيت للمتنبي يقول الصاحب: «لو وقع قوله هذا في عبارات الجنيد أو الشبلي لتنازعته الصوفية دهراً طويلاً.» والمتنبي عند الصاحب على الإجمال: «يأتي بالفقرة الغَرَّاء مشفوعةً بالكلمة العوراء.» وتعليقاً على بيت رثاء يقول: «وأظن المصيبة في الراثي أعظم منها في المرثي».

وإنما أوردنا كلام الصاحب تلذذاً باستعادته. وأهم من بلاغة الصاحب روحه الموتور.

ويُشْبهه صاحب المثل السائر في حرارته، وإن يكن ابن الأثير محباً للمتنبي، قادراً ـ لعدم العداوة ـ على أن يستمتع بشعره. وكنا نتمنى لو أنه كتب عن المتنبي أكثر. وصاحب العمدة ترك للناس كلمته المشهورة «ملأ الدنيا

وشغل الناس»، ومضى حميداً. والشيخ يوسف البديعي مؤلف متأخر، وهو أقرب إلى عصرنا منه إلى عصر المتنبي. ولكن كتابه «الصبح» سيظل خير كتاب قديم عن المتنبي رغم أنه ـ أو لأنه ـ محشو بالنقول. وفي «شرح المشكل» صنع ابن سيده ما يجدر بصاحب لغة أن يصنع. وكما تتوقع فهو قد استفرغ جهده في الأبيات العصيَّة التي ليس فيها رواء. وكذا الأصفهاني في كتابه عن أبيات المتنبي المشكِلة.

وأما الشروح الأربعون لديوان المتنبي، فاستعنتُ بستة منها مشهورة مطبوعة.

أبو العلاء المعرِّي، المولود بعد وفاة المتنبي بتسع سنين، صنع شرحاً مدهشاً عُمْقَ فهم وإفراطاً حميداً في إيراد الأوجه المختلفة. ومما يؤكد نسبة هذا الشرح، المطبوع في أربعة مجلدات، إلى زاهد المعرة أن له فيه طريقة وروحاً يشبهان ما تراه في رسائله وكتبه. فهو متحرِّز لا يقطع بشيء؛ يورد لك الأوجه المختلفة والأقوال المتضاربة، وقلما يغلِّب وجهاً على وجه؛ شِنشِنَة نعرفها من صاحب الغفران. لكن أبا العلاء محبٌّ للمتنبي، مقدِّم له على الأولين والآخِرين، والمعري عرف العربية كما لم يعرفها أحد. ولسعة علمه شرح بعمق، ولأنه أديب وصاحب قلم جميل كان يلتقط روح البيت ويلخصه بعد أن يشرحه، وسمَّى شرحَه «معجز أحمد» فظَرُف وأَمْتَع. ويبدو أن مخطوطات شرح المعري كانت بأيدي الناس قبل طبعه، فقد قال لنا شكيب أرسلان إنه امتلك النصف الثاني من نسخة، ورأينا اليازجيَّيْن ينقلان كثيراً عن أبي العلاء في شرحهما «العرف الطيب».

وقد درى الواحدي بشرح أبي العلاء، وقالها، ولا أتذكر إن كنت ضبطته ناقلاً عنه. على أن شرح الواحدي من الشروح الثمينة التي اتخذت اتجاهاً أدبياً واهتمت بالمعنى؛ والواحدي ضيق العطن، ملول؛ يرى الضمائر تشابكت في البيت فيكسل عن إحالة كل ضمير على صاحبه؛ وتراه في الحين بعد الحين يلخص المعنى برِماً بما في البيت من تعقيد؛ ولم أستعمل طبعته الأوروبية إلا قليلاً في زمن غابر، فلا تعليق لي عليها، وأما الطبعة اللبنانية فكثيرة الغلط، على أنها هي التي رافقتني وأنا أشرح ما اخترته.

وشرح العكبري ثمين، وفيه نحو كثير على طريقة الكوفيين.

وشرح البرقوقي رائق، وموجه لقارئ مهتم بالمعنى. وقد كتب البرقوقي

لشرحه مقدمة تُقرأ لجمالها وحلاوتها فضلاً عن جودتها. وقد صحبت مجلدي شرح البرقوقي في أول رحلاتي إلى صحراء الخليج، وكنت في العشرين من العمر، ولهذا الكتاب في قلبي موقع.

اليازَجِيّان برعا في الاندساس في تلافيف البيت، وفي ربط البيت بأخيه، حتى لو كان قبله بعدة أبيات. ولشرحهما ذيل فيه حديث طيب جداً عن أدب المتنبي ومنزلته.

وقد ظفرت ـ بعد فراغي من شرح ما اخترته من أبيات المتنبي ـ بشرح ابن جني المسمى «الفسر» في طبعة دمشقية تقع في بضعة آلاف من الصفحات يسَّرها لي مشكوراً أخي الأديب الشنقيطي محمد المختار، وهي صادرة عام ٢٠٠٤. وعرفت منها الكثير عن ابن جني، لكنها لم تزدني معرفة بالمتنبي. ربما لأن المؤلفين القدامى لم يغادروا موضعاً في شرح ابن جني فيه كلام عن لسان المتنبي إلا نقلوه ثم نقدوه. وقد أحسن محققها رضا رجب في ضبطها، وفي ضبط كتاب القشر على الفسر للزوزني الناقد لشرح ابن جني المطبوع في السنة نفسها.

أما الكتب التجارية التي صدرت وفيها شعر المتنبي كله أو بعضه فلم تضف شيئاً سوى مقادير من الأغلاط.

ما أشد سروري في هذا الزمن عندما أرى كتاباً مسروقاً بطريقة التصوير، ومطبوعاً بالأوفست. أو عندما أعثر به في الإنترنت على هيئة صورة طبق الأصل (بي دي إف). لا أعبأ بما في أحرفه من تنقير، وما في أسطره من اعوجاج. يكفي أنك تقرأ كلاماً صححه ناس كبار من جلة العلماء من أمثال عبد السلام هارون ومحمود شاكر. أما الصرعة الصارعة التي خرج بها علينا الناشرون، في زمن الكمبيوتر واليد الطابعة الرخيصة، فهي أن واحدهم يأتي بالفتيات اللائي يهطل وابل أصابعهن فوق لوحة المفاتيح، ويضع أمامهن الكتب القديمة لإعادة صف أحرفها؛ ولا ألوم أولئك الفتيات على كثرة الأغلاط، وإن كنت أرحمهن مما في النصوص القديمة من فحش. ثم يتخذ الناشر من أحد صبية الجامعات، ممن يحملون شهادة الدكتوراة في الأدب العربي، أجيراً يصحح الملازم. وجدير بمن خان العلم وهو يشتري شهادته أن يخونه أجيراً في مطبعة.

ولا أقول شيئاً عن تحقيق المحققين لشروح ديوان المتنبي، ولكل مجتهد

نصيب. غير أنني رأيت السقا وشلبي والأبياري أحسنوا للعكبري.

والكتب العربية المعاصرة التي درست المتنبي هي كتب شاكر وعزام وطه. وثلاثتها ثمينة، وكلها صدر في بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧، في غمرة الاحتفال بمرور ألف عام قمري على وفاة الرجل. وقد لاحى شاكرٌ طه أربعين سنة بعد صدور كتابيهما، ولكنهما جميعاً أسرفا في حراثة سبخة. وأنفقا جهداً كنت أحب لو كانا استثمراه فيما هو خير مما فعلا. فشاكر تعجبه نفسه كثيراً ـ ولا ألوم شاباً في الخامسة والعشرين يكتب بقلم جميل، وبفهم عميق للشعر العربي ـ أقول تعجبه نفسه إذ يفجِّر قنبلةَ صوت عندما يخبرنا أن أبا الطيب كان علوياً من الأشراف. فهل أراك قارئي العزيزي ستقوم عن مقعدك لو عرفت مثلاً أن السياب كان علوياً أو سنياً أو مسيحياً؟ أقول لك الحق: قد والله قرأت السياب، واهتممت به، ولست للآن أعرف دينه أو مذهبه؛ وها أنا أنتظر مذهَبَوِياً من حمقى الإنترنت ليخبرني بمذهب الرجل، فهؤلاء المذهبويون المرضى لا شغل لهم إلا تلك القشور، ومنهم ننتظر كل معلومة سامة.

راح طه يلوك النظريات عن القرامطة على نحو مرهق للأعصاب. وزاد عليها كلامه الطويل عن إجازته الصيفية فأمَلَّ وكاد يَصرِف، لولا ما حباه به الأزهر من عربية متينة، وما أملاه عليه الإملاء من التذاذ جرس الكلام. على أن لكتاب طه خصلة أخرى، فالاستطاعة بغيره جعلته يأخذ الشعر بأذنه فيَلَذُّه، ويعرفه في صورته الأصلية مسموعاً. وما أشد ما شاهت تلك الحالة الأصلية للشعر بما نفعله الآن من تلقي الشعر بالعين، فقد تعودنا إهمال صوت الكلمات. طه حسين يذوق الشعر، وهو بين الفينة والفينة في كتابه يحدثنا بكلام حلو ـ من مثل كلامه في حديث الأربعاء ـ عن شعر الرجل. وإذا شئت أن تضحك كثيراً، وأن تشمت بطه حسين، فاقرأ نقد مارون عبود (في كتابه «الرؤوس») لكتاب طه ولن تندم، ستقضي سويعة حلوة.

ولا أدع كتاب طه حسين قبل أن أستدرك بأن الرجل نابغة، وبأن في كتابه علماً وفناً وذوقاً. فلئن كنت أحب الفُرجة على مبارزات كبار أدبائنا ـ ومارون عبود من رؤوسهم ـ وأحب ما فيها من ضغينة وملاسنات لا يندر أن تهبط إلى ما دون السفح، فإنني حريص على ألا تنسيني تلك الفرجة قيمة كل واحد منهم.

وكتاب عزام ليس عندي الآن، ولكنني قرأته قبل خمس وعشرين سنة، في

طبعة مطبعة الجزيرة ببغداد، وأعجبت بما فيه من سهولة وسلاسة وقلة ادعاء، فنقلت منه نتفاً في أوراق حرصت على تجليدها في دفتر، وبقيت معي إلى يوم الناس هذا. ورغم أنني الآن فرغت من شرحي هذا لمختاراتي ـ فأنا أكتب المقدمة بعد الانتهاء من كل شيء سيأتيك بعدها ـ أقول رغم فراغي من الشرح و«اضطراري» بسببه إلى قراءة كل ما تيسر عن المتنبي، فما زالت تلك الأوراق التي نقلتها من كتاب عزام هادياً لي في معلوماتها. وإذا شئت أن تقضي سويعة ضاحكة أخرى فانظر في هجوم شاكر على عزام، في الطبعة المضخمة التي أصدرها لكتابه عن المتنبي.

وثمة كتاب رابع حديث عن المتنبي لأحمد علي محمد اسمه (المحور التجاوزي في شعر المتنبي)، وللاسم ذيل هو (دراسة في النقد التطبيقي). ولغة الكتاب كلغة عنوانه مسرفة في اصطناع المصطلح الأكاديمي الحديث. لكن المؤلف تذوق شعر المتنبي وأحبه، وأسرف في مدحه على طريقة شاكر في كتابه عن قصيدة (إن بالشعب الذي دون سلع)، وهي طريقة تخلو من السماحة، وتقدس النص تقديساً يوحش النفوس.

على أن المؤلف فسر لنا في قطعة صالحة من كتابه خلود شعر المتنبي في قلوب العرب، وسلط ضوءاً قوياً على نزوع المتنبي الدائم إلى الخروج عن المألوف في اللغة والتعبير. ويبدو أن الكتاب رسالة أكاديمية، فهو مقسم بالسكين. على أنني فرحت به بعد سبعين سنة كانت الدراسات المتنبئية فيها مضغة في أفواه الأكاديميين السطحيين ـ وأستثني من استثنى نفسه فصنع بحثاً عميقاً، ولا أزعم أن قد أحطت بكل ما كُتب، أو اطلعت على كل جهد أمين ـ، وراح كل ولد امتلك أبوه قرشين وأرسله بهما ليُحْضِر له شهادة ماجستير يكتب عن المتنبي غثاء أحوى. وكان أجدر بأولئك الفتية، وأجدى على آبائهم، لو جلسوا في دكاكينهم يبيعون ويشترون ويرتزقون بالحلال. وكهؤلاء السراق الذين يعششون في الجامعات في زمننا، أولئك الأدباء الذين دبجوا مقالات بالمئات عن المتنبي تفيض إعجاباً وتمتلئ بصرخات الاستحسان. فأما من كان من كتاب المقالات راسخ القدم، فأعطى فكرة جديدة ـ كمارون عبود والمقدسي والعقاد والمازني ـ فقد أفاد بما سمح به وقته. ولسنا نطالب أحداً بأن يعشق المتنبي. وأما أولئك الذواقون الذين أحبوا أبياتاً للمتنبي وكتبوا عنها بإعجاب فحسابهم حساب فتية منتديات الإنترنت الذين ينقلون ما يعجبهم من أشعار ويتبادلونها. هواية جميلة، ولا تخلو من فائدة.

وقد آذاني وأنا في معرض مطالعتي ما يتعلق بالمتنبي ظاهرة النقل والنقول. فنحن العرب منذ أن مات الجاحظ قبل ألف ومئتي سنة احترفنا النقل؛ وترى الناقل يذكر المصدر مرة ويغفله مرات. وفي الذكر إثم لا يقل عن إثم الإغفال، فهو يذكر المصدر مرة ليوهمك أنه في المرات التي لا يذكره فيها يكون أبا عذر الفكرة ومبدعها. أرى العرب بعامة قليلي الابتكار، مذهولين عن التفكير، خائفين من قول شيء لم يقله أحد قبلهم، خائفين من الفكرة الجديدة، يطلبون فتوى في كل أمر. وهذا جاءهم من قلة العلم، ومن سطوة القمع السياسي. وقد ساق الله غوغل عقوبة للسارقين.

أصلح الله حالنا. أقولها وما أملي في أن يأتي هذا الصلاح في عمري سوى أمل إبليس في الجنة.

وساق الله في المئتي سنة الماضية جماعة من المستشرقين فتحوا لنا النوافذ، واخذنا نقترب من ضوء الشمس وأيدينا على أعيننا، نرفض أن نحلل ونفهم، ونريد أن نظل نائمين في العسل. ونشط في العالم العربي والإسلامي أشخاص احترفوا المزاوجة بين تحليل المستشرقين الهادئ، وبين المسلمات الثقافية والدينية. وأصاب دراسة المتنبي من ذلك ما أصاب كل مناحي الحياة الثقافية القديمة.

درس المتنبي بلاشير وماسينيون، فروى لنا الأول قصة حياته وتحدث عن عصره فأثر كثيراً في الدارسين العرب، وحق له، وسأرجع إليه. وكتب الثاني قصة بوليسية عن عصر إسماعيلي. ولا ندري! لعلنا لو درسنا تاريخنا دراسة حقة نخرج بنتائج قريبة.

نحن في الوقت الحاضر تركنا المستشرقين بعد أن شتمناهم الشتمة الأخيرة، وخَلَدنا إلى انتقاء البقع المضيئة من تاريخنا بعناية وتوسيعها والإضافة إليها بالحق وبالباطل، وقررنا أن خير أمة أُخرجت للناس أَخرجت للبشرية تاريخاً نظيفاً هو بأساطير الأولين أشبه منه بتاريخ الأمم.

ولي على المستشرقين والعرب جميعاً مأخذ في إعادة كتابة تاريخنا. فهم يقرأون حوليات ابن الأثير في الكامل فيرون الرجل يحشر كل البلايا والمصائب في صفحاته ولا يورد غيرها، فيقعون أسرى انطباع مشوه بأن العصر كان مضطرباً أكثر مما على الحقيقة كان. فابن الأثير والطبري وكل أصحاب الحوليات هم كالقناة الإخبارية: تشاهدها أياماً فتحسب أن القيامة أوشكت. وتنصرف عنها أياماً فتحسب أن العالم نائم في سلام.

هو قلق وضعيف. ونحن نحب شكواه المتصلة من الدنيا. وهو قليل اليقين بالآخرة؛ ونحن كلنا نحاول جهدنا أن نؤمن بالآخرة، ونلوم أنفسنا على عدم الوصول إلى اليقين، فإذا رأينا من يشبهنا فرَّجَ ذلك عنا.

والمتنبي اختزن في عقله موسيقى الشعر العربي، وظل يدرسها درساً في أشعار الصائغين الذين سبقوه: أبي تمام والبحتري وابن الرومي. ظل يتفقد شعرهم بالدرس وظل يباريهم، سارقاً في طريقه كثيراً من معانيهم، متجاوزاً اعوجاج طريقتهم في الوصول إلى تلك المعاني، وملتمساً الطريق الأقصر. الأمر لا يقتصر على صوغ المعنى بكلمات أقل. المتنبي يجتهد كي يقول الشيء بعبارة أحلى وأقوى.

وهنا أشبهه بالملحن الذي يسهر الليالي وهو يبحث عن الجمل الموسيقية ـ الخواطر كما كان محمد عبد الوهاب يسميها ـ ثم يضعها جانباً بعد أن تتمكن من نفسه، وتتشربها أعصابه. فإذا قعد بعد أسابيع أو أشهر كي يلحن أغنية بدأت الجمل الموسيقية التي اختزنها تأخذ مواقعها داخل إطار اللحن. هكذا كان عبد الوهاب يشتغل. كان يشتغل بطريقة تشبه كثيراً طريقة المتنبي في الشعر.

كان المتنبي يدرس أشعار القدماء. ليس فقط مَن ذكرنا. بل لقد نُقل عنه أنه قال: «لا يغرب عليَّ بيت شعر قديم»، أو كما قال. ولو لم نصدق ما نقل عنه، فلنصدق مناظرته مع الحاتمي، وما تشي به من سعة اطلاعه. أو لنصدق القصص الكثيرة التي رويت عن قوة ذاكرته، وعن حفظه، وعن شرائه الكتب، وعن مطالعته الكتب في جوف الليل على شمعته.

ومن أسباب عظمة شعره التكريس. فهو لم يهتم بشيء من العلوم والفنون إلى جانب الشعر؛ وإن كان قارئاً، وإن كان مثقفاً. كان أبو الطيب من عبيد الشعر.

كانت قريحته طيبة، وكان صاحب ارتجال. ولكن كل شعره العظيم وليد الليالي الطوال. ولا أشك في أن كل قصيدة من خوالده كلفته شمعات كثيرات.

ومن أسباب قوة شعره أنه كان «كالملك الجبار» ـ والعبارة لناقد قديم ـ يهجم على المعنى ويسوقه أمامه سوقاً غير عابئ باللغة: لا بالنحو ولا بالصرف

ولا حتى بدقة المعاني الفرعية. كان يتجاوز الصواب في النحو والصرف. لكنه كان يغلط عن وعي كما أخبرنا ابن جني. وهذا أمر عرفه النقاد المحبون وقرروه. وقد يأخذ أضعف الأوجه، وقد يركب أخشن مركب في استعمال اللغة. كل ذلك وهو يوجه الجهد نحو إخراج معنى قوي في صيغة لغوية قوية. والنتيجة: صيغة غير معهودة في العربية، ولكنها تصبح جزءاً من اللغة لأن المتنبي استعملها، وقال فيها كلاماً بارعاً أصاب كبد المشاعر المشتركة بين أبناء هذه اللغة.

لكنه تعسف في استخدام الألفاظ، وتفاصح وتبدّى. وعندما سأله ابن جني عن شيء قال له أبو الطيب ما معناه: أوَتظن أنني أقول هذا الشعر لهؤلاء الملوك والأمراء، بل إنني أنظر فيما أقول إلى أولئك النحاة واللغويين. ولهم أقول ما أقول.

كانت نتيجة هذا التفاصح، والتحدي لأصحاب اللغة أن بضع مئات من أبيات المتنبي جاءت مرذولة مصطنعة لا روح فيها. وقد يسر هذا علينا الاختيار كثيراً.

المتنبي لص المعاني ليس كل المتنبي. ولو نظرت إليه من ثقب السرقات لما رأيت سوى جانب منه، وهذا ما صنعه جل منتقديه القدماء. هناك المتنبي الذاتي. وها قد دخلنا باباً جديداً يفضي إلى عظمته.

عاد المتنبي بالشعر العربي إلى عصر الذاتية الجاهلية. فالشاعر الجاهلي كان يقول الشعر متغنياً بنفسه وبقومه، حراً. وجاء المتنبي فكان جاهلي التفكير، أنانياً. ولم تكن له قبيلة يضطر إلى أن يدافع عنها. بل كان ما يحركه طمعه وحبه وغضبه وطموحه.

في عصر المتنبي استرخى عنان القصائد ولانت، وبدأت تسير كالقطيع المطيع في طريق ممهد. فالشعراء متعلمون، حضروا دروس الفقه والحديث، وشهدوا مناظرات النحاة والمتكلمين. أصبحوا مثقفين. وصار شعرهم مملوءاً بالمنطق. لم يعودوا مثل مجانين الجاهلية. وجاء المجنون الأكبر المتنبي فكان مثقفاً مثلهم، وأوسع وأعمق ثقافة منهم، لكنه كان مجنوناً في نفسيته، أقصد: كان متميزاً متفرداً غريباً.

أحسب أبا الطيب كان رجلاً قليل الكلام. هذا ما تنْبئ به مطارحاته

المبتسرة مع ابن جني ومع الحاتمي. وأحسبه كان يعاني جنون عظمة سريرياً؛ واقرأ ما اخترته لك من شعره ففيه البرهان. وأحسبه كان قليل الاحتفال بالنساء، ليس فقط لأنه قال ذلك كثيراً، ولأن معاصريه قالوا ذلك عنه، بل أيضاً لأننا نراه يفضل أن يستفرغ طاقته في الترحال وفي ملاحقة سراب آخر هو السلطة.

كان عطشان للمال وللسلطة. وظل إلى أن مات ـ عن خمسين سنة شمسية ـ طفلاً لا يرضى أن يلعب مع أقرانه إلا إذا كان زعيم اللعبة. وكان ذكياً. لقد سُرَّ بالشهرة الكبيرة، ولكنها زادته عطشاً. لم يستطع أن يترك السعي وراء السلطة، بمعنى التسلط والتحكم في أقدار الناس. كان قلقاً يريد الوصول بشخصه إلى التفوق في كل شيء.

محاولة لكتابة سيرته

ولد سنة ٣٠٣هـ.

نراه صبياً صغيراً في الكوفة، على حافة الصحراء، وهي بلدة عامرة ببقايا العلماء ومجالس العلم. أبوه سقاء، في أغلب الظن، يبيع الماء ويستأجر صبياناً يحملون الماء للبيوت ـ وهذا محض افتراض وافتراء من عندي ـ فهو من شريحة متدنية من الطبقة الوسطى؛ فلست أصدق أن الطبقة المدقعة تستطيع إنتاج شاعر أو أي فرد متميز. ولعله فعلاً كان من أسرة علوية محترمة النسب، فجدَّته تقرأ وتفك الحرف. وهي ترعاه وترسله إلى الكتاب. وفي الكتاب ينبغ صغيراً، ويلتقط سريعاً جرثومة الشعر. ويقرأ كثيراً ويرتاد دكاكين الوراقين.

ويضطرب الوضع السياسي كثيراً على الصعيد المحلي، فالفئات الخارجة على السلطان ـ من القرامطة ـ تغير على البلد مرة بعد مرة، والخلافة مفككة والدولة الإسلامية في هذه الفترة من العصر العباسي فيها فلتان أمني وسياسي.

وأريدك ألا تندهش من كلمة «قرامطة» اندهاش ماسينيون وبلاشير وطه حسين. ونحن قد شهدنا في جيلنا الشيوعيين والبعثيين والناصريين والفتحويين والإخوان المسلمين وعاشرناهم، فوجدنا العقيدة أقل الأوجه أهمية في نفسيات أهل تلك الشيع. ترى الشيوعي يحتفظ في مكتبته بالبيان الشيوعي لكارل ماركس، ولكنه يعيش حياته ويمارس تجارته ويتخذ الحزب الشيوعي عائلة أخرى له، أو قل جمعية يمارس فيها طموحه السلطوي، فإذا أمسك الشيوعيون

بالحكم تحسن وضع تجارته إن كان تاجراً، وضمن لولده وظيفة في الحكومة. وإذا ظلوا خارج السلطة فهو رجل معارض يدخل السجن مرة أو مرات ثم يعود لمواصلة حياته، ويتزوج من ابنة رفيق له، ويستفيد من العلاقات داخل هذه المنظومة الاجتماعية التي اسمها الحزب الشيوعي. وليعذرنا الشيوعيون على اتخاذهم مثلاً. ولك أن تضع مكانهم أياً من أهل الأحزاب التي ذكرناها آنفاً. هذه العقائد تفقد داخل أحزابها كل مضمونها الأيديولوجي ويبقى لها الجانب الاجتماعي ـ الاقتصادي. ومثل حزبيي جيلنا كان القرامطة. وكانوا قطاع طرق من بدو الصحراء، يغيرون على المدن التي على أطراف الصحراء للنهب، ويغلفون هذا الفعل الاقتصادي بغلاف عقائدي. وقد تنشأ علاقات بينهم وبين فقراء المدن المنكوبة بهم. ولعل أسرة المتنبي كانت فعلاً من الطبقة المتوسطة التي تنحدر بالتدريج ـ وهذا قدر الطبقة الوسطى: إما أن يكون الفرد فيها منحدراً ببطء نحو الفقر، أو صاعداً بسرعة نحو الثراء ـ، ولعل أبا المتنبي رحل به للصحراء مرافقاً القرامطة بعد غزوة من غزواتهم للكوفة.

يأخذ الأب ابنه إلى الصحراء وهو في سن الثالثة عشرة. ويعيش شظف العيش ويعرف شريعة الصحراء من كثب. ويتعلم الابن الكثير عن الصحراء: عن الخيل والإبل، وعن الطرق؛ ويتعلم الصبر على العطش، ويعرف الناقة والجمل معرفة ستنفعه في المستقبل عندما سيقطع سيناء هارباً من وجه كافور. ويقيم علاقات مع شبان وصبية قد يلتقي ببعضهم في رحلات كثيرة له بعد أن يبلغ.

يعود إلى الكوفة، ويعود إلى مدرسته. ويبدأ يقول شعراً. ويكبر، ويحس أكثر بمدى أهمية المال، وبمدى فداحة فقدانه. فأسرته لا تعيش في الجاهلية، بل في مجتمع حضري مادي يحترم الرجل على قاعدة معك قرش تساوي قرشاً.

المتنبي رأى الأرض تهتز من تحت قدميْ أبيه. رأى العائلة تنحدر. وشحَنه هذا بشِحنةِ قلق كبيرة. ولعل عدداً كبيراً من الأدباء القلقين يستمدون أسباب قلقهم من نشأتهم في أسرة تنحدر طبقياً.

كان واضحاً للمتنبي أن ذكاءه وقوة تحصيله الدراسي يعطيانه فرصة لما هو أفضل من وراثة صنعة أبيه أو وضعه الاجتماعي.

غادر العراق إلى الشام يافعاً. ولم يكن العراق عراقاً ولا الشام شاماً أيامئذ، بل كانت بادية الشام ـ العراق مساحة رمادية واسعة. وفي هذه البادية

وجد المتنبي مجالاً للمغامرة. فراح يغامر ويلعب مع البدو، واستغل سذاجتهم، وهو ابن الكوفة العارف بدهاء الحضر، وابن الصحراء المتمرس بها وهو صبي. ولعله اتخذ سمت الرجل الداعية إلى مذهب جديد، أو لعله شكل فرقة غازية تقطع الطرق وتتخذ لنفسها توليفة من الأفكار الإسماعيلية لتكون بمثابة فرقة سياسية دينية. فالغزو يرضي البدو لأنه يعود عليهم بالمال، والأفكار الغريبة في الدين لا تهم البدو كثيراً، لأن الدين في حياتهم ـ كان وما زال ـ حاشية قليلة الأهمية.

وعندما ألقى أمير حمص القبض عليه وجده فتى في العشرين أو تحتها، فحبسه. وكان في حاشية الأمير بعض الفقهاء الذين يذوقون الشعر فقالوا له: هذا يقول في قصيدته إنه مثل عيسى ومثل صالح نبي ثمود؛ هذا يدعي النبوة. وبعض الفقهاء يحبون تكفير الناس ـ هواية أزلية فيما يبدو، أو طريقة للحفاظ على موقعهم وإثبات أن هناك شغلاً يشتغلونه ـ، فكفَّروا المتنبي. يظهر أنَّ صغر سنه شفع له بعض الشفاعة، على أن الأمير حبسه سنتين. وقال المتنبي في حبسه شعراً جميلاً، وأعلن توبةً غيرَ نصوح. ولكنني لم أجد من الدارسين من تعمق في درس أثر هاتين السنتين في نفس المتنبي.

ليس عندي من الخبرة في هذا المجال ما يُعينني على درس كهذا. ولكنني أظن أن سنتي الحبس هاتين علمتاه الاحتياط؛ لكنهما زادتا من اشتعال روحه بالثورة والغضب واحتقار من هم أقل منه ذكاء وتحصيلاً. صار الرجل ذاتياً على طريقة نيتشة، يحتقر الضعيف والأقل قدرة وذكاء. أصابته لوثة جنون العظمة، وآمن بأن الغاية تبرر الواسطة.

بعد السجن طاف بالأمراء الصغار يمدحهم ويتزلف إليهم ويستعطيهم. وبدأ شعره ببطء يلفت الأنظار. وكان بدر بن عمار الأميرَ الذي فجر قريحته. وعلى جانب بحيرة طبرية عاش أبو الطيب المتنبي في حاشية بدر بن عمار يقول الشعر ويرافق الأمير.

مر به قبل بدر ولاة وحكام وقضاة وتجار حاول الوصول إليهم، فنجح قليلاً ولم يصب مالاً يذكر. كان يقيس نفسه بنفوسهم وعقله بعقولهم فيرى نفسه أذكى، وأوفر علماً على صغر سنه، ويجد نفسه أفصح منهم لساناً، وأقوى عزيمة. فكان بركان غضبه لا يكاد ينطفئ. وظل ينسى أن الحكم، وإدارة البشر، يحتاجان إلى هدوء نفس ومعالجةٍ للخَلْق وفهمٍ لتوازن القوى، وأناةٍ

وحصافةٍ وقدرةٍ على القرار السريع الجريء، وقدرةٍ على التمهل في اتخاذ القرار أيضاً. لم يفهم الفتى الغر ذلك، لأنه في أوائل العشرينات من عمره. كان ـ وسيظل ـ نزقاً شديد الاعتداد بنفسه. كان قدره أن يكون شاعراً لا أميراً.

ولم يكن ميسوراً له أن يعود إلى الكوفة ربما لعداوات خلَّفها هناك. فماتت جدته وهو بعيد عنها فحزن لموتها.

واتصل بأبي العشائر الحمداني ابنِ عم الأمير سيف الدولة، ومدحه في أنطاكية. ووصل إلى سيف الدولة الأمير الشاب، وهو لِدَته، فمدحه وحارب معه، ووصف معاركه مع الروم ومع الأعراب المتمردين، وظل عنده تسع سنين قال فيها شعراً عظيماً. ثم ازداد توتره، وطلبت نفسه التغيير. وصار يجد الذرائع لقلق نفسه فيزعم أنه لا يأخذ حقه مع أن سيف الدولة جعله شاعره المفضل وأفاء عليه مالاً وفيراً؛ ولكن نفسه القلقة، وعقله الذي لا يحب التكرار أمراه أمراً بأن يغادر، فأدخلته نفسه في شجارات، وصنعت له عداوات. وغادر المتنبي سيفَ الدولة بلا وداع ولا استئذان، والتمس دعوةً من كافورٍ حاكم مصر، فجاءته سريعاً فرحل إلى مصر، وأقام بها أربع سنوات ونصفاً يمدح كافوراً الإخشيدي، ويطالبه بتوليته بلداً أو ناحية. ولكن كافوراً ظل يمطله، ففر المتنبي من مصر، وقطع صحراء سيناء ثم بادية الشام في نحو ثلاثة أشهر، ووصل إلى الكوفة مسقط رأسه. وزار بغداد ومكث بها أشهراً، وانطلق إلى أرجان، وهي اليوم حصن خرب في غرب إيران، وكان ينتجعها آنذاك ابن العميد وزير ركن الدولة، فمدحه، وأقام عنده شهرين. ثم انطلق جنوباً إلى شيراز فمدح عضد الدولة ومكث عنده ثلاثة أشهر. ثم عاد إلى العراق. وقبل أن يصل إلى بغداد بمرحلة خرج عليه الأعراب فقتلوه وسلبوا ماله.

ديوانه

يضم ديوان المتنبي بحسب إحصاء شارحه الواحدي ٥٤٩٤ بيتاً. وقد قرئ عليه ديوانه في شيراز في شعبان قبل مقتله بشهر، وكان قرئ عليه في بغداد والكوفة. ولشهرة المتنبي الكبيرة ظل ديوانه بين الأيدي، ولم يكفَّ الناس عن انتساخه وروايته طوال الألف سنة المنصرمة. على أن عكوف عدد من أصدقائه ـ الذين قرأ عليهم ديوانه في أواخر حياته ـ على شرح الديوان والعناية به، وتوفر أعدائه ـ وكانوا كثراً، وناصبوه العداء حياً وميتاً ـ على الطعن في ديوانه

واقتباس أبياته في كتبهم، كل هذا أسهم في تخليد الديوان. ولم يختلف الرواة إلا على كلمة هنا وكلمة هناك. وديوان المتنبي الذي بين أيدينا من أصح الدواوين التي وصلتنا.

سيرة المتنبي في صياغة أخرى

ولد أحمد بن الحسين الجعفيّ الكِنْدِيّ الكوفيّ، المكنى بأبي الطيب، والملقب بالمتنبي، في عام ٣٠٣هـ وقتل في ٢٨ رمضان عام ٣٥٤هـ.

ولد في محلة كندة بالكوفة، ودخل الكتاب فتفتح ذهنه على المعارف صغيراً، وقال الشعر صغيراً. وخرج مع والده إلى الصحراء مرتين لاحقيْن بالبدو الذين أغاروا على الكوفة: مرة والصبي في التاسعة من عمره، ومرة وهو في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وذهب المتنبي وهو في نحو السادسة عشرة إلى بغداد مرة أو أكثر، ولعله التقى ببعض علمائها. ومدح في العراق وهجا، وقال شعراً أثبته لنا في ديوانه، ربما من باب الاعتزاز بهذا الشعر الباكر. ثم رحل إلى شمال الشام وهو في الثامنة عشرة، ومر بمنبج. ثم ساح في الصحراء مع البدو، منخرطاً في نشاطات قد يكون من بينها قطع الطريق، ولكن من بينها ممارسة التطرف الفكري مع شبان ورجال سمعوا أطرافاً من الأفكار الدينية غير المألوفة في المدن الكبرى. وظفر به وبجماعة من صحبه أمير حمص لؤلؤ، الذي كان يتبع الإخشيد صاحب مصر. وحبسه لؤلؤ نحو سنتين.

خرج من الحبس وقد عرف وجوب التحلي بالحذر. وراح يمدح الأثرياء والقواد في منبج وأنطاكية واللاذقية وطبريا وطرابلس وطرسوس وجرش ودمشق والرملة. مدح منهم ٣٢ رجلاً. مدح عرباً تنوخيين وطائيين في شمال بلاد الشام، ثم صحب بدر بن عمار قائد الجند في طبرية زمناً وعانى من دسائس حاشيته، وعانوا هم من قلقه وعُجْبه. فانصرف إلى شمال بلاد الشام من جديد مادحاً القادة والكتاب والقضاة.

في عام ٣٣٦ اتصل المتنبي بأبي العشائر والي أنطاكية التابع لابن عمه سيف الدولة أمير الحمدانيين في حلب. ومدح المتنبي أبا العشائر. ثم انصرف إلى الرملة بفلسطين، ثم عاد في السنة التالية ٣٣٧ إلى أنطاكية فقدمه أبو العشائر إلى سيف الدولة الذي حل بأنطاكية سنتئذ.

مع سيف الدولة: انقطع المتنبي إلى سيف الدولة نحو تسع سنوات، قال

فيها قريباً من سبعين قصيدة وقطعة. وقد أكرمه سيف الدولة وأقطعه قرية اسمها سبعين ـ وجاء اسم القرية مع السبعين قصيدة في سطر واحد بمحض الصدفة، ولا أحس في نفسي نشاطاً لكي أفصل بينهما ـ، وأعطاه الأمير مالاً كثيراً وفضَّله على كل الشعراء، وكانوا في بلاط سيف الدولة كثراً. وحسده الشعراء والعلماء، وملوا من قلقه ومن اعتداده بنفسه، ومل سيف الدولة أيضاً، فكان بين الفينة والفينة يسمح لهم بالتطاول على المتنبي، فيتوتر شاعرنا ويشكو ويتألم، ويقول شعراً في ذلك كله. وكان المتنبي شجاعاً، وقد وكل به سيف الدولة من علمه ركوب الخيل واستخدام السلاح كأحسن ما كان يكون ذلك زمانئذ. وصحب المتنبي أميره في حملاته على الروم وعلى الأعراب. وكان المتنبي يحترم سيف الدولة لكرمه وشجاعته وحلمه، ولثقافته، وكان يحب فيه أيضاً تذوقه لشعره.

كان سيف الدولة يحكم شمال سوريا، بينما يحكم أخوه شمال العراق، وكان بينهما صلة ود في الغالب، وكانا يتبعان الخليفة العباسي في بغداد، ويحكمان باسمه مع استقلال ذاتي كبير جداً. والدولة الحمدانية الغربية في ظل سيف الدولة ـ وهي التي تعنينا هنا ـ كانت دولة حدودية تنفق قسطاً كبيراً من مالها في مناوشة الروم البيزنطيين شمالاً، ولا تدخر جهداً في حماية المدن والقرى من غارات البدو. ولعل مصدر الدخل الرئيسي للجيش والبلاط كان الإتاوات الكبيرة التي يفرضها سيف الدولة بوساطة ولاته على القرى والمدن المزدهرة في منطقة خصبة تمتد من حمص إلى حلب ومن شاطئ المتوسط إلى الجزيرة الفراتية.

عاش المتنبي في كنف سيف الدولة راضياً بالحرب والضرب سعيداً بهذا القلق الخارجي الذي يخفف من قلق داخلي كانت تعج به نفسه. كان الخطر أفيون روحه، وكان لعبته.

لقد رأى المتنبي في صباه وشبابه كيف تقوم الدول على أكتاف رجال عاديين مثله: رأى مؤنس الخادم يتولى الأمر في بغداد، ويتسمى بأمير الأمراء (وكان المتنبي في الرابعة عشرة)، وفي السنة نفسها رأى بني حمدان يؤسسون دولتهم في الموصل بشمال العراق. وعندما بلغ المتنبي السابعة عشرة سمع بتولي محمد بن طغج مصر وتأسيسه دولة فيها منفصلة إلى حد كبير عن دار الخلافة. وفي السنة نفسها (٣٢٠هـ) رأى دولة البويهيين تنشأ في فارس ثم تمتد

إلى العراق، وتتحكم في عاصمة الخلافة العباسية بغداد بعد سنوات قلائل. ورأى ابن العميد الأديب الكاتب يتولى الوزارة في ناحية بفارس للبويهيين (وكان ابن العميد آنذاك في الثامنة والعشرين من العمر بينما المتنبي في الخامسة والعشرين). وعندما بلغ المتنبي الثلاثين، وكان يمدح الكبراء في سوريا وفلسطين، رأى سيف الدولة علي بن أبي الهيجاء الحمداني يستولي على حلب.

كان عصراً أسرع فيه التفكك إلى جسم الدولة العباسية. ليس أنها لم تشهد من قبل استقلال بعض الأمراء في المناطق البعيدة عن بغداد، ولكن الاستقلال الآن كان أكبر، وازدحمت الحركات الانفصالية الناجحة في فترة تشكُّل وعي أبي الطيب المتنبي. فكان طبيعياً أن يتجه طموحه إلى أن يكون أميراً أو وزيراً أو والياً.

قرأت في بعض كتب الإدارة أن شهوة التحكم في الناس، والتصرف بأرزاقهم وعزلهم وترقيتهم، شرط مهم للمدير الناجح.

ولا أكاد أشك في أن المتنبي امتلك نصيبه ونصيب عشرة آخرين من هذه الشهوة. وقد شهد أمثلة حية، في سنوات تكوينه، على نشوء الإمارات. لكنه لم يمتلك من الشروط الأخرى، للمدير الناجح أو للأمير الناجح، إلا القليل. فهو يقول إنه فاتك شديد البطش، وهذا سبب يدعونا لتكذيبه، فالفاتك البطاش لا يقول عن نفسه ذلك؛ وهو يقول إنه حليم وحكيم، فأما الحلم فلا نظن صاحبنا ذاقه أو أذاقه أحداً، وأما الحكمة فكانت تتدفق من فمه مع الشكوى كأثر جانبي. أو لعله كان يدرك الدرس بعد أن يخفق في مسعى من مساعيه. والحكيم من يتعلم من أخطاء غيره، لا الذي يتوجع من سقطاته. كانت له فلسفة في الحياة والموت معجونة عجناً بالتذمر، وهذا - أيضاً - شيء غير الحكمة. فإذا قرنت إلى كل تلك النواقص والعاهات في شخصيته ذكاءً حاداً، وعلماً غزيراً وفصاحة نادرة المثال، ونفساً قلقة خِلْقةً، فالنتيجة شاعر عظيم.

كنا نقول إن المتنبي حارب الروم والأعراب مع سيف الدولة. وعمل في الوقت نفسه وزيراً للإعلام عنده. كان كوزراء الإعلام في الدولة المتخلفة في زمننا الحاضر. يمجد زعيمه، ويصفه بكل ما يمكن وما لا يمكن أن يكون في البشر من محاسن، ويبالغ ما شاء له. ويبرر هزائمه، ويرافقه في جولاته، ويحضر مجلسه. وكان سيف الدولة يعرف أثر ذلك في تكبير صورته، وتعظيم أفعاله في عيون منافسيه وأعدائه وحلفائه. كان المتنبي موظف علاقات عامة

ممتازاً. وكانت شهرته قد توطدت، فلم يعد ينافسه أي شاعر في المشرق ولا في المغرب. كان يوجه وخزاته إلى بغداد وأمير أمرائها البويهي معز الدولة وخليفتها المطيع لله ويذكّر البغداديين الرافلين في حياتهم الهانئة بأن هناك قوماً في الثغور يصدون الروم، وأنه لولا سيف الدولة لربط الروم خيلهم بنخيل العراق وسدر مصر.

عاش المتنبي حياة حافلة في بلاط سيف الدولة، لكنها لم تكن هادئة ولا هانئة. فهو لا يحتمل حياة الاستقرار. ولولا ما كان يناله من سيف الدولة من مال جزيل، وما كان أبو الطيب يكنه لأميره من حب واحترام لما دامت إقامته في حلب التسع سنوات.

عند كافور: تفاقم شعور الحصار داخل نفس المتنبي، فرحل عن حلب دون استئذان. تسلل إلى ضيعته سبعين، ومنها انحدر جنوباً فوجد نفسه في دمشق التي تقع تحت حكم الدولة الإخشيدية بمصر. ثم انحدر جنوباً فوجد نفسه في الرملة بفلسطين وهي أيضاً تحت حكم المصريين، فمدح واليها ابن طغج، وفيها تلقى دعوة للالتحاق بعاصمة الأخاشدة الفسطاط، وهي القاهرة القديمة، فوصلها عام ٣٤٦هـ. وكان الحاكم في مصر كافوراً. وهو نوبي تدرج من العبودية إلى السلطة بعد موت الإخشيد عن ولدين صغيرين. كان كافور حكيماً رزيناً عاقلاً حليماً تقياً، أكسبته سنوات العبودية معرفة بالبشر وصلابة، وكان داهية. وقد أدرك قيمة المتنبي. وأراد أن يكسبه، وأن يسلب منافسه سيف الدولة هذا الصوت الرنان المؤثر.

بدأ المتنبي فوراً يطالب كافوراً بمنحه ولاية يديرها. وتحير الرجل في هذا الشاعر الأحمق الذي يريد الولاية مثلما يريد الصبي لعبة. ولعله وعده «خيراً»، دون تحديد طبيعة هذا الخير. أغدق عليه مالاً، ورفع عنه الحجاب، وحاول استرضاءه. ولكن المتنبي جاء كافوراً وفي نفسه اشمئزاز. لم يطق رؤية عبد سابق، أسود اللون يحكم بلاداً واسعة، فمدحه مدحاً فاتراً، وتأفف كثيراً وشكا الزمان شكوى مرة. وبعد سنتين مل انتظار كافور فاستأذنه في أن يمدح وزيره فاتكاً، الذي كان اختلف مع كافور فاعتصم بإقطاعيته الفيوم. فأذن له كافور فمدح فاتكاً. ولكن فاتكاً مات بعد أقل من سنتين. وبعد موته بشهرين دبر المتنبي أن يرحل عن مصر هارباً. فقد عرف أن كافوراً لن يأذن له بالرحيل، خاصة بعد أن جهر بتذمره من كافور، وبعد أن شاع أنه هجاه.

بعد أربع سنين ونصف مكثها في مصر رحل المتنبي، تاركاً فيها شعراً في هجاء كافور عند أصدقاء له كي يذيعوه بعد فراره. وكان المتنبي صنع شيئاً مشابهاً في طرابلس قبل سنين كثيرة. وفي الحالتين نجا من عواقب هجائه. وإن لثالث الحالين شأناً آخر، وسيأتيك خبره.

سار المتنبي سيراً حثيثاً قاطعاً سيناء. ثم قطع بادية الشام، متجنباً مدن فلسطين ودمشق التي كان يحكمها ولاة كافور. وبعد ثلاثة أشهر وصل إلى الكوفة مسقط رأسه. كان قد حمل معه من مصر كل ثروته، وكانت طائلة، رغم شكواه من أن كافوراً كان يأكل زاده بدل أن يطعمه. أراد أن يستقر في الكوفة التي غاب عنها ثلاثين سنة. وهو الآن رجل في الثامنة والأربعين وله شهرة عريضة وعنده مال وفير.

تسلى المتنبي في الكوفة بهجاء كافور. وهجا ضبة بن يزيد بقصيدة لاذعة بعد أن تعرض له ولأصحابه في طريقٍ وشتمهم. ومدح القائد دلير بن لشكروز الذي جاء على رأس جيش إلى الكوفة لصد غارة شنها البدو.

وزار أبو الطيب في هذه السنوات الثلاث التي قضاها في مسقط رأسه الكوفة، زار بغداد وأقام بها بضعة أشهر. لم يمدح الخليفة العباسي لأنه لم يعد أحد يمدح الخليفة. ولم يمدح أمير الأمراء البويهي معز الدولة لأنه فيما يظهر لم يكن يكترث للشعر. على أن شاعرنا لم يمدح أيضاً وزير المعز محمداً المهلبي. وتلك مسألة أخرى، فالمهلبي رجل أديب شاعر. تجاهله المتنبي، فحنق الوزير وأغرى من في حاشيته من الأدباء بنقد المتنبي والغض من شعره. وغمز شعراء بغداد عليه فشتموه، فلم يعبأ المتنبي بهم. والتقى في بغداد بعشاق شعره الذين قرأوا عليه ديوانه وحققوه. وكان ممن قرأه عليه ابن جني اللغوي المعروف.

وأرسل المتنبي إلى سيف الدولة بضع قصائد مدح، وقصيدة في رثاء أخته الكبرى. وأرسل إليه سيف الدولة الهدايا الثمينة، ووجه إليه دعوة مكتوبة بخطه للعودة إلى حلب. ولكن المتنبي تردد، ثم آثر عدم الذهاب متعللاً بأن الحاسدين ما زالوا يترصدونه. ولكن المتنبي ما كان ليعود إلى حلب، فهو كان تركها مللاً وقلقاً. كان الحاسدون الذريعة لا السبب وراء تركه حلب.

وفي سنة ٣٥٤ غادر المتنبي الكوفة وانطلق إلى الأهواز فأَرَّجان داخل بلاد فارس. وفي أرجان أقام شهرين عند أبي الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة

البويهي. ومدحه بثلاث قصائد. وأراد القفول إلى الكوفة، ولكن أمير شيراز عضد الدولة البويهي، ابن عم معز الدولة أمير الأمراء في بغداد، استدعاه. وشيراز تبعد عن أرجان نحو ربع المسافة التي قطعها المتنبي من الكوفة إلى أرجان. فليذهب كي يمدح الأمير عضد الدولة.

أقام المتنبي في بلاط عضد الدولة ثلاثة أشهر قال فيها ست قصائد وقطعة وأرجوزة طريفة سجل لنا فيها خروجه ضمن حاشية عضد الدولة في رحلة صيد بمنطقة دشت الأرزن على بعد كيلومترات إلى الشمال الغربي من شيراز؛ كانت له المشاركة المتوقعة في حياة البلاط. ونال من عضد الدولة مالاً كثيراً. وفي شيراز قرئ عليه ديوانه. وفي شعبان من سنة ٣٥٤ استأذن عضد الدولة بالمغادرة على أمل عودة سريعة، ورحل.

وفي العراق، غير بعيد عن بغداد، خرج عليه فاتك الأسدي في جماعة من البدو، فقتله وقتل ابنه وغلمانه وسلب ماله.

وأوثق ما لدينا بشأن مقتله رساله كتبها أبو نصر محمد الجُبَّليُّ. وهذا رجل من معارف المتنبي في مدينة واسط. نزل به المتنبي في الطريق فحذَّره أبو نصر من أن فاتكاً الأسدي، خال ضبة الذي كان المتنبي هجاه هجاء مقذعاً، يترصده. ونصحه أبو نصر باصطحاب حرس. ولكن المتنبي أبى مستهيناً الخطر.

المتنبي والنقاد

مرت على رأس المتنبي أنماط من النقد كثيرة وهو حي، ومرت على جمجمته أنماط أكثر وهو ميت. فلم تبق نزعة نقدية، ولا طريقة تذوقية إلا وضعت ديوان المتنبي على منضدة التشريح.

ثمة الناقد المؤرخ، الذي يسجل مراحل حياة المتنبي، ويعقد الفصول الضافية لحياة ممدوحيه، وللسياسة في عصره، ويفتح الأبواب لدرس تطوره الفكري وعلاقاته بالرجال والنساء. وهذا نمط جاءنا من الغرب، من المستشرقين. وفتح أبوابه ريجيس بلاشير بكتاب له كبير ومهم عن المتنبي. وقد تُرجمت من هذا الكتاب فصول بُعيد صدوره عام ١٩٣٥، وانتظر بضعة عقود حتى ترجمه إبراهيم الكيلاني الحموي الدمشقي ترجمة كاملة ممتازة. اتكأ على بلاشير طه حسين الذي أصدر كتابه (مع المتنبي) بعده بسنة. وسار على هذا

النهج النقدي (التاريخي) محمود شاكر الذي نشر كتابه قبل طه وبعد بلاشير، على أنه لم يطلع على كتاب بلاشير لعدم معرفته بالفرنسية، وإن كان ألم بمنهج المستشرقين الذين عرف منهم في الجامعة المصرية اثنين على الأقل هما نلينو وجويدي، وعرف ثالثاً هو مرجوليوث الذي قرأه بالإنجليزية.

وثمة الناقد المشرِّح. وأول ما يفعله المشرح أنه يقتل الأرنب قبل البدء في تشريحها. ومن النقاد المشرحين معظم شراح المتنبي. ويختلفون في تشريحهم، فبعضهم ينقد اللغة كالعكبري، وبعضهم ينصرف إلى المعنى كالواحدي. وبعضهم يلتفت إلى المحسنات اللفظية والمعنوية. وكلهم مِجهريٌّ في نقده، ينظر إلى الكلمة والعبارة لا إلى القصيدة، ولا إلى روح الشاعر. وسترانا في شرحنا لهذه المختارات نصنع صنعهم، فنحل البيت حلاً، أي نقلبه إلى نثر، وبلغة معاصرة طلباً لإيصال معناه دون أي شيء آخر إلى القارئ المعاصر. والناقد المشرح دارس لناحية معينة، ولا لوم عليك إن أخرجته من جملة النقاد ووضعته في زمرة الشارحين.

وثمة الناقد صاحب الميزان. وهذا الناقد قد يكون حريصاً على ميزانه أكثر من حرصه على الحق. فهو مثل تلفزيون البي بي سي العالمي في حرب إسرائيل على غزة (٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩) إذ قتلت إسرائيل فوق الـ ١٤٠٠ فلسطيني جلُّهم مدنيون، وفقدت ستة جنود، ولكن تلفزيون البي بي سي خرج بعد انتهاء المذبحة متوازناً: أنحى باللائمة على الجلاد وعلى الضحية بالقدر نفسه. ترى الناقد صاحب الميزان يوازن بين شاعرين، فيزيد في حسنات المقصِّر ويقلل من حسنات المتفوق حتى تعتدل كفتا ميزانه. ويميل يمنة ويسرة، ويختبئ وراء ستار ثم يبدي لك نصف وجهه، ثم يخرج عليك خروجاً مسرحياً: كل ذلك لكي يزيد من الدراما ويجعل مسرحيته «تحرز» سعر بطاقة الدخول. فإن اخترت على هذا التشبيه أن تشبهه بالقرد الذي احتكم إليه الهِرَّان في قطعة جبن فقسمها قسمين وظل يقضم من هنا ومن هنا حتى أتى عليها، فلم تبتعد كثيراً.

وأشهر أمثلة ذلك كتاب الآمدي في الموازنة بين البحتري وأبي تمام. فقد أسرف فيما ذكرت لك حتى إنني حمدت كسل الناشر الذي أخرج جزأين، ونام عن الثالث زمناً، ثم جاء الثالث فلم نجده خيراً من أخويه. أما أبو الطيب فقد نال هذه المعاملة من القدماء كثيراً. كانوا يتسلون في مجالسهم بعقد المباريات والتصفيات بين الشعراء، وعندما جاء الجرجاني ليتوسط بين أبي الطيب

وخصومه لم يزد على أن عقد مباراة كبيرة. والخطورة في مثل هذا النقد أنه يميل إلى «حساب الكميات». وأبرز أركان هذا النوع من النقد كشوف السرقات. وقد نال المتنبي من هذه الكشوف عدداً كبيراً. ترى صاحب كشف السرقات يذكر بيت المتنبي ويذكر ما يشبهه من بيت قديم. ويسرد عليك الأدلة على أن المتنبي أخذ المعنى، أو اللفظ، أو كليهما من البيت القديم. ثم يوازن بينهما، ثم يحكم إن كانت سرقة أم لم تكن، ثم يحكم بمسامحة السارق ـ ولهذا شروط ـ، أو بلومه ـ ولهذا دركات ـ؛ وتخرج أنت من جلسة المحكمة هذه، وقد تبدد في نفسك روح البيت. لكنه نمط من النقد. ولست ضد اتباعه حتى في زمننا المعاصر. لكنني قد ذكرت عيوبه. وما أحبه في هذا النمط من النقد عند القدماء أنه يطوف بي على معاني الشعراء في رحلة سريعة أحس لها بإيقاع مطرب. لذا لم أكن شديد الاستياء من الحاتمي في رسالتيه ومن ابن وكيع، والبديعي وصاحب اليتيمة، وكثير من الشراح. كل القدماء أقاموا أبا الطيب على هذا النِّطع.

وثمة الناقد القادح. فهذا صاحب سفود يريد أن يشوي الشاعر لا غير. وفي نقده فائدة: للشاعر وشهرته أساساً، وللقارئ ثانياً. هذه أحسن وسيلةِ دعاية. ولم يعرف الشعر العربي شاعراً لقي من القدح النقدي مثلما لقي المتنبي. وقد أعطاه القادحون، بخلاف الشهرة، هدية ثمينة. لقد لفتوا النظر إلى محاسنه ببيانهم عيوبه. لكثرة كلامهم على عيوبه، يأخذ المرء يلتفت إلى شعره العالي فيقدره حق قدره. ولا تعدم، حتى عند أكبر القادحين، ومنهم الصاحب والحاتمي وابن وكيع، أقول لا تعدم عندهم التفاتة عدل. فتراهم يقرون في سطر مختبئ بين مئات سطور القدح بأن للرجل إحساناً. وترى هذا السطر يبرز بروزاً قد لا يكون مرضياً لهم. ولكن.. تلك شهادة الأعداء، تتوهج في ظلام نقدهم.

وثمة الناقد المادح. وهذا الناقد قد تأخذه الحال، فيصبح درويشاً للمتنبي، فلا يعود يرى له شيئاً يعاب. وقد ينزلق فيرى محاسن غير موجودة. وقد صنع مارون عبود هذا الصنيع عندما بدأ يغني على قيثارة عروبة المتنبي غناء في غاية الجمال، وانحرف فيه عن الحق كل الانحراف. على أنني ـ وقد ذكرت مارون عبود ـ لا بد أن أقول إن الصفحات التي كتبها عن المتنبي في (الرؤوس)، الصادر عام ١٩٤٥، من أعمق وأقوى ما كتب عن الرجل في قديم

وحديث. نعم قد خاض مارون خوضاً دونكيشوتياً في المحاماة عن الرجل، ولكنه صَدَر في فصوله تلك عن فهم عميق للمتنبي وللشعر العربي. ومن سوء حظ المتنبي أنه كبير جداً إلى درجة أن كثيرين من النقاد المحبين له كانوا يجتنبون تمجيده خوف أن يخرجهم القارئ من زمرة النقاد، وأن يسلكهم في زمرة المادحين. كان كثيرون يعبرون عن إعجابهم في الفلتة بعد الفلتة، ثم يفيئون إلى رصانة مصطنعة.. أليسوا نقاداً وأصحاب رأي؟ وأجد لهم العذر، كل العذر. فهم يهربون بسمعتهم من وصمة الناقد المصفق.

وقد قرأت كتابين صدرا في عامي ٢٠٠٥، و٢٠٠٦ يحتويان على كثير من التصفيق للمتنبي. وكلاهما وُضع تزلفاً لمن يملك المال، وكلاهما رديء. وقد غثيت نفسي بهما إلى درجة أنني انصرفت عن دراسة المتنبي وشعره بضعة أسابيع بعد أن قرأتهما. ولا أطيل عليك في الحديث عن شعوري بتأنيب الضمير على الساعات التي قضيتها فيهما، فقد عددت ذلك واجباً علي قبل أن أنجز شرح مختاراتي هذه. ألوم نفسي وأقول لي: أما كان يكفيك أن تقرأ صفحتين من كل كتاب؟ قد حرمني ذانك الكتابان أن أتلمظ بالبيت البديع للمتنبي علانية. صرت أصطنع الوقار والتناول الرصين. ألا لعنة الله على التفاهة.

وثمة الناقد الذي أسميه الخرمنجي. والخرمنجي هو المتذوق للمنتجات ـ ولا سيما التبغ ـ يتذوقها قبل طرحها في السوق. والخرمنجي يجمع من عيوب أنماط النقاد المختلفة الكثير. لكنه مضطر بحكم المهنة إلى العودة سريعاً، بعد كل انحرافة، ليذوق ذوقاً، وليغمض عينيه نصف إغماضة ويصدر رأياً. وقد صنعت كثيراً من ذلك. ولكنك ستشعر بجهدي هذا دون أن تراه. صنعت ذلك وأنا أختار الأبيات التي عرضتها عليك في هذا الباب؛ فكنت أتذوق البيت ثم القصيدة، ثم أختار الأطايب، وأطرح ما ليس بطيب. فما تراه من شعر المتنبي هنا هو نتيجة تذوقي لديوانه. وقد يفلت مني بيت طيب لأن معناه مرتبط بخمسة أبيات من الحَشَف. فلا أنا قادر على فصله عنها ولا على إيرادها كلها. ولولا هذا لكنت اقتطفت لك ثلاثة أرباع ديوان المتنبي، فلا يعود هذا كتاب مختارات، بل فضلة يغني عنها الغناءَ كلَّه ديوانُ الرجل. على أن ما تركته من الأبيات الحسنة ليس من اللامع العزيز، ولا المعجز الذي لا يتعلق بغباره أحد.

وأمضي في تصنيف النقاد درجة أخرى، ولعلي أجعلها أخيرة، فأذكر المحترف الهادئ المنزه عن الهوى. وقد نعمنا باثنين من هؤلاء. فقد نشر العقاد والمازني فصولاً عن المتنبي في العشرينات، وأجادا درس أسباب شهرته، ودفعا عنه تهماً كثيرة كالبخل (المازني ـ حصاد الهشيم)، وشبَّهاه بشخصيات عرفاها مما تثقفا به من ثقافة غربية. فكتب عنه العقاد فصلاً طيباً في البلاغ، أعاد نشره مع فصول أخرى عنه في كتابه مراجعات، يوازن بين فلسفته وفلسفة نيتشة. وينحو المازني أكثر نحو التذوق. ولكن ما حال بين الرجلين وبين الهوى في تناول المتنبي هو أن هواهما كان مع شاعر آخر هو ابن الرومي. فإذا قرأتهما وهما يتكلمان عن ابن الرومي فأنت بإزاء الناقد المادح. أما كلامهما عن المتنبي فكلام عن الجار البعيد، فيه رصانة.

والمحترف الهادئ، الذي كان إلى ذلك مؤرخاً وصاحب ذوق عالٍ في الشعر، عبد الوهاب عزام. كان في كتابه عن ذكرى أبي الطيب (١٩٣٦) مؤرخَ أدبٍ حقاً.

ولنذكر ختاماً عودة محمود شاكر إلى المتنبي بعد أربعين سنة. فقد عاد ليكتب كتاباً آخر (المتنبي: ليتني ما عرفته).

ليته ما كتبه.

على أن شاكراً يُقرأ لأسلوبه، فإن كنت ممن يحبون الفصحى، فلا يهمك إن قال شيئاً أو لم يقل. وكذلك طه حسين، يقرأ لأسلوبه. ولأسلوبه فقط احتمل الناس سبعمئة صفحة من صفحاته عن المتنبي كان يمكن إيجازها في مئة صفحة.

عملنا في هذه المجموعة

عند رقم تسعة وتسعين وقبل أن تصل إلى المربع الأخير هناك رأس حية قد يدحرجك إلى المربع رقم واحد. وأنت وحظك. اقرأ المعوذتين وارم نردك.

هكذا أنا في عملي على الحاسوب الشخصي، بي سي. أكتب الأبيات وأشكلها، وأنفق من ضوء عيني ما أُنفِق وأنا أصححها، مرة ومرة ومرة حتى لا يعود ثمة من غلطة؛ ثم أرسل الملف إلى الطابع فيرميه رمي الثمامة على برنامج الماك. وتنقلب الدنيا، ويتزلزل النص. وأعود بقلب مخلوع إلى التصحيح.

وازددت واحدة في معاناتي مع المتنبي. فقد كنت شرحت مختاراتي منه وطبعتها وشكلتها قبل ثماني سنوات، وعدت إليها فإذا برنامج الحاسوب قد تغير، وإذا الضمة والفتحة فوق الميم صارتا تحتها. فعدت إلى النص بكامله مرة أخرى مدققاً حركة حركة وحرفاً حرفاً وكلمة كلمة.

لكن الأبيات التي تراها في هذه المجموعة تظل - رغم كل ما سيفاجئنا به الطابع - هي ما اخترته لك من ديوان المتنبي. وهي تعبر عن تذوقي وفهمي لشعر الرجل. ولا تحزن لما فات هذه المجموعة من أبيات، فديوان المتنبي موجود في كل مكتبة، وعلى كل رصيف، فإن شئت الاستزادة فاقْتَنِ نسختك.

اخترت ربع شعر الرجل تقريباً. وشايعت معظم الشراح في ترتيب القصائد بحسب زمان قولها. فأنت تمضي من شعر الصبا إلى شعر الشباب فالكهولة، قصيدة بعد قصيدة. ولا يخلو أن تتقدم قصيدة أو تتأخر درجة أو درجتين، فعند الشراح في الترتيب الزمني بعض الاختلافات.

وقسمت المجموعة ثلاثة أقسام: الشاعر الشاب، فالسيفيات وهي ما قاله عند سيف الدولة، فوحي الأربعين وهو ما قاله بين سن الثانية والأربعين وسن الخمسين التي مات عنها.

كنت في اختياري أحرص على البيت الجميل كل الحرص، وأحرص على ربطه بالأبيات الجميلة الأخرى في القصيدة حتى لو كلفني ذلك اختيار أبيات أقل بهاء كي يبقى المعنى متسقاً، وكي يسلم للضمائر ما تعود إليه.

وقطعت كل بيت شطرين كما يجب أن يكون؛ وقطعت البيت في المكان الصحيح. فإن كنت تعرف الغلطة الشائعة في قسمة بيت المتقارب شطرين فاعلم أنني تنبهت إليها. وقد يقعد بين الكرسيين حرف مشدد فعندئذ أضع في الفراغ بين الشطرين شرطة (ـ). وفي الكلمات المنتهية بياء من قبيل (عندِي) كنت أضع الكسرة تحت الياء نفسها، حتى تفرق بينها وبين (عندِيَ) المفتوحة الياء. وكلتا الكلمتين صحيحة في كل موضع في النثر، ولكنهما في الشعر ليستا بمنزلة؛ فوزن الشعر قد يقتضي الفتحة لا غير، أو يقتضي الكسرة لا غير، أو يبيح أيهما. قد شكلت لك كل ياء أخيرة بحسب ما يقتضيه وزن البيت. وشكلت (منهمْ) بسكون على الميم إن اقتضى الوزن السكون، وبضمة على الميم (منهمُ) إن اقتضى الوزن الضمة. والشعراء قد وسعوا على أنفسهم كيما يزنوا فأشبعوا هذه الميم أحيانا لتنطق (منهمو)، ولم أكتب منهمو هذه بواو. لأنها ليست

الحرف الوحيد الذي يصادف إشباعاً في الشعر. مثل هذا الإشباع يرد في أحرف أخرى: فقد يجب على القارئ الشعرَ أن ينطق (فيه) بإشباع الهاء، فكأنها (فيهي). وقد يجب عليه أن يشبع ألف (أنا) اللينة في أحوال، وأن يخطفها خطفاً في أحوال. هذه مسألة في ضبط الخط والكتابة أتركها لمن يريد أن يسعى في حلها.

على أنني بذلت ما في وسعي، وما في وسع صندوق الأحرف المتاح، كي أرشدك إلى القراءة السليمة.

وكي تقرأ المعنى بعينيك وضعت لك الفواصل. فلا تقف في قراءتك الجهرية إن قرأت جهراً عند كل فاصلة، فما هكذا يقرأ الشعر؛ لكن، لَوِّن صوتك بحسب الفواصل. وإن كنت تقرأ قراءة صامتة فلعل الفواصل أن تعينك في فهم المعنى.

أقللت من الفواصل على أطراف الأشطر، فالفراغ بين الشطرين فاصل كاف، إلا أنني وضعتها هناك كلما شعرت أنها تقرِّب معنى أو تدرأ لبساً.

كما أخبرتك في موضع سابق من هذه الصفحات فإنني استعنت بستة من شروح ديوان المتنبي. قد رأيت الشارحين يمدون أيديهم إلى شرح أبي العلاء المعري، ويأخذون العبارة تلو العبارة؛ ولا تثريب عليهم. وإن لم أكن فعلت فعلهم فليس تعففاً. لكن، لأنني كتبت شرحي لقارئ معاصر. وقد ركِبت في عبارتي الركاكة ركوباً، ولم أربأ بنفسي عن تعبير عامي أو صحافي، كل ذلك في سبيل إيصال المعنى.

يقول المتنبي: (لُم الليالي) وأقول أنا شارحاً: (يجب أن تلوم الزمن). فأي شيء أركُّ من قولي! لكنه السعي إلى فضح المعنى.

والمتنبي صعب. والتعرض لنص قديم يكبِّدك غرم قراءة لغة أجنبية. فأنت منذ البدء في موقع المتعلم المتحفز لحل الألغاز. فإذا كان هذا النص القديم شعر أبي الطيب المتنبي فالغرم أفدح، لأن المتنبي صعب في لغته، وصعب في معانيه. وأراحنا أبو العلاء المعري في شرحه كثيراً. فهو من هو في اللغة، وهو من عصر المتنبي، ولد بعد موته بتسع سنين.

رأيت كثيراً من حكم المتنبي التي تأتي في الأشطر حشوات يستريح بها في النظم. وهي في جلها حشو اللوزينج. تعقبتها، وحرصت عليها.

قد يأتي مدحه بارداً سخيفاً. أليس معظم المدح هكذا؟ فكنت أتجنب ما هو بارد وسخيف، إلا أن يكون فيه فن كثير، فأحتمِله وأحمّلك برده في سبيل فنه. والمتنبي كان في أحيان كثيرة ينظم تحت إلحاح الأمير. أرأيت أسخف من أمير يلح على الشاعر، ويقول له أسبوعاً بعد أسبوع: منذ زمن لم تمدحني، فمتى تكون قصيدتك المقبلة؟ هكذا كان يفعل سيف الدولة، وغيره. ذلك أن مدح المتنبي كان بمثابة تثبيت لصورة الزعيم في أذهان أنصاره ومنافسيه على حد سواء. والمادح والممدوح والسامعون جميعاً يعلمون أن الأمير ليس أسداً وليس بحراً. ولكن، هي الدعاية. وهل تؤمن أنت أن صابون (الحياة السعيدة) يسعدك حقاً؟ لكنك ترى الدعاية ثم تُهوي بيدك على الصابونة المذكورة وتلتقطها من على رف السوبرماركت. وقد رأيت في السنوات العشر المنصرمة (وأنا أكتب في ربيع ٢٠٠٩) ثلاثة من الزعماء العرب بدأوا عهدهم بالطلب إلى مساعديهم ألّا تُنشر صورهم في الميادين والصحف بشكل مبتذل. ورأيتهم جميعاً تخلوا عن هذا الطلب، وعادوا إلى سيرة أسلافهم، يحثون المداحين من مرتزقة الصحافة على إغداق الأوصاف عليهم، ونشر صورهم في كل مكان.

عرفوا قيمة الدعاية.

(ملاحظة في سنة ٢٠١٦: بعض أنصار هؤلاء الزعماء بلغ بهم أن يجبروا الناس على السجود لصورة الزعيم، وبعضهم وضع صورة الزعيم على ألواح الشوكولاتة).

من هذا الفهم لشعر المدح كنت أسعى إلى التقليل منه. لكن مدح أبي الطيب مخلوط بفن كثير، وبحديث صادق عن نفسه وعن همومه. وبعض هذا المدح صادر عن حب، ككثير من مدحه لسيف الدولة.

قصيدة المتنبي «متعددة الأغراض» كما يقولون في كتب المدارس. ولكنك تجده في داخل الغرض الواحد يأتي بالمعاني المتنافرة المتباعدة، فإذا أنعمت النظر وجدت البيت موصولَ المعنى بجيرانه إما بتيار يجري عميقاً تحت السطح، وإما بضمائر تشبك البيت ببيت قبله مباشرة أو قبله بعدة أبيات.

وعندما اخترنا واجتزأنا من هنا وهناك تعبنا كثيراً في الحفاظ على بنية القصيدة مع استبعادنا الكثير من أبياتها. وقد ترانا في أحوال كثيرة نأخذ من القصيدة بيتين أو ثلاثة ونهمل الباقي. ولا يندر أن نمر بالقصيدة مر الكرام فلا نأخذ منها شيئاً. ومن قال لك إن شعر المتنبي درر كله؟ لعل شوقي كان على

حق عندما قال: «وللمتنبي درة وحصاة». وما أكثر ما في شعر أبي الطيب من الحصى.

أنا ماض في شرح مختاراتي من اثنين وأربعين شاعراً، من امرئ القيس إلى إيليا أبو ماضي، يضاف إليها مختاراتي من ثمانية من كتب الشعر المهمة التي تضم أشعاراً لشعراء مغمورين أو قدماء لم تصنع لهم دواوين. فهذه في المجمل خمسون باباً، ستقع في خمسة أجزاء. ودون هذه الغاية أن يأذن صاحب الدهر ورب الكون الجليل، وأن يعطي فسحة في العمر، وأن يهبنا قدراً من القبول لدى القراء يقوم بتكلفة الطبع والتوزيع. فأما إن ظننت أنني أنتظر قرشك كي أخَضِّر به مائدتي فهذا لأنك لا تعرف حال التأليف والنشر في الوطن العربي.

وقد والله ـ ولست في حياتي الشفهية بحلاف؛ فقط إذ بيني وبينك ستر هذه الورقة ـ ناولني ناشر قبل سبع سنين مكافأتي عن كتاب عدة صفحاته ثلاثمئة وثمان وعشرون صفحة فما غربت شمس ذلك النهار إلا وكنت تصدقت بها، ولا أظن أنه حصل لي بها كبير ثواب.. لضآلتها.

قد بسطت لك القول في عملي في هذه المجموعة. وقد كلمتك بما هو من ثوب هذا الكتاب وبما هو من غير ثوبه. ولئن كنت أنوي ألا أمعن في الشرح والتشكيل فيما سيأتي من هذه السلسلة، فإنني رأيت المتنبي محتاجاً إلى الشرح المستفيض والتشكيل الكامل.

وفي ذيل هذا الباب عن المتنبي فهرس للقوافي، وفهرس للأغراض. فإن طلبت قصيدة تعرف قافيتها وجدتها، وإن أردت أن تعرف ما اخترته للمتنبي من أبيات عن (الشيب) أو عن (القلق والترحال) وجدته. وجعلت لكل قصيدة رقماً، واعتمدت أرقام القصائد لا أرقام الصفحات حتى لا يتغير الترقيم بانتقال النص من برنامج حاسوبي إلى آخر. ووضعت لكل قصيدة اسماً من عندي، فلم يكن شعراؤنا القدماء يسمون قصائدهم.

أشكر للصديق أحمد ولد الدين فال الشنقيطي أنه أعانني بوقته وبحبه الكبير للمتنبي، وبفهمه العميق لشعره. فقرأ المسودة وصحح أغلاطي، وقوم ما اعوجّ من لغتي، ومن تفسيري. ولم أكد أترك من ملاحظاته شيئاً إلا أخذت به، ومعظمه تصحيح لغلط صريح أو وهم ركبته؛ وبعضه تحسين لتعبيري، وهذا أخذت به أيضاً. فما بقي من خطأ أو وهم فعليَّ وحدي وزره.

كتبت المقدمة عام ٢٠٠٨، وحررت عام ٢٠١٦

المتنبي في شبابه

المختار من شعر المتنبي من البدايات حتى بلغ الرابعة والثلاثين، وقاله في العراق والشام

١ هاي.. باي

أول شعر نظمه المتنبي قوله وهو صبي: (المختار من القصيدة/ عدد أبياتها) ٢/٢

بِـأَبـي مَـنْ وَدِدْتُـهُ، فـافْـتَـرَقْـنـا   وقَـضـى الـلّـهُ بـعـدَ ذاكَ اجْـتِـمـاعـا

بأبي (أفدي بأبي) مَن أحببته، ثم افترقنا؛ ثم بعد ذلك قضى الله أن نجتمع

فـافْـتَـرقْـنـا حَـوْلاً، فـلـمَّـا الـتَـقَـيْـنـا   كـانَ تَـسْـلـيـمُـهُ عـلـيَّ وَدَاعـا

قد افترقنا حولاً (عاماً)، وعندما التقينا كان تسليمه عليَّ وداعاً، وتمهيداً لفراق جديد

٢ المختفي عشقاً

قال المتنبي وهو صبي: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٣/٣

أَبْلَى الهَوى، أَسَفاً يومَ النَّوى، بَدَني   وفَرَّقَ الـهجرُ بينَ الـجَفْنِ والـوَسَنِ

أبلى (أنهك) الحب بدني لحزني في يوم النوى (الفراق) وفرَّق الهجر بين جفني وبين الوسن (النوم)، أي حرمني النوم

رُوحٌ تَـرَدَّدُ فـي مِـثْـلِ الـخـيـالِ، إذا   أَطَارَتِ الـريـحُ عنهُ الـثَّوْبَ لـمْ يَبِنِ

روحي تتردد (تضطرب) داخل جسم صار هزيلاً كأنه الخَيَال، ولو طيَّرَتِ الريحُ ثوبي عن جسمي لم يَبِن (لم يظهر) جسمي للعيان

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّني رَجُلٌ   لـوْلا مُـخـاطَـبَـتـي إِيَّـاكَ لـمْ تَـرَنـي

وصل نحول (هزال) جسمي إلى درجة أنك لم تعد تستطيع أن تراني، لولا أنك تستدل على وجودي بصوتي. المعنى ساذج كما ترى، ولكننا سوَّدنا البيت لشهرته، ولكي ترى كيف أن المبالغة الشديدة بدأت في شعر المتنبي وهو بعد صبي

٣ المنتعل ناقته

قال المتنبي في صباه يمدح محمد بن عبيد الله العلوي المشطب: ٦/ ٤٢

يـا عـاذِلَ الـعـاشِـقِـيـنَ دَعْ فِـئَـةً   أَضَـلَّـهـا الـلَّـهُ، كـيـفَ تُـرْشِـدُهـا؟

يا عاذل (لائم) العاشقين دع هذه الفئة، فالذي أضلها هو الله، فكيف لك أن ترشدها؟

لـيـسَ يُـحِـيـكُ الـمَـلامُ فـي هِـمَـمٍ   أقـرَبُـهـا مـنْـكَ، عَـنْـكَ أبْـعَـدُهـا

لا يُحيك (يؤثر) اللوم في همم (عزائم) أقربها منك جسماً، أبعدها عنك روحاً. نقل ابن جني عن المتنبي أن قال في شرح الشطر الثاني: (أقربها منك سمعاً، أبعدها عنك طاعةً)

بِئْسَ الـلـيـالـي سَـهِـدْتُ مِـنْ طَـرَبٍ   شَـوقـاً إلـى مَـنْ يَـبِـيـتُ يَـرْقُـدُهـا

بئست الليالي التي سهدتها (سهرتها) من الطرب (الحزن) شوقاً إلى المحبوب الذي يبيت راقداً هذه الليالي

أَحْـيَـيْـتُـهـا والـدمـوعُ تُـنْـجِـدُنـي   شُـؤونُـهـا، والـظَّـلامُ يُـنْـجِـدُهـا

أحييت الليالي (سهرتها) والدموع تساعدني شؤونها (مجاريها) في تخفيف حزني، والظلام يساعد الدموع في النزول لأنه يسترها

لا نـاقَـتـي تَـقْـبَـلُ الـرَّدِيـفَ، وَلا   بـالـسَّـوْطِ يـومَ الـرِّهـانِ أُجْـهِـدُهـا

ناقتي لا تقبل الرديف (الراكب الإضافي)، ولا أنا أجهدها (أرهقها) بالسوط يوم السباق. وهذه الناقة ما هي إلا نعله، فهو فقير لا يملك مركوباً

شِـراكُـهـا كُـورُهـا، وَمِـشْـفَـرُهـا   زِمـامُـهـا، والـشُّـسُـوعُ مِـقْـوَدُهـا

شراك نعلي (الشريط الجلدي لها) هو كورها (رحل/أو خرج الناقة)، وزمام النعل (مقدمة النعل) هو مشفر الناقة، والشسوع (الجلدات التي بين الإصبعين في النعل) هي مقود الناقة. يشبه كل جزء من نعله بشيء من لوازم الناقة، والخلاصة أنه رجل فقير ولا ناقة له، بل يمشي على قدميه وناقته هي نعله

٤ الفريد

قال المتنبي في صباه: ١/ ٥

أَمِطْ عَـنْـكَ تَـشـبـيـهِـي بِـمـا وكَـأَنَّـهُ   فـمـا أَحَـدٌ فَـوْقـي، وَلا أَحَـدٌ مِـثْـلِـي

أمِطْ (أبعِدْ) عنك تشبيهي بغيري مستخدماً كلمة «ما أشبهه بفلان»، أو كلمة «**كأنه فلان**»، فما أحد فوقي، بل لا أحد مثلي

٥ الفراق القاتل

قال المتنبي يمدح سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي: ٣/ ٢٥

أَحْيَا؛ وَأَيْسَرُ مَا قاسَيْتُ مَا قَتَلا   والبَيْنُ جارَ على ضَعْفِي وما عَدَلا

أنا أعيش، بينما أيسر (أهون) ما قاسيته هو مما يقتل، والبين (الفراق) جار (جنى) على ضعفي ولم يكن عادلاً

والوَجْدُ يَقْوَى كَما تَقْوَى النَّوَى أَبَداً   والصَّبْرُ يَنْحَلُ في جِسْمي كَمَا نَحِلا

والوجد (الشوق) يقوى، مثلما تقوى النوى (الفراق)، وصبري ينحل (يضعف) في جسمي مثلما يهزل جسمي نفسه

لَوْلا مُفارَقَةُ الأحْبابِ ما وَجَدتْ   لها المنايا إلى أرْواحِنا سُبُلا

لولا مفارقة الأحباب ما قاسينا، ولا عرفت المنايا (الموت) طريقاً إلينا

٦ لا كرامة لنبي في وطنه

قال في صباه: ٣٦/١٧

ما مُقامِي بِأرضِ نَخْلَةَ إلَّا   كمُقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ

ليست إقامتي في أرض نخلة (مكان بالكوفة) إلا كإقامة المسيح بين اليهود الذين كانوا له ظالمين. نقل المعري في شرحه «معجز أحمد» أن هذا البيت جرَّ على المتنبي لقبه

مَفرَشِي صَهوةُ الحصانِ، ولكنَّ ـ   قَميصي مَسْرُودةٌ مِنْ حَديدِ

مفرشي (مكان نومي) هو صهوة (ظهر) الحصان، ولكن قميصي مسرودة (منسوجة) من حديد، فهي ليست قميصاً بل هي درع

لَأْمَةٌ فَاضَةٌ أَضَاةٌ دِلاصٌ   أَحْكَمَتْ نسجَها يَدا داوُدِ

إنها لأْمة (درع) فاضة (واسعة)، أضاة (ملساء) دلاص (لامعة)، نسجتها بإحكام يدا داود النبي؛ وقيل إنه أول من صنع الدروع

أينَ فَضلي إذا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْـ   ـرِ بِعَيْشٍ مُعَجِّلِ التَّنْكيدِ

أين تميُّزي إذا قنعت من الزمن بعيشةٍ عاجَلَني النكد فيها من بدايتها

ضاقَ صدْري، وطالَ في طَلَبِ الرِّزْ   قِ قِيامي، وقلَّ عنهُ قُعودي

ضاق صدري، وطال سعيي في طلب الرزق، وقلَّت راحتي

أبَـداً أقـطَـعُ الـبـلادَ، ونَـجْـمـي في نُحُوسٍ، وهِمَّتي في سُعودِ

باستمرار أتنقل في البلاد، ولكن نجمي (حظي) منحوس، وهمتي (طموحي) في سعود (محظوظة) لأنها كبيرة

عِشْ عَزيزاً، أوْ مُتْ وأنتَ كريمٌ بينَ طعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ

القنا (الرماح)، البنود (رايات الحرب)

فَرُؤوسُ الرِّماح أَذْهَبُ لِلْغيْـ ـظِ وأشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقُودِ

فإذا أصابتك رؤوس الرماح وقتلتك فهذا أكثر إذهاباً لغيظك، وأكثر شفاء لغل (حقد) صدرك. في رواية (أذهب بالغيظ)، وهذه رواية ابن جني. على أن ديوان المتنبي قرئَ عليه أكثر من مرة. وما أوردناه هو الرواية الأشهر

لا كَمَا قدْ حَيِيتَ غيرَ حَميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فَقيدِ

هذا خير من حياتك حتى الآن وأنت غير محمود من الناس، وكذلك فلو مت على حالتك الحاضرة فلن يفتقدك أحد

فاطْلُبِ العزَّ في لَظىً، وَدَعِ الذُّلَّ ـ ولوْ كانَ في جِنانِ الخُلودِ

أطلب العز ولو في جهنم، واترك الذل ولو في الجنة. صديقي أحمد فال وسم هذا البيت بوسم «السجدة» في المخطوطة لما رآه فيه من إعجاز

يُقْتَلُ العاجِزُ الجبانُ، وقدْ يَعْـ ـجِزُ عنْ قطعِ بُخْنُقِ المولودِ

العاجز الجبان الذي لا يستطيع قطع بُخنُق (خرقة) المولود قد يكون مصيره أن يقتل..

ويُوَقَّى الفَتى المِخَشُّ وقدْ خوَّ ـ ضَ في ماءِ لَبَّةِ الصِّنْديدِ

والفتى المخش (الجريء)، الذي خاض برمحه في ماء (دم) لَبَّة (عنق) الصنديد (الشجاع) قد يوقَّى (ينجو)، يقول: البعد عن مسرح القتال ليس ضامناً البقاء

لا بِقَوْمي شَرُفْتُ، بَلْ شَرُفُوا بي وبِنَفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودي

ليس بسبب قومي شرفت (أصبحت شريفاً) بل هم شرفوا بي؛ وقد فخرت بنفسي لا بجدودي، وهنا خروج جامح عن إرث عربي راسخ يجعل الشرف كله في الفخر بالأجداد

وبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ وعَوْذُ الجاني، وغوْثُ الطَّريدِ

ومع ذلك فإن قومي هم فخر كل من نطق الضاد (العرب)، وهم عوذ (ملجأ) الجاني المستجير بهم، وغوث (نجدة) الطريد (المطلوب بجناية)

إنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجيبٍ لم يجِدْ فوقَ نفسِه مِنْ مَزيدِ

إن أكن معجباً بنفسي فهذا العُجْب (الافتخار) هو تيه رجل عجيب (مميز) لم يجد مجالاً لزيادة فضله، لأنه بلغ المنتهى

أنـا تِـرْبُ الـنَّـدى، ورَبُّ الـقَـوافـي وسِـمـامُ الـعِـدَى، وغَـيْـظُ الـحَـسُـودِ

أنا ترب الندى (قرين الكرم)، ورب (صاحب) القوافي، وسمام (سُمُّ) العدى (الأعداء)، وغيظ الحاسد

أنـا فـي أُمَّـةٍ، تَـدارَكَـهـا الـلَّـ ـهُ، غـريـبٌ كَـصـالِـحٍ فـي ثَـمُـودِ

أنا في أمة ـ أصلحها الله ـ غريب كالنبي صالح في قومه ثمود الذين ظلموه

٧ العاذل عاشقاً

قال المتنبي في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس الأزدي: ١٥/ ٢٥

أَرَقٌ عـلـى أَرَقٍ، ومِـثْـلِـيَ يَـأْرَقُ، وَجَـوًى يَـزيـدُ، وعَـبْـرَةٌ تَـتَـرقْـرَقُ

حالتي سهر على سهر، ومن كان مثلي عاشقاً فهو يأرق (يسهر)؛ وحالتي جوى (لوعة) يزيد، وعبرة (دمعة) تترقرق

جَهْدُ الصَّبابَةِ أَنْ تَكونَ، كما أُرى: عَـيْـنٌ مُـسَـهَّـدَةٌ، وقـلـبٌ يَـخْـفُـقُ

جهد الصبابة (منتهى العشق) أن تكون (توجَدَ) ـ مثلما أُرى أنا ـ عينٌ مسهدةٌ (ساهرة) وقلب يخفق

مـا لاحَ بَـرْقٌ، أو تَـرنَّـمَ طـائـرٌ إلا انـثَـنَـيْـتُ ولِـي فُـؤادٌ شَـيِّـقُ

ما لاح لي برق ولا ترنم طائر إلا انثنيت (رجعت إلى نفسي) ولي قلب مشتاق. يرتبط البرق في ذهن العاشق البدوي بمحبوب ارتحل مع قومه لارتياد العشب الذي يأتي بعد برق ومطر. التسويد لصديقي اللغوي أحمد عبد الرحيم

جَرَّبْتُ مِنْ نارِ الهوى ما تَنْطَفِي نـارُ الـغَـضَـى، وتَـكِـلُّ عـمَّـا يُـحْـرِقُ

جربت من نار الحب ما تنطفئ نار الغضى (شجر حطبه صلب) دونه، وتكل (تعجز) عن إحراق ما تحرقه نار هذا الحب. التسويد أ. عبد الرحيم

وعَـذَلْـتُ أهـلَ الـعِـشـقِ حتَّـى ذُقْـتُـهُ فَـعَـجِـبْـتُ كيفَ يموتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

كنت قد عذلت (لمتُ) العشاق حتى ذقت العشق، فصرت أعجب كيف يموت من لا يعشق، فمن لا يعشق لا يعانِ شيئاً فَحَريٌّ به أن يعيش للأبد

وعَـذَرْتُـهُـمْ، وعَـرَفْـتُ ذَنْـبِـيَ: أَنَّـنـي عَـيَّـرْتُـهُـمْ، فَـلَـقِـيـتُ مِـنْـهُ مـا لَـقُـوا

عندئذ عذرت العشاق، وعرفت ذنبي: لقد عيرتهم فلقيت من العشق مثلما لقوا

أَبَـنـي أَبِـيـنـا! نَـحْـنُ أهـلُ مَـنَـازِلٍ أَبـداً غُـرابُ الـبَـيْـنِ فـيـهـا يَـنْـعَـقُ

يا أهلي! في منازلنا دائماً غراب البين (الفراق) ينعق إيذاناً بفراق الأحبة

نَـبْـكِـي عـلـى الـدُّنـيـا، ومـا مِـنْ مَـعْـشَـرٍ جَـمَـعَـتْـهُـمُ الـدُّنـيـا فـلـمْ يَـتَـفـرَّقُـوا

فعلام البكاء على الدنيا؟ وما اجتمع فيها معشر إلا فرقهم الموت

أيْـنَ الأكـاسِـرَةُ الـجـبـابِـرَةُ الأُلَـى   كَنَزُوا الكُنوزَ، فَما بَقِينَ ولا بَقُوا؟

أين الأكاسرة (حكام الفرس) الجبارون الألى (الذين) كنزوا الكنوز، فما بقيت الكنوز ولا هم بقوا

مِنْ كلِّ مَنْ ضاقَ الفَضاءُ بِجَيْشِهِ   حتَّى ثَوَى فَحَواهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

الواحد من هؤلاء الأكاسرة كان يضيق الفضاء بجيشه المنشور على الأفق، ثم ثوى (استقر) فحواه لحد (قبر) ضيق

خُرْسٌ إذا نُودُوا، كَأَنْ لم يَعْلَمُوا   أنَّ الـكـلامَ لَـهُـمْ حَـلالٌ مُـطْـلَـقُ

هؤلاء الأكاسرة خُرْس الآن، إذا ناديتهم لا يجيبون، أيظنون الكلام حراماً عليهم؟ بل هو حلال، ولكنهم موتى

فَـالـموتُ آتٍ، والـنُّـفـوسُ نَـفـائِـسٌ   والـمـسـتَـعِـزُّ بـمـا لـديْـهِ الأَحـمَـقُ

الموت قادم، والنفوس نفائس (درر ثمينة) يأتي الموت للاستيلاء عليها، والأحمق هو المستعز (المعتز) بما عنده من أموال، فالمطلوب روحه

والـمـرءُ يَـأْمُـلُ، والـحـيـاةُ شـهـيـةٌ   والـشَّـيْـبُ أوْقَـرُ، والـشـبـيـبـةُ أَنْـزَقُ

لكن الإنسان دائماً على أمل، ويشتهي الحياة، والشيب وقار، والشباب نَزَق (طيش)

ولقدْ بكيتُ على الشبابِ ولِمَّتي   مُـسْـوَدَّةٌ، ولِـمـاءِ وَجـهـيَ رَوْنَـقُ

بكيت على الشباب حتى عندما كانت لمتي (شعري) سوداء، وفي وجهي طراوة

حَـذَرَاً عَـلَـيْـهِ قَـبْـلَ يـومِ فِـراقِـهِ   حتَّى لَكِدْتُ بِماءِ جَفْنيَ أشْرَقُ

بكيت حَذَراً على الشباب قبل فراقه، وكدت أشرق (أغص) بدموعي لغزارتها

٨ موقف وداع

قال المتنبي في صباه يمدح علي بن أحمد الطائي:
(نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة ٤/ ٣٠)

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعُوا   فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

حشاشة نفسي (بقيتها) ودعتني يوم ودعوني ورحلوا، فلم أدرِ (لم أعرف) أي الظاعنيْن (الراحليْن) أشيع (أرافق مودِّعاً). يقول: روحي فارقتني عندما فارقوني، فتحيرت هل أودع روحي، أم أودعهم

أَشارُوا بِتَسْليمٍ، فَجُدْنا بِأَنْفُسٍ   تَسيلُ مِنَ الآماقِ، والسِّمُ أَدْمُعُ

أشارت الحبيبة بتسليم (بتحية الوداع)، فجدنا بأنفسنا (بذلنا أرواحنا حزناً) وهذه الأرواح تسيل من الآماق (العيون)، والسم (الاسم) دموع، لكنها في الحقيقة روحي

حَشَايَ على جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الهوى   وَعيْنايَ في رَوْضٍ مِنَ الحُسنِ تَرْتَعُ

حشاي (قلبي) يتقلّى على جمر ذكي (متّقد) من الهوى، وأما عيناي فترتعان (تسرحان) في روض من الجمال هو وجه الحبيبة

ولو حُمِّلَتْ صُمُّ الجبالِ الذي بِنا   غَداةَ افْتَرقْنا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ

ولو تم تحميل الجبال الصم (الصلبة) الحزن الذي حل بنا غداة الافتراق (صباحه) لأوشكت تتصدع

٩ نائب عزرائيل

قال المتنبي في صباه على لسان بعض التنوخيين وقد سأله ذلك: ٥/ ٩

قُضَاعَةُ تَعْلَمُ أَنّي الفَتى الـ   ـذي ادَّخَرَتْ لِصُرُوفِ الزَّمانِ

قبيلة قضاعة تعلم أنني الفتى الذي ادَّخرته (خبَّأته) لصروف (لمصائب) الزمان

أنا ابْنُ اللِّقاءِ، أنا ابْنُ السَّخاءِ   أنا ابْنُ الضِّرابِ، أنا ابْنُ الطِّعانِ

أنا ابن اللقاء (لقاء الأعداء) وابن السخاء، وابن الضراب (المبارزة بالسيوف)، وابن الطعان (الطعن بالرماح)

يُسَابِقُ سيْفي مَنايا العِبَادِ   إلَيْهِمْ كأَنَّهُما في رِهانِ

سيفي يسابق منايا (ميتات) البشر إلى أجسامهم، فسيفي يسابق الموت ليخطف أرواحهم وكأنه والموتَ فرسا رهان

يَرى حَدُّهُ غامِضَاتِ القُلوبِ   إذا كُنْتُ في هَبْوَةٍ لا أراني

يرى حد سيفي غامضات القلوب (القلوب المختبئة) فيصل إلى قلوب الأعداء، في حين أنني أنا في هبوة (غبار المعركة) ولست أرى نفسي

سأَجْعَلُهُ حَكَماً في النُّفُوسِ   ولو نابَ عنْهُ لِساني كَفَاني

سأجعل سيفي حكماً يقرر مصائر النفوس، مع أنني لو استعملت لساني لناب عنه وكفاني القتال

١٠ حياض الموت

قال المتنبي في صباه: ٨/ ٣١

لَيسَ التَّعَلُّلُ بالآمالِ مِنْ أَرَبي   ولا القناعةُ بالإقْلالِ مِنْ شِيَمِي

ليس التعلل (التصبُّر) بالآمال من أربي (شأني)، ولا القناعة بالإقلال (الفقر) من شيمي (خصالي). يقول: لا أريد أن أعيش على أحلام اليقظة، ولست قنوعاً

ولا أظنُّ بَناتِ الدَّهرِ تَتْرُكُني   حتى تَسُدَّ عليْها طُرْقَها هِمَمِي

لا أظن أن بنات الدهر (المصائب) ستركني إلا بعد أن أسدَّ عليها الطريق بهممي (بعزائمي وتصميمي)

لُم اللَّيالِيَ التي أَخْنَتْ على جِدَتي   بِرِقَّةِ الحالِ، واعْذِرْني ولا تَلُمِ

بدل أن تلومني يجب أن تلوم الليالي (الزمن) التي أخنت علي (أرهقتني) برقة الحال (بالفقر)، ويجب أن تعذرني

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ   ويَنْجلي خَبَري عنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ

سيصحب نصل السيف مني (إذ يصحبني) شخصاً مثل مضربه (حَدِّه)، فأنا حاد وماضٍ كالسيف، وسينجلي خبري (يتكشف) عن صمة الصمم (شجاع الشجعان)

لقد تصبَّرْتُ حتى لاتَ مُصْطَبَرٍ   فالآنَ أَقْحَمُ حتى لاتَ مُقْتَحَمِ

لقد صبرت حتى لات مصطبر (لم يعد مجال للصبر)، والآن سأقتحم اقتحاماً ما بعده اقتحام

لأَتْرُكَنَّ وُجوهَ الخيلِ ساهمةً   والحربُ أَقْوَمُ مِنْ ساقٍ على قَدَمِ

والله لأتركن وجوه الخيل ساهمة (مذهولة) لشدة بأسي إذ الحرب حامية وقائمة مثلما تقوم الساق فوق القدم

رِدِي حِياضَ الرَّدَى يا نفسُ، واتْرُكِي   حِياضَ خوفِ الرَّدَى لِلشّاءِ والنَّعَمِ

ردي (كوني واردةً) أحواض الردى (الموت) يا نفسي، واتركي أحواض الخوف من الموت للشاء (للأغنام) والنعم (الإبل). جعل للموت حوضاً وهذا معقول. فأما أن يجعل للخوف من الموت حوضاً فهذا هو المتنبي الذي درس أبا تمام جيداً

إنْ لم أَذَرْكِ على الأرماحِ سائِلَةً   فَلا دُعِيتُ ابنَ أمِّ المجدِ والكرمِ

والله إن لم أذرك (أتركك) يا نفسي تسيلين على الرماح فلا دُعيت (لقبت) ابن أم المجد والكرم

١١ اجتراء

قال المتنبي: ٣/٣

أيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي   أيَّ عَظِيمٍ أَتَّقي؟

أرتقي: أصعد، أتَّقي: أخاف

وكُلُّ ما قدْ خَلَقَ اللّـ   ـهُ، وما لم يَخْلُقِ

لكي يخرجه أبو العلاء المعري من الكفر جعل في تفسير البيت عبارة (ما لم يخلق الله بعد)، وكلمة (بعد) هي شهادة البراءة. والواحدي في شرحه جلا هذا الدفاع وأكده

مُـحْـتَـقَـرٌ فـي هِـمَّـتـي   كَـشَـعْـرَةٍ فـي مَـفْـرِقِـي

كل ما خلق الله وما لم يخلق «بعد» محتقر (صغير) بجانب همتي (طموحي) كشعرة في مفرقي (رأسي). لون جديد من الفخر بالذات: فخر ذاتي محض، لا بقبيلة ولا بعلم ولا بخلق. ولولا ما فسره لنا المعري لقلنا إن في هذه الأبيات الثلاثة «قلة أدب» تجاه الخالق، وننبه القارئ إلى أن كلمة «محتقر» معناها الأساسي «مستصغر»، ولم تكن تعني «المرذول» بنفس القدر الذي تعنيه في استعمالنا اليوم. وتأسّياً بنقادنا القدماء، وفيهم الفقيه والعابد، الذين كانوا يقيسون جودة الشعر بمعزل عن رسالته، نقول: هذا شعر فاخر فيه قوة وعنفوان وفيه ذاتية لم يعرفها الشعر العربي من قبل. فإن أردت أن تعرف لماذا فتن المتنبي الناس ألف سنة فهذا مفتاح من مفاتيح الجواب

١٢ فيلق من حديد

وقال المتنبي يمدح جعفر بن كَيْغَلَغ (ولم ينشده إياها): ٣/ ٣٥

إذا خَلَتْ مِنْكَ حِمْصٌ، لا خَلَتْ أبداً،   فـلا سَـقـاهَـا مِـنَ الـوَسْـمِـيِّ بـاكِـرُهُ

إذا كانت حمص خالية من وجودك، وأدعو ألا تخلو أبداً، فعندئذ لا سقاها ما ينزل مبكراً من الوسمي (أول المطر)

دَخَـلْـتَـهـا وشـعـاعُ الـشَّـمـسِ مُـتَّـقِـدٌ   ونورُ وجْهِـكَ، بينَ الخَلْقِ، باهِرُهُ

دخلتَها أنت والشمس متوهجة، ولكن نور وجهك، من بين وجوه كل الناس، يغلب شعاع الشمس

في فَيْلَقٍ مِنْ حَديدٍ لـوْ قَذَفْتَ بِـهِ   صَـرْفَ الـزمـانِ لـمـا دارتْ دوائِـرُهُ

دخلتَ حمص في فيلق (عسكر) يراه الرائي فيرى حديداً؛ ولو قذفت بهذا العسكر صرف (قسوة) الزمان لما دارت دوائر الزمان (لما نفذت أحكامه)

١٣ مشغول بالعشق

وقال يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي: ٤/ ٢٩

عَـزِيـزُ إسـاً مَـنْ دَاؤهُ الـحَـدَقُ الـنُّـجْـلُ   عَـيـاءٌ بِـهِ مـاتَ الـمُـحِـبُّـونَ مِـنْ قَـبْـلُ

عزيزُ إساً (قليل دواء) ذلك الذي داؤه (مرضه) الحَدَق (العيون) النجل (الواسعة)، وهذا المرض عياء (يعيي الأطباء) وقد مات به من قبل المحبُّون

فَمَنْ شاءَ فَلْيَنْظُرْ إليَّ، فَمَنظَري   نَذِيرٌ إلى مَنْ ظَنَّ أنَّ الـهوى سَهْلُ

فمن شاء فلينظر إليَّ فمنظري نذير (إنذار) لمن ظن أن الهوى سهل

ومـا هِـيَ إلَّا لَـحْـظَـةٌ بَـعْـدَ لَـحْـظَـةٍ   إذا نَـزَلَـتْ فـي قَـلْـبِـهِ رَحَـلَ الـعَـقْـلُ

إن هي إلا لحظة (نظرة) بعد لحظة، فإذا نزلت النظرة في قلب المحب رحل عقله

جَرى حُبُّها مَجْرى دَمِي في مَفاصِلِي فأصبحَ لِي، عَنْ كلِّ شُغْلٍ، بِها شُغْلُ

١٤ قلادة من دمي

قال المتنبي يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي: ٨/ ٤٠

إنَّ التي سَفَكَتْ دَمي بِجُفُونِها لَمْ تَدْرِ أنَّ دَمِي الذي تَتَقَلَّدُ

إن التي سفكت دمي (يقصد قتلتني عشقاً) بجفونها، لم تدر (لم تعلم) أن القلادة التي تتقلدها (ولعلها من عقيق أحمر، أو من ذهب أحمر) إنما هي دمي، فدمي في رقبتها وهي تبوء به. الشارحون الستة الذين أنظر في شروحهم الآن (اليازجي والمعري والعكبري والواحدي والبرقوقي وابن جني) يقولون إن معنى البيت: «إن التي سفكت دمي تقلدت هذا الدم، أي باءت به،» وابن جني لم يشرحه أساساً. وهذا التفسير مقصّر عن لفظ البيت. ولا أرى إلا أن أبا الطيب أراد بـ «تتقلد» معناها الحسي، أي تلبس في جيدها قلادة. وليست هذه المرة الوحيدة التي يصف فيها المتنبي حلي البدويات بالحمرة: مَنِ الجآذر في زي الأعاريب/**حمر الحلى** والمطايا والجلابيب.
ومفتاح اختلافي مع الشراح كلمة «الذي»

قالتْ، وقدْ رَأَتِ اصْفِرارِيَ: مَنْ بِهِ؟ وتَنَهَّدَتْ، فأجَبْتُها: المُتَنَهِّدُ

قالت المحبوبة وقد رأت اصفرار وجهي: من به (من صنع به ذلك؟) ثم تنهدت. فأجبتها: الذي صنع به ذلك هو المتنهد (أي أنتِ)

فَمَضَتْ، وقد صَبَغَ الحياءُ بَياضَها لَوْني، كَما صَبَغَ الُلجَيْنَ العَسْجَدُ

فمضت وقد صبغ الخجل بياضها بلوني أنا الأصفر، مثلما يصبغ العسجد (الذهب) اللجين (الفضة) إذ تطلى بالذهب. يقول الشراح إن المحبوبة اصطبغت باللون الأصفر خوفاً. فاقتنِعْ بقولهم إن شئت

عَدَوِيَّةٌ بَدَوِيَّةٌ، مِنْ دونِها سَلْبُ النُّفوسِ ونارُ حَرْبٍ تُوقَدُ

محبوبته عدوية (من بني عديّ) بدوية، ومِنْ دونها (قبل الوصول إليها) سلب النفوس (القتل) واتقاد نار الحرب

كُنْ حيثُ شئتَ تَسِرْ إليْكَ رِكابُنا فَالأرضُ واحدةٌ، وأنْتَ الأوْحَدُ

يخاطب المنبجي الممدوح: كن حيث شئت فستصل إليك ركابنا (نياقنا)، فالأرض واحدة مهما بعدت المسافة، وأنت واحد لا مثيل لك في كرمك

وَصُنِ الحسامَ، ولا تُذِلْهُ فَإنَّهُ يَشْكو يَمِينَكَ، والجَماجِمُ تَشْهَدُ

صن (احفظ) الحسام، ولا تذله (لا تمتهنه) فإنه يشكو يمينك لكثرة ما ضرَبَتْ به، وجماجم أعدائك تشهد بذلك

يَبِسَ النَّجِيعُ عَلَيْهِ، وَهْوَ مُجَرَّدٌ مِنْ غِمْدِهِ، وكأَنَّما هُوَ مُغْمَدُ

يبس النجيع (الدم) على السيف وهو مجرد من غمده (قرابه)، فصار كأنه محفوظ داخل غمد من الدماء المتيبسة عليه

رَيَّانُ، لو قَذَفَ الذي أَسْقَيْتَهُ لَجَرى مِنَ المُهَجاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

سيفك ريَّان (مرتوٍ) من الدم، ولو قَذَفَ بالدم الذي أسقيتَه إياه لجرى مما عليه من المهجات (دماء القلوب) بحر مزبد (يعلوه الزبد)

١٥ قاتل الزمن

قال المتنبي وقد عذله معاذ بن إسماعيل اللاذقي على ما كان شاهده من تهوره: ٢/٦

أَمِثْلي تأخُذُ النَّكَباتُ مِنْهُ وَيَجْزَعُ مِنْ مُلاقَاةِ الحِمَامِ؟

شخص مثلي.. هل تأخذ النكبات منه (من عزمه)؟ وهل يجزع (يرتبك) من ملاقاة الحمام (الموت)؟

ولو بَرَزَ الزَّمانُ إليَّ شَخْصاً لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي

ولو برز (ظهر) الزمان إلي شخصاً (في صورة إنسان) لخضَّب سيفي (صبغ بالدم) شعر مفرقه (رأسه)

١٦ بكاء الغيوم

قيل إن القصيدة قيلت سنة ٣٢١، ولم يظهرها المتنبي إلا بعد سنوات كثيرة: ٧/٣٣

ذِكَرُ الصِّبَا ومَرَاتِعِ الآرامِ جَلَبَتْ حِمَامي قَبلَ وقتِ حِمامي

ذِكَر (ذكريات) الصبا ومراتع (مراعي) الآرام (الغزلان البيض) جلبت حمامي (موتي) قبل وقته

دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ الهُمومُ عَلَيَّ في عَرَصاتِها، كَتَكاثُرِ اللُّوَّامِ

تلك دمن (خرائب) أتيت أزورها فتكاثرت الهموم على في عرصاتها (ساحاتها) كتكاثر اللائمين، الذين يلومونني للإسراف في التوجع على أيام الأحبة

وكَأَنَّ كُلَّ سحَابةٍ، وَقَفَتْ بِها تَبْكي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

وكأن كل سحابة قد وقفت تمطر فوق تلك الديار الخربة كأنها تبكي بعيني عروة بن حزام (العاشق الشاعر القديم)

ولَطالَمَا أفْنَيْتُ رِيقَ كَعَابِها فِيها، وأَفْنَتْ بِالعِتَابِ كَلامي

وكثيراً ما أفنيت (استنزفت) في هذه الديار ريق كعابها (فتياتها) بقبلاتي، وأخرستني أولئك الفتيات بكثرة عتابهن.

قَدْ كُنْتَ تَهْزَأُ بِالفِرَاقِ مَجَانَةً   وتَجُرُّ ذَيْلَيْ شِرَّةٍ وعُرَامِ

كنت يا هذا ـ يخاطب نفسه ـ تهزأ بالفراق وأثره على سبيل المجانة (الاستخفاف) وتجر ذيل التهور والشراسة. يقول: إنه كان يهزأ بالفراق ويتصرف باستخفاف وتهور وشراسة

ليسَ القِبَابُ على الرِّكابِ، وإنَّما   هُنَّ الحياةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلامِ

والآن يرحل الأحبة، وما تراه ليس القباب (الهوادج) فوق الركاب (الإبل)، بل هذه حياتي ترحل عني برحيلهنّ. التسويد من أ. عبد الرحيم

ليتَ الذي خَلَقَ النَّوى جَعَلَ الحَصَى   لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وعِظَامي

ليت خالق النوى (الفراق) جعل بدل الحصى الذي تدوسه الإبل مفاصلي وعظامي لكي أموت وأتخلص من هذا العذاب

١٧ لا لشيء إلا لأني غريب

قال المتنبي وكتب بها إلى الوالي وقد طال اعتقاله: ٣/ ٤

بِيَدي أيُّهَا الأَميرُ الأَرِيبُ   لا لِشَيءٍ، إلَّا لِأَنّي غَرِيبُ

بيدي (أي خذ بيدي) أيها الأمير الأريب (الذكي)، لا لشيء إلا لأنني غريب. هذا بيت نادر: لن ترى المتنبي رقيقاً هذه الرقة أبداً بعد ذلك. كان، عندما قالها، فتىً ناشئاً

أو لِأُمٍّ لَهَا إذا ذَكَرَتْني   دَمُ قَلْبٍ في دَمْعِ عَينٍ يَذُوبُ

أو كرامةً لأمي، التي لها ـ عندما تتذكرني ـ دم قلب يختلط بدمع عينها إذ تبكي دماً

إنْ أكُنْ قَبْلَ أنْ رَأَيْتُكَ أَخْطَأْ   تُ، فَإِنّي عَلى يَدَيْكَ أَتُوبُ

إن كنت أخطأت قبل أن أراك فأعطني فرصة لأتوب على يديك

١٨ اضطرار الأسد

أهدى إليه رجل يعرف بأبي دلف بن كنداج هدية وهو معتقل بحمص، فقبلها على الرغم من أن مهديها كان انتقص منه عند الوالي الذي اعتقله، فكتب المتنبي إليه من السجن: ٤/ ٤

أَهْوِنْ بِطُولِ الثَّواءِ والتَّلَفِ   والسِّجْنِ والقَيدِ يا أبا دُلَفِ

ما أهونَ طول الثواء (المكوث) والتلف (الإنهاك) والسجن والقيد يا أبا دلف

غيرَ اخْتِيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بي،   والجوعُ يُرْضي الأُسودَ بالجِيَفِ

دون أن أكون مخيراً قبلتُ برَّك (إحسانك) بي، فالجوع يجعل الأسود ترضى أكل الجيف (الجثث)

كُنْ أيُّها السِّجنُ كَيْفَ شئتَ، فَقَدْ   وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نفسَ مُعْتَرِفِ

كن أيها السجن كيف شئت فإنني وطنت (هيّأت) للموت نفسي معترفاً بالحقيقة المرة

لـو كـانَ سُكْـنَـايَ فـيـكَ مَـنْـقَـصَـةً   لَـم يَـكُـنِ الـدُّرُّ سـاكـنَ الـصَّـدَفِ

أيها السجن لو كان سكناي (إقامتي) فيك منقصة (عيباً) لما كان الدر (اللؤلؤ) يقيم مسجوناً داخل الصدف

١٩ عند انقطاع الرجاء

كتب المتنبي من السجن يستعطف الوالي الذي حبسه:

(نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٨/ ٣٠

أمـالِـكَ رِقِّـي! وَمَـنْ شَـأْنُـهُ   هِـبـاتُ الـلُّـجَـيْـنِ وعِـتْـقُ الـعَـبـيـدِ

يا مالك رقي (عبوديتي)، ويا من شأنه (عادته) هبات اللجين (هدايا الفضة) وعتق العبيد..

دَعَـوْتُـكَ عِـنْـدَ انـقـطـاعِ الـرَّجـا   ءِ، والـموتُ مِـنِّـي كَـحَـبْـلِ الـوَريـدِ

دعوتك (ناديتك) عند انقطاع رجائي من الناس، وعندما صار الموت قريباً مني قرب الوريد

دعَـوْتُـكَ لـمـا بَـرانـي الـبَـلاءُ   وَأَوْهَـنَ رِجْـلَـيَّ ثِـقْـلُ الـحَـديـدِ

دعوتك (ناديتك) لما براني البلاء بَرْياً، وأوهن (أرهق) رجليَّ ثقل حديد القيود

وقـدْ كـان مَـشْـيُـهُـمـا في الـنِّـعـالِ   فَـقَـدْ صـارَ مَـشْـيُـهُـمـا في الـقُـيُـودِ

وقد كان مشي رجليَّ في النعال، وصارتا تمشيان في القيود

وكُـنْـتُ مِـنَ الـنَّـاسِ فـي مَـحْـفِـلٍ   فـهـا أنـا فـي مَـحْـفِـلٍ مِـنْ قُـرُودِ

وكنت أعاشر الناس في محافلهم (مجالسهم)، وانا الآن في مجلس من القرود (نزلاء السجن من الأشقياء والمجرمين)

فَـمَـا لَـكَ تَـقْـبَـلُ زُورَ الـكَـلامِ   وقَـدْرُ الـشَّـهـادَةِ قَـدْرُ الـشُّـهـودِ

فما لك تقبل زور الكلام (الكلام الباطل)، وقيمة الشهادة بحسب قيمة الشهود، والشهود مغرضون كاذبون

فَـلا تَـسْـمَـعَـنَّ مِـنَ الـكَـاشِـحِـيـنَ   ولا تَـعْـبَـأَنَّ بِـعِـجْـلِ الـيَـهُـودِ

فلا تسمع كلام الكاشحين (مضمري العداوة)، ولا تعبأ (لا تهتم) بعجل اليهود (أي بالباطل الذي يشبه عجل الذهب الذي عبده اليهود في غيبة موسى النبي)

وكُـنْ فـارِقـاً بـيـنَ دَعْـوى (أَرَدْتُ)   ودَعْـوَى (فَـعَـلْـتُ) بِـشَـأْوٍ بَـعـيـدِ

وكن فارقاً (مفرِّقاً) بين دعوى تقول إنني «أردت» فعل شيء، ودعوى تقول إنني «فعلت» ذلك الشيء حقاً، بشأوٍ بعيد (بمسافة بعيدة). يقول: عليك أن تفرق بين زعمهم أنني (قلت) شيئاً وزعمهم أنني (فعلت) ذلك الشيء، فأنا بريءٌ نُقل عني قول، ولكنني لم أفعل شيئاً

٢٠ شارب شرابها

قدم له بعضهم خمراً فقال المتنبي: ١/ ٢

إذا ما شَرِبْتَ الخَمْرَ صِرْفَاً مُهَنَّأً   شَرِبْنا الذي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ

إذا أنتَ شربتَ الخمر صرفاً (خالصةً غير ممزوجة) وأنت مهنأ (منشرح)، فنحن نشرب من الماء الذي شرب مثلة الكرم (بستان العنب). المتنبي يشرب الماء فقط

٢١ نهر الدموع

قال المتنبي يمدح محمد بن زريق الطرسوسي: ٢/ ٣٠

إنْ كنْتِ ظاعِنَةً فإنَّ مَدامِعِي   تَكْفِي مَزَادكُمْ وتَرْوِي العِيسَا

إن كنتِ ظاعنة (راحلة)، فإن مدامعي (دموعي) تكفي مزادكم (قِربَتَكُمْ)، وتروي العيس (الجمال). يقول: إن دمعه غزير برحيل المحبوبة

بَيْضَاءُ، يَمْنَعُهَا التَكَلُّمَ دَلُّها   تِيهَاً، ويَمْنَعُها الحياءُ تَمِيسَا

المحبوبة بيضاء يمنعها دلها (دلالها) من التكلم تيهاً (فخراً)، ويمنعها الحياء من أن تميس (تتبختر). ولم ير شراح المتنبي تناقضاً بين التيه والحياء، ولا نحن نرى

٢٢ النسخة الأصلية للمجد

قال المتنبي يمدح عبد الله بن يحيى البحتري: ٣/ ١٦

أحْيَيْتَ للشُّعَراءِ الشِّعْرَ فامتَدَحُوا   جميعَ مَنْ مَدحُوهُ بالذي فِيكَا

أنت يا عبد الله بن يحيى أحييت للشعراء الشعر، إذ اهتدوا بسببك إلى الصفات الكريمة وصاروا يخلعونها على جميع الأمراء الذين مدحوهم

وعَلَّمُوا النَّاسَ مِنْكَ المجدَ، واقتَدَروا   على دقيقِ المعاني مِنْ مَعَانِيكَا

وعلَّم الشعراءُ الناسَ المجدَ بذكر صفاتك، وصاروا قادرين على صياغة المعاني الدقيقة لأنهم رأوها ممثلة فيك

فَكُنْ كَمَا شئتَ، يا مَنْ لاشبِيهَ لَهُ   وكيفَ شئتَ، فما خَلْقٌ يُدانِيكَا

فكن كما شئت، يا من لا يشبهه أحد، وكن كيف شئت، فليس هناك خلق (أحدٌ) يدانيك (يقرُبُ منك)

٢٣ شجر ينوح مع الحمام

قال المتنبي يمدح مساوِر بن محمد الرُّومي: ٣/ ٣٤

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ، وغَادَرَتْ   صَنَماً مِنَ الأَصنامِ لولا الروحُ

لعبت بمِشية المحبوب الشمول (الخمر)، وغادرته (تركته) بعد ذلك نشوان ساكناً، فهو كالصنم لولا أن فيه روحاً. وكانوا يصفون المرأة الجميلة بأنها كالصنم، وحماتي كانت تشبهها باللُّعبة

ما بالُهُ! لاحَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ   وَجَناتُهُ، وفُؤادِيَ المجروحُ

ما بال المحبوب! لاحظته (رمقته) فتضرجت (احمرَّت) وجناته (خدوده)، مع أن المجروح بحبه والأحق بالاحمرار قلبي

يَجِدُ الحَمامُ، ولو كَوَجْدِي لانْبَرى   شَجَرُ الأَرَاكِ مَعَ الحَمامِ يَنوحُ

يَجِدُ (يتألم وَجْداً وعشقاً) الحَمام، ولو كان وجده مثل وجدي لانبرى (لتصدى) شجر الأراك للنواح مع الحمام

٢٤ التمادي في التمادي

قال المتنبي يمدح علي بن إبراهيم التنوخي: ١٢/ ٤٣

إلى كَمْ ذا التَّخلُّفُ والتَّواني   وكَمْ هذا التَّمادِي في التَّمادِي

حتى متى أتخلف وأتوانى عن طلب المجد، وكم يطول بي التمادي في التمادي (يقصد الكسل)

وشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المَعَالي   بِبَيْعِ الشِّعْرِ في سوقِ الكَسَادِ

وإلى متى أشغل نفسي عن المعالي ببيع الشعر في سوق كاسدة لا ينفق الشعر فيها

ومَا مَاضِي الشبابِ بِمُسْتَرَدٍّ   ولا يومٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ

أَأَرْضَى أَنْ أعيشَ ولا أُكَافِي   على مَا لِلأميرِ مِنَ الأيادي

الأيادي: النِعَم

فَلَمَّا جِئْتُهُ أَعْلَى مَحَلِّي   وأَجْلَسَني على السَّبْعِ الشِّدَادِ

رفع الأمير محلي، وأجلسني فوق السبع الشداد (السماوات السبع)

تَهَلَّلَ قبلَ تَسْلِيمي عَلَيْهِ   وأَلْقَى مَالَهُ قَبْلَ الوِسَادِ

كان بشوشاً بي قبل أن ألقيَ السلام؛ وقبل أن يلقيَ لي وسادة أجلس عليها ألقى بماله وعطاياه

نَلُومُكَ يا عَلِيُّ لِغَيْرِ ذَنْبٍ   لأَنَّكَ قد زَرَيْتَ على العِبادِ

نلومك وليس لك ذنب، فقط أنت زريت (حقرت) الناس لأن عظمتك أبرزت دناءتهم

كَـأَنَّ الـهَـامَ فـي الـهَـيْـجَـا عُـيـونٌ وقـد طُـبِـعَـتْ سـيـوفُـكَ مِـنْ رُقَـادِ

كأن الهام (الرؤوس) في الهيجاء (الحرب) عيون، وسيوفك مطبوعة (مسبوكة) من الرقاد (النوم) فهي تدخل العيون

وقـد صُـغْـتَ الأَسِـنَّـةَ مِـنْ هُـمُـومٍ فَـمـا يَـخْـطُـرْنَ إلا فـي الـفُـؤادِ

وقد صنعتَ أسنة رماحك من الهموم فلهذا نراها تخطر في الفؤاد، أي تطعن الأعداء في قلوبهم

فـلا تَـغْـرُرْكَ أَلْـسِـنَـةٌ مَـوَالٍ تُـقَـلِّـبُـهُـنَّ أفْـئِـدَةٌ أَعَـادِ

فلا تغتر بألسنةِ مَوَالٍ (أنصار) لأن القلوب التي تحرك هذه الألسنة قلوبٌ أعداء

وَكُـنْ كـالـمـوتِ، لا يَـرْثـي لِـبَـاكٍ بَـكـى مِـنْـهُ، ويَـرْوَى وَهْـوَ صَـادِ

كن كالموت لا يحزن على الذين يبكون وهو مقبل عليهم، ويرتوي من البشر ويظل مع ذلك صادياً (عطشان)

فَـإِنَّ الـجُـرْحَ يَـنْـفِـرُ بَـعـدَ حِـيـنٍ إذا كـانَ الـبِـنـاءُ عَـلـى فَـسَـادِ

فالجرح ينفر (ينفتح) بعد حين إذا كان مضمداً على فساد، وكذلك المراؤون فهم، على حلاوة في ألسنتهم، يحملون في قلوبهم الحقد القديم الذي لم يندمل

٢٥ داحي الأرض

قال المتنبي يمدح الحسين بن إسحق التنوخي: ٣/ ٣٩

يُـحـاذِرُنـي حَـتْـفِـي كـأنِّـيَ حَـتْـفُـهُ وتَـنْـكُـزُنـي الأَفْـعَـى فَـيَـقْـتُـلُـهَـا سُـمِّـي

يحذر حتفي (موتي) مني كأنني أنا حتفٌ له، وتنكزني (تلسعني) الأفعى فيقتلها سمي

طِوَالُ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْصِفُها دَمي وبِيضُ السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُها لَحْمِي

طوال الردينيات (الرماح الطويلة) تنقصف في دمي إذ تصيبني، وبيض السريجيات (السيوف البيض) يقطعها لحمي

كَأَنِّي دَحَوْتُ الأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الإسْكَنْدَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمي

كأني أنا الذي دحوت (بسطت) الأرض من شدة خبرتي (معرفتي) بتضاريسها، وكأن الإسكندر بنى السد (بين يأجوج ومأجوج) من عزمي (تصميمي). كان في المتنبي، وربما في عصره أيضاً، اجتراء على الدين. فالقرآن يقول: «والأرض بعد ذلك دحاها»، والمتنبي يقول «كأني دحوت الأرض». وأما الشطر الثاني فمن فاخر الشعر، وجاء في القرآن أن ذا القرنين (الإسكندر) بنى سداً من الحديد والنحاس، وفسر المفسرون أن غرضه كان صد أقوامٍ نصفِ بشر

٢٦ سادة وعبيد

قال المتنبي يمدح علي بن إبراهيم التنوخي: ٧/ ٤٤

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ أَحْدَثُ شيءٍ عَهْداً بِها القِدَمُ

أحقُّ عافٍ (موقع متهدِّم) بدمعك هو الهمم (الطموحات)، فالهمم زالت منذ زمن بعيد وصار أحدث شيء بها عهداً القدم نفسه. يقول: الطموحات الكبيرة التي تجعل الناس يترفعون عن سفاسف الأمور زالت، حتى إن أقرب شيء لها زمناً هو القِدَم نفسه. طريقة غريبة في التعبير. وهذه الطموحات هي أجدر الأطلال بالدموع، فلنترك البكاء على أطلال المحبوبة في بداية هذه القصيدة كما يفعل الشعراء، ولنبك أطلال الهمم

وإنَّما النَّاسُ بالملوكِ، ومَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

الناس بملوكهم، ولا يفلح العرب إذا كان ملوكهم عجم. لست متأكداً من صحة هذا. التقيت وزملاء لي برئيس الجامعة الأميركية بالقاهرة ـ وهو أميركي ـ ومعه عدد من مساعديه ضمن وفد. وتحادثنا حديث مؤسسات ومجاملات. لكنني لم أملك نفسي أن أسأله: لا أكاد أرى لامعاً في البلد إلا وهو أستاذ عندكم. يبدو أنكم تدفعون كثيراً! غمز الرجل بعينه بخبث وأجاب: بل لنا عين تلتقط المواهب. وأظن أنَّ كلَيْنا صادق. كلما رأيت الأبحاث التي تصدر عن الجامعة الأميركية في القاهرة وأختها في بيروت باركت لهما، وزادت نقمتي على جامعاتنا العربية التي تمولها الحكومات

لا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلا حَسَبٌ ولا عُهُودٌ لَهُمْ، ولا ذِمَمُ

أولئك الملوك لا أدب عندهم ولا حسب (مجد موروث)، ولا كلمة لهم يحافظون عليها

بِكُلِّ أرْضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّها غَنَمُ

في كل أرض وطئتها (دستها) أمم يرعاها (يسوسها) عبد، فكأنها غنم (ماعز)

يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حينَ يَلْمَسُهُ وكانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ

هذا الحاكم العبد يجد الخز (الحرير) الآن خشناً لطيب عيشه، لكنه في أيام العبودية كان هو نفسه خشناً إلى درجة أن القلم (عود القصب) كان يُبرى بظفره

إنِّي، وإنْ لُمْتُ حاسِدِيَّ، فَما أُنْكِرُ أَنِّي عُقوبَةٌ لَهُمُ

رغم أنني ألوم من يحسدونني فإنني لا أنكر أن مجرد وجودي هو عقوبة لهم

وكيفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ على كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ

وكيف لا يُحسَد شخص علم (مهم) ارتفع فصارت قدمه فوق كل هامة (رأس)

٢٧ نحو أنطاكية على ناقتين

قال المتنبي يمدح المغيث بن علي بن بشر العجلي: ٩/ ٣٩

هـامَ الـفُـؤادُ بـأَعـرابِـيَّـةٍ سَـكَـنَـتْ   بَيْتاً مِنَ القَلْبِ، لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبا

هام الفؤاد بأعرابية جعلت من قلبي بيتاً لها، بيتاً لم تمدَّ هذه الحسناء له طنباً (حبل الخيمة)

مَظْلومةُ القَدِّ في تَشْبيهِهِ غُصُناً   مَظْلومةُ الرِّيقِ في تَشبيِهِه ضَرَبا

نظلم قدها إذا شبهناه بالغصن، ونظلم ريقها إذا شبهناه بالضَرَب (العسل)

بَيْضاءُ تُطْمِعُ في ما تَحتَ حُلَّتِها   وعَـزَّ ذَلـكَ مَـطْـلـوبـاً إذا طُـلِـبـا

هذه الأعرابية بيضاء تُطمِع الناس (تجعلهم يطمعون) في ما تحت حلتها (ثوبها) ـ بدلالها تجعل الناس يطمعون في جسمها ـ، وهذا الجسم عزيز (صعب المنال)

لـمَّـا أَقَـمْـتَ بـأنْـطـاكِـيَّـةَ اختَـلَـفَـتْ   إليَّ بِـالـخَـبَـرِ الـرُّكْـبانُ فـي حَـلَـبـا

عندما أقمتَ أنت (مكثتَ) في أنطاكية أيها الممدوح اختلفت (توافدت) إليَّ الركبان (المسافرون) في حلب يحملون الخبر

فَسِرْتُ نَحوَكَ لا أَلْوِي على أَحَدٍ   أَحُـثُّ راحِـلَـتَـيَّ: الـفَـقْـرَ والأَدَبـا

فسرتُ نحوك لا ألوي (لا أَلْتفتُ) على أحد، أحثُّ راحلتيَّ (ناقتيَّ): وهاتان الناقتان ما هما إلا فقري وأدبي، فهما الدافع الذي يدفعني نحوك. تسويد أ. عبد الرحيم

وإِنْ عَـمَـرْتُ جَـعَـلْـتُ الـحَـرْبَ والِدَةً   والـسَّـمْـهَـرِيَّ أَخـاً، والـمَـشْـرَفـيَّ أَبـا

وإن عمرت (عشت) فسوف أجعل الحرب أمِّي، وسأجعل السمهري (الرمح) أخي، والمشرفي (السيف) أبي

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الموتَ مُبْتَسِماً   حـتـى كـأَنَّ لـهُ فـي قَـتْـلِـهِ أَرَبـا

سأذهب للحرب مرافقاً كل شخص أشعث (مغبر) يلقى الموت مبتسماً حتى كأن له في قتل نفسه أرباً (هدفاً)

قُـحٌّ يَـكـادُ صَـهـيـلُ الـخَـيْـلِ يَـقْـذِفُـهُ   عَنْ سَرْجِهِ مَرَحاً بِالعِزِّ أَوْ طَرَبا

ورفيقي في القتال قحٌّ (عربي صميم) يكاد صهيل خيل المعركة يقذفه عن سرجه لكثرة مرحه وطربه بالعزّ

فالموتُ أَعْذَرُ لي، والصَّبْرُ أَجْمَلُ بي   والبَرُّ أوْسَعُ، والدُّنْيا لِمَنْ غَلَبا

الموت عذر كافٍ لي إذا لم أحقق طموحاتي، والصبر أليَقُ بي، والبَر واسع لكي أفر من الذل، والنجاح في الدنيا لمن يحقق الغلبة

٢٨ ناس صغار

قال المتنبي يمدح المغيث بن علي بن بشر العجلي: ٤٣/١١

فؤادٌ ما تُسَلِّيهِ المُدَامُ وعُمْرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللِّئامُ

فؤادي فؤاد لا تسليه المدام (الخمر)، وعمري قصير ضئيل كضآلة ما تهب (تعطي) لئام الناس

ودَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغَارٌ وإنْ كانتْ لهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

وهذا الدهر ناسه صغار النفوس، وإن كانت لهم جثث ضخمة

ومَا أنا مِنْهُمُ بالعيْشِ فيهِمْ ولَكنْ، مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

وما أنا جزء من هؤلاء الناس لكوني أعيش فيهم (بينهم)، فمعدن (خام) الذهب الرغام (التراب).
يقول: وجودي بين الناس اللئام كوجود الذهب الثمين في خام من التراب

أَرَانِبُ، غيرَ أنَّهُمُ مُلوكٌ مُفَتَّحَةٌ عُيونُهُمُ، نِيَامُ

هم كالأرانب - وقالوا الأرانب تنام مفتوحة الأعين -، فهم مغفلون وإن ظهر غير ذلك، ولكنهم مع ذلك ملوك

خَليلُكَ أَنْتَ، لا مَنْ قُلْتَ خِلِّي وإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ والكلامُ

خليلك (صاحبك) هو نفسك، وليس من تظنه صاحبك، مهما كثر التجمل (التملق) من جانبه والكلام

ولوْ حِيزَ الحِفَاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الحُسَامُ

لو حيز (اكتُسب) الحفاظ (الشهامة) بدون عقل لكان السيف تجنب أن يقطع عنق صيقله (صانعه)

وشِبْهُ الشيءِ مُنْجَذِبٌ إليهِ وأَشْبَهُنا بِدُنيانَا الطَّغَامُ

كل شيء منجذب إلى شبيهه، وأشبه الناس بالدنيا الطغام (السفلة). يقول: السفلة ينالون خير الدنيا لأنهم يشبهونها في سفالتها، وكل شيء منجذب إلى شبيهه

ولو لمْ يَعْلُ إلَّا ذُو مَحَلٍّ تَعَالى الجيْشُ، وانْحَطَّ القَتامُ

ولو لم يعل (يصعد عالياً) إلا ذو محل (صاحب فضل)، لكان الجيش تعالى (ارتفع)، ولكان القتام (الغبار) انحط (هبط). يقول: الفاضلون يهبطون في هذه الدنيا، فليس كل مستحق ينال المكانة التي يستحقها، انظر إلى الغبار التافه في المعركة تره يرتفع، وأما الجيش فهو على الأرض

وما كُلٌّ بِمَعْذُورٍ بِبُخْلٍ ولا كلٌّ على بُخْلٍ يُلامُ

ليس كل إنسان معذوراً على بخله، ولا كل إنسان يستحق اللوم. فاللئيم لا لوم عليه لأنه لئيم، أما الكريم أو ذو الأصل فلا عذر له على البخل

لقدْ حَسُنَتْ بِكَ الأوقاتُ، حتى كَـأنَّـكَ فـي فَـمِ الـزَّمَـنِ ابْـتِـسـامُ

يمدحه: حسنت (طابت) بوجودك الأوقات، فكأنك في فم الزمن ابتسام. تسويد أ. عبد الرحيم

وأُعـطِـيـتَ الـذي لـم يُـعْـطَ خَـلْـقٌ عـلـيـكَ صـلاةُ ربِّـكَ، والـسَّـلامُ

وأعطاك الله ما لم يعطه أحداً من الخصال الكريمة، فعليك صلاة الله (رحمته) وسلامه

٢٩ زخَّات المصائب

قال المتنبي يمدح علي بن منصور الحاجب: ١٤/ ٤٠

بأَبِي الشموسُ الجانحاتُ غَوَارِبا الـلابِـسـاتُ مِـنَ الـحـريـرِ جَـلابِـبَـا

بأبي (أفدي بأبي) هؤلاء الحسان اللائي يشبهن الشموس الجانحة (المائلة) للغروب، فهن على وشك الرحيل، واللابسات جلابيب من الحرير

الـنَّـاعِـمَـاتُ الـقـاتِـلاتُ الـمُـحْـيِـيـا تُ الـمُـبْـدِيـاتُ مِـنَ الـدَّلالِ غـرائِـبـا

أفدي بأبي الناعمات القاتلات المحييات المبديات من فنون الدلال كل غريب. التسويد لأحمد عبد الرحيم، وفوقه: «يا عيني!»

حـاوَلْـنَ تَـفْـدِيَـتـي، وخِـفْـنَ مُـراقِـبـا فَـوَضَـعْـنَ أَيْـدِيَـهُـنَّ فَـوْقَ تَـرائِـبَـا

حاولن القول «فديناك»، وخفن أن يراهن رقيب، فوضعن أيديهن فوق الترائب (أعلى الصدور)، فهن يقلن هذه العبارة بالإشارة

وبَـسَـمْـنَ عَـنْ بَـرَدٍ خَـشِـيـتُ أُذيـبُـهُ مِـنْ حَـرِّ أنـفـاسـي، فَـكُـنـتُ الـذَّائِـبـا

وابتسمن فظهرت أسنانهن التي تشبه البَرَد، وخشيت أن أذيب هذا البرد بحر أنفاسي، فكنت أنا الذائب ألماً لفراقهن

كيف الرجاءُ مِنَ الخُطوبِ تَخَلُّصاً مِـنْ بَـعْـدِ مـا أنْـشَـبْـنَ فِـيَّ مَـخـالِـبَـا

كيف أرجو أن أتخلص من الخطوب (المصائب) من بعد ما أنشبت (غرزت) المصائب فيَّ مخالبها

أَوْحَـدْنَـنـي، وَوَجَـدْنَ حُـزْنـاً واحِـداً مُـتَـنَـاهِـيـاً فَـجَـعَـلْـنَـهُ لِـيَ صـاحِـبَـا

المصائب أوحدنني (جعلنني واحداً منفرداً لا يختلط بي الناس)، ووجدن حزناً كبيراً متناهياً في الإيلام فجعلن هذا الحزن صاحباً ملازماً لي

وَنَـصَـبْـنَـنـي غَـرَضَ الـرُّمـاةِ تُـصـيـبُـنـي مِـحَـنٌ أَحَـدُّ مِـنَ الـسُّـيـوفِ مَـضـارِبَـا

ونصبتني المصائب غرضاً (هدفاً) للرماة، فالمحن تصيبني، وهي أكثر حدَّة من مضارب (نصال) السيوف

أَظْـمَـتْـنِـيَ الـدُّنْـيـا، فَـلَـمَّـا جِـئْـتُـهـا مُـسْـتَـسْـقِـيـاً، مَـطَـرَتْ عَـلَـيَّ مَـصَـائِـبـا

أظمتني الدنيا (أعطشتني)، فلما جئتها مستسقياً (طالباً الشرب) أمطرت علي مصائبَ

حالٌ مَتَى عَلِمَ ابْنُ مَنْصورٍ بِها   جاءَ الزمانُ إليَّ مِنْها تائِبا

وهذه حال إذا علم بها ابن منصور، الممدوح، فإن الزمان سيأتيني تائباً. أي أن ابن منصور سيكافئني مكافأة تجعل الزمان يضحك لي مكفراً عن سالف ذنوبه

هذا الذي أَفْنَى النُّضارَ مَوَاهِباً   وَعِدَاهُ قَتْلاً، والزمانَ تَجارِبَا

هذا الرجل أفنى النضار (الذهب) مواهبَ (عطايا وهبات)، وأفنى عداه (أعداءه) قتلاً، وأفنى العمر تجارب

هذا الذي أبصرتُ مِنْهُ حاضِراً   مِثْلَ الذي أبصرتُ منهُ غائِبَا

هذا الشخص هو الذي رأيتُ خيره وأنا عنده مثلما رأيته وأنا غائب عنه، لشدة كرمه

كالبدرِ مِنْ حيثُ التفتَّ رأيتَهُ   يُهْدِي إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثاقِبَا

الثاقب: المتقد

كالبَحْرِ يقْذِفُ للقَرِيبِ جَوَاهِراً   جُوداً، ويبْعَثُ للبَعِيدِ سَحائِبَا

إنه كالبحر: يقذف الجواهر (اللؤلؤ) للقريب لشدة جوده، ويبعث للبعيد السحب الماطرة

كالشَّمسِ في كَبِدِ السماءِ، وضَوْؤُها   يَغْشى البلادَ، مَشارِقاً ومَغارِبَا

إنه كالشمس البعيدة في كبد السماء (وسطها)، ولكن ضوءها يغشى (يأتي) مشارق البلاد ومغاربها.

تسويد الأبيات الثلاثة الأخيرة أ. عبد الرحيم

٣٠ سره في جفنه

يمدح عمر بن سليمان الشرابي وهو يومئذٍ يتولى الفداء بين العرب والروم: ٨/ ٣٩

نَرَى عِظَمَاً بِالبَيْنِ، والصَّدُّ أعظَمُ   ونَتَّهِمُ الواشِينَ، والدَّمْعُ مِنْهُمُ

نستعظم البين (الفراق)، ولكن الصدَّ (الهجران المتعمد) أعظم منه، ونتهم الواشين (النمامين) بإفشاء أسرارنا، مع أن دمعنا هو أحد الواشين فهو يفشي ما بنا من شوق

ومَنْ لُبُّهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حالُهُ؟   ومَنْ سِرُّهُ في جَفْنِهِ، كيف يَكْتُمُ

ومن كان لبه (قلبه) مع غيره فكيف يكون حاله؟ ومن كان سره مملوكاً لجفنه فكيف يكتم ما به من حرقة (فالعين تكشف السر من خلال البكاء)

ولمَّا التقيْنا، والنَّوى ورَقيبُنا   غَفُولانِ عَنَّا، ظَلْتُ أَبْكِي وتَبْسِمُ

ولما التقيت مع المحبوبة، وكان النوى (الفراق) والرقيب غافلين عنا، ظلت (ظللت) أبكي وظلت هي تبتسم

ولم أَرَ بَدْراً ضاحِكاً قبلَ وجهِها   ولم تَرَ قَبْلِي مَيِّتاً يَتَكَلَّمُ

لم أر بدراً يضحك قبل وجهها (يريد أنها قمر)، ولم تر هي قبلي ميتاً يتكلم (فأنا ميت عليها، ميت منها)

فَلَوْ كان قَلبي دارَها كانَ خَالِيَاً ولكنَّ جَيْشَ الشَّوقِ فيهِ عَرَمْرَمُ

وهذه الحسناء، ككل حسان المتنبي، أعرابية وبيتها صار فارغاً لأن قومها رحلوا. ولو كان قلبي مثل بيتها لكان فارغاً من الهوى، ولكن جيش الشوق في قلبي عرمرم (كبير)

أثافٍ بِها مَا بِالفُؤادِ مِنَ الصِّلَى ورَسْمٌ كَجِسْمي ناحِلٌ مُتَهَدِّمُ

ويصف بيتها الآن: أثاف (حجارة موقد) بها من آثار الصلى (الحَرْق) مثل ما بقلبي، ورسم (طلل) مثل جسمي ناحل (مهزول) ومتهدم

بَلَلْتُ بِها رُدْنَيَّ، والغَيْمُ مُسْعِدي وَعَبْرَتُهُ صِرْفٌ، وفي عَبْرَتي دَمُ

بللتُ ردني (كُمَّيْ ثوبي) من دموعي ومن المطر، فقد كان الغيم مسعدي (مساعداً لي) ولكن عبرته (دمعته) صرف (صافية)، أما دمعتي ففيها دم

بِنَفْسي الخيالُ الزَّائِرِي بعدَ هَجْعَةٍ وقَوْلَتُهُ لي: بَعْدَنَا الغَمْضَ تَطْعَمُ

أفدي بنفسي الخيال الذي يزورني في أحلامي بعد الهجعة (الإغفاءة)، وأفدي قوله لي معاتباً: نراك بعد فراقنا تَطْعَمُ (تذوق) الغمض (النوم)!

٣١ قمران وأربع ليال

قال المتنبي يمدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب: ٢/ ٣٧

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ مِنْ شَعْرِها في لَيْلةٍ فَأَرَتْ لَيالِيَ أَرْبَعا

نشرت ثلاث ذوائب (خصلات) من شعرها الأسود في الليل، فأرتني بذلك أربع ليال، خصلاتها الثلاث والليل الحقيقي

واسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بوجْهِها فَأَرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعَا

وبرزت بوجهها والقمر في السماء، فجعلتني أرى قمرين في وقت معاً

٣٢ معاهدة مع الأسود

اجتاز المتنبي بمكانٍ يعرف بالفراديس من أرض قنسرين فسمع زئير الأسد، فقال: ٤/ ٤

أَجارُكِ يا أُسْدَ الفَرَادِيسِ مُكْرَمُ فَتَسْكُنَ نَفْسي، أمْ مُهَانٌ فَمُسْلَمُ؟

هل جارك (الملتجئ إليكِ) يا أسود منطقة الفراديس موضع تكريم، فبذلك تسكن (تهدأ) نفسي؟ أم هو مهان (معرض للهوان) ومسلَم (معرض لتسليمه لمن يطاردونه)؟

ورائي وقُدَّامي عُداةٌ كَثيرةٌ أُحاذِرُ مِنْ لِصٍّ، ومِنْكِ، ومِنْهُمُ

ورائي وقدامي عداة (أعداء) كثيرون، وأنا أحاذر (أخاف) من اللصوص، ومنكِ أيتها الأسود، ومن أعدائي

فهلْ لكِ في حِلْفِي على ما أُريدُهُ فإنِّي بأَسْبابِ المعيشةِ أعْلَمُ

فهل لك في (هل تقبلين) حلفي (التحالف معي) لكي أحقق ما أريده، فإنني أخبر منك بأسباب (وسائل) المعيشة واكتساب الرزق..

إذن لأَتاكِ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ وأَثْرَيْتِ مما تَغْنَمِينَ وأَغْنَمُ

في هذه الحالة، إذا تم الحلف، سيأتيك الرزق من كل وجهة (جانب)، وستصبحين أيتها الأسود ثرية مما تحصلين عليه أنت وأنا من غنائم

٣٣ ركب م الجِنِّ

قال المتنبي يمدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي: ٣٧/١٢

صِلَةُ الهَجْرِ لِي، وهَجْرُ الوِصَالِ نَكَسانِي في السُّقْمِ نُكْسَ الهِلالِ

صلة الهجر (مصاحبة الهجر) لي، وهجر الوصال (اللقاء) نكساني في السقم (أرجعا إلي المرض) كما يعود القمر للهزال فيصبح هلالاً ويضمحل

فَغَدا الجِسْمُ ناقِصاً، والذي يَنْـ ـقُصُ مِنْهُ يَزِيدُ في بَلبَالي

فجسمي ناقص ومهزول، وما ينقص من جسمي يتحول إلى بلبال (حزن)

قِفْ على الدِّمْنَتَيْنِ بالدَّوِّ مِنْ رَيَّـ ـا، كَخَالٍ في وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ

قف يا صاحبي بالدمنتين (الخِربتين) بالدوِّ (بالصحراء) وهما منزل المحبوبة ريا، وهما مثل الخال (الشامة) في الوجنة (الخد) الذي بجانبه خال آخر

بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ في عِرَاصٍ كأَنَّهُنَّ لَيَالِ

قف بطلول (خرائب) كأنها نجوم، وهي موجودة وسط عراص (ساحات) كأنها الليالي. ذلك أن الساحات مملوءة بالحجارة السود من أثر المواقد، ولكن الخرائب فيها بقايا عظام وما شابهها فهي بيضاء وسط هذا السواد

ونُؤِيٍّ كأَنَّهُنَّ عَلَيْهِنَّ خِدَامٌ خُرْسٌ بِسُوقٍ خِدَالِ

قف بالنؤيّ (الخنادق المحفورة حول الخيام) وكأنها حول الخيام خِدام (خلاخيل) خرس بسوق (بسيقان) خدال (غلاظ). يشبه النؤيّ وهي تلك القنوات التي كان البدو يحفرونها حول الخيمة ليجري فيها ماء المطر ولا يدخل الخيمة، يشبهها بالخلاخيل الخرساء، وهي خرساء لأنها تحيط بسيقان سمينة. والعرب تحب ساق المرأة سمينة مملوءة، وتتغزل بالخلخال الأخرس الذي لا يتحرك ولا يصدر صوتاً

نَحْنُ رَكْبُ مِ الجِنِّ في زِيِّ نَاسٍ فوقَ طَيْرٍ لها شُخُوصُ الجِمَالِ

نحن ركب (مسافرون) من الجن ولكن لنا زي الناس، ونركب طيراً لكن شكلها شكل الجمال. يصف صحبه الهائمين في الصحارى

مِنْ بَنَاتِ الجَدِيلِ، تَمشي بِنا في الـ ـبِيـدِ مَـشْـيَ الأَيّـامِ فـي الآجـالِ

نياقنا من حفيدات الجديل (آدم الإبل)، وهي تمشي بنا في البيد (الصحارى) كما تمشي الأيام في الآجال (الأعمار). فالجمال تنهب الصحراء كما تنهب الأيام الأعمار

رَجُـلٌ طِـيـنُـهُ مِـنَ الـعَـنْـبَـرِ الـوَرْ دِ وطِـيـنُ الـعِـبـادِ مِـنْ صَـلْـصَـالِ

الممدوح مخلوق من طين لكن طينه من العنبر الورد (الوردي اللون)، في حين الطين الذي خلق منه الناس من صلصال (طين الأرض)

فَـبَـقِـيَّـاتُ طـيـنِـهِ لاقَـتِ الـمـا ءَ فَـصَـارَتْ عُـذُوبَـةً فـي الـزُّلالِ

وما تبقى من طينٍ عنبريٍّ بعد خلق هذا الرجل اختلط بماء الأنهار والينابيع، ومن هنا صار عندنا ماء عذب زلال

وبَـقَـايـا وقـارِهِ عـافَـتِ الـنـا سَ فَـصَـارَتْ رَكَـانَـةً فـي الـجِـبَـالِ

وقد خلق الممدوح من الوقار، وما تبقى من الوقار بعد خلقه لم يذهب للناس الآخرين بل عافهم (أنف منهم) وتحول إلى ركانة (رسوخ) في الجبال. هذا الخلط بين المادي والمعنوي شيء يحسنه أبو الطيب كما لم نشهد في كل ما سبقه من الشعر: هذا مفتاح آخر لعظمة المتنبي وغرابته وجدته، وهذا مفتاح من مفاتيح سر إعجاب المحدثين به

لَـسْـتُ مِـمَّـنْ يَـغُـرُّهُ حُـبُّـكَ الـسِّـلْـ ـمَ، وأَنْ لا تَـرَى شُـهُـودَ الـقِـتـالِ

أنا لا أغتر بحبك السلم، وبأنك لا ترى (لا تقرر) شهود (حضور) القتال، فالأمر ليس تجنباً للقتال، بل..

ذاكَ شـيءٌ كَـفَـاكَـهُ عَـيْـشُ شَـانِـيـ ـكَ ذَلِـيـلاً، وقِـلَّـةُ الأَشْـكـالِ

إن القتال شيء كفاكه (جنبك إياه) عيش شانيك (كارهك) ذليلاً، وجنَّبك إياه أيضاً قلة الأشكال (الأنداد). فعدوك ذليل، ونظراؤك قليلون ولذا لا حاجة بك للقتال، ولكنك بالطبع بطل عظيم لو دعت الحاجة. وهكذا فالمتنبي يجد العذر للممدوح إن لم يكن قاتلاً فاتكاً، فكأن القتل والفتك هما المحمدة الكبرى

٣٤ بضدها تتبين الأشياء

قال المتنبي يمدح أبا عليٍ هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وكان يذهب إلى التصوف: ٦/ ٤٧

أَنـا صَـخْـرَةُ الـوادِي اذا ما زُوحِـمَـتْ وإذا نَـطَـقْـتُ فـإنَّـنـي الـجَـوْزَاءُ

أنا راسخ كصخرة الوادي (فالسيل يجرف كل الحجارة، أما الصخرة التي بقيت في الوادي فهي الراسخة) إذا ما زوحمت (تعرضت للمزاحمة والمدافعة) فهي تثبت بالطبع؛ وإذا نطقتُ فكلامي عالٍ كالجوزاء (نجوم برج الجوزاء)

وإذا خَفِيتُ على الغَبِيِّ فَعَاذِرٌ   أَلّا تَرَانِيَ مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

وإذا خفيتُ (كنت مجهول القدر) على غبيّ، فأنا أجد عذراً للمقلة (العين) العمياء أن لا تراني

شِيَمُ اللَّيَالي أنْ تُشَكِّكَ نَاقَتي: صَدْرِي بِها أَفْضَى أم البَيْدَاءُ

شيم الليالي (طباع الزمن) أن تشكك ناقتي: هل صدري أفضى (أوسع) بها (بطباع الزمن) أم البيداء أوسع. فناقة أبي الطيب متعبة وهي تقطع الصحراء التي لا تنتهي، وهي تشك: هل الصحراء أوسع أم صدر هذا الرجل العنيد؟

بيْني وبَيْنَ أبي عَلِيٍّ مِثْلُهُ   شُمُّ الجِبَالِ، ومِثْلُهُنَّ رَجاءُ

تفصل بيني وبين الممدوح أبي علي جبال شم (عالية) مثله، فهو عالي القدر، وبيني وبينه من رجائي في كرمه ما هو مثل الجبال في الضخامة

مَنْ يَظْلِمُ اللؤمَاءَ في تَكْلِيفِهِمْ   أنْ يُصْبِحُوا وَهُمُ لَهُ أَكْفَاءُ

أبو علي هو من (الذي) يظلم اللؤماء لو كلفهم (أجبرهم) أن يجاروه ليصبحوا أكفاءَ له (أنداداً له)

وَنَذِيمُهُمْ، وبِهِمْ عَرَفْنا فَضْلَهُ   وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ

ونحن نذيم (نذم) اللؤماء، مع أننا بسببهم عرفنا فضله، فالأشياء تتبين (تصبح واضحة) بمقارنتها مع ضدها (عكسها)

٣٥ الحكم قبل المداولة

قال المتنبي يمدح بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني وهو يومئذٍ يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨: ٤/ ٢٠

كأنَّ نَوالَكَ بعضُ القَضَاءِ   فَمَا تُعْطِ مِنْهُ نَجِدْهُ جُدُودَا

كأن نوالك (عطاءك) قضاء وقدر، فالذي نناله منك نجده (نعتبره) جدوداً (حظوظاً)

ورُبَّتَمَا حَمْلَةٍ في الوَغَى   رَدَدْتَ بها الذُّبَّلَ السُّمْرَ سُودَا

وربتما (رب) حملة شننتَها أنت في الوغى (الحرب) رددت بها (حَوَّلتَ بها) الذُبَّل السمر (الرماح السمراء) إلى اللون الأسود لما تجمد عليها من الدم

وهَوْلٍ كَشَفْتَ، وَنَصْلٍ قَصَفْتَ،   ورُمْحٍ تَرَكْتَ مُبَاداً مُبِيدَا

ورب هول (كارثة) قد كشفته (أبعدته)، ونصل (سيف) قد قصفته، ورمح قد تركته مباداً (مكسوراً قد فنيَ) مبيداً (مبيداً للأعداء قبل أن ينكسر)

ومالٍ وَهَبْتَ بِلا مَوْعِدٍ   وقِرْنٍ سَبَقْتَ إليْهِ الوَعِيدَا

ورب مال وهبته دون موعد (وعد)، ورب قرن (خصم) عاجلته بالقتل فسبقت إليه الوعيد (التهديد)

٣٦ كن نفسك

قال المتنبي في بدر بن عمار، وقد فصده الطبيب فغاص المِبضع في جسمه فأضرَّ به: ٧/ ٤٤

وَمَـهْـمَـهٍ جُـبْـتُـهُ عـلـى قَـدَمـي   تَـعْـجِـزُ عـنْـهُ الـعَـرامِـسُ الـذُّلُـلُ

ومهمهٍ (رب صحراء) جبته (قطعته سيراً) على قدمي، مع أن العرامس الذلل (النياق الصلبة المروضة) تعجز عنه

بِـصَـارِمـي مُـرْتَـدٍ، بِـمَـخْـبَـرَتـي   مُـجْـتَـزِئٌ، بـالـظَّـلام مُـشْـتَـمِـلُ

قطعت الصحراء مرتدياً صارمي (سيفي)، ومجتزئاً (مكتفياً) بمخبرتي (بمعرفتي) بتضاريس الأرض، ومشتملاً (محاطاً) بالظلام

إذا صَـديـقٌ نَـكِـرْتُ جـانِـبَـهُ   لـم تُـعْـيِـنـي فـي فـراقِـهِ الـحِـيَـلُ

إذا نكرت جانب صديق (لمست تغيره علي) لم تعيني (لم تُعجزني) الحيلة في فراقه، ووجدت طريقة لذلك

فـي سَعَـةِ الـخـافِـقَـيْـنِ مُـضْـطـرَبٌ   وفـي بِـلادٍ مِـنْ أُخْـتِـهـا بَـدَلُ

في سعة الخافقين (الشرق والغرب) مضطرَب (مكان)، ولكل بلد بديل. تسويد أ. عبد الرحيم

مـددتَ فـي راحـةِ الـطـبـيـبِ يَـداً   فـمـا دَرَى كـيـف يُـقـطَـعُ الأمـلُ

أيها الممدوح لقد مددتَ يدك (وهي أمل الناس لأنها معطاء) فأمسكها الطبيب براحته، يريد فصد الشريان، ولكنه عجز عن قطع الأمل

خـامَـرَهُ، إذ مَـدَدْتَـهـا، جَـزَعٌ   كـأنَّـهُ مِـنْ حَـذَاقَـةٍ عَـجِـلُ

خامره (داخله) الجزع (الرهبة)، وصار مستعجلاً، فكأن عجلته دليل على الحذاقة (البراعة) لكنه في الواقع مضطرب

أَبْلَغُ ما يُطْلَبُ النَّجاحُ بِهِ الطَّـ-   ـبْعُ، وعـنـدَ الـتَّـعَـمُّـقِ الـزَّلَـلُ

أبلغ (أقصى) شيء يطلب بواسطته النجاح الطبع (التصرف على الطبيعة)، وعندما يتعمق الإنسان (يبالغ ويخالف طبعه) فإن مصيره الزلل (الخطأ)، وكان الطبيب إذ فَصد الممدوح خرج عن طبعه لاضطرابه فزلّ

٣٧ الضائعات في شعورهن

قال المتنبي يمدح بدر بن عمار: ١٥/ ٤٦.

بَـقـائـي شـاءَ، لَـيْـسَ هُـمُ، ارتِـحـالا   وحُـسْـنَ الـصَّـبْـرِ زَمُّـوا لا الـجِـمَـالا

بقائي (وجودي في الحياة) أراد الرحيل وليس هم (أهل الحبيبة)، والذي زموه (ربطوا به الزمام) ليرحلوا ليس الجِمال بل حسن الصبر. يقول: برحيلهم رحل وجودي، ورحل أيضاً صبري

تَـوَلَّـوْا بَـغْـتَـةً، فَـكَـأَنَّ بَـيْـنـاً تَـهَـيَّـبَـنـي فَـفَـاجَـأنـي اغـتِـيـالا

تولوا (ذهبوا) بغتة (فجأة)، فكأن البين (الفراق) تهيبني (خاف مني) ففاجأني واغتالني اغتيالاً

فـكـانَ مَـسـيـرُ عـيـسِـهِـمُ ذَمِـيـلاً وسـيْـرُ الـدَّمْـعِ إثْـرَهُـمُ انـهِـمـالا

فكان مسير عيسهم (إبلهم) ذميلاً (نوع من السير البطيء)، وأما سير دمعي إثرهم (بعدهم) فكان انهمالاً (هطولاً)

كـأَنَّ الـعِـيـسَ كـانَـتْ فَـوْقَ جَـفْـنـي مُـنَـاخـاتٍ، فَـلَـمَّـا ثُـرْنَ سَـالا

كأنَّ العيس (الإبل) كانت مناخة (بارِكَة) فوق جفني، فلما ثرن (قمن) عن جفني بقصد الرحيل سال جفني بالدموع

وَحَـجَّـبَـتِ الـنَّـوى الـظَّـبَـيَـاتِ عـنِّـي فَـسَـاعَـدَتِ الـبَـرَاقِـعَ والـحِـجَـالا

حجبت النوى (الفراق) الظبيات (الغزالات/الحبيبات) عني، فساعد الفراق البراقع (أغطية الوجه) والحجال (الستور) في تحجيب الفتيات

لَـبِـسْـنَ الـوَشْـيَ، لا مُـتَـجَـمِّـلاتٍ ولـكِـنْ، كَـيْ يَـصُـنَّ بِـهِ الـجَـمـالا

الحبيبات لبسن الوشي (الثياب المَوْشِيَّة) لكن ليس للتجمل بل لصون جمالهن عن العيون

وضَـفَّـرْنَ الـغَـدَائِـرَ، لا لِـحُـسْـنٍ ولـكِـنْ خِـفْـنَ في الـشَّـعَـرِ الـضَّـلالا

وضفرن غدائرهن (خصلات شعرهن) ليس لاجتلاب الحسن، ولكن خفنَ أن تضل (تضيع) وجوههن في الشعر الكثيف

بَـدَتْ قَـمَـرَاً، ومـالَـتْ خُـوطَ بَـانٍ وفَـاحَـتْ عَـنْـبَـراً، ورَنَـتْ غَـزَالا

حبيبتي بدت كالقمر، ومالت خوط بان (غصن بان)، وفاحت عنبراً، ورنت (نظرت) غزالاً

وَجَـارَتْ في الـحُـكُـومَـةِ، ثُـمَّ أَبْـدَتْ لـنـا مِـنْ حُـسْـنِ قَـامَـتِـهـا اعـتِـدَالا

وجارت (ظلمت) في الحكومة (الحكم)، ثم أظهرت لنا من حسن قامتها اعتدالاً.. فهي ظالمة لنا وعادلة في استقامة قدها

كـأَنَّ الـحُـزْنَ مَـشْـغُـوفٌ بِـقَـلـبـي فَـسَـاعَـةَ هَـجْـرِهـا يَـجِـدُ الـوِصَـالا

كأن الحزن مشغوف (مغرم) بقلبي، وعندما تهجرني هي يجد الحزن لحظة للوصال فيحل في قلبي

أَلِـفْـتُ تَـرَحُّـلـي، وجَـعَـلْـتُ أَرْضـي قُـتُـودِيَ والـغُـرَيْـرِيَّ الـجُـلالا

ألفت (تعودتُ) على الترحال حتى لقد جعلتُ أرضي القتود (أخشاب سرج البعير) والغريري الجلال (البعير الكريم النسب، الضخم). يقول: إنه لشدة تعوده على الترحال صار ظهر الجمل أرضاً له

فَـمـا حَـاوَلْـتُ فـي أَرْضٍ مُـقـامَـاً   ولا أَزْمَـعْـتُ عَـنْ أَرْضٍ زَوَالا

فما حاولت أن أقيم في أرض، ولا أزمعت (نويت) عن أرض رحيلاً لأنني أصلاً لا أقيم في أرض

علـى قَـلَـقٍ، كَـأَنَّ الـرِّيـحَ تَـحْـتـي   أُوَجِّـهُـهـا جَـنُـوبـاً أَوْ شَـمَـالا

أنا على قلق (حركة مستمرة)، فكأن الريح هي التي تحملني وأنا أوجهها جنوباً أو شمالاً كما أوجه حصاني. يعجب الحداثيون جداً بهذا البيت لكلمة «قَلَق». على أن «قلقاً» هنا تعني الحركة الدائبة وليس القلق الوجودي. ومن الظلم للمتنبي أن نعجب به للسبب الخطأ. هو وجودي بطريقته، وليس لعبارة أساء أهل زمننا فهمها في سياق اللغة التاريخي. وها نحن سودنا البيت، وأحمد ولد الدين فال يَسِمُه بسجدة. وأحمد عبد الرحيم يناقش ويجد أن «قلق الروح» مما يحتمله نص البيت

أَرَى الـمُـتَـشـاعِـرِيـنَ غُـرُوا بِـذَمِّـي   ومَـنْ ذا يَـحْـمَـدُ الـدَّاءَ الـعُـضَـالا

أرى المتشاعرين (مدَّعي الشعر) غُرُوا (وجدوا إغراء) بذمي، ومن هو الذي يحمد (يمدح) الداء العضال (الذي لا شفاء منه). يقول: المتشاعرون مغرمون بشتمي، ولست ألومهم فأنا بوصفي شاعراً حقيقياً أشبه الداء العضال بالنسبة لهم

ومَـنْ يَـكُ ذا فَـمٍ مُـرٍّ مَـرِيـضٍ   يَـجِـدْ مُـرَّاً بِـهِ الـمـاءَ الـزُّلالا

من يكن في فمه مرارة بسبب المرض، فسيجد الماء الزلال (العذب) مراً. فالمتشاعرون لا يتذوقون شعري لأن أذواقهم فاسدة

٣٨ مواجهة مع الأسد

خرج بدر بن عمار إلى أسدٍ فهرب الأسد منه، وكان قد خرج قبله إلى أسدٍ آخر فهاجه عن بقرةٍ افترسها بعد أن شبع وثقل، فوثب إلى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه، فضربه بالسوط ثم تكفل به الجيش، فقال المتنبي بادئاً بالنسيب، ثم واصفاً الأسد: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٣٦/ ٤٩

في الخَدِّ، أَنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلا،   مَـطَـرٌ تَـزِيـدُ بِـه الـخُـدودُ مُـحُـولا

في خدي، بسبب نية الخليط (القوم) الرحيل، مطر من الدموع، ولكنه ـ خلافاً لكل مطر ـ يزيد الخدود محولاً (قحطاً). يقول: بسببِ رحيل قوم المحبوبة لانتجاع الكلأ الذي يأتي به مطر السماء، فإن في خديَّ مطراً، لكن هذا المطر يزيد خديَّ قحطا لا خصباً، فالدموع تزيد وجهي شحوباً

يـا نَـظـرةً نَـفَـتِ الـرُّقـادَ، وغَـادَرَتْ   فـي حَـدِّ قَـلـبـيَ مَـا حَـيِـيـتُ فُـلُـولا

يا لها من نظرة صوبتها إلي الحبيبة! فقد نفت (أبعدت) الرقاد عني، وغادرت (تركت) في قلبي فلولاً (تثليماً). شبَّه قلبه بسيف تثلم حده من نظرته للحبيبة

أَجِدُ الجَفَاءَ، عَلى سِوَاكَ، مُرُوءَةً والصَّبْرَ، إلّا في نَواكَ، جَمِيلا

يبدأ بالمدح: أجد الجفاء (الابتعاد) مروءة (شرفاً) إلا عنك أيها الممدوح، وأجد الصبر جميلاً إلا الصبر عن نواك (فراقك). فالابتعاد عن الناس وعدم التقرب لهم من سمات الشرف، ولكن الأمر مع الممدوح مختلف

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقُولا

ينتقل إلى المدح: يا معفر (ممرّغ) الهزبر (الأسد) عندما ألقاه أرضاً بسوطه (كرباجه)، قل لي: لمن ادخرت (أبقيت) الصارم المصقول (السيف)

وَقَعَتْ على الأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ نُضِدَتْ بِها هامُ الرِّفَاقِ تُلُولا

وقعت بلية (مصيبة) على وادي نهر الأردن من هذا الأسد نضدت (صُفَّتْ) بها (بسببها) هام الرفاق (رؤوس المترافقين في سفر) تلولاً (تلالاً). يقول: كان الأسد يفترس المسافرين المترافقين في ترحالهم ويترك جماجمهم تلالاً

وَرْدٌ، إذا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شَارِباً وَرَدَ الفُرَاتَ زَئيرُهُ والنِّيلا

هذا ورد (والورد من أسماء الأسد)، وإذا ورد (جاء) بحيرة طبريا ليشرب، ورد (وصل) زئيره إلى الفرات وإلى النيل

مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوارِسِ، لابِسٌ في غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلا

والأسد متخضب (مصبوغ) بدم الفرسان، ويلبس وهو في غيله (غابته) غابة أخرى ما هي سوى لبدتيه (الشعر على جانبي رأسه)

ما قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إلّا ظُنَّتا تحتَ الدُّجى، نارَ الفَريقِ حُلُولا

ما قوبلت (شوهدت) عيناه إلا ظن المرء أنهما تحت الدجى (في الليل) نار الفريق (القوم) حلولاً (نازلين). يقول: إن عيني الأسد كأنهما النار التي يوقدها القوم عندما يحلون بالمكان

في وَحْدَةِ الرُّهْبانِ، إلّا أنَّهُ لا يَعْرِفُ التَّحرِيمَ والتَّحْليلا

الأسد منفرد كالراهب، لكنه لا يعرف الحرام والحلال

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقاً مِنْ تِيهِهِ فَكَأنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلا

يطأ (يدوس) الأسد الثرى (التراب) مترفقاً (متأنياً) من تيهه (لتكبره)، وهو في هذا الترفق كالآسي (الطبيب) إذ يجس (يمس) جسم العليل (المريض)

وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إلى يَأْفُوخِهِ حتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إكْلِيلا

يرد الأسد عفرته (شعر مؤخرة الرقبة) إلى يأفوخه (رأسه) حتى يصير على رأسه ما يشبه الإكليل

وتَظُنُّهُ، مِمَّا يُزَمْجِرُ، نَفْسُهُ عَنها، لِشِدَّةِ غَيْظِهِ، مَشْغُولا

ونفس الأسد.. هذه النفس تظنه لكثرة زمجرته مشغولاً عنها لشدة الغيظ

قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الخُطَى، فَكَأَنَّما   رَكِبَ الكَمِيُّ جَوادَهُ مَشْكُولا

الخوف من الأسد جعل خطوات المتجهين نحوه قصيرة، فكأنما قد ركب الكمي (المسلح) حصانه والحصان مشكول (مكبل)

أَلْقَى فَرِيسَتَهُ، وبَرْبَرَ دُونَها   وقَرُبْتَ قُرْباً خالَهُ تَطْفِيلا

ألقى الأسد فريسته وبربر (همهم) دونها (بقربها)، وقربت أنت منه يا بدر بن عمار قرباً خاله (ظنه) الأسد تطفيلاً (تطفلاً على طعامه)

فَتَشابَهَ الخُلُقانِ في إِقْدَامِهِ   وتَخالَفا في بَذْلِكَ المأكُولا

فخلقك وخلق الأسد متشابهان في الإقدام (الشجاعة)، ومختلفان في أنك تبذل (تتخلى عن) المأكول (الفريسة)

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فِيكَ كِلَيْهِما: مَتْناً أَزَلَّ، وسَاعِداً مَفْتُولا

هذا الأسد يرى فيك عضوين يشبهان عضوين لديه: المتن الأزل (الظهر الرشيق)، والساعد المفتول

في سَرْجِ ظَامِئَةِ الفُصُوصِ طِمِرَّةٍ   يَأْبى تَفَرُّدُها لها التَّمْثِيلا

وأنت اقتربت منه وأنت تركب سرج طمرة (فرس وثابة) ظامئة الفصوص (رشيقة الجسم)، ويأبى تفردها أن نشبهها بشيء آخر

نَيَّالَةِ الطَّلِباتِ، لَوْلا أَنَّها   تُعْطِي مَكانَ لِجَامِها، ما نِيلا

هذه الفرس نيالة الطَّلِبات (تنال كل ما تلحقه)، ولولا أنها تخفض رأسها لكي يضعوا لها اللجام لما نيل رأسها

تندَى سوالِفُها إذا اسْتَحْضَرْتَها   وَيُظَنُّ عَقْدُ عِنانِها مَحْلُولا

تندى (تترطب) سوالف الفرس بالعرق إذا استحضرتها (رَكَضْتَها)، ولأنها مطواعة وأصيلة لا تحتاج إلى جذب مقودها، حتى ليظن المرء أن عقدة عِنانها (مقودها) محلولة

ما زالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ في زَوْرِهِ   حتى حَسِبْتَ العَرْضَ منهُ الطُّولا

الأسد ظل يجمع كل جسمه في زوره (في رقبته)، حتى صار عرضه مثل طوله

ويَدُقُّ بِالصَّدْرِ الحِجَارَ كَأَنَّهُ   يَبْغِي إلى مَا في الحَضِيضِ سَبِيلا

ويدق صدره بحجار الأرض غضباً وكأنه يريد الوصول إلى ما في حضيض الأرض

وكأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ فادَّنَى   لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجَليلَ جَليلا

وكأنما غرته (خدعته) عينه فادنى (اقترب) وهو لا يبصر الخطب الجليل (الخطر الكبير) المقبل كبيراً

أَنَفُ الكَريمِ مِنَ الدَّنِيئةِ تَارِكٌ   في عينِهِ العَددَ الكثيرَ قَليلا

أنف (ترفُّع) الكريم عن الدنيئة (العار) يجعله يرى العدد الكثير قليلاً، فلا يبالي بكثرة الأعداء لأنه يغضب لشرفه

والعارُ مَضَّاضٌ، وليسَ بِخَائِفٍ   مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خافَ مِمَّا قِيلا

العار مضاض (مؤلم)، والذي يخاف على سمعته لا يخاف الموت

سَبَقَ التِقَاءَكَهُ بِوَثْبَةِ هاجِمٍ   لو لم تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا

سبق الأسد اللقاء بينك وبينه بوثبة، وكانت قوية إلى درجة أنك لو لم تصادمه لجازك (لتجاوزك) بميل (ميل ذلك الزمان في ذلك المكان نحو ثلاثة كيلومترات)

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وقد كافَحْتَهُ   فاسْتَنْصَرَ التَّسْليمَ والتَّجْدِيلا

خذلته قوته عندما كافحته (واجهته)، فاستنصر (استعان بـ) الاستسلام والتجديل (السقوط أرضاً)

قَبَضَتْ مَنِيَّتُهُ يَدَيْهِ وعُنْقَهُ   فكأنَّما صادَفْتَهُ مَغْلُولا

كانت منيته (موته) مقدرة عليه فكأنما هذا القدر قبض يديه وعنقه، فأنت لقيته وكأنه مغلول (مكبل)

سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِه وبِحَالِه   فَنَجا يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولا

بعد مقتل الأسد سمع أسد آخر (وأراده المتنبي أن يكون ابن عمته لأن ابن عمه تكسر وزن البيت) بما جرى له، فنجا منك مهرولاً ومهولاً (فزعاً)

وأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرارُهُ   وكَقَتْلِهِ أنْ لا يَموتَ قَتِيلا

وأمرُّ من الذي فر منه ذلك الأسد الثاني حقيقة أنه فر، ونجاته من القتل هي كالقتل نفسه لما في ذلك من العار

تَلَفُ الذي اتَّخَذَ الجَراءَةَ خُلَّةً   وَعَظَ الذي اتَّخَذَ الفِرارَ خَلِيلا

إن تلف (هلاك) الأسد الذي اتخذ من الجرأة خلة (طبعاً)، هذا الهلاك وعظ الأسد الثاني الذي اتخذ الفرار خليلاً (صديقاً)

لو كانَ عِلْمُكَ بالإلَهِ مُقَسَّماً   في الناس، ما بَعَثَ الإلهُ رَسُولا

يا بدر ابن عمار! لو كان علمك بالإله (بشؤون الدين) مقسماً بين الناس لما كانت هناك حاجة للرسل

لو كانَ لَفْظُكَ فِيهِمُ ما أَنْزَلَ الـ   ـفُرْقانَ والتَّوْراةَ والإنْجِيلا

ولو كان كلامك موجوداً بين الناس يتداولونه منذ القدم لما أنزل الإله الكتب السماوية

لـو كـانَ مـا تُـعْـطِـيهِـمُ مِـنْ قَـبْـلِ أَنْ   تُـعْـطِـيـهِـمُ لـم يَـعْـرِفُـوا الـتَّـأْمِـيـلا

ولو كان المال الذي تعطيه للناس موجوداً بأيديهم قبل أن تعطيهم لما عرفوا معنى للأمل، فعطاؤك كثير يلبي كل الآمال ويزيلها إذ تتحول إلى واقع

فلقدْ عُـرِفْـتَ، وما عُـرِفْـتَ حَـقِـيـقـةً   ولَـقَـدْ جُـهِـلْـتَ، ومَـا جُـهِـلْـتَ خُـمُـولا

قد عرفناك، ولكننا لم نعرف حقيقة أخلاقك لأنها فوق تصور البشر، ولهذا جهلناك، لكننا لم نجهلك لخمولك (الخمول عكس الشهرة). التسويد لأحمد عبد الرحيم مع تعليق: «هذا عالٍ جداً!»

نَـطَـقَـتْ بِـسُـؤْدَدِكَ الـحَـمـامُ تَـغَـنِّـيـاً،   وبِـمـا تُـجَـشِّـمُـهـا الـجِـيـادُ صَـهِـيـلا

نطق الحمام متغنياً بذكر سؤددك (كونك سيداً)، ونطقت الجياد (الخيول) صاهلة بكثرة ما تجشمها (تتعبها) في المعارك

ما كُـلُّ مَـنْ طَـلَـبَ الـمَـعـالـيَ نَـافِـذاً   فـيـهـا، ولا كـلُّ الـرِّجــالِ فُـحُـولا

ليس كل شخص أراد المعالي (الأمجاد) نافذاً (واصلاً ومخترقاً)، وليس كل رجل فحلاً

٣٩ احذر عداوة الشعراء

سار بدر بن عمار إلى الساحل، ولم يسر أبو الطيب معه. ثم بلغه أن ابن كروَّس الأعور كتب إلى بدر يقول له إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك. ولما عاد بدر إلى طبرية ضربت له قباب عليها أمثلة من تصاوير فقال أبو الطيب المتنبي: ٤١/١٢

الـحـبُّ مـا مَـنَـعَ الـكـلامَ الأَلْـسُـنَـا   وألَـذُّ شَـكـوى عـاشِـقٍ مـا أَعْـلَـنـا

الحب الحقيقي هو ذلك الذي يمنع اللسان من الكلام، مع أن ألذ الشكوى بالنسبة للعاشق هي الشكوى العلنية لأنها تريح القلب

لَيْتَ الحبيبَ الهاجِرِي هَجْرَ الكَرَى،   مِنْ غيرِ جُرْمٍ، وَاصِلِي صِلَةَ الضَّنى

ليت الحبيب الذي هجرني مثلما هجرني الكرى (النوم) بغير جرم (ذنب) من جانبي، ليته واصلي (منعم علي بالوصال) مثل صلة الضنى (العذاب) لي

بِـتْـنـا، ولـوْ حَـلَّـيْـتَـنَـا لـم تَـدْرِ مَـا   أَلـوانُـنـا، مِـمَّـا اسْـتُـفْـعْـنَ تَـلَـوُّنَـا

بت مع المحبوب ولو أنك حليتنا (أردت وصف حليتنا وملابسنا) لما عرفت ألواننا لكثرة ما استفعن (تغيرن) من العشق

وتَـوَقَّـدَتْ أَنْـفـاسُـنـا حـتـى لَـقَـدْ   أَشْـفَـقْـتُ تَـحْـتَـرِقُ الـعـواذِلُ بَـيْـنَـنـا

توقدت أنفاسنا حتى لقد أشفقت (خشيت) أن تصل حرارتها إلى العواذل (اللائمات) فتحرقهن

أَرِجَ الـطَّـرِيـقُ، فَـمَـا مَـرَرْتَ بِـمَـوْضِـعٍ   إلَّا أقـامَ بِـهِ الـشَّـذَا مُـسْـتَـوْطِـنـا

أرج الطريق (تعطَّرَ بأريج طيب)، فلا تمر أيها الممدوح بموضع إلا استوطن فيه الشذا (العطر)

لَوْ تَعْقِلُ الشَّجَرُ التي قابَلْتَها   مَدَّتْ مُحَيِّيَةً إليكَ الأَغْصُنا

يمدح بدر بن عمار: لو كان الشجر عاقلاً لمد إليك أغصانه وأنت تمر محيياً

طَرِبَتْ مَراكِبُنا، فَخِلْنا أَنَّها،   لولا حياءٌ عاقَها، رَقَصَتْ بِنا

طربت مراكبنا (نياقنا) فخلنا (ظننَّا) أنها كادت ترقص بنا لولا أن الحياء عاقها (منعها)

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجِيادُ عَوابِسٌ   يَخْبُبْنَ بالحَلَقِ المُضاعَفِ والقَنا

لقد أقبلت باسماً والجياد (الخيل) عوابس (مكشرات) من التعب وهن يخببن (يسرن سير الخبب المعتدل) وعليهن فرسان بدروع منسوجة من الحلقات المعدنية، وهم يحملون القنا (الرماح)

عَقَدَتْ سنابِكُها عَليها عِثْيَراً   لو تَبْتَغِي عَنَقاً عليهِ لأَمْكَنا

سنابك الخيل (حوافرها) أثارت العثير (الغبار) فانعقد فوق الرؤوس، ولكثافته فإنك لو شئت أن تمشي عليه عنقاً (سيراً سريعاً) لأمكنك ذلك

والأمرُ أمرُكَ، والقلوبُ خَوافِقٌ   في مَوْقِفٍ بينَ المنِيَّةِ والمُنى

أمرك مطاع في موقف الحرب الذي فيه تخفق القلوب وهي بين المنية (الموت) وبين تحقيق الأماني

فَانْهَ المُشِيرَ عَليكَ فيَّ بِضِلَّةٍ   فالحُرُّ مُمْتَحَنٌ بِأَوْلادِ الزِّنى

فَانْهَ (امنع/اجعله ينتهي) الذي يشير عليك بضلة (بدسيسة) في شأني، فأنا من الأحرار والله يختبرني بدسائس أولاد الزنى

ومَكايِدُ السُّفَهاءِ واقِعَةٌ بِهِمْ   وعَداوَةُ الشُّعَراءِ بِئسَ المُقْتَنَى

ومكايد (دسائس) السفهاء ستنقلب على رؤوسهم، وعداوة الشعراء أسوأ ما يقتنيه المرء

٤٠ من يهن يسهل الهوان عليه

خرج أبو الطيب إلى جبل جرش فنزل بأبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني، وكان بينهما مودة بطبرية فقال المتنبي يمدحه: ١٠/٤٣

لا افتخارٌ إلا لِمَنْ لا يُضامُ   مُدْرِكٍ أَوْ مُحارِبٍ لا يَنامُ

ليس الفخر إلا للرجل الذي لا يضام (لا يُظلم)، وهو دوماً إما مدركٌ (محصِّل) ثأره، أو محارب في سبيله لا يتوانى ولا ينام عنه

ليسَ عَزْماً ما مَرَّضَ المَرْءُ فِيهِ   ليسَ هَمَّاً ما عاقَ عنهُ الظَّلامُ

ليس العزم الحقُّ ما مرض (تردد) المرء فيه، وليس الهم (الطموح) الحقُّ ما حال دونه الظلام والعوائق. يقول: إن العزم الحقيقي لا يكون مربوطاً بالعلل والأسباب التي تفسر التقصير، والطموح الحقيقي لا يبالي بالظلام وسائر المعوقات

واحْتِمالُ الأذَى، ورؤْيَةُ جَانِبِـ ـهِ، غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأجْسَامُ

احتمال (تحمُّل) الأذى، مع كونك ترى جانيه (مرتكبه) بحقك، هذا يشبه الطعام.. لكنه طعام تضوى (تهزل) به الأجسام بدل أن تنمو

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ

ذليل هو من يغبط (يحسد) الذليل على عيشته. فرب عيشة يكون الحمام (الموت) أهون منها

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إلَيْهَا اللِّئَامُ

الحلم (الصفحً) الذي يأتي من شخص ليست عنده القوة ليس حلماً بل هو حجة اللئام. ترى الرجل يقول إنه سامح شخصاً، والواقع أنه لم يستطع تحصيل حقه منه

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

الذي يَهُون (يهين نفسه) يصبح الهوان (الذل) سهلاً عليه. مثل الميت الذي لا يؤلمه أن يصاب بجرح

ضاقَ ذَرْعاً بِأَنْ أَضِيقَ بِهِ ذَرْ عاً زَماني، واسْتَكْرَمَتْني الكِرَامُ

نفد صبر الزمن واستسلم من محاولته إنفاد صبري عليه، ووجدني الكرام كريماً. يقول: عجز الزمان عن أن يبتليني بأمر لا أحتمله، ووجدني الكرام كريم الخلق

واقِفاً تحتَ أَخْمَصَيْ قَدْرِ نَفْسي واقِفاً تحتَ أَخْمَصَيَّ الأنامُ

وأنا واقف عند مكانة متدنية جداً عما أستحق فكأنني واقف تحت أخمصيْ (أسفل قدميْ) قدري الحقيقي.. يكون الأنام (البشر) واقفين تحت قدميَّ أنا في القيمة

أَقَراراً أَلَذُّ فوقَ شَرَارٍ، ومَراماً أَبْغِي وظُلْمي يُرَامُ..

هل ألذ (أتمتع) بقرار (بهدوء) فوق الشرار (قدح اللهب)، وهل أطلب مراماً (هدفاً) وإلحاق الظلم بي يُرام (يُطلب)؟ يقول: كيف لي ان أعيش هانئاً وسط الأذى، وكيف أسعى لهدف والمطلوب إلحاق الظلم بي..

دُونَ أنْ يَشْرَقَ الحجازُ ونَجْدٌ والعِراقَانِ، بالقَنا، والشَّامُ

لن أستقر على حال الأذى والظلم دون (قبل) أن يشرق (يغص في حلقه) الحجاز ونجد وعراق العرب وعراق العجم والشام بالقنا (بالرماح). يقول: لن أهدأ إلا عندما أملأ كل هذه البلاد بالرماح لكثرة غزواتي وجيوشي

٤١ مشرد في البوادي

قال المتنبي يصف مسيره في البوادي، وما لقي في أسفاره، ويذم ابن كروَّس: ١٣/١٦

أَوَانَاً في بُيوتِ البَدْوِ رَحْلي وآوِنَةً على قَتَدِ البَعيرِ

أواناً (أحياناً) أضع رحلي (متاع السفر) في بيوت البدو (والبيت في العربية القديمة هو الخيمة)، وأحياناً يكون متاعي فوق قتد البعير (خشب السرج)

أُعَرِّضُ لِلرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِي وأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِيَ لِلهَجِيرِ

أعرض نحري (ما بين العنق والصدر) للرماح الصم (الصلبة)، وأنصب حر وجهي (ما ظهر منه وتحرر من اللثام) للهجير (حر الظهيرة)

وأَسْرِي في ظَلامِ اللَّيلِ وَحْدِي كأَنِّيَ مِنْهُ في قَمَرٍ مُنِيرِ

أسري (أسير ليلاً) في الظلام وحيداً، وكأنني أسير في قمر منير لأنني لا أبالي بالظلام وأعرف مجاهل الصحراء

فَقُلْ في حاجَةٍ لم أَقْضِ مِنْها، على شَغَفي بِها، شَرْوَى نَقِيرِ

فقل (فما قولك؟) في حاجتي هذه التي لم أقض منها سوى شروى نقير (أقل القليل). شروى (مثل) نقير (نقرة في نواة التمرة): أي شيء تافه جداً

ونَفْسٍ لا تُجِيبُ إلى خَسِيسٍ وعَيْنٍ لا تُدَارُ على نَظِيرِ

وما قولك في نفسي التي لا تجيب (لا تستجيب) للخسيس (الأمر التافه)، وفي عيني التي لا أديرها على نظير (مشابه لي). يقول: نفسي لا تأبه بتحصيل الأهداف الصغيرة، وعندما أدير عيني في البشر لا أرى فيهم نظيراً لي

وكَفٍّ لا تُنَازِعُ مَنْ أَتَانِي يُنازِعُنِي سِوى شَرَفِي وخِيرِي

وما قولك في كَفِّي التي لا تنازع (تخاصم) من جاءني يريد أخذ ما بيدي، مع استثناء شرفي وخِيري (كَرَمي). يقول: إنه لا ينازع الناس في صغائر الأمور فليأخذوها منه كما شاءوا، ولكنه لا يسمح لأحد أن يمس شرفه ولا كرم أصله

وقِلَّةِ ناصِرٍ. جُوزِيتَ عَنِّي بِشَرٍّ مِنْكَ، يا شَرَّ الدُّهُورِ

وما قولك في قلة من يناصرني؟ ألا جازاك الله عني (أي بسبب ما فعلته بي) بشيء أكثر شرّاً منك يا شر الأزمان

عَدُوِّيَ كُلُّ شيءٍ فيكَ، حتى لَخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدُورِ

كل شيء في هذا الزمن عدوي، حتى إنني خلت (ظننت) الأكم (التلال) موغرة (مشحونة) الصدور حقداً علي. تأمل هذا البيت: يرى المتنبي الناس كلهم ضده، وعندما يرى التلال منفوخة الصدور يحسبها مملوءة حقداً عليه. هذا النوع من الكلام كان جديداً على شعراء ذلك الزمن، وأحسوا بكل هذا الدفق من المشاعر والتعبير عنها بكل هذا الإيجاز. لا أكتمنك أنني ـ وأنا أشرح بعض الأبيات ـ أحس بإحباط كثير، وأقول في نفسي: يا رجل! تضيع وقتك في شرح كلام رجل ليس عنده سوى أن يقول أنا أنا، وهو يريد أن يغزو العالم. هذا كلام هتلرٍ أحمق. ثم يمر بي بيت كهذا البيت، وأحس ما فيه من وثبة خيال ومن دفق شعور ومن متانة لغة فأراجع نفسي، وأقول: وهل الشعر عقل ورزانة؟ أليس أحلى الشعر ما انبثق من شعور فياض، سواء أكان هذا الشعور شعور رجل عاقل أم شعور شخص مضطرب؟

فلو أنّي حُسِدْتُ على نَفِيسٍ   لَجُدْتُ به لِذِي الجَدِّ العَثُورِ

لو أن ما حسدوني عليه شيء نفيس (ثمين) لجدت به (تكرمت به) لصاحب الجد (الحظ) العثور (العاثر)

ولكنّي حُسِدْتُ على حَياتي   ومَا خَيْرُ الحياةِ بِلا سُرُورِ

ولكن ما يحسدونني عليه هو حياتي، وحياتي على كل حال لا خير فيها لأنها خالية من السرور

فيا ابنَ كَرَوَّسٍ! يا نِصْفَ أعمى   وإنْ تَفْخَرْ، فَيا نِصْفَ البَصِيرِ!

يا ابن كروس (وهو رجل أعور من مهجوّي المتنبي) يا نصف أعمى، وإن أردت أن تفاخر فأنت نصف بصير

تُعادِينا لِأَنّا غَيْرُ لُكْنٍ   وتُبْغِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ

أنت تعادينا لأننا فصحاء غير لُكن (ثقال الألسنة)، وتكرهنا لأننا غير عور (جمع أعور)

فلوْ كُنْتَ امْرَءاً يُهْجَى هَجَوْنا   ولكِنْ، ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

لو كنت ممن يستحق الهجاء لهجوناك، ولكن أنت ذو نفس صغيرة تافهة، فمسافة الفتر (ما بين رأس الإبهام ورأس السبابة) لا مجال فيها للسير

٤٢ في سبيل التاج

قال المتنبي يمدح أبا عبدِ الله، محمدَ بنَ عبدِ الله بن محمد الخطيب الخصيبي، وهو يومئذٍ يتقلد القضاء بأنطاكية: ٨/ ٤٢

أَفاضِلُ النَّاسِ أَغْراضٌ لِذَا الزَّمَنِ   يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أَخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

الناس الفضلاء أغراض (أهداف) لذا الزمن (لهذا الزمن)، وأكثرهم خلواً من الهموم أكثرهم خلواً من الفطن (الذكاء)

وإنَّما نَحْنُ في جِيلٍ سَواسِيَةٍ   شَرٌّ عَلى الحُرِّ مِنْ سُقْمٍ على بَدَنِ

ونحن نعيش في جيل كل من فيه متساوون في الدناءة، وهم أشرُّ على الشخص الحر من السقم (المرض) على البدن

حَوْلي بِكُلِّ مَكانٍ مِنْهُمُ خِلَقٌ   تُخْطِي إذا جِئْتَ في اسْتِفْهامِها بِمَنِ

أرى حولي في كل مكان خِلَقاً (مخلوقات) هم أقرب للمخلوقات غير العاقلة حتى إنك تخطئ في اللغة لو استعملت معهم كلمة «مَنْ» الاستفهامية. بل يجب أن تستعمل معهم أداة الاستفهام «ما» التي لغير العاقل

فَقْرُ الجَهولِ بِلا قلبٍ إلى أدبٍ   فَقْرُ الحِمارِ بِلا رأسٍ إلى رَسَنِ

الجهول المفتقر إلى قلب (عقل) من الطبيعي أن يفتقر إلى الأدب، فهو كحمار بلا رأس فمن الطبيعي ألا يكون له رسن (مقود)

وخَلَّةٍ في جَلِيسٍ أَلْتَقِيهِ بِها   كَيْما يَرَى أَنَّنا مِثْلانِ في الوَهَنِ

ورب خلة (صفة) من صفات جليس ألتقيه أنا بها (أدعي وجودها عندي أنا أيضاً) وذلك كيما (كي) يشعر أننا مثلان (متماثلان) في الوهن (ضعف العقل). يقول: إنه يتظاهر بالحمق حتى لا يشعر جليسه بتفوقه

وكِلْمَةٍ في طَرِيقٍ خِفْتُ أُعْرِبُها   فَيُهْتَدَى لي، فَلَمْ أَقْدِرْ على اللَّحَنِ

ورب كلمة قلتها في طريق (وأنا مسافر) وخفت أن أعربها بالحركات الصحيحة حتى لا يهتدي الناس إلى هويتي، إلا أنني لم أستطع اللحن (الغلط في اللغة) لفصاحتي سليقةً

قدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عندي كُلَّ نازِلةٍ   ولَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ المَرْكَبِ الخَشِنِ

الصبر هون عندي كل نازلة (مصيبة)، وعزمي جعلني أجد خشونة المركب (ما أركبه من المشقات) ليناً

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ   وهَلْ تَرُوقُ دَفِيناً جُوْدَةُ الكَفَنِ

على المضيم (المظلوم) ألا يتباهى بحسن بزته (ثوبه)، فهو عندئذ كالميت الذي تروقه (تعجبه) جُودة الكفن

٤٣ رثاء الجدة

ورد على أبي الطيب المتنبي كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك. فانحدر إلى بغداد وكانت جدته قد يئست منه، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه، فقبَّلت كتابه وحُمَّت لوقتها سروراً به، وغلب الفرح على قلبها فقتلها، فقال يرثيها: ٢٣/ ٣٤

لكِ اللَّهُ مِنْ مَفْجوعَةٍ بِحَبِيبِها   قَتيلَةِ شَوْقٍ، غَيْرِ مُلْحِقِها وَصْمَا

لك الله يا جدتي، أيتها المفجوعة (المنكوبة) بحبيبها الذي هو أنا، والتي ذهبت قتيلة شوق، ولكنه شوق لم يلحق بها وصمة عار (فالحبيب هو حفيدها). والشاعر العربي القديم ـ كما رأيت ـ يرى شوق المرأة إلى حبيبها عاراً، وأما هو فيشتاق لحبيبته كما شاء ويتغزل كما شاء. لا شيء تغير!

أَحِنُّ إلى الكأسِ التي شَرِبَتْ بِها   وأَهْوَى لِمَثْواهَا التُّرابَ ومَا ضَمَّا

أحن إلى كأس الموت التي شربت بها جدتي، وأحب التراب لأنها دفنت فيه، وأحب ما ضمه التراب من جثمانها

عَرَفْتُ اللَّيالي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنا   فَلَمَّا دَهَتْني لمْ تَزِدْني بِها عِلْما

لقد عرفت الليالي (بلوى الزمن) قبل ما حل بي وبجدتي من نكبة موتها، فلما دهتني الليالي (نكبتني) لم تزدني علماً بها

أتـاهـا كِـتَـابـي بَـعْـدَ يَـأسٍ وتَـرْحَـةٍ   فَمَاتَتْ سُرُوراً بي، فَمُتُّ بِها غَمَّا

ورد على جدتي كتابي (خطابي) بعد اليأس من عودتي والترحة (الهم)، فأنعشها الخطاب فماتت به فرحاً، فكدت أنا أموت من الغم عليها. الهم والغم: الغم هو الحزن على ما مضى، والهم هو انشغال الفكر بما سيأتي، ومن هنا يكثر استعمال المتنبي لكلمة الهم بكل مشتقاتها (هموم/ همة/ هم/ ما يهمني، الخ) بمعنى الطموح إلى مستقبل كبير وعظيم وغامض

تَعَجَّبُ مِنْ لَفْظي وخَطِّي، كأنَّما   تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أغْرِبَةً عُصْمَا

تتعجب جدتي من كلماتي ومن خطي في الكتاب، فكأن الحروف غربان عصم (بيض) عجيبة. ولم تكن جدته تتوقع أنه حي ولا أنه سيعود إليها لكثرة ما سمعت عن مغامراته وسجنه وكثرة أعدائه

وتَـلْـثِـمُـهُ حَـتَّـى أصَـارَ مِـدَادُهُ   مَحاجِرَ عَيْنَيْها، وأنْيَابَها، سُحْمَا

وتلثم جدتي (تقبل) الخطاب حتى أصار (جعل) مداده (حبره) محاجر عينيها (حلقة العظم حول العين) وأنيابها (أسنانها) سحماً (سوداً)

رَقَا دَمْعُها الجاري، وجَفَّتْ جُفُونُها   وفَارَقَ حُبِّي قَلْبَها بَعْدَمَا أدْمَى

رقأ (انقطع) دمعها، وجفت جفونها بالموت، وبالموت ذهب حبي من قلبها بعد أن أدماها بسهمه

ولـم يُـسْـلِـهَـا إلا الـمـنَـايـا، وإنَّـمـا   أشَدُّ مِنَ السُّقْمِ الذي أذْهَبَ السُّقْمَا

ولم يُسْلِها (يُنسِها) ذكري إلا الموت، وهكذا فالذي أذهب سقمها كان أشد من السقم

طَلَبْتُ لها حَظّاً، فَفاتَتْ، وفَاتَني   وقدْ رَضِيَتْ بي لو رَضِيتُ بِها قِسْمَا

طلبت لها حظاً (رزقاً ومكانة) ففاتت جدتي (ذهبت) وفاتني الحظ. وكان من شأنها أن ترضى بي على أنني قسمتها ونصيبها لو أنني كنت رضيت بنصيبي وتركت المغامرة

فأصبَحْتُ أسْتَسْقي الغَمامَ لِقَبرِها   وقد كُنْتُ أسْتَسْقي الوَغَى والقَنا الصُّمَّا

والآن أصبحت أستسقي الغمام لقبرها (أدعو بأن يبل مطر السحاب قبرها)، وكنت قبلئذ أثناء مغامراتي أطلب من الوغى (الحرب) ومن القنا الصم (الرماح الصلبة) أن تهطل، بالدم طبعاً

وكُنْتُ، قُبَيْلَ الموتِ، أستَعْظِمُ النَّوى   فقدْ صارتِ الصُّغْرى التي كانَتِ العُظْمَى

وقبل موتها كنت أستعظم النوى (أجد الفراق فظيعاً)، والآن صار الفراق صغيراً في عيني بعد موتها

هَبِيني أخَذْتُ الثَّأْرَ فيكِ مِنَ العِدَى   فكيفَ بِأخْذِ الثَّأْرِ فيكِ مِنَ الحُمَّى

هبيني (افرضي أنني) أخذت الثأر لك من الأعادي الذين فرقونا، فكيف آخذ الثأر من الحمى (المرض) الذي مت به؟

وما انْسَدَّتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ لِضِيقِها   ولـكِـنَّ طَـرْفَـاً لا أرَاكِ بِـهِ أعـمَـى

الدنيا مسدودة في وجهي ليس لضيقها، ولكن لأن الطرف (العين) الذي لا أراك به أعمى

فَـواأَسَـفـا أَلَّا أُكِـبَّ مُـقَـبِّـلاً لِرَأْسِكِ والصَّـدْرِ اللَّذَيْ مُلِئَا حَزْمَا

يا أسفي أن لا أكب (أنحني بوجهي) وأنا أقبل رأسك وصدرك اللذين امتلآ بالحزم! يا أسفي لعدم وداعك!

وأَلَّا أُلاقـيِ رُوحَـكِ الـطَّـيِّـبَ الـذي كَأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كانَ لَهُ جِسْمَا

ويا أسفي أن لا ألاقي روحك الطيب الذي كان يسكن جسمك الطيب كأنه المسك

ولـو لـم تَـكُـونـي بِنتَ أكرَمِ والِـدٍ لكانَ أباكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لي أُمَّا

لو لم تكوني بنت ناس كرام لكفاك نسباً كونك لي أماً (أي جدة)، فالحفيد العظيم بمثابة النسب الضخم (الشريف). كنت أشتغل في جريدة، وكان لا يكاد يمر أسبوع إلا وننشر إعلاناً لرجل ثري كثير التبرع للجمعيات، وكان الإعلان دائماً مصدَّراً بعبارة «المحسن الكبير فلان الفلاني»، وذات يوم أبدلت لفظ الكبير بلفظ «الضخم». وكانت ستكون فضيحة تُفقد الجريدة مورداً مهماً لولا أن ابن صاحب الجريدة تدارك حماقتي في المطبعة. دفعت التهمة عن نفسي ببيت أبي الطيب هذا، ولكن الرجل فهم بالطبع ما أبطنه من قصد التهكم، ثم رحم غرارتي، وفوتها لي وتغمدني. وظللت بعدها ثلاثاً وثلاثين سنة أتحرق غيظاً أن نجوت من عاقبة حماقتي. حياتي مملة

لَـئِـنْ لَـذَّ يَـوْمُ الـشَّـامِـتِـينَ بِـيَـومِـهـا لـقـد وَلَـدَتْ مِـنِّـي لأَنْـفِـهِـمُ رَغْـمَـا

لئن لذ (طاب) يوم الشامتين بيوم موتها، فإنها ولدت بإنجابي رغماً لأنوفهم (مُمَرِّغاً لأنوفهم في التراب)

تَـغَـرَّبَ لا مُـسْـتَـعْـظِـمَـاً غَـيْـرَ نَـفْـسِـهِ ولا قـابِـلاً، إلَّا لِـخـالِـقِـهِ، حُـكْـمَـا

يتحدث عن نفسه: تغرب هذا الرجل الذي هو أنا وهو لا يجد عظيماً غير نفسه، ولا يقبل حكم بشر سوى حكم الله

ولا سـالِـكـاً إلَّا فـؤادَ عَـجَـاجَـةٍ ولا واجِـداً، إلَّا لِـمَـكْـرُمَـةٍ، طَـعْـمَـا

ولا يسلك إلا قلب العجاجة (غبار الحرب)، ولا يجد طعماً إلا لمكارم الأمور

يَقولونَ لي: مَا أنتَ؟ في كُلِّ بَلْدَةٍ ومَا تَبْتَغِي؟ ما أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

في كل بلدة يسألونني: أي شيء أنت، وما هدفك؟ وهدفي خطير.. أخطر من أن يُسْمى (يذكر). هدف أبي الطيب كان المُلك، ولكن الله كتب على الشعراء والفلاسفة ألا يذوقوا طعم السلطة. وقد رأيت الباحثين يتخذون هذا البيت دليلاً على أن المتنبي كان صاحب دعوة باطنية، ولا أرى ذلك؛ نرى في زمننا هذا، وأكتب في عام ٢٠٠٨، رجلاً منتسباً إلى حزب، ويعرفه الناس بهذه الصفة فيتعاملون معه بحذر، ولا يرون فيه شيئاً من الإنسانية إلا أنه «فلانٌ الحزبيّ»، وهو يكون شخصاً عادياً له من المطامع والمطامح ما لكل أحد، يسعى لاهثاً للحصول على ترقية في عمله، ويريد أن يعلم أولاده، وأن يتسلّى بالنظر إلى الفاتنات، وأن يعيش، ولعله يوجه أولاده وجهة غير حزبية، ولعله يكون برماً بهذا الحزب. قرأت مرة أن فلاديمير إيليتش لينين

فكر، وهو طريد في سويسرا، في الهجرة إلى أميركا وترك البلاشفة والمناشفة وروسيا وكل القضية، وهذا لينين، فلماذا لا تفهمون المتنبي إلا من خلال الدعوات الباطنية والأسرار؟ والمتنبي، بعد، رجل شفاف لأنه شاعر؛ ولأنه شاعر كبير وشديد الذاتية كان يتدفق بعواطفه. كان ذاتياً إلى أبعد حد وصل إليه شاعر عربي بين امرئ القيس وبدر شاكر السياب؟ تعليق من أحمد عبد الرحيم: [غلا في هذا عبدالله العلايلي.. فاعتبر أن بيت المتنبي: «أنا الذي نظر الأعمى...» رسالة باطنية، تلقفها أبو العلاء، متأثرًا طريق أستاذه الباطني الأعظم الذي لم يلقه! لكنه يؤكد كثيرًا على أن باطنية كلٍّ منهما باطنية خاصة، لا تلك المألوفة حتى زمانيهما.

لكن.. بعيدًا عن الغلو: لا أنفك أفكر في أن جذور المذهب العلائي هي، بوضوح، لدى أبي الطيب! المرأة، الخمر، الدنيا، الدهر.. وربما: الشك! وبالطبع: اللعب اللغوي والفني!]

وإنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفوسَهُمْ بِها أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

أنا من قوم نفوسهم عالية وعظيمة فكأنها تأنف (تترفع) أن تكون ساكنة في الأجسام

كَذَا أَنا يَا دُنْيا، إذا شئتِ فاذهَبي ويا نَفْسِ زِيدي في كَرائِهِها قُدْمَا

هكذا أنا أيتها الدنيا، فإن شئت فاذهبي عني؛ ويا نفسي! زيدي قدماً (أكثر) في كرائِه الدنيا (مصائبها) بسبب طموحك

فَلَا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني ولا صَحِبَتْني مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

أدعو ألا تعبر بي ساعة ليس لي فيها عز، وألا تصحبني مهجة (قلب) تقبل الظلم

٤٤ شهادة بالكمال

قال المتنبي يمدح القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي: ٤٣/١١

لِكِ يا مَنازِلُ في القلوبِ مَنازِلُ أَقْفَرْتِ أنتِ، وهُنَّ منكِ أَواهِلُ

يا منازل الحبيبة لك في القلوب منزلة كبيرة، وأنت قد أقفرت (خربت برحيلهم)، ولكن مكانتك في القلوب آهلة (عامرة)

وأنا الذي اجْتَلَبَ المنِيَّةَ طرْفُهُ فَمَنِ المُطَالَبُ؟ والقتيلُ القاتِلُ

طرفي (عيني) جلب لي المنية (الموت) عشقاً، فمن أطالب بالثأر، والذي قتلني هو نظري؟ تسويد أ. عبد الرحيم

تخْلُو الدِّيارُ مِنَ الظِّباءِ، وعندَهُ مِنْ كُلِّ تابِعَةٍ خَيالٌ خاذِلُ

الديار تخلو من الظباء (الحسان) لرحيل القوم، وعندي بدلاً من كل تابعة (غزالة صغيرة تتبع أمها) خيالها الخاذل (المتخلّف المتعوق عن بقية الركب) الذي يزورني في المنام

كَمْ وَقفةٍ سَجَرَتْكَ شَوْقاً، بَعْدَما   غَرِيَ الرَّقيبُ بِنا، وَلَجَّ العاذِلُ

ما أكثر الوقفات التي سجرتك (ملأتك) بالشوق بعدما غري (تحمس) الرقيب بملاحقتنا، ولج (تمادى) العاذل في لومنا

دونَ التَّعانُقِ ناحِلَيْنِ كَشَكْلَتَيْ   نَصْبٍ أَدَقَّهُما وَضَمَّ الشَّاكِلُ

وقفنا دون (قبل) العناق ناحلين (نحيفين من العشق) كشكلتي نصب (ًً) جعلهما الذي يشكل الحروف دقيقتين ومتقاربتين

اِنْعَمْ ولَذَّ! فَلِلأمُورِ أَوَاخِرٌ   أَبَداً إذا كانَتْ لَهُنَّ أوائِلُ

فلتنعم بالاً ولتلذ (لتطب نفساً)! فكل شيء له آخر إذا كان له أول، ولا بد لألم العشق من أن ينقضي

لِلَّهْوِ آوِنَةٌ تَمُرُّ كأنَّها   قُبَلٌ يُزَوَّدُها حَبيبٌ رَاحِلُ

للهو آونة (أوقات) تمر سريعاً كأنه قبلات وداع يأخذها المرء من حبيب

جَمَحَ الزَّمانُ، فَلا لَذيذٌ خَالِصٌ   مِما يَشوبُ، ولا سُرورٌ كامِلُ

جمح (استعصى) الزمان، فلا يوجد شيء لذيذ خالص من الشوائب، ولا يوجد سرور كامل

لا تَجْسُرُ الفُصَحاءُ تُنْشِدُ هَهُنا   بَيْتاً، ولكنّي الهِزَبْرُ الباسِلُ

لا تجسر (تجرؤ) الفصحاء أن تنشد هنا بيت شعر، وأما أنا فالهزبر (الأسد) الشجاع، أنا جريء على الإنشاد لفصاحتي فلا أخشى نقداً ولا منافساً في الشعر

ما نالَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ   شِعْرِي، ولا سَمِعَتْ بِسِحْرِيَ بابِلُ

لم يبلغ أهل الجاهلية مستوى شعري، ولا عرفت بابل، المشهورة بالسحر، كسحر بياني

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ ناقِصٍ   فَهِيَ الشَّهادَةُ لي بِأنّيَ كامِلُ

إذا أتتك مذمتي (ذمي) من شخص ناقص فهي شهادة لي بالكمال

٤٥ الغريب

قال المتنبي يمدح أبا سهل سعيد بن عبيد الله بن الحسن الأنطاكي: ٥/ ٤١

قد كنتُ أُشْفِقُ مِنْ دمعي على بَصَري   فاليومَ كُلُّ عَزيزٍ بَعدَكُمْ هانَا

كنت أشفق (أخشى) من كثرة البكاء على بصري، واليوم بعد رحيلكم لم يعد يهمني شيء. لقد رحل قوم المحبوبة ـ وهي بالطبع بدوية ـ في طلب العشب

تُهدِي البَوارِقُ أَخلافَ المياهِ لَكُمْ ... ولِلْمُحِبِّ مِنَ التَّذْكارِ نِيرانَا

تهدي البوارق (الغيوم الماطرة التي يلمع فيها البرق) أخلاف (أثداء الناقة) المياه لكم، لكنها تهدي المحب الذي يتذكر عهدكم نار العشق. شبه الغيوم الماطرة بضروع أو أثداء الناقة، وهي تدر مطراً لأولئك القوم الرحل

أَبْدُو، فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُني ... فَلا أُعاتِبُهُ صَفْحاً وإِهْوانَا

ينتقل لوصف حاله مع الناس: أظهر فيسجد الذي يشتمني إجلالاً لي ونفاقاً، ولا أعاتبه على ما سلف منه صفحاً عنه وإهواناً (استهانة به)

وهَكذا كنتُ في أهلِي وفي وَطني ... إنَّ النَّفيسَ غريبٌ حيثُما كانَا

هكذا كان حالي بين أهلي وفي وطني، فأنا كنت غريباً في وطني وفي كل مكان، وهذا شأن النفيس من الرجال (الكبير القيمة)

لا أَشْرَئِبُّ إلى ما لم يَفُتْ طَمَعاً ... ولا أَبِيتُ على ما فَاتَ حَسْرَانَا

لا أشرئب (أتطلع) إلى ما لم يفتني نيله، ولا أبيت حسراناً (متحسراً) على ما فاتني. يقول: إنه لا يطمع في تحصيل الممكن، ولا يتحسر على فقد الفائت من الفرص

٤٦ لا تخرج الأقمار عن هالاتها

قال المتنبي يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران: ٢٠/٤٠

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَواتِها ... داني الصِّفاتِ، بَعيدُ مَوْصوفَاتِها

هذا سرب من الحسان، ومحاسن السرب أنا محروم من صاحباتها، والسرب داني (قريب) الصفات، ولكن الموصوفات بها بعيدات لا سبيل إليهن. يقول: أرى جمالهن قريباً، وأما الوصول إلى ذواتهن فشيء بعيد

أَوْفَى، فَكُنْتُ إذا رميتُ بِمُقلتي ... بَشَراً رأيتُ أَرَقَّ مِنْ عَبَراتِها

أوفى السرب (اقترب)، فكنت أرمي بعيني بَشَرهن (جلدهن) فأراها أرق من عبرات (دموع) عيني. يقول: بشرة هؤلاء النسوة أرق من دموع عيني

يَسْتَاقُ عِيسَهُمُ أنينيَ خَلفَها؛ ... تَتَوَهَّمُ الزَّفَراتِ زَجْرَ حُدَاتِها

أنيني يستاق (يسوق) عيسهم (جمالهم) من خلفها، والجمال تتوهم زفراتي (تنهداتي) زجر حداتها (صوت سائقيها)

وكَأَنَّها شَجَرٌ بَدَتْ، لَكِنَّها ... شَجَرٌ جَنَيْتُ الموتَ مِنْ ثَمَراتِها

كأن هذه الأبل عندما ظهرت شجر، لكنها شجرات جنيت (قطفت) الموت من ثمرها. فرحيل الأحبة بالنسبة لي مثل الموت

لا سِرْتِ مِنْ إِبِلٍ! لَوَ انِّيَ فَوقَها   لَمَحَتْ حَرارةُ مَدْمَعَيَّ سِمَاتِها

أدعو الله ألا تسير تلك الإبل التي لو كنت راكباً فوقها لامَّحت من حرارة مدمعيَّ (مجريي الدمع في العينين) سماتها (علاماتها المطبوعة على جلدها بالكيّ)

وَحَمَلْتُ ما حُمّلْتِ مِنْ هَذي المَها   وحَمَلْتِ ما حُمِّلْتُ مِنْ حَسَراتِها

ليتني حملتُ أنا ما تحملين أيتها الإبل من المها (الجميلات الشبيهات ببقر الوحش)، وليتك أيتها الإبل تحملين أنتِ ما أحمل في قلبي من الحسرات على فراقهن

وتَرَى المُرُوَّةَ والفُتُوَّةَ والأُبُوَّ ـ   ـةَ فِيَّ كُلُّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِها

ترى كل مليحة (حسناء) مروءتي وفتوَّتي وشعور الأبوة الذي عندي بمثابة ضرات لها (منافسات). فهذه الأخلاق العفيفة تملأ قلبي، ولا تترك مكاناً للغرام، لذا فكل حسناء تحس بالغيرة من هذه الخصال الحميدة عندي

هَنَّ الثَلاثُ المانِعَاتِيَ لَذَّتي   في خَلْوَتي، لا الخَوْفُ مِنْ تَبِعاتِها

هذه الخصال الثلاث ـ المذكورة في البيت السابق ـ تمنعني من لذة أستطيع الحصول عليها في خلوة، وليس الذي يمنعني الخوف من التبعات (النتائج). البيتان السابقان من تسويد أحمد عبد الرحيم، وتعليقه «هذان عاليان جداً!»

ومَطَالِبٍ، فيها الهَلاكُ، أَتيتُها   ثَبْتَ الجَنَانِ، كأَنَّني لم آتِها

ورب مطالب (أهداف) تؤدي إلى الهلاك، ولكنني اقتحمتها ثبت الجنان (راسخ القلب) وكأنني لا أقتحمها

ومَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غادَرْتُها   أَقْواتَ وَحْشٍ، كُنَّ مِنْ أَقْواتِها

ورب مقانب (كتائب) واجهتها بكتائبي، وتركتها أقوات وحش (طعاماً للسباع)، فبعد أن كان جنود هذه الكتائب يصيدون السباع صاروا طعاماً لها

أَقْبَلْتُها غُرَرَ الجِيادِ، كأَنَّما   أَيْدِي بَني عِمْرَانَ في جَبَهاتِها

هذه الكتائب أقبلتها (جَبَهْتُها بـ) وجوه الخيل التي فيها بياض، وكأن هذا البياض في جبين كل فرس هو أيدي (أفضال) بني عمران

الثَّابِتِينَ فُرُوسَةً كَجُلُودِها   في ظَهْرِها، والطَّعْنُ في لَبَّاتِها

بنو عمران ثابتون لفروسيتهم فوق الخيل فكأنهم جلودها، لا ينزلون عنها بينما الطعن بالرماح متواصل في لبات الخيول (صدورها). يقول: بنو عمران ثابتون على ظهور الخيل لمهارتهم في الفروسية، رغم اشتداد المعركة واتصال الطعن في صدور الخيل

العارِفِينَ بِها كَما عَرَفَتْهُمُ   والرَّاكِبِينَ جُدُودُهُمْ أُمَّاتِها

وهم عارفون بها جيداً والخيل تعرفهم، وأجدادهم كانوا يركبون أمات (أمهات) هذه الخيول أيضاً

فَكَأنَّما نُتِجَتْ قِياماً تَحْتَهُمْ وكأنَّما وُلِدُوا على صَهَواتِها

ولشدة التصاقهم بالخيل والفروسية كأن الخيل نتجت (وُلدت) واقفة تحتهم، أو كأن بني عمران ولدوا هم أنفسهم على صهوات الخيول

تِلْكَ النُّفوسُ الغالِباتُ عَلى العُلا والمجدُ يَغْلِبُها على شَهَواتِها

نفوس بني عمران تغلب الناس وتأخذ العلا (المكارم)، ولكن المجد يغلب بني عمران ويمنعهم من الشهوات. يقول: هم غالبون يأخذون المجد، والمجد يغلبهم فيجعلهم يترفعون عن الشهوات الدنيئة

سُقِيَتْ مَنابِتُها التي سَقَتِ الوَرى، بِنَدى أبي أيُّوبَ خَيْرِ نَباتِها

سُقيت منابت هذه النفوس، التي سقت الورى (الناس)، من ندى (كرم) أبي أيوب الذي هو خير نبات أنبتته منابت بني عمران

عَجَباً لَهُ! حَفِظَ العِنانَ بِأَنْمُلٍ ما حِفْظُها الأَشياءَ مِنْ عادَاتِها

عجباً كيف يمسك أبو أيوب العنان (مقود الفرس) بأنمل (بأنامل) لم تتعود الاحتفاظ بالأشياء، فأنامله تعطي كل شيء للناس لشدة كرمه

كَرَمٌ تَبَيَّنَ في كَلامِكَ ماثِلاً وَيَبِينُ عِتْقُ الخيلِ في أَصْواتِها

كرم الخُلُق بدا واضحاً في كلامك يا أبا أيوب، وعتق الخيل (أصالتها) يبين ويظهر في أصواتها

أَعْيا زَوالُكَ عَنْ مَحَلٍّ نِلْتَهُ لا تَخْرُجُ الأَقْمارُ عَنْ هالاتِها

أعيا (استحال) زوالك عن مكانتك التي نلتها، فأنت كالقمر والمكانة التي نلتها كهالة القمر، والقمر لا يخرج عن هالته. قل لي بربك من كان يحسن أن يقول «لا تخرج الأقمار عن هالاتها»؟ وأراك مشغولاً بالمفاضلة بين المتنبي وغيره من شعراء عصره!

ذُكِرَ الأنامُ لنَا، فكانَ قَصيدةً كُنْتَ البَديعَ الفَرْدَ مِنْ أبياتِها

ذكر لنا الأنام (الناس) فكانوا قصيدة، وأنت في هذه القصيدة البيت البديع المنفرد بالحسن. وكما قال النقاد القدامى فهذا البيت الذي يتحدث عن بيت منفرد بالحسن هو البيت المنفرد بالحسن في هذه القصيدة

٤٧ أنا الجبال

قال المتنبي يمدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي: ١٥/ ٤١

أُطاعِنُ خَيْلاً، مِنْ فَوارِسِها الدَّهْرُ وَحِيداً؛ ومَا قَوْلِي كَذا! وَمَعِي الصَّبْرُ

أطاعن (أطعن) خيلاً فرسانها ليسوا سوى الدهر نفسه، أطعنها وحيداً.. لكن لماذا أقول هذا؟ أليس الصبر رفيقي؟ جعل الزمن فارساً راكباً حصاناً وهو يحاربه، لكن المتنبي ليس وحيداً في معركته مع الزمن فالصبر رفيقه

وأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَومٍ سَلامتِي   ومَا ثَبَتَتْ إلَّا وفي نَفْسِها أَمْرُ

ولعل سلامتي التي ظلت ترافقني أشجع مني، فقد ثبتت للدهر، وما ثبتت إلا لأمر عظيم. هذا بالضبط شعور المصابين بجنون العظمة. يبدأون بالتعجب من سلامتهم من كل الأخطار، ويتسلل إليهم إحساس بأن الله ساقهم ليؤدوا رسالة علوية، وهو الذي يضمن سلامتهم. ويستمدون من هذا الشعور شجاعة كبيرة يستغربها من حولهم. موسوليني كان كذلك، وانتهى به الأمر معلقاً من كعبيه مقتولاً شر قتلة، وقل في هتلر الشيء نفسه. وميتة المتنبي من هذا الباب. مع أن شاعرنا المسكين أخفق في مسعاه للملك ورأى ثمرات الخيبة قبل موته وبدأ يستشعر ريح اليأس في سنواته الأخيرة، لكنه ظل يأبى الرضا بما حقق من مجد أدبي

تَمَرَّسْتُ بِالآفاتِ حتى تَرَكْتُها   تَقُولُ: أَماتَ الموتُ، أَم ذُعِرَ الذُّعْرُ؟

تمرست بالآفات (بالمشكلات) حتى تركتُ هذه المشكلات وهي تقول: هل مات الذعر (الخوف)، أم أن الخوف خاف من هذا الرجل ومن عزيمته؟

وأَقْدمتُ إقدامَ الأَتِيِّ، كَأَنَّ لِي   سِوى مُهْجَتِي، أو كانَ لِي عِنْدَها وِتْرُ

وأقدمت إقدام الأتي (السيل) كأن لي روحاً ثانياً غير روحي، أو كأن لي عند روحي وتراً (ثأراً) فأنا أريد إزهاق روحي بكل وسيلة

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَها قَبْلَ بَيْنِها   فَمُفْتَرِقٌ جَارانِ دارُهُما العُمْرُ

ذر (اترك) النفس تأخذ وسعها (طاقتها) قبل بينها (فراقها)، فالجاران (الجسم والروح) اللذان يسكنان في «العمر» لا بد أن يفترقا عاجلاً أو آجلاً

ولا تَحْسَبَنَّ المجدَ زِقّاً وَقَيْنَةً   فما المجدُ إلَّا السَّيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ

ولا تظن المجد زقاً (قِربة خمر) وقينة (مغنية)، فالمجد هو السيف والفتكة البكر (البطش الذي لم يسبق إليه أحد)

وتَضْريبُ أَعناقِ الملوكِ، وأَن تُرَى   لَكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ

والمجد هو ضرب أعناق الملوك، وهو أن يكون لك هبوات (سُحُب غبار) سود في المعارك، وعسكر مجرٌ (كبير)

وتَرْكُكَ في الدُّنيا دَوِيّاً كأَنَّما   تَدَاوَلُ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

والمجد هو أن تترك في الدنيا دوياً كالدوي الذي يسمعه من يسد أذنيه بأنملتين من أنامله، والمرء يسد أذنيه بإصبعين فقط فكيف لو سدهما بالأصابع العشر!

إذا الفَضْلُ لم يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ   على هِبَةٍ، فَالفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ

إذا لم يمكّنك فضلك من الترفع عن نيل هبة (هدية) رجل دنيء وشكره عليها فالفضل له لا لك

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مَخافَةَ فَقْرٍ، فالذي فَعَلَ الفَقْرُ

من ينفق وقته في جمع المال خوف الفقر فما يفعله هو الفقر بعينه لأنه يعيش حياته عيشة الفقراء، يجمع المال ولا ينفقه

وكَمْ مِنْ جِبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّني الْـ ـجِبَالُ، وبَحْرٍ شَاهِدٍ أَنَّني البَحْرُ

تشهد الجبال التي جبتها (قطعتها) أنني أنا الجبال، والبحر يشهد أنني أنا البحر. فالمتنبي كالجبال ثباتاً وكالبحر كرماً

وما قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكادُ بُيوتُهُ إذا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نُورِها الحِبْرُ

شعري تكاد أبياته تحول الحبر الأسود إلى اللون الأبيض لما فيها من نور البيان

كأنَّ المعانيَ في فَصاحةِ لفظِها نجومُ الثُّريَّا، أو خلائِقُكَ الزُّهْرُ

كأن معاني شعري وألفاظه نجوم الثريا (مجموعة نجوم) أو خلائقك (خصالك) الزهر (النيرة)

وجَنَّبَني قُرْبَ السَّلاطينِ مَقْتُها ومَا يَقْتَضيني مِنْ جَماجِمِها النَّسْرُ

الذي جنبني قرب السلاطين مقتي لهم، وما يقتضيني النسر (يطالبني) من قطع جماجمهم، فالنسور تحب الجثث لأنها تتغذى بها

وإنِّي رأيْتُ الضُّرَّ أحسنَ مَنظَراً وأَهْوَنَ مِنْ مَرأى صَغِيرٍ بِهِ كِبْرُ

وقد رأيت الضر (الفقر) أهون على الإنسان من رؤية رجل صغير النفس به كبر (تكبُّر)

٤٨ المحسود الفقير

قال المتنبي يمدح علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي وكان يحب الرمي بالنشاب ويتعاطاه، وكان له وكيل يتعرض للشعر فأنفذه إلى أبي الطيب يناشده فتلقاه وأجلسه في مجلسه، ثم كتب إلى علي يقول: ٨/٤٣

أَعَزْمِيَ! طالَ هذا الليلُ فانظُرْ أَمِنْكَ الصُّبحُ يَفْرَقُ أنْ يَؤوبا

يا عزمي (عزيمتي) قد طال هذا الليل فانظر لعل الصبح يفرق (يخاف) منك فهو لذلك ليس يؤوب (يرجع)

أُقَلِّبُ فيهِ أَجفاني كأنِّي أَعُدُّ بِها على الدَّهرِ الذُّنوبا

أقلب أجفاني في الليل ساهراً فكأنني برمشات عيني أعد ذنوب الدهر التي ارتكبها بحقي

وما ليلٌ بأَطولَ مِنْ نَهارٍ يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادي مَشُوبا

والليل بطوله وقسوته ليس أطول من نهار يظل مشوباً (مختلطاً) بلحظ (بنظرات) حسادي

ومـا مَـوْتٌ بِـأَبْـغَـضَ مِـنْ حَـيـاةٍ   أرى لَـهُـمُ مَـعـي فِـيـهـا نَـصـيـبـا

وما الموت عندي بأبغض (أسوأ) من حياة يعايشني فيها الحساد

عَـرَفْـتُ نَـوائِـبَ الـحَـدَثـانِ حتـى   لَـوِ انْـتَـسَـبَـتْ لَـكُـنْـتُ لـهـا نَـقِـيـبـا

عرفت نوائب (مصائب) الحدثان (الزمن) حتى لو أنها انتسبت (ذكرت لنفسها نسباً) لكنت أنا نقيبها (والنقيب رئيس العشيرة العارف نسبها)

ولـمَّـا قَـلَّـتِ الإبِـلُ امـتَـطَـيْـنـا   إلى ابْنِ أبي سُلَيمانَ الخُطُوبا

ولما صارت الإبل قليلة امتطينا (ركبنا) إلى ابن أبي سليمان الخطوبا (المشكلات).
يقول: اتخذنا من مشكلات الزمن مطية نركبها إلى الممدوح فنحن بسبب هذه المشكلات نلجأ إليه للمساعدة. تسويد أ. عبد الرحيم

مَـطَـايـا لا تَـذِلُّ لِـمَـنْ عَـلـيـهـا   ولا يَـبْـغـي لـهـا أَحَـدٌ رُكُـوبـا

وهذه المطايا (الإبل) لا تذل (لا تكون طيعة) لمن يركبها، ولا أحد يحب أن يركبها أصلاً

وَتَـرْتَـعُ دونَ نَـبْـتِ الأرضِ فِـيـنـا   فَـمـا فـارقْـتُـهـا إلَّا جَـدِيـبـا

وهي لا ترتع (ترعى) في الأرض بل ترتع في نفوسنا، فما أفارق هذه المشكلات إلا وأنا جديب (مجدب فقير). يقول المتسولون كلاماً كهذا على أبواب الجوامع كل يوم، لكن شاعرنا صاغه صياغة جعلتنا نختاره ونشرحه بعد أكثر من ألف سنة من موته. إن من البيان لسحراً

٤٩ ومن نكد الدنيا

قال المتنبي يمدح علي بن محمد التميمي: ٣٧/١٠

أَقَـلُّ فَـعَـالـي، بَـلْـهَ أَكْـثَـرَهُ، مَـجْـدُ   وذَا الـجِدُّ فَيهِ، نِلْتُ أم لم أَنَلْ، جَدُّ

أقل فعالي (أفعالي)، بله (دع عنك) أكثره، مجيد؛ وذا (هذا) الجِد (الاجتهاد) في تحقيقه ـ سواء نلت ما أريد أم لم أنل ـ جَد (سعد وحظ). يقول: أقل ما صنعت، ناهيك بالكثير منه، هو من المجد، ومجرد اجتهادي هو من حسن حظي بغض النظر إن نلت ما أريد أم أخفقت

سَـأَطْـلُـبُ حَـقِّـي بِـالـقَـنَـا ومَـشَـايِـخٍ   كَـأَنَّـهُـمُ مِـنْ طُولِ ما الـتَـثَـمُوا مُرْدُ

سأطلب حقي بالقنا (بالرماح) وبمشايخ (رجال من السادة) الذين التثموا كثيراً (لثموا وجوههم في المعارك) ولهذا فوجوههم قليلة الشعر كأنهم مُرد (فتية لم تطلع لحاهم)

ثِـقَـالٍ إذا لَاقَـوْا، خِـفَـافٍ إذا دُعُـوا   كَـثِـيرٍ إذا اشْـتَـدُّوا، قَـلِـيـلٍ إذا عُدُّوا

هم ثقال قساة عندما يلاقون العدو، ولكن إذا دُعوا للحرب كانوا خِفافاً سريعي الاستجابة، وهم كثر بشدة بأسهم، لكنك إذا عددتهم رأيت عددهم قليلاً

إذا شئتُ حَفَّتْ بي على كُلِّ سَابحٍ رِجَالٌ كَأَنَّ الموتَ في فَمِها شَهْدُ

إذا شئت حفت بي (أحاطت بي) على ظهر كل سابح (فرس) رجال الموتُ شهد بالنسبة لهم

أَذُمُّ، إلـى هـذا الـزَّمـانِ، أُهَـيْـلَـهُ فَـأَعْـلَـمُـهُـمْ فَـدْمٌ، وأَحْـزَمُـهُـمْ وَغْـدُ

أذم أهل هذا الزمان، فأكثرهم علماً فدم (غبي)، وأكثرهم حزماً وغد

وأَكْـرَمُـهُـمْ كَـلْـبٌ، وأَبْـصَـرُهُـمْ عَـمٍ وَأَسْـهَـدُهُـمْ فَـهْـدٌ، وَأَشْـجَـعُـهُـمْ قِـرْدُ

وأكرم (أشرف) هؤلاء البشر كلب، وأحدهم بصراً أعمى، وأسهدهم (أكثرهم سَهَراً) فهد (والفهد مشهور بكثرة النوم)، وأشجعهم قرد

ومِنْ نَكَدِ الدُّنْيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى عَـدُوّاً لـهُ، مَـا مِـنْ صَـدَاقَـتِـهِ بُـدُّ

من نكد هذه الدنيا على الرجل الحر أنه مجبر على التظاهر بصداقة من يعاديه. كنا في الصف الحادي عشر عندما درسنا هذه القصيدة في المدرسة. وخرجنا بعد الدرس إلى الساحة في فرصة الضحى، وقلت لصديقي نزار هل انتبهت إلى ذلك البيت؟ فقال لي: ومن نكد الدنيا؟ ونظر أحدنا في وجه الآخر. أستذكر هذا الموقف، وأسأل نفسي: هل الجيل الجديد مستعد لأن يتذوق المتنبي تذوقاً فطرياً كما تذوقناه؟ وهل يمكن لفتية لم يجربوا من الحياة شيئاً أن يحسوا بمثل هذه المعاني؟ عندي ثقة في أن شباب العرب لن يستمروا في إهمال هذا التراث الفاحش الثراء من الحكمة والأدب. نحن نبعث أولادنا وبناتنا إلى المدارس التي تدرسهم باللغات الأجنبية والتي تجعلهم يزدرون تراثهم، وهم هناك يدرسون قليلاً من شكسبير ومن قصص وروايات الشعوب المسيطرة علينا وعلى العالم. ولكنهم لا يتمكنون من النص الشكسبيري ولا يتمثلون الثقافات الأخرى. يخرجون من تلك المدارس مخلوقات مشوهة في وجدانها. ويصبح خريجو المدارس الأجنبية وزراء للمعارف، ويفرضون على كل طلبة هذا الوطن مناهج كالتي درسوها. وهذا الشيء قد بدأ فعلاً. ولست ضد هذه المدارس الأجنبية، لا بل أريد من كل مدرسة أن تعلم أبناء العرب اللغة الإنجليزية ومنذ سن مبكرة. لست ضدها، أنا ضد شعوبنا نفسها. إنها شعوب مستعجلة، تريد أن تتاجر فقط. ولا تريد أن تصنع ولا أن تزرع. ولذا فهي تدفع المال الكثير لتعليم أولادها في مدارس تقوم بتخريج طبقة من السماسرة. كنا في الماضي وسطاء بين الشرق والغرب بحكم موقعنا الجغرافي، واليوم صارت أوروبا تستورد من الصين والهند بدون المرور بأراضينا. فصرنا وسطاء بين ثروات أرضنا وبين الغربيين، ونحن نقوم بتهريب خيراتنا إليهم. وخير ما يدرسه أولاد السماسرة اللغة الأجنبية، والقليل القليل من تراث الأجانب. أما تذوق الشبان الصغار لمعاني المتنبي وحكمته فأمر يعود للغة وتذوقها. وليس كثيراً على فتى في السابعة عشرة من عمره أن يحس بمعنى بيت المتنبي. ولكن فتيان زمننا هذا ما عادوا يحسُّون باللغة العربية الفصحى إلا قليلاً

وإنِّـي لـتُـغْـنِـيـنـي مِـنَ الـمـاءِ نُـغْـبَـةٌ وأَصْـبِـرُ عَـنْـهُ مِـثْـلَـمـا تَـصْـبِـرُ الـرُّبْـدُ

وتغنيني عن شرب الماء نغبة (جرعة) منه، وأصبر عن الماء صبر الربد (النَّعام)

وأَمضيِ كما يَمْضيِ السِّنَانُ لِطِيَّتيِ   وأَطْوَى كما تَطْوَى المُجَلِّحَةُ العُقْدُ

وأمضي لطيتي (في سبيل هدفي) مثل السنان (سن الرمح)، وأطوى (أجوع) مثلما تجوع المجلحة (الذئاب) العُقْد (ذوات الأذناب التي فيها عُقَد)

وأُكْبِرُ نَفْسيِ عَنْ جَزاءٍ بِغِيبَةٍ   وكُلُّ اغْتِيابٍ جُهْدُ مَنْ ما لهُ جُهْدُ

وأكبر نفسي (أُجِلُّ نفسي) عن مجازاة أحد باغتيابه، وكل اغتياب هو جهد (أقصى استطاعة) من ليس له قوة

٥٠ لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى..

قال المتنبي يهجو ابن كَيْغَلَغ سنة ست وثلاثين وثلاثمئة، وكان يريد السير من الرملة إلى أنطاكية فأخذ ابن كيغلغ عليه الطرق ومنعه من الرحلة إلا أن يمدحه، فقال المتنبي يهجوه، وأملاها على من يثق به في طرابلس ثم سار وأفلت: ٣٧/٢٤

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ   عَرَضاً نَظَرْتُ، وخِلْتُ أَنِّيَ أَسْلَمُ

لهوى القلوب سريرة (سر) خفي، فقد نظرت لتلك الفاتنة عَرَضاً وخلت (ظننت) أني سأسلم من العشق

يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الفَوَارِسِ في الوَغَى!   لَأَخُوكِ ثَمَّ أَرَقُّ مِنْكِ وأَرْحَمُ

يا أخت معتنق الفوارس (الرجل الذي يشتبك مع خصمه وهما على الخيل) في الوغى (في الحرب)، والله لأخوك ثَمَّ (هناك، في الحرب) أرق منك قلباً. تسويد أ. عبد الرحيم

رَاعَتْكِ رَائِعَةُ البَيَاضِ بِمَفْرِقيِ   وَلَوَ انَّهَا الأُولى، لَرَاعَ الأَسْحَمُ

راعتك (أخافتك) رائعة البياض (الشعرة البيضاء التي تروع الناظر) بمفرقي (برأسي)، ولو أن هذه هي الشعرات الأولى أيام الشباب لراعك الأسحم (الأسود)

ولقد رأَيْتُ الحادِثَاتِ، فَلَا أَرَى   يَقَقاً يُمِيتُ، ولا سَوَاداً يَعْصِمُ

قد رأيت أحداث الزمن، فلا أرى يققاً (أبيض) يميت، ولا سواداً يعصم (يحمي)

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً   ويُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَبِيِّ، ويُهْرِمُ

والهم يخترم (يهلك) الجسيم السمين فيجعله نحيفاً، ويُشيب ناصية (سالف) الصبي ويهرمه (يجعله هرماً)

ذُو العَقْلِ يَشْقَى في النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ   وأَخُو الجَهَالَةِ في الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

والنَّاسُ قد نَبَذُوا الحِفَاظَ، فَمُطْلَقٌ   يَنْسَى الذي يُولَى، وعَافٍ يَنْدَمُ

الناس نبذوا (تركوا) الحفاظ (حماية الشرف) فهم بين مطلق (أُطلق سراحه من حبس) ينسى الذي يولى (يُعطَى من إحسان)، وبين عاف (الذي عفا عنه) نادم لأنه عفا

لا يَـخْـدَعَـنَّـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ دَمْـعُـهُ وارْحَـمْ شَبَـابَـكَ مِـنْ عَـدُوٍّ تَـرْحَـمُ

لا تنخدع بدمع العدو، وارحم شبابك من العدو الذي ترحمه وتشفق عليه

لا يَسْلَـمُ الشَّـرَفُ الرَّفِيـعُ مِنَ الأذَى حـتـى يُـرَاقَ عـلـى جَـوانِـبِـهِ الـدَّمُ

تعليق أحمد عبد الرحيم: [رغم بشاعة بعض معاني الشعر.. إلا أنك تجد نفسك منساقًا، بقضاءٍ لا تدري كيف هو!، للإعجاب بقوي نظمه، أو بديع صوره، أو بعذوبة إيقاعه.. أو بها جميعًا! وكثير من هذا لدى صديقنا أبي الطيب!]

والظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ، فَإنْ تَجِدْ ذَا عِـفَّـةٍ، فَـلِـعِـلَّـةٍ لا يَـظْـلِـمُ

الظلم من شيم (طبائع) النفوس، فإن تجد ذا عفة (صاحب عفة)، فلِعِلةٍ (لسببٍ مّا) لا يظلم، وليس هناك عفة حقيقية

يَحْمِي ابْنُ كَيْغَلَغَ الطَّرِيقَ، وعِرْسُهُ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا الطَّرِيقُ الأَعْظَمُ

ابن كيغَلَغ يحمي الطريق (يمنعني من مغادرة البلد)، وعرسه (زوجته) تفتح الطريق للجميع. ينطق المتنبي اسم «ابن كيغلغ» بإسكان الياء، وستجده في قصيدة أخرى يفتح الياء وشكلنا الاسم بالطريقتين هنا ثم هناك

ومِنَ البَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لا يَرْعَوِي عَنْ جَهْلِهِ، وخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمُ

من البلية (المصيبة) عذل (لوم) من لا يرعوي (يرتدع) عن جهله، والتحدث إلى من لا يفهم. تسويد أ. عبد الرحيم

فارفُقْ بِنَفْسِكَ، إنَّ خَلْقَكَ نَاقِصٌ واسْتُرْ أَبَاكَ، فَإنَّ أَصْلَكَ مُظْلِمُ

فيا هذا ارفق بنفسك ولا تعرضها للشتم، فخلقك ناقص (عندك عاهات/ ويرى أحمد عبد الرحيم أن المتنبي يومئ إلى أن الرجل يفتقد ذلك الشيء الذي يكون للرجل دون المرأة)، واستر أباك فإن أصلك مظلم (ليس نسبك معروفاً)

وجُـفـونُـهُ مَـا تَـسْـتَـقِـرُّ كَـأَنَّـهـا مَـطْـرُوفَـةٌ، أَوْ فُـتَّ فـيـهـا حِـصْـرِمُ

جفون هذا المهجو لا تستقر فهو يرمش باستمرار، فكأنها مطروفة، أو فُتَّ فيها الحصرم (العنب الفجّ الحامض)

وإذا أَشَـارَ مُـحَـدِّثـاً فَـكَـأَنَّـهُ قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ، أو عَـجُـوزٌ تَـلْـطِـمُ

وعندما يتكلم يلوح بيديه كأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

وتَـرَاهُ أَصْـغَـرَ مَـا تَـرَاهُ نَـاطِـقَـاً ويَكُـونُ أَكْـذَبَ ما يَـكُـونُ، ويُقْـسِـمُ

يكون في أصغر (أحقر) حالاته متكلماً، وعندما يكذب الكذبة الكبيرة يقسم عليها

والـذُّلُّ يُـظْـهِـرُ فـي الـذَّلِـيـلِ مَـوَدَّةً وأَوَدُّ مِـنْـهُ، لِـمَـنْ يَـوَدُّ، الأَرْقَـمُ

الذل يجعل الذليل يبدو ودوداً، ولكن وده ـ لمن يُظهر له الود ـ كَوُدِّ الأرقم (الثعبان)

وَمِنَ العَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ   وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ
فَلَشَدَّمَا جَاوَزْتَ قَدْرَكَ صَاعِدَاً   وَلَشَدَّمَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ

ما أكثر ما جاوزت قدرك، وأنت تحاول أن أمدحك، وما أكثر ما ظننت النجوم قريبة من يدك

وأَرَغْتَ مَا لِأَبِي العَشَائِرِ خَالِصاً   إِنَّ الثَّنَاءَ لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعِمُ

وأرغت (طلبت) المدح الذي هو خالص لأبي العشائر؛ إن المدح هو لمن نزوره فينعم علينا

ولِمَنْ يُهِينُ المَالَ، وَهْوَ مُكَرَّمٌ   ولِمَنْ يَجُرُّ الجَيْشَ، وَهْوَ عَرَمْرَمُ

والمدح لمن يهين ماله ويكرم نفسه، ولمن يجر الجيش والجيش عرمرم (كبير)

ولِمَنْ إذا التَقَتِ الكُمَاةُ بِمَأْزِقٍ   فَنَصِيبُهُ مِنْهَا الكَمِيُّ المُعْلَمُ

والمدح لمن إذا التقى الكماة (المدججون بالسلاح) في موضع ضيق، فهو يبارز المسلح المعلم (الشجاع الذي يضع ريشة أو علامة يعرف بها)

ولَرُبَّمَا أَطَرَ القَنَاةَ بِفَارِسٍ   وثَنَى فَقَوَّمَهَا بِآخَرَ مِنْهُمُ

وربما أطر القناة (قوّس الرمح) عندما يطعن فارساً، ثم ثنى (انعطف) وقوم الرمح بفارس آخر من الأعداء

أَفْعَالُ مَنْ تَلِدُ الكِرَامُ كَرِيمَةٌ   وفِعَالُ مَنْ تَلِدُ الأَعَاجِمُ أَعْجَمُ

أفعال الأصيلين أصيلة وأفعال الأعاجم أعجمية

٥١ حب يزيد ويشتد

قال المتنبي يمدح الحسين بن علي الهمذاني: ٨/ ٣٧

إذا غَدَرَتْ حَسْنَاءُ وَفَّتْ بِعَهْدِها   فَمِنْ عهدِها أنْ لا يَدُومَ لَها عَهْدُ

إذا غدرت الحسناء فهي توفي بعهدها الأنثوي، فعهد المرأة (عادتها) ألا يدوم لها عهد

وإنْ عَشِقَتْ كانتْ أَشَدَّ صَبَابَةً   وإِنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَما فَرْكُها قَصْدُ

إن عشقت المرأة كانت أشد صبابة (شوقاً) من الرجل، وأما إن فرِكت (كرهتْ) فاذهب عنها فليس فركها (كراهيتها للرجل) قصداً (معتدلاً) بل متطرفاً

وإنْ حَقَدَتْ لم يَبْقَ في قَلْبِها رِضىً   وإنْ رَضِيَتْ لم يبقَ في قَلْبِها حِقْدُ
كذلكَ أخلاقُ النِّسَاءِ، ورُبَّما   يَضِلُّ بِها الهَادي، ويَخْفَى بِها الرُّشْدُ

هكذا أخلاق (طبائع) النساء، والهادي (العاقل) ربما ضل طريقه في التعامل معهن، وربما خفي عليه الرشد (الصواب)

وَلكِنَّ حُبّاً خَامَرَ القَلْبَ في الصِّبَا يَزِيدُ على مَرِّ الزمانِ ويَشْتَدُّ

ولكن الحب الذي خامر (خالط) القلب منذ الصِّبا يزيد كلما مر الزمن

ومِنّي استفادَ الناسُ كُلَّ غَرِيبَةٍ. فَجازُوا بِتَرْكِ الذَّمِّ، إنْ لم يَكُنْ حَمْدُ

لقد استفاد (أخذ) الشعراء مني كل المعاني الغريبة، ولهم أقول: جازوا (كافئوني) بأن تتركوا ذمي، إن لم يكن منكم الحمد لي

وَجَدْتُ عَلِيّاً وابْنَه خَيْرَ قَوْمِهِ وهُمْ خَيْرُ قَوْمٍ، واسْتَوى الحُرُّ والعَبْدُ

ويمدح الحسين بن علي المنبجي بقوله إن علياً وابنه الحسين هما خير (أفضل) قومهما بني طيّء، وبنو طيّء هم أفضل الأقوام؛ وبقية الناس أدنى من طيء، والفارق بين طيء وبين كل الناس كبير إلى درجة أن يستوي بعدهم الحر والعبد (ألا ترى أنك إذا أدركت حجم الشمس وعظمتها تجد كل الكواكب السيارة سواء في الحقارة؟)

وأَصْبَحَ شِعْرِي مِنْهُمَا في مَكانِهِ وفي عُنُقِ الحَسْناءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ

وقد أصبح شعري من علي وابنه في المكان الصحيح لأنهما يستحقان المدح، مثلما أن العقد جميل على المرأة الجميلة

٥٢ المزاحمة

قال المتنبي يمدح الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة: ٣٦/١٠

فَمَا لي ولِلدُّنْيا! طِلَابِي نَجُومُها ومَسْعايَ مِنها في شُدُوقِ الأراقِمِ

ما لي ولهذه الدنيا! أنا أطلب الكثير فكأنني أريد نيل نجوم السماء، ومسعاي (مطلوبي) منها موجود في شدوق (أفواه) الأراقم (الأفاعي) لصعوبته

مِنَ الحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُونَهُ إذا اتَّسَعَتْ في الحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

جزء من الحلم (العقل) أن تستعمل الجهل (الغضب) دون الحلم (حراسة له)، ذلك مطلوب إذا كان الحلم يجر عليك الظلم

وأَنْ تَرِدَ الماءَ الذي شَطْرُهُ دَمٌ فَتُسْقَى، إذا لم يُسْقَ مَنْ لم يُزاحِمِ

ومن العقل أن ترد (تأتي) الماء الذي شطره (نصفه) دم فتصر على أن تشرب عندما لا يكون ثمة سبيل للشرب إلا المزاحمة. صورة بديعة لصعوبة الحصول على أساسيات الحياة في الصحراء: الماء الذي يرده الناس نصفه دم بسبب القتال عليه

ومَنْ عَرَفَ الأيّامَ مَعْرِفَتي بِها وبِالنَّاسِ، رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ راحِمِ

من عرف الأيام (الدنيا) معرفتي بها وبناسها روَّى (سقى) رمحه من دمهم غير راحم إياهم

فَـلَـيْـسَ بِـمَـرْحُـومٍ إذا ظَـفِـرُوا بِـهِ   ولا في الرَّدَى الجَارِي عَلَيْهِمْ بِآثِمِ

فالمرء لا يجد رحمة إذا ظفر به الآخرون، وهو غير آثم (مذنب) إذا قتل أحداً، فالردى (الموت) جارٍ على الناس جميعاً ومصيرهم كلهم للموت

إذا صُلْتُ لم أتْرُكْ مَصَالاً لفَاتِكٍ   وإنْ قُلْتُ لم أتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ

إذا صلت (هجمت) لم أترك فرصة هجوم لفاتك (شجاع قاتل)، وإن قلت كلاماً لم أترك مجالاً لعالم ينتقدني أو يجاريني

وذِي لَجَبٍ: لا ذُو الجَنَاحِ أمامَهُ   بِنَاجٍ، ولا الوَحْشُ المُثَارُ بِسَالِمِ

ورب جيش ذي لجب (ضجة) لا ينجو أمامه الطير لكثرة ما يصيد جنوده الطيور، ولا الوحش المثار (الخارج من بيته) يسلم منه

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وهْيَ ضَعِيفَةٌ   تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ

تمر الشمس ضعيفة فوق هذا الجيش، وتتسلل من بين ريش القشاعم (النسور). والنسور ترافق الجيش لأنها تعرف أن القتلى سيسقطون بعد قليل وستأكل من جثثهم

إذا ضَوْءُها لاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً   تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّراهِمِ

فإذا كان ضوء الشمس سعيد الحظ وتسلل من فرجة (فتحة) بين النسور، فإنه يشكل بقعاً مثل الدراهم على البَيْض (الخُوَذ التي على رؤوس الجنود)

ويَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ والبَرْقُ فَوْقَهُ   مِنَ اللَّمْعِ في حَافَاتِهِ والهَمَاهِمِ

ولا تميز صوت الرعد ولا صورة البرق فوق هذا الجيش لكثرة ما تلمع سيوفه ولكثرة الهماهم (همهمة الجنود وأصواتهم المختلطة)

٥٣ كمين في كفر عاقب

قال يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي: ٨/ ٤٠

أَعِيدُوا صَبَاحِي، فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ   ورُدُّوا رُقَادِي، فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائِبِ

أعيدوا إليَّ صباحي الذي فقدته بسبب السهر الطويل، وصباحي موجود عند الكواعب (الفتيات اللائي برزت صدورهن أول بروز)، وردوا علي رقادي (نومي) ولا نوم لي إلا بلحظ (برؤية) الحبائب

فَيَا لَيْتَ مَا بَيْنِي وبَيْنَ أَحِبَّتِي   مِنَ البُعْدِ ما بَيْنِي وبَيْنَ المَصَائِبِ

ليت البعد الذي بيني وبين الأحبة موجود بيني وبين المصائب

يَهُونُ عَلى مِثْلِي إذا رَامَ حَاجَةً   وُقوعُ العَوالِي، دُونَها، والقَوَاضِبِ

يهون على من كان مثلي في الطموح إذا رام (طلب) حاجة وقوع العوالي (الرماح) والقواضب (السيوف) دون هذه الحاجة (بسببها)

كَثيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَليلِها   يَزولُ، وبَاقي عَيْشِهِ مِثْلُ ذاهِبِ

طالت الحياة أم قصرت سيان فهي زائلة، وما بقي من عمرك لن يكون خيراً مما ذهب، فلا تأمل في الكثير

إِلَيْكِ! فَإِنِّي لَسْتُ مِمَّنْ إذا اتَّقَى   عِضَاضَ الأَفاعِي نامَ فوقَ العَقارِبِ

إليكِ! (كُفِّي عني يا لائمتي)، فإنني لست الذي يتقي عضاض (عض) الأفاعي ثم ينام فوق العقارب، فأنا جربت الحياة وتمرست بها

أتاني وَعِيدُ الأَدْعِياءِ، وأَنَّهُمْ   أَعَدُّوا لِيَ السُّودَانَ في كَفْرِ عَاقِبِ

جاءني وعيد (تهديد) الأدعياء (المنتسبين لغير آبائهم)، وعرفت أنهم أعدوا لي كميناً من السودان (الرجال السود) في قرية كفر عاقب وكان قوم، يزعمون أنهم من نسل علي بن أبي طالب، قد أعدوا له كميناً

ولَوْ صَدَقُوا في جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُمْ   فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

لو صدقوا في نسبهم لكنت أخذت حذري من تهديدهم، فهل يكونون صادقين في هذا التهديد فقط؟

بِأَيِّ بِلادٍ لم أَجُرَّ ذُؤَابَتي؟   وأَيَّ مَكانٍ لم تَطَأْهُ رَكائِبي؟

بأي بلاد لم أجر ذؤابتي (طرف نعلي)؟ لقد تجولت في كل البلاد؛ وأي بلد لم تطأه (تدسه) ركائبي (جِمالي)؟

٥٤ النجوم هدفي

هاجم الروم أنطاكِيَّةُ وهو فيها، فقال المتنبي: ٦/ ٩

إذا غَامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ   فلا تَقْنَعْ بِما دُونَ النُّجومِ

إذا غامرت في سبيل شرف مروم (مطلوب) فلا تقنع بما هو أقل من النجوم

فَطَعْمُ الموتِ في أَمْرٍ حَقيرٍ   كَطَعْمِ الموتِ في أَمْرٍ عظيمِ

يَرَى الجُبَناءُ أَنَّ العَجْزَ عَقْلٌ   وتِلْكَ خَديعَةُ الطَّبْعِ اللئيمِ

الجبناء يرون العجز (القعود عن المغامرة) تعقلاً. لا، بل يخدعون أنفسهم لستر لؤمهم

وكُلُّ شَجَاعةٍ في المرءِ تُغْني   ولا مِثْلَ الشَّجاعَةِ في الحَكِيمِ

الشجاعة وحدها تكفي، ولا شيء أفضل من اجتماع الشجاعة والحكمة

وكَمْ مِنْ عائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً   وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

كثيرون يعيبون القول الصحيح (يقصد الشعر الجيد)، وآفتهم (مشكلتهم) أن فهمهم سقيم

ولَـكِـنْ تَـأْخُـذُ الآذانُ مِـنْـهُ عـلـى قَـدْرِ الـقَـرائـحِ والـعُـلـومِ

فالأذن تفهم الشعر بقدر ما عند المرء من قريحة (طبع) ومن معرفة

٥٥ ذليل قبل الهجاء

بلغه وهو بدمشق أن إسحق بن كَيَغْلَغ يتوعده في بلاد الروم، فقال المتنبي: ٦/٥

أَتَانـي كَلامُ الـجَاهِـلِ ابْنِ كَـيَـغْـلَـغٍ يَـجُـوبُ حُزُونَـاً بَـيْـنَـنـا وسُـهُـولا

جاءني كلام ابن كَيَغْلغ قاطعاً حزوناً (تلالاً) وسهولاً. كان المتنبي سماه ابن كَيْغَلغ، بسكون على الياء، في قصيدة سابقة (رقم ٥٠) ولا نعرف أي الاسمين الصحيح. ولعل الرجل كان ينطق اسمه بطريقة ثالثة لم تصلنا. ويجوز للشاعر لكي يقيم الوزن ما لا يجوز لغيره

ولوْ لم يَكُنْ بَيْنَ ابنِ صَفْراءَ حَائِلٌ وبَيْنِـي سِوَى رُمْحـي لَكَان طَوِيلا

ولكن، حتى لو كانت المسافة بين ابن صفراء (لقب ابن كيغلغ عند المتنبي) وبيني هي طول رمحي لكانت مسافة طويلة، فهو لا يقدر أن يصل إليّ

وإسحَـقُ مَأْمُـونٌ عَـلـى مَـنْ أَهَـانَـهُ ولَكِـنْ، تَـسَلَّـى بِـالـبُـكَـاءِ قَـلِـيـلا

وإسحق بن كيغلغ مأمون ولا خطر منه على من وجّه إليه إهانة، فأكثر ما يفعله أن يبكي ليُنسي نفسه الإهانة

ولَـيْـسَ جَـمِـيـلاً عِـرْضُـهُ فَـيَـصُـونَـهُ ولَـيْـسَ جَـمِـيـلاً أَنْ يَـكُـونَ جَـمِـيـلا

عرضه ليس جميلاً حتى يستحق الحفظ، وليس أمراً جميلاً ولا صحيحاً أن يكون عرضه جميلاً

ويَـكْـذِبُ؛ مَـا أَذْلَـلْـتُـهُ بِـهِـجَـائِـهِ لَـقَـدْ كـانَ مِـنْ قَـبْـلِ الـهِـجَـاءِ ذَلـيـلا

وهو كاذب، فأنا لم ألحق به الذل بهجائي له، فهو ذليل أصلاً

٥٦ نصرة بالرعب

قال يمدح أبا العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدويّ: ٣٩/١٣

أَتُـراهـا لِـكَـثْـرَةِ الـعُـشَّـاقِ تَـحْـسَـبُ الدَّمْعَ خِـلْـقَـةً في الـمَـآقي؟

هل هي لكثرة عشاقها، ورؤيتها لهم يبكون من ألم العشق، صارت تظن أن الدمع يترقرق في المآقي (العيون) خِلقةً وبشكل طبيعي؟

حُـلْـتِ دونَ الـمَـزارِ، فـالـيَـوْمَ لـوْ زُرْ تِ لَـحَـالَ الـنُّـحُـولُ دونَ الـعِـنَـاقِ

أيتها المحبوبة حُلتِ (وضعتِ حائلاً) بيني وبين زيارتك، والآن لو أمكنكِ أن تزوريني أنتِ لأصبح نحولي (هزالي) حائلاً دون معانقتي إياكِ

ثَاقِبُ الرَّأْيِ، ثَابِتُ الحِلْمِ، لا يَقْـ ـدِرُ أَمْـرٌ لَـهُ عـلـى إقْـلاقِ

يصف ممدوحه بأنه ثاقب الرأي ثابت الحلم (التسامح) لا يقدر أمر أن يقلقه (يضعضعه)

يا بَنِي الحارِثِ بْنِ لُقْمانَ! لا تَعْـ ـدَمْكُمُ في الوَغَى مُتُونُ العِتَاقِ

يا بني الحارث بن لقمان أدعو أن لا تعدمكم (لا تخلو منكم) في الوغى (الحرب) متون (ظهور) العتاق (الخيل الأصيلة)

بَعَثُوا الرُّعْبَ في قُلُوبِ الأَعَادِي فَكَأَنَّ القِتَالَ قَبْلَ التَّلاقِي

لقد بعثوا الرعب في قلوب الأعداء فكأنهم حاربوهم قبل أن يلقوهم

وتَكَادُ الظُّبَى، لِمَا عَوَّدُوها، تَنْتَضِي نَفْسَها إلى الأَعْنَاقِ

وتكاد الظبى (شفرات السيوف) ـ لكثرة ما عودوها الضرب ـ تنتضي نفسها (تسحب نفسها من أغمادها) لتضرب الأعناق

قَلَّ نَفْعُ الحَدِيدِ فِيكَ، فَمَا يَلْـ ـقَاكَ إلّا مَنْ سَيْفُهُ مِنْ نِفَاقِ

لا ينفع السيف الحديدي فيك (في مواجهتك)، لذا أصبح الأعداء يلاقونك بسيوف من النفاق، أي أنهم يسايرونك اتقاء بطشك

إلْفُ هذا الهواءِ أَوْقَعَ في الأَنْـ ـفُسِ أَنَّ الحِمَامَ مُرُّ المَذَاقِ

إلف (ألفة) هذا الهواء الذي نتنفسه أوهم الناس أن الحمام (الموت) مر المذاق

والأَسَى، قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ، عَجْزٌ والأَسَى لا يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ

الأسى (الحزن) قبل مفارقة الروح للجسد عجز من المرء، والحزن بالطبع لا يحدث بعد الموت، إذن فلماذا الحزن أصلاً

كَمْ ثَرَاءٍ فَرَّجْتَ بِالرُّمْحِ عَنْهُ كانَ، مِنْ بُخْلِ أَهْلِهِ، في وِثَاقِ

كثيراً ما فرجت بالرمح ثراء (أطلقت سراحه) كان محبوساً في وثاقٍ (قيد) هو بخل أصحابه، فحاربتهم وأخذت مالهم

والغِنَى في يَدِ اللئيمِ قَبِيحٌ قَدْرَ قُبْحِ الكَرِيمِ في الإمْلاقِ

الغنى قبيح على البخيل قبح الإملاق (الفقر) على الكريم

شَاعِرُ المجدِ خِدْنُهُ شَاعِرُ اللَّفْـ ـظِ، كِلانَا رَبُّ المَعَانِي الدِّقَاقِ

أبو العشائر بمثابة شاعر، ولكن قصائده هي أمجاده، وخدنه (صديقه) أنا شاعر اللفظ، وكلانا له معان دقيقة وفنان في مجاله

لم تَزَلْ تَسْمَعُ المَديحَ، وَلَكِنَّ - صَهيلَ الجِيَادِ غَيْرُ النُّهاقِ

أنت تسمع مديح الشعراء منذ زمن، ولكن الصهيل (شعري العظيم) مختلف عن النهاق (شعر غيري الرديء)

٥٧ الدرُّ درٌّ

قال المتنبي يمدح أبا العشائر أيضاً: ٥/٣٨

لا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ ولا طَلَلَهْ أَوَّلَ حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ

لا تظنوا ربعكم (مكان نزولكم) ولا طلله (خرائبه بعد رحيلكم) أول الأحياء الذين قتلهم الرحيل، فرحيلكم قتلني أنا قبل أن يخرب المكان

قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ النُّفوسُ بِكُمْ وَأَكْثَرَتْ في هَواكُمُ العَذَلَةْ

وقبل الرحيل تلفت (هلكت) النفوس بكم (بسببكم)، وقالت العذلة (اللائمون) الكثير عن حبي لكم

إنَّ الكِذابَ الذي أُكادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدي مِنْهُ الذي نَقَلَهْ

الكِذَاب (الافتراء) الذي يوجه إلي كيداً أهون (أتفه) منه بالنسبه إليَّ الشخص الذي افتراه

وَرُبَّما يُشْهِدُ الطَّعامَ مَعي مَنْ لا يُساوِي الخُبْزَ الذي أَكَلَهْ

وربما (كثيراً) ما يُشهد الأمير الطعام (يدعو إلى طعامه) شخصاً لا يساوي الخبز الذي أكله. وهو يعني ذلك الشخص الذي وشى به للأمير، وقيل اسمه المسعودي

ويُظْهِرُ الجَهْلَ بي، وأَعْرِفُهُ والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

هذا الشخص يدعي أنه يجهلني رغم شهرتي، وأنا أعرفه وأعرف وشاياته، والدر (اللؤلؤ) يبقى له قدره ولو جهل قدره الجاهلون

٥٨ نشيد الملابس

قال المتنبي يمدح أبا العشائر أيضاً: ٣/ ١٠

الناسُ، ما لم يَرَوْكَ، أَشْباهُ والدَّهْرُ لَفْظٌ، وأَنْتَ مَعْناهُ

الناس كلهم متشابهون ولكن من رآك منهم فقد تميز عن بقية الخلق، فأنت بالنسبة لهذا الزمن جوهره، فكأن الزمن لفظ وأنت فيه المعنى

والجُودُ عَيْنٌ، وأَنْتَ ناظِرُها والبَأْسُ باعٌ، وأَنْتُ يُمْناهُ

الجود (الكرم) كالعين وأنت البصر لها، والبأس (الشجاعة) مثل الباع (امتداد الذراعين) وأنت اليمين منهما

تُنْشِدُ أَثْوابُنا مَدائِحَهُ بِأَلْسُنٍ ما لَهُنَّ أَفْواهُ

هذا الممدوح يخلع علينا الثياب، نلبسها ويراها الناس فهي التي تمدحه بالكرم إذ يراها الناس علينا، تمدحه مجازاً بألسن ليست لها أفواه

السيفيات

المختار من شعر المتنبي وهو عند سيف الدولة الحمداني في حلب (٣٣٧ ـ ٣٤٦هـ)

٥٩ سر يسري في الصحراء

قال المتنبي يمدح سيف الدولة (أبا الحسن علي بن عبد الله بن حمدان العدوي) عند منصَرَفِه من الظفر بحصن برزُوَيْهِ وعودته إلى أنطاكية وقد جلس في فازةٍ (خيمة) من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحشٍ وحيوان، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة: ١٦/ ٤٢

وَفَاؤُكُما كَالرَّبْعِ، أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ ... بِأَن تُسْعِدَا، والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

يا صاحبيَّ إن وفاءكما بأن تسعداني (تساعداني بالبكاء) مثل ربع (منزل) الحبيبة: فالربع أشجاه (أكثره تسبباً في الحزن) طاسمه (المطموس منه)، وكذا وفاؤكما فكلما ضعف كان حزني أكثر؛ وأكثر الدمع شفاء للنفس هو الدمع الساجم (المنسكب)

ومَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ. كُلُّ عَاشِقٍ ... أَعَقُّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لائِمُهْ

لست سوى عاشق، والعاشق إذا كان له خليلان (صاحبان) صفيان (مخلصان) فالأكثر عقوقاً منهما هو الذي يلومه. في العربية أسلوب بائد جميل تقول مثلاً: «الغربة أصعب الموتين». والموت واحد، ولكنك جعلته موتين وجعلت أحدهما الغربة. وعليه ما جاء في هذا البيت

وقَدْ يَتَزَيَّا بِالهَوى غَيْرُ أَهْلِهِ ... ويَسْتَصْحِبُ الإنسانُ مَنْ لا يُلائِمُهْ

وما أكثر ما يتزيا (يلبس) الهوى من ليس عاشقاً حقيقياً، وكثيراً ما يصاحب المرء من لا يوافقه

بَلِيتُ، بِلَى الأَطْلالِ، إنْ لم أَقِفْ بِها ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ في التُّرْبِ خَاتِمُهْ

محاني الله مثل بِلى (امّحاء) هذه الأطلال إن لم أقف عندها طويلاً كوقوف الشحيح (البخيل) الذي سقط خاتِمه في التراب فوقف طويلاً يبحث عنه. هذا بيت مشهور، وللشراح والنقاد كلام فيه كثير نعفيك منه، إلا كلمة للصاحب بن عباد الذي علق على الشطر الثاني: «هذا من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان المكتب الأدباء»

كَئِيباً، تَوَقَّانِي العَوَاذِلُ في الهَوى ... كَمَا يَتَوَقَّى رَيِّضَ الخَيْلِ حَازِمُهْ

سأقف بالأطلال كئيباً والعواذل (اللائمات) يتجنبنني لشدة حزني مثلما يتجنب الحازم (المروض) الحصانَ الرّيِّض (الجامح)

وما اسْتَغْرَبَتْ عَيْنِي فِرَاقاً رَأَيْتُهُ ... ولا عَلَّمَتْنِي غَيْرَ ما القَلْبُ عالِمُهْ

لا أستغرب الفراق، وعيني لا تعرِّفني بجديد، فقلبي أحس قبلها بالفراق

فلا يَتَّهِمْني الكَاشِحُونَ، فَإنَّني   رَعَيْتُ الرَّدَى حتى حَلَتْ لي عَلاقِمُهْ

فليسكت الكاشحون (مضمرو العداوة) عن اتهامي بالجزع من الفراق، فلقد رعيت الموت في حقول الحرب حتى صارت علاقمه (طعمه المر) حلوة في حلقي

مُشِبُّ الذي يَبْكِي الشَّبابَ مُشِيبُهُ   فَكَيْفَ تَوَقِّيهِ، وبَانِيهِ هَادِمُهْ

الذي أسبغ الشباب على باكي شبابه هو الذي أسبغ عليه الشيب، فكيف نتجنب الشيب؟ والذي يبني الشباب هو نفسه الذي يهدمه

ومَا خَضَبَ الناسُ البَياضَ لأنَّهُ   قَبِيحٌ، ولكِنْ أَحْسَنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهْ

لا يخضب (يصبغ) الناس بياض الشعر لقبح البياض، على أن أجمل الشعر ما كان أسود فاحماً

وأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبيبةِ كُلِّهِ   حَيَا بَارِقٍ في فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهْ

وأجمل من ماء (رونق) الشباب حيا (مطر) سحاب بارق داخل فازة (خيمة) أنا شائمه (ناظر إليه). وما السحابة البارقة القاعدة داخل الخيمة سوى سيف الدولة الذي يرجو المتنبي أن يمطر عليه ذهباً، وقد فعل

عَلَيْها رِيَاضٌ لم تَحُكْها سَحَابَةٌ   وأَغْصَانُ دَوْحٍ لم تُغَنِّ حَمَائِمُهْ

على قماش الخيمة رسوم رياض ولكنها ليست من حياكة السحب ككل الرياض، وعليها رسوم لأغصانِ دوح (شجر) لكن الحمام الذي على هذا الشجر لا يغني، فهو مجرد رسم

تَرَى حَيَوانَ البَرِّ مُصْطَلِحاً بِهِ   يُحَارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ، ويُسَالِمُهْ

وترى حيوان البر مصطلحاً (مترافقاً) على هذا القماش، وترى الحيوانات متحاربة ومتسالمة

وفي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ   لِأَبْلَجَ لا تِيجَانَ إلَّا عَمائِمُهْ

وترى صورة لملك الروم بتاجه، ولكنه ذليل أمام الأبلج (المشرق) الذي لا تاج له سوى العمامة. ما أرى ذلك القماش إلا من بعض البسط التي غنمها سيف الدولة من الروم وصنع منها خيمة، فالعرب لم يبرعوا في الرسم. والمتنبي يرى صورة الرومي على القماش ويقارنها بسيف الدولة بشخصه قاعداً داخل الخيمة

لَهُ عَسْكَرا خَيْلٍ وطَيْرٍ، إذا رَمَى   بِها عَسْكَراً لم يَبْقَ إلَّا جَمَاجِمُهْ

له عسكران: خيل وطير، فالنسور ترافق الجيش لتأكل من الجثث بعد المعركة. وإذا رمى سيف الدولة بالخيل وبالطير عسكرَ الأعداء لم يَبْقَ منهم إلا الجماجم

غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ   بِلا وَاصِفٍ، والشِّعْرُ تَهْذِي طَماطِمُهْ

غضبت لما رأيت صفات سيف الدولة العظيمة لا تجد من يصفها، بينما الشعر الذي يقال فيه تهذي طماطمه (رطانته) هذياناً

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أَرْضاً بَعيدَةً   سَرَيْتُ، فَكُنْتُ السِّرَّ، والليلُ كاتِمُهْ

كنت إذا يممت (قصدت) أرضاً بعيدة سريت (سرت ليلاً) فكنت مثل السر، وكان الليل يواريني فهو مثل كاتم السر. علق أبو العلاء المعري - وقلما يعلق في شرحه لديوان المتنبي الذي طبع في أربعة اجزاء - على هذا البيت بقوله: وهذا البيت من بدائع هذه القصيدة وسيدها، وواسطة قلادتها (أي الجوهرة التي في وسط العقد، وتكون أفخر جواهره)

٦٠ جسم أرهقته روحه

قال المتنبي يمدح سيف الدولة وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية: ٤/١٨

أيْنَ أَزْمَعْتَ؟ أَيُّهَذا الهُمَامُ!   نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَى، وأَنْتَ الغَمَامُ

إلى أين أزمعت (نويت السفر) أيها الهمام (العظيم)؟ نحن كنبات الربى (الهضاب) وأنت بالنسبة لنا كالغمام (الغيم) فلا حياة لنا بدونك. ونبات الربى بالذات يستقي من الغيم وليس من نبع أو نهر. تسويد أ. عبد الرحيم

لَيْتَ أَنَّا، إذا ارْتَحَلْتَ، لَكَ الخَيْـ   ـلُ، وأَنَّا، إذا نَزَلْتَ، الخِيَامُ

ليتنا خيل لك لا تفارقك في رحيلك، وليتنا خيام تكون معك في نزولك

كلَّ يَوْمٍ لَكَ احْتِمالٌ جَدِيدٌ   ومَسِيرٌ، لِلْمَجْدِ فِيهِ مُقَامُ

في كل يوم لك احتمال (تحميل المتاع فوق الخيل للرحيل) ومسير؛ ومسيرك هذا فيه ثبات للمجد، فأنت ترحل لكي تجاهد

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبَاراً   تَعِبَتْ في مُرَادِها الأجْسَامُ

النفوس الكبيرة تتعب أجسامها في تحقيق مرادها (طموحها)

٦١ خوض الموت وخوض الوحل

وقال عند رحيل سيف الدولة من أنطاكية، وقد كثر المطر: ٢/١٧

إذا اعْتَادَ الفَتى خَوْضَ المَنَايَا   فأَهْوَنُ ما يَمُرُّ بِهِ الوُحُولُ

الذي يخوض الحروب ويلاقي المنايا (الموت) فإنه يجد خوض الوحول أمراً هيناً

وَمَنْ أَمَرَ الحُصُونَ، فَمَا عَصَتْهُ،   أَطَاعَتْهُ الحُزُونَةُ والسُّهُولُ

والذي أمر الحصون بأن تنفتح له فما استطاعت أن تعصي أمره، فإن الحزونة (التلال) والسهول أحرى أن تطيعه

٦٢ تكسرت النصال على النصال

قال يرثي والدة سيف الدولة، ويعزيه بها في سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة: ١٨/ ٤٤

نُـعِـدُّ الـمَـشْـرَفِـيَّـةَ والـعَـوَالـيِ   وتَـقْـتُـلُـنَـا الـمَـنُـونُ بِـلا قِـتَـالِ

نُعد المشرفية (السيوف) والعوالي (الرماح) ثم تقتلنا المنون (الموت) بلا قتال

ونَـرْتَـبِـطُ الـسَّـوابِـقَ مُـقْـرَبَـاتٍ   ومَـا يُـنْـجِـيـنَ مِـنْ خَـبَـبِ الـلـيَـالـي

ونربط السوابق (الخيل السريعة) قريبة منا استعداداً للحرب، ولكن الخيل لا تُنجينا من خبب (ركض) الليالي (الزمن) التي تلاحقنا وتهددنا بالموت

ومَـنْ لـم يَـعْـشَـقِ الـدُّنْـيـا قَـدِيـمـاً!   ولَـكِـنْ، لا سـبـيـلَ إلـى الـوِصَـالِ

لا أحد إلا قد عشق الحياة، ولكنها معشوقة لا سبيل لوصالها

نَصِيبُكَ في حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ   نَصِيبُكَ في مَنامِكَ مِنْ خَيالِ

نصيبك في هذه الحياة من حبيبك قليل ووهميٌّ كنصيبك في المنام من الخيال (طيف الحبيب)

رَمـانـي الـدَّهْـرُ بـالأَرْزَاءِ، حـتـى   فُـؤادِيَ فـي غِـشَـاءٍ مِـنْ نِـبَـالِ

رماني الزمن بالأرزاء (المصائب) حتى صار قلبي كأنه مغلف بغشاء من السهام

فَـصِـرْتُ إذا أَصَـابَـتْـنـي سِـهَـامٌ   تَـكَـسَّـرَتِ الـنِّـصَـالُ عـلـى الـنِّـصَـالِ

وصرت إذا أصابني سهم من مصائب الزمن تكسر نصله على نصال السهام التي تغلف قلبي. هذا خيال حلو

وهَـانَ، فَـمـا أُبَـالـي بـالـرَّزَايـا   لِأَنِّـي مَـا انْـتَـفَـعْـتُ بِـأَنْ أُبَـالـي

هان الدهر علي فصرت لا أبالي بالرزايا (المصائب) لقلة نفع المبالاة

كَـأَنَّ الـموتَ لـم يَـفْـجَـعْ بِـنَـفْـسٍ   ولـم يَـخْـطُـرْ لِـمَـخْـلُـوقٍ بِـبَـالِ

جاءنا خبر موتها فكان مؤلماً حتى كأن الموت لم يفجعنا (ينكبنا) بنفس قبلها، وكأنه لم يخطر ببال أحد

صَلاةُ الـلَّـهِ، خَـالِـقِـنـا، حَـنُـوطٌ   عَـلـى الـوجـهِ الـمُـكَـفَّـنِ بِـالـجَـمَـالِ

صلاة الله (رحمته) بمثابة الحنوط (مسحوق الطيب الذي يرش على الميت) على وجهها المكفن بالجمال. والجمال في الفصحى القديمة هو الوقار وهو الرزانة وهو أيضاً الحُسن.. فمن أراد ان ينتقد على المتنبي أنه وصف والدة الممدوح الميتة بالجمال فليعلم أن «جمال» القدماء غير جمالنا

على المدفونِ، قَبْلَ التُّرْبِ، صَوْناً   وقَـبْـلِ الـلَّـحْـدِ، في كَـرَمِ الـخِـلالِ

رحمة الله على هذا الوجه الذي كان مدفوناً قبل التراب وقبل القبر في الخلال (الخصال) الكريمة صوناً (حفظاً) له

أَطَـابَ الـنَّـفْـسَ أَنَّـكِ مُـتِّ مَـوْتَـاً تَـمَـنَّـتْـهُ الـبَـوَاقـي والـخَـوَالـي

أطاب النفس (جعلها تطيب) أنكِ مت ميتة تمنَّتها النساء البواقي (الأحياء) والخوالي (الماضيات)، فقد عشت كريمة ومت كريمة

وَزُلْـتِ، ولـم تَـرَيْ يَـوْمَـاً كَـرِيـهـاً تُـسَـرُّ الـنَّـفْـسُ فِـيـه بِـالـزَّوَالِ

وزلت (متّ) ولم تشاهدي مكروهاً من المكروهات التي تجعل الإنسان يتمنى الزوال (الموت)

رِواقُ الـعِـزِّ فَـوْقَـكِ مُـسْـبَـطِـرٌّ ومُـلْـكُ عَـلِـيٍّ ابْـنِـكِ فـي كَـمَـالِ

متّ ورواق (سقف) العز فوقك مسبطر (ممدود)، وملك ابنك علي (سيف الدولة) كامل

ولَـوْ كـانَ الـنِّـسـاءُ كَـمَـنْ فَـقَـدْنَـا لَـفُـضِّـلَـتِ الـنِّـسَـاءُ عـلـى الـرِّجـالِ

لو كانت كل النساء مثلك لفضلناهن على الرجال

ومَـا الـتَّـأْنيثُ لاسمِ الشَّـمسِ عَيْـبٌ ولا الـتَّـذْكـيـرُ فَـخْـرٌ لِـلْـهِـلالِ

فالتأنيث بحد ذاته ليس معيباً، فاسم الشمس مؤنث في اللغة، وهي أعظم من القمر مع أن اسمه مذكر

يُـدَفِّـنُ بَـعْـضُـنَـا بَـعْـضَـاً، وتَـمْـشـي أَوَاخِـرُنَـا عـلـى هَـامِ الأَوَالـي

يدفّن (يدفن) بعضنا بعضاً، والأواخر (المعاصرون) يمشون على هام (رؤوس) الأوالي (الأوائل) التي اختلطت بتراب الأرض. يلاحظ طه حسين أن أبا العلاء أخذ هذا المعنى من المتنبي وصنع منه العجائب، وأشار إلى ذلك مارون عبود، ونقول إن عمر الخيام أخذ المعنى وبنى منه صرحاً في رباعياته

رَأَيْـتُـكَ، فـي الـذيـن أَرَى مُـلُـوكَـاً، كَـأَنَّـكَ مُـسْـتَـقِـيـمٌ فـي مُـحَـالِ

يمدح سيف الدولة: رأيتك بالنسبة للملوك الآخرين كأنك مستقيم وسط المحال (الاعوجاج)

فَـإِنْ تَـفُـقِ الأَنَـامَ، وأنـتَ مِـنْـهُـمْ، فَـإِنَّ الـمِـسْـكَ بَـعْـضُ دَمِ الـغَـزَالِ

فإذا فقت الأنام (تفوقت على الخلق) رغم أنك واحد منهم، فأنت كالمسك الطيب رغم أنه جزء من دم الغزال

٦٣ مشغول بالشوق

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان العدوي من أسر الخارجي سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٥/ ٥٢

إِلامَ طَـمَـاعِـيَـةُ الـعَـاذِلِ ولا رَأْيَ فـي الـحُـبِّ لِـلْـعـاقِـلِ

إلى متى يطمع العاذل (اللائم) في أن أنصرف عن عشقي؟ والعاقل العاشق لا يملك لنفسه رأياً، فالحب يغلبه على رأيه

يُـرَادُ مِـنَ الـقَـلْـبِ نِـسْـيَـانُـكُـمْ   وتَـأْبَـى الـطِّـبَـاعُ عـلـى الـنَّـاقِـلِ

يريد العاذل من قلبي أن أنساكم، ولكن حبكم طبع من طباعي، والطباع تأبى مطاوعة الذي يريد أن يتحلى بها نقلاً لا أصلاً

وإنِّـي لأَعْـشَـقُ مِـنْ أَجْـلِـكُـمْ   نُـحُـولِـيِ، وكُـلَّ امْـرِئٍ نَـاحِـلِ

ولأن نحولي (هزالي) بسببكم فأنا أعشقه، وأعشق كل شخص نحيل

وَهَـبْـتُ الـسُّـلُـوَّ لِـمَـنْ لامَـنِـي   وَبِـتُّ مِـنَ الـشَّـوْقِ فـي شَـاغِـلِ

وهبت (أهديت) السلو (النسيان) لمن يلومني، وبت مشغولاً بكم

كَـأَنَّ الـجُـفُـونَ عـلـى مُـقْـلَـتـيِ   ثِـيَـابٌ شُـقِـقْـنَ عـلـى ثَـاكِـلِ

كأن جفوني وهي مفتوحة من السهر متقرحة من البكاء، كأنها ثياب شقتها ثاكل (فاقدة ولدها). تشبيه بعيد يحتاج إلى إعمال فكر

٦٤ أجْرِ الجياد

قال المتنبي عند مسير سيف الدولة لنصرة أخيه ناصر الدولة، لما قصده معز الدولة بن الحسين الديلمي، إلى الموصل، وذلك سنة سبعٍ وثلاثين وثلاثمئة: ٥/٢٨

أَعْلى المَمَالِكِ ما يُبْنَى على الأَسَلِ   والطَّعْنُ، عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ، كَالقُبَلِ

أعظم الممالك ما بني على الأسل (أسنة الرماح)، والطعن عند محبي الممالك والفتوح له طعم القبل

لَقَدْ رَأَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْكَ مَالِئَها   وَجَرَّدَتْ خَيْرَ سَيْفٍ خَيْرَةُ الدُّوَلِ

كل عين وجدت أنك تملؤها، وخير دولة (الدولة العباسية) جردت خير سيف فكان سيف الدولة الحمداني، وكان سيف الدولة وأخوه ناصر الدولة نصرا الخليفة العباسي وأعاداه إلى بغداد بعد أن شرده أعداؤه عنها

وَكَمْ رِجَالٍ بِلا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ   تَرَكْتَ جَمْعَهُمُ أَرْضاً بِلا رَجُلِ

كثيراً ما رأينا رجالاً ضاقت بكثرتهم الأرض، ثم تركتَهم أنت موتى والأرض خالية

إنَّ الـسَّـعَـادَةَ فِـيـمـا أَنْـتَ فَـاعِـلُـهُ   وُفِّقْتَ مُرْتَحِلاً، أو غَيْرَ مُرْتَحِلِ

إن السعادة (التوفيق) مرافق لك فيما تفعله، وفقك الله في ارتحالك وفي إقامتك

أَجْرِ الجِيَادَ على ما كُنْتَ مُجْرِيَهَا   وَخُذْ بِنَفْسِكَ في أَخْلاقِكَ الأُوَلِ

أجر الجياد (اجعل الخيل تجري) كما كنت تفعل، وابق على طباعك الأولى من الجهاد. وكان سيف الدولة توقف عن الجهاد حيناً فالمتنبي يحثه على مواصلته

٦٥ السارق الخفي

قال يرثي أبا الهيجاء، عبد الله بن سيف الدولة، بحلب. وقد توفي بميافارقين في صفر سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمئة: ٩/ ٣٢

بِنَا مِنْكَ، فَوْقَ الرَّمْلِ، ما بِكَ في الرَّمْلِ   وهَذا الذي يُضْنِي كَذاكَ الذي يُبْلِي

بنا ـ ونحن فوق الأرض ـ منك (بسبب ما أصابك) مثل ما بك وأنت في بطن الأرض، والذي يضني (يرهق) يشبه الذي يبلي (يحلل الجسم)

تَرَكْتَ خُدُودَ الغَانِياتِ، وفَوْقَها   دُموعٌ تُذِيبُ الحُسْنَ في الأَعْيُنِ النُّجْلِ

بموتك تركت خدود الحسان وعليها دموع تذيب جمال العيون النجل (الواسعة)، فيسيل الكحل منها مزيلاً جمالها

فإِنْ تَكُ في قَبْرٍ فَإِنَّكَ في الحَشَا   وإنْ تَكُ طِفْلاً فالأَسَى ليسَ بِالطِّفْلِ

أنت في قبرك ولكنك أيضاً في الحشا (القلوب)، ولئن كنت طفلاً صغيراً فالأسى (الحزن) عليك ليس صغيراً

ومِثْلُكَ لا يُبْكَى على قَدْرِ سِنِّهِ   ولَكِنْ على قَدْرِ المَخِيلَةِ والأَصْلِ

ومثلك لا يبكى قليلاً لسنه الصغيرة، ولكن يبكى بقدر المخيلة (التأميل منه) والأصل (كرم النسب)

ومَا الموتُ إلَّا سارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ   يَصُولُ بِلا كَفٍّ، ويَسْعَى بِلا رِجْلِ

الموت كالسارق الذي دق (صغر) شخصه (جسمه) فلا نراه، وهو يصول (يهجم) بلا كف، ويسعى (يمشي) بلا رجل

يَرُدُّ أَبُو الشِّبْلِ الخَمِيسَ عَنِ ابْنِهِ   ويُسْلِمُهُ عِنْدَ الوِلادَةِ لِلنَّمْلِ

يرد أبو الشبل (الأسد) الخميس (الجيش) عن ابنه الصغير، ولكن إذا داهم النملُ شبله عند ولادته فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً. قيل إذا داهم النمل الشبل قبل خروج شعره قضى عليه

نُبَكِّي لِمَوْتَانَا على غَيْرِ رَغْبَةٍ   تَفُوتُ مِنَ الدُّنْيا، ولا مَوْهِبٍ جَزْلِ

نُبكّي (نبكي) على موتانا مع أنه لا توجد بنا رغبة في هذه الدنيا نخشى فوتها (زوالها)، ولا فيها موهب (غنيمة) جزل (عظيم)

إذا ما تَأَمَّلْتَ الزَّمانَ وصَرْفَهُ   تَيَقَّنْتَ أَنَّ الموتَ ضَرْبٌ مِنَ القَتْلِ

الزمان وصرفه (نكباته) يحارب الإنسان فالموت هو عملية قتل يقوم بها الزمان للإنسان

ومَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ   حَياةٌ، وأنْ يُشْتَاقَ فيهِ إلى النَّسْلِ

وليس الدهر أهلاً (مستحقاً) أن نأمل عنده الحياة، ولا يستحق أن نشتاق فيه إلى النسل

٦٦ ما لنا عليك اختيار

سأل سيف الدولة المتنبي عن صفة فرسٍ يرسله إليه فقال ارتجالاً: ٣/٣

مَوْقِعُ الخيلِ مِنْ نَداكَ طَفِيفُ　　　وَلَوَ انَّ الجِيَادَ فِيهَا أُلوفُ

مكان الخيل من نداك (كرمك) طفيف، ولو أن الجياد (الخيل الأصيلة) ضمن ما عندك من خيل هي بالألوف

وَمِنَ اللَّفْظِ لَفْظَةٌ تَجْمَعُ الوَصْـ　　　ـفَ: وذَاكَ المُطَهَّمُ المعروفُ

وهناك لفظة تجتمع فيها أوصاف الخيل الكريمة: وهي المطهم (الحصان التام الخَلْق، الذي كل عضو فيه كامل)

مَا لَنا في النَّدَى عليكَ اختيارٌ　　　كُلُّ ما يَمْنَحُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

ليس من حقنا أن نختار عليك، وكل ما تمنحنا أيها الشريف شريف مثلك. تسويد أ. عبد الرحيم

٦٧ سلاف الكلام

قال المتنبي يمدح سيف الدولة: ٨/ ٤١

لقدِ اسْتَقَدْتُ مِنَ الهَوَى، وأَذَقْتُهُ　　　مِنْ عِفَّتِي مَا ذُقْتُ مِنْ بَلْبَالِهِ

استقدت (انتقمت) من الهوى، وجعلته يذوق من عفتي مثلما أذاقني من بلباله (حزنه)

وَلَقَدْ ذَخَرْتُ لِكُلِّ أرضٍ ساعَةً　　　تَسْتَجْفِلُ الضِّرْغَامَ عَنْ أشْبَالِهِ

ولقد ذخرت (ادخرت) لكل أرض ساعة أذيقها فيها الحرب والويل، وهذه الساعة تستجفل الضرغام (تجعل الأسد يجفل ويبتعد) عن أشباله

تَلقَى الوُجُوهُ بِها الوُجُوهَ، وبَيْنَها　　　ضَرْبٌ يَجُولُ الموتُ في أَجْوالِهِ

في هذه الساعة يتلاقى المحاربون وجهاً لوجه، وبين الوجه والوجه ضرب بالسيوف يتجول الموت في أجواله (نواحيه)

ولقدْ خَبَأْتُ مِنَ الكَلامِ سُلافَهُ　　　وسَقَيْتُ مَنْ نادَمْتُ مِنْ جِرْيَالِهِ

وقد خبَأْتُ (خبَّأت) من الكلام سلافه (السلاف: أصفى الخمر)، وسقيت ندمائي بجريال الكلام (الجريال: الخمر العادية). فعنده شعر أعظم مما قاله حتى الآن. صَدَق

وإذا تَعَثَّرَتِ الجِيادُ بِسَهْلِهِ　　　بَرَّزْتُ، غَيْرَ مُعَثَّرٍ، بِجِبَالِهِ

إذا تعثرت الجياد (الشعراء) في سهول الكلام فإنني أبرز وأتميز ولا أتعثر في جبال الكلام

الجَيْشُ جَيْشُكَ، غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ　　　فِي قَلْبِهِ ويَمِينِهِ وشِمَالِهِ

يا سيف الدولة! الجيش جيشك ولكنك تحميه كأنك أنت جيشه، وأنت موجود في قلبه وفي الميمنة والميسرة منه

تَـرِدُ الـطِّـعَـانَ الـمُـرَّ عَـنْ فُـرْسـانِـهِ وتُـنَـازِلُ الأَبْـطـالَ عَـنْ أبْـطَـالِـهِ

ترِد (تأتي) إلى المطاعنة المُرَّة بالرماح نيابة عن فرسان الجيش، وتنازل أبطال العدو نيابة عن أبطال جيشك

كُـلٌّ يُـرِيـدُ رِجَـالَـهُ لِـحَـيـاتِـهِ يـا مَـنْ يُـرِيـدُ حَـيـاتَـهُ لِـرِجَـالِـهِ

كل الزعماء يريدون رجالهم لحماية حياتهم، يا من يقف حياته على رجاله! تسويد أ. عبد الرحيم

٦٨ زنارٌ من عيون

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، وقد أمر له بفرس وجاريه: ١١/ ٤٠

أَيَـدْرِي الـرَّبْـعُ أَيَّ دَمٍ أَرَاقَـا وأيَّ قُـلـوبِ هـذا الـرَّكْـبِ شَـاقَـا

هل يعلم الربع (منزل الحبيبة المهجور) أي دم قد سَفَك، وقلب أي شخص في هذا الركب قد حرك؟

لَـنـا ولأهْـلِـهِ أَبَـداً قُـلُـوبٌ تَـلاقَـى، فـي جُـسُـومٍ مَـا تَـلاقَـى

لنا ولأهل هذا الربع قلوب تتلاقى في المشاعر ولكنها موجودة داخل جسوم لا تتلاقى في الواقع.
يقول: إن قلبه وقلب محبوبته يتلاقيان في الحب ولكن جسمه وجسمها دوماً مفترقان

فَـلَـيْـتَ هَـوَى الأحِـبَّـةِ كـانَ عَـدْلاً فَـحَـمَّـلَ كُـلَّ قَـلْـبٍ مَـا أطَـاقَـا

ليت الحب كان عادلاً فحمل كل إنسان من الحزن ما يطيق فقط

وطَـرْفٌ، إنْ سَـقَـى الـعُـشَّـاقَ كَـأْسَـاً بِـهَـا نَـقْـصٌ، سَـقَـانِـيـهـا دِهَـاقَـا

وطرف (نَظَر) الحبيبة يسقي غيري من العشاق من الألم كأساً ناقصة، ولكنه يسقيني كأساً دهاقاً (مملوءة)

وَخَـصْـرٌ تَـثْـبُـتُ الأبْـصَـارُ فـيـهِ كَـأَنَّ عـلـيـهِ مِـنْ حَـدَقٍ نِـطَـاقَـا

وخصرها ينظر إليه الجميع، فكأن الحدق (العيون) تشكل نطاقاً (زناراً) لهذا الخصر

تَـعَـجَّـبَـتِ الـمُـدامُ وقـد حَـسَـاهَـا فَـلَـمْ يَـسْـكَـرْ، وجَـادَ، فَـمـا أَفَـاقَـا

المدام (الخمر) تعجبت عندما حساها (شربها) الممدوح فلم يسكر منها، ولكنه جاد (وهب المال) فلم يفق من سكرة الكرم. يقول: هذا رجل لا تسكره الخمر ولكنه مصاب بسكر الكرم فيعطي بلا تفكير وبلا تردد

ولـم تَـأْتِ الـجَـمِـيـلَ إِلَـيَّ سَـهْـواً ولـم أَظْـفَـرْ بِـهِ مِـنْـكَ اسْـتِـرَاقَـا

وأنت أيها الممدوح لم تأت (تفعل) الجميل إليَّ سهواً (عشوائياً)، وأنا لم أظفر بالعطايا منك استراقاً (سرقةً ومخالسة)

فَأَبْلِغْ حاسِدِيَّ عليكَ أنِّي كَبَا بَرْقٌ يُحَاوِلُ بي لَحَاقَا

فقل لمن يحسدونني على علاقتي بك أنني السريع في العلياء، وأنا الذي كبا (سقط) أي برق يحاول اللحاق بي

وهَلْ تُغْنِي الرَّسائِلُ في عَدُوٍّ إذا ما لم يَكُنَّ ظُبَىً رِقَاقَا

والرسائل لا تنفع في الأعداء إلا إذا كانت ظبى (نصالاً) رقاقاً (رقيقة). فالعدو لا يفهم رسالة سوى حد السيف

إذا ما النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمُ، وذَاقَا

إذا جرب اللبيب (العاقل) الناس، فأنا زدت عليه وأكلتهم أكلاً، بينما هو قد ذاقهم وحسب

فلمْ أَرَ وُدَّهُمْ إلَّا خِدَاعَاً ولم أَرَ دِينَهُمْ، إلَّا نِفَاقَا

فلم أجد ود الناس إلا خداعاً، ولم أجد دينهم (تدينهم) إلا نفاقاً

٦٩ ظلام المعركة

قال المتنبي يمدح علي بن عبد الله سيف الدولة الحمداني، وقد أمر غلمانه أن يلبسوا، وقصد ميافارقين في خمسة آلاف من الجند ليزور قبر والدته، وذلك في شوال سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة: ١٠/ ٤٢

إذا كانَ مَدْحٌ، فَالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْراً مُتَيَّمُ؟

كلما أراد شاعر أن يمدح كان النسيب (الغزل) مقدَّماً (موجوداً في مقدمة القصيدة)، فهل كل شاعر فصيح يجب أن يكون متيماً (عاشقاً)؟

لَحُبُّ ابْنِ عَبْدِ الله أَوْلَى، فَإنَّهُ بِهِ يُبْدَأُ الذِّكْرُ الجميلُ ويُخْتَمُ

لحب (والله إن حب) ابن عبد الله أولى بأن أبدأ به من العشق، فبذكره يُبدَأُ الكلام الجميل وبه يختم. تعليق أ. عبد الرحيم: [أحب، على طريقة أبي العلاء، أن أقول بعد هذا البيت: اللهم صلِّ على سيدنا محمد!]

تَعَرَّضَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الدَّهْرَ كُلَّهُ يُطَبِّقُ في أَوْصَالِهِ، ويُصَمِّمُ

تعرض (واجه) سيف الدولة الدهر كله يطبق (يصيب) في أوصاله (أطرافه) ويصمم (يعمق ضرباته). يقول: سيف الدولة يواجه الزمن محارباً إياه معملاً فيه سيفه

فَجَازَ لَهُ، حتى على الشمسِ، حُكْمُهُ وبَانَ لَهُ، حتى على البَدْرِ، مِيسَمُ

فجاز (فنَفَذ) أمره حتى على الشمس وبان ميسمه (ختمه) على صفحة البدر. يقول: سيف الدولة نافذ الكلمة يطيعه الجميع من أفراد ودول حتى إن الشمس تنزل عند حكمه وميسمه موجود على صفحة القمر

كَأَنَّ العِدَى في أَرْضِهِمْ خُلَفاؤُهُ فَإِنْ شاءَ حازُوها وإنْ شاءَ سَلَّمُوا

فالأعداء كأنهم خلفاؤه (مندوبوه) في أرضهم، فبحسب مشيئته يحوزونها (يملكونها) أو يسلمونها له

ولا كُتْبَ إلَّا المَشْرَفِيَّةَ عِنْدَهُ ولا رُسُلٌ إلَّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ

ولا كتب (رسائل) عند سيف الدولة يرسلها للأعداء سوى المشرفية (السيوف)، ولا رسل سوى الجيش العرمرم (الجرار)

فَلَمْ يَخْلُ مِنْ نَصْرٍ لَهُ، مَنْ لَهُ يَدٌ ولم يَخْلُ مِنْ شُكْرٍ لَهُ، مَنْ لَهُ فَمُ

كل من له يد نصر سيف الدولة، وكل من له فم شكره، أي كل الناس

ولم يَخْلُ مِنْ أَسْمائِهِ عُودُ مِنْبَرٍ ولم يَخْلُ دِينارٌ، ولم يَخْلُ دِرْهَمُ

وعلى كل منبر تراه مذكوراً بالتعظيم، وخطباء الجمعة يدعون للحاكم بالنصر والتوفيق، ولامتداد سلطته على البلاد صار كل دينار ودرهم يحمل اسمه

ضَرُوبٌ، ومَا بَيْنَ الحُسَامَيْنِ ضَيِّقٌ بَصِيرٌ، ومَا بَيْنَ الشُّجَاعَيْنِ مُظْلِمُ

ضروب (كثير الضرب) رغم أن ما بين السيفين ضيق للقرب بين المتبارزيْن، وبصير بما يجري رغم وجود ظلمة من غبار المعركة بين هذين الشجاعين. هذه الـ «وما بين الشجاعين مظلم» لا يعرف يقولها سوى أبي الطيب، فقف بها سويعة وردد البيت على نفسك فالشعر غناء، والكلام الحلو قليل، والحياة قصيرة

إذا نَحْنُ سَمَّيْناكَ خِلْنَا سُيُوفَنَا مِنَ التِّيهِ في أَغْمادِها تَتَبَسَّمُ

إذا نحن ذكرنا اسمك (سيف الدولة) توهمنا أن سيوفنا تبتسم داخل أغمادها فخراً. والمرء إذا مدحته صادقاً أو كاذباً يبتسم: يكون مسروراً، وكل امرئ يحب المديح. ولقد والله يعرف الحكيم الأريب أن المديح الذي يسمعه رياء، وأن المادح كذاب، ولكنه يرتاح للمدح ويشعر أن قلبه يرقص على نغمة المديح، والكرام أكثر من ينخدع بالمديح كاذباً وصادقاً. وما أكثر من يعرفون هذه الخصلة في الناس فيستعملونها استعمالاً. وأنت تنظر في عين المادح المرائي، وتقول له بلسان ثابت فصيح: يا أخي إني والله أعرف حسناتي وعيوبي خيراً منك، أرجوك! كفى. وتراه لا يرمش ويواصل المديح. وفي النهاية يحصل، في الغالب، على ما يريد. هؤلاء هم الذين قال عنهم المتنبي إنهم يأتون وبأيديهم سيف من نفاق. كلنا نحب من يمدحنا صادقاً، والملوك والمدراء يفضلون المدح الكاذب، لأنه برهان خضوع

٧٠ النكسة

قال المتنبي في هزيمة مُني بها سيف الدولة على أيدي الروم، وقد خذله بعض جنده ورقدوا بين قتلى الروم طلباً للنجاة، فأسلمهم سيف الدولة، وتركهم لِيُؤسروا: ١٦/٤٩

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هذا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إنْ قاتَلُوا جَبُنُوا، أو حَدَّثُوا شَجُعُوا

غيري ينخدع بأكثر هؤلاء الناس، والحق أنهم جبناء في القتال شجعان في الكلام فقط

بِالجيشِ تَمْتَنِعُ السَّاداتُ كُلُّهُمُ   والجَيْشُ بِابْنِ أبِي الهَيْجاءِ يَمْتَنِعُ

بالجيش يمتنع (يحتمي) السادة والزعماء، ولكن الجيش هو الذي يحتمي بابن أبي الهيجاء (سيف الدولة)

لقد أقامَ على أَرْبَاضِ خَرْشَنَةٍ   تَشْقَى بِهِ الرُّومُ والصُّلْبَانُ والبِيَعُ

لقد أقام (مكث) سيف الدولة على أرباض (أسوار) خرشنة (بلد من بلاد الروم) وكان الروم وصلبانهم وبيعهم (كنائسهم) تشقى (تتعب) بسببه. قد يتعب صديق لي مسيحي من هذا البيت، ولكنه يعرف أن المسألة في ذلك العصر كانت صراع أمتين لكل منهما رموز دينية، ولعله يجد بعض السعة عندما يعلم أن المتنبي لم يكن بالمتعصب دينياً، لا ولا بالمستمسك بعروة الدين؛ وقبله قال أبو تمام في الصلبان والكنائس ما قال ـ وأوردنا بعض ذلك في كتابنا «تجديد الشعر» ـ وما كان أبو تمام بصاحب صلاة، لا بل زعم بعضهم ـ وملنا إلى هذا الزعم ـ أن أهله كانوا مسيحيين، فأما إن أراد بعض أبناء زمننا هذا أن يقولوا عن رموز المسيحية وعن رموز أي دين آخر ما كان يقوله الناس قبل ألف سنة، فلا نتهمهم بشيء ولا نشتمهم، بل ندعو الله أن يخلصهم من هذا المرض النفسي. . العيش في الماضي. وإنك لترى الواحد من هؤلاء المرضى يتقرب إلى أصنامه الفكرية بسيل من قبائح الكلم ثم يذهب ليقف في الطابور سعياً وراء تأشيرة إلى دولة مسيحية. وستراننا في تحليل فكري لشعر أحمد شوقي ـ هذا عندما يصدر كتابنا الرابع في هذه السلسلة الخماسية ـ نقر بأن الغرب والشرق مستمران بعض الاستمرار في الحروب الصليبية. ليس أن إسباغ لبوس ديني على هذا الصراع مما نراه مفيداً، بل لأن في الغرب وفي الشرق ناساً يعانون من مرض التعصب والعنصرية

مُخْلَىً لَهُ المَرْجُ، مَنْصُوباً بِصَارِخَةٍ   لَهُ المَنَابِرُ، مَشْهُوداً بِها الجُمَعُ

مكث هناك والمرج (السهل) قد أخلاه الروم خوفاً، ومنابره منصوبة في مكان اسمه «صارخة»، وتقام هناك في أرض الروم صلاة الجمعة

يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فيهِمْ طولُ أَكْلِهِمُ   حتى تَكادُ على أحيَائِهِمْ تَقَعُ

الطير تطمع في الروم، ولكثرة ما تعودت النسور أن تقع عليهم وتأكل لحومهم وهم جثث فهي تكاد تقع عليهم وهم أحياء

ولو رَآهُ حَوَارِيُّوهُمُ لَبَنَوْا   على مَحَبَّتِهِ الشَّرْعَ الذي شَرَعُوا

لو رأى الحواريون (تلاميذ السيد المسيح) سيف الدولة لبنوا على محبته شريعتهم

قُلْ لِلدُّمُسْتُقِ: إنَّ المُسْلَمِينَ لَكُمْ   خَانُوا الأميرَ، فَجَازاهُمْ بِما صَنَعُوا

قل للدمستق (قائد الروم) إن المسلَمين لكم (الذين سلمناهم لكم) هم ممن خانوا الأمير فجازاهم بذلك

وَجَدْتُموهُمْ نِيَاماً في دِمَائِكُمُ   كَأَنَّ قَتْلاكُمُ إيَّاهُمُ فَجَعُوا

وجدتموهم نائمين قرب جثث قتلاكم، كأنهم يتمسحون بهذه الجثث حزينين على مصير أصحابها. وكان بعض جنود سيف الدولة ادعوا أنهم قتلى وارتموا قرب الجثث للنجاة من القتل.

لا تَحْسَبُوا مَنْ أَسَرْتُمْ كانَ ذا رَمَقٍ فَلَيْسَ يَأْكُلُ، إلَّا، المَيْتَةَ، الضَّبُعُ

لا تظنوا أن الذين أسرتموهم كان فيهم رمق (بقية من حياة) فهم موتى بجبنهم، وأنتم بأسركم لهم مثل الضبع، وليس يأكل الميتة (الجثة) إلا الضبع

وإنَّما عَرَّضَ اللَّهُ الجنودَ بِكُمْ لِكَيْ يَكونُوا بِلا فَسْلٍ إذا رَجَعُوا

والله قد عرض (امتحن) جيش سيف الدولة بكم، حتى تقتلوا أو تأسروا الجبناء، وحتى يكون الجيش خالياً من أي فسل (ضعيف جبان) عندما يرجع

فَكُلُّ غَزْوٍ إلَيْكُمْ، بَعْدَ ذا، فَلَهُ وكُلُّ غازٍ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ التَّبَعُ

سيكون كل غزو لبلدكم بعد هذا الغزو لسيف الدولة (النصر فيه له)؛ وإن كل غاز هو مجرد تابع لسيف الدولة سيد الغزاة

تَمْشي الكِرَامُ على آثارِ غَيْرِهِمُ وأنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتي، وتَبْتَدِعُ

الكرام من الناس يقلدون من سبقهم من الكرام، ولكنك يا سيف الدولة مبتدع في أفعالك. تسويد أ. عبد الرحيم

وهَلْ يَشِينُكَ وَقْتٌ كُنْتَ فَارِسَهُ وكَان غَيْرَكَ فِيهِ العَاجِزُ الضَّرَعُ

وهل يشينك (يعيبك) وقت كنتَ فيه الفارس وكان غيرك العاجز الضرع (الضعيف)؟

مَنْ كانَ فوقَ مَحَلِّ الشَّمسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شيءٌ ولا يَضَعُ

أنت لست في معرض تقييم. مكانك فوق الشمس فلا شيء يرفعك ولا يضعك (يخفضك)

الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ، والسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ وأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ ومُرْتَبَعُ

الزمن يعتذر إليك ـ عن هذه الهزيمة التي لحقت بك ـ والسيف منتظر الغُزَاة المقبلة، وأرض الروم لك مصطاف (مكان اصطياف) ومرتبع (مكان قضاء الربيع). المتنبي في كل القصيدة لا يصرح بالهزيمة، ولكن التاريخ عرفنا بها، على أن جو القصيدة ينبئ عن أنها كانت هزيمة نكراء

إنَّ السِّلاحَ جَمِيعُ الناسِ تَحْمِلُهُ ولَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

كل شخص يحمل السلاح، وليس كل من له مخلب من الحيوان سبع. وما بعد ليس كلها خبرها واسمها ضمير الشأن. وقيل غير ذلك

٧١ هَلُمِّنَّا

عزم سيف الدولة على لقاء الروم في السَّنَبُوس سنة أربعين وثلاثمئة، وبلغه أن العدو في أربعين ألفاً فتهيبَتْهم أصحابه، فأنشد أبو الطيب: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٥/ ١٥

نَزُوُر دِيَاراً مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى ونَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سَاكِنِهَا الإذْنَا

نزور بلاد الروم غازين ونحن لا نحب مغاني (ربوع) تلك البلاد، ونستأذن في زيارتها قائدنا سيف الدولة لا سكانها

وقد عَلِمَ الرُّومُ الشَّقِيُّونَ أنَّنا إذا ما تَرَكْنَا أَرْضَهُمْ خَلْفَنَا عُدْنَا
وأنَّا إذا مَا الموتُ صَرَّحَ في الوَغَى لَبِسْنَا إلى حَاجَاتِنا الضَّرْبَ والطَّعْنا

إذا الموت صرَّح (برز واضحاً) في الوغى (الحرب) اتخذنا الضرب بالسيوف والطعن بالرماح وسيلة لتحقيق حاجاتنا

قَصَدْنَا لَهُ قَصْدَ الحَبيبِ لِقَاؤُهُ إلَيْنا، وقُلْنَا لِلسُّيُوفِ هَلُمَّنَّا

قصدنا للموت كقصدنا للقاء شخص حبيب (محبوب) لقاؤه إلينا (إلى نفوسنا)، وقلنا للسيوف هلمَّ (هيا)

وما الخوفُ إلَّا ما تَخَوَّفَهُ الفَتَى وما الأمنُ إلَّا ما رَآهُ الفَتَى أَمْنَا

الأمر نسبي ويعتمد على نظرة الإنسان لما هو خطر ولما هو آمن

٧٢ مطاردة مع الليالي

قال المتنبي، وقد أراد سيف الدولة قصد خرشنة فعاقه الثلج عن ذلك: ٤٣/٢٣

عَوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فيَّ حَوَاسِدُ وإنَّ ضَجِيعَ الخَوْدِ مِنِّي لَمَاجِدُ

عواذل (عاذلات) صاحبة الخال فيَّ (بسببي) ما هن إلا حاسدات لها، ولو كنت ضجيعاً (خليلاً) للخود (الفتاة الناعمة) لظفرتْ مني (أي ممثلاً بي) بخليل ماجد (شريف). يقول: لائمات تلك الفتاة في صلتها بي حاسدات لها، وإنني لخليل شريف لمن أعشق

يَرُدُّ يَداً عَنْ ثَوْبِها، وَهْوَ قَادِرٌ وَيَعْصِي الهَوى في طَيْفِها، وَهْوَ رَاقِدُ

هذا الخليل الشريف يرد يده عن جسم المحبوبة رغم قدرته على مباشرتها، ويعصي هواه (انجرافه) حتى عندما يرى طيفها في المنام؟ تسويد أ. عبد الرحيم

إذا كُنْتَ تَخْشَى العارَ في كُلِّ خَلْوَةٍ فَلِمْ تَتَصَبَّاكَ الحِسَانُ الخَرَائِدُ

يا أيها الرجل ـ يخاطب نفسه ـ أنت تتجنب العار (العلاقة الجنسية) في كل خلوة، فلماذا إذن تتصباك (تجتذبك) الحسان الخرائد (الناعمات)؟

أَلَحَّ عَلَيَّ السُّقْمُ حتى أَلِفْتُهُ ومَلَّ طَبِيبي جَانِبِي، والعَوَائِدُ

ألح علي السقم (مرض العشق) حتى صار مألوفاً لي، ومل طبيبي والعوائد (زائرات المريض) الجلوس بجانبي

مَرَرْتُ على دَارِ الحَبِيبِ، فَحَمْحَمَتْ جَوَادي، وهَلْ تُشْجي الجِيَادَ المَعَاهِدُ

مررت بدار الحبيب (خيامه) بعد أن هجرها القوم، فحمحمت (صهلت صهيلاً خفيفاً) جوادي (فرسي)، فهل تشجي (تُحزِن) المعاهد (الديار المتروكة) الجيادَ أيضاً؟

وما تُنْكِرُ الدَّهْماءُ مِنْ رَسْمِ مَنْزِلٍ سَقَتْهَا ضَرِيبَ الشَّوْلِ فيهِ الوَلائِدُ

لا تنكر (تجهل) فرسي الدهماء (السوداء) رسم (بقايا) منزل كانت قد سقتها فيه الولائد (الفتيات) ضريب (حليب) الشول (النياق)

أَهُمُّ بِشيءٍ، والليالي كَأَنَّها تُطَارِدُني عن كَوْنِهِ وأُطَارِدُ

أهم بتحقيق شيء عظيم ولكن الزمن يطاردني عن كونه (حصوله) وأطارده

وَحِيدٌ مِنَ الخُلَّانِ في كُلِّ بَلْدَةٍ إذا عَظُمَ المَطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

أنا وحيد بلا خلان (أصدقاء) في كل بلد. وإذا كان طموح المرء كبيراً لم يجد من يساعده. تعليق أحمد عبد الرحيم: [يقول العلايلي للمتنبي: قد وُلد مساعدك بعد وفاتك ببضع سنين!] يعني العلايلي أبا العلاء المعري

وتُسْعِدُني، في غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ، سَبُوحٌ، لها، مِنْها، عَلَيْها، شَوَاهِدُ

وتسعدني (تساعدني) في غمرة (مأزق) بعد غمرة سبوح (فرس) لها من جسمها شواهد (علامات) على أصالتها

تَثَنَّى على قَدْرِ الطِّعَانِ، كَأَنَّما مَفَاصِلُها تحتَ الرِّمَاحِ مَرَاوِدُ

تثنى فرسي بحسب الطعان (الطعن بالرماح) فكأن مفاصلها لليونتها مراود (حلقات اللجام التي تدور بحرية)

وأُورِدُ نَفْسي، والمُهَنَّدُ في يَدِي، مَوارِدَ لا يُصْدِرْنَ مَنْ لا يُجالِدُ

أورد نفسي (أرمي بنفسي)، وسيفي بيدي، موارد (أحواضاً) لا يصدرن (يُرجعنَ) من لا يجالد (يقاتل). والمرء «يرد» الماء ليستقي، ثم «يصدُر» عن الماء بعد أن يشرب. والمتنبي يورد نفسه موارد الحرب، وهذه الموارد لا تصدره (تعيده سالماً) إن لم يحارب بقوة

ولَكِنْ إذا لم يَحْمِلِ القَلْبُ كَفَّهُ على حَالةٍ لم يَحْمِلِ الكَفَّ ساعِدُ

إذا قلب المرء (جرأته) لم يحمل كفه التي تقاتل فإن ذراعه لن تحمل هذه الكف، فالمرء يقاتل بقوة قلبه وليس بقوة جسمه

خَلِيلَيَّ! إنِّي لا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ، فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى ومِنِّي القَصَائِدُ؟

يا صاحبيَّ! ما أراه هو شاعر واحد فقط، وهو أنا، فلمْ (فلماذا) نسمع منهم الدعوى (ادعاء الشعر) بينما مني أنا تأتي القصائد؟ وكان الشاعر أبو العباس النامي في بلاط سيف الدولة، وكان قوي الشعر، وكان بطيئاً لا يصف المعركة إلا بعد أشهر من وقوعها، ولسيف الدولة معه نوادر في هذا البطء

فلا تَعْجَبَا: إنَّ السُّيوفَ كَثيرَةٌ ولكِنَّ سيفَ الدولةِ اليومَ واحِدُ

لا تعجبا فسيف الدولة مثلي في التفرد، السيوف كثيرة ولكنه هو بينها المتفرد الحقيقي

ولـمَّـا رأيْـتُ الـنـاسَ دُونَ مَـحَـلِّـهِ   تَـيَـقَّـنْـتُ أنَّ الـدَّهْـرَ لِـلـنَّـاسِ نَـاقِـدُ

وعندما رأيت الناس كلهم دون محله (أدنى منه مرتبة) تيقنت أن الزمن ينقد الناس (يفرزهم فرزاً ويبرز الجيد منهم)

أَحَقُّهُمُ بِالسَّيْفِ مَنْ ضَرَبَ الطُّلَى   وبِالأمْنِ مَنْ هَانَتْ عليهِ الشَّدَائِدُ

أحق الناس بحمل السيف من ضرب به الطلى (الأعناق)، وأحقهم بالأمن من هانت عليه شدائد الحرب

وأشْقَى بِلادِ اللَّهِ ما الرُّومُ أهْلُها   بِهَذا، وما فِيها لِمَجْدِكَ جَاحِدُ

أشقى (أتعس) البلاد بهذا (أي بالسيف) بلاد الروم، ومع ذلك فليس فيها من يجحد (ينكر) مجدك يا سيف الدولة

وتُضْحِي الحُصُونُ المُشْمَخِرَّاتُ في الذُّرَا   وخَـيْـلُـكَ فـي أَعْـنَـاقِـهِـنَّ قَـلائِـدُ

وتصبح الحصون المشمخرة (العالية) في الذرا (القمم) وقد أحاطت بها خيولك كأنها قلائد (عقود في العنق)

فَلَمْ يَبْقَ إلّا مَنْ حَمَاها مِنَ الظُّبَى   لَمَى شَفَتَيْها والثُّدِيُّ النَّواهِدُ

فلم يبق من الروم سالماً إلا من حماها من الظبى (نصال السيوف) لمى شفتيها (سمرة شفتيها) والثدي النواهد (الأثداء المشرئبة). يقول: قُتل رجال الروم وبقيت الفتيات المسبيات اللائي حمتهن أنوثتهن من القتل

تُبَكِّي عَلَيْهِنَّ البَطَارِيقُ في الدُّجَى   وَهُنَّ لَدَيْنَا مُلْقَيَاتٌ كَوَاسِدُ

تُبكِّي (تَبْكي) على هؤلاء النسوة البطاريق (زعماء الروم) في الليل، ولكنهن ملقيات عندنا كواسد (كاسدات)

بِذَا قَضَتِ الأيّامُ ما بَيْنَ أهْلِها   مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

بذا: بهذا

وكُلٌّ يَرَى طُرْقَ الشَّجَاعَةِ والنَّدى   ولَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قائِدُ

كل شخص يبصر الطرق نحو الشجاعة والندى (الكرم)، ولكنه يعجز عن سلوكها إن لم يكن طبعه مواتياً، فالطبع يقود المرء لا مجرد الإدراك. تسويد أ. عبد الرحيم

نَهَبْتَ مِنَ الأعمَارِ ما لو حَوَيْتَهُ   لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خالِدُ

يا سيف الدولة! نهبت أعمار الأعداء نهباً، ولو أنك حويت (ضممت) إلى عمرك ما نهبت من الأعمار لكانت بشارة للدنيا بأنك خالد لا تموت

٧٣ لو دامت لغيرك..

قال المتنبي يعزي سيف الدولة بعبده «يماك»، وقد توفي في شهر رمضان سنة أربعين وثلاثمئة: ٨/ ٣١

لا يُحْزِنِ اللَّهُ الأميرَ، فإنَّني　　لآخُذُ مِنْ حالاتِهِ بِنَصِيبِ

أدعو الله ألا يحزن الأمير، فأنا أحزن لحزنه. يقول: أدعو له بذلك وأنا مستفيد من هذا الدعاء لأنني أحزن لحزنه. وقد فهم بعضهم البيت على أن معناه: لا تحزن أيها الأمير، فأنا المتنبي بكل عظمته حزين مثلك. وهذا فهم من لم يُدِم النظر في البيت. وهدانا إلى مقصد المتنبي شرح المعري. وغلط الصاحب بن عباد غلطة أفدح في فهم البيت، ففهمه على أنه يعني: الله لن يجعل الأمير يحزن، لأنني أشاركه الحزن. ونبه الواحدي على غلط الصاحب. واهتدى اليازجي بشرح المعري آخذا بعض عبارته. ولمن العروض من همه فالبيت فيه خرم في أوله، مطية قلما ركبها أبو الطيب. ولعله ما ركبها إلا تنبيهاً على عرفانه وجودَها

ومَنْ سَرَّ أهلَ الأرْضِ ثُمَّ بَكَى أَسىً　　بَكَى بِعُيُونٍ سَرَّهَا وقُلُوبِ

وسيف الدولة سَرَّ كل الناس، لذلك فعندما يبكي أسىً (حزناً) فهو يبكي بعيون وقلوب الناس

وإنِّي، وإنْ كانَ الدَّفِينُ حَبِيبَهُ،　　حَبِيبٌ إلى قَلْبِي حَبِيبُ حَبيبي

وإنني حزين رغم أن المدفون حبيب لسيف الدولة لا لي، ولكن من كان حبيب حبيبي فهو حبيبي أيضاً

وقد فَارَقَ الناسَ الأحِبَّةُ قَبْلَنا　　وأَعْيَا دَواءُ الموتِ كلَّ طبيبِ

فارق الأحبةُ الناس من قبل، وأعيا (أعجز) الأطباء الحصول على دواء للموت

سُبِقْنَا إلى الدُّنيا، فَلَوْ عاشَ أهلُها　　مُنِعْنَا بِها مِنْ جِيئَةٍ وذُهُوبِ

سبقنا الكثيرون إلى هذه الدنيا، فلو ظل الذين سبقونا على قيد الحياة لما بقي لنا مكان نروح ونجيء فيه من الازدحام

تَمَلَّكَها الآتي تَمَلُّكَ سَالِبٍ　　وفَارَقَها الماضي فِرَاقَ سَلِيبِ

الآتي للدنيا يتملكها كأنه سلبها وصارت له، والماضي (الذاهب) يفارقها كأنها سلبت منه غصباً

ولا فَضْلَ فِيها لِلشَّجَاعَةِ والنَّدَى　　وصَبْرِ الفَتَى، لولا لِقَاءُ شَعُوبِ

ولو لم يكن هناك لقاء شعوب (الموت) لما كان لمفاهيم الشجاعة والندى (الكرم) والصبر أي قيمة

وأَوْفَى حياةِ الغَابِرِينَ لِصَاحِبٍ　　حَياةُ امْرِئٍ خَانَتْهُ بَعْدَ مَشِيبِ

وأكثر حياةٍ وفاءً لصاحبها هي حياة تخونه وتهجره بعد المشيب، فالإنسان المحظوظ من وصل إلى عمر يشيب فيه، هذا هو أفضل ما عند الدنيا للمرء

٧٤ الغنيمة الوخيمة

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويذكر بناءه حصن مرعش في المحرم سنة ٣٤١:
٤٥/٢٤

فَدَيْناكَ مِنْ رَبْعٍ، وإنْ زِدْتَنا كَرْبا فَإنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ والغَرْبَا

فديناك يا ربع الحبيبة وإن زدتنا كرباً (حزناً) لأنك مهجور، فقد كنت بالنسبة لنا الدنيا كلها، وأيضاً الحبيبة كانت شمساً تشرق وتغرب فيك

وكيفَ عَرَفْنا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا فُؤاداً لِعِرْفانِ الرُّسُومِ ولا لُبَّا؟

وكيف ميزنا رسم (بقايا) الحبيب الذي لم يترك لنا قلباً لعرفان (تميز) الرسوم الممحوة ولا لباً (عقلاً)

نَزَلنا عَنِ الأكْوارِ نَمْشي كَرامةً لِمَنْ بانَ عَنْهُ أنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبا

نزلنا عن الأكوار (سروج النياق) وترجلنا كرامة (إجلالاً) للمحبوب الذي بان (ابتعد) عن الربع: نُجِلُّه أن نُلِمَّ به (نأتيه) ركباً (راكبين)

نَذُمُّ السَّحابَ الغُرَّ في فِعْلِها بِهِ ونُعْرِضُ عنها كُلَّما طَلَعَتْ عَتْبا

نذم السحب الغر (البيض الماطرة) لأنها أمطرت وغيرت معالم الربع، وكلما رأينا سحباً في السماء أشَحْنَا بوجوهنا عنها عاتبين عليها

ومَنْ صَحِبَ الدُّنْيا طَويلاً تَقَلَّبَتْ على عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَها كِذْبَا

من يعش طويلاً تتقلب الدنيا أمامه فيعرف من حقائق الأمور ما يجعله يرى الصدق كذباً

وكيف التِذَاذِي بالأصَائِلِ والضُّحَى إذا لم يَعُدْ ذاكَ النَّسِيمُ الذي هَبَّا

وكيف استمتع بالأصائل (أوقات الغروب) والضحى وأنا لم أعد أشم نسيم الأحبة

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لم أَفُزْ بِهِ وعَيْشاً كَأَنّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبا

وأنا أزور الربع المهجور تذكرت وصلاً (علاقة) مضى وصار بعيداً كأنني ما كنت فزت به، وتذكرت عيشاً أيام الشباب مر سريعاً كأنني كنت أقطعه قفزاً

وفَتّانَةِ العَيْنَيْنِ قَتّالَةِ الهَوى إذا نَفَحَتْ شَيْخاً رَوائِحُها شَبَّا

ورب فتاة فتانة العينين قتالة الهوى إذا هبت روائحها على شيخ شب (عاد لشبابه). تسويد الثلاثة السابقة لأحمد عبد الرحيم

لقد لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بِها وَبي وزَوَّدَني في السَّيْرِ ما زَوَّدَ الضَّبَّا

لعب البين (الفراق) المشت (المشتت) بها وبي، فهي رحلت وأنا رحلت، ولم أتزود من فراقها لا نظرة ولا قبلة بل تزودت لسيري ما يتزود الضب (من زواحف الصحراء) وهو الحيرة؛ وقالوا إن الضب يبتعد عن جحره فيضلُّ ولا يهتدي إليه

وَمَنْ تَكُنِ الأُسْدُ الضَّواري جُدودَهُ   يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحاً، ومَطْعَمُهُ غَصْبا

من كانت جدوده كالأسود الضارية أي أنه من قوم أشداء، فإن ليله بهيج كالصبح، وينال ما يناله من مطعم (طعام) غصباً (بالقوة)

ولسْتُ أُبالي بَعْدَ إِدْراكِيَ العُلى   أَكَانَ تُراثاً مَا تَناوَلْتُ أم كَسْبا

بعد أن أُدرِكَ المجد لا يهمني إن كان ما أحرزته موروثاً أم من كسب يدي

فَرُبَّ غُلامٍ عَلَّمَ المجدَ نفسَهُ   كتَعليمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ والضَّرْبا

فهناك من يصنع المجد بيده كما فعل سيف الدولة إذ تعلم الطعن والضرب وحده

تُهَابُ سيوفُ الهندِ، وَهْيَ حَدَائِدٌ   فكيفَ إذا كانتْ نِزَارِيَّةً عُرْبَا

يهاب الناس السيوف وهي مجرد حدائد (من حديد)، فكيف عندما تكون السيوف ناساً عرباً من نزار (جد العرب)، يعني سيف الدولة. والحمدانيون من تغلب، وتغلب من قبائل ربيعة، و«ربيعة» الجد الأكبر ابن نزار وأخوه مضر، فبعد نزار تفترق قبائل ربيعة عن قبائل مضر. ومدح التغلبيين بأنهم «نزارية» يجعلهم ضمن النطاق الذي يضم قريشاً والرسول

ويُرْهَبُ نابُ الليثِ، والليثُ وَحْدَهُ   فكيفَ إذا كانَ اللُّيوثُ لَهُ صَحْبَا

وناب الليث مرهوب والليث وحده، فكيف والليوث تصاحبه، يعني جنود سيف الدولة

عَلِيمٌ بِأَسْرارِ الدِّياناتِ واللُّغى   لَهُ خَطَراتٌ تَفْضَحُ الناسَ والكُتْبا

سيف الدولة عالم متبحر بأسرار الديانات واللغات (أي الأوجه المختلفة للكلمات في اللغة العربية)، وله خطرات (أفكار) تفضح جهل الناس وقلة ما في الكتب من عمق

فبُورِكْتَ مِنْ غَيْثٍ، كأن جُلُودَنَا   بِهِ تُنْبِتُ الدِّيبَاجَ والوَشْيَ والعَصْبَا

بوركت يا سيف الدولة أيها الغيث (المطر) الذي يهطل على أجسامنا فتنبت الحرير والوشي (القماش المنقوش) والعَصب (قماش يمني)، أي أن سيف الدولة يكسوهم كل هذا. والقماش في الماضي غالٍ وعزيز لأنه نسج يدوي، ولذا كان الخليفة إذا سر من شاعر أو قائد خلع رداءه ورماه إليه، ومن هنا تسميتنا الهدية بالخِلعة

هَنِيئاً لأهْلِ الثَّغْرِ رأيُكَ فِيهِمُ   وأنَّكَ - حِزْبَ اللَّهِ - صِرْتَ لَهُمْ حِزْبا

نهنئ أهل الثغر (الموقع الحدودي) لأنك سررت منهم، ولأنك - يا حزب الله (أي المنتصر بالله) - صرت ناصراً لهم

فَيَوماً بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمُ   ويَوماً بِجُودٍ تَطْرُدُ الفَقْرَ والجَدْبا

فأنت يوماً تأتي بخيلك وتطرد الروم عن بلدهم، ويوماً تأتي بجودك (كرمك) وتطرد الفقر والجدب (القحط)

سَرايَاكَ تَتْرَى، والدُّمُسْتُقُ هَارِبٌ وأصحابُهُ قَتْلى، وأموالُهُ نَهْبَى

سراياك تترى (متتابعة)، والدمستق (قائد الروم) هارب وأصحابه قتلى وأمواله منهوبة

كَذَا يَتْرُكُ الأعداءَ مَنْ يَكْرَهُ القَنا ويَقْفُلُ مَنْ كانتْ غَنِيمَتُهُ رُعْبا

هكذا يترك الأعداء وشأنهم الجبان الذي يكره القنا (الرماح)، ويقفل راجعاً من كانت غنيمته من الحرب أن يحمل رعباً في قلبه

مَضَى بعدَمَا التَفَّ الرِّماحانِ سَاعةً كما يَتَلَقَّى الهُدْبُ في الرَّقْدَةِ الهُدْبا

فر قائد الروم بعد أن تشابكت الرماح ساعة، وكأن تشابكها التقاء الرمش بالرمش

ولكنَّهُ وَلَّى ولِلطَّعْنِ سَوْرَةٌ إذا ذَكَرَتْها نَفْسُهُ لَمَسَ الجَنْبَا

ولكنه عندما ولى (ذهب) كان للطعن سورة (هجمة) وكلما ذكرها لمس جنبه خوفاً ليطمئن أنه لم يصب بأذى

أرَى كُلَّنَا يَبْغي الحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيصاً عَليها مُسْتَهَاماً بِها، صَبَّا

أرى كل واحد فينا يبغي الحياة ويحرص عليها مستهاماً بها (هائماً بها) صباً (محباً)

فَحُبُّ الجَبانِ النَّفْسَ أوْرَدَهُ التُّقى وحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أوْرَدَهُ الحَرْبَا

فحب الجبان لنفسه جعله يرِد (يأتي) التقى (التجنُّب)، وحب الشجاع لنفسه جعله يأتي الحرب، فالشجاع لا يرى لنفسه حياة مع الجبن

٧٥ واحَرَّ قلباه

قال المتنبي وقد جرى له خطاب مع قومٍ متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل: ٣٨/ ٣٧ !

عبارة اليازجي: «كان سيف الدولة إذا تأخر عنه مدح المتنبي شق عليه، وأكثر أذاه، وأحضر من لا خير فيه، وتقدم له بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب، فلا يجيب أبو الطيب أحداً عن شيء، فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة ويتمادى أبو الطيب على ترك قول الشعر، ويلِجُّ سيف الدولة فيما كان يفعله إلى أن زاد الأمر وكثر عليه، فقال هذه القصيدة»

واحَرَّ قَلْبَاهُ! مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ومَنْ بِجِسْمي وحَالي عندَهُ سَقَمُ

واحر قلباه (يا لحرقة قلبي) من الذي قلبه شبم (بارد)، والذي لحق بجسمي وأحوالي وأنا مقيم عنده سقم (مرض)

مَا لي أُكَتِّمُ حُبّاً قد بَرَى جَسَدي وتَدَّعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُمَمُ؟

مالي أكتم حبي الذي برى جسدي بريأ لسيف الدولة، بينما تدَّعي أمم من الناس أنها تحبه

إنْ كـانَ يَـجْـمَـعُـنـا حُـبٌّ لِـغُـرَّتِـهِ   فَـلَـيْـتَ أنّـا بِـقَـدْرِ الـحُـبِّ نَـقْـتَـسِـمُ

إن كان القاسم المشترك بيني وبينهم هو حبنا لغرته (لطلعته)، فليتنا نقتسم عطاياه بقدر ما عندنا له من حب

قد زُرْتُهُ، وسيوفُ الهندِ مُغْمَدَةٌ،   وقد نَظَرْتُ إليْهِ، والسُّيوفُ دَمُ

لقد عرفته في حال السلم بينما السيوف في أغمادها، وقد شهدت مواقعه والسيوف يقطر منها الدم

فكانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللّهِ كُلِّهِمُ   وكانَ أَحْسَنَ ما في الأَحْسَنِ الشِّيَمُ

فكان دائماً أحسن خلق الله، وأحسن ما فيه الشيم (الأخلاق)

فَوْتُ العَدُوِّ الذي يَمَّمْتَهُ ظَفَرٌ   في طَيِّهِ أَسَفٌ في طَيِّهِ نِعَمُ

إن فوت (إفلات) العدو الذي يممته (قصدته) هو ظفر (نصر) لك، وفي طي (بضمن) هذا النصر أسف على إفلاته، ونعمة لثبوت الدليل على التفوق عليه

قد نَابَ عنكَ شَدِيدُ الخوفِ، واصْطَنَعَتْ   لَكَ المَهَابةُ ما لا تَصْنَعُ البُهَمُ

الخوف منك كان نائباً عن وجودك في مواجهة العدو، وقد اصطنعت (صنعت) لك المهابة (الهيبة) ما لا تصنعه البهم (الأبطال). يقول هزمت العدو بالرعب، وهيبتك قامت مقام جنودك البواسل

أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيئاً ليسَ يَلْزَمُها: أنْ لا تُوارِيَهُمْ أَرْضٌ ولا عَلَمُ

ألزمت نفسك بأكثر مما يجب إذ أقسمت ألا تواري (تخفي) العدو أرض منبسطة ولا جبل، فأنت تلاحقهم دوماً

أَكُلَّمَا رُمْتَ جَيْشاً فَانْثَنَى هَرَباً   تَصَرَّفَتْ بِكَ في آثَارِهِ الهِمَمُ

هل كلما رمت (طلبت) جيشاً فانثنى (انكفأ) هارباً منك تصرفت بك (ألزمتك) هممك (عزائمك) للحاق به؟

عَليكَ هَزْمُهُمُ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ   وما عَليكَ بِهِمْ عارٌ إذا انْهَزَمُوا

عليك (لزام عليك) أن تهزمهم في كل معركة، ولكن ليس عليك عار إذا هم انهزموا ولم تتبعهم.. لكنك تتبعهم حتى يكون النصر تاماً

أما تَرَى ظَفَراً حُلْواً سِوى ظَفَرٍ   تَصَافَحَتْ فِيهِ بِيضُ الهندِ واللِّمَمُ

ألا ترى الظفر (النصر) حلواً إلا إذا تصافحت فيه بيض الهند (السيوف الهندية) مع اللمم (الرؤوس)

يا أَعْدَلَ النّاسِ، إلا في مُعَامَلَتِي،   فيكَ الخِصَامُ، وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

كما في كل بلاط كانت الحاشية تتنافس على رضا الأمير. وخصامهم كله فيمن يكون مقرباً أكثر

أُعيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

العياذ بالله أن تغلط نظراتك الصادقة فتحسب شحماً في الذي شحمه ورم. والشحم صحة على المرء والورم مرض، وبعض الناس متنفخ ولكنه فارغ

وما انتِفَاعُ أخي الدُّنيا بِنَاظِرِهِ إذا استَوَتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

وما نفع أخي الدنيا (الإنسان) بناظره (ببصره) إذا تساوى عنده النور والظلمة؟

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ، مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنا، بِأَنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

سيعلم الجمع، ممن ضمهم هذا المجلس، أنني خير من يمشي على قدمين. (البيت ساقط من شرح أبي العلاء، لهذا فعدد أبيات ما اخترناه يزيد عن عدد أبيات القصيدة كلها عند أبي العلاء ببيت واحد. فنحن ـ كما لا يخفى ـ اخترنا القصيدة برمتها)

أَنا الذي نَظَرَ الأَعمَى إلى أدبي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

أنامُ مِلْءَ جُفُونِي عنْ شَوَارِدِها ويَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاها ويَخْتَصِمُ

أنام ملء جفوني (مرتاحاً) غير مفكر في شوارد اللغة (كلماتها الشاردة الغريبة التي أستعملها في شعري)، ويسهر خلق الله جراها (بسببها) ويختصم هذا الخلق وكان من طبع المتنبي ألا يشرح شعره، على كثرة غوامضه. وكان إذا سئل، وهو بالعراق وبفارس، عن معنى أحال الناس على ابن جني

وجَاهِلٍ مَدَّهُ في جَهْلِهِ ضَحِكي حتى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ، وفَمُ

رب جاهل مده في جهله (جعله يتمادى) ضحكي، حتى فاجأته بيد مفترسة وفم ينهشه

إذا رَأَيْتَ نُيوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

ومُهْجَةٍ، مُهْجَتِي مِنْ هَمِّ صاحِبِها، أَدْرَكْتُها بِجَوادٍ ظَهْرُهُ حَرَمُ

ورب مهجة (نفس) صاحبُها يريد إهلاك مهجتي، لكنني أدركتها بجواد سريع، ظهره حرم (آمن). فجواده يعطي راكبه الأمان لأنه لا يلحق به عدو

رِجْلَاهُ في الرَّكْضِ رِجْلٌ، واليَدَانِ يَدٌ وفِعْلُهُ ما تُرِيدُ الكَفُّ والقَدَمُ

رجلا الجواد كأنهما رجل واحدة في ركضه، ويفعل الجواد ما تريد كفي وقدمي منه أن يفعل لاستجابته السريعة لأوامري التي أعطيها له بنخسة الكعب أو تحريك المقود

ومُرْهَفٍ سِرْتُ بَيْنَ الجَحْفَلَيْنِ بِهِ حتى ضَرَبْتُ، ومَوْجُ المَوْتِ يَلْتَطِمُ

ورب سيف مرهف (حاد) سرت وأنا أشهره بين الجحفلين (الجيشين) حتى آنست فرصة للضرب به بينما كان موج الموت يتلاطم في المعركة

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تَعْرِفُني والسيفُ والرمحُ والقِرْطَاسُ والقلمُ

القرطاس: الورق

صَحِبْتُ في الفَلَوَاتِ الوَحْشَ مُنْفَرِداً حتى تَعَجَّبَ مِنِّي القُورُ والأَكَمُ

صحبت في الفلوات (الصحارى) الوحش وأنا وحدي، حتى تعجبت مني القُور (المنخفضات) والأكم (التلال)

يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نُفَارِقَهُمْ! وِجْدَانُنَا كُلَّ شيء بَعْدَكُمْ عَدَمُ

يا من يعز علينا فراقهم ـ تهديد بأنه سيفارق سيف الدولة ـ إن وجداننا كل شيء (حصولنا على كل ما نطلب) بعد فراقكم هو مثل العدم

ما كانَ أَخْلَقَنا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لو أنَّ أمْرَكُمُ مِنْ أمْرِنَا أَمَمُ

ما كان أخلقنا (أجدرنا) بتكريم منكم لو أن شأننا من شأنكم أمم (قريب). أرى أن المتنبي هنا يعبر عن شعوره بالنقص لأنه مجرد شاعر، ويقصد إلى القول: لو كنت والياً أو أميراً صغيراً لكان شأني قريباً من شأنك يا سيف الدولة ولكنت كرمتني، ولكنني بالنسبة إليك مجرد شاعر من شعراء بلاطك

إنْ كانَ سَرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنَا فما لِجُرْحٍ إذا أرْضَاكُمُ ألَمُ

وبَيْنَنا، لو رَعَيْتُمْ ذاكَ، مَعْرِفَةٌ إنَّ المَعَارِفَ في أهْلِ النُّهَى ذِمَمُ

بيني وبينك، لو كنت تحفظ ذلك، طول عشرة ومعرفة، والمعرفة عند أهل النهى (أصحاب العقول) ذمم (عهود)

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنا عَيْباً فَيُعْجِزُكُم ويَكْرَهُ اللّهُ ما تَأْتُونَ، والكَرَمُ

كثيراً ما تبحثون عن عيب لي فتعجزون، والله يكره التفتيش عن المعايب، وكرم الأخلاق يأبى ذلك أيضاً

ما أَبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفي أَنا الثُّرَيَّا، وذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي! فأنا مثل نجوم الثريا وذان (هذان/ أي العيب والنقصان) مثل الثرى (التراب)

لَيْتَ الغَمَامَ الذي عِنْدي صَوَاعِقُهُ يُزِيلُهُنَّ إلى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيَمُ

ليت الغمام (السحاب/ يقصد سيف الدولة) الذي يرميني بصواعقه، ليته يزيل الصواعق عني ويرمي بها من ينال الديم (المطر). يقول: سيف الدولة سحاب وهو يرميني بالصواعق ويعطي غيري المطر، فليته يعطي الصواعق لمن ينال المطر

أرَى النَّوى تَقْتَضِيني كُلَّ مَرْحَلَةٍ لا تَسْتَقِلُّ بِها الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

أرى النوى (الفراق) تقتضيني (تكلفني) كل مرحلة (مسافة بين استراحتين) لا تستقل بها (تتكفل بقطعها) الوخادة (الإبل السريعة) الرسم (الإبل). يقول إن الفراق سيكلفني قطع مراحل الطريق الطويلة التي تعجز عنها الإبل السريعة

لَئِنْ تَرَكْنَ «ضُمَيْراً» عَنْ مَيَامِنِنا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ

إذا تركت الإبل جبل ضُمير عن يميني وتوجهت بعيداً عنك فسوف يشعر من تركتهم وودعتهم بالندم

إذا تَرَحَّلْتَ عنْ قَوْمٍ، وقَدْ قَدَرُوا أنْ لا تُفَارِقَهُمْ، فالرَّاحِلُونَ هُمُ

إذا رحلتَ عن قوم وهم قادرون على إرضائك وجعلك تبقى، فالراحلون هم هؤلاء القوم لا أنت، أي أنهم هم الذين قرروا الفراق فلا لوم عليك

شَرُّ البِلادِ مَكَانٌ لا صَدِيقَ بِهِ وشَرُّ ما يَكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

يصم: يعيب

وشَرُّ ما قَنَصَتْهُ رَاحَتي قَنَصٌ شُهْبُ البُزَاةِ سَوَاءٌ فيهِ والرَّخَمُ

شر ما قنصته (صادته) راحتي (يدي) صيد تتساوى فيه شهب البزاة (الجوارح البيض/ وهي من أكرم الطير) والرخم (نوع ضعيف من النسور). يقول: إنه لا يرضى بأن يتساوى مع غيره في العطاء والمعاملة، لأنه متميز

بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ تَجُوزُ عِنْدَكَ، لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ

ما هذه الألفاظ التي يستعملها شاعر زعنفة (ساقط) يجوز عندك (يُقبَل لديك)، وهو ليس من العرب ولا من العجم

هـذا عِتَابُكَ، إلَّا أَنَّهُ مِقَةٌ قَدْ ضُمِّنَ الدُّرَّ، إلا أَنَّهُ كَلِمُ

هذا هو عتابي لك إلا أنه مقة (محبة)، وقد ضمنته الدر (اللؤلؤ) غير أنه كلام

٧٦ محاولة اغتيال

اجتمع على المتنبي غضب سيف الدولة وغضب أبي العشائر. أرسل أبو العشائر غلماناً له ليوقعوا بالمتنبي فلحقوه بظاهر حلب ليلاً، فرماه أحدهم بسهم، وقال: خذه وأنا غلام أبي العشائر، فقال أبو الطيب: ٤/٥

ومُنتَسِبٍ عندي إلى مِنْ أُحِبُّهُ ولِلنَّبْلِ حَوْلي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ

رب شخص نسب نفسه إلى شخص أحبه في وقت كان فيه للنبل (للسهام) التي يرميها حفيف (صوت خافت) حولي

فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي، ومَا مِنْ مَذَلَّةٍ حَنَنْتُ، ولَكِنَّ الكَرِيمَ أَلُوفُ

فهيج بذكره لسيده شوقي إلى أبي العشائر، ولم يكن حنيني لأنني ذليل، لكن الكريم عنده ألفة ووفاء

وكُلُّ وِدَادٍ، لا يَدُومُ عَلى الأَذَى دَوَامَ وِدَادي لِلحُسَيْنِ، ضَعِيفُ

والوداد الذي لا يستمر برغم الأذى استمرار ودادي للحسين (أبي العشائر) هو وداد ضعيف

فَإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذي سَاءَ وَاحِداً فَأَفْعالُهُ اللائي سَرَرْنَ أُلُوفُ

فإذا كان فعله الذي ساءني (أحزنني) واحداً فإن له ألوف الأفعال التي سرتني

٧٧ كأنك ما صغرت عن الهجاء

لما أنشد المتنبي قصيدة (واحر قلباه) وانصرف، اضطرب المجلس. وكان فيه نبطي من كبراء كتاب سيف الدولة يقال له أبو الفرج السامَرِّي، فقال له: دعني أسعى في دمه، فرخص له في ذلك. وفيه يقول أبو الطيب: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٢/٣

أسَامَرِّيُّ! ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءٍ، فَطِنْتَ، وكُنْتَ أغْبَى الأغْبِيَاءِ

أيها السامري (المنسوب إلى مدينة سامَراء) أنت ضحكة كل من يراك، والآن فطنت إلى الشجاعة، وقد كنت غبياً

صَغُرْتَ عنِ المَدِيحِ، فَقُلْتَ: أُهْجَى كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عنِ الهِجَاءِ

أنت أصغر من أن تمدح، فقلتَ لنفسك: حسناً، فلأتعرض للهجاء. كأنك ما صغرت عن أن تهجى أيضاً. أقول، لن تراني يوماً أصف بيت هجاء بأنه أقوى من هذا البيت. هذا هجاء فادح فداحةً. وقد فتشت عن كلمة تقدير لبيت الهجاء هذا عند الشراح الستة الذين أديم النظر في شروحهم وأنا أشتغل في هذا الكتاب، وعدمتها

٧٨ الحالمة بالجمل

رضي سيف الدولة عن المتنبي بعد الجفوة، فقال المتنبي يمدحه: ٤٨/٢١

أجابَ دَمْعِي، ومَا الدَّاعِي سِوى طَلَلِ دَعَا، فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبِلِ

أجاب (لبى) دمعي الدعوة فنزل، وليس الذي دعاه سوى طلل (خربة)، وقد لبى الدمع النداء قبل الركب (الرفاق) وقبل الإبل. فالرفاق تأخروا عن النزول والإبل تأخرت عن الوقوف ولكن دمعي نزل فور رؤيتي طلل الأحبة

ظَلِلْتُ بَيْنَ أُصَيْحَابِي أُكَفْكِفُهُ وظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ العُذْرِ والعَذَلِ

ظللت بين أصحابي أكفكف الدمع، وظل يسفح (يسيل) بين إبدائهم العذر لي والعذل (اللوم)

ومَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ على أَمَلٍ مِنَ اللِّقَاءِ، كَمُشْتَاقٍ بِلا أَمَلِ

وصبابة (حرقة) المشتاق الذي له أمل في اللقاء تختلف عن حرقة من لا أمل له

مَتى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوى زِيَارَتَهَا لا يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ البِيضِ والأَسَلِ

لا أمل لي في اللقاء لأنني إن زرت قوم المحبوبة لا يتحفُوني (بمعناها المعاصر) إلا بالبِيض (السيوف) والأسل (الرماح)

والهَجْرُ أَقْتَلُ لي مِمَّا أُرَاقِبُهُ أَنَا الغَرِيقُ فَما خَوْفِي مِنَ البَلَلِ

والهجر أشد قتلاً لي مما أراقبه (أحذره) من سيوف قومها، فأنا مقتول على كل حال كالغريق الذي لا يخاف البلل (التبلل بالماء) لأن ما يحف به أشد من مجرد البلل

ما بَالُ كُلِّ فُؤادٍ في عَشِيرَتِها ... بِهِ الذي بي، ومَا بي غَيْرُ مُنْتَقِلِ

ما لي أرى كل قلوب شبان عشيرتها مغرمين بها، وبهم مثل الذي بي منها؛ ومع أنهم يشاركونني في حبها فالذي بي من حبها لا ينتقل (لا يزول)

قد ذُقْتُ شِدَّةَ أَيَّامي ولَذَّتَها ... فَما حَصَلْتُ على صَابٍ ولا عَسَلِ

ذقت الشدة واللذة في زمني، ولكنني لم أحصل على شيء يبقى معي، فالصاب (الشجر المر) زال والعسل زال أيضاً

وقد طَرَقْتُ فَتَاةَ الحَيِّ مُرْتَدِياً ... بِصَاحِبٍ غَيْرِ عِزْهَاةٍ ولا غَزِلِ

وقد طرقت (زرت ليلاً) المحبوبة مرتدياً سيفي وهو صاحب لا يوصف بأنه عزهاة (كاره للنساء) ولا بأنه غزِل (نسوانيّ)، ذلك أنه سيف

فَبَاتَ بَيْنَ تَرَاقِينا نُدَفِّعُهُ ... وليسَ يَعْلَمُ بِالشَّكْوى، ولا القُبَلِ

وبات سيفي بين تراقينا (عظام أعلى الصدر) ندفّعه (ننحيه مرة بعد أخرى) وهو لا يعلم بشكوانا التي نتبادلها.. ولا بالقبلات

ضَاقَ الزَّمانُ، ووَجْهُ الأرضِ عَنْ مَلِكٍ ... مِلءِ الزَّمانِ، وملءِ السَّهْلِ والجَبَلِ

الزمان والمكان لا يتسعان لهذا الملك الذي ملأ الزمان والأرض، سهلها وجبلها، بذكره وأفعاله

فَنَحْنُ في جَذَلٍ، والرُّومُ في وَجَلٍ ... والبَرُّ في شُغُلٍ، والبَحْرُ في خَجَلِ

فنحن في جذل (فرح) والروم في وجل (خوف)، والبر مشغول بخيلنا وجيوشنا، والبحر خجلان لأن سيف الدولة فاقه كرماً. هذا أبو الطيب يقلد أبا تمام.. تدبير معتصم إلخ

لَيْتَ المَدَائِحَ تَسْتَوفي مَنَاقِبَهُ ... فَما كُلَيْبٌ، وأَهْلُ الأَعْصُرِ الأُوَلِ؟

ليت المدائح (قصائد المدح) تكفي لتعداد مناقبه (محاسنه) وحده، فلماذا نذكر كليباً (البطل العزيز الكريم من قبيلة تغلب وهي قبيلة سيف الدولة) والقدماء؟ يقول: المدائح لا تكاد تأتي على محاسن سيف الدولة فلماذا نذكر آباءه في العصور القديمة؟ وكان بعض الشعراء في بلاط سيف الدولة فعلوا ذلك

خُذْ ما تَرَاهُ، ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ بِهِ ... في طَلْعَةِ البَدْرِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

خذ ما تراه بعينيك ودع الذي قيل عن الزمن القديم، فعندما يطلع البدر يستغني المرء به عن كوكب بعيد مثل زحل

وقد وَجَدْتَ مَكانَ القَوْلِ ذا سَعَةٍ ... فإنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلا فَقُلِ

وقد وجدتَ أيها الشاعر مجالاً واسعاً للمدح، فإن كان عندك لسان فصيح فقل شعراً

تُمْسِي الأمانيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ فَما يَقُولُ لِشَيءٍ لَيْتَ ذَلكَ لِي

الأماني تصبح صرعى (هالكة) دون (قبل) البلوغ إليه، فهو إذا تمنى شيئاً حققه فوراً قبل أن يقول: ليته لي، لذلك فالأماني تنتهي بتحقيقها قبل أن تصبح أمانيَّ

جازَ الدُّرُوبَ إلى مَا خَلْفَ خَرْشَنَةٍ وزَالَ عَنْها، وذاكَ الرَّوْعُ لم يَزُلِ

جاز (قطع) الدروب (الطرق المؤدية إلى بلاد الروم) وتجاوز حصن خرشنة، ثم زال (رجع) عن الدروب ولكن الروع (الخوف) الذي تركه في قلوب الروم ظل موجوداً

فَكُلَّما حَلَمَتْ عَذْراءُ عِنْدَهُمُ فَإنَّما حَلَمَتْ بِالسَّبْيِ والجَمَلِ

والفتاة من بنات الروم عندما تحلم في نومها تحلم بالسبي وبالجمل العربي يحملها مسبية بعيداً عن أهلها

إنْ كُنْتَ تَرْضَى بِأنْ يُعْطُوا الجِزَى بَذَلُوا مِنْها رِضَاكَ، ومَنْ لِلْعُورِ بِالحَوَلِ

إن كنت يا سيف الدولة ترضى بالجزية فهم يبذلون (يعطون) منها ما يرضيك، وهم محظوظون إن تركتهم مقابل جزية، والعور (ذوو العين الواحدة) يتمنون الحول بدل العور فالحول أخف وطأة

ومَا سَمِعْتُ، ولا غَيْرِي، بِمُقْتَدِرٍ أَذَبَّ مِنْكَ لِزُورِ القَوْلِ عَنْ رَجُلِ

لم أسمع، ولم يسمع غيري، بشخص مقتدر أكثر ذباً منك (أكثر رداً) لكلام الزور (الافتراء) عن رجل، هو أنا. يقول: أنت أكثر الناس تكذيباً لما يقال عني من افتراءات

لِأنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ لا تَكَلَّفُهُ لَيسَ التَّكَحُّلُ في العَيْنَينِ كَالكَحَلِ

ذلك أن حلمك (سماحتك) ليس فيه تكلف بل هو طبع فيك، والتكحل ليس في جمال الكَحَل (الكحل الرباني)

وما ثَنَاكَ كَلامُ الناسِ عَنْ كَرَمٍ ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العَارِضِ الهَطِلِ

كلام الناس لم يثنك (لم يمنعك) عن كرمك، فأنت كالعارض (السحاب) الهاطل الذي لا يمنعه من الهطول شيء

٧٩ موتوا حسداً

قال المتنبي وقد استحسنت قصيدته السابقة (أجاب دمعي): ٣/٣

إنَّ هَذا الشِّعْرَ في الشِّعْرِ مَلَكْ سَارَ، فَهْوَ الشمسُ، والدُّنيا فَلَكْ

شعري بالنسبة لشعر الآخرين هو مثل الملاك بالنسبة للبشر، وهو قد سار (انتشر) فكان كالشمس وفلكه (مداره) هو الدنيا كلها

عَدَلَ الرَّحْمنُ فيهِ بَيْنَنا فَقَضَى بِاللَّفْظِ لي، والحَمْدِ لَكْ

الله وزع الأمر بالعدل بيننا، فاللفظ لي، ولكن الحمد في هذا الشعر هو لك

فإذا مَرَّ بِأُذْنَيْ حَاسِدٍ   صَارَ مِمَّنْ كانَ حَيّاً، فَهَلَكْ

فإذا مر شعري بأذنيْ حاسد وسمعه، مات من حسرته

٨٠ افهم ما يقال

قال وقد عجز قوم عن فهم بيت له: ٢/ ٤

أَتَيْتُ بِمَنْطِقِ العَرَبِ الأصيلِ   وكانَ بِقَدْرِ ما عَايَنْتُ قِيلِي

أنا قلت كلاماً فصيحاً، وكان قيلي (كلامي) مطابقاً للواقع الذي عاينته

وليسَ يَصِحُّ في الأَفْهَامِ شيءٌ   إذا احْتَاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ

ولا يعود شيء في الدنيا صحيحاً وتنقلب موازين المنطق إذا احتاج المرء إلى دليل في ضوء النهار

٨١ من يزحم البحر يغرق

قال المتنبي، وقد كاتَبَ الرومُ سيفَ الدولة يطلبون الصلح: ١٥/ ٤٣

لِعَيْنَيْكِ ما يَلْقَى الفُؤادُ، وما لَقِي   ولِلحُبِّ ما لم يَبْقَ مِنِّي، وما بَقِي

لأجل عينيك ما يلقى قلبي، وما لقي، من عذاب؛ ومنذور للحب كل ما بقي من روحي، والذي ذهب إنما ذهب في سبيل الحب

وما كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ   ولَكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

وبَيْنَ الرِّضَى والسُّخْطِ والقُرْبِ والنَّوَى   مَجَالٌ لِدَمْعِ المُقْلَةِ المُتَرَقْرِقِ

هذه الحالات المختلفة تفتح مجالاً لدمع المقلة (العين)

وأَحْلَى الهَوى ما شَكَّ في الوَصْلِ رَبُّهُ   وفي الهَجْرِ، فَهْوَ الدَّهْرَ يَرجُو ويَتَّقي

أحلى الهوى الذي يشك ربه (صاحبه) في الوصل والهجر، فهو الدهرَ (طولَ الدهرِ) على رجاء اللقاء واتقاء (حذر) الفراق

وغَضْبَى مِنَ الإدْلالِ، سَكْرَى مِنَ الصِّبَا   شَفَعْتُ إلَيْها مِنْ شَبابي بِرَيِّقِ

ورب فتاة غاضبة غضب دلال، ومنتشية بصباها، شفعت إليها (توسطت لديها) وجعلت واسطتي رَيِّق شبابي (مطلع شبابي)

رَأَى مَلِكُ الرُّومِ ارْتِياحَكَ لِلنَّدَى   فَقَامَ مَقَامَ المُجْتَدي المُتَمَلِّقِ

رأى ملك الروم ارتياحك (اريحيتك) للندى (للعطاء)، فوقف منك موقف المجتدي (المتوسل) المتملق لينال رضاك عليه

وخَلَّى الرِّمَاحَ السَّمْهَرِيَّةَ صَاغِراً   لِأَدْرَبَ مِنْهُ بِالطِّعَانِ وأَحْذَقِ

وترك الرماح السمهرية (المنسوبة إلى مقوم الرماح القديم سمهر) وهو صاغر (ذليل)، تركها لمن هو أكثر دربة وحذقاً منه في الطعن

وكَاتَبَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدٍ مَرَامُها   قَرِيبٍ على خَيْلٍ حَوَالَيْكَ سُبَّقِ

وراسلك من أرض بعيد مرامها (بعيدة على من طلبها)، ولكن مرامها قريب على الخيل السُّبّق (السابقة) التي عندك يا سيف الدولة

وقد سَارَ في مَسْراكَ مِنْها رَسُولُه   فَما سَارَ إلا فَوْقَ هَامٍ مُفَلَّقِ

وقد سار في نفس مسراك (طريقك) داخل هذه البلاد رسول ملك الروم آتياً إليك في حلب، وفي طريقه كان يسير فوق هام (رؤوس) مفلوقة بسبب معاركك داخل أرضهم

ولم يَثْنِكَ الأَعْدَاءُ عَنْ مُهَجَاتِهِمْ   بِمِثْلِ خُضُوعٍ في كَلامٍ مُنَمَّقِ

ولا يثنيك (يمنعك) الأعداء عن مهجاتهم (نفوسهم) بشيء أفضل من خضوع لك يُسَاق في كلام منمق

وكُنْتَ، إذا كَاتَبْتَهُ قَبْلَ هَذِهِ،   كَتَبْتَ إلَيْهِ في قَذَالِ الدُمُسْتُقِ

وأما أنت فكنت إذا أردت الكتابة لملك الروم جعلت رسالتك في قذال (قفا) الدمستق (قائد جيش الروم)، أي أنك كنت تأسره ثم تعيده إلى مليكه مصفوعاً على قفاه أي مهاناً

فإنْ تُعْطِهِ مِنْكَ الأمانَ فَسَائِلٌ   وإنْ تُعْطِهِ حَدَّ الحُسَامِ فَأَخْلِقِ

فإذا أعطيت ملك الروم الأمان فأنت كأنك تعطي سائلاً (متسولاً) وإن قررت إعطاءه حد السيف فأخلِقْ بك (فما أجدرك بهذا)

بَلَغْتُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ النُّورِ رُتْبَةً   أَنَرْتُ بِها مَا بَيْنَ غَرْبٍ ومَشْرِقِ

بلغتُ أنا ـ المتنبي ـ باتصالي بسيف الدولة، الموصوف بالنور، رتبة صار فيها ذكري ينير بين الشرق والغرب

إذا شَاءَ أنْ يَلْهُوْ بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ   أَرَاهُ غُبَارِي، ثُم قَالَ لَهُ: الْحَقِ

فسيف الدولة إذا أراد أن يلهو برجل أحمق، أراه غباري (غبار حصاني) وقال له: الحق به. يقول: سيف الدولة يقول للشعراء ها هو شعر المتنبي! فهل من يستطيع التفوق عليه؟

ومَا كَمَدُ الحُسَّادِ شيءٌ قَصَدْتُهُ   ولَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرَ يَغْرَقِ

وأنا لم أقصد كمد (غيظ) الحساد، ولكنهم هم زاحموني، ومن يزاحم البحر يغرق

٨٢ ليل العاشقين

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، وقد انتصر على الروم وأسر قسطنطين ابن رئيس الروم الدمستق: ٢٧/ ٦٦

لَيالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَالٌ، ولَيْلُ العَاشِقِينَ طَويلُ

ليالِيَّ بعد الظاعنين (الراحلين) شكول (متشاكلة، متماثلة)، وهي طويلة، وليل العاشقين دائماً طويل

يُبِنَّ لِيَ البَدْرَ الذي لا أُرِيدُهُ ويُخْفِينَ بَدْرَاً ما إلَيْهِ سَبِيلُ

يبنَّ (يظهرن) لي البدر الذي لا أريده وهو بدر السماء، ويخفين البدر الثاني الذي لا سبيل للوصول إليه أي الحبيبة

وما عِشْتُ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ سَلْوَةً ولكِنَّنِي لِلنَّائِبَاتِ حَمُولُ

ولم أبق على قيد الحياة بعد رحيل الحبيبة سلوة (نسياناً لها)، ولكنني حمول للنائبات (المصائب)

وإنَّ رَحيلاً واحِداً حالَ بَيْنَنا وفي الموتِ مِنْ بَعْدِ الرَّحيلِ رَحيلُ

رحيلها حال بيني وبين لقائها، وسيكون هناك على كل حال رحيل آخر هو الموت

إذا كانَ شَمُّ الرَّوْحِ أدْنَى إلَيْكُمُ فَلا بَرِحَتْنِي رَوْضَةٌ وقَبولُ

إذا كان شم الروْح (الريح) القادمة من مكانكم يدنيني إليكم، فلا برحتني (لا فارقتني) روضة أشم فيها القبول (الريح القِبلية). احتفل بهذا البيت ابن جني أيما احتفال، وتعجب من جمال عبارة «لا برحتني». وأنا أراها كقول من قال: «أنفي يحُكُّني»، بدل أن يقول «أحكُّ أنفي»

ومَا شَرَقي بِالماءِ إلا تَذَكُّراً لِمَاءٍ بِهِ أهْلُ الحَبيبِ نُزُولُ

وإذا شرقت وأنا أشرب الماء فما ذلك إلا لأنني أتذكر الماء الذي به أهل الحبيب نزول (نازلون)

يُحَرِّمُهُ لَمْعُ الأسِنَّةِ فَوقَهُ فَليسَ لِظَمْآنٍ إليْهِ وُصُولُ

وهذا الماء محرم وروده لأن أسنة رماح قومك تلمع فوقه، فلا يصله الظمآن

أمَا في النُّجومِ السَّائِراتِ وغَيْرِها لِعَيْني عَلى ضَوْءِ الصَّباحِ دَليلُ

أليس في النجوم السيارة وغيرها (الثابتة/ وكذا كانوا يعتقدون) ما يدلني على وشك طلوع الفجر؟ يتشوق لانتهاء ليله ويراقب نجمة الصباح

ألم يَرَ هذا اللَّيْلُ عَيْنَيْكِ رُؤْيَتي فَتَظْهَرَ فِيهِ رِقَّةٌ ونُحُولُ

ألم ير هذا الليل الطويل عينيك كما رأيتهما أنا.فيصبح نحيلاً مثلي فينقضي ويزول

لَقِيتُ بِدَرْبِ القُلَّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً شَفَتْ كَمَدِي، والليلُ فيهِ قَتيلُ

لقد لقيت في درب القلة (اسم مكان ببلاد الروم) الفجر لقيةً شفت كمدي (غيظي) من الليل إذ رأيت الليل قتيلاً بطلوع الفجر. وكان المتنبي مصاحباً في ذلك المكان لجيش سيف الدولة

ويَوماً كَأَنَّ الحُسْنَ فيهِ عَلامَةٌ بَعَثْتِ بِها، والشمسُ مِنْكِ رَسُولُ

ولقيت يوماً كأن حسنه (جماله) علامة بعثتِ بها، وكان رسولك الشمس

وما قَبْلَ سيفِ الدَّولةِ اثَّارَ عَاشِقٌ ولا طُلِبَتْ عندَ الظَّلامِ ذُحُولُ

ولم يحدث قبل سيف الدولة أن اثّار عاشق (أخذ ثأره من الدهر الذي عذبه بالعشق)، ولم يحدث أن طُلبت ذحول (ثارات) من الظلام

ولَكِنَّهُ يَأتي بِكُلِّ غَرِيبَةٍ تَرُوقُ على اسْتِغْرَابِها وتَهُولُ

ولكن سيف الدولة يأتي بكل أمر غريب يروق الناس رغم استغرابهم له ويهولهم (يدهشهم)

رَمَى الدَّرْبَ بِالجُرْدِ الجِيادِ إلى العِدَى وما عَلِمُوا أنَّ السِّهَامَ خُيولُ

رمى سيف الدولة الدرب (درب القلة: مكان ببلاد الروم) بالجرد (الخيول القصيرة الشعر) الجياد (الأصيلة) بسرعة فائقة كما يرمي المرء سهماً، وما كان الروم يعلمون أن السهام يمكن أن تكون على هيئة خيول

شَوَائِلَ، تَشْوَالَ العَقَارِبِ، بِالقَنَا لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وصَهِيلُ

رمى الخيل وهي شوائل بالقنا (رافعات بالرماح) مثل تشوال (رفع) العقرب بذنبها، والخيل تمرح (تنشط) وتصهل تحت القنا

تَمَلُّ الحُصُونُ الشُّمُّ طُولَ نِزَالِنَا فَتُلْقِي إلَيْنا أَهْلَها وتَزُولُ

تمل الحصون الشم (العالية) طول نزالنا (حربنا) فصارت تلقي إلينا ساكنيها ثم تنهدم وتزول

فلَمَّا رَأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ دَرَوْا أنَّ كُلَّ العَالَمِينَ فُضُولُ

عندما رأوا سيف الدولة وحده قبل لحاق الجيش به عرفوا أنه خير الناس، وأن كل العالمين فضول (زيادة لا حاجة لها)

وأنَّ رِماحَ الخَطِّ عنهُ قَصِيرةٌ وأنَّ حَدِيدَ الهِندِ عنهُ كَلِيلُ

وعرفوا أن رماح الخط (المنسوبة إلى «الخط» بالبحرين) قصيرة لا تصل إليه، وأن حديد الهند (السيوف الهندية) كليل عنه (ضعيف لا يقوى عليه)

على قَلْبِ قُسْطَنْطِينَ مِنْهُ تَعَجُّبٌ وإنْ كانَ في سَاقَيْهِ مِنْهُ كُبُولُ

متعجب قسطنطين (ابن الدمستق قائد الروم) من سيف الدولة، وفي ساقيه من سيف الدولة كبول (قيود)، فهو أسير

لَعَلَّكَ يَوْماً يا دُمُسْتُقُ عائِدٌ   فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إليْهِ يَؤُولُ

لعلك يوماً تعود للحرب يا دمستق بعد أن هربت منها، فكثيراً ما يهرب المرء من شيء سيؤول إليه أخيراً

نَجَوْتَ بِإحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً   وخَلَّفْتَ إحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ

لقد نجوت بإحدى روحيك مجروحة، وخلفت روحك الأخرى (أي ابنك) وهي تسيل عندنا في الأسر

أَتُسْلِمُ لِلْخَطِّيَّةِ ابْنَكَ هَارِباً   ويَسْكُنَ في الدُّنْيا إلَيْكَ خَلِيلُ؟

أتظن أنك تسلم للخطية (الرماح) ابنك وتهرب، ثم بعد ذلك يسكن (يطمئن) إليك خليل؟ فمن يسلم ابنه سيسلم ولا شك أي صديق

أنَا السَّابِقُ الهادِي إلى مَا أقولُهُ   إذِ القَوْلُ قَبْلَ القائِلينَ مَقُولُ

أنا الشاعر السباق الذي يهتدي للمعاني، وغيري من الشعراء يقولون قولاً قد قيل من قبل، ويسرقون المعاني

أُعَادَى على مَا يُوجِبُ الحُبَّ لِلْفَتى   وأَهْدَأُ، والأفكارُ فِيَّ تَجُولُ

يعادونني على أمور تستدعي الحب للفتى لا العداوة، وأنا أهدأ ولا أعاديهم ولكن أفكارهم مشغولة بي

سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوِ فَإنَّهُ   إذا حَلَّ في قَلْبٍ، فَلَيْسَ يَحُولُ

داوِ أي شيء سوى هذا الوجع الموجود في قلوب الحساد، فهو لن يحول (يزول)

ولا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ في مَوَدَّةٍ   وإنْ كُنتَ تُبْدِيهَا لَهُ، وتُنِيلُ

لا تطمع في المودة من حاسدٍ لك، حتى لو كنت تظهر المودة له وتنيله إياها (تعطيه إياها)

يَهُونُ علينا أنْ تُصَابَ جُسُومُنا   وتَسْلَمَ أعرَاضٌ لنا وعُقُولُ

نحتمل مصاب الجسم شرط أن تسلم أعراضنا وعقولنا

٨٣ المجد عوفي

وقال المتنبي، وقد عوفي سيف الدولة من مرض: ٢/٨

المجدُ عُوفِيَ، إذْ عُوفِيتَ، والكَرَمُ   وزَالَ عنكَ، إلى أَعدائِكَ، الألَمُ

لست أنت فقط من عوفي (شفي) بل المجد والكرم، وأدعو الله أن يزول عنك الألم ويرحل إلى جسوم أعدائك

ومَا أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ   إذا سَلِمْتَ فَكُلُّ الناسِ قد سَلِمُوا

ولا أهنئك وحدك في البرء (الشفاء)، فسلامتك هي سلامة لكل الناس

٨٤ الازورار

قال المتنبي، وقد استبطأ سيفُ الدولة مدحه، وتنكَّر لذلك: ١٥/١٥

أَرَى ذلـكَ الـقُـرْبَ صـارَ ازْوِرَارا ... وصَـارَ طَـويـلُ الـسَّلامِ اخْـتِـصـارَا

أرى قربك مني صار ازوراراً (إشاحةً عني)، وصار سلامك الطويل مختصراً

تَـرَكْـتَـنِـيَ الـيـومَ فـي خَـجْـلَـةٍ ... أَمُـوتُ مِـرَاراً، وأَحْـيـا مِـرَارا

تركتني خجلان من الناس لإعراضك عني، أموت مراراً وأحيا مراراً مع معاشرتي لهم

أُسَـارِقُـكَ الـلَّـحْـظَ مُـسْـتَـحْـيِـيَـاً ... وأَزْجُـرُ في الـخَـيْـلِ مُـهْـري سِـرَارا

أسترق النظر إليك بخجل، وإذا زجرتُ أنا مهري (صحت به) وسط الخيل ـ وكان المتنبي يركب مع سيف الدولة في ميادين حلب ـ فعلت ذلك سراراً (بالسر)

وأَعْـلَـمُ أَنِّـي إذا مـا اعْـتَـذَرْتُ ... إلـيـكَ، أرادَ اعـتِـذَارِي اعْـتِـذارا

كَـفَـرْتُ مَـكَـارِمَـكَ الـبَـاهِـرَا ... تِ إنْ كـانَ ذلـكَ مِـنِّـي اخْـتِـيـارا

كفرت (جحدت) مكارمك الباهرة إن كنت أبطأت في مدحك عمداً

ولَـكِـنْ حَـمَـى الـشِّـعْـرَ، إلا الـقَـلِـيـ ... ـلَ، هَـمٌّ حَـمَـى الـنَّـوْمَ إلا غِـرَارا

ولكن، حمى (منع) الشعر عني، سوى قليل منه، همٌّ منع أيضاً النوم، سوى غراراً (خطفاً)

ومـا أنـا أَسْـقَـمْـتُ جِـسْـمـي بِـهِ ... ولا أنـا أَضْـرَمْـتُ فـي الـقَـلْـبِ نَـارا

ولست أنا الذي أسقمتُ جسمي بذلك الهمّ، ولست أنا الذي أضرم (أوقد) في القلب ناراً

فَـلا تُـلْـزِمَـنِّـي ذُنُـوبَ الـزَّمـانِ ... إلَـيَّ أَسـاءَ، وإِيَّـايَ ضَـارا

فلا تلزمني (لا تجعلني مسؤولاً عن) ذنوب الزمان، فالزمان أساء إلي وضارني (ضرني)

وعِـنْـدِي لَـكَ الـشُّـرَّدُ الـسَّـائِـرَا ... تُ لا يَـخْـتَـصِـصْـنَ مِـنَ الأرضِ دَارا

وعندي لك القوافي الشرد (الأشعار السائرة) التي لا تختص ببلد دون غيره، بل يتناقلها الناس في كل مكان

قَـوَافٍ إذا سِـرْنَ عَـنْ مِـقْـوَلِـي ... وَثَـبْـنَ الـجِـبَـالَ وخُـضْـنَ الـبِـحَـارا

هذه القوافي (الأشعار) إذا خرجت عن مقولي (لساني) تثب فوق الجبال وتخوض البحار

ولِـي فِـيـكَ مَـا لَـمْ يَـقُـلْ قَـائِـلٌ ... ومـا لـم يَـسِـرْ قَـمَـرٌ حَـيْـثُ سَـارا

فَـلَـوْ خُـلِـقَ الـنـاسُ مِـنْ دَهْـرِهِـمْ ... لـكـانُـوا الـظَّـلامَ، وكُـنْـتَ الـنَّـهـارا

الدهر مقسوم إلى نهار وليل، ولو كان الناس مخلوقين من الدهر لكانوا مخلوقين من الليل، وأنت وحدك من النهار

أَشَــدُّهُــمُ فــي الــنَّــدَى هِــزَّةً   وأَبْــعَــدُهُــمْ فــي عَــدُوٍّ مُــغَــارَا

أنت أشدهم في الندى (الكرم) اهتزازاً (تحمساً)، وأكثرهم إيغالاً في الغارة على العدو

سَــمَــا بِــكَ هَــمِّــيَ فَــوْقَ الــهُــمُــومِ   فَــلَــسْــتُ أَعُــدُّ يَــسَــاراً يَــسَــارا

ارتفع بك همي (طموحي) فوق كل طموح، فما عدت أعتبر اليسار (الغنى) العادي يساراً لكثرة ما أعطيتني

ومَــنْ كُــنْــتَ بَــحْــراً لَــهُ يَــا عَــلِــيُّ -   لــم يَــقْــبَــلِ الــدُّرَّ إلَّا كِــبَــارا

من كنت بحراً له صار طامعاً، ولا يقبل من اللؤلؤ إلا الكبيرة

٨٥ إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويهنئه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة، وأنشده إياها في ميدانه بحلب وهما على فرسيهما: ١٩/٤٢

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا   وعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ في العِدَا

ينال كل شخص من زمنه ما تعود عليه، وعادة سيف الدولة هي أن يطعن الأعداء

ذَكِيٌّ، تَظَنِّيهِ طَلِيعَةُ عَيْنِهِ،   يَرَى قَلْبُهُ في يَوْمِهِ ما تَرَى غَدَا

سيف الدولة ذكي، وتظنيه (حدسه) بمثابة الطليعة (كتيبة الاستكشاف) لعينه، وقلبه (عقله) يرى اليوم الأشياء التي ستراها عينه غداً. هذا أحسن وصف للفطنة

فَيَا عَجَباً مِنْ دَائِلٍ أنتَ سَيْفُهُ   أمَا يَتَوَقَّى شَفْرَتَيْ مَا تَقَلَّدَا

عجيب الدائل (صاحب الدولة/الخليفة ببغداد) الذي أنت سيف له، أما يتوقى (يحذر) شفرتي (حدي) السيف الذي تقلده (اتخذه)

ومَنْ يَجْعَلِ الضِّرْغامَ لِلصَّيْدِ بَازَهُ   تَصَيَّدَهُ الضِّرْغامُ فِيما تَصَيَّدَا

والذي يجعل الأسد بمثابة باز (صقر) يصيد بواسطته صاده الأسد ضمن ما يصيد. وهذه حكمة يعرفها المدراء الضعاف، فهم لا يعينون إلا الموظف الضعيف حتى لا يكشف ضعفهم ولا يطمع في الحلول محلهم، ولذلك نرى الشركات والدوائر الحكومية التي فيها أمثال هؤلاء تنحدر، وقد عرفتُ بعض هؤلاء وغَثِيَتْ نفسي بهم

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ في مَحْضِ قُدْرَةٍ   ولو شئتَ كانَ الحِلْمُ مِنْكَ المُهَنَّدَا

رأيتك محض الحلم (أي الحلم المحض: التسامح الخالص) مصحوباً باقتدار خالص على الانتقام، ولو أنت شئت لأبدلت بالحلم السيف، لكنك عفوت قادراً

وَمَا قَتَلَ الأحْرارَ كَالعَفْوِ عَنهُمُ   وَمَنْ لَكَ بِالحُرِّ الذي يَحْفَظُ اليَدَا؟

والعفو يقتل الأحرار (المقصود يزيل كل شر من جانبهم، ويقتل عداوتهم لك)، ولكن من أين لك بِحُرٍّ حقيقي يحفظ اليد (النعمة)؟

إذا أَنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ   وإنْ أنتَ أكرَمْتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

إذا أكرمت الكريم ملكت ولاءه، وأما اللئيم فإذا أكرمته تمرد عليك. قال المثل: كل شيء زرعته قلعته، إلا ابن آدم تزرعه فيقلعك

ووَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ، بِالعُلَى   مُضِرٌّ، كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

ولكن استعمال الندى (كرم الأخلاق) بدل السيف مضر بالعلى (بالمجد)، تماماً كضرر استعمال السيف في المواقف التي يحسن فيها استعمال كرم الأخلاق

ولكِنْ، تَفُوقُ الناسَ رأياً وحِكْمَةً   كما فُقْتَهُمْ حَالاً ونَفْساً ومَحْتِدَا

ولكنك يا سيف الدولة تفوق الناس رأياً وحكمة، كما فقتهم في أحوالك وإنجازاتك وفي عظمة نفسك وفي محتدك (أصلك)

يَدِقُّ على الأَفْكَارِ ما أنتَ فاعِلٌ   فَيُتْرَكُ ما يَخْفَى، ويُؤْخَذُ مَا بَدَا

يدق على الأفكار (يصعب على العقول) ما تفعله، فالناس لا تفهم القصد الخفي منه وترى ما يظهر من فعلك فقط. يقول: لك تدبير دقيق وتخطيط لا يعلم الناس منتهاه، فيرون الظاهر لهم فقط. ما أكثر الحكام والمدراء والأزواج الذين يخفون مقاصدهم عن الآخرين، لا لشيء إلا للحفاظ على سيطرتهم؛ يبرعون في إبقاء الآخرين في الظلام، فيحسب الآخرون أن تصرفات أولئك المتسلطين جاءتهم بوحي

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ   فَأَنْتَ الذي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدَا

أزل (امحُ) حسد حسادي بأن تكبتهم (تذلهم)، فبسببك حسدوني

إذا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ في يَدِي   ضَرَبْتُ بِسَيفٍ يَقْطَعُ الهامَ مُغْمَدَا

إذا قوّى ذراعي حسن رأيك في يدي (ثقتك بثبات يدي) فإنني سأضرب بسيف يقطع الهام (الرؤوس) وهو لم يخرج من غمده بعد. يقول: ثقتك بي تقويني

وما أنَا إلا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ   فَزَيَّنَ مَعْروضاً، ورَاعَ مُسَدَّدَا

وما أنا إلا سمهري (رمح) بيدك أنت، وهو زينة لك وهو معروض يراه الناس، وهو أداة تروعهم (تخيفهم) إذا سددته (صوبته). يقول: أنا زينة لمجلسك ساكتاً، ومرعب لأعدائك إن قلت الشعر

وما الدَّهرُ إلا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي   إذا قُلْتُ شِعْراً أصبَحَ الدَّهْرُ مُنشِدَا

ليس الدهر إلا راوياً لشعري، فأنا أقول الشعر والدهر ينشده. بعد ألف سنة ونيف نقول له: صدقت. قيل: «ما خلق الله الكون إلا ليأتي بيتهوفن ويؤلف السيمفونية التاسعة»، وقول المتنبي عن شعره يشبه هذا

فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِيرُ مُشَمِّراً ... وغَنَّى بِهِ مَنْ لا يُغَنِّي مُغَرِّدَا

فسار بشعري مشمراً (مُجِدّاً) من لم يكن يسير، وغنى به من لم يكن يغني. كان المتنبي في الشهرة كنزار قباني في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد جعل كثيرين ممن لا يقرأون الشعر يقبلون على الشعر، لجدة معاني شعره، وللشهرة التي نالها بما حصل عليه من مدح وقدح (الكلام يصدق على كلا الشاعرين)

أَجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعْراً، فَإِنَّما ... بِشِعْرِي أَتَاكَ المادِحُونَ، مُرَدَّدَا

أجزني بالجوائز والعطايا إذا أنشدك الآخرون شعراً، فشعرهم مسروق من شعري، وهم يرددون ما كنت قلته أنا من دقيق المعاني

ودَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتي، فَإِنَّنِي ... أَنَا الطَّائِرُ المحْكِيُّ، والآخَرُ الصَّدَى

اترُكْ كل صوت سوى صوتي فأنا الطائر الذي يحاكونه (يقلدونه)، والآخرون صدى لصوتي

تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وأَنْعَلْتُ أَفْراسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجَدا

تركت السرى (سير الليل) خلف ظهري لمن كان فقيراً ويريد السفر لمدح الأمراء، ومكثت عندك وجعلت لخيولي نعالاً من العسجد (الذهب) من النعمى (الإحسان) التي نلتها عندك

وقَيَّدْتُ نَفْسِي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً ... ومَنْ وجَدَ الإحسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا

وقيدت نفسي في ذراك (حمايتك) ولكن بقيد المحبة، والإحسان خير قيد

٨٦ وأتعب من ناداك من لا تجيبه

قال المتنبي يمدح سيف الدولة بعد دخول رسول الروم عليه: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ١٠/٤٣

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّومِ هَذِي الرَّسَائِلُ ... يَرُدُّ بَها عن نَفْسِهِ، ويُشَاغِلُ

هذه الرسائل التي يرسلها ملك الروم لك هي دروع يحتمي بها ويشاغلك كسباً للوقت

وأَنَّى اهتدَى هذا الرَّسولُ بأَرْضِهِ ... وما سَكَنَتْ، مُذْ سِرْتَ فِيها، القَسَاطِلُ

ليت شعري كيف اهتدى رسول ملك الروم ورأى الطريق وهو يسير داخل أرض الروم، فما سكنت (هدأت) منذ سرتَ في أرضهم غازياً القساطل (سحب الغبار)

ومِنْ أيِّ مَاءٍ كانَ يَسْقِي جِيَادَهُ ... ولم تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ المَنَاهِلُ

وكيف كان يسقي خيوله وجميع المناهل (عيون الماء) معكرة بالدم، لم تصف بعدُ لكثرة ما قتلتَ منهم

أَرَى كُلَّ ذِي مُلْكٍ إلَيْكَ مَصِيرُهُ ... كأَنَّكَ بَحْرٌ، والمُلُوكُ جَدَاوِلُ

كل صاحب ملك مصيره أن يأتي إليك، فأنت كالبحر وهم كجداول الماء التي تصب في البحر

أَذَا الجُودِ! أعْطِ النَّاسَ مَا أنتَ مالِكٌ ولا تُعْطِيَنَّ النـاسَ ما أنَا قـائِلُ

يا ذا الجود (صاحب الجود) أعط الناس ما تملك من مال، ولكن لا تعطهم شعري الذي يسرقون معانيه

أَفي كُلِّ يوم تَحْتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضَعِيـفٌ يُقَاوِينـي، قَصيرٌ يُطَاوِلُ

أظلُّ كلَّ يومٍ أرى تحت ضبني (إبطي) شويعراً ضعيفاً في الشعر يقاويني (يبارزني)، وقصيراً يطاولني (يباريني في الطول)

لِسَاني بِنُطْقي صَامِتٌ عنه، عَادِلٌ وقَلبي بِصَمْتي ضَاحِكٌ منهُ هَازِلُ

لساني عندما أنطق يكون في الواقع صامتاً عنه، عادلاً (مبتعداً)، وقلبي إذا صَمَتُّ ضاحك منه هازئ به

وأَتْـعَبُ مَـنْ نَـاداكَ مَـنْ لا تُـجِيبُهُ وأَغْـيَظُ مَنْ عَـاداكَ مَنْ لا تُشَـاكِـلُ

وأكثر من يناديك تعباً مَنْ تهملُه ولا تجيبه؛ وأكثر الذين يعادونك شعوراً بالغيظ من يكونون على غير شاكلتك؛ فهم جادُّون في العداوة، ولكن هم في واد وأنت في واد

ومَا الـتِّيهُ طِبِّي فِيهِمُ، غَيْرَ أَنَّنِي بَـغِيضٌ إلـيَّ الـجَاهِـلُ الـمُـتَعـاقِـلُ

والتيه (التكبر) ليس طبي (طريقتي) في معاملتهم، ولكن الجاهل الذي يزعم أنه عاقل بغيض (كريه) إلى نفسي

وأكْـبَـرُ تِـيـهـي أنَّـنـي بِـكَ واثِـقٌ وأَكْـثَـرُ مـالـي أنَّـنـي لَـكَ آمِـلُ

وأكبر تيهي (افتخاري) ثقتي بك، وأكثر مالي أملي فيك. تعليق أحمد عبد الرحيم، مع التسويد: [تألُّهٌ عالٍ.. على المذهب العلائي]

٨٧ جواب الصحراء

أحدث بنو كلاب حدثاً بنواحي (بالس) وسار سيف الدولة خلفهم، وأبو الطيب معه، فأدركهم بعد ليلةٍ بين مائين يعرفان بالغبَّارات والخرَّارات فأوقع بهم، ومَلَكَ الحريم فأبقى عليهن. فقال أبو الطيب بعد رجوعه من هذه الغزوة، وأنشده إياها في جمادى الآخرة سنة ثلاثٍ وأربعين وثلاثمئة: ١٦/ ٤٢

بِـغَـيـرِكَ رَاعِـيـاً عَـبِـثَ الـذِّئـابُ وغَـيْـرَكَ صَـارِمـاً ثَـلَـمَ الـضِّـرابُ

الذئاب لا تعبث بك يا راعي الرعية بل بغيرك من الرعاة، وأيها السيف الصارم (القاطع) لا يثلمك (يفسد حدك) الضراب (الضرب بالسيف) بل يفل سيوفاً أخرى

ومـا تَـرَكُـوكَ مَـعْـصِـيَـةً، ولَـكِـنْ يُـعَـافُ الـوِرْدُ، والـموتُ الـشَّـرابُ

وما تركوك وفرُّوا من وجهك عصياناً لك، ولكن يُعاف الورد (ورود الماء) إذا كان ما سيشربه المرء موتاً

طَلَبْتَهُمُ على الأَمْوَاهِ، حتى تَخَوَّفَ أنْ تُفَتِّشَهُ السَّحابُ

لقد لاحقتهم على الأمواه (المياه، يقصد المواقع التي فيها آبار) حتى لقد خاف السحاب أن تفتشه

فَبِتَّ لَيالِياً لا نَوْمَ فِيها تَخُبُّ بِكَ المُسَوَّمَةُ العِرابُ

لقد بتَّ يا سيف الدولة عدة ليال ساهراً، والمسومة العراب (الخيل الأصيلة المعلَّمة بعلامات) تخب (تسرع) بك في طلبهم

يَهُزُّ الجَيْشُ حولَكَ جانِبيْهِ كَما نَفَضَتْ جَناحَيْها العُقَابُ

العقاب: طير من الجوارح

وتَسْأَلُ عَنْهُمُ الفَلَواتِ حتى أَجَابَكَ بَعْضُها، وَهُمُ الجَوَابُ

سألت عنهم الفلوات (الصحارى)، ثم أجابتك واحدة منها، فكان بنو كلاب هم الجواب. يقول: بحثت عنهم حتى عثرت عليهم

إذا ما سِرْتَ في آثارِ قَوْمٍ تَخاذَلَتِ الجَمَاجِمُ والرِّقَابُ

إذا ما لاحقت قوماً فإن رقابهم وجماجمهم تتخاذل (يخون بعضها بعضاً: فتخون الرقبة الجمجمة فتسقط الجمجمة بضربة السيف)

وكَيف يَتِمُّ بَأْسُكَ في أُناسٍ تُصِيبُهُمُ فَيُؤْلِمُكَ المُصَابُ؟

ولكن، كيف يتم بأسك (تكتمل شدَّتك) في ناس تصيبهم فتتألم لنكبتهم لأنهم عرب مثلك؟

تَرَفَّقْ أيُّها المَوْلَى عَلَيْهِمْ فإنَّ الرِّفْقَ بِالجَاني عِتَابُ

فارفق بهم أيها المولى (السيد)، فالرفق بالجاني بمثابة عتاب له

وإنَّهُمُ عبيدُكَ حيثُ كانوا إذا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أجابُوا

وهم عبيدك ويجيبونك إذا دعوتهم لأمر

وما جَهِلَتْ أَيادِيَكَ البَوادِي ولَكِنْ، رُبَّمَا خَفِيَ الصَّوَابُ

وما أنكرت البوادي أياديك (نِعمك)، ولكن ربما كانت مجرد غلطة من أولئك القوم

وكَمْ ذَنْبٍ مُوَلِّدُهُ دَلالٌ وكَمْ بُعْدٍ مُوَلِّدُهُ اقْتِرابُ

وكثيراً ما يكون سبب الذنب الدلال (الإحساس بعلو المنزلة لدى الشخص والتدلل عليه) وكثيراً ما يكون سبب البعد شدة الاقتراب. تعليق أحمد عبد الرحيم: [يقول بعض كبار الصوفية: التصوُّن حالَ البسط أصعب منه حالَ القبض! ولا يثبُت على البسط إلا موفَّق!]

وجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ وحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ العَذَابُ

وربِّ جرم كان السبب فيه سفهاء القومِ، ولكن العقاب حل بغير من ارتكب الجرم

رَمَـيْـتَـهُـمُ بِـبَـحْـرٍ مِنْ حَـدِيـدٍ   لَـهُ فـي الـبَـرِّ خَـلْـفَـهُـمُ عُـبَـابُ

لقد رميتهم ببحر من حديد (جيشك المدجج)، ولهذا البحر عباب (هدير الموج) ولكن في البر

فَـمَـسَّـاهُـمْ وبُـسْـطُـهُـمُ حَـرِيـرٌ   وصَـبَّـحَـهُـمْ وبُـسْـطُـهُـمُ تُـرَابُ

لقد مساهم سيف الدولة (جاءهم مساء) وبسطهم التي فرشوها في خيامهم من الحرير، وطلع عليهم الصبح وبسطهم من التراب بعد سلب أموالهم

ومَـنْ فـي كَـفِّـهِ مِـنْـهُـمْ قَـنَـاةٌ   كَـمَـنْ فـي كَـفِّـهِ مِـنْـهُـمْ خِـضَـابُ

وصار من في كفه قناة (رمح) مثل الذي في كفه خضاب (حناء)، أي صار رجالهم كنسائهم فهم لا يحاربون ولا جدوى من سلاحهم أمام جيشك القاهر

٨٨ على قدر أهل العزم

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويذكر بناءه حصن الحدث سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة: ٤٦/٣٨

على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تَأتي العَزَائِمُ   وتَأْتي، على قَدْرِ الكرامِ، المَكَارِمُ

وتَعْظُمُ في عينِ الصغيرِ صِغَارُها   وتَصْغُرُ في عينِ العَظيمِ العَظَائِمُ

الصغير الهمة يرى الأمور الصغيرة عظيمة، والعظيم يستصغر الأمور العظيمة

يُكَلِّفُ سيفُ الدولةِ الجَيْشَ هَمَّهُ   وقد عَجَزَتْ عنه الجُيوشُ الخَضَارِمُ

يكلف سيف الدولة الجيش مشقة بقدر همه (طموحه)، وقد عجزت عن تحقيق هذا الطموح الجيوش الخضارم (الكبيرة)

ويَطْلُبُ عِندَ الناسِ ما عِندَ نفسِهِ   وذلكَ ما لا تَدَّعيهِ الضَّراغِمُ

ويطالب الناس بأن يكونوا مثله في العزم والشجاعة، وهذا شيء لا تدعيه لنفسها حتى الضراغم (الأسود)

يُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمْراً سِلاحَهُ   نُسُورُ الفَلا: أَحداثُها والقَشَاعِمُ

يقول أتم الطير عمراً (النسور، وهي طويلة الأعمار): نفدي سلاحك يا سيف الدولة؛ تقول ذلك أحداثها (صغارها)، والقشاعم (النسور المسنَّة)

وما ضَرَّها خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ   وقد خُلِقَتْ أَسْيافُهُ والقَوائِمُ

ولو كانت النسور قد خلقت بلا مخالب لما ضرها ذلك، فقد خلق الله أسياف هذا الأمير وقوائمها (مقابضها). فسيف الدولة يقتل الأعداء والنسور تقتات بجثثهم فهي له شاكرة. علق أبو العلاء بقوله: (القوائم) فضلة لا فائدة فيها إلا إتمام القافية

هلِ الحَدَثُ الحَمْراءُ تَعْرِفُ لونَها وتَعْلَمُ أيُّ السَّاقِيَيْنِ الغَمائِمُ

هل قلعة الحدث (ببلاد الروم) الحمراء (من الدم) تميّزُ لونَها؟ وهل تعلم أي المصدرين اللذين سقياها هو السحاب: هل سقتها السحب أم سيوف العرب؟

سَقَتْها الغَمَامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْها سَقَتْها الجَمَاجِمُ

لقد سقتها السحب الغر (البيض) قبل مجيء سيف الدولة، فلما اقترب منها سقتها جماجم الروم بالدم

بَنَاها فأَعْلَى، والقَنَا يَقْرَعُ القَنَا ومَوْجُ المَنايَا حَوْلَها مُتَلاطِمُ

بنى سيف الدولة القلعة وجعل أسوارها عالية في الوقت الذي كانت فيه أمواج المنايا (الموت) تتلاطم حولها

وكَانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ، فَأَصْبَحَتْ ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمَائِمُ

كان بالقلعة حال أشبه بحال الجنون إذ هدمت، ثم أصبحت جثث القتلى بالنسبة لها كالتمائم (التعويذات التي تعلق بصدر المجنون ليشفى) فهدأت

طَرِيدَةَ دَهْرٍ، سَاقَها فَرَدَدْتَها على الدِّينِ بالخَطِّيِّ، والدَّهْرُ راغِمُ

هذه القلعة هاربة من الزمن الذي يطاردها، وقد ساقها الزمن للروم فرددتها أنت إلى حظيرة الدين بالخطي (الرماح) رغم أنف هذا الزمن

تُفِيتُ اللَّيَالِي كُلَّ شيءٍ أَخَذْتَهُ وهُنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوارِمُ

أنت تفيت (تحرم) الليالي (الزمن) استرجاع كل شيء أخذْتَهُ منها، والزمن إذا أخذ منك شيئاً فهو له غارم (مدين) وعليه أن يرجعه إليك

إذا كانَ ما تَنْوِيهِ فِعْلاً مُضَارِعاً مَضَى قبلَ أنْ تُلْقَى عليه الجَوَازِمُ

إذا كان ما تنوي فعله بصيغة الفعل المضارع (مثل ينتصر) مضى (أصبح فعلاً ماضياً مثل: انتصر) قبل أن يأتي قبله حرف جزم (مثل: لم ينتصر). يقول: أنت تحول الفعل المضارع إلى فعل ماض بتحقيقك إياه، ولا تسمح له بالتحول إلى النفي وعدم التحقق. هكذا كان يتنطع مثقفو ذلك الزمن

وكيف تُرَجِّي الرُّومُ والرُّوسُ هَدْمَهَا وذا الطَّعْنُ آسَاسٌ لها، ودَعَائِمُ

وكيف للروم والروس أن يأملوا هدم قلعة الحدث وآساسها (أسسها) ودعائمها من الطعن والحرب

أَتَوْكَ يَجُرُّونَ الحَدِيدَ، كأَنَّما سَرَوْا بِجِيادٍ ما لَهُنَّ قَوائِمُ

لقد جاءوك وهم يجرون الحديد، وخيولهم عليها حمايات من دروع الخيل التي تجلل جسم الحصان، فكأنهم سروا (مشوا) بخيول ليست لها قوائم

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأرضِ والغَرْبِ زَحْفُهُ   وفـي أُذُنِ الـجَـوْزَاءِ مِـنْـهُ زَمَـازِمُ

هذا خميس (جيش) يزحف على مساحة واسعة تمتد بين المشرق والمغرب، وتصل أصوات زمازمه (صخبه غير المفهوم) إلى أذن نجوم الجوزاء

تَـجَـمَّـعَ فـيـهِ كُـلُّ لِـسْـنٍ وأُمَّـةٍ   فَـمَـا يُـفْـهِـمُ الـحُـدَّاثَ إلَّا الـتَّـرَاجِـمُ

لقد اجتمع في جيشهم كل لسن (لغة) وكل أمة، فما يتفاهم جنوده المتحادثون إلا بواسطة التراجم (المترجمين)

نَقَطَّعَ ما لا يَقْطَعُ الدِّرْعَ، والقَنَا،   وَفَـرَّ مِـنَ الـفُـرْسـانِ مَـنْ لا يُـصَـادِمُ

كل سيف لا يستطيع قطع الدرع تكسَّر، والقنا (الرماح) كلها تكسرت، وفر كل فارس لا يصادم

وَقَفْتَ، وما في الموتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ   كَأَنَّكَ في جَفْنِ الرَّدَى، وَهْوَ نَائِمُ

وقفت وسط الخطر فكأنك في داخل جفن الموت، ولكن الموت كان نائماً عنك

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   وَوَجْـهُـكَ وَضَّـاحٌ، وثَـغْـرُكَ بَـاسِـمُ

تمر بك الأبطال كلمى (جرحى) هزيمة (مهزومة)، ووجهك وضاح (مشرق) وثغرك (فمك) باسم. صاغ أصحاب القصص من النقاد الذين يعانون من الفراغ في القديم قصة نقدية طويلة حول البيتين السابقين، وهي مصنوعة باردة حميناكها، اقرأ هذا الشعر العظيم وتمتع به، فإن طلبت قصة ترويها في مجلس ـ وتلك القصص ما كانوا يضعونها إلا للتفكه في المجالس، عارفين، قائلاً وسامعاً، أنها محض اختلاق ـ فعليك الشيخَ غوغل فاقصده

تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجاعَةِ والنُّهَى   إلى قَوْلِ قومٍ: أَنْتَ بِالغَيْبِ عَالِمُ

تجاوزت كل حدود الشجاعة والنهى (التعقل) حتى لقد قال بعضهم إنك تعلم الغيب، وتعرف أنك ستبلغ السلامة ولهذا فقد وقفت بكل رباطة الجأش تلك

ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهِمْ عَلى القَلْبِ ضَمَّةً   تَـمُوتُ الـخَوَافي تَـحْـتَـهـا والقَـوَادِمُ

لقد ضممت جناحي جيشهم على قلبه (وأقسام الجيش خمسة: جناحان وقلب ومقدمة ومؤخرة، ولذا سمي خميساً) وهذه الضمة تموت تحتها الخوافي (الريش المخفي) والقوادم (الريش البارز في جناح الطائر)

بِضَرْبٍ أَتَى الهاماتِ والنَّصْرُ غائِبٌ   وصَـارَ إلـى الـلَّـبَّـاتِ والـنَّـصْـرُ قَـادِمُ

ضممت الجناحين بضرب بالسيوف على الهامات (الرؤوس) والنصر مشكوك فيه، وما وصل الضرب إلى اللبات (الرقاب) حتى كان النصر قادماً مؤكداً

حَقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّاتِ حتى طَرَحْتَهـا   وحـتـى كـأنَّ الـسَّـيْـفَ لِـلـرُّمْـحِ شَـاتِـمُ

احتقرت الردينيات (الرماح) حتى رميتها جانباً، وحتى كأن السيف يشتم الرمح ويعيره بالجبن. فالسيف سلاح المقاتل الجريء، لأن المقاتل باستعماله يكون قريباً من الخصم، والرمح يطعن من بعيد وصاحبه في أمان نسبي

ومَنْ طَلَبَ الفَتْحَ الجَلِيلَ فَإنَّما مَفاتِيحُهُ البِيضُ الخِفَافُ الصَّوارِمُ

مفاتيح الفتح الكبير البيض (السيوف) الخفيفة الصوارم (القاطعة)

نَثَرْتَهُمُ فوقَ الأُحَيْدِبِ كُلِّهِ كَمَا نُثِرَتْ فوقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ

نثرت جنودهم فوق الأحيدب (اسم الجبل الذي فوقه القلعة) كما تنثَرُ فوق العروس (الرجل عروس والمرأة عروس) الدراهم (نسميها في فلسطين النقوط)

تَدُوسُ بِكَ الخَيْلُ الوُكورَ على الذُّرَا وقد كَثُرَتْ حولَ الوُكورِ المَطَاعِمُ

تدوس خيلك، وأنت فوقها، وكور (أعشاش) الطيور على الذرا (القمم)، وقد كثرت حول الأعشاش المطاعم (الجثث التي ستصبح طعاماً للنسور)

تَظُنُّ فِرَاخُ الفُتْخِ أنَّكَ زُرْتَهَا بِأُمَّاتِها؛ وَهْيَ العِتَاقُ الصَّلادِمُ

فراخ الفتخ (الجوارح) تظن أنك زرتها ومعك أماتها (أمهات ما لا يعقل)، وما هذه الأمات إلا العتاق (الخيل الأصيلة) الصلادم (الصلبة)

إذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهَا بِبُطونِها كما تَتَمَشَّى في الصَّعِيدِ الأراقِمُ

إذا انزلقت حوافر الخيل جعلتها تمشي فوق الجبل على بطونها كما تمشي على الصعيد (التراب) الأراقم (الحيات)

أفي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ قَفَاهُ على الإقْدَامِ لِلوَجْهِ لائِمُ

أفي كل يوم نرى هذا الدمستق (قائد الروم) مقدماً (هاجماً) وقفاه يلوم وجهه على الهجوم، لأنه سيهرب عما قليل ويتلقى الطعن في قفاه

أَيُنْكِرُ رِيحَ اللَّيْثِ حتى يَذُوقَهُ وقد عَرَفَتْ رِيحَ اللُّيُوثِ البَهَائِمُ

أهو يغالط نفسه فيجهل ريح (رائحة) الأسد حتى يذوق أنيابه، مع أن البهائم نفسها تشم رائحة الأسد وتهرب قبل لقائه

وقد فَجَعَتْهُ بِابْنِهِ وابْنِ صِهْرِهِ وبِالصِّهْرِ، حَمْلاتُ الأميرِ الغَوَاشِمُ

وقد فجعتْه (نكبته) في ابنه وفي ابن صهره وفي صهره حملات الأمير الغاشمة (العشوائية التي لا تبالي بمن قتلت)

مَضَى يَشْكُرُ الأصْحَابَ في فَوْتِهِ الظُّبَى لِمَا شَغَلَتْهَا هَامُهُمْ والمَعَاصِمُ

صار الدمستق يشكر أصحابه الجرحى لفوته (تجنبه) الظبى (نصال السيوف)، وذلك لأن هامهم (رؤوسهم) ومعاصمهم شغلت السيوف عنه

ويَفْهَمُ صَوتَ المَشْرَفِيَّةِ فِيهِمُ على أنَّ أصْوَاتَ السُّيوفِ أعَاجِمُ

ويفهم صوت المشرفية (السيوف) وهي تثخن في أصحابه فيهرب وينجو، مع أن أصوات السيوف أعاجم (غير فصيحة)

يُسَرُّ بِمَا أعطاكَ، لا عنْ جَهَالَةٍ ولكنَّ مَغْنُومَاً نَجَا مِنْكَ غَانِمُ

وهو مسرور بما أعطاك من جماجم صحبه ليس لأنه جاهل، ولكن المغنوم (المغلوب) الذي نجا منك غانم (فائز)

ولَسْتَ مَلِيكَاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ ولَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشِّرْكِ هَازِمُ

ولست مجرد ملك هزم نظيراً له، بل أنت التوحيد يهزم الشرك

لَكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي ليَ لَفْظُهُ فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ، وإِنِّيَ نَاظِمُ

الحمد الذي ورد في هذه الدرر التي أنظمها هو من نصيبك، فأنت تعطيني المعاني وأنا فقط أنظمها

وإنِّي لَتَعْدُوْ بي عَطَايَاكَ في الوَغَى فلا أنَا مَذْمُومٌ، ولا أنتَ نَادِمُ

وتعطيني أيضاً الخيل التي تركض بي في الوغى (الحرب)، وأنا في أخذ عطاياك غير مذموم لأنني أحارب بها أعداءك، وأنت لا تندم لأنني أستحقها

٨٩ شر الحمامين

قال المتنبي، وقد ورد فرسان الثغور ومعهم رسول ملك الروم يطلب الهدنة من سيف الدولة، وأنشده إياها بحضرتهم وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من محرم افتتاح سنة أربع وأربعين وثلاثمئة: ٦/٣١

تَنامُ لَدَيْكَ الرُّسْلُ أَمْنَاً وغِبْطَةً وأَجْفَانُ رَبِّ الرُّسْلِ لَيسَ تَنَامُ

الرسل الذين يحملون رسالة ملك الروم ينامون في حلب عندك بأمان وسرور، ولكن أجفان (عيون) رب الرسل (صاحب الرسل) لا تنام خوفاً منك

حِذَاراً لِمُعْرَوْرِي الجِيَادِ فُجَاءَةً إلى الطَّعْنِ قُبْلاً، مَا لَهُنَّ لِجَامُ

ملك الروم يحذر سيف الدولة معروري الجياد (راكب الخيول عارية بلا سروج)، يركبها فُجاءةً ذاهباً بها للطعن وهي مقبلة على هدفها بدون لُجُم لسرعة الإعداد للهجوم

تَعَطَّفُ فيهِ، والأَعِنَّةُ شَعْرُهَا وتُضْرَبُ فيهِ، والسِّيَاطُ كَلامُ

تتعطف الخيل وتتثنى في الطعن وليس للفارس من عنان (لجام) يمسكها به سوى شعر رقبتها، ولا يضربها الفارس أثناء الطعن إلا بسياط من كلام، لأنها أصيلة ومتعودة على الحرب

وما تَنْفَعُ الخيلُ الكرامُ، ولا القَنا إذا لم يَكُنْ فوقَ الكِرامِ كِرَامُ

الخيل الكرام: الكريمة الأصيلة، القنا: الرماح

وشَرُّ الحِمَامَيْنِ الزُّؤَامَيْنِ عِيشَةٌ يَذِلُّ الذي يَخْتَارُها ويُضَامُ

لو افترضنا وجود حمامين (موتين) زؤامين (سريعين) فشرهما العيشة التي يذل من يختارها ويضام (يظلَم). يقول: إن خيرت بين موت حقيقي، وموت آخر هو العيش بذلة، فالحياة بذلة هي الموت الأصعب

ورُبَّ جَوَابٍ عنْ كِتابٍ بَعَثْتَهُ وعُنْوانُهُ لِلنَّاظِرِينَ قَتَامُ

ورب جواب أرسلته على خطاب جاءك، ولكن جوابك عنوانه قتام (غبار). يقول: أنت ترد على مراسلات الأعداء بشن غارة عليهم، فيكون غبار خيلك هو عنوان جوابك

٩٠ صحبة

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويذكر قصة حربٍ جرت: ٦/٤٧

تَذَكَّرْتُ ما بَيْنَ العُذَيْبِ وبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينا، ومَجْرَى السَّوَابِقِ

تذكرت المكان بين العذيب وبارق (وهما مكانان)، وهناك كان مجر عوالينا (حيث كنا نجر رماحنا) ومجرى السوابق (حيث كانت تجري خيولنا السريعة)

وصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَةِ ما قد كَسَّرُوا في المَفَارِقِ

وتذكرت صحبة قوم كانوا يذبحون قنيصهم (صيدهم) بفضلة (ببقية) السيوف التي كسروها في مفارق (رؤوس) الأعداء

وأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عاقِلٍ عَفِيفٍ، ويَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ

وهذا شاب أغيد (ناعم) يهوى روحه كل رجل عاقل عفيف، ويهوى جسمه الرجل الفاسق

وما الحُسْنُ في وَجْهِ الفَتى شَرَفاً لَهُ إذا لم يَكُنْ في فِعْلِهِ والخَلائِقِ

والجمال في وجه الفتى ليس شرفاً له، بل الشرف الفعل والخلائق (الطبائع)

وما بَلَدُ الإنْسَانِ غَيْرُ المُوافِقِ ولا أَهْلُهُ الأَدْنَوْنَ غَيْرُ الأَصَادِقِ

بلدك هو البلد الذي يوافقك، وأهلك الأدنون (الأقربون) هم الصادقون في ودهم

وجَائِزَةٌ دَعْوَى المَحَبَّةِ والهَوَى وإنْ كانَ لا يَخْفَى كَلامُ المُنَافِقِ

وجائزة (ممكنة) دعوى (ادعاء) المحبة والهوى، ولكن كلام المنافق لا يخفى

٩١ الموت اضطرار

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، وقد أوقع بقبائل ثارت عليه، ولم يكن المتنبي حضر الواقعة فشرحها له سيف الدولة: ٩/٦٦

تُرِيقُ سيوفُهُ مُهَجَ الأَعادي وَكُلُّ دَمٍ أَرَاقَتْهُ جُبَارُ

تريق سيوف سيف الدولة الحمداني مهج (أرواح) الأعداء، وكل دم تريقه جبار (يذهب هدراً/ لا ثأر له)

إذا فَـاتُـوا الـرِّمَـاحَ تَـنَـاوَلَـتْـهُـمْ، بِـأَرْمَـاحٍ مِـنَ الـعَـطَـشِ، الـقِـفَـارُ

إذا فاتوا (فروا من) الرماح تناولتهم القفار (الصحارى) برماح أخرى هي العطش

يَـرَوْنَ الـمَـوْتَ قُـدَّامَـاً وخَـلْـفـاً فَـيَـخْـتَـارُونَ، والـمـوتُ اضْـطِـرارُ

يرون الموت أمامهم وخلفهم، فيختارون إحدى الميتين

إذا سَـلَـكَ الـسَّـمَـاوَةَ غَـيْـرُ هَـادٍ فَـقَـتْـلاهُـمْ لِـعَـيْـنَـيْـهِ مَـنَـارُ

فإذا مشى في صحراء السماوة رجل وضل طريقه فهو يهتدي بقتلاهم التي تكون بمثابة منار له

وأَجْـفَـلَ بِـالـفُـراتِ بَـنـو نُـمَـيْـرٍ وَزَأْرُهُـمُ الـذي زَأَرُوا خُـوَارُ

أجفل (ذعر وفر) بمنطقة الفرات بنو نمير، وكل الزئير الذي زأروا تبين أنه كان خواراً (صوت الثور)

فَلَمْ يَسْرَحْ لَهُمْ في الصُّبْحِ مَالٌ ولـم تُـوقَـدْ لَـهُـمْ بِـالـلَّـيْـلِ نَـارُ

فلم تسرح ماشيتهم في الصبح، ولا أوقدوا نارهم ليلا على عادتهم، إمعاناً في إخفاء مكانهم..

حِـذَارَ فَـتـىً إذا لـم يَـرْضَ عَـنْـهُـمْ فَـلَـيْـسَ بِـنَـافِـعٍ لَـهُـمُ الـحِـذَارُ

وذلك حذراً من أن يكشف مكانهم فتى (سيف الدولة) إذا لم يرض عنهم فلن ينفعهم الحذر

تَـبِـيـتُ وُفـودُهُـمْ تَـسْـرِي إلَـيْـهِ وجَـدْوَاهُ الـتـي سَـأَلُـوا اغْـتِـفَـارُ

يبعثون الوفود إليه، وكل ما يطلبون أن يغتفر ذنبهم

ومَـا فـي سَـطْـوَةِ الأَرْبَـابِ عَـيْـبٌ ولا فـي ذِلَّـةِ الـعُـبْـدَانِ عَـارُ

ولا عيب في أن يسطو الأرباب (السادة)، ولا عار على العبيد في أن يكونوا أذلاء، فهذا هو المتوقع

٩٢ آلة العيش صحة وشباب

قال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة الصغرى ويسلِّيه ببقاء الكبرى، وأنشده إياها يوم الأربعاء، النصفَ من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلاثمئة: ١٠/ ٤٢

إنْ يَـكُـنْ صَـبْـرُ ذِي الـرَّزِيـئَـةِ فَـضْـلا تَـكُـنِ الأفْـضَـلَ الأعَـزَّ الأجَـلَّا

إن يكن الصبر على هذه الرزيئة (المصيبة) فضلاً (حسنة) فأنت الأفضل الأعز الأجل لقوة صبرك

أنْـتَ، يَـا فَـوْقَ أنْ تُـعَـزَّى عَـنِ الأَحْـ ـبَـابِ، فَـوقَ الـذي يُـعَـزِّيـكَ عَـقْـلا

يا من أنت فوق التعزية عن أحبابك، أنت أكبر عقلاً من الذين يعزونك

وإذا لـم تَـجِـدْ مِـنَ الـنـاسِ كُـفْـئَـاً ذَاتُ خِـدْرٍ أَرَادَتِ الـمـوتَ بَـعْـلا

وذات الخدر (صاحبة الستر: المرأة) إذا لم تجد كفئاً يتزوجها رضيت بالموت بعلاً لها

وَلَذِيذُ الحَياةِ أَنْفَسُ في النَّفْـ ـسِ، وأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ، وأَحْلَى

يستدرك الشاعر ويراجع نفسه فيقول: لكن لذيذ الحياة (الحياة السهلة) ألذ في النفس من أن يملها المرء

وإذا الشَّيْخُ قالَ: أُفٍّ! فَمَا ملَّ ـ حَيَاةً، وإنَّما الضَّعْفَ مَلَّا

والشيخ العجوز عندما يقول أف فليس معنى ذلك أنه مل الحياة، وإنما مل الضعف

آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وشَبابٌ فإذا وَلَّيَا عَنِ المَرْءِ وَلَّى

آلة العيش (عُدَّة الحياة) الصحة والشباب، فإذا ذهبا عن الإنسان ذهب

أَبَداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْـ ـيَا، فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كانَ بُخْلا

دائماً وأبداً تسترد الدنيا ما تهب (تمنح)، فيا ليت كرمها كان بخلاً، ولم تمنحنا الحياة أصلا

وَهْيَ مَعْشُوقَةٌ، على الغَدْرِ، لا تَحْـ ـفَظُ عَهْداً، ولا تُتَمِّمُ وَصْلا

والدنيا معشوقة رغم غدرها، ولا يكتمل وصالها فهي تقطعه بالموت

كُلُّ دَمْعٍ يَسيلُ مِنها عَليها، وبِفَكِّ اليَدَيْنِ عنها تُخَلَّى

كل بكائنا منها (من شرور الدنيا) هو بكاء عليها (حزن لفراقها المقبل)، والمرء متشبث بها فلا يخليها من بين يديه إلا بأن تُفَكَّ يداه بالقوة عنها. يقول: المرء يفقد حياته غصباً عنه، ويتمسك بها لآخر رَمَق

شِيَمُ الغَانِياتِ فيها، فَمَا أَدْ رِي لِذَا أَنَّثَ اسْمَهَا الناسُ، أمْ لا

الدنيا لها شيم (طبائع) الغانيات (الحسان)، وما أدري ألهذا جعلوا اسمها مؤنثاً؟

٩٣ شريعة الغاب

قال المتنبي يمدح سيف الدولة، ويذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به، وذلك في جمادى سنة أربع وأربعين وثلاثمئة: ١٨/ ٤٥

ذِي المعالِي، فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تَعالَى هَكَذا هَكَذا، وإلَّا فَلَا لا

هذه هي المعالي فليعلُ من شاء أن يعلو؛ هكذا يكون العلو، وإلا فليس علواً

شَرَفٌ يَنْطَحُ النجومَ بِرَوْقَيْـ ـهِ، وعِزٌّ يُقَلْقِلُ الأَجْبالا

هذا هو الشرف الذي ينطح النجوم بروقيه (بقرنيه)، وهذا هو العز الذي يزعزع الجبال

حالُ أعدائِنا عَظيمٌ، وسيفُ الدَّ ـ ولةِ ابنُ السُّيوفِ أعظَمُ حالا

حال أعدائنا عظيم، ولكن سيف الدولة أعظم منهم حالاً

كـلَّـمـا أَعْـجَـلُـوا الـنَّـذيـرَ مَـسِـيـراً أَعْـجَـلَـتْـهُـمْ جِـيَـادُهُ الإعْـجَـالا

كلما أعجلوا (سبقوا) نذير سيف الدولة (طليعة الاستكشاف لديه) وهجموا قبل أن يوصِل الخبر، سبقت خيول سيف الدولة سَبْقَهم فركضت إليهم ولاقتهم

فَـأَتَـتْـهُـمْ خَـوارِقَ الأرضِ، مَـا تَـحْـ ـمِـلُ إلَّا الـحـديـدَ والأبْـطَـالا

فأتتهم خيول سيف الدولة خارقة الأرض (قاطعةً البلاد) وعليها الأبطال المدججين بالحديد (السلاح)

خَـافِيَاتِ الألـوانِ، قـد نَـسَجَ الـنَقْـ ـعُ عَـلَـيـهـا بَـرَاقِـعَـاً وجِـلَالا

وألوان الخيل خافية (غير واضحة) فقد نسج النقع (الغبار) عليها البراقع (الأقنعة) والجلال (الأغطية)

لا أَلُـومُ ابْـنَ لَاوُنٍ، مَـلِـكَ الـرُّو مِ، وإنْ كـانَ مـا تَـمَـنَّـى مُـحَـالا

لا ألوم ملك الروم ابن لاون على أمنيته بأن يهدم القلعة، وإن كانت أمنية مستحيلة

أَقْـلَـقَـتْـهُ بَـنِـيَّـةٌ بَـيْـنَ أُذْنَـيْـ ـهِ، وبَـانٍ بَـغَـى الـسَّـمـاءَ فَـنَـالا

أزعجته بنية (بناء)، والبناء كأنه مبني على رأسه بين أذنيه، وأزعجه بانٍ أراد أن ينال السماء ففعل

كـلَّـمـا رامَ حَـطَّـهـا اتَّـسَـعَ الـبَـنْـ ـيُ، فَـغَـطَّـى جَـبِـيـنَـهُ والـقَـذَالا

كلما رام (أراد) ملك الروم حطها (هدمها) اتسع البناء فغطى جبينه وقذاله (قفاه)

أَخَـذُوا الـطُّـرْقَ يَـقْـطَـعونَ بِـهـا الـرُّسْـ ـلَ، فـكـانَ انـقِـطَـاعُـهـا إرْسَـالا

استولوا على الطرق فانقطع قدوم الرسل إلى سيف الدولة، فعرف من انقطاعهم أن الروم فعلوا ذلك؛ فكأنَّ انقطاع الرسل كان بمثابة الإرسال للأخبار

مـا مَـضَـوْا لـم يُـقَـاتِـلُـوكَ، ولَـكِـنَّ ـ الـقِـتَـالَ الـذي كَـفَـاكَ الـقِـتَـالا

لم يمض الروم وينسحبوا بدون أن يقاتلوك هكذا ببساطة؛ ولكن قتالك السابق لهم علمهم درساً فانسحبوا وكفوك القتال هذه المرة

يَـنْـفُـضُ الـرَّوْعُ أَيْـدِيَـاً لَـيس تَـدْرِي: أَسُـيـوفـاً حَـمَـلْـنَ، أم أغْـلالا

ينفض الروع (الخوف) أيديَهم التي لا تعود تعرف لشدة الذعر أهي تحمل سيوفاً أم أغلالاً (قيوداً) تشل حركتها

وَوُجـوهـاً أَخَـافَـهـا مِـنْـكَ وَجْـهٌ تَـرَكَـتْ حُـسْـنَـهـا لَـهُ والـجَـمَـالا

ووجوههم أخافها وجهك، وزال عنها كل جمال لبشاعة الخوف، والجمال كله حل بوجهك أنت

والعِيَانُ الجَلِيُّ يُحْدِثُ لِلظَّنِّ ـ زَوالاً، ولِلمُرَادِ انتِقالا

والعيان الجلي (الرؤية الواضحة) يزيل الظن، ويسبب انتقال (تحول) المراد (المقصد). يقول: عندما رأوا بأسك عياناً زالت ظنونهم بنصر سهل، وتحول مقصدهم إلى الانسحاب

وإذا ما خَلَا الجبانُ بِأرضٍ طَلَبَ الطَّعنَ وحدَهُ والنِّزالا

والجبان عندما يكون وحده يتخيل المواجهة سهلة، ويطلب الطعن والنزال (المبارزة)

إنَّما أَنْفُسُ الأنيسِ سِبَاعٌ يَتَفارَسْنَ جَهْرَةً واغتِيالا

نفوس الأنيس (البشر) مثل السباع (الوحوش المفترسة)، وهي تتفارس (يفترس بعضها بعضاً) جهرة (علانية) واغتيالا (غدراً)

مَنْ أطاقَ التِمَاسَ شيءٍ غِلاباً واغتِصَاباً، لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

ومن أطاق (استطاع) التماس (طلب) شيء غلاباً (بالقوة) والاغتصاب لم يطلبه بالتراضي

كُلُّ غادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أنْ يكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالا

كل غادٍ (ذاهب) لتحقيق حاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبال (الأسد)

٩٤ الإبصار بالآذان

قال المتنبي يمدح سيف الدولة وأنشده إيَّاها بآمد، وكان منصرفاً من بلاد الروم. وذلك في شهر صفر سنة خمس وأربعين وثلاثمئة: ١٢/٤٩

الرَّأيُ قَبلَ شَجاعةِ الشُّجْعانِ هُوَ أوَّلٌ، وَهِيَ المَحَلُّ الثَّاني

الرأي (الفهم العميق) مهم قبل الشجاعة

فإذا هُما اجتَمَعا لِنَفْسٍ حَرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ العَلْياءِ كُلَّ مَكانِ

ولَرُبَّما طَعَنَ الفتى أقرانَهُ بِالرَّأيِ، قَبْلَ تَطاعُنِ الأقْرانِ

ربما تغلب المرء على أقرانه (أنداده) قبل أن يصل الأمر إلى الاحتكام للقوة

لولا العقولُ لَكانَ أدْنَى ضَيْغَمٍ أدْنَى إلى شرفٍ مِنَ الإنسانِ

لولا العقول التي يتحلى بها البشر لكان أدنى (أقل) ضيغم (أسد) أدنى (أقرب) للشرف من الإنسان، فالإنسان أفضل من الأسد بعقله لا بشيء آخر

قادَ الجِيَادَ إلى الطِّعانِ، ولم يَقُدْ إلَّا إلى العَاداتِ والأوطانِ

قاد سيف الدولة الخيل إلى الطعان (الحرب)، وما قادها إلا إلى ما تعودته، حتى لكأن الحرب وطن لها

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيونَ غُبَارُهُ فَكَأنَّمـا يُبْصِرْنَ بِالآذانِ

الخيل موجودة ضمن جحفل (جيش) غباره ستر عيونها، فكأن الخيل تبصر بآذانها، وتتحرك داخل الجيش بحسب ما تسمع من ضجيجه

حتى عَبَرْنَ بِأَرْسَناسَ سَوَابِحاً يَنْشُرْنَ فِيهِ عَمَائِمَ الفُرْسَانِ

حتى عبرت الخيل نهر أرسناس سباحة، ولسرعتها كانت عمائم فرسانها تنحل عن الرؤوس وتنتشر

والماءُ بَيْنَ عَجَاجَتَيْنِ مُخَلِّصٌ تَتَفَرَّقانِ بِهِ، وتَلْتَقِيانِ

ومجرى النهر مخلص (فاصل) بين عجاجتين (غبارين) تتفرقان عنده، ثم تلتقيان فوقه.
قالوا لأبي الطيب: ما هكذا يثور الغبار في الشتاء (والقصيدة تصف غزوة شتوية)،
فقال: إنما وصفتُ ما عايَنْت

إنَّ السيوفَ مَعَ الذينَ قُلوبُهُمْ كَقُلُوبِهِنَّ إذا الْتَقَى الجَمْعَانِ

السيوف مع (نصيرة لـ) الذين قلوبهم قوية كقلوب السيوف عندما يلتقي الجمعان في الحرب

تَلْقَى الحُسامَ، على جَراءَةِ حَدِّهِ، مِثْلَ الجَبانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبانِ

والسيف في يد الجبان جبان، رغم حده المرهف

يا مَنْ يُقَتِّلُ مَنْ أرادَ بِسَيْفِهِ أصبحتُ مِنْ قَتْلاكَ بِالإحْسانِ

يا سيف الدولة، يا من يقتل من شاء بسيفه، أنا قتلتني بإحسانك

فإذا رأيْتُكَ حارَ دونَكَ نَاظِري وإذا مَدَحْتُكَ حارَ فيكَ لِسَاني

أراك فيتحير نظري أين يذهب أمامك لهيبتك، وإذا مدحتك تحير لساني ماذا يقول

٩٥ عقبى اليمين

قال المتنبي، وقد قيل بحضرة سيف الدولة إن البطريق أقسم عند مليكه أن يعارض سيف الدولة في الدرب، وسأله أن ينجده ببطارقته وعُدَدِهِ ففعل. ثم خاب ظنه. أنشده إياها سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وهي آخر ما أنشده بحلب: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٩/ ٥٥

عُقْبَى اليَمِينِ، على عُقْبَى الوَغَى، نَدَمُ مَاذا يَزِيدُكَ في إقدامِكَ القَسَمُ

عقبى (نتيجة) حلف اليمين بالنظر إلى عقبى (نتيجة) الوغى (المعركة) هي الندم، وهل زادك القَسَم شجاعةً؟ يقول: أقسمت يا قائد الروم أنْ ستنتصر، فانهزمت فكانت النتيجة السيئة مضاعفة: هزيمة ونكثاً باليمين

وفَاعِلٌ ما اشتَهَى يُغْنيهِ عَنْ حَلِفٍ على الفِعَالِ حُضُورُ الفِعْلِ والكَرَمُ

والذي يكون فاعلاً كل ما اشتهى ـ وهو سيف الدولة ـ يغنيه فعله وكرمه الحاضران، لا الموعودان، عن الحلف بأن يفعل كذا وكذا، فالفعل حاضر

كُلُّ السيوفِ إذا طَالَ الضِّرَابُ بِها يَمَسُّها، غَيْرَ سَيفِ الدولةِ، السَّأَمُ

كل السيوف التي يطول الضرب بها يمسها السأم (والسأم للسيف التثلم) ولكن سيف الدولة لا يصيبه سأم من الحرب

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيسٍ أنتَ غُرَّتُهُ وسَمْهَرِيَّتُهُ في وَجْهِهِ غَمَمُ

صدمت الروم بخميس (جيش) أنت غرته (طليعته)، وسمهرية الجيش (رماحه) في مقدمته مثل الغمم (شعر رأس الفرس). شبه الجيش بفرس: فسيف الدولة غرته (البياض في جبينه)، والرماح المشرعة كالشعر على رقبته وأعلى رأسه

فكانَ أثْبَتُ ما فِيهِمْ جُسومَهُمُ، يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ، والأرواحُ تَنْهَزِمُ

كان أثبت شيء فيهم أجسامهم ومع ذلك كانت تسقط حولك أرضاً، أما أرواحهم فتنهزم قبل موتهم بالرعب

أَلْقَتْ إليكَ دِمَاءُ الرومِ طاعَتَها فَلَوْ دعَوْتَ بِلا ضَرْبٍ أجابَ دَمُ

دماء الروم صارت لكثرة ما تسفكها مطيعة لك، فلو أنك قلت لها انسفكي لانسفكت بدون ضرب بالسيوف

يُسَابِقُ القَتْلُ فيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ فَما يُصِيبُهُمُ موتٌ ولا هَرَمُ

يسبق القتل كل الحوادث إليهم، فلا يأتي عليهم موت طبيعي ولا هرم (شيخوخة)

لا تَطْلُبَنَّ كريماً بَعْدَ رُؤْيَتِهِ إنَّ الكِرَامَ بِأَسخاهُمْ يَداً خُتِمُوا

بعد أن ترى سيف الدولة لا تطلب أن ترى كريماً غيره، فهو خاتم الكرام وأسخاهم

ولا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شاعِرِهِ قدْ أُفْسِدَ القولُ حتى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

ولا تبال بأي شعر بعد شاعره ـ المتنبي ـ فقد فسد القول (الشعر) حتى صار المرء يحمد (يشكر) الصمم. وعن هذه القصيدة قال ابن جني: قلت لأبي الطيب وقت قراءة هذه القصيدة عليه إنه ليس في جميع شعرك أعلى من هذه القصيدة، فاعترف بذلك وقال: كانت وداعاً

وحي الأربعين

المختار من شعر المتنبي منذ اتصاله بكافور في مصر حتى وفاته (٣٤٦ ـ ٣٥٤هـ)

٩٦ قواصد كافور توارك غيره

تَشاجر المتنبي في مجلس سيف الدولة الحمْداني في حلب مع ابن خالويه النحوي. فشج ابن خالويه رأسه بمفتاح كان في يده، فلم ينصره سيف الدولة، فرحل المتنبي إلى دمشق ثم الرملة بفلسطين، ثم إليَّ مصر بدعوة من حاكمها كافور الذي كان عبداً لحكام مصر من بني الإخشيد ثم صار حاكماً لا ينازَع. فلما ورد المتنبي كافوراً أخلى له داراً وخلع عليه، وحمل إليه آلافاً من الدراهم فقال يمدحه، وذلك سنة ست وأربعين وثلاثمئة: ٢٥/ ٤٧

كَفَى بِكَ داءً أنْ تَرَى الموتَ شَافِيا وحَسْبُ المَنايَا أنْ يَكُنَّ أمَانِيا

يخاطب المتنبي نفسه: كفاك من الداء أنك وصلت درجة أن ترى الموت نفسه شفاء مما أنت فيه، ويكفي أن تتحول المنايا (الموت) إلى أمنية

تَمَنَّيْتَها لمَّا تَمَنَّيْتَ أنْ تَرَى صَدِيقاً فَأعْيا، أو عَدُوّاً مُداجِيا

تمنيتَ المنية يا هذا ـ يخاطب نفسه ـ عندما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا ذلك (استحال)؛ وبلغ بك أن تتمنى أن ترى عدواً مداجياً (مخفياً عداوته) فحتى هذا استحال، فأعداؤك يواجهونك بالعداء السافر

إذا كنتَ تَرضَى أنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلَا تَسْتَعِدَّنَّ الحُسامَ اليَمَانِيا

إذا رضيت العيش بذلة فلا تستعدن (تتخذنَّ عُدَّةً) الحسام اليماني

ولا تَسْتَطِيلَنَّ الرِّماحَ لِغَارَةٍ ولا تَسْتَجِيدَنَّ العِتَاقَ المَذَاكِيا

ولا تستطيلن الرماح (لا تختر الرماح الطويلة) لشن الغارة، ولا تختر الجيد من العتاق (الخيل الأصيلة) المذاكي (التامة الأسنان)

فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحياءُ مِنَ الطَّوَى ولا تُتَّقَى حَتى تَكُونَ ضَوارِيا

فالأسود لا يحميها الخجل من الطوى (الجوع)، ولا تُتَّقى الأسود (تُهاب) حتى تكون ضواريَ (مفترسة)

حَبَبْتُكَ قَلْبِي، قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وقد كانَ غَدَّاراً، فَكُنْ أنتَ وافِيا

حببتك (أحببتك) يا قلبي قبل أن تحب أنت من نأى (ابتعد/يعني سيف الدولة)، وقد كان غداراً بي، فكن أنت وافياً لي. تسويد أ. عبد الرحيم، وتعليقه «ما أرقَّ هذا وأعذبه!»

وأَعْلَمُ أنَّ البَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فُؤادي إنْ رأيتُكَ شَاكِيا

وأعلم يا قلبي أن البين (الفراق) يشكيك (يؤلمك ويجعلك تشكو) بعد فراقه، ولن أعتبرك قلبي إن رأيتك شاكياً

فَـإنَّ دُمُـوعَ الـعـيـنِ غُـدْرٌ بِـرَبِّـهـا   إذا كُـنَّ إثْـرَ الـغَـادِرِيـنَ جَـوَارِيـا

فدموع العين غدر (غدارة) بربها (بصاحبها) إذا كانت إثر (على) الغادرين جواريَ (جارية)

إذا الجُودُ لمْ يُرْزَقْ خَلاصاً مِنَ الأذى   فَلا الحمْدُ مَكْسُوباً، ولا المالُ بَاقِيا

إذا الجود لم يكن خالصاً من الأذى والمنّ فلا يأتي لمن يجود بحمد، ولا المال الذي جاد به سيبقى لمن أخذه

ولِلنَّفْسِ أخلاقٌ تَدُلُّ على الفَتى   أكـانَ سَـخَـاءً مـا أتَـى أم تَـسَـاخِـيـا

وأخلاق الإنسان تدل إن كان سخاؤه حقيقياً أم كان تساخياً (ادعاء للسخاء)

أَقِلَّ اشْتِـيـاقَاً أيُّهـا الـقـلـبُ، ربَّـمـا   رَأيتُكَ تُصْفي الوُدَّ مَنْ ليسَ صافِيا

قلل من اشتياقك يا قلبي، فربما (كثيراً مَّا) ما رأيتك تخلص في ودك لمن لم يكن مخلصاً

خُلِقْتُ أَلُوفَاً، لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا   لَفارَقْتُ شَيْبي مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيا

خلقت ألوفاً (شديد الألفة) إلى درجة أنني لو رجعت إلى صباي وفارقت شيبي لتوجع قلبي على فراق الشيب

ولَـكِـنَّ بِـالـفُـسْـطـاطِ بَـحْـراً أَزَرْتُـهُ   حياتي ونُصْحِي والهوى والقَوَافِيا

ورغم ألفتي فإن هناك في الفسطاط (القاهرة القديمة) بحراً أزرته حياتي ونصحي وحبي وشعري (جعلتها كلها تزوره)

وجُـرْداً مَـدَدْنـا بَـيْـنَ آذانِـهـا الـقَـنـا   فَـبِـتْـنَ خِـفَـافـاً يَـتَّـبِـعْـنَ الـعَـوَالِـيـا

ورب جرد (خيول قصيرة الشعر) مددنا بين آذانها القنا (الرماح) فباتت الخيول خفيفة الحركة تتابع حركة العوالي (الرماح) وتمشي بحسبها متجهة إلى الممدوح

تَمَاشَى بِأَيْدٍ، كُلَّما وَافَتِ الصَّفَا   نَـقَـشْـنَ بِـهِ صَـدْرَ الـبُـزَاةِ حَـوَافِـيـا

تتماشى الخيول بأيديها التي كلما وافت (وصلت) الصفا (الصخر) نقشت عليه وهي حوافٍ (بلا حذوات) نقوشاً كصدر البزاة (الصقور). يقول: الخيل لتصميمها على الوصول تحفى وتذوب نعالها الحديدية، ومع ذلك فهي تنقش على الصخر بحوافرها نقوشاً مرقطة تشبه صدور الصقور

وتَنْظُرُ مِنْ سُودٍ صَوادَقَ في الدُّجَى   يَرَيْنَ بَعِيداتِ الشُّخُوصِ كَمَا هِيا

وتنظر بعيون سود تصدُقُها الرؤية في الدجى (الليل)، وترى بها الشخوص البعيدة بدقة

وتَنْصِبُ لِلْجَرْسِ الخَفِيِّ سَوَامِعاً   يَـخَـلْـنَ مُـنَـاجَـاةَ الـضَّـمـيـرِ تَـنَـادِيـا

وتنصب للجرس (الصوت) الخفي سوامع (آذاناً) يخلن (يحسبن) مناجاة المرء لضميره مناداة بصوت عالٍ

تُـجَـاذِبُ فُـرْسَـانَ الـصَّـبـاحِ أَعِـنَّـةً   كـأَنَّ عـلـى الأعْـنـاقِ مِـنْـهـا أَفَـاعِـيـا

وخيولنا تجاذب (تجذب) فرسان الصباح (المتأهبين للإغارة صباحاً) أعنتها (مقاودها) التي تتلوى على أعناقها كالأفاعي

بِعَزْمٍ يَسِيرُ الجِسْمُ في السَّرْجِ رَاكِبَاً   بِهِ، ويَسِيرُ القلبُ في الجِسْمِ مَاشِيا

لقد سرنا بعزم قوي يجعل الجسم يسير بهذا العزم فوق سرج الحصان، والقلب يتمشى داخل الجسم ماشياً

قَـوَاصِـدَ كـافـورٍ، تَـوَارِكَ غَـيْـرِهِ   ومَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّواقِيا

وهذه الخيل قواصد (قاصدة) كافورٍ وتوارك (تاركة) غيره، والذي يقصد البحر يجد السواقي (القنوات) قليلة النفع

فَـجـاءَتْ بِـنـا إنْـسَـانَ عَـيْـنِ زَمـانِـهِ   وخَـلَّـتْ بَـيَـاضَـاً خَـلْـفَـهـا ومَـآقِـيـا

فجاءت الخيل بنا رجلاً هو إنسان (بؤبؤ) عين زمانه، وتركت بياض العين والمآقي (مجاري الدمع) خلفها. فكافور هو الأهم مثلما بؤبؤ العين أهم جزء فيها

نَجُوزُ عليْها المُحْسِنينَ إلى الذي   نَـرَى عِـنْـدَهُـمْ إحـسـانَـهُ والأيَـادِيـا

نجوز (نجتاز) على الخيل المحسنين العادين ونمر بهم (يقصد سيف الدولة) قاصدين الشخص الذي نرى أن ما عند سيف الدولة من خير هو من إحسانه وأياديه (أفضاله). يقول: نذهب إلى من هو منبع الخير الذي يستقي منه سيف الدولة. كانت العلاقة بين دولة الحمدانيين والأخشيديين علاقة شد وجذب، وكانت فلسطين والشام تروحان وتجيئان بين مصر وحلب، واستمر هذا الوضع طويلاً بعد زوال الدولة الإخشيدية وقدوم الفاطميين، وبعد زوال الحمدانيين وقدوم المرداسيين

فتىً ما سَرَيْنَا في ظُهورِ جُدُودِنَا   إلـى عَـصْـرِهِ، إلَّا نُـرَجِّـي الـتَّـلاقِـيـا

هذا الفتى ما سرينا (سرنا) في ظهور جدودنا إلى عصره (ما سارت نطفنا في أصلاب الأجداد، ولا خلَقَنا الله وأوصلنا إلى زمنه) إلا نرجِّي التلاقي (إلا أملاً في لقائه)

تَـرَفَّـعَ عَـنْ عُـونِ الـمَـكَـارِمِ قَـدْرُهُ   فَـمَـا يَـفْـعَـلُ الـفَـعْـلاتِ إلا عَـذَارِيـا

ترفع قدر كافور عن عون المكارم (المكارم التي سُبِق إليها) فهو لا يفعل الفعلات (المكارم) إلا عذاريا (مبتكرة لم يفعلها أحد قبل)

أبا المِسْكِ! ذا الوجْهُ الذي كنتُ تَائِقَاً   إليه، وذا الـيومُ الـذي كـنـتُ رَاجِـيا

يا أبا المسك (كنية كافور)! هذا هو الوجه الذي كنت أتوق إليه، وهذا هو اليوم الذي كنت أرجوه

٩٧ قلب ملك ولسان شاعر

بنى كافور داراً بإزاء الجامع الأعلى، وطالب أبا الطيب المتنبي بذكرها فقال يهنته بها: ١٥/ ٢٤

إنَّــمـا الـتَّـهْـنِـئـاتُ لـلأكْـفَـاءِ   ولِـمَـنْ يَـدَّنـي مِـنَ الـبُـعَـدَاءِ

تكون التهنئات للأكفاء (النظراء)، ولمن يدَّني (يكون مقرباً) من البعداء (غير النظراء، والبعيدين في القيمة)

وأنـا مِـنْـكَ، لا يُـهَـنِّـئُ عُـضْـوٌ   بِـالـمَـسَـرَّاتِ سـائـرَ الأعْـضَـاءِ

ولكنني أنا منك (جزء منك)، والعضو في الجسم لا يهنئ بقية الأعضاء بالمسرات (بالأفراح)، فكيف أهنئك

مُـسْـتَـقِـلٌّ لَـكَ الـدِّيـارَ، ولـو كَـا   نَ نُـجُـومَـاً آجُـرُّ هـذا الـبِـنَـاءِ

مستقل لك الديار (أجدها قليلةً عليك)، حتى لو كان آجر (طابوق/ طوب) هذا البناء من النجوم

أَنْـتَ أعـلـى مَـحَـلَّـةً أنْ تُـهَـنَّـا   بِمَكانٍ في الأرضِ أو في السَّماءِ

أنت أعلى محلة (مقاماً) من أن تهنأ بمكان (قصر) في الأرض أو في السماء (في الجنة التي فيها قصور للمتقين)

ولـكَ الـنـاسُ، والـبـلادُ، ومـا يَـسْـ   ـرَحُ بـيـنَ الـغَـبْـراءِ والـخَـضْـراءِ

والناس لك والبلاد لك، ولك كل ما يسرح من طير وحيوان بين الخضراء (السماء) والغبراء (الأرض)

وبَـسـاتِـيـنُـكَ الـجِـيـادُ، ومـا تَـحْـ   ـمِـلُ مِـنْ سَـمْـهَـرِيَّـةٍ سَـمْـراءِ

وصهوات الجياد (الخيول) هي بساتينك الحقيقية، وما في هذه البساتين من شجر وثمر هو في الحقيقة سمهرية (رماح) سمراء

إنَّـمـا يَـفْـخَـرُ الـكـريـمُ أبـو الـمِـسْـ   ـكِ بِـمـا يَـبْـتَـنـي مِـنَ الـعَـلْـيـاءِ

وفخر كافور هو بما يبني من العلياء (المجد) لا بالقصور

وبِـأَيَّـامِـهِ الـتـي انْـسَـلَـخَـتْ عَـنْـ   ـهُ، وَمَـا دارُهُ سِـوَى الـهَـيْـجَـاءِ

وفخره بأيامه التي انسلخت (مضت) ولم تكن داره فيها سوى الهيجاء (الحرب)

وبِـمَـا أثَّـرَتْ صَـوارِمُـهُ الـبِـيـ   ـضُ لَـهُ فـي جَـمـاجِـمِ الأعْـدَاءِ

وفخره بالأثر الذي تركته صوارمه (سيوفه) البيض اللامعة في جماجم الأعداء

وبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ، لَيْسَ بِالمِسْـ   ـكِ، ولَـكِـنَّـهُ أرِيـجُ الـثَّـنَـاءِ

وفخره بمسك يكنى به، وهو ليس مسكاً حقيقياً بل هو أريج (عطر) الثناء (الحمد الذي يتلقاه من الجميع)

تَفْضَحُ الشَّمسَ، كلَّما ذَرَّتِ الشَّمْـ ـسُ، بِـشَـمْـسٍ مُـنِـيـرَةٍ سَـوْدَاءِ
يا كافور أنت تفضح الشمس كلما ذرت (طلعت) بشمس أخرى منيرة سوداء هي وجهك

يَـا رَجَـاءَ الـعُـيُـونِ فـي كُـلِّ أرْضٍ لَـم يَـكُـنْ غَـيْـرَ أنْ أَرَاكَ رَجَـائـي
ولـقـد أَفْـنَـتِ الـمَـفَـاوِزُ خَـيْـلـي قَـبْـلَ أنْ نَـلْـتَـقـي، وزَادِي ومَـائـي
أفنت (أهلكت) المفاوز (الصحارى) خيلي وأنا قادم إليك، ونفد زادي ومائي

فَـارْمِ بـي مَـا أَرَدْتَ مِـنِّـي، فَـإِنِّـي أَسَـدُ الـقَـلْـبِ، آدَمِـيُّ الـرُّوَاءِ
اجعلني كالسهم طوع يمينك، وارم بي أي شيء تريده من المهامّ، فإنني أسد القلب، وإن كنتُ بَشَريَّ الرواء (المنظر)

وفُـؤادي مِـنَ الـمُـلُـوكِ، وإنْ كـا نَ لِـسَـانـي يُـرَى مِـنَ الـشُّـعَـراءِ
وفؤادي فؤاد ملك (نفسيتي نفسية حاكم)، وإن كان لساني لسان شاعر

٩٨ حنين للأعرابيات

قال المتنبي يمدح كافوراً، وأنشده إياها في رمضان سنة ست وأربعين وثلاثمئة: ١٧/ ٤٦

مَـنِ الـجَـآذِرُ فـي زِيِّ الأعَـارِيـبِ حُمْرَ الحُلَى والمَطَايا والجَلابِيبِ؟
مَن هؤلاء الجآذر (صغار بقر الوحش) اللائي في زي الأعرابيات؟ إنهن يلبسن الحُلَى الحمر (الحُلِيّ التي من الذهب الأحمر) ويركبن المطايا الحمر (النياق الحمر/أغلى النياق) ويرتدين الجلابيب الحمر (الأحمر لون ملابس الأشراف)

إنْ كُنْتَ تَسْأَلُ شَكّاً في مَعَارِفِها فَـمَـنْ بَلاكَ بِتَـسْـهِـيـدٍ وتَـعْـذِيـبِ؟
يخاطب نفسه: إن كنت يا هذا تسأل لأنك شاكٌّ في معارفها (معرفة نفسك بهن) فالأجدر أن تسأل: من ذا الذي ابتلاك بتسهيد (سهر) وتعذيب؟ أليس هؤلاء الأعرابيات؟

كَـمْ زَوْرَةٍ لَـكَ فـي الأعْـرابِ خافِيَةٍ أَدْهَى، وقد رَقَدُوا، مِنْ زَوْرَةِ الذِّيبِ
ما أكثر ما كانت لك زورات (زيارات) للأعراب خافية (سرية)، وكانت ـ بعد رقاد القوم ـ أدهى (أخبث) من تسلل الذئب

أَزُورُهُـمْ، وسَـوادُ الـلَّـيْـلِ يَشْـفَـعُ لـي وأَنْثَني، وبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي
سواد الليل يشفع لي (يحميني) في الزيارة، وأنثني (أعود) وبياض الصبح يغريهم بملاحقتي، لأن الصبح يكشفني

مَا أَوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَناتُ بِهِ كَـأَوْجُـهِ الـبَـدَوِيَّـاتِ الرَّعَـابِـيـبِ
ليست وجوه الحضريات (بنات المدن) المستحسنة به (بالحضر) مثل أوجه البدويات الرعابيب (الممتلئات)

حُسْنُ الحَضَارَةِ مَجلوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجلوبِ

حسن (جمال) الحضارة (التمدن) مجلوب جلباً بتطرية (بتدليك وتجميل)، وفي البداوة يوجد جمال غير مجلوب بل طبيعي

أَيْنَ المَعِيزُ مِنَ الآرامِ، نَاظِرَةً وغَيْرَ نَاظِرَةٍ، في الحُسْنِ والطِّيبِ

الفرق شاسع بين المعيز (حيوان القرى ومدن ذلك الزمن) وبين الآرام (الغزلان البيض) من حيوان الصحراء سواء أكانت مقبلة تنظر إليك أم مدبرة عنك، ثمة فرق في الحسن وفي الطيب (الرائحة)

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلامِ، ولا صَبْغَ الحَوَاجِيبِ

أفدي بنفسي ظباء فلاة (غزلان صحراء) ما عرفن فيها مضع الكلام ولا صبغ الحواجب (تشقير الحواجب كان معروفاً آنذاك إذن؟ لكن لعله كان تسويداً)

لَيْتَ الحوادثَ بَاعَتْني الذي أَخَذَتْ مِنِّي، بِحِلْمِي الذي أَعْطَتْ وتَجْرِيبِي

ليت حوادث الزمن أعطتني شبابي الذي أخذته مني، ولتأخذ ما أكسبتني من حلم (تسامح) وتجريب

فَما الحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ، قد يُوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبَّانِ والشِّيبِ

فالحداثة (صغر السن) لا تمنع كون المرء حليماً، فالحلم موجود في الشبان والشائبين؛ ولذلك فلست أقر بأن الحلم كان نتيجة لمرور الزمن

تَرَعْرَعَ المَلِكُ الأُسْتاذُ، مُكْتَهِلاً قَبلَ اكْتِهَالٍ، أَدِيباً قَبْلَ تأدِيبِ

ترعرع الملك الأستاذ (كافور، وكان يلقب الأستاذ، والأستاذ كلمة عاميتها الأسطى) مكتهلاً (واصلاً نضج الكهولة) وذلك قبل وصوله فعلاً سن الكهولة، وترعرع أديباً قبل التأديب (التعليم)

يُدَبِّرُ المُلْكَ مِنْ مِصْرٍ إلى عَدَنٍ إلى العِراقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ

النوب: أرض النوبة بين مصر والسودان

إذا أَتَتْها الرِّياحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهُبُّ بِها إلَّا بِتَرتيبِ

حتى الريح تتبع أمرة وتدبيره، فإذا جاءت الرياح النُّكب (غير المنتظمة) إلى بلاده من بلد آخر فلا تهب إلا بترتيب

يُصَرِّفُ الأمْرَ فيها طِينُ خَاتِمِهِ ولو تَطَلَّسَ مِنْهُ كُلُّ مَكْتُوبِ

يصرف الأمر في بلاده ختمه (وكانوا يختمون بخاتم من معدن على شيء طري كالطين) حتى وإن تطلس (امَّحى) الكلام المكتوب في الختم، فمجرد رؤية ختمه تجعل الأمر يتحقق

كَأَنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مَسَامِعِهِ قَميصُ يُوسُفَ في أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

وهو يجيب كل سائل أي متسول؛ وكل سؤال للسائلين في مسامعه (أذنيه) لذيذ عنده مثل قميص يوسف في عيني يعقوب (وقميص يوسف عندما ألقي على وجه أبيه يعقوب أعاد إليه بصره)

إذا غَـزَتْـهُ أَعَـادِيـهِ بِـمَـسْـأَلَـةٍ فَقَدْ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلوبِ

أعداؤه لو غزوه بمسألة (باستعطاء) بدل الحرب فهم منتصرون، لأنه يلبي حاجتهم

قَالوا: هَجَرْتَ إِلَيْهِ الغَيْث، قلتُ لَهُمْ: إِلـى غُـيـوثِ يَـدَيْـهِ والـشَّـآبِـيـبِ

يقولون لي: هجرت الغيث (المطر/سيف الدولة) وجئت إليه، فقلت لهم: جئت إلى الغيوث التي تنهمر من يديه والشآبيب (الزخات)

٩٩ المال والمجد

قال المتنبي يمدح كافوراً في ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمئة: ٨/٤٨

أَوَدُّ مِـــنَ الأيَّـــامِ مَـــا لا تَـــوَدُّهُ وأَشْكُو إلَيْها بَيْنَنَا، وَهْيَ جُنْدُهُ

أود من الأيام أن تفعل شيئاً، ولكن هي لا تود ذلك، وأشكو إليها بيننا (فراقنا) مع أنها جند الفراق (الزمن جندي في خدمة الفراق)

أَبَى خُلُقُ الدُّنيا حَبِيبَاً تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبي مِنْها حَبِيبَاً تَرُدُّهُ

أبى خلق (طبع) الدنيا أن تديم حبيباً (تجعله يدوم) وتتركه على حاله، فكيف أطلب منها (من الدنيا) أن تردَّه بعد فراق

وأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شيءٍ، في طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

وأسرع شيء فعلته إلى التغير هو تكلف تصرف ضد طبعك؛ فأنت تتكلف الشيء ولكنك بسرعة تعود إلى طبعك

رَعَى اللَّهُ عِيساً فَارَقَتْنا وفَوْقَها مَهَاً، كُلُّها يُولَى بِجَفْنَيْهِ خَدُّهُ

حمى الله عيساً (جِمالاً) فارقتنا وفوقها مها (بقر الوحش) وجميعها يولى (يمطَر) بجفنيه خده؛ يقول: المحبوبات كن يبكين وتمطر جفونهن الدمع على خدودهن

بِوَادٍ بِهِ مَا بِالقُلوبِ، كَأَنَّهُ، وقَدْ رَحَلُوا، جِيدٌ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ

فارقننا في واد به قحط كما في قلوبنا، وكأنَّ الوادي عند رحيل القوم جيد (عنق) تناثر العقد الذي يزينه. يقول: فارق الأعراب المكان بسبب القحط، كعادتهم، فالوادي ماحِلٌ كقلبي، وشكل جمالهم وهي تسير متفرقة في الوادي مثل العقد الذي انتثر على العنق

فَلَا مَجْدَ في الدُّنْيا لِمَنْ قَلَّ مالُهُ ولا مَالَ في الدُّنيا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

لا مجد لمن لا مال له، والعكس بالعكس

وفي النَّاس مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ومَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ، والثَّوْبُ جِلْدُهُ

هناك من يرضى باليسير، ويركب رجليه لأنه لا يملك مركوباً؛ وثوبه هو جلده، إذ لا ثوب لديه

وَلـكِـنَّ قَـلْـبـاً بَـيْـنَ جَـنْـبَـيَّ مَـا لَـهُ   مَـدىً يَـنْـتَـهِـي بِـي فـي مُـرَادٍ أَحُـدُّهُ

ولكن قلبي طماع ولا حد لمراده (مطلبه)

١٠٠ إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

قاد كافور إلى المتنبي فرساً فقال يمدحه: ٤١/١٤

فِـرَاقٌ، ومَـنْ فَـارَقْـتُ غَـيْـرُ مُـذَمَّـمِ   وأَمٌّ، ومَـنْ يَـمَّـمْـتُ خَـيْـرُ مُـيَـمَّـمِ

كان فراقاً لسيف الدولة، ولست أذم الرجل؛ وكان أمٌّ (ذهاب) لكافور، وهو خير ميمم (مقصود)

وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلٍ   إذا لـم أُبَـجَّـلْ عِـنْـدَهُ، وأُكَـرَّمِ

وليس المنزل الذي تتاح فيه لي كل اللذات منزلاً مناسباً إذا لم أحصل على التكريم والتبجيل

رَحَلْتُ، فَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ   عَلَيَّ، وَكَمْ بَاكٍ بِأَجفَانِ ضَيْغَمِ

برحيلي ما كان أكثر الباكين علي بأجفان شادن (ولد الغزال)، وما أكثر الباكين بأجفان ضيغم (أسد). يقول: بكت علي إذ رحلت نساء ورجال كثر

فَلَوْ كانَ مَا بي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ   عَذَرْتُ، ولَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ

لو كان ما بي من الشعور بالظلم سببه حبيب مقنع (امرأة) لعذرت، ولكنه من حبيب معمم (من رجل يلبس عمامة). فهو رحل غاضباً من سيف الدولة

رمَى واتَّقَى رَمْيِي، وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى   هَوَىً كَاسِرٌ كَفِّي وقَوْسِي وأَسْهُمِي

لقد رماني بسهم ظلمه، واتقى رميي (كان محمياً مني)، فمن دون ما اتقى (حالَ دون ما احتمى منه) هوىً كسر كفي وقوسي وأسهي. يقول: هو أساء إلي موقناً أنني لا أستطيع أن أسيء إليه، لأن حبي له يمنعني ويكسر كفي

إذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنونُهُ   وصَـدَّقَ مَـا يَـعْـتَـادُهُ مِـنْ تَـوَهُّـمِ

المرء عندما يسيء للناس تسوء ظنونه بهم، لأنه يحس أنهم حقدوا عليه؛ وهو إذ يسيء لهم يصدق ما يعتاده (يراوده) من أوهام بأنهم سيسيئون إليه

وعَـادَى مُـحِـبِّـيـهِ بِـقَـوْلِ عُـدَاتِـهِ   وأَصْبَحَ في لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

والمسيء للناس يعادي المحبين له بسبب أقوال يسمعها من أعدائه، فهو يصدق عدوه ولا يميز صديقاً من عدو، ويصبح حكمه مضطرباً على الأشياء فكأنه في ليل مظلم من شكوكه. تحليل نفسي دقيق وعميق في إيجاز مذهل. في الإيجاز عبقرية المتنبي. أما التحليل النفسي ففيه كلامان: العبقرية فيه أن هذا الشاعر جاء في زمن بدأ فيه انحدار الشعر وتقولبه في قوالب جامدة، فقال شعراً ذاتياً عبر به عن خلجات فؤاده بقوة وصدق وحرارة. والكلام الثاني: أن كل موظف خائب، وكل تلميذ خائب يقول هذا الكلام، ويحلل هذا التحليل. ولست أشك لحظة في أن سيف الدولة تحمل المتنبي بكل غروره وطمعه وحمقه أكثر مما ينبغي

أُصَادِقُ نَفْسَ المَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وأَعْـرِفُـهَـا فـي فِـعْـلِـهِ والـتَّـكَـلُّـمِ
وأَحْـلُـمُ عَـنْ خِـلِّـي، وأَعْـلَـمُ أنَّـهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلْمَاً عَلى الجَهْلِ يَنْدَمِ
أكون حليما (متسامحاً) عن خلي (صديقي)، عالماً أنني إذا جزيته على الجهل (التعدي) بالحلم سيندم

وإنْ بَذَلَ الإنْـسـانُ لي جُودَ عَابِسٍ جَـزَيْـتُ بِجُـودِ الـتَّـارِكِ الـمُـتَـبَـسِّـمِ
وإذا أعطاني أحدهم عطية وهو عابس، جازيته بتركها وأنا مبتسم

ومَـا كُـلُّ هَـاوٍ لِـلْـجَـمِـيـلِ بِـفَـاعِـلٍ ولا كُـلُّ فَـعَّـالٍ لَـهُ بِـمُـتَـمِّـمِ
وليس كل هاو (محب) للجميل فاعلاً له، ولا كل من يفعل الجميل يكمله

قد اخْتَرْتُكَ الأَمْلَاكَ، فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا حَدِيثاً، وقد حَكَّمْتُ رَأْيَكَ فَاحْكُمِ
يخاطب كافوراً: اخترتك الأملاكَ (من بين الملوك)، ومؤكد أنهم سيعلمون بما جرى لي معك، وسيتحدثون به، فاختر لهم حديثاً. يقول: أعطني عطاء جزيلاً يكون حديث الجميع، وقد تركت لك الحكم في ذلك فافعل ما يليق بك

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيا إذا لم تُرِدْ بِهَا سُـرُورَ مُـحِـبٍّ، أو مَـسَـاءَةَ مُـجْـرِمِ
لمن تطلب الدنيا والمال إذا لم يكن قصدك أن تسر المحب وتغيظ المسيء؟ يقول: خير ما يصنعه المرء بماله أن يكافئ المحب ويعاقب المجرم

ولو كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَياتي قَسَمْتُهَا وصَيَّرْتُ ثُلْثَيْهَا انْتِظارَكَ، فاعْلَمِ
ولو كنت أعلم كم ستطول حياتي لخصصت ثلثيها لانتظار وفائك بوعدك، فاعلمْ ذلك. ويزعم المتنبي في شعره أن كافوراً وعده بأن يوليه ولاية يحكمها. وأغلب الظن أن كافوراً وعده نصف وعد

١٠١ إذا صادفَتْ هوى في الفؤاد

جرت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدة ثم اصطلحا، فقال المتنبي: ٩/ ٣٦

حَسَمَ الصُّلْحُ ما اشْتَهَتْهُ الأعَادِي وأَذَاعَـتْـهُ أَلْـسُـنُ الـحُـسَّـادِ
حسم الصلحُ الخلافَ الذي اشتهت الأعادي وقوعه، والذي أذاعت ألسن الحساد أنه وقع فعلاً

وكَـلامُ الـوُشَـاةِ لَـيْـسَ عَـلـى الأَحْـ ـبَـابِ، سُـلْـطَـانُـهُ عَـلـى الأَضْـدادِ
كلام الوشاة لا ينطلي على المتحابين، وسلطانه (تأثيره) على الأضداد (المتنافرين) فقط

إنَّـمَـا تُـنْـجِـحُ الـمَـقَـالَـةُ في الـمَـرْ ءِ إذا وافَـقَـتْ هَـوىً فـي الـفُـؤادِ
المقالة (القول) تُنْجِح (تثمر) في نفس المرء إذا صادفت هوى في فؤاده، بغض النظر عن صدق القول أو كذبه

وَلَعَمْرِي لقد هُزِزْتَ بِمَا قِيـ ـلَ، فَأُلْفِيتَ أَوْثَقَ الأَطْوَادِ

والله لقد حاولوا هزَّك بما نقلوا من أقوال، فأُلفيت (وُجدت) أوثق الأطواد (أرسخ الجبال)

وأشارَتْ بِمَا أَبَيْتَ رِجَالٌ كُنْتَ أَهْدَى مِنْهَا إلى الإرْشادِ

وأشار عليك بعضهم بمشورة ضد نيتك، فكنت أكثر اهتداء منهم إلى الرشد

أنتُما، ما اتَّفَقْتُما، الجِسْمُ والرُّو حُ، فَلا احْتَجْتُما إلى العُوَّادِ

أنت وأبو القاسم، ما اتفقتما (ما دام اتفاقكما)، كالجسم والروح، فلا أحوجكما الله إلى زيارة العواد (زائري المريض)

مَنَعَ الوُدُّ والرِّعَايَةُ والسُّؤْ دَدُ أنْ تَبْلُغَا إلى الأَحْقَادِ

الود بينكما، ورعاية أحدكما لحقوق الآخر، ووجود السؤدد (السيادة)، منعتكم جميعها من الوصول إلى الأحقاد

هذِهِ دَوْلَةُ المَكَارِمِ والرَّأْ فَةِ والمجدِ والنَّدَى والأَيَادِي

الأيادي: النِعَم

كَسَفَتْ سَاعَةً كَمَا تَكْسِفُ الشَّمْـ ـسُ، وعَادَتْ ونُورُها في ازْدِيادِ

هذه الدولة كَسفت (انكسفت) قليلاً ككسوف الشمس، ثم عاد نورها وقد ازداد. أطال طه حسين الوقوف عند هذه القصيدة، وهذا من شغفه بأمر المؤامرات والدسائس، ومن خوضه المعارك والتصاقه بساسة عصره

١٠٢ فإني أغني منذ حين وتشرب

قال المتنبي يمدح كافوراً في شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمئة: ٤٧/٢٥

أُغَالِبُ فيكَ الشَّوْقَ، والشَّوْقُ أَغْلَبُ وأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ، والوَصْلُ أَعْجَبُ

أصارع بسببك الشوق ولكنه يغلبني؛ وأتعجب من هذا الهجر ولكن الوصل كان سيكون أعجب، لندرة وقوعه

أَمَا تَغْلَطُ الأَيَّامُ فيَّ بِأَنْ أَرَى بَغِيضاً تُنَائِي، أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ

ألا تغلط الأيام في شأني فتُنائي بغيضاً (تُبعد شخصاً كريهاً) وتقرب حبيباً

ويَوْمٍ كَلَيْلِ العَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ

ربَّ يوم مثل ليل العاشقين في الطول كمنت فيه وأنا أراقب الشمس أيان (متى) تغرب. قال المتنبي لصاحبه وشارحه ابن جني إن كافوراً عندما سمع هذا البيت علق بقوله: غيرك يستطيل الليل! وقال المتنبي: قبحاً له، كيف عرف معناه؟

وعَـيْـنـي إِلـى أُذْنَـيْ أَغَـرَّ، كَـأنَّـهُ   مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وعيني مصوبة إلى أذنيْ حصاني الأغر (ذي الغرة البيضاء في جبينه) الذي كأنه بقي من الليل كوكب مضيء بين عينيه. إنني أنظر إلى أذنيه لأستدل بحركتهما على ما يجري حولي فهو يحركهما لأي استشعار بخطر

لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ في إِهَابِهِ   تَجِيءُ عَلى صَدْرٍ رَحِيبٍ وتَذْهَبُ

في إهابه (جلده) فضلة عن جسمه (يزيد جلده عن حجم جسمه) ولذا فجلده يروح ويجيء بحرية على صدره الرحيب (الواسع)

شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ أُدْني عِنَانَهُ   فَيَطْغَى، وأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ

شققت بحصاني الظلماء وأنا أقرب عنانه (مقوده) فيطغى (يهز رأسه بقوة)، وأرخي المقود فيلعب الحصان بحرية

وأَصْرَعُ أَيَّ الوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ   وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

وأصرع أي وحش قفيته به (ألحقته به) لأن الحصان أسرع من أي وحش؛ وأنزل عن الحصان وهو مرتاح كحالته عندما ركبته

ومَا الخيلُ إلَّا، كَالصديقِ، قَليلةٌ   وإنْ كَثُرَتْ في عينِ مَنْ لا يُجَرِّبُ

الخيل الأصيلة كالصديق (كالأصدقاء) قليلة، وإن ظنها غير المجرب كثيرة

إذا لم تُشَاهِدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا   وأَعضَائِها، فَالحُسْنُ عنكَ مُغَيَّبُ

إذا لم تشاهد يا هذا غير جمال شياتها (ألوانها) وحسن أعضائِها فقد غاب عنك الجمال الحقيقي

لَحَى اللّهُ ذِي الدُّنيا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ   فَكُلُّ بَعِيدِ الهَمِّ فيها مُعَذَّبُ

لحى الله (قبح الله) هذه الدنيا من مناخ (منزل) ينزل فيه الراكب، فكل شخص بعيد الهم (كبير الطموح) معذب فيها

ألا لَيتَ شِعْرِي! هلْ أقولُ قَصِيدةً   فَلا أَشْتَكِي فِيها، ولا أَتَعَتَّبُ؟

هل تُراني أقول قصيدة بدون شكوى وعتاب؟

وبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ   ولَكِنَّ قَلْبِي، يَا ابْنَةَ القَوْمِ، قُلَّبُ

وبي همٌّ أقله يذود (يطرد) الشعر عني، ولكن قلبي، يا بنت الناس، قُلَّب (مجرب) وصبور

وأَخْلاقُ كافورٍ، إذا شئتُ مَدْحَهُ   وإنْ لم أَشَأْ، تُمْلِي عَلَيَّ وأَكْتُبُ

وما يجعلني أقول الشعر أيضاً، سوى صبري وحنكتي، أن أخلاق كافور تملي علي إملاءً، سواء شئت مدحه أم لم أشأ، فهي تفرض علي الشعر لعظمتها

إذا تَـرَكَ الإنـسـانُ أهْـلاً وراءَهُ ... ويَـمَّـمَ كـافـوراً فَـمَـا يَـتَـغَـرَّبُ

يمم: قصد

أبَا المِسْكِ! هَلْ في الكأسِ فَضْلٌ أنَالُهُ ... فَإنّـي أُغَـنّـي مُـنْـذُ حـيـنٍ وتَـشْـرَبُ

يا أبا المسك (كافور) هل في كأسك فضل (بقية) أناله؟ فإنني أغني لك (أقول الشعر) منذ حين وأنت تشرب وحدك

إذا لـم تَـنُـطْ بـي ضَـيْـعَـةً أو وِلايَـةً ... فَجُودُكَ يَكْسُوني وشُغْلُكَ يَسْلُبُ

إذا لم تَنُط بي (تكلفني) ضيعة أو ولاية فجودك (كرمك) يكسوني، بينما شغلك (انشغالك عن شأني) يسلبني

يُضَاحِكُ في ذا العِيدِ كُلٌّ حَبِيبَهُ ... حِذَائي، وأَبْكـي مَنْ أُحِبُّ وأَنْدُبُ

حذائي: بقربي

أَحِنُّ إلى أَهْلـي، وأهوَى لِقَاءَهُـمْ ... وأَيْنَ مِنَ الـمُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

عنقاء مغرب: طير خرافي، وقيل إنه موجود ولكن لا سبيل إلى صيده

فإنْ لم يَكُنْ إلَّا: أَبُو المِسْكِ أَوْ هُمُ ... فَإنَّـكَ أَحْـلَـى فـي فُـؤادي وأَعْـذَبُ

فإن كان علي الاختيار بينك وبين أهلي فإنك أحلى في قلبي وأعذب

وكُلُّ امْرِئٍ يُولي الجَمِيلَ مُحَبَّبٌ ... وكُـلُّ مَـكَـانٍ يُـنْـبِـتُ الـعِـزَّ طَـيِّـبُ

وكل امرئ يولي الجميل (يُحسن) محبب، وكل مكان فيه عز للمرء طيب

وأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدَاً ... لِمَنْ بَـاتَ فـي نَـعْـمَـائِـهِ يَـتَـقَـلَّـبُ

وأكثر الظالمين ظلماً مَنْ حسد شخصاً وهو يتقلب في نعماء ذلك الشخص. يقول: أنا لا أحسدك على مكانتك وملكك، وأكون ظالماً لو فعلت، فأنا أتقلب في نعمتك

وأَنْتَ الذي رَبَّيْتَ ذا المُلْكِ مُرْضَعاً ... ولـيـس لَـهُ أمٌّ سِـوَاكَ، ولا أَبُ

وأنت الذي ربى ذا الملك (صاحب الملك/ابن الإخشيد) وهو مرضَع (رضيع) فكنت له الأم والأب. تعليق أحمد عبد الرحيم: [لم يزد على أن جعله مرضعًا أو جليس أطفال!]

ومَـا طَـرَبـي لَـمَّـا رَأَيْـتُـكَ بِـدْعَـةً ... لقد كنتُ أرجـوُ أنْ أراكَ فَأَطْرَبُ

وليس طربي عندما رأيتك بدعة (أمراً غريباً) فقد كنت أرجو أن أراك فأطرب بلقائك. قال أبو العلاء في شرحه «معجز أحمد»: «هذا، وإن كان ظاهره مدحاً، فإن باطنه إلى الهزء أقرب»

وتَـعْـذِلُـنـي فـيـكَ الـقَـوافـي وهِـمَّـتـي ... كَـأَنّـي بِـمَـدْحٍ قَـبْـلَ مَـدْحِـكَ مُـذْنِـبُ

تلومني القصائد وتلومني همتي (طموحي) لأنني رضيت أن أمدح من هو أقل منك شأناً، فكأنني مذنب بمدحه

وَلَكِنَّهُ طالَ الطَّرِيقُ، ولم أزَلْ أُفَتِّشُ عَنْ هذا الكَلامِ، ويُنْهَبُ

ولكنه طال الطريق إليك، ولم أزل (ظللت) أفتش عن أقوى الكلام فأمدح الملوك به، وينهبه الشعراء مني. المثل القديم يقول: «رمتني بدائها وانسلت»، والمتنبي لا يمل من الزعم بأن الشعراء يسرقون شعره. ولو نظرت في شعره لرأيته من أسرق خلق الله، ولكنه فاتك شرير يسرق معاني المتقدمين ويضعه في كلام أقوى من كلامهم، وهي سرقة حلال في عرف النقاد القدامى. ألق نظرة على رسالة الحاتمي، أو على الوساطة، أو الصبح المنبي، أو ما شئت من كتب الأقدمين النقدية ترهم لم يسلِّموا للمتنبي ببيت. هم يظلمونه في أحيان، لكنهم محقون في الغالب

١٠٣ بما لا تشتهي السفن..

اتصل بأبي الطيب، وهو بمصر، أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال، ولم ينشدها كافوراً: ١٨/ ٢٥

بِمَ التَّعَلُّلُ؟ لا أَهْلٌ ولا وَطَنُ ولا نَدِيمٌ ولا كَأسٌ ولا سَكَنُ

بماذا أتعلل (أصبِّر نفسي)؟ فلا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن (زوجة)

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذا أَنْ يُبَلِّغَنِي ما ليسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

أريد من زمني ذا (هذا) أن يبلغني (يوصلني) للاستقرار، والزمن لا يحقق هذا المطلب حتى لنفسه لأنه متقلب

لا تَلْقَ دهرَكَ إلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ما دامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَكَ البَدَنُ

لا تواجه الزمن إلا وأنت غير مكترث، ما دام جسمك وروحك مصطحبان وأنت على قيد الحياة

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ هَوُوا، ومَا عَرَفُوا الدُّنيا ومَا فَطِنُوا

أهل العشق غرقوا في العشق وآلامه، وهم لا يعرفون الدنيا ولا يفطنون لتفاهتها. لو قرأتها «هَوَوْا» كما فعلنا في التسجيل الصوتي فلها وجه إذ تعني سقطوا، ولكن «هَوُوا» بمعنى عشقوا أصح، فأنا أستدرك على نفسي بعد ثماني سنوات، وأصحح هذا الآن في سنة ٢٠١٦

تَفْنَى عُيُونُهُمُ دَمْعاً، وأَنْفُسُهُمْ في إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

تفنى عُيُوُنُهُمُ (وضعتُ ست ضمات على الكلمة كي أَسْعد برؤيتها ليس أكثر) بينما نفوسهم تلاحق كل محبوب قبيح الفعل حسن الوجه

يا مَنْ نُعِيتُ عَلى بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ كُلٌّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ

يا سيف الدولة، يا من ذُكر خبر موتي في مجلسه وأنا بعيد، كل إنسان مرتهن (رهن) بما ذكروا من خبر موتي: كلنا سنموت

كَمْ قد قُتِلْتُ، وكَمْ قد مُتُّ عِنْدَكُمُ ثُمَّ انْتَفَضْتُ، فَزَالَ القَبْرُ والكَفَنُ

كثيراً ما قتلت، وكثيراً ما مت وأنا عندكم بما كان يشيعه الحاسدون عني، ثم انتفضتُ فزال القبر والكفن المزعومان

قد كانَ شَاهَدَ دَفْني قَبْلَ قَوْلِهِمُ جَمَاعَةٌ، ثُمَّ مَاتُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوا

لقد شاهد دفني جماعة آخرون قبل هذه الشائعة الأخيرة، ثم ماتوا هم قبل الذي زعموا أنهم دفنوه

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المرءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِما لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

رَأَيْتُكُمْ لا يَصُونُ العِرْضَ جَارُكُمُ ولا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ

رأيتك يا سيف الدولة لا يصون العرض جارك (مجاوروك، وأهل مجلسك)، والذي يرعى في مرعاكم لا يدر لبنه. الموجودون عندك الآن لا يصونون عرض الناس، وليس في عطائك بركة، فهو كالمرعى الذي ترعى فيه الإبل ولا يدر حليبها عليه

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

كل من يقترب منكم جزاؤه أن تملوا منه، وكل من يحبكم حظه (نصيبه) منكم الضغن (الحقد)

وتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ والمِنَنُ

تغضبون على من تعطونه رفدكم (عطاءكم) فيكون عقابه أنكم نغصتم عليه ومننتم عليه (أذللتموه بالنعمة)

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُمُ ثم اسْتَمَرَّ مَرِيرِي، وارْعَوَى الوَسَنُ

بعد رحيلي عنك يا سيف الدولة سهرت وأنا أحس بوحشة لفراقك، ثم استمر مريري (قَوِيتُ)، وارعوى (عاد) لي الوسن (النوم)

وإنْ بُلِيتُ بِوُدٍّ مِثْلِ وُدِّكُمُ فَإِنَّنِي بِفِرَاقِ مِثْلِهِ قَمِنُ

طبعي أنني إذا ابتُليتُ بود مثل ودكم فإنني قمن (جدير) بمعالجته بفراق كفراقي إياكم

أَبْلَى الأَجِلَّةَ مُهْرِي عِنْدَ غَيْرِكُمُ وبُدِّلَ العُذْرُ بِالفُسْطَاطِ، والرَّسَنُ

أبلى مهري الأجلة (أتلف حصاني السروج)، وبُدِّلت العذر (اللُّجُم) والرسن وأنا بالفسطاط (القاهرة القديمة) عند غيركم، يقول: طالت إقامتي عند غيركم لأنهم أكرموني، واهترأ سرج حصاني، وبدلت لجامه لطول إقامتي

عندَ الهُمَامِ أبِي المِسْكِ الذي غَرِقَتْ في جُودِهِ مُضَرُ الحَمْرَاءُ واليَمَنُ

أنا مقيم عند الهمام (السيد) أبي المسك (كافور) الذي غرقت في جوده (كرمه) مضر الحمراء (قبيلة مضر وارثة الذهب الأحمر) واليمن، يقول: أغرق هذا الرجل بكرمه كل العرب من مضرية ويمنية

وإنْ تَـأَخَّـرَ عَـنِّـي بَـعْـضُ مَـوْعِـدِهِ   فَـمَـا تَـأَخَّـرُ آمَـالـي ولا تَـهِـنُ

وإذا تأخر عني في وعده فآمالي لا تتأخر ولا تهن (تضعف)، فالمتنبي يظن أنه موعود بولاية عند كافور

هُـوَ الـوَفِـيُّ، ولَـكِـنِّـي ذَكَـرْتُ لَـهُ   مَـوَدَّةً، فَـهْـوَ يَـبْـلُـوهَـا، ويَـمْـتَـحِـنُ

كافور وفيٌّ بوعده، ولكنني كنت قد ذَكَرْتُ له مودتي فهو يتأخر ليبلوها (يختبرها) ويمتحنها

١٠٤ غدار يا زمن

مما قال المتنبي بمصر ولم ينشدها كافوراً، ولم يذكره فيها: ١٠/١٠

صَـحِـبَ الـنَّـاسُ قَـبْـلَـنَـا ذَا الـزَّمَـانَـا   وعَـنَـاهُـمْ مِـنْ شَـأْنِـهِ مـا عَـنَـانـا

قبلنا صحب الناس ذا (هذا) الزمان، وكان يعنيهم من شأنه ما يعنينا

وتَـوَلَّـوْا بِـغُـصَّـةٍ كُـلُّـهُـمْ مِـنْـ   ـهُ، وإِنْ سَـرَّ بَـعْـضَـهُـمْ أَحْـيَـانـا

وتولوا (انصرفوا) كلهم بغصة في الحلق من غدر الزمان، وإن سَرَّ الزمانُ بعضهم حيناً

رُبَّـمَـا تُـحْـسِـنُ الـصَّـنِـيعَ لَـيَـالِـيـ   ـهِ، ولَـكِـنْ تُـكَـدِّرُ الإحْـسَـانـا

تحسن ليالي هذا الزمان، ولكنها تكدر إحسانها بالنكبات

وكَـأَنَّـا لـم يَـرْضَ فِـينَـا بِـرَيْـبِ الـدَّ   هْـرِ حَـتَّـى أعَـانَـهُ مَـنْ أعَـانـا

وكأن غدر الزمان لا يكفي، فجاء بعض البشر وأعانوه في الشر

كُـلَّـمَـا أَنْـبَـتَ الـزَّمَـانُ قَـنَـاةً   رَكَّـبَ الـمـرءُ في الـقَـنـاةِ سِـنَـانـا

كلما أنبت الزمان قناة (غصناً) ركب الإنسان في رأس الغصن سناناً حاداً ليصبح رمحاً

ومُـرَادُ الـنُّـفـوسِ أَصْـغَـرُ مِـنْ أَنْ   تَـتَـعَـادَى فِـيـهِ، وأَنْ تَـتَـفَـانَـى

ومراد النفوس (هدفها) أصغر من أن تتعادى فيه (بسببه) وأن يفني بعضها بعضاً

غَـيْـرَ أَنَّ الـفَـتَـى يُـلاقِـي الـمَـنَـايَـا   كَـالِـحَـاتٍ، ولا يُـلَاقـي الـهَـوَانـا

لكن الفتى يفضل أن يلاقي المنايا كالحات (الميتات وهي عابسات) على أن يلاقي الهوان (الذل)

وَلَـوَ انَّ الـحَـيَـاةَ تَـبْـقَـى لِـحَـيٍّ   لَـعَـدَدْنَـا أَضَـلَّـنَـا الـشُّـجْـعَـانـا

ولو أن الحياة تبقى لأي من الأحياء لاعتبرنا الشجعان أضل الناس (أجهل الناس).
فلو كان المرء لا يموت إلا إن قتل قتلاً، فعندئذ يكون الشجاع ضالاً إذ يعرض نفسه لموت كان يمكن أن يتجنبه أبد الآبدين

وإذا لـم يَـكُـنْ مِـنَ الـمـوتِ بُـدٌّ فَـمِـنَ الـعَـجْـزِ أنْ تَـكُـونَ جَـبَـانـا

ولكننا سنموت جميعاً على أي حال، لهذا فمن التقصير أن تكون جباناً

كُلُّ مَا لم يَكُنْ، مِنَ الصَّعْبِ في الأَنْـ ـفُـسِ، سَـهْـلٌ فِـيـهـا إذا هُـوَ كـانـا

كل شيء لم يكن (يحدث) بعدُ صعب على النفس، فإذا كان (وقع) صار سهلاً

١٠٥ المتحكم في الأفلاك

قال المتنبي يذكر قيام شبيب العقيلي على الأستاذ كافور وقتله بدمشق سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمئة: ٤/ ٢٧

عَـدُوُّكَ مَـذْمُـومٌ بِـكُـلِّ لِـسَـانِ ولـوْ كـانَ مِـنْ أعـدائِـكَ الـقَـمَـرانِ

عدوك يذمه الجميع، حتى لو كان القمر والشمس، لأنك محبوب جداً

ولِـلَّـهِ سِـرٌّ فـي عُـلاكَ، وإنَّـمـا كَـلامُ الـعِـدَى ضَـرْبٌ مِـنَ الـهَـذَيـانِ

لله سر في علاك (مجدك) وكلام أعدائك هذيان

أَرِدْ لي جَمِيلاً، جُدْتَ أو لم تَجُدْ بِهِ فَـإنَّـكَ مَـا أَحْـبَـبْـتَ فِـيَّ أَتَـانـي

أرد لي (انوِ لي) جميلاً (معروفاً) سواء جدت به (تكرمت به) أم لم تجد، فإن نيتك بمثابة القدر وهي تتحقق، وكل شيء أحببت أن تراه بشأني سيأتيني

لَوِ الفَلَكُ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ لَـعَـوَّقَـهُ شـيءٌ عَـنِ الـدَّوَرانِ

لو أنك كرهت سعي الفلك الدائر لعوقه شيء وتوقف

١٠٦ الزائرة الخجول

نالت أبا الطيب بمصر حمى، فقال يصفها ويعرِّض بالرحيل عن مصر، وذلك في ذي الحجة سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمئة: ٤٢/٤٢

مَـلُـومُـكُـمَـا يَـجِـلُّ عَـنِ الـمَـلامِ وَوَقْـعُ فَـعَـالِـهِ فَـوْقَ الـكَـلامِ

ملومكما (الذي تلومانه) يجل (يرتفع) عن الملام (اللوم) ووقع (أثر) أفعاله فوق (أعلى مستوى) من كلام اللائمين

ذَرَانـي والـفَـلاةَ، بِـلا دَلِـيـلِ وَوَجْـهـيَ والـهَـجِـيـرَ، بِـلا لِـثَـامِ

اتركاني والصحراء بلا دليل، واتركا وجهي والهجير (حر الظهيرة) بلا لثام

فَـإنِّـي أَسْـتَـرِيـحُ بِـذِي وهَـذَا وأَتْـعَـبُ بِـالإنَـاخَـةِ والـمُـقَـامِ

فإنني أستريح بذي (بهذه: أي الصحراء) وهذا (الهجير: حر الظهيرة)، وأتعب بالإناخة (الحلول بالمكان)

عُيُونُ رَوَاحِلِي إنْ حِرْتُ عَيْنِي   وَكُلُّ بُغَامِ رَازِحَةٍ بُغَامِي

عيون رواحلي (إبلي) إن حرت (ضللت الطريق وتحيرت) هي عيني، وكل بغام (الأنين المتقطع للناقة) رازحة (ناقة متعبة) هو صوتي، يقول: إنه متوحد مع إبله يهتدي بها، أو يهديها، وأنينها يمثل ما في نفسه من مشاعر. وقد ضرب الشراح في هذا البيت في كل واد، ويبقى المعنى في بطن الشاعر

فَقَدْ أَرِدُ المِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ   سِوَى عَدِّي لَهَا بَرْقَ الغَمَامِ

فقد أرد (آتي) المياه بغير هاد (دليل) سوى عدِّي بروق الغمام (السحب)، وهي طريقة لمعرفة مكان هطول المطر

يُذِمُّ لِمُهْجَتِي رَبِّي وسَيْفِي   إذا احْتَاجَ الوَحِيدُ إلى الذِّمَامِ

يذم (يحفظ العهد والذمة) لمهجتي (لقلبي) ربي وسيفي، هذا إذا احتاج الوحيد إلى ذمام (عهد بالحماية)

ولا أُمْسِي لأَهْلِ البُخْلِ ضَيْفاً   ولَيسَ قِرىً سِوَى مُخِّ النَّعَامِ

ولا أنزل ضيفاً على البخلاء، حتى وإن كان القرى (الطعام) الوحيد لدي هو مخ النعام (ومخه كرأسه صغير جداً). يقول: لا أنزل على البخيل حتى وإن عدمت كل زاد

ولَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبَّاً   جَزَيْتُ عَلى ابْتِسامٍ بِابْتِسَامِ

عندما صار ود الناس خباً (غشاً)، جزيت (كافأت) على الابتسام الخادع بمثله

وصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ   لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ

وصرت أشك فيمن أصطفيه (أختاره) لأنني أعلم أنه بعض الأنام (الخلق) فهو إذن مثلهم

يُحِبُّ العَاقِلُونَ على التَّصافِي   وحُبُّ الجَاهِلِينَ عَلى الوَسَامِ

يحب العاقلون بسبب تصافي القلوب، والجاهلون يحبون على الوسام (المظهر)

وآنَفُ مِنْ أخِي لأَبِي وأُمِّي   إذا مَا لَم أَجِدْهُ مِنَ الكِرَامِ

آنف من (أترفع عن) أخي الشقيق إذا لم يكن كريم الخلق

أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيراً   عَلى الأوْلادِ أخْلاقُ اللِّئامِ

أخلاق الأجداد تغلبها في أحفادهم ما اكتسبه الأحفاد من أخلاق اللئام

ولَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ   بِأَنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ

لست مكتفياً من الفضل بأن أعزى (أنتسِبُ) إلى جد همام (سيد كريم)

عَجِبْتُ لِمَنْ لَهُ قَدٌّ وَحَدٌّ   ويَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ

عجبت لمن له قد (قامة) وحد (قوة)، ثم ينبو (يخطئ) نبوة القضم الكهام (السيف المتثلم غير القاطع)

ومَنْ يَجِدُ الطَّرِيقَ إلى المَعَالِي فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنَامِ

وعجبت ممن يجد طريق المعالي (الأمجاد) فلا يسلكها ولا يترك مطيته (ناقته) وقد ذاب سنامها من طول السير. يقول: من وجد طريق المجد فليمش فيه، وليبذل كل شيء وليتعب ناقته وليترك سنامها يذوب

ولم أرَ في عُيُوبِ النَّاسِ شَيئاً كَنَقْصِ القَادِرِينَ على التَّمامِ

أكبر عيب في البشر قلة القادرين على إكمال المعروف، فهم يحسنون للمرء إحساناً ناقصاً

أَقَمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ، فَلا وَرَائي تَخُبُّ بِيَ الرِّكَابُ، ولا أَمَامي

أقمت في مصر فلا أمامي ولا ورائي تخب الركاب (تسير الأبل). أي: حالي واقفة بمصر

ومَلَّنِيَ الفِرَاشُ، وكانَ جَنْبي يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كُلِّ عَامِ

ملني الفراش وكان جنبي يمل من الفراش ويكرهه رغم أنني لا أنام عليه إلا مرة في العام، فقد كان نومي متقطعاً وأنا أسير في البوادي

قَلِيلٌ عَائِدي، سَقِمٌ فُؤادي كَثِيرٌ حَاسِدِي، صَعْبٌ مَرَامي

قليل عائدي (زواري في مرضي قليلون)، سقم (مريض) قلبي من إحباطه، وحسادي كثيرون، ومرامي (هدفي) صعب

عَلِيلُ الجِسْمِ، مُمْتَنِعُ القِيَامِ شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ المُدَامِ

جسمي عليل ولا أقوى على القيام، وسكري شديد لكن بغير المدام (الخمر)

وزَائِرَتي كَأَنَّ بِها حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إلَّا في الظَّلامِ

وزائرتي (الحمى، السخونة التي تعتاده) كأنها خجلة، فلا تزورني إلا في الظلام

بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ والحَشَايَا فَعَافَتْهَا، وبَاتَتْ في عِظَامي

بذلت لها (أعطيتها) المطارف (الملابس) والحشايا (المساند المحشوة)، فعافتها (رفضتها) وباتت داخل جسمي وفي عظامي

يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفَسي وعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقامِ

جلدي يضيق فهو لا يتسع لتنفسي وللحمى، لذا فتنفسي ضعيف، ولكن الحمى مع ذلك توسع (تملأ) جسمي بأنواع السقام (المرض)

كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها، فَتَجْري مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعةٍ سِجَامِ

كأن الصبح يطردها عني، فتتألم لفراقي فتجري مدامعها بأربعة (أطراف العينين الأربعة) سجام (جارية). ودموعها العرق الذي يسيل منه صباحاً

إذا ما فارَقَتْني، غَسَّلَتْني كأنَّا عاكِفانِ على حَرَامِ

عندما تفارقني الحمى تغمرني بالعَرَق، فكأن ذلك اغتسال بعد ممارسة محرمة مع تلك الزائرة

أُرَاقِبُ وقْتَهَا (مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ) مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهامِ

أراقب وقتها (أنتظر زيارتها) كانتظار المشتاق المستهام (الهائم) لعشيقته لكنْ مع فارق.. أراقب الحمى بدون شوق

ويَصْدُقُ وَعْدُهَا، والصِّدْقُ شَرٌّ إذا أَلْقَاكَ في الكُرَبِ العِظَامِ

ويصدق وعد الحمَّى فتجيء، والصدق شر إذا رماك في الكرب (المصائب) العظام (العظيمة)

أَبِنْتَ الدَّهْرِ! عِنْدي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحَامِ

يا بنت الدهر (أيتها المصيبة)! أنا عندي كل مصيبة، فكيف وصلت أنت في زحمة المصائب المجتمعة على قلبي؟

جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يَبْقَ فيهِ مَكَانٌ لِلسُّيوفِ ولا السِّهَامِ

ألا يا لَيْتَ شِعْرَ يَدِي أَتُمْسي تَصَرَّفُ في عِنَانٍ أو زِمَامِ

متى تصبح يدي متصرفة في عنان (مقود الفرس) أو زمام (مقود الناقة) فأرحل عن هذا المكان؟

وهَلْ أَرْمي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ مُحَلَّاةِ المَقَاوِدِ باللُّغَامِ

وهل سيأتي يوم أكلف فيه النياق الراقصات فوق الرمل التي تتزين مقاودها (أعنتها) باللغام (الزَّبَد) بتحقيق رغبتي في الرحيل؟ يتلذذ بتخيل النياق ترقص به وهو يغادر مصر، ويرى الزبد الذي يخرج من أفواهها ويسيل على أزمتها زينة لها. يحسن بنا أن نفهم «الراقصات» على أنها راقصات فالصورة جميلة؛ وأما الرقص في المعجم القديم فهو (ضرب من سير النياق)

فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْري بِسَيْرٍ، أو قَنَاةٍ أو حُسَامِ

فربتما (ربما) شفيت غليل (عطش) صدري بسير في الصحراء أو بقناة (رمح) أو حسام، فهذا هو ما أحب

وضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا خَلاصَ الخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الفِدَامِ

وربما ضاقت علي خطة (أمر)، فخلصت منها كما يخلص الخمر من نسج الفدام (قماشة المصفاة)

وفَارَقْتُ الحَبِيبَ بِلا وَدَاعٍ ووَدَّعْتُ البِلادَ، بِلا سَلامِ

يَقُولُ لِيَ الطَّبِيبُ: أَكَلْتَ شَيْئاً؟ ودَاؤُكَ في شَرَابِكَ والطَّعَامِ

يسألني طبيبي إن كنتُ أكلتُ شيئاً، ويقول إن الداء أصله من الأكل والشرب

وَمَــا فــي طِـبِّــهِ أَنِّــي جَــوَادٌ   أَضَــرَّ بِـجِـسْـمِـهِ طُـولُ الـجَـمَـامِ
وليس موجوداً في طبه أنني حصان أصيل ألحق الضرر بجسمه طول الجمام (الاستراحة)

تَـعَـوَّدَ أنْ يُـغَـبِّـرَ فـي الـسَّـرَايَـا   ويَـدْخُـلَ مِـنْ قَـتَـامٍ فـي قَـتَـامِ
تعود هذا الحصان أن يغبر في السرايا (الكتائب)، ويدخل من قتام (غبار) في قتام (غبار)

فَـأُمْـسِـكَ، لا يُـطَـالُ لَـهُ فَـيَـرْعَـى   ولا هُـوَ في الـعَـلِـيقِ ولا الـلِّـجَـامِ
ثم أُمسك هذا الحصان، فلا يطال له الحبل ليرعى، ولا وُضع رأسه في العليق (المخلاة المعلقة برأس الحصان) ولا في اللجام استعداداً للسفر

فَإِنْ أَمْرَضْ، فَمَا مَرِضَ اصْطِبَارِي   وإنْ أُحْـمَـمْ، فَـمَـا حُـمَّ اعْـتِـزَامـي
فإن مرضت فإن صبري لم يمرض، وإن حُممت فعزمي لم يصب بالحمى

وإنْ أَسْـلَـمْ فَـمَـا أَبْـقَـى، ولَـكِـنْ   سَلِمْتُ مِنَ الـحِـمَامِ إلى الـحِـمَامِ
فإذا سلمت بعد هذا المرض وعشت فلن أخلد، سلمت من الموت إلى الموت

تَـمَـتَّـعْ مِـنْ سُـهَـادٍ أَوْ رُقَـادٍ   ولا تَـأْمَـلْ كَـرىً تَـحْـتَ الـرِّجَـامِ
تمتع يا هذا من السهاد (السهر والنعاس) والرقاد، فلا كرى (نوم) تحت الرجام (حجارة القبر)

فَـإِنَّ لِـثَـالِـثِ الـحَـالَـيْـنِ مَـعْـنـىً   سِوَى مَـعْـنَـى انْـتِـبَـاهِـكَ والـمَـنَـامِ
فثالث الحالين، سوى السهاد والرقاد، وهو الموت له معنى مختلف تماماً عن الانتباه (اليقظة) والنوم

١٠٧ خير جليس

قال المتنبي يمدح كافوراً، وأنشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمئة، وهي آخر ما أنشده، ولم يلقه بعدها: ٢٦/ ٤٣

مُنَىً كُنَّ لي أَنَّ الـبَـيَـاضَ خِـضَـابُ   فَـيَـخْـفَـى بِـتَـبْـيِـيـضِ الـقُـرُونِ شَـبَـابُ
منى (أمنيات) كانت لي في سن الشباب أن يكون هناك خضاب (صبغ) أبيض للشعر، فأصبغ شعري به لتبييض القرون (الخصلات) وإخفاء صغر السن

لَـيَـالِـيَ عَـنْـدَ الـبِـيـضِ فَـوْدَايَ فِـتْـنَـةٌ   وفَـخْـرٌ، وذَاكَ الـفَـخْـرُ عِـنْـدِيَ عَـابُ
هذا الشعور خالجني لياليَ (في زمن) كان فوداي (سالفايَ) فيه فتنة عند البيض (النساء البيض) وفخراً لأي شاب، ولكنني كنت أرى سواد السوالف عاباً (عيباً)

وفي الـجِـسْـمِ نَـفْـسٌ لا تَـشِـيـبُ بِـشَـيْـبِـهِ   ولـو أَنَّ مـا فـي الـوَجْـهِ مِـنْـهُ حِـرَابُ
نفسي لا تشيب بشيب شعري، حتى لو انغرست في الوجه، بدل الشعرات البيض، الحراب (السكاكين)

لَهَا ظُفُرٌ، إنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ، وَنَابٌ، إذا لَم يَبْقَ في الفَمِ نابُ

لنفسي ظُفرٌ إن كلَّ (ضعف) ظفر أُعِدُّه (أهيئه للمواجهة)، ولها ناب إذا لم يبق في فمي أنياب.
يقول: في نفسي من العزم ما يعوض فقدي قوة الجسم

يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ ما شاءَ، غَيْرَها وأَبْلُغُ أقْصَى العُمْرِ وَهْيَ كَعَابُ

يغير الدهر مني ما يشاء، إلا نفسي، فأنا أبلغ أقصى العمر وهي كَعَاب (شابة)

وإنِّي لَنَجْمٌ تَهْتَدي صُحْبَتي بِهِ إذا حَالَ مِنْ دونِ النُّجُومِ سَحَابُ

أنا أهدي أصحابي برأيي عندما تختفي طرق الهداية الأخرى، فكأنني النجم يهتدون به عندما تحول السحب دون رؤية النجوم التي يستدلون بها في الصحراء

غَنِيٌّ عَنِ الأوطانِ، لا يَسْتَخِفُّني إلى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إيابُ

غني (مستغنٍ) أنا عن الأوطان، ولا يستخفني (يستهويني) الإياب (الرجوع) إلى بلد كنت سافرت عنه

وأَصْدَى، فَلا أُبْدي إلى الماءِ حَاجَةً ولِلشَّمْسِ فَوْقَ اليَعْمَلاتِ لُعَابُ

وأصدى (أعطش) فلا أبدي حاجة للماء، بينما الشمس تلقي على اليعملات (النياق) لعابها (خيوطاً يراها من يمشي في القيظ نازلةً من الشمس)

ولِلسِرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لا يَنالُهُ نَديمٌ، ولا يُفْضي إليهِ شَرَابُ

لا ينال النديم الذي يجالسني ما عندي من سر، ولا الشراب (الخمر) يفضي (يؤدي) إلى كشف السر

ولِلْخَوْدِ مِنِّي سَاعةٌ، ثم بَيْنَنَا فَلاةٌ إلى غَيْرِ اللِّقاءِ تُجَابُ

وللخود (المرأة الناعمة) مني ساعة ثم تكون بيننا فلاة (صحراء) أجوبها (أقطعها) فلا يكون لقاء بعدها

ومَا العِشْقُ إلا غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ

العشق غرة (خداع) وطماعة (طمع)، والقلب هو الذي يعرِّض نفسه فيصاب بالعشق

وغَيْرُ فُؤادِي لِلْغَواني رَمِيَّةٌ وغَيْرُ بَنَاني لِلزُّجَاجِ رِكَابُ

غير فؤادي للغواني (الجميلات) رمية (هدف)، وغير بناني (أصابعي) للزجاج (يعني الكأس) ركاب (مطية). يقول: فؤادي ليس هدفاً يصاب بسهام ترميها الحسان، وأصابعي لا تحمل كأس خمر

تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا، إلَّا بِهِنَّ، لِعَابُ

تركنا كل الشهوات لكي نتفرغ لأطراف القنا (الرماح)، فنحن لا لعاب (لعب) لنا إلا بالسلاح

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ وخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمانِ كِتَابُ

أعز (أمنع وأحصن) مكان في الدنى (الدنياوات/ يعني الدنيا) سرج سابح (فرس)، وخير جليس كتاب

وبَحْرُ أبي المِسْكِ الخِضَمُّ الذي لَهُ ... علـى كُـلِّ بَـحْـرٍ، زَخْـرَةٌ وعُـبَـابُ

بحر أبي المسك (كافور) هو البحر الخضم (الكثير الماء) الذي له، أكثر من كل بحر آخر، زخرة (تدافُعُ الماء) وعباب (ارتفاع الموج)

أَرَى لي، بِقُرْبِي مِنْكَ، عَيْنَاً قَرِيرَةً ... وإنْ كـانَ قُـرْبـاً بِـالـبِـعَـادِ يُـشَـابُ

عيني قريرة (باردة بلا دمع) بقربك، وإن كان القرب منك يشاب (يخلط) بالبعاد لعدم تلبيتك مطلبي

وهَلْ نَافِعِي أنْ تُرْفَعَ الحُجْبُ بَيْنَنَا ... ودُونَ الـذي أَمَّـلْـتُ مِـنْـكَ حِـجَـابُ

هل ينفعني أن تسمح لي بالدخول عليك كما أشاء، بينما يحول دون ما أؤمله منك حجاب هو تقاعسك عن تلبية طلبي؟

أُقِلُّ سَلامي حُبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمُ ... وأَسْكُـتُ، كَـيْـمَـا لا يَـكـونَ جَـوَابُ

أقلل من القدوم للتسليم حباً في التخفيف عنكم، وأسكت كيما (كي) لا أكلفكم الجواب

وفي النَّفْسِ حاجاتٌ، وفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُـوتـي بَـيَـانٌ عِـنْـدَهـا وخِـطَـابُ

وفي نفسي حاجات، وفيك فطانة (ذكاء)، وسكوتي هو بمثابة بيان (إفصاح) وخطاب (كلام) يشرح حاجاتي

ومَا أَنَا بِالبَاغِي على الحُبِّ رِشْوَةً ... ضَـعِـيـفُ هَـوىً يُـبْـغَـى عَـلَـيْـهِ ثَـوَابُ

لست أبغي (أريد) رشوة منك لأنني أحبك، فالحب الضعيف هو الذي يُطلَبُ عليه الثواب (المكافأة)، أي أن حبي لك خالص من المصلحة. تسويد البيتين لأحمد عبد الرحيم

ومَـا شـئـتُ إلَّا أنْ أَدُلَّ عَـوَاذِلِـي ... عـلـى أنَّ رَأْيِـي فـي هَـوَاكَ صَـوابُ

وكل ما أريده هو أن أثبت لعواذلي (حاسداتي) أنني كنت على صواب عندما وضعت أملي فيك

وأُعْلِـمَ قَـوْمَـاً خَـالَـفُـونـي فَـشَـرَّقُـوا ... وغَـرَّبْـتُ، أَنِّـي قد ظَـفِـرْتُ، وخَـابُـوا

وأردت أن أُفهم الناس الذين خالفوني، فرحلوا شرقاً بينما انا رحلت غرباً إلى مصر، أنني ظفرت (نجحت) وخابوا هم

جَرَى الخُلْفُ إلَّا فِيكَ: أَنَّكَ وَاحِدٌ ... وأَنَّـكَ لَـيْـثٌ، والـمـلـوكُ ذِئَـابُ

الخلف (اختلاف الرأي) موجود في كل شيء إلا في حقيقة أنك متفرد متميز، وأنك ليث (أسد) والملوك الآخرين ذئاب

إذا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فَالمالُ هَيِّنٌ ... وكُـلُّ الـذي فَـوْقَ الـتُّـرَابِ تُـرابُ

إذا نلت ودك فالمال هين (تافه)، وكل ما فوق التراب تافه كالتراب. تسويد أ. عبد الرحيم

ومَا كُنْتُ، لَوْلا أَنْتَ، إلَّا مُهَاجِراً ... لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ بَـلْـدَةٌ وصِـحَـابُ

ولولا أنت لما كنتُ أنا إلا مهاجراً، في كل يوم له بلد جديد وأصحاب جدد

وَلَكِنَّكَ الدُّنيا، إِلَيَّ حَبِيبَةٌ   فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيكَ ذَهَابُ

ولكنك أنت الدنيا، وهي حبيبة إلى نفسي، فليس لي أن أذهب عنك إلا إليك، والدنيا لا يسع أحداً أن يخرج منها

١٠٨ لولا المشقة ساد الناس كلهم

قدِم أبو شجاع فاتك، المعروف بالمجنون، من الفيوم إلى مصر فوصل أبا الطيب، وحمل إليه هديةً قيمتها ألف دينار، فقال يمدحه: ٩/ ٤٦

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا ولا مَالُ   فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ، إنْ لم تُسْعِدِ الحَالُ

يخاطب المتنبي نفسه: لا خيل عندك تهديها أيها الشاعر ولا مال، فليسعدك (ليساعدك) النطق إن لم تساعدك حالتك المادية

واجْزِ الأَميرَ الذي نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ   بِغَيْرِ قَوْلٍ، ونُعْمَى النَّاسِ أقوالُ

واجز (كافئ) الأمير الذي نعماه فاجئة جاءت بغير قول (مكرمته تلقائية بلا وعد مسبق)، بينما مكرمات الناس أقوال. تعريض بكافور الذي يعد ولا يفي

ومَا شَكَرْتُ لِأنَّ المالَ فَرَّحَني   سِيَّانَ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وإِقْلالُ

لكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنا   وأنَّنَا بِقَضَاءِ الحَقِّ بُخَّالُ

قبيح أن يجاد لنا (يبذل لنا المال) ونكون بُخّالاً بقضاء حق الشكر

لا يُدْرِكُ المجدَ إلَّا سَيِّدٌ فَطِنٌ،   لِمَا يَشُقُّ على السَّادَاتِ فَعَّالُ

لا يحقق المجد إلا سيد فطن (نبيه) فعالٌ لما يشق (يصعب) حتى على السادات

لَوْلا المَشَقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ   الجودُ يُفْقِرُ، والإقْدَامُ قَتَّالُ

لولا المشقة (الصعوبة) لأصبح كل الناس أسياداً، فالجود يفقر المرء والإقدام (الشجاعة) تؤدي إلى القتل

وإنَّمَا يَبْلُغُ الإنسانُ طاقَتَهُ   مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلالُ

وكل إنسان يبلغ من السيادة بقدر ما يطيق، وليست كل ناقة ماشية وفوقها الرحل (الخرج) شملال (خفيفة سريعة).

إنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ القَبِيحِ بِهِ   مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إحْسَانٌ وإجْمَالُ

نحن في زمن رديء، ومجرد ترك الفعل القبيح، من جانب معظم الناس، هو إحسان وإجمال (صنع الجميل)

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّاني، وحَاجَتُهُ   مَا قَاتَهُ، وفُضُولُ العَيْشِ أَشْغَالُ

سمعة الفتى هي العمر الثاني له بعد موته، وحاجته تقتصر على ما يقوته من أكل، وفضول العيش (الكماليات) هي انشغالات لا ضرورة لها

١٠٩ ويزيدني غضب الأعادي قسوة

توفي أبو شجاع فاتك بمصر سنة خمسين وثلاثمئة، فقال المتنبي يرثيه بعد خروجه منها: ٢٤/ ٤١

الحُزْنُ يُقْلِقُ، والتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ والدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ

أحس توتراً من الحزن ثم يردعني التجمل (التصبر)، وبين الحالين فدمعي عصي (ممتنع) وطيع (سهل النزول)

يَتَنازَعَانِ دُمُوعَ عَيْنِ مُسَهَّدٍ هَذا يَجِيءُ بِها، وهَذا يَرْجِعُ

هاتان الحالان تتنازعان دموع عين رجل مسهد (ساهر)، حال تجيء بالدموع وحال تَرجعها إلى مكانها داخل العين

النَّوْمُ بَعْدَ أبي شُجَاعٍ نَافِرٌ والَليْلُ مُعْيٍ، والكَوَاكِبُ ظُلَّعُ

النوم نفر مني بعد موت أبي شجاع، والليل مُعْيٍ (متعب، يسبب الإعياء)، والكواكب ظلع (عرجاء) تسير ببطء والليل لا ينتهي

إنِّي لَأَجْبُنُ عَنْ فِرَاقِ أَحِبَّتي وتُحِسُّ نَفْسِي بِالحِمَام فَأَشْجُعُ

أحس بالجبن عن فراق الأحبة، وإذا أحسست بدنوي أنا من الحمام (الموت) أشجُع (أكون شجاعاً)

ويَزِيدُني غَضَبُ الأَعَادِي قَسْوَةً ويُلِمُّ بي عَتْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ

يزيدني غضب الأعداء علي قسوة في الطباع، ولكن عندما يعاتبني الصديق أجزع (أخاف) من إغضابه

تَصْفُو الحَياةُ لِجَاهِلٍ أو غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فيها، ومَا يُتَوَقَّعُ
ولِمَنْ يُغالِطُ في الحَقَائِقِ نَفْسَهُ ويَسُومُها طَلَبَ المُحَالِ فَتَطْمَعُ

تصفو الحياة أيضاً لمن يغالط نفسه ويسومها (يكلفها) المحال (المستحيل) فتطمع النفس في الخلود، ويعيش هو دائماً على أمل متجدد وكأنه لا يقر بأن كل هذا السعي عبث

أَيْنَ الذي الهَرَمانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ، مَا يَوْمُهُ، ما المَصْرَعُ

أين مَن بنى الهرمين، وما شأن قومه، ويومه (يوم موته) ومصرعه (طريقة موته)؟

تَتَخَلَّفُ الآثارُ عنْ أصْحَابِها حِيناً، ويُدْرِكُها الفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

تتخلف (تتأخر) الآثار عن أصحابها حيناً (زمناً)، ثم يدركها (يلحقها) الفناء فتتبعهم

لم يُرْضِ قَلْبَ أبي شُجَاعٍ مَبْلَغٌ قَبْلَ المَماتِ، ولم يَسَعْهُ مَوْضِعُ

لم يكن يرضي قلب أبي شجاع قبل موته مبلغ (هدف) لشدة طموحه، ولم يكن أي موضع يسع نفسه الكبيرة.

كُـنَّـا نَـظُـنُّ دِيـارَهُ مَـمْـلُـوءَةً ذَهَـبـاً، فَـمَـاتَ وكُـلُّ دَارٍ بَـلْـقَـعُ
ظنناه غنياً، فإذا داره بعد موته بلقع (خالية)

وإذا الـمَـكَـارِمُ والـصَّـوَارِمُ والـقَـنَـا وبَـنَـاتُ أَعْـوَجَ كُـلُّ شَـيءٍ يَـجْـمَـعُ
ورأينا المكارم والصوارم (السيوف) والقنا (الرماح) وبنات أعوج (الخيل) هي كل ما جمعه

الـمَـجْـدُ أَخْـسَـرُ والـمكـارِمُ صَـفْـقَـةً مِـنْ أَنْ يَـعِـيـشَ لَـهَـا الـهُـمَـامُ الأَرْوَعُ
المجد والمكارم أخسر صفقة (أتعس حظاً) من أن يعيش لها الهمام (السيد) الأروع (المهيب)

والـنَّـاسُ أَنْـزَلُ فـي زَمَـانِـكَ مَـنْـزِلاً مِـنْ أنْ تُـعَـايِـشَـهُـمْ، وقَـدْرُكَ أَرْفَـعُ
الناس أحط من أن تعيش بينهم

بَـرِّدْ حَـشَـايَ إِنِ اسـتَـطَـعْـتَ بِـلَـفْـظَـةٍ فَـلَـقَـدْ تَـضُـرُّ إذا تَـشَـاءُ وتَـنْـفَـعُ
برد حشاي (قلبي) بكلمة لو تستطيعها، فأنت من كان يضر وينفع. السيد عند العرب ممدوح بأن في يديه النفع والضرر أيضاً، وترسخت هذه الفكرة عندما صار السيد والياً أو أميراً

يَـا مَـنْ يُـبَـدِّلُ كُـلَّ يَـوْمٍ حُـلَّـةً أَنَّـى رَضِـيـتَ بِـحُـلَّـةٍ لا تُـنْـزَعُ؟
يا من كنت تبدل في كل يوم حلةً (ثوباً)! أنى (كيف) رضيت بثوب لا تنزعه (يقصد الكفن)

ما زِلْتَ تَخْلَعُهَا عَلى مَنْ شَاءَهَا حتى لَبِسْتَ اليومَ مَا لا تَخْلَعُ
ظللت تخلع ثوبك وتعطيه لمن طلبه، حتى لبست اليوم ثوباً لن تخلعه أبداً، وهو الكفن

مـا زِلْـتَ تَـدْفَـعُ كُـلَّ أَمْـرٍ فَـادِحٍ حَـتَّـى أَتَـى الأَمْـرُ الـذي لا يُـدْفَـعُ
ظللت تدفع كل أمر فادح (مصيبة) حتى أتاك أمر لا سبيل إلى دفعه (الموت)

فَظَلِلْتَ تَنْظُرُ، لا رِمَاحُكَ شُرَّعٌ فـيـمَـا عَـرَاكَ، ولا سـيـوفُـكَ قُطَّعُ
فظللت تنظر والموت يقترب منك، فلا رماحك شرع (مُشرعة مسددة) في الأمر الذي عراك (انتابك)، ولا سيوفك قطّع (قاطعة) فيه

ومَنِ اتَّخَذْتَ عَلى الضُّيوفَ خَلِيفَةً ضَـاعـوا، ومِـثْـلُـكَ لا يَـكَـادُ يُـضَـيِّـعُ
من جعلت بعد موتك خليفة ليكرم الضيوف؟ لقد ضاع الضيوف، وكنت لا تضيع أحداً

قُـبْـحـاً لِـوَجْـهِـكَ يَـا زَمَـانُ! فَـإِنَّـهُ وَجْـهٌ لَـهُ مِـنْ كُـلِّ قُـبْـحٍ بُـرْقُـعُ
قبحا لوجه الزمان فله من كل القبائح برقع (قناع)

أَيَـمُـوتُ مِـثْـلُ أَبـي شُـجَـاعٍ فَـاتِـكٍ ويَـعِـيـشُ حـاسِـدُهُ الـخَـصِـيُّ الأَوْكَـعُ
أيموت مثل أبي شجاع ويعيش حاسده الخصي (المستأصَل الخصيتين) الأوكع (المنحرف إصبع القدم نحو الداخل/ وتلك صفة أقدام العبيد والإماء لكثرة الكدح)، يهجو كافوراً

أَيْـدٍ مُـقَـطَّـعَـةٌ حَـوَالَـيْ رَأْسِـهِ وَقَفَاً يَصِيحُ بِهَا: أَلَا مَنْ يَصْفَعُ؟

الأيدي حول رأس كافور كأنها مقطوعة لأنها لا تستطيع صفعه، بينما قفا عنقه يصيح: هيا اصفعوني؛ فكافور بمصر متحكم بالبلد، وكبار أهل مصر مقطوعو الأيدي، لا يفعلون ما يجب فعله لتنحيته عن السلطة

أَبْـقَـيْـتَ أَكْـذَبَ كَـاذِبٍ أَبْـقَـيْـتَـهُ وأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقولُ ويَسْمَعُ

أبقيت أيها الزمان أكذب الكاذبين الذين أبقيتهم على قيد الحياة، وأخذت أصدق إنسان

١١٠ أتينا زماننا في شيخوخته

قال المتنبي بالكوفة يرثي أبا شجاع فاتكاً، ويذكر مسيره عن مصر: ١٨/ ٣٩

حتَّامَ نَحْنُ نُسَاري النَّجْمَ في الظُّلَمِ ومَـا سُـرَاهُ عَـلـى خُـفٍّ ولا قَـدَمِ

حتى متى نساري النجم (نصاحب النجم في سير الليل) وليس سراه (سيره الليلي) على خف (قدم البعير) ولا على قدم، فالنجم لا يتعب ونحن نتعب من السير

تُسَوِّدُ الشَمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا ولا تُـسَـوِّدُ بِـيـضَ الـعُـذْرِ والـلِّـمَـمِ

في سير النهار تسود الشمس وجوهنا البيض، ولكنها لا تسود العذر (السوالف) واللمم (الشعر) التي وَخَطها الشيب

لا أُبْغِضُ العِيسَ، لَكِنِّي وَقَيْتُ بِها قَلْبِي مِنَ الحُزْنِ، أو جِسْمِي مِنَ السَّقَمِ

لست أُتعِب العيس (الإبل) لأنني أبغضها، ولكنني بواسطتها وقيت (حميت) قلبي من الحزن، وحميت جسمي من السقم (المرض). فالمتنبي يمرض إذا طالت إقامته بمكان

طَرَدْتُ مِنْ مِصْرَ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا حَتَّى مَرَقْنَ بِنَا مِنْ جَوْشَ والعَلَمِ

طردت من مصر أيدي العيس (الإبل) بأرجلها (جعلتها تسرع فكأن قوائمها الخلفية تطرد نحو الأمام قوائمها الأمامية)، حتى مرقت بنا (مرت بسرعة) من جوش والعلم (من هذين المكانين)

لا فَـاتِـكٌ آخَـرٌ في مِـصْـرَ نَـقْـصِـدُهُ ولا لَـهُ خَـلَـفٌ في الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـمِ

لم يعد في مصر فاتك آخر، بعد موت فاتك الأسدي، حتى نقصده؛ وليس لفاتك خلف (بديل) في الناس جميعاً

مَنْ لا تُشَابِهُهُ الأَحْيَاءُ في شِيَمٍ أَمْسَى تُشَابِهُهُ الأمواتُ في الرِّمَمِ

فاتك الذي لم يكن يشابهه أحد من الأحياء في الشيم (الأخلاق) أصبح وقد شابهه الأموات في الرمم (العظام النخرة)

ما زِلْتُ أُضْحِكُ إبْلِي كُلَّمَا نَظَرَتْ   إلى مَنِ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمِ

ظللت أُضحك إبلي كلما نظرت الإبل إلى الشخص الذي اختضبت (اصطبغت) أخفافها (أقدامها) بدم.. وهي تمشي للوصول إليه. يقول: إبلي تضحك مني إذ أرهقها وأدمي أخفافها للوصول إلى أمير لا يستحق مشقة الرحلة

أُسِيرُهَا بَيْنَ أَصْنَامٍ: أُشَاهِدُهَا   ولا أُشَاهِدُ فيها عِفَّةَ الصَّنَمِ

أُسير إبلي بين أمراء كالأصنام، أراهم ولا أرى فيهم عفة الصنم (فالصنم عفيف لا يأتي ذنباً) والحكام معبودون كالأصنام لكنهم يرتكبون الموبقات

حتَّى رَجَعْتُ وأَقْلامي قَوَائِلُ لي: المَجْدُ لِلسَّيفِ، ليس المجدُ للقلمِ

حتى رجعت وأقلامي تقول لي: المجد للسيف وحده لا لأصحاب القلم، فالقلم لا يأتي بمجد

أُكْتُبْ بِنَا أَبَدَاً، بَعْدَ الكِتَابِ بِهِ   فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلأَسْيَافِ كَالخَدَمِ

تقول الأقلام: أكتب بنا بعد الكتاب (الكتابة) به (بالسيف)، فالقلم يخدم السيف

ولم تَزَلْ قِلَّةُ الإنصافِ قَاطِعَةً   بَيْنَ الرِّجَالِ، ولوْ كانُوا ذَوِي رَحِمِ

قلة الإنصاف لم تزل (هي دائماً) قاطعة الوداد بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم (أقارب)

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ   فَإِنَّمَا يَقَظَاتُ العَيْنِ كَالحُلُمِ

هون على بصرك ما شق منظره (صعُبت رؤيته) من أحوال الناس، فيقظة العين (الحياة الحقيقية) كالحلم، وكل شيء تافه في هذه الدنيا

ولا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ، فَتُشْمِتَهُ،   شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبَانِ والرَّخَمِ

ولا تشكَّ (لا تشتكِ) إلى أي مخلوق فيشمت بك، فتكون شكواك كشكوى الجريح إلى الغربان والرخم (النسور) التي تنتظر موته لتأكل لحمه وهو قاعد يشكو إليها حاله. وتريد أقوى من هذا البيت؟ نقول الكثير عن المتنبي ونشتكي من حمقه ومن تناقضه، ويأتينا ببيت كهذا البيت فماذا نقول؟ قرأت قبل سويعة قول ابن شرف القيرواني وهو يصف أبا تمام والبحتري ثم يرفعهما رفعاً عن صاحبنا، والآن أتمنى لو يكون ذلك الناقد القديم حياً لأدس هذا البيت تحت أنفه وأقول له: انظر يا هذا. يا ابن شرف! يشكو المرء ما حل به من سوء حال إلى زملاء له في العمل، فيهزون رؤوسهم رياء، ويُظهرون التوجع لحاله؛ ولسان ضميرهم يقول: زادك الله مما بك، ولتذهب في داهية حتى نحسِّن وضعنا بعدك. فهو يشكو حاله إليهم شكوى الجريح حاله إلى النسور التي تنتظر الانقضاض على جثته

وكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ   ولا يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

احذر الناس واستر حذرك، ولا تغتر منهم بثغر (فم) مبتسم لك

غَاضَ الوَفَاءُ، فَمَا تَلْقَاهُ في عِدَةٍ   وأَعْوَزَ الصِّدْقُ في الإخْبَارِ والقَسَمِ

غاض (اضمحل) الوفاء فما تلقاه في عدة (وعد)، وأعوز (انعدم) الصدق في نقل الخبر وفي القسم

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي! كيفَ لَذَّتُهَا   فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الألَمِ

سبحان من خلقني، وكيف أن لذة نفسي هي في الأمور التي تراها النفوس الأخرى مؤلمة غاية الألم

وَقْتٌ يَضِيعُ، وعُمْرٌ لَيْتَ مُدَّتَهُ   في غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ

هذا وقت يضيع، وعمر يذهب سدى، فليتني أنفقت عمري في أمة من الأمم السالفة غير هذه الأمة

أَتَى الزَّمانَ بَنُوهُ في شَبِيبَتِهِ   فَسَرَّهُمْ، وأَتَيْنَاهُ على الهَرَمِ

الماضون من أبناء الزمن (البشر) جاءوا إلى الزمن وهو في شبابه فعاشوا عيشة كريمة وسرهم الزمان، ونحن أتيناه وهو هرم (شيخ فانٍ)

١١١ ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة

قال المتنبي يهجو كافوراً، وكان قد نظر إلى شقوقٍ في رجليه: ٩/ ١٠

أُرِيكَ الرِّضَى، لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا   ومَا أَنَا عَنْ نَفْسِي ولا عَنْكَ رَاضِيَا

أظهر لك الرضا، هذا لو قدرت نفسي على إخفاء حقيقة مشاعري، ولكنني لست راضياً عن نفسي ولا عنك

أَمَيْنَاً وإِخْلافَاً وغَدْرَاً وخِسَّةً   وجُبْنَاً؟ أَشَخْصَاً لُحْتَ لِي، أَمْ مَخَازِيَا

ميناً (كذباً) وإخلافاً للوعد وغدراً وخسة وجبناً؟ وكل هذه الصفات فيك. هل أنت إنسان لحت لي (ظهرت لي) أم أنت مجموعة من المخازي؟

تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً   وما أَنَا إلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا

تظن ابتساماتي رجاء لكرمك وغبطة بحضوري مجلسك، وما أنا في الواقع إلا ضاحك من هذا الرجاء

وتُعْجِبُني رِجْلاكَ في النَّعْلِ، إنني   رَأَيْتُكَ ذا نَعْلٍ إذا كُنْتَ حَافِيَا

تعجبني رؤية رجليك في النعل، أراهما وأتخيل منظرك حافياً فأراك كأنك منتعل لأن جلد قدميك غليظ كالنعل

وإنَّكَ لا تَدْرِي: أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ،   مِنَ الجَهْلِ، أم قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيَا

ولجهلك لست تدري أأنت أسود أم قد صرت أبيض لمجرد وصولك للحكم

وَيُذْكِرُني تَخْيِيطُ كَعْبِكَ شَقَّهُ ومَشْيَكَ في ثَوْبٍ مِنَ الزَّيْتِ عَارِيَا

يذكرني كعبك المخيَّط ما به من شقوق، وأتذكرك وأنت تمشي عارياً وتحمل الزيت لمالكك تاجر الزيت، والزيت يتصبب على جسمك، فكأنك تلبس ثوباً من الزيت

ولولا فُضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً بِمَا كُنْتُ في سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا

ولولا فضول الناس (تدخلهم فيما ليس من شأنهم) لجئتك مادحاً بالصفات التي كنت أهجوك بها في ضميري، فأنت لن تفهم شيئاً من قولي، لكنني لم أفعل لأن الناس قد يبلغونك بما أعنيه

فإنْ كُنْتُ لا خَيْرَاً أَفَدْتُ، فَإِنَّنِي أَفَدْتُ، بِلَحْظِي مِشْفَرَيْكَ، المَلاهِيَا

فإن كنت لم أستفد منك شيئاً، فعلى الأقل استفدت الملاهي (اللهو) بلحظي (بمشاهدتي) مشفريك (شفتيك الغليظتين/ والمشفر للبعير)

ومِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

ومثلك يأتيه الناس من بلاد بعيدة، ولا سيما ربات الحجال (ربات الستور/ النساء) الباكيات كي يضحكن

١١٢ يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

قال المتنبي يهجو كافوراً: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٤/٨

مِنْ أَيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكَ الكَرَمُ؟ أَيْنَ المَحَاجِمُ يا كافُورُ والجَلَمُ؟

من أي طريق سيأتيك الكرم (علو المنزلة)؟ قل لي: أين المحاجم (قوارير الحجامة) وأين الجلم (المقص)؟ يقال إن الذي كان يملك رق كافور كان حجاماً، وقيل كان زياتاً

جازَ الأُلَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمُ؛ فَعُرِّفُوا، بِكَ، أنَّ الكلبَ فوقَهُمُ

الذين ملكتهم بكفيك من الناس تجاوزوا قدرهم وتجبروا وظلموا؛ فجاءهم الله بك لكي يعرِّفهم أن الكلب فوقهم قيمة

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمُ وسَادَةُ المُسْلِمِينَ الأَعْبُدُ القَزَمُ

كل قوم ساداتهم منهم، والمسلمون سادتهم العبيد القزم (السفلة)

أَغَايَةُ الدِّينِ أنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ؟ يَا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

يمضي في مخاطبة المسلمين: هل منتهى الدين بالنسبة لكم حَفْوُ الشاربين (أي حَفُّ الشاربين وقصُّهما)؟ يا أمة..

١١٣ الحر يتيم

قال المتنبي يهجو كافوراً: ١٠/١٠

أَمَا في هَذِهِ الدُّنيا كَرِيمُ تَزُولُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الهُمومُ
أَمَا في هَذِهِ الدُّنيا مَكَانٌ يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الجارُ المُقِيمُ

تَشَابَهَتِ البَهَائِمُ والعِبِدَّى عَلَيْنا، والمَوَالِي والصَّمِيمُ
تشابهت (اختلطت) علينا البهائم والعِبِدَّى (العباد)، واختلط الموالي (العبيد) بالصميم (بالأصيلي النسب)

ومَا أَدْرِي: أَذا دَاءٌ حَدِيثٌ أَصَابَ النَّاسَ أم داءٌ قَدِيمُ؟
أذا: أهذا

حَصَلْتُ، بِأَرْضِ مِصْرَ، عَلى عَبِيدٍ كَأَنَّ الحُرَّ بَيْنَهُمُ يَتِيمُ
كَأَنَّ الأَسْوَدَ اللَّابِيَّ فِيهِمْ غُرَابٌ حَوْلَهُ رَخَمٌ وَبُومُ
كأن الأسود اللابي (المنسوب إلى بلدة اللاب بالنوبة) بينهم غراب وحوله الرخم (طيور جارحة خسيسة) وطيور البوم

أَخَذْتُ بِمَدْحِهِ، فَرَأَيْتُ لَهْواً مَقَالِي لِلأُحَيْمِقِ يا حَلِيمُ
بدأت بمدحه فرأيت أنني أمارس ضرباً من اللهو بقولي للأحمق يا حليم

ولَمَّا أنْ هَجَوْتُ، رَأَيْتُ عِيَّاً مَقَالِي لابْنِ آوَى يا لَئِيمُ
ولما هجوته رأيت عياً (نقصاً في الفصاحة) أن أقول لابن آوى: يا لئيم، وأي فصاحة في هجاء رجل بكلام لا يعبر سوى عن بعض ما فيه من لؤم

فَهَلْ مِنْ عَاذِرٍ في ذا وفي ذا فَمَدْفُوعٌ إلى السَّقَمِ السَّقِيمُ
فهل هناك من يعذرني في الحالين، في مدحه وفي هجائه؟ فأنا كنت مضطراً، والسقيم مدفوع (مجبر) إلى سقمه

إذا أَتَتِ الإسَاءَةُ مِنْ وَضِيعٍ ولم أَلُمِ المُسِيءَ، فَمَنْ أَلُومُ؟
وإذا صدرت الإساءة عن شخص وضيع (حقير) ولم أوجه إليه اللوم فمن ألوم إذن؟

١١٤ مرت يد النخاس في رأسه

خرج المتنبي من عند كافور يوماً فقال: ٢/ ١٠

أَنْوَكُ مِنْ عَبْدٍ ومِنْ عِرْسِهِ مَنْ حَكَّمَ العَبْدَ عَلى نَفْسِهِ
أنوَك (أشد حمقاً) من العبد ومن عرسه (زوجته/يقصد الأمَة) الذي حكَّم العبد على نفسه، يلوم المتنبي نفسه لأنه قصد كافوراً

فَلا تُرَجِّ الخَيْرَ عِنْدَ امْرِئٍ مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ في رَأْسِهِ
لا ترجِّ (لا ترجُ) خيراً عند شخص مرت على رأسه يد النخاس (تاجر العبيد)

١١٥ محال ضيمي

استأذن المتنبي كافوراً في الخروج إلى الرملة ليقضي مالاً كتب له به، وإنَّما أراد أن يعرف ما عند كافور في مسيره، فمنعه وحلف عليه أن لا يخرج، وقال: نحن نوجِّهُ من يقضيه لك، فقال في ذلك: ٢/ ٤

إذا سِرْنَا عَنِ الفُسْطَاطِ يَوْماً   فَلَقِّنِيَ الفَوَارِسَ والرِّجَالا

إذا رحلنا عن الفسطاط فلتحاول ما تشاء أن تُتبعني بالرجال والفرسان ليلاقوني ويُرجعوني إليك

لِتَعْلَمَ قَدْرَ مَنْ فَارَقْتَ مِنِّي   وأَنَّكَ رُمْتَ مِنْ ضَيْمِي مُحَالا

فسترى أن من المستحيل على أحد أن يلحقني، وستعلم قدر من فارقت مني (بمفارقتك إياي)، وأنك رمت (طلبت) من ظلمي المستحيل

١١٦ أعانه الله وإيانا

قال المتنبي في كافور: ٣/ ٣

لَوْ كَانَ ذا الآكِلُ أَزْوَادَنَا   ضَيْفَاً لأَوْسَعْنَاهُ إِحْسَانَا

لو كان هذا الذي يأكل الزاد الذي جئنا به ضيفاً علينا لأوسعناه (لملأناه) إحسانا

لَكِنَّنَا، في العَيْنِ، أضْيَافُهُ   يُوسِعُنَا زُوراً وبُهْتَانَا

لكننا فيما يرى الرائي ضيوفه، وهو يوسعنا (يملأُنا) زوراً (كذباً) وبهتانا (كذباً)

فَلَيْتَهُ خَلَّى لَنَا طُرْقَنَا   أَعَانَهُ اللَّهُ، وإيَّانَا

ليته ترك لنا الطريق مفتوحة فنغادره، ويكون كل منا متوكلاً على الله عندئذ

١١٧ لا تشتر العبد إلا والعصا معه

قال المتنبي قبل خروجه من مصر بيوم واحد: ٢٨/ ٣٠

عِيدٌ! بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يا عِيدُ؟   بِمَا مَضَى، أَمْ، لأَمْرٍ، فِيكَ تَجْدِيدُ

إنه عيدٌ! فبأية حال عدت يا عيد! أعدت بما مضى لتتكرر الأحداث، أم لسبب ما، فيك تجديد؟ والسبب الغامض هو رحيل المتنبي سراً في اليوم التالي عن مصر. هذا البيت، الذي يكثر الاستشهاد به كلما جاء العيد، يحمل في صوغه شحنة براءة.. بدأ المتنبي بكلمة عيد.. فهي أول ما يخطر بالبال ليلة العيد، وتنهد بعدها، وسأل: بأية حال عدت إلينا يا عيد؟ هل عدت بالحال الماضية التي نعرفها، وهي البقاء في شبه سجن في مصر؟ أم أنه، لأمر مًّا من الأمور، سيكون لديك تجديد على الحال في هذه المرة، فيمكنني أن أفر من مصر؟

أَمّـا الأَحِبَّـةُ، فـالـبَـيْـدَاءُ دُونَـهُـمُ،   فَلَـيْـتَ دُونَـك بِـيـداً دُونَـهـا بِـيـدُ

أما أحبابي فالبيداء (الصحراء) دونهم (بيني وبينهم)، فليت دونك يا أيها العيد بيداً (صحارى) دونها صحارى أخرى. يقول: ليتك يا عيد بعيد عني لأنني لا أفرح بك لبعدي عن أحبتي

لَولا العُلَى لم تَجُبْ بي مَا أجوبُ بِها   وَجْنَـاءُ حَـرْفٌ، ولا جَـرْدَاءُ قَـيْـدُودُ

لولا السعي للعلى (للمجد) لم تجب (تقطع) بي ما أقطعه أنا بواسطتها من مسافات هذه الوجناء (الناقة الكبيرة الوجنات) الحرف (الناقة القوية)، ولا تلك الجرداء (الفرس القصيرة الشعر) القيدود (الفرس الطويلة). يقول: لولا سعيي للمجد لما قطعت المسافات

وكـانَ أَطْـيَـبَ مِـنْ سَـيْـفـي مُـعَـانَـقَـةً   أَشْـبـاهُ رَوْنَـقِـهِ الـغِـيـدُ الأَمَـالِـيـدُ

وكان يكون أطيب لي من مضاجعة سيفي (النوم وهو بجانبي) مضاجعة من يشبهن رونقه (صفاءه) من الغيد (الجميلات) الأماليد (النواعم)

لم يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلبي ولا كَبِدِي   شَـيْـئـاً تُـتَـيِّـمُـهُ عَـيْـنٌ، ولا جِـيـدُ

تتيمه: تلوعه، جيد: عنق

يَا سَاقِيَيَّ! أَخَمْرٌ في كُؤوسِكُمَا   أَمْ فـي كُـؤوسِـكُـمَـا هَـمٌّ وتَـسْـهِـيـدُ

يا ساقيي! هل هذا الذي في الكؤوس خمر أم هم وتسهيد (سهر)؟

أَصَـخْـرَةٌ أَنـا؟ مَـا لـي لا تُـحَـرِّكُـنـي   هَـذي الـمُـدامُ، ولا هـذي الأَغَـارِيـدُ

المدام: الخمر، الأغاريد: الأغاني

إذا أَرَدْتُ كُـمَـيْـتَ الـلَّـوْنِ صَـافِـيَـةً   وَجَدْتُهَا، وحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

إذا أردت كميت اللون صافية (الخمر الداكنة ليس لعكورة بل مع كونها صافية) فإنني أجدها، ولكن حبيب النفس مفقود

مَـاذَا لَقِـيـتُ مِـنَ الـدُّنْـيـا؟ وأَعْـجَـبُـهُ   أَنّـي بِـمَـا أَنـا شَـاكٍ مِـنْـهُ مَـحْـسُـودُ

ما هذا البلاء الذي لقيته من الدنيا؟ وأعجب البلاء أنني محسود على أمور أنا أشكو منها

أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ: خَـازِنـاً ويَـداً،   أَنـا الـغَـنِـيُّ، وأَمْـوَالـي الـمَـوَاعِـيـدُ

صرت أروح مثر (أكثر الأغنياء راحة): خازني (مُحاسِبي بلغة عصرنا) ويدي مرتاحان، فأنا غني ولكن أموالي هي مجرد مواعيد (وعود)

إنّـي نَـزَلْـتُ بِـكَـذَّابِـيـنَ ضَـيْـفُـهُـمُ،   عَنِ القِرَى وعَنِ التَّرْحَالِ، مَحْدُودُ

حللت بكذابين ضيفهم محدود (ممنوع) من القِرى (طعام الضيف) ومن الترحال

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأَيْدِي، وجودُهُمُ　　مِنَ اللِّسانِ؛ فَلا كانُوا ولا الجُودُ

كرم الرجال يكون من الأيدي، وأما هؤلاء فكرمهم من اللسان؛ فلا كانوا ولا كان الجود

ما يَقْبِضُ الموتُ نَفْساً مِنْ نُفوسِهِمُ　　إلَّا وفي يَدِهِ، مِنْ نَتْنِها، عُودُ

لا يقبض ملاك الموت نفساً من نفوس هؤلاء إلا وبيده عود يتناول به نفوسهم النتنة

أَكُلَّما اغتالَ عبدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ،　　أو خانَهُ، فَلَهُ في مِصْرَ تَمْهِيدُ

أكلما اغتال العبد سيده أو خانه فله في مصر تمهيد (ترتيب لحكمه بإبداء الطاعة له)؟

صَارَ الخَصِيُّ إِمَامَ الآبِقِينَ بِها　　فَالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ، والعَبْدُ مَعْبُودُ

صار الخصي إمام (رئيس) العبيد الآبقين (الهاربين) بها (بمصر)، وغدا الحر مستعبداً والعبد معبوداً

نَامَتْ نَواطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا　　فَقَدْ بَشِمْنَ، ومَا تَفْنَى العَنَاقِيدُ

نامت نواطير مصر (أشرافها/ يشبههم بحراس البساتين) وتركت ثعالب البلد تنهب، وبَشِمَت الثعالب (أتخمت)، والعناقيد لا تنفد والنهب مستمر

العَبْدُ لَيسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ　　لَوْ أَنَّهُ في ثِيابِ الحُرِّ مَوْلُودُ

العبد لا يصلح أن يكون أخاً لرجل حر، لو أن هذا الحر مولود حقاً في ثياب الحر (أصيل في حريته)

لا تَشْتَرِ العَبْدَ، إلَّا والعَصَا مَعَهُ　　إِنَّ العَبِيدَ لأَنْجَاسٌ مَناكِيدُ

أنجاس: قذرون، مناكيد: لا خير عندهم

ما كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنٍ　　يُسِيءُ بي فِيهِ عَبْدٌ، وَهْوَ مَحْمُودُ

ولا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فُقِدُوا　　وأَنَّ مِثْلَ أَبِي البَيْضَاءِ مَوْجُودُ

ما خطر ببالي أن تخلو البلد من الأشراف، وأن يكون مثل أبي البيضاء (يتهكم بكافور) موجوداً

وأَنَّ ذا الأَسْوَدَ المَثْقُوبَ مِشْفَرُهُ　　تُطِيعُهُ ذِي العَضَارِيطُ الرَّعَادِيدُ

وما خطر ببالي أن ذا (هذا) الأسود المثقوب مشفره (المشفر: شفة البعير) تطيعه ذي (هذه) العضاريط (الخدم الذين يخدمون مقابل أكلهم) الرعاديد (الجبناء)

جَوْعَانُ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي، ويُمْسِكُنِي　　لِكَيْ يُقَالَ: عَظِيمُ القَدْرِ مَقْصُودُ

كافور جوعان (كما يقال عن الذي نشأ في الفقر إنه «جوعان» أي طماع)، وهو يأكل من زادي الذي أتيت به، ومع ذلك يمسكني ويمنعني الرحيل لكي يقال إنه عظيم القدر تقصده الشعراء

وَيْلُمِّهـا خُطَّـةً، وَيْـلُـمِّ قـابِلِهَـا　　　لِمِثْلِهَـا خُلِقَ الـمَهْـرِيَّـةُ الـقُـودُ

ويلمها (وَيْل لأمها) من خطة (حالة)، والويل لأم قابلها (من يقبل بها)، وللفرار من مثل هذه الحالة خلق الله المهرية القود (الأبل الأصيلة الطويلة)

وعِنْدَها لَذَّ طَعْمَ الموتِ شَارِبُهُ　　　إنَّ الـمَـنِيَّـةَ عِـنْـدَ الـذُّلِّ قِـنْـدِيـدُ

عندها (بإزاء حالة كهذه) لذ الشخص الشارب طعم الموت (تلذذ به). طعم المنية (الموت) قنديد (عسل القصب) عند حصول الذل

مَنْ عَلَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً　　　أَقَوْمُهُ البِيـضُ، أَمْ آبَاؤُهُ الـصِّيـدُ

من أين للأسود المخصي بالمكارم؟ من قومه البيض (يتهكم بكافور) أم من آبائه الصيد (أجداده الأسياد)؟

أَمْ أُذْنُهُ فـي يَـدِ الـنَّـخَّـاسِ دَامِـيَـةً　　　أَمْ قَدْرُهُ، وَهْوَ بِـالـفَـلْـسَيْـنِ مَـرْدُودُ

أم علمته المكارم أذنه وهي في يد النخاس (تاجر العبيد) دامية (لكثرة ما يعركها النخاس، أو لأنه يثقبها)، أم علمه المكارم قدره الحقير إذ يساوِمُ فيه المشتري وبسبب زيادة فلسين على الثمن يرده ويرفض شراءه؟

أَوْلَـى الـلِّـئَـامِ كُـوَيْـفِـيـرٌ بِـمَـعْـذِرَةٍ　　　في كُلِّ لُؤْمٍ، وبَعْضُ العُذْرِ تَفْنِيدُ

أحق اللئام بالعذر في كل لؤم كويفير (كافور)، فهو عبد ولا يلام على ما بدر منه، ولكن بعض العذر تفنيد (توبيخ)، فأنا أعذره لأنه لئيم وليس هذا عذراً حقيقياً

وذَاكَ أَنَّ الـفُـحُولَ البِـيـضَ عَـاجِـزَةٌ　　　عَنِ الجَمِيلِ، فَكَيفَ الخِصْيَةُ السُّودُ

ويفسر لنا كيف يلتمس لكافور عذراً: الفحول (غير المخصيين) البيض (غير العبيد) عاجزون عن الجميل (المكارم)، فكيف بالخصية (المخصيين) السود؟ وكافور رجل ذو همة عالية وذو فهم عميق للبشر، وقد حكم مصر وقطعة من الشام عشرين سنة، وكان عادلاً، ولم يكن متوحشاً كعصره، بل كان ميالاً إلى الحلول الوسط، وكان ذكياً. ورأينا المتنبي يعود لهجائه مرة بعد مرة، في شعر من أقوى الشعر، وهذا الشعر صادق في التعبير عما في نفس المتنبي من تناقضات، وما المتنبي عليه من قلة المبدأ، ولكنه كاذب فيما ادعاه من جهل كافور ومن خسته. ونحن اخترنا هذه القصيدة وكثيراً غيرها لأنها شعر قوي. ولكننا لا نختار أن ندرسها لأطفالنا. قد كنتُ في الصف الثالث الابتدائي عندما كتب لنا معلم الخط على اللوح بيت: «لا تشتر العبد إلا والعصا معه»، فهمت معنى البيت؛ ورأيت ـ حتى في تلك السن الغضة ـ التناقض بين ما كنت عرفته من أن العبيد ناس مظلومون فقدوا حريتهم بالإكراه، والإسلام يقول إن كل الناس ولدوا أحراراً، وبين ما كتبه معلم الخط. لعل الأجدر بنا، ونحن نعرض للطلبة الكبار في السن شعرنا القديم، أن نضعه في إطاره التاريخي والنفسي، فلا نكتفي ببيان ما في الشعر من بلاغة وقوة، بل نلفت النظر إلى ما فيه من تهافت أخلاقي. نقادنا القدامى كانوا أقل احتفالاً بالفصل بين الحق والباطل في نقدهم الشعر. كانوا يدرسونه فنياً لا أخلاقياً

١١٨ ولكنه ضحك كالبكا

قال المتنبي عند وروده إلى الكوفة يصف منازل طريقه، ويهجو كافوراً في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمئة: ١٨/ ٣٥

أَلَا كُلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى فِدَى كُلِّ مَاشِيَةِ الهَيْذَبَى

لتكن كل ناقة تمشي الخيزلى (مشية ثقيلة) فدى لكل ناقة تمشي الهيذبى (مشية سريعة). يقول: فديت الناقة السريعة بالبطيئة، يريد أن يسرع

وكُلِّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ، ومَا بِيَ حُسْنُ المِشَى

وفديت كل نجاة (الناقة السريعة التي ينجو بها الإنسان) بجاوية (من بجاوة بالنوبة) خنوف (تقلب خفها في المشي)، وهذا ليس لأنني أحب حُسْن مشي النياق..

ولَكِنَّهُنَّ حِبَالُ الحياةِ وكَيْدُ العُدَاةِ، وَمَيْطُ الأَذَى

.. ولكن النياق حبال الحياة، وبهن أكيد العدى بالرحيل عن البلد الظالم، وأميط (أزيل) الأذى الذي يلحق بي

ضَرَبْتُ بِهَا التِّيهَ ضَرْبَ القِمارِ، إمَّا لِهَذا وإمَّا لِذَا

ضربت بالنياق التيه (صحراء سيناء) ضرب القمار (مقامراً)، فإما الفوز وإما الهلاك

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَاحَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا والعُلَى

فلما أنخنا (نزلنا) ركزنا رماحنا في الأرض مستريحين، قد ركزناها وإلى جانبها المكارم والعلى (المجد) الذي حققناه بالفرار من ظلم كافور

وبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا ونَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ العِدَى

وصرنا نقبل سيوفنا، ونمسحها من دماء الأعداء الذين قاتلناهم في الطريق

لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالعِرَاقِ ومَنْ بِالعَوَاصِمِ أَنِّي الفَتَى

كي تعلم مصر وأهل العراق والعواصم (منطقة بشمال سوريا/ وهي منطقة سيف الدولة) أنني أنا الفتى

وأَنِّي وَفَيْتُ وأَنِّي أَبَيْتُ وأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا

.. وأنني وفيت بما عاهدت عليه نفسي من ترك كافور، وأبيْت (رفضت الظلم) وأني عتوت (تجبرت) على من عتا (تجبر)

ومَا كُلُّ مَنْ قَال قَوْلاً وَفَى وَلَا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى

ليس كل من قال وفى، ولا كل من سيم خسفاً (كُلِّف قهراً) رفض القهر

وكـلُّ طَـرِيــقٍ أَتَــاهُ الــفَــتَــى   عَـلـى قَـدَرِ الـرِّجْلِ فـيـهِ الـخُـطَـى
بحسب عزم المرء يمضي في تحقيق طموحه

ونَــامَ الــخُـوَيْـدِمُ عَــنْ لَـيْـلِـنَـا   وقـد نَـامَ، قَـبْـلُ، عَـمًـى لا كَـرَى
فررنا من مصر وقد كان الخويدم (الخادم/كافور) نائماً عنا، وقبل ذلك كان نائماً من عماه (جهله) لا من الكرى (النعاس)

وكـانَ، عـلـى قُـرْبِـنَـا، بَـيْـنَـنـا   مَـهَـامِـهُ مِـنْ جَـهْـلِـهِ والـعَـمَـى
وكان بيني وبين كافور، رغم قربنا، مهامه (صحارى) من جهله وعماه

ومَاذَا بِمَصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ؟   ولَـكِـنَّـهُ ضَـحِـكٌ كَـالـبُـكَـا..
ماذا يوجد بمصر من المضحكات؟ (الجواب في الأبيات المقبلة). لكن الضحك عليها كالبكاء لأنها من شر البلية

بِـهَـا نَـبَـطِـيٌّ مِـنَ اهْـلِ الـسَّـوَادِ   يُـدَرِّسُ أَنْـسَـابَ أَهْـلِ الـعُـلَا
بمصر نبطي (من النبط الذين كانوا أقناناً/المقصود ابن حنزابة وزير كافور وكان عالماً بأنساب العرب، وهو بغدادي) من أهل السواد (سواد العراق/المنطقة الخصبة بين النهرين وفيها النبط أقنان الأرض) يدرس أنساب أهل العلا (الأشراف)

وأَسْـوَدُ مِـشْـفَـرُهُ نِـصْـفُـهُ   يُـقَـالُ لَـهُ: أنـتَ بَـدْرُ الـدُّجَـى
وبمصر رجل أسود مشفره (شفتاه) نصف جسمه، ويقول له الناس: أنت بدر الدجى

وشِـعْـرٍ مَـدَحْـتُ بِـهِ الـكَـرْكَـدَنَّ -   بَـيْـنَ الـقَـرِيـضِ وبَـيْـنَ الـرُّقَـى
ورب شعر مدحت به هذا الكركدن (وحيد القرن/يقصد كافوراً) هو شيء بين القريض (الشعر) والرقى (التعاويذ)، فشعره في كافور كان تعاويذ لتحقيق المصالح

فَـمَـا كـانَ ذَلِـكَ مَـدْحـاً لَـهُ   ولَـكِـنَّـهُ كـانَ هَـجْـوَ الـوَرَى
لم يكن شعري فيه مدحاً له بل هجاء للورى (للبشر) الذين يُلجئون شاعراً مثلي لمثل هذا الموقف

ومَـنْ جَـهِـلَـتْ نَـفْـسُـهُ قَـدْرَهُ   رَأَى غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مَـا لا يَـرَى
من اغتر بنفسه عمِيَ عن عيوبه، ورأى الناس فيه خصالاً لا يراها

١١٩ أعددت للغادرين أسيافا

نزل أبو الطيب في أرض حِسْمَى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي، فاستغوى وردان عبيد أبي الطيب، فجعلوا يسرقون من أمتعته، فلما شعر أبو الطيب بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فأجهزوا عليه، وقال في العبد الذي قتله: ٢/ ٨

أَعْـدَدْتُ لِـلْـغَـادِرِيـنَ أَسْـيَـافَـا   أَجْـدَعُ مِـنْـهُـمْ، بِـهِـنَّ، آنَـافَـا
أعددت للغادرين سيوفاً أجدع (أقطع) بها أنوفهم

إذا امْـــرُؤٌ رَاعَـــنــي بِــغَـــدْرَتِـــهِ أَوْرَدْتُـــهُ الـــغَـــايَـــةَ الـــتـــي خَـــافَـــا

إذا فاجأني شخص بغدرة، أوردته (أرسلته) إلى الغاية التي يخاف منها وهي الموت

١٢٠ ولا بد دون الشهد من إبر النحل

قال يمدح أبا الفوارس دِلِّير بن لَشْكَرَوَزّ، وكان قد أتى الكوفة لقتال الخارجي الذي نجم بها من بني كلاب، وانصرف الخارجي قبل وصول دلير إليها: ٩/ ٤٠

كَدَعْوَاكِ كُلٌّ يَدَّعِي صِحَّةَ العَقْلِ وَمَنْ ذَا الذي يَدْري بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

أيتها اللائمة دعواك (ادعاؤك) صحة العقل يدعيه كل الناس، ومن الذي يعرف ما لديه من جهل؟

تَقُولِينَ: مَا في الناسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ، تَجِدِي مِثْلِي

جدي: اعثري على

مُحِبٌّ كَنَى بِالبِيضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وبِالحُسْنِ في أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ

أنا محب كنى (عبر كنايةً) بلفظ «البيض» عن المرهفات (السيوف الحادة)، وبالحسن في أجسام الجميلات عن صقل السيف. يقول: عندما أتغزل «بالبيض» فإنما أعني السيوف، وعندما أصفهن بالحسن فإنما أعني الصقل في السيوف

وبِالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القَنَا، غَيْرَ أَنَّنِي جَنَاهَا أَحِبَّائي، وأَطْرَافُهَا رُسْلِي

وعبرت بكلمة «السمر» عن القنا (الرماح) السمر، ولكن أحبائي الحقيقيين هم جنى الرماح (ثمرتها)، وثمرة الرماح المجد، ورسلي إلى المجد هي أطراف الرماح المدببة

عَـدِمْـتُ فُؤادًا لـم تَبِتْ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ الثَّنَايَا الغُرِّ، والحَدَقِ النُّجْلِ

عدمت القلب الذي لم تعد فيه فضلة (بقية) إلا للثنايا الغر (الأسنان البيض) والحدق النجل (العيون الواسعة). يقول: ليتني أعدم قلبي إن كان لا يحب إلا النساء

ذَرِينِي أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ العُلَى فَصَعْبُ العُلَى في الصَّعْبِ والسَّهْلُ في السَّهْلِ

اتركيني أيتها اللائمة أنال ما لا يقدر أحد أن يناله من العلى (المجد)، فالأمجاد الكبيرة صعبة، والصغيرة سهلة

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ المَعَالِي رَخِيصَةً ولا بُدَّ، دُونَ الشَّهْدِ، مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

تريدين مني لقيان (الحصول على) المعالي (الأمجاد) رخيصةً! ولكن لا بد للحصول على الشهد من احتمال لسعات النحل

أَرَادَتْ كِـلابٌ أنْ تَـفُـوزَ بِـدَوْلَـةٍ   لِمَنْ تَرَكَتْ رَعْيَ الشُّوَيْهاتِ والإِبْلِ

أرادت قبيلة كلاب أن تكون لها دولة وأن تستقل بشؤونها. بالله عليكم لمن تركت هذه القبيلة رعي الشويهات (الماعز) والإبل؟ يسخر من الأعراب وهو يمدح رجلاً فارسياً. وسنراه يكرر هذا في مدحه لفارسي آخر هو ابن العميد. فرويدكم أيها المحبونَ المتنبي للعروبة! لا تقولوا إنه عربي شامخ معتز بعروبته. هذا الرجل شاعر عظيم، ولكنه عديم المبادئ؛ ويكفيه أنه مدح كافوراً واستجداه طويلاً، ثم هجاه بأقبح هجاء. فكان في مدحه منافقاً، وفي هجائه عنصرياً، وكاذباً. تعقيب أحمد عبد الرحيم: [أؤيدك تمامًا. كتبتُ مرةً عن أبي حيان التوحيدي: «هو مثقف عظيم، وإنسان وضيع». وشيء من هذا يصح مع المتنبي!]

أَبى رَبُّهَا أنْ يَتْرُكَ الوَحْشَ وَحْدَهَا   وأَنْ يُؤْمِنَ الضَّبَّ الخَبِيثَ مِنَ الأَكْلِ

يأبى رب كليب (الله) أن يترك الوحش بأمان في الصحراء، وأن يجعل الضب الخبيث (من زواحف الصحراء وكان الأعراب يأكلونه) في أمان من أن يؤكل، لذلك حرمهم الدولة. يقول: مشيئة الله أن تبقى قبيلة «كلاب» في الصحراء لتصيد الوحوش وتأكل الضباب

١٢١ وكثير من السؤال اشتياق

أنفذ سيف الدولة ابنه من حلب إلى الكوفة، ومعه هدية للمتنبي، وكان ذلك بعد خروجه من مصر ومفارقته لكافور، فقال يمدحه، وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة. وفي البداية يتغزل ويصف كيف أن رسوله أتى المحبوبة فعشقها فخانه فيها، ثم يصف الشمس، ثم يمدح: ٢٦/٤٢

مـا لَـنَـا! كُـلُّـنـا جَـوٍ يَـا رسـولُ   أنـا أهْـوى، وقـلـبُـكَ الـمَـتْـبُـولُ

ما لنا كلانا جوٍ (مصاب بالجوى/وجع العشق) أيها الرسول الذي أرسلته أنا لمعشوقتي. أنا أهواها، وقلبك متبول (هائم) بها أيضاً

كـلَّـمـا عـادَ مَـنْ بَـعَـثْـتُ إلـيـهـا   غَـارَ مِـنِّـي، وخَـانَ فـيـمـا يَـقُـولُ

كلما عاد رسولي من عندها كان مصاباً بالغيرة فخان في أداء جوابها

أَفْـسَـدَتْ بَـيْـنَـنـا الأمـانـاتِ عَـيْـنـا   هـا، وخَـانَـتْ قُـلُـوبَـهُـنَّ الـعُـقـولُ

أفسدت أمانة الصداقة بيننا عيناها وخانت العقول قلوب أصحابها، فصار عقل الرسول الذي يفكر بسرقة المعشوقة يخون قلبه الذي يحضه على الأمانة

تَشْتَكي ما اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ   قِ إليْها، والشَّوْقُ حيثُ النُّحولُ

أنت أيها الرسول تشتكي مثلما اشتكيت أنا من ألم الشوق إليها، ولكن الشوق الحقيقي موجود عند الشخص الذي يعاني نحولاً (هزالاً) بسببها وهو أنا

وإذا خَامَرَ الـهـوى قَلْـبَ صَبٍّ فَـعَـلَـيْـهِ لِـكُـلِّ عَـيْـنٍ دَلـيـلُ

إذا خامر (خالط) الهوى قلب صب (عاشق) فعلى العاشق دليل واضح تراه كل عين

زَوِّدِيـنـا مِـنْ حُـسْـنِ وَجْـهِـكِ مـا دا مَ، فَـحُـسْـنُ الـوُجُـوهِ حـالٌ تَـحُـولُ

زودينا من جمالك مدة دوامه، فجمال الوجه حال تحول (تتحول)

وَصِلِـيـنـا نَـصِـلْـكِ فـي هـذهِ الـدُّنْـ ـيَـا، فَـإِنَّ الـمُـقَـامَ فـيـهـا قَـلـيـلُ

وصلينا (اعشقينا) نعشقك في الدنيا، فالإقامة فيها محدودة

مَـنْ رَآهـا بِـعَـيْـنِـهـا شَـاقَـهُ الـقُـطَّـ ـانُ فـيـهـا، كَـمـا تَـشُـوقُ الـحُـمُـولُ

من رأى الدنيا بعينها (وضع نفسه مكانها) فسوف يشوقه (يمتعه) النظر إلى القاطنين (الساكنين) فيها مثلما نستمتع نحن برؤية الحمول (الإبل المحملة بالهوادج). يقول: الإقامة في الدنيا قليلة، والدنيا نفسها ترى سكانها يموتون ويرحلون بسرعة، مثلما نرى نحن الأقوام يرحلون، فالمسألة نسبية

إنْ تَـرَيْـنـي أَدِمْـتُ بَـعْـدَ بَـيـاضٍ فَـحَـمـيـدٌ مِـنَ الـقَـنـاةِ الـذُّبُـولُ

إن رأيتِ أيتها المحبوبة أنني أدمت (أصبحت أسمر) بعد بياض، فحميد (ممدوح) من القناة (الرمح) الذبول، فالرمح عندما تجف عصاه يصبح أسمر وذلك أجود له

صَـحِـبَـتْـنـي، عـلـى الـفَـلاةِ، فَـتَـاةٌ عَـادَةُ الـلـونِ عِـنْـدَهـا الـتَّـبْـدِيـلُ

صحبتي في الفلاة (الصحراء) فتاة (الشمس) عادتها في الألوان تبديلها فهي تجعل المرء أسمر

سَـتَـرَتْـكِ الـحِـجَـالُ عـنـهـا، ولَـكِـنْ بِـكِ مِـنْـهـا مِـنَ الـلَّـمَـى تَـقْـبـيـلُ

وأنتِ أيتها المحبوبة مستورة عن الشمس بالحجال (الستور)، ولكن بك تقبيل من الشمس هو اللمى (وهو سمرة محببة في الشفتين)

مِـثْـلُـهـا أَنْـتِ: لَـوَّحَـتْـنـي وأَسْـقَـمْـ ـتِ، وزَادتْ أَبْـهَـاكُـمـا الـعُـطْـبُـولُ

أنت مثل الشمس: هي لوحتني (غيرت لوني) وأنت أسقمتني (أمرضتني)، ولكن العطبول (الجميلة) وهي أبهاكما (أجملكما) زادت في فعلها عن الشمس

نَـحْـنُ أَدْرَى، وقـدْ سَـأَلْـنـا بِـنَـجْـدٍ: أَطَـويـلٌ طَـرِيـقُـنـا أَمْ يَـطُـولُ؟

كنا أدرى بالجواب عندما سألنا في صحراء نجد: هل طريقنا طويل حقاً أم نحن فقط نراه طويلاً؟

وكَـثـيـرٌ مِـنَ الـسُّـؤالِ اشـتِـيـاقٌ وكَـثـيـرٌ مِـنْ رَدِّهِ تَـعْـلِـيـلُ

وكثيرٌ من الأسئلة إنما يلقيها المرء لا ليعرف شيئاً بل لكثرة اشتياقه، وكثير من الردود تكون للتعليل (للتصبير). تعليق أحمد عبد الرحيم: «ما أرقَّ وأعذب!». تعقيبي: كأنني كسلت وأنا أشرح فلم أقف بهذا البيت لأصرخ صرخات الاستحسان المعهودة. هذا البيت وسابقه تحفة من تحف الشعر العربي

لا أَقَمْنا على مَكانٍ، وإنْ طا ب، ولا يُمْكِنُ المكانَ الرَّحيلُ

لم نتوقف في مكان حتى وإن طاب (كان طيباً) لأننا في عجلة، وللأسف لا يمكن للمكان الطيب أن يرحل معنا

كلَّما رَحَّبَتْ بِنا الرَّوْضُ قُلْنا: حلَبٌ قَصْدُنا، وأَنْتِ السَّبيلُ

كلما رحبت بنا الروض (البساتين) قلنا لها: حلب قصدنا (هدفنا) وأنتِ فقط السبيل (الطريق) نحو الهدف

فِيكِ مَرْعَى جِيادِنا والمَطَايا وإلَيْها وَجِيفُنا والذَّمِيلُ

فيك أيتها الرياض مرعى جيادنا (خيولنا) والمطايا (الإبل)، وإليها (إلى حلب) وجيفنا (ركض خيولنا) والذميل (سير إبلنا)

والمُسَمَّوْنَ بِالأَميرِ كَثيرٌ والأميرُ الذي بِها المَأمُولُ

اَلذي زُلْتُ عنهُ شَرْقاً وغَرْباً ونَداهُ مُقابِلي ما يَزُولُ

نداه: كرمه

كيفَ لا تَأْمَنُ العِرَاقُ ومِصْرٌ وسَرَاياكَ دونَها والخُيولُ

سراياك دونها: كتائبك أمامها تحميها

لوْ تَحَرَّفْتَ عَنْ طَريقِ الأَعَادي رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمْ والنَّخيلُ

لو تحرفت (ابتعدت) عن طريق الأعداء (الروم) لَرَبَطَ السدر (شجر النبق) بمصر والنخيل بالعراق خيلَهم (يقصد لربطوا خيلهم بأشجار مصر والعراق)

أنتَ طولَ الحياةِ لِلرُّومِ غَازٍ فَمَتى الوَعْدُ أنْ يَكونَ القُفُولُ

طول حياتك وأنت تغزو الروم، فمتى أنت موعود بالقفول (الرجوع)؟

وسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَعَلى أيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ

وهناك روم آخرون خلف ظهرك (هم الأعراب الذين يشنون الغزوات)، فعلى أي الجانبين تميل؟
تعليق أحمد عبد الرحيم: «من معجز أحمد!»

قَعَدَ الناسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيـ ـكَ، وقامتْ بِها القَنَا والنُّصُولُ

قعد (جبن) الناس عن أن يفعلوا مثل مساعيك (جهودك)، والذي قام بهذه المساعي القنا (الرماح) والنصول (السيوف)

نَغَّصَ البُعْدُ عنكَ قُرْبَ العَطَايا مَرْتَعِي مُخْصِبٌ، وجِسْمي هَزيلُ

بُعدي عنك نغص علي الاستمتاع بعطاياك القريبة التي ترسلها إلي، فمرتعي (مرعاي) خصب لكن جسمي هزيل (هداياك تصلني، لكنني من وحشة البعد نحيل مهزول)

مِنْ عَبيدِي، إنْ عِشْتَ لي، أَلْفُ كَافُو   رٍ، وَلـي مِـنْ نَـدَاكَ رِيـفٌ وَنِـيـلُ

إن عشتَ لي يا سيف الدولة فإنه سيصبح عندي من العبيد ألف من أمثال كافور، ولي من كرمك ريف كريف مصر ونيل كنيلها

١٢٢ خيراخ.. وخيراب

توفيت أخت سيف الدولة بميافارقين، وورد خبرها إلى الكوفة فقال أبو الطيب يرثيها ويعزيه بها، وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمئة: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ١٨/ ٤٤

يا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ! يا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ!   كِنَايَةً بِهِما عَنْ أشرَفِ النَّسَبِ

يا أخت خير الإخوة، ويا بنت خير الآباء، وبقولي هذا كنيت كناية (تلميحاً) عن أشرف نسب، ولم أذكر اسمك. كلما مررت بهذا البيت تذكرت قصة رواها لي أخي حسين صالح عن نادل بمقهى في بغداد كان يحدث زبائنه عن عظمة المتنبي، ويروي هذا البيت شاهداً.. يغمض عيناً نصف إغماضة ويميل برأسه ويقول: «يا أخت خَيْرَاخْ.. يا بنت خَيْرَابْ» كأن كلاً منهما كلمة واحدة، ويتعجب من فصاحة ذلك الشاعر. ونقيض ذلك أذكر أيضاً سيدة في الأردن قالت لي، وسمعتني أقرأ على التلفزيون شعراً للمتنبي، إنها لا تفهم المتنبي إلا قليلاً. وأنا لا ألوم ذلك النادل فهو حر في ذوقه، وللمرء أن يحب الشعر لأي سبب أراد. وأما السيدة فهي الشخص الذي أخاطبه وأنا أكتب شرح كل بيت

طَوَى الجَزِيرَةَ، حَتى جَاءني، خَبَرٌ   فَزِعْتُ فيهِ بِآمالي إلى الكَذِبِ

طوى (قطع) الجزيرة (منطقة بين الشام والعراق) حتى وصل إلي خبرٌ فزعت (التجأت) فيه (في شأنه) بآمالي إلى أن يكونَ كِذْبةً. تعليق أحمد عبد الرحيم: [لا أظن المتنبي إلا أنه بدأ ينظم القصيدة بهذا البيت (هو فيها السادس).. ففيه كل شِحنته العاطفية!]

حتى إذا لم يَدَعْ لي صِدْقُهُ أَمَلاً   شَرِقْتُ بالدَّمْعِ، حتى كادَ يَشْرَقُ بي

فلما لم يترك لي صدق الخبر مجالاً لتكذيبه بكيت حتى شرقت بدمعي، وسال دمعي نهراً حتى كاد الدمع نفسه يضيق بوجود جسمي وسط هذا التدفق

كأنَّ فَعْلَةَ لم تَمْلأْ مَواكِبُها   دِيارَ بَكْرٍ، ولم تخْلَعْ ولم تَهَبِ

كأن فعلة (يقصد خولة، وصنع صنيع أهل الصرف فجاء بوزن اسمها، والمرأة العربية الحرة يجب أن تكون بلا وجه وبلا اسم، حتى وهي ميتة!) كأنها، وقد ماتت الآن، لم تكن مواكبُها تملأ بلدة ديار بكر، وكأنها لم تكن تخلع (تمنح) ولم تكن تعطي الناس الأموال. تعليق آخر على «فعلة»: يا لسماجتك!

أَرَى العِرَاقَ طَويلَ الليلِ مُذْ نُعِيَتْ   فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الفِتْيَانِ في حَلَبِ

ليل العراق كله طويل منذ جاء خبر موتها، فكيف ليل سيف الدولة بحلب؟

يَظُنُّ أنَّ فُؤادي غَيْرُ مُلْتَهِبٍ   وأنَّ دَمْعَ جُفُوني غَيْرُ مُنْسَكِبِ

بَلَى! وحُرْمَةِ مَنْ كانتْ مُرَاعِيَةً   لِحُرْمَةِ المَجْدِ والقُصَّادِ والأدَبِ

بلى فؤادي ملتهب ودمعي منسكب وحرمة (وحق) من كانت ترعى حرمة من يقصدونها من الأدباء

وإنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثى لقد خُلِقَتْ   كَرِيمَةً، غَيْرَ أُنثى العقلِ والحَسَبِ

تعليق أحمد عبد الرحيم: [معنى مرذول! تبقى الأنوثة سُبَّةً!]

وإنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الغَلْبَاءُ عُنْصُرَها   فَإنَّ في الخمرِ معنىً ليسَ في العِنَبِ

إن تكن قبيلة تغلب الغلباء (الغليظة الرقبة المشهورة بالقسوة) هي أصل خولة فإن الحمدانيين فيهم كرم خصال يفوق ما في تغلب وإن كانوا منها، كالخمر التي فيها خواص غير موجودة في العنب الذي هو أصلها

فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةٌ   ولَيْتَ غائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لم تَغِبِ

خولة كانت شمساً أخرى بجانب شمس السماء، فليت الشمس الطالعة الآن غائبة، وليت خولة لم تغب

قد كانَ كُلُّ حِجَابٍ دونَ رُؤْيَتِها   فما قَنِعْتِ لها يا أَرْضُ بِالحُجُبِ

كان كل حجاب منصوباً لمنع رؤيتها، فهي سيدة مصونة، فما قنعت لها الأرض بكل هذه الحجب فضمتها في بطنها فكان التراب الحجاب الأكبر

يا أَحْسَنَ الصَّبْرِ زُرْ أَوْلَى القُلوبِ بِها   وقُلْ لِصَاحِبِهِ: يا أَنْفَعَ السُّحُبِ

يدعو الصبر أن يزور قلب سيف الدولة، ليقول الصبر للرجل: يا أنفع السحب (لما يهطل من يده من عطايا)

وأَكْرَمَ الناسِ، لا مُسْتَثْنِياً أحَداً   مِنَ الكرامِ سِوَى آبائِكَ النُّجُبِ

وقل له: يا أكرم الناس، ولا أستثني أحداً سوى آبائك النجب (الكرام)

قد كانَ قاسَمَكَ الشَّخْصَيْنِ دَهْرُهُما   وعاشَ دُرُّهُما المَفْدِيُّ بالذَّهَبِ

كان الدهر قد قاسمك الشخصين (أختيك) فأخذ أختاً هي كالذهب وأبقى أختاً هي كالدر (اللؤلؤ)، فكأن الذهب افتدى اللؤلؤ بنفسه. وكانت أخت أخرى لسيف الدولة ماتت قبل خولة، ورثاها المتنبي. يقول: إن الزمن قاسمك فأخذ أختاً وأبقى أختاً..

وعادَ في طَلَبِ المَتْرُوكِ تَارِكُهُ   إنَّا لَنَغْفُلُ، والأيَّامُ في الطَّلَبِ

وعاد الدهر يطلب الشخص المتروك. نحن نغفل (نسهو) ولكن الأيام (الزمن) لا تسهو عنا وتجدُّ في طلبنا وملاحقتنا

تَخالَفَ الناسُ، حتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ   إلَّا على شَجَبٍ، والخُلْفُ في الشَّجَبِ

الناس تخالفوا (اختلفوا) في كل شيء، إلا على الشجب (الموت) فحصوله مؤكد. ثم وقع الخلف (الاختلاف) في حقيقة الموت

فَقِيلَ: تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً   وقِيلَ: تَشْرَكُ جِسْمَ المرءِ في العَطَبِ

قال قوم إن نفس الإنسان تبقى سالمة بعد الموت، وقال آخرون: بل تشارك الجسم في العطب (التلف)

وَمَنْ تَفَكَّرَ في الدُّنيا، ومُهْجَتِهِ   أَقَامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ والتَّعَبِ

ومن فكر ملياً في الدنيا وفي مهجته (روحه) وقف محتاراً بين العجز عن الإدراك والتعب من التفكير

١٢٣ الثور والجواد

أنفذ سيف الدولة إلى المتنبي كتاباً بخطه إلى الكوفة يسأله المسير إليه، فأجابه بهذه القصيدة، وأنفذها اليه في ميافارقين، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة: ٧/ ٤٤

فَهِمْتُ الكتابَ، أبَرَّ الكُتُبْ   فَسَمْعاً لأمرِ أميرِ العربْ

فهمت مغزى رسالتك وهي أكثر الرسائل براً بما فيها من وعد، فسمعاً لأمر أمير العرب

وطَوْعاً لَهُ، وابْتِهاجاً بِهِ   وإنْ قَصَّرَ الفعلُ عمَّا وَجَبْ

أعدك بالطاعة، وإني لمبتهج بكتابك، وإن قصرت عما وجب علي من القدوم عليك

وما عاقَني غَيْرُ خوفِ الوُشاةِ   وإنَّ الوِشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ

والذي عاقني خوف الوشاة (ناقلي الكلام)، والوشايات تفتح الطريق للافتراء

وتَكْثيرُ قومٍ وتَقْليلُهُمْ   وتَقْرِيبُهُمْ بَيْنَنا والخَبَبْ

ويعوقني عن القدوم إليك نقل القوم الكلام وزيادتهم وتقليلهم فيه (تحريفه) وتقريبهم (سعيهم/ التقريب نوع من سير الأبل) بيننا والخبب (نوع آخر من سير الإبل)، يقول: الناس ووشاياتهم وسعيهم بيني وبينك بالفساد.. كل هذا يعوقني

وقد كانَ يَنْصُرُهم سَمْعُهُ   ويَنْصُرُني قَلْبُهُ والحَسَبْ

وكان سَمْع سيف الدولة ينصرهم (فقد كان يرخي أذنه للوشاة)، وكان ينصرني أنا قلبه وحسبه (كرم أصله)

ومَا لَاقَني بلدٌ بَعْدَكُمْ   ولا اعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمايَ رَبّ

وما لاقني (أمسكني) بلد بعدكم، ولا اعتضت (استبدلت) من رب (صاحب) نعماي رباً آخر

وَمَـنْ رَكِـبَ الـثَّـوْرَ بَـعْـدَ الـجَـوا ... دِ، أَنْـكَـرَ أَظْـلافَـهُ والـغَـبَـبْ

والذي يركب الثور (كافوراً) بعد الجواد (سيف الدولة) سينكر (يستهجن) أظلافه (أقدام الثور المشقوقة) والغبب (الجلد المتدلي تحت رقبة الثور). المتنبي ذكي ولا يركب حماقة كهذه، بأن يقول لسيف الدولة إنه كان يركبه ثم ركب ثوراً، إلا وهو يعرف ما يقول. لكن، غلبه حبه لفنه، ولم يستطع تفويت هذه الصورة. على أنه بلا شك أحمق وفنان

١٢٤ وأراد لي.. فأردْتُ أن أتخيرا

خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق، فراسله ابن العميد، أبو الفضل محمد بن الحسين، وزير ركن الدولة من أرجان، فسار إليه وقال يمدحه: ٤٧/١٤

بـادٍ هَـوَاكَ، صَـبَـرْتَ أم لـم تَـصْـبِـرَا ... وبُكَاكَ، إنْ لم يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى

هواك ظاهر سواء أصبرت أم لم تصبرْ، وبكاؤك ظاهر حتى لو لم يجر دمعك

كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وابْتِسَامُكَ صَاحِبَاً ... لَـمَّـا رَآهُ، وفـي الـحَـشَـا مَـا لا يُـرَى

وكثيراً ما غر صبرك وابتسامك صاحباً لك رآك تبتسم على أن في حشاك (قلبك) ما لا يُرى بالعين

ولـو اسْـتَـطَـعْـتُ، إذِ اغْـتَـدَتْ رُوَّادُهُـمْ ... لَـمَـنَـعْـتُ كُـلَّ سَـحَـابَـةٍ أَنْ تَـقْـطُـرَا

لو استطعت عندما خرج رواد قبيلة المحبوبة صباحاً للبحث عن العشب تمهيداً للرحيل، لو استطعت لمنعت السحاب من أن يمطر على الأرض البعيدة حتى لا يرحلوا إليها

فَإِذَا الـسَّـحَـابُ أَخُـو غُـرَابِ فِـرَاقِـهِـمْ ... جَـعَـلَ الـصِّـيَـاحَ بِـبَـيْـنِـهِـمْ أَنْ يُـمْـطِـرَا

فإذا بالسحاب يشابه غراب البين، فظهوره ينذر بأنهم سيفارقون ويتبعون المطر. وقد جعل السحاب إنزال المطر طريقته في الصياح والنعيق إيذاناً بالرحيل

وإِذَا الـحَـمَـائِلُ مَـا يَـخِـدْنَ بِـنَـفْـنَـفٍ ... إلَّا شَـقَـقْـنَ عَـلَـيْـهِ ثَـوْبَـاً أَخْـضَـرَا

وإذا بالحمائل (الهوادج) ما يخدن (يمشين) بنفنف (بوادٍ) إلا شققن ثوبه الأخضر (فالإبل ترعى وهي تمشي فتصبح الأرض الخضراء مشقوقة في وسطها لغياب العشب الذي رعته الإبل)

أَعْطَى الزَّمانُ، فَمَا قَبِلْتُ عَطَاءَهُ ... وأَرَادَ لـي، فَـأَرَدْتُ أَنْ أَتَـخَـيَّـرَا

أعطاني الزمان فرصاً فلم أقبلها، وأراد لي، سمح لي، بأن أحصل على الرزق من عدة أوجه، لكنني وقفت أتأمل كي أختار الأفضل

أَنْـتَ الـوَحِـيـدُ إذا رَكِـبْـتَ طَـرِيـقَـةً ... وَمَنِ الرَّدِيفُ وقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا

يا ابن العميد أنت متفرد إذا انتهجت نهجاً، ومن ذا يكون رديفك (الراكب خلفك) وأنت قد ركبت أسداً، وانتهجت طريقاً صعباً

قَطَفَ الرِّجَالُ القَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وقَطَفْتَ أنتَ القَولَ لَمَّا نَوَّرَا

الناس يقولون كلاماً عادياً، وأنت تأتي بالمعاني المبتكرة. فالنبت وقت نضجه رخيص في السوق تأكل منه كل الناس، ولكن البواكير لا تتاح إلا للقلة. تسويد أ. عبد الرحيم

فَهُوَ المُشَيَّعُ بِالمَسَامِعِ إنْ مَضَى وَهُوَ المُضَاعَفُ حُسْنُهُ إنْ كُرِّرَا

فكلامك مشيع (متبوع) بالمسامع (الآذان) إن مضى (انتهى) فكأن الآذان تواصل متابعتها لكلامك اشتهاء للمزيد منه، وجمال كلامك يتضاعف إذا تكرر

وإذَا سَكَتَّ، فَإنَّ أَبْلَغَ خَاطِبٍ قَلَمٌ لَكَ اتَّخَذَ الأَنَامِلَ مِنْبَرا

وإذا سكت فإن أبلغ الخطباء هو قلمك الذي اتخذ من أصابعك منبراً له

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرَابِ أَنّيَ بَعْدَهَا جَالَسْتُ رِسْطَالِيسَ والإسْكَنْدَرَا

من ذا يبلغ الأعراب الذين عاشرتهم حيناً أنني جالست أرسطوطاليس والإسكندر المقدوني في شخص ابن العميد، فهو فيلسوف كالأول، وقائد ناجح كالثاني

ومَلِلْتُ نَحْرَ عِشَارِهَا، فَأَضَافَنِي مَنْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضَارَ لِمَنْ قَرَى

وأنني مللت من نحر (ذبح) عشار الإبل (الإبل الحامل لعشرة أشهر)، فأضافني (أنزلني ضيفاً) هذا الذي ينحر بدل الجمال البدر النضار (أكياس الذهب الخالص) لمن قرى (لمن أطعم من ضيوف)

وَسَمِعْتُ بَطْلَيْمُوسَ، دَارِسَ كُتْبِهِ مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا

وسمعت بطليموس (عالم الفلك اليوناني صاحب كتاب المجسطي)، سمعته من خلال دارس كتبه (ابن العميد). وابن العميد صاحب ملك، وعارف بالبداوة، وعارف بالحضارة

ولَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِينَ، كَأَنَّمَا رَدَّ الإلَهُ نُفُوسَهُمْ والأَعْصُرَا

ولقيت في شخص ابن العميد كل الفضلاء، فكأنما رد الله نفوسهم وعصورهم في شخص هذا الرجل

١٢٥ غريب الوجه واليد واللسان

قال المتنبي يصف شعب بوَّان، وهو وادٍ قَطَعه في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز: ٤٨/١٥

مَغَانِي الشِّعْبِ، طِيباً، في المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنْ الزَّمَانِ

مغاني (بساتين) الشعب (الوادي) هي في الطيب بالنسبة للمغاني الأخرى بمنزلة الربيع من الزمان. يقول: إن جمال مغاني شعب بوان بالنسبة للمغاني كلها، مثل جمال الربيع بالنسبة للفصول كلها

ولَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ

لكنني أنا الفتى العربي غريب الوجه بين سكانها، فوجهي أسمر؛ وغريب اليد لأنه ليس في ملك يدي هنا شيء؛ وغريب اللسان لأنهم يتكلمون الفارسية

مَـلاعِـبُ جِـنَّـةٍ، لـو سَـارَ فِـيـهـا   سُـلَـيْـمـانٌ لَـسَـارَ بِـتَـرْجُـمـانِ

هذه ملاعب للجِنَّة (الجن)، ولو سار فيها سليمان الحكيم الذي يعرف كل اللغات حتى لغات الطير لاحتاج لترجمان لكثرة ما فيها من أصناف الحيوان، وربما أيضاً لأن أهلها يتكلمون بكلام غريب لا يفهم المتنبي منه حرفاً

طَـبَـتْ فُـرْسـانَـنَـا والـخَـيْـلَ حـتـى   خَـشِـيتُ، وإنْ كَـرُمْـنَ، مِـنَ الحِـرَانِ

طبت (استمالت) هذه المغاني فرساننا وما يركبون من خيل، حتى لقد خشيت ـ وإن كانت الخيول كريمة ـ من حرانها (وقوفها وعصيانها الأمر بالسير)

غَـدَوْنَـا تَـنْـفُـضُ الأَغْـصَـانُ فِـيـهـا   عـلـى أَعْـرَافِـهـا مِـثْـلَ الـجُـمَـانِ

غدونا في الصباح بينما الأغصان تنفض على أعراف الخيل (شعر أعناقها) ما يشبه اللؤلؤ من ضوء يتسلل بين الأغصان

فَـسِـرْتُ، وقـد حَـجَـبْـنَ الـحَـرَّ عَـنِّـي   وجِـئْـنَ مِـنَ الـضِّـيـاءِ بِـمـا كَـفَـانـي

فسرت وقد حجبت الأغصان الحر، ولكنها سمحت من الضوء بما يكفي

وأَلْـقَـى الـشَّـرْقُ مِـنْـهـا فـي ثِـيَـابـي   دَنَـانِـيـراً تَـفِـرُّ مِـنَ الـبَـنَـانِ

ورمى الشرق من الشمس على ثيابي دنانير (يشبه بقع الضوء المدورة بالدنانير) تفر من البنان (الأصابع)

لَـهَـا ثَـمَـرٌ تُـشِـيـرُ إِلَـيْـكَ مِـنْـهُ   بِـأَشْـرِبَـةٍ وَقَـفْـنَ بِـلا أَوَانِ

للأغصان ثمر تلفت نظرك إليه بأشربة (عصائر) وقفت بدون الأواني. يقول: إن هذا الثمر من عنب وغيره رقيق القشر ويبدو عصيره صافياً، واقفاً هكذا دون وجود الأواني

وأَمْـواهٌ تَـصِـلُّ بِـهَـا حَـصَـاهَـا   صَـلِـيلَ الـحَـلْـيِ فـي أَيْـدِي الـغَـوَانـي

وفيها مياه تصل (تخرج صوتاً كصوت الأساور) بها الحصى، مثل صليل الحَلْي (الحُلِيّ) في أيدي الغواني (الجميلات)

ولَـو كـانَـتْ دمـشـقَ ثَـنَـى عِـنَـانـي   لَـبِـيـقُ الـثَّـرْدِ صِـيـنـيُّ الـجِـفَـانِ

لو كانت هذه دمشق لأمسك بعناني (مقود فرسي) وساقه إلى بيته رجل لبيق الثرد (بارع في صنع الثريد) صيني الجفان (أوعية داره من الخزف الصيني)

إذا غَـنَّـى الـحَـمَـامُ الـوُرْقُ فِـيـهـا   أَجَـابَـتْـهُ أَغَـانِـيُّ الـقِـيَـانِ

في دمشق إذا غنى الحمام الورق (الحمام) أجابته القيان (المغنيات) بأغانيهن

ومَـنْ بِـالـشِّـعْـبِ أَحْـوَجُ مِـنْ حَـمَـامٍ   إذا غَـنَّـى ونَـاحَ إِلَـى الـبَـيَـانِ

ولكن الناس الذين في شعب بوان في فارس أحوج في غنائهم أو نوحهم إلى المترجم من حاجة الحَمام إليه (فكلامهم أغمض على الفهم من غناء الحمام)

وقـد يَـتَـقَـارَبُ الـوَصْـفَـانِ جِـدَّاً   وَمَـوْصُـوفَـاهُـمَـا مُـتَـبَـاعِـدَانِ

ففي دمشق غناء وهنا غناء، ولكن ما أبعد الفرق بينهما، قد يتقارب الوصفان لكن الشيئين الموصوفين متباعدان

يَـقُـولُ بِـشِـعْـبِ بَـوَّانٍ حِـصَـانـي: أَعَـنْ هـذا يُـسَـارُ إلـى الـطِّـعَـانِ

يقول حصاني وهو في شعب بوان: أمعقول أن نسير ونترك هذه البساتين ونذهب للطعان (الحرب)؟

أَبُـوكُـمْ آدَمُ سَـنَّ الـمَـعَـاصـي   وعَـلَّـمَـكُـمْ مُـفَـارَقَـةَ الـجِـنَـانِ

أيها البشر ـ يقول الحصان ـ أبوكم آدم سن (بدأ) المعاصي (بأن أكل التفاحة وخرج من الجنة) وعلمكم كيف تفارقون الجنان، فظللتم تفعلون فعله: تتركون مكاناً كشعب بوان وتنطلقون إلى الحرب

١٢٦ لأن رحيلي كان عن حلب غدرا

قال صاحب «الصبح المنبي»: وقد وَجدتُ له قصيدتين في هجاء كافور ومدح سيف الدولة نقلتهما من خط أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري وذكر أنهما وجدتا في رحله لما قتل وكان قد نظمهما بواسط، وهذه إحداهما: ١٦/ ٣١

أَفِيقَا، خُمَارُ الهَمِّ بَغَّضَني الخَمْرَا   وسُكْرِي مِنَ الأيَّامِ جَنَّبَني السُّكْرَا

يا صاحبيَّ أفيقا من سكركما فخمار الهم (صداع السكران في اليوم التالي) ـ وخمار المتنبي من الهموم لا من الخمر ـ جعلني أكره الخمر، وسكري من مصائب الزمن جنبني السكر الحقيقي

تَـسُـرُّ خَـلِـيـلَـيَّ الـمُـدَامَـةُ، والـذي   بِـقَـلْـبِـيَ يَـأْبَـى أَنْ أُسَـرَّ كَـمَـا سُـرَّا

صاحباي يشعران بالسرور بشرب المدامة (الخمر)، وما بقلبي من هم يأبى علي السرور كما سُرَّا هما

لَبِسْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ أَخْشَنَ مَلْبَسٍ   فَـعَـرَّقْـنَـني نَـابَـاً، ومَـزَّقْـنَـني ظُـفْـرا

لبست صروف (مصائب) الدهر فكانت أخشن ملبس، لقد عرقتني المصائب (نزعت لحمي عن عظامي) بأنيابها، ومزقتني بأظفارها

سَدِكْتُ بِصَرْفِ الدَّهْرِ طِفْلاً ويَافِعَاً   فَأَفْنَيْتُهُ عَزْمَاً، ولـم يُفْنِني صَبْرَا

سدكت (لزمت) بمصائب الدهر طفلاً وشاباً، فأفنيت الدهر بعزمي، ولم يُفْنِ الدهر صبري

أُريـدُ مِـنَ الأيـامِ مَـا لا يُـريـدُهُ   سِوَايَ، ولا يَجْري بِخَاطِرِهِ فِكْرَا

أريد من الزمن ما لا يريده سواي، ولا يجري حتى في خاطره

وَمَنْ كانَ عَزْمي بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ   وخَيَّلَ طُولَ الأَرْضِ في عَيْنِهِ شِبْرَا

من كان له عزم كعزمي بين جنبيه (في قلبه) فالعزم سيحثه على السعي، وسيجعل طول الأرض شبراً في عينه

وَمِصْرُ، لَعَمْرِي، أَهْلُ كُلِّ عَجِيبَةٍ   ولا مِثْلَ ذَا المَخْصِيِّ أُعْجُوبَةً بِكْرَا

مصر بلد كل العجائب، ولكن لا أعجوبة فيها مثل هذا المخصي فهو أعجوبة بكر (لا مثيل لها)

يُـعَـدُّ إذا عُـدَّ الـعَـجَـائِـبُ أَوَّلاً   كَمَا يُبْتَدَا في العَدِّ بِالإصْبَعِ الصُّغْرَى

ويعد كافور ـ إذا عددنا العجائب ـ في المقام الأول، ليس لعلو شأنه.. فنحن نبدأ العد على أصابعنا بالإصبع الصغرى

فَيَا هِرْمِلَ الدُّنْيَا، وَيَا عِبْرَةَ الوَرَى   وَيَا أَيُّها المَخْصِيُّ! مَنْ أُمُّكَ البَظْرَا

يا هرمل (المرأة العجوز) الدنيا ويا عبرة الورى (البشر)، ويا أيها المخصي من هي أمك البظراء (ذات البظر المسترخي)

نُـوَيْـبِـيَّـةٌ لـم تَـدْرِ أَنَّ بُـنَـيَّـهَـا الـنُّــ   ـوَيْبِيَّ، دونَ اللَّهِ، يُعْبَدُ في مِصْرَا

إنها نويبية (نوبية/من بلاد النوبة) لا تدري أن ابنها النوبي يعبد في مصر قبل الله

ولِـلَّـهِ آيَـاتٌ، ولَـيْـسَ كَـهـذِهِ   فَإِنَّكَ، يا كافورُ، آيَتُهُ الكُبْرَى

لله آيات (معجزات)، وأنت في وضعك هذا معجزة كبرى

وأَكْفُرُ يا كافورُ حينَ تَلُوحُ لي   فَفَارَقْتُ، مُذْ فارقْتُكَ، الشِّرْكَ والكُفْرَا

حين أراك كنت أكفر (إذ أرى الله أعطاك الملك بلا استحقاق)، والآن بعد أن فارقتك فارقت الشرك والكفر

عَثَرْتُ بِسَيْرِي نَحْوَ مِصْرَ، فَلَا لَعاً   بِهَا، ولَعاً بِالسَّيْرِ عَنْها، ولا عَثْرَا

ذهابي إلى مصر كان عثرة (غلطة) فلا لعاً (لا قومة منها) ـ يقولون للمتعثر «لعاً» كما نقول اليوم «الله» ـ، وليساعدني الزمن في السير عن مصر ولا أتعثر

وفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ   وأَكْـرَمَـهُـمْ طُـرّاً لِألأَمِـهِـمْ طُـرَّا

لقد فارقت سيف الدولة وهو خير الناس، وقصدت شرهم، فارقت أكرمهم طراً (جميعاً) لألأمهم طراً

فَعَاقَبَنِي المَخْصِيُّ بِالغَدْرِ جَازِيَاً   لِأَنَّ رَحِيلِي كانَ عَنْ حَلَبٍ غَدْرَا

فعاقبني كافور بأن غدر بي، وهذا جزائي لأن رحيلي عن حلب كان غدراً بسيف الدولة

وقَدْ أُرِيَ الخِنْزِيرُ أَنِّي مَدَحْتُهُ   ولو عَلِمُوا، قد كانَ يُهْجَى بِمَا يُطْرَى

وقد أرى الناس كافوراً أنني مدحته، فهو لا يفهم مدحاً من قدح، ولكن الناس كانوا يفسرون له، ولو علم هؤلاء الناس مغزى كلامي لعلموا أنني كنت أهجوه بما كان يطرى (يمدَح) به

١٢٧ القاتلة

قال المتنبي يهجو ضبة العتبى، وكان أبو الطيب اجتاز بالطف فنزل بأصدقاء له، وسارت خيلهم إلى ضبة فدخل حصنه وشتمهم. وضبة هذا قُتل أبوه وسبيت أمه ثم ولدته وهي في السبي، فقال أبو الطيب في جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة: ١٣/ ٣٩

مَـا أَنْـصَـفَ الـقَـوْمُ ضَـبَّـةْ وأُمَّـهُ الـطُّـرْطُـبَّـةْ

لم ينصف الناس ضبة هذا، ولا انصفوا أمه الطرطبة (المسترخية الثديين)

ومَـا عَـلَـيْـكَ مِـنَ الـقَـتْـلِ إِنَّـمَـا هِـيَ ضَـرْبَـةْ

يا ضبة! لماذا أنت مغتاظ لقتلهم أباك؟ إنها مجرد ضربة سيف (يسخر منه، قائلاً إن ضبَّة لا يعرف معنى الثأر للحفاظ على الشرف)

ومَـا عَـلَـيْـكَ مِـنَ الـغَـدْرِ، إِنَّـمَـا هِـيَ سُـبَّـةْ

ولماذا تخاف أن يقال إنك غادر، هي مجرد سبة (عار)

ومَـا يَـشُـقُّ عـلـى الـكَـلْـبِ أَنْ يَـكُـونَ ابْـنَ كَـلْـبَـةْ

وليس يشق (يصعب) على الكلب أن يكون ابن كلبة، فذلك وضع طبيعي

مَـا ضَـرَّهَـا مَـنْ أَتَـاهَـا وإِنَّـمَـا ضَـرَّ صُـلْـبَـهْ

وأمك لا يضرها من أتاها من الناس، بل يضر صلبه

ولَـيْـسَ بَـيْـنَ هَـلُـوكٍ وحُـرَّةٍ غَـيْـرُ خِـطْـبَـةْ

والفارق بين الهلوك (العاهرة) وبين المرأة الحرة خطبة

وكُـنْـتَ تَـنْـخُـرُ تِـيـهَـاً فَـصِـرْتَ تَـضْـرِطُ رَهْـبَـةْ

كنت تنخر (تخرج صوتاً من أنفك) تيها (تكبراً) فالآن تضرط رهبة (خوفاً)

وإِنْ بَـعُـدْنَـا قَـلِـيـلاً حَـمَـلْـتَ رُمْـحَـاً وحَـرْبَـةْ

إنْ أَوْحَـشَـتْـكَ الـمَـعَـالِـي فَـإِنَّـهَـا دارُ غُـرْبَـهْ

المعالي (الأمجاد) موحشة لك لأنك غريب فيها

أوْ آنَـسَـتْـكَ الـمَـخَـازي فَـإِنَّـهـا لَـكَ نِـسْـبَـةْ

وأنت تأنس بالمخازي لأنها هي نسبك

وإِنْ عَـرَفْـتَ مُـرَادِي تَـكَـشَّـفَـتْ عَـنْـكَ كُـرْبَـةْ

إن فهمت شعري انكشفت كربتك (ضيقك) فأنت لا تبالي بالشتم

فَـمَـنْ يُـبَـالـي بِـذَمٍّ إذا تَـعَـوَّدَ كَـسْـبَـهْ
وإنْ جَـهِـلْـتَ مُـرَادي فَـإِنَّـهُ بِـكَ أَشْـبَـهْ

وإن جهلت مرادي بهذا الشعر فهذا أشبه بك (أليق بك) لأنك جاهل

١٢٨ ما أجدر الأيام والليالي

قال المتنبي يمدح عضد الدولة ويذكر خروجه للصيد في منطقة دَشْت الأَرْزَن شمال غرب شيراز: ١١٨/٢١

مـا أَجـدَرَ الأيـامَ والـلـيـالـي
بـأنْ تـقـولَ: مَـا لَـهُ، ومَـا لـي

ما أجدر الزمن بأن يقول: مالي وللمتنبي ولماذا أعانده؟

لا أنْ يـكـونَ هَـكَـذا مَـقَـالـي

أما أنا فلا أقول ذلك، ولا أشكو من الزمن لقوتي وقوة صبري

فَـتـىً بِـنِـيـرانِ الـحـروبِ صـالِ
مِـنـهـا شـرابـي وبِـهَـا اغـتِـسَـالـي

أنا فتي اصطلى بنار الحرب فمنها أشرب ومنها أغتسل

وكـيـفَ لا، وإنَّـمـا إدْلالـي
بِـفَـارسِ «الـمـجـروحِ» و«الـشَّـمـالِ»
أبـي شُـجَـاعٍ قـاتِـلِ الأبْـطـالِ

كيف لا يكون ذلك وإدلالي (استنادي) هو بفارس المجروح والشمال (اسم فرسين لعضد الدولة)

فَـوَحْـشُ نَـجْـدٍ مِـنْـهُ فـي بَـلْـبَـالِ
يَـخَـفْـنَ فـي سَـلْـمَـى، وفـي قِـيَـالِ

الحيوانات البرية في نجد في بلبال (خوف) من عضد الدولة رغم بعد بلادها عنه، وهي تخاف في سلمى وفي قيال (اسم جبلين في بلاد العرب)

يَـسْـمَـعْـنَ مِـنْ أخـبـارِهِ الأَزْوَالِ
ما يَـبْـعَـثُ الـخُـرْسَ عـلـى الـسُّـؤالِ
فُـحـولُـهـا والـعُـوذُ والـمَـتَـالـي

تسمع الحيوانات أخباره الأزوال (العجيبة) مما يبعثها، وهي الخرساء، على السؤال عن سره: فحول الإبل تسأل والعوذ (النياق الصغيرة) تسأل، والمتالي (النياق الأمات التي تتلوها وتلحقها صغارها) تسأل

تَـوَدُّ لـو يُـتْـحِـفُـهـا بِـوَالِ
يَـرْكَـبُـهـا بِـالـخُـطْـمِ والـرِّحَـالِ
يُـؤْمِـنُـهـا مِـنْ هـذِه الأهْـوالِ
ويَـخْـمُـسُ الـعُـشْـبَ، ولا تُـبَـالـي

تود هذه الحيوانات لو يبعث عضد الدولة إليها والياً يجعلها مركوبة ومذللة بالخطم (اللجم) والرحال (السروج)، فتعيش آمنة من أهوال الصيد، والوالي يخمس (يفرض ضريبة الخمس) حتى على العشب، ولكنها لا تبالي بذلك

لـو شئـتَ صِدْتَ الأُسْـدَ بِـالـثَّعـالـي
أو شـئـتَ غَـرَّقْـتَ الـعِـدَى بِـالآلِ

لو شئت أيها الأمير لصدت الأسود بالثعالي (بالثعالب) فأنت قادر حتى على المستحيلات، ولو شئت غرقت الأعداء بالآل (بالسراب) رغم أن السراب ليس ماء بل وهم

فَـخْـرُ الـفَـتَـى بِـالـنَّـفْـسِ والأفـعـالِ
مِـنْ قَـبْـلِـهِ بِـالـعَـمِّ والأخْـوالِ

وفخر الإنسان بأفعاله هو قبل افتخاره بعمه وخاله

١٢٩ نحن بنو الموتى

توفيت عمة عضد الدولة ببغداد، فقال المتنبي يرثيها ويعزيه بها: (نسبة ما اخترناه إلى عدد أبيات القصيدة) ٣٥/١٣

آخِـرُ مَـا الـمَـلْـكُ مُـعَـزًّى بِـهِ   هَـذا الـذي أثَّـرَ فـي قَـلْـبِـهِ

ليكن هذا آخر الأحزان التي يعزَّى بها الملك، وهو حزن أثر في قلبه

لا جَـزَعـاً، بَـلْ أنَـفـاً؛ شَـابَـهُ   أنْ يَـقْـدِرَ الـدَّهْـرُ عـلـى غَـصْـبِـهِ

ولم يؤثر الحزن فيه جزعاً (خوفاً وارتباكاً) بل أنفاً (ترفعاً)، وقد شابه (أقلقه) أن يكون الدهر قد استطاع غصبه (قهره)

لا بُـدَّ لِـلإنْـسَـانِ مِـنْ ضَـجْـعَـةٍ   لا تَـقْـلِـبُ الـمُـضْـجَـعَ عَـنْ جَـنْـبِـهِ

لا بد للإنسان من نومة لا يتقلب فيها المضجع (المتمدد) عن جنبه

يَـنْـسَـى بِـهَـا مَـا كـانَ مِـنْ عُـجْـبِـهِ   ومَـا أذَاقَ الـمـوتُ مِـنْ كَـرْبِـهِ

نومة ينسى بها ما كان من عجبه (تكبره) وينسى أيضاً ما أذاقه الموت من الكرب

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى، فَمَا بَالُنَا   نَعَافُ مَا لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

نحن بنو الموتى فكل أجدادنا ماتوا، فلماذا نعاف الموت الذي لا بد من شربه

تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا   على زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ

أيدينا تبخل بأرواحنا ولا تعطيها للزمان، ولكن أرواحنا هي من كسب الزمان (ملك للزمان)

فَهَذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ   وهذهِ الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

فالأرواح هي من جو هذا الزمان، والأجسام هي من ترابه. ما أخلق دارساً أن يفحص نظرة المتنبي للزمان، فهو يكاد يماهي بين الزمان والمكان على النحو الذي يصنعه الفلاسفة والعلماء أيضاً، ويكاد في نظرته للروح يكون من الفلاسفة الماديين. ليس بالصدفة، ولا بمحض الفطرة؛ فالمتنبي قارئ كُتُب، وقد مرت به كتابات فلاسفة العرب وما نقلوه عن فلاسفة الإغريق، ولكنه تمثل ذلك وصاغه صياغة شاعر عربي قح

لو فَكَّرَ العَاشِقُ في مُنْتَهَى   حُسْنِ الذي يَسبِيهِ لم يَسْبِهِ

لو فكر العاشق في منتهى (مصير) جمال معشوقه ـ والمصير هو الموت وتحلل الجسم ـ لما سباه (سرق عقله) هذا المعشوق. تسويد أ. عبد الرحيم

لم يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ في شَرْقِهِ   فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ في غَرْبِهِ

لم يظهر قرن الشمس في شروقها إلا وتأكد الناس أنها ستغرب بعد حين، فكيف نشك في أن الحياة ستنتهي بالموت؟ نعم، معظم الناس يعيشون كأنهم خالدون في الدنيا

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ في جَهْلِهِ   مِيتَةَ جَالِينُوسَ في طِبِّهِ

يموت راعي الضأن (ويضرب به المثل في الجهل) ميتة جالينوس طبيب اليونان

ورُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ   وزَادِ في الأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

وربما عاش راعي الضأن أكثر من جالينوس، وربما كان آمناً على سربه (نفسه) أكثر من إحساس جالينوس بالأمان

وغَايَةُ المُفْرِطِ في سِلْمِهِ   كَغَايَةِ المُفْرِطِ في حَرْبِهِ

ومصير المسالم كمصير الكثير الحروب، فلماذا المهادنة؟

فلا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ   فُؤادُهُ يَخْفُقُ مِنْ رُعْبِهِ

أدعو أن لا تتحقق حاجةٌ لجبان يخفق قلبه من الرعب

١٣٠ أذاة أو نجاة أو هلاكا

قال المتنبي عند وداعه لعضد الدولة في أول شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة، وهي آخر شعرٍ قاله: ٧/ ٤٤

إذا التَّوْدِيعُ أعْرَضَ، قَالَ قَلْبِي: عَلَيْكَ الصَّمْتَ، لا صَاحَبْتَ فَاكَا!

إذا أعرض (ظهر) التوديع قال قلبي: عليك بالصمت، لا بقي معك فمك! أي أمره قلبه بالسكوت، وعدم مدح أحد بعد عضد الدولة

إذا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ فَأَقْتَلُ مَا أَعَلَّكَ مَا شَفَاكَا

يا قلبي إذا طلبت الشفاء من الشوق للأهل بمفارقة الممدوح فإن أقتل ما أعلك (أمرضك) هو هذا الذي طلبتَ به الشفاء

فَأَسْتُرُ مِنْكَ نَجْوانَا، وأُخْفِي هُمُوماً قد أَطَلْتُ لَهَا العِرَاكَا

أنا أستر منك يا عضد الدولة نجوانا (حديثنا الهامس) أنا وقلبي، وأخفي هموماً كثيراً ما عاركتها في ذهني

وفي الأَحْبَابِ مُخْتَصٌّ بِوَجْدٍ وآخَرُ يَدَّعِي مَعَهُ اشْتِرَاكَا

المعنى الملموح: ومن الأحباب من يكون الوجد (الحزن) لاصقاً به وحده، وهناك آخر يدَّعي أنه يشاركه الحزن

إذا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ في خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

إذا اشتبهت (تشابهت) الدموع فإن من بكى بحرقة يختلف عمن تباكى (ادعى البكاء)

فَزُلْ يا بُعْدُ عَنْ أَيْدِي رِكَابٍ لَهَا وَقْعُ الأَسِنَّةِ في حَشَاكَا

فابتعد أيها البعد عن أيدي نياقنا، فوقع أيديها وهي تفارق الممدوح مثل وقع أسنَّة الرماح في الحشا (القلب)

وأَنَّى شئتِ يَا طُرُقِي فَكُونِي أَذَاةً، أو نَجَاةً، أو هَلاَكَا

كوني كيفما شئت يا طرقي: كوني أذاة (أذى)، أو نجاة، أو حتى هلاكاً (موتاً). هذه آخر قصيدة للمتنبي وبعدها قُتل، فكانت (نبوءته) الأخيرة صحيحة

كشّاف الأغراض

(الأرقام هي أرقام القصائد لا الصفحات)

لا أعرف مدى فائدة هذا الكشاف. ولكنني صنعته متزيّداً ومجرباً. فإن تقرَّى طالب علم أرقامه، ووصل به إلى التعمق في فهم ناحية محددة من نواحي شعر أبي الطيب فهذا خير. وإن اكتفى القارئ العجِل بنظرة سريعة تعطيه فكرة عن موضوعات أبي الطيب ففي هذا نفع. وإلَّا.. يكنْ ما أنفقته من ساعات كثيرة في تنضيد هذا الكشاف قد ذهب سدى؛ فلتذهب سدىً أيضاً بضع صفحات ميتة في ذيل هذا الباب. وليكن غرمٌ يحتمل القارئ شطره وأحتمل شطراً

العشق والغزل وتوابعهما

طبائع ومشاعر

النفس القلقة

حياة الشاعر في البلاط

المعتقد والفلسفة

المدح

الرثاء

الهجاء

الوصف

فهرس القوافي، المتنبي

(القافية، فرقم القطعة)

أبو فراس الحَمْداني
(٣٢٠هـ ــ ٣٥٧هـ)

أبو فراس ولد مدلل، كثير الافتخار بنفسه وبنسبه، وهو ضعيف الشخصية لكن يتقاوى، ويلهو بملذاته، ويخوض وقائع دونكيشوتية مع الأعراب، ويشكو من ابن عمه سيف الدولة شكوى الولد المدلل المفسَد المتهور. وكان أبو فراس متهوراً. وأسره الروم، فأخذ يرسل بأشعار بالغ فيها من الدلال والتوجع. ولكنه كان فصيحاً، وكان مملوءاً بالمشاعر. . وكان يعرف كيف يعبر عنها، كان شاعراً تطيعه اللغة، وكان يعرف كيف يصور أعماق نفسه في كلمات قلائل.

ما أكثر ما يتدفق الشعر من ثقوب الشخصية. وفارسنا الآن أبو فراس الحمْداني.

فلماذا يصر الناس على أنه الحَمَداني بفتح الميم؟ الناس يقيسون. فقد اشتدت ألفتهم بوزن فَعَلان، لما قر في الجزء الخاص باللغة من أمخاخهم من كلمات كالفَيَضان والفَوَران والخَفَقان، وأكثر من ذلك «المثنى» ومنه جَمَلان وحَمَلان ووَلَدان. وحَمْدان ينسبون إليها حَمَداني، يجرهم ما برمجوا عليه من الابتدار إلى القياس. فإذا جاءتهم كلمة مضمومة كنُعْمان نسبوها نسبة صحيحة فقالوا نُعْماني، أو مكسورة كإنسان نسوبها نسبة صحيحة فقالوا إنساني. وحتى حمْدان نفسها فالناس لا تخطئ فيها إلا إذا وضعت ياء النسبة، ولا أدري لماذا. ثمة أسباب غائرة في العيار الصرفي الموجود في عقولنا.

رجعٌ إلى أبي فراس

الثقوب في شخصية أبي فراس الحَمْداني كثيرة.

هو نفاج، أي فخَّار بأكثر مما فيه، ويستمد مكارم الإخلاق مما سمع من

أقوال الشعراء أكثر مما يستمدها من كرم حقيقي كامن في نفسه. تقول لي: وكيف عرفت كل هذا؟ وأقول: ويحك! أبو فراس شاعر عظيم، وكلامه يشف عن شخصيته. هو يشجُعُ كي يَقولَ في شعره إنه شجاع، وكي يُقال إنه شجاع. هو يطلق سبايا العرب، ويستر عليهن كي يقال إنه ذو نخوة، وهو شديد الجزع، ورقيق المشاعر، وهو طفل مدلل، ويحسن الشكوى والتبرم، ويحسن أن يخلط التذلل والضراعة بالأنفة والكبرياء في مزيج مألوف في ضعاف الشخصية لا أقويائها.

وقد تدفق شعره من عيوب شخصيته وثقوبها. عندما كان أميراً في بلاط ابن عمه سيف الدولة عرفنا نصف عيوبه، وعندما وقع في أسر الروم وقعد يبكي على حاله عرفنا النصف الآخر. وفي الحالين أنتج لنا شعراً جميلاً.

أبو فراس الحمْداني (الحارث بن سعيد بن حمدان)

كان أبوه (أبو العلاء سعيد) صاحب حرب وضرب وله مآثر في نصرة الخليفة العباسي ببغداد، وله وقائع في الروم.. وخاف نفوذه ابن أخيه (ناصر الدولة) أمير الموصل فاغتاله، ولم يكن ذلك غريباً على الأسرة الحمدانية، وهي عربية تغلبية. فقد كان يقتل الأخ فيها أخاه، ويسجن الابن أباه.. (هذا بالضبط ما سيفعله عُدَّة الدولة ابن القاتل ناصر الدولة، فبعد خمس وثلاثين سنة سجن أباه الشيخ حتى الموت). وقد رأينا (أبا عبد الله الحسين) أحد إخوة أبي فراس الثلاثة، وكلهم أكبر منه، يتولى عملاً لقاتل أبيه. عادي. السياسة والمصلحة لا تعرفان المشاعر.

أما شاعرنا أبو فراس فقد كان في الثالثة من العمر عندما اغتيل أبوه. أخذته أمه إلى شمال سوريا مترددة بطفلها بين المدن التي للحمدانيين فيها سطوة، ثم كفل أبا فراس ابن عمه سيف الدولة الذي تولى إمارة حلب ولشاعرنا من العمر ثلاث عشرة سنة.

كان أبو فراس في السابعة عشرة عندما قدِم أبو الطيب المتنبي إلى بلاط سيف الدولة في حلب. رأى أبو فراس هذا الشاعر الكبير المشهور الذي بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، ضعف عمره هو، يمدح سيف الدولة ويصف معاركه. ومكث المتنبي تسع سنين في بلاط سيف الدولة والمتأدبون في حلب يحفظون أشعاره ويتعقبونها بالنقد، وكانت للمتنبي صداقة مع بعضهم كأبي

الطيب النحوي، وعداوة مع معظمهم كابن خالويه النحوي. وكانت أبو فراس صديقاً لابن خالويه، وكان في صف خصوم المتنبي، ولا نكاد نشك في أنه حسده، لكنه كان يافعاً (فإن كنت سمعت بتلك الخرافة عن الملاسنة الأدبية المفتراة بين المتنبي وأبي فراس. . فضع ذلك في جراب الأكاذيب). وقد عاش ابن خالويه طويلاً وجمع لنا ديوان أبي فراس بعد موته، فقد كان أبو فراس يستودع أستاذه ابن خالويه كل شعر يقوله.

صارع أمير حلب، سيف الدولة، الروم طويلاً، ولكنه صارع غيرهم: «وسوى الروم خلف ظهرك روم، فعلى أي جانبيك تميل؟» كما قال المتنبي. وهؤلاء الروم الآخرون هم الأخشيديون الذين أخذ منهم سيف الدولة حلب، وهم أيضاً قبائل العرب، كلب وكلاب، ـ وفي وقعة كبيرة اجتمعت عليه النزارية واليمانية ـ، وجابه سيف الدولة وأخوه البويهيين الذين ملكوا الأمر ببغداد، وجابها القرامطة.

في هذه المعمعة كان أبو فراس حاضراً، وولاه سيف الدولة منبج وهو فتى. وقد غزا شاعرنا الروم مع ابن عمه سيف الدولة مراراً.

كان من حسن حظ الأدب العربي أن وقع أبو فراس في أسر الروم. قيل أسر مرة وقيل بل مرتين، وقيل أسر وهو في رحلة صيد، وقيل دام أسره سبع سنين، وقيل بل أربع. على أننا رزقنا من وراء أسره شعراً جميلاً حقاً.

تأخر سيف الدولة في افتداء أبي فراس. قالوا إن سيف الدولة أراد التمكين لولده ليتولى الحكم بعده فتلكأ في افتداء ابن عمه الشاعر الطموح، وقال بعضهم إن تلك السنين كانت عجافاً على سيف الدولة، وكان فيهن يحارب على أكثر من جبهة، وكان مضيقاً عليه في المال، وفدية أمير تستنزف المال.

في سنة ٣٥٥ افتُدي أبو فراس وعاد إلى حلب، فولاه سيف الدولة حمص. ومات سيف الدولة في السنة الموالية ٣٥٦ وتولى الحكم بعده ولده (سعد الدولة)، وكأنَّ أبا فراس حاول الاستقلال بحمص، فوقعت معركة بينه وبين جيش أمير حلب الجديد. وقتل أبو فراس عام ٣٥٧ وهو في السابعة والثلاثين من العمر.

لأبي فراس القصيدة المشهورة «أراك عصي الدمع»، التي غنتها أم كلثوم ثلاث مرات بثلاثة ألحان مختلفة. لكن له غيرها شعر كثير ثمين.

الشعر الذي سيرد عليك في الصفحات المقبلة شعر استطاع أن يعيش مع شعر المتنبي.

١ أنفذنا كتابا

وما قَصَّرْتُ في تَسْآلِ رَبْعٍ ... ولكنِّي سألتُ فما أجابا
رأيتُ الشيبَ لاحَ فقلتُ أهلاً، ... وودعتُ الغَوايةَ والشبابا
وما إن شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ ولكنْ، ... رأيتُ مِنَ الأحبةِ ما أشابا

تسويد أ. عبد الرحيم

ألم تَرَنا أعزَّ الناسِ جاراً ... وأمْرَعَهُمْ وأمنَعَهُمْ جَنابا؟

أمرعهم: أكثرهم خصباً، أمنعهم جناباً: أكثرهم عزاً وحماية لأنفسهم ولمن يجاورهم

ولَمَّا أن طغَتْ سفهاءُ كعبٍ ... فتحْنا بيننا لِلحربِ بابا
فلمَّا اشتدَّتِ الهيجاءُ كُنَّا ... أشدَّ مخالِباً وأحَدَّ نابا
ويأمُرُنا، فنكفِيه الأعادي، ... هُمامٌ، لو يشاءُ كَفَى ونابا

يأمرنا سيف الدولة الهمام، والهمام هو الزعيم، فنحارب الأعداء ونكفيه شرهم، ولو شاء لفعل ذلك وناب عن مساعينا

فلمَّا أيْقَنوا أنْ لا غِياثٌ ... دَعَوْهُ لِلمَغُوثَةِ فاستَجابا

لما أيقن الأعداء أنْ لن يغيثهم أحد دعوا سيف الدولة لإغاثتهم ففعل

وعادَ إلى الجميلِ لَهُمْ، فعادُوا ... وقد مَدُّوا لِصَارِمِهِ الرِّقابا

عاد عليهم بالمودة فعادوا ولكن بعد أن بلغ صارمه، أي سيفه، رقابهم

أَحَلَّهُمُ الجزيرةَ بعد يأسٍ ... أخو حِلْمٍ إذا مَلَكَ العِقابا

أسكنهم في منطقة الجزيرة بين الفرات ودجلة وهو صاحب حلم إذا صار قادراً ومالكاً أن يوقع العقاب

ودَارُهُمُ انتزعنَاها انتزاعاً ... وأرضُهُمُ اغتصبناها اغتصابا
إذا ما أنْهَضَ الأمراءُ جيشاً ... إلى الأعداءِ أَنْفَذْنا كِتابا

إذا اضطر الأمراء إلى إنهاض جيش وتجريده على أعدائهم فنحن يكفي أن ننفذ، نرسل، كتاباً، أي خطاباً، حتى يخافوا من تهديدنا

٢ هذبتني التجارب

غَريبٌ وأهلي حيثُما كان ناظِري وحيدٌ وحوْلي مِن رجالي عَصائِبُ

عصائب: جماعات

وشَرُّ عَدُوَّيْكَ الذي لا تُحارِبُ وخيرُ خَليلَيْكَ الذي لا تُنَاسِبُ

أسوأ أعدائك من لم تحاربهم بعد، لأنك لا تدري ما الذي تتوقعه منهم، وخير أصدقائك من لا يكون بينك وبينهم تناسب وعلاقة وطيدة فمثل هذه العلاقة تكشف لك عن مساوئ شتى

لقد زِدْتُ بِالأيامِ والناسِ خِبرةً وجَرَّبْتُ حتى هذَّبتْني التَّجارِبُ

ومَن كانَ غيرَ السيفِ كافِلُ رزقِهِ فَلِلذُلِّ منهُ لا مَحالَةَ جانِبُ

من كان يكفل لنفسه الرزق بزراعة وصناعة فلا بد أن يتعرض للذل، والعزة لمن يكفل رزقه بالقوة غازياً ومدافعاً

٣ ليتك تحلو

قال ابن خالويه، قال أبو فراس: امتنع سيف الدولة من إخراج ملك الروم الأسير إلا بفداء عام، فحُملتُ إلى القسطنطينية، وكتبت في ذلك:

أمَا لِجَميلٍ عندَكُنَّ ثوابُ ولا لِمُسيءٍ عندكُنَّ مَتابُ؟

أيتها الفتيات ألا تعطين وصلاً لمن يصنع جميلاً، وألا تسمحن لمن أساء بالتوبة؟

لقد ضَلَّ مَنْ تَحوي هَواهُ خَريدَةٌ وقد ذَلَّ مَن تَقضي عليهِ كَعَابُ

خريدة: فتاة منعمة، كعاب: الفتاة الشابة قد تكور صدرها

ولكنني، والحمدُ لِلّه، حازِمٌ أعِزُّ إذا ذَلَّتْ لهُنَّ رِقابُ

ولا تَملِكُ الحَسناءُ قَلبيَ كلَّهُ وإن شَمِلَتْها رِقَّةٌ وشَبابُ

وأَجري فَلا أُعطي الهوى فَضْلَ مِقْوَدي وأَهْفُو فلا يَخْفَى عليَّ صَوابُ

إذا جريت، كما يجري المرء بحصانه، فأنا لا أترك مقود الحصان بيد الهوى، أي أنني لا أتهور مع أهوائي، وأهفو وأخطئ ولكنني أعرف الصواب

إذا الخِلُّ لم يَهجُرْكَ إلّا مَلالَةً فليسَ له إلّا الفِراقَ عِتابُ

إذا لم أَجِدْ مِنْ خُلَّةٍ ما أريدُه فعندي لأُخرى عَزْمَةٌ ورِكَابُ

إن لم أحظ عند فتاة فأنا أعزم وأمضي لغيرها. والخُلَّة هي الصديقة وهي الزوجة

صَبورٌ وإنْ لم تبقَ مني بَقيَّةٌ قَؤُولٌ ولو أنَّ السيوفَ جَوابُ

وَقُورٌ وأحداثُ الزمانِ تَنُوشُني ... ولِلموتِ حَوْلي جيئَةٌ وذَهابُ

تنوشني: تنهشني من كل جانب

وأَلْحَظُ أحوالَ الزمانِ بِمُقْلَةٍ ... بها الصِّدْقُ صِدْقٌ، والكِذَابُ كِذَابُ

بِمَنْ يَثِقُ الإنسانُ فيما ينوبُه ... ومِنْ أينَ لِلحُرِّ الكريمِ صِحَابُ؟

وقد صارَ هذا الناسُ، إلّا أقلَّهُمْ، ... ذئاباً على أجسادِهِنَّ ثيابُ

تَغابَيْتُ عن قومي فَظَنُّوا غَباوَتي؛ ... بِمَفْرِقِ أَغْبانا حَصىً وتُرابُ

ولو عَرَفوني حقَّ معرِفَتي بِهِمْ ... إذنْ عَلِمُوا أنِّي شهدتُ وغَابوا

لو عرفوني لعلموا أنني مدرك للأمور كمن عاينها وشهدها، أما هم فكمن غاب عنها وسمع بها سمعاً لا غير

وما كُلُّ فَعَّالٍ يُجازَى بِفِعْلِهِ ... ولا كُلُّ قَوَّالٍ لديَّ يُجابُ

ورُبَّ كَلامٍ مَرَّ فوقَ مَسامِعي ... كما طَنَّ في لُوحِ الهَجيرِ ذُبابُ

اللوح: الهواء بين السماء والأرض، والهجير: شدة الحر

إلى اللّهِ أَشكُو أنَّنا بِمنازِلٍ ... تَحَكَّمُ في آسَادِهِنَّ كِلابُ

تَمُرُّ اللَّيالي ليس للنفْعِ مَوْضِعٌ ... لَدَيَّ ولا لِلمُعْتَفِينَ جَنابُ

وأنا أسيرٌ تمر الليالي وليس لي ما تعودته من أن أنفع الناس، وليس للمعتفين، الفقراء، من جناب عندي أي جوار

ولا شُدَّ لي سَرْجٌ على ظَهْرِ سابِحٍ ... ولا ضُرِبَتْ لي بِالعَراءِ قِبابُ

سابح: حصان، قباب: خيام

ولا بَرَقَتْ لي في اللقاءِ قَواطِعٌ ... ولا لَمَعَتْ لي في الحروبِ حِرَابُ

قواطع: سيوف، حراب: خناجر

ستَذْكُرُ أيَّامي نُمَيْرٌ وعامِرٌ ... وكَعْبٌ على عِلَّاتِها وكِلَابُ

أنا الجارُ لا زَادي بَطِيءٌ عليْهِمُ ... ولا دونَ مَالي لِلحوادثِ بابُ

ولا أَطْلُبُ العَوْرَاءَ منهُمْ أُصيبُها ... ولا عَوْرَتي لِلطَّالِبينَ تُصَابُ

لا أتقصى عوارءهم، عيبهم، ولا يصيب، أي ينال، عيباً لي من يطلب هذا العيب ويبحث عنه

وأَسْطُو وحُبِّي ثابتٌ في صُدورِهِمْ ... وأَحْلُمُ عن جُهَّالِهِمْ، وأُهَابُ

بَنِي عَمِّنا ما يصنعُ السيفُ في الوَغَى ... إذا فُلَّ منهُ مَضْرِبٌ وذُبَابُ

يا بني عمنا ـ وسيف الدولة هو ابن عمه ـ، ما يصنع السيف إذا فل مضربه، أي تثلم حده، وذبابه، أي حده أيضاً

بنيِ عَمِّنَا لا تُنكِرُوا الحقَّ، إنَّنا   شِداد، ولا نرضى الهَوانَ، صِلابُ
بنيِ عَمِّنَا نحنُ السَّواعِدُ والظُّبَى   ويُوشِكُ يوماً أن يكونَ ضِرابُ

نحن السواعد والظبى، أي شفرات السيوف، وسيكون هناك وشيكاً ضراب، أي عراك، فلا غنى لكم عنا

وما أَدَّعي ما يعلمُ اللَّهُ غيرَهُ   رِحَابُ عَلِيٍّ لِلْعُفَاةِ رِحَابُ

رحاب علي، ساحات سيف الدولة واسمه علي، رحاب، أي واسعات، للعفاة، أي الفقراء

وأَفعالُهُ للراغِبِينَ كَريمةٌ   وأموالُهُ للطَّالِبِينَ نِهابُ
ولكنْ نَبَا مِنْهُ بِكَفِّيَ صَارِمٌ   وأَظْلَمَ في عينيَّ منهُ شِهابُ

لكن أخطأ من سيف الدولة سيف بكفي أنا، أي أنه خذلني، وصار مظلماً في عينيَّ مع أنه شهاب ساطع، أي أن نوره لغيري ليس لي

وأَبطأَ عنِّي، والمَنايا سريعةٌ   ولِلموتِ ظُفْرٌ قد أَطَلَّ ونَابُ

أبطأ في افتدائي، والمنايا سريعة فقد يلحق بي الموت قبل الافتداء

ولكنني راضٍ على كلِّ حَالةٍ   لِيُعْلَمَ أيُّ الحَالَتَيْنِ سَرابُ

أنا راض فستكشف الأيام ما هو السراب، أي الوهم، أهو وجودي أم عدمه

وما زِلْتُ أَرضَى بالقليلِ محبَّةً   لديكَ، وما دونَ الكثيرِ حِجابُ

تعليق أحمد عبد الرحيم: «عالٍ صوفيًا!»

كذاكَ الوِدَادُ المَحْضُ لا يُرْتَجَى لهُ   ثوابٌ، ولا يُخْشَى عليهِ عِقَابُ
وقد كُنْتُ أَخْشَى الهجرَ والشَّمْلُ جامِعٌ   وفي كلِّ يوم لَفْتَةٌ وخِطابُ..

كنت أخشى أن تصد عني وأنا معك وأراك كل يوم وتلتفتً إلي وتكلمني..

فكيفَ وفيما بينَنا مُلْكُ قيصرٍ   ولِلبَحْرِ حولِي زَخْرَةٌ وعُبابُ

فكيف الآن وأنا في قبضة الروم، وفي القسطنطينية وحولي البحر الزاخر، ولعله كان في الجانب الغربي منها مفصولاً بمضيق البسفور

أَمِنْ بعدِ بَذْلِ النفسِ فيما تُريدُهُ   أُثَابُ بِمُرِّ العَتْبِ حينَ أُثَابُ؟

أتكون مكافأتي العتاب المر بعد أن بذلت نفسي في طاعتك؟

فَلَيْتَكَ تَحلُو والحياةُ مَريرةٌ   ولَيْتَكَ تَرضَى والأنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينَكَ عامِرٌ   وبيني وبينَ العَالَمِينَ خَرابُ

آخر بيتين ليس لهما شرح، هما من فاخر الشعر. يضيف أ. عبد الرحيم «عاليان جدًا صوفيًا!»

٤ أنا مشهور

نقل لسيف الدولة أن أبا فراس قال: «إنْ ثَقُل هذا المال على سيف الدولة كاتبنا فيه صاحب خراسان وغيره من أصحاب البلدان، وخففنا عن الأمير». فقال سيف الدولة: ومن أين لأبي فراس أن يعرفه أهل خراسان؟ فكتب إليه أبو فراس:

أَسيفَ الهُدَى وقَريعَ العَرَبْ   عَلامَ الجَفاءُ؟ وفيمَ الغَضَبْ؟

القريع: السيد

وفيمَ يُقَرِّعُني بالخُمُو   لِ، مَوليً بِهِ نِلْتُ أعلى الرُّتَبْ؟

كيف يوبخني بأنني خامل الذكر غير معروف هذا المولى، السيد وهو سيف الدولة، الذي نلت بقربي منه الرتبة العالية

وكانَ عَتيداً لديَّ الجوابُ   ولكنْ، لِهَيْبَتِهِ لم أُجِبْ

عتيداً: حاضراً

فلا تَنْسُبَنَّ إليَّ الخُمولَ   عليكَ أَقَمْتُ، فلمْ أَغْتَرِبْ

لا تتهمني بخمول الذكر، فقد التزمت بك ولم أغترب

وأَصبحتُ مِنكَ، فإن كانَ فَضْلٌ   وإن كانَ نَقْصٌ، فأنتَ السَّبَبْ

أصبحت جزءاً منك بما في ذلك مما هو إيجابي أو سلبي

وإنَّ خُراسانَ إنْ أَنْكَرَتْ   عُلايَ، فقد عَرَفَتْها حَلَبْ

ومِن أينَ يُنْكِرني الأَبْعَدُونَ   أَمِنْ نقصِ جَدٍّ؟ أَمِنْ نَقْصِ أَبْ؟

وكنتَ الحَبيبَ وكنتَ القريبَ   ليالِيَ أدعوكَ مِن عَنْ كَثَبْ

فلمَّا بَعُدْتُ بَدَتْ جَفْوَةٌ   ولاحَ مِنَ الأمرِ ما لا أُحِبْ

فلو لم أَكُنْ بِكَ ذا خِبرةٍ   لقلتُ: صَديقُكَ مَنْ لم يَغِبْ

لولا معرفتي بكرم طباعك لقلت إن الصديق يبقى صديقاً ما كنت حاضراً فإن غبت تحول عنك

٥ لماذا تغتابني؟

يجيب سيف الدولة على عتبه، وهو في الأسر:

زَمانيَ كُلُّهُ غَضَبٌ وعَتْبُ   وأنتَ عَلَيَّ والأيّامُ إِلْبُ

إلب: حلف

إلى كَمْ ذا العقابُ وليسَ جُرْمٌ   وكم ذا الاعتِذَارُ وليسَ ذَنْبُ؟
فلا بِالشامِ لَذَّ لَدَيَّ شُرْبٌ   ولا في الأَسْرِ رَقَّ عليَّ قلبُ
أمِثلي تُقبَلُ الأقوالُ فيهِ   ومِثلُكَ يَستَمِرُّ عليهِ كِذْبُ؟
وزَنْديِ، وَهْوَ زَنْدُكَ، ليس يَكْبُو   ونَاريِ، وَهْيَ نارُكَ، ليسَ تَخْبُو

الزند: أداة قدح الشرر لإشعال النار، يكبو: يخفق

وفَرْعِي فَرْعُكَ السامي المُعَلَّى   وأَصْلِي أَصلُكَ الزَّاكي وحَسْبُ
فَدَتْ نفسي الأميرَ، كأنَّ حَظِّي   وقُربي عِندَهُ مَا دامَ قُرْبُ

كأن حظي الحسن وقربي من الأمير مستمران فقط ما دمت قريباً بجسدي منه، فإن نأى بي الأسر فلا حظ لي ولا قرب

فلمَّا حالَتِ الأعداءُ دُوني   وأَصبحَ بينَنا بحرٌ ودَرْبُ
ظَلِلْتَ تَبَدَّلُ الأقوالُ بَعدي   ويَبْلُغُني اغْتِيابُكَ ما يُغِبُّ

ما يغب: ما يتأخر

فَقُلْ ما شئتَ فِيَّ فَلي لِسانٌ   مَلِيٌّ بِالثَّناءِ عليكَ رَطْبُ

ملي: جدير

وعَامِلْني بِإنصافٍ وظُلْمٍ   تَجِدْني في الجميعِ كما تُحِبُّ

٦ الحرب طعامي

قال بعد أن شفي من جرح السهم الذي أصابه في فخذه، وكان سبب أسره:

فلا تَصِفَنَّ الحَربَ عِندي فإنَّها   طَعَاميَ مُذْ بِعْتُ الصِّبا وشَرابي
وقد عَرَفَتْ وقعَ المَسامِيرِ مُهجَتي   وشُقِّقَ عن زُرْقِ النُّصولِ إِهَابي

المسامير: تباشيم حديدية في الدروع، أي مسامير غير ناتئة، إهابي: جلدي

ولَجَّجْتُ في حُلْوِ الزمانِ ومُرِّهِ   وأنفقتُ مِن عُمري بِغيرِ حِسابِ

لججت: خضت في لجج البحر. تسويد أ. عبد الرحيم

٧ عيد كئيب

وافاه العيد وهو في الأسر فقال:

يا عيدُ، ما عُدْتَ بِمَحْبوبِ   على مُعَنَّى القلبِ مَكْروبِ

يا عيدُ، قد عُدْتَ على نَاظِرٍ ... عن كلِّ حُسْنٍ فيكَ مَحْجُوبِ

ناظر: عين

مَا لي ولِلدهرِ وأَحْدَاثِهِ ... لقد رَمَاني بِالأَعَاجيبِ

٨ للناس فيما يعشقون..

كتب إلى أخيه أبي الهيجاء حرب بن سعيد بعدما لحقه عند أسره من الجزع، ويذكُرُ قوماً عجَّزوا رأيه في الثبات يوم أسره، ويفتخر:

عليَّ لِرَبْعِ العَامِريَّةِ وَقْفَةٌ ... تُمِلُّ عليَّ الشوقَ، والدَّمْع كُاتبُ

تمل: تملي

ومِن مَذهَبي حُبُّ الدِّيارِ لِأَهلِها ... ولِلناسِ فيما يَعشَقُونَ مَذاهِبُ

تَكاثَرَ لُوَّامِي عَلى مَا أَصَابَنِي ... كأنْ لم تَكُنْ إلَّا لِأَسْري النَّوائِبُ

أَرى مِلْءَ عَيْنَيَّ الرَّدى فَأَخُوضُهُ ... إذِ الموتُ قُدَّامي وخَلْفِي المَعَايِبُ

وأَعْلَمُ قَوماً لو تَتَعْتَعْتُ دونَها ... لَأَجْهَضَني بِالذَّمِّ مِنْهُمْ عَصَائِبُ

تتعتعت: ترددت، أجهضني: أسقطني، عصائب: جماعات

ومُضْطَغِنٍ لم يَحْمِلِ السِّرَّ قَلبُهُ ... **تَلَفَّتَ ثم اغْتَابَني وَهْوَ هَائِبُ**

مضطغن: حاقد

تَرَدَّى رداءَ الذُّلِّ لَمَّا لَقِيتُه ... كما تَتَرَدَّى بِالغُبارِ العَناكِبُ

لبس لباس الذلة والمسكنة لما رآني، مثل العناكب التي تلبس نسيجها وسط غبار البيوت الخربة

رَمَتْني عُيونُ الناسِ حتى أَظُنُّها ... سَتَحْسُدني في الحَاسِدِينَ الكَواكِبُ

هُمُ يُطْفِئُونَ المَجْدَ واللَّهُ مُوقِدٌ ... وكمْ يَنقُصُونَ الفضلَ واللَّهُ واهبُ

ويَرْجُونَ إدراكَ العُلا بِنُفُوسِهِمْ ... ولم يَعلَمُوا أنَّ المَعَالي مَواهِبُ

المعالي مواهب، عطايا من الله لا تكتسب

وهل يَدفَعُ الإنسانُ مَا هُوَ وَاقِعٌ ... وهل يَعلَمُ الإنسانُ مَا هُوَ كَاسِبُ؟

وهل لِقضاءِ اللَّهِ في الناسِ غالِبٌ ... وهل مِنْ قَضاءِ اللَّهِ في الناسِ هارِبُ؟

عَلَيَّ طِلابُ المَجْدِ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ ... ولا ذَنْبَ لي إنْ حَارَبَتْني المَطَالِبُ

وهل يُرْتَجى لِلأَمْرِ إلَّا رِجَالُه ... ويأْتي بِصَوْبِ المُزْنِ إلَّا السَّحَائِبُ

صوب المزن: مطر السحاب

إذا كانَ سيفُ الدَّولةِ المَلْكُ كَافِلِي فلا الحَزْمُ مَغْلُوبٌ ولا الخَصْمُ غَالِبُ
فلا تَخْشَ سَيفَ الدَّولَةِ القَرْمَ أَنَّنِي سِوَاكَ إِلى خَلْقٍ مِنَ النَّاسِ رَاغِبُ

القرم: السيد الشجاع

٩ خوف العار

وكتب إليه أبو الحسن محمد بن محمد الأسمر يوصيه بالصبر، فكتب إليه:

جَشَّمْتُ خوفَ العارِ أَعظَمَ خُطَّةٍ وأَمَّلْتُ نَصراً كانَ غَيرَ قَرِيبِ
ولِلعَارِ خَلَّى رَبُّ غَسَّانَ مُلْكَهُ وفَارقَ دِينَ اللَّهِ غيرَ مُصِيبِ

هذا جبلة بن الأيهم الغساني الذي فارق المسلمين والتحق بالروم فراراً من لطمة أوجبها عليه عمر بن الخطاب قصاصاً

١٠ بأقلامنا أم بسيوفنا؟

وقعت مناظرة بين أبي فراس والدمستق، وهو في أسره، فقال له الدمستق: إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب، فرد عليه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ ثم قال:

أَتَزْعُمُ يا ضَخْمَ اللَّغَادِيدِ أَنَّنا ونحنُ أُسودُ الحربِ لا نَعرفُ الحَربا؟

اللغاديد: الغباغب، وهي فضلات جلد تتدلى من الرقبة عند الرجل الهرم السمين، وعند الثور

فويْلَكَ! مَنْ لِلحربِ إن لم نَكُنْ لَها ومَنْ ذا الذي يُمْسِي ويُضْحِي لَها تِرْبا؟

ترب: خدين وحليف، والترب في الأصل صديقك المقارب لك في العمر، الجمع أتراب

وَوَيْلَكَ مَنْ أَرْدَى أَخاكَ بِمَرعَشٍ وجَلَّلَ ضَرْباً وَجْهَ وَالِدِكَ العَضْبا؟

ويلك، من أردى، أي قتل، أخاك ومن الذي جلل بالعضب، بالسيف، وجه أبيك ضرباً

لقد جَمَعَتْنا الحربُ مِنْ قبلِ هَذهِ فكنَّا بِها أُسْداً وكنتَ بِها كَلْبا
بِأَقْلامِنا أُجْحِرْتَ أم بِسُيوفِنا وأُسْدَ الشَّرى قُدْنا إِلَيْكَ أمِ الكُتْبا؟

أجحرت: أدخلت في جحرك

١١ لا ذنب للجميلة

أَساءَ فَزَادَتْهُ الإِسَاءَةُ حُظْوَةً حبيبٌ، على ما كانَ مِنه، حبيبُ

على ما كان منه: رغم ما كان منه

يَعُدُّ عَلَيَّ العَاذِلُونَ ذُنُوبَهُ ومِنْ أينَ لِلوجْهِ المَليحِ ذُنوبُ؟

١٢ ليلة ناجحة

لَبِسْنا رداءَ الليلِ والليلُ رَاضِعٌ إلى أن تَرَدَّى رَأْسُهُ بِمَشِيبِ

مكثنا في الليل فكأننا لبسنا رداءه، وهو راضع، في بدايته صغير رضيع، وبقينا كذلك إلى أن طلع الصبح فكأنه ببياضه كان رداء من الشيب على رأس الليل

وَبِتْنا كَغُصْنَيْ بَانَةٍ عَابَثَتْهُما إلى الصُّبْحِ رِيحَا شَمْأَلٍ وجَنُوبِ

كنا يميل أحدنا على الآخر كغصني شجيرة بان تهب عليهما الريح من اتجاهين متضادين

إلى أنْ بَدا ضَوْءُ الصَّباحِ كَأَنَّهُ مَبَادِي نُصُولٍ في عِذَارِ خَضِيبِ

بدا ضوء الصباح كأنه مبادي، بدايات، نصول الصبغ إذ يطول الشعر ويبدو البياض تحت الصبغ الأسود في عذار، سالف، شخص خضيب الشعر

فيا لَيْلُ قد فَارَقْتَ غيرَ مُذَمَّمٍ ويا صُبْحُ قد أَقْبَلْتَ غيرَ حبيبِ

١٣ رثاء الأخت

قال يرثي أخته، ويحدث نفسه:

أَتَزْعُمُ أنَّكَ خِدْنُ الوَفَاءِ وقدْ حَجَبَ التُّرْبُ مَنْ قد حَجَبْ

يخاطب نفسه: أتدعي يا أبا فراس أنك خدن وفاء، أي صاحب وفاء، أي وفيّ، بعد أن ماتت أختك؟

فإن كنتَ تَصْدُق فيما تقولُ فَمُتْ قبلَ مَوْتِكَ مَعْ مَنْ تُحِبّ

يُعَزُّونَ عَنْكِ وأينَ العَزَاءُ؟ ولكنَّها سُنَّةٌ تُسْتَحَبّ

١٤ ثأر بالنيابة

لقد عَلِمَتْ قيسُ بنُ عَيْلانَ أنَّنا بِنا يُدْرَكُ الثأرُ الذي قَلَّ طَالِبُهْ

وأنَّا فَتَكْنَا بِالأَغَرِّ ابنِ رَائِقٍ عَشِيَّةَ دَبَّتْ بِالفَسادِ عَقَارِبُهْ

أَخَذْنا لَكُمْ بِالثَّأْرِ ثأرِ عُمَارَةٍ وقد نامَ لم يَنْهَدْ إلى الثأرِ صَاحِبُهْ

ينهد: ينهض

١٥ فارس العرب

ولا أعودُ بِرمْحي غيرَ مُنْحَطِمٍ ولا أَروحُ بِسيْفي غيرَ مُخْتَضِبِ

لا أعود من المعركة إلا وقد كسرتُ رمحي في الأعداء، وخضبت سيفي بدمهم

حتى تقولَ لَكَ الأعداءُ رَاغِمَةً　　أَضْحَى ابْنُ عَمِّكَ هذا فَارِسَ العَرَبِ

يا مَنْ يُحاذِرُ أن تَمضيِ عَلَيَّ يَدٌ　　مَا لي أَرَاكَ لِبِيضِ الهندِ تَسْمَحُ بي

حسبتك تخاف علي أن تمسني يد، فإذا بك تسمح بي وتعرضني لسيوف الهند

وأنتَ بي مِنْ أَضَنِّ الناسِ كُلِّهِمُ　　فكيفَ تَبْذُلُني لِلسُّمْرِ والقُضُبِ؟

كيف تعرضني للسمر، الرماح، والقضب، السيوف؟

مَا زلتُ أَجْهَلُهُ فضلاً وأُنْكِرُهُ　　وأُوسِعُ النفسَ مِنْ عُذْرٍ ومِنْ عَجَبِ

كنت أجهل فضلك في هذا وأنكر تصرفك، وأحاول العثور على عذر لك وأنا متعجب

حتى رأَيْتُكَ بينَ الناسِ مُجْتَنِباً　　تُثْني عَلَيَّ بِوَجْهٍ غيرِ مُتَّئِبِ

حتى رأيتك وأنا واقف بعيداً مجتنباً.. وكنت تثني علي بوجه غير متب، غير متحسب ولا محترس بل كنت متحمساً لي

فعِنْدَها، وعيونُ الناسِ تَرمُقُني،　　عَلِمْتُ أنَّكَ لم تُخْطِئْ ولم أُصِبِ

عندئذ رأيت نظرات الناس تتركز علي وأنا واقف بعيداً، فعلمت أنك كنت مصيباً في تعريضك لي للقتال وفنونه

١٦ زين الشباب

قال في اليوم الذي فيه قتل، يخاطب ابنته:

أَبُنَيَّتي لا تجزَعي　　كلُّ الأَنامِ إلى ذَهَابِ

أَبُنَيَّتي صَبراً جميـ　　ـلاً لِلجليلِ مِنَ المُصَابِ

نُوحي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ　　مِنْ خَلْفِ سِتْرِكِ والحِجَابِ

قُولي إذا نادَيْتِني　　وعَييتُ عن رَدِّ الجَوابِ

زَيْنُ الشبابِ أبو فِرا　　سٍ لم يُمَتَّعْ بِالشبابِ

١٧ فهمتها

يا ليلُ مَا أَغْفُلُ عمَّا بي　　حَبائِبي فيكَ وأَحْبابي

يا ليلُ نامُ الناسُ عن مُوجَعٍ　　ناءٍ، على مَضْجَعِهِ نَابِ

نابِ على مضجعه: غير مستقر في فراشه من الألم

هَبَّتْ لهُ رِيحٌ شَآمِيَّةٌ　　مَتَّتْ إلى القَلْبِ بِأَسبابِ

متت: تعلقت

أَدَّتْ رِسالاتِ حَبيبٍ لَنا ... فَهِمْتُها مِنْ بينِ أَصْحابي

آخر بيتين كان يرددهما الصاحب بن عباد معجباً بهما

١٨ لا نجوتُ إن نجا

قامتْ إلى جاراتِها ... تَشْكُو بِذُلٍّ وشَجَا

أمَا تَرَيْنَ ذا الفَتى ... مَرَّ بِنا ما عَرَّجَا

إن كانَ ما ذَاقَ الهَوى ... فَلا نَجَوْتُ إنْ نَجَا

١٩ بحر من سلاح

يَفتخِرُ بجيش سيف الدولة وسلاحه:

عَلَوْنا جَوْشَناً بِأَشَدَّ منهُ ... وأَثْبَتَ عندَ مُشْتَجِرِ الرِّمَاحِ

اعتلينا حصن جوشن بجيش هو أشد من الحصن عند مشتجر، اشتباك، الرماح

بِجَيْشٍ جَاشَ بِالفُرسانِ حتى ... ظننتَ البَرَّ بَحْراً مِنْ سِلاحِ

جاش: تدفق

٢٠ لا عتاب

لم أُؤَاخِذْكَ بِالجَفَاءِ لِأَنِّي ... واثِقٌ منكَ بِالوفَاءِ الصَّحيحِ

فجميلُ العَدُوِّ غيرُ جميلٍ ... وقبيحُ الصديقِ غيرُ قبيحِ

٢١ أوصيك بعدم الصبر

كتب إلى سيف الدولة يعزيه عن أخته، سنة ٣٥٣ وهو أسير بالقسطنطينية:

أُوصيكَ بالحُزْنِ لا أُوصيكَ بالجَلَدِ ... جَلَّ المُصَابُ عنِ التَّعْنيفِ والفَنَدِ

الفند: الخطأ

بي مِثلُ مَا بِكَ مِنْ حُزْنٍ ومِنْ جَزَعٍ ... وقد لَجَأْتُ إلى صبرٍ فلم أَجِدِ

تسويد أ. عبد الرحيم

٢٢ جهل العشائر

قال يصف الصفح عن بني نمير وكلاب ويحذرهم:

إلى اللّهِ أَشْكُو ما أَرى مِنْ عَشائِرٍ ... إذا ما دَنَوْنا زادَ جَاهِلُهُمْ بُعْدا
وإنَّا لَتَثْنِينا عَواطِفُ حِلْمِنا ... عليْهِمْ، وإن ساءَتْ طَرائِقُهُمْ جِدًّا
ويَمْنَعُنا ظُلْمَ العَشِيرةِ أنَّنا ... إلى ضُرِّهَا لو نَبتَغي ضُرَّهَا أَهْدَى

يمنعنا من ظلمهم أننا نعرف كيف نهتدي إلى أمور تضر بهم لو أردنا ذلك

ولو عَرَفَتْ هذي العشائِرُ رُشْدَها ... إذنْ جَعَلَتْنا دونَ أَعدَائِها سَدَّا

٢٣ الله الإرادة

قال لبعض المنجمين:

يا مُعْجَباً بِنجُومِهِ ... لا النَّحْسُ مِنكَ ولا السَّعَادَةْ

أيها المنجم النحس والسعادة، أي السعد والفأل الحسن ليسا منك

اللَّهُ يَنْقُصُ ما يَشا ... ءُ، وفي يَدِ اللَّهِ الزيادَةْ
دَعْ ما أُرِيدُ ومَا تُريـ ... ـدُ، فَإنَّ لِلَّهِ الإرادَةْ

٢٤ لا تقعد عني

خرج ابن أخت ملك الروم في ألف من وجوه الروم والأرمن إلى نواحي منبج فصادف أبا فراس يتصيد في سبعين فارساً، فأراد أصحاب أبي فراس له الفرار، فأبى وقاتل حتى جرح وأسر. فكتب أبو فراس إلى سيف الدولة يطلب أن يفديه بأسير رومي من الأمراء:

دَعَوْتُكَ لِلجَفْنِ القَرِيحِ المُسَهَّدِ ... لَدَيَّ، ولِلنَّوْمِ القَليلِ المُشَرَّدِ

القريح: المتقرح المشقق، المسهد: الساهر

ومَا أنا إلَّا بينَ أَمْرٍ وضِدِّهُ ... يُجَدَّدُ لي في كلِّ يومٍ مُجَدَّدِ

أنا متلاطم المشاعر منتبشر يوماً، يائس يوماً مع كل يوم جديد

فمِنْ حسنِ صبرٍ بِالسَّلامَةِ وَاعِدي ... ومِنْ رَيْبِ دهرٍ بِالرَّدَى مُتَوَعِّدي

الصبر يعدني بالسلامة، وريب الدهر ومصائبه تتوعدني بالموت

أُقَلِّبُ طَرْفي بينَ خِلٍّ مُكَبَّلٍ ... وبينَ صَفِيٍّ بِالحَديدِ مُصَفَّدِ

مكبل ومصفد: مقيد، والصفي: الصديق

فلا تَتْرُكِ الأعداءَ حَوْلي لِيَفْرَحُوا ولا تقْطَعِ التَّسْآلَ عَنِّي وتَقْعُدِ

فإنْ مُتُّ بعدَ اليومِ عَابَكَ مَهْلَكي مَعَابَ النِّزَارِيِّينَ مَهْلَكُ مَعْبَدِ

إن مت في الأسر سيكون ذلك عاراً عليك كما كان موت معبد بن زرارة في الأسر بعد تلكؤ أهله في افتدائه عاراً عليهم

ولم يَكُ بِدْعاً هُلْكُهُ، غيرَ أَنَّهُمْ يُعَابُونَ إذْ سِيمَ الفِدَاءُ ومَا فُدي

يعابون لأن الفداء سيم، تمت المساومة عليه بأربعمئة بعير، ولكنهم لم يفتدوه

وإنَّكَ لَلمَولَى الذي بِكَ أَقْتَدي وإنَّكَ لَلنَّجْمُ الذي بِكَ أَهْتَدي

وأَنْتَ الذي بَلَّغْتَني كلَّ رُتْبَةٍ مَشَيْتُ إليها فوقَ أعناقِ حُسَّدي

فيَا مُلْبِسي النُّعْمَى التي جَلَّ قَدْرُها لقد أَخْلَقَتْ تِلكَ الثِّيابُ فَجَدِّدِ

أخلقت: اهترأت

ولا يَحْرِمَنِّي اللَّهُ قُرْبَكَ إنَّه مُرادي مِنَ الدُّنيا وحَظِّي وسُؤْدَدي

٢٥ ابن الأماجد

قال يصف أسره:

لِمَنْ جَاهَدَ الحُسَّادَ أَجْرُ المجاهِدِ وأعجَزُ ما حَاوَلْتَ إرضاءُ حَاسِدِ

أيا جَاهِداً في نَيْلِ ما نِلْتُ مِنْ عُلاً رُوَيْدَكَ إنِّي نِلْتُها غَيْرَ جَاهِدِ

ويا سَاهِدَ العَيْنَيْنِ فيما يَريبُني أَلَا إنَّ طَرْفي في الأذى غيرُ سَاهِدِ

يا ساهراً يفكر في مكائد يوقعني فيها إن طرفي، عيني، غير ساهر بل نائم غير مهتم بك رغم الأذى الذي أعانيه

إذا كانَ غيرُ اللَّهِ لِلمرءِ عُدَّةً أَتَتْهُ الرَّزَايا مِنْ وُجُوهِ الفَوَائِدِ

فقد جَرَّتِ الحَنْفَاءُ حَتْفَ حُذَيْفَةٍ وكانَ يَراها عُدَّةً لِلشَّدائِدِ

الحنفاء فرس لحذيفة بن بدر، وقد سبقتها الغبراء.. وقامت حرب داحس والغبراء وفيها قتل حذيفة

وجَرَّتْ مَنايا مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةٍ عَقيلَتُهُ الحَسناءُ أَيَّامَ خَالِدِ

مالك بن نويرة قتله خالد بن الوليد في حروب الردة ثم تزوج من زوجته الحسناء، وانتُقد على ذلك

عسَى اللَّهُ أنْ يَأْتِي بِخيرٍ فَإنَّ لي عَوائِدَ مِنْ نُعْمَاهُ غيرَ بَوائِدِ

غير بوائد: لا تفنى ولا تبيد

فكمْ شَالَني مِنْ قَعْرِ ظَلْمَاء لم يَكُنْ ... لِيُنْقِذَني مِنْ قَعْرِها حَشْدُ حَاشِدِ
مَنَعْتُ حِمَى قَومِي وسُدْتُ عَشيرتي ... وقَلَّدْتُ أَهْلِي غُرَّ هَذي القَلائِدِ

القلائد: العقود، يعني القصائد

خَلائِقُ لا يُوجَدْنَ في كلِّ مَاجِدٍ ... ولكنَّها في المَاجِدِ ابْنِ الأَمَاجِدِ

٢٦ إسكار الحبيب

باتَ الحبيبُ إلى الصبا ... حِ مُعانِقي خَدًّا لِخَدّْ
قد كانَ مَوْلايَ الأَجَلَّ ... فَصَيَّرَتْهُ الرَّاحُ عَبْدي

مولاي: سيدي

ليسَتْ بِأَوَّلِ مِنَّةٍ ... مَشْكُورَةٍ لِلرَّاحِ عِندي

منة: نعمة

٢٧ الصديق الصدوق

كتب أبو فراس للقاضي أبي حصين علي بن عبد الملك، وقد عزم على المضي إلى الرقة:

يَا طُولَ شَوْقِيَ إنْ قَالوا الرحيلُ غَدا ... لا فَرَّقَ اللّهُ فيما بينَنا أبدا
يَا مَنْ أُصَافيهِ في قُرْبٍ وفي بُعُدٍ ... ومَنْ أُخَالِصُهُ إن غَابَ أو شَهِدا
راعَ الفِراقُ فؤاداً كنتَ تُؤْنِسُهُ ... وذَرَّ بينَ الجُفُونِ الدَّمْعَ والسُّهُدَا
ما زالَ يَنْظِمُ في الشعرَ مُجْتهداً ... فضْلاً وأَنْظِمُ فيه الشعرَ مُجْتَهِدا
حتى اعتَرَفْتُ وعَزَّتْني فَضائِلُهُ ... وفَاتَ سَبْقاً وحازَ الفضلَ مُنْفَرِدا

عزتني: تغلبت عليّ

إنْ قَصَّرَ الجُهْدُ عن إدراكِ غايَتِهِ ... فَأَعْذَرُ الناسِ مَنْ أَعطَاكَ مَا وَجَدا

إن قصر جهدي عن إدراك الغاية التي بلغها في جودة شعره فإن أفضل الناس عذراً من أعطى بقدر ما وجد لديه

الحمدُ للّهِ حمْداً دائِماً أبدا ... أَعْطَانِيَ الدهرُ مَا لم يُعْطِهِ أَحَدَا

٢٨ جملة القول

نَـــبْـــوَةُ الإِدْلالِ لـــيـــســـتْ   عـــنـــدَنـــا ذَنـــبـــاً يُـــعَـــدُّ

نبوة الإدلال: صدود الدلال

جُـمْـلَـةٌ تُـغْـنـي عـن الـتـفـ   ـصـيـلِ: مَـا لـي عَـنْـكَ بُـدُّ

٢٩ نتاجر بالسيوف

قال يهنئ سيف الدولة بإيقاعه بالقبائل، ويفخر بنفسه وبقومه الوائليين:

أَقُولُ وقد ضَجَّ الحُلِيُّ وأَشْرَفَتْ،   ولم أَرْوَ منْها، لِلصَّباحِ بَشائِرُ:

أقول وقد سُمع لحليها صوت واقتربت بشائر الصبح، ولم أرتو من الحبيبة:

أَيَا رَبِّ حَتَّى الحَلْيُ مِمَّا نَخافُهُ   وحتى بَياضُ الصبحِ مِمَّا نُحاذِرُ

ولي فيكِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ آمِرٌ   ودُونَكِ مِنْ حُسْنِ الصِّيانَةِ زَاجِرُ

تأمرني صبابتي وتعلقي بك بشيء ولكن حسن الصيانة، أي مراعاة العفة، تزجرنا عن التمادي

عَفافُكِ غَيٌّ، إنَّما عِفَّةُ الفَتى   إذا عَفَّ عن لَذَّاتِهِ وَهْوَ قَادِرُ

عفافك غي، ليس بالعفاف الصحيح، فالعفة هي عفة من يمتنع وهو قادر، وأما أنت فتمتنعين خوفاً

أولئِكَ أَعْمامي ووالِدِيَ الذي   حَمَى جَنَبَاتِ المُلْكِ، والمُلْكُ شَاغِرُ

أهل أبي فراس حموا الخليفة العباسي وأعادوه بجيشهم إلى بغداد بعد فراره منها وبعد أن ظل سرير الحكم شاغراً زمناً

ومُسْتَرْدَفَاتٍ مِنْ نِساءٍ وصِبْيَةٍ   تَثَنَّى على أَكْتَافِهِنَّ الضَّفَائِرُ

رب فتيات مستردَفات، قد أردفهن رجالنا خلفهم على المطايا بعد السبي، وضفائرهن على الأكتاف فهن حاسرات

بُنَيَّاتِ أَمْلاكٍ أُتِينَ فُجَاءَةً   قُهِرْنَ وفي أَعْناقِهِنَّ الجَواهِرُ

فإنْ تَمْضِ أَشْيَاخِي فلم يَمْضِ مَجْدُها   ولا دَثَرَتْ تلكَ العُلا والمَآثِرُ

أشياخي: أسلافي

ففينا لِدينِ اللَّهِ عِزٌّ ومَنْعَةٌ   وفينا لِدينِ اللَّهِ سيفٌ ونَاصِرُ

سيف الدولة وأخوه ناصر الدولة ردا الخليفة بالقوة لبغداد

هُما، وأَميرُ المؤمنينَ مُشَرَّدٌ،   أَجَارَاهُ لَمَّا لم يَجِدْ مَنْ يُجاوِرُ

وردَّاهُ حتَّى ملَّكاهُ سَريرَهُ ... بِعشْرِينَ أَلْفاً بينها الموتُ سَافِرُ
وسَاسَا أُمورَ المُسْلِمينَ سِياسَةً ... لَها اللَّهُ والإسلامُ والدينُ شاكرُ
أَلا قُلْ لِسيفِ الدولةِ القَرْمِ إِنَّني ... على كلِّ شيءٍ، غيرَ وَصْفِكَ، قَادِرُ

القرم: السيد

سَقَى أَرْسَناسَاً مِثْلَهُ مِنْ دِمَائِهِمْ ... عَشِيَّةَ غَصَّتْ بِالقُلُوبِ الحَناجِرُ

أرسناس: نهر في بلاد الروم، وسقاه سيف الدولة بمثل مائه من دم الروم

وبَاتَ يُديرُ الأمرَ مِنْ كلِّ وِجْهَةٍ ... وذُو الحزمِ نَاهِيهِ وذُو العَزْمِ آمِرُ

الحازم من رجاله ينهاه عن التوغل، والعازم منهم يشير عليه بالتقدم

وقد يَكْبُرُ الخَطْبُ اليَسيرُ وتَجْتَني ... أَكَابِرُ قومٍ ما جَناهُ الأَصاغِرُ

قد يستطير الشر ويجني، ويحصد، سادة القوم العناء الشديد بسبب ما يجنيه صغارهم

كما أَهْلَكَتْ كَلْباً غُوَاةُ جُنَاتِها ... وعَمَّ كِلاباً ما جَنَتْهُ الجَعَافِرُ
شَرَيْنا وبِعْنَا بِالسيوفِ نُفوسَهُمْ ... ونحن أُناسٌ بِالسيوفِ نُتَاجِرُ

٣٠ فراق

وكتب إلى صديق جواباً عن قصيدة له:

وأَشْرَفُ الناسِ أهلُ الحبِّ مَنزِلَةً ... وأَشْرَفُ الحُبِّ ما عَفَّتْ سَرائِرُهُ

سرائره: نواياه

ما أَنْسَ لا أَنْسَ يومَ البَيْنِ مَوقِفَنا ... والشوقُ يَنهَى البُكا عَنِّي ويَامُرُهُ

يامره: يأمره، ولو قرأنا بهمزة لوقعنا في سناد التأسيس

وقَولَها، ودموعُ العينِ وَاكِفَةٌ ... هذا الفراقُ الذي كنَّا نُحَاذِرُهُ

٣١ نحن رعاياك

وكانَ إذا دَعانا الأمرُ حَقَّتْ ... بِنا الفِتيَانُ تَبْتَدِرُ ابْتِدَارا

تبتدر: تسارع

بِخَيلٍ لا تُعانِدُ مَنْ عليها ... وقومٍ لا يَرَوْنَ الموتَ عَارا
إذا بَقِيَ الأميرُ قَريرَ عينٍ ... فَدَيْنَاهُ اختِياراً لا اضْطِرارا

أَبٌ بَـرٌّ ومَـوْلـىً وابْـنُ عَـمٍّ ... ومُسْتَنَدٌ إذا مَا الخَطْبُ جَارا
يَـمُـدُّ عـلـى أكـابِـرِنـا جَـنـاحـاً ... ويَكْفُلُ في مواطِنِنا الصِّغَارا

٣٢ ريق كالخمر

سَأُثْني على تلكَ الثَّنَايا لِأَنَّني ... أقولُ على علمٍ، وأَنْطِقُ عنْ خُبْرِ

الثنايا: الأسنان في مقدم الفم

وأُنْصِفُها، لا أَكْذِبُ اللَّهَ، أَنَّني ... رَشَفْتُ بِها رِيقاً أَلَذَّ مِنَ الخَمْرِ

٣٣ استبقاء الصديق

وخَبَرْتُ هذا الدهرَ خِبرةَ نَاقِدٍ ... حتى أَنِسْتُ بِخيرِهِ وبِشَرِّهِ
والمَرءُ ليس بِبالِغٍ في أرْضِهِ ... كالصَّقْرِ ليس بِصائِدٍ في وَكْرِهِ

لا يبلغ المرء العز إذا بقي في بلده فلا بد من الترحال، وكذا الصقر لا يصيد إلا إذا ابتعد عن وكره

لا أَشْتري بعد التَّجَرُّبِ صَاحباً ... إلَّا وَدِدْتُ بِأَنَّني لم أَشْرِهِ
فصبرتُ لم أَقْطَعْ حِبالَ وِدَادِهِ ... وسَتَرْتُ منهُ ما اسْتَطَعْتُ بِسَتْرِهِ
أَنْفِقْ مِنَ الصَّبْرِ الجَميلِ فإنَّهُ ... لم يَخْشَ فَقْراً مُنْفِقٌ مِنْ صبرِهِ
يا رُبَّ مُضْطَغِنُ الفؤادِ لَقيتُهُ ... بِطَلاقَةٍ فَسَلَلْتُ مَا في صَدْرِهِ

مضطغن: حاقد

٣٤ الإغضاء

إنْ لم تَجَافَ عَنِ الذُّنُو ... بِ وجَدْتَها فينَا كثيرةْ

تجافَ: تتجافى وتغضي

لكنَّ عَادَتَكَ الجَميـ ... ـلةَ أنْ تَغُضَّ على بَصيرَةْ

٣٥ الصدور أو القبور

قال في خرشنة لما اقتيد إليها أسيراً جريحاً، وقبل أن يحمل إلى القسطنطينية:

إنْ زُرْتُ خَرْشَنَةٍ أسيرا ... فَلَكَمْ أَحَطْتُ بِها مُغيرا
ولقد رَأَيْتُ النارَ تنْـ ... ـتَهِبُ المنازلَ والقُصورا

ولـقـد رأيـتُ الـسَّـبْـيَ يُـجْـ ـلَـبُ نَـحـوَنـا حُـوّاً وحُـورَا

الحو من النساء: من في شفاههن سمرة، والحور: من اشتد سواد عيونهن في اشتداد بياضها

نَـخـتَـارُ مـنـهُ الـغَـادَةَ الـ ـحَـسْـنـاءَ والـظَّـبـيَ الـغَـريـرا

الغرير: البريء

إن طـالَ لَـيـلـي فـي ذَرا كِ فـقـد نَـعِـمْـتُ بـه قَـصـيـرا

في ذراكِ: في كنفك، بقربك، وهو يخاطب بلدة خرشنة

ولَـئـنْ لَـقـيـتُ الـحـزنَ فـيـ ـكِ فـقـد لَـقـيـتُ بِـكِ الـسُّـرورا
ولـئـن رُمـيـتُ بِـحـادِثٍ فَـلأُلْـفَـيَـنَّ لـه صَـبُـورا
مِـنْ كـانَ مِـثـلـي لـم يَـبِـتْ إلّا أسـيـراً أو أمـيـرا
لـيـسَـتْ تَـحُـلُّ سَـراتُـنـا إلّا الـصُّـدُورَ أوِ الـقُـبـورا

سراتنا، أي سادتنا، لا تحل إلا صدور المجالس أو القبور

٣٦ أراك عصي الدمع

قال وهو في الأسر:

أَراكَ عَصِيَّ الدمعِ شيِمَتُكَ الصبرُ أما لِلهوى نَهيٌ عليكَ ولا أمرُ؟

يسأل نفسه: أراك عصي الدمع، صعب الدمعة لا تبكي بسهولة، وشيمتك وطبعك الصبر، ألا يؤثر فيك الحب ناهياً وآمراً؟

بَلَى، أنا مُشتاقٌ وعنديَ لوعةٌ ولكنَّ مِثلي لا يُذاعُ له سرُّ

يجيب نفسه: بلى، مشتاق وملتاع، ولكن مثلي في شموخه لا يبوح بما في ضميره من لوعة العاشق

إذا الليلُ أَضْوَانِي بَسطْتُ يدَ الهوى وأَذْلَلْتُ دمعاً مِنْ خَلائِقِهِ الكِبْرُ

إذا أضواني الليل، أنحل جسمي وأهزلني طول السهر، سمحت للهوى بالتدفق وبسطت له يداً، وأذللت الدمع بإسالته مع أن من طباع دمعي الكبر والأنفة

تكادُ تُضيءُ النارُ بين جوانحي إذا هيَ أذكتْها الصبابةُ والفِكْرُ

أذكتها: أشعلتها

مُعَلِّلَتي بالوصْلِ والموتُ دونَه إذا مُتُّ ظَمآناً فلا نزلَ القَطْرُ

يا معللتي بالوصل، يا من تهدئني بوعد بالوصل، قد يأتي الموت قبل الوصل، وإن مت ظمآناً فلا نزل المطر

حفِظتُ وضَيَّعْتِ المودَّةَ بينَنا وأحسنُ مِن بَعضِ الوفاءِ لَكِ الغَدْرُ
حفظتُ المودة وأنت ضيعتها، والغدر أحسن من وفائي لك لأنك غادرة

وحارَبْتُ قومي في هواكِ، وإنَّهُمْ وإِيَّايَ لولا حبُّكِ الماءُ والخمرُ
لولا حبك لكنت مع أهلي سمناً على عسل

وفَيْتُ وفي بعضِ الوفاءِ مَذَلَّةٌ لإنسانَةٍ في الحيِّ شيِمَتُها الغَدْرُ
تُسائِلُني مَنْ أنتَ، وَهْيَ عَليمَةٌ وهلْ بِفَتىً مثلي على حَالِهِ نُكْرُ
أنا مشهور لا سبيل إلى أن ينكرني منكر، وهي تسألني من أنا تيهاً ودلالاً

فقلتُ كما شاءتْ وشاءَ لها الهوى: قتيلُكِ. قالتْ: أيُّهُمْ، فهُمُ كُثْرُ
فقلتُ لها لو شئتِ لم تَتَعَنَّتي ولم تسألي عني وعندَكِ بي خُبْرُ
فقالتْ: لقد أَزْرَى بِكَ الدَّهرُ بعدَنا فقلتُ: معاذَ اللَّهِ، بل أنتِ لا الدهرُ
أزرى بك: بَهْدَلَكَ

وقَلَّبْتُ أمري لا أرى لِيَ راحةً، إذا البَيْنُ أَنساني ألَحَّ بِيَ الهجرُ
البين، أي الفراق، ينسيني العشق، ولكن كون الحبيبة هاجرة لي يلح علي

فَعُدْتَ إلى حُكْمِ الزمانِ وحُكْمِها لها الذنبُ لا تُجْزَى به، ولِيَ العُذْرُ
أنا معذور في البعد لأنني أسير، وهي مذنبة لأنها صادة عني، ولا تسأل، وهذا حكم الزمن. . وحكمها

فلا تُنكِريني يا ابنةَ العَمِّ إنَّه لَيَعرِفُ مَنْ أنكرتِهِ البَدْوُ والحَضْرُ
ولا تُنكِريني إنَّني غيرُ مُنكَرٍ إذا زَلَّتِ الأقدامُ، واسْتُنْزِلَ النصرُ
أنا غير منكر، بل معروف وخصوصاً عندما تزل القدم، يضطرب الموقف، ويستنزل النصر، يدعو الناس الله أن ينجدهم وينزل عليهم النصر

وإنـي لَنَزَّالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ كثيرٍ إلى نُزَّالِها النَّظَرُ الشَّزْرُ
أنزل بكل موقعة يخافها الناس، وينظرون إلى النازل بها شزراً منكرين ذلك لخطورتها

فَأَظْمَأُ حتى تَرتَوِي البِيضُ والقَنا وأَسْغَبُ حتى يشبعَ الذئبُ والنَّسْرُ
أظل ظمآن حتى ترتوي البيض والقنا، الرماح والسيوف، من دم الأعداء، وأسغب، أجوعُ، حتى يشبع الذئب والنسر من أشلائهم

ولا أُصْبِحُ الحَيَّ الخُلُوفَ بِغارةٍ ولا الجيشَ ما لم تَأْتِهِ قَبْلِيَ النُّذْرُ
لا أغير صباحاً على القوم الخلوف، الذي تخلف رجالهم وبقيت النساء، ولا أغير حتى على الجيش إلا بعد أن أرسل من ينذره بقدومي ثقة بقوة رجالي وبشجاعتي

ويـا رُبَّ دارٍ لـم تُـخِـفْـنـي مَـنـيـعَـةٍ   طَلَعْتُ عليها بِالرَّدَى أنا والفجرُ
وحيٍّ رددْتُ الـخيـلَ حَتَّى مَـلَكْتُهُ   هَـزيـمـاً وردَّتْـنـي الـبَـراقِـعُ والـخُـمْـرُ

ورب حي، أي قوم، رددت خيلهم مهزومة. . ولكن ردتني دون أن أكمل الغزوة براقع النساء وخمرهن متعففاً عنهن

وسـاحِـبَـةِ الأذيـالِ نَـحْـوي لَـقِـيـتُـهـا   فـلـم يَـلْـقَـهـا جَـافِـي الـلـقـاءِ ولا وَعْـرُ

ورب فتاة جاءت نحوي تسحب ذيل ثوبها، وتطلب العفو عن قومها، ولم يلقها مني رجل وعر جافٍ شرس

وهبْتُ لـهـا مـا حَـازَهُ الـجـيـشُ كـلَّـه   ورُحْتُ ولـم يُـكْـشَـفْ لِأبـيـاتِـهـا سِـتْـرُ
ولا راحَ يُـطْـغِـيـنـي بِـأثـوابِـهِ الـغِـنَـى   ولا بـاتَ يَـثْـنِـيـنـي عن الـكَـرَمِ الـفـقـرُ

لا يطغيني، يجعلني طاغياً متجبراً، الغنى بما يسبغه علي من أثواب النعمة، ولا يمنعني الفقر من الكرم

أُسِرْتُ وما صَحبي بِعُزْلٍ لدى الوَغَى   ولا فـرسـي مُـهْـرٌ ولا رَبُّـهُ غَـمْـرُ

فرسي مهر: صغير لم يصل حد استحكام القوة، ربه: صاحبه، غمر: غشيم غير مجرب

ولكنْ، إذا حُمَّ القضاءُ على امْرِئٍ   فـلـيـس لـه بَـرٌّ يَـقـيـهِ ولا بَـحْـرُ
وقالَ أُصَيْحَابي: الفِرارُ أو الرَّدَى؟   فقلتُ: هـمـا أمرانِ أحلاهُـما مُرُّ
ولـكـنَّـنـي أمضي لِمَا لا يَعيبُنـي   وحَسْبُكَ مِنْ أمرينِ خَيرُهُما الأَسْرُ
ولا خـيـرَ فـي دَفْـعِ الأذى بِـمَـذَلَّـةٍ   كـمـا رَدَّهـا يـومـاً بِـسَـوْأَتِـه عَـمْـرُو

لا خير في التخلص من الأذى بمذلة الفرار. . مثلما كشف عمرو بن العاص عورته عندما غلبه علي بن أبي طالب في المبارزة فكف عنه علي وتركه

يَـمُـنُّـونَ أن خَـلَّـوْا ثِـيـابـي، وإنَّـمـا   عَـلَـيَّ ثـيـابٌ مِـنْ دِمـائِـهِـمُ حُـمْـرُ

يمنون علي بأن تركوا ثيابي ولم ينزعوها عني، ولكنها حمر من دمهم

سَيَذْكُرُني قَومي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ   وفي الليلةِ الظلماءِ يُفتَقَدُ البَدْرُ
فإن عِشْتُ فالطَّعْنُ الذي يَعْرِفُونَهُ   وتلكَ القَنا والبيضُ والضُّمَّرُ الشُّقْرُ

القنا والبيض: الرماح والسيوف، الضمر الشقر: الخيل الضامرة الشقراء

وإن مُـتُّ فـالإنـسـانُ لا بُـدَّ مَـيِّـتٌ   وإن طَالَتِ الأيامُ وانفَسَحَ العُمرُ
ولو سَدَّ غيري ما سَدَدْتُ اكتَفَوْا به   وما كانَ يَغْلُو التِّبْرُ لو نَفَقَ الصُّفْرُ

ما كان التبر، أي الذهب، ليغلو سعره لو نفق الصفر، النحاس الأصفر، وسد مسده

ونحنُ أناسٌ لا تَوَسُّطَ عندنا لنا الصَّدْرُ دونَ العَالَمِينَ أو القَبْرُ
تَهونُ علينا في المَعالي نفوسُنا ومَنْ خَطَبَ الحَسناءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

لم يغلها المهر: لم يكن المهر غالياً عليها لأنها تستحقه

أَعَزُّ بَنِي الدنيا وأَعْلَى ذَوِي العُلا وأكرمُ مَنْ فوقَ الترابِ، ولا فَخْرُ

٣٧ رثاء الأم

قال في أسره وقد بلغه خبر موت أمه:

أَيَا أمَّ الأسيرِ سَقاكِ غيثٌ بِكُرْهٍ منكِ ما لَقِيَ الأسيرُ
إذا ابْنُكِ سَارَ في بَرٍّ وبَحرٍ فَمَنْ يَدعُو له أو يَستَجِيرُ
حَرامٌ أن يَبيتَ قَريرَ عينٍ ولؤْمٌ أن يُلِمَّ به السُّرورُ
وقد ذُقْتِ الرَّزايا والمنايا ولا ولدٌ لديكِ ولا عَشيرُ
أيَا أُمَّاهُ كم بُشْرَى بِقُربي أَتَتْكِ ودُونَها الأجلُ القصيرُ

قبل البشرى بافتدائي جاء أجلك سريعاً

إلى مَنْ أشْتَكي؟ ولِمَنْ أُنَاجي إذا ضَاقَتْ بِما فيها الصدورُ
نُسَلَّى عنكِ أَنَّا عن قَليلٍ إلى ما صِرتِ في الأُخْرى نَصيرُ

عن قليل: قريباً

٣٨ تَرحال

تَلاعَبُ بي على هُوجِ المَطايا خَلائِقُ لا تَقَرُّ على الصَّغَارِ

تتلاعب بي فوق الإبل الهوجاء المسرعة وتحثني على الارتحال أخلاق لا تقر على الصغار، لا ترضى بالصغائر

وما يُغنيكَ مِنْ هِمَمٍ طِوالٍ إذا قُرِنَتْ بِأَعْمارٍ قِصَارِ؟

ما نفع الطموحات الكبيرة إذا كان العمر قصيراً ولا يسعها

يقولُ لِيَ انتظرْ فَرجاً، ومَنْ لي بِأَنَّ الموتَ يَنتظِرُ انتِظَاري
عزيزٌ حيثُ حَطَّ السيرُ رَحلي تُدارِيني الأَنَامُ ولا أُداري

أنا عزيز في كل مكان أنزل فيه، والناس يلتمسون رضاي ولا ألتمس رضاهم

وأَهْلِي مَنْ أَنَخْتُ إليهِ عِيسِي ودَارِي حيثُ كنتُ مِنَ الدِّيارِ

٣٩ عند خمَّار

تَـــوَاعَـــــدْنـــــا بِـــآذارِ   لِـمَـسْـعـىً غـيـرِ مُـخـتـارِ

آذار: مارس، تواعدنا فيه لغرض لا يختاره الوقور من الناس

وقُـمْـنـا نَـسْـحَـبُ الـرَّيْـطَ   إلـــى حَـــانَـــةِ خَـمَّـــارِ

الريط: الثوب

فـلـم نَـدْرِ وقـد فَـاحَـتْ   لـنـا مِـنْ جـانـبِ الـدارِ..

فاحت رائحة الخمر طيبة عطر فما عرفنا..

بِـخَـمَّـارٍ مِـنَ الـقـومِ   نَـزَلْـنـا أم بِـعَـطَّـارِ؟

.. هل نزلنا بخمار أن بعطار؟

فـلـمَّـا أُلـبِـسَ الـلـيـلُ   لـنـا ثـوبـاً مِـنَ الـقَـارِ

لما اشتد سواد الليل فكأنه لبس ثوباً من القار، الزفت.. كمثل الزفت الذي يطلون به دنان الخمر

وقُـلْـنـا أَوْقِـدَ الـنـارَ   لِـطُـرَّاقٍ وزُوَّارِ

وَجَـا خَـاصِـرَةَ الـدَّنِّ   فَـأَغْـنـانـا عـن الـنَّـارِ

وجا: وجأ أي طعن.. طعن صاحب الخمارة الدن في جنبه.. فنزلت خمر حمراء أضاءت المكان فأغنتنا عن النار.. أو أننا شربناها فشعرنا بحرارة في أجسامنا فلم نحتج إلى نار للاستدفاء.. وآذار/مارس في شمال سوريا بارد ليلاً

ومَـا فـي طـلـبِ الـلَّـهْـوِ   عـلـى الـفـتـيـانِ مِـنْ عـارِ

٤٠ المعجل والمؤجل

المرءُ رَهْنَ مَصائبٍ لا تَنْقَضي   حتى يُوارَى جسمُهُ في رَمْسِهِ

رمسه: قبره

فَمُؤَجَّلٌ يلقَى الرَّدَى في أهلِهِ   ومُعَجَّلٌ يلقَى الرَّدَى في نَفْسِهِ

٤١ وهبت شبابي

وَهَبْتُ شَبابي، والشَّبابُ مَضِنَّةٌ   لِأَبْلَجَ مِنْ أبناءِ عَمِّيَ أَرْوَعا

وهبت شبابي والشباب مضنة، ثمين يضن به المرء، لأبلج، لشخص مشرق، من أبناء عمي أروعَ، بهي الطلعة شجاع

أَبِيتُ مُعَنًّى مِنْ مَخَافَةِ عَتْبِهِ وأُصبِحُ مَحزُوناً وأُمْسِي مُرَوَّعا
فلمَّا مَضَى عصرُ الشبيبةِ كلُّه وفارَقَني شَرْخُ الشبابِ مُوَدَّعا

شرخ الشباب: أوله

تَطَلَّبْتُ بين الهجرِ والعَتْبِ فُرْجَةً فحَاوَلْتُ أمراً لا يُرامُ، مُمَنَّعا

ابن عمي ـ سيف الدولة ـ إما أنه هاجر لي أو معاتب.. وبين هاتين الحالتين أبحث عن فسحة من الرضا.. لكن عبثاً

وصِرْتُ إذا ما رُمْتُ في الخيرِ لَذَّةً تَتَبَّعْتُها بينَ الهُمومِ تَتَبُّعا

أقتنص لحظة سعادة من بين الهموم المتابعة

وهَا أنا قد حَلَّى الزمانُ مَفَارِقِي وتَوَّجَني بِالشيبِ تاجاً مُرَصَّعا
فلو أَنَّني مُكِّنْتُ مِمَّا أُرِيدُه مِنَ العيشِ يوماً لم يَجِدْ فِيَّ مَوْضِعا

لو تمكنت من تحقيق مبتغاي من الراحة واللذة لم يكن فيَّ موضع لذلك بسبب ذهاب الشباب

أمَا لَيلةٌ تَمضي ولا بعضُ ليلةٍ أَسُرُّ بها هذا الفؤادَ المُفَجَّعَا
أمَا صاحبٌ فردٌ يدومُ وَفاؤُهُ فَيُصْفي لِمَنْ أَصْفَى ويَرعَى لِمَنْ رَعَى
أفي كلِّ دارٍ لي صديقٌ أَوَدُّهُ إذا ما تَفارَقْنا حفِظتُ وضَيَّعا
وإنْ أَوْجَعَتْني مِنْ أَعَادِيَّ شِيمَةٌ لَقِيتُ مِنَ الأَحْبَابِ أَدْهَى وأَوْجَعا
تَنَكَّرَ سيفُ الدينِ لَمَّا عَتَبْتُهُ وعَرَّضَ بِي تحتَ الكلامِ وقَرَّعَا
فقُولا له: مِنْ أَصدقِ الوُدِّ أَنَّني جعلتُكَ مِمَّا رابَنِي الدَّهْرَ مَفْزَعا

الدليل على أصدق الود أنني جعلتك طول الدهر ملجأي من المصائب

٤٢ يا جبل

قال يعزي سيف الدولة في ولد مات له:

يَبكي الرِّجَالُ وسيفُ اللَّهِ مُبْتَسِمٌ حتَّى على ابنِكَ تُعطى الصبرَ يا جَبَلُ؟
يا مَنْ أَتَتْهُ المَنايا غيرَ حافِلَةٍ أينَ العَبيدُ وأين الخيلُ والخَوَلُ؟

يخاطب الصبي المتوفَّى: أين الخول، أي الخدم والخيل والعبيد؟ كيف لم تستطع كلها حمايتك من الموت؟

أين اللُّيوثُ التي حَوْلَيْكَ رَابِضَةٌ أين الصنائعُ أين الأهلُ ما فعلوا؟

الصنائع: الأنصار

٤٣ الخيل تعرف من عليها

مَـمـالِـكُـنـا مَـكـاسِـبُـنـا إذا مـا   تَـوارَثَـهـا رجـالٌ عــن رجـالِ

ممالكنا كسبناها بأنفسنا في حين يتوارث غيرنا الممالك عن آبائهم

إذا لـم تُـمْـسِ لـي نـارٌ فـإنـي   أبـيـتُ لِـنـارِ غَـيـري غـيـرَ صَـالِ

كـأنَّ الـخـيـلَ تـعـرِفُ مَـنْ عـلـيـهـا   فـفـي بـعـضٍ عـلـى بـعـضٍ تَـعـالِ

كأن الحصان يشعر بقيمة راكبه، فالخيول يفتخر ويتعالى بعضها على بعض بحسب الراكب

عـلـيـنـا أن نُـعـاوِدَ كـلَّ يـوم   رخـيـصٍ عـنـدَهُ الـمُـهَـجُ الـغَـوالـي

نعود مرة بعد مرة على يوم، أيٍّ معركة، ترخص فيها النفوس الغالية

فـإن عِـشْـنـا ذَخَـرنـاهـا لأُخـرى   وإن مُـتْـنـا فَـمَـوْتـاتُ الـرجـالِ

فإن عشنا ادخرنا نفوسنا لمعركة مقبلة، وإن متنا فكالرجال

٤٤ القِلَّة الكثيرة

أَيـا عَـجَـبـاً لِأَمْـرِ بـنـي قُـشَـيْـرٍ   أَرَاعُـونـا وقـالـوا: الـقـومُ قُـلُّ

أراعونا، هجموا علينا، وقالوا إننا قلٌّ، أي أننا قليلو العدد

وكـانـوا الـكُـثْـرَ يَـومـئـذٍ، ولـكـنْ   كَـثُـرْنـا إذ تَـعَـارَكْـنـا وقَـلُّـوا

كانوا فعلاً أكثر منا عدداً، وعندما تعاركنا صرنا أكثر منهم بشجاعتنا.. وبفرار كثيرين منهم

٤٥ ارتباك

أرامِيَـتـي! كـلُّ الـسِّـهَـامِ مُـصـيـبَـةٌ   وأَنـتِ لِـيَ الـرامـي، وكُـلِّـي مَـقـاتِـلُ

أيتها المحبوبة التي ترميني بسهامها، كل موضع فيَّ هو مقتل لسهامك الصائبة

وإنـي لَـمِـقْـدامٌ وعـنـدَكِ هَـائِـبٌ   وفـي الـحـيِّ سَـحْـبَـانٌ، وعـنـدَكِ بَـاقِـلُ

أنا شجاع، لكنني معك هائب، وعند قومي فصيح كالخطيب سحبان، وعندك عيي ألكن كباقل المشهور بقلة حظه من الفصاحة

يَـضِـلُّ عَـلَـيَّ الـقـولُ إن زُرْتُ دارَهـا   ويـعـزُبُ عـنِّـي وجْـهُ مَـا أنـا فَـاعِـلُ

يعزب: يغرب ويبتعد

وحُـجَّـتُـهـا الـعـلـيـا، عـلـى كـلِّ حَـالَـةٍ   فَـبـاطِـلُـهـا حـقٌّ وحَـقِّـيَ بَـاطِـلُ

واللَّهِ ما قصَّرْتُ في طلبِ العُلا　　ولكنْ، كأنَّ الدهرَ عَنِّيَ غافلُ
وما كلُّ طَلَّابٍ مِنَ الناسِ بَالِغٌ　　ولا كلُّ سَيَّارٍ إلى المجدِ وَاصِلُ
وما المرءُ إلَّا حيثُ يَجْعَلُ نفسَهُ　　وإنِّي لها بينَ السِّمَاكَيْنِ جَاعِلُ

السماكان: نجمان

٤٦ بين الروم والأعراب

قد ضَجَّ جيشُكَ مِنْ طولِ القِتالِ به　　وقد شَكَتْكَ إلينا الخيلُ والإبِلُ
وقد دَرَى الرُّومُ مُذْ جَاوَرْتَ أرضَهُمُ　　أن ليسَ يَعْصِمُهُمْ سهلٌ ولا جبلُ
في كلِّ يومٍ تَزورُ الثَّغْرَ لا ضَجَرٌ　　يَثنيكَ عنهُ، ولا شُغْلٌ ولا مَلَلُ

الثغر: الموضع الحدودي

توهَّمَتْكَ كِلابٌ غيرَ قاصِدِها　　وقد تَكَنَّفَكَ الأعداءُ والشُّغُلُ

توهم الأعراب من قبيلة كلاب أنك منشغل عنهم لأن الأعداء أحاطوا بك

حتَّى رَأَوْكَ أمامَ الجيشِ تَقْدُمُهُ　　وقد طَلَعْتَ عليْهِمْ دونَ مَا أَمَلُوا
فاستقبَلُوكَ بِفرسانٍ أَسِنَّتُها　　سُودُ البَراقِعِ، والأكوارُ، والكِلَلُ

استقبلوك ليس بفرسان وأسنة رماح.. بل كان سلاحهم نساؤهم.. فقد خرجت إليك النسوة ببراقعهن السود وبعضهن يجلسن على أكوار الإبل وعليهن الكلل، أي الستور

٤٧ لأمر ما..

وعَطَّافٍ على الغَمَراتِ نَحْوِيٍ　　تَحُفُّ به المُثَقَّفَةُ الطِّوالُ

رب محارب يميل بحصانه نحوى في غمرة المعركة وتحيط به المثقفة العوالي من رماح قومه

تَرَكْتُ الرُّمْحَ يَخْطِرُ في حَشاهُ　　له مَا بينَ أَضْلُعِهِ مَجالُ

جعلت رمحي يمشي في جوفه بين أضلاعه

يقولُ وقد تَعَدَّلَ فيهِ رُمْحِي:　　لِأَمْرٍ ما تَحامَاكَ الرِّجالُ

هذا فخر فاخر، وشعر فاخر. لأبيات كثيرة كهذا البيت الأخير عاش أبو فراس على ألسنة الفصحاء ألف سنة رغم أنه جاء في زمن المتنبي. فأما عند العامة فقد عاش أبو فراس لأنه قال شعراً رقيقاً في الأسر

٤٨ يأس متأخر

الـدهـرُ يـومـانِ: ذَا ثَـبْـتٌ وذا زَلَـلُ   والعيشُ طَعْمانِ: ذا صَابٌ وذا عَسَلُ

الصاب: عصارة من شجر المر

فمَـا الأَسَـى لِـهُـمـومٍ لا بـقـاءَ لـهـا   وما السرورُ بِنُعْمَى سوف تَنتقِلُ؟

لـكـنَّ فـي الـنـاسِ مَـغـروراً بـنـعـمَـتِـهِ   ما جاءَه اليأسُ حتَّى جاءَهُ الأَجَلُ

٤٩ تعسف

ومُـغْـضٍ لِـلـمَـهـابَـةِ عـن جَـوابـي   وإن لـسـانَـهُ الـعـضْـبُ الـصَّـقـيـلُ

العضب: السيف

أَطَـلْـتُ عِـتـابَـهُ عَـنَـتـاً وظُـلْـمـاً   فـجَـمْـجَـمَ ثـم قـالَ: كـمـا تَـقُـولُ

جمجم: تمتم

٥٠ اصبري

قال يصبِّر أمه وهو أسير قد ثقلت عليه جراحه:

مُـصـابـي جَـلـيـلٌ والـعـزاءُ جَـمـيـلُ   وظَـنِّـي بِـأَنَّ الـلَّـهَ سـوفَ يُـديـلُ

يديل: يغير الحال

جِـراحٌ تَـحـامَـاهـا الأُسَـاةُ مَـخُـوفَـةٌ   وسُـقْـمـانِ: بَـادٍ مـنـهُـمـا ودَخـيـلُ

مصاب بجراح تحاماها الأساة، أي يتجنبها الأطباء، لصعوبتها.. ومريض جسدياً ونفسياً

وأَسْـرٌ أُقـاسِـيـهِ ولـيـلٌ نـجـومُـهُ   أَرى كـلَّ شـيءٍ غـيـرَهُـنَّ يَـزُولُ

تَطُولُ بِيَ الساعاتُ وَهْيَ قصيرةٌ   وفـي كـلِّ دهـرٍ لا يَـسُـرُّكَ طُـولُ

أُقَلِّبُ طَرْفي لا أَرى غيرَ صاحبٍ   يَميلُ مع النَّعْماءِ حيثُ تَميلُ

نَعَمْ، دَعَتِ الدنيا إلى الغَدْرِ دَعوةً   أجـابَ إلـيـهـا عـالِـمٌ وجَـهُـولُ

وفَـارَقَ عَـمْـرُو بـنُ الـزُّبَـيْـرِ شـقـيـقَـهُ   وخَـلَّـى أَمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ عَـقـيـلُ

عمرو أخو عبد الله بن الزبير تخلى عن أخيه، وكذا عقيل أخو علي بن أبي طالب فقد انحاز إلى معاوية

فـيـا حَـسْـرَتـا مَـنْ لـي بِـخِـلٍّ مُـوافِـقٍ   أقـولُ بِـشَـجْـوي مَـرَّةً ويـقـولُ

وإنَّ وَراءَ السِّتْرِ أُمّاً بُكاؤُها عليَّ، وإن طالَ الزمانُ، طويلُ
ويَا أُمَّتَا لا تُخْطِئي الأجرَ إنه على قَدَرِ الصبرِ الجميلِ جَزيلُ
أمَا لَكِ في ذاتِ النِّطاقَيْنِ أُسْوَةٌ بِمَكَّةَ والحربُ العَوَانُ تَجُولُ

ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر جاءها ابنها عبد الله بن الزبير وهي عجوز وكان محاصراً فأشارت عليه بأن يقاتل حتى النهاية

أَرادَ ابنُها أَخْذَ الأمانِ فلمْ تُجِبْ وتَعْلَمُ عِلماً إنَّه لَقَتيلُ
تَأَسَّيْ. كفاكِ اللَّهُ ما تحذَرينَهُ فقد غالَ هذا الناسَ قبلَكِ غُولُ

تأسي وخذي القدوة، وليكن الله كافياً إياك، والمصائب أحاطت بالناس على مر الزمن

لَقيتُ نُجومَ الأُفْقِ وَهْيَ صَوارِمٌ وخُضْتُ سَوادَ الليلِ وَهْوَ خُيولُ

كنت في معاركي قد رأيت النجوم وما النجوم سوى السيوف اللامعة، وخضت سواد الليل وما الليل سوى خيول الأعداء

ومَنْ لم يُوَقِّ اللَّهُ فَهْوَ مُمَزَّقٌ ومَنْ لم يُعِزَّ اللَّهُ فَهْوَ ذَليلُ
وما لم يُرِدْهُ اللَّهُ في الأمرِ كلِّه فليس لِمَخلوقٍ إليه سبيلُ

٥١ أيا جارتا..

أقولُ وقد ناحتْ بِقُربي حمامةٌ أيا جارتا هل تَشعُرينَ بِحالي؟
معاذَ الهوى، ما ذُقْتِ طارِقَةَ النوى ولا خطرتْ منكِ الهُمومُ بِبالِ
أَتحمِلُ محزونَ الفؤادِ قَوادِمٌ على غُصُنٍ نائي المَسافَةِ عَالِ؟

القوادم: الريشات الظاهرات في جناح الطير، وأما الريش المخفي فهو الخوافي. يقول: أيمكن للحمامة أن تكون حزينة وهي حرة؟

أيا جارتا! ما أنصفَ الدهرُ بينَنا تعالَيْ أُقاسِمْكِ الهُمومَ تَعالي

يريد أن يلقي نصف همومه على الحمامة لأنه أسير وهي طليقة

تعاليْ تَرَيْ رُوحاً لديَّ ضعيفةً تَرَدَّدُ في جسمٍ يُعذَّبُ بَالِ
أَيضحكُ مأْسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندُبُ سَالِ؟

سالٍ: ناسٍ

لقد كنتُ أَوْلَى منكِ بِالدمعِ مُقْلَةً ولكنَّ دمعي في الحوادثِ غالِ

٥٢ يا أمتا

بلغ أبا فراس أن أمه ذهبت إلى منبج لتلتقي بسيف الدولة وتكلمه في مفاداة ابنها، فردها خائبة:

يا حسرةً ما أَكادُ أحمِلُها ... آخرُها مزعِجٌ وأولُها
عليلةٌ بالشَّآم مُفرَدَةٌ ... باتَ بِأَيدي العِدى مُعَلِّلُها

معللها: طبيبها

تُمْسِكُ أحشاءَها على حُرَقٍ ... تُطْفِئُها، والهمومُ تُشْعِلُها
إذا اطمأنَّتْ، وأينَ؟ أو هدَأَتْ ... عنَّتْ لها ذُكْرَةٌ تُقَلْقِلُها
تسألُ عنَّا الرُّكْبانَ جاهِدةً ... بأدمعٍ ما تكادُ تُمْهِلُها:
يا مَنْ رأى لي بحصنِ خَرْشَنَةٍ ... أُسْدَ شَرًى في القيودِ أرجُلُها
يا مَنْ رأى لي الدُّروبَ شَامِخَةً ... دونَ لِقاءِ الحبيبِ أَطولُها

الدروب: الطرق المؤدية إلى بلاد الروم

يا مَنْ رأى لي القيودَ مُوثَقَةً ... على حبيبِ الفؤادِ أثقلُها
يا أيُّها الرَّاكِبانِ هلْ لَكُما ... في حملِ نَجوى يَخِفُّ مَحْمَلُها
قولا لها إنْ وَعَتْ مقالَكُما ... وإنَّ ذِكري لها لَيُذهِلُها
يا أُمَّتا هذه منازِلُنا ... نترُكُها تارةً وننزِلُها
يا أُمَّتا هذه مَوارِدُنا ... نَعُلُّها تارةً ونَنْهَلُها
أَسلَمَنا قومُنا إلى نُوَبٍ ... أَيسَرُها في القلوبِ أَقْتَلُها
يا سيِّداً ما تُعَدُّ مَكرُمَةٌ ... إلَّا وفي راحَتَيْهِ أَكمَلُها
أنتَ سَماءٌ ونحنُ أَنْجُمُها ... أنتَ بلادٌ ونحنُ أَجْبُلُها
بِأَيِّ عُذْرٍ رَدَدْتَ والِهَةً ... عليكَ دونَ الورى مُعَوَّلُها

معولها: اعتمادها

جاءتكَ تَمتَاحُ ردَّ واحدِها ... يَنتظِرُ الناسُ كيف تُقْفِلُها

تمتاح: تطلب، تقفلها: تعيدها

سَمَحْتَ مِنِّي بِمُهْجَةٍ كَرُمَتْ ... أنتَ على يأسِها مُؤَمَّلُها

ضحيتَ أنت بنفسي الكريمة التي ـ رغم يأسها ـ تجد فيك الأمل

إن كنتَ لم تَبْذُلِ الفِداءَ لها فلم أَزَلْ في رضاكَ أَبْذُلُها
تلكَ المَوَدَّاتُ كيف تُهمِلُها تلكَ المَواعيدُ كيف تُغْفِلُها
أينَ المَعالي التي عُرِفْتَ بها تقولُها دائماً وتفعلُها
يا ناعمَ الثوبِ كيف تُبْدِلُهُ ثيابُنا الصوفُ ما نُبَدِّلُها
يا راكبَ الخيلِ لو بَصُرْتَ بِنا نحملُ أَقيادَنا وننقُلُها
فلو سألْنا سِواكَ عارِفَةً فبعدَ قطعِ الرجاءِ نَسأَلُها

٥٣ مجاملة اللئيم

فـي الناسِ إن فَتَّشْتَهُمْ مَنْ لا يُعِزُّكَ أو تُذِلَّهْ

من الناس من لا يحترمك حتى تذله

فاتركْ مُجامَلَةَ اللئيـ ـمِ فَإِنَّ فيها العَجْزَ كُلَّهْ

٥٤ المقعد المقيم

اللومُ لِلعاشِقينَ لُومُ لأنَّ خَطْبَ الهوى عَظيمُ

لوم، لؤم، أن تلوم العاشق

فكيفَ تَرْجُونَ لي سُلُوّاً وعنديَ المُقْعِدُ المُقيمُ

المقعد المقيم: الهم الكبير

نَديميَ النجمُ طولَ لَيلي حتى إذا غارَتِ النجومُ..
أَسْلَمَني الصبحُ لِلبَلايا فلا حبيبٌ ولا نديمُ

٥٥ كرم

إنَّا إذا اشتدَّ الزما نُ، ونابَ خطبٌ وادْلَهَمّ

أبو العلاء المعري لا يحب هذه الشدة فوق حرف الروي الساكن (ادلهمّ) فهي غير مقروءة، لأنها في غياب الحركة تجلب التقاء ساكنين، وما وضعناها إلا كي تكون صورة الكلمة موحية بمعناها. سأتذكر في الفصل المقبل ـ وهو عن أبي العلاء ـ ألا أضعها

أَلفيتَ حولَ بيوتِنا عُدَدَ الشجاعةِ والكَرمْ
لِلِقَا العِدى بيضُ السيو فِ ولِلنَّدَى حُمْرُ النَّعَمْ

السيوف البيض للأعداء، والإبل الحمر للضيوف

هـــــذا وهـــــذا دَأْبُـــــنـــــا　　يُـــــودَى دَمٌ ويُـــــراقُ دَمْ

المعنى الملموح: يودى دم، أي ندفع ديات من قتلناهم بسيوفنا حتى لا يكون ثأر، ونريق دم الذبائح لنكرم أضيافنا

٥٦ مُلَّاكها العجم

وفِـتـيـةٍ قَـلـبُـهُـمْ قـلـبٌ إذا رَكِـبـوا　　يـومـاً ورأيُـهُـمُ رأيٌ إذا عَـزَمُـوا
يـا لِـلـرجـالِ! أمَـا لـلَّـهِ مُـنْـتَـصِـفٌ　　مِنَ الطُّغاةِ؟ أمَا لِلدينِ مُنْتَقِمُ؟
بَـنُـو عَـلِـيٍّ رَعـايـا فـي دِيـارِهِـمُ　　والأمرُ تَمْلِكُهُ النِّسْوانُ والخدمُ
فـالأرضُ إلَّا عـلـى مُـلَّاكِـهـا سَـعَـةٌ　　والـمـالُ إلَّا عـلـى أربَـابِـهِ دِيَـمُ

ديم: سحائب ماطرة

لا يُطغِيَنَّ بَني العباسِ مُلكُهُمُ　　بَنُو عليٍّ مَواليهِمْ وإن زَعَمُوا

مواليهم: سادتهم

أَتفخَرونُ عليْهِمْ، لا أبالَكُمُ　　حتى كأنَّ رسولَ اللَّهِ جَدُّكُمُ
ومـا تَـوازَنَ يـومـاً بـيـنَـكُـمْ شَـرَفٌ　　ولا تَـساوَتْ بِـكُـمْ فـي مَـوطِـنٍ قَـدَمُ
قامَ النبيُّ بِها يومَ الغَديرِ لَهُمْ　　واللَّهُ يَشهَدُ والأَمْلاكُ والأُمَمُ

يوم الغدير: يوم عند غدير خم مدح فيه النبي علياً وجعله وليه، ويقول الشيعة، وأبو فراس شيعي، إن النبي جعل علياً الوصي في ذلك اليوم

حتى إذا أصبحتْ في غيرِ صاحِبِها　　باتتْ تَنَازَعُها الذُّؤْبانُ والرَّخَمُ

الذؤبان: الذئاب، الرخم: من الطيور الجارحة

وصُيِّرَتْ بينَهُمْ شُورَى كأَنَّهُمُ　　لا يعرِفُونَ وُلاةَ الحَقِّ أيُّهُمُ

الخلافة أصبحت شورى مع أن ولاتها، أي مستحقيها، هم آل البيت

تَاللهِ ما جَهِلَ الأقوامُ موضِعَها　　لكنَّهُمْ سَتَروا وَجْهَ الذي عَلِمُوا
ثم ادَّعَاها بَنُو العباسِ إرْثَهُمُ　　وما لَهُمْ قَدَمٌ فيها ولا قِدَمُ
منكُمْ عُلَيَّةُ أم مِنهُمْ، وكانَ لَهُمْ　　شيخُ المُغَنِّينَ إبراهيمُ أم لَكُمُ؟

علية بنت المهدي، أخت هارون الرشيد كانت تغني، وإبراهيم بن المهدي، أخو الرشيد، كان مغنياً. ويعير الشاعر العباسيين بهما

لا يُذْكَرونَ إذا ما معشرٌ ذُكِروا   ولا يُحَكَّمُ في أمرٍ لَهُمْ حَكَمُ

لم يكن للعباسيين شأن في القديم.. العباس عم النبي أسلم متأخراً، ولم يكن ذا رتبة عالية بالقياس إلى علي وأبي بكر وعمر

ولا رَآهُمْ أبو بكرٍ وصاحِبُهُ   أهلاً لِمَا طَلَبُوا منها وما زَعَمُوا
كَمْ غَدْرَةٍ لَكُمُ في الدينِ واضِحَةٍ   وكم دَم لِرسولِ اللَّهِ عندَكُمُ

خرج عدد من العلويين على بني العباس في دولتهم ونالهم القتل والصلب والتشريد

أبلِغْ لَديكَ بَنِي العباسِ مَألُكَةً   لا تَدَّعُوا مُلْكَها. مُلَّاكُها العَجَمُ

مألكة: رسالة

٥٧ كرائم وكرام

قال بعد انتصار في معركة مع قبيلة نمير:

لنا الدنيا فما شِئنا حَلالٌ   لِساكِنِها وما شِئنا حَرامُ
ويَنفُذُ أمرُنا في كلِّ حَيٍّ   فَيُدنيهِ ويُقْصيهِ الكَلامُ
سَرَوْا والليلُ يَجمَعُنا، ولكنْ   يَبُوحُ بِهِمْ ويَكْتُمُنا الظَّلامُ
إلى أن صَبَّحَتْهُمْ بالمنايا   كرائِمُ فوقَ أَظْهُرِها كِرامُ

صبحتهم بالموت خيولنا الكريمة وفوقها الفرسان الكرام

٥٨ موتوا كراماً

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ سَرَواتِ قَومي   وسَيفَ الدولةِ المَلِكَ الهُماما

سروات: سادة

بِأَنِّي لم أَدَعْ فَتَياتِ قَومي   إذا حُدِّثْنَ جَمْجَمْنَ الكَلاما

لم أترك فتيات قومي يتمتمن بالكلام غير مفتخرات.. بل أعطيتهن بشجاعتي مادة للحديث بافتخار

شَرَيْتُ ثَناءَهُنَّ بِبَذْلِ نَفسي   ونارُ الحربِ تَضْطَرِمُ اضْطِراما
ولَمَّا لم أَجِدْ إلَّا فِراراً   أشَدَّ مِنَ المَنِيَّةِ أو حِماما
حَملْتُ على وُرودِ الموتِ نفسي   وقلتُ لِعُصْبَتي مُوتوا كِراما
وعُذْتُ بِصَارِمٍ ويدٍ وقَلبٍ   حَمَتْنيَ أن أُلَامَ وأن أُضَاما

عذت بصارم وساعد وقلب، لجأت إليها، فحالت بيني وبين أن أُظلَم

كَشَفْتُ بهـا صُدورَ الـخيـلِ عنّي   كـمـا أَجْـفَـلْـتَ في بـيـدٍ نَـعَـامـا

كشفت بالسيف وبشجاعتي الخيل مثلما يشرد المرء سرب نعام في الصحراء

٥٩ عزة

لـنـا بـيـتٌ عـلـى عُـنُـقِ الـثـريَّـا   بـعـيـدُ مَـذاهِـبِ الأَطـنـابِ سَـامِ

بيتنا عال فوق نجوم الثريا، وهو بيت سام عال وكبير له أطناب طويلة، والأطناب حبال الخيمة

تُـظَـلِّـلُـهُ الـفـوارسُ بِـالـعَـوالـي   وتَـفْـرُشُـهُ الـوَلائِـدُ بـالـطَّـعـامِ

العوالي: الرماح، الولائد: الفتيات

٦٠ الرئاسة

هِيَ الـرئـاسـةُ لا تُقْنَى جواهِرُهـا   حتى يُخاضَ إليها الموتُ والعَدَمُ

ومـا الـرئـاسـةُ إلَّا مـا تُـقِـرُّ بـه   شُمْسُ المُلوكِ وتَعنُو تحتَه الأُمَمُ

الرئاسة الحقيقية تجعل الملوك الشمس، المتمردين، يقرون لك بالزعامة، وتجعل الأمم تعنو، أي تخضع

٦١ وداع

ودَّعُـوا خَـشْـيَـةَ الـرقـيـبِ بِإيـمـا   ءٍ فَـوَدَّعْـتُ خـيـفَـةَ الـلُّـوَّامِ

ودعتني الحبيبات بإيماء وإشارة خفية من الأيدي، وودعتهن خائفاً من لوم اللائمين

لـم أَبُـحْ بـالـوَداعِ جَـهْـراً، ولـكـنْ   كـان جَفْني فَمي، ودمعِي كَلامي

لم أجهر بالوداع بل كان كلامي من جفني دموعاً

٦٢ أصابع الأيتام

لستُ بِالمُسْتَضيمِ مَنْ هُوَ دُوني   اِعتِداءً، ولـسـتُ بـالـمُـسـتَـضـامِ

المستضيم: الظالم

أَبـذُلُ الـحـقَّ لِـلـخـصـومِ إذا مـا   عَـجَـزَتْ عـنـه قُـدرةُ الـحُـكَّـامِ

الحكام: من يتم تحكيمهم في الخصومات

لا تَـخَـطَّى إلـى الـمَـظـالِـمِ كَـفِّـي   حَـذَراً مِـنْ أَصَـابِـعِ الأَيْـتـامِ

لا يظلم الناس خوفاً من أصابع الأيتام التي يرفعونها نحو السماء بالدعاء على الظالم

٦٣ وادينا ونادينا

إذا مـررتَ بِـوادٍ جَـاشَ غـارِبُـهُ   فاعْقِلْ قَلُوصَكَ وانزِلْ؛ ذاكَ وادِينا

جاش غاربه: تدفق سيله، اعقل قلوصك: اربط ناقتك

وإن عـبرتَ بِـنـادٍ لا تُـطـيـفُ بـه   أهلُ السَّفاهَةِ فاجْلِسْ؛ ذاك نادِينا
ويُصبِـحُ الضيـفُ أَوْلانـا بِمَـنـزِلِـنـا   نَرضَى بِذاكَ، ويَمْضي حكمُه فِينا

٦٤ العصَّاء

سَـلِـي فـتـيـاتِ هـذا الـحـيِّ عـنِّـي   يَـقُـلْـنَ بِـمـا رَأَيْـنَ ومـا سَـمِـعْـنَـهْ
أَلَـسْـتُ أَمَـدَّهُـمْ لِـذوِيَّ ظِـلّاً   أَلَـسْـتُ أَعَـدَّهُـمْ لِـلـقـوم جَـفْـنَـةْ

ألست أكثرهم مدّاً لظل الحماية على أهلي، وأكثرهم إعداداً لجفان وقصاع الطعام للضيوف

رَضِـيـتُ الـعَـاذِلاتِ ومـا يَـقُـلْـنَـهْ   وإنْ أَصْـبَـحْـتُ عَـصَّـاءً لَـهـنَّـهْ
فَـلا يَـأْمُـرنَـنـي بِـمَـقَـامِ ذُلٍّ   فـمَـا أنـا بِـالـمُـطِـيـعِ إذا أَمَـرْنَـهْ
مَـتَـى مـا يَـدْنُ مِـنْ أجَـلٍ كِـتـابـي   أَمُـتْ بَـيـنَ الأَعِـنَّـةِ والأَسِـنَّـةْ

الأعنة: جمع عنان.. مقود الفرس، الأسنة: جمع سنان، رأس الرمح

٦٥ بُناة العز

اِطْـرحُـوا الأمْـرَ إلَـيـنـا   واحـمِـلـوا الـكُـلَّ عـلـيـنـا
إنَّـنـا قَـومٌ إذا مـا   صَـعُـبَ الأمـرُ كَـفَـيْـنـا
وإذا مـا رِيـمَ مِـنَّـا   مَـوْطِـنُ الـذُّلِّ أَبَـيْـنـا

ريم: من رام يروم، أي طلب

وإذا مـا هَـدَمَ الـعِـزَّ ـ   بـنـو الـعِـزِّ بَـنَـيْـنـا

٦٦ يا أخي

كتب إلى أخيه أبي الهيجاء:

حَلَلْتَ مِنَ المجدِ أعلى مَكَانِ   وبَلَّغَكَ اللَّهُ أَقْصَى الأَماني
فـإنَّـكَ، لا عَـدِمَـتْـكَ الـعُـلا،   أَخٌ لا كَـإِخْـوَةِ هـذا الـزمـانِ
صَفـاؤُكَ في الـبُعْـدِ مثلَ الـدُّنُوِّ   ووُدُّكَ في القلبِ مثلَ اللِّسانِ

كَسَوْنا أُخُوَّتَنا بالصَّفاءِ   كما كُسِيَتْ بِالكلامِ المعاني

٦٧ الذنب ذنبي

وكَنَى الرسولُ عن الجوابِ تَظَرُّفاً   ولئنْ كَنَى فلَقَدْ عَلِمْنا ما عَنَى

الرسول بينه وبين الحبيبة ألمح إلى جوابها ولم يصرح. . تظرفاً منه ولياقة لأن الجواب كان قاسياً

قلْ يا رسولُ، ولا تُحَاشِ، فإنه   لا بدَّ منهُ أساءَ بي أم أَحْسَنا

الذنبُ لي فيما جناهُ لأنَّني   مكَّنْتُه مِنْ مُهْجَتي فتمَكَّنا

٦٨ الشكوى

الحُرُّ يصبِرُ ما أَطاقَ تَصَبُّراً   في كلِّ آوِنَةٍ وكلِّ زمانِ

فإذا تَكَشَّفَ واضْمَحَلَّتْ حالُهُ   ألفيْتَهُ يَشكُو بكلِّ لِسانِ

وإذا نَبا بِيَ منزلٌ فارقتُه   واللَّهُ يلطُفُ بي بِكلِّ مَكانِ

نبا بي المنزل: ضاق بي

٦٩ الواني وغير الواني

كتب أبو فراس إلى سيف الدولة من عند الدمستق وهو في الأسر، يحذره بخروج الروم للحرب:

يا دهرُ خُنْتَ معَ الأَصادِقِ خُلَّتي   وغدَرتَ بي في جملةِ الإخوانِ

خلتي: صداقتي

لكنَّ سيفَ الدولةِ المَولى الذي   لم أَنْسَهُ، وأَراهُ لا يَنساني

إنِّي أَغارُ على مَكانِيَ أنْ أَرى   فيه رجالاً لا تَسُدُّ مَكاني

سيفَ الهُدى، مِنْ حَدِّ سيفِكَ يُرتَجى   يومٌ يُذِلُّ الكفرَ لِلإيمانِ

هَذي الجيوشُ تَجِيشُ نحوَ بِلادِكُمْ   محفوفةً بِالكُفْرِ والصُّلْبانِ

لَيْسُوا يَنُونَ، فلا تَنُوا في أمرِكُمْ   لا ينهضُ الوَاني لِغيرِ الوَاني

هم لا يتوانون ولا يكسلون فلا تتوانوا، فلا يستطيع المتكاسل أن يقاوم المدبِّر غير المتواني

٧٠ ألطاف الله

يوصي أمه بالصبر، وهو في الأسر:

لــولا الــعــجــوزُ بِــمَــنْــبِــجٍ ما خِـفـتُ أسـبـابَ الـمَـنِـيَّـةْ
ولَــكــان لــي عــمَّــا ســألــتُ مِـنَ الـفِـدا نـفـسٌ أَبِـيَّـةْ
وأرى مُــحــامــاتــي عــلــيــها أن تُـضـامَ مِـنَ الـحَـمِـيَّـةْ

أعتبر دفاعي عن أمي من الظلم حمية وحفظاً للشرف، ولهذا فقط أطلب مفاداتي وفك أسري، وإلا لكانت نفسي أبية ولم أطلب

يــا أُمَّــتَــا لا تــحــزَنــي وثِـقـي بِـفـضـلِ الـلَّـهِ فِـيَّـهْ
يــا أُمَّــتَــا لا تَــيْــأَســي لِـلَّـهِ أَلْـطَـافٌ خَـفِـيَّـةْ
كــم حَــادِثٍ عَــنَّــا جَــلاهُ، وكـم كَـفَـانـا مِـنْ بَـلِـيَّـةْ
أُوصِـيـكِ بِـالـصـبـرِ الـجـمـيـلِ، فـإنـه خـيـرُ الـوَصِـيَّـةْ

٧١ رحلة صيد

مَا العُمْرُ ما طَالَتْ به الدُّهورُ الـعُـمْـرُ مـا تَـمَّ بـه الـسُّـرورُ
أيــامُ عِــزِّي ونَــفــاذِ أَمــري هِيَ التي أَحْسِبُها مِنْ عُمْري
لـو شِـئـتُ مِـمَّـا قـد قَـلَـلْـنَ جِـدًّا عَــدَدْتُ أيــامَ الــسُّــرورِ عَــدَّا
أَنْـعَـتُ يـومـاً مَـرَّ لـي بِـالـشـامِ أَلَـــذَّ مَـــا مَـــرَّ مِـــنَ الأَيَّـــامِ
دَعَـوْتُ بِـالـصَّـقَّـارِ ذاتَ يـومِ عـنـد انـتِـبـاهـي سَـحَـراً مِـنْ نَـومـي

الصقار: حافظ صقر الصيد

بِـالـلَّـهِ لا تَـسْـتَـصْـحِـبُـوا ثَـقـيـلا واجـتَـنِـبـوا الـكَـثْـرَةَ والـفُـضُـولا
فـاخْـتَـرْتُ لَـمَّـا وَقَـفُـوا طـويـلا عِـشْـريـنَ أو فُـوَيْـقَـهـا قـلـيـلا
عـصَـابَـةٌ أَكْـرِمْ بِـهـا عِـصـابـةْ مَـعـروفَـةٌ بِـالـفـضـلِ والـنَّـجَـابَـةْ
حـتـى إذا أَحْـسَـسْـتُ بِـالـصـبـاحِ نَـادَيْـتُـهُـمْ حَـيَّ عـلـى الـفَـلاحِ
نـحـنُ نُـصَـلِّـي والـبُـزَاةُ تُـخْـرَجُ مُـجَـرَّداتٍ، والـخُـيـولُ تُـسْـرَجُ

تم إخراج البزاة، طيور الصيد، مجردة قبل أن تكمم رؤوسها، وإسراج الخيول

ثـم عَـدَلْـنـا نـحـوَ نـهـرِ الـوادي والـطـيـرُ فـيـه عَـدَدَ الـجَـرادِ

عددَ الجراد: أي بعدد الجراد

ثـم انـصـرَفْـنَـا والـبِـغَـالُ مُـوقَـرَةْ في لـيـلـةٍ مـثـلِ الـصـبـاحِ مُـسْـفِـرةْ

موقرة: محملة

ثـم نَـزَلْـنـا وطَـرَحْـنـا الـصَّـيْـدا حـتـى عَـدَدْنـا مِـئَـةً وزَيْـدَا

فلمْ نَزَلْ نَقلي ونَشْوي ونَصُبّ حتى طَلَبْنا صَاحِياً فلم نُصِبْ

شربنا حتى لم يبق أحد إلا قد سكر

شُـرْبـاً كـمـا عَـنَّ مِـنَ الـزِّقـاقِ بِـغـيـرِ تَـرتـيـبٍ وغـيـرِ سَـاقِ

شربنا شرباً كيفما اتفق.. حتى من الزقاق نفسها بلا أقداح، وبلا وجود ساقٍ محترف

فـلـم نَـزَلْ سَـبْـعَ لَـيـالٍ عَـدَدا أَسْعَـدَ مَنْ رَاحَ وأَحْـظَـى مَنْ غَـدَا

أحظى: الأكثر حظاً

فهرس القوافي، أبو فراس الحمداني
(القافية، فرقم القطعة)

أبو العلاء المعري
(٣٦٣هـ ـ ٤٤٩هـ)

يضم هذا الباب: ١ حياة أبي العلاء، ٢ المختار من ديوان شبابه «سقط الزند»، ٣ مقدمة موجزة عن إيمانه ونظرة الناس إلى معتقده، ٤ المختار من «اللزوميات»

حياة أبي العلاء

غيَّر القاضي عبد الله اضطجاعته، فمال إلى جنبه الأيمن وشدَّ شفتيه شدّاً، يريد أن يمنع دمعتين. لكنهما سالتا.

كان قد اعتلى سطح المنزل في ذلك المساء مع ولديه أبي المجد وأحمد، ومهدوا لأنفسهم كي يناموا على السطح في تلك الليلة من ليالي صيف المعرة.

تذكر الأب بأسىً ليلة من الصيف الماضي تشبه هذه الليلة، وكان فيها مع ولديه على السطح. كان أبو المجد قبل سنة يلاعب أخاه الصغير أحمد، الذي تخطى الثالثة من العمر بقليل، يسأله: أين القمر؟ فيشير الطفل بيده إلى القمر. وأين النجوم؟ فيرفع الطفل يديه كلتيهما ويحرك أصابعه مشيراً إلى أن النجوم كثيرة وتملأ السماء. ويسأل الصغير عن النجم الثاقب، فلا يعرف الأخ الأكبر، ويجيب الأب: قد سمع أحمد بالنجم الثاقب وحفظ السورة. هو كل نجم شديد التوهج. ويفسر الأب لهما الآية: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح. . .». ويقف ولا يكمل الآية. فيكمل أحمد الصغير من حفظه: «وجعلناها رجوماً للشياطين». فيبهت الأب، ولا يريد أن يتعمق في التفسير. ويتملكه العجب. . هذا الطفل يسمع القرآن يقرأ في البيت وفي المجالس وفي الصلوات ويحفظ. ويأمل الأب أن يكون لولده الصغير شأن.

هذا في السنة الماضية.

فأما في هذه السنة فهم في مرقدهم نفسه على السطح نفسه، والطفل يشير بيده إلى القمر ويراه. وعندما يسأله أخوه عن النجوم يقول: النجوم ذهبت.

ويذرف الأب الدمعتين.

بين هذه السهرة تحت النجوم، والسهرة التي قبل سنة، كان الطفل قد أصيب بالجدري، ونجا. ولكنه بدأ يفقد بصره بالتدريج. الآن لم يعد يرى النجوم. بلع الأب ريقه بصعوبة.

كان يرى في أحمد قاضياً جليلاً سيرث هذا المنصب الذي ظلت العائلة تحتفظ به أجيالاً، والآن أخذ يراه قارئاً أعمى يقرأ القرآن في بيوت الناس بأجر.

ثم هبت نسمة باردة فالتصق أحمد بأخيه الفتى ونام.

لم يلبث أحمد بن عبد الله بن سليمان طويلاً حتى فقد القمر من السماء. ولكنه لم يشعر بكبير حزن، فلا هو رأى في مرآة ولا على صفحة ماء صورة وجهه بعد أن أكله الجدري، ولا هو يظن أن في الدنيا شيئاً لم يشاهده. لقد رأى كل شيء وعرف كل شيء بعينيه، وهو الآن يسير في بيتهم بسهولة بدون مساعدة عينين. فأما تلك الأشعار التي يتداولونها فلا تحتاج إلى عينين، وأذناه سليمتان، ومتعته في الاستماع إلى القرآن والشعر لا يعادلها شيء. يجلس في مجلس الرجال قريباً من أبيه صامتاً، ويسمع ويحفظ، وقد علمه والده أن من حسن الأدب ألا يفتح فمه في مجلس الرجال.

لكنه ما إن يخرج إلى الباحة الخلفية حتى يتحول إلى شيطان مريد. يركض ركض طفل مبصر وهو يلوح بذراعيه، منشداً بيتاً للمتنبي لا يغيره، ويكرره ثلاث مرات (أتاني الكتاب أعز الكتب/ فسمعاً لأمر أمير العرب). وتخرج أمه فزعة تخاف أن يصطدم بشجرة في آخر الباحة، ولكنه في كل مرة يتوقف عن جريه فجأة قبل شجرة التين العجوز بأقل من قامة. وفهمت أمه أنه يقيس المسافة بقراءة بيت الشعر بنغمة رتيبة. شيطان.

وأكثر من مرة ترى الأم ابتسامة على وجه أبيه وهو يقول: خفيف هذا الولد، لأخواله. وتفتعل الأم تكشيرة خفيفة. فأهلها آل سُبَيْكة معروفون في حلب بمكانتهم القديمة وثرائهم المحدث وبخفتهم البالغة، فمجالسهم مجالس

غناء وشعر ومقالب. يموت الميت عندهم فيحزنون يوماً ثم لا يطيقون الحزن فيتحول مجلس العزاء في مقبل أيامه إلى مجلس فكاهات من كل نوع تتخللها بعض استغفارات.

عندما بلغ أحمد الخامسة أخذته أمه إلى حلب. خرجا مع الفجر في خفارة، وجدًّا في السير حتى يصلا استراحتهما، حيث يبيتان ليلهما، قبل غياب الشمس، ثم يستأنفان السير فجراً.

الأحاديث في مجالس آل سبيكة غير أحاديث المعرة. فأخوال الصبي أحمد تجار لهم شهرة في الأسفار. سمع أحمد، الذي كنَّاه أبوه بأبي العلاء طفلاً، عن بغداد ودمشق وطرابلس ومصر، وعن بلاد الروم أيضاً. ولمس بيده بعض ما في بيوت أخواله من طرائف عادوا بها من أسفارهم. فإذا ما خلا إلى القاسم ابن خاله، وهو شاب، انهال عليه بالأسئلة، ويجيب الشاب صادقاً وكاذباً، ويعيا بهذا الولد الذي يريد أن يعرف كل شيء، حتى لقد قايض الشاب الصبي مرة على نصف درهم مقابل أن يكف الصبي عن أسئلته. قبض أحمد بكفه الصغيرة على نصف الدرهم. ثم ألح عليه سؤال. ففتح كفه وقال لابن خاله: خذ، أريد أن أسأل سؤالاً. فضحك الشاب حتى نزلت دموعه، وأخذ يصفِقُ الولد على كتفه بمعابثه مرحة والولد يصفقه.

ونام الولد تلك الليلة على وعد: أن يأخذه ابن خاله إلى السوق الكبير، وأن يمرا ببيت أبي الطيب المتنبي. فقد قال له الشاب إنه يعرف موضع البيت الذي كان يسكنه الشاعر المشهور، وأضاف: لكنه مات من سنين طويلة، ومات الأمير الذي كان يرعاه، والآن أميرنا هو ابن سيف الدولة. قال أحمد: خذني فقط إلى بيته الذي كان.

وقف أبو العلاء الطفل يتحسس بيده باب منزل المتنبي، يريد أن يلمس بيده موضعاً لمسه المتنبي. ثم شده ابن خاله، قائلاً: هناك ناس يسكنون البيت الآن، هيا قبل أن يظنوا بنا شراً. ومضيا في السوق قاطعين الجامع الكبير، وتوقفا حيث اشتريا شيئاً من «الكرابيج»، ولم يكن ذاق لها الطفل طعماً من قبل. لو كان في المعرة لما جرؤ أن يأكل وهو يمشي في السوق، فأبوه، سليل قضاة المعرة، لا يرى أن يأكل المرء ماشياً. لكنه عند أخواله، وفي حلب الكبيرة.

مع فراغ الشاب من كربوجته، انفتل يريد العودة. فقال له الطفل، أليس قد

اقتربنا من القلعة؟ فدهش الشاب مرة أخرى، وليست أخيرة. وتنهد، وأخذ الطفل الطُّلَعة إلى القلعة.

رأى أبو العلاء بأذنيه عالماً واسعاً في حلب. ولو كان أخواله عرفوا أن هذا الطفل كان قبل الجدري طفلاً جميل المحيا لأحبوه أكثر، ولكنهم أحبوا فيه خفته وذكاءه.

باقتراب الخريف آن أن يعود السفْر إلى المعرة. وحمَّل آل سبيكة ابنتهم طرائف حلب الكثيرة، وبينها سَفَط كرابيج لم ينس الطفل أن يطلبه كي يطعم أهل البيت في المعرة من هذه الحلوى.

وفي المعرة بدأت دروس النحو والصرف والقرآن. كان جده يعلمه، وكان يسمع أباه يعلم أخاه. وينتاب والده بعض خوف من أن يخلط الطفل بين الأشياء، ثم يندهش كيف أن الطفل يرتب المعلومات في عقله.

ويأتي إلى بيت القاضي قارئ أعمى بعد عصر كل جمعة يختم القرآن، ويجلس إليه أحمد، ويرتب القرآن في عقله سورة سورة. وما بلغ العاشرة حتى حفظ القرآن. وأخذ يتململ في مجالس القوم من تضارب التفاسير، ولكنه لا ينبس ببنت شفة. صار يعجبه أن يصلي صلاة طويلة في آخر الليل، تقطعها عليه أمه وتسوقه أمامها إلى فراشه.

كل هذا والولد لا تفارقه خفته.

في نحو الثالثة عشرة كان قد ابتلع علم المعرة، فأرسله أبوه إلى حلب مع أمه في الصيف، ومكث بها، ورجعت أمه وحدها. مكث سنة وعاد إلى المعرة في الصيف المقبل. في حلب سمع النحو واللغة من ابن سعد تلميذ ابن خالوية، الذي كان توفي قبل خمس سنين ولكن تلامذته ظلوا يملأون حلب نحواً ولغة. ويسأل أبو العلاء عن أوزان الشعر. يقرض أبياتاً ويعلق عليها أساتيذه. لكنه يريد أن يعرف ماذا تسمى هذه الأوزان التي أخذت موقعها من أذنه ولم يعد يخطئ في النظم عليها، وماذا تسمى الزحافات المختلفة، وعلل القافية. و. . تضيق حلب على فضوله.

رجع إلى المعرة فتى ينظم الشعر، ويعرف من النحو والعروض واللغة ما لا يعرفه معظم علماء البلد. في نحو الرابعة عشرة كان مخزون أبي العلاء من اللغة، وتمكنه من الأوزان كفيلين له بأن يقارع شبان المعرة في المقافاة حتى

يسكتهم. يلتقي مع شبان يتقافَوْنَ أبيات الشعر مباراة فيما بينهم. ويعجزهم. فيقول لهم: أمَا ينظم المرء بيتاً كلما أعجزه أن يأتي ببيت على حرف من الأحرف؟ يلذه أن يغلب، وأن يتفوق. قد أدرك الفتى أبو العلاء قبح صورته، وأن إحدى عينيه غائرة غؤوراً قبيحاً، والأخرى بارزة بروزاً قبيحاً. رأى ذلك في كلمة من هنا وأخرى من هناك، وتحسس عينيه ووجهه الذي حفره الجدري. لكنه لا يفارق خفته، وروحه المنطلقة.

يؤتى إليه بكتب من الكتب التي عند أهل المعرة كي تقرأ عليه. ولكنها في الغالب نسخ رديئة. ويشتاق أبو العلاء إلى مزيد من العلم.

بعثه أبوه مع خادم إلى طرطوس ليقيما عند صديق تنوخي من العشيرة، ويرتادا دار كتب هناك. وينصرف الخادم بالفتى بعد أشهر وقد أحسا أن المضيف ضاق بضيفيه. يعودان بطريق الساحل، ويقضيان الليل هنا أو هناك في خان أو دير.

وفي طرطوس ينزلان في دير ملحق بالكنيسة العتيقة التي تهدَّم شطرها، ويكلم الفتى الشماس السرياني بكلام فصيح لا يكاد الشماس يفهمه فيأخذه إلى الراهب. ويفاجأ الراهب، وهو طائي عربي، بكلام الفتى المعري وفصاحته على حداثته وعماه، فيجاذبه أطراف الحديث. ولا يغيب عن الراهب أن يفاخر بشاعري طيء الكبيرين أبي تمام والبحتري، فإذا الفتى، ولما يتجاوز الخامسة عشرة، بحر لا ساحل له في الشعر، وإذا هو ينشده من بدائع الشاعرين ما يجعل الراهب يهتز طرباً.

احتبسهما أبونا عنده أياماً. قال لأبي الغلاء: لعلي عرفت لماذا عدتما بطريق الساحل، ولم ترجعا من طريق حمص. تريد الذهاب إلى دير الفاروس باللاذقية، أليس كذلك؟ سكت أبو العلاء. فلم يكن يعرف دير الفاروس ولم يكون دخل اللاذقية من قبل. لقد مشى مع خادمه مع الساحل لأنهما أرادا فقط تغيير الطريق واكتشاف أماكن جديدة.

وهنا تطوع الراهب بنصيحة ثمينة.

ـ هناك في دير الفاروس رهبان لديهم الكتب المقدسة بالعربية، ولديهم مكتبة غنية، ولديهم ديوانا أبي تمام والبحتري بنسخ حسنة جداً لا تجدها حتى في بغداد.

ـ وماذا عن كتب اللغة؟

ـ مكتبة عامرة قلت لك! عندهم كل شيء، وليس فيهم أحد إلا ويتقن العربية، حتى إنني لأشك إن كانوا يعرفون السريانية معرفة جيدة. هم طائيون مثلي، وأنا أعرف الناس بهم. لكن العودة من اللاذقية إلى المعرة تقتضيكما صعود الجبال.

وانطلق الفتى وخادمه إلى دير الفاروس في اللاذقية، ومعهما رقعة توصية. ووصلاها بعد ثلاث منهكين من السير على الأقدام، جائعين. ناقمين على الدنيا وأهلها، فقبل «جبلة» بقليل تعرض لهما قوم بزوهما ثيابهما وسرقوا القليل مما كانوا يحملون من دراهم هي بقية بقيت من رحلة طالت عما كان متوقعاً لها.

وبعد صلاة العشي في الدير التقاهما كبير الرهبان، وسأل عن كثيرين من آل سليمان، بعضهم عرفه أبو العلاء وبعضهم لم يعرفه، فقد كان له أقارب يتولون قضاء حمص، وآل سليمان معروفون في المنطقة. ووكل بهما كبير الرهبان راهباً شاباً اسمه يوحنا، وهو طائي أيضاً.

تذكر أبو العلاء في شخص الراهب الشاب ابن خاله في حلب، فقد كان مرحاً وصاحب نكتة. وأخذا يتساهران. ولكن الشعر لم يكن من أداة الشاب، فاكتفى بقراءة بعض شعر الطائييْن على أبي العلاء. ومرة بعد مرة يسأله الفتى الضرير عن المكتبة، وفي كل مرة يقول له الشاب إنها رهن قفل كبير لا يفضُّه الراهب الكبير إلا بعد أن يطمئن، ففيها الكتب المقدسة. سأل أبو العلاء: ألا تطلعونني على الكتب المقدسة؟ فقال الشاب: بلى. ولكن بين هذه الكتب إنجيل الفاروس الذي ليس عند أحد منه نسخة.

على أن يوحنا أخرج لأبي العلاء نسخة جيدة من كتاب يعقوب بن السكيت، وجعلها على مقربة. وكان يقرأ عليه منها ورداً في كل ليلة.

قال أبو العلاء لكبير الرهبان إنه سيكتب إلى أبيه بإرسال مال. فهمهم الراهب. فهو راض بإقامة سليل الأسرة المعروفة في حمى الدير زمناً، ولكن بعض المال قد يكون معيناً على إقامة تطول. ولم يسأل كثيراً بل تعهد بإرسال كتاب الفتى إلى أبيه قاضي المعرة.

وما أملى أبو العلاء الكتاب في ليلته ونام حتى كان يستَدعى في الصباح إلى حجرة كبير الرهبان. قال له: يا بني، خادمك هذا يعود كل يوم مخموراً،

ولعله يرتاد دار القيان في اللاذقية. والناس يرونه عائداً إلى الدير مخموراً. لا ندري، لعله يخدم أحداً في الصباح وينفق على مباذله من أجره. وسيرته ليست مما يلائم سيرتنا. فطأطأ الفتى، وفكر. وقال: سألحق بكتابي لأبي عبارات أخرى. وخرج.

طلب أبو العلاء من والده أن يستدعي الخادم إلى المعرة، واعداً أن يعود هو بعد أشهر.

وقرأ القاضي الكتاب، وفيه أن اجعلني في كهف من الدراهم وكنف، وليقل الخضر لموسى الكلمة الفصل، فموسى يشرب الخمر. فأمَرَّ القاضي سورة الكهف على قلبه، وفهم أن ولده يطلب ثلاثمئة وتسعة دراهم، وابتسم. ثم قرأ كلمة الخضر لموسى: «هذا فراق بيني وبينك».. وعرف أن الغلام والدير ضاقا بالخادم. فكتب القاضي يستدعي الخادم، وأرسل الدراهم وفوقها زيادة يستعين بها الخادم في رحلة العودة. وأوصى ولده بالقرآن.

وكرَّ الخادم عائداً.

كان أبو العلاء يلح على يوحنا بفتح المكتبة له، فقد فرغ من كتاب ابن السكيت.

ذات نهار طلب كبير الرهبان من يوحنا أن يأتيه بأبي العلاء كي يسبر عقله ومعرفته، فقد سمع من يوحنا عن قوة حفظه الكثير. كان قائد الجند يزور الدير يومئذ، وفي الواقع فإن كبير الرهبان أراد أن يطرفه بهذا الغلام الذكي.

قعد أبو العلاء بين يدي المجلس، وعرف القائد أنه أنهى لتوه كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت. وكان على علم به. قال له: كتاب كبير يصل المرء نهايته فينسى بدايته. لا أرى المرء يتقنه فهماً إلا بعد عمر. فماذا قرأت.. ولم يكمل القائد جملته، حتى قال له أبو العلاء: قد حفظته.

وجيء بالكتاب. وقال له القائد، فأي كراس من كراريس الكتاب حفظت. فقال أبو العلاء: كلها. فتناول القائد كراسة، وبدأ يقرأ من أولها، ثم وجد الفتى يقرأ معه، فسكت وأنصت وأبو العلاء يقرأ عن ظهر قلبه، واستمر أبو العلاء يقرأ. حتى وضع القائد الكراسة، وهو يتعجب غاية العجب.

وفتحت أمام أبي العلاء كتب الدين والدنيا. كان قد أصبح شخصاً مشهوراً بين رهبان الدير، وكان الرهبان يتنافسون في القراءة له. وفي الليل يأتيه يوحنا ليلعب معه بالشطرنج.

كان يقرأ له في أسفار الكتاب المقدس العربية راهب من قبيلة كلب، وكان على مذهب أبوليناريوس اللاذقي. يقرأ قليلاً ثم يقف ويأخذ بمهاجمة الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين على حد سواء. وينغمس في حمى الدفاع عن مذهبه، فيسأله الفتى بحياء عن آريوس، فيستشيط راهبنا. فرغم اتفاق مذهبه مع الآريوسية على الطبيعة الواحدة للمسيح فأولئك الجاحدون ينزلون بالمسيح من عليائه الألوهية ويجعلونه بشراً مخلوقاً. ويمتنع أبو العلاء عن الخوض مع الراهب الكلبي في نقاش، مع أنه يضمر تقديراً للآريوسية التي تشبه الإسلام في هذا الأمر. ويمتنع الراهب عن التعرض إلى نظرة الإسلام في طبيعة المسيح أو في أي شيء يتعلق بالمسيحية. وينشرح أبو العلاء عندما يفصل له راهبه الكلبي العلاقة بين مذهبه الأبوليناريوسي والفلسفة اليونانية.

ويتوق الفتى إلى كتب اللغة والشعر فيقرأ على راهب آخر مجاميع عتيقة كالمفضليات والحماسة. ويقرأ كراسة من كراريس جمهرة ابن دريد. ولا يرى في دير الفاروس مقنعاً في النحو، ولا في العروض.

وفي جولة له في سوق اللاذقية مع يوحنا، رفيقه الشاب، شهد حجاجاً بين يهودي ومسيحي في متجر قماش يملكه فقيه مسلم. يشربان ماء، ويقدم يوحنا أبا العلاء للفقيه فيعتني به ويجلسه على صندوق معتذراً بأن المتجر مكتظ في انتظار نقل هذه الصناديق إلى أنطاكية فالقسطنطينية. ويهمس: فيها ما تلبس النساء وما لا يحل لنا، فيها حرير صيني جاءني أمس من حلب.. حمله من بغداد آل سبيكة التجار.. هؤلاء تجار كبار. يهز أبو العلاء رأسه، ويقول: هم أخوالي. فيزداد اعتناء الرجل به، ويطلب للغداء كباباً. ويرتفع صوت المؤذن فيتهيأ الفقيه التاجر للذهاب إلى المسجد القريب، ويغمز يوحنا غمزة: في أنطاكية على بعد مرحلة من هنا منع أصحابكم الروم الأذان منذ أن أخذوا المدينة قبل ثلاثين سنة. وينتفض يوحنا: «أصحابنا! أبعدهم الله، ليست بيننا صحبة، لا هم أصحابنا في النسب ولا في الدين»، ثم يردف، «على أنكم هنا تَضيِقون بنواقيسنا!» ومضيا في الجدال وأبو العلاء يتوضأ في ناحية. ورجع إليهما وقد احتدم حديث الأذان والنواقيس، لكن سرعان ما اقتاده التاجر من ذراعه ومضيا إلى المسجد. وعندما عادا إلى يوحنا أكل الجميع كباباً.

قال التاجر لأبي العلاء على الغداء إن في أنطاكية مكتبة عامرة في دير مار مارون، وفيها كثير من الشعر القديم بجانب ما فيها من هرطقات اليونان، ولعل

فيها أيضاً كثيراً من هرطقات أهل المذاهب والفرق الإسلامية. . ما أشد حرص أولئك الرهبان على هذه الكتب!

رأى يوحنا وجه أبي العلاء يشرق عندما سمع بكتب من نوع آخر في أنطاكية. ويح هذا الفتى! ألا يشبع كتباً.

أضاف التاجر: إن شئت أوصلتك إلى أنطاكية، وأوصيت بك. فتحمس أبو العلاء.

وفي طريق العودة إلى الدير بقي أبو العلاء صامتاً، إلى أن حركه يوحنا، فتبين عزمه على الذهاب إلى أنطاكية.

لقد فقدت مكتبة دير الفاروس سحرها في نفس الصبي بعد أن حرثها في ستة أشهر طويلة. ولم تمض أسابيع حتى كان أبو العلاء يقتعد غارب جمل من جمال التاجر المتجهة إلى أنطاكية بالبضائع التي ستجد طريقها من بعدُ إلى القسطنطينية والبندقية.

وأنطاكية بيد الروم، ولكن قوافل التجار لا تعبأ كثيراً بالحدود.

لم يطل مكث أبي العلاء في أنطاكية، فرغم أن الخوري الماروني أكرم وفادته ووكل به من يقرأ عليه أطرافاً من فلسفة اليونان والفرق الإسلامية، فقد دب الحنين إلى المعرة إلى قلبه. حنَّ للقرآن الذي تبدد بعضه من حافظته. وحن لأمه.

عاد إلى اللاذقية راكباً مثلما كان جاء منها. وبات أياماً عند الفقيه لم يذهب فيها إلى الدير إلا يوماً وليلة. ودع في النهار رهبان دير الفاروس، وقضى الليل يلعب بالشطرنج مع يوحنا. عجباً لي، يقول أبو العلاء لنفسه، أحفظ رقعة الشطرنج كأنها منطبعة في عقلي وأنسى بعض القرآن!

وكانت العودة إلى حلب، وحمَّله التاجر هدية لأخواله آل سبيكة.

وجد أبو العلاء عند أخواله رائحة أمه، فمكث في حلب بضعة أسابيع حتى تيسر له من حمله إلى المعرة، عاد بسَفَط فيه كرابيج حلب، وسفط فيه كتاب سيبويه استعاره من نحوي كان درس على ابن خالويه.

استقبل الأبوان ولدهما وقد أصبح شاباً تخطى السابعة عشرة. وعاش ليالي حلوة مع أصدقاء الفتوة الباكرة يتسامرون ويتناشدون الشعر. وفي الصباح

يلزم المعري المسجد يسمع القرآن من قارئ يجلو له ما غشى صفحة ذاكرته. حتى إذا حمل القرآن من جديد، بدأ أبوه يقرأ عليه كتب الحديث والفقه، وأبو العلاء يسمع ويحفظ بكثير من التأدب، فهو قد رأى في بلاد الشام التي ارتادها علماً غير هذا العلم، ويوماً بعد يوم يزداد إقبال أبي العلاء على الحديث، فهذا هو فلسفتنا نحن، وهذا هو الكلام العربي الفصيح. وخاض مع أبيه بعض خوض فيما تيسر من كراريس علم الكلام. ولكنه كان يأنس بالحديث الشريف كل الأنس. ويخشى والده من أن تختلط أسانيد أهل الحديث بتلك العلوم الشتيتة التي نشأت حول الحديث مثلما تنشأ اللؤلؤة حول حبة الرمل، ولكن عقل الفتى كان يرتب المعارف، ويضع كل شيء في صندوقه الخاص داخل عقله.

وفرض له أبوه رزقاً يستعين به، خاشياً أن يموت فيجور الورثة على أبي العلاء. قد رأى الأب ما لملمه ولده من علم ومن زندقة في رحلته الطويلة، لكنه سر السرور كله إذ رأى ولده مقبلاً على الدين عائداً إلى القرآن، واطمأن باله.

وقرئت على أبي العلاء أشياء من كتاب سيبويه، وعرف في نفسه قصوراً عن كثير مما جاء في «الكتاب». فلا بد من حلب التي ترك فيها ابن خالويه نهضة نحوية قد لا تدوم. لا بد من حلب.

وقبل أن يبلغ الفتى التاسعة عشرة رحل إلى حلب وفي كيسه دراهم من رزقه، غير ناس أن يحمل معه كتاب سيبويه ليعيده إلى صاحبه. وأقام في حجرة اكتراها قريباً من منازل أخواله، واتخذ لنفسه خادماً. وأخذ يغشى مجالس النحو. وحدثته نفسه أن يمدح قائداً مشهوراً، طمعاً في أن يكون شاعراً كالشعراء. ومدحه، ونال دريهمات. وغضب أخواله على القائد الشحيح. فهم قوم تجار كل شيء عندهم له ثمن. وأخذ أبو العلاء يسعى في إقناعهم بأن المدح باب من أبواب الشعر لا يكون الشاعر شاعراً إلا إذا طرقه، وجاء لهم بالمتنبي مثلاً. وقالوا له إن المتنبي نال كذا وكذا من سيف الدولة. ووعد أبو العلاء نفسه ألا يمدح أحداً من بعد. ووفى بوعده. غير أنه كان ينشئ في المرة تلو المرة قصيدة مدح في فقيه أو محدِّث يروض بها طبعه.

قد أصبح الكتاب دنيا أبي العلاء. وفي حلب وجد كثيراً مما لم يكن وجده في مدن الشام. وفيها سمع النحو ووعاه، واستكمل عدته. وعاد إلى المعرة وهو في العشرين أستاذاً.

يكون الإنسان بصَرياً يأخذ العلم بعينيه فيرتسم صورةً على صفحة دماغه. فإذا ما عمي فقد أداته الكبرى، وأخذ يجاهد بأذنيه، فيحصل له قليل من التوفيق.

ويكون الإنسان سمْعياً يأخذ العلم بأذنيه فينطبع في دماغه أصواتاً. فإذا ما عمي ازدادت ذاكرته السمعية قوة إلى قوة، فهو قد فقد أداته الضعيفة واستبقى أداته القوية، وازدادت قوة على قوتها.

وكان أبو العلاء ممن تمتعوا بذاكرة سمعية. لا يسمع شيئاً إلا وعاه. وبذكاء نادر يربط فيما بين الأشياء، ويكررها على نفسه صوتاً يسمعه في ذهنه بلا لسان. وتستقر في عقله العلوم.

كان ينطلق إلى مسجد المعرة قبل ارتفاع الشمس، يصعد الدرجات السبع ويسير إلى يمينه ويجلس عند الجدار. ويأتيه شبان البلد يقرأون عليه ما شاءوا ويفسر لهم. ويأتونه بما عندهم من كراريس ومن كتب فيصلح لهم ما فيها من غلط. ويسمع. ويتحين الفرصة بعد العصر كي يلتقي بِلِداته يعابثهم ويسمع أحاديث عبثهم. وعندما بلغ أواسط العشرين أخذ يسمع من أقرانه المتزوجين أحادث المتزوجين، بكل ما فيها من شكوى ومن ندم، ومن ملذات الزواج.

تحس أمه بأن ابنها كبر وبأنه يحتاج إلى ما يحتاج إليه الرجل، وتتحير؛ فلا هي قادرة أن تزوج ابنها الأعمى الدميم فتاة من أهلها، آل سبيكة، أو من أهله آل سليمان، ولا هي قابلة أن تزوجه فتاة من حاشية المجتمع تدخل بيتهم عَروباً متحببة ثم تتحول إلى حصان جامح. ويدرك أبو العلاء ما بنفس أمه فيفاتحها كيلا تفاتحه، ويقول لها إنه تزوج علمه وكتبه. فتسكت الأم بارتياح.

تعتمل في نفس أبي العلاء شهوات الجسد، فأما الطعام فهو قد عوض أشهر الحرمان من أطايبه أثناء أسفاره بين مدن الشام، ففي بيته بالمعرة كل ما تشتهي النفس، ونفسه لا تشتهي الطعام إلا قليلاً. وأما المرأة فهي الطيف الذي يؤرق أبا العلاء إذا خلا بنفسه، وقلما يخلو بنفسه. يهرب من الطيف إلى علومه الكثيرة، ويطرده في بعض ساعات خلوته بأن يعيد على نفسه قصائد قالها فيتقن حفظها إتقاناً، وقصائد حفظها لغيره، ولا يني يستعيد سور القرآن. فإذا كان مجلسه الصباحي وجد الأنس في صحبة أقرانه ومن هم أصغر منه يعلمهم، ويعتني بالنابه منهم. فإذا صليت الظهر ذهب إلى بيته فتغدى ونادى ابن أخيه الأكبر، ابن أبي المجد، كي يقرأ عليه شيئاً. ثم يعود إلى المسجد ليصلي العصر.

والمجلس بعد العصر للفقهاء. كان يجالسهم في أول أمره يسمع قراءتهم، وقد يفسرون شيئاً فيسكت. ثم سرعان ما صاروا يقرأون عليه كي يفسر لهم. وقبلوه بيسر، فكثير منهم من آل سليمان أقربائه، أو من عائلات المعرة التي بينها وبين آل سلمان صهر، وكل المعرة من تنوخ، وهم عشيرة واحدة.

ذات يوم، وبعد انتهاء مجلس الضحى، وبينما أبو العلاء يعابث بعض تلامذته من الأقران في انتظار أن يرفع أذان الظهر، دخل المسجد غريب. ألقى بالسلام. فهتف به أبو العلاء: حللت أهلا يا أبا الهثيم.

اقترب منه تلميذ وقال له بخفوت صوت: «هذا ليس أخاك». فلأبي العلاء أخٌ يكنى أبا الهيثم. قال أبو العلاء: اصبر، هذا أبو هيثم آخر.

أقبل الغريب على الحلقة، ورأى أبا العلاء الذي وقف له.. واندفع إليه وعانقه. وقال له الغريب: قد عرفتني من صوتي.. يا مرحباً بابن آل سليمان. وقعد بجانب المعلم الشاب.

كان هذا تاجر اللاذقية الفقيه.

انتحى أبو العلاء بتلميذ من تلامذته وأسرَّ له أن يذهب إلى البيت كي يستعدوا لغداء الضيف وإقامته. ثم استذكر مع الرجل أيام اللاذقية قبل سنين. وكرر شكره للضيافة، ولما صنعه التاجر معه إذ حمله مع قافلته إلى أنطاكية، ثم منها إلى اللاذقية، ثم إلى حلب.

كان أبو الهيثم عائداً من حلب. وجعل طريق عودته إلى اللاذقية على المعرة آملاً أن يبيع بعض ما جلب من حلب ومن بغداد. فقد كان وصل هذه المرة إلى بغداد وجلب منها حرير الصين إلى حلب، وها هو يكمل مسيره بما تبقى من الحرير وبغيره من بضائع حلب.

شكا التاجر أهل حلب لأبي العلاء. فقد حمل من بغداد صندوقين كبيرين من الكتب، ولم يجد عند أهل حلب إقبالاً عليها. وحتى الدرة الثمينة جمهرة ابن دريد، لم تجد من يقدرها حق قدرها.

بعد الصلاة انطلق أبو العلاء بضيفه وبجمال ضيفه إلى البيت.

ودعي تجار المعرة كي يعاينوا بضائع الرجل. لكن أبا العلاء استبقهم فأخذ نسخة الجمهرة كي يفحصها. وبينا الرجل منشغل بتجارته في الفناء. طلب

أبو العلاء من أخيه أبي الهيثم أن يقرأ عليه صفحة من هنا وصفحة من هناك، من هذه الكراسة ومن تلك، من كراريس الجمهرة.

وعاد التاجر منشرحاً وقد نفقت سوقه على أهل المعرة. وأخذ يطري نسخة الجمهرة. «هي نسخة نادرة قرئت على المؤلف. ولو قيض لك أن ترى نصاعة حروفها ودقة صنعتها لقدرتها حق قدرها يا ابن آل سليمان». وأبو العلاء ساكت. فسعرها فوق طاقته. ويغير أبو العلاء الموضوع. ويتحدثان عن اللاذقية وعن بغداد وحلب. ويعود التاجر فيمسح بيده على نسخة الجمهرة. وأبو العلاء يشتهي ليس أن يمسح بيده عليها، بل أن يأكلها أكلاً، فقد كان سمع قطعة من الجمهرة من أبيه روايةً عن ابن خالويه، ولكن هذا كان قبل زمن، ولم يكن أتمها. وساوم أبو العلاء مساومة عازف منصرف. ثم سمح لجمهرة ابن دريد أن تبتلع جلَّ وَفْره.

أصبحت الجمهرة أساس ضبطه للغة، عليها يقيس كل شيء، ويصحح ما وهم فيه المؤلف أو الناسخ، ويضيف إليها الأسطر الكثيرة، كل هذا على صفحات ذهنه.

لا والله! لو حظي صاحبنا بزوجة مثالية ما كانت تكون أملأ لقلبه وعقله من هذه النسخة من كتاب ابن دريد الضخم!

لا أحد يحكم اللغة بحفظ المعجم. ولكن، لا أحد كأبي العلاء. وما مرت سنة على امتلاكه الكنز الثمين حتى أخذ يعقد مجلساً يشرح فيه شواهد الجمهرة من الذاكرة. وحضرته عشرون محبرة، وكانت تزيد ولا تنقص. وأملى المعري أشعاره. وأخذت أماليه تنتشر بين متأدبي حلب. يكثر تلاميذه وينتشرون وينتشر معهم صيته، بطيئاً، لكنه يزيد ولا ينقص.

أرضت هذه الشهرة المتواضعة ما في نفس أبي العلاء من حب للظهور، ومن عشق للصيت. فإذا ما نزل الآن حلب أو رحل إلى حمص فإنما هو الشيخ الذي تتحلق حوله المحابر لا طالب العلم الذي يدس كتفيه بين الأكتاف في حلقة شيخ كي يسمع. ورغم اعتصامه بمذهب من التواضع الكاذب فإنه لم يمنع نفسه من القول إنه لم يقعد مقعد التلميذ من أحد منذ أن بلغ العشرين.

وهو الآن قد بلغ الثلاثين، وقد شهد في حمص وفاة جده ـ وكان قاضياً بها ـ وكان طالما قرأ على جده كتب الفقه الشافعي أيام حداثته بالمعرة. ورجع

من حمص ليجد أباه عليلاً. ومات أبوه. ففقد أبو العلاء سنداً مكيناً. كان أبوه، على تقاه، يحتمل من ولده الضرير نزغاته، وخفته، ولمزاته. ويدعو الله أن يثبته على الإيمان. وما أكثر ما كان الأب الحنون يهمس لأم الفتى كلما رأى من ولده استخفافاً بالعقيدة: هذا من آل سبيكة. وتحتج الأم ضاحكة، فهي كأهلها آل سبيكة تأخذ الحياة أخذاً هيناً، ولا تحب ولا تكره إلا بقدر، لكن كل ما في قلبها من حب أخلصته لابنها الضرير.

وبموت والده أصبح أبو العلاء رجلاً. ليس أنه كبير العائلة، فأخوه أبو المجد هو الأكبر. غير أن الاستقلال الفكري الكبير الذي غدا طبعاً في أبي العلاء أضيف إليه الآن مزيد من الاستقلال المادي. زاد رزقه بعض زيادة بما ورث من أرض. وأحسن القيام عليها. ولكن شوقه إلى بغداد كان كبيراً. في أعماقه جوع لمزيد من العلم، وفي أعماقه فكرة تطل برأسها ثم تختفي. ولا يبوح بها لأحد. أليس يقرأ عن جواري بغداد، وعن التسري ببغداد، وعن ذلك المجتمع المنفتح ببغداد؟ لكن لا، هو ذاهب لكي يقيس المكتبة الضخمة التي رتبها في دماغه بأعظم مكتبة في الدنيا. لا بد من بغداد.

ليس أبو العلاء خجولاً. من قال ذلك؟ ألأنه صار فيما بعد رهين المحبسين حسبتموه خجولاً؟ هو شاب مقبل على الحياة، يعرف الناس، ويحب أن يتعرف عليهم، ويقتحم مجالس العلم، ويتباهى بعلمه.. مع شحنة مضاعفة من التواضع الكاذب. هو يشتهي أن يكون ذا مال كثير، لكنه لا يملك البصر كي يكون تاجراً، أو كي يراعي أملاكه كما يحب، ثم إنه لا يملك الوقت ولا فراغ البال، لا لتجارة ولا لمراعاة أملاك، فالنهم إلى المعرفة أخذ عليه نفسه، غير أنه رأى الطريق إلى الغنى المؤكد.. القناعة. ويحس بشهوات جسده ويحفظ الحديث الشريف عن أن الصوم يقدع الشهوة فيصوم. وما عليه أن يأكل اللحم الحنيذ فَطوراً والخبز بالزيت سَحوراً، ثم يصوم نهاره.

بعد بضع سنوات من موت أبيه استأذن أمه في الذهاب إلى بغداد. وبكت مرة ومرة، فهي في أعماقها تعرف أنه يريد أن يرحل من الإقليم إلى العاصمة، والذي له مثل علمه ويرحل إلى العاصمة، لا يرجع من العاصمة. ثم أذنت له.

انطلق أولاً إلى حلب، وبمساعدة أبناء أخواله رتب رحلته. ومضى في البر مسيرة يوم وليلة حتى الفرات، وركب سفينة يمتلكها أخواله، وانحدر مع التيار حتى إذا حان أن يرسو ليكمل رحلته براً جاء العشارون أعوان السلطان وفرضوا

مكساً كبيراً على البحارة، وما كان هذا بالحسبان، فأخذوا السفينة غصباً، واقتضى الأمر تدخل أصحاب أخواله «آل حكَّار» من تجار بغداد لتخليص السفينة.

نزل أبو العلاء على رجل من أصحاب خاله أبي طاهر، وسرعان ما اكترى حجرة في الكرخ شرقي النهر.

أقام أبو العلاء في قطيعة الفقهاء بالكرخ، على مقربة من خزانة سابور، وهي دار كتب وقفها سابور بن أردشير الوزير على أهل العلم. وهجم على المكتبة غداة وصوله يستعرض كتبها، فاطمئن إلى وجود شرح السيرافي على كتاب سيبويه، وبحث عن شرح للضنين بعلمه الأخفش فلم يجد، ووجد له شيئاً عن العروض، وقرأ عليه صاحبه عروض الأخفش. وانصرف أبو العلاء إلى حجرته مقوداً، وصاحبه يصف له الطريق، ويحدثه عن الكرخ فنحن في قطيعة الفقهاء، وهناك قطيعة التجار، وبعيداً خزانة الخلفاء، وهي زينة الدنيا، وليس في الدنيا مكتبة أحسن منها.

أمضى أبو العلاء مساءه يرتب علم العروض في عقله ترتيباً، فقد ألم بما قال الأخفش واكتفى. وعرف عن ذلك السخف الساخف الذي اسمه الدوائر العروضية. لكن العروض علم مكنون في القصائد، ومن ذا يعرف القصائد قديمها وجديدها خيراً من أبي العلاء، فهلمَّ نستنبط من القصائد أحكام أوزانها وقوافيها.

أعجبه في خزانة سابور أنها غاصة بالكتب القديمة، كأنما تخصصت فيها. وكان له من أصحابه من يقرأ له، ومن يناظره ويمتعه، فابن فُورَجَّة يحمل على ابن جني صديق المتنبي وشارحه. ما لابن جني وللشعر! هو صاحب صرف وقياس، ويكبو جواده أمام معاني المتنبي مرة ومرة. ويحث المعري ابن فورجة الشاب على أن يصنع كتاباً يتعقب فيه أغلاط ابن جني. ويستنشد الشابُّ، الذي لم يتوسط عقد العشرين بعد، شيخه أبا العلاء الذي اقترب من الأربعين، فينشده من شعره.

ويمضيان معاً بعد أيام إلى مجلس الشريف المرتضى. فقد كان أبو العلاء أنشد قصيدة في رثاء والد المرتضى قبل مُدَيْدة، وكأنما أحس أن له دالَّة. وعند باب المجلس داس أبو العلاء على طرف ثوب رجل، فصاح به: يا كلب! فقال أبو العلاء هامساً: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً، فبهت الرجل.

واستخبر الشريف عما يجري في آخر المجلس فأُخبر، فاستدنى أبا العلاء، وعرفه. وكان صيت أبي العلاء بعد تلك المرثية قد أخذ ينتشر في بغداد.

وانقضى المجلس وصيت أبي العلاء يعلو في بغداد، والمتأدبون يتكأكأون عليه كي يملي عليهم سبعين اسماً للكلب، وبعض أشعاره.

وأخذ أبو العلاء يبيت في حجيرة في بيت تلميذه ابن فورجة، هاجراً حجرته في قطيعة الفقهاء، لقرب منزل صديقه من خزانة الخلفاء. يذهب كل صباح لكي يعابث النساخ ويسمع ما نسخوه. و«توفيق» السوداء تخرج لهم الكتب كي ينسخوا، لكنها قد تتأفف من تأخرهم في ردّ الكتب، إذ يقرأون ما نسخوه على أبي العلاء كي يصلح لهم زلات أقلامهم.

وبعد الظهر يصعد أبو العلاء إلى حجرة خازن المكتبة الواجكا عبد السلام كي يسمع أحاديثه عن السيرافي وابن جني وأبي علي الفارسي وغيرهم ممن أخذ عنهم العلم، ويطرفه بأخبارهم ونوادرهم. لقد جمع حب الأدب واللغة والنحو بين قلبي أبي العلاء وقلب الواجكا عبد السلام. وأخذا يرتادان عصر كل جمعة مجلس المناظرات في جامع المنصور.

سأل أبو العلاء صديقه يوماً ببعض تخابث: يا أبا أحمد، ومن يكون إخوان الصفاء الذي سمعنا لهم ذكراً؟ قال الواجكا: هي ذي رسائلهم عندنا متاحة مباحة، ولكن الناس مضطربون بشأنهم. ولست أدري لم أخفوا أسماءهم، فما علمت نسخة من النسخ الكثيرة التي عندنا تحمل أسماء أصحابها. وطالع أبو العلاء رسائل إخوان الصفاء، فرأى فيها خلطاً ممتعاً بين مسائل عرفها صغيراً في اللاذقية وأموراً قرأها عند أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وسمع أسماء لا تقوم بإزائها صفات. يلوم عماه حيناً على عجزه عن تصور بعض ما يقولون، ثم يثوب إلى ما يقوله خصومهم عنهم فيجد في رسائلهم بعض تعالم يخفونه وراء كلمات يونانية. لكنهم أدخلوا إلى عقله جديداً.

واعتل الواجكا يوماً، فأُخذ أبو العلاء لعيادته، وبينما هم في الطريق، إذا أبو العلاء يسأل صحبه متعجباً، وقد عرف الطريق: أإلى قطيعة الفقهاء نحن ذاهبون؟ قالوا: نعم، هنا يسكن الواجكا. وما وصلوا بيته حتى أدركَ أبو العلاء أن صديقه الصدوق إنما هو جاره. وفرح أبو العلاء بهذا الجوار، وقويت صداقته بصاحبه.

لم يجد أبو العلاء في بغداد شيخاً يحسن به أن يدعوه شيخه، لا بل إن معظم ما أفاده من علم كان من كتب يقرأها عليه من يرونه هو شيخهم، حتى الواجكا.

ومع الواجكا عبد السلام وابن فورجة توجه المعري إلى مجلس الشريف المرتضى بعد طول انقطاع، فقد مرت عليه في بغداد سنة ونصف سنة كان فيها منشغلاً بالكتب والأشعار، يقرأون عليه الكتب وينسخون ما تجود به قريحته.

شاء سوء طالع أبي العلاء أن يدور الحديث في مجلس المرتضى على شعر المتنبي. اعتدل الشريف في جلسته، وأخذ يتنقص المتنبي ويعيبه، وابن فورجة يتميز غيظاً، لكنه شاب غض ولا قبل له بمقارعة الشريف، ولكز أبا العلاء في خاصرته، لكن أبا العلاء صبر. ثم راح المرتضى يتهكم بالمتنبي.. وفكر أبو العلاء في نفسه: لعله يظن أن شرف بيته أعلى من شرف العلم؟ لعله يظن أن شعر أخيه الشريف الرضي الذي يحلق منذ حين في سماء بغداد، وشعره هو الذي يزحف زحفاً، يبيحان له أن يجور على سيد الشعراء؟ ثم حانت من المرتضى سكتة، وقال: هيه. كأنه يتحدى المجلس. فانبرى أبو العلاء: والله لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته «لكِ يا منازل» لكان بها شاعر الشعراء!

وهمد المجلس هموداً. وبعد هنيهة، صاح الشريف بغلامه: يا غلام، خذ برجله، يعني أخرجْه من المجلس. ولم ينتظر المعري فوقف، ووقف ابن فورجة وقاده خارجاً. ولم يتبعهما الواجكا تأدباً مع الشريف.

عند المغرب جاء الواجكا إلى حجرة أبي العلاء، فوجده مضطرباً، فواساه: هذا شريف ابن شريف، وأخوه الشريف الرضيّ يقارع الخليفة. ولهما سطوة. ومن كان في مثل هذه المكانة لم تكن الإهانة من قِبَله إهانة. وأنت يا صديقي أبا العلاء قد رددت عليه، وأفحمته. قال المعري: يؤلمني أكثر من الطرد أنه فهم مقصدي بسرعة. لا والله، لا أقدح في فهمه ولا في علمه، ولكنني رأيته باراني فغَلَب. فضحك الواجكا، وقال: «إيه، لقد فسر لنا بعد انصرافك ما قصدت. ولا والله ما فهم مقصدك في المجلس غيره. قال لنا المرتضى: «لعلكم ترون أنني تشددت عليه. لا أيها الإخوة، لا نقصي عن مجلسنا أحداً أحسن الأدب. ولكن الرجل جاء بقصيدة للمتنبي لا يعدها أحد من خيار شعره.. فلماذا ضربها مثلاً؟ إنما قصد الخبيث بيتاً في تضاعيفها». وسكت الشريف. ولكن جل من بالمجلس فهم بعد حين أنك يا أبا العلاء إنما

أشرت إشارة لطيفة إلى بيت القصيدة الذي يقول: وإذا أتتك مذمتي من ناقص/ فهي الشهادة لي بأني كاملُ».

داعب الواجكا صاحبه وخفف عنه، ولما آنس منه ارتياحاً عابثه، قال له: فسوف تُسقط من شعرك تلك القصيدة التي رثيت فيها والد المرتضى والرضي، والتي جاء فيها عن الشريفين: أبقيت فينا كوكبين سناهما/ في الصبح والظلماء ليس بخاف. فقال له أبو العلاء: ألم تعرف ما قيل لأبي تمام ولابن الرومي؟ فهمهم الواجكا، فهو يعرف أن أبا تمام أقر بأن بعض أبياته مسف، ولكنه أبى إسقاطه لأن أبيات الشاعر بمثابه أولاده، ومن ذا يسقط ولداً معتلاً، وابن الرومي قال قصيدة حسنة يقر فيها بأن شعره «رُكِّب فيه اللحاء والخشب اليابس والشوك بينه الثمر».

كان لاضطراب أبي العلاء أكثر من سبب. فقد لقي بعض الصدّ من نحاة بغداد وأصحاب اللغة فيها. فمن يكون هذا الضرير الذي جاء من الشام ولم يسمع لا من السيرافي ولا من ابن دريد ولا من الأزهري ولا حتى من ابن خالويه الذي كان بالشام ولا من العسكريَّيْن ولا الآمدي ولا من أبي علي الفارسي ولا ابن جني ولا المرزباني ولا الصابي ولا الجوهري الذي مات قبل سنتين؟ من هذا الصُّحُفي الذي ليس له من العلم إلا ما في الصحف، ولا سماع له؟ ونحن علماء بغداد ورثة العلم الحقيقي، سمعناه من أشياخنا.

كان لأبي العلاء زمرته من أصحاب هم في سنه، ومن شباب أدركوا أنه بحر علم ولغة فأخذوا يستقون منه، منصرفين عن حلقات شيوخهم، وكان ـ ككل أبناء الأقاليم الذي ينزلون العاصمة ـ يجتمع إلى أبناء قبيلته كابن القاضي التنوخي صاحبه وتلميذه.

يستطيع أبو العلاء أن يعيش في هذه الغابة بين حساده ومريديه، أن يعيش هذه العيشة القلقة وأبيات المتنبي تتردد في ذهنه، فقد عاش المتنبي طول عمره بين حساده ومريديه، وذكر ذلك في شعره كثيراً. لكن، بغداد كانت تخبئ للمعري حادثة أخرى.

دعاه تلميذه الشاب ابن فورجة يوماً إلى بيت القيان. قال له: تعرف يا شيخي أنني متزوج، ولكنني ككل شبان بغداد أحب السماع، ولا يندر أن أتعشق. يعرف أبو العلاء ذلك عن تلميذه ويعرف أكثر من ذلك، وقد كان زار بيت قيان راقياً مع الواجكا قبل أشهر، ولم يعجبه الصخب ولا أعجبه عماه.

لكنه مضى مع ابن فورجة.

كانت المغنية محسنة. أدرك ذلك أبو العلاء لأنها من طبقة فوق من سمعهم وسمعهن في حلب عند أخواله. وأدرك أنها تضرب على نفسها. واستمع بأذنين مرهفتين. ولما توقفت عن الغناء ناداها ابن فورجة وطلب من شيخه أن يُسمعها بعض شعره كي تغني فيه. فقال أبو العلاء:

منكِ الصدود ومني بالصدود رضا   من ذا عليَّ بهذا في هواك قضى

وقد تعوَّضتُ من كلٍّ بمشبِهِهِ   فما وجدت لأيام الصِّبا عِوَضا

وجلست القينة بجانبه تحفظ البيتين وتترنم بهما، وهي تداعب أوتار عودها. قال أبو العلاء: هذا رَمَل أيضاً، لم أسمع منك الهزج. فانتبهت إلى أن الرجل يعرف ضروب النغم لا مجرد أسمائها. ثم ها هو يتعجب كيف أنها قفزت من الثقيل الأول إلى الرمل دون قنطرة. قال لها: لم أسمع انتقالاً كهذا من قبل. وتحادثا قليلاً ثم طلب منها أبو العلاء طلب متعلم لا معلم أن تريه على العود موضع البم والزير، ومن أين تستخرج النغم الفلاني والفلاني. أخذ يلمس الأوتار واحداً واحداً، ثم إنها وضعت أصبعه في مكان على ساق العود وضربت وغنت من ذلك الموضع رملاً، ثم من مكان آخر هزجاً. وعقل أبي العلاء مشتت بين شيء يتعلمه، وبين رائحة جسمها وملمس كفها. هو يعرف النغم بأذنه ويعرف الفرق بين ضرب وضرب، ولكنه الآن عرف كيف يحبسون وتر العود فيصبح حاداً ويتدرجون في حبسه. وارتجف وهو يضم يده إلى جسمه مبتعداً عن القينة.

قد أحس أن الجارية المغنية هي التي يتعشقها تلميذه الشاب، فقد تعابثا عبثاً لا يخفى حتى على ضرير. ثم إنهما تهامسا بهمس لم يسمعه الضرير حتى بأذنيه المرهفتين.

وغابت القينة سويعة ثم عادت. وقالت لأبي العلاء: يتفضل الشيخ معي إلى صاحبتي خلاخل. وأنهضته بيد قوية وصحبته، ورفيقه يقول له: أنا هنا أكمل رطلي وننصرف. وأبو العلاء لا رطل له فهو لا يقرب الخمر، وهو صائم في كل أيامه درءاً للشهوات. والآن بعد العشاء لا بأس بأن يصحب القينة إلى خلاخل.

وعلى باب خلاخل، قالت له المغنية: ستقول لك «وهبتك نفسي»، هذا ما

تقوله للشيوخ والقضاة حتى يكون كل شيء حلالاً، وضحكت. وتركته في حجرة صاحبتها، وانصرفت.

قالت له خلاخل: أهلاً بالشيخ، وهبتك نفسي. أخذ أبو العلاء يفكر.. ليس في الدراهم التي قد يكون صاحبه ساقها إلى خلاخل، ولا في هذا الشيء الذي لم يفعله من قبل. فكر فقط في نعومة تلك القينة المغنية، وفي أنسها. وصنعت معه خلاخل ما تعرف تصنعه كي تجعل الرجل يركز كل فكره في مكان واحد من جسمه. وألقت به على الأريكة. واستفرغته. وانتبه شيخنا إلى ما اعتراه. وفكر هذه المرة بالدراهم.

قال في نفسه: أحفظُ ألف بيت عن القبلة. وقد سيق لخلاخل أجرها ووهبت نفسها. أليس قد وهبت نفسها؟ بلى، قد فعلت. وعندما وقفت خلاخل على الباب تدله كيف يذهب قرَّب وجهه منها رويداً رويداً، يريد أن يجرب القبلة، حتى وإن زايله الاشتهاء. فإذا بكف ناعمة تطعنه برفق في حر وجهه. قالت خلاخل: ليس بهذا الوجه.

وعبس المعري عبوساً سيدوم خمسين سنة.

ليس بهذا الوجه! ومن خلق له هذا الوجه إلا الله.

ليس بهذا الوجه! ولماذا خلقتني بهذا الوجه ولم تسلبني ذلك الاشتهاء؟

لم يكن على يقين من بعث ولا حساب منذ أن انصرف من اللاذقية، وظل يخفي قلة يقينه عشرين سنة. فهل آن لابي العلاء أن يؤمن بحياة أخرى وبجنة فيها الحور والعين، وفيها البصر والوجه الحسن الذي زالت عنه حفر الجدري؟ تبلبل، لكنه لم يفكر بالبعث ولا بالحساب. فكر فقط في تلك الكلمات: ليس بهذا الوجه!

مضى عابساً مع صاحبه. ودعاه صاحبه للركوب معه إلى منزله كي يبيت عنده ويتسحر على سمك وتمر. قال أبو العلاء: لا آكل السمك. سكت ابن فورجة. كيف لا يأكل شيخي السمك ومَفائد المسقوف على طول دجلة تشهد عليه، فهو يفطر اليوم بعد اليوم على سمك المسقوف! كان أبو العلاء يسرع في خطاه ساحباً دليله سحباً حتى وصلا عند السائس وركبا البغلة. وعلى باب حجرته ودع صاحبه وأغلق بابه.

وقف أبو العلاء وجعل ظهره إلى باب حجرته، وشيء في صدره يغلي. وعقله لا يني يردد: ليس بهذا الوجه.

ورحم نفسه عندما ألقى نفسه على فراشه وبكى. وظل يقرأ القرآن حتى نام.

بعد أيام هدأت نفسه. وفي الحين بعد الحين كانت تعود إليه خفة آل سبيكة. يلقى ابن فورجة ويقول له: وأنتم كذلك تسمعونها تقول وهبتك نفسي؟ فيضحك ابن فورجة ويقهقه، ثم يستغفر.

قبل خلاخل كانت بغداد قد نبذت أبا العلاء. وبعد خلاخل عرف أنه سينبذ الدنيا. إنها الدنيا التي جاء لها ذكر عند معشوقِه المتنبي باسم «أم دَفْر» أي أم النتن «وقتلن دفراً والدهيم فما ترى، أم الدهيم وأم دفر ثاكل». وأعاد على قلبه قصيدة المتنبي، فإذا فيها: «ومن الرماح دمالج وخلاخل»، ها.. فخلاخل موجودة هنا أيضاً! ولم ينس بالطبع أن هذه القصيدة بعينها هي التي أدت إلى طرده من مجلس المرتضى، فابتسم وهز رأسه. يا لها من مصادفات. لو صادف غير أبي العلاء هذه الأبيات الثلاثة التي تصف بؤسه في بغداد في قصيدة واحدة، لآمن بعد هذه المصادفة المثلثة بالنجوم.

لكن العقل الواعي لأبي العلاء كان عمود الخيمة في شخصيته. أما نفسه فبقيت نفسه: لن تزايله خفته ولا تخابثه، ولن يزول عنه حب الشهرة، ولا نهمه للعلم. بيد أنه سيسبغ على ذلك كله سَجْفاً أسود مثلما قدر الله لدنياه أن تكون سوداء. ولئن كان الكرام لا يُكثرون من الشكوى إلا إذا فاضت فيضاً من حلوقهم، فإنه سيدمن الشكوى وسيدمن شتم الناس، وسيدمن تقريعهم، وسيظل كريماً بتعففه وانقباضه عن دنيا الناس.

لا بد من فراق بغداد، وبسرعة.

بدأ المعري يودع أصحابه. وراح يجتمع عليه ليلة بعد ليلة الشعراء الذين كانوا يعرضون عليه شعرهم، وأخذ ينشدهم بعض ما قاله في وداعهم ووداع بغداد. وفي يوم الركوب شيعوه ماشين مرحلة، وهو يتجه شمالاً نحو الموصل. وكانت رحلة برية شاقة، أشق من رحلة القدوم النهرية. مضت سنة وتسعة أشهر له في بغداد كانت كأنها سنون، أو كأنها يوم بليلته. كان مشتاقاً إلى أمه. خداه ذوا الحفر مشتاقان إلى يدي أمه الخشنتين.

في الموصل بلغه من بعض التنوخيين الذين جاءوا من حلب أن أمه ماتت، فما زاد على أن ابتسم في وجه «أم دفر» أم النتن.. الدنيا. واصلبَّ قلبه، وبصق على الدنيا مرة أخرى.

وبلغ قريباً من حلب ولم يمل إليها. كان يستعجل القدوم إلى المعرة لكي يحبس نفسه في بيته، لا يريد أن يعالج أمراً من أمور هذه الدنيا.

وحبس نفسه. كان في السابعة والثلاثين من العمر وكان العام ٤٠٠ للهجرة، فها هي المئة الخامسة قد استهلت، وأخذ المتنبئون يتنبأون بأشياء ليس بينها أن مسلماً من بيت علم وأدب في المعرة سيقضي تسعاً وأربعين سنة معتزلاً لا يأكل لحماً ولا يشرب لبناً ولا حتى عسلاً، وأنه سيكون أهم وأشهر شاعر في قرنه وفي قرون كثيرة ستليه، وأعظم من حفظ ألفاظ اللغة العربية في كل القرون.

رتب المعري خزانة كتبه وصمد صمْدَها. وامتنع حتى عن غشيان الجامع، لا في ظهر ولا في عصر، ولا في جمعة. كان رزقه قد اختل في تلك السنة، فدوَّد المشمش وشلتَنَ الزيتون في بساتينه فلم يحمل إلا أقل حمل؛ وأعانه أخوه أبو المجد في ترتيب أمور رزقه ما استطاع. وبدأ يأتيه التلاميذ يقرأون عليه ويسألونه. ثم أخذ يفد عليه المتأدبون من حلب ومن بغداد، ثم من أبعد من بغداد. ومع تحسن المواسم أخذ يعين طلابه الذي يفدون من البلاد عليه، فمن عجز عن كراء حجرة أسكنه أبو العلاء، ومن جاع أطعمه، أو أوصى به موسري المعرة.

فرغ من ترتيب أشعاره ووضعها جانباً غير آبهٍ بها، غير أن الوافدين كانوا يسألونه عن هذه القصيدة وعن تلك مما سمعوه من البغداديين، فيقرأ عليهم ديوانه ويشرح لهم مقاصده. سمى هذا الديوان «سقط الزند»، أي أول الشرر الذي يسقط من أداة النار. فهو شعر الصبا والشباب حتى العودة من بغداد.

ومضى المعري في طريقته يعايي أهل اللغة ويورد عليهم ما يتعجبون منه من سجعات ومن ألفاظ دقيقة، ومن توريات يشقى العلماء في حل ألغازها، ثم إذا هو يشرح كل شيء في أمالٍ يمليها على طلابه. وتنتشر أماليه في البلاد. سمعت بالمعري الأندلس وسمعت به شيراز. وغدا بيته في المعرة نادياً. وكاتَبه الكبراء والأمراء من حلب وغيرها، وزاره منهم من زاره. وهو في كسر بيته راض بما فرض على نفسه.

وعند المساء يأتيه فتية الدعوة يلتمسون منه البركة والنصح، فهو عندهم إمامهم، أليس أخبرهم الدعاة الذين يأتون من مصر إلى بلاد الشام بأن أبا العلاء قطب من الأقطاب.

ويوغل أبو العلاء في الرمز، والمجاز.

يجعل لفتية الدعوة مجلساً في العشية يملي عليهم فيه أبياتاً متفرقة يشتم

فيها الدنيا، ويداعب فيها العقائد. يفهمون عنه ويساءلونه، ويجيب حيناً ويمضي في الإملاء حيناً بغير جواب. ويلتزم بدل حرف الروي حرفين معاياة لأهل اللغة وإدلالاً بمعجمه الذي لم يغادر شيئاً إلا وعاه. أليس قال تلميذه ابن الخطيب: لم ينطق عربي بكلمة لا يعرفها أبو العلاء. تلك اللزوميات، التي ستبلغ أحد عشر ألف بيت من الشعر.

يأمن المعري جانب هؤلاء الفتية، فجلهم ممن كان عرفهم صغاراً قبل رحلته الحلبية الطويلة ثم البغدادية. وفي مجالس العشية يكون المعري قد حشد في ذهنه أبياتاً كثيرة على حرف من الحروف فتراه يقطع عليهم بعض ما جربوا أن يأخذوا فيه من هزل، ويملي مسرعاً، ويغمسون أقلامهم في محابرهم ويستملون، وقد يكون في ليلته بكيئاً بطيئاً، فيملي قليلاً ثم يفتح لهم باب الهزل والدعابة. والفتية قد تعلقوا بأقوال الباطنية، فاستل هذا التعلق ما في نفوسهم من تحرز إزاء العقائد المألوفة، فمنهم من اتخذ عقيدته الجديدة سلماً للتهاون في العبادات، ومنهم من استبدل تشدداً بتشدد، وراح ينافح عن الاعتقاد الجديد مرتقياً بعض الدرجات في سلم الإخلاص. والفاطميون، حماة العقيدة الجديدة، يحكمون حلب أحياناً قليلة، ويتحكمون في شؤونها أحياناً أكثر عن طريق تحالفاتهم. وهم، بعد، على مقربة. تقيم عساكرهم في دمشق وفي حمص وفي عكا وبيروت وطرابلس ويحكمون بلاد الشام مداً وجزراً.

في سنة أربعمئة وسبع، وأبو العلاء قد دخل في الرابعة والأربعين من العمر، استقر الأمر في حلب لعزيز الدولة الفاطمي.

يكاتبه داعي الدعاة من حلب، ويناقشه في أمور شتى عرفها القاصي والداني عن أبي العلاء. ويحاول أن ينفذ إلى حقيقة معتقده من باب امتناعه عن أكل اللحم. فيتهرب أبو العلاء من النقاش ـ الذي كان يدور في رسائل تروح وتجيء بينهما. فهو لا يستطيع أن يقولها بصراحة لداعي الدعاة: أنا لست ـ كما تظن، وكما ينقل لك هؤلاء الفتية ـ رجلاً من رجال الباطنية، أو أحد أكابر «عقلائهم». أنا مفكر حر لا غير. لا يقطع المعري شعرة معاوية بينه وبين الدعوة الفاطمية التي تعم المنطقة، ولا يريد أن يغادر المنطقة الوسطى التي يقف فيها على مسافة واحدة من الجميع. هو متفرد بعلمه الغزير. هو كفيروز مطربة الجميع ولا تريد أن يكون لها موقف من الحرب الأهلية، وتقضي عشرين سنة تتغنى بعموميات حب الوطن حتى لا يستطيع أي طرف أن يزحزحها عن عرش كبير يحمله الجميع على أكتافهم. هو اللغوي الكبير والشاعر الكبير،

الذي رثا ومدح فقهاء السنة والشيعة في بغداد المقسومة بين العلويين والحنابلة. وهو ابن المعرة الشافعية السنية التي تجاور حلب التي يغلب على حكامها التشيع منذ مئة سنة، وحتى البادية فقبيلة كلاب فيها شيعة، وبنو حمدان شيعة. وها هم الفاطميون يريدونه لهم. وهو يريد نفسه لنفسه، وللجميع.

انحسر عن المعري الضغط الفاطمي عندما استبد عزيز الدولة بالأمر لنفسه في حلب وشمال سورية وسك العملة باسمه مستقلاً عن الخليفة بمصر. والخليفة بمصر هو الحاكم بأمر الله، الذي كانت له بَدَوات من التشدد والميول لم يألفها الناس في أي حاكم.

استراح المعري لعزيز الدولة ووسم باسمه كتبه «القائف» و«الصاهل والشاحج» و«اللامع العزيزي».

ومضى المعري يملي على طلبته المثقفين في مجلس المساء مزيداً من اللزوميات، فهذه أشعار منسوقة على الأحرف، وقد جعلها المعري جامعاً للقوافي والضروب، ومستودعاً لنظراته في أمور الدين والدنيا، وفرض على نفسه تلك القافية المزدوجة التي تجعل اصطياد القوافي أصعب ليس بمرتين بل بمرات كثيرات. فكان بذلك صاحب طريقة فيها طرافة، لكنها مزقت أفكاره تمزيقاً، وجعلت أبياته متنافرة، تسيِّرها القافية بدل أن تسير معها القافية.

يقهقه بعض طلبته كلما قال بيتاً يهزأ فيه من معتقدات الناس، أو يشتم البشر قاطبة، ثم يعتدل ويملي عليهم أبياتاً في الاستغفار. ويضحك بعضهم هنا أيضاً، كأنما يقولون في أنفسهم: ما أخبث شيخنا، يريد أن يذب عن نفسه. وبعضهم يستملي ويتلذذ بالبيت الذي فيه نكتة لغوية أو تورية لطيفة، أو بالبيت الذي يتألق شعراً عذباً.

يسكت بعض الطلبة عندما يسوق المعري أبياتاً يقبح فيها الخمر وشاربيها. فبعضهم، مع هذا التحرر العقدي الذي ابتلوا به، لا يجد غضاضة في ارتياد ماخور المعرة. ولا يسألهم شيخهم عن سلوكهم، حتى مع أن كثيرين منهم من أقاربه، أو أبناء عشيرته، وجل المعرة تنوخ. تماماً مثلما لا يسعى إلى جعلهم صورة منه في زهده ونباتيته المطلقة.

ويجهز الحاكم جيشاً كي يقتلع عزيز الدولة من حلب، ولكن الحاكم يختفي في سنة ٤١١ قبل مسير الجيش، ويتنفس عزيز الدولة الصعداء، ويمضي في شأنه أميراً على حلب سنتين، ثم يغتاله غلامه سنة ٤١٣. وتقع حلب بيد

صفي الدولة فأخيه سند الدولة، وهما مع الفاطميين. لم يعد مهماً بالنسبة إلى أبي العلاء من يحكم البلاد فهو أكبر من أن يتعرض له الحاكم، هو كالجاحظ الذي أطيح بالمعتزلة في العراق على يد المتوكل، وظل الجاحظ، شيخ الأدباء المعتزلي، شيخاً للأدباء. وهو مثل سارتر الذي أرادت شرطة باريس اعتقاله بالعصيان المدني عام ١٩٦٨ م فقال لهم ديغول: «أنتم لا تعتقلون فولتير».

وعاد صالح بن مرداس من صحرائه، وكان أقلق أمراء حلب طويلاً. عاد هذه المرة ليأخذ حلب، وتولاها أميراً عليها عام ٤١٦هـ بعد حصار طويل، وتولى معها صيدا وبعض مدن الشام. وفي العام التالي وقعت في المعرة حادثة.

وقفت امرأة بباب المسجد والمصلون خارجون وصرخت فيهم أن ينتقموا لشرفها، فرواد الماخور قد اعتدوا عليها. وهب الناس هبة واحدة وحطموا الماخور ونهبوا خشبه، وآذوا صاحبه النصراني. كان صالح بن مرداس حاكم حلب آنذاك في صيدا، فاعتقل وزيره النصراني تادرس بن الحسن سبعين رجلاً من أهل المعرة وحبسهم شهرين.

وفي طريق عودته عسكَرَ صالح بن مرداس بظاهر المعرة، وحل بالناس خوف شديد من هذا الأمير الفاتك الذي استقر له الأمر بعد عشرين سنة من الصراع؛ وأخرجوا له أبا العلاء. رأى صالح رجلاً نحيلاً أعمى يسير مع قائده في اتجاه عسكره فقال لصحبه: هذا أبو العلاء. واستدناه. فكلمه أبو العلاء كلاماً رقيقاً. فعفا صالح عن كل المعتقلين.

وارتفع شأن أبي العلاء بين أهليه، وكان أخوه الأكبر أبو المجد صاحب القضاء في المعرة، وأخوه الآخر رجلاً ذا مكانة، وكان أبناؤهما يساعدون عمهم الضرير. على أن أبا العلاء ما كان ليستغني عن سكينة العجوز، التي كانت تخدمه وتقوم بما يقصر فيه «الحسن» الخادم الشاب الكسول. وكان لسكينة بدواتها، وجنونها. وكان أبو العلاء يحتمل من الناس، ولا سيما من مَساكينهم، كل شيء.

يعتمد المعري في تحرير النصوص على أحسن وجه على كاتبه الشيخ أبي الحسن، فأبو الحسن هو فقط من يحرر النسخة النهائية التي يحتفظ بها أبو العلاء في خزانته. وثمة نساخ أربعة ينسخون عنها نسخةً لخزانة حلب، وأخرى قد تجد طريقها إلى بغداد. ولا يتهاون أبو العلاء في سطر يكتبه، فكل رسالة يرسلها ـ وما أكثر رسائله ـ كان يحتفظ نسخة منها في خزانته، نعم حتى لو كانت رسالة شخصية.

يقول لأبي الحسن مستمليه المعتمد: ها قد وصلتنا أخيراً رسالة دوخلة.

ـ وصلت بعد طول الضياع.

ـ قد قرأتها في مجلس الصباح مع التلامذة. فهل قرأتها يا أبا الحسن؟

ـ قد فعلت يوم أن وصلت. شيخ مهذار، لعله ما كتبها إلا كي يستقبل منك رداً يتجمل به بين أدباء حلب.

ـ لكن فيها شيئاً أحببته.

ويضحك أبو العلاء، ويضحك لضحكه كاتبه أبو الحسن صاحب سره، وأبو العلاء يتبسط معه في كثير من الأمر. وقد يعاقبه متظرفاً إذا تأخر عنه، فيصلي به الظهر قارئاً سورة طويلة في الركعة الأخيرة، فيحبسه عن قيلولته الأثيرة.

ـ لا والله ما رأيت فيها شيئاً يحب. فما الذي أحببته يا شيخي؟

ـ صاحبنا دَوْخلة رجل سليم دواعي الصدر. تراه يحمل على الملاحدة والزنادقة حملة شعواء، يعرض علينا في أثنائها بضاعته التي قمَّشها من بغداد ودمشق ومصر. وتراه ينسبنا إلى الصلاح والتقوى.

ـ أهو يصنع ذلك تعريضاً بالشيخ، أم تراه يريد منك رداً يستكشف به معتقدك؟

ـ لا يا أبا الحسن. هذا رجل فيه غفلة. وقد عرض الرسالة قبل أن يرسلها إليَّ على وجوه المتأدبة في حلب تيهاً بها. ويعجبني أن أخاطبه بكلام يفهم نصفه ويفهم غيره أكثر من ذلك.

وتندُّ عن أبي العلاء ضحكة مكتومة.

ـ أنتوقف عن تحرير اللزوميات؟ قد جمعنا أشتاتها وضبطناها على الحروف، وأنا بصدد إصدار نسخة الخزانة. وهذا سيقتضيني شهراً. ألا تملي ردك على دوخلة في مجلس المساء مع الفتية؟ فمنذ أن فرغت من إملاء اللزوميات وأنت تسمع منهم بعض قديمك شارحاً ومعلقاً.

ـ لا، يا أبا الحسن، لا. اللزوميات لم تتم بعد، ولدي كثير مما أضيفه إليها، فاحفظ ما عندك، ونسقه ما شئت من التنسيق فكل شيء سأضيفه من بعد سيقع في موقعه بلا عناء. والآن أريد أن أرد على الرجل وأنا مستجمع فكري بعيداً عن فتية المساء، فالفتية يستملون ويضحكون ويبدون إعجابهم، وقد يستوقفونني ويناقشونني، ولئن صلح هذا في اللزوميات التي مضت إذ كنت أُزَوِّرُها في نفسي قبل إملائها، فما يصلح في نثر يأتيني عفو الخاطر ويسمعه مني صاحبي الأثير.

يرتاح أبو الحسن إلى هذا الوصف، فهو وحده الصاحب الأثير. ويمضي أبو العلاء:

ـ فأين رسالة دوخلة؟

ـ في البيت العتيق، في خزانة النساخ. فهل آتي بها؟

ـ لا. خذ قلمك، وسمِّ بالله.

ويسمي أبو الحسن، ويبسط الورق ويفتح الدواة. ويقول أبو العلاء:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يسر وأعن..

ـ بسم الله. تفضل يا شيخ..

ـ أُكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يسر وأعن..

وأخذ أبو العلاء يعرض معارفة في اللغة، ويقلب الكلمات ومعانيها بين الحماطات والأساود، ماراً بشعراء العرب وشواعرهم. حتى بدأ يتعرض لرسالة «ابن القارح»، وهذه كنية دوخلة الحلبي، فأثنى على الرسالة، وجعلها الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء. وانقدحت في ذهن أبي العلاء فكرة.. فغرس لصاحبه شجرة في السماء.. في الجنة. وأخذ يملي وصف الجنة، يضع فيها كل ما ورد في القرآن من وصفها، وكل ما تشتهي نفسه المحرومة. وقف عند إبريق الخمر، فأتى على كل ما ورد من شعر في الأباريق. ووصف الخمر التي يكرهها بحق وصف عاشق، ووصف العسل الذي حرمه على نفسه، فإذا به يتذكر بيت شعر له حكاية وردت عن خلف الأحمر، فاستعرض معرفته في اللغة بإبدال كلمة القافية على حروف المعجم. ومر اليوم.

وفي اليوم الثاني وصف المعري من بالجنة من الشعراء وأهل اللغة، وفجأة خطر له أن يذهب بدوخلة إلى الجنة. فإذا به يقص من خياله الخصب كيف أن دوخلة ركب حصانه وراح يتنزه في الجنة. ومضى أبو العلاء يعبث بابن القارح دوخلة ويصف بكثير من المرح، وكثير من الخفة ما يلاقيه ابن القارح في الجنة، فيجعله يشهد ملاحاة شديدة بين نابغة بني جعدة والأعشى آلت إلى سباب وصراخ فيسعى دوخلة إلى أن يصلح بينهما فيقول «يجب أن يُحذَرَ من مَلَك يعبر فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يَجُرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهان.» ويستدرك: «واستغنى ربنا أن ترفع الأخبار إليه».

ويخلق المعري لصاحبه في جنته سرب إوز ثم يحوله إلى حوريات يرقصن

ويغنين. ويقترح بعض من بالمجلس أن يأخذ كل رجل حورية منهن ويذهب بها، فيقول لبيد الشاعر «لا يؤمن أن يسمَّى فاعلو ذلك أزواج الأوز» فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان.

ويزيد أبو العلاء من عبثه بابن القارح دوخلة، فيجعله يروي لأهل الجنة قصة دخوله الفردوس. ويملي أبو العلاء الورقة بعد الورقة وهو يصف وصفاً يسيل فكاهة وعبثاً. فالرجل يلقى الأمَرَّيْن وهو يسعى بين علي بن أبي طالب وحمزة، وأبناء النبي الذكور ثم فاطمة ثم النبي نفسه، وينال الوعود والشهادات المختلفة بالتوبة، ولكنه يظل رائحاً غادياً معذباً بالانتظار وعدم اليقين. فكأنه في ذلك المعري نفسه وهو يقارع العشارين الذين أخذوا سفينته في العراق، أو البيروقراطيين الذين يعطلون معاملات الناس في حلب وفي بغداد وفي كل مكان. يصف المعري الشقاء في الأعراف فكأنه شقاء الإنسان في الدنيا إذ يقضي عمره قلقاً يسعى بين أمل ويأس.

ثم يتغلب الأمل، بل تتغلب الفكاهة. ويختار المعري لصاحبه أن يعبر الصراط المستقيم «زقفونة». وزقفونة هذه ذروة الكوميديا العلائية. فمعنى زقفونة أن يطرح دوخلة نفسه على ظهر جارية سيدتنا فاطمة الزهراء، فيطوقها من عنقها من خلف وتمسك برجليه كالحمال يحمل جوالقاً من دقيق على ظهره. وتعبر به الجارية الصراط. ولكنه يكتشف على باب الجنة أنه أضاع جوازه. فيريد من رضوان حاجب الجنة أن يعطيه ورقة صفصاف، حتى يرجع بها أدراجه كي يأخذ جوازاً، وهيهات.. لا شيء يخرج من الجنة. ولكن أبا العلاء يقصِّر الطريق، فيجعل إبراهيم بن محمد، ابن النبي، يمد يده من داخل الجنة ويجذب دوخلة جذبة تُحَصِّله الجنة.

وفي الجنة يرى دوخلة توفيق السوداء، التي كانت تخرج الكتب في دار العلم ببغداد إلى النساخ، يراها مع حمدونة الجارية القبيحة التي تزوجها بائع سَقَط بحلب ثم طلقها كراهة منه لرائحة فمها. يراهما بيضاوين جميلتين، فيسبح بحمد ربه.

ثم هذه حورية عيناء تنشق عنها ثمرة يقطفها ابن القارح من شجرة حور، فيسجد ابن القارح شكراً لبارئها، ويجول في خاطره وهو ساجد أن مؤخرتها ضاوية، فما يرفع رأسه من سجدته حتى يرى لها عجيزة كأنها كثيب رمل، فيطلب إلى البارئ أن يصغرها، فيخيره في تكوين هذه الجارية «فيقتصر من ذلك على الإرادة».

ولا يشفي أبو العلاء نفسه التي لا تمل العبث والفكاهة، حتى وقد قارب الستين، إلا بعد أن يحبر جملة كراريس. كل هذا في رده على رسالة ابن القارح دوخلة الحلبي. تلك رسالة الغفران. أليس الله غفر لابن القارح؟

ومضى أبو العلاء يعيش سنواته متأففاً متعففاً إلا عن خبزه وزيته، زاهداً قاعداً في كسر بيته. يتلذذ بشتم الدنيا والناس، ويلعب مع اللغة.

قضى خمسين سنة في محبسه يتسلى في لعبة لا تنتهي مع الألفاظ والأفكار. كان ابن عصره في تقديس اللغة القديمة، لكنه فجر من ألفاظها معاني جديدة. وكان ابن كل العصور في حرية الفكر. كل شيء عند أبي العلاء موضع شك حتى يثبت. رأى بعقله أشياء لم يرها غيره. وعرف بعقله عجزه عن فهم أشياء ظن المبصرون أنهم يفهمونها.

وكان من عجائب التسامح الإسلامي أن يموت أبو العلاء صاحب اللزوميات ورسالة الغفران على فراشه. كان ذلك في عام ٤٤٩.

ختاماً

مثلما قرأنا اللزوميات ورأينا أن أبا العلاء لا يؤمن بالبعث، قرأها عمر فروخ المسلم السني المتدين ورأى رأينا، وبسط ذلك في كتاب وله من العمر ثمان وثلاثون سنة. نحمد لعمر فروخ قراءته البارعة للزوميات، وصراحته وجرأته في بيان حقيقة معتقد أبي العلاء (كما رآها)، من غير أن يشوب ذلك بأية عبارات تنتقص من حكيم المعرة، فقد افتخر به وبإنجازه الأدبي كثيراً. سبحان الله، قد اجتمع خلق كثير من الأدباء في مهرجان أبي العلاء الألفي بالشام، وقالوا الكثير، واجتمع مثلهم على صفحات عدد خاص من مجلة مصرية، وكتبوا الكثير. وسوى هؤلاء وهؤلاء كتب الناس عن أبي العلاء في أواسط القرن العشرين عشرات المقالات، وكلها يمدح الرجل ويصر على أنه مؤمن حسن الإيمان. وشذ طه حسين ومارون عبود وزكي مبارك، فقد كتبوا ما يجمل بالمرء أن يقرأه في صدد عقيدة أبي العلاء، فأمَّا الزبد الكثير فقد ذهب جفاء.

عاش المعري ستاً وثمانين سنة. وكان أكبر حدث أدبي ولغوي في دنيا العرب على مدى ألف سنة. . من زمنه حتى يومنا هذا.

الصفحات التي مرت هي مقدمتي لديوان شبابه «سقط الزند»، وفيها مجموعة من الافتراءات لن يعجز القارئ في عزلها عما لابسها من حقائق،

وإنما أردت أن أصور حياة الرجل كما تكونت في ذهني. وسأقدم للأبيات التي اخترتها من اللزوميات بصفحات قليلة كنت كتبتها قبل سنوات، وستأتي في موضعها قبل الأبيات المختارة من اللزوميات ضمن هذا الباب.

لاحقاً..

يقول لي مصححي اللغوي الصديق أحمد عبد الرحيم إن تملصي بالاعتراف بأنني افتريت بعض افتراءات لا يعفيني، ولا يخفف عني ثقل ما «تخيلت». وقد صحح لي أخطائي في فصل أبي العلاء، وزاد فعلق تعليقات فيها من التشجيع ما أثلج صدري. وكتب عن قصتي هذه التي قصصتها عن أبي العلاء: [«أخبار رحلات أبي العلاء لتلك الأديرة باطلةٌ سندًا ومتنًا. ومن أهم من أشبع الكلام فيها من الجهتين: محمود شاكر في «أباطيل وأسمار»، ومحمد سليم الجُندي في «الجامع في أخبار أبي العلاء». وبالتالي.. كل التفاصيل «الروائية»، الجميل أكثرها، والشنيع بعضُها، يُشوهِّها أنها تؤرِّخ لشخص معيَّن تأريخًا زائفًا، ومضلِّلاً. تصلح، جدًّا، مثل هذه التفاصيل في «سيناريو درامي» متخيَّل. لكنها لا تَحسُن، أبدًا، في سيرة معيَّنٍ مثل أبي العلاء.. ولو من باب التخييل. ولستُ أرى سطري عارف اللذين ختم بهما هذا السرد الشائق الماتع، بما فيه من «أباطيل» شاهت «أسماره»، مُغنييه شيئًا من «الشيخ المكذوب عليه» الذي حذَّر ظالميه من لقاءٍ وإن طال المدى! ولا هما بمغنيي القارئ شيئًا من أن يتقصَّى بنفسه ما أمكن من حقائق ما كان! وقد كنتُ أحب أن أُفيض شيئًا ما.. لكنْ انتبهتُ إلى أنني ضيف، فلا يحسُن بي أن أكون ثقيلاً كالضَّيْفَن!»] انتهى كلام أحمد عبد الرحيم.

وسترى تعليقاته على ما سيأتي ضمن هذا الفصل؛ فأما تصحيحاته لأخطائي، وهي كثيرة، فلن تراها، سأصحح وأستر على نفسي. وقد تعقب الأبيات في هذا الفصل عن أبي العلاء بيتاً بيتاً، وبين يديه النسخ الكثيرة من شروح سقط الزند واللزوميات، وتقصَّى تقصياً لا مزيد عليه. وكان أقرأني مقدمة عميقة وجزلة ومليئة بالفكر لكتاب يكتبه عن أبي العلاء. وأتمنى أن يصدر هذا الكتاب فيثري الدراسات العلائية، على أنني مغتبط بما أسدى إلي، وما أسبغه على جهدي، في كتابي هذا، من تمحيص لا يخلو من تفصيص، ومن نقير لم يغادر شروى نقير.

سَقْطُ الزَّنْد

١ دون كيشوتية للتمرين

قال في المديح، ولا ممدوحَ غالباً، كان يروض القول، ويشتهي أن يحاكي الشعراء القدامى:

تَـكـادُ سَـوابِـقٌ حَـمَـلَـتْـه تُـغـنـي   عـن الأقـدارِ صَـوْنـاً وابـتِـذالا

تكاد خيلٌ حملت هذا الممدوح (الوهمي) تغنيه عن فعل القضاء والقدر في صونه وحفظه، وفي ابتذاله لأعدائه بقتلهم وهزيمتهم

ولـمَّـا لـم يُـسـابِـقْـهُـنَّ شـيءٌ   مِن الـحـيـوانِ، سـابَقْـنَ الـظِّـلالا

سبقت الخيول كل حيوان، فلم يبق سوى أن تحاول سبق ظلالها (هذا من فرائد ابي العلاء/تعليق أ. عبد الرحيم)

تَـرى أعـطـافَـهـا تَـرمـي حَـمـيـمـاً   كـأجـنـحـةِ الـبُـزَاةِ رَمَـتْ نُـسـالا

أعطاف الخيل أي جوانبها وخواصرها ترشق الحميم، العرق، كما ترشق البزاة، وهي من كواسر الطير، الريش الذي يسقط عنها

وقـد ذَابَـتْ بِـنـارِ الـحـقـدِ مـنـهـا   شَـكـائِـمُـهـا فـمـازَجَـتِ الـرُّوَالا

الخيل متوقدة فكأنها حاقدة على العدو، ولشدة حرارة حقدها تكاد شكائمها، تلك الحدائد في أفواهها، تذوب وتختلط بالروال، أي الريالة أي اللعاب. هكذا يتعلم المعري من المتنبي الإحالة، أي التشبيه المستحيل.. كان هذا عيباً عند نقاد صدر العصر العباسي، ثم فشا وطمى فصار حلْية

وجُـنـحٍ يَـمـلأُ الـفَـوْدَيْـنِ شـيْـبـاً   ولـكـنْ يـجـعـلُ الـصـحـراءَ خَـالا

جنح: قطعة من الليل، والليل مخوف ويجعل فوديْ المرء، أي سالفيه، يشيبان؛ لكنه يجعل الصحراء سوداء كأنها الخال في الخد

أردْنــا أن نَــصــيــدَ بــه مَــهَــاةً   فــقَــطَّــعَــتِ الــحَــبــائِــلَ والــحِــبَــالا

أردنا في الليل أن نغفو لنصيد مهاة، بقرة وحش ـ يعني فتاة يزوره خيالها في منامه ـ، ولكن هذه الفتاة قطعت الحبائل، المصايد، والحبال، أي حبال المودة، وهجرتنا

ونَــمَّ بِــطَــيْــفِــهــا الــسَّــاري جَــوادٌ   فَــجَــنَّــبَــنــا الــزيــارةَ والــوِصــالا

سمع حصانٌ طيف الفتاة يسير ليلاً فنمَّ عليه ووشى به وصهل، فانصرف الطيف فلم يزرنا ولم يحدث وصال

وأيــقَــظَ بِــالــصَّــهــيــلِ الــرَّكْــبَ حتى   ظــنــنــتُ صــهــيــلَــه قــيــلاً وقَــالا

واستيقظ القوم الراكبون على صهيله، حتى لقد ظننته بصهيله يحدثهم بما جرى، ويستغرق في القيل والقال

ولَــولا غَــيْــرَةٌ مــن أعْــوَجِــيٍّ   لَــبــاتَ يَــرى الــغَــزالَــةَ والــغَــزَالا

لولا هذه الغيرة من الأعوجي (الجواد الأصيل) لبات العاشق النائم يرى الغزالة (غزالة اسم للشمس) والغزال، فالفتاة تشبه الشمس وتشبه الغزال

يُــحِــسُّ إذا الــخــيــالُ سَــرى إلــيــنــا   فــيــمــنــعُ مِــنْ تَــعَــهُّــدِنــا الــخَــيــالا

فقد أحس الحصان بالخيال فمنعنا من تعهده، أي رفقته والعناية به

سَــرى بَــرْقُ الــمَــعَــرَّةِ بــعــدَ وَهْــنٍ   فــبــاتَ بِــرامَــةٍ يَــصِــفُ الــكَــلالا

بعد وهن، أي بعد مضي ثلث الليل، سرى، أي مشى ليلاً، برق من «المعرة» ووصل إلى «رامة»، وكان ضعيفاً كليلاً (يصف الكلال: كقولك عيناها تصفان السِّحر/ من شرح الخوارزمي)

شَــجَــا رَكْــبــاً وأَفْــراســاً وإبْــلاً   وزادَ فــكــادَ أن يَــشْــجُــو الــرِّحَــالا

أحزن البرق المسافرين والخيل والإبل، وكاد أن يحزن الرحال، وهي متاع المسافر. . مبالغة متنبئية ها!

بِــهــا كــانــتْ جِــيــادُهُــمُ مِــهَــاراً   وهُــمْ مُــرْداً، وبُــزْلُــهُــم فِــصَــالا

بها، أي بالمعرة وهي الوطن، كانت الجياد مهاراً صغيرة، وكان الرجال مرداً، فتياناً غير ملتحين، وكانت البزل، الإبل التي برزت أسنانها، فصالاً، مفصولة عن أمهاتها للفطام

صَــحِــبْــنــا بِــالــبُــدَيَّــةِ فــي شــتــاءٍ   ومَــحْــلٍ شَــرَّ مَــنْ صَــحِــبَ الــرِّجَــالا

صحبنا في موضع «البدية» في الشتاء والمحل، والشتاء ممحل لا نبت فيه ولا مرعى للإبل، أناساً هم شرٌّ من يصحبه الناس

إذا سُــقِــيَــتْ ضُــيــوفُ الناسِ مَــحْــضــاً   سَــقَــوْا أَضــيــافَــهُــمْ شَــبِــمَــاً زُلالا

إذا سقيت الضيوف محضاً، لبناً صافياً، فهم يسقون ضيوفهم ماء شبماً، بارداً، زلالاً، صافياً. . لأنهم بخلاء لئام

ولـكـنْ بِـالـعـواصِـمِ مِـنْ عَـدِيٍّ أمـيـرٌ لا يـكـلِّـفُـنـا الـسـؤالا

العواصم: حصون وجبال بين حلب وحماة يعتصم ويحتمي بها الناس، وفيها أمير من قوم عدي يعطينا ولا يكلفنا حتى أن نسأله

لـقـد جَـشَّـمْـتَ طِـرْفَـكَ مُـثـقِـلاتٍ فـجَـشَّـمَـهُـنَّ أربـعـةً عِـجَـالا

لقد كلفت طِرفك، أي حصانك، أموراً ثقيلة، فكلف قوائمه الأربع السريعة القيام بالمهمة

يَـوَدُّ الـتِّـبْـرُ لـو أمـسـى حـديـداً إذا حُـذِيَ الـحـديـدُ لـهُ نِـعَـالا

التبر، أي الذهب، يتمنى لو أنه حديد عندما توضع للحصان النعال، الحذوات، الحديدة

وأقـسـمُ لـو غَـضِـبْـتَ عـلـى ثَـبـيـرٍ لأزمَـعَ عـن مـحِـلَّـتِـه ارتِـحـالا

أقسم أيها الممدوح لو أنك غضبت على جبل ثبير لأزمع، لنوى، أن يرتحل من مكانه

فـإن عَـشِـقَـتْ صَـوارِمُـكَ الـهَـوادي فـمـا عَـدِمَـتْ بِـمَـنْ تَـهـوى اتِّـصـالا

فإن عشقت صوارمك، سيوفك، الهوادي، الرقاب، فهي تريد أن تضرب رقاب الأعداء.. فقد مكنْتها من الوصال بمعشوقيها، وحاربت وضربت بها رقاب العدو

ولـولا مَـا بِـسـيـفِـكَ مِـن نُـحـولٍ لـقُـلْـنـا أَظْـهَـرَ الـكَـمَـدَ انـتِـحَـالا

ولولا النحول والرهافة التي بسيفك لقلنا إنه يظهر الكمد والغم مجرد إظهار في عشقه للرقاب، لكن السيف ناحل مرهف فهو عاشق حقيقي

سـلـيـلُ الـنـارِ دَقَّ ورَقَّ حـتـى كـأنَّ أبـاه أوْرَثَـهُ الـسُّـلالا

السيف سليل النار، ابن النار التي تعرض لها ليصير سيفاً، فكأن أباه أورثه داء السل لدقته ورقته

مُـحَـلَّـى الـبُـرْدِ تَـحـسَـبُـه تَـرَدَّى نُـجـومَ الـلـيـلِ وانـتَـعَـلَ الـهِـلالا

السيف محلى البرد، أي مزين الثوب.. يقصد غمده المحلَّى بالخرز والأحجار اللامعة، فكأنه تردى، لبس، النجوم واتخذ الهلال نعلاً (والنعل حديدة في أسفل الغمد)

تَـبَـيَّـنُ فَـوقَـهُ ضَـحْـضَـاحَ مـاءٍ وتُـبـصِـرُ فـيـه لـلـنـارِ اشـتِـعـالا

تتبين وتبصر فوق متن السيف ضحضاحاً من الماء، ماء رقيقاً قليلاً، وتراه أيضاً مشتعلاً للمعانه

يُـذِيـبُ الـرُّعْـبُ مـنـهُ كـلَّ عَـضْـبٍ فَـلَـوْلا الـغِـمْـدُ يُـمْـسِـكُـهُ لَـسـالا

الرعب الذي يبعثه سيفك في كل عضب، في كل سيف آخر، يذيب ذلك السيف، فلولا أن الغمد يمسكه لسال السيف المرعوب

وذي ظَمَـأٍ، ولـيـسَ بـه حـيـاةٌ، تَـيَـقَّـنَ طُـولَ حَـامِـلِـهِ فَـطَـالا

ورب رمح ذي ظمأ، جاف كأنه عطشان، وهو رغم الظمأ ليس حياً، وقد تيقن الرمح أن صاحبه طويل فطال لذلك.. (بصراحة قراءة البَطَليوسي أقرب، وهو يجعلها «الطَّوْل» أي الفضل، ولكن قراءتنا تجعل البيت أشعر وأحلى، ويقول التبريزي إنه قرأها على أبي العلاء «الطُّول» فصححه أبو العلاء وقال بل «الطَّوْل».. خسارة)

تَـوَهَّـمَ كـلَّ سَـابِـغَـةٍ غَـديـراً فَـرَنَّـقَ يَـطـلُـبُ الـحَـلَـقَ الـدِّخَـالا

ظن الرمح العطشان أن كل سابغة، كل درع، غديراً متموجاً، فرنق، حامَ، فوق حلقات الدرع المتداخلة

مَـلأْتَ بـه صُـدوراً مِـن أنـاسٍ فَـلاقَـتْ عـن ضـغـائِـنـهـا اشـتـغـالا

ملأت برمحك صدور أناس حاقدين فلقيَتْ هذه الصدور ما يشغلها عن ضغائنها، أحقادها

في هذه القصيدة، وفي كل «سقط الزند»، ترى طريقة أبي تمام وروح المتنبي.

سقط الزند = أبا تمام + المتنبي ÷ ٢

٢ المجد للسيف

ما سِرْتُ إلَّا وطيفٌ منكِ يَصحَبُني سُرىً أمامي وتَأْوِيباً على أثَري

لا أسير إلا وطيفك يصحبني، يمشي أمامي سرىً، سيراً بالليل، وتأويباً، سيراً بالنهار، يتبعني على أثري. التسويد من أ. عبد الرحيم

لو حَطَّ رَحْلِيَ فوق النجمِ رافِعُه ألفيتُ ثَمَّ خيالاً منكِ مُنتَظري

لو أن الذي يرفع رحلي فوق جملي وضعه فوق النجم لوجدت خيالك ينتظرني هناك

يَـوَدُّ أن ظـلامَ الـلـيـلِ دامَ لـه وزِيدَ فيهِ سَوادُ القلبِ والبَصَرِ

يود طيفك أن يدوم ظلام لليل وأن يزاد فيه سواد القلب وسواد البصر، أي سواد حدقة العين، كي يظل يلاحقني

لو اختَصَرْتُمْ من الإحسانِ زرتُكُمُ والعذبُ يُهجَرُ للإفراطِ في الخَصَرِ

لو قللتم من إحسانكم لنا لزرناكم، فنحن نستحي من الزيارة لشدة كرمكم، فكذلك الماء العذب يهجره الشارب إذا كان مفرطاً في الخصر، البرودة

حَسَّنْتِ نظْمَ كلامٍ تُوصَفِينَ به ومنزلاً بكِ مَعْمُوراً من الخَفَرِ

أنتِ أيها المحبوبة تجعلين النظم الذي توصفين به جميلاً، وتجعلين البيت الذي تسكنينه عامراً بالخفر، بحيائك

فالحُسْنُ يَظهرُ في شيئينِ رونَقُه: بيتٍ من الشِّعْرِ أو بيتٍ من الشَّعَرِ

أقولُ، والوحشُ تَرميني بِأعيُنِها والطيرُ تَعْجَبُ مِني كيفَ لم أَطِرِ،

وأنا سائر في الصحراء ترميني الوحوش بأعينها متعجبة من وجودي في هذا المكان، وتتعجب الطيور من سرعتي كيف أنني بقيت على الأرض ولم أطر.. وأقول..

لِمُشْمَعِلَّيْنِ كالسيْفَيْنِ، تحتَهُما مِثلُ القَناتينِ من أَيْنٍ ومن ضُمُرِ

أقول لمشمعلّين، لسريعين خفيفين.. يقصد صاحبيه، والصاحبان يشبهان لنحولهما سيفين، وتحتهما ناقتان كأنهما قناتان، رمحان نحيلان، لشدة الأين والضُمْر، التعب والنحول

في بَلْدَةٍ مثلِ ظَهرِ الظبيِ بِتُّ بِها كأنني فوقَ رَوْقِ الظَّبْيِ مِن حَذَرِ

أقول هذا لصاحبيَّ وقد بتُّ في بلدة سهلة كظهر الظبي، لكنني أبيت قلقاً حذراً كأنني فوق روق، أي قرن، الظبي

لا تَطوِيا السرَّ عني يومَ نائبةٍ فإن ذلكَ ذنبٌ غيرُ مُغتَفَرِ

لا تخفيا عني سراً إذا جاء خبر بمصيبة، فهذا لا يغتفر من صديق

والخِلُّ كالماءِ يُبدي لي ضَمائِرَهُ مع الصفاءِ ويُخفيها مع الكَدَرِ

والخل، الصديق، كالماء: إذا كان مصافياً لصاحبه أبدى له ما في ضميره، وإذا تكدر صفاؤه لم يعد الماء شفافاً، ولم تعد في الصديق شفافية. التسويد من أ. عبد الرحيم

ماجَتْ نُمَيْرٌ فهاجَتْ منكَ ذا لِبَدٍ والليثُ أَفْتَكُ أفعَالاً مِنَ النَّمِرِ

ماجت بنو نمير، تمردوا، فهاجتك وأثارتك وأنت ذو لبدة، أي أسد، والأسد أفتك من النمر

هَمُّوا فَأَمُّوا، فلما شارَفوا وقفوا كوِقْفَةِ العَيْرِ بين الوِرْدِ والصَّدَرِ

هموا بالمسير إليك، وأموا، قصدوك، وعندما شارفوا، اقتربوا، وقفوا وِقفةَ العيْر، الحمار، الذي يقف متردداً بين وروده الماء وصدوره عنه مترقباً أي خطر

وأضْعَفَ الرعبُ أيديهِمْ فَطَعْنُهُمُ بِالسَّمْهَرِيَّةِ دونَ الوَخْزِ بِالإِبَرِ

والرعب منك أضعف أيديهم فصاروا يَطعنون بالسمهرية، الرماح، طعناً هو أضعف من الوخز بالإبر. حق «أيديهم» النصب وأسكنها الشاعر للوزن، وقد جرى العرف الشعري على أن يضحي الشاعر بالنحو على مذبح الوزن، لا العكس

دَعِ اليَراعَ لِقومٍ يَفخرونَ به وبِالطِّوالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فافتَخِرِ

اترك اليراع، القلم، لمن يريد الافتخار به، وافتخر بالردينيات، بالرماح، الطوال

فهُنَّ أقلامُكَ اللاتي إذا كتبَتْ مَجْداً أتتْ بِمِدادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

فالرماح هي أقلامك التي تكتب المجد بمداد، حبر، هو الدم المهدور من أعدائك

قالتْ عُداتُكَ ليس المجدُ مُكْتَسَباً مقالةَ الهُجْنِ ليس السَّبْقُ بالحُضُرِ

يقول أعداؤك الذين عجزوا عن نيل مكانتك إن المجد ليس مكتسباً بل هو هبة من الله، وذلك كقول الهُجُن، الخيل غير الأصيلة، إن السبق ليس بالحُضْر، بالجري، لكن بسبب النسب

رَأَوْكَ بالعينِ فاسْتَغوَتْهُمُ ظِنَنٌ ولم يَرَوْكَ بِفِكرٍ صادقِ الخَبَرِ

رأوك بعيونهم فغرَّرتْ بهم الظنون، ولم يروك بفكرهم

والنجمُ تَستصغِرُ الأبصارُ صُورَتَه والذنْبُ للطَّرْفِ لا للنجمِ في الصِّغَرِ

النجم تراه العين صغيراً، والذنب ذنب العين لا ذنب النجم

والمرءُ ما لم تُفِدْ نَفعاً إقامَتُه غَيْمٌ حَمَى الشمسَ لم يُمْطِرْ ولم يَسِرِ

إقامة المرء في مكان يجب أن تكون ذات نفع، وإلا فهو كالغيم غير الماطر يمنع الشمس ولا يسير

٣ الحياة كالنار

يمدح أبا الفضائل سعيد بن شريف بن علي بن أبي الهيجاء (عن شرح البطليوسي):

ولاحَتْ من بُروجِ البَدرِ بُعداً بُدورُ مَهاً تبرُّجُها اكتِنانُ

لاحت، ظهرت، من بروج البدر، المواضع السماوية التي يمر بها القمر، بدور مها، أقمار كبقر الوحش هي النساء الجميلات، وتبرجها هو عبارة عن اكتنان، أي استتار.. وسيقول أبو العلاء في اللزوميات إن تبرج النساء مع استتارهن من السفاهة

فلو سَمحَ الزمانُ بِها لَضَنَّتْ ولو سمحتْ لَضَنَّ بها الزمانُ

لو أتيح لنا أن نواصل الحسان لضنت، امتنعت، ولو سمحت لنا بالوصال لامتنع الزمان وحالت الظروف دون ذلك

رُزِقْنَ تَمَكُّناً من كلِّ قلبٍ فليس لِغيرِهِنَّ به مَكانُ

متمكنات من قلوب الرجال

وعيشتِيَ الشبابُ، وليس منها صِبايَ ولا ذَوائِبِيَ الهِجانُ

العيشة الحقيقية هي أيام الشباب الواعي للفتنة، وليس من الحياة أيام الصبا حيث المرء لا يدرك لذة الهوى، ولا زمن الذوائب الهجان، خصلات الشعر البيض

وكالنارِ الحياةُ فمِنْ رَمادٍ أواخِرُها وأولُها دُخانُ

والحياة كالنار أولها دخان وآخرها رماد ولا نفع فيهما.. كذا زمن اليفاعة والشيخوخة فلا نفع فيهما وكل النفع في النار نفسها.. في الشباب فقط

٤ حلب جنة ونار

يمدح أبا الفضائل بن أبي الهيجاء:

لا تَسَلْ عن عِداكَ أين استقرُّوا لَحِقَ القومُ باللطيفِ الخبيرِ

لا تسل أين ذهب أعداؤك فقد قتلهم الحسد قتلاً

حَلَبٌ لِلوَلِيِّ جنَّةُ عَدْنٍ وَهْيَ لِلغادرينَ نارُ سعيرِ

حلب جنة للولي، النصير، ونار للغادرين

٥ شُرَّاد المعاني

قال يمدح بعض الأمراء:

أفوقَ البدرِ يوضعُ لِي مِهادُ أمِ الجوزاءُ تحت يَدي وِسادُ؟

أيُفرَش لي المهاد، السرير، فوق البدر؟ لا، بل أعلى منه. أتكون كواكب الجوزاء وسادة أتكئ عليها؟

وأَطْرَبَني الشبابُ غَدَاةَ وَلَّى فليتَ سِنيهِ صَوْتٌ يُسْتَعادُ

أطربني، أي أشجاني وأحزنني، الشباب عندما تولى وانصرف عني، فليت سنواته مثل الصوت، الأغنية، الذي يستعيده السامعون، يطلبون من المغني إعادته

تَلوذُ بِنا القَطا مُستجدِياتٍ لِمَا ضَمِنَتْ مِن الماءِ المَزادُ

تلوذ بنا، تلجأ إلينا، طيور القطا في الصحراء مستجديات للماء الذي ضمنته، احتوته، المزاد، القِرَب التي معنا

يَكَدْنَ يَرِدْنَ مِن حَدَقِ المَطايا مَوارِدَ مَاؤُها أبداً ثِمادُ

تكاد طيور القطا ترد الماء في عيون الإبل تحسبها ماء، غير أن هذه الموارد ماؤها ثماد، أي قليل

متى أَرْمِ السُّها بِكَ أَنْتَظِمْهُ كأنَّ هَواكَ في سَهمي سَدَادُ

إذا رميت بسهمي نجم «السها» فإنني أنتظمة، أشكه بالسهم شكاً، فكأن محبتي إياك هي المسدِّد لسهمي

تَذُودُ عُلاكَ شُرَّادَ المَعاني إليَّ، فمَن زهيرٌ أو زيادُ؟

عُلاك تذود إليَّ، أي تجمع نحوي، المعاني الشاردة في المدح، فمَن هو زهير بن أبي سلمى، ومن هو زياد بن معاوية النابغة الذبياني؟ وما معانيهما بالمقارنة مع المعاني التي تأتيني فيك؟ (والشاعران المذكوران من أمدح شعراء الجاهلية)

إذا مـا صِـدْتُـهـا قـالـتْ رجـالٌ   ألَـمْ تَـكُـنِ الـكَـواكـبُ لا تُـصَـادُ؟

عندما أصيد هذه المعاني الرائعة يقول الناس: كنا نظن الكواكب لا تصاد!

مِـنَ الـلاتـي أَمَـدَّ بِـهِـنَّ طـبـعٌ   وهَـذَّبَـهُـنَّ فـكـرٌ وانـتـقـادُ

هذه معان أمدني بها طبعي وقريحتي الشعرية وهذبها فكري وانتقادي، أي تشذيبي للشعر

٦ غُبار المعركة

ومُـقـابَـلٍ بـيـن «الـوَجـيـهِ» و«لاحِـقٍ»   وَافَـاكَ بـيـنَ مُـطَـهَّـمٍ ومُـطَـهَّـمِ

رب حصان مقابَل، أي أصيل من جهتي الأب والأم، ونسبه يرتقي إلى الجوادين المشهورين «الوجيه» و«لاحق»، وقد أتاك يختال بين الخيول من مطهم ومطهم، والمطهم الحصان التام الحسن

مثلُ العَرائِسِ ما انْثَنَتْ مِنْ غَارةٍ   إلَّا مُـخَـضَّـبَـةَ الـسَّـنـابِـكِ بـالـدَّمِ

هذه الخيول مثل العرائس المزينة بالحناء، فهي تنثني، تعود، من الغارة وسنابكها، حوافرها، مصبوغة بدم الأعداء

أَدْمَـتْ نَـواجِـذَهـا الـظُّـبَـا فـكـأنـمـا   صُـبغتْ شَـكـائِـمُـهـا بِـمـثـلِ الـعَـنْـدَمِ

أدمت الظبا، شفراتُ السيوف، نواجذَ الخيول، صبغت أسنانها بالدم، فكأن هذا الدم على الشكائم، الحدائد التي في أفواه الخيل، ثمر العندم الأحمر

وبَـنَـتْ حَـوافِـرُهـا قَـتـامـاً سـاطِـعـاً   لـولا انـقـيـادُ عِـداكَ لــم يَـتَـهَـدَّمِ

وبنت حوافر خيلك شبه بنايات من القتام الساطع، الغبار المرتفع، وما كانت هذه البنايات لتتهدم لولا انقياد الأعداء لك واستسلامهم

بـاضَ الـنُّـسـورُ بـه وخَـيَّـمَ مُـصْـعِـداً   حـتـى تـرعـرعَ فـيـه فَـرْخُ الـقَـشْـعَـمِ

هذا الغبار الذي أثارته حوافر خيلك كثيف، ولو دام لباضت عليه النسور، وظل يرتفع حتى فقس بيض القشاعم، النسور، وترعرعت الأفراخ.. يصعد المعري درجة فوق المتنبي في المبالغة والإحالة

وسَـمـا إلـى حـوضِ الـغـمـامِ فَـمـاؤُهُ   كَـدِرٌ بِـمُـنـهَـالِ الـغُـبـارِ الأَقْـتَـمِ

ولَسَما، وارتفع، الغبار إلى ما فوق أحواض السحاب فجعل ماء السحاب مكدراً قاتماً

حـتـى تَـرَكْـنَ الـمـاءَ لـيـس بِـطـاهـرٍ   والـتُّـرْبَ لـيـسَ يَـحِـلُّ لِـلْـمُـتَـيَـمِّـمِ

وهكذا تركت خيولك الماء غير طاهر لأنك لوثت السحاب بالغبار، وتركت تراب الأرض غير طاهر ولا يحل للمتيمم لما اختلط به من الدم

٧ تجربة في الفخر القَبَلي

وَرائـــيَ أمـــامٌ والأمَـــامُ وَراءُ   إذا أنَـا لـمْ تُـكْـبِـرْنِـيَ الـكُـبَـراءُ

إذا لم يعرف السادة مقامي فسوف أولّيهم ظهري وأنصرف، فيصبح ورائي أمامي والعكس

بِـأيِّ لِـسـانٍ ذامَـنِـي مُـتـجَـاهِـلٌ   عَـلَـيَّ، وخَـفْـقُ الـريـحِ فِـيَّ ثَـنـاءُ؟

بأي لسان يجرؤ أن يذمني ذلك المتجاهل لقدري؟ والريح عندما تخفق، أي تصفر، تحمل ثناء الناس عليَّ

ومُـذْ قـالَ إنَّ ابْـنَ الـلَّـئـيـمَـةِ شَـاعِـرٌ   ذَوُو الجَهلِ، ماتَ الشِّعرُ والشُّعراءُ

منذ أن قال ذوو الجهل إن «ابن اللئيمة» هذا شاعر.. مات الشعر والشعراء

تُـسـاوِرُ فَـحْـلَ الـشـعـرِ أو لَـيـثَ غـابِـهِ   سَـفَـاهـاً وأنـتَ الـنَّـاقَـةُ الـعُـشَـرَاءُ

أراك تساور، تهاجم، فحل الشعر بل ليث الغابة، سفهاً منك وحمقاً، وأنت ضعيف كالناقة العشراء، الحامل لعشرة أشهر

أتَمشي القَوافي تحتَ غيرِ لِوائِنا   ونـحـنُ عـلـى قُـوَّادِهـا أُمَـراءُ

لا تسير القصائد إلا تحت لوائنا، ونحن أمراء على قادة الشعر

وأيُّ عَـظـيـمٍ رَابَ أهـلَ بِـلادِنـا   فـإنَّـا عـلـى تَـغـيِـيـرِهِ قُـدَرَاءُ

وأي رجل عظيم القوة راب أهلنا، أي شكُّوا في أمره، فنحن قادرون على تغييره

ومـا سَـلَـبَـتْـنـا الـعِـزَّ قَـطُّ قَـبـيِـلَـةٌ   ولا بـاتَ مِـنَّـا فـيـهِـمُ أُسَـراءُ

ولا سـارَ فـي عُـرْضِ الـسَّـمَـاوَةِ بَـارِقٌ   ولَـيـسَ لـه مِـن قـومِـنـا خُـفَـراءُ

ما سار بارق، أي غيم ذو برق، في وسط صحراء السماوة إلا وقومنا يخفرونه، يحرسونه، أي يمنعون غيرهم من رعي العشب المتسبب عن هذا الغيم الماطر

٨ نحن غرقى

بعث الشريف أبو إبراهيم العلوي إلى المعري بقصيدة مطلعها: (غير مستحسن وصال الغواني/ بعد ستين حجة وثمان)، فأجابه أبو العلاء:

عَـلِّـلانـي فـإنَّ بِـيـضَ الأمـانـي   فَـنِـيَـتْ، والـظَّـلامُ لـيـس بِـفَـانِ

عللاني يا صديقيَّ، سَلّياني ونسّياني، فإن الأماني الجميلة البيض ذهبت، والظلام باقٍ

إن تَـنـاسَـيْـتُـمـا وِدادَ أُنـاسٍ   فاجْعلاني من بعضِ مَن تَذكُرانِ

كـم أَرَدْنـا ذاكَ الـزمـانَ بِـمـدحٍ   فـشُـغِـلـنـا بِـذَمِّ هـذا الـزمـانِ

ربَّ ليلٍ كأنه الصبحُ في الحسـ ـنِ، وإن كان أسودَ الطَّيْلَسانِ

الطيلسان: الكساء

قد رَكَضْنا فيهِ إلى اللَّهْوِ لَمَّا وقفَ النجمُ وِقفةَ الحيْرانِ

أسرعنا كي نلهو في هذا الليل وقد وقف النجم متقلقلاً مهتزاً كما يقف الحيران (ورأى العرب القدماء في بعض النجوم اهتزازاً)

فكأنِّي ما قلتُ والبدرُ طِفلٌ وشبابُ الظلماءِ في عُنفوانِ:

كأني لم أقل لكم والبدر ما زال هلالاً صغيراً، وكان الظلام دامساً فكأنه المرء في عنفوان شبابه وسواد شعره:

ليلتي هذه عروسٌ من الزَّنْـ ـجِ عليها قلائدٌ مِن جُمانِ

قلت لكم: ليلتي عروس سوداء من الزنوج، وهي تتزين بعقود من اللؤلؤ الصغار، هي النجوم

هربَ النومُ عن جُفونِيَ فيها هَرَبَ الأمنِ عن فؤادِ الجَبانِ
وكأنَّ الهلالَ يهوَى الثُّريَّا فهُما للوَداعِ مُعْتَنِقانِ

والهلال يحتضن نجوم الثريا.. يعانقها قبل الفراق

قالَ صَحْبي في لُجَّتَيْنِ منَ الحِنْـ ـدِسِ والبِيدِ إذْ بَدا الفَرْقَدَانِ

قال لي صحبي ونحن في لجتين، بحرين، هما الحندس، أي الظلام، والبيد، أي الصحارى، وقد بدا في السماء الفرقدان، هذان النجمان

وسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ نِ وقلبِ المُحِبِّ في الخَفَقانِ

وكان نجم سهيل محمراً كخد الحِبِّ، أي الحبيب، وخافقاً مرتجفاً كقلب العاشق (وسهيل من النجوم ذات الاهتزاز)

مُستَبِدّاً كأنه الفارسُ المُعْـ ـلَمُ يبدوُ مُعَارِضَ الفُرسانِ

كان سهيل مستبداً، أي منفرداً، كأنه الفارس الذي وضع شارة الحرب وقد انفرد عن صحبه معارضاً لهم، أي واقفاً في ناحية منهم.. ربما متأهباً للمبارزة

يُسرِعُ اللَّمْحَ في احمرارٍ كما تُسْـ ـرِعُ في اللَّمْحِ مُقْلَةُ الغَضبانِ

يتألق سهيل مع احمرار كأنه عين رجل غضبان

ضَرَّجَتْهُ دَمَاً سيوفُ الأَعادي فبكَتْ رَحمَةً له الشِّعْرَيانِ

ضرجته بالدم السيوف، فبكت له الشعريان، تانك النجمتان؛ والعرب تصف الشعريين بأنهما قريبتان من سهيل وبأن إحداهما كأن في عينها قذى من بكاء، فأبو العلاء يستعرض معلوماته الفلكية، ويلم بما يعتقده العرب في شأن النجوم

ثم شابَ الدُّجَى، وخافَ من الهجـ ـرِ فَغَطَّى الـمَشيـبَ بِـالـزَّعْـفَـرانِ

وطلع الفجر فكأن الشيب حل بالدجى، بالظلام، وخاف الظلام من هجر الأحبة بعد ابيضاض الرأس فغطى مشيبه بالزعفران، فثمة حمرة على صفرة تبدو مع الفجر

نحنُ غَرقَى، فكيف يُنقِذُنا نَجـ ـمـانِ في حَوْمَـةِ الـدُّجَى غَـرِقَـانِ

نحن لسنا تائهين، فالليل والصحراء بحران. . ونحن غرقى، والنجمان غَرِقان، وهل ينقذ الغريق الغريق؟

وبــلادٍ وَرَدْتُــهــا ذَنَــبَ الــسِّــرْ حـانِ، بـيـنَ الـمَـهَـاةِ والـسِّـرْحـانِ

جئت بلاداً في وقت «ذنب السرحان»، أي الفجر الكاذب الذي يشبه ذيل السرحان وهو الذئب، وكنت أسير بين المهاة، بقرة الوحش، وبين السرحان، الذئب، في البراري

وعُـيـونُ الـركـابِ تَـرْمُـقُ عـيـنـاً حـولَـهـا مَـحْـجِـرٌ بِـلا أَجْـفـانِ

وعيون المسافرين ترمق عين ماء. . وعين الماء حولها محجِر، عظام العين. . ويقصد حجارة البئر، لكنها طبعاً بلا أجفان

وعلى الـدهرِ مِنْ دِماءِ الشَّهِيدَيْـ ـنِ عَـلِـيٍّ ونَـجْـلِـهِ شَـاهِـدانِ

وهناك شاهدان على الدهر، على الوقت، هما الاحمرار الذي يشبه دم الشهيدين علي بن أبي طالب وابنه الحسين. والقصيدة في مدح رجل شيعي، واعتقد بعض الشيعة أن الاحمرار في أول الليل وآخره لم يكن إلا بعد مقتل علي والحسين

فَـهُـمَـا فـي أَوَاخِـرِ الـلـيـلِ فَـجْـرا نِ، وفـي أُولَـيَـاتِـهِ شَـفَـقَـانِ

فهذان الشاهدان كأنهما فجران في آخر الليل (الفجر الكاذب والفجر الصادق) وشفقان في أوله (الشفق الأبيض والشفق الأحمر)

ثَـبَـتـا فـي قَـمـيـصِـهِ لِـيَـجِـيءَ الـ ـحَـشْـرَ مُـسْـتَـعْـدِيـاً إلـى الـرحـمـنِ

ثبت هذا الشاهدان في قميص الدهر ليأتي القميص يوم الحشر ويستعدي، يطلب الانتصاف من الخصم، لدى الله

يـا ابنَ مُـسْـتَـعْـرِضِ الـصفوفِ بِـبَـدْرٍ ومُـبـيـدِ الـجُـمـوعِ مِـن غَـطَـفـانِ

يبدأ المدح: يا سليل علي بن أبي طالب الذي كان يستعرض صفوف المقاتلين في بدر، والذي أباد جموع الأعداء من قبيلة غطفان

قـد أَجَـبْـنـا قـولَ الـشـريـفِ بِـقـولٍ وأَثَـبْـنـا الـحَـصَـى عـنِ الـمَـرجـانِ

أجبنا قول الشريف بقول مثله، وأثبناه، كافأناه، بالحصى مقابل مرجانه، لؤلؤه

أَطْـرَبَـتْـنـا أَلـفـاظُـه طَـرَبَ الـعَـا شِـقِ لِـلـمُـسْـمِـعَـاتِ بِـالألـحـانِ

المسمعات: المغنيات

فـاقْـتَـنِـعْ بِـالـرَّوِيِّ والـوزنِ مِـنّـي فَـهُـمـومـي ثـقـيـلـةُ الأَوزانِ

اقتنع مني بنظم ضعيف ليس إلا وزناً ورويًا بغير إبداع، فهمومي ثقيلة

مِنْ صُروفٍ مَلَكْنَ فِكري ونُطْقي فَـهْـيَ قَـيْـدُ الـفُـؤادِ قَـيْـدُ الـلِّـسـانِ

همومي مكونة من صروف، مصائب، ملكت فكري وقولي، وقد قيدت قلبي وقيدت لساني

يا أبا إِبْراهيـمَ قَصَّرَ عنكَ الشِّـ ـعـرُ لـمَّـا وُصِـفْـتَ بِـالـقـرآنِ

الشعر يقصر عن إعطائك حقك بعد أن وصفك القرآن.. فالقرآن يمدح أهل البيت ويُذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً.. والممدوح من البيت النبوي

٩ الفرق بن الأسد والنملة

يمدح صديقه أبا القاسم علي بن الحسين بن جَلَبات:

يَـرومُـكَ، والـجَـوْزاءُ دونَ مَـرامِـهِ، عَـدُوٌّ يَـعـيـبُ الـبـدرَ عـنـدَ تَـمـامِـهِ

يرومك، يطلبك، عدوك.. ونجوم الجوزاء أقرب من مرامه، مطلبه، وهذا العدو معاند كمن يعيب البدر عند اكتماله

فإن يَكُ أَضحَى القولُ جَمّاً طيورُهُ فـمـا تَـسـتَـوي عِـقْـبـانُـهُ بِـحَـمَـامِـهِ

لئن كثر القول كأنه الطيور الجمة، الكثيرة، فإن العقبان الكاسرة ليست كالحمام الضعيف.. يلمح إلى أن شعره أعلى من شعر غيره

أَفَدْتَ جزيلَ الـمالِ لـما استَفَدْتَهُ وحَكَّمْتَ فيه الدهرَ قبلَ احْتِكَامِهِ

أفدت، أعطيتَ، المال للناس لما استفدت هذا المال، وحكمت الزمن في مالك وجعلته يفنيه قبل أن يحتكم فيه الدهر بنفسه، فقد سبقت الدهر في تبديد مالك أيها السخي

وهـل يـذْخَـرُ الـضِّـرْغـامُ قُـوتـاً لِـيـومِـه إذا ادَّخَـرَ الـنـمـلُ الـطـعـامَ لِـعـامِـهِ

وكذا فالأسد لا يدخر الطعام، النمل هو الذي يدخره

١٠ على خطى أبي الطيب

وقال يفتخر ويعرض ببعض من أساء إليه:

أَلَا في سبيلِ الـمَـجْـدِ ما أنا فاعلُ عـفـافٌ وإِقـدامٌ وحـزمٌ ونَـائِـلُ

النائل: العطاء، يقصد السخاء

أعِـنـدِي، وقـد مـارسْـتُ كـلَّ خَـفِـيَّـةٍ، يُـصَـدَّقُ وَاشٍ أو يُـخَـيَّـبُ سَـائِـلُ؟

أأصدِّق الوشاة أو أخيب السائلين بعد أن جربت الدنيا وخفاياها؟

أقَـلُّ صُـدودي أنـنـيِ لَـكَ مُـبْـغِـضٌ   وأَيْـسَـرُ هـجـريِ أنـنـيِ عـنـكَ راحِـلُ

أقل قدر من صدودي عنك بغضي لك، وأبسط الهجر رحيلي عنك

إذا هَبَّتِ النَّكْباءُ بَيْني وبينَكُمْ   فَـأَهْـوَنُ شَيْءٍ ما تـقـولُ الـعَـواذِلُ

إذا هبت النكباء، الريح المخربة، بيني وبينكم . . كناية عن التباغض، فعندئذ لا أهتم لما تقوله العاذلات وأمضي في العداوة إلى آخر الشوط

تُـعَـدُّ ذُنـوبـي عـنـد قـومٍ كـثـيـرةً   ولا ذنبَ لـيِ إلّا الـعُـلا والـفَـواضِـلُ

يعدون علي الذنوب، وما ذنوبي سوى المعالي والفواضل، الفضائل

وقد سارَ ذِكري في البلادِ فمَنْ لَهُمْ   بإخفاءِ شمسٍ ضَوْءُها مُتَكامِلُ

أصبحت مشهوراً ولا قبل لهم بإخفاء ذكري، فهل يستطيعون إخفاء الشمس؟

يَهُمُّ الليالي بعضُ مَا أنا مُضمِرٌ   ويُثْقِلُ «رَضْوَى» دونَ ما أنا حَامِلُ

بعض ما أخفيه في ضميري من مطامح يجعل الليالي، الدهر، تشعر بالهم الثقيل، وما أحمله من نفس كبيرة ثقيل حتى على جبل رضوى

وإنـي وإن كـنـتُ الأخـيـرَ زمـانُـه   لآتٍ بـمـا لـم تـسـتَـطِـعْـهُ الأوائـلُ

وأنا ـ وإن كنتُ المتأخِّرَ زمانُهُ ـ آتي بالشعر البديع الذي لم يتسن مثله للشعراء القدامى

وأغـدُو ولـو أنَّ الـصـبـاحَ صَـوارِمٌ   وأَسـري ولـو أن الـظـلامَ جَـحـافِـلُ

أغدو صباحاً ولو كان الصباح من الصوارم، السيوف، وأسري ليلاً ولو كان الظلام عبارة عن جحافل جيش

ولِي مَنطِقٌ لـم يَرْضَ لي كُنْهَ مَنزِلي   عـلى أنـنـي بـيـن الـسِّـمَـاكَيْـنِ نَـازِلُ

ومنطقي، أي كلامي وشعري، عال لا يرضى لي بحقيقة المنزلة التي أنا فيها، ومنزلتي الحقيقية بين السماكين، نجمين من النجوم

لَـدى مَـوْطـنٍ يـشـتـاقُـهُ كـلُّ سَـيِّـدٍ   ويَـقْـصُـرُ عـن إدراكِـه الـمُـتـنـاوِلُ

منزلتي عند موطن، مكان، يشتاق إلى الوصول إليه كل سيد، ولكن، لا يدركه من مد يده ليتناوله

ولـمَّا رأيتُ الجَهلَ في الناسِ فَاشِياً   تـجاهـلـتُ حتى ظُنَّ أنِّيَ جَاهِـلُ

لما رأيت الجهل منتشراً تجاهلت، تظاهرت بالجهل، حتى ظن الناس أني جاهل

فَواعَجَبا كم يَدَّعي الفضلَ ناقِصٌ   وواأَسَفا كم يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلُ

يا للعجب! كم يدعي الفضل من هو ناقص، ويا للأسف، كم يظهر الفاضل النقص حتى يتجنب الحسد. تعليق من البطليوسي «هذا من الكلام البديع الحسن الذي يدل على حذق قائله بصناعة الشعر، لأنه قرن العجب بادعاء الناقص الفضل، والأسف بإظهار الفاضل للنقص، فوضع الألفاظ في المواضع اللائقة بها، ولو عكس الأمر لاختل النظم»

وكيف تَنامُ الطيرُ في وُكُناتِها إذا نُصِبَتْ لِلفَرْقَدَيْنِ الحَبائِلُ

عجباً كيف تنام الطير آمنة في وكناتها، أعشاشها، مع أن الناس ينصبون الحبائل، المصايد، حتى للفرقدين، وهما نجمان

فلو بَانَ عَضْدِي ما تَأَسَّفَ مَنكِبي ولو ماتَ زَنْدِي ما بَكَتْهُ الأنامِلُ

لقسوة هذا الزمن تَمَسَّحْتُ، فلو انخلع عضدي، أعلى ذراعي، ما تأسف له منكبي، كتفي، ولو مات زندي، أسفل ذراعي، ما بكت أناملي عليه

إذا وَصَفَ الطائيَّ بِالبخلِ مَادِرٌ وعيَّرَ قُسّاً بِالفَهَاهَةِ بَاقِلُ..

إذا وصف مادرٌ، البخيل المشهور، حاتماً الطائي بالبخل، وعير باقلٌ، العيي المعروف، قساً الخطيب المشهور

وطَاوَلَتِ الأرضُ السماءَ سَفاهَةً وفَاخَرتِ الشُّهْبَ الحَصَى والجَنادِلُ..

وإذا حاولت الأرض أن تفاخر السماء في الارتفاع، وإذا فاخر الحصى والجنادل، الصخور، شهب السماء.. أي إذا انعكست الأمور وصار الوضيع يحسب نفسه جليل القدر

فيا مَوْتُ زُرْ إن الحياةَ ذَميمَةٌ ويا نَفسُ جِدِّي إن دَهرَكِ هَازِلُ

عندئذ أهلا بالموت فليأت زائراً، فالحياة ذميمة، كريهة، ويا نفسي كوني جادة فالزمن هازل

وقد أغتَدِي والليلُ يَبكِي تأسُّفاً على نفسِه والنجمُ في الغربِ مَائلُ

أغتدي، أرحل فجراً، بينما الليل يبكي متأسفاً على نفسه لأنه يزول، والنجم يميل غرباً ويختفي بطلوع الشمس

بِريحِ أُعيِرَتْ حَافِراً مِن زَبَرْجَدٍ لها التِّبْرُ جِسْمٌ، واللُّجَينُ خَلاخِلُ

أرحل على ريح، فرس سريعة، لها حافر أخضر من صلابته فكأنه الزبرجد؛ وجسم الفرس أشقر كالذهب، وقوائمها محجلة بيضاء كأنها اتخذت اللجين، الفضة، خلاخل، جمع خلخال

كأنَّ الصَّبَا أَلْقَتْ إلَيَّ عِنانَها تَخُبُّ بِسَرْجِي مَرَّةً وتُنَاقِلُ

كأن ريح الصبا منحتني عنانها، مقودها، وهي تخب وتناقل بسرجي، أي تمشي هذين النوعين من المشي وأنا فوق سرجي

إذا اشْتَاقَتِ الخيلُ المَناهِلَ أَعْرَضَتْ عن الماءِ فاشْتَاقَتْ إليها المَناهِلُ

تشتاق الخيل لمناهل الماء، لكنها تعرض عنها لأنها صبورة وجادة في بلوغ مرامها، فتشتاق المناهلُ إليها

إذا أنتَ أُعطِيتَ السعادةَ لم تُبَلْ وإن نَظَرَتْ شَزْراً إليكَ القَبائلُ

إذا نلت السعادة، الحظ، فأنت لا تبالي ولو نظر الناس شزراً إليك، أي نظروا بأطراف عيونهم مستائين مستهجنين

وإن كنتَ تَهوَى العيشَ فَابْغِ تَوَسُّطاً		فعندَ التَّناهي يَقْصُرُ المُتَطاوِلُ

إن كنت تهوى العيش الهانئ فلا تكن شديد الطموح، فعند بلوغ منتهى الأماني يبدأ التقصير والنزول

تَوَقَّى البُدُورُ النَّقْصَ وَهْيَ أَهِلَّةٌ		ويُدرِكُها النُّقْصانُ وَهْيَ كَوامِلُ

كذلك البدور فهي تتوقّى النقص، محمية من النقصان، عندما تكون أهلة، جمع هلال، ولكن النقصان يلحق بها عندما تكتمل

١١ الطموح فن المستحيل

أَرى العَنقاءَ تَكْبُرُ أن تُصَادَا		فَعَانِدْ مَن تُطيقُ لهُ عِنادا

العنقاء طائر كبير خيالي، والعنقاء أكبر من أن تصاد؛ فعلى المرء أن يخالف ويعاند فقط من يستطيع معاندته ولا يتنطح إلى من هو أقوى منه بكثير.. لا تناطح الدهر يا فتى

وما نَهْنَهْتُ في طَلَبٍ، ولكنْ		هِيَ الأيامُ لا تُعْطي قِيَادا

ما نهنهت، تهاونت وكففت، في طلب العلى، ولكن الأيام لا تعطي قيادها للمرء

فلا تَلُم السَّوابِقَ والمَطايا		إذا غَرَضٌ من الأغراضِ حادا

لا تلم السوابق، الخيل، ولا الإبل إذا انحرف عنك مطلب من المطالب

لَعلَّكَ أن تَشُنَ بِها مُغاراً		فَتُنْجِحَ أو تُجَشِّمَها طِرادا

لعلك تشن غارة فتنجح، أي تحقق مبتغاك، أو تكلف الخيل مطاردة صيد

مُقارِعَةً أَحِجَّتُها العَوالي		مجنِّبةً نَواظِرَها الرُّقادا

تقارع أحجة الخيل، عِظام حواجبها، العوالي، الرماح.. فالخيل ترفع رؤوسها فتلامس رماح فرسانها الممدودة، وهي دائمة التيقظ فالرقاد لا يتسلل إلى عيونها

نَلومُ على تَبَلُّدِها قُلوباً		تُكَابِدُ مِن مَعيشَتِها جِهَادا

نلوم قلوبنا لتبلدها، حيرتها، ولكنها في الواقع تكابد وتشقى في تحصيل المعيشة. (قرأ أ. عبد الرحيم: جَهادا، بفتح الجيم، لأن الجَهاد المعاناة والمكابدة)

إذا ما النارُ لم تَطْعَمْ ضِراماً		فَأَوْشِكْ أنْ تَمُرَّ بِها رَمادا

إذا النار لم تَطعَم، تأكل، ضراماً، أي وقوداً، فسريعاً ما تصير إلى رماد. فالمعاناة تحيي القلوب كالوقود الذي يحيي النار

فظُنَّ بِسائِرِ الإخْوانِ شَرّاً		ولا تأْمَنْ على سِرٍّ فُؤَادا

فلو خَبِرَتْهُمُ الجَوْزَاءُ خُبْري		لَمَا طَلَعَتْ مَخافَةَ أن تُكادا

لو جربت نجوم الجوزاء البشر مثلما جربتهم أنا لخافتهم وتوارت فلم تظهر في السماء

تَـجَـنَّـبْـتُ الأنـامَ فَـمـا أُوَاخـي   وزِدْتُ عـلـى الـعـدوِّ فـمـا أُعـادَى

لا أؤاخي الأنام، البشر، وقدري مرتفع جداً عن الأعداء فلا سبيل لمعاداتي

ولـمَّـا أن تَـجَـهَّـمَـنـي مُـرادي   جَـرَيْـتُ مـعَ الـزمـانِ كـمـا أَرَادا

لما تجهمني، كشر في وجهي، مرادي، مطلبي، جريت مع الزمان وطاوعته

وهَـوَّنْـتُ الـخُـطـوبَ عَـلَـيَّ حتـى   كـأنّـي صِـرْتُ أَمـنَـحُـهـا وِدَادا

وهونت على نفسي شأن المصائب حتى لكأنني أكِنُّ لها المودة

أأُنْـكِـرُهـا ومَـنْـبِـتُـهـا فـؤادي   وكـيـف تُـنَـكِّـر الأرضُ الـقَـتَـادا

كيف لي أن أنكر الخطوب وهي نابتة من قلبي، فهل تنكر الأرض الشوك الذي ينبت فيها؟

فـأيُّ الـنـاسِ أجـعـلُـهُ صـديـقـاً   وأيُّ الأرضِ أسـلُـكُـهـا ارتِـيـادا؟

ولـو أنَّ الـنـجـومَ لَـديَّ مَـالٌ   نَـفَـتْ كَـفَّـايَ أكْـثَـرَهـا انـتِـقَـادا

لو أن النجوم دراهم لدي لنفيتها، أي نحَّيتها، انتقاداً، تمييزاً للزائف من السليم.. فحتى النجوم اللامعة أكثرها زائف يستحق الانتقاد، التنحية لزيفه، فكيف بالبشر؟ تعليق أ. عبد الرحيم [هل أدرك أبو العلاء، على نحو ما، أن ما يظهر من صورة النجوم هو مجرد صورة لا حقيقة لها وقت رؤيتها؛ فلمعان النجوم الراهن هو ما تبقى من أثر مخلوقات ميتة، مات بعضها قبل آلاف السنين؟! هل هذه الفكرة قديمة؟! وهل لهذا أقسم الله بـ«مواقع النجوم» ولم يقسم بالنجوم ذاتها؟!]

كـأنّـيَ فـي لِـسـانِ الـدهـرِ لَـفْـظٌ   تَـضَـمَّـنَ مـنـه أَغْـراضـاً بِـعـادا

كأنني لفظ في لسان الزمن، وهو لفظ ذو معان عميقة

يُـكَـرِّرُنـي لِـيـفـهَـمَـنـي رجـالٌ   كـمـا كَـرَّرْتَ مـعـنـىً مُـسْـتَـعـادا

يكرر الرجال النظر في شخصيتي وأقوالي محاولين فهمي، مثلما يكرر المرء معنى غامضاً يكثر من استعادته. وكثير من أبياتك في سقط الزند يا أبا العلاء تحتاج إلى استعادة وإعمال ذهن. وبالفعل كفَّرك ناس ورفعك ناس فوق المجرة، واحتارت في شأنك الدهور لأنك سبقت عصرك، صدقت في هذا البيت ولم تفخر بأكثر مما هو لك.. نسأل الله لك حياة مديدة في عقول وقلوب الناس

ولـو أنّـي حُـبـيـتُ الـخُـلْـدَ فَـرْداً   لـمـا أَحْـبَـبْـتُ بِـالـخُـلْـدِ انْـفِـرادا

حبيت: مُنحت

فـلا هَـطَـلَـتْ عَـلَـيَّ ولا بِـأَرْضـي   سَـحـائِـبُ لـيـس تَـنـتَـظِـمُ الـبـلادا

لا يريد سحاباً يسقي بلده وحدها، ويشترط أن يكون المطر عمومياً

وكم مِنْ طالبٍ أَمَدي سَيَلْقَى ... دُوَيْنَ مَكانِيَ السَّبْعَ الشِّدَادا

يعود للفخر: كم من رجل يسعى للوصول إلى منزلتي، وهو يرى السبع الشداد، أي السماوات السبع، تحتي

يُؤَجِّجُ في شُعاعِ الشمسِ ناراً ... ويَقْدَحُ في تَلَهُّبِها زِنادا

هذا الذي يحاول الوصول إلى منزلتي هو كمن يوقد ناراً ليستضيء بها والشمس مشرقة، فيقدح الزناد، أداة إشعال النار، والشمس متلهبة

ويَطْعَنُ في عُلايَ وإنَّ شِسْعِي ... لَيَأْنَفُ أن يكونَ له نِجادا

يطعن في فضلي مع أن شسع نعلي، جلدته التي تغطي أعلى القدم، يأنف أن يكون نجاداً لسيفه، حمالة يعلق بها السيف

ويُظْهِرُ لي مودَّتَه مَقالاً ... ويُبْغِضُني ضَميراً واعتِقادا

فلا وأبيكَ ما أخشَى انتِقاصاً ... ولا وأبيكَ ما أرجو ازدِيادا

يصف المعري نفسه بالكمال. وينبهنا الخوارزمي إلى بيت المتنبي: من كان فوق محل الشمس موضعه/فليس يرفعه شيء ولا يضع

لِيَ الشرفُ الذي يَطَأُ الثُّرَيَّا ... مع الفضلِ الذي بَهَرَ العِبادا

وبعضُ الظَّاعِنِينَ كَقَرْنِ شمسٍ ... يَغيبُ، فإن أضاءَ الفجرُ عادا

بعض الظاعنين، الراحلين، مثل قرن الشمس يرحل ثم يعود فجراً.. بعض الناس يغضبون لكرامتهم قليلاً فيبتعدون، ثم يسرعون بالعودة لأقل بادرة..

ولَكِنِّي الشبابُ، إذا تَوَلَّى ... فجَهْلٌ أن تَرُومَ له ارتِدادا

لكني أنا مثل الشباب فإذا تولى وذهب فمن الجهل أن تحاول رده.. أي أنني إذا غضبت وانصرفت فلا عودة لي.. وكان في المعري أنفة وكان يكرم نفسه عن مخالطة الكبراء

وأَحْسَبُ أن قلبيَ لو عَصاني ... فعاوَدَ، ما وَجَدْتُ له افْتِقادا

لو عصاني قلبي ثم عاد إلي لما أحسست بالافتقاد إليه

ولِي نَفْسٌ تَحُلُّ بِيَ الرَّوابي ... وتأبَى أن تَحُلَّ بِيَ الوِهَادا

نفسي عالية تحل بي في الروابي المرتفعة وتأبى النزول في الوهاد، الوديان

عَمَدْتُ لِأَحْسَنِ الحَيَّيْنِ وَجْهاً ... وأَوْهَبِهِمْ طَرِيفاً أو تِلادا

بدأ يمدح: قصدت رجلاً هو أحسن القومين، والمثنى يقوم مقام الجمع. يقصد أحسن الناس، وجهاً، وأكثرهم منحاً للطريف، المال المكتسب، والتلاد، الأموال الموروثة

وأَطَوَلِهِمْ إذا رَكِبُوا قناةً وأرفَعِهِمْ إذا نَزَلُوا عِمادا

أطول الناس رمحاً إذا ركب للمعركة، وأرفعهم عماداً، أطولهم عمود خيمة.. وعمود الخيمة الطويل كناية عن عظم الخيمة.. أي أنه سيد القوم

فتىً يَهَبُ اللُّجَيْنَ المَحْضَ جوُداً ويَدَّخِرُ الحَديدَ لهُ عَتادا

يعطي اللجين المحض، الفضة الخالصة، للناس، ولكنه يدخر الحديد عتاداً للحرب

جَهولٌ بِالمَناسِكِ ليس يَدري أَغَيّاً بَاتَ يفعلُ أم رَشَادا

المناسك: الذبائح. فهو رجل لا يعرف كيف تذبح الإبل لأنه سيد يترك مثل هذا الأمر للخدم.. هذه فحوى شرح البطليوسي. ونغلِّب قول التبريزي «يصفه بأنه بدوي قح لا يخالط أهل الحضر»

طَمُوحُ السيفِ لا يَخْشى إِلَهاً ولا يَرجُو القِيامَةَ والمَعَادا

في الحرب سيفه طموح، متلهف للقتل، فالسيف لا يخشى في القتل الله ولا يرجو قيامة ولا بعثاً. تعليق البطليوسي: «هذا معنى كثير في الشعر المحدث والقديم، إلا أن المعري استعمله بلفظ شديد البشاعة ظاهر الشناعة، ينكره من يراه، ويتأوله على غير معناه»

١٢ حب الحياة

وحُبُّ الفتى طولَ الحياةِ يُذِلُّه وإن كانَ فيهِ نَخوَةٌ وعُرامُ

تعلق المرء بالحياة يعرضه للذل حتى وإن كان فيه نخوة وشهامة وعرام، شراسة

وكلٌّ يُريدُ العيشَ، والعيشُ حَتْفُهُ ويَستعذبُ اللذَّاتِ وَهْيَ سِمامُ

كل إنسان يريد الحياة، والحياة في الواقع طريق الموت، وكل إنسان يرى اللذات عذبة، وهي سموم

١٣ النابحون

تَعاطَوْا مَكاني وقد فُتُّهُمْ فما أَدرَكُوا غيرَ لَمحِ البَصَرْ

تعاطوا مكاني، رفعوا أيديهم عالياً لينالوا مكاني، وقد ارتفعتُ كثيراً عنهم، فبالكاد أبصروني لمحاً

وقد نَبَحُونِي، وما هِجْتُهُمْ كما نَبَحَ الكلبُ ضَوْءَ القمرْ

هجتهم: أهجتهم وهيجتهم

١٤ ابْكِ هنداً

حَيِّ مِن أجلِ أَهْلِهِنَّ الدِّيارا وابْكِ هِنداً لا النُّؤْيَ والأَحْجَارا

حي الديار الخربة من أجل أهلها الذين رحلوا عنها، وابك هنداً ولا تبك النؤي، القناة المحفورة حول الخيمة التي تمنع ماء المطر، ولا الأحجار

هِيَ قالتْ لَمَّا رأتْ شيْبَ رَأسِي ... وأرادَتْ تَنَكُّراً وازْوِرَارا:

قالت هند إذ رأت شيب رأسي، ونوت التنكر لي والازورار، الانحراف، عني:

أنا بَدْرٌ وقد بدا الصُّبْحُ في رأْ ... سِكَ، والصبحُ يَطرُدُ الأقمارا

١٥ الحب المضمحل

لِلَّهِ أيامُنا المَواضي ... لو أن شيئاً مضى يَعودُ

التسويد لأحمد عبد الرحيم

أَبْلَى وِدادي لَكُمْ زمانٌ ... أَلْيَنُ أحداثِهِ حَديدُ

لم يَبْلَ مِن بِذْلَةٍ، ولكنْ ... يبلى على طَيِّهِ الجَديدُ

ودي لكم لم يصبه البِلى والاهتراء من بذلةٍ، لأنني بذلته لغيركم، لكن لمرور الزمن؛ فالثوب الجديد يبلى حتى وهو مطوي غير ملبوس.. يبليه الزمن

١٦ ألا ليت الشباب

مِنكِ الصُّدودُ ومِنِّي بِالصُّدودِ رِضَا ... مَن ذا عَلَيَّ بِهذا في هَواكِ قَضَى

بِي منكِ ما لو غَدا بالشمسِ ما طَلَعَتْ ... مِن الكآبَةِ، أو بِالبرقِ ما وَمضا

لحق بي بسببك من الكآبة ما لو كان بالشمس لما طلعت، وما لو كان بالبرق لما أومض، وأومض مثل ومض

إذا الفَتى ذَمَّ عَيشاً في شبيبَتِه ... فما يقولُ إذا عصرُ الشبابِ مَضى؟

وقد تَعَوَّضْتُ عن كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ ... فما وجدْتُ لِأيامِ الصِّبا عِوَضا

استعضت عن كل شيء بآخر مشابه له، ولكنني لم أجد لأيام الصبا شبيهاً يعوضني عنها

وقد غَرِضْتُ من الدنيا فهل زمني ... مُعْطٍ حياتي لِغِرٍّ بعدُ ما غَرِضا

غرضت: ضجرت، غر: فتى غير مجرب

جربْتُ دَهرِي وأهليهِ، فمَا تركتْ ... لِيَ التَّجارِبُ في وُدِّ امْرِئٍ غَرَضا

وليلةٍ سِرْتُ فيها، وابْنُ مُزْنَتِها ... كَمَيِّتٍ عادَ حيَّاً بعدَ ما قُبِضا

رب ليلة سرت فيها، وكان ابن مزنتها، أي ابن غيمتها أي الهلال إذ يخرج من وراء المزنة أي الغيمة، مختفياً كأنه ميت ثم خرج وظهر حياً

كـأنَّـمـا هِـيَ إذ لاحَـتْ كـواكـبُـهـا   خَوْدٌ مِن الزَّنْجِ تُجْلَى وُشِّحَتْ خَضَضا

هذه الليلة كأنها خود، فتاة، زنجية تجلى، تُبرَز، والكواكب كأنها الخضض، الخرز الصغار، توشحها، تكون وشاحاً لها

كـأنَّـمـا الـنَّـسْـرُ مَـقـصُـوصٌ قَـوادِمُـهُ   فـالـضَّـعْـفُ يَـكْـسِـرُ منه كلَّمَا نَـهـضا

هذا الليل طويل فكأن النسر، مجموعة أنجم معروفة.. والنسر أيضاً الطائر المعروف، كأنه مقصوص القوادم، الريشات الظاهرة، فكلما جاء ينهض كسر الضعف منه.. فالنسر في السماء باق والليل باق

١٧ رسالة شكر

قال يجيب الشاعر أبا الخطاب الجُبِّلي وقد مدحه:

أَشَـفَـقْـتُ مِـن عِـبْءِ الـبـقـاءِ وعَـابِـهِ   ومَـلِـلْـتُ مِـنْ أَرْيِ الـزمـانِ وصَـابِـهِ

ضجرت من عبء الحياة ومن عابها، عيبها، ومللت من أري الزمان وصابه، من عسله ومُرّه

ووجـدتُ أحـداثَ الـلـيـالِـي أُولِـعَـتْ   بِـأَخـي الـنَّـدى تَـثْـنـيـهِ عـن آرابِـهِ

مصائب الزمن مغرمة بملاحقة أخي الندى، ذي السخاء، تثنيه وتبعده عن آرابه، أهدافه

أَلْـبَـسْـتَـنـي حُـلَـلَ الـقَـريـضِ وَوَشْـيَـهِ   مـتـفـضِّـلاً فَـرَفَـلْـتُ فـي أثـوابِـهِ

كسوتني من شعرك ثوباً جميلاً فرفلت فيه، أي تبخترت

١٨ المترفع عن المزاحمة

يرثي أباه:

أَبـي حَـكَـمَـتْ فيـهِ الليـالـي، ولـم تزلْ   رماحُ الـمـنـايـا قـادراتٍ على الطَّعْنِ

أمات الزمن أبي، ورماح الزمن دوماً قادرة على الطعن

فيـا لـيـتَ شِـعـري هل يَـخِـفُّ وَقارُهُ   إذا صارَ أُحْدٌ في القِيامَةِ كَالعِهْنِ؟

هل يخف وقار أبي إذا صار جبل أُحُد يوم القيامة كالعهن، كالصوف المصبوغ؟

وهـل يَـرِدُ الـحَـوضَ الـرَّوِيَّ مُـبـادِراً   مع الناسِ أم يَأْبَى الزِّحَامَ فَيَسْتَأْني؟

وهل يأتي في يوم الحشر إلى حوض الرسول الذي يروي عطاش المؤمنين مبادراً، مسرعاً، ضمن زحام الناس، أم يترفع عن المزاحمة وينتظر؟

فَلَيْتَكَ في جَفْـني مُـوارَىً، نَـزَاهَـةً   بِتلكَ السَّجايا عن حَشايَ وعن ضِبْني

ليتك يا أبي مدفون في عيني.. وأنا أنزهك، بسجاياك وصفاتك الجليلة، عن القول: ليتك مدفون في أحشائي أو في ضبني، خاصرتي

فيـا قَـبْـرُ، وَاهٍ مِـن تُـرابِـكَ لَـيِّـنـاً عـلـيهِ، وآهٍ من جَـنادِلِـكَ الـخُـشْـنِ

أيها القبر واهٍ، أتلهف، من ترابك اللين الذي يمس جسمه، وآهٍ، أتألم، من جنادلك، صخورك، الخشنة

١٩ خفِّفِ الوَطْء

يرثي فقيهاً حنفياً يكنى بأبي حمزة:

غـيرُ مُـجْـدٍ فـي مِـلَّـتـي واعـتِـقـادي نَـوْحُ بَـاكٍ ولا تَـرَنُّـمُ شَـادِ

ليس مجدياً، فيما أعتقد وأومن، نوح الباكي ولا ترنم الشادي المغني.. فهي حياة فانية لا تستحق الحزن ولا الفرح

وَشـبـيـهٌ صـوتُ الـنَّـعِـيِّ إذا قِـيـ ـسَ بِصـوتِ الـبَـشـيـرِ فـي كـلِّ نـادِ

صوت النعي، الناعي المخبر بالوفاة، مثل صوت المبشر بميلاد طفل في كل مجلس

أَبَـكَـتْ تِـلْـكُـمُ الـحَـمـامَـةُ أم غَـنَّـ ـتْ عـلـى فـرعِ غُـصـنِـهـا الـمَـيَّـادِ؟

فهل ترون أن الحمامة بصوتها الغريب تبكي أم هي تغني على غصنها المياد، المتأرجح؟ لا فرق.. النوح مثل الغناء

صاحِ هـذي قـبـورُنـا تَـمـلأُ الـرُّحْـ ـبَ فـأيـنَ الـقـبـورُ من عـهـدِ عَـادِ؟

يا صاحبي ها هي قبورنا تملأ الرُّحب، الساحات، فأين القبور القديمة من عهد قوم عاد؟

خَـفِّـفِ الـوَطْءَ مـا أظُـنُّ أَديـمَ الـ أرضِ إلّا مـن هـذهِ الأَجـسـادِ

خفف الدَّوْس وأنت تمشي، فأديم الأرض، وجهها، ما هو إلا من أجساد الميتين في العصور القديمة

وقَـبـيـحٌ بِـنـا، وإن قَـدُمَ الـعـهـ ـدُ، هَـوانُ الآبـاءِ والأجـدادِ

وقبيح بنا أن نهين آباءنا وأجدادنا حتى وإن قدم العهد بهم

سِرْ إن اسْـطَـعْـتَ فـي الـهـواءِ رُوَيْـداً لا اخـتـيـالاً عـلـى رُفَـاتِ الـعِـبـادِ

رُبَّ لَـحـدٍ قـد صـار لَـحـداً مِـراراً ضـاحِـكٍ مـن تَـزاحُـمِ الأَضْـدادِ

رب قبر تهدم واختفى ثم حفر مرة أخرى وأخرى فدفن فيه آخرون، وهو يضحك من تزاحم أضداد وأشتات الناس عليه

ودَفـيـنٍ عـلـى بـقـايـا دَفـيـنٍ فـي طـويـلِ الأزمـانِ والآبـادِ

فـاسـألِ الـفـرقَـدَيْـنِ عَـمَّـنْ أَحَـسَّـا مـن قَـبـيـلٍ وآنَـسـا مِـن بِـلادِ

اسأل هذين النجمين، الفرقدين، عمن رأيا من قبيل، قبائل، وما آنسا، عرفا، من بلاد

كـم أقـامـا عـلـى زوالِ نَـهـارٍ   وأنـارا لِـمُـدْلِـجٍ مِـن سَـوادِ

كم مكثا يريان النهار يزول وينيران الطريق لمدلج، لسائر ليلاً

تَـعَـبٌ كـلُّـهـا الـحـيـاةُ فـمـا أَعْـ   ـجَـبُ إلّا مِـن راغِـبٍ فـي ازديـادِ

إن حزناً فـي ساعةِ الـموتِ أضعَا   فُ سُـرورٍ فـي ساعـةِ الـمـيـلادِ

خُـلِـقَ الـنـاسُ لـلـبـقـاءِ، فَـضَـلَّـتْ   أُمَّـةٌ يَـحـسَـبُـونَـهُـمْ لـلـنَّـفَـادِ

الناس مخلوقون للبقاء بعد الموت في الآخرة، وضل من يحسبهم خلقوا للنفاد، الفناء

إنَّـمـا يُـنـقَـلـونَ مِـن دَارِ أعـمـا   لٍ إلـى دَارِ شِـقـوةٍ أو رَشـادِ

ينقلون من دار أعمال، الدنيا، إلى دار شقوة، النار، أو دار رشاد، الجنة

ضَجْعَةُ الـموتِ رقْدَةٌ يستَريحُ الـ   ـجسمُ فيها، والعيشُ مثلُ السُّهادِ

الانسداح في القبر نوم يستريح به الجسم، وأما الحياة فهي بمثابة السهاد، النعاس قبل النوم

أَبـنـاتِ الـهَـديـلِ أَسْعِـدْنَ أَوْ عِـدْ   نَ قـلـيـلَ الـعَـزاءِ بـالإِسْـعـادِ

يا بنات الهديل، أيتها الحمائم، أسعدن، ساعدن، أو على الأقل قَدِّمْنَ وعداً بالمساعدة للقلِق القليل العزاء

إيـهِ، لـلَّـهِ دَرُّكُـنَّ، فـأنـتُـنَّ الـ   ـلـواتـي يُـحْـسِـنَّ حِـفْـظَ الـوِدادِ

مـا نَـسيتُنَّ هَـالِـكـاً فـي الأوانِ الـ   ـخَـالِ أَوْدَى مِـن قـبـلِ هُـلْـكِ إيـادِ

ودليل حفظ الحمائم للود أنهن لم ينسين الابن المسمى «الهديل» الذي مات في الزمان الخالي العتيق قبل موت إياد، جد قبيلة إياد. تقول الأسطورة إن الحمامة فقدت ولدها «الهديل» فظلت تبكيه، لذا سمي صوت الحمام هديلاً

بَـيْـدَ أَنّـي لا أَرْتَـضـي مـا فَـعَـلْـتُـنَّـ   ـوأَطْـوَاقُـكُـنَّ فـي الأجـيـادِ

غير أني لا أرضى بكاءكن وأنتن تتحلين في أعناقكن بالأطواق. وأطواق الحمائم ريش لها حول العنق، جعله شاعرنا طوق زينة

فَـتَـسَـلَّـبْـنَ واسْـتَـعِـرْنَ جـمـيـعـاً   مِـن قَـمـيـصِ الـدُّجَـى ثِـيـابَ حِـدادِ

فتسلبن، اخلعن ثيابكن، وخذن من قميص الليل ثوب حداد أسود

ثـم غَـرِّدْنَ فـي الـمـآتـمِ وانـدُبْـ   ـنَ بِـشَـجْـوٍ مـع الـغَـوانـي الـخِـرادِ

ثم بعد ذلك غردن واندبن في المآتم مع النساء الخراد، الخجولات

قَصَدَ الدهرُ مِن أبي حَمْزَةَ الأوَّ   ابِ مَـوْلَـى حِجاً وخِدْنَ اقْتِصَادِ

قصد الدهر بمصائبه أبا حمزة الأواب، الراجع بشؤونه إلى الله، وهو مولى حجاً، صاحب عقل، وخدن اقتصاد، حليف اتزان غير متشدد

وفَقيهاً أفكارُهُ شِدْنَ للنُّعْـ ـمانِ مَا لم يَشِدْهُ شعرُ زِيادِ

وهو فقيه شيدت أفكاره للنعمان (أبي حنيفة النعمان) ما لم يشيده شعر زياد، النابغة الذبياني الذي بنى للملك النعمان قصوراً من قصائد المدح

فالعِراقِيُّ بعدَه للحِجازِيِّ ـ قَليلُ الخِلافِ سَهْلُ القِيادِ

فبعد الفقيه الفقيد أصبح العراقي، من يتبع أبا جنيفة فقيه العراق، قليل الخلاف للحجازي، من يتبع الشافعي القرشي، وأصبح سهل القياد، مطواعاً، لأنه فقد بموت فقيهنا الحنفي سنداً كبيراً

وخَطِيباً لو قامَ بينَ وُحُوشٍ عَلَّمَ الضَّارِياتِ بِرَّ النِّقَادِ

أخذ الموت خطيباً مفوهاً لو خطب بين الوحوش الضارية لعلمها كيف تكون رفيقة وبارة بالنقاد، بصغار الغنم

وَدِّعَا أيُّها الحَفِيَّانِ ذاكَ الشَّـ ـخْصَ، إن الوَداعَ أَيْسَرُ زَادِ

أيها الصاحبان الحفيان، المهتمان بدفن الرجل، ودعاه فلا كلفة في الوداع

واغسِلاهُ بالدمعِ، إن كانَ طُهْراً، وادفِناهُ بينَ الحَشا والفؤادِ

واغسلاه بالدمع إن كان دمعكما طاهراً، وادفناه بين البطن والقلب إكراماً له عن الدفن في التراب (قال بعضهم إن دمع العينين ليس طاهراً لاختلاطه بدم)

واحْبُواهُ الأكفانَ مِن وَرَقِ المُصْـ ـحَفِ كِبْراً عن أَنْفَسِ الأَبْرادِ

وامنحاه كفناً من ورق المصحف تنزيهاً له حتى عن أثمن الأثواب

واتْلُوا النَّعْشَ بِالقراءةِ والتَّسْـ ـبيحِ لا بالنَّحيبِ والتَّعْدادِ

اتلوا: اتبعا، التعداد: ضرب من النواح فيه تعداد لمحاسن الميت

طالما أخرجَ الحزينُ جَوى الحُزْ نِ إلى غيرِ لائِقٍ بالسَّدادِ

كثيراً ما يخرج الشخص الحزين ألم الحزن بشكل غير لائق بالسداد، الصواب

مثلَما فَاتَتِ الصلاةُ سُليما نَ فَأنْحَى على رقابِ الجِيادِ

هذا مثلما فاتت صلاة العصر النبي سليمان فغضب وصار يضرب رقاب الخيل لأن تأمله محاسنها شغله عن الصلاة

وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ له الإِنْسُ والجِنُّ ـ بِما صَحَّ مِن شَهادةِ صَادِ

وسليمان هو من سخر الله له الإنس والجن كما ورد في سورة ص من القرآن

خافَ غَدْرَ الأنامِ فاستَوْدَعَ الريـ ـحِ سَلِيلاً تَغْذُوهُ دَرَّ العِهَادِ

خاف سليمان على سليله، ولده، غدر الناس فجعله ـ وكان ولده الوحيد ـ وديعة عند الريح تغذيه من در العهاد، ماء المطر لا غير

وتَـوَخَّـى لـه الـنـجـاةَ وقـد أيـ ـقـنَ أنَّ الـحِـمـامَ بِـالـمِـرْصـادِ

أراد له النجاة موقناً أن الموت يترصده

فَـرَمَـتْـهُ بـه عـلـى جَـانِـبِ الـكُـر سِـيّ أمُّ الـلُّـهَـيْـم أُخْـتُ الـنَّـآدِ

فرمت أم اللهيم، المنية الموت، النآد، الداهية، سليمان بولده على كرسي العرش ميتاً. تعليق أ. عبد الرحيم: [أكره أن أتقحَّم عليك ذوقك في الاختيار.. ولكن اسمح لي، هذه الأبيات الخمسة لا شعر فيها، ولا علاقة لها حسنةً بسياق الرثاء العالي.. وفوق هذه وتلك هي مبنية على رواية منكَرةٍ! فما وجه استحسانكها؟!]
الرد: يقول المثل الإنجليزي «لا محاسبة على المزاج». وأنا أجد لذة في هذه الروايات «المنكرة» لأنني أراها فولكلوراً

كيف أصبحتَ في مَحلِّكَ بَعدِي يـا جديراً مـنـي بِحُسْنِ افْتِقـادِ؟

كيف أصبحت أيها الفقيه بعد تركي إياك؟ وما كان أجدرك بأن أفتقدك وأسأل عنك

قـد أَقَـرَّ الـطـبـيـبُ عـنـكَ بِـعَـجْـزٍ وتــقــضَّــى تَــرَدُّدُ الــعُـــوَّادِ

أقر الطبيب بعجزه عن مداواتك، وخف قدوم الزائرين

هَـجَـدَ الـساهِـرونَ حَـولَـكَ لـلـتَّـمْـ ـريـضِ، وَيْـحٌ لِأعْـيُـنِ الـهُـجَّـادِ

والساهرون على رعايتك في آخر أيام مرضك قد هجدوا، ناموا، فويح أعين هؤلاء النُّوَّام

كـنـتَ خِـلَّ الـصِّـبـا فَـلَـمَّـا أَرادَ الـ ـبـيـنَ وَافَـقْـتَ رأيَـه فـي الـمُـرادِ

كنت صديقاً لوقت الشباب فلما أراد صديقك «الشباب» البين، الرحيل عنك، وافقته في مراده ورحلت مع رحيل الشباب. مات الفقيد شاباً

ورأيـتَ الـوفـاءَ لـلـصـاحـبِ الأوَّ ـ لِ مِـنْ شـيـمَـةِ الـكـريـمِ الـجَـوادِ

ورأيت الوفاء للصديق الأول من أخلاق الكريم، وأنت وفيت للشباب وعندما ذهب ذهبت

وخَلَعْتَ الشَّبابَ غَضّاً، فيَا ليْـ ـتَـكَ أبْـلَـيْـتَـهُ مـع الأنــدادِ

خلعت الشباب وأنت غض طري العود، فليتك أبليت شبابك وعشت طويلاً مع أندادك في العمر

فـاذهَـبـا خـيرَ ذَاهِـبَـيْـنِ حَـقـيـقَـيْـ ـنِ بِـسُـقْـيَـا رَوائِـحٍ وغَــوادِ

فاذهب أنت والشباب يا خير ذاهبين حقيقين، جديرين، بسقيا السحب الروائح الغوادي، الآتية مساء وصباحاً

ومَــراثٍ لــو أَنَّــهُــنَّ دمــوعٌ لَـمَـحَـوْنَ الـسُّـطـورَ فـي الإنْـشـادِ

مراثينا لك رقيقة حزينة فلو كن من دموع لمحون السطور ونحن ننشدها

زُحَلٌ أشرفُ الكواكبِ داراً   مِنْ لِقاءِ الرَّدَى على ميعادِ

كوكب زحل هو أشرف الكواكب، أعلاها، داراً، مداراً، وهو على موعد مع الموت أيضاً

كلُّ بيتٍ لِلهَدْمِ: ما تَبْتَني الوَرْ   قاءُ والسيدُ الرفيعُ العِمادِ

كل بيت مصيره الهدم: بيت الورقاء، الحمامة، وبيت السيد الرفيع العماد، العالي عمود الخيمة

بانَ أمرُ الإلهِ واختلَفَ النا   سُ فَداعٍ إلى ضَلالٍ وهَادِ

أمر الله واضح، والناس مختلفون بين من يدعو للضلال وبين من يهدي الناس

والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ   حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

احتارت البرية، الناس، في البعث فكيف تعاد الحياة إلى العظام التي صارت بحكم الجماد. هذا التفسير يسير مع الأبيات السابقة التي تتحدث عن جسد مات. والذي يريد أن يرفع الشبهة عن أبي العلاء يفسر بأن الجماد هو الطين ومنه استحدث الحيوان، أي الإنسان والحيوان جميعاً

واللبيبُ اللبيبُ مِنْ ليس يَغْتَرُّ ـ   بِكَوْنٍ مَصيرُهُ لِفَسَادِ

اللبيب اللبيب: اللبيب الحقيقي

٢٠ التراب المسلط علينا

يرثي ابن عمه جعفراً:

أحسَنُ بِالواجِدِ مِن وَجْدِهِ   صبْرٌ يُعيدُ النارَ في زَنْدِهِ

أحسن من وجد الواجد، حزن الحزين، صبر يعيد نار الحزن إلى زندها، والزند هو أداة إشعال النار.. الصبر ليس تفريغاً للحزن بل يخزنه في جوف المرء

ومَنْ أَبى في الرُّزْءِ إلَّا الأَسى   كانَ بُكاهُ مُنْتَهَى جَهْدِهِ

ومن أصر في الرزء، المصيبة، على الأسى، الحزن، كان أقصى ما يفعله البكاء

فَلْيَذْرِفِ الجَفْنُ على جعفرٍ   إذ كانَ لم يُفْتَحْ على نِدِّهِ

فليذرف الجفن إذن دمعه على جعفر، فالجفن لم يُفتح على مثيل جعفر، أي أن العين لم تر له نظيراً

تَجربةُ الدنيا وأفعالُها   حَثَّتْ أخا الزهدِ على زُهْدِهِ

إنَّ زَمانِي بِرزَاياهُ لِي   صَيَّرنِي أَمْرَحُ في قَيْدِهِ

لكثرة مصائبه علي جعلني الزمن أتعود كما يتعود الحصان على القيد، ويمرح وهو مقيد

كـأنَّـنـا فـي كَـفِّـهِ مَـالُـهُ   يُـنـفِـقُ مـا يـخـتـارُ مِـنْ نَـقْـدِهِ

كأننا في كف الزمن مال يملكه وينفق منه كما يشاء

لـو عـرفَ الإنـسـانُ مِـقـدارَه   لـم يـفـخـرِ الـمَـولَى عـلى عبدِهِ

أمـسِ الـذي مَـرَّ عـلـى قُـرْبِـهِ   يَـعْـجِـزُ أهـلُ الأرضِ عـن رَدِّهِ

أَضْـحَـى الـذي أُجِّـلَ فـي سِـنِّـهِ   مـثـلَ الـذي عُـوجِـلَ فـي مَـهـدِهِ

الميت كبيراً في السن كالميت في مهده.. هو موت والسلام

ولا يُـبـالـي الـمَـيْـتُ فـي قـبـرِهِ   بِـذَمِّـهِ شُـيِّـعَ أم حَـمْـدِهِ

وحَـالَـةُ الـبَـاكـي لِآبـائِـهِ   كَـحَـالَـةِ الـبَـاكـي عـلـى وُلْـدِهِ

مـا رَغـبَـةُ الـحَـيِّ بِـأبـنـائِـهِ   عـمَّـا جَـنَـى الـمَـوتُ عـلـى جَـدِّهِ؟

لماذا يرغب الإنسان بأبنائه عن الموت، ويحميهم منه، والموت قد جنى جنايته على جده؟

ومَـجْـدُهُ أفـعـالُـهُ لا الـذي   مِـنْ قَـبْـلِـهِ كـان ولا بَـعـدِهِ

مجد الإنسان أفعاله.. لا أجداده من قبله، ولا أولاده بعدَه

لـولا سَـجـايـاهُ وأخـلاقُـهُ   لَـكـانَ كـالـمَـعـدومِ فـي وَجْـدِهِ

لولا سجاياه، صفاته، وأخلاقه فإن الإنسان كأنه معدوم في وجده، رغم وجوده في الحياة

تَـشْـتـاقُ أيَّـارَ نُـفـوسُ الـوَرى   وإنَّـمـا الـشـوقُ إلـى وَرْدِهِ

فالعبرة بالسجايا لا بالجسم.. وهذا كمثل شوق الناس إلى أيار، مايو، والواقع أنهم يشتاقون إلى ورده لا إليه من حيث هو شهر من الأشهر

أفـضـلُ مـا فـي الـنـفـسِ يَـغـتـالُـهـا   فـنـسـتَـعـيـذُ الـلَّـهَ مِـنْ جُـنـدِهِ

أفضل ما في نفس الإنسان هو ما يؤديها إلى الهلاك.. فقد تكون شجاعة الشجاع سبباً لمقتله، أو طيبة الطيب سبباً في اغتياله.. الخ

فَـآفَـةُ الـعـاشـقِ مِـنْ طَـرْفِـهِ   وآفـةُ الـصَّـارِمِ مِـنْ حَـدِّهِ

وهذا مثل العاشق الذي تأتيه الآفة من عينه التي يرى بها المعشوقة فيقع في الهوى، وآفة السيف في حده (فهو من بين كل جوانب السيف الجزء الذي يتعرض للانثلام والتفلل والفساد)

كـم صَـائِـنٍ عـن قُـبْـلَـةٍ خَـدَّهُ   سُـلِّـطَـتِ الأرضُ عـلـى خَـدِّهِ

كم من امرأة تصون خدها عن القبلة ثم تموت فتتسلط الأرض على خدها وتبليه

وحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدُهُ   وكانَ يَشكُو الثِّقْلَ مِنْ عِقْدِهِ

وكم من امرأة يحمل جيدها، عنقها، ثقل التراب وهي في قبرها.. وكانت تشكو في حياتها من أن عقدها ثقيل

جاءَكَ هذا الحزنُ مُسْتَجدِياً   أَجْرَكَ في الصَّبْرِ، فَلا تُجْدِهِ

هذا الحزن جاءك كي يستجدي منك الأجر الذي كتبه الله للصابرين (فإن جزعت ولم تصبر ذهب الأجر)، لذا لا تُجْدِه، لا تعطه ما جاء يستجديه

سَلِّمْ إلى اللَّهِ، فكلُّ الذي   ساءَكَ أو سَرَّكَ مِنْ عِنْدِهِ

٢١ التعزية المتأخرة

وكَرِهْتُ مِنْ بعدِ الثَّلاثِ تَجَشُّمي   طُرُقَ العَزاءِ على تَغَيُّرِ سَمْتِها

يعتذر عن تأخره في تقديم العزاء في ميت: كرهت بعد ثلاثة أيام على الوفاة أن أتجشم سلوك طرق العزاء على اختلاف أشكالها

وعَلَيَّ أن أَقْضي صَلاتِيَ بعدَما   فاتَتْ إذا لم أَقْضِها في وقتِها

ومع ذلك لا بد من عزاء، مثلما لا بد من قضاء الصلاة إذا فاتتك

٢٢ رويداً عليها

رُوَيْداً عليها إنَّها مُهَجَاتُ   وفي الدهرِ مَحْياً لِامْرِئٍ ومَماتُ

رويداً أيها الزمن، ترفق بنا فالذي في جوفنا مهجات، قلوب.. وكما أننا نحيا الآن سنموت بعد حين، فلا تستبق الموت بمصائبك

أَرى غَمَراتٍ يَنْجَلِينَ عن الفَتى   ولكنْ تُوافي بعدَها غَمَراتُ

أرى غمرات، أزمات، ينجلين، ينكشفن، ثم تأتي بعدها أزمات جديدة

ولا بُدَّ لِلإنسانِ مِنْ سُكْرِ ساعةٍ   تُهونُ عليهِ غيرَها السَّكَراتُ

ثم تأتي سكرة الموت التي تهون بالنسبة إليها كل السكرات، كل المصائب

أَلا إنَّما الأيامُ أبناءُ واحِدٍ   وهذي اللَّيالي كلُّها أَخَوَاتُ

الأيام متشابهة وكذا الليالي، فيوم الحزن شبيه بيوم السعادة

فلا تَطْلُبَنْ مِنْ عندِ يَومٍ وليلةٍ   خِلافَ الذي مَرَّتْ بهِ السنواتُ

فلا تطلب من الزمن أن يجود بما لم يجد به قط.. وهو الاستقرار والهناء

٢٣ وقد علم الروميُّ

يصف غزوة لعلي بن الحسين المعروف بابن المغربي ضد الروم:

بَنِي الغَدرِ هل أَلْفَيْتُمُ الحربَ مُرَّةً؟ وهل كَفَّ طَعْنٌ مِنكُمُ ونِضَالُ؟

يخاطب الروم: يا أبناء الغدر، هل وجدتم الحرب مُرَّة صعبة؟ ولكن، هل كففتم يوماً عن الطعن، بالرماح، والنضال، أي رمي السهام

فإنْ تَسْلَمُوا مِنْ سَوْرَةِ الحربِ مَرَّةً وتَعْصِمْكُمُ شُمُّ الأُنوفِ طِوالُ..

إن سلمتم من سورة الحرب، هجمتها، إحدى المرات، وعصمتكم، حمتكم، الجبالُ ذات الأنوف، أي القمم، الشم، العالية

ففي كلِّ يومٍ غارةٌ مُشْمَعِلَّةٌ وفي كلِّ عامٍ غَزْوَةٌ ونِزالُ

ففي كل يوم تلاقون غارة مشمعلة، سريعة، وفي كل عام غزوة ومبارزة

وَقَى الخيلَ مِنْ مَاءِ المَخاضَةِ عِفَّةٌ وهُنَّ إلى مَاءِ النُّفُوسِ نِهَالُ

الخيل تعف عن ماء المخاضة، ماء الجدول، فهي نهال، عطاش، إلى ماء النفوس، أي الدم

يَرِدْنَ دِماءَ الرُّومِ وَهْيَ غَرِيضَةٌ ويَتْرُكْنَ وِرْدَ الماءِ وَهْوَ زُلالُ

ترد الخيول دماء الروم وهي طرية، وتترك الماء وهو زلال صاف

تَدَانَتْ بِهِ الأقْرانُ حتَّى تَجاثَأَتْ كأنَّ قِتَالَ الفَيْلَقَيْنِ جِدالُ

تقاربت الأقران حتى تجاثأت، اقترب المتحاربون بعضهم من بعض حتى جثوا على ركبهم، فكأن قتال الفيلقين جدال لا قتال

وقد عَلِمَ الرُّومِيُّ أنَّكَ حَتْفُهُ على أنَّ بعضَ المُوقِنينَ يَخَالُ

أيقن الرومي أنك تأتي له بحتفه؛ ولكن، رغم اليقين فإن بعض من يكونون على يقين يخالون، يخامرهم الشك

فما كَبُرُوا حتى يَكونُوا فَرِيسَةً ولا بَلَغُوا أن يُقْصَدُوا فَيُنَالُوا

الروم ليسوا كبار القدر حتى يكونوا فريسة كافية لك أيها القائد، ولا بلغ قدرهم أن تقصدهم حتى تنال منهم

وإنَّ أبا الأَشْبالِ يَخْشَاهُ مِثْلُهُ ويَأْمَنُ منهُ آرَضٌ ونِمَالُ

فأبو الأشبال، أي الأسد، يخشاه مثيله الأسد، ولكن الآرض، الحشرات المعروفة بالأَرَضَة وهي سوس الخشب، والنمل تأمن منه لأنها أحقر من أن يلتفت إليها.. فهم كذلك.. ولكن شاء سوء حظهم أن يقعوا بيدك. كأن هذه القصيدة من شعر المتنبي، لا بل كأن «سقط الزند» كله الجزء الثاني من ديوان المتنبي

٢٤ المسبار

لا يَعرِفونَ سِوى التَّقدُّمِ آسِيَاً   فَجِراحُهُمْ بِالسَّمْهَرِيَّةِ تُسْبَرُ

هؤلاء الشجعان لا يعرفون سوى التقدم، حتى وإن أصابتهم جراح فالتقدم هو الآسي، أي الطبيب، وجراحهم تسبر، أي يقاس عمقها، بالسمهرية، أي بالرماح، وليس بمسبار الجراح المعهود

مِنْ كلِّ مَنْ لولا تَسَعُّرُ بَأْسِهِ   لاخْضَرَّ في يُمنَى يَدَيْهِ الأَسْمَرُ

كل واحد فيهم لولا تسعر بأسه، اشتعال عزيمته، لأصبح الرمح الأسمر بيمينه أخضر لأن يده ندية.. أي مبتلة والندى هو الكرم، فخذ المعنى من هنا كما شئت

٢٥ الشوق إلى الوطن

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المُتَعَالي   بِبغدَادَ وَهْنَاً؛ ما لَهُنَّ وما لي!

طربت الإبل، حزنت وحنت، لما رأت وهناً، ليلاً، ضوء البرق العالي ونحن في بغداد؛ فما لك وما لي أيتها الإبل، اتركيني بحالي

سَمَتْ نَحوَهُ الأَبصارُ حتى كأنَّها   بِنَارَيْهِ مِنْ هَنَّا وثَمَّ صَوَالِ

ارتفعت الأبصار نحو البرق كأنها صوالٍ، تصطلي وتتدفأ، بناريه من هنا وثم، أي من هُنا وهُناك (تفسير البطليوسي: من هنا، أي من بغداد، ومن هناك، أي من الشام)

وكم هَمَّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مَع الصَّبَا   إلى الشامِ، لولا حبْسُهُ بِعِقَالِ

ما أكثر ما هَمَّ نضو، جمل هزيل، أن يطير مع ريح الصبا إلى الشام لولا أنه محبوس بعقال، بقيْد

وهُنَّ مُنيفَاتٌ، إذا جُبْنَ وادياً   تَوَهَّمْتَنا مِنْهُنَّ فوقَ جِبالِ

والإبل منيفات، عاليات، وإذ هي تجوب في الوادي فأنت تتوهم أننا فوق الجبال

تَلَوْنَ زَبُوراً في الحَنينِ مُنَزَّلاً   عَلَيْهِنَّ، فيهِ الصبرُ غيرُ حَلالِ

كأن الإبل، وهي تصدر الأصوات، تتلو زبوراً، ككتاب سليمان، منزلاً عليهن، والصبر في زبور الإبل حرام غير حلال، فهي لا تصبر على البعد عن الوطن

وأنشدنَ من شعرِ المَطايا قصيدةً   وأَوْدَعْنَها في الشَّوقِ كلَّ مَقالِ

وأنشدت الإبل من شعر الدواب ـ جعل للدواب زبوراً وديواناً ـ قصيدة فيها معاني الشوق. تعليق أ. عبد الرحيم: [في مثل هذه الصور البديعة إرهاص بما سيكون في «الغفران» و«الصاهل والشاحج»!]

فيا بَرْقُ ليس الكَرخُ دَاري، وإنَّما   رَمانـي إليـهِ الدهرُ منذُ لَيالِ

أيها البرق، إن الكرخ، وهي محلة ببغداد، ليس وطني، ولكن الزمن رماني هناك

فهل فيكَ مِنْ مَاءِ المعرَّةِ قَطْرَةٌ تُغيثُ بها ظَمآنَ ليس بِسَالِ؟

فهل فيك أيها السحاب البارق قطرة من ماء المعرة تسعف بها عطشان غير سالٍ، غير ناسٍ وطنَه؟

أَإِخْوانَنا بينَ الفراتِ وجِلَّقٍ يَدَ اللَّهِ لا خَبَّرْتُكُمْ بِمُحَالِ

يا إخواني بين الفرات وجلق، أي في بلاد الشام، يد الله، والله، إنني لا أخبركم بشيء مستحيل

أُنَبِّئُكُمْ أنِّي على العَهْدِ سَالِمٌ ووجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤالِ

أنا على العهد سالم الكرامة، لم أبتذل وجهي بسؤال الناس واستجدائهم

وأنِّي تَيَمَّمْتُ العراقَ لِغيرِ مَا تَيَمَّمَهُ غَيْلانُ عند بِلالِ

وقد قصدت العراق قصداً مختلفاً عن قصد غيلان، وهو ذو الرمة، بلالَ بن أبي بُردة.. وذو الرمة قصد بلالاً مستعطياً

فأصبَحْتُ مَحسُوداً بِفَضليَ وَحْدَهُ على بُعدِ أَنصاري وقِلَّةِ مَالي

وحسدت لفضلي فقط، ولم يكن حولي أنصاري، وكنت قليل المال

نَدِمْتُ على أرضِ العَواصِمِ بعدما غَدَوتُ بها في السَّوْمِ غيرَ مُغَالِ

ندمت على فراق أرض العواصم، منطقة حصون بين حماة وحلب، بعد أن أصبحتُ في السوم، الفِصال والمساومة، غير مغال بها.. أي أنني بعتها برأسمالها وتخليت عن الوطن

أرُوحُ فلا أخْشَى المَنايا وأَتَّقي تَدَنُّسَ عِرْضٍ أو ذَميمَ فِعالِ

كنت في بلدي آمناً، ولديَّ وقاية من تدنيس العرض أو ذميم الفعل

إذا ما حِبالٌ مِنْ خَليلٍ تَصَرَّمَتْ عَلِقْتُ لِخِلٌ غيرِهِ بِحِبالِ

وفي بلدي كنت إذا انقطعت علاقتي بصديق وجدت غيره

٢٦ ماء بلادي

أتعلَمُ ذاتُ القُرطِ والشُّنْفِ أنني يُشَنِّفُني بِالزَّأْرِ أَغلَبُ رِئبالُ

هل تعلم الفتاة ذات القرط، الحلق يعلق بشحمة الأذن، والشنف، أي الحلق يعلق بطرف الأذن، أنني يشنف أذني، يُسمعني، الأغلب الرئبال، الأسد، زئيره. أقارب الحبيبة الأشداء يمنعونها

فَيا دارَها بِالحَزْنِ إنَّ مَزارَها قَريبٌ، ولكِنْ دونَ ذلكَ أهوالُ

فيا دارها بالحزن، على الربوة، إن المكان قريب للزيارة ولكن يمنع هذه الزيارة أهوال هي الرقباء

إذا جَنَّ لَيْلي جُنَّ لُبِّي، وزائدٌ خُفوقُ فؤادي كلَّما خَفَقَ الآلُ

إذا جَن ليلي، أظلم، أصاب قلبي الجنون ويزيد خفوق قلبي كلما خفق الآل، السراب.. يتشوق لسراب الصحراء الذي سيلاقيه وهو عائد من بغداد إلى وطنه في المعرة

وماءُ بِلادي كانَ أَنْجَعَ مَشْرَباً ولو أنَّ ماءَ الكَرْخِ صَهباءُ جِريَالُ

ماء بلادي أنجع، أفيَدُ، من الفائدة، لي حتى لو كان ماء دجلة عند الكرخ ببغداد صهباء جريالاً، خمراً. وكنت وددت لو قرأتها «أنقع» أي أروى، ولكن هذه الرواية لم ترد

فيَا وَطَنِي إنْ فَاتَنِي بِكَ سابِقٌ مِنَ الدهرِ، فَلْيَنْعَمْ لِساكِنِكَ البَالُ

يا وطني إن سبقني الزمن وأبعدني عنك، فليهنأ سكانك

وإن أَسْتَطِعْ في الحَشْرِ آتِكَ زَائراً وهَيْهَاتَ. لي يومَ القيامةِ أَشْغالُ

لو استطعت أن آتي بلادي يوم القيامة لزرتها، ولكن.. هيهات، فلي يوم القيامة ما يشغلني

٢٧ أغادركم مضطراً

تعليق أ. عبد الرحيم على العنوان: [بل هو وداعُ منقبضٍ ساخط! كتبتُ عنه: يا له من وداعٍ هائلٍ صعب! لماذا تعمَّد أبو العلاء هذا النمَطَ الصعبَ، الموحِشَ، الملغِزَ، المستبطِنَ.. في وداع بغداد وأهلها؟! ألإثبات فحولةٍ لم يعترف له بها، على نحو ما كان «يتوقع»، البغداديون؟!]

أُوَدِّعُكُمْ يا أهلَ بغدادَ والحَشا على زَفَراتٍ ما يَنِينَ مِنَ اللَّذْعِ

أودعكم وفي جوفي زفرات لا ينين، لا يتوانين ولا يكففن، ويلذعنني

فبئسَ البَديلُ الشَّأمُ مِنكُمْ وأهلُهُ على أنَّهُمْ قومي وبينَهُمُ رَبْعي

بئس الشام وأهله بديلاً منكم رغم أنهم قومي وهناك ربعي، موطني

أَلَا زَوِّدُونِي شَرْبَةً ولو انَّنِي قَدَرْتُ إذن أَفْنَيْتُ دِجْلَةَ بِالجَرْعِ

زودوني بشربة ترويني، ولو استطيع لجرعت وشربت نهر دجلة كله

أظنُّ الليالي، وَهْيَ خُونٌ غَوَادِرٌ، بِرَدِّي إلى بَغدادَ ضَيِّقَةُ الذَّرْعِ

الليالي، الزمن، وهي غادرة يضيق ذرعها بإعادتي إلى بغداد بعد مغادرتها.. إن فارقت بغداد فلن يتيسر لي أن أعود.. وعاش بعد فراق بغداد خمسين سنة، ولم يعد

وكانَ اختِياري أنْ أَموتَ لَدَيْكُمُ حَميداً فمَا أَلْفَيْتُ ذلكَ في الوُسْعِ

كنت أفضل أن أبقى ببغداد حتى الموت وما وجدت ذلك ممكناً

٢٨ كن كثيراً أو قليلاً

قال يجيب ابن فُورَجَّةَ البُروجِرْدِيّ عن قصيدة:

كفَى بِشُحُوبِ أَوْجُهِنا دَليلا على إِزْمَاعِنا عنكَ الرَّحيلا

شحوبنا دليل على نيتنا الرحيل عنك

تَـأَمَّـلْـنـا الـزمـانَ فـمـا وَجَـدْنـا إلـى طـيـبِ الـحـيـاةِ بـه سـبـيـلا
ذَرِ الـدنـيـا إذا لـم تَـحْـظَ مـنـهـا وكُـنْ فـيـهـا كـثـيـراً أو قـلـيـلا

إذا كان حظك قليلاً فاترك الدنيا. كن كبيراً في هذه الدنيا أو صغيراً، ولا تَبق في الوسط

وأصبِحْ واحِدَ الرَّجُلَيْنِ: إمَّا مَليكاً في المَعاشِرِ أو أبيلا

كن أحد اثنين: ملكاً أو أبيلاً، ناسكاً

كَلِفْنا بالعِراقِ ونحنُ شَرْخٌ فلمْ نُلْمِمْ به إلَّا كُهولا

أحببنا العراق ونحن شرخ، صغار، ولم نلمم به، نأته، إلا في زمن الكهولة

وقد كافَأْتُ عن شِعرٍ بِشِعرٍ ولكنْ حازَ مَنْ بدأَ الجَميلا

كافأناك عن شعرك بشعر لا غير، ولكن الذي يحوز الجميل، التفضل، هو البادئ.. وهو أنت

وَرَدْنا ماءَ دِجلَةَ خيرَ ماءٍ وزُرْنا أَشرفَ الشجرِ النخيلا
وزُلْنا بالغَليلِ وما اشْتَفَيْنا وغايةُ كلِّ شيءٍ أن يَزولا

غادرنا العراق بالغليل، بالعطش، ولم نشف ظمأنا، وهذا مصير كل شيء.. الزوال

ولو لمْ أَلْقَ غيرَكَ في اغتِرابي لَكانَ لِقاؤُكَ الحَظَّ الجَزيلا

٢٩ رثاء الأم

وأَمَّتْنِي إلى الأَجْداثِ أُمٌّ يَعِزُّ عَلَيَّ أن سارَتْ أَمامي

سبقتني إلى القبور أمي ويعز عليَّ أن سبقتني

كأنَّ نَواجِذي رُدِيَتْ بِصَخْرٍ ولم يَمْرُرْ بِهِنَّ سِوى كلامي

كأن أسناني رديت، كسرت، بصخر وأنا أقول هذا.. مع أنه لم يمر بهذه الأسنان سوى الكلام

ومَنْ لِيَ أنْ أصوغَ الشُّهْبَ شِعْراً فَأُلْبِسَ قَبرَها سِمطَيْ نِظامِ

من لي، ليتني، أن أصوغ من شهب السماء شعراً أرثيها به، وألبس قبرها سمطي نظام، عقدين

مَضَتْ وقدِ اكْتَهَلْتُ، فَخِلْتُ أنِّي رَضيعٌ ما بَلَغْتُ مَدى الفِطامِ

توفيتْ وقد بلغتُ أنا سن الكهولة، ومع ذلك أشعر أنني رضيع لتعلقي بها

فيَا رَكْبَ المَنونِ أَمَا رَسولٌ يُبَلِّغُ روحَها أَرَجَ السلامِ

أرج: رائحة العطر

٣٠ موت الذخرين

كتب من المعرة بعيد عودته إليها يخاطب القاضي أبا القاسم التَّنوخي ببغداد، وكان القاضي حمل إليه جزءاً من شعر تَنوخ، فتركه أبو العلاء عند عبد السلام البصري:

لـنـا بِـبـغـدادَ مَـنْ نَـهـوى تـحـيَّـتَـهُ   فـإن تَـحَـمَّـلْـتَـهـا عـنـا فَـحُـيِّـيـتـا

تحملتها: حملت التحية

بيـنـي وبيـنَـكَ من قَيْـسٍ وإِخْـوَتِـهـا   فَـوارِسٌ تَـذَرُ الـمِـكْـثـارَ سِـكِّـيـتـا

الآن وأنا في المعرة صار بيني وبينك، وكلانا من تنوخ اليمن، فرسان من قبيلة قيس الشمالية تجعل المهذار الكثير الكلام سَكوتاً هائباً

والـرومُ سـاكِـنَـةُ الأَطْـرافِ جَـاعِـلَـةٌ   سِـهـامَـهـا لِـوُقـودِ الـحَـربِ كِـبْـرِيـتـا

والروم تسكن أطراف البلاد من الشمال، وتجعل من سهامها كبريتاً لوُقود الحرب، أي إيقادها

أَسَـارَنـي عـنـكُـمُ أمـرانِ: وَالِـدَةٌ   لـم أَلْـقَـهـا، وثَـراءٌ عـادَ مَـسْـفُـوتـا

جعلني أسير مغادراً بغداد والدتي التي أردت لقاءها، ولكنها ماتت وأنا في الطريق، وأملاك لي بالمعرة أصبحت مسفوتة، غير ذات بركة

أَحْياهُمَا اللَّهُ عَصْرَ البَيْنِ ثم قَضى   قبلَ الإيابِ إلى الذُّخْرَيْنِ: أنْ مُوتا

في زمن البين، فراق بلدي، كانت أمي ومالي حيين، وقبل إيابي مات هذان الذخران اللذان ادخرتهما

والـموتُ أَحْسَنُ بِالنفسِ التي أَلِفَتْ   عِـزَّ الـقَـنـاعَـةِ مِـنْ أن تَـسـأَلَ الـقُـوتـا

الموت أحسن للنفس القوية بقناعتها من سؤالها الناس القوت

٣١ الإنطاء

قال، وقد عاد إلى المعرة، يخاطب خازن دار العلم ببغداد:

لِمَنْ جيرَةٌ سِيمُوا النَّوَالَ فلـم يُنْطُوا   يُـظَـلِّـلُـهُـمْ مـا ظَـلَّ يُـنْـبِـتُـهُ الـخَـطُّ

لمن، أي لمن أشكو، هؤلاء الجيران الذين سيموا، كُلِّفوا، النوال والوصل فلم ينطوا، أي يعطوا، وأهل الحبيبة يستظلون بما ينبته الخط، أي بالرماح الخطية. وقيل إن «الخط» جزيرة تنبت عصي الرماح/ فأهل الحبيبة أشداء يحملون الرماح ويمنعون ابنتهم. ماذا كان يضيرك لو قلت «يعطوا» بدل «ينطوا»؟ أكان يضطرب حبل قافيتك؟ أرأيتم سماجة أبي العلاء عندما يسمج؟

رَجَـوْتُ لـهُـمْ أن يَـقْـرُبُـوا فـتَـبـاعَـدُوا   وأن لا يَـشُـطُّـوا بِـالـمَـزارِ فـقـد شَـطُّـوا

يشطوا: يبتعدوا

يَـمَـانُـونَ أحـيـانـا شَـآمُـون تـارةً   يُعالُونَ عن غَوْرِ العِراقِ لِيَنْحَطُّوا

قومها دائمو التسيار، إلى اليمن وإلى الشام، في طلب العشب، ويرتفعون عن غور العراق، أرضه المنخفضة، ثم يهبطون إليها

تَـجِـلُّ عـن الـرَّهْـطِ الإِمَـائِـيِّ غَـادَةٌ   لها مِنْ عُقَيْلٍ في مَمالِكِها رَهْطُ

هذه الغادة تترفع عن رهط الإماء، إزار ترتديه الجواري للخدمة، فهي هانم لا خادمة؛ ولها رهط، أي قوم، في موطنها من بني عُقيل

إذا مَـشَـطَـتْـهـا قَـيْـنَـةٌ بـعـدَ فَـيْـنَـةٍ   تَضَوَّعَ مِسْكاً مِنْ ذَوائِبِها الـمُشْطُ

إذا مشطتها قينة، جارية، بعد فينة، بعد حين، فاحت رائحة المسك من ذوائبها، خصلات شعرها.. فحتى بعد مرور زمن على تعطرها يظل بشعرها ريح المسك

وقد ثَمِلَ الحَادي بِها مِنْ نَسيمِها   كأنْ غَـالَـهُ مِنْ كَرْمِ بَـابِلَ إِسْفَنْطُ

يسكر الحادي الذي يسوق الإبل من رائحتها، فكأنه قد غاله، ذهب بعقله، إسفنط، خمر، من كروم بابل

رأَتْ كَـوْثَـرَيْ خَـمْـرٍ ورِسْـلٍ بِـجَـنَّـةٍ   شـآمِـيَّـةٍ مَـا أُكْـلُ سَـاكِـنِـهـا خَـمْـطُ

رأت نهرين كنهر الكوثر في الجنة وفيها خمر ورسل، لبن، وذلك في جنة من جنان الشام لا يأكل سكانها الخمط، ثمر شجر الأراك

يُصَبِّحُـهـا سَـيْـلا حَـلِـيـبٍ وقَـهْـوَةٍ   على أنَّها تُعْطَى الصَّبُوحَ فَما تَعْطُو

يأتيها صباحاً سيلان من حليب وقهوة، خمر، وهم يعطونها الصبوح، شراب الصباح، ولكنها لا تعطو، لا تتناول.. فهي فتاة مدللة ومتخمة من النعمة

خَلِيلَيَّ لا يَخْفَى انْحِسَارِي عنِ الصِّبا   فَـحُـلَّا إِسَـارِي قـد أَضَـرَّ بِـيَ الـرَّبْـطُ

يا صاحبي واضح أن الشباب انحسر عني وذهب، فحلا أسري، فقد أزعجني الربط، وأريد الرحيل عن لهو الشباب

ولِـي حَـاجَـةٌ عـنـد الـعَـراقِ وأهـلِـه   فإن تقضِيَاها فالجزاءُ هُوَ الشَّرْطُ

لي حاجة عند أهل العراق، فإن قضيتماها فجزاؤكما ما تشترطان (والشرط والجزاء من كلام أهل النحو)

سَـلا عُـلَـمـاءَ الـجَـانِـبَـيْـنِ وفِـتْـيَـةً   أَبَـنُّـوهُـمـا حـتـى مَـفـارِقُـهُـمْ شُـمْـطُ:

اِسألا يا صاحبي علماء جانبي دجلة ببغداد واسألا فتية أبنوهما، سكنوهما، حتى أصبحت مفارقهم شمطاً، اختلط سواد شعرها ببياضه

أَعِـنـدَهُـمُ عِـلْـمُ الـسُّـلُـوِّ، لِـسـائـلٍ   بـه الـرَّكْـبَ، لـم يَـعْـرِفْ أَمَاكِنَهُ قَطُّ

إسألاهم هل عندهم علم بالسلو، أي نسيان الأحبة ـ وتفضلا بالجواب لسائل مضى يسأل الركب المسافرين ـ والسائل لم يعرف قط مكان السلو.. هذا مقدار ما فهمت من البيت. تعليق أ. عبد الرحيم [أجمل ما بالبيت قوله «علم السُّلوّ»، وأحب أن يكون مركَّبًا إضافيًا بلا تقدير «باء».. فكأن ثمة علمًا مضنونًا به على غير أهله، وغير أهله هم أصحاب الحنين الذي لا شفاء منه، هو «علم السُّلوّ»، والذي قد يكون أهل بغداد على خُبر به لأنهم أرباب العلوم النوادر!]

ومَـا أَرَبـي إلَّا مُـعَـرَّسُ مَـعْـشَـرٍ   هُمُ الناسُ لا سُوقُ العَروسِ ولا الشَّطُّ

وما أربي، أي مبتغاي بالسؤال، إلا معرس معشر، مكان قوم.. والمكان هو دار العلم ببغداد؛ وليس المكان الذي أقصده «سوق العروس» من أسواق بغداد ولا الشط. يقول اسألا معشر العلماء لا العوام

ومـا سَـارَ بـي إلَّا الـذي غَـرَّ آدَمـاً   وحَوَّاءَ، حتى أَدْرَكَ الشَّرَفَ الهَبْطُ

ما سار بي عن بغداد إلا إبليس الذي غر آدم وحواء حتى أدرك الشرفَ، العلو الذي كانا فيه، الهبط، السقوطُ

أَخَازِنَ دَارِ العِلْـم كـم مِنْ تَنُوفَةٍ   أَتَتْ دُونَنا فيها العَوَازِفُ واللَّغْطُ

يا خازن دار العلم كم من تنوفة، صحراء، فرقت بيننا.. وفيها العوازف، الجن التي يسمع لها صوت هو العزيف، واللَّغَط، الأصوات المختلطة

وعن آلِ حَكَّارٍ جَرى سَمَرُ العُلا   بِأَكْمَلِ مَعْنىً لا انتِقَاصٌ ولا غَمْطُ

وجرى حديث السمر بذكر آل حكار، وهو حديث طيب لا انتقاص فيه ولا غمط، لا هضمَ لقدرهم

فإنْ يُنْسِهِمْ أَمْرَ السفينةِ فضلُهُمْ   فليسَ بِمُنْسِيَّ الفراقُ ولا الشَّحْطُ

إن جعلهم فضلهم ينسون إحسانهم إليَّ بإنقاذي من الذين تعرضوا لي وأنا في السفينة منحدراً نحو بغداد، فلن ينسيني الشحط، أي البُعد، فضلَهم

٣٢ أم ورضيع

دَعـا الـلَّـهُ أُمَّـاً لَيـتَ أَنِّي أَمـامَـهـا   دُعِـيـتُ ولـو أنَّ الـهَـواجِـرَ آصَـالُ

دعا الله أمي لجواره، وليتني دعيت قبلها حتى لو كانت الحياة ستحلو لي وستصبح الهواجر، أوقات القيظ، آصالاً، أوقات نسيم عليل عند الغروب

مَضَتْ وكأنِّي مُرْضَعٌ وقد ارْتَقَتْ   بِيَ السِّنُّ حتى شَكْلُ فَوْدَيَّ أَشْكَالُ

مضت عني أمي وكأنني طفل رضيع مع أن السن ارتقت بي، كبرت، وصار شكل فوديَّ، سالفيَّ، أشكالاً من شعر أبيض وأسود مختلطين

٣٣ ألف كتاب

إذا أَسْكَتَ الـمُحْتَجُّ كلَّ مُنَاظِرٍ فعنـدَ ابْنِ نَصْرٍ نَجدَةٌ بِجَوَابِ

إذا كان المحتج، صاحب الحجة، قوياً وأسكت كل المناظرين فعند القاضي أبي نصر المالكي جواب ينجدنا

ومـا أنـا إلَّا قَـطْـرَةٌ مِـنْ سَـحـابِـه ولـو أنـنـي صَـنَّـفْـتُ ألـفَ كِـتـابِ

٣٤ من الدرعية الأولى

أعَـاذِلَ طَـالَـمـا أَتْـلَـفْـتُ مَـالـي ولـكـنَّ الـحـوادثَ أَتْـلَـفَـتْـنـي

٣٥ من الدرعية الثانية

سرى، حينَ شيطانُ السَّرَاحِينِ رَاقِدٌ، عَـديـمُ قِـرىً لـم يَـكْـتَـحِـلْ بِـرُقَـادِ

سرى ليلاً - بينما شيطان السراحين، الذئب الداهية، راقد - رجل عديم قرى، لم يتناول طعاماً، ولم ينم لشدة جوعه..

فـلـمَّـا تَـعـاشَـرْنـا ثـلاثـاً وأربـعـاً وأيْـقَـنَ مِـن صَـدري بِـحُـسْـنِ وِدَادِ

أضفته الأيام الثلاثة، بل أربعة، وتيقن من ودادي له

رَهَـنْـتُ قَـمـيـصـي عـنـدَه وَهْـوَ فَـضْـلَـةٌ مِـنَ الـمُـزْنِ يُـعْـلَـى مَـاؤُهـا بِـرَمـادِ

عنئذ رهنت عنده قميصي، درعي، وهو فضلة من المزن، بقية من السحاب.. يشبه الدرع بماء الغدير المتموج، ولكن ماء الدرع يُعلَى برماد، وكانوا يتركون الدرع في الرماد حتى لا تصدأ

أَتَأْكُلُ دِرعـي أَنْ حَـسِـبْـتَ قَـتِـيرَهـا، وقـد أَجْـدَبَـتْ قـيـسٌ، عـيـونَ جَـرادِ

أتأكل عليَّ درعي ظاناً قتيرها، مساميرها، عيون جراد، في وقت أصاب قبيلة قيس فيه الجدب، وأقبلت على أكل الجراد

٣٦ درع تخاطب سيفاً

ألـم يـبـلُـغْـكَ فَـتـكـي بِـالـمَـواضـي وسُـخْـرِي بِـالأَسِـنَّـةِ والـزِّجـاجِ

أما علمت فتكي بالمواضي، السيوف، وهزئي بالأسنة والزجاج، أطراف الرماح

وأَنِّـيَ لا يُـغَـيِّـرُ لـي قَـتِـيـراً خِـضَـابٌ كَـالـمُـدامِ بِـلا مِـزَاجِ

وألم تعلم أنني لا يغير قتيري، مساميري، خضاب يشبه المدام قبل مزجها، الخمر بلا مزج.. ويعني الدم.. فمن الدم لا تصدأ الدرع

يَـرُدُّ حَـديـدَكَ الِـهِـنـديَّ سَـرْدي   رُفَـاتـاً كـالـحَـطِـيـمِ مِـنَ الـزُّجَـاجِ

سردي، نسجي، يجعل حديدك أيها السيف رفاتاً، حطاماً، كالزجاج المكسر

٣٧ درع للبيع

قال على لسان رجل ينادي على درع:

مَـن يَـشـتـرِيـهـا وَهْـيَ قَـضَّـاءُ الـذَّيْـلْ   كـأنَّـهـا بَـقِـيَّـةٌ مِـنَ الـسَّـيْـلْ

من يشتري درعي وهي قضاء، خشنة، الذيل متموجة كأنها ماء رقراق من بقية السيل

لـيـس الـذي يـمـلِـكُـهـا بِـزُمَّـيْـلْ   هَـدِيَّـةٌ مِـنْ مَـلِـكٍ إلـى قَـيْـلْ

ليس مالكها ضعيفاً، بل هي هدية ملك إلى قيل، والقيْل الملك من ملوك اليمن

مَـالَ إلـيـهـا قَـلْـبُـهُ كُـلَّ الـمَـيْـلْ   يَـغْـنَـى بِـهـا صَـاحِـبُـهـا عنِ الـقَـيْـلْ

مال قلب القيْل إلى الدرع، فهو يستغني بها عن القيل، شرب الخمر منتصف النهار

٣٨ دفن الدرع

قال على لسان رجل مسن ضعيف عن لبس الدرع:

أراني وضَعْتُ السَّرْدَ عَنِّي، وعَزَّني   جَوادي، ولـم يَنْهَضْ إلى الغزوِ أَمثالي

وضعت عني السرد، الدرع، وعزني جوادي، صعب علي ارتقاء حصاني، ولم يعد أمثالي قادرين على الغزو

وقِيدَ بِيَ العَوْدُ البَطِيءُ، وقيلَ لي: وَراءَكَ، إن الـذئـبَ مِـنـكَ عـلـى بَـالِ

أصبحت أركب العود، الجمل المسن، ويقاد وأنا فوقه، ويقول لي القوم، يسخرون مني: وراءك، احذر، فالذئب قريب منك

وآثَرْتُ أَخْلاقَ الـسَّـرابيـلِ بعـدَمـا   أكـونُ وأَوْفَى أَدْرُعِ الـقـومِ سِربَـالي

وصرت أفضل أخلاق السرابيل، الملابس الخلقة البالية، بعد زمن كنت فيه وأوفى الدروع وأسبغها وأطولها سربالي، ملبسي

فلا تُلْبِسِيها أنتِ غَيـرِيَ بَاسِلاً   إذا مُتُّ لـم يَحْفِلْ رَدَايَ وإِبْسَالي

يا امرأة لا تلبسي درعي رجلاً باسلاً شجاعاً لم يحفل برداي وإبسالي، موتي

وخُطِّي لهـا قَبـراً يَضِلُّونَ دُونَه   كَقَبْرٍ لِمـوسى ضَلَّهُ آلُ إِسْرَالِ

واحفري لدرعي قبراً لا يهتدون إليه كقبر موسى الذي ضل عنه آل إسرائيل

٣٩ ضافية صافية

ضَـافِـيَـةٌ فـي الـمَـجَـرّ صَـافِـيَـةٌ   لـيـسـتْ بِـمَـطْـوِيَّـةٍ عـلـى قَـتَـمِ

رب درع ضافية، سابغة تامة، إذ تجر جراً فتكاد تلمس الأرض لطولها، وهي صافية غير صدئة، وليست مطوية على قتم، صدأ

كـأنَّـهـا والـنِّـصَـالُ تـأخُـذُهـا   أَضَـاةُ حَـزْنٍ تُـجَـادُ بِـالـدِّيَـمِ

كأنها ونصال السهام تضربها أضاة حزن، غدير في ربوة، تجاد بالديم، تمطرها السحب

أو مَـنْـهَـلٌ طَـافَـتِ الـحَـمَـامُ بـه   فـالـرِيشُ طَـافٍ عـلـيـهِ لـم يَـصِـمِ

أو كأنها منهل ماء طافت به الحمام، فعليه ريش من ريشها ولكنه لا يصمه، لا يعيبه

٤٠ درع كشعر الوليد وحبيب

مثلُ وَشْيِ الـولـيدِ لانَـتْ، وإن كـا   نَـتْ مِنْ الصُّنْعِ مِثلَ وَشْيِ حَبيبِ

الدرع لينة كأنها وشي الوليد، تطريز البحتري.. هي كشعر البحتري في العذوبة، ولكنها في صنعها ومتانتها كوشي حبيب، كشعر أبي تمام في المتانة وقوة السبك

تِـلْـكَ مَـاذِيَّـةٌ ومـا لِـذُبَـابِ الـصَّـ   ـيْفِ والسَّيْفِ عندَها مِنْ نَصيبِ

إنها ماذية، والماذي هو العسل/وهو أيضاً الحديد الصافي، ولكن ليس لذباب الصيف، حشراته، ولا لذباب السيف، شفرة السيف، نصيب فيها

زَبَـدٌ طَـارَ عـن رُغَـاءِ الـمَـنـايـا   فـاحْتَسَى البِيضَ كارتِغَاءِ الحَليبِ

الدرع المتموجة كالزبد الذي طار عن رغاء المنايا، فالموت يهدر ويصدر رغاء وهو صوت البعير، وهذا الزبد يحتسي البيض، السيوف، كما يرتغي المرء الحليب، أي يشرب رغوته.. لاحظ أن الزبد، الذي هو الرغوة، يحتسي الرغوة. أبو العلاء في قوة تحكمه باللغة مثل الذي يقود سيارته ويكتب رسالة في هاتفه، ويتحدث إلى صاحبه في آن معاً

٤١ الأم الشريرة

قال على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع وترك الزواج:

عـلـيـكَ الـسَّـابِـغَـاتِ فَـإنَّـهُـنَّـهْ   يُـدَافِـعْـنَ الـصَّـوارِمَ والأَسِـنَّـةْ

عليك السابغات، الزم الدروع، فهن يدافعن عنك الصوارم، يصددن السيوف وأسنة الرماح

ومَـنْ شَـهِـدَ الـوَغـى وعـلـيـهِ دِرْعٌ   تَـلَـقَّـاهُ بِـنَـفْـسٍ مُـطْـمَـئِـنَّـةْ

وحَـبَّـاتُ الـقـلـوبِ يَـكُـنَّ حَـبّـاً		إذا دَارَتْ رَحَـاهـا الـمُـرْجَـحِـنَّـةْ

حبات القلوب، السواد في جوفها، تصبح حبوباً تطحنها رحى الحرب المرجحنة، الثقيلة

عـلـى أنَّ الـحَـوادِثَ كـائِـنـاتٌ		ومـا تُـغْـنـي عـن الـقَـدَرِ الأَكِـنَّـةْ

لكن الحوادث، المصائب كائنة، واقعة لا بد، ولا تغني عن القدر الأكنة، الستور

فَـحِـنَّ إلى الـمـكـارمِ والـمَـعـالـي		ولا تُـثْـقِـلْ مَـطـاكَ بِـعِـبْءِ حَـنَّـةْ

ليكن حنينك إلى المكارم والمجد، ولا تثقل مطاك، ظهرك، بعبء حنة، زوجة

فـإنِّـيَ قـد كَـبِـرْتُ، ومـا كَـعَـابٌ		مُـلَائِـمَـةً عَـجُـوزاً مُـقْـسَـئِـنَّـةْ

أنا كبرت وليست الفتاة الكعاب، التي برز ثدياها، مما يلائم عجوزاً مقسئنة، اصلبَّ وقسا منها ما يكون رجراجاً في المرأة فبرزت عظامها

فـإنْ يَـبْـيَـضَّ بِـالـحَـدَثـانِ فَـوْدي		فـقـد أَغْـدُو بِـفَـوْدٍ كَـالـدُّجُـنَّـةْ

لئن ابيضَّ فودي، سالفي، بالحدثان، بحوادث الزمن، فقد كنت ذات سالف أسود كالدجنة، كالليل

إذا مَـا الـسَّـارِحـاتُ نَـظَـرْنَ فـيـهِ		عَـجِـبْـنَ لِـمَـا سَـرَحْـنَ ومَـا دَهَـنَّـهْ

إذا نظرت السارحات، الماشطات، إلى شعري تعجبن من هذا الذي سرحنه ودهنَّه

إذا وَقَـعَـتْ مَـدَارِيـهـا عـلـيـهِ		سُـتِـرْنَ بِـجُـنْـحِ لَـيـلٍ أو دُفِـنَّـهْ

إذا وقعت مداريها، أمشاط الماشطات، على شعري فشعري يستر الأمشاط كأنما تحت جنح ليل، أو كأنما دُفنت الأمشاط

٤٢ العظة

والـشـمـسُ عـنـد شـروقِـهـا		عَـلِـمَ الـلـبـيـبُ زَوالَـهـا

تشرق الشمس فيعلم العاقل أنها ستغرب بعد حين

وَعَـظَـتْـكَ أيـامٌ تَـمُـرُّ ـ		فـهـل فَـهِـمْـتَ مَـقـالَـهـا

لقد وعظتك الأيام وهي تمر، فهل فهمت ما تقوله لك؟

٤٣ النوم

وفَضيلَةُ النومِ الخُروجُ بِأهلِهِ		عن عالَمٍ هُوَ بِالأَذَى مَجْبُولُ

٤٤ الصهيل

أيُّهـا اللّاعِـبُ الـذي فَرَسُ الـشِّطْـ ـرَنْجِ هَـمَّـتْ في كَفِّـهِ بِـالـصَّـهِيـلِ
مَـنْ يُـباريِـكَ والـبَـيَـاذِقُ في كَـفِّـ ـكَ يَـغْـلِـبْـنَ كُـلَّ رُخٍّ وفـيـلِ

البياذق، العساكر في الشطرنج، في كفك تغلب كل رخ، قلعة، وفيل.. والبيذق أضعف من الرخ ومن الفيل

٤٥ أحلام

إلى الـلَّـهِ أَشْـكُـو أنَّـنـي كـلَّ لـيـلـةٍ إذا نِـمْـتُ لـم أَعْـدَمْ خَـواطِرَ أَوْهَـامي
فـإن كـانَ شَـرّاً فَـهْـوَ لا بُـدَّ واقِـعٌ وإن كان خيراً فَهْوَ أَضغَاثُ أَحلامِ

٤٦ بيت على القبر

هَـذا جَـنـاهُ أبـي عـلـيَّ ـ ومـا جَـنَـيْـتُ عـلـى أَحَـدْ

حياتي هي جناية أبي، الذي أنجبني؛ وأنا لم أتزوج ولم أنجب. هذا البيت ليس موجوداً في سقط الزند ولا في اللزوميات، ولكن أكثر من مصدر قال إن أبا العلاء كان يردده دائماً، ولعله فعلاً طلب أن يكتب على قبره

٤٧ في اللاذقية ضجة

أبيات نسبتها المصادر للمعري وليست في سقط الزند ولا في اللزوميات:

فـي الـلاذقـيـةِ ضـجـةٌ مـا بـيـنَ أحـمـدَ والـمـسـيـحْ
هـذا بِـنـاقـوسٍ يـدقُّ ـ وذا بِـمِـئـذنـةٍ يَـصـيـحْ
كـلٌّ يُـعـزِّزُ ديـنَـهُ يـا لـيـتَ شِـعـري مـا الـصـحـيـحْ

فهرس القوافي، سقط الزند

(القافية، فرقم القطعة)

لزوميات أبي العلاء المعري

(ثمة حديث عن اللزوميات في آخر الفصل الذي عقدته لحياة المعري، وموضعه قبل المختار من سقط الزند)

يقصِّر كثير من الدارسين القدماء، وأكثر منهم من المحدثين، في فهم شكوك أبي العلاء في الدين، ويخاف بعضهم طرق الموضوع. فأما المقصرون فأهم سبب لتقصيرهم أنهم مؤمنون، لم يمكثوا في ديار الشك بما يكفي ليعرفوا كيف يكون الشك وكيف يفكر الشاك. أو هم بعبارة فلسفية لم يلحدوا يوماً إلحاد فكر وتبصر فيستكشفوا ذلك العالم المختلف. وأما من يخاف طرق الموضوع فما عنينا به سوى طه حسين الذي خبر تلك الديار عشرات السنين، لكنه ابتلي بلسعة عقرب فتأدب.

تحرج القدامى والمحدثون في الخوض إلى أعلى من كواحلهم في مسألة شك أبي العلاء لسبب آخر غير قلة فهمهم لنفسية الشاك، أو غير المستقعد؛ والمستقعد كلمة أمي، فقد كانت تقول عن كل من يجدف في الدين تجديفاً مستمراً إن فلاناً «شكله لا يستقعد» تعني لا يعتقد.

وثمة أيضاً ذلك المزيج من النفاق ومن الخوف الموروث من القبر وما بعده. فكثير من نقدة أبي العلاء في القديم والحديث مؤمنون نفاقاً وخوفاً في آن معاً.

كل إنسان منا شاك.

ترى أخا التقمص تأتي عليه في الحين بعد الحين لحظة يقول فيها لنفسه: ما هذا؟ أأصبح فيما بعد الموت زرافة، أو صرصوراً أو فيلاً؟ لا أصدق ذلك. وترى المسيحي يسمع الكاروز يكرز بأن الله ذو ثلاثة أقانيم ويقول لنفسه: أما نريح أنفسنا ونفعل فعل جيراننا المسلمين ونقول بأن الله واحد! وترى المسلم

يسمع المفسر يفسر له أن النار ستشوي جلده في الجحيم، ويسمعه وهو يعطي المواصفات الفنية الدقيقة للسلاسل والكلاليب التي ستكون عدة ذلك الوجاق فيقول لنفسه: ألا أراح هذا الداعية نفسه وفسر تفسير الرمز فذلك أليق بالرحمن الرحيم!

كلنا شاك بعض الشك أو كله. لكننا نستر شكنا بستر صفيق من القراءة الجهرية. نرفع الصوت لكي نغطي الفكرة. نخاف. نخاف الآخرة، نخاف النص، نخاف الناس أيضاً. ونخاف أن تفسد عقولنا بالشك وتضطرب، ونخاف أن تختل المنظومة الجميلة من المعتقدات القائمة في عقولنا والصور الأدبية المرافقة لها. ففي ذهن كل منا صرح شامخ من الإيمانات مكسو بحجارة ملساء من الصور الأدبية والقصص ـ واحفظ لي أنني لم أورد كلمة الأساطير كما تعود قوم أن يفعلوا، فلا والله ما هي بالأساطير بل حقائق ذهنية تملي علينا مشاعر وسلوكاً ـ، وهذا الصرح الذي في الذهن هو الثراء الروحي الذي يعمر عقولنا. وقليل جداً من الناس من يتجرأ على تحدي هذا الصرح، فأما المبالغة في تزيينه والعبث بكسوته فحدث ولا حرج. قد أضاف القصاص والمفسرون إلى التراث الأدبي الملتصق بالدين إضافات فولكلورية مهمة.

ولعلك لو نظرت في كتاب (قصص الأنبياء المسمى بالعرائس) ـ عنيت كتاب الثعلبي المليء بالقصص لا كتاب ابن كثير المتحفظ ـ لعرفت كيف أسس أولئك القصاص على قاعدة الدين تراثاً أدبياً فولكلورياً فاحش الثراء.

أرهق القدماء وبنت الشاطئ أنفسهم ـ ونفسها ـ بالاحتجاج لدين أبي العلاء.

وقد أعطاهم أبو العلاء نفسه المفاتيح واعياً. وهاك بيان ذلك: الشاك أو الملحد يحمي ظهره بستار دخان. يقول في الفينة بعد الفينة إنه مؤمن عميق الإيمان، ويخلط الأمر على العامة. وقد تلم به هزة صوفية صادقة، تنتابه في لحظة صفاءٍ تهاويلُ سمعها في طفولته، وتنزل من قلمه دمعة حزن فيتذكر مآله فيكتب بيتاً أو أبياتاً يسمعها السامع فلا يكاد يشك في أن الرجل عابد تقي. على أن هذه عند أبي العلاء قليلة. فأما ستار الدخان فهذا فن لم يجارِ فيه أبا العلاء أحد، حتى جاء الزهاوي في زمننا فصنع ديواناً سماه النزغات وجعله قسمين قسماً في الشك وقسماً في الإيمان.

حسبنا من أبي العلاء أنه قال في لزومياته أبياتاً جميلة وفصيحة. فأما

التماسك فيما بين الأبيات فلا تكاد تجده إلا قليلاً، فالتزام الشاعر قافية مزدوجة جعل لزومياته تهذي. اللزوميات فيها شعر كثير، وفيها خشب كثير. وقد اخترنا لك ما فيها من شعر، وكنا بين الحين والحين نختار شيئاً من الخشب حتى ترى كيف هي اللزوميات. ومن الأحد عشر ألف بيت التي هي اللزوميات اخترنا نحو عشرة بالمئة فقط. ولعل القارئ المستعجل أن يحمد لنا تسويدنا لبعض الأبيات التي فيها معنى راقص، أو التي تحمل فكرة غريبة.

أما حياة أبي العلاء المعري فقد عرضنا لها في مقدمة طويلة صدَّرنا بها ما اخترناه من ديوانه سقط الزند.

قد شغلت نفسي بأبي العلاء بضع سنين، أقرأ له وعنه، وأختار من شعره، ثم أترك الأمر زمناً، ثم أعود فأشكل الكلمات، ثم تمضي سنة أو سنتان، ثم أعود فأشرح الأبيات. وقد يشاء برنامج الحاسوب أن يتغير علي، فها هي الضمة على الميم تنزل تحت الميم، فلا بد من معالجتها بوضع مسافة قبل كل ميم مسبوقة بلام، وما أكثرهن.

أحسد كتاب الجيل الماضي الذين كانوا يكتبون بالقلم لا بالدق على أزرار الحاسوب، كان الكاتب يلقي بأفكاره على الورق، ثم يلقي بالورق إلى ناس آخرين يطبعون ويصححون. وأحسد بعض الأكاديميين الذي يحسنون تشغيل النابهين من طلبتهم فيوفرون على أنفسهم عناء كثير من البحث ومن الشغل اليدوي. على أنني رأيت ما فعله تلامذة عالم جليل بأستاذهم وقد أراد أن يخرج طبعة للزوميات، وما فعله هو بنفسه إذ حالت الثمانون بينه وبين أن يُحكِم الأمر، فصدرت لزومياته مزينة باسماء تلامذته المهملين، وبحشد من الأغلاط، وكانت لطخة في صفحة جهوده الأدبية واللغوية الجليلة.

هذا حين أُسلمك إلى ما اخترته من لزوميات أبي العلاء المعري.

١ نفاق الأدباء

أولو الفضلِ، في أوطانِهِمْ، غرباءُ تَشِذُّ وتَنأى عنهُمُ القُرباءُ

تشذ وتنأى: تبتعد

فَما سَبأُوا الرَّاحَ الكُمَيْتَ لِلَذَّةٍ، ولا كانَ منهُمْ، لِلخِرادِ، سِباءُ

سبأوا الراح: اشتروا الخمر. سباء الخراد: سبي النساء في الحرب

إذا ما خَبَتْ نارُ الشبيبةِ ساءني، ولو نُصَّ لي، بين النجومِ، خِباءُ

نص لي خباء: رفعت لي خيمة

وما بعد مَرِّ الخَمْسَ عَشْرَةَ مِنْ صِباً، ولا بعدَ مَرِّ الأَربعينَ صِباءُ

الصبا: زمن الشباب، الصباء: الشوق والغزل

تَواصَلَ حبلُ النسلِ ما بينَ آدمٍ وبيني، ولم يُوصَلْ بِلامِيَ بَاءُ

اللام: الإنسان، الباء: الجماع. يقول: لم يتصل شخصي بجِماع، فلم أنجب وانقطع عندي نسل أسلافي

تَثَاءَبَ عَمْرٌو، إذ تَثاءَبَ خَالِدٌ، بِعدْوَى، فَما أعْدَتْنِيَ الثُّؤَبَاءُ

التناسل مبعثه الغيرة والعدوى مثلما يتثاءب شخص فيتثاءب صاحبه، غير أنني لم أصب بعدوى التناسل، فلا زوج لي ولا ولد

وزَهَّدني في الخلقِ مَعرفتي بِهِمْ، وعِلمي بِأَنَّ العالَمينَ هَباءُ

قلل رغبتي في الناس معرفتي بهم وعلمي بأنهم بلا قيمة كغبار الجو

وما أَدَبَ الأقوامَ، في كلِّ بَلدةٍ، إلى المَيْنِ، إلَّا مَعْشَرٌ أُدباءُ

أدَبَ الرجل الناس: دعاهم إلى مأدبة، المين: الكذب

٢ أبدأُ بنفسي

بَنِي الدهرِ مَهلاً! إن ذَمَمْتُ فِعَالَكُمْ، فإني بِنفسي، لا مَحالةَ، أبدأُ
متى يَتقضَّى الوقتُ، واللَّهُ قادرٌ، فنَسْكُنَ في هذا الترابِ ونَهْدَأُ؟
تَجاوَرَ هذا الجسمُ والروحُ بُرْهَةً، فما بَرِحَتْ تَأْذَى بِذاكَ وتَصْدأُ

منذ أن جاورت الروح الجسم وهي تعاني الأذى والصدأ بهذا الجوار

٣ دنيا خسيسة

يَأتِي على الخلقِ إصباحٌ وإمساءُ وكلُّنا لِصروفِ الدهرِ نَسَّاءُ

صروف الدهر: مصيباته، نسَّاء: شديد النسيان..

وكم مَضَى هَجَرِيٌّ، أو مُشَاكِلُهُ مِنَ المَقَاوِلِ، سَرُّوا الناسَ أم سَاءُوا

مضى الكثيرون، من هجري، زعيم في «هجر» قرب عمان، أو مشابه له من المقاول، ملوك اليمن، سواء سر بهم الناس أم سيئوا

تَتْوَى الـمُلوكُ، ومِصرٌ، في تَغَيُّرِهِمْ، مِصْرٌ على العهدِ، والأحساءُ أَحساءُ

تتوى، تهلك، الملوك. وتظل مصر هبة النيل على حالها رغم تغيرهم، وتظل الأحساء في جزيرة العرب على حالها

خَبِسْتِ، يا أُمَّنَا الدُّنيا فَأُفٍّ لنا، بَنُو الخَسيسةِ أَوْباشٌ أَخِسَّاءُ!

وقد نطقْتِ بِأصنافِ العِظاتِ لنا، وأنتِ، فيما يظنُّ القومُ، خرساءُ

يَموجُ بَحرُكِ، والأهواءُ غَالِبَةٌ لِراكِبِيهِ، فهل لِلسُّفْنِ إرساءُ؟

إذا تَعطَّفْتِ يوماً، كنتِ قاسيةً، وإن نظرتِ بِعينٍ، فهْيَ شَوْساءُ

شوساء: مائلة تنظر شزراً بغضب

٤ أنا وبيت الشعر

إن مَازَتِ الناسَ أخلاقٌ يُعاشُ بِها، فإنَّهُمْ، عند سُوءِ الطبعِ، أَسْواءُ

مازت: ميزت، أسواء: متساوون

إن كان كلُّ بني حَوَّاءَ يُشبِهُني، فبئسَ ما وَلَدتْ في الخلقِ حَوَّاءُ

بُعدي مِن الناسِ بُرْءٌ مِن سَقامِهِمُ، وقُربُهُمْ، لِلحِجَا والدينِ، أَدْوَاءُ

الحجا: العقل، أدواء: أمراض

كالبيتِ أُفْرِدَ، لا إِيطاءَ يُدرِكُه، ولا سِنَادَ، ولا في اللفظِ إِقْوَاءُ

الانفراد بعيداً عن الناس مثل انفراد بيت من الشعر فلا مقارنة بين قافيته وقافية بيت آخر لذا لا يلحقه الإيطاء ولا السناد ولا الإقواء، وهي من علل التباين بين القوافي

٥ نار الشباب

إن الشَّبيبةَ نارٌ، إن أردتَ بِها أمراً، فبادِرْهُ، إن الدهرَ مُطفِئُها

٦ الداء العياء

قد حُجِبَ النورُ والضياءُ وإنما دينُنا رِياءُ

رياء: نفاق

وهل يَجودُ الحَيا أُناساً، مُنطوِياً عنهُمُ الحَياءُ؟

الحيا: المطر

كـم وَعــظَ الــواعــظــونَ مِــنَّــا، وقــام فــي الأرضِ أَنــبــيــاءُ
فــانــصَــرَفــوا، والــبــلاءُ بــاقٍ، ولــم يَــزَلْ داؤُكَ الــعَــيــاءُ

يخاطب الإنسان: داؤكَ لم يزل هو الداء العياء، المعجز للأطباء، فهو مشكلة في الأخلاق

٧ أتقياءُ وأذكياء

وقد فتَّشتُ عن أصحابِ دينٍ، لَـهُـمْ نُـسْـكٌ، وليس لَـهُـمْ رِياءُ
فألفَيْتُ البَهائِمَ لا عُقولٌ تُقيمُ لها الدليلَ، ولا ضياءُ
وإخوانُ الفَطانَةِ في اختيالٍ، كـأَنَّـهُـمُ لِـقـومٍ أَنـبـيـاءُ

إخوان الفطانة، الأذكياء، ذوو اختيال، متكبرون

فأمَّا هؤلاءِ، فأهلُ مَكرٍ، وأمَّا الأوَّلُونَ، فأغبِياءُ
فإن كانَ التُّقى بَلَهاً وعِيّاً، فأعْيارُ المَذَلَّةِ أتقِياءُ

أعيار: حمير

٨ مُلَّ المُقام

طالَ الثَّواءُ، وقد أَنى لِمَفَاصِلي، أن تستَبِدَّ، بِضمِّها، صحْراؤُها

طال بي الثواء، المقام في الدنيا، فأنى، أي آن، لمفاصلي أن تستبد بضمها، تنفرد بها، صحراؤها، أي البرّ مكان دفن الموتى

مُلَّ المُقامُ، فكَمْ أُعاشِرُ أُمَّةً، أُمِرتْ بِغيرِ صلاحِها أُمراؤُها
ظَلموا الرعيَّةَ، واستَجَازُوا كيدَها، فَعَدَوْا مَصالِحَها وهُمْ أُجراؤُها

استجازوا: أجازوا لأنفسهم، كيدها: خداعها، عدوا: تجاوزوا

ووجدْتُ دُنيانا تُشَابِهُ طامِثاً، لا تَستقيمُ لِناكِحٍ أَقْراؤُها

طامث: حائض، لا تستقيم لناكح أقراؤها: لا يتمكن الرجل من مواتاتها لما فيها من قرء، أي حيض

هُوِيَتْ، ولم تُسْعِفْ، وراحَ غنيُّها تَعِباً، وفازَ، بِراحَةٍ، فُقراؤُها

٩ غلبَ المَيْن

خَلِّني، يا أُخَيَّ، أَسْتَغْفِرُ اللـ ـهَ فلَمْ يبقَ فِيَّ إلَّا الذَّماءُ

غلبَ المَيْنُ، منذُ كانَ، على الخَلـ ـقِ، وماتتْ بِغيظِها الحُكماءُ
منذ كان، أي منذ وجد، المين، أي الكذب، وهو غالب على الناس

١٠ الإساءة المضاعفة

رُويدَكَ قد غُرِرْتَ، وأنتَ حرٌّ، بِصاحبِ حيلةٍ يَعِظُ النساءَ
يحرّمُ فيكُمُ الصَّهباءَ صُبحاً، ويشربُها، على عَمْدٍ، مساءَ
يقولُ لكُمْ، غدوتُ بِلا كِساءٍ، وفي لَذّاتِها رَهَنَ الكِساءَ
إذا فعلَ الفَتى ما عنه يُنهَى، فمِنْ جِهتينِ، لا جِهةٍ، أساءَ

١١ إرجاء التوبة

نَرجُو الحياةَ فإن هَمَّتْ هواجِسُنا بِالخيرِ، قالَ رجاءُ النفْسِ: إِرجَاءَ
رجاء النفس في طول العيش يؤجل التوبة وفعل الخير

وما نُفيقُ من السُّكْرِ المُحيطِ بنا، إلا إذا قيلَ: هذا الموتُ قد جاءَ

١٢ ضدَّ تعليم المرأة

علِّموهُنَّ الغزْلَ والنَّسْجَ والرَّدْ نَ، وخَلُّوا كتابةً وقِراءَةْ
الردن: الغزل

فَصلاةُ الفتاةِ بالحمدِ والإخـ ـلاصِ، تُجزي عن يُونُسٍ وبَراءَةْ
الحمد: سورة الفاتحة، الإخلاص: سورة قل هو الله أحد، ويونس وبراءة سورتان طويلتان

١٣ نصيحتان وأمنيَّة

تَوَحَّدْ، فإن اللَّهَ ربَّكَ واحدٌ ولا تَرْغَبَنْ في عِشْرَةِ الرُّؤَساءِ
يُقِلُّ الأذى والعيبَ في ساحةِ الفتى، وإن هُوَ أكْدى، قِلَّةُ الجُلَساءِ
قلة الجلساء تقلل وقوع الأذى والعيب في المرء.. حتى لو أكدى، أي افتقر

وليتَ وليداً ماتَ ساعةَ وضْعِهِ، ولم يرتَضِعْ من أمِّهِ النُّفَساءِ
ليت الوليد مات قبل أن يرضع

١٤ دياناتكم مكر

قَضى اللَّهُ فينا بالذي هُوَ كائنٌ، فتَمَّ، وضاعتْ حكمةُ الحكماءِ
وهل يَأبِقُ الإنسانُ مِن مُلْكِ ربِّهِ، فيخرُجُ من أرضٍ له وسماءِ؟

يأبق: يهرب

أفيقوا أفيقوا يا غُواةُ! فإنَّما دياناتُكُمْ مَكْرٌ من القُدماءِ
وكيف أُقَضِّي ساعةً بِمَسَرَّةٍ، وأعلمُ أن الموتَ من غُرمائي؟

غرمائي: الذين يلاحقونني في ديون

١٥ السخاء الحق

إذا صاحبتَ في أيامِ بؤسٍ، فلا تنسَ المودةَ في الرخاءِ

إذا صاحبت أحداً وأنت فقير فلا تنس صحبته في أيام رخائك وثرائك

ومن جعلَ السخاءَ لِأقرَبيهِ، فليس بِعارِفٍ طُرُقَ السخاءِ

أن تعطي أمك وأباك مالاً هذا واجب، السخاء الحقيقي أن تعطي الغريب

١٦ لا إمامَ سوى العقل

يَرتَجي الناسُ أن يقومَ إمامٌ ناطِقٌ في الكتيبةِ الخرساءِ

يرجو الناس قيام إمام عادل، المهدي المنتظر، من بين الصامتين الذين لا يقولون بمبدأ بعينه منتظرين قيام الإمام.. وهو ناطق لأنه يدعو الناس إلى اتباعه. هذا هو المعنى الملموح، والكتيبة الخرساء علم على كتيبة معروفة في التاريخ الإسلامي

كَذَبَ الظَّنُّ، لا إمامَ سوى العَقْـ ـلِ، مُشيراً في صبحِه والمساءِ

وظنهم كاذب فالإمام الحقيقي هو العقل الذي به يعرف المرء الخير من الشر

إنما هذه المذاهبُ أسبا بٌ لِجذْبِ الدنيا إلى الرؤساءِ

المذاهب المختلفة مجرد طرق يجتذب بها الرؤساء المال من العامة

فانفَرِدْ ما استطعتَ، فالقائلُ الصَّا دقُ يُضْحي ثِقْلاً على الجُلَساءِ

١٧ ما أطيب الموت.. بشرط!

ثوبيَ مُحتاجٌ إلى غاسِلٍ وليْتَ قلبيِ مثلُه في النَّقاءْ

وقد بَلَوْنا العيشَ أطوَارَه، فما وجَدْنا فيه غيرَ الشقاءْ
ما أطيبَ الموتَ لِشُرَّابِهِ، إن صَحَّ لِلأمواتِ وَشْكُ التِقاءْ

ما أطيب الموت شراباً لمن يشربه.. هذا إن صح البعث والنشور

١٨ تهنئة أقارب الميت

قضَى اللَّهُ أنَّ الآدَمِيَّ معذَّبٌ، إلى أن يقولَ العالِمُونَ به: قَضَى

العالمون به: أقاربه، قضى: مات

فَهَنِّئْ وُلاةَ المَيْتِ يومَ رحيلِه، أَصابُوا تُراثاً، واستراحَ الذي مَضَى

ولاة الميت: أقاربه، أصابوا تراثاً: نالوا إرثاً

١٩ النوم والموت

ونَوْمِيَ موتٌ قريبُ النُّشُورِ ومَوتِيَ نومٌ طويلُ الكَرى

النوم موت لكن النشور منه، أي البعث من النوم أي الاستيقاظ، قريب؛ والموت نوم طويل

فهل قامَ، مِن جَدَثٍ، ميِّتٌ، فيُخبِرَ عن مَسْمَعٍ أو مَرَى؟

جدث: قبر، مسمع أو مرى، أي مرأى: ما سمعه أو ما رآه

ولو هَبَّ صَدَّقَهُ معشرٌ، وقال أُناسٌ طَغى وافْتَرى

لو حدث فعلاً أن هب وقام الميت لصدقه بعضهم ونعته بعضهم بالكذب

نَهارٌ يُضيءُ، وليلٌ يجيءُ ونجمٌ يَغورُ، ونجمٌ يُرَى

الزمن ماض على وتيرته، وثمة نجم يغور، أي يغيب، وآخر يظهر

٢٠ يصير تراباً

حياةٌ عناءٌ، وموتٌ عنا فلَيْتَ بَعيدَ حِمامٍ دَنا

عنا: عناء

ومن ضَمَّهُ جَدَثٌ لم يُبَلْ على ما أفادَ، ولا ما اقتَنى

من ضمة قبر لم يبل، لم يُبالِ ولم يكترث، ما الذي أفاده، أي كسبه، ولا ما اقتنى من أشياء

يَصيرُ تُراباً، سواءٌ عليهِ مَسُّ الحريرِ، وطعنُ القَنا

٢١ برهان

يدُلُّ على فضلِ الـمَماتِ، وكونِهِ إراحَةَ جِسـمٍ، أن مَسْلَكَهُ صَعْبُ
ألَـمْ تَـرَ أن الـمـجدَ تَـلقاكَ دونَـه، شدائدُ، من أمثالِها وَجَبَ الرُّعْبُ؟

٢٢ ما ذنب المعشوق!

نَقِمْتَ على الدنيا، ولا ذنبَ أسلفَتْ إليكَ، فأنتَ الظالـمُ الـمُتَكَذِّبُ
وَهَبْها فتاةً، هل عليها جنايةٌ، بمن هُوَ صَبٌّ، في هواها، معذَّبُ؟

٢٣ الفَخّار أصله فَخّار

لعلَّ أُناساً، في الـمحاريبِ، خَوَّفُوا بآيٍ، كَناسٍ، في الـمَشارِبِ، أَطْرَبُوا
إذا رامَ كَيْداً، بالصلاةِ، مُقيمُها، فتارِكُها عَمْداً، إلى اللَّهِ أقْرَبُ
فلا يُمْسِ فَخّاراً (مِنَ الفَخْرِ) عائِدٌ إلى عُنصُرِ الفَخّارِ للنَّفْعِ يُضْرَبُ

لا يمسِ، أي عليه أن لا يمسي، الإنسان العائد أصله إلى عنصر الفخار وهو التراب الذي يضربونه كي ينتفعوا به ويصنعون جِراراً. . لا يمسِ فخاراً أي مفتخراً. وينبهنا المعري تنبيهاً مدرسياً إلى أن الفخار هنا أصلها من الفخر. شرح البيت طه حسين والأبياري على أن «للنفع يضرب» معناها «هذا حديث يساق ليفيد منه الناس عظة وعبرة» ولم أجد لها وجهاً. وقرأ حسين نصار البيت بوضع «من العجز» بدل «من الفخر» ولا يستقيم بها السياق، ولم يشرح بكلمة. ولم يشرح اللزومية ابن السيد البطليوسي في مختاراته

لَعلَّ إناءً منهُ يُصْنَعُ مَرَّةً، فيأكُلُ فيهِ مَن أرادَ ويشربُ

لعل هذا المفتخر يصبح ـ بعد أن يموت ويصير تراباً ـ إناءً، فيأكل الناس فيه ويشربون

ويُحْمَلُ من أرضٍ لأخرى وما دَرى، فَوَاهاً له، بعد البِلَى، يَتَغَرَّبُ!
وما الأرضُ إلّا مثلَنا الرزقَ تبتَغي، فتَأكُلُ، من هذا الأنامِ وتشربُ
وقد كذَبوا حتى على الشمسِ أنها تُهانُ إذا حانَ الشروقُ وتُضرَبُ

تقول الخرافة إن الشمس إذا غربت تعرضت للضرب وأجبرت على أن تشرق مرة أخرى

٢٤ الخُرّاب

في البَدْوِ خُرّابُ أَذْوادٍ مُسَوَّمَةٍ، وفي الـجَوامِعِ والأسواقِ خُرّابُ

عند البدو يوجد خراب، لصوص، أذواد مسومة، إبل ترعى، وفي الجوامع والأسواق لصوص. . تجار الدين وتجار السلع

فهؤلاءِ تَسَمَّوْا بِالعُدولِ، أوِ التُّـ ـجَّارِ، واسْمُ أُولاكَ القَوْمِ أعْرابُ
فلصوص السوق يسمون العدول، الشاهدون بالعدل، أو التجار، ولصوص البدو يسمون أعراباً

٢٥ عيوبي

عيوبِيَ، إن سألتَ بها، كثيرٌ، وأيُّ الناسِ ليس له عيوبُ؟
وللإنسانِ ظاهِرُ ما يراهُ وليس عليه ما تُخفي الغُيوبُ

٢٦ كلهم كاذبون ظالمون

يَحْسُنُ مَرْأىً لِبَني آدَمٍ وكلُّهُمْ في الذوقِ لا يَعْذُبُ
ما فيهِمُ بَرٌّ، ولا ناسكٌ، إلا إلى نفعٍ له يَجذِبُ
أفضلُ مِن أفضلِهِمْ صخرةٌ، لا تَظلِمُ الناسَ ولا تَكذِبُ

٢٧ المدمنون

لو ضُرِبَ الغاوونَ بالسيفِ، لا بالسَّوْطِ، حَدَّ الخمرِ ما تابُوا

٢٨ أفضل ميتة

يقولونَ: هَلَّا تشهدُ الجُمَعَ، التي رجَوْنا بِها عفواً، من اللّهِ، أو قُرْبا
الجمع: صلاة الجمعة

وهل لِيَ خيرٌ في الحضورِ، وإنما أُزاحِمُ، من أَخيارِهِمْ، إبلاً جُرْبا
حتى الأخيار من الناس يسببون الأذى كالإبل الجربى التي تعدي غيرها

لَعمرِي لقد شاهدتُ عُجْماً كثيرةً، وعُرْباً، فلا عُجماً حمِدْتُ ولا عُرْبا
ولِلموتِ كأسٌ تَكرَهُ النفسُ شُربَها، ولا بد يوماً أن نكونَ لها شَرْبا
شَرْب: شاربون

من السَّعْدِ، في دنياكَ، أن يهلِكَ الفتى بهيجاءَ، يَغشَى أهلُها الطعنَ والضَّرْبا
من الحظ الحسن أن يموت الإنسان في معركة يغشى أهلها، يحضرون، الطعن بالرماح والضرب بالسيوف

فإن قبيحاً، بالمُسَوَّدِ، ضَجْعَةٌ على فَرْشِهِ، يشكو إلى النَّفَرِ الكَرْبا
قبيح بالمسود، السيد في قومه، نومه على فراشه يشكو الكرب والألم للنفر، للقوم

٢٩ الأمر أهون مما تظن

لا تَفْرَحَنَّ بِفألٍ، إن سمعتَ به، ولا تَطَيَّرْ، إذا ما ناعبٌ نَعَبا

لا تفرح بالفأل الحسن، ولا تطير، تتشاءم، من غراب ينعب

فالخطبُ أفظعُ من سَرَّاءَ تأمُلُها، والأمر أيسرُ من أن تضمِرَ الرُّعُبا

سراء: سرور

إذا تفكَّرْتَ فِكراً، لا يمازِجُهُ فَسادُ عقلٍ صحيحٍ، هانَ ما صَعُبا

زيادةُ الجِسْمِ عَنَّتْ جِسْمَ حَامِلِهِ إلى الترابِ، وزادتْ حافِراً تَعَبا

زيادة الجسم، أي جسم الميت السمين، تتعب جسم من يحمله إلى الدفن، وتزيد تعب حافر القبر لأنه سيكون قبراً واسعاً

٣٠ أخافه ولا أخافه

إن يَقْرُبِ الموتُ مِني، فلستُ أكرهُ قُربَهْ

والنَّزْعُ، فوق فِراشٍ، أشقُّ من ألفِ ضربَةْ

النزع: مدة الاحتضار، أصعب من ألف ضربة بسيف

٣١ الله المعطي الوهاب

ولم يَحْبُني أحدٌ نعمَةً، ولكنَّ مَوْلَى المَوالي حَبَا

حبا: منح

نصحتُكَ، فاعملْ له دائباً وإن جاءَ موتٌ، فقلْ: مرحَبا

٣٢ رويدك!

ويدعُو الطبيبَ المرءُ وافَاهُ حَيْنُه، رويدَكَ! إن الأمرَ جَلَّ عن الطبِّ

حينه: موته

٣٣ العادل والمظلوم

أأخشَى عذابَ اللّهِ، واللّهُ عادلٌ، وقدعشتُ عيشَ المُستَضامِ المُعذَّبِ

المستضام: المظلوم

٣٤ عيون التجارب

لو اتَّبَعوني، ويحَهُمْ، لهديْتُهُمْ   إلى الحقِّ، أو نهجٍ لِذاكَ مُقاربِ
فقد عشتُ حتى مَلَّني، ومَلِلتُهُ،   زماني، ونَاجَتني عيونُ التَّجارِبِ

٣٥ الظن والتجربة

وجدتُكَ أعطَيْتَ الشَّجاعةَ حقَّها،   غَداةَ لَقيتَ الموتَ غيرَ هَيوبِ

إذا لقيت الموت غير هيوب، خائف، فأنت فعلاً شجاع

إذا قُرِنَ الظنُّ المُصيبُ من الفتى   بِتجرِبةٍ، جاءا بِعِلْمِ غُيوبِ

٣٦ البرغوث الصامت

إذا سَكَتَ الإنسانُ قَلَّتْ خصومُهُ،   وإن أَضْجَعَتْهُ الحادثاتُ لِجَنْبِهِ

في السكوت السلامة من الخصوم حتى لو اجتمعت الحادثات، المصائب، على المرء ورمت به على جنبه

حَسَا طَامِرٌ، في صمتِهِ من دمِ الفَتى،   فصَغَّرَ ذاكَ الصَّمْتُ مُعظَمَ ذنبِهِ

حسا طامر، شرب برغوث، من دم المرء بصمت، فبسبب ذلك الصمت سلِم البرغوث ولم يكن ذنبه كبيراً

٣٧ أنت الملوم

وكم طَلبتَ أموراً لستَ مُدركَها،   تباركَ اللَّهُ، مَنْ أغراكَ بِالطَّلَبِ؟

طلبت أموراً كثيرة ولم تدركها، فأنت الملوم.. فمن أغراك بطلبها أصلاً

٣٨ الشهد كالصَّاب

داءُ «الحياةِ» قديمٌ لا دواءَ لهُ،   لم يَخْلُ بُقْراطُ مِن سُقمٍ وأَوْصَابِ

الحياة نفسها مرض لا دواء له؛ وبالنسبة للأمراض المعتادة فإن بقراط الطبيب اليوناني كان يعاني من السقم، المرض، والأوصاب، الأوجاع

لا أَستقيلُ زماني عَثْرَةً أبداً،   ما شاءَ فَلْيَأْتِ، إن الشَّهْدَ كالصَّابِ

لا أستقيل زماني عثرة، لا أطلب منه انتشالي من سقطتي، فليأت زماني بما شاء، فالشهد شبيه بالصاب، عصارة شجر المُرّ

٣٩ ضيق الأنابيب

ترجُو انفِساحاً، وكم لِلماءِ من جِهَةٍ، إذا تَخلَّصَ من ضِيقِ الأنابيبِ

ترجو يا إنسان انفساحاً، بحبوحة وراحة من الهموم، والأمر هين.. عليك أن لا ترتبط بعيال ولا بملذات ولا بشيء من شأن الدنيا.. فكذلك الماء له جهات كثيرة لينساح ويجري شرط أن يتخلص من ضيق الأنابيب

٤٠ علام الغيوب!

إذا كَشَّفْتَ أجناسَ البَرايا، وجدتَ العالَمينَ ذَوي عُيوبِ

البرايا: المخلوقات

تُحدِّثُكَ الظنونُ بِما تُلاقي، كأنَّ الظَنَّ علَّامُ الغُيوبِ

مجرد تفكيرك يدلك على عيوب الناس، فكأنه علام الغيوب

٤١ زخارف الأدباء

بني الآدابِ! غَرَّتْكمْ، قديماً، زخارفُ مثلُ زَمزَمَةِ الذُّبابِ

يا محبي الآداب غرتكم الأشعار المزخرفة المنمقة التي هي كزمزمة الذباب، أي طنينه

وما شُعراؤكُمْ إلّا ذِئابٌ تَلَصَّصُ في المَدائحِ والسِّبابِ

شعراؤكم ذئاب تريد النهش، وهي تتلصص لنيل مرادها بقصائد المدح أو بالهجاء.. وكان الشعراء كثيراً ما يهجون، فالعطايا تأتي بالترغيب، وبالترهيب أيضاً

أأُذهِبُ فيكُمُ أيامَ شيْبي، كما أذْهَبْتُ أيامَ الشبابِ؟

معاذَ اللّهِ، قد ودَّعتُ جهلي، فحسبي مِنْ تَميمٍ والرِّبابِ

ودعت أيام الجهل حين كنت أقول شعراً في المدح، وودعت قبائل تميم والرباب.. فلا أمدح أحداً ولا أمدح قبيلته

٤٢ الروح بعد الموت

قد قيلَ: إن الروحَ تأسفُ، بعدما تنأى عن الجسدِ، الذي غَنِيَتْ بِهِ

غنيت به: أقامت فيه

إن كانَ يَصحبُها الحِجَا، فلعلَّها تَدري، وتأبَهُ للزمانِ وعَتْبِهِ

الحجا: العقل

أولا، فكَمْ هَذَيانِ قومٍ غابِرٍ   في الكُتْبِ، ضاع مِدادُهُ في كَتْبِهِ

إن لم يكن العقل مصاحباً للروح فما هو مسطور قديماً في كتب القوم هذيان ومجرد حبر ضاع هدراً بكتْب، أي بكتابة، ذلك الهذيان

٤٣ الله حق

لا ريبَ أن اللَّهَ حَقٌّ، فَلْتَعُدْ   بِاللومِ أنفُسُكُمْ على مُرْتَابِها
أَفَمِلَّةَ الإسلامِ يُنكِرُ مُنْكِرٌ،   وقضاءُ ربِّكَ صاغَها وأتى بِها

٤٤ الخير بلا مقابل

فَلْتَفعلِ النفسُ الجميلَ لأنه   خيرٌ وأحسنُ، لا لِأَجْلِ ثوابِها

٤٥ غريب في أرضي

وما العلماءُ والجهَّالُ إلا   قريبٌ، حين تنظرُ مِن قَريبِ
متى ما يأْتِني أَجلي بِأرضي   فَنادِ على الجنازَةِ لِلغَريبِ

أي أنني غريب حتى في بلدي، فإن مت فليناد المنادي بالناس أن احضروا جنازة الغريب فأجرها مضاعف

٤٦ مثقلات العذاب

إنِّي ونفسِي أبداً في جِذَابْ   أَكْذِبُها وَهْيَ تُحِبُّ الكِذَابْ
إن أَدْخُلِ النارَ، فَلِي خَالِقٌ   يَحمِلُ عنيِ مُثْقَلاتِ العَذابْ

٤٧ تبَّتْ وتب

تَنافَسَ قومٌ على رُتْبَةٍ،   كأنَّ الزمانَ يُديمُ الرُّتَبْ
ودُنياكَ غُرَّ بها جاهلٌ   فَتَبَّتْ على كلِّ حالٍ وتَبّ

تبَّ: هلك

٤٨ تعب بلا فائدة.. لكن، ربما

إذا أَتاني حِمامي مَاحِياً شبحي   وما صنعتُ، فعيْشِي كلُّهُ عَنَتُ

إذا جاء حمامي ومت وامَّحى شبحي، جسمي المهزول، وآثاري فعيشتي كلها كانت عنتاً، تعباً، لا غير

لعلَّ قوماً يجازيهِمْ مليكُهُمُ، إذا لَقُوهُ بِما صَامُوا وما قَنَتُوا

قنتوا: خشعوا

٤٩ علام السهر والتربيت؟

وحَوادِثُ الأيامِ مثلُ نباتِها، تُرعَى، ويأمُرُها المَليكُ فتَنْبُتُ

مصائب الأيام مثل النبات.. الناس يرعونها ويأكلونها ويأمرها الله فتنبت من جديد

وإذا الفتَى كان الترابَ مآلُه، فعلامَ تَسهَرُ أمُّهُ وتُرَبِّتُ؟

٥٠ نُعاتها نُعَّاتها

قد أصبحتْ ونُعَاتُها نُعَّاتُها، وكذلِكَ الدنيا تخيبُ سُعاتُها

أصبحت هذه الدنيا ونُعاتها، المخبرون بزوالها، هم نُعَّاتها، واصفوها.. أي أن مجرد وصفها هو بيان واضح بأنها زائلة.. لذا فسُعاتها، الساعون لتحصيل الثراء فيها، خائبون

كَرَّارَةٌ أحزَانُها، ضَرَّارَةٌ سُكَّانَها، مَرَّارَةٌ سَاعاتُها

كرارة أحزانها، هاجمة، وهي تضر سكانها، وساعاتها تسبب المرارة لأهلها

نَامَتْ دُعاةُ الدَّوْلَتَيْنِ فَضاعَتا، وَهِيَ المَنِيَّةُ لا تخيبُ دُعَاتُها

دعاة الدولتين، الأموية والعباسية، ناموا فضاعت الدولتان.. وأما دعاة الموت فلا يخيبون

لا تَتْبَعَنَّ الغانياتِ مُماشِياً، إن الغَوانِيَ جَمَّةٌ تَبِعاتُها

وَهِيَ النفوسُ إذا تُمَيِّزُ بينَها، فأعزُّها في العيش مُقْتَنِعاتُها

إن كنتَ ممن يميز بين النفوس فستعلم أن أعزَّها النفوس المقتنعة برزقها غير الطامعة في المزيد

من يَغتَبِطْ بِمعيشَةٍ، فأمامَه نُوَبٌ تُطيلُ عناءَهُ فَجَعاتُها

من يفرح بمعيشته فأمامه نوب، أحداث صعبة، ستطيل فجعاتها، مصائبها، تعبه

وإذا رَجعتَ إلى النُّهى فَذَواهِبُ الـ أيَام، غيرُ مُؤَمَّلٍ رَجَعَاتُها

إن رجعت إلى النهى، العقل، علمت أن الأيام الذاهبة لا أمل في رجوعها

فاخفِضْ حديثَكَ للمحَدَّثِ جَاهِداً، فذَميمَةُ الأصواتِ مُرتَفِعَاتُها

وتَرى الصَّلاةَ على الغوِيِّ ثَقيلةً، مثلَ الهِضابِ، تَؤُودُهُ رَكَعاتُها

يستثقل الضال الصلاة كأنها صعود الهضاب، وتؤوده ركعاتها، أي تثقُل عليه

٥١ الوسخ لا يتوسخ

بِنْتُ عن الدنيا، ولا بِنْتَ لي فيها، ولا عِرْسٌ ولا أُخْتُ
بنتُ، أي ابتعدت، عن الدنيا.. وليس لي فيها بنت ولا عِرس، زوجة، ولا أخت

وَقد تحمَّلْتُ من الوِزْرِ ما تَعجِزُ أن تحمِلَهُ البُخْتُ
الوزر، الذنب، البخت، سلالة من الإبل

إن مَدَحُونيِ ساءَني مدحُهُمْ، وخِلْتُ أنِّي في الثَّرى سُخْتُ
سخت: غُصت

جِسميَ أَنجَاسٌ، فما سَرَّنيِ أنيِ بِمِسْكِ القولِ ضُمِّخْتُ
مِنْ وَسَخٍ صَاغَ الفَتى ربُّه، فلا يَقُولَنَّ: تَوَسَّخْتُ!

٥٢ الشهرة الزائفة

أَترغَبُ في الصِّيتِ بين الأنامِ؟ وكم خَملَ النَّابِهُ الصَّيِّتُ
كثيراً ما خمل، صار مغموراً غير مشهور، النابه، المشهور، الصيت، صاحب الصيت والسمعة

وحَسْبُ الفتى أنه مَائِتٌ، وهل يعرفُ الشَّرَفَ المَيِّتُ؟
الشرف: هنا بالمعنى الأصلي وهو الارتفاع والشهرة

٥٣ كانوا فوق الأرض..

كانوا زماناً فوق غبرائِهِمْ، ثم استحالوا، فغَدَوْا تحتَها
كانوا فوق غبرائهم، أرضهم، ثم استحالوا، أي تحولوا، فأصبحوا تحتها

أودَعَهُمْ ربُّهُمُ سِرَّها، من بعدِ ما أطعمَهُمْ سُحْتَها
سرها: باطنها، سحتها: مكسبها الحرام

٥٤ أحكام الأرض والسماء

والرُّوحُ أَرضِيَّةٌ في رأيِ طَائفةٍ، وعند قومٍ تَرقَّى في السماواتِ
تَمضيِ على هيئةِ الشخصِ الذي سكنتْ فيهِ إلى دارِ نُعمَى أو شَقاواتِ
هنا يزعم شاعرنا أن الروح تحمل شكل جسم صاحبها بعد الموت، وبهذا الشكل تذهب إلى الجنة أو النار

وقُدرةُ اللّهِ حقٌّ، ليس يُعجِزُها حشرٌ لِخَلْقٍ، ولا بعثٌ لِأمواتِ
ولا تُطيعَنَّ قوماً، ما ديانتُهُمْ إلّا احتيالٌ على أخْذِ الإتاواتِ

لا تطع الولاة الذين ليس لهم من الدين إلا الاحتيال لجمع الإتاوات، الضرائب

وإنما حَمَّلَ التوراةَ قارِئَها كسْبُ الفوائدِ، لا حبُّ التِّلاواتِ

ما جعل قارئ التوارة يحملها، أي يحفظها، هو كسب المال وليس حبه للتلاوة

إن الشرائعَ ألقَتْ بيننا إحَناً، وأوْدعَتْنا أفانِينَ العَداواتِ

الإحن: الأحقاد

وهل أُبيحَتْ نساءُ القومِ عن عُرُضٍ، للعُرْبِ، إلا بأحكامِ النُّبُوّاتِ؟

ما استباح الغزاة نساء أعدائهم عن عرض، بلا مبالاة، إلا بأحكام دينية. وفي زاوية من تاريخ حلب لابن العديم أن الروم سبوا في إحدى السنين، في زمن أبي العلاء، مئات المسلمات. المعادلة هي: نسبي نساءكم الفقيرات الريفيات ونتخذهن للخدمة والمتعة، وتسبون فقيراتنا الريفيات لنفس الغرضين، وأما نساء الطبقات الثرية والحاكمة عند الطرفين فمصونات.. هذه معادلة العصور الوسطى في كل الدنيا

٥٥ مؤمن بالله

أُثْبِتُ لِي خالقاً حكيماً، ولستُ من معشرٍ نُفاةِ

أقر بالله، ولست ممن ينفون وجوده

خَبَطْتُ في حِنْدِسٍ مقيمٍ، وأعجَزَتْ عِلّتي شُفاتي

خبطت، تخبطت، في حندس مقيم، ليل راسخ، وعجز الأطباء عن شفائي من علتي.. لعله يعني العمى لا الشك

٥٦ يطلبون رأيي.. والفرق بيننا كبير

خُذي رأيِي وحسبُكِ ذاك مِني على ما فِيَّ من عَوَجٍ وأَمْتِ

أمت: اعوجاج

وماذا يبتغِي الجلساءُ عندِي أرادوا مَنطِقِي وأردتُ صمتي

لعله يعني بالجلساء أولئك الثقلاء الذين بعث بهم الدعاة الفاطميون لكي يضموا أبا العلاء إلى صفوف الدعوة

ويوجدُ بيننا أمدٌ قَصِيٌّ، فَأَمُّوا سَمْتَهُمْ وأَمَمْتُ سَمْتي

يوجد بيني وبين الناس بون شاسع، فقد أموا سمتهم، قصدوا طريقهم، وأممت سمتي

٥٧ غاب اليقين

إنـمـا نـحـن فـي ضـلالٍ وتـعـلـيـ ـلِ، فـإن كـنـتَ ذا يَـقـيـنٍ فَـهـاتِـهْ
ولِـحُـبِّ الـصـحـيـحِ آثَـرَتِ الـرُّو مُ انـتِـسـابَ الـفـتـى إلـى أُمَّـهـاتِـهْ

الروم تنسب الولد إلى أمه لحبهم لما هو مؤكد.. فنسبته إلى أبيه أمر راجع لصدق الأم

جَـهِـلُـوا مَـن أبـوه، إلَّا ظُـنـونـاً، وطَـلا الـوَحْـشِ لاحِـقٌ بِـمَـهَـاتِـهْ

طلا الوحش، أي ولد الحيوان، لاحق بمهاته، يتبع أمه

٥٨ أطعمَتْنا ثم أكلتنا

مِن صِفةِ الدنيا التي أجْمعَ النَّـ ـاسُ عـلـيـهـا، أنَّـهـا مـا صَـفَـتْ
والأرضُ غَـذَّتْـنـا بـأَلْـطـافِـهـا، ثـم تـغَـذَّتْـنـا، فـهـل أنْـصَـفَـتْ؟

ألطافها: عطاياها

٥٩ بعد الموت لا أبالي

إذا مُتُّ لم أحفِلْ بما اللّهُ صَانعٌ إلى الأرضِ مِن جَدْبٍ وسَقْيِ غُيوثِ
ومـا تـشـعـرُ الـغَـبْـراءُ مـاذا تُـجِـنُّـهُ: أأعْـظُـمُ ضَـأْنٍ أم عِـظـامُ لُـيـوثِ

لا تشعر الغبراء، الأرض، ماذا تجنه، تخفيه، أكان عظام خراف أم أسود

٦٠ الظاهر عيش وموت

تُـقِـلُّ جـسـومَـنـا أقـدامُ سَـفْـرٍ، مـشـتْ فـي لـيـلِ داجِـيـةٍ بِـوَعْـثِ

تحمل أجسامَنا أقدام سفْر، مسافرين، والأقدام تمشي في ليل داج، مظلم، في وعث، مكان وعر

وظـاهـرُ أمـرِنـا عـيـشٌ ومـوتٌ، ويـدأَبُ نـاسِـكٌ لِـرجـاءِ بـعـثِ

٦١ المحبِس الثالث

أَرانيَ في الـثلاثـةِ من سجونيِ، فـلا تـسـألْ عـن الـخـبـرِ الـنَّـبـيـثِ

أنا في سجون ثلاثة ولا تسأل عن الخبر النبيث، المنبوش المستخرج بصعوبة

لِـفـقـدي نـاظـريِ، ولـزومِ بـيـتـيِ، وكونِ النفسِ في الجسدِ الخبيثِ

السجن الأول العمى، والثاني لزوم البيت، والثالث كون النفس محبوسة في جسد خبيث

٦٢ روِّحْ ذبيحك

رَوِّحْ ذبيحَكَ، لا تُعجِلْهُ ميتَتَهُ، فتَأْخُذِ النَّحْضَ منهُ، وَهْوَ يَخْتَلِجُ

أرح الحيوان الذبيح، ولا تسبق موته فتبدأ بقطع لحمه وهو ما زال يختلج، يتحرك

٦٣ أغنى الأنام

أَغنَى الأنامِ تقيٌّ في ذُرَا جبلٍ، يرضَى القليلَ، ويأْبَى الوَشْيَ والتَّاجا

أغنى الناس رجل تقي سكن ذرا جبل، قمته، وهو يرضى بقليل العيش ويأبى لبس الثياب المزركشة والتاج.. كأنه تخيل بعض الملوك الذين روي عنهم التنسك ونبذ التاج

وأفقرُ الناسِ، في دنياهُمُ، مَلِكٌ، يُضحي، إلى اللَّجِبِ الجَرَّارِ، مُحتاجا

اللجب الجرار: الجيش الكبير ذو الزمازم والأصوات المختلطة

٦٤ البرغوث والملك

تسريحُ كَفِّيَ بُرغوثا، ظفِرتُ بهِ، أبرُّ مِن درهمٍ أُعطيهِ محتاجا

إطلاق برغوث أمسكته أكثر براً من التصدق على فقير، فحتى البرغوث له روح ويحس بألم

لا فرقَ بين الأسَكِّ الجَوْنِ أُطلِقُهُ، وجَوْنِ كِنْدَةَ أمسَى يَعقِدُ التاجا

لا فرق، نوعياً، بين الأسكّ الجون، فاقد الإذنين المسوَدُّ.. وهو البرغوث الذي أطلقته، وبين جون كندة، أحد ملوك قبيلة كندة، المتوج

كلاهما يَتوقَّى؛ والحياةُ له حبيبةٌ، ويرومُ العيشَ مُهْتَاجا

كلاهما يحب الحياة ويروم، يطلب، العيش مهتاجاً، كثير الحرص عليها

٦٥ فضل الموت على الحياة

لو لم تكنْ طُرْقُ هذا الموتِ مُوحِشَةً، مَخْشِيَّةً، لاعتَراها القومُ أَفواجا

لو لم تكن طرق الموت موحشة ومخوفة لاعتراها القوم، جاءُوها، أفواجاً

كأسُ المنيَّةِ أولى بي، وأرْوَحُ لي مِنْ أن أكابِدَ إِثراءً وإحواجا

الموت أفضل لي من مقاساة طلب الثراء ومعاناة الإحواج، الفقر

في كل أرضٍ صُروفٌ غيرُ هازِلَةٍ، يَلعَبْنَ بالناسِ أَفراداً وأزواجا

٦٦ عزة الميت

لَكَوْنُ خِلِّكَ في رَمْسٍ أَعَزُّ له   من أن يكونَ مَليكاً عاقِدَ التَّاجِ

وجود صديقك في رمس، قبر، أكثر عزاً وشرفاً له من أن يكون ملكاً

المَلْكُ يحتاجُ آلافاً لِتَنْصُرَهُ،   والمَيْتُ ليس إلى خَلْقٍ بمحتاجِ

٦٧ الحاجتان

وأشرفُ من تَرى، في الأرضِ قَدْراً،   يعيشُ، الدهرَ، عبدَ فَمٍ وفَرْجِ

أعلى الناس قدراً يعيش طول الدهر عبداً لحاجته إلى الطعام وإلى التنفيس الجنسي

وحُبُّ الأَنْفُسِ الدنيا غُرورٌ،   أقام الناسَ في هَرْجٍ ومَرْجِ

٦٨ الثناء الكاذب

إذا أثْنى عليَّ المرءُ يوماً،   بخيرٍ ليس فِيَّ، فذاكَ هَاجِ

وحَقِّي أنْ أُسَاءَ بِما افْتَراهُ،   فَلُؤْمٌ مِن غَريزَتِيَ ابْتِهاجي

فرحي بالمدح الكاذب لؤم في الطبع

٦٩ قل الروح من أمر ربي

أرى هَذَيَاناً، طالَ مِن كلِّ أمَّةٍ،   يُضَمِّنُهُ إيجازُها وشُروحُها

في كل أمة كلام فارغ كثير تتضمنه كتبهم وشروحهم

وأَوْصَالُ جِسْمٍ للترابِ مآلُها،   ولم يَدْرِ دَارٍ: أينَ تذهبُ رُوحُها؟

٧٠ العلم كالقفل

العِلمُ كالقُفْلِ، إن ألفَيْتَهُ عَسِراً   فَخَلِّهِ ثم عَاوِدْهُ لِيَنْفَتِحا

يقول هذا من مارسته العلوم ومارسها وفتح مغاليقها بالتدريج

٧١ حاملو السبح

دَعَوْا، وما فيهِمُ زَاكٍ، ولا أحدٌ   يخشَى الإلَهَ، فكانُوا أَكْلُباً نُبُحا

يدعون الله وليس فيهم زاك، مبارك، ولا يخشون الله حقاً؛ هم كلاب نابحة

وليس عندَهُمْ دِينٌ ولا نُسُكٌ، فلا تَغُرَّكَ أَيْدٍ تحمِلُ السُّبَحا

٧٢ لا تدفنوني

ومَن تأمَّلَ أقوالي رأى جُمَلاً، يظلُّ فيهِنَّ، سِرُّ الناسِ مَشرُوحا
إن صَحَّ تَعذيبُ رَمْسٍ مِن يَحِلُّ به، فجَنِّبانِيَ مَلْحُوداً ومَضْروحا

إن كان يصح عذاب الرمس، القبر، فجنباني الدفن ملحوداً، مدفوناً بجانب القبر، أو مضروحا، مدفوناً وسطه

الوحْشُ والطيرُ أَوْلَى أن تَنازَعَني فغَادِراني بِظَهْرِ الأرضِ مَطروحا

أولى أن تتنازعني الوحوش والطيور وتأكل لحمي، فغادراني، اتركاني، مطروحاً على وجه الأرض

شُدَّا عليَّ دَرِيساً، كي يُوارِيَني ثم اغْدُوا بِسلامِ اللّهِ أو رُوحا

الدريس: الثوب الدارس البالي

يا نفسِ! يا طائراً في سِجْنِ مالِكِهِ، لَتُصْبِحَنَّ، بِحمْدِ اللّهِ، مَسْرُوحا

يا نفسِ: يا نفسي، مسروحاً: طليقاً

٧٣ الطبيب والإيمان

عَجَبي للطَّبيبِ يُلْحِدُ في الخا لقِ، مِن بعدِ دَرْسِه التَّشريحا
فَطِنُ الحاضِرينَ مَن يفهمُ التَّعـ ـريضَ، حتى يَظُنَّهُ تَصريحا

الذكي ممن حضروا موقفاً معيناً يفهم التعريض، التلميح، حتى لكأنه تصريح

رُبَّ رُوحٍ، كطائرِ القفصِ المَسْـ ـجونِ، تَرجُو بِموتِها التَّسريحا
فَرَّحوكُمْ بِباطِلٍ، شيمَةَ الخَمْـ ـرِ، فمَهلاً! لا أُوثِرُ التَّفْريحا

فرحوكم بقول باطل شيمة الخمر، كطبع الخمر وعادتها في تفريح صاحبها مؤقتاً، وأنا لا أفضل التفريح

كيفَ لِي أن أكونَ، في داريَ الأُخـ ـرى، مُعافىً مِن شِقْوَةٍ، مُستريحا

فكيف لي أن أكون مستريحا من الشقوة والتعب في الدار الأخرى، الآخرة، فلا بد من حساب على الذنوب ومن عقاب. لك في هذه الأبيات أن ترى أبا العلاء مؤمناً، ولك أن تراه هازلاً شاكاً كما رأيته في رسالة الغفران، ولك أن تراه يخلط إيماناً بشكٍّ تقيَّةً، وهذا دأبه

٧٤ الأمور الصحائح

غَدوتَ مريضَ العقلِ والدينِ فالْقَني لِتسمعَ أنباءَ الأمورِ الصَّحائحِ
فلا تأكُلَنْ ما أخرجَ الماءُ ظالماً، ولا تبغِ قُوتاً مِن غَريضِ الذَّبائحِ

لا تأكل السمك ومخلوقات البحر ففي هذا ظلم لها، ولا تأكل من غريض الذبائح، لحومها الطرية

وأبيَضَ أُمَّاتٍ، أرادتْ صَريحَه لأطفالِها، دون الغواني الصَّرائحِ

ولا تشرب الحليب الأبيض الذي أرادت الأمات، أي الأمهات من الحيوان، صريحه، صافيَهُ، لأطفالها لا للفتيات الصرائح، البيض الناعمات

ولا تفجعَنَّ الطيرَ، وَهْيَ غَوافِلٌ، بما وَضَعَتْ، فالظلمُ شرُّ القبائحِ

ولا تسرق بيض الطيور من أعشاشها وهي غافلة عنك

ودَعْ ضَرَبَ النحلِ الذي بَكَرَتْ له، كَواسِبَ مِن أزهارِ نَبْتٍ فَوائحِ

واترك الضرب، العسل، الذي بكرت النحل لجمعه كاسبة إياه من الأزهار ذات الرائحة الطيبة

فما أحرزتْهُ كي يكونَ لِغيرِها، ولا جمعتْه للنَّدى والمنائحِ

الندى: السخاء، المنائح: العطايا

مَسحتُ يدي مِن كلِّ هذا، فليتَني أَبِهْتُ لِشأني قبلَ شَيْبِ المَسائحِ

قد مسحت يدي من هذا الظلم، وليتني أبهت لشأني، انتبهت لأمري، قبل شيب المسائح، الخصلات.. وقد صار المعري نباتياً كاملاً بعد الأربعين. ونسي أن يذكر في قائمة المحرمات أعلاه الجلد، فقد كان المعري يتخذ نعلين من خشب لا من جلد الحيوان

بَنِي زمني، هل تعلمونَ سرائراً، علمْتُ، ولكنِي بها غيرُ بائحِ؟

سرائر: أسرار

سَرَيْتُمْ على غَيٍّ، فهلَّا اهتديْتُمُ بما خبَّرَتْكُمْ صافياتُ القَرائحِ

سريتم، أي مشيتم، على ضلال، فهلا اهتديتم بالقرائح، العقول، الصافية

متى ما كشفتُمْ عن حقائقِ دينِكُمْ تكشَّفْتُمُ عن مُخْزِياتِ الفَضائحِ

الدين: معتقداتكم المختلفة، ما تدينون به من آراء. والدين أيضاً هو.. الدين

ويُعجبني دَأْبُ الذين ترهَّبُوا سوى أكلِهِمْ كَدَّ النفوسِ الشَّحائحِ

يعجبني زهد المترهبين، إلا أنني لست معجباً بأكلهم طعاماً تعب الناس في إنتاجه وشحوا به، ضنوا به لقلة ذات يدهم

وأَطيبُ منهُمْ مَطعَماً، في حياتِه سُعاةُ حَلالٍ، بينَ غادٍ ورائحِ

أطيب طعاماً من المترهبين الناسكين سعاة حلال، المجتهدون في تحصيل رزقهم بالحلال

فما حَبَسَ النَّفْسَ المَسيحُ تَعَبُّداً، ولكن مَشى في الأرضِ مِشْيَةَ سائحِ

فالمسيح لم يحبس نفسه ويتعبد، ولكنه مشى في الأرض سائحاً يبشر ويعظ

ومن شرِّ أخلاقِ الأنيسِ وفعلِهِمْ، خُوارُ النَّواعيِ والْتِدَامُ النَّوائحِ

أسوأ أخلاق الأنيس، الناس، خوار النواعي، صياح المبلغين بالموت الذي يشبه صوت الثيران، والتدام النوائح، لطم النائحات صدورهن ووجوههن

وأَصْفَحُ عن ذنْبِ الصديقِ وغيرِهِ، لِسُكنَايَ بيتَ الحقِّ بين الصَّفائحِ

أغفر ذنب الصديق وغير الصديق لمعرفتي أن آخرِي السكن في بيت الحق، القبر، بين صفائح من الحجارة

وأزهَدُ في مدحِ الفتى عند صدقِه، فكيف قَبولي كاذباتِ المَدائحِ؟

أتعفف عن قبول مدح من فتى يمدحني صادقاً، فكيف أقبل المدح الكاذب؟

٧٥ الحرق والدفن

فاعجَبْ لِتحريقِ أهلِ الهندِ ميِّتَهُمْ، وذاك أَرْوَحُ مِن طولِ التَّباريحِ

عجباً للهنود يحرقون الميت.. هذا أكثر راحة له ولهم من التباريح، أي التعب

والنارُ أطيبُ مِن كافورِ ميِّتِنا غِبَّاً، وأَذهَبُ لِلنَّكراءِ والريحِ

فالنار أطيب غباً، أي نتيجةً وعاقبة، للميت من الكافور، وهو مسحوق أخضر ينثرونه على الميت قبل الدفن، والنار أفضل من الكافور للتخلص من النكراء والريح، المنظر المنكر للجثة المتفسخة ورائحتها

٧٦ أذى النصيحة

سَمْعِي مُوَقَّىً سَالِمٌ، فقُلِ الصوابَ ولا تَصِحْ

والمرءُ في تركيبِه، غضبٌ يَهيجُ إذا نُصِحْ

في طبيعة المرء غضب كامن يتحرك إذا سمع النصيحة.. لذا قل النصيحة بصوت خفيض لا بصياح

٧٧ النسك بعد الأربعين

تنسَّكْتُ بعدَ الأربعينَ ضرورةً، ولم يبقَ إلَّا أن تقومَ الصَّوَارِخُ

تنسكت بعد بلوغي الأربعين مضطراً، ولم يبق إلا تنوح علي النائحات.. عاش المعري بعد هذه الأربعين ستاً وأربعين سنة أخرى

٧٨ كاذبون يتبعون كاذبين

فواعَجَبا نَقْفُو أحاديثَ كاذِبٍ، ونتركُ، من جهلٍ بنا، ما نُشاهِدُ

نقفو: نتبع

لقد ضلَّ هذا الخلقُ، ما كان فيهِمُ، ولا كائنٌ، حتى القيامةِ، زاهِدُ

٧٩ نشقى بس نعيش

يوَدُّ الفتى أن الحياةَ بسيطةٌ، وأنَّ شقاءَ العيشِ ليس يَبيدُ

يود الإنسان لو أن الحياة سهلة، لكنه لا يريد لشقاء العيش أن يبيد حتى لا يبيد العيش نفسه.. فهو يحتمل الشقاء لرغبته في العيش

وقد يخطِئُ الرأيَ امرُؤٌ، وَهْوَ حازمٌ، كما اختلَّ، في وزنِ القَريضِ عَبيدُ

ورغبة الإنسان في العيش رغم الشقاء خطأ. والحازم قد يخطئ مثلما اختل عبيد بن الأبرص في وزن الشعر.. فمعلقة عبيد، وأوردنا قطعة صالحة منها في كتابنا «أول الشعر»، مختلة الوزن جداً

٨٠ الدين وراثة

عاشُوا، كما عاشَ آباءٌ لهُمْ سَلَفُوا، وأُوْرِثُوا الدينَ تقليداً، كما وَجَدُوا

فما يُراعُونَ ما قالوا، وما سمعوا، ولا يُبالونَ، مِن غَيٍّ، لِمَنْ سَجَدُوا

لا يراعون: لا ينتبهون ولا يتدبرون

٨١ الذخيرة

صَيِّرْ عتادَكَ تقوى اللَّهِ تَذْخَرُها، فما يُنَجِّيكَ منه السَّابِحُ العَتِدُ

تذخرها: تدَّخرها، السابح العتد: الحصان القوي

كم زالَ جيلٌ، وهذي الأرضُ بَاقيةٌ، ما هَمَّ بالزَّيْغِ، من أوتادِها وَتَدُ

الزيغ: الميل

٨٢ نتيجة التفكير

في كلِّ أمرِكَ تقليدٌ رضيتَ به، حتى مقالُكَ ربي واحدٌ أَحَدُ

وقد أُمِرْنا بِفِكْرٍ في بدائعِه، وإن تَفَكَّرَ فيه معشرٌ لَحَدُوا

وأهلُ كلِّ جِدالٍ يُمسكونَ به، إذا رأوْا نُورَ حقٍّ ظاهرٍ جَحَدُوا

٨٣ ليته الموؤود

طُوبى لِمَوْؤُودَةٍ في حالِ مولدِها، ظلماً، فليتَ أباها الفَظَّ مَوْؤُودُ

٨٤ التأهب ليوم الحساب

إن صَحَّ لِي أنني سعيدُ فليتَنيِ ضَمَّنيِ صَعيدُ

سعادتي الحقيقية هي أن يضمني الصعيد، التراب.. بعبارة أخرى: ليتني أموت

صُمْتُ حياتيِ إلى مَماتيِ، لعلَّ يومَ الحِمامِ عيدُ
وراعَنيِ لِلحسابِ ذِكْرٌ، وغَرَّنيِ أنه بعيدُ

أخافني ذكر الحساب في الآخرة، واغتررت بأنه بعيد فلم أحسب للحساب حساباً

وعن يمينيِ وعن شِماليِ، يَصحبُنيِ حافِظٌ قَعيدُ

على كتفي ملكان قاعدان يحفظان علي كل أفعالي

إذا رَجوْنا قضاءَ وعدٍ، فكيف لا يُرْهَبُ الوَعيدُ؟

إذا كنا نرجو أن يحقق الله أمنياتنا فكيف لا نخاف من وعيده، تهديده بالعقاب على الذنوب؟

٨٥ لا هطلت

إذا الروحُ اللطيفَةُ زايَلَتْنيِ، فلا هَطَلَتْ على الرِّمَمِ العِهادُ

إذا مت وفارقتني روحي، فلا أهتم لما يحدث.. لا يهمني إن هطلت على الرمم، بقايا الأموات، العهاد، السحب، بالمطر أم لم تهطل.. وكانوا يدعون للميت أن يسقي الله قبره بالمطر.. وحديثاً أن «يبشبش الله الطوبة التي تحت رأسه»، وقال المعري عكس هذا المعنى (فلا هطلت علي ولا بأرضي/سحائب ليس تنتظم البلادا)

٨٦ كذبوا عليهما

لقد كذبَتْ على عيسى النَّصارَى، كما كذبَتْ على موسى اليهودُ

كذب عليه: أي زور كلاماً ونسبه إليه

٨٧ الأولاد والنساء

إذا بلغَ الوليدُ لديْكَ عَشْراً، فلا يدخلْ على الحُرَمِ الوليدُ

إذا بلغ الولد عشر سنين وجب ألا يدخل على النساء

أَلَا إن النساءَ حِبالُ غَيٍّ، بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشرفُ التليدُ

التليد: الموروث

٨٨ قريش تقتل ابنها

أرى الأيامَ تفعلُ كلَّ نُكْرٍ، فما أنا في العجائبِ مُستَزيدُ
أليسَ قريشُكُم قتلتْ حُسَيناً، وصارَ على خِلافتِكُمْ يَزيدُ؟

قريش نفسها قتلت الحسين بن علي، وهو قرشي، وكان يزيد الفاسد، وهو قرشي، خليفة

٨٩ الطريق إلى السيادة

قالوا فلانٌ جَيِّدٌ لِصديقِه لا يكذِبُوا، ما في البَرِيَّةِ جَيِّدُ

البرية: البشر

فأميرُهُمْ نالَ الإمارةَ بِالخَنَى، وتَقِيُّهُمْ، بِصَلاتِه، مُتَصَيِّدُ

الخنى: الفحش

كنْ من تشاءُ مُهجَّناً، أو خالصاً، وإذا رُزِقتَ غِنىً فأنتَ السيِّدُ

المهجن: من أبوه عربي وأمه غير عربية، والخالص: النقي النسب. المعنى: كن غنياً تكن لك السيادة بغض النظر عن نسبك

٩٠ أهل الأديان السماوية

ما أسلَمَ المسلمونَ شرَّهُمُ، ولا يهودٌ لِتوبةٍ هَادُوا

هادوا: رجعوا عن ضلالهم

ولا النَّصارَى لِدينِهِمْ نَصَرُوا، وكلُّهُمْ لي بِذاكَ أَشْهادُ

٩١ رحِم الأم يتكلم

نادَى حَشا الأمِّ بالطفلِ الذي اشْتَملتْ عليه: ويحَكَ لا تظهرْ ومُتْ كَمَدا

رحم الأم يدعو الجنين إلى أن يموت كمداً، خنقاً، ولا يولد حياً

فإنْ خرجتَ إلى الدنيا لَقِيتَ أذىً من الحوادثِ، بَلْهَ القَيْظَ والجَمَدا

فالخروج إلى الدنيا يعني ملاقاة أذى من الحوادث، المصائب، بله، ناهيك عن، القيظ والجمد، الحر والبرد

٩٢ أنا والرؤساء

وأَقْصانيِ مِن الرؤساءِ كَوْنيِ وكونُهُمُ لِخَالِقِنا عبيدا

٩٣ شهادة إيمان

إذا كنتَ من فَرْطِ السَّفَاهِ مُعطِّلاً، فيَا جَاحِدُ اشْهَدْ أنني غيرُ جَاحِدِ

إن كنت من سفاهتك معطلاً، منكراً لصفات الله فعلَ بعض المعتزلة والجهمية أو بعض الفلاسفة، فاشهد أنني لست جاحداً مثلك

أخافُ مِن اللّهِ العُقوبةَ آجِلاً، وأزعُمُ أن الأمرَ في يدِ واحِدِ

فإني رأيتُ المُلحِدينَ تَعودُهُمْ نَدامَتُهُمْ، عندَ الأَكُفِّ اللَّواحِدِ

رأيت الملحدين يندمون عند اقتراب الأكف التي ستودعهم قبورهم، أي عند اقتراب الموت

٩٤ مشمئز من الروح ومن الجسد

ما زالتِ الروحُ، قبلَ اليومِ، في دَعَةٍ، حتى استقرتْ، بِحكمِ اللّهِ في الجَسَدِ

في دعة: في راحة

فالآنَ تلكَ وهَذا، مِن قَذىً وأذىً لا يُخْلِيانِكَ، بَلْهَ الغِلِّ والحَسَدِ

وَالآن فتلك، أي الروح، وهذا، أي الجسد، لا يتركانك خالياً من القذى، الوسخ، ومن الأذى.. بله، ناهيك عن، الغل، الحقد، والحسد

٩٥ الخير في ترك الشر

ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ له، ولا صلاةٌ، ولا صُوفٌ على الجَسَدِ

صوف على جسد: إشارة إلى لبس المتصوفة الصوف الخشن الرخيص زهداً وتعذيباً لأنفسهم

وإنَّما هُوَ تركُ الشرِّ مُطَّرَحاً ونَفْضُكَ الصدرَ من غِلٍّ ومن حَسَدِ

الغل: الحقد

٩٦ ضعف الإسناد

جاءتْ أحاديثُ إن صحَّتْ فإن لها شأناً، ولكنَّ فيها ضعفَ إسنادِ

فشاوِرِ العقلَ، واتركْ غَيْرَهُ هَدَراً، فالعقلُ خيرُ مُشيرٍ ضَمَّه النَّادي

شاور عقلك واترك غيره هدراً، مهملاً، فالعقل خير مستشار يضمه النادي، المجلس

٩٧ تعالى الله

تعالى اللَّهُ! كم مَلِكٍ مَهيبٍ، تبدَّلَ بعد قَصرٍ ضِيقَ لَحْدِ
أُقِرُّ بأن لي ربّاً قديراً، ولا أَلْقَى بدائعَه بِجَحْدِ
لو انّي في عِدادِ الرملِ صحبي لأُودِعْتُ الثَّرى، وتُركتُ وحدي

٩٨ خلائق السفهاء

ولا تَجلِسْ إلى أهلِ الدَّنايا، فإن خَلائقَ السُّفَهاءِ تُعدي

الدنايا: خسائس الأمور التي يترفع عنها العاقل

٩٩ كلٌّ يسبِّح

اِركعْ لِربِّكَ في نهارِكَ واسْجُدِ ومتى أَطَقْتَ تهجُّداً فتهَجَّدِ

التهجد: صلاة الليل

كلٌّ يسبحُ، فافهمِ التَّقْديسَ في صوتِ الغرابِ، وفي صياحِ الجُدْجُدِ

الجدجد: صرصور الليل

١٠٠ أيها النصارى

لا تَبدَأونيَ بالعداوةِ منكُمُ، فمَسيحُكُمْ عندي نَظيرُ محمدِ

١٠١ إلى صالح بن مرداس

تَغَيَّبْتُ في منزلي بُرهَةً، سَتيرَ العيوبِ فقيدَ الحَسَدْ

البرهة: المدة الطويلة.. وعكسها الهنيهة.. ستير العيوب: مستورها

فلمَّا مضى العمرُ، إلَّا الأقلَّ، وحُمَّ لِروحيَ فراقُ الجسدْ..

عندما مضى العمر ولمن يبق إلا أقله، وحم لروحي، آن لها، أن تفارق جسمي..

بُعِثتُ شفيعاً إلى صالحٍ، وذاكَ من القومِ رأيٌ فَسَدْ

بعث بي أهل المعرة إلى أمير حلب صالح بن مرداس، الذي طوق بجنوده المعرة، كي أشفع لمن حبسهم من المعرة، وهم سبعون رجلاً

فَيسْمَعُ مِنّيَ سَجْعَ الحَمامِ وأسمعُ منه زئيرَ الأسدْ

كان يسمع مني الكلام اللين الرقيق، وأسمع منه الكلام الغليظ، وكان لقب صالح «أسد الدولة». (مع ذلك نجحت الشفاعة وأطلق صالح المحبوسين. كان ذلك عام ٤١٨هـ، وأبو العلاء في الخامسة والخمسين من العمر)

١٠٢ ندم على ترك بغداد

يا لَهْفَ نفسي على أني رجعتُ إلى هذي البلادِ، ولم أهلِكْ بِبغداذا

نادم أن رجعت إلى المعرة ولم أمت ببغداد

إذا رأيتُ أموراً لا توافقُني قلتُ: الإيابُ إلى الأوطانِ أدّى ذا

كلما صادفت أمراً لا يوافقني قلت: عودتي من بغداد هي السبب

١٠٣ البَشَر ركاب سفينة

إذا كنتُ قد جاوزتُ خمسينَ حِجَّةً، ولم أَلْقَ خيراً، فالمنيَّةُ لي سِتْرُ

ونحن كَرَكْبِ الموجِ، ما بين بعضِهِمْ وبين الرَّدَى، إلَّا الذراعُ أو الفِتْرُ

البشر كراكبي سفينة.. والمسافة بينهم وبين الموت غرقاً ذراع أو فتر

١٠٤ جلَّ الله عنكم

تَوَرَّعُوا، يا بني حَوَّاءَ، عن كَذِبٍ، فما لكُمْ، عند ربٍّ صَاغَكُمْ، خَطَرُ

لا تكذبوا أيها البشر وتقولوا إن الله مهتم بكم.. وإنه يرعاكم أو يعاقبكم بحسب أفعالكم، فما لكم عنده خطر، أي أهمية

لم تُجْدِبُوا لِقَبيحٍ من فِعَالِكُمُ، ولم يَجِئْكُمْ، لِحسنِ التوبةِ المَطرُ

لم تجدبوا، يحل بكم القحط، لأنكم أذنبتم، ولم يأتكم المطر لتوبتكم.. التكملة المنطقية للفكرة: الله وضع قوانين الطبيعة، وهي التي تتحكم في سير الكون، ولم يعد الخالق يتدخل فيها

١٠٥ الانتقار

آلى الزمانُ يَقيناً أنْ سيجمَعُنا إلى الترابِ، ورُسْلُ الموتِ تَنْتَقِرُ

حلف الزمان أنه سيجمعنا في التراب.. ومضت الرسل التي يرسلها الموت، تنتقر، تنتقي منا واحداً واحداً

١٠٦ أباطيل وأسمار

هل صَحَّ قولٌ من الحاكيِ، فنقبَلَهُ، أم كـلُّ ذاكَ أَبـاطـيـلٌ وأَسْـمـارُ؟

هل صحيح ما يقوله المتكلم حتى نقبله؟ أم كل ما ورد من قصص مجرد خرافات نتسامر بها

١٠٧ السر خافٍ

مَضتْ قرونٌ، وتمضي بعدَنا أُمَمٌ، والسرُّ خَافٍ، إلى أن يُنْفَخَ الصُّورُ

قرون: أجيال، سيظل سر الخلق خافياً حتى ينفخ إسرافيل في الصور، البوق، وتقوم القيامة

١٠٨ المسير والمخير

ما بِاختِياريَ ميلاديِ، ولا هَرَمِي ولا حياتيِ، فهل لِي بعدُ تَخييرُ؟

ولا إقـامـةَ إلّا عـن يَـدَيْ قَـدَرٍ، ولا مـسيرَ إذا لـم يُقْضَ تَـسـيـيرُ

إقامتي في بلد هي عن يدي قدر، بيد القدر، ولا رحيل عن البلد بلا قضاء يقضي بالرحيل

زَعـمْـتَ أنـكَ تـهـديني لِـواضِـحةٍ، كذبتَ، هـذا الـذي تَـحْكيهِ تَحييرُ

فالقول بأن الإنسان مخير كذب.. وهذا القول يحير المرء لأنه يرى كل أفعاله مفروضة عليه

١٠٩ اضمحلال

قـد أصـبـحَ الـديـنُ مُـضْـمَـحِـلّاً، وغَـيَّـرتْ آيَـهُ الـدهـورُ

اضمحل الدين وغيرت الدهور آيه، أي معالمه

واعـتـاضَ حِـلَّ الـنِّـكـاحِ قـومٌ بِـنِـسـوةٍ مـا لَـهـا مُـهـورُ

استعاض الناس عن الزواج باتخاذ الجواري، وهن نساء لا مهور لهن بل يسبين سبياً، أو يشترين شراء

١١٠ الناس والأديان

أُمـورٌ تَـسـتَـخِـفُّ بِـهـا حُـلـومٌ، ومـا يَـدري الـفـتـى لِـمَـنِ الـثُّـبـورُ

حلوم: عقول، الثبور: الهلاك

كـتـابُ مـحـمـدٍ، وكـتـابُ مـوسى، وإنـجـيـلُ ابـنِ مَـريـمَ، والـزَّبُـورُ..

نَـهَـتْ أُمَـمـاً فـمـا قَـبِـلَـتْ، وبَـارَتْ نـصـيـحـتُـهـا، فـكـلُّ الـقـومِ بُـورُ

الكتب السماوية المذكورة نهت الأمم عن الشر فما قبلت الأمم نهيها، وبارت، فنيت، النصيحة، فكل الناس بور، هالكون

يُـعَـطَّـلُ مـنـزِلٌ، ويُـزَارُ قـبـرٌ، ومـا تـبـقَـى الـديـارُ ولا الـقـبـورُ

يتم تعطيل المنازل بسبب الحروب، وبالمقابل يزور الناس قبور الأولياء، وكل هذا زائل

ومُـلْـكٍ كـالـريـاحِ. جَـرَتْ قَـبُـولٌ، فـلـم تَـلْـبـثْ، وأَعْـقَـبَـتِ الـدَّبُـورُ

رب مُلك شبيه بالرياح. فإن جرت ريح القبول، المنعشة، فلا تفتأ أن تأتي بعدها ريح الدبور المخربة

أُصـولٌ قـد بُـنـيـنَ عـلـى فـسـادٍ، وتـقـوى الـلَّـهِ سُـوقٌ لا تَـبـورُ

١١١ الدعوة المنبرية للأمير

أنـا، بِـالـلـيـالـي والـحـوادثِ أخـبَـرُ سَـفَـرٌ يَـجِـدُّ بِـنـا، وجِـسـرٌ يُـعـبَـرُ

نحن على سفر يجد بنا، جاد لا يبطئ، والدنيا مجرد جسر نعبره

يَدعُونَ في جُمُعاتِهِمْ بِسَفاهَةٍ، لأَميرِهِمْ، فيكادُ يَبكي الـمِنبرُ

١١٢ حليف الأربعين

أَرواحُـنـا مَـعَـنـا ولـيـس لـنـا بـهـا عـلـمٌ فـكـيـفَ إذا حَـوَتْـهـا الأَقْـبُـرُ

ومتى سَرى، عن أَربعينَ، حليفُها فالشخصُ يَصغُرُ، والحوادثُ تَكْبُرُ

عندما يخلّف حليف الأربعين، أي الذي بلغها، هذه السن وراءه، فطموحه يصغر والمصائب تكبر

١١٣ وتقدرون فتضحك الأقدار

ويقولُ: دَارِي، مَن يقولُ، وأَعْبُدِي، مَـهْ! فـالـعـبـيـدُ، لِـرَبِّـنـا، والـدَّارُ

مه: اكفف واسكت

أَتَـرومُ مِـن زمـنٍ وفـاءً مُـرضـيـاً، إن الـزمـانَ، كـأهـلِـه، غَـدَّارُ

تَقِفُونَ، والفَلَكُ الـمُسَخَّرُ دائرٌ، وتـقـدِّرونَ، فـتـضـحـكُ الأقْـدارُ

البشر واقفون بينما الفلك الذي سخره الله يدور، ودوران الفلك هو مرور الزمن، والبشر ينوون فعل شيء ولكن القدر يضحك منهم

١١٤ حِبر صادق وأحبار كاذبون

آلَيْتُ ما الحِبْرُ الـمِدادُ بِكاذِبٍ، بـل تَـكـذِبُ الـعـلـمـاءُ والأَحـبـارُ

ليس الحبر الذي كتبوا به كتبهم هو الكاذب بل العلماء والأحبار هم الكاذبون

١١٥ سينالك التيار

كم بِالـمـدينـةِ مِن غـريـبٍ نـازلٍ　　لا ضَـابِـئٌ مـنـهُـمْ ولا قَـيَّـارُ

كثيرون الغرباء النازلون ضيوفاً على المدينة المنورة، سوى ضابئ البرجمي وجمله قيار، فقد نزل هذا الرجل بالمدينة في عهد عثمان وقال البيت السائر: «فمن يك أمسى بالمدينة رحله/ فإني وقياراً بها لغريب»

سارَ الزمانُ بِهِمْ إلى أَجْداثِهِمْ،　　وكـذا الـزمـانُ بِـأهـلِـه سَـيَّـارُ

وقد سار الزمن بالجميع إلى أجداثهم، أي قبورهم، وكذا هو الزمن

كنْ حيثُ شِئتَ بِلُجَّةٍ، أو رَبْوَةٍ،　　أو وَهْـدَةٍ، سَـيَـنـالُـكَ الـتَّـيَّـارُ

كن أينما شئت، في لجة البحر، أو فوق ربوة، أو في وهدة، أي وادٍ، سينالك تيار الموت

١١٦ الطريدة

أعـمـارُنـا جـاءت كْـآيٍ كـتـابِـنـا　　مـنـهـا طِـوالٌ وُقِّـيَـتْ وقِـصَـارُ

أعمارنا كآيات القرآن، فيها الطوال وفيها القصار

والـنـفـسُ فـي آمـالِـهـا، كَـطَـريـدَةٍ　　بـيـن الـجَـوارحِ، مـا لـهـا أنـصـارُ

والنفس البشرية وهي تطمح بآمالها إلى النجاة هي مثل طريدة، ظبية مطارَدة، بين الجوارح، الوحوش، لا نصير لها. تعليق أحمد عبد الرحيم: [هذا بيت هائل! شبَّه النفس بالطريدة، فأداه إلى الكناية عن جوارح الإنسان، الشهوانية التي لا ترحم النفس ولا تدعها لسكينةٍ محلومٍ بها، بجوارح طير السماء التي لا ترحم طرائدَها المتوحدةَ المذعورة! ومنظر انقضاض جوارح السماء على طرائد الأرض المذعورة منظر هائل! أفهم البيت على أنه صراع ذاتي.. بين الذات/ الروح والجسد. فجوارح الإنسان لا تساعد روحه على السمو، وهذا الإنسان وحيدٌ تمامًا في هذا الصراع.. بلا أنصار يعينونه، كما الطريدة/ الظبية المسكينة المتوحِّدة المنفردة عن قطيعها.. لا ينصرها من جوارح السماء المنقضة عليه ناصر! والخلاصة: لا نجاة! كما لا نجاة للطريدة/ الظبية المسكينة]

١١٧ نحن على كف الرحمن

فَـلَـكٌ يَـدورُ بـحِـكـمـةٍ　　ولـه، بـلا ريـبٍ مُـديـرُ

تدور النجوم في أفلاكها بتقدير حكيم، ولا بد من مدير لها

إن مَـنَّ مـالِـكُـنـا بـمـا　　نَـهـوى، فَـمَـالِـكُـنـا قَـديـرُ

أو لا، فـعـالَـمُ آدَمٍ،　　بـإهَـانَـةِ الـمَـوْلـى، جَـديـرُ

١١٨ الفضيحة

لَعَمريَ لقد فضحَ الأوَّلِيـ ـنَ ما كتبوهُ وما سَطَّرُوا

فضح جهل القدماء ما كتبوه من خرافات حسبوها علماً

وقد علِمَ اللَّهُ أن العبا دَ إن يُرزَقُوا نِعمةً يَبْطَرُوا

يبطر: يجحد ويسرف

وإن عَجِبُوا لاحتِباسِ الغَمامِ، فَأعْجَبُ مِن ذاكَ أن يُمْطَرُوا

يعجبون كيف ينقطع المطر عنهم، والأعجب أن ينزل المطر فالناس لا يستحقون النعمة

١١٩ الجحيم هو الآخرون

إذا حانَ يَومي فَلأُوَسَّدْ بِموضِعٍ مِن الأرضِ لم يَحْفِرْ به أحدٌ قَبرا

كذا كانت وصية الشاعر العراقي معروف الرصافي، فقد أراد أن يدفن في أرض «مظلومة» لم تحفر من قبل.. وما أدراك!

يَرى عَنَتاً، في قُرْبِ حيٍّ وميِّتٍ مِن الإنسِ، مَنْ جَلَّى سَرائِرَهُمْ خُبْرا

الذي جلى، كشف، سرائر الناس، ضمائرهم، يرى الاقتراب منهم، سواء في الحياة أم في الموت عنتاً، تعباً

فيا ليتَني لا أَشهَدُ الحَشْرَ فيهِمُ إذا بُعِثُوا شُعْثاً رؤُوسُهُمُ، غُبْرا

لا يريد الاختلاط بالناس حتى يوم القيامة عندما يبعثون شعث الرؤوس، منكوشي الشعر، مغبرين. وقد تخيل أبو العلاء والده ـ في رثاء أوردناه فيما اخترناه من ديوان شبابه «سقط الزند» ـ يأبى أن يزاحم الناس في يوم القيامة للشرب من الحوض

١٢٠ الإيمان المحض

إذا آمَنَ الإنسانُ باللَّهِ فليَكُنْ لَبيباً، ولا يَخْلِطْ بإيمانِه كُفْرا

شكراً للنصيحة

١٢١ الانتباه

ولا انْتِباهَ لإنْسٍ من رُقادِهِمُ، إلَّا إذا قيلَ: هذا الموتُ قد حَضَرا

١٢٢ أنا والزمان فرسا رهان

أقاتِلِيَ الزمانُ، قِصاصَ عَمْدٍ، لأنّيَ قد قَتَلْتُ بَنيهِ خُبْرا؟
أيقتلني الزمان قصاصاً لارتكابي ذنباً عن عمد هو أنني قتلت أبناءه معرفة، أي عرفتهم كل المعرفة

ولم أَسْفِكْ دِماءَهُمُ، ولكنْ عَرفْتُ شُؤُونَهُمْ كَشْفاً وسَبْرا
السبر: قياس العمق

غَدَوْتُ ورَيْبَهُ فَرَسَيْ رِهَانٍ، يُجِدُّ نَوائباً، وأُجِيدُ صَبرا
كنت أجري مع ريب الزمان، مصائبه، كأننا فرسا رهان يتسابقان، فالزمان يجد نوائباً، يجدد لي المصائب، وأنا أحسن الصبر عليها

١٢٣ الدفن دفء

والدَّفْنُ دِفْءٌ في الشتاءِ، وظُلَّةٌ في القَيْظِ، حُقَّ لِمِثْلِها أن يُؤْثَرا
الدفن يدفئك شتاء ويظللك من شمس الصيف صيفاً، وجدير بهذه المظلة أن تؤثر، أي تفضَّل

١٢٤ أسماء البشر الحسنى

لم أَرْضَ رَأْيَ وُلاةِ قَومٍ، لَقَّبُوا مَلِكاً بِمقتدرٍ، وآخَرَ قَاهِرا
هَذي صِفاتُ اللَّهِ، جَلَّ جلالُه، فالحقْ بِمَنْ هَجَرَ الغُواةَ مُظاهِرا
فكن مع من هجروا الضلال مظاهراً لهم ومناصراً

كم قَائِمٍ بِعظاتِه مُتَفَقِّهٍ في الدينِ، يوجَدُ حين يُكْشَفُ عَاهِرا

١٢٥ استحالة المعرفة

ما لِي بما بعد الرَّدَى مَخْبَرَةْ قد أَدْمَتِ الآنُفَ هذي البُرَةْ
لا علم لي بما بعد الموت، ولقد أدمت الأنوف هذه البرة، الحلقة التي توضع في أنف الجمل لتذليله

كَمْ رامَ سَبْرَ الأمرِ مَنْ قبلَنا، فنادَتِ القُدْرَةُ لن تَسْبُرَهْ
كثيراً ما رام، أي حاول، سبر الأمر، معرفة عمق الحقيقة، الناس قبلنا، ولكن قدرة الله قضت ألا يسبروا هذا العمق

عِشْنا وجسرُ الموتِ قُدَّامَنا فَشَمِّرِ الآنَ لِكَيْ تَعْبُرَهْ

١٢٦ درس الحساب

وهَـوَّنَ مـا نَـلـقَـى مـن الـبؤسِ أنـنـا بَنُـو سَفَـرٍ، أو عـابـرونَ عـلـى جِـسـرِ
متى أَلْقَ، من بعدِ الـمنيةِ، أسرتِي أُخَبِّرْهُـمُ أنـي خَـلُـصْتُ مـن الأَسْـرِ
سَما نَفَرٌ، ضَرْبَ الـمِئِينَ، ولـم أزلْ بِحَمْدِكَ مِثْلَ الكَسْرِ يُضربُ في الكَسْرِ

بعض الناس سموا، ارتفعوا، كما تضرب المئة بالمئة فالنتيجة عشرة آلاف، فمكاسبهم مضاعفة، وأنا ظللت بحمد الله في تضاؤل كما تضرب الكسر بالكسر فالنصف ضرب نصف يساوي ربعاً

١٢٧ حتى جبريل!

ولـو طـارَ جـبـريـلٌ بـقـيـةَ عُـمـرِهِ عَنِ الدهرِ، ما اسطَاعَ الخروجَ من الدهرِ

١٢٨ دع النسل

ولـم يـتـنـاولْ دُرَّةَ الـحـقِّ غَـائِـصٌ مـن الـنـاسِ، إلَّا بِـالـرَّوِيَّـةِ والـفِـكْـرِ

لم ينجح في الإمساك بلؤلؤة الحق أي غائص من البشر إلا بالتروي والتفكر

دعَ النَّسْلَ! إن النسلَ عُقْباهُ ميتَةٌ، ويُهْجَرُ طيبُ الراحِ خوفاً من السُّكْرِ

لا تنجب بنين وبنات فالنتيجة النهائية الموت، والمرء يترك الأمر المستطاب بسبب نتيجته الرديئة، فالخمر يهجرها المرء خوفاً من السكر

١٢٩ ليتنا نموت ولا نبعث

وأَعـجَبُ مـا تَـخشاهُ دَعـوَةُ هـاتـفٍ: أُتيِتُمْ، فَهُبُّوا يا نِيامُ إلى الـحَشْـرِ

أعجب ما ستلقى هاتفاً يهتف: قد أُتيتم، جئناكم، فاستيقظوا وهيَّا للحشر

فـيـا لَـيْـتَـنـا عـشْـنـا حـيـاةً بـلا رَدىً، يَـدَ الـدهـرِ، أو مُتْـنـا مَـمـاتـاً بِـلا نَـشْـرِ

النشر: البعث من القبور

١٣٠ التوحيد والتعديد

إذا كـنـتَ ذا ثِـنـتَـيْـنِ فـاغْـدُ مُـحَـاربـاً عَـدُوَّيْـنِ، واحـذَرْ مـن ثـلاثِ ضَـرائِـرِ
وإن هُـنَّ أَبْـدَيْـنَ الـمَـودَّةَ والـرضـا، فكـم من حُقُـودٍ غُـيِّـبَـتْ فـي الـسرائـرِ!

إن أبدت الضرائر الرضا فهن يخفين أحقاداً في السرائر، الضمائر

قِـرانُـكَ مـا بـيـن الـنـسـاءِ أَذِيَّـةٌ لَـهُـنَّ، فـلا تـحـمِـلْ أَذَاةَ الـحَـرائِـرِ

١٣١ فضة وذهب

رأيتُ سُكوتي مَتْجَراً، فلَزِمْتُه، إذا لم يُفِدْ رِبْحاً، فلستُ بِخاسِرِ

١٣٢ مداراة العدو

يقولُ لكَ العقلُ الذي بَيَّنَ الهُدى: إذا أنتَ لم تَدْرَأْ عَدُوّاً فَدارِهِ

لم تدرأ: لم تردع

وقَبِّلْ يدَ الجاني الذي لَسْتَ وَاصِلاً إلى قطعِها، وانظُرْ سُقوطَ جِدارِهِ

يقول مثلنا: اليد التي لا تقدر عليها قبلها، وادعُ عليها بالكسر

١٣٣ الفكر مرآة الحق

كأنَّما الخيرُ ماءٌ كان وَارِدَهُ أهلُ العصورِ فما أبْقَوْا سِوى العَكَرِ

الخير شبيه بحوض ماء كان يأتيه أهل العصور المتلاحقة فذهب صفوه وبقي فيه الماء المتكدر

وما تُريكَ مَرائي العينِ صَادِقَةً فاجعلْ لِنفسِكَ مِرآةً من الفِكَرِ

لا تريك مرائي العين، مراياها، صورة صادقة، أي حقيقية، فلتكن مرآتك فكرك.
ترى وجهك في المرآة فتراه جميلاً، وتفكر بعقلك وتقول: هذه الصلعة وهذا الأنف المعوج، وتلك الشفاه المتقلصة والأسنان المتراكبة ـ المؤلف لا يصف نفسه بالضرورة ـ لا تعني الجمال، فعقلك مرآة أفضل

١٣٤ الناس والغراب

تَمضي الحياةُ، وما لِي إثرَها أَسَفٌ، وَدِدْتُ أنَّ مُعيرَ العيشِ لم يُعِرِ

ليت الذي أعارني العيش لم يعره

والموتُ يَسْلُبُ ما في الأنفِ من شَمَمٍ تحتَ الترابِ، وما في الخَدِّ من صَعَرِ

يسلب الموت الشمم، ارتفاع الأنف من كبرياء، والصعر، ميل الخد تكبراً

جُرْ يا غُرابُ وأَفْسِدْ، لن ترى أحداً إلا مُسيئاً، وأيُّ الخلقَ لم يَجُرِ؟

فلتكن جائراً أيها الغراب ومفسداً للزرع، فكل الخلق مثلك

فخُذْ من الزَّرْعِ مَا يكفيكَ عن عُرُضٍ، وحاوِلِ الرزقَ في العَالي مِن الشجرِ

عن عرض: كيفما اتفق

لو كنتَ حافِظَ أثمارٍ لَهُمْ يَنَعَتْ ثم اقتَرَبْتَ لَمَا أَخْلَوْكَ من حَجَرِ

حتى لو كنت يا غراب حارساً يحفظ زرع الناس ثم اقتربت لما تركوك دون أن يرموك بحجر

١٣٥ صكوك الغفران

نَادَتْ على الدينِ، في الآفاقِ، طَائفةٌ، يا قَومُ! من يشتري دِيناً بِدينارِ؟

بعضهم يحث على التبرع والتصدق فكأن هذا بيع للدين مقابل الدنانير

جَنَوْا كَبائِرَ آثامٍ، وقد زَعموا أن الصغائرَ تَجْني الخُلْدَ في النارِ

وهؤلاء يرتكبون كبائر الذنوب ثم يقولون للناس إن الصغائر تدخل المرء النار. أ. عبد الرحيم: [يعرِّض بمعتزلة زمانه (على الأقل!).. ولطالما هجاهم تصريحًا!]

١٣٦ قطع اليد

تناقُضٌ ما لنا إلا السُّكوتُ له وأن نَعوذَ بِمولانا من النارِ

يَدٌ بِخَمْسِ مِئينٍ عَسْجَدٍ فُدِيَتْ، ما بَالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دينارِ؟

إذا قطع أحدهم يد آخر ففدية اليد في الشرع خمسمئة دينار عسجداً، أي ذهباً، فلماذا تُقطع يد المرء إذا سرق ربع دينار؟ رد الشعراء على أبي العلاء كثيراً.. ورد الفقهاء، قال أحدهم عن اليد: «عندما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت»

١٣٧ اتركوهم في ظهوركم

وإذا أردتُمْ للبنينَ كَرامةً، فالحزمُ أجمعُ تركُهُمْ في الأظْهُرِ

خير للمرء أن يترك أولاده في صلبه، في ظهره، ولا ينجبهم

١٣٨ الموت جيد، وهاكم الدليل

ويَدُلُّني، أن المماتَ فضيلَةٌ، كونُ الطريقِ إليهِ غيرَ مُيَسَّرِ

١٣٩ الأم والطفل والمنجم

سألتْ منجِّمَها عن الطفلِ الذي في المهدِ: كم هُوَ عائشٌ من دهرِهِ؟

فأجابَها: مِئَةً، لِيأخذَ درهماً، وأتى الحِمامُ وليدَها في شهرِهِ

أعدَى عدوٌّ لابنِ آدمَ، خِلْتُه، ولدٌ يكونُ خروجُه من ظَهرِهِ

١٤٠ التجارة الرابحة

رَغِبوا، فأزهَدُ مَن تَرى فوقَ الثَّرى يَبغُونَ، عند اللَّهِ، رِبْحَ تِجارِ

تجار: تجَّار

١٤١ اضمحلال الطموحات

بلغَ الفتى هَرَماً، فظنَّ زمانَه هَرِماً، وذمَّ تقادُمَ الأعصَارِ

عندما يكبر الإنسان يظن الزمن نفسه شاخ ولم يعد جيداً

ورُميتُ بالهِمَمِ الطِّوالِ، وغالَها كَرُّ الخطوبِ، فعُوِّضَتْ بِقِصارِ

ابتليت بالهمم الطوال، الطموحات الكبيرة، وغالها كر الخطوب، أهلك الطموحات تكرر المشكلات، فأصبحت صغيرة

١٤٢ ركبت أربعين جملاً

ورَمَيْتُ أعوامي ورائيَ، مثلَما رَمَتِ المَطِيُّ مَهامِهَ السُّفَّارِ

رميت سني حياتي ورائي كما ترمي الإبل مهامه السفار، صحارى المسافرين، وتقطعها

وركِبْتُ منها أربعينَ مَطِيَّةً، لم تَخْلُ من عَنَتٍ وسوءِ نِفارِ

ركبت أربعين مطية، أي عشت أربعين سنة، لم تخل من تعب وسوء نفار، جموح

١٤٣ ضلال اليهود

ضَلَّتْ يهودُ، وإنَّما تَوْراتُها كذِبٌ من العلماءِ والأحبارِ

قد أَسندوا عن مثلِهِمْ، ثم اعْتَلَوْا، فنَمَوْا بإسنادٍ إلى الجبَّارِ

وإذا غَلبتَ مناضلاً، عن دينِه، ألقى مقالِدَهُ إلى الأخبارِ

إذا غلبت بحجتك مناضلاً، مدافعاً، عن دينه فسوف يلقي مقالده، مفاتيح أموره، إلى ما قاله الأقدمون

١٤٤ حرقوه فاستراحوا واستراح

حَرَّقَ الهندُ مَن يموتُ، فما زا رُوهُ في رَوْحَةٍ، ولا تَبكيرِ

وأَراحُوا من ضَغطةِ القبرِ مَيْتاً وسُؤَالِ لِمُنكَرٍ ونَكيرِ

١٤٥ علي وقنبر

لا يَفْخَرَنَّ الهاشميُّ - على امْرِئٍ من آلِ بَرْبَرْ
فالحقُّ يحلِفُ: ما عَلِيٌّ - عندَه إلّا كَقَنْبَرْ

قنبر: خادم علي بن أبي طالب

١٤٦ قياس

أيها الملحدُ لا تعصِ النُّهَى، فلقد صحَّ قياسٌ واستَمَرّ

أيها الملحد لا تخالف العقل، فقد صح القياس واطرد

إن تَعُدْ في الجسمِ يوماً روحُهُ فَهْوَ كالرَّبْعِ خلا ثم عَمَرْ

فالروح تعود للجسم بعد خرابه فيعمر مثلما يكون الربع، المكان، خالياً ثم يعمر، وهذا هو القياس

١٤٧ أنا وصالح

ما لُمْتُ في أفعالِه، صالحاً، بل خِلْتُه أحسنَ مني ضَميرْ

لا ألوم صالح بن مرداس أمير حلب، بل ضميره خير من ضميري وسريرته أنقى من سريرتي

يا قومُ! لو كنتُ أميراً لكُمْ ذمَمْتُمُ في الغيبِ ذاكَ الأميرْ

١٤٨ المساجد والمواخير

مساجِدُكُم ومواخِيرُكُمْ، سَواءٌ، فبُعداً لكُمْ من بَشَرْ

المواخير: بيوت الخمر والنساء

وما أنتُمُ بالنَّباتِ الحميدِ، ولا بالنخيلِ ولا بالعُشَرْ

لستم أيها الناس نباتاً حميداً، ولا نخلاً ولا عشراً، والعُشَر شجر معروف قال لنا أبو العلاء في كتابه «الصاهل والشاحج» إنهم يحشون بأوراقه الوسائد

ولكنْ قَتادٌ عديمُ الجُناةِ، كثيرُ الأذاةِ، أبَى غيرَ شَرّ

أنتم قتاد، أي شوك، لا يجنيه أحد، وليس فيه إلا الشر

فيا ليتَني في الثرى، لا أقومُ إنِ اللَّهُ ناداكُمُ، أو حَشَرْ

وما سَرَّنيِ أنني في الحياةِ وإنْ بانَ لي شرفٌ وانتَشَرْ

١٤٩ الوعد والإنجاز

تجنَّبِ الوعدَ يوماً أن تفُوهَ به، فإنْ وعدْتَ فلا يَذْمُمْكَ إنجازُ

تجنب الوعد، فإن حدث ووعدت فلا تجعل قلة الإنجاز والوفاء بالوعد تسبب لك الذم

واصْمُتْ، فإن كلامَ المرءِ يُهلِكُهُ، وإن نطقْتَ، فإفصاحٌ وإيجازُ

١٥٠ الفقهاء

أجازَ الشافعيُّ فَعالَ شيءٍ وقال أبو حنيفةَ لا يَجوزُ

هذا وأسلاف أبي العلاء كانوا قضاة على مذهب الشافعي

فَضَلَّ الشِّيبُ والشبانُ منَّا وما اهْتَدَتِ الفتاةُ ولا العجوزُ

ولم آمَنْ على الفقهاءِ حَبْساً، إذا ما قيلَ لِلأُمَناءِ جُوزُوا

لست متأكداً من وضع الفقهاء يوم القيامة، فقد يحبسون خارج الجنة إذا قيل للأمناء من الناس جوزوا، اقطعوا الصراط واجتازوه

١٥١ اختلاف

الناسُ مختلفونَ، قيلَ: المرءُ لا يُجزَى على عملٍ، وقيلَ: يُجازَى

بعضهم يقول ثمة حساب، وبعضهم يقول لا حساب

١٥٢ الخير بلا مقابل

تَوَخَّيْ جميلاً، وافعليهِ لِحُسْنِه، ولا تَحكُمي أن المَليكَ به يَجْزي

افعلي الخير يا هذه لأنه خير ولا تحكمي بأن الله يجزي به

فذاكَ إليهِ: إن أرادَ فَمُلْكُهُ عظيمٌ، وإلا فالحِمامُ لنا مُجْزِ

فالثواب والعقاب لله إن شاء، وإن لم يكن حساب فالموت لنا مجز، مجزئ أي كاف

١٥٣ تكلُّمي بالمجاز

أوْجَزَ الدهرُ في المَقالِ إلى أن جعلَ الصمتَ غايةَ الإيجازِ

مَنطِقاً ليس بالنَّثيرِ، ولا الشعـ ـرِ، ولا في طَرائِقِ الرُّجَّازِ

كلام الزمن ليس نثراً ولا شعراً ولا رجزاً. وكان «علماء» الشعر يعدون الرجز شيئاً غير الشعر

وَعَـدَتْنـا الأيـامُ كـلَّ عـجـيـبٍ،   وتَـلَـوْنَ الـوُعـودَ بِـالإنـجـازِ

تلوْنَ: تبعن

هِـيَ مِـثْـلُ الـغَـوانِ إن تَـحْـسُـنِ الأَوْ   جُـهُ منـهـا، فـالـثِّـقْـلُ فـي الأَعـجَـازِ

الأيام، أي الزمن، مثل الحسان وجوههن حسنة ولكن الثقل الحقيقي في أكفالهن، والزمن حاضره يكون جميلاً ولكن الشدائد تأتي بعد ذلك

مَـنْ يُـرِدْ صـفـوَ عـيـشـةٍ يـبـغِ مِـن دُنـ   ـيـاه أمـراً مُـبَـيَّـنَ الإعـجـازِ
فـافـعلِ الـخـيرَ إن جَـزاكَ الـفـتى عنـ   ـهُ، وإلَّا فـالـلَّـهُ بـالـخـيـرِ جـازِ
لا تُـقَـيِّـدْ عـلـيَّ لـفـظـي فـإنـي   مـثـلُ غـيـري، تـكـلُّـمي بِـالـمَـجـازِ
إنَّـمـا عِـشْـرَةُ الأنـامِ نِـفـاقٌ،   وتـبـاهٍ فـي بـاطـلٍ، وتَـجـازِ

معاشرة الناس نفاق، وفيها التباهي بالباطل من ادعاء العلم وادعاء الفضل إلخ، وفيها التجازي.. أي أن كل خير يفعله المرء يريد عليه مقابلاً

١٥٤ الإيعاز

أوعَـزَ الـدهـرُ بـالـفـنـاءِ إلى الـنـا   سِ، فَـوَاهَـاً لِـذلـكَ الإيـعـازِ

أوعز الدهر، أي أشار آمراً، إلى الناس بأن الفناء مصيرهم، فيا للوعتي لهذا الإيعاز

أعـرِضُـوا عـن مَـدائـحٍ وتَـهَـانٍ،   فـالـمـراثـي أولـى بكُـمْ والتَّـعـازي

١٥٥ التوبة المتأخرة

إذا مـا أسَنَّ الـشـيـخُ أقـصـاهُ أهـلُـه،   وجارَ عليه النَّجْلُ والعبدُ والعِرْسُ

العرس: الزوجة

يـسـبِّـحُ، كـيـمـا يَـغـفِـرَ الـلَّـهُ ذنـبَـه،   رُوَيْدَكَ في عهدِ الصِّبا مُلِئَ الطِّرْسُ

في صباك ملئ الطرس، الورقة، بالذنوب.. وجئت تستغفر في شيخوختك!

وقد كـان من فـرسـانِ حربٍ وغـارةٍ،   فلم يُغْنِ عنه السيفُ والرمحُ والتُّرسُ
عـجـبـتُ لِـقـبـرٍ فـيـه ضـيـقٌ تَـزاحـمَـتْ،   على الكونِ فيه العُرْبُ والرومُ والفُرسُ

على الكون فيه: لتكون فيه

١٥٦ لو انيَ كلب

لو انّيَ كَلبٌ، لاعْتَرتْني حَمِيَّةٌ   لِجَروِيَ، أن يَلقَى كما لَقِيَ الإِنْسُ
أرى الحَيَّ جنساً ظلَّ يشمَلُ عالَمِي   بأنْواعِه، لا بُورِكَ النوعُ والجنسُ

الحي، أي القوم أي البشر، جنس.. وهذا الجنس يشبه كل الأنواع، كل المخلوقات.. وعموماً لا بورك في النوع ولا في الجنس

١٥٧ لبت حول الماء

لُبْتُ، حولَ الماءِ مِن ظَمَأٍ،   إن غَرْبي ما له مَرَسُ

طفت حول بئر الماء عطشان، ولكن غربي، أي دلوي، ليس له مرس، أي حبل

مُهجَتي ضِدٌّ يُحَارِبُني،   أنا مِنّي كيف أَحْتَرِسُ؟

قلبي ضدي.. فكيف أحترس منه؟

إنما دنياكَ غانيةٌ،   لم يُهَنِّئ زوجَها العُرُسُ

١٥٨ مطر يغسل الأرض

هل يغسلُ الناسَ عن وجهِ الثرى مطرٌ،   فما بَقُوا لم يُبارِحْ وجهَهُ دَنَسُ

ما بقوا: ما داموا باقين

والأرضُ ليس بِمَرْجُوٍّ طهارتُها،   إلا إذا زالَ عن آفاقِها الأَنَسُ

١٥٩ أنا وطلابي

دنياكَ دارُ شُرورٍ لا سُرورَ بها،   وليس يدري أخوها كيف يَحترسُ
بينا امْرُؤٌ يتوقَّى الذئبَ عن عُرُضٍ   أتاهُ ليثٌ، على العِلّاتِ، يَفْتَرِسُ

بينا: بينما، عن عرض: من ناحية، على العلات: رغم كل شيء

ألا ترى هَرَمَيْ مِصرٍ، وإن شَمَخا،   كِلاهُما بيقينٍ سوف يندَرِسُ

يندرس: يزول.. كل شعراء العرب مصرون على أن بمصر هرمين فقط.. وفيها بالمناسبة أكثر من مئة هرم

١٦٠ ماذا تريدون؟

يَزورُني القومُ، هذا أرضُه يَمَنٌ،   مِن البلادِ، وهذا دارُه الطَّبَسُ

الطبس: بلدة بخراسان

يبغون مِنِّيَ معنىً لستُ أُحسِنُه   فإن صدقتُ عَرتْهُمْ أوجهٌ عُبُسُ

يبدو أنه كان يقول لطلابه «لا أعلم» عندما لا يعلم فتعروهم، تكسوهم، وجوه عابسة

ماذا تريدونَ؟ لا مالٌ تيسَّرَ لي   فَيُسْتَمَاحُ، ولا عِلْمٌ فيُقتَبسُ

يستماح: يُطلَب

١٦١ نقيضان

بناتُ العَمِّ تأباها النصارى   وبالأَخَواتِ أَعْرَسَتِ المجوسُ

المسيحيون يكرهون الزواج من بنات العم والخال، وشاع أن المجوس يتزوجون أخواتهم وبناتهم

١٦٢ ضرائب ولا حماية

يا رَبِّ أَخْرِجني إلى دارِ الرِّضَا   عجِلاً، فهذا عالَمٌ مَنْكُوسُ

دار الرضا: الجنة، منكوس: مقلوب

وأرى مُلوكاً لا تَحُوطُ رعيَّةً،   فعلامَ تؤخَذُ جِزيةٌ ومُكُوسُ؟

الملوك لا يحوطون، لا يحمون، الرعية فلماذا يأخذون الجزية من النصارى والمكوس، الضرائب من الجميع

١٦٣ الساسة

يَسوسونَ الأمورَ بغيرِ عقلٍ   فينفُذُ أمرُهُمْ، ويقالُ: ساسَةْ

فأفٍّ من الحياةِ، وأفٍّ مني   ومن زمنٍ رئاستُه خَساسَةْ

١٦٤ الحدس لا اليقين

أصبحتُ في يومي أُسائلُ عن غَدي   مُستخبِراً عن حالِهِ مُتَنَدِّسَا

متندساً: متحرياً

أمَّا اليقينُ، فَلا يَقينَ، وإنما   أقصَى اجتهاديَ أن أظُنَّ وأحْدِسا

١٦٥ يا قصير العمر

وأَردتُمونيَ أن أكونَ مُدَلِّساً   هيهاتَ! غيريَ آثَرَ التَّدْليسا

التدليس: ادعاء العلم بالشيء

إن ماتَ صاحِبُكُمْ، فجِدُّوا بعدَه ... في النُّسْكِ، واتَّخِذوا الخُشوعَ جَليسا
فاللَّهُ ما اختارَ البقاءَ وطُولَه، ... إلّا لِشَرٍّ عبادِهِ إبليسا

١٦٦ من التراب إلى التراب

وما زالَ هذا الجسمُ، مُذْ فارَقَ الثرى، ... على تَعَبٍ، حتى أُعيدَ إلى الرَّمْسِ

منذ أن خلق الجسم من الثرى، التراب، ظل متعباً حتى عاد إلى الرمس، القبر، وإلى التراب

١٦٧ الجاهر والهامس

دعا مُوسى فَزَالَ، وقامَ عيسى، ... وجاءَ محمدٌ بِصلاةِ خَمْسِ
وقيلَ يَجيءُ دينٌ غيرُ هذا، ... وأَوْدَى الناسُ بين غَدٍ وأمسِ

لو سئل أبو العلاء عن هذا الدين الذي سيجيء لربما قال: ما زعموه من مجيء الدجال ثم المسيح المنتظر. ونحن نظن أن أبا العلاء يريد القول: الأديان لم تختم وقد يجد جديد

ومهما كان في دنياكَ أمرٌ ... فما تُخْلِيكَ من قَمَرٍ وَشَمْسِ

الثوابت في هذه الدنيا قليلة.. القمر والشمس مثلاً

وآخِرُها بأوَّلِها شبيهٌ، ... وتصبحُ في عجائبِها، وتُمسي
إذا قلتُ المُحالَ رفعتُ صوتي ... وإن قلتُ اليقينَ أَطَلْتُ هَمسي

إذا قلت أموراً مستحيلة ـ لكنها مما يعتقده الناس ـ رفعت صوتي، وإن قلت ما أوقن به ـ وهو ضد عقائد الناس ـ همست همساً

١٦٨ الشر المستطير

قد فاضتِ الدنيا، بأَدْنَاسِها، ... على بَراياها وأجناسِها

أدناسها: قاذوراتها، براياها: مخلوقاتها

والشرُّ في العالَمِ، حتى التي ... مكسَبُها من فَضْلِ عِرناسِها

الشر موجود في العالم كله.. وموجود حتى في المرأة المتعففة التي تكسب قوتها من عمل عرناسها، أي مغزلها

وكلُّ حيٍّ فوقَها ظَالِمٌ، ... وما بِها أظلَمُ من ناسِها

كل حي فوق الأرض ظالم، والأكثر ظلماً البشر

١٦٩ أفعى وحنش

عروسُكَ أفعَى، فَهَبْ قربَها، وخَفْ من سَليلِكَ، فَهْوَ الحَنَشْ

زوجتك أفعى وسليلك، أي ولدك، حنش، ثعبان

١٧٠ طريق الهدى

طُرُقُ الغَيِّ سَهْلَةٌ واسِعاتٌ، وطريقُ الهُدى كَسَمِّ الخِياطِ

طرق الضلال واسعة، وطريق الحق ضيق كثقب الإبرة

مَطْلَعٌ شَقٌّ، لا تَكَلَّفُهُ الضُّمَّـ ـرُ، إلَّا مَضروبةً بِالسِّياطِ

طريق الحق صاعد شاق لا تسير فيه الخيول المضمرة إلا وهي مضروبة بالسياط

١٧١ بقراط وسقراط

أعوذُ بِربِّيَ من سُخطِه وتفريطِ نفسي وإفراطِها

التفريط: تضييع الحق أو التهاون في العبادات، والإفراط: الإسراف في الضلال

وما دَفَعتْ حكماءُ الرِّجا لِ حَتْفاً بِحِكمَةِ بُقْراطِها

بقراط اليوناني: أبو الطب

ولكنْ يَجِيءُ قَضاءٌ يُريكَ أَخا غَيِّها مِثلَ سُقْراطِها

يأتي القضاء، الموت، فيجعلك ترى الغوي المفسد وسقراط سيان، فكلاهما يموت

١٧٢ الناس كالناس

الموتُ خيرٌ، وفيهِ لامْرِئٍ دَعَةٌ، إن يُضْرَبِ التُّرْبُ لا يَحْدُثْ له وَجَعُ

في الموت راحة، ويؤول المرء إلى تراب، والتراب إذا ضرب لا يتألم

تشابَه القومُ، في عِلمي: إذا جَبُنوا فلا أَلُومُ، ولا أُثْني إذا شَجُعوا

الناس متشابهون فإذا جبنوا لا ألومهم، وإذا شجعوا لا أثني عليهم

١٧٣ الطباع الثابتة

تغيَّرَ مُلكُ حِمْيَرَ ثم كِسْرى، ولم تَقبَلْ تَغَيُّرَها الطِّباعُ

وجدتُ الناسَ في جَبَلٍ وسهْلٍ، كأنَّهُمُ الذئابُ أو السباعُ

١٧٤ ما لا يستطاع

لـبـيـبُ الـقـومِ تـألَـفُـهُ الـرَّزايـا،   ويـأمُـرُ بـالـرشـاد، فـلا يُـطـاعُ

تألفه الرزايا: تنتابه المصائب دوماً

فـلا تَـأمُـلْ مـن الـدنـيـا صـلاحـاً،   فـذاكَ هُـوَ الـذي لا يُـسـتَـطـاعُ

١٧٥ الخير جميل على كل حال

عليكَ بِفعلِ الخيرِ، لو لم يكنْ له   من الفضلِ إلّا حسنُه في المَسامِعِ

لَعَمْرُكَ! ما في عالَمِ الأرضِ زاهِدٌ   يَقيناً، ولا الرهبانُ أهلُ الصَّوامِعِ

١٧٦ يكفيك ربعي

تـزوَّجَ بـعـد واحِـدةٍ ثـلاثـاً،   وقـال لِـعِـرْسِـهِ يـكـفـيـكِ رُبْـعـي

فَيُرْضيها، إذا قَنِعَتْ بِقُوتٍ،   ويَـرجُـمُـهـا، إذا مَـالَـتْ لِـتِـبْـعِ

التبع: الخليل

إذا مـا أعْـظُـمـي كـانـتْ هَـبـاءً،   فـإن الـلّـهَ لا يُـعْـيِـيـهِ جَـمْـعـي

١٧٧ تطليق الأم

مـا كـانَ في هـذه الـدنـيـا بنُـو زمنٍ،   إلّا وعـنـديَ مـن أخـبـارِهِـمْ طَـرَفُ

يُخَبِّرُ العقلُ أنَّ القومَ ما كَرُمُوا،   ولا أفـادُوا ولا طَـابُـوا ولا عَـرَفُـوا

إذا شَقِيتُ، فجسمٌ نالَهُ نَصَبٌ،   وإن تَـرِفْـتُ، فـمـاذا يـنـفَـعُ الـتَّـرَفُ؟

نصب: تعب

يـا أمَّ دَفْـرٍ، لَـحَـاكِ الـلّـهُ وَالـدةً،   منكِ الإضَاعَةُ والتفريطُ والسَّرَفُ

أم دفر: الدنيا، لحاك الله: لعنك

لو أنَّكِ العِرْسُ أوقَعْتُ الطلاقَ بِها،   لكنَّكِ الأمُّ، هل لِي عنكِ مُنصَرَفُ؟

العرس: الزوجة

١٧٨ شتائم متفرقة

يُنجِّمـونَ، ومـا يَـدرونَ لـو سُـئلـوا   عـن الـبَـعـوضـةِ، أنَّـى مـنـهُـمُ تَـقِـفُ

المنجمون يدعون العلم، وهم لا يعرفون أين تقف البعوضة على أجسامهم

وفَرَّقَتْهُمْ، على عِلَّاتِها، مِللٌ، وعند كلِّ فريقٍ أنَّهُمْ ثَقِفُوا

ثقفوا: ظفروا وفازوا

ولو دَرَتْ بِمَخازِيهِمْ بيوتُهُمُ هَوَتْ عليهِمْ ولم تُنْظِرْهُمُ السُّقُفُ

لم تنظرهم: لم تمهلهم، السقف: السقوف

١٧٩ اقرأ كلامي

ولا تقولَنْ، إذا ما جئتَ مُخْزِيَةً، قولَ الغُواةِ: على هذا مَضى السَّلَفُ

إذا فعلت فعلة شائنة فلا تقل ما يقوله الضالون من أنهم يسيرون على خطى آبائهم

اِقرأْ كلامي إذا ضَمَّ الثَّرى جسدي، فإنه لكَ مِمَّنْ قالَه خَلَفُ

اقرأ كلامي فهو يعبر عني وينوب عني بعد موتي. ها نحن نقرأ..

١٨٠ الفكر والعقل

الفكرُ حبلٌ متى يُمْسَكْ على طَرَفٍ منه يُنَطْ بالثُّريَّا ذلك الطَّرَفُ

المعني الملموح: بالتفكير تصل إلى نجوم السماء فكأنه حبل أوله في يدك وآخره في نجوم الثريا

والعقلُ كالبحرِ، ما غِيضَتْ غوارِبُهُ شيئاً، ومنه بنوُ الأيامِ تَغتَرِفُ

العقل كالبحر ما غيضت، انخفضت وجفت، غواربه، أمواجه، شيئاً، أي قليلاً، ويغترف الناس منه ومع ذلك لا ينقص..

أَبْني بِجَهلِيَ دَاراً لستُ مَالكَها، أقيمُ فيها قليلاً ثم أنصرِفُ

١٨١ العز عز الآخرة

خَابَ الذي سارَ عن دنياهُ مرتحِلاً، وليس في كفِّهِ من دينِهِ طَرَفُ

لا خيرَ لِلمرءِ إلَّا خيرُ آخرةٍ يُبقي عليه، فذاكَ العِزُّ والشَّرَفُ

والفقرُ أرحَمُ من مالٍ تبذِّرُه، إن افتقارَكَ مَأمونٌ به السَّرَفُ

الفقر أرحم من امتلاكك مالاً تبذره، فالفقير آمن من التبذير لأنه لا يستطيعه

١٨٢ النفاق والحلف

أمسى النفاقُ دُروعاً يُستَجَنُّ بها مِن الأذى، ويُقَوِّي سَرْدَها الحَلِفُ

النفاق مثل الدروع التي يستجن بها، يُتوارى بها ويحتَمى، والذي يقوِّي سرد هذه الدروع، أي نسجها، الحلف.. فالمرء منافق كاذب ويقوي نفاقه بأن يحلف

١٨٣ الصوفية

صُوفِيَّةٌ ما رَضُوا للصوفِ نِسبَتَهُمْ،   حتى ادَّعَوْا أنَّهُمْ من طَاعَةٍ صُوفُوا

الصوفيون لم يرضوا بأن يكون أصل تسميتهم لبسهم الصوف، فزعموا أن الله صافاهم، اصطفاهم واختارهم، لطاعتهم

١٨٤ ها قد عدنا يا صلاح الدين

تَهِيجُ صَغائِرُ الأشياءِ خطباً   جليلاً، ما سَناهُ بِمُسْتَشَفٍّ

صغائر الأمور تهيج، أي تثير، أمراً كبيراً لا يكون سناه، ضوءه مستشفاً، بادياً للعيان

وإن القتلَ في أُحُدٍ وبَدْرٍ   جَنَى القَتْلَيْنِ في نَهْرٍ وطَفٍّ

القتل الذي لحق بقريش في معركتي بدر وأحد كان سبب القتل الذي جري في نهر، في معركة النهروان بين علي والخوارج، وفي الطف، حيث قتل جند الأمويين الحسين بن علي وأهله. . أي أن الأحقاد لا تنسى. وقد ذكر المعري «النهروان» بلفظ «النهر» في قصيدة ألقاها على لسان الخيتعور أبي هدرش في «رسالة الغفران». تعليق أ. عبد الرحيم: [هذه فائدة جميلة. قالا في الخانجي وصادر: لا نعلم ما يريد بـ«النهر». وتغافل عنه عزيز زند ونصار! وفات بنت الشاطئ ذكر النهروان بفهرس الأماكن]

١٨٥ العنصر المشترك

توافَقَتِ اليهودُ مع النصارى   على قتلِ المسيحِ، بلا اختلافِ

وما اصْطَلَحُوا على تركِ الدَّنايا،   بل اصطَلَحُوا على شُرْبِ السُّلَافِ

ما اتفق عليه اليهود والمسيحيون ليس ترك الدنايا، الرذائل، بل تحليل شرب السلاف، أي الخمر

١٨٦ رغم عيوبي

لقد نَفَقَ الرَّدِيءُ، ورُبَّ مُرٍّ،   من الأقواتِ يُجعلُ في الصِّحافِ

نفق الرديء، مشى سوقه، وقد ترى الطعام المر الرديء يقدم في صحاف فاخرة

وأَكرَمني، على عيبي، رجالٌ،   كما رُوِيَ القَريضُ على الزِّحافِ

يحترمني بعض الناس رغم عيوبي، وذلك مثل بعض الشعر الذي يرويه الناس رغم ما وقع فيه من زحاف، والزحاف تغير في الوزن كجعل متفعلن بدل مستفعلن

١٨٧ توحيد السيوف

إذا ما أَلْحَدَتْ أممٌ بِجهلٍ، فقابِلْها بِتوحيدِ السيوفِ

يريد توحيد السيوف لمواجهة الملحدين. وثمة طباق كامن هنا، فمقابل التوحيد هناك تعديد غير مذكور، فبعض المسيحيين يجعل الذات الإلهية ثلاثة أقانيم

وهذي الأرضُ للمَلِكِ المُرَجَّى، نُلِمُّ بها، كإلْمامِ الضيوفِ

الأرض لله، ونحن نأتيها ضيوفاً

١٨٨ أيها الوالي

أيا وَالِيَ المِصْرِ لا تَظْلِمَنْ فكم جاءَ مثلُكَ ثم انصرَفْ

تَواضَعْ، إذا ما رُزِقْتَ العَلاءَ فذلكَ مما يزيدُ الشرَفْ

١٨٩ العزلة

فؤادُكَ خفَّاقٌ وبَرقُكَ خافِقُ وأعياكَ في الدنيا خليلٌ مُوَافِقُ

قلبك يخفق والبرق خافق، وأعجزك في الدنيا العثور على صاحب موافق. الشاعر العامي قد يبدأ قصيده بشطر لا معنى له.. فقط حتى تقعد القافية فيقول: «يا هويدلك يا هويدلي.. نارك ولا جنة هَلي» وأبو العلاء يصنعها كثيراً. تعليق أ. عبد الرحيم: [لا أرى هذا المطلع من تلك السبيل، فليس بالحشو. يقول: فؤادك مضطرم برجاء الآمال، ومنها أن يكون لك خليل موافق مؤنِس. في حين أن برقك لامعٌ كذوب، يُطمعك بلمعانٍ خاطف قبيل الغياب التام لتصير في ظلمة الحياة وحيدًا فريدًا!]

تخَيَّرْ، فإمَّا وَحْدَةٌ مثلُ ميتَةٍ، وإمَّا جَليسٌ في الحياةِ مُنافِقُ

اختر وحدة تشبه الموت، أو مجالسة المنافقين

١٩٠ سرقة السرور

أبى الدهرُ جوداً بالسُّرورِ؛ وإن دَنا إليه الفتى أو نالَهُ فَهوَ سَارِقُ

أبى الدهر أن يجود بالسرور؛ فإن نال المرء سروراً أو اقترب منه فهو يسرقه سرقة..

مَرازِبُ كِسرى ما وَقَتْ مُهجةً له وقيصرُ لم يَمنعْ رَدَاهُ البَطارِقُ

مرازب كسرى، قادته، لم يحموا نفسَه، وقيصر لم يمنع موته البطارق، قادته

ويَغْبُرُ في الأيامِ مَن طالَ عمرُه، فتغْبَرُّ، من طولِ البقاءِ، المَفارِقُ

يغبر، يبقى، من طال عمره فتغبرُّ مفارق رأسه، يشتعل فيها الشيب الذي هو كالغبار

١٩١ كلنا منافق

أُنافِقُ في الحياةِ كفعلِ غيري، وكلُّ الناسِ شأنُهُمُ النِّفاقُ
أعَلِّلُ مهجَتي، ويَصيحُ دهري ألا تَغدُو؟ فقد ذهبَ الرفاقُ

أعلل نفسي، أراضيها، وأقول لها إن البقاء على قيد الحياة نافع، والزمن يصيح بي: هلمَّ، ألا تذهب؟ فقد ذهب رفاقك

١٩٢ القمر والدرهم

ولْيحذَرِ الدعوَى اللبيبُ فإنها للفضلِ مَهلَكَةٌ، وخَطبٌ موبِقُ

ادعاء ما ليس فيك ينقص فضلك وهو خطب موبق، مهلك

لو قال بدرُ التِّمِّ: إنيَ دِرهَمٌ، قالتْ له السُّفهاءُ: أنتَ مُزَأْبَقُ

فلو قال البدر المكتمل إنني درهم، أي ادعى أنه أقل قيمة مما هو عليه، لقال له السفهاء: أنت درهم مزأبق، زائف.. فالناس لا يتركونك.. فلا تزعم بأنك جيد ولا بأنك سيء. كان الأديب الإنجليزي سومرست موم يتواضع بالقول إنه ليس أديباً بل قاص.. وبسرعة أخذ النقاد ينزعون عنه صفة الأدب

١٩٣ اللقاء المؤجل

لا تظلِمُوا الموتَى وإن طالَ المَدى إنـي أخافُ عليكُمُ أن تَلتَقُوا

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى بينكم وبينهم، أي ماتوا قبلكم بسنواتٍ طويلة، إني أخاف أن تلتقوا يوم القيامة

١٩٤ الزناديق

تَستَّروا بِأمورٍ في دِيانتِهِمْ، وإنما دينُهُمْ دينُ الزناديقِ
نكذِّبُ العقلَ في تصديقِ كاذِبِهِمْ، والعقلُ أولَى بإكرامٍ وتصديقِ

١٩٥ التجار قطاع طرق

يا تاجِرَ المِصْرِ! ما أنصفتَ سائمةً، كذَّبْتَها في حديثٍ منكَ مَنْسُوقِ

أيها التاجر في البلد ما أنصفت سائمة، ناساً مغفلين كالدواب، بكلامك المنمق

إن تَشْكُ قطعَ طريقٍ بالفلاةِ فَكَمْ قَطَعْتَ، من قبلُ، طُرْقَ الناسِ في السوقِ

تشكو من قطاع الطرق في الفلاة، البر، ولكنك قاطع طريق في السوق تسرق الناس

١٩٦ الله يعلم

أمَّا الحقيقةُ، فَهْيَ أني ذاهبٌ، والـلَّـهُ يـعـلـمُ بـالـذي أنـا لاقِ
وأَظُنُّني، من بعدُ، لستُ بِذاكرٍ ما كـانَ مـن يُـسـرٍ ومـن إمْـلاقِ

بعد موتي لن أتذكر ما كنت لقيت في الدنيا من يسر، غنى، وإملاق، فقر

١٩٧ لا يعاد له سبك

ضحِكْنا، وكان الضِّحْكُ منَّا سَفاهةً، وحُقَّ لِسُكَّانِ البَسيطةِ أن يَبْكُوا
يُـحَـطِّـمُـنـا ريـبُ الـزمـانِ كـأنَّـنـا زجاجٌ ولـكـنْ، لا يُـعـادُ لـه سَـبْـكُ

يحطمنا الزمن كأننا الزجاج، ولكن ليس كالزجاج الحقيقي الذي يمكن سبكه مرة أخرى بعد كسره

١٩٨ السبيل الواحد

إن لم يَكُنْ في سماءٍ فوقَنا بَشَرٌ، فليس في الأرضِ أو ما تحتَها مَلَكُ

إن لم يكن في السماء بشر فليس في الأرض ملائكة أو تحتها جن

كَمْ حَلَّ حيثَ تَبَنَّى الحيُّ من أُمَمٍ، ثم انقضَوْا، وسبيلاً واحداً سلَكُوا

حلت أمم كثيرة حيث تبنى، عمَّر، الإنسان.. وذهبوا جميعاً في طريق واحد هو الموت

إن تسألِ العقلَ، لا يوجِدْكَ مِن خبرٍ عـن الأوائـلِ، إلَّا أنَّـهُـمْ هَـلَـكُـوا

العقل يخبرنا بشيء واحد فقط: أن الناس ماتوا، وأما سوى ذلك من أخبار فلا سبيل للعقل عليها

١٩٩ عمل كلا عمل

عَـمَـلٌ كَـلا عَـمَـلٍ، ووقـتٌ فـائـتٌ، ويـدٌ إذا مـلَـكَـتْ رَمَـتْ مـا تَـمـلِـكُ

هي الدنيا، نعمل فيها ويذهب أثر عملنا، ويمر الوقت، ونكسب ونرمي ما نكسب.. ثم نذهب

وشُـخـوصُ أقـوامٍ تَـلُـوحُ، فـأمَّـةٌ قَـدِمَـتْ مُـجَـدَّدَةً، وأخـرى تـهـلِـكُ

وتقوم أمم وتهلك أمم

أمَّا الـجُـسـومُ فـلـلـتُّـرابِ مـآلُـهـا، وعَـيـيـتُ بـالأرواحِ أنَّـى تَـسـلُـكُ

عييت بالأرواح أنى تسلك: عجزت عن فهم مصيرها

٢٠٠ لا تصلوا علي

سأفعلُ خيراً ما استطعتُ، فلا تُقَمْ عليَّ صَلاةٌ، يوم أُصبحُ هالِكا

وفي الواقع فقد صلوا على المعري، بل وقف على قبره أربعة وثمانون شعراً يرثونه.. وختمت على قبره مئتا ختمة. ذلك أنه كان معلماً، وكان كثير التلاميذ، يا لزمننا الأخرق!

ويَنفِرُ عَقلي مُغْضَباً إن تركتُه سُدىً، واتَّبَعْتُ الشافعيَّ ومالِكا

٢٠١ الأُلوك

خَطَبتَ إلى الدنيا بجهلِكَ نفسَها، فلم تستطعْ فيما أردتَ سُلوكا

وهل يَنْكِحُ المَرءُ الموفَّقُ أمَّهُ، ولو أصبَحَتْ بين الرجالِ هَلُوكا؟

الهلوك: المتاجرة بجسدها

وكم حَلَّ فيها معشرٌ، بعد معشرٍ من الناسِ، عاشوا سُوقَةً ومُلوكا

السوقة: الناس العاديون الذي لا منصب رفيعاً لهم، والملوك: الولاة وكبار الموظفين في الدولة

فما بَلَغَتْهُمْ منكَ بعد رحيلِهِمْ أَلُوكٌ، ولا أَهْدَوْا إليكَ أَلُوكا

ألوك: رسالة

وقفتَ على أجداثِهِمْ وسألتَهُمْ، فما رَجَعُوا قولاً ولا سَأَلُوكا

أجداثهم: قبورهم، رجعوا قولاً: ردوا بكلام

ولا عِلْمَ لي من أمرِهِمْ غيرَ أنَّهُمْ لو انتبَهُوا من رَقْدةٍ عَذَلُوكا

لو انتبهوا من ضجعتهم القبرية للاموك

تخلَّفْتَ بعد الظَّاعِنينَ كأنَّهُمْ رَأَوْكَ أخا وَهْنٍ فما حَمَلُوكا

أنت بقيت حياً بعد الظاعنين، الراحلين، فكأنهم رأوك أخا وهن، ذا ضعف، فرفضوا أن يحملوك في القافلة معهم

٢٠٢ الأرِكَّة

بكلِّ أرضٍ أميرُ سَوْءٍ، يَضْرِبُ للناسِ شَرَّ سِكَّةْ

السكة: النقود

قد كَثُرَ الغِشُّ، واستعانتْ به الأشِدَّاءُ والأَرِكَّةْ

الأشداء: الأقوياء، الأركة: الركيكون.. الضعفاء. أنت تعرف لماذا اخترنا هذا البيت؟ لاستطرافنا كلمة الأرِكَّة طبعاً

٢٠٣ ليتك

تَباركتَ يا ربَّ العُلا، أنتَ صُغْتَها، فـليتَـكَ فـي أرزائِهـا لـم تُبَـارِكِ

أنت صغت الدنيا يا رب فتباركت، لكن.. ليتك لم تبارك في أرزائها، مصائبها

أعانِقُها عند الوَداعِ تَشَبُّثاً، وأيُّ وَداعٍ بين قالٍ وفارِكِ!

أعانق الدنيا وأنا أودعها متشبثاً بها، وأي وداع هذا بين قالٍ، كاره، وفارك، امرأة كارهة لرجلها!

٢٠٤ تحت التراب

بطنُ الترابِ كفانيِ شرَّ ظاهرِهِ، وبيَّن العَدْلَ بين العبدِ والـمَلِكِ

الدفن تحت التراب يكفيني شر العيش فوقه، والدفن يظهر العدل بين العبد والملك فالأموات سواسية في قبورهم

قد عشتُ عُمْراً طويلاً، ما عَلمْتُ به حِسَّاً يُحَسُّ لِجِنِّيٍّ ولا مَلَكِ

لم أشعر بوجود الجن ولا الملائكة

٢٠٥ بلا شريكة

مَتى تُشْرِكْ معَ امْرأةٍ سواها، فقد أخطأتَ في الرأيِ التَّريكِ

المعنى الملموح: إذا عدَّدْت على امرأتك أخطأت في الرأي التريك، في تركك الذي تركته وهو الزواج بواحدة فقط

فلو يُرجَى مع الشُّركاءِ خَيْرٌ لما كان الإلهُ بِلا شَريكِ

٢٠٦ الدين الحق

سبِّحْ وصَلِّ وطُفْ، بِمَكَّةَ، زائراً سبعينَ، لا سَبْعاً، فلستَ بِناسِكِ

جَهِلَ الديانةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ له أطماعُهُ، لم يُلْفَ بِالـمُتَمَاسِكِ

٢٠٧ المعصية وثقب اللؤلؤة

فلا تُعَلِّمْ صغيرَ القومِ مَعصِيةً، فذاكَ وِزْرٌ، إلى أمثالِهِ عَدَلَكْ

لا تعلم الصغير المعصية فهذا وزر، أي ذنب، سيعدلك، سيفضي بك، إلى ذنوب أخرى عندما يمارس الصغير المعاصي كبيراً

فالسِّلْكُ ما اسْطَاعَ يوماً ثَقْبَ لُؤلؤةٍ، لكن أصابَ طَريقاً نافِذاً، فَسَلَكْ

فتعليم الصغير المعصية هو فتح طريق له للدخول إلى المعاصي الكثيرة.. اللؤلؤة غير المثقوبة لا يدخل فيها السلك، الخيط الناظم، فإذا ثقبتها فقد يسرت دخوله مراراً

٢٠٨ الصباح والليل

الصبحُ أصبحُ، والظلا مُ كما تَراهُ، أَحَمُّ حَالِكْ

الصباح مشرق، والظلام أحم، أي أسود، حالك

يَتباريَانِ ويَسْلُكا نِ، إلى الوَرى، ضَيْقَ المَسَالِكْ

وهما يتنافسان في الدخول إلى الورى، الناس، كي يفنيا الأعمار

أَسَدانِ يَفترسانِ مَنْ مَرَّا به، فَأْبَهْ لِذلِكْ

فأبه لذلك: انتبه لذلك

أَوْدَى الملوكُ على احترا سِهِمُ، ولم تَبْقَ المَمالِكْ
لا يُكْذَبَنَّ مُؤَجَّلٌ: ما سالمٌ إلَّا كَهَالِكْ

لا ينخدعن من تأجل موته، فالسالم منا مثل الهالك

يا رِضْوَ! لا أرجُو لِقا ءَكَ، بل أخافُ لِقاءَ مَالِكْ

يا رضوان، خازن الجنة، لست راجياً دخول جنتك بقدر خوفي من لقاء مالك، خازن جهنم

٢٠٩ توكُّل

يا خَالِقَ البَدرِ وشمسِ الضُّحَى مُعَوَّلِي في كلِّ حَالٍ عليْكْ

كيف يفهم المستشرق هذا البيت؟ يفهمه: «يا خالق القمر والشمس، أنا متوكل عليك». وكيف يفهم العربي اللسان البيت؟ يرى فيه دعاء منغماً. يستدعي البيت في عقل العربي أناشيد كثيرة وأقوالاً من أقوال المتصوفة.. يذكرني البيت بتلبية حجاج بيت الله، لقافيته «عليكْ» = لبيك اللهم لبيكْ. وبدايته بـ «يا» الممدودة وبعدها «خالق» الممدودة فيها جأر بالدعاء. الآن فقط أدرك لماذا أكره كراهية شديدة الاستشهاد بالشعر في اللغة الإنجليزية وفي العربية أيضاً.. في الإنجليزية لا أفهم من دقائق الأشياء، ومن الإشارات الغامضة إلا القليل. وفي العربية تأخذني أبيات الشعر الواردة في سياق نثري بعيداً.. تأخذني إلى عالمها الخاص، ولغتها الخاصة. ولهذا السبب وحده، فأنا في المقدمات التي أعقدها في بدايات الفصول أحاول جاهداً تجنب الاستشهاد بالشعر، فإن اضطررت إلى بيت كتبته خالطاً إياه بالنثر، ولم أفرد له سطراً وحده، فأنا أستشهد بالبيت لداعٍ معنوي محض وليس لكي أجعل قارئي يعيش أجواءه. وأكتب ضمن القصائد شرح الأبيات بالحرف الصغير حتى يتجنب الشرح من استغنى عنه بيسر

وثمة مسألة أخرى مهمة، للشعر فيها ما ليس للنثر، هي مزية إن شئت، وهي عبء إن شئت. هي «المرجعية الوزنية». وكي أشرحها أقص عليك خبر صديقي ي. م. ن. الذي كان مجنون محمد عبد الوهاب وألحانه ـ ورغم أن صديقي رجل مصلٍّ فقد كان يلقب الموسيقار المعروف «سيدنا محمد». غفر الله له ـ. الشاهد في الموضوع أن صديقي كان يتذوق لعبد الوهاب أكثر ما يتذوق أغاني الخمسينات من قبيل «علشان الشوك اللي في الورد أحب الورد» وما إليها من نهاونديات كان عبد الوهاب يجاري فيها عصراً جديداً، وبالمقابل فإن ذوقي أنا كان يتسع لأقدم من ذلك بحكم السنّ، فأنا أحب ما يسمونه بعبد الوهاب القديم، فقد كان موسيقارنا يبعث نفسه من جديد في كل عقد من الزمان حتى يلقي القبض على مستمعين شباب جدد. ورغم أن بينه وبين بليغ حمدي الشاب ثلاثين سنة فقد أخذ عبد الوهاب يباريه في التجديد والتعصير، وكان الميدان حنجرة أم كلثوم. ثمة «مرجعية نغمية» لكل واحد منا، عرفها أحمد شوقي جيداً وقال فيها شعراً ـ ستجده في جزء رابع من كتابنا الكبير هذا، الذي بيدك جزؤه الثالث ـ. وكان لنا في عصور الشعر العربي المتطاولة «مرجعية وزنية». ها قد اقتربنا من الموضوع. كان عربي اللسان يسمع البيت «يا خالق البدر وشمس الضحى» فترن الكلمات في أذنيه رنيناً مزدوجاً. . ترن في أذنه أحرف المد، وعندما يأتي الشطر الثاني «معوَّلي في كل حال عليك» يرن في أذنه التشديد في كلمة «معوَّلي» فيحس كأن الشاعر يتضرع إلى ربه متشدداً. هذه واحدة. والثانية: يرن في أذن العربي اللسان الوزن. . (تَمْ تَمْ تَتَم ـ تَمْ تَمْ تَتَمْ ـ تمْ تَتَمْ) وحتى لو لم يعرف أن هذا الوزن يسمى بالبحر السريع، وأنه في عرف العروضيين (مستفلن مستفعلن فاعلن) فهو يحسه، ثم هو يسمعه من شيخه في الكتَّاب أو أستاذه في المدرسة مقروءاً قراءة صحيحة، ومنغماً. فهذه «المرجعية الوزنية» عنصر آخر يعمق الإحساس بالشعر. ومن ذا قال لك أيها الحداثي إن البشر لا يحبون الإيقاع، ومن ذا قال لك إن الرقص حرام؟ واليوم. . قرر العرب أن يبسِّطوا أوزانهم، فكان شعر التفعيلة، ثم قرروا مرة أخرى أن يجعلوا الشعر بلا إيقاع وزني، مكتفين بتوالي أحرف المد والشد، وسموا ذلك «الموسيقى الداخلية». عندما يخرج الرزُّ من بين يدي ربة البيت مبزِّراً غير ناضج تجرشه الأضراس جرشاً، فخير ما تصنعه تلك السيدة أن تقول لزوجها: هذا رز «آل دانتيه» على الطريقة الإيطالية. وعليه أن يصدقها، وأن يستمتع بهذا الجريش

٢١٠ التقمص

يقولونَ: إنَّ الجسمَ يُنقَلُ رُوحُهُ إلى غيرِهِ، حتى يهذِّبَها النَّقْلُ

أهل التقمص يقولون إن الروح تنتقل بالموت إلى جسم آخر يكون أشرف من الأول إن كان الإنسان صالحاً فالروح تتهذب بالانتقال وتسمو

فلا تَقْبَلَنْ ما يُخبرونَكَ ضِلَّةً، إذا لم يُؤَيِّدْ ما أَتَوْكَ بهِ العَقْلُ

لا تقبل كلامهم المضلل، وحكم عقلك

٢١١ القارئ المترنم

وكَمْ مِن فَقيهٍ خابِطٍ في ضَلالَةٍ، وحُجَّتُه فيها الكتابُ المُنَزَّلُ
وقَارِئُكُمْ يرجُو بِتَطْريبِه الغِنَى، فآضَ كما غَنَّى لِيكْسِبَ زُلْزُلُ

قارئ القرآن يترنم به راجياً نيل مال على قراءته، فقد آض، أي أصبح، مثل المغني المشهور «زلزل» الذي يغني ليكسب

٢١٢ الساعات الساعيات

نَقضي المَآرِبَ، والسَّاعاتُ ساعِيةٌ، كأنَّهُنَّ صِعَابٌ تَحتَنا ذُلُلُ

نقضي المآرب، الحاجات في هذه الدنيا، والساعات تسعى بنا كأنها صعاب، إبل صعبة، لكنها تحتنا ذلل، أي إبل مذللة سهلة القياد.. فالساعات تسير بنا نحو الموت

واللَّهُ يَقْدِرُ أن يُفنيِ بَرِيَّتَهُ، مِن غيرِ سقمٍ، ولكنْ جُندُهُ العِلَلُ

يمكن لله إماتتنا بغير المرض، ولكنه يتخد من العلل، الأمراض، جنداً ينفِّذون فينا حكم الإعدام

٢١٣ دين وكفر

دينٌ وكفرٌ، وأنباءٌ تُقَصُّ، وفُرْ قانٌ يُنَصُّ، وتَوراةٌ، وإِنجيلُ

ينص: يرفع ويتم إسناده

في كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدَانُ بِها، فهل تَفَرَّدَ يوماً بِالهُدى جيلُ؟

٢١٤ كلام له ما وراءه

قلتُمْ: لنا خالقٌ حكيمٌ، قلنا: صدقْتُمْ كذا نَقولُ
زعَمْتُمُوهُ بِلا مَكانٍ ولا زمانٍ، ألَا فَقولُوا:
هذا كَلامٌ لَه خَبيءٌ، مَعنَاهُ ليستْ لنا عُقُولُ

خبيء: معنى مستتر

٢١٥ لو..

ما أَطيَبَ العيشَ عند قومٍ لو أنَّه كانَ لا يَزولُ

عند قوم؟ بل عند كل قوم يا عم!

٢١٦ مسيرون لا مخيرون

إنْ كانَ مَن فَعَلَ الكبائِرَ مُجْبَراً، فعِقابُهُ ظُلْمٌ على ما يَفْعَلُ
واللَّهُ، إذ خَلَقَ المعادِنَ، عَالِمٌ أنَّ الحِدادَ البِيضَ منها تُجْعَلُ

الله يعلم، إذ خلق الحديد، أن السيوف الحداد، الحادة، البيضاء اللامعة ستصنع من هذا الحديد..

٢١٧ جهلٌ كلُّه

يَتحارَبُ الطَّبْعُ الذي مُزِجَتْ به مُهَجُ الأَنامِ، وعَقْلُهُمْ فَيَفُلُّهُ
الطبع والعقل يتحاربان.. والطبع يثلمه ويغلبه

ويَظَلُّ يَنْظُرُ، ما سَناهُ بِنافعٍ، كالشمسِ يَسْتُرُها الغمامُ وظِلُّهُ
العقل ينظر ولا ينفعه سناه، ضوءُه.. فكأنه الشمس التي يستر ضوءَها الغيم

حتى إذا حضرَ الحِمامُ، تبيَّنُوا أن الذي فعلوهُ جهلٌ كلُّهُ
وبحضور الموت يتضح للناس أن كل ما فعلوه وفكروا فيه بعقولهم جهل

٢١٨ الدهر الهاجي

لو نطقَ الدهرُ هَجا أهلَه، كأنه الرُّومِيُّ أو دِعْبِلُ
كأن الدهر الشاعران الهجاءان ابن الرومي أو دعبل الخزاعي

فليتَ حَوَّاءَ عَقيمٌ غَدَتْ لا تَلِدُ الناسَ ولا تَحْبَلُ

٢١٩ أبونا الفسل

فَسْلٌ أبُو عَالَمِنا آدمٌ، ونحن مِنْ والِدِنا أفْسَلُ
أبونا آدم فسل، أي صغير القدر، ونحن أصغر منه قدراً

والأرضُ لِلطُّوفانِ مُشتاقةٌ، لعلَّها مِن دَرَنٍ تُغسَلُ
درن: وسخ

٢٢٠ حسن الختام

جميعُنا يَخْبِطُ في حِنْدِسٍ، قد اسْتَوى النَاشِئُ والكَهْلُ
الحندس: الظلام

حانَ رَحيلُ النَّفْسِ عن عَالَمٍ   مَا هُوَ إلّا الغَدْرُ والجَهْلُ
إنْ خَتَمَ اللَّهُ بِغُفْرَانِه   فكلُّ ما لاقَيْتُهُ سَهْلُ

٢٢١ حب الغنى

تَبغي الثَّراءَ، فتُعْطَاهُ وتُحْرَمُهُ،   وكلٌّ قَلْبٍ على حبِّ الغِنَى جُبِلا

٢٢٢ العاقل والدِّين

هَفَتِ الحنيفةُ، والنَّصارَى ما اهتَدَتْ،   ويَهودُ حَارَتْ، والمَجُوسُ مُضَلَّلَةْ

هفت: من الهفوة، غلطت

اِثْنانِ أهلُ الأَرضِ: ذو عقلٍ بِلا   دينٍ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عَقْلَ لَهْ

ستتعب الملتمسين لك وجه إيمان يا أبا العلاء مع بيت كهذا

٢٢٣ إمام المسجد

طَلَبَ الخَسَائِسَ، وارْتَقَى في مِنبرٍ،   يَصِفُ الحِسَابَ لِأُمَّةٍ لِيَهُولَها

إمام يطلب الرزق الخسيس في مهنته ويصعد المنبر ليهول الناس، أي ليخوفهم، من الحساب في الآخرة

ويكونُ غيرَ مُصَدِّقٍ بِقِيامَةٍ،   أَمْسى يُمَثِّلُ، في النفوسِ، ذُهولَها

وهو رجل جشع همه معيشته وتحصيل رزقه ولا يصدق في أعماق أعماقه بالقيامة، لكنه يصف لنفوس مستمعيه الذهول الذي يعتري الناس فيها. أ. عبد الرحيم: [حدثني المسيري، ﷺ، عن إمام ببلدته دمنهور، كان ملحدًا، وكان يستغفل الناس ويخطب بأشعار البياتي! لا أدري لِمَ البياتي بالذات؟! وكتب هذا في سيرته]

٢٢٤ المفترون

لا يَكْذِبِ الناسُ على ربِّهِمْ،   ما حُرِّكَ العرشُ، ولا زُلْزِلا

فليتورع الناس عن الكذب على ربهم، أي الافتراء بحقه، والقول بأن عرشه يزلزل لما يرتكبه العصاة من الكبائر، فعرش الله لا يزلزل

أَمَلَّني الدهرُ بِأحداثِه،   فاشْتَقْتُ، في بَطْنِ الثَّرى، مَنزِلا

أسأمني الدهر بمصائبه، وصرت مشتاقاً إلى منزلي في بطن الأرض، أي القبر

٢٢٥ عش بخيلاً

عِشْ بَخيلاً، كأهلِ عَصْرِكَ هذا   وتَبالَهْ، فإنَّ دَهْرَكَ أبْلَهْ

تباله: ادَّعِ البله والغباء

إن تُرِدْ أن تَخُصَّ حُرّاً، مِنَ النا   سِ، بِخَيْرٍ، فَخُصَّ نفسَكَ قَبْلَهْ

٢٢٦ إمامي عقلي

لقد صَدِئَتْ أفهامُ قومٍ، فهل لها   صِقالٌ، ويَحتَاجُ الحُسامُ إلى الصَّقْلِ؟

وكمْ غَرَّتْ الدنيا بَنيِها؛ وسَاءَني   معَ الناسِ، مَيْنٌ في الأَحاديثِ والنقلِ

مين: كذب

سَأَتْبَعُ مَن يَدعُو إلى الخيرِ جاهداً،   وأرحلُ عنها، ما إمامِي سِوى عَقْلي

إمامي: دليلي

٢٢٧ تعب الرسل

إذا كنتَ تُهدي لي، وأجْزِيك مِثْلَهُ،   فإن الهَدَايا بينَنا تَعَبُ الرُّسْلِ

ما دامت الهدايا مِثْلاً بمثْل فليس من ورائها سوى تعب سعاة البريد

٢٢٨ يضمحل

أَخِلْتَ عَمودَ الدِّينِ في الأَرضِ ثابتاً   وفي كلِّ يومٍ يَضْمَحِلُّ على مَهْلِ؟

٢٢٩ صلى الله على محمد

دعَاكُمْ إلى خيرِ الأمورِ محمدٌ،   وليسَ العَوالي في القَنا كالسَّوافِلِ

ليست الرماح العالية المصوبة للأعداء كالسوافل المنكسة

وأَلزَمَكُمْ ما ليسَ يُعْجِزُ حَمْلُهُ   أخَا الضعفِ مِنْ فَرْضٍ لهُ ونَوافِلِ

ألزمكم بأمور لا يُعجز حملُها الإنسانَ الضعيف من فروض ونوافل، عبادات إضافية

وحَثَّ على تطهيرِ جِسمٍ ومَلْبسٍ،   وعاقبَ في قَذْفِ النساءِ الفَواضِلِ

عاقب على قذف النساء الفاضلات، اتهامهن بالباطل

فَصَلَّى عليهِ اللَّهُ، مَا ذَرَّ شَارِقٌ، وما فَتَّ مِسْكاً ذِكْرُهُ في المَحافِلِ

صلى الله على محمد كلما ذر شارق، طلعت الشمس، وكلما عطّر ذكره المجالس كأنه تفتيت المسك فيها

٢٣٠ أعاني منفرداً

وهَوَّنَ أَرْزَاءَ الحَوادِثِ أَنَّني وحيدٌ، أُعانِيها بِغيرِ عِيالِ

فَدَعْنِي وأهْوالاً أمَارِسُ ضَنْكَها، وإياكَ عَنِّي، لا تَقِفْ بِحِيالي

التسويد من أحمد عبد الرحيم، وأضاف: [هذا بيت شديد]

٢٣١ بعد الخمسين هبوط فقط

إذا أَنافَ على الخمسينَ بَالِغُها فَلْيُضْمِرِ اليأسَ مِن سَعْدٍ وإقبالِ

إذا أناف المرء، أي زاد، عن الخمسين سنة فليضمر في قلبه يأساً من السعد، الحظ الحسن، والإقبال، إشراق الدنيا في وجهه

٢٣٢ أقدار مرتَّبة

لم يَسْقِكُمْ ربُّكُمْ عن حُسْنِ فِعْلِكُمُ ولا حماكُمْ غَماماً سوءُ أعمالِ

لا يُنزل الله المطر عليكم لحسن فعلكم ولا يحميكم الغمامَ، يمنعكم من الغيم، لسوء أعمالكم

وإنَّما هِيَ أقْدارٌ مرتَّبَةٌ، ما عُلِّقَتْ بإِسَاءَاتٍ وإجمالِ

هذه أقدار مرتبة سلفاً بقانون لا يتغير، ولا علاقة لها بإساءات أو بإجمال، أي بصنع الفعل الجميل

دَليلُ ذلك أن الحُرَّ أَعْوَزَهُ قُوتٌ، وأن سِواهُ فازَ بِالمالِ

والدليل على أن الأمر بقانون ثابت أن الشخص الحر يعوزه الطعام، بينما غيره من لئام الناس يثري

٢٣٣ كلهم ساقطون

لو غُرْبِلَ الناسُ، كيما يَعدِمُوا سَقَطاً لَمَا تَحَصَّلَ شيءٌ في الغرابيلِ

لو غربلنا الناس بالغرابيل، المناخل الكبار، لكي يتم التخلص من السقط، الزؤان والشوائب، لسقط الناس من فتحات الغرابيل لأنهم كلهم شوائب.. وما بقي شيء

هل يَنظرونَ سوى الطُّوفانِ يُهْلِكُهُمْ كما يُقالُ، أوِ الطيرِ الأَبابيلِ؟

٢٣٤ كل شيء هالك إلا وجهه

نـمـوتُ لِأَنّـنـا حُـلَـفَـاءُ نَـقْـصٍ، ويـبـقَـى مَـنْ تَـفَـرَّدَ بِـالـكـمـالِ

حلفاء نقص: ذوو نقص وعيوب

٢٣٥ أبو النزول

عَـرَفْـتُـكِ جـيِّـداً، يـا أُمَّ دَفْـرٍ، ومـا إن زِلْـتِ ظَـالِـمـةً فَـزُولـي

أم دفر: الدنيا، ما إن زلت: ما زلتِ

دُعـيِـتُ أبـا الـعـلاءِ، وذاكَ مَـيْـنٌ، ولـكـنَّ الـصَّـحـيـحَ أبُـو الـنُّـزولِ

مين: كذب

٢٣٦ أنا وأنتم وصالح

نَـجَّى الـمَـعـاشِـرَ مِـنْ بَـراثِـنِ صَـالِـحٍ رَبٌّ يُـفَـرِّجُ كـلَّ أمـرٍ مُـعْـضِـلِ

نجى الله الناس من مخالب الأمير صالح بن مرداس، وهو يفرج كل أمر صعب

ما كـان لـي فـيـهـا جـنـاحُ بَـعُـوضَـةٍ، والـلّـهُ أَلـبَـسَـهُـمْ جَـنـاحَ تَـفَـضُّـلِ

وليس لي في الأمر جناح بعوضة، أي أدنى تأثير، والله هو من ألبس الناس جناح فضله وحمايته. وكان أهل المعرة أرسلوا أبا العلاء شفيعاً إلى صالح في قضية، انظر القطعة ١٠١

٢٣٧ موت الوليد

أَعَـجِـبْـتَ لـلـطـفـلِ الـولـيـدِ بـمـهـدِه، لـم يَـخْـطُ، كـيـف سَـرى بِـغـيـرِ رَواحِـلِ

هل تتعجب من الطفل الوليد في مهده، ولما يمشِ، كيف سرى، سار، بغير رواحل، بدون إبل.. أي أنه مات

قـد عـاشَ يَـوْمَـيْـهِ وعُـمِّـرَ ثَـالـثـاً، ثـم اسـتـراحَ مِـنَ الـمَـدَى الـمُـتَـمَـاحِـلِ

المتماحل: البعيد

كـم سـارَ مِـن سَـنَـةٍ أبُـوه، فـيـا لـه، قَـطَـعَ الـمـسـافـةَ فـي ثَـلاثِ مَـراحِـلِ

أبوه سار سنين كثيرة، ولكن الرضيع قطع المسافة في ثلاث مراحل، في ثلاثة أيام فقط.. فكأن الوصول للموت هو النهاية السعيدة

رُفِعَتْ له لُجَجُ البِحارِ فَعامَها، ونَجا وأَصبحَ سَالِماً بِالساحِلِ

رفعت، أي ظهرت، للولد لجج البحار، مياهها العميقة، فسبح فيها ونجا من شرور الحياة ووصل سالماً إلى ساحل الموت

٢٣٨ الأذى الغافل

حَبَّذا العيشُ، والزمانُ غَريرٌ والفتى ما استَجَدَّ حُلَّةَ كَهْلِ

ما أجمل العيش والزمان غرير، صغير غير مجرب.. يقصد والفتى صغير عُمراً، ولم يجدد لباس الشباب بلباس الكهولة

وخُمولي يَذودُ عني الرَّزَايا، نامَ عنيِ الأذى فلم ينتَبِهْ لي

خمولي، عدم شهرتي، يذود عني الرزايا، يدرأ عني الشرور، فلا ينتبه لي الأذى

٢٣٩ قريش الزائلة.. ومكة!

سَيسأَلُ نَاسٌ: ما قُرَيشٌ ومكةٌ، كما قال ناسٌ: ما جَديسٌ وما طَسْمُ؟

جديس وطسم: من الأمم البائدة

٢٤٠ الاستسقاء العبثي

قَضى اللَّهُ في وقتٍ مضى أن عَامَكُمْ يقِلُّ حَياهُ، أو يَزيدُ به السَّجْمُ

قضى الله قديماً أن عامكم سيقل حياه، أي مطره، أو سيزيد به السجم، المطر

فَقولُكُمُ «رَبِّ اسْقِنا»، غيرُ مُمْطِرٍ. ولكنْ بِهذا دَانَتِ العُرْبُ والعُجْمُ

لذا فقولكم: «رب اسقنا» لا يأتي بالمطر.. ولكن هي عادة

على كلِّ شيءٍ تَهجُمُونَ بِجَهْلِكُمْ، وأعياكُمُ يوماً، على رَشَدٍ، هَجْمُ

٢٤١ المجهول

سأرحَلُ عن وَشْكٍ ولستُ بِعالِمٍ، على أيِّ أمرٍ، لا أَبالَكَ، أَقْدَمُ

سأرحل قريباً ولا أعرف إلى أي شيء أنا قادم

فإن لم تَكُنْ إلَّا الحياةُ وبيْنُها فلستُ على أيَّامِها أتَنَدَّمُ

إن كان الأمر كله هذه الحياة وبينها، رحيلي عنها، فلست نادماً على أيامها

٢٤٢ العقيم

إذا شِئتَ يوماً وُصْلَةً بِقَرينةٍ، فخيرُ نساءِ العالمينَ عقيمُها

٢٤٣ الناس للناس

الناسُ بِالناسِ مِن حُضْرٍ وبَادِيَةٍ بعضٌ لِبعضٍ، وإن لم يَشعُروا، خَدَمُ

٢٤٤ ما أعتاكم!

كم تُوعَظونَ فلا تلينُ قلوبُكُمْ، فتَبارَكَ الخلَّاقُ، ما أَعْتَاكُمُ!

ما أعتاكم: ما أشد ظلمكم

إن الضَّلالَةَ كالغَريزَةِ فيكُمُ، يَأوي إليها كهلُكُمْ وفَتاكُمُ

٢٤٥ أمك ثم أمك

تصدَّقْ على الأعمى بِأخذِ يمينِهِ، لِتَهدِيَهُ، وامْنُنْ بإِفهامِكَ الصُّمَّا

امنن: تكرَّمْ

وأَعطِ أَباكَ النِّصْفَ حيَّاً وميِّتاً، وفَضِّلْ عليهِ مِن كرامتِها الأُمَّا

النصف: العدل

أَقَلَّكَ خِفَّاً، إذ أَقَلَّتْكَ مُثْقِلاً، وأَرضَعَتِ الحولَيْنِ واحتَمَلَتْ تِمَّا

أبوك حملك خفيفاً في صلبه، وأمك حملتك ثقيلاً في بطنها، وأرضعتك عامين واحتملت إتمامهما. إشارة إلى الآية «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين..»

وأَلقَتْكَ عن جَهْدٍ، وأَلْقاكَ لَذَّةً، وضَمَّتْ وشَمَّتْ مثلما ضَمَّ أو شَمَّا

ألقتك، ولدتك، عن جهد، بصعوبة، وأما الأب فألقاك لذة. وهي حَنَت عليك وضمتك وشمتك مثل الأب لا أقل

٢٤٦ ابن وقتي

إذا مَرَّ أعمى، فارحمُوهُ وأَيْقِنوا، وإن لم تُكَفُّوا، أن كُلَّكُمُ أعمى

وإن لم تُكَفوا: إن لم تكونوا كفيفين

غَدَوْتُ ابنَ وَقتِي، ما تَقَضَّى نَسِيتُه وما هُوَ آتٍ لا أُحِسُّ له طَعْما

٢٤٧ قطع الرحم

نَفَضْتُ عني تُراباً، وَهْوَ لي نَسَبٌ   وذاكَ يُحسَبُ مِن قطْعِ الفتَى الرَّحِما

نفضت التراب عن ثيابي.. وأنا مخلوق من تراب.. فكأنني متنكر لأصلي وقاطع رحمي

٢٤٨ مقايضة

من بَاعَني بِحياتِي مِيتَةً سُرُحاً   بَايَعْتُه، وأَهانَ اللَّهُ مَن نَدِمَا

من يقايضني بحياتي ميتة سرحاً، سهلة، فسوف أقبل المقايضة، ولعن الله من يندم ويتراجع

فالآنَ شَارَفْتُ جيشَ الحَتْفِ، واقتَربَتْ   دارٌ أكادُ إليها أَرْفَعُ القَدَما

لقد شارفت جيش الحتف، اقتربت من الموت، واقتربت مني دار أكاد أرفع قدمي لدخولها

وشَادَ إيوانَ كسرى معشرٌ طلبوا   ثباتَه، وتَمادَى الوقتُ، فانْهَدَما

٢٤٩ عدو من صلبك

وجدتُ المَوتَ لِلحيوانِ داءً   وكيف أُعالِجُ الداءَ القَديما!

الحيوان: الأحياء من بشر وحيوانات

وما دنياكَ إلّا دَارُ سَوْءٍ،   ولستُ على إساءَتِها مُقيما

أرى وَلَدَ الفتى عبئاً عليه،   لقد سَعِدَ الذي أمسى عقيما

أمَا شاهدتَ كلَّ أبِي وَليدٍ   يَؤُمُّ طريقَ حَتْفٍ مُستَقيما؟

يؤم: يتجه

فإمَّا أنْ يُربِّيَه عَدُواً،   وإما أن يخلِّفَه يتيما

الأب يربي ابنه ليصبح عدواً له، أو ليموت عنه ويتركه يتيماً

٢٥٠ جلوس على السياج

قالَ المنجِّمُ والطبيبُ كِلاهما: لا تُحشَرُ الأجسادُ. قلتُ: إِلَيْكُما

إليكما: ابتعِدا

إن صحَّ قولُكما، فلستُ بِخاسِرٍ،   أو صحَّ قولِي، فالخَسَارُ عليْكُما

٢٥١ الكذب آخر الدواء

أُصْدُقْ إلى أن تَظُنَّ الصِّدْقَ مَهْلَكَةً   وعـنـد ذلـك فـاقـعُـدْ كـاذِباً وقُـمِ

ابق صادقاً إلى أن تشعر بأن الصدق سيؤدي بك إلى الهلاك فعندئذ اكذب

٢٥٢ لا أعيِّد

لَـعـمـرُكَ، مـا أُسَـرُّ بـيـومِ فِـطْـرٍ،   ولا أَضْـحَـى، ولا بِـغَـديـرِ خُـمِّ

غدير خم: يوم يحتفل فيه الناس، وخصوصاً الشيعة، وعند هذا الغدير برأ النبي ساحة علي من تهم نسبت إليه، ويقول الشيعة إن النبي أعلن علياً وصياً هناك

وكـم أَبـدَى تَـشَـيُّـعَـهُ غَـوِيٌّ   لأجـلِ تَـنَـسُّـبٍ بِـبـلادِ قُـمِّ

كثيراً ما يبدي شخص غوي ضال تشيعه لمجرد انتسابه لقم في إيران، وهي مدينة كان سكانها منذ القدم من الشيعة

٢٥٣ فرعون كموسى

دنـيـاهُـمُ نـارٌ بـلا جـنـةٍ   فـالـقـومُ مـنـهـا فـي عـذابٍ ألـيـمْ
مـا نـالَ فِـرعـونُ بـهـا نـعـمـةً،   ولا صـفَـا عـيـشٌ لِـمُـوسى الكـلـيـمْ

الكليم: الذي كلمه الله في سيناء

٢٥٤ كلنا أعمى

خَـالِـقٌ، لا يُـشَـكُّ فـيـه قـديـمٌ،   وزمـانٌ، عـلـى الأنـامِ، تَـقـادَمْ
جـائِـزٌ أن يـكـونَ آدَمُ هـذا،   قـبـلَـه آدمٌ عـلـى إثْـرِ آدَمْ
لـسـتُ أَنْـفـي عـن قـدرةِ الـلَّـهِ أشبا   حَ ضـيـاءٍ، بـغـيـرِ لـحـمٍ ولا دَمْ

لا أنفي وجود الملائكة

وبَـصـيـرُ الأقـوامِ مِـثـلِـيَ أعـمـى   فـهَـلُـمُّـوا فـي حِـنْـدِسٍ نـتـصَـادَمْ

البصير مثلي أعمى فيما يتعلق بعالم الغيب، فتعالوا في هذا الحندس، الظلام، نتصادم

٢٥٥ الحجة والسيف

أَتَـوْكُـمْ بِـإقـبَـالِـهِـمْ والـحُـسـامِ   فَـشَـدَّ بـهِ زَاعِـمٌ مـا زَعَـمْ

أتاكم الغزاة بإقبالهم، بحظهم الذي أقبل عليهم، وبالسيف؛ فشدوا بالسيف من حجتهم التي زعموها

تَـلَـوْا بـاطِـلاً، وجَـلَـوْا صـارمـاً، وقـالـوا: صـدقْـنـا! فـقُـلْـتُـمْ: نـعـمْ!

تلوا حججهم وهي باطل، وجلوا صارماً، أظهروا سيفاً، وقالوا صدقنا، فقلتم نعم

أَفـيـقُـوا، فـإن أحـاديـثَـهُـمْ ضِـعـافُ الـقَـواعِـدِ والـمُـدَّعَـمْ

أحاديث هؤلاء الغزاة ضعيفة القواعد، لا سند لها ولا دعامة

٢٥٦ مغفرة الله

إذا مَـدَحُـوا آدمِـيَّـاً مَـدَحْـ ـتُ مَوْلَـى الـمَوالـيِ، وربَّ الأُمَمْ

لـه سَجَـدَ الشَّـامِـخُ الـمُـشْـمَـخِرُّ عـلـى مـا بِـعِـرنـيـنِـه مِـن شَـمَـمْ

سجد لله الشامخ المشمخر، المرتفع المتكبر، رغم ما بعرنينه، بأنفه، من شمم، من ارتفاع

ومَـغـفـرةُ الـلَّـهِ مَـرجُـوَّةٌ إذا حُـسِـبَـتْ أَعـظُـمـيِ فـي الـرِّمَـمْ

الرمم: الرفات

فـيـا لـيـتَـنـيِ هـامِـدٌ، لا أقـومُ إذا نَـهَـضُـوا يـنـفُـضُـونَ الـلِّـمَـمْ

اللمم: جمع «لِمَّة» وهي شعر الرأس

ونَـادى الـمُـنـادِي عـلـى غَـفْـلَـةٍ فـلـم يـبـقَ فـي أُذُنٍ مِـن صَـمَـمْ

وجـاءتْ صَـحـائِـفُ قـد ضُـمِّـنَـتْ كَـبـائِـرَ آثـامِـهِـمْ والـلَّـمَـمْ

اللَّمم: جمع «لَمَّة» الذنوب الصغيرة

٢٥٧ أفضل ثوب

ما كان في الأرضِ مِن خَيرٍ ولا كَرمٍ فَضَلَّ مَن قالَ: إن الأكرَمينَ فَنُوا

لم يكن في الناس كرم ولا خير قط، فقد أخطأ من قال إن الأكرمين فنوا فناء، فهم لم يوجدوا أصلاً

أَعْفَى الـمنازِلِ قبرٌ يُستراحُ به، وأفضلُ اللُّبْسِ، فيما أعلمُ، الكَفَنُ

أعفى: أسهل

٢٥٨ من أين عرفوا؟

يُخَبِّرونَك عن ربِّ العُلى كَذِباً، ومـا دَرى بِـشـؤونِ الـلَّـهِ إنـسـانُ

ما كانَ، في هذه الدنيا، أخُو رَشَدٍ ولا يكونُ، ولا في الدهرِ، إحسانُ

٢٥٩ فسد الأمر

بِئْسَتِ الأمُّ، لِلأنامِ، هِيَ الدنـ ـيا، وبئسَ البنونَ للأمِّ نحنُ
فَسَدَ الأمرُ كلُّه، فاترُكُوا الإعـ ـرابَ، إن الفصاحةَ اليومَ لَحْنُ

فسد كل شيء فاتركوا تشكيل الكلمات في حديثكم فقد أصبحت الفصاحة في زمننا هي اللحن، الخطأ النحوي. كان لي صاحب يلاقيني فيسألني عن الأحوال فأقول له عبارتي الخالدة: «خالصة مالصة» ومعناها لا شيء جديداً، فيضحك ضحكة صفراء، ثم يبدأ بالشكوى من كل شيء، ويعلم الله أن صديقي ذاك كان مثرياً، وأنه ظل يصعد من حال إلى حال، يشتري الأطيان والعقار، ولكنه لم يغادر الشكوى، وشتْم الزمان. وأبو العلاء مثله.. ولكن أبا العلاء فصيح ويركب الكلام تركيبات معجِبة، وهو خفيف الظل مَرِحٌ مرحاً خفياً.. حتى في تركيب كلماته الشكوية ثمة ألعاب على الكلام، وثمة عبث طِفلي بهذه اللغة.. لقد أسلف المعري فدفع ثمناً كبيراً هو انصرافه عن ملذات الدنيا، ويريد مقابل ذلك أن يعذبنا بشكواه وتأففاته

٢٦٠ أنفاس تتقضَّى

نَفَسٌ بعدَ مثلِه يَتَقَضَّى فتمُرُّ الدهورُ والأَحْيَانُ

أنفاس الإنسان تتوالى كأنها دقات القنبلة الموقوتة، وتمر الأحيان، أي الأوقات. هذا يذكِّر ببيت شوقي: دقات قلب المرء قائلة له/ إن الحياة دقائق وثوان

قد تَرامَتْ إلى الفسادِ البَرايا، واستَوَتْ في الضَّلالَةِ الأدْيانُ

رمت البرايا، المخلوقات، نفسها على الفساد وتساوت الأديان في الضلال

٢٦١ رفض الخمر

لو كانتِ الخمرُ حِلّاً ما سَمَحْتُ بها لِنَفْسِيَ، الدهرَ، لا سِرّاً ولا عَلَنا
فَلْيَغْفِرِ اللّهُ؛ كم تَطْغَى مآرِبُنا، وربُّنا قد أَحَلَّ الطيِّباتِ لَنا

٢٦٢ قلة الديانة

جَمْجَمَ هذا الزمانُ قَوْلاً، وكلُّنا يَرتَجي بَيانَهْ

جمجم الزمان، تمتم وقال كلاماً غير مفهوم، ونحن نرجو بيانه، إفصاحه

وحَدَّثَتْنا الشيوخُ أمْراً، وما ادَّعَى مخبِرٌ عِيانَهْ

الشيوخ، أي الكبار في السن، حدثونا بأمر ولكن لم يزعم أحد أنه رآه عياناً

دنياكَ دارٌ قدِ اصْطَلَحْنا فيها على قِلَّةِ الدِّيَانَةْ

٢٦٣ الانقراض

وخيلُ اللَّهوِ جَامِحَةٌ علينا، يُساقِطْنَ الفَوارِسَ، إن رُكِضْنَهْ

خيول اللهو جامحة، مستعصية، علينا.. فالفارس الذي يركبها كي يُركضها، يروضها، يسقط عنها

وأعجزُ أهلِ هَذي الأرضِ غاوٍ أبانَ العجزَ عن خَمْسٍ فُرِضْنَهْ

أعجز الناس من يعجز عن أداء الصلوات الخمس

قد انقَرَضَتْ مَمالِكُ آلِ كِسرى سوى سِيَرٍ لَهُنَّ سَيَنْقَرِضْنَهْ

انقرضت ممالك الفرس وبقيت سيرها، أخبارها، وستنقرض هذه الأخبار أيضاً

متى عَرَضَ الحِجَا للَّهِ ضَاقَتْ مَذاهِبُهُ عليهِ، وإن عَرُضْنَهْ

متى تعرض الحجا، العقل، للتفكير في الله شعر بضيق المسالك أمامه حتى لو كانت عريضة

غَدَتْ حُجَجُ الكلامِ حَجَا غَدِيرٍ وشيكاً يَنْعَقِدْنَ ويَنْتَقِضْنَهْ

أصبحت حجج علم الكلام حجا غدير، فقاعات جدول ماء، فما تكاد تنعقد حتى تنتقض وتفقع

٢٦٤ حظ يفلق الصخر

غِنَى زَيدٍ يكونُ لِفقْرِ عمروٍ وأحكامُ الحَوادثِ لا يُقَسْنَهْ

القياس في الرزق أن غنى الغني يسبب الفقر للفقير، ولكن أحكام مصائب الزمن لا قياس لها فهي فجائية

أَلَمْ تَرَنِي حَمَيْتُ بناتِ صَدري، فما زَوَّجْتُهُنَّ، وقد عَنَسْنَهْ

حميت بنات صدري، أفكاري، فما أخرجتهن وبقين عوانس.. أي أنني كنت كمن يعضُل بناته ولا يزوجهن ويبقيهن في البيت

ورُضْتُ صِعابَ آمَالي، فكانَتْ خُيولاً، في مَراتِعِها، شَمَسْنَهْ

روضت آمالي الصعاب، التي هي كالخيول الجامحة، فآمالي شمسن، جمحن وتمردن، وهن في المراتع، المراعي

ولم أُعرِضْ عن اللَّذَّاتِ، إلَّا لأن خِيارَها عنِي خَنَسْنَهْ

لم أترك اللذات إلا لأن أفضلها خنس عني، تراجع وانقبض

وتُقْسَمُ حُظْوَةٌ، حتى صُخُورٌ يُزَرْنَ، فَيُسْتَلَمْنَ ويُلْتَمَسْنَهْ

والحظوة، الحظ الحسن، قسمة ونصيب، فهناك حتى صخور يصيبها الحظ الحسن فيزورها الناس ويستلمونها، يقبلونها، ويلمسونها

٢٦٥ المبخلة المجبنة

هَوِّنْ عليكَ، ولا تُبَالِ بِحادِثٍ   يُشجِيكَ؛ فالأيامُ سائرةٌ بِنا

يشجيك: يحزنك

أَعْدَى عَدُوٍّ لابْنِ آدَمَ نفسُهُ   ثم ابنُه، وافَاهُ يَهدِمُ ما بَنى

هاتِيكَ تَأْمُرُهُ بِكلِّ قبيحةٍ   ودَعاهُ ذاكَ لِأَنْ يَضِنَّ ويَجْبُنَا

نفسه تأمره بالقبيح من الفعال، وابنه يدعوه، يجعله، يضن، أي يبخل، ويجبن. وجاء في الأثَر أن الابن مبخلة مجبنة

٢٦٦ الإمكان

والمرءُ ليس بِزاهدٍ في غَادَةٍ،   لكنَّه يترقَّبُ الإمْكَانا

لا ينصرف المرء عن فتاة جميلة زهداً فيها، ولكنه يترقب الفرصة

نَبكي ونضحكُ، والقَضاءُ مُسَلَّطٌ،   ما الدهرُ أَضحَكَنا ولا أَبْكَانا

نَشكُو الزمانَ وما أَتَى بِجِنَايةٍ،   ولو استطَاعَ تَكَلُّماً لَشَكانا

٢٦٧ أمل في الغفران

لِيَفْعَلِ الدهرُ ما يَهُمُّ بِه،   إنَّ ظُنوني بِخَالِقي حَسَنَةْ

لا تَيْأَسُ النَّفْسُ مِن تَفَضُّلِهِ،   ولو أقامتْ في النارِ أَلْفَ سَنَةْ

٢٦٨ البدويان

أيأتِي نبيٌّ يجعلُ الخمرَ طِلْقَةً   فتَحْمِلَ ثِقْلاً من هُمومي وأحزاني؟

أيأتي نبي يحل الخمر فتحمل بعض همومي؟

وهيهاتَ، لو حَلَّتْ لما كنتُ شارباً   مخفِّفَةً، في الحِلْمِ، كِفَّةَ ميزاني

لكن لا، حتى لو كانت حلالاً لما شربتها فهي تخفف في أمر العقل كفة ميزاني

كأنيَ نَبْتٌ مَرَّ يومٌ وليلةٌ   عليَّ، وكانا مُنفِضَيْنِ، فَجَزَّاني

كأنني نبات وقد مر علي يوم وليلة، وكانا منفضين، خاليي الوعاء من الزاد، فجزاني، قصاني قصاً

هُما بَدَوِيَّانِ، الطريقَ تَعَرَّضا،   وبُرْدِيَ، مِن نَسْجِ الشَّبيبَةِ، بَزَّاني

النهار والليل بدويان يعترضان طريق المسافر، وقد بزاني، أي سلباني، ثوب الشباب

قَـويّـانِ عَـزّانـي عـلـيـهِ، وأَوْقَـعـا   بِـغـيـريَ مَـا بـيِ أَوْقَـعَـاهُ، فـعَـزَّانـي

وهما قويان وقد عزاني على ثوب الشباب، تغلبا عليَّ ونزعاه، وصنعا ذلك مع غيري فوجدت العزاء

وما ضَيَّقَا أرضي، ولكنْ أَراهُما   إلى الضَّنْكِ، من وجهِ البَسيطةِ، لَزَّاني

لم يضيق مرور الزمن ممتطياً الليل والنهار أرضي، ولكنهما لزاني، ألزماني وحشراني، إلى الضنك، العيشة الصعبة

ومـا أَكَـلا زَادي، ولـكـنْ أَكَـلْـتُـهُ   وقد نَبَّهَانـي للسُّرى واستَفَزَّاني

أنا أكلت زادي، ومرور النهار والليل نبهني إلى وجوب السرى، سير الليل، وقد استفزاني، حثاني حثاً

ولم يَرضَيا إلّا بِنفسي مِن القِرى،   ولو صُنْتُه، عن طَارِقَيَّ، لَأَخْزاني

ولم يرضيا بالطعام المعتاد للضيف بل أرادا أن يأكلا نفسي.. ولو صنت هذا ومنعته عن طارقي، الزائريْنِ لي ليلاً، للحق بي الخزي الذي يلحق بمن يمنع أضيافه الطعام

عَـزيزانِ باللَّهِ، الذي لـيس مثلُه،   يَـذِلّانِ فـي مِـقْـدَارِهِ ويَـعِـزَّانِ

النهار والليل عزيزان، قويان، بالله.. وهو الذي يقويهما أو يضعفهما إن شاء

٢٦٩ الناس كالشعر

والإنْسُ مثلُ نِظامِ الشِّعْرِ، كم رجلٍ   بالجيشِ يُفْدَى، وكم بيتٍ بِديوانِ!

التسويد وعلامة التعجب لأحمد عبد الرحيم.

٢٧٠ الفارسان

ولـو أنـيِ أُعَـدُّ بـألـفِ بَـحـرٍ   لَـمَـرَّ عـلـيَّ مـوتٌ، فـاحْـتَـسَـانـي

لو أنني مثل ألف بحر لمر على الزمن وشربني

ظَـلامـيَ والـنـهـارُ قـد اسـتـمـرا   عـلـيَّ، كـمـا تَـتـابَـعَ فـارسـانِ

الليل والنهار يتتابعان ويستمران علي، يعكفان علي، كأنهما فارسان يقاتلانني

٢٧١ الشامي واليماني

سـيُـنـسَـى كـلُّ مـا الأحـيـاءُ فـيـه   ويـخـتـلـطُ الـشـآمـيِ بِـالـيَـمـانـي

سينسى كل شيء يخوض فيه بنو الدنيا وسيختلط الناس في جوف التراب

٢٧٢ قيام قبل الأوان

لو هَبَّ سُكانُ الترابِ مِن الكَرى أَعْيا المَحَلُّ على المقيمِ الساكنِ

لو قام أهل القبور لأعيا المحل، ضاق على ساكنيه

لَغَدَوْا، وقد مَلأَ البسيطةَ بعضُهُمْ ورأيتَ أكثرَهُمْ بغيرِ أماكِنِ

٢٧٣ نصيحة

هل قَبِلَتْ من ناصحٍ أمَّةٌ تغدُو إلى الفِصْحِ بِصُلْبانِها؟

هل تقبل النصيحة أمة النصارى التي يخرج أبناؤها في عيد الفصح حاملين الصلبان

كنائسٌ يجمَعُها وُصْلَةٌ، بينَ غَوانيها وشُبَّانِها

القاسم المشترك بين هذه الكنائس أنها تصل بين الفتيات والشبان

ما بَالُها عَذراءَ، أو ثَيِّباً، كَوَرْدَةِ الجاني بِإِبَّانِها..

ما شأن هذه الفتاة سواء أكانت عذراء أم سبق لها زواج، وهي جميلة وشابة كالوردة التي جناها جانيها لإبانها، في وقت تفتيحها..

راحَتْ إلى القَسِّ بِتَقْريبِها، وبيْتُها أولى بِقُربانِها

ما شأنها قد راحت إلى القس تقدم قرباناً، وكان أولى بها لو قعدت في بيتها تخدمه

وزارتِ الديرَ، وأثوابُها ضَامِنَةٌ فِتنةَ رُهبانِها

وتزور الدير بثياب تضمن فتنة الرهبان

٢٧٤ أنا والناس

لا أشربُ الراحَ ولو ضُمِّنَتْ ذَهابَ لَوعاتي وأَحزاني

مخفِّفاً ميزانَ حِلْمي بِها، كأنني ما خَفَّ ميزاني

أُجامِلُ الناسَ، ولو أنني كَشَفْتُ ما في السِّرِّ أَخْزاني

أَسيتُ مِن نَقْصي، ولكنَّ مَا يَظهَرُ مِن غَيْرِيَ عَزَّاني

أسيت من نقصي، حزنت لما فيَّ من عيوب، ولكن ما ظهر لي من عيوب الناس عزاني

٢٧٥ قَطني

نحن قُطْنِيَّةٌ، وصُوفِيَّةٌ أنْـ ـتُمْ، فَقَطْني مِن التَّجَمُّلِ قَطْني

نحن نلبس القطن، وأنتم صوفية.. وقطني، كفاني من التجمل والادعاء كفاني

تَقطَعُونَ البلادَ بطناً وظهراً، إنما سعيُكُمْ لِفَرجٍ وبَطْنِ

تسوحون في البلاد، وهذا ليس من عبادة، بل همكم الطعام ومعاشرة النساء

حَاطَني خَالقي فعشتُ، ولولا خوفُهُ قلتُ: ليتَه لم يَحُطْني

حاطني: رعاني

جَسدي خِرْقةٌ تُخاطُ إلى الأر ضِ، فيا خائطَ العَوالِمِ خِطْني

٢٧٦ قومني ولواني

كأنِّيَ في العيشِ لَدْنُ الغُصو نِ، مَنْ شاءَ قَوَّمَني أو لَوَاني

لدن: مرِن

ولا لَوْنَ لِلماءِ، فيما يُقالُ، ولكنْ تَلَوُّنُهُ بالأَوَاني

فعلاً يقال ذلك!

٢٧٧ مِثلُ غيري

إذا سَألُوا عن مَذهبي فهْوَ بَيِّنٌ وهل أنا إلّا مثلُ غيريَ أبْلَهُ؟

خُلِقْتُ مِن الدنيا وعشتُ كأهلِها أَجِدُّ كما جَدُّوا، وأَلْهُو كما لَهُوا

٢٧٨ الدين عادة

وَوَدُّوا العيشَ في زمنٍ خَؤونٍ، وقد عَرفُوا أذَاهُ وجَرَّبُوهُ

وينشأُ نَاشِئُ الفِتْيانِ منَّا على ما كانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

وما دانَ الفَتى بِحِجَاً، ولكنْ يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

الفتى لا يتدين بما يمليه عليه حجاه، أي عقله، بل بحسب ما يعلمه أقاربه

وَطِفْلُ الفَارِسِيِّ له وُلاةٌ، بِأفعالِ التَّمَجُّسِ دَرَّبُوهُ

فطفل الرجل الفارسي له ولاة، أولياء أمر، يدربونه على شعائر المجوسية

لعل الموتَ خيرٌ لِلبَرايا، وإن خَافُوا الرَّدَى وتَهَيَّبُوهُ

أَطاعُوا ذا الخِداعِ وصَدَّقُوهُ، وكم نَصَحَ النَّصيحُ، فكَذَّبُوهُ

وجاءَتْنا شرائعُ كلِّ قومٍ، على آثارِ شَيْءٍ رَتَّبُوهُ

وغيَّرَ بَعضُهُمْ أقوالَ بَعْضٍ، وأَبْطَلَتِ النُّهَى ما أَوْجَبُوهُ

يختلفون في الآثار التي وردت عن السلف، ولكن النهى، العقل، يبطل ما يعتقدون بوجوب صحته

وبَــدَّلَ ظَــاهِــرَ الإســلامِ رَهْــطٌ، أرادُوا الــطَّــعْــنَ فــيــهِ وشَــذَّبُــوهُ

بعضهم اشتق رموزاً من ظاهر ما قال به الإسلام، فقد أرادوا الطعن في صحة الظاهر، وقد شذبوا الدين، أي قصوا من أطرافه

رَجَــوْا أَلَّا يَــخــيــبَ لَــهُــمْ دعــاءٌ وكــم ســأَلَ الــفــقــيــرُ فَــخَــيَّــبُــوهُ

يرجو المتدينون ألا يخيب دعاؤهم لله، ولكن الفقير يسألهم ويخيِّبونه

إذا أصــحــابُ ديــنٍ أَحْــكَــمُــوهُ، أَذالُــوا مــا سِــوَاهُ وعَــيَّــبُــوهُ

عندما يجمع الناس دينهم ويرتبونه يذيلون ما سواه من أديان، يرفضونها، ويجدون فيها عيوباً

٢٧٩ المتكبر

وكــيــف يُــؤَمِّــلُ الإنــســانُ رُشْــداً، ومــا يــنــفــكُّ مُــتَّــبِــعــاً هَــواهُ

يــظــنُّ بِــنــفــسِــهِ شَــرَفــاً وقَــدْراً، كــأنَّ الــلَّــهَ لــم يَــخْــلُــقْ سِــواهُ

٢٨٠ النصارى وطبيعة المسيح

أَسهَبَ الناسُ في الـمَقالِ، وما يَظْـ ـفَـرُ، إلَّا بِــزَلَّــةٍ، مُــسْــهِــبُــوهُ

الذين يسهبون ويكثرون من التفسير والتعليل يكثر عندهم الزلل والخطأ

عــجــبــاً لِــلــمَــســيــحِ بــيــنَ أُنــاسٍ وإلــى الــلَّــهِ والــداً نَــسَــبُــوهُ

أَسْلَمَتْهُ إلى الـيـهـودِ الـنَّـصَـارى وأَقَــرُّوا بــأنَّــهُــمْ صَــلَــبُــوهُ

يُشْفِقُ الحازمُ اللبيبُ على الطفـ ـلِ، إذا مــا لِــداتُــهُ ضَــرَبُــوهُ

يضرب مثلاً: الشخص العاقل يشفق على الطفل إذا ضربه لداته، الأولاد في مثل عمره

وإذا كــان مــا يــقــولــونَ فــي عــيــ ـسى صحيحاً، فأينَ كانَ أَبُوهُ؟

كــيــف خَــلَّــى وَلــيــدَهُ لِــلأعــادي، أم يَــظُــنُّــونَ أنَّــهُــمْ غَــلَــبُــوهُ؟

وإذا مــا سَــأَلْــتَ أصــحــابَ ديــنٍ، غَــيَّــرُوا بِــالــقِــيَــاسِ مــا رَتَّــبُــوهُ

لا يَــدِيــنــونَ بــالــعــقــولِ ولــكــنْ، بــأبــاطــيــلِ زُخْــرُفٍ كَــذَّبُــوهُ

لم يكن هذا البيت مما اخترت، فكتب أحمد عبد الرحيم: «البيت الأخير المحذوف هو بيت القطعة» فها قد أثبتناه

٢٨١ باطل العيش

حَسْبِي، من الجهلِ، عِلمِي أنَّ آخِرَتِي هِيَ الـمَـآلُ، وأَنـي لا أُرَاعِـيِـهـا

يكفيني جهلاً أنني أعلم أن الآخرة هي المصير النهائي، ومع ذلك لا أراعي آخرتي

وأن دنـيـايَ دارٌ لا قـرارَ بـهـا، ومـا أزالُ مُـعَـنَّـىً فـي مَـسـاعِـيِـهـا

رغم علمي بأن الدنيا دار مرور لا استقرار فأنا معنى، متعب، ومستمر في الاهتمام بها

كذلكَ النَّفْسُ، ما زالتْ مُعَلَّلَةً بِباطلِ العيشِ، حتى قامَ نَاعِيِها

يـا أُمَّـةً مِـن سَفَاهٍ لا حُلُومَ لـهـا، مـا أنـتِ إلَّا كَضَأْنٍ غـابَ رَاعِيـهـا

الناس سفهاء لا حلوم، لا عقول، لهم، وهم كالخراف بلا راع. التسويد لأحمد عبد الرحيم

٢٨٢ ذات القرطين

وذاتِ قُرْطَيْنِ في حَلْيٍ تَعُدُّهُـما قد صَارَ أجراً لِذَاتِ الغَسْلِ قُرْطَاها

رب امرأة لها قرطان في أذنيها، وهي تعُدهما من الزينة.. وماتت فأصبح القرطان أجرة للتي غسلتها

٢٨٣ التهاون بالمذاهب

تَقَضَّى الناسُ جيلاً بعد جيلٍ وخُلِّفَتِ النجومُ كما تَراها

تتوالى الأجيال والنجوم باقية

إذا رجعَ الحَصِيفُ إلى حِجاهُ تهاونَ بالمذاهِبِ وازْدَرَاها

الحصيف: الحكيم، حجاه: عقله

وَهَتْ أَديانُهُمْ من كلِّ وجهٍ، فهل عقلٌ تُشَدُّ به عُراها؟

وهت، أي ضعفت، الأديان من وجوه شتى بتقادم الزمن، فهل عند الناس عقل يشدون به عرى الأديان، أي أنشوطاتها.. والعروة عقدة في الحبل ترتخي وتحتاج إلى شد. والعروة في قميصك ثقب يدخل فه الزر، وكانت في قميص الأجداد خيطاً معقوداً يدخل فيه الزر

تقدَّمَ صاحبُ التَّوْراةِ موسى، وأوقَعَ في الخَسارِ مَن اقْتَراها

اقتراها: تبعها

وقالَ رجالُه: وَحْيٌ أَتاهُ، وقال الظالمونَ، بَلِ افْتَراها

وكم سَرَتِ الرفاقُ إلى «صَلاحٍ»   فمَارَسَتِ الشدائدَ في سُراها

يسري المسافرون مترافقين إلى صلاح، من أسماء مكة، ويمارسون الشدائد، أي يعانون منها، وهم ماضون في السرى، أي السير ليلاً

يُوافونَ البَنِيَّةَ كلَّ عامٍ،   لِيُلْقُوا المُخْزِياتِ على قَراها

يوافون، يصِلون إلى، البنية، أي الكعبة، كل عام، وهمهم أن يلقوا على قراها، حوضها، ذنوبهم المخزية يحسبون أنها تُغفر لهم بمجرد الحج

وما سَيْري إلى أحجارِ بيتٍ   كؤوسُ الخَمْرِ تُشْرَبُ في ذَرَاها؟

وما معنى سيري إلى مكان تشرب في ذراه، في كنفه وقربه، الخمر؟

٢٨٤ ليس كمثله شيء

وإنَّ الفَتى، فيما أرى، بِزمانِه   لأَشْبَهُ منه شِيمَةً بِأبيهِ

الرجل يشبه زمانه أكثر من شبهه بأبيه في الشيمة، أي الخلق

ووالدُنا هذا الترابُ، ولم يَزَلْ   أَبَرَّ يَداً مِن كُلِّ مُنْتَسِبيهِ

ووالدنا هو التراب لأننا خلقنا من طين، والتراب أكثر براً وخيراً ممن ينتسبون إليه، أي من البشر

يؤَدِّي إلى مَن فَوقَهُ رِزْقَ رَبِّهِ،   أَميناً، ويُعْطِي الصَّوْنَ مُحْتَجِبيهِ

فالتراب يؤدي للناس الذين فوقه الرزق أميناً بإخراجه الزرع، ويصون من يحتجبون فيه من الموتى

تَشابَهَتِ الأشياءُ طَبْعاً وصُورةً،   وربُّكَ لم يُسمَعْ لهُ بِشَبيهِ

الأشياء متشابهة طبعاً، أي في أصلها وحقيقتها، وصورةً، أي في شكلها، والله لا شبيه له

٢٨٥ الغنائم

وجدتُ غنائمَ الإسلامِ نهباً،   لأصحابِ المَعازِفِ والمَلاهي

الغنائم تذهب لأهل اللهو

وكيف يَصِحُّ إجماعُ البَرايا،   وهم لا يُجمِعونَ على الإلَهِ؟

البرايا: البشر

تُنازِعُني إلى الشَّهواتِ نفسي،   فلا أنَا مُنْجَحٌ أبداً ولا هِي

نفسي تنازعني لنيل الشهوات، فلا أنا منجح، موفق، في مخالفتها، ولا هي فائزة بالشهوات

٢٨٦ أملي في الله

كـأنَّكَ، بـعـد خَـمْـسيـنَ اسْـتَـقَـلَّـتْ لِـمَـولِـدِكَ، الـبـنـاءُ دَنـا لِـيَـهْـوي

كأنك بعد خمسين سنة استقلت، ارتفعت ومضت، منذ مولدك بناءٌ اقترب كي ينهار

ومـا أنـا يَـائِـسٌ مِـن أمـرِ رَبِّـي، عـلـى مـا كـانَ مِـن عَـمْـدٍ وسَـهْـوِ

٢٨٧ العقل نبي

زَعَـمَـتْ، أن نَـارَهـا مَـا خَـبَـتْ، فَـا رِسُ، والـدهـرُ فـيـه مَـعـنـىً خَـبِـيُّ

الفرس يزعمون أن النار المقدسة لا تنطفئ أبد الدهر، ولكن الدهر يحمل لهم معاني كانت مخبوءة عن علمهم فتنطفئ النار

أيُّـهـا الـغِـرُّ، إن خُـصِـصْـتَ بِـعـقْـلٍ، فَـاسْـأَلَـنْـهُ، فـكـلُّ عَـقْـلٍ نَـبِـيُّ

أيها الغر، الجاهل، إن كان عندك عقل فاسأل عقلك فهو نبيك.. أي ينبئك بما يمكن أن يحدث

٢٨٨ الدين لله

وأَلْـقَـتْ هـذه الأيـامُ عِـلـمـاً إلـيـكَ، فـلـم تُـصـادِفْ مـنـكَ وَعْـيَـا

ودِيـنُـكَ مـا عـلـيَّ الـحُـكْـمُ فـيـهِ، فَـأَبْـغِـيَ لـلَّـذي أَخْـفَـيْـتَ بَـغْـيـا

لا أفتش عن حقيقة إيمانك كي أبغي، أطلب، بالتماس ما تخفيه بغياً، ظلماً لك

إذا الإنـسـانُ كَـفَّ الـشـرَّ عـنِّـي، فَـسَـقْـيـاً، فـي الـحـيـاةِ، لـه ورَعْـيَـا

يكفيني أن تكف شرك عني، وعندئذ سقاك الله ورعاك

ويَـدْرُسُ، إن أرادَ، كـتـابَ مـوسـى ويُـضْـمِـرُ إن أَحَـبَّ وَلاءَ شَـعْـيَـا

وللمرء أن يدرس التوراة أو كتاب أشعيا النبي، هو حر. وسفر أشعياء جزء من الكتاب المقدس، ولكنه ليس ضمن كتب موسى الخمسة (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية). وبعضهم ـ كأبناء الطائفة السامرية في مدينتي نابلس ـ لا يؤمن بغير كتب موسى

٢٨٩ الله يرحمني

سَـقْـيـاً لِأيَّـامِ الـشـبـا بِ، ومـا حَـسَـرْتُ مَـطِـيَّـتَـيَّـا

واهاً لأيام الشباب، ولما حسرت، أي لما أنهكت، مطيتيَّ، أي ناقتيَّ. المعنى: أسفاً على أيام الشباب الجميلة.. الآن بعد أن أنهكت ساقيَّ وكبرت

أَيـــامَ آمُـــلُ أن أَمَـــسَّ ـ الـفَـرْقَـدَيْــنِ بِـراحَـتَـيَّـا

كنت في أيام الشباب متوثباً طوحاً آمل أن ألمس الفرقدين، وهما نجمان، بكفيَّ

فـالآنَ تَـعْـجِـزُ هِـمَّـتـي عـمَّـا يُـنَـالُ بِـخُـطْـوَتَـيَّـا

والـلَّـهُ يَـرْحَـمُـنـي، إذا أُودِعْـتُ أَضْـيَـقَ سَـاحَـتَـيَّـا

أرجو رحمة الله عندما أودع في أضيق الساحتين، ساحة الدنيا وساحة القبر، والأضيق القبر

فهرس القوافي، لزوميات المعري
(القافية، فرقم القطعة)

اليتيمة

صاحب هذا الكتاب هو عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي (٣٥٠هـ ـ ٤٢٩هـ)، وهو أديب. والكلمة تعني أنه يحب الأدب وينقده، ويتلذذ بالجيد منه، وله فيه ذوق خاص، وأنه يستهلك الأدب بشخصية قوية تعرف ما تريد، وفي ذهنه ميزان للشعر والنثر، ولديه من مهارات الشعراء والكتاب ما يجعله قادراً على القريض وعلى الإنشاء قدرة تفيده في الحكم والتذوق وإن لم تجعله من متقدمي الشعراء والناثرين. هذا هو الأديب. فإن كان الأديب في مطلع حياته، أو كان محباً للأدب حسن الاستهلاك له، من غير أن يملك البصيرة الأدبية، سميناه متأدباً.

وأديب زمننا قد لا يكون مطالباً بالقريض، على أن هناك مهارة القصّ التي اكتسبت في عصرنا صيتاً. فلئن كان عصر الثعالبي يقضي أن يكون من حلية الأديب أن يستطيع سرد الحكايات والنوادر سرداً ممتعاً، فأديب زمننا مطالب بأن يضيف إلى مهاراته ـ وقد وضع عن ظهره مهارة القريض ـ مهارة صوغ القصة الواقعية المبتدعة. لا بد للناقد ـ حتى نسميَه أديباً ـ من أن يكون أدى الخدمة العسكرية في معسكر الأدب. . نقصد أن يكون قد صنع بعض الأدب بنفسه.

فأما الناقد الذي قرأ أدباً ولم يصنعه، فهذا ليس أديباً، ولا ناقداً، هو مثل فتية المنتديات والفيسبوك يستحسن بعض الشعر أو النثر ويعلق عليه. فأما الأكاديمي الذي لم يصنع شعراً ولا نثراً، لكنه بحكم شهادته يتصدى لدرس تاريخ الأدب ـ درسته الدوارس ـ فهو جندي مرتزق نزل إلى الميدان ببندقيةٍ خشبٍ.

الثعالبي أديب، كتب كتباً كثيرة. وأهم كتبه اليتيمة، وفيه أشعار مختارة لأهل عصره.

قال أبو منصور الثعالبي في اليتيمة: «أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه.» وقد ظل صاحبنا يزيد وينقص في كتابه اليتيمة. على أنه لم يسعفنا كثيراً في سرد معلومات عن حياة شعرائه الكثر، واكتفى بعبارات إطراء منمقة طرز منها أسطراً تكثر أو تقل لكل شاعر، ولم يجد فيها مؤرخو الأدب الحقيقيون غناء، ولا نحن وجدنا. وحقق الكتاب شيخ جليل في علمه هو محمد محيي الدين عبد الحميد. واعتذر الشيخ في مقدمته عن عدم وجود التشكيل بأن المطبعة التي اختارها الناشر لا تملك أن تشكل الكتاب. على أن اللمسة السحرية للشيخ الجليل لا تخفى. قد أحسن إلى الكتاب بأجزائه الأربعة.

ورأينا «لليتيمة» طبعات أخرى، ونبذناها، واتخذناها وراءنا ظِهرِيًّا.

١ قبلة

قال سيف الدولة الحمْداني:

أُقَبِّلُهُ على جَزَعِ كَشُرْبِ الطائرِ الفَزِعِ
رأى ماءً فأطْمَعَهُ وخافَ عَواقِبَ الطمعِ
وصادفَ فرصةً فدَنا ولم يَلْتَذَّ بِالجُرَعِ

٢ تمهيد

وإذا ما الجفاءُ جهَّزَ جيشاً سبقَتْهُ طليعةٌ مِنْ تَجَنٍّ

قبل أن يجفوك صاحبك يتخذ الذرائع ويتجنى عليك لتبرير جفائه

٣ حاسد لا

قال ذو القرنين ابن ناصر الدولة الحمداني:

إنِي لَأَحسُدُ «لا» في أسطُرِ الصُّحُفِ إذا رأيتُ اعتِناقَ اللامِ لِلأَلِفِ

٤ صفاء

قال منصور بن كيغلغ:

يُديرُ مِنْ كَفِّهِ مُداماً أَلَذَّ مِنْ غَفْلَةِ الرقيبِ
كأنَّها إذْ صَفَتْ ورَقَّتْ شَكوى حبيبٍ إلى حبيبِ

٥ اضطرار

قال أبو عيينة:

مـا أنـتَ إلّا كَـلَـحْـمِ مَـيْـتٍ ... دَعـا إلـى أكـلِـهِ اضـطـرارُ

٦ أفعالنا

أأُمَامُ مَا يُدرِيكِ ما أفعالُنا ... والخيلُ تحتَ النَّقْعِ كالأشباحِ

النقع: الغبار

تَطْفُو وتَرْسُبُ في الدماءِ كأنَّها ... صُوَرُ الفوارِسِ في كؤوسِ الرَّاحِ

صور الفرسان المنقوشة على جوانب الكأس كأنها تطفو وترسب بينما أنت تشرب وينخفض سطح الشراب أو يميل

٧ ما حيلتي

قال أبو العباس النامي يمدح سيف الدولة:

يا مُطْمِئَ الخيلِ أو تَرْوَى ذَوابِلُهُ ... والخيلُ تشربُ مِنْ أَشْدَاقِها اللُّجُمُ

تجعل الخيل عطشى حتى تروي ذوابلك، أي رماحك، من دم الأعداء، ولجم الخيل، الحدائد في أفواهها، تشرب دماً من أشداقها، أي مشافرها أي شفاهها

قالَ النهارُ له، والشمسُ مُغْمَدَةٌ ... ولِلمنايا شُموسٌ غِمْدُها القِمَمُ:

النهار يقول لسيف الدولة، بينما الشمس مغمدة، مختفية كالسيف في غمده، وبينما الموت له شموس هي لمعان السيوف، وهذه الشموس مغمدة في القمم، رؤوس الأعداء.. يقول النهار:

هذا عَجاجٌ فأينَ الأفْقُ وَهْوَ قَناً؟ ... وتلكَ خيلٌ فأينَ الأرضُ وَهْيَ دَمُ؟

هذا عجاج، أي غبار، فأين الأفق؟.. فلا نرى إلا القنا أي الرماح في الجو، ونرى الخيل ولا نرى الأرض، فالأرض غطاها الدم

بِحَدِّ سيفِكَ، سيفَ الدولةِ، انحطَمَتْ ... قواعدُ الشركِ، والأرواحُ تَنحَطِمُ

يُحَدِّثُ الذئبَ ذِئْبٌ وَهْوَ مُبْتَهِجٌ ... ويُخبِرُ النَّسْرَ نَسْرٌ وَهْوَ مُبْتَسِمُ

الذئاب والنسور مبتهجة بما ستأكل من جثث الأعداء. التسويد لأحمد عبد الرحيم

أَمِنْ عُلاً أم مِنْ نَدىً أَدْعُوكَ؟ أم بِهِما ... فأنتَ ذا، والحَيا والصَّارِمُ الخَذِمُ

الحيا: المطر، الصارم الخذم: السيف القاطع

إذا طَلَبْتُكَ لم أَلْحقْكَ في أَمَدٍ ... ما حيلتي، قد تَناهَى دونَكَ الكَلِمُ

٨ إنعام ثانوي

قال النامي:

مَكارِمُ لا تنفكُّ تُتعِبُ حاسداً ... يؤخِّرُهُ سعيٌ لها قد تَقَدَّما

الحاسد متعب لأن المكارم سبقته بمساعيها السالفة لذا أصبح متأخراً عنها

زَكَتْ فِكَري فيها، وأيْنعَ هاجِسي ... فظَلْتُ على أهلِ القريضِ مُقَدَّما

زكت فكري، زادت المعاني الشعرية، في مكارمك وأينع هاجسي، تفتحت قريحتي، فظلت، أي ظللت، متقدماً على الشعراء

ولَّدَ شعري فيكَ شعراً لِمَعشرٍ ... فكنتُ عليهِمْ مثلَ نُعماكَ مُنْعِما

قلدني الشعراء فنالوا العطايا بسببي

٩ يتغير

قال أبو الحسين الناشئ الأصغر:

ليس الحِجابُ مِنَ الَةِ الأَشْرافِ ... إن الحجابَ مُجانِبُ الإنصافِ

ولَقلَّ مَنْ يَأتي فَيُحْجَبُ مَرَّةً ... فيعودُ ثانيةً بِقلبٍ صَافِ

١٠ مذيب السيف

أبو القاسم الزاهي:

الليلُ مِنْ فِكَري يَصيرُ ضِياءَ ... والسيفُ مِنْ نَظَري يَذوبُ حَياءَ

والخيلُ لو حَمَّلْتُها عِلْمي بها ... لتركتُها تحتَ العَجَاجِ هَباءَ

العجاج: الغبار

١١ وداع

أبو الفرج الببغاء:

يا سادَتي هذهِ نَفسي تُوَدِّعُكُمْ ... إذْ كان لا الصبرُ يُسْليها ولا الجَزَعُ

لا عَذَّبَ اللّهُ رُوحي بِالبقاءِ، فَما ... أَظُنُّني بعدَكُمْ بالعَيشِ أنتفِعُ

١٢ خليط

أبو الفرج الببغاء:

عـاطِـنـيـهـا كـالـجُـلَّـنـارِ إذا مـا   كُـلِّـلَـتْ مِـنْ حَـبـابِـهـا بِـالأَقـاحِ

اسقني الخمر وهي تشبه الجلنار، زهر الرمان، وقد كللها الحباب، الفقاقيع، كأنه أزهار الأقحوان

فـتـدارَكْ بِـهـا حُـشَـاشَـةَ أَفْـرا   حي، وحَرِّكْ بها سُكونَ ارتِياحي

أدرِكْ أفراح قلبي بالخمر كي تستمر

بـيـنَ وَرْدَيْـنِ مِـنْ بَـنـانٍ وخَـدٍّ   وشَـرابَـيْـنِ مِـنْ رُضَـابٍ وراحِ

بنان المحبوبة، أطراف أصابعها وخدها فيهما احمرار كالورد، والشرابان ريقها والخمر

ونَـشـيـدٍ مُـسْـتَـنْـبَـطٍ مِـنْ حـديـثٍ   وغـنـاءٍ يُـغْـنـي عـنِ الإقْـتـراحِ

رب نشيد يتولد من الحديث وغناء جميل لا نحتاج معه إلى أن نقترح على المغنية أصواتاً بعينها

فَـأَلَـذُّ الـحـيـاةِ مـا خَـلَـطَ الـعـا   قـلُ فـيـهِ فـسـادَهُ بِـصَـلاحِ

١٣ الإمكان

أبو الفرج الببغاء:

وأَدِرْهـا عَـذْراءَ وانـتـهِـزِ الإمـ   ـكـانَ مِـنْ قـبـلِ عـائـقِ الإمْـكـانِ

الخمر العذراء: التي فض الختم عن دنها لتوه

فـي كـؤوسٍ كـأنَّـهـا زَهَـرُ الـخَـشْـ   ـخـاشِ ضَـمَّـتْ شَـقـائِـقَ الـنُّـعْـمـانِ

١٤ نفسي بلغتني

قال الببغاء:

رَسـا فـي تُـربـةِ الـعـلـيـاءِ أصـلـي   وأيـنـعَ فـي بُـروجِ الـعـزِّ غُـصْـنـي

ولـيـس عـلـيَّ غـيـرُ الـجِـدِّ فـيـمـا   سـعـيْـتُ لـهُ لِأَسْـتَـغـنـي وأُغْـنـي

فـإن أُحْـرَمْ فـلـم أُحْـرَمْ لِـعَـجْـزٍ   وإن أبـلُـغْ فَـنَـفْـسـيَ بَـلَّـغَـتْـنـي

١٥ ذات التشابيه

الوأواء الدمشقي:

قـالـتْ وقـد فَـتـكَـتْ فـيـنـا لَـواحِـظُـهـا   كـم ذا؟ أمَـا لِـقـتـيـلِ الـحـبِّ مِـنْ قَـوَدِ؟

تسأل المحبوبة أليس ثمة قود، أي قصاص، لمن قتل العاشق؟ كأنها لا تعرف أنها هي القاتلة!

وأَسْبَلَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرجِسٍ، وسَقَتْ   وَرْداً، وعَضَّتْ على العُنَّابِ بِالبَرَدِ

العناب: ثمر صغير أطرافه محمرة

إنسانةٌ لو بَدَتْ للشمسِ ما طَلَعَتْ   مِنْ بعدِ رُؤْيتِها يوماً على أحدِ

١٦ النجوم

قال الوأواء:

وكأنَّ النجومَ أحداقُ رُومٍ   رُكِّبَتْ في مَحَاجِرِ السُّودَانِ

١٧ ندم

الوأواء:

ما حُكِّمَ البينُ إلَّا جارَ مُحْتَكِما   ولا انتَضَى سيفَه إلَّا أَرَاقَ دَما

اللَّه يعلمُ أنِّي يومَ بَيْنِهِمُ   نَدِمْتُ إذ لم أَمُتْ في إِثْرِهِمْ نَدَما

١٨ الزُّرقة

السري الموصلي:

وقالوا بِمُقْلَتِهِ زُرْقَةٌ   تَشينُ فَظَلَّ لها مُطْرِقا

وهل يقطعُ السيفُ يومَ الوَغَى   إذا لم يَكُنْ مَتْنُهُ أَزْرَقا

١٩ فساد الحج

أبو طالب الرقي يتغزل:

إذا طَافَ بِالأركانِ طَافَ به الوَرى   فيَقضي ولا يَقْضُونَ لِلحَجِّ مَنْسِكا

المحبوب يطوف بالكعبة والناس يطوفون حوله ويتبعونه فحجهم فاسد

فيَا رائِحاً منهُ بِأَوْفَرِ فِتْنَةٍ   تَجَهَّزْ لِعامٍ بعدَ هذا لَعَلَّكا

لعلك تفوز بالحج الصحيح

٢٠ دعوة*

كشاجم، أبو نصر بن أبي الفتح:

دَعاني كما يدعُو الصديقُ صديقَهُ   فجئتُ كما يأتي إلى مثلِه مِثلي

فلمَّا جلسْنا لِلطعامِ رأيتُه   يرى أنَّه مِنْ بَعضِ أعضَائِهِ أَكْلي

وَيَغْتاظُ أحياناً ويشتُمُ عبدَهُ   وأعلمُ أن الغيظَ والشتمَ مِنْ أجلي
فأقبلْتُ أَسْتَلُّ الطعامَ مَخافَةً   وألحاظُ عينيهِ رقيبٌ على فِعلي
أمُدُّ يدي سراً لأَسرِقَ لُقمةً   فيلحَظُني شَزْراً فأَعْبَثُ بالبَقْلِ
إلى أن جَنى كَفِّي لِحتْفي جِنايَةً   وذلكَ أن الجوعَ أفقَدَني عَقلي
فَجَرَّتْ يدي لِلحَيْنِ رِجلَ دَجاجَةٍ   فَجُرَّتْ كما جَرَّتْ يدي رِجْلَها رِجْلي
وقمتُ لو انِّي كنتُ بَيَّتُّ نِيَّةً   رَبِحْتُ ثوابَ الصومِ مَعْ عَدمِ الأَكْلِ

* تعليق أ. عبد الرحيم: بئست الدعوة!

٢١ جنازة

عبد المحسن الصوري:

قَالوا: ألم تَحضُرْ عَلِيّاً بعدَما   دفنُوه؟ قلتُ: هناكَ بِئْسَ المَحْضَرُ
لا أستطيعُ أَرى المعالِيَ بينَكُمْ   محمولةً، وأرى المكارِمَ تُقبرُ
لم يمضِ قبلَكَ مَنْ أَراهُ أُسْوَةً   فَأَقُولَ هذا مثلُ ذاك فَأَصْبِرُ
ما كان أكثَرَهُمْ وأنتَ جليسُهُمْ   وأقلَّهُمْ إذْ شَيَّعُوكَ وكَبَّرُوا

٢٢ راحته اليمنى

عبد المحسن الصوري:

ما زالَ يبني كعبةً لِلعُلا   ويجعلُ الجودَ لها رُكْنا
حتى أتى الناسُ فطافُوا بها   وقَبَّلوا راحتَه اليُمنى

٢٣ احتراف التهتك

أبو الرَّقَعْمَق:

كُفِّي مَلامَكِ يا ذاتَ المَلامَاتِ   فما أُريدُ بَديلاً بالرَّقَاعاتِ

أيتها اللائمة لي على مجوني، لا أريد أن أترك رقاعاتي، والرقاعة حمق ووقاحة

كأنَّني وجُنُودُ الصَّفْعِ تَتْبَعُني   وقد تَلَوْتُ مَزاميرَ الرَّطاناتِ..

يعبث مع صحبه فيصفعونه على قذاله أي رقبته من وراء، فيقول كلاماً غير مفهوم بقهقهات فهذه مزاميره..

قِسِّيسُ دَيْرٍ تَلا مِزْمَارَهُ سَحَراً   على القُسُوسِ بِتَرْجيعٍ ورَنَّاتِ

فكأنه في هذه العطعطة قسيس يتلو صلاة السحر على إخوانه بترتيل سرياني

وقد مَجَنْتُ وعَلَّمْتُ المجونَ، فما   أُدْعَى بشيءٍ سوى رَبِّ المَجَانَاتِ

رب المجانات: صاحب المعابثات الفاحشة

وذاكَ أَنِّي رأيتُ العقلَ مُطَّرَحاً   فجئتُ أهلَ زَماني بِالحَمَاقاتِ

لو كنتُ بينَ كِرامٍ ما تَهَضَّمَني   دهرٌ أناخَ على أهلِ المُروءَاتِ

لو كنت بين كرام ما تهضمني، ظلمني، زمن أناخ وبرك بثقله على الكرام

ما لي بِلا سببٍ غُودِرْتُ مُطَّرَحاً   وقد حُرِمْتُ عَطاياكَ الجَزيلاتِ

هذه القصيدة عارضها الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان بقصيدة أشد منها رقاعة وتهتكاً ولم يطبعها في ديوان ولا في جريدة ولا في أي شيء. وتصدى لهذه القصيدة د. فواز طوقان ابن أخي الشاعر، وهو أستاذ بارز من أساتذة الأدب فصنف كتيباً سماه «القصيدة الشريرة» ساق فيه القرينة إثر القرينة على أن القصيدة ليست لعمه. ولا أدري إن كنت سأعرض لهذه القصيدة عندما أتناول شعر إبراهيم طوقان في كتاب لي ما زال «نصف مخطوط» وسميته «آخر الشعر» مثلما يسمي الناس أولادهم قبل أن يولدوا. ولكنني أقول إنني حصلت عن النص الكامل للقصيدة «الشريرة» من أخي إبراهيم طوقان «رحمي» مطبوعة على الآلة الكاتبة، وسألت أخت الشاعر فدوى عن نسبة القصيدة، فأغضت إغضاءة قصيرة، وقالت: هي له. وأنوِّهُ إلى أن القصيدة تعود إلى زمن كان فيه طالباً في بيروت. هذا للتاريخ

٢٤ مع نفسه

أبو الرقعمق:

مَنْ كانَ ذا زَوْجَةٍ فَإِنِّي   لِشِقْوَتي زَوجَتي يَميني

عُمَيْرَةً قد جَلَدْتُ حتى   خَشِيتُ واللَّهِ يَجْلِدُوني

جَلْد عميره: ممارسة الذكر العادةَ السرية

٢٥ خَلاني

وقال:

وذي دَلالٍ إذا ما شئتُ أَنْشَدَني   وإن أردتُ غِناءً منه غَنَّاني

ما زالَ يأخُذُها صفراءَ صافيةً   حتى تَوَسَّدَ يُمناهُ وخَلَّاني

٢٦ الرضا بالخمول

الحسن التنيسي ابن وكيع:

وإنْ أَتَوْكَ وقالوا كُنْ خَليفَتَنا　　فقلْ لَهُمْ إِنني عن ذاكَ مَشغولُ
وارْضَ الخُمولَ فلا يَحظَى بِلذَّتِهِ　　إلَّا امرُؤٌ خَامِلٌ في الناسِ مَجهولُ

الخمول ضد الشهرة. يقول: لا يحظى بلذته إلا الخامل المجهول

ولا تَبِعْ عاجِلَ الدنيا بآجِلِ ما　　تَرجُو، فذلِكَ أمرٌ شأنُهُ الطُّولُ
يا خائِفَ الإِثْمِ فيها حين يشربُها　　لا تقنَطَنَّ فعفْوُ اللَّهِ مَأمولُ

٢٧ خوفي كخوفك

وقال:

لا تُكْثِرَنَّ عَلَيَّ، إنَّ أخا الحِجَا　　بَرِمٌ بِقُرْبِ الصاحبِ المِهْذارِ

لا تكثر من الكلام فأخو الحجا، صاحب العقل، برم سؤوم من الصاحب المهذار، كثير الكلام الفارغ

خَوَّفْتَني بِالنارِ جَهْدَكَ دائباً　　وَلَجَجْتَ في الإرهابِ والإنذارِ

لججت: أسرفت

خَوفي كخوفِكَ غيرَ أنِّي واثقٌ　　بِجميلِ عفوِ الواحدِ القهَّارِ

٢٨ الزهد

وقال:

اِزهَدْ إذا الدنيا أَنالَتْكَ المُنَى　　فهناكَ زُهدُكَ مِنْ شُروطِ الدينِ
والزهدُ في الدنيا إذا ما رُمْتَها　　فَأَبَتْ عليكَ كَعِفَّةِ العِنِّينِ

٢٩ المناسك

القاضي محمد بن النعمان:

رُبَّ خَودٍ عَرَفْتُ في عَرَفاتِ　　سَلبتْني في حُسنِها حسناتي

خود: فتاة ناعمة.. ويذكر مناسك الحج وأماكنه

حَرَّمَتْ يومَ أَحْرَمْتُ نومَ عيني　　واستَباحَتْ حِمايَ بِاللَّحَظاتِ

وأفاضتْ معَ الحَجيجِ فَفَاضَتْ مِنْ جُنوني سَواكِبُ العَبَراتِ
ولقد أضْرَمَتْ بِقَلْبِيَ جَمْراً حين راحَتْ لِلرَّمْيِ بِالجَمَراتِ
لم أنلْ مِنْ مِنىً مُنَى النفسِ حتَّى خِفْتُ بِالخَيْفِ أن تكونَ وَفَاتي

٣٠ حسرة

عبيد الله بن أبي الجوع:

أرى اللَّذَّاتِ تَعْبُرُني يَميناً، على رُغْمي، وتَعْبُرُني شِمالا
فأجْرَعُ دونَها غُصَصاً لِأَنّي أُشاهِدُها وما أُعْطِيتُ مَالا

٣١ رحيل

تميم بن معد:

وما أُمُّ خِشْفٍ ظلَّ يوماً وليلةً بِبَلقَعَةٍ بَيداءَ ظَمآنَ صَادِيا
يبدأ تشبيهاً طويلاً.. أم خشف: أم ظبي صغير، بلقعة: أرض خلاء، صادٍ: عطشان

تَهيمُ فلا تَدري إلى أينَ تَنتَهي مُوَلَّهَةً حيرَى تَجوبُ الفَيافِيا
أَضَرَّ بِها حَرُّ الهَجيرِ فلم تَجِدْ لِغُلَّتْها مِنْ بَارِدِ الماءِ شَافيا
الغلة: العطش

إذا بَعُدَتْ عن خِشْفِها انْعَطَفَتْ له فَأَلْفَتْهُ مَلهُوفاً إلى الجوعِ ظَامِيا
بِأَوْجَعَ مِنِّي يومَ شَدُّوا رِحالَهُمْ ونادَى مُنادي الحَيِّ أَلَّا تَلاقِيا
ليست الظبية العطشى التي معها ولدها الصغير العطشان أكثر توجعاً مني يوم فراقهم

٣٢ الدنيا

أحمد بن عبد ربه الأندلسي:

إنَّما الدنيا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ إذا اخْضَرَّ منها جانبٌ جَفَّ جَانِبُ
الغضارة: اللين، الأيكة: الشجر الملتف

هِيَ الدارُ! ما الآمالُ إلَّا فَجَائِعٌ عليها، ولا اللَّذَّاتُ إلَّا مَصائبُ
فكَمْ سَخِنَتْ بِالأمسِ عينٌ قَريرةٌ وقَرَّتْ عيونٌ دمعُها اليومَ ساكِبُ
سخنت العين: كان صاحبها قلقاً مهموماً، والعين القريرة: التي صاحبها مطمئن

فلا تَكْتَحِلْ عيناكَ منها بِعَبْرَةٍ ... على ذاهبٍ منها، فإنكَ ذَاهِبُ

٣٣ واكبدا

وقال يرثي ولده:

واكَبِدَا! قد تَقَطَّعَتْ كَبِدي ... وأَحْرَقَتني لَواعِجُ الكَمَدِ

لواعج: هموم تحرق القلب، الكمد: الغم

ما ماتَ ميْتٌ لِمَيِّتٍ أَسَفاً ... أَعْذَرُ مِنْ وَالِدٍ على وَلَدِ

أعذر: أوفر عذراً، أي أن الأب لو مات حزناً على ولده لكان معذوراً

يا رحمةَ اللَّهِ جَاوِري جَدَثاً ... دَفَنْتُ فيهِ حُشاشَتي بِيَدي

جدث: قبر، حشاشة: قلب

ونَوِّري ظُلْمَةَ القُبورِ على ... مَنْ لم يَصِلْ ظُلْمُهُ إلى أحدِ

يا لَوعةً لا يزالُ لاعِجُها ... يَقْدَحُ نارَ الأَسى على كَبِدي

٣٤ العدل والرحمة

أحمد بن محمد بن عبد ربه:

يا وَيلَتا من موقفٍ ما بِه ... أَخْوَفُ مِنْ أن يَعدِلَ الحاكِمُ

أُبارِزُ اللَّهَ بِعِصيانِه ... وليس لي مِن دونِه راحِمُ

يا رَبِّ عفواً مِنكَ عن مُذنبٍ ... أسرفَ إلَّا أنَّه نَادِمُ

٣٥ الجمع والإنفاق

قال الشاعر:

جمعتَ مالاً ففكِّرْ هل جمعتَ له ... يا جامعَ المالِ أبواباً تُفرِّقُهُ

المالُ عندكَ مخزونٌ لِوارثِهِ، ... ما المالُ مالُكَ إلَّا يومَ تُنفقُهُ

٣٦ الإبرة

السري الرفاء، وكان يرفو الثياب:

وكانتِ الإبْرَةُ فيما مَضى ... صائنةً وجهي وأَشعاري

فأصبحَ الرِّزْقُ بها ضيِّقاً   كأنَّهُ مِن ثُقبِها جَارِ

٣٧ السور والسوار

السري الرفاء:

فَلَتَشْكُرَنَّكَ دولةٌ جَدَّدْتَها   فتجدَّدَتْ أعلامُها ومَنارُها
حلَّيْتَها، وحميْتَ بيْضَةَ مُلْكِها   فَغِرَارُ سيفِكَ سورُها وسِوارُها

بيضة ملكها: أصله، غرار سيفك: أي حده، سور للدولة وسوار

٣٨ در وحصى

وقال:

والشعرُ بحرٌ نِلْتُ أَنْفَسَ دُرِّهِ   وتنافسَ الشعراءُ في حَصْبائِهِ

الحصباء: الحصى

٣٩ اللصان

السري الرفاء يمدح أبا البركات ابن ناصر الدولة ويتظلم من الخالديين:

أَشْكُو إليكَ حَليفَيْ غَارَةٍ شَهَرا   سيفَ الشِّقَاقِ على ديباجِ أفكاري

أشكو حليفي غارة، أي صاحبي غارة، قد شهراً سيفاً على أفكاري الجميلة لسرقتها

ذِئبَيْنِ لو ظَفِرا بِالشِّعْرِ في حَرَمٍ   لَمَزَّقَاهُ بِأَنيابٍ وأَظفارِ

لو أمسكا بالشعر في مكان محرم لا قتال فيه، لمزقاه تمزيقاً

إن قَلَّداكَ بِدُرٍّ فَهْوَ مِنْ لُجَجِي   أو خَتَّماكَ بِياقُوتٍ فَأَحْجَاري

يلبسانك الدر، اللؤلؤ، ولكن هذا اللؤلؤ من لججي، أي من بحاري، ويختمانك، أي يلبسانك الخواتم، ولكن ياقوت هذه الخواتم من أحجاري الكريمة فهما يسرقان شعري

واللَّهِ ما مَدَحا حَيّاً، ولا رَثَيا   مَيْتاً، ولا افْتَخرا إلَّا بِأَشْعاري

٤٠ على الأثافي

قال السري يهجو أبا العباس النامي وقيل إنه كان جزاراً:

لقد شَقِيَتْ بِمُدْيَتِكَ الأَضَاحِي   كما شَقِيَتْ بِغارَتِكَ القَوافي

أيها الجزار مثلما شقيت نعاج الأضاحي بسكينك، فإن الأشعار شقيت بإغارتك عليها وسرقتها

وشَرُّ الشعرِ ما أدَّاهُ فِكْرٌ   تَعَثَّرَ بين كَدٍّ واعتِسافِ

الشعر السيئ هو الذي يتعب فيه الإنسان ويأتي به مفتعلاً بعد كثير من الكد والتعسف، أي الالتواء

سَأشْفي القولَ منكَ بِنظمِ شعرٍ   تَبيتُ له على مثلِ الأثافي

سأشتفي وأنصف الشعر منك بهجاء تبيت بسببه على الأثافي، على الحجارة التي توضع تحت القِدر

٤١ تكافل

السري الرفاء:

إذا العِبْءُ الثقيلُ توزَّعَتْهُ   أَكُفُّ القومِ خَفَّ على الرِّقَابِ

٤٢ مجلس على دجلة

السري:

مجلسٌ في فِناءِ دجلةَ يرتا   حُ إليهِ الخليعُ والمَسْتورُ

الخليع: الماجن، المستور: الذي يكتم ملذاته

ليس فيه إلَّا خُمارٌ وخَمْرٌ   ومَماتٌ مِنْ نَشْوَةٍ ونُشورُ

الخمار: صداع الخمر، والنشور: البعث

وحديثٌ كأنه زَهَرُ المَنْـ   ـثورِ حُسناً أو لُؤْلُؤٌ مَنثورُ

وجريحٌ مِنَ الدِّنانِ تَسيلُ الرَّ ـ   احُ مِنْ جُرْحِهِ، وقِدْرٌ تَفورُ

وعندنا دن جريح، أي خابية خمر ثقبت فسالت منها الخمر الحمراء، وقدر للطعام تغلي

ولَكَ الظَّبيةُ الغَريرةُ إنْ شئـ   ـتَ، وإن عِفْتَها فَظَبيٌ غَريرُ

٤٣ الفضل الحقيقي

وقال:

وشَمائِلٍ شهدَ العدوُّ بِفضلِها   والفضْلُ ما شَهِدَتْ به الأَعداءُ

٤٤ انتقامها

أبو بكر الخالدي:

حمراءُ حين جَلَتْها الكأسُ نَقَّطَها   مِزَاجُها بِدنانيرٍ مِنَ الحَبَبِ

خمر حمراء حين جلتها، أي أبرزتها لنا الكأس، نقطها مزجها بالماء بالحبب أي الفقاقيع التي تشبه الدنانير الذهب

كـانـتْ لـهـا أَرْجُـلُ الأَعْـلاجِ وَاتِـرَةً بِالدَّوْسِ، فانتَصَفَتْ مِنْ أرْؤُسِ العَرَبِ

داس الأعلاج، الفلاحون الأعاجم، العنب بأرجلهم في عملية العصر فكأنهم وتروا هذا العصير، أي تركوا عنده ثأراً، وصار العصير خمراً فأخذت الخمر ثأرها من رؤوس العرب عندما شربوها فدارت رؤوسهم سكراً

٤٥ العانس

أبو بكر الخالدي:

وتَمايُلُ الجوزاءِ يَحكي في الدُّجَى مَـيَلانَ شـاربِ قَـهـوةٍ لـم تُـمْـزَجِ

نجوم الجوزاء تهتز في الليل اهتزاز شارب قهوة، أي خمر، صرف لم تمزج

وتَـنَـقَّـبَـتْ بِـخَـفـيـفِ غَـيـم أبـيـضٍ هِـيَ فـيـهِ بـيـن تَـخَـفُّـرٍ وتَـبَـرُّجِ

تنقبت النجوم بنقاب هو الغيم الخفيف، وهي فيه بين تخفر، أي خجل، وتبرج

كتَـنـفُّـسِ الـحـسـناءِ في الـمـرآةِ إذْ كَـمُـلَـتْ مـحـاسِـنُـهـا ولـم تَـتَـزَوَّجِ

هذا يشبه الحسناء تمسك بمرآتها وتنظر فيها وتتنهد إذ ترى جمالها ولا زوج لها فيغيم وجه المرآة من بخار تنفسها.. صورة مركبة ممتعة

٤٦ احمرار

وقال أبو بكر الخالدي:

وأَغْـيَـدَ رَوَّتْـهُ الـمُـدامَـةُ فـانـثَـنَـى كما يَنثَني مِن رِيِّهِ الغُصُنُ الغَضُّ

أغيد: ذو قد مياس

فـقـامَ وفـي أعـطـافِـهِ فـضـلُ سَـكْـرَةٍ وفي عينِه مِنْ وَرْدِ وَجْنَتِهِ بَعْضُ

قام هذا المحبوب وفي أعطافه، جوانب جسمه، تمايل من فضل سكرة، بقية سكر، وفي عينيه احمرار كأنه بعض ما في خده من الحمرة

٤٧ الدرهم الأخير

وقال:

يـا طـالـبـاً لـلـكـيـمـيـاءِ ونـفـعِـهِ مدْحُ ابنِ عيسى الكيمياءُ الأعظَمُ

الكيمياء: صنعة كانوا يعتقدون أنها تجعل الحديد ذهباً

لـو لـم يـكـنْ فـي الأرضِ إلّا دِرْهَـمٌ ومَـدحـتَـهُ لأتـاكَ ذاكَ الـدِّرْهَـمُ

٤٨ العور

أبو عثمان الخالدي:

لو لم يكنْ ماءُ عِلْمي قاهِراً فِكَري لأَحْرَقَتْنيَ في نيرانِها فِكَري
لو لم يكن علمي بصروف الزمن قاهراً لهمومي لاحترقت بنار الهموم

تَزيدُني قَسوةُ الأيام طِيبَ نَثاً كأنني المسكُ بينَ الفِهْرِ والحَجَر
تزيدني قسوة الزمن طيب نثا، سُمعة، كأنني المسك بين الحجر والحجر وتفوح رائحته الطيبة مع تفتته

أَلِفْتُ مِن حادثاتِ الدهرِ أكبَرَها فما أَعُوجُ على أطْفالِها الأُخَرِ
ألفت المصائب الكبيرة فلا أعوج، لا ألتفت، إلى صغائرها

لقد فَرِحْتُ بما عايَنتُ مِنْ عَدَمٍ خوفَ القَبيحَيْنِ مِن كِبْرٍ ومِنْ بَطَرِ
فرحت بما رأيت من فقري بمقدار خوفي من الكبر، التكبر، والبطر، جحد النعمة والتبذير

وربما ابتهجَ الأعمَى بحالَتِه لأنَّه قد نَجا مِنْ طِيرَةِ العَوَرِ
فأنا بفرحي بالمصائب الكبيرة كالأعمى الذي يفرح بالعمى لأنه نجا به من العور.. فرغم أن العور أخف من العمى فإن فيه شؤماً

ولستُ أَبكي لِشيبٍ قد مُنيتُ به يَبكي على الشيبِ مَنْ يأْسَى على العُمُرِ
وقد نظرتُ إلى الدنيا بمقلَتِها فاستصغرَتْها جُفُوني غايَةَ الصِّغَرِ

٤٩ الوصيّ

الخباز البلدي:

أُنْظُرْ إِلَيَّ بعينِ الصفْحِ عن زَلَلي لا تَتْرُكَنِّيَ مِنْ ذَنبي على وَجَلِ
هذا فؤاديَ لم يَمْلِكْهُ غيرُكُمُ إلَّا الوَصِيَّ أميرَ المؤمنينَ عَلي

٥٠ القرض

وقال:

إذا استثْقَلْتَ أو أبغَضْتَ خلقاً وسَرَّكَ بُعدُه حتى التَّنَادي..
إذا وجدت خلقاً، أي شخصاً، بغيضاً، وكان يسرك ابتعاده عنك حتى يوم التنادي، يوم القيامة..

فشَرِّدْهُ بِقَرْضِ دُرَيْهِماتٍ فإن القَرْضَ داعِيةُ البِعادِ
فشرده وأقصه عنك بأن تقرضه بعض الدراهم، فالديْن داعية، أي سبب، للتباعد

٥١ يأس

قال الوزير المهلبي قبل الوزارة:

ألا مَـوتٌ يُـبـاعُ فَـأَشْـتَـرِيَـهِ فـهـذا الـعـيشُ ما لا خـيـرَ فـيـهِ
ألا مـوتٌ لَـذيـذُ الـطَّـعْـمِ يَـأْتـي يُـخَـلِّـصُـنـي مِـنَ الـعـيشِ الـكَـريـهِ
إذا أبـصَـرْتُ قـبـراً مِـنْ بـعـيـدٍ وَدِدْتُ لـو أنَّـنـي فـيـمـا يَـلـيـهِ

فيما يليه: بجواره

ألا رَحِـمَ الـمُـهَـيْـمِـنُ نفسَ حُـرٍّ تَـصَـدَّقَ بِـالـوفَـاةِ عَـلـى أخـيـهِ

٥٢ العريانة

أبو إسحق الصابي:

يَـا مَـنْ بَـدَتْ عُـرْيَـانَـةً فَـرأيـتُ كـلَّ الـحـسـنِ مـنـهـا
كـانَـتْ ثـيـابُـكِ عَـوْرَةً فَـسُـتِـرْتِ بِـالـتَّـجـريـدِ عـنـهـا

٥٣ الأب والأم

وقال أبو إسحق الصابي:

أُسـرةُ الـمـرءِ والِـدَاهُ وفـيـمـا بـيـن حِـضـنَـيْـهِـمـا الـحـيـاةُ تَـطـيـبُ
فـإذا مـا طَـواهُـمـا الـمـوتُ عـنـه فـهْـوَ فـي الـنـاسِ أجـنـبـيٌّ غـريـبُ

٥٤ سنان

وقال أبو إسحق الصابي يرثي ابنه سناناً:

أَسـعِـدانـيِ بِـالـدمـعـةِ الـحـمـراءِ جَـلَّ مـا حَـلَّ بـي عـن الـبـيـضـاءِ

اسعداني، أي ساعداني وواسياني، وابكيا دماً فقد كبرت مصيبتي عن الدموع العادية

يُـؤْلِـمُ الـقـلـبَ كـلُّ فـقـدٍ، ولا مثـ ـلَ افـتـقـادِ الآبـاءِ لـلأبـنـاءِ
هَـدَّ رُكْـنـي مَـثْـوَى سِـنـانٍ، وقـد كـا نَ يَـهُـدُّ الأركـانَ مِـنْ أَعـدائـي

مثوى: موت

إنَّـمـا كـنـتَ فِـلْـذَةً مِـنْ فُـؤادي خـطـفَـتْـهـا الـمَـنـونُ مِـنْ أحـشـائـي

فلذة: قطعة

٥٥ بطن وظهر

وقال أبو إسحق الصابي:

أَسُرُّ القرينةَ ليلَ العِناقِ وأَفْتِكُ بِالقِرْنِ يومَ الطِّعانِ

القرن: الخصم، الطعان: الطعن بالرماح

فبطنُ الحَصَانِ وظَهْرُ الحِصانِ عَلَيَّ بِما قلتُه شَاهِدانِ

الحَصان: المرأة المحصنة عن الفاحشة

٥٦ متحضر متوحش

قال الصابي في الحبس:

وإنِّي لَقِرْنُ الدهرِ: يوماً تَنُوبُنِي سُطَاهُ، ويوماً تنجَلِي بي نَوائِبُهْ

أنا خصم للزمن يسطو علي مرة وتنجلي مصائبه مرة

ومَنْ مَدَّ نحوَ النَّجْمِ كيمَا ينالَهُ يَداً كَيَدي لاقَتْهُ أيْدٍ تُجاذِبُهْ

الطموح الذي يريد بلوغ النجوم بيده سيجد أيادي أخرى تنافس يده

ولا بُدَّ للسَّاعي إلى نيلِ غايَةٍ مِنَ المجدِ، مِنْ ساعٍ تَدِبُّ عَقارِبُهْ

الساعي لنيل غاية من غايات المجد سيجد ساعياً آخر تدب عقاربه، تتحفز شروره

فما كنتُ كالقِسْطَارِ يُثْرِي بِكيسِهِ ويُمْلِقُ إنْ أَنْحَى على الكيسِ سَالِبُهْ

لست كالقسطار، كالصراف الذي يعرف الدراهم الصحيحة من الزائفة، الذي يصبح ثرياً بمال في كيسه، فإذا سرق منه الكيس أملق وافتقر

ولكنْ كَلَيْثِ الغابِ إنْ رامَ ثَرْوَةً حَوَتْها له أنيابُهُ ومَخالِبُهْ

أنا كالأسد أسطو وأنال ما أريد بقوتي

يَبيتُ خَمِيصاً طَاوِياً ثم يَغْتَدي مُباحاً لهُ مِنْ كُلِّ طُعْمٍ أَطَايِبُهْ

الأسد يبيت خميصاً طاوياً، أي جائعاً، ثم يغتدي صباحاً فيجد كل طعام مما يصيد مباحاً

ولِي بين أَقْلامِي ولُبِّي ومَنطِقِي غِنىً قَلَّما يشكُو الخَصَاصَةَ صَاحِبُهْ

الخصاصة: الفقر. التسويد: أ. عبد الرحيم

٥٧ رائحة كلماته

وقال أبو إسحق الصابي:

نَطَقَ ابنُ نَصْرٍ فاستَطارتْ جيفَةٌ ... في الخَافِقَيْنِ لِنَتْنٍ فيهِ الفَاسِدِ
فكأنَّ أهلَ الأرضِ كلَّهُمُ فَسُوا ... مُتَواطِئِينَ على اتِّفاقٍ وَاحِدِ

٥٨ السكوت

وقال الصابي:

وأيامٌ تُعَدُّ عليَّ عَدّاً ... وحَظِّي مِنْ رَغائِبِها يَفُوتُ
إذا رامَ الكريمُ شَكَاةَ بَثٍّ ... فغايَتُهُ التَحَمُّلُ والسُّكُوتُ

التسويد: أ. عبد الرحيم

٥٩ اللب والذهب

وقال أبو إسحق الصابي:

قد كنتُ أعجَبُ مِن مالِي وكثْرَتِهِ ... وكيف تغفُلُ عنه حُرفَةُ الأدبِ

حرفة الأدب: الفقر الذي يسببه احتراف الأدب

حتى انثَنَتْ وَهْيَ كالغَضْبَى تُلاحِظُني ... شَزْراً فلم تُبْقِ لي شيئاً مِنَ النَّشَبِ

حرفة الأدب صارت تنظر إلي شزراً، أي بطرف عينيها بغضب، ولم تبق لي شيئاً من النشب، المال

فاستيْقَنَتْ أنها كانتْ على غَلَطٍ ... فاستدركَتْهُ وأَفْضَتْ بِي إلى الحَرَبِ

تأكدتْ حرفة الأدب أنها كانت مخطئة إذ تركتني ومعي مال، فاستدركت الخطأ وأفضت بي إلى الحرب، انتهت بي إلى التقشيط.. في بلدنا كانت الناس تسمي سلب قطاع الطريق المسافرين مالهم تقشيطاً.. والتقشيط في اللغة هو الحَرَب

الضَّبُّ والنُّونُ قد يُرجَى التِقاؤُهُما ... وليس يُرجَى التِقاءُ اللُّبِّ والذَّهَبِ

الضب، حيوان الصحراء، والنون، أي الحوت، يستحيل التقاؤهما طبعاً.. لكن التقاؤهما أسهل من التقاء العقل والذهب عند شخص

٦٠ المستخرِج

وقال أبو إسحق الصابي في مستخرج مال كان يرفق به حال مصادرته:

مُسْتَخْرِجٌ لِلمالِ مُضْطَرٌّ إلى اسـ ... ـتعمالِ ما يُرضِي به السُّلطانا

كان الخلفاء والأمراء كثيراً ما ينزلون النكبة بالرجل الثري، فيوكلون به مستخرجاً يصادر أمواله، يأخذه المستخرج إلى بيته أو قصره ويسجنه عنده، ويعذبه حتى يدل على مكان إخفاء المال

مـتـلـطِّـفٌ فـي فـقـرِنـا، ولـو انَّـهُ   وجَـدَ الـسـبـيـلَ إلى الـغِـنى أَغْـنَـانـا
متوغِّرُ الـجَـنَـبَـاتِ في اسـتِـخـراجِـهِ   وإذا تَـعَـطَّـفَ لـلـفُـتُـوَّةِ لانـا

متوعر الجنبات، أي قاس، وهو يستخرج المال، وإذا تعطف للفتوة، انثنى نحو النخوة، لان

فـتَـراهُ فـي دِيـوانِـه مُـسْـتَـأْسِـداً   لـيـثـاً، وفـي خَـلَـوَاتِـهِ إنـسَـانـا

٦١ الوقت المناسب للموت

وقال أبو إسحق الصابي:

إذا لـم يَـكُـنْ لـلـمَـرءِ بُـدٌّ مِـنَ الـرَّدَى   فـأسـهَـلُـهُ مـا جـاءَ والـعَـيـشُ أَنْـكَـدُ
وأَصـعَـبُـهُ مـا جـاءَهُ وَهْـوَ رَاتِـعٌ   تُـطِـيـفُ به اللَّـذاتُ والـحظُّ مُـسْـعِـدُ
فـإنْ أَكُ شَـرَّ الـعِـيـشَـتَـيْـنِ أَعـيـشُـهـا   فـإنِّـي إلى خيرِ الـمَـمـاتَـيْـنِ أَقْـصِـدُ

٦٢ النفس الشريفة

وقال أبو إسحق الصابي:

جُـمْـلَـةُ الإنـسـانِ جـيـفَـةْ   وهُـيُـولَاهُ سَـخِـيـفَـةْ

الهيولى: المادة الأبسط التي تتشكل بحسب طريقة التركيب في أشكال شتى..

فـلـمـاذا لـيـتَ شِـعـرِي   قـيـلَ لـلـنَّـفْـسِ شَـرِيـفَـةْ

٦٣ الناتف

وقال أبو إسحق الصابي:

كفاكَ مِنْ ذِلَّتي للشيبِ حينَ بَدا   أني تَولَّيْتُ نَتفي لِحْيَتي بِيَدي

٦٤ وقت الأذان

أبو أحمد الشيرازي:

إلـى الـلَّـهِ أَشـكُـو ضَـنـىً شَـفَّـنـي   وكـم قَـبـلَـهُ مِـنْ ضَـنـىً قد شَـفـانـي
وسُـقـمـاً أَلَـحَّ، فـمـا لـي بِـمـا   أَحَـاطَ بِـرِجْـلَـيَّ مـنـهُ يَـدانِ

ما لي به يدان: لا حيلة لي فيه

تَـرانـي وقـد كـنـتُ ثَـبْـتَ الـجَـنـانِ   إذا الـلـيـلُ جَـنَّ سَـلـيـبَ الـجَـنـانِ

أُقَطِّعَ آناءَهُ بالأنينِ وأَرْقُبُ للصُّبْحِ وقتَ الأَذانِ

٦٥ احتساء السرور

قال القاضي التنوخي الأب:

باتَ يَسقيني ويَشْرَبْ ذهباً لِلْهَمِّ مُذْهِبْ
شادِنٌ يحمِلُ ماءً فيه نارٌ تتلَهَّبْ

شادن: ولد الظبية

ليتَ شِعري أسُروراً أم مُداماً بِتُّ أَشْرَبْ

٦٦ وقوف الفلك

قال ابن لَنْكَك:

جارَ الزَّمانُ علينا في تَصَرُّفِهِ وأيُّ دَهْرٍ على الأحرارِ لم يَجُرِ
عنديِ مِنَ الدهرِ ما لو أن أَيْسَرَهُ يُلقَى على الفَلَكِ الدوَّارِ لم يَدُرِ

٦٧ البقر

وقال:

لا تَخْدَعَنْكَ اللِّحَى ولا الصُّوَرُ تسعَةُ أعشارِ مَنْ تَرى بَقَرُ
تَراهُمُ كالسَّحَابِ منتَشراً وليس فيهِ لِطالِبٍ مَطَرُ
في شَجَرِ السَّرْوِ منهُمُ مَثَلٌ له رُواءٌ وما له ثَمَرُ

٦٨ حاتم

وقال:

عَدِّنا في زَمانِنا عن طريقِ المَكارِمِ
مَنْ كَفَى الناسَ شَرَّهُ فَهْوَ في جُودِ حَاتِمِ

٦٩ الوضيع

قال يهجو أبا رياش:

قُلْ لِلوَضيعِ أبي رِياشٍ لا تُبَلْ تِهْ كلَّ تيهِكَ بالوِلايَةِ والعملْ

قل للحقير فلان لا تبل، أي لا تبالِ ولا تهتم، وازده وتكبر بتولي منصب الوالي وعمل السلطان

ما ازْدَدْتَ حين وَلِيتَ إلَّا خِسَّةً	كالكلبِ أنْجَسَ ما يَكونُ إذا اغْتَسَلْ

٧٠ الدفاتر

وقال يهجو شاعراً:

إنَّ الرُّمَيْلِيَّ بَليدٌ خَاطِرُهْ
يَشعرُ ما دَامَتْ له دَفاتِرُهْ
فالشُّعَراءُ كُلُّهُمْ خَواطِرُهْ

٧١ البصرة

وقال:

ليس في البصرةِ حُرٌّ	لا، ولا فيها جوادُ
إنَّما البَصْرةُ أَنْشا	بٌ ونَخْلٌ وسَمادُ

النشب شجر تتخذ منه القِسِيّ

٧٢ الكلب والأسد

قال نصر بن أحمد الخبزأرزي:

قد قلتُ إذ خانَ صَبري مَنْ كَلِفْتُ بِهِ	ولم يَكُنْ عنه لي صبرٌ ولا جَلَدُ
**إن كان شارَكَني في حُبِّهِ وَقِحٌ	فالنهرُ يَشرَبُ منه الكلبُ والأَسَدُ**

٧٣ عساكر الليل

قال ابن التمار الواسطي:

قمْ فانتَصِفْ مِنْ صُروفِ الدهرِ والنُّوَبِ	واجمَعْ بِكأْسِكَ شملَ اللَّهْوِ والطربِ
أما تَرى الليلَ قد وَلَّتْ عساكِرُهُ	مَهزُومَةً، وجُيوشُ الصبحِ في الطَّلَبِ
والبدرُ في الجانبِ الغربيِّ تَحسَبُهُ	قد مَدَّ جِسراً على الشَّطَّيْنِ مِنْ ذَهَبِ

٧٤ أعناق العشاق

قال أبو عبد الله الحامدي:

سَقاني وحَيَّاني وبَاتَ مُعانِقي	فيَا عَطْفَ مَعشُوقٍ على ذُلِّ عاشِقِ

ويـا لـيـلـةً بـاتَـتْ سـواعِـدُنـا بـهـا   تدورُ على الأعناقِ دَوْرَ الـمَخَانِقِ

المخانق: العقود القصيرة التي كأنها تخنق الرقبة

نَبُثُّ مِنَ الشكوى حديثاً كأنَّهُ   قلائِدُ دُرٍّ في نُحورِ العَواتِقِ

العواتق: الفتيات

٧٥ دفين الهواء

قال أبو بكر محمد الأنباري في ابن بَقِيَّة لما قتل وصلب:

عُلُوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ   لَحَقٌّ تلكَ إحْدى المُعجِزاتِ

كأنَّ الناسَ حولَكَ حين قاموا   وُفودُ نَداكَ أيَّامَ الصِّلاتِ

كأن الناس حولك وأنت مصلوب الوفود التي كانت تأتيك لنداك، أي سخاءك، أيام كنت تعطيهم الصلات، العطايا

كأنَّكَ قائِمٌ فيهِمْ خَطيباً   وكلُّهُمُ قِيامٌ للصَّلاةِ

مَدَدْتَ يديْكَ نَحْوَهُمُ احتِفالاً   كمَدِّهِما إليْهِمْ بالهِباتِ

ولمَّا ضاقَ بطنُ الأرضِ عنْ أنْ   يَضُمَّ عُلاكَ مِنْ بعدِ المماتِ

أصارُوا الجوَّ قبرَكَ واستَنابُوا   عنِ الأكفانِ ثَوبَ السَّافِياتِ

جعلوا الجو قبراً لك، وبدل الأكفان أنابوا ثوب الرياح السافية، أي كفنوك بالريح الشديدة التي تحمل الغبار

لِعُظْمِكَ في النفوسِ تَبيتُ تُرعَى   بِحُرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثِقاتِ

وتُشْعَلُ حولَكَ النيرانُ ليلاً   كذلكَ كنتَ أيَّامَ الحياةِ

رَكِبْتَ مَطِيَّةً، مِنْ قبلُ زَيْدٌ   عَلاها في السنينَ الماضِياتِ

ركبت هذه المطية، الدابة، التي ركبها قبلك الإمام زيد بن علي، حين قتله وصلبه الأمويون عام ١٢٢هـ

وتلكَ قَضِيَّةٌ فيها تَأَسٍّ   تُباعِدُ عنكَ تَغْييرَ العُداةِ

فلك فيه أسوة، وهذه الأسوة تبعد عنك تعيير الأعداء، فبعد الإمام زيد لم يعد الصلب عاراً

أَسَأْتَ إلى النوائبِ فاستَثارتْ   فأنْتَ قَتيلُ ثَأرِ النَّائِباتِ

أسأت إلى المصائب بكرمك فاستثارت، طلبت الثأر، فقتلك ثأرها

ولو أنِّي قَدَرْتُ على قِيامي   بِفَرْضِكَ والحقوقِ الواجباتِ..

مَـلأتُ الأرضَ مِـنْ نَـظْـمِ الـقَـوافـيِ ونُـحْـتُ بِـه خِـلافَ الـنَّـائِـحـاتِ

خلاف النائحات: لعله يقصد بالإضافة إلى النائحات. كنت في زمان الطلب هاوي تخطيط، وطلب إلي حنًّا صاحب البقالة في بلدة بيرزيت أن أكتب له لافتة. قال لي: أكتب أن عندي الخضار والأدوات المنزلية ونبيذ «دير اللطرون»، وكونياك الثلاث سبعات، والمكسرات، وهناك أيضاً.. قلت له: كفى كفى.. هذه لافتة جانبية نصف متر في ربع متر! وكتبت له بعض ما أراد، وحتى لا يزعل، كتبت في ذيل اللافتة «وخلافه»، فصار اسم بقالته عند الطلبة «دكان وخلافه»

ومـا لَـكَ تُـرْبَـةٌ فـأقُـولَ تُـسـقَـى لأنَّـكَ نُـصْـبَ هَـطْـلِ الـهَـاطِـلاتِ

لن أدعو لتراب قبرك بالسقيا كالعادة، فأنت نصب الأمطار الهاطلة ولا حاجة بك لمزيد من السقيا

عـلـيـكَ تَـحِـيَّـةُ الـرحـمَـنِ تَـتْـرَى بِـرَحْـمَـاتٍ غَـوادٍ رَائِـحَـاتِ

تترى: متتابعة متواترة، غواد رائحات: جائيات صبحاً ومساء

٧٦ أنتم الناس

قال ابن زريق:

سـافـرتُ أَبـغـي لِـبَـغـدادٍ وسـاكـنِـهـا مِـثلاً، فحـاولـتُ شيئـاً دونَـه اليَـاسُ

هيـهـاتَ، بَـغـدادُ الـدنـيـا بِـأجـمَـعِـهـا عنـديِ، وسُـكـانُ بَـغـدادٍ هُـمُ الـنـاسُ

٧٧ فيها فيه عليه

وقال يخاطب أبا عبد الله الكوفي:

إنَّـا رَأَيْـنـا حِـجـاباً منـكَ قـد عَـرَضـا فـلا يَـكُـنْ ذُلُّـنـا فـيـهِ لَـكَ الـغَـرَضـا

اِسمَعْ لِنُصْحِي ولا تَغضَبْ عليَّ، فما أَبـغـي بِـقـولِـيَ لا مـالاً ولا عَـرَضـا

الشُّكْرُ يبقَى ويفنَى ما سِواهُ، وكم سِواكَ قد نالَ مُلْكاً فانقَضَى ومَضَى

في هذه الدارِ، في هذا الرِّواقِ على هذا السريرِ، رأَيْنا الـمُلْكَ فانْقَرَضا

٧٨ يؤكل أكلاً

قال ابن نُبَاتَة السعدي:

يا مَنْ أَضَرَّ بِحُسْنِ الشمسِ والقمرِ فـلـم يَـدَعْ فـيـهـمـا لـلـنـاسِ مِـنْ وَطَـرِ

وطر: حاجة

نفسيِ فِداؤُكَ مِنْ بَدْرٍ على غُصُنٍ تـكـادُ تَـأْكُـلُـه عـيـنـايَ بِـالـنَّـظَـرِ

٧٩ سقام

وقال ابن نباتة السعدي، (وهو غير ابن نباتة الفارقي):

سَقامٌ ما يُصَابُ له طَبيبُ ... وأيامٌ محاسِنُها عيوبُ
ودهرٌ ليس يَقبَلُ مِنْ أديبٍ ... كما لا يَقْبَلُ التَّأْديبَ ذِيبُ
يُحَبُّ على المصائبِ والرَّزَايا ... فلا كانَ المُحِبُّ ولا الحبيبُ

٨٠ المغرور

وقال ابن نباتة السعدي:

ومغرورٍ يحاولُ نَيْلَ عِرضي ... فقلتُ له: الكواكبُ لا تُنالُ
ويَعْجَبُ أن حَوَيْتُ المجدَ طِفلاً ... ألا لِلَّهِ ثم لِيَ الكمالُ
أُحَمِّلُ ضَعْفَ جِسمي ثِقْلَ نَفْسي ... ونَفْسي ليس تحمِلُها الجبالُ

٨١ صلاة لوجهه

وقال ابن نباتة السعدي:

تضاءَلَ الدهرُ حتى ضاعَ في هِمَمي ... واستفحَلَ المجدُ حتى صارَ مِنْ شِيَمي
فلو يكونُ سَوادُ الشَّعْرِ في ذِمَمي ... ما كان للشيبِ سلطانٌ على اللِّمَمِ

لو كان سواد الشعر في ذممي، في حمايتي، لما كان للشيب قدرة على اللمم، شعر الرأس

لو يعلمُ الناسُ قَدْري في زمانِهِمُ ... صَلَّوْا لِوجهيَ واشتاقُوا ثَرى قَدَمي

٨٢ المحارب

وقال ابن نباتة السعدي:

ولو طَلَبَ الناسُ المكارمَ كلُّهُمْ ... لَكانَ الغِنَى كالفقرِ والعَبْدُ كالرَّبِّ

الرب: السيد مالك العبد

ولكنَّ أشخاصَ المعالي خَفِيَّةٌ ... على كلِّ عينٍ ليس تَنْظُرُ باللُّبِّ
لقد زَادَني حَرْبُ الزمانِ تجارِباً ... فلا عشتُ في يومٍ يَمُرُّ بِلا حَرْبِ
ومَنْ يَكُ يَعتَادُ الكُروبَ فؤادُهُ ... فإنَّكَ يا قَلبي خُلِقْتَ مِنَ الكَرْبِ

٨٣ بلا أمل

قال ابن نباتة يمدح سيف الدولة:

قد جُدْتَ لي باللُّهَى حتى ضَجِرْتُ بها   وكِدْتُ مِنْ ضَجَرٍ أُثني على البَخَلِ

اللهى: العطايا

لم يُبْقِ جودُك لي شيئاً أُؤَمِّلُهُ   تركْتَني أصْحَبُ الدنيا بِلا أَمَلِ

٨٤ سيوف

وقال له:

سيوفُك أَمْضى في النفوسِ مِنَ الرَّدَى   وخوفُكَ أَمْضى مِنْ سيوفِكَ في العِدَا

٨٥ كتاب مفتوح

ومدح ابن نباتة السعدي الوزير المهلبي فقال:

جئتُه زائراً وقد رَكِبَ الأفَـ   ـلاكَ، والنجمُ تَحْتَهُ في الترابِ

بِمَعانٍ سَرِقْتُها مِنْ عُلاهُ   فكأنِّي قرأتُها في كتابِ

٨٦ كلنا كذلك

وقال:

يهوى الثَّناءَ مُبَرِّزٌ ومقَصِّرٌ   حُبُّ الثَّناءِ طَبيعةُ الإنسانِ

٨٧ الزمن الحركة

وقال:

نُعَلِّلُ بالدواءِ إذا مَرِضْنا   وهل يَشفي مِنَ الموتِ الدواءُ

ونختارُ الطبيبَ، وهل طبيبٌ   يؤَخِّرُ ما يُقَدِّمُهُ القضاءُ

وما أنفاسُنا إلَّا حِسابٌ   وما حَرَكاتُنا إلَّا فَناءُ

٨٨ العفو

قال أبو الحسن السلامي:

تَبَسَّطْنا على الآثامِ لَمَّا   رأينا العفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنوبِ

٨٩ مباراة في الرجز

وقال في الصاحب بن عباد:

يـا مُـجْـرِيَ الـفِـكْـرِ إلـى أقـصَـى أَمَـدْ

اِسـمَـعْ فـقـد أَنْـجَـزَ حُـرٌّ مـا وَعَـدْ

عَـذْراءُ لـم يُـقْـرَعْ بـهـا سَـمْـعُ أَحَـدْ

هذه أرجوزة عذراء لم يطرق سمع أحد شيء مثلها

لـو عُـرِضَـتْ عـلـى أبـي الـنَّـجْـمِ سَـجَـدْ

أبو النجم العجلي أحد مشاهير الرجاز

٩٠ قصيدة خجلى

وكتب السلامي بهذه القصيدة إلى الشريف الرضي:

أَشـكـو إلـيـهِ عـشـيـةً لـم نـفـتـرقْ ... مـنـهـا عـلـى مـلـلٍ ولا اسـتِـعْـتَـابِ

مـا كـنـتَ إلَّا جـنـةً فـارقـتُـهـا ... كُـرْهـاً فـصُـبَّ عـلـيَّ سَـوطُ عَـذابِ

وخَـريـدَةٍ عَـذراءَ رُحْـتُ أَزُفُّـهـا ... مـا بـيـنَ ألـفـاظٍ شَـرُفْـنَ عِـذابِ

خريدة: فتاة، يعني قصيدة

جاءتْكَ يحمِلُها الجَمالُ، وربَّما ... وقفَ الحياءُ بها دُوَيْنَ البابِ

تستحي القصيدة دوين الباب، قبل الدخول، وهي تزف إليك فهي عذراء بمعنيين، جديدة غير مسبوقة والفتاة العذراء من شانها الحياء، ولكنها تستحي لأنك أنت شاعر كبير

أَهْدَيْتُها خَجِلاً إلى مُتَغَلْغِلِ الـ ... ـأفكارِ مُحْصَدِ مِرَّةِ الآدابِ

محصد مرة الآداب: ناضج مفتول الحبل في الأدب

لِأبي القريضِ ابنِ المعاني بل أخي الـ ... ـأَعْرابِ حين يَفُوهُ والإِغْرابِ

لسان الممدوح فصيح كأنه لسان أعرابي، وهو قدير على الإغراب، الإتيان بغريب اللغة

أُنظُرْ بعينِ رضاً إلى ما صُغْتُهُ ... وأَعِرْهُ سمعَ مُسَامِحٍ وَهَّابِ

وتجاوزِ الخَطَأَ الشنيعَ وأَخْفِهِ ... عن ناظرِ المُتَفَيْهِقِ المُغْتابِ

الرجاء التغاضي عما في قصيدتي من أخطاء، وإخفاء الخطأ عن المتفيهق، المتحاذق مدعي العلم

واجْهَرْ إذا أنشدتَها في مَحفِلٍ ... فعثَرْتَ بين عيوبِها بِصَوابِ

وارفع صوتك وأنت تنشدها كلما وجدت صواباً بين عيوبها الكثيرة

٩١ السؤدد

وقال:

قد قلتُ حينَ أفاضَ أحمدُ سَيْبَهُ　　يا شِقْوةَ الـمُتشبِّهِينَ بِأحمدِ

سيبه: عطاؤه

يَشْرونَ مثلَ جِيادِهِ وعبيدِهِ　　أَفَيَقْدِرُونَ على ابتياعِ السُّؤْدَدِ

٩٢ ما تستقرّ

قال ابن سكرة الهاشمي:

الليالي تسوءُ ثم تَسُرُّ　　وصُروفُ الزمانِ ما تَسْتَقِرُّ

غيرَ أَنِّي عن الحوادثِ راضٍ　　بعدَ سُخْطٍ، والعيشُ حُلْوٌ ومُرُّ

٩٣ بحار الدموع

وقال ابن سُكَّرة:

لي حبيبٌ كلُّه حَسَنٌ　　فعيونُ الناسِ تَنْهَبُهُ

ضَاعَ مِنْ عيني فَمُقْلَتُها　　في بحارِ الدمعِ تَطْلُبُهُ

٩٤ الباز الهرم

قال في حبيبته «خمرة» وقد كبرت:

لا تسمعُوا «خَمْرةً» فقد هَرِمَتْ　　وانكَسَرَتْ تلكُمُ القَواريرُ

وكلُّ بَازٍ يَمَسُّهُ هَرَمٌ　　تَخْرىَ على رأسِه العصافيرُ

٩٥ التيَّاه

وقال ابن سكرة الهاشمي:

تِهْتَ علينا ولستَ فينا　　وليَّ عهدٍ ولا خليفهْ

فَتِهْ وزِدْ، ما عليَّ جَارٍ　　يُقْطَعُ عنِّي ولا وَظيفهْ

ليس عليَّ جارٍ، رزقٌ تجريه علي، ولا وظيفة، أي مرتب

ولا تَقُلْ ليس فيَّ عيبٌ　　قد تُقذَفُ الحُرَّةُ العَفيفهْ

لا تقل إنك خال من العيوب فلذلك لا سبيل للهجاء عليك، وحتى لو كنت كذلك فأنت كالحرة العفيفة ليست بها عيوب ولكن الناس يقذفونها بالباطل، أي أن الشاعر مستعد للافتراء عليك

الـشـعـرُ نـارٌ بـلا دخـانٍ ولِـلـقَـوافـي رُقـىً لَـطـيـفـةْ

الرقى اللطيفة: التعاويذ الصغيرة ذات الأثر الكبير. تسويد أ. عبد الرحيم

كم مِنْ ثقيلِ المَحَلِّ سامٍ هَوَتْ به أَحْرُفٌ خَفيفةْ

لو هُجِيَ المسكُ، وَهْوَ أَهْلٌ لكلِّ مدحٍ، لَصارَ جيفَةْ

٩٦ القاعد القائم

وقال:

لنا شيخٌ يُصَلِّي مِنْ قُعودٍ ويَنكِحُ حين يَنْكِحُ مِنْ قِيامِ

٩٧ مدح الورد

وقال ابن سكرة:

للوردِ عندي مَحَلُّ لأنَّه لا يُمَلُّ

كلُّ الرياحينِ جندٌ وَهْوَ الأميرُ الأجَلُّ

إن غابَ عَزُّوا وباهَوْا حتى إذا عادَ ذَلُّوا

٩٨ نزلة

وقال:

قلتُ لِلنَّزْلَةِ حُلِّي وانزِلي غيرَ لَهاتي

النزلة: نزول الالتهاب المسمى بالرشح إلى شعبتي الرئتين، لهاتي: حلقي

واتركي حَلْقي بِحَقِّي فَهْوَ دِهليزُ حَياتي

٩٩ العدل

وقال:

الجوعُ يُطرَدُ بالرغيفِ اليابسِ فعلامَ تَكْثُرُ حسرتي ووَساوسي

والموتُ أَنْصَفَ حين عَدَّل قِسْمَةً بين الخليفةِ والفقيرِ البائسِ

١٠٠ الجفا بعد الوفا

قال ابن الحجاج:

ولقد عهدتُكَ تشتهي قُرْبِي، وتَستَدْعي حُضوري

وأرى الـجَـفـا بـعـدَ الـوَفـا   مـثـلَ الـفُـسَـا بـعـدَ الـبَـخُـورِ

١٠١ قلتُ أقوم

وقال ابن الحجاج:

وذي هِمَّةٍ في حضيضِ الكَنيفِ   وقَـرْنَـيْـنِ فـي فَـلَـكِ الـمُـشْـتـري

رب صاحب طموح منحط كأنه في قعر الكنيف، المرحاض، وله قرنان طويلان يصلان إلى فلك، أي مدار، المشتري. . والقرنان للرجل كناية عن ديوثةٍ وقلة غيرة على الحرم

دخـلـتُ عـلـيـه انـتـصـافَ الـنـهـارِ   عـلـى غـفـلـةٍ حيـن لـم يَـشْـعُـرِ

وبـيـن يـديْـهِ رغـيـفـانِ مَـعْ   سُـكُـرُّجَـةٍ كـان فـيـهـا مُـرِي

سكرجة: إناء صغير، المُرِيُّ: الصلصة والتوابل يصير بها الطعام مريئاً

فـلـمـا قـعـدتُ فَـسَـا فَـسْـوَةً   فـلـم تُـخْـطِ عَـصْـفَـتُـهـا مِـنـخَـري

وأقـبَـلَ يَـضْـرُطُ فـي إثْـرِهـا   فـقـلـتُ: أَقُـومُ وإلّا خَـري

هذه طريقة ابن الحجاج ونورد أبياته كي نعرض ما وصل إليه الشعر في عصر ذبول الازدهار العباسي

١٠٢ عرفت مكاني

وقال:

رَسَـمُـوا طـيـنَ دَنِّـهـا وَهْـوَ رَطْـبٌ   بـاسْـمِ كِـسـرى، كِـسْـرى أنُـوشِـروانِ

عندما كان الطين الذي ختموا به دن الخمر طرياً وَسَموه ختماً بسِمة كسرى أنوشروان ورسموه باسمه

يا خَليليَّ قد عطشْتُ وفي الخمـ   ـرةِ رِيٌّ لِـلـحـائِـمِ الـعـطـشـانِ

فاسقِياني مَحْضَ التي نَطَقَ الوحـ   ـيُ بِـتـحـريـمِـهـا مِـنَ الـقـرآنِ

والـتـي لـيـس لـلـتـأَوُّلِ فـيـهـا   مـذهـبٌ غـيـرَ طـاعـةِ الـشـيـطـانِ

يريد خمرة لم يتأول لها الفقهاء وجه تحليل

فـاسْـقِـيـانـي بـيـنَ الـدِّنَـانِ إلـى أن   تَـريـانـي كـبـعـضِ تِـلْـكَ الـدنـانِ

مُـقْـعَـداً بعدَ خِـفَّـتي فـي نُـهـوضـي   أَخْـرسـاً بـعـدَ كَـثْـرَةِ الـهَـذَيـانِ

سَـكْـرَةٌ بـعـد سَـكْـرَةٍ تُـثْـبِـتُ اسـمـي   فـي الـمَـفَـالِـيـجِ أو مَـعَ الـعُـمـيـانِ

المفاليج: المصابون بالفالج

إسقِياني في المِهرجانِ ولو كا نَ لِخَمْسٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضانِ
إسقِياني فقد رأيتُ بِعيني في قَرارِ الجَحيمِ أينَ مَكاني

١٠٣ دمعة المقهور

وقال:

قُمْ هاتِها أَصفَى إذا رُقْرِقَتْ في الكأسِ مِنْ دمعَةِ مَقْهورِ

١٠٤ الخزعبلات

وقال:

وفي النَّبْكِ الحَرامِ خُزَعْبِلاتٌ قليلاً ما تَراها في الحلالِ

١٠٥ الغوص

وقال:

يا سادتي ما استَرَقَّ ديني شَيْءٌ كمِثْلِ الحِرِ السَّمينِ
استرق ديني: جعله رقيقاً خفيفاً، الحر: متاع الأنثى

لما أراهُ يَزولُ عَقلي عني ويعتادُني جنوني
وأشتهي أن أَغُوصَ فيه مِنْ مُشْطِ رِجلي إلى جَبيني
وكلَّما شِلْتُ منه رأسي رُزِقْتُ قوماً يُغَوِّصُوني
أغيبُ شهراً فلا تراني الـ ـعيونُ والناسُ يَطلُبوني
حتى إذا كان بعد شهرٍ دَلَّ على مَوضِعي أنيني

١٠٦ مقارنة

وقال:

أَبري على أنه طويلٌ أقصرُ من بظرِها بِشبرِ

١٠٧ الحذر

قال القاضي ابن معروف:

إحْذَرْ عدوَّكَ مَرَّةً واحذَرْ صديقَكَ ألفَ مَرَّةْ

فلربَّما انقلَبَ الصديـ ـقُ، فكانَ أعْرَفَ بِالمَضَرَّةْ

١٠٨ الطوامير

قال أبو الفرج الأصفهاني يمدح الوزير المهلبي:

ويَقتَضِبُ المعنَى الكثيرَ بِلَفْظِهِ   ويأتي بِما تَحوي الطَّواميرُ في سَطْرِ

الطوامير: لفافات الأوراق

١٠٩ الولَّاج

قال الشريف الرضي، وكان نجا يوم القبض على الطائع لله وخرج من الدار سليماً:

ومنظرٍ كانَ بِالسَّرَّاءِ يُضحِكُني   يا قُرْبَ ما عادَ بِالضَّرَّاءِ يُبكيني

هَيهاتَ أَغْتَرُّ بِالسُّلْطانِ ثانيةً   قد ضَلَّ وَلَّاجُ أبوابِ السلاطينِ

ولاج: دخَّال

١١٠ السباحة في السراب

وقال يمدح الخليفة القادر:

لِمَنِ الحُدوجُ تَهُزُّهُنَّ الأَيْنُقُ   والركْبُ يَطفُو في السرابِ ويَغْرَقُ

لمن هذه الحدوج، الهوادج، التي تهزها النياق التي تحملها، بينما الركب، القافلة، يطفو ويغرق في سراب الصحراء

أَبُغَاةَ هذا الأمرِ إن مَرَامَهُ   دَحْضٌ يَزِلُّ بِطالِبِيهِ ويَزْلُقُ

يا طالبي الحكم إن مطلبه دحض، مائل زلق

ودَعُوا مُجَاذَبَةَ الخلافةِ إنها   أَرَجٌ بغيرِ ثيابِهِمْ لا يَعْبَقُ

اتركوا الخلافة فهي أرج، عطر، لا يعبق ويفوح إلا بثياب بني العباس

وأبوكُمُ العباسُ ما اسْتَسْقَى به   بعدَ القُنوطِ قَبائِلٌ إلَّا سُقُوا

جدكم العباس لم يأخذه قوم معهم لصلاة الاستسقاء تبركاً به إلا نزل المطر وسقوا

عَطْفاً أميرَ المؤمنينَ فإنَّنا   في دَوْحَةِ العلياءِ لا نَتَفَرَّقُ

اعطف عطفاً يا أمير المؤمنين، أي مل إلينا، فإننا جميعاً، بني علي وبني العباس، في دوحة العلياء، في بستان العز معاً

مـا بـيـنـنـا يـومَ الـفَـخَـارِ تَـفـاوُتٌ　　أبـداً، كِـلانـا فـي الـمـعـالـيِ مُـعْـرِقُ

لا فرق بيننا في الفخر، ودوماً كلانا عريق في الشرف

إلَّا الـخـلافـةَ، مَـيَّـزَتْـكَ فـإنـنـي　　أنـا عـاطِـلٌ مـنـهـا وأنـتَ مُـطَـوَّقُ

فيما عدا الخلافة فهي تميزك وتتخذها إكليلاً، وأنا عاطل منها، غير محليّ بها

١١١ دارنا

وقال:

تـوقَّـعـيِ أن يُـقـالَ قـد ظَـعَـنـا　　مـا أنـتِ لـيِ مـنـزلاً ولا وَطَـنـا

ظعن: رحل

يـا دارُ قَـلَّ الـصـديـقُ فـيـكِ، فَـمـا　　أُحِـسُّ وُدَّاً ولا أرى سَـكَـنـا

مـا ضَـرَّنـا أَنَّـنـا بِـلا جِـدَةٍ　　والـبـيـتُ والـركـنُ والـمَـقـامُ لـنـا

لا يضرنا أننا بلا جدة، بلا ثراء، فالأماكن المقدسة المذكورة لنا

١١٢ الأدوات

وقال:

بَنُـو هـاشِـمٍ عـيـنٌ ونـحـن سَـوادُهـا　　على رغـمِ مَنْ يَأبَى، وأَنْتُمْ قَذَاتُها

القذاة: الوسَخَة في العين.. والعلويون والعباسيون هما فرعا بني هاشم والشاعر علوي من الأشراف

وأَعْـجَـبُ مـا يَـأْتـيِ بـه الـدهـرُ أَنَّـكُـمْ　　طَـلَـبْـتُـمْ عُـلاً مـا فـيـكُـمُ أَدَواتُـهـا

أدواتها: مقوماتها

١١٣ نائم ليس بنائم

وقال يرثي:

مُـغْـفٍ ولـيـس لِـلَـذَّةٍ إغـفَـاؤُهُ　　مُـغْـضٍ ولـيـسَ لِـفِـكْـرَةٍ إغْـضَـاؤُهُ

تراه مغفياً ولكن ليست إغفاءة للراحة، وتراه مغضياً، أي غاضاً بصرة، ولكن ليس لأنه يفكر بعمق

وجـهٌ كَـلَـمْـعِ الـبرقِ غـاضَ وَمـيـضُـه　　قـلـبٌ كَـصـدْرِ الـعَـضْـبِ قـلَّ مَـضَـاؤُهُ

غاض: جف، العضب: السيف

حَكَمَ البِلَى فيهِ فلو يَلْقَى بِه ... أعداءَهُ لَرثَى له أعداؤُهُ

لو لقي أعداءه بما هو يعانيه من البِلى، تحلل الجسم بعد الموت، لرثى له الأعداء

١١٤ حاجات الرجال

وقال:

اشْتَرِ العِزَّ بِما بِيـ ... ـعَ، فما العِزُّ بِغالِ
ليس بِالمَغبونِ حَظّاً ... مُشْتَرٍ عِزّاً بِمالِ
إنَّما يُدَّخَرُ العِزُّ ... لِحاجاتِ الرجالِ
والفتَى مَنْ جَعَلَ الأمـ ... ـوالَ أثْمانَ المَعالي

١١٥ الهبوط الاضطراري

وقال:

وسالَمْتُ لما طالَتِ الحربُ بينَنا ... إذا لم تُظَفَّرْ في الحُروبِ فَسالِمِ

١١٦ نخليها

قال أبو الفتح ابن العميد:

دخَلَ الدنيا أناسٌ قبلَنا ... رحلُوا عنها وخَلَّوْها لنا
فنزلْناها كما قد نَزَلُوا ... ونُخَلِّيها لِقومٍ بَعدَنا

١١٧ فيك لي

قال الصاحب بن عباد:

وشَادِنٍ ذي غَنَجٍ ... طاوِي الحَشا مُعْتَدِلِ..

رب شادن، ظبي صغير، مدلل طاوي الحشا، ضامر البطن، ذي قد معتدل..

أَنشَدْتُهُ شِعراً بَديـ ... ـعاً حسناً مِنْ عَمَلي
فقالَ: فِيمَنْ ولِمَنْ ... فقلتُ: هذا فيكَ لي
فطارَ في وَجْنَتِهِ ... شُعاعُ نارِ الخَجَلِ

تسويد البيتين: أحمد عبد الرحيم، وتعليقه: «حلو»

١١٨ خمر وقدح

وقال:

رَقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ ... فتشابَها وتَشاكَلَ الأمرُ
فكأنَّما خَمْرٌ ولا قَدَحٌ ... وكأنَّما قَدَحٌ ولا خَمْرُ

١١٩ كاني وماني

وكتب إلى أبي الفضل بن شعيب:

يا أبا الفضلِ لِمْ تأخرتَ عنَّا ... فأَسأْنا بِحُسْنِ عَهْدِكَ ظَنَّا
كم تمنَّتْ نفسي صديقاً صَدوقاً ... فإذا أنتَ ذلكَ المُتَمَنَّى
فَبِغُصْنِ الشَّبابِ لما تَثَنَّى ... وبِعَهْدِ الصِّبا وإنْ بانَ مِنَّا..
كُنْ جَوابي إذا قَرأْتَ كتابي ... لا تَقُلْ لِلرسولِ كانَ وكُنَّا

كان وكنا: إن عشنا حتى نصدر الجزء الخامس من كتابنا هذا الذي بيدك جزؤه الثالث فسترى الشاعر الأردني «عرار» يقول «يا راهب الدير تبنا عن محبتهم/ وقد أبنا فلا كاني ولا ماني»

١٢٠ حبيبي

وقال:

لقد قلتُ لما أتَوْا بالطبيبِ ... وصَادَفني في أَحَرِّ اللَّهيبِ..
ودَاوَى فلم أنْتَفِعْ بِالدواءِ: ... دَعوُني فإنَّ طبيبي حبيبي

١٢١ السوافر

قال أبو سعيد الرستَمي:

مَرَرْنَ بِحُزْوَى والجآذِرُ تَرتَعي ... فلم تَدْرِ حُزْوَى أَيُّهُنَّ الجآذِرُ

مرت الحسان بحزوى، وهو موضع في نجد، وكانت الجآذر، أي بقر الوحش، ترعى العشب هناك. فلم يفرّق المكان بين النساء والجآذر.. وكلاهما واسع العينين

ومَالَتْ على الأَنْقاءِ فَاشْتَبَهَتْ بِها ... أَهُنَّ النَّقا أم مَا تَضُمُّ المآزِرُ

مالت الحسان على الأنقاء، كثبان الرمل، فاشتبهت بها، وقع لبس بينهما؛ فهل هذه الكثبان هي الكثبان أم ما ضمت مآزر الحسان، من مؤخرات وافرة، هي الكثبان؟

بُدُورٌ زَهَتْهُنَّ المَلاحَةُ أن يُرَى ... لَهُنَّ نِقابٌ فالوُجوهُ سَوافِرُ

هن بدور زهتهن الملاحة، جعلهن الجمال مزهوات مفتخرات، فلا تراهن بالنقاب بل الوجوه سافرة

١٢٢ بلا فتائل

وقال:

مَرَرْنا بِأكنافِ العَقيقِ فأعْشَبَتْ أَباطِحُ مِنْ أَجفانِنا ومَسايِلُ

مررنا بأكناف، أطراف، العقيق قرب المدينة المنورة، فمن دموعنا نبت العشب في الأباطح، السهول.. وجرت سيول أيضاً

وكادَتْ تُناجينا الديارُ صَبابَةً وتَبكي كما نَبكي عليها المنازلُ

فمِنْ واقِفٍ في جَفْنِهِ الدمعُ وَاقِفٌ ومِنْ سائلٍ في خَدِّهِ الدمعُ سائلُ

بعضنا واقف ودمعه واقف يترقرق في عينيه ولا يسيل، وبعضنا سائل، أي يسأل الديار عن الأحبة وأين ذهبوا، وفي خده الدمع سائل، أي يسيل

تَأَسَّ بِيَأْسٍ أو تَعَزَّ بِسَلْوَةٍ فَما لَكَ في أطلالِ عَزَّةَ طَائِلُ

تأسَّ، أي عزِّ نفسك، بأن تيأس من لقائهن، أو عز نفسك بالسلو والنسيان، فلا فائدة من أطلال عزة. التسويد لأحمد بعد الرحيم، وكنت رأيت في البيت جناسين ناقصين صدفاني عن تسويده، على أنهما خدما المعنى ولم يسمجا

كأنَّ غصونَ النَّرْجِسِ الغضِّ بينَها نَشاوَى كَرىً أَعناقُهُنَّ مَوائلُ

غصون النرجس الغض، الطري، تتمايل كأنها نشاوى كرى، فيهن ما يشبه السكر من النعاس، والأعناق مائلة

تَخالُ أزاهيرَ الرياضِ خِلالَها مصابيحَ ليلٍ ما لَهُنَّ فَتائِلُ

وقد شَرِبَتْ ماءَ الغمامةِ فانثَنَتْ كما يَتَثَنَّى الشاربُ المتمايِلُ

وقد مَاجَ وادي الزَّنْدَرُوزَ بِفَيضِهِ كما ماجَ لِلريحِ النَّقَا المتهايِلُ

وادي الزندروز، ولم أصل إلى معرفة مكانه، يموج بالماء مثلما يموج بفعل الريح النقا، أي الكثيب، الذي تهيل رماله

١٢٣ الناقة لكم

قال أبو القاسم الزعفراني:

خيَّمْتُ في دولةٍ مجدَّدَةٍ خَيَّمَ فيها الوفاءُ والكرمُ

وقلتُ للسَّفْرِ: قد وصلتُ إلى مُنايَ؛ رَحلي وناقتي لَكُمُ

١٢٤ الفاتكة

قال أبو الفرج الساوي:

هِيَ الدنيا تقولُ بِمْلِءِ فِيها: حَذارِ حَذارِ مِنْ بَطشي وفَتكي
فلا يَغْرُرْكُمُ حسنُ ابتِسامي فقوليَ مُضحِكٌ والفعلُ مُبْكِ
هِيَ الدنيا أُشَبِّهُها بِشهدٍ يَسُمُّ، وجيفةٍ طُلِيَتْ بِمِسْكِ
هِيَ الدنيا كمثلِ الطِّفْلِ بَيْنَا يُقَهْقِهُ إذ بَكى مِنْ بعدِ ضِحْكِ
أَلا يا قومَنا انتبِهُوا فإنَّا نُحاسَبُ في القيامةِ غيرَ شَكِّ

١٢٥ العين المغتسلة

قال الثعالبي مؤلف كتاب اليتيمة الذي نختار من أشعاره:

إِنْسانَةٌ فَتَّانَةٌ بَدْرُ الدُّجى منها خَجِلْ
إذا زَنَتْ عيني بِها فبِالدُّمُوعِ تَغْتَسِلْ

١٢٦ سلام عليها

قال أبو الفرج بن هندو:

لها مِنْ ضُلوعِي أن يُشَبَّ وَقُودُها ومِنْ عَبراتِي أن تُفَضَّ عُقودُها
للمحبوبة أن تشتعل النار في قلبي بي ضلوعي، وأن تنزل دموعي كأنها عقود انثرت لؤلؤاتها

بَذَلْتُ لها الدمعَ المَصُونَ وإن غَدَتْ تُمانِعُني في نَظرةٍ أستَفيدُها
سلامٌ عليها حيثُ حَلَّتْ، فإنني عَدِمْتُ فُؤادي منذُ عَزَّ وُجودُها

١٢٧ حجة نحوي

قال أحمد بن فارس:

مَرَّتْ بِنا هَيفاءُ مَقْدُودَةٌ تُرْكِيَّةٌ تَنْمي لِتُرْكِيِّ
هيفاء: ضامرة البطن، مقدودة: حسنة القد، تنمي: تنتسب

تَرْنُو بِطَرْفٍ فَاتِرٍ فَاتِنٍ أَضْعَفَ مِنْ حُجَّةِ نَحْوِيِّ
تنظر بعين فاترة ضعيفة ضعفَ حجة النحوي الذي يريد تبرير استعمال شاذ

١٢٨ الحريق

قال عمر الهرندي:

لا أحبُّ المُدامَ إلَّا العَتِيقا ويكونُ المِزاجُ مِنْ فيكَ رِيقَا
بِحياتِي عليكَ يا مَنْ سَقانِي أَرَحِيقاً سقيْتَنِي أم حَرِيقَا؟

١٢٩ بائع الفراني

قال شمسويه البصري:

قلتُ للقلبِ: ما دَهاكَ أَجِبْنِي؟ قال لِي: بَائعُ الفَرانِي فَرانِي

الفراني: الفطائر، والفُرْنِيَّة خبزة معجونة بالحليب مسقية بالسمن والعسل ومخبوزة في الفرن، هي ما يسمونه اليوم «الفطيرة الدنماركية». . وبائع الفراني قد فراني أي قطَّعني تقطيعاً

نَاظِراهُ فِيما جَنَى نَاظِراهُ أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعانِي

فيا أيها الصديقان ناظراه، اعقدا له مناظرة، بشأن ما جناه علي ناظراه، عيناه. أو دعاني، اتركاني، كي أموت بسبب ما أودعتني، حمَّلتني، عيناه من ألم

١٣٠ الضفادع

قال أحمد بن بندار:

وقالوا يعودُ الماءُ في النهرِ بعدما عَفَتْ منه آثارٌ وجَفَّتْ مَشَارِعُهْ

عفت آثاره: امَّحت، جفت مشارعه: جف مسيله

فقلتُ إلى أن يرجِعَ الماءُ عائداً ويُعْشِبَ شَطَّاهُ تموتُ ضَفادِعُهْ

١٣١ إغلاق الحساب

قال أبو بكر الشيرازي:

ما عُذْرُ مَنْ جَرَّ، غاوياً، رَسَنَهْ ما عُذْرُهُ بعد أَربَعينَ سَنَهْ

ما عذر الشخص الذي بالغواية جر رسنه، سار سيرة حرة بلا قيود كالبعير يترك له الرسن أي المقود ليجره ويرعى أينما شاء، ما عذره وقد تجاوز الأربعين؟

قل لِي إذا مُتَّ كيف تَنْقُصُ مِنْ سَيِّئَةٍ أو تزيدُ في حَسَنَةْ؟

بعد الموت لا سبيل إلى تقليل سيئاتك أو زيادة حسناتك

١٣٢ يحترم نفسه

وقال الجرجاني:

يقولونَ لي: فيكَ انقِباضٌ، وإنما رأَوْا رجلاً عن موقِفِ الذلِّ أَحْجَما
وما زِلْتُ مُنحازاً بِعِرضِيَ جانباً مِنَ الذمِّ، أَعْتَدُّ الصِّيانَةَ مَغْنَما

أصون نفسي عن الدنايا فهذا وحده غنيمة

إذا قيلَ هذا مَشْربٌ قلتُ قد أَرى، ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتَمِلُ الظَّما
ولم أَقْضِ حقَّ العلمِ إن كان كلَّما بدا طمعٌ صَيَّرْتُهُ لِيَ سُلَّما
ولم أَبْتَذِلْ في خِدْمَةِ العِلم مُهجَتي لِأَخْدُمَ مَنْ لاقَيْتُ لكنْ لِأُخْدَما

لم أبذل قلبي للعلم لكي أخدم السادة، بل لكي أكون عزيزاً مخدوماً

أَأَشْقَى به غَرْساً وأَجْنيهِ ذِلَّةً إذنْ فاتِّباعُ الجَهلِ قد كانَ أَحْزَما

١٣٣ لبستها

قال أبو معمر الإسماعيلي:

ولَيلةٍ مِنَ الليالي القَاسِيَةْ
مَدَّتْ ظَلاماً كالجبالِ الراسِيَةْ
فغَادَرَتْ كلَّ الوَرَى سَواسِيَةْ
البِيضَ دُهْماً والعُرَاةَ كَاسِيَةْ

هذه الليلة الظلماء ساوت بين الجميع: فالبيض من الناس صاروا دهماً، سوداً، والعراة لابسين لأننا لا نرى عريهم

لَبِسْتُها والصَّبرُ مِنْ لِباسِيَهْ

لبست هذه الليلة وتحملتها وصبرت

بَهِمَّةٍ على الأَسَى مُوَاسِيَةْ

وعزة نفسي تواسيني في حضور الأسى، أي الحزن

١٣٤ المكسوفان

ينسب إلى قابوس بن وشكمير:

قُلْ لِلَّذي بِصُروفِ الدهرِ عَيَّرَنا هل حاربَ الدهرُ إلَّا مَنْ له خَطَرُ؟

أمَا تَرى البحرَ تَعلُو فوقَه جِيَفٌ ... ويَستَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
فإنْ تَكُنْ نَشِبَتْ أَيدي الزمانِ بِنا ... ونالَنا مِنْ تَمادي بُؤْسِهِ الضَّرَرُ
ففي السماءِ نُجومٌ ما لها عددٌ ... وليس يُكْسَفُ إلَّا الشمسُ والقمرُ

١٣٥ فضائل الموت

قال أبو أحمد الكاتب، ونسب البيتان لابن الرومي:

قد قلتُ إذْ مَدَحُوا الحياةَ وأَسْرَفُوا: ... في الموتِ ألفُ فَضيلَةٍ لا تُعْرَفُ
منها أمانُ لِقائِه بِلقائِه ... وفراقُ كلِّ مُعاشِرٍ لا يُنْصِفُ

١٣٦ شيئان

أبو منصور الطاهري:

شَيْئانِ لو بَكَتِ الدِّماءَ عليهِما ... عَيْنايَ حتى يُؤْذِنا بِذَهابِ

يؤذنا بذهاب: يوشكا على الذهاب

لم يَقْضِيا المِعْشارَ مِنْ حَقَّيْهِما: ... شَرْخُ الشبابِ وفُرقَةُ الأَحبابِ

لو بكت عيناي الدم على هذين الشيئين لما أعطتهما عُشر ما يستحقان.. والشيئان هما شرخ الشباب، أي أوله، وفراق الأحبة

١٣٧ لا سبيل

وينسب لهارون الرشيد، ورأى جارية سكرى فراودها، فقالت له: أمير المؤمنين المهدي - أي والده - ألمَّ بي:

أَرَى مَاءً وبي عَطَشٌ شديدٌ ... ولكنْ لا سبيلَ إلى الوُرُودِ

١٣٨ الاشتهاء

قال أبو بكر النيسابوري:

وَهَتْ عَزَمَاتُكَ عندَ المَشيبِ ... وما كانَ مِنْ حقِّها أنْ تَهي
وأنْكَرْتَ نفسَكَ لما كبِرْتَ ... فلا هِيَ أنتَ ولا أنتَ هِي
فإن ذُكِرَتْ شَهَواتُ النفوسِ ... فما تَشتَهي غيرَ أن تشتَهي

١٣٩ الصحة

قال أبو أحمد البوشنجي:

إنَّ تمامَ السُّرورِ لِلمرءِ أنْ ... يَأكُلَ مِنْ طيِّباتِ غَرْسِ يَدِهْ
وأنْ يُغَنَّى بِشِعْرِهِ، ويَلي ... خِدْمَتَهُ مَنْ يُحِبُّ مِنْ وَلَدِهْ

يلي: يتولّى

وقَد حَوى بَعضُنا الثّلاثَ، وقد ... نَغَّصَها كلَّها ضَنَى جَسَدِهْ

١٤٠ نريدك مشغولاً

قال أبو الحسن الشيباني:

حَمْلُ الرِّيَاسَةِ ما عَلِمْتَ ثَقيلُ ... والدهرُ يَعدِلُ تارةً ويَميلُ
لا تَعْتَلِلْ بِالشُّغْلِ إنكَ إنما ... تُرجَى لأنكَ دائماً مَشْغُولُ
وإذا فَرَغْتَ، ولا فَرَغْتَ، فَغَيْرُكَ الـ ... ـمقصودُ لِلحاجَاتِ والمأمُولُ

١٤١ وطني

قال ابن هزيم:

كَفَتْني ضَيْعَتي مَدحَ العِبادِ ... وظَعْناً في البلادِ بِغيرِ زَادِ

الضيعة: العزبة، المزرعة الكبيرة، الظعن: الرحيل

غَدَتْ سَكَني وخَادِمَتي وظِئْري ... وفيها أُسْرَتي وبها تِلادي

ظئري: مرضعتي، ويقصد أن ضيعته تكفيه حاجته من القوت، والتلاد: المال الموروث

١٤٢ قوارير وقراقير

وقال:

لما رأيتُ الزمانَ نِكساً ... وفيه للرِّفْعَةِ اتِّضاعُ

لما رأيت الزمان نكساً، خسيساً، وفيه اتضاع، حقارة، تصيب الرفعة والسمو

كلُّ رئيسٍ لهُ مَلالٌ ... وكلُّ رأسٍ له صُداعُ
لَزِمتُ بيتي وصُنْتُ عِرضاً ... به عن الذلَّةِ امتِناعُ

تسويد أحمد عبد الرحيم

أشــربُ مــمَّــا ادَّخَــرْتُ راحــاً ... لــهــا عــلــى راحــتــي شُــعــاعُ
لــي مِــنْ قَــواريــرِهــا نَــدامَــى ... ومِــنْ قَــراقــيــرِهــا سَــمــاعُ

قوارير الخمر هي ندمائي، وقراقيرها، أي صوتها وهي تصب وتقرقر في الكأس هي سماعي، والسماع هو الغناء في المجالس. وعلق الثعالبي: هذا بيت القصيدة، وهو أمير شعره

١٤٣ دفتر الطب

وقال:

قد كنتُ أنظُرُ قبلَ اليومِ في كتبٍ ... فيها الحكاياتُ والأشعارُ والخُطَبُ
ودفـتـرُ الـطـبِّ مـمَّـا لا أُلِـمُّ بِـه ... إذ لم يكنْ فيهِ لي مِنْ صِحَّتي أَرَبُ
فجاءتِ التِّسْعُ والخَمسونَ تُحْوِجُني ... إلى العلاجِ، فمَا لي غَيرَهُ كُتُبُ

١٤٤ العاق

قال أبو القاسم الدينوري:

لـو كـنـتُ أعـلـمُ أنِّـي والـدٌ وَلَـداً ... يكونُ، لا كانَ، في عينيَّ كالرَّمَدِ
لَقلتُ، لو أنَّ قولي كان يَنفعُني: ... يـا لـيـتَ أنِّـيَ لـم أُولَـدْ ولـم أَلِـدِ

١٤٥ حنين غريب

وقال:

ومَـا آسَـى عـلـى دهـرٍ تَـوَلَّـى ... ولا جـسـمٍ مُـبـاحٍ لـلـسَّـقـامِ
ولا مـا فـاتَ مِـنْ عُـمُـرِي ولـكـنْ، ... أَحِـنُّ إلـى صـلاةٍ مِـنْ قِـيـامِ

إن كان يطالع هذا البيت شاب فلينتظر ثلاثين سنة حتى يصير ثني الركبتين أصعب عليه من ثني قضيب السكة الحديد

١٤٦ هوان الشيخ

وقال:

عِـشْـتُ مِـنَ الـدهـرِ مـا كَـفـانـي ... ومَـرَّ مـا مَـرَّ مِـنْ زَمـانـي
وقـد حَـنَـتْـنـي وقَـوَّسَـتْـنـي ... تِـسْـعٌ وتِـسـعـونَ واثْـنَـتـانِ

حنتني: من الانحناء

وقد سَئِمْتُ الحياةَ مِمَّا أَلقَى مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ
ومِنْ أخٍ كنتُ أَرْتَجيهِ لِحَادِثِ الدهرِ قد قَلاني

قلاني: هجرني

ومِنْ غلامٍ إذا يُنادَى تَصَامَمَ النذلُ وَهْوَ دَانِ

تصامم: ادعى الصمم، دان: قريب

١٤٧ العمر ساعة

قال أبو علي المسبحي:

هل الدهرُ إلَّا ساعةٌ ثم تَنقَضي بما كان فيها مِنْ عناءٍ ومِنْ خَفْضِ

الخفض: النعيم

فهَوْنَكَ لا تحمِلْ مَساءَةَ عَارضٍ ولا فَرحَةً سَرَّتْ، فكلتَاهُما تَمضي

هون عليك ولا تهتم بسوء من عارض، حادث مفاجئ، ولا بفرحة.. فكله سيذهب

١٤٨ أراجيح وموازين

قال أحمد بن المؤمل:

سَقياً لِدهرٍ مَضى إذ نحن في شُغُلٍ بِالعزْفِ والقَصْفِ عن شُغْلِ السَّلاطينِ

كنا سعداء بالعزف والقصف، اللهو، بعيداً عن حضور مجالس السلطان وما فيها من تكلف الوقار

غَدَوْا صِحاحاً إلى الحاناتِ وانصَرَفُوا إلى المنازلِ في عقلِ المجانينِ
عَادوا أَراجيحَ مِنْ حَاناتِهِمْ أُصُلاً وقد غَدَوْا نَحوَها مِثلَ المَوازِينِ

١٤٩ التواري

أبو الحسن الإفريقي المتيم:

وفتيةٍ أدباءٍ ما عَلِمْتُهُمُ شَبَّهْتُهُمْ بِنجومِ الليلِ إذ نَجَمُوا

ما علمتهم: طول مدة معرفتي بهم

فَرُّوا إلى الراحِ مِنْ خَطْبٍ يُلِمُّ بِهِمْ فَمَا دَرَتْ نُوَبُ الأيامِ أينَ هُمُ

نوب: مصائب

١٥٠ النفاق

وقال:

تَلومُ على تركِ الصلاةِ حَليلتي فقلتُ: اغرُبي عن نَاظري، أنتِ طَالِقُ
لماذا أُصَلِّي؟ أينَ بَاعي ومَنزِلي وأين خُيولي والحُلَى والمَنَاطقُ

الباع: القدرة، المناطق: ما يلف على الخصر وتعلق به الخناجر أو توضع فيه الدراهم

وأين عَبيدي كالبدورِ وجوهُهُمْ وأين جَوارِيَّ الحِسانُ العَواتِقُ

العواتق: الشابات

أُصَلِّي ولا فِتْرٌ مِنَ الأرضِ يَحتَوي عليهِ يَميني؟ إنَّني لَمُنافِقُ

١٥١ أمنيات الشاب

قال أبو طالب المأموني:

إلى اللَّهِ أشكُو مُنىً في الحَشا تَضَمَّنَ جَنْبايَ منها سَعيرا
أراني ابنَ عِشرينَ أو دونَها وقد طَبَّقَ الأرضَ شِعري مَسيرا
ولو كانَ يفخَرُ مَيْتٌ بِحَيٍّ لَكانَ أبو هَاشِمٍ بي فَخُورا

يتخيل نفسه عاد إلى الشباب وأصبح شاعراً مهماً وغدا مفخرة للناس. ولعل أبا هاشم المقصود هنا جد العباسيين، فالشاعر كان يصل نسبه بنسب الخليفة المأمون

ولو كنتُ أَخْطُبُ مَا أَسْتَحِقُّ لَمَا كنتُ أَخْطُبُ إلَّا السَّريرا

لو كنت أخطب، أطلب، استحقاقي لطلبت سرير المُلك لا أقل

ولو سِرْتُ صَاحَتْ مُلوكُ البلا دِ بينَ يَدَيَّ النَّفيرَ النَّفيرا

يسير الملوك، أي القادة والولاة، أمامي يقولون النفير النفير، يبعدون الناس عن وسط الطريق لمرور موكبي

ولكِنَّني مُكْتَفٍ بِاليَسيرِ إذا سَهَّلَ اللَّهُ ذاكَ اليَسِيرا

١٥٢ بيعة وكس

قال أبو بكر الخوارزمي، وكتب بها إلى أبي نصر الميكالي بعد إذ حبسه الوالي طاهر بن محمد:

كتابي أبا نَصْرٍ إليكَ وحَالَتي كحالِ فَريسٍ في مخالِبِ ضَيْغَمِ

غدوتُ أخَا جُوعٍ ولستُ بِصائِمٍ ورحتُ أخا عُرْيٍ ولستُ بِمُحْرِمِ
وقعتُ بِفَخِّ الخوفِ في يَدِ طَاهِرٍ وُقُوعَ سُلَيْكٍ في حَبائِلَ خَثْعَمِ

سليك الشاعر قتلته قبيلة خثعم

وما كنتُ في تَركِيكَ إلا كَتَارِكٍ يَقيناً، وراضٍ بعدَهُ بِالتَّوَهُّمِ
وذي عِلَّةٍ يأتي عَليلاً لِيَشْتَفي به وَهْوَ جارٌ لِلمَسيحِ بنِ مَريَمِ

فأنا إذ تركتك مثل المريض الذي يذهب إلى مريض مثله للتداوي بينما هو جار للمسيح، الذي كان يشفي المرضى

لبِسْتُ ثيابَ الصبرِ حتى تَمزَّقَتْ جَوانِبُها بينَ الجَوى والتَّنَدُّمِ

الجوى: الحزن

وقد عاشَ بعدَ الخُلْدِ في الأرضِ آدَمٌ فإن شئتَ فاعذِرْني فإنِّي ابنُ آدَمِ

أنا كجدي آدم الذي أخرج من الخلد، الجنة

وأنتَ الذي صوَّرْتَ لِي صُورَةَ المُنَى وأَرْكَبْتَني ظَهرَ الزمانِ المُذَمَّمِ

أنت أريتني الأماني حقيقة واقعة، وجعلتني أقهر الزمان المذموم وأركب ظهره

وصَيَّرْتَ عنديِ أَنْحُسَ الدهرِ أَسْعُداً وكَذَّبْتَ عنديِ قولَ كُلِّ مُنَجِّمِ

١٥٣ صديق

وقال الخوارزمي أبو بكر محمد بن العباس:

وصاحِبٍ لِيَ لو حَلَّتْ رَزِيَّتُهُ بِالطيرِ ما هَتَفَتْ يوماً على فَنَنِ

لو حلت مصيبته بالطير لما غرد على غصن

عاشَرْتُهُ عِشْرَةً لو أنَّها وَقَعَتْ بين الضُّحَى والدُّجَى سارا على سَنَنِ

عشرتي له كانت جميلة فلو كانت بين النهار والليل اللذين لا يلتقيان أبداً لالتقيا وسارا على سنن في طريق واحد

حتى إذا نِلْتُ سُؤْلِي مِنْ مَواهِبِهِ وصَادَني بِشِباكِ الوَصْلِ والمِنَنِ

مواهبه: ما يهب لي من العطايا، المنن: العطايا

ثَكِلْتُهُ بعدَما سارَتْ مَحاسِنُهُ في العظمِ واللحمِ سَيْرَ الماءِ في الغُصُنِ

١٥٤ فاضل ومتقلب

وقال أبو سعيد في الخوارزمي:

أبـو بـكـرٍ لـه أدبٌ وفَـضْـلٌ ولـكـنْ، لا يـدومُ عـلـى الإخـاءِ
مَـوَدّتُـهُ إذا دَامَـتْ لِـخِـلٍّ فَمِنْ وقتِ الصباحِ إلى المساءِ

١٥٥ عضة الدهر

قال بديع الزمان الهمذاني، وقد قصد هراة وفيها أبو عامر عدنان بن محمد الضبي:

مـا لـيِ أرى الـحُـرَّ ذاهـبـاً دَمُـهُ ولا أرى الـنَّـذْلَ ذاهـبـاً ذَهَـبُـهْ
يـا سـادَتـيِ لا تَـلِـنْ عِـظـامُـكُـمُ لِـعَـضَّـةِ الـدهـرِ إن يَـهِـجْ كَـلَـبُـهْ

الكَلَب: داء يصيب الكلْب فيتوحش وتصبح عضته مميتة

فـالـدهـرُ لـونـانِ لا يـدومُ عـلـى حـالٍ، سـريـعٌ بـالـنـاسِ مُـضْـطَـرَبُـهْ
أَتَـى بِـشَـرٍّ لـم نَـرْتَـقِـبْـهُ، كـذا يـأتـي بِـخـيـرٍ ولـيـس نَـحْـتَـسِـبُـهْ

١٥٦ الإبريق

قال الأمير أبو الفضل الميكالي:

ظَـبْـيٌ يَـحـارُ الـبـرقُ فـي بَـريـقِـهِ

محبوبة كالظبي وهي مشرقة يحار البرق نفسه في إشراقها

غَـنـيـتُ عـن إبْـريـقِـهِ بِـريـقِـهِ

استغنيت بريق المحبوبة عن إبريق الخمر الذي تسقيني منه

فـلـم أزلْ أَرْشُـفُ مِـنْ رَحـيـقِـهِ

الرحيق: الخمر.. يقصد خمر فمها

حتى شَفَيْتُ القلبَ مِنْ حَريقِهِ

١٥٧ التصابي

وقال:

أَتَـرْكُـضُ فـي مـيـاديـنِ الـتَّـصـابـي وقد ركضَ الـمَشيبُ على الشبابِ
وكـيـفَ تَـلَـذُّ طَـعْـمَ الـعيشِ نفسٌ غَـدَتْ أتـرابُـهـا تـحـتَ الـتُّـرابِ

أترابها: مثيلاتها في السن، لِداتها

١٥٨ يونس

قال الجوهري صاحب الصحاح:

فهَا أنا يُونُسٌ في بطنِ حوُتٍ　　بِنَيْسابُورَ في ظِلِّ الغَمامِ
فَبَيْتي والفُؤادُ ويومُ دَجْنٍ　　ظلامٌ في ظلامٍ في ظلامِ

يوم دجن: يوم غائم

١٥٩ آفات الكتب

قال عبد الرحمن بن دوست:

عليكَ بالحِفْظِ دونَ الجَمْعِ في الكُتُبِ　　فإن للكُتْبِ آفاتٍ تُفرِّقُها
الماءُ يُغرِقُها والنارُ تُحْرِقُها　　والفَارُ يَخْرِقُها واللصُّ يَسرِقُها

١٦٠ الخوف والرجاء

قال أبو محمد الدهان:

خَفْ إذا أصبحتَ تَرجُو　　وارجُ إن أمْسَيْتَ خائِفْ
رُبَّ مَكروهٍ مَخُوفٍ　　فيهِ للَّهِ لَطائِفْ

١٦١ ابن من يدري

قال أبو الفتح الكاتب:

جَفاني وهَاجاني، ولم يَخْشَ صَوْلَتي　　ولا سَطْوَتي الشيخُ العميدُ أبو نصرِ
وكانَ حرىً ألَّا يُكَاشِفَ شَاعراً　　وفي دارِهِ يجري مِنَ الخِزْيِ ما يجري

كان حرىً: ما كان أحراه، يكاشف: يدعو للمكاشفة والتشاتم الصريح

وقد خَافَ أولادُ العَفَائِفِ جَانِبي　　فما أمْنُه إيَّايَ، وَهْوَ ابْنُ مَنْ يَدري

١٦٢ الموت بعد غدٍ

قال الحسين بن أسد العامري:

يَدي على كَبِدي مِنْ شِدَّةِ الكَمَدِ　　كأنما خُلِقَتْ كَفَّايَ مِنْ كَبِدي
جُودي لِيَ اليومَ أو عُودي غَداً دَنِفاً　　أوِ انْدُبي لِقَتيلِ الحبِّ بعدَ غَدِ

الدنف: المريض بالعشق

فهرس القوافي

(القافية، فرقم القطعة)

دمية القصر

هذا كتاب علي بن الحسن الباخَرزي الذي جمع فيه أشعاراً لأكثر من خمسمئة شاعر معظمهم كان يعيش في زمنه. وقد حقق الكتاب محمد ألتونجي تحقيقاً مميزاً بالدقة واستيفاء المصادر، وعمق المعرفة بالشعر وباللغتين العربية والفارسية، وكان الباخرزي ينطق باللسانين.

توفي الباخرزي في عام ٤٦٧، وجمع في كتابه من الأشعار ما لا نجده في كتاب اليتيمة للثعالبي المتوفى عام ٤٢٩، فكان كتابه كالتكملة لكتاب الثعالبي.

١ قم إليها

أبو كامل تميم بن المفرج الطائي:

قُمْ إلى الراحِ مع الصبـ ـحِ إذا قامَ المؤذِّنْ
إن تُسِئْ يا أيها العبـ ـدُ فإن اللَّهَ مُحْسِنْ

٢ استيلاء الجِلْد

أبو الفضل جعفر بن الحسين الشبيبي المكي:

فأَبشِرْ بِتصريفِ الأمورِ ودَوْلةٍ نَظَمْتَ معانيها كما نُظِمَ العِقْدُ
كأنِّي بكَ استَولَيْتَ مِن كلِّ وِجْهَةٍ عليها كما استَولَى على الجسدِ الجِلْدُ

٣ سؤال الظبيات

كامل المنتفقي:

بِاللَّهِ يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيْلايَ مِنْكُنَّ أم ليلى مِنَ البَشَرِ؟

تسويد أ. عبد الرحيم

٤ سرب المها

تميم بن معد صاحب مصر:

أَسِرْبُ مهاً عَنَّ أم سِرْبُ جِنَّةْ   حَكَيْتُنَّهُنَّ ولَسْتُنَّ هُنَّهْ

حكيتنهن: أشبهتنهن

إذا رُمْنَ ظُلْماً فسُلْطَانُهُنَّ   علينا مَلاحَةُ أَحداقِهِنَّهْ

التسويد + «حلو» من أ. عبد الرحيم

نَواعِمُ لا يستطِعْنَ النهوضَ   إذا قُمْنَ مِنْ ثِقْلِ أَرْدَافِهِنَّهْ

٥ راكب الشوق

أبو القاسم الوزير المغربي:

قَطَعْتُ الأرضَ في شَهْرَيْ رَبيعٍ   إلى مصرٍ وعُدتُ إلى العراقِ

فقالَ ليَ الحبيبُ، وقد رآني: سَبوقاً بِالمُضَمَّرَةِ العِتاقِ

ركِبتَ على البُراقِ؟ فقلتُ: كَلَّا   ولكنِّي ركبتُ على اشتياقي

٦ رثاء المتنبي

محمد بن عبيد الله بن محمد الكاتب النصيبي يرثي المتنبي ويستجيش عضد الدولة على قاتله فاتك الأسدي:

هذي بَنُو أسدٍ جاءتْ بِمُؤْيَدَةٍ   صَمَّاءَ بَائِحَةٍ هَدَّتْ ذُرا أُحُدِ

بنو أسد جاءوا بمؤيدة، أي بمصيبة، صماء، المصيبة الصماء التي يصعب احتواؤها، بائحة، أي ذائعة سمع بها كل الناس، وكادت تهد ذرا، أي قمم، جبل أحد

سَطَتْ على المُتَنَبِّي مِنْ فوارِسِها   سبعونَ جاءَتْهُ في مَوْجٍ مِنَ الزَّرَدِ

الزرد: الحلقات يتكون منها نسج الدرع

حتى أَتَتْ وَهْوَ في أَمْنٍ وفي دَعَةٍ   يَسيرُ في سِتَّةٍ إنْ تُحْصَ لم تَزِدِ

جاءته وهو وادع مع ستة لا أكثر من صحبه

كَرَّتْ عليهِ سِراعاً غيرَ وَانِيَةٍ   فَغَادَرَتْهُ رَهينَ التُّرْبِ والثَّأَدِ

غير وانية: غير متوانية ولا مبطئة، الثأد: الثرى.. التراب النديّ

مِنْ بعدِ ما أَعْمَلَتْ فيهِمْ أَسِنَّتُهُ   طعناً يُفَرِّقُ بين الروحِ والجسدِ

فاطْلُبْ بِثأرِ فَتىً ما زلتَ تَعْضِدُهُ   للَّهِ دَرُّكَ مِنْ كَهْفٍ ومِنْ عَضُدِ

كهف: ملجأ وحامٍ

أَذْكِ العُيونَ عليْهِمْ أَيَّةً سَلَكُوا   وضَيِّقِ الأرضَ والأقطارَ بِالرَّصَدِ

أذك العيون: شدد التجسس، الرصد: الجواسيس

٧ رثاء الابن

أبو الحسن علي بن محمدٍ التهامي:

حُكْمُ المَنِيَّةِ في البريَّةِ جَارِ   ما هذهِ الدنيا بِدارِ قَرارِ

بينَا يُرى الإنسانُ فيها مُخبِراً   حتى يُرى خبراً مِنَ الأخبارِ

يكون الإنسان مخبراً غيره بالأخبار فيصبح هو نفسه خبراً إذ يموت

فالعيشُ نومٌ والمنِيَّةُ يَقْظَةٌ   والمرءُ بينَهما خيالٌ سارِ

فاقْضُوا مَآرِبَكُمْ عِجالاً إنَّما   أعمارُكُمْ سفرٌ مِنَ الأسفارِ

مآرب: حاجات

يا كَوكباً ما كانَ أَقصَرَ عُمْرَهُ!   وكذاكَ عُمْرُ كواكِبِ الأَسحارِ

الكواكب وقت السحر، عند الفجر، قصيرة العمر لأن النهار يعاجلها فتختفي

فكأنَّ قلبيَ قَبْرُهُ، وكأنَّهُ   في طَيِّهِ سِرٌّ مِنَ الأَسرارِ

إنَّ الكواكبَ في عُلُوِّ مَحَلِّها   لَتُرى صِغاراً وَهْيَ غيرُ صِغارِ

جَاورتُ أَعدائي، وجاورَ ربَّهُ   شتَّانَ بينَ جوارِهِ وجِواري

ولقد جَرَيْتُ كما جَرَيْتَ لِغايةٍ   فبلغتَها وأَبُوكَ في المِضمارِ

أنا أجري وأنت تجري نحو غاية هي الموت، وسبقتني.. وأنا ما زلت في المضمار، حلبة تضمير الخيل، أي تقوية عضلاتها وتنحيف جسمها، فأنا في المضمار ولم أتهيأ للسباق

وإذا نطقتُ فأنتَ أولُ مَنطِقي   وإذا سكتُّ فأنتَ في إضماري

أُخْفي مِنَ الرُّقباءِ ناراً مثلَما   يُخْفي مِنَ النارِ الزِّنادُ الوَاري

أخفي عمن يراقبون سلوكي ناراً كنار الزناد، أي أداة إشعال النار، الواري، المشعل للنار، ويكون الزناد مجرد حجر أو خشبة ولكنه يخفي بداخله شرراً كامناً

وأُخَفِّضُ الزَّفَراتِ وَهْيَ صَواعِدٌ   وأُكفكِفُ العَبَراتِ وَهْيَ جَوارِ

ثَوبُ الرِّيَاءِ يَشِفُّ عمَّا تَحتَهُ   وإذا التَحَفْتَ به فإنَّكَ عَارِ

الذي يخفي مشاعره كالمرائي يظهر تجملاً، ولكن الناس تشعر بما يبطن

وتَلَهُّبُ الأَحشاءِ شَيَّبَ مَفْرِقِي   هذا الضياءُ شُعاعُ تِلكَ النارِ

يشبه الشيب في رأسه بشعاع ناتج عن النار التي بين ضلوعه

إنّي لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا   ضَمِنَتْ صُدورُهُمُ مِنَ الأَوْغارِ

الأوغار: الأحقاد

نَظَروا صنيعَ اللَّهِ بي فعيونُهُمْ   في جَنَّةٍ وقُلوبُهُمْ في نارِ

الحاسدون ينظرون إلى ما بلغته من منزلة رفيعة فعيونهم ترى جنة نجاحي، ولكن قلوبهم تتقلب في نار الحقد

لا ذنبَ لي قد رُمْتُ كَتْمَ فَضائِلِ   فَكأَنَّما بَرْقَعْتُ وجهَ نَهارِ

رمت، أي أردت، كتمان فضائلي، ولكنها ظهرت بسهولة فكأنني أردت أن أبرقع وجه النهار، أي أخفيه ببرقع

ذَهَبَ التَّكَرُّمُ والوفاءُ مِنَ الوَرى   وتَصَرَّما، إلَّا مِنَ الأشعارِ

وفَشَتْ خِياناتُ الثِّقَاتِ وغيرِهِمْ   حتى اتَّهَمْنا رؤيةَ الأَبصارِ

ولَرُبَّما اعتَضَدَ الحليمُ بِجاهِلٍ   لا خيرَ في يُمْنَى بِغيرِ يَسارِ

قد يقرر الرجل الحليم أن يعتضد، أي يستعين، بجاهل، أي متهور، فاليد اليمنى لا خير فيها بغير اليسرى. وكان يكون في الزمن القديم للفقيه سفيه يلازمه ويصد عنه السفهاء حتى لا يتورط الفقيه في ملاسنتهم

٨ عيون الغانيات

وقال:

بكيتُ فَحَنَّتْ ناقَتي فَأَجابَها   صَهيلُ جَوادي حين لاحتْ دِيارُها

خَطَطْنا بِأَطْرافِ المَخَاصِرِ أَرضَها   فأهدَتْ إلينا مِسْكَ دَارِينَ دَارُها

المخاصر: العصي.. عندما نبشنا بالعصي في ديار الحبيبة فاح عطر كأنه المسك المستورد من دارين

ولاحَتْ ثَنايَا الأُقْحُوانِ، ولو رأَتْ   عوارِضَ مَنْ أهواهُ طَالَ استِتَارُها

رأينا ثنايا، أسنان، زهر الأقحوان.. ولو رأت بَتَلات هذه الأقحوانات عوارض، أسنان، الحبيبة لاستترت واختبأت

تَـوَقَّ عـيـونَ الـغـانِـيـاتِ فـإنَّـهـا   سيوفٌ وأَشْفَـارُ الـجُفونِ شِفَـارُها

احذر عيون الحسان فأشفار الجفون، الرموش، هي شفرات سيوف تحيط بعيونهن

٩ تعنيف الدهر

الماهر الدمشقي:

بِـرَغـمـيَ أن أُعَـنِّـفَ فـيـكَ دَهـراً   قـلـيـلاً هَـمُّـهُ بِـمُـعَـنِّـفـيـهِ

وأن أَرْعَـى الـنـجـومَ ولَـسْـتَ فـيـهـا   وأن أَطَـأَ الـتـرابَ وأنـتَ فـيـهِ

رغماً عني أسهر محدقاً في النجوم وأنت لست فيها أيها النجم الذي مات، وبرغمي أدوس على التراب.. وأنت في التراب

١٠ الـمَتالف

ابن أبي زرعة:

ومِنْ خيرِ أيامِ الحياةِ التي خَلَتْ   وأَطيَبِها يومٌ مِنَ العيشِ سالِفُ

لـبِـسْـنـا بـه ظِـلَّ الـسُّـرورِ فـكـلُّـنـا   شَروبٌ لِمَا تَنْهاكَ عنهُ الـمَصاحِفُ

ومَـالَـتْ فُـروعُ الـبَـانِ بـيـن ثِـيـابِـنـا   وجُرَّتْ على وجهِ الرِّياضِ الـمَطارِفُ

في أحضاننا، وبين ثيابنا، مالت الفتيات اللواتي كأغصان البان، ثم جررت على وجه الروض المطارف، الأثواب

فما مِثلُ هذا اليومِ لولا انقِضاؤُهُ   وما مِثلُنا لو أَخْطَأَتْنا الـمَتَالِفُ

المتالف: التلف.. الموت

١١ الحَمول

سعيد بن علي:

خُلِقْتُ حَمُولاً لِلخُطوبِ فلو جَرى   لـها مِقْولٌ قَامَتْ بِصبرِيَ تَخْطُبُ

لو تحرك للخطوب مقول، أي لسان، لخطبت خطبة عصماء عن صبري وتحملي

خَـلـيـلَـيَّ مَـهـلاً لا تـلـومَـا أَخَـاكُـمـا   فـمـا يَـعـرفُ الأيـامَ مَـنْ لا يُـجَـرِّبُ

١٢ قوس السعادة

ابن بابا:

ومَنْ باتَ عن قوسِ السَّعادَةِ رامِياً   نُـحُـورَ أَعَـادِيـهِ رَمَـى فـأصـابـا

من كان يرمي نحور أعدائه عن قوس السعادة، والسعادة هي الحظ، سيصيب

هُوَ الجَدُّ فَلْيُمْسِ الفَتى في ظِلالِهِ فلو أَخْطَأَ الـمَجْدُودُ قيلَ: أَصابا

الجد: الحظ، المجدود: المحظوظ

١٣ حسرة

علي بن هبة الله بن محمد بن خالد التبريزي:

أَسَفي على زمنٍ تولَّى وانقضَى وقد انقَضَتْ فيهِ لنا أَوْطارُ
أيامَ تُسعِفُنا اللَّيالِي بِالـمُنَى وتُطيعُ سُعْدَى أَمْرَنا ونَوَارُ
أيامَ عُودُ العيشِ أَخْضَرُ مثمِّر فيها، وكاساتُ العُقارِ تُدارُ

١٤ قبلات بوارق

قال الشريف الرضي:

بِتْنا ضَجيعَيْنِ في ثَوبَيْ هَوىً وتُقَىً يَلُفُّنا الشوقُ مِنْ فَرْقٍ إلى قَدَمِ

الفرق: الخط في وسط شعر الرأس

وأمسَتِ الريحُ كالغَيْرَى تُجاذِبُنا على الكثيبِ فُضولَ الرَّيْطِ واللِّمَمِ

الريح كأنها تغار منا فهي تجذب فضول، أي أطراف، الريط، أي الثياب، واللمم، خصلات الشعر

يَشي بِنا الريحُ أَحْياناً، وآوِنَةً يُضيئُنا البَرْقُ مُجْتازاً على إِضَمِ

الريح يخبر عن مكاننا لأنه ينشر العطر، والبرق القادم من جبل إضم في الحجاز يكشفنا

وباتَ بارِقُ ذاكَ الثَّغْرِ يُوضِحُ لي مَواضِعَ اللَّثْمِ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

ولمعان أسنان الحبيبة يبين لي أماكن اللثم، أي التقبيل في الظلام الدامس

١٥ نسيم كاظمة

الحسن بن مهيار الديلمي:

يا نَسيمَ الريحِ مِنْ كاظِمَةٍ شدَّما هِجْتَ البُكا والبُرَحا

كاظمة: الكويت حالياً، البرح: العذابات

يا نَداماىَ بِسَلْعٍ هل أرى ذلكَ المَغْبَقَ والمُصْطَبَحا؟

سلع: موضع بالحجاز، المغبق: مكان الجلوس عشيةً، والمصطبح: مكان الجلوس صباحاً

اذكُرونا ذِكْرَنا عَهْدَكُمُ   رُبَّ ذِكرى قَرَّبَتْ مَنْ نَزَحا
اذكُروا صَبّاً إذا غَنَّى بِكُمْ   شَرِبَ الدمعَ ورَدَّ القَدَحا

١٦ عيرتني بالشيب

أبو عبد الله الزنجفري:

عَيَّرَتْني بالشَّيْبِ وَهْوَ وَقَارُ   ليتَها عَيَّرَتْ بِما هُوَ عَارُ
إن تَكُنْ شابَتِ الذَّوائِبُ مِنِّي   فالليالي تُشيبُها الأَقْمارُ

يقولها ناظم الغزالي «فالليالي تزيلها الأقمار»، ولا بأس بها، ولو قال «تنيرها» لكان أفضل

١٧ الغريب

أبو يعلى محمد بن الحسن البصري:

إنَّ الغريبَ بحيثُ ما   حَطَّتْ ركائِبُهُ ذَليلُ
ويدُ الغريبِ قصيرةٌ   ولِسانُهُ أبداً كليلُ
والناسُ ينصُرُ بعضُهُمْ   بعضاً، وناصِرُهُ قَليلُ

اتفق معي أحمد عبد الرحيم في تسويد هذه الأبيات، وقد يتفق معنا ٣٠٠ مليون عربي يعانون من غربة في أوطانهم، وملايين أخرى تعاني غربة في غير أوطانها، ونكتب في مطلع سنة ٢٠١٧، فإن عاش هذا الكتاب بضع سنين أخرى فالأمل أن يقول القارئ لي ولصاحبي: لا تقلقا، قد وجد العرب طريقهم إلى السعادة!

١٨ عناق

أبو الجوائز الحسن بن علي الواسطي:

واعتَنَقْنا ضَمّاً يذوبُ حَصَى اليا   قوتِ منهُ وتَطمَئِنُّ النهودُ
ثم هبَّتْ رُوَيْحَةُ الفجرِ، والكا   شِحُ نَاءٍ، والعاذِلاتُ رُقُودُ

رويحة: ريح خفيفة

١٩ كافور التجارب

أبو علي بن شبلٍ البغدادي:

قالوا: المَشيبُ، فقلت: صبـ   ـحٌ قد تنَفَّسَ في غَياهِبْ

إن كـــانَ كـــافُـــورُ الـــتَّـــجـــا رِبِ ذُرَّ فـي مِـسْـكِ الـذّوائِـبْ . .

الكافور: ذرور أبيض، الذوائب: خصلات الشعر

فـالـلـيـلُ أحـسَـنُ مـا يـكـو نُ إذا تَـرَصَّـعَ بِـالـكـواكِـبْ

٢٠ شقيق البدر

ابن بحر البغدادي:

خليليَّ ما أحلَى صَبوحي بِدجْلَةٍ وأطيبُ منهُ بِالصَّرَاةِ غَبُوقي

الصبوح: شرب الصباح، والغبوق: شرب المساء، الصراة: موضع على نهير في بغداد

شربتُ على الماءَيْنِ مِنْ ماءِ كَرْمَةٍ فـكـانـا كَـدُرٍّ ذَائـبٍ وعَـقـيـقِ

شرب شراباً أبيض كأنه اللؤلؤ الذائب، وشراباً أحمر كحجر العقيق

عـلـى قَـمَـرَيْ أُفْـقٍ وأَرضٍ تَـقـابَـلا فمِنْ شائقٍ حُلْوِ الهوى ومَشُوقِ

قمر السماء شائق، يجعلني اشتاق، وقمر الأرض مشوق، مشتاق إليّ

فـمـا زِلْـتُ أَسـقـيـهِ وأَشـرَبُ رِيـقَـهُ وما زال يَسقيني ويَشرَبُ رِيقي

فقلتُ لِبدْرِ التِّمِّ: تعرفُ ذا الفَتى؟ فقال: نعمْ، هذا أخي وشَقيقي

٢١ صَرَّدُرَ بن صَرَّبَعْر

الشريف أبو جعفر بن البياضي، يهجو الشاعر صَرَّدُرّ، وكان لقب أبيه صَرَّبَعْر:

لـئـن نـبـزَ الـنـاسُ قِـدْمـاً أَبـاكَ فَـسَـمَّـوْهُ مِـنْ شُـحِّـهِ صَـرَّبَـعْـرا

نبزوه: لقبوه لقب ذم، صر بعراً: وضع البعر في صرة حفاظاً عليه لشدة بخله

فــإنَّــك تَــنْــثُــرُ مــا صَــرَّهُ خِـلافـاً لـه وتُـسَـمِّـيـهِ شِـعْـرا

٢٢ عاشق بغداد

أبو سعد الحسن بن العلا (البغدادي) الموصلاني:

خـلـيـلَـيَّ إنِّـي كـلَّـمـا ذَرَّ شَـارِقٌ يَـزيـدُ إلـى أرضِ الـعراقِ حَنيني

ذر شارق: طلعت الشمس

وإن قـابَـلَـتْـنـي نـفـحَـةٌ بَـابِـلِـيَّـةٌ تَنِمُّ بِما تُخفي الضُّلوعُ شُؤُوني

نفحة بابلية: ريح قادمة من بابل بالعراق، شؤوني: مجاري الدمع في عينيّ

فمَنْ مُخبِرٌ أهلَ العراقِ بأنَّني أبيتُ ومكنونُ الهمومِ قَريني؟
وإنّيَ مُذْ شَطَّتْ بيَ الدارُ عنهُمُ أخو قَلَقٍ ما ينقضي وأنينِ

شطت: نأت وبعدت

أُناجي بَناتِ الشوقِ حتى يقالَ لي: به خُلْطَةٌ مِنْ عارِضٍ وجُنونِ

خلطة: اختلاط عقل، العارض: النوبة من صرع أو غيره تعرض للمرء

وما بيَ إلّا حُبُّ بغدادَ عارِضٌ وحَسبيَ مِنْ داءٍ بذاكَ دَفينِ
أقولُ وأسبابُ الهوى تستَفِزُّني وقد شَرِقَتْ بالدمعِ ذاتُ مَعينِ

ذات معين: العين التي دمعها سيال

على سَاكِني الزَّوْراءِ ما هَبَّتِ الصَّبا تحيةُ مَقْروحِ الفؤادِ حَزينِ

الزوراء: لقب بغداد

٢٣ تزوير كلام

أبو طالبٍ حمزة بن غاضرة الأسدي البغدادي:

أصبحتُ في الحبِّ كما قد ترى مُعذَّباً ما بينَ عُذَّالي
أُعِدُّ ما شِئتُ ليوم اللِّقا مِ الآنَ مِنْ قيلٍ ومِنْ قالِ
حتى إذا أبصَرْتُهُ مُقبِلاً لم يَخْطُرِ العَتْبُ على بالي

٢٤ الصدارة

أبو القاسم ابن أبي العلاء الأصفهاني:

إذا اجتمعْتُ بأهلِ الفضلِ مَيَّزَني سَرْوي وإن كان سقفُ البيتِ يَجْمَعُنا

السرو: الشرف الرفيع

فلا يَروُعَنْكَ أثوابٌ لَهُمْ وكُسَىً ولا يَهُولَنْكَ ألقابٌ لَهُمْ وكُنَى
لا تَحْسَبِ الصَّدْرَ حيثُ الدَّسْتُ مُطَّرَحٌ إذا حَضَرْتُ فإنَّ الصَّدْرَ حيثُ أنا

الدست: ما يجلس عليه صاحب الأمر والنهي من سرير أو وسادة أو كرسي

٢٥ المسألة الزنبورية

الكِيا الأَصْفَهْدَوَسْتْ الديلمي:

يا طالِبَ التزويجِ إنكَ بِالذي ... تَبغيهِ مِنهُ جاهِلٌ مَغرورُ
هل أبصرتْ عيناكَ صاحبَ زوجةٍ ... إلَّا حزيناً ما لَدَيْهِ سُرورُ؟
لا تبغِ في الدنيا نِكاحاً لازماً ... وافعلْ بِها ما يفعَلُ الزُّنْبورُ
إذْ ما تَراهُ حينَ يُدْرِكُ فُرصةً ... يَدنُو ويَلْسَعُ لَسْعةً ويطيرُ؟

٢٦ سعادة السفيرة

الوزير أبو سعدٍ منصور بن الحسين الآبي:

أيا رَبْعَ عَلْوَةَ بالمُنحَنى ... أأنتَ بِها مُغْرَمٌ أم أنا؟

يخاطب محل المحبوبة علوة الراحلة، لماذا أنت قد بليتَ وهزلت؟ أأنت المغرم بها أم أنا؟

ويا طَلَلَ الحيِّ ما بالُنا ... لَبِسْتَ البِلَى ولَبِسْتُ الضَّنَى؟

أنت بليت تركاً وأنا مرضت عشقاً

أَتَتْنيِ فقالتْ لِأترابِها: ... لَنِعْمَ الفتَى إن ثَوى عندنا
فقلتُ لها: أينَ مَغْناكُمُ؟ ... فقالت، ونَحْنُ بِحُزْوَى: هُنا
ولكنَّ مِنْ دونِنا باسِلاً ... يَغارُ علينا إذا زُرْتَنا

تحذره من شاب شديد قوي من قومها

فَساوِرْ إذا جئتَ جُنْحَ الظلامِ ... فإمَّا علينا وإمَّا لنا

ساور: هاجم وواثب

فلما امتَطَيْنا إليها الدُّجى ... دُفِعْتُ إلى تِربِها مَوْهِنا

لما ركبت الظلام إليها جيء بي موهناً ليلاً إلى صديقتها

وقَامَتْ تَجُرُّ فُضولَ الرِّداءِ ... وتَسْفُرُ لِلوَصْلِ ما بَيْنَنا

مشت تجر ذيول ردائها وتقوم بدور السفيرة لتصل بيني وبين المحبوبة

٢٧ القلزم

السيد الأجل المرتضى ذو المجدين أبو الحسن المطهر بن علي:

جانِبْ جَنابَ البَغْيِ دَهرَكَ كُلَّهُ ... واسْلُكْ سبيلَ الرُّشْدِ تَسْعَدْ والزَمِ

مَــنْ وَسَّــخَــتْــهُ غَــدْرَةٌ أو فَــجْــرَةٌ لـم يُـنْـقِـهِ بِـالـرَّحْـضِ مَـاءُ الـقُـلْـزُمِ

الرحض: الغسل، القلزم: البحر الأحمر

٢٨ الدنيا والأخرى

أبو هلالٍ العسكري:

ما بالُ نفسِكَ لا تَهوَى سَلامَتَها وأنتَ في عَرَضِ الدنيا تُرَغِّبُها
أراكَ تطلُبُ دنيا لستَ تُدرِكُها فكيفَ تُدْرِكُ أخرى لَسْتَ تَطلُبُها؟

تسويد أ. عبد الرحيم

٢٩ قعيد الدكان

وقال:

جُلُوسِيَ في سوقٍ أبيعُ وأشتري دليلٌ على أن الأنامَ قُرودُ
ولا خيرَ في قومٍ يَذِلُّ كِرامُهُمْ ويَعْظُمُ فيهِمْ نذلُهُمْ ويَسودُ
ويَهجُوهُمُ عَنِّي رَثَاثَةُ كِسْوَتِي هِجاءً قبيحاً ما عليهِ مَزيدُ

٣٠ الافتداء من الشعراء

أبو الفرج بن أبي سعد بن خلف:

عندي يَواقيتُ الكلامِ ودُرُّهُ وعَلَيَّ إِكْليلُ القَريضِ وتَاجُهُ
وعَداوةُ الشعراءِ دَاءٌ مُعْضِلٌ ولقد يَهونُ على الكريمِ عِلاجُهُ

يعالج الكريم عداوة الشعراء ببذل ماله.. وهذا وضع أفضل من وضع الصحفيين الحالي في بلدان كثيرة.. حيث لم يعد الصحفي قادراً على تهديد الحاكم بنشر تقارير صادقة أو كاذبة تفضحه.. هو موظف عند الحاكم، أو سجين في حبسه، أو مشرد في أوروبا

٣١ دوزان

عبد القاهر الجرجاني:

وقد يَستَقيمُ المرءُ فيما يَنوبُه كما يَستَقيمُ العُودُ مِنْ عَرْكِ أُذْنِهِ

العود ينضبط ميزانه بالملاوي التي تشد الأوتار، والمرء ينضبط سلوكه عندما تفرك المصائب أذنه

ويَرجَحُ مِنْ فضلِ الكَمالِ إذا مَشى   كما رَجَحَ الـمِيزانُ مِنْ فَضْلِ وَزْنِهِ

كفتا الميزان القديم تتقلقلان حتى إذا وضع فيهما ثقل استقرتا، والمرء يصبح رزيناً بثقل الصفات الحميدة

٣٢ توثب

أبو سعدٍ محمد بن عبد الرحمن الصيدلاني (الجرجاني):

إن الـبـراغـيـثَ بِـالـلَّـيـالـي   إذا تَـوَثَّـبْـنَ فـي الـقِـتـالِ

لَـمُـشْـبِـهـاتٌ عـلـى فِـراشـي   بَـزَرْقَـطُـوناً عـلـى الـمَـقَـالـي

البَزَرْقَطُون: أو بِزْرُ القَطُونَا، من البذور العلاجية

٣٣ غالباً سيموت

الحاكم أبو الفضل علي بن أحمد الزيركي الاستراباذي:

هجَرتَ الصديقَ الفقيرَ العليلا   وقـلـتَ: الـذي نـالَـهُ لـن يَـزُولا

وأعـرضْـتَ إعـراضَ مُـسْـتَـحْـقِـرٍ   ومَنْ ذا يُجِلُّ الفقيرَ الـمُعِيلا؟

وحَـدَّثْـتَ نـفـسَـكَ أنِّـي أمـوتُ   ولـن يَـتَـعَـدَّى الـمنُونُ العَـلـيـلا

أهملت عيادتي في مرضي لأنني فقير، ولأنك ظننت أنني سأموت في هذه المرضة فلا لوم عليك في ترك الزيارة

فَـتُـلْـغَـى الـعِـيـادَةُ والإعْـتِـذارُ   إذا سَـتَـرَ الـتُّـرْبُ هـذا الـخـلـيـلا

ولَـمَّـا سَـمِـعْـتَ بِـأنِّـي بَـرِئْـتُ   وأَبْـلَـى الإلَـهُ بَـلاءً جـمـيـلا

لما سمعتَ أنني شفيت وأبلى الله معي بلاء حسناً، أي أنعم عليّ

قَـلَـبْـتَ الأمـورَ لِـتَـحْـتَـالَ فـي   مَـعـاذِرَ تُـسْـلـي فـؤاداً نَـحـيـلا

أصبحت تلتمس المعاذير لكي أنسى سوء فعلك

وأَظْـهَـرْتَ أنـكَ ذُو عِـلَّـةٍ   بِعَيْنَيْكَ، حَاشاكَ مِنْ ذاكَ قيلا

وقلت إنك ذو مرض في عينيك؛ ولكن، حاشاك ذاك قيلاً، دع عنك هذا القول

وأَهْـدَيْـتَ أبـيـاتَ مُـسْـتَـغْـفِـرٍ   وظَـبـياً مَـلـيـحاً رَشِـيقاً كَـحِـيلا

فَـأَغْـضَـيْـتُ عـمَّـا تَـجَـنَّـيْـتَ إذْ   بَـعَـثْـتَ بِـظَـبْـيٍ مَـلِـيـحٍ رَسُـولا

أغضيت، أي تغاضيت، عن جنايتك لأنك بعثت أبيات الاعتذار مع غلام وضيء الوجه

٣٤ بازٍ وهدهد

أبو البدر المظفر:

لا تنكِري يا عَزُّ إنْ ذَلَّ الفَتى ... ذو الأصلِ واسْتَعْلَى لئيمُ المَحْتِدِ

المحتد: الأصل

إنَّ البُزَاةَ رؤُوسُهُنَّ عَواطِلٌ ... والتَّاجُ مَعقودٌ بِرأسِ الهُدْهُدِ

البزاة: من الطيور الجارحة. تسويد أ. عبد الرحيم

٣٥ رثاء أم

وقال أبو الحسن البلخي يرثي والدته:

لَحا اللّهُ ذي الدنيا مَراداً ومَنزلاً ... فما أغدَرَ المَثوى وما أَوْبَأَ المَرعَى

لعن الله الدنيا مراداً، مطلباً، فما أغدر المثوى، المكان، وما أوبأ المرعى، ما أكثر ضرره

تَدَلَّلُ كالحسناءِ في حُسْنِ وجهِها ... ولكنَّها في قُبحِ أفعالِها أَفْعى

٣٦ عندما باض الطموح

عميد الملك أبو نصرٍ منصور بن محمد الكندري:

الموتُ مُرٌّ ولكِنِّي إذا ظَمِئَتْ ... نفسِي إلى العِزِّ مُسْتَحْلٍ لِمَشْرَبِهِ

أستحلي شرب الموت في طلب العز

رِيَاسَةٌ بَاضَ في رأسِي وَساوِسُها ... تَدُورُ فيهِ وأَخْشَى أنْ تَدورَ بِهِ

كل الساسة باض في رؤوسهم حب الرئاسة ودار «في» هذه الرؤوس، وبعضهم يدور حب الرئاسة «بـ» رؤوسهم ويفقدهم توازنهم. كل الساسة تدور في رؤوسهم وساوس الرئاسة: بعضهم لا يكون طموحه مقروناً برؤية ومن هؤلاء معظم قادة الانقلابات، وبعضهم يريد تحقيق شيء للآخرين بالإضافة إلى الطموح الشخصي وهؤلاء تجدهم، وليس بكثرة، في النظم المستقرة. «تعليق أ. عبد الرحيم: «قال بعض كبار السادة الصوفية: «آخر ما يخرج من قلوب الأولياء حب الرئاسة»».

٣٧ لبن أمها على فمها

أبو عبد الرحمن بن أبي بكرٍ البلخي:

ظَلَّتْ تَصيدُ لَبيبَ القومِ لَحْظَتُها ... وبَعدُ مِنْ شَفَتَيْها يَرشَحُ اللَّبَنُ

منذ صغرها، ومنذ حليب أمها على فمها، وهي تصيد قلوب عقلاء القوم بلحظتها، أي بنظرتها

كَتَمْتُ حُبِّي. ومَنْ نَمَّتْ مَدامِعُهُ فَسِرُّهُ أبداً بينَ الوَرى عَلَنُ

٣٨ مسبِّع الكافات

أبو نصرٍ أحمد بن إبراهيم، الطالقاني:

اليومَ قُرٌّ وعِندي مِنْ مَصالِحِهِ سَبْعٌ تُقَلِّمُ نابَ البَردِ إنْ نَهَسا

اليوم قر، برد، وعندي مما يصلح لهذا اليوم أشياء تقلم نياب البرد إن نهس جسمي، أي نهشه

حُروفُ كافاتِها فيها مُقَدَّمَةٌ لِمَنْ تَأَمَّلَها في السَّطْرِ أو دَرَسا

وكلها تبدأ بحرف الكاف، فالكافات مقدَّمة

كُنٌّ وكيسٌ وكانُونٌ وكأسُ طِلا مَعَ الكَبابِ وكش نَاعِمٌ وكُسَا

الكن: المنزل، الكيس: كيس مال، الكانون: الموقد، كأس الطلا: كأس الخمر، الكسا: الثياب، والكلمة التي لم نفسرها نتركها لك حتى تزيل نقاطها

٣٩ قصائدي أولادي

محمد بن عبد الله الرَّزْجاهي:

وقالوا: عَزيزٌ أن نَراكَ مَعَ الكِبَرْ بِلا وَلَدٍ أُنثَى ولا وَلَدٍ ذَكَرْ

وذِكْرُ الفَتى يبقَى له بعدَ موتِه، فقلتُ: دَعوني، إنَّ ذا كلَّهُ سَمَرْ

كله سمر: كله مجرد أحاديث لا قيمة لها

ونَسلي إذا ما مُتُّ غُرُّ قَلائِدٍ بَثَثْتُ مِنَ المَنْظُومِ والعِلْمِ والخَبَرْ

خَوالِدُ لا أخشَى عليْهِنَّ ميتةً إذا خيفَ موتٌ أو عُقوقٌ مِنَ البَشَرْ

٤٠ الملك الأسير

أبو القاسم الفياض بن علي الهروي:

وقَصَّرَ لَمَّا أن رأى السيفَ قَيْصَرٌ وقد خَذَلَتْهُ خَيْلُهُ ومَواكِبُهْ

تَولَّى رجاءَ أن يَفوتَ بِنفسِهِ وأَنَّى وبُرهَانُ الخليفةِ طَالِبُهْ؟

هرب الملك كي يفوت بنفسه، ينجو بها، وكيف له ذلك والذي يطلبه ويلاحقه إنما هو البرهان الذي يريده الخليفة على صحة عزمنا وصحة معتقدنا

ولا لومَ أن وَلَّى على الوجْهِ هَارِباً فذلكَ يومٌ لا يُعَنَّفُ هَارِبُهْ

لا لوم عليه فاليوم، أي المعركة، عنيفة جداً

فلمْ تُغنِ عنهُ في الوُقوفِ سُيوفُهُ ولـم تُنْجِهِ عنـدَ الـنَّجَـاءِ نَجائِبُهْ

لم تنجه عند النجاء، الركض، نجائبه، خيوله وإبله النجيبة الكريمة

ومَنْ يَرْكَبِ البحرَ الخِضَمَّ طَمَى بِه عُبابٌ وأَنَّى يَأْمَنُ الـبَحرَ رَاكِبُهْ؟
فلمَّا دَنَا مِنْ مجلسِ الـمَلْكِ خُطْوَةً وبـيـنَ يَـدَيْـهِ تَـرْجُـمـانٌ يُـخَـاطِـبُـهْ
تَـعَـفَّـرَ مِـنْ مَـسِّ الـتُّـرابِ جَـبـيـنُـهُ وقـد عـاشَ دَهـراً ما تَـعَـفَّـرَ حَـاجِـبُـهْ
وأَهْوى لِوَجْهِ الأرضِ لَثْماً وقد بَدا له يـومُ بُـؤْسٍ كَـالِـحُ الـوَجْهِ قَـاطِـبُـهْ

أخذ يلثم، أي يقبل، الأرض، وقد كان يومه كالحاً عابساً ومقطباً

فـلـمْ يَـرَهُ الـسـلـطـانُ أَهْـلاً لِـعَـتْـبِـهِ وقـد كان حقّاً في الهُدَى لو يُعَاتِبُهْ
ومَـنَّ عـلـيـهِ بِـالـحـيـاةِ تَـكَـرُّمـاً عَـشِـيَّـةَ أَظْـفـارُ الـمَـنـونِ تُـنَـاشِـبُـهْ

٤١ إليَّ إليّا

الخطيب أبو يعلى القرشي الهروي:

ليس يَنفي الـهُـمومَ غيرُ الـحُـمَيَّا فَاسقِيانِي مِنْ كَفِّ طَلْقِ الـمُـحَيَّا

الحميا: الخمر

ذَكِّـرانـي بِـهـا نَـسِـيـمـاً وورْداً ودَعـانـي مِـنْ ذِكْـرِ سُـعْـدَى وريَّـا
قـد دَعَـوْتُ الـغـلامَ ثُـمَّـتَ نَـاديــ ـتُ أَدِرْهـا ولا تُـبَـقِّ عَـلَـيَّـا
ومـتَـى عَـافَ واحِـدٌ مِـنْـهُـمُ الـكَـأْ سَ فـأَقْـبِـلْ بِـهـا إلـيَّ إلـيَّـا
فَـتَّـرَتْ مُـقْـلَـتـي وأَوْدَتْ بِـلُـبِّـي وسَـرَتْ فـي الـعِظَامِ شيئاً فَشَيَّا

٤٢ دفاع الكأس

الأمير أبو أحمد خلف بن أحمد السجري:

يقولونَ: لا تَشْرَبْ ولَسْتُ بِصَخْرَةٍ مِنَ الـصُّـمِّ في وادٍ على نَشَزٍ وَعْرِ

النشز: الأرض الوعرة. من الأبيات التي نسبت لكثيرين، ويؤلمنا ألا نعرض لها، البيت: سَقَوْنِي وقالوا لا تُغَنِّ ولو سَقَوْا/ جبالَ حُنَيْنٍ ما سَقَوْنِي لَغَنَّتِ

وسترى في الأبيات الفرائد التي يكثر الناس من ترديدها الكثير مما قيل في عصور انحطاط الشعر العربي، وسبب ذيوعها أنها سهلة، ولكن البيت الذي ذكرناه قد يكون قديماً فقد جاء ذكره في العقد الفريد. ثمة بيت أتعب الناس في نسبته إلى قائل: بلادي وإن جارت علي عزيزة/ وأهلي وإن ضنوا علي كرام.. وتركناه بلا تشكيل.. طبعاً.. مثل هذا لا يحتاج

ولـكـنَّـنـي مِـنْ عُـصْـبَـةٍ آدَمِـيَّـةٍ   كثيرُ هُمومِ القلبِ مُمْتَلِئُ الصَّدْرِ
فـلـولا دِفـاعُ الـكـأسِ عَـنِّـي وذَبُّـهـا   لَذُبْتُ كما ذابَ اللُّجَيْنُ على الجَمْرِ

الذب: المحاماة، اللجين: الفضة

٤٣ تجمُّد الوحل

الأمير أبو إبراهيم نصر بن أحمد الميكالي:

يـا لِـبَـرْدٍ قـد أفْـقَـدَ الـمـاءَ حـتـى   بِـلَّـةَ الـوحـلِ فـي طـريـقِ الـسُّـوقِ

من البرد تجمد الوحل وفقد البلل

يُـعْـهَـدُ الـمـاءُ بَـاثِـقـاً لِـسُـكُـورٍ   وَهُـوَ الآنَ سَـاكِـرٌ لِـبُـثُـوقِ

في العادة فإن الماء يبثق السكور، يتدفق كاسراً السدود، وهو الآن يسد البثوق، أي التدفقات.
السِّكر هو السد، وسكَّرَ أي سد وأغلق

جَمَدَ الدمعُ في الشؤونِ كما قد   جَمَدَ الماءُ في مَسَاغِ الحُلوقِ

الشؤون: مجاري الدمع في العيون

٤٤ اسأل عليّ

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري:

يـا سـيِّـداً بِـالْـمَـكْـرُمـاتِ ارْتَـدَى   وانـتَـعَـلَ الـعَـيُّـوقَ والـفَـرْقَـدا

جعل الكواكب نعلاً له

مـا لَـكَ لا تَـجْـرِي عـلـى مُـقْـتَـضَـى   مَـوَدَّةٍ طـالَ عـلـيـهـا الـمَـدى؟
إن غِـبْـتُ لـم أُطْـلَـبْ، وهـذا سـلـيـ   ـمـانُ بْـنُ دَاودَ نَـبِـيُّ الـهُـدى. .
تَـفَـقَّـدَ الـطَّـيْـرَ عـلـى شُـغْـلِـهِ   فـقـالَ: مـا لـيِ لا أَرى الـهُـدْهُـدَا؟

٤٥ الضاحك والباكي

أبو يوسف يعقوب بن أحمد:

رأيتُ عُبيدَ اللَّهِ يَضحكُ مُعطِياً   ويَبكِي أخوهُ الغيثُ عند عطائِه

جعل الغيث الماطر، رمز السخاء، أخاً للممدوح

وكـم بـيـن ضـحَّـاكٍ يَـجُـودُ بـمـالِـه   وآخـرَ بَـكَّـاءٍ يـجـودُ بِـمـائِـه

٤٦ حاجات الشباب

أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري:

أقـولُ ونُـوَّارُ الـمشـيـبِ بِعـارِضـيِ   قد افْتَرَّ لـيِ عن نـابِ أَسْوَدَ سالِخِ

أقول وقد نور الشيب في عارضي، أخرج نوره كما يزهر الشجر في سالفي، وافتر لي، فتح فمه، عن ناب كأنه ناب أسود سالخ، ثعبان ممن يسلخ جلده ويخرج منه

أَشَيْباً وحَاجاتُ الشبابِ كأنَّها   يَجيشُ بها في الصدرِ مِرْجَلُ طابِخِ؟

أيأتيني الشيب ورغبات الشباب تعتمل في صدري كما تغلي قدر الطابخ؟

وما كُلُّ حُزني لِلشَّبابِ الذي هَوى   بِهِ الشَّيْبُ عن طَوْدٍ مِنَ الأُنْسِ شامِخِ

طود: جبل

ولكِنْ لِقولِ الناسِ: شَيْخٌ وليسَ لِي   على نائباتِ الدهرِ صَبْرُ المَشايِخِ

٤٧ رحيل مفاجئ

أبو نصر سعيد بن الشاه:

غـداً أُوَدِّعُ قـومـاً أَوْدَعُـوا كَـبِـدي   ناراً، وعَهدي بِهِمْ بَرْداً على الكَبِدِ
أُبْدي التَّجَلُّدَ أحياناً فَيَنْهَرُني   رِيقٌ يَجِفُّ، وخَدٌّ بِالدُّموعِ نَدي
لا أَنْسَ يوماً تَنازَعْنا حديثَ نَوىً   وقَولَها وَهْيَ تَبكِي خانَني جَلَدي
كُنَّا إلى الوَصْلِ أَخْلَدْنا فَنَغَّصَهُ   هذا الرحيلُ الذي ما دارَ في خَلَدي

٤٨ ألوان

أبو القاسم عبد الصمد بن علي الطبري:

حَمِّرْ يَدي بِالكَأْسِ فَالرَّوْضُ مُخْـ   ـضَرُّ الرُّبا قبلَ اصْفِرارِ البَنانْ

اصفرار البنان كناية عن الموت

٤٩ بعض اشتفاء

أبو الحسن علي بن أحمد الزواهي:

وإِنِّـي لَآتـي قَـبـرَ أُمِّـي فَـأَشْـتَـفـي   بِـرُؤْيَـتِـهِ، والـوَجْـدُ فِـيَّ شَـديـدُ
كـمـا نَـظَـرَتْ حَـنَّـانَـةٌ نـحـوَ بَـوِّهـا   تَـسَـلَّـتْ بِـهِ والـسَّـقْـبُ مِـنْـه بَـعـيـدُ

أكون كناقة حنانة تصدر صوتاً يسمى «الحنين» وهي تقترب من البو، وهو جلد فصيلها المذبوح وقد حشاه القوم بالقش ليوهموا الناقة بأنه حي فيدر لبنها عليه، وأما سقبها، أي فصيلها، فليس هناك

٥٠ المادح الهاجي

محمد بن علي (السويري) الظفري:

لا تَـأْمَـنِ الـنَّـفْـثَـةَ مِـن شـاعـرٍ ... مـا دامَ حَـيَّـاً عـاقـلاً نـاطِـقـا
فـإنَّ مَـنْ يَـمْـدَحُـكُـمْ كـاذبـاً ... يُـحْـسِـنُ أنْ يَـهْـجُـوَكُـمْ صـادِقـا

٥١ يا واحدي

أبو خداش محمد بن سعيد بن ميسرة:

يا وَاحِدي أصبحتُ بعدَكَ واحداً ... لـولا الإلـهُ الـمستعـانُ الـواحـدُ
مـاذا أردتَ إلـى أبـيـكَ بِـتـركِـهِ ... يبكـي الـعدوُّ له ويَـرثـي الـحاسِدُ
أَلِفَ الـمقـابِرَ بعـدَ فَـقْـدِكَ وَحْـشَـةً ... لـو كـانَ يَـأْنَـسُ بِـالـمقـابِـرِ فَـاقِـدُ
يَـدعـوكَ مِـنْ يَـأسٍ ولـسـتَ تُـجيبُه ... وَهُـوَ الـقَـريبُ وسَـمْـعُكَ الـمُـتباعِـدُ

٥٢ المرازبة

أبو نصر أحمد بن ابراهيم الكاتب:

وخمرٍ كعينِ الدِّيكِ صِرْفٍ، دِنانُها ... مَـرازِبَـةٌ مِـنْ آلِ كِـسـرى مَـواثِـلُ

الخمر صافية كعين الديك، ودنانها، أي خوابيها الكبيرة، كأنها مرازبة كسرى، قادته، مواثل، حاضرين واقفين

عَـلَيْهِـنَّ مِنْ طيـنِ الـخِتامِ عَـمائِمٌ ... ومِنْ نَسْجِ غَزْلِ العنكبوتِ غَلائلُ

غلائل: برود خفيفة

٥٣ القَوْراء

أبو العباس محمد بن ابراهيم الكاتب:

دارٌ حَـكَـتْ صَـدْرَ رَبِّـهـا سَـعَـةً ... تُـسـافِـرُ الـعـيـنُ فـي نَـواحـيِـهـا

أوسع دار في الدنيا اليوم، ونكتب في عام ٢٠١٦، هي قصر «نور الإيمان» مقر سلطان بروناي. ومساحتها ٢٠٠ دونم، أي نحو ٥٠ فداناً بدون الحدائق. هل كتبت لك هذه الملاحظة كي تترك كتابي وتذهب للإنترنت؟

٥٤ الفيوج

أبو سعيد المعروف بالأسود الزوزني:

تَمَنَّى أبُو العبَّاسِ لو أنَّ دُبْرَهُ ... طَريقُ بُخَارَى والفُيوُجُ أُبورُ

الفيوج: حاملو الرسائل، وما يتلوها من كلام فيه تصحيف

فيَدخُلُ أَبر ثم يَخْرُجُ آخرٌ ... وبعضُ أَمانِيِّ الرجالِ غُرورُ

٥٥ ضيق الصدر

أبو بكر المعروف بكَوَرْخَر:

تَأَوَّبَني مِنْ حُبِّ أَسماءَ أَوْلَقُ ... عِشاءً إلى أن كادَتِ الشمسُ تُشرِقُ

تأوبني: انتابني، أولق: جنون

وما في طُلوعِ الشمسِ كشفٌ لِكُرْبَةٍ ... ولكنَّ صَدْرَ المرءِ بِالليلِ أَضْيَقُ

تسويد أ. عبد الرحيم

٥٦ تارك الزيارة

القاضي أبو جعفر محمد بن اسحق البحائي:

تركْتُ الزيارةَ لا عن قِلَىً ... وعِفْتُ التَّوَاصُلَ لا عن سُلُوّ

القلى: الصدود، السلو: النسيان والانصراف عن العشق .

ولكنْ نَهانِيَ عن أنْ أَزُورَ ... حَياءُ الصديقِ وخَوفُ العَدُوّ

٥٧ غربة وحسبة

وقال:

لَمَّا رأيتُ الفقرَ ينزلُ بالفَتى ... تحتَ الثَّرى، ومَحَلُّهُ الجَوْزاءُ. .

لما رأيت الفقر يلصق الإنسان بالتراب ويذله، مع أن الفتى عالي القدر ومنزلته عند نجوم الجوزاء. .

فارقْتُ قَومي أَبْتَغي لَهُمُ عُلاً ... يَسْمُو بها الآباءُ والأبناءُ

واختَرْتُ دارَ الإغْتِرابِ يُصيبُني ... في غُرْبَتي السَّرَّاءُ والضَّرَّاءُ

إن نِلْتُ خيراً أُبْتُ أَوْبَةَ غانمٍ ... أو مُتُّ لم يَشْعُرْ بِيَ الأعداءُ

٥٨ نزلت جداً

العميد أبو سهل محمد بن الحسن:

بَلَغْتُ جميعَ آمالِي فكادَتْ	تَزولُ الأرضُ لو أنْ قُلتُ: زُولي
وجالَسْتُ الملوكَ على سَواءٍ	ولو زَاحَمْتُهُمْ لَتَحَفَّزُوا لي

جالست الملوك على سواء، مساوياً لهم، ولو زاحمتهم لتحفزوا للتصدي لي

وكنتُ مِنَ الخِدَاعِ أَطِيرُ زَهْوَاً	إلى أنْ حَانَ لي حينُ النُّزولِ
فلمَّا أن نزلْتُ، نزلْتُ جِدّاً	وهل بعدَ النزولِ سوى النزولِ

٥٩ أيضاً

أبو سهل أحمد بن الحسن:

يَعلَمُ اللَّهُ أَنَّني بِكَ صَبٌّ	مُستَهامٌ وأنتَ تَعلَمُ أَيضَا

أهُمْ على حق إذ قالوا إن «أيضاً» ما دخلت شعراً إلا أفسدته؟

٦٠ السلم الهجائي

أبو عمر الماثيرْناباذيّ:

لنا في صُحْبَةِ الأَنْذَالِ سَمْتٌ	وفي حَمْلِ الأذى والصَّبرِ نَهْجُ

سمت: طريقة

فلا نَتَعَجَّلُ الشَّكْوى، ولَكِنْ	نُعاتِبُ ثم نَغضَبُ ثم نَهجُو

٦١ التسريح

وقال:

لقد مَنَّيْتَنِي الإحسا	نَ تَعريضاً وتَصْريحا
وكانَ الوعدُ يا مَوْلا	يَ في كِلْتَيْهِما رِيحا
وقد قَتَّلْتَنِي واللـ	ـهِ تَعذيباً وتَبْرِيحا
فإنْ لم تَنْوِ إمْسَاكاً	بِمَعْرُوفٍ.. فتَسْرِيحا

من الآية: «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»

٦٢ قلبي على ولدي

كتب أحمد بن محمدٍ القائني إلى ابنه:

سَـــلامٌ ورَيْـــحـــانٌ ورَوْحٌ وراحَـــةٌ   على الوَلَدِ الـمَرْضِيِّ عنديِ أبي نَصْرِ

روح: راحة

فيَا لَيْتَني أَلْقى صباحاً طُلُوعَهُ   ونُمسي ونَغدُو سَالِمَيْنِ مِنَ الهَجْرِ
ويا لَيْتَني أَحْيَا إلى وقتِ عَوْدِهِ   ويا لَيْتَهُ يَحيَا إلى آخرِ الدَّهْرِ

٦٣ الإنصاف

أبو نصر المساح القائني:

إن الفَتَى كلَّ الفَتى مَنْ لم يُذِعْ   أَسـرارَ يـومِ الـودِّ يـومَ خِـلافِ
فعَليْكَ بِالإِفْضالِ ثم إنِ الْتَوَتْ   أَسبـابُهُ فعـليـكَ بـالإِنـصـافِ

٦٤ الغانيات

أبو منصور عبد الرحمن (بن محمد) ابن سعيد:

خُلَّةُ الغَانِياتِ خُلَّةُ سَوْءٍ   ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾
وإذا مَا سَأَلْتُمُوهُنَّ شيئاً   ﴿فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

٦٥ الخبر الجميل

أبو طالبٍ محمد بن أحمد (العلوي) الحسيني:

لا تَلْحَقَنَّكَ ضَجْرَةٌ مِنْ سائلٍ   فَدوامُ عِـزِّكَ أن تُـرى مَـسْـؤُولا
واعلَمْ بِأَنَّكَ عن قَليلٍ صَائِرٌ   خبراً، فكُنْ خَبراً يَروقُ جَميلا

٦٦ سوسة الدفاتر

أحمد بن فارس بن زكريا:

وقالوا: كيفَ حالُكَ؟ قلتُ: خَيْرٌ   تُقَضَّى حَاجَةٌ وتَفُوتُ حَاجُ
إذا ازْدَحَمَتْ هُمومُ القلبِ قُلْنا   عسى يوماً يكونُ لها انْفِراجُ
نَديمي هِرَّتي، وسُرورُ قَلبي   دَفاتِرُ لي ومَعْشُوقي السِّراجُ

٦٧ أخلاقٌ ذهب

أبو حاتمٍ السجزي:

تَسمُو العيونُ إليهِ كلَّما انفَرجَتْ ... للناسِ عن وجهِهِ الأبوابُ والحُجُبُ
لـه خَـلائِـقُ بـيـضٌ لا يُـغَـيِّـرُهـا ... صَرْفُ الزمانِ كما لا يَصْدَأُ الذَّهَبُ

فهرس القوافي، دمية القصر

(القافية، فرقم القطعة)

البهاء زهير

(٥٨١هـ ــ ٦٥٦هـ)

اشتغلت أياماً بشعر بعض الجاهليين والإسلاميين فأرهقتني لغتهم العتيقة وأتعبتني تفلية المعاجم، فقلت أُعطي نفسي إجازة. فهل أسافر وأسوح؟

لست أخا سياحة ولا صاحب متاحف ولا معالم. حططتُ يوماً على إستانبول ست ساعات بين طيرة وطيرة، فرأيت الإضاءة في المطار خافتة، فانقبضتُ، فاشتريت تأشيرة، ومضيت إلى المدينة. قصدت آيا صوفيا، واشتريت تذكرة دخول من كشك على مدخلها، ودخلت؛ اشرأببتُ ورأيت أسماء الراشدين، ثم أطرقت ورأيت تحت قدمي البلاط الحجري العتيق، ثم.. خرجت مسرعاً، وعند البوابة فتح صاحب الكشك كفَّيه رافعاً كتِفيه مستغرباً مستهجناً، يقول بلغة جسمه: دفعتَ كل هذه الليرات على خمس دقائق!

ثم إني شربت قهوة، فقط كي أسجل في تاريخ حياتي أنني شربت قهوة تركية في تركيا، ولا أذكر من تلك القهوة إلا سعرها الغالي وفنجانها الأنيق، وأنا ـ وكثيرون غيري ـ يشربون الفنجان قبل القهوة، فالقهوة مشروب سخيف لا يعدل الدماغ ـ فتلك خرافة ـ ولا يُميله، إذ القهوة الأخرى هي التي تميله، فإذا قدمت قهوة البُنِّ في فنجان غريب فإنما تُشرب لفنجانها.

ورجعت إلى مطاري راضياً بكآبته، تاركاً إستانبول لمن حباهم الله موهبة الاستمتاع بالسياحة.

وقلتُ أكافئ نفسي، بعد ذلك الجهد مع الجاهليين والإسلاميين، بالإفراط في لعبة الحاسوب الأثيرة. فوجدتني مفرطاً فيها على كل حال حدَّ تقفُّع الأصابع.

فقلت: أشتغل بديوان بهاء الدين زهير. ففي هذا مكافأة.

لا تُكْذَبَنَّ يا قارئ، فأنا لست حلس كتب يجتوي ما في هذه الدنيا من ملاذّ. بل لست أعيش إلا كي أجمع اللذة، ـ كذا أقول: أجمعها جمعاً ـ وليس لي من مبتغى غيرها. قد يسمى هذا الضرب من البشر إبيقورياً، فاليوناني القديم إبيقور كان لا يريد من دنياه إلا حياة هادئة خالية من: الخوف، والألم، والقيد. وكان مرادف السعادة عنده: اللذة، ومرادف الشقاء: الألم. وزعم أن الآلهة لا تعذب أحداً بعد الموت، فالموت فناء.

فعلام والحالة هذه أشغل نفسي بالبهاء زهير، وأين اللذة في هذا؟

هذا شاعر صاحب صنعة. مضى الشعراء بعد أبي العلاء يصنعون ويصنعون، فتخشب الشعر. وجاء البهاء فلم ينحرف عن الصناعة، لكنه عابَثَ اللغة معابثة جميلة، ورق في لفظه، ورق في معانيه. وخلط صناعته بغير قليل من الفكاهة، وفتح قلبه. قصدت: قال الشعر من قلبه. قصدت: تحدث عن نفسه كثيراً. عن أخلاقه وعاداته، وعن لهوه وعن التماسة ملذات الحياة. كان صريحاً.

وماذا تريد، حضرتك، من الشاعر سوى ذلك؟

أَلانَ البهاء زهير الشعر، وكان خاتم الشعراء القدماء؛ فبعده جاء المغول في الشرق، والمماليك في الغرب، وسقط الشعر العربي ستمئة وخمسين سنة في وهدة الركاكة والخنوثة.

لم يكن البهاء صانعاً متجهماً متفلسفاً متصوفاً كسلفه ابن الفارض، ولا صانعاً يخفي وجهه وراء أقنعة المحسنات اللفظية والألاعيب اللغوية كخلفه صفي الدين الحلي. كان البهاء زهير صانعاً تلذك صنعته، لأنه جعلها وعاء للفكاهة. وكان يحكي عن نفسه، وكان يحب الحياة، ويقول ذلك. يجور على اللغة قليلاً إذا عنَّ له ظبي من ظباء الفكاهة الحلوة، ثم تعتدل اللغة على لسانه كأحسن ما يجب أن تعتدل. فالرجل متين اللغة.

إذا كنت ممن يرصف الشعراء في خانات بحسب العصور والدول على طريقة الأستاذ شوقي ضيف الذي علَّب لنا العصور الأدبية في كتب اتخذتها كليات الآداب في الجامعات العربية أناجيل، فافرح بالبهاء زهير فهو يؤرخ لك حقبة: هذا الرجل مات في السنة التي ماتت فيها الدولة العباسية. ماتت هي في

صفر ٦٥٦، ومات البهاء زهير في ذي القعدة ٦٥٦. مات وله خمس وسبعون سنة هجرية فقد ولد عام ٥٨١هـ.

كلمة إنصاف: شوقي ضيف علامة. ولن ترانا نصفه بالدكتور ـ وإن كانه ـ لأن آلاف الدكاترة الذين جاءوا بعده مرغوا اللقب في تراب التفاهة. هو شوقي ضيف فقط: المؤرخ الأدبي الفذ، الذي كان دارساً ومؤلفاً كبيراً. أتقن النحو وكتب في تيسيره وتجديده، وتبحر في علوم العربية وفي تاريخ أدبها، وله ذائقة طيبة، وكان جاداً، وأفدنا من كتبه كثيراً. لكننا لا نحب أن تطعم كليات الآداب العربية طلابها طعاماً واحداً، فلئن كان يمكن الإنسانَ أن يعيش على اللبن الحليب وحده، فطالب الآداب لا يعيش حياة فكرية نشطة على كتب شوقي ضيف وحدها.

حياة البهاء زهير (٥٨١ ـ ٦٥٦هـ) وأشياء أخرى

ولد في الحجاز، وههنا مشكلة له مع مؤرخي الأدب المصريين المعاصرين. فالرجل نشأ في قوص بالصعيد بين قنا والأقصر، فيها تربَّى وتعلم وقال الشعر ونبغ، وهو بهذا مصري الثقافة مصري الروح، ليس عندي في ذلك شك. وقد أساير إخوتي المصريين في أنه شرب روح الفكاهة في مصر، فالنكتة وعذوبة الروح وحلاوة الكلام لمصر، وهذا قدرٌ مقدَّر على غير المصريين من العرب، وعليهم أن يتدبروا أمرهم: ليغضب سائر العرب، وليسْعوا سعيهم في أن يساووا مصر في هذا، وليجتهد منهم من اجتهد في بث نفحاتٍ من غضبه وحسده وهو ينفي عن مصر ما هو ألصق بها من اسمها، ألا وهو روح النكتة، وليقل من شاء إن متانة اللغة وبلاغة القول موجودة في بلاد أخرى من بلاد العرب ـ وهذا حق ـ، فأما خفة الظل فهي لمصر. على أن أدباء مصر المعاصرين لم يُرضهم أن يكون البهاء زهير حجازياً نسباً ومولداً، قال شوقي ضيف إنه «يظن» أن البهاء مصري، وأنه ما ولد في الحجاز إلا لأن أهله كانوا هناك في الحج عندما ولدته أمه. واستشهد غيره ـ ومنهم مصطفى عبد الرازق ـ بأبيات للبهاء كثيرة لتثبيت مصريته.

هو مصري يا سادة. مصري بنشأته وبلغته، وفي شعره أكثر من دليل. ولا نلومكم على سعيكم في إثبات مصريته، فهو شاعر كبير، وهو مفخرة. وأنا نفسي رفعت رأسي وتبسَّمت رضا وزهواً عندما عرفت أن البهاء عاش في مدينتي

الصغيرة نابلس بفلسطين سنة أو أقل. لا بل صرت أنقب في شعره عن تعبير عامي يحسن أن أنسبه لمدينتي... سدى.

وفي دمشق قضى البهاء وقتاً، وفي القاهرة قضى سنوات. كان شاعرنا كاتباً وشبه وزير عند ملوك الأيوبيين، وكان الأيوبيون في زمنه يحكمون مصر والشام والحجاز واليمن وشمال العراق. وكانت هذه كلها بلاداً مفتوحاً بعضها على بعض، إلا ما كان يحتله الصليبيون بين حين وحين، وأمرهم عصرئذ إلى إدبار.

كانت «قوص» التي نشأ بها البهاء كرسي أدب وعلم، تأتي في ذلك الزمن بعد القاهرة فالإسكندرية (والحكم لشوقي ضيف، وأما الشيخ مصطفى عبد الرازق فجعل قوصَ ثانيةً بعد «الفسطاط» في ذلك الزمن). ولد البهاء زهير في مكة أو قريباً منها، وقال له أهله إن نسبَهم يرتفع إلى المهالبة (من الأزد)، ولن نخوض في نسب البهاء فلا نفع في هذا، ولم تكن مسألة النسب عند حكام البلاد من الأيوبيين ذات قيمة كبيرة، فهم أنفسهم غير عرب دماً، وإن نفى بعض متأدبي البيت الأيوبي ما قيل من أنهم أكراد، فقالوا بل نزلنا عند الأكراد فانتسبنا إليهم. نعم، ظل مثقفو ذلك العصر، حتى في مصر، يرون للنسب العربي بعض بريق، فصنعوا للأيوبيين نسباً قرشياً. على أن العصر في مجمله لم يكن عصراً يحتفل بالأنساب.

أحس البهاء وهو في الكُتَّاب بالزلزلة التي ألمت بالعالم الإسلامي بموت صلاح الدين الأيوبي، وكانت «زلزلة» كما يصفها القاضي الفاضل، وقد هزت الشام حيث مات صلاح الدين وارتجَّت لها مصر الأيوبية. كان للبهاء من العمر ثماني سنوات. وكان صلاح الدين قد قسم مملكته بين أبنائه قبل موته. كان ولده العزيز عثمان يحكم مصر حتى في حياة أبيه الذي يجاهد في سوريا، وظل يحكمها. ومات العزيز عثمان ولشاعرنا أربع عشرة سنة. وحكم بعده ابنه المنصور ناصر الدين سنة، ثم تغلب على حكم مصر وغير مصر الملك العادل أخو صلاح الدين، وهو شيخ أريب راح يلملم أجزاء المملكة من أبناء صلاح الدين. وظل يحكم حتى بلغ السابعة والسبعين من العمر، ومات ولشاعرنا أربع وثلاثون سنة.

البهاء الآن رجل مكتمل الرجولة، وشاعر رقيق يعرفه الناس. لقد أمضى زمناً وهو يقول الشعر في الغزل ويصف ملذات الحياة، ويمدح والي قوص

اللمطي، ولعله سافر إلى دمشق ومدح بها الملك العادل، ولكنه ظل على اتصاله باللمطي حاكم قوص القوي، فقد كانت قوص بعيدة عن القاهرة، وكان السلطان العادل بعيداً في أوقات كثيرة عن مصر يوسع مملكته في الشرق، فلا غرو والأمر كذلك أن يكون والي قوص ذا نفوذ كبير.

كان البهاء يمدح والي قوص رفعَ عتْبٍ، ثم ينصرف سريعاً إلى أوراقه يخط فيها تلك الأبيات الخفيفة في وصف لذاته. كان موظفاً في ديوان الوالي يكتب له، ولكنه لم يكن رجل سياسة. ولعل اللمطي مل من هذا الشاعر الذي لم يكن يهتم بوظيفته كثيراً، فصرفه من خدمته. فترك شاعرنا قوص والصعيد، وسكن القاهرة. وأثبتنا له في مختاراتنا بيتين باردين في الحنين إلى الصعيد لسببين: أولاً حتى نريك أن الشاعر غير سكنه وذهب إلى القاهرة، والثاني حتى يكون لصعيد مصر شيء من الشعر القديم.

والبهاء زهير قليل الارتباط بالمكان، فموطنه هو المكان الذي يجد فيه العيش الناعم.

في القاهرة اتصل بالأمراء ومدح منهم من مدح. وظل يكتب قصائده الخفيفة التي هي أحلى شعره.

اتصل البهاء بالأمير نجم الدين بضع سنين. ثم صار الأمير ملكاً، وعرفه التاريخ باسم الملك الصالح، ولعلك تزداد به معرفة إن علمت أنه زوج شجرة الدر.

كان الملك الصالح، ذات سنة، في نابلس فخانه عساكره بدمشق فانطلق إليها لكنه أخفق في استرجاعها وتحالف عليه بعض أبناء عمومته ثم حبسوه في قلعة الكرك، بجنوب المملكة الأردنية اليوم، حبساً خفيفاً ربما لحمايته من خصوم آخرين أرادوا الفتك به. وتخلف البهاء زهير في نابلس، بفلسطين المحتلة اليوم، مقيماً بها، غير مقبل على خدمة أحد وفاءً لمليكه المحبوس.

ثم تخلص الملك من حبسه بعد أشهر وعاد إلى مصر ملكاً في عام ٦٣٧، فالتحق به البهاء زهير وله من العمر ست وخمسون سنة، وكانت له عند الملك الصالح مكانة جليلة.

يصف لنا ابن خلكان صاحب الوفيات لقاءه الحميم بالبهاء، ويطنب في مدح أخلاقه، ويروي أنه توسط لكثيرين عند الملك، وما كان يتوسط إلا في

الخير. ويبدو أن البهاء جمع شعر الشباب بنفسه على الحروف (تخبرنا بذلك نسخة نقل عنها إدورد هنري بلمر في طبعته للديوان بقمبرج «المحمية» ـ كيمبردج كما نكتبها اليوم ـ عام ١٨٧٦) وأنشد البهاء ابن خلكان الكثير من أشعاره وأجازه في روايتها، ولكن ابن خلكان قال لنا إن شعر البهاء موجود بأيدي الناس في نسخ كثيرة. وهذا دليل على شهرة البهاء في حياته. ولعلنا، إذ نرى شاعرنا قد لزم الملك الصالح سنوات كثيرة ثم لم نر له مدحاً يذكر في مليكه، نستنتج أن شيئاً من شعره قد ضاع، وأن النسخة المعتمدة ـ نسخة شرف الدين الموصلي ـ تستند كثيراً إلى شعر البهاء في شبابه، ثم تضيف على هذا الشعر أشياء منثورة من شعره في كهولته وشيخوخته. لا نحقق ذلك، ونبقى في مساحة الظن، فنحن لسنا ممن يعالج المخطوطات، ونترك لأهل الفراغ من الأكاديميين هذه المسألة غير نادمين على قصائد مدح للبهاء قد تكون ضاعت، فقيمة البهاء في غزله وإخوانياته لا في مدحه.

هاجم الفرنسيون مصر في عام ٥٤٧ ه، بعث لويس التاسع، «أمين الأمة العيسوية» كما يصف نفسه، رسالة تهديد إلى الملك الصالح، فبعث الصالح رده بقلم كاتبه البهاء زهير، وننقل رسالة الردّ لأنها كل ما وصلنا من إنشاء البهاء (أثبتها المقريزي، وأخذناها عن مصطفى عبد الرازق):

(بسم اللهِ الرحمنِ الرَّحيم، وصلواته على سيدنا مُحَمَّدٍ رسول للَّهِ وآله وصحبه أجمعين. أما بعدُ، فإنه وصل كتابُك وأنت تهدِّد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما قُتِلَ مِنَّا قِرْنٌ إلَّا جَدَّدناه، ولا بَغَى علينا باغ إلا دَمَّرناه؛ فلو رأتْ عينُك أيها المغرورُ حدَّ سيوفنا، وعِظَم حُروبنا، وفَتْحَنا مِنْكُم الحصونَ والسواحلَ، وتخريبَنا ديار الأواخر منكم والأوائل؛ لكان لك أن تَعَضَّ على أناملك بالندَم، ولا بدَّ أن تَزِلَّ بك القدم، في يوم أَوَّلُه لنا وآخره عليك؛ فهنالك تسيء الظنون «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ»، فإذا قرأتَ كتابي هذا فتكون منه على أوَّلِ سورة النحل ﴿أَتَى أَمْرُ للهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وتكون على آخر سورة ص «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»، ونعود إلى قَوْلِهِ تَعالى وهو أصدقُ القائلين «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين»، وإلى قول الحكماء: «إن الباغي له مصرع» وبغيك يصرعك وإلى البلاء يسلمك، والسلام.)

ومات الملك الصالح في هذا العام نفسه، عام ٦٤٧، والحرب مع

الفرنسيين على قدم وساق، وتولت الأمر زوجته شجرة الدر مخفية موته أشهراً، وحكمت مصر ثمانين يوماً، ثم سلمت الحكم للمماليك، مماليك الملك الصالح. فغلبوا الفرنسيين وأسروا لويس التاسع. وبموت شجرة الدر عام ٦٥٥ ضرباً بالقباقيب، الأحذية الخشبية، دخلت مصر العصر المملوكي. وبعد سنة مات البهاء زهير، فلك أن تقول إنه بموت هذا الشاعر ماتت دولتان: العباسية في بغداد كما أسلفنا، والأيوبية بمصر. فهو آخر شاعر في العصر الذي كان فيه الملوك يقدرون الشعر العربي.

بعد البهاء زهير استمر الجهاد ضد الصليبيين حتى انتهى بانصرافهم مهزومين عن الشرق، وبعد قرنين ونصف من حكم المماليك في مصر والشام، جاء العثمانيون، ثم بعد ثلاثمئة سنة من العثمانيين جاء محمد علي ليحكم مصر، ولم يرجع للشعر العربي بهاؤه إلا في زمن خلفاء محمد علي، على يد محمود سامي البارودي.

إنما نذكر كل هذه التواريخ كي نرى كيف كان البهاء زهير آخر كبار الشعراء القدماء.

ونحن في اختياراتنا، التي ركزناها في اثنين أربعين شاعراً، رأينا أن الشعر العربي العمودي عاش يعلو ويهبط سبعمئة سنة من الجاهلية حتى انصرام الدولة العباسية، ثم نام سبعمئة سنة حتى جاء البارودي، ثم انبعث قوياً في مصر والشام والعراق خمسين سنة. ثم قرر العرب أن يتركوا الشعر العمودي، فعاش فيهم شعر التفعيلة خمسين سنة حلوة بل أقل، ثم جاءتنا قبل بضعة عقود قصيدة النثر. ورأينا في عملنا هذا ألّا نثقل أنفسنا بدرس الشعر العربي كله في كل عصوره وكل ألوانه، فليس لدينا الوقت، وليست لدينا القدرة على تذوق قصيدة النثر بما يراه أهلها تستحقه.

عملنا مقصور على الشعر العمودي، الذي هو كل قديمنا.

ونعود بك إلى البهاء زهير.

لا نجد في شعره شيئاً ذا بال عما كانت تمر به الأمة الإسلامية في عصره من صراعات كبرى، ففي زمنه كانت القدس تروح وتجيء بين الصليبيين والأيوبيين، وفي عصره كانت الدولة الأيوبية تنحدر سريعاً من القوة إلى الانهيار، وشهد شاعرنا مجالس ملوكها ووزرائها الأقوياء، وعرف عن السياسة

وعن مؤامرات القصور الكثير، لكن هذا لم يجد طريقه إلى شعره. نراه يهنئ بنصرٍ تهنئة رسمية، ويمدح الكبراء مدحاً تقليدياً. ولا يبث حرارة قلبه إلا في ذلك الشعر الخفيف الذي يصف فيه معاشرته لإخوانه، وصحبتَه للكأس والمرأة، وحرصه على العيش الناعم. ولمن أراد شهادة شعرية على ذلك العصر فلعله يجدها عند ابن مطروح صديق البهاء منذ الصبا وحتى الفراق الأخير.

لقد صرف الملك الصالح في آخر عمره البهاء زهيراً من خدمته، فعاش في القاهرة ثلاث عشرة سنة كاسف البال، فقيراً، فباع كتبه وبعض أثاث بيته. ومات بالوباء الذي حل بمصر عام ٦٥٦.

لغز بيت الشعر العربي

أسكن في فندق في الدور الثالث والثلاثين، وأرى من غرفتي المدينة كلها، أطل عليها ليس من نافذة بل من واجهة كاملة من الأرض إلى السقف، كلها من زجاج. يخالجني شعور وأنا أتفحص شوارع المدينة تحتي بأنني أملك رؤية استراتيجية، فأقعد مقابل هذه الواجهة الزجاجية وأتأمل شؤون العالم. غير أنني أدرك أن لا طعام لي ولا معيشة دون أن أهبط إلى الدور الأرضي كي أكون مع الناس.

هبطت اليوم، وتغديت وعاشرت الناس، ثم رجعت إلى غرفتي فوجدتها تحت الترتيب. وصرفني الخادم قائلاً إن الترتيب يستغرق نصف ساعة. ولو عرفتَني كيف أنام، وكيف أعجن الشراشف والوسائد عجناً لما عجِبت من النصف ساعة، بل لقد يساورك الشك في أن المسكين يكتفي بساعة حتى يخلِّص بعض الشراشف من بعض.

نزلت على حكمه، ونزلت إلى بهو الفندق. وأحسست وأنا في المصعد بالندم لأنني لم أصطحب كتاباً. غير أنني خجلت أن أعود، فلا حاجة بالخادم وهو يعالج سريري إلى أن يرى وجهي مرة أخرى.

في بهو الفندق اكتشفت أنني أحمل قلماً. فتناولت منشوراً دعائياً يصرخ عبر صفحاته بأن هذا الفندق خير ما خلق الله من فنادق. وقلبت صفحاته حتى عثرت على بياض. وكتبت أبياتاً.

كنت أعالج في هذا الأوان ديوان البهاء زهير. فقلت لنفسي: أكتب قصيدة كما كان البهاء زهير يكتب القصائد. ولغة الرجل كما ترى قريبة جداً من

فصحانا اليوم. كنت قبل سويعات أتفكر في هذا السهل الممتنع الذي يصنعه البهاء زهير. وأقول لك: هو سهل فعلاً، وممتنع فعلاً على من يحاوله. وسترى كيف امتنع علي.

لكنني نظرت في نادرتين من نوادر الموسيقى الكلاسيكية:

قال موتسارت لنفسه: هيا يا فولفغانغ أماديوس إلى بعض اللهو. فلأكتب قطعة ساخرة أقلد فيها موسيقيي القرى الذين يعزفون في الأسواق ألحانهم الساذجة، ولأروِّح عن النفس قليلاً، بعيداً عن السيمفونيات. وألف موتسارت ما سماه «موسيقى ليلية صغيرة». وأحبها الناس، بل أُولعوا بها. وبها بدأ المخرج الأميركي فلمه أماديوس، باعتبارها النغم الذي ليس هناك في فيينا إنسان إلا يعرفه ويعرف أنه لموتسارت.

والنادرة الثانية: قال سيرغيه بروكوفييف لنفسه أريد أن أكتب موسيقى بالقلم والورقة، ودون الاستعانة بالبيانو. ولأنني تعمقت مؤخراً في موسيقى هايدن العتيق، فليكن هذا التمرين عبارة عن تقليد لأسلوب هايدن. وكتب بروكوفييف سيمفونيته أثناء الإجازة، وبدون بيانو. وشاء لها الناس أن تكون أحد أشهر أعماله.

وقلت لنفسي، في هذه النصف ساعة التي أجبرت على قضائها في بهو الفندق بعيداً عن غرفتي: هيا اكتب قصيدة على نمط بهاء الدين زهير محاكاةً. وفعلت. وفي نصف ساعة.

ثم إنني تأملت ما كان يجري في عقلي وأنا أكتب. وقلت سأكتب لك القصيدة وسأكتب عما جرى في عقلي بقدر ما أستطيع أن أتذكر. فلعل هذا ينير بعض جوانب هذا اللغز: لغز بيت الشعر.

بدأت بفكرة: الشكّاء الذي يريدك أن تحمل همومه على ظهرك. وكتبت:

وشـكّـاءٍ وبـيـن يـديـه كـيـس　　　مـن الأسـمـنـت جـاء بـه إلـيـنـا

تعليق: كنت أريد تصويره يحمل كيس الأسمنت على ذراعيه ولم يسمح لي الوزن، ولم أكن مسروراً بـ «جاء به إلينا» لكنني كنت حريصاً على ضمير الجمع لأن هذا يفتح باب القوافي. وتعبير «كيس من الأسمنت» رأيت فيه بلادة، وخير منه «كيس أسمنت»، ولكن هذا التوى عليّ. أرأيت ما في البيت من مشكلات!

يـنـوء بـه ذراعـاً واصـطـبـاراً　　　ويـرفـعـه لـيـحـمـلَـه عـلـيـنـا

تعليق: جئت ههنا بالذراع تعويضاً عن فقدها في البيت السابق. وجعلت الشكاء متعباً من الكيس، لكن ليس تعباً جسمياً فحسب، لذا قلت: اصطباراً. والشطر الثاني جاء طبيعياً.

رويدك! فوق ظهري حمل بغل   وأُذْني أُثقِلَتْ طَنّاً وزَنَّا

تعليق: عدلت إلى ضمير المفرد. لا بأس، كانوا يصنعون ذلك كثيراً. بيت مصنوع، وفيه خلخلة كثيرة.

ويقسم أنه خل محب   يُتلفنُ كي علينا يَطمئنَّا

تعليق: تخلصت من صورة حامل كيس الأسمنت، ورويت ما حدث حقيقة وهو أنه يتلفن، ويطيل الكلام. رغم التقديم والتأخير في الشطر الثاني فهو طبيعي في سياقته. لكن الشطر الأول بحاجة إلى شغل: الشطر الأول «ويقسم أنه خل محب» ما هو إلا تمهيد للشطر الثاني.

ويغرينا بأن نشكو كأنَّا   غفلنا عن تحايله.. كأنَّا

تعليق: غفلنا يجب أن تكون نغفل، ولكن الوزن حال دونها. و«سنغفل» تقوم بالوزن، ولكننا لا نريد المستقبل بل الحاضر. الماضي حل وسط. ومعنى البيت لا يظهر بوضوح: فالشكاء يشجعنا على الشكوى، وهذه حيلة منه كي يأخذ رخصةً ويشكو بدوره كثيراً.

ولو كنَّا شكونا كان ألقى   علينا الموجعات بما شكونا

تعليق: بيت نثري بغرض استكمال الفكرة.

نلاينه لنصرفه، ونشقى   أليس يُعَدُّ بعض اللين جُبنا

تعليق: «يعد» لا لزوم لها إلا إقامة الوزن.

أرى الشكَّاء حل بنا ثقيلاً   فخفف يا ثقيل، وحُلَّ عنا

تعليق: في هذا البيت صناعة من عدة أوجه: فتعبير «حل عنا» العامي هو ما بُنيَ عليه البيت، وقد جئنا بتعبير «حل بنا» الفصيح تمهيداً ولإشعار القارئ بلذة الجناس. وتكرار «ثقيل» مقصود.

الآن أحاول أن أدخل في عقل نفسي أكثر. لو نثرت هذه القصيدة فسوف تصبح بلا شك أبلغ، وأقصر. ولكنها منظومةً أحلى لوجود الإيقاع وترقب

القافية. . لكن ليس لهذا فقط. القارئ ـ وبدون أن يشعر ـ يتعقب العملية التي تحدث في عقل الشاعر، ويرى كيف خرج من مآزقه التي فرضها عليه الوزن والقافية. وفي هذا لذة مضاعفة. . لذة مشاهدة الشاعر يفكك قيوده، ولذة الفرح باكتشاف الشاعر أسرعَ وأقصر طريقة للافتكاك.

المنظر مرئياً من جانب الشاعر مختلف.

الشاعر يمكنه ـ مثلما فعلت ـ أن يضع الفكرة منثورة في عقله، وأن يصنع القصيدة صناعة. وهذا ليس رديئاً جداً. فهو في سياق الصياغة تتدفق على عقله أساليب اللغة المختلفة التي ملأت وجدانه، ويتخير منها، وقد تمر به لحظات يجد فيها الكلام يأتي هيناً. وهو يكثف ما استطاع التكثيف، ويحمل الكلمة الواحدة من المعنى ما يجعلها تتوهج. لكن المتنبي عندما كتب قصيدته «واحرَّ قلباه» سلك طريقاً آخر. فقد كان متألماً من انصراف سيده سيف الدولة عنه. كان يعيش أزمة نفسية، فالحاسدون كثر، وهو مثل طفل مدلل يريد أن يحصل على كل الاهتمام. يريد أن يعاتب سيده، ويريد أن يبكي، وأن يرفع صوته عالياً بأنه يستحق معاملة أفضل، وأنه عبقري. كل هذه المشاعر جعلته يتدفق. وكان له من مخزونه اللغوي ما أعانه على أن يجعل القصيدة صرخة واحدة قوية متماسكة.

هذا لا يتأتّى للشاعر كثيراً. ولا تثريب على شاعر لجأ إلى الصناعة.

لغز بيت الشعر العربي يتمثل في القيود المفروضة على الشاعر. فالقصيدة عندما تكتمل تكون حملت في كلماتها القليلة (قل مئتي كلمة) آلاف الرموز. شاهدنا في تلك الكلمات القليلة التي نظمناها الخيارات الكثيرة التي كان يمكن أن يسلكها الشاعر ولم يفعل، ورأينا كيف تلتوي عليه الأفكار ثم يعود لتدارك الأمر، ورأيناه يصارع القافية، كنا نسعد بحصوله على قافية رنانة، ونغفر له قافية قلقة، ونؤاحذه على قافية لم تقعد في مكانها.

لا نتعب أنفسنا كي نصلح له قصيدته، ولكننا نحس بكل ما كان يعتلج في صدره.

فإذا نثرنا فكرتنا فما الذي نحصل عليه. نحصل على الفكرة صافية. ونحصل على شعور الكاتب صافياً حراً. لو نثر المتنبي قصيدته «واحر قلباه»

لكان لنا من ذلك قطعة جميلة. ولكنها لن تكون حارَّة بنفس القدر. ذلك أننا رأينا الشاعر في النسخة المنظومة يعالج أزمة نفسية قاسية وهو في الوقت نفسه يعالج تراكيب اللغة، ويعاني الوزن والقافية.. رأيناه يحارب على عدة جبهات. كان صراعه المجلوب وغير الطبيعي مع اللغة والوزن والقافية بساطاً من العشب الأخضر يجعل أزاهير القصيدة تبدو أجمل. وتكبيله نفسه بقيود الوزن والقافية يجعل انفلاتاته أقوى. وفي النسخة المنثورة ليس يوجد كل هذا الصراع، بل المعنى مبسوط بوضوح، وثمة صراع مع اللغة ومفرداتها، لكنه أقل بكثير كمَّاً، وهو لون واحد من الصراع لا ألوان.

الصناعة لا تنتج شعراً قوياً. والشعر القوي لمعات برق تنطلق من اللاوعي وتأتي متفرقة، ولا بد لها من سياق. هي كالألماسات التي تتألق عندما تكون معروضة على مخمل أحمر. فالشعر هو الألماس، والأبيات المصنوعة هي المخمل الأحمر، وقيمة الشعر بالقياس إلى الأبيات المصنوعة كقيمة الألماس بالقياس إلى المخمل الأحمر.

ويستحب من الشاعر أن يتجنب كلمات مرذولة تجعل السامع يضحك وتقوض سحر الشعر.. من ذلك طبعاً كلمة الأسمنت.

كلمة عن التسجيلات الصوتية

هذه ساعات مسجلة فيها معظم مختارات كتابي هذا والكتابين اللذين سبقاه في هذه السلسلة الخماسية. وقد أرفقت بكل كتاب مقروءاته. رضيت عن نفسي في هذه التسجيلات من ناحية، وعتبت على نفسي من ناحية أخرى. فأما الرضا فلأنني شحنت صوتي بالمعنى، حتى ليكاد البيت يشرح نفسه. وأما العتب فلأنني كنت على شيء من الكسل فلم أراجع التسجيلات. كنت أحشر نفسي في الاستديو ساعات أقرأ فيها بلا انقطاع، ثم أوصي مهندس الصوت ألا يضع على التسجيل أي مؤثرات، ولا حتى التعديلات التقنية من خفض ورفع للمستوى. فلا بد أن يكون فرط مني في كل ساعة أو ساعتين غلط. كنت أحب لو أنني ملكت الوقت كي أراجع ما قرأت، ولكن جرى الأمر على غير ذلك. واعتزازي بتلك القراءات غير قليل.

قد أسرعت في إنجاز هذه المختارات وشرحها حتى أقرأ الأشعار قبل أن

تذهب الأسنان وقبل أن تداهم صوتي الشيخوخة العالية. فلئن كان صوت الشيخ موحياً بالثقة أكثر من صوت الشاب فإنه يعاني ما يعاني من اضطراب مخارج الحروف ومن البطء. ومخارج حروفي ليست أحسن المخارج على كل حال.. لكنني قرأت ما قرأت لك، قرأت وأنا أحس بك، قرأت وأنا مقبل عليك أريدك أن تستمتع بالشعر معي.

سجل لي صوتي محمد ماضي في استديو مركز التدريب الإعلامي لشبكة الجزيرة في قطر، خلا المقروء من المتنبي فقد سجله مهند قعدان قبل نحو ثماني سنوات في استديو مركز تطوير الإعلام في جامعة بيرزيت في فلسطين. ولم يتقاض أي من المركزين ولا أي من المهندسين أجراً، فلهما ولهما الشكر الجزيل.

والآن إلى ما اخترته من ديوان البهاء زهير.

١ لازمني كاسمي

وجــاهــلٍ طــالَ بــه عــنــائــي
لازَمــنــي وذاكَ مِــن شــقــائــي
كــأنَّــه الأشْــهَــرُ مِــن أَســمــائــي
أقــبــحُ مِــن وعــدٍ بِــلا وفــاءِ
أثــقــلُ مِــن شــمــاتــةِ الأعــداءِ

٢ الرضا بالإياب

وكتب لصديق له غرقت السفينة بتجارته:

لا تَعتَبِ الدهرَ في شيءٍ رماكَ به ... إنِ استردَّ فقِدْماً طالما وَهَبا
حاسِبْ زمانَكَ في حَاليْ تصرُّفِه ... تجدْهُ أعطاكَ أَضعافَ الذي سَلبا
واللَّهُ قد جعلَ الأيَّامَ دائرةً ... فلا تَرى راحةً تَبقَى ولا تَعَبا
ورأسُ مالِكَ، وَهْيَ الروحُ، قد سَلِمَتْ ... لا تأسفَنَّ لِشيءٍ بعدَهَا ذَهَبا
ما كنتَ أولَ مَمْنُوٍّ بِحادثةٍ ... كذا مضى الدهرُ لا بِدْعاً ولا عَجَبا

ممنو: مُنيَ بالأمر ونكب به

وربَّ مالٍ نما من بعدِ مَرْزِئةٍ أَمَا ترى الشمعَ بعد القَطِّ مُلتهبا

المرزِئة: المصيبة. القط: قطع رأس ذُبالة الشمعة. هذه الأبيات الستة، التي يبلغ عدد كلماتها ٦٨ كلمة، ترجمها إلى الإنجليزية إدورد هنري بلمر في قصيدة موزونة في ١٠١ من الكلمات. وبلمر هذا شيطان من الشياطين. ويستحق أن أقص عليك طرفاً من قصته، فهو محقق ديوان البهاء زهير وناشره بالعربية ومترجمه كاملاً إلى الإنجليزية. لقد قرأت مقدمته للنسخة العربية من شعر البهاء زهير، فوجدت فيها قلماً ينشئ بالعربية كأنه من فحول كتابها. لم أجد كلمة أو جملة أستشف منها أن الكاتب لم ينشأ في حضن اللغة العربية. وراجعت سيرته فإذا هو قد ترجم القرآن ترجمة مشهورة طبعت مراراً. وإذا هو قد صنع كتاباً للنحو العربي، وقاموساً للغة الفارسية، وله كتب عن اللغة الهندستانية، والرجل يعرف التركية واليونانية واللاتينية والإيطالية. قرأت بعض ما ترجمه من قصائد البهاء زهير، فكدت أحسبه أداها بالإنجليزية بأبرع مما أداها شاعرنا بالعربية، لولا أنه اعتذر كثيراً في مقدمته من أن كل ما اصطنعه من أساليب لنقل حلاوة شعر البهاء لن يوفي البهاء حقه، وفي مقدمتيه العربية والإنجليزية لشعر البهاء قدم لنا بلمر ثمرة خبرته في ترجمة الشعر، وكدنا ـ ونحن ممن لا يؤمنون بأن الشعر يترجم ـ نؤمن بأن الشعر يترجم. بلمر احترم الثقافة العربية، وكتب عن القرآن وبلاغته كتابة ترضي المسلم التقي. وله كتب في التاريخ وفي وصف رحلاته في مصر وفلسطين. لا تكفي ثلاثمئة سنة في نظري حتى يجمع امرؤ كل هذه المعرفة وكل هذا الإنتاج، فإذا عرفت أن بلمر عاش اثنين وأربعين سنة فقط فقد علمت أن الله يعطي بلا حساب. وانتهى بلمر قتيلاً على يد بدو سيناء وهو يخدم أمته في تحريض البدو على عرابي وثورته. وأعفي نفسي من شتمه على نشاطه الاستعماري ذاك فقد كال له عبد الرحمن بدوي ما يستحق من الشتم. على أن ما كتبه بدوي في «موسوعة المستشرقين» عن بلمر فيه استقصاء طيب، وفيه مدح للرجل بما يستحقه، ففيلسوفنا فصَل فصلاً طيباً بين انغماس بلمر في السياسة الاستعمارية وبين خدمته العلم

٣ بالمناسبة، كيف قلبي؟

يا صاحبي فيما ينو بُ، وأينَ أينَ هناك صَحْبي

فيما ينوب: فيما يأتي من النوائب والمصائب

لو كنتُ لم أعرِفْ سِوا كَ من الأنامِ لَكانَ حسْبي

إنـي ادَّخرتُكَ للزما نِ، وما عَرَا من كُلِّ خَطْبِ

عرا: طرأ، خطب: أزمة

قلبي لديكَ، فكيفَ أنـ تَ على البِعادِ، وكيف قلبي؟

٤ أنا بالعاذل ألعب

أنَــا فــيــمــا أنَــا فــيــهِ وعَــذُولــي يَــتَــعَــتَّــبْ
جَــهِــلَ الــعــاذلُ أمــري أنــا بِــالــعــاذلِ ألــعــبْ
يــا حــبــيــبــي ونــديــمــي والــلــيــالــي تــتــقــلَّــبْ
هــاتِ فــيــمــا نــحــنُ فــيــهِ ودَعِ الــعــاذِلَ يَــتْــعَــبْ

٥ رسالة من المجد

إلى كم مُقامي في بلادِ مَعَاشرٍ تَساوَى بِها آسَادُها وكلابُها
وقَلَّدْتُها الدُّرَّ الثمينَ، وإنه لَعَمْرُكَ شيءٌ أنكرَتْهُ رِقابُها

وضعت عقود اللؤلؤ في رقاب الكلاب، فلم تكن لائقة بها

وما ضاقتِ الدنيا على ذي مُروءةٍ ولا هِيَ مَسدودٌ عَلَيَّ رِحابُها
فقد بَشَّرتْني بالسعادةِ هِمَّتي وجاءَ من العلياءِ نَحْوِي كتابُها

السعادة: السعد والحظ الحسن، همتي: طموحي

٦ واقفاً بالباب

كتب إلى الوزير فخر الدين أبي الفتح عبد الله ابن قاضي داريا، يشكو إليه سوء أدب بعض غلمانه:

سِواكَ الذي وُدِّي لديه مُضَيَّعٌ وغيرُكَ مَنْ سَعيِي إليه مُخيَّبُ
أُرَدُّ بِرَدِّ البابِ إن جئتُ زائراً فيا ليتَ شِعري أينَ أهلٌ ومَرْحَبُ؟
ولستُ بأَوقاتِ الزيارةِ جاهلاً ولا أنا مِمَّنْ قربُهُ يُتَجَنَّبُ
وقد ذَكروا في خادِمِ القومِ أنه بما كان مِن أخلاقِهِمْ يتهذَّبُ
فهلَّا سَرَتْ منكَ اللطافةُ فيهِمُ وأَعْتَدْتَهُمْ آدابَها فتأدَّبُوا

أعتدتهم: زوَّدتهم

وتصعُبُ عندي حالةٌ ما أَلِفْتُها على أن بُعدي عن جَنابِكَ أصعبُ
وأُمسِكُ نفسي عن لِقائِكَ كارهاً «أُغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلَبُ»
وأَغضَبُ للفضْلِ الذي أنتَ ربُّهُ، لأَجلِكَ، لا أَنّي لِنفسِيَ أغضَبُ

٧ الغصن وحبيب الغصن

أُحــدِّثُــه إذا غَــفَــلَ الــرقــيــبُ ... وأسـألُـه الـجـوابَ فـلا يُـجـيـبُ
وأَطـمـعُ حـيـن أَعـطِـفُـهُ عـسـاهُ ... يـلـيـنُ، لأنـه غـصـنٌ رطـيـبُ

أعطفه: أجعله يعطف، ومعناها أيضاً: أثنيه

فـيـا مـولايَ قُـلْ لـي أَيَّ ذنـبٍ ... جـنـيـتُ، لـعـلَّـنـي مـنـهُ أتـوبُ
حـبـيـبـي فـيـكَ أَعـدائـي ضُـروبٌ: ... حَـسـودٌ، عـاذلٌ، واشٍ، رقـيـبُ

٨ غاية الترحيب برسول الحبيب

رسولَ الرِّضَا أهلاً وسهلاً ومرحبا ... حديثُكَ ما أحلاهُ عندي وأطيَبا
ويا مُهْدِياً مِمَّنْ أحِبُّ سلامَهُ ... عليكَ سلامُ اللَّهِ ما هَبَّتِ الصَّبا
ويا مُحسِناً قد جاءَ مِنْ عندِ محسنٍ ... ويا طيِّباً أهدَى من القولِ طَيِّبا
لقد سَرني ما قد سمعتُ مِنَ الرِّضَا ... وقد هَزَّني ذاكَ الحديثُ وأَطْرَبا

٩ محميَّة غير طبيعية

كَلِفْتُ بشمسٍ لا تَرى الشمسُ وجهَها ... أُراقبُ فيها ألفَ عينٍ وحاجبِ

الشمس حبيبته، ولا ترى شمس السماء وجهها لأنها محجوبة. وهو يراقب إذ يلاحقها ألف عين (جاسوس)، وحاجب (حارس).. والتورية واضحة

ممنَّعَةٍ بالخيلِ والقومِ والقَنا ... وتضعُفُ كُتْبي عن زِحامِ الكتائِبِ
ولو حَمَلَتْ عنِّي الرياحُ تحيةً ... لَمَا نَفَذَتْ بين القَنا والقَواضِبِ

القنا: الرماح، القواضب: السيوف

١٠ شيب مبكر

وغانِيَةٍ لَمَّا رأتنيَ أَعْوَلَتْ ... وقالتْ: عجيبٌ يا زهيرُ عجيبُ
رأَتْ شَعَراتٍ لُحْنَ بيضاً بِمَفْرِقي ... وغُصْنِيَ من ماءِ الشبابِ رطيبُ
وما شِبْتُ إلَّا من وقائِعِ هجرِها ... على أن عهدي بالصِّبا لَقَريبُ
عرفتُ الهوى من قبلِ أن يُعرَفَ الهوى ... وما زال لي في الغيبِ منه نصيبُ
وَفَى لِيَ مَنْ أهوى وأَنعَمَ بالرضا ... يموتُ بِغيظٍ عاذِلٌ ورقيبُ

فـلا عـيـشَ إلَّا أن تُـدَارَ مُـدَامَـةٌ ولا أُنْـسَ إلَّا أن يَـزُورَ حـبـيـبُ
وإنِّي لَيَدعـونِي الـهوى فأُجيبُه وإنِّـي لَـيَـثْنِينـي الـتُّقَـى فَأُنـيبُ

أنيب: أرجع عن الغَيّ

١١ في ضوء الشيب

رحـلَ الـشـبـابُ ولـم أنـلْ مِـنْ لـذةٍ فـيـهِ نَـصـيـبـي
يـا طـيِـبَـهُ لـو لـم يـكـنْ مَـلأَ الـصـحـائِـفَ بـالـذنـوبِ

صحائف المرء: كتابه الذي يلقى به الله يوم القيامة، وفيه عمله

أرســلــتُ دمـعِـيَ خـلـفَـهُ فـعـسـاهُ يـرجِـعُ مـن قـريـبِ
هـيـهـاتَ لا والـلَّـهِ، مـا هُـوَ بـالـسـمـيـعِ ولا الـمـجـيـبِ
فـقـد انـجَـلَـى لـيـلُ الـشـبـا بِ وقـد بـدا صُـبْـحُ الـمـشـيـبِ
ورأيــتُ فـــي أَنــوَارِهِ مـا كـان يَـخـفَـى مِـنْ عُـيـوبـي

١٢ ترحيب بالشيب

سلامٌ على عهدِ الشَّبيبةِ والصِّبا وأهلاً وسهلاً بالمشيبِ ومرحبَا
ويـا راحِلاً عنِّي رحلْتَ مُكَرَّماً ويـا نـازلاً عـنـدي نـزلـتَ مُـقَـرَّبَـا

المقرب: المكرَّم، وكان الملك إذا أراد تكريم أحد أجلسه قريباً منه

١٣ حاضراً غائباً.. حبيب

إن غــبـتَ عــنِّـيَ أو حَـضَـر تَ فـلـسـتَ عـن عـيـنـي تَـغـيـبُ
لــكـــنْ أرى عَـيــشــيِ إذا مـا غـبـتَ عـنِّـي لا يَـطـيـبُ
وعـلـى كِـلا الـحـالَـيْـنِ مِـنْـ ـكَ، فـأنـتَ والـلَّـهِ الـحـبـيـبُ

١٤ صحراء عليها باب

قال في امرأة، وطلب منه صاحب أن ينظم في هذا المعنى:

كـم ذا الـتـصـاغُـرُ والـتَّـصـابـي غـالَـطْـتِ نـفـسَـكِ فـي الـحـسـابِ
لــم يَـبــقَ فـيــكِ بَـقـيَّـةٌ إلَّا الـتَّـعَـلُّـلُ بـالـخِـضـابِ

التعلل: التهوين على النفس، الخضاب: صباغ الشعر من حناء وغيره

لا أَقْــتَــضِـيــكِ مـــودَّةً   رُفِـعَ الـخَـراجُ عـنِ الـخَـرابِ

لا أطلب منك أن تبذلي لي مودة، فهذا غير مفروض عليك مثلما أن الخراج غير مفروض على الأرض الخراب غير المزروعة

مــا الـعـيـشُ إلَّا فـي الـشـبـا   بِ وفـي مُـعـاشَـرَةِ الـشـبـابِ
ولـقـد رأَيْـتُـكِ فـي الـنِّـقَـا   بِ، وذاكَ عـنـوانُ الـكـتـابِ
وسـألـتُ عـمَّـا تـحـتَـه   قَـالـوا: عـظـامٌ فـي جِـرابِ
وسـمـعـتُ عـنـكِ فـضـائـحـاً   سـارتْ بـهـا أَيـدي الـرِّكَـابِ
هـذا، وكـم مـن وَقْـفَـةٍ   لـكِ فـي الأَزِقَّـةِ لِـلْـعِـتـابِ
والـيـومَ قـالـوا: حُـرَّةٌ،   سِـتُّ الـحَـرائِـرِ فـي الـحِـجَـابِ
يـا هـذِهِ ذهـبَ الـصِّـبـا   فـإلـى مـتـى هـذا الـتَّـصـابـي
مـا أنـتِ مِـمَّـنْ يُـرْتَـجَـى   لا في الـخُـطـوبِ ولا الـخِـطـابِ

لعل أيليا أبو ماضي قرأ قصيدة البهاء هذه قبل أن يكتب قصيدة في هجاء العجائز الأميركيات. نقول: ويل للمرأة الجميلة من ذئاب الرجال، وويل لها إن أسنت، فهم ينبذونها نبذاً. يريدونها لعبة. قال الأجنبي: «البنت تحت الحادية والعشرين يحميها القانون، والمرأة فوق الخامسة والستين تحميها الطبيعة، وهي بينهما صيد حلال»

١٥ حبذا تلك الزيارة

وزائـرةٍ زارتْ وقـد هـجـمَ الـدُّجَـى   وكـنـتُ لِـمـيـعـادٍ لَـهـا مُـتَـرقِّـبَـا
فـمَـا راعـنـي إلَّا رَخـيـمُ كـلامِـهـا   تقولُ حبيبي، قلتُ أهلاً ومَرحبا
ولـم تَـرَ عـيـنـي لـيـلـةً مثلَ لـيـلـتـي   فيا سَهَرِي فيها لقد كنتَ طَيِّبا

١٦ لها جفون ما التقت

يـا مَـنْ لِـعـيـنٍ أَرِقَـتْ   أَوحَـشَـهـا مَـنْ عَـشِـقَـتْ
مُـذْ فـارقَـتْ أحـبـابَـهـا   لَـهـا جُـفُـونٌ مـا الـتَـقَـتْ
وغَـادةٍ كـأنَّـهـا   شـمـسُ الـضُّـحَـى تـألَّـقَـتْ
كَـمْ شَـرِقَـتْ بِـدمـعِـهـا   عـيـنـيَ لَـمَّـا أَشْـرَقَـتْ

١٧ تيتي تيتي

قال من الدوبيت، وهو وزن مستحدث لم يعرفه العرب قديماً:

قد راحَ رَسُولي ومِثْلَمَا راحَ أتَى   بـاللّهِ متى نَقَضْتُمُ العهدَ متى
مـا ذا ظَنِّي بِكُمْ ومَا ذَا أَملي   قد أدركَ فِيَّ سُؤْلَهُ مَنْ شَمِتَا

ذا: هذا، سؤله: أمنيته

١٨ تفتيش النسيم

قال يمدح الأمير اللمطي ويهنئه:

صَفْحاً لِصَرْفِ الدهرِ عن هَفَواتِه   إذْ كان هذا اليومُ مِنْ حَسَناتِه
إن كنتَ غِبتَ عنِ البلادِ فلمْ تَغِبْ   عن خاطري، إذْ أنتَ مِن خَطَراتِه
لو كنتَ فتَّشْتَ النَّسيمَ وجدتَه   ودُعاؤُنا يأتيكَ في طَيَّاتِه
يُؤتِي المنايا والمُنَى كَاللَّيْثِ في   غاباتِه والغيثِ في غَبَّاتِه

الأمير يؤتي (يقدِّم) للأعداء المنايا (الموت) وللأولياء المنى، فهو كالليث، وكالغيث (المطر) وفي غباته (جيئاته المتفرقات)

يا مَنْسِكَ المعروفِ أحْرَمَ مَنطِقي   زمناً وقد لَبَّاكَ مِنْ ميقَاتِه

الأمير منسك المعروف (المكان المقدس الذي ينعم على الناس)، والشاعر قد أحرم منطقه (لبس كلامه ملابس الإحرام استعداداً لتلقي النعم)، وقد لبى، وفي الوقت المناسب، مثل تلبية الحجيج

هذا زهيرُكَ لا زُهيرُ مُزَيْنَةٍ   وافاكَ لا هَرِمَاً على عِلَّاتِه

زهير مزينة: زهير بن أبي سلمى المزني، وكان يمدح هرم بن سنان، وقال فيه «إن تلق يوماً على علاته هرماً/ تلق السماحة منه والندى خلقا». على علاته (رغم ما ينتابه من ضيق يد)

دَعْهُ وحَوْلِيَّاتِه ثم استَمِعْ   لِزهيرِ عصرِكَ حُسْنَ لَيْلِيَّاتِه

الحوليات: قصائد زهير التي كان ينفق في كل منها حولاً (سنة) ينقحها قبل أن يذيعها في الناس، و«ليليات» البهاء زهير القصائد التي قال الواحدة منها في ليلة واحدة اقتداراً على الشعر، فالقصيدة ابنة ليلتها كما يقولون

لو أُنْشِدَتْ في آلِ جَفْنَةَ أَضْرَبُوا   عن ذِكرِ حَسَّانٍ وعن جَفَنَاتِه

لو أنشدتُ قصيدتي هذه عند آل جفنة بالشام الذين كان يمدحهم حسان بن ثابت لأضربوا عنه (انصرفوا عنه) وعن جفناته (قصاعه، صِحَاف الطعام)، وحسان قال في بيت له مشهور: «لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى/ وأسيافنا يقطرن من نجدة دما»

١٩ الخليفة خادماً

ولـي لَـيْـلَـةٌ طُـرِقَـتْ بِـالـسُّـعـودِ   فَـحَـدِّثْ بـمـا شئـتَ عـن لـيـلـتـي
فـقـضَّـيْـتُـهـا فـي الـهـوى لـيـلـةً   إخـالُ الـخَـلـيـفـةَ فـي خـدمـتـي

٢٠ التفات قبل الفوات

جاءتْ تُـوَدِّعُـني والـدَّمعُ يغلبُـها   يومَ الرحيلِ وحَاديِ البَيْنِ مُنْصَلِتُ

حادي البين: سائق الأبل الذي يؤذن بالفراق، منصلت: مسرع

وأَقبلتْ وَهْيَ في خوفٍ وفي دَهَشٍ   مثلَ الغزالِ من الأَشْرَاكِ يَنفَلِتُ
فلم تُطِقْ خيفَةَ الوَاشي تُوَدِّعُني   وَيْحَ الوُشَاةِ لقد قالوا وقد شَمِتُوا
وقفتُ أَبْكي وراحتْ وَهْيَ بَاكيةٌ   تسيرُ عنِّي قليلاً ثم تلتَفِتُ

٢١ مبعوث نبياً للعشق ومبعوث بعد الموت

أَنَا في الحُبِّ صاحبُ المعجزاتِ   جئتُ للعاشِقينَ بِالآياتِ

البهاء زهير أخذ هذا الجوَّ من ابن الفارض، ومنهما أخذ نزار قباني

كانَ أهلُ الغرامِ قَبْلِيَ أُمِّيْـ ـ   ـينَ حتى تَلَقَّنوُا كَلِماتي

هذا روح نزار قباني

فأَنا اليومَ صَاحِبُ الوقتِ حَقّاً   والمُحِبُّونَ شيعَتي ودُعَاتي

صاحب الوقت: النبي

ضُرِبَتْ فيهِمُ طُبولي وسارتْ   خَافِقاتٍ عليْهِمُ رَاياتي

في طفولة البهاء الباكرة تحولت مصر عن التشيع إلى التسنن على يد صلاح الدين الأيوبي، وكان للمتصوفة طبول ورايات تشحن الإسلام السني بشحنة عاطفية توازي مواكب الشيعة

خَلَبَ السَّامعينَ سِحْرُ كلامي   وسَرَتْ في عقُولِهِمْ نَفَثَاتي

النفثات: نفخات الساحر، أليس ينفخ بعد أن يقول كلماته الغامضة؟ وفي القرآن «النفاثات في العقد» لساحرات الجاهلية، يعقدن خيطاً وينفخن عليه

خُتِمَ الحبُّ مِنْ حديثي بِمِسْكٍ   رُبَّ خيرٍ يجيءُ في الخَاتِماتِ
لستُ أرضَى سوى الوفاءِ لذي الوُدِّ   ـ ولو كان في وفائي وفاتي

وأَلُـوفٌ فَـلَـوْ أُفـارقُ بُـؤْسـاً   لَـتَـوالَـتْ لِـفَـقْـدِهِ حَـسَـراتـي

أنا شديد الألفة لمن يصاحبني حتى لو كان بؤساً. والمعنى للمتنبي «خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا/لفارقت شيبي موجع القلب باكيا»

طـاهِرُ اللـفـظِ والشَّـمـائِلِ والأَخْـ   ـلاقِ عَفُّ الـضـمـيرِ واللَّـحَـظاتِ

اللحظات: النظرات

ومَـعَ الـصـمـتِ والـوَقـارِ فـإنِّـي   دَمِـثُ الـخُـلْـقِ طيِّـبُ الـخَـلَـوَاتِ

يـا حـبـيـبـي وأنـتَ أيُّ حـبـيـبٍ   لا قـضَـى الـلَّـهُ بـيـنَـنـا بِـشَـتَـاتِ

أنتَ رُوحي وقد تَمَلَّكْتَ روحي،   وحـيـاتـي، وقـد سَلَبْتَ حيـاتـي

مُـتُّ شَـوْقـاً فَـأَحْـيِـنـي بِـوِصَـالٍ   أُخْبِرِ الناسَ كيفَ طَعْمُ الـمَمَاتِ

فَـرَعَـى الـلَّـهُ عـهـدَ مِـصْـرَ وحَـيَّـا   مـا مَـضى لـي بِـمِـصْـرَ مِـنْ أَوْقَـاتِ

حَـبَّـذا الـنـيـلُ والـمَـراكِـبُ فـيـهِ   مُـصْـعِـدَاتٍ بِـنـا ومُـنْـحَـدِرَاتِ

هاتِ زِدْني من الحديثِ عن النِّيـ   ـلِ ودَعْـنـي مِـنْ دِجْـلَـةٍ وفُـرَاتِ

ولَـيـالـيَّ فـي الـجـزيـرةِ والـجيـ   ـزَةِ فـيـمـا اشـتَـهَـيْـتُ مِـن لَـذَّاتِ

بينَ رَوْضٍ حَكَى ظُهُورَ الطَّوَاويـ   ـسِ، وجَـوٍّ حَـكَـى بُـطُـونَ الـبُـزَاةِ

الروض يشبه ظهور الطواويس بألوانه الكثيرة، والجو فيه غيم مقطقط متقطع كأنه بطون الصقور

يـا زَمـانـي الـذي مضى، يا زَمـانـي   لَـكَ مِـنِّـي تَـواتُـرُ الـزَّفَـراتِ

٢٢ كبرياء

لَـو أَرادَ الـبُـعْـدَ عَـنـي   نُـورُ عَـيْـنـي مـا تَـبِـعْـتُـهْ

كُـلُّ شـيءٍ مِـنْ حـبـيـبـي   مَـا خَـلَا الـغَـدْرَ احْـتَـمَـلْـتُـهْ

أنَـا فـي الـحُـبِّ غَـيـورٌ   ذاكَ خُـلْـقِـي لا عَـدِمْـتُـهْ

قـد شَـكَـرْتُ الـلَّـهَ فـيـمـا   كـان مِـنْـكُـمْ وحَـمِـدْتُـهْ

حِـيـنَ خَـلَّـصْـتُ فُـؤادي   مِـن يَـدَيْـكُـمْ، ومَـلَـكْـتُـهْ

٢٣ لا ترمه قد تحتاجه

لا تَـطْـرَحْ خـامِـلَ الـرجـالِ فـقـدْ   تَـحـتـاجُ يـومـاً إلـى كـفـايَـتِـهِ

فـالـيَـكُ في الـنَّـرْدِ وَهْوَ مُـحْـتَـقَرٌ   خَـيْـرٌ مِـنَ الـشِّـيـشِ عـنـدَ حـاجَـتِـهِ

اليك: الواحد، والشيش: الستة في حجر النرد

٢٤ حلو وكذاب

يُعاهِدُني لا خَانَني ثم يَنْكُثُ وأَحلِفُ لا كَلَّمْتُهُ ثم أَحْنَثُ
أقولُ لهُ صِلْني يقولُ: نعمْ، غداً، ويَكْسِرُ جَفْنَاً هَازِئاً بي ويَعْبَثُ
ومَا ضَرَّ بعضَ النَّاسِ لو كانَ زَارَنا وكُنَّا خَلَوْنا ساعةً نَتَحَدَّثُ
أَمَولايَ إِني في هواكَ مُعَذَّبٌ وحتَّامَ أَبْقَى في العذابِ وأَمْكُثُ
أُعيذُكَ من هذا الجَفاءِ الذي بَدا، خَلائِقُكَ الحُسْنَى أَرَقُّ وأَدْمَثُ

٢٥ سكر الدلال

اليومَ لي يومانِ لمْ أَرَهُ، وهَذا اليَوْمُ ثَالِثْ
ما كنتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ مِمَّنْ تُغَيِّرُهُ الحوادِثْ
مولايَ مِنْ سُكْرِ الدَّلا لِ عَبِثْتَ، والسكرانُ عابِثْ

٢٦ دعاء

يا رَبِّ ما أَقربَ منكَ الفَرَجَا
أنتَ الرجاءُ وإليكَ المُلْتَجَا
يا رَبِّ أَشْكُو لَكَ أَمْراً مُزْعِجَا
أَبْهَمَ لَيْلُ الخَطْبِ فيهِ وَدَجَا
يَا رَبِّ فاجعلْ لِيَ مِنهُ مَخْرَجَا

٢٧ رحابتان

قال يمدح الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللمطي:

أَضْنَى الفؤادَ فمنْ يُرِيحُهْ وحَمَى الرُّقَادَ فمن يُبيحُهْ

أضنى (أتعب) المحبوب القلب، وحمى الرقاد (منعه، مثلما يحمي القوم أرضاً فلا يبيحونها سواهم، فهي لهم حِمىً، والمحبوب قد حمى أرض النوم دوني).

ونَضَا مِنَ الأَجْفانِ سيْـ ـفاً قَلَّمَا يبقَى جَريحُهْ

نضا: استل

مُتَمايِلُ الأَعْطَافِ كالـ ـغُصْنِ الذي هَزَّتْهُ رِيحُهْ

يَـــا سَــيِّـــدَاً إِحْـــسَـــانُـــهُ   مـا غـابَ عَـمَّـنْ يَـسْـتَـمِـيحُـهْ

يستميحه: يسأله أن يسمح بمعروفه

يَـــلْــقَـــى الـــوفُـــودَ وصَـــدْرُهُ   رَحْـبٌ إذا سَـأَلُـوا، وَسُـوحُـهْ

سوحه: ساحاته التي ينزل بها المنتجعون الطالبون الرفد مع إبلهم، فهي رحبة أي واسعة

٢٨ مكابرة

أنَـا لا أُبـالِـي بـالـرَّقِـيـ   ـبِ، ولا بِـمَـنْـظَـرِهِ الـقَـبِـيـحِ
غَـمْـزُ الـحَـواجِـبِ بـيـنَـنـا   أَحْـلَـى مِـنَ الـقَـوْلِ الـصَّـرِيـحِ

٢٩ آداب زيارة المريض

وعـــائـــدٍ هُـــوَ سُـــقْـــمٌ   لِـكُـلِّ جـسـمٍ صـحـيـحِ

العائد: زائر المريض

لا بـــالإشَـــارةِ يَـــدْرِي   ولا الـــكـــلامِ الـــصـــريـــحِ
ولـــيـــس يـــخْـــرُجُ حـــتَّـــى   تـــكـــادُ تَـــخْـــرجُ رُوحـــي

٣٠ ليلة.. صالحة

ولـيـلـةٍ مِـنَ الـلَّـيـالـي الـصَّـالِـحَـةْ
بـاتَـتْ بِـهـا الـهُـمـومُ عـنِّـي نَـازِحَـةْ
وغـادةٍ بِـوَصْـلِـهـا مُـسَـامِـحَـةْ

مسامحة: سامحة

تـحـفَـظُ وُدِّي مـثـلَ حِـفْـظِ الـفـاتِـحَـةْ
وأَعْـيُـنٌ عـنـد الـتَّـشـاكِـي طَـافِـحَـةْ
إذا اخـتـصَـرْنـا، فـالـدُّمـوعُ شـارِحَـةْ
وَفَـتْ بِـوَعْـدٍ ثـم قـامـتْ رَائِـحَـةْ
وأَوْدَعَـتْ قَـلْـبِـيَ نـاراً لافِـحَـةْ
فـيَـا صِـحـابِي فـي الـخُـطـوبِ الـفـادِحَـةْ
هَـبْـكُـمْ أَعَـنْـتُـمْ بِـدمـوعٍ سَـافِـحَـةْ

ما تَفعَلُ الثَّكْلَى بِنَوْحِ النَّائِحَةْ؟

٣١ المعشوقة العمياء

قالوا تعشَّقْتَها عَمياءَ قلتُ لَهُمْ: ما شَانَها ذاكَ في عيني ولا قَدَحَا
بَل زادَ وَجْدِيَ فيها أَنَّها أَبَداً لا تُبْصِرُ الشيبَ في فَوْدي إذا وَضَحَا
كأنَّما هِيَ بُسْتانٌ خَلَوْتُ بِهِ ونامَ نَاطُورُهُ سَكرانَ قد طَفَحا
تَفَتَّحَ الوردُ فيهِ مِن كَمائِمِهِ والنَّرْجِسُ الغَضُّ فيهِ بَعْدُ ما انْفَتَحا

يشبهون الخدود بالورد، والعيون بالنرجس

٣٢ المتجمل بالكفر

وجاهلٍ يدَّعي في العلمِ فلسفةً قد راحَ يكفرُ بالرحمنِ تَقليدَا
يقولُ إنَّ كلامي لستَ تفهَمُه، فقلتُ: لستُ سليمانَ بنَ دَاودَا

أي لا أفهم كلام البهائم كما كان سليمان يفهمه، وهذا هجاء مبطن لمن يتجمل بالكفر تجملاً. وقد رأينا نفراً في السبعينات، وكان الفكر الماركسي تقليعة، يتجملون بالانحراف عن الدين، ورأينا من انحرف عن الدين ولم يكن ممن يتجمل بذلك. ذهبت مرة لزيارة صديق خطاط في القدس ديِّن وتقي، واتفق أن كان في صحبتي صديق شيوعي. قلت له في الطريق أحذره: هذا الخطاط متدين. فشمخ صاحبي برأسه وقال: أنا لست ممن يحمل مسبة الدين في جيبه. فأكبرته

٣٣ في عشق صنم

صَنَمٌ لَعَمْرُكَ ما بَراهُ اللّهُ في ذا الحُسْنِ إلَّا فِتْنَةً لِعِبادِهِ
ومِنَ العجائبِ فِعْلُه بِمُحِبِّهِ يَصليهِ ناراً وَهْوَ مِنْ عُبَّادِهِ
يا عَاذِلي ما كنتُ أولَ عاشقٍ فَتَكَ الغرامُ بِلُبِّهِ وفؤادِهِ

اللب: العقل، والفؤاد: القلب. ومع ذلك فالفؤاد حشو

٣٤ انتظرونا بعد رمضان

وفي الدَّنِّ لنا رَاحٌ لَها تِسعُونَ أَوْ إِحْدَى

للخمر تسعون سنة في دنها (وعائها الفخاري الضخم المطلي بالزفت حتى لا ينز) أو إحدى وتسعون سنة (وحذف السنة اكتفاء)

وهَــيْـفَــاءَ كــمــا تَــهْــوى ... تُــرِيــكَ الــقَــدَّ والــخَــدَّا
وتَــشْــجِــيــكَ بِــألْــحَــانٍ ... تُــذِيــبُ الــجَــلْــمَــدَ الــصَّــلْــدَا
ولَــفْــظٍ يُــوجِــبُ الــغُــسْــلَ ... عــلــى الــســامِــعِ والــحَــدَّا

لا بد أن تكون من المحترفات إن كان كلامها يوجب الغسل على الرجل (أي يذيبه ويوسخه)، والحد: العقاب الشرعي

جــزَى الــرحــمــنُ شَــعْــبــانــاً ... تَــقَــضَّــى الــشــكــرَ والــحَــمْــدَا

تقضى: نالَ

وإن عِــشْــنــا لِــشَــوَّالٍ ... أَعَــدْنــا ذلــكَ الــعَــهْــدا

٣٥ قلبي عندك

إن كـانَ قـد سـارَ عـنْـكَ شَـخـصِي ... فـإنَّ قـلـبِـي أقـامَ عِـنْـدَكْ
وحـيـثُـمـا كـنـتَ كـنـتَ مَـوْلـىً ... وأيـنـمـا كـنـتُ كـنـتُ عـبـدَكْ

المولى، هنا: السيد. تعليق أ. عبد الرحيم: «عالٍ.. على رقته المفرطة!»

٣٦ الحالبون البدن من أوداجها

قال يمدح الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللمطي:

جعلَ الرُّقادَ لِكَيْ يواصِلَ موعِدا ... مـن أيـنَ لـي فـي حبِّـهِ أن أرْقُـدَا
كـم راحَ نَـحْـوِي لائِـمٌ وغَـدا، ومَـا ... راحَ الـمَـلامُ بِـمِـسْـمَـعَـيَّ ولا غَـدَا
فـي كُـلِّ مُـعـتَـدِلِ الـقَـوامِ مُـهَـفْـهَـفٍ ... حُـلْـوِ الـتَـثَـنِّـي والـثَّـنـايَـا أَغْـيَـدَا

يلومونني في كل محبوب معتدل القوام مهفهف (دقيق الخصر)، الثنايا: الأسنان، الأغيد يتمايل ويتثنى للمرأة وللغصن، هذا هو الغيد، ثم صارت المرأة الغيداء ناعمة، ثم طرية، ثم جميلة، ثم طويلة ممشوقة القوام. يحشرون كل الصفات التي يحبونها في الكلمة ناقلينها عن معناها الأصلي.. ومن ذا الذي رمانا بهذه الداهية التي هي شرح الشعر!

يَـحكـي الـغَـزالَـةَ بَـهْـجَـةً وتَـبـاعُـداً ... ويـقـولُ قَـوْمٌ مُـقْـلَـةً ومُـقَـلَّـدَا

يشبه المحبوب الغزالة في البهجة (الجمال) وفي الابتعاد عن الناس والنفرة منهم، ويقول آخرون ويشبه الغزالة في المقلة (العين) وفي المقلد (العنق حيث تلبس القلادة). في ترجمته الإنجليزية للديوان وضع بلمر هامشاً أشار فيه إلى أن الغزالة في العربية من أسماء الشمس. رأيناهم لا يعرفون غزالة بأل ويجعلون «غزالة» علماً على الشمس مثلما ثعالة علم على الثعلب. لعل معنى «غزالة» البعيد خطر ببال البهاء فذكر التباعد. نتمسك بشرحنا في السطر الأول. تسويد أ. عبد الرحيم

وكأنَّ أنفاسَ النَّسيمِ إذا سَرَتْ   شَكَرَتْ لِمَجْدِ الدِّينِ مَوْلانا يَدَا

يداً: فضلاً

يُعْزَى لِقَوْمٍ سَادَةٍ يَمَنِيَّةٍ   أَعْلَى الوَرَى قَدْراً وأَزْكى مَحْتِدَا

الورى: البشر، محتد: أصل

الحَالِبينَ البُدْنَ مِنْ أَوْدَاجِها   والمُوقِدينَ لَها القَنَا المُتَقَصِّدَا

يحلبون البُدن (النياق) من أوداجها (عروق الرقبة/أي يذبحونها لضيوفهم)، ويوقدون لها ناراً من القنا المتقصّد (الرماح المتكسرة لكثرة حروبهم) فهم كرام وشجعان. ولم يسع النظم الإنجليزي هذا المعنى الدقيق، أو أن بلمر ـ المستشرق الذي ترجم دوان البهاء وذكرنا خبره في ذيل القطعة الثانية من مختاراتنا هذه من شعر البهاء ـ استسهل، أو أخطأ، وجعل المعنى: «يحلبون الدم من عروق قطعوها، ويوقفون سيلان الدم بقِطَع من رماحهم»

والغَالبينَ على القلوبِ مَهابَةً   والواصِلينَ إلى القلوبِ تَوَدُّدَا

وإذا الصَّريخُ دعاهُمُ لِمُلِمَّةٍ   جَعلُوا صَليلَ المُرْهَفاتِ لَهُ صَدَى

الصريخ: الاستنجاد، صليل المرهفات: صوت السيوف

٣٧ ارتقاب

لَيتَ شِعري هلْ زَماني   بعد ذا البُخْلِ يَجودُ

ينقضي يومٌ ويومٌ   في حديثٍ لا يُفيدُ

فمتَى اليومُ الذي أبْـ   ـلُغُ فيه ما أُريدُ

٣٨ كذا هي الحياة

كلَّما قلتُ استَرَحْنا   جاءَنا شُغْلٌ جَديدُ

وخُطوبٌ يَنْقُصُ الصَّبْـ   ـرُ عليها، وتَزيدُ

٣٩ الطويلة

لقد عابَها الواشي فقال طَويلةٌ،   مقالَ حَسودٍ مُظْهِرٍ لِعِنادِ

فقلتُ له: بَشَّرْتَ بِالخيرِ إنَّها   حياتي، فإنْ طَالَتْ فذَاكَ مُرادي

٤٠ مماطلة

قــد طــالَ فــي الــوعــدِ الأمَــدْ   والــحُــرُّ يُــنْــجِــزُ مــا وَعَــدْ
وَوَعَــدْتَــنــي يــومَ الــخــمــيــ   ــسِ، فــلا الــخــمــيسُ ولا الأَحَــدْ
وإذا اقْــتَــضَــيْــتُــكَ لــم تَــزِدْ   عــن قــولِ: إِيِ والــلَّــهِ غَــدْ

اقتضيتك: طالبتك بالوفاء

٤١ وحدة ووحشة

أيــنَ مَــولايَ يَــرانــي   ودُمــوعــي فــوقَ خَــدِّي
أَقْــطَــعُ الــلــيــلَ أُقَــاســي   مــا أُقَــاســي فــيــهِ وَحْــدي
لَــيــتَــنــي عــنــدكَ يــا مَــوْ   لايَ، أوْ لَــيْــتَــكَ عِــنــدي

٤٢ مع السلامة

يــا مَــنْ تَــبَــدَّلَ فــي الــهــوى   يَــهــنِــيــكَ صَــاحِــبُــكَ الــجَــديــدُ
إن كــان أَعــجَــبَــكَ الــصُّــدُو   دُ كَــذاكَ أعــجَــبَــنــي الــصُّــدُودُ
واعْــلَــمْ بِــأَنِّــي لا أُريــ   ــدُ إذا رأيــتُــكَ لا تُــريــدُ
وأَنــا الــقَــريــبُ فــإنْ تَــغَــيَّــ   ــرَ صــاحــبــي، فَــأَنــا الــبَــعــيــدُ
ولــقــد عَــلــمــتَ بِــأَنَّــنــي   لِــي فــي الــهَــوى خُــلُــقٌ شَــديــدُ

٤٣ لذيذ العتاب

إذا ما تَعاتَبْنَا وعُدْنا إلى الرِّضَا   فــذلِــكَ وُدٌّ بَــيْــنَــنــا يَــتَــجَــدَّدُ
عَتَبْتُمْ علَيْنا واعتذَرنا إلَيْكُمُ   وقلتُمْ وقُلْنا والهوى يتأَكَّدُ
عَتَبْتُمْ فلم نَعلَمْ لِطيبِ حديثِكُمْ   أَذَلِكَ عَتْبٌ أمْ رِضاً وتَوَدُّدُ
وقد كانَ ذاكَ العَتْبُ عن فَرْطِ غَيْرَةٍ   ويا طِيبَ عَتْبٍ بِالمَحَبَّةِ يَشْهَدُ

٤٤ بيتك أم بيتي؟

قُــمْ بِــنــا إنْ شِــئْــتَ عــنــدي   أَوْ أَكُــنْ إن شــئــتَ عــنــدَكْ

شاع عند الأمير كان القول «بيتك أم بيتي؟» عقب عقد اتفاق غرامي في حانة أو مرقص

أَنــا فــي دَارِيَ وحْــدي   فــتــفــضَّــلْ أنــتَ وَحْــدَكْ

٤٥ الثقيل (١)

وجَـلـيـسٍ حـديـثُـهُ لِـلـمَـسَـرَّاتِ طَـارِدُ
مـثـلُ لَـيـلِ الـشِّـتـاءِ فَـهْـوَ طـويـلٌ وبَـارِدُ

٤٦ مولاي كن لي

مـولايَ كُـنْ لِـيَ وحـدي فـإنـنـي لـكَ وحـدَكْ
«وقف الهدهد في باب سليمان بذلة/ قال يا مولاي «كن لي»، عيشتي صارت مملة» شوقي

وكُـنْ بِـقـلـبِـكَ عِـنـدي فـإن قـلـبـيَ عـنـدَكْ
لـي فـيـكَ قـصـدٌ جـمـيـلٌ لا خَـيَّـبَ الـلَّـهُ قـصـدَكْ
حـاشـاكَ تُـؤْثِـرُ بُـعْـدي ولـسـتُ أُوثِـرُ بُـعـدَكْ
إن تَـنْـسَ عَـهـديَ إنِّـي والـلَّـهِ لـم أنْـسَ عـهـدَكْ
مـا لـي عـلـيـكَ اعـتـراضٌ أَدِّبْ كَـمـا شـئـتَ عـبـدَكْ
مـولايَ إن غِـبْـتَ عـنـي وَاسُـوءَ حَـالِـيَ بـعـدَكْ

٤٧ لا أشكو.. إلا هنا

يـا سـائِـلـي عـمَّـا تـجـدَّدَ لـي الـحـالُ لـم يَـنـقُـصْ ولـم يَـزِدِ
وكَـمـا عَـلِـمـتَ فـإنـنـي رجـلٌ أَفـنَـى ولا أشـكُـو إلـى أحـدِ

٤٨ لعنة شاملة

لـعـنَ الـلَّـهُ صـاعِـدا وأَبـاه فَـصـاعِـدا
وبـنـيـه فـنـازلاً واحـداً ثـم واحِـدَا

٤٩ زفاف قصيدة

قال يهنئ الأمير نصير الدين أبا الفتح ابن اللمطي:

بِكَ اهتزَّ لي غصنُ الأمانيِّ مُثْمِراً ورَقَّتْ لِيَ الدنيا وراقَ سرورُها
وما نالني مِنْ أَنْعُمِ اللَّهِ نِعمةٌ وإن عظُمَتْ إلَّا وأنت سَفيرُها
فخذْها كما تَهوى المعالي خَريدَةً تُزَفُّ، عليها دُرُّها وحريرُها
خذ قصيدتي خريدة (فتاة بكراً) ترضى عنها المعالي (الأمجاد)، وهي تزف إليك وعليها الدر (اللؤلؤ) والحرير

تكادُ إذا حَبَّرْتُ منها صحيفةً		لذكراكَ أن تَبْيَضَّ منها سطورُها
وللناسِ أشعارٌ تقالُ كثيرةٌ		ولكنَّ شعري في الأميرِ أميرُها

٥٠ جناية النسيم

أَعَلِمْتُمُ أن النسيمَ إذا سرَى		نقلَ الحديثَ إلى الرقيبِ كما جَرى
وأذاعَ سرّاً ما بَرِحْتُ أصونُه		وهوىً أُنَزِّهُ قدرَهُ أن يُذْكَرا
ظهرتْ عليهِ مِنْ عِتابيَ نفحَةٌ		رَقَّتْ حواشيهِ بِها وتَعَطَّرا
وأتَى العَذولُ وقد سدَدْتُ مسامعي		بِهَوىً يَرُدُّ من العواذلِ عَسكَرا
ويلومُني فيكُمْ ولستُ ألومُه		هيهاتَ، ما ذاقَ الغرامَ وما دَرى

٥١ جهاد حق لا اقتتال

قال البهاء زهير يمدح الملك الكامل ويذكر انتزاعه ثغر دمياطِ من الإفرنج:

تَدينُ لهُ الأمْلاكُ بالكُرْهِ والرِّضا		وتَخدُمُه الأفلاكُ في النَّهْيِ والأمرِ

الأملاك: الملوك، الأفلاك: بروج السماء، وهي تشير في عرفهم إلى ما سيقع من أحداث

وما فَرِحَتْ مصرٌ بِذَا الفتحِ وحدَها		لقد فرحتْ بغدادُ أكثرَ مِنْ مِصرِ
وأُقسمُ إن ذاقَتْ بنو الأَصفرِ الكَرى		فلا حَلَمَتْ إلّا بأَعلامِهِ الصُّفْرِ

بنو الأصفر: الأوروبيون، وسمى أبو تمام البيزنطيين بني الأصفر، قيل إن لون جلودهم أقرب إلى الصفرة. معنى البيت للمتنبي: «فكلما حلمت عذراء عندهم/ فإنما حلمت بالسبي والجمل». وزاد البهاء في المعنى أن شكك في رقادهم، وقابل بين بني الأصفر والرايات الصفر، وعلى ما في بيت المتنبي من وحشية عرفتها تلك الحروب في تلك الأزمان، فهو أحلى

ثَلاثةَ أعوامٍ أقمْتَ وأشهُراً		تُجاهِدُ فيهِمْ لا بِزَيْدٍ ولا عمرِو
فَرَوَّيْتَ منهُمْ ظَامِئَ البِيضِ والقَنا		وأشبعتَ منهُمْ طَاوِيَ الذِّئبِ والنَّسْرِ

رويت من دمهم البيض (السيوف) والقنا (الرماح) الظامئة، وأشبعت من جثثهم الذئب والنسر الطاوِيين (الجائعين)

كفَى اللّهُ دُمْياطَ المَكارِهَ إنها		لَمِنْ قِبْلَةِ الإسلامِ في موضِعِ النَّحْرِ

دمياط بالنسبة لقبلة الإسلام (مكة) في موضع النحر (العنق). ودمياط على الفرع الشرقي للنيل في مصبه «فرع دمياط»، والنيل يمر بقوص البلد التي نشأ بها البهاء، وقوص كانت مركزاً تجارياً بين مصر والحجاز عبر البحر الأحمر، فمن هنا سهُل على البهاء أن يرى دمياط بوابة للحرمين

٥٢ القصيدة الخجولة

كتب إلى الوزير الفاضل فخر الدين ابن قاضي داريا:

سأشكُو نَدىً عن شُكْرِهِ رحتُ عاجزاً ... ومِنْ أعجَبِ الأشياءِ أشكُو وأَشكُرُ

سأشكو السخاء الذي أصبحت عاجزاً عن تقديم الشكر عليه لتواليه وتدفقه

وأَوْلَيْتَني مِنْ بِرٍّ فضلِكَ أنعُماً ... غدا كاهِلي عن حملِها وَهْوَ مُوقَرُ

كاهلي: ظهري، موقر: مثقل

سَأشكُرُها ما دمتُ حياً وإن أَمُتْ ... سأَنشُرُها في موقِفي حينَ أُنْشَرُ

موقفي: وقوفي يوم القيامة للحساب، أُنشر: أُبعث

وإني وإن أُعطِيتُ في القولِ بَسْطَةً ... وطَاوَعَني هذا الكلامُ المُحَبَّرُ

لأَعلَمُ أَني في الثَّناءِ مُقَصِّرٌ ... وأنَّ الذي أَوْلَيْتَ أوفَى وأوْفَرُ

على أنَّ شُكْرِي فيكَ حينَ أَبُثُّهُ ... يَروقُكَ منه الروضُ يَزهُو ويُزهِرُ

فَخُذْها على ما حِيكَتِ ابْنَةَ ساعَةٍ ... أَتَتْكَ على اسْتِحْيائِها تَتَعَثَّرُ

خذ القصيدة كما حيكت (نسجت) وهي ابنة ساعتها (مرتجلة)

٥٣ ما أخرك؟

بالـلَّـه قـلْ لـي خَـبَـرَكْ ... فَـلـي ثَـلاثٌ لـم أَرَكْ

يـا أَسـبَـقَ الـنـاسِ إلـى ... مَـوَدَّتـي، مـا أَخَّـرَكْ؟

ونَـاظِـري عـلـى الـطَّـريـ ... ـقِ لـم يَـزَلْ مُـنْـتَـظِـرَكْ

ناظري: بصري. للناس الذين لم يعشقوا، ولم يعرفوا الانتظار وأكاذيب المعشوقة، وأعذارها التي ينتهي خروج النمل من ثقوبه في بيتي ولا تنتهي، نقول: ما رأيكم أن تتركوا هذه الأشعار، وتقرأوا الجريدة مثلاً!

٥٤ أنت المجلسْ

إذا مـا نـسـيـتُـكَ مَـنْ أذكُـرُ ... سِـواكَ بـبـالِـيَ لا يَـخْـطُـرُ

ويـومُ سـروريَ يـومَ أَراكَ ... لأَنـي بـوجـهِـكَ أسـتـبـشِـرُ

وإن غـابَ أُنسُـكَ عـن مجلسي ... فـمـا لـيَ أُنْـسٌ بِـمَـنْ يـحـضُـرُ

٥٥ الفضيحة الطيبة

أنَـا مَـنْ تَـسْـمَـعُ عـنـهُ وتَـرَى | لا تُـكَـذِّبْ عـن غَـرامـي خَـبَـرا
كـلُّ شـيءٍ مِـن حـبـيـبـي حَـسَـنٌ | لا أرى مـثـلَ حـبـيـبـي فـي الـوَرى
وافْـتِـضَـاحـي فـيـهِ مـا أَطـيَـبَـهُ | كـانَ مـا كـانَ، ويَـدري مَـنْ دَرَى

٥٦ دور وكاسات تدور

حـبَّـذَا دُورٌ عـلـى الـنِّـيـ | ـلِ وكـاسَـاتٌ تَـدورُ
كـمْ بـهـا قـد مَـرَّ لـي، أسـ | ـتـغـفـرُ الـلَّـهَ، سُـرورُ
كـلُّ عَـيْـشٍ، غـيـرَ ذاكَ الـ | ـعـيـشِ فـي الـعـالَـمِ، زُورُ

٥٧ لن تعرف خيري..

لأَجلِكَ سعيي واجتِهادي وخِدمتي | ويا ليتَ هذا كلُّه فيكَ يُثمِرُ
تَبِعْتُ الذي يُرضيكَ في كلِّ حالةٍ | فإن كنتَ لم تبصِرْهُ فاللهُ يُبصرُ
واللَّهِ ما مِثلي مُحِبٌّ ومُشْفِقٌ | وسوفَ إذا جرَّبْتَ غَيْرِيَ تَذْكُرُ

٥٨ لا ينفع إلا وجهاً لوجه

مـا احـتـيـالـي فـي كـتـابٍ | ضَـاقَ عـمَّـا فـي ضَـمـيـري
حِـرْتُ لا أعـرِفُ مـا أشـ | ـرحُ فـيـهِ مِـنْ أُمـوري
كـادَ أن يـحـتـرِقَ الـقِـرْ | طـاسُ مِـنْ نـارِ زَفـيـري
لـيـس يَـشْـفـي مـا بِـقـلـبـي | مـنـكُـمُ غـيـرُ حُـضـوري

٥٩ فاحت رائحتك

قـد صَـحَّ عـنـديَ مَـا جَـرى | فَـدَعِ الـلَّـجَـاجَـةَ والـمِـرا

اللجاجة: الجدل بمكابرة، المرا: المراء، أي المكابرة

كـم قـد كـتـمـتُ فـلـم يُـفِـدْ | حـتـى دَرَى بِـكَ مَـنْ دَرَى
يـا غـافـلاً عـن نـفـسِـهِ | أَخَـذَتْـهُ أَلْـسِـنَـةُ الـوَرَى
واعـلَـمْ بـأنـكَ مـا تَـقُـلْ | فـي الـنـاسِ قـالـوا أكـثَـرا

فـاحـفـظْ لـسـانَـكَ تـسـتَـرِحْ　　فـلـقـد جَـرى مـا قـد جَـرى

٦٠ مسافر

لـيـت شِـعـري لـيـت شِـعـري　　أيُّ أرضٍ هِـيَ قـبـري

ضـاعَ عُـمْـري فـي اغـتِـرابٍ　　ورحـيـلٍ مـسـتَـمِـرٍّ

ومـتـى يـومُ وفـاتـي　　لـيـتـنـي لـو كـنـتُ أَدْري

٦١ ساهر مع النجم

قال، وأنشدنيها ـ يقول شرف الدين راوي شعره ـ بقلعة القاهرة المحروسة في عام ٦٤١ (وفي هذه الرواية الشخصية ما ينفي الزعم بأنها لابن الفارض):

غَـيـري عـلـى الـسُّـلْـوَانِ قـادِرْ　　وسِـوايَ فـي الـعـشـاقِ غَـادِرْ

لـي فـي الـغـرامِ سـريـرةٌ　　والـلَّـهُ أعـلَـمُ بـالـسَّـرائِـرْ

ومُـشَـبَّـهٍ بـالـغُـصْـنِ قَـلـ　　ـبـي لا يَـزالُ عـلـيـه طَـائِـرْ

رب معشوق يشبه الغصن، وقلبي عليه طائر (طائر بمعنى طير على الغصن/وبمعنى قلب ضائع)

حُـلْـوِ الـحـديـثِ، وإنَّـهـا　　لَـحَـلاوَةٌ شَـقَّـتْ مَـرائِـرْ

مرائر: جمع مرارة

أَشـكُـو وأشـكُـرُ فِـعْـلَـهُ　　فـاعـجَـبْ لِـشـاكٍ مـنـه شـاكِـرْ

يـا تـاركـي فـي حـبِّـهِ　　مَـثَـلاً مِـنَ الأمـثـالِ سـائـرْ

يـا لـيـلُ مـا لَـكَ آخِـرٌ　　يُـرجَـى، ولا لـلـشـوقِ آخِـرْ

يـا لـيـلُ طُـلْ يـا شـوقُ دُمْ　　إنـي عـلـى الـحـالـيـنِ صـابِـرْ

لـي فـيـكَ أَجْـرُ مـجـاهِـدٍ　　إنْ صَـحَّ أنَّ الـلـيـلَ كـافِـرْ

الليل الكافر: الشديد الظلمة

طَـرْفـي وطَـرْفُ الـنَّـجْـمِ فـيـ　　ـكَ كِـلاهُـمـا سَـاهٍ وسـاهِـرْ

٦٢ ساهر مع الحبيب

رعَـى الـلَّـهُ لـيـلـةَ وَصْـلٍ خَـلَـتْ　　ومـا خـالَـطَ الـصَّـفْـوَ فـيـهـا كَـدَرْ

ويـا قَـمـرَ الأُفْـقِ عُـدْ راجـعـاً　　فـقـد بـاتَ فـي الأرضِ عـنـديَ قَـمَـرْ

خَلَوْنا وما بَيْنَنا ثالثٌ فأصبحَ عندَ النسيمِ الخَبَرْ

٦٣ الحاضرون الغائبون

يومُنا يومٌ مَطيرُ ولَنا كأْسٌ تَدُورُ
أَخذَتْ مِنَّا عُقَارٌ أَخَذَتْ منها الدُّهورُ

العقار (الخمر) أخذت بعض عقولنا، وهي نفسها قد أخذ منها الزمان، فقل جرمها وازداد صفاؤها بتوالي السنين

لَطُفَتْ في الدَّنِّ حتَّى قيلَ سِرٌّ وضَميرُ

ينظر الشاعر العربي إلى الخمرة نظرته إلى شيء سحري، فهذا المشروب ـ دون كل المشروبات ـ يفعل في النفس شيئاً غريباً؛ لا بد أن له سراً. اليوم نعرف أن مادة الإيثانول تصعد مع الدم إلى الدماغ وتطلق الدوبامين المخدر للأعصاب، وبعد أن عرفنا الهيروين وعائلته لم يعد في الخمر سر

فَنِيَتْ إلَّا يَسِيراً كُلُّها ذاكَ اليَسِيرُ

الخمر التي عصرت لتوها تكون عصيراً ثخيناً، وعندما تروق تفقد من جرمها الكثير إذ يرسب ما يرسب في القاع، والسائل الشفاف يوحي للمرء بأنه غير موجود على الحقيقة

وكأَنَّ الكَأْسَ حَقٌّ وكأَنَّ الراحَ زُورُ
ويَغيبُ القومُ في المجـ ـلسِ والقومُ حُضورُ

٦٤ أين وجهك؟

وأَحْمَقٌ ذي لِحْيَةٍ كبيرةٍ مُنْتَشِرَةْ
طلبتُ فيها وجهَهُ بِشِدَّةٍ فلمْ أَرَهْ
كمْ قَرْيَةٍ للقملِ في جافاتِها ومَقْبَرَةْ
يُقْسَمُ عُشْرُ عُشْرِها يَكْفي رِجالاً عَشَرَةْ

٦٥ كلام شوارع

يا هذهِ لا تَغلَطي واللّهِ ما لي فيكِ خاطِرْ
وسمعتُ عنكِ قضيَّةً قد سُوِّدَتْ فيها الدفاترْ
نُقلَتْ إليَّ جميعُها حتى كأني كنتُ حاضِرْ
فمتى أردتِ شرحتُها لكِ بالدَّلائِلِ والأَمائِرْ

إن كنتِ أنتِ نسيتِها ... فَلَكَمْ لها في الناسِ ذَاكِرْ

٦٦ أنا تمام التمام

يا سائلاً عن زهيرِ ... وكيفَ حالُ زُهيرِ
واللَّهِ إني بخيرِ ... ما دمتَ أنتَ بخيرِ

٦٧ حديث الأكياس

وصاحبٍ أصبحَ لي لائِماً ... لما رأى حالَةَ إفلاسي
قلتُ له إني امرُؤٌ لم أزَلْ ... أُفْني على الأكياسِ أكْياسي

الأكياس: الناس المتمعون بالكياسة، الأكياس: أكياس النقود

دَعني وما أرضى لِنفسي، وما ... عليكَ في ذلِكَ مِنْ بَاسِ
لو نظَرَ الناسُ لِأحوَالِهِمْ ... لاشتَغَلَ الناسُ عن الناسِ

٦٨ خيبة أمل

قصدتُكُم أرجُو انتِصاراً على العِدَى ... حسِبْتُكُم ناساً فما كُنْتُمُ ناسَا
فلم تمنَعُوا جاراً ولم تنفَعُوا أخاً ... ولم تدفَعُوا ضَيْماً ولم تَرْفَعُوا راسَا

في الشام يقول الأب لابنه: أريدك أن ترفع رأسي، وفي مصر يقول: أريدك أن تطيل رقبتي، والمعنى في كليهما: أريدك أن تجعلني أزهو بك بين الناس

٦٩ يا كل الناس

وأُنَزِّهُ اسْمَكَ أن تَمُرَّ حروفُهُ ... مِنْ غَيْرتي بِمَسامِعِ الجُلَّاسِ
فأقُولُ «بعضُ الناسِ» عنكَ كِنايَةً ... خَوْفَ الوُشَاةِ، وأنتَ كُلُّ الناسِ

٧٠ توبة إفلاس

قالوا فُلانٌ قد غَدا تائِباً ... واليومَ قد صَلَّى مع الناسِ
قلتُ متى ذاكَ وأنَّى لَهُ ... وكيفَ يَنْسَى لَذَّةَ الكاسِ
أَمْسِ بِهَذي العينِ أبصرتُه ... سَكرانَ بينَ الوردِ والآسِ

ورُحْتُ عن توبَتِهِ سائِلاً وجدتُها توبَةَ إفلاسِ

٧١ لست مستعجلاً

يا كثيرَ الصُّدُودِ والإعْراضِ أنا راضٍ بِمَا بِهِ أنتَ راضِ
إنَّ لي حَاجَةً إليكَ، وإنِي في حياءٍ عن ذكرِها وانقِباضِ
أَشْتَهي أن أفوزَ منكَ بِوَعْدٍ ودَعِ العمرَ ينقَضي في التَّقَاضي

التقاضي: طلب الوفاء

٧٢ مصر التي في خاطري

ولم أَرَ مِصْراً، مِثلَ مِصْرَ، يَروقُني ولا مِثْلَ ما فيها منَ العيشِ والخَفْضِ
وبعدَ بِلادي فالبلادُ جميعُها سواءٌ، فلا أَختارُ بَعضاً على بعضِ
إذا لم يكنْ في الدارِ لي مَنْ أُحِبُّهُ فلا فَرْقَ بين الدَّارِ أو سَائِرِ الأَرضِ

٧٣ وداع

وقائلةٍ لما أردتُ وَداعَها: حبيبي أحقَّاً أنتَ بِالبينِ فَاجِعي
وقامتْ وراءَ السِّتْرِ تبكي حزينةً وقد نَقَبَتْهُ بيننا بِالأصابعِ
فلما رأَتْ أن الفراقَ حقيقةٌ وأَني عليهِ مُكْرَهٌ غيرُ طائِعِ
تَبَدَّتْ فَلا واللَّهِ ما الشمسُ مثلَها إذا أَشرقَتْ أنوارُها في المَطالِعِ
تُسَلِّمُ باليُمْنى عليَّ إشارةً وتمسحُ باليُسرى مَجاريِ المَدامِعِ

٧٤ بعد الصلاة

مائدةٌ مُنَوَّعَةْ وقهوةٌ مُشعشَعَةْ

مشعشعة: ممزوجة بالماء

وسَادَةٌ تَراضَعُوا كأْسَ الودادِ مُتْرَعَةْ

تراضعوا: تبادلوا الرضاعة من ثدي واحد، وهؤلاء رضعوا من كأس المودة، بخٍ بخٍ.. نبحث عن أمثالهم

ولا يزيدونَ على ثلاثةٍ أو أربعَةْ

والـــيـــومُ يـــومٌ لـــم يَـــزَلْ يـــومَ ســـكـــونٍ وَدَعَـــةْ
فـــيـــا أخـــي كُـــنْ عـــنـــدنـــا بـــعـــدَ صَـلاةِ الـــجُـــمُـــعَـــةْ

٧٥ يا راحلاً

يـــا راحـــلاً لـــم يُـــبـــقِ لـــي مِـــنْ بـــعـــدِهِ بـــالـــعـــيـــشِ نَـــفْـــعَـــا

ضَـــاقـــتْ عـــلـــيَّ الأرضُ فـــيـــ ـــكَ وضِـقْـتُ بـالـهِـجْـرانِ ذَرْعـا

وَرَعَـــيْـــتُ فـــيـــكَ الـــنَّـــجـــمَ يـــا مَـــنْ كـــانَ يـــحـــفَـــظُـــنـــي ويَـــرعَـــى

أسهرتني مع النجم، وكنت تسهر عليّ

أَبـــكـــيـــكَ بـــالـــشـــعـــرِ الـــذي قـــد رقَّ حـــتـــى صـــارَ دمـــعـــا

٧٦ لم أقل ذلك بالضبط

لـكَ الـيومَ أَمْـرٌ لا أَشُـكُّ يُـريبُـنـي فما وجهُكَ الوَجْهَ الذي كنتُ أَعرِفُ

لـقـد نَـقَـلَ الـواشُـونَ عـنِّـيَ بـاطِـلاً ومِلْتَ لِما قالوا، فزادوا وأَسْرفُوا

بِعيشِكَ قلْ لي ما الذي قد سمعتَه فإنكَ تـدري مـا تـقولُ، وتُـنْـصِـفُ

فـإنْ كـانَ قـولاً صـحَّ أنـيَ قـلـتُـه فَلِلْقَولِ تأويلٌ ولِلْقَولِ مَصْرَفُ

مصرف: وجه ينصرف إليه ويفسَّر به

وَهَـبْ أنَّـه قـولٌ مِـنَ الـلَّـهِ مُـنْـزَلٌ فـقـد بَـدَّلَ الـتَّـوراةَ قـومٌ وحَـرَّفُـوا

٧٧ شماتة

قال في والٍ عزل:

عـــزلُـــوهُ لَـــمَّـــا خـــانَـــهُـــمْ فَـــغَـــدا كـــئـــيـــبـــاً مُـــدْنَـــفَـــا

مدنف: مريض

ويـــقـــولُ لـــم أحـــزَنْ لِـــذا كَ ولـــم أكـــنْ مُـــتَـــأَسِّـــفَـــا

قُـــلْـــنـــا كـــذبـــتَ لـــقـــد حَـــزِنْـــ ـــتَ، وقـــد «حَـــزِنْـــتَ» مُـــصَـــحَّـــفَـــا

وتصحيف كلمة «حزنت» إما خَزِيت، أي أصابك الخزي، أو بالخاء والراء. والتصحيف هو ذلك التبادل بين الحروف المتشابهة

٧٨ حسنة للطفل

قال البهاء زهير يمدح السلطان الناصر يوسف بن محمد:

إذا كنتَ لي فالمالُ أَهْوَنُ ذاهبٍ يُعوِّضُهُ الإحسانُ منكَ ويُخْلِفُ
ولا أبتغي إلّا إقامةَ حُرْمتي ولستُ لشيءٍ غيرِها أَتَأَسَّفُ
ونفسي بحمدِ اللّهِ نفسٌ أبيَّةٌ فها هِيَ لا تَهْفُو ولا تتلهَّفُ
وأَشرفُ ما تبنيهِ مجدٌ وسُؤْدَدٌ وأَزيَنُ ما تَقْنيهِ سيفٌ ومُصْحَفُ
ولكنَّ أَطفالاً صِغاراً ونِسْوَةً ولا أَحدٌ غيري بِهِمْ يتلَطَّفُ
أَغارُ إذا هَبَّ النسيمُ عليْهِمُ وقلبي لَهُمْ مِنْ رحمةٍ يَتَرجَّفُ
سُروريَ أن يبدُو عليْهِمْ تَنَعُّمٌ وحُزْنِيَ أن يبدُو عليْهِمْ تَقَشُّفُ
إليكَ، صلاحَ الدينِ، أنهيتُ قِصَّتي ورأيُكَ يا مولايَ أعلى وأشرفُ

صلاح الدين: الملك الناصر حفيد صلاح الدين الأيوبي. القصة: الرقعة التي تحمل شكوى أو ظلامة

٧٩ غربة نفس

قال يمدح الصاحب صفي الدين المعروف بابن شكر:

ولي حاجةٌ مِنْ وَصْلِهِ غيرَ أنها مُرَدَّدَةٌ بين الصَّبابةِ والتُّقى
ولستَ تَرى خِلّاً مِنَ الغدرِ سالماً ولا تقتَني يوماً صديقاً فيَصْدُقا
إذا نِلْتَ منه الوُدَّ كان تَكَلُّفاً وإن نلتَ منه البِشْرَ كان تَمَلُّقا
ومِمّا دَهاني حُرْفَةٌ أَدَبِيَّةٌ غَدَتْ دونَ إدراكِ المَطالِبِ خَنْدَقا

حرفة الأدب: تعبير قديم يعني أن الأدب حرفة فقر، قالوا: «أدركتني حرفة الأدب» أي افتقرت بسبب انتهاجي طريق الأدب. ولو انتهج القائل حرفة السياسة لكان مصيره القتل. وشاعرنا رأى أدبه بمثابة خندق يحول بينه وبين مراده. وجعلوا الحرفة المذمومة هذه بضم الحاء، ربما لتمييزها عن المهنة

٨٠ كلامي ملحن بلا تلحين

أَأَرْحَلُ مِنْ مِصْرٍ وطيبِ نعيمِها فأيُّ مكانٍ بعدَها لِيَ شائِقُ

وشاعرنا رحل كثيراً وأحست بوقع قدميه مكة ودمشق ونابلس وآمد والموصل

وكيف! وقد أضحَتْ مِنَ الحُسْنِ جنةً   زَرابِيُّـهَـا مَبْثُـوثَـةٌ والـنَّـمـارِقُ

الزرابي: البُسُط مفرد البساط، والنمارق: الوسائد، ومبثوثة: مفروشة هنا وهناك. وهذا كناية عن الجنة كما في الآية

بـلادٌ تَـروقُ العينَ والقلبَ بهجةً   وتـجـمعُ ما يَـهوى تَـقِيٌّ وفَـاسِـقُ

أَسُكَّانَ مِصْرٍ، إنْ قَضَى اللَّهُ بالنَّوَى   فَـثَـمَّ عـهـودٌ بـيـنَـنـا ومَـوَاثِـقُ

فـفـي كـلِّ يـومٍ لـيِ حـنـينٌ مُـجَـدَّدٌ   وفي كلِّ أرضٍ لـيِ حبيبٌ مُفَارِقُ

كـلامـيِ غَـنِـيٌّ عـن لُـحُـونٍ تَـزِينُـهُ   لـه مَـعْـبَـدٌ مِـنْ نـفـسِـهِ ومُـخَـارِقُ

معبد ومخارق: من مشاهير المغنين

لـكـلِّ امـرِئٍ مـنـهُ نَـصيبٌ يَـخُـصُّـهُ   يُـلائِـمُ مـا فـي طـبـعِـهِ ويُـوافِـقُ

٨١ أمسح دموعي بمنديلك

لـعـلَّ الـلَّـهَ يـجـمـعُـنـا قـريـبـاً   فـنُـصـبِـحَ فـي الـتـئـامٍ واتِّـفـاقِ

أُحَـدِّثُـكُـمْ بـأَعـجَـبِ مـا جَـرى لـيِ   وأَصـعـبِ مـا لَـقِـيـتُ مِـنَ الـفِـراقِ

خَـبَـأْتُ لَـكُـمْ حـديـثـاً فـي فـؤاديِ   لأُتـحِـفَـكُـمْ بـه عـنـد الـتـلاقـي

العاشق، وأيضاً غير العاشق، يختزن في غربته أحاديث في عقله، وقد يصوغها في عبارات أيضاً، ويتحرق للقاء محبوبه كي يحدثه بها. وعبر عن ذلك بحرارة الشاعر الأديب محسن الخياط عندما قال ـ وغنتها عليَّة التونسية في لحن حلمي بكر ـ: «بس امَّا تيجي وانا احكي لك ع اللي جرى/ وامسح دموعي بمنديلك ع اللي جرى»

٨٢ عيني للطريق

وزَعَـمْـتَ أنـكَ زائـريِ   فـتـركـتُ عـيـنـيَ لـلـطـريـقِ

وتـركـتَـنـيِ أبـكـي عـلـيـ   ـكَ مِـنَ الـغـروبِ إلـى الـشـروقِ

لـو أن لـيِ عـيْـنـاً تـنـا   مُ قَـنِـعْـتُ بـالـطَّـيـفِ الـطَّـروقِ

الطروق: الزائر ليلاً

٨٣ سلطان العاشقين الثاني

قال على طريقة المتصوفة:

سِرْتُ في الحبِّ سيرَةً لم يَسِرْها   عـاشـقٌ فـي الـوَرى عـلـى الإطـلاقِ

ودُعَـاتـيِ تـجـولُ فـي كـلِّ أرضٍ   وطُـبُـولـيِ يَـضْـرِبْـنَ فـي الآفـاقِ

مَثُلَ العاشِقونَ فوقَ بِساطي ... في مَقامِ الهَوى وتحتَ رِواقي
ضُرِبَتْ سِكَّةُ المحبةِ بِاسمي ... ودعتْ لي مَنابِرُ العشاقِ

السكة: النقود، فهو سلطان العشق ولا بد له من نقود تسك باسمه

كان لِلقومِ في الزُّجاجَةِ باقٍ ... أنا وحدي شربتُ ذاك الباقي
شَربةٌ لا أَزالُ أسكَرُ منها ... ليت شِعري ماذا سقاني السَّاقي
أنَا في الحبِّ ألطفُ الناسِ معنىً ... دَمِثُ الخُلْقِ ذو حَواشٍ رِقَاقِ
أعشقُ الحسنَ والمَلاحَةَ والظَّرْ ... فَ، وأهوى مَحاسِنَ الأخلاقِ

٨٤ تقبرني

تَعيشُ أنتَ وتَبْقَى ... أنَا الذي مُتُّ حقَّا
حَاشاكَ يا نورَ عيني ... تَلقَى الذي أنا ألقى
قد كانَ ما كانَ مِني ... واللَّهُ خيرٌ وأبْقَى
ولم أجِدْ بين مَوْتي ... وبين هجرِكَ فَرْقا
يا أنعَمَ الناسِ بالاً ... إلى متى فيكَ أشقَى
سمعتُ عنكَ حديثاً ... يا رَبِّ لا كانَ صِدْقا
حاشاكَ تنقُضُ عهدي ... وعُرْوَتي فيكَ وُثْقَى
وما عهِدتُكَ إلَّا ... مِنْ أكرمِ الناسِ خُلْقَا
يا ألفَ مولايَ مهلاً ... يا ألفَ مولايَ رِفْقا
لكَ الحياةُ فإنِّي ... أموتُ لا شكَّ عِشْقا
لم يبقَ مِنِّيَ إلَّا ... بقيَّةٌ ليسَ تَبْقَى

٨٥ اتركوها لي

تسائِلُ عن وَجدِي بها وصبابَتي ... فقلتُ أما يَكفيكِ مَوْتِيَ فيكِ
وكانتْ تُسَمِّيني أخَاها تَعلُّلاً ... فقلتُ لها: أفسدتِ عقلَ أخيكِ

تعللاً: تحججاً، هي تتحجج بتسميته أخاها كي تتدلل عليه. آه يا قلبي من هؤلاء النسوة اللائي يبدأن الحديث بيا أخي.. ليتهن بقين على ذلك، الآن صرن يقلن يا عمي

تركتُ جميعَ الناسِ فيكِ محبةً ... فيا ليتَ بعضَ الناسِ لِي تَركُوكِ

٨٦ أفتش في مكانك

قال يرثي ولده:

يَعِزُّ عليَّ حينَ أُدِيرُ عيني ... أُفَتِّشُ في مكانِكَ لا أَراكا
لقد عَجِلَتْ عليكَ يَدُ المنايا ... وما استوفيْتَ حَظَّكَ مِنْ صِباكا
فواأَسَفي لِجِسْمِكَ كيف يَبْلَى ... ويذهبُ بعدَ بهجتِه سَناكا
فيا مَنْ قد نَوى سفراً بعيداً ... متى قُلْ لي رجوعُكَ مِنْ نَواكا
فيا قبرَ الحبيبِ وَدِدْتُ أنّي ... حَمَلْتُ، ولو على عَيني، ثَراكا
سقاكَ الغيثُ هَتَّاناً وإلَّا ... فحَسْبُكَ مِنْ دموعيَ ما سَقاكا

٨٧ شوق

أيها الغائِبُ قد آ ... نَ لِعيني أن تَراكا
لستُ مشتاقاً إلى شي ... ءٍ مِنَ الدنيا سِواكا

٨٨ ما أجملك!

ويحَكَ يا قلبُ أما قلتُ لكْ ... إيَّاكَ أن تَهْلِكَ فيمَنْ هَلَكْ
ولي حبيبٌ لم يَدَعْ مَسْلَكاً ... يُشْمِتُ بي الأعداءَ إلَّا قد سَلَكْ
بِاللَّهِ يا أَحْمَرَ خَدَّيْهِ مَنْ ... عَضَّكَ، أو أَدماكَ، أو أخجلَكْ
مولايَ حاشاكَ تُرى غادراً ... ما أقبحَ الغدرَ، وما أجملَكْ

٨٩ ما أوقح عينك

كم أُلاقي منكَ ما لا ... أَشتهي، لاقَيْتَ حَيْنَكْ!

الحَيْن: الموت

وعيونُ الناس تَسْتَحْ ... يِي، ومَا أَوْقَحَ عينَكْ

الوقاحة في اللغة: الصلابة، وكانوا يصفون وجه المرء بأنه وقح، أي أنه صلب لا يحمر ولا يتعرق من خجل، وصار الناس يصفون العين بالوقاحة، وهذا قريب، فعين الوقح - حاشاك - لا تنكسر من الفعلة الشنعاء، تراه يرتكب في حقك ما يرتكب وينظر في بؤبؤ عينك بعين له صلبة لا تتحرك. عندما أصِفُ الإسرائيليين يطيب لي ألا أشير إلى إجرامهم، وهم مجرمون، ولا إلى سفالتهم، وهم سفلة، أقول فقط: ما أوقحهم!

لَـعَـنَ الـلَّـهُ طَـريـقـاً   جـمـعـتْ بـيـنـي وبـيـنَـكْ

٩٠ الخروج من السباق

أنَـا أدري بـأَنَّـنـي   قَـلَّ قِـسْـمـي لـديْـكُـمُ

قسمي: نصيبي

فَـإِلـى كَـمْ تَـطَـلُّـعـي   والـتِـفـاتـي إلـيـكُـمُ
مَـنْ رآنـي يَـرِقُّ لـي   ضـائـعـاً فـي يـديْـكُـمُ
كـان مـا كـان بـيـنَـنـا   وسـلامٌ عـلـيـكُـمُ

٩١ كشف القناع

يـا حُـسْـنَ بعضِ الـناسِ مهلا   صَيَّـرتَ كـلَّ الـنـاسِ قَـتْـلـى
أَمَـرَتْ جـفـونُـكَ بِـالـهـوى   مـن كـان يـعـرِفُـهُ ومَـنْ لا . .
وكَـشَـفْـتُ فـضـلَ قِـنـاعِـهِ   بِـيـدَيَّ عـن قَـمَـرٍ تَـجَـلَّـى
فَـلَـثِـمْـتُـهُ فـي خـدِّهِ   تِـسـعـيـنَ أو تِـسـعـيـنَ إلَّا

لثمته: قبَّلته، تسعين قبلة أو تسعين إلا قليلاً. نسب إلى امرؤ القيس «وقبلتها تسعاً وتسعين قبلة/ وواحدة أخرى وكنت على عجل»

واهَـاً لـهـا مِـنْ سـاعـةٍ   مـا كـان أطـيـبَـهـا وأَحْـلـى

٩٢ ثقيل (٢)

رُبَّ ثَـقـيـلٍ لِـبُـغْـضِ طَـلْـعَـتِـهِ   أَخـشـاهُ حـتَّـى كـأنـه أَجَـلـي
وكُـلَّـمـا قـلـتُ لا أُشـاهِـدُهُ   أَلْـقـاهُ حـتـى كـأنَّـه عَـمَـلـي

والمرء يلقى عمله في الآخرة، وقال المنشد متضرعاً إلى الله، من الدوبيت: «مولاي كتبتَ رحمةَ الناس عليك/ ما لي عمل يصلح بالعرض عليك/ إرحم ذلي ووقفتي بين يديك»

٩٣ واأسفا على إسماعيل

قال يمدح الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطي وقد انفصل عن خدمته:

آيـاتُ مـجـدِكَ مـا لـهـا تـبـديـلُ   وعُـلُـوُّ قَـدْرِكَ مـا إلـيـه سـبـيـلُ
فاقَـتْ صفـاتُكَ كلَّ جيلٍ قد مَضَى   في الـعـالـمينَ فكيف هذا الجيلُ

يُعزَى لكَ الإحسانُ غيرَ مُدافَعٍ والمحسنونَ كما علمتَ قليلُ

غير مدافع: لا أحد يدفع أو ينكر، هذا الفضل لك، فأنت فيه غير منازَع

لا يبتغي الراجي إليكَ وسيلةً إلّا الرجاءَ وأنَّكَ المأمُولُ
حَسْبُ امرِئٍ قد فازَ منكَ بموعدٍ فإذا وعدتَ فأنتَ إسماعيلُ
هذا هو الشرفُ الذي لا يُدَّعى هيهاتَ، ما كُلُّ الرجَالِ فُحولُ
يدعُوكَ مملوكٌ أراكَ مَلِلْتَه أنَا ذلكَ المملوكُ والمملولُ
كنْ كيف شئتَ فأنتَ أنتَ المُرتَضَى فَهوايَ فيكَ هَوايَ ليسَ يَحُولُ
أَسَفي على زمنٍ لديكَ قطعتُهُ وكأنَّني لِلفرقدينِ نَزيلُ

الفرقدان: نجمان متلازمان قرب النجم القطبي

وكأنَّما الأسحارُ منهُ عنبَرٌ وكأنَّما الآصالُ منه شَمولُ

يشبه الأسحار، أواخر الليل، بالعنبر تشبيه وقت بلون، وكذا الآصال: وقت الغروب يشبهها بالشمول (الخمر) تشبيه وقت بلون

زمنٌ يَقِلُّ له البكاءُ لِفقدِهِ ولو انَّ دمعي دِجْلَةٌ والنيلُ
وإذا انتسبتُ بِخدمتي لكَ سابقاً فكأنها لِيَ مَعْشَرٌ وقَبيلُ
قَصُرَتْ عليكَ ثيابُ كُلِّ مَديحَةٍ وذُيولُهُنَّ على سِوَاكَ تَطُولُ

مديحة: قصيدة مدح. فمهما أطنب الشاعر في مدحه فالقصيدة أقل من صفاته، وهي كالثوب القصير، وعلى غيره فهذا الثوب تطول ذيوله

واعلَمْ بِأنّيَ عن صِفاتِكَ عاجزٌ واعذِرْ سوايَ، وما عَساهُ يقولُ؟

٩٤ رتبتي في العشق

لعلَّكَ تُصْغِي ساعةً وأَقولُ لقد غابَ واشٍ بينَنا وعَذُولُ
وفي النفسِ حاجاتٌ إليكَ كثيرةٌ أرى الشرحَ فيها والحديثَ يَطولُ

تسويد أ. عبد الرحيم

بِعيشِكَ حَدِّثْني بِمَنْ قَتَلَ الهوى فإني إلى ذاكَ الحديثِ أَمِيلُ
وما بلغَ العشاقُ حالاً بلغتُها هناكَ مَقامٌ ما إليه سبيلُ

الحال في كلام الصوفيين: حالة المرء إذ ينتشي بالدروشة، والمقامات عند الصوفيين مثل الرتب في الجيوش

وما كُلُّ مخضوبِ البَنانِ بُثَيْنَةٌ — وما كلُّ مَسْلُوبِ الفؤادِ جَميلُ

يزكي أ. عبد الرحيم تسوبدي، ويضيف: «الله!»

أَأَحْبابَنا هذا الضَّنَى قد أَلِفْتُه — فلو زالَ لاسْتَوْحَشْتُ حينَ يزولُ

دَعُوا ذكرَ ذاكَ العَتْبِ مِنَّا ومنْكُمُ — إلى كمْ كِتابٌ بينَنا ورسولُ

ورُدُّوا نَسيماً جاءَ منكُمْ يزورُني — فإنِّي عَليلٌ والنَّسيمُ عَليلُ

أرجِعوا هذا النسيم، فهو عليل (ضعيف أي لطيف لا يبلغ أن يكون ريحاً) وأنا عليل (مريض بحبكم)

٩٥ فلا نزل القطر

وَيْحَ صَبٌّ في محبَّتِكُمْ — كَثُرَتْ فيهِ الأقاويلُ

فإلى كم أنتَ يا سَكَني — كلُّ وعدٍ منكَ مَمْطُولُ

وإذا مَا مُتُّ مِنْ ظَمَأٍ — لا جَرَى مِنْ بَعدِيَ النِّيلُ

يعلق أ. عبد الرحيم، محقاً: يا لطيف!

٩٦ تدق هواء وتطحن ماء

وعاذِلٍ آمِرٍ بالصبرِ قلتُ له: — إنِي وحقِّكَ مشغولٌ عنِ العَذَلِ

أَطَلْتَ عَذْلَ مُحِبٌّ ليس يقبَلُهُ — فكانَ أَضْيَعَ مِنْ دمعٍ على طَلَلِ

٩٧ اذكرني لديها

وأَذْكُرُ أيَّامَ الحجازِ وأَنْثَني — كأَنِي صريعٌ يَعتريهِ خَبالُهُ

صريع: مصاب بنوبة صرْع، خباله: جنونه

ويا صَاحبي بالخَيْفِ كُنْ لِيَ مُسْعِداً — إذا آنَ مِنْ ذاكَ الحَجيجِ ارتِحَالُهُ

الخيف: مكان في مِنى، مسعد: مساعد

وخُذْ جانبَ الواديِ كذا عن يمينِه — بحيثُ القَنا يهتَزُّ مِنْهُ طِوالُهُ

لعله يعني أن المكان معمور بفرسان القبيلة الذين يرفعون القنا (الرماح) ويهزونها في وجه الغرباء حماية للعرض

هُناكَ ترى بيتاً لزينبَ مشرفاً — إذا جئتَ لا يخفَى عليكَ جَلالُهُ

فَعَرِّضْ بِذِكرِي حيثُ تَسمَعُ زينبٌ   وقُلْ ليسَ يَخْلُو ساعةً منكِ بالُهُ
عَساها إذا ما مَرَّ ذِكري بِسَمْعِها   تقولُ: فُلانٌ عندَكُمْ، كيفَ حالُهُ؟

يعلق أ. عبد الرحيم على البيتين الأخيرين بـ «جميلان!» ولا ينسى أبداً إشارة التعجب. وكان بودي أن أنشئ، بادئاً، كلاماً كثيراً في بيان إعجابي بهذين البيتين، وتعجبي من وقوعهما للشاعر، ولأي شاعر، فهما عندي من كلام ربة الشعر، ألقت بهما في قلب شاعرنا كما هما. تنتابني كلما وصلت إلى «كيف حاله؟» حالة من الافتتان لا أستطيع لها تفسيراً

٩٨ ألف الوصل

أقولُ إذْ أبصرتُهُ مقبلاً   معتدلَ القامةِ والشكلِ
يا أَلِفاً مِنْ قَدِّهِ أَقبَلَتْ   بِاللّهِ كُوني أَلِفَ الوصلِ

حتى هذان البيتان ـ على ما فيهما من إشارة إلى الحرف العربي ـ أصر بلمر على ترجمتهما، ودعم الترجمة بحاشية

٩٩ الحبيب السكران

قال البهاء من بحر السلسلة المستحدث، مجزوء الدوبيت:

يا مَنْ لَعِبتْ به الشَّمُولُ   ما أَلْطَفَ هذهِ الشَّمائِلْ

الشمول: الخمر، الشمائل: الخصال

نَشوانُ يَهُزُّهُ دَلالٌ   كالغصنِ مع النسيمِ مائلْ
لا يمكنُه الكلامُ لكنْ،   قد حَمَّلَ طَرْفَهُ رسائلْ
ما أَطيبَ عيشَنا وأَهْنَا   والعاذلُ غائبٌ وغافلْ
عشقٌ ومَسَرَّةٌ وسُكْرٌ   والعقلُ ببعضِ ذاكَ ذاهلْ
والعيشُ كما نحبُّ صَافٍ   والأُنْسُ بما نحبُّ كاملْ
لي فيكَ وقد علمتَ عِشقٌ   لا يَفهَمُ سِرَّهُ العواذلْ
في حبِّكَ قد بَذلتُ رُوحي   إن كنتَ لِمَا بَذلتُ قابلْ
ها عبدُكَ واقفٌ ذليلٌ   بالبابِ يَمُدُّ كَفَّ سائلْ
مِنْ وَصلِكَ بالقليلِ يَرضَى   اَلطَّلُّ مِنَ الحبيبِ وابِلْ

الطل: الرذاذ، الوابل: المطر الكثير. والقصيدة لها لحن قديم، وسترى شرحي في الأبيات والقصائد المقبلة مشتتاً لأن هذا اللحن صار الآن «دودة» في أذني، بحسب تعبير الألمان، وسأردده مكرهاً بيني وبين نفسي

١٠٠ توبة آخر العمر

وقال من بحر السلسلة، وقد أطلق بعضهم على السلسلة اسم الدوبيت، وعكس بعض، ولهم في تفاعيل هذين الضربين أقوال:

ما أعظمَ حسرتي لِعُمْرٍ ... قد ضاعَ ولم أَفُزْ بِطائِلْ
قد عَزَّ عليَّ سوءُ حالي ... ما يفعلُ ما فعلتُ عاقِلْ
يا ربِّ وأنتَ بي رحيمٌ ... قد جئتُكَ راجياً وآمِلْ
يا أكرمَ مَنْ رجَاهُ راجٍ ... عن بابِكَ لا يُرَدُّ سائلْ

١٠١ الله لا الفلك

دَعُوا الوُشاةَ وما قالوا وما نَقلوا ... بيني وبينَكُمُ ما ليس ينفصلُ
لكُمْ سرائرُ في قلبي مخبَّأةٌ ... لا الكُتْبُ تنفعُني فيها ولا الرسلُ

سرائر: أسرار. تسويد أ. عبد الرحيم

أُمْسِي وأصبحُ والأشواقُ تلعَبُ بي ... كأنما أنَا منها شاربٌ ثَمِلُ
فيا رسولي إلى مَنْ لا أَبوحُ به ... إنَّ المُهمَّاتِ فيها يُعرفُ الرجلُ
بلِّغْ سلامي وبالِغْ في الخِطابِ له ... وقَبِّلِ الأرضَ عني عندما تَصِلُ
باللَّهِ عَرِّفْهُ حالي إنْ خَلَوْتَ به ... ولا تُطِلْ فحبيبي عندَهُ مَلَلُ
دَعِ التَّوانيَ في أمرٍ تَهُمُّ به ... فإنَّ صَرْفَ الليالي سائِقٌ عَجِلُ
واعزِمْ متى شئتَ، فالأوقاتُ واحدةٌ ... لا الرَّيْثُ يدفعُ مَقدُوراً ولا العَجَلُ

لا تؤجل عملاً بحجة أن الوقت غداً أنسب منه اليوم فالأوقات واحدة، فلا الريث (البطء) ولا العجل (السرعة) مما يغير القدر

لا تَرْقُبِ النَّجْمَ في أمرِ تحاولُه ... فاللَّهُ يفعلُ، لا جَدْيٌ ولا حَمَلُ

١٠٢ إن بعض الظن..

ما لَه عنِّيَ مالا ... وتَجنَّى فأَطالا
أَتُرى ذاك دلالاً ... مِنْ حبيبي أو مَلالا
هو معذورٌ رأى النا ... سَ يقولونَ فقالا
سيدي لم يُبْقِ لي هجـ ... ـرُكَ بين الناسِ حالا

أنــتَ رُوحــي لا أرى لــي عــنـكَ يـا رُوحـي انـفـصـالا
لا وَحـقِّ الـلَّـهِ مـا ظـنُّـ ـكَ فـي حـقـي حـلالا
إن بـعـضَ الـظَّـنِّ إثـمٌ صـدقَ الـلَّـهُ تـعـالـى

١٠٣ غربة وكربة

إلى كم فُرْقَتي، وكَم ارتحالي؟ فلا أَشكُو لِغيرِ اللَّهِ حالي
تُجدِّدُ لي الحوادثُ كلَّ يومٍ رحيلاً قطُّ لم يخطُرْ بِبالي
وما عَيْشُ الغريبِ بِلا عِيالٍ كَعيشِ القاطنينَ ذَوي العيالِ

١٠٤ قضاء الحاجات

ومِنْ خُلُقي المشهورِ، مذْ كنتُ، أَنني لِغيرِ حبيبٍ قَطُّ لمْ أَتَذَلَّلا

ولم يكن العرب يخجلون من التذلل للحبيبة

فما فاتَني حظّي مِنَ اللَّهْوِ والصِّبا وما فاتَني حظّي مِنَ المجدِ والعُلَى
ويا رُبَّ داعٍ قد دعاني لحاجةٍ فعلتُ له فوقُ الذي كان أَمَّلا
بسطْتُ له وجهاً حيِيّاً ومنطِقاً وفيّاً ومعروفاً هَنيّاً معجَّلا
وراحَ يَراني منعِماً متفضِّلاً ورحتُ أراهُ المنعمَ المتفضِّلا

١٠٥ الكبر عبر

أتريدُ في السَّبعينَ ما قد كنتَ في العشرينَ فاعلْ
هيهاتَ، لا واللَّهِ ما هذا الحديثُ حديثَ عاقِلْ

١٠٦ خيبة

عرفَ الحبيبُ مكانَه فتدلَّلا وقنِعْتُ منه بموعدٍ فتَعَلَّلا

مكانه: مكانته، تعلل: تحجج

وأتى الرسولُ ولم أَجِدْ في وجهِه بِشْراً كما قد كنتُ أَعهَدُ أوَّلا

١٠٧ في وصف بغلة

لكَ يا صديقي بَغْلَةٌ ليستْ تُساوي خَرْدَلَةْ

مـقـدارُ خُـطْـوَتِـهـا الـطـويـ ـلـةِ حـيـن تُـسْـرِعُ أَنْـمُـلَـةْ
تَـهـتـزُّ وَهْـيَ مـكـانَـهـا فـكـأنَّـمـا هِـيَ زَلـزلـةْ
أَشْـبَـهْـتَـهـا بـل أشـبـهَـتْـ ـكَ كـأنَّ بـيـنَـكُـمـا صِـلَـةْ
تَـحـكـي صـفـاتِـكَ فـي الـثَّـقـا لـةِ والـمـهـانـةِ والـبَـلَـهْ

١٠٨ دعوة حبيب

قُـمْ بِـنـا قـد طَـلَـعَ الـفـجْـ ـرُ وقـد أشـرقَ نَـجْـمُـهْ
عـنـدنـا وَرْدٌ جَـنـيٌّ يُـنـعِـشُ الـمـيِّـتَ شَـمُّـهْ

جنيٌّ: رطب جُني لوقته

فَـأَجِـبْ دعـوةَ داعٍ أنـتَ مِـنْ دُنـيـاهُ سَـهْـمُـهْ

سهمه: نصيبه

فـإذا جـئـتَ وغـابَ الـنَّـ ـاسُ طُـرَّاً لا يَـهُـمُّـهْ

١٠٩ في وصف فرس

ولـي فَـرسٌ أَنـتَ الـعـلـيـمُ بـحـالِـهـا وبـالـرغـم مِـنّـي رَبْـطُـهـا ومُـقَـامُـهـا

ربطها: ارتباطي إياها، واتخاذي إياها مطية

ولـمْ يُـبْـقِ مـنـهـا الـجَـهْـدُ إلّا بـقـيَّـةً فـيـغْـدُو عـلـيـهـا أو يـروحُ حِـمـامُـهـا

أي قد تموت في صباحها أو في مسائها

شَـكَـتْـنـي لِـكـلِّ الـنـاسِ وَهْـيَ بَـهـيـمَـةٌ ولـكـنْ، لـهـا حـالٌ فَـصـيـحٌ كـلامُـهـا

شكتني بلسان حالها إذ فقدت لسان مقالها

١١٠ سيحدثن لمن ودعتهم ندم

قال البهاء زهير يمدح مجد الدين بن إسماعيل بن اللمطي سنة ٦٢٩ ويلومه:

أَأُنْـكِـرُ مـا أَوْلَـيْـتَـنـي مِـنْ مَـواهِـبٍ يُـقِـرُّ بِـهـا مِـنْ جِـسـمِـيَ الـلحـمُ والـدَّمُ

مواهب: هبات

ولـي فـي بـلادِ الـلَّـهِ مَـسْـرىً ومَـسْـرَحٌ ولـي مِـنْ عـطـاءِ الـلَّـهِ مَـغْـنـىً ومَـغْـنَـمُ
وأَعْـلَـمُ أنـي غَـالِـطٌ فـي فـراقِـكُـمْ وأَنَّـكُـمُ فـي ذاكَ مِـثْـلـي وأَعْـظَـمُ

فلا طَابَ لي عنكُمْ مُقَامٌ ومَوْطِنٌ ... ولَوْ ضَمَّني فيه المَقَامُ وزَمزَمُ

المقام الثانية: مقام إبراهيم في الحرم المكي

ومِثْلُكَ لا يَأْسَى على فَقْدِ كاتِبٍ ... ولكنَّهُ يَأْسَى عليكَ ويندَمُ
فمَنْ ذا الذي تُدْنيه مِنكَ وتصطَفي ... فيكتُبُ مَا يُوحَى إليكَ ويَكْتُمُ

يوحى إليك: يخطر ببالك

ومَنْ ذا الذي يُرضيكَ منه فَطانَةٌ ... تقولُ فَيَدْري، أو تشيرُ فيفهَمُ
وما كُلُّ أَزهارِ الرياضِ أَرِيجَةٌ ... وما كُلُّ أطيارِ الفَلا تَترَنَّمُ

١١١ أحبها وأفتخر

صَدَقَ الواشونَ فيما زعموا ... أنَا مُغْرىً بِهواها مُغْرمُ
غَلَبَ الوجدُ فلا أَكتُمُهُ ... إنما يُكْتَمُ ما يُكتَتَمُ
تَعِبَ العُذَّالُ بي في حبِّها ... قُضِيَ الأمرُ وجَفَّ القلمُ

جف القلم: أصل التعبير أن ما كتب في اللوح المحفوظ لا يتغير، فالله قدر كل شيء تقديراً. وهنا جف القلم أي انتهى الأمر

أيها السائلُ عن وَجدي بها ... إنه أعظمُ ممَّا تزعُمُ
ظُنَّ خَيراً بينَنا أو غيرَه ... فحبيبي فيه تَحْلُو التُّهَمُ

١١٢ بيتان للصعيد

ويرتاحُ قلبي للصَّعيدِ وأهلِه ... وعَيْشٍ مضى لي عندَهُمْ ومُقامِ
وأهوى وُرودَ النيلِ مِنْ أجلِ أنه ... يمرُّ على قومٍ عَلَيَّ كرامِ

١١٣ ثقيل (٣)

كلما قلتُ استرحْنا ... جاءَنا الشيخُ الإمامُ
فاعتَرانا كلَّنا منـ ... ـه انقباضٌ واحتشامُ
فَهْوَ في المجلسِ فَدْمٌ ... ولنا فَهْوَ فِدامُ

فدم: بليد الفهم، فدام: سِداد يوضع على فم الإبريق، فالشيخ يسد أفواه من بالمجلس إذ يصمتون لحضوره

وعلى الجملةِ فالشيـ ... ـخُ ثقيلٌ والسلامُ

١١٤ هوِّن عليك

أيـهـا الـحـامِـلُ هَـمَّـاً   إن هــذا لا يــدومُ
مـثـلَـمـا تـفْـنَـى الـمـسـرا   تُ، كـذا تـفْـنَـى الـهُـمـومُ
إن قَـسـا الـدهـرُ فـإنَّ الـلَّـ   ـهَ بـالـنـاسِ رحـيـمُ
أو تَـرى الـخـطـبَ عـظـيـمـاً   فـكـذا الأجـرُ عـظـيـمُ

١١٥ عليها الصلاة والصوم

رقَّ فـي الـجـوِّ الـنـسـيـمُ   فـتـفـضَّـلْ يـا نـديـمُ
وكـأنَّ الـفـجـرَ نـهـرٌ   غَـرِقَـتْ فـيـه الـنـجـومُ
فـاجْـلُ بـالـصَّـهـبـاءِ لـيـلاً   بـقـيـتْ مـنـه رُسُـومُ
واسـبِـقِ الـشَّـمـسَ بـشَـمـسٍ   لا تُـواريـهـا الـغُـيـومُ
قَـهـوةٍ رقَّـتْ فـمَـا فـي   كـأسِـهـا إلَّا نَـسـيـمُ

قهوة: خمر

بـنـتِ كـرمٍ لـم يَـفُـزْ قَـطُّ ـ   ـبـهـا إلَّا الـكَـريـمُ
وعـلـى طـيـنَـتِـهـا مِـنْ   سَـالِـفِ الـدهـرِ خُـتُـومُ

كانوا يطينون دن الخمر الكبير إمعاناً في تعتيق الخمر في الظلمة الشديدة، ولعلهم كانوا يختمون عليها، قال ابن الحجاج: «رسموا طين دنها وهو رطب/ باسم كسرى كسرى أنوشروان»

لـم يَـزَلْ عـنـدَ الـمـجـوسـيِّ ـ   ـلـهـا قَـدْرٌ عـظـيـمُ
ولـهـا الـراهِـبُ فـي الـديـ   ـرِ يُـصَـلِّـي ويـصـومُ

١١٦ إمام العاشقين

لا تَـسَـلْ فـي الـحـب غـيـري   أنـا فـي الـحـبِّ إمـامُ
لـيَ فـيـه مـذهـبٌ يـتْـ   ـبَـعُـنـي فـيـه الأنـامُ
أيـهـا الـعـاشـقُ إنَّ الـ   ـعـشـقَ مِـنْ بـعـدي حَـرامُ
كـلُّ نـارٍ، غـيـرَ نـارِ الـ   ـعـشـقِ، بـردٌ وسَـلامُ

١١٧ اذكره كيفما كان

أيـــهـــا الـــلائـــمُ فـــيـــه لا تـــقـــصِّــرْ فـــي مَـــلامـــي

فيه: في حبه

فـــمـــتـــى كـــرَّرْتَ ذِكْـــرا هُ يَـــزِدْ فـــيـــهِ غَـــرامـــي

١١٨ من لي سواك

مَـــنْ لـــي سِـــواكَ إذا شـــكـــو تُ لـــهُ، يَـــرِقُّ ويَـــرحَـــمُ

قـــد مُـــتُّ مِـــنْ شـــوقـــي إلـــيـــ ـكَ، تـــعـــيـــشُ أنـــتَ وتَـــسْـــلَـــمُ

١١٩ جننه المنصب

ورئـــيـــسٍ ذي خِـــسَّـــةٍ كُـــلُّ مَـــنْ شـــئـــتَ لائـــمُـــهْ

جَـــنَّـــنَـــتْـــهُ وِلايَـــةٌ قَـــلَّ فـــيـــهـــا مُـــسَـــالِـــمُـــهْ

قـــلـــتُ إذ راحَ غـــارقـــاً فـــي بِـــحـــارٍ تُـــلاطِـــمُـــهْ

عـــن قـــريـــبٍ تَـــرَوْنَ حَـــا سِـــدَهُ وَهْـــوَ رَاحِـــمُـــهْ

بعد عزله المرتقب سيرحمه (يشفق عليه) من كان يحسده

١٢٠ قلب ذو أمكنة

وما حَلَّ عنديِ غيرُكُمْ في مكانِكُمْ لـكـلِّ حـبـيـبٍ فـي الـفـؤادِ مَـكـانُ

١٢١ إن جاءها الأعمى

خُـذْ فـارغـاً وهـاتِـه مَـلآنـا مِـنْ قـهـوةٍ قـد عُـتِّـقَـتْ أزمـانـا

أَقَـلُّ مـا مَـلَـكَـهَـا مَـالِـكُـهَـا أَنْ لَـحِـقَـتْ عَـهْـدَ أنـوشِـروانَـا

ذَخـيـرةُ الـراهـبِ كـيْ يـجـعَـلَـهـا، إذا أتـتْ أَعـيـادُهُ، قُـربـانـا

تـكـادُ مِـنْ لْألائِـهـا إذ بَـدَتْ تَـهـدي إلـى مـكـانِـهـا الـعُـمْـيـانـا

ولـيِ نـديـمٌ مـاجِـدٌ لا أَرتَـضـي عـنـه بَـديـلاً كـائـنـاً مـن كـانـا

أخـو فُـكـاهـاتٍ مَـتَـى حَـاضَـرْتَـهُ فـي مـجـلـسٍ وجـدتَـه بُـسـتـانـا

حاضرته: ناقلته الأحاديث. والمحاضرة عند القدماء تبادل الأحاديث بين «الحاضرين»، وجعلوا كثيراً من كتبهم مملوءاً بالنوادر اللائقة بمجالس الأمراء، وسموا بعض هذه الكتب محاضرات. والمحاضرة اليوم صارت ـ في غرب وشرق ـ

حديثاً طويلاً مملولاً يلقيه شخص بليد على مستمعين يجاهدون في رفع جفونهم، وتسقط بين الفينة والفينة. وعندما يحين وقت الأسئلة يتصدى لها أسخف الحاضرين وأشدهم طاووسية، فيلقي محاضرة من عنده، ويعوّذها بسؤال ليس بسؤال

١٢٢ لم يبق غيرك فلا تتغير

لـم يـبـقَ لـيِ إلَّاكَ خِـلٌّ مُـحْـسِـنٌ   وعَـسـاكَ أن تَـبقَـى عـلى الإحسـانِ
إنـيِ لأعـجَـزُ أنْ أرَى مـتـحـمِّـلاً   غَـدرَيْـنِ: غَـدْرَ أخٍ وغـدرَ زمـانِ

١٢٣ المكان والإمكان

وقال يمدح الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف ابن الملك الكامل سنة ٦٢٠:

لـكُـمْ أيـنـما كـنـتُـمْ مـكـانٌ وإمـكـانُ   ومُلْكٌ له تَعْنُو الـمُلوكُ، وسُلطانُ

تعنو: تخضع

فَحسْبُكِ قد وافَاكِ يا مِصْرُ يوسُفٌ   وحسْبُكَ قد وافَاكَ يا نيلُ طُوفانُ

فالممدوح لمصر كيوسف النبي الذي كان وزيراً يدير شؤون المملكة

بِـعـزمٍ تـخـافُ الأرضُ شِـدَّةَ وقـعِـهِ   ويَـرتَـاعُ ثَـهْـلانٌ لـه، وَهْـوَ ثَـهْـلانُ

ثهلان: من جبال العرب

وتُـمـلأُ أحـشـاءُ الـبـلادِ مـخـافـةً   وتَـرتـجُّ بـغـدادٌ لـه وخُـراسـانُ
فأَمَّنْتَ تلكَ الأرضَ مِنْ كُلِّ رَوْعَةٍ   وقـد عـمَّـهـا ظُـلْـمٌ كـثـيـرٌ وطُـغـيـانُ

الروعة: الخوف

وهُمْ يَصِفُونَ الرمحَ أسمَرَ ظَامِياً   فَـهَـا هُـوَ مُـحْـمَـرٌّ لَـدَيْـكَ وَرَيَّـانُ

تصف العرب الرمح بانه أسمر وظامئ (جاف)، ولكن رمح الممدوح محمر وقد ارتوى بدم الأعداء

لَعَمْرُكَ ما في القومِ بَعدِيَ قائلٌ   فـهـذا مـجـالٌ لـلـجِـيـادِ ومَـيـدانُ
فـدعْ كـلَّ مـاءٍ حـيـنَ يُـذكَـرُ زمـزمٌ   ودَعْ كـلَّ وَادٍ حـيـنَ يُـذْكَـرُ نَـعْـمـانُ

نعمان: الوادي الذي تضوع بطنه مسكاً عندما به مرت زينب وصويحباتها

١٢٤ اذكر الله

أَخْلِصْ لِرَبِّكَ فيما كانَ مِنْ عملٍ   ولْـيـتَّـفِـقْ مـنـكَ إسـرارٌ وإعـلانُ
فـكُـلُّ فِـكْـرٍ لِـغَـيْـرِ الـلَّـهِ وَسْـوَسَـةٌ   وكُـلُّ ذِكْـرٍ لـغـيـرِ الـلَّـهِ نِـسـيـانُ

١٢٥ اصطلحنا

سمعَ الناسُ وقُلنا وافتَضَحنا واسترحْنا
بِتُّ والبَدْرُ نديمي ففَعلنا وتَركنا
راحَ يدعُونا التَّصابي فسمِعنا وأطعنا
وجعلناه يقيناً بعدَما قد كان ظنَّا
لي حبيبٌ ليَ منه كلُّ شيءٍ أتمنَّى
فَهْوَ بَدرٌ يتجلَّى وَهْوَ غُصْنٌ يتثَنَّى
كان غضباناً فلمَّا أن تلاقيْنا اصطَلَحْنا

١٢٦ وفاء

لي صاحبٌ غبتُ عنه ولستُ أذْكُرُ مَنْ هُوُ
سَمعتُ عنه حديثاً أعاذَنا اللَّهُ منهُ
فكَمْ أكابِرُ عنه والقولُ يَكثُرُ عنهُ
هذا لِيَعْلَمَ أنِّي في غَيْبِهِ لم أخُنْهُ

١٢٧ صفحة جديدة

مِنَ اليومِ تعارَفْنا ونَطْوِي ما جرى مِنَّا

أي كأننا ما تعارفنا إلا اليوم

ولا كانَ ولا صارَ ولا قلتُمْ ولا قُلْنا
وإن كانَ ولا بُدَّ مِنَ العَتْبِ فَبِالحُسْنَى
فقد قيلَ لنا عنكُمْ وقد قيلَ لكُمْ عنَّا
وما أحسَنَ أن نرجِـ ـعَ للوصْلِ كما كنَّا

١٢٨ نم بعيني

قال يرثي فتح الدين عثمان بن حسام الدين والي الإسكندرية، وتوفي ٦٣١:

لقد دَفَنَ الأقوامُ يومَ وفاتِهِ بقيَّةَ معروفٍ وخيرٍ وإحسانِ

وواروْهُ والـذِّكـرى تُـمَـثِّـلُ شـخـصَـه　　كـأنَّـهُـمُ وَارَوْهُ مـا بـيـنَ أجـفـانـي

قال بدوي الجبل يرثي سعد الله الجابري: «نم بعيني فقد فرشت لك الأحـ لام مخضلة الورود طريقا» ولا نراه سرق المعنى

يـواجِـهُـنـي أيـنَ اتَّـجـهـتُ خـيـالُـه　　كـمـا كـنـتُ ألـقـاهُ قـديـمـاً ويـلـقـانـي

١٢٩ في باب الكريم

كـانَ الـبـيـاضُ يـروقُـنـي　　حـتـى رأيـتُ الـشـيْـبَ مِـنِّـي

ويُـقـالُ إنَّـكَ قـد كَـبِـرْ　　تَ عـن الـهـوى فـأقـولُ إنِّـي..

وأظَـلُّ أَقْـرَعُ دائـمـاً　　سِـنِّـي إذا حَـقَّـقْـتُ سِـنِّـي

قرع السن: كناية عن الندم

حـتـى انـقـضَـى زمـنُ الـصِّـبـا　　فـخـرجْـتُ مِـنْ حـزنٍ لِـحُـزْنِ

ولـقـد صَـحَـوْتُ، وتُـبْـتُ عَـنْ　　خـمـرِ الـهـوى، وكَـسَـرْتُ دَنِّـي

ووَقَـفْـتُ فـي بـابِ الـكـريـ　　ـمِ عَـسَـاهُ يَـسْـمَـحُ لـي بِـإِذْنِ

تعليق أ. عبد الرحيم على البيتين الأخيرين: «عاليان جداً صوفياً»

١٣٠ الغائب ما له نائب

مـا الـعـقـلُ إلَّا زِيـنـةٌ　　سـبـحـانَ مَـنْ أَخْـلاكَ مِـنْـهُ

قُـسِـمَـتْ عـلـى الـنـاسِ الـعـقـو　　لُ، وكـانَ أمـراً غِـبْـتَ عـنـهُ

١٣١ حيائي كافلي

أُحِـبُّ مِـنَ الأشـيـاءِ مـا كـانَ فـائـقـاً　　ومـا الـدُّونُ إلَّا مَـنْ يَـمـيـلُ لِـدُونِ

كان أديب فلسطين خليل السكاكيني يتخذ هذا البيت شعاراً. تجد في الطبقات الوسطى ناساً كثيرين يشمخون ويتشبهون بالأثرياء، فلا يلبسون إلا ما غلا ثمنه، ولا يأكلون إلا أطيب طعام، كأنهم يصرخون بأعلى صوتهم: «نحن لا ننتسب إلى تحت، بل إلى فوق». ثم قد ترى الشاب الثري ثراء فاحشاً والفقير فقراً مدقعاً يأكلان من خشف الطعام ويلبسان الممزق. الطبقة الوسطى أتعبت كارل ماركس كثيراً

وأَهْـجُـرُ شُـرْبَ الـمـاءِ غـيـرَ مُـصَـفَّـقٍ　　زُلالٍ وأَكْـلَ الـلَّـحـمِ غـيـرَ سَـمـيـنِ

المصفق: المصفى، والزلال: الصافي، اللحم السمين: ذو الدهن، وكان مفضلاً قبل اختراع الكولسترول

وإنْ قيلَ لي هذا رخيصٌ تركتُه ولا أَرْتَضي إلّا بِكُلِّ ثَمينِ
إذا قلتُ قولاً كنتُ للقولِ فاعلاً وكانَ حيائي كافِلي وضَميني

١٣٢ دع الطابق مستوراً

ما قلتَ أنتَ ولا سمعتُ أنا هذا كلامٌ لا يَليقُ بنا
إنَّ الكرامَ إذا صحبتَهُمُ سَتَرُوا القبيحَ وأَظهَروا الحَسَنا

١٣٣ كاد..

لله غَانِيةٌ يوماً خَلَوْتُ بها في مَجلسٍ غابَ عنَّا فيهِ وَاشيِها
كلٌّ لهُ حاجَةٌ مِنْ وَصْلِ صاحِبِه لولا يَسيرُ حياءٍ كادَ يقضيِها
ولِلعيونِ رِسالاتٌ مُرَدَّدَةٌ تَدري القلوبُ مَعانيِها ونُخفيِها

١٣٤ عيون وأفواه

أَفْدي حَبيباً لِساني ليس يذكُرُهُ خوفَ الوُشَاةِ وقلبي ليس ينسَاهُ
والناسُ فينا ببعضِ القولِ قد لَهِجُوا لو صَحَّ ما ذَكَرُوا ما كنتُ آبَاهُ

لهجوا: تكلموا كثيراً، آباه: أرفضه

كادَتْ عيونُهُمُ بالبُغْضِ تَنطِقُ لي حتى كأَنَّ عيونَ القومِ أَفواهُ

١٣٥ كسر الجرة

وعَرَّضْتُمْ بأقوالٍ وما نَجهَلُ معنَاها
نَبَشْتُمْ بينَنا أشيا ءَ كنَّا قد دَفَنَّاها
وكمْ جاءَتْ لنا عنكُمْ أَحاديثُ رَدَدْنَاها
وأَشياءُ رأَيْناها وقلنا ما رأَيْناها
فلا واللَّهِ ما يَحْسُنُ بينَ الناسِ ذِكْرَاها
قَرأْنا سُورةَ السُّلْوا نِ عنكُمْ، بل حَفِظْناها

أي سلوناكم ونسيناكم

وما زِلتُمْ بنا حتى جَسَرنا وفَعَلنَاها

فَـرِجْـلٌ تـطـلـبُ الـمَـسْـعَـى ... إلـيـكُـمْ قـد مَـنَـعْـنَـاهـا
وعـــيــنٌ تَــتَــمـــنَّـــى أنْ ... تَـراكُـمْ قـد غَـضَـضْـنَـاهـا
ونـفـسٌ كـلـمـا اشـتـاقَـتْ ... لِـلُـقـيـاكُـمْ زَجَـرنـاهـا
وكـانــتْ بـيـنَـنـا طَـاقٌ ... فـهـا نـحـن سَـدَدْنـاهـا

طاق: نافذة

ولـــو أنَّــكُـــمُ جـنَّـــا ... تُ عَـدْنٍ مَـا دَخَـلْـنـاهـا

١٣٦ في انتظارك.. وعلى مهلك

ولـم أرَ مَـنْ لـه حَـالٌ كَـحالـي ... فَأعْرِفَ في الصَّبابَةِ لي شَبيها
فَـجُـدْ بِـرِضـاكَ إن رِضـاكَ عَـنِّي ... لَأعْـظَـمُ شَـهْـوَةٍ أنـا أشـتَـهِـيها
ولـيِ وَعْـدٌ إلـى سـنـةٍ فـإنْ لـم ... يَكُـنْ فيهـا، يَكُـنْ فيمَا يَلِيها

١٣٧ غاب القط

رحــلَ الــواشــونَ عــنــا ... شَـكَـرَ الـلَّـهُ الـمَـطـايـا

المطايا: الإبل التي ذهبت بهم

خَـرجَـتْ تـلـكَ الأحـاديـ ... ـثُ الـتـي كـانـتْ خَـبَـايـا

برزت للعلن أحايث الغرام التي كانت مخبأة

وأتَـتْـنـا رُسُـلُ الأحـ ... ـبـابِ مـنـهُـمْ بِـالـهـدايـا
كـان مـا كـان، ومـنْـهُ ... بَـعْـدُ فـي الـنـفـسِ بَـقَـايـا

١٣٨ شيء في الزاوية

قـالـوا كَـبِـرْتَ عـنِ الـصِّـبَـا ... وقَـطَـعْـتَ تـلـكَ الـنَّـاحِـيَـةْ
فَـدَعِ الـصِّـبَـا لِـرجَـالِـهِ ... واخـلـعْ ثـيـابَ الـعَـارِيَـةْ

ثياب العارية: الثياب المستعارة

ونَـعَـمْ، كَـبِـرْتُ وإنَّـمـا ... تـلـكَ الـشَّـمـائِـلُ بـاقِـيَـةْ
ويَـفـوحُ مِـنْ عِـطْـفَـيَّ أنـ ... ـفـاسُ الـشـبـابِ كـمـا هِـيَـهْ

عطفي: جانبيّ

ويَميلُ بي نحوَ الصِّبَا قلبٌ رقيقُ الحَاشيَةْ
فيهِ مِنَ الطَّرَبِ القديـ ـمِ بقيَّةٌ في الزَّاوِيَةْ

«في الزاوية» هذه فيها ظرف كثير

١٣٩ امتطاء المعصية

وفَرَسٍ على المسا وِي كلِّها مُحْتَوِيَةْ
وليس فيها خَصْلَةٌ واحِدَةٌ مُسْتَوِيَةْ
مُسْتَقْبَحٌ ركوبُها مثلَ ركوبِ المعصيَةْ

١٤٠ فرصة وضاعت

لو تَراني وحبيبي عندما فَرَّ مثلَ الظبيِ مِنْ بينِ يَدَيّ
ومَضَى يَعْدُو وأَعْدُو خلفَه وتَرانا قد طَوَيْنا الأَرضَ طَيّ
قالَ: ما ترجِعُ عنِّي؟ قلتُ لا، قال ما تطلبُ مِنِّي؟ قلتُ: شَيّ
فانثَنَى يَحْمَرُّ مِني خَجَلاً وثَناهُ التِّيهُ عَنِّي، لا إِلَيّ
كِدْتُ بينَ الناسِ أَنْ أَلْثِمَهُ آهِ لو أَفْعَلُ، ما كان عَلَيّ؟

ألثمه: أقبّله

فهرس القوافي، البهاء زهير
(القافية، فرقم القطعة)

فهرس القوافي العام
(القافية متبوعة برقم القطعة، ثم اسم الباب)

أبواب الكتاب: ١ ابن الرومي ٢ ابن المعتز ٣ المتنبي ٤ أبو فراس ٥ المعري (سقط الزند)، ثم (اللزوميات) ٦ يتيمة الدهر ٧ دمية القصر ٨ البهاء زهير

تألق الشعر عصر المتنبي من ابن الرومي حتى سقوط بغداد

توهج الشعر العربي في ديواني ابن الرومي وابن المعتز، ثم خرج عليه من الصحراء المتنبي الذي قيل إنه أخمل ألف شاعر في عصره، أي أطفأ ذكرهم، لشهرته ولجودة شعره. لكنّ أبا فراس الحمداني كان شمساً إلى جانب الشمس، وتألق. وجاء أبو العلاء المعري بعد هذين الكبيرين فتألق. واستراح الشعر العربي عقوداً طويلة سمعنا فيها أصواتاً خافتة. وفي هذا الكتاب أنصتنا جيداً، واقتطفنا من شعر هؤلاء أطيبه، ثم جاء البهاء زهير فكان بلبلاً، تقرأ شعره فكأنه كُتب أول أمس.

وصادف أن مات البهاء زهير في السنة التي سقطت فيها بغداد بيد هولاكو، فكان شعره خاتمة عصر الشعر العربي القديم كله، وسننتظر مئات السنين حتى يبعث الشعر العربي من جديد على يد البارودي.

في هذا الكتاب مئات القصائد والقطع لعشرات الشعراء. عَصَرْنا الدواوين عصراً، واخترنا أجمل القصائد، وشرحنا ذلك كله شرحاً قصدنا فيه أن يكون ملائماً لقارئ معاصر، وقدمنا لكل شاعر بمقدمة عن حياته وعن شعره، وكنا في مقدماتنا نستطرد فنحدثك عن همومنا في زمننا هذا.

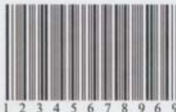
- كل باب مذيَل بفهرس للقوافي، وفي آخر الكتاب فهرس عام لها.

- مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد «تألق الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب.

- تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي. مهندس الصوت: محمد ماضي.



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com



2020
8.1.2020

عارف حجاوي



تجدد الشعر

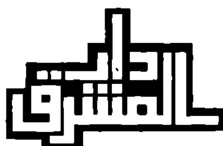
زبدة الشعر العباسي من بشار إلى البحتري

دار المشرق

تجدُّد الشعر

زبدة الشعر العباسيّ، من بشار إلى البحتريّ

عارف حجاوي



تجدُّد الشعر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

حجاوي، عارف
تجدُّد الشعر: زبدة الشعر العباسيّ، من بشار إلى البحتريّ/ عارف حجاوي.
٧٦٦ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٧

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

يضم هذا الكتاب ألفاً ومئتي قطعة. تكون القطعة بيتاً وتكون قصيدة كبيرة، أو أي شيء بينهما. هي أشعار انتخبتها من دواوين عشرة شعراء حملوا الشعر العربي وانطلقوا به عالياً كي يحلق في مدار جديد.

البدء ببشار الشاعر المتهتِّك المتمرد، وكل شعرائي متهتكون متمردون، جزئياً أو كلياً، وانتظر أسطراً وسترى. ظل بشار «يتخيل» أنه يحن إلى دين أجداده عبدة النار «الأرض مظلمة والنار مشرقة/والنار معبودة مذ كانت النار»، هذا رغم نشوئه في أحضان العربية التي لم يعرف لغة غيرها. كان بشار رغم عماه شهوانياً ـ ومن قال إن الأعمى أبعد عن الشهوانية من أخيه المبصر؟ ـ، وعبر بشار عن شهوانيته في أشعار كثيرة نقلنا منها الكثير. يحدثنا عن فتاته: «تقول وقد خلوتُ بها :/ تكلمْ واكفِني يدكا».

والمتهتك الثاني مجن سنوات قلائل ثم انعكس انعكاسة غريبة أنتجت لنا أطرف دواوين الشعر العربي. هذا أبو العتاهية. عاش طويلاً، وعاش وهو في مطلع كل صباح، ومطلع كل قصيدة، يذكر الموت. كان يعشق الحياة عشقاً أنساه أن يعيشها. سوف يلومني بعض القراء لأنني أخذت من أشعار العتاهي كثيراً، ولكنني كنت وأنا أطالع ديوانه أقف حيال معانيه الموتية وقفاتٍ اندهاشية كثيرة. . من أين يأتي هذا الشاعر بكل هذا الدفق من المعاني في موضوع واحد شديد الضيق. الحياة عامرة بالمعاني، والموت معنى واحد. أبو العتاهية يرى موتاً في الحياة «ما ارتد طرف امرئ بلحظته/ إلا وشيء يموت في جسده»، وهو يمر بالمقابر ويقول لنفسه «معقول! أمن المعقول؟ أيعقل أن هؤلاء كانوا ذات يوم بشراً؟» هذا ما أترجمه أنا عنه لا ما قاله فعلاً. . قال: «ألا تعجبون لأهل القبور/ كأنهم لم يكونوا بشرْ».

ونستريح عند شاعر صحب هارون الرشيد في حله وترحاله، فهو حاضر في مجلسه، ومرافق له ضمن الحاشية. لكنه قصر شعره على الغزل. هذا شاعر عذري في زمن غير عذري. حتى عندما اصطحبه الرشيد معه إلى خراسان فقد تململ وقال شعراً في ذلك، فأعطاه الرشيد مالاً وأذن له بالعودة إلى بغداد. نسيت أن أذكر لكم اسمه، هو العباس بن الأحنف. تعجبني للعباس أبيات بالعشرات انتخبتها لك ضمن ما انتخبته. ولكنني أذكر لك بيتاً ترنمت به قديماً، وبيتاً أترنم به اليوم كثيراً. بيت اليوم هو «وحدثتني يا سعد عنها فزدتني/ جنوناً، فزدني من حديثك يا سعد». والبيت القديم كنت قرأته في إذاعة لندن، البي بي سي، أيام عملت بها. كنت أنشدته مترنماً ممتلئاً بمعناه: «يا من تمادى قلبه في الهوى/ سال بك السيل ولا تدري»، وصادف أن كنت في القاهرة أحضر معرض الكتاب، وجاء من أقصى المعرض رجل يبحث عني، وعندما وجدني قال لي: «يا من تمادى قلبه في الهوى/ سااال بك السيل ولا تدري» وأنشد البيت مثلما كنت أنشدته، ثم انصرف هازاً رأسه.

ثم تقلب الصفحة إلى فصل يضم أشعار مسلم بن الوليد. هذا الشاعر الذي فتح ورشة لصناعة الشعر وبدأ يصوغ الأبيات مقتنصاً فيها ما استطاع من المحسنات. لم أستطع أن أحبه من النظرة الأولى، غير أنني وقفت ببيت له، أطلت الوقوف، وأطلت التعجب: «يا ليت ماء الفرات يخبرنا/ أين تولت بأهلها السفن». ومضيت أحرث ديوان مسلم، وأفك معمياته، وأرهقني. وسعدت بما جنيت منه، ثم شقيت بشرح ما اقتنصته مثلما تشقى وأنت تحل مربع الكلمات المتقاطعة اللغزي. وهذا النوع، عنيت «اللغزي» مشهور في اللغات الأوروبية. يقول لك، مثلاً: مدينة فيها العدل وفيها وحل، ١١ حرفاً. وعليك أن تقول في مخك إن العدل هو «القسط» وإن الوحل «طين»، فالمدينة إذن «القسط ن طين ية».

كان صديقي الشاعر محمد مسعد، جاراً لي في الأيام الخوالي، وكنا نتبادل مربعات الكلمات المتقاطعة، نقطع بها أياماً طويلة من أيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى. ذات يوم ثرت به ثورة عارمة، فقد كتب لي «ارتعاش»، وكان علي أن أحزر أن المقصود هو الزعيم الهندي «راجيف غاندي». فكأن الارتعاش يجب أن يوحي بالرجفة ثم براجيف. وعندما أصبحت ذات سنة رئيساً لتحرير الصحيفة الرسمية للبلد، كنت أقعد، بعد «تسكير» الصفحة الأولى،

أرتب الكلمات المتقاطعة لنشرها في الأعداد المقبلة. ولما قررنا أن نجعل للفائزين جوائز ساق القدر إليَّ عدداً من مهووسي هذا العبث فسعدت بهم أيما سعادة، ولم أكن أضع اسمي بالطبع على هذه الألغاز، فقد كنت أصطنع وقاراً لا بد منه. غير أن خلف وقاري، في كل شؤون حياتي، عبثاً كامناً لن أعفيك منه في أي صفحة من صفحات هذا الكتاب.

عمن كنا نتحدث؟ عن مسلم بن الوليد. قد لخصته لك تلخيصاً وشرحته شرحاً احتسبت تعبي فيه.

ثم نأتي إلى أبي نواس. فهل اقتبسنا شيئاً مما أفحش فيه؟ نعم، قد فعلنا. أشياء لا شيئاً واحداً. كان عصرهم ذاك ـ عصر هارون الرشيد ـ عصر استرخاء الدولة، كان «يوم الزينة» في حياة الأمة العربية الإسلامية. وابتلي صاحبنا بالخمر، وبما هو أوبق منها. وحدثناك عنه بحب. قد مات أبو نواس واختلطت عظامه بتراب الأرض، وظل العرب يصرون على التغني بشعره، فعاش. وحقق ديوانه تحقيقاً ممتازاً سليم قهوجي، وأفدنا من تحقيقه ومن شرحه. والديوان ينطلق بالقصيدة الهمزية المشهورة: «دع عنك لومي فإن اللوم إغراء/ وداوني بالتي كانت هي الداء». وقد جعلها قهوجي عشرة أبيات مسقطاً منها بيتاً وجده فاحشاً. نحن لم نسقط البيت.

هذا الكتاب، وكثير مما أكتب، واقع تحت الاتهام بالخروج. الشعر خروج وتمرد. وما كان منه متصالحاً مع المجتمع فهو الشعر الضعيف. لي صاحب يذكر الشاعر الصالح فيترحم عليه، ويذكر الفاسق فيستنزل عليه اللعنة. أنا مخلوق خلقةً أخرى. والسلام.

بعد أبي نواس يأتي دِعبل الخزاعي. وأنا أرتب الشعراء حسب سنة المولد، لا الوفاة كما درج بعض الدارسين، فالسنوات الأولى من حياة الشاعر هي التي يختمر فيها شعره. عاش دعبل خمساً وتسعين سنة، عاش خمسين منها وهو.. «أحمل خشبتي على كتفي ولا أجد من يصلبني عليها». كيف لا وهو قد هجا ستة خلفاء ونصفاً. هجاهم بالترتيب من الرشيد إلى المتوكل. فأما النصف فهو إبراهيم بن المهدي الذي نصب نفسه خليفة فيما بين مقتل الأمين وقدوم المأمون إلى بغداد. ونال نصيبه من لسان شاعرنا. استقبل دعبل تنصيب الخليفة المعتصم بقوله «ملوك بني العباس في الكتب سبعة/ ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب// كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة/ خيار إذا عدوا وثامنهم كلب»،

ومات المعتصم وقام الواثق، فاستقبله دعبل بقوله «خليفة مات لم يحزن له أحد/وآخر قام لم يفرح به أحد». ومن صناعة دعبل البيت المشهور «لا تعجبي يا سلم من رجل/ضحك المشيب برأسه فبكى».

ظل يعجبني بيت آخر لدعبل، عن قبيلته خزاعة: «كانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعت/فقص مر الليالي من حواشيها». وكنت في كل مرة أقلب الكتب باحثاً عن هذه القصيدة ناسياً من قالها، فقد عشت ردحاً من الزمن قبل غوغل، ثم ها أنذا أقيد هذه القصيدة تقييداً. ولعل القارئ يحس إحساساً دفيناً بأنني كتبت هذا الكتاب لنفسي لا له. إحساس صادق. أنا منذ سنين كثيرة ألملم الشعر الجميل كي آتنس به، وفي هذا الكتاب فصول كتبتها قبل بضع سنين وأخرى كتبتها قبل بضعة أسابيع، وإنما أسعى في إخراج هذا للناس كي يزيد أنسي بمشاركة محبي الأدب إياي، وكي أزيد حياتي عرضاً، عاجزاً عن زيادتها طولاً. ولعل القارئ أن يظن أن من بعض أسباب طباعتي لهذا الكتاب أن أضع اسمي على غلافه وأسمي نفسي مؤلفاً. صدق ظنك. أرى القارئ يحدس ببراعة ويعرف كل شيء قبل أن أقوله، تبارك الله.

يمكنني أن أنشر هذا الكتاب على الإنترنت، لكنني أريد الحصول على «مصداقية الورق». فما زال الكتاب الورقي هو الكتاب.

يأتيك بعد دعبل الشاعر الذي قتل زوجته، وهو ديك الجن الحمصي. ولأنه ارتكب هذه الجريمة أسْطَره الناس، وسار ذكره صاعداً تلال السنين هابطاً وديانها حتى وصل إلينا. ووصل إلينا من شعره ما يشهد له بالشاعرية، وبالوحشية، وبالرقة، وبقلة الدين. قتل زوجته شاكاً فيها ثم رثاها بحرقة «لو كان يدري الميت ماذا بعده/بالحي حل، بكى له في قبره». ولا نظن زوجته «ورد» بكت له في قبرها، ولكننا ـ نحن ذكور هذا العالم الناطق بالعربية ـ نبكي لأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا لِما يصادفن من شبه الوأد.

ولئن سمع كثيرون باسم ديك الجن فلعل من سمع باسم علي بن الجهم قلة من الناس. هذا رجل مشاكس، شديد الفخر بنفسه وبعائلته، يمدح بعنف ويرثي بعنف، ويتوجع لما أصابه بعنف. وقد لقي الحبس والصلب والضرب واستصفاء الأموال، وظل يقول شعراً من أعلى الشعر. يعرف له الناس «عيون المها بين الرصافة والجسر/جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»، لكن له قلائد غيرها لا تقل عنها بحال، وله من الشعر ما يفوق هذه القصيدة جمالاً.

شرحنا شعره شرحاً وافياً.. ولعلك تلاحظ أننا فيما أوردنا لأبي العتاهية لم نشرح إلا قليلاً، ذلك أن شعره كالماء. شعر ابن الجهم كالخمر المعتقة.

الشعراء هم الذين يصنعون اللغة. المعنى لجبران. وشعرائي العشرة في هذا الكتاب هم الذين حفروا في ساحة العربية آباراً، وبنوا فيها قصوراً، وجعلوها لغة عامرة كبيرة، وحمَّلوا كلماتها بالمعاني. والشاعر الذي قرر أن يفكك اللغة العربية ثم يبنيها من جديد، مثلما فكك ستالين مليون مصنع ثم أعاد تركيبها شرقاً أمام زحف هتلر، هو أبو تمام.

هو صاحب «السيف أصدق أنباء من الكتب»، وصاحب «ما الحب إلا للحبيب الأول». وأبو تمام قد صعد فوق كتفين عاليتين: كتف مسلم وكتف أبي نواس، وتعملق في شعره، وجهز كتفيه كي تحملا بعد حين المتنبي.

وكان لأبي تمام تلميذ نابه التقى به قليلاً. والتلميذ النابه لا يحتاج من أستاذه إلى دروس.. يحتاج فقط إلى الإلهام وإلى أن يرى الأستاذ عالياً في السماء حتى يشرئب إليه، ويزاحمه بين النجوم. التلميذ هو البحتري.

كأستاذه كان البحتري معجباً بشعره، يصفه في شعره. يقول «فإذا ما بنيت بيتاً تبخترت.. كأني بنيت ذات العماد». وكان أستاذه أبو تمام جعل قوافي القصيدة يغار بعضها من بعض، فهذه قافية استقرت مستريحة في نهاية البيت، وتلك أخرى تريد أن تقعد مكانها، ويكاد الأمر يصل إلى الاقتتال «تغاير الشعر فيه إذ سهرت له/ حتى كأن قوافيه ستقتتل».

عاش البحتري ثمانين سنة، ضعف عمر أستاذه. وجاد في أخريات سنيه بقصيدته السينية التي وصف فيها إيوان كسرى. وهي قصيدة تستمد بعض جمالها من أن شاعرنا قالها لا يمدح أحداً ولا يطلب عليها عطاء من أحد. ذهب إلى الإيوان مع ولده وقعد هناك، ورأى وتعجب مما رأى، وقال قصيدة لم تعرف العربية سينية أجمل منها. والطريف أن البحتري بعد حين مدح أحد الأمراء الفرس بقصيدة أحاله فيها على قصيدته في مدح إيوان كسرى، كأنما ندم على أن فوت تلك القصيدة دون أن يضمنها مدحاً يجر عليه بعض المال (قد مدحنا إيوان كسرى وجئنا/ نستثيب النعمى من ابن ثوابة).

هؤلاء شعرائي العشرة الذين جددوا الشعر العربي ونقلوه من البداوة إلى الحضارة. وبقيت فيهم من البداوة بقية، فالناقة ظلت وسيلة المواصلات

المهمة، وبلاد العرب التي قيل فيها هذا الشعر، العراق والشام، كانت، وما زالت، صحراء. لقد نقل هؤلاء اللغة العربية والشعر العربي نقلة قوية، ولكنهم أضمروا حنيناً للشعر القديم وظلوا، في القصيدة بعد القصيدة، يتلمظون باللغة القديمة، ويدخلونها في أشعارهم. مثلما ظللنا نفعل حتى اليوم. فالفصحى ضاربة الجذور على عمق ألف وخمسمئة سنة، وفي هذا مشكلتها، وفيه جمالها.

في هذه الحقبة العباسية من تاريخ أدبنا العربي أخذنا عن بلاط كسرى مفهوم «الخدمة». فصار الشاعر إذا سخر منه الخليفة طأطأ رأسه ورأى في هذا تأديباً لا عار فيه ولا شنار، وصار الشاعر إذا اقترب من الخليفة بعض الاقتراب اجترأ على الوزير. لكنه يمدح الوزير، ويخلط في قصيدته المدح بالعتاب وبقليل من شبه الهجاء. فإذا ابتعد الشاعر عن البلاط فهو ماجن متهتك، أو غاضب متهور. شعراؤنا العشرة فيهم العربي وفيهم نصف العربي، وكلهم أبناء هذه اللغة الكبيرة، كلهم خلقوها خلقة جديدة، وحرصوا ألا ينسفوها نسفاً، بل خلقوها من جوفها.

هذا كتابي الثاني من أصل خمسة كتب أعرض فيها للشعر العربي من امرئ القيس إلى إيليا أبو ماضي. فأما الكتاب الأول واسمه «أول الشعر»، فمضيت فيه إلى آخر دولة بني أمية. وسيأتي الكتاب الثالث ليصف عصراً تألق فيه الشعر وتوهج كالنجم الذي يسطع بقوة وهو يفنى. وفني الشعر بضع مئات من السنين، ثم انطلق من تحت رماده ليحيا من جديد، وليكون كتاب رابع يبدأ بالبارودي ويضم، فيما يضم، شوقياً وحافظاً والرصافي والزهاوي. ثم يأتي آخر الشعر العمودي فيصدح إيليا أبو ماضي وبدوي الجبل وأبو ريشة والشابي وعرار وغيرهم كثيرون. ثم يقف الشعر العمودي وقفة طويلة.. وما زال يقفها. ولم أعرض للشعر الحديث لأنه حديث لم تغربله السنين. قلت لنفسي: ليكن هذا الكتاب بأجزائه الخمسة حفل تأبين للشعر العمودي.

كلمة شكر

عرفت الصديق الأديب محمد عبد العزيز الهجين قبل نحو سنتين، وصار كلما التقيت به أهداني كتاباً. وصرت لا أذكر له كتاباً إلا وجدته قد قرأه أو قرأ عنه. وعندما علم أنني بصدد إنهاء كتاب لي باسم «أول الشعر» تصدى لموضوع النشر، وظل يعجلني في إرساله حتى لقد أنساني أن أذكره بكلمة شكر في مقدمة الكتاب. وصنع الصنيع نفسه في هذا الكتاب «تجدد الشعر». أقول له إنني على

سفر، فيقول هات الكتاب، وأقول له مساء الخير، فيقول هات الكتاب. لكن، هاإنني أجد فسحة أكتب فيها أن لقائي به، وما أجده فيه من الذوق المرهف والخلق المتين والثقافة العريضة، كان من حسن طالعي.

أيَّتُما غلطة تجدها في هذا الكتاب فالمسؤول الأول عنها صديقي الشاعر عِمران القَفِّيني. فقد صحح لي مئات كثيرة من الأغلاط في النحو، والإملاء، وفي فهم المعنى، وفي دقة الأسلوب، وفي الترقيم، وجعل هذا كله في رسالة من خمس وعشرين صفحة كبيرة. كما أثرى الكتاب بنظرات ثاقبة تنم عن تذوق مرهف للشعر. فاما ما أشار إليه من أغلاط فلن تراه، وأما نظراته وآراؤه فقد فرقتها في أماكنها من الكتاب. وفي مقدمتي للفصل الضافي عن البحتري ذكرت شاكراً جهد اللغوي المدقق الصديق أحمد عبد الرحيم.

مُلحة الوداع

كنت راكباً في السيارة بالخرطوم قبل نحو سنتين متوجهاً إلى حفل انتهاء دورة من تلك الدورات الإعلامية التي ابتلي الناس بها. وكتبت على قصاصة أبياتاً لفتيات الخرطوم اللائي ظللن يخطفن بجمالهن الأخاذ على مدى أسبوع نظر العبد الفقير، وألقيت الأبيات وسط هتاف الفتيات والفتية، وسعادتي بهن وبهم. ثم إن فتاة منهن أخذت القصاصة وصورتها وفسبَكتها، ووصل خبري إلى كل مكان قبل أن تحط بي طائرة القفول، فكانت فضيحة صغيرة في المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها. وبقيت في الذاكرة أبيات من تلك الأبيات:

مر الزمان على رأسي وخلاني ... بغير ستر، وتحت الشمس ألقاني
يا صاحب الرحل لا تعجل على رجل ... قد أنفق العمر في هم وأشجان
ضيعت قلبيَ في «الخرطوم» في «بحري» ... والعقل ضيعته في «أم درمان»
بين الظباء أضاع العمر حجاوي ... الحور أنتن، هذا عمريَ الثاني
أقسمت بالخمس من أنغام سلمكم ... أن الجمالَ بوادي النيل رباني
دع مصر دع سوريا دع شط لبنان ... يا صاحب الرحل إن الحسن سوداني

عارف حجاوي
الدوحة ١٠ يوليو/تموز ٢٠١٦
٥ شوال ١٤٣٧

بشّار بن بُرْد
(٩١هـ - ١٦٧هـ)

وقف بشار بن برد على الجرف القاريِّ بين حقبتين كبيرتين في مسيرة الشعر العربي، لكن قدميه كانتا راسختين في الحقبة المقبلة. أكثروا من القول إنه أول المحدثين وإنه رئيسهم وإنه سيدهم. صدقوا.

جاء على رأس زلزال سياسي كبير هو قيام الدولة العباسية، وكان هذا الحدث نعمة مباركة على دارسي الأدب العربي فقد منحهم فرصة ثمينة لتقطيع العصور الأدبية بالسكين. فكأنَّ الله ساق أبا العباس السفاح رحمة لشوقي ضيف.

والحقيقة أن الزلزال العباسي ترافق بشكل طيب مع الزلزال الأدبي، لأنه هو الذي جلبه لا لأنها كانت صدفة.

انظر إلى كبار الشعراء في العصر السابق، الأموي، ترهم عرباً من تميم والأزد وتغلب. وانظر إلى الشعراء الذين جاءوا مباشرة بعد أن أهوى العباسيون بالسكين سنة مئة واثنتين وثلاثين: فماذا ترى؟ بشاراً ومسلماً وأبا نواس وأبا العتاهية ثم ابن الرومي.. كلهم من الموالي. ويختلطون بالعرب.. فهناك ابن الأحنف ودعبل وابن الجهم والبحتري.

في العصر الإسلامي والأموي قعد مئات الآلاف من الفرس مئة سنة يدخلون في الإسلام وفي اللغة العربية. تكلم الأجداد بكلمات عربية قليلة، وتكلم الآباء بعربية مرطونة، وجاء الجيل الثالث عربي اللسان.. ومختلط الثقافة والاعتقاد. جاء العصر العباسي - سياسياً - لأن البيت الأموي استهلك قوته العربية الدافعة. وجاء البيت العباسي عربياً مهجناً، يرفع راية الدين عالياً ويلح عليها لأنه يقوم على عصبية مزدوجة عربية خراسانية، فلا سبيل إلى جعل

عصبية الدم أساس الدولة. لا تنس أن مؤسس السلطة العباسية الحقيقي، أبا جعفر المنصور، ولد لأم غير عربية.

كان الحكم العباسي اجتثاثاً للعهد السابق.. شكلياً مثَّلت هذا الاجتثاثَ مذبحةُ نهر أبي فطرس، شمالي يافا بفلسطين، التي ذبح فيها السفاح وجوه بني أمية. وعلى النطاق الأوسع استطاعت راية الدين أن تُظل جموع الخراسانيين الذين برز منهم كثيرون ممن تعربت ألسنتهم، وكان أبو مسلم الخراساني عربي اللسان فصيحاً. قويت شوكة الأعاجم في حضن الثقافة الأدبية العربية، غير أنهم حملوا لهذه الثقافة ولهذه اللغة الكثير من الروح الفارسية.. وحملوا في أعماق عقولهم آثاراً من أديان أجدادهم. وكان في كل هذا ثراء لهذه اللغة ولهذه الثقافة.

نحن في المئة سنة الأولى من العصر العباسي. وسنرى حضوراً قوياً للفرس ولخراسان، وخراسان منطقة تضم في جغرافية اليوم أفغانستان وتضم معظم إيران وتركمانستان ومساحات من دول مجاورة أخرى.. وعندما نقول الفرس فإنما نقولها على التوسع، فثمة مزيج من الأمم في هذه المناطق الشاسعة. وليت أني مؤرخ حتى أدرس لك هذا الخضم البديع من الشعوب التي جمعتها البوتقة العباسية في شرق الدولة. غير أني لست به، فكل ما أعرضه إنما هو صورة عامة.

كان عصراً حافلاً بالنظم الاجتماعية، فمن الموالي من هو عبد سُبي في حرب، وأخذ يتردد في أسواق النخاسة في البصرة ثم في بغداد، وهناك الإماء اللائي كن من أنصاف البشر يؤخذن لمتعة الأثرياء وذوي السلطان أو للخدمة، أو لهما معاً، فإذا أتقنت الجارية الغناء والشعر فهي نصف بشر يتقن الغناء والشعر، يزيد هذا في ثمنها ولا يزيد في حريتها. ويعشن ويَقبلن بوضعهن، مثلما يقبل كل إنسان بوضعه.

رويتُ عن سجينة سياسية في بلد عربي شقيق، أنها تلقت نصيحة من سجينة سياسية أقدم منها، قالت لها: لا عليك يا أختي، عندما يطلبونك للتحقيق، فلا تقاومي، افتحي رجليك، وفكري في أي شيء آخر، وعيشي حياتك.

كان في سواد العراق أنباط هم أقنان الأرض لسيد الأرض، فإذا كان السيد كسرى فهم أقنان كسرى، وإن كان المنصور فهم أقنان المنصور. وكانت

لهم لغاتهم ولم يندمجوا سريعاً. فأما الفرس ممن كانت لهم ثقافة عريضة قبل الإسلام فقد سهل عليهم أن يصبوا إرثهم الثقافي في اللغة العربية.

أحسن فلهاوزن عندما سمى كتابه عن الدولة الراشدية ودولة بني أمية «الدولة العربية»، فهكذا كانت. فأما الدولة العباسية فهي الإمبراطورية الإسلامية.

بشار بن بُرْد

سُبي يُرجوخ جد بشار من طُخارستان في شمال أفغانستان. سباه المهلب بن أبي صفرة في أواسط العصر الأموي. وظل عبداً، وزوجه أسياده بأمة من إمائهم لينجب لهم عبيداً آخرين، وجاءه بُرْد، وكأنما أخذ برد من أسياده الإذن بمزاولة مهنة فكان طياناً يعمل في بناء وترقيع البيوت بالبصرة. وتزوج أمة لعلها كانت رومية. وأنجب بشيراً وبشراً وبشاراً. وولد بشار أعمى. فنال بشار الحرية، ولعل أخويه تحررا أيضاً، إما بالمكاتبة ودفع مال أو لأنهما كانا يشكوان، كما ذكر القدماء، من علل خلقية كأخيهما الأعمى، قيل كان أحدهما أعرج والآخر أبتر مقطوع اليد. وعملا في الجزارة. وزعم بشار أن أجداده كانوا من سادة الفرس، وانتمى لكسرى من جهة أبيه ولقيصر من جهة أمه الرومية. بخٍ بخٍ. صدَّقناك.

وتزوج بشار، وكانت له جارية أو أكثر. وكان عماه قبيحاً، وجسمه كبيراً. وكان ذا شخصية. نشأ مدللاً بين نساء بني عُقيل بعد أن حرره القوم من الرق. والأعجمي الفقير لا بد له من ولاء.. لا بد أن يلتصق بقوم من العرب.. نظام اجتماعي مكين في العصر الأموي، وكان مولد بشار وطفولته وشبابه في العصر الأموي. وقد ظل لهذا النظام أثر في العصر العباسي.. إلى أن قويت شوكة الفرس فيما بعد.

تربى بشار بين النساء لأنه أعمى، وسمع كلامهن، وسرعان ما تبين أن هذا الصبي الكفيف رجل بمشاعره، ليس فيه ليونة ولا خنوثة. فبعثته العقيليات إلى الرجال يعتنون بشأنه.

في سيرته الذاتية «بيت النار» يقول ابن بلدي نابلس الشاعر علي الخليلي إن أمه كانت تصطحبه إلى حمام السوق طفلاً. وذات مرة تحسس بيده فخذ امرأة، فصاحت بأمه: الولد كبر، لا تأتي به معك من بعد. أو كما قال رحمه الله، الكتاب ليس بين يدي الآن.

ولعل بشاراً ارتحل مع بعض بني عقيل إلى مضاربهم في البادية. كان لسانه فصيحاً. لم يعرف كلمة من لغة أجداده، بل هو عربي اللسان، فصيح، عقيلي النشأة، كأحسن ما يكون الفصيح العقيلي العامري.

ولكنه يعرف من هو: هو مولى، وأصله من طخارستان.

سمع بشار وهو في العاشرة في مجالس بني عُقيل في البادية أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد مات. وبعد عمر تولى يزيد الثاني، والدولة في أحسن حال. ورجع بشار إلى البصرة، وكانت مسرح شعر وأدب، بلغ بشار الخامسة عشرة وبدأ عهد هشام بن عبد الملك الطويل. وسمع بشار قصائد جرير في مدح الخليفة، وأعجبه في شعر جرير أكثر من المدح تلك الخفة والفكاهة ولا سيما في أبيات الهجاء. أحب جريراً لأنه ينطلق من أسرة متواضعة ضمن قبيلة تميم، ويتنطح لهجاء أصحاب النسب العالي وخصوصاً الفرزدق، ويزعم أنه أعلى منهم شرفاً، ويرميهم بكل فرية. وكان جرير يأتي البصرة وربما مكث فيها زمناً. وكان عشرات الشعراء يتناوشون جريراً بالهجاء ويرد عليهم، ويفحمهم لكنه أيضاً يرفع ذكرهم. وجرب بشار حظه فهجا جريراً، ولكن جريراً استصغره ولم يرد عليه. وظل بشار يتألم لهذا الإهمال نفسياً، لكن الألم الحقيقي كان لضياع الفرصة: فلو رد جرير عليه لأثبت بشار قدمه الشعرية في العصر الأموي بشهادة موثقة، ولكان من شعراء عصر الاحتجاج. لكن القدر شاء أن يكون لبشار تصنيف آخر: فهو رئيس المحدثين وسيدهم. وكفاه. غير أنه كان يرى أوائل النحويين يستشهدون على قواعدهم هذه التي بدأوا يضعونها بأبيات لجرير وللفرزدق، ولا يستشهدون بأبياته هو. ذلك أنه استطاع أن يبقى على قيد الحياة ولحق بالعصر العباسي، وهو مولى، وهم قرروا قاعدة أخرى غير نحوية: هي أن العصر الذي يمكن فيه الاحتجاج بالشعر هو العصر الأموي، وأن كل ما جاء بعده محدث فسدت فيه اللغة. ولكن بشاراً عاش أربعين سنة في العصر الأموي قال فيها شعراً عظيماً رددته الناس. لا، هو مولى. ولم يسلم النحاة من لسانه، فتنازل بعضهم و«تمثل» بشيء من شعره.

تطاول العصر الأموي ومدح بشار فيه القادة، ووصل في نهايته إلى مدح آخر الخلفاء، مروان بن محمد. مدحه وكأنَّ العصر الأموي سيدوم قروناً. ولكن الدعوة العباسية جاءت من خراسان.. من موطن أجداد بشار، كي تهزم آخر خلفاء بني أمية.

وأسرع بشار، وهو الآن في الأربعين من العمر، وكتم ما استطاع من شعره القديم ولا سيما قصيدة كان قد شمت فيها بمقتل إبراهيم الإمام العباسي. وتهيأ لاستقبال العهد الجديد. لكنه لم يحظ عند المنصور، وكان المنصور منشغلاً بتوطيد الأمر لبني العباس، ثم انشغل ببناء عاصمته بغداد. ولعل بشاراً هجاه فعلاً بقصيدة. ثم لعله فعلاً خاف أن تكون في هذه القصيدة نهايته، فاغتنم فرصة إيقاع المنصور بأبي مسلم الخراساني، فنقل القصيدة إلى هجاء أبي مسلم، وغير فيها وبدل. وربما أن القصيدة كلها كانت فعلاً نفاقاً للمنصور بهجاء قتيله أبي مسلم. وصلتنا القصيدة، واقتبسنا منها هنا أبياتاً.

ولما تولى المهدي الخلافة بعد أبيه المنصور استبشر بشار، فالمهدي يحب الشعر ويسمع الشعراء. وبشار أشهر شاعر في البلاد. رحل بشار إلى بغداد، واتصل بالخليفة الجديد ومدحه، ونال أعطياته. ومدح وهجا في بغداد الجديدة.. مدينة عمرها خمس عشرة سنة.. مملة. أين هي من البصرة؟

يستذكر أيامه بالبصرة.. كان له بيت عامر بالأنس وبالأصدقاء. يأتي الرجال فيسمعون منه آخر أشعاره في هجاء غريمه حماد عجرد، ويروون له ما قال حماد فيه. ويأتيه تلميذه الشاعر سلم الخاسر، ويسمع منه آخر القصائد.

ويحدث أن يقول سَلْم بيتاً جميلاً، بيتاً سار في كل البلاد وفي كل القرون حتى ليزعم صاحب هذه الأسطر أن القارئ، كائناً من كان، قد سمع بهذا البيت، أو بنصفه الأول. قال سلم: (من راقب الناس مات غماً/ وفاز باللذة الجسور). وفار مرجل بشار غضباً، وحلف ليقاطعن سلْماً، وليفعلنَّ ويفعلنَّ. وجاء الصحب بسلم إلى بشار. فشتمه أقذع شتم، قال له: تسرق بيتي وتضعه في كلام سهل حتى يسير بيتك ويخمل بيتي! فأنا قلت: (من راقب الناس لم يظفر بحاجته/ وفاز بالطيبات الفاتك اللهج) وتأتي وتسرق المعنى. لكن، في الواقع ليس مع بشار حق. فالقانون الذي تواضع عليه النقاد هو أن من يسرق المعنى ويضعه في حلة أجمل كان أولى به.

اعتذر سلم لبشار بحرارة، وقال له: أنا تلميذك وخريجك يا أبا معاذ. فرضي بشار. كان طيب القلب، وكان يحب أصحابه وتلاميذه، على شراسة في خلقه وحدة في مزاجه، وعلى سلاطة في لسانه.

يتذكر بشار أيام البصرة الجميلة، هذه المدينة العتيقة، ليست عتيقة جداً ولكنها عتيقة حقاً بالمقارنة مع بغداد. البصرة التي شهد فيها بعينيه، عفواً

بأذنيه، جريراً والفرزدق يتهاجيان في المربد، البصرة التي هواؤها وخم ومستنقعاتها ترسل على الناس أسراب البعوض، والتي يشرب الناس فيها الماء عذباً تارة وملحاً تارة، البصرة التي فيها تشكيلة غريبة من القبائل، وفيها النبط وفيها الجواري.

يتذكر كيف كانت تأتيه أُمامة جارية بني فلان، وتصحبها عاتكة الفتاة الصغيرة ابنة سيدتها، وتأتيه عبدة جارية بني علان، وفلانة وفلانة من الجواري يأخذن نهار عطلة من الخدمة في بيوت علية القوم، ويأتين بشاراً ويجلسن إليه فيسمعهن شعره وأحاديثه التي فيها من الأحماض ما يضحكهن ويثير في نفوسهن أموراً لا يحسن ببنات الحرائر أن يشعرن بها. كان مجتمع البصرة يتأفف من هذا الضرير الذي تأتيه الجواري.. لكن، لا بأس، هن جوارٍ. فإذا ذكر في شعره بنتاً من بنات الأحرار، كان السخط كبيراً. لكن يقل هذا السخط حين يعلم الناس أنه كذاب في تعشُّقه الحرائر، ثم لا بأس.. هو أعمى.

جل هذا الشعر الذي قاله في الغزل كان في العصر الأموي. وكان فيه من جزالة الشعر الأموي، ومن ألفاظه، ولكن.. كان فيه أيضاً كل ما في نفس بشار المتوقدة من بوهيمية ومن خيال جامح ومن شهوانية ومن قلة اكتراث بالمعتقدات، ومن حنين لحرية قديمة لم يعرفها لا هو ولا أبوه في ظل دين قديم. كان شعراً عربياً في لغته وجديداً في روحه. شعر بذيء بقدر ما في الطبقية القاسية والعبودية من بذاءة. ولعل قصائده في البنات الصغيرات من الحرائر كانت تعبر عن اشتهاء لإيذاء هذا الطهر الذي حرمه المجتمع منه.

ليس لأنه سليل عبودية زائلة كان بشار بذيئاً، بل هو رجل خلقه الله غير رومنسي. هو شهواني وكفى. لكنه أيضاً ذو خيال ومقدرة، وعقله يحمل ثقافته العربية المتينة، ويحمل أيضاً تلك الأحاسيس بأنه ضيف على ثقافة العرب، وبأن العمق الثقافي له كائن هناك في ثقافة أسلافه الذين زعم أنهم من سلالة كسرى.

لم يكن مرتاحاً في بغداد رغم أن الخليفة المهدي نفسه سمح له بالدخول إلى جواريه كي يحادثهن، فهو أعمى ولا ضير. ولم يسلم الخليفة من سلاطة لسانه، هجا بادئاً وزير الخليفة يعقوب بن داود، ثم كأن الخليفة حرمه من الصلة مرة بعد مرة، فهجا الخليفة ببيتين. وأي شعر يقوله بشار، حتى لو همس به همساً في حلقة يونس النحوي، لا بد أن ينبت له جناحان. فشعر بشار فيه اللسعة التي تجدها في نبيذ العنب ولا تجدها في عصير العنب.

وأوصل الوزير يعقوب بن داود البيتين إلى المهدي. فهلك بشار.

سأل عنه المهدي فقيل له هو بالبصرة.. قد عاد إليها. فانحدر الخليفة إلى البصرة بسفينته. وجيء ببشار فضرب سياط التلف. قال لهم الخليفة اجلدوه حتى الموت. فجلدوه وهو يقول حسٍّ، ومعناها أخّ بعربية البدو. قالوا له: ألا تقول الحمد لله؟ فقال لهم: أهو ثريد فأحمد الله عليه؟

تتعدد الروايات في مقتل بشار ولكنها تجمع على أنه قتل قتلاً. وأن جثته ألقيت في الوحل، فأخذه من أخذه وشيعه. ويقولون إن جنازته كانت مكونة من جارية سندية، مشت خلف نعشه تقول: واسيداه! ويقولون إن أهل البصرة تصدقوا عندما علموا بموته، لما كان يلحق بهم من الأذى من شعره ومن سلوكه. كان قد أسن وبلغ الخامسة والسبعين أو نحوها، ولم يعد حديثه مسلياً، كان فقط الشيخ البذيء الذي لا نملك نحن أهل البصرة سوى السكوت عليه لأنه ضرير.

مات بشار، ولكن أهل الأدب ظلوا يتناقلون شعره. قيل جمعوه في كتاب، وقيل بل لم يجمعوه. ولكن أهل الأدب جمعوا بعد سنين طويلة مختارات من شعر بشار أكثر من مرة، فالأغلب والحال هذه أن يكونوا اختاروا ما اختاروه من ديوان. وفي الخمسينات (بين ١٩٥٠ و١٩٥٧) نشر الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي نصف ديوان بشار. إذن لا بد أنه كان هناك ديوان مكتمل.

وحتى يومنا هذا لم نعثر على النصف الثاني.

المخطوط الذي ورثه الشيخ بن عاشور عن جده كان مرتباً على أبجدية المشارقة ويصل بشعر بشار إلى أواسط حرف الراء. ويعلم محبو الشعر القديم أن حرف الراء يقع غالباً في منتصف الدواوين. فلا بد أن الديوان الكامل مجلدان. وكان في نشرة الشيخ الجليل، وهو فقيه كبير ومفسر وعالم بالعربية، غَناء، خاصة وأنه ألحق بها ما التقطه من أشعار بشار من كتب الأدب. وجاء بعد الشيخ عاشور من زاد زيادات، وصحح شاكر الفحام ـ في كتاب من مئتي صفحة ـ بعض أوهام الشيخ، ونشر الديوان إحسان عباس نشرة فيها بعض تصحيحات استفاد فيها من الفحام وزاد زيادة قليلة.

فهذا ما بأيدينا من شعر بشار بن برد.

وقد ترجم له صاحب الأغاني واعتنى به. فكان لبشار في الأغاني مئات الأبيات.

يمكن القول إن ما وصلنا من شعر الرجل سبعة آلاف بيت، وهذا ليس بالشيء القليل للكشف عن طبيعة شعره وشخصيته. ولا ننس أن ما اقتبسته كتب الأدب، في زمن كان فيه شعره موجوداً بين الأيدي، إنما هو من صفوة شعره.

ومن كل هذا اخترنا لك ما سترى بعد هذه الصفحات.

١ أبيات فرائد

ولسْتُ بِالحاسِبِ بَذْلَ النَّدَى   إن البخيلَ الكاتِبُ الحاسِبُ

* * *

وقد هَمَمْتُ بِيَحيَى ثم أدركَني   حِلْمي، فأَمْسَكْتُها مُحْمَرَّةً لَهَبا

هل كنتَ في مجلس استحق فيه أحدهم منك كلمة جارحة، لكنَّك أمسكتها؟ لا بد أنها ظلت جمرة حلقك

* * *

تَرجُو غداً؟ وغَدٌ كَحَامِلَةٍ   في الحيِّ لا يَدْرُونَ ما تَلِدُ

الغد كالمرأة الحامل، وأنت لا تدري ما سيأتي به الغد

* * *

ما كُلُّ زَلَّةِ صَاحِبٍ   أَغْدُو لها أَتَوَثَّبُ

ستجد أدناه كثيراً من الشعر لبشار في الإغضاء عن هفوة الصديق. لكن أقل كلمة كان يقولها لأصحابه يا ابن الفاعلة. لي صديق لا أقول كلمة إلا فسرها تفسيراً عجيباً ووثب عليَّ يلوم ويعاتب.. شهوة قلبه العتاب، لا يترك صغيرة ولا أصغر منها.. فعلاً أحس أنه يثب على كلامي وثباً.. ووالله إنني لأراعيه مراعاة كرتونة البيض وأنا أحملها من السوبرماركت إلى البيت.. لا فائدة

* * *

إنِّي مَدَحْتُكَ كاذباً فأَثَبْتَني   لَمَّا مدحتُكَ ما يُثَابُ الكاذِبُ

* * *

فإن قلتَ: «إنِّي مَاجِدٌ وابْنُ مَاجِدٍ»   فقد قالَ خِنزيرُ السَّوَادِ: أنا الأَسَدْ

إن مدحت نفسك فلعل الخنزير في سواد العراق يقول: أنا الأسد

* * *

لا أَشْتَهِي السَّلْوَةَ، إِنِّي امْرُؤٌ زَيَّنْتُ نَفسي بِهَوى مَنْ هَوِيْتْ

السلوة: نسيان الحبيب

* * *

كَبِكْرٍ تَشَهَّى لَذيذَ النِّكَاحِ وتَفْرَقُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ

الصولة: الهجمة. تشبيه كهذا لا يخرج إلا من فم بشار

* * *

وكانَ جَواري الحَيِّ إذْ كنتِ فِيهِمُ قِبَاحاً، فلمَّا غِبْتِ صِرْنَ مِلاحَا

الجمال نسبي.. عجبت للفتيات يقبلن على رفقة بنت جميلة جداً.. تكشفهن

* * *

في حُلَّتي جِسْمُ فتىً نَاحِلٍ لو هبَّتِ الريحُ له طَاحَا

* * *

ويُعطيكَ ذُلّاً إذا رُعْتَهُ كما ذَلَّ لِلقَدَمِ المِرْبَدُ

يهجو حماد عجرد. رعته: أخفته. المربد: سوق بالبصرة كان يرتاده أهل الأدب

* * *

يَزْدَحِمُ الناسُ على بَابِهِ والمَوْرِدُ العذبُ كثيرُ الزِّحَامْ

* * *

إذا ابْتَسَمَتْ جَادَتْ جُفوني بِوَابِلٍ مِنَ الغَيْثِ أَجْرَتْهُ بُرُوقُ المَبَاسِمِ

كأن في مبسمها برقاً لبياض أسنانها.. وبعد البرق يأتي وابل المطر، والمطر دموع شاعرنا

* * *

إذا حَسَرَ الشبابُ فَمُتْ جَميلاً فما اللَّذاتُ إلَّا في الشبابِ

حسر: انحسر وتلاشى، مت جميلاً: انسحب من حلبة العشق بكرامتك

* * *

إذا أَنشَدَ حَمَّادٌ فقُلْ أَحْسَنَ بَشَّارُ

يتهم حماد عجرد بسرقة معاني شعره

* * *

وَلَلْمَوْتُ خيرٌ مِنْ حياةٍ على أَذًى   يَضيمُكَ فيها صاحبٌ وتُراقِبُهْ

يضيمك: يظلمك. تراقبه: تراه

* * *

دَعاني شِنِقْنَاقٌ إلى خَلْفِ بَكْرَةٍ   فقلتُ اتْرُكَنِّي فَالتَّفَرُّدُ أَحْمَدُ

شنقناق: شيطان من شياطين الشعراء، وبشار لا يريد أن يكون رديفاً على الناقة وراء شيطان شعري، يريد التفرد

* * *

ويكادُ يُظْلَمُ حين يُغْشَى بيتُه   مِنْ لينِ جَانبِهِ ولينِ حِجَابِهِ

هذا الممدوح يكتظ عليه طالبو المعروف، فكأنهم يظلمونه، ويستقبلهم ببشاشةٍ للين جانبه، أي طيبته، ولين حجابه، أي سهولة الدخول عليه وسماحة حاجبه

* * *

الأرضُ مُظلِمَةٌ والنارُ مُشرِقَةٌ   والنارُ مَعبودةٌ مُذْ كانتِ النَّارُ

بقية من مجوسية الأجداد الذين عبدوا النار

* * *

متَى تَأْبَ الكرامةَ مِنْ كَريم   فَمَا لَكَ عندَه إلَّا الهَوانُ

الكريم يغضب على من يرفض معروفه.. ولا سيما إن كان المعروف رمزياً. فإذا دعاك زعيم إلى غداء وقلت له إنك شبعان، فسوف ينتظر فرصة يهينك فيها. رح وكل

* * *

متى يَبْلُغُ البُنيانُ يوماً تَمَامَهُ   إذا كنتَ تَبْنيهِ وغَيْرُكَ يَهْدِمُ؟

* * *

أَعْمَى يَقُودُ بَصيراً لا أَبَالَكُمُ   قد ضَلَّ مَنْ كانتِ العُمْيانُ تَهديهِ

قصة البيت أن رجلاً جاء يسأل عن مكان فلم يستطع أحد من الجلوس أن يدله، فقام بشار وأمسك بيده وأخذه إلى المكان

* * *

ما قَامَ أَيْرُ حِمارٍ فامْتَلا شَبَقاً   إلَّا تَحَرَّكَ عِرْقٌ في اسْتِ تَسنيمِ

خطر البيت، الذي يحتاج إلى نقطة، ببال بشار.. وإذا بتسنيم يدخل، فجعله بشار في القافية. وغضب تسنيم فقال له بشار: قعدت في طريق القافية

* * *

عَـرِّضَـنْ لـلـذي تُـحِـبُّ بِـحُـبٍّ ثـم دَعْـهُ يَـرُوضُـهُ إبْـلـيـسُ

بيت أغضب ولاة الأمر كثيراً. فهموا معناه. الرجل يرمي كلمة، ويترك الفتاة مع كلمته ومع إبليس، وبعد حين تلين الفتاة. رأيت فتيات يصنعن ذلك مع الرجال. لكن الرجل ليس في حاجة إلى إبليس. هو إبليس

* * *

يا صاحِ لا تَجْرِ في لَوْمي وتأنيبي ما كُلُّ مَنْ لـم يُجِبْ قوماً بِمغلوبِ

٢ نُتَف

كثرت النتف ـ والنتفة هي البيتان لا ثالث لهما ـ في شعر بشار لأن نصف ديوانه ضاع، والتقط الناس الأبيات المفرقة في كتب الأدب وألحقوها بنصف الديوان الموجود. وكتب الأدب كثيراً ما تقتبس بيتين بيتين حتى تبرز حرارة القافية

إن عَـمْـراً فـاعـرِفـوهُ عَـربـيٌّ مِـنْ زُجـاجِ
مُـظْـلِـم الـنِّـسـبـةِ، لا يُـعْـرَفُ إلَّا بِـالـسِّـراجِ

عمرو يدعي أنه عربي قح، لكنه عربي من زجاج ما أسهل أن ينكسر. ونسبته، أي نسبه، مظلم غير واضح.. أهو عربي أم نبطي أم فارسي.. ويحتاج نسبه إلى مصباح

* * *

خَليليَّ مِنْ كَعْبٍ أَعِينَا أَخاكُما علـى دهـرِهِ إن الـكـريـمَ مُـعـيـنُ
ولا تـبـخَـلا بُـخْـلَ ابـنِ قُـزْعَـةَ إنَّـهُ مَـخـافَـةَ أن يُـرْجَـى نَـدَاهُ حَـزيـنُ

شبيه بهذا ما يصنعه المدير عندما يدخل عليه موظف محتج على حرمانه من العلاوة.. يكتسي وجهه بالحزن، ويسبق الموظف إلى الشكوى من سوء الأحوال

* * *

مِنْ حُبِّـهـا أَتَـمَـنَّـى أن يُـلاقِـيَـنـي مِـنْ نَـحْـوِ بَـلـدتِـهـا نَـاعٍ فـيَـنْـعَـاهـا
كـيْـمَـا أَقُـولَ فِـراقٌ لا لِـقَـاءَ لـه وتُـضْـمِـرُ النفسُ يَـأْسَـاً ثـم تَـسْـلاهـا

* * *

قـالـوا الـعَـمَـى مـنـظـرٌ قـبـيـحٌ قُـلْـنـا بِـفَـقْـدي لَـكُـمْ يَـهُـونُ
تَـالـلَّـهِ مـا فـي الـبِـلادِ شـيءٌ تَـأْسَـى عـلـى فَـقْـدِهِ الـعُـيـونُ

* * *

تَـمْـرُكُـمْ يـا سـهـيـلُ دُرٌّ، وهَـلْ يُـطْـمَعُ فـي الـدُّرِّ مِـنْ يَـدَيْ مُـتَـعَـتِّ؟

يهجو سهيلاً، فتمره كأنما هو اللؤلؤ. وهل يطمع المرء في لؤلؤ من يدي صاحب عتوٍّ وتجبر؟

فاحْبُني يا سهيلُ مِنْ ذلكَ التَّمْـ ـرِ نَـوَاةً تـكـونُ قُـرْطـاً لِـبِـنْـتـي

فأعطني نواة لا تمرة لتكون حلقاً في أذن بنتي

* * *

يا أَيُّها الناسُ قد ضَاعَتْ خِلافَتُكُمْ إن الـخـلـيـفـةَ يـعـقـوبُ بـنُ دُاودِ

ضَاعَتْ خلافَتُكُمْ يا قَومُ فالتَمِسُوا خـلـيـفـةَ اللَّـهِ بـيـن الزِّقِّ والـعُـودِ

يعقوب هذا كان من خاصة المهدي، ولعله كان فعلاً بين الزق، خابية الخمر، والعود، أي كان يحضر مجالس الطرب. قيل إن البيت تسبب في قتل شاعرنا

* * *

والـجِـدُّ لـيـس بِـزَائِـدٍ في رِزْقِ مَـنْ يَـسْـعَـى، ولـيـس بِـنَـائِـمٍ عـن نَـائِـمِ

ويَـمُـوتُ رَاعـي الـضَّـأْنِ عـنـد تَـمـامِـه مَـوْتَ الـطـبـيـبِ الـفـيـلـسـوفِ الـعـالِـمِ

الجِد بالكسر المثابرة، فهي لا تزيد رزق الساعي. والرزق نفسه لا ينام عمن ينام عن السعي بل يأتيه رزقه. كل شيء مقدر، والموت مقدر علينا كلنا

* * *

طَـرَقَـتْـنَـا ذَاتُ الـبَـنـانِ الأَحَـمِّ حَـبَّـذا الـنـومُ لِـلـخـيـالِ الـمُـلِـمِّ

لـو سَـقَـتْـنـي سُـمَّـاً لَـقُـلْـتُ دَعـوُهـا لا يَـضُـرُّ الـحُـوارَ وَطْـأَةُ أُمِّ

طرقتنا، أي جاءتنا ليلاً ذات البنان الأحم، أي الأنامل المسودة من الحناء، وما أجمل النوم في انتظار طيفها الملم، الزائر. ولو سقتني سماً فلن أتضرر. فالحوار، الجمل الصغير لا يضره أن تدوس عليه أمه.. معنى قديم سرقه بشار

* * *

ودَعْـجَـاءِ الـمَـحـاجِـرِ مِـنْ مَـعَـدٍّ كَـأَنَّ حَـديـثَـهـا ثَـمَـرُ الـجِـنَـانِ

إذا قَـامَـتْ لِـمَـشْـيَـتِـهـا تَـثَـنَّـتْ كـأنَّ عِـظَـامَـهـا مِـنْ خَـيْـزُرَانِ

رب دعجاء المحاجر، واسعة العينين، من شعب معدّ، ذات حديث حلو، وتتثنى إذ تقوم كأن عظامها من خيزران

* * *

رُبَّـمـا يَـثْـقُـلُ الـجَـلـيـسُ وإن كـا ن خـفـيـفـاً فـي كِـفَّـةِ الـمـيـزانِ

قد يكون الجليس ثقيل الظل وإن كان خفيفاً في الميزان، أي تافهاً

كيف لا تَحملُ الأمَانةَ أرضٌ   حملَتْ فوقَها أبا سُفيانِ

الآية حمَّلت الإنسان الأمانة بعد أن أبتها السموات والأرض والجبال. وبشار يتعجب كيف أبت الأرض حمل الأمانة وقد حملت هذا الثقيل البغيض المكنى بأبي سفيان

* * *

يا قومُ أُذْني لِبعضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ   والأُذْنُ تعشقُ قبلَ العينِ أَحيانا
قالوا بِمَنْ لا تَرى تَهذي فقلتُ لَهُمْ   الأُذْنُ كالعينِ تُؤْتي القَلْبَ ما كانا

الأذن تؤتي القلب: تؤدي إليه ما كان من أمر

* * *

خَليفَةٌ يَزني بِعَمَّاتِهِ   يَلْعَبُ بِالدَّبُّوقِ والصَّوْلَجانْ
أَبْدَلَنا اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ   ودَسَّ مُوسَى في حِرِ الخَيْزُرَانْ

الخليفة: المهدي، وهو في زعم بشار يلهو بلعبة الدبوق والصولجان، وهي مثل البولو.. عصا يحملها رجل فوق فرسه ويلاحق الكرة، وكان لها ميادين خاصة في ذلك العصر. موسى الهادي: ولي العهد، والخيزران أمه. والحر، بغير شدة: متاع المرأة. ولم يخبرنا لا الطبري ولا صاحب الأغاني شيئاً عن عمَّات المهدي. وكثير من المصادر القديمة تؤكد أن هذين البيتين هما، دون غيرهما، سبب قتل بشار

* * *

أُنْسٌ غَرائِرُ ما هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ   كَظِباءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ مِنْ لينِ الحديثِ زَوانِياً   ويَصُدُّهُنَّ عن الخَنا الإِسْلامُ

أنس غرائر: فتيات أنيسات بريئات، ما نوين علاقة مريبة. لكن حديثهن فيه غنج ولين حتى ليحسبهن المرء زانيات، لكن الإسلام يمنعهن من الخنا، أي الفحش

* * *

مِنَ المَفتُونِ بَشَّارِ بنِ بُرْدٍ   إلى شَيْبَانَ كَهْلِهِمُ ومُرْدِ
فإنَّ فَتَاتَكُمْ سَلَبَتْ فُؤادي   فَنِصْفٌ عندَها والنِّصْفُ عِندي

رسالة من بشار إلى كهول قبيلة شيبان ومردها، أي شبابها الذين لم تنبت لحاهم.. نص الرسالة في البيت الثاني. لو قال «شطرت فؤادي» لكان أليق

* * *

لَمَسْتُ بِكَفِّي كفَّه أبتغي الغِنَى   ولم أَدْرِ أنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعدي
فلا أنا مِنْهُ ما أَفَادَ ذَوُو الغِنَى   أَفَدْتُ، وأَعْداني فَأَفْنَيْتُ ما عِندي

* * *

إن سَـلْـمَـى خُـلِـقَـتْ مِـنْ قَـصَـبٍ قَـصَـبِ الـسُّـكَّـرِ، لا عَـظْـمِ الـجَـمَـلْ
وإذا أَدْنَـيْـتَ مـنـهـا بَـصَـلاً غَـلَـبَ الـمِـسْـكُ عـلـى ريـحِ الـبَـصَـلْ

يفسر القصب، فهو قصب السكر اللين وليس عظم الجمل (والقصب العظمُ أيضاً، ألا نسمي اللحام قصاباً). والبيت الثاني من فكاهات بشار، ولم يفهم النقاد الغلاظ الطبع الفكاهة فانتقدوا بشاراً

* * *

كـيـف يـبـكـي لِـمَـحْـبَـسٍ فـي طُـلُـولِ مَـنْ سَـيُـفْـضـي لِـحَـبْـسِ يـوم طَـويـلِ
إنَّ فـي الـحَـشْـرِ والـحِـسـابِ لَـشُـغـلاً عـن وُقـوفٍ بِـكُـلِّ رَسْـمٍ مُـحـيـلِ

كيف يبكي رجل يحبس نفسه عند أطلال الأحبة، وهو سينتهي إلى حبس طويل يوم الحساب ينسيه كل رسم محيل، كل طلل متحول إلى خراب

* * *

قُـلْ لِـشـهـرِ الـصِّـيـامِ أَنْـحَـلْـتَ جِـسـمـي إن مـيـقَـاتَـنـا طُـلـوعُ الـهِـلالِ
اِجْـهَـدِ الآنَ كُـلَّ جَـهْـدِكَ فـيـنـا سـتَـرى مـا يـكـونُ فـي شَـوَّالِ

ميعادنا يا رمضان هو هلال شوال، فاصنع بنا الآن ما تشاء من جوع ومنع عن اللهو، وسترى ما نصنع في شوال

* * *

بِـئْـسَ الـمُـروءَةُ مِـنْ ذَوي حَـسَـبٍ جَـاءَتْ قَـرابَـتُـهُـمْ وقـد ثَـمِـلُـوا
شِـبَـعُ الأمـيـرِ وجُـوعُ صـاحِـبِـهِ عـارُ الـحـيـاةِ، فَـأَطْـعِـمُـوا وكُـلُـوا

يجوع أقرباؤهم فأما هم فيأكلون ويشربون الخمر حتى الثمالة، والحكمة في النهاية موجزة إيجازاً حلواً: أطعموا وكلوا

* * *

لـمَّـا رأَيْـتُ الـحـظَّ حَـظَّ الـجَـاهِـلِ ولـم أَرَ الـمَـغْـبُـونَ غَـيْـرَ الـعَـاقِـلِ
شَـرِبْـتُ خَـمْـسـاً مِـنْ كُـرومِ بَـابِـلِ فَـبِـتُّ مِـنْ عَـقـلـي عـلـى مَـراحِـلِ

لما رأيت الجاهل محظوظاً وغنياً، ورأيت العاقل مغبوناً، مهضوم الحق، شربت خمس كؤوس من خمر بابل، وابتعدت عن عقلي مراحلَ. والمرحلة هي المسافة بين موضع وموضع يتم فيهما تبديل بغل البريد أو إراحته

* * *

ومِـثْـلُـكَ قـد سَـيَّـرْتُـهُ بِـقَـصـيـدةٍ فَـسـارَ ولـم يَـبْـرَحْ عِـراصَ الـمَـنـازلِ

رَمَيْتُ به شَرقاً وغَرباً فأصبَحَتْ   به الأرضُ مَلأَى مِنْ مُقيمٍ ورَاحِلِ

مثلك يا هذا! قد نشرت مخازيه بشعري فسارت سيرته، فكأنه قد سار بنفسه وهو لم يبرح عراص المنازل، ساحاتها، لكن امتلأت الأرض شرقاً وغرباً بذكره، يسمع به المقيم والمسافر

* * *

يا ابنَ نِهْيا رأسي علَيَّ ثَقيلُ   واحتمالُ الرأسينِ خَطْبٌ جَليلُ

أُدعُ غيري إلى عِبادَةِ رَبَّيْـ   ـنِ، فإنِّي بِواحِدٍ مَشغولُ

يتهم بشارٌ ابن نهيا، حماد عجرد، بأنه يعبد إلهيْ الخير والشر على دين المانوية، ويزعم بشار أنه هو يعبد إلهاً واحداً

* * *

أَتَتْني الشمسُ زائِرةً   ولم تَكُ تَبْرَحُ الفَلَكا

تقولُ وقد خَلَوْتُ بِها: تَكَلَّمْ واكْفِني يَدَكا

هذه لا يعرف الشاعر يقولُها إلا إن سمعها فعلاً من فتاة «حاوَلَ معها»

* * *

عَجْزَاءُ مِنْ سِرِّ بَني مَالِكٍ   لَهَا حِرٌ مِنْ بَطنِها أَرْفَعُ

زُيِّنَ أعلاهُ بِإشرافِهِ   وانضَمَّ مِنْ أَسْفَلِهِ المَشْرَعُ

يصف ما لا يوصف من فتاة من سر بني مالك، من أوساطهم، فهي عجزاء ذات عجيزة كبيرة، ولها حر، ذلك الشيء الناتئ عن بطنها والمشرف.. إلخ

* * *

خَليلَيَّ إن المالَ ليس بِنافِعٍ   إذا لم ينلْ منهُ أَخٌ وصَديقُ

وما خَابَ بين اللّهِ والناسِ عاملٌ   له في التُّقَى أو في المَحَامِدِ سُوقُ

* * *

لو نُكِحَ الليثُ في استِه خَضَعا   وماتَ جُوعاً ولم يَنَلْ طَمَعا

كذلكَ السيفُ عندَ هَزَّتِهِ   لو بَصَقَ الناسُ فيهِ ما قَطَعا

معنى دقيق: الإقدام يكون مع الشرف

* * *

إن العُروقَ إذا اسْتَسَرَّتْ في الثَّرى   أَنْدَى النَّباتُ بِها وطَابَ المَزْرَعُ

وإذا جَـهِـلْـتَ مِـنَ امْـرِئٍ أَعـراقَـهُ وقَـديـمَـهُ فـانـظُـرْ إلـى مـا يَـصْـنَـعُ

الجذور التي استسرت، اختفت عميقاً في الأرض، تجعل النبات يطيب وينع؛ وكذا الإنسان، فإن جهلت امتداد أصله فانظر إلى أفعاله فإن كانت حميدة دلت على أن له أصلاً متيناً

* * *

قـالـتْ لِـتِـربَـيْـهـا اذهـبـا فَـتَـحَـسَّـسَـا مـا بَـالُـهُ تَـركَ الـسـلامَ وأَعـرضَـا

قـد ذُقْـتُ أُلْـفَـتَـهُ وذُقْـتُ فِـراقَـهُ فـوجـدْتُ ذا عَـسَـلاً وذا جَـمْـرَ الـغَـضَـا

طلبت من رفيقتيها التحسس، وهو يشبه التجسس، لمعرفة سبب تركه التحية. وقالت لهما: ذقت قربه وذقت هجره، فقربه عسل وهجره جمر الغضا، والغضا شجر كبير يصير إلى حطب صلب

* * *

إبْـلـيـسُ خَـيْـرٌ مِـنْ أَبـيـكُـمْ آدَم فَـتَـنَـبَّـهُـوا يـا مَـعْـشَـرَ الـفُـجَّـارِ

إبْـلـيـسُ مِـنْ نـارٍ وآدمُ طـيـنَـةٌ والأرضُ لا تَـسـمُـو سُـمُـوَّ الـنـارِ

قيل إن الناس دسوا البيتين على بشار كي تلتصق به تهمة الزندقة

* * *

يـا خَـلـيـلَـيَّ أَصـيـبَـا أو ذَرَا لـيـس كـلُّ الـبـرقِ يُـهْـدي مَـطَـرا

ذَهَـبَ الـمـعـروفُ إلَّا ذِكْـرَهُ رُبَّـمـا أَبْـكَـى الـفَـتَـى مـا ذُكِـرَا

* * *

لا أَظْـلِـمُ الـلـيـلَ ولا أَدَّعـي أن نـجـومَ الـلـيـلِ لـيـسـت تَـغُـورْ

لـيـلـي كـمـا شـاءتْ: فـإن لـم تَـزُرْ طـالَ، وإن زَارَتْ فَـلـيْـلـي قَـصـيـرْ

لا أقول كالشعراء إن النجوم لا تغرب وإن الليل طويل. فطوله وقصره رهن بزيارة المحبوبة

* * *

وأُعْـرِضُ عـن مَـطـاعِـمَ قـد أَراهـا فـأَتْـرُكُـهـا وفـي بَـطـنـي انْـطِـوَاءُ

فـلا وأَبـيـكَ مـا فـي الـعـيـشِ خـيـرٌ ولا الـدُّنـيـا إذا ذهـبَ الـحَـيـاءُ

انطواء: جوع

* * *

وعَـيَّـرنـي الأَعْـداءُ والـعَـيْـبُ فـيـهِـمُ ولـيـس بِـعـارٍ أن يُـقـالَ ضَـريـرُ

إذا أبـصَـرَ الـمـرءُ الـمُـروءَةَ والـتُّـقَـى فـإن عَـمَـى الـعـيـنـيـنِ لـيـس يَـضـيـرُ

* * *

ارْفِقْ بِعَمْرٍو إذا حَرَّكْتَ نسبتَهُ   فإنه عَرَبِيٌّ مِنْ قَوارِيرِ
إن جازَ آباؤُهُ الأنذَالُ في مُضَرٍ   جَازَتْ فُلوسُ بُخَارَى في الدَّنَانِيرِ

عمرو هذا يزعم أنه عربي، ولكن رفقاً بانتسابه هذا فهو من قوارير، زجاج. وإن جاز، أي دخل، أجداده ضمن قبيلة مضر، فلا غرابة أن تختلط فلوس بخارى بالدنانير دون تميزها عنها

* * *

إذا اعتذَرَ الجاني إليَّ عذرتُهُ   ولا سِيَّما إن لم يَكُنْ قد تَعَمَّدَا
فَمَنْ عاتَبَ الجُهَّالَ أَتْعَبَ نفسَه   ومَنْ لامَ مَنْ لا يَعرِفُ اللومَ أفْسَدا

* * *

خُلِقْتُ على ما فِيَّ غيرَ مُخَيَّرٍ   هَوايَ، ولو خُيِّرْتُ كنتُ المهذَّبا
أُريدُ فلا أُعطَى، وأُعطَى ولم أُرِدْ   وقَصَّرَ عِلمِي أن أنالَ المُغَيَّبا

* * *

رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ   تَصُبُّ الخَلَّ في الزَّيْتِ
لها عَشْرُ دَجاجاتٍ   وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

بيتان قالهما عن جارته «ربابة» وكانت تطعمه من بيض دجاجاتها. وسئل بشار عن هذا الشعر الخفيف، فقال: هذا عندي أحسن من «قفا نبك»

* * *

طَرَقَتْنِي صَباً فَحَرَّكَتِ البَا   بَ هُدُوّاً فارْتَعْتُ منه ارتيَابا
فكأنِّي سمعتُ حِسَّ حَبيبٍ   نَقَرَ البابَ نَقْرَةً ثم غابا

ريح الصبا طرقتني، جاءت ليلاً، فطقطق الباب طقطقة خفيفة، فأحسست بخوف.. كان الصوت كأنه صوت حبيب نقر الباب نقرة ثم غير رأيه ولم يكررها. مثل هذا المعنى الحضري الرهيف لا نجده في الشعر ما قبل بشار.. وعنده من مثل هذه اللقطات الكثير.. بيد أنه فصيح متين اللغة، لذا عدُّوه آخر المتقدمين وأول المحدثين

* * *

قلْ للأميرِ جزاكَ اللَّهُ صالحةً   لا يُجمَعُ، الدَّهرَ، بين السَّخْلِ والذِّيبِ
السَّخْلُ غِرٌّ وهَمُّ الذِّئبِ غَفْلَتُهُ   والذِّئبُ يعلمُ ما في السَّخْلِ مِنْ طِيبِ

كلف الأمير حماد عجرد بتأديب ولده، فها هو بشار يحذره من ميول حماد. والسخل صغير العنز وهو غر، بريء، والذئب يعرف ذلك. تكملة القصة أن الأمير سمع البيتين وصرف حماداً

* * *

إنيِ وإن كان جمعُ المالِ يُعجِبني ... ما يَعْدِلُ المالُ عنديِ صِحَّةَ الجسدِ
الـمالُ زَيْـنٌ، وفـي الأولادِ مَكْـرُمَـةٌ ... والسقمُ يُنسيِكَ ذكرَ المالِ والولدِ

* * *

تـوَدُّ عَـدُوِّي ثـم تَـزْعُـمُ أنـنـي ... صديقُكَ، إن الـرأيَ عنكَ لَعَازِبُ
ولـيس أخـيِ مَـنْ وَدَّنـيِ رَأْيَ عـينِه ... ولـكنْ أخـيِ مَـنْ وَدَّنـيِ وَهْـوَ غـائبُ

تتودد إلى عدوي وتزعم أني صديقك.. الرأي الصحيح عازب عنك، مجانب لك. وليس أخاً لي من أظهر المودة في حضوري، بل من بقي على وده وهو غائب عن عيني أيضاً

* * *

وأَبْثَثْتُ عَمْراً بعضَ ما في جَوانِحيِ ... وجَـرَّعْـتُـهُ مِـنْ مُـرِّ مَـا أَتـجَـرَّعُ
ولا بدَّ مِنْ شكوَى إلى ذي حَفيِظَةٍ ... إذا جَـعَـلَـتْ أَسْـرارُ نَـفْـسيِ تَـطَـلَّـعُ

أبثث عمراً، بُحت له، بما في نفسي.. وجعلته يشاركني في مرارة ما أتجرعه من مشكلات، والمرء لا يستغني عن الشكوى لذي الحفيظة، صاحب المروءة، عندما تفيض مكنونات نفسه وتتطلع للخروج. لقطة ذكية.. ولا سيما تحميلك صديقَك بعض مشكلاتك

* * *

خَـاطَ لـيِ عَـمْـرٌو قَـبَـا ... لـيـتَ عَـيْـنَـيْـهِ سَـوَا
قـلـتُ شِـعـراً لـيـس يُـدْرَى ... أَمـديـحٌ أم هِـجَـا

القصة أن عمراً الخياط، وكان أعور، خاط لبشار قباء، ثوباً، وقال له: هذا لا تعرف له وجهاً من قفا. فقال له بشار سأقول فيك بيتين لا تعرف لهما وجهاً من قفا، أي مدحاً أم ذماً: جعل الله عينيك متساويتين

* * *

تركتُ على ابنِ الكَسْكَرِيِّ غَضَاضَةً ... وسَيَّـرْتُـهُ بـالـشعـرِ شَـرَّ مَـسـيِـرِ
وقد عَنَّ ليِ الخُنْثَى، فَقُلْ لِبَعوضَةٍ: ... سَقَطْتِ ولم أشعُرْ، وطِرْتِ فَطيري

غضضت من الكسكري، طأطأت منه وخفضت رأسه وأذللته، ونشرت سيرته بالشعر. وهو مخنث وقد عَنَّ لي، تعرض لي.. فقل لبعوضة: وقعتِ علي ولم أشعر ثم طرت.. فطيري

* * *

ونَدمَانِ صِدْقٍ قد وصلْتُ حديثَه ... بِـأَزْهَـرَ مَـجَّـاجِ الـمُـدَامَـةِ نَـبَّـاحِ

إذا فرغَتْ كأسُ امْرِئٍ خَرَّ ساجداً وصَبَّ لنا صَفراءَ في طيبِ تُفَّاحِ

استكملت حديث الندمان، أي النديم، بصوت إبريق أزهر، أبيض ولعله من فضة، وهو مجاج، نافث باصق، للخمر وله صوت خرير. وكلما فرغت كأس أحدهم ثنى الإبريق رأسه وخرَّ، وقع، كأنه يسجد، وصب خمراً

* * *

صَـرِّحْ بِـإِحْـدى كِـلْـمَـتَـيْـ ـنِ وخُـذْ أَمَـانَـكَ مِـنْ جِـهـادي

صِـدْقُ الـبَـخـيـلِ يَـسُـرُّنـي ويَـسُـوءُنـي كَـذِبُ الـجَـوادِ

أيها الممدوح المتأخر في الدفع: قل نعم أو لا. وعليك الأمان، ولا تجمجم الكلام.
البخيل الصادق خير من الجواد الكاذب

* * *

وأُجيبُ قَائِلَ كيفَ أنتَ؟ «بِصَالِحٍ» حـتـى مَـلِـلْـتُ ومَـلَّـنـي عُـوَّادي

ومَـقَـالَ عَـاذِلَـتـي وقـد عَـايَـنْـتُـهـا إنَّ الـمُـرَعَّـثَ رَائِـحٌ أو غَـادِ

مللت وأنا أجيب سؤال السائلين عن حالي بكلمة «أنا صالح وبخير». ومل عوادي، زواري، ومللتهم، ومللت من قول اللائمة، كلما رأيتها: إن المرعث، لقب بشار، مصبح أو ممسٍ، وعلى وشك الموت.. أو كما يقول أهل بلدنا: ماؤه على النار، أي الماء الذي سيغسل به

* * *

عـلـيَّ أَلِـيَّـةٌ، وعـلـيَّ نَـذْرٌ أَمَـسَّـكِ طَـائِـعـاً إلَّا بِـعُـودِ

أَتَـيْـتُـكِ زَائـراً فَـوَضَـعْـتُ كَـفِّـي عـلـى أَبْـرٍ أَشَـدَّ مِـنَ الـحَـديـدِ

علي أليَّة، أي يمين، ألا ألمسك إلا بعود. فقد جئتك زائراً فوضعت يدي على ذلك العضو وهو صلب. والقصة قصة امرأة أكثر بشار من التودد إليها، فدعته إلى بيتها، وأجلست بشاراً وأمسكت يده ووضعتها ـ وبشار أعمى ـ على متاع زوجها. كان عصرهم عصر عبث حقاً

* * *

لـيـتَ حَـظِّـي مِـنَ الـعِـبـادِ، ومِـمَّـا خَـلَـقَ الـلَّـهُ لَـذَّةً لِـلـعـبـادِ

رِيـقُ «حُـبَّـى» أَحْـسُـوهُ سَـبْـعَـةَ أَيَّـا مٍ شـفـاءً لِـقَـرْحَـةٍ بِـالـفُـؤادِ

ليت حظي من الملذات ريق الحبيبة أرتشفه سبعة أيام ليشفي جرحَ قلبي

* * *

أَعْـتِـقـيـنـي مِـنَ الـهـوى أو عِـدي مـنـكِ مَـوعِـدا

أَطـمِـعـيـنـا كـيْـمـا نَـعـيـ ـشَ وقُـولـي لـنـا: «غـدا»

تقول فيروز: «تعا، ولا تجي، واكذب علي، الكذبة مش خطية»

* * *

إِنـي وعَيشِكِ يا عَبَّادُ فاستَمِعيٰ لو أَبْتَغي فوق هذا الحبِّ لم أَزِدِ

ما هَبَّتِ الريحُ مِن تِلقاءِ أَرضِكُمُ إلَّا وَجَدْتُ لها بَرْداً على الكَبِدِ

يا عبدة، وحياتك، لا مزيد على حبي لك

* * *

لَعمرُكَ ما تركُ الصلاةِ بمنكَرٍ ولا الصومِ إنْ زارَتْكَ «أمُّ محمدِ»

تكادُ إذا قامتْ لِشيءٍ تريدُه تَميلُ بها الأردافُ ما لم تَشَدَّدِ

* * *

ليتني مُتُّ قبلَ حُبِّكِ يا قُرَّ ـ ةَ عيْني، أو عشتُ في غيرِ حُبِّ

فَرغَ الناسُ مِن مُعالَجَةِ النَّا سِ جَميعاً، وأنتِ هَمِّي ورَبِّي

* * *

دينارُ آلِ سليمانٍ ودِرهَمُهُمْ كالبَابِلِيَّيْنِ حُفَّا بِالعَفاريتِ

لا يُوجَدَانِ ولا يُرْجَى لِقَاؤُهُما كما سَمِعْتَ بِهاروتٍ ومَاروتِ

الدينار والدرهم عند هؤلاء القوم لا يظهران للناس أبداً مثل هاروت وماروت الملَكين اللذين يعلمان الناس السحر، ولا سبيل إليهما، وحواليهما العفاريت

* * *

أَطْوي الشَّكاةَ ولا تصدِّقُني وإذا اشتكيتُ تقولُ لي: كَذَبا

عَسُرَتْ خلائقُها على رجلٍ لَعِبَ الهوى بِفؤادِهِ لَعِبَا

أطوي الشكاة: أكتم مرضي بحبها والشكاة هي السقم، وهي لا تصدق أنني لا أشكو، فإن اشتكيت بلساني فعلاً قالت إنني أكذب. خلائقها: طباعها. و«لعب الهوى بفؤاده لعبا» شطر جميل في بساطته، ما رأيت شيئاً كَهُ في شعر العصور السابقة

* * *

لا تُفْشِ سِرَّ فَتاةٍ كنتَ تألَفُها إن الكريمَ لها راعٍ وإن تابا

واسعدْ بما قالَ في الحِلْمِ ابنُ «ذي يَزَنٍ»   يلهُو الكرامُ ولا يَنْسَوْنَ أَحسَابا

الكريم يرعى حرمة فتاته حتى لو تاب عن العشق وافترقا. ولا أدري إن كان ابن ذي يزن قد قال شيئاً كهذا ولكنه حليم، والتقى بوفد قريش وقيل إنه بشر عبد المطلب ببعثة محمد

* * *

عَجِلُ الركُوبِ إذا اعتَرَتْهُ نَافِضٌ   فإذا أَفَاقَ فليس بِالرَّكَّابِ

وتَراهُ بعدَ ثَلاثَ عَشْرَةَ قائماً   مِثْلَ المُؤَذِّنِ شَكَّ يومَ سَحَابِ

يصف متاع الرجل، والنافض هي الحمى التي ينتفض لها الجسم، فإن انتفض صنع شيئاً وإن أفاق فهو لا يصنع. والثلاث عشرة هي ـ فيما أحسب ـ ركعات التراويح، وبعدها يكون لهذا الموصوف شأن. والتشبيه في الشطر الأخير خلاب، ولا سيما حين يأتيك من أكمه، مولود أعمى. ترى مؤذن القرية فوق مئذنته يريد أن يرفع الأذان وينظر للشمس فلا يراها، فهو يحرك جسمه يميناً وشمالاً يريد أن يلمح الشمس في ذلك اليوم الغائم

* * *

وَيْحَ نفسي، أَكُلَّما دَبَّ واشٍ   بِحديثٍ وَثَبتِ للهجرِ وَثْبا

ما كذا يَصنعُ المُحِبُّ فَقَرِّي،   أينَ مِنَّا مَنْ لا يُقَارِفُ ذَنْبا؟

قري: اهدأي

* * *

عُبَيْدَةُ هَمُّ النفسِ إن يَدْنُ حبُّها،   وإن تَنْأَ عنها فَارقَ النفسَ روحُها

المحبوبة «عبدة» هي هم نفسي إن دنت، وإن فارقتني فارقتني روحي

فلا هِيَ مِنْ شَوْقٍ إليها تُريحُني   ولا أنا مِنْ طولِ الرجاءِ أُرِيحُها

لا تريحني من شوقي إليها، ولا أريحها من طول ما أحتفظ برجائي فيها ولا أيأس

* * *

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِن مُخَدَّرَةٍ   قولٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحَا

لا تيأس من مخدرة، فتاة محجوبة في سترها، إذا أغلظت لك القول وصدتك

عُسْرُ النساءِ إلى مُيَاسَرَةٍ   والصعبُ يُمْكِنُ بعدما جَمَحَا

فالفتاة ستلين، أليس الجمل الصعب يمكِنُ صاحبه من ركوبه بالترويض، بعد أن يكون جامحاً

٣ سقى الله تلك الأيام

هجرتُ الآنساتِ وهُنَّ عندي كماءِ العينِ فَقْدُهُما سَواءُ

فقدُهما، أي فقد الآنسات وفقد ماء العين، سواء عندي

وأَطبَقَ حبُّهُنَّ على فؤادي كما انطبقتْ على الأرضِ السماءُ

فقلْ لِلغانياتِ يَقَرْنَ إِني وَقَرْتُ، وحانَ مِنْ غَزَلي انتهاءُ

يقرن: يرعوين ويهدأن

وإن أكُ قد صحوتُ فربَّ يوم يَهُزُّ الكأسُ رأسي والغِناءُ

لئن كنت صحوت الآن، أي فارقت الغزل والشراب، فقديماً كان الكأس والغناء يهزان رأسي

أروحُ على المعازِفِ أَرْيَحِيّاً وتسقيني بِريقَتِها النساءُ

كنت أغشى دور القيان، حيث العزف والغناء بأريحيةٍ وبذلٍ للمال، وكنت أعاشر النساء وأرتشف ريقهن

٤ أين يسقط الطير؟

يمدح عُقْبة بن سَلم:

حَيِّيا صاحبيَّ أمَّ العلاءِ واحذَرا طَرْفَ عينِها الحَوْراءِ

الحوراء: التي سوادها حالك في بياض ناصع

إنَّ في عينِها دَواءً ودَاءً لِمُلِمٍّ، والداءُ قبل الدواءِ

الملم: الزائر

اِعرِضَا حاجَتي عليها وقولا: أنسيتِ السِّرارَ تحتَ الرِّداءِ

السرار: المناجاة، ويبدو أنه كان يشملهما رداء وهو يناجيها

ومُقامي بين المصَلَّى إلى المنـ ـبرِ أبكي عليكِ جَهْدَ البكاءِ

فاتَّقي اللَّهَ في فتىً شَفَّهُ الحُبُّ ـ وقولُ العِدَى، وطولُ الجَفاءِ

حَرَّمَ اللَّهُ أن تَرى كابنِ سَلم عُقْبَةِ الخيرِ مُطعِمِ الفقراءِ

ينتقل إلى المدح. فقد قضى الله أن تكرار عقبة أمر محرم

يَسْقُطُ الطيرُ حيثُ يَنتَثِرُ الحَبُّ ـ وتُغْشَى منازلُ الكُرَمَاءِ

يسقط الطير: يحط، تغشى: تزار

ليس يُعْطيكَ للرجاءِ ولا الخَوْ فِ، ولكنْ يَلَذُّ طعمَ العطاءِ

لا، ولا أن يقالَ «شيمتُهُ الجو دُ»، ولكنْ طبائعُ الآباءِ

إنَّما لذةُ الجوادِ ابنِ سَلمٍ في عَطاءٍ ومَركَبٍ للِّقَاءِ

لذته أن يعطي الناس مالاً، وأن يركب للقاء الخليفة المنصور

لا يَهابُ الوغَى، ولا يَعْبُدُ الما لَ، ولكنْ يُهينُه للثَّناءِ

يهين ماله للحصول على مدح الشعراء

أَرْيَحِيٌّ له يَدٌ تُمطِرُ النَّيْـ لَ، وأخرى سُمٌّ على الأعداءِ

النيل: العطاء ينيله الأمير مادحيه والمستجيرين به

قائمٌ باللِّواءِ يَدفَعُ بِالمو تِ رِجالاً عن حُرْمَةِ الخُلَفاءِ

وكان عقبة كثير التقتيل للناس في البحرين وعمان والبصرة

فَعَلى عُقْبَةَ السلامُ مُقيماً وإذا سارَ تحتَ ظِلِّ اللِّواءِ

٥ الوضَّاءة

عَلِّليني يا عَبْدَ، أنتِ الشفاءُ واتركي ما يقولُ لي الأعداءُ

عبد: محبوبته عَبْدَة. علليني، أي صبِّريني تصبيراً، ببذل بعض الوصل فأنت شفائي، واتركي ما يقوله لي، أي عني، الأعداء

كلُّ حيٍّ يُقالُ فيه، وذو الحِلْـ ـمِ مُريحٌ، ولِلسفيهِ الشَّقاءُ

مريح: مستريح

أنا مَن قد علمتِ: لا أَنقُضُ العهـ ـدَ، ولا تَستَخِفُّني الأهواءُ

نَعِمَتْ في الصِّبَا فلما اسْبَكَرَّتْ خَفَّ قُدَّامُها وجَلَّ الوَراءُ

اسبكرت: طال قوامها، خف قدامها: صار بطنها ضامراً، جل الوراء: العكس

زانَها مُسْفِرٌ وثَغْرٌ نَقِيٌّ مثلُ دُرِّ النظامِ فيه استِواءُ

زانها وجه مسفر بلا قناع وفم نقية أسنانه بيض مستوية كأنها اللؤلؤ المنظوم في سلك

وحديثٌ كأنَّهُ قِطَعُ الرو ضِ ففيه الصَّفراءُ والحمراءُ

وإذا أقبلَتْ تَهادَى الهُوَيْنَى اِشْرَأَبَّتْ ثم استَنارَ الفضاءُ

إذا أقبلت تتهادى الهوينى، على مهلها، اشرأبت الأعناق، أي ارتفعت لرؤيتها، وبدا في الفضاء نور. هذا شيء رأيته بعيني في قاعة فيها نحو مئة شخص، ودخلت سيدة وضاءة، فكان أن الأنظار توجهت نحوها، وتشكل نوع من التناغم والاستقطاب فلم يكن ممكناً للمرء إلا أن يوجه نظره تلك الوجهة، فشعرت أن القاعة أضيئت بوجه تلك الحسناء

وسألتُ النساءَ: أَبْصَرْنَ ما أبـ ـصرتُ مِن حُسْنِها؟ فقال النساءُ:
دونَ وجهِ البَغيضِ وَحْشَةُ هَوْلٍ وعلى وجهِ مَنْ تُحِبُّ البَهاءُ

هذا بالطبع سلخ لقول عمر بن أبي ربيعة: «حسن في كل عين من تودّ»

٦ يا ماضغ الماء

قال يهجو يحيى بن صالح:

ألزمتَ عينَكَ مِن بغضائِنا حَوَلاً لو قد وَسَمْتُكَ عادتْ غيرَ حَوْلاءِ

قد صرت تنحرف بنظرك عنا بسبب كرهك لنا، فكأنها حولاء؛ لو قد وسمتك، أي طبعت عليك علامة الذل كتلك التي يسمون بها الماشية، لعادت عينك سليمة. سمج هذا البيت يقوله أعمى

أُطْلُبْ رِضايَ ولا تطلبْ مُشَاغَبتي لا يَحْمِلُ الضَّرِعُ المُقْوَرُّ أعبائي

الضرع: الضعيف، المقور: المطلي بالقار، يعيره بالسواد

أنا المُرَعَّثُ لا أَخْفَى على أحدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشمسُ للدَّاني وللنائي

المرعث: لقب بشار لقرط كان في أذنه وهو طفل. ذرت الشمس بي: طلعت الشمس إذ طلعتُ فلم أكن خافياً على أحد

يَغدُو الخليفةُ مِثلي في محاسِنِهِ ولستَ مِثلي، فَنَمْ يا مَاضِغَ الماءِ

المعنى الملموح: يبكر الخليفة لاستقبال من هم مثلي وهو في محاسنه وهيبته، وأنت لست من أمثالي..

٧ الدار وسكانها

أقولُ والعينُ بها غُصَّةٌ مِن عَبْرَةٍ هَاجَتْ ولم تُسْكَبِ

دمعة ترقرقت ولم تنزل

إنْ تَذهبِ الدارُ وسكانُها فإن ما في القلبِ لم يذهبِ
يا صاحِ لا تسألْ بِحُبِّي لها وانظرْ إلى جسميَ ثم اعْجَبِ

٨ التلعابة

لا تَخْشَ غدريِ ولا مُخالَفتي كلُّ امْرِئٍ رَاجعٌ إلى حَسَبِهْ
يَخْرُجُ مِنْ فيهِ لِلنَّدِيِّ كما يَخرجُ ضَوْءُ السراجِ مِنْ لَهَبِهْ

يصف نفسه: يخرج الكلام من فمه للنديّ، للحاضرين في منتداه، كأنه النور الذي يتولد من لهب السراج

تِلْعَابَةٌ تَعْكِفُ النساءُ به   يأخذنَ مِنْ جِدِّهِ ومِنْ لَعِبِهْ

لعوب والنساء يحففن به ويستمتعن بشعره الجاد وبعبثه

يَزدحِمُ الناسُ كلَّ شَارِقَةٍ   بِبابِهِ مُشْرِعِينَ في أَدَبِهْ

والناس يزدحمون كل مشرق شمي، كل يوم، مشرعين في أدبه، واردين وناهلين

٩ اخضبها على الأقل

وقال يعاتب يعقوب بن داود وزير المهدي:

«يعقوبُ» قد وَرَدَ العُفَاةُ عَشِيَّةً   مُتعرِّضِينَ لِسَيْبِكَ المُنْتَابِ

ورد العفاة، الفقراء، يطلبون سيبك، عطاءك، المنتاب، الذي يأتيهم وينتابهم

فَسقيْتَهُمْ وحَسِبْتَني كَمُّونَةً   نَبَتَتْ لِزارِعِها بِغيرِ شَرابِ

سقيتهم كما يسقي المرء الزرع، وحسبتني نبتة كمون (والكمون قليل الحاجة للماء) فأنت لا تسقيني

تُعطِي الغَزيرةُ دَرَّها، فإذا أَبَتْ   كانت مَلامَتُها على الحَلَّابِ

الناقة الغزيرة اللبن تمنح لبنها، وإذا لم تعط فاللوم على الحلاب لأنه لا يحلب جيداً.. وأنا لا لوم علي لأنني حاولت معك

طَالَ الثَّواءُ بِحاجَةٍ مَحبُوسةٍ   شَمَطَتْ لَديكَ، فَمُرْ لها بِخِضَابِ

طال الثواء، المكوث، بهذه الحاجة التي حبستها عندك كما يحبس الرجل ابنته بلا زواج حتى تصبح شمطاء قد اختلط سواد شعرها ببياض، فعلى الأقل هل لك أن تأمر لهذه الحاجة بخضاب من حناء مثلاً، بما أنك لم تحقق الطلب الأصلي

١٠ عدمتك يا قلب

عَدِمْتُكَ عاجِلاً يا قَلْبُ قَلبا   أَتجعلُ مَن هَوِيتَ عليكَ رَبَّا

رباً: مالكاً

كأنَّكَ لا ترى حَسَناً سواها   ولا تلقَى لها في الناسِ ضَرْبا

ضرباً: ضريباً، مثيلاً

فما لَكَ في مودتِها نصيبٌ   سوى عِدَةٍ، فخُذْ بيديْكَ تُرْبا

لا نصيب في يدك منها سوى الوعود، وخير من ذلك أن تأخذ بيدك تراباً

رأيتُ القلبَ لا يأتي بَغيضاً   ويؤثِرُ بالزيارةِ مَنْ أَحَبَّا

١١ الغالبة بالدلال

غَـلَـبَـتْـكَ «أمُّ مـحـمـدٍ» بـدلالِـهـا   والـمُـلْـكُ يُـمْـهَـدُ لـلأعَـزِّ الـغـالـبِ

لها الملك والسيطرة عليك لأنها عزيزة غالبة بقوة دلالها

عِـلـلُ الـنـسـاءِ إذا اعـتَـلَـلْـنَ كـثـيـرةٌ   وسَـمـاحُـهُـنَّ مِـنَ الـعـجـيـبِ الـعَـاجِـبِ

أعذار النساء كثيرة، وتلبيتهن الدعوة للوصال شيء عجيب نادر

ورَضـيـتُ مِـنْ طُـولِ الـرجـاءِ بِـيَـأْسِـه   والـيـأسُ أَمْـثَـلُ مِـنْ عِـداتِ الـكـاذبِ

رضيت بدل الرجاء باليأس، واليأس أفضل من الوعود الكاذبة

١٢ تردد وتعلق

ألا قلْ لتلكَ الـمـالـكـيَّـةِ أَصْـحِـبِـي   وإلَّا فَـمَـنِّـيـنـا لِـقـاءَكِ، واكْـذِبـي

أصحبي: اقبلي صحبتي، أو على الأقل امنحيني الأمنيات باللقاء، ثم اكذبي

عِدِينا، فإن النفسَ تُخْدَعُ بِالمُنَى   وقـلـبُ الـفـتـى كـالـطـائـرِ الـمـتـقـلِّـبِ

إذا يـئـسـتْ نـفـسُ امْـرِئٍ مِـن قَـرِيـنَـةٍ   تَـبَـدَّلَ أخـرى مـرَكَـبـاً بـعـدَ مَـرْكَـبِ

مثلما يبدل المرء ناقته يمكنه أن يبدل الصاحبة

وإنِّـيَ ـ لـو شَـمَّـرْتُ ـ أولُ ظـاعِـنٍ   بِرحْلِيَ عن جَدْبٍ إلى غيرِ مُجْدِبِ

لو نويت فلن أكون أول ظاعن، راحل، عن المكان الجديب، المقفر، إلى المكان الخصيب

ولكنني أُغضي جُفوناً على القَذى   وأَحفظُ ما حَمَّلْتِني في المُغَيَّبِ

لكنني لا أنوي الفراق، وأغمض جفوني على القذى، أي أتحمل دلالك، وأحفظ ما بيننا غير فاضح له

١٣ كأنني غريب

إذا نَـطَـقَ الـقـومُ الـجُـلـوسُ فـإنـنـي   أُكِـبُّ كـأنـي مِـن هَـواكِ غَـريـبُ

أجلس وسط المتحدثين صامتاً مكباً، مطرقاً، كأنني غريب لما بقلبي من شغل بكِ

لقد شغلتْ قلبي «عبيدةُ» في الهوى   فـلـيـس لأخـرى فـي الـفـؤادِ نـصـيـبُ

عبيدة: أي حبيبته عبدة

يقولون: لو عَزَّيْتَ قلبَكَ لارْعَوَى   فـقـلـتُ: وهـل لِـلـعـاشِـقـيـنَ قُـلـوبُ

ارعوى: تراجع وثاب إلى رشده

١٤ شد وجذب

بِأبي وأُمي مَنْ يُقارِبُني ... فيما أقولُ ومَنْ أُقارِبُهُ
عَجِلُ المَلامَةِ حين أُغضبُه ... فإذا غضبتُ يلينُ جانِبُهُ
إن المُحِبَّ تَلينُ شوكتُه ... يوماً إذا ما عَزَّ صاحبُهُ

المحب يلين لمحبوبه إذا رآه قد عز، قوِيَ عليه

١٥ حديث مع التراب

ولما فارقتْنا «أمُّ بكرٍ» ... وشطَّتْ غُرْبةٌ بعد اكتِئابِ

شطت: ابتعدت

خَطَطْتُ مِثالَها وجلستُ أَشكو ... إليها ما لقيتُ على انتحابِ

خط في التراب شكلاً شبيهاً بها

أُكَلِّمُ لَمحةً في التُّرْبِ منها ... كلامَ المُسْتَجيرِ مِنَ العذابِ
كأنِّيَ عندها أشكو إليها ... هموميَ والشَّكاةُ إلى التَّرابِ

١٦ هجاء بالجملة

قال يمدح روح بن حاتم:

إذا لم ترَ الذُّهْلِيَّ أَنْوَكَ فَالْتَمِسْ ... له نسباً غيرَ الذي يَتَنَسَّبُ

إذا لم تجد ابن قبيلة ذهل أنوك، أي أحمق، فلا بد أن له نسباً آخر.. فكلهم حمقى

وفي جَحْدَرٍ لؤم، وفي آلِ مِسْمَعٍ ... صَلاحٌ، ولكنْ دِرهَمُ القومِ كَوكَبُ
وأمَّا بنو قيسٍ فإن نبيذَهُمْ ... كثيرٌ، وأمَّا خيرُهُمْ فَمُغَيَّبُ
وسيِّدُ تَيْمِ اللَّاتِ عندَ غَدَائِهِ ... هِزَبْرٌ، وأمَّا في اللقاءِ فَثَعْلَبُ

أسد يحمي طعامه وقت الغداء، لكنه في اللقاء، المعركة، ثعلب جبان

وقد كان في شَيْبانَ عزٌّ فحلَّقَتْ ... به في قديمِ الدهرِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

عز شيبان القديم طارت به عنقاء مغرب، طير خرافي، وزال إلى الأبد

لَقد سادَ أَشرافَ العِراقِ ابنُ «حاتِمٍ» ... كمَا سادَ أهلَ المَشرِقينِ «المُهَلَّبُ»

١٧ رثاء ابن

وقال يرثي ابنه محمداً:

أَجَـارَتَـنـا لا تَـجْـزَعـي وأَنـيـبـي   أَتاني مِن الموتِ المُطِلِّ نَصيبي

أنيبي: عودي إلى الصبر والهدوء

كأَنّي غريبٌ بعد موتِ «محمدٍ»   وما الموتُ فينا بعدَهُ بِغريبِ

لَعَمْري لقد دافعتُ موتَ «محمدٍ»   لوَ انَّ المنايا تَرْعَوي لِطَبيبِ

كنت حاولت درء الموت عن ابني لو أن الموت يرعوي، يتراجع، بتدخل الطبيب

فأَصبحتُ أُبْدي لِلعيونِ تَجَلُّدَاً   ويَا لَكَ مِن قلبٍ عليه كَئيبِ

دعَتْهُ المنايا فاستجابَ لِصوتِها   فلِلَّهِ مِن داعٍ دعا ومُجيبِ

عَجِبْتُ لإِسراعِ المنيَّةِ نحوَهُ   وما كان لو مُلِّيتُهُ بِعجيبِ

أسرع إليه الموت، ولو كان بقي لكي أتملاه، وأسعد برؤيته، لكان هذا أمراً عادياً

رُزِئْتُ بُنَيَّ حين أَوْرَقَ عُودُه   وألقى عليَّ الهمَّ كل قَريبِ

فقدت ابني حين أورق عوده، كبر واشتد، وحسدني الأقارب

وقد كنتُ أَرجُو أن يكونَ محمدٌ   لنا كافياً مِن فارسٍ وخطيبِ

نُؤَمِّلُ عيْشاً في حياةٍ ذَميمةٍ   أَضَرَّتْ بِأَبْدانٍ لنا وقلوبِ

هذه القصيدة بذرة ستخرج شجرة باسقة عند ابن الرومي عندما سيرثي ولده محمداً

١٨ بنات اليون

يمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك:

فلا مَذهبٌ عنكمْ له، شَطَّ أو دَنَا،   سِوَاكِ، وفي الأرضِ العريضةِ مَذهبُ

يتغزل قبل المدح: لا مكان لي غيركم شط أو دنا، ابتعد أم اقترب، مع كثرة الأماكن في هذه الأرض

على النَّأْيِ مَحزونٌ وفي القربِ مُغْرَمٌ   فيَا كَبِدَا! أَيُّ الطَّريقَيْنِ أَرْكَبُ

في بعدكم أنا حزين، وفي قربكم مغرم، وكلاهما مركب صعب

له كُلَّ عامٍ غَزوَةٌ بِمُسَوَّمٍ   يَقودُ المنايا رَايُهُ حيث يَذهبُ

يمدح: يغزو كل عام على فرس مسوم، به علامة الحرب، ورايُهُ، أي راياته،
تحمل معها الموت للعدو أينما ذهب

كَـراديـسُ خـيْـلٍ لا تـزالُ مُـغـيـرَةً بِـهـا الـمَلِـكُ الـرومِـيُّ عَـانٍ مُـعَـذَّبُ

كراديس الخيل، جماعاتها، تظل تشن الغارات وملك الروم عان، مرهق، منها

كَـأنَّ بَـنـاتِ «الْـيُـونَ» بـعـدَ إيَـابِـهِ مُـوَزَّعَـةٌ بـيـن الـصَـحَـائِـبِ رَبْـرَبُ

بنات ملك الروم اليون يؤخذن أسيرات ويتم توزيعهن بين المقاتلين كأنهن الربرب، قطيع الظباء

مَـواهِـبُ مَـغـبُـوطٌ بِـهـا مَـنْ يَـنـالُـهـا صـفَـايـا سَـبَـايـا الـرُّومِ بِـكْـرٌ وثَـيِّـبُ

مواهب، هدايا، يسعد بها من ينالها، وهن صفايا، غنائم، من سبايا الروم من بين فتاة بكر وغير بكر

١٩ قصيدة التشبيه المعجز

يمدح مروان بن محمد:

أخـوكَ الـذي إن رِبْـتَـهُ قـال إنَّـمـا أَرَبْـتُ، وإن عـاتَـبْـتَـهُ لانَ جـانِـبُـهْ

صديقك الحقيقي هو من إذا ربته، صنعت معه ما يريب، جعل الذنب لنفسه وظن أنه هو المخطئ، وإن عاتبته على إساءة لان لك

إذا كنـتَ في كلِّ الذُّنوبِ مُعاتِباً صـديقَكَ لـم تَلْقَ الذي لا تُعَاتِبُهْ

إن عاتبت الصديق في كل شيء فلن تجد صديقاً أصلاً كي تغير طبعك معه فلا تعود تعاتبه

فعِشْ واحداً أو صِلْ أَخاكَ، فإنه مُـقَـارِفُ ذَنْـبٍ تـارةً ومُـجَـانِـبُـهْ

الصديق يذنب مرة ويجتنب الذنب مرة، فإما أن ترضى بذلك أو تعيش بغير صديق

إذا أنتَ لم تَشربْ مِراراً على القَذَى ظَمِئْتَ، وأيُّ الناسِ تَصفُو مَشَارِبُهْ

إن لم تشرب مرة بعد أخرى رغم وجود قذى من قشة أو نحوها في الماء فسوف تظمأ، وليس في الناس أحد يجد الصفاء في مشربه دائماً

ومن ذا الذي تُرضِي سجاياهُ كلُّها؟ كفى المرءَ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعايِبُهْ

سجاياه: خصاله، يكفي المرء نبلاً أن تكون عيوبه قليلة بحيث يمكن عدها

إذا رَكِـبُـوا بِـالـمَـشْـرَفِـيَّـةِ والـقَـنـا وأَصـبـحَ مَـرْوَانٌ تُـعَـدُّ مَـواكِـبُـهْ

المشرفية: السيوف، القنا: الرماح

فـأَيُّ امْـرِئٍ عَـاصٍ وأيُّ قـبـيـلـةٍ وأَرْعَـنَ لا تَـبـكـي عـلـيـه قَـرائِـبُـهْ؟

العصاة من أفراد وقبائل، والأرعن، أي الجيش، الذي يقاتل الخليفة.. كل أولئك ستبكي عليهم أقاربهم عندما يزحف مروان بجيشه عليهم

وسَامٍ لِـمَـروانٍ ومِـنْ دُونِـهِ الـشَّـجَـا وهَوْلٌ كَلُجِّ البحرِ جَاشَتْ غَوارِبُهْ

ورب سام، متنطح مواجه، لمروان ودون مسعاه الشجا، الشوك في الحلق.. وسيواجه من الهول مثل لج البحر وقد جاشت غواربه، أي ماء النهر العظيم وقد ارتفعت أمواجه.. وكانت حروب مروان ضد مخالفيه في الشام وفي العراق

أَحَـلَّـتْ بـه أمُّ الـمَـنـايـا بَـنـاتِـهـا بِـأَسْـيـافِـنـا، إنَّـا رَدى مَـنْ نُـحـارِبُـهْ

أم المنايا جعلت بناتها، أي الميتات المختلفات طعنا وضرباً ودوْساً، حلالاً للعدو تزوجه بهن بفعل سيوفنا، فنحن الموتُ لمن نحاربه

ومـا زالَ مِـنَّـا مُـمْـسِـكٌ بِـمَـديـنَـةٍ يُـراقِـبُ، أو ثَـغْـرٍ تُـخَـافُ مَـرازِبُـهْ

نحن، رغم العصاة والمتمردين في الداخل، نمسك بالمدن والثغور، أي المواقع الحدودية التي يشملها الخوف من المرازب، قادة حفظ الحدود العجم في زمن كسرى

إذا الـمَـلِـكُ الـجَـبَّـارُ صَـعَّـرَ خَـدَّهُ مَـشَـيْـنـا إلـيـهِ بِـالـسُّـيـوفِ نُـعَـاتِـبُـهْ

إذا صعر الملك المتجبر خده، أمال رأسه تكبراً، نعاتبه بالسيوف لا بالكلام. والملك في ذلك العصر هو الوالي الذي يملك مقاطعة، وكان عدد من الولاة قد خرجوا على مروان الثاني وتجبروا وفرضوا سيطرتهم على مناطقهم وقضى مدة خلافته وهي خمس سنين يقارعهم

وكـنَّـا إذا دَبَّ الـعَـدُوُّ لِـسُـخْـطِـنـا ورَاقَـبَـنـا فـي ظـاهِـرٍ لا نُـراقِـبُـهْ

لا نراقب العدو بل نهاجمه

رَكِـبْـنـا لـه جَـهْـراً بِـكُـلِّ مُـثَـقَّـفٍ وأَبْيَضَ تَسْتَسْقي الدِّمَاءَ مَضَارِبُهْ

نركب وبأيدينا الرماح المثقفة، المقومة، والسيوف البيض التي تطلب نصالها أن تُسقى بالدماء

وجَيشٍ كَجُنْحِ الليلِ يَزْحَفُ بِالحَصَى وبِـالـشَّـوْكِ والـخَـطِّـيِّ حُـمْـرٍ ثَـعَـالِـبُـهْ

رب جيش كأنه الليل يزحف بالحصى، بالعدد الكبير، وبالشوك، السلاح، والخطي، الرماح، التي ثعالبها حمراء.. وثعلبة الرمح طرف عصاه التي تدخل في السنان الحديدي

غَدَوْنا له والشَّمْسُ في خِدْرِ أُمِّها تُـطـالِـعُـنـا والـطَّـلُّ لـم يَـجْـرِ ذَائِـبُـهْ

بكرنا لملاقاته والشمس ما تزال في ستر أمها تنظر إلينا بطرفها كالفتاة الخجول تطل برأسها من جانب الستر، لم تشرق الشمس، ولم يسِلِ الطل، الندى

بِضَرْبٍ يَذُوقُ الموتَ مَن ذاقَ طَعمَهُ وتُـدرِكُ مَـنْ نَـجَّـى الـفِـرارُ مَـثَـالِـبُـهْ

مشينا لهم بضرب مميت لمن أصابه، ومن نجا بالفرار أصيب بالمثالب، العار

كأنّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤُوسِهِمْ   وأَسْيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كَواكِبُهْ

النقع، أي الغبار، الذي أثير فوق رؤوس الأعداء كالليل، وترى خلاله سيوفنا تهوي على رؤوسهم كأنها الكواكب تهوي في السماء. وهذا معنى لبشار غير مسبوق ولا ملحوق. وكل شاعر مهم أتى بعد بشار حاول أن يصنع بيتاً يأكل بيت بشار أو يساويه، أو يقترب منه، وظل بيت بشار هذه السنوات الألف والثلاثمة صامداً

بَعثْنا لَهُمْ مَوْتَ الفُجاءَةِ، إنَّنا   بنُو الموتِ خَفَّاقٌ علينْا سَبَائِبُهْ

قتلناهم، ونحن من لا يهاب الموت، وسبائبه، أي راياته، منشورة تخفق فوقنا

فَراحُوا: فَريقاً في الإِسَارِ ومِثْلُهُ   قَتيلٌ ومِثْلٌ لاذَ بِالبَحْرِ هَارِبُهْ

أسر بعضهم، وقتل بعض، وبعضهم رمى نفسه في النهر. وسنرى بعد قليل أن هذا هو بالضبط ما حدث لجيش مروان نفسه عندما هزم على الزاب

وأَرْعَنَ يَغْشَى الشَّمْسَ لونُ حديدِهِ   وتَخْلِسُ أبصارَ الكُمَاةِ كَتائِبُهْ

ورب أرعن، جيش كبير، يسد الشمس فيغلب لون حديده عليها، وتحير أبصار الكماة، المحاربين، كتائبه

تَغَصُّ بهِ الأرضُ الفضاءُ إذا غَدَا   تُزَاحِمُ أركانَ الجبالِ مَنَاكِبُهْ

تمتلئ به الأرض السهلة، ويزاحم الجبال بضخامته

تركنا به كَلباً وقحطانَ تبتغي   مُجيراً مِنَ القتلِ المُطِلِّ مَقانِبُهْ

أصبحت قبائل كلب وقحطان العاصية تطلب من يجيرها منه، حيث القتل مطل عليهم بمقانب هذا الجيش، أي جماعات الخيل

٢٠ مدح المهدي

فَتَى قريشٍ دِيناً ومَكْرُمَةً   وَهَبْتُ وُدِّي له بِمَا وَهَبا

أعطيه ودي، يقصد مدحي، مقابل ما يهبه من مال

لَمَّا رآني بَدَتْ مَكارِمُهُ   نُوراً على وجهِهِ، وما اكْتَأَبا

كأنَّما جئتُه أُبشِّرُهُ   ولم أَجِئْ رَاغِباً ومُخْتَلِبا

كأنني جئت أبشره بنيل شيء، لا أنني جئت راغباً في ماله ومختلباً له.. أي خادعاً له.. وكان الخلفاء والأمراء يحبون أن يصفهم الشاعر بأنه ينهل خداعهم لكي يعطوا المال، فهذا من صفات الكريم المتغاضي

٢١ وأبي كسرى

هــلْ مِــنْ رَسُــولٍ مُــخْــبِــرٍ عَــنِّــي جــمــيــعَ الــعَــرَبِ
مَــن كــان حــيَّــاً مــنــهُــمُ ومَــنْ ثَــوَى فــي الــتُّــرُبِ
جَــدِّي الــذي أَسْــمُــو بــه كِــسْــرَى، وسَــاسَــانُ أَبــي

أسمو: أرتفع

وقَــيْــصَــرٌ خَــالــي إذا عــدَدْتَ يــومــاً نَــسَــبــي

قيل إن أم بشار سبية رومية

كَــمْ لــي وكَــمْ لــي مِــنْ أَبٍ بِــتَــاجِــهِ مُــعْــتَــصِــبِ

معتصب: لافٌّ رأسه

يَــسْــعَــى الــهَــبَــانــيــقُ لَــهُ بِــآنِــيَــاتِ الــذَّهَــبِ

الهبانيق: الخدم، الآنيات: الأواني

لــم يُــسْــقَ أَقْــطَــابَ سِــقَــيً يَــشْــرَبُــهــا فــي الــعُــلَــبِ

أقطاب سقى: أخلاط ماء ولبن، العلبة: إناء من جلد يحلبون ويشربون به

ولا حَــدا قَــطُّ أَبِــي خَــلْــفَ بَــعــيــرٍ أَجْــرَبِ

حدا: تغنى بالشعر وهو يسوق الجمل

إنَّــا مُــلُــوكٌ لــم نَــزَلْ فــي سَــالِــفَــاتِ الــحِــقَــبِ
نــحــن جَــلَــبْــنَــا الــخَــيْــلَ مِــنْ بَــلْــخٍ بِــغَــيْــرِ الــكَــذِبِ
حــتــى إذا مــا دَوَّخَــتْ بِــالــشَــامِ أَرْضَ الــصُّــلُــبِ

الصلب: الصلبان، وكان جل أهل الشام من قبائل عربية مسيحية

سِــرنــا إلــى مِــصْــرَ بِــهــا فــي جَــحْــفَــلٍ ذي لَــجَــبِ

في جحفل ذي لجب: في جيش ذي ضجيج

حــتــى اسْــتَــلَــبْــنَــا مُــلْــكَــهَــا بِــمُــلْــكِــنــا الــمُــسْــتَــلَــبِ

سلبنا ملك مصر بدلاً من ملكنا الذي سلبه العرب

ثــمَّ رَدَدْنــا الــمُــلْــكَ فــي أَهْــلِ الــنَّــبِــيِّ الــعَــرَبــي
نَــغْــضَــبُ لــلَّــهِ ولِــلْــ إِسْــلامِ أَسْــرَى الــغَــضَــبِ

أسرى: أكثر سرواً، والسروُ هو الشرف

٢٢ لا أحب الشريك

إن تَكُوني غَنيتِ عنَّا فإنَّا — عنكِ أَغْنى، فيَمِّمي حيث شِيتِ

إن استغنيتِ عنا فنحن أكثر استغناء، فيممي، أي اذهبي، حيث شئت

يا ابنةَ العَامِريِّ قد كان عهدٌ — بينَنا في الهوى، ولكنْ نَسيتِ

فاذكُري وُدَّنا، وذُوقي سِوانا — تَذْكُرينَا وتَنْدَمي ما بَقيتِ

وإذا ما أَرَدْتِ وُدِّي هنيئاً — فصِلِيني بِالصَّبْرِ عَمَّنْ لَقيتِ

إن أردت نيل مودتي بهناء فعليك أن تواصليني بأن تصبري عن الآخرين وتهجريهم

أنتِ يَاقُوتَةٌ قَدَرْتُ عليها — لا أُحِبُّ الشريكَ في اليَاقُوتِ

٢٣ لم أستطع الخروج

وجاريةٍ يَسُورُ بنا هَواها — كما سَارتْ مُشَعْشَعَةٌ كُمَيْتُ

يسور بنا حبها، أي يثب بنا ويهاجمنا، مثلما تسور الخمر المشعشعة، الممزوجة، الكميت، الداكنة. فمزج الخمر بالماء يولد في الكأس حركة وفقاقيع كأن بين الماء والخمر حرباً

يُزَيِّنُ وجهُها خَلْقاً عَمِيماً — وزَيَّنَ وجهَها حَسَبٌ وَبَيْتُ

وجهها الجميل يزين خلقها العميم، جسمها الكبير، ووجهها هذا مزين بحسبها وبيتها، أي علو نسبها

نَسَجْتُ لها القَريضَ بِماءِ وُدِّي — لِتَلْبَسَهُ، وتَشربَ ما سَقَيْتُ

ودَسَّتْ في الكتابِ إِلَيَّ: إنِّي — - وَقَيْتُكَ - لوْ أَرَى خَلَلاً مَضَيْتُ

دست لي في رسالتها عبارة دعاء (وقيتك)، وقولها إنها لو رأت خللاً، فرصة أو فرجة، لمضت من بيت أهلها وزارتني

يَقولونَ: انْعَمي، ويَرَوْنَ عاراً — خُروجيَ إنْ رَكِبْتُ وإن مَشَيْتُ

أهلها يقولون: استريحي، ويرون خروجها من البيت مشياً أو ركوباً عاراً

ومِنْ طَرَبي إليكَ خَشَعْتُ فيهِمْ — كما يَتَخَشَّعُ الفَرَسُ السُّكَيْتُ

ومن طربي، لحزني واشتياقي لكَ، خشعت فيهم، سكت لا أنبس ببنت شفة، كأنني الفرس السكيت الذي جاء آخراً في السباق

٢٤ التاج الكريه

لَوَتْ حَاجَتي عند اللقاءِ، وأَنكَرَتْ — مواعيدَ قد صَامَتْ بِهِنَّ وصَلَّتِ

لوت حاجتي: حجبتها، وأنكرت مواعيد كانت حلفت عليها بصومها وبصلاتها

وما سُمْتُهَا هَوْناً فتَأْبَى قَبُولَهُ ولكنَّما طَالَ الصَّفاءُ فَمَلَّتِ

ليس السبب أنني سمتها هوناً، عرضتها لما هو مهين، حتى ترفضه، فقط ملّت لطول الصفاء بيننا واشتاقت إلى بعض المناكفة

فَيَا عَجَباً زَيَّنْتُ نفسي بِحُبِّها وزَانَتْ بِهَجْرِي نفسَها وتَحَلَّتِ

أزين نفسي، أفتخر، بحبي لها، وتفتخر بهجرها إياي وتتخذ هذا حِليةً

فَبِيني كما بانَ الشبابُ إذا مَضَى وكانتْ يَدٌ منهُ عليَّ فَوَلَّتِ

فبيني، فارقي، كما فارقني الشباب الذي كانت له عليّ يد، أي نعمة، ثم ولت وذهبت هذه النعمة

فقد كنتُ في ظلِّ العذَارىَ مُرَفَّلاً أُحَبُّ وأُعْطَى حاجتِي حيث حَلَّتِ

كنت مدللاً بين البنات مرفلاً، كمن يمشي ويجر ثوبه، وأنال حاجتي فوراً

فغَيَّرَ ذاك العيشَ تاجٌ لَبِسْتُهُ وطَاعَةُ وَالٍ حَرَّمَتْ وأَحَلَّتِ

فغير الأحوال تاج الشيب، وأنا أصبحت أتهيب الوالي الذي يحرم ويحلل الأشياء

٢٥ امتناع بأمر الخليفة

يا مَنظراً حَسَناً رأيتُهْ مِن وجهِ جاريةٍ فَدَيْتُهْ
وَدَعانِيَ الرَّشَأُ الغَرِيـ ـرُ إلى اللِّعَابِ فما أَتَيْتُهْ

الرشأ الغرير: الغزال البريء، اللعاب: لعبة الغزل والحب

بَعَثَتْ إِلَيَّ تَسُومُني لَعِبَ الشبابِ وقد طَوَيْتُهْ

تسومني: تطلب مني

والـلَّـهِ ربِّ محمدٍ ما إن غَدَرْتُ ولا نَوَيْتُهْ
إن الخليفةَ قد أَبَى وإذا أَبَى شيئاً أَبَيْتُهْ

وكان الخليفة المهدي منع بشاراً من التمادي في الغزل

٢٦ وصال مقابل الحسنات

تلكَ أَسقامي، وبُرْئي مِنْ سَقامِي لو تُواتي

شفائي أن تواتيني، أي تطاوعني

فإذا قُمتُ أُصَلِّي عَرَضَتْ لي في صَلاتي

لـيـتَـنـي أُعْـطِـيـتُ مـنـهـا لـيـلـةً فـي حَـسَـنـاتـي

ليتني لقيتها مرة مقابل الحسنات التي أنالها في ليلة عامرة بالعبادة

بَـلَـغَـتْ بـي مِـن هَـواهـا فـوقَ مـا سَـرَّ عُـداتـي

هواها ألحق بي من الأذى أكثر مما يتمناه لي أعدائي

٢٧ حديث المسواك

«خُشَّابُ» جُودي جَهاراً أو مُسَارَقَةً فقد بَليتُ، ومَرَّتْ بالمُنَى حِجَجُ

أيتها الحبيبة خشابة جودي علي بوصلك سراً أو جهراً، فأنا قد بليت، أي هلكت، وقد مرت حجج، أي سنوات، على أمنياتي بالوصال

حتى متى أنتِ يا خُشَّابُ جَالسةً لا تَخرُجينَ لنا يوماً ولا نَلِجُ

إلام أنت جالسة في بيتك لا تخرجين لي ولا ألج، أي أدخل

لا خيرَ في العيشِ إنْ كُنَّا كذا أبداً لا نلتقي، وسبيلُ الملتَقَى نَهَجُ

سبيل الملتقى نهج: متيسر

مَنْ راقبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجتِهِ وفازَ بالطيِّباتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

يخاطب نفسه: من راقب الناس، أي التفت إليهم، لم يحقق أمنيته؛ ويفوز بالطيبات الفاتك، المقدام، اللهج، المواظب المولع

وقد نَهاكِ أناسٌ، لا صَفَا لَهُمُ عيشٌ، ولا عَدِمُوا خَصْماً، ولا فَلَجُوا

ينهاك عن وصالنا يا خشابة أناس، ويدعو عليهم ألا يصفو عيشهم وألا يعدموا خصوماً، وألا يفلجوا، ألا ينجحوا

قالوا: حَرامٌ تَلاقِينا، فقد كَذبوا ما في التِزَامٍ ولا في قُبْلَةٍ حَرَجُ

الالتزام: الضم

يا ربِّ لا صبرَ لي عن قُرْبِ جَارِيَةٍ تنأى دَلالاً، وفيها إن دَنَتْ غُنُجُ
تَجلُو بِمِسْواكِها عن بَارِدٍ رَتِلٍ كذاكَ خَبَّرَني مِسْواكُها الأَرِجُ

تلمّع بالمسواك صف أسنانها الرتل، أي المستوي، وبالمناسبة هذا ما أخبرنيه مسواكها الأرج، العطِر

٢٨ أكرمتَ ثم أمسكت

لَقَد زَيَّنَ الإسلامَ مُلْكُ محمدٍ وفي الحربِ لِلأعداءِ نَارٌ تَأَجَّجُ

زينت الإسلام بملكك أيها الخليفة محمد المهدي، وأنت نار متأججة على العدو

إمامَ الهُدى أَمْسَكْتَ بعدَ كَرامَتي   وقد كنتَ تُعطيني ووجهُكَ أَبْلَجُ

أيها الإمام لقد أمسكت، امتنعت عن عطائي، بعد أن كنت أكرمتني، وكنت إذ تعطيني مسروراً ووجهك أبلج، مشرق

لَعمْري لقد أَشْمَتَّ بي غيرَ نائِمٍ   فَنامَ، وَهَمِّي ساهِرٌ يَتَوَهَّجُ

جعلت الحاسدين يسهرون غيظاً، والآن بعد أن أقصيتني جعلتهم يشمتون بي، وناموا مستريحين، وبقي همي ساهراً متوهجاً بالرغبة

٢٩ مات من يتزوج

وقد زادَني وَجْداً عليها، وما دَرَتْ،   مَجامِرُ في أَيْدي الجَواري تَأَجَّجُ

زادني وجداً عليها، رغبة فيها وحزناً، تلك المجامر التي تتأجج وتشتعل بالبخور بأيدي البنات في عرس الحبيبة

فلمَّا دَنا منها بَكَتْ مِنْ دُنُوِّهِ   وقلنَ لها: قومي اركبي، الصُّبْحُ أَبْلَجُ

دنا منها الفرس الذي سيحملونها عليه فبكت، والبنات يشجعنها على الركوب، ويقلن إن الصباح رباح

وفَدَّيْنَها كيْما تَخِفَّ، فَأَعْرَضَتْ   تَجَشَّمُ مِمَّا سُمْنَها وتَغَنَّجُ

قلن لها «نفديك» كي تخف، تنهض للركوب، فامتنعت تتجشم، تعاني، مما سمنها، فرضن عليها، وتتغنج، تبدي دلالاً

وما زِلْنَ حتى أَشْرَفَتْ لِعيونِهِمْ   وغَنَّى المُغَنِّي واليَراعُ المُفَلَّجُ

وظللن يقنعنها حتى صعدت وأشرفت، ارتفعت، وبدت لعيون الناس، وغنى المغني وعزف اليراع المثقب، الناي

إذا رَكِبَتْ منَّا بِليلٍ فقلْ لها: عليكِ سلامٌ ماتَ مَنْ يَتَزَوَّجُ

يتأسف عليها فلا غرام بعد اليوم..

ولو مُتُّ كان الموتُ خيراً مِنَ الشَّقَا   وما لِلفَتى مِمَّا قَضَى اللَّهُ مَخْرَجُ

ويكاد لغيظه يرى الموت أهون من الشقاء بفراق الحبيبة. ألا إن أغنيات العرس أغنيات حزن وشجن للفتاة ولرجال كثر يتحسرون. الزواج أن تمشي بقدميك إلى سجن قد يكون أبدياً.
ردد معي «مات من يتزوج»، الزواج نهاية لا بداية

٣٠ الصديق الحقيقي

خَيرُ إِخْوانِكَ المُشارِكُ في المُرِّ -   وَأَيـنَ الشَّريكُ في المُرِّ أَيْنا؟

اَلذي إن شَهِدْتَ سَرَّكَ في الحَيِّ ـ وإنْ غِـبْـتَ كـان أُذْنـاً وعَـيْـنـا

أنـتَ في مَـعـشرٍ إذا غِبْتَ عنـهُـمْ بَـدَّلُـوا كـلَّ مـا يَـزيـنُـكَ شَـيْـنـا

أنت تعاشر قوماً إن تغب عنهم يبدلوا حسناتك سيئات و«يَحُشُّون فيك»

وإذا مـا رَأَوْكَ قـالـوا جـمـيـعـاً أنـتَ مِـنْ أَكْـرَمِ الـرجـالِ عـلـيْـنـا

٣١ كأمِّ العروس

بَـلَـوْتُ ابْـنَ نِـهْـيـا فَـمَـا عـنـده سـوى أن سـيـأكُـلُ أو يَـسْـلَـحُ

بلوت، أي اختبرت ابن نهيا، كنية حماد عجرد، فكل شأنه أنه يأكل ويتغوط

إذا شـئـتَ لاقَـيْـتَـه رَابِـضـاً عـلـى ظَـهْـرِهِ رجـلٌ يَـسْـبَـحُ

تراه وعلى ظهره رجل

تَـراه يُـسَـرُّ بِـبَـيْـكِ ابـنِـهِ عـلـى أنَّـه سُـبَّـةٌ تَـفْـضَـحُ

وهو مسرور بأن يكون هذا الشيء مع ابنه أيضاً رغم أن هذا الأمر عار فاضح

ومـا كـان إلَّا كَـأُمِّ الـعَـروسِ إذا نُـكِـحَـتْ بِـنْـتُـهـا تَـفْـرَحُ

قالوا في المثل «فلانة مثل أم العروس: فاضية ومشغولة»، وفعلاً لم يقولوا لنا قط إنها حزينة

٣٢ السعي والحظ

يَـعـيـشُ بِـجَـدٍّ عـاجِـزٌ وجَـلِـيـدُ وكُـلُّ قَـريـبٍ لا يُـنـالُ بـعـيـدُ

يعيش بحظه العاجز والقوي، وكل شيء قريب لا يستطاع الوصول إليه بعيد في الواقع

يَفوتُ الغِنَى قوماً يَخِفُّونَ لِلْغِنَى ويَـلْـقَـى رَبَـاحـاً آخـرونَ قُـعـودُ

يفر الغنى من أناس يخفون له، وينهضون لتحقيقه، ويغتني ويربح آخرون قاعدون غير ساعين

ولا يَدْفَعُ الموتَ الأطباءُ بِالرُّقَى وسِـيَّـانَ نَـحْـسٌ يُـتَّـقَـى وسُـعُـودُ

لا يمنع الأطباء الموت بالرقى، الحجب والتمائم، والنحس والسعد سواء فالقدر جار لا يلتفت إلى كل ذلك

٣٣ بشار عذرياً

يـا ربَّ قـائـلـةٍ يـومـاً لـجـارتِـهـا: إن الـمُـرَعَّـثَ هَـمِّـي غـابَ أو شَـهِـدا

تقول لجاراتها إن المرعث، لقب بشار، هو منتهى أملي حاضراً كان أم غائباً

غابَ القَذَى فشَرِبْنا صفوَ ليلَتِنا ... حِبَّيْنِ نلهُو ونَخشَى الواحدَ الصَّمَدا

غاب القذى، ما يلوث العين أو الماء من قشة أو نحوها، فشربنا في ليلتنا الصفو من اللقاء، ونحن حبيبان نلهو ولكننا نتقي الله

قالتْ: فأَنَّى - بِنفسي - جئتَ ... مُسْتَرِقاً مِنَ العَدُوِّ تَخَطَّى الوَعْرَ والجَدَدا

تقول له: كيف جئت خفية، ولم يرك العدو؟ وتخطيت الوعر والجدد، الطريق الممهد

جَوْرٌ أَتَى بِكَ أم قَصْدٌ؟ فقلتُ لها: ... ما زلتُ أَقصِدُ لو تُدْنِينَ مَن قَصَدا

هل جوراً جئت، انحرافاً عن الطريق بالصدفة، أم قصدتني قصداً، ويرد عليها بأنه يقصدها، لكن ليتها تقرب القاصد

لا تَعجَبِي لاجْتِيابِي الليلَ مُنْسَرِقاً ... ما كنتُ قبلَكِ رِعدِيداً ولا بَلِدا

لا تعجبي من اجتيابي الليل، قطعي المسافة، خفية، فلم أكن قط رعديداً، جباناً، ولا بلداً، متبلداً كسولاً

قامَتْ تَهادَى إلى أهلٍ تُراقِبُهُمْ ... مشيَ البَهيرِ ترى في مَشْيِهِ أَوَدَا

ثم إنها قامت تتهادى لترقب الأهل كي لا يكونوا قد رأوا الحبيب المتسلل، ومشت مشي البهير، المنقطع النفس، الذي في مشيه أود، أي ميل

وقُمْتُ لم أَقْضِ منها إذْ خَلَوْتُ بها ... إلَّا الحَديثَ وإلَّا أن أَمَسَّ يَدا

وقمت، ولم يجر بيننا إلا الحديث وإلا لمس اليد

٣٤ الدمَّل

يمدح عقبة بن سلم:

يَا طَلَلَ الحَيِّ بِذاتِ الصَّمْدِ

يا طلل القوم في موضع ذات الصمد

بِاللَّهِ حَدِّثْ: كيفَ كنتَ بَعدي؟

كيف أصبحت بعد عهدنا؟

أَوْحَشْتَ مِن دَعْدٍ وتِرْبِ دَعْدِ

صرت موحشاً بمغادرة دعد وصويحباتها

عَهْداً لنا، سَقْياً له مِن عَهْدِ

إذ نحنُ أَخْيافٌ بما نُؤَدِّي

كنا أخيافاً، مختلفين..

يُـخْـلِـفْـنَ وعـداً ونَـفـي بِـوَعْـدِ
فـنـحـن مِـنْ جَـهـدِ الـهـوى فـي جَـهْـدِ

فكان الغرم مرهقاً للقلب لكثرة إخلافهن الوعود

واهَـاً لِأَسـمـاءَ ابـنَـةِ الأَشَـدِّ

حسرةً على المحبوبة الثانية «أسماء ابنة الأشد»

قـامـتْ تَـراءَى إذْ رَأَتْـنـي وَحْـدي
كـالـشَّـمْـسِ بـيـن الـزِّبْـرِجِ الـمُـنْـقَـدِّ

قامت تعرض طولها وأنا وحدي، وبدت كالشمس بين الزبرج المنقد، السحاب المنفرج تبدو من خلاله الشمس

ضَـنَّـتْ بِـخَـدٍّ وجَـلَـتْ عـن خَـدِّ

وكالشمس المطلة من بين السحاب بدا منها خد وضنت، بخلت، بالخد الآخر

مـا ضَـرَّ أَهْـلَ الـنَّـوْكِ ضَـعْـفُ الـكَـدِّ

يغير الموضوع: لا يضر أهل النوك، الحمق، ضعف الكد، المثابرة

وَافَـقَ حَـظَّـاً مَـن سَـعَـى بِـجَـدِّ

فالذي يسعى بجد، ببخت، يوافق نصيباً من التوفيق

الـحـرُّ يُـلْـحَـى والـعَـصـا لـلـعـبـدِ

الحر يكفيه أن تلحاه، تلومه، والعبد لا يرعوي إلا بالعصا

ولـيـس لِـلـمُـلْـحِـفِ مـثـلُ الـرَّدِّ

وليس من علاج للملحف، الملحّ، سوى الرفض الواضح. لكنّ مثلنا يقول: «لُحَّيح غلب مُطَّيل» أي أن الملحاح يغلب المماطل

وصَـاحِـبٍ كـالـدُّمَّـلِ الـمُـمِـدِّ

رب صاحب كأنه الدمل الممد، الذي حشر داخله المدة، القيح

أَرْقُـبُ مـنـهُ مـثـلَ يـومِ الـوِرْدِ

أرقبه متخوفاً كما أرقب يوم الورد، يوم رجوع الحمّى

حَـمَـلْـتُـهُ فـي رُقْـعَـةٍ مِـنْ جِـلْـدي

هذا الصاحب هو كالدمل الذي أحمله في رقعة من جلدي

حتى انْطَوَى غَيرَ فقيدِ الفَقْدِ

فإن ذهب فلا أفتقده بأسىً

ومَا دَرَى مَا رَغْبَتي مِنْ زُهْدي

يفارقني دون أن أكون أشعرته أأنا فيه راغب أم زاهد فيه كاره له

اسْلَمْ وحُيِّيتَ أَبَا المِلَدِّ

يحيي الممدوح عقبة بن سلم، وكنيته أبو الملدّ

ما كان مني لَكَ غيرُ الوُدِّ
ثم ثَناءٌ مثلُ ريحِ الوَرْدِ
كلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا يُؤَدِّي

كل امرئ ينال بقدر ما يقدم، والممدوح سخي فهو ينال المدح

ورُبَّ ذي تَاجٍ كريمِ المَجْدِ
كَآلِ كِسْرَى وَكَآلِ بُرْدِ

ورب صاحب تاج ومجد، كأنه من آل كسرى أو آل برد

أَنْكَبَ جَافٍ عن طَريقِ الرُّشْدِ

وهذا المتوج أنكب، منحرف، وجاف، مبتعد عن طريق الرشد

فَصَلْتَهُ عن مَالِه والوُلْدِ

وأنت أيها الممدوح الشجاع قتلته وفصلته عن عياله. وقصة القصيدة أن عقبة بن رؤبة بن العجاج الراجز ألقى أرجوزة في مجلس الأمير فأثنى عليه بشار بأدب جم. فقال عقبة: هذا شيء لا تحسنه يا أبا معاذ. فقال له بشار: بل أُحسن منه ما لا يحسن أبوك وجدك. وأبو عقبة هذا هو رؤبة وجده العجاج وهما من أشهر الرجاز. وانصرف بشار مغضباً، وصنع لليلته أرجوزة طويلة، هي التي اقتطفنا أجملها أعلاه. وغدا بأرجوزته على الأمير، وكان في المجلس عقبة الراجز. كعادته بصق بشار عن يمينه ثم بصق عن شماله، وابتدأ يرتجز. حتى أتم أرجوزته الفاخرة، فأجازه الأمير وخرج عقبة ـ وكان راجزاً ضعيفاً ـ خزيان. والرجز بحاجة إلى مزاج مختلف عن القصيد، وإليك رجزاً معاصراً قاله الضعيف عندما كان يعمل في مؤسسة جلبت موظفيها من بعيد، ثم عينت مديراً أخذ يضع الهياكل الإدارية ويقيِّمُ الناس، ثم يفصل منهم من يفصل، وبعض المحظوظين من أتباعه يبررون أفعاله. وستر الضعيف الفقير اسم المؤسسة: (جاءوا بنا من آخر الآفاق/ براتب حُدد باتفاق/ ثم أتانا قاطع الأرزاق/ جاءوا به من جزر الوقواق/ فرَازَنا والساق فوق الساق/ وهيكلَ الجميع في سياق/ ثم إذا بَلَغَتِ التراقي/ جاءوا يطالبوننا بالباقي/ وصاحت الغربان غاقِ غاقِ/ وانعقد الحبل على الخِناق/ ما الخنجر المغروس في أعماقي/ ولا الرصاص عند الاختراق/ كنظرة المشنوق للشناق/ ويبسمون لحظة التلاقي/ ويذرفون دمعة الفراق/ قد خجل النفاق يا رفاقي)

٣٥ التقلب فوق الوسائد

ولـقـد رأيـتُ بـهـا الـخَـرا ئِـدَ يَـتَّـصِـلْـنَ إلـى الـخَـرائِـدْ
رأيت بالديار الخرائد، الفتيات الناعمات، كثيرات

أيـامَ عَـبْـدَةُ وَسْـطَـهُـنَّ كـأنَّـهـا أمُّ الـفَـرائـدْ
وعبدة وسطهن كأنه أم الفرائد، اللؤلؤة الكبيرة وسط العقد

يَـحْـسُـدْنَ فـضـلَ جـمـالِـهـا لا تَـعْـدَمـي حَـسَـدَ الـحَـواسِـدْ
يـا شـوقَـهـا لِـفـراقِـنـا وتَـقَـلُّـبـي فـوقَ الـوَسـائِـدْ
لا تُـنْـجِـزيـنَ مَـواعِـدي وَيْـلـي عـلـى تـلـكَ الـمَـواعِـدْ

٣٦ الصلاة بالحصى

ثـم قـالـتْ: نـلـقـاكَ بـعـدَ لَـيـالٍ والـلـيـالـي يُـبْـلِـيـنَ كـلَّ جَـديـدِ
عندها الصبرُ عن لقائي، وعندي زَفَـراتٌ يَـأْكُـلْـنَ قـلـبَ الـحَـديـدِ
الحديد: الرجل الشديد، وأحب أن أفهمها على أن الحديد هو الحديد

مـا أُصَـلِّـي إلَّا وعـنـدي رَقـيـبٌ قـائـمٌ بِـالـحَـصَـى يَـعُـدُّ سُـجـودي
منشغل الذهن بها فلا أدري كم ركعة أصلي، لذا فأنا أطلب من بعضهم أن يرقبني ويضع حصاة عند كل ركعة.. ولم يكن بشار يرى الحصى طبعاً، لأنه أعمى، فلا شك في أن صاحبه كان يعد بصوت عالٍ.. كثير من شعر بشار فيه إشارات لا تصلح لضرير

٣٧ الشابع أخو الجائع

يـا عَـبْـدَ بَـاهِـلَـةَ الـذي يَـتَـوَعَّـدُ أَعَـلَـيَّ تُـبْـرِقُ إذْ شَـبِـعْـتَ وتُـرْعِـدُ؟
أنت يا باهلي كالعبد تهددني وتبرق وترعد وتحس في نفسك القوة عندما تشبع. لا ينجو الشابع من كلام الناس، يحسبونه بطراً أشراً؛ ولا ينجو الجائع، يقولون: هذا سيختلس. ويفضلون صاحب العز القديم الجديد، من هو من عائلة عريقة، ومن يتمتع بالمال والجاه. أملى مؤسس البنك العربي في مذكراته أنه كان كلما فتح فرعاً لمصرفه في مدينة راح يبحث عن رجل من «أحسن» عائلات المدينة وأعرقها وأغناها لكي يكون مديراً للفرع

عَـوَّدْتَ نـفـسَـكَ أن تُـضـامَ فَـخَـلِّـهـا كـلُّ امْـرِئٍ رهـنٌ بِـمـا يَـتَـعَـوَّدُ
عودت نفسك أن تُظلَم، فابق على ذلك، فأنت تستحق ما تعودت عليه

وأَبَـى لـكَ الـحَـسَـبُ الـلَّـئـيـمُ نَـبَـالَـةً وكَـسـاكَ ذِلَّـتَـهُ أَبُـوكَ الـقُـعْـدُدُ
القعدد: الجبان

٣٨ الهائمات بي

أَرْسَلْنَ في لُطْفٍ إلَيَّ أنِ ائْتِنا　　غَابَ الرقيبُ، وما تَخافُ وَعيدا

أرسلن في لطف، خفيةً، أن تعال وجالسنا فالرقيب غائب، ولا تهديد

فَأتيتُهُنَّ معَ الجَرِيِّ يَقُودُني　　طَرَباً، ويَا لَكَ قائداً ومَقُودا

جئت تلبية لرسالتهن مع الجري، الرسول، يقودني

لمَّا التقيْنا قُلْنَ: هاتِ فقد مضتْ　　سنةٌ نُؤَمِّلُ أن نراكَ قَعيدا

ظللنا سنة نتطلع إلى أن تجالسنا

حَدِّثْ فقد رَقَدَ الوُشاةُ، وليْتَهُمْ　　حتى القِيامةِ يَلبثونَ رُقُودا

قلتُ: اقْتَرِحْنَ مِنَ الهوى، فَسَأَلْنَني　　طُرَفَ الحديثِ فُكاهَةً ونَشيداً

حدثتهن بالطرائف وأنشدتهن شعراً

حتى إذا بَعَثَ الأَذِينُ فِراقَنا　　ورأيتُ مِن وجهِ الصباحِ خُدودا

الأذين: المؤذن

جَرَتِ الدموعُ، وقُلْنَ: فيكَ جَلادَةٌ　　عنَّا، ونَكْرَهُ أن نَراكَ جَليدَا

فيك جلادة وصبر عن لقائنا، ونريدك أن تكون متشوقاً دائماً غير صابر

٣٩ بعد أن زاغت عينه

إن نَبَتْ عيني وكانتْ زَلَّةً　　فاغفِريها قبلَ أن ألْقَى الرَّدَى

إن انحرفت عيني ونظرت لغيرك فاغفري قبل أن أموت

حِلْمُ ذي القُدْرَةِ حَظٌّ زَانَهُ　　والبَلايَا لا تُحَاشي أَحَدا

الحلم، والسماحة، عند ذي القدرة زين، والخطأ لا يستثني أحداً فاغفري خطأي

رِيمُ قد تُبْتُ وطَالَتْ عَبْرَتي　　شَهِدَ اللَّهُ، ودَمْعي شَهِدا

وأنا أتوب عن التطلع إلى غيرك

٤٠ الثوب الجديد

بِجَدِّكَ يا ابْنَ قُرْعَةَ نِلْتَ مالاً　　ألا إن اللِّئامَ لَهُمْ جُدُودُ

بحظك نلت المال، واللئام ذوو جدود، حظوظ

كَـسَـوْتُـكَ حُـلَّـةً مِـمَّـا أُسَـدِّي   بُـــروداً لا تُـــقــارِبُــنهــا بُـــرودُ

كسوتك ثياباً مما أسدي، مما أنسج.. ثياباً ليست كالثياب

مـلابِسُ لا تَـرِثُّ عـلـى الـلَّـيـالـي   ولا تَـبْـلَـى وإن بَـلِـيَـتْ جُـلُـودُ

فهي لا ترث، لا تهترئ، مع الزمن، ولا تبلى وإن بليت الجلود

جَـلَـسْـتُ أَحُـوكُـهـا والـلـيـلُ دَاجٍ   مُـحَـبَّـرَةً تُـبـيـدُ ولا تَـبـيـدُ

جلست ساهراً في الليل الداجي، المظلم، أُخيط هذه الحلة المحبرة، المنمقة، التي تُبيد لابسها ولا تبيد هي. إنها قصيدة هجاء

يُـوَرِّثُـهـا بَـنُـوكَ بَـنـي بَـنـيـهِـمْ   إذا هَـلَـكُـوا، ومَـنْـشَـرُهـا جَـديـدُ

يتوارثها أعقابك، وتظل جديدة ذات أثر.. وتخزيكم جيلاً بعد جيل

كَـذاكَ الـدهـرُ يُـبْـلـي كـلَّ شـيءٍ   ولا يَـفْـنَـى عـلـى الـدهـرِ الـقَـصـيـدُ

٤١ نصيحة للقصيدة

شَـرِبْـنَـا مِـنْ بَـنـاتِ الـدَّنِّ حـتـى   تـركـنـا الـدَّنَّ لـيـس لـه فُـؤادُ

شربنا الخمر من الكؤوس التي هي بنات الدن، خابية الخمر الكبيرة، فلم نترك خمراً في الدن فكأننا أخذنا قلبه

وجـدتُ لِـبـعـضِـهِـمْ جُـوداً وبَـعْـضٌ   كـمَـاءِ الـبَـحْـرِ أَكْـدَرُ لا يُـرَادُ

لا يُراد: لا يُطلب

ولـيـس الـجـودُ مـنـتَـحَـلاً ولـكـنْ   عـلـى أَحـسَـابِـهـا تَـجـري الـجِـيَـادُ

الجود ميزة لا ينتحلها المرء، يستحدثها، فالجياد، الخيل، تجري في السباق بأحسابها، فالسوابق هي ذات الأصيلة

وجَـارِيَـةٍ مِـنَ الـغُـرِّ الـغَـوَالـي   تُـزَفُّ إلـى الـمـلـوكِ ولا تُـقَـادُ

رب قصيدة هي كالفتاة من الغر الغوالي، الوضيئات الغاليات الثمن، تزف إلى الملوك عروساً، ولا تقاد جاريةً

تَـسُـرُّكَ بِـالـلِّـقـاءِ ولا تَـراهـا   ويُـعـطـي مـالَـه فـيـهـا الـجَـوادُ

هي لا ترى، لأنها قصيدة تسمع، ولكن السخي يبذل فيها المال

أقـولُ لـهـا وقـد خَـرجَـتْ بِـلَـيْـلٍ   مُـنـاصَـحَـةً ولـلـنُّـصْـحِ اجـتِـهـادُ

أنصح قصيدتي التي خرجت وأنا ساهر لها ليلاً..

رِدِي رَوْحاً فلن تَجِدي كَرَوْحٍ   إذا أَزِمَتْ بِكِ السَّنَةُ الجَمَادُ

اقصدي روح بن حاتم، فليس هناك مثله إذا أزمت بك، ضاقت بك، السنة الجماد، الشدة والمحل

٤٢ الشوكة المحسودة

إنْ يَحسُدُوني فإني غيرُ لائِمِهِمْ   قَبْلي مِنَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فَدامَ لي ولَهُمْ مَا بي ومَا بِهِمُ   وماتَ أكثرُنا غَيْظاً بِمَا يَجِدُ

ما يجد: ما في نفسه من وجد وغيظ

أنا الذي وَجَدُوني في حُلُوقِهِمُ   لا أَرْتَقي صَعَداً منها وأُزْدَرَدُ

وجدوني في حلوقهم كالشوكة لا أصعد ولا أُبلَع

٤٣ العود المشقوق

أَقُبَيْصَ لستَ، وإن جَهِدْتَ بِبالِغٍ   سعيَ ابنِ عمِّكَ ذي النَّدَى دَاودِ

يهجو قبيصة بن روح ويمدح ابن عمه داود بن يزيد: يا قبيصة لن تبلغ سعي، همة، ابن عمك ذي السخاء داود

داودُ محمودٌ وأنتَ مُذَمَّمٌ   عجباً لِذاكَ، وأنتُما مِنْ عُودِ

ولَرُبَّ عُودٍ قد يُشَقُّ لِمَسجدٍ   نِصْفاً، وسَائِرُهُ لِحُشٍّ يَهودي

الحش: الكنيف، أي المرحاض

٤٤ السخي والشجرة

ظِلُّ اليَسارِ على العباسِ ممدودُ   وقلبُه أبداً بالبخلِ معقودُ

اليسار: الغنى، العباس: هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب

إن الكريمَ لَتَخْفَى عنك عُسْرَتُهُ   حتى تَراهُ غنياً وَهْوَ مجهودُ

يخفي الكريم افتقاره، فتراه غنياً وهو متعب في إخفاء فقره

وللبخيلِ على أموالِهِ عِلَلٌ   زُرْقُ العيونِ عليها أَوْجُهٌ سودُ

البخيل له علل، حجج، يتحجج لعدم الإنفاق بحجج غير مقبولة عقلاً، كأنها العيون الزرق في الوجوه السود

إذا تَكَرَّهْتَ أن تعطي القليلَ ولم   تقدِرْ على سَعَةٍ لم يَظهرِ الجودُ

إذا كنت غير قادر على التوسع في العطاء فامتنعت عن العطاء القليل فلن يظهر سخاؤك. السخاء أن تعطي دائماً وبقدر ما عندك

أَوْرِقْ بِخيرٍ تُرَجَّى للنَّوالِ فما   تُرجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العودُ

أخرج يا هذا القليل، فالشجرة في بدء أمرها تورق فيرجى منها الثمر، وبلا ورق فلا ثمر

بُثَّ النوالَ ولا تمنعْكَ قِلَّتُهُ   فكلُّ ما سَدَّ فقراً فَهْوَ محمودُ

أخرجِ النوال، العطاء، حتى لو كان قليلاً، فما سد حاجة فهو جيد

٤٥ مكيدات النساء

لِخَدَّيْكَ مِنْ كفَّيْكَ في كلِّ ليلةٍ   إلى أن ترى وجهَ الصباحِ وِسَادُ

تضع خديك كل ليلة متوسِّداً كفيك متفكراً

تَبيتُ تُراعي الليلَ تَرجُو نَفَادَه   وليس لِليلِ العاشِقينَ نَفَادُ

ترجو نفاد، انتهاء، الليل.. وليل العاشقين لا ينفد

إذا قلتُ إنِّي قد لَقيتُ شَقاوةً   بِحُبِّكِ قالتْ لي: وسوف تُزادُ

قالوا بشار لم يسرق أبداً من غيره، وهذا من جميل بثينة

(إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي/من الحب قالت ثابت، ويزيد)

لَنا غِلْظَةٌ منها ولِينُ مَقالَةٍ   ولَوْعَةُ هَجْرٍ مَرَّةً ووِدادُ

فَواللَّهِ ما أدري، وكلٌّ مُصيبةٌ،   بِأيِّ مَكيداتِ النساءِ نُكادُ؟

كل هذا الذي ألاقيه منها ـ الغلظة واللين واللوعة والهجر والوداد ـ مصائب، ولا أدري بأي مكيدات النساء نصاب؟

٤٦ ابنتي والأعرابية

تقولُ ابْنَتي إذْ فَاخَرَتْها غَرِيبَةٌ   مُؤَزَّرَةٌ بِالوَبْرِ في شَوْذَرٍ قَدَدْ

ابنتي تفتخر عليها فتاة غريبة الشكل مؤزرة بثوب من وبر، وتلبس شوذراً قدداً، خيعلاً مقدود الأكمام.. قميصاً خَفْراً

لها والدٌ رَاعٍ إذا راحَ عندها   بِأَشْوِيَةٍ مِنْ قَلْبِ ضَبٍّ ومِنْ كَبَدْ:

أبوها راع يروح، يأتي مساء، ومعه المشاوي من قلب الضب، الحيوان الصحراوي الزاحف، وكبده

أَبِي نَجْلُ أَمْلاكٍ وزَوْرُ خَليفةٍ   يَلينُ له بابُ الهُمامِ إذا وَفَدْ

تقول لها ابنتي: أبي ابن أملاك، ملوك، وزور خليفة، يزور الخليفة، ويفتح له باب الهمام، الزعيم، إذا وفد عليه

٤٧ مدية الهوى

غَرَّاءُ كالقَمرِ المشهورِ حين بدتْ لا بل بدا مثلَها حين استوى القمرُ

وضاءة كالقمر، بل هو مثلها إذ استوى في وسط السماء

لمَّا رأيتُ الهوى يَبري بِمُدْيَتِهِ لَحمي، وخَلَّانيَ الزُّوَّارُ والسَّمَرُ

مديته: سكينه. الحب يجعله هزيل الجسم نحيلاً

أَصبحتُ كالحائمِ الحرَّانِ محتَبَساً لم يَقْضِ وِرْداً ولا يُرْجَى له صَدَرُ

أصبحت كالطائر الذي يحوم حران يريد أن يشرب، ويحبسه عن الماء الصائد، فلا يرد الماء ولا يعود عنه

قَالتْ عُقَيْلُ بنُ كَعْبٍ إذ تَعَلَّقَها قلبي فَأَضْحَى بهِ مِنْ حبِّها أثَرُ:

قالت لي قبيلة عقيل وقد تعلق قلبي بالمحبوبة وأثرت فيه

أَنَّى ـ ولم تَرَها ـ تَصبُو؟ فقلتُ لَهُمْ: إنَّ الفؤادَ يَرى ما لا يَرى البَصَرُ

كيف تصبو، أي تعشق، وأنت لم ترها.. قلت لهم: رأيتها بفؤادي

٤٨ إغواء

حسبي وحَسْبُ التي كَلِفْتُ بها مِنِّي ومنها الحديثُ والنظرُ

يكفيني الحديث والنظر ممن كلفت بها، تعلقت بها

أو قُبْلَةٌ في خلالِ ذاكَ ولا بأسَ إذا لم تُحَلَّلِ الأُزُرُ

وربما قبلة في هذه الأثناء، ولا يضيرني عدم حل الأزر، الثياب

أو لَمْسُ ما تحتَ مِرْطِها بِيَدي والبابُ قد حَالَ دونَه السُّتُرُ

ربما لمس ما تحت ثوبها، مجرد لمس، والباب عليه ستائر تحول دون التلصص

والسَّاقُ بَرَّاقَةٌ خَلاخِلُها والصوتُ عالٍ فقد عَلا البُهُرُ

وبساقها خلخال، ولها صوت إذ علا البهر، تقطع الأنفاس

واسْتَرخَتِ الكَفُّ للغزالِ وقد قالَ الْهُ عَنِّي والدمعُ مُنْحَدِرُ

كفه مسترخية مع الفتاة، وهي تقول اله عني، ابتعد، ودمعها يجري

اِذْهَبْ فما أنت كالذي ذَكروا، أنت ورَبِّي مُعَارِكٌ أَشِرُ

اذهب فأنت لست كما قالوا شاعر رقيق، بل أنت معارك فاتك

وغَابَتِ اليومَ عنكَ حَاضِنَتي فاللَّهُ لي اليومَ منكَ مُنْتَصِرُ

ووصيفتي غائبة وأنت تستغل الموقف فالله يأخذ بحقي منك

يا ربِّ خُذْ لي فقد ترى ضُعُفي مِنْ فَاسِقِ الكَفِّ مَا له شُكُرُ

أَهْوَى إلى مِعْضَدي فَرَضَّضَهُ ذُو قُوَّةٍ ما يُطَاقُ مُقْتَدِرُ

تقول: هذا الفاسق يمسك معضدي، أعلى الذراع، ويرضضه

يُلْصِقُ بي لحيةً له خَشُنَتْ ذاتُ سَوادٍ كأنَّها الإبَرُ

حتى علاني وإخْوَتي غُيُبٌ ويْلي عليْهِمْ لو أنهُمْ حَضَروا

أُقْسِمُ بِاللَّهِ ما نَجَوْتَ بها إذْهَبْ فأنتَ المُساوِرُ الظَّفِرُ

المساور: المهاجم

كيف بِأُمِّي إذا رأَتْ شَفَتي وكيف إن شاعَ منكَ ذا الخبرُ

قلتُ لها عند ذاكَ يا سَكَني لا بأسَ إنِّي مُجَرِّبٌ حَذِرُ

قُولي لَهُمْ بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ إن كان في البَقِّ ما له ظُفُرُ

فكاهة سمجة طبعاً. وقد أنفق النويهي صفحات كثيرة وهو يقدم إدانة أخلاقية لبشار على هذه القصيدة، فلئن كان مغتفراً الغرام فليس يغتفر إغواء طفلة

٤٩ الاستدراج

بَكِّرا صَاحِبَيَّ قبلَ الهَجيرِ إن ذاكَ النَّجاحَ في التَّبكيرِ

بكرا بالرحيل قبل الهجير، الحر..

وثِقالُ الأعجازِ قَطَّعْنَ قلبي بحديثٍ لَذٍّ، ودهرٍ قَصيرِ

ورَضيتُ القليلَ مِنْهُنَّ، إني مِنْ قليلٍ لَواثِقٌ بِكَثيرِ

يطمع بعد نيل القليل بالتدرج إلى الكثير

ليس كلُّ السُّرورِ يبقى نَعيماً رُبَّ غَيٍّ يَدِبُّ تحتَ السُّرورِ

ذهبتْ لَذَّةُ النساءِ فلا أَلْـ ـقى نعيماً إلَّا حَديثَ الذُّكورِ

٥٠ هجاء الأعراب

سأُخبرُ فَاخِرَ الأعرابِ عَنِّي وعنهُ حين بَارَزَ لِلفَخارِ

سأخبر المفتخر من الأعراب، ويقصد العرب

أنــا ابــنُ الأَكْـرَمــيــنَ أبـاً وأمَّــاً   تــنَـازَعَـنـي الـمَـرازِبُ مِـنْ طُـخَـارِ

أنا ابن الأكارم أباً وأما، وقد تجاذب نسبي أجداد من مرازب طُخارستان، والمرزبان هو القائد الحدودي في جيوش كسرى، وطخارستان في شمال أفغانستان اليوم

إذا انـقـلـبَ الـزمـانُ عَـلا بِـعَـبْـدٍ   وسَـفَّـلَ بِـالـبـطـاريـقِ الـكـبـارِ

البطاريق: قادة الروم، والقادة من غير العرب عموماً

مَـلَـكْـنـاكُـمْ فَـغَـطَّـيْـنـا عـلـيْـكُـمْ   ولَـمْ نَـنْـصِـبْـكُـمُ غَـرَضـاً لِـزَارِ

كنا قد ملكنا العرب قديماً فسترنا أحوالهم ولم ننصبهم غرضاً لمن يزري عليهم ويؤذيهم (وكان الفرس قد سيطروا في الجاهلية على اليمن، وكانت لهم سطوة في العراق حيث تبعتهم دولة المناذرة)

أَحـيـنَ لَـبِـسْـتَ بـعـدَ الـعُـرْيِ خَـزَّاً   ونَـادَمْـتَ الـكـرامَ عـلـى الـعُـقَـارِ..

أعندما لبست الخز، الحرير، بعد أن كنت عارياً، وحين نادمت الكرام على العقار، الخمر..

تُـفـاخِـرُ يـا ابْـنَ راعِـيَـةٍ ورَاعٍ   بَـنـي الأَحْـرارِ؟ حَـسْـبُـكَ مِـنْ خَـسَـارِ

تفاخر أيها الراعي بني الأحرار، والأحرار كلمة وصف بها بقايا الفرس في اليمن عندما جاء الإسلام، فقد أسلموا ولم يدخلوا تحت نير العبودية

وكـنـتَ إذا ظَـمِـئْـتَ إلـى قَـرَاحٍ   شَـرِكْـتَ الـكـلـبَ فـي ذاكَ الإِطَـارِ

كلما ظمئت إلى ماء قراح، صاف، شاركت الكلب في الإطار، الوعاء

وتُـدْلِـجُ لِـلـقَـنـافِـذِ تَـدَّرِيـهـا   ويُـنْـسِـيـكَ الـمَـكـارِمَ صـيْـدُ فَـارِ

وتدلج، تخرج ليلاً، للقنافذ تدريها، تخدعها لتصيدها، وتصيد فئران الصحراء من اليرابيع

وتَـغْـبِـطُ شَـاوِيَ الـحِـرْبَـاءِ حـتـى   تَـروحُ إلـيـهِ مِـنْ حُـبِّ الـقُـتَـارِ

وتحسد من يشوي الحرباء حتى لتذهبُ إليه وانت تتشمم القتار، رائحة الشواء

وفَـخْـرُكَ بـيـنَ يَـربُـوعٍ وضَـبٍّ   على مِـثْـلـي مِـنَ الـحَـدَثِ الـكِـبـارِ

وفخرك، أنت يا من يصيد الضباب واليرابيع، أي فئران البر، حدث كبير

٥١ الجفون القصار

وقال يفخر بمضر وقتل إبراهيم الإمام العباسي سنة ١٣١هـ:

يُـرَوِّعُـهُ الـسِّـرَارُ بِـكُـلِّ أمْـرٍ   مَـخـافَـةَ أن يـكـونَ بِـهِ الـسِّـرَارُ

هذا العاشق يخيفه السرار، حديث الوشوشة بين الناس، لأنه يظنهم يتحدثون عنه

كـــأنَّ فـــؤادَهُ كـــرةٌ تَـــنَـــزَّى حِـذَارَ الـبَـيْـنِ لـو نَـفَـعَ الـحِـذَارُ

كأن قلبه كرة تنزى، تقفز، خوفاً من الفراق

أقـولُ ولـيـلـتـي تَـزدَادُ طُـولاً أمَـا لِـلَّـيْـلِ بـعـدَهُـمُ نَـهـارُ

جَفَتْ عيني عن التَّغميضِ حتى كـأنَّ جـفـونَـهـا عـنـهـا قِـصَـارُ

لَـنَـا بَـطـحـاءُ مـكـةَ والـمُـصَـلَّـى ومـا حـازَ الـمُـحَـصَّـبُ والـجِـمَـارُ

لنا، ويقصد قبائل مضر من عرب الشمال ومنهم قريش، وكان ولاء بشار في عُقيل المضرية، بطحاء مكة، سهلها حيث سكن أشرافها، وما ضمه ذانك الموضعان المحصب والجمار

ومـيـراثُ الـنـبـيِّ وصـاحِـبَـيْـهِ تِـلاداً لا يُـبـاعُ ولا يُـعـارُ

ولنا إرث النبي وصاحبيه أبي بكر وعمر، وهذا تلاد، إرث

كـأنَّ الـنـاسَ حيـن نَـغِـيـبُ عنـهُـمْ نَـبـاتُ الأرضِ أَخْـلَـفَـهـا الـقِـطَـارُ

الناس بدوننا كنبات الأرض التي أخلفها، تأخر عنها القطار، أي المطر

ألـم يَـبْـلُـغْ أبَـا الـعـبـاسِ أنَّـا وَتَـرْنَـاهُ ولـيـس بـه اتِّـئَـارُ

أبو العباس السفاح وهو أخو إبراهيم الإمام الذي قتله آخر خلفاء بني أمية، وقد وترناه، جعلنا له ثأراً بقتلنا أخاه، ولكن ليس به اتئار، لا سبيل لأخذه الثأر

قَـتَـلْـنـا الـسَّـكْـسَـكِـيَّ بِـلا قَـتِـيـلٍ وهـل مِـنْ مَـقـتـلِ الـكـلـبِ اعـتِـذارُ

وقتلنا معاوية السكسكي الذي نقض بيعة مروان بن محمد بحمص وقاتله فقُتل

إذا مـا أَقْـبَـلُـوا بِـسَـوَادِ جَـمْـعٍ نـفـخْـنـا فـي سَـوادِهِـمُ فَـطـارُوا

يقبل الأعداء علينا أفواجاً ويظهرون من بعيد كالسواد.. ونهزمهم

طَـرائِـدَ خـيـلِـنـا حـتـى كَـفَـفْـنـا هَـوادِيَـهـا ولـيـس بـهـا ازْوِرَارُ

طاروا مطرودين بخيلنا التي تتبعهم، نطاردهم بعد كسرهم إلى أن نكف هوادي الخيل، أي أعناقها، دون أن يكون بها ازورار، أي انحراف عن المضي

لـنَـا نَـارٌ بِـشَـرْقِـيِّ الـمَـعَـالـي مُـضَـرَّمَـةٌ وبِـالـغَـربِـيِّ نـارُ

أوقدنا نارنا شرقاً وغرباً، والنار علامة شرف وكرم عند العربي فهو بها يعلن عن وجوده واستعداده لإيواء المستجير وإطعام الضيف

٥٢ لم يأتني خبر

حَسْبِي بـمـا قـد لَقيتُ يـا عـمـرُ لـم يـأتِـنـي عـن حـبـيـبـتـي خـبـرُ

يا ليت شِعْري ماتتْ فأنْدُبُها | أم أحدَثَتْ صاحباً فأنتحرُ
لا أستطيعُ الهوى وهِجْرَتَها | قلبِي ضعيفٌ، وقلبُها حَجَرُ

لا أستطيع تحمل الهوى وهجرها لي معاً

٥٣ وسم بالنار

أَجَرْنا الباهِلِيَّ مِنَ المَنايا | فلم يشكرْ لنَا كرمَ الجِوارِ
يفاخِرُنا ونعمتُنا عليهِ | وفيِمَ الباهِلِيُّ مِنَ الفَخَارِ
دَنَوْتَ مَعَ الكِرامِ ولستَ مِنهُمْ، | تأَخَّرْ يا ابنَ بَائِكَةِ الحِمارِ

يعير أمه بمعاشرة حمار، ولك أن تضع نقطة ليتم لك المعنى الخسيس، لا تفعل!

خُلِقْنا سَادَةً وخُلِقْتَ كلباً | ككلبِ السُّوءِ يَلحَقُ بالقِطارِ

أنت كالكلب الذي يلحق القطار، القافلة

إذا أَنْكَرْتَ نِسبةَ بَاهِلِيٍّ | فَرَفِّعْ عنهُ نَاحِيَةَ الإِزَارِ

إذا تحيرت في نسب شخص من قبيلة باهلة فارفع طرف ثوبه

على أَسْتَاهِ سَادَتِهِمْ كِتَابٌ | «مَوالِي عَامرٍ» وَسْمٌ بِنارِ

على مؤخرة سادتهم مكتوب بوسم، كالوسم بالحديدة المحمَّاة على الإبل لبيان صاحبها: موالي قبيلة عامر. وزعم هارون الرشيد لجليسه أن هذا أهجى بيت

سَعَى لِيَكونَ مِثْلِيَ بَاهِلِيٌّ | وكيف سَعَى بِمَجْدٍ مُسْتَعارِ
أرادَ بلؤْمِه تدنيسَ عِرضِي | وأينَ الشمسُ مِنْ دَنَسٍ وعَارِ

٥٤ الأسد الجائع

ما بالُ حَمَّادِ بْنِ نِهْيا يَشتَهي | مَوْتي كَأَنِّي بِاسْتِهِ بَاسُورُ

ما لي أرى حماد عجرد يشتهي موتي؟ فكأني في مؤخرته الباسور

نُبِّئْتُ آكِلَ خُرْئِهِ يغتابُني | عند الأميرِ، وهلْ عَلَيَّ أميرُ
ولِيَ المَهَابَةُ في الأحبَّةِ والعِدَى | وكأنَّني أسدٌ له تَامُورُ

التامور: عرين الأسد

غَرِثَتْ حَليلَتُهُ وأخطأَ صيْدَهُ | فلَهُ على لَقَمِ الطريقِ زَئيرُ

وكأن هذا الأسد ترك حليلته، زوجته، غرثى أي جائعة، ولم يتمكن من الصيد، فهو على لقم الطريق، واللقم الطريق الواضح، يزأر متهيئاً للافتراس

وَيَسُرُّنِي سَبْقُ الجوادِ إلى النَّدَى قَبلَ السؤالِ، فإن ذاكَ سُرورُ
وإذا أَقَلَّ لِيَ البخيلُ عَذَرْتُهُ إن القليلَ مِنَ البَخيلِ كثيرُ

٥٥ أنا وعبدة والناس

يُزَهِّدُنِي في حبِّ عَبْدَةَ معشرٌ قلوبُهُمُ فيها مُخَالِفَةٌ قَلبي
يزهدني في حبها: يقلل حبها في عيني

فقلتُ: دَعُوا قلبِي وما اختارَ وارْتَضَى فبِالقلبِ لا بالعينِ يُبْصِرُ ذو اللُّبِّ
وما تُبصِرُ العينانِ في موضِعِ الهوى ولا تسمعُ الأُذْنانِ إلَّا مِنَ القلبِ

٥٦ مدح واصل بن عطاء

تَكَلَّفُوا القَوْلَ والأَقوامُ قد حَفِلُوا وحَبَّرُوا خُطَباً ناهِيكَ مِنْ خُطَبِ
فقامَ مُرتَجِلاً تَغْلِي بَداهَتُهُ كَمِرْجَلِ القَيْنِ لمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ
قام واصل بن عطاء يرتجل ببديهة حارة كأنها تنور القين، الحداد، المحاط باللهب

وجَانَبَ الرَّاءَ لم يَشعُرْ به أحدٌ قبل التَّصَفُّحِ والإِغْرَاقِ في الطلبِ
وتجنب حرف الراء، وكان واصل يلثغ بالراء، في كل كلماته، ولا يشعر أحد بهذا إلا بعد طول تفكير وتنقيب. هذا عن مدح بشار لواصل بن عطاء، فأما واصل فقد وصله عن بشار ما يقوله في الغزل الفاحش فقام وخطب خطبة أخرى ـ وتجنب فيها الراء ـ وقال: (أما لهذا المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله.) فقال المشنف ولم يقل المرعث، وقال أبا معاذ ولم يقل بشاراً، وقال الغالية ولم يقل الرافضة، وقال يبعج بطنه لا يبقره، متجنباً الراء في كل كلامه

٥٧ زُر غباً تزدد حباً

لا تَجْعَلَنْ أحَداً عليكَ إذا أحبَبْتَهُ وهَوِيتَهُ رَبَّا
رب: سيد

وَصِلِ الخليلَ إذا شُغِفْتَ بِهِ واطْوِ الزيارَةَ دونَهُ غِبَّا
اطو الزيارة دونه غباً: قم بزيارات متفرقة، ولا تكثر

فَلَذَاك خيرٌ مِنْ مُوَاصَلَةٍ ليستْ تَزِيدُكَ عنده قُرْبا

٥٨ صحبة أبدية مع الحزن

أَبْكي الذين أَذاقوني مَوَدَّتَهُمْ حتى إذا أَيْقَظوني في الهوى رَقَدُوا
واسْتَنْهَضُوني فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِباً بِثِقْلِ مَا حَمَّلُوني وُدَّهُمْ قَعَدُوا

يوقعونني في شرك الحب ثم لا يكملون المشوار معي

لَأَخْرُجَنَّ مِنَ الدنيا وحبُّهُمُ بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أَحَدُ
أَلْقَيْتُ بيني وبينَ الحزنِ معرفَةً لا تَنْقَضي أبداً أو يَنقضيَ الأبدُ

٥٩ إخفاء البكاء

شَكَوْتُ إلى الغَواني ما أُلاقي وقُلْتُ لَهُنَّ مَا يَومي بَعيدُ

قال لهن إن يومه قريب وسيموت عشقاً

فَفاضَتْ عَبْرَةٌ أَشْفَقْتُ منها تَسيلُ كأنَّ وَابِلَها الفَرِيدُ

نزلت دموعي كأنها الفريد، حبات اللؤلؤ

فَقُلْنَ بَكَيْتَ؟ قُلْتُ لَهُنَّ كلَّا وقد يَبكي مِنَ الشَّوْقِ الجَليدُ

الجليد: المتماسك

ولكنِّي أَصابَ سَوادَ عَيْني عُوَيْدُ قَذىً له طَرَفٌ حَديدُ

أصاب سواد عيني عود طرفه حديد، أي حادّ

فَقُلْنَ: فَمَا لِدَمْعِهِمَا سَوَاءً أَكِلْتَا مُقْلَتَيْكَ أصابَ عُودُ

قلن له: دمع عينيك سواء، أي متساو بين المقلتين.. فهل أصاب عود كلتا عينيك؟ يا كذاب!

فَقَبْلَ دُموعِ عينِكَ خَبَّرَتْنا بِمَا جَمْجَمْتَ، زَفْرَتُكَ الصَّعُودُ

وقبل أن تبكي أخبرتنا بما جمجمت، بما قصدت أن تقول ولم تحسن التعبير، زفراتُك الصعود، الصاعدة من صدرك

٦٠ استخفاف

وإنَّني في الصَّلاةِ أَحضُرُها ضُحْكَةُ أهلِ الصَّلاةِ إن شَهِدُوا
أَقْعُدُ في سَجْدَةٍ إذا رَكَعُوا وأَرْفَعُ الرأْسَ إنْ هُمُ سَجَدُوا
أَسْجُدُ والقومُ راكعونَ معاً وأُسرِعُ الوَثْبَ إن هُمُ قَعَدُوا
ولستُ أَدْري إذا إمَامُهُمُ سَلَّمَ كَمْ كانَ ذَلِكَ العَدَدُ

٦١ الحج إلى زرارة

أَلَمْ تَرَنِي ويَحيَى قد حَجَجْنا   وكان الحجُّ مِنْ خيرِ التِّجارَةْ
خَرجْنا طَالِبَيْ خيرٍ وبِرٍّ   فمَالَ بِنا الطريقُ إلى زُرَارَةْ

زرارة: خمار من الخمارين

فَعادَ الناسُ قد غَنِمُوا وحَجُّوا   وأُبْنا مُوقَرِينَ مِنَ الخَسَارَةْ

عدنا موقرين: محمَّلين

٦٢ أنا وفطمة

عَجِبَتْ فَطْمَةُ مِنْ نَعتي لها   هل يجيدُ النَّعْتَ مكفوفُ البَصَرْ
بنتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِّمَتْ   بينَ غُصْنٍ وكَثيبٍ وقَمَرْ

الغصن قدها المياس، والكثيب مؤخرتها، والقمر وجهها

دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مَكْنُونَةٌ   مَازَها التاجرُ مِنْ بينِ الدُّرَرْ

درة بحرية، أي لؤلؤة، كانت مكنونة في الصدفة، فلما رآها التاجر كبيرة وثمينة مازها، نحاها جانباً

أَذْرَتِ الدمعَ، وقالتْ: وَيْلَتي   مِنْ وَلُوعِ الكَفِّ رَكَّابِ الخَطَرْ

قالت وقد أذرت الدمع وسكبته: ويلي من هذا المولع باللمس الذي لا يبالي الخطر

أُمَّتَا بَدَّدَ هَذا لُعْبَتي   ووِشَاحي حَلَّهُ حتى انْتَثَرْ

يا أمي قد خرب هذا الرجل لعبتي وحل وشاحي ونثره

فَدَعِيني مَعَهُ يا أُمَّتَا   عَلَّنَا في خَلْوَةٍ نَقضي الوَطَرْ

فاتركيني معه قليلاً حتى نقضي غرضنا!

أَقْبَلَتْ مُغْضَبَةً تَضْرِبُها   واعْتَرَاها كَجُنونٍ مُسْتَعِرْ
بِأَبي واللَّهِ مَا أَحْسَنَهُ   دمعُ عينٍ يَغسِلُ الكُحْلَ قَطَرْ

٦٣ قناديل السماء

فَأَبْلِغْ بَني زيدٍ وقُلْ لِسَرَاتِهِمْ   وإن لم يكنْ فيهِمْ سَرَاةٌ تُوَقَّرُ

قل لسراتهم، سادتهم، وإن لم يكن فيهم سادة يمكن توقيرهم واحترامهم

لِأُمِّـكُـمُ الـوَيْـلاتُ إنَّ قَـصـائِـدي صَـواعِـقُ، مـنـهـا مُـنْـجِـدٌ ومُـغَـوِّرُ

قصائدي صواعق تصل النجود، المرتفعات، والأغوار، المنخفضات

ولـو فَـارقُـوا مـا فـيـهِـمُ مِـنْ دَعَـارَةٍ لـمَـا عَـرفَـتْـهُـمْ أُمُّـهُـمْ حـيـن تَـنْـظُـرُ

يـريـدونَ مَـسْـعـاتـي ودونَ لِـقـائِـهـا قـنـاديـلُ أبـوابِ الـسـمـاواتِ تَـزْهَـرُ

يريدون الوصول لمسعاتي، مجدي، وأقرب من ذلك عليهم قناديل السماء أي النجوم التي تزهر، تلمع

٦٤ بكاء صديق زنديق

لَعَمْري لَئِنْ أَصبحْتَ فوق مُشَذَّبٍ طويلٍ تُعَفِّيكَ الرياحُ مَعَ القَطْرِ..

لئن أصبحت مصلوباً مرفوعاً فوق عود مشذب تعفيك، تمحو ملامحك، الرياح والقطر، أي المطر..

لقد عِشْتَ مبسوطَ اليدينِ مُبَرِّزاً وعُوفيتَ عند الموتِ مِنْ ضَغْطَةِ القبرِ

فإنك عشت ويداك مبسوطتان بالمعروف، ومتفوقاً.. وقد تخلصت بالصَّلْب من ضغطة القبر وضيقه

وأَفْلَتَّ مِنْ ضِيقِ التُّرابِ وغَمِّهِ ولم تفقِدِ الدُّنْيا، فهلْ لَكَ مِنْ شُكْرِ

أفلتَّ من التراب، وبقيت في الدنيا، أي فوق الأرض غير مدفون، فاشكر ذلك

فما تَشتَفِي عيناايَ مِنْ دائمِ البُكَا عليكَ ولو أنِّي بَكَيْتُ إلى الحَشْرِ

سأبكيك حتى يوم القيامة

فَطُوبَى لِـمَنْ يَبكِي أخاهُ مُجَاهِراً ولكنَّني أَبْكِي لِفَقْدِكَ في سِرِّي

مبارك من يبكي أخاه جهراً، غير أنني مضطر لبكائك سراً، لأنك اتهمت بالزندقة وأخاف أن تلصق بي التهمة

٦٥ ثواب على الهجاء

على وَاسِطٍ مِنْ رَبِّها أَلْفُ لَعْنَةٍ وتِسْعَةُ آلافٍ على أَهْلِ وَاسِطِ

واسط مدينة بالعراق بناها الحجاج

أَيُلتَمَسُ المعروفُ مِنْ أهلِ واسِطٍ ووَاسِطُ مَأْوَى كلِّ عِلْجٍ وسَاقِطِ

العلج: الرجل الجلف من غير العرب

وإنِّي لَأَرجُو أن أنالَ بِشَتْمِهِمْ مِنَ اللَّهِ أَجْراً مثلَ أَجْرِ المُرابِطِ

المرابط: المقاتل يرابط في بلدة ثغرية حدودية طلباً للأجر

٦٦ من عظم الرقبة

عَـبْـدَ إنـي إلـيـكِ بـالأشـواقِ   لِـتَـلاقٍ وكـيـف لـي بِـالـتَّـلاقـي

قيل هذا أول شعر قاله في حبيبته عَبْدَة.. إني إليك: أي مائل إليك

أنـا والـلَّـهِ أَشـتَـهِـي سِـحْـرَ عـيـنـيْـ   ـكِ وأَخـشَـى مَـصـارِعَ الـعُـشَّـاقِ

أحبوا هذا البيت ورددوه على مسامعي، وقرأته مرة ومرة، ولا أدري هل أحبه بذوقي أنا أم بذوق استعرته من الناس

فاصبِري مثلَما صبرتُ فإن الصَّـ   ـبْـرَ حَـظٌّ مِـنْ صَـالِـحِ الأخـلاقِ

إنـنـي مِـنْ بَـنـي عُـقَـيْـلِ بـنِ كَـعْـبٍ   مَوْضِعِ السيفِ مِنْ طُلَى الأَعْناقِ

يفتخر بالقبيلة التي هو من مواليها فهو من هذه القبيلة بموضع السيف من الطلى، أي الأعناق. وأهل الأردن يقولون لمن يحبونه «أنت من عظم الرقبة» أي أنت منا، وسمعتها من أخي جميل عازر عندما التحقت بهيئة الإذاعة البريطانية، وعرفت الرجل بعدها ثلاثين سنة فما رأيت منه إلا كل خير

٦٧ شهادة أطراف المساويك

يـا أَطـيـبَ الـنـاسِ ريـقـاً غـيـرَ مُـخْـتَـبَـرٍ   إلَّا شـهـادةَ أطـرافِ الـمَـسـاويـكِ

ريقها طيب ولكنها لم تقبل أحداً فلم يختبر أحد ريقها اللهم إلا من رائحة مسواكها

قـد زُرْتِـنـا مَـرَّةً فـي الـدهـرِ واحـدةً   عـودي ولا تَـجـعَـلِـيـهـا بَـيْـضَـةَ الـدِّيـكِ

زعموا أن الديك يبيض مرة واحدة في العمر

يـا رحـمـةَ الـلَّـهِ حُـلِّـي فـي مَـنـازِلِـنـا   حـسـبـي بِـرائـحـةِ الـفِـرْدَوْسِ مِـنْ فـيـكِ

رحمة الله: رحمة الرب، و«رحمة» اسم هذه الفتاة. تورية ساذجة استعملها بعده أبو نواس مشيراً إلى سلفه في الشعر والتهتك

٦٨ الأَكْمَهُ

إذا وُلِـدَ الـمـولـودُ أعـمَـى وجـدتَـه   وجِـدِّكَ أَهْـدَى مِـنْ بَـصـيـرٍ وأَجْـوَلا

وجدك: وحياتك، أجول: أكثر حيلة وتجوالاً

عَـمِـيتُ جنيناً والـذكـاءُ مِنَ الـعَـمَى   فـجئتُ عَجيبَ الظنِّ لِلعلمِ مَعْقِلا

عمي في بطن أمه أي أنه ولد أعمى، فهذا هو الأَكْمَهُ، وهو عجيب الظن أي قوي الحدس ومعقل العلم أي موطنه

وشِعْرٍ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لاءَمْتُ بَيْنَهُ بِقَوْلٍ إذا ما أَحْزَنَ الشعرُ أَسْهَلا

إذا أحزن الشعر، توعر وصار معقداً، فشعري يسهل

٦٩ عشق حمار

وأنشد له في الأغاني أنه مات له حمار فرآه في النوم فقال له: لماذا مت، ألم أكن أحسن إليك؟ فقال الحمار:

سيِّدي خُذْ بي أَتَاناً عند بابِ الأَصبَهاني

يقول الحمار الذي مات عندما جاء بشاراً في الحلم: سيدي خذ بي، أي خذ بثأري، أتاناً، حمارة، تقف عند باب الأصبهاني

تَيَّمَتْني بِبَنَانٍ وبِدَلٍّ قد شَجَاني

تيمتني وولهتني ببنانها، إن كان للحمارة بنان، وبدلٍّ، أي دلال، قد شجاني، وأحزنني

تَيَّمَتْني يومَ رُحْنا بِثَناياها الحِسانِ

وبثناياها الحسان، أي أسنانها الجميلة

وبِغُنْجٍ ودَلالٍ سَلَّ جِسمي وبَراني

ولها خَدٌّ أَسِيلٌ مِثلُ خَدِّ الشَّيْفَرانِ

سئل بشار: يا أبا معاذ، وما الشيفران؟ فقال هذا من غريب الحمار.. أي من الألفاظ المهجورة في قاموس الحمير

فَلِذا مُتُّ، ولو عِشْتُ إذَنْ طَالَ هَواني

لهذا مت، ولو عشت لطال هواني، أي ذلي (من هجْر الحبيبة وليس لأنه حمار)

٧٠ كأنَّ ما كان لم يكن

ولمَّا رأيتُ الدارَ وَحْشاً، بِها المَها تَرودُ وخيطَانُ النَّعامِ تَجُولُ

وجدت أطلال الدار موحشة وفيها المها، أي بقر الوحش، ترود، أي تتجول، وخيطان النعام، أي قطعان النعام، تتجول

ذَكَرْتُ بِها عيشاً فقلتُ لِصاحبي كأنْ لم يَكُنْ ما كانَ حينَ يَزُولُ

بدا ليَ أنَّ الدهرَ يَقْدَحُ في الصَّفَا وأنَّ بَقائي إنْ حَيِيتُ قليلُ

الزمن يقدح في الصفا، أي الصخر. أي أن الزمن يأتي على كل شيء فلا شك أنني لن أبقى طويلاً

٧١ قم يا عمر

ونُبِّئْتُ قوماً بِهِمْ جِنَّةٌ يقولونَ مَنْ ذا وكنتُ العَلَمْ

قوم بهم جنة، أي جنون، يسألون من أنا، وأنا علم، أي جبل، أي أنني مشهور

ألا أيُّها السَّائِلي جاهِداً لِيَعْرِفَني أنا أنفُ الكَرَمْ

أنا أنف الكرم: قمة الكرم، والأنف هو العلو والشموخ ومنه الأَنَفَة أي الإباء

نَمَتْ في الكرامِ بني عامِرٍ فُروعي، وأَصلِي قريشُ العَجَمْ

فروعي نمت في بني عامر الذين ربيت فيهم، وأصلي أكرم قوم في العجم، ويقابلون قريشاً عند العرب

فإنِّي لأُغْني مَقامَ الفَتَى وأُصْبي الفتاةَ فما تَعْتَصِمْ

أغني مقام الفتى، أسد مسد الفتى في الفتوة والنخوة، وأصبي الفتاة، أغويها، فلا تعتصم، تمتنع مني لما عندي من الأصل الطيب و.. الجاذبية

دَعاني إلى عُمَرٍ جُودُه وقَوْلُ العَشيرةِ بَحْرٌ خِضَمّ

بحر خضم: متدفق كرماً

ولولا الذي زَعَمُوا لم أَكُنْ لِأَمْدَحَ رَيْحَانَةً قبلَ شَمّ

لولا ما قالوا عنك لما مدحتك، فأنا لا أمدح رجلاً قبل أن أنال عطاءه، مثلما لا يقول المرء «الله» قبل أن يشم رائحة الريحانة الزكية

فَقُلْ لِلخليفَةِ إن جِئتَهُ نَصوحاً، ولا خَيرَ في مُتَّهَمْ:

إذا أيقَظَتْكَ حروبُ العِدا فَنَبِّهْ لها عُمَراً ثمَّ نَمْ

بيت مشهور جداً. أيها الخليفة إذا قلقت من حروبك مع الأعداء فنبه عُمَر بن العلاء لكي يكفيكهم ونم ناعم البال

فَتىً لا ينامُ على ثَأْرِهِ ولا يَشربُ الماءَ إلَّا بِدَمْ

٧٢ هتكنا حجاب الشمس

أَبَى طَلَلٌ بِالجَزْعِ أن يَتَكَلَّما وماذا عليهِ لو أجابَ مُتَيَّما

الطلل في موضع الجزع أبى أن يتكلم، وماذا كان يخسر لو أجاب المتيم الذي وقف به يسائله عن قوم المحبوبة أين رحلوا؟

وبِالفَرْعِ آثارٌ بَقِينَ، وبِاللِّوَى مَلاعِبُ لا يُعْرَفْنَ إلَّا تَوَهُّما

وهناك آثار بقيت بالفرع، بالتل، وهناك ملاعب، أي السهول التي تلعب فيها الرياح، في موضع اللوى.. ولا يعرفها المرء إلا توهماً بغير يقين لأنها تغيرت كثيراً

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنا حِجَابَ الشمسِ أو تُمْطِرُ الدَّمَا

يفخر بقبيلة مضر الكبرى، وولاؤه في بني عُقَيل وهم من مضر، وغضبة مضر تجعلها تهتك حجاب الشمس، فكأن الشمس فتاة انتصرنا على قومها وهتكنا الستر عنها وسبيناها، وإلا فإننا نجعل السماء تمطر دماً يسيل من سيوفنا ورماحنا. دع عنك الشرح فهو يقلل أثر البيت: هذا فخر فاخر

إذا مَا أَعَرْنا سيِّداً مِنْ قبيلةٍ ذُرَى مِنبرٍ صَلَّى علينا وسَلَّمَا

إذا سمحنا لسيد من قبيلة بأن يتولى ولاية وقام يخطب الجمعة فهو يصلي علينا ويسلم، فهو يصلي على النبي، والنبي مضري منا

وإنَّا لَقَوْمٌ ما تزالُ جِيادُنا تُساوِرُ مَلْكاً أو تُنَاهِبُ مَغْنَمَا

خيولنا دائبة في مساورة الملوك، مهاجمتهم، وانتهاب المغانم

خَلَقْنا سَمَاءً فَوقَنا بِنُجُومِها سيوفاً ونَقْعاً يَقْرِضُ الطَّرْفَ أَقْتَمَا

خلقنا سماء فوقنا من النقع، الغبار في المعركة، الذي يقرض الطرف، أي يؤذي العين، وهو أقتم، مسود، وفي هذه السماء نجوم هي بريق سيوفنا

٧٣ ليل قصير ونوم قليل

لم يَطُلْ ليلِي ولكنْ لم أَنَمْ ونَفَى عنِّي الكَرَى طيفٌ أَلَمّ

رأى طيفها الذي ألم به، أي أتاه، في نومه فصحا

وإذا قلتُ لَها جُودي لَنا خرجَتْ بِالصمتِ عن لا ونَعَمْ

يقول لها جودي لنا بالوصل، فتتخلص من القبول أو الرفض بمخرج آخر هو.. الصمت

نَفِّسي يا عَبْدَ عَنِّي واعْلَمي أنني يا عَبْدَ مِنْ لَحْمٍ ودَمْ
إنَّ في بُردَيَّ جِسْماً ناحِلاً لو تَوَكَّأْتِ عليه لانْهَدَمْ

في ثوبيَّ جسم ناحل لو توكأت عليه لسقط. وكان بشار طويلاً عريضاً متيناً، قال له رجل من المدينة: كيف تقول هذا وأنت بهذه الخلقة، ولو بعث الله الريح التي عصفت بقوم عاد وثمود ما حركتك؟ قال له بشار: ما زلت أعرف أنكم ثقلاء يا أهل المدينة. أو كما قال. (تعليق عمران القفيني: طبخ المتنبي هذا المعنى على طريقته. وكل «نحول» يقودنا فوراً إلى المتنبي). المؤلف: ستكون لنا مع المتنبي وقفة طويلة في الجزء الثالث الذي نوينا أن نسميه «تألق الشعر»

خَتَمَ الحبُّ لها في عُنُقي مَوْضِعَ الخَاتِمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَمْ

لها في عنقي ختم بالمحبة مثل الختم الذي في أعناق أهل الذمة، وكانوا يضعون ختماً على من يستوفون منه الجزية. شيء شبيه بحبر الانتخابات

٧٤ الشورى

أبا مُسْلِمٍ ما طُولُ عَيْشٍ بِدائِمِ ولا سالِمٌ عمَّا قَليلٍ بِسَالِمِ

قال هذه القصيدة في هجاء أبي جعفر المنصور وكان مطلعها «أبا جعفر..» ثم حولها إلى هجاء أبي مسلم الخراساني الذي قتله المنصور، فغير فيها هنا وهناك أشياء.. هذا ما قالته بعض الأخبار التي جاءت في الكتب القديمة

على المَلِكِ الجبَّارِ يَقتَحِمُ الرَّدَى ويَصْرَعُهُ في المَأْزِقِ المُتَلاحِمِ

الموت يقتحم على الملك الجبار ويصرعه في المعركة عند التحام السيوف

كأنَّكَ لم تسمعْ بِقتْلِ مُتَوَّجٍ عظيمٍ، ولم تسمعْ بِفَتْكِ الأَعاجِمِ

تَقَسَّمَ كِسرَى رَهْطُهُ بِسيُوفِهِمْ وأَمْسَى أَبُو العَبَّاسِ أَحْلامَ نَائِمِ

كسرى المقتول هو يزدجرد آخر الأكاسرة، حكم عشرين سنة، وقتل وهو هارب بعد هزيمة جيشه على يد المسلمين. أبو العباس: الوليد بن يزيد الخليفة الأموي المتهتك الذي قتل قتلاً ١٢٦هـ

مُقِيمَاً على اللَّذَّاتِ حتى بَدَتْ له وجوهُ المَنايا حَاسِراتِ العَمائِمِ

المقيم على اللذات هو الوليد بن يزيد، ثم رأى وجوه المنايا، الموت، وقد حسرت العمائم وبدت واضحة

وقد تَرِدُ الأيامُ غُرَّاً وربَّما وَرَدْنَ كُلُوحاً بَادِياتِ الشَّكائِمِ

الأيام تأتي غراً، أي غراء مشرقة، أو كلوحاً، كالحة مكشرة، باديات الشكائم، كأنها الحصان يكشر فتبرز شكيمته وهي الحديدة التي في فمه

ومَروانُ قد دَارَتْ على رأسِهِ الرَّحَى وكانَ لِمَا أَجْرَمْتَ نَزْرَ الجَرائِمِ

ومروان الثاني آخر خلفاء بني أمية دارت عليه رحى الموت، وكان بالمقارنة مع جرائمك نزر الجرائم، أي قليلها

فأَصبَحْتَ تَجري سَادِراً في طريقِهِمْ ولا تَتَّقي أَشبَاهَ تِلكَ النَّقَائِمِ

تجري سادراً، مستهتراً، في طريق أولئك المقتولين، ولا تتقي أن يقع بك مثل تلك النقائم، المصائب

تَجَرَّدْتَ للإسلامِ تَعْفُو سبيلَهُ وتُعْرِي مَطَاهُ لِلُّيوثِ الضَّرَاغِمِ

تجردت، تفرغت للإسلام تعفو سبيله، تمحو طريقه، وتعري مطاه، تُعَرّي ظهره، لكي تفترسه الأسود

فمَا زِلْتَ حتى استَنْصَرَ الدينُ أَهْلَهُ عليكَ فَعادُوا بالسيوفِ الصَّوَارِمِ

ظللت كذلك حتى طلب الدين النصرة من أهله فجاءوك بالسيوف القواطع

لَحَى اللَّهُ قَوماً رَأَّسُوكَ عليْهِمُ   وما زِلْتَ مَرْؤُوساً خَبيثَ المَطَاعِمِ

لحى الله، لعن، من جعلوك رئيساً عليهم، وأنت مجرد مرؤوس لا رئيس وخبيث المطاعم، تطعم الناس الخبيث من الطعام مثلما يفعل اللئام

أقولُ لِبَسَّامٍ عليهِ جَلالَةٌ   غدا أَرْيَحِيّاً عاشِقاً لِلمَكَارِمِ

مِنَ الهَاشِمِيِّينَ الدُّعَاةِ إلى الهدى   جَهاراً، ومَنْ يَهْدِيكَ مِثْلُ ابْنِ هَاشِمِ

هنا يمدح أبا جعفر المنصور وهو هاشمي، وقيل إن الكلمة في أصل القصيدة «من الفاطميين.. وابن فاطم» وكانت في مدح العلويين أبناء فاطمة الزهراء

إذا بَلَغَ الرأيُ المَشُورَةَ فاسْتَعِنْ   بِرأيِ نَصيحٍ أو نصيحةِ حَازِمِ

يحض على الاستشارة، واستشارة من هو نصيح أمين، أو رجل حازم

ولا تجعلِ الشُّورَى عليكَ غَضَاضَةً   فإنَّ الخَوافي قُوَّةٌ لِلقَوَادِمِ

لا تجعل مشاورة الآخرين انتقاصاً لسيطرتك وسلطاتك.. فالخوافي، الريشات الداخلية في جناح الطائر تعطي القوادم، الريشات الظاهرة، قوة.. وكذا المشورة فهي تقوي السلطان الظاهر

وما خَيْرُ كَفٍّ أَمْسَكَ الغُلُّ أُخْتَها   وما خَيْرُ سيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائِمِ

لا خير في كف يمسك الغل، القيد، أختها.. قيد واحدة ضعيفة ولا تصفق.. ولا خير في سيف لا قائم له، لا مقبض.. ولا خير في زعيم لا يقوي نفسه بالمشورة

وخَلِّ الهُوَيْنا للضعيفِ، ولا تَكُنْ   نَؤُوماً فإن الحزمَ ليس بِنائِمِ

الهوينا: التباطؤ

وحارِبْ إذا لم تُعْطَ إلّا ظُلامَةً   شَبَا الحربِ خيرٌ مِنْ قَبولِ المَظَالِمِ

حارب إذا لم تعط إلا ظلامة، ظلماً وانتقاصاً لحقك، فشبا الحرب، والشبا هو حد السنان، خير من القبول بالظلم

وأَدْنِ على القُرْبَى المُقَرِّبَ نَفْسَهُ   ولا تُشْهِدِ الشُّورى امْرَأً غيرَ كَاتِمِ

قرب لك من يقرب نفسه ويريد أن يكون حليفاً، ولا تستشر إلا الكتوم

فإنَّكَ لا تَسْتَطْرِدُ الهَمَّ بِالمُنَى   ولا تَبْلُغُ العَلْيَا بِغيرِ المَكَارِمِ

الهم لا يمكن طرده بالأمنيات، والعلياء لا تُنال إلا بمكارم الأفعال

وما قَارَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ   أَريبٍ ولا جَلَّى العَمَى مِثْلُ عَالِمِ

لا يقارع الأقوام وينجح في محاربتهم كمن هو مشيع، ذو حلفاء يشايعونه، وأريب داهية، ولا يكشف المستور ويتغلغل في بواطن الأمور مثل الذي عرف كل المعلومات

٧٥ فقْد

وفَـتـىً يَـشـرَبُ الـمُـدَامَـةَ بـالـمـا   لِ، ويَـمـشـي يَـرومُ مـا لا يُـرَامُ

رب فتى يشرب الخمر ويفني ماله فيها، ويطلب من الأمور المستحيل. .

كـان لـي صَـاحِـباً فَـأَوْدَى بـه الـدهـ   ـرُ وفَـارَقْـتُـه، عـلـيـه الـسَّـلامُ

كان صاحبي وأودى به الدهر، أماته الدهر، فعليه السلام

يا ابْنَ مُوسَى فَقْدُ الحَبيبِ على العيْـ   ـنِ قَـذَاةٌ وفـي الـفـؤادِ سَـقَـامُ

يخاطب ابن موسى: فقد الحبيب مثل القذاة في العين، القشة أو الشعرة أو حبة الرمل في العين هذه هي القذاة

كـيـف يَـصـفُـو لِـيَ الـنـعـيـمُ وحـيِـداً   والأَخِـلَّاءُ فـي الـمَـقـابِـرِ هَـامُ

هام: موتى، والهامة في الأسطورة العربية شبح يخرج من قبر الميت

نَـفِـسَـتْـهُـمْ عَـلَـيَّ أُمُّ الـمَـنـايـا   فـأَنَـامَـتْـهُـمْ بِـعُـنْـفٍ فَـنَـامُـوا

نفستهم علي، استكثرتهم علي وحسدتني، أم المنايا فأماتتهم، وبشار يجعل للموت أماً، وقد جعلها في قصيد سابق تزوج بناتها من الناس

٧٦ وعيد

مـا زالَ مـا مَـنَّـيْـتَـنـي مِـنْ هَـمِّـي

ما زال الوعد الذي منيتني إياه من طموحي

الـوعـدُ غَـمٌّ فـاسْـتَـرِحْ مِـنْ غَـمِّـي

والوعد بالنسبة لك غم يلازمك فاسترح منه بالوفاء به

إن لـم تُـرِدْ مَـدْحـي فَـراقِـبْ ذَمِّـي

فإذا كنت زاهداً في مدحي فراقب، انتظر، ذمي وهجائي

٧٧ لا تكُ كالعذراء

أَرِحْني بِيَأْسٍ أو بِتعجيلِ حاجةٍ   وَأَيْتَ بِها لَيس النَّدَى بِمُحَرَّمِ

أرحني بأن تجعلني أيأس من عطائك، أو بتعجيل حاجة كنت وأيتَ بها، وعدت بها، والسخاء ليس محرماً بالمناسبة

وإلَّا فَبَيِّنْ لي بِها وَجْهَ مَخْرَجٍ كَفَى بِبَيانٍ مِنْ فَصيحٍ وأَعْجَمِ

وإن لم ترد هذا ولا ذاك، فأفهمني مخرجك من هذا الأمر، ما تبريرك؟ التوضيح يكفيني سواء من فصيح أم من أعجم عيي

ولا تَكُ كَالعَذْراءِ يومَ نِكاحِها إذا استُؤْذِنَتْ في نفسِها لم تَكَلَّمِ

لا تكن كالفتاة البكر يوم تزويجها يسألونها عن قبولها أو رفضها فلا تتكلم. هذا لعمري أول سهم في قصيدة هجاء

٧٨ المقرب نفسه

علي وجهِ معروفِ الكريمِ بَشاشةٌ وليس لِمعروفِ البخيلِ بَهاءُ

كأن الذي يأتيكَ مِن راحتَيْهِما عروسٌ عليها الدُّرُّ.. والنُّفَساءُ

الذي يأتيك من يد الكريم كالعروس المزدانة باللؤلؤ، ومن يد البخيل شيء قميء كالمرأة النفساء

وخيرُ خَليلَيْكَ الذي في لقائه رَواحٌ وفيه حين شَطَّ غَناءُ

خير صاحبيك من تستريح للُقياه، وحتى لو شط، أي ابتعد، ففيه لك غناء، أي فائدة

وما القُربُ إلا للمُقَرِّبِ نفسَه ولو وَلَدتْهُ جُرْهُمٌ وصَلاءُ

القريب من المرء هو من يقرب نفسه حتى لو كان بعيداً خافي النسب كأن يكون من قبيلتي جرهم البائدة وصلاء

ولا خيرَ في وُدِّ امرئٍ مُتَصَنِّعٍ بما ليس فيه، والوِدادُ صَفاءُ

سَأُعْتِبُ خُلّاني وأعذِرُ صَاحبي بما غَلَبَتْهُ النفسُ والغُلَوَاءُ

سأعتب أصحابي، أي أرضى عتابهم، وأعذرهم فيما يبدر منهم لأن النفس غلبتهم فأساءوا وغالوا، أي بالغوا في بعض الأمر

وما ليَ لا أعفُو وإن كان ساءَني؟ ونفسي بما تَجني يَداي تُسَاءُ

وكيف لا أعفو حتى لو ساءني أمرهم؟ فأنا نفسي أشعر بالإساءة التي تجنيها يداي على الآخرين

عِتَابُ الفتى في كلِّ يوم بَلِيَّةٌ وتَقويمُ أَضْغَانِ النساءِ عَناءُ

مشكلة أن أشغل نفسي بعتاب الأصدقاء كثيراً، هذا مثل محاولة المرء تقويم أضغان، أي أحقاد، النساء. والمرأة ـ في المجتمع الذي يكبتها ـ تنفس عن وضعها بمداومة الشكوى وبالتنفيس عن مشاعر مضطربة

تَزِلُّ القَوافي عن لِساني كأنَّها حُمَاتُ الأَفاعي رِيقُهُنَّ قَضاءُ

وعندما أغضب فعلاً فالقصائد تخرج عن لساني كأنها حمات الأفاعي، والحُمَة إبرة اللسع وهي أيضاً السم نفسه

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

أبو العتاهية

(١٣٠هـ ـ ٢١١هـ)

نشأ إسماعيل بن القاسم في الكوفة وعرف من أهله أنهم من قبيلة عنزة. لكن أقرانه عيروه بأن أصلهم من النبط، أولئك الفلاحين الذين كانوا مرتبطين بالأرض يملكهم من يملكها. لكنه نشأ بين العرب لا يعرف إلا العربية، ولم يكن لأهله شغل في الفلاحة بل كانوا يصنعون الجرار من الفخار. ويقول له أهله إنهم عرب تأخر إسلامهم فسباهم خالد بن الوليد وألحقهم بعنزة.

ربما كان إسماعيل يقف في السوق يبيع الجرار لأهله، وربما حملها في قفص على ظهره وطاف بها كما زعم بعضهم، على أنه كان يحضر حلقات الفقهاء في مساجد الكوفة. وكان أيضاً يرافق طلاب الملذات من الشباب ويجاريهم بعض المجاراة. وكان في هؤلاء شعراء فصحاء سنراهم بعد حين يملأون العراق بشعر عذب متهتك بعد أن ينضم إليهم أبو نواس.

على أن إسماعيل بن القاسم، وشهرته أبو العتاهية، فارقهم سريعاً. ووجدناه يرتحل إلى بغداد تاركاً الجرارَ لأخ له، والتهتكَ لأهل التهتك، وكان دون الثلاثين. نراه في أوائل الثلاثين من عمره ينثر شعره السهل في بغداد نثراً. فيقول بعض السامعين إن كلامه نثر لا شعر، وإنهم لو أرادوا لقالوا مئات القصائد من هذا الطراز دونما عناء، ويتعصب له من يعرفون السهل الممتنع، وبعضهم من كبار أهل اللغة كابن الأعرابي، ويقولون إن شعره في غاية الفصاحة.

ويقف أبو العتاهية بباب الخليفة المهدي مع الشعراء، ويؤذن له، ويقول قصيدة يبدأها بالغزل بجارية المهدي، ويتعجب من جرأته بشار بن برد، شيخ الشعراء وكان بلغ السبعين أو نحوها، وكان حاضراً ذلك المجلس.

لكز بشار تلميذه أشجع السلمي في خاصرته، وقال له: أويَستنشد الخليفة هذا الكوفي «الملقب» قبلنا؟ لا جزى الله خيراً من جمعنا به.

أنشد أبو العتاهية أبياتاً يتغزل فيها بعُتْبة جارية المهدي. فقال بشار لتلميذه: لا أدري من أي أمريْهِ أعجب: من ضعف شعره، أم من تغزله بجارية الخليفة يسمع ذلك بأذنه؟ ثم أخذ أبو العتاهية في أبيات المدح، وقال «أتته الخلافة منقادة/إليه تجرر أذيالها» فما فرغ حتى قال بشار لتلميذه: ويحك يا أخا سُليْم! أترى الخليفة طار عن سريره طرباً لما يأتي به هذا الكوفي؟

وانقضى المجلس ولم يخرج أحد بجائزة سوى أبي العتاهية. (ملاحظة: والله عارف أنني قصصت هذه القصة في أكثر من موضع. . أطلب المعذرة).

ولم يأبه الخليفة المهدي ـ وكان غيوراً ـ لذكر أبي العتاهية جاريته عتبة في شعره لأن الجارية إنما كانت جارية زوجته، وليست من حرمه، ولأن الرجل طلبها وألح في طلبها، وسعى المهدي بنفسه في تزويجها منه، ولكن الجارية رفضت بشدة. فكانت القصة معروفة في بغداد.

ثم كانت بين أبي العتاهية وبشار، الذي يكبره بأربعين سنة مودة، وكان بينه وبين أبي نواس الذي يصغره بعشر سنين مودة. ومدح أبو العتاهية القادة، وحمُق فهجا بعضهم هجاء من النوع الذي لا يقوله الشاعر في ذوي السلطان. فأنت تهجو صاحب السلطان بالبخل، وتتفنن في ذلك، فيعطيك فترضى، أو يحرمك ويكون بخل بهجاء والسلام. ولكن أبا العتاهية أفحش وأضحك في هجائه لابن معن بن زائدة عبد الله، وأخيه يزيد. وقيل إن عبد الله بن معن بن زائدة أتى بالشاعر وجعل غلمانه يرتكبون فيه الفاحشة. ثم عرض عليه الصلح والمال فقبل شاعرنا صاغراً. تلك قصة من القصص سقناها كما ساقوها، ولا سبيل إلى معرفة نصيبها من الصحة. غير أن الشعر الذي قاله صاحبنا في ابني معن بن زائدة يدل على شهوة قوية كانت في نفس الشاعر للتشفي، وفي هذا الشعر ـ وقد اقتبسناه لك ـ شيء ندر وجوده عند أبي العتاهية، وهو الهجو القائم على جعل المهجو أضحوكة.

ومات المهدي وجاء الرشيد، وبقي في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، وكان يؤثر أبا العتاهية على كل شاعر. قيل حتى على أبي نواس. ودخل أبو العتاهية في مزاج الزهد. وسجنه الرشيد لأنه أمره أن يقول شعراً في الغزل فامتنع. ثم تغزل صاحبنا بزوجته، على سبيل الحيلة، فأطلقه الرشيد وقد عرف أن أبا

العتاهية قد فرغ من أمر الدنيا. فهل كان شاعرنا يهيء نفسه للآخرة؟ تلك مسألة شغلت الناس بعض الشغل.

رأى الناس شعر أبي العتاهية مليئاً بذم الدنيا، لكنه لا يشي بالشوق للآخرة. فاتهموه بالانحراف عن الدين، فأظهر لهم أبياتاً تكذب ظنونهم، فمنهم من صدق ومنهم من أقام على اعتقاده في اعتقاد الرجل. ونحن نظن أن أبا العتاهية كان يسب الدنيا من فرط محبته لها، ومن عدم يقينه بما يكون من ورائها.

مات الرشيد وجاء الأمين فمدحه أبو العتاهية، ثم جاء المأمون فمدحه.. كل هذا وهو على مذهبه في الزهد وكره الدنيا. لكنه كان يجمع الدنيا في أكياسٍ في بيته. وكان بخيلاً.

هذا شاعر قديم.. أقدم من البحتري والمتنبي والمعري. فكيف ـ وهو الأقدم ـ كانت لغته سهلة سهولة تجعل الشارح يتحير ماذا يقول؟

استمد أبو العتاهية مفرداته من معجمه الطبيعي، واستمد الشعراء الذين ذكرناهم مفرداتهم من معاجم مستعارة. وفي هذا شيء من إبداع العتاهي، فهو لم يوسِّع على نفسه كي يخرج من مضايق الوزن والقافية باللجوء إلى الكلمات الغريبة.

كل واحد فينا له معجمه الذي يكتب منه. وقد يختار بعض الكاتبين والناظمين أن يكتب بمعجم طبيعي، ثم قد يزخرف عباراته بأن يحشد فيها التشبيهات الغريبة والمجازات، دون أن يخرج عن المفردة السهلة المأنوسة. هذا صنعه في زمننا نزار قباني. فأما أبو العتاهية فلم يلجأ حتى إلى غريب التشبيه والمجاز، ولزم البساطة وجعل يدهشك بدقة الفكرة. هذه بضع فكرات دقيقة من العتاهي: «كلما رمشت عينك مات جزء منك»، «نل كل المال، ونل كل الأمان أيضاً.. وآخر هذا كله ماذا؟ الموت»، «انظروا إلى ساكني القبور.. كأنهم لم يكونوا بشراً»، «سيكرمونك يا هذا بعد موتك فلا تحمل هماً، وغاية ما سينالك من كرم.. أن يهيلوا التراب عليك»، «الله عزيز قوي ذو جبروت.. ونعصيه.. ولكن الصفح عنده مأمول». هذه أفكار تحتوي على مفارقات، فيها معان لطاف. فإن أرفقت هذا بتلك اللغة السهلة فها هنا عبقرية أبي العتاهية. ويزداد انتباهنا لهذه العبقرية إذ نرى الرجل جعل كل شعره يدور على موضوع واحد هو الموت.

كان أبو العتاهية الفتى فقيراً منشغلاً بمعاشه، يعين أهله في بيع الجرار، ويقول الشعر ويعجب به أصحابه، وبسرعة وصل إلى الخليفة المهدي، وإلى المال. وككل من نشأ في الحاجة أمسك العتاهي، ولم ترض نفسه ببذل المال. ولو ظل يبيع الجرار لما تدفق بهذا الشعر الموتي، فهو بعد الثراء قد عدم الشغل، وقعد. قعد يفكر في الموت، قعد في عصر ازدهار لم يشهد له العرب مثيلاً. كان كأنه يعيش في حفل بهيج لا ينتهي، فبماذا يفكر؟ أيشغل نفسه بسعي لا نهاية له في التقرب إلى السلطان؟ لا، فقد نال من القرب ما يكفي وزيادة، وبائع الجرار السابق لا يريد أكثر من أن يكون جليس الخلفاء، بل لقد نال من ذلك أكثر من بغيته. أيغرق نفسه في بحيرة من الخمر كما فعل بعض معاصريه من قلقي المثقفين؟ لا، فبائع الجرار السابق ذاق لذة المجون في شبابه ولم يعجبه أن يتخذه طريقة حياة. فأين يجد بالوعة لتصريف القلق؟ لم يجد. فقعد في بيته ممتعاً بأمان من الفقر تضمنه أكياس المال، وقعد يفكر في الموت. وكلنا يفكر في الموت إن عدم التفكير في غيره.

يقول الفقير المذنب، وقد حصل له من الرزق ما وجد معه أماناً، وبنى بيتاً، وكُفِيَ أمر عياله، وراح ينتظر الموت، ويراقب كل عارض يعرض لجسمه. يقول وقد ودَّع دُمَّلاً كان أطل برأسه من جلده:

قد سلَّم اللَّهُ، لا طِبٌّ ولا جزعُ — فالآن شمِّر، فما في العمر متَّسَعُ
قد راعك الدمَّل الكذاب آونة — يا رُبَّ دمَّلِ صدقٍ سوف يتَّبعُ
دع الهواجس واغرس كلما بزغت — في أرض عمرك ذكرى ليس تُقتلع
أطل حياتك بالذكر الجميل فكم — تنبهوا للصدى، والصوتَ ما سمعوا
واجعل نشاطك ترساً دون وهمك، قد — يفجأك الموت لا وهم ولا هلع
أما إذا استل داء سيفه وأتى — وأنت للشغل والإنجاز منقطع
فالشغل سيفك فاشهره بلا وجل — سيف لسيف، ولا يعنيك ما يقع
نسعى، وأشغالنا تسعى بنا، شيعاً — وكلنا في ظلام القبر نجتمع
نسعى، وخير لنا نسعى، فإن قعدت — بنا الهموم أتانا الموت يختمعُ

حقق ديوان أبي العتاهية شكري فيصل ونشره ١٩٦٤. وكان الديوان قد نشر مراراً قبل ذلك؛ لكنْ، في طبعات هزيلة. وقد كفانا شكري فيصل مؤونة تقليب الطبعات القديمة.

١ أبيات فرائد

عَجِبْتُ لِمنْ يَموتُ وليس يبكي   عجبتُ لِمَنْ تَجِفُّ له دُموعُ

أعجب للإنسان الذي مصيره الموت ولا يبكي

* * *

وإذا انقضَى هَمُّ امْرِئٍ فقد انقَضَى،   إن الهُمُومَ أَشَدُّهُنَّ الأَحْدَثُ

إذا انصرف الهم فقد انصرف فعلاً حتى لو كان كبيراً، فأشد همٍّ ليس أكبر همٍّ بل أحدث الهموم عهداً

* * *

وأفضلُ الزهدِ زُهدٌ كان عن جِدَةٍ   وأَفضَلُ العفوِ عَفْوٌ عندَ مَقدِرَةِ

الجدة: الثراء (أي أن يجد المرء لديه مالاً)

* * *

مَنْ لم يَكُنْ بِالكَفافِ مقتنعاً   لم تَكْفِهِ الأرضُ، كلُّها ذَهَبُ

* * *

نَلْ كلَّ ما شِئْتَ وعِشْ آمِناً   آخِرُ هذا كلِّه الموتُ

* * *

ولقد مَررْتُ على القبورِ فَما   مَيَّزْتُ بين العبدِ والمَوْلى

المولى: السيد (والكلمة من الأضداد، وتأتي أيضاً بمعنى التابع أو العبد)

* * *

رُبَّ أمرٍ يَسُوءُ ثم يَسُرُّ   وكذاكَ الأُمورُ حُلْوٌ ومُرُّ

* * *

ألم تَرَ أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغِنَى   وأن الغِنَى يُخْشَى عليهِ مِنَ الفقرِ

* * *

ما أَحمَقَ الإنسانَ في فخرِهِ   وَهْوَ غداً في حُفْرَةٍ يُقْبَرُ

* * *

أمَا تَعجبونَ لِأَهلِ القبورِ   كأنَّهُمُ لم يكونوا بَشَرْ

* * *

ألــيــس الــمــوتُ غــايَــتَــنــا فــأيــنَ الــخــوفُ والــحــذرُ

* * *

إنَّ الــبــخــيــلَ وإنْ أفــادَ غِــنــىً لَــتَــرى عــلــيــهِ مَــخَــايِــلَ الــفــقــرِ

مخايل: علامات

* * *

عــزمَ الــلــيــلُ والــنــهــارُ عــلــى أنْ لا يَــمَــلَّا تَــفــريــقَ كــلِّ جَــمَــاعَــةْ

* * *

ولا خيرَ فيمَنْ لا يُواسي بِفضْلِهِ ولا خيرَ فيمَنْ لا يُرى وجهُهُ طَلْقَا

وجه طلق: بشوش

* * *

سيَأْتيكَ يومٌ لستَ فيهِ بِمُكْرَمٍ بِأَكْثَرَ مِنْ حَثْوِ الترابِ عليْكَا

سيأتيك يوم يكون منتهى تكريمكً فيه أنهم سيهيلون عليك من التراب،

فيا له من يوم ويا لها من كرامة

* * *

لم يُشْغَلِ الموتُ عنَّا مُذْ أُعِدَّ لنا وكلُّنا عنه بِاللَّذَّاتِ مَشغولُ

* * *

كــلُّ حَــيٍّ عــنــد مــيــتَــتِــهِ حَــظُّــهُ مِــنْ مَــالِــهِ الــكَــفَــنُ

* * *

وكــمَــا تَــبْــلَــى وُجــوهٌ فــي الــثَّــرى فــكَــذا يَــبْــلَــى عَــلَــيْــهِــنَّ الــحَــزَنْ

* * *

كــم زمــانٍ بَــكَــيْــتُ مــنــهُ قَــديــمٍ ثــم لــمَّــا مَــضَــى بَــكَــيْــتُ عــلــيْــهِ

* * *

ولا خــيرَ فــيمَــنْ لا يُــوَطِّــنُ نــفــسَــهُ عــلــى نــائــبــاتِ الــدهــرِ حيــنَ تَــنُــوبُ

* * *

قد شابَ رأسي ورأسُ الحِرْصِ لم يَشِبِ إن الحريصَ على الدنيا لَفي تَعَبِ

* * *

شِيَمٌ فَتَّحَتْ مِنَ المَدْحِ مَا قد ... كان مُسْتَغْلَقاً على المُدَّاحِ

هذا الممدوح له شيم، أي صفات، فتحت للشعراء المادحين أبواباً من المدح كانت حتاذاك الوقت مغلقة دونهم

* * *

أرى الأمسَ قد فاتَني ردُّه ... ولستُ على ثِقَةٍ مِنْ غَدِ

* * *

ألا يا عتبةُ الساعةْ ... أموتُ الساعةَ الساعةْ

بيت شنعوا به على أبي العتاهية كثيراً.. قيل كان أبو العتاهية يكاثر الناس بالشعر، فيقولون له: لو أن شعرنا من مثل «ألا يا عتبة الساعة» لقلنا وأكثرنا

* * *

ما طارَ طَيْرٌ وارتَفَعْ ... إلَّا كما طارَ وَقَعْ

* * *

عجباً لامْرِئٍ يَذِلُّ لِمَخْلو ... قٍ ويَكفيهِ كلَّ يومٍ رغيفُ

* * *

يا عُتْبُ مَا لي ولَكِ ... يا لَيْتَني لم أرَكِ

* * *

قال وقد ضربه المهدي لتغزله بعتبة، فأفاق ورآها تطل من سطح:

بَخٍ بَخٍ يا عُتْبُ مَنْ مِثْلُكُمْ ... قد قَتَلَ المَهْدِيُّ فيكُمْ قَتِيلْ

بخ بخ: هنيئاً لك. يطالبني عمران القفيني بأن أوضح هذا البيت.. حسناً ها قد شرحت البخبخة في أوله، فما عساي أضيف؟ أن أبا العتاهية رجل يتفصد شعراً، وبكلمات سهلة، وأنك إذا أردت السهل الممتنع فلا تتجاوز أبا العتاهية؟

* * *

لم يبقَ مِنِّي إلَّا القليلُ ومَا ... أَحْسَبُها تَتْرُكُ الذي بَقِيَا

* * *

الموتُ بين الخَلْقِ مُشتَرَكُ ... لا سُوقَةٌ يَبْقَى ولا مَلِكُ

سوقة: كلمة تطلق على كل من ليس بملك، والملك هو الشخص المتصرف في شأنه وشؤون الناس من والٍ أو أمير أو حتى خليفة، والسوقة قد يكون شاعراً أو جوهرياً يملك الملايين

٢ نتف

أَلا نحن في دارٍ قليلٍ بقاؤُها سريع تَداعيها وَشيكٍ فَناؤُها
غداً تَخرَبُ الدنيا ويَذهَبُ أهلُها جميعاً، وتُطوَى أرضُها وسماؤُها

* * *

ولقد يُكَلِّمُكَ الزمانُ بِأَلْسُنٍ عربيةٍ وأراكَ لستَ تُجيبُ
أَمَعَ المَماتِ يَطيبُ عيشُكَ يا أخي هيهاتَ ليس معَ المَماتِ يَطيبُ

* * *

ما لي مررتُ على القبورِ محيِّياً قَبْرَ الحبيبِ فلم يَرُدَّ جَوابي
لو كان ينطِقُ بِالجَوابِ لَقالَ لي: أَكَلَ الترابُ مَحاسِني وشبابي

* * *

كلُّ نَفْسٍ سَتُوَفَّى سَعيَها ولَها ميقَاتُ يومٍ قد وَجَبْ
جَفَّتِ الأَقلامُ مِنْ قَبلُ بِمَا خَتَمَ اللّهُ علينا وكَتَبْ

أي أن المكتوب على الإنسان في اللوح المحفوظ قد كتب وجفت به الإقلام فالإنسان لا يصنع شيئاً إلا المقدَّر عليه من قبل

* * *

ألا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قريبُ ولِلأَرْضِ مِنْ كلِّ حَيٍّ نَصيبُ
أَراكَ لِدُنياكَ مُسْتَوْطِناً ألم تَدْرِ أنَّكَ فيها غريبُ

* * *

تَبْغي مِنَ الدنيا الكثيرَ وإنَّما يَكفيكَ منها مثلُ زادِ الرَّاكِبِ
لا يُعْجِبَنَّكَ ما تَرى فكأنَّهُ قد زالَ عنكَ زَوالَ أَمْسِ الذَّاهِبِ

* * *

يا نفْسُ تُوبي قبلَ أن لا تَستطيعي أن تَتُوبي
أمَّا الحَوادِثُ فالرِّيَا حُ بِهِنَّ دَائِمَةُ الهُبوبِ

* * *

نَسِيتُ الموتَ فيما قد نَسِيتُ كأنّي لا أَرَى أَحداً يَمُوتُ

أليسَ الموتُ غايةَ كلِّ حَيٍّ فما لي لا أُبادِرُ ما يَفُوتُ
بما أن الموت هو نهاية كل إنسان فلماذا لا أبادر بالصلاة وفعل الخير وهي أمور تفوت ثم لا ترجع

* * *

نَحِنُّ مِنَ الدنيا إلى كلِّ لَذَّةٍ ولكِنَّ آفَاتِ الزَّمانِ كثيراتُ
وكم مِنْ أُناسٍ قد رأيْنَا بِغِبْطَةٍ ولكِنَّهُمْ مِنْ بعدِ غِبْطَتِهِمْ مَاتُوا

* * *

أليس قريباً كلُّ ما هُوَ آتِ فما لي وما لِلشَّكِّ والشُّبُهاتِ
أُنافِسُ في طِيبِ الطعامِ، وكُلُّه سواءٌ إذا ما جَاوَزَ اللَّهَواتِ
اللهوات: الحلوق

* * *

تَمَنَّى المُنَى حتى إذا ما بلغتَها سَمَوْتَ إلى ما فوقَها فَتَمَنَّيْتا
تمنى: أي تتمنى، سموت: طمحت

وما لكَ مِمَّا يَلبَسُ الناسُ غيرُ مَا كَسَوْتَ وإلَّا مَا لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتا
ليس يحسب لك من الملابس في حسناتك إلا ما كسوت به فقيراً وإلا ما لبسته أنت فأبليته.. فأما الثياب الفاخرة التي تملأ خزائنك فليست لك بل عليك

* * *

دَعَتْنِي إلى الدنيا دَواعٍ مِنَ الهوى فأرسلتُ دِيني مِنْ يَدِي وأَتيْتُها
أرسلت ديني من يدي: تركته

أقولُ لِنفسي إذ شَكَتْ ضيقَ بيتِها كأنِّي بها في القبرِ قد ضاقَ بَيْتُها

* * *

ليتَ شِعرِي وكيف أنتَ مُسَجًّى تحتَ رَدْمِ حَشَاهُ فوقَكَ حاثِ
يا ترى كيف تكون وأنت ممدد تحت ردم من تراب حثاه، أي أهاله، فوقك من حثاه

ليتَ شِعرِي وكيف أنتَ ومَا حَا لُكَ فيما هناكَ بعدَ ثَلاثِ
يا ترى كيف يصبح جسمك بعد ثلاث ليال من الدفن؟

* * *

لـيـس يَـرجُـو الـلَّـهَ إلَّا خـائِـفٌ مَنْ رَجا خَافَ، ومَنْ خَـافَ رَجَا
قَـلَّـمـا يَـنـجُـو امْـرُؤٌ مِـنْ فِـتـنـةٍ عـجـبـاً مـمَّـنْ نَـجَـا كـيـف نَـجَـا

* * *

إذا العبدُ لم يَمْدَحْهُ حسنُ فَعَالِهِ فليس له، والحمدُ للهِ، مَادِحُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ لم يَصْفُ عَيْشُهُ وما يستطيبُ العيشَ إلَّا المُسَامِحُ

* * *

أُؤَمِّـلُ أن أُخَـلَّـدَ، والـمـنـايـا يَـثِـبْـنَ عـلـيَّ مِـنْ كـلِّ الـنَّـواحـي
يثبن: يقفزن
ومـا أدري إذا أَمْـسَـيْـتُ حـيَّـاً لَـعَـلِّـي لا أعـيـشُ إلـى الـصـبـاحِ

* * *

إنِّـــي لَأَكْـــرَهُ أن تـــكـــو نَ لِـفَـاجِـرٍ عـنـدي يَـدُ
فَـتَـجُـرُّ مَـحْـمَـدتـي إلَـيْـ ـهِ ولـيـسَ مِـمَّـنْ يُـحْـمَـدُ
الفاجر: الجريء الفتاك الأناني الذي لا يراعي لأحد حرمة. وأكره أن يكون له علي يد، أي فضل، فلو حدث هذا لشكرته مضطراً وهو لا يستحق الشكر

* * *

أرى الأمـسَ قـد فـاتَـنـي رَدُّهُ ولـسـتُ عـلـى ثِـقَـةٍ مِـنْ غَـدِ
وإنِّـي لَأَجْـرِي إلـى غـايـةٍ وأَسـتـقـبـلُ الـموتَ مِـنْ مَـوْلـدي
منذ مولدي وأنا أجري نحو هدف محدد هو الموت

* * *

سلامٌ على قبرِ النبيِّ محمَّدٍ نبيِّ الهدى والمصطفى والمُؤَيَّدِ
وكان رسولُ اللَّهِ أفضلَ مَنْ مَشَى على الأرضِ إلَّا أنه لم يُخَلَّدِ

* * *

هَـوِّنْ عـلـيـكَ فـلـيـس كـلُّ ـ الـنـاسِ يُـعْـطَـى مـا يَـوَدُّ
إن كـان لا يُـغْـنِـيـكَ مـا يَـكْـفِـيـكَ مـا لِـغِـنـاكَ حَـدُّ

* * *

يـا أَيُّـهـذا الـذي سـتَـنْـقُـلُـهُ الـ أَيَّـامُ عـن أهـلِـهِ وعـن وَلَـدِهْ

مـا ارتَـدَّ طَـرْفُ امْـرِئٍ بِـلـحـظَـتِـهِ إلَّا وشـيءٌ يَـمـوتُ مِـنْ جَـسَـدِهْ

ما طرفت عين الإنسان إلا تغير جسمه تغيراً يقربه من الموت

* * *

يـا عـجـبـاً لـيِ أقـمـتُ فـي وطـنٍ سـاكِـنُـهُ كـلُّـهُـمْ عـلـى سَـفَـرِ

ساكنه: سكانه

يـا سَـاكـنـي بَـاطِـنِ الـقُـبـورِ أَمـا لِـلـوارِديـنَ الـقُـبـورَ مِـنْ صَـدَرِ

أليس لواردي القبور من صَدَر، أي من عودة

* * *

طـلـبـتُ الـمُـسـتَـقَـرَّ بِـكـلِّ أرضٍ فـلـم أَرَ لـي بِـأرضٍ مُـسـتَـقَـرَّا

أَطَـعْـتُ مَـطـامِـعـي فـاسْـتَـعْـبَـدَتْـنـي ولـو أنّـي قَـنِـعْـتُ لَـكُـنْـتُ حُـرَّا

* * *

لـو عَـقَـلْـنـا إذِ الـنَّـهـارُ يَـسـوقُ الـ ـلـيْـلَ، والـلـيـلُ إذْ يـسـوقُ الـنَّـهـارا

لَـرأيْـنـاهُـمـا بِـمَـرٍّ حَـثـيـثٍ يَـطْـوِيـانِ الأعـمـارَ والآثـارا

بمر: بمرور، الآثار: ما يخلفه الإنسان من بيوت ومتاع

* * *

لـيتَ شِـعـري فـإنـنـي لـسـتُ أَدْري أيُّ يـومٍ يـكـونُ آخِـرَ عُـمْـري

وبِـأَيِّ الـبـلادِ تُـقـبَـضُ رُوحـي وبِـأيِّ الـبِـقـاعِ يُـحْـفَـرُ قـبـري

* * *

أُمَـمٌ مَـزروعَـةٌ مَـحـصـودَةٌ كـلُّ مَـزروعٍ فَـلِـلْـحَـصْـدِ زُرِعْ

إنَّـمـا الـدنـيـا عـلـى ما جُـبِـلَـتْ جـيـفَـةٌ نـحـنُ عـلـيـهـا نَـصْـطَـرِعْ

* * *

يـا جَـامِـعَ الـمـالِ في الـدنـيـا لِـوارِثِـهِ هل أنت بِـالـمـالِ بعد الموتِ تَـنْـتَـفِـعُ

لا تُـمسِـكِ المـالَ واسْـتَرْضِ الإلَهَ به فـإنَّ حَـسْـبَـكَ مـنـه الـرِّيُّ والـشِّـبَـعُ

* * *

كـلٌّ يُـحـاوِلُ حِـيـلـةً يـرجُـو بـهـا دَفْـعَ الـمَـضَـرَّةِ واجـتِـلابَ الـمـنـفـعَـةْ

والمرءُ لا يأتيهِ إلَّا رِزْقُهُ فاقْنعْ بما يأتيكَ منهُ في دَعَةْ

* * *

ما كلُّ رأيِ الفتَى يدعُو إلى رَشَدٍ إذا بدا لَكَ رأيٌ مُشْكِلٌ فَقِفِ
للَّهِ أهلُ قُبورٍ كنتُ أعهدُهُمْ أهلَ القِبابِ الرُّخَامِيَّاتِ والغُرَفِ

* * *

لا تُكْذَبَنَّ، فإنَّهُ مَنْ يَجتمِعْ يَتَفرَّقِ

لا تُكذبن: لا تدع أحداً يكذب عليك..

والموتُ غايةُ مَنْ مضَى مِنَّا، وموعدُ مَنْ بَقي

* * *

إذا اعتَصَمَ المخلوقُ مِنْ فِتَنِ الهوى بِخالقِهِ نَجَّاهُ مِنْهُنَّ خالِقُهْ
ومَنْ هانَتِ الدنيا عليه فإننِي له ضَامِنٌ ألَّا تُذَمَّ خَلائِقُهْ

* * *

أصبحتُ واللَّهِ في مَضيقِ فهل سبيلٌ إلى طريقِ
أُفٍّ لِدُنيا تَلاعبَتْ بي تَلاعُبَ الموجِ بِالغريقِ

* * *

خيرُ أيَّامِكَ إنْ كنتَ تَدري يومَ تُغْشَى يُرْتَجَى الخيرُ مِنْكَا

أحسن أيامك يوم تؤتى ويرجى منك المعروف

اِغْتَنِمْ حاجَاً لِراجيكَ فيها قبلَ أنْ يُغْنِيَهُ اللَّهُ عنْكا

اغتنم حاجة لمن يرجوك فيها، فبعد حين قد يصبح مستغنياً عنك وتضيع فرصة فوزك بالإحسان إليه.. الإحسان للغير مغنم لا مغرم

* * *

إذا كنتَ تَبغي البِرَّ فاكْفُفْ عنِ الأَذَى وما البِرُّ إلَّا أن تَكُفَّ أذاكا
أخوكَ الذي مِنْ نفسِهِ لَكَ مُنْصِفٌ إذا المَرْءُ لم يُنصِفْكَ ليس أَخاكا

* * *

إنَّ أخاكَ الصِّدْقَ مَنْ كانَ مَعَكْ ومَنْ يَضُرُّ نفسَهُ لِينفعَكْ

الصدق: الحقيقي

ومَـنْ إذا رَيْـبُ الـزمـانِ صَـدَعَـكْ　　شَـتَّـتَ فـيـهِ شَـمْـلَـهُ لِـيـجـمَـعـكْ

* * *

مـا اختَـلَـفَ الـلـيـلُ والـنـهـارُ، ولا　　دارتْ نـجـومُ الـسـمـاءِ فـي الـفَـلَـكِ
إلَّا لِـنَـقْـلِ الـسـلـطـانِ عـنْ مَـلِـكٍ،　　قـد انـقَـضَـى مُـلْـكُـهُ، إلـى مَـلِـكِ

* * *

ما أقرَبَ الموتَ مِنْ أهلِ الحياةِ، ومَا　　أَحْجَى اللبيبَ بِحُسْنِ القولِ والعملِ
ما أحجى: ما أجدر

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا　　وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بِالرجلِ

* * *

أرى الـمَـقَـاديِـرَ تَـعـمَـلُ الـعـمَـلا　　والـمـرءُ مـا عـاشَ آمِـلٌ أمَـلا
كـلٌّ لـهُ عِـلَّـةٌ يَـفُـوهُ بِـهـا　　سـبـحـانَ رَبِّـي مـا أكـثـرَ الـعِـلَـلا
علة: حجة يتحجج بها المرء لتجنب ما يريد تجنبه من عمل

* * *

الـلَّـهُ أَكـرمُ مَـنْ رَجَـوْتَ نَـوالَـهُ　　والـلَّـهُ أعـظـمُ مَـنْ يُـنـيِـلُ نَـوالا
مَـلِـكٌ تَـواضَـعَـتِ الـمُـلـوكُ لِـعِـزِّهِ　　وجَـلالِـه، سـبـحـانَـه وتَـعَـالـى

* * *

يـا رُبَّ شَـهـوةِ سـاعـةٍ قـد أَعْـقَـبَـتْ　　مَـنْ نَـالَـهـا حُـزنـاً هـنـاكَ طَـويـلا
أعقبته حزناً: سببت له حزناً

فـإذا دَعَـتْـكَ إلـى الـخَـطـيـئـةِ شَـهـوةٌ　　فـاجعلْ لِطَرْفِكَ في الـسـمـاءِ سبيلا
طرفك: نظرك

* * *

أَجَلَّكَ قومٌ حين صِرْتَ إلى الغِنَى　　وكـلُّ غَـنِـيٍّ فـي الـعـيـونِ جـلـيـلُ
إذا مالَـتِ الـدنـيـا إلى الـمِرءِ رُغِّـبَـتْ　　إلـيـه، ومَـال الـنـاسُ حـيـثُ يَـمـيـلُ
إذا مالت الدنيا إلى أحدهم رغب فيها، ومال الناس معه

* * *

خليليَّ ما الدنيا بدارِ فُكَاهَةٍ ولا دارِ لَذَّاتٍ لِمَنْ صَحَّ عقْلُهُ
ولِلحَقِّ أَهْلٌ ليس تَخْفَى وجُوهُهُمْ يَخِفُّ عليْهِمْ حيثُما كان حَمْلُهُ

حمله: أي حمل الحق

* * *

وإذا ما الفقيرُ قَنَّعَهُ اللّـ ـهُ فَسِيَّانَ بُؤْسُهُ والنَّعِيمُ

قنعه الله: جعله قنوعاً

إنَّما الناسُ كالبَهائِمِ في الرِّزْ قِ سَواءٌ جَهولُهُمْ والعَلِيمُ

* * *

ألا إِنما التَّقْوى هِيَ العِزُّ والكَرَمْ فَحُبُّكَ للدنيا هُوَ الذُّلُّ والعَدَمْ

العدم: الفقر

وليس على عبدٍ تَقِيٍّ نَقيصَةٌ، إذا صَحَّحَ التَّقْوَى، وإن حَاكَ أو حَجَمْ

لا انتقاص من شأن التقي الذي تصح تقواه حتى وإن اشتغل حائكاً، خياطاً، أو حجَّاماً، يحلق للناس ويعالجهم بفصد الدم

* * *

وشَرُّ الأَخلَّاءِ مَنْ لم يَزَلْ يُعاتِبُ طَوراً وطَوراً يَذُمّ
يُريكَ النصيحةَ عند اللقاءِ ويَبرِيكَ في السِّرِّ بَرْيَ القَلَمْ

* * *

نحنُ في دارٍ يُخَبِّرُنا عن بِلاها نَاطِقٌ لَسِنُ

بلاها: خرابها

دارُ سَوْءٍ لم يَدُمْ فَرَحٌ لامْرِئٍ فيها ولا حَزَنُ

* * *

كم مِنْ أَخٍ لَكَ نالَ سُلْطانا فَكَأَنَّهُ ليس الذي كانا
ما أسكَرَ الدنيا لِصاحِبِها وأَضَرَّها لِلعقلِ أحيانا

* * *

كل امْرِئٍ فَكَما يَدينُ يُدانُ سبحانَ مَنْ لم يَخْلُ مِنْهُ مَكانُ
مَلِكٌ عَزيزٌ لا يُفارِقُ عِزَّهُ يُعْصَى، ويُرْجَى عندَه الغُفْرانُ

* * *

يــا رَبِّ أنــتَ خــلــقْــتــنــي   وخَـلَـقْـتَ لـي، وخَـلـقْـتَ مِـنِّـي

خلقتني، وخلقت لي رزقاً، وخلقت من صلبي أبناء

مــا لــي بِــشُــكْــرِكَ طــاقــةٌ   يــا سـيِّـدي إن لــم تُـعِـنِّـي

يطلب من الله أن يعينه على أداء واجب الشكر

* * *

وما الناسُ إلَّا مِنْ مُسِيءٍ ومُحْسِنٍ   وكم مِنْ مُسِيءٍ قد تَلافَى فَأَحْسَنا

تلافى: أي تلافى إساءته وتداركها

أليسَ إذا هَانَتْ على المَرْءِ نفسُه   ولم يَرْعَها كانتْ على الناسِ أَهْوَنا

* * *

أَفَقِهْتَ عن عِبَرِ الزمانِ صِفاتِها   هَيْهاتَ، لَسْتُ أَراكَ عنها تَفْقَهُ

إن الـقـلـوبَ إذا طَـوَتْ أَسـرارَهـا   أَبْـدَتْ لـكَ الأسـرارَ مـنـهـا الأَوْجُهُ

* * *

أَغْـضِ عـن الـمَـرءِ وعَـمَّـا لَـدَيْـهِ   أَخُـوكَ مَـنْ وَفَّـرْتَ مـا فـي يَـدَيْـهِ

أغض، أي اصرف النظر، عن المال الذي عند صاحبك، فإذا وفرت عليه ماله فأنت أخوه الصديق الصدوق

مَـنْ ظَـنَّ بـيِ الـرغـبَـةَ فـي شـيـئِـهِ   بَـاعَـدَنـيِ مْـنِـهُ دُنُـوِّي إِلَـيْـهِ

* * *

مـا أَذَلَّ الـمُـقِـلَّ فـي أَعـيُـنِ الـنـا   سِ لإقـــلالِـــهِ، ومَـــا أَقْـــمَـــاهُ

المقل: الفقير، أقماه: أقمأه وأحقره

إنَّـمـا تـنـظُـرُ الـعـيـونُ مِـنَ الـنـا   سِ إلـى مَـنْ تَـرجُـوهُ أو تَـخْـشَـاهُ

* * *

يا وَاعِظَ الناسِ قد أصبحتَ مُتَّهَماً   إذْ عِبْتَ منهُمْ أُموراً أنتَ تَأْتيِها

وأَعظَمُ الإثمِ بعد الشِّرْكِ نَعْلَمُه   في كلِّ نَفْسٍ عَمَاها عن مَسَاوِيها

* * *

عِلْمِي بِأَنّيِ أذوقُ الموتَ نَغَّصَ لِي   طِيبَ الحَياةِ فما تَصْفُو الحياةُ لِيا

يَبْلَى معَ المَيْتِ ذِكْرُ الذَّاكِرينَ لهُ   مَنْ غابَ غَيْبَةَ مَنْ لا يُرْتَجَى نُسِيا

* * *

لأَبْكِيَنَّ على نفسي وحُقَّ لِيَهْ   يا عينُ لا تَبخَلِي عَنِّي بِعَبْرَتِيَهْ
لأَبْكِيَنَّ لِفِقْدانِ الشبابِ وقد   نَادى المَشيبُ عن الدنيا بِرِحْلَتِيَهْ

نادى المشيب بدنو رحلتي، أي ارتحالي، عن الدنيا

* * *

يمدح يزيد بن مزيد:

وإنَّ أميرَ المُؤمنينَ وغيرَه   لَيَعلَمُ في الهيجاءِ فضلَ غَنائِكا

الهيجاء: الحرب، غنائك: قيامك بالمطلوب

كأنَّكَ عندَ الكَرِّ في الحربِ إنَّما   تَفِرُّ مِنَ السِّلْمِ الذي مِنْ وَرائِكا

* * *

يمدح الرشيد:

خيرُ مَنْ يُرجَى ومَنْ يَهَبُ   مَلِكٌ دانَتْ له العَرَبُ
وحَقيقٌ أن يُدَانَ له   مَنْ أَبُوهُ لِلنَّبِيِّ أَبُ

أبو الرشيد، أي جده الأعلى، العباس عم النبي، والعمومة كالأبوة

* * *

يقولُ أُناسٌ لو نَعَتَّ لنا الهوى   ووَاللَّهِ لا أدري لهُمْ كيف أَنعَتُ
إذا اشتَدَّ ما بي كانَ أفضلُ حيلَتي   له وَضْعَ كَفِّي فوق خَدِّي وأَسْكُتُ

* * *

اللَّهُ بَيْني وبينَ مَوْلاتي   أَبدَتْ لِيَ الصَّدَّ والمَلالاتِ
لا تغفِرُ الذنبَ إن أسأتُ ولا   تقبلُ عُذْرِي ولا مُؤَاتَاتي

* * *

يهجو يزيد بن معن:

بَنَى مَعْنٌ ويَهْدِمُهُ يَزِيدُ   كذاكَ اللَّهُ يفعلُ ما يُريدُ

معن بن زائدة من مشاهير الأسخياء الشجعان وقد بنى مجداً، ويقول الشاعر إن ابنه يزيد يهدم هذا المجد. وقد هجا أبو العتاهية أخا يزيد هذا بهجاء مر (القطع ٩٣، و٩٥، و٩٦)

فـمـعـنٌ كـان لِـلـحُـسَّـادِ غَـمَّـاً   وهــذا قــد يُـسَـرُّ بِـهِ الـحَـسُـودُ

* * *

قال وقد أهدى إلى الفضل بن الربيع نعلاً:

نـعـلٌ بَـعـثـتُ بِـهـا لِـتَـلْـبَـسَـهـا   تَـسْـعـى بـهـا قَـدمٌ إلـى الـمـجـدِ

لـو كـان يـصـلُـحُ أن أُشَـرِّكَـهـا   خَـدِّي جَـعَـلْـتُ شِـراكَـهـا خَـدِّي

لو نفع أن أصنع من خدي شراكاً لنعلك، والشراك سير من جلد على ظهر النعل يمسك بالقدم، لفعلت. بيت أعجب القدماء فرأيت أن أختاره كي يرى القارئ الطبيعة الكسروية للحكم في هذا العصر، هذا التذلل للحاكم الذي لم يكن موجوداً في عصر بني أمية، فتسرب إلى دولة بني العباس بالاتصال بالفرس. قبض الشاعر على البيتين عشرة آلاف درهم

* * *

الـشـيـبُ كُـرْهٌ، وكُـرْهٌ أن يُـفَـارِقَـنـي   أَعجِبْ بِشيءٍ على البغضاءِ مَوْدُودِ

يَمضِي الشبابُ وقد يَأتِي له خَلَفٌ   والـشـيـبُ يَذهـبُ مَفـقوداً بِـمفـقودِ

* * *

ولـئـن نـدمـتَ عـلـى سكـوتِـكَ مرةً   فـلـقـد نـدمـتَ عـلـى الـكـلامِ مِرارا

إن الـــسـكـــوتَ سَـلامَـــةٌ ولــرُبَّــمــا   زَرَعَ الـــكـــلامُ عـــداوةً وضِـــرارا

* * *

وقال يخاطب الشاعر سَلْماً الخاسر، وقد حج العتاهي وكانت محبوبتُه عتبة حاجَّةً:

والـلَّـهِ والـلَّـهِ مـا أُبـالِـي مـتـى   مـا مُـتُّ يـا سَـلْـمُ بـعـدَ ذا الـسَّـفَـرِ

أَلَيْسَ قد طُفْتُ حيثُ طَافَتْ وقبَّـ   ـلْـتُ الـذي قَـبَّـلَـتْ مِـنَ الـحَـجَـرِ

* * *

يا خَاضِبَ الشيْبِ بالحِنَّاءِ تستُرُهُ   سَـلِ الـمَـلِيكَ لـه سَتْـراً مِنَ الـنَّـارِ

لن يَرْحَلَ الشيبُ عن دارٍ يَحِلُّ بها   حتـى يُرَحِّلَ عـنـهـا صـاحبَ الـدارِ

* * *

كــأنَّ عَــتَّــابَــةَ مِــنْ حُــسْــنِــهــا   دُمْــيَــةُ قَــسٍّ فَــتَــنَــتْ قَــسَّــهــا

عتابة هي محبوبته عتبة، وكأنها تمثال من تماثيل النصارى لحسنها، وقد فتن بها القس

يــا رَبِّ لــو أَنْــسَــيْــتَــنِــيــهــا بِــمــا   فــي جَــنَّــةِ الــفِــرْدَوْسِ لــم أَنْــسَــهــا

* * *

قال في السحاقيات:

لَـعَـنَ الإلــهُ سَــواحِــقَ الــرأسِ   فـلـقـد فـضَـحْـنَ حَـرائِـرَ الإِنْـسِ
أَبْـدَيْـنَ حَـربـاً لا طِـعَـانَ بِـهـا   إلَّا اتِّــقَــاءُ الــتُّــرْسِ بِــالــتُّــرْسِ

* * *

اِلبَسْ جميعَ الناسِ محتَمِلاً   لِلعالَمينَ، وكنْ لَهُمْ أَرْضَا

البس الناس: تحملهم، مثلما تتحمل الأرض كل شيء، فكل شيء وقع على الأرض لا وقوع له من بعد

فلئنْ غضِبْتَ لِكلِّ حادثةٍ   تُرمَى بِها، فَلَقلَّما تَرضَى

* * *

كتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

أبا جعفَرٍ هلَّا اقتَطَعْتَ مَودَّتي   فكنتَ مُصيباً فيَّ أجراً ومَصْنَعا

هلا قبلت مودتي إقطاعاً لك، أي منحة، ولك في هذا أجر ومصنع، أي معروف تصطنعه

فكمْ صَاحِبٍ قد جَلَّ عن قَدْرِ صاحبٍ   فألقَى له الأَسْبابَ فارتَفَعا مَعَا

الأسباب: الحبال. يقول له اربطني بك فنرتفع معاً

* * *

قال للرشيد وقد ألزمه بقول الغزل وترك النسك:

يا ابنَ عَمِّ النبيِّ سمْعاً وطاعةْ   قد خَلَعْنا الكِساءَ والدُّرَّاعَةْ

الدراعة: كساء الزهاد

ورجعْنا إلى الصِّناعَةِ لَمَّا   كان سُخْطَ الإمامِ تَرْكُ الصِّنَاعَةْ

الصناعة: قول الشعر

* * *

قال في عتبة:

كــأنَّــهــا مِــنْ حُــسْــنِــهــا دُرَّةٌ   أخـرَجَـهـا الـيَـمُّ إلـى الـسَّـاحِـلِ
كـأنَّ فـي فـيـهـا وفـي طَـرْفِـهـا   سَـواحِـراً أَقْـبَـلْـنَ مِـنْ بَـابِـلِ

سواحر: جمع ساحرة. أي أن كلامها ساحر، وعينيها ساحرتان

* * *

قال في أبي جعفر أحمد بن يوسف:

فِي عِدادِ المَوتَى وفي سَاكنِي الدنـ ... ـيا أبـو جـعـفـرٍ أَخـيِ وخَـلـيـلـي
لـم يَـمُـتْ مـيِـتَـةَ الـوفَـاةِ، ولـكـنْ ... مـاتَ عـن كـلِّ صَـالِـحٍ وجَـلـيـلِ

* * *

حجبه عمرو بن مَسعدة مراراً، ثم طلبه، فلم يجبه أبو العتاهية، وقال:

كسَّلَنِي اليأسُ مِنْكَ عنكَ، فمَا ... أَرْفَـعُ طَـرْفـيِ إلـيـكَ مِـنْ كَـسَـلِ
إنِّـيِ إذا لـم يَـكُـنْ أَخـيِ ثِـقَـةً ... قَـطَّـعْـتُ مـنـهُ حـبـائِـلَ الأمـلِ

* * *

قال في أبي جعفر أحمد بن يوسف، وقد حجبه بدعوى أنه نائم:

لَئِنْ عُدتُ بعدَ اليومِ إني لَظالـمٌ ... سَأَصْرِفُ نفسِي حيثُ تُبْغَى المَكارِمُ
متى يَظْفَرُ الغَادِي إليكَ بِحاجَةٍ ... ونصفُكَ محجوبٌ ونصفُكَ نائمُ

* * *

قال يرثي حُميد بن عبد الحميد الطوسي:

أبـا غـانـمٍ أَمَّـا ذَرَاكَ فَـواسِـعٌ ... وقَبْرُكَ معمورُ الجوانِبِ مُحْكَمُ

ذراك: ساحتك وكنفك

وما ينفعُ المقبورَ عُمْرانُ قَبْرِهِ ... إذا كـان فـيـهِ جِـسْـمُـهُ يَـتَـهَـدَّمُ

* * *

مـن لـم يَـذُقْ لِـصَـبـابَـةٍ طَـعْـمَـا ... فـلـقـد أَحَـطْـتُ بِـطَـعْـمِـهـا عِـلْـما
يا عُتْبُ مَا أنَا عن صنيعِكِ بي ... أَعْـمَـى، ولـكـنَّ الـهـوى أَعْـمَـى

* * *

تلاعَبْتِ بي يا عُتْبُ ثم حَمَلْتِني ... على مَرْكَبٍ بين المنيَّةِ والسُّقْمِ
يُصابُ فؤادِي حينَ أُرْمَى ورَمْيَتي ... تَعودُ إلى نَحرِي ويَسلمُ مَنْ أرمي

* * *

يا خَاطِبَ الدنيا إلى نفسِها ... تَـنَـحَّ عـن خِـطـبَـتِـهـا تـسـلَـمِ
إنَّ الـتـي تَـخْـطِـبُ غَـرَّارةٌ ... قـريـبـةُ الـعُـرْسِ مِـنَ الـمَـأْتَـمِ

* * *

كان المأمون يرسل إليه كل سنة دراهم ودنانير جدداً، ثم أخلفه سنة، فقال:

خَبَّروني أنَّ مِنْ ضَرْبِ السَّنَةْ جُدُداً بِيضاً وصُفْراً حَسَنَةْ
أُحْدِثَتْ لكنَّني لم أَرَها مِثْلَما كنتُ أرى كلَّ سَنَةْ

ووصل الشعر إلى المأمون فعجل بإرسال المال

* * *

يا خَليلَيَّ مِنْ بني شيبانِ أنا لا شكَّ مَيِّتٌ فابْكِيَاني
إن روحي لم يبقَ منها سوى شي ءٍ يَسيرٍ معلَّقٍ بِلِسَاني

* * *

عِزَّةُ الحبِّ أَرَتْهُ ذِلَّتي في هَواهُ ولَهُ وجهٌ حَسَنْ
ولِهذا صِرْتُ مَمْلُوكاً له ولهذا شاعَ ما بي، وعَلَنْ

* * *

يا مَنْ تَبَغَّى زَمَناً صالِحاً صلاحُ هارونَ صلاحُ الزَّمَنْ
كلُّ لِسانٍ هُوَ في مُلْكِهِ بالشكرِ في إحسَانِهِ مُرْتَهَنْ

* * *

هَزَزْتُكَ لا أَنِّي وجدتُكَ نَاسِياً لِوَعْدٍ ولا أَنِّي أردْتُ التَّقاضِيا

هززتك: أي دعوتك للعطاء محركاً فيك الأريحية

ولكنْ وَجَدْتُ السيفَ عند انتضائِهِ إلى الهَزِّ مُحتاجاً وإن كان مَاضِيا

* * *

ما لِي أَرَى الأَبصارَ بي جَافِيَةْ لم تلتفِتْ مِنِّي إلى نَاحِيَةْ
لا ينظرُ الناسُ إلى المُبْتَلَى وإنَّما الناسُ مَعَ العَافِيَةْ

٣ سؤال اللحية

أراكَ وكُلما أغلقتَ باباً مِنَ الدنيا فتحتَ عليكَ بابا
ألم تَرَ أن كلَّ صباحِ يوم يَزيدُكَ مِنْ مَنِيَّتِكَ اقترابا
ومَا مِنْكَ الشبابُ ولستَ مِنْهُ إذا سألَتْكَ لِحْيَتُكَ الخِضَابا

سألتك: طلبت منك، الخضاب: الصبغ

٤ بعد مسير خمسين

إذا ما خَلَوْتَ، الدَّهرَ، يوماً فلا تقلْ   خَـلَـوْتُ، ولـكـنْ قـلْ عَـلَـيَّ رقـيـبُ
ولا تَحسَبَنَّ اللَّهَ يُغفِلُ ما مَضَى   ولا أن مـا يَـخْـفَـى، عـلـيـهِ يَـغـيـبُ
إذا ما مَضَى القَرنُ الذي كنتَ فيهِمُ   وخُـلِّـفْـتَ فـي قَـرْنٍ فـأنـتَ غَـريـبُ

القرن: الجيل

وإنَّ امْرَأً قد سارَ خَمسينَ حِجَّةً   إلـى مَـنـهـلٍ، مِـنْ وِرْدِهِ لَـقَـريـبُ

المنهل: موضع الماء، الوِرد: الورود والإتيان

٥ الواثبون

لكلِّ أَمْرٍ جَرى فيه القضَا سَبَبُ   والدهرُ فيهِ وفي تَصريفِهِ عَجَبُ
ما الناسُ إلَّا معَ الدنيا وصاحبِها   فكيفَما انْقلَبَتْ يوماً به انْقَلَبُوا
يُعَظِّمُونَ أخا الدنيا، وإن وَثَبَتْ   يوماً عليه بما لا يشتهي وَثَبُوا

٦ لا غنيمة ولا إياب

ألا لِـلَّـهِ أنـتَ مـتَـى تَـتـوبُ   وقـد صَبَغَتْ ذوائِبَكَ الخُطوبُ

ذوائبك: خصلات شعرك.. صبغتها المصائب باللون الأبيض، الشيب

لَـعَـمْـرُكَ مـا تَـهُـبُّ الـريـحُ إلَّا   نَـعـاكَ مُـصَـرِّحـاً ذاكَ الـهُـبـوبُ
أراكَ تَـغـيـبُ ثـم تَـؤُوبُ يـومـاً   ويـوشِـكُ أن تَـغـيـبَ ولا تَـؤُوبُ

٧ ألا ليت الشباب..

بكيتُ على الشبابِ بِدمعِ عيْني   فـلـم يُغْنِ الـبـكـاءُ ولا الـنَّـحـيـبُ
فـيَـا أسَـفَـا أَسِـفْـتُ عـلـى شـبـابٍ   نَعاهُ الشيبُ والرأسُ الخَضيبُ
عَرِيتُ مِنَ الشبابِ، وكان غَضَّاً   كـمـا يَـعْـرَى مِـنَ الـوَرَقِ الـقَـضـيـبُ

غضّ: طري

فيا ليتَ الشبابَ يَعودُ يوماً   فـأُخْـبِـرَهُ بـمـا فـعـلَ الـمـشـيـبُ

٨ الهجوم الثاني

لِدُوا لِلموتِ، وابنُوا لِلخرابِ ... فكُلُّكُمُ يَصيرُ إلى تَبابِ

لدوا: أنجبوا الأولاد، تباب: هلاك

لِمنْ نَبْني ونحن إلى ترابٍ ... نَصِيرُ كما خُلِقنا مِنْ تُرابِ

ألا يا مَوْتُ لم أرَ منكَ بُدّاً ... أَبَيْتَ فلا تَحيفُ ولا تُحَابي

تحيف: تظلم، تحابي: تخص المرء بأكثر مما يستحق

كَأنَّكَ قد هجمْتَ على مَشيبي ... كما هجمَ المشيبُ على شبابي

٩ الحفر المستَّرة

ما لِلمقابِرِ لا تُجيـ ... ـبُ إذا دَعَاهُنَّ الكَئيبُ

حُفَرٌ مُسَتَّرةٌ عَلَيْـ ... ـهِنَّ الجَنادِلُ والكَثيبُ

الجنادل: الصخور، الكثيب: كوم الرمل

فيهِنَّ وِلْدَانٌ وأَطْـ ... ـفالٌ وشُبَّانٌ وشِيبُ

كم مِنْ حبيبٍ لم تكنْ ... نَفسي بِفُرقَتِهِ تَطيبُ

غَادرْتُهُ في بَعْضِهِنَّ ـ ... مُجَدَّلاً وَهُوَ الحَبيبُ

مجدلاً: مطروحاً صريعاً

وسَلَوْتُ عنه، وإنّما ... عهدي بِرُؤْيَتِهِ قَريبُ

١٠ انبتات الصلات

ولم أرَ فضلاً تَمَّ إلَّا بِشيمَةٍ ... ولم أرَ عقلاً صَحَّ إلَّا على أَدَبْ

شيمة: خلق

ولم أرَ في الأعداءِ حين خَبَرْتُهُمْ ... عَدُوّاً لِعَقْلِ المرءِ أَعْدَى مِنَ الغضبْ

ولم أرَ بين اليُسْرِ والعُسْرِ خِلْطَةً ... ولم أرَ بين الحَيِّ والمَيْتِ مِنْ سَبَبْ

١١ الطالب والمطلوب

المرءُ يَطلُبُ والمنِيَّةُ تطلُبُهْ ... ويدُ الزمانِ تُديرُهُ وتُقَلِّبُهْ

ليس الحريصُ بِزائِدٍ في رزقِهِ ... اللَّهُ يَقسِمُه له ويُسَبِّبُهْ

اَلـموتُ حَوْضٌ لا مَحَالَـةَ دُونَـه مُـرٌّ مَـذاقَـتُـهُ كَـريـهٌ مَـشْـرَبُـهْ
وتَرى الفَتى سَلِسَ الحَديثِ بِذِكْرِهِ وَسْـطَ الـنَّـدِيِّ كَـأنَّـهُ لا يَـرْهَـبُـهْ

النديّ: المجلس

مَنْ كانتِ الدنيا مِنَ اكبَرِ هَمِّهِ نَصَبَتْ له مِنْ حبِّها ما يُتْعِبُهْ
فاصبِرْ على الدنيا وطولِ غُمومِها ما كلُّ مَنْ فيها يَرى ما يُعْجِبُهْ
ما زالتِ الأيامُ تَلعبُ بِالفَتى طَوْراً تُخَوِّلُهُ وطَوْراً تَسْلُبُهْ

تخوله: تمنحه الخَوَل أي الخَدَم

مَنْ لم يَزَلْ مُتَعَجِّباً مِنْ كُلِّ مَا تَأتي بهِ الأيامُ طالَ تَعَجُّبُهْ

١٢ لا مفرّ

نُنافِسُ في الدنيا ونحن نَعيبُها لقد حَذَّرَتْنَاها لَعَمْري خُطُوبُها

نتنافس على خيرات الدنيا مع أننا نلعنها، وقد حذرتنا منها مصائبها

أَيَا هَادِمَ اللَّذَّاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ تُحَاذِرُ نَفسي منكَ ما سَيُصيبُها

هادم اللذات: الموت

كأنِّي بِرَهْطي يَحمِلونَ جِنازتي إلى حُفرَةٍ يُحْثَى عليَّ كَثيبُها

يحثَى: يهال، والكثيب: الرمل

فكم ثَمَّ مِنْ مُسْتَرْجِعٍ مُتَوَجِّعٍ وبَاكِيَةٍ يَعْلُو عليَّ نَحيبُها

مسترجع: قائل «إنا لله وإنا إليه راجعون»

ودَاعِيَةٍ حَرَّى تُنادي وإنَّني لَفي غَفْلَةٍ عن صوتِها ما أُجيبُها
رأَيْتُ المنايا فَرَّقَتْ بين أَنْفُسٍ، ونَفسي سَيأْتي بَعْدَهُنَّ نَصيبُها

١٣ هذا إن ثبت

نَحنُ في دارِ بَلاءٍ وأَذَى وشَقَاءٍ وعَنَاءٍ وعَنَتْ

العنت: العناء

مَنزِلٍ ما يَثْبُتُ المرءُ بِهِ سالماً إلَّا قليلاً.. إنْ ثَبَتْ
بينما الإنسانُ في الدنيا لَهُ حركاتٌ مُسْرِعَاتٌ.. إذْ خَفَتْ

١٤ قلة الأصدقاء

أُحِبُّ مِنَ الإِخْوَانِ كُلَّ مُؤَاتِ ... وفيٍّ يَغُضُّ الطَّرْفَ عن عَثَراتي

مؤات: موافق

يُوافِقُني في كلِّ خيرٍ أُريدُهُ ... ويحفَظُني حيّاً وبعدَ وَفاتي

تَصَفَّحْتُ إخواني فكانَ أقلُّهُمْ ـ ... على كَثْرَةِ الإِخْوَانِ ـ أَهْلَ ثِقَاتِ

١٥ كان فمات

إيتِ القُبورَ فَنادِها أَصْواتَا ... فإذا أَجَبْنَ فَسائِلِ الأَمْوَاتَا:

أين الملوكُ بَنُو الملوكِ؟ وكلُّهُمْ ... أَمْسَى وأصبحَ في الترابِ رُفاتَا

كم مِنْ أبٍ وأبي أَبٍ لَكَ بينَ أَطْـ ... ـبَاقِ الثَّرَى، قد قيلَ كانَ فَمَاتَا

١٦ المَكارِه والسرور

كم مِنْ مُؤَخِّرٍ غايَةٍ قد أَمْكَنَتْ ... لِغَدٍ، وليس غَدٌ له بِمُؤَاتِ

مؤات: موافق

حتى إذا فاتتْ وفاتَ طِلابُها ... ذهبتْ عليها نفسُه حَسَراتِ

تأتي المَكارِهُ حين تأتي جُمْلَةً ... وأرى السُّرورَ يَجيءُ في الفَلَتَاتِ

١٧ المتزاهد

أَلا مَنْ لِنفسٍ في الهوى قد تَمادَتِ ... إذا قلتُ قد مالتْ عن الجهلِ عَادَتِ

تَزاهَدْتُ في الدنيا وإنِّي لَراغِبٌ ... أرى رغبتي ممزوجَةً بِزَهادَتي

تزاهدت: تظاهرت بالزهد

وعَوَّدْتُ نفسي عادةً فَلَزِمْتُها ... أراهُ عظيماً أن أفارقَ عادتي

١٨ انصراف العوائد

عِشْ ما بَدا لَكَ أن تعيشَ بِغِبْطَةٍ ... ما أقربَ المَحْيا الطويلَ مِنَ المماتِ

أينَ الملوكُ ذوو المنابرِ والدسا ... كرِ والعساكرِ والقصورِ المُشْرفاتِ

الدساكر: العِزَب، القرى الصغيرة بما فيها من أقنان، المشرفات: العاليات

هل فيكُمُ مِنْ مُخْبِرٍ حيث استقرَّ ـ قـرارُ أَرواحِ الـعِـظـامِ الـبـالِـيـاتِ؟
هل من يخبرني أين استقرت الأرواح التي كانت تلازم الناس بعد موتهم واهتراء عظامهم؟

فَلَقَلَّـمـا لَبِثَ الـعَـوائـدُ بَـعـدَكُـمْ ولَـقَـلَّـمـا ذرفتْ عيونُ الـبـاكـيـاتِ
بعد موتكم لا تمكث العوائد، زائرات المريض، إلا قليلاً، والبكاء عليكم يكون قليلاً

١٩ لا انفلات

أَنـسـاكَ مَـحْـيَـاكَ الـمَـمـاتـا فـطـلـبـتَ فـي الـدنـيـا الـثَّـبـاتـا
يـا مَـنْ رأى أَبَـوَيْـهِ، فـيـ ـمـا قـد رأى، كـانَـا فَـمَـاتـا
هـل فـيـهِـمـا لَـكَ عِـبـرةٌ أم خِـلْـتَ أنَّ لَـكَ انْـفِـلاتـا

٢٠ الرائح الغادي بيننا

أَحْـسَـنَ الـلَّـهُ بِـنـا أنَّ ـ الـخَـطـايـا لا تَـفُـوحُ
الحمد لله أن الخطايا ليست بذات رائحة، وإلا كانت رائحتها قتلتنا

سَـيَـصِـيـرُ الـمـرءُ يـومـاً جـسـداً مـا فـيـهِ روحُ
بـيـنَ عَـيْـنَـيْ كـلِّ حَـيٍّ عَـلَـمُ الـمـوتِ يـلـوحُ
كُـلُّـنـا فـي غَـفْـلَـةٍ والـ ـمـوتُ يَـغْـدُو ويَـروحُ
نُـحْ عـلـى نـفـسِـك يـا مِـسـ ـكـيـنُ، إن كـنـتَ تَـنـوحُ
لَـتَـمُـوتَـنَّ وإنْ عُـمِّـ ـرْتَ مـا عُـمِّـرَ نـوحُ

٢١ البرهان

أَلَا إنَّـنـا كـلُّـنـا بَـائِـدُ وأيُّ بَـنـي آدم خَـالِـدُ
فـيـا عـجـبـاً كـيـف يَـعـصِـي الإلـ ـهَ أم كـيـفَ يَـجْـحَـدُهُ الـجَـاحِـدُ
ولِـلَّـهِ فـي كـلِّ تـحـريـكَـةٍ عـلـيـنـا وتَـسْـكِـيـنَـةٍ شـاهـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلـى أنَّـهُ واحِـدُ
آية: برهان

٢٢ السهام الصائبة

الـموتُ لا وَالـداً يُـبْـقـي ولا وَلَـدا ولا صـغـيـراً ولا شـيـخـاً ولا أحـدا

كـان الـنـبـيُّ فـلـم يَـخْـلُـدْ لِأُمَّـتِـهِ   لـو خَـلَّـدَ الـلَّـهُ حـيّـاً قـبـلَـهُ خَـلَـدا
لِلْـموتِ فـينا سهامٌ غيرُ مُخْطِئَةٍ   مَنْ فَاتَهُ اليومَ سهمٌ لـم يَفُتْهُ غَدا
ما ضَـرَّ مَنْ عَـرَفَ الدنيا وغِرَّتَـها   أَلَّا يُـنـافِـسَ فـيـهـا أهـلَـهـا أبـدا

غرتها: خداعها

٢٣ كأنهم ما كانوا

كأنَّ أهلَ القبورِ لـم يَسْكُنُوا الدُّ ـ   ورَ، ولـم يَـحْـيَ مِـنْـهُـمُ أحـدُ
ولـم يـكـونـوا إلا كَـهَـيْـئَـتِـهِـمْ   لـم يـولَـدوا قـبـلَـهـا ولـم يَـلِـدُوا
يـا نـاسِـيَ الـمـوتِ وَهْـوَ يـذكُـرُهُ   هـل لَـكَ بِـالـمـوتِ إن أتـاكَ يَـدُ
تَبكي عـلى مَنْ مَضَى وأنتَ غداً   يـوُرِدُكَ الـمـوتُ فـي الـذي وَرَدُوا

٢٤ جِدًّا

مـا أقـربَ الـمـوتَ جِـدًّا   أتـاكَ يَـشـتَـدُّ شَـدًّا
يـا مَـنْ يُـراحُ عـلـيـهِ   بِـالـمـوتِ طَـوْراً ويُـغْـدَى

يراح عليه ويغدى: يؤتى مساء وصباحاً

هـل تـسـتـطـيـعُ لِـمَـا قـد   مَـضَـى مِـنَ الـعـيـشِ رَدًّا
تَـمـوتُ فَـرْداً وتـأتـي   يـومَ الـقِـيـامَـةِ فَـرْدا

٢٥ لا تمدَّها

ستُسلِمُكَ الساعاتُ في بعضِ مَرِّها   إلى ساعـةٍ لا ساعـةٌ لـكَ بعـدَها

مرها: مرورها

مَدَدْتَ المُنَى طولاً وعرضاً، وإنَّها   لَتَدْعُوكَ أن تَهدا وأنْ لا تَمُدَّها
ومَالَتْ بِكَ الدنيا إلى اللَّهْوِ والصِّبا   ومَنْ مالَتِ الدنيا به كان عَبْدَها
لِنفسِكَ قبلَ الناسِ فَاعْنَ فإنَّها   تَموتُ إذا ماتتْ وتُبعَثُ وحْدَها

فاعن: فكن معنياً

٢٦ المتبَختِر

يـا أَيُّـهـا الأَشْـيَـبُ الـذي قـد   حَـذَّرَهُ شـيْـبُـهُ وأَنْـذَرْ

خذْ ما صَفَا مِنْ جميعِ أمرِ الدُّ ـ نيـا وَدَعْ عنك مَا تَكَدَّرْ
والْطُفْ لِكُلِّ امْرِئٍ بِرِفْقٍ واقْبَلْ مِنَ الناسِ ما تَيَسَّرْ
يـا رُبَّ ذي أَعْظُمٍ رُفَاتٍ كانَ إذا ما مَشَى تَبَخْتَرْ

رفات: محطمة. أي رب صاحبٍ عظام بالية مسجى في قبره، قد كان في حياته يمشي ويتبختر

٢٧ الأنس بالأذى

إذا أنا لم أَقبلْ مِنَ الدهرِ كلَّ مَا تكرَّهْتُ منهُ طالَ عَتْبي على الدهرِ
تَعودْتُ مَسَّ الضُّرِّ حتى أَلِفْتُهُ وأَحْوَجَني طولُ العَزاءِ إلى الصبرِ
ووَسَّعَ صَدْرِي بِالأَذَى الأُنْسُ بِالأَذى وقد كنتُ أحياناً يَضيقُ بِهِ صَدْري

الأنس بالأذى: تعوُّده

وصَيَّرني يَأسي مِنَ الناسِ راجياً لِسرعةِ لُطْفِ اللَّهِ مِنْ حيثُ لا أَدري

٢٨ النتيجة.. تعادل

طُوبَى لِمَنْ هَمُّهُ المَعادُ ومَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ عنهُ مِنْ خَبَرِهْ

بورك من اهتم لأمر المعاد، البعث والحساب، واهتم بما أخبره الله من خبر المعاد وكيفيته، فهو مؤمن مصدق.. كأني أرى أبا العتاهية يقول: ليتني كنت مصدقاً لتفاصيل المعاد

قد ينبغي لِامْرِئٍ رَأى نَكَبا تِ الدَّهرِ أَلَّا يَنامَ مِنْ حَذَرِهْ
بِقَدْرِ ما ذاقَ ذائِقٌ لِصَفَا ءِ العيشِ يوماً يذوقُ مِنْ كَدَرِهْ
إذا ثَوى في القبورِ ذو خَطَرٍ فَزُرْهُ فيها وانظرْ إلى خَطَرِهْ

ذو خطر: ذو نفوذ

ما أسرعَ الليلَ والنهارَ على الـ إنسانِ في سَمْعِهِ وفي بَصَرِهْ
وفي خُطاهُ وفي مَفاصِلِهِ نَعَمْ وفي شَعْرِهِ وفي بَشَرِهْ

البشر: البَشَرة

٢٩ المرارة في القاع

المَرْءُ يأمُلُ أن يعيـ شَ وطولُ عُمْرٍ قد يَضُرُّهْ
تَفْنَى بشاشَتُهُ ويبـ قَى بعد حُلْوِ العيشِ مُرُّهْ

وتخونُهُ الأيامُ حتـ ـى لا يَرى شيئاً يَسُرُّهْ

٣٠ الانقراض

قد أردْنا فأَبَى اللَّهُ لنا وأرادَ اللَّه شيئاً فمَضَى

مضى: حدث

رُبَّ أمْرٍ بِتُّ قد أبرَمْتُهُ ثم ما أصبحتُ حتى انتَقَضا
رُبَّ عيشٍ لِأُناسٍ سَلَفُوا كان، ثم انقَرضُوا وانقَرَضا

٣١ من ليس يشبع

ألَمْ تَرَ أنَّ الناسَ في غَفَلاتِهِمْ وأنَّ المنايا بينَهُمْ تَتَقَعْقَعُ
أَيا بانِيَ الدنيا! لِغيرِكَ تبتَني ويا جامعَ الدنيا! لِغيرِكَ تَجْمَعُ
أرى المَرءَ وَثَّاباً على كلِّ فرصَةٍ ولِلمرءِ، يوماً، لا مَحالَةَ مَصْرعُ
تَبارَكَ مَنْ لا يَملِكُ المُلْكَ غيْرُه متى تَنْقَضي حاجاتُ مَنْ ليس يَشْبَعُ؟
ومَا هُوَ إلّا النَّعْشُ لو قد دَعَوْا به تُقَلُّ فَتُلقَى فوقَهُ ثم تُرْفَعُ
وما زِلْتُ أُرْمَى كلَّ يومٍ بِعِبرَةٍ تكادُ لها صُمُّ الجبالِ تَصَدَّعُ
فما بالُ عَيني لا تَجودُ بمائِها وما بالُ قلبِي لا يَرِقُّ ويَخْشَعُ

٣٢ صعوبة الزهد

قد بَلَوْنا الناسَ في أخلاقِهِمْ فَرأَيْنَاهُمْ لِذي المالِ تَبَعْ

بلونا: جربنا

أَحمَدُ اللَّهَ على تقديرِهِ قَدَّرَ الرزقَ فأعطَى ومَنَعْ
سُمْتُ نفسِي وَرَعاً تَصْدُقُهُ فنهاها النَّقْصُ عن ذاكَ الوَرَعْ

سمت نفسي، أي أجبرتها، على الورع وعلى أن تصدق فيه، ولكن النقص الذي جبل عليه الإنسان نهاني عن الورع

فَلِنَفسِي عِلَلٌ لا تنقضي ولها مَكْرٌ لَطيفٌ وخِدَعْ
ولِنفسِي غَفَلاتٌ لم تَزَلْ ولها بالشَّيءِ أحياناً وَلَعْ
ولِنفسِي حين تُعْطَى فَرَحٌ واضْطرابٌ عند مَنْعٍ وجَزَعْ

٣٣ اليوم الفظيع

حُبِّبَ الأكلُ والشرابُ إليْنا　　وبناءُ القصورِ والتَّجميعُ
وصنوفُ اللَّذَّاتِ مِنْ كلِّ لَوْنٍ　　والفَنَا مقبلٌ علينا سَريعُ
كلُّ حَيٍّ سَيَطْعَمُ الموتَ كُرْهاً　　ثم خَلْفَ المماتِ يومٌ فَظيعُ

يطعَم: يأكل

٣٤ الصراع على الجيفة

أمَّا بُيوتُكَ في الدنيا فواسِعَةٌ　　فليتَ قبرَكَ بعد الموتِ يَتَّسِعُ
ما لِي أرى الناسَ لا تَسْلُو ضَغائِنُهُمْ　　ولا قلوبُهُمُ في اللَّهِ تَجْتَمِعُ

تسلو ضغائنهم: تهمد أحقادهم وكأنها نسيت أن تظهر

إذا رأيتَ لهُمْ جمعاً تُسَرُّ به　　فإنَّهُمْ حين تَبْلُو شَأنَهُمْ شِيَعُ

حين تبلو: حين تجرب، شيع: أحزاب متصارعة

٣٥ الحصاد

حتى متى يَستَفِزُّني الطَّمَعُ　　أليس لي بِالكَفافِ مُتَّسَعُ
ما أفضلَ الصبرَ والقناعةَ لِلنـ　　ـاسِ جميعاً لو أنهُمْ قَنِعُوا
وأخْدَعَ الليلَ والنهارَ لِأقْـ　　ـوامٍ أراهُمْ في الغَيِّ قد رَتَعُوا
لِلهِ دَرُّ الدنيا لقد لَعِبَتْ　　قبلي بِقومٍ فما تُرى صَنَعُوا
بَادُوا ووَفَّتْهُمُ الأهِلَّةُ ما　　كان لَهُمْ والأيامُ والجُمَعُ

بادوا وأعطتهم الأهلة، جمع هلال أي الشهور، والأيام والجمع، أي الأسابيع، أعطتهم ما كان لهم من عمر وافياً

أَثْرَوْا فلم يُدْخِلُوا قبورَهُمْ　　شيئاً مِنَ الثَّرْوةِ التي جَمَعُوا
غَداً تُوَفَّى النفوسُ ما كَسَبَتْ　　ويَحْصُدُ الزارعونَ ما زَرَعُوا

٣٦ الترقيع

اَلمرءُ في شَهَواتِ غَفْلَتِهِ　　والدهرُ يَخْفِضُهُ ويَرْفَعُهُ
ومُدافِعٌ لِلشَّيْبِ يَخْضِبُهُ　　والشيبُ نحو الموتِ يدفَعُهُ

رب شخص يدفع الشيب بعيداً عنه بالخضاب، الصبغ، والشيب يدفعه نحو نهايته

والـعـيـشُ كُـلُّ جـديـدِهِ خَـلَـقٌ   كُـلٌّ لـه عَـيْـشٌ يُـرَقِّـعُـهُ

كل شيء يجدُّ في الحياة خَلَق، ثوب عتيق، وكلنا يرقع عيشته ترقيعاً

٣٧ الطمع هم وغيظ

طلبتُ الغِنَى في كلِّ وَجْهٍ فلم أَجِدْ   سبيلَ الغِنَى إلَّا سبيلَ التَّعَفُّفِ
إذا كنتَ لا تَرضَى بِشيءٍ تَنالُهُ   وكنتَ على ما فاتَ جَمَّ التَّلَهُّفِ
فلستَ مِنَ الهَمِّ العريضِ بِخارِجٍ   ولَستَ مِنَ الغيظِ الطويلِ بِمُشْتَفِ

٣٨ قانون السماحة

أَوْدَى الزَّمانُ بِأَسْلافِي وخَلَّفَني   وسوفَ يُلحِقني يوماً بِأَسْلافي
لا تَمْشِ في الناسِ إلَّا رَحمَةً لَهُمُ   ولا تعامِلْهُمُ إلَّا بِإنصافِ
واقطعْ قُوَى كلِّ حِقدٍ أنت مُضْمِرُهُ   إن زَلَّ ذو زَلَّةٍ أو إنْ هَفَا هَافِ
وارْغَبْ بِنفسِكَ عمَّا لا صَلاحَ له   وأَوْسِعِ الناسَ مِنْ بِرٍّ وإلْطَافِ

ارغب بنفسك، أي ابتعد، عن الأمر الذي لا سبيل إلى إصلاحه

وإن يَكُنْ أَحَدٌ أَوْلاكَ صَالِحَةً   فَكَافِهِ فوقَ ما أَوْلَى بِأَضْعافِ

إن أولاك، أعطاك، أحدهم صالحة، معروفاً، فكافئه بأضعافها

ولا تُكَشِّفْ مُسيئاً عن إساءَتِهِ   وصِلْ حِبالَ أخيكَ القَاطِعِ الجَافي
ما أحسَنَ الشُّغْلَ في تَدبيرِ مَنفعَةٍ   أهلُ الفَراغِ ذوو خَوْضٍ وإرْجَافِ

انشغال المرء، جيد في تحصيل المنافع، فأما أهل الفراغ الذين ليس لهم شغل يشغلهم فهو يخوضون في شؤون الآخرين، ويرجفون، ينشرون الذعر

٣٩ رغم كثرتهم

طلبتُ أخاً في اللّهِ في الغربِ والشرقِ   فَأَعْوَزَني، هذا على كَثْرَةِ الخَلْقِ
فَصِرْتُ وحيداً بينَهُمْ متصبِّراً   على الغَدرِ منهُمْ والمَلالَةِ والمَذْقِ

المذق: الغش

وكم مِنْ أخٍ قد ذُقْتُهُ ذا بَشاشَةٍ   إذا ساغَ في عيني يَغَصُّ به حَلْقي
ولَم أَرَ كالدنيا وكَشْفي لِأَهلِها   فما انكشفُوا لي عن وفاءٍ ولا صِدْقِ

٤٠ يوم العَرق

يا مَنْ بَنَى القصرَ في الدنيا وشيَّدَهُ أَسَّسْتَ قصرَكَ حيثُ السَّيْلُ والغَرَقُ
كلُّ امْرِئٍ وله رِزْقٌ سيَبْلُغُهُ واللَّهُ يَرزُقُ لا كَيْسٌ ولا حُمُقُ

الكيس: الكياسة

والحمدُ للَّهِ شُكراً لا نَفادَ له الناسُ في غفْلَةٍ عمَّا له خُلِقُوا

وفي الدين أن الناس خلقوا ليعبدوا الله، «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»

ما أغفلَ الناسَ عن يومِ ابْتِعاثِهِمُ ويومَ يُلْجِمُهُمْ في المَوقِفِ العَرَقُ

الناس غافلون عن يوم يبعثون من قبورهم للحساب، ويوم يلجمهم العرق، أي يسكتهم كأنه اللجام.. فقد روى بعضهم أن العصاة يعرقون بتفاوت فثمة من يعرق حتى عقبيه أو حتى ركبتيه أو صدره.. وثمة من يصل العرق إلى فمه فيلجمه إلجاماً، في الموقف، أي يوم القيامة

٤١ أحسنت يا إبليس!

كلُّ رِزقٍ أرجوهُ مِنْ مخلوقِ يَعتريهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّعْويقِ
وأنا قائِلٌ، وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ـ مِثالَ المَجازِ لا التَّحقيقِ
لستُ أَرْضَى مِنْ فِعلِ إبليسَ شيئاً غيرَ تَرْكِ السُّجُودِ لِلمخلوقِ

٤٢ نموذج الحسن

إنَّ المَليكَ رآكِ أَحْسَنَ خلقِهِ ورأى جَمالَكْ..

الله رآكِ أحسن خلقه ورأى جمالَكِ..

فَحَذَا بِقُدْرَةِ نفسِهِ حُورَ الجِنانِ على مِثالَكْ

فحذا، أي قص وصنع، حور الجنان متخذاً إياك شابلونة

٤٣ الباكون المقتسمون

أتطمَعُ أن تُخَلَّدَ لا أَبالَكْ أَمِنْتَ مِنَ المنيةِ أن تَنالَكْ
أمَا واللَّهِ إنَّ لَها رَسُولاً وأُقسمُ لو أَتَاكَ لَمَا أَقَالَكْ
كَأَنِّيَ بالترابِ عليكَ رَدْماً وبِالبَاكِينَ يَقْتَسِمونَ مَالَكْ

٤٤ ألوان الكذب

إيَّاكَ مِنْ كَذِبِ الكذُوبِ وإفْكِهِ فلَرُبَّما مَزَجَ اليَقينَ بِشَكِّهِ

وَلَرُبَّما ضَحِكَ الكذوبُ تَكَلُّفاً وبَكَى مِنَ الشيءِ الذي لم يُبْكِهِ
ولربما صمتَ الكذوبُ تَخَلُّقاً وشَكا مِنَ الشيءِ الذي لم يُشْكِهِ
ولربما كذبَ امْرُؤٌ بِكلامِهِ وبِصَمْتِهِ وبُكائِهِ وبِضِحْكِهِ

٤٥ الزمان المؤدِّب

الآنَ يا دنيا عرفتُكِ فاذْهبي يا دارَ كلِّ تَشَتُّتٍ وزَوالِ
قَطَّعْتُ مِنكِ حَبائِلَ الآمالِ وحَطَطْتُ عن ظهرِ المَطِيِّ رِحالي

قطعت حبل الأمل منك، وأنزلت رحالي ومتاعي عن ظهر المطي، أي الأبل، فأنا لا أريد الرحيل نحوك.. أي أنه يريد هجران الدنيا

والآنَ صارَ لِيَ الزمانُ مُؤَدِّباً فغَدا عليَّ وراحَ بِالأمثالِ
وإذا تَنَاسَبَتِ الرجالُ فما أَرى نَسَباً يُقاسُ بِصالِحِ الأعمالِ

تناسبت الرجال: أخذت تذكر أنسابها

لِلَّهِ يومٌ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ وتَشيبُ منه ذوائبُ الأطفالِ
يومُ النوازِلِ والزلازِلِ، والحَوا ملُ فيهِ إذْ يَقْذِفْنَ بالأَحْمَالِ

يوم النوازل، أي المصائب، يوم القيامة عندما تسقط الحوامل أجنتها

٤٦ إن اضطررت!

حِيَلُ ابنِ آدَمَ في الحياةِ كثيرةٌ والموتُ يقطعُ حيلَةَ المُحتالِ
قِسْتُ السؤالَ فكان أعظمَ قيمَةً مِنْ كلِّ عَارِفَةٍ جَرَتْ بِسُؤَالِ

سؤال الناس صعب وهو أعظم من أي عارفة، معروف، تناله بسؤالك

فإذا ابْتُليتَ بِبَذْلِ وجهِكَ سَائِلاً فابْذُلْهُ لِلمُتَكَرِّمِ المِفضالِ
وإذا خَشِيتَ تَعَذُّراً في بَلدةٍ فاشدُدْ يَديْكَ بِعاجِلِ التَّرحَالِ

٤٧ الرحيل الرحيل

ما أثقلَ الحقَّ على مَنْ نَرى، لم يَزَلِ الحقُّ كريهاً ثقيلْ
تَزَوَّدَنْ لِلموتِ زاداً فقد نَادَى مُنادِيهِ: الرَّحيلَ الرَّحيلْ
ما أَقْتَلَ الدنيا لأَزواجِها تَعُدُّهُمْ عَدّاً قتيلاً قَتيلْ

٤٨ تعالى الله

نَعَى نفسي إلَيَّ مِنَ اللَّيالي تَصَرُّفُهُنَّ حالاً بعد حالِ
فما لي لستُ مشغولاً بنفسي وما لي لا أخافُ الموتَ ما لي
لقد أيقنتُ أنِّيَ غيرُ باقٍ ولكنِّي أرانِيَ لا أُبالي
سأَقْنَعُ ما بَقيتُ بِقُوتِ يومٍ ولا أبغي مُكاثَرَةً بِمالي

المكاثرة: التفاخر بالكثرة

تَعالى اللّهُ يا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الحِرصُ أَعناقَ الرجالِ

سلم بن عمرو هو الشاعر الملقب بالخاسر. والحرص: البخل. وقد كان سلم يقول إن أبا العتاهية أشعر الجن والإنس، ثم لما سمع هذا الشعر غضب، وقال: ويلي على ابن الفاعلة الزنديق، زعم أني حريص، وقد كنز المال، وأنا لا أملك غير ثوبي هذين. ورد سلم بشعر: (ما أقبح التزهيد من واعظ//يزهد الناس ولا يزهد) وانحرف عن أبي العتاهية

هَبِ الدنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً أليس مَصيرُ ذاكَ إلى الزَّوالِ

هب: افرض، عفواً: بسهولة

٤٩ معاداة الرجال

خَبِرْتُ الناسَ قَرناً بعد قَرْنٍ فلم أرَ غيرَ خَتَّالٍ وقَالِ

قرن: جيل، ختال: غادر، قالٍ: هاجر

وذُقْتُ مَرارَةَ الأشياءِ طُرّاً فمَا طعْمٌ أمرَّ مِنَ السُّؤالِ
ولم أرَ في الأمورِ أشَدَّ وقْعاً وأصعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرجالِ
ولم أرَ في عيوبِ الناسِ عيباً كنقْصِ القَادرينِ على الكَمالِ

وهذا البيت يشبه بيت المتنبي، فكأن المتنبي سرقه. ولكن البيت ليس موجوداً في كل نسخ ديوان أبي العتاهية، أفلا يكون أعداء المتنبي دسوه على أبي العتاهية في نسخة متأخرة ليكون شاهد زور على سرقة لم يرتكبها المتنبي؟

٥٠ سؤال عن الزاد

يا ساكنَ القبرِ عَنْ قَليلِ ماذا تَزَوَّدْتِ للرحيلِ

عن قليل: بعد قليل

إنَّا لَمُستوطِنونَ داراً نحن بها عابِرُو سبيلِ

دارَ أَذىً لـــم يَـــزَلْ عـــلـــيـــلٌ   يَـــشـــكُـــو أذاهـــا إلـــى عـــلـــيـــلِ

٥١ القيل والقال

أبـقـيْـتَ مَـالَـكَ مـيـراثـاً لِـوَارِثـهِ   فليتَ شِعريَ ما أَبْقى لَكَ المالُ

الـقـومُ بَـعـدَكَ فـي حـالٍ تَـسُـرُّهُـمُ   فكيف بَعْدَهُمُ دارتْ بِكَ الحالُ

مَلُّوا البُكاءَ، فما يَبْكيكَ مِنْ أَحَدٍ   واسْتَحْكَمَ القيلُ في الميراثِ والقَالُ

أنت تتخيل أنهم بعدك سيقتلون أنفسهم بكاء، وسينسون أن هناك ميراثاً؟ يا مسكين! اقرأ شعر أبي العتاهية

٥٢ لا أرى أحدا

كـــم مِـــنْ عـــزيـــزٍ قـــد رأيْـــ   ـــتُ الـــحـــرصَ صـــيَّـــرهُ ذلـــيـــلا

فـــتـــجـــنَّـــبِ الـــشَّـــهَـــواتِ واحْـــ   ـــذَرْ أن تـــكـــونَ لـــهـــا قـــتـــيـــلا

فَـــلَـــرُبَّ شـــهـــوةِ ســـاعـــةٍ   قـــد أَوْرثَـــتْ حـــزنـــاً طـــويـــلا

مَـــنْ لـــم يـــكـــنْ لَـــكَ مُـــنـــصـــفـــاً   فـــي الـــودِّ، فـــابْـــغِ بـــه بـــديـــلا

كَـــشَّـــفْـــتُ أَخـــلاقَ الـــرجـــا   لِ، وذُقـــتُـــهُـــمْ جـــيـــلاً فـــجـــيـــلا

اِضـــرِبْ بِـــطَـــرْفِـــكَ حـــيـــثُ شـــئـــ   ـــتَ فـــلا تـــرى إلَّا بـــخـــيـــلا

٥٣ السراب

يَجري الجديدانِ والأقدارُ بينَهما   تَـغـدُو وتَـسـري بِـأرزاقٍ وآجَـالِ

الجديدان: الليل والنهار، أي الزمن. والأقدار تغدو صباحاً وتسري ليلاً ضمن الزمن فتوزع الرزق والموت أيضاً

يا مَنْ سلا عن حبيبٍ بعد غيْبَتِهِ   كم بعدَ موتِكَ مِنْ ناسٍ ومِنْ سَالِ

كـأنَّ كـلَّ نـعـيـمٍ أنـت ذائـقُـهُ   مِنْ لَذَّةِ العيشِ يَحكي لَـمْعَةَ الآلِ

الآل: السراب

٥٤ الحرام ألذّ

أَحـمَـدُ الـلَّـهَ عـلـى كـل حـالِ   إنَّـمـا الـدنـيـا كَـفَـيْءِ الـظِّـلالِ

رُبَّ مُـغْـتَـرٍّ بـهـا قـد رَأَيْـنـا   نَـعْـشَـهُ فـوقَ رِقَـابِ الـرجـالِ

عـجـبـاً مِـنْ راغـبٍ فـي حَـرامٍ   لـم تَـضِـقْ عـنـهُ وُجـوُهُ الـحَـلالِ

٥٥ القليل مع الكرامة

أتـدري أيَّ ذُلٍّ فـي السُّـؤالِ ... وفـي بَـذلِ الوجـوهِ إلـى الرجـالِ
إذا كـان النـوالُ بِـبَـذْلِ وَجـهـي ... فَـلا قُـرِّبْـتُ مِـنْ ذاكَ النـوالِ
مَـعـاذَ اللّـهِ مِـنْ خُـلُـقٍ دَنِـيءٍ ... يَكـونُ الفضـلُ فيه عَلَـيَّ لا لـي
إذا كـان القـليـلُ يَسُـدُّ فقـري ... ولـم أَجِـدِ الكـثيـرَ فـلا أُبالـي

٥٦ مجيء الغاسل بعد استرخاء المفاصل

وكـم قـد عـزَّ مِـنْ مَـلِـكٍ ... يَـحُـفُّ بـه قَـنَـابِـلُـهُ

قنابله: جماعات من خيوله

يَـخـافُ النـاسُ صَـوْلَـتَـهُ ... ويُـرْجَـى مـنـه نَـائِـلُـهُ
ويَـثْـنـي عِـطْـفَـهُ مَـرَحـاً ... وتُـعْـجِـبُـهُ شَـمـائِـلُـهُ
فـلـمَّـا أن أتـاهُ الـحَـقُّ ـ ... وَلَّـى عـنـه بَـاطِـلُـهُ
فَـغَـمَّـضَ عـيـنَـهُ لِـلْـموتِ ... واسْـتَـرْخَـتْ مَـفـاصِـلُـهُ
فـمَـا لَـبِـثَ الـسِّـيـاقُ بـه ... إلـى أن جـاءَ غَـاسِـلُـهُ

السياق: الاحتضار.. ما طال احتضاره حتى مات وجاء من يغسله

٥٧ الخلاصة الزهدية

رَجَعْتُ إلى نفسي بِفِكري لعلَّها ... تُـفـارِقُ مـا قـد غَـرَّهـا وأَذَلَّـهـا
فقلتُ لها يا نَفْسِ ما كنتُ آخِذاً ... مِنَ الأرضِ لو أَصْبَحْتُ أَمْلِكُ كلَّها؟
فهلْ هِيَ إلَّا شَبعَةٌ بعدَ جَوْعَةٍ ... وإلَّا مُنىً قد حانَ لي أن أَمَلَّها
ومُدَّةُ وقتٍ لـم يَدَعْ مَرُّ مَا مَضَى ... عَـلَـيَّ مِـنَ الأيـامِ إلَّا أَقَـلَّـهـا
أَرَى لَكَ نفساً تبتغي أن تُعِزَّها ... ولَسْتَ تُعِزُّ النَّفْسَ حتى تُذِلَّها

٥٨ غضب وغضب

إذا غَـضِـبَ الـحَـلـيـمُ فَـفِـرَّ عـنـهُ ... وإن غَـضِـبَ الـلَّـئـيـمُ فـلا تُـبَـالِـهْ
ولـم تَـرَ مُـثْـنِـيـاً أَثْـنَـى عـلـى ذي ... فِـعَـالٍ قَـطُّ أَفْـصَـحَ مِـنْ فِـعَـالِـهْ
وأَسـرَعُ مـا يـكـونُ الـشيءُ نَـقْـصـاً ... فَـأَقْـرَبُ مـا يـكـونُ إلـى كَـمَـالِـهْ

٥٩ سنة محمد

أهلاً وسهلاً بالمَشيبِ مؤَدِّباً وعلى الشبابِ تحيةٌ وسلامُ
ولقد غَنيتَ مِنَ الشبابِ بِغِبطَةٍ ولقد كساكَ وقَارَهُ الإِسلامُ
ومحمدٌ لَكَ إن سَلَكْتَ سبيلَهُ في كلِّ خيرٍ قائدٌ وإِمامُ
ما كلُّ شَيْءٍ كانَ أو هُوَ كائِنٌ إلَّا وقد جَفَّتْ بِهِ الأَقلامُ

أي كل ما حدث أو سيحدث إنما هو مرقوم في اللوح المحفوظ قد كتب وجفت به الأقلام

٦٠ موعدنا القيامة

أمَا واللَّهِ إن الظلمَ لُومُ وما زالَ المُسِيءُ هُوَ الظَّلُومُ

لوم: لؤم

إلى دَيَّانِ يومِ الدينِ نَمضي وعند اللَّهِ تجتمعُ الخُصومُ
ستَعلَمُ في الحسابِ إذا التقيْنا غداً عند الإلَهِ مَنِ المَلُومُ

٦١ شرط الصحبة

أَيا مَنْ بينَ بَاطِيَةٍ ودَنٍّ وعُودٍ في يَدَيْ غَاوٍ مُغَنٍّ

يا من يقضي وقته بين باطية، وعاء خمر، ودن، خابية خمر كبيرة، وعود في يدي مغنٍ ضال

إذا لم تَنْهَ نفسَكَ عن هَواها وتُحْسِنْ صَوْنَها، فَإِلَيْكَ عَنّي

إليك عني: ابتعد عني

وأيُّ قَبيحٍ اقْبَحُ مِنْ لَبيبٍ يُرى مُتَطَرِّباً في مِثلِ سِنِّي

٦٢ شكوى

فيا رَبِّ إنَّ الناسَ لا يُنْصِفونَني وكيفَ، ولو أَنْصَفْتُهُمْ ظَلموني
وإن كان لي شيءٌ تَصَدَّوْا لِأَخذِهِ وإنْ جِئتُ أَبْغي شَيئَهُمْ مَنَعوني
وإن نَالَهُمْ رِفدي فلا شُكْرَ عندَهُمْ وإنْ أنا لَم أَبْذُلْ لَهُمْ شَتَموني
وإن وَجدُوا عندي رَخاءً تَقَرَّبوا وإن نَزلَتْ بي شِدَّةٌ خَذَلوني
وإن طَرَقَتْني نَكبةٌ فَكِهُوا بِها وإن صَحِبَتْني نِعمَةٌ حَسدوني
سَأَمنعُ قَلبي أن يَحِنَّ إلَيْهِمُ وأَحْجُبُ عنهُمْ ناظِري وجُفُوني

٦٣ السجون

يــا لــيــت شِــعــري إذا مــا　　دُفــنــتَ كــيــفَ تَــكــونُ
إن الــقُــبــورَ سُــجــونٌ　　مــا مِــثْــلُــهُــنَّ سُــجــونُ
مــا فــي الــمــقــابــرِ وَجْــهٌ　　عــن الــتُّــرَابِ مَــصُــونُ
لا تــدفــعُ الــمــوتَ عَــمَّــنْ　　حَــلَّ الــحُــصــونَ الــحُــصــونُ

الحصون لا تمنع الموت أن ينزل بمن حلها

مــا لِــلْــمــنــايــا سُــكــونٌ　　عــنَّــا، ونَــحْــنُ سُــكــونُ

ليس للموت سكون، ونحن عنه سكون، أي ساكنون ساكتون

٦٤ انعدام الوفاء

يــا خــلــيــلــيَّ لا أَذُمُّ زَمــانــي　　غــيــرَ أَنِّــي أَذُمُّ أهــلَ زمــانــي
لستُ أُحْصي كم مِنْ أخٍ كان لي منـ　　ـهُمْ قَليلَ الوفاءِ حُلْوَ اللِّسانِ
لــم أَجِــدْهُ مُــؤَاتِــيــاً فَــتَــصَــدَّقْــ　　ــتُ بِحظِّي منهُ على الشَّيْطانِ
لــيتَ حَظِّي منــهُ ومِنْ مِثْلِهِ أنْ　　لا تَــراهُ عَــيْــنــي وأن لا يَــرانــي

٦٥ مودة بميزان الذهب

لِــلَّــهِ دَرُّ أبــيــكَ أيُّ زمــانِ　　أصــبــحــتَ فــيــهِ وأيُّ أهــلِ زَمــانِ
كــلٌّ يُــوَازِنُــكَ الــمَــوَدَّةَ دائِــبــاً　　يُــعطــي ويَــأْخُــذُ منــكَ بِــالــمــيــزانِ
فــإذا رأى رُجْــحَــانَ حَــبَّــةِ خَــرْدَلٍ　　مَــالَــتْ مَــوَدَّتُــهُ مَــعَ الــرُّجْــحَــانِ

وقال مثلنا: «كل شيء قرضة ودين، حتى دموع العينين». والمعنى عند شاعرنا أدق، فبعض خلق الله يضن عليك بالكلمة الطيبة

٦٦ دعاء

إِلَــهــي لا تُــعَــذِّبْــنــي فَــإِنِّــي　　مُــقِــرٌّ بِــالــذي قــد كــان مِــنِّــي
ومَــا لــيَ حــيــلَــةٌ إلّا رَجَــائــي　　وعَــفْــوَكَ إن عــفــوت وحُــسْــنَ ظَنِّــي
فــكــم مِــنْ زَلَّــةٍ لِــيَ فــي الــبَــرايَــا　　وأنــتَ عَــلَــيَّ ذو فــضــلٍ وَمَــنِّ
إذا فــكَّــرْتُ فــي نَــدمــي عــلــيــهــا　　عَــضَــضْــتُ أنــامِــلــي وقَــرَعْــتُ سِــنِّــي
يَــظُــنُّ الــنــاسُ بــي خَــيْــراً وإِنِّــي　　لَــشَــرُّ الــنــاسِ إنْ لــم تَــعْــفُ عَــنِّــي

٦٧ أريدك للدنيا

أَما عَلِمْتَ جَزاكَ اللّهُ صَالِحَةً   وزَادَكَ اللّهُ خَيراً يا «ابنَ يَقطينِ»
أَنِّي أُريدُكَ للدنيا وعاجِلِها   ولا أُريدُكَ يومَ الدينِ للدينِ
حتى متى، لَيتَ شِعري، يا ابنَ يَقطِينِ   أُثني عليك بِشَيْءٍ لستَ تُولِينِي؟

حتى متى أثني عليك بالسخاء وأنت لا توليني، تمنحني، مِن هذا الذي أثني عليك به شيئاً؟

إن السلامَ وإن البِشْرَ مِنْ رجلٍ   في مثلِ ما أنتَ فيهِ ليسَ يَكْفِينِي

السلام والبشاشة من رجل في مركزك لا يكفيان، فلا بد من عطاء

٦٨ كأنك لم تكن

يا أيها المُتَسَمِّنُ   قلْ لي لِمَنْ تَتَسَمَّنُ
وغداً تصيرُ إلى القبو   رِ مُحَنَّطٌ ومُكَفَّنُ
أَحْدِثْ لِربِّكَ تَوبةً   فَسبيلُها لَكَ ممكنُ
فَكأنَّ شخصَكَ لم يكنْ   في الناسِ سَاعةَ تُدفَنُ

عند دفنك تصبح كأنك لم تكن موجوداً أصلاً

وكأنَّ أهلَكَ قد بَكَوْا   جَزعاً عليكَ ورَنَّنُوا

رننوا: ناحوا

فإذا مَضَتْ لَكَ جُمْعَةٌ   فكأنهُمْ لم يحزَنُوا
الناسُ في غَفَلاتِهِمْ   ورَحَى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ

الرحى: حجر الطاحون

٦٩ العزيز والذليل

ما أنَا إلَّا لِمَنْ بَغانِي   أرى خَليلِي كما يراني
لستُ أرى ما مَلَكْتُ طَرْفِي   مَكانَ مَنْ لا يَرَى مَكاني

لن أرى ـ ما دمت أملك عينين ـ مكاناً واحتراماً لمن لا يرى لي مثل هذا

ولِي إلى أن أَمُوتَ رزقٌ   لو جَهِدَ الخَلْقُ ما عَداني

ما عداني: ما تعدَّاني وتخطاني

لا تَـرْتَـجِ الـخـيـرَ عـنـد مَـنْ لا   يَـصْـلُـحُ إلَّا عـلـى الـهَـوانِ

لا خير في شخص لا يستقيم حاله إلا إذا أهين وتعرض للتوبيخ والتأنيب. بعض الناس «يسمنون على الإهانة» كما يقول المثل في بلدي. الواقع أن بعض الناس لا يتقبلون احترامك لهم، ويفضلون أن تعاملهم بترفع، فهذا يعفيهم من المسؤولية.. هذا اختيار. هناك ناس هكذا بالطبع أو بالتربية. وأبو العتاهية يحذرنا من التماس الخير عند هؤلاء

فـالـمـالُ مِـنْ حِـلِّـهِ قِـوامٌ   لِـلـعِـرْضِ والـوجـهِ والـلـسـانِ

من حله: من موضع يكون فيه حلالاً.. فالمال يقيم الشرف، ويقي المرء بذل وجهه، ويقي لسانه السؤال

والـفـقـرُ ذُلٌّ عـلـيـهِ بـابٌ   مِـفـتَـاحُـهُ الـعَـجْـزُ والـتَّـوَانـي

يـا رَبِّ لـم نَـبْـكِ مِـنْ زمـانٍ   إلَّا بَـكَـيْـنـا عـلـى زمـانِ

كلما بكينا من قسوة الزمن الحاضر بكينا أسفاً على زمن ماضٍ كان أفضل

٧٠ علامة الضياع

إن كان عِلـمُ امْرِئٍ في طولِ تَجرِبةٍ   فـإنَّ دونَ الـذي جَـرَّبْـتُ يَـكـفـيـنـي

ومِنْ عَـلامَـةِ تَـضْـيِـيـعي لِآخِـرَتـي   أنْ صِرْتُ تُغضِبُني الدنيا وتُرضيني

يـا مَـنْ تَـشَـرَّفَ بِـالـدنـيـا وطـيـنَـتِـهـا   لـيس الـتَّـشَـرُّفُ رَفْـعَ الـطـيـنِ بِـالـطـيـنِ

من أصبح شريف القدر بما نال من خير الدنيا الذي هو طين فهذا ليس الشرف الحقيقي لأن الإنسان مخلوق من طين، فالطين لا يرفع قدر الطين

إذا أردْتَ شَـريـفَ الـنـاسِ كُـلِّـهِـمُ   فانظرْ إلى مَلِكٍ في زِيِّ مِسكينِ

ذاكَ الـذي عَـظُـمَـتْ في الـلَّـهِ حُـرْمَـتُـهُ   وذاكَ يَـصـلُـحُ لِـلـدنـيـا ولِـلـديـنِ

٧١ الناس مع الواقف

ما الـنـاسُ إلَّا لِـلـكـثـيـرِ الـمَـالِ أو   لِـمُـسَـلَّـطٍ مـا دامَ فـي سُـلـطـانِـهِ

فـإذا الـزمـانُ رَمـى الـفـتـى بِـمُـلِـمَّـةٍ   كـان الـثِّـقَـاتُ عـلـيـهِ مِـنْ أعـوَانِـهِ

واعـلَـمْ بِـأنَّـكَ لا تُـلائِـمُ كـلَّ مَـنْ   ألـقَـى إلـيـكَ تَـلَـهُّـفـاً بِـلِـسَـانِـهِ

وإذا تَـوانَـى عـن صِـيـانَـةِ نـفـسِـهِ   رَجُـلٌ تُـنُـقِّـصَ واسْـتُـخِـفَّ بِـشَـانِـهِ

٧٢ الفضة والذهب

واعـمِـدْ إلـى صِـدْقِ الـحـديـــثِ فـإنَّـهُ أزْكَـى فُـنـونِـهْ

والـصـمـتُ أجـمَـلُ بِـالـفَـتـى مِـنْ مَـنـطِـقٍ فـي غـيـرِ حـيـنِـهْ
لا خـيـرَ فـي حَـشْـوِ الـكـلا مِ إذا اهْـتَـدَيْـتَ إلـى عُـيُـونِـهْ

٧٣ سيستكملونها

ألا رُبَّ آمـالٍ إذا قـيـلَ قـد دَنَـتْ رأيتَ صُروفَ الدهرِ قد حُلْنَ دُونَها
لَـعَـمْـرُكَ مـا تَـنْـفَـكُّ تُـهـدي جِـنـازَةً إلى عَسْكَرِ الأمواتِ حتَّى تَكُونَها
ذَوِي الوُدِّ مِنْ أهلِ القبورِ عليْكُمُ سلامٌ، أما مِنْ دَعوَةٍ تَسمَعُونَها
سَكَنْتُمْ ظهورَ الأرضِ حيناً بِنَضْرَةٍ فمَا لَبِثَتْ حتَّى سكنْتُمْ بُطُونَها
ولِلـنـاسِ آجَـالٌ قِـصَـارٌ سَـتـنـقَـضـي ولِلـنـاسِ أرزاقٌ سَـيَـسْـتَـكْـمِـلُـونَـهـا

٧٤ الاستغناء

أرى الـدنـيـا لِـمَـنْ هِـيَ فـي يـديْـهِ عَـذابـاً كـلَّـمـا كَـثُـرَتْ لَـديْـهِ
تُـهـيِـنُ الـمُـكْـرِمـيـنَ لَـهـا بِـصُـغْـرٍ وتُـكـرِمُ كـلَّ مَـنْ هـانَـتْ عـلـيْـهِ
إذا اسـتـغـنَـيْـتَ عـن شـيءٍ فَـدَعْـهُ وخُـذْ مـا أنـتَ مـحـتـاجٌ إلـيْـهِ

٧٥ اللعبة يريدها الطفل

مـا كُـلُّ مَـا يَـتَـمَـنَّـى الـمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ رُبَّ امْـرِئٍ حَـتْـفُـهُ فـيـمَـا تَـمَـنَّـاهُ
ما أقربَ الموتَ في الدنيا وأفْظَعَهُ ومَـا أمَـرَّ جَـنَـى الـدنـيـا وأحْـلاهُ
كم نَافَسَ المرءُ في شيءٍ وكايَدَ فيـ ـهِ الـنَّـاسَ ثـم مَـضَـى عـنـهُ وخَـلَّاهُ

٧٦ أهزوجة الاحتضار

وإذا أَفْـنَـى سِـنِـيـهِ الـ ـمَـرْءُ أَفْـنَـتْـهُ سِـنُـوهُ
وكَـأَنْ بِـالـمَـرْءِ قـد يـبـ ـكـي عـلـيـه أَقْـرَبُـوهُ
وكَـأَنْ بِـالـقَـوم قـد قـا مُـوا فـقـالـوا أَدْرِكُـوهُ
سَـائِـلُـوهُ كَـلِّـمُـوهُ حَـرِّكُـوهُ لَـقِّـنُـوهُ
فـإذا اسْـتَـيْـأَسَ مـنـهُ الـ ـقـومُ قـالـوا حَـرِّفُـوهُ

حرفوه: أميلوه ووجهوه إلى القبلة فيموت على هذه الهيئة

حَرِّفُوهُ وَجِّهُوهُ ... مَدِّدُوهُ غَمِّضُوهُ
عَجِّلُوهِ لِرَحِيلٍ ... عَجِّلُوا لا تَحْبِسُوهُ
ارْفَعُوهُ غَسِّلُوهُ ... كَفِّنُوهُ حَنِّطُوهُ
فإذا مَا لُفَّ بِالأَكـ ... ـفانِ قَالُوا فَاحْمِلُوهُ
أَخْرِجُوهُ فوق أَعوا ... دِ المَنَايا شَيِّعُوهُ
فإذا صَلَّوْا عليهِ ... قيلَ هَاتُوا واقْبُرُوهُ
فإذا ما اسْتَوْدَعُوهُ الـ ... أرضَ رَهْناً تَرَكُوهُ
خَلَّفُوهُ تَحْتَ رَدْمٍ ... أَوْقَرُوهُ أَثْقَلُوهُ

أوقروه: أثقلوه

أَبْعَدُوهُ أَسْحَقُوهُ ... أَوْحَدُوهُ أَفْرَدُوهُ

أسحقوه: عمَّقوا له

ودَّعُوهُ فَارَقُوهُ ... أَسْلَمُوهُ خَلَّفوهُ
وانْثَنَوْا عنه وخَلَّوْ ... هُ كأنْ لم يَعْرِفُوهُ
يُكْرَمُ المرءُ، وإنْ أَمْـ ... ـلَقَ أَقْصَاهُ بَنُوهُ

أملق: افتقر

لو رأى الناسُ نَبِيّاً ... سَائِلاً ما وَصَلُوهُ
وهُمُ لو طَمِعُوا في ... زَادِ كَلْبٍ أَكَلُوهُ
أَفضلُ المَعروفِ ما لم ... تُبتَذَلْ فيه الوُجُوهُ
أنتَ ما استَغْنَيْتَ عن صا ... حِبِكَ الدهرَ أَخُوهُ
فإذا احتَجْتَ إليهِ ... ساعَةً مجَّكَ فُوهُ

مجك: لفظك. القصيدة فيها تكرار يليق بالموقف.. فالرجل في موقف تخويف وتفظيع وإرهاب وتحذير وحسرة قابضة للقلب.. وهو يترنم بهذه الألفاظ مثلما تترنم الثكلى بلحن سريع فيه فرح وهي تندب، والنادبات قد يقلن كلاماً ككلام أبي العتاهية يصفن فيه الميت.. سمعت نائحة تنوح على ميت كان في الصباح قد طلب مبراة يبري بها قلماً.. ثم مات.. فقعدت النائحة تقول كلاماً سخيفاً عن المبراة والقلم في لحن سريع فرح.. وظننت هذا مما لا يجوز إلى أن سمعت الشيخ إمام يندب غيفارا في مقطع «عيني عليه ساعة القضا من غير رفاقة تودعه» فإذا هو يصنع صنيعها في لحنه

٧٧ يوميات زاهد

رغيفُ خبزٍ يابسٍ ... تأكُلُهُ في زَاوِيَةْ
وكوزُ ماءٍ باردٍ ... تَشْربُهُ مِنْ صَافِيَةْ
وغُرفَةٌ ضَيِّقَةٌ ... نَفْسُكَ فيها خَالِيَةْ
أو مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ ... عن الوَرَى في نَاحِيَةْ
تَدْرُسُ فيه دَفتراً ... مُسْتَنِداً لِسَارِيَةْ
مُعْتَبِراً بِما مَضَى ... مِنَ القُرونِ الخَالِيَةْ
خيرٌ مِنَ الساعاتِ في ... فَيْءِ القصورِ العَالِيَةْ
فاسمَعْ لِنُصْحِ مُشْفِقٍ ... يُدعَى أَبا العَتَاهِيَةْ

٧٨ أرجوزة «ذات الأمثال»

الحمدُ للَّهِ على تقديرِهِ ... وحُسْنِ ما صرَّفَ مِنْ أُمورِهِ
الحمدُ للهِ بحسنِ صُنْعِهِ ... شكراً على إعطائِهِ ومنعِهِ
حسبُكَ مِمَّا تبتغيهِ القوتُ ... ما أكثرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
إن كان لا يُغْنِيكَ ما يَكفيكَا ... فكُلُّ ما في الأرضِ لا يُغنيكا

يغنيك: يقنعك

الفقرُ فيما جاوزَ الكَفافا ... مَنْ عَرَفَ اللَّهَ رَجَا وخَافا
اللَّهُ حَسْبِي في جميعِ أَمْري ... بِهِ غَنائي وإِليْهِ فَقري
لن تُصْلِحَ الناسَ وأنتَ فاسِدُ ... هَيْهَاتَ ما أبعَدَ ما تُكابِدُ
لكلِّ ما يُؤْذي وإن قَلَّ أَلَمْ ... ما أطوَلَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ
مَنْ جعلَ النمَّامَ عيناً هَلَكا ... مُبْلِغُكَ الشرَّ كَباغيهِ لَكَا
المَكْرُ والخِبُّ أَداةُ الغَادِرِ ... والكَذِبُ المَحْضُ سِلاحُ الفَاجِرِ
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ أُموري كُلَّها ... إن لم يكُنْ ربِّي لها فَمَنْ لَها؟
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتُهُ بَقاؤُهُ ... نَغَّصَ عَيْشاً طَيِّباً فَنَاؤُهُ
إِنَّ الشبابَ والفَراغَ والجِدَةْ ... مَفسَدَةٌ لِلمَرءِ أَيُّ مَفْسَدَةْ

الجدة: الغنى، فمن «وجد» المال فهو ذو «جدة»

يَا لِلشَّبابِ، المَرَحِ، التَّصَابي   رَوائِحُ الجنَّةِ في الشبابِ

كان الجاحظ يترنم بهذا البيت. تجسر على الشباب وعلى المرح وعلى التصابي، أي اللهو

هِيَ المَقاديرُ فَلُمْني أو فَذَرْ   إن كنتُ أَخْطَأْتُ فما أَخْطَا القَدَرْ

إن الفسادَ ضِدَّهُ الصَّلاحُ   ورُبَّ جِدٍّ جَرَّهُ المِزَاحُ

ما تَطْلُعُ الشمسُ ولا تغيبُ   إلَّا لِأَمْرٍ شأْنُهُ عجيبُ

لِكُلِّ شيءٍ مَعْدِنٌ وجَوْهَرُ   وأَوْسَطٌ وأَصغَرٌ وأَكْبَرُ

مَنْ لَكَ بِالمَحْضِ وليس مَحْضُ   يَخْبُثُ بعضٌ ويَطيبُ بَعْضُ

المحض: الصافي.. والصافي من كل شيء غير موجود، لا من بشر ولا من أشياء

إنَّكَ لو تستَنْشِقُ الشَّحِيحَا   وجَدْتَهُ أَنتَنَ شَيءٍ رِيحَا

يا عاشقَ الدنيا تَسَلَّ عنها   وَيْلي على الدنيا ووَيْلي منها

لِلْمَوْتِ بي جِدٌ وأَيُّ جِدٍّ   ولَسْتُ لِلمَوْتِ بِمُسْتَعِدِّ

أَفلَحَ مَنْ كان له تَفَكُّرُ   ما كُلُّ ذي عَيْشٍ يَرى ما يُبْصِرُ

ذي عيش: إنسان

ما انتَفَعَ المرءُ بِمثلِ عقلِهِ   وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فعلِهِ

نَطْلُبُ أن نَبْقَى وليس نَبْقَى   كلٌّ سَيَلْقَى اللَّهَ حَقَّاً حَقَّا

لا تَبْغِ ما يُجْزِيكَ منهُ دُونَهُ   وإنْ رَأَيْتَ الناسَ يَطْلُبُونَهُ

يجزيك: أي يجزئك أي يعوّضك. والمعنى: لا تطلب شيئاً يعوضك عنه شيء أقل منه، واكتف بالموجود ما دام يسد الحاجة

ما زالتِ الدنيا لنا دارَ أَذَى   مَمْزُوجَةَ الصَّفْوِ بِأَلوانِ القَذَى

لِيَسْلَمِ الناسُ جميعاً مِنْكَا   وارْضَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرضَى عَنْكَا

يا رَبِّ أَسْعِدني بِمَا عَلَّمْتَني   ولا تُهِنِّي بعدَ إذْ أَكْرَمْتَني

قَدِّمْ لِمَا بين يَديْكَ قَدِّمِ   أُفٍّ وتُفٌّ لِعَبيدِ الدِّرْهَمِ

لا سَعَةٌ أَوْسَعُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقْ   مَنِ اعتَدَى تاهَ ومَنْ تاهَ حَمُقْ

أَسْلَمَ مَقْبُوراً مُشَيِّعُوهُ   إنْصَرَفُوا عنه وخَلَّفُوهُ

ساعَةَ سَوَّوْا تُرْبَهُ علَيْهِ   وَلَّوْا ولم يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ

خَلا أَخٌ عنكَ فَلا تُخَلِّهْ   مَنْ لَكَ يَوماً بِأَخيكَ كُلِّهْ

* * * تكملة الديوان/غير الزهد/ولا يخلو المقبل من زهد وأكفان.. هذا أبو العتاهية * * *

٧٩ استراق البكاء

مَـنْ لـم يَـذُقْ حُـرَقَ الـهـوى ... لـم يَـدْرِ مـا جَـهْـدُ الـبَـلاءِ
كـم مِـنْ صـديـقٍ لـي أسـا ... رِقُـهُ الـبُـكـاءَ مِـنَ الـحَـيـاءِ
فـإذا تَـفَـطَّـنَ لامَـنـي ... فـأقـولُ مـا بِـيَ مِـنْ بُـكـاءِ
لـكـنْ ذَهـبْـتُ لأَرْتـدي ... فَـطَـرَفْـتُ عـيـنِـيَ بِـالـرِّدَاءِ
حـتـى أُشَـكِّـكَـهُ فَـيَـسْـ ... ـكُـتَ عـن مَـلامـيَ والـمِـراءِ

المراء: المجادلة

٨٠ قطع السحاب

يمدح الرشيد وقد فتح هرقلة:

أَلَا نـادَتْ هِـرَقْـلَـةُ بِـالـخَـرابِ ... مِـنَ الـمَـلِـكِ الـمُـوَفَّـقِ لـلـصَّـوابِ

هرقلة: مدينة في بلاد الروم غزاها الرشيد وخربها بعد قصته مع نقفور قائد الروم

غـدا هـارونُ يُـرْعِـدُ بِـالـمَـنـايـا ... ويُـبْـرِقُ بِـالـمُـذَكَّـرَةِ الـقِـضَـابِ

المذكرة القضاب: السيوف

ورَايـاتٍ يَـحِـلُّ الـنَّـصْـرُ فـيـهـا ... تَـمُـرُّ كـأنَّـهـا قِـطَـعُ الـسَّـحـابِ
أمـيرَ الـمُـؤمـنـيـنَ ظَـفِـرْتَ فـاسْـلَـمْ ... وأَبْـشِـرْ بِـالـغـنـيـمـةِ والإِيـابِ

٨١ تستعطف قاتل ابنها

قال على لسان زبيدة يخاطب المأمون، وكان المأمون قتل الخليفة محمد الأمين أخاه لأبيه وابن زبيدة:

أَصابَتْ بِرَيْبِ الدهرِ مِنِّي يَدي يَدي ... فَسَلَّمْتُ لِلأقدارِ، واللّهَ أَحْمَدُ
وقُلْتُ لِريبِ الدهرِ إن هَلَكَتْ يَدٌ ... فقد بَقِيَتْ والحمدُ للهِ لي يَدُ

إذا بَقِيَ المأمونُ لي فالرَّشيدُ لي   ولي جَعْفَرٌ لم يُفْقَدا، ومُحَمَّدُ

بقاؤك أيها المأمون يجعلني أشعر أن أباك الرشيد بقي لي وبقي لي جعفر أبي ومحمد ابني. كذا نساء القصور اللائي عرفن طعم السلطان. . هذه سيدة هاشمية جليلة، أبوها جعفر بن المنصور وزوجها هارون الرشيد وابنها محمد الأمين الخليفة الذي قتله أخوه المأمون. وبعد مقتل ابنها وجدت جفاء من الخليفة الجديد ـ ابن ضرتها المأمون ـ فبعثت إلى أبي العتاهية أن يرقق قلبه بشعر، فكانت هذه القصيدة. وسمعها المأمون فدخل على زبيدة وقبل رأسها وعطف عليها

٨٢ استعطاف السجين

يا رَشيدَ الأَمْرِ أَرْشِدْني إلى   وَجْهِ نُجْحي لا عَدِمْتَ الرَّشَدا

أيها الخليفة الرشيد، الذي أموره رشيدة، أرشدني إلى وجه نجحي، طريق خلاصي

لا أَرَاكَ اللَّهُ سُوءاً أَبداً   ما رَأَتْ مِثْلَكَ عينٌ أَحَدَا

وابَلائي مِنْ دَعَاوَى أَمَلٍ   كُلَّما قلتُ تَدانَى بَعُدا

يا للبلاء من أمل يدعوني إليه فأقول قد دنا الإفراج، ثم يبتعد الأمل ويطول سجني

كَمْ أُمَنَّى بِغَدٍ بَعْدَ غَدٍ   يَنفَدُ العمرُ ولم أَلْقَ غَدا

٨٣ ولاة العهد

قال حين عقد الرشيد لأولاده الأمين والمأمون والمؤتمن ولاية العهد:

تَجافَى عن الدنيا وأَيقنَ أنها   مُفارَقةٌ ليستْ بِدارِ خُلودِ

ابتعد الرشيد عن الدنيا لأنه أيقن أنها مفارِقَة، سيفارقها المرء

وشَدَّ عُرى الإِسلامِ منهُ بِفتيَةٍ   ثَلاثَةِ أَمْلَاكٍ وُلاةِ عُهودِ

وعين ثلاثة ولاة للعهد شد بهم عرى الإسلام، والعروة هي الأنشوطة يشدها المرء على عنق الدابة فتضيق فلا تفلت الدابة، وفي لغتنا اليوم العروة هي الفُتحة التي يدخل فيها الزر

بَنُو المُصْطَفى هَارونَ حَوْلَ سَريرِهِ   فَخَيرُ قِيامٍ حَولَهُ وقُعُودِ

تُقَلِّبُ أَلْحَاظَ المَهابَةِ بينَهُمْ   عُيونُ ظِباءٍ في قُلُوبِ أُسودِ

نظرات الهيبة تقلبها عيونهم الجميلة التي كعيون الظباء لكن ترفدها قلوب شجاعة

٨٤ رسالة السجين إلى سجانه

كتب للرشيد حين حبسه:

أنا اليوم لي والحمدُ للَّهِ أَشْهُرُ   يُراحُ عَلَيَّ الهَمُّ مِنْكُمْ ويَبْكُرُ

تَذَكَّرْ أمينَ اللَّهِ حَقِّي وحُرْمَتي   وما كنتَ تُولِيني، لَعَلَّكَ تَذْكُرُ

توليني: تعطيني

ليالِيَ تُدْني منكَ بالقُرْبِ مَجلِسي   ووَجْهُكَ مِنْ ماءِ البَشاشَةِ يَقْطُرُ

فمَنْ لِيَ بِالعينِ التي كنتَ مَرَّةً   إلَيَّ بها في سَالِفِ الدهرِ تَنْظُرُ

٨٥ تضاحك في الميدان

جَرى لَكَ مِنْ هارونَ بِالسَّعْدِ طَائِرُهْ   إمَامُ اعتِزامٍ لا تُخَافُ بَوادِرُهْ

جرى لك يا أبا العتاهية طائر السعد، رمز التفاؤل، من الخليفة هارونَ الرشيد، وهو إمام ذو عزيمة ولا يخشى المرء بوادره، أي مفاجآته غادراً

وأَوْسَطُ بَيْتٍ في قُريشٍ لَبَيْتُهُ   وأولُ عِزٍّ في قُريشٍ وآخِرُهْ

وزَحْفٍ له تَحكي البُروقَ سُيوفُه   وتَحكي الرُّعُودَ القَاصِفاتِ حَوَافِرُهْ

لمعان سيوفه كالبروق، وأصوات حوافر خيله كالرعود

إذا حَمِيَتْ شمسُ النهارِ تضاحكتْ   إلى الشمسِ فيه بَيْضُهُ ومَغَافِرُهْ

كأن البِيْض، أي الخُوَذ، والمغافر، بقايا الخوذ المنسدلة عند القذال خلف الرأس، تتبادل الضحكات مع الشمس

إذا نُكِبَ الإسلامُ يوماً بِنكبَةٍ   فَهارُونُ مِنْ بينِ البَرِيَّةِ نَاصِرُهْ

٨٦ الليل الطويل

يا رُبَّ ليلٍ طويلٍ بِتُّ أرقُبُهُ   حتى أضاءَ عمودُ الصبحِ فانفَجَرا

ما كنتُ أَحسَبُ، إلَّا مُذْ عَرفْتُكُمُ،   أنَّ المَضاجِعَ مِمَّا يُنْبِتُ الإبَرا

والليلُ أطولُ مِنْ يومِ الحِسابِ على   عينِ الشَّجِيِّ إذا ما نَومُهُ نَفَرا

٨٧ الجنة الأرضية

لَهَفي على الزمنِ القصيرِ   بينَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ

إذ نحنُ في غُرَفِ الجنا   نِ نَعومُ في بحرِ السُّرورِ

في فِتيةٍ مَلَكُوا عِنا   نَ الدَّهرِ، أمثَالِ الصُّقُورِ

يَتَعاوَرُونَ مُدامَةً   صَهباءَ مِنْ حَلَبِ العصيرِ

يتعاورون: يتبادلون

عــــذراءَ رَبَّـــاهـــا شُـــعـــا ... عُ الـشـمـسِ فـي حَـرِّ الـهَـجـيـرِ
لـــم تُـــدْنَ مِـــنْ نـــارٍ ولـــم ... يَـعْـلَـقْ بـهـا وَضَـرُ الـقُـدورِ

لم يطبخ عنب تلك الخمر، ولم يقترب من وضر، وسخ، القدور

ومُـقَـرْطَـقٍ يَـمـشـي أمـا ... مَ الـقـومِ كـالـرَّشَـأِ الـغَـريـرِ

رب فتى يلبس قرطقاً، قميصاً أبيض، كأنه الرشأ الغرير، الظبي الصغير البريء، وهو يمشي بـ..

بِـزُجَـاجَـةٍ تَـسـتَـخْـرِجُ الـسِّـ ... ـرَّ الـدفـيـنَ مِـنَ الـضـمـيـرِ

يمشي بزجاجة، أي بكأس، خمر تجعل الشارب يبوح بسره

ومُـخَـصَّـراتٍ زُرْنَـنـا ... بـعـد الـهُـدُوِّ مِـنَ الـخُـدورِ

مخصرات: ذوات خصور نحيلة، وجئن بعد الهدو، العَتَمة، من خدورهن، من وراء ستورهن

رَيَّـا رَوادِفُـهُـنَّ يَـلْـ ... ـبَسْـنَ الـخَـواتِـمَ فـي الـخُـصُـورِ

الأرداف ريا كبيرة، والخصور نحيلة حتى ليكدن يلبسن فيها الخواتم

مُـتَـنَـعِّـمـاتٍ فـي الـنـعـيـ ... ـمِ مُـضَـمَّـخَـاتٍ بِـالـعَـبـيـرِ
مـا إنْ يَـرَيْـنَ الـشـمـسَ إلَّا ... الـفَـرْطَ مِـنْ خَـلَـلِ الـسُّـتـورِ

لا يرين الشمس إلا الفرط، قليلاً، من الشقوق بين الستور

٨٨ اهتزازها من تحت الثياب

إذا مـا بَـدَتْ والـبـدرَ لَـيـلـةَ تِـمِّـه ... رأيتَ لـهـا فضلاً مُبِيناً على البدرِ

إذا ظهرت المحبوبة «عُتبة» مع البدر أدركتَ أنها أجمل منه

وتـهـتزُّ مِنْ تـحـتِ الـثـيـابِ كـأنـهـا ... قضيبٌ مِنَ الريْحانِ في وَرَقٍ خُضْرِ
أبَـى الـلّـهُ إلَّا أن أمـوتَ صَـبـابَـةً ... بِـسـاحِـرةِ الـعـيْـنـيـنِ طَـيِّـبَـةِ الـنَّـشْـرِ

النشر: الرائحة

٨٩ فتنفست

قـال لـي أحـمـدٌ ولـم يَـدْرِ مـا بـي ... أتُـحِـبُّ الـغَـداةَ عُـتْـبَـةَ حـقَّـا
فـتـنـفَّـسْـتُ ثـم قـلـتُ نـعـمْ حُـبَّـ ... ـاً جرى في الـعُروقِ عِرْقاً فَـعِرْقا
قـد لَـعَـمْـرِي مَـلَّ الطبيبُ ومَلَّ الـ ... ـأهـلُ مِـنِّـي مِـمَّـا أُقَـاسِـي وأَلْـقَـى

لـيـتَـنـي مُـتُّ فـاسـتَـرَحْـتُ فـإنِّـي   أبـداً مـا حـيـيـتُ مـنـهـا مُـلَـقَّـى

ملقى: مصاب بالشرور

٩٠ الشوق إلى قعيدة بيتي

حبسه الرشيد واشترط عليه أن يقول في الغزل حتى يطلقه، وأصر أبو العتاهية ألا يفعل، ثم تغزل بزوجته حتى ينال حريته:

مَـنْ لِـقـلْـبٍ مُـتَـيَّـمٍ مُـشـتـاقِ   شَـفَّـهُ شَـوْقُـهُ وطـولُ الـفِـراقِ

طـالَ شَـوقـي إلـى قَـعـيـدَةِ بَـيْـتـي   لـيـتَ شِـعْـري فـهـلْ لَـنـا مِـنْ تَـلاقِ

هِـيَ حَـظِّـي قـد اقـتَـصَـرْتُ عـلـيْـهـا   مِـنْ ذَواتِ الـعُـقـودِ والأطـواقِ

الطوق: العقد الضيق، كطوق الحمامة. وفي زمننا أطلقوه على قوس يحبس الشعر فوق رأس الفتاة

جَـمَـعَ الـلَّـهُ عَـاجِـلاً بِـكِ شَـمْـلـي   عـن قـريـبٍ وفَـكَّـنـي مِـنْ وِثـاقـي

٩١ خبز بلا إدام

قال يذم السحاقيات:

ألا يا ذَوَاتِ السَّحْقِ في الغربِ والشرقِ   أَفِقْنَ فإنَّ النَّيْكَ أَشْفَى مِنَ السَّحْقِ

ذاك الشيء المكتوب مصحفاً أشفى، أكثر إرواء، مما أنتن فيه

أَفِقْنَ فـإن الـخُـبْـزَ بِـالأُدْمِ يُـشْـتَـهَـى   وليس يَسُوغُ الخبزُ بالخبزِ في الحَلْقِ

الأدم: الإدام

أراكُـنَّ تَـرقَـعْـنَ الـخُـروقَ بِـمـثْـلِـهـا   وأيُّ لَـبـيـبٍ يَـرقَـعُ الـخَـرْقَ بِـالـخَـرْقِ

وهـلْ يَـصْـلُـحُ الـمِـهْـراسُ إلَّا بِـعُـودِهِ   إذا احـتِـيـجَ مـنـه ذاتَ يـومٍ إلـى الـدَّقِّ

المهراس: الهاون الذي فيه تدق الأبزار والبن

٩٢ شكوى المطايا

يمدح عمر بن العلاء، من قادة المهدي:

إنِّـي أَمِـنْـتُ مِـنَ الـزمـانِ ورَيْـبِـهِ   لـمـا عَـلِـقْـتُ مِـنْ الأمـيـرِ حِـبـالا

لـو يـسـتـطـيـعُ الـنـاسُ مِـنْ إجْـلالِـهِ   لَـحَـذَوْا لـه حُـرَّ الـوُجـوهِ نِـعـالا

لشدة تعظيمهم له لا يمانعون أن يحذوا، أي يقصوا، حر وجوههم، أي أواسطها، نعالاً له

ما كان هذا الجودُ حتى كنتَ يا عـمـرٌ، ولـو يَـومـاً تَـزُولُ لَـزَالا

إن الـمَـطـايـا تَـشْـتَـكـيِـكَ لأَنَّـهـا قَـطَـعَـتْ إلـيـكَ سَـبـاسِـبَـاً ورِمـالا

قطعت الإبل السباسب، الصحارى، كي نلقاك أيها الممدوح

فـإذا أَتَـيْـنَ بِـنـا أَتَـيْـنَ مُـخِـفَّـةً وإذا رجـعـنَ بِـنـا رجـعـنَ ثِـقـالا

تأتي بنا الإبل خفيفة وتعود ثقيلة بما حملنا عليها من عطاياك

٩٣ ما تصنع بالسيف؟

يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

لـقـد بُـلِّـغْـتُ مـا قَـالا فـمـا بـالَـيْـتُ مـا قَـالا

فَـصُـغْ مـا كـنـتَ حَـلَّـيْـتَ بـه سَـيْـفَـكَ خَـلْـخَـالا

فـمـا تَـصْـنَـعُ بِـالـسَّـيْـفِ إذا لـم تَـكُ قَـتَّـالا

٩٤ أتته الخلافة منقادة

يمدح المهدي:

ألا مـا لِـسـيِّـدَتـي مَـا لَـهـا أَدَلَّا؟ فـأَحْـمِـلُ إدْلالَـهـا

ما للمحبوبة؟ أهو الدلال الذي يجعلها تصد عنا؟ فهذا نتحمله بسرور

وإلَّا فَـفـيـمَ تَـجـنَّـتْ، ومـا جَـنَـيْـتُ، سَـقَـى الـلَّـهُ أطـلالَـهـا

فإن لم يكن مجرد دلال فلماذا تتجنَّى عليَّ؟ وماذا جنيت أنا، ويدعو لبيوتها بالسقيا

أَلا إنَّ جَـارِيَـةً لِـلإمـا مِ قد أُسْكِـنَ الـحُـسْـنُ سِـربَـالَـهـا

يتغزل بعتبة وهي جارية من جواري الإمام، أي المهدي، وكان المهدي حاول تزويجها من أبي العتاهية فرفضت الجارية بشدة، يقول: الجمال سكن في سربالها، أي ثوبها

مَـشَـتْ بـيـن حُـورٍ قِـصَـارِ الـخُـطـا تُـجـاذِبُ فـي الـمَـشْـيِ أَكْـفَـالَـهـا

مشت بين صويحباتها اللائي يمشين ببطء بخطا قصيرة، وهي تجذ.ب أكفالها يميناً وشمالاً

وقـد أَتْـعَـبَ الـلَّـهُ نَـفْـسـي بِـهـا وأَتْـعَـبَ بِـالـلَّـوْمِ عُـذَّالَـهـا

كـأنَّ بِـعَـيْـنـيَّ فـي حَـيْـثُـمـا سَـلَـكْـتُ مِـنَ الأرضِ تِـمـثـالَـهـا

أَتَـتْـهُ الـخِـلافَـةُ مُـنـقَـادَةً إلَـيْـهِ تُـجَـرِّرُ أَذْيَـالَـهـا

يمدح المهدي:

ولـم تَـكُ تَـصْـلُـحُ إلَّا لـهُ ولـم يَـكُ يَـصْـلُـحُ إلَّا لَـهـا

ولـــو رَامَــهـــا أحـــدٌ غَــيْـــرَه   لَــزُلْــزِلَــتِ الأرضُ زِلــزَالَـــهـــا
ولـو لـم تُطِعْـهُ بـنـاتُ الـقُـلـوبِ   لَـــمـــا قَـبِـلَ الـلَّــهُ أَعْـمَـالَـهـا
وإنَّ الـخـلـيـفـةَ مِـنْ بُـغْـضِ «لا»   إلـيـه لَـيُـبْـغِـضُ مَـنْ قَـالَـهـا

واستحسن بشار أبيات المديح في هذه القصيدة التي هي من أشهر قصائد أبي العتاهية

٩٥ أخت بني شيبان

قال يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

سُبحانَ مَنْ خَصَّ ابنَ مَعْنٍ بِما   أرى بِـهِ مِـنْ قِـلَّـةِ الـعَـقْـلِ
قـال ابـنُ مَـعْـنٍ وجَـلا نـفْـسَـه   عـلـى الـقَـرابـاتِ مـن الأَهـلِ

يشبهه بالمرأة التي تجلو نفسها، أي تظهر نفسها بكل زينتها، على صويحباتها مدلةً بجمالها

أَنـا فَـتـاةُ الـحَـيِّ مِـنْ وَائِـلٍ   فـي الـشَّـرَفِ الـشَّـامِخِ والـنُّـبْـلِ

تفتخر بأنها من خير فرع في قبيلة وائل

ما في بَنِي شَيْبَانَ أَهْلِ الحِجَا   جَـارِيـةٌ واحِـدَةٌ مِـثْـلـي

وقبيلة شيبان من وائل، أهل الحجا: أهل العقل

يـا لَـيْـتَـنـي أبـصـرتُ دَلَّالَـةً   تَـدُلُّـنـي الـيـومَ عـلـى فَـحْـلِ
ويْـلـي ويـا لَـهْـفـي عـلـى أَمْـرَدٍ   يُـلْـصِـقُ مِـنِّـي الـقُـرْطَ بِـالـحِـجْـلِ

الأمرد: الشاب لم تنبت بعد لحيته، تريده أن يلصق قرطها، حَلَق أذنها، بحجلها، بخلخالها

صَـافَـحْـتُـهُ يـومـاً عـلـى خَـلْـوَةٍ   فـقـال دَعْ كَـفِّـي وخُـذْ رِجْـلـي

يقول أبو العتاهية إنه صافح عبد الله هذا في خلوة، وهما وحدهما، فأراد منه عبد الله أن يترك كفه ويأخذ برجله

أُخْـتُ بَـنِـي شَـيْـبـانَ مَـرَّتْ بِـنَـا   مَـمْـشُـوطَـةً كُـوراً عـلـى بَـغْـلِ

يعود إلى تشبيهه بالفتاة التي مرت راكبة بغلاً، والكور مما يوضع فوق ظهر الدابة

تُـكْـنَـى أبـا الـفـضـلِ ويـا مَـنْ رَأَى   جَـارِيَـةً تُـكْـنَـى أبـا الـفَـضْـلِ
قـد نَـقَّـطَـتْ فـي وَجْـهِـهـا نُـقْـطَـةً   مَـخـافَـةَ الـعـيـنِ مِـنَ الـكُـحْـلِ
إن زُرْتُـمـوهـا قـال حُـجَّـابُـهـا   نـحـنُ مِـنَ الـزُّوَّارِ فـي شُـغْـلِ
مـولاتُـنـا مَـشْـغُـولَـةٌ عـنـدَهـا   بَـعْـلٌ ولا إِذْنَ عـلـى الـبَـعْـلِ

يا بِنتَ مَعْنِ الخيرِ لا تَجْهَلي   وأيــن إِقْـصــارٌ عــن الـجَـهْـلِ

لا تكوني متهورة حانقة، وإن كان الإقصار والكَفُّ عن الجهل بعيداً منك

أَتَـجْـلِـدُ الـنـاسَ وأنــتَ امْـرُؤٌ   تُـجْـلَـدُ في الـدُّبْـرِ وفـي الـقُـبْـلِ

يعود إلى مخاطبته بضمير المذكر: كيف تجلد الناس، ويبدو أن الرجل أمر بجلد أبي العتاهية، وأنت تتلقى الجلد هنا وهنا!

مـا يـنـبـغـي لِـلـنـاسِ أن يَـنْـسِـبُـوا   مَـنْ كـان ذا جـودٍ إلـى الـبـخـلِ

لا ينبغي اتهامك بالبخل..

يـبـذُلُ مـا يَـمـنَـعُ أهـلُ الـنَّـدَى   هـذا لَـعَـمـري مُـنْـتَـهـى الـبَـذْلِ

فأنت تسخو بما يمنعه أهل الندى والسخاء.. أنت تبذل الفاحشة..

مـا قـلـتُ هـذا فـيـكَ إلّا وقـد   جَـفَّـتْ بِـهِ الأَقْـلامُ مِـنْ قَـبْـلـي

٩٦ يلحس بصقته

قال في صلحه مع عبد الله بن معن بن زائدة، وكان عبد الله جاء بأبي العتاهية وأمر غلمانه ففعلوا به الفاحشة لأنه هجاه، ثم قال له هل لك في عشرة آلاف درهم ويكون الصلح أم تقيم على الحرب؟ فاختار العتاهي الصلح، فقال له عبد الله: أسمعني ما تقول في الصلح، فقال:

عَـذَلـونـي فـي اغْـتِـفـاري   لابـنِ مَـعـنٍ واحـتِـمـالـي
كـلُّ مـا قـد كـان مـنـهُ   فَـلِـقُـبْـحِ مِـنْ خِـلالـي

خلالي: صفاتي

إنَّـمـا كـانَـتْ يَـمـيـنـي   صَـرَمَـتْ جَـهـلاً شِـمـالـي

صرمت: قاطعت وهجرت

قُـلْ لِـمَـنْ يَـعـجَـبُ مِـنْ حُـسْـ   ـنِ رُجُـوعـي وانـتِـقـالـي
قـد رأيْـنـا ذا كـثـيـراً   جـارِيـاً بـيـن الـرجـالِ
رُبَّ وَصْـلٍ بـعـدَ صَـدٍّ   وقِـلَـىً بَـعـدَ وِصَـالِ

القلى: الهجر

٩٧ أفول الأصمعي

أَسِفْتُ لِفقْدِ الأَصمَعِيِّ، لقد مَضَى   حميداً، لهُ في كلِّ صَالِحَةٍ سَهْمُ
تَقَضَّتْ بَشاشاتُ المَجالِسِ بعدَهُ   وودَّعَنا، إذْ وَدَّعَ، الأُنْسُ والعلمُ

ودَّعَنا الأنسُ والعلم إذ ودَّعَنا الأصمعي

وقد كان نجمَ العِلمِ فينا حيَاتَهُ   فلمَّا انقضَتْ أيامُهُ أَفَلَ النَّجْمُ

٩٨ حجبوها عن الرياح

حجَبُوها عنِ الرياحِ لِأنِّي   قلتُ يا ريحُ بَلِّغيها السَّلاما
لو رَضُوا بِالحِجابِ هَانَ، ولكنْ   مَنَعُوها يومَ الرَّحيلِ الكَلاما

وزاد ماني الموسوس:

فتَنَفَّسْتُ ثم قلتُ لِطَيْفي   وَيْلَكَ لو زُرْتَ طَيْفَها إلْمَاما
حَيِّها بِالسَّلامِ سِرّاً، وإلَّا   مَنَعُوها لِشِقْوَتي أن تَناما

أبيات يغنى بها في زمننا

٩٩ أنت أكبر همي

قُلْ لِمَنْ لَسْتُ أَسَمِّي   بِأَبِي أنتَ وأُمِّي
بِأَبِي أنتَ لقد أصـ   ـبحتَ مِنْ أكبرِ هَمِّي
مَنْ يَكُنْ يَجْهَلُ ما ألـ   ـقَى فإنَّ الحبَّ سُقْمي
إن رُوحِي لَبِبَغْدَا   دَ وبِالكُوفَةِ جِسْمي

١٠٠ غدر الزمان وأهله

أَجَفَوْتَني فيمَنْ جَفاني   وجعلتَ شَأنَكَ غيرَ شَاني
ولَطالَما أَمَّنْتَني   مِمَّا أرى كُلَّ الأَمانِ

أمنتني الأمان كله مما أرى من مصائب

حتى إذا انقَلَبَ الزما   نُ عَلَيَّ صِرْتَ مَعَ الزمانِ

١٠١ الشجيّ والخليّ

أخِلّايَ بي شَجْوٌ وليس بِكُمْ شَجْوُ ... وكلُّ امْرِئٍ عن شَجْوِ صَاحِبِهِ خِلْوُ
وما مِنْ محبٍّ نالَ مِمَّنْ يحبُّهُ ... هَوىً صادقاً إلَّا سَيَدْخُلُهُ زَهْوُ

المرأة إذا أوقعت الرجل في حبها تزهو وتفتخر وتصدّ

وعُلِّقْتُ مَنْ يزهُو عَلَيَّ تَجَبُّراً ... وإنِّي على كلِّ الخِصَالِ له كُفْوُ
رأيتُ الهوى جَمْرَ الغَضَا غيرَ أنَّهُ ... على كل حالٍ عند صاحِبِهِ حُلْوُ

١٠٢ الانتصار على نقفور

يمدح الرشيد بعد أن أخضع نقفور:

لك اسْمانِ شُقَّا مِنْ رَشَادٍ ومِنْ هُدَىً ... فأنتَ الذي تُدْعَى رَشِيدَاً ومَهْدِيَّا
قضَى اللَّهُ أَنْ يبقَى لِهَارونَ مُلْكُهُ ... وكان قضاءُ اللَّهِ في الخلقِ مَقْضِيَّا
تَحَلَّبَتِ الدنيا لِهارونَ بِالرِّضَا ... وأصبحَ نِقْفُورٌ لِهارونَ ذِمِّيَّا

تحلبت: سالت، ذمياً: أي تابعاً يدفع الجزية

١٠٣ مدح الأمين

قال حين جلس الأمين في الخلافة:

يا ابنَ عَمِّ النبيِّ خيرِ البَرِيَّهْ ... إنَّما أنتَ رحْمَةٌ للرَّعِيَّهْ
يا إمامَ الهُدى الأَمينُ المصفَّى ... يا لُبابَ الخِلافةِ الهَاشِمِيَّهْ
لكَ نفسٌ أَمَّارَةٌ لَكَ بِالخيـ ... ـرِ وكفٌّ بِالمَكْرُماتِ نَدِيَّهْ

١٠٤ أصدقاء وقت الرخاء

أرى قوماً وجوهُهُمُ حِسَانٌ ... إذا كانت حوائِجُهُمْ إليْنا
وإن كانتْ حوائجُنا إليْهِمْ ... يُقَبِّحْ حُسْنُ أَوْجُهِهِمْ علَيْنا
فإن مَنَعَ الأَشِحَّةُ ما لَدَيْهِمْ ... فإنَّا سوف نَمنحُ ما لدَيْنا

١٠٥ الواعظ والمتعظ

أَلَا مَنْ لي بِأُنْسِكَ يا أُخَيَّا ... ومَنْ لِي أن أَبُثَّكَ ما لَدَيَّا

طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نَشْرٍ كذاكَ خطوبُه نَشْراً وطَيَّا

فلو نَشَرَتْ قُواكَ لِيَ المَنايا شكوْتُ إليكَ ما صَنَعَتْ إلَيَّا

بكيتُكَ يا عليُّ بدمعِ عيني فمَا أغنى البكاءُ عليكَ شَيَّا

كفَى حُزْناً بِدفنِكَ، ثم إنِّي نَفَضْتُ تُرابَ قبرِكَ مِنْ يَدَيَّا

وكانتْ في حياتِكَ لي عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أَوْعَظُ منكَ حَيَّا

فهرس القوافي
(القافية فرقم القطعة)

العباس بن الأحنف
(١٣٣هـ ـ ١٩٢هـ)

يقول ريجيس بلاشير في تصديره لديوان العباس بن الأحنف، مخاطباً تلميذته محققة الديوان عاتكة الخزرجي: «لعل العباس لم يحيَ في مغامراته التي أنشدها في شعره، ومن المحقق أنه لم تكن لتلك المغامرات ما رسمه من صور، ولكنه تخيلها في ألوان رقيقة مثلتْها له أشواقه العُلوية، فلما استحالت شعراً أصبحت حقيقة، ولذا فقد حافظ شعره على ميزة نادرة، وهي قدرته على أن يثير أصداء حية في وجداننا العصري، وهو بالغ ذلك دون عناء، على جَناح لغة سلسة لا تكلف فيها.. هو صوت يتردد بنبرات صافية لا ثقل فيها ولا فضول». اهـ

ونحن نوافق على حكم بلاشير على شعر العباس بن الأحنف، فإن كنت قرأت لنا نقداً لحكم هذا المستشرق عينه على شعر المتنبي فذلك لأن بين شعر المتنبي وشعر العباس بَوْناً. فبلاشير الفرنسي المتأدب بآداب العربية منذ يفاعته، يفهم العربية ويحسنها، وقد تربى تربية فرنسية فهو يفهم المشاعر الرقيقة التي يشترك فيها كل البشر الموجودة في شعر العباس، ولكننا لم نأمنه على شعر المتنبي الذي هدم اللغة العربية ثم بناها بناء جديداً، والذي عبر عن مشاعر تختلط فيها حرية البداوة بثقافة عريضة وفرها له عصره. باختصار وحتى لا يقعد كلامي على قلبك: المتنبي شيء آخر.

فأما العباس بن الأحنف فشاعر رقيق وشخص رقيق. ولئن تقدم العباسُ المتنبي بمئة وخمسين سنة فإن لغته كانت أسهل من لغة المتنبي، بل هي كانت أسهل بسبب ذلك التقدم. فما وصلت اللغة العربية إلى زمن المتنبي في النصف الأول من القرن الهجري الرابع حتى كانت قد تضمخت بالثقافة والسياسة

والحضارة. فأما شاعرنا العباس فقد عاش في الزمن الأول من أزمنة التأليف، ومات ولما يكتب الجاحظ كتابيه الكبيرين «الحيوان» و«البيان والتبيين».

جولة في الإنترنت

قد جُلت جولة في الإنترنت فرأيت ما فيه عن العباس بن الأحنف من نُقولٍ عن الأغاني والديوان. ولم أجد سوى قلة ممن تنبهوا إلى النسخة المحققة المتينة من الديوان. جلت هذه الجولة حتى أضمن أن أقدم لك في هذه المقدمة شيئاً مختلفاً. وكنت قبلئذ وعيت ما قالته الكتب القديمة عن العباس، وهو قليل. وقرأت ما كتبه بلاشير في «موسوعة الإسلام» المستشرقية عن شاعرنا. ويبقى تحقيق عاتكة الخزرجي للديوان (صدر بمصر ١٩٥٤) أهم المراجع. نضيف إليه الصفحات العشرين التي في الأغاني. وما سوى ذلك مما في كتب الأدب القديم فالنتفة بعد النتفة، والاقتباسات الكثيرة من شعره، هنا بيتان وهناك ثلاثة، وهلم جرّا. وفي ذلك نفع لنا عظيم. فنحن من خلال هذه المقتبسات نرى القدماء يعرضون علينا أذواقهم، ونتفاعل معهم ويتعمق شعورنا بروعة البيت الفلاني، أو ننفر من البيت الفلاني لأنهم ما أكثروا اجتراره إلا لنكتة بلاغية سطحية. ولا يندر أن يلفتنا القدماء إلى بيت لم نكن نتذوق فيه شيئاً حلواً، فنتأثر بهم ونعثر على ذلك الشيء الحلو، وهماً منَّا، أو لمعنىً خفيٍّ في ذلك البيت كان فاتنا التنبُّه إليه.

ونحن هنا في شرحنا لما اخترناه من أبيات لا نقول لك تحت كل بيت إن هذا مما استحسنه فلان، ولا نقص عليك تلك الحكايات التي ألصقها القدماء بأبيات بعينها، فاستيفاء ذلك يقتضي منا بحثاً أطول مما نريد، كما يقتضي الخوض في شتى الروايات، فلكل قصة ولكل أسطورة روايات. ونحن ندرك أن مما يزيد متعة المتأدبين أن يعرفوا رأي الأصمعي وابن المعتز وأبي نواس في هذا البيت أو ذاك، وفي هذه القصيدة أو تلك. لم نورد من ذلك إلا القليل. مجالنا مجال شعر لا مجال نوادر. وكتبنا الأدبية القديمة عامرة بالنوادر، فقد كانت في معظمها كتب «محاضرة». وضعها واضعوها كي يزودوا الناس بمادة «يحضرون» بها المجالس ويروحون بها عن الأمراء والكبراء. عليك بالأغاني والشعر والشعراء والموشح والكامل والإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد، فهناك النوادر.

حياة العباس بن الأحنف

كان عم أبيه «حاجب بن قدامة»، وأبوه «الأحنف بن الأسود بن قدامة» من صغار المتصرفين التابعين للأمير العجوز نصر بن سيار الوالي الأموي في خراسان. والعائلة من بني حنيفة، فهم مثل الوالي الأموي عرب أقحاح، وكانت خراسان في دولة بني أمية محكومة بالعرب كما هو الحال في معظم مناطق الدولة الأموية. وأصبح هؤلاء العرب يديرون البلاد الشاسعة بصعوبة مع بروز العناصر الوطنية واكتسابها اللغة العربية ودخولها في الجيوش. على أن المنافس الحقيقي للوالي الأموي كان عربياً أيضاً.. كان هذا المنافس الدعوة العلوية التي لا تفتأ تبرز بين الحين والحين على شكل خروج على السلطان يقوده أحد العلويين. ثم اشتدت الدعوة العباسية، وتحالف العباسيون والعلويون، أو قل إن العباسيين تولوا عن العلويين أمر الثورة، وخرجوا على السلطان باسم العلويين، تحت راية هاشمية عريضة.

ويبدو أن حاجباً الحنفي، العمّ، انحاز إلى رجال الثورة العباسية فكان من رجال أبي مسلم الخراساني، وأبو مسلم رجل عربي الثقافة خراساني الأصل. وخراسان آنذاك تضم أفغانستان الحاضرة وجزءاً من إيران وأجزاء من الدول المجاورة. ولعل والد شاعرنا أيضاً انضم إلى الدعوة العباسية. على أنه مع انتصار هذه الدعوة في عام ١٣٢هـ تحول إلى البصرة. وفي البصرة ولد العباس سنة ١٣٣هـ.

نشأ العباس بن الأحنف في البصرة. ولم يطرأ عليه ولا على أسرته اضطراب نعرفه عندما قَتَل الخليفة المنصور أبا مسلم، وللعباس أربع سنين. فقد كانت الأسرة قد خرجت من الولاء لأبي مسلم، ودخلت في ولاء الدولة العباسية التي سرعان ما استقرت. ولعل هذه الأسرة تنفست الصعداء بمقتل باني الدولة العباسية، فما مات أبو مسلم إلا بعد أن قتل ستمئة ألف إنسان (قيل قتلهم كلهم صبراً أي إعداماً، ولا نصدق الرقم، فلنجعله ستين ألفاً، أو حتى ستة آلاف؛ هذا كثير حقاً).

لعل الأحنف والد العباس حمل ولده إلى بغداد بعيد إنشائها، فقد أتم الخليفة المنصور تشييد عاصمته الجديدة في عام ١٤٩ ونزلها مع قواده، وتأخر سكن العامة فيها بضع سنين.

كان العباس، شاعرنا، في السادسة عشرة من عمره عندما انتقلت الأسرة

إلى بغداد. وسرعان ما توفي الوالد. وبقي العباس مع أعمامه في بغداد، يتعلم كما يتعلم أبناء الطبقة الوسطى على أيدي المؤدبين، أو يحضر الدروس في المساجد. ولعله كان يساجل في الشعر بعض أنسبائه من آل الصولي الذين كان قد بدأ يعلو نجمهم في دولة الأدب ودولة السياسة.

فمن المؤكد على هذا أن إجماع المصادر على عبارة «نشأ في بغداد» ليس صحيحاً. ومن طرائف بعض «الباحثين» أنه جعل ميلاد العباس قبل بناء بغداد بخمسين سنة، ثم قال بعد سطر واحد إنه نشأ ببغداد.

غير أن العباس تعلم الشعر في البصرة بالتأكيد، فهو معاصر أبي نواس الذي تعلم الشعر بالبصرة على أيدي مجانها. فأما العباس فلم يختلط بالمجان، فيما نحسب، ولكننا على شبه يقين من أنه سمع شعرهم، وسمعوا شعره. سمع بشار شعره وقال فيه عندما سمع قصيدته «أرأيت عيناً للبكاء تعار»: «ما زال غلام بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها حتى قال هذا الشعر». وكان بشار قد ملأ البصرة شعراً.

في بغداد ـ التي تصر كل المراجع على أن العباس نشأ فيها، ولم ينشأ فيها بل دخلها يافعاً ـ كان العباس من «أولاد الذوات». كانت أسرته على صلة بدار الخلافة. ولكن العباس نشأ شاعراً، فلم تشأ له جيناته أن يصبح قائداً ولا وزيراً ولا عاملاً.

نعرف أنه اتصل بهارون الرشيد، وأن الرشيد كان يسمع أشعاره ويقدرها، غير أن الخليفة العباسي الخامس كان يفضل أبا العتاهية على العباس بن الأحنف.

للعباس بن الأحنف مواقف في مجلس الرشيد، ففي هذا المجلس كانت له مع الأصمعي مناكفة. وأحب المغنون شعر العباس حباً جماً، فكأنه شعر وضع كي يغنى فيه. لذا كان للعباس حضور مضاعف في مجالس الخليفة فهو حاضر على حناجر كبار المغنين أحياناً، وحاضر بجسمه أحياناً. واصطحبه هارون الرشيد إلى خراسان، مثلما يصطحب السلطان المرافقين الذين تسميهم الكتب «الحاشية». وعندما أراد الرشيد أن يمضي إلى أرمينية قال العباس شعراً يشكو فيه من هذه الصحبة الطويلة «قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا، ثم القفول. فقد جئنا خراسانا!» فقال له الرشيد: قد اشتقت يا عباس! وأذن له بالعودة، ومنحه ثلاثين ألف درهم.

كان العباس من حاشية هارون الرشيد الذي تولى الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة. وكان شاعر الغزل الذي لا يطلب منه مدح الخليفة. كان للرشيد شعراء كثر، ولم يكن بحاجة إلى شاعر آخر، لا يحسن المدح أصلاً.

والتقى العباس بأبي نواس الذي كان أيضاً شاعر الرشيد المدلل، وكان النواسي يتفلت من مجلس الخليفة كراهةً لما يوجبه هذا المجلس من أصول ورسميات.

عاش العباس لشعره. وقصر شعره على الغزل. لا يصدق بلاشير مغامرات العباس بن الأحنف. ونصدقها. فلا بد أن هناك تلك الفتاة التي سماها العباس فوزاً. شعره فيها صرخات عشق لا نظنها تنبعث من فراغ. نصدق أنهما تبادلا القبلات صغاراً كما صرح في قصيدة. ثم حجبوها. ثم بدأ يراسلها، ونشأ بينهما ذلك الحب الذي يمكن وصفه بأنه من طرف واحد ونصف. فهي تبادله الغرام، ولكن نصف مبادلة، والنصف الباقي تسلية. وشاعرنا.. يتقلّى.

لعل العباس بن الأحنف كان راضياً بهذه العلاقة رضى أحمد رامي بعلاقته بأم كلثوم. فقد كان بها مغرماً، ويتقلّى ويبدع القصائد، وكانت هي تنتفع بعذاباته الصغيرة. كانا يلعبان لعبة الحب اليائس، وينتجان فناً.

لعل العباس تزوج، ولعله اقتنى جارية، ولعله كان يفرغ طاقته الجنسية كيفما شاء. لكن فوزاً ظلت حبه اليائس الذي يساعده في «إنتاج» الشعر. لم يكن ذاك هيام قيس، ذلك الهيام الذي تحول إلى بقعة دم جامدة في قلب المجنون، أودت به في النهاية. ولم يكن غرام جميل بثينة الذي شرده غرامه عن وطنه، لا ولم يكن غرام عمر بن أبي ربيعة الذي هو هيام بالحسن وبالمرأة. كان شيئاً بين جميل وعمر. فصاحبنا ابن الأحنف أحب فتاة أخرى هي «ظلوم». وأغلب الظن أنه أحبها بعد أن تزوجت فوز، أو ارتحلت مع أهلها إلى الحجاز. وكان حبه لظلوم شبحاً باهتاً من حبه لفوز. وكان يجفوها مثلما تجفوه، ولعلها كانت من جواري القصور. فأما فوز فيغلب على الظن أنها كانت ابنة عائلة ترى نفسها فوق عائلة العباس، فلم يكن من سبيل إلى الزواج، ولا إلى الوصال. وفي بعض شعره ما يوحي بأن ظلوم كانت جارية لفوز، وأنها كانت المرسال بينهما، فعندما ذهبت فوز ارتضى جاريتها عشيقة.

في هذا الذي كتبناه عن حياة العباس بن الأحنف بعض الافتراضات. نحن لا نعلم يقيناً أن فوزاً تزوجت، ولا أنها ارتحلت إلى الحجاز، بعضهم ذكر

ذلك على كل حال. وحديثنا عن كونه من أولاد الذوات إنما يستند إلى علاقته بالخليفة، وإلى وصف معاصريه لأناقته وسلوكه الملوكي، وترفه، وتهذيبه البالغ.

وكل هذا الذي ذكرناه من سيرة شاعرنا قليل الأهمية. فالرجل لم يصنع التاريخ، بل صنع شعراً. لذلك فديوانه هو ما يهمنا حقاً.

هذه آهات عاشق ملوع الفؤاد، يذل لمعشوقته، ويترضاها طول الوقت، وهي عنه لاهية. وأحب الناس هذا النمط. لا نقول إن العباس بن الأحنف مؤسس هذا اللون من ألوان الغزل. فعند عمر وجميل شيء من هذا. ولكن البيئة المدينية البغدادية المترفة جعلت العباس يوصل هذا اللون إلى غايته. وسيظل الشعراء يضعون خدودهم على الأرض لكي تدوس المحبوبة عليها ألف سنة من بعد العباس بن الأحنف. سامحه الله.

ديوانه كما وصلنا متوسط الجرم، وقالوا إنه ضاع من شعره كثير. لا بأس، فما بقي هو أفضل شعره. والرجل، بعدُ، لم يكن من عبيد الشعر. كان من فئة الهواة، ونحشره مع علي بن الجهم وديك الجن من أبناء زمنه، وعمر أبو ريشة وإبراهيم طوقان من أبناء زمننا. هناك شعراء يقولون الشعر احترافاً واكتساباً كأبي تمام والبحتري والمتنبي، وهناك الهواة الذين يعيشون حياتهم مستمتعين بها ويقولون القصيدة بعد القصيدة.

مات العباس بن الأحنف عن ستين عاماً كما يموت الناس، فإن شئت الأساطير فثمة من اخترع بعضاً منها كي يجعل ميتة شاعرنا ميتة شاعرية. والخوض في هذه الأساطير ليس من شرط عملنا.

باب الوقيعة في الأكاديميين

نبدأ بحمد من يستحق الحمد. تلك عاتكة الخزرجي التي حققت ديوان العباس بن الأحنف، وأهدته «إلى أستاذنا الشيخ الجليل والعلامة الكبير المستشرق الفرنسي الشهير، ر. بلاشير». فهذه الفتاة العراقية تنال دكتوراه الدولة من السوربون عن هذا التحقيق وهي في الثلاثين من العمر. ثم تمضي لكي تكون الشاعرة المعروفة. لكنها عندما توفيت عام ١٩٩٧ عن ثلاث وسبعين سنة كانت مغمورة؛ بسبب أحداث العراق، وبسبب نازك الملائكة. فقد التزمت عاتكة الشعر العمودي، وشهدت موته على يد أبناء بلدها السياب ونازك

الملائكة والبياتي. على أن لها شعراً في حب بغداد جميلاً حقاً، وفصيحاً جداً، وذا قوافٍ بديعة، وفيه فيض حب بريء. وهي فصيحة جداً، وعربيتها مما تقرأه لكي تحس به، وتفهمه، ولكي.. تتفرج على حسنه.

ترى في تحقيقها للديوان شرحاً في غاية الإيجاز، لكنه شرح صادق. تشرح لك الكلمة الصعبة، لا كأولئك الدجالين الذين يشرحون الكلمة السهلة ويتركون الصعبة. وهي دقيقة في هوامشها وإحالاتها وفهارسها. تحقيق حقيقي.

ذهب ذلك الجيل، وجاء جيل من الأكاديميين الرقعاء، ولم نسمِّ أحداً منهم هنا. لو كنتَ زائراً قادماً من المريخ وأردت أن تزور الجامعات العربية فسوف نقول لك: تفضل إلى الصحراء. في العلوم المادية أبدع أكاديميونا في استخراج شهادات الدكترة من الجامعات العربية والأجنبية لكي يصبحوا مجرد معلمي صبيان، ولا ابتكار ولا اختراع، ولا مختبرات حقيقية ولا مشاركة في التصنيع. يعلمون طلبتهم المعادلات ويمتحنونهم، ويشهدون لهم، كي ينطلق الطلبة لتعليم تلاميذ المدارس، ولا ارتباط بين تلك العلوم وبين المصنع. ونظل نستورد كل شيء. وفي العلوم الإنسانية يلقي الأكاديميون دروسهم على الطلبة، ويكتبون لهم دوسيهات حقيرة يسمونها كتباً. وينقلون عن القدماء، أو عن الأجانب نقلاً مختلاً. ويذهب الأستاذ بعد انتهاء المحاضرات إلى منزله كي يتغدى ويتمدَّىَ. ثم لا شيء. ثم يموت. ويترك الأكاديميون تحقيق كتب التراث لصبية المطابع. وبالمناسبة فإن صبية المطابع يحملون أيضاً شهادات الدكتوراه. ما هذه المصيبة التي نحن فيها؟

هي حالة من التردي شاملة.

١ أحق من الموتى

لَعَمري لأَهلُ العشقِ فيما يُصيبُهُمْ ... أحقُّ بأنْ يُبكَى عليهِمْ مِنَ الموتى

٢ إذا خلا ببكائه

ما يصنعُ الصبُّ الحزيـ ... ـنُ جفاهُ أهلُ صفائِه

لا شيءَ إلّا صبرُه ... حتى يموتَ بدائِه

أو يشتفي ممَّا يُجِنُّ ... إذا خلا ببكائِه

يجن: يكتم

٣ حلم يقظة

إنَّ الـهـوى لـو كـانَ يَـنـ ـفُـذُ فـيـه حُـكـمـي أو قـضـائـي
لَـطـلـبـتُـه وجـمـعـتُـه مِـن كـلِّ أرضٍ أو سـمـاءِ
فـقـسـمـتُـه بـيـنـي وبـيـ ـنَ حـبـيـبِ نـفـسـي بـالـسَّـواءِ
فـنـعـيـشُ مـا عِـشـنـا عـلـى مَـحْـضِ الـمـودَّةِ والـصـفـاءِ
حـتـى إذا مُـتْـنـا جـمـيـ ـعـاً، والأمـورُ إلـى فَـنـاءِ
مـاتَ الـهـوى مِـنْ بـعـدِنـا، أو عـاشَ فـي أهـلِ الـوفـاءِ

٤ حلم واثق بالجنة

أَيا فَوْزُ لو أبصرتِني ما عرفتِني لِطولِ شجوني بعدَكُمْ وشُحوبي
وأنتِ مِنَ الدنيا نصيبي، فإنْ أَمُتْ فلَيْتَكِ مِنْ حُورِ الجِنانِ نَصيبي

٥ العاذلات الكائدات

وقد قالَ لي ناسٌ: تحمَّلْ دلالَها فكلُّ صديقٍ سوفَ يرضى ويغضبُ
وإني لأَقلي بَذْلَ غيرِكِ فاعلمي وبُخْلُكِ في صدرِي ألذُّ وأطيبُ

أقلي: أتجنب

وإنِّي أرى مِنْ أهلِ بيتِكِ نِسْوَةً شببْنَ لنا في الصدرِ ناراً تَلَهَّبُ
عرفنَ الهوى منَّا فأصبحنَ حُسَّداً يُخَبِّرْنَ عنَّا مَنْ يجيءُ ويذهبُ
وإني ابتَلاني اللَّهُ منكُمْ بخادِمٍ تُبَلِّغُكُمْ عنِّي الحديثَ وتَكذبُ

٦ الحبيبة الغضوب

وإنَّ الـوُدَّ لـيـسَ يـكـادُ يـبـقَـى إذا كَـثُـرَ الـتَّـجَـنِّـي والـعـتـابُ
خَـفَـضْـتُ لِـمَـنْ يـلـوذُ بـكُـمْ جـنـاحـي وتَـلـقَـوْنـي كـأنَّـكُـمُ غِـضـابُ

تقربت من القريبين منك إكراماً لك، وتلقينني كأنك غاضبة

٧ دعاء عليها بالحب

وقـائـلـةٍ بـالـجـهـلِ: يـا لـيـتَ أنَّـهـا تُلاقي الذي تَلقَى مِنَ الجَهدِ والكَرْبِ

إحدى قريباتي تقول، ويا لجهلها، ليت أنك يا محبوبتي تلاقين من الجهد (التعب) والكرب (البلاء) ما ألقى

فقلتُ لها: ما أَشتهي أن يُصيبَها بلائي، ولكنْ بعضُ ما بي مِنَ الحُبِّ

٨ دعاء على الحب

أباحَ حِمَى قلبي الهوى فأَذَلَّه ألا ليتَ لم أُخلَقْ ولم يُخلَقِ الحبُّ

٩ العاتب والملول

لو كنتِ عاتبةً لَسَكَّنَ لوعتي أَمَلي رضاكِ، وزُرْتُ غيرَ مُراقِبِ

غير مراقِب: غير مهتم بالأمر، لأنه مجرد عتب

لكنْ مَلَلْتِ، فلم تكُنْ ليَ حيلةٌ، صَدُّ المَلولِ خِلافُ صَدِّ العاتبِ

١٠ فرح بخبر

إذا قيلَ تُقريكَ السَّلامَ تماسَكَتْ حُشاشَةُ قلبي، وانْجَلَتْ غَمْرَةُ الكَرْبِ

حشاشة قلبي: البقية الباقية منه، غمرة الكرب: سحابة الغمّ

١١ قلبي الذاهب

كيف احتيالي لإِنسانٍ بُليتُ به يَجني الذُّنوبَ فإنْ عاتبتُه غَضِبا؟

يهوى خِلافي، فلوْ أني أُكلِّفُه على الظَّما مِنْه شُرْبَ الماءِ ما شَرِبا

تخالفني لمجرد الخلاف، فلو قلت: اشربي، وهي عطشى، لما شربت

أَبكي ظَلومَ وأبكي ما فُجِعْتُ به منها، وأبكي على قلبي الذي ذَهَبا

١٢ دائي الطبيب

أَعْيانِيَ الشَّادِنُ الرَّبيبُ أَكتبُ أَشكو ولا يُجيبُ

الشادن: ولد الغزالة، الربيب: المنعم في حضن والديه

مِنْ أَينَ أَبغي دواءَ ما بي وإنما دائيَ الطبيبُ

١٣ حاضر في قلبي

أمَا والذي لو شاءَ لم يَخْلُقِ النوى لئنْ غِبْتَ عن عيني لَمَا غِبتَ عن قلبي

١٤ أنتِ الدنيا

غضِبتُ عليكِ سيدتي وما لِلعبدِ والغضبِ

هَجرتُكِ عادياً طَوْرِي فلم أَرشُدْ ولم أُصِبِ
أمَا واللَّهِ ربِّ البيـ ـتِ والأستارِ والحُجُبِ
لقد طابتْ بكِ الدنيا ولولا أنتِ لم تَطِبِ

١٥ العيش على الرجاء

رجاءٌ كشِبْهِ اليأسِ أَمسى يَقُوتُني أَذُبُّ به عنِّي الرَّدى وأُغالِبُه

أرجو وصل الحبيب ولكنه رجاء يشبه اليأس لضعفه، ولكنه يقوتُني (يعيشني)، وأذب (أدفع) به الموت عن نفسي، وأغالب الموت (أقاومه)

١٦ حب من طرف واحد

ما زلتُ أَسخرُ ممَّن يُحبُّ مَنْ لا يُحِبُّهْ
حتى ابتُليتُ بمن لا يُحبُّني وأُحبُّهْ
يَهوى بِعادِي وهَجرِي ومُنيتِي الدَّهرَ قربُهْ

الدهرَ: طولَ الدهرِ

فَليتَ قلبِي له كا ن مثلَ ما ليَ قلبُهْ

١٧ القصيدة الواغلة

نسب صاحب المستطرف إلى العباس بن الأحنف أبياتاً، وقد استطاب مصطفى الشكعة هذه الأبيات جداً ضمن خمسين صفحة عقدها للعباس في كتابه «الشعر والشعراء في العصر العباسي»، ونقلت الأبيات عاتكة الخزرجي في تحقيقها للديوان، ولم ينقلها كرم البستاني، فلعله رأى فيها ما نراه من أن عليها مِيسم عصر الإبشيهي (ويبعد سبعمئة سنة عن عصر العباس) (لا نظن العباس ولا عصر العباس يقولان: «كل شيء ضده»، و«مبغوضاً»، و«نبحت عليه»، و«كشرت أنيابها»)، على أننا ننقل الأبيات لطرافتها، وللشطر الثاني من البيت الثاني:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيء ضدَّه والناسُ تُغلقُ دونَه أبوابَها
وتراهُ مبغُوضاً وليس بِمذنبٍ ويرى العداوةَ لا يرى أسبابَها
حتى الكلابُ إذا رأتْ ذا ثروةٍ خضعتْ لديه وحرَّكتْ أذنابَها
وإذا رأتْ يوماً فقيراً عابراً نبحتْ عليه وكشَّرت أنيابَها

١٨ حلاوة الهجران

وأحسنُ أيّامِ الهوى يومُكَ الذي تُرَوَّعُ بالهِجرانِ فيه وبالعتْبِ
إذا لم يكنْ في الحبِّ سخطٌ ولا رِضاً فأينَ حلاواتُ الرسائلِ والكتْبِ

١٩ دعاء في الصلاة

يا فوزُ هل لي منكُمُ مجلسٌ تَقَرُّ عيني فيه قبلَ المماتْ
يا بِأَبي أنتِ لقد سرَّني ما كان مِنْ قولِكِ للعاذلاتْ
واللَّهِ لا أسمعُ في حبِّكُمْ حتى أذوقَ الموتَ قولَ الوُشاةْ
هَمِّي مِنَ الدنيا خُلُوِّي بها بذاكَ أدعُو خَالقي في الصَّلاةْ

٢٠ قصة عاشق وعاذلة

إنَّ التي حدَّثَتْكِ قد كذبَتْ وأدركتْ عندكِ الذي طلبتْ
إستفهِمي قصتي وقصَّتَها أُخبرْكِ عنها بِقُبْحِ ما صَنعتْ
أَقبَلْتُ أسعى إليكِ مكتَتِماً فأعرَضَتْ دونَكُمْ وقد عَلِمَتْ..
أنْ ليسَ شيءٌ في الأرضِ يعدِلُكُمْ عندي، وتوكيدَ أمرِنا شَهِدَتْ..

هذه المرأة اعترضت طريقي وأنا مقبل عليكِ، وتأكدت مما بيننا من الحب، وأرادتني لنفسها..

فقلتُ كالمشتهي لِمَا ذَكَرَتْ: إنطَلِقي اتَّبِعْكِ فانطلَقَتْ

فتظاهرت بأنني قابل لعرضها، فقلت اذهبي وسوف أتبعكِ..

أَخلفتُها وعدَها وجئتُكُمُ فعندَها يا حبيبتي غضِبتْ

ولم أذهب إليها بل جئتك أنتِ، فغضبتْ هي

فأَقسَمَتْ لا تزالُ جاهدةً تُفسِدُ ما بيننا. وقد فَعَلَتْ

قصة صغيرة من توافه قصص المحبين، وهنا جمالها، وقيمتها الأدبية

٢١ عبد المرأة

ولقد قلتُ والهمومُ رُكُودُ ودموعي على الرِّداءِ تجودُ

الهموم راكدة فوق صدري، ودموعي تبل ردائي

يا بَني آدمٍ تعالَوْا نُنادي: إنَّما نحنُ للنِّساءِ عبيدُ

مَنْ يَلُمْني على النساءِ أَلُمْهُ   أنا وَاللّهِ للنساءِ وَدُودُ

٢٢ البكاء بماء البحر

لقد شَقِيتُ لَئِنْ دُمْنا كذا أَبدَا   إذا سَعَيْتُ لإصلاحِ الهوى فَسَدا
ما تَطْرِفُ العينُ إلَّا وهْيَ واكِفَةٌ   لو كنتُ أَبكي بماءِ البحرِ قد نَفِدا

واكفة: تسيل بالدمع

ولا تنفَّسْتُ إلَّا ذاكراً لكُمُ   لا شيءَ يشغَلُني عن ذكْرِكُمْ أبدا
يا رُبَّ ذي حَسَدٍ يا فَوْزُ يُظهِرُه،   لو كان يعلمُ حظِّي منكِ ما حَسدا

٢٣ دلال المريضة

قالت مرضتُ فعدتُها، فتبرَّمَتْ   وَهِيَ الصحيحةُ، والمريضُ العائدُ

العائد: زائر المريض

واللَّهِ لو أنَّ القلوبَ كقلبِها   ما رقَّ للولدِ الصغيرِ الوالدُ
لما رأيتُ الليلَ سُدَّ طريقُه   عنِّي، وعذَّبني الظلامُ الرَّاكدُ

الراكد: الجاثم، الضاغط على الصدر

والنجمُ في كَبِدِ السماءِ كأنَّهُ   أَعمَى تحيَّرَ ما لديْهِ قائدُ
ناديْتُ مَنْ طَرَدَ الرقادَ بنومِه   عمَّا أُعالِجُ، وهْو خِلْوٌ هَاجِدُ

ناديت حبيبي الذي أبعد عن عيني الرقاد لأنه نام عما أعالج، أي أهمل همومي، وهو خليٌّ من الهموم هاجد نائم

يا ذا الذي صَدَعَ الفؤادَ بِصدِّهِ   أنتَ البَلاءُ طَرِيفُهُ والتَّالِدُ

الطريف: الجديد، التالد: القديم

يَقعُ البلاءُ وينقضي عن أهلِهِ   وبلاءُ حبِّكَ كلَّ يومٍ زائدُ

٢٤ لا حديث له سواها

يا مَن شكا شوقَهُ مِن طُولِ غيبتِه   اِصبِرْ لعلَّكَ أن تلقَى الحبيبَ غدا
لن يستطيعَ الفتى كِتمانَ خُلَّتِه   حتى يحدِّثَ عنها أَيْنَما قَعَدا

خلته: مشكلته

هِيَ المُنى لِيَ أهواها وأطلُبُها		وسائرُ الناسِ يهوى المالَ والوَلَدا

٢٥ شيء بين الجوانح

أَبكِي الذين أذاقوني مودَّتَهُمْ		حتى إذا أَيْقظوني لِلهوى رَقَدُوا
واستَنْهضوني فلمَّا قمتُ منتصباً		بِثِقْلِ ما حمَّلُوا مِنْ وُدِّهِمْ قَعَدُوا
جارُوا عليَّ ولم يُوفُوا بعهدِهِمُ		قد كنتُ أَحْسَبُهُمْ يُوفونَ إنْ عَهِدُوا
لأَخرُجَنَّ مِنَ الدنيا وحبُّهُمُ		بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أحدُ
ألفيتُ بيني وبين الهمِّ مَعرفةً		لا تنقضي أبداً أو ينقضي الأبدُ

٢٦ ختم الحب

إنِّي لأَحْسَبُ، والأقدارُ غالبةٌ		أنِّي وإيَّاكِ مثلُ الروحِ والجسدِ
حتى سَعَتْ بيننا يا فَوْزُ ساعيةٌ		مشهورةٌ عُرِفَتْ بالنَّفْثِ في العُقَدِ

النفث بالعقد: السحر، يعني الكيد

يا فوزُ لا تَسمعي مِنْ قولِ واشيةٍ		لو صادفَتْ كَبِدي عَضَّتْ على كَبِدي
إنَّ المُحِبِّينَ قومٌ بين أَعيُنِهِمْ		وَسْمٌ مِنَ الحبِّ لا يَخْفَى على أحَدِ

٢٧ أحس بأنني ملك

مَا إنْ لِمَا بيِ دواءٌ غيرُ رُؤْيَتِها،		داوءُ ما بيِ عزيزٌ غيرُ موجودِ

ما إن لما بي دواء: ليس لما أعانيه دواء

يا شُغْلَ نفسيِ عن الدنيا وبهجتِها		ما تَأْمُرين بِصَبِّ القلبِ مَعْمُودِ

يخاطبها، فهي شغل نفسه، معمود: مبتلى بالحب

كأنَّهُ يومَ يأتيهِ رسولُكُمُ		قد نالَ مُلْكَ سليمانَ بنِ داودِ

٢٨ يا سعد

وحَدَّثْتَنيِ يا سعدُ عنها فزِدْتَني		جنوناً، فزِدْني مِنْ حديثِكَ يا سعدُ
هواها هَوىً لم يعلمِ القلبُ غيرَهُ		فليس له قَبْلٌ وليس له بَعْدُ

٢٩ الحب الخالد

كـلَّ يـومٍ لـنـا عِـتـابٌ جـديـدُ ... وهَـوانـا عـلـى الـعِـتـابِ يـزيـدُ
كـلُّ حُـبٍّ يَـبيـدُ يـومـاً فـيَـفْـنَـى ... وهَـوَانـا وهـجـرُنـا لا يَـبـيـدُ

٣٠ وظيفة الدموع

أَبِـيـتُ مُـسَـهَّـداً قَـلِـقـاً وِسَـادي ... أُخَـفِّـفُ بـالـدمـوعِ عـن الـفـؤادِ

٣١ منتهى اليأس

يـا مُـوقِـدَ الـنَّـارِ بـالـهِـنْـديِّ والـغَـارِ ... هـيَّـجـتَ لـي حَـزَنـاً يـا مُـوقِـدَ الـنَّـارِ
بـيـن الـرُّصَـافَـةِ والـمـيـدانِ أرقُـبُـهـا ... شُـبَّـتْ لِـغَـانِـيَـةٍ بـيـضـاءَ مِـعْـطـارِ

أرقب ناراً أخرى بين هذين المكانين، وقد أُوقدت لتلك الغانية، كأنما يصف مشاعل قصرها ليلاً

هَاجَتْ ليَ الريحُ منها نَفْحَ رائِحَةٍ ... أَحْيَتْ عِظامي وهَاجتْ طُولَ تَذكاري
أُخَـبِّـرُ الـنـاسَ أَنِّـي قـد سَـلَـوْتُـكُـمُ ... والـلَّـهُ يَـعـلـمُ ما مَـكـنـونُ إِضْـمـاري
ما تَطْعَمُ النومَ عيني مِنْ تَذَكُّرِكُمْ ... فَـمـا أَنـامُ إذا مـا نـامَ سُـمَّـاري
أنـا وعَـمُّـكِ مِـثْـلُ الـمُـهْـرِ يَـمـنـعُـه ... مِنْ قُوتِهِ مَرْبِضُ المُسْتَأْسِدِ الضَّاري

عمها يمنعه الزواج منها، فكأن شاعرنا مهر، وعمها الأسد الضاري الذي يحول بينه وبين مرعاه

لـو كُـنْـتَ يـا عـمَّـهـا حَـرَّانَ سَـرَّكَ أَنْ ... تَـحْـيَـا بـإِظْـمَـاءِ إِيـرَادٍ وإِصـدَارِ

المعنى الملموح: لو جربت العطش لسرَّك أن ترد الماء، أليس كذلك؟

فـمـا أَخُـو سَـفَـرٍ فـي الـبِـيـدِ مُـرْتَـهَـنٍ ... قـد كـانَ فـي رُفَـقٍ شـتَّـى لأَمْـصَـارِ

بداية تشبيه طويل. هذا مسافر رافق أقواماً مختلفين في بلاد شتى

أَخْطَا الطريقَ وأفنَى الزادَ وانقطعتْ ... عنه الـمـنـاهـلُ فـي يَـهْـمَـاءَ مِـقْـفـارِ

وفي الصحراء انفرد عن رفاقه وتاه. وانقطعت عنه مناهل الماء،
في هذه اليهماء المقفار (الصحراء الجافة)

يَدعُو بِصوتٍ شَجِيٍّ لا أنيسَ له ... قد غابَ عنه أنيسُ الأهلِ والجارِ
حتى أَتَى الماءَ بعد اليأسِ تُحْرِزُهُ ... رَبْـدَاءُ مَـكْـسُـوَّةٌ أَطـواقَ أَحـجـارِ

ثم وجد ماء، والماء تحرزه (تحفظه) ربداء (بئر قديمة غطاها التراب) حولها طوق من حجارة

لـمَّـا تـبـيَّـنَ أَنْ لا دَلْـوَ حَـاضِـرَةٌ ولا رِشَــاءَ ولا عَــهْــدٌ لآثَــارِ

اكتشف أن لا دلو ولا رشاء (حبل)، وليس هناك آثار أقدام لناس حول البئر

دَلَّى عِمامتَه حتَّى إذا انقشعَتْ غَـمَامَةُ الـمـاءِ عـن عـذبٍ ومَـوَّارِ

دلَّى عمامته في البئر حتى إذا انزاحت طبقة الغبار التي على سطح الماء وتبين أن تحتها ماء عذب موار (متحرك)

أَهْوَى يُقَلِّبُها في الماءِ مغتَبطاً يَـكُـرُّهـا فـيـهِ طـوْراً بـعـد أَطـوارِ

بدأ يقلب العمامة حتى تتشرب بالماء

حـتـى إذا هُـوَ روَّاهـا وأخـرجَـهـا وقـالَ قد نِلْـتُ يُسْـراً بـعد إعسـارِ
وجرَّها، صَوَّبَتْ في البئرِ راجعةً واستقبلَتْ نفسُه الدنيا بإنكارِ

وهو يخرجها صوبت (رجعت) إلى البئر، فغامت الدنيا في عينيه

يوماً بِأَجْهَدَ مِنِّي حين تمنعُني لِـغيـرِ جُـرْمٍ لُـبـانـاتـي وأَوْطـاري

هذا الشخص الذي قصصت قصته ليس أكثر تعباً مني وأنت تمنعني لباناتي (حاجاتي) وأوطاري (حاجاتي)

٣٢ ادفنوني عندكم

يا أهلَ فَوْزَ ادفِنونـي بين دُورِكُـمُ نَفسي الفداءُ لِتلكَ الدُّورِ مِنْ دورِ

٣٣ الأمور الكبار

نَزَفَ البكاءُ دموعَ عينِكَ فاستَعِرْ عـيـنـاً لِـغـيـرِكَ دمـعُـهـا مِـدْرارُ
مَنْ ذا يُعيرُكَ عينَه تبكي بها، أرأَيْـتَ عـيـنـاً لـلـبـكـاءِ تُـعـارُ؟
الـحُـبُّ أوَّلَ مـا يـكـونُ لَـجَـاجَـةٌ تـأتـي بـه وتـسـوقُـه الأقـدارُ

لجاجة: إلحاح طارئ

حتى إذا اقتحَمَ الفتَى لُجَجَ الهوى جـاءتْ أمـورٌ لا تُـطـاقُ كِـبـارُ
وإذا نـظَـرْتَ إلـى الـمـحـبِّ عرفـتَـه وبـدَتْ عـلـيـه مِـنَ الـهـوى آثـارُ
قُـلْ ما بـدا لـكَ أن تـقـول فـربـمـا سـاقَ الـبـلاءَ إلـى الـفـتـى الـمِـقـدارُ
يـا فَـوْزُ هـل لـكِ أن تـعـودي لـلـذي كـنَّـا عـلـيـهِ مـنـذُ نـحـنُ صِـغـارُ
هـل تَـذكُـريـنَ بِـدارِ بَـكْـرٍ لَـهـوَنـا ولـنـا بِـذاكَ مَـخـافـةٌ وحِـذَارُ

مُتَطاعِمَيْنِ بِريقِنا في خَلْوَةٍ مثلَ الفِراخِ تَزُقُّها الأَطيارُ
أَمْ تذكُرينَ لِدُلْجَتي متنَكِّراً وعَليَّ فَرْوَا عاتِقٍ وخِمارُ

تذكرين دلجتي (دخولي ليلاً) وأنا أضع فرويْ عاتق (فروتين تلبسان على العاتق أي الظهر) وخُماراً، يبدو انه أراد إخافتها في الليل وهما صغيران

فَوَدِدْتُ أنَّ اللَيلَ دامَ، وأنَّهُ ذهبَ النَّهارُ فَلا يكونُ نهارُ

ليت تلك الليلة طالت

ما تَأْمُرينَ، فَدَتْكِ نفسي، في فَتىً ما تلتَقي لِجُفونِه أشفارُ

أي أن رموش عينيه لا تلتقي فهي مفتوحة فهو ساهر لا ينام

صَرَمَ الأحبَّةُ حبلَه فكأنَّهُ إذْ غادَرُوهُ وضَرَّهُ الإضْرارُ..

صرم، قطع، الأحبة حبله، أي هجروه، وفي هذا ضرر

رجلٌ تَطَاوَلَ سُقمُه في غُربةٍ نَزحتْ بِهِ عن أهلِه الأسفارُ..

بدأ هنا تشبيهاً طويلاً، فهو مثل رجل مرض في الغربة

حتى أُتيحَ له، وذاكَ لِحَيْنِه رَكْبٌ رَمَتْ بِهِمُ الفِجَاجُ تِجَارُ..

فأتيح له ركب، أي قافلة، من التجار رمت بهم الفجاج (الطرق). وهذا لحينه (لهلاكه)، وسنرى كيف ذاك..

حَمَلُوهُ بينهُمُ نحيلاً جسمُه عاريِ العظامِ ثيابُه أَطْمَارُ..

الأطمار: الثياب المهترئة

فَثَوى تُقَلِّبُهُ الأَكُفُّ مُلَقَّفاً ولهُ تُشَدُّ وتُوضَعُ الأَكوَارُ..

ثوى (مكث) يتلقفونه محاولين حمله على الجمل، ويشدون الأكوار (أخشاب الرحل) كي يركب هذا المريض

حتى إذا سَلَكُوا به في مَهْمَهٍ قَفْرٍ تَضِلُّ به القَطَا وتَحَارُ..

ومشوا به في مهمهٍ (طريق موحشة) تضل به القطا وتحار (والقطا من طير الصحراء فإذا ضلت في الطريق فهو موحش جداً لا شك)

غَرِضُوا مِنَ النِّضْوِ العليلِ فَعَطَّلُوا منه الرِّكَابَ، وخَلَّفُوهُ وسَارُوا

في هذا الطريق غرضوا من النضو (ملُّوا من المريض)، فخلصوا منه القافلة وتركوه وساروا

٣٤ بشارة وحيرة

ولـمَّا رأتْ أنْ لا وُصولَ إلى الهوى   تراءَتْ مِنَ السطحِ الرفيعِ المُحَجَّرِ

يبدو أنها أطلت عليه من سطح بيتها

فقلتُ لها يا فَوْزُ هل لي إليكُمُ   سبيلٌ فقالتْ بالإشارةِ أبْشِرِ
وقفتُ لها في ساحةِ الحَيِّ ساعةً   أُشيرُ إليها بالرِّداءِ المُعَصْفَرِ
نَظَرْتُ إلى ما لم تَرَ العينُ مثلَه   إلى قمرٍ في رَازِقيٍّ ومِئْزَرِ

الرازقي: ثوب كتان أبيض، والمئزر: الثوب

إذا مَاتَ عباسٌ وفوزُ فإنَّهُ   يموتُ الهوى واللَّهوُ مِنْ كلِّ مَعشَرِ

٣٥ الحب قدري

أُخفي الهوى وَهْو لا يَخفَى على أحدٍ   إنـي لَمُستَتِرٌ في غيرِ مستَتَرِ

كأنني مستتِر لكن بلا مستَتَر (استتار)

فأكثِروا أو أَقِلُّوا مِنْ ملامِكُمُ   فكُلُّ ذلكَ محمُولٌ على القَدَرِ

الحب الذي يعذبني هو قضاء وقدر، فلا تزيله إرادتي فكفوا عن اللوم

٣٦ سال بك السيل

يَا مَنْ تمادَى قلبُه في الهوى   سالَ بِكَ السَّيْلُ ولا تَدري

يحذَرُ العرب من النوم في مجرى السيل، لأنه يفاجئ، ويجرف جرفاً

إنَّ الذي أُظْهِرُ عند الذي   أُضْمِرُ كالنقطةِ في البحرِ

ما أظهره من العشق هو بالنسبة لما أضمره نقطة في بحر

اليومُ مثلُ العامِ حتى أرى   وجهَكِ، والساعةُ كالشهرِ
أفسَدَ قلبي شَادِنٌ أَحْوَرٌ   يَسحَرُ بِالعينينِ والثَّغْرِ
كنتُ أُهَادِيه سَلامي فلا   يدخُلُه شيءٌ مِنَ الكِبْرِ
حتى إذا خاطبتُه بالهوى   خاطبني بالسبِّ والزَّجْرِ
فَليتَه عادَ وعُدْنا له   بمثلِ ما كنَّا إلى الحَشْرِ

٣٧ ملء البصر

وأَحْذَرُ أن تَطغَى إذا بُحْتُ بالهوى   فأكتُمها جَهْدي هَواها، ويَظهرُ

وما عَرضتْ لي نظرةٌ مُذْ عرفتُها		فأنظُرَ إلَّا مُثِّلَتْ حيثُ أنظُرُ
فيَا واثقاً مِنّي بما قد بَدا له،		وأكثَرُ منه مَا أُجِنُّ وأُضْمِرُ..
تَفَكَّرْ! فما تدري، لعلَّكَ تُبتَلى		بما بي، ويصحُو عنكَ قلبي ويصبِرُ
ألا أيُّها النَّاهُونَ عنها سَفاهَةً		قد ازدادَ وجدي مُذْ نَهَيْتُمْ، فأَقْصِرُوا

٣٨ أفاعي الصدر

قد ضاقَ بالحبِّ صدرِي		وأَنْفَدَ الشوقُ صبري
أنفد: أفرغَ

**في الصدرِ حَيَّاتُ هَمٍّ		بينَ الجوانحِ تَسري**

٣٩ الحزن الخالد

**إذا ما دعوتُ الصبرَ بعدَكِ والبُكا		أجابَ البُكا طَوْعاً، ولم يُجِبِ الصبرُ**
**فإنْ تقطَعي مِنْكِ الرجاءَ فإنه		سيبقَى عليكِ الحزنُ ما بقيَ الدهرُ**

٤٠ الحورية

يا فَوْزُ يا منتهى هَمِّي وغايتَه		ويا مُنايَ ويا سَمْعي ويا بصري
صارتْ رسالتُكُمْ يا فَوْزُ نادرةً		بعد التَّتابُعِ بالآصالِ والبُكَرِ
**يا مَنْ يُسائِلُ عن فَوْزٍ وصورتِها		إن كنتَ لم تَرَها فانظرْ إلى القمرِ**
**لم يخلُقِ اللَّهُ في الدنيا لها شَبَهاً		إنيِ لأَحسَبُها ليستْ مِنَ البشرِ**

٤١ فاسق النظر

أتأْذَنونَ لِصَبٍّ في زيارتِكُمْ		فعندكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ والبصرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إنْ طالَ الجلوسُ به		عَفُّ الضميرِ ولكنْ، فاسِقُ النظرِ
أفاض القدماء في مدح هذا البيت، وهلل له زكي مبارك في كتابه «العشاق الثلاثة»

٤٢ القمر والحجر

أَيا مَنْ وجهُهُ قمرُ		ويا مَنْ قلبُهُ حجرُ
ويا مَنْ ليس في الدنيا		لِنفسي، غيرَه، وَطَرُ

أغـــرَّكَ أنَّ حـــبَّـــكَ فـــي صـمـيـمِ الـقـلـبِ يَـسْـتَـعِـرُ

٤٣ أنت الناس

ما أسمَجَ الناسَ في عيني وأقبحَهُمْ إذا نظرتُ فلم أُبصرْكَ في الناسِ
حتى متى كَبِدي حَرَّىَ مُعْطَّشَةٌ ولا يلينُ لِشيءٍ قلبُكَ القاسي
يا قادِحَ الزَّنْدِ قد أعيا قَوادِحَهُ اِقْبِسْ إذا شئتَ مِنْ قلبي بِمِقْباسِ

يا من يقدح الزند (حجر النار) الذي أعجز القادحين خذ شعلة من قلبي بمقباس (بعود أو نحوه)

٤٤ لا شيء مثله

جرَّبتُ منْ هذه الدنيا شدائدَها ما مَرَّ ـ مثلَ الهوى ـ شيءٌ على راسي

٤٥ انصداع القلب

عَدْلٌ مِنَ اللَّهِ أَبكانيِ وأضحكَكُمْ فالحمدُ للَّهِ عدلٌ كلُّ ما صنعا
اليومَ أبكيِ على قلبيِ وأَندُبُه قلبٌ أَلَحَّ عليه الحزنُ فانصَدَعا

٤٦ الود بشفاعة

إذا أنتَ لم يعطِفْكَ إلَّا شفَاعةٌ فلا خيرَ في وُدٍّ يكونُ بِشافِعِ

٤٧ ليتني كنت الميت

الحسنُ منكِ سجيَّةٌ مَطبوعَةٌ ومِنَ النساءِ تَخَلُّقٌ وتَصَنُّعُ
يومَ الجِنازَةِ لوْ شَهِدْتُ تمتَّعَتْ عينيِ بِها ولَقَلَّما تتَمتَّعُ
خَرجَتْ ولم أَشْعُرْ بذاكَ فَليْتَني كنتُ الجِنَازَةَ، وَهْيَ فِيمَنْ يتبَعُ

٤٨ اليأس بعد التعشيم

قلبيِ إلى ما ضرَّنيِ داعِ يُكْثِرُ أسقاميِ وأَوْجاعي
كيف احتِراسيِ مِنْ عَدُوِّي إذا كان عَدُوِّي بين أضلاعي
ما أَقتلَ اليأْسَ لأهلِ الهوى لا سيَّما مِنْ بعدِ إطماعِ

اليأس من الفوز بقلب الحبيب صعب، وخاصة إذا كان الحبيب أطمَعَك (عشَّمك) في وصله

٤٩ المحطة الأخيرة

طافَ الهوى بعبادِ اللَّهِ كلِّهمُ ... حتى إذا مرَّ بي مِنْ بينِهِمْ وقَفا
إذا جحدْتُ الهَوى يَوماً لأدفِنَه ... في الصدرِ، نَمَّ عَلَيَّ الدمْعُ مُعْتَرِفا
لم أَلْقَ ذا صفةٍ للحُبِّ ينعَتُهُ ... إلَّا وجدْتُ الذي بيِ فوقَ ما وصفا

٥٠ أملي أراك

إنِّي لآمُلُ أن أراكِ، وإنني ... مِنْ أنْ أموتَ ولا أراكِ لَخائِفُ
يا غايةً في الحُسْنِ إنِّيَ غايةٌ ... في الحب. ليس يُطِيق ما بيَ وَاصفُ

٥١ كان لي قلب

نامَ مَنْ أَهْدَى لِيَ الأَرَقا ... مُستريحاً سَامَنِي قَلَقا
كان لي قلبٌ أعيشُ به ... فاصْطَلَى بالحبِّ فاحتَرقا

٥٢ الطريق المسدود

يا فَوْزُ قد طالتْ بكُمْ شِقوتيِ ... يا فَوْزُ قد حُمِّلْتُ ما لا أُطيقْ
واكُرْبَتَا مِنْ حَرِّ هذا الهوى ... كأنَّما في الجوْفِ منهُ حريقْ
لا يَهتَدِي قلبيِ إلى غيرِكُمْ ... كأنما سُدَّ عليه الطريقْ

٥٣ أتنشقها

وأكبرُ حظِّيِ منكِ أَنِّي إذا جرتْ ... ليَ الريحُ مِنْ تِلقائِكُمْ أَتَنَشَّقُ

٥٤ احتراق

أنا الذي لا تنامُ عينيِ، ولا ... تَرْقَا دُموعيِ ما دامَ بيِ رَمَقُ

ترقأ: تجف

صِرْتُ كأَنِّيِ ذُبَالَةٌ نُصِبَتْ ... تُضِيءُ للنَّاسِ وَهْيَ تحترقُ

ذبالة: ما ظهر من فتيل المصباح

٥٥ متعلق بقشة

هلَّا رحِمْتُمْ موقِفيِ بِفنائِكُمْ ... متحيِّراً، لِنَسيمِكُمْ أَتَنَشَّقُ

مُـتَـلَـدِّداً أَرْنُـو إلـى مَـنْ مَـرَّ بـيٍ مـثـلَ الـغـريـقِ بِـمَـا لَـقِـيِ يَـتَـعـلَّـقُ

متلدداً: متلفّتاً

٥٦ الدموع الفاضحة

يـمـنـعُـكَ الـصـبـرَ إذا رُمْـتَـهُ تَـذْكـارُ مَـنْ خَـلَّـفْـتَ بِـالـرَّافِـقَـةْ

الرافقة: الرَّقَّة العراقية، على الفرات

قد كنتَ عن وصفِ الهوى ساكتاً فَـفَـضَـحَـتْـكَ الأدمُـعُ الـنـاطـقـةْ

٥٧ ظنونهم

عن ابن خلكان أن ابن المعتز قال: أحسن الشعر قول العباس بن الأحنف: (وليست في الديوان)

قد سَحَّبَ الناسُ أذيالَ الظُّنونَ بنا وفـرَّقَ الـنـاسُ فـيـنـا قـولَـهُـمْ فِـرَقـا

فـكـاذبٌ قـد رَمَـى بـالـظَّـنِّ غـيـرَكُـمُ وصـادقٌ لـيـس يـدري أنـه صـدَقـا

٥٨ طبل تحت الثوب

وإنـيِ وإيَّـاهـا كـمـا شَـفَّـنـا الـهـوى لأَهْـلُ حِـفـاظٍ لا يُـدَنَّـسُ بـالـجـهـلِ

وإنـيِ وكِـتـمـانـيِ هَـواهَـا وقـد فَـشـا كَذيِ الجهلِ تحتَ الثوبِ يَضربُ بالطَّبلِ

أنا وكتماني لحبي إياها، بعد إذ ذاع أمر ذلك الحب،
كمن يخفي الطبل تحت ثوبه ويضرب به

٥٩ قصتنا تطول

كـأَنّـيَ لـم أكُـنْ شَـجَـنـاً لِـفَـوْزٍ ولـم يَـكْـثُـرْ عَـلَـيَّ لَـهـا عَـوِيـلُ

ولـم نـجـلـسْ جـمـيـعـاً فـي خَـلاءٍ نُـسَـرُّ بـمـا أقـولُ ومـا تـقـولُ

ولـو حُـدِّثْـتُـمُ عـنّـيِ وعـنـهـا عـلـمـتُـمْ أنَّ قـصَّـتَـنـا تَـطـولُ

وكُـنَّـا آيـةً لـلـنـاسِ دَهـراً إذا وُصِـفَ الـخـلـيـلـةُ والـخـلـيـلُ

وكـنـتُ أظُـنُّ أنّـا سـوف نَـبْـلَـى ومـا بـيـنـيِ وبـيـنَـكِ لا يـزولُ

أَلَا يـا فـوزُ أنـتِ صَـرمْـتِ حَـبـلـيِ وصَـرْمُـكِ عـنـدنـا خـطـبٌ جـلـيـلُ

٦٠ أثقلني حِملي

يقولونَ لي واصِلْ سِواها لعلَّها تَغارُ، وإلّا كان في ذاكَ ما يُسْلي

يقولون: اعشق غيرها حتى تغار، وإن لم تغر ففي عشق سواها ما يُسلِيك (ينسيك)

ووَاللَّهِ ما في القلبِ مِثقالُ ذرَّةٍ لأُخرى سِواها، إنَّ قلبيِ لَفي شُغْلِ

حَمَلْتُ الهوى حتى إذا قمتُ بالهوى خَرَرْتُ على وَجهي وأثقَلَني حِملي

بِحُرْمةِ ما قد كانَ بيني وبينَكُمْ مِنَ الوُدِّ إلّا ما رجعتُمْ إلى الوصلِ

وإلّا اقتُلُوني أَسْتَرِحْ مِنْ عذابِكُمْ عذابُكُمُ عندي أشَدُّ مِنَ القتلِ

وكم مِنْ عدوٍّ رَقَّ لي وتكشَّفتْ حُزُونَتُهُ لي عن ثَرىَ جانِبٍ سَهْلِ

لشدة ما ألقى من عذاب العشق رق لي قلب الأعداء، فكثيراً ما اكتشفت عدوّاً تحولت حزونته (وعورته) لي إلى أرض سهلة

ومُجتهداتٍ في الفسادِ حواسِدٍ لَها، وَهْيَ ممَّا قد أَرَدْنَ على جهلِ

تآزَرْنَ فيما بينهُنَّ فجئْنَها، على وجهِ إِلقاءِ النصيحةِ، لِلْمَحْلِ

للمحل: للخداع

يُعَرِّضْنَ طَوراً بالتغاضي، وتَارَةً يُعاتِبْنَها بالجِدِّ منهُنَّ والهَزْلِ

وما زِلْنَ حتى نِلْنَ ما شئنَ بالرُّقى وحتى أَصاخَتْ لِلخديعةِ والخَتْلِ

الرُّقى: التعاويذ، يقصد كثرة الزَّنِّ عليها، أصاخت: أصغت

وحتى بَدَتْ منها المَلالةُ والقِلَى وعهدي بِفَوْزٍ لا تَمَلُّ ولا تَقْلي

القِلى: التجنُّب

فلمَّا انقضَى الوَصْلُ الذي كان بيَنَنا شَمِتْنَ جميعاً واستَرحْنَ مِنَ العَذْلِ

وأَرْضَتْ بِسُخطي معشَراً كان سخطُهُمْ يهُونُ لديْها في رِضَايَ ومِنْ أَجْلي

٦١ أنا لها وحدها

سأَهجُرُ طائعاً في حبِّ فَوْزٍ نساءَ العالمينَ ولا أُبالي

٦٢ التمادي

يقولُ عَواذِلي عَنْكَ التَّمادِي فإنَّكَ مِنْ هوى فوزٍ قتيلُ

عنك: دع عنك

فقلتُ لَهُمْ دَعُوا نُصْحي ولوْمي فإنِّي حيثُما مَالَتْ أَميلُ

٦٣ الملول ملول

سبحانَ مَنْ خلقَ المَلولَ مَلولا لا يستطيعُ إلى الوفاءِ سبيلا
لو كنتُ أصبِرُ، ما كتبتُ صحيفةً يوماً إليكِ ولا بعثتُ رسولا

٦٤ الحب المستحيل

لَعَمري لقد جَلبَتْ نظرتي إليكِ علَيَّ بَلاءً طويلا
فيَا وَيْحَ مَنْ كَلِفَتْ نفسُه بِمَنْ لا يُطيقُ إليهِ سبيلا
هِيَ الشمسُ مَسْكنُها في السماءِ فَعَزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلنْ تستطيعَ إليها الصُّعودَ ولنْ تستطيعَ إليكَ النزولا

٦٥ عن أصدقائي

حفِظَ اللَّهُ معشراً فارَقُوني لا يُطِيعونَ في الهوى مَنْ يَلومُ
إن يَكُنْ ينفعُ البكاءُ عليهِمْ فابْكِ حتى تموتَ يا محرومُ
لا تُطيقُ الجبالُ يا معشرَ النا سِ مِنَ الحبِّ ما تُطيقُ الجُسومُ
هل لكُمْ أن نقومَ نَبكي جميعاً ونَشُقَّ الجُيوبَ؟ بِاللَّهِ قُومُوا
لا وَرَبِّ الوُفودِ للبيتِ تَهوِي بِهِمُ العِيسُ قد بَرَاها الرَّسيمُ..

وربِّ الوافدين إلى الكعبة الذين تهوي (تسرع) بهم العيس (الجمال) التي برى أخفافها الرسيم (السير السريع)..

ما تَغيَّرْتُ بعد فَوْزٍ، ولا كا نَ فؤادي بِغيرِ فَوْزٍ يَهيمُ
إن عددْتُمْ هوايَ ذنباً فإنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ أنَّ ذنبي عظيمُ

٦٦ ظلوم

أَناسِيةٌ ما كان بيني وبينَها وقاطعةٌ حبلَ الصفاءِ ظَلُومُ
تعالَيْ نجدِّدْ دارِسَ الوصلِ بيننا كلانا على طولِ الجَفاءِ مَلُومُ

٦٧ نائم ويقظان

بَــلِّــغـي يــا ريــحُ عــنَّــا أهــلَ بــغــدادَ الــسَّــلامَــا
بِــأبــي مَــنْ حَــرَّمَ الــنَّــوْ مَ عــلــى عــيــنــي ونَــامــا
إنَّ مَــنْ نــامَ لَــعَــمْــري يَــحْــسَــبُ الــنَّــاسَ نِــيــامــا

٦٨ يعرف مكان السهم

قــالــتْ ظَــلُــومُ سَــمِــيَّــةُ الــظُّــلْــمِ مــا لــي رأيــتُــكَ نــاحِــلَ الــجــسـمِ
يــا مَــنْ رَمَــى قــلــبــي فَــأَقْــصَــدَهُ أنــتَ الــعَــلــيــمُ بِــمَــوقِــعِ الــسَّــهــمِ

أقصده: أصابه في مقتل

٦٩ وأنفك راغم

تَحَمَّلْ عظيمَ الذَّنبِ مِمَّنْ تحبُّهُ وإن كنتَ مَظْلُوماً فقُلْ أنا ظالِمُ
فإنَّكَ إلَّا تغفِرِ الذَّنبَ في الهوى يفارِقْكَ مَنْ تَهوى، وأَنْفُكَ راغِمُ

٧٠ شيء بيننا وحدنا

تُحَدِّثُ عنَّا في الوجوهِ عيونُنا ونحن سُكوتٌ والهوى يتكلمُ
ونَغضبُ أحياناً ونرضَى بِطَرفِنا وذلك فيما بينَنا ليس يُعلَمُ

هذا كلام المحبين بلغة العيون، يعرف هذه اللغة من عشق

٧١ المستخفة بي

إن كانَ ينفعُكُمْ ما تصنعونَ بِنا وسرَّكُمْ طُولُ ما نَلْقَى فَزِيدُونَا
يا فَوْزُ مَا مَلَّني حَقّاً رسولُكُمُ حتى مَلِلْتُمْ، وما كنتُمْ تَمَلُّونا
ولا استَخَفَّ بِأَمْرٍ لي أُعَظِّمُهُ حتى رآكُمْ بِأمْرِي تستَخِفُّونا
وأَنتُمُ أهلُ وُدِّي قد شُغِفْتُ بِكُمْ تَبْلَى عِظامي وأنتُمْ لا تُبالونا
وما مَرَرْتُ بقومٍ في مجالِسِهِمْ إلَّا سمعتُهُمُ فينا يخُوضُونا
وقد أَمِنَّا على أسرارِنا نَفَراً كانوا كأولادِ يَعقوبٍ يَخُونُونَا

أولاد يعقوب خانوه وألقوا أخاهم يوسف في الجُبّ

وَيْحَ المحبِّينَ ما أشقَى جدودَهُمُ إن كان مثلُ الذي بي بِالمحبِّينا

جدودهم: حظوظهم

يَشْقَوْنَ في هذهِ الدنيا بِعشقِهِمُ لا يُدركونَ به دُنْيا ولا دِينا

٧٢ كرامة وهوان

وَرَاضِي القَلْبِ غَضْبانِ اللِّسانِ له خُلُقانِ ما يَتَشابَهانِ

يُسِرُّ مودَّتي ويُطِيلُ غَيْظي ويَمْزُجُ لي الكَرامَةَ بِالهَوَانِ

٧٣ الحزن الحقيقي

سبحانَ ربِّ العُلا ما كان أَغفَلَني عمَّا رمتْني به الأيامُ والزَّمَنُ

مَنْ لم يذُقْ فُرقةَ الأحبابِ ثم يَرى آثارَهُمْ بَعدهُمْ لم يدْرِ ما الحَزَنُ

٧٤ الحب شيء..

والحُبُّ شيءٌ قَلَّ مَنْ يَقْوَى على كِتْمَانِهِ

٧٥ غريب الدار

يا غَريبَ الدَّارِ عن وَطَنِهْ مُفْرَداً يَبكي على شَجَنِهْ

شَفَّهُ ما شَفَّني فبَكى كلُّنا يبكي على سَكَنِهْ

ولقد زادَ الفؤادَ شَجاً طائرٌ يبكي على فَنَنِهْ

كلَّما جَدَّ البكاءُ به دَبَّتِ الأَسقامُ في بَدَنِهْ

قيل هذا آخر شعر قاله. رأى طائراً يغرد فوق غصن فخاطبه

٧٦ .فقد جئنا خراسانا

قَالوا خُراسَانُ أقصَى ما يُرادُ بِنا ثُمَّ القُفُولُ. فقد جِئنَا خُراسانَا!

صحب العباس هارون الرشيد إلى خراسان، واستطال المكث فيها، فقال هذا الشعر فسمعه الرشيد، وأذن له بالرجوع إلى بغداد. بيت فيه من الدلال والإدلال الكثير. يقول: «قلتم لي سنصل إلى خراسان ثم نعود. طيب! ها قد وصلنا خراسان!»

متى يكونُ الذي أرجوُ وآمُلُهُ أمَّا الذي كنتُ أخشاهُ فقد كانا

ما أَقْدَرَ اللَّهَ أن يُدْنِيِ على شَحَطٍ جيرانَ دِجلَةَ مِنْ جيرانِ جَيْحَانا

على شحط: على بُعدٍ

يا ليتَ مَنْ نَتمنَّى عند خَلْوَتِنا إذا خَلا خَلْوَةً يوماً تَمَنَّانا

٧٧ أعز من الأمنيات

يا أيُّها السَّائلُ عن وصفِها لقد وَصَفْنَا لو بَلَغْناها
إنَّكَ لو أبصرْتَها مَرَّةً أَجْلَلْتَها أنْ تَتَمَنَّاها
لم نَدْرِ ما الدنيا ومَا طِيبُها وحسنُها حتى رأَيْناها
فقُلْ لِقوْمٍ حُرِمُوا أنْ يَرَوْا وَجْهَ ظَلُومَ اسْتَرْزِقُوا اللَّهَ

فهرس القوافي
(القافية فرقم القطعة)

مسلم بن الوليد
(١٣٥هـ ـ ٢٠٨هـ)

كرهت مسلم بن الوليد ثم أحببته، ثم كرهته ثم أحببته، مرات كثيرة. وآخر كَرْهة كرهتُهاهُ كانت قبل ساعتين، وآخر حب كان قبل ساعة.

كرهته لكثرة ما يتلاعب بالألفاظ ولكثرة ما يصر على أن يحشو أبياته بالمعاني حشواً فيه اقتسار، وفيه صنعة. وكنت أنصرف عنه انصرافاً عندما يكون مزاجي رائقاً، وأكون محتاجاً إلى أن أقرأ شعراً فيه لمسة وجدانية. وكنت أنصرف عنه عندما يكون مزاجي متوتراً، ذلك أنني أكون بنصف قواي العقلية فلا أريد أن أنشغل بحل ألغازه.

وكنت أحبه عندما أكون في مزاج معابثة، وما أكثر ما يعتادني هذا المزاج.

وقبل ساعة أقبلت على شعر مسلم باسماً، وجعلني أقبل عليه أنني تذكرت ذلك الألماني روكارت الذي ترجم إلى لغته ديوان امرئ القيس والحماسة ومقامات الحريري، وكنت قصصت قصته في كتابي السابق «أول الشعر» الذي تناولت فيه العصر الجاهلي والإسلامي والأموي. وأعيد عليك فقط قصة صغيرة عن روكارت: لقد نزل الثلج على قريته في شمال بافاريا ذات سنة في نيسان/ أبريل.. حادثة غريبة، والأغرب منها أن صاحبنا نظم فيها ثمانيَ وثلاثين قصيدة. كان روكارت مجنون شعر.. كان يلعب باللغة، ولا يكاد يجد فرقاً بين شعر فيه ألاعيب وشعر عاطفي. فذاك يهز العقل، وهذا يهز الوجدان.

أقبلت على شعر مسلم أقرأ وأبتسم لهذه الألاعيب البديعية، والبيانية.. فقد قرر علماء اللغة أن البديع هو المحسنات اللفظية من جناس وطباق، بينما البيان يتضمن المحسنات المعنوية من تشبيه وتورية. ولا أرى كبير فرق.

أقبلت أشرح أشعار الرجل فإذا هي كومة خيوط دقيقة تعقدت وتشلبكت.. نعم حتى تلك التي اخترتها بنفسي. في فكها متعة، وفيه عناء. ومن ذا قال إن الشعر وجدان فقط. على أن في شعر مسلم بن الوليد شهوانية، وفيه انصراف عن الشهوانية، وفيه بعض عبث، ومدح غث لكنه حافل بتلك الألاعيب. وفيه بعض انقباض. وكان في الرجل، كما قالوا لنا، انقباض.

كان مسلم يحكك شعره، ولا يرسله على السجية كبشار بن برد. كان يجري في شعره على أساليب القدماء في اللفظة ومعناها المباشر، لكنه أسرف في الصناعة إذ يركب الألفاظ لتنتج المعاني الثانوية.

والد مسلم كان مولى للخزرج، ودرج الناس على تسمية شاعرنا «مسلم بن الوليد الأنصاري». وقد ولد بعيد ولادة الدولة العباسية، وما شب حتى كان للموالي شأن في الدولة، وكان منهم الشعراء والقادة وعلماء اللغة، فسيبويه يصغر شاعرنا بعشر سنين أو عشرين، وبشار المولى كان كهلاً عند ميلاد مسلم، ومن معاصريه ولِداتِه أبو نواس وأبو العتاهية.

لم يشعر مسلم بما شعر به بشار من حنين إلى أديان الفرس القديمة، ولا إلى الثقافة المغلوبة. قد انخرط في هذه الثقافة الجديدة للدولة الناشئة، أو قل انسلخ عن أصول لا يربطه بها رابط قوي. ساعده في ذلك أنه ألحق نفسه بقوة بمواليه الأنصار، وأنه حقق النجاح في بلاط الخليفة، وفي مجالس الوزراء.

سار على سنة النابغة وزهير وكل شعراء العرب في أن يمدح ويهجو ويعاتب ويستجدي.

استطراد قصير

كدت أظن شعرنا العربي تخلص من المديح في هذا الزمن لولا أنني رأيت شعراء يقولون شعراً ظاهره مدح الوطن وباطنه مدح الحاكم.

تهتك مسلم بعض التهتك وساير أبا نواس، ولكنه لم ينخرط في المجون. ولم ينحرف نحو وصف مجالس الخمر والعبث إلا تظرفاً. وعرفنا أنه تزوج وأنجب، وأحب زوجته، ورثاها بحرقة. كان تلميذه دعبل الخزاعي يلم به ويتعلم منه، ولكن دعبلاً شخصية قلقة، وقد فارق أستاذه وتعاتبا بعد سنين بشعر يشبه الهجاء.

نجح مسلم في بلاط الرشيد نجاح أبي نواس، ولكنه لم يكن مقرباً للأمين، ولم نعرف له حضوراً في بلاط المأمون. فمع انقضاء عهد الرشيد كان مسلم في نحو الستين من العمر، ونال من الفضل بن سهل، وكان يمدحه ويمدح أباه، تعييناً في جرجان: قيل جعله الفضل على البريد هناك. وترك مسلم الشعر، كأنما استوفى ما في جعبته من الألاعيب البيانية، واسترخى في جرجان. وبها مات وقد تجاوز السبعين.

تريد أن تشهد الليلة التي دخل فيها البديع إلى الشعر العربي من الباب الواسع، حسناً.. معك ههنا مسلم بن الوليد، اخترت لك أجمل شعره. وفي هذا الشعر أبيات جميلة، وفيه صنعة كثيرة وذكية، وهو الشعر الذي أسس تأسيساً لاتجاه الإغراق في البديع، فإن كنت تعرف أن هذا الاتجاه أصبح سيلاً عارماً جرف الشعر العربي معه قروناً فيما بعد، فأنت الآن تعرف من الذي شق لهذا السيل طريقه من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي. مراراً وتكراراً يقول لك ابن المعتز في كتابه «البديع» ـ وهذا اسم الكتاب ـ إن البديع موجود في اللغة شعرها ونثرها وقرآنها منذ القدم. ونقول له: موجود نعم، ومسلم بن الوليد لم يخترعه، ولكن مسلماً هو الذي نقل البديع نقلة نوعية: نقله من التأنق العفوي إلى الصنعة. جعله همه وشغله الشاغل. ونحن لا نذكر لك في شرحنا الألاعيب اللغوية ولا نسميها بأسمائها.. نحن نشرح البيت وأنت تدرك ما فيه من تورية أو استعارة. قد عاهدنا أنفسنا في هذه الأشياء التي نكتبها في عرض الشعر القديم وشرحه ألا ننحرف بالشرح عن المعنى، وألا ندخل في النحو ولا في البلاغة ولا في التاريخ ولا العروض إلا إذا دعا داعٍ لصيق بالمعنى.

نشر شعر مسلم بن الوليد سامي الدهان بشرح قديم للطبيخي الأندلسي، وانتفعنا بالشرح على تصريده. ونحن في شرحنا لهذه المختارات فعلنا العكس، فأسرفنا في التفسير واللغو، لما كنا نحس به من صعوبة وتعقد هذا الشعر، ولعل هذا أن يُضجر القارئ الذي له ألفة بالشعر القديم، فهذا اعتذار له.

استطراد آخر

قد حسبت السنين.. ورأيت أنني سأبدد الكثير منها وأنا اشرح مثل هذا الشرح المفصل لشعراء كثر ـ وأنا بصدد شرح مختاراتي من اثنين وأربعين شاعراً ـ فقر قراري على أن أقلل في مقبل الأعمال من الشرح كثيراً.. وأن أكتفي

بشرح ما هو مغلق أو ما فيه كلمات مهجورة. وسنرى إن كنت سأنفذ هذا. **حقاً** شعرت بأنني أكتب لمن لا يريدون أن يسمعوا، فلأسترح قليلاً.

١ أبيات فرائد

أرادُوا لِيُخفُوا قبرَهُ عن عدوِّهِ　　　فَطِيبُ ترابِ القبرِ دَلَّ على القبرِ

* * *

قَبُحَتْ مناظِرُهُ فحينَ خَبِرْتُهُ　　　حَسُنَتْ مناظِرُهُ لِقُبْحِ المَخْبَرِ

* * *

فالكلبُ إن جَاعَ لم يُعْدِمْكَ بَصبَصَةً　　　وإن يَنَلْ شِبْعَةً يَنبَحْ على الأَثَرِ

البصبصة تحريك الذنب

* * *

يمدح الرشيد:

يَغدُو عدوُّكَ خائفاً فإذا رأى　　　أن قد قَدَرْتَ على العِقابِ رَجَاكا

* * *

أُقِرُّ بالذنبِ مِنِّي لَستُ أعرِفُهُ　　　كيْما أقولَ كما قالتْ فَنَتَّفِقُ

* * *

سَبَقْتَ بِمعروفٍ وصَلَّى ثَنائِيا　　　فلمَّا تَمادَى جَرْيُنا صِرْتَ تَالِيَا

سبقتني بالعطاء، فصلَّى ثنائي، أي جاء ثانياً. . والمصلي هو الحائز على المرتبة الثانية في سباق الخيل، فلما تمادى بنا السباق وطال صرت أنت بعدي أي أن مدحي لك صار أكثر من عطائك

* * *

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكي على دِمْنَةٍ　　　ورأسُهُ يضحكُ فيهِ المَشيبْ

مستعبر: باكٍ، دمنة: خربة. هذا معنى سرقه دعبل، تلميذ مسلم. انظر البيت الثاني من القطعة رقم ٣٧ من باب «دعبل» في هذا الكتاب

* * *

رفعتْ «بنُو النجَّارِ» بَيْتِيَ فيهِمُ　　　ثم انتَمَيْتُ فأفْسَحُوا في المجلسِ

رفع بنو النجار من الأنصار بيتي ضمن عشيرتهم، وكنت بعد ذلك كلما انتميت، أي ذكرت نسبي الأنصاري، أفسح الأقوام لي في مجالسهم

* * *

وأَكثرُ ما تلقَى الأَماني كَواذِباً   فإن صدقَتْ جازَتْ بِصاحِبِها القَدْرا

الأمنيات كاذبة غالباً، فإذا صدقت تجاوزت بالمتمني القدر، أي القدر المتوسط، فنال أكثر مما تمنى

٢ نُتَف

ثَناءٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ يُهدَى لِأَهلِهِ   وليس له إِلَّا بَني خَالِدٍ أَهْلُ

عَرف الطيب: رائحته الذكية، ولا يستحق هذا الثناء إلا بنو خالد

فإنْ أَغْشَ قوماً بعدَهُمْ أو أَزُرْهُمُ   فَكَالوَحْشِ يُدنيها مِنَ القَانِصِ المَحْلُ

إن غشيت غيرهم، أتيتهم، فللضرورة فقط.. مثلما يقرب المحل والقحط الوحش، من ظبي أو حمار وحش، من قانصه، أي صائده

* * *

يهجو العباس بن الأحنف الشاعر:

بنُو حنيفةَ لا يَرضَى الدَّعِيُّ بِهِمْ   فاترُكْ حَنيفَةَ واطْلُبْ غيرَها نَسَبا

الدعي، المدفوع النسب، نفسه لا يرضى ببني حنيفة فاترك هذه القبيلة يا عباس

واذهبْ إلى عَرَبٍ تَرضَى بِنِسبَتِهِمْ   إِنِّي أرى لَكَ خَلْقاً يُشبِهُ العَرَبا

هجاء مزدوج: للشخص بأنه دعيّ، وللقبيلة بأنها خسيسة لا يرضى حتى الأدعياء الانتساب إليها؛ ومع هذا فقد سيق في ثوب النصيحة. الهجاء العباسي فيه هذا التفنن وتعقيد المعنى، وانتظر لترى ما سيصنع دعبل وأبو تمام والبحتري، وكلهم في هذا الكتاب؛ ثم انتظر ما سنورده عليك في كتابنا المقبل «تألق الشعر» من أهاجي سيد الهجائين ابن الرومي

* * *

يمدح يزيد بن مزيد الشيباني:

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من «بَنِي مَطَرٍ»   يَمضِي فيخترقُ الأجسادَ والهاما

الهام: الرؤوس

كالدهرِ لا ينثَني عمَّنْ يَهُمُّ بِهِ   قد أَوْسَعَ الناسَ إِنْعاماً وإِرْغَاما

هذا القائد مثل الدهر لا يتراجع عمن ينوي الإيقاع به، فيزيد بن مزيد قد أوسع الناس، أي ملأهم، بالنعمة للصديق وبالإرغام، الإذلال، للعدو

* * *

يمدح هارون الرشيد:

وَقَفْتَ على النَّهْجِ الظُّنُونَ فَصَرَّحَتْ ... وأدَّى إليكَ الحكمَ كلُّ مُشَرَّدِ

أوقفتَ الظنون والتوقعات على النهج الصحيح فصرحت هذه الظنون، أي صارت وقائع صريحة، وكل من كان مشرداً عن الطاعة مبتعداً عنها أدى إليك مقاليدها

إذا اختلفتْ أَهواءُ قومٍ جمعتَهُمْ ... على العفوِ أو حَدِّ الحسامِ المهندِ

تجمع الناس عندما تضطرب الأهواء والميول، إما بالعفو عنهم أو بالسيف للعصاة

* * *

يمدح الفضل بن جعفر بن يحيى البرمكي:

أبوكَ استَرَدَّ الشامَ إذْ نَفَرَتْ بِهِ، ... مُلَقَّحَةً، شَعْواءُ ليس لها بَعْلُ

أبوك استرد الشام بعد أن نفرت وابتعدت بالشام فتنة شعواء، أي منتشرة، وقد نفرت وهي ملقحة (والحرب تَلْقَحُ أي تهيج) مع أنه ليس لها بعل

بِجَيشٍ كأنَّ الليلَ بعضُ حديدِهِ ... تَهادَى الرَّدَى فيهِ الفَوارِسُ والرَّجْلُ

بجيش يسير في الليل فتحسب سواد الليل بعض حديد الجيش، وتتهادى، تتبادل أخذاً وإعطاءً، الفرسان والمشاة في هذا الجيش الموت مع الأعداء

* * *

رَآني بِعينِ الجُودِ فانتَهَزَ التي ... طَلَبْتُ، ولم أفتحْ إليه بها فَمَا

رآني بعين سخائه فانتهز، أي استبق، طلبي قبل أن أطلب

ظَلَمْتُك إن لم أَجْزِكَ الشكرَ بعدَما ... جعلتَ إلى شُكرِي نَوالَكَ سُلَّما

جعلت عطاءك السلم والوسيلة لنيل شكري ومدحي

* * *

ويُخطِئُ عُذْرِي وَجْهَ جُرْمِيَ عندها ... فأَجْنِي إليها الذنبَ من حيث لا أَدري

اعتذر لها بشيء لا يتعلق بالذنب الذي أذنبته، فأحمل ذنباً آخر دون أن أدري

إذا أذنبَتْ أعدَدْتُ عذراً لذنبِها ... فإن سَخِطَتْ كان اعتِذاري مِنَ العُذْرِ

وعندما تذنب هي فأنا أتهيأ بعذر لها لأنها ستغضب وعليَّ أنا دائماً أن أعتذر، فإن سخطت من عذري كان علي أن أعتذر من هذا العذر.. كذا دلال الحبيبة

* * *

سَقى اللّهُ أياماً لنا لَسْنَ رُجَّعَاً وسَقْياً لِعَصرِ العَامِرِيَّةِ مِن عصرِ
لَيالِيَ أجْرَرْتُ البِطَالَةَ مِقوَدي تَمُرُّ الليالِي والشُّهورُ ولا أَدري

ليالِيَ، أي في ذلك الزمن، أجررت البطالة مقودي.. أعطيت اللهو المقود كي يذهب بي أنى شاء

* * *

وَاكَبِدَا! أَحرَقَ الهوى كَبِدي عِيلَ اصْطِباري، وخَانَني جَلَدي
أَعْشَبَ خَدِّي من البكاءِ، وقد أَوْرَقَ غصنُ الهوى على كبِدي

* * *

أَمُرُّ بِالحَجَرِ القاسي فأَغْبِطُهُ لِأَنَّ قلبَكَ عندي يُشبِهُ الحَجَرا

أغبطه: أحسده

أحْبَبْتُ مِن حبِّها مَن كان يُشبِهُها حتى لقد صِرْتُ أهوَى الشَّمسَ والقَمَرا

ولماذا «حتى»؟ كلنا نحب الشمس والقمر

* * *

وكمْ مِنْ مُعِدٍّ في الضميرِ لِيَ الأذى رآني فَألقَى الرُّعْبُ ما كان أَضْمَرا
هَداهُ لِقَصْدِ الحِلمِ جَهْلٌ جَهِلْتُهُ عليهِ، ولو حَالَمْتُهُ لَتَجَبَّرا

أرشده للتأني جهل جهلته، أي رعونة من جانبي وتهور، ولو كنت تلطفت به لتجبر

* * *

جَلَبْتُ لَكَ الثَّناءَ فَجاءَ عَفْواً حَيَاةً لِلمكارِمِ والمَعالي

أمدحك عفو الخاطر لأن في ذلك إحياء للمكارم وليس لغرض آخر

وتَرجِعُني إليك ـ وإن نأَتْ بي دِيارِي عنكَ ـ تَجْرِبَةُ الرِّجالِ

* * *

طَرَفْتُ عيونَ الغَانِياتِ، ورُبَّما أَمَلْنَ إليَّ الطَّرْفَ كُلَّ مَمِيلِ

الآن منظري يؤذي عيون الحسان كأنه يطرفها، وكن في الماضي يملن إلي بعيونهن إعجاباً

وما الشيبُ إلّا شَعرةٌ، غيرَ أنه قليلُ قَذاةِ العينِ غيرُ قليلِ

الشيب شيء صغير.. مجرد بياض في الشعر، ولكن القذاة في العين مؤذية وإن صغرت

* * *

ذَاكَ ظبيٌ تَحَيَّرَ الحُسنُ في الأَرْ   كانِ منهُ، وحَلَّ كلَّ مَكانِ
عَرَضَتْ دونَهُ الحِجَالُ فمَا يلْـ   ـقاكَ إلّا في النومِ أو في الأماني

حالت دون الوصول إليه الحجال، الستور، فلا تراه إلا في المنام أو الأمنيات

* * *

ألا يَا نخلةً بِالسَّفْـ   ـحِ مِنْ أكنافِ جُرجَانِ
ألا إنِّـي وإيَّاكِ   بِجُرْجَانَ غريبانِ

قالهما في جرجان بعيداً عن الوطن

٣ الجماجم تيجاناً

يمدح يزيد بن مزيد الشيباني:

أُجْرِرْتُ حبلَ خليعٍ في الصِّبا غَزِلِ   وشَمَّرَتْ هِمَمُ العُذَّالِ في العَذَلِ

أُجررتُ، أي تُرِكَ لي الحَبل لأصنع ما أشاء فكنت خليعاً، مستهتراً كأولئك الذي كانت تخلعهم قبائلهم وتتبرأ منهم، وكنت غزِلاً، أي متغزلاً بالنساء، وشمَّر العذال بهمة يلومونني

عاصَى العَزاءَ غداةَ البينِ مُنهَمِلٌ   من الدموعِ جَرى في إثرِ مُنهَمِلِ

عاصى العزاء، منع التعزي والنسيان، صبيحة الفراق الدمع المنهمر يجري بعضه إثر بعض

لولا مُداراةُ دمعِ العينِ لانكشفتْ   مِنِّي سَرائرُ لم تظهَرْ ولم تُخَلِ

ولولا أن داريت دمعي لانكشفت سرائر، مشاعر دفينة، لم يكن قط متوقعاً أن تظهر

ماذا على الدهرِ لو لانَتْ عَريكَتُهُ   ورَدَّ في الرأسِ مِنِّي سَكْرَةَ الغَزَلِ

ماذا يضيرك يا زمن لو لانت عريكتك، كنت ليناً لطيفاً معي، ورددت في رأسي ذلك الإحساس

قد كان دهري ـ وما بيِ اليومَ مِن كِبَرٍ ـ   شُرْبَ المُدامِ وعَزْفَ القَيْنَةِ العُطُلِ

كان زمني الماضي ـ ولست مسناً الآن ـ شرب الخمر والاستماع إلى القينة العطل، المغنية غير المحلاة بالعقود وربما أيضاً غير المحلاة بكثير من الثياب

إذا شكوتُ إليها الحبَّ خَفَّرَها   شَكوَايَ فاحمَرَّ خدَّاها مِنَ الخجلِ

خفرها: جعلها تخجل

فيِمَ المُقامُ وهذا النجمُ معترضاً   دَنَا النَّجاءُ وحانَ السيرُ فارتَحِلِ

لماذا أبقى هنا، فها قد اعترض النجم في السماء، وفي الليل يكون السفر لبرودته، وقد دنا النجاء، سير الإبل، فهيا للرحيل

يا مَائِلَ الرأسِ إنَّ اللَّيْثَ مُفترِسٌ مِيلَ الجَماجِمِ والأعناقِ، فاعتَدِلِ

يا مائل الرأس تيهاً وتكبراً.. الليث يفترس الرؤوس المائلة والأعناق فاعتدل

حَذارِ مِنْ أَسَدٍ ضِرغامَةٍ بطلٍ لا يُولِغُ السيفَ إلّا مُهجَةَ البطلِ

هذا الأسد لا يولغ السيف، لا يجعله يلغ أي يلعق، إلا في دم البطل من الأعداء

سَلَّ الخليفةُ سيْفاً مِنْ «بني مَطَرٍ» أقامَ قائِمُهُ مَنْ كانَ ذا مَيَلِ

سل الخليفة يزيد بن مزيد من بني مطر، سله سيفاً أقام قائمه، أي مقبضه، من كان مائلاً ومنحرفاً عن الحق

سَدَّ الثغورَ «يزيدٌ» بعدما انفَرَجَتْ بِقائِمِ السيفِ لا بِالخَتْلِ والحِيَلِ

سد يزيد الثغور، حمى الحدود، بعد أن انفرجت وانكشفت للعدو، وقد سدها بالقتال لا بالختل، الخداع والمفاوضات

يَغشَى الوَغَى وشِهابُ الموتِ في يدِهِ يرمِي الفَوارِسَ والأبطالَ بِالشُّعَلِ

يأتي المعركة وبيده سيف كشهاب يحمل الموت ويرمي به الأعداء

يَفْتَرُّ عند افْتِرارِ الحربِ مبتَسماً إذا تغيَّرَ وجهُ الفارِسِ البطلِ

عندما تفتر الحرب، تفتح ثغرها، فهو يفتر، يفتح فمه بابتسامة، بينما تتغير وجوه الأبطال وتكون عابسة

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كأنه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أَمَلِ

يأتي على مهج الناس، أي قلوبهم، في يوم ذي رهج، أي غبار، كأنه الأجل الذي يبدد أمل الأعداء

يَنالُ بِالرفقِ ما يَعيَا الرجالُ به كالموتِ مُستعجلاً يأتِي على مَهَلِ

بسرعة ولطف يحقق ما يعيا، يعجز عنه الرجال، فهو كالموت مستعجل ولكنه متمهل واثق

إن شِيمَ بارِقُهُ حالَتْ خَلائِقُهُ بينَ العطيَّةِ والإمْساكِ والعِلَلِ

إن شيم بارقه، اختبر برقه إن كان يحمل مطراً أم لا، حالت خلائقه، حالت طباعه، ووقفت حائلاً بين العطية من جهة وبين الإمساك والمنع والعلل، أي الحجج، من جهة أخرى. فطباعه تمنع التحجج والبخل من الوقوف في وجه السخاء. إن كنت رأيت بارقه وخلائقه، ومهج ورهج في البيت قبل السابق، وهذا الالتواء في التعبير باتخاذ شتى المحسنات فهذا هو مسلم بن الوليد الذي أسرف في البديع وفتح الطريق لأبي تمام كي يأتي ويجنن الناس

يَقْرِي المَنِيَّةَ أرواحَ الكُماةِ كما يَقْرِي الضيوفَ شُحومَ الكُومِ والبُزُلِ

يقري: يطعم الضيف، الكماة: المسلحون، الكوم: الجمال الكبيرة، البزل: الجمال التي بزلت أي خرجت أسنانها. يقول: يزيد يقدم الأعداء المسلحين طعاماً للموت، مثلما يطعم الضيوف شحم الجمال

يَكسُو السيوفَ دِماءَ الناكِثينَ بِهِ ويجعلُ الهَامَ تيجَانَ القَنا الذُّبُلِ

الذي ينكثون بالعهد ويثورون على الدولة يكسو سيوفه بدمائهم، ويجعل للقنا الذبل، أي الرماح المجففة، تيجاناً على أسنتها من هام، أي رؤوس الأعداء

يَغدُو فتَغْدُو المنايا في أَسِنَّتِهِ شَوارِعاً تَتَحَدَّى الناسَ بِالأَجَلِ

الموت يمشي معه في أسنة الرماح، والرماح شوارع، أي مشرعة ممدودة، تتحدى الناس بتقريب آجالهم

قد عَوَّدَ الطيرَ عَاداتٍ وَثِقْنَ بِها فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلِّ مُرْتَحَلِ

عود النسور عادات مؤكدة هي أنه سيقتل الأعداء،
فالجوارح تتبعه في كل ارتحال له كي تأكل من الجثث

تَراهُ في الأمنِ في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ لا يأْمَنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَلِ

حتى في حال الأمن يكون لابساً درعاً مضاعفة النسج، فهو الدهر، أي طول الدهر، لا يأمن من أن يستدعَى على عجل للقيام بمهمة

فافْخَرْ فمَا لَكَ في شَيْبَانَ مِنْ مَثَلٍ كذاكَ ما لِبَني شَيْبَانَ مِنْ مَثَلِ
للَّهِ مِنْ «هاشِم» في أرضِهِ جبلٌ وأنتَ وابْنُكَ رُكْنا ذلكَ الجبلِ

لبني هاشم، ومنهم العباسيون، جبل متين في حكمهم، ويزيد وابنه ركنا هذا الجبل، قمتان فيه

يا رُبَّ مَكْرُمَةٍ أصبحتَ واحِدَها أَعْيَتْ صَناديدَ رَامُوها فلم تُنَلِ

الصناديد: الشجعان، راموها: حاولوا نيلها

تَشاغَلَ الناسُ بِالدُّنيا وزُخْرُفِها وأنتَ مِنْ بَذْلِكَ المَعروفَ في شُغُلِ
صَدَّقْتَ ظَنِّي وصَدَّقْتَ الظُّنونَ بِهِ وحَطَّ جُودُكَ عَقْدَ الرَّحْلِ عن جَمَلي

صدقت ظني بسخائك، وصدقت ظنون الآخرين بظني، فهم سينالون مني بعض ما أعطيتني.
وجودك جعلني أنزل الرحل عن جملي، إذ لن أحتاج للرحيل والبحث عن رزق آخر فقد كفيتني

٤ راكب الليل ومركوبه

سَلِ الناسَ إنِّي سائلُ اللَّهِ وَحدَهُ وصائِنٌ عِرضي عن فُلانٍ وعنْ فُلِ

نحن اليوم نقول فلان وعلان

إذا رَكِبَ الليلُ الضِّعافَ رَكبتُهُ زَميلِي السُّرَى والرِّدْفُ عَزمِي ومُنْصُلي

الليل يركب بهمومه الضعاف، فأما أنا فأركبه ويزاملني السرى، أي سير الليل، ويكون ردفي، أي رفيقي الذي أردفه خلفي، العزم والمنصل، أي نصل السيف

وقد عَجَمَتْ مِنّي الخُطوبُ ابنَ هِمَّةٍ   متى ما تُرِيهِ مَنزِلَ السُّوءِ يَرْحَلِ

لقد عجمت، أي جربت، الخطوب في شخصي ابن همة، صاحب طموح، متى أرته الخطوب منزلاً يسيء إليه فسرعان ما يرحل

بَلَغْنا «بِسَهْلٍ» ثَرْوَةً وَوسيلَةً   إلى وَفْرِ مالٍ وَاسعٍ وتَفَضُّلِ

حصلنا من سهل على ثروة و«واسطة» تقربنا من الخليفة مما سيعود علينا بوفر وفضل كبيرين

فتًى كَرَمٍ يُعطي وإن قَلَّ مَالُه   ولا يَتَّقي طُلَّابَهُ بالتَّعَلُّلِ

يعطي المال حتى وإن قل بيده، ولا يتقي طلابه، لا يحتمي من طالبي العطاء، بالتعلل، بالتحجج

ولَستُ بِهَجَّاءٍ إذا السَّيْبُ رَاثَني   ولا حَامِلٍ مَدحي على غيرِ مَحْمَلِ

ولست هاجياً إذا السيب، العطاء، راثني، تأخر علي، ولست أحمل مدحي على محمل العتاب مثلاً أو الوعيد المبطن

٥ الماشي في الوحل

أَدِيرا عليَّ الراحَ لا تَشْرَبا قَبلي   ولا تَطْلُبا مِنْ عندِ قَاتِلَتي ذَحْلِي

يخاطب صاحبيه: أديرا علي كؤوس الخمر ولا تشربا قبلي، وأنتما تعلمان أن هذه الفاتنة ستقتلني بحبها فلا تطلبا عندها ذحلي، أي ثأري

أُحِبُّ التي صَدَّتْ وقالتْ لِتِرِبِها: دَعِيهِ! الثُّرَيَّا منهُ أَقْرَبُ مِنْ وَصْلي!

أحبها وهي تصد عني وتقول لتربها، أي رفيقتها، اتركيه فنجوم الثريا أقرب إليه من وصلي

أَمَاتَتْ وأَحْيَتْ مُهْجَتي، فَهْيَ عندَها   مُعَلَّقَةٌ بينَ المَواعيدِ والمَطْلِ

أماتتني وأحيتني، فمهجتي، أي قلبي، معلقة بين المواعيد، والمطل، التسويف

وما نِلْتُ منها نائلاً غيرَ أَنَّني   بِشَجْوِ المُحِبِّينَ الأُلَى سَلَفُوا قَبْلي

لم أنل منها شيئاً.. وقد خرجت من هذه العلاقة بشجو، أي حزن، المحبين الذين سبقوني، يشير على الأغلب إلى مشاهير العشاق الذين أحبوا ولم ينالوا شيئاً، ولعله يشير إلى محبي هذه الفتاة الذين خرجوا من حبهم لها بلا طائل ولا نائل

كَتَمْتُ تَباريحَ الصَّبابَةِ عَاذِلي   فلم يَدْرِ ما بي فاسْتَرَحْتُ مِنَ العَذْلِ

كتمت تباريح، آلام، الصبابة، العشق، عن العاذل اللائم فاسترحت من لومه

ومَانِحَةٍ شُرَّابَها المُلْكَ قَهْوَةٍ   مَجُوسِيَّةِ الأَنْسَابِ مُسلِمَةِ البَعْلِ

ورب قهوة، خمر، تمنح شاربيها شعوراً بأنهم ملوك، وهي مجوسية الأنساب، قد بدأ تعتيقها أيام عز فارس في ظل المجوسية، ولكن شاريها وشاربها مسلم فهو بعلها الذي ملكها وتزوجها

رَبِيبَةِ شَمْسٍ لم تُهَجَّنْ عروقُها   بِنارٍ، ولم يُقْطَعْ لها سَعَفُ النَّخْلِ

الخمر ربيبة شمس، نضج عنبها في كرومه فهي ابنة الشمس، ولم تهجن بالنار، لم يعبها الطبخ بالنار.. وكانوا ربما ساعدوا في تفكيك العنب بطبخه مع عروقه قبل تعتيقه، فهذا يعطيك طعم مزازة زائداً من عصارة العروق، وأما الخمر الجيدة فيعصرون عنبها عصراً رفيقاً فلا يتسلل طعم العروق إلى الخمر؛ ولم يقطع سعف النخل لجني ثمارها، فهي ليست نبيذ التمر الذي أحله بعض فقهاء العراق، بل خمر العنب

تَصُدُّ بِنفسِ المرءِ عمَّا يَغُمُّهُ   وتُنْطِقُ بالمعروفِ أَلْسِنَةَ البُخْلِ

تبتعد بالنفس عن الغموم وتجعل لسان البخيل ينطق بالمعروف، السخاء

بَعثْنا لها منَّا خطيباً لِبُضْعِها   فجاءَ بها يَمشي العِرَضْنَةَ في مَهْلِ

بعثنا رجلاً كي يخطب بُضعها، يطلب يدها.. والبضع فرج المرأة يستحله الرجل بالزواج، فجاء بها مفتخراً يمشي العرضنة، مشية المفتخر المتمايلة

مُعَتَّقَةً لا تَشْتَكي وَطْءَ عَاصِرٍ   حَرُورِيَّةً في جوفِها دَمُها يَغلي

معتقة، ولم تعانِ من دوس العاصر برجليه، فخير الخمر ما سال عصير عنبها قبل الدوس بالأرجل، وهي حرورية، متهيجة كالرجل الحروري أي الخارجي المتحمس للقتال، وكأن دمها يغلي

أَقامَتْ لنا الصَّهْباءُ صَدْرَ قَناتِها   ومَالَتْ علينا بِالخَديعَةِ والخَتْلِ

أقامت لنا صدر قناتها، أي رمحها، فكأنها المحارب يرفع الرمح عالياً ولا يصوبه تصويباً.. فكأنه يطلب المهادنة، لكنها مالت علينا بعد ذلك بالخديعة والختل، الخداع، فصرعتنا دون طعن

إذا ما عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةَ شَارِبٍ   تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ المُقَيَّدِ في الوَحْلِ

إذا ركبت ذؤابة الشارب، أي أعلاه.. أي لعبت برأسه، فهي تجعله يمشي مترنحاً كأنه الرجل الذي في ساقيه قيد ويمشي في الوحل. تعجب هارون الرشيد من هذا البيت وقال لمسلم: ما أرضاك أن قيدته حتى جعلته يمشي في الوحل

وسَاقِيَةٍ كَالرِّيمِ هَيفاءَ طَفْلَةٍ   بَعيدةِ مَهْوَى القُرْطِ مُفْعَمَةِ الحِجْلِ

رب ساقية كالريم، الغزال، هيفاء، ضامرة البطن، طفلة، طرية بضة، بعيدة مهوى القرط، قرطها الذي يزين أذنها إذا هوى فهو يهوي مسافة حتى يصل إلى كتفها.. كناية عن طول عنقها، مفعمة الحجل، مليئة الخلخال، أي أنها غليظة الساق

تَنَزَّهُ طَرْفي في مَحاسِنِ وَجْهِها   إذا احتُثَّتِ الطَّاسَاتُ يُغْني عن النُّقْلِ

تنزه نظري في جمال وجهها عندما نسرع بشرب الكؤوس يغنيني عن النقل، المازة.. أي ما يرافق الشرب من خفيف المآكل

هلِ العيشُ إِلّا أن أَرُوحَ معَ الصِّبَا وأَغْدُو صَريعَ الرَّاحِ والأَعْيُنِ النُّجْلِ؟

هل لذة العيش سوى أن أروح، أُمسي، مع الصبا، اللهو، وأن أغدو، أُصبح، صريعاً للخمر وللأعين النجل، الواسعة؟ سمع الرشيد البيت فقال لمسلم بن الوليد: فأنت صريع الغواني. والتصق به اللقب

٦ القاتلة الماكرة

وساحِرَةِ العيْنينِ ما تُحْسِنُ السِّحْرا تُواصِلُني سِرّاً وتَقْطَعُني جَهْرا

هي ليست ساحرة حقاً لكن عينيها تسحرانني، وهي تواصلني في السر وتصد في العلن

أَتَتْني على خوفِ العيونِ كأنَّها خَذُولٌ تُراعي النَّبْتَ مُشْعَرَةٌ ذُعْرَا

أتتني تسللاً خوفاً من الرقباء، فكأنها ظبية خذول، متخلفة عن القطيع، تأكل العشب وهي تشعر بالذعر لانفرادها

إذا ما مَشَتْ خَافَتْ نَميمَةَ حَلْيِها تُداري على المَشْيِ الخَلاخِيلَ والعِطْرا

تخاف أن ينم ما تلبس من الحلي عليها إذ تمشي، فهي تتحسب من صوت الخلاخيل ومن فوحان عطرها

فَبِتُّ أُسِرُّ البَدْرَ طَوْراً حديثَها وطَوْراً أُناجي البَدْرَ أَحْسَبُها البَدْرا

بت وأنا أكلمها مخفياً حديثي عن القمر، ثم بعد ذلك أكلم البدر نفسه وأنا أظن البدر محبوبتي. بيت مصنوع جئنا به كي نريك ما الذي بدأ يصنعه مسلم بن الوليد بالشعر

وبِنْتِ مَجُوسِيٍّ أَبُوها حَلِيلُها إذا نُسِبَتْ لم تَعْدُ نِسبَتُها «النَّهْرا»

رب خمرة كأنها ابنة لهذا المجوسي إذ هو يربيها بتعتيقها، وأبوها هو حليلها، زوجها، فهو قد اشتراها وأصبحت ملكه.. واعتقد المسلمون أن الرجل عند المجوس يحل لنفسه الزواج بابنته.. ونسبة هذه الخمر هي النهر، فهي تنتسب إلى ماء النهر الذي سقاها.. أو أن النهر اسم موضع قريب. تفسير آخر من الشارح القديم، أبي العباس الطبيخي: هذه الخمر أبوها الذي سقاها في كرومها هو الماء، والماء هو حليلها الذي تمزج به قبيل شربها

أَخَصُّ النَّدامَى عندها وأَحَبُّهُمْ إليها الذي لا يعرفُ الظُّهْرَ والعَصرا

تحب الخمر النديم الذي يقعد لها ولا يصلي

بَعثتُ لها خُطَّابَها فَأَتَوْا بها وسُقْتُ لها عنهُمْ إلى رَبِّها المَهْرا

خطبتها من عند بائعها ودفعت المهر

وما زالَ خَوفاً منهُمُ في جُحُودِها يُقَرِّبُهُمْ فِتراً ويُبْعِدُهُمْ شِبرا

وكان الذين ذهبوا للإتيان بها يخشون أن تجحدهم وترفض طلبهم، وكان خوفهم يقربهم فتراً ويبعدهم شبراً وهم ذاهبون مترددين لجلبها

إلـى أنْ تَـلاقَـوْهـا بِـخَـاتِـمِ رَبِّـهـا مُـخَدَّرَةً قد عُتِّقَتْ حِـجَجاً عَشْرا

ثم وجدوها مختومة بخاتم ربها، كأنها البنت البكر، وهي مخدرة، محجوبة كالمرأة، وقد عتقت عشر سنين

إذا مَسَّـهـا الـسـاقـيِ أعَـارَتْ بَـنَـانَـهُ جَلابيبَ كالجَادِيِّ مِنْ لونِها صُفْرا

يمس الساقي الكأس فترتدي أصابعه جلابيب صفراً كالجادي، أي الزعفران.. فالخمر تعكس لونها على أصابعه

قُلُوبُ النَّدامَى في يَدَيْها رَهِينَةٌ يَصِيدُونَها قَهْراً، وتقتُلُهُمْ مَكْرا

قلوب الشاربين مرهونة للخمر وهم يصيدونها بالقوة بشرائها،
وهي تقتلهم بالمكر إذ تتسلل إلى رؤوسهم

ودَارَ بِـهـا ظَـبْـيٌ مِـنَ الإنْـسِ نَـاعِـمٌ تَـرُودُ عُـيـونُ الـشَّـرْبِ جَـانِـبَـهُ شَـزْرَا

يدور بكؤوس الخمر ظبي إنسي، أي فتاة، وينظر الشرب، أي الشاربون، إلى الساقية شزراً، بأطراف عيونهم، يسترقون النظر استراقاً. قد نيفت على الستين، ولكنني لم أصلْ بعد إلى أن أقول ما قاله ونستون تشرتشل وهو عجوزٌ فانٍ لإحدى الجميلات في حفل، قال لها: وجهك جميل جداً هل تضيقين بأن أحدق فيك؟ ما زلت مثل مسلم بن الوليد أسترق النظر استراقاً

٧ رسالة الخمر إلى الضمير

لا تَـسْـقِـنـي الـمـاءَ الـقَـراحَ، وهَـاتِـهـا عـذراءَ صـافِـيَـةَ الأديـمِ شَـمُـولا

لا تسقني الماء الصافي، وأعطني خمراً عذراء قد فُض دنها للتو، صافية الأديم، والأديم الجلد.. فخمره ليست بها شوائب، وهي شمول باردة

بَعـثَـتْ إلـى سِـرِّ الـضـمـيـرِ فـجـاءَهـا سَـلِـسـاً عـلـى هَـذْرِ الـلِّـسَـانِ مَـقُـولا

ترسل الخمر رسالة إلى الضمير، ما يخفيه الإنسان، فتأتيها الأسرار سلسة يقولها اللسان

لَـطُـفَ الـمِـزَاجُ لَـهـا فَـزَيَّـنَ كـأْسَـهـا بِـقِـلادَةٍ جُـعِـلَـتْ لـهـا إكـلـيـلا

بمزجها بالماء أصبحت ألطف على الحلق، وتزين كأسها بقلادة من الفقاقيع جاءت كالإكليل على أعلى الكأس

لـو أنَّ قـومـاً يُـخْـلَـقُـونَ مَـنِـيَّـةً مِـنْ بِـأْسِـهِـمْ كـانـوا «بـنـي جِـبـريـلا»

ينصرف إلى المديح: لو أن قوما خلقهم الله موتاً للأعداء لشدة قوتهم وبأسهم لكانوا بني جبريل

قومٌ إذا حَـمِـيَ الـهَـجـيـرُ مِـنَ الـوَغـى جعلوا الجَمَاجِمَ لِلسيوفِ مَقِيلا

إذا حمي الهجير، القيظ.. الشمس، في الوغى، المعركة، فإن السيوف يكون قد حان وقت قيلولتها.. وهي تجد المقيل، مكان قيلولتها، في رؤوس الأعداء

إذ لا حِمَى إلَّا الرِّماحُ وبينَها   خَيْلٌ يَطَأْنَ بِقاتِلٍ مَقْتُولا

ولا مكان يحتمي به المرء إلا في ظل الرماح، وبين الرماح ثمة خيول تطأ المقتولين وعلى صهواتها يركب القاتلون

٨ السيوف الراضية

لولا سيوفُ «أبي الزُّبَيْرِ» وخيلُهُ   نَشَرَ «الوَليدُ» بِسَيْفِه «الضَّحَّاكَا»

لولا سيوف وخيول أبي الزبير، يزيد بن مزيد، لكان الوليد بن طريف الشاري ذلك المتمرد على الدولة قد نشر، أي بعث من القبر، ذلك العاصي القديم الضحاك الخارجي الذي تمرد على الأمويين وقُتل في زمن مروان الثاني

رَضِيَتْ سيوفُكَ عنكَ يومَ لَقِيتَهُمْ   وأَجَبْتَ دَاعِي الموتِ حين دَعَاكا

كنت شجاعاً وأرضيت سيوفك، وخضت المعركة غير عابئ بالموت. وقد قتل يزيد بن مزيد الوليد بن طريف ورثته أخته بقصيدة «شجر الخابور»، وشرحنا الحلو من أبياتها في كتابنا «أول الشعر»

إن الرِّفَاقَ أَتَتْكَ تلتمسُ الغِنَى   والبحرُ لو يَجِدُ السبيلَ أَتاكا

يأتونك يلتمسون المال، وأنت بحر سخاء،
ولكن البحر نفسه كان سيأتيك التماساً لعطائك لو استطاع

٩ نظرات المحبين

أَدِيرِي عليَّ الراحَ سَاقِيَةَ الخَمْرِ   ولا تَسأَلِيني واسْأَلِي الكأْسَ عن أمري

ستخبرك الخمر بكل أموري.. فعندما أسكر أبوح بكل شيء

كأنَّكِ بي قد أَظهَرَتْ مُضْمَرَ الحَشَا   لَكِ الكأسُ حتى أَطلَعَتْكِ على سرِّي

جعلْنا علاماتِ المودَّةِ بيننا   مَصَايِدَ لَحْظٍ هُنَّ أَخْفَى مِنَ السِّحْرِ

أصطاد الحبيبة وتصطادني بالنظرات الخفية خفاء أسرار السحر

فأَعْرِفُ منها الوصلَ في لِينِ طَرْفِها   وأعرفُ منها الهجرَ بِالنَّظَرِ الشَّزْرِ

إذا نظرت نظرات لينة فهذا بشير بالوصل، وإذا نظرت من جانب العين، شزراً، فهذا نذير بالهجر

وفي كُلِّ يومٍ خَشْيَةٌ من صُدُودِها   أَبِيتُ على ذنبٍ وأَغْدُو على عُذْرِ

في كل يوم خوف من صدودها عني، أبيت شاعراً بالذنب، وأغدو،
أي أصبح صباحاً، وأنا متهيئٌ بعذر

١٠ السخي المقتدر والسخي الهيوب

خُـذْ مِـنْ شَـبـابِـكَ لـلـصِّـبَـا أَيَّـامَـهُ هل تستطيعُ اللَّهْوَ حين تَشيبُ؟

الصبا: اللهو

وإذا الـزمـانُ عَـدا عـلـيـكَ كَـفـاكَـهُ مِـنْ آل سَـعْـدانٍ أَغَـرُّ نَـجـيـبُ

إذا ضامك الزمن فإن سيداً أغر، وجيهاً أبيض مشهوراً، نجيباً من آل سعدان سيكفيك ضيمه

يُـعـطِـيـكَ مُـقْـتَـدِراً عـلـى أمـوالِـهِ لا كـالـذي يُـعـطـيـكَ وَهْـوَ هَـيُـوبُ

١١ خلق من الريح

دَلَّتْ على عيبِها الدنيا وصَدَّقَها ما اسْتَرجَعَ الدهرُ مِمَّا كان أعطاني

الدنيا دلتني بنفسها على عيبها، وأبرز لي صدقها استرجاع الدهر ما كان أعطانيه من شباب وسرور. زعم مسلم أنه أخذ معنى بيته هذا من التوراة

إمَّا تَـرَيْـنـي أُزَجِّـي الـعـيِـسَ منـتَـظِـراً وَعْدَ المُنَى أَرْتَعِي في غيرِ أَوْطاني..

إن تري أنني الآن أزجي العيس، أدفع بالنياق إلى بلد غريب، وأقعد فيه أنتظر العطاء، وأنا أرتعي، أرتزق بالكفاف، في غير وطني..

فـقـد أَرُوحُ نَـديـمَ الـدهـرِ يَـمْـزُجُ لـي كـأسَ الـهـوى ويُـحَـيِّـيـنـي بِـرَيْـحـانِ

.. فقد كنت في الماضي راضياً عن الزمن، وكان الزمن نديمي ويمزج لي الخمر في كأس الهوى، ويحييني بعروق الريحان كما يحيي الندماء بعضهم بعضاً

أَيَّـامَ لِـلْـعَـذْلِ إكـثـارٌ ومَـعـصِـيَـةٌ والـراحُ تُـسْـرِعُ في عقـلـي وأَحـزانـي

أيامئذ كان اللوم كثيراً وكنت أعصي اللائمين وأستمر في لهوي، والخمر تسرع في مسح عقلي ومسح أحزاني

ولـيـلـةٍ مـا يَـكـادُ الـنـجـمُ يَـسْـهَـرُهـا سـامـرْتُـهـا بِـقَـتُـولِ الـدَّلِّ مِـفـتَـانِ

رب ليلة طويلة لا يكاد النجم نفسه يسهرها، وقد سامرتها بفتاة قتول الدل، مغناج، مفتان، فاتنة

فـالآنَ أقـصَـرْتُ إذْ رَدَّ الـزمـانُ يَـدي ونَـافَـرَتْـنـي الـلَّـيـالـي بـعـد إذْعَـانِ

الآن أقصرت، كففت، فقد رد الزمان يدي، كفها عن اللهو، ونافرتني الليالي، عاداني الزمن، بعد أن كان مذعناً مطيعاً لي

إلـى الإمـامِ تَـهَـادَانـا بِـأَرْحُـلِـنـا خَلْقٌ مِنَ الرِّيحِ في أَشْبَاحِ ظُلْمَانِ

تتهادانا بأرحلنا، تأتي بنا نحن ومتاعنا، إلى الإمام، الخليفة هارون الرشيد، خلق من الريح، إبل كأنها مخلوقة من الريح لسرعتها، ولكنها إبل مهزولة لطول السفر فكأنها أشباح ظلمان، والظلمان جمع ظليم وهو ذكر النعام

لم يُغْمِدِ السيفَ مُذْ نيطَتْ حَمائِلُهُ   يوماً ولا سَلَّهُ إلّا على جَانِ
لم يغمد الخليفة سيفه في قرابه منذ أن عُلقت حمائله بكتفه، ولم يسله إلا لمعاقبة أحد الجناة

١٢ لا سراويلات

ويوم مِنَ اللذَّاتِ خالَسْتُ عَيْشَهُ   رَقيباً على اللذَّاتِ غيرَ مُغَفَّلِ
رب يومٍ خالست عيشه رقيباً، سرقت العيش في لذاته سرقةً من رقيب، وكان الرقيب منتبهاً غير مغفل غير أنني غافلته

فكنتُ نَديمَ الكأسِ حتى إذا انقضَتْ   تَعوَّضْتُ عنها رِيقَ حَوْراءَ عَيْطَلِ
وصاحبت كأس خمر، حتى إذا نفدت الخمر، استعضت عنها بريق فتاة حوراء، شديدة سواد العينين في شدة بياض، وهي عيطل أي غير مرتدية الحلي لاستغنائها عنها بجمالها

نَهانيَ عنها حُبُّها أن أَسُوءَها   بِلَمْسٍ، فلم أَفْتِكْ ولم أَتَبَتَّلِ
لحبي للفتاة لم أتمادَ معها لمساً، فلم أكن فاتكاً معتدياً.. لكنني لم أكن متبتلاً شديد التعفف

أخذتُ لِطَرْفِ العينِ منها نصيبَهُ   وأَخْلَيْتُ مِنْ كَفِّي مَكانَ المُخَلْخَلِ
أخذت لعيني نصيبها من النظر، لكنني أخليت كفي، منعتها، من مكان الخلخال.. أي لم ألمس للفتاة ساقاً

سَقَتْني بِعيْنَيْها الهوى وسقيتُها   فدَبَّ دبيبَ الراحِ في كلِّ مَفْصِلِ
الهوى دب في جسمينا وتغلغل كما تدب الخمر بعد أن تساقيناه بالعيون

وإنْ شئتُ أن أَلْتَذَّ نَازَلْتُ جيدَها   فعانقْتُ دونَ الجيدِ نَظْمَ القَرَنْفُلِ
كنت أنازل، أغالب وأصارع عنقها، وأعانق تحت العنق العقد المنظوم من القرنفل

أنازِعُها سِرَّ الحديثِ وتارةً   رُضَاباً لذيذَ الطَّعْمِ عَذْبَ المُقَبَّلِ
أنازعها، أبادلها، الحديث الحلو، وأحياناً الرضاب، الريق اللذيذ من المقبل العذب، والمقبل هو الثغر أي الشفتين

١٣ الريح الحَيْرى

وقال يمدح داود بن يزيد بن حاتم بن خالد بن المهلب:

لا تَدْعُ بي الشوقَ إنِّي غيرُ مَعْمُودِ   نَهى النُّهَى عن هَوى الهِيفِ الرَّعَادِيدِ
لا تقل يا صاحبي إنني ذو شوق، فأنا غير معمود، غير عاشق، وقد نهاني النهى، أي العقل، عن حب الفتيات الهيف، جمع هيفاء، الرعاديد، المرتجات المؤخرات

لا أَجمَعُ الحِلْمَ والصَّهْباءَ، قد سَكَنَتْ   نَفسي إلى الماءِ عن ماءِ العَناقِيدِ

لا أجمع ما بين حلمي ووقاري وبين الخمر، وقد سكنت نفسي ورضيت بالماء بديلاً عن ماء العنقود، أي الخمر

لم يَنْهَني فَنَدٌ عنها ولا كِبَرٌ   لكنْ صَحَوْتُ وغُصْني غيرُ مَخْضُودِ

ليس الذي نهاني عن الخمر الفند، أي اللوم، ولا الكبر في السن.. لكنني صحوت وتركتها وغصني غير مخضود، مكسر ضعيف، فقد تركتها في عنفواني

ومَجْهَلٍ كاطِّرادِ السيفِ مُحْتَجِزٍ   عن الأدِلَّاءِ مَسْجُورِ الصَّيَاخِيدِ

ورب مجهل، خلاء.. مفرد مجاهل، أملس صحراوي كأنه امتداد السيف الصقيل، وهو محتجز عن الأدلاء، حتى الدليل المرشد يكون محتجَزاً غير قادر على الاهتداء به، وهذا القفر مسجور الصياخيد، أي مشتعل الصخور لشدة الحر

تَمشي الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً   حَيْرَى تَلُوذُ بِأَكْنافِ الجَلامِيدِ

تمشي الرياح فيه حسرى مولهة، متعبة حزينة، حائرة، وهي تلجأ إلى أكناف، جهات، الجلاميد، أي الصخور.. فلا شجر ولا بشر في هذا القفر فالريح لا تجد أغصاناً تلاعبها فكأنها تكتفي بالتمسح بأطراف الصخور

قَرَيْتُهُ الوَخْدَ مِنْ خَطَّارَةٍ سُرُحٍ   تَفْرِي الفَلاةَ بِإِرْقَالٍ وتَوْخِيدِ

قريته، قدمتُ لهذا القفر، الوخد، السير السريع، من ناقة خطارة سرح، مشاءة خفيفة، تفري الفلاة، تقطع الصحراء، بالإرقال والتوخيد، وهما نوعان من سير الإبل

إلى بَني حَاتِمٍ أَدَّى رَكَائِبَنا   خَوْضُ الدُّجَى وسُرَى المَهْرِيَّةِ القُودِ

خوض الدجى، الليل، والسرى، سير الليل، على ظهور المهرية القود، الإبل الكريمة الذلول المطيعة، أدى بركائبنا ومطايانا وأوصلها إلى بني حاتم

لَمَّا نَزَلْتَ على أدنَى بِلادِهِمُ   أَلْقَى إليكَ الأَقَاصِي بِالمَقَالِيدِ

يخاطب الممدوح داود المهلبي: لما نزلت في أول بلاد العدو فإن أقصى هذه البلاد ألقى إليك بالمقاليد، المفاتيح، فسلموا لك خوفاً

لَمَسْتَهُمْ بِيَدٍ لِلعَفْوِ مُتَّصِلٍ   بِها الرَّدَى بينَ تَلْيِينٍ وتَشْدِيدِ

لمستهم بيدك التي تحمل العفو عنهم، لكن هذه اليد تعرف كيف تقتل أيضاً، وكنت ذا حيلة تمارس اللين والشدة

تَجُودُ بِالنفسِ إذْ أَنْتَ الضَّنينُ بِها   والجودُ بِالنفسِ أَقْصَى غايةِ الجُودِ

تجود بنفسك في المعركة غير خائف من الموت، في حين أنت ضنين بنفسك، حريص عليها، وهذا منتهى السخاء

إذا عَزَمْتَ على أَمْرٍ بَطَشْتَ به وإن أَنَلْتَ فَنَيْلاً غيرَ تَصْرِيدِ

إذا حسمت أمرك فأنت تأخذ الأمور غلاباً وببطش، وإن أعطيت الناس فأنت تجعلهم ينالون العطاء بغير تصريد، بدون تقليل وتقتير

عَوَّدْتَ نفسَكَ عَاداتٍ خُلِقْتَ لها صِدْقَ الحديثِ وإنجازَ المواعيدِ

١٤ يا ليت ماء الفرات يخبرنا..

أيا سُرورٌ وأنتَ يا حَزَنُ لِمْ لَمْ أَمُتْ حينَ سارتِ الظُّعُنُ

أيها السرور وأيها الحزن لماذا لم أمت عندما سارت الظعن، النساء الراحلات

أطالَ عمرِي؟ أمْ مُدَّ في أَجَلي أم ليس في الظاعنينَ لي شَجَنُ؟

هل لأن عمري طويل بقضاء وقدر، أم مد الله في أجلي كي أرى رحيلهم؟ أم أنني لا أشعر بحزن

يا ليتَ ماءَ الفُراتِ يُخبِرُنا: أينَ تَوَلَّتْ بِأهلِها السُّفُنُ؟

ألنا وحدي الذي يرى في هذا البيت جمالاً وفتنة؟

ما أحسَنَ الموتَ عند فُرْقَتِهِمْ وأقبحَ العيشَ بعدما ظَعَنُوا

ظعنوا: رحلوا

هَذي الحَماماتُ إن بَكَتْ وَدَعَتْ أَسْعَدَها في بكائِها الفَنَنُ

الحمام إذ يبكي ويدعو، أي ينادي.. وقيل الحمام ينادي ابناً له ضاع منذ سنين، أسعدها الفنن، أي ساعدها الغصن بحركته وميلانه بها

فمَنْ على صَبْوَتي يُسَاعِدُني إذا جَفَاني الحبيبُ والسَّكَنُ؟

فمن يساعدني على صبوتي، عشقي، وقد تركني الحبيب الذي كنت أسكن إليه؟

عَذَّبَني حُبُّ طَفْلَةٍ عَرَضَتْ فيها وفي حبِّها لِيَ الفِتَنُ

عذبني حب فتاة طفلة، طرية بضة، وكان لي فيها وفي حبها فتنة

إذا دَنَتْ للضَّجيعِ لَذَّ له منها اعتِناقٌ ولَذَّ مُحْتَضَنُ

يستمتع النائم بجانبها بالعناق وبالضم

كَحلاءُ لم تَكْتَحِلْ بِكَاحِلَةٍ وَسْنَانَةُ الطَّرْفِ ما بِها وَسَنُ

كحلاء بكحل رباني، وطرفها وسنان، أي فاتر، وليس بها وسن، أي نعاس

قيلَ لها إنَّهُ أَخُو كَلَفٍ بِحُبِّكُمْ هَائمٌ ومُفْتَتَنُ

قيل لها إنني صاحب كلف، غرام، ومفتون بها

فَأعرَضَتْ للصُّدودِ قائلةً: يقولُ ما شاءَ، شاعِرٌ لَسِنُ

فصدت وقالت: فليقل ما شاء فهو شاعر ذلق اللسان

ما كانَ فيما مضَى بِمُؤتَمَنٍ على هَوانا فكيفَ يُؤتَمَنُ؟

لم يكن في السابق مؤتمناً على حبنا، فلا نأتمنه الآن

١٥ دوام ليلي

وقال يمدح زيد بن مسلم الحنفي من وائل:

إذا شئتُما أن تسقياني مُدامةً فلا تقتُلاها، كلُّ مَيْتٍ مُحرَّمُ

لا تقتلا الخمر، بمزجها بالماء، فالميتة، أي الذبيحة التي ماتت قبل ذبحها، يحرم تناولها

وقافيةٍ أحييتُ في أَخَواتِها وفيها نجومَ الليلِ والناسُ نُوَّمُ

رب قصيدة أحييت فيها الليل ساهراً أنظمها

بَعثتُ لها قلباً ذكياً وفِطنةً وقولَ لِسانٍ صادقٍ ليس يُفْحَمُ

فلمَّا أَتَتْني مُستقيماً قَريضُها مُثَقَّفَةَ البُنيَانِ والأُسُّ مُحْكَمُ..

لما جاءتني القصيدة وقريضها، شعرها، مستقيم، وبنيانها مثقف، مشذب، وأساسها محكم متين..

حَبَوْتُ بها زَيْداً فَزَيَّنْتُ ذِكْرَهُ كما زَيَّنَ السِّلْكَ الجُمانُ المُنَظَّمُ

حبوت بها زيداً، أهديتها إليه، فزينت ذكره وسمعته مثلما يزين اللؤلؤ المنظوم السلك الذي يسلكونه فيه

إذا القَرْمُ زيدٌ لم يَقِفْكَ على النَّدَى فمُتْ، فالنَّدَى مِنْ غيرِ زيدٍ مُحَرَّمُ

إذا القرم، السيد، زيد لم يقفك على الندى، لم يعرفك بالسخاء، فمت بلا ارتزاق، فالسخاء محرم على غير زيد، ولا يحسنه أحد كزيد

١٦ سكر وعبث

لقد تَركَ الوجدُ نفسي بها تموتُ مِراراً وتحيا مِرارا

الشغف بالمحبوبة جعلني أموت وأحيا مراراً بين الحزن والأمل

كلانا محبٌّ ولكنني على الهجرِ منها أقلُّ اصطِبارا

أنا أقل صبراً منها على البعد

شربتُ ونادَمَني شادِنٌ صغيرٌ، وإني أحبُّ الصِّغارا

شادن: صغير الظبي

فـمـا زِلْـتُ أَسـقـيـهِ حـتـى إذا ثَـنَـى طَـرْفَـهُ نَـشْـوَةً واسْـتَـدارا
سقيتها حتى ثنت طرفها، أي مالت بعينيها، من النشوة، النشوة هي السكر، واستدارت

نَـهَـضْـتُ إلـيـه فَـقَـبَّـلْـتُـهُ وعـانَـقْـتُـهُ وحَـلَـلْـتُ الإِزَارا
الإزار: الثوب دون الخصر

١٧ الواثقة برأسمالها

وقـد قـالـتْ لِـبـيـضٍ آنِـسـاتٍ يَـصِـدْنَ قُـلُـوبَ شُـبَّـانٍ وشـيـبِ:
قالت لزميلاتها البيض الآنسات، الوديعات، اللائي يصدن قلوب الشباب والكهول:

أنـا الشمسُ الـمُـضـيِـئَـةُ حين تَبدو ولـكـنْ لـسـتُ أُعـرَفُ بِـالـمغـيـبِ
أنا شمس، ولكنني لا أغيب كالشمس

بَـرانـي الـلَّـهُ رَبـي إذْ بَـرانـي مُـبَـرَّأَةً سَـلِـمْـتُ مِـنَ الـعُـيـوبِ
براني: خلقني

فـلـو كَـلَّـمْـتُ إنـسـانـاً مـريـضـاً لَمَا احتاجَ المريضُ إلى الطبيبِ
وخَـلْـقـي مِـسْـكَـةٌ عُـجِـنَـتْ بِـبـانٍ فـلـسـتُ أُريـدُ طـيـبـاً غـيـرَ طـيـبـي
أنا مخلوقة من مسك معجون بزيت البان العطري، فلا أحتاج إلى الطيب

وجِـلْـديَ لـو يَـدِبُّ عـلـيـهِ ذَرٌّ لأَدْمَـى الـذَّرُّ جِـلـديَ بِـالـدَّبـيـبِ
وأنا ناعمة وجلدي حساس لو يمشي عليه النمل الصغير لأدماه بمشيه عليه. كانت عمتي رحمها الله تقول عن الفتاة المعتزة بجمالها: رأسمالها قوي

١٨ الخروج من الجنة

مـا زالَ يـدعُـونـي بِـمُـقـلـةِ سـاحِـرٍ مـنـهُ ويَـنْـصِـبُ لِـلـفـؤادِ حِـبـالا
ظل يدعوني بعينيه الساحرتين، وينصب حبالاً، مصائد، لقلبي

حـتـى خـضـعـتُ لِـحُـبِّـهِ فـاقْـتَـادَنـي وأذلَّـنـي بِـصُـدودِهِ إذْلالا
حتى خضعت فاقتادني ثم أذلني بصدوده

مَا مَرَّ بي شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الهوى سبحانَ مَنْ خَلَقَ الهوى وتَعَالَى

يـا رُبَّ خِـدْنٍ قـد قَـرَعْـتُ جَـبـيِـنَـه بِـالـطَّـاسِ والإِبـريـقِ حـتـى مَـالا
رب خدن، صاحبة، قرعتُ جبينها بالطاس والإبريق، سقيتها حتى الثمالة، فمالت سكراً

أَنْـهَـضْـتُـهُ مِـنْ بـعـدِمـا أَسْـكَـرْتُـهُ   فـمَـشَـى كـأنَّ بِـرجْـلِـهِ عُـقَّـالا

أوقفتها ساكرة فمشت وكأن برجلها عقالاً، والعقال داء في قوائم الإبل يمنعها المشي القويم

بـارَزْتُـهُ وسِـلاحُـهُ خَـلْـخَـالُـهُ   حتى فَضَضْتُ بِكَفِّيَ الخَلخَالا

بارزت المعشوقة وسلاحها الذي تقاومني به خلخالها، أي لا مقاومة لديها،
وفضضت الخلخال بكفي

هـذا الـنـعـيـمُ فـكـيـف لـي بِـدَوَامِـهِ   أَنَّـى يَـدُومُ وعَـيْـشُـهُ قـد زَالا

هذا كان جنتي.. وكيف تدوم وقد زال العيش الذي يصلح به ذلك الحال بزوال الشباب

أصبحتُ كالثوبِ اللَّبِيسِ قد اخْلَقَتْ   جِـدَّاتُـهُ مـنـهُ فَـعـادَ مُـذَالا

أصبحت كالثوب الملبوس الذي أخلقت جداته، اهترأ ولم يعد جديداً، وصار مذالاً، بالياً

وبَقيتُ كـالـرَّجلِ الـمُـدَلَّهِ عقْلُهُ   أَشْكُـو الـزمـانَ وأَضـرِبُ الأَمـثـالا

وبقيت مدلهاً، مولهاً ذاهب العقل، كلامي شكوى الزمان وضرب الأمثال

١٩ ليلة بقمرين

يا لـيلةً نِلتُ فيها اللهوَ والوَطَرا   كُرِّي علينا وإلَّا فاطْرُدِي الذِّكَرا

أيتها الليلة التي لهوت فيها ونلت فيها الوطر، الحاجة، ارجعي لنا.. أو على الأقل اطردي
الذكريات عنكِ التي تجعلنا نتحسر

لَمَّا الـتقيْنا افْتَرَعْنا في تَعاتُبِنا   مِنَ الـحديثِ ومِنْ لَذَّاتِهِ العُذْرا

لما التقينا افترعنا العذر، فضضنا الأختام وتفاتحنا، في العتاب والحديث

سَأَدَّعي ذَنْبَ غيري كي يُصَدِّقَني   مَنْ لا أُرَجِّي لديهِ العَفْوَ إن قَدَرا

كي يصدقني المحبوب سأعترف بذنب ارتكبه غيري.. فهو لا يصدق قط أنني بريء

أَسْهَرْتُموني أَنامَ اللّهُ أعيُنَكُمْ   لَسْنا نُبالي إذا ما نِمتِ مَنْ سَهِرا

أسهرتني بحبها.. لكنني أدعو لها بالنوم الهنيء

فاستَضْحَكَتْ ثم قالتْ: لا تَكُنْ نَزِقاً   واكْتُمْ حديثَكَ لا تُعْلِمْ به بَشَرا

تضاحكت وقالت: لا تكن نزقاً متوتراً ودعك من حديث الذنب هذا

فقد غَفَرتُ لكَ الذنبَ الذي زَعَمُوا   لا بَارَكَ اللّهُ فيمَنْ بعدَ ذَا غَدَرا

غفرت لك ما زعموه ذنباً، ولا بارك الله فيمن يغدر بصاحبه

وقَصَّرَ الليلُ عن حاجاتِ أَنْفُسِنا كذاكَ ليلُ التَّلاقي رُبَّما قَصُرا

ما بنا من شوق لم يسعه الليل بطوله

لَمَّا بدا القمرُ اسْتَحَيْتْ فقلتُ لها: بَعضَ الحياءِ، فإن الحبَّ قد ظَهرا

خجلت لما كشف وجهها وجسمها نور القمر، فقلت لها: بعض الحياء، أي كفي عن هذا الخجل، فقد بدا ما بك من عشق

ألقَتْ على وجهِها هُدَّابَ خَامَتِها ونَازعَتْني بِكأسِ الوَحْشَةِ الخَفَرا

ألقت هداب خامتها، أي طرف ثوبها الذي به الأهداب، على وجهها وتبادلت معي الخفر، أي الخجل، وبيننا وحشة لما ألم بنا من مشاعر متأججة.. المعنى الملموح

تُكَاتِمُ القَمَرَ الوَجْهَ الذي ضَمِنَتْ والوَجْهُ منها تَرى في مَائِهِ القَمرا

تخفي عن قمر السماء الوجه الذي ضمنته، أي الذي خبأت، وإنك لترى في ماء وجهها، في نضارته، قمراً

قَامَتْ تَمَشَّى الهُوَيْنا نَحْوَ قُبَّتِها وقُمْتُ أَمْشي خَفِيَّ الشخصِ مُسْتَتِرا

ثم قامت تمشي ببطء نحو قبتها، خيمتها، وقمت مستخفياً كي أغادر خلسة

قالوا: اشتُهِرْتَ، فقلت: الحبُّ صاحِبُهُ مَنْ لا يزالُ به في الناسِ مُشْتَهِرا

٢٠ فلتخرب

وقال يمدح محمداً الأمين:

شُغْلي عن الدارِ أبكيها وأَرثِيها إذا خَلَتْ مِنْ حَبيبٍ لي مغانِيها

لن أنشغل بالدار فأرثيها وأبكيها إذا خلت مغانيها، ربوعها، من الحبيب

دَعِ الرَّوَامِسَ تَسْفي كُلَّمَا دَرَجَتْ تُرابَها ودَعِ الأَمطارَ تُبْلِيها

دع الرياح تسفي التراب كلما درجت على الديار المهجورة، ودع الأمطار تخربها

إن كان فيها الذي أهوى أقمتُ بها وإن عَداها فما لي لا أُعَدِّيها

إن نزل بها المحبوب نزلت، وإن عداها، وتركها، فلماذا لا أتركها أنا؟

أحقُّ منزلةٍ بالتَّرْكِ منزلةٌ تَعَطَّلَتْ مِنْ هَوى نفسي نَوادِيها

أحق مكان بالترك المكان الذي تعطلت نواديه، خَلَت مجالسه، من حبيب القلب

وقلتُ حين أَدارَ الكأسَ لي قمرٌ: الآنَ حين تَعاطَى القوسَ بَاريها

حين أدارت الكأس علينا فتاةٌ قمرٌ قلت: الآن أخذ القوس باريها، أي قام بالأمر الشخص المناسب

يا أَملَحَ الناسِ كفَّاً حين يَمزُجُها وحين يأخُذُها صِرفاً ويُعطيها
أملح الناس حين يمزج الخمر، وحين يتناولها ويناولها صرفاً غير ممزوجة

ومُخْطَفِ الخصرِ في أَردَافِهِ عَمَمٌ يَميسُ في خَامَةٍ رَقَّتْ حَواشيها
رب حبيب خصره مخطف، نحيل، وأردافه عميمة كبيرة، يميس، يتمايل في خامة، ثوب، رقيق الحواشي

إذا نَظرتُ إليهِ تَاهَ عن نَظَري وإن شَكَوْتُ إليهِ زَادني تيها
أنظر إليه فأراه قد تاه، ضل وابتعد، عن نظري، وأشكو إليه فيزيدني تيهاً، أي تكبراً

حَلَّتْ قُرَيْشُ العُلا مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ وحَلَّ بَيتُكَ في أعلى أعاليها
هذا بيت مدح: قريش في أعلى المكارم، وبيتك الهاشمي في أعلى الأعالي

٢١ لا تفاضل بيننا

يمدح الحسن بن عمران بن عمر الطائي:

وإِنِّيَ لا أَقْفُو الثَّناءَ بِغيرِهِ ولا أَبْتَغِيهِ قبلَ أن يُبْتَغَى عندي
أنا لا أتبع المدح بهجاء، ولا أطلب مدح شخص ما لم يسع إلى نيل مدحي

أَهِبْ يا ابْنَ عِمْرانٍ بِشُكري فَإِنَّني سميعٌ إلى الدَّاعي قَريبٌ على البُعْدِ
أهب بشكري، ارفع الصوت شاكراً لي، فأنا قريب وسامع

فما مِنْ يَدٍ قَدَّمْتَها قلتُ مُثْنِياً عليكَ، ولكِنِّي هَزَزْتُكَ لِلمَجْدِ
فأنا لم أمدحك لقاء يد قدمتها، مقابل عطاء، ولكنني هززتك للمجد، حركتك حتى تدفع المال مقابل نيل مجد المديح

فإن شئتَ أَلْقَيْنا التَّفَاضُلَ بَيْنَنا وقُلنا جميلاً واقتصَرْنا على الوُدِّ
والآن وقد امتنعت فإذا شئت فلنترك التفاضل بيننا، فلا أنت أفضل مني ولا أنا أفضل منك، ولنقل قولاً حسناً ولتقتصر علاقتنا على الود

٢٢ المحبوب الذميم

يهجو سعيد بن سلم:

وأَحْبَبْتُ من حُبِّها البَاخِليـ ـنَ حتى وَمَقْتُ ابْنَ سَلْم سَعيدا
لحبي لهذه الفتاة البخيلة بوصلها صرت أحب البخلاء فومقت، أحببت، سعيدَ بن سلْم. هذا هجاء مغلف بغلاف مختلف، فكأن الهجاء غير مقصود، لكنه هو فقط المقصود. هذا الأسلوب سماه أبو تمام «الاستطراد»، وتعلمه منه البحتري، وجئنا في شرحنا لأبي تمام بعدة قطع فيها هذا الأسلوب

إذا سـيِـلَ عُـرفـاً كَـسَـا وَجْـهَـهُ   ثِـيـابـاً مِـنَ الـلُّـؤْمِ حُـمْـراً وسُـودا

الآن هجاء صريح: إذا سئل بذل معروف أخذ وجهه يتلون بالحمرة والسواد من لؤمه وشعوره بالحرج لأنه لا يريد أن يعطي شيئاً

يُـغـيِـرُ عـلـى الـمـالِ فِـعْـلَ الـجَـوادِ   وتَـأْبَـى خَـلائِـقُـهُ أن يَـجُـودا

هو يشن غارة على الأموال فينهبها، وتأبى له خلائقه، أي طباعه، أن يجود بالمال

٢٣ شكوى لصورتها

وإنِّـي لَأَخْـلُـو مُـذْ فَـقَـدتُـكِ دَائـبـاً   فَأَنْقُشُ تِـمثَـالاً لِوَجْهِكِ في التُّربِ

يخلو بنفسه دوماً منذ فقد وصالها، ويخط صورتها في التراب

فَأَسقيهِ مِنْ عَيْنِي وأَشْكُو تَضَرُّعاً   إليـهِ بِـمـا أَلْـقَـاهُ مِنْ شِـدَّةِ الـكَـرْبِ

فيسقي صورتها بدمعه ويشكو تضرعاً، تذللاً، لشدة ما نزل به من كرب وبلاء

فَـوالـلَّـهِ مَـا أَدري بِـمـا أنـا مُـذنِـبٌ   إليكِ سوى الإفراطِ في شدَّةِ الحبِّ

فـإن كـان ذا ذنـبـي الـذي تـدَّعـيـنَـه   فلا فَـرَّجَ الـرحـمـنُ ذَلِـكَ مِـنْ ذَنـبـي

٢٤ مفقوداً بمفقود

نـامَ الـعـواذلُ واسْـتَـكْـفَـيْـنَ لائِـمـتـي   وقد كَفَاهُنَّ نَهْضُ البِيضِ في السُّودِ

نامت العاذلات، كففن عن لومي، وكفاهن اللوم قيام الشعرات البيض وسط السود في رأسي.. فهذا إيذان بانتهاء الغزل

الـشـيـبُ كُـرْهٌ وكُـرْهٌ أن يُـفـارِقَـنـي   أَعْجِبْ بِشيءٍ على البغضاءِ مَوْدُودِ

أكره الشيب وأكره أن يفارقني بالموت، فما أعجب هذا الشيء الذي توده رغم البغضاء، الكره

يَمضي الشبابُ وقد يأتي له خَلَفٌ   والـشـيـبُ يـذهـبُ مَـفـقـوداً بِـمـفـقـودِ

الشباب يذهب، وقد تخلفه عيشة هانئة في الشيخوخة، بيد أن الشيب يذهب مفقوداً وأنا مفقود معه

٢٥ هجاء قريش

هجا مسلم قريشا وفخر بالأنصار فقال:

فَـاخَـرَتْـنـا لَـمَّـا بَـسَـطْـنـا لـهـا الـفَـخْـ   ـرَ قُـريـشٌ، وفَـخْـرُهـا مُـسْـتَـعـارُ

تفخر قريش علينا، نحن الأنصار، ونحن من سبَّبَ لها الفخر، ففخرها مستعار منا

ذَكَـرَتْ عِـزَّهـا! ومـا كـان فـيـهـا   قـبـلَ أن تَـسـتَـجـيـرَنـا مُـسْـتَـجَـارُ

تتكلم قريش عن عزها.. لكن لم يكن لديها مستجار، قوة تجير بها أحداً، قبل أن تطلب منا أن نجيرها. فقد أجارت الأنصار النبي وصحبه بعد الهجرة

فَـلَـنـا الـعِـزُّ قـبـلَ عِـزِّ قُـرَيْـشٍ   وقُـرَيْـشٌ تِـلْـكَ الـدهـورَ تِـجَـارُ

فلنا عز سابق على عز قريش في وقت كانت فيه قريش جماعة من التجار

٢٦ الميت المنشور

أمَّـا الـقُـبـورُ فـإنَّـهُـنَّ أوَانِـسٌ   بِـجِـوارِ قَـبْـرِكَ والـديـارُ قُـبـورُ

القبور المجاورة لقبرك تشعر بالأنس، وأما البيوت التي خلت من وجودك فهي موحشة كالقبور

عَـمَّـتْ فَـواضِـلُـهُ وعَـمَّ مُـصَـابُـهُ   فـالـنـاسُ فـيـهِ كُـلُّـهُـمْ مَـأْجُـورُ

فواضله، عطاياه وفضله، كانت قد عمت الناس فبموته عم الناس الشعور بالحزن والمصيبة.. لذا فكل الناس ينالون أجراً بحزنهم وصبرهم على المصيبة، وفي الإسلام أن الصابر على مصيبته ينال ثواباً. هذا البيت والذي بعده نسبا لغير مسلم في حماسة أبي تمام. انظر القطعة رقم ١٠٢ فيما اخترناه من الحماسة في كتابنا «أول الشعر»

رَدَّتْ صَـنـائِـعُـهُ إلـيـهِ حـيـاتَـهُ   فـكـأنَّـهُ مِـنْ نَـشْـرِهـا مَـنْـشُـورُ

صنائعه، إحسانه، ردت إليه الحياة لأنه مذكور على كل لسان. فكأنه من نشرها، من رائحتها، منشور، أي مبعوث حياً

٢٧ تنويم البدر

فَـوَالـلَّـهِ مَـا أدري، وإنـي لَـسـائِـلٌ   بِمَكَّةَ أهلَ العِلمِ هل في الهوى وِزْرُ

سأسأل علماء مكة هل في العشق ذنب

وهل في اكتحالِ العينِ بالعينِ رِيبَةٌ   إذا ما التقى الإلْفَانِ؟ لا بل بهِ أجْرُ

وهل في اكتحال العين بالعين، رؤية المرء عيني محبوبه فكأنه يكحل عينيه بعينيه، هل في هذا ريبة، شبهة ارتكاب معصية، عندما يلتقي الإلفان، الحبيبان؟ لا والله بل فيه أجر وثواب

وبِتْنـا علـى رَغْـمِ الـحَـسُـودِ وبيـنَـنـا   حديثٌ كَريحِ المِسكِ شيبَ به الخَمْرُ

بتنا معاً رغم الحاسد، وبيننا كلام كأنه رائحة المسك التي شيب بها، خلط بها، الخمر

فَـوَسَّـدْتُـهُ كَـفِّـي وبِـتُّ ضَـجـيـعَـهُ   وقلتُ لِليلي: طُلْ فَقَدْ رَقَدَ البَدْرُ

جعلت كفي وساداً للحبيب واستلقينا معاً، وقلت لليل طل كما شئت أن تطول فإن البدر نائم

فَلَمَّا أَضَاءَ الصبحُ فَرَّقَ بينَنا   وأيُّ نَعيمٍ لا يُكَدِّرُهُ الدهرُ

ضوء الصبح فرق بيننا.. والزمن يكدر كل سعادة

٢٨ هل كان يحلم شاعر عن شاعر؟

وقال في الحَكَم ابن قنبر الشاعر وكانت بينهما مهاجاة قاسية:

حَلُمَ ابنُ قَنْبَرَ حين أَقْصَر جَهْلُهُ   هَل كان يَحْلُمُ شَاعِرٌ عن شَاعِرِ؟

حين قصَّر ابن قنبر في الجهل، الرعونة، أراد أن نتعامل بالحلم واللين، فهل كان الشاعر يرفق بالشاعر؟ لا بل هي الهزيمة

لا تُرْتِعَنْ لَحْمي لِسانَكَ بعدَها   إنِّي أَخَافُ عليكَ شَفْرَةَ جَازِرِ

لا تُرتع لحمي لسانك، لا تجعل لحمي مرتعاً للسانك أي لا تذكرني بسوء بعد اليوم، فأنا أخاف عليك أن أغضب فأذبحك بهجائي الذي كأنه شفرة جازر، سكين قصاب

واسْتَغْنِمِ العَفْوَ الذي أُوتيتَهُ،   لا تَأْمَنَنَّ عُقوبَةً مِنْ قَادِرِ

واغتنم فرصة العفو التي نلتها. والشطر الثاني حكمة: لا تأمنِ العقوبة ممن يقدر عليها

٢٩ أبكيك

وقال في مرثية، وجاءت الأبيات في الشعر والشعراء:

أَبكيكَ لِلأيامِ حين تَجَهَّمَتْ   طلبي، ولم يَكُ لِي وراءَكَ مَنْجَعُ

أبكيك وقد رأيت الزمن قد تجهم طلبي، كشر في وجه رغباتي، وكنت لي في حياتك المنجع، الملاذ، ولم يكن لي ملاذ غيرك

قد كنتَ لِي سَيْباً وغَيْثاً صائِباً   ويداً أَضُرُّ بها العدوَّ وأَنفَعُ

كنت لي سيباً، عطاءً، ومطراً صائباً، والصوب هو المطر، ويداً، أي قوة، أضر بها العدو وأنفع، أي أنفع الصديق.. لكنه حذف اكتفاء

فَاصْعَدْ إلى الغُرُفَاتِ، يومُكَ وَاقِعٌ   بِالشَّامِتينَ، لِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فاصعد إلى غرفات الفردوس، وليكن يومك، موتك، واقعاً بمن شمتوا فيك، وكل إنسان له يومه

٣٠ التصادق والتنافق

ولا خيرَ في وُدِّ امْرِئٍ مُتَكَارِهٍ   عليكَ، ولا في صاحبٍ لا تُوافِقُهْ

لا خير في ود صاحب يصحبك وكأنه كاره لصحبتك، ولا في آخر ينعدم بينكما التوافق

إذا المرءُ لم يَبْذُلْ مِنَ الوُدِّ مِثْلَما بَذَلْتُ له فاعلَمْ بِأنّي مُفارِقُهْ

اعلم أنني سأفارق من لا يبادلني الود بمثله

فإن شِئتَ فَاصْحَبْهُ فلا خيرَ عندَهُ وإن شِئتَ فاجْعَلْهُ صَديقاً تُمَاذِقُهْ

إن صحبت من لا يبادلك الود بالتساوي فاعلم أنه لا خير عنده، وربما جعلته صديقاً تماذقه، تبادله الود نفاقاً.. تتنافقان

٣١ طليق عرضه

يرد على دعبل، وكان دعبل تلميذه، فجفاه مسلم فتهاجيا هجاء خفيفاً، وكان دعبل يدعى وهو صغير مياساً:

مَيَّاسُ! قُلْ لِيَ أينَ أنتَ مِنَ الوَرَى لا أنتَ مَعلومٌ ولا مَجْهولُ

قل لي يا مياس، ما وضعك في الورى، أي الناس، فلا أنت معلوم بفعل خير، ولا أنت مجهول لأن مخازيك كثيرة

لو كنتَ مَجْهولاً جَعَلْتُكَ مُعْلَماً أو كنتَ مَعْلُوماً لَغالَكَ غُولُ

ولو كنت مجهولاً حقاً فسوف أعرّف الناس بمخازيك، وإن كنت معلوماً فسوف يهجم عليك قولي هجوم الغول

أَمّا الهِجَاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دونَهُ والمدحُ عَنْكَ ـ كما علمتَ ـ جَليلُ

الهجاء صعب فيك لأن شرفك دقيق لا يصمد للهجاء، والمدح ـ وأنت خير العارفين ـ كبير عليك

فاذهبْ فأنتَ طَليقُ عِرضِكَ إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ بهِ وأنتَ ذَليلُ

فاذهب فأنت طليق عرضك، أنت حر بسبب رداءة عرضك، فهو عرض نجوت بسببه وإن كان يلحق بك الذل

٣٢ تفاحة

تُفَّاحَةٌ شَامِيَّةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ غَزِلِ

الغزل: المقبل على الغزل المستمتع به

ما خُلِقَتْ مُذْ خُلِقَتْ تِلْكَ لِغيرِ القُبَلِ

التفاحة حرام فيها الأكل، فلشبهها بالخدود لا تصلح إلا للتقبيل

كأنَّما حُمْرَتُها حُمْرَةُ خَدٍّ خَجِلِ

٣٣ صريع الغواني

وسأله رجل لم تدعى صريع الغواني فقال:

إنَ وَردَ الـخـدودِ والـحَـدَقَ الـنُّـجْـ ـلَ ومَا في الثُّغُورِ مِنْ أُقْحُوانِ. .

الخدور الوردية والعيون الواسعة، والأقحوان الذي في شفاه الحسان. .

واعْوِجاجَ الأَصْدَاغِ في ظَاهِرِ الخدِّ ـ وَمَـا فـي الـصـدورِ مِـنْ رُمَّـانِ. .

واعوجاج الشعر في الأصداغ، السوالف، ورمان الصدور. .

تَـركَـتْـنـي بـيـن الـغَـوانِـي صَـريـعـاً فَـلِـهَـذا أُدْعَـى صَـريـعَ الـغَـوانـي

كل هذا تركني صريعاً، ملقى أرضاً، بين الغواني، الحسان اللائي استغنين بجمالهن عن الزينة، فهذا سبب تلقيبي بصريع الغواني

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

أَهْلُ	٢	والهاما	٢
بَعْلُ	٢	مُحرَّمُ	١٥
مَجْهولُ	٣١	الظُّعُنُ	١٤
العَذَلِ	٣	أَعطاني	١١
ذَحْلِي	٥	أُقْحُوانِ	٣٣
غَزِلِ	٣٢	جُرجَانِ	٢
مُغَفَّلِ	١٢	مَكانِ	٢
مَميلِ	٢	وأوطانِ	٢
والمَعالي	٢	تَالِيَا	١
وعنْ فُلِ	٤	مغانيها	٢٠
فَمَا	٢		

أبو نواس
(١٤٠هـ ـ ١٩٩هـ)

أرجأت هذه المختارات من أبي نواس سنتين قضيتهما كسلان. وقد أتممتها وأنا أجر رجليَّ جرًّاً. وقبل أن أكتب هذه المقدمة كافأت نفسي بيومي كسل، مضيت فيهما إلى الدكتور صموئيل جونسون الناقد والأديب الإنجليزي الذي مات قبل نحو مئتين وثلاثين سنة (١٧٨٤). جددت عهدي بسيرته المشهورة التي كتبها مريده بوزويل، وأحدثت عهداً بكتابِهِ عن شعراء الإنجليز. والرجل تناول في كتاب ضخم اثنين وخمسين شاعراً ممن زينوا اللغة الإنجليزية وصنعوها على مدى قرنين ونصف، وأنا ماض في اصطفاء أشعار اثنين وأربعين من أعاظم شعراء العربية على مدى ألف وخمسمئة سنة. يضاف إلى هؤلاء الشعراء ثمانية مجاميع شعرية رأيتها تنصف الشعراء المغمورين أو المقلين، فقد تم لي بهذا خمسون فصلاً، تقارب في العدد فصول الدكتور جونسون.

يقول جونسون، وكان كسولاً مشهوراً بالتسويف، إن الأحمق فقط هو من يكتب حرفاً إلا من أجل المال. وبالفعل لا نراه يكتب إلا بعد أن يثق من أن ما سيكتبه سيأتيه ببعض المال. ليس أنه كان حصيفاً، فقد طلب في كتابه عن شعراء الإنجليز مئتي جنيه، ويكاد النقاد المعاصرون يجمعون على أنه لو طلب الألف لنالها.

أما أنا فأكتب هذا للتسلية فقط. فالناشر العربي عندما يراك داخلاً من باب مكتبه يسألك، قبل «كيف الحال»، كم ستدفع؟

لنغادر سريعاً رنة الشكوى هذه، فقد أسمعتك شبيهاً لها في أماكن أخرى مما كنت كتبت. أعجبتني أمور كثيرة في كتاب صموئيل جونسون عن شعراء بلاده. فهو يحلل بعمق، وينقد. وهو يبحر في الكتب لكي يقدم لك المعلومات

الدقيقة عن مولد الشاعر وعن اسم أمه وأبيه وأجداده، ووضعه الاجتماعي. وهو يقتبس من الأشعار ما يناسب المقام، ويقدم نقداً جارفاً. وقد شابه جونسون في طريقته نقادنا القدامى في جانب مهم. قد تراه يكره شخصية الشاعر، ويبغض سلوكه، ويخالفه في معتقده الديني (وكان جونسون أنجليكانياً متشدداً، يَعُدُّ التدين رأس الفضائل)، لكنك تراه يفصل فصلاً قوياً بين شعر الشاعر وبين شخصيته ومعتقداته. كذا كان ابن قتيبة الناقد والفقيه، ففي كتبه يورد أشعار المجان في الخمر والعشق، وفي الزنا واللواط أيضاً، ويحكم على الشعر بالجودة إن كان جيد السبك حسن سياقة المعنى، ومثله كان أستاذه الجاحظ، ومثلهما كان نقاد الأدب عندنا في العصور الزاهرة. وعندما ذَوَتْ حضارتنا ذوى التسامح في النقد الأدبي.

لا أمعن في النقد مثلما أمعن جونسون، ذلك أنني شرطت على نفسي أن أنتخب لكل شاعر خير ما عنده. ولا أسجل حياة الشاعر بدقة مثلما كان يفعل جونسون، فعصرنا عصر الإنترنت، والتفاصيل ثَمّ، كما أن شعراءنا الذين أتناولهم أعتق كثيراً من شعراء جونسون، ولم يصلنا من تفاصيل حياتهم إلا قليل.

أنا في دراستي أبا نواس عِيَالٌ على عبد الرحمن صدقي. فهذا الأديب المصري المغمور قد كتب كتابين عن أبي نواس أحدهما عن حياته، والثاني عن خمرياته ومجونه.

عبد الرحمن صدقي أولاً: هذا رجل مظلوم. له أسلوب طه حسين لكن بلا ثرثرة، والمنفلوطي لكن مع ثقافة واسعة ضاربة في أعماق الأدب العربي والأدب الفرنسي والجغرافيا والكيمياء. اسمعْه يصف «دساكر الخمارين» في عصر أبي نواس: «وكان أصحاب هذه الدساكر لا يدَعون سبباً من أسباب الفتنة يجتذب إليهم القوم ويغريهم بإطالة المقام والتخرُّق في النفقة إلا توسَّلوا به. فهم يتخذون في حاناتهم السقاة المُردان، والساقيات الشاطرات الحسان. ويزيد بعضهم فيُحضِرونهم المسمِعاتِ العازفات من الجواري القيان، والملهين من ضُرَّاب الطنابير والعيدان، ليستخف القومَ الطربُ ويحلو لهم مجلس الشرب فيكثروا من الشراب، ويَحيفوا على أنفسهم فيه، يُفرغونه في أجوافهم أرطالاً شُرباً دِراكاً لا يفتُرون عنه، ولا يزالون كالمولهين يقربون بين الأقداح يستحثونها من أيدي الملاح، على ترجيع الغناء ونقر الدفوف ونغم الأوتار الفصاح، حتى

تغلبهم على عقولهم العقار، فيخلعوا ما بقي من حشمة وفضل عذار.» اهـ.

من عبد الرحمن صدقي أَقبَلُ السجع، فهو لا يمضي به إلى الغاية بل يترنم به بين الحين والحين، ثم تراه يصف لك أنواع النبيذ وصفاً مفصَّلاً لم أر أحداً قاربه فيه، فما احتاج إليه في «علم الخمر» من كلمات فرنسية أو حتى لاتينية ساقه، ثم يظل في العصر العباسي واصفاً كل نوع وصفاً دقيقاً.

وكنت صددت عن كتاب صدقي هذا، واسمه «ألحان الحان»، سنوات بسبب عنوانه. فقد رأيت في سجعة العنوان غثاثة، ولكنني فوجئت به عندما بدأت أقرأه.

وكتاب عبد الرحمن صدقي الآخر عن حياة أبي نواس فيه أسلوبه الجميل، وفيه كثير من ملء الفراغات. فالمؤلف يروي حياة أبي نواس وكأنه عاصره، وكلما وجد ثُغرة تخيل أحداثاً تسد الخلل.

وقبل أن ننصرف عن عبد الرحمن صدقي نذكر لك أن له كتاباً عن الشاعر الفرنسي بودلير وآخر عن الشاعر الألماني غوتة، وكتاباً بعنوان «ألوان من الحب»، وآخر عن طاغور شاعر الهند، وله شعر رقيق.

قد انتهينا من جونسون ومن صدقي. فهل آن أن نفرغ لأبي نواس؟

لا.

قد طوَّحت بي النَّوَى في الآفاق. ووجدت نفسي قعيد فندق في مشرق بلاد العرب. ولا يسعُني أن آتنِس بديوان أبي نواس في هذه الغربة لأنني عاكف على تأليف كتاب يشبه كتاباً آخر للدكتور جونسون. فها قد عدنا إلى الرجل.

وأبدأ بكتاب جونسون ثم أحدثك عن كتابي.

اجتمع ستة من ناشري لندن وقرروا أن يطبعوا قاموساً للُّغة الإنجليزية التي كانت مفرداتها لعهدهم بعر شياه منثوراً في الفناء، كل امرِئٍ يرسم كل كلمة على هواه ويحمِّلها من المعنى ما يشاء. كأنما لم يكن في أدب شكسبير الذي هلك قبل مئة وأربعين سنة ما يضبط اللغة. وقبِلَ جونسون. وبعد تسع سنين ولد معجمه المشهور الذي صار نقطة البداية للمعجم الإنجليزي الحقيقي، وجعل كل ما سبقه مجرد دفاتر مفردات باهتة.

أنا قاعد في الدوحة أكتب قاموساً. لكنه ليس أول قاموس عربي محكم.

فلغتنا تعرف هذا اللون من التأليف قبل الإنجليز بقرون. وجهد جونسون المعجمي كان أصيلاً وعميقاً، فقد اتَّبع طريقة ابن منظور والمعجميين العرب الكبار في استخلاص معاني المفردات من النصوص. جمع جونسون، يساعده ستة من الناسخين والباحثين، آلافاً مؤلفة من الفِقَر المنتخبة من كتب الأدب خاصة، ومن أعلى ما كتب في اللغة الإنجليزية بياناً، ومنها استخلص معانيَ الكلمات. وكان رجلاً راسخ العلم في اللاتينية والإغريقية، فأثقل الإنجليزية بالمأخوذ عن تيْنِكَ اللغتين، وكان لديه ناشرون اجتمعوا عليه ودفعوا له كي يؤلف القاموس.

ها قد عدنا إلى الشكوى.

لا، بل أنا قاعد هنا أكتب قاموسي ولي على قعدتي مرتب.

وقاموسي قاموس صغير لا يذكر الكلمات كلها ولا يذكر كل معاني المفردات التي اخترتها. هو قاموس لغوامض اللغة، ولما يخطئ فيه الناس. كتاب يعين المذيع والمحرر ويسرد معلومات عن مهنة الإعلام. فلا يتوهمنَّ أحد أنني سأخرج عليه بكتاب من أمهات الكتب. هو كتاب والسلام. (ملاحظة مقحمة فيما بعد: صدر هذا الكتب باسم «اللغة العالية» في أربعمئة صفحة وتتمة ملزمة. ولقي صدى حسناً) وأشتهي أن أعود إلى أبي نواس فأكتب له مقدمة جليلة. فإن عدتُ فستراها في الصفحات المقبلة، وإلَّا فإنني عصرت لك ديوانه عصراً جاعلاً رواية الصولي بتحقيق خليل سليم قهوجي الممتاز المرفق بشرح واف إماماً، ورواية حمزة الأصبهاني بتحقيق المستشرقين الألمان ونشر دار المدى سنداً. على أنني وجدت أشعاراً كثيرة للنواسي منثورة في كتب الأدب وغير موجودة في أي من الروايتين، فكنت أتحرج من تضمينها إلا ما ندر. وأبو نواس، بعد، من أكثر الشعراء الذين حُمل عليهم شعر.

وما أقوله لك عن حياة أبي نواس، الحسن بن هانئ، بضاعة أنقلها لك نقلاً من كتاب أبي هِفَّان «أخبار أبي نواس» بتحقيق عبد الستار فراج، وفضيلة الكتاب أن المؤلف عاصر أبا نواس وعرفه، ونقيصته أنه عتيق، فالكتاب مطبوع عن نسخة يتيمة كتبت قبل قرنين ونصفاً والأصل مكتوب قبل هذه النسخة بتسعمئة سنة، فلو عبث كل ناسخ بكلمة لما سلم من الكتاب كلمة. على أنك تشم في الكتاب رائحة بغداد أيام الرشيد، وتجد فيه ما لا تجد في كتاب ابن منظور عن أبي نواس من ألفاظ وطريقة عيش العباسيين الأوائل في بغداد. ولا

ننس أن بغداد التي نزلها أبو نواس بعد البصرة فالكوفة، كانت عاصمة جديدة لم يمض على بنائها سوى سنوات. خذ هذه الطرفة من أبي هِفَّان: «كان أول اتصاله بالرشيد أن دخل وهو شاب بعض المساجد عِشاء فوجد الإمام في الصلاة فصلَّى خلفه فقرأ الإمام: قل يا أيها الكافرون، فقال أبو نواس: لبيك. فتواثب الناس إليه وشهدوا عليه بالكفر. ورفع خبره إلى الرشيد.» وتتمة الخبر أن ابن حمدويه صاحب الزندقة قال إن هذا الشاب «يُشْبِهُ أنه رجل ماجن ليس بزنديق»، فأطلقه الرشيد.

وأمضي بك إلى كتاب عبد الرحمن صدقي الذي جعل مولد أبي نواس في سنة ١٤١هـ، وحقق ذلك تحقيقاً حسنا في الهامش، حتى يحفظ على متن كتابه، الذي يسير كالجدول الرقراق مكتوباً بأعذب أسلوب وأحلاه، رونقه. ولد في قرية بيت النار بفارس، لأب لعله كان حقاً من قبيلة حكم اليمنية، ولعله كان من مواليها، ولأم فارسية هي جلبان.

ارتحل أهل أبي نواس، أمه وأبوه وثلاثة إخوة سواه أو أربعة، إلى البصرة ولشاعرنا سنتان من العمر. وسرعان ما مات أبوه، فعملت أمه مرضعاً، أرضعت غلاماً من ثقيف بلبان أبي نواس. ثم عملت في الحرفة القديمة. كنا نود لو سترنا عليها، ولكن حرفتها أثرت في حياة ابنها وفي نفسيته. ليس أننا نشايع الدكتور محمد النويهي في إنفاقه نحواً من ثلاثمئة صفحة وهو يطبق نظريات علم النفس الحديثة على أبي نواس تطبيقاً فيه كثير من الطرافة، وكثير من التعسف، ولا أننا نشايع العقاد في تطبيقه نظريات علم النفس على شاعرنا بطريقة مختلفة في كتابه عنه، ونلفتك إلى معركة أدبية صغيرة خاضها من طرف واحد الدكتور النويهي مع العقاد الذي نشر كتابه بعد كتاب النويهي بأشهر عديدة، واشتركا في تناول أبي نواس تناولاً عِلْمَنَفسيٍّ محض، غير أن العقاد لم يشر إلى كتاب النويهي الذي كان قد لقي بعض الصدى وكتب عنه طه حسين في الأهرام. ولعل العقاد كان فعلاً يستحق اللوم، غير أن النويهي لم يقل أبداً إن العقاد نقل عنه لا فكرة ولا نصاً. وأغلب ظني أن كتاب العقاد كان شبه مكتمل عندما صدر كتاب النويهي، فعز على العقاد أن يقر بأنه مسبوق. ويُقرأ الكتابان كلاهما لما فيهما من طرافة تطبيق النظريات النفسية الحديثة على شاعر عتيق لم يصلنا عنه الكثير، وحمل عليه شعر كثير فلا نكاد نجزم بأن هذا البيت أو ذاك له، اللهم إلا ما أورده معاصروه الذين وصلتنا كتبهم بنسخ متواترة حسنة التوثيق

كالجاحظ. والجاحظ ينقل كثيراً عن معاصره أبي نواس، ويحب أبياتاً كثيرة له. ويعرف قدره. نُقل عن الجاحظ أنه قال: «أنا أسنُّ من أبي نواس بسنة». ولا نصدق هذه العبارة، فهي تجعل حياة الجاحظ تمتد مئة وخمس عشرة سنة. على أننا نرى جميلاً أن يذوق الجاحظ أدب معاصره هذا الذوق وأن يقدره.

نرى في زمننا نحن الذي برز فيه شاعر انفتح له من أبواب المجاز والتشبيه ما لم ينفتح لغيره في كل العصور، عَنَيتُ نزار قباني، نرى النقاد والشعراء والكتبة يتسابقون إلى رمي نزار قباني بكل تهمة: فهو شعبوي وابن شارع في الأدب، وهو زير نساء، وهو ليس بشيء. ليس فيهم جاحظ واثق بنفسه لا يقوم حجاب المعاصرة بينه وبين أهل الأدب.

قلت: لا أشايع النويهي والعقاد في إمعانهما في تطبيق نظريات علم النفس الحديثة على أبي نواس، ولهما العذر في أن عصرهما، النصف الأول من القرن العشرين، كان عصر فرويد؛ وكان، في مصر، عصر الاهتمام المبالغ فيه بعلم النفس حين ترجمت وألفت كتب كثيرة في كل منحى من مناحي هذا العلم ـ أهو علم بالمناسبة؟ ـ، وقامت جمعيات تعنى كل منها بفرع معين من فروعه. ثم إن الكاتبين رأيا رجلاً فيه شذوذ جنسي يعيش في عصر مليء بالشذوذ الجنسي والتهتك والخلاعة، عصر استرخاء الخلافة العباسية وتنعمها في ظلال الاستقرار وتدفق الثروات على بغداد، فهالهما الأمر لأن عصرهما هما لم يكن عصر تهتك كعصر أبي نواس. والرجلان عبَّا من أدب الأنجلوسكسون الكثير، وعرفا الإنجليز معرفة عميقة؛ النويهي عاشرهم، والعقاد عاقرهم في كتبهم. على أن إنجلترا الخمسينات كانت ترتجف رعباً من المثلية الجنسية، إنجلترا التي سجنت أوسكار وايلد لمثليته، والتي لم يجرؤ ابنها الروائي سومرست موم على البوح بمثليته الجنسية حتى مات، ومات سنة ١٩٦٥، وإنجلترا التي انتحر فيها أبو الحاسوب ألان تورينغ عام ١٩٥٤ بعد أن جرَّموه بالشذوذ الجنسي.

غير أننا عرفنا تلك البلاد في التسعينات وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، فرأينا فيها ممثلاً مشهوراً هو ستيفن فراي يقول: مذ خرجت من رحم أمي صممت ألا أعود إلى ذلك المكان. ورأينا كثيرين من المثليين، ومن الثنائيين، ورأينا المجتمع يسعى إلى إقناع نفسه بتقبلهم. ولم نستهجن ذلك، ولم نبحث له في كتب فرويد عن نظريات.

مفيد أن يقرأ المرء كتابي النويهي والعقاد. وممتع جداً أن يقرأ ذلك النوع

من الكتابة وذينك الأسلوبين الجميلين. أحقاً كان في العرب من يكتب بهذا الجمال وبهذا التدفق. معهم حق الذين سموا ذلك الزمن بالزمن الجميل. وعلى القارِئ أن يحترس من الأحكام الجارفة التي أطلقها الكاتبان.

نعم، دخل القلق نفْس أبي نواس عندما رأى أمه تجمع الرجال والنساء في بيتها. وعندما تزوجت رجلاً يقال له العباس أحس الفتى أن أمه لم تعد له. وقد عيره لِداته بأمه، ولم يجد في جَعبته رداً سوى أن ينخلع من كل النظام الأخلاقي السائد في حواري ومساجد البصرة، وأن يعلنها: أمي زانية وأنا زان وابن زانية، فاستريحوا. لم يقل ذلك، لكن نحن نقولها على لسانه.

لقد أحسنت إليه أمه أن دفعته وهو طفل صغير إلى مكتب حَفْص المؤدب. فتعلم الكتابة والقراءة، وكان ذكياً. وشعر بتفوقه وهو طفل لم يبلغ. وعندما صح له أن يوصف بالصبي كان يتردد على مؤدب حضرمي علمه حِسْبَةً، ما تقاضى أجراً، وخرَّجه وقال له: اذهب فأنت أقرأُ أهل البصرة. وعى أبو نواس القرآن كأحسن ما يكون، وانصرف إلى اللغة والشعر. كان يحضر حلقات أبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة وهما أعلم الناس بالعربية، ثم انثنى إلى مجلس خلف الأحمر أشهر راوية للشعر في البصرة. فكيف إذا عرفت أن البصرة كانت أهم حاضرة عربية في ذلك الزمن؟ ذلك زمن لم يكن فيه لبغداد بعد شأن فهي مدينة وليدة. والبصرة قد سبقت الكوفة في العلم زمناً. وعمل أبو نواس صبيَّ عطَّار. ومن دكان العطار التقطه الشاعر الماجن والبة بن الحُباب، وأخذه إلى الكوفة وهو فتى في نحو الخامسة عشرة من العمر، وهذا تقدير «صدقي».

هناك في الكوفة اكتملت حلقة المجان: مطيع بن إياس، وحماد عجرد، ويحيى الحارثي، وكلهم ماجن متهتك، وما منهم أحد إلا وله في الغلمان مثلما له في الجواري من فاحش القول. ولا ندري عن الفعل. ثم جاءهم والبة بأبي نواس الذي سيغرس عما قليل راية المجون على قمة لم يبلغها أحد قبله ولا بعده.

لقد أفسد والبة الغلام أبا نواس، ولكن شاعرنا كان متهيئاً لذلك مقبلاً عليه، ولا نظن أنهما كانا كالذئب والحمل كما زعم عبد الرحمن صدقي.

كان خماسي المجون هذا: النواسي ووالبة وحماد عجرد ويحيى الحارثي ومطيع بن إياس، يقضي الوقت الطويل في تناشد الأشعار على السكر مجوناً وهجاءً وعبثاً، فكان شعراً سهلاً فيه فن القول وليس فيه تلك المعاني والألفاظ

الصلبة التي أصر شعراء العرب على أن يتوارثوها. على أن ما تعلمه أبو نواس من أهل اللغة في البصرة، وما حفظه من الشعر القديم، وكان في سعة الحفظ أسطورة، جعله أفصح القوم لساناً وأقومهم عربية، وأعرفهم بإرث الشعر العربي، وتمكن فيما بعد من أن يقول شعراً يجمع السهولة والمتانة على نحو لم يسبقه إليه أحد، وتبعه فيه نزار قباني في عصرنا الذي كان شعره من البلاغة بمكان تقصر دونه الأعناق، مع سلاسة نادرة.

أحب أبو نواس جارية في الكوفة، وقال فيها: «حامل الهوى تعب يستخفه الطرب»، وقيل إن هذا من أول ما عمل من شعر. ولعله في هذه الفترة كان قد استقر جنسياً على «الثنائية» الجنسية مع الازدواج إن صحت عندك هذا العبارة. فهو ثنائي يشتهي الغلام والفتاة، ومزدوج يشتهي أن يؤتى وأن «ياتي»، قَوْلَةَ الشاعر.

ثم قالوا إن أبا نواس رحل إلى بادية بني أسد وأقام سنة. ثم عاد إلى البصرة التي بها نشأ. وعاد إلى حلقات الدرس، وفيها سيبويه والخليل بن أحمد والأخفش ويونس وأبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي والجاحظ وبشار بن برد. وأبو نواس قد «نظر في نحو سيبويه» ـ عبارة صاحب نزهة الألباء ـ، لكنه ربما كان فعل ذلك بعد حين، إذ لا نعلم بالضبط متى دوَّن سيبويه علمه وعلم الخليل وعلم يونس في هذا الكتاب المشهور. كانت العلوم العربية في طور التكوين أو إن شئت التدوين، وكانت البصرة مهد العلوم العربية. على أن الأستاذ الذي لزمه أبو نواس كان خلفاً الأحمر الذي قيل إنه معلم الأصمعي، وكان «أفرس الناس ببيت شعر»، وقيل إنه وضع شعراً كثيراً على شعراء قدماء ثم تاب ونسك. وقيل إن خلفاً هو الذي كنَّى الحسن بنَ هانِئٍ بأبي نواس.

وسوى علوم اللغة والأدب كان القوم آنذاك قد بدأوا يتداولون علوم الهند وفارس واليونان، ونشأت في البصرة مدرسة فلسفية عظيمة الأثر في الفكر العربي والإسلامي كله هي الاعتزال، وعرف شاعرنا أحد كبار رؤوسها وهو إبراهيم النظام، وتعرض له في شعره. كان المعتزلة الرد الإسلامي على الزنادقة. الفكر الاعتزالي متحرر يذهب في تأويل النص بعيداً، لكنه كان إسلامياً وإن استفاد من منطق اليونان، وكان أبو نواس وعصبته الماجنة في برزخ بين الاعتزال وبين الزندقة، فسلمت لهم رؤوسهم عندما أثخن المهدي في الزنادقة. وفي عصر هارون الرشيد كان المجون من آلة الفتى فأما الزندقة فهي

كفر بالدولة، فالزنادقة هم من يحملون في صدورهم حنيناً إلى الأديان القديمة: المزدكية والزردشتية والمانوية. وأما الماجنون فليصنعوا ما شاءوا حتى لو مدحوا إبليس، المهم ألّا يتزندقوا، فهذا قدحٌ في الملك. قد عرف أبو نواس سجن الزنادقة، ولكنه كان يتزندق تظرفاً لا اعتقاداً.

في البصرة أحب أبو نواس جنان، وهي جارية. وتخبرنا أشعاره أن ذلك الحب كان صادقاً. وهام بها، ولم يظفر بها. وكانت قصة حب عذري، وانتهت برحيل الشاعر إلى بغداد بعد يأسه من جنان. وجعل طريقه على الكوفة، ولم يترك حانة أو ديراً يقدم الخمر إلا حل به وشرب أياماً، كأنما أراد أن يغرق خيبته في الحب في كؤوس الشراب. ويروي لنا الجاحظ في البخلاء حكايةً عن أبي نواس وهو مقبل على بغداد في سفينة، وفيها إشارة إلى أن الرجل قد ألمَّ بعلم الكلام إلماماً حسناً.

انسل العلماء والأدباء من البصرة إلى بغداد، وكان أبو نواس معهم. جذبهم كلهم بلاط المهدي ثم هارون الرشيد. ويبدو أن أبا نواس وصل إلى بغداد متأخراً، وصلها مع وصول الرشيد إلى سدة الخلافة، ذلك سنة ١٧٠هـ.

وبعد عشرين سنة في بغداد كان فيها يلهو ويغشى الخمارات في القرى المجاورة، ويمدح الرشيد بين الحين والحين ويمدح ثم يهجو البرامكة، توجه إلى مصر في سنة ١٩٠. وفيها مدح عامل خراجها الخصيب. ولعله مكث في مصر سنة أو سنتين. ثم رجع إلى بغداد ماراً بحمص التي أعجبه ما فيها من خمر. ومضى في طريق عودته إلى بغداد يتنقل من حانة إلى حانة ومن دير إلى دير. وفي بغداد حبسه الرشيد لأبيات بلغته، ثم حبسه لأبيات أخرى. لكنه كان يحبه. ومات الرشيد سنة ١٩٣، وأبو نواس في الحبس. وخلفه ابنه الأمين، فجاء العصر الذهبي لأبي نواس. كان المهدي فابنه الرشيد فابنه الأمين ممن يتذوقون الشعر العربي أحسن تذوق. فجعل الأمين أبا نواس نديمه. وكان للأمين قدرة على الشراب لا يسبقه فيها سوى أبي نواس. فإذا سكر الأمين عربد على جلسائه.

وصنع أبو نواس في الخمر والعبث بالعقائد القصائد الكثيرة في هذا الزمن، وناله من العقاب في عهد الأمين ما كان ناله في عهد الرشيد، فحبس مراراً، فرغم أن الأمين متهتك ماجن فقد آذاه سياسياً انتشار أشعار أبي نواس، إذ كان أخوه المأمون الخارج عليه في خراسان يتخذ من ذكر أبي نواس

وأشعاره دعاية سياسية ضد أخيه الخليفة ببغداد. ولم يطل عهد الأمين فقد أحدقت به في بغداد جيوش المأمون، وقتل في عام ١٩٨هـ. وعاش بعده أبو نواس سنة، ثم مات في عام ١٩٩.

من متذوقي شعر أبي نواس المعاصرين طه حسين، وله في حديث الأربعاء نظرات نافذة نقلنا بعضها ونحن نشرح لك ما اخترناه من الشعر.

أبو نواس شاعر قديم، وشعره قديم. وفي شعره حلاوة لا نجدها في شعر معاصريه، كان شعوبياً حيناً متعصباً للعرب اليمانية حيناً. لكنه كان في كل شأنه عابثاً، يحب الحياة ويحمل على كتفيه ثقل فكرة الفناء، فكان يقرض الأبيات الزهدية كلما مل من العبث. عاش تسعاً وخمسين سنة.. ضائعاً. ولو عرفنا سرَّ الحياة للُمنا أبا نواس.

أبو نواس عبقرية شعرية. وعندنا من الشعراء العباقرة ما ليس عند أمة. هنيئاً لنا.

وبعد، فهذه باقة من شعر أبي نواس، مرتبة على حروف المعجم. وأغراضها قليلة محصورة في ذكر الخمر والغزل بنوعيه، فلا حاجة إلى كشاف أغراض. وقد لبثت هذه المجموعة بين يديَّ ثلاث سنين، لا أقدر على إتمام العمل فيها، فاقبلْها مني على عوارها. وقد آدني تشكيلها وكرهتها، ولم أكن منشرح البال وأنا أشرحها. صرت أحن إلى زمن كان المرء فيه يمسك بالقلم ويكتب ولا يعاني من «تجدد» برامج الطباعة على الحاسوب ما أعانيه.

اغفر لي ـ إن استطعت ـ هذه الركاكة وهذا التشتت الذهني اللذين منعاني، في هذه المقدمة، من أن أقص عليك قصة حياة أبي نواس بسلاسة.

قد انتفعت في فهم أشعار أبي نواس وشرحها بالديوان الذي حققه فهوجي، وحاولت ألا أسرق كلامه ولا عناوينه، فإن فعلت وأخذت منه عبارة فهي بين إشارتي تنصيص، وهي منسوبة إليه.

١ كأني قد هجوت الأدعياء

يَهجو الهيثم بن عَدِي:

مـررتُ بـهـيـثَـمَ بْـنِ عَـديَّ يـومـاً، وقِـدْمـاً، كـنـتُ أمـنـحُـهُ الـصَّـفـاءَ

قِدماً: سابقاً، فيما مضى

فـأعـرضَ هـيـثـمٌ لـمـا رآنـيِ، كـأنّـي قـد هَـجَـوْتُ الأَدْعِـيـاءَ

الأدعياء: (مفردها دَعِيّ) المنسوبون إلى غير آبائهم

وقـد آلـيـتُ لا أَهـجُـو دَعِـيَّـاً، ولـو بَـلَـغَـتْ مُـروءَتُـهُ الـسَّـمَـاءَ

آليت: حلفت

٢ دع عنك لومي

دَعْ عنكَ لَوْمي، فَإنَّ اللَّوْمَ إغراءُ وداوِني بالتي كانتْ هِيَ الدَّاءُ

اترك اللوم، فاللوم يغريني بالتمادي؛ وداوني من أثر الخمر بالخمر. قالوا إن خير دواء لصداع السكر عند الصحو شرب بعض الخمر

صفراءُ لا تنزِلُ الأحزانُ ساحتَها، لـو مـسَّـهـا حـجـرٌ مَـسَّـتْـهُ سَـرَّاءُ

سراء: سرور

قامَتْ بِإبْريقِها، والليلُ مُعْتَكِرٌ، فَلاحَ مِنْ وجهِها في البيتِ لألاءُ

وقفت الساقية وبيدها الإبريق لجولة جديدة، والليل معتكر (مظلم) فلاح (ظهر) من وجهها الجميل لألاء (بريق) في جو البيت

فأرسَلَتْ من فمِ الإبريقِ صافِيَةً، كـأنّـمـا أَخْـذُهـا بـالـعـيـنِ إِغْـفَـاءُ

فأرسلت (صبت) من فم الإبريق خمراً صافية، كأن أخذك هذه الخمر بعينيك (رؤيتك لها) إغفاء

رَقَّتْ عن الماءِ، حتّى ما يلائِمُها لَطافَةً، وجَفَا عن شَكْلِها الماءُ

الخمر أرق من الماء ـ الذي لا شيء في رقته وشفافيته ـ، حتى إنه لم يعد يلائمها لطافةً، فجفا عنها (لم يختلط بها). أبو نواس يصف ضرباً من الويسكي العباسي، ومزج الويسكي بالماء يصنع في الكأس منظراً يظهر فيه عدم الاختلاط الفوري بينهما

فلَوْ مَزَجْتَ بها نُوراً لَمازَجَها حـتّـى تَـوَلَّـدَ أنـوارٌ وأَضْـوَاءُ

فأما لو مزجت بالخمر نوراً فسيمتزج بها لأنه من شكلها، فتولد (تتولد) حينئذ أنوار وأضواء. ستسمعني في التسجيل الصوتي أجعل «تولد» مرفوعة.. كأنني أردت أن أنأى بها عن الفعل الماضي

دَارَتْ على فِتيةٍ دانَ الزمانُ لَهُمْ، فـمـا يُـصـيـبُـهُـمُ إلَّا بِـمَـا شَـاءُوا

دارت الخمر على فتية دان (خضع) الزمان لهم. نشوة الخمر تجعل المرء يظن أن المصائب مستحيلة الوقوع

مِنْ كَفِّ ذاتِ حِرٍ في زِيِّ ذي ذَكَرٍ ... لها مُحِبَّانِ لُوطِيٌّ وزَنَّاءُ

تدور الخمر من كف فتاة ذات حر (فرج)، ترتدي زي فتى ذي ذكر (عضو الذكورة)، ولذا يحبها اللوطي والزناء (الممارس مع النساء). وهذا البيت قد تحرج قهوجي من إثباته، وأثبتناه نحن، ليس حرصاً على الأمانة العلمية، بل لأننا أحببناه

لِتِلْكَ أَبكي، ولا أَبكي لِمَنزِلَةٍ ... كانتْ تَحُلُّ بها هِنْدٌ وأَسْماءُ

أبكي إذ أتذكر مجلس الخمر، ولا أبكي كبقية الشعراء لمنزلة (منزل) كانت تنزل بها هند وأسماء

حاشَا لِدَرَّةَ أنْ تُبْنَى الخيامُ لها، ... وأنْ تَروحَ عليها الإبْلُ والشَّاءُ

دَرَّة (الخمرة) أعلى قدراً من أن تبنى لها الخيام، وأن تروح عليها (تعود إليها من مراعيها) الإبل والشاء (الأغنام). ونزع عن «درة» أل التعريف لجعله إياها علماً، كقولك: رأيت أسامة، تعني الأسد. وسموها «درة» لأنها محلوبة من العنب، كما يدر حليب الناقة. وخالفنا قهوجي الذي جعلها «دُرَّة» أي لؤلؤة

فقلْ لمن يَدَّعي في العلمِ فلسفةً ... حفِظْتَ شيئاً، وغَابتْ عنكَ أشياءُ

قل لمن يتفلسف (ويعني إبراهيم النظام المعتزلي): حفظت شيئاً (من ظاهر الدين)، وغابت عنك أشياء (من المقاصد والجوهر)

لا تَحْظُرِ العفوَ إنْ كنتَ امرأً حَرِجاً ... فإنَّ حَظْرَكَهُ بالدِّينِ إزْراءُ

لا تحظر العفو لمجرد أنك حرج (متشدد)، فهذا الحظر إزراء (استخفاف) بالدين

٣ صلاة السكارى

ونَدمَانٍ يَرى غَبْناً عليهِ ... بِأَنْ يُلْفَى، وليس به انْتِشَاءُ

رب ندمان (نديم) يرى غبناً عليه (ظلماً له) بأن يلفَى صاحياً ليس به انتشاء (سكر)

إذا نَبَّهْتَهُ من نَوْمِ سُكْرٍ، ... كَفَاهُ مَرَّةً منكَ النِّدَاءُ

إذا أردت إيقاظه من نومة سكر، فناده مرة واحدة برفق

فليس بِقَائِلٍ لك: إيهِ دَعْني! ... ولا مُسْتَخْبِرٍ لَكَ: ما تَشاءُ؟

فهو لن يقول لك: اتركني، ولن يقول لك: ما الذي تريد

ولكنْ سَقِّنيِ؛ ويقولُ أيضاً: ... عليكَ الصِّرْفَ، إنْ أَعْيَاكَ مَاءُ

ولكن، سيقول لك: سقني (اسقني)، ويضيف: هات خمرة صرفاً إن أعياك الحصول على ماء

إذا ما أدركَتْهُ الظُّهْرُ صلَّى، ... ولا عَصْرٌ عَلَيْهِ، ولا عِشَاءُ

إذا لحقته الظهر (صلاة الظهر) صاحياً صلاها، ولا يصلي ما بعدها

يُصَلِّي هذهِ في وَقْتِ هَذي، فكلُّ صلاتِهِ أبَداً قَضاءُ

يصلي بلا مراعاة لأوقات الصلوات، وكل صلواته قضاء (يقضي صلاة في وقت أخرى)

٤ أسماؤها الحسنى

أَثْنِ على الخَمْرِ بآلائِها، وسَمِّها أَحْسَنَ أَسْمائِهَا

امدح الخمر بآلائها (نعمها التي تسبغها علينا)، وسمها بأحسن أسمائها. التفت طه حسين في حديث الأربعاء إلى ما في هذا من تحدٍّ للدين، فالآلاء آلاء الله، والأسماء الحسنى أسماء الله

لا تَجْعلِ الماءَ لها قاهراً، ولا تُسلِّطْها على مَائِها

لا تزد الماء فيطغى على الخمر، ولا تقلل كثيراً فتطغى هي عليه

كَرْخِيَّةٌ، قد عُتِّقَتْ حِقْبَةً، حتَّى مَضَى أَكْثرُ أَجزائِها

هذه خمر كرخية (من محلة الكرخ ببغداد)، معتقة، وقد تبدد معظمها وبقيت خلاصتها

فلم يَكَدْ يُدْرِكُ خَمَّارُها منها سِوى آخرِ حَوْبائِها

فكأن صاحب الخمارة لحقها في النزع الأخير فأدرك آخر حوبائها (روحها)

دَارتْ فأَحْيَتْ، غيرَ مَذْمُومَةٍ، نُفوسَ حَرَّاها وأَنْضَائِها

دارت فأحيت، نفوس حراها (العطاش لها) وأنضائها (المتعبين لتأخرها عنهم)

والخمرُ قد يشربُها مَعشرٌ لَيْسُوا، إذا عُدُّوا، بِأَكْفَائِها

وللأسف فالخمر يشربها بعض الناس الذي ليسوا أكفاءً لها. والكفء هو الرجل الموازي للمرأة نسباً ومالاً فيمكنه الزواج بها

٥ التعلل بالأماني

رَسولِي قال: أَوْصَلْتُ الكتابا، ولكن، ليس يُعْطُونَ الجوابا

فقلتُ: أليس قد قَرأُوا كتابي؟ فقالَ: بَلى، فقلتُ: الآنَ طَابَا

الآن طاب خاطري

فَأَرْجُو أن يَكونُوا هُمْ جوابِي، بِلا شكٍّ، إذا عَرفوا الخِطابا

أُجِدُّ لَكَ المُنَى، يا قَلْبُ، كيْ لا تموتَ عليَّ غَمّاً واكتئابا

أُجِدّ: أجَدِّد

٦ شربت من عينيه

أعـاذِلَ، أَعْـتَـبْـتُ الإمـامَ، وأَعْـتَـبـا   وأَعْرَبْتُ عمَّا في الضَّميرِ، وأَعرَبا

يا عاذلتي (لائمتي) لقد أعتبت الإمام (أرضيته)، فأعتبني (رضي عني)، وأعرب كل منا عما يريد

وقُلْتُ لِساقِينا أَجِزْها، فلم أَكُنْ   لِيَأْبَى أميرُ المؤمنينَ وأَشْرَبا

وقلت للساقي أجزها (مرِّرْها عني، ولا تقدم لي كأساً)، فليس لي أن يرفض الخليفة شربي الخمر وأخالفه

فَجَوَّزَها عَنِّي عُقَاراً تَرى لها   إلى الشَّرَفِ الأَعْلى شُعَاعاً مُطَنَّبا

فجوزها عني (مر بالخمر دون أن يسقيني)، وهي عقار (خمر) ترى لها شعاعاً مطنباً (مرتفعاً) إلى الشرف (العلو) الأعلى

إذا عَبَّ فيها شَارِبُ القومِ خِلْتَهُ   يُقَبِّلُ، في دَاجٍ مِنَ الليلِ، كوكبا

إذا عب (شرب) الشارب منها حسبته يقبل كوكباً في ليل داج (مظلم). فالكأس تلمع في ظلمة المجلس كالكوكب، والشارب كأنه يقبّله

تَرى، حيثُما كانتْ من البيتِ، مَشْرِقاً،   ومَا لم تَكُنْ فيهِ من البيتِ، مَغْرِبا

في مكان الخمر في زاوية البيت يوجد شروق، وفي كل مكان غيره غروب

يَدُورُ بِها سَاقٍ أَغَنُّ تَرى لَهُ   على مُسْتَدَارِ الأُذْنِ صُدْغاً مُعَقْرَبا

يدور بكؤوس الخمر ساقٍ فيه صوته غنة، وترى عند مستدار الأذن (دائراً حول أذنه) صدغاً معقرباً (سالفاً تلتف خصلة شعر منه كأنها العقرب)

سَقَاهُمْ، ومَنَّاني بِعَيْنَيْهِ مُنْيَةً،   فكانتْ، إلى قلبي، أَلَذَّ وأَطْيَبا

سقاهم الساقي خمراً، وأرسل لي غمزة فيها وعد بتحقيق أمنية أخرى غير الشراب، فكانت غمزته ألذ من الخمر بالنسبة إلي

٧ حسرتي على أيام البصرة

عَفَا المُصَلَّى، وأَقْوَتِ الكُثُبُ   مِنِّيَ، فَالمِرْبَدَانِ، فَاللَّبَبُ

عفا (امحى) المصلى (مكان في البصرة) وأقوت (صارت مقفرة خالية) الكثب من وجودي وكذا خلا مني المربدان واللبب (مواضع في البصرة)

فالمسجدُ الجامعُ المروءةَ والدِّ -   ينَ عَفَا، فَالصِّحانُ، فَالرُّحُبُ

وعفا المسجد الذي يجمع المروءة والدين، وكذا الصحان (الساحات) والرحب (الساحات)

مَنازِلٌ قد عَمَرْتُها، يَفَعاً، حتى بدا في عِذارِيَ الشَّهَبُ

هذه منازل (أماكن) عمرتها (استوطنتها) يفعاً (فتىً) إلى أن ظهرت في عذاري (سالفي) الشَّهَب (بوادر الشيب)

في فِتيةٍ كالسُّيوفِ، هَزَّهُمُ شَرْخُ شبابٍ، وزَانَهُمْ أدَبُ

كنت ضمن فتية قوام كل منهم كالسيف، وقد هزهم شبابهم، وتزينوا بالأدب

ثمَّ أرابَ الزمانُ، فانْصَدَعُوا أَيْدِي سَبَاً في البلادِ، فانْشَعَبُوا

ثم أراب الزمان (غدر) فانصدعوا أيدي سبا (تعبير معناه: تشتتوا كقوم سبأ) فانشعبوا (تفرقوا)

لن يُخْلِفَ الدهرُ مثلَهُمْ أبداً عليَّ، هيهاتَ، شَأْنُهُمْ عَجَبُ

لم يخلف (يعوض) الدهر علي بمثلهم، وكان شأنهم عجباً (يعجب الناس)

لمَّا تَيَقَّنْتُ أنَّ رَوْحَتَهُمْ، ليس لها، ما حَيِيتُ، مُنْقَلَبُ..

عندما أيقنت أن ذهابهم ليس له منقلب (عودة)..

أَبْلَيْتُ صبراً، لم يُبْلِهِ أحدٌ، واقْتَسَمتْني مَآربٌ شُعَبُ

أبليت بلاء حسناً في الصبر، وتوزعتني مآرب (أغراض) شعب (متشعبة)

قُطْرَبُّلٌ مَربَعي، ولي بِقُرَى الـ كَرْخِ مَصيِفٌ، وأُمِّيَ العِنَبُ

قطربل (قرية كثيرة الخمارات) مربعي (موطني)، وأقضي الصيف في قرى الكرخ، وأمي هي العنب التي منها تُعتصر الخمر

تُرْضِعُني دَرَّها، وتَلْحَفُني بِظِلِّها، والهَجيرُ يَلتهبُ

وهذه الأم ترضعني درها (حليبها)، وتلحفني بلحاف ظلها في كرومها، بينما الهجير (القيظ) يلتهب

فَاسْتَوْسَقَ الشُّرْبُ للنَّدامى، وأَجْـ ـراهَا علينا اللُّجَيْنُ والغَرَبُ

استوسق الشرب (تم) للندامى، وأجرى الخمر علينا اللجين (الفضة) والغرب (الذهب). أي أنهم شربوا بكؤوس فضية مذهبة

أَقُولُ لمَّا تَحاكَيا شَبَهاً أَيُّهما، للتَّشَابُهِ، الذَّهَبُ

أقول وقد تحاكيا (تشابها) أيهما الذهب؟ أهو ذلك الطلاء أم الخمر نفسها؟

مُلْسٌ، وأمثالُها مُحَفَّرَةٌ، صُوِّرَ فيها القُسُوسُ والصُّلُبُ

الكؤوس ملساء وثمة كؤوس محفرة بالنقوش عليها صور القسوس وصلبانهم

يَتْلُونَ إنجيلَهُمْ، وفوقَهُمُ سَمَاءُ خَمْرٍ، نُجُومُها الحَبَبُ

الحبب: الفقاقيع

كـــأنَّـــهـــا لُـــؤْلـــؤٌ تُـــبـــدِّدُهُ   أَيْدي عَذارىَ أَفْضَى بِها اللَّعِبُ

كأن الفقاقيع، وهي تنفجر ويتصاعد رذاذها لآليء تبددها (تقذف بها) أيدي العذارى اللاهيات. تالله لقد كانوا يشربون الشمبانيا!

٨ تأليف النسب

يهجو أشجع السُّلَميّ:

ألا يـــا حـــادثـــاً فـــيـــهِ،   لِـمَـنْ يـتـعـجَّـبُ، الـعَـجَـبُ

لأَسْـــمَـــاءٍ يُـــسَـــمِّـــيـــهِـــنَّ ـ   «أَشْـجَـعُ» حـيـنَ يَـنْـتَـسِـبُ

أسماء أجداده عجيبة

تـــعـــلَّـــمَـــهـــا وإِخْـــوَتَـــهُ،   فـــكُـــلُّـــهُـــمُ بِـــهـــا ذَرِبُ

لقد تعلم، هو وإخوته، هذه الأسماء تعلّماً، وكلهم ذرب (سريع اللسان) في تردادها

لـــقـــد زَنَّـــوْا عَـــجُـــوزَهُـــمُ   ولـــو زَنَّـــيْـــتُـــهـــا غَـــضِـــبُـــوا

ولأنها ليست أسماء أجدادهم الحقيقية فكأنهم يتهمون عجوزهم (أمهم) بالزنا؛ ولكن، لو اتهمتها أنا بالزنا لغضبوا مني

٩ قمة السكر

ونَدمَانِ صِدْقٍ بَاكَرَ الراحَ سُحْرَةً،   فأَضْحَى، وما منه اللسانُ ولا القلبُ

رب ندمان (نديم) صدق (صادق) بكر إلى الراح (الخمر) عند السحر (قبيل الفجر) فما جاء الضحى إلا ولسانه وقلبه ليسا منه (أي صار سكران طينة)

تَـأَنَّـيْـتُـهُ كـيْـمَـا يُـفـيـقَ، ولـم يُـفِـقْ   إلى أن رأَيْتُ الشمسَ قد حازَها الغَرْبُ

تأنيته (ترفّقت به) كي يفيق، فلم يفق حتى الغروب

فقامَ يَخَالُ الشمسَ لَمَّا ترحَّلَتْ،   فنادى: صبوحاً! وهْيَ قد قَرُبَتْ تخبو

ثم أفاق وهو يخال (يظن) الشمس لم تشرق بعد، فنادى صبوحاً (عليَّ بشراب الصباح)، هذا بينما الشمس في الواقع كادت تخبو (تنطفئ وتغيب)

وحاولَ نحوَ الكأسِ مَشْياً، فلم يُطِقْ،   من الضعفِ، حتى جاءَ مختَبِطاً يحبو

ومن سكره صار يحبو مختبطاً (متمايلاً) نحو الكأس

فقلتُ لِسَاقِينا اسْقِهِ، فانبَرى له،   رَفيقٌ بِمَا سُمْنَاهُ من عَمَلٍ، نَدْبُ

فأمرت الساقي بأن يسقيه، فانبرى الساقي له مترفقاً بما سمناه (كلفناه) من عمل، وندب (نشيط)

فناوَلَهُ كأساً جَلَتْ عن خُمَارِهِ، وأَتْبَعَهـا أُخْرى، فَثَابَ لـهُ لُـبُّ

فسقاه كأساً جلت عن خماره (ذهبت بصداع السكر)، وكأساً أخرى أرجعت له عقله

١٠ لها حق الانتخاب

مـا هـوىً إلا لـه سـببُ يَـبتدي مـنـهُ، ويَـنْـشَـعِـبُ

فَـتَـنـتْ قـلـبـي مُـحَـجَّـبَـةٌ وجـهُـهـا بـالـحسـنِ مُـنـتـقِـبُ

تعليق عمران القفيني: أليس من هنا أخذ المتنبي «على الوجه المكفن بالجمال»؟

خُـلِّـيَـتْ والـحسـنَ، تـأخـذُهُ.. تـنـتـقـي مـنـه وتـنـتـخِـبُ

تُركت مع الجمال وصارت تنتقي أجمل الجمال ليكون لها

١١ بين الحليب والخمر

دَعِ الأَطـلالَ تَسـفـيهـا الـجَـنـوبُ وتُـبـلـي عـهـدَ جِدَّتِهـا الـخُـطـوبُ

اترك الأطلال تسفيها (تثير ترابها) ريح الجنوب، ودعها كي تبلي الخطوب (الأحداث) جديدها وتجعله بائداً

وخَـلِّ لِـراكِـبِ الـوَجْـنَـاءِ أرضـاً تَـخُبُّ بِـهـا الـنَّـجـيـبَـةُ والـنـجـيـبُ

واترك لراكب الناقة الوجناء (القوية) تلك الأرض الصحراوية التي تخب (تسير) بها الناقة النجيبة (الأصيلة) والجمل النجيب

بـلادٌ نَـبْـتُـهـا عُـشَـرٌ وطَـلْـحٌ، وأَكـثـرُ صَـيـدِهـا ضَـبُـعٌ وذِيـبُ

تلك بلاد نباتها عشر (شجر صمغي) وطلح (نبات شائك)،
وأكثر ما يُصاد فيها الضبع، والذئب

ولا تـأخُـذْ عـن الأعـرابِ لـهـواً، ولا عَـيْـشـاً، فـعـيـشُـهُـمُ جَـديـبُ

دَعِ الألـبـانَ يَـشْـرَبُـهـا رجـالٌ، رَقـيـقُ الـعـيـشِ بـيـنَـهُـمُ غـريـبُ

العيش الرقيق غريب عند هؤلاء البدو

إذا رابَ الـحـلـيـبُ فـبُـلْ عـلـيـهِ ولا تَـحْـرَجْ، فَـمَـا فـي ذاكَ حُـوبُ

راب: تخثر، لا تحرج (لا تخش حمل إثم)، فما في هذا حوب (إثم)

فـأطـيَـبُ مـنـه صـافِـيـةٌ شَـمُـولٌ، يَـطـوفُ بِـكَـأْسِـهـا سَـاقٍ أديـبُ

شمول: خمرة باردة

أقـامَـتْ حِـقْـبَـةً فـي قـعـرِ دَنٍّ،   تَـفُـورُ، ومـا يُـحَـسُّ لـهـا لـهـيـبُ

أقامت: مكثت، دنٌ: وعاء التخمير الكبير المختوم

كـأنَّ هـديـرَهـا فـي الـدنِّ يَـحـكـي   قِـرَاةَ الـقَـسِّ قـابَـلَـهُ الـصَّـلـيـبُ

يحكي: يشبه، قراة: قراءة

تُـمَـدُّ بِـهـا إلـيـكَ يـدا غـلامٍ   أَغَـنَّ، كـأنَّـهُ رَشَـأٌ رَبـيـبُ

أغن: في صوته غنة أنفية مستعذبة، رشأ: ولد الغزال، ربيب: مدلل

يَـنـوءُ بِـرِدْفِـهِ، فـإذا تَـمَـشَّـى   تَـثَـنَّـى فـي غـلائِـلِـه قـضِـيـبُ

ينوء (يتعب) وهو يحمل أردافه، فإذا مشى تثنى بداخل غلائله (ملابسة الواسعة) قضيب (غصن)

يَـمُـدُّ لـكَ الـعِـنـانَ، إذا حَـسـاهـا،   ويـفـتـحُ عَـقْـدَ تِـكَّـتِـهِ الـدَّبـيـبُ

يمد هذا الغلام لك العنان (الحبل) ويتساهل معك إذا حساها (شربها)، ويفتح عُقدة تكته (حزام وسطه) الدبيب (تغلغل أثر الخمر في جسمه) كذا فسرها قهوجي، وتالله لأبو نواس أوسخ من هذا خيالاً، وللدبيب معنى آخر هو أن يحبو المرء في ظلام المجلس، والسكارى غافون على أرائكهم، في اتجاه محبوبه لينال منه

يَـكـادُ مـنَ الـدَّلالِ إذا تَـثَـنَّـى   عـلـيـكَ، ومِـنْ تَـسـاقُـطِـهِ يَـذوبُ

يكاد هذا الغلام لكثرة دلاله وتساقطه (من تأثير الخمر يسقط رأسه على صدرك، وتسقط يداه في حجرك، ولك أن تتخيل تهاوي أعضاء الساكر لارتخاء مفاصله)، وهذا التثني والتساقط يجعلك ترى كأن الغلام.. يذوب

فـهـذا الـعـيـشُ لا خِـيَـمُ الـبـوادي،   وهـذا الـشُّـرْبُ لا الـلَّـبَـنُ الـحـلـيـبُ

١٢ حامل الهوى تعب

حـامـلُ الـهـوى تَـعِـبُ   يـسـتَـخِـفُّـهُ الـطَّـرَبُ

الطرب: الحزن، أي لشدة حزنه يصير مرتعش السلوك

إن بَـكـى يَـحِـقُّ لـه   لـيـس مـا بِـهِ لَـعِـبُ

فيروز تقول «يحُق له» بضم الحاء، وهذا وجه قاله اللسان، وهيهات أن تغلط فيروز في اللغة؛ على أنها بعد أن مات زوجها وأشاحت عن سِلفها، زلت زلتين

كـلَّـمـا انـقـضَـى سـبـبٌ   مـنـكِ عـادَ لـي سـبـبُ
تَـعـجـبـيـنَ مـن سَـقَـمـي   صِـحَّـتـي هِـيَ الـعَـجَـبُ
تـضـحـكـيـنَ لاهِـيـةً   والـمـحِـبُّ يَـنـتـحِـبُ

١٣ كي أكون صادقاً..

نسب في بعض النسخ إلى أبي نواس:

سقاني أبو بِشْرٍ من الراحِ شَرْبَةً لـهـا لـذَّةٌ مـا ذقـتُـهـا لِـشَـرابِ
وما طَبخُوها غيرَ أنَّ غلامَهُمْ سَعَى ليلةً في كَرْمِها بِشِهابِ

شهاب: مصباح

١٤ خمر وقينة

قامَتْ تُرِيني، وأَمْرُ الليلِ مجتَمِعٌ، صُبْحاً تَولَّدَ بينَ الماءِ والعِنَبِ

قامت تريني، والليل قد تكاثف ظلامه، ضوءاً كضوء الصبح تولد من خلط الماء بالخمرة التي أصلها من العنب

كأنَّ صُغْرَى وكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِها حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

كأن فواقعها (فقاقيعها) الصغيرة والكبيرة حصباء در (حصى من لؤلؤ) منثورة على أرض من الذهب

كأنَّ تُرْكاً صُفوفاً في جوانِبِها، تُوَاتِرُ الرَّمْيَ بالنُّشَّابِ مِنْ كَثَبِ

وتنفجر الفقاقيع تباعاً فكأنها على وجه الكأس جنود من الأتراك يصطفون ويواترون (يواصلون) الرمي بالنشاب (بالسهام) من كثب (من قرب)

مِنْ كَفِّ سَاقِيَةٍ، نَاهِيكَ سَاقِيَةً، في حُسْنِ قَدٍّ، وفي ظَرْفٍ، وفي أَدَبِ
كانَتْ لِرَبِّ قِيانٍ ذي مُعَالَنَةٍ بالكَشْخِ مُحْتَرِفٍ، بالكَشْخِ مُكْتَسِبِ

هذه الجارية الساقية كان يملكها رب قيان (رجل يحتفظ في بيته بالمغنيات لتسلية الناس بأجر)، وهو ذو معالنة (يعلنها صراحة ولا يستتر)، فهو محترف الكشخ (بذل نسائه/ الدياثة) ومكتسب به

فقد رَأَتْ وَوَعَتْ عنهُنَّ، واختَلَفَتْ ما بيْنَهُنَّ ومَنْ يَهْوَيْنَ بالكُتُبِ

وكان من شأنها وهي عند ذلك الرجل أن خبرت أحوال القيان، وأن اختلفت (ترددت رائحة جائية) بينهن وبين من يحببن بالكتب (بالرسائل)

حتَّى إذا ما غَلا مَاءُ الشَّبابِ بِها، وأُفْعِمَتْ في تَمَامِ الجِسْمِ والقَصَبِ

فعندما غلا ماء شبابها (فارت)، وأفعمت (امتلأت وتكوّرت) وتم جسمها وقصبها (عظمها)

وجُمِّشَت بِخَفِيِّ اللَّحْظِ، فانْجَمَشَتْ، وَجَرَّتِ الوعدَ بين الصِّدْقِ والكَذِبِ

وعندما جمشت (دوعبت) بخفي اللحظ (بالنظرات المسروقة) فانجمشت (تجاوبت مع المداعبة)، وعندما أصبحت ناضجة في الحرفة تعطي أنصاف الوعود للعشاق

تَمَّتْ، فلمْ يَرَ إنسانٌ لها شَبَهاً، في مَنْ بَرَى اللَّهُ مِنْ عُجْمٍ ومن عَرَبِ

عندئذ اكتملت فلم يعد لها شبيه فيمن خلق الله من عجم أو عرب

تلكَ التي لو خَلَتْ مِنْ عَيْنِ قَيِّمِها، لم أَقْضِ منها، ولا مِنْ حُبِّهَا أَرَبِي

مثل هذه الجارية، حتى لو خلت من عين قيمها (لو تخلصت من مراقبة قوادها)، لما اكتفيت منها لشدة شغفي بها

١٥ إن طاوعني قلبي

وفاتِنٍ بالنَّظَرِ الرَّطْبِ يضحَكُ عن ذي أُشُرٍ عَذْبِ

فتى في عينيه نداوة يضحك فتبدو أشره (أسنانه ذات التحزيز لصغر السن)

خالَيْتُهُ في مجلسٍ لم يَكُنْ ثالثُنا، فيهِ، سِوى الرَّبِّ

خاليته (اختليت به)

فقالَ لِي، والكَفُّ في كفِّهِ، بعدَ التَجَنِّي مِنْهُ والعَتْبِ

تُحِبُّنِي؟ قلتُ مُجِيباً له: وفوقَ ما ترجو مِنَ الحبِّ

قالَ اتَّقِ اللَّهَ، ودَعْ ذا الهوى فَقُلْتُ: إنْ طَاوَعَنِي قَلْبِي

١٦ كيف أكلك للضب؟

إذا ما تميميٌّ أتاكَ مُفَاخِراً فقُلْ: عَدِّ عن ذَا، كيفَ أكلُكَ للضَّبِّ؟

عد عن ذا: دعنا من هذا الكلام، والتميمي مضري من عرب الشمال، وأبو نواس يتزين بالانتساب إلى اليمنية

تُفَاخِرُ أبناءَ الملوكِ سَفاهةً، وبَوْلُكَ يجري فوقَ ساقِكَ والكَعْبِ

فنحن مَلَكْنا الأرضَ شرقاً ومغرباً، وشَيْخُكَ ماءٌ في التَّرائبِ والصُّلْبِ

نحن أهل اليمن، وربما عنى الفرس، ملكنا الأرض وشيخك (جدك الأعلى) ما زال لم يولد موجوداً نطفة في الترائب (عظام بأعلى الصدر) والصلب (الظهر)

١٧ عن تجربة

لا تَحْمَدَنَّ امْرَأً حتى تُجَرِّبَهُ، ولا تَذُمَّنَّهُ من غيرِ تجريبِ

١٨ الرغيف الرديد

قــد عــلا الــديــوانَ كَــابَــة،   مُــذْ تَــوَلَّــى ابــنُ سِــيَــابَــةْ

كابة: كآبة

يــا غُــرابَ الــبـيْــنِ فــي الــشُّــؤْ   مِ، ومــيــزابَ الــجَــنــابَــةْ

ميزاب: مسيل ماء

يــا رغــيــفــاً رَدَّهُ الــبَــقَّــا   لُ يُــبْــســاً وصَــلابَــةْ

أعاده البقال للخباز ولم يرض بتسويقه في دكانه

١٩ رثاء والبة بن الحُباب

فــاضــتْ دمــوعُــكَ ســاكِــبَــةْ   جَــزَعــاً لِــمَــصْــرَعِ وَالِــبَــةْ

قَــامَــتْ بِــمَــوْتِ أبــي أُسَــا   مَــةَ، فــي الــرِّفَــاقِ، الــنَّــادِبَــةْ

فُــجِــعَــتْ بــنُــو أَسَــدٍ بــه،   وبــنــو نِــزَارٍ قَــاطِــبَــةْ

بِــلِــسَــانِــهَــا، وزعــيــمِــهــا،   عِــنــدَ الأُمــورِ الــحَــازِبَــةْ

فجعت بشاعر كان ناطقاً عنها في الأمور الحازبة (الشديدة الحاسمة)

٢٠ احتضان الرغيف

رغيفُ سعيدٍ عندَهُ عِدْلُ نفسِه   يُقَلِّبُهُ طَوراً، وطوراً يُلاعِبُهْ

ويُخْرِجُهُ مِنْ كُمِّهِ، فَيَشُمُّهُ،   ويُجْلِسُهُ في حِجْرِهِ ويخاطبُهْ

وإن جاءَهُ المِسْكِينُ يطْلُبُ فَضْلَهُ،   فقد ثَكِلَتْهُ أمُّهُ وأقَارِبُهْ

إن جاءه فقير يطلب فضلة (حسنة زائدة عن حاجته)، فهو يشتمه بثكلتك أمك

يَكُرُّ عليْهِ السَّوْطَ من كلِّ جانِبٍ،   وتُكْسَرُ رجلاهُ، ويُنْتَفُ شارِبُهْ

٢١ الكلب الأفعى

لما تبدَّى الصُّبْحُ من حِجَابِهِ

كَطَلْعَةِ الأَشْمَطِ من جِلْبَابِهِ

الأشمط: الذي اختلط سواد شعره بياض

وانْعَدَلَ اللَّيلُ إلى مَآبِهِ

تراجع الليل إلى مكان عودته

كـالـحَـبَـشِـيِّ افـتَـرَّ عـن أنـيَـابِـهِ
هِـجْـنَـا بِـكـلْـبٍ طـالَـمَـا هِـجْـنـا بِـهِ

هجنا بكلب: حركناه من موضعه

يَـنْـتَـسِـفُ الـمِـقْـوَدَ مِـنْ كَـلَّابِـهِ

ينتسف (ينتزع) المقود (الزمام/الحبل) من كلابه (قيّمه)

كَـأَنَّ مَـتْـنَـيْـهِ لَـدَى انْـسِـلابِـهِ

كأن متنيه (جانبي ظهره) عند انسلابه (إسراعه)

مـتْـنَـا شُـجَـاعٍ لَـجَّ فـي انْـسِـيَـابِـهِ

كأنهما متنا (جانبا ظهر) شجاع (ثعبان) لج في انسيابه (أسرف في الزحف)

تَـرَاهُ فـي الـحُـضْـرِ، إذا هَـاهَـا بِـهِ

تراه في الحضر (الركض) إذا هاها (صاح) صاحبه به

يَـكـادُ أن يَـخْـرُجَ مِـنْ إهَـابِـهِ

إهابه: جلده

٢٢ هجاء جعفر البرمكي

لقد غَرَّني من جَعْفَرٍ حُسْنُ بابِهِ ولـم أَدْرِ أن الـلُّـؤْمَ حَـشْـوُ إهَـابِـهِ

حسن بابه: سهولة الدخول عليه، حشو إهابه: ملء جلده

فَلَسْتُ، وإنْ أَخْطَأْتُ في مَدْحِ جَعْفَرٍ، بِـأَوَّلِ إنـسـانٍ خَـرِيَ فـي ثِـيَـابِـهِ

٢٣ بل نحن خير من قريش

وقيل حبسه الرشيد على هذه القصيدة، التي ستلي، حبساً طويلاً:

لـسـتُ لِـدارٍ عَـفَـتْ وغَـيَّـرَهـا ضَـرْبَـانِ من قَـطْـرِهـا وحـاصِـبِـهـا

لست ممن يبكي على طلول دار عفت (خربت) وتغيرت معالمها بضربين (نوعين) هما القطر (المطر) والحاصب (الريح ذات التراب والحصى)

بـل نـحـنُ أَرْبـابُ نَـاعِـطٍ، ولَـنـا صَـنْـعـاءُ، والمِـسْـكُ في مَـحَـارِبِـهـا

نحن أرباب (أصحاب) ناعط (حصن باليمن) ولنا صنعاء التي يكثر المسك في محاربها (منازلها) دلالة على الثروة

أَحْبِبْ قُرَيْشاً لِحُبِّ أَحْمَدِها، واعْرِفْ لها الجَزْلَ من مَواهِبِها
أحبب قريشاً (فلتحب يا هذا قريشاً) لحبك لأحمدها (الرسول)، واعرف لها الجزل من مواهبها (عطاياها الكثيرة)

إنْ فاخَرَتْنا فلا افتِخارَ لها إلا التِّجارَاتُ من مكاسِبِها
وإنَّها إنْ ذَكَرْتَ مَكْرُمَةً جاءَتْ تِجارٌ لَها بِغالِبِها
مكارم قريش سببها في الغالب التّجار (التُّجّار)

فاهْجُ نِزاراً وَأَفْرِ جِلْدَتَها، وهَتِّكِ السِّتْرَ عن مثالِبِها
نزار: جد عرب الشمال، أفر جلدتها: قطّع، مثالبها: مساوئها

٢٤ مبهوت برؤية الحبيب

رَبْعُ البِلَى أَخْرَسُ، عِمِّيتُ، مُسْتَلَبُ الْمَنْطِقِ، سِكِّيتُ
ربع البلى (منزل الخراب/الطلل) أخرس أعمى

أَعارَهُ حَيْرَتُهُ عَاشِقٌ، رأى حَبِيباً، فَهْوَ مَبْهُوتُ

٢٥ من الجنس الثالث

يا لاعباً بِحَياتي وهاجِراً ما يُؤاتي
يؤاتي: يطاوع

والقَدُّ قَدُّ غُلام، والغُنْجُ غُنْجُ فَتاةِ
مُذَكَّرٌ حينَ يَبْدُو مُؤَنَّثُ الخَلَواتِ

٢٦ منتهى التمرد

قالوا ظَفِرْتَ بِمَنْ تَهوى، فقلتُ لهُمْ: الآنَ أكثرُ ما كانتْ صَبَاباتي
ودَاهِرِيٍّ سَمَا في فَرْعِ مَكْرُمَةٍ من معشَرٍ خُلِقوا في الجودِ غاياتِ
وداهري (شاب من فرع داهر بكنانة) سما في فرع مكرمة (نشأ في سلالة كريمة)

فقلتُ والليلُ يجْلُوه الصَّبَاحُ كما يجلُو التَّبَسُّمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ:
غر الثنيات: الأسنان البيض

يا أَحمَدَ الْمُرتَجى في كلِّ نائِبَةٍ قُمْ، سَيِّدِي، نَعْصِ جَبَّارَ السَّماواتِ

يا أحمد الذي أرجو عونه في كل مصيبة، قم نشرب الخمر ما أكثر ما يقتبسون البيت، ثم يشتمونه رفعاً للإثم عن ظهورهم، أو خوفاً من التكفير، فهم كمن يأكل الرشا ثم ينفض ثوبه ويقول: تلك هدية. وتحليلنا النفسي لمن قال البيت ولمن نقله هو أن البيت صادم صارخ بالتمرد. وأي تمرد! ليس على الدين ولا على التقاليد بل على رب السماوات. والمرء يهفو للتمرد، ويلذ الوصول إلى أقسى غاياته، وحبذا لو كان الواصل إلى هذه الغايات شخصاً آخر حتى لا نحمل الإثم نحن. وقيل إن الرشيد اراد أن يعاقب أبا نواس على هذا البيت، فقال أبو نواس: لم أكفر، ففي البيت إقرار بجبار السماوات

٢٧ لا فرج الله عني

لا فَرَّجَ اللَّهُ عني إن رَفَعْتُ يَدي إلَيْـهِ أَسْأَلُهُ مِنْ حُبِّكَ الفَرَجَا

ولا طَعِمْتُ بِكَ السُّلْوَانَ، يا أَمَلِي، وحَلَّ حُبُّكَ في قلبي، وما خَرَجا

لا أطعمني الله السلوان (النسيان) وليحلَّ حبك في قلبي مقيماً فيه لا يخرج

٢٨ يقتاتون المزاح والفكاهة

وخَدِينِ لَذَّاتٍ، مُعَلِّلِ صَاحِبٍ، يَقْتَاتُ منهُ فُكَاهَةً ومُزَاحا

رُبَّ خدين لذات (ملازم للملذات)، معلل صاحب (ساقٍ لصاحبه) يتسلى بفكاهاته

نَبَّهْتُهُ، والليلُ مُلْتَبِسٌ بِه، وأَزَحْتُ عنهُ حَثَاثَهُ فانْزَاحا

أيقظته والليل ملتبس به (مشوش لتفكيره ونظره) وأزحت عنه حثاثه (غفوته)

قال ابْغِني المِصْبَاحَ، قلتُ لهُ اتَّئِدْ! حَسبي وحسبُكَ ضَوْءُها مِصْبَاحا

اتئد: تروَّ

شَكَّ البِزَالُ فُؤَادَها، فكأنَّما أَهْدَتْ إليكَ بِرِيحِها تُفَّاحا

البزال: مثقب الدنّ، ريحها: رائحتها

٢٩ هدية من فرح

ومُدَامَةٍ سَجَدَ الملوكُ لها، بَاكَرْتُها، والدِّيكُ قد صَدَحا

صِرْفٍ، إذا اسْتَبْطَنْتَ سَوْرَتَها، أَهدَتْ إلى مَعْقُولِكَ الفَرَحا

صرف: خالصة، سك بلا مزج، استبطنت سورتها: جعلت هياجها في بطنك، معقولك: عقلك

٣٠ ضمانة ضد الزمان

قال أبو نواس يمدح الفضل بن الربيع:

وَكَلْتَ بِالدَّهْرِ عيْناً غَيْرَ غَافِلَةٍ، من جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّما جَرَحا

كلفت عينك الساهرة بمتابعة مصائب الدهر، ورحت تأسو (تعالج)
بجودك ما يخلفه الدهر من جراح

أنت الذي تَأْخُذُ الأَيْدي بِحُجْزَتِهِ، إذا الزَّمَانُ على أولادِهِ كَلَحا

بحجزته: بحزامه، كلح: عبس

٣١ نسوة الزمن الثاني

أَيَّةَ نَارٍ قَدَحَ القَادِحُ وأَيَّ جِدٍّ بَلَغَ المازِحُ

ما هذه النار التي أشعلها مشعلها في رأسي شيباً، وما هذا الجد الذي بلغنا إليه مع الكهولة بعد
كل ذلك المزاح في الشباب

لِلَّهِ دَرُّ الشَّيْبِ مِنْ واعِظٍ، وناصِحٍ، لَوْ سُمِعَ النَّاصِحُ
يأبَى الفَتى إلَّا اتِّبَاعَ الهَوى، ومَنْهَجُ الحَقِّ له واضِحُ
فَاسْمُ بِعَيْنَيْكَ إلى نِسْوَةٍ، مُهُورُهُنَّ العَمَلُ الصَّالِحُ

اسمُ: تطلَّعْ

لا يَجْتَلي الحَوْرَاءَ من خِدْرِها إلَّا امْرُؤٌ مِيزَانُهُ راجِحُ
مَنِ اتَّقَى اللَّهَ، فَذَاكَ الذي سِيقَ إليْهِ المَتْجَرُ الرَّابِحُ
شَمِّرْ، فَما في الدِّينِ أُغْلُوطَةٌ، ورُحْ لِمَا أنتَ له رَائِحُ

٣٢ من حديث القدح والإبريق

يا إخوَتي ذا الصَّباحُ، فاصْطَبِحُوا، فقد تَغَنَّتْ أَطْيَارُهُ الفُصُحُ
هُبُّوا خُذُوها، فقد شَكَانا إلى الـ إبريقِ، مِنْ طولِ نومِنا، القَدَحُ
صِرْفاً، إذا شَجَّها المِزَاجُ بِأيْـ ـدي شَارِبِيها تَوَلَّدَ الفَرَحُ

تكون الخمر صرفاً (غير ممزوجة) فإذا شجها المزج (جرح رأسها) فرحت نفوس الشاربين. نعم
فمزج الخمر بالماء يلون الكأس كما يتلون رأس شججته بحجر

حتى تُرِيكَ الحَليمَ ذا طَرَبٍ، يَهُزُّهُ في مَكانِهِ المَرَحُ

٣٣ خمرة تذكر نوحاً

قال يمدح العباس بن عبيد الله الهاشمي:

غـرَّدَ الـدِّيـكُ الـصَّـدُوحُ، فـاسْـقِـنـي! طـابَ الـصَّـبُـوحُ
واسْـقِـنـي حـتَّـى تَـرانـي حَـسَـنـاً عِـنـدي الـقـبـيـحُ
قَـهْـوَةً تَـذْكُـرُ نُـوحـاً حـيـن شـادَ الـفُـلْـكَ نُـوحُ
أنـا فـي دُنـيـا مِـنَ الـعَـبَّـ ـاسِ أغـدو وأَرُوحُ
بُـحَّ صـوتُ الـمـالِ مِـمَّـا مِـنْـكَ يـشـكُـو، ويَـصـيـحُ:
«مَـا لِـهـذا آخِـذٌ فـوقَ يَـدَيْـهِ، أو نَـصـيـحُ!»

آخذ فوق يديه: مانع إياه

٣٤ روحان في بدن

ما زلتُ أَسْتَلُّ رُوحَ الدَّنِّ في لُطُفٍ وأَسْتقِي دمَهُ مِنْ جَوفِ مَجْرُوحِ

ظللت أسحب روح الدن (وعاء الخمر الكبير الذي يثقب وتؤخذ منه الخمر) وأشرب دمه من جو وهو مجروح

حتى انثَنيْتُ ولِي رُوحانِ في بَدَنٍ والدَّنُّ مُنْطَرِحٌ جسماً بِلا رُوحِ

حتى انثنيت (أصبحت) وعندي روحان، ولم يعد في الدن خمر، فالخمر روحه

٣٥ سهر البارحة

تَـفـتِـيرُ عـيـنـيْـكَ دليـلٌ عـلـى أنَّـكَ تـشـكُـو سَـهَـرَ الـبَـارِحَـةْ
عـلـيـكَ وجْـهٌ سَـيِّءٌ حَـالُـهُ، مـن لَـيْـلَـةٍ بِـتَّ بِـهـا صَـالِـحَـةْ
ونَـفْـحَـةُ الـخـمـرِ وأنـفـاسُـهـا، والـخـمـرُ لا تَـخـفـى لـهـا رائـحـةْ

٣٦ موجات من الحسن

وذاتِ خَـدٍّ مُـوَرَّدْ فَـتَّـانَـةِ الْـمُـتَـجَـرَّدْ

المتجرد: المعرى

تَـأَمَّـلُ الـعـيـنُ مـنـهـا مـحـاسِـنـاً لـيـس تَـنْـفَـدْ

تأمل: تتأمل

الـحـسـنُ فـي كـلِّ جـزءٍ مـنـهـا مُـعـادٌ مُـرَدَّدْ

فَـبـعـضُـهُ يَـتـنَـاهَـى، وبـعـضُـهُ يَـتـولَّـدْ

٣٧ درع دون المصائب

قال يمدح عبيد الخادم مولى أم جعفر:

يا ابنـةَ القـومِ لا تُـراعـي بِـرَيْـبِ، واسْـلَـمـي رَخْـصَـةَ الأنـامـلِ رَوْدَا

رخصة الأنامل: لينة الأصابع، رَوْد: لينة

لا تَـخافـي علـيَّ صَرْفَ اللَّيالِي، إنَّ بـيْـنـي وبـيـنَـهُـنَّ عُـبَـيْـدا

٣٨ عطشوا من عهد عاد

سُـمْـتُـهـا عـنـدَ يَـهـودِيٍّ ـ خَـصـيـبِ الْـمُـسْـتَـرادِ

ساومت في الخمرة في حانوت يهودي كثير عنده المستراد (ما يريده الناس بشدة)

فَـشَـرِبْـنـا شُـرْبَ قـومٍ عَـطِـشـوا مـن عـهـدِ عَـادِ

٣٩ الثأر المتأخر*

يهجو هاشم بن حديج الذي كان جده قتل محمد بن أبي بكر الصديق:

يا هاشِمَ بْنَ حُدَيْجٍ ليس فخرُكُمُ بقَتلِ صِهْرِ رسولِ اللَّهِ بالسَّدَدِ

إن تقتُلوا ابْنَ أبي بَكْرٍ، فقد قَتَلَتْ حُجْراً بِدارَةِ مَلْحُوبٍ بنو أَسَدِ

بنو أسد قتلوا في الجاهلية حجراً أبا امرئ القيس الشاعر وسيد قبيلة كندة

وطَرَّدُوكُمْ إلى الأَجْبَالِ مِنْ أَجَإٍ، طَرْدَ النَّعامِ إذا ما تَاهَ في البلَدِ

وكلُّ كِنْدِيَّةٍ قالتْ لجارتِها، والدمعُ يَنهلُّ من مَثْنىً ومِنْ وَحَدِ

من مثنى ومن وحد: يسيل الدمع من جهتي العينين أو من جهة واحدة فقط من كل عين

أَلهَى امْرَأَ القيسِ تشبيبٌ بِغانيةٍ عن ثأرِهِ، وصِفاتُ النُّؤْيِ والوَتَدِ

*العنوان للمحقق سليم قهوجي

٤٠ التصليب بالرغوة

سَقْياً لِغيرِ العلياءِ والسَّنَدِ وغيرِ أَطلالِ مَيَّ بالجَرَدِ

يستذكر بيت النابغة «يا دار مية بالعلياء فالسند»، ويطلب السقيا، رحمة السماء، لأي مكان سوى هذين المكانين، وسوى أطلال مي بالجرد (الأرض الخلاء)

ويا صَبيبَ السحابِ إن كنتَ قد جُدْتَ اللِّوى، مرةً، فلا تَعُدِ

صبيب السحاب: المطر

أَحسنُ عنديٍ منَ انكِبابِكَ بالـ ـفِهْرِ مُلِحَّاً بهِ على وَتَدِ

الفهر: الحجر

وقوفُ ريْحَانةٍ على أُذُنٍ، وسيْرُ كَأْسٍ إلى فمٍ بِيَدِ

يسقيكَها من بَني العِبَادِ رَشاً مُنْتَسِبٌ عيدُهُ إلى الأَحَدِ

بنو العباد: مسيحيون كانوا بالحيرة، رشا: ظبي

إذا بَنَى الماءُ فوقَها حَبباً، صَلَّبَ فوقَ الجَبينِ بالزَّبَدِ

الحبب: الفقاقيع

أَشربُ من كفِّهِ شَمولاً، ومِنْ فيهِ رُضَاباً يجري على بَرَدِ

الشمول: الخمر، الرضاب: الريق

٤١ لي نشوتان

لا تبكِ ليلَى، ولا تطربْ إلى هِندِ واشربْ على الوردِ من حمراءَ كالوَرْدِ

اشرب على الورد: كانوا حريصين في مجلس الشراب على وجود الرياحين

كأساً إذا انحدَرَتْ في حَلْقِ شارِبها، أَجْدَتْهُ حُمرتَها في العينِ والخَدِّ

أجدته: أعطته. فيحمر من الخمر خدا وعينا شاربها (لمن لم يجرب)

فالخمرُ ياقوتةٌ، والكأسُ لؤْلؤَةٌ من كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القَدِّ

تسقيكَ من طَرْفِها خمراً، ومن يدِها خمراً، فما لَك من سُكْريْنِ من بُدِّ

لِي نَشْوتانِ، وللنُّدْمانِ واحِدَةٌ، شيءٌ خُصِصْتُ به، من دونِهِمْ، وحدِي

٤٢ لن تجد مثله

قولا لهارونَ إمامِ الهُدى، عند احتفالِ المجلسِ الحاشدِ

نصيحةُ الفضلِ وإشفاقُهُ أَخْلَى لهُ وجهَكَ من حاسِدِ

الفضل بن يحيى البرمكي لا حاسد له عندك لأنه صادق النصيحة ومشفق (حريص)

بِصادقِ الطَّاعَةِ، ديَّانِها، وواحدِ الغائبِ والشَّاهِدِ

طاعته لك صادقة، وهو ديان (منصف عادل)، وما يقوله في وجهك مثل ما يقوله في غيبتك

أنتَ، على ما بِكَ من قُدْرَةٍ، فَلستَ، مثلَ الفضلِ بالواجِدِ
أوحَدَهُ اللَّهُ، فما مِثْلُهُ لِطالِبٍ ذاكَ، ولا ناشِدِ
ليسَ على اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يجمعَ العالَمَ في واحِدِ

تعليق الشاعر عمران القفيني: «ظل الشعراء يلوكون هذا المعنى.. آخرهم نزار قباني على ما أظن». وأظنه يقصد ما قاله نزار في رثاء جمال عبد الناصر، ١٩٧٠، قال: (قتلناك يا آخر الأنبياء/ قتلناك ليس جديداً علينا اغتيال الصحابة والأولياء/ فكم من رسول قتلنا، وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء/ فتاريخنا كله محنة/ وأيامنا كلها كربلاء)، والقصيدة طويلة ولك أن تتمتع بقوافيها الجميلة وبعذوبة نزار قباني، ولك أن تسمع رأياً في جمال عبد الناصر. أولاً رأي في نزار قباني: هذا شاعر كانت العربية بين يديه صلصالاً يصنع به أي شيء أراد، سبحان من خلقه. ورأيي في عبد الناصر رأي رجل حضر أيامه فتىً، وتعقب حسناته وسيئاته كهلاً. قد أحبه الوطن العربي كله، لأنه رأى فيه القوة والإخلاص. وأحبه المصريون لأنه بنى المصانع وفتح المدارس. شهدت حواراً بين صديق مصري ووالدته المتعلمة. كان يرمي عبد الناصر بأقبح النعوت وهي تترحم عليه، فلولا عبد الناصر لما كانت تعلمتْ. وكره عبد الناصر خصومه السياسيون الذين آذاهم، وكرهه عباس العقاد لأنه كان مستبداً، وقف العقاد عند كلمة عبد الناصر «لقد منحتكم الكرامة» وتقزز منها. صنع عبد الناصر دولة بوليسية، صنعها هو وشعبه، وصنعها وشعوب العرب تصفق. من يشتمون الرجل ومن يمدحونه سواء في قله بضاعتهم من الفطنة السياسية

٤٣ خمارة البلد

عاجَ الشَّقِيُّ على رَسْمٍ يُسَائِلُهُ، وعُجْتُ أَسْأَلُ عن خمَّارةِ البَلَدِ

عاج (مال) الشقي على رسم (طلل منازل الحبيبة) يكلمه، وملت أنا أسأل: أين خمارة البلد؟

يَبكي على طَلَلِ الماضِينَ من أَسَدٍ، لا دَرَّ دَرُّكَ، قُلْ لي مَنْ بنُو أَسَدِ؟

لا در درك: عبارة تقريع، وهي عكس العبارة المألوفة «لله درك»

ومَنْ تَميمٌ؟ ومَنْ قَيْسٌ ولِفُّهُما؟ ليس الأعاريبُ عندَ اللَّهِ مِنْ أَحَدِ

لفهما: جماعتهما

لا جَفَّ دمعُ الذي يبكي على حَجَرٍ ولا صفَا قلبُ مَنْ يصبُو إلى وَتَدِ
كم بينَ ناعِتِ خمرٍ في دَسَاكِرِها وبينَ باكٍ على نُؤْيٍ ومُنْتَضِدِ

دساكرها: قراها (وكانت الخمارات في قرى محاذية للمدن)، النؤي: قناة حول الخيمة يحفرونها كي تمنع ماء المطر من الدخول للخيمة، منتضد: ساكن من السكان

دعْ ذا عـدِمْتُـكَ، واشـربْـهـا معـتَّـقَـةً   صفـراءَ تَفْرُقُ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ

تعليق عمران القفيني: كلمة صفراء قبيحة جداً. يقول المؤلف: فعلاً، أليست تذكِّر الإنسان السوي بالبول؟ على أن كارعي الويسكي قد يرون رأياً آخر، وهذا مشروب سكوتلندي قوي يجعل الحصان يمشي على اثنتين، والرجل على أربع

مـن كَفِّ مُـخْـتَـصِـرِ الزُّنَّـارِ مُـعتَـدِلٍ   كـغـصـنِ بـانٍ تَـثَـنَّـى غـيـرَ ذي أَوَدِ

مختصِر الزنار: واضع الحزام على خصره، وكان غير المسلمين ملزمين بالحزام تمييزاً لهم، غير ذي أود: غير معوج القوام

لـمـا رآنـي أبـوُهُ قـد قـعـدتُ لَـهُ   حَيًّا، وأيقَنَ أني مُتْلِفٌ صَفَدي

صفدي: عطائي (ما نلته من مال كراتب أو كهبة)

فَـجـاءنـي بِـسُـلافٍ لا يَـحِـفُّ لَـهـا   ولا يُـمَـلِّـكُـهـا إلا يـداً بِـيَـدِ

سلاف: أجود الخمر، وهو ما يسيل أولاً عند عصرها،
لا يحف لها: لا يملأها حتى الحافة ضناً بها

واسْتَوْفَتِ الخمرُ أحْوَالاً مُجَرَّمَةً   وافْتَرَّ عَيْشُكَ عن لَذَّاتِكَ الجُدُدِ

أحوالاً مجرمة: أعواماً كاملة، افتر: تبسَّم

فاشرَبْ وجُدْ بالذي تحوي يَداكَ لها   لا تَدَّخِرِ، اليومَ، شيئاً خوفَ فقرِ غَدِ
يـا عَـاذلـي، قـد أتـتْـنـي مـنـكَ بـادِرَةٌ   فـإنْ تَـغَـمَّـدَهـا عَـفـوي فَـلا تَـعُـدِ

أتتني منك بادرة: بدر منك قول

لو كانَ لومُكَ نُصْحاً كنتُ أقبَلُهُ   لكنَّ لومَكَ محمولٌ على الحَسَدِ

٤٤ نفعل في المسجد

وعـاشِـقَـيْـنِ الـتَـفَّ خـدَّاهُـمَـا   عـنـدَ الـتِـثَـامِ الـحَـجَـرِ الأَسْـوَدِ

التثام: تقبيل

فـاشْـتَـفَـيـا مـن غـيـرِ أنْ يـأْثَـمـا،   كـأنَّـمـا كـانـا عـلـى مـوعـدِ
لـولا دِفَـاعُ الـنـاسِ إيَّـاهُـمَـا،   لـمـا اسْـتَـفَـاقَـا، آخِـرَ الْـمُـسْـنَـدِ

المسند: الدهر

ظِـلْـنَـا كِـلانـا سَـاتِـرٌ وَجْـهَـهُ،   مِـمَّـا يَـلـي جـانِـبَـهِ، بـالـيَـدِ
نفعلُ في المسجِدِ ما لم يكنْ   يـفـعـلُـهُ الأبـرارُ فـي الـمـسـجـدِ

٤٥ في عيد الأضحى

يـا فَـرْحَـةً جـاءتْ مـعَ الـعـيـدِ　　وفـى الـذي أَهْـوَى بِـمَـوْعـودي
جـاءَ مِـنَ الأَعْـيُـنِ مـسْـتَـخـفِـيـاً،　　مِـنْ بـعـدِ إِخْـلافٍ وتَـنْـكـيـدِ
حـتـى إذا الـراحُ جَـرَتْ بـيـنَـنـا،　　أَمِـنْـتُ مـن خُـلْـفٍ وتَـرْدِيـدِ
ظـلَّ وَلِـيُّ الـعـهـدِ فـي خُـطْـبَـةٍ،　　وظِـلْـتُ بـيـنَ الـرَّاحِ والـعُـودِ
صـارَ مُـصَـلَّانَـا رَيـاحـيـنَـنـا،　　ونَـحْـرُنَـا بِـنْـتَ الـعَـنـاقـيـدِ

مكان صلاتنا أصبح الرياحين المنثورة في مجلس الشراب، وبدل أن ننحر شاة في عيد الأضحى نحرنا بنت العناقيد (الخمر). كانوا يثقبون الدن الكبير فتدفق منه الخمر حمراء

وصـارَ رِدْفُ الـظَّـبْـيِ لـي مِـنـبَـراً　　أَحـسـنَ مِـنْ عـوُدٍ عـلـى عـوُدِ
لـلـنـاسِ عـيـدٌ عَـمَّـهُـمْ واحِـدٌ،　　وصـارَ لـي عـيـدانِ فـي عـيـدِ

٤٦ لا عدمتَ تقويم مثلي

كتب في حبسه إلى الفضل بن الربيع، فسعى في إطلاقه:

أنتَ يا ابنَ الربيعِ أَلْزَمتَني النُّسْـ　　ـكَ، وعَـوَّدْتَـنـيـهِ، والـخيرُ عـادَةْ
فَارعَوَى باطِلي، وأَقْصَرَ جَهلي،　　وتَـبَـدَّلْـتُ عِـفَّـةً وزَهَـادَةْ

ارعوى: تراجَعَ، أقصر جهلي: عدت إلى الصواب

لَوْ تَراني ذَكَرْتَ بي الحسنَ البَصْـ　　ـرِيَّ في حُسْنِ سَمْتِهِ، أَوْ قَتَادَةْ

قتادة: بصري، من الحفاظ المعدودين

مـن خُـشـوعٍ أَزِيـنُـهُ بِـنُـحُـولٍ،　　واصْفِرارٍ مثلِ اصفِرارِ الجَرَادَةْ
اَلـمسابِيحُ في ذِراعيَّ، والْمُصْـ　　ـحَفُ في لَبَّتي، مَكانَ القِلادَةْ

لبتي: أعلى صدري

وإذا شـئـتَ أن تَـرى طُـرْفَـةً تَـعْـ　　ـجَبُ منها، مَليحَةً، مُسْتفَادَةْ
فَادْعُ بي، لا عَدِمْتَ تقويمَ مِثْلي،　　وتَـفَـطَّـنْ لِـمَـوْضِـعِ الـسَّـجَّـادَةْ

السجادة: بقعة في الجبين من أثر السجود

تَـرَ سـيـمـا مِـنَ الـصَّـلاةِ بِـوَجْـهـي،　　تـوقِـنُ الـنَّـفْـسُ أنَّـهـا مِـنْ عِـبَـادَةْ
لَـوْ رآهـا بـعـضُ الْـمُـرائِـيـنَ يـومـاً،　　لاشْـتَـراهـا يُـعِـدُّهَـا لـلـشَّـهَـادَةْ

للشهادة: لتقبل شهادته أمام القاضي

ولقد طالَ ما شَقيتُ، ولكنْ أَدْرَكَتْني على يديْكَ السَّعَادَةْ

٤٧ شياطين الراح

وإذا رامَ نديمٌ عربَدَةْ فاقْرَعَنْ بالصِّرْفِ منها كَبِدَهْ

اسقه الخمر صرفاً غير ممزوجة لكي ينخمد ولا يعربد

كَرِّرِ الخمرَ عليهِ بَحْتَةً كيْ تُقيمَ الخمرُ مِنْهُ أَوَدَهْ

أوده: اعوجاجه

ثمَّ وَسِّدْهُ، إذا ما غَلَبَتْ سَوْرَةُ الرَّاحِ عليهِ، عَضُدَهْ

إذا غلبت شدة الخمر هذا العربيد فوسده عضده (اجعل من ذراعه وسادة له واتركه ينم)

خَلَّتَا سُوءٍ تَشِينَانِ الفَتَى حيثُمَا حَلَّ: الخَنَا والعَرْبَدَةْ

الخنا: الفحش

٤٨ قفوا نشتم

يهجو هاشم بن حديج:

قِفُوا مَعْشَرَ الرَّاحِلِينَ اسْمَعوا، أَنَبِّئْكُمُ عن فَتى كِنْدَةْ

أيها المسافرون، بدل أن أستوقفكم للبكاء على الأطلال قفوا اسمعوا خبر هاشم هذا المنتسب لقبيلة كندة

وَرَدْنا على هَاشِمٍ مِصْرَهُ، فَبَارَتْ تِجارَتُنا عِنْدَهْ

رأَيْتُكَ عندَ حضورِ الخِوانِ، شَديداً على العَبْدِ والعَبْدَةْ

لذا وَكْزَةٌ منكَ مَعلومَةٌ، وذَا نَقْفَةٌ، ولِذا قَفْدَةْ

وكزة: دفعة، نقفة: ضربة بالإصبع، قفدة: صفعة

وتَحْتَدُّ حتى يَخافَ الجَليسُ شَذَاكَ عليهِ مِنَ الحِدَّةْ

شذاك: أذاك

وتَختِمُ ذاكَ بِفَخْرٍ عليهِ، بِكِنْدَةَ، فاسْلَحْ على كِنْدَةْ

اسلح: تغوَّط

فإنَّ حُدَيْجاً لَهُ هِجْرَةٌ، ولكنَّها، زَمَنَ الرِّدَّةْ

جدكم، أي نعم، من المهاجرين. لكن ليس مع الرسول بل زمن الردة

وما كانَ إيمانُكُمْ بالرسُولِ سِوى قَتْلِكُمُ صِهْرَهُ بَعْدَهْ

وأجداد المهجو قتلوا محمداً بن أبي بكر الصديق

٤٩ سليل السادة

قال يمدح إبراهيم بن عبيد الله الحجبي:

قلْ لِمَنْ سادَ ثم سادَ أبوه، قبلَه، ثم، قبلَ ذلك، جَدُّهْ
وأبو جَدِّهِ، فسادَ إلى أنْ تَتلاقى نِزارُهُ ومَعَدُّهْ

نزار ومعد: من أجداد العرب

فاهْتَبِلْ عندِيَ الصَّنيعَةَ واذْخُرْ ني لِقولٍ أُجيدُهُ وأُجِدُّهْ

اهتبل: اغتنم، الصنيعة: المعروف، أجده: آتي به جديداً

٥٠ ضيوفاً عند الصقر

ذو غُرَّةٍ، من يَرَهُ يُفَدِّهْ

لهذا الصقر بياض في جبينه، فمن رآه قال: أفديه

يرنُو إذا الصيدُ ارْتَأى مِنْ بُعْدِهْ

ارتأى: بان

بِمُقْلَةٍ تَلحَقُ قبلَ شَدِّهْ

تسبق عينه شده: يرى طريقه الذي سيحلق فيه

فصادَنا، قبلَ انتِصافِ جَهْدِهْ

صاد لنا طيوراً قبل أن يبلغ نصف ما عنده من طاقة

خمسينَ أَحْصَتْها يدَا مُعْتَدِّهْ

صاد خمسين طيراً أحصتها يدا معتده (الذي يعد فرائسه)

فنحنُ في نائِلِهِ ورِفْدِهْ

نحن ضيوف عند هذا الصقر نتمتع بنائله (عطاياه) ورفده (عطاياه)

أبو عِيَالٍ قاتَهُمْ بِكَدِّهْ
فكُلُّ خيرٍ عندَهُمْ مِنْ عندِهْ

٥١ حالة حصار

طـابَ الـهـوى لِـعـمـيـدِهْ　　لـولا اعـتـراضُ صُـدودِهْ

العميد: الذي ملأ العشق عقله

وقـادَنـي نـحـوَ ريـمٍ　　مُـهَـفْـهَـفِ الـكَـشْـحِ، رُودِهْ

مهفهف الكشح: ضامر الخصر، روده: لينه (للمرأة حركة ليست للرجل، تحرك جذعها يميناً وعجيزتها يساراً، ويكون «محور الحركة» الخصر، فمن امتلكت الخصر النحيل كانت هذه الحركة عندها واضحة وخلبت بها عقول الرجال)

بـدا يُـدِلُّ عـلـيْـنـا،　　بِـمُـقْـلـتـيْـهِ وجـيـدِهْ
فـاصـطـادَنـي لِـحِـمـامـي　　تَـخْـطَـارُهُ فـي بُـرُوْدِهْ

لحمامي: لموتي، تخطاره: تبختره، بروده: ثيابه

فـقـمـتُ نُـصْـبَ عَـدوٍّ　　قـاسـي الـفـؤادِ، كَـنـوُدِهْ

نصب: أمام، كنوده: جاحده

لا أَسـتـطـيـعُ فِـراراً　　مـن بَـرْقِـهِ ورُعـودِهْ
حـتـى إذا سَـدَّ طُـرْقـي　　بـقـيـتُ بـيـنَ سُـدُودِهْ
وعَـسْـكَـرَ الـحـبُّ حـوْلـي　　بِـخـيْـلِـهِ وجـنـودِهْ
فـإن عَـدلْـتُ يـمـيـنـاً　　خَـشِـيـتُ وَقْـعَ وَعـيـدِهْ
وإن شِـمـالاً، فَـمَـوْتٌ،　　لا بـدَّ لـي مـن وُرودِهْ
وإن رجـعـتُ ورائـي،　　خـشِـيـتُ زَأْرَ أُسـودِهْ
ونُـصْـبَ عَـيْـنَـيَّ طَـوْدٌ،　　فَـكـيـفَ لـي بِـصُـعـودِهْ

طود: جبل

وتـحـتَ رِجْـلَـيَّ بَـحْـرٌ　　يَـجـري الـهـوى بِـمُـدُودِهْ

مدوده: مياهه المتقدمة نحو البر

وفـوقَ رأسـي كَـمِـيٌّ،　　مُـقَـنَّـعٌ فـي حَـديـدِهْ

كمي: شخص مسلح، مقنع في حديده: يلبس الخوذة الحديد التي يسيل منها زرد على جانبي الوجه

مُـجَـرِّدٌ لِـيَ سَـيْـفـاً، ويْـلاهُ مِـنْ تـجـريـدِهْ
فـلـسـتُ أرفـعُ طَـرْفـي، حِـذَارَ مـاضـي حَـديـدِهْ

طرفي: نظري، حذار ماضي حديده: حذراً من سيفه الحاد

ولـي خُـشـوعُ الـمُـصَـلِّـي فـي دَيْـرِهِ يـومَ عِـيـدِهْ
كـأَنَّـنـي مُـسْـتَـهـامٌ ضَـلَّ الـطـريـقَ بِـبـيـدِهْ

مستهام: هائم على وجهه لا يدري طريقه في البيد (الصحارى)

لـو لاحَ لـي مـنـهُ نـهـجٌ، ركـبـتُ نـهـجَ صَـعـيـدِهْ

نهج: طريق، نهج صعيده: طريقه المرتفع

فـالـويـلُ لـي كـيـفَ أنـجـو مِـنْ حُـمْـرِ مـوتٍ وسُـودِهْ!

الموت الأحمر بالسيف، والأسود خنقاً

٥٢ قوم تواصوا بالشر

قالوا تَنَسَّكْ بعدَ الحَجِّ، قلتُ لَهُمْ: أرجوُ الإلَهَ، وأَخشَى طِيزَنَابَاذَا

طيزناباذ: موضع عامر بالكروم والمعاصر والخمارات

أَخشَى قُضَيِّبَ كَرْمٍ أن يُنازِعَني فضلَ الخِطَامِ، وإن أَسْرَعْتُ إغْذَاذا

أخشى أن ينازعني فضل الخطام (طرف مقود البعير) غصن دالية عنب حتى وإن أسرعت إغذاذا (إسراعاً)

فإنْ سَلِمْتُ، وما قَلبي على ثِقةٍ من السلامةِ، لم أَسْلَمْ بِبغَدَاذا
ما أبعَدَ النُّسْكَ من قلبٍ تَقَسَّمُهُ قُطْرَبُّلٌ فَقُرَى بِنَّا، فَكَلْوَاذَى

هذه المواضع العامرة بالملاهي وبيوت الخمر تتقسم قلبي فيما بينها فلا يبقى فيه مكان للنسك

قومٌ تَواصَوْا بتركِ البِرِّ بَيْنَهُمُ، تقولُ ذا شَرُّهُمْ، بل ذاكَ، بل هذَا

تواصوا (أوصى أحدهم الآخر) بترك البر (الخير)، وتحار أيهم شر من أخيه

٥٣ ينابيع الخمر

وقائلٍ هلْ تريدُ الحَجَّ؟ قلتُ له: نَعَمْ، إذا فَنِيَتْ لذاتُ بغداذِ
أمَا وقُطْرَبُّلٌ منها بحيثُ أَرى فَقُبَّةُ الفِرْكِ مِنْ أَكنَافِ كَلْوَاذِ

أماكن يكثر فيها بيع الخمور وتعاطيها، وتعاطي ما يصحبها من أمور اللهو

فَالصَّالِحِيَّةُ، فالكَرْخُ التي جمعتْ شُذَّاذَ بَغدادَ، ما هُمْ لي بِشُذَّاذِ
الشذاذ هنا من شذ عن قيم المجتمع

فكيفَ بِالحجِّ لي ما دمتُ مُنْغَمِساً في بيتِ قَوَّادَةٍ أو بيتِ نَبَّاذِ؟
نباذ: صانع نبيذ

وَهَبْكَ مِنْ قَصْفِ بغدادٍ تُخَلِّصُني، كيفَ التخلُّصُ لي مِنْ طِيزَنَابَاذِ؟
القصف: الجلبة في اللهو (يقول اللسان إن الكلمة ربما كانت مولدة)

٥٤ يا كبير الذنب

يا نُواسِيُّ تَوَقَّرْ وتَجَمَّلْ، وتَصَبَّرْ
ساءَكَ الدَّهْرُ بِشيءٍ، وبِمَا سَرَّكَ أَكْثَرْ
يا كبيرَ الذنبِ، عفوُ الـ ـلهِ من ذنبِكَ أكبرْ
ليسَ للإنسانِ، إلَّا ما قضَى اللَّهُ وقَدَّرْ

٥٥ التجاسر

لقد كنتُ، وما في النا سِ مِنِّي لِلهَوى أَسْتَرْ
كنت وليس أحد يستر الهوى مثلي

فلمَّا أَظْهَروا أمرِي، وقِدْماً كانَ لا يَظْهرْ
قدماً: قبل ذلك

وأُغْرُوا بِيَ تَأْنِيباً مِنَ الْمُقْبِلِ والْمُدْبِرْ
تَجاسَرْتُ، فَأَقْدَمْتُ على كشفِ الهوى الْمُضْمَرْ

٥٦ النغمة الحبيسة

إذا أنتَ لم يَدْعُ الهوى فتجيبَهُ، ولم تَأْتِهِ طوْعاً خَرجْتَ بِلا وَطَرْ
إذا أنت لم تلب نداء الحب، ولم تستجب له بملء إرادتك كانت حياتك بلا هدف (التفسير للمحقق القهوجي)

وخَلَّفَكَ الإيقاعُ تَطرَبُ سَادِراً، وصِرْتَ كَنَغْمٍ تاهَ في الحَلْقِ لم يَدُرْ
سادراً: هائماً

وما فوقَ ظَهْرِ الأرضِ أنعَمُ عِيشَةً، وأَعْرَضُ دُنْيَا مِنْ مُحِبٍّ إذا اقْتَدَرْ
فإن قلتَ في الحبِّ الشَّقَاوَةُ والبَلا، وفيه مُقاسَاةُ الْمَكَارِهِ والغِيَرْ

الغير: المصائب

ففِيهِ مُوَاتَاةُ الحبيبِ، وعطفُه عليكَ، وفيه الشَّمُّ والذَّوْقُ والنظرْ

٥٧ عندما نصبح عبرة

أيـنَ مَـنْ كـانَ قَـبـلَـكُـمْ مِـنْ ذوي الـبـأْسِ والـخَـطَـرْ
سَـائِـلُـوا عـنْـهُـمُ الْـمَـدا ئِـنَ واسْتَبْحِثُـوا الـخَـبَـرْ
سَـبَـقُـونـا إلـى الـرَّحـيِـ ـلِ، وإنَّـا عـلـى الأَثَـرْ
مَـنْ مَـضَـى عِـبْـرَةٌ لَـنـا، وغَـداً نـحـنُ مُـعْـتَـبَـرْ
إنَّ لِـلْـمَـوْتِ أَخْـذَةً، تـسـبِـقُ الـلَّـمْـحَ بِـالـبَـصَـرْ
رَحِـمَ الـلَّـهُ مُـسْـلِـمـاً ذَكَـرَ الـلَّـهَ، فـازْدَجَـرْ

٥٨ نار الشمس

دَعْ لِـبـاكِـيـهـا الـدِّيَـارا، وانْـفِ بِـالـخـمـرِ الـخُـمـارا

اشرب خمراً لنفي الخمار (صداع الخمر)

بـنـتُ عَـشْـرٍ لـم تُـعَـايِـنْ غـيـرَ نـارِ الـشَّـمْـسِ نـارَا

خمر عتقت عشر سنين، وغير مطبوخة إلا ما كان من حرارة الشمس على كرمها

٥٩ الجريء المفتري

أيا مَنْ بِحُبِّي علـيَّ اجْتَرَا، ومَـنْ بِـلِسـانـي عَـلَـيَّ افْـتَـرى
ومَـنْ بِـيَـدِي غَـلَّـنـي لِـلْـهـوَى، فـأَصـبـحْـتُ لـلـحُـبِّ مُـسْـتَـأْسَـرا

غلني: قيدني، وإنما قيدت نفسي بيدي، مستأسر: أسير

٦٠ ليل طويل ونهار طويل

مَلكتِ قلبي فَأَغْرَيْتِ الهمومَ بهِ، وقلتِ: لا تَعْدَمِ الأحزانَ والفِكَرا

لا تعدمِ: تدعو عليه بأن يلازم الحزن وطول التفكير

أرى نـهـاراً ولـيـلاً قـالَ ربُّـهُـمـا: طُـولا! فـقـد أَتَـيَا مِنْ ذاكَ مَا أَمَـرا

٦١ المركب الوعر

أَعِرْ شِعرَكَ الأطلالَ والدِّمَنَ القَفْرَا فقد طالَمَا أَزْرَى بِهِ نعتُكَ الخَمْرا

الدمن القفر: بقايا البيوت الخربة

دَعانِي إلى نعتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ، تَـضيـقُ ذِراعـي أنْ أَجُـوزَ لـهُ أَمْـرا

فَسمعاً أميرَ المؤمنينَ، وطاعةً، وإن كنتَ قد جَشَّمْتَنِي مَرْكَباً وَعْرا

٦٢ في ضيافة السموأل

وفِتْيانِ صِدقٍ قد صَرَفْتُ مَطِيَّهُمْ إلى بيتِ خَمَّارٍ نزلنا به ظُهرا

صرفت مطيهم (وجهت مطاياهم)

فلمَّا حَكَى الزُّنَّارُ أنْ ليس مسلماً، ظننَّا به خَيْراً، فَظَنَّ بِنا شَرَّا

كانوا يلزمون غير المسلم بزنار على خصره

فقُلنا: على دينِ المسيحِ بنِ مَريم؟ فأَعْرَضَ مُزْوَرّاً، وقالَ لنا هُجْرا

الهجر: الكلام غير اللائق

ولكنْ يَهُودِيٌّ، يُحِبُّكَ ظَاهراً، ويُضْمِرُ في المَكْنونِ منهُ لَكَ الغَدْرَا

فقلتُ له: ماَ الاسْمُ؟ قالَ: سَمَوْأَلٌ، ولكنني أُكْنَى بِعمْروٍ، ولا عَمْرا

كنيته أبو عمرو وليس له ولد بهذا الاسم

وما شرَّفَتْنِي كُنْيَةٌ عربيَّةٌ، ولا أَكْسَبَتْنِي لا سَنَاءً ولا فَخْرَا

سناء: علواً

ولكنَّها خَفَّتْ، وقَلَّتْ حُروفُها، وليستْ كأُخرَى إنَّما خُلِقَتْ وَقْرَا

أبو عمرو خفيفة على اللسان، وليست كالسموأل التي هي وقر (ثقل في السمع)

فقلتُ له عُجْباً بِظَرْفِ لِسانِهِ أَجَدْتَ، أبَا عَمْروٍ، فَجَوِّدْ لنا الخمْرا

فَأَدْبَرَ كالْمُزْوَرِّ، يَقْسِمُ طرْفَهُ لأَرْجُلِنَا شَطْراً، وأَوْجُهِنَا شَطْرَا

أدبر: استدار، المزور: المنحرف متحاشياً لنا

وقالَ: لَعَمْري لوْ أَحَطْتُمْ بِأَمْرِنا   لَلُمْنَاكُم، لكنْ سَنُوسِعُكُمْ عُذْرَا

والله لو عرفتم ما عندنا من الخمر الجيدة للمناكم على استهانتكم بنا، ولكن لكم العذر لأنكم لم تذوقوا خمرنا بعد

فجاءَ بِها زَيْتِيَّةً، ذَهَبِيَّةً،   فلمْ نَسْتَطِعْ دونَ السُّجُودِ لَهَا صَبْرا

خَرجْنا، على أنَّ الْمُقَامَ ثَلاثَةٌ،   فَطَابَ لنا حتَّى أَقَمْنَا بِها شَهْرا

عِصَابَةُ سَوْءٍ لا تَرَى، الدَّهْرَ، مِثْلَهُمْ،   وإنْ كنتَ مِنْهُمْ لا بَرِيئاً، ولا صِفْرَا

سوء: فساد، ليس مثلنا في طول الزمن، ولستَ بريئاً من صفاتنا ولا خالياً منها، ففي كل إنسان ما فينا من الإقبال على الشهوات

إذا مَا دنا وَقْتُ الصَّلاةِ رَأَيْتَهُمْ   يَحُثُّونَها، حتى تَفُوتَهُمُ سُكْرَا

يحثون الخمر: يعجلون بكرعها

٦٣ فيم حبستني؟

كتب للخليفة محمد الأمين من حبسه:

تذكَّرْ، أمينَ اللَّهِ، والعهدُ يُذكَرُ   مَقامي، وإنشادِيكَ، والناسُ حُصَّرُ

حُصَّر: عاجزون عن الكلام

مضتْ لي شُهورٌ، مُذْ حُبِسْتُ، ثلاثةٌ   كأنّيَ قد أذنبْتُ ما ليس يُغفَرُ

فإن كنتُ لم أذنبْ، فَفِيمَ حبسْتَنِي؟   وإن كنتُ ذا ذنبٍ فعفوُكَ أكبرُ

٦٤ كلاكما بحر

يمدح الخصيب والي مصر:

أَنتَ الخَصِيبُ، وهذهِ مصرُ   فتدفَّقا فكِلاكُما بَحْرُ

لا تقعُدا بي عن مَدى أملي   شيئاً، فما لَكما بهِ عُذْرُ

يخاطب الخصيب ومصر: لا تقعدا بي (تقصرا)، عن إبلاغي مأمولي، فلا عذر لكما

ويَحُقُّ لي، إذْ صِرْتُ بينَكما،   أَلّا يَحِلَّ بِساحَتي فَقْرُ

٦٥ قل لي هي الخمر

أَلَا فاسْقِنِي خمراً، وقلْ لي: هِيَ الخمرُ   ولا تسقِني سرّاً إذا أمكَنَ الجَهْرُ

ولا تَسقِيَنْ منها الْمُرائِينَ قطرةً لأنَّ رياءَ الناسِ عندي هُوَ الهُجْرُ

الهجر: الكلام البذيء

فعَيْشُ الفتى في سَكرةٍ بعد سَكرةٍ، فإنْ طالَ هذا عندَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ

وما الغَبْنُ إلّا أنْ ترانِيَ صاحِياً، وما الغُنْمُ إلّا أن يُتَعْتِعَني السُّكْرُ

الغبن: الخسران، يتعتعني السكر: يفكفك مفاصلي

فَبُحْ باسمِ مَنْ أهوى ودعني مِنَ الكُنى فلا خيرَ في اللَّذَّاتِ مِنْ دونِها سِتْرُ

ولا خيرَ في فَتْكٍ بِدونِ مَجَانَةٍ، ولا في مُجُونٍ ليس يتبَعُهُ كُفْرُ

الفتك: الهجوم على الملذات المحرمة، المجانة والمجون: المجاهرة بالخروج على الخط المرسوم

بِكُلِّ أَخي فَتْكٍ كأَنِّ جبينَه هلالٌ، وقد حَفَّتْ به الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

أخو الفتك: صاحب الفتك الجريء على الملذات المحرمة، الزهر: المضيئة

وخَمَّارَةٍ نبَّهْتُها بعد هَجْعَةٍ وقد غابَتِ الجوزاءُ، وارتَفَعَ النَّسْرُ

هجعة: رقدة

فقالتْ: مَنِ الطُّرَّاقُ؟ قلنا عِصابةٌ خِفافُ الأَدَاوَى، تُبْتَغَى لَهُمُ خَمْرُ

الطراق: زوار الليل، عصابة: جماعة، خفاف الأداوى: فارغو أوعية الخمر. فهم يريدون ملأها

ولا بدَّ أن يَزْنُوا، فقالتْ: أوِ الفِدَا بِأَبْلَجَ كالدِّينارِ في طَرْفِهِ فَتْرُ؟

قالت نفتدي النساء بشاب أبلج: وضيء الوجه كالدينار الذهبي، وفي عينيه فتور ودلال

فقُلنا لها هاتِيهِ، ما إنْ لِمِثلِنا، فديْناكِ بالأَهلينَ، عن مثلِ ذَا، صبرُ

فجاءتْ به كالغصنِ يهتزُّ رِدْفُهُ، تخالُ به سِحراً، وليس به سحرُ

لهُ شبَهٌ بالبدْرِ ليلةَ تِمِّهِ، مُهَفْهَفُ أعلى الكَشْحِ، في ثَغْرِهِ أَشْرُ

الأشر: تحزيز في الأسنان يكون عند الصغار

فقمنا إليهِ واحداً بعد واحدٍ، فكان به، من صَوْمِ غُرْبَتِنا، الفِطْرُ

فَبِتْنا يَرانا اللَّهُ شَرَّ عِصابَةٍ، نُجَرِّرُ أذيالَ الفُسوقِ، ولا فَخْرُ

٦٦ فلك نجومه الطاسات

إذا الطاساتُ كُرَّ بِها علَيْنا، تَكَوَّنَ بينَنا فَلَكٌ يدورُ

إذا دارت الكؤوس على الشاربين، كانت كأنها النجوم تدور في فلكها (جوها)

تَسيرُ نجومُه عَجَلاً ورَيْثاً،   مُشَرِّقَةً، وتاراتٍ تَغورُ

٦٧ لا للعتاب

قد مَلِلنا العتابَ وَهْوَ كثيرُ   فاقصِدي قصْدَ ما عليْهِ نَدُورُ
واجعلي للعتابِ يوماً سوى ذا،   وانهضي، لا لِوَجهِكِ التَّصغيرُ
واجعلي لِلفراشِ منكِ نصيباً،   فَهْوَ ممَّا به يَتِمُّ السُّرورُ
فاستَقَلَّتْ على الفراشِ بِبَزٍّ:   حُلَلٍ حَشْوُهُنَّ طيبٌ ونورُ

استقلت: صعدت، البز: الثياب

فَنَسِينا عِتابَنا وتَواهَبْـ   ـنا إساءَاتِنا، وصَحَّ الضميرُ

تواهبنا إساءاتنا: وهب كل إساءته للآخر فتم التراضي

ما ذَكرنا مِنْ كلِّ ما كان شيئاً   بعد أن دُمِّيَ الغزالُ الغَريرُ

٦٨ مفضوح

كلُّ محبٍّ سِوايَ مستورُ،   والناسُ، إلّا عن قِصَّتي، عُورُ
كأنَّ طَرْفي عينٌ عَلَيَّ لَهُمْ،   فَكُلُّ طَيٍّ، لَدَيَّ، منشورُ

كأن عينيَّ عين (جاسوس) لهم يخبرهم بما في قلبي

ما إنْ يَغُبُّ الفَعالُ أفعَلُهُ،   حتَّى تَهاداهُ بينَها الدُّورُ

ما يكاد فعلي يغب (ينتهي) حتى تتهاداه (تتداوله) البيوت

يخرجُ من هذه، ويدخلُ في   تلكَ، وعنه القِناعُ مَحْسورُ
فما احتيالي! وقد خُلِقْتُ فتىً   تَجري بِمَا ساءني المقادِيرُ

٦٩ حوار مع إبليس

وقال أبو نواس وهي مما لم تتضمنه نسخة القهوجي (وهي عن الصولي):

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتْ   عني الرسالاتُ منه والخبرُ
اِشتَدَّ شوقي فكادَ يقتلُني   ذِكْرُ حبيبي، والهمُّ، والفِكَرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له،   في خَلْوَةٍ والدُّموعُ تنهمرُ:
أَما ترى كيف قد بُلِيتُ، وقد   أَقْرَحَ جَفني البكاءُ والسهرُ

أقرح: جرَّح

إن أنتَ لم تُلْقِ لي المودَّةَ في صدرِ حبيبي، وأنتَ مقتدِرُ،
لا قلتُ شعراً، ولا سمعتُ غِنا، ولا جَرى في مَفاصِلي السَّكَرُ

السكر: الخمر

ولا أزالُ القرآنُ أدرسُهُ أروحُ في درسِهِ وأبتَكِرُ
وألزمُ الصومَ والصلاةَ، ولا أزالُ، دهري، بالخيرِ آتَمِرُ
فما مضتْ بعد ذاكَ ثالثةٌ حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ

٧٠ أبو نواس في مصر

أَجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرجَى لديْكِ عسيرُ

أجارة بيتينا: يا جارتنا في السكن، وفي النسب

وإني لِطَرْفِ العينِ بالعينِ زاجِرٌ، فقد كدتُ لا يَخفَى عليَّ ضميرُ

أنا زاجر (ممارس للفراسة) أنظر لعيون الناس بعيني فأعرف مكنون ضمائرهم

تقولُ التي عن بيتِها خَفَّ مَركَبي: عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ،

تقول التي رحلت عنها: يصعب أن نراك تغادرنا

أما دونَ مِصْرٍ لِلْغِنى مُتَطَلَّبٌ؟ بَلى، إنَّ أسبابَ الغنى لَكَثيرُ
فقلتُ لها، واستعْجَلَتْها بوادِرٌ، جَرتْ، فَجَرى في جرْيِهِنَّ عبيرُ:

بوادر: دموع

ذَريني أُكَثِّرْ حاسِدِيكِ برحلةٍ، إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
فتىً يَشتري حسنَ الثَّناءِ بمالِهِ، ويَعلمُ أن الدائراتِ تدورُ
فما جَازَهُ جودٌ، ولا حلَّ دونَهُ، ولكنْ يصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ

الكرم لا يتجاوزه ولا يقصر عنه، بل هو الكرم مجسداً

سَمَوْتَ لأهلِ الجوْرِ في حالِ أمنِهِمْ، فأضحَوْا وكلٌّ في الوِثاقِ أسيرُ

سموت: نهضت

فَمَنْ يَكُ أمسَى جاهلاً بمقالتي، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ خبيرُ
وما زِلْتَ تُوليهِ النَّصيحةَ يافعاً إلى أن بَدا في العارِضيْنِ قَتيرُ

ظللت تنصح أمير المؤمنين منذ أن كنت شاباً حتى بدا في عارضيك (جانبي رأسك) القتير (الشيب)

إذا غـالَـهُ أمـرٌ، فـإمَّـا كَـفَـيْـتَـهُ، وإمـا عـلـيـه بـالـكِـفَـاءِ تُـشـيـرُ

غاله الأمر: فاجأه

إلـيْـكَ رَمَـتْ بـالـقـومِ هُـوجٌ كـأنَّـمـا جـآجِـئُـهـا، تـحـت الـرِّجـالِ، قُـبـورُ

رمتك بنا هوج (نياق مسرعات)، جآجئها (صدورها) تحت راكبيها مثل القبور

زَهَا بالخصيبِ السيفُ والرمحُ في الوغى وفـي الـسِّـلْـمِ يـزهُـو مِـنـبـرٌ وسَـريـرُ

وإني جديرٌ، إذ بَلَغْتُكَ، بـالـمنَى، وأنـتَ، بـمـا أَمَّـلْـتُ مـنـكَ، جـديـرُ

فإنْ تُـولِـنـي منكَ الجميلَ فأهْلُهُ، وإلَّا فــإنــي عــاذرٌ وشَــكــورُ

إن أوليتني (أعطيتني) الجميل (المعروف) فأنا أهله (مستحق له)، وإن لم يحدث ذلك عذرتك وكنت لك شاكراً

٧١ أعطني كيلا يشمتوا بي

قال يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

إليكَ غَدتْ بي حاجةٌ لم أَبُحْ بها، أخـافُ عـلـيـهـا شـامـتـاً، فـأُداري

فأَرْخِ عليـهـا سِتـرَ معروفِكَ الـذي سـتـرتَ بـه، قِـدمـاً، عـلـيَّ عَـوَاري

عواري: عيبي

٧٢ أبو نواس يقرأ ضمير جنان

يا ذا الذي عن جَنانٍ ظلَّ يخبرُني، بـاللَّـهْ قـلْ وأَعِـدْ، يـا طـيِّـبَ الـخـبـرِ

قالَ اشتكَتْكَ، وقالتْ: ما بُلِيتُ به؟ أَراهُ مِـنْ حـيـثُـمـا أقـبـلْـتُ فـي أَثَـري

ما هذا الذي ابتليت به؟ أراه في كل مكان يلاحقني

ويُعمِلُ الطَّرْفَ نحْوِي إن مررتُ به حتى لَـيُـخـجِـلُـنـي مِـنْ حِـدَّةِ الـنـظـرِ

وإن وقـفـتُ لـه كـيْـمـا يُـكَـلِّـمَـنـي في الموضعِ الخِلْوِ لم ينطِقْ مِنَ الحَصَرِ

الحصر: انحباس الكلام

مـا زالَ يـفـعـلُ بـي هـذا، ويـدمِـنُـهُ حتى لقد صارَ مِنْ همِّي ومِنْ وَطَري

٧٣ التعالي

ومـسـتـعْـبِـدٍ إخـوانـه بـثـرائِـه لَـبِـسْـتُ لـه كِـبْـراً أَبَـرَّ عـلـى الـكِـبْـرِ

تكبرت عليه تكبراً أبر (زاد) على التكبر نفسه

إذا ضمَّني يوماً وإيَّاهُ مَحفِلٌ	رأى جانبي وَعْراً يزيدُ على الوَعْرِ
أخالِفُه في شكلِه، وأُجِرُّهُ	على المنطِقِ المنْزُورِ، والنظرِ الشَّزْرِ

أخالفه في شكله (في طبيعته)، وأجره
(أقطع لسانه/ وكانوا يُجرون لسان صغير الأبل حتى لا يرضع)
وأجبره على المنطق المنزور (الكلام القليل) والنظر الشزر (النظر من جانب العين)

وقد زادني تيهاً على الناسِ أنني	أَراني أغناهُمْ، وإن كنتُ ذا فقرِ
فواللَّهِ لا يُبدي لِسانيَ حاجةً	إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ في قبري
فلا تَطْمَعَنْ في ذاكَ منِّيَ سوقَةٌ،	ولا مَلِكُ الدنيا المحجَّبُ في القصرِ

المحجب: الذي اتخذ حاجباً

فلو لم أَرِثْ فخراً لكانَتْ صِيانتي	فمي عن سؤالِ الناسِ حَسْبي مِنَ الفخرِ

لو لم يكن لدي مال موروث أفخر به فإنني أفخر بأنني أصون نفسي عن سؤال الناس

٧٤ ما مشَّاك في أثري؟

لا شيءَ أحسَنَ مِمَّنْ قالَ مُلتَفتاً	وقد تَغضَّبَ: ما مَشَّاكَ في أثَري؟
كأنَّما كَلَّمتْنِي الشمسُ ضَاحِيَةً،	إذ قالَ ما قالَ لي، أو شِقَّةُ القَمَرِ

ضاحية: بارزة

ظبيٌ له من قلوبِ الناسِ نابِتَةٌ	من المودَّةِ تُجْني أطيبَ الثَّمَرِ

نابتة: غرسة، تُجني: تؤتي

إذا بَدا رَمَتِ الأبصارُ جانبَهُ	معاً، فلم تختلفْ عينانِ في النظرِ

٧٥ أنت دون أن تهجى

بما أهجوكَ؟ لا أدري!	لساني فيكَ لا يجري
إذا فكَّرتُ في عِرضِـ	ـكَ أشفقْتُ على شِعري

٧٦ في وصف طنجرة

رأيتُ قدورَ الناسِ سوداً مِنَ الصَّلَى،	وقِدرَ الرُّقَاشِيينَ زَهْراءَ كالبدرِ

الصلى: اللهب، زهراء: بيضاء

تَبَيَّنَ في مِخْرَاشِها أنَّ عُودَهُ سليمٌ، صحيحٌ، لم يُصِبْهُ أذى الجَمْرِ

المخراش: أداة تقليب الجمر

يُبَيِّنُها للمُعتَفي بِفنائِهِمْ ثلاثٌ كَنَقْطِ الثَّاءِ من نُقَطِ الحِبْرِ

يبرز القدر للمعتفي (للفقير) ثلاثة حجارة صغيرة كأنها نقط حرف الثاء، وهي الأثافي التي توضع فوقها هذه القدر المتناهية الصغر

ولو جِئْتَها مَلأى عبيطاً مجزَّلاً، لأَخرجتَ ما فيها على طَرَفِ الظُّفْرِ

العبيط المجزل: اللحم المقطع

إذا ما تنادَوْا للرَّحيلِ سعَى بها، أمامَهُمُ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ

الحولي: الذي مضى عليه عام، من ولد الذر: النمل. [والحولي من البهائم هو صغارها، وأما النمل فالحولي منها كبير العمر، ولعل أبا نواس قصد «صغار النمل» قياساً على الإبل]

٧٧ الحاطب على ظهر نفسه

حسْبي جَوىً إنْ ضاقَ بي أمري ذِكْرِي لِرَحْمَةَ وَهْيَ لا تَدري

و«رحمة» في أشعار أخرى فتى كان النواسي يتغزل به، لكن «رحمة» ههنا علم على جارية يبدو أنها كانت مملوكة لرجل يخرج قيانه للناس بثمن. يقول: يضيق صدري فأذكر رحمة هذه، وفي هذا ما يكفي من الجوى والحزن

وأخافُ أن أُبدي مودَّتَها، فيغَارُ مولاها ويسْتَشري

يستشري: يغضب

وأَكونُ قد سبَّبْتُ فرقتَنا، وحَطبْتُ مجتهداً على ظَهري

ويلومُني في حبِّها نَفَرٌ خَالونَ من شَجْوِي ومِنْ ضُرِّي

شجوي: حزني، ضري: معاناتي

لم يعرِفوا حقَّ الهوى، فَلَحَوْا، لو جَرَّبُوهُ تبيَّنُوا عُذْري

لحوا: لاموا

إنـي لأُبْغِضُ كلَّ مُصطَبِرٍ عن إلفِهِ في الوصلِ والهجرِ

اَلصَّبْرُ يَحْسُنُ في مواضِعِه، ما لِلفَتى المشتاقِ والصبرِ؟

٧٨ الله لا الجسد

يا سائلَ اللَّهِ فزتَ بالظَّفَرِ وبالنَّوالِ الهَنِيِّ لا الكَدِرِ

وارغَبْ إلى اللَّهِ، لا إلى جسدٍ مـنْـتـقِـلٍ مـن صِـبـاً إلـى كِـبَـرِ
إن الـذي لا يـخـيـبُ سـائِـلُـهُ جـوهـرُهُ غـيـرُ جـوهَـرِ الـبَـشَـرِ
مـا لـكَ بـالـتُّـرَّهـاتِ مـشـتَـغـلاً، أفـيِ يـديْـكَ الأمـانُ مـن سَـقَـرَ؟

٧٩ حديث خرافة

مما نسبه ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» إلى أبي نواس قائلاً: «ومما كفر فيه أو قارَبَ»، البيتان:

تُـعَـلَّـلُ بـالـمـنَـى إذ أنـتَ حَـيٌّ وبـعـدَ الـموتِ مـن لـبـنٍ وخَـمْـرِ
حـيـاةٌ ثـم مـوتٌ ثـم بـعـثٌ حـديـثُ خُـرَافَـةٍ يـا أمَّ عـمْـرِو

٨٠ السجن قبراً

قال أبو نواس يمدح الفضل بن الربيع (وقد شفع فيه فأطلقه من السجن):

إنّـيِ أتـيـتُـكُـمُ مـن الـقـبـرِ والـنـاسُ مـحـتَـبِـسُونَ لـلـحـشرِ
لـولا أبـو الـعـبـاسِ مـا نـظـرتْ عـيـنـيِ إلـى وَلَـدٍ، ولا وَفْـرِ

لولا أنه أطلقني لما رأيت أولادي ولا تمتعت بوفري (مالي)

٨١ ينتقي كما يشاء من قلوبنا

إنّـيِ صـرفـتُ الـهـوى إلـى قـمـرٍ لـم تـبـتَـذِلْـهُ الـعُـيـونُ بـالـنَّـظَـرِ
مـبـاحَـةٌ سـاحـةُ الـقـلـوبِ لـه، يـأخُـذُ مـنـهـا أطـايِـبَ الـثَّـمَـرِ

٨٢ الزائدة الدودية

قـلْ لـمن يَـدَّعي سُـلَـيْـماً سَـفـاهاً لـسـتَ مـنـهـا، ولا قُـلامَـةَ ظُـفْـرِ
إنَّـمـا أنـتَ مـن سُـلَـيْـمٍ كـواوٍ أُلْـحِـقَـتْ في الـهِـجـاءِ ظُـلْـماً بِـعَـمْـرِو

أنت بالنسبة لقبيلة سليم كالواو التي ألحقت في الهجاء (الإملاء) باسم «عمرو»،
فهي واو زائدة لا تنطق

٨٣ التراضي الصامت

أَزورُ مـحـمـداً، فـإذا الـتـقـيْـنـا تـكـلـمـتِ الـضـمـائـرُ في الـصـدورِ

فأَرجِعُ لم أَلُمْهُ، ولم يَلُمْني، وقد رضيَ الضميرُ عن الضميرِ
أمورٌ ليس يعرفُها سِوانا، يُحَيِّرُ لطفُها بَصَرَ البصيرِ

٨٤ بعد رد العارية

وعَظَتْكَ واعظَةُ القَتيرِ ونَهَتْكَ أُبَّهَةُ الكبيرِ

القتير: الشيب، أبهة: وقار

ورَدَدَتَ ما كنتَ استعَرْ تَ من الشَّبابِ إلى الْمُعِيرِ

٨٥ صفات النديم

قال أبو نواس وهو مما لم يورده قهوجي في نسخته المرفوعة إلى الصولي:

حقوقُ الكأسِ والنَّدمانِ خمسٌ فأوَّلُها التَّزَيُّنُ بالوَقارِ

الندمان، بفتح النون الأولى: النديم

وثانِيها مسامحةُ النَّدامَى وكَمْ حَمَتِ السماحةُ من ذِمَارِ

ذمار: حمى (ما يحميه المرء من عرض ومال)

وثالثُها ـ وإن كنتَ ابنَ خيرِ الـ بَرِيَّةِ محتِداً ـ تركُ الفَخَارِ

ثالث الحقوق الواجبة على حاضر مجلس الشراب أن يترك الافتخار حتى لو كان ابن أفضل البشر محتداً، أي نسباً

ورابعُها فَلِلْنَّدْمَانِ حقٌّ سوى حقِّ القرابةِ والجِوارِ
إذا حدَّثْتَهُ فاكْسُ الحديثَ الـ ـذي حَدَّثْتَهُ ثوبَ اختِصَارِ

وانظر إلى ما في هذا البيت الذي يتحدث عن الاختصار من حشو

وخامِسُها يَدُلُّ به أخُوهُ على كرَمِ الطبيعةِ والنِّجَارِ

خامس هذه الصفات يدل به أخوه (صاحبه) على كرم النجار (الأصل)

كلامُ الليلِ يَنساهُ نهاراً فإنَّ الذَّنْبَ فيه للعُقَارِ

العقار: الخمر

ولعل القطعة مما أضيف إلى أبي نواس ففي رصف كلامها شيء من حذلقة يجل عنها الحسن بن هانيء، وإنما أوردناها لأن فيها دستور الشاربين

٨٦ العفو عند المقدرة

داوِ يحيى من خُمَارِهْ ... بابنةِ الدَّنِّ وقَارِهْ
بِشرابٍ خُسْرَوِيٍّ، ... ما تَعَنَّوْا باعتِصَارِهْ

خسروي: منسوب إلى خسرو (كسرى)، تعنوا: تعبوا. وأجود الخمر يسيل قبل أن يداس بالأرجل

طَبَخَتْهُ الشمسُ لَمَّا ... بَخِلَ العِلْجُ بِنَارِهْ

العلج: غير العربي، غير المسلم

ونَديمي كُلُّ خِرْقٍ، ... زَانَهُ عِتْقُ نِجَارِهْ

خرق: سخي، عتق نجاره: طيب أصله

وغَزَالٍ تَشْرَهُ النَّفْـ ... ـسُ إلى حَلِّ إزَارِهْ
بَسَطَتْهُ سَوْرَةُ الرا ... حِ لنا بعدَ ازْوِرَارِهْ

سورة الراح: هجمة الخمر، ازوراره: نفوره

فأَطَفْنَا بِنَواحِيـ ... ـهِ، ولم نَعرِضْ لِدَارِهْ

٨٧ لا أذود الطير

يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

أيها الْمُنتابُ عن عُفُرِهْ ... لستَ من ليلي، ولا سَمَرِهْ

أيها المنتاب (الزائر) عن عفره (بعد ابتعاده زمناً)، لست من أصدقاء ليلي ولا من ندمائي الآن.
وقالها أبو نواس في حبيبة خانته، ثم جاءت بعد زمن تزوره فصرفها

لا أَذُودُ الطيرَ عن شجرٍ، ... قد بَلَوْتُ الْمُرَّ من ثَمَرِهْ

لن أحذر الآخرين من تلك الخائنة، كما لا يرعى المرء شجرة ذات ثمر مر ولا يذود (يبعد) الطير عنها

خابَ من أسرَى إلى بلدٍ ... غيرِ معلوم مَدى سَفَرِهْ

محكوم بالفشل على من يبدأ علاقة لا يعرف منتهاها

فامضِ لا تَمْنُنْ عليَّ يداً، ... مَنُّكَ المعروفَ من كَدَرِهْ

فاذهب (يقصد اذهبي) ولا تمني علي بأيام لهو قضيناها، فالمن (تحميل الجميل) يكدر المعروف

وابنُ عَمٍّ لا يُكاشِفُنا، ... قد لَبِسْناهُ على غَمَرِهْ

رب شخص لا يجاهر بعداوته، احتملناه على غمره (رغم رداءته)

كَـمَـنَ الـشَــنْـآنُ فـيــهِ لَـنــا ، كَـكُـمـونِ الـنـارِ فـي حَـجَـرِهْ

الشنآن (الكراهية) كامنة في صدره لنا، ككمون النار في حجر القدح. فكأن الشرر كامن في هذا الحجر البارد، ولكنه يتطاير فور ضرب الحجر بحجر آخر، تشبيه فتن القدماء واعترضوا كثيراً على تذكير أبي نواس لكلمة «نار»

ورُضَــابٍ بِـــتُّ أَرْشُــفُـــهُ، يَـنْـقَـعُ الـظَّـمْـآنَ مـن خَـصَـرِهْ

رب رضاب (ريق) بت أترشفه من فم المحبوب، وهو ينقع (يروي) العطشان من خصره (لبرودته)

عَــلَّـنـيــهِ خَـوْطُ إِسْـحِـلَـةٍ، لانَ مَـتْـنَـاهُ لِـمُـهْـتَـصِـرِهْ

عليه (سقاني إياه) خوط إسحلة (غصن شجرة المساويك «الإسحل»)، الذي لان (كان ليناً) متناه (جانباه) لمهتصره (لمن يجتذبه)

كـيـف لا يُـدنـيـكَ مـن أَمَـلٍ مَـنْ رسـولُ الـلَّـهِ مِـنْ نَـفَـرِهْ!

يمدح العباس، وهو من بني هاشم، : كيف لا يقرّبك من مأمولك هذا الرجل الذي رسول الله من نفره (من قومه)؟

فـاسْـلُ عَـنْ نَـوْءٍ تُـؤَمِّـلُـهُ، حَـسْـبُـكَ الـعَـبَّـاسُ مِـنْ مَـطَـرِهْ

اسل (انس) النوء (المطر) الذي تؤمله (تنتظره)، وكفى بالعباس مطراً

تَـتَـأَيَّـا الـطـيـرُ غُـدْوَتَـهُ، ثِـقَـةً بِـالـشِّـبْـعِ مـن جَـزَرِهْ

تتأيا (تقصد) الطيور غدوته (خروجه صباحاً للقتال) لأنها تثق بأنْ ستشبع من جزره (قتلاه في الحرب)

٨٨ عند أطلال الساكرين

ودارِ نَـدامَى عَـطَّـلُوهـا، وأَدْلَجُـوا، بِـهـا أَثَـرٌ مـنـهُـمْ جـديـدٌ ودارِسُ

رب دار كان فيها ندامى وعطلوها (غادروها) وأدلجوا (انصرفوا ليلاً)، وبها أثر منهم ما زال جديداً، وأثر آخر قديم مهدم

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرى، وأضـغـاثُ ريْـحـانٍ جَـنِـيٌّ ويَـابِـسُ

مساحب: (ماذا تسمي آثار عجلات السيارة على الأسفلت بعد حفلة تقحيص، تفحيط، تخميس، أحياها شبان فرحون بشبابهم؟) أبو نواس يسمي الآثار التي يتركها سحب زقاق الخمر على الأرض المتربة «مساحب». وكان زق الخمر ـ كما وصفه الأعشى قبل مئة سنة ـ كبيراً مثل الجوالق ذي المئة كيلوغرام اليوم، «جوالق الخط الأحمر»، وكانت الخمر تنقل بمثل هذه الأوعية المطلية من الخارج بالزفت، «القار». وقد تحمل الخمر من فلسطين إلى الشام على ظهور الإبل في هذه الزقاق كما يخبرنا الأخطل. لنعدل عن هذا السانح ولنعد إلى تفسير البيت:

فآثار القوم كانت مساحب على التراب، وأضغاث (باقات) ريحان جني (حديث الجني/القطاف) ويابس

ولـم أَدْرِ مَن هُمْ غيرَ ما شهدَتْ به،   بِشَرقِيِّ سَابَاطَ، الدِّيارُ البَسَابِسُ

لم أعرف شيئاً عن الذين كانوا هنا قبلنا سوى ما شهدت عليهم به ـ شرقي ساباط (مكان قرب إيوان كسرى) ـ الديار البسابس (المهجورة)

حَبَسْتُ بها صحبي فجدَّدْتُ عهدَهُمْ   وإنِّي على أمثالِ تلكَ لَحَابِسُ

أوقفت صحبي بهذا المكان لكي نجدد عهد أولئك الندامي الذين هجروه

أقمْنا بها يوماً، ويوماً، وثالثاً،   ويوماً له يومُ التَرَحُّلِ خَامسُ

أقمنا أربعة أيام، وفي الخامس رحلنا

أحسبه أقام مع صحبه ساعتين شربوا فيهما من باطية كانت معهم ثم انصرفوا، ولكن القافية (خامس) جعلته يحبس صحبه خمسة أيام

تَدورُ علينا الرَّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ،   حَبَتْها بألوانِ التَّصاويرِ فارِسُ

تدور علينا الخمر في كؤوس عسجدية (مذهبة)، حبتها حضارة فارس بأنواع من الرسوم والنقوش

قَرارَتُها كِسرَى، وفي جَنَبَاتِها   مَهاً تَدَّرِيها بِالقِسِيِّ الفَوارِسُ

ففي الجزء الأسفل من الكؤوس صورة لكسرى، وفي الجوانب صور للمها (بقر الوحش) تدريها (تصيدها بالتخفي) الفرسان بالقسي (الأقواس)

فَلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عليْهِ جيوبُهُمْ،   ولِلماءِ ما دارتْ عليه القَلانِسُ

وفي هذه الكؤوس تصب الخمر حتى الأزرار عند أعناق الفرسان، ويصب الماء حتى القلانس (أغطية الرأس). كان الجاحظ ـ معاصر أبي نواس ـ شديد الافتتان بهذه الأبيات

٨٩ إصلاحُه خلْقُه من جديد

يهجو العباس الخزاعي:

قلْ لِبَني الأشعثِ لن تُصلِحوا،   باللُّوْم، عندي، أمرَ عباسِ
حتى تردُّوهُ إلى ربِّهِ   يَطْبَعُهُ خَلْقاً من الرَّاسِ
ألومُ عباساً على بُخْلِهِ،   كأنَّ عباساً من الناسِ
وإنَّما العباسُ في قومِهِ،   كالثُّومِ بينَ الوردِ والآسِ

٩٠ ذل المفلس

اَلحمدُ للَّهِ! ألم تَنْهَني   تَجْرِبَةُ الناسِ عنِ الناسِ؟
فأمنعَ النَّفسَ هواهَا، فقد   أَذَلَّني للناسِ إفلاسي

ألم يحن الوقت لأمنع نفسي من طبيعتها في بذل المال

سـكـتُّ لـلـدهـرِ وأحـداثِـه،   حـتـى خَرىَ الـنـاسُ عـلـى راسـي

٩١ ما شمطت يدي

وإذا عددْتُ سِنيَّ كمْ هِيَ، لم أجدْ   للشَّيْبِ عُذراً في النزولِ بِرَاسي
قالوا شَمِطْتَ، فقلتُ ما شَمِطَتْ يدي   عن أنْ تَحُثَّ إلى فمي بِالكاسِ

شمطت: أصبحت أشمط يختلط بياض شعرك بسواده

فـالـرَّاحُ طَـيِّبةٌ، ولـيـس تَـمـامُـهـا   إلَّا بِـطـيـبِ خَـلائـقِ الـجُـلَّاسِ
فـإذا نَـزَعْـتَ عـن الـغـوايةِ فـلْـيَـكُـنْ   لـلَّـهِ ذاكَ الـنَّـزْعُ لا لـلـنـاسِ

٩٢ اجلس، لا جلست!

قال أبو نواس (من كتاب حمزة الأصفهاني، بتحقيق إيفالد فاغنر):

قـلْ لِمَـنْ يـبـكـي عـلـى رسـم دَرَسْ   واقـفـاً، مـا ضَـرَّ لـو كـانَ جَـلَـسْ
تَـصِـفُ الـرَّبْـعَ ومَـن حـلَّ بـه   مـثـلَ سـلـمـى ولُـبَـيْـنَـى وخَـنَـسْ
أتْـرُكِ الـربْـعَ وسـلـمـى جـانـبـاً   واصـطـبـحْ كَـرْخِـيَّـةً مـثـلَ الـقَـبَـسْ

كرخية: خمر من الكرخ ببغداد

٩٣ الجوعى بخلاً

أمـاتَ الـلَّـهُ مـن جـوعٍ رُقَـاشـاً،   فـلـوْلا الـجـوعُ مـا مـاتـتْ رُقَـاشُ

يدعو عليهم بالموت جوعاً، فهم قوم لا يموتون بحرب لجبنهم

ولـو أشْـمَـمْـتَ مـوتَـاهُـمْ رغـيـفـاً،   وقـد سَـكَـنُـوا الـقـبـورَ، إذن لَـعـاشُـوا

ومع ذلك، لو ماتوا، لقاموا من قبورهم إذا شموا رغيفاً

٩٤ هجاء البرامكة

إنِّـــيَ لـــولا شـــقـــاءُ جَـــدِّي   مـا مـاتَ مـوسـى كـذا سـريـعـا

لولا شقاء حظي لما مات موسى الهادي (الخليفة العباسي الرابع، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان مبغضاً للبرامكة وسجن يحيى البرمكي زمناً)

ولا طـوَتْـه الْـمَـنُـونُ حـتـى   أرى بـنـي بَـرْمَـكٍ جَـمـيـعـا..

قـد دَسَّـمَ الـلَّـهُ مِـن خُـصَـاهُـمْ بِـشَـاطِـئَـيْ دِجـلـةَ الـجُـذُوعـا

ليت المنون (الموت) لم يأخذ موسى إلا وقد خصى البرامكة جميعاً وجعل خصاهم سماداً لجذوع النخيل على شاطئي دجلة. شرح قهوجي: صلبهم في الجذوع وتدلت خصاهم على هذه الجذوع تدسمها (تلطخها)

هـذا زمـانُ الـقـرودِ، فـاخـضَـعْ، وكُـنْ، لـهُـمْ، سـامـعـاً مـطـيـعـا

٩٥ المكاس ضراعة

أعـاذلَ! ما فرَّطْتُ في جَنْبِ لَذَّةٍ، ولا قـلـتُ لـلـخـمَّـارِ كـيـف تـبـيـعُ؟

أُسـامـحُـه، إنَّ الـمِـكَـاسَ ضَـرَاعَـةٌ، ويَـرحـلُ عِـرضـي عنه وَهْـوَ جَـمـيـعُ

المكاس: الفصال وطلب الحطيطة من الثمن، ضراعة: ذل، جميع: غير مدنس

٩٦ رثاء خَلَف وهو حي

قال أبو نواس يرثي أستاذه خلفاً الأحمر، وهو حي. قال له خلف: ارثني، فرثاه أبو نواس بهذه الأرجوزة، فاستجادها خلف. قال له أبو نواس: مُتْ، ولك خير منها. قال خلف: كأنك قصرت؟ قال أبو نواس: لا، ولكن أين داعي الحزن؟:

أَوْدَى جِـمـاعُ الـعـلـمِ مُـذْ أَوْدَى خَـلَـفْ

مَـنْ لا يُـعَـدُّ الـعِـلْـمُ إلَّا مـا عَـرَفْ

قَـلَـيْـذَمٌ مِـنَ الـعَـيَـالِـيـمِ الـخُـسُـفْ

قليذم: بئر، العياليم: الآبار الصخرية الغزيرة، الخسف: العميقة.
والقليذم عند ابن فارس قلهذم لا غير

فـكُـلَّـمـا نَـشـاءُ مـنـه نَـغْـتَـرِفْ

رِوَايَـةً لا تُـجْـتَـنَـى مِـنَ الـصُّـحُـفْ

٩٧ انتظر حتى أشكرك

يمدح العباس بن عبد الله الهاشمي:

قـد قـلـتُ لـلـعـبـاسِ مـعـتـذراً، مـن ضـعـفِ شُـكْـرِيـهِ، ومُـعـتـرفـا:

أنـتَ امْـرُؤٌ جَـلَّـلْـتَـنـي نِـعَـمـاً، أَوْهَـتْ قُـوَى شُـكـرِي فـقـد ضَـعُـفـا

لا تُـسْـدِيَـنَّ إلـيَّ عـارِفَـةً، حـتَّـى أقـومَ بِـشُـكْـرِ مـا سَـلَـفـا

٩٨ الرغيف عند رفاء الثياب

قال أبو نواس يهجو إسماعيل بن نوبخت:

خُـبـزُ إسـمـاعـيـلَ كـالـوَشْـ ـيِ إذا مـا انْـشَـقَّ يُـرْفَـا

الوشي: النسيج الفاخر، يرفا: يخاط بقطب مخفية

عَـجـبـاً مـن أثَـرِ الـصَّـنْـ ـعـةِ فـيـهِ كـيـفَ يَـخـفَـى

إنَّ رَفَّـاءَكَ هـذا، أحْـذَقُ الأُمَّـةِ كَـفَّـا

فـإذا قَـابَـلَ بِـالـنِّـصْـ ـفِ مِـنَ الـجَـرْدَقِ نِـصْـفـا

الجردق: الرغيف

يُـلْـصِـقُ الـنـصـفَ بـنـصـفٍ، فـإذا قـد صَـارَ إلْـفَـا

إلف: متآلف متماسك

ألْـطَـفَ الـصـنـعـةَ، حـتـى لا تَـرى مِـغْـرَزَ إشْـفَـى

إشفى: مخرز

مِـثْـلَـمـا جـاءَ مـن الـتَّـنُّـ ـور مـا غَـادَرَ حَـرْفـا

ولَـهُ فـي الـمـاءِ أيـضـاً عَـمَـلٌ أبْـدَعُ ظَـرْفَـا

مَـزْجُـهُ الـعَـذبَ بِـمَـاءِ الـ ـبـئـرِ كَـيْ يَـزْدَادَ ضِـعْـفَـا

أبو نواس بصري النشأة، ولأهل البصرة مع الماء العذب والماء الملح قصص كثيرة رواها الجاحظ ابن البصرة ومعاصر أبي نواس. أليس في البصرة قد مرج الله البحرين يلتقيان؟

فَـهْـوَ لا يَـسـقـيِـكَ مـنـه، مِـثْـلَـمـا يـشـربُ، صِـرْفـا

٩٩ رحى السرور

ورخيـمُ الـدَّلالِ كـادَ مـن الـرقَّـ ـةِ يُـدمـي أدِيـمَـهُ وَقْـعُ طَـرْفِ

هذا الصبي رخيم الدلال (لين التثني)، كاد لرقته يجرح أديمه (جلده) وقع الطرف (النظرة)

حلَّ منه الصَّليبُ في موضِعِ الجيـ ـدِ، فقـد خَصَّهُ عـلـى كـلِّ إلْـفِ

إلف: صديق

فـأَدَرْنـا رَحَـى الـسُّـرورِ ثـلاثـاً، ووصـلْـنـا الـخُـصُـورَ كَـفَّـاً بِـكَـفِّ

كان أبو نواس يغشى الخمارات الملحقة بالأديرة، ويمكث ثمَّ أياماً مع عصبة الفساق

١٠٠ الخمر في الرمق الأخير

ومُدامَةٍ تحيا النُّفُوسُ بِها، جَلَّتْ مآثِرُها عن الوصفِ
قد عُتِّقَتْ في دَنِّها حِقَباً، حتَّى إذا آلَتْ إلى النِّصْفِ
سَلبُوا قناعَ الطينِ عن رَمَقٍ حَيِّ الحَياةِ، مُشَارِفِ الحَتْفِ

١٠١ يا ابن الموتى!

أخيِ، ما بالُ قلبِكَ ليس يَنْقَى؟ كأنَّكَ لا تظُنُّ الموتَ حَقَّا
ألا يا ابْنَ الذين فَنُوا وبَادُوا، أمَا واللَّهِ، ما بَادُوا لِتَبقَى
وما لكَ، فاعْلَمَنْ، فيها مُقامٌ إذا اسْتَكْمَلْتَ آجالاً ورِزْقا
وما لكَ غيرَ ما قَدَّمْتَ زادٌ إذا جعَلَتْ إلى اللَّهَوَاتِ تَرقَى

لا زاد لك إلا ما قدمت من تقوى إذا بدأت روحك ترقى (تصعد) إلى اللهوات (الحلق)

وما أَحَدٌ بِزادِكَ منكَ أَحْظَى وما أَحَدٌ بِذنْبِكَ منكَ أَشْقَى

١٠٢ القلب الطائر

أَيَا من سارَ منطلِقا، وزوَّدَ مقلتي الأَرَقا
سَلبْتَ الظبيَ مقلتَه ولم تتركْ له العُنُقا

أي أن عينك كعين الظبي وعنقك كعنقه

وقالوا مَنْ عشِقْتَ؟ فقلـ ـتُ: خَيْرُ وشَرُّ من عُشِقَا
فخيْرُهُمُ معاً خَلْقاً، وشَرُّهُمُ معاً خُلُقا
تَضَمَّخَ بالعبيرِ قميـ ـصُهُ حتى اشْتَكَى الغَرَقا
وسالَتْ مِنْ عقِيصَتِهِ، سَلاسِلُ كُسِّرَتْ حَلَقَا

عقيصته: ضفيرته

على بَشَرٍ كَأَنَّ الدُّرَّ ـ يَعْلُوهُ إذا عَرِقَا

بشر: بشرة/ ظاهر الجلد

فلَوْ أَبْصرتَه لَخَرَرْ تَ عندَ دُنُوِّهِ صَعِقَا

من الآية: فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا. ومن الدو بيت قال الشاعر:

لـو صـادف نـوحُ دمـع عـيـنـي غـرقـا   أو جـرب لـوعـتـي الـخـلـيـل احـتـرقـا

أو حـمـلـت الـجـبـال مـا أحـمـلـه   صـارت دكـا وخـر مـوسـى صـعـقـا

وهذه أبيات كثيرة يغنونها بادئين بـ «يا غصن نقا مكللاً بالذهب»، غناها القدماء على الهزام، إيقاع آغر أقصاق التركي المعدل (٥ على ٤) وغناها بنو زماننا على إيقاع السنكين السماعي (٦ على ٤) فأخذوا بذلك نفَساً

١٠٣ يتعاطون النعاس

رَكْبٌ تَسـاقَوْا علـى الأَكْوارِ بَيْنَهُـمُ   كأسَ الكَرى، فانْتَشَى الْمَسْقِيُّ والسَّاقي

ركب (قوم مسافرون) تساقوا (سقى بعضهم بعضاً) على الأكوار (على سروج الإبل) كأس النعاس، فانتشوا جميعاً ونعسوا لطول السفر الليلي

كـأَنَّ أَرْؤُسَـهُـمْ، والـنـومُ واضِـعُـهـا   علـى المناكِبِ، لـم تُوصَلْ بِأَعناقِ

وضع النوم رؤوسهم على أكتافهم فكأنهم بلا أعناق ترفعها

خاضُوا إِلَيْكُمْ بِحَارَ اللَّيْلِ، آوِنَةً،   حتَّـى أَنَـاخُـوا إِلَـيْـكُـمْ فَـلَّ أَشْـوَاقِ

.. وصلوا عندكم وأناخوا إبلهم فل أشواق (مهزومين من شدة شوقهم)

والحُسْنُ منكِ يَطوفُ العاشقونَ به،   فـأنـتِ مـوسـمُ رُوَّادٍ وعُـشَّـاقِ

١٠٤ الطباخ ابن الذوات

قال في رجلٍ اسمه حمران، اضطرته ظروفه إلى تولي مطبخ الصقر بن الصَفاق:

ذاكَ أمـيـرٌ جَـلَّ سـلـطـانُـهُ   فـي مـطـبـخِ الـصَّـقْـرِ بْـنِ صَـفَّـاقِ

فـلـو تَـرَاهُ وَهْـوَ فـي قُـرْطُـقٍ،   مُـشَـمِّـراً فـيـهِ عـنِ الـسَّـاقِ

قرطق: من ملابس الغلمان

تَـسْـمَـعُ لِـلْـمِـحْـوَرِ فـي كَـفِّـهِ   مـا شـئـتَ مـن طـاقٍ وطَـرْطَـاقِ

المحور: الشوبك الذي به يُرَقُّ العجين

إنْ رابَـهُ، مِـنْ نَـارِهِ، رَائِـبٌ،   أو نَـالَ مـنـهـا عـيْـنَـهُ فَـاقـي

إذا أحس بشك في النار وكانت غير معتدلة الاشتعال، لها شرر يفقأ العين لعدم استواء الحطب

بـاشَـرَهَـا بَـالْـحُـرِّ مِـنْ وَجْـهِـهِ،   لـيـسَ لـه، مِـنْ دونِـهـا، وَاقِ

يباشرها بصفحة وجهه يعالجها

أَبَعْدَ سِرْبَالِ امْرِئٍ عَالِمٍ، أَصْبَحْتَ في سِربَالِ مَرَّاقِ؟
سربال: ثوب، مراق: طباخ يعالج المرق

وبعدَ سَعْيٍ لاكتِسابِ العُلَى، تغدُو على زَنْدٍ وحُرَّاقِ
زند: عود الحك لإشعال النار، الحراق: القش الذي هو بدء الاشتعال

حاسِرَ كُمَّيْكَ على هَاوُنٍ لِدَقِّ ثُومٍ أو لِسُمَّاقِ؟
الهاون: المهراس، السماق: من الأبزار

إذا انتهَى القومُ إلى شِبْعِهِمْ فأنتَ في حِلٍّ مِنَ البَاقي
تأكل ما يفضل بعد أكلهم

١٠٥ الغلامية

قال أبو نواس في جارية اسمها معشوق:

غُلامٌ، وإلَّا فالغُلامُ شبيهُها، ورَيحانُ دنيا، لَذَّةٌ لِلمُعانِقِ
تَجَمَّعَ فيها الشَّكْلُ والزِّيُّ كلُّه، فليس يُوَفِّي وصفَها قولُ ناطِقِ
فِطَانَةُ زِنديقٍ، ولَحْظَةُ قَيْنَةٍ بعينِ الذي تَهوَى، ومُنْيَةُ عاشِقِ
وتَقْطِيبُ سِجْنِيٍّ، وتَكْرِيهُ شَاطِرٍ، ونَظْرةُ جِنِّيٍّ، وزِيُّ مُنَافِقِ
سجني: سجان، التكريه: إهمال اللباس، شاطر: لص

١٠٦ الاختناق الحق

يا عمرُو مَنْ لم يختَنِقْ بالبَيْنِ لم يَخْتَنِقِ
يا عمرُو، لا لاقيْتَ ما لاقيْتُ في مُنْطَلَقِي
ما سرتُ مذْ جَاوَزْتُ ميـ ـلاً دارَ ذاكَ الخَرِقِ
الخرق: الكذوب

إلَّا ودَاعِي حُبِّهِ يَثْنِي إليهِ عُنُقِي

١٠٧ النطف الخائفة

قال يمدح هارون الرشيد:

لقد اتَّقَيْتَ اللَّهَ حقَّ تُقَاتِهِ وجَهَدتَ نفسَكَ فوقَ جَهْدِ المُتَّقِي

وأَخَفْتَ أهلَ الشِّرْكِ حتَّى إنَّهُ   لَتَخافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ
وبِضاعةُ الشعراءِ إنْ نَفَّقْتَها   نَفَقَتْ، وإنْ أكْسَدْتَها لم تَنْفُقِ

١٠٨ معاكسة

يا أيُّها المُبْطِلونَ مِعذِرَتي   أراكُمُ اللَّهُ وجهَ تَصديقي..
.. يا من ترفضون عذري.. أدعو الله أن يريكم صدقي..

نَمَّ بما كنتُ لا أبوحُ به   على لِسانٍ، بالدمعِ مِنْطيقِ
لقد نمَّ صدقي بسري على لسان فصيح مادته الدمع لا الكلام.
أي أن دمعه قام مقام لسانه في بيان عذره

شوقاً إلى حسنِ صورةٍ ظَفِرتْ،   مِنْ سَلسَبيلِ الجِنانِ، بالرِّيقِ
أبكي شوقاً إلى وجه حسن، أخذ صاحبة من سلسبيل الجنان (نبع الجنة) ريقه

وَصيفُ كأسٍ، مُحَدِّثٌ، ولَها   تيهُ مُغَنٍّ، وظَرْفُ زِنديقِ
هذه الفتاة ساقية، ومحدثة لبقة، ولها تيه (تكبر) مغن وظرف زنديق

ورِدْفُها كالكَثيبِ، نيطَ إلى   خَصْرٍ رَقيقِ اللِّحاءِ، مَمْشوقِ
ردفها ككثيب الرمل، وهو موصول بخصر رقيق اللحاء (قليل الشحم)

أَمشي إلى جنْبِها أُزاحِمُها   عَمْداً، وما بالطريقِ من ضيقِ

١٠٩ عدو في ثياب صديق

أَيا رُبَّ وجهٍ، في الترابِ، عَتيقِ   ويا رُبَّ حسنٍ، في الترابِ، رقيقِ
عتيق: جميل

أرى كلَّ حَيٍّ هالكاً وابنَ هَالِكٍ،   وذا نَسَبٍ في الهالِكينَ، عريقِ
فقلْ لِقريبِ الدارِ إنَّكَ ظاعنٌ   إلى منزلٍ نائي المحَلِّ سَحيقِ
سحيق: بعيد

إذا امتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ   له عن عدوٍّ في ثيابِ صَديقِ

١١٠ عشق النصراني

عُلِّقْتُ من شِقوتي ومن نَكَدي   مُزَنَّراً، والصَّليبُ في عُنُقِهْ
مزنراً: متخذاً زناراً، فهو نصراني

فقلتُ: من أنتَ؟ بالمسيحِ وبالـ إنـجيـلِ سَـطَّـرْتَـهُ عـلـى وَرَقِـهْ
وبـالـصَّـلـيـبِ الـذي تَـدِيـنُ لـه، فـقـالَ: بـدرُ الـسـمـاءِ فـي أُفُـقِـهْ

١١١ لعلَّك!

كـنْ مـعَ الـلَّـهِ يَـكُـنْ لَـكْ واتَّـقِ الـلَّـهَ لَـعَـلَّـكْ..

أي لعلك تنجو

لا تـكـنْ إلَّا مُـعِـدَّاً لِـلـمـنـايـا فَـكَـأَنَّـكْ..

أي فكأنك قد لقيت الموت

١١٢ أحقاً أنك رحلت؟

أَحَـقَّـاً مـنـكَ أَنَّـكَ لـن تـرانـي، عـلـى حـالٍ، وأَنِّـي لـن أَراكـا
وأَنَّـكَ غـائـبٌ فـي قـعـرِ لَـحْـدٍ، ومـا قـد كـنـتَ تـعـلُـوهُ عَـلاكـا
فلا ضَحِكَتْ، وقد غُيِّبْتَ، سِنِّي، ولا رَقَـأَتْ مَـدامِـعُ مَـنْ سَـلاكـا

رقأت: جفَّت

١١٣ عين الرضا*

فديْتُكَ قد جُبِلْتُ على هَواكا، فـنـفـسـي لا تُـنـازِعُـنـي سِـواكـا
فلَيْتَ الناسَ أُعْمُوا عنكَ، غَيْرِي، فَـآمَـنَ أن يَـرَوْكَ كـمـا أَراكـا
ويَسْمُجُ مِنْ سِواكَ الشيءُ عندي، فـتـفـعَـلُـهُ، فَـيَـحْـسُـنُ مـنـكَ ذاكـا

*العنوان لقهوجي

١١٤ لن أهجوك.. لو تموت

قال يهجو الفضل الرقاشي:

قـلْ لـلـرُّقَـاشِـيِّ، إذا جـئـتَـه، لـو مُـتَّ، يـا أَحـمـقُ، لـم أَهْـجُـكـا
لأنـنـي أُكْـرِمُ عِـرضـي، ولا أقـرِنُـهُ يـومـاً إلـى عِـرْضِـكَـا
إن تَـهْـجُـنـي تَـهْـجُ فـتـىً مـاجِـداً، لا يـرفـعُ الـطَّـرْفَ إلـى مِـثْـلِـكـا
دونَـكَ عِـرضـي، فـاهـجُـهُ راشِـداً، لا تَـدْنَـسُ الأَعـراضُ مِـنْ هَـجْـوِكـا

والـلَّـهِ، لـو كـنـتُ جـريـراً لَـمَـا   كـنـتُ بِـأَهْـجَـى لَـكَ مِـنْ أَصْـلِـكـا

١١٥ عبوس البخيل

رأيـتُ الـفـضـلَ مـكـتـئِـبـاً   يـنـاغـي الـخـبـزَ والـسَّـمَـكـا

يناغي: يكاغي، كما يكاغي المرء الوليد

فـقـطَّـبَ حـيـن أَبـصَـرَنـي،   ونَـكَّـسَ رأسَـهُ، وبَـكَـى

فـلـمَّـا أن حَـلَـفْـتُ لـهُ   بِـأَنِّـيَ صـائـمٌ ضَـحِـكـا

١١٦ كيمياء العشق

سمع أبو نواس من غلام كان يتعشقه كلاماً قاسياً فيه زجر وتأنيب فخاطب نفسه قائلاً:

عَـجَـزْتَ يـا مَـهْـجُـورُ أنْ تَـذْهَـلا   ومِـنْ ذَوِي نُـصْـحِـكَ أن تَـقـبَـلا

يا من هجرك الحبيب قد عجزت عن أن تذهل (تنسى)، وأن تقبل النصح

سَـجِـيَّـةٌ لـسـتَ لـهـا تـارِكـاً،   إذا تَـوَلَّـوْا عـنـكَ أن تُـقْـبِـلا

عادة لا تقلع عنها وهي أن ينصرف المحبون عنك ولكنك تبقى مقبلاً عليهم

وتَـذْرِفُ الـعـيـنُ، إذا مـا نَـأَوْا،   وإنْ أَسـاءُوا، الـدَّهْـرَ، أنْ تُـجْـمِـلا

تبكي على بعدهم. وإن أساءوا لك طول الدهر فأنت تجمل (تُحسن) لهم

إنِّـي، وإنْ لـم أَكُ مُـسْـتَـحْـسِـنـاً   مِـنـي لـذا الـهـجـرِ، وَمُـسْـتَـجْـمِـلا

أنا ـ مع أنني لا أستحسن مقابلتي هجر الحبيب بهجر، ولا أراه لائقاً ـ . .

فـالـموتُ أن يُـزْرَى عـلـى عـاشـقٍ،   يـقـالُ قـد كـانَ، ولـكـنْ سَـلا

أرى الموت أسهل من أن يعاب علي بالقول إن هذا عاشق سابق، وقد سلا (نسي) الآن معشوقه

١١٧ حلو على علاته

يـا مَـنْ تَـمَـرَّهَ عـمْـداً   فـكـانَ لِـلـعَـيْـنِ أَمْـلا

تمره: لم يكتحل، أصبح أجمل ويملأ العين أكثر

وفـي الـشُّـعُـوثَـةِ أَرْبَـى،   فـكـانَ أحـلـىَ، وأحـلـى!

وزاد في الشعوثة (ترك الهندام) فكان أحلى في العين

أردتَ أنْ تــــزدَرِيــــكَ الـــــ ـعـيــونُ هــيــهــاتَ، كــلَّا!
تــركــتَ جــســمــي عــلــيــلاً، مـــن الـــقـــلـــيـــلِ أَقَـــلَّا
يـــكـــادُ لا يَـــتَـــجَـــزَّا، أقـــلَّ فـــي الـــلـــفـــظِ مِـــنْ «لا»

نحل جسمي حتى صار مثل الذرة التي لا تتجزأ (وكان وصل إلى العباسيين من علم اليونان هذه الفكرة بأن الشيء يصل في نقطة معينة إلى جسيم لا تمكن تجزئته. وتُطيف بي فكرة تلحُّ علي إلحاحاً شديداً ملخصها: مثلما أن الكون واسع ويمكننا، بكثير من الصعوبة، أن نتخيله لانهائياً ـ ذلك أننا لا نفهم اللانهائي أبداً، فمفهوم اللانهائي غير موجود في أي شيء نعرفه ـ فكذلك ثمة لانهائية في الصغر، ولا حاجة للوقوف عند حد في تجزئة المادة إلا لغرض وظيفي. الفكرة موجودة في الرياضيات وفي الفلسفة، ولكن علماء الفيزياء يحبون التوقف في التجزئة في المحطات التي تخدم فرضياتهم. وقفوا طويلاً عند البروتون والنيوترون والإلكترون، ومنذ حين أخذوا يحطمون هذا ويضيفون إليه «دقائق» كثيرة أوصلها بيل برايسون إلى ١٥٠ جسيماً جديداً افترضوا وجودها داخل الذرة)

١١٨ كلم أخاك

كتب أبو نواس من سجنه لأخي كاتب الفضل بن الربيع مستشفعاً:

حَــيِّ الــدِّيَــارَ وأهــلَــهــا أهــلا واربَــعْ، وقُــلْ لِــمُــفــنِّــدٍ مَــهــلا!

اربع: أقم، المفند: العاذل

حُــبُّ الـمـدامَـةِ، مُـذْ لَـهِـجْـتُ بِـهـا، لـم يُـبْـقِ فـيَّ، لِـغـيـرِهـا، فَـضْـلا
إنِّـي نَـدَبْـتُ لِـحَـاجَـتـي رَجُـلاً صَـافِـي السماحَـةِ، واحتَوى النُّبْلا
كَـلِّـمْ أَخـاكَ يُـكَـلِّـمِ الـفَـضْـلا ولْـيَـبْـلُـنـي حَـسَـنـاً كـمـا أَبْـلَـى

ليبلني: ليختبرني

إنِّـي وصـلـتُ بـكَ الـرجـاءَ عـلـى بُـعـدِ الـمـدىَ، إذ كـنـتَ لـي أَهْـلا
وإذا وصـــلْـــتَ بـــعـــاقِـــلٍ أَمَـــلاً كـانـتْ نـتـيـجـةُ قـولِـكَ الـفِـعْـلا

١١٩ نسير نحوه

إنَّ الــذي رَدَّ الــشــبــابَ كُــهــولا لا آمِــلاً يُــبــقــي ولا مَــأمُــولا

١٢٠ لا مثيل له

مـا لـيَ فـي الـنـاسِ كـلِّـهِـمْ مَـثَـلُ مـائـيِ عُـقَـارٌ، ونُـقْـلِـيَ الـقُـبَـلُ

مائي عقار (خمر)، ونقلي (مازتي/ ما أتسلى به على الشراب) القبلات

دأبِيَ، حتى إذا العيونُ هَدَتْ، وحَانَ نَوْمي فمَفْرَشي كَفَلُ

هذا هو دأبي (عادتي)، فإذا نام الناس وهدأت عيونهم وحان نومي فأنا أفترش كفل الحبيب

١٢١ تصبَّبْ وأنت ساكت

إنّي وذِكْرِيَ مِنْ «حُسْنٍ» مَحاسِنَها، مثلُ الذي قالَ: ما أحْلاكَ يا عَسَلُ!
أُحَدِّثُ الناسَ أنّي قد وقعتُ لَهُمْ مِنْ وجهِ «حُسْنٍ» على الأمْرِ الذي جَهِلوا
قد اكتَفَى الناسُ مِنْ علمي بعلْمِهِمُ، فالردُّ مني عليهِمْ عِلْمَهُمْ ثِقَلُ

لا تفصّلْ جمالها للناس فهذا ثقل (ثقل دم)، فكلهم رآها وأدرك محاسنها

١٢٢ حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً

لم يُنسِنِي السَّعيُ والطَّوافُ ولا الدَّـ اعُونَ لَمَّا ابتَهلتُ وابتَهلُوا
قَضيبَ بَانٍ إن قامَ يَنخَزِلُ، وإنْ تَولّى فكُلُّهُ كَفَلُ

ينخزل: ينقطع

تخالُ خَدَّيْهِ لاحْمِرارِهِما يُفَتِّحُ الوردَ فيهِما الخَجَلُ

١٢٣ لِصِّي المفضل

نجوتُ مِنَ اللصِّ الْمُغِيرِ بسيفِه، إذا ما رَمَاهُ بِالتِّجَارِ سبيلُ

نجوت من قاطع الطريق إذا ما رماه الطريق (صادف) بالتجار

وسَلَّطْتُ خَمَّاراً عليَّ بِكأْسِه، فراحَ بِأَسْلابي، ورُحْتُ أَمِيلُ

وسلطت علي صاحب الخمارة فذهب بأسلابي (ملابسي) وتمايلت سكراً

١٢٤ العتيقة

لا تُعَرِّجْ بِدارسِ الأطلالِ واسْقِنِيها رَقيقَةَ السِّرْبَالِ

رقيقة السربال: رقيقة الثوب، أي أن الخمر شفافة مركزة

ماتَ أربَابُها، وبَادَتْ قُراها، وبَراها الزَّمانُ بَرْيَ الخِلالِ

الخلال: المساويك، ويضرب بها المثل في الدقة بعد بريها

عُتِّقَتْ في الدِّنَانِ حتى استفادَتْ نُورَ شَمسِ الضُّحى، وبَرْدَ الظِّلالِ

١٢٥ زيارة خمارة ليلاً

أَمَالِكُ، باكِرِ الصَّهْباءَ، مَالِ وإنْ غَالَوْا بِها ثمناً فَغَالِ

مالِ: ترخيم مالك

وأَشْمَطَ، رَبِّ حانوتٍ، تَراهُ، لِنَفخِ الزِّقِّ، مُسْوَدَّ السِّبَالِ

وصاحب حانوت (خمارة) أشمط (اختلط سواد شعره ببياض) تراه مسود الشاربين لكثرة نفخه في الزق. ويبدو أنهم كانوا ينفخون في زق الخمر المطلي بالقار لاستخراج بقية ما فيه من خمر

دعوتُ، وقد تَخَوَّنَهُ نُعاسٌ، فَوَسَّدَهُ بِراحَتِهِ الشِّمَالِ

أتيته وقد تخونه (أخذه) النعاس فجعل هذا النعاس راحته اليسرى وسادة لرأسه

فقامَ لِدَعوَتي فَزِعاً مَرُوعاً، وأسرعَ نحوَ إشعالِ الذُّبَالِ

الذبال: الفتيل

فلمَّا بَيَّنَتْني النارُ حَيَّا تحيةَ وَامِقٍ لَطِفِ السؤَالِ

وامق: محب

وأَفْرَخَ رُوعُهُ، وأفادَ بِشْراً، وهَرْهَرَ ضاحكاً جَذْلانَ بالِ

أفرخ روعُه: هدأت مخاوفه، هرهر: قرقر وكركر كالقط مسروراً، جذلان البال: فرحان الخاطر

يُلائِمُني الحَرامُ، إذا اجتمَعْنا وأَجْفُو عن ملاءَمَةِ الحَلالِ

١٢٦ في وصف طنجرة أخرى

ودَهْمَاءَ تُثْفِيها رَقاشُ، إذا شَتَتْ، مُرَكَّبَةِ الآذانِ، أُمِّ عِيالِ

رب قدر دهماء (سوداء) تملكها عائلة رقاش التي تثفيها (تضعها على الأثافي/ حجارة الموقد) عند الشتاء، والقدر ذات آذان وهي أم عيالهم التي تطعمهم

يَغَصُّ بِحَيْزُومِ الجَرادَةِ صدرُها، ويُنْضِجُ ما فيها اتِّقادُ ذُبالِ

صدر هذه القدر يغص (يمتلئ) لو وضع فيها حيزوم (صدر) جرادة، ويكفي لإنضاج ما فيها اتقاد ذبال (فتيل).. هذا لأنها قدر متناهية الصغر

وتَغلي بِذِكْرِ النارِ من غَيرِ حَرِّها، ويُنْزِلُها الطَّاهي بِغيرِ جِعالِ

لمجرد ذكر كلمة نار تغلي هذه القدر، وينزلها الطاهي عن حجارة القدر بدون جعال (خِرْقة)

ولو جئتَها ملأَى عَبيطاً مُجَزَّلاً، لأَخرجْتَ ما فيها بِعودُ خِلالِ

ولو وجدتها ملأى بالعبيط المجزل (اللحم المقطّع) لأخرجت محتوياتها على عود مسواك.

بيت مكرر مع تغيير كلمتين سننتظر بضعة عقود لنرى ابن الرومي يصنع العجائب على هذه الطريقة الكاريكاتيرية

١٢٧ ادفنوني تحت أرجلهم

قال أبو نواس، وليس في نسخة الصولي التي عنها أخذ قهوجي:

خَلِيلَيَّ بِاللَّهِ لا تحفِرا ... لِيَ القبرَ إلا بِقُطْرَبُّلِ
خِلالَ المعاصِرِ بين الكُرُومِ ... ولا تُدنِيانِي من السُّنْبُلِ

يريد أن يدفن بين كروم العنب ومعاصره لا بين سنابل القمح

لَعلِّيَ أَسمعُ في حُفرتي ... إذا عُصِرَتْ ضَجَّةَ الأَرْجُلِ

وكانوا يعصرون العنب بدوسه بالأقدام

١٢٨ فضيحة العاشق

من رواية حمزة الأصبهاني:

دمعةٌ كاللُّؤلؤِ الرَّطْـ ... ـبِ على الخَدِّ الأَسيلِ
قَطَرَتْ في ساعةِ البيْـ ... ـنِ مِنَ الطَّرْفِ الكَحيلِ
إنما يُفْتَضَحُ العا ... شقُ في وقتِ الرَّحيلِ

١٢٩ تجميش مبتكر

أزاحِمُه إذا صَلَّى ... لِتَمْسَحَ رجلَهُ رِجلي
وأطلُبُ تحتَه نَعلي ... وما إنْ تَحْتَهُ نَعلي
فهلْ أبصرْتُمُ شخصاً ... يُجَمِّشُ هكذا قَبْلي؟

يجمش: يداعب بخشونة تشبه خشونة كلمة «تجميش»

١٣٠ طيش الشباب والشيخوخة

كان الشبابُ مَطِيَّةَ الجهلِ ... ومُحَسِّنَ الضَّحِكاتِ والهَزْلِ

كان الشباب مركباً للجهل، وكان يجعل الهزل جميلاً

والبَاعِثِي، والناسُ قد رَقدُوا، ... حتى أكونَ خَليفَةَ البَعْلِ

في الليل كان الشباب يبعثني (يحملني) على أن أكون خليفة البعل (أن أنوب عنه في سرير الزوجية)

والآمِرِي، حتى إذا عَزَمَتْ ... نفسِي أعانَ يَديَّ بالفِعْلِ

يأمرني الشباب بالعبث، ويساعدني عليه عندما أقرر

فـالآنَ صِـرْتُ إلـى مـقـارَبَـةٍ، وحَطَطْتُ عن ظَهْرِ الصِّبَا رَحْلي
مقاربة: تقارب الخطوات، كمشي الشيخ

والـراحُ أهْـواهَـا، وإن رَزَأَتْ بُلَغَ الْمَعاشِ، وقَلَّلَتْ فَضْلي
وأهوى الخمر حتى لو رزأت (خسفت) بلغ المعاش (بقايا المال)، وقللت فضلي (أضرت بسمعتي)

صَفراءُ، مَجَّدَها مَرازِبُها، جَلَّتْ عن النُّظَراءِ والْمِثْلِ
المرازب: كبار قادة كسرى

فَاعذِرْ أخَاكَ فإنه رجلٌ مَرَنَتْ مسامِعُهُ على العَذْلِ

١٣١ خبز إسماعيل

على خُبزِ إسماعيلَ وَاقِيَةُ البُخْلِ فقد حلَّ في دارِ الأمانِ مِنَ الأَكْلِ
وما خبزُهُ إلا كآوَى يُرَى ابنُهُ، ولم يُرَ آوَى في حُزونٍ ولا سهلِ
«ابن آوى» حيوان معروف وموجود، ولكن «آوى» ـ أباه ـ ليس في الوجود، ففي اللغة «ابن آوى» حيوان معروف، وليس في اللغة «آوى» بهذا المعنى

وما خبزُه إلَّا كعنقَاءِ مُغْرِبٍ، تُصَوَّرُ في بُسْطِ الملوكِ، وفي الْمُثْلِ
نشهد عنقاء مغرب في بسط الملوك وفي المثل (القصص) لكنها خرافية

يحَدِّثُ عنها الناسُ من غيرِ رؤْيَةٍ، سوى صورةٍ ما إنْ تُمِرُّ ولا تُحْلي
ما إن تمر ولا تحلي: لا نفع منها، ولا حقيقة لها

وما خبزُهُ إلَّا كُلَيْبُ بنُ وائِلٍ، لَيالِيَ يحمي عِزُّهُ مَنْبِتَ البَقْلِ
خبز هذا الرجل محمي كمنبت البقل (المرعى) الذي كان كليب يمنعه بعزه وجبروته فلا ينال منه أحد

وإذْ هُوَ لا يَسْتَبُّ خصمانِ عندَه، ولا الصوتُ مرفوعٌ بِجِدٍّ ولا هَزْلِ
كذا كانت هيبة كليب، فلم يكن ليجرؤ القوم على أن يتشاتموا في مجلسه

فإنْ خبزُ إسماعيلَ حَلَّ به الذي أصابَ كُلَيْباً لم يَكُنْ ذاكَ عن ذُلِّ
وكان جساس قد قتل كليباً

ولكنْ قضاءٌ ليس يُسْطَاعُ ردُّهُ بِحِيلَةِ ذي مَكْرٍ، ولا فِكْرِ ذي عَقْلِ
أي أن خبزه لو تعرض لبعض الأذى فعن قضاء وقدر، وليس لأن إسماعيل هذا قصر في رد الأيدي عنه

١٣٢ المذكَّرة

يا رَبْعُ، شُغْلَكَ، إنّي عنكَ في شُغُلِ لا ناقِتي فيكَ، لو تدري، ولا جَمَلي

أيها الربع الذي فارقه أهله الزم شغلك فأنا عنك منشغل، وليس لي فيك ناقة ولا جمل

عـلـيَّ عـيـنٌ وأُذْنٌ مِـنْ مُـذَكَّـرَةٍ، مَوْصُولَةٍ بِهَوى اللُّوطِيِّ والغَزِلِ

علي من يراقبني في هوى هذه الفتاة الغلامية ذات القد الذكوري، وهي موضع عشق اللوطي والغزل (مغازل النساء)

١٣٣ الحرام والحلال

يا رُبَّ صاحِبِ حانةٍ قد رُعتُهُ، فبعثْتُهُ من نَومِه المتَزَمِّلِ

ربَّ خمَّار أخفته بزيارتي الليلة، فقام من نومه الذي تزمل (تلفَّف) فيه بالغطاء

عرفَتْ بَياتَ الطَّارِقينَ كلابُه، فَيَبِتْنَ عن سَنَنِ الطريقِ بِمَعزِلِ

كلاب هذا الخمار تعرف عادة الطارقين (زائري الليل)، فهي تنام بمعزل عن سنن الطريق (وسط ممر الحانة) تاركة طُرَّاق الليل يدخلون بسلام

ما زلتُ أمتحِنُ الدَّساكِرَ دونَه، حتى دُفِعْتُ إلى خَفِيِّ المنزلِ

ظللت أتفحص الدساكر (منازل القرى) دونه (قبل الوصول إليه)، ثم دلوني على المنزل الخفي (الخمارة المتوارية)

فَعرفْتُه، واللَّيلُ مُلْتَبِسٌ بِنا، بِرَفيفِ صَلعتِه وشيبِ الْمِسْحَلِ

عرفت الخمار ـ رغم أن الليل ملتبس بنا (مخالط لنا ويغطينا) ـ وذلك برفيف (لمعان) صلعته، وبشيب المسحل (جانب اللحية)

يا صاحبَ الحانوتِ لا تَكُ مُشْعِياً، إنَّ الشرابَ مُحَرَّمٌ كمُحَلَّلِ

يا صاحب الحانوت (الحانة) لا تكن مشعياً (مدقِّقاً)، أي لا تدقق في تفاصيل النبيذ المحرم (نبيذ العنب) والنبيذ المحلل بحسب بعضِ الفقهاء (نبيذ التمر والزبيب). فالمحرم في فعله مثل المحلل

فدَعِ التي نَبَذَتْ يداكَ، وعاطِني لِلَّهِ دَرُّكَ، من نبيذِ الأرْجُلِ

اترك النبيذ الذي نبذته (جعلته نبيذاً) يداك (وهو نبيذ التمر أو الزبيب)، وعاطني (ناولني) نبيذ الأرجل (نبيذ العنب الذي داسه النباذون بأرجلهم عصراً)

مِمَّا تَخَيَّرَهُ التِّجارُ؛ تَرى لها قَرْصاً، إذا ذِيقَتْ، كقَرْصِ الفُلْفُلِ

هات مما انتقاه التِّجار (تُجَّار الخمر)، خمرة تلسع اللسان كلسع الفلفل

وَلَهَا دَبِيبٌ فِي العِظَامِ كَأَنَّهُ   قَبْضُ النُّعَاسِ، وَأَخْذُهُ بِالْمَفْصِلِ

وتتسلل إلى العظام كما يتسلل النعاس ويرخي المفاصل

عَبِقَتْ أَكُفُّهُمُ بِهَا، فَكَأَنَّمَا   يَتَنَازَعُونَ بِهَا سِخَابَ قَرَنْفُلِ

فاح عبيرها في أكف الشاربين، فكأنهم إذ يتنازعون (يتبادلون كؤوسها) يتبادلون سخاب (قلائد) القرنفل

١٣٤ موقف نفسي

لَأَعْذِلَنَّ فُؤَادِي أَقْبَحَ العَذَلِ   حَتَّى أُنَهْنِهَهُ عَنْ مِثْلِ ذَا العَمَلِ

سألوم قلبي حتى أنهنهه (أَكُفَّه) عما قام به

مَنَّانِيَ الصَّبرَ، لا يَأْلُو، لِيُوقِعَنِي   حَتَّى إذا صَارَ بِي فِي مَقْطَعِ السُّبُلِ

قلبي منَّاني بالصبر ولم يكن يألو (يقصر)، فكأن هدفه إيقاعي.
وقد أوقع بي وانقطع بي السبيل في العشق

إِلَى الَّذِي لَمْ يَشِنْهُ غَيرُ وَاحِدَةٍ   مَقَالُهُ: مَا لِبَاغِي الوَصْلِ مِنْ عَجَلِ

ولا يشين (يعيب) الحبيب إلا شيء واحد هو قوله إن طالب الوصل لا يجوز أن يستعجل

فَمَا تَذَكَّرَ أَهلُ العِشْقِ بَينَهُمُ   حسنَ الصفاءِ من الخُلَّانِ والخَلَلِ . .

كلما ذكر العاشقون في أحاديثهم حسن الصفاء الذي يلاقونه من الخلان، وحسن الخلل (الخصال). .

إِلَّا نَكَتُّ حَيَاءً سَاعَةً بِيَدِي،   وانضَمَّ بَعضِي إلى بعضٍ مِنَ الخَجَلِ

ما ذكروا ذلك إلا نكتُّ (عبثت بما أمامي/ دليلاً على الإطراق والخجل)، وانكمشت من الخجل

١٣٥ فاسق فاتك

وَخَيمَةِ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ،   تَهُمُّ يَدَا مَنْ رَامَهَا بِزَلِيلِ

ربَّ خيمة ناطور (حارس زرع) في رأس منيفة (تلة) تكاد يدا من طلب صعودها أن تزل وتنزلق

حَطَطْنَا بِهَا الأَثْقَالَ فَلَّ هَجِيرَةٍ   عَبُورِيَّةٍ، تُذْكَى بِغَيرِ فَتِيلِ

وضعنا متاعنا هناك فلَّ هجيرة (مُتعبي ظهيرة) عبورية
(هجيرة ظهرت في مساءاتها الشعرى العبور وهي النجم الذي يظهر عند اشتداد الحر)،
وهذه الظهيرة تشتعل من غير فتيل لشدة الحر

حَلَبْتُ لأَصحابِي بِهَا دِرَّةَ الصِّبَا،   بِصَفْرَاءَ مِنْ مَاءِ الكُرُومِ شَمُولِ

حلبت لأصحابي بالخيمة درة الصبا (حليب الشباب/ يقصد الخمرة)، وهي عبارة عن خمرة صفراء شمول (باردة)

إذا ما أتتْ دونَ اللّهاةِ مِنَ الفتَى، دعا همُّه من صدرِه برحيلِ

إذا نزلت تحت اللهاة (لحمة الحلق) من الفتى تداعت الهموم في صدره إلى الرحيل

فلما تَوَفَّى الليلُ جُنْحاً مِنَ الدُّجى، تصابَيْتُ، واستجْمَلْتُ غيرَ جَميلِ

فلما توفى (استغرق) الليل جانباً من العتمة، تصابيت (تصرفت كأنني في سن الصبا)، واستجملت (استفحلت كالجمل) غير جميل (ولم أكن مجاملاً). المعنى الملموح أنه مع نزول الليل أبدى عن شهواته لمن معه

وَعاطَيْتُ من أَهْوى الحديثَ كما بَدا، وذَلَّلْتُ صعباً كان غيرَ ذَلُولِ

وتبادلت مع الحبيب الحديث على عواهنه بغير تحفظ، وذللت البعير الصعب الذي لم يكن ذلولاً. يشير إلى أنه لين قلب محبوبه وأزال تحفظه

فأَنزلْتُ حاجاتي بِحِقْوَيْ مُساعِدٍ، وإنْ كان أدنَى صَاحِبٍ، ودَخيلِ

أنزلت حاجاتي (أفرغت شهواتي) بحقوي (خصري) شخص مساعد (معين لي وعير متمنع)، وإن كان أيضاً صاحباً ودخيلاً (خليلاً)

وأصبحتُ أَلحَى السُّكْرَ، والسُّكْرُ مُحْسِنٌ، ألا رُبَّ إحسانٍ عليكَ ثقيلِ

وصرت ألحي (ألوم) السكر، والسكر في الواقع قد أحسن إليَّ، ومن الإحسان ما يكون ثقيلاً في ميزان المعاصي

كَفى حَزَناً أنَّ الجوادَ مُقَتَّرٌ عليه، ولا مَعروفَ عند بخيلِ

يكفينا حزناً أن الرجل الكريم مقتَّرٌ عليه (فقير)، والبخيل طبعاً لا يعطي

سأَبغي الغنَى، إمَّا جَليسَ خليفةٍ نَقُومُ سَواءً، أو مُخيفَ سبيلِ

سأسعى للغنى بمجالسة الخليفة نقوم سواء (يساويني بنفسه في مجلس اللهو)، أو مخيف سبيل (قاطع طريق)

بِكلِّ فتىً لا يُسْتَطارُ جَنانُه، إذا نَوَّهَ الزَّحْفانِ باسمِ قتيلِ

سأقطع الطريق بكل فتى لا يستطار جنانه (لا يخاف قلبُه)، إذا ذُكر القتل بين الفريقين. المعنى الملموح: يريد صحبة فتية لا يخافون قطع الطريق حتى مع خطر القتل

لنَخْمُسَ مالَ اللّهِ من كلِّ فاجِرٍ أخي بِطْنَةٍ للطَّيِّباتِ أَكُولِ

كي نأخذ الخُمس من أموال الفاجر (والخُمس هو ما فرض للرسول من الغنائم) أخي بِطنة (سمين) تعود أكل الطيبات

١٣٦ عاد خائباً

ولو رَدَّتْ جَنانٌ ردَّ خيرٍ، تبيَّنَ ذاكَ في وجهِ الرَّسولِ

١٣٧ دار زينب

يمدح الحسين الخادم مولى الرشيد:

يـا خـلـيـلـيَّ، سـاعـةً، لا تَـريـمَـا، وعـلـى ذي صَـبـابَـةٍ، فـأَقـيـمـا

لا تريما: لا تبتعدا، أقيما: ابقَيَا

مـا مـررْنـا بِـدارِ زيـنـبَ، إلَّا فَـضَـحَ الـدمـعُ سِرَّنـا الـمـكـتـومـا

تـتـجـافَى حـوادثُ الـدهـرِ عَـمَّـنْ كـان في جانـبِ الـحُـسَيْـنِ مُـقيما

حوادث الدهر (المصائب) تتجافى (تبتعد) عمن كان ملازماً للحسين

قـالَ لـي الـنـاسُ إذ هـزَزْتُـكَ لِـلـحـا جَـةِ: أبـشِـرْ فـقـد هَـزَزْتَ كـريـمـا

كان الكرام يفتخرون بأن الناس يهزونهم (يخادعونهم عن أموالهم)، وبأنهم ينخدعون للناس.

فـاسْـأَلَـنْـهُ، إذا سـألـتَ، عـظـيـمـاً، إنَّـمـا يُـسْـأَلُ الـعـظـيـمُ الـعَـظـيـمـا

١٣٨ شُمَّ ولا تَذُقْ

قالها بعد أن نهاه محمد الأمين عن شرب الخمر وعزم عليه أصحابه أن يتناولها:

أيـهـا الـرائـحـانِ بـالـلـوْمِ، لُـومـا لا أذوقُ الْـمُـدامَ إلَّا شَـمـيـمـا

لن أذوق الخمر، وحسبي رائحتها

نـالـنـي بـالْـمَـلامِ فـيـهـا إمـامٌ، لا أرى لِـي خـلافَـهُ مُـسْـتَـقـيـمـا

لامني الإمام (الخليفة) في الخمر، ولست أرى مخالفته أمراً مستقيماً

فـاصْـرِفَـاهـا إلـى سِـوايَ، فـإنِّـي لـسـتُ إلَّا عـلـى الـحـديـثِ نـديـمـا

كُـبْـرُ حَـظِّـي مـنـهـا، إذا هِـيَ دارتْ، أن أراهـا، وأن أَشُـمَّ الـنَّـسـيـمـا

فـكـأنِّـي، ومـا أُزَيِّـنُ مـنـهـا، قَـعَـدِيٌّ يُـزَيِّـنُ الـتَّـحـكـيـمـا

كأنني إذ أشجع على الخمر قعدي (خارجي ممن لا يقاتل صاحب السلطة) ممن يزينون التحكيم (من أولئك الخوارج الذين عادوا عن الرأي القديم وأصبحوا يؤيدون التحكيم الذي حدث قديماً فيما بين علي ومعاوية)

كَـلَّ عـن حـمـلِـهِ الـسِّـلاحَ إلـى الـحـر بِ فـأَوْصَـى الْـمُـطـيـقَ ألَّا يُـقـيـمـا

هذا القعدي كَلَّ (عجز) عن حمل السلاح،
فأوصى من يطيقون القتال بألا يقعدوا بل يقاتلوا

١٣٩ إكرام المطايا

يمدح الأمين:

يـا دارُ، مـا فـعـلَـتْ بـكِ الأيَّـامُ ضَـامـتْـكِ، والأيـامُ لـيـس تُـضـامُ

ضامتك: ظلمتك

عَرَمَ الزمانُ على الذين عهِدتُهُمْ بِـكِ قـاطِـنـيـنَ، ولـلـزَّمـانِ عُـرَامُ

عرم: قسا

أيّـامَ لا أَغْـشَـى لأهـلِـكِ مـنـزلاً، إلّا مُـراقَـبَـةً، عـلـيَّ ظَـلامُ

أغشى: أزور، ألا مراقبة: إلا وأنا مترقب حذِر

ولقد نَهَزْتُ معَ الغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ، وأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حيثُ أَسامُوا

نهزت: ألقيت الدلو، أسمت سرح اللهو: سرَّحت الماشية لترعى/أي أرسلت نفسي لتتمتع بالملذات

وبـلـغـتُ مـا بـلـغَ امْـرُؤٌ بِـشـبـابِـه، فـإذا عُـصَـارَةُ كـلِّ ذاكَ أَثَـامُ

وتَـجَـشَّـمَـتْ بـي هَـوْلَ كـلِّ تَـنُـوفَـةٍ، هَـوجَـاءُ فـيـهـا، جُـرْأَةٌ، إِقْـدامُ

تجشمت (تحملت المشقة) بي أهوال كل تنوفة (صحراء) ناقة هوجاء (سريعة) فيها إقدام لجرأتها

تَـذَرُ الْـمَـطِـيَّ وراءَهـا، فـكـأنَّـهـا صـفٌّ تَـقَـدَّمُـهُـنَّ، وَهْـيَ إمـامُ

لسرعتها تترك المطي (الرواحل/المطايا) وراءها سابقة فكأن الأبل صف واحد وهي أمامهن كالأمام يقف أمام المصلين

وإذا الْمَطِيُّ بِنا بلغْنَ محمداً، فظُهورُهُنَّ على الرِّحَالِ حَرامُ

إذا بلغت الإبل محمداً الأمين، فحرام وضع الرحال (السروج ولوازم السفر) على ظهورها إكراماً لها، ولأننا لن نسافر من بعد لأن كل الخير عنده

قَرَّبْنَنا من خيرِ من وَطِئَ الحَصَى، فـلَـهـا عـلـيْـنـا حُـرْمَـةٌ وذِمـامُ

هذه المطايا لها فضل أنها قربتنا من خير البشر، لذا فنحن نحفظ لها هذه الحرمة والعهد

١٤٠ أهابك

أموتُ، ولا تدرِي، وأنت قتلتَنِي، ولو كنتَ تدرِي، كنتَ لا بُدَّ تَرْحَمُ

أَهابُكَ أن أشكُو إليكَ صبابتِي فلا أنا أُبْدِيها، ولا أنتَ تَعلَمُ

١٤١ هجاء بمدح القِدر

يهجو الفضل الرقاشي:

أَطْرِفْ بِقِدْرِكَ لولا أنَّها غَبَرَتْ، وما تَطُورُ بِها نارٌ ولا دَسَمُ

ما أطرف (ما أجدّ/ والطريف هو الجديد) قدرك، لولا أنها قديمة، ذلك أنها ما تطور (تقترب) منها نار ولا يقترب منها دسم. يقول: طنجرتك جديدة في شكلها مع أنها قديمة العهد، فهي لم تستعمل

كأنَّها البدرُ لولا خَالُ جبْهتِهِ، وما بِقِدْرِكَ لا خَالٌ ولا وَصَمُ

هي كالبدر إشراقاً ولمعاناً لولا خال (شامة سوداء) في جبهة البدر، فأما قدرك فلا خال فيها ولا وصم (أذى)

لو أنَّ عِرْضَكَ ذا في طُهْرِ قِدْرِكَ ما داناكَ في المجدِ لا كَعْبٌ ولا هَرِمُ

لو كان عرضك طاهراً كقدرك لما داناك (قاربك) كعب بن مامة ولا هرم بن سنان (وكعب هو الذي آثر صاحبه بآخر شربة ومات عطشاً، وهرم هو ممدوح زهير بن أبي سلمى)

١٤٢ مت بداء الصمت

خلِّ جَنبَيْكَ لِرامِ وامضِ عنهُ بِسلامِ

اترك جسمك لمن يريد أن يرميه، ولا تعاد من عاداك

مُتْ بِداءِ الصمتِ، خيرٌ لَكَ من داءِ الكلامِ

ربَّما استفتَحْتَ بِالمز حِ مَغاليقَ الحِمَامِ

قد تفتح بالمزح أقفال الموت

إنما السَّالِمُ من ألْـ جَمَ فَاهُ بِلِجَامِ

فالبَسِ الناسَ على الصِّحَّـ ـةِ منهُمْ، والسَّقَامِ

البس الناس: خالطهم

شِبتَ يا هذا، وما تتْـ ـرُكُ أخلاقَ الغُلامِ

والمنايا آكلاتٌ، شارباتٌ للأنامِ

١٤٣ لو صُبَّت على الليل

اِسقِنا، إنَّ يومَنا يومُ رامِ ولِرامٍ فضْلٌ على الأيامِ

يوم رام: الحادي والعشرون من كل شهر، وكانت الفرس تجعله يوم سرور وشرب

مِنْ شَرابٍ أَلَذَّ من نَظَرِ الْمَعْـ ـشوقِ في وجهِ عاشقٍ بابتِسامِ
بَنْتُ عَشْرٍ صَفَتْ، ورَقَّتْ فلو صُبَّـ ـتْ على الليلِ راحَ كلُّ ظَلامِ

قد تريد أن تفعل فعل القدماء فتفهم: «صبت على الليل»، على أن الخمر صبت في الكؤوس «على الليل» أي «مع حضور الليل»، فـ «على» هنا بمعنى الباء (أي بالليل)، أو بمعنى في (في الليل/ كقوله على حين غفلة)، أو تعني المصاحبة (أي مع الليل/كقوله ويطعمون الطعام على حبه).
ولكننا نحس أن النواسي يريد أن يصب الخمر «فوق» الليل، فهذه وثبة خيال جامحة

١٤٤ أيها الشعراء

صِفَةُ الطُّلولِ بَلاغةُ الفَدْمِ فاجعلْ صِفاتِكَ لابْنَةِ الكَرْمِ

صفة (وصف) الطلول هي بلاغة الفدم (الأحمق)، فصف ابنة الكرم (الخمر). وكان الشعراء يعرضون بلاغتهم بوصف الطلول

لا تُخْدَعَنَّ عن التي جُعِلَتْ سُقْمَ الصحيحِ، وصِحَّةَ السُّقْمِ

لا تُخدَعنَّ: لا تكن منخدعاً

صَهباءُ فضَّلَها الملوكُ على نُظَرائِها بِفَضيلَةِ القِدْمِ

صهباء: صفراء فاتحة اللون، وتفضلها الملوك للقِدْم (القِدَم). وهذه خمرة العنب التي تكون معتقة ولونها يميل للصفرة وهي أفضل من خمرة التمر التي حللها بعض الفقهاء

فَعَلامَ تَذْهَلُ عن مُشَعْشَعَةٍ، وتَهيمُ في طَلَلٍ، وفي رِسْمِ؟

تذهل عنها: تُغفلها، مشعشعة: التي تلمع بالمزج، رسم: طلل

تصِفُ الطُّلولَ على السَّماعِ بِها، أَفَذُو العِيانِ كأَنْتَ في العِلْمِ؟

أيها الشاعر الذي يصف الطلول تقليداً للشعراء القدامى،
وما رآها عياناً أأنت كمن عاين الشيء ووصفه

وإذا وصفْتَ الشيءَ متَّبِعاً، لم تَخْلُ من زَلَلٍ، ومن وَهْمِ

١٤٥ تأليب

يهجو إسماعيل بن صبيح كاتب الأمين (وكان أهله من موالي بني أمية):

أَلا قُلْ لإسماعيلَ إنَّكَ شاربٌ بِكأسِ بني مَاهَانَ ضَرْبَةَ لازِمِ

بنو ماهان (لعل المقصود عيسى بن ماهان، وكان الرشيد عزله وحبسه غير أن الأمين أطلقه ورفعه لدن تسنمه الخلافة، ولعل القصيدة قيلت قبل تولي الأمين بقليل) ضربة لازم: بالتأكيد

أَتُسْمِنُ أولادَ الطَّرِيدِ ورَهْطَهُ،   بإِهزَالِ آلِ اللَّهِ مِنْ نَسْلِ هاشِمِ

تعطي المال لكي يسمن أولاد الطريد
(مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وطورد بعد هزيمته بالعراق ثم قتِل في مصر)
ورهطه (قومه)، وذلك على حساب بني هاشم الذين هزلوا فقراً

وإن ذُكِرَ الجَعْدِيُّ أَذْرَيْتَ عَبْرَةً،   وقلتَ أَدَالَ اللَّهُ مِنْ كلِّ ظالِمِ

الجعدي (مروان بن محمد، منسوباً إلى مؤدبه الجعد بن درهم وقد أعدم متهماً بالخروج عن الدين)، أدال الله: انتقم الله

فإِنْ يَسْرِ إِسماعيلُ في فَجَراتِهِ،   فليس أميرُ المؤمنينَ بِنائِمِ

فإن مضى إسماعيل في فجراته (أفعاله الفاجرة) فالخليفة ليس نائماً عنه

١٤٦ ثم قصت قصة الأمم

يا شقيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ   نِمْتَ عن ليْلي، ولم أَنَمِ

يا شقيق روحي من قبيلة حَكَم، قد نمت في هذا الليل الذي نصطحب فيه، وأنا صاح

نسبت القصيدة إلى والبة بن الحُباب، وقيل إن والبة يخاطب فيها أبا نواس
(وأبو نواس ينسب نفسه لقبيلة حكم اليمنية)

فاسْقني البِكْرَ التي اختمرتْ   بِخِمَارِ الشَّيْبِ في الرَّحِمِ

اسقني الخمرة البكر (العذراء التي تم فض دنِّها الليلة) وكانت داخل الدن فكأنها كانت في رحم أمها، والدن وعاء كبير للخمر مطلي من الخارج بالقار الأسود، وكان الدن مكسواً بغبار أبيض
تفسير آخر: خمارها، أي غطاء رأسها، هو الشيب. يقصد الفقاقيع الفضية التي على وجه الكأس.
تفسير ثالث: دالية العنب تكون أوراقها مكسوة بزغب أبيض عندما تبدأ حبات العنب بالتكون، والعنب هو الخمر في رحم أمها

ثُمَّتَ انْصَاتَ الشَّبابُ لَها   بعدما جَازَتْ مَدى الهَرَمِ

ثمت (بعدئذ) انصات (رجع) الشباب للخمرة عندما مزجت وأخرجت الفقاقيع بنشاط، وذلك بعد أن جازت (تجاوزت) مدى (غاية) الهرم (الشيخوخة)

فَهْيَ لِليومِ الذي بُزِلَتْ،   وَهْيَ تِرْبُ الدَّهْرِ في القِدَمِ

فالخمرة يوم بزلت (ثُقب دنها كي تسيل) كانت تِرْبَ الدهر (من جيل الدهر.. عمرها كعمره)

عُتِّقَتْ حتى لو اتَّصَلَتْ   بِلِسانٍ ناطقٍ وفَمِ..

كانت قد عتقت، فلو اتصلت بلسان وفم (كان موصولاً بها لسان وفم)..

لاحْـتَـبَـتْ فـي الـقـومِ مـائِـلَـةً   ثـمَّ قَـصَّـتْ قِـصَّـةَ الأُمَـمِ

لاحتبت (جلست القرفصاء وقد جمعت ركبتيها إلى ظهرها بشال) وسط القوم وقصت عليهم قصة الأمم الغابرة

قَـرعَـتْـهـا بـالْـمِـزاجِ يَـدٌ   خُـلِـقَـتْ لـلسَّـيْـفِ والـقـلـمِ

قرعتها (أصابتها) بالمزج يد رجل شجاع ومثقف

فـي نَـدامَـى سَـادةٍ زُهُـرٍ   أَخَـذوا الـلَّـذاتِ مِـنْ أَمَـمِ

يحدث هذا وسط ندامى من السادة الزهر (البيض، يعني ذوي الأصل الطيب)، الذين أخذوا اللذات من أمم (من أقرب سبيل)

فَـتَـمَـشَّـتْ فـي مـفـاصِـلِـهِـمْ   كَـتَـمَـشِّـي الْـبُـرْءِ فـي الـسَّـقَـمِ

فتغلغلت الخمرة في مفاصلهم مثلما يتسلل البرء (الشفاء) رويداً رويداً في السقم (المرض) فيحل محله

فَـعـلَـتْ فـي الـبـيـتِ إذ مُـزِجـتْ   مـثـلَ فِـعـلِ الـصـبـحِ فـي الـظُّـلَـمِ

أضاءت المكان عندما مزجت بالماء وتلونت بألوان عدة

واهـتَـدى سـاري الـظـلامِ بِـهـا   كـاهـتـداءِ الـسَّـفْـرِ بِـالـعَـلَـمِ

السفر: المسافرون، العلم: الجبل يهتدي به المسافرون

١٤٧ خبير في الإسراف

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْفِ، تَحسَبُ أنَّها   حَديثةُ عهدٍ بالإفاقَةِ مِنْ سُقْمِ

يصف ساقية في حانة: تنقل طرفها (نظرها) من شخص إلى شخص ببطء (كذا يكون منتهى الدلال)، وكأنها قامت لتوها من مرض

تَفَوَّقُ مالي مِنْ طَريفٍ وتَالِدٍ،   تَفَوُّقِيَ الصَّهبَاءَ مِنْ حَلَبِ الكَرْمِ

تفوَّق مالي (تستنزفه) الطريف (المكتسب) والتالد (الموروث)، مثلما أتفوق أنا (أترشَّف) الخمر المحلوبة من كرم العنب

وإني لآتي الأمرَ مِنْ حيثُ يُتَّقى،   وتَعْلَمُ قَوْسِي، حينَ أَنْزِعُ، من أَرْمي

أنا آتي الأمر (أفعله) من حيث يتقى (يخشى الناس إتيانه)، وتعلم قوسي حين أنزع (حين أشد الوتر) أين هو الهدف

١٤٨ اعتذار عن هجاء

يعتذر لهاشم بن حديج الكندي وكان هجاه وهجا اليمن:

أهاشِمُ! خُذْ مِنّي رِضاكَ؛ وإنْ أتى   رِضاكَ على نفسي، فغيرُ مَلُومِ

خذ مني ما يرضيك، ولو أتى ذلك على نفسي (أهلكني) فلا لوم عليك

فَأُقْسِمُ ما جاوَزْتُ بالشَّتْمِ والِدي   وعِرضي، وما مَزَّقْتُ غيرَ أَدِيمي

فأنا شتمت نفسي بشتمك ومزقت أديمي (جلدي)

ولا كنتُ إلا كالَّذي كَشَفَ اسْتَهُ   بِمَرأى عُيونِ مِنْ عِدىً وحَميمِ

فحين هجوتك كنت كمن كشف مؤخرته بمرأى من العدو والحميم (الصديق)، وفضح نفسه

فَعُذْتُ بِحِقْوَيِ هاشِمٍ، فأَجَارَني،   كَريمٌ أراهُ فوقَ كلِّ كريمِ

عذت بحقوي هاشم (لجأت إلى جَنْبَيْ هاشم) فحماني من انتقام قومه

وإن امْرَأً أغْضَى على مثلِ زَلَّتي،   وإن جَرَحَتْ فيه، لَجِدُّ حَليمِ

١٤٩ بنينا على كسرى سماءَ مدامة

يمدح الفضل بن الربيع:

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدادُ حُسْنَ رُسومِ   على طولِ ما أَقْوَتْ، وطِيبَ نَسيمِ

لمن هذه الأطلال التي تزداد رسومها (خرائبها) حسناً رغم طول إقوائها (خلوها من السكان)

وكأسٍ كَعَينِ الدِّيكِ باتَتْ تَعُلُّني   على وجهِ معبودِ الجمالِ، رَخيمِ

رب كأس صافية مثل عين الديك باتت تسقيني الخمر وأنا أنظر إلى وجه رخيم (ناعم) لشخص جماله معبود

إذا قلتُ عَلِّلْني بِريقِكَ أقبَلَتْ   مَراشِفُهُ، حتى يُصِبْنَ صَميمي

عللني: اسقني، مراشفه: شفتاه، صميمي: قلبي

بَنَيْنا على كِسرى سَماءَ مُدَامَةٍ،   مُكَلَّلَةً حَافَاتُها بِنُجومِ

الكأس مرسوم عليها صورة لكسرى، وقد بنينا فوقه سماء من الخمر (أي ملأنا الكأس) وحافات هذه السماء مكللة بالنجوم وهي الفقاقيع

فلو رُدَّ في كِسرى بنِ ساسَانَ رُوحُهُ   إذنْ لاصْطَفاني دونَ كلِّ نَديمِ

١٥٠ القانص واليؤيؤ

قد أَغْتَدي، والصبحُ في مُكْتَمِّهِ

أغتدي: انطلق باكراً، مكتمه: ظلمته

بِيُؤْيُؤٍ أَسْفَعَ يُدْعَى باسْمِهِ

يؤيؤ: طائر جارح يُتَّخذُ للصيد، أسفع: مسودّ اللون، وهو ذكي وينادى باسمه فيجيب

مَـــقُـــابَـــلٍ مِـــنْ خَـــالِـــهِ وعَـــمِّـــهِ

مقابَل: كريم النسب من جهتيه

وقَـــانِـــصٍ أَحْـــفَـــى بـــهِ مِـــنْ أُمِّـــهِ

قانص: صائد، أحفى به من أمه: أكثر اهتماماً باليؤيؤ من أم اليؤيؤ

لَـــو يَـــســتـطـيـعُ قَـــاتَـــهُ بِـــلَـــحْـــمِـــهِ

لو استطاع أطعمه من لحم بدنه لشدة تعلقه به

يَـــقـــيـــهِ مـــن بَـــرْدِ الـــنَّـــدى بِـــكُـــمِّـــهِ
تَـــوْقِـــيَـــةَ الأُمِّ ابـــنَـــهـــا فـــي ضَـــمِّـــهِ

١٥١ الماء والخضرة والوجه الحسن وشيء رابع

أربـــعـــةٌ يَـــحـــيَـــا بِـــهـــا قـــلـــبٌ، وروحٌ، وبَـــدَنْ
الـــمـــاءُ، والـــبُـــســـتـــانَ، والـــخـــمـــرةُ، والـــوجـــهُ الـــحَـــسَـــنْ

١٥٢ رفض الصلح

دَسَّتْ له طيفَها كيْما تُصالِحَهُ، في النومِ حينَ تَأَبَّى الصُّلحَ يَقظانا

رآها في المنام.. جاءت تصالحه

فلم يَجِدْ عند طَيْفي طيْفُها فَرَجاً، ولا رَثَـى لِـتَـشَـكِّـيـهِ، ولا لاَنَـا
حَسِبْتِ أن خيَالِي لا يكونُ، لِمَا أكونُ من أجلِهِ غضْبانَ، غضبانَا

هل ظننت أن خيالي، عقلي الباطن الذي يتجلى وأنا نائم، لا يغضب لغضب عقلي الواعي؟

جَنانُ لا تسألِيني الصلحَ مُسرعةً، فلم يكنْ هيِّناً منكِ الذي كانا

١٥٣ ربما تصدق الأحلام

إذا الـتَـقَـى فـي الـنـومِ طَـيْـفـانـا عـادَ لـنـا الـوَصْـلُ كـمـا كـانـا
يـا قُـرَّةَ الـعـيـنـيـنِ، مـا بَـالُـنـا نَـشـقَـى، ويـلـتَـذُّ خَـيـالانَـا؟
لو شئتِ، إذْ أحسنَتِ لي نائماً، أتْـمَـمْـتِ إحـسـانَـكِ يَـقـظـانـا
يا عاشِقَيْنِ اصطَلَحا في الكَرى، وأصـبَـحـا غـضـبَـى وغـضـبـانـا
كَـــذلِـــكَ الأحـــلامُ غَـــرَّارَةٌ، وربـــمـــا تَـــصْـــدُقُ أحـــيَـــانـــا

١٥٤ سكراً أو صحواً، لكن لا بد!

وغـزالٍ عـاطَـيْـتُـهُ الـراحَ حـتـى فَـتَّـرتْ مـنـهُ مُـقـلَـةً ولِـسـانـا

عاطيته: ناولته، فتَّرت: أدخلت الفتور على العينين واللسان

قـال لا تُـسْـكِـرَنَّـنـي، بِـحَـيـاتـي! قـلـتُ: لا بـدَّ أن تُـرَى سَـكـرانـا
إن لـي حَـاجَـةً إلـيْـكَ، إذا نِـمْـ ـتَ، فإنْ شئتَ فاقْضِها، يَقظانا
فـتَـلَـكَّـا تَـلَـكُّـؤاً فـي انـخِـنَـاثٍ، ثـمَّ أصـغَـى لـمـا أردْتُ، فَـكَـانـا

١٥٥ الممتطي نعله

يمدح الفضل بن يحيى البرمكي:

أطالَ قصيرُ الليلِ، يا رَحْمَ، عندكُمْ؟ فإنَّ قـصيرَ الـليلِ قد طالَ عـندنَا

رحم: هو صديقه رحمة بن نجاح

ومـا يَـعرفُ الـليـلَ الـطويـلَ وغـمَّـهُ من الـنـاس، إلَّا من تَـنَـجَّـمَ، أو أَنـا

تنجم: احترف التنجيم

خَـلِيُّـونَ من أَوْجَـاعِـنـا يَـعـذِلُـونَـنـا، يقـولـونَ لِـمْ تَـهْـوَوْنَ؟ قلـنَـا لِـذَنْـبِـنـا
يَقومونَ في الأَقْوامِ يَحْكُونَ فِعلَنا سَـفَـاهَـةَ أَحـلامٍ، وسُـخْـرِيَـةً بِـنـا

أولئك العذال يقفون وسط الناس يقلدوننا في حركاتنا سخرية منا

فـلـو شـاءَ ربِّـي لابْـتَـلاهُـمْ بِـمَـا بِـه ابْـ ـتَـلانـا فـكَـانـوا لا عـلـيْـنـا ولا لَـنـا

لو شاء الله لابتلاهم بالعشق فكفوا أذاهم عنا

سَأشكُو إلى الفضلِ بنِ يحيىَ بنِ خالِدٍ هـواكَ، لـعـلَّ الـفـضـلَ يـجـمـعُ بـيْـنَـنـا

وقالوا إن الفضل عندما سمع هذا البيت قال لأبي نواس: ما زدت على أن جعلتني قواداً

إليكَ، أبا العباسِ، مِنْ دونِ مَنْ مَشَى عليْها، امْتَطَيْنا الـحَضْرَمِيَّ الْمُلَسَّنا

دون كل الناس الذين يمشون في الأرض أتيناك وقد امتطينا الحضرمي الملسنا (النعل الحضرمي ذا الزائدة الملتوية إلى أعلى في مقدمه). يشكو أنه لا يملك راحلة أو بغلاً ويمتطي نعله أي يأتي ماشياً

قَلائِصَ لم تُسْقِطْ جنيناً مِنَ الوَجَى، ولـم تَـدْرِ ما قَـرْعُ الـفَـنِـيقِ ولا الْـهَـنـا

هذه النعال هي قلائص (إبل) لا تسقط حملها لأن السير أجهدها ولحق بها الوجى (الحفا/أي حفيت خفافها)، ولا هي تعرف قرع الفنيق (تلقيح الفحل لها)، ولا تعرف الهناء (أي القطران الذي تطلى الإبل به من الجرب)

١٥٦ شراب الطالحين

يـا ابـنـةَ الـشـيـخِ اصبَحـيِـنـا   مـا الـذي تـنـتَـظِـريـنـا؟

اصبحينا: اسقينا خمرة الصباح

قـد جـرى فـي عـودِكِ الـمـا   ءُ فَـأَجْـري الـخـمـرَ فـيِـنـا

جرى في عودك الماء: أنتِ في ريعان الشباب

إنـمـا نـشـربُ مـنـهـا،   فـاعْـلـمـي ذاكَ يَـقـيـنـا،

كـلَّ مـا كـانَ خِـلافـاً   لِـشَـرابِ الـصَّـالِـحِـيـنـا

نشرب الخمر المحرمة لا شراب الصالحين (وكان بعض الصالحين يحلل شرب نبيذ التمر زاعماً حله)

واصْـرِفـيِـهـا عـن بَـخـيـلٍ،   دانَ بـالإمـسـاكِ ديِـنـا

١٥٧ ذاك عيش!

غَـنِّـنَـا بـالـطُّـلُـولِ كـيـفَ بَـلـيـنـا   واسْـقِـنـا نُـعْـطِـكَ الـثَّـنـاءَ الـثَّـمـيـنـا

غننا بشعر فيه ذكر الطلول وكيف بليت (خربت)

مِـنْ سُـلافٍ كـأنـهـا كـلُّ شـيءٍ،   يـتـمـنَّـى مُـخَـيَّـرٌ أن يَـكـونـا

أكَـلَ الـدَّهـرُ مـا تَـجَـسَّـمَ مـنـهـا،   وتَـبَـقَّـى لُـبَـابَـهـا الْـمَـكْـنـونـا

تبقَّى: أبقى

فـإذا مـا اجْـتَـلَـيْـتَـهـا، فَـهَـبَـاءٌ   يَـمْـنَـعُ الـكـفَّ مـا يُـبـيـحُ الـعُـيـونـا

اجتليتها: نظرت إليها

ثـم شُـجَّـتْ، فـاسْـتَـضْـحَـكَـتْ عن لآلٍ   لـو تَـجَـمَّـعْـنَ فـي يَـدٍ لاقْـتُـنـيـنـا

شجت: ضربت في رأسها، أي مزجت بالماء فتلونت بالحمرة، فضحكت الخمرة في كأسها مبدية أسنانها. وهذه ما هي إلا فقاقيعها الفضية التي هي مثل اللآلئ تماماً، ولو كانت تثبت في اليد لاقتناها الناس

فـي كُـؤوسٍ كـأنَّـهُـنَّ نُـجُـومٌ   جَـارِيـاتٌ، بُـروجُـهـا أيْـديـنـا

الكؤوس كأنها نجوم السماء التي تدور في مداراتها، وما بروجها (مواقعها السماوية) سوى أيدي الشاربين

طـالـعـاتٌ مـعَ الـسُّـقَـاةِ عـلـيْـنـا،   فـإذا مـا غَـرَبْـنَ يَـغْـرُبْـنَ فـيِـنـا

تطلع هذه النجوم مع بروز السقاة، وعندما تغرب فهي تغرب فينا إذ نبتلع ما فيها من خمر

لو تَرَى الشَّرْبَ حولَها مِنْ بعيدٍ، قلتَ قومٌ، مِنْ قِرَّةٍ، يَصْطَلُونا
الشرب: الشاربون، من قرة: من بَرْد، يصطلون: يتدفَّأون

وغزالٍ يديرُها ببَنانٍ ناعِماتٍ يَزيدُها الغَمْزُ لِينا
الساقي يدير كؤوس الخمر علينا بأصابع ناعمة يزيدها الغمز (عبثنا ولمساتنا) ليناً

كلَّما شِئْتُ عَلَّني بِرُضابٍ، يَتركُ القلبَ للسرورِ خَدينا
علني: سقاني، خديناً: خليلاً مصاحباً

ذاكَ عَيْشٌ لو دامَ لي؛ غيرَ أنّي عِفْتُهُ مُكْرَهاً، وخِفْتُ الأَمِينا
ذاك عيش (عيش جميل) لو كان دام، لكنني عفته (تركته) مضطراً خوفاً من الخليفة الأمين
(وكان نهاه عن الشرب في الحانات)

١٥٨ اعتذار للرشيد

كتب للرشيد من حبسه:

بِعَفوِكَ، بل بِجُودِكَ عُذْتُ، لا، بل بِفَضْلِكَ، يا أميرَ المؤمنينا
فلا يَتَعَذَّرَنَّ عليَّ عَفْوٌ، وَسِعْتَ به جميعَ العالَمِينا
فإنّي لم أَخُنْكَ بِظهرِ غَيْبٍ، ولا حَدَّثْتُ نفسي أنْ أَخُونَا
لقد أَرْهَبْتَ أهلَ الشِّرْكِ حتى تركتَهُمُ، وما يَتَرَمْرَمُونا
يترمرمون: يفتحون أفواههم بأي كلام

تَزُورُهُمُ بنفسِكَ، كلَّ عامٍ، زيارةَ وَاصِلٍ لِلْقاطِعينا
كان الرشيد يغزوهم بانتظام وكأنه يقضي حق الزيارة لمن قاطعوه فلا يزورونه

ولو شئتَ اكتَنَنْتَ إلى نعيمٍ، وقاسَى الأمرَ، دونَكَ، آخَرُونا
اكتننت: ركنت واسترحت

١٥٩ غزو وحج

يمدح الرشيد:

مَلِكٌ تَصَوَّرَ في القلوبِ مِثالُه، فكأنَّما لم يَخْلُ منه مَكانُ
ما تَنْطَوِي عنه القلوبُ بِفَجْرَةٍ، إلَّا يُكَلِّمُهُ بها اللَّحَظَانُ
لا يخفي عنه أحد فجرة (خيانة) إلا اكتشفها من اللحظان (حركة العينين)

فـي كـلِّ عـامٍ غَـزْوَةٌ ووِفَـادَةٌ، تَـنْبَـتُّ، بيـنَ نَـواهُـمـا، الأَقْـرَانُ

في كل عامٍ غزوة ووفادة (حجة) وبين نواهما (المسافة بينهما) تنبتُّ (تتقطع) الأقران (الحبال)

١٦٠ إغواء

وذي حَلِفٍ بالرَّاحِ قلتُ له: اصْطَبِحْ، فـليـسَ عـلـى أَمثـالِ تـلـكَ يَـمـيـنُ

رجل حلف ألا يشربها، ويدعوه إلى الاصطباح (شرب الصباح)
لأن القسم ساقط عن مثل هذا الأمر

شَمولاً، تخطَّتْها الْمَنوُنُ، فقد أَتَتْ سِـنُـونٌ لـهـا فـي دَنِّـهـا، وسِـنُـونُ

اشربها شمولاً (باردة)، هرمت ولكن الموت لم يصبها

تُـرَاثُ أُنـاسٍ عـن أُنـاسٍ تُـخُـرِّمُـوا، تَـوارَثَـهـا بـعـدَ الـبَـنـيـنَ بَـنـونُ

هي موروثة عن أناس تخرموا (ماتوا)

فَغـادَرَ منـهـا الـغـابِـرونَ حُـشـاشَـةً، لـهـا هَـيَـجـانٌ، مَـرَّةً، وسُـكُـونُ

ترك لنا الغابرون (الماضون) حشاشة (بقية الروح)، وهي تهيج مرة وتسكن مرة إذ تسكب في كأسها

كـأنَّ سُـطـوراً فـوقَـهـا حِـمْـيَـرِيَّـةً، تـكـادُ وإنْ طـالَ الـزمـانُ، تَـبـيِـنُ

كأن ما ترسمه من فقاقيع سطور بالخط الحميري (ولم يكن العرب في عصر أبي نواس يفكونه)،
يكاد المرء رغم طول عهدها يتبين ما فيها من كلمات

فلمَّا رأى نَعتي ارعوىَ، واستَعادَني، فـقـلـتُ خَـلـيـلٌ عَـزَّ ثـمَّ يَـهُـونُ

ارعوى: تراجع عن يمينه، وطلب مني أن أكرر الوصف، فقلت في نفسي إنه صديق عز (تمنع) ثم
ها هو يهون (يصبح سلساً)

فَـصَـدَّقَ ظـنّـي، صَـدَّقَ الـلَّـهُ ظَـنَّـهُ إذا ظَـنَّ خَـيْـراً، والـظُّـنُـونُ فُـنـونُ

وبالفعل صدق ظني، وما كل ظن يصدق فالظنون فنون وأشكال

١٦١ فخرك نخلة وفخري سيف

قال وقد عابه ناس بالبصرة بعد أن خرج منها:

ألا كُـلُّ بَـصْـرِيٍّ يَـرى أَنَّـمـا الـعُـلَـى مُـكَـمَّـمَـةٌ سُـحْـقٌ لَـهُـنَّ جَـرِيـنُ

كل بصري يرى أن المجد هو في أشجار النخل المكممة (التي غطيت قطوفها) السحق (العالية)
التي لها جرين (بيدر لجمع المحصول)

فإنْ تَغرِسُوا نَخلاً، فإنَّ غِراسَنا ضِرَابٌ وطَعْنٌ في النُّحورِ سَخِينُ

نحن نغرس الضرب السخين (الموجع) بالسيوف والطعن بالرماح في النحور

وإنْ أَكُ بَصْرِيّاً، فإنَّ مُهَاجَري دِمَشْقُ، ولكنَّ الحديثَ شُجونُ

المهاجَر: موضع الهجرة الأصلي (وكان والد أبي نواس من جند آخر خلفاء بني أمية)

١٦٢ افتراء على زميل

يهجو الشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

جالَسْتُ يوماً أبَاناً، لا دَرَّ دَرُّ أَبَانِ

فقلتُ: سبحانَ ربي، فقال: سبحانَ ماني

ماني: نبي قال بإله للخير وإله للشر، وكان أتباعه ملاحقين عصرئذ

فقلتُ: موسى نَجِيُّ الـ ـمُهَيْمِنِ الْمَنَّانِ

النبي موسى نجي الله (الذي ناجاه الله وكلمه)

فقالَ: ربُّكَ ذو مُقْـ ـلَةٍ إذنْ، ولِسانِ!

وقمتُ أسحَبُ ذَيْلي، عن هَازِلٍ بالقُرَانِ

القران: القرآن

عن كافِرٍ يَتَمَرَّى بِالكُفْرِ بالرَّحْمَنِ

يتمرى: يتجمل ويفتخر

يُريدُ أن يَتَساوَى بِالعُصْبَةِ الْمُجَّانِ

يكفر أبان متشبهاً بالماجنين

١٦٣ مجرد سؤال

أَسأَلُ القادِمِينَ مِنْ حَكَمانِ كيفَ خَلَّفْتُمُ أبا عثمانِ

حكمان: موضع بالبصرة. أبو عثمان: أخو مولى جنان محبوبة الشاعر، وصاحب رقها

وأبَا مَيَّةَ المهَذَّبَ والمأْ مُولَ والْمُرتَجَى لِرَيْبِ الزمانِ؟

أبو مية: مولى جنان

فيقُولونَ لِي: جَنانُ كمَا سَرَّ ـكَ مِنْ حالِها، فَسَلْ عن جَنَانِ

أسألهم عن ذينك الرجلين فيجيبون عن جنان لأنهم يعرفون أنهم هي فقط من يهمني

ما لَهُمْ، لا يُبَارِكِ اللّهُ فِيهِمْ، كيفَ لم يُغْنِ عندَهُمْ كِتماني؟
صرتُ كالتِّينِ يَشْرَبُ الماءَ، فيما قالَ كِسرى، بِعِلَّةِ الرَّيْحانِ

شجرة التين تقول لهم: اسقوا نبتات الريحان القريبة، وهي تريد أن تشرب الماء، فهي تشربه بعلة الريحان. ويزعم أبو نواس أن هذا المثل قاله كسرى. وأبو نواس يتحجج بالسؤال عن أبي عثمان لكي يجرهم إلى الحديث عن جنان

أو كما قيلَ قبلُ إيَّاكِ أعني فاسمَعُوا، يَا مَعاشِرَ الجيرانِ!

١٦٤ سماء تمطر ذهباً

يمدح الخصيب عامل خراج مصر للرشيد:

ذَكَرَ الكَرْخَ نازِحُ الأوطانِ فبَكَى صَبْوَةً، ولاتَ أوَانِ

النازح عن وطنه ذكر الكرخ (موضع ببغداد)، فبكى صبوة (اشتياقاً)، وقد فات أوان ذلك العهد الطيب

ليس لي مُسْعِدٌ بِمِصْرَ على الشَّوْ قِ إلى أوْجُهٍ هناكَ حِسَانِ

مسعد: مساعد يخفف عني

نَازلاتٍ من الصَّرَاةِ فَكَرْخَا يَا إلى الشَّطِّ ذي القُصورِ الدَّواني

يذكر مسير النسوة على ضفاف نهري الصراة وكرخايا في بغداد

إذ لِبابِ الأميرِ صَدْرُ نَهاري، ورَوَاحي إلى بُيوتِ القِيَانِ
يا ابْنَتي أَبْشِري بِميرَةِ مِصْرٍ، وتَمَنَّيْ، وأَسْرِفي في الأماني

ذكروا لأبي نواس أبناء، ولكنه هنا يوجه الخطاب إلى ابنة مجازية جرياً على عادة الشعراء في طمأنة عيالهم إلى أنهم سينالون الخير العميم من الممدوح ليعودوا به لأسرهم

أنا في ذِمَّةِ الخَصيبِ مُقيمٌ، حيث لا تهتَدي صُروفُ الزمانِ
كيف أخشَى عليَّ غَوْلَ اللَّيالي، ومكاني مِنَ الخَصِيبِ مَكاني
كلَّ يَوْمٍ عليَّ منهُ سَماءٌ ثَرَّةٌ، تَسْتَهِلُّ بِالعِقْيَانِ

ثرة: غزيرة، تستهل: تمطر، العقيان: الذهب

١٦٥ أراه ولا يراني

يمدح محمد بن الفضل بن الربيع:

أخذْتُ بِحَبْلٍ من حِبالِ محمدٍ أمِنْتُ به مِنْ نَائِبِ الحَدَثَانِ

اتصلت بمحمد فكان لي أماناً من مصائب الزمن

تَغَطَّيْتُ مِنْ دهرِي بِظِلِّ جناحِه، فعيْنِي تَرى دهرِي، وليس يَراني
فلو تُسألُ الأيامُ ما اسْمِي لَمَا دَرَتْ، وأَينَ مكانِي، ما عَرَفْنَ مَكاني

١٦٦ فرد في الحسن

يا ظبيَ آلِ سِنانِ وزينَ صَفِّ القِيانِ

كان أبو نواس عند محمد بن سنان، فأخرج لصحبه قيانه يغنين، وجلس بينهن ولد لصاحب البيت جميل الطلعة، ففتن أبا نواس

خُلِقْتَ في الحسنِ فَرْداً، فما لِحُسْنِكَ ثانِ
كأنما أنتَ شيءٌ حَوى جميعَ المعاني
لَيَنْعَتَنَّكَ وَهمِي، إذْ كَلَّ عنكَ لِساني
عَلِقْتُ مَنْ جَلَّ عَنِّي وشَأْنُهُ غيرُ شاني
مَنْ ليس يَطمَعُ فيهِ إلّا فلانُ الفُلاني

١٦٧ فوق المدح

قال يمدح الأمين:

إذا نحنُ أَثْنَيْنا عليكَ بِصالِحٍ، فأنتَ كما نُثني، وفوقَ الذي نُثني
وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوماً بِمِدْحَةٍ، لِغَيْرِكَ إنساناً، فأنتَ الذي نَعْني

١٦٨ شبعت مني المعاصي

أَيا مَنْ بينَ باطِيَةٍ وزِقٍّ وعُودٍ في يَدَيْ غاوٍ يُغَنِّي

يا من يجلس بين باطية (قنينة خمر) وزق (قربة كبيرة تنقل فيها الخمر)

إذا لم تَنْهَ نفسَكَ عن هَواها، وتُحْسِنْ صَوْنَها فإلَيْكَ عنِّي

إليك عني: ابتعد

فإنِّي قد شَبِعْتُ مِنَ الْمَعاصِي، ومِنْ لَذَّاتِها، وشَبِعْنَ مِنِّي
ومَنْ أَسْوَا، وأَقْبَحُ مِنْ لَبيبٍ يُرَى مُتَطَرِّباً في مِثلِ سِنِّي؟

١٦٩ منتهى المجون

يا سليمانُ غَنِّنِي، ومِنَ الراحِ فاسقِني!

فـــــإذا دارَتِ الـــــزُّجَـــــا   جـــةُ خُـــذْهَـــا، وأَعْـــطِـــنـــي
عَـــاطِـــنـــي كَـــأْسَ سَـــلْـــوَةٍ   عـــــن أَذَانِ الـــــمـــــؤَذِّنِ

ناولني كأساً أسلو بها، أي أنسى، الأذان

إِسْـقِـنـي الـخـمـرَ جَـهْـرَةً   وأَلِـــطْـــنـــي، وأَزْنِـــنـــي

١٧٠ خمرة في رقة ديني

إِســقِــنــي يــا ابــنَ أَذِيــنِ   مِــنْ سُــلافِ الــزَّرَجُــونِ

ابن أذين: اسم الخمار، الزرجون: الكرْم

عُـــتِّـــقَـــتْ فـــي الـــدَّنِّ حـــتـــى   هِـــيَ فـــي رِقَّـــةِ دِيـــنـــي

يصفون الخمر بأنها تصبح رقيقة وشفافة بعد تعتيقها، فهي في رقة دينه، ويصفون دين الماجن بأنه رقيق

ثـــم شُـــجَّـــتْ، فَـــأَدَارَتْ   حَـــولَـــهـــا مِـــثْـــلَ الـــعُـــيـــونِ

مزجت فأخذت الفقاقيع تدور حولها كأنها العيون

حَـــدَقـــاً تَـــرنُـــو إلـــيْـــنـــا،   لـــم تُـــحَـــجَّـــرْ بِـــجُـــفـــونِ

هذه عيون تنظر إلينا لكن لا تحيط بها محاجر أو جفون

بِـــيَـــدَيْ ســـاقٍ عـــلـــيـــهِ   حِـــلْـــيَـــةٌ مـــن يَـــاسَـــمِـــينِ
وعـــلـــى الأُذْنَـــيْـــنِ مـــنـــهُ   وَرْدَتَـــــــا آذَرْيُـــــــونِ
غَـــايَـــةٌ فـــي الـــشَّـــكْـــلِ والـــظَّـــرْ   فِ، وفَـــرْدٌ فـــي الْـــمُـــجُـــونِ

١٧١ خمرة وساق

وبِـكْـرِ سُـلافَـةٍ فـي قَـعْـرِ دَنٍّ،   لَـهـا دِرْعَـانِ مِـنْ قَـارٍ وطـيـنِ

سلافة (خمرة جيدة) بكر (لم يثقب دنها من قبل) في قعر الدن (فمع القدم نقص حجمها) وهي تلبس درعين (قميصين) واحد من الطين (الفخار) وواحد من القار (الزفت)

تَحَكَّمَ علجُها، إذ قلتُ سُمْني،   على غيْرِ البخيلِ، ولا الضَّنينِ

تحكم العلج (الخمار الأعجمي) عندما قلت له سمني (قدر علي الثمن)، وإنما تحكمه على رجل غير بخيل ولا ضنين بماله هو أنا

شَكَكْتُ بُزَالَها، والليلُ دَاجٍ،   فَـدَرَّتْ دِرَّةَ الـوَدَجِ الـطَّـعـيـنِ

ثقبتها من البُزال (موضع ثقب الدن) في ظلام الليل، فدرت (حلبت) كما ينزف الودج (أحد عرقين في العنق) الطعين (المطعون)

بِكَفٍّ أَغَنَّ، مَخْتَضِبٍ بَنَاناً، مُذَالِ الصُّدْغِ، مَضْفُورِ القُرونِ

سالت الخمر بكف غلام ساق ذو غنة في صوته، ومخضوب البنان بالحناء، وصدغه مذال أي له سالفان مسترسلان، وشعره مضفور القرون (الخصلات)

لنا منهُ بِعَيْنَيْهِ عِدَاتٌ، يُخَاطِبُنا بِها كَسْرُ الْجُفُونِ

عدات: وعود

١٧٢ إهانتها إكرام لها

أَلَا دَارِها بِالماءِ، حتى تُلِينَها فلن تُكْرِمَ الصَّهْباءَ حتى تُهِينَها
أُغَالي بِها، حتى إذا ما ملكتُها، أهنتُ لإكْرَامِ النديم مَصونَها
وصَفراءَ قبلَ الْمَزْجِ، بيضاءَ بعدَه، كأنَّ شُعاعَ الشمسِ يَلقاكَ دونَها
وشمطاءَ حلَّ الدهرُ عنها بِنَجْوَةٍ دَلَفْتُ إليْها، فاسْتَلَلْتُ جَنينَها

شمطاء (اختلط بياضها بسواد)، ههنا يصف خابية الخمر (الوعاء الكبير) فقد علا سواد قارها غبار أبيض، وقد ابتعدت عن يد الدهر فنجت منه، وقد دلف (دخل رويداً) أبو نواس فاستل جنين الخابية وهو الخمرة

١٧٣ فارسها وصريعها

يا ليلةً بِتُّها أُسَقَّاها أَلْهَجَني طِيبُها بِذِكْرَاها

ألهجني (جعلني أكرر ذكرها)

نَغْلِبُها أَوَّلاً، وتَغلِبُنا، فنحنُ فُرسانُها، وصَرعَاها
تَلتَهِبُ الكَفُّ مِنْ تَلَهُّبِها، وتَحْسُرُ العينُ أنْ تَقَصَّاها

تصطبغ كف شارب الخمر بلونها وهي في الكأس الشفافة، ولكن العين تحسر (تعجز) عن تأمل تفاصيلها لتلألؤها

كانَ لَهَا الدَّهْرُ مِنْ أَبٍ خَلَفاً، في حِجْرِهِ صانَها، وربَّاها

خمرة قديمة جداً فليس لها أب، أبوها هو الزمن نفسه

١٧٤ خوف وخوف وأمان

قال للأمين وقد حبسه:

قد كنتُ خِفْتُكَ ثم أَمَّنَني مِن أنْ أخافَكَ خَوْفُكَ اللَّهَ

١٧٥ جلد على عظم ويتيه

لا تَفْرُغُ النفسُ مِنْ شُغْلٍ بِدُنيَاها رأيتُـها لـم يَنلْـها مَنْ تَمَنَّـاها
حَذَّرْتُكَ الكِبْرَ لا يَعْلَقْكَ مِيسَمُهُ، فـإنَّـه مَـلْـبَسٌ نَـازَعْـتَـهُ الـلَّـهَ

الكبر: التكبر، ميسمه: طابعه، والله وحده المتكبر، وهذا من أسمائه الحسنى

يا بُؤْسَ جِلْدٍ على عَظْمٍ مُخَرَّقَةٍ فـيـهِ الـخُـروقُ، إذا كَـلَّـمْـتَـهُ تَـاهـا

يا لبؤس الإنسان وهو مجرد جلد على عظم وفيه خروق للعينين والأذنين، وإذا كلمه أحد تاه (استكبر)

يَرى عـلـيكَ لـه فـضـلاً يَـبِـيـنُ بـه، إن نالَ في العاجلِ السُّلْطانَ والجَاهَا

يظن أن له الفضل عليك (أي هو أفضل منك) ويبين بهذا الفضل المزعوم (يجعل بينه وبينك بوناً) إن نال في العاجل (الدنيا) سلطاناً وجاهاً

مُثْنٍ على نفسِهِ، راضٍ بِسيرَتِها، كَذَبْتَ، يـا خَـادِمَ الـدنـيـا ومَـوْلاهَـا

١٧٦ ليت الأرض تبتلعه

مُـتَـتَـايِـهٌ بِـجَـمـالِـهِ صَـلِـفٌ، لا يُـسْـتَـطَـاعُ كـلامُـهُ تـيِـهـا

متتايه (متكبر) صلف (متكبر)

لِـلـحُـسْـنِ فـي وَجَـنَـاتِـه بِـدَعٌ، مـا إن يَـمَـلُّ الـدَّرْسَ قَـارِيـهـا

ينظرون في وجهه بتفحص ودرس وتكرار ويقرأون آيات الجمال

لـو تستطيعُ الأرضُ لانـقَـبَـضَـتْ حـتَّـى يَـكـونَ جَـمِـيـعُـهُ فـيـهـا

أمنية غريبة للأرض أن تبتلعه لكي تحتوي كل جماله، لعل هذه أمنية دفينة في نفس الشاعر أن يموت هذا الشخص الجميل لكي يتخلص الشاعر من توتره بالنظر إلى جماله البعيد المنال

١٧٧ نعصي الله ونطيعك أنت!

أيُّـهـا الـعـاتـبُ فـي الـخـمـ ـرِ مـتـى صـرتَ فـقِـيـهـا
لـو أطَـعْـنـا ذا عـتـابٍ لأطَـعْـنـا الـلَّـهَ فـيـهـا

١٧٨ رقيقة الحاشية

لأَعْطِفَنَّ إلى الصَّهْباءِ عن دِمَنٍ، لـم يبقَ مِنْ عـهـدِها إلا أثـافـيـها

لأعطفن (لأميلنَّ) ولأذهبنَّ إلى الصهباء (الخمر) كي أصفها مبتعداً عن وصف الدمن (الطلول) التي لم يبق من عهدها القديم سوى أثافيها (حجارة الموقد)

مَوصُوفَةٍ بِفُنونِ الطِّيبِ طَالَ لها   عُمْرٌ، فلم تَعْدُ أَنْ رَقَّتْ حَواشِيها

الخمر موصوفة بفنون الطيب (أنواع شتى من الطيب من رائحة ومذاق) وقد طال عمرها ولكن هذا لم يفسدها بل رقق حواشيها (رقة الحاشية/أي الجنب كناية عن اللطف في الإنسان)

١٧٩ عديم المثال

لـو صَحَّ عـقـلـيِ قَـلَّ أَشْبـاهـي   أَجَـلْ، ولـمْ أَلْـهُ مَـعَ الـلَّاهـي

لو تعقلت لكنت عبقرياً لا شبيه له، ولما لهوت من اللاهين

لا تَـتَـنـاهَـى الـنـفـسُ عـن غَـيِّـهـا   مـا لـم يـكـن مـنـهـا لَـهَـا نَـاهِ
لِـلَّـهِ دَرُّ الـمـوتِ مِـنْ خُـطَّـةٍ   فـيـهـا اسْـتَوى الأَحـمَـقُ والـدَّاهـي
إِنَّـا لَـنَـنْـسَـاهَـا وقَـدْ مُـرِّنَـتْ   مِـنَّـا بِـأَسْـمَـاعٍ وأَفْـوَاهِ

ننسى خطة الموت (تدبيره) مع أنها ـ ولأنها ـ مرنت (كُرِّرت) على أسماعنا وفي أفواهنا

١٨٠ العاشق فاضح نفسه

مـا رَأَيْـنَـا مَـنْ قَـلـبُـه فـي يَـدِيْـهِ   لا، ولا عـاشـقـاً هَـواهُ إِلَـيْـهِ
مَـرَّةً عـاشـقـاً، وأخـرى خَـلِـيًّـاً،   مُـظْـهِـراً غـيـرَ مـا الـضَّـمـيرُ عَـلَيْـهِ

ليس هناك عاشق يستطيع أن يخفي ما به من عشق

١٨١ التوبة

دَبَّ فِـيَّ الـفَـنـاءُ سُـفْـلاً وعُـلْـوَا   وأَرَانـي أَمُـوتُ عُـضْـواً، فَـعُـضْـوَا
لـيـس مِـنْ سَـاعَـةٍ مـضـتْ لـيَ إِلَّا   نَـقَـصَـتْـنـي بِـمَـرِّهَـا بـيَ جُـزْوَا

جزواً: جزءاً

ذَهَـبَـتْ جِـدَّتـي بِـطـاعَـةِ نَـفـسـي،   وتَـذَكَّـرْتُ طـاعَـةَ الـلَّـهِ نِـضْـوَا

ذهب شبابي في طاعة شهواتي، وتذكرت طاعة الله مهزولاً مسناً

لَـهْـفَ نـفـسـي عـلـى لَـيـالٍ وأَيَّـا   مٍ تَـمَـلَّـيْـتُـهُـنَّ لَـعْـبـاً ولَـهْـوَا

تمليتهن: تماديت فيهن

قـد أَسَـأْنَـا كُـلَّ الإِسَـاءَةِ فَـالـلَّـ   ـهُـمَّ صَـفْـحـاً عـنَّـا، وغَـفْـراً وعَـفْـوَا

١٨٢ ذل وخوف

قال يهجو غالب بن الصغدي:

مَنْ سَلَّطَ اللَّهُ، يا حُسَيْنُ، على مُهْجَتِهِ شَاعراً، فقد خَزِيَا

مهجته: نفسه

ويلٌ لِغَلْبُونَ، إنَّه شَقِيَا فكيفَ بِالذُّلِّ والبَلا رَضِيَا

أَشْرَبْتُهُ الذُّلَّ والْمَخافَةَ، مَا بَقِيتُ حَيّاً، لهُ، وما بَقِيَا

١٨٣ هجاء كأنه لابن الرومي

زُنبورُ يا خِنزيرُ يا ابنَ الزَّانِيةْ شرفٌ لأُمِّكَ أن تُسمَّى زانِيةْ

قد كنتَ، مِنْ هذا البَلاءِ، بِمَعزِلٍ، يا ابْنَ الزِّنَاءِ، فلم تَسَعْكَ العَافِيَةْ

فَلَتَأْتِيَنَّكَ مِنْ لِسانيَ شُرَّدٌ تَبْلَى الجِبَالُ وإنَّها لَكَمَا هِيَهْ

شرد: قصائد سائرة في البلاد

١٨٤ أُخوَّة الشراب

وقال أبو نواس (من رواية حمزة الأصبهاني):

ولستُ بِقائلٍ لِنديم صِدْقٍ وقد أَخَذَ الشَّرابُ بِمُقْلَتَيْهِ

تَناوَلْها وإلَّا لم أَذُقْها فَيَأْخُذُها، وقد ثَقُلَتْ عليهِ

ولكنِّي أُديرُ الكأسَ عنه وأَصْرِفُها بِغَمزَةِ حَاجِبَيْهِ

وإن مَدَّ الوِسَادَ لِنومِ سُكْرٍ دَفَعْتُ وِسَادَتي أيضاً إليهِ

فذلكَ ما حَيِيتُ لهُ، وإنِّي أَبَرُّ بِمِثْلِهِ مِنْ وَالِدَيْهِ

١٨٥ قتيل واقف بالباب

يا قمراً أبصرْتُ في مأتم، يندُبُ شَجْواً بينَ أتْرابِ

شجواً: حزناً، أتراب: أصحاب

يبكي فَيَذْري الدُّرَّ مِنْ نَرجِسٍ ويَلْطِمُ الوردَ بِعُنَّابِ

يبكي فيذري (يبدد) الدر (اللؤلؤ/الدمع) من نرجس (أي من عينيه، ويشبهون العين بالنرجس)، ويلطم الورد (خده) بعناب (ثمر كأطراف البنان محمر أعلاه كأنه محنًى)

لا تبكِ مَيْتاً حَلَّ في حُفْرَةٍ، واِبْكِ قتيلاً لَكَ بالبابِ

١٨٦ يا رب

يا رَبِّ إن عَظُمَتْ ذُنوبِيَ كَثرةً فلقد علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعظمُ
إن كانَ لا يرجوكَ إلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلوذُ ويستجيرُ المجرمُ
أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تَضَرُّعاً فإذا ردَدْتَ يدي فمَنْ ذا يَرحمُ
ما لي إليكَ وسيلةٌ إلَّا الرَّجا وجميلُ عفوِكَ، ثم إنِّيَ مُسلمُ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

دِعْبِل الخزاعيّ
(١٤٨هـ ـ ٢٤٦هـ)

تصر كتب الأدب القديمة على أن دعبلاً مات عن ثمان وتسعين سنة قمرية، فهذه خمس وتسعون سنة شمسية. . وهذا كثير على شاعر قتل قتلاً بعد أن هجا ستة خلفاء ما تجرأ أحد من شعراء عصره على هجاء أحد منهم. لكنه نقل عن دعبل أنه قال إنه يحمل خشبته على كتفه منذ خمسين سنة لا يجد من يصلبه عليه. فزعنا إلى كتاب عمر فروخ الممتاز في تاريخ الأدب العربي، ثم عدنا ومسحنا عدسة النظارة ونظرنا في ديوان دعبل ـ الذي صنعه مما تيسر له من شعر دعبل المحقق المدقق عبد الكريم الأشتر، وصنعه صنعة تنم عن علم غزير وصبر على البحث والتنقيب قل أن تلقاهما حتى عند كبار المحققين، فأما الفسول الذي يسمون أنفسهم محققين للدواوين في هذه الأيام فننبذهم ظِهرياً، آملين أن نعود إليهم في فقرة مقبلة كي نلهب ظهورهم بالسياط ـ، فلم نجد في مقدمة المحقق للديوان ما يشكك في أن دعبلاً عُمِّر هذا التعمير. نظرت هنا ثم هنا، ثم قلت: أرى كيف حقق المستشرقون تاريخ ولادة شاعرنا وتاريخ وفاته، فوجدت المقالة عنه في دائرة المعارف الإسلامية مشحونة بالأغلاط مكتوبة بقلم مستسهل قليل المعرفة قليل التدقيق. وعلى كل حال فكل هؤلاء أجمع على أن دعبلاً عاش ثماني وتسعين سنة قمرية. فقلت قد عاشها، ألم يخنق الفرزدق التسعين؟

ولد دعبل في الكوفة أو قرقيسيا قرب دير الزور. وهو رجل عربي من خزاعة اليمانية. واسمه دِعْبِل بن علي بن رَزِين الخزاعي. رافق المجان في الكوفة في شبابه الباكر، وارتكب جريمة قتل فطلب بها فهرب، وعاش حتى مات كلُّ أولياء الثأر فرجع إلى الكوفة، وقد أسنَّ، آمناً.

تمذهب دعبل بالمذهب الشيعي، والتشيع ليس مذهباً دينياً فحسب؛ فحتى في ذلك الزمن المبكر، مطلع القرن الثالث الهجري، فقد غدا التشيع هوية وانتماء سياسياً وحالة نفسية. وأصبحت «مقاتل الطالبيين» جزءاً من العقيدة؛ فكل طالبي، من نسل أبي طالب عم الرسول، يخرج عن الخلافة ويقاتل ويقتل يترك وراءه خيطاً من الدم يدخل في نسيج العقيدة الشيعية. وقد بذل الخليفة المأمون جهداً نظنه صادقاً، رغم ما كان وراءه من هدف سياسي، في تمزيق هذا النسيج الدموي، واستفاد من جهده سياسياً، واستطاع أن يهدئ الأجواء، لكن ما صنعه كانت حبة أسبرين.

اتخذ شاعرنا من هذا الشرخ في الأمة الإسلامية ستراً هجا من ورائه الخلفاء، واجداً لنفسه أقواماً وأشرافاً يحمونه. كان دعبل يحتمي وراء التشيع ووراء خزاعة، وساعده في الإفلات من يد الطلب أن الخلافة كانت قد تمفصلت في عصر هارون الرشيد وازدادت تمفصلاً بعده فاستقل كل أمير ناحية بإمارته بعض استقلال.

مدح دعبل كثيراً وهجا أكثر، وكان عرف من أستاذه في الشعر مسلم بن الوليد أن الهجاء أعود على الشاعر من المدح، فهجاؤك أحدهم يجعل غيره يعطيك مسرعاً عندما تمدحه خوفاً من أن يهجى. وذكروا أن دعبلاً نظم قصيدة هجاء وتركها تنتظر المهجو المقبل، حتى إذا نشأت الحاجة إليها ركب فيها اسم المهجو وأذاعها.

جعل صاحب الأغاني سيرة دعبل في خمسين صفحة، وهي تصور لنا الشاعر شخصاً متمرداً له إيمان الأعراب بالدين، وهو إيمان خفيف، وله غرام بالمناكفة. مؤمن بموهبته وعارف بالشعر، فإذا ما وقف أمام جدار خرساني من موهبة فذة لشاعر يصغره بأربعين عاماً، عنينا أبا تمام، ناكف قليلاً ثم سلم تسليماً. ومضى يناكف غيره. خاض خصومة طويلة مع الشاعر أبي سعيد المخزومي، الذي كان يجاري دعبلاً في السفه، ويطاوله في الموهبة، ولكن دعبلاً أخمله.

سمع هارون الرشيد شعر دعبل، ودعبل يسير نحو الأربعين، وقربه وأعطاه. ومات الرشيد ودعبل في الخامسة والأربعين فهجاه بعد موته، وجاء الأمين فهجي الأمين. وجاء المأمون فسمع شعر دعبل وأجازه.. ليس يهم الملك أن تكون هجوت أباه وأخاه.

هذه قاعدة فاحفظها إن شئت.

ثم هُجي المأمون حياً، وكان سمحاً فلم يطلب دعبلاً، بل لقد كان يضحك كلما سمع شعر دعبل في هجاء كاتبه المتوتر الغضوب أبي عباد. سألَ المأمون جليسه يوماً عما أحدث «شاعر خزاعة»، فقيل له: من يعني أمير المؤمنين؟ أبا الشيص أم ابنه أم طاهراً أم عبد الله بن طاهر، أم دعبلاً؟ فقال المأمون: ومن عسى في هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل؟

أتى دعبل، وهو ابن خمسين، مصر ومدح أميرها المطلب بن عبد الله الخزاعي، فعينه على أسوان، ثم لما بلغه هجاء قاله دعبل فيه عزله شر عزل، فهجاه دعبل أمر هجاء.

وأقام دعبل زمناً في كنف علي بن موسى الرضا الإمام الثامن الذي ولاه المأمون عهده. وكان يكثر من زيارة قم، وكانت هذه المدينة بلد الشيعة، لم يكد يسكنها أحد من غيرهم، قديماً مثلماً حديثاً. كان هذا في حياة المأمون.

ومات المأمون وتولى المعتصم فنال من دعبل هجاء ما ناله خليفة قبله. وكان دعبل يحتمي وقتئذ في مدن وقرى فارس الشيعية دائم الترحال حاملاً خشبته على كتفيه ينتظر أن يصلبه أحد عليها. ومات المعتصم وجاء الواثق فنال من هجاء دعبل فور توليه الخلافة ما ناله سابقوه، على أن الواثق أحسن إلى الطالبيين وأكرمهم وقربهم، فلما مات جاء المتوكل فرفع عن الطالبيين ما كان أحاطهم به أخوه وسلفه الواثق من رعاية، فنال نصيبه من لسان دعبل، ولم يبلغنا من هجاء دعبل للمتوكل سوى بيت واحد: (ولست بقائل قَذَعاً، ولكن/ لأمر ما يُعَدُّ لك العبيدُ) ويروى البيت أيضاً (تعبَّدك العبيد)، يلمح إلى الأبنة، ولعله غير رأيه عندما بلغه أن لدى المتوكل أربعة آلاف جارية زعم الزاعمون أنه وطئهن كلهن.

وكان إبراهيم بن المهدي قد نصب نفسه خليفة في بغداد فيما بين مقتل الأمين وقدوم المأمون إلى العاصمة، ونال من دعبل سخرية ظل يحقدها عليه.. وظل المأمون يضحك منها زمناً.

وقد نقلنا لك بعضاً من كل ذلك الهجاء في المختارات التي تجدها بعد هذه المقدمة المفككة، التي رأينا ـ عجزاً وكسلاً ـ ألا نحكمها إحكاماً، فقد عاش شاعرنا قرناً ومرت به أحداث كثيرة، ولم نشأ أن نقتحم لجج التفاصيل.

والشعر الذي نورده عليك بعد أسطر مسرود بحسب ترتيب الديوان، ولم

نشأ أن نرتب الأشعار زمنياً، مع أن محقق الديوان وضع إشارات كثيرة إلى الزمن التقريبي الذي قيلت فيه أهم أشعار الديوان. فاقرأ شعر دعبل بما هو شعر، وحسبك ما في هذه المقدمة من معلومات عن حياة الشاعر.

غير أنك تريد أن تعرف كيف مات.

هجا دعبل مالك بن طوق التغلبي، هذا الأمير الذي كان من أركان الدولة منذ عهد الرشيد إلى ما بعد عهد المتوكل، والذي بلغ من مكانته أن مدحه أبو تمام والبحتري. هجاه دعبل مرات وبالغ في الشتم واصلاً إلى التزنية. فأخذه والي البصرة بإيعاز من مالك بن طوق، وضربه ضرباً مبرحاً وبلّعه سلْحه. وهرب دعبل إلى الأهواز، فبعث إليه مالك من اغتاله بحربة مسمومة.

١ من أين جاء؟

يهجو القاضي أحمد بن أبي دؤاد:

إن هــذا الــذي دُؤَادٌ أَبُــوهُ   وإيَــادٌ، قــد أكْـثَـرَ الأَنْـبَـاءَ
سَــاحَــقَــتْ أُمُّــه ولاطَ أَبُــوهُ   ليتَ شِعْرِي عنهُ، فَمِنْ أين جَاءَ؟

٢ كأسان وميزان

وكـأسٍ قـد شـربْـنـاهـا بِـلُـطْـفٍ   تَـخـالُ شـرابَـنـا فـيـهـا هَـواءَ
وَزَنَّـا الـكـأسَ فَـارغـةً ومَـلْأَى   فـكـانَ الـوزنُ بـيـنـهـمـا سَـواءَ

أكثروا من وصف الخمر بأنها بلا وزن، كأنما لشدة صفائها، والماء أصفى

٣ خط الرجعة

قال لصديق جفاه:

فـلا تَـكُ كَـالـرَّاكِـبَ الـسَّـبْـعِ كـيْ   يُـهـابَ، وأَنْـتَ لـهُ أَهْـيَـبُ
فـأَبْـصِـرْ لِـنـفـسِـكَ كـيـف الـنـزو   لُ في الأرضِ عن ظهرِ ما تَرْكَبُ

٤ ثامنهم كلب

يهجو المعتصم:

بَكَى لِشَتَاتِ الدينِ مُكتَئِبٌ صَبُّ   وفَاضَ بِفَرْطِ الدمعِ مِنْ عينِهِ غَرْبُ

الغرب: الدلو، والغرب أيضاً العين

وقامَ إِمامٌ لم يكُنْ ذا هِدايَةٍ فليس له دينٌ وليس له لُبُّ
وما كانتِ الأنباءُ تأتي بمثلِهِ يُمَلَّكُ يوماً أَوْ تَدينُ له العُرْبُ
مُلوكُ بني العباسِ في الكُتْبِ سَبْعَةٌ ولم تأتِنَا عن ثَامِنٍ لَهُمُ كُتْبُ

والمعتصم هو ثامن خلفاء بني العباس

كذلكَ أَهلُ الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ خِيارٌ إذا عُدُّوا وثامِنُهُمْ كلبُ
وإنِّي لَأُعْلِي كلبَهُمْ عنكَ رِفْعَةً لِأَنَّكَ ذو ذنْبٍ وليس له ذَنْبُ
لقد ضَاعَ أمرُ الناسِ إذ ساسَ مُلْكَهُمْ وَصيفٌ وأَشْنَاسٌ وقد عَظُمَ الكَرْبُ

وصيف وأشناس من قادة الأتراك

٥ القدر الطروب

الحمدُ فَرَّقَ مَالِي في الحقوقِ، فما أبقَيْنَ ذَمّاً، ولا أَبقَيْنَ لي نَشَبَا

تفريقي المال لكسب الحمد لم يترك علي ذمَّاً، لكنه أيضاً لم يترك لي نشباً، أي ثروة

قالتْ سَلامَةُ دَعْ هَذي اللَّبُونَ لَنا لِصِبْيَةٍ مثلِ أفراخِ القَطا زُغُبَا

تطلب منه امرأته أن يترك الناقة الحلوب للصبية الضعاف كأنهم أفراخ طير القطا الزغب، التي بدأ ينبت ريشها

قلتُ احبِسِيها ففيها مُتْعةٌ لَهُمُ إنْ لم يُنِخْ طَارِقٌ يَبغي القِرَى سَغِبا

قلت احبسيها للصبية كي يتمتعوا، يستفيدوا، من حليبها ما لم يأت طارق، زائر ليل، وينيخ دابته ببابنا وهو يطلب القرى سغباً، أي جائعاً

لما احْتَبَى الضيفُ واعْتَلَّتْ حَلُوبَتُها بَكَى العِيالُ وغَنَّتْ قِدرُنا طَرَبا

وجاء الضيف، واحتبى، أي جلس وجمع ساقية إلى ظهره بشال، ولم يكن في ناقتنا حليب، فبكى العيال لأنني سأذبحها، ولكن القدر غنت طرباً بما فيها من ماء بدأ يغلي

هَذي سبيلي، وهذا فاعلَمي خُلُقي فَارْضَيْ بِهِ أو فَكُوني بَعضَ مَنْ غَضِبا
أَسعَى لِأَطْلُبَهُ، والرزقُ يطلُبُني والرزقُ أَكثرُ لي مِنِّي له طَلَبا

أطلب الرزق وهو يطلبني، بل يطلبني أكثر مما أطلبه

قومٌ جَوادُهُمُ فَرْدٌ، وفَارِسُهُمْ فَرْدٌ وشَاعِرُهُمْ فَرْدٌ إذا نُسِبا

أنا من قوم جوادهم فرد، أي متفرد.. وهو حاتم الطائي ذلك أنه من قبيلة يمانية كدعبل، وفارسهم فرد، وهو عمرو بن معديكرب، وشاعرهم إذا نسبَ فرد، ونظنه عنى نفسه

٦ قدموني للجحيم

إنَّـمـا الـعـيـشُ فـي مُـنـادَمَـةِ الإِخْـ ـوانِ، لا في الجُلوسِ عندَ الكَعَابِ
العيش الحقيقي هو في مجالسة الرجال لا في الجلوس عند الفتاة الكعاب، البارزة النهدين

وبِـصِـرْفٍ كـأَنَّـهـا أَلْـسُـنُ الـبَـرْ قِ إذا استَعْرَضَتْ رَقيقَ السَّحَابِ
والعيش تناول خمر صرف، غير ممزوجة، لونها كألسنة البرق تلمع بين السحاب

إن تَـكـونـوا تَـرَكْـتُـمُ لَـذَّةَ الـعـيـ ـشِ حِذَارَ العِقابِ يومَ العِقابِ
فَـدَعـونـي ومَـا أَلَـذُّ وأَهـوى وادْفَعُوا بي في نَحْرِ يومِ الحِسابِ

٧ لا أُلِحّ

دخل على عبد الله بن طاهر، فقال:

جـئـتُ بِـلا حُـرْمَـةٍ ولا سَـبَـبِ إلـيـكَ إلّا بِـحُـرْمَـةِ الأدبِ
فـاقْـضِ ذِمـامـي فـإنـنـي رجـلٌ غـيـرُ مُـلِحٍّ عـلـيـكَ فـي الـطَّـلَـبِ
ذمامي: حقي

٨ كلب بافلوف الخزاعي

إذا نَبَحَ الأضيافُ كلبي تَصَبَّبَتْ يَنابيعُ مِنْ ماءِ السرورِ على قَلبي
ماء السرور هذا كماء الملام عند أبي تمام الذي دار عليه لغط كثير شاركْنا فيه فيما كتبناه عن أبي تمام

فَأَلْقَاهُمُ بِالبِشْرِ والبِرِّ والقِرَى ويَقْدُمُهُمْ نَحويَ يُبَشِّرُني كَلْبي
مثلما جعل بافلوف كلبه يربط شرطياً بين صوت الجرس وقدوم الطعام فيسيل لعابه قبل تقديم الطعام، كذا كلب دعبل يربط شرطياً بين قدوم الأضياف وتوفر الطعام الذي لا بد أن يصيب منه

٩ رزق الكلبة

يهجو المطلب بن عبد الله الخزاعي:

ولـو خُـصَّ بـالـرزقِ نَـجْـلُ الـكِـرام لَـمَـا نِـلْـتَ خَـيْـطـاً ولا هُـدْبَـةْ
الهدبة: الخيط منسولاً من طرف الثوب

ولـكـنَّـهُ رِزْقُ مَـنْ رِزْقُـهُ يَـعُـمُّ بِـهِ الـكَـلْـبَ والـكَـلْـبَـةْ
لكن هذا الرزق الذي نلته هو رزق الله الذي يعطيه حتى للكلب والكلبة

١٠ مدارس آيات

قصيدة ذات شهرة مدوية، أنشدها دعبل علي بن موسى الرضا الإمام الثامن:

مَـدارسُ آيـاتٍ خَـلَـتْ مِـنْ تِـلاوَةٍ　　ومـنـزِلُ وَحْـيٍ مُـقْـفِـرُ الـعَـرَصَـاتِ

أماكن لدرس آيات القرآن خلت من التلاوة، وموضع بالحجاز حيث كان ينزل الوحي أصبح مقفر الساحات بسبب المحن التي تعرض لها آل البيت

لِآلِ رسولِ اللَّهِ بِالخَيْفِ مِنْ مِنًىً　　وبِالرُّكْنِ والتَّعْريفِ والجَمَراتِ

هذه أماكن في الديار المقدسة

قِفَا نَسألِ الدارَ التي خَفَّ أهلُها　　متى عهدُها بالصومِ والصَّلَواتِ؟

خف أهلها: رحلوا

وأينَ الأُلَى شَطَّتْ بِهِمْ غُربَةُ النَّوَى　　أَفَـانِـينَ فـي الآفـاقِ مُـفْـتَـرِقَـاتِ؟

أين الذي شطت، ابتعدت، بهم غربة النأي والفراق أفانين، متفرقين

ومـا الـنـاسُ إلَّا حَـاسِـدٌ ومُـكَـذِّبٌ　　ومُـضْـطـغِـنٌ ذُو إِحْـنَـةٍ وتِـرَاتِ

الناس إما حاسد لهم على منزلتهم العلية أو مكذب بحقوقهم أو مضطغن، حاقد، ذو إحنة، أي حقد، وترات، أي ثارات

إذا ذَكَـروا قـتـلَـى بِـبَـدْرٍ وخـيْـبَـرٍ　　ويـومِ حُـنَـيْـنٍ أسبَـلُـوا الـعَـبَـراتِ

إذا ذكر الأعداء، قتلاهم ببدر وخيبر وحنين بكوا، وكان كثيرون من قريش وغيرها من أعداء الرسول في هذه المعارك قبل أن يسلموا، ولكنهم ظلوا يتذكرون هزائمهم قبل إسلامهم

وكـيـفَ يُـحِـبُّـونَ الـنـبـيَّ وأهـلَـهُ　　وقـد تَـرَكُـوا أحـشـاءَهُـمْ وَغِـراتِ

كيف يحبون النبي وأهله وقد تركوا أحشاء هؤلاء الأعداء وغرات، مثقلات بالحقد

لقد لايَنُوهُ في المَقَالِ وأَضْمَرُوا　　قُلوباً على الأحقادِ مُنْطَوِياتِ

أسلموا ولانوا في كلامهم مع الرسول، والحقد في قلوبهم

مَلامَكَ في أهلِ النبيِ فإنَّهُمْ　　أَحِبَّايَ ما عاشوا وأهلُ ثِقاتي

كف عن لومك لأهل النبي

فـيـا رَبِّ زِدْنـي مِـنْ يَـقـيـنِـي بَـصـيـرةً　　وزِدْ حُـبَّـهُـمْ يـا رَبِّ فـي حَـسَـنـاتـي

وأَكْـتُـمُ حُـبِّـيكُـمْ مَـخـافَـةَ كَـاشِـحٍ　　عـنـيـدٍ، لِأَهْـلِ الـحـقِّ غـيـرِ مُـؤَاتِ

أكتم حبي لكم يا آل النبي خوفاً من كاشح، مضمر للعداوة، وليس مواتياً، أي موافقاً، لأهل الحق

لقد حَفَّتِ الأَيَّامُ حَوْلي بِشَرِّهَا   وإنِّي لَأَرْجُو الأمنَ بعد وَفاتي

يرجو الجنة بسبب نصرته لآل النبي

أرى فَيْئَهُمْ في غيرِهِمْ مُتَقَسِّماً   وأَيْدِيَهُمْ مِنْ فَيْئِهِمْ صَفِراتِ

فيء آل النبي، نصيبهم من الغنائم، مقسم في غيرهم، وأيديهم صفرات، خاليات، منه

فَآلُ رسولِ اللَّهِ نُحْفٌ جُسُومُهُمْ   وآلُ زِيادٍ حُفَّلُ القَصَراتِ

آل زياد، أخي معاوية بن أبي سفيان لأبيه، حفل القصرات، غلاظ الرقاب من النعمة

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى وَاتِرِيهِمُ   أَكُفَّاً عن الأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

إذا وتروا، ووجهوا بالعداء وطلب الثأر، مدوا إلى الواترين، طالبي الثأر، أكفاً منقبضة عن الثارات

سَأَقْصُرُ نفسي جاهداً عن جِدَالِهِمْ   كفانِيَ ما أَلْقَى مِنَ العَبَراتِ

لن أجادل الأعداء، وكفاني ما بي من دموع

أُحَاوِلُ نقلَ الشمسِ مِنْ مُسْتَقَرِّها   وإِسْمَاعَ أَحجارٍ مِنَ الصَّلِدَاتِ

فإقناعهم شبيه بنقل الشمس من مكانها أو إسماع الأحجار الصلدة، الصلبة

فَمِنْ عَارِفٍ لم يَنْتَفِعْ ومُعَانِدٍ   يميلُ مع الأهواءِ والشَّهَوَاتِ

وهم بين عارف بحقوق آل البيت لكنه لم ينتفع بمعرفته، وبين معاند يميل مع أهوائه ومصالحه وشهوات الانتقام في نفسه

قُصَارَايَ مِنْهُمْ أن أَؤُوبَ بِغُصَّةٍ   تَرَدَّدُ بين الصَّدْرِ واللَّهَوَاتِ

قصاراي، أقصى ما أناله، من جدالهم أن أؤوب، أي أرجع، بغصة في الحلق تتردد بين الصدر واللهوات، آخر الحلق

١١ أنا والضيف والقصيدة الصعبة

نفسي تُنافِسُني في كلِّ مَكْرُمَةٍ   إلى المعَالي، ولو خالَفْتُها أَبَتِ

وكم زَحَمْتُ طريقَ الموتِ مُعْتَرِضاً   بالسيفِ صَلْتاً فَأَدَّاني إلى السَّعَةِ

صلتاً: مسلولاً

والجودُ يَعلمُ أنِّي منذُ عاهَدَني   ما خُنْتُهُ وقتَ مَيْسُوري ومَعْسَرتي

ما يَرحَلُ الضيفُ عني غِبَّ ليلتِهِ   إلَّا بِزادٍ وتَشبيعٍ ومَعْذِرَةِ

يرحل الضيف غب ليلته، بعد قضائه الليلة عندي، وقد زودته بزاد لرحلته، وشيعته واعتذرت إليه عن أي تقصير

قالَ العَواذِلُ أَوْدَى المالُ، قلتُ لَهُمْ   مـا بـيـنَ أَجْرٍ أُلَـقَّـاهُ ومَـحْـمَـدَةِ

قال العاذلون: قد ذهب مالك، فقلت لهم: ألاقي عليه الأجر من الله، والحمد من الناس

أَفْسَدْتَ مالَكَ، قلتُ: المالُ يُفْسِدُني   إذا بَخِلْتُ به والجُودُ مَصْلَحتي

لا تَعْرِضَنَّ بِمَزْحٍ لامْرِئٍ سَفِهٍ   ما رَاضَهُ قَلْبُهُ أَجْرَاهُ في الشَّفَةِ

لا تمزح مع سفيه يفوه بكل شي يتردد في نفسه دون تفكير

فَرُبَّ قَافِيَةٍ بِالمزْحِ جارِيَةٍ   مَشْبُوبَةٍ لم تُرِدْ إِنْمَاءَها نَمَتِ

رب قصيدة جرت على لسانك مزحاً وهي حارة حادة، ولم تقصد إلى إشاعتها، لكنها شاعت.. المعنى الملموح

رَدُّ السُّلَى مُسْتَتِمَّاً بعد قَطْعَتِهِ   كَرَدِّ قَافِيَةٍ مِنْ بَعدِمَا مَضَتِ

إن رد السلى مستتماً، إعادة المشيمة بحالها سليمة، إلى جوف المرأة بعد أن قطعت عن الطفل مستحيل، وكذا رد قصيدة قيلت وانتشرت

إنِّي إذا قلتُ بَيتاً ماتُ قائلُهُ   ومن يُقَالُ لَهُ، والبيتُ لم يَمُتِ

١٢ البائدون العائدون

قال يهجو ابن أبي دؤاد:

ترى طَسْماً تعودُ بِها اللَّيالي   إلى الدنيا كما رَجَعَتْ إِيَادُ

لا عجب أن ترى قوم طسم الذين بادوا قد عادوا إلى الدنيا مثلما عادت قبيلة إياد

قبائلُ جُذَّ أصلُهُمُ فبَادُوا   وأَوْدَى ذِكْرُهُمْ زمناً فعادُوا

هذه قبائل جذ، قطع، أصلهم وبادوا، وباد ذكرهم.. ثم عادوا

وكانوا غَرَّزُوا في الرَّمْلِ بَيْضاً   فَأَمْسَكَهُ، كما غَرَزَ الجَرادُ

كأنهم وضعوا في الرمل بيضاً فأمسكه الرمل مثلما يغرز الجراد بيضه في الرمل، وبعد أن يذهب الجراد يقوم من الرمل جراد جديد

غَداً تأتيكَ إِخْوَتُهُمْ جَدِيسٌ   وجُرْهُمُ قُصَّراً، وتَعُودُ عَادُ

وستعود على هذه الحال قبائل جديس وجرهم وعاد.. وكلها من العرب البائدة

فَتَعْجِزُ عنهُمُ الأمصارُ ضِيقاً   وتَمتَلِئُ المنازلُ والبلادُ

ولم أَرَ مِثْلَهُمْ قَلُّوا فَزَادُوا   ولم أَرَ مِثْلَهُمْ بَادُوا فَعادُوا

لم أر مثل قبيلة إياد الذي قل عدد ناسها، ثم زادوا.. وبادوا ثم عادوا.. يشكك في نسب إياد التي ينتسب إليها المهجو

١٣ مات المشؤوم عاش المشؤوم

قال في موت المعتصم وقيام الواثق:

الحمدُ للَّهِ لا صبرٌ ولا جَلَدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهلُ البَلا رَقَدُوا

لا حاجة إلى الصبر والجلد، الصبر، ولا إلى التعزي إذا أهل البلاء ماتوا.. فلا حزن عليهم

خليفةٌ ماتَ لم يَحزَنْ له أَحَدٌ ... وآخَرٌ قامَ لم يفرَحْ بهِ أَحَدُ

فَمَرَّ هذا ومَرَّ الشُّؤْمُ يتبَعُهُ ... وقامَ هذا فقامَ الهَمُّ والنَّكَدُ

١٤ هجاء العالمين

ذَمَمْتُكَ أوَّلاً حتى إذا ما ... بَلَوْتُ سِواكَ عادَ الذَّمُّ حَمْدا

بلوت: اختبرت

فلم أَحْمَدْكَ مِنْ خَيْرٍ ولكِنْ ... رأيتُ سِواكَ شَرّاً مِنْكَ جِدَّا

فَعُدْتُ إِليْكَ مُجْتَدِياً ذَلِيلاً ... لِأَنِّي لم أَجِدْ مِنْ ذَاكَ بُدَّا

مجتدياً: سائلاً

كَمَجْهُودٍ تَحَامَى لَحْمَ مَيْتٍ ... فَلَمَّا اضْطُرَّ عادَ إليه شَدَّا

مجهود: مرهق، شداً: مسرعاً

١٥ لا أرى أحداً

ما أكثرَ الناسَ لا بلْ ما أقَلَّهُمُ ... اللَّهُ يعلَمُ أنِّي لم أَقُلْ فَنَدَا

فندا: باطلاً

إنِّي لأَفتَحُ عيني حين أَفْتَحُها ... على كثيرٍ ولكنْ لا أَرَى أَحَدا

١٦ قتلنا أخاك

قال يهدد الخليفة المأمون:

أَيَسُومُني المْأمونُ خُطَّةَ عَاجِزٍ ... أَوَمَا رأى بِالأَمْسِ رأسَ مُحمَّدِ؟

أيكلفني الخليفة المأمون أمراً أكون فيه العاجز.. ألم ير قبل حين رأس أخيه محمد الأمين؟

إنِّي مِنَ القومِ الذينَ سيوفُهُمْ ... قتَلَتْ أخاكَ وشَرَّفَتْكَ بِمَقْعَدِ

أنا من بني خزاعة الذين قتلوا أخاك وشرفوك بالخلافة، وكان القائد طاهر الخزاعي، من قوم دعبل أو من مواليهم، قتل الأمين فآلت الخلافة للمأمون

رَفَعُوا مَحَلَّكَ بعد طُولِ خُمُولِهِ   واستَنْقَذُوكَ مِنَ الحضيضِ الأَوْهَدِ

قومي رفعوك إلى الخلافة بعد أن كنت خاملاً، مغموراً غير معروف، وأنقذوك من الحضيض الأوهد، الأسفل

١٧ أبو عبَّاد

قال يهجو أبا عباد ثابت بن يحيى كاتب المأمون:

أَوْلَى الأُمُورِ بِضَيْعَةٍ وفَسَادِ   أَمرٌ يُدَبِّرُهُ أبُو عَبَّادِ

يَسْطُو على كُتَّابِهِ بِدَوَاتِهِ   فَمُرَمَّلٌ ومُضَمَّخٌ بِمِدَادِ

مرمل: ملطخ بالدم

فَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْرِ هِزْقِلَ مُفْلِتٌ   حَرِدٌ يَجُرُّ سَلاسِلَ الأَقْيَادِ

دير هزقل: بيت المجانين، حرد: غاضب. وكان المأمون يتذكر هذه الأبيات ويضحك كلما رأى كاتبه أبا عباد هذا

١٨ نصيحة للمماطلين

إِيَّاكَ والمَطْلَ أن تُقَارِفَهُ   فإِنَّهُ آفَةٌ لِكلِّ يَدِ

إياك واقتراف المماطلة فهي تعيب كل يد، أي كل نعمة

إذا مَطَلْتَ امْرَأً بِحاجَتِهِ   فامْضِ على مَطْلِهِ ولا تَحِدِ

إذا ماطلت شخصاً فاثبت على المنع ولا تحد، لا تنحرف، ولا تعطه شيئاً

فلستَ تَلقاهُ شَاكِراً لِيَدِ   قد كَدَّها المَطْلُ آخِرَ الأَبَدِ

فلو أعطيته بعد مماطلة لما وجدته شاكراً آخر الدهر لنعمة قد كدها، أتعبها، المطل

١٩ الذواقة

إِنِّي وجَدْتُكِ في الهوى ذَوَّاقَةً   لا تَصبِرِينَ على طعامٍ واحِدِ

٢٠ ذقتهم جميعاً

قد بَلَوْتُ الناسَ طُرًّا   لم أجِدْ في الناس حُرًّا

بلوت: جربت، طراً: جميعاً

صارَ أحْلَى الناسِ في العيـ   ـنِ إذا ما ذِيقَ مُرًّا

٢١ عذر بني أمية

قال يرثي الإمام الثامن علي بن موسى الرضا:

لـو كـنـتُ أَركَـنُ لـلـدنـيـا وزيـنَـتِـهـا إذن بَكيتُ على الماضينَ مِنْ نَفَري
بـعـضٌ أقَـامَ وبـعـضٌ قـد أهَـابَ بـه داعـيِ الـمـنـيَّـةِ والـبـاقـيِ عـلـى الأَثَـرِ

بعض قومي أقام في الحياة، وبعضهم أهاب به، أي دعاه، داعي الموت، والباقون سيتبعون

أمَّا الـمُـقـيـمُ فـأَخْـشَـى أن يُـفـارِقَـنـي ولـسـتُ أَوْبَـةَ مَـنْ وَلَّـى بِـمُـنْـتَـظِـرِ

الأوبة: الرجعة

لـولا تَـشَـاغُـلُ نَـفـسـيِ بِـالأُلَـى سَـلَـفُـوا مِـنْ أَهـلِ بـيـتِ رسـولِ الـلّـهِ لـم أَقِـرِ

لولا انشغال فكري بمن سلف من آل البيت لما استقر بي الحال ولانشغلت بمن مات من أهلي. . المعنى الملموح

أَرى أُمَـيَّـةَ مَـعْـذُورِيـنَ أَنْ قَـتَـلُـوا ولا أَرَى لِـبَـنـيِ الـعَـبَّـاسِ مِـنْ عُـذُرْ

بنو أمية كانت لهم ثارات مع آل الرسول لذا قتلوا الحسين وغيره من بني علي، فما عذر بني العباس وقد قتلوا عدداً من العلويين؟

٢٢ اللطيف الخبير

ومِـنَ الـنـاسِ مَـنْ يَـحِـبُّـكَ حُـبَّـاً ظَـاهِـرَ الـوُدِّ لـيـس بِـالـتَّـقْـصـيـرِ
وإذا مـا خَـبِـرْتَـهُ شَـهِـدَ الـطَّـرْ فُ عـلـى حُـبِّـهِ بِـمَـا فـي الـضَّـمـيـرِ

الطرف: العين والنظر

وإذا مـا بَـحَـثْـتَـهُ قـلـتَ هـذا ثِـقَـةٌ لـيِ ورأسُ مَـالٍ كـبـيـرِ
فـإذا مـا سـأَلْـتَـهُ رُبْـعَ فَـلْـسٍ أَلْـحَـقَ الـوُدَّ بـالـلـطـيـفِ الـخـبـيـرِ

٢٣ الطوامير

يهجو ابن الزيات، ومدحه فلم يكافئه بما يرضيه، بل كان يستمع إلى المدح وهو يقلب لفافة ورق ويدنيها من شفته:

يـا مَـنْ يُـقَـلِّـبُ طُـومَـاراً ويَـلْـثِـمُـهُ مـاذا بـقـلْـبِـكَ مِـنْ حُـبِّ الـطَّـوامـيـرِ

الطومار: الورقة الملفوفة بهيئة أسطوانة، كالتي نراها في المسلسلات التاريخية، يلثمه: يقبله

فـيـهِ مَـشَـابِـهُ مِـنْ شَـيءٍ تُـسَـرُّ بـه طُـولاً بِـطُـولٍ وتَـدْوِيـراً بِـتَـدْوِيـرِ

٢٤ السخاء الحق

لَئِنْ كنتَ لا تُولي يَداً دونَ أَمْرَةٍ　　فَلسْتَ بِمُولٍ نائِلاً آخِرَ الدَّهْرِ

إن كنت لا تولي، تعطي، يداً، نعمة، دون أمرة، أي رخاء وسعة في العيش، فلن تعطي نائلاً، عطاء، لأحد أبداً

فأَيُّ إِنَاءٍ لم يَفِضْ عندَ مَلْئِهِ　　وأيُّ بَخيلٍ لم يُنِلْ ساعَةَ الوَفْرِ

الإناء يفيض بشكل طبيعي عندما يمتلئ والبخيل إذا أثرى جداً فهو يعطي.. هذا ليس بالسخاء.. هذا مجرد تفريغ..

وليس الفَتى المُعْطِي على اليُسْرِ وَحدَهُ　　ولكنه المُعْطِي على العُسْرِ واليُسْرِ

الذي يعطي فقط عندما يكون موسراً لا يعد سخياً..
فالسخي حقاً من يعطي في حالي العسر واليسر

٢٥ أهزوجة

قال يهجو أبا سعد المخزومي:

يا أَبَا سَعْدِ قَوْصَرَةْ　　زَانِيَ الأُخْتِ والمَرَةْ

القوصرة: صندوق من قصب للتمر، وكانت الكلمة لقب أبي سعد المخزومي

أَبَدَ الدَّهرِ خَلْفَهُ　　فَارِسٌ في المُؤَخَّرَةْ

٢٦ دماؤهم مطلولة

يهجو مالك بن طوق:

دماؤُهُمْ ليس لها طَالِبٌ　　مَطْلُولَةٌ مِثْلَ دَمِ العُذْرَةْ

دماء قومك لا يطالب بها أحد فهي مطلولة، مهدورة، مثل دم العذرة، البكارة..
فأنتم ضعاف جبناء لا تأخذون بثأركم

وُجُوهُهُمْ بِيضٌ وأَحْسَابُهُمْ　　سُودٌ وفي آذانِهِمْ صُفْرَةْ

٢٧ الخطيب الأخرس

مَا كنتُ إذ طَلَبَتْ يَداي بِكَ الغِنَى　　إلَّا كَطالِبِ خُطْبَةٍ مِنْ أَخْرَسِ

كنت إذ طلبت منك مالاً كمن يطلب من الأبكم الأخرس أن يلقي خطبة

يا رَبِّ، إنَّ غِنَى اللئيمِ يَسوءُني　　فاصرِفْ غِناهُ إلى الجَوادِ المُفْلِسِ

٢٨ عصا لا سيف

يهجو أبا نصر بن حميد الطوسي:

إِنِّـي هَـزَزْتُـكَ لا آلُـوكَ مُـجتَـهِـداً   لو كنتَ سيفاً، ولكنِّي هَزَزْتُ عَصَا

هززتك للعطاء، مدحتك وحثثت أريحيتك على العطاء، لا آلوك، لا أقصر في الهز.. ظننتني أهز سيفاً ليقطع، فإذا بي أهز عصا

٢٩ مرتبات الجنود

يهجو إبراهيم بن المهدي، لما بويع بالخلافة وقل عنده المال فشغب عليه الجند:

يـا مَـعْـشَـرَ الأَجْـنـادِ لا تَـقْـنَـطُـوا   خُـذُوا عـطـايَـاكُـمْ ولا تَـسْـخَـطُـوا

أيها الجنود لا تيأسوا من نيل أعطياتكم

فـسـوف يُـعْـطِـيكُـمْ حُـنَـيْـنِـيَّـةً   يَـلْـتَـذُّهـا الأَمْـرَدُ والأَشْـمَـطُ

سيعطيكم هذا الذي نصب نفسه خليفة، وهو مغنٍّ، حنينية، أغنية لحنين، يطرب لها الجميع من أمرد لم تنبت لحيته وأشمط، اختلط بياض شعره بسواده

والـمَـعْـبَـدِيَّـاتُ لِـقُـوَّادِكُـمْ   لا تَـدخُـلُ الـكـيـسَ ولا تُـربَـطُ

والمعبديات، أغاني المطرب المشهور معبد، للقواد، وهي نقود لا تدخل الكيس ولا يربط الكيس عليها

وهـكـذا يَـرْزُقُ أصـحـابَـهُ   خـلـيـفـةٌ مُـصْـحَـفُـهُ الـبَـرْبَـطُ

هكذا يعطي الخليفة الذي مصحفة البربط، العود، أصحابه مرتباتهم

٣٠ كنت ذراعي وقطعتها

كتب بها إلى مسلم بن الوليد، وكان دعبل قصده بجرجان فجفاه مسلم:

أبـا مَـخْـلَـدٍ كُـنَّـا عَـقـيـدَيْ مَـوَدَّةٍ   هَـوانـا وقَـلـبـانـا جـمـيعاً معاً معا

كنا عقيدي مودة، كانت تربطنا وتعقد بيننا المودة

أَحُوطُكَ بِالوُدِّ الذي أنت حائِطِي   وأَيْـجَـعُ إشْـفـاقـاً لِأَنْ تَـتَـوَجَّـعـا

نتبادل الود، وأتوجع لما تتوجع منه

فَصَيَّرْتَنِي بعدَ انتِكاثِكَ مُتْهِماً   لِنَفسِي، عليها أَرْهَبُ الخلقُ أَجمَعا

فلما انتكثت، قطعت العهد، جعلتني أتهم نفسي بأنني فعلت فعلة شنعاء، وصرت راهباً لكل الناس قلقاً

فلا تَعْذُلَنِّي ليس لِي فيكَ مَطْمَعٌ   تَخَرَّقْتَ حتى لم أَجِدْ فيكَ مَرْقَعَا

فلا تلمني، لم يعد لي فيك مطمع، أمل،
فأنت كالثوب الذي تخرق حتى لم يعد يصلح فيه حتى الرقع

فَهَبْكَ يِمِينِي اسْتَأْكَلَتْ فاحْتَسَبْتُها   وجَشَّمْتُ قلبِي قَطْعَها فَتَشَجَّعَا

افترِضْ أنك ذراعي اليمنى وقد استأكلت، التهبت وسرى فيها الشلل، فاحتسبتُ أجرها عند الله
وجشمتُ قلبي عناء قطعها فتحمل

٣١ الشرب على ذكراهم

قالها في زياد الساقي:

يقولُ زِيادٌ قِفْ بِصَحْبِكَ مَرَّةً   على الرَّبْعِ. ما لِي والوَقُوفَ على الرَّبْعِ؟

لا يريد الوقوف على الأطلال

أَدِرْها على فَقْدِ الحبيبِ فرُبَّما   شربتُ على نَأيِ الأحبَّةِ والفَجْعِ

أدر الكأس ونحن نتذكر فقدنا للحبيب، وربما، أي كثيراً ما، شربت الخمر متذكراً نأي الأحبة
والفجع، حزن الفقد

فمَا بَلَغَتْنِي الكأسُ إلّا شربْتُها   وإلّا سقيتُ الأرضَ كأساً مِنَ الدَّمْعِ

٣٢ وضيع بالخلقة

يهجو يحيى بن أكثم:

رُفِعَ الكلبُ فاتَّضَعْ   ليس في الكلبِ مُصْطَنَعْ

اتضع: كان وضيعاً، مصطنع: مكان للمعروف

إنَّما قَصْرُ كلِّ شَيْ   ءٍ إذا طارَ أنْ يَقَعْ

قصر كل شيء: نهايته

لَعَنَ اللَّهُ نَخْوَةً   صارَ مِنْ بعدِها ضَرَعْ

النخوة: التكبر، الضرع: الذلة

٣٣ ضيف على الضيف

يا تارِكَ البيتِ على الضيفِ   وهارِباً مِنْهُ مِنَ الخوفِ
ضيفُكَ قد جاءَ بِزادٍ لهُ   فارجِعْ وكُنْ ضَيْفاً على الضيفِ

٣٤ الشكر للوسيط

قال وقد شفع له رجل في مسألة:

وإن امْـرَأً أَسْـدَى إلـيَّ بِـشَـافِـعٍ إِلَيْهِ، ويَرْجُو الشُّكْرَ مِنِّي لَأَحْمَقُ

الذي يسدي إلي، يعطيني مالاً، بعد أن اتخذت إليه شافعاً، واسطة، ثم يرجو مني أن أشكره أحمق..

شَفِيعَكَ فاشْكُرْ في الحوائجِ إنه يصونُكَ عن مكروهِها وَهْوَ يَخْلُقُ

المرء يشكر شفيعه، واسطته، لأن الشفيع يصون وجهك عن ذل السؤال، ويخلق وجه نفسه، يذل نفسه وهو يشفع لك

٣٥ عشَّمتَني

استدعى والٍ من بني هاشم دعبلاً إلى الشام فجاءه دعبل، فجفاه الهاشمي:

دَلَّـيْـتَـنـي بِـغُـرورٍ وَعْـدِكَ فـي مُـتَـلاطِـمٍ مِـنْ حَـوْمَـةِ الـغَـرَقِ

دليتني كالدلو في حومة الماء المتلاطم الموج إذ غررتني وخدعتني بوعدك..

وحَـسِـبْـتَـنـي فَـقْـعـاً بِـقَـرْقَـرَةٍ فَـوَطِـئْـتَـنـي وَطْءاً عـلـى حَـنَـقِ

ظننتني حقيراً كالفقع، الفطر النابت، في قرقرة، الأرض السهلة، فوطئتني، دست عليّ على حنق، بقسوة

وظَـنَـنْـتَ أرضَ الـلَّـهِ ضَـيِّـقَـةً عـنِّـي، وأرضُ الـلَّـهِ لـم تَـضِـقِ

مِـنْ غـيـرِ مـا جُـرْمٍ سِـوى ثِـقَـةٍ مِـنِّـي بِـوعْـدِكَ حـيـن قُـلْـتَ ثِـقِ

مـا أَطْـولَ الـدنـيـا وأعْـرَضَـهـا وأَدَلَّـنـي بِـمَـسَـالِـكِ الـطُّـرُقِ

٣٦ فاسق عن فاسق

قال في إبراهيم المهدي حين جعل نفسه خليفة:

إن كـان إِبْـرَاهـيـمُ مُـضْـطَـلِـعاً بِـهـا فَـلَـتَـصْـلُـحَـنْ مِـنْ بَـعـدِهِ لِـمُـخَـارِقِ

إن كان إبراهيم بن المهدي، وكان مغنياً، مضطلعاً بالخلافة، قادراً عليها، فلا جرم فهي تصلح بعد ذلك لمخارق المغني

أَنَّـى يـكـونُ ولـيـسَ ذاكَ بِـكـائِـنٍ يَـرِثُ الـخـلافـةَ فَـاسِـقٌ عـن فَـاسِـقِ

فكيف يرث الخلافة هذا الفاسق عن الفاسق الذي سبقه، محمد الأمين، وكان صاحب لهو أيضاً؟

٣٧ ضحك وبكاء

أيـنَ الـشَّـبـابُ وأَيَّـةً سَـلَـكَـا؟ لا، أَيْنَ يُطْلَبُ؟ ضَلَّ، بل هَلَكَا

أين الشباب، وأي طريق سلك وذهب؟ وهل يمكن طلبه واسترجاعه؟
لا، قد ضل، لا بل قد هلك هلاكاً

لا تَـعـجَـبـي يـا سَـلْـمَ مِـنْ رَجُـلٍ ضَـحِـكَ الـمَـشـيـبُ بِـرَأْسِـهِ فَـبَـكَـى

يا سلمى.. لا تعجبي من رجل ضحك رأسه بالمشيب، فقد ابيض شعره كابيضاض الوجه عندما يفتر المرء عن أسنانه ويضحك، فبكى الرجل لضحك المشيب برأسه. سئل أبو تمام، وكان خصماً لدعبل: ما نسب دعبل؟ فقال: دعبل صاحب ضحك المشيب برأسه فبكى، فهذا البيت البديع نسب لصاحبه

قـد كـان يَـضْـحَـكُ فـي شَـبـيـبَـتِـهِ فـأَتَـى الـمَـشـيـبُ، فَـقَـلَّـمَـا ضَـحِـكـا
يـا سَـلْـمَ مَـا بِـالـشَّـيْـبِ مَـنْـقَـصَـةٌ لا سُـوقَـةً يُـبْـقـي ولا مَـلِـكَـا

الشيب ليس عاراً فهو يلم بالسوقة، كل من لم يكن صاحب ولاية أو مُلك، وبالملك

يـا لـيـتَ شِـعـري كـيـفَ نَـوْمُـكُـمـا يَـا صَـاحِـبَـيَّ إذا دَمـي سُـفِـكَـا

كيف تنامان وقد قتلتني المحبوبة عشقاً؟

لا تَـأْخُـذَا بِـظُـلامَـتـي أَحَـداً قـلـبي وطَـرْفـي فـي دَمي اشْـتَـرَكـا

لا تأخذا أحداً بظلامتي، لا تثأرا من أحد.. فقلبي وعيني اشتركا في سفك دمي

٣٨ منك الرؤوس ومنهم السيوف

يهجو المطلب بن عبد الله الخزاعي والي مصر:

أَمُـطَّـلِـبٌ أنـتَ مُـسْـتَـعْـذِبٌ حُـمَـاتِ الأَفـاعـي ومُـسْـتَـقْـتِـلُ

أأنت ترى حمات الأفاعي، لدغاتها، عذبة، أتطلب لنفسك القتل بمعاداتي؟

فـإنْ أَشْـفِ مـنـكَ تَـكُـنْ سُـبَّـةً وإنْ أَعْـفُ عـنـكَ فـمـا تَـعـقِـلُ

إن شفيت نفسي منك بالهجاء فسوف يكون ذلك سبة وعاراً عليك، وإن عفوت عنك فستجن جنوناً.. المعنى الملموح

وَضَـعْـتَ رِجـالاً فَـمَـا ضَـرَّهُـمْ وشَـرَّفْـتَ قَـومـاً فـلـم يَـنْـبُـلُـوا

لقد وضعت رجالاً، أذللتهم، فما ضرهم ذلك، وشرفت قوماً فما صاروا نبلاء

تُـنَـوِّطُ مِـصْـرُ بِـكَ الـمُـخْـزِيـاتِ وتَـبْـصُـقُ فـي وجـهِـكَ الـمَـوْصِـلُ

تنوط، تعلق، مصر بك المخازي وتلفظك الموصل

وَيَومَ الشُّرَاةِ تَحَسَّيْتَها   يَطِيبُ لَدى مِثلِها الحنظَلُ

يوم تصديت للشراة، أي الخوارج، تحسيتها، شربتها هزيمة نكراء، وكانت مرة فالحنظل بالنسبة إليها طيب

تَوَلَّيْتَ رَكضاً وفِتْيَانُنا   صُدُورُ القَنا فيهِمُ تَعْسِلُ

فررت ركضاً على فرسك، وشبابنا تندق فيهم رؤوس الرماح وتعسل، تتحرك متمايلة

إذا الحربُ كنتَ أميراً لها   فحظُّهُمُ منكَ أن يُقْتَلُوا

فمِنْكَ الرُّؤُوسُ غَدَاةَ اللِّقَاءِ   ومِمَّنْ يُحَارِبُكَ المُنْصُلُ

المنصل: السيف

شِعارُكَ في الحربِ يومَ الوَغى   إذا انهزَمُوا: عَجِّلُوا عَجِّلُوا

٣٩ العنز

كتب إلى رجل بعث إليه بأضحيَّة مهزولة:

بعثْتَ إليَّ بِأُضْحِيَّةٍ   وكنتَ حَرِيّاً بِأَنْ تَفْعَلا

ولكنَّها خَرَجَتْ غَثَّةً   كأنَّكَ أَرْعَيْتَها حَرْمَلا

غثة: مهزولة، الحرمل: نبات كالسمسم لا ترعاه إلا المعزى

فإِنْ قَبِلَ اللَّهُ قُرْبَانَها   فسُبحانَ رَبِّكَ ما أعْدَلا

٤٠ سأخبرهم بالتأكيد

وكتب إلى عبد الله بن طاهر، وربما إلى أبي دلف العجلي:

ماذا أقولُ إذا انصرَفْتُ وقيلَ لي: ماذا أَفَدْتَ مِنَ الجوادِ المُفْضِلِ؟

إن قلتُ أَعطَانِي كذبْتُ، وإن أَقُلْ   ضَنَّ الجوادُ بِمالِهِ لم يَجْمُلِ

فاخْتَرْ لِنفسِكَ ما أقولُ فَإِنَّني   لا بُدَّ مُخْبِرُهُمْ، وإن لم أُسْأَلِ

٤١ ابن الجوادة

قال يرد على مروان بن أبي حفصة:

قُل لابنِ خَائِنَةِ البُعُولِ   وابنِ الجَوادَةِ والبَخيلِ

قل لمن أمه تخون أباه، ومن أمه سخية على عشاقها بينما أبوه بخيل بماله

إنَّ الـمَـذَمَّـةَ لِـلْـوَصِـيِّ - هِـيَ الـمَـذَمَّـةُ لـلـرَّسُـولِ

من يذم الوصي، علي بن أبي طالب، كمن يذم الرسول، وكان مروان ناصبياً شديد العداء للطالبيين

٤٢ الرغيف في أمان الله

إن هـذا الـفَـتـى يَـصُـونُ رغـيـفـاً   مـا إلـيـهِ لِـنـاظِـرٍ مِـنْ سـبـيـلِ

هُـوَ فـي سُـفْـرَتَـيْـنِ مِـنْ أَدَمِ الـطَّا   ئـفِ، فـي سَـلَّـتَـيْـنِ، فـي مِـنـديـلِ

الرغيف ملفوف بسفرتين، والسفرة هي ما يبسطه المسافر تحت طعامه، من أدم الطائف، من جلد الطائف، وموضوع في سلتين وهما ملفوفتان بمنديل

خُـتِـمَـتْ كـلُّ سَـلَّـةٍ بِـرصَـاصٍ   وسُـيُـورٍ قُـدِدْنَ مِـنْ جِـلْـدِ فـيـلِ

كل سلة مختومة بالرصاص ومربوطة بسيور، شرائط، قطعن من جلد فيل. . الختم بالرصاص ظل شائعاً حتى عهد قريب: يُربط الشيء، أنبوبة الغاز مثلاً، بسلك والسلك عليه معدن الرصاص الطري وعلى المعدن ختم

في جِرابٍ في جَوفِ تَابُوتِ مُوسى   والـمـفَـاتـيـحُ عـنـد إسْـرَافـيـلِ

إسرافيل هو الذي سينفخ في الصور يوم القيامة

٤٣ دينار خالي

سَـأَلْـتُـهُ مَـنْ أَبُـوهُ   فـقـال دِيـنـارُ خَـالـي

فـقـلـتُ ديـنـارُ مَـاذا؟   فـقـال والـي الـجـبـالِ

٤٤ بيت واحد ومقدمة له

سأَقضي بِبَيْتٍ يَحْمَدُ الناسُ أَمْرَهُ   ويَكْثُرُ مِنْ أهلِ الرِّوايَةِ حَامِلُهْ

يَموتُ رَديءُ الشعرِ مِنْ قبلِ أهلِهِ   وجَيِّدُهُ يـبـقَـى وإن مـاتَ قـائِـلُـهْ

٤٥ لعل له عذراً

تَـأَنَّ ولا تَـعْـجَـلْ بِـلَـوْمِـكَ صاحِـبـاً   لـعـلَّ لـهُ عُـذْراً وأنـتَ تَـلُـومُ

٤٦ معادلة

اِضْرِبْ نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ مُبْتَدِئاً   بِلُؤْمِ مُطَّلِبٍ فـيـنـا وكُـنْ حَـكَـمَـا

طلحة الطلحات: طلحة الخزاعي أحد الأسخياء المعدودين، والمطلب المهجو: المطلب بن عبد الله الخزاعي. المعنى: اخلط كرم طلحة بلؤم المطلب واحكم. .

تَخْرُجْ خُزَاعَةُ مِنْ لُؤْمٍ ومِنْ كَرَمٍ   فلا تَعُدُّ لها لُؤْماً ولا كَرَمَا

بعد هذا الخلط ستخرج قبيلة خزاعة لا لؤم لديها ولا كرم.. فبقدر ما عند طلحة من كرم يوجد عن المطلب لؤم

٤٧ المشغول بنسبه

قال يهجو مالك بن طوق التغلبي:

النَاسُ كلُّهُمُ يَسعَى لِحاجتِهِ   ما بين ذي فرَحٍ منهُمْ ومَغْمُومِ

ومَالِكٌ ظَلَّ مشغولاً بِنِسْبَتِهِ   يَرِمُّ منها خَراباً غيرَ مَرْمُومِ

نسبته: نسبه، يرم: يصلح

يبْنِي بُيوتاً خَراباً لا أَنِيسَ بِها   ما بينَ طَوْقٍ إلى عمْرِو بْنِ كُلْثُومِ

يحاول المهجو أن يصل نسب أبيه طوق بنسب شاعر تغلب الجاهلي عمرو بن كلثوم.. وبينهما زمن بعيد ومالك هذا يبني بين النسبين بيوتاً خربة لوصل طرفي النسب

٤٨ محمد للمسلمين

قال ينقض قصيدة الكميت التي هجا فيها اليمن:

أَفيقي مِنْ مَلامِكِ يا ظَعِينا   كفاكِ اللَّوْمَ مَرُّ الأَربَعِينا

أفيقي من لومك واتركيه يا ظعينَ، يا امرأة.. أما يغنيك عن لومي أنني جاوزت الأربعين؟

إذا لم تَتَّعِظْ بالشَّيْبِ نفسي   فما تُغني عِظاتُ الواعظينا

على أنِّي وإن وَقَّرْتُ شَيْبِي   أُشَاقُ إذا لَقِيتُ الوَامِقِينا

أوقر شيبي ولكنني أحس بشوق كلما التقيت بالوامقين، المحبين

وأَهْوى أن تُخَبِّرَني سُلَيْمَى   وأُخْبِرَها بِمَا كُنَّا لَقِينا

أَحَبُّ ذَخيرَةٍ وأَحَبُّ عِلْقٍ   إِلَيَّ الغانياتُ وإن غَنِينَا

أحب ما أدخره من ذكريات وأحب علق، شيء نفيس، إلى نفسي النساء حتى وإن غنين، استغنين عني

وكلُّ بُكاءِ رَبْعٍ أو مَشيبٍ   نُبَكِّيهِ فَهُنَّ بِهِ عُنِينا

كل بكاء نبكيه على أطلال أو لحلول المشيب فنحن نفعل ذلك لرغبتنا في النساء..

إيه يا دعبل.. إيه

أُحِبُّ الشَّيْبَ لَمَّا قيلَ ضَيْفٌ   لِحُبِّي للضُّيوفِ النَّازِلينا

ومـا نَـيْـلُ الـمَـكـارِمِ بِـالـتَّـمَـنِّـي ولا بـالـقـولِ يُـبْـلـي الـفَـاعِـلُـونـا

يبلي: يفعل

لـقـد عـلِـمَـتْ نِـزارٌ أنَّ قَـوْمـي إلـى نَـصْـرِ الـنُّـبُـوَّةِ سَـابِـقـيِـنـا

قبائل نزار تعلم أن قومي، خزاعة وهي من قبائل اليمن، سبقوا إلى نصر النبوة، فالأوس والخزرج من اليمن

تَـطَـهَّـرَ مِـنْ أفـاضِـلِـنـا رجـالٌ وحُـبُّ الـلَّـهِ لِـلـمُـتَـطَـهِّـرِيـنـا

وأنْـزَلَ آيـةً أن قَـاتِـلُـوهُـمْ يُـعَـذِّبْـهُـمْ بِـأيْـدِيـكُـمْ فُـنُـونـا

يشير إلى الآية: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» ونزلت في قتال المسلمين لمشركي قريش

وَيُـخْـزِهِـمُ ويَـنْـصُـرْكُـمْ عـلـيْـهِـمْ ويَـشْـفِ صُـدورَ قـومٍ مُـؤْمِـنـيِـنـا

يكمل الآية

فـإن قُـلْـتُـمْ رسـولُ الـلَّـهِ مِـنَّـا فـإنَّ مـحـمَّـداً لـلـمُـسْـلِـمـيـنـا

مِـنَ ايِّ ثَـنِـيَّـةٍ طَـلَـعَـتْ قُـريـشٌ وكـانـوا مَـعْـشـراً مُـتَـنَـبِّـطِـيـنـا

من أي ثنية، أي طريق جبلي، طلعت علينا قريش؟ وكانوا من المتنبطين، أشباه النبط الذين هم فلاحو العراق الكلدانيون الذي عوملوا أنصاف عبيد

٤٩ تعزَّ

تَـعَـزَّ فَـكَـمْ لَـكَ مِـنْ أُسْـوَةٍ تُـبَـرِّدُ عـنـكَ غَـلـيـلَ الـحَـزَنْ

تعز، التمس المواساة، فلك الكثير مما تتأسى به كي تبرد غليل حزنك، حرارته

بِـمَـوْتِ الـنـبـيِّ وقَـتـلِ الـوَصِـيِّ وذَبْـحِ الـحُـسَـيْـنِ وسَـمِّ الـحَـسَـنْ

موت النبي وقتل علي بن أبي طالب وذبح الحسين بن علي ووضع السم للحسن بن علي.. كل هذا يجعلك ترى مصائبك صغيرة

٥٠ دعاء على مدينة

قال في بناء سر من رأى:

بَـغْـدادُ دَارُ الـمُـلـوكِ كـانـتْ حـتـى دَهَـاهـا الـذي دَهَـاهـا

مـا سُـرَّ مَـنْ را بِـسُـرَّ مَـنْ را بـل هِـيَ بُـؤْسَـى لِـمَـنْ يَـراهـا

عَـجَّـلَ رَبِّـي لـهـا خَـرابـاً بِـرَغْـمِ أنْـفِ الـذي ابْـتَـنَـاهـا

والذي ابتناها المعتصم لجنوده الأتراك عندما ضاقت بهم بغداد

٥١ كانت خزاعة ملء الأرض

قال يرثي نصر بن حمزة الخزاعي:

كانتْ خُزَاعَةُ مِلْءَ الأرضِ ما اتَّسَعَتْ فقَصَّ مَرُّ اللَّيالي مِنْ حَواشِيها

قبيلتي خزاعة كان كبيرة فقص مرور الزمن أطرافها

هذا أبو القاسِمِ الثَّاوي بِبَلْقَعَةٍ تَسْفِي الرياحُ عليهِ مِنْ سَوافِيها

هذا أبو القاسم الثاوي، الراقد، في بلقعة، أرض مقفرة، تسفي الرياح عليه التراب

هَبَّتْ وقد عَلِمَتْ أنْ لا هُبُوبَ بِهِ وقد تكونُ حَسِيراً إذ يُبَارِيها

هبت الرياح الآن وهي تعلم أنها لم تكن تجرؤ على الهبوب وهو حي لأنه يباريها وينافسها فتصبح حسيراً، ضعيفة. . وكانوا يطعمون الطعام إذا هبت الريح وجفت ضروع الماشية لعدم العشب، واشتهر الأسخياء الذين يطعمون الطعام لهبوب الريح، ومنهم الشاعر لبيد

أَضْحَى قِرىً لِلمَنايا إذْ نَزَلْنَ به وكان في سالِفِ الأيامِ يَقْرِيها

بعد أن كان يطعم الناس أصبح الفقيد قرى للمنايا، طعاماً للموت، وكان في سالف الزمن يقري المنايا، يطعمها من لحم أعدائه

رَمَتْ خُزَاعَةُ عنها قَوْسَ نَجْدَتِها لَمَّا أَمَاطَ الرَّدَى السَّهْمَ الذي فيها

رمت خزاعة بموته القوس التي فيها نجدتها، شهامتها ونخوتها، عندما أماط الموت، أزال، السهم الذي كان في تلك القوس. فضل البحتري دعبلاً على مسلم بن الوليد لأن طريقته في الشعر أشبه بطريقة العرب. . وهذه القصيدة أبرع مثال للشعر على الطريقة القديمة، فإن سألك سائل عن الشعر الجزل، فلا تجب. . أنشِدْه هذه الأبيات

٥٢ السائل عن دارهم

يهجو مالك بن طوق:

سَأَلْتُ عنكُمْ يا بَنِي مَالِكٍ في نازِحِ الأَرْضِينَ والدَّانِيَةْ

سألت عنك في نازح الأرضين، الأراضي البعيدة، والدانية، القريبة

طُرَّاً فلم تُعرَفْ لكُمْ نِسْبَةٌ حتى إذا قلتُ بَنِي الزَّانِيَةْ..

طراً، جميعاً، فلم يعرفكم أحد. . ثم إنني قلت: بني الزانية. . فعرفوكم

قالوا فَدَعْ دَاراً على يَمْنَةٍ وتِلْكَها دَارُهُمُ ثَانِيَةْ

فقال لي الناس: أها. . اترك داراً عن اليمين، وتلك هناك دارهم الثانية

٥٣ قوة القصيدة

قال وقد حجب عن باب مالك بن طوق:

لَعَمْري لَئِنْ حَجَبَتْني العَبيدُ ... لَمَا حَجَبَتْ دونَكَ القافيهْ

حجبني عبيدك، ولكنهم لن يحجبوا شعر الهجاء عنك

سَأرمي بها مِنْ وراءِ الحِجا ... بِ شَنعَاءَ تأتيكَ بالدَّاهِيَهْ

تُصِمُّ السميعَ وتَعْمي البصير ... ويُسْأَلُ مِنْ مِثلِها العَافِيَهْ

الذي يسمعها سيقول: اللهم عافنا

٥٤ عيرتني بالشيب

تعجَّبَتْ أن رَأَتْ شَيْبي فقلتُ لها ... لا تَعْجَبي، مَنْ يَطُلْ عُمْرٌ به يَشِبِ

شَيْبُ الرِّجالِ لَهُمْ زَيْنٌ ومَكْرُمَةٌ ... وشَيْبُكُنَّ لَكُنَّ العَارُ فَاكْتَئِبي

فِينا لَكُنَّ وإن شَيْبٌ بَدا أَرَبٌ ... وليس فيكُنَّ بعدَ الشَّيبْ مِنْ أَرَبِ

الرجال يطلبون وصل المرأة وقد نزل بهم الشيب، وليس لهم أرب، غاية، عند امرأة شاب شعرها

٥٥ احتجاب ماتريوشكا

قال في هجاء كاتب:

إذا ما أَتَيْنَاهُ في حاجةٍ ... رفعْنا الرقاعَ له والكُتُبْ

له حاجِبٌ دونَهُ حَاجِبٌ ... وحَاجِبُ حاجِبِهِ مُحْتَجِبْ

٥٦ الإعضاض

في هجاء طاهر بن الحسين:

وذي يَمِينَيْنِ وعَيْنٍ وَاحِدَهْ

لقب المهجو ذو اليمينين

نُقْصَانُ عَيْنٍ ويَمِينٌ زَائِدَهْ

نَزْرُ العَطِيَّاتِ قليلُ الفائدهْ

نزر: قليل

أَعَضَّهُ اللَّهُ بِبَظْرِ الوَالِدَهْ

هذا من مسبات العرب أن يدعو المرء على غريمه بأن يعض ذلك الموضع من أم الغريم

٥٧ العُليجان

في هجاء دينار بن عبد الله ويحيى بن أكثم:

مَا زالَ عِصيانُنا للَّهِ يُسْلِمُنا حتى دُفِعْنا إلى يحيى ودينارِ

إلى عُلَيْجَيْنِ لم تُقْطَعْ ثِمارُهُما قد طَالَمَا سَجَدا للشمسِ والنارِ

إلى عليجين: إلى علجين من المجوس، لم تقطع ثمارهما: لم يختنا لأنهما أسلما كبيرين

٥٨ ضيف عمرو

أَضيافُ سَالِمَ في خَفْضٍ وفي دَعَةٍ وفي شرابٍ ولَحْمٍ غيرِ مَمْنوعِ

سالم يكرم ضيوفه فهم في خفض، أي نعمة، ودعة، راحة

وضُيْفُ عَمْرٍو وعُمْرٌو يَسْهَرانِ معاً عَمْرٌو لِبِطْنَتِهِ والضيفُ للجُوعِ

عمرو يسهر لبطنته، لكثرة ما أكل وضيفه يسهر من الجوع

٥٩ محتار مع ضيفي

كيفَ احتِيالي لِبَسْطِ الضَّيْفِ مِنْ خَجَلٍ عند الطعامِ؟ فقد ضَاقَتْ بهِ حِيلَي

كيف أفعل لكي ينبسط الضيف ويترك خجله عند الطعام؟ قد أعيتني الحيلة

أَخافُ تَردَادَ قَولي كُلْ فَأُحْشِمُهُ والصمتُ يُنْزِلُهُ مِنِّي على البَخَلِ

أخاف أن أردد قولي له: كل، فأحشمه، أخجله، وإن صمتُّ ظنني بخيلاً

٦٠ النذير بعزرائيل

ألقَى عَصَاهُ وأرخَى مِنْ عِمَامَتِهِ وقال: ضيفٌ، فقلْتُ: الشيبُ؟ قال أَجَلْ

كأي ضيف ألقى عصا التسيار، وفك العمامة.. فإذا به الشيب..

فقلتُ أَخطَأْتَ دارَ الحَيِّ، قال: ولِمْ؟ مَضَتْ لَكَ الأَرْبَعُونُ الوُفْرُ، ثم نَزَلْ

قلت له أخطأت البيت، قال: لمَ هذا؟ لقد مضت لك أربعون سنة وافرة.. ثم نزل بي هذا الضيف

فمَا شَجِيتُ بِشَيْءٍ ما شَجِيتُ به كأنمَّا اعتَمَّ منهُ مَفْرِقي بِجَبَلْ

ما شجيت بشيء، حزنت له، مثلما حزنت بنزول الشيب،
فكأنما اعتم رأسي، تعمم بعمامة، هي الجبل ثقلاً

٦١ هي وساوس فقط

لا تَحْمَدَنْ حَسَناً بالجودِ إن مَطَرَتْ كَفَّاهُ جَزْلاً ولا تَذْمُمْهُ إن رَزَمَا

لا تشكر «الحسن» على جوده إن مطرت كفاه بالعطاء الجزل، ولا تعبه إن رزم: ضم يده ولم يخرج شيئاً

فَلَيسَ يَبخَلُ إشفَاقاً على جِدَةٍ ولا يَجُودُ لِفضلِ الجُودِ مُغتَنِما

فهو لا يبخل إشفاقاً، أي خوفاً، على جدةٍ، على مال، ولا يسخو اغتناماً منه لفضل السخاء

لكنَّها خَطَراتٌ مِنْ وَساوِسِهِ يُعطي ويَمْنَعُ لا بُخْلاً ولا كَرَما

هي كلها وساس تعترية فلا هو بخيل ولا هو كريم

٦٢ المهين نفسه

إذا مَا أَهَانَ امْرُؤٌ نفسَهُ فلا أَكْرَمَ اللَّهُ مَنْ يُكْرِمُهْ

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

ديكُ الجِنِّ الحِمْصِيّ
(١٦١هـ ـ ٢٣٥هـ)

في كثير من شعراء الشيعة اجتراء على الدين. كأنهم ـ في ظل حكم يتخذ السنة طريقاً ـ يتمردون على الحاكم وعلى مذهبه، وربما أيضاً على الأكثرية التي كانت في بقاع وعصور شتى على مذهب السنَّة. فتراهم لا يذكرون النبي إلا لأنه جد الحسين، ويتهاونون بالمعتقدات والعبادات، لأنها معقدات مشتركة بينهم وبين أهل السنة، فأين خصوصيتهم فيها؟ خصوصيتهم في أنهم لا يبجلون أبا بكر وعمر وعثمان، وفي أنهم يبكون الحسين بدموع أحر من التي يبكيه بها أهل السنة. وبكاء الحسين وعامة آل البيت فيه تنفيس عن «مظلومية» لا يفتأون يشعرون بها، وبعضها حق وبعضها مغالاة. وقد سار ديك الجن خطوة أخرى فأعلن شكه في صلب العقيدة. وقد سامحه أبو العلاء المعري فأدخله في «رسالة الغفران» الجنة، ربما لأنه كان مثله في هذا الأمر. وقد اهتم الشيعة حديثاً وقديماً بشعر ديك الجن اهتمام المسيحيين بشعر الأخطل، فكان في هذا الاهتمام حفظ لشعره واهتمام بالتنقيب عنه، وصنع له ديوانه بعض أبناء حمص واطَّلعنا من ذلك على ما صنعه مظهر الحجي (٢٠٠٤)، ولِمطلوب والجبوري نشرة للديوان (١٩٦٤).

على أن أهل السنة لم يقصروا في الاهتمام بشعر ديك الجن، ونظروا إليه من حيث هو شعر، هكذا فعل ابن خلكان في وفيات الأعيان.

ونحن في هذه المختارات لا نؤاخذ الشاعر على غلوه، وننظر إلى شعره. على أننا لا نحب في ديك الجن عنجهيته التي وصلت الذروة عندما قتل زوجته لمجرد أنه شك في إخلاصها.

ديك الجن الحمصي

هو عبد السلام بن رَغْبان. عربي الأصل، لكن جدّاً له سبي ـ ربما لأنه كان مع العرب الذين قاتلوا في جيش هرقل عند فتح الشام ـ فكان هذا الجد مولى قوم آخرين، أو لعله لم يكن، فنشأ ديك الجن غير معتز بنسبه العربي.

لقب ديك الجن لوصفه ديكاً أو لعينيه الخضراوين، وعاش في زمن الشعراء الكبار، فلقي أبا نواس وأبا تمام وعاصر البحتري، غير أنه لم يبرح حمص وجوارها. كان شاعر الأقاليم، ولم يحضر مجالس بغداد أيام كانت حاضرة الدنيا فقد عاصر ديك الجن، واعياً، هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق وحضر بضع سنوات من عهد المتوكل. كل هذا كان يحدث في بغداد وسامراء، وديك الجن قابع في حمص، قصاراه أن يلم بسَلَمِيَّة على بعد خمسين كيلومتراً فيمدح أخوين هاشميين وينال بعض العطاء. على أن شاعرنا ورث مالاً عن آبائه وأتلفه في ملذاته.

لئن لم يحظ ديك الجن بالشهرة لعدم وروده دار الخلافة فإنه حازها من طريق آخر. فقد قتل زوجته وحبيبته وقال في ذلك شعراً استطرفه الناس على مر الزمن وتناقلوه، وحاكوا حوله الأساطير.

تزوج فتاة نصرانية اسمها «ورد»، أو أن اسمها كان «دنيا»، واتهمها بخيانته فقتلها بسيفه دون أن يتثبت، فعاش مضطرب النفس، غير مستقر على يقين في أمرها. وليعش مضطرب النفس أو ليعش في جحيم، أليس قاتلاً؟ فأما تراثنا الأدبي ـ وأكاد أقول كله ـ فقد جعله بطلاً عاشقاً، وما رأيت أحداً التفت إلى أن هذا الشاعر الخليع المتوتر إنما ارتكب جريمة.

كان صاحب ملذات، قليل الإيمان بالآخرة، متشيعاً تشيعاً وصفوه بالحسن، وكان صحيح اللغة محلق الخيال، آخذاً في الشعر بمذهب مسلم بن الوليد في الاعتناء بالمحسنات، وقيل إنه كان قدوة أبي تمام. وقد اقتطف المتنبي من حديقته عدداً من المعاني.

١ مِشية الصهباء

وكأسِ صهباءَ صِرْفٍ ما سَرَتْ بِيَدٍ　　إلى فمٍ فَدَرَى ما طَعْمُ ضَرَّاءِ

رب كأس صهباء، خمر، صرف، خالصة غير ممزوجة، ما سرت، مشت، من يد إلى فم فدرى هذا الفم طعم الضراء، الأذى

كأنَّ مِشيَتَها في جِسْمِ شارِبِها تَمَشِّيَ الصبحِ في أحشاءِ ظَلْمَاءِ

كأن مشيها التدريجي في جسم شاربها تسلل الصبح إلى أحشاء الظلمة

٢ مسؤول الصيانة

والسَّرْوُ تَحْسَبُهُ العيونُ غَوانِياً قد شَمَّرَتْ عن سوُقِها أثوابَها

السرو: شجر يسمق عالياً نحيلاً مستقيماً، والسوق: السيقان

ونَبَاتُ باقِلَّاءَ يُشبِهُ لونُه زُرْقَ الحَمامِ مُشيِلَةً أذنابَها

مشيلة: رافعة

لو كنتُ أَمْلِكُ لِلرياضِ صِيانةً يوماً لَمَا وَطِئَ اللِّئامُ ترابَها

لو ملكت أن أصون الرياض لصنتها عن دخول اللئام إليها

٣ لا أريد أجراً

يرثي جعفر بن علي الهاشمي:

أَلَا أيها الرُّكْبانُ، والرَّدُّ واجِبُ، قِفُوا حَدِّثُونا ما تقولُ النَّوادِبُ

قفوا أيها الراكبون إبلكم، وحدثونا بما تقوله النادبات في تعداد محاسن الفقيد

أَخاً كنتُ أَبكيهِ دَماً وَهْوَ نائمٌ حِذاراً، وتَعْمَى مُقْلَتي وَهْوَ غائِبُ

كان لي أخاً، وكنت أبكيه دماً وهو نائم خوفاً عليه، وأما إن غاب فمقلتي تصاب بالعمى لشدة حزني عليه..

أَأَسْعَى لِأَحْظَى فيكَ بالأَجْرِ إنَّه لَسَعْيٌ إذنْ مِنِّي لدى اللَّهِ خَائِبُ

والآن إذ مات هل أسعى في تشييعه طمعاً بأن أنال أجراً عليه؟ هذا سعي خائب

يقولونَ: مِقْدارٌ على المرءِ واجبٌ فقلت: وإِعْوالٌ على المرءِ وَاجِبُ

يقولون الموت مقدر على الإنسان واجب الحدوث، وليس للمرء أن يبالغ في الحزن، فقلت لهم: والإعوال عليه واجب أيضاً

٤ شقيقة القمر

ومَجْدُولةٍ أمَّا مَلاثُ إِزَارِها فَدِعْصٌ، وأما قدُّها فقضيبُ

رب فتاة مجدولة القد، ملاث إزارها دعص، أي موضع لف التنورة من جسمها ككثيب الرمل، وقدها قضيب، غصن

لهَا القمرُ السَّاري شَقيقٌ، وإنَّها لَتَطْلُعُ أحياناً له فيغيبُ
القمر شقيقها وقد تطلع هي فيغيب حتى لا يقارن الناس بينه وبينها فتكون أجمل منه

٥ حليب الجمر

ودَمعةٌ في الخدِّ مَسفُوحَةٌ كأنها مِن جمرةٍ تُحْلَبُ
كأن الدمعة، لحرارتها، تُحلب من جمرة

ما امتَنَعَ الدمعُ وإسبالُهُ عليَّ لَمَّا امتَنَعَ المَطْلَبُ
عندما امتنع حصولي على مطلبي من وصل الحبيبة فلن يمتنع علي إسبال الدمع وإسالته

٦ العارفون بقدري

ما شدَّةُ الحِرصِ مِن شأني ولا طَلَبِي ولا المكاسِبُ مِن هَمِّي ولا أَرَبي
الحرص على العطاء ليس شأني، والمكاسب المادية ليس أربي، أي غايتي

لكنْ نَوائِبُ نَابَتني وحادِثةٌ والدهرُ يَطْرُقُ بِالأحداثِ والنُّوَبِ
لكنني أصبت بنوائب ونوب، أي بمصائب

وليس يَعرِفُ لي قَدْري ولا أدبي إلَّا امْرُؤٌ كانَ ذا قَدْرٍ وذا أَدَبِ
لا يُفْلِتَنَّكَ شُكرِي إذْ ظَفِرْتَ به فإنَّها فُرْصَةٌ وَافَتْكَ مِن كَثَبِ
إن واتتك فرصة لنيل شكري، أي مدحي لك، فلا تفوتها

٧ زواج الطيور

مَن عَاشَ في الدنيا بغيرِ حبيبِ فحياتُه فيها حياةُ غريبِ
أَوَما تَرى الطَّيْرينِ كيف تَزاوَجا من غيرِ خَاطِبةٍ وغيرِ خَطيبِ

٨ عن أبي بكر وعمر

يا عينُ لا لِلغَضَا ولا الكُثُبِ بُكا الرَّزَايا سوى بُكَا الطَّرَبِ
لا تبكي يا عيني لشجر الغضا وكثبان الرمل حيث الأحبة، فبكاء الرزايا، المصائب الحقيقة، غير بكاء الطرب، أي الحزن لفراق الأحبة

يا عينُ في كَربلا مَقَابِرُ قد تَرَكْنَ قلبي مَقَابِرَ الكُرَبِ
في كربلاء مقابر لآل البيت جعلت قلبي مقبرة دفن فيها الكرب والحزن

لا بُدَّ أن يُحْشَرَ القتيلُ وأنْ يُسْأَلَ ذُو قَتْلِهِ عن السببِ

لا بد أن يحشر الله القتيل وأن يسأل ذو قتله، الذي قتله، عن سبب القتل

ما كانَ تَيْمٌ لِهَاشِمٍ بِأَخٍ ولا عَدِيٌّ لِأَحْمَدٍ بِأَبِ

تيم، جد قبيلة أبي بكر الصديق، ليس أخاً لهاشم، جد قبيلة هاشم التي منها الرسول، ولا عدي، جد قبيلة عمر بن الخطاب، من آباء أحمد، أي الرسول

قَاما بِدعْوَى في الظُّلْمِ غَالِيةٍ وحُجَّةٍ جَزْلَةٍ مِن الكَذِبِ

قام الصديق وعمر بدعوى، هي طلب الخلافة، وهي ظالمة، وحجتهما فيها جزلة، صلبة كبيرة لكنها كاذبة

٩ القاتل الحزين

ليتَني لم أكُنْ لِعطفِكِ نِلْتُ وإلى ذلكَ الوِصالِ وَصَلْتُ

ليتني ما كنت أحببتك

قال ذُو الجهلِ قد حَلُمْتَ ولا أَعْـ ـلَمُ أنِّي حَلُمْتُ حتَّى جَهِلْتُ

الجاهل ظنني حلمت، صرت عاقلاً، لكنني ما عقلت حتى وقعت في الجهل، أي التهور

لائِمٌ لي بِجَهْلِهِ، ولِمَاذا أنَا وَحدي أَحْبَبْتُ ثم قَتَلْتُ

يلومني جاهلاً ويقول إنني أنا وحدي من أحب ثم قتل المحبوبة.. فهو لا يعرف السبب

سوف آسَى طولَ الحياةِ وأَبْكِيـ ـكِ على ما فعلْتِ لا ما فعلْتُ

سآسى، سأحزن، على فعلت أنتِ لا ما فعلتُ أنا

١٠ حدود المعشوقين

أعشَقُ المُرْدَ والنَّكارِيشَ والشِّيـ ـبَ، وعِندي مِثْلُ البَنينَ البَناتُ

المرد: الفتية لم ينبت لهم شعر وجه بعد، النكاريش: الملتحون من الشباب، ولا فرق عندي بين البنين والبنات

حَدُّ ما يُشْتَهى ويُعْشَقُ عِندي حَيَوانٌ تَحِلُّ فيهِ الحَياةُ

الحمد لله أنه لم يدخل النبات في المعادلة!

١١ ما فوق الشهوة الحيوانية

حَدُّ ما يُنْكَحُ عِندي حَيَوانٌ فيه روحُ

أنَـا مِـن قَـولـي مَـلـيِـحٌ أو قَـبـيـحٌ مُـسـتَـريـحُ

ليس عندي قبيح ولا مليح

كـلُّ مَـن يَـمـشـي عـلـى وجْـ ـهِ الـثَّـرَى عِـنـدي مَـلـيـحُ

١٢ مقت الحاسدين

فلو قالتِ الأيامُ هل لكَ حاجةٌ لقلتُ لها أن لا يُسَرَّ حَسودُ

١٣ رثاء ديك الإنس

دعَانا أبو عَمْرٍو عُمَيْرُ بنُ جعفرٍ على لَحْم دِيكٍ دَعْوَةً بعدَ مَوْعِدِ

فقدَّمَ دِيكاً عُدْمُلِيّاً مُلَدَّحاً مُبَرْنَسَ أثوابٍ مُؤَذِّنَ مَسجِدِ

قدم لنا ديكاً عدملياً، عتيقاً، ملدَّحاً، مضروباً جريحاً، مبرنس أثواب، ثوبه من الريش له برنس أي غطاء رأس هو عرف الديك، والديك يصيح وقت الفجر فهو كمؤذن المسجد

أَيُذْبَحُ بينَ المسلمينَ مُؤَذِّنٌ مُقيمٌ على دينِ النبيِّ محمدِ؟

١٤ جس الطبيب

ودَّعتُها ولهيبُ الشوقِ في كَبِدي والبينُ يُبعِدُ بين الروحِ والجَسَدِ

فكانَ أولُ عهدِ العينِ يومَ نَأَتْ بِالدمعِ آخرَ عهدِ القلبِ بِالجَلَدِ

أول عهد عيني بالدمع لفراقها هو آخر عهد قلبي بالجلد، أي الصبر

جَسَّ الطبيبُ يَدي جَهلاً فقلتُ له: إن المحبَّةَ في قَلبي فَخَلِّ يَدي

١٥ رثاء المحبوبة القتيلة

قال يرثي زوجته بعد أن قتلها:

أَساكنَ حُفرةٍ وقرارِ لَحْدِ مفارقَ خُلَّةٍ مِنْ بَعدِ عهدِ

خلة: حبيب

أَجِبْني إن قَدَرْتَ على جوابي بِحَقِّ الوُدِّ كيف ظَلِلْتَ بَعدي

وأين حَلَلْتَ بعد حُلولِ قَلبي وأَحشائي وأَضْلاعي وكِبْدي

أَمَا واللّهِ لو عَايَنْتَ وَجْدي إذا اسْتَعْبَرْتُ في الظَّلْماءِ وَحدي

لو رأيت وجدي، حزني، إذا استعبرت، بكيت، في الظلمة وحدي

وَجَدَّ تَنَفُّسي وعَلا زَفيري وفاضَتْ عَبْرَتي في صَحْنِ خَدِّي
إذَنْ لَعَلِمْتَ أنِّيَ عن قَريبٍ ستُحْفَرُ حُفرتي ويُشَقُّ لَحدي
ويَعْذِلُني السَّفيهُ على بكائي كأنِّيَ مُبْتَلىً بالحزنِ وَحْدي
يقولُ: قَتَلْتَها سَفَهاً وجَهْلاً وتَبْكيها بُكاءً ليس يُجْدي
كَصَيَّادِ الطُّيورِ له انتِحابٌ عليها وَهْوَ يَذْبَحُها بِحَدِّ

١٦ تناولها من خده

بِها، غيرَ مَعذُولٍ، فَدَاوِ خُمَارَها وصِلْ بِعَشِيَّاتِ الغَبُوقِ ابتِكارَها

عالِج الخمار، أي صداع الخمر، بشرب مزيد من الخمر، وصل عشيات الغبوق، والغبوق شراب المساء، بالابتكار صباحاً والشرب

ونَلْ مِن عَظيمِ الوِزْرِ كلَّ عظيمةٍ إذا ذُكِرَتْ خافَ الحَفيظانِ نارَها

نل الذنب العظيم الذي يخاف حتى الحفيظان، الملكان القائمان على كتفيك، من النار التي ستشويك شياً بسبب هذه الذنوب

فقامَ تكادُ الكأسُ تُحرِقُ كَفَّهُ مِن الشمسِ أو مِنْ وَجْنَتَيْهِ استعَارها

قام المحبوب وبيده الكأس وفيها خمرة تلقي بلونها على كفه فكأنها تكاد تحرقها.. وكأنه استعار هذه الخمر من الشمس أو من وجنتيه الحمراوين

ظَلَلنا بِأيْدينا نُتَعْتِعُ رُوحَها فتَأْخُذُ مِن أقدامِنا الرَّاحُ ثَارَها

نتعتع، نهز بعنف، ونهلك الخمر إذ نشربها، ولكنها تثأر من أقدامنا وتجعلنا نمشي متمايلين سكراً

مُوَرَّدَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كأنَّما تَناوَلَها مِن خَدِّهِ فَأَدَارَها

قيل مر أبو نواس بحمص في طريقه إلى مصر، فعرج على ديك الجن، فلم يخرج إليه شاعرنا حتى لا يظهر أنه مقصر بالنسبة إلى أبي نواس، فقال أبو نواس للجارية: قولي له إنك فتنت أهل العراق بقولك «تناولها من خده فأدارها» فخرج ديك الجن واستقبل أبا نواس

١٧ النائم والصاحي

مَن نامَ لم يَدْرِ طالَ النَّوْمُ أم قَصُرا لا يعرفُ الليلَ إلَّا عاشقٌ سَهِرا

١٨ هجاء

وقال يهجو ابن عمه أبا الطيب:

سبحانَ مَنْ يُمْسِكُ السماءَ على الـ أرضِ وفيها أَخْلاقُكَ القَذِرَةْ

١٩ اسألا أو لا تسألا

سَلا هل كَمَجْدي أو كَفَخْرِي لِفَاخِرٍ   وعندكُما مِنْ قبلِ أن تَسأَلا خَبَرْ

٢٠ الحق أبلج

وقال يمدح علياً ويرثي آله:

ما أنتِ مِنِّي ولا رَبْعاكِ لي وَطَرُ   الهَمُّ أَمْلَكُ بي والشوقُ والفِكَرُ

الحبيب وربوع الحبيب ليست وطري، فقد ملكني الهم والشوق والتفكير

ورَاعَها أنَّ دمعاً فاضَ مُنتَثِراً   لا، أو تَرَى كَبدي لِلحُزْنِ تَنتَثِرُ

راعها، أفزعها حزناً، أن ترى دمعي منتثراً على خديَّ، لا يكفيني هذا وجدير بها أن ترى كبدي تتشقق وتنتثر حزناً

أينَ الحسينُ وقَتلَى مِنْ بَنِي حَسَنٍ   وجَعفرٍ وعَقيلٍ غَالَهُمْ غَمِرُ

اغتال هؤلاء الطالبيين غمر، جاهل حاقد

قتلَى يَحِنُّ إليها البيتُ والحَجَرُ   شَوقاً، وتَبكيهِمُ الآياتُ والسُّوَرُ

الكعبة والحجر الأسود يحنان شوقاً لهؤلاء وتبكيهم آيات القرآن وسوره

مَاتَ الحسينُ بِأَيْدٍ مِن مَغائِظِها   طُولٌ عليهِ وفي إشْفَاقِها قِصَرُ

مات الحسين بأيد طويلة لكثرة غيظها، ولكنها كانت قصيرة عن أي إشفاق أو رحمة

لا دَرَّ دَرُّ الأَعادِي عندما وَتَرُوا   ودَرَّ دَرُّكِ مَا تَحْوِينَ يا حُفَرُ

وتروا: أنهضوا ثأراً

رِدُوا هنيئاً مريئاً آلَ فاطمةٍ   حوضَ الرَّدَى فارْتَضُوا بِالقتلِ واصطَبِرُوا

أَبكيكُمُ يا بَنِي بنتِ الرسولِ، ولا   عَفَّتْ مَحلَّكُمُ الأنواءُ والمَطَرُ

لا عفت محلكم، لا خربته، الأنواء، أي الأمطار

مَا لِي فَرَاغٌ إلى عثمانَ أَنْدُبُهُ   ولا شَجَانِي أبو بَكْرٍ ولا عمرُ

كَفَى بأنَّ أَنَاةَ اللَّهِ واقعةٌ   يوماً، ولِلَّهِ في هذا الوَرى نَظَرُ

المعنى الملموح: الله يمهل ولا يهمل

مَن ذا الذي كَلَّمَتْهُ البِيدُ والشَّجَرُ   وسَلَّمَ الرَّبُّ إذ نَادَاهُ والحَجَرُ

يصف مآثر علي بن أبي طالب ويعدد كراماته

حتى إذا أَبْصَرَ الأحياءُ مِن يَمَنٍ بُرهَانَهُ آمَنوا مِنْ بعدِما كَفَروا
أمْ مَن حَوى قَصَباتِ السَّبْقِ دُونَهُمُ يومَ القَليبِ وفي أَعْناقِهِمْ زَوَرُ

يوم القليب: يوم بدر حين دفن قتلى قريش في القليب أي البئر، وقد ازورَّت، أي مالت، أعناقهم

أم مَن رَسَا يومَ أُحْدٍ ثابتاً قدَماً وفي حُنَينٍ وسَلْعٍ بعدَما عَثَرُوا

سلع: جبل تحصن به المسلمون في غزوة الخندق، وعنده بارز عليٌ عمرو بن ود

أليس قامَ رسولُ اللّهِ يَخطُبُهُمْ وقال: مَولاكُمُ ذا أيُّها البَشَرُ
أَضَبْعُ غيرِ عَلِيٍّ كانَ رَافِعَهُ مُحمدُ الخيرِ أم لا تَعقِلُ الحُمُرُ؟

أما رفع الرسول ضبع علي، أي عضده، كي يراه الناس؟

دَعُوا التَّخَبُّطَ في عَشْواءَ مُظلِمةٍ لم يَبْدُ لا كَوكَبٌ فيها ولا قَمَرُ

عشواء: ليلة لا يبصر المرء فيها

الحقُّ أَبْلَجُ والأعلامُ واضِحَةٌ لو آمَنَتْ أَنْفُسُ الشَّانِينَ أو نَظَروا

أبلج: واضح، الأعلام: الجبال، الشانين: الشانئين الكارهين

٢١ خدور المعاصر

وراحٍ كَريحِ المِسْكِ يَنْزُو حَبَابُها كنَزْوِ الدَّبَى مَطبوخَةٍ بِالهَواجِرِ

الخمر ينزو حبابها، تقفز فقاقيعها، كقفز الدبى، أي الجراد، مطبوخة بالهواجر، أي أن الجراد محترٌّ من القيظ الشديد فلذا يقفز، وكذا ظن الأخطل، ونحن نظن الجراد قافزاً حتى لو في القطب الجنوبي

عَرُوسٌ تَبَدَّتْ في قَميصٍ مُعَصْفَرٍ وفي كِلَّةٍ صَفراءَ ذاتِ جَبائِرِ

الخمر بدت عروساً في قميص معصفر، مصبوغ بالعصفر الأصفر المحمر، ويصف العروس فهي داخل كلة صفراء ذات جبائر، أي ستار منصوب بعصيّ

أَتَتْنا بِها الدَّاياتُ في يومِ عُرْسِها تُزَفُّ إلينا مِن خُدُورِ المَعَاصِرِ

أتتنا الدايات، هنا الوصيفات، بالعروس وزفتها إليها.. لكن عروسنا لم تأت من خدور أهلها، والخدور هي الستور التي تختفي وراءها النساء في البيوت، بل جاءت عروسنا من خدور المعاصر.. إذ هي الخمر

٢٢ الصحراء

يا رُبَّ خَرْقٍ كأنَّ اللّهَ قالَ له إذا طَوَتْكَ رِقابُ القومِ فانْتَشِرِ

الخرق: الصحراء. والصحراء لا تشبه الثوب الذي تطويه فينطوي، بل أنت تطويها فتراها انتشرت أمامك.. هي بلا نهاية.

٢٣ سابقوك وما سبقوك

أَصبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ وأَبِيتُ مُنْطَوِياً على الجَمْرِ

بلابل الصدر: همومه

إن بُحْتُ يوماً طُلَّ فيهِ دَمي ولئنْ كَتَمْتُ يَضِقْ بِه صَدري

مِمَّا جَنَاهُ على أبي حَسَنٍ عُمَرٌ وصَاحِبُهُ أبُو بَكْرِ

أبو حسن: علي بن أبي طالب

جعلوكَ رابعَهُمْ أبا حسنٍ ظَلموا وربِّ الشَّفْعِ والوَتْرِ

«والشفع والوتر» من القرآن

وعلى الخِلافَةِ سابَقُوكَ ومَا سَبَقُوكَ في أُحُدٍ ولا بَدْرِ

٢٤ الضحك والبكاء

وتمايَلَتْ فَضَحِكْتُ مِن أَردَافِها عَجَباً، ولكِنِّي بَكَيْتُ لِخَصْرِها

اخترنا هذا البيت لترى سماجة الشعراء عندما يتغزلون بأرداف النساء

٢٥ الندم

قَمَرٌ أنا اسْتَخْرَجْتُهُ مِن دَجْنِهِ لِبَلِيَّتي وجَلَوْتُهُ مِن خِدْرِهِ

استخرجت هذا القمر من دجنه، أي ظلمته، فكأنه أخذ القمر من وسط السماء المظلمة المحيطة به، وكانت «ورد» فتاة مسيحية أحبها فتزوجها، ولكنه اكتشف أنه ابتلى نفسه. جلوته من خدره: أي أبرزته من الستر الذي تستتر به المرأة

فقَتلْتُهُ وله عَلَيَّ كَرامةٌ مِلْءَ الحَشا ولَه الفُؤادُ بِأَسْرِهِ

عَهدي به مَيْتاً كأَحْسَنِ نائِمٍ والحزنُ يَسْفَحُ عَبْرَتي في نَحرْهِ

يسفح عبرتي: يسكب دمعتي

لو كانَ يَدري المَيْتُ ماذا بعدَه بِالحَيِّ حَلَّ، بَكَى له في قَبْرِهِ

غُصَصٌ تَكادُ تَفيظُ منها نَفسُهُ وتكادُ تُخْرِجُ قلبَهُ مِن صَدْرِهِ

تفيظ النفس: تخرج بالموت

٢٦ نصف ندم

قُلْ لِمَنْ كانَ وَجهُهُ كَضِياءِ الشَّـ ـمْسِ في حُسْنِهِ وبَدْرٍ مُنيرِ

كنتَ زَيْنَ الأحياءِ إذْ كنتَ فيهِمْ   ثم قد صِرْتَ زَيْنَ أهلِ القُبورِ
بِأبي أنتَ في الحياةِ وفي المو   تِ وتَحتَ الثَّرى ويومَ النُّشُورِ

أفديك بأبي في حياتك وموتك وإذ أنت دفين، ويوم النشور، أي البعث

خُنْتَني في المَغيبِ والخَوْنُ نُكْرٌ   وذَميمٌ في سَالِفَاتِ الدُّهورِ
فَشَفاني سيْفي وأَسْرعَ في حَزِّ ـ   التَّراقي قَطْعاً وحَزِّ النُّحُورِ

التراقي: عظام أعلى الصدر

٢٧ قطرات النفس

ليسَ ذا الدمعُ دمعَ عيني، ولكنْ   هِيَ نفْسي تُذيبُها أنفاسي

٢٨ عين اللص

يرقُدُ الناسُ آمِنينَ ورَيْبُ الدَّ ـ   هرِ يَرعَاهُمُ بِمُقْلَةِ لِصِّ
أَنا أُحْصي فيك النُّجومَ، ولَكنْ   لِذُنوبِ الزَّمَانِ لَسْتُ بِمُحْصِ

ساهر بسببك أعد النجوم، وأما ذنوب الزمن الذي عذبني بحبك فلا حصر لها

٢٩ ندم بلا تبرير

وآنِسَةٍ عَذْبِ الثَّنايا وَجَدْتُها   على خَطَّةٍ فيها لِذي اللُّبِّ مَتْلَفُ

آنسة عذبة الثنايا، الأسنان، وجدت أنها تتلف عقل الإنسان

فَأَصْلَتُّ حَدَّ السيفِ في حُرِّ وجهِها   وقَلبِي عليها مِن جَوَى الوَجْدِ يَرْجُفُ

أصلتُّ السيف، أي جردته، وجعلته في حر وجهها، أي وسطه، وقلبي يرتجف وجداً وحباً لها

فَخَرَّتْ كما خَرَّتْ مَهَاةٌ أَصَابَها   أَخُو قَنَصٍ مُسْتَعجِلٌ مُتَعَسِّفُ

خرت، سقطت، كبقرة وحش أصابها أخو قنص، صائد، متعجل ومتعسف، ظالم

سيَقْتُلُني حُزناً عليها تَأَسُّفي   وهيْهَاتَ، ما يُجدي عَلَيَّ التَّأَسُّفُ

٣٠ المبتليك هو المعافي

إذا شَجَرُ المَوَدَّةِ لم تَجُدْهُ   سَماءُ البِرِّ أَسْرَعَ في الجَفَافِ

تجده: تمطره

هِيَ الدُّنيا وقد نَعِمُوا بِأُخرى وتَسويفُ النفوسِ مِن السَّوافِ

هذه دنيانا، ويتنعم الناس بتذكر الجنة في الآخرة، ولكن تسويف النفوس، تأخيرها، من السواف من الهلاك

فإنْ كَذَبُوا أَمِنْتُ وإن أَصَابوا فإنَّ المُبْتَلِيكَ هُوَ المُعافي

إن كذبوا بشأن الجنة فأنا آمن، وإن أصابوا وصدقوا فإن الذي ابتلاني بهذا الشك هو من يعافيني وينقذني من العذاب

وأَصْدَقُ مَا أَبُثُّكَ أنَّ قَلبي بِتصديقِ القِيامةِ غيرُ صَافِ

٣١ المقسومة نصفين

ومُمَشَّقِ الحَركاتِ تَحسَبُ نِصْفَهُ لولا التَّمَنْطُقُ مَائلاً عن نِصْفِهِ

لولا أنها تتخذ نطاقاً على خصرها لظننت جسمها مقسوماً نصفين

يَسعَى إلَيَّ بِكأْسِهِ فكأنَّما يَسعَى إلَيَّ بِدُرَّةٍ في كَفِّهِ

٣٢ رثاء الحسين

جَاءُوا بِرَأْسِكَ يا ابنَ بنتِ محمدٍ مُتَرَمِّلاً بِدمائِهِ تَرمِيلا

مترملاً : ملطخاً

وكأنَّما بَكَ يا ابْنَ بنتِ محمدٍ قَتَلُوا جِهاراً عَامِدينَ رَسولا

قتلوكَ عَطْشاناً ولَمَّا يَرْقُبُوا في قَتلِكَ التَّنزيلَ والتَّأْويلا

ويُكَبِّرونَ بِأَنْ قُتِلْتَ وإنَّما قَتَلُوا بِكَ التكبيرَ والتَّهليلا

٣٣ مقام علي

إنَّ الرسولَ لم يزلْ يقولُ والخيرُ ما قالَ به الرسولُ

إنَّكَ مِنّي يا عَلِيُّ الأبي بِحَيْثُ مِن مُوسَاهُ هَارونُ النَّبي

لكنَّهُ ليس نَبِيَّ بَعدي فأنتَ خيرُ العَالَمِينَ عِندي

وأنتَ لِي أخٌ وأنتَ الصِّهْرُ زَوَّجَكَ الذي إليهِ الأَمرُ

رَبُّ العُلَى بِفَاطِمِ الزَّهْراءِ ذاتِ الهُدى سَيِّدَةِ النِّساءِ

٣٤ تعزية

يعزي جعفر بن علي الهاشمي في زوجته:

نَـغْـفَـلُ والأيَّـامُ لا تَـغْـفَـلُ   ولا لـنـا فـي زَمَـنٍ مَـوْئِـلُ

موئل: ملاذ وملجأ

والـدهـرُ لا يَـسْـلَـمُ مِـنْ صَـرْفِـهِ   أَعْـصَـمُ فـي الـقُـنَّـةِ مُـسْـتَـوْعِـلُ

لا يسلم من مصائب الزمن الوعل الأعصم، تيس الجبل الذي في معاصمه أسفل القوائم بياض، المحتمي بالقنة، أي القمة

يَـتَّـخِـذُ الـشِّـعْـرى شِـعـاراً لـه   كـأنَّـمـا الأُفْـقُ لـه مَـنْـزِلُ

هذا الوعل يتخذ من الشعرى، بعض النجوم، شعاراً له، والشعار اللباس الداخلي الملاصق لشعر البدن

جـادَ عـلـى قـبـرِكَ مِـن مَـيِّـتٍ   بِـالـرَّوْحِ رَبٌّ لَـكَ لا يَـبْـخَـلُ

جاد: أمطر، الروح: الرحمة

غَـيـثٌ تَـرى الأَرضَ عـلـى وَبْـلِـهِ   تَـضْـحَـكُ إلَّا أنـه يَـهْـمُـلُ

جاد قبرها الغيث، المطر، الذي تضحك الأرض من وبله، انهماره، لأنها تخرج الرياحين غب المطر، على أن المطر يهمل، يبكي.. اصطياد متعب للطباق

٣٥ الفادي الشجاع

ومَـن كَـعَـلِـيٍّ فَـدَى الـمُـصـطـفَـى   بِـنَـفْـسٍ، ونـام فـمـا يَـحْـفِـلُ

افتدى علي النبي عندما نام في فراشه ليلة هجرة النبي من مكة

عَـشِـيَّـةَ جـاءتْ قُـريـشٌ لـه   وقـد هَـاجرَ الـمـصـطفى الـمرسَـلُ
ومَـنْ كَـعَـلِـيٍّ إذا مـا دَعَـوْا   نَـزَالِ، وقـد قَـلَّ مَـن يَـنْـزِلُ

دعوا نزالِ: صرخوا هيا للمبارزة

سَـطـا يـومَ بَـدْرٍ بِـقِـرْضَـابِـهِ   وفـي أُحُـدٍ لـم يَـزَلْ يَـحْـمِـلُ

قرضابه: سيفه، يحمل: يشن حملة على العدو

ومِـن بَـأْسِـهِ فُـتِـحَـتْ خَـيْـبَـرٌ   ولـم يُـنْـجِـهـا بَـابُـهـا الـمُـقْـفَـلُ

٣٦ ما الحب إلا للحبيب الأخير

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ فلن تَرى   كَهوىً جَديدٍ أو كَوَصْلٍ مُقْبِلِ

مِقَتي لِمَنزِلِيَ الذي استحدَثْتُهُ أمَّا الذي وَلَّى فليس بِمَنزِلي

مقتي: المِقَةُ هي الحب. وفي البيتين رد على أبي تمام القائل: نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب إلا للحبيب الأول

٣٧ إن لم تكن ذئباً

لا تَقِفْ للزمانِ في منزِلِ الضَّيْـ ـمِ، ولا تَسْتَكِنْ لِرِقَّةِ حَالِ

لا تقف موقف ضيم تكون فيه مضيماً مظلوماً، وإياك والاستكانة لرقة الحال، أي الفقر

وإذا خِفْتَ أن يُرَاهِقَكَ العُدْ مُ فَعُذْ بِالمُثَقَّفَاتِ العَوالي

إن خفت أن يراهقك، يرهقك باستمرار، العدم، أي الفقر، فعذ بالمثقفات العوالي، فالجأ إلى الرماح المشذبة

وأَهِنْ نفسَكَ الكَريمةَ لِلمو تِ وقَحِّمْ بِها على الأَهوالِ

قحم: اقتحم

فَلَعَمْري لَلموتُ أَزْيَنُ لِلحرِّ ـ مِنَ الذُّلِّ ضَارعاً لِلرجالِ

ضارعاً: ذليلاً

أيُّ مَاءٍ يَدورُ في وَجهِكَ الحرِّ ـ إذا ما امْتَهَنْتَهُ بِالسُّؤَالِ

ماء الوجه: الكرامة، امتهنته بالسؤال: أهنته بالاستجداء

غَاضَتِ المَكْرُماتُ وانقَرَضَ النا سُ، وبادَتْ سَحائِبُ الإفْضالِ

غاضت المكرمات، جفت كما تجف مياه البئر، وانقرض الناس الكرام، وبادت غيوم الفضل والسخاء

فَقليلٌ مِنَ الوَرى مَن تَراهُ يُرْتَجى، أو يَصُونُ عِرضاً بِمالِ

ذَهَبَ الناسُ فاطْلُبِ الرزقَ بِالسَّيْـ ـفِ، وإلَّا فَمُتْ شديدَ الهُزالِ

الناس، أي الناس الكرام، ومن هنا قول أحمد شوقي «أنتم الناس أيها الشعراء»

٣٨ التجمل بالحرام

أنا مَا لِي ولِلصِّيامِ وقد حا نَ على المسلمينَ شهرُ الصيامِ

تَاركاً لِلجِهادِ والحَجِّ والعُمْـ ـرَةِ والجِلِّ رَاغِباً في الحَرامِ

واسْقِني يا أخَا المُدامَةِ كأساً منكَ مَمزُوجَةً بِماءِ الغَمامِ

واقِـفـاً بـيــن فَـتْـكَـةٍ ومُـجـونٍ رَاقِـصاً فـي الـصَّـلاةِ خلفَ الإمامِ
أنـا لا أطــلــبُ الـحــلالَ لِأنِّــي قـد وجـدتُ الـحـرامَ خـيـرَ طَـعـامِ

٣٩ المختفي عشقاً

قـد سَـمِـعـتُـمْ أنـيـنَـهُ مِـن بَـعـيـدٍ فاطلُبوا الشخصَ حيثُ كانَ الأَنينُ

ابحثوا عن الشخص مستدلين عليه بأنينه

مـا تَـراهُ الـعـيـونُ إلَّا ظُـنـونـاً هُـوَ أَخْـفَـى مِـنْ أن تَـراهُ الـعـيـونُ

فهذا العاشق صار نحيلاً فلم يعد يبدو للعين.. سيسبح المتنبي بعد عقود كثيرة في هذه البركة

لـم يَـعِـشْ أنَّـه جَـلـيـدٌ ولـكِـنْ دَقَّ جِـدَّاً فـمـا تَـراهُ الـمَـنُـونُ

هذا العاشق لم يستمر في الحياة لأنه صبور، بل لأن جسمه دق، صغر، إلى درجة أن الموت لم يعد يراه. مبالغة طريفة

٤٠ طاقية الإخفاء

ولـو أنَّ أحـداثَ الـزمـانِ أَرَدْنَـنـي بِـخـيـرٍ وشَـرٍّ مـا عَـرَفْـنَ مَـكـانـي

لشدة هزال العاشق اختفى شخصه فلم تعد أحداث الزمن تعثر عليه

٤١ هو والصيام

ما زَال مِنْ بُغْضِ الصيامِ مُبَغَّضاً يـومُ الـخـمـيـسِ إلَـيَّ والإِثْـنـيـنِ

ومن أجبرك على صيامهما؟ قال الشاعر: إذا جحد الله والمرسلين فكيف نعاتبه في عمر؟

٤٢ أعرفُ نفسي

أيُّـهـا الـسـائـلُ عَـنِّـي لَـسْـتَ بـي أَخـبَـرَ مِـنِّـي
أنـا إنـسـانٌ بَـرانـي الـلـهُ فـي صـورةِ جِـنِّـي
بـل أنـا الأَسْـمَـجُ فـي الـعـيـنِ، فـدعْ عـنـكَ الـتَّـظَـنِّـي

التظني: التخمين

أنـا لا أَسْـلَـمُ مِـن نَـفـسـي فـمَـن يَـسْـلَـمُ مِـنِّـي

٤٣ خنت سري فموتي علانية

قال يتهم زوجته القتيلة بالخيانة:

لــــكَ نَـــفْـــسٌ مُـــوَاتِـــيَـــةْ والـــمَـــنَـــايَـــا مُـــعَـــادِيَـــةْ

نفسك مواتية، مقبلة على الحياة، ولكن الموت عدو يترصدك

أيُّـــهـــا الـــقـــلـــبُ لا تَـــعُـــدْ لِـــهـــوى الـــبـــيـــضِ ثَـــانِـــيَـــةْ

البيض: الحسان

لـــيـــس بَـــرْقٌ يـــكـــونُ أَخْـــ ـــلَـــبَ مِـــن بَـــرْقِ غَـــانِـــيَـــةْ

البرق الخلب، الذي لا يأتي بعده مطر، ليس أكثر خداعاً من الحسناء

خُـــنْـــتِ سِـــرِّي ولـــم أَخُـــنْـــ ـــكِ فَـــمُـــوتـــي عَـــلانِـــيَـــةْ

٤٤ رثاء أبي تمام

فُجِعَ القَريضُ بِخاتَمِ الشُّعَراءِ وغَديرِ رَوْضَتِها حبيبِ الطَّائي

ماتا معاً فتجاوَرَا في حُفْرَةٍ وكذاك كانا قبلُ في الأَحياءِ

٤٥ الدخول في الإيمان من النافذة

بِأَبي فَمٌ شَهِدَ الضميرُ له قبلَ المَذَاقِ بِأَنَّه عَذْبُ

أفدي بأبي فماً عذباً أحس بعذوبته قبل القبلات. الشاعر العربي كان يتغنى بالشفاه وبالقبلات وبالريق العذب، ونسي أن القبلة إنما تعذب إذا استقبلها ثغر الحبيبة مشتاقاً إليها، يقول المثل الإنجليزي: لا بد من اثنين لرقصة التانغو

كَشَهادَتي لِلَّهِ خالِصَةً قبلَ العِيَانِ بأنَّه رَبُّ

العيان: الرؤية

٤٦ فتنة الحواجّ

فوقَ العيونِ حَواجِبٌ زُجُّ تحتَ الحَواجِبِ أَعْيُنٌ دُعْجُ

زج: مزججات مدببات، الأعين الدعج: الواسعة السوداء في شدة بياض

وإذا نَظَرْنَ رَمَقْنَ عن مُقَلٍ تَسبي العيونَ فَحَشْوُها غُنْجُ

وَافَيْنَ مكةَ لِلحَجيجِ فلم يَسْلَمْ بِهِنَّ لِمُسلمٍ حَجُّ

٤٧ خوش حجة

يـا بَـديـعَ الـدَّلِّ والـغَـنَـجِ   لَـكَ سـلـطـانٌ عـلـى الـمُـهَـجِ
إنَّ بـيـتـاً أنـتَ سـاكِـنُـهُ   غـيـرُ مـحـتـاجٍ إلـى الـسُّـرُجِ

السرج: جمع سراج

وجهُـكَ الـمَـعـشـوقُ حُـجَّـتُـنـا   يـومَ يَـأْتـي الـنـاسُ بـالـحُـجَـجِ

إذا طلبت منا حجة يوم القيامة لتبرير عشقنا وتغزلنا فوجهك هو الحجة لأنه لا يقاوم، سنقول لله: خلقت مثل هذا الوجه وتريدنا ألا ننظر؟

٤٨ من خده تعصر

وقَـهْـوةٍ كَـوكَـبُـهَـا يَـزْهَـرُ   يَـنْـفَـحُ منـهـا الـمِـسْـكُ والـعَـنـبـرُ

يزهر: يضيء، قهوة: خمر، ينفح: تفوح رائحته

وَرْدِيَّـةٍ يَـحـمِـلُـهـا شـادِنٌ   كـأنَّـهـا مِـن خَـدِّهِ تُـعْـصَـرُ

الخمر وردية يحملها شادن، أي غزال، وخده أحمر فكأن الخمر عصرت من خده

٤٩ خرافة

أأتْـرُكُ لَـذَّةَ الـصَّـهـبـاءِ عَـمْـداً   لِـمَـا وَعَـدُوهُ مِـن لَـبـنٍ وخَـمْـرِ
حَـيـاةٌ ثـم مـوتٌ ثـم بـعـثٌ   حـديـثُ خُـرافَـةٍ يـا أمَّ عَـمْـرِو

خرافة: اسم رجل كان يحدث الناس بالمستحيلات، فسموا كل حديث مستحيل «حديث خرافة» ثم صاروا يقولون «خرافة»

٥٠ التعفير ثم السعير

قال في نصرانية:

لَـمَّـا نظَـرْتِ إلَـيَّ عن حَدَقِ الـمَـهـا   وبَـسَـمْـتِ عـن مُـتَـفَـتِّـحِ الـنَّـوَّارِ

نظرتِ إليَّ بعينيك المشبهتين عيون بقر الوحش الواسعة، وبسمت عن ثغر كأنه الزهر المتفتح

وعَـقَـدتِ بيـن قَـضيـبِ بـانٍ أَهْـيَـفٍ   وكـثـيـبِ رمـلٍ عُـقْـدَةَ الـزُّنَّـارِ

وعقدت بن جذعك الذي يشبه غصن البان وبين عجيزتك المشبهة كثيب الرمل بزنار

عَفَّرْتُ خَدِّي في الثَّرَى لَكِ طَائعاً   وعَـزَمْـتُ فيـكِ عـلـى دُخـولِ الـنَّـارِ

٥١ المبادرة

وحَمْراءَ قبلَ المزجِ صَفراءَ بعدَهُ أتَتْ بينَ ثَوْبَيْ نَرجِسٍ وشَقَائِقِ
يصف الخمر وكيف يتغير لونها بالمزج وأنها تقدم في مجلس فيه النرجس والشقائق

حَكَتْ وَجْنَةَ المعشوقِ صِرْفاً فَسَلَّطُوا مِزاجاً عليها فاكتَسَتْ لونَ عاشقِ
كانت حمراء كوجنة المعشوق، خده، فمع المزج صارت صفراء كلون المريض عشقاً

فقُمْ واغتَنِمْ واشربْ على كلِّ روضةٍ وفي كلِّ بستانٍ وبينَ الحدائقِ
فما العمرُ إلّا صِحَّةٌ وشَبيبةٌ وكأسٌ وقربٌ مِن حبيبٍ مُوافِقِ
ومَن عَرفَ الأيامَ لم يَغْتَرِرْ بها وبادَرَ بِاللَّذَّاتِ قبلَ العَوائِقِ

٥٢ موانع التوبة

يقولونَ: تُبْ والكأسُ في كَفِّ أَغْيَدٍ وصوتُ المَثانيِ والمَثالِثِ عَالِ
يقولون تب عن اللهو وأنا أرى الكأس في كف فتاة غيداء، متثنية غنجاً، وصوت المثاني والمثالث، الأنغام، عالٍ

فقلتُ لَهُمْ: لو كنتُ أَضْمَرْتُ تَوبَةً وعايَنْتُ هذا في المنامِ، بَدَا لي
قلت لهم: لو كنت نويت التوبة ثم رأيت هذا في المنام لبدا لي،
«بدا لي» معناها القديم «غيرت رأيي»

٥٣ حياة ثم موت ثم بعث

لا مُتِّ قَبْليَ، بل أَحيا وأَنْتِ مَعاً ولا أعيشُ إلى يومِ تَموتِينا
لكنْ نَعيشُ بِما نَهوى ونَأْمُلُهُ ويُرْغِمُ اللَّهُ فينا أَنفَ وَاشِينا
حتى إذا قَدَّرَ الرحمنُ ميتَتَنا وحانَ مِن أَمْرِنا ما ليس يَعْدُونا
ما ليس يعدونا: ما لن نفر منه

مُتْنا جَميعاً كَغُصْنَيْ بَانَةٍ ذَبُلا مِن بعدِ ما نَضَرا واسْتَوْسَقا حينا
استوسقا: أثمرا

ثم السَّلامُ علينا في مضاجِعِنا حتى نعودَ إلى ميزانِ مُنْشِينا
مضاجعنا: قبورنا، منشينا: خالقنا

فإن نَنَلْ عَفْوَهُ فالخُلْدُ يجمعُنا إن شاءَ، أو في لَظىً إن شاءَ يُلقِينا

حتى يقولَ جميعُ الخَالِدينَ بِها   يَا ليتَ أنَّا معاً كُنَّا مُحِبِّينا

سيحسدنا الخالدون في النار لأننا ظللنا معاً. كأنه واثق من أن هناك «اختلاطاً» في الجحيم!

٥٤ الأحلام والأماني

تَمَتَّعْ مِنَ الدنيا فإنكَ فَانِ   وإنَّكَ في أيدي الحوادثِ عَانِ

عان: أسير

فإنِّي رأيتُ الدهرَ يُسرعُ بالفَتى   وينقُلُه حَالَيْنِ يَختلفانِ
فأمَّا الذي يَمْضي فأحلامُ نائِمٍ   وأمَّا الذي يبقَى له فَأَمَانِي

٥٥ قتلتها لئلا يراها الحسود

يا طَلْعَةً طَلَعَ الحِمامُ عليها   وجَنَى لها ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْها

يا لطلعتها البهية التي طلع عليها الموت، وجنى لها ثمرته، أي قطف لها ثمرة الموت، بسبب ما صنعته هي

رَوَّيْتُ مِن دَمِها الثَّرى ولَطَالَما   رَوَّى الهوى شَفَتَيَّ مِن شَفَتَيْها
قد باتَ سَيْفي في مَجالِ وِشَاحِها   ومَدامِعي تَجري على خَدَّيْها

وضعت سيفي في مكان وشاحها، عند خصرها

فَوَحَقِّ نَعْلَيْها، ومَا وَطِئَ الحَصَى   شَيءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِن نَعلَيْها
ما كان قَتْلِيها لِأَنِّيَ لم أكُنْ   أَبْكِي إذا سَقَطَ الذُّبابُ عليها

لم أقتلها لهوانها علي، بل لقد كنت أبكي جزعاً إذا سقطت عليها ذبابة

لكنْ ضَنَنْتُ على العيونِ بِحُسْنِها   وأَنِفْتُ مِن نَظَرِ الحَسودِ إليها

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

عليُّ بن الجَهْم
(١٨٨هـ ـ ٢٤٩هـ)

أنام هذه الأيام على محيط المحيط.

أقول «هذه الأيام»، لا «هذه الليالي» لأنني لا أعرف متى أنام، ولا متى أصحو. أخلع ساعتي، ثم تضل ولا أهتدي إلى مكانها. فأتظاهر بأنني أبحث عنها، وإنَّ في قرارة نفسي لرغبةً جامحة في ألَّا أجدها. تضيع الساعة، ويتقد في قلبي الفرح.

توقد في قلبي شمس
ينسيني يومي أمس
قلبي عرس

تمضي الساعات لا أحس بها، تخبرني النافذة ـ التي يكاد يلتصق بها جدار البناية المجاورة التصاقاً ـ بأن الليل حل، وأمارس من عاداتي وهواياتي ما أمارس: أقرأ وأكتب وألحن وأتفرج في النت. وبعد حين أقول في نفسي: لعل الليل قد هبط الآن ثقيلاً؛ أنظر في معصمي الأيسر فلا أجد الساعة الضالة، فأنظر إلى النافذة فأرى جدار البناية الملاصقة أصفر لا أسود، وسرعان ما يؤكد لي المؤذن أنه الفجر الصادق.

وأتثاءب. . أليس قد بزغت الشمس!

وأتحايل على النعاس بشطيرة تشغل معدتي، فيطير النوم، وأتمنى أن أستطيع ما كنت أستطيعه في سنوات خلت من وصل الليل بالنهار، والبقاء في حضن الصحو ثماني وأربعين ساعة. غير أن كل ما أستطيعه اليوم هو أن أسرق من الصباح، بعد سهر الليل بطوله، بضع ساعات قد توصلني إلى الظهر قبل أن يفرض الفراش نفسه فرضاً.

وقد شقيت زمناً بمخدتين، أجعل الطرية منهما من تحتُ فتتقلقل المخدة الصلبة فوقها كأنها مركب يتهادى على سطح الماء، ثم أجعل الصلبة من تحتُ فيغوص رأسي في الطرية المحشوة بالصوف الصناعي فأحْترّ ويتصبب عرقي. ثم إنني صرت أجعل محيط المحيط تحت مخدتي الصلبة فأرقد على صلب فوق صلب.

ولا أضع محيط المحيط تحت مخدتي إلا بعد أن أقلب صفحاته ملياً. وهو يفعل فيَّ أحياناً فعل الشطيرة، فيحبس عني النوم ساعة أو أكثر.

هذا معجم كتبه بطرس البستاني قبل مئة وخمسين سنة، وطبعه في ألف صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير. وسأعود إلى الحديث عنه.

كان أول معجم اقتنيته «المنجد» للأب لويس المعلوف. وكان، بأحرفه الحديثة، وبما بذله فيه اليسوعيون من عناية، وما ألحقوا به من ملاحق، خير رفيق. ثم عرفت معجم مجمع القاهرة «الوسيط»، فاكتشفت أنه يلتقي مع المنجد في تعريفات كثيرة. ثم عندما عرفت القاموس المحيط للفيروزأبادي فهمت أن المنجد والوسيط شربا من نبع واحد. وكنت أمُرُّ بطبعة قديمة لمحيط المحيط في المكتبة العامة فلا أعيره كبير اهتمام، ربما لذلك البنط الطباعي البائد.

وصدرت طبعة جديدة لمعجم بطرس البستاني محيط المحيط، وصدرت تصويراً عن الطبعة الأصلية بتلك الحروف العتيقة نفسها، ولعلها ازدادت تآكلاً في التصوير بالأوفست، على أنني عندما اقتنيتها فرحت بها وبأنها صورة طبق الأصل. فلا أريد من أحد أن «يعتني» بهذا المعجم، ولا أن يغير فيه شيئاً. لقد سبق محيط بطرس منجد المعلوف بأربعين سنة، وسبق الوسيط بتسعين سنة. وكان أول معجم عربي يؤلَّف في زمن المطبعة.

في السطر الثاني من مقدمته ـ المكونة من صفحة واحدة ـ يقر المؤلف بأن معجمه مستند إلى قاموس الفيروزأبادي. لا بل هو يقر بذلك في اسم المعجم، فقد سماه محيط المحيط مذكِّراً بالقاموس المحيط. وليته لم يكن تواضع هذا التواضع. فبطرس صنع في كتابه العجب. لقد وصف اللغة كما هي في عصره، وأضاف إلى مفرداتها الكثير كي يصف ما ولدته العلوم الجديدة من مفاهيم وأدوات. وكان فحلاً من فحول علم الصرف. وكان محباً للشعر فاستشهد بنحو أربعة آلاف بيت (فتحت على الصفحة المئة، كعادتي كلما أردت فحص كتاب، فوجدت فيها أربعة شواهد شعرية، ثم على الصفحة مئتين فوجدت أربعة

شواهد، ثم على الصفحة ثلاثمئة فوجدت خمسة شواهد شعرية)، ولا تسل عن الشواهد القرآنية، ولا عن الأحاديث النبوية فهي بالآلاف.

في الشواهد الشعرية خرج المعلم بطرس عن قيد «عصر الاحتجاج» الذي يقف عند نهاية العصر الأموي، فتراه يستشهد بأبيات لكل شاعر فصيح من كل العصور، وهو بذلك قد جرح قاعدة سخيفة أساسها فكرة أن اللغة جامدة ويجب أن تبقى جامدة، وهو بهذا النوع من الاستشهاد الحر قد خرج من طوق الأبيات الشاذة التي كانت وبالاً على النحو، وعلى الصناعة المعجمية. وهو بذلك يعرض علينا ذوقه الطيب، فإذْ فسح لنفسه المجال راح يختار الأبيات التي لم يلجئ فيها الوزن والقافية الشاعر إلى ارتكاب الشذوذ، فكان استشهاده بريئاً وجميلاً. الرجل محب للأدب.

فإن علمت أن «المعلم بطرس» ـ وهذا لقبه وهو به جدير ـ كتب أيضاً ستة أجزاء هي نصف موسوعة علمية، مات عن نصفها الثاني، وتعرض فيها لقوانين الفيزياء وتفاصيل الكيمياء والأحياء، فقد عرفت أن صاحبنا ذو باع في المعرفة العامة أعانه في كتابة معجم حقيقي. فصاحب المعجم يجب أن يكون صاحب حياة لا نابش قبور، ويجب أن يكون صاحب معرفة عريضة لا أخا نحو وصرف وناقة وبعير.

وقد برئَ المعلم بطرس في معجمه من تشدد المعلوف إزاء المدارك الإسلامية. كان المعلوف يمر بالمفردات التي فيها رائحة الإسلام مرور الفار من ذئب مفترس. ولا كذلك المعلم بطرس. كان بطرس، كمعاصره وزميله في مهنة التعليم ناصيف اليازجي، محباً لثقافة الإسلام بما هي ثقافة عربية. لم يكن متشنجاً. وآية سماحته أنه عندما قامت المذابح الطائفية في لبنان، عام ١٨٦٠، كان من أهل المساعي الخيرة لنبذ الطائفية، وأنفق في ذلك العمر والمال، وسمى المدرسة التي أنشأها المدرسة الوطنية لتضم الطلبة من كل الملل. كانت المدرسة الوطنية تعلم الطلبة ست لغات، ولكنها جعلت العربية في الصدارة.

لعل بطرس البستاني كان يجامل الحكم العثماني في بلادنا بعض المجاملة ـ وقد نال من السلطان دعماً لطبع معجمه، ونال منه عليه الوسام المجيدي الثالث ـ بيد أن المعلم بطرس، الذي تكاد تحسبه حفظ القرآن حفظاً لكثرة استشهاده بآياته، وعب من كتب الحديث عباً، كان من القوم الذين تصالحوا مع اللغة العربية وهي تتشكل تشكلاً جديداً بعد الإسلام الذي منح لغتنا كتابها،

وكان ممن تصالحوا معها وهي تخوض في تعريب ما جد من مفردات في عصر العلم، وممن تصالحوا مع شعرائها القدامى والمحدثين الذي صنعوا لهذه اللغة ديوانها بما فيه من حكمة ووحشية وقتل وفضائل وحماقات.

قف لحظة وانظر إلى بعض المتشددين من مسلمين ومسيحيين ترهم يريدون العودة باللغة إلى عصر نأنأة الإسلام، هذا عن المسلمين، فأما بعض المتشددين المسيحيين فقد ودوا لو عادوا بها إلى الجاهلية فلا يكون فيها لا قرآن ولا حديث.

سعادتي ببطرس وهو يستمسك بالعربية كما تطورت متلذذاً باستشهاداته القرآنية وبإيراده المئات من الكلمات العامية للتعبير عن دقائق المعاني الحياتية، هي كسعادتي وأنا أراه يترجم الكتاب المقدس، ويصوغه بعربية حلوة للمؤمنين. وسعادتاي هاتان تشبهان سعادتين أخريين: سعادتي بمارون عبود وهو يرى في محمد بن عبد الله، نبي المسلمين، نبياً للعرب أيضاً ـ ومشى مارون خطوة أخرى فسمى ولده الثاني محمداً فقامت عليه القيامة ـ. وقد شاء لي الحظ الطيب أن التقيت بحفيد مارون عبود في بيت جده الذي صار متحفاً، وكان يحدثني عن العائلة ذاكراً، فيما ذكر، «عمِّي محمِّد». . كنت أراها تخرج من فمه غريبة حلوة في ذلك الجو المسيحي. وسعادتي الثانية بمارون عبود إذ أقرأه يكتب كتباً كثيرة عن قريته المسيحية وتراثها المسيحي وعن كتب الصلاة المكتوبة بالسريانية. لم يكن مارون تقياً ولا متديناً بحال، لا إسلامياً ولا مسيحياً، لكنه كان يحب تراثه بكل مكوناته.

لقد أنجزتُ وثائقياً تلفزياً عن نهوض لبنان باللغة العربية، هذه اللغة التي تتحول صورتها الفصحى في لبنان الآن إلى هيكل عظمي، وسميته مورِّياً «عظام العربية في لبنان». ولم أتعرض فيه بكلمة لا لبطرس البستاني ولا لعبد الله البستاني ولا لسليمان البستاني، ولا لوديع البستاني الشاعر العلامة الذي نعده نحن، الفلسطينيين، فلسطينياً لنضاله المشرف وتضحيته أمام الهجمة الصهيونية. خشيتُ أن أغرق في بحر المعرفة والتسامح والحب الذي أسبغه أبناء هذه الأسرة على الثقافة العربية، خشيتُ أن يأكلوا برنامجي. ضاق فتر عن مسير.

قد عرفتَ الآن لماذا أنام مرتاحاً. تحت رأسي معجم يغنيني عن القاموس المحيط، بل حتى عن لسان العرب.

شيء عن زراعة الشعر

سأنقلك من لبنان إلى الشام. سأعرفك برجل زرع الشعر في رأس أكبر شاعر عربي معاصر. والشعر يزرع مثلما يزرع مصحَّفُه.

أترك الشاعر الأكبر يحدثك عن أستاذه، كتب نزار قباني: «إنه لمن نعمة الله عليَّ وعلى شعري معاً، أن معلم الأدب الأول الذي تتلمذت عليه، كان شاعراً من أرق وأعذب شعراء الشام، وهو الأستاذ خليل مردم بك. هذا الرجل ربطني بالشعر منذ اللحظة الأولى، حين أملى علينا في أول درس من دروس الأدب مثل هذا الكلام المصقول كسبيكة الذهب: «إنَّ التي زعمتْ فؤادكَ ملَّها خُلقت هواك كما خُلقتَ هوىً لها/ منعتْ تحيّتَها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرها لنا.. وأقلَّها». واستمر خليل مردم يقطف لنا من شجرة الشعر العربي عشر زهرات جديدة في كل درس من دروسه، حتى كانت ذاكرتنا الشعرية في نهاية العام بستاناً يموج بالأخضر، والأصفر، والأحمر. لقد جنَّبَنا هذا الشاعر الكبير، بذوقه المترف وإحساسه المرهف، السير على حجارة أكثر الشعر الجاهلي، ونباتاته الصحراوية الشائكة، ودلنا على طرقات ظليلة، وواحات في الشعر العربي، أنستنا متاعب الرحلة. ومن حسن حظي، أنني كنت من بين التلاميذ الذين تعهدهم هذا الشاعر المفرط في حساسيته الشعرية، وأخذهم معه في نزهاته القمرية، ودلَّهم على الغابات المسحورة التي يسكن فيها الشعر. إنني أدين لخليل مردم بك بهذا المخزون الشعري الراقي الذي تركه على طبقات عقلي الباطن. وإذا كان الذوق الشعري عجينة تتشكل بما نراه ونسمعه ونقرؤه في طفولتنا، فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم في زرع وردة الشعر تحت جلدي، وفي تهيئة الخمائر التي كوَّنت خلاياي وأنسجتي الشعرية».

الآن عرفتُ سر فصاحة نزار. كنت أغوص تحت سطح تشبيهاته المركبة، وتحت تعبيراته الراقصة، وتحت صنعته المبهرة، فأرى لغة عربية سليمة؛ صحيح أنها تتهادى لابسة شفوفاً معجِبة، وتعبق بعطور باريسية، غير أنها لغة صحيحة فصيحة ليس فيها خلل ولا زلل.

الآن عرفت من أين أتى نزار بهذا.

ألمست أنني أتحدث عن هؤلاء الكبار بلسان الحسد؟ قد أصبت. فأنا رغم سهر الليالي، أسعى في اتجاهات شتى، حركةً بلا بركة. فإذا ما وقع بين يدي أحد الكبار الذين دفعوا ثقافتنا ومعارفنا إلى الأمام وقفت وقفة لأداء

التحية، ولتأنيب نفسي، ولاستنهاض همة شاب يملك ما لم أعد أملكه من فسحة في العمر وسعة في الذاكرة وشحنة من الرغبة.

كبيرنا الثالث هو خليل مردم بك الذي كان معلماً وشاعراً، ثم وزيراً ثم رئيساً لمجمع دمشق العلمي الذي كان نشطاً قبل أن يذبحه الحزبيون والأكاديميون بالسكين.

كتب خليل مردم بك كتباً قليلة وصغيرة، أقرأها للاستمتاع بلغته الجميلة، ولأنه يقول ما يريد بكل أناقة، ولأنه قليل الادعاء. له عن شعراء الشام مقالة في نحو مئة صفحة، وله عن ناثري العراق، ابن المقفع والصاحب بن عباد وابن العميد، كتب تجد فيها قلم المؤرخ والأديب.

وقد حقق دواوين ابن الخياط وابن عنين وعلي بن الجهم. وموضوعنا الأصلي ـ بعد إذ أخذناك في الصفحات السابقة في الباص السياحي الذي يقلك من ميدان الطرف الأغر لتجد نفسك بعد ساعتين في. . ميدان الطرف الأغر ـ هو علي بن الجهم.

علي بن الجهْم

أولاً أحدثك عن تحقيق خليل مردم بك لديوانه. فهذا الشاعر الدمشقي، الذي علَّم نزار قباني الجمال، كتب مقدمة ضافية للديوان، وحققه ودققه بروح الأديب واللغوي معاً. وقد يلفتك بعبارة صغيرة إلى معنى جميل، وهو يشعرك وأنت تمسك بالديوان أن هذا الذي بين يديك هو ثمرة عمل رجل يحب عمله ويخلص له.

وقد كتب السيد أحمد صقر نقداً للتحقيق في مجلة الكاتب تضمن بعض الاجتهادات في قراءة بعض الكلمات. وأفدنا من بعض ذلك.

علي بن الجهم شاعر كبير.

يلوي الكلام ليَّ المتنبي، ويحمل المفردة أحياناً أكثر مما تطيق، فعلَ أبي تمام. لكن شاعريته تتجلى في أنه مدح صادقاً وهجا صادقاً ووصف ومجن وتوجع صادقاً. لقد جعل حياته ميداناً لشعره.

ولد علي بن الجهم عام ١٨٨هـ، فهو لدة أبي تمام. وشهد وهو صبي في العاشرة اضطراب بغداد الذي انتهى بقتل الخليفة الأمين وتغلب أخيه المأمون.

كان علي في هذا الوقت يغدو إلى الكُتَّاب مع أولاد و«بنات» الحي. وكانت قد بدت عليه أمارات النجابة وحب الشعر. وقد كان بيته عامراً بالثقافة والشعر والسياسة: أبوه ذو منصب كبير، وأخوه الأكبر محمد من كبار مثقفي بغداد، مولع بالكتب ولا سيما ما يتعلق بعلوم اليونان، غير أنه يروي الشعر. وبلغ من ثقافة هذا الأخ أن الجاحظ نقل عنه عدة آراء في أكثر من موضع، كما يخبرنا خليل مردم بك في مقدمته النفيسة للديوان.

كان الأخ الأكبر محمد هذا يحضر مجلس الخليفة الجديد المأمون، وعندما نبغ الأخ الأصغر علي في الشعر وصل خبره إلى مسامع الخليفة فسأل أخاه عنه، وبعث إليه معه دراهم.

الأسرة تنتسب إلى فرع ضعيف من قبيلة قريش..

أراني أكتب لك كتابة ضعيفة ركيكة وأنا أحدثك عن حياة شاعرنا، ذلك أن مقدمة خليل مردم بك تكبلني. فهي وافية ساطعة سامقة. ولكنني سأمضي في كتابتي الضعيفة، فلا أحب أن أنسخ نسخاً ما قاله المردم الكبير، ولا أن أقتبس اقتباسات طويلة مما سطره صاحب الأغاني. على أن لي بعض الآراء الخاصة التي لن أعفيك منها.

هذه الأسرة قرشية من فرع يسمى بني سامة أو بني ناجية أو قريش العازبة، أي الذاهبة بعيداً، ذلك أن هذا البطن القرشي نزح إلى البحرين قديماً. وبهذا النسب القرشي فخر شاعرنا كثيراً، وراح أعداؤه يشككون في انتساب بني سامة إلى قريش. على أن الأسرة كانت ذات جاه عريض.

وكانت الأسرة قد رحلت من البحرين إلى خراسان، (وخراسان هي اليوم في شرق إيران وتضم معظم أفغانسان وقطعة من تركمانستان وطاجيكستان ومعظم أوزبكستان) واستقرت في مرو (تركمانستان اليوم).

ومن خراسان انطلقت الدعوة العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني. وبانتساب أسرته إلى خراسان يفخر علي بن الجهم، فأهل خراسان هم من نصر الدعوة العباسية قبل مولده بأكثر من خمسين سنة.

مع تقلد والد شاعرنا المناصب المختلفة في الدولة انتقل إلى بغداد، وبها نشأ علي. وفي كتاتيبها ومساجدها تعلم الشعر وقاله. وكان يحضر مجالس المحدثين والفقهاء، وله في حلقة أحمد بن حنبل حضور موثق. وله مجلس

مشهور مع الشعراء في بغداد، ومما دار في هذا المجلس أن رجلاً غريباً التحق به ذات يوم وأنشد الناس فأعجبهم، فسألوه عن اسمه فقال: أنا أبو تمام، فرفعوا قدره ورحبوا به، وانعقدت بينه وبين علي بن الجهم صداقة وطيدة.

في حلقة أحمد بن حنبل وفي حلقات فقهاء بغداد ترسخ الاتجاه الفكري الديني للشاعر. كان المحدِّثون مضطهدين يتعرضون لمحنة طويلة على يد الخليفة المعتزلي المأمون وخلفه المعتصم ثم الواثق، وعلى يد وزرائهم الذين كانوا على مذهب الدولة وهو الاعتزال. فكان علي بن الجهم في صف المضطَهدين.

لقد مدح شاعرنا المعتصمَ وهنأه بفتح عمورية، ومدح الواثق بأبيات قليلة، وكان أخوه الأكبر محمد يتولى الشرطة في بغداد للواثق. لكن علياً ظل سنياً يكره الاعتزال ويكره التشيع. وكانت العامة من أهل بغداد تعطف على فقهاء السنة وتجد في ابن حنبل الزعيم الروحي.

ثم تولى الخلافة المتوكل، فأقصى المعتزلة وأعاد الدولة إلى حظيرة الإسلام السني. لم يكن الخليفة المتوكل فقيهاً ولا عالماً كما كان أخوه الواثق وعمه المأمون. كان يكره أخاه ووزير أخيه ابن الزيات كرهاً شديداً. كان شاباً لاهياً يطيل شعره كشباب اليوم، لكنه كان متمذهباً بمذهب الشافعي، ويؤثر أهل السنة. وفجأة مات أخوه الواثق رافضاً في مرضته الأخيرة أن يولي عهده أحداً، فأسرع القاضي أحمد بن أبي دؤاد وتحايل حتى وضع البيعة في رقبة المتوكل بن المعتصم أخي الواثق.

انطلقت أشعار علي بن الجهم مدوية في مدح المتوكل الذي أعاد الدولة إلى مذهب أهل السنة، وكرَّم ابن حنبل، وقرب المحدِّثين. ونادم ابن الجهم المتوكل سبع سنين. وله فيه مدح كثير. غير أن أبلغ شعره وأجمله سيأتي بعد أن يتعرض هو للمحنة.

كان مجلس المتوكل عامراً يحضره البحتري، والحسين بن الضحاك، ومروان بن أبي الجنوب من الشعراء، ويحضره من الكبراء طبيب الخليفة بختيشوع بن جبرائيل وفرج الرخجي وابن حمدون. وكان ابن الجهم متعالياً عليهم، يهجوه الشعراء فلا يجيبهم، ويهجو الكبراء مدلاً بنسبه وقربه من الخليفة. صنع من الأعداء ما يكفي لإسقاطه. شاعرنا لم يكن حصيفاً. كان

تياهاً كثير الاعتداد بنفسه، حتى لقد كان يعد الشعر ـ وهو بلا شك أثمن ما يملك ـ دون مستواه.

كان صاحب قيل وقال. كان ذلك الابن المدلل لعائلة ثرية ونافذة، تعتد بنسب قرشي. وحدث ما يجب أن يحدث. تآمر عليه أعداؤه، ولم يجد له صاحباً. أوغروا صدر الخليفة عليه، فأقصاه، ثم فرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية. ثم حبسه، ثم أمر به فقيد في محبسه، ثم أمر فصودرت أمواله. ولم يكتف الأعداء بذلك فقالوا للمتوكل إن علياً هجاه، وكان سهلاً أن يصدق المتوكل ذلك، فعلي بن الجهم اجترأ على ابن الزيات وزير الواثق وهجاه، فما يمنعه من أن يهجو الخليفة؟ فأمر المتوكل بنفي الشاعر إلى خراسان، وأمر واليه عليها طاهر بن عبد الله بن طاهر بحبس الشاعر، ثم بصلبه عارياً على مرأى من الناس يوماً كاملاً، ونفذ الوالي الأمر. وبعد حين كتب المتوكل بإخراجه من السجن.

لم يمدح شاعرنا المتعالي الوالي الذي نفذ الأمر بصلبه، ولم يهجه، فهو عبد مأمور، بل هدده تهديداً شعرياً بأنه سيهجوه إن لم يحسن إليه. فأحسن الوالي إليه وجعله في حاشيته، ومكث شاعرنا في خراسان زمناً. لكنه كان كئيباً، وشاهده بعضهم جالساً في مقبرة.

وعاد علي بن الجهم إلى بغداد. وبما لدى أسرته من مال وفير أخذ يلهو ويغشى بيوت القيان، وله في ذلك شعر من ضمنه قصيدة بديعة يصف فيه ما يشبه أن يكون ماخوراً من مواخير أهل اليسار. وله شعر يهجو فيه جلساءه الذين عربدوا عليه. لم يعد الشاعر إلى مجلس الخليفة في سامراء. كان قد أدرك أن منزلته سقطت. (إذا رفع السلطان قوماً ترفعوا/ وإن هدم السلطان مجداً تهدما).

مكث علي بن الجهم في لهوه سبع سنين بعيداً عن مجلس الخليفة حتى مات المتوكل. فقال شاعرنا قصيدة من أبدع الشعر في رثاء الخليفة الذي أعاد للدين رونقه. قصيدته في رثاء المتوكل تستحق وقفة تقدير لخُلق الشاعر، فبعد اضطهاد استمر سنوات بكى الشاعر المتوكل بحرقة. قد ربطته بالخليفة رابطة حب تشبه ما سيربط المتنبي بسيف الدولة.

كان علي بن الجهم يقترب من الستين عند مقتل المتوكل. ولم يسع شاعرنا إلى الاتصال بالخليفة الجديد، المنتصر بن المتوكل، الذي تآمر على

قتل أبيه. لا بل عرَّض في شعره بخيانة الابن لأبيه. ومات المنتصر بعد ستة أشهر، وظل شاعرنا في بغداد يعيش حياة اللهو. كان رجلاً وسيماً قوي البنية.. ولكن الستين جعلته برماً بحياته. فلما ثار الناس في بغداد لخبر جاءهم بأن الروم توغلت في أرض الإسلام انطلق علي بن الجهم غازياً.

وقبل الوصول إلى الثغر خرجت على الغازين جماعة من الأعراب في مكان يدعى خُسافاً. وقاتل علي بن الجهم بشجاعة. وخرج الأعراب عليهم مرة أخرى فقاتل وأصيب بجرح مميت. ونقلوا عنه بضعة أبيات وهو جريح. ومات فجراً.

مثلما سيكون أحسن شعر أبي فراس رومياته وهو في الأسر، فكذلك أحسن شعر علي بن الجهم ما قاله وهو في الحبس.

لم نرتب الأشعار زمنياً، وكان يسيراً علينا أن نفعل، بل تركناها تتوالى كما توالت في الديوان، فهذا الذي نقدمه لك كتاب شعر لا كتاب تاريخ. ولكل قصيدة أن تقف وحدها وتعلن عما فيها من شعر.

١ إمامي

قال علي بن الجهم يمدح المعتصم:

خَليلَيَّ الهوى خُلُقٌ كريمٌ تُقَصِّرُ عنه أخلاقُ اللِّئامِ

العشق يصحبه الخلق الكريم الذي لا يتحلى به اللئام

وفاءٌ إنْ نَأَتْ بالجارِ دارٌ ورَعْياً لِلمَوَدَّةِ والذِّمَامِ

إن نأى المحبوب، أي ابتعد، فله الوفاء، وأرعى المودة والذمام، أي العهود

أَلا طَرقَتْ تلومُكَ أمُّ عمْرٍو، وما لِلغانياتِ ولِلملامِ!

طرقت: جاءت ليلاً، وجاءت تلوم..

أعاذلَ! لو أضافَكِ جنحُ ليلٍ إلَيَّ، وأنتِ واضِعَةُ اللِّثامِ..

يا عاذلتي لو كنت ضيفة لدي في الليل وأنت واضعة اللثام، أي سافرة، و«وضع» تعني ارتدى وتعني خلع..

لَسَرَّكِ أن يكونَ الليلُ شهراً وأَلْهاكِ السُّهَادُ عن المنامِ

لسررت بقربي وألهاك السهاد، السهر، عن النوم

أَعــاذِلَ مــا أَعَــزَّكِ بــي إذا مــا أتــاحَ الــلــيــلُ وَحْــشِــيَّ الــكَــلامِ

يا عاذلتي ما أكثر ما ستشعرين بعزتي إذا سهَّل لي الليل الكلام الوحشي، الغريب الذي فيه خلق وإبداع.. هذا المعنى الملموح

وعَــنَّــتْ كــلُّ قــافِــيَــةٍ شَــرُودٍ كــلــمــحِ الــبــرقِ أو لَــهَــبِ الــضِّــرام

وعنت، أي مرت ببالي، كل قصيدة شرود، سيارة يتناقلها الناس وتسير من بلد إلى بلد، كأنها البرق أو اللهب

عــلــى أَعْــجَــازِهــا قَــرْمٌ، إذا مــا عــنَــاهُ الــقــولُ أَوْجَــزَ فــي تَــمــامِ

وخلف هذه القافية قرم، سيد شريف، إذا نوى أن يقول فهو يوجز ويتمم المعنى

شَــوارِدُ إن لَــقــيــتُ بِــهِــنَّ جــيــشــاً صَــرفْــنَ مَــعَــرَّةَ الــجــيــشِ الــلُّــهَــامِ

هذه الأبيات سيارة تواجه معرة الجيش اللهام، قسوة الجيش القوي الذي يلتهم كل ما أمامه

وإنْ نــازَعْــتُــهُــنَّ الــشَّــرْبَ كــانــتْ مُــدامــاً، أو أَلَــذَّ مِــنَ الــمُــدامِ

وإن تداولت الأبيات مع الشرب، جلساء الشراب، فالأبيات كأنها الخمر بل ألذ من الخمر

نَشَزْنَ على امْرِئِ القيسِ بنِ حُجْرٍ فــمــا أحَــدٌ يَــقــومُ بِــهــا مَــقــامــي

أبياتي نشزت على امرئ القيس، صعب عليه الإتيان بمثلها، وليس لها إلاي (رواية مردم بك «يثرن» ورأى ناقد تحقيقه أن نشزن أفضل)

لأَنْــتُــمْ يــا بَــنــي الــعــبــاسِ أَوْلَــى بِــمــيــراثِ الــنَّــبِــيِّ مِــنَ الأَنــام

كان العلويون ينازعون بني العباس الشرعية نزاعاً خفياً أو غير خفي، والشاعر يثبت الشرعية لبني العباس فهم وارثو النبي من بين كل الأنام، أي الخلق

مَــودَّتُــكُــمْ تُــمَــحِّــصُ كــلَّ ذَنْــبٍ وتُــقْــرَنُ بــالــصــلاةِ وبــالــصــيــامِ

مودة الناس لكم تمحص، تزيل وتنفي، كل ذنب لهم فهي قرينة صلاتهم وصيامهم

ورافِضَــةٍ تــقــولُ: بِــشِــعْــبِ رَضْــوَى إمــامٌ؛ خــابَ ذلــكَ مِــنْ إمَــامِ

ورب رافضة (جماعة من الشيعة تبعوا زيد بن علي ثم تركوه عندما أبى التبرؤ من أبي بكر وعمر) وهؤلاء يقولون إن في شعب رضوى إماماً غائباً (قالوا إن محمد بن الحنفية لم يمت بل غاب، وسيعود)

إمــامــي مَــنْ لــهُ ســبــعــونَ أَلْــفــاً مِــنَ الأَتْــراكِ مُــشْــرَعَــةُ الــسِّــهــامِ

الإمام الذي يعترف به شاعرنا هو المعتصم الذي له جيش كبير. في نهاية الحرب العالمية الثانية قال تشرشل البريطاني لستالين السوفياتي إن عليه مراعاة رأي الفاتيكان فيما يتعلق برسم خريطة أوروبا الشرقية بعد الحرب، رد ستالين: «كم فرقة عسكرية يملك بابا روما؟»

٢ شقاء المال

وقال يمدح الواثق:

وَثِـقَـتْ بِـالـمَـلِـكِ الـوا ثـقِ بِـالـلَّـهِ الـنُّـفـوسُ
مَـلِـكٌ يَـشـقَـى بـه الـمـا لُ ولا يَـشـقَـى الـجـلـيـسُ

يشقى به المال لأنه يفرقه على الناس

يـا بـنـي الـعـبـاسِ يَـأْبَـى الـ ـلَّـهُ إلَّا أن تَـسُـوسُـوا

٣ التنصل

لـو تَـنَـصَّـلْـتَ إلـيْـنـا لَـغَـفـرنـا لَـكَ ذنـبَـكْ

التنصل: أن تزعم أنه لا ذنب لك، ومن فعل ذلك فكأنه يقر للآخر باليد العليا. كنت أشتغل في مصنع بألمانيا وأنا شاب. جئت متأخراً يوماً، فسألني كبيرهم عن سبب تأخري، فقلت له: راحت عليَّ نومة. ففصلني من العمل. فصلني لأنني لم أتنصل، ولم أكذب. فلو كذبت لرأى فيّ ذلك الخضوع المطلوب

لَـيـتَـنـي أمْـلِـكُ قَـلـبـي مـثـلَـمَـا تَـمْـلِـكُ قـلـبَـكْ
سـيِّـدِي مـا أبـغـضَ الـعـيـ ـشَ إذا فـارقـتُ قُـربَـكْ

٤ الرافع الواضع

ولـمَّـا رَمـى بِـالأربـعـيـنَ وراءَه وقارعَ مِ الخمسينَ جيشاً عَرَمْرَما

لما تجاوز سنوات الأربعين وبدأ يقارع سنوات الخمسين وكأنه يقاوم جيشاً عرمرماً، كبيراً..
و«مِ» هذه اختصار لـ من

تذكَّرَ مِنْ عـهدِ الصِّبا ما تصرَّما وحَنَّ فلم يتركْ لِعَيْنَيْهِ مُسْجَما

تذكر ما تصرم ومضى من عهد الشباب، وحن فلم يدع لعينيه مُسجماً، أي دمعاً، إلا وسال

وجَرَّ خِطاماً أَحْكَمَ الشيبُ عقدَهُ وقـدَّمَ رِجـلاً لـم تَـجِـدْ مُـتَـقَـدَّمـا

وجر خطاماً، حبلاً، قد عقده الشيب بعنقه عقداً، وقدم رجلاً ولكنها لم تجد لها موضعاً في أماكن اللهو

وأَنْـكَـرَ إغـفـالَ الـعـيـونِ مـكـانَـه وقد كُنَّ مِن أشياعِهِ حيث يمَّما

واستهجن التجاهل الذي لقيه، وكانت العيون من أشياعه حيث يمم، تشايعه وتلاحقه أينما ذهب

خَليليَّ مِن فَرعَيْ قُريشٍ رُزِيتُما فـتـىً قـارَعَ الأيـامَ حـتـى تَـثَـلَّـمـا

يا صديقيَّ من فرعي قريش (من قريش البطاح وقريش الظواهر)، قد رزيتما، أي فقدتما، فتى تصدى للزمن وقارعه حتى تثلم وتفلل حده كالسيف الذي يتثلم لكثرة الضرب به

وأَحكَمَهُ التَّجريبُ حتى كأنما يُعايِنُ مِن أسرارِها ما تَوَهَّما

لكثرة ما جرب صار يرى أسرار الأيام بعينيه بعد أن كان يتوهمها مجرد توهم، فهو في صغره كان يحس ويحدس، وبعد التجريب صار يرى بيقين

ومَنْ ضَعُفَتْ أعضاؤه اشتدَّ رأيُه ومَنْ قَوَّمَتْهُ الحادثاتُ تَقَوَّما

من كبر في السن وضعف جسمه قويَ رأيه وصار حكيماً، ومن ربته الأيام فإنه يتربَّى

خُذَا عِظَةً مِن أَحْوَذِيٍّ تَقَلَّبَتْ به دُوَلُ الأيامِ بُؤساً وأَنْعُما

خذا عظة من أحوذي، داهية حاذق، تقلبت عليه الأيام وتداولته بين بؤس ونعيم

إذا رَفَعَ السلطانُ قَوماً ترفَّعُوا وإن هَدَمَ السلطانُ مجداً تَهَدَّما

خير من يسوق هذه الحكمة شاعرنا لكثرة ما لقي من عقوبات السلطان

ولم أَرَ فَرعاً طالَ إلَّا بِأَصلِه ولم أَرَ بَدْءَ العلمِ إلَّا تَعَلُّما

ومَنْ قَارَعَ الأيامَ أَوْفَرَ لُبَّهُ ومَنْ جاوَرَ الفَدْمَ العَيِيَّ تَفَدَّما

من صادم الأيام أوفر لبه، زاد في عقله وحكمته، ومن جاور الفدم، الغبي، أصبح مثله

ومَنْ طَلَبَ المَعروفَ مِنْ غيرِ أهلِه أَطالَ عَناءً أو أَطالَ تَنَدُّما

ومَنْ شَكَرَ العُرْفَ استَحَقَّ زِيادةً كما يستحقُّ الشكرَ مَنْ كان مُنْعِما

شاكر المعروف يستحق الزيادة، تماماً مثلما يستحق باذل المعروف الشكر

ومَنْ سَامحَ الأيامَ يَرْضَ حياتَه ومَنْ مَنَّ بِالمعروفِ عادَ مُذَمَّما

الإنسان السمح يعيش راضياً، ومن كدر معروفه بالمن وبالتذكير به كان مستحقاً الذم

ومَنْ نَاقَشَ الإِخوانَ قَلَّ صديقُهُ ومَنْ لامَ صَبّاً في الهوى كان أَلْوَما

من ناقش الإخوان، أي جادلهم وصمم على فرك قرن فلفل في عيونهم عندما يخطئون، قل صديقه، أي قل أصدقاؤه. ومن لام العاشق كان أحق باللوم منه. مجموعة حكم منظومة في سلك «من ومن ومن..» محاكاة لزهير في معلقته، محاكاة باهتة

٥ الفرح بالنعمة المقبلة

يمدح الخليفة جعفراً المتوكل (٢٣٢هـ ٢٤٧هـ):

قالوا أَتاكَ الأملُ الأكبرُ وفازَ بِالمُلْكِ الفَتى الأَزْهَرُ

الأزهر: الأبيض، والبياض صفة الرجل السيد عند العرب

واكتَسَتِ الدنيا جَمالاً بِه فقلتُ قد قامَ إذنْ جَعْفَرُ

ذاكَ الـذي كـانـتْ إلـى مُـلْـكِـه		أبـصـارُنـا طـامِـحَـةً تـنـظُـرُ

٦ بركة تطلب ثأرها

يمدح المتوكل ويصف القصر الهاروني، (وهذه البركة نفسها وصفها البحتري في قصيدة مشهورة. ولن ندلك على موضعها من الكتاب لئلا تفعل فعل الأكاديميين إذ يطلبون من طلبتهم دراسة القصيدتين والمقارنة بينهما. اقرأ كل قصيدة وحدها واستمتع بهذا الشعر وبذاك الشعر):

ومـا زلـتُ أَسـمـعُ أنَّ الـمـلـو		كَ تَبـنـي عـلـى قَـدْرِ أَخْـطَـارِهـا

أخطارها: مقاماتها

وأَعـلَـمُ أن عـقـولَ الـرجـا		لِ يُـقـضَـى عـلـيـهـا بـآثَـارِهـا

فـلـمَّـا رأيـنـا بـنـاءَ الإمـامِ		رأيـنـا الـخـلافـةَ فـي دارِهـا

وأنـشـأتَ تَـحْـتَـجُّ لـلـمسـلـمـيـنَ		عـلـى مُـلْـحِـديـهـا وكـفَّـارِهـا

بنائك القصر أقمت الحجة على القائلين بأن المجد الحقيقي كان للفرس بمنشآتهم وقصورهم الدالة على حضارة زاهرة

بَـدائِـعُ لـم تَـرَهـا فـارسٌ		ولا الـرُّومُ فـي طُـولِ أَعْـمَـارِهـا

صُـحُـونٌ تُـسـافِـرُ فـيـهـا الـعـيـونُ		وتَـحْـسِـرُ عـن بُـعْـدِ أَقْـطـارِهـا

صحون: ساحات، وتحسر الأبصار: أي تنقطع دون رؤية أقاصي الساحات

**وقُـبَّـةُ مُـلْـكٍ كَـأنَّ الـنُّـجُـو		مَ تُـفـضـي إلـيـهـا بـأسـرارِهـا**

يبدو أن القبة كان فيه زجاج فالنجوم ترى منها

**وفَـوَّارةٌ ثـأْرُهـا فـي الـسـمـاءِ		فـلـيـسـتْ تُـقَـصِّـرُ عـن ثـارِهـا**

يصف البركة تقذف بمائها فكأن للماء ثأراً في السماء وهو يطلبه. ولا ندري كيف جعل مهندسو البركة النافورة ترشق ماءها عالياً.. غير أننا نفترض أنهم جعلوا الماء في خزان في أعلى القصر، ووصلوا الأنبوب منه إلى أصل النافورة

**تَـرُدُّ عـلـى الـمُـزْنِ مـا أَنـزلـتْ		عـلـى الأرضِ مِن صَوْبِ مِـدرارِهـا**

البركة تعيد للمزن، أي السحب، ما أنزلت السحب من صوب مدرارها، من مطرها المنهمر

**تَـراهـا إذا صَـعِـدَتْ فـي الـسـمـاءِ		تـعـودُ إلـيـنـا بـأَخـبـارِهـا**

**فـلا زالـتِ الأرضُ مـعـمـورةً		بـعُـمْـرِكَ يـا خـيـرَ عُـمَّـارِهـا**

تَبَوَّأْتُ بعدَكَ قَعْرَ السجونِ   وقد كنتُ أَرْثي لِزُوَّارِها

أما أنا - يقول الشاعر - فقد قعدت في السجن بعد أن كنت أرثي لنزلائه. وكان المتوكل سجن الشاعر أكثر من مرة

٧ الحسن الحيران

وقال في بركة القصر الهاروني:

أنشأْتَها بِرْكَةً مُباركةً   فبارَكَ اللَّهُ في عواقِبِها

بارك الله في عواقبها: جعل بناءها بركة لما يعقُب ويأتي من الأيام

كأنَّها، والرياضُ مُحْدِقَةٌ   بِها، عروسٌ تُجْلَى لِخاطِبِها

محدقة: محيطة

مِن أيِّ أقطارِها أتيتَ رأيْـ   ـتَ الحُسْنَ حَيرانَ في جَوانِبِها

من أي أقطارها، أي جوانبها أتيت فترى الجمال ماشياً حيران لا يدري أين يذهب

قَدَّرَها اللَّهُ لِلإمامِ، وما   قَدَّرَ فيها عَيْباً لِعَائِبِها

٨ الوجه والقد

يمدح المتوكل:

اِغتَنِمْ جِدَّةَ الزمانِ الجديدِ   واجعلِ المِهرجانَ أَيْمَنَ عيدِ

وخُذِ الكأسَ مِن يَدَيْ كلِّ مَيَّا   سِ الخُطَى مُخْطَفِ الحَشا مَقْدُودِ..

مياس الخطى: متمايل المِشية، مخطف الحشا: ضامر البطن، مقدود: مقطوع.. وتكملة المعنى في البيت التالي

مِثْلَ قَدِّ القَضيبِ إن هَزَّ عِطْفَيْـ   ـهِ ومِثْلِ الغَزالِ في حُسْنِ جيدِ

هذا الساقي مقدود جسمه مثلَ قدِّ القضيب، أي الغصن، وعنقه كعنق الغزال

ما رأيْنا الوُجوهَ تَحْسُنُ إن لم   يَتَّصِلْ حُسْنُها بِحُسْنِ القُدودِ

حَبَّذا مجلسٌ تَدورُ علينا   فيه كأسانِ بين ناي وعودِ

مِن شَرابٍ يعافُهُ المسلمُ العَفُّ -   وتَحْظَى به أَكُفُّ اليهودِ

يا بَني هاشمِ بن عبدِ مَنَافٍ   نِسْبَةٌ حُبُّها مِن التوحيدِ

أنتمُ خيرُ سادةٍ يا بنِي العبَّـ -   ـاسِ فابْقَوْا، ونحن خيرُ عبيدِ

نحن أشياعُكُمْ مِنَ اهْلِ خُراسا   نَ أُولُو قُوَّةٍ وبَأْسٍ شَديدِ

يذكر العباسيين بمبتدأ أمرهم حين كان أهل خراسان القوة التي أسست دولتهم

نحن أبناءُ هذه الخِرَقِ السُّو   دِ وأهلُ التَّشَيُّعِ المَحمودِ

السواد في اللباس شعار بني العباس، ومثلما يتخذ موظف المصرف اليوم ربطة حول عنقه كان كل من يحضر لقاء رسمياً في العصر العباسي يتخذ «سواداً»: وشاحاً أو عمامة.. والمهم اللون. ويشير الشاعر إلى أن قومه أهل تشيع معتدل لا يصل إلى تفضيل العلويين على العباسيين

إن رضيتُمْ أَمْراً رضينا، وإن تَأْ   بَوْا أَبَيْنا لَكُمْ إِباءَ الأُسُودِ

حَسْبُنا اللَّهُ والخليفةُ مِنْ بَعـ   ـدُ ومِنْ بَعدِهِ وُلاةُ العُهودِ

غَرْسُ كَفَّيْكَ يا ابنَ عَمِّ رسولِ الـ   ـلَّهِ أَنشأْتَني وأَوْرَقْتَ عُودي

أورقت عودي: جعلت غصني يُخرج الورق بما أنعمت عليّ

أنتَ كثَّرتَ حاسِدِيَّ، وقد كنـ   ـتُ زماناً لا أَهْتَدي لِحَسُودِ

من إنعامك علي كثر من يحسدني بعد أن كنت خاملاً غير محسود

٩ وليس من أبنائها

هذا العَقيقُ، فَعَدِّ أَيـ   ـدي العِيسِ عن غُلَوائِها

يتشوق إلى المدينة المنورة وبها «العقيق»، فإن وصلت العيس، أي الإبل إليها فعد أيديها عن غُلوائها: أي امنع أيدي الإبل عن نشاطها وسيرها واجعلها تمكث في المكان

وامنعْ نَواجِيَها النَّجَا   ءَ، فَلاتَ حينَ نَجائِها

امنع النواجي، الإبل السريعة، النجاء، المسير سريعاً، فلات حين نجائها، أي انتهى وقت سرعتها لأننا وصلنا

وإذا مَرَرْتَ بِبِئْرِ عُرْ   وَةَ فاسْقِني مِن مائِها

بئر عروة في العقيق بالمدينة

واجْنَحْ إلى السَّمُراتِ أو   لِلسفحِ مِن جَمَّائِها

امض بنا إلى السمرات، شجر السَّمُر الكبير، أو لسفح الجماء وهو جبل صغير قرب المدينة

إنَّا وعَيْشِكَ ما ذمَمْـ   ـنا العيشَ في أَفنائِها

ما شكونا من العيش في أفناء ونواحي المدينة

أيـــامَ لـــم تَــجْــرِ الــنَّــوى   بـيــن الـعَـصـا ولِـحَـائِـهـا

في تلك الأيام لم يتسرب البعاد إلينا كحالنا اليوم، إذ البعاد يجري بين الغصن وبين لحائه، أي أنه متغلغل فينا

سَـقْـيـاً لِـتِـلْـكَ مَـعـاهِـداً   إذْ نـحـن فـي أرجـائِـهـا

سقى الله تلك المعاهد، الأماكن التي كنا نعهدها ونعرفها

مـا كـانَ آنَـسَـهـا وأَشْـ   ـعَـفَ أُسْـدَهـا بِـظِـبـائِـهـا

ما كان أكثر أنس تلك البقاع، وما كان أشعف، والشعف مثل الشغف، أسودها بظبائها، الأسود الرجال والظباء النساء في التشبيه المعروف

وقَـصِـيـدَةٍ غَـرَّاءَ يَـفْـ   ـنَى الـدهـرُ قـبـلَ فَـنـائِـهـا

رب قصيدة غراء مشرقة خالدة على الدهر

تَـبْـقَـى عـلـى الأيـامِ نُـصْـ   ـبَ صـبـاحِـهـا ومـسـائِـهـا

تبقى ماثلة مع كرور الأيام منتصبة تشهد الصباح والمساء

لـم تَـسْـتَـمِـحْ أيـدِي الـرجـا   لِ بِـمَـدحِـهـا وهِـجـائِـهـا

لم تستمح، تلتمس، نيل العطايا من أيدي الرجال بما فيها من مدح أو هجاء (والهجاء من وسائل الاستمناح أيضاً)

بَـاتَـتْ تُـصَـانُ، فـآنَ أنْ   تُـهْـدَى إلـى أكـفـائِـهـا

باتت القصيدة مصونة وآن أن تهدى لمن يستحقها.

حـتـى إذا كَـمُـلَـتْ وغـبَّ ـ   الـرأيُ فـي إنْـقـائِـهـا

فإذا اكتملت لدي واستقر رأيي بعد تشذيبها. هذا هو المعنى الملموح، وقد وضع المحقق عدة احتمالات لقراءة البيت، وجاء ناقده فزاد عليها

خُـصَّ الـخَـلـيـفـةُ جَـعْـفَـرُ بْـ   ـنُ مـحـمـدٍ بِـثَـنـائِـهـا

مَـلِـكٌ أَعَـدَّتْـهُ الـمُـلـو   كُ لِـخَـوفِـهـا ورجـائِـهـا

مـا زالَ مُـذْ وَلِـيَ الـخـلا   فـةَ وارتَـدى بِـردائِـهـا

مُـتَـوَكِّـلاً فـيـهـا عـلـى   مَـنْ خَـصَّـهُ بِـسَـنَـائِـهـا

السناء: العلو

تُـدْنـيـهِ أُمَّـةُ أَحْـمَـدٍ   لِـلـثـأرِ مِـن أعـدائِـهـا

مِــنْ بــعــدِ مَــا طَــغَــنَــتْ قُــرو نُ الــشِّــرْكِ فــي أحــشــائِــهــا
وتَــحَــكَّــمَ الــزيَّــاتُ فــي أمــوالِــهــا ودِمــائِــهــا

الزيات: محمد بن عبد الملك الزيات: وزير المعتصم فالواثق، وقد قتله المتوكل بعد أشهر من استخلافه

زَارٍ عــلــى سُــنَــنِ الــنَّــبــيِّ ـ يَــجِــدُّ فــي إِطــفــائِــهــا

زارٍ: أي عائب. كان ابن الزيات على الاعتزال، مذهب الدولة، وتحولت الدولة مع المتوكل إلى طريقة أهل السنة

والــرُّخَّــجِــيُّ الأعــوَرُ الــدَّ ـ جَّــالُ مِــنْ أُمــرائِــهــا

الرخجي: عمر بن فرج الرخجي، من أعوان الواثق، وحبسه وصادره المتوكل بعد حين من استخلافه

يُــمْــضــي الأُمــورَ مُــعــانِــداً لــلَّــهِ فــي إمــضــائِــهــا
يُــغــري بِــقَــذْفِ الــمُــحْــصَــنــا تِ، ولــيــس مِــنْ أبــنــائِــهــا

إيه يا ابن الجهم، والله إنك لهجَّاء تعرف كيف تضع عدوك.. «وليس من أبنائها».. هذه لفتة هجو نادرة

كــانــتْ غَــيَــاهِــبُ فــتــنَــةٍ والــنــاسُ فــي عَــمْــيــائِــهــا

كانت، أي حدثت، غياهب، أي ظلمات، فتنة وكان الناس في عميائها، أي ظلامها..

مُــتَــحَــيِّــريــنَ كــمــا تَــحــا رُ الــبَــهْــمُ بــعــدَ رِعَــائِــهــا

البهم: صغار الضأن، تتحير بعد رعائها: بعد غياب الرعاة

بَــيْــنــا كــذلــكَ إذْ أَضــا ءَ الــحــقُّ فــي ظَــلْــمــائِــهــا

بينا: أي بينما

واخــتــارَ ربُّــكَ جَــعْــفَــرَ بْــ ـنَ مــحــمــدٍ لِــجَــلائِــهــا

١٠ مظلوم!

قال يمدح جعفراً المتوكل وهو في السجن:

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بِضَائِري حَــبْــسٌ، وأيُّ مُــهَــنَّــدٍ لا يُــغْــمَــدُ؟

لا يضيرني الحبس مثلما لا يضير السيف أن يغمد، يدخل في قِرابه

أَوَمــا رأيــتِ الــليــثَ يَــأْلَــفُ غــيِــلَــهُ كِــبْــراً، وأَوْبَــاشُ الــسِّــبــاعِ تَــرَدَّدُ

الأسد يألف غيله، غابته، كبراً، وأنفة، بينما أوباش السباع، أي الوحوش الصغيرة، تتردد وتسرح في البراري

والـشَّـمْـسُ لـولا أنَّـهـا مـحـجُـوبـةٌ   عـن نـاظِـرَيْـكِ لَـمَـا أَضـاءَ الـفَـرْقَـدُ

والشمس تحتجب أيضاً، ولهذا يبدو لك الفرقد، من النجوم

والـغيـثُ يَحْصُرُهُ الغَمامُ فما يُرى   إلَّا وَرَيِّـقُـهُ يُـراحُ ويُـرْعَـدُ

المطر يكون محصوراً في الغيوم، ثم ما يلبث ريقه، أوله، أن يراح، تهب عليه الريح، ثم يرعد، يصوت فيه الرعد فيهطل

والـنـارُ فـي أَحـجَـارِهـا مَـخْـبُـوءَةٌ   لا تُـصْـطَـلَـى إِن لـم تُـثِـرْهـا الأَزْنُـدُ

والنار تكون كأنها مختبئة داخل حجر الصوان ولا يمكن الاصطلاء، أي الاستدفاء، بها إلا بعد أن تثيرها من مكمنها الأزند، آلات إشعال النار بالاحتكاك

والـزَّاعِـبِـيَّـةُ لا يُـقـيـمُ كُـعُـوبَـهـا   إلَّا الـثِّـقَـافُ وجَـذْوَةٌ تَـتَـوَقَّـدُ

والرماح الزاعبية لا يتم تقويمها إلا بالثقاف، بالقَشر والتقويم، وبجذوة نار متقدة يعرَّض لها خشب الرماح.. يقول الشاعر إن الحبس ليس عاراً فكل تلك الظواهر التي ذكرها فيها اختفاء ثم ظهور، والرمح لا يصبح جيداً حتى يتعرض للقشر والنار

غِـيَـرُ الـلَّـيـالـي بَـادِئـاتٌ عُـوَّدُ   والـمَـالُ عَـارِيَـةٌ يُـفَـادُ ويَـنْـفَـدُ

مصائب الليالي تبدأ وتعود، والمال عارية، مستعار يملكه المرء فكأنه يقترضه، فهو يفيده، أي يكسبه، والمال بعد ذلك ينفد، يتبدد

ولِـكُـلِّ حَـالٍ مُـعْـقِـبٌ ولَـرُبَّـمـا   أَجْـلَـى لَـكَ الـمَـكْـرُوهُ عَـمَّـا يُـحْـمَـدُ

لكل حال معقب، نتيجة، وربما أجلى الأمر المكروه، أي أبدى، عن أمر حميد

لا يُـؤْيِـسَـنَّـكَ مِـن تَـفَـرُّجِ كُـرْبـةٍ   خـطـبٌ رَمـاكَ بـه الـزَّمـانُ الأَنْـكَـدُ

يؤيسنك: يجعلك تيأس

كـم مِـن عَـلـيـلٍ قـد تَـخَـطَّـاهُ الـرَّدَى   فـنَـجـا ومـاتَ طـبـيـبُـهُ والـعُـوَّدُ

العوَّد: زوار المريض

صَـبـراً فـإنَّ الـصـبـرَ يُـعْـقِـبُ راحـةً   ويَـدُ الـخـلـيـفـةِ لا تُـطـاوِلُـهـا يَـدُ

والـحَـبْـسُ مـا لـم تَـغْـشَـهُ لِـدَنِـيَّـةٍ   شَـنْـعَـاءَ، نِـعْـمَ الـمـنـزِلُ الـمُـتَـوَرَّدُ

الحبس منزل جيد وروده إن لم تغشه، تأته، لدنية شنعاء، لذنب مخل بالشرف

بـيـتٌ يُـجَـدِّدُ لـلـكـريـمِ كَـرامـةً   ويُـزارُ فـيـه ولا يَـزُورُ ويُـحْـفَـدُ

يحفد: يخدم

لو لـم يَكُنْ في السجنِ إلَّا أنَّه   لا يَسْتَذِلُّكَ بالحِجابِ الأَعْبُدُ

لو لم يكن للسجن من المزايا إلا أنه ليس فيه ذلك الذل الذي تعانيه من الحُجَّاب الأعبد، العبيد، على أبواب الأمراء.. لكان جيداً

يـا أَحـمَـدُ بـنُ أبـي دُؤَادٍ إنَّـمـا   تُـدْعَـى لـكـلِّ عَـظـيـمَـةٍ يـا أَحْمَـدُ

يستنجد بالوزير أحمد بن أبي دؤاد.. وسنرى أنه بعد مدة سيهجوه هجاء مراً وسيشمت به

بَـلِّـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ، ودُونَـهُ   خَوْضُ العِدَى، ومَخَاوِفٌ لا تَنْفَدُ

بلغ رسالتي أميرَ المؤمنين، ودون وصولي إليه بحر من الأعداء عليَّ أن أخوضه، ومخاوف لا تنتهي

أَنـتُـمْ بَـنـي عَـمِّ الـنـبـيِّ مـحـمـدٍ   أَوْلَـى بِـمَـا شَـرَعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدُ

أنتم، يا بني عم النبي، أولى بشريعته.. ومن ضمنها العفو

مـا كـان مِـنْ حَـسَـنٍ فـأنـتُـمْ أهـلُـهُ   طَابَتْ مَغارِسُكُمْ وطَابَ المَحْتِدُ

المحتد: الأصل

أَمِـنَ الـسَّـوِيَّـةِ يـا ابـنَ عَـمِّ مـحـمـدٍ   خَـصْـمٌ تُـقَـرِّبُـهُ، وآخَـرُ تُـبْـعِـدُ؟

أمن السوية، العدل، تقريب أحد الخصمين وإبعاد الآخر.. وكان القاضي يسوي بين الخصمين ويسمعهما. وخصوم شاعرنا في بلاط الخليفة وجدوا من المتوكل إذناً مصغية، كما ستعلم بعد بيتين

إن الـذيـنَ سَـعَـوْا إلـيـكَ بِـبـاطِـلٍ   أعـداءُ نِـعـمَـتِـكَ الـتـي لا تُـجْـحَـدُ
شَهِدُوا وغِبْنا عنْهُمُ، فتَحَكَّمُوا   فـيـنـا، ولـيـس كـغـائِـبٍ مَـنْ يَشْهَدُ
لو يَجْمَعُ الخَصميْنِ عندَكَ مَشْهَدٌ   يـومـاً لَـبـانَ لَـكَ الـطـريـقُ الأَقْـصَـدُ

الأقصد: الأعدل

فَلَئِنْ بقيتُ على الزمانِ وكان لي   يوماً مِنَ المَلِكِ الخليفةِ مَقْعَدُ

لو أتيح لي يوماً مقعد، مكان، من الخليفة..

واحَتَجَّ خَصْمي واحتَجَجْتُ بِحُجَّتي   لَفَلَجْتُ في حُجَجي وخَابَ الأَبْعَدُ

فلجت: غلَبت

والـلَّـهُ بَـالِـغُ أمـرِهِ فـي خَـلْـقِـهِ   وإلـيـه مَـصْـدَرُنـا غـداً والـمَـوْرِدُ

الله بالغ أمره، منفذ لمشيئته، ومنه مصدرنا وإليه موردنا

ولَئِنْ مَضَيْتُ لَقَلَّما يَبقَى الذي قد كادَني، ولَيَجْمَعَنَّا المَوْعِدُ

لئن مت فالذي دبر لي مكيدة لن يبقى طويلاً، وسيجمعنا الله يوم القيامة

فَبِأَيِّ ذَنْبٍ أصبحتْ أعراضُنا نهباً يُشيدُ بها اللئيمُ الأَوْغَدُ

يشيد هنا معناها ينشر

١١ سَلِ الدمع

سَلِ الدمعَ عن عيني وعن جسدي المُضْنَى وهل لَقِيَتْ عيناي بعدَكُمُ غُمْضا

وأين الهوى مِنِّي وقد عَضَّتِ النَّوى على كَبِدي الحَرَّى بِأنيابِها عَضَّا

كيف أصبحت حالي مع الحب بعد وقوع النوى، الفراق؟

تَكُدُّ بِنا بَرَّاً وبَحْراً تَعَسُّفاً وتُورِدُنا أرضاً وتُصْدِرُنا أرضا

النوى ترهقنا في البر والبحر تعسفاً، أي سيراً شديداً

فَلَوْ أنَّ ما بي بِالجبالِ تَضَعْضَعَتْ وبِالماءِ لم يَعْذُبْ وبِالنَّجْمِ لانقَضَّا

سَأَخْلَعُ ثوبَ اللَّهْوِ بعدَ أَحِبَّتي وأَرفُضُ طِيبَ العيشِ بعدَهُمُ رَفْضا

١٢ خلاخيل الرجال

خَليلَيَّ ما لِلحُبِّ يَزدادُ جِدَّةً على الدهرِ والأيامُ يَبْلَى جَديدُها

وما لِعهودِ الغانِياتِ ذَميمَةً وليلى حَرامٌ أن تُذَمَّ عُهودُها

مواعيد الحسان مذمومة لكثرة ما يخلفن، فلماذا يحرم عليَّ أن أذم مواعيد ليلى؟

أَلَمَّتْ وجُنْحُ الليلِ مُرْخٍ سُدولَه ولِلسِّجْنِ أَحراسٌ قليلٌ هُجودُها

ألمت، زارت، في الليل، وللسجن حراس متيقظون قليلو النوم.. فالذي زاره هو طيفها في المنام

فقلتُ: لها أَنَّى تَجشَّمْتِ خُطَّةً يُحَرِّجُ أنفاسَ الرِّياحِ وُرودُها

قلت لها: كيف تجشمت هذا القدوم الذي يحرج، أي يضيق الأنفاس حتى لو كانت أنفاس الرياح

فقالَتْ: أَطَعْنا الشوقَ بعدَ تَجلُّدٍ وشَرُّ قلوبِ العاشقينَ جَليدُها

قالت: أطعت شوقي لك بعد التجلد، والتصبر، وليس حسناً في قلوب العاشقين أن تكون صبورة

وأَعْلَنَتِ الشكوى وجالَتْ دموعُها على الخدِّ لمَّا التَفَّ بالجيدِ جيدُها

فقلتُ لها والدمعُ شَتَّى طَريقُهُ ونارُ الهوى بالشَّوْقِ يُذْكَى وَقُودُها

الدمع ينزل ويصنع طرقاً شتى، متعددة، على الخدين، يذكى: يوقَد

إذا سَلِمَتْ نفسُ الحبيبِ تَشابَهَتْ صُروفُ الليالي سَهلُها وشديدُها

فَلا تَجزَعي إمَّا رأيتِ قُيودَهُ فإنَّ خلاخيلَ الرجالِ قُيودُها

ولا تُنكِري حَالَ الرَّخاءِ وَفَوْتَهُ فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يُعيدُها

لا تنكري انقضاء أيام العز والرخاء، فأمير المؤمنين جدير بأن يعيد تلك الأيام

١٣ في بيت القيان

نزلْنا بِبابِ الكَرْخِ أفضلَ منزلٍ على مُحْسِناتٍ مِنْ قِيانِ المُفَضَّلِ

نزلنا في «باب الكرخ»، وهو موضع ببغداد، نزولاً حلواً على مغنيات مجيدات يملكهن «المفضل» في بيته. وكان بعض «أشباه القوادين» يملكون في بغداد بيوتاً يغشاها سراة القوم للسماع ولغير السماع

فَلِابْنِ سُرَيْجٍ والغَرَيضِ ومَعْبَدٍ وَدَائعُ في آذانِنا لم تُبَدَّلِ

لدى أولئك المغنيات ألحان كبار الملحنين قد حفظنها،
وهن يستودعنها آذاننا يؤدينها كما هي بغير تبديل

أَوَانِسُ ما لِلضيفِ مِنْهُنَّ حِشْمَةٌ ولا رَبُّهُنَّ بِالمَهيبِ المُبَجَّلِ

فتيات أنيسات لا يحتشم ولا يخجل منهن الضيف، وربهن، صاحبهن، ليس ذا هيبة ووقار..
بل يسمح للضيف بالعبث

يُسَرُّ إذا ما الضيفُ قَلَّ حَياؤُهُ ويَغْفَلُ عنه وَهْوَ غَيْرُ مُغَفَّلِ

يسعد المفضل صاحب القيان إذا اجترأ الضيف، ويتغافل عنه، ولكنه ليس بالمغفل

ويُكْثِرُ مِنْ ذَمِّ الوَقارِ وأهلِه إذا الضيفُ لم يَأْنَسْ ولم يَتَبَذَّلِ

يذم المفضل الوقار تشجيعاً للضيف الذي لم يشعر بعد بالأنس ولم يتبذل، أي لم يأخذ راحته

ولا يَدفَعُ الأَيدي السَّفيهَةَ غَيْرَةً إذا نَالَ حَظّاً مِن لَبُوسٍ ومَأْكَلِ

لا يردُّ أيدي الضيوف العابثة شرط أن ينال من ضيوفه الهدايا من ثياب وفواكه

ويُطْرِقُ إطراقَ الشُّجَاعِ مَهَابةً لِيُطْلِقَ طَرْفَ الناظِرِ المُتَأَمِّلِ

يطرق المفضل خافضاً بصره إطراق الشجاع، أي الثعبان الذي يغض بصره ولكنه منتبه لكل حركة، والغرض أن يطلق الضيف نظره ويتمتع بالقيان

فَأَعْمِلْ يَداً في بيتِهِ وتَبَذَّلَنْ وَعَدِّ عَنِ المَوْلَى، ومَا شِئْتَ فَافْعَلِ

فالمس بيدك، وتبذلن، اتركن الحياء، وافعل ما شئت معهن متجنباً المولى، سيد البيت

أَشِرْ بِيَدٍ واغْمِزْ بِطَرْفٍ ولا تَخَفْ رَقيباً إذا ما كنتَ غيرَ مُبَخَّلِ
وأَعْرِضْ عن المِصباحِ والْهَجْ بِذَمِّهِ فإنْ خَمَدَ المِصباحُ فادْنُ وقَبِّلِ

ابتعد عن المصباح، واشغل حديثك بذمه مشيراً إشارة غير مباشرة إلى ضرورة إطفائه، فإن أطفئ فاقترب وقبل

وسَلْ غيرَ ممنُوعٍ وقُلْ غيرَ مُسْكَتٍ ونَمْ غيرَ مَذْعُورٍ وقُمْ غَيرَ مُعْجَلِ
لَكَ البيتُ ما دامَتْ هَدايَاكَ جَمَّةً ودُمْتَ مَلِيَّاً بِالشَّرابِ المُعَسَّلِ

البيت بيتك ما دامت هداياك كثيرة، وما دمت ملياً، قادراً، على الإنفاق على النبيذ الحلو

١٤ الخليفة الشهيد

يصف سحابة، ثم يرثي المتوكل. يقول محقق الديوان: «في القسم الأول من القصيدة موقف شعري عجيب يستدعي النظر والتأمل». هذه القصيدة تحفة من تحف الشعر العربي، تقف بجانب القصائد الشوامخ الكبرى.. وهي تبدأ بوصف مفصل لسحابة تمطر وتنعش العراق.. كأنما هي الخير العميم الذي ناله الشاعر من المتوكل، ثم يأتي بعد ذلك رثاء المتوكل:

وَسَارِيةٍ تَرتَادُ أرضاً تَجُودُها شَغَلْتُ بِها عيْناً قليلاً هُجودُها

رب سحابة سارية، تسير ليلاً، ترتاد، تطلب، أرضاً تجودها، تمطرها؛ وقد شغلت بها عيني التي قل هجودها، أي نومها

أَتَتْنا بها ريحُ الصَّبا وكأَنَّها فتاةٌ تُزَجِّيها عَجوزٌ تَقُودُها

جاءتنا بها ريح الصبا، فكأن السحابة فتاة لاهية تزجيها، أي تدفعها، عجوز هي الريح

تَميسُ بها مَيساً فَلا هِيَ إن وَنَتْ نَهَتْها ولا إن أَسْرَعَتْ تَسْتَعيدُها

تميس، أي تتمايل، الريح بالسحابة، فإن ونت السحابة، أي أبطأت، لم تنهها عن الإبطاء، وإن أسرعت لا تستعيدها، لا تطلب منها العودة. كأنه منظر عجوز في حديقة وأمامها حفيدتها ترقص وتلعب والعجوز وراءها ترقبها بحب ولا تمنعها من اللهو

إذا فارَقَتْها ساعَةً وَلِهَتْ بِها كَأُمٍّ وَليدٍ غابَ عنها وَليدُها

إذا ابتعدت السحابة ولهت العجوز، أي الريح، وقلقت كأم طفل غاب عنها طفلها

فَلَمَّا أَضَرَّتْ بالعيونِ بُروقُها وكادَتْ تُصِمُّ السَّامِعينَ رُعودُها..

وبعد البرق الذي يخطف البصر، والرعد الذي يصم الآذان..

وكـادَتْ تَـمـيـدُ الأرضُ إمَّـا تَـلَـهُّـفـاً   وإمَّـا جِـذاراً أن يَـضـيـعَ مُـريـدُهـا..

وبعد أن كادت الأرض تميل: إما تلهفاً وشوقاً للمطر، وإما خوفاً من أن يضيع مريدها، أي هذا المطر الذي يريدُ الأرض ويبحث عنها

فَـلـمَّـا رأَتْ حُـرَّ الـثَّـرى مُـتَـعَـقِّـداً   بِـمَـا زَلَّ مـنـهـا والرُّبَـى تَـسْـتَـزِيـدُهـا..

لما رأت السحابة حر الثرى، وسط التراب، متعقداً بالرذاذ الذي سقط منها، ورأت الربى تريد زيادة من المطر..

وأَنَّ أَقـالـيـمُ الـعِـراقِ فَـقـيـرَةٌ   إلـيـهـا، أقـامَـتْ بِـالـعِـراقِ تَـجُـودُهـا

ولما رأت أن أقاليم العراق مفتقرة إليها.. مكثت بالعراق تجود أقاليمه، أي تمطرها.. والجَوْدُ هو المطر

فـمَـا بَـرِحَـتْ بَـغـدادُ حـتـى تَـفَـجَّـرَتْ   بِـأَوْدِيَـةٍ مـا تَـسْـتَـفـيـقُ مُـدُودُهـا

ما لبثت بغداد أن تفجرت بسيول لا تستفيق مدودها، لا يكف جريانها

وحـتـى رَأَيْـنـا الـطـيـرَ في جَـنـبَـاتِـهـا   تـكـادُ أَكُـفُّ الـغَـانِـيـاتِ تَـصـيـدُهـا

رأينا الطير في جنبات السيول، نواحيها، تطير منخفضة حتى لتستطيع أيدي الفتيات الصغيرات الإمساك بها

وحـتـى اكْـتَـسَـتْ مِـن كـلِّ نَـوْرٍ كـأنَّـهـا   عَـرُوسٌ زَهَـاهـا وَشْـيُـهـا وبُـرُودُهـا

واكتست بغداد من كل نور، نوار النبات، كأنها عروس زهاها، ملأها زهواً، ما عليها من ثياب موشاة

ودِجْـلَـةُ كـالـدِّرْعِ الـمُـضَـاعَـفِ نَـسـجُـهـا   لَـهـا حَـلَـقٌ يَـبْـدُو ويَـخْـفَـى حَـديـدُهـا

غدا نهر دجلة متموج السطح كالدرع المنسوجة نسجاً مضاعفاً، تبدو أطراف حلقاتها وكأنها ليست من حديد

فَـلـمَّـا قَـضَـتْ حَـقَّ الـعِـراقِ وأَهْـلِـهِ   أَتَـاهـا مِـن الـرِّيـحِ الـشَّـمَـالِ بَـريـدُهـا

لما قضت السحابة حق العراق، أتاها بريد عاجل، هو عبارة عن ريح الشمال، ليسوقها مبتعدة

فَـمَـرَّتْ تَـفُـوتُ الـطَّـرْفَ سَـبْـقـاً كـأنَّـمـا   جُـنـودُ عُـبَـيْـدِ الـلَّـهِ وَلَّـتْ بُـنُـودُهـا

مرت السحابة مسرعة تسبق الطرف، النظر، فكأنها جنود عبيد الله وقد انصرفت بنودها، راياتها، هاربة. عبيد الله بن يحيى وزير المتوكل الذي جاءه خبر الهجوم على الخليفة فقرر ألا يفعل شيئاً، وقعد في زورق طلباً للنجاة

وخَـلَّـتْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ مُـجَـدَّلاً   شـهـيـداً ومِـن خـيـرِ الـمُـلوكِ شـهـيـدُهـا

تركت السحابة أمير المؤمنين مجدلاً، مطروحاً قتيلاً، شهيداً

وكانَ أَضَاعَ الحزمَ واتَّبَعَ الهوى   وَوَكَّلَ غِرّاً بِالجُيوشِ يَقودُها

المتوكل لم يكن حازماً عندما وكل غراً، غشيماً غير خبير، بقيادة الجيش

كأنَّهُمُ لم يَعْلَمُوا أنَّ بَيْعَةً   أَحَاطَتْ بِأعناقِ الرجالِ عُقُودُها

كأنهم لم يدركوا أن البيعة للخليفة هي عهد في أعناق الرجال

فلمَّا اقْتَضاها ليلَةَ الرَّوْعِ حَقَّهُ   جَرَتْ سُنُحاً سَادَاتُها ومَسُودُها

فلما اقتضى المتوكل في ليلة الخوف تلك من رجاله احترام البيعة والقيام بحقها جرت سنحاً، فرت سريعاً، السادات والأتباع

وبَاتَتْ خَبَايا كَالبَغَايا جُنودُهُ   وفي زَوْرَقِ الصيادِ بَاتَ عَميدُها

واختبأت الجنود اختباء المومسات عن أعين رجال الشرطة، وعميد الجنود قعد في زورق صياد ناجياً بنفسه

بَلَى وَقَفَ الفَتْحُ بنُ خَاقانَ وَقْفَةً؛   فَأَعْذَرَ مَوْلَى هَاشِمٍ وتَليدُها

على أن الوزير الأول للمتوكل الفتح بن خاقان وقف وقفة شجاعة وقتل دون سيده. فأعذر، أي قدم العذر ورفع عن نفسه المذمة، هذا المولى لبني هاشم والتليد فيهم أي المولود بينهم

وجَادَ بِنَفْسٍ حُرَّةٍ سَهَّلَتْ لَهُ   وُرودَ المَنايا حيثُ يُخْشَى وُرودُها

جاد بنفسه الحرة التي سهلت عليه الموت لأنها حرة أبية

وفَرَّ عُبَيْدُ اللَّهِ فيمَنْ أَطاعَهُ   إلى سَقَرِ اللَّهِ البَطِيءِ خُمودُها

وفر عبيد الله فيمن، أي مع من، أطاعه من الجند، ومضيرهم جهنم

ولم تَحْضُرِ السَّادَاتُ مِن آلِ مُصعَبٍ   فَيُغْنِيَ عنهُ وَعدُها ووعيدُها

ولم تحضر لنجدة المتوكل السادات من آل مصعب، أبناء عبد الله بن طاهر، فلم ينفعه ما لديهم من قوة الوعد والوعيد

ولو حَضَرَتْهُ عُصْبَةٌ طَاهِرِيَّةٌ   مُكَرَّمَةٌ آباؤُها وجُدُودُها..

ولو حضره آل طاهر ذوو الأصل الماجد..

لَعَزَّ على أَيْدي المَنونِ اخْتِرامُه   وإن كان مَحتُوماً عليهِ وُرودُها

لعز، أي صعب، على الموت اخترامه، قتله، رغم أن الموت مكتوب على كل إنسان

أولئِكَ أركانُ الخِلافَةِ إنَّما   بِهِمْ ثَبَتَتْ أَطنَابُها وعَمُودُها

آل طاهر أركان الخلافة، وبهم ثبتت أطنابها، الأطناب حبال الخيمة، وعمودها

فَـيـا لِـجُـنـودٍ ضَـيَّـعَـتْـهـا مُـلـوكُـهـا وَيَـا لِـمُـلُـوكٍ أَسْلَـمَـتْـهـا جُـنـودُهـا

هذه جنود ضيعتها ملوكها، قادتها، ويا لملوك أسلمتها الجنود ولم تحمها

أَيُـقْـتَـلُ فـي دارِ الـخِـلافَـةِ جَـعْـفَـرٌ عـلـى فُـرْقَـةٍ صَـبْـراً وأنـتُـمْ شُـهـودُهـا

أيقتل الخليفة في دار الخلافة صبراً، حبيساً، وأنتم متفرقون عنه وشاهدون على قتله

فـلا طَـالِـبٌ لِـلـثـأْرِ مِـن بـعـدِ مَـوْتِـهِ ولا دَافِـعٌ عـن نـفـسِـهِ مَـن يُـريـدُهـا

لا أحد يطالب بثأره ولا أحد دافع عن نفسه من يريد سلب هذه النفس.. وكان المنتصر، ابن الخليفة المتوكل، متواطئاً على قتل أبيه

بَـنُـو هَـاشِـمٍ مـثـلُ الـنـجـومِ وإنَّـمـا مُـلوكُ بـنـي الـعـبـاسِ مِـنـهـا سُـعُـودُهـا

بنو هاشم كالنجوم، وملوك بني العباس هي نجوم السعد بين هذه النجوم (وفي الكواكب ـ ولا فرق عند القدامى بين نجم وكوكب ـ ما هو عنوان سعد كالمشتري، وما هو عنوان نحس كزحل، واختلفوا في المريخ)

بَـنـي هَـاشِـمٍ صَـبْـراً فـكـلُّ مُـصـيـبَـةٍ سَـيَـبْـلَـى عـلى طُـولِ الـزمـانِ جَـديـدُهـا

عـزيـزٌ عـلـيـنـا أن نَـرى سَـرَوَاتِـكُـمْ تَـفَـرَّى بِـأَيْـدي الـنَّـاكِـثـيـنَ جُـلـودُهـا

صعب علينا أن نرى سرواتكم، سادتكم، تفرى، تقطّع، جلودهم بأيدي الناكثين بالبيعة. هذه نبوءة.. فبعد المتوكل أصبح قتل الخلفاء على أيدي قادتهم أو عبيدهم أمراً مألوفاً

ولـكـنْ بِـأَيْـديـكُـمْ تُـراقُ دِمـاؤُكُـمْ ويَـحْـكُـمُ فـي أَرْحَـامِـكُـمْ مَـن يَـكـيـدُهـا

بأيديكم تقتلون.. وفي هذا إشارة إلى تواطؤ ابن المتوكل مع قتلة أبيه

أَلَـهْـفـاً ومـا يُـغـنـي الـتَّـلَـهُّـفُ بـعـدَمـا أُذِلَّـتْ لِـضِـبْـعـانِ الـفَـلاةِ أُسُـودُهـا

ماذا يغني التلهف بعد أن ذلت الأسود لضباع الفلاة، الصحراء

عـبـيـدُ أمـيـرِ الـمـؤمـنـيـنَ قَـتَـلْـنَـهُ وأَعْـظَـمُ آفَـاتِ الـمُـلـوكِ عـبـيـدُهـا

١٥ القرفصى

عـلامَ قَـعَـدْتِ الـقُـرْفُـصَـى تَـعـذُلِـيـنَـنـي كَـأَنِّـيَ جَـانٍ كـلَّ ذَنْـبٍ وجَـارِحُـهْ

أَقِـلِّـي فـإنَّ الـلـومَ أَشْـكَـلَ واضِـحُـهْ ومـا مِـن نَـصـيـحٍ لا تُـمَـلُّ نَـصـائِـحُـهْ

خففي من لومك فإن دواعي اللوم أصبحت غائمة ذات إشكال، ولا يوجد ناصح إلا كانت نصائحه مملولة بعد حين

١٦ الصبر في الضيق

لـلـدهـرِ إدبـارٌ وإقـبـالُ وكـلُّ حـالٍ بـعـدَهـا حـالُ
وصـاحـبُ الأيـامِ فـي غَـفْـلَـةٍ ولـيـس لـلأيـامِ إغـفـالُ
مـا أَحـسـنَ الـصـبـرَ ولا سِيَّـمـا بِـالـحُـرِّ إن ضـاقَـتْ بـه الـحَـالُ
يَـشْـهَـدُ أعـدائـي بِـأنِّـي فَـتـىً قَـطَّـاعُ أَسْـبـابٍ وَوَصَّـالُ

قطاع أسباب وأوصال: مجرب داهية

لا تَـمْـلِـكُ الـشِّـدَّةُ عَـزمـي ولا يُـبْـطِـرُنـي جـاهٌ ولا مـالُ

١٧ المتوكل يعود إلى السنة

وقـائـلٍ أيُّـهُـمـا أَنْـوَرُ الـشـمـسُ أم سَـيِّـدُنـا جـعـفَـرُ
قلتُ لقد أكبَرْتَ شمسَ الضُّحَى جَـهـلاً، ومـا أنـصَـفْـتَ مَـنْ تَـذْكُـرُ

إذ شبهته بالشمس فقد عظمت قدر الشمس لأنه، بالطبع، أنورُ منها

قَـامَ وأهـلُ الأرضِ فـي رَجْـفَـةٍ يَـخْـبِـطُ فيـهـا الـمُـقـبِـلَ الـمُـدْبِـرُ

قام المتوكل، أي أصبح خليفة، وفي الناس رجفة، فتنة، وهم يتخبطون (فدين الدولة الاعتزال والناس أميل إلى السنة، والعامة ببغداد تميل ميلاً شديداً عن الاعتزال وتؤثر مذهب أحمد بن حنبل)

ونَـبَـذَ الـشُّـورَى إلـى أهـلِـهـا لـم يَـثْـنِـهِ خَـشْـيَـةُ مـا حَـذَّرُوا

ترك مشاورة كبار رجال الدولة، والاعتزال مذهبهم، ولم يخش ما حذروه منه إذا ترك مذهب الاعتزال

وانـفـضَّـتِ الأعـداءُ مِـن حـولِـه كَـحُـمُـرٍ أَنْـفَـرَهـا قَـسْـوَرُ

الأعداء خافوه وفروا من وجهه كحمر وحشية أنفرها قسور، شتت جمعها أسد، من الآية «كأنهم حمرٌ مستنفرة، فرت من قسورة»

وصَـاحَ إبـلـيـسُ بِـأَصْـحـابِـه: حَـلَّ بِـنـا مـا لـم نَـزَلْ نَـحـذَرُ
مَـا لـي ولِـلْـغُـرِّ بِـنـي هـاشِـمٍ فـي كـل دهـرٍ مـنـهُـمُ مُـنْـذِرُ
أَكُـلَّـمـا قـلـتُ خَـبَـا كَـوكَـبٌ مِـنْـهُـمْ بـدا لـي كَـوكَـبٌ يَـزْهَـرُ
لـم يُـلْـهِـهِ عَـنِّـي الـشـبـابُ الـذي يُـلْـهـي ولا الـدنـيـا الـتـي تُـعْـمَـرُ
والـلّـهِ لـو أَمْـهَـلَـنـا سـاعـةً مـا هَـلَّـلَ الـنـاسُ ولا كَـبَّـرُوا

يقول إبليس: لو أمهلنا المتوكل قليلاً لنشرنا الكفر ولم يبق من يهلل، يقول «لا إله إلا الله»، ولا من يكبر

يا أَعظَمَ الناسِ على مُسْلِمٍ حَقّاً ويا أَشرَفَ مَن يَفْخَرُ
الرِّدَّةُ الأُولى ثَنَى أَهْلَها حَزْمُ أَبي بَكْرٍ ولم يَكْفُروا
وهَذِهِ أنتَ تَلافَيْتَها فعادَ ما قد كادَ لا يُذْكَرُ

وهذه الردة الثانية على يد المعتزلة تلافيتها أنت فعاد الإيمان الصحيح الذي كاد ينتهي ولا يعود يذكره أحد

١٨ التوبة

عفَا اللّهُ عنكَ أَلَا حُرْمَةٌ تَعُوذُ بِعَفْوِكَ أنْ أُبْعَدا؟

أليس لي حرمة تعوذ بعفوك، تلتجئ إليه، فلا ينالني الإقصاء؟

لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ ولم أَعْتَمِدْهُ فأنتَ أَجَلُّ وأَعلى يَدا

لم أعتمده: لم أتعمَّدْه

أَقِلْني أَقالَكَ مَنْ لم يَزَلْ يَقيكَ ويَصرِفُ عنكَ الرَّدَى
ألستُ الذي كان يُرضي الوَلِيَّ ويُشْجِي العَدُوَّ إذا أَنْشَدا؟

ألست الذي كان يرضي الحليف ويشجي، أي يحزن، العدو بشعره؟

فَصُنْ نِعْمَةً أنتَ أَنْعَمْتَها وشُكْراً غَدا غائِراً مُنْجِدا

صن النعمة التي أنعمتها علي، وصن شكري لك الذي أصبح منتشراً عبر شعري. . غائراً في الوديان ومنجداً في التلال

ولا عُدْتُ أَعصِيكَ فيمَا أَمَرْتَ به أو أُرَى في الثَّرى مُلْحَدا

لا أعصي لك أمراً حتى يواريني التراب

١٩ كلهم ضدي

توكَّلْنا على ربِّ السماءِ وسَلَّمْنا لأَسْبابِ القَضاءِ
ووَطَّنَّا على غِيَرِ اللَّيالي نفوساً سامَحَتْ بعدَ الإباءِ

وطَّنَّا نفوسنا، أي ذللناها، كي تتقبل غير الليالي ومصائبها، وهذه النفوس سامحت، أصبحت سمحة لينة، بعد الشموخ والإباء

وأَفْنِيَةُ الملوكِ مَحَجَّباتٌ وبابُ اللَّهِ مَبذُولُ الفِناءِ

ساحات الملوك عليها حُجَّاب، ولكن باب الله مفتوح لمن يدعوه

فَمَا أَرجُو سِواهُ لِكَشْفِ ضُرِّي   ولم أَفْزَعْ إلى غيرِ الدُّعَاءِ

لا أرجو سوى الله، ولا أفزع، أي ألجأ، إلا إلى الدعاء

ولِمْ لا أَشْتَكي بَثِّي وحُزْني   إلى مَنْ لا يَصَمُّ عن النِّدَاءِ
هِيَ الأيامُ تَكْلِمُنا وتَأْسُو   وتَجري بِالسعادةِ والشقاءِ

الأيام تكلمنا، تجرحنا، وتأسو، تداوي..

فلا طولُ الثَّواءِ يَرُدُّ رِزْقاً   ولا يأتي به طولُ البَقاءِ

طول الثواء، المكوث، لا يرد الرزق ويحجبه، وطول العمر لا يضمن الرزق

ولا يُجْدي الثَّراءُ على غنيٍّ   إذا ما كان مَحْظُورَ العطاءِ

لا فائدة للغني في ماله إذا كان مانعاً العطاء عن الناس

وليس يَبيدُ مالٌ عن نَوَالٍ   ولا يُؤْتَى سَخِيٌّ مِن سَخاءِ

لا يفنى المال من النوال الذي يخرجه المرء للناس، ولا يؤتى، أي يصاب بضرر، السخي بسبب سخائه

كمَا أنَّ السُّؤَالَ يُذِلُّ قَوماً   كذاكَ يَعِزُّ قَومٌ بِالعَطاءِ
حَلَبْنا الدهرَ أَشْطُرَهُ ومَرَّتْ   بِنا عُقَبُ الشَّدائِدِ والرخاءِ

حلبنا الدهر أشطره، جربناه وخبرناه كمن يحلب ضروع الناقة حتى لا يبقى فيها شيء من لبن، ومرت بنا عقب، نتائج، أوقات الشدة وأوقات الرخاء

ولم نَدَعِ الحياءَ لِمَسِّ ضُرٍّ   وبعضُ الضُّرِّ يَذهَبُ بِالحَياءِ

لم نترك حياءنا إذ وقعت بنا مصيبة.. وما أكثر ما تذهب المصيبة بالحياء

وجَرَّبْنا وجَرَّبَ أَوَّلُونا   فَلا شَيءٌ أَعَزُّ مِنَ الوَفاءِ

أولونا: أجدادنا

تَوَقَّ الناسَ يا ابْنَ أبي وأُمِّي   فَهُمْ تَبَعُ المَخافَةِ والرَّجاءِ

احذر الناس يا أخي فهم بين خائف من بطش قوي وراج عطاء سخي، ولا مكان عندهم لحب يكون حباً في الله ولله، أو حباً يكون لك لذاتك وللأنس بحسن معشرك

ولا يَغْرُرْكَ مِنْ وَغْدٍ إِخَاءٌ   لِأَمرٍ مَا غَدا حَسَنَ الإِخَاءِ

لا تغتر بإخاء وغد، فهو يؤاخيك لغرض

أَلَمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ غِشّاً   وهُمْ بِالأَمْسِ إِخْوانُ الصَّفَاءِ

ألا ترى الذين يظهرون لي الغش، وكانوا بالأمس يظهرون الصفاء؟

بُـلِـيـتُ بِـنَـكْـبَـةٍ فَـغَـدَوْا وَرَاحُـوا   عَـلَـيَّ أَشَـدَّ أَسْـبَـابِ الـبَـلاءِ

بليت بنكبة فكانوا من أشد أسباب معاناتي

أَبَـتْ أَخْـطَـارُهُـمْ أن يَـنْـصُـرونـي   بِـمَـالٍ أو بِـجَـاهٍ أو بِـرَاءِ

أبت عليهم أخطارهم، مناصبهم، أن ينصروني بمال أو بجاه أو براء، أي برأي ومشورة

وخَـافُـوا أن يُـقَـالَ لَـهُـمْ خَـذَلْـتُـمْ   صَـدِيـقـاً فـادَّعَـوْا قِـدَمَ الـجَـفَـاءِ

لئلا يتهمهم أحد بخذلان صديق أصبحوا يزعمون أن الجفاء بيني وبينهم قديم

تَـضَـافَـرَتِ الـرَّوَافِـضُ والـنَّـصَـارَى   وأَهْـلُ الإعـتِـزَالِ عـلـى هِـجَـائـي

تضافر وتعاون الروافض، أي المتشددون في التشيع، والنصارى (ومنهم الطبيب بَخْتِيَشوع) والمعتزلة على هجائي

فَبَخْتِيَشُوعَ يَشْهَدُ لابْنِ عَمْرٍو   وعَـزُّونٌ لِـهَـارونَ الـمُـرَائـي
وعَـابُـونـي ومَـا ذَنـبـي إلَـيْـهِـمْ   سـوى عِـلْـمـي بِـأَوْلادِ الـزِّنَـاءِ
إذا مَـا عُـدَّ مِـثْـلُـهُـمُ رِجـالاً   فـمـا فَـضْـلُ الرجـالِ عـلى الـنِّساءِ
عـلـيْـهِـمْ لَـعْـنَـةُ الـلَّـهِ ابـتِـدَاءً   وعَـوْداً فـي الـصـباحِ وفـي الـمساءِ
إذا سَـمَّـيْـتُـهُـمْ لـلـنـاسِ قَـالـوا   أُولـئـكَ شَـرُّ مَـنْ تَـحـتَ الـسـمـاءِ
أنـا الـمُـتَـوَكِّـلِـيُّ هَـوىً ورَأْيـاً   ومـا بِـالـوَاثِـقِـيَّـةِ مِـن خَـفَـاءِ

أنا من أنصارك أيها المتوكل، وأولئك كانوا حاشية الخليفة السابق الواثق.. وكان الواثق قد أذل أخاه المتوكل وأقصاه، وجاء المتوكل فكان كارهاً للواثق، كارهاً لمذهبه، الاعتزال

ومـا حَـبْـسُ الـخـلـيـفـةِ لـي بِـعَـارٍ   ولـيـسَ بِـمُـؤْيِـسـي مـنـه الـتَّـنَـائـي

حبس الخليفة لي ليس عاراً.. ولن أيأس من عفوه رغم التنائي، البعد

٢٠ البديهة والفكرة

بـديـهَـتُـهُ وفِـكْـرَتُـه سـواءٌ   إذا مـا نـابَـهُ الـخَـطْـبُ الـكـبـيـرُ

الآراء المرتجلة لهذا الممدوح، وآراؤه الصادرة بعد تفكير، متساوية في حصافتها عندما تحل به مشكلة كبيرة

وأَحْـزَمُ مـا يـكـونُ الـدهـرَ رَأْيـاً   إذا عَـيَّ الـمُـشَـاوِرُ والـمُـشِـيـرُ

وقد تميز بحزمه عندما عيَّ الناس، أي تبلبلت ألسنتهم وتحيروا، سواء في ذلك الذي يستشير أو الذي يشير

وصـــدْرٌ فــيــهِ لِـلْـهَــمِّ اتِّـســاعٌ   إذا ضَـاقَـتْ بِـمـا فـيـهـا الـصـدورُ

وصدره واسع يبتلع الهموم بينما تضيق صدور الناس

٢١ جاء من الدنيا

إلى اللَّهِ فيما نَابَنَا نرفعُ الشكوى   ففي يدِهِ كشفُ الضَّرورَةِ والبَلْوَى

نابنا: حل بنا، الضرورة: الضرر

خرجْنا مِن الدنيا ونحن مِنَ اهْلِها   فلسْنا مِن الأحياءِ فيها ولا الموتى

إذا جاءنا السجَّانُ يوماً لِحاجةٍ   عجِبْنا وقلنا جاء هذا مِن الدنيا

ونفرحُ بالرؤْيا فَجُلُّ حديثِنا،   إذا نحن أصبحنا، الحديثُ عن الرؤْيا

فإن حَسُنَتْ لم تأتِ عَجْلَى وأبْطَأَتْ   وإن قَبُحَتْ لم تَحْتَبِسْ وأَتَتْ عَجْلَى

٢٢ في هجاء مغنٍّ

كنتُ في مجلسٍ فقالَ مُغَنِّي الـ   ـقومِ كم بينَنا وبينَ الشتاءِ

هذا من شعر مجالس اللهو.. المغني ثقيل الظل وهو يسأل الحاضرين عن موعد قدوم الشتاء.. ولا نظنه سأل، بل هي توطئة للنكتة الباردة من شاعرنا

فـذَرَعْـتُ الـبِـسـاطَ مِـنِّـي إلـيـهِ   قـلـتُ: هـذا الـمِـقْـدارَ قـبـلَ الـغِـنـاءِ

مشيت على طول البساط مني إلى المغني.. وقلت له: بيننا وبين الشتاء بمثل هذا القدر.. أي أنك أنت الشتاء يا بارد يا ثقيل!

فـإذا مـا عَـزَمْـتَ أن تـتـغَـنَّـى   آذَنَ الـحَـرُّ كـلُّـهُ بـانـقِـضـاءِ

فإذا بدأت تغني فقد حل بنا الشتاء لبردك وثقل دمك

٢٣ منتهى البخل

ما كنتُ أَحْسَبُ أن الخبزَ فاكِهَةٌ   حتى نَزَلْتُ على زيدِ بنِ منصورِ

خبزه عزيز لبخله فكأنه فاكهة

الحابِسِ الرَّوْثَ في أَعْفاجِ بغلتِهِ   خوفاً على الحَبِّ مِن لَقْطِ العصافيرِ

هذا البخيل يحبس روث البغلة في أعفاجها، في أدنى مِعاها، خوفاً أن تلتقط العصافير حب الشعير المتخلف في الروث

٢٤ قاعدين يرضعون

الوردُ يَضْحَكُ والأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ   والنَّايُ ينْدُبُ أَشجاناً وينتحِبُ
والراحُ تُعْرَضُ في نَوْرِ الربيعِ كما   تُجْلَى العروسُ عليها الدُّرُ والذَّهَبُ

تقدم الخمر بين النوار الربيعي، وكانوا يجعلون في مجلس الشراب الرياحين

وكلَّما انسكَبَتْ في الكأسِ آنِيَةً   أَقْسَمْتُ أن شعاعَ الشمسِ ينسَكِبُ

آنيةً: حارة. وقلما شربوا النبيذ حاراً، ولا سيما في وقت الربيع، ولعله رآها تزبد فكأنها تغلي، أو لعله قصد طعمها المز، فالخمر كأكل المطاعم الهندية يقدمونه بارداً وهو بتوابله حار

والقومُ إِخْوانُ صِدْقٍ بينَهُمْ نَسَبٌ   مِنَ المَوَدَّةِ لم يُعْدَلْ به نَسَبُ
تَراضَعُوا دِرَّةَ الصَّهْباءِ بينَهُمُ   وأَوْجَبُوا لِرَضيعِ الكأْسِ ما يَجِبُ

هم إخوة في الرضاع.. لكنه رضاع درة، أي لبن، واللبن الخمر.. وهم يحفظون ما يجب أن يحفظ لإخوة رضاعة الكأس

لا يَحفَظُونَ على السكرانِ زَلَّتَهُ   ولا يَرِيبُكَ مِن أَخْلاقِهِمْ رِيَبُ

عندما ينطوي مجلس الشراب ينطوي ما دار فيه من عربدة أو سقطات لسان

٢٥ العاشق وطبيبه

تَنَكَّرَ حالَ عِلَّتِيَ الطبيبُ   وقالَ أرى بجِسمِكَ ما يَريبُ
فما هذا الذي بِكَ هاتِ قُلْ لي   فكان جَوابَهُ مِنِّي النَّحيبُ
وقلتُ أَيا طَبيبُ الهَجْرُ دائي   وقلبي يا طبيبُ هُوَ الكئيبُ
فَحَرَّكَ رأسَهُ عَجَباً لِقولي   وقال الحبُّ ليس له طبيبُ

٢٦ استرضاء

ما زِلْتُ أسترضيهِ مِن ذنبِهِ   فليس يَرضَى وَهُوَ المُذنبُ

٢٧ الشرف طبع

ما الجودُ عن كَثرةِ الأمْوالِ والنَّشَبِ   ولا البلاغةُ في الإكثارِ والخُطَبِ

النشب: المال

ولا الشجاعةُ عن جِسْمٍ ولا جَلَدٍ   ولا الإِمَارَةُ إِرْثٌ عن أَبٍ فأَبِ

لـكـنَّـهـا هِـمَـمٌ أدَّتْ إلـى رِفَـعٍ وكـلُّ ذلـك طَـبْـعٌ غـيـرُ مـكـتَـسَـبِ

٢٨ حكاية

قيل إن علي بن الجهم قال لامرأة:

قـالـوا عـشِـقْـتَ صَـغـيـرةً فـأجـبـتُـهُـمْ أَشْـهَـى الـمَـطِـيِّ إِلَـيَّ مـا لـم يُـرْكَـبِ

يقولون إنك عشقت فتاة صغيرة، فأجبتهم: أشهى المطي، الدواب، إلى قلبي ما لم يُركب قبلي

كـم بـيـنَ حَـبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ مَـثْـقُـوبَـةٍ نُـظِـمَـتْ وحَـبَّـةِ لُـؤْلُـؤٍ لـم تُـثْـقَـبِ

واللؤلؤة المثقوبة والمنظومة في عقد أقل قيمة من لؤلؤة لم تثقب

وقيل إن المرأة أجابته قائلة:

إن الـمَـطِـيَّـةَ لا يَـلَـذُّ ركـوبُـهـا حـتـى تُـذَلَّـلَ بِـالـخِـطـامِ وتُـركَـبـا

الدابة لا يكون ركوبها لذيذاً إلا بعد تذليلها وترويضها بالخطام، المقود

والـدُّرُّ لـيـس بِـنـافِـعٍ أربَـابَـهُ حـتـى يُـجَـمَّـعَ فـي الـنِّـظَـامِ ويُـثْـقَـبـا

والدر، اللؤلؤ، لا ينفع أصحابه حتى ينظم في عقد بعد ثقبه. هي حكاية مما يضعه الناس للتسلية في المجالس

٢٩ أنت والمذنَّب!

لَـمَّـا بَـدا أَيْـقَـنْـتُ بِـالـعَـطَـبِ فَـسـألْـتُ رَبِّـي خـيـرَ مُـنْـقَـلَـبِ

لما ظهر الحارثي أيقنت بالهلاك فسألت الله خير منقلب، خير مصير

لـم يَـطْـلُـعَـا إلَّا لِآبِـدَةٍ الـحـارثـيُّ وكـوكـبُ الـذَّنَـبِ

صادف أن جاء الحارثي في وقت بدا فيه كوكب الذنب، لعله مذنب هالي الذي كانوا يتشاءمون به، ولا بد أن الحارثي والمذنب ظهرا معاً لآبدة، لمصيبة وشيكة

٣٠ وصف سفينة

عـجـبـتُ كـلَّ الـعـجـبِ مِـن سَـيْـرِ هـذا الـمَـرْكَـبِ

ومـا لـه عـيـنٌ ولا رُوحٌ جَـرَتْ فـي عَـصَـبِ

لِـجَـامُـهُ مِـن خَـلْـفِـهِ مُـرَكَّـبٌ فـي الـذَّنَـبِ

يشبه السفينة بالدابة ولكن لجام السفينة، يقصد سكانها أي دفتها، من الخلف

إذا اسـتَحَـثَّـتْـهُ مَـجَـا ذيـفُ لَـهُ فـي الـطَّـلَـبِ

إذا حثته المجاذيف على السير في الطلب، في طلب اللحاق بمن سبقه أو طلب الصيد

أَعْـنَـقَ فـوق الـمـاءِ فـي هَـمْـلَـجَـةٍ أو خَـبَـبِ

أعنق المركب، أي مد عنقه وأسرع، وسار سير الهملجة أو الخبب، وهما من أوصاف سير الإبل

لـلـمـاءِ فـي حَـيْـزُومِـهِ مِـنْ صَـوْتِ مَـوجٍ صَـخِـبِ..

للماء في حيزومه، صدره، من صوت الموج الصاخب..

حَـشْـرَجَـةٌ كَـالـرَّعْـدِ فـي عـارِضِ غَـيْـثٍ لَـجِـبِ

للماء حشرجة كالرعد في عارض، أي سحاب، مطر لجب، مصحوب بضجيج رعده

٣١ هجاء ابن الزيات

لَـعـائِـنُ الـلَّـهِ مُـتَـابَـعـاتِ

متابعات: متلاحقات

عـلـى ابـنِ عـبـدِ الـمَـلِـكِ الـزَّيَّـاتِ
عَـرَّضَ شَـمْـلَ الـمُـلْـكِ لـلـشَّـتـاتِ
وأنـفـذَ الأحـكـامَ جـائـراتِ
عـلـى كـتـابِ الـلَّـهِ زارِيـاتِ

أحكامه تزري، أي تعيب، كتاب الله، وذلك لمذهب ابن الزيات في الاعتزال ولبطشه المعروف

يَـرمـي الـدَّواويـنَ بِـتـوقـيـعـاتِ
مـعـقَّـداتٍ كَـرُقَـى الـحَـيَّـاتِ

يوقع الوزير ابن الزيات ـ وهو شاعر فصيح، وفيه حذلقة ـ في ذيول الكتب الديوانية بكلام معقد كأنه الرقى، التعاويذ الشعوذية، التي يجعلونها في البيوت للوقاية من الأفاعي

هَـارونُ يـا ابـنَ سـيِّـدِ الـسَّـاداتِ

هارون: الخليفة الواثق

أمَـا تَـرى الأمـورَ مُـهْـمَـلاتِ
تَـشْـكُـو إلـيـكَ عَـدَمَ الـكُـفَـاةِ
فـعـاجِـلِ الـعِـلْـجَ بِـمُـرهَـفَـاتِ

عاجل هذا العلج، الرجل الجافي الغليظ، بمرهفات، بسيوف

مـن بـعـدِ أَلْـفِ صُـخَّـبِ الأَصْـواتِ

ولا تضربه بالسيف إلا بعد أن تجلده ألف جلدة ذات صوت صاخب

بِـمُـشْـمِـراتٍ غـيـرِ مُـورِقَـاتِ

اجلده بسياط في أطرافها عُقَد فكأنها الثمار، لكنها ثمار بلا أوراق

٣٢ بيت عن تسعين

أَحْسَنُ مِن تِسعينَ بيتاً سُدَى   جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ في بيتِ

ما أحْوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ   تغسلُ عنه وَضَرَ الزَّيْتِ

الملك محتاج إلى مطر يغسل عنه وضر، وسخ، الزيت.. تعريض بالوزير ابن الزيات

٣٣ رق الهوى

أنفسٌ حُرَّةٌ ونحن عَبيدُ   إن رِقَّ الهوى لَرِقٌّ شَديدُ

٣٤ شماتة وتأليب

وقال لما قُبض على عمر بن الفرج الرخجي وأسلم إلى نجاح بن سلمة ليصادره، أي يعذبه لاستخراج ما عنده من مال:

أَبْلِغْ «نَجاحاً» فتى الفِتيانِ مَأْلُكَةً   تَمضي بها الريحُ إِصداراً وإِيرادا

مألكة: رسالة

لن يَخْرُجَ المالُ عفواً مِنْ يَدَيْ «عُمَرٍ»   أو يُغْمَدَ السيفُ في فَوْدَيْهِ إِغْمَادا

لن يبوح بمكان إخفائه المال إلا بتهديده بإغماد السيف في فوديه، سالفيه

الرُّخَّجِيُّونَ لا يُوفونَ مَا وَعدُوا   والرُّخَّجِيَّاتُ لا يُخْلِفْنَ مِيعَادا

تعريض بعفة نساء هذه الأسرة

٣٥ أنت وابنك

وقال يهجو القاضي أحمد بن أبي دؤاد الذي كان معتزلياً يقول بالعدل والتوحيد، ولكنه كان مَن نصب المتوكل خليفة فغفر له ماضيه واستبقاه بعد أن أقصى المعتزلة، ويهجو الشاعر ابن القاضي وكنيته «أبو الوليد»:

ما هذهِ البِدَعُ التي سَمَّيْتَها   بِالجَهلِ منكَ العدلَ والتَّوْحيدا؟

ما هذه البدع المعتزلية التي سميتها «العدل والتوحيد»؟

أَفسدتَ أمرَ الدينِ حينَ وَليتَهُ ورَمَيْتَه «بِأَبي الوليدِ» وليدَا

أفسدت الدين حين توليت أمره، ورميت الدين بابنك أبي الوليد وهو وليد، صغير السن، حين عينته على المظالم في سامراء

شَرِهاً، إذا ذُكِرَ المكارمُ والعُلا ذَكَرَ القَلايا مُبْدِئاً ومُعيدا

ابنك شره فإذا تذاكر القوم أحاديث المكارم ذكر لهم القلايا، المقالي، ولا يمل من الحديث عن الطعام

ويَوَدُّ لو مُسِخَتْ «ربيعةُ» كلُّها وبنُو «إيادٍ» صَحْفَةً وثَريدا

يود ابنك لو مسخت قبائل ربيعة وقبيلة إياد صحفة، قصعة، وثريداً

وإذا تَرَبَّعَ في المجالسِ خِلْتَهُ ضَبُعاً وخِلْتَ بَني أَبيهِ قُرودا

يتربع في المجالس كالضبع المفترسة، وحوله أبناء قومه كالقرود

وإذا تَبَسَّمَ ضاحكاً شبَّهْتَهُ شَرِقاً تَعَجَّلَ شُرْبَهُ مَزْؤُودَا

مزؤوداً: مذعوراً

لا أَصْبحَتْ بِالخيرِ عينٌ أَبصَرَتْ تلكَ المَناخِرَ والثَّنايا السُّودَا

الثنايا: الأسنان

٣٦ منتهى الشماتة

وقال لما فُلج أحمد بن أبي دؤاد:

لم يبقَ منكَ سوى خَيالِكَ لامعاً فوق الفراشِ مُمهَّداً بِوسادِ

لم يبق من عزك القديم سوى شبحك لامعاً، أي بادياً، فوق فراشك وقد سوي بالوسائد

فَرِحَتْ بِمَصْرَعِكَ البريَّةُ كلُّها مَن كان منهُمْ مُوقِناً بِمَعادِ

فرح البشر كلهم بقرب هلاكك.. قد فرح المؤمنون الموقنون بالآخرة والبعث

كم مَجلِسٍ للَّهِ قد عطَّلْتَهُ كي لا يُحَدَّثَ فيه بِالإسْنادِ

عطلت مجالس أهل السنة الذين يروون الأحاديث بأسنادها

ولكَمْ مَصابيحٍ لنا أطفأْتَها حتى نَحيدَ عن الطريقِ الهَادي

أطفأت مصابيح الهداية بتعريضك أهل السنة للمحنة

ولكم كَريمَةِ مَعْشَرٍ أَرْمَلْتَها ومحدِّثٍ أَوْثَقْتَ في الأَقْيَادِ

الأقياد: القيود

إن الأَسَارَى في السجونِ تَفَرَّجُوا   لـمَّـا أَتـتْـكَ مـواكـبُ الـعُـوَّادِ

تفرجوا: استبشروا بالفرج، لما أتتك مواكب العائدين كناية عن اشتداد مرضك

وغَدا لِـمَصْرَعِكَ الطبيبُ فلم يَجِدْ   لِـدواءِ دَائِـكَ حـيـلـةَ الـمُـرْتـادِ
فَـذُقِ الـهَـوانَ مـعـجَّـلاً ومـؤجَّـلاً   والـلّـه ربُّ الـعـرشِ بِـالـمِـرصَـادِ
لا زالَ فـالِـجُـكَ الـذي بِـكَ دائـبـاً   وفُـجِـعْـتَ قـبـلَ الـمـوتِ بِـالأولادِ

ليبق بك الفالج مستمراً، وليفجعك الله بأولادك قبل موتك، وكما يقول صاحب مروج الذهب فإن ابن أحمد بن أبي دؤاد المعروف بأبي الوليد، وهو من مهجوي ابن الجهم، مات قبل أبيه بعشرين يوماً. . كان ذلك سنة ٢٤٠هـ

٣٧ سيوفهم تفني وتغني وتفقر

وخرج إلى الشام في قافلة، فخرجت عليهم الأعراب في خساف فهرب من كان في القافلة من المقاتلة، وثبت هو فقاتلهم قتالاً شديداً، فرجع الناس إليه وثبتوا ولم يحظ الأعراب بشيء. فقال في ذلك:

ولـمَّـا رأيـتُ الـموتَ تهفُو بنودُهُ   وبـانـتْ عـلامـاتٌ لـه لـيـس تُـنْـكَـرُ

لما رأيت الموت تهفو بنوده، أي تتحرك راياته، وبانت علاماته التي لا شك فيها

وأقبـلـتِ الأعـرابُ مِـن كـلِّ جـانـبٍ   وثَـارَ عـجـاجٌ أسـودُ الـلـونِ أَكْـدَرُ

وأقبل الأعراب من كل جانب وثار عجاج، غبار، أسود

بِـكـلِّ مُـشـيـحٍ مُـسْـتَـمِـيتٍ مُـشَـمِّرٍ   يَـجُـولُ بـه طِـرْفٌ أَقَـبُّ مُـشَـمِّـرُ

جاءوا بكل مشيح، منحرف نحو الجنب استعداداً للطعن، يجول به طرف، أي فرس، أقب، أي نحيل، مشمر، أي مستعد

بِأرضِ «خُسَافٍ» حين لم يَكُ دَافِعٌ   ولا مـانـعٌ إلَّا الـصَّـفـيـحُ الـمُـذَكَّـرُ

في تلك الأرض حيث لا شيء يدفع الأذى عن المرء إلا الصفيح المذكر، السيف المصنوع من حديد ذكر

فـقَـلَّلَ في عـيـنَيَّ عُـظْمَ جُـموعِـهِـمْ   عزيـمـةُ قـلـبٍ فـيـهِ ما جـلَّ يَـصْـغُـرُ

ما قلل في عيني كثرتهم عزيمة قلبي الذي يصغر بالنسبة له كل جليل

بِـمُـعْـتَـرَكٍ فـيـه الـمـنـايـا حَـواسِـرٌ   ونـارُ الـوَغـى بِـالـمَـشْـرَفِـيَّـةِ تُـسْـعَـرُ

هذا في معركة المنايا فيه حواسر، كاشفة عن رأسها وبادية للعيان، ونار الحرب تشتعل بالمشرفية، السيوف

فَما صُنْتُ وجهي عن ظُبَاتِ سيوفِهِمْ   ولا انْحَزْتُ عنهُمْ والقَنا تَتَكَسَّرُ

لم أحفظ وجهي من ظبات، شفرات، سيوفهم، ولا انحزت، ابتعدت جانباً، بينما الرماح تتكسر في أتون المعركة

مَنَعْتُهُمُ مِن أن يَنالُوا قُلامَةً   وكنتُ شَجَاهُمْ والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ

منعتهم من نيل حتى قلامة، شيء حقير، من متاعنا، وكنت شجاهم، شوكة في حلقهم، بينما أسنة الرماح تقطر دماً

أَبَتْ لي قُرومٌ أَنجبَتِنيَ أن أُرى   وإن جلَّ خطبٌ خاشعاً أتضَجَّرُ

أبت لي قروم، سادة، أنجبتني أن أُرى خاشعاً ذليلاً أتضجر من خوض الحرب

أولئكَ آلُ اللَّهِ فِهْرُ بنُ مَالِكٍ   بِهِمْ يُجْبَرُ العَظْمُ الكَسيرُ ويُكْسَرُ

والسادة الذين أنجبوني هم آل فهر، قريش، الذين يجبر بهم العظم الكسير، يُصلَح بهم ما اختل من الأمور، ويكسر العظم، فهم يكسرون عظم أعدائهم

هُمُ المَنْكِبُ العالِي على كلِّ مَنْكِبٍ   سيوفُهُمُ تُفني وتُغني وتُفْقِرُ

٣٨ الأم واحدة والآباء كثر

واجتمع مع قوم في مجلس، فعربد عليه بعضهم، فغضب وخرج، واتصل الشر بينهم حتى تقاطعوا وهجروه وعابوه واغتابوه. فقال يهجوهم:

بَني مُتَيَّمَ هل تَدْرُونَ ما الخبرُ   وكيفَ يُسْتَرُ أمرٌ ليس يَسْتَتِرُ

حَاجَيْتُكُمْ مَنْ أَبوكُمْ؟ يا بَني عُصَبٍ   شَتَّى، ولكنَّما لِلعاهِرِ الحَجَرُ

حاجيتكم، أي حزَّرتكم، وطرحت عليكم أُحجيَّة، من هو أبوكم؟ يا بني عصب شتى، يا أبناء جماعات مختلفة، طبعاً لا تعرفون، والأب العاهر له الحجر (وبحسب تفسير الحديث الشريف «الولد للفراش وللعاهر الحجر»: العاهر الذي هو الأب البيولوجي له الإهمال ولا حق له في الولد)

قد كان شيخُكُمُ شيخاً له خطرٌ   لكنَّ أُمَّكُمُ في أمرِها نَظَرُ

أبوكم المعلَن له خطر، له مكانته، لكن أمكم في أمرها نظر، أي لعلها علقت بكم من غيره

ولم تَكُنْ أُمُّكُمْ ـ واللَّهُ يَكْلَؤُها ـ   مَحجُوبةً دونَها الحُرَّاسُ والسُّتُرُ

يكلؤها: يحفظها

كانتْ مُغَنِّيَةَ الفِتيانِ إن شَرِبُوا   وغيرَ ممنوعَةٍ منهُمْ إذا سَكِرُوا

وكانَ إخوانُهُ غُرّاً غَطارِفَةً   لا يُمْكِنُ الشَّيْخَ أن يَعصِي إذا أَمَرُوا

كان إخوان شيخكم، أصحاب أبيكم، غراً غطارفة، سادة نبلاء، ولا يستطيع أن يعصي لهم أمراً

قـومٌ أَعِـفَّـاءُ إلَّا فـي بُـيـوتِـكُـمُ　　فإنَّه في مَثلِها قد تُخْلَعُ العُذُرُ

هم أعفاء إلا في بيوتكم، ففي هذه البيوت قد تخلع العذر، يُترك الحياء بالتأكيد، و«قد» هنا توكيد لا شك

فأصبحَتْ كَمُرَاحِ الشَّوْلِ حَافِلَةً　　مِنْ كُلِّ لاقِحَةٍ في بَطْنِها دِرَرُ

أصبحت أمكم كمراح الشول، كالناقة الحامل في مبركها، حافلة، أي مليئة، وفي بطنها من كل تلقيح ذكري درر، جمع درة وهي اللبن، ويقصد مني الفحول

فَجِئْتُمُ عُصَباً، مِن كلِّ نَاحِيَةٍ　　نوْعٌ، مَخانيثَ في أعنَاقِها الكَبَرُ

ولدتم جماعات مختلفي الأنواع، وإنكم لمخنثون وفي أعناقكم الكبر، أي الطبل الصغير الشبيه بالدربكة الذي يتحلى به المخنثون

فَوَاحِدٌ كِسْرَوِيٌّ في قَرَاطِقِهِ　　وآخَرٌ قُرَشِيٌّ حينَ يُخْتَبَرُ

فأحدكم كسروي الهيئة فارسي في قراطقه، أثوابه، وآخر عربي الهيئة كأنه من قريش

ما عِلْمُ أُمِّكُمُ مَن حَلَّ مِئْزَرَها　　ومَنْ رَمَاها بِكُمْ يا أيُّها القَذَرُ

قومٌ إذا نُسِبُوا فالأُمُّ وَاحِدَةٌ　　واللَّهُ أَعْلَمُ بِالآباءِ إذ كَثُرُوا

لم تَعْرِفُوا الطَّعْنَ إلَّا في أَسَافِلِكُمْ　　وأنتُمُ في المَخَازي فِتْيَةٌ صُبُرُ

تصبرون على المخازي لأنكم تعودتم عليها

أَحْبَبْتُ إعْلامَكُمْ أنِّي بِأَمْرِكُمُ　　وأمرِ غيرِكُمُ مِنْ أَهْلِكُمْ خَبِرُ

خبر: خبير

تَفَكَّهُونَ بِأعراضِ الكِرام وما　　أنتُمْ وذِكْرُكُمُ السَّادَاتِ يَا عُرَرُ

عرر: جمع عُرَّة، وعرة قومه أدناهم وأحقرهم

هَذا الهِجاءُ الذي تَبقَى مَيَاسِمُهُ　　على جِبَاهِكُمُ مَا أَوْرَقَ الشجرُ

مياسمه: علاماته المشبهة مِيسم الإبل بحديدة النار

٣٩ لا فرار من الشعر

وقال يهجو أبا أحمد بن الرشيد وكان مدحه فلم يعطه شيئاً:

يا أبا أحمدَ لا يُنـ　　ـجي مِن الشعرِ الفِرارُ

لِبني العباسِ أحلا　　مٌ عِظامٌ وَوَقارُ

أحلام: عقول

ولهم في الحربِ إقدا　　مٌ ورأيٌ واصْطِبارُ

ولَـــهُـــمْ أَلـــسِـــنَـــةٌ تَـبــــ ـــرِي كـمــا تَـبــرِي الـشِّــفــارُ
ولِـعِـطْـفَـيْـكَ عــن الــمـجــ ـــدِ شِـــمـــاسٌ وازْوِرَارُ

لعطفيك، لجانبيك، شماس، نفور، وازورار، ميل، عن المجد

إن تــكــنْ مِــنــهُــمْ بِـلا شَـكٍّ ـ فَـــلِـــلْـــعُـــودِ قُـــتَـــارُ

قتار: دخان

ولِـــصَـــفْـــوِ الـــمـــاءِ أَقْـــذَا ءٌ ولِـــلـــخـــمـــرِ خُـــمَـــارُ

الخمار: صداع الخمر

٤٠ وارحمتا للغريب

وقيل هذا آخر شعر قاله:

وارَحْمَتَا لِلغَرِيبِ في البلدِ النَّــ ـا زحِ مـاذا بِـنـفـسِـهِ صَـنَـعـا
فـارقَ أحـبـابَـه فـمـا انـتَـفَـعُـوا بـالـعـيشِ مِن بـعدِهِ ولا انتَفَعا
كــان عــزيــزاً بِــقُــرْبِ دَارِهِــمُ حـتـى إذا مـا تَـبـاعَـدُوا خَـشَـعـا

خشع: ذلَّ

يــقــولُ فــي نَــأْيِــه وغــربَــتِــه: عَـدْلٌ مِـن الـلَّـهِ كـلُّ ما صَـنَـعـا

٤١ الأشراف لا تعتدي على الأشراف

وجرت بينه وبين أبي طالب الجعفري وحشة ثم أرسل أبو طالب يعتذر إليه، فكتب إليه علي بن الجهم:

لــم تُـذِقْـنـيِ حَـلاوَةَ الإنـصـافِ وتَـعَـسَّـفْـتَـنـيِ أَشـدَّ اعـتِـسَـافِ

تعسفتني: ظلمتني

وتـرَكـتَ الـوفـاءَ جَـهـلاً بـمـا فـيـ ـهِ فـأَسْـرَفْـتَ غـايـةَ الإسـرافِ
غـيـرَ أَنّـي إذا رجـعـتُ إلى حقٍّ ـ بَـنـي هَـاشِـمِ بْـنِ عـبـدِ مَـنـافِ
لم أَجِدْ لـيِ إلى التَّشَفِّي سبيلاً بِـقَـوافٍ ولا بِـغـيـرِ قَـوافِ
لـيَ نـفـسٌ تَـأبـى الـدَّنِـيَّـةَ والأشــ ـرافُ لا تـعـتـدِي عـلـى الأشـرافِ

دعك من المعنى، وإنه لمعنى شريف، وانظر في صياغة هذا البيت وفي إحكام صنعته. اسمعه مثلما تسمع الموسيقى. وانظر إلى البيت الذي قبله.. انظر إلى معناه وإلى هذا التكرار الجميل لكلمة قواف، ثم يأتي تكرار الأشراف.. ألا ترى البيتين يرقصان رقصاً!

٤٢ لست متروكاً

وقال يهجو عمر بن الفرج الرخجي:

جمعتَ أَمريْنِ ضاعَ الحزمُ بينَهما تيِهَ المُلوكِ وأفعالَ المَماليِكِ
أَرَدْتَ شكراً بِلا بِرٍّ ومَرْزِئَةٍ لقد سَلَكْتَ طريقاً غيرَ مَسْلوكِ

أردت أن أشكرك، أي أن أمدحك، بلا بر وعطاء من جانبك وبلا مرزئة، بدون خسارة تخسرها من مالك، وهذا طريق لا يسلكه المرء مع الشاعر

ظَنَنْتَ عِرضَكَ لا يُرمَى بِقارِعةٍ وما أَراكَ على حَالٍ بِمَتْروكِ

القارعة: المصيبة

٤٣ التفضل والتجمل

يمدح المتوكل:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَها تَتَحَمَّلُ ولِلدهرِ أيامٌ تَجُورُ وتَعْدِلُ

تجور: تنحرف، تعدل: تسير مستقيمة

وعَاقِبَةُ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ وأَفضلُ أخلاقِ الرجالِ التَّفَضُّلُ

خير أخلاق الرجال التفضل، أي إعطاء الآخر فوق ما يستحق كرماً ونبلاً.. والنبيل حقاً ليس من يقايضك قيراطاً بقيراط، بل الذي يتفضل ويسخو بماله وبوقته وببشره

ولا عارَ أنْ زَالَتْ عن الحُرِّ نِعمَةٌ ولكنَّ عاراً أن يَزولَ التجَمُّلُ

التجمل: الصبر على المكروه، وأن يقسو الكريم على نفسه فلا يظهر الشكوى بل يوسع صدره لشكاوى الناس

ومَا المالُ إلَّا حَسرةٌ إن تَركتَهُ وغُنْمٌ إذا قَدَّمْتَهُ مُتَعَجَّلُ

إن تركت المال في كيسك فهو حسرة في قلبك، وإن خرجت عنه للآخرين فهو غنيمة لك.
وقد رأيت في مقدمتنا معايب لا تحصى في شخصية علي بن الجهم، لكنه كان يتوق توقاً شديداً إلى أخلاق النبلاء ويحسن وصفها

ولِلخيرِ أهلٌ يَسعَدُونَ بِفعلِهِ وللناسِ أَحوالٌ بِهِمْ تَتَنَقَّلُ
ولِلهِ فينا عِلْمُ غيْبٍ وإنَّما يُوفِّقُ مِنَّا مِن يَشاءُ ويَخْذِلُ
وأَقْوَمُ خلْقِ اللَّهِ لِلَّهِ بالذي يُحِبُّ ويَرضَى «جعفَرُ المتوكِّلُ»
فَتىً جمعتْ فيه المَكارمُ شَمْلَها فما فاتَه منها أخيرٌ وأَوَّلُ

أَبَى اللَّهُ إلَّا أنَّه خيرُ خلقِهْ   وأَعْدَلُهُمْ فيما يَقولُ ويَفعلُ
عنَايَتُهُ بِالدينِ تَشهدُ أنَّه   بِقَوْسِ رسولِ اللَّه يَرمي ويَنْصُلُ

يرمي بقوس الرسول، يسير على سنته، وينصل، يثبت عود سهمه في النصل الذي هو حديدة مدببة في الرأس

إذا ما رأى رأياً تيقَّنْتَ أنَّه   بِرَأْيِ ابنِ عَبَّاسٍ يُقاسُ ويُعدَلُ

آراؤه في الدين تقاس وتعدل، تقارَن وتوازَن، بآراء عبد الله بن عباس المعروف بسعة علمه

له المِنَّةُ العظمَى على كلِّ مسلمٍ   وطاعتُه فرضٌ مِن اللَّهِ مُنزَلُ
أعادَ لنا الإسلامَ بعد دُروسِهً   وقامَ بأمرِ اللَّهِ والأمرُ مُهمَلُ

دروسه: اندثاره

وآثَرَ آثارَ النبيِّ محمدٍ   فقال بما قال الكتابُ المُنَزَّلُ
وأَلَّفَ بين المسلمينَ بِيُمْنِهِ   وأَطْفَأَ نيراناً على الدينِ تُشْعَلُ
يُعَاقِبُ تأديباً ويعفُو تَطَوُّلاً   ويَجْزِي على الحُسْنَى ويُعطِي فيُجزِلُ

إذ يعاقبني المتوكل فعقابه من باب تأديب الرئيس للمرؤوس ولا عار في ذلك، ويعفو تطولاً، تفضلاً منه

ولا يُتْبِعُ المعروفَ مَنّاً ولا أذىً   ولا البخلُ مِن عاداتِه حين يُسْأَلُ
يُضِيءُ لِأَبصارِ الرجالِ كأنَّهُ   صَباحٌ تَجلَّى يَزحَمُ الليلَ مُقبلُ
تَأَمَّلْ تَرى للهِ فيه بَدايِعاً   مِنَ الحُسنِ لا تَخفَى ولا تَتَبَدَّلُ
فَنَضْرَةُ وجهٍ يَقْصُرُ الطَّرْفُ دونَه   وطَرْفٌ وإن لم يَألَفِ الكُحْلَ أَكْحَلُ

وجهه ناضر وفيه هيبة تغض طرف، عين، الناظرين إليه، وله طرف أكحل بلا كحل: عين كحلاء كحلاً ربانياً

ومُعْتَصِمِيُّ الخَلْقِ لِلسيْفِ والقَنَا   عليه بَهاءٌ حين يَبدُو ويُقْبِلُ

خلقه، أي جسمه وخِلقته، يشبه جسم المعتصم، وكان جسيماً قوياً، وبهي الإقبال وهو يتحلى بسلاحه

إذا نحن شَبَّهْنَاكَ بِالبدرِ طالِعاً   بَخَسْناكَ حَظّاً أنتَ أَبْهَى وأَجمَلُ
ونَظْلِمُ إن قِسْناكَ بِاللَّيْثِ في الوَغى   فإنكَ أَحْمَى للذِّمارِ وأَبْسَلُ

أنت تحمي الذمار، الشرف، أكثر من الليث وأنت أبسل منه بَسالةً

ولستَ بِبَحْرٍ، أنتَ أعذبُ مَوْرِداً   وأنفعُ للرَّاجِي نَداكَ وأَشْمَلُ

ولا وَصْفَ إلّا قد تجاوزتَ حَدَّهُ　　ولا سَيْبَ إلّا سَيْبُ كَفِّكَ أفضلُ

السيب: العطاء

رعاكَ الذي اسْتَرْعاكَ أمْرَ عبادِهِ　　وكافَاكَ عنّا المُنعِمُ المُتَفَضِّلُ

كافاك: كافأك

٤٤ تهديد غير مبطَّن

أطلقه طاهر بن عبد الله أمير خراسان من السجن بأمر المتوكل، فمكث علي بن الجهم في خراسان زمناً، وقال للأمير قبل رحيله عائداً إلى بغداد:

أطاهرُ إنِّي عن خُراسانَ راحلٌ　　ومُستَخْبَرٌ عنها فما أنا قائلُ؟

سيسألونني في بغداد عن خراسان، فماذا سأقول لهم عنك وعن سخائك أم بخلك؟

أأصدُقُ، أم أَكْنِي عن الصدقِ؟ أيّما　　تخيَّرتَ أدَّتْهُ إليكَ المَحافِلُ

أأقول الصدق أم ألتف على الحقيقة بكلام ممغمغ؟ الأمر عائد إليك فإن أكرمتني قلت ذلك صراحة وإلا فإنني سأقول كلاماً يفهم سامعه أنك بخلت.. وعلى كل حال سيصلك كلامي، إذ ستردد شعري مجالس الأدب

وسَارتْ به الرُّكْبانُ واصْطَفَقَتْ به　　أكفُّ قيانٍ واجْتَبَتْهُ القَبائلُ

سيسير المسافرون الراكبون الإبل حاملين شعري من بلد إلى بلد، وستغنيه القيان، المغنيات، ويصفقن وهن يغنينه، وستجتبيه القبائل، ستختاره لكي تضمه إلى الأشعار التي تتردد في مجالسها

ألَا مُنصفٌ إن لم نَجِدْ متفضِّلاً　　علينا، ألَا قاضٍ من الناسِ عادلُ

إن لم نجد من يتفضل ويعطي فوق الكفاية فعلى الأقل نريد من ينصفنا ويعطينا ما نستحق لا غير

فلا تَقْطَعَنْ غيظاً علَيَّ أنامِلاً　　فقبْلَكَ ما عَضَّتْ عَلَيَّ الأنَامِلُ

لا تعض على أناملك لشدة الغيظ إن قلت فيك كلاماً أصف فيه بخلك ـ هذا إن بخلت ـ، وقبلك كثيراً ما عض القوم أناملهم لشدة وقع كلامي

أَطاهرُ إن تُحْسِنْ فإنِّيَ محسِنٌ　　إليكَ، وإن تَبخَلْ فإنِّيَ باخِلُ

٤٥ أنا والسُّرى

كم قد تَجَهَّمَنِي السُّرَىٰ وأزالَنِي　　ليلٌ يَنوءُ بِصدرِهِ مُتطَاوِلُ

كثيراً ما أرهقني السرى، سير الليل، وأزالني من بلدي الليل الطويل الذي ينوء بصدره، يثقل علي كأنه جاثم بصدره عليّ

وهَزَزْتُ أَعناقَ المَطِيِّ أَسومُها قَصْداً ويَحْجُبُها السوادُ الشاملُ

وهززت أعناق الإبل وأنا أحثها على السير وأسومها قصداً، أكلفها سيراً نحو مقصدي، بينما الليل يشملنا

حتى تولّى الليلُ ثانِيَ عِطْفِهِ وكأنَّ آخرَه خِضابٌ ناصِلُ

وتولى الليل وانصرف ثانياً من جنبه، كما ينصرف المرء فيثني جسمه ويولينا ظهره، وآخر الليل سواد وبياض كصبغة الشعر الناصلة قد نبت الشعر أبيض تحت الصبغ

وخرجتُ مِن أَعجازِهِ وكأنَّما يهتَزُّ في بُرْدَيَّ رُمْحٌ ذَابِلُ

وخرجت من أعجاز الليل، أواخره، قائماً نحيلاً لطول السفر كأنني الرمح الذابل، الجاف المشذب

٤٦ ذنبي وحرمتي

وكتب إلى طاهر بن عبد الله من الحبس:

إن كان لي ذنبٌ فَلِي حُرْمَةٌ والحقُّ لا يدفَعُهُ الباطلُ
وحُرمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتِي لو نالني مِن عدلِكُمْ نائلُ
ولِي حقوقٌ غيرُ مَجهولةٍ يعرفُها العاقلُ والجاهلُ
وسِيرةُ الأَمْلاكِ مَنقُولَةٌ لا جَائِرٌ يَخْفَى ولا عادلُ

سيرة الملوك تتناقلها الناس، ولا يخفى الظالم ولا العادل

وقد تَعَجَّلْتَ الذي خِفْتُهُ منكَ ولم يَأْتِ الذي آمُلُ

عجِلْتَ عليَّ بالعقاب، وكنت أخشى ذلك، ولم يأتني منك الخير، وكنت آمله

٤٧ ليل الجريح

وقال ليلة وفاته وهو جريح:

أَزِيدَ في الليلِ ليلُ أم سالَ بِالصبحِ سيلُ؟

هل زاد طول الليل عن المعهود، أم ذهب سيل جارف بالصبح فلم يعد يأتي؟

يا إِخوَتِي بِدُجَيْلٍ وأينَ مِنِّي دُجَيْلُ

دجيل: المحلة التي كان يسكنها ابن الجهم في بغداد

٤٨ تبرير المصلوب

حبس المتوكل علي بن الجهم ثم نفاه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله بن طاهر بأن يصلبه إذا وردها يوماً إلى الليل. فلما وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بها ثم أخرج فصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل فقال:

لم ينصِبُوا بِالشَّاذِياخِ صَبيحَةَ الـ إثْنـيْـنِ مَـغـمُـوراً ولا مـجـهـولا

لم يصلبوا رجلاً مغموراً أو مجهول المكانة، وكان الصلب عقاب اللصوص، وعقاب كبار المتمردين على الدولة أيضاً

نَصبُوا بِحمدِ اللَّهِ مِلءَ عيونِهِمْ شَـرفـاً ومِـلءَ صـدورِهِـمْ تَـبـجـيـلا

مـا ازدادَ إلَّا رفـعـةً بِـنُـكُـولِـهِ وازْدَادَتِ الأعـداءُ عـنـه نُـكـولا

ازداد هذا المصلوب رفعة بما ناله من تنكيل، وازداد أعداؤه خوفاً منه وإحجاماً عنه.. والشرح من محقق الديوان

هـل كـانَ إلَّا الـلـيـثَ فـارَقَ غـيـلَـهُ فـرأيـتَـهُ فـي مَـحْـمَـلٍ مَـحـمـولا

كان كأنه الأسد فارق غابته، فجيء به محمولاً مرفوعاً!

لا يـأمَـنُ الأعـداءُ مِـنْ شَـدَّاتِـه شَـدَّاً يُـفَـصِّـلُ هـامَـهُـمْ تَـفـصِـيـلا

هامهم: رؤوسهم

مـا عـابَـه أن بُـزَّ عـنـه لِـبـاسُـهُ فـالـسـيـفُ أَهْـوَلُ ما يُـرى مَـسـلـولا

العري لم يعبه، فالسيف يكون مخيفاً أكثر وهو عار من غمده

إن يُـبْـتَـذَلْ فـالـبـدرُ لا يُـزْرِي بـه أن كـان لـيـلـةَ تِـمِّـهِ مَـبـذُولا

إن ابتذلوني، أي أبرزوني، فالبدر ليلة تمامه بارز مبذول لكل ذي عينين

أو يَـسـلُـبُـوهُ الـمـالَ يُـحْـزِنْ فَـقْـدُهُ ضـيـفـاً أَلَـمَّ وطـارِقـاً ونَـزيـلا

إن سلبوني مالي فهذا يحزن الضيف الذي يلم بي، يأتيني، وينزل عندي لأنه لا يجد قرى أو عوناً

أو يَـحْـبِـسُـوهُ فـلـيـسَ يُـحْـبَـسُ سَـائِـرٌ مِـنْ شِـعْـرِهِ يَـدَعُ الـعـزيـزَ ذلـيـلا

إن حبسوني فلن يحبسوا شعري السائر، السريع الانتشار، الذي يذل العزيز إن هجي به

إن الـمـصـايِـبَ، ما تَـعَـدَّتْ دِيـنَـهُ، نِـعَـمٌ وإن صَـعُـبَـتْ عـلـيـهِ قـلـيـلا

والـلَّـهُ لـيـس بِـغـافـلٍ عـن أمـرِهِ وكـفـى بِـربِّـكَ نـاصـراً ووكـيـلا

لـن تـسـلـبُـوهُ ـ وإن سـلـبْـتُـمْ كـلَّ مـا   خَـوَّلْـتُـمُـوهُ ـ وَسَـامَـةً وقَـبُـولا

لن تسلبوني ـ وإن سلبتم كل ما خولتموني، أي منحتموني من عبيد وخدم ـ لن تسلبوني الوسامة في الشكل وحسن القبول لدى الناس

هـل تَـمـلِـكُـونَ لِـدِيـنِـهِ ويَـقـيـنِـهِ   وجَـنـانِـه وبَـيـانِـه تَـبـديـلا

الجنان: القلب

لـم تَنْقُصُوهُ وقد ملكْتُمْ ظُلْـمَـهُ   ما النَّقْصُ إلَّا أن يكونَ جَهُولا

لئن ملكتم ظلمي، استطعتم أن تظلموني، فلم تنقصوا قدري

كـادتْ تـكـونُ مـصـيـبـةً لـو أَنـكُـمْ   أوضـحْـتُـمُ ذنـبـاً عـلـيـه جـلـيـلا

كانت ستكون مصيبة حقاً لو أثبتُّم عليَّ ذنباً حقيقياً

إن كـان سَـفَّ إلى الـدَّنـيـئَـةِ أو رأى   غيرَ الجَميلِ مِنَ الأمورِ جميلا

كأن أكون سففت، نزلت، إلى فعلة خسيسة، أو ارتكبت ما لا يجمل بالشريف ارتكابه

لـو تُـنْـصِـفُ الأيـامُ لـم تَـعْـثُـرْ بـه   إذ كـان مِـن عَـثَـراتِـهِـنَّ مُـقـيـلا

لو أنصفني الزمن لما عثر بي هذه العثرة، أي السقطة،
خاصة أنني كنت أقيل الناس عثرات الأيام

ولَـتَـعْـلَـمُـنَّ إذا الـقـلـوبُ تَـكَـشَّـفَـتْ   عـنـهـا الأَكِـنَّـةُ مَـن أَضَـلُّ سـبـيـلا

ستعلمون إذا انكشفت الأكنة، الستور، عن القلوب وتبين الحق، من هو الذي كان على ضلال: أنا أم الذين سعوا بي

٤٩ سؤال السؤول

أَعـاذلَ لـيـس الـبـخـلُ مِـنِّـي سَـجِـيَّـةً   ولـكـنْ رأيـتُ الـفـقـرَ شَـرَّ سـبـيـلِ
لَـموتُ الفتَى خيرٌ مِنَ البخلِ لِلفتَى   ولَـلْـبُـخْـلُ خـيـرٌ مِـن سؤالِ بَـخـيـلِ
لَـعَـمْـرُكَ مَـا شَـيءٌ لِـوجْـهِـكَ قِـيـمَـةٌ   فـلا تَـلْـقَ مـخـلـوقـاً بِـوجْـهِ ذَلـيـلِ
ولا تَـسْـأَلَـنْ مَـن كـانَ يـسـأَلُ مَـرَّةً   فَـلَـلْـمَـوْتُ خـيـرٌ مِـن سُـؤال سَـؤُولِ

٥٠ خضوع

لـيـسَ عِـنـدي وإن تـغـضَّـبْـتَ إلَّا   طَـاعَـةٌ حُـرَّةٌ وقـلـبٌ سَـلـيـمُ

لئن غضبت علي فلن تجد مني إلا الطاعة الحرة، الخالصة، والقلب السليم، الخالي من الحقد

وانتظارُ الرِّضا فإن رِضَا السَّا دَاتِ عِزٌّ وعَتْبُهُمْ تَقْويمُ

وستجدني منتظراً رضاك عني، فرضا السادة عز لمن هو دونهم، وعتب السادة هو بمثابة التقويم والتأديب

٥١ رثاء أبي تمام

غَاضَتْ بَدائِعُ فِطْنَةِ الأَوهامِ وعَدَتْ عليها نكبةُ الأيامِ

غاضت، جفت، بدائع فطنة الأوهام، العقول، وعدت عليها وآذتها نكبات الأيام، أي الزمن

وغَدا القريضُ ضَئيلَ شَخْصٍ باكياً يشكو رَزِيَّتَهُ إلى الأقلامِ

أصبح القريض، أي الشعر، متضائلاً باكياً يشكو رزيته، مصيبته، إلى الأقلام

وتأوَّهَتْ غُرَرُ القَوافي بعدَه ورَمَى الزمانُ صحيحَها بِسَقامِ

أَوْدَى مُثَقِّفُها ورَائِضُ صَعْبِها وغَدِيرُ رَوضَتِها أبو تَمَّامِ

أودى، مات، مثقف القوافي، مقومها، ومروض صعابها وغدير روضتها أبو تمام.. وكان أبو تمام صديقاً لعلي بن الجهم وله فيه شعر مودة

٥٢ إلى شقيق الروح

العينُ بعدَكَ لم تنظُرْ إلى حَسَنِ والنفسُ بعدَكَ لم تَسْكُنْ إلى سَكَنِ

كأنَّ نَفسيَ إذا ما غِبْتَ غَائبةٌ حتى إذا عُدْتَ لِي عَادتْ إلى بَدني

٥٣ البلاء

قال لما هجاه مروان الأصغر في مجلس المتوكل:

بَلاءٌ ليس يُشْبِهُهُ بَلاءُ عَداوَةُ غيرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ

يُبيحُكَ منهُ عِرْضاً لم يَصُنْهُ ويَرتَعُ منكَ في عِرْضٍ مَصُونِ

إذا قعدت على كيس فحم فستضيره قليلاً ويضيرك كثيراً

٥٤ لا أريد معروفاً يذلني

لَلُبْسُ ثَوبَيْنِ بَالِيَيْنِ وطَيُّ يومٍ ولَيْلَتَيْنِ

طي يوم وليلتين: جوع يدوم هذا الزمن

أَيْسَرُ مِن مِنَّةٍ لِقَوْمٍ أَغُضُّ منها جُفونَ عَيْني

٥٥ المحبَّرة في التأريخ

وهي قصيدة طويلة، ومن أول ما نُظم في التأريخ، واجتزأنا بقليل:

الحمدُ للَّهِ المُعيدِ المُبْدي حمداً كثيراً وَهْوَ أهلُ الحمدِ

المعيد المبدي، من أسماء الله الحسنى، فهو بدأ الخلق وهو يعيده يوم القيامة

أخبَرني قومٌ مِن الثِّقَاتِ أُولو عُلومٍ وأُولو هَيئاتِ

أنَّ الذي يفعلُ ما يَشاءُ ومَنْ له العِزَّةُ والبَقاءُ

أَنْشَأَ خَلْقَ آدمٍ إنشاءَ وقَدَّ مِنْهُ زَوْجَهُ حَوَّاءَ

قدَّ: قطع

مبتدئاً ذلكَ يومَ الجُمْعةْ حتى إذا أكملَ منه صُنْعَهْ

أَسْكَنَهُ وزَوْجَهُ الجِنانا فكانَ مِنْ أمرِهِما ما كانا

غَرَّهُما إبليسُ فاغترَّا بِه كما أبانَ الله في كتابِهِ

دَلَّاهُما المَلْعونُ فيما صَنَعا فَأُهبِطا منها إلى الأرضِ معا

دلاهما، أي أنزلهما، إبليس بسبب ما صنعا من إطاعتهما له

وبَايَعَ الناسُ الإمامَ جَعفَرا خليفةَ اللَّهِ الأعَزَّ الأَزْهَرا

بعد ثلاثينَ وميتَيْ عامِ وبعدَ حَوْلَيْنِ سوى أيامِ

بويع للمتوكل سنة ٢٣٢هـ، قبل انقضاء هذه السنة بستة أيام بحسب المسعودي في مروج الذهب، فعلى هذا يكون توليه بعد ثلاثة أحوال سوى أيام لا «بعد حولين سوى أيام»

قد سَكَّنَ اللَّهُ به الأَطْرافا فما تَرى في مُلْكِهِ خِلافا

ثم تَولَّى قَتْلَهُ الفَراغِنَةْ وسَاعَدَتْهُمْ عُصْبَةٌ فَراعِنَةْ

الفراغنة: قوم من فرغانة، في أوزبكستان اليوم، وساعدتهم جماعة فراعنة، متجبرين

وبايَعوا مِن بعدِهِ للمُنْتَصِرْ فأصبحَ الرابحُ منهُمْ قد خَسِرْ

المنتصر ابن المتوكل وتواطأ مع القتلة

فعاشَ في السُّلْطَانِ سِتَّةَ اشهُرِ أَخرَجَهُمْ مِن مُلْكِهِ والعَسْكَرِ

عاش المنتصر في الحكم ستة أشهر حاول فيها إخراج قتلة أبيه من مواقعهم خوفاً على نفسه منهم

ثم أَتاهُ بَغْتَةً حِمَامُهْ سبحانَ مَن يُعاجِلُ انتقَامُهْ

يعاجل انتقامُ الله الظالمين

٥٦ عيون المها

عيونُ المَها بين الرُّصَافَةِ والجِسْرِ   جَلبْنَ الهوى مِن حيثُ أَدري ولا أدري

الرصافة: على الجانب الشرقي لدجلة ببغداد، والجسر جسر على دجلة

أَعَدْنَ لِيَ الشوقَ القديمَ ولم أَكُنْ   سَلَوْتُ ولكنْ زِدْنَ جَمراً على جَمْرِ

سَلِمْنَ وأَسْلَمْنَ القلوبَ كأنَّما   تُشَكُّ بِأَطْرافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

يدعو لهن بالسلامة مع أنهن أسلمن القلوب، أسلمنها للعدو، فهي تتألم كأنما تشك بأطراف المثقفة السمر، الرماح

وقلنَ لنا نحن الأَهِلَّةُ إنَّما   نُضِيءُ لِمنْ يَسْرِي إليْنا ولا نَقْري

نحن الأهلة، جمع هلال، نضيء لمن يسري، يسير ليلاً، ولا نقري، لا نطعم الضيف.. أي أننا من أهل «شم ولا تذق»

فلا بَذْلَ إلَّا ما تَزَوَّدَ ناظِرٌ   ولا وصلَ إلَّا بِالخَيالِ الذي يَسْري

ما نبذله للعاشق هو ما يتزوده بعينيه فقط، أو خيالنا يأتيه في أحلامه

أحِينَ أَزَلْنَ القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ   وأَلْهَبْنَ ما بينَ الجوانِحِ والصَّدْرِ

صَدَدْنَ صُدودَ الشَّارِبِ الخمرَ عندما   زَوَى نفسَه عن شُربِها خِيفَةَ السُّكْرِ

بعد أن زلزلن القلب صددن عنه مثلما يصد شارب الخمر ويزوي نفسه عنها ويبتعد خيفة أن يسكر

أَلَا قبلَ أن يَبدُو المَشيبُ بَدَأْنَني   بِيأْسٍ مُبينٍ أو جَنَحْنَ إلى غَدْرِ

ليتهن بدأنني، قبل أن أشيب، بإشعاري باليأس من وصالهن أو ملن إلى الغدر، ففي الشباب يجد المرء متسعاً للعثور على بديل، وعند المشيب هي الحسرة لا غير

فإنْ حُلْنَ أو أَنْكَرْنَ عهداً عهِدنَهُ   فغيرُ بَديعٍ لِلغَواني ولا نُكْرِ

حلن: تحولن، غير بديع: غير غريب ولا منكر عليهن الغدر

ولكنَّهُ أَوْدَى الشبابُ وإنَّما   تُصادُ المَها بينَ الشَّبِيبَةِ والوَفْرِ

أودى الشباب ومات، والمها، بقر الوحش أي النساء الجميلات الأعين، تصاد في وقت يجتمع للمرء فيه الشباب والوفر، أي الغنى

كَفَى بِالهوى غَيَّاً وبِالشَّيْبِ زاجِراً   لو انَّ الهوى مِمَّا يُنَهْنَهُ بِالزَّجْرِ

الهوى نفسه غي، والشيب يزجر المرء ويردعه عن التمادي في العشق.. ولكن ليت العشق ينهنه، يُردَع، بالزجر!

أمَـا ومَـشـيـبٍ رَاعَـهُـنَّ لَـرُبَّـمـا عَـمَرْنَ نِياماً بين سَحْرٍ إلى نَحْرِ

لئن كان شيبي راعهن، أبعدهن وثناهن عني، فكثيراً بقيت الحسان نائمات بين سحري ونحري، بين صدري وأعلى الصدر

وبِتْنا على رغمِ الحسودِ كأنَّنا خَليطانِ مِن ماءِ الغَمَامَةِ والخَمْرِ

بتنا متعانقين اختلط جسمانا كما يمتزج ماء المطر بالخمر

خَليلَيَّ ما أَحْلَى الهوى وأَمَرَّهُ وأَعْلَمَني بِالحُلْوِ منهُ وبِالمُرِّ

بما بَيْنَنا مِن حُرْمَةٍ هل رأيتُما أرقَّ مِن الشكوى وأقسى مِن الهَجْرِ

وأَفضحَ مِن عينِ المُحِبِّ لِسِرِّهِ ولا سِيَّما إنْ أَطْلَقَتْ عَبْرةً تَجري؟

أهناك ما هو أكثر فضحاً لسر المحب من عينه، وخصوصاً إذا أطلقت دمعة؟

وما أَنْسَ لا أَنْسَى ظَلُومَ وقَوْلَها لِجَارَتِها مَا أَوْلَعَ الحُبَّ بِالحُرِّ

قالت لجارتها ما أشد ولع وتعلق الحب بقلب الرجل الحر

فقالتْ لَها الأُخرى فما لِصَديقِنا مُعَنًّى وهل في قتْلِهِ لَكِ مِن عُذْرِ؟

قالت لها: ما له معنى متعَب؟ وهل لك عذر في قتله بصدودك عنه؟

عِديهِ لعلَّ الوَصْلَ يُحْيِيهِ واعْلَمي بأنَّ أَسيرَ الحبِّ في أَوْثَقِ الأَسْرِ

عديه: أعطيه وعداً باللقاء

فقالتْ أُدَاري الناسَ عنه وقلَّما يَطيبُ الهوى إلَّا لِمُنْهَتِكِ السِّتْرِ

هي تحاول إبعاد الناس عن كشف سر عشقه، ولكن الهوى لا يطيب إلا لمن يتمادى فيه ويحلو له أن ينهتك ستره وينكشف أمر عشقه

وأَيقَنَتا أن قد سَمِعْتُ فقالَتا مَنِ الطارقُ السَّاري إلينا ولا نَدري؟

فقلتُ فَتىً إن شِئتُما سَتَرَ الهوى وإلَّا فَخَلَّاعُ الأَعِنَّةِ والعُذْرِ

خلاع الأعنة والعذر، متهور

علـى أنه يَشكُو ظَلُومَ وبُخْلَها عليه بِتَسليمِ البَشاشَةِ والبِشْرِ

يشكو أنها تبخل عليه بالسلام والبشاشة

فقالتْ هُجينا، قلتُ قد كانَ بعضُ ما ذَكَرْتِ لعلَّ الشَّرَّ يُدفَعُ بالشَّرِّ

فقالتْ كأنَّا بالقَوافي سَوائِراً يَرِدْنَ بِنا مِصْراً ويَصْدُرْنَ عن مِصْرِ

كأن القصائد التي ستهجونا بها سائرة منتشرة
من مصر إلى مصر، من بلد إلى بلد

فقلتُ أَسأتِ الظنَّ بي لَسْتُ شَاعِراً وإن كانَ أحياناً يَجيشُ به صَدري

صِلِي واسْأَلي مَن شئتِ يخْبِرْكِ أَنَّني على كلِّ حَالٍ نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ

ومَا الشعرُ مِمَّا أَسْتَظِلُّ بِظِلِّهِ ولا زَادَني قَدْراً ولا حَطَّ مِن قَدْري

وما أنا مِمَّنْ سَيَّرَ الشعرُ ذِكْرَهُ ولكنَّ أَشْعاري يَسيرُ بِها ذِكري

ولِلشعرِ أَتْباعٌ كثيرٌ ولم أَكُنْ له تَابعاً في حالِ عُسْرٍ ولا يُسْرِ

ولا كُلُّ مَن قَادَ الجِيَادَ يَسُوسُها ولا كُلُّ مَن أجرَى يُقَالُ له مُجْرِ

مع أن للشعر أتباعاً جعلوه محور حياتهم فليس كل شاعر بشاعر حقاً، كما أنه ليس كل من قاد الخيل قادراً على سياستها والقيام عليها، ولا كل من أجرى الخيل، سابَقَ بها، يسمى مجرياً.. وفي الشطر الأول فخر بأنه يقود الخيل ويركبها لكنه يترفع عن خدمتها

ولكِنَّ إحسَانَ الخَليفةِ جعفرٍ دعانِي إلى ما قلتُ فيهِ مِن الشعرِ

فسارَ مَسيرَ الشمسِ في كلِّ بِلْدَةٍ وهَبَّ هُبوبَ الريحِ في البرِّ والبحرِ

سار شعري في كل مكان كأنه الشمس، وهب كالريح

ولو جَلَّ عن شُكْرِ الصَّنيعَةِ مُنْعِمٌ لَجَلَّ أميرُ المؤمنينَ عنِ الشُّكْرِ

فَتىً تَسْعَدُ الأَبْصارُ في حُسْنِ وَجهِهِ كما تَسْعَدُ الأيدي بِنَائِلِهِ الغَمْرِ

النائل الغمر: العطاء الجزيل

به سَلِمَ الإسلامُ مِن كلِّ مُلْحِدٍ وحَلَّ بِأهلِ الزَّيْغِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

الزيغ: الضلال

إِمَامُ هُدىً جَلَّى عنِ الدينِ بعدَما تعادَتْ على أَشْيَاعِهِ شِيَعُ الكُفْرِ

هذا الإمام، المتوكل، جلى عن الدين، أي كشف وجهه الحقيقي، بعدما تعادت، تكالبت، على أشياعه، أنصاره، شيع الكفر، جماعات الضلال

وفَرَّقَ شَمْلَ المالِ جُودُ يَمينِهِ على أنه أبْقَى له أجمَلَ الذِّكْرِ

إذا مـا أجـالَ الـرأيَ أدْركَ فـكُـرهُ   غَـرائـبَ لـم تَـخْـطُـرْ بِـبالٍ ولا فِكْرِ

ولا يَـجـمـعُ الأمـوالَ إلَّا لِـبَـذْلِـهـا   كما لا يُساقُ الهَدْيُ إلَّا إلى النَّحْرِ

الهدي: الماشية تُهدى لتنحر في موسم الحج

ومنْ قَالَ إن الـبحرَ والقَطْرَ أَشْبَها   نَداهُ فقد أَثْنَى على البحرِ والقَطْرِ

ولـو قُـرِنَـتْ بِـالـبَـحْـرِ سبـعـةُ أَبْـحُـرٍ   لما أَدْركَـتْ جَدوَى أَنامِلِهِ العَشْرِ

الجدوى: العطاء

وإن ذُكِـرَ الـمـجـدُ الـقـديـمُ فـإنـمـا   يَـقُـصُّ عـلـيْـنـا مـا تَـنَـزَّلَ فـي الـزُّبْـرِ

المتوكل عليم بما ورد في الزبر، كتب الدين القديمة

فـإن كـان أَمْـسـى جـعـفـرٌ مُـتَـوكِّـلاً   على اللَّهِ في سِرِّ الأمورِ وفي الجَهْرِ

لـقـد شـكـرَ الـلَّـهُ الـخـلـيـفـةَ جـعـفـراً   وأعـطـاهُ مِـمَّـا لا يَـبِـيـدُ عـلـى الـدهـرِ

ووَلَّـى عُـهُـودَ الـمـسـلـمـيـنَ ثَـلاثـةً   يُـحَـيَّـوْنَ بِـالـتَّـأيـيـدِ والـعـزِّ والـنـصـرِ

أَغَـيْـرَ كـتـابِ الـلَّـهِ تَـبْـغُـونَ شَـاهِـداً   لَكُمْ يا بَنِي العباسِ والمَجْدِ والفَخْرِ

أتطلبون شاهداً غير كتابِ الله وغير المجد والفخر؟

كـفـاكُـمْ بِـأَنَّ الـلَّـهَ فَـوَّضَ أَمْـرَهُ   إِلَيْكُمْ وَأَوْحَى أنْ أَطِيعُوا أُولي الأَمْرِ

ولـن يُـقـبَـلَ الإيـمـاُن إلَّا بِـحُـبِّـكُـمْ   وهـل يَـقـبَـلُ الـلَّـهُ الـصَّـلاةَ بِـلا طُـهْـرِ

ومَـن كـان مَـجـهـولَ الـمـكـانِ فـإنَّـمـا   مَـنـازِلُـكُـمْ بين الـحَـجُـونِ إلى الـحِـجْـرِ

منازلكم القديمة في مكة بين هذين المكانين

ومـا زَالَ بـيـتُ الـلَّـهِ بـيـن بُـيـوتِـكُـمْ   تَـذُبُّـونَ عـنـهُ بِـالـمُـهَـنَّـدَةِ الـبُـتْـرِ

الكعبة بين بيوتكم وتذبون عنها، تدافعون عنها، بالمهندة البتر، بالسيوف القاطعة

سَقَيْتُمْ وأَطْعَمْتُمْ وما زال فضلُكُمْ   على غيرِكُمْ فضلَ الوَفاءِ على الغَدْرِ

سقيتم وأطعمتم، لكم السقاية والرفادة للحجيج، وفضلكم على غيركم مطلق كفضل الوفاء على الغدر

وُجوهُ بَني العباسِ للمُلْكِ زينةٌ   كما زيِنَتِ الأَفلاكُ بِالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
ولا يَستَهِلُّ المُلْكُ إلَّا بِأَهْلِهِ   وهل تَرْجِعُ الأيامُ إلَّا إلى الشَّهْرِ

يستهل: يبدأ

فهرس القوافي
(القافية فرقم القطعة)

أبو تمام
(١٨٨هـ - ٢٣٢هـ)

أيها القارئ، بعد عشرة أيام تنقضي سنة ١٤٣٢ هجرية. فهل سمعت أحداً احتفل في هذه السنة بمرور ألف ومئتي عام على وفاة أبي تمام؟ أنا وأنت فقط. (كُتبت هذه المقدمة للمختار من شعر أبي تمام عام ٢٠١١).

ستجد - إن فتشت - من يقدِّم أبا تمام، حبيب بن أوس الطائي، على كل شعراء العرب، وستجد من يجعله ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً. وستجد من ينفي عنه التقدم في الشعر ويلصق به الحكمة، لكن الإجماع يكاد ينعقد على أنه من أهم شعراء العرب، وعلى أنه الشاعر المحترف الذي اكتمل على يديه تحول الشعر إلى صناعة؛ وفي هذا من القدح ما فيه، فأبو تمام - أكثر من المتنبي والبحتري وابن الرومي - هو المسطرة التي ظل شعراء العرب يقُصُّون عليها أشعارهم ألفاً ومئة سنة.

أقدم إليك فصلاً ضافياً يضم أكثر من مجرد مختارات من أشعار أبي تمام. في كتابي هذا أرحلُ معك في شعر أبي تمام، ونخوض فيه خوضاً.

طُبع ديوان أبي تمام مرات كثيرة، وشرحه في القديم والحديث شراح كثر. وبلغ بكل أولئك الناسخين والشارحين الكسل أن لم يتزحزح أي منهم - فيما أعرف - عن الترتيب الذي وضعه الصولي للأشعار. كما لم يكلف أي منهم نفسه عناء شرح الديوان شرحاً يحسن أن نسميه شرحاً، إن هي إلا نتف من التعقيبات المتفرقة.

ولأن شعر أبي تمام أصعب شعر، وأعقد شعر، وأغمض شعر، ففي وسعك القول إن ديوان أبي تمام بقي مغلقاً. وما صنعتُه هنا أنني اخترت أطايب الديوان، وصنفت ما اخترته تصنيفاً يسير مع مراحل حياة الشاعر، وشرحت

الأبيات شرحاً وافياً سهلاً، واضعاً شرح كل بيت تحته. وجعلت كلمات الشرح تسير بموازاة كلمات البيت، حتى لو رَكِبتُ في سبيل ذلك الركاكة، ووقفت عند كل كلمة صعبة مفسراً معناها بمرادف وضعته بين قوسين.

لماذا أبو تمام في ربيع طويل؟

بدأت أخط هذه المقدمة فور فراغي من اختيار ألف ومئتين وثمانية وستين بيتاً من ديوان أبي تمام، فكنت أكتب الفقرة بعد الفقرة، وأنا في هذه الأثناء عاكف على ما اخترته من أبيات، أشكلها وأضبط نهاياتها حتى تستقيم على وجه الورقة بلا اعوجاج، ثم أشرحها.

ثم إذا بالربيع العربي يربِّط أيدينا جميعاً، ويجعلنا غير قادرين على التركيز في شيء سواه.

انقطعتُ عن المقدمة نحو سنة، شهدت فيها ثورتي تونس (قد يصلح يوم ١٤ يناير/جانفي ٢٠١١ يوم ذكرى لها)، ومصر التي جعلوا يوم بدئها (٢٥ يناير ٢٠١١) يوماً مذكوراً. والتقطت القلم من جديد والثورات مشتعلة في بلدان أخرى. وانتصرت ثورة ليبيا بثمن باهظ دفعه شعبها، وثمن مؤجل سيدفعه، وأنا أحاول أن أتخلص من هذه المقدمة ومن كل ما يتبعها سريعاً.

ستلاحظ في الفقرات المقبلة تخليطاً كثيراً، فهي مرآة لذهني الموزع بين عمل أرتزق منه، وهو عمل صحافي شديد الالتصاق بالثورات العربية، وبين أحلامي كرجل يتمنى لقومه من أهل هذه البلاد العربية مستقبلاً أفضل.

عجزت عن التفكير في أبي تمام، وفي هذا الشعر العتيق المصنوع المفبرك، المحبوك حبكاً، والمقدم في رقاع الذل لنيل ذهب الخلفاء والولاة.

رأيت أبناء الوطن العربي يتقاربون، ورأيت وسائل الإعلام الأجنبية تتذكر مصطلح «العالم العربي» بعد دهر مضى عليها وهي لا تقول إلا «الشرق الأوسط». ورأيت مراسلي الفضائيات يفزعون إلى ما درسوه في المدارس من شعر قديم يستشهدونه على ما يمر من أحداث جسام.

وآخر بيت سمعته استعمله المراسل كي يصِم وفود المحاورين الذين يلتقي بهم أولو الأمر في مصر بأنهم لا يمثلون الجماهير الشابة المتظاهرة، قال المراسل: (وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى/وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا). ويبدو على هذا

البيت أنه من أبيات العصر الباهت في الشعر العربي، العصر الذي جاء بعد انهيار الشعر، وانتثار عقد الدولة العربية الإسلامية.

رأيت نفسي أعود إلى أبي تمام.

نحن نستعذب فكرة أننا أصحاب إرث قديم. نجد في حلوقنا لذة إذ نستشهد ببيت عتيق.

وانظرْ إلى شعر أبي تمام، على كل ما ذكرناه عنه من أنه مصنوع محبوك مفبرك إلخ، ألا ترى شباباً وفتيات يقولون كلما حنُّوا إلى حب قديم: (نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب إلا للحبيب الأول)؟

فهذا لأبي تمام.

وللرجل نظرات في الحياة وفي اليأس والرجاء وفي الشقاء والكدح وضعها في أبيات تقتحم القلب، وإن له لشخصية متميزة.

ما نحتاج إليه ليس أن نطلِّق تراثنا بالثلاث، بل أن نضعه في مكانه. وألا نتخيل أنه معوق للنهوض والتنمية.

يقولون للضيف عندنا إذا شبع من الطعام، ثم جاءت الكنافة فأراد أن يرفع يده عنها: «كلُّ عيشٍ لَهُ كُرَيْش». أي أن لكل لون من الطعام معدة خاصة به، فإذا امتلأت معدة الهريسة والكشري والمقلوبة، ظلت معدة الكنافة فارغة تنتظر حصتها.

ولعل موقفاً كهذا من التراث أن يكون معقولاً: لنفرغ مئة بالمئة من طاقتنا للعلم، ولنلق بكل أصناف الروحانيات في معدة أخرى من معد عقولنا. وهذا شبيه بالطفل نظنه غير قادر على تعلُّم لغتين في آن معاً، ثم نُفاجَأ بأنه قادر على تعلم لغات عديدة معاً دون أن تُدخل إحداها «الضيم على الأخرى» كما قال الجاحظ.

على أنني لا أدعو إلى إحياء الشعر العمودي كي يهزم القوالب الشعرية الجديدة، ولست أدعو إلى القديم دون الجديد. فقط أريده حاضراً في مدارسنا حضوراً جميلاً، وقليلاً.

ومدارسنا تحتفل بالشعر القديم مثلما احتفلت حكوماتنا عبر إعلامها الرسمي بأخبار القضية الفلسطينية: كلمة حق أريد بها باطل. وإليك التفصيل:

كي تتجنب كل دولة من الدول العربية اشتغال وسائل الإعلام الرسمية فيها بإخفاقاتها الداخلية ـ من فقر وفساد وخضوع لإملاءات صندوق النقد الدولي، ومن ديون، وتدمير للاستثمارات الاستراتيجية كالصناعة والزراعة لصالح استثمارات خدمية كالقرى السياحية ـ درجت على تخصيص مساحة واسعة للقضية الفلسطينية يتم فيها توجيه سيل من الشتائم إلى إسرائيل. فبهذه الطريقة تحرف تلك الأنظمة الأنظار عما يجري محلياً، وتضرب عصفوراً آخر بهذا الحجر إذ تستعيض عن اتخاذ مواقف حقيقية من القضية الفلسطينية بالشتم والاستنكار.

ومؤلفو المناهج الدراسية الرسميون، القابضون مرتباتهم من وزارة المعارف، يكثرون من الشعر القديم في الكتب المدرسية كي يطغى على الأدب الجديد، فهُم من جهة قوم محافظون لا يحترمون الشعر الجديد، وهم من جهة أخرى يسايرون الأنظمة التي لا تحب الأدب الجديد الجريء. وفي بعض الدول العربية ـ بل عليَّ أن أعمم وأقول في كل الدول العربية ـ يعمد مؤلفو مناهج اللغة العربية والأدب العربي إلى أشعار عمودية ضعيفة لشعارير معاصرين، أشعارٍ ضعيفة في المبنى والمعنى صاغها ناسٌ أطفالٌ فكرياً، بعضهم ضعيف في عربيته لا يقيم الوزن إلا بارتكاب كل الجوازات، ثم يستر ضعفه وركاكته بكلمات صعبة ينزعها من بطن القاموس نزعاً فتبدو في قصيدته بشعة كأنها العجوز الدردبيس في «الكوفي شوب»، وبعضهم إمَّعة في عقله وفي سلوكه يقول الرأي وهو يتلفت يميناً وشمالاً، ومعظمهم يجمع الركاكة والفهاهة إلى الضحالة والتفاهة؛ وقد يدرك مؤلفو الكتب المدرسية، وقلما يدركون، أن هذا الشعر العمودي المعاصر ضعيف، ولكنهم سعداء بأنه يؤدي رسالة تربوية: فهو شعر ديني، أو اجتماعي، يحض على التقوى أو على تماسك الأسرة؛ يعمدون إليه فيملأون به كتب المدارس.

لست أشك طرفة عين في أن الوطن العربي محتاج إلى نهضة كبيرة وحقيقية. نهضة في الصناعة وفي الزراعة؛ ونهضة في مكافحة الأمية، ونهضة في الثقافة العالية: وأعني بها توسيع النخب لكي يكون في كل بلد آلاف المستنيرين الواقعيين القادرين على قراءة جداول الإحصاءات قراءة صحيحة، والمندمجين مع الدنيا في معارفها، والشاعرين بضرورة البحث عن مصادر بديلة للطاقة، والمطلعين على التطور العلمي والتقني في العالم، هذا بالإضافة إلى

تخصصاتهم، إذ قد تجد أحد أفراد هذه النخب عاملاً أو طبيباً أو معلماً أو ربة منزل أو نقابياً أو محامياً. فما أكثر المتخصصين في بلادنا وما أقل المثقفين الأحرار. تجد الواحد منهم طبيباً بارعاً في تخصصه، وتناقشه في سياسة أو في أدب أو في فكر فتراه مرعوباً بفعل دوغمات استقرت في عقله. والأدب معول ثقافي مهم، يهدم طبقات الكلس المترسبة في العقول، ويفتح الطريق للأكسجين.

المطلوب في البلدان الناطقة بالعربية أن تتعب كثيراً لتنهض نهضة عاقلة. فأما النهضة المباركة التي شهدها الوطن العربي في أوائل القرن العشرين، بعد انتهاء الحكم العثماني فكانت ضعيفة؛ وأما نهضته في الأربعينات والخمسينات بعد التخلص من الشكل المباشر للاستعمار فكان فيها من العواطف أضعاف ما فيها من عناصر النهوض الحقيقية، وهي مباركة أيضاً. لكننا مللنا من النهضات المباركة، ونريد نهضة «غير مباركة»، نريد نهضة طويلة النفس.

وماذا يصنع أبو تمام هنا؟

لا شيء متميزاً. لا أبو تمام، ولا البحتري. هذا كله ترف يرافق النهضات، وهو من لوازم الحضارة. الناس في كل الدنيا يدرسون تراثهم القديم لمجرد التسلية في الغالب. لست أزعم لك أن مئات الكتب التي صدرت ولا تزال تصدر عن شكسبير تؤثر في الصناعة الحاسوبية في بلاد الإنجليز. ولكنني أؤكد أن كل إنجليزي يحفظ من شكسبير عشرات الأبيات، وأن صحافتهم تستعمل شكسبير يومياً في التعبير عن عواطف ومواقف شتى. وفي انتفاضة مصر الحاضرة سمعت مراسلة تستعمل بيت أبي الطيب المتنبي: «نامت نواطير مصر عن ثعالبها/ فقد بشمن وما تفنى العناقيد». (كنت ظننت الثعلب لا يأكل إلا الدجاج، ثم كشفت في «غوغل» فإذا هو يأكل كل أنواع الفواكه مع تفضيله اللحم).

يزعجني أنني عاكف على الكتابة عن أبي تمام وشعره. أريد أن أكتب عن التنمية في الوطن العربي، وأن أستكشف الطرق المفضية إلى تقوية مثل هذه التنمية. ولكن هذا قد لا يكون مفيداً جداً لأنني غير متخصص في شيء.

لذا أكمل كتابتي عن أبي تمام.

ما زال العالم العربي مشتعلاً: ليبيا قتلت القذافي، وفي جوفها مرجل

يغلي بالتناقضات، واليمن يحاول جاهداً بدء حربه الأهلية، أو منعها ـ الأمر يعتمد على المكان الذي تنظر منه إلى الوضع ـ، وسوريا تستولي على مقدمة نشرات الأخبار منذ أزيد من ستة أشهر وقد وصل عدد قتلى الأحداث فيها إلى ثلاثة آلاف، والبحرين غير هادئة، ولا الأردن، ولا المغرب، وفي مصر يستمر التوتر بين المجلس العسكري وشباب الثورة والإخوان المسلمين، والتيارات الليبرالية الضعيفة. وتونس أجرت انتخابات جمعيتها التأسيسية وفاز إسلاميو حركة النهضة بأكثر من أربعين في المئة، وهي مرشحة أكثر من غيرها للسير على طريق الاستقرار.

والسودان الذي فقد ثلث أرضه في مطلع العام يعيش قلقاً في الثلثين الباقيين، ويعالج مسائل جديدة قد تؤدي إلى ما ينسيه حروبه الجنوبية التي امتدت عقوداً. والصومال مر بمجاعة كبيرة في الصيف. والجزائر هادئة، كأنما لأنها دفعت الفاتورة في حرب أهلية بشعة في التسعينات، والعراق ما زال منذ ثماني سنين يدفع فاتورة تاريخه الطويل، ودول الخليج ترتجف.

وأبو تمام؟

هو شاعر البلاط الذي لبس قناعاً طول عمره. لا أدعوك إلى تقييمه لا فكرياً ولا خلقياً، فصاحبنا كتلة من الكذب في مواقفه. لا أعرف شاعراً ذكر كلمة «الإسلام» أكثر منه، ولم يكن مؤمنا ولا تقياً ولا مصلياً ولا صواماً، وأغلب الظن أن تحوله عن النصرانية كان تحولاً نفعياً بحتاً. كان كتلة من الكذب في شعره: وإلا فماذا تسمي هذا الإغراق في الصناعة؟

كان مستجدياً أبشع استجداء، يمدح بأبيات يلصق فيها خده بالتراب كي يداس، ثم في آخر القصيدة يطلب المال بقحة، فإذا لم يعط مالاً عاتب كالمومس المقتضية، ثم يأتي الهجاء. يا لاشمئزازي منه وهو يراوح بين المدح والوعيد! يا لقرفي منه وهو يذكر السبايا ويتلمظ تلمظ المغتصِب.

لكنه إنسان: سافل، نعم، (والأفضل كلمة وضيع)، وشبِق إلى المال والشهرة، وفنان. وما بالنا نمضي في هذا الهذر. ألا نفعل مثلما فعل الأقدمون فنقيم الشعر تقييماً فنياً، وننسى كل الاعتبارات الأخلاقية؟

نعم، يحسن بنا أن نفعل. ولأننا نفعل، نكتب عن أبي تمام، وندرس شعره.

الشاعر ذو الأسلوب الملتوي

أساير لك أبا تمام، أمشي معه في النظم كلمة فكلمة. أذهب معه إلى مكان الجريمة، وأطلب إليه تمثيلها.

كيف لي أن أفهم أصعب وأعقد وألْغَز شاعر عربي دون اللجوء إلى أدوات كهذه.

فأما الشارحون القدامى فلا كبيرَ تعويل عليهم: التبريزي جاء ببعض ما يُحسن من تحليل نحوي، وعدا في الشرح على كثير مما سبقه إليه المرزوقي. والصولي أفادنا في مناسبات القصائد مستفيداً من المعاصرة. والشراح المحدثون استناموا إلى السرقة من القدامى. ولئن كان القديم يسرق ذكياً، إذ إن كتابه لن يُنسخ إلا بضع عشرات من النسخ، وقد يموت الشارح ولما يكتشف أحد سرقاته، فإن المحدثين يسرقون أغبياء وهم يرون الكتب التي سرقوا منها مطبوعة ومنثورة بأيدي الناس.

هؤلاء الشراح المحدثون قوم اشتروا شهادات جامعية، نالوا بها وظائف جامعية تقوتهم وتدفع الجوع عن أولادهم، ثم ألحت عليهم شهوة أن يظهروا أمام تلامذتهم بمظهر المؤلفين الذين يضعون أسماءهم مسبوقة بحرف الدال على أغلفة الكتب، فشرحوا أشعار القدماء سارقين، غير مفكرين كبير تفكير في معاني الشعر.

لم نعثر على شرح معاصر لأبي تمام ينقع الغلة، وينفي العلة. فعبد السلام هارون شرح همزيات أبي تمام فقط في ستين صفحة، ورغم علو كعبه في فهم الشعر واللغة القديمة فلم يقدم نموذجاً في شرحه. ذلك أن أبا تمام شاعر قديم ذو طرائق في التعبير مختلفة عن طرائق القدماء. وبطرس البستاني شرح مقاطع قليلة من قصائد قليلة. وههنا موضع التنويه بهذا المتأدب الذواقة ذي الحس الجميل العميق. كنت أتمنى لو ترك «مدرسة الحكمة»، وترك طلابه، وتفرغ لدواوين الشعراء، فهو نافذ الفهم، صادق، جميل العبارة في شرحه. وقد عثرت على شرح للبناني آخر هو ملحم إبراهيم الأسود، ظفرت بالجزء الأول من شرحه لديوان أبي تمام وهو مطبوع سنة ١٩٢٨، ولعله لم يُصدر سوى نصف الديوان لأن عمر فروخ في ثبت المراجع (في «تاريخ الأدب العربي») لا يذكر سوى الجزء الأول لشرح الأسود. على أنه أفضل من شروح الدكاترة الذين تدفقوا علينا في الزمن الأخير. كان ملحم الأسود صادقاً ومجتهداً: أخذ عن قدماء الشارحين، وأي ضير في ذلك، لكنه لم ينسخ نسخاً غبياً.

ولإيليا الحاوي كتاب طريف اسمه «أبو تمام: فنه ونفسيته وشعره»، طرافته أنه يقع في ستمئة وخمسين صفحة، وأنه كان يمكن أن يكون مئة صفحة. ولو أنفق الحاوي شطر جهده في هذا الكتاب في شرح الديوان شرحاً وافياً عوضاً عن ذلك الشرح الذي نشره في كتاب آخر وحشر فيه كل غلطة مطبعية ممكنة وملأه بـ «عدم الشرح» ـ أقصد بتجنب الأماكن الوعرة، والاكتفاء بإعطاء المعنى العام ـ لكان أدى لديوان أبي تمام خدمة جليلة. لكن كتابه الأول ممتع؛ أحببت فيه حماسة المؤلف الشديدة وهو يدافع عن أبي تمام وحداثته. وأحببت لغة الكاتب وجرأته.

جملة القول أن ديوان أبي تمام بحاجة إلى شرح جديد كامل.

أعود إلى شرح التبريزي المشهور الذي طبعه محمد عبده عزام سنة إحدى وخمسين. لقد قرأت شعر أبي تمام أول ما قرأته بهذا الشرح. وكانت قراءتي تلك في لندن، واستعرت الشرح جزءاً بعد جزء من مكتبة «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» التي كان عزام يعمل بها وقت إصداره تحقيق شرح التبريزي. ولعل تلك النسخة التي استعرتها هي عين النسخة التي قدمها عزام إلى المكتبة. فأما عمله كمحقق فهو في النهاية من الجودة، وأما ما أضافه إلى التبريزي فيكاد يكون عدماً. ولا نطالب المحقق بأن يزيد في الشرح؛ حسبه أن يحقق وأن يدقق، وفي هذا من النصب ما حدثنا أهل التحقيق عنه كثيراً.

والتبريزي في شروحه المختلفة (الحماسة وديوان أبي تمام والمفضليات والمعلقات الخ) تخطف بصره النكت النحوية، وهو يهبط من سماء القصيدة إلى أفق البيت، ثم ينحط إلى دركة اللفظة. فيشرح شرحاً لغوياً فيه نفع، وفيه زيغ. على أنه في شرحه لديوان أبي تمام زاد واحدة: فهو يشرح بيتاً ويترك أبياتاً، ويشرح واضحاً ويدع غامضاً، فكأنه من شراحنا المعاصرين.

ولم أر شرح الصولي أنفع من شرح التبريزي، فهو مجتزأ. بدأه صاحبه نشطاً يشرح من القصيدة أبياتاً كثيرة، لكنه بعد بضع قصائد فتر وأصبح يشرح بيتاً هنا وبيتاً هناك. وإذا صلح هذا مع بعض الشعراء فلا كذلك مع أبي تمام. أبو تمام اللغز فقير إلى شرح مستفيض.

ما كان أحوجنا إلى شرح من أبي العلاء لأبي تمام. وقد وصلتنا بعض آراء أبي العلاء من تلميذه التبريزي، ومن شذرات في كتابه «ذكرى حبيب».

وأحسن من شرح أبا تمام الأعلم الشَّنْتَمَرِيّ. وعندما قرأت شرحه المطبوع في المغرب في جزأين (ط١: ٢٠٠٤) رأيته منكباً على المعنى تاركاً النكت البلاغية والنحوية. فما أشبه طريقته بما ارتضيناه لأنفسنا. على أن الأعلم الشنتمري صنع صنيع كل شراح أبي تمام القدامى، فبدأ شرحه نشطاً يأخذ كل بيت وحده، ولم يتجاوز بضع عشرات من الصفحات حتى أخذ يلخص الثلاثة الأبيات والأربعة والخمسة تلخيصاً. ونسخة الشنتمري من الديوان ناقصة نقصاً كبيراً، ويقول طابع الشرح إنها تستند إلى نسخة الإفليلي المستندة إلى قراطيس كتبها أبو تمام بخطه وجلبها أبو علي القالي إلى الأندلس مضيفاً إليها ما رواه عن ابن درستويه. على أننا تعقبنا رواية هذا الشرح للأبيات التي وقع خلاف في بعض كلماتها فيها فلم نجدها أفضل مما ورد في الشروح المشرقية.

كنت أتمنى، وقد كتبت ما كتبت أعلاه، أن أشمر لشرح ديوان أبي تمام كاملاً. لكنني - أنا الناعي على الكسالى كسلهم، وعلى الجهلة جهلهم - لا أملك ما يكفي من الوقت، ولا ما يكفي من العلم ولا أي قدر من الدربة في علاج المخطوطات لكي أتصدى لهذا الأمر. أنا رجل أحب الشعر وأختار منه الرائق المدهش، وأشرح ما أختار، وحسب. ولأنني ملأت عقلي بمعلومات كثيرة غير نافعة في مجال اللغة القديمة والشعر القديم لم يبق في ذاكرتي حيز كاف؛ ولأنني لحقت لقمتي في ميادين الصحافة عشرات السنين، ولأنني قليل الصبر، تجدني ناقص الأداة مضطراً إلى القواميس والشروح القديمة أتكئ عليها جميعاً. وتجدني أصطنع أداة أخرى أحسبها طريفة لفهم الشعر القديم:

أساير الشاعر: أسير معه منذ ما قبل النظم إلى ما بعد تمام التحكيك. أراه فوق ناقته قاصداً الممدوح. وأراه يفكر في المعاني، وأشهد جبريله يلقنه أبعاض أبيات، وأشاهده مغمض العينين رافعاً رأسه إلى أعلى كفرخ حمامة أعمى يريد أن يلتقط كل إلهامةٍ تسقط عليه من السماء فيُلبسها كلمات. وأدخل في عقله، وأجادله في كل كلمة يختارها، وأفهم عنه لماذا آثرها على سواها. وأراه صاغ البيت وارتضى له قافية. كل هذا يحدث وأنا أقرأ القصيدة. ثم أكر كرة أخرى فأنفي من القصيدة أبياتاً كثيرة هي كلام. وأستخرج الأبيات التي هي شعر. ثم أسعى في الربط ما بين الأبيات التي هي شعر، فأضطر إلى اقتباس أبيات كلامية هنا وهناك حتى تستقيم القصيدة. ثم أعود لأستذكر رحلتي مع الشاعر وهو ينظم ويستلهم. وأشرح شعره بكلام أقصد أن يكون مفهوماً لقارئ

القرن الحادي والعشرين. وقد أخالف القدماء في شرحهم. فأما إذا كان الشارح شاعراً فذاً ـ وهذا نادر جداً ولم يقع لي غير مرة واحدة ـ فلست أخالفه.

هذه المرة كانت مع أبي العلاء المعري. فقد شرح المعري شعر المتنبي. ومن حسن حظ الأدب أنَّ شرح المعري وصلنا. وقد شكك بعض النقاد في نسبة هذا الشرح إلى المعري بعض تشكيك. وها أنا أقول لهم: دعكم من كل هذا. دعكم من مقارنة النسخ الخطية، وحشد الحجج، واقرأوا شرح المعري للمتنبي تروه شرح رجل يعرف الشعر. ولا أتذكر أنني خالفت المعري في شرحه على المتنبي (وهو شرح كامل لكل بيت) إلا في بيت واحد زعمت لنفسي ولقرائي أنه شرحه متسرعاً. وذلك البيت هو:

إن التي سفكت دمي بجفونها لم تدر أن دمي الذي تتقلد

وكنت كتبت عن المتنبي، وفي سياق شرحي لذلك البيت قلت إن الشروح الستة لديوان المتنبي التي كنت فارشَها أمامي قد أساءت فهم البيت.

وأعود بك إلى أبي تمام

أعود إلى بيت اضطرب فيه الشارحون. وأبين لك طريقتي في الفهم وفي الشرح.

يصف أبو تمام غيمة مدرارة وأرضاً عطشى:

(ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب)

تلبدت السماء بالغيوم، ورأى أبو تمام غيمة عظيمة أخذت تسحُّ سحاً؛ مطر جاء في غير أوانه، وقد عم الجفاف واقشعر وجه التراب يبساً. قال أبو تمام «ديمة» والديمة هي الغيمة التي «يدوم» مطرها. وقال «سمحة القياد» يريد أن يصفَ الغيمة بالسماحة والكرم (والسمح من الرجال هو الذي يسمح بماله): إنها غيمة سلسة. نعم هي سلسة سلاسة عجيبة في إدرار المطر، ولكن كلمة «القياد» جاءت فوراً بعد «سمحة»، فالغيمة «سمحة القياد»، إنها مأمورة بقائد هو الريح. والغيمة سكوب تسكب المطر. والثرى المكروب من الجفاف مستغيث بهذه الغيمة. يرى أبو تمام في ذهنه صورة التراب الجاف وقد ارتفعت منه يدان تستغيثان، وتطلبان المطر.

(ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب)

الثرى يريد أكبر قدر ممكن من الماء من هذه الغيمة العابرة التي جاءت في أوان الجفاف. الثرى مقيم في مكانه لا يستطيع أن يسير ويلحق هذه الغيمة التي تسح وهي ماشية ومنصرفة عنه.

ثم يأتي البيت الثاني (وهو موطن الشاهد):

(لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب)

يقول أبو تمام: لو أن بقعة أرض تستطيع المشي لإدامة نعمة المطر وإعظامها (الاستكثار منها) لخف المكان الجديب الجاف وركض مع الغمامة سائراً تحتها أنى توجهت.

انتهى شرحنا.

ونظرت في ما شئت من الكتب التي اقتبسَتْ هذه الأبيات، والأبيات مشهورة، ورأيت أن الذين شرحوا هذا البيت الثاني قليلون، وأن كل من شرحه جعل كلمة الإعظام تعني (التبجيل). فالأرض العطشى تريد أن تمشي مع الغيمة لكي «تبجلها» حسبما يريدون.

ولست أرى ذلك. بل أرى أن كلمة (إعظام) تعني التكثير والازدياد.

فأما إن قلت لي إن البحتري عندما سرق هذا المعنى جعل المنبر يسير باتجاه الخليفة اشتياقاً، وإن قلت لي إن البلاذري الذي سرق معنى البحتري جعل البُرد يظن ما ظنه تبجيلاً، فهذا كله لا يجعل سير الثرى عند أبي تمام بغرض التبجيل. لا، ولا أقول إن البحتري أساء فهم بيت أبي تمام. بل لعله فهمه كما فهمتُه، وسرقه ومال به إلى معنى التبجيل، فالشاعر يسرق روح المعنى لا تفاصيله.

ولي في هذا السياق كلمة أخيرة: عندما أَلتقي بأبي تمام في الحياة الأخرى قد يقول لي: أنت واهم. عندئذ سأقول: كان هذا مبلغ اجتهادي. لكن، من يدريك، فقد تلمع عينا شاعرنا، ويقول لي: يا صاح، قد والله قصدت التبجيل، ولكنك أرشدتني إلى معنى أجمل وأقرب إلى سياق كلامي.

هاك حكايتين على هذا:

نظم شوقي لعبد الوهاب أغنية قال فيها عن البلبل:

مجروح من ساقه، ومن طوقه ما دِري بالشوك من شوقه

فخلط عبد الوهاب بين القاف والكاف فجعلها (ما دري بالشوق من شوقه) فصفق شوقي طرباً، وقال له: هذه أحلى. البلبل لشدة شوقه لم يدر بأنه مشتاق، أبقِها كذلك. وهكذا سمعناها من عبد الوهاب.

والثانية:

كان شوقي يتمشى في «المنتزه» بالإسكندرية، وعبد الوهاب يحاول اللحاق به، فشوقي يسير هائماً مسرعاً وهو ينظم. ثم وقف شوقي، وكان يعالج نظم قصيدة يرثي بها حافظ إبراهيم، وقف وقال لعبد الوهاب: اسمع المطلع:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي (يا منصف الأموات والأحياء)

فسكت عبد الوهاب. فأطرق شوقي. ثم قال: بل نجعلها: (يا منصف الموتى من الأحياء). وهذه، ولا شك، أوقع وأجمل.

ماذا عن أبي تمام؟

قد شرحت لك في الأسطر السابقة أن الذي قادني إلى هذا الفهم لبيت الديمة مسايرتي أبا تمام في تفكيره. ولا أزعم أنني فتحت فتحاً، فكل شارح يصنع ذلك. كل شارح يحس بالمعنى ويفهمه، ثم يفصله. لكن رجلاً كأبي تمام بحاجة إلى أن تتيقظ معه، فهو قين لغة، وصيقل معان، وهو من عبيد الشعر الذين لا ينفع معهم أن تلْمح معنى البيت لمحاً، وتمضي في تسطير شرحه.

مرهِق هذا الشاعر، وقد عبده القدماء. وقضوا بضع مئات من السنين يفضلونه على المتنبي. وبضع مئات أخرى ـ بعد أن غدا المتنبي قديماً بما يكفي لنيل شرف التقديم ـ متحيرين أي الشاعرين أسبق. وجاء العصر الحديث ففضل ناسه المتنبي لأنه ثائر، وكان العرب في النصف الأول من القرن العشرين ثائرين يظنون أنفسهم على أعتاب نهضة كبيرة فعبدوا أبا الطيب، وأطاحوا بأبي تمام عن عرش الشعر. ثم جاء الحداثيون، ورأوا في غرابة أبي تمام شيئاً، رأوا كلماته المثقلة بالمعاني الظاهرة والباطنة، رأوا الكلمة عند أبي تمام تشع بالمعاني، وأطياف المعاني، وتحتمل الكثير من التفسيرات. أعجبهم أن كلمته باب صغير وراءه دهليز، ووراء الدهليز دهاليز. وانشغلوا به. وتعلموا من النقاد الفرنسيين (ولا أتكلم على إيليا الحاوي وحده) أن الشعر ليس فقط الصرخة

النابعة من القلب، بل هو أيضاً الشعور الهادئ المستكنّ في العقل، فأعادوا إلى أبي تمام الاعتبار.

هذا شاعر العقل، شاعر العبارة الذكية. شاعرٌ يحب أن يلعب باللغة وبالمعاني، ويلهو بالمحسنات، وهو الأستاذ الحقيقي للمتنبي.

قال المتنبي لجلسائه عند الوزير المهلبي (فيما روي لنا): مَنْ أبو تمامكم هذا؟ قالها إنكاراً لا استنكاراً، وهذا أسخف. هو ينكر أنه يعرف أبا تمام! قدْكَ يا أبا الطيب! والله لنشم ريح أبي تمام في كل قصيدة قلتها.

فأما أن أبا تمام أستاذ البحتري فهذه معروفة. طريقة البحتري غير طريقة أبي تمام. البحتري سرق خمسمئة بيت من أبي تمام (كيلا نغضب صاحب «الموازنة» المؤثر للبحتري نجعلها مئة فقط، وفي هذا كفاية)، ولكنه صاحب ديباجة حلوة سلسة. وليس له من التفكيك والتركيب ما لأستاذه. وأحسَنَ شيخ المعرة في قوله «إن أبا تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر: البحتري». ونُلحقه هو بالحكيمين. كل شعرائنا حكماء، وكلهم سفهاء. ولا أدري أيوجد شعر لا يكثر تردده بين السفاهة والحكمة!

أكتب هذا الكلام بعد أن قرأت أبا تمام، سوى قراءة لندن الأولى تلك قبل عشرين سنة، قراءات أخرى في شروح وكتب أخرى، وبعد أن عشت معه في حارة دمشقية، وفي دكان حائك، وسعيت معه في طرقات الفسطاط وقعدت معه في ناحية من جامع عمرو، وقرأت معه شيئاً من كتب اللغة التي كانت ترد مصر في ذلك الزمن من بغداد، أو التي كان يكتبها علماء مصر، ورافقته على ناقته العجفاء متنقلاً بين ممدوحيه. ورأيته رجل سفر، فقد الإحساس الذي يحسه معظم الناس بالمكان، واهتزت الأرض تحت قدميه، وصار المكان بالنسبة إليه موقعاً افتراضياً.

أبو تمام نفسه شخصية افتراضية

كان أبو تمام يعيش في «سكند لايف» على هيئة ما. ونراه يحذر أحد ممدوحيه من منحه عقاراً، فهو يريد المال. لكنه كان يفرق المال تفريقاً على الناس. على أنه في ختام حياته طلب بريد الموصل فأُعطيَه. واستقر في الموصل سنتين، وصار له بها قبر. لستَ بحاجة إلى جهد كبير وأنت تلتمس قلق المتنبي عند أبي تمام. هو قلِق جداً، وجوْبه الفيافي فيه سعي للمال، لكنه

ليس ذلك السعي الساذج الذي يحدثنا عنه أصحاب الكتب المدرسية عندما يقولون إن شاعرنا كان مداحة نواحة، يركض وراء الدرهم. لعل أبا تمام كان يجشم جسمه عناء الأسفار هارباً من السؤال الوجودي القبيح: ما مصيرنا؟ فصاحبنا لم ينعم باليقين، ولم يكن صاحب صلاة ولا صوم. ها هو المتنبي مرة أخرى يطل برأسه. وصاحبنا أبو تمام متعصب في شعره للإسلام تعصباً عجيباً. في تعصبه سياسة، وفيه إرغام الذات على ارتداء الانتماء الجديد.

ولا قبل لي بالمضي في هذا الحديث دون أن أحدد موقفاً من دين أبي تمام، وأشرح نصرانيته وإسلامه. وسيأتي ذلك.

استطراد

لكنني الآن أمضي في قولي إنني أكتب هذا الكلام كله بعد قراءة الرجل وسيري معه، وبعد قراءتي ما كتبه الصولي والبديعي عنه في القديم، وما قاله ياقوت وغير ياقوت ممن نقل عن الكتب القديمة. وبعد قراءة مئات الصفحات مما كتبه الحداثيون عن الرجل. وبعد أن غسلت يدي مما كتبه بعض اللاهثين وراء التدكتر.

أهيب بك أن تقرأ شعر أبي تمام الذي اخترته لك، وأن تزلّ بعينك سطراً لتنظر في شرحي عليه كلما نشطتَ لذلك، فلن أضن بما يعن لي من أفكار وتأويلات لمعاني شعره ومعاني حياته.

كان انتقاء أبيات من أبي تمام أمراً صعباً. ما أكثر ما أخذت أبياتاً جافة سقيمة كي أسند بها أبياتاً لامعة. وما أكثر ما اخترت أبياتاً ضعيفة لأن معارك نقدية عنيفة دارت حولها. قد تيسر لأبي تمام نقاد من أهل اللغة والنحو أعجبوا بأبيات لصعوبتها، أو أولعوا بها لتعقدها، فهي المرقاة التي يتخذونها لإبراز فحولتهم في ميادين اللغة والنحو. وهذه الميادين ليست ميادين الشعر.

وكل شعر أبي تمام مشهور معروف. ولأنه سرق كثيراً وسرق منه الكثير، فأبياته كلها موضع جدل في الكتب القديمة. ولكنني حاولت ألا أختار إلا ما يحتوي على شعر وخيال.

إذا أردت أن تطل على أجمل وأحلى ما قال الرجل من شعر فهذا على مبعدة صفحات منك، وأما إن كنت تريد درس عيوبه فلن تجد إلا قليلاً من الأبيات السخيفة هنا، اذهب إلى الآمدي صاحب الموازنة وستجده يطلق على

شعر أبي تمام ـ وعلى مدى ألف وخمسمئة صفحة ـ قطيعاً من كلاب الصيد.

وستجد عندي بعض تعقيده وسخفه، ليس أنني قصدت إلى تضمين ذلك، بل هو مكثر في الرديء إكثاراً، وهو يخلط الرديء بالجيد خلطاً عجيباً. ما أصدق البحتري عندما قال: «جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه».

حياة أبي تمام ـ المصادر

أبو تمام شخص افتراضي. مثل الذين تصادفهم في غرف الشات. يقول لك الواحد إنه رجل مهيب ذو شنب شنيب، ويكون في الواقع مراهقاً قريبَ عهد بالحليب.

نأخذ بقول الأب لويس شيْخو أخذاً ذريعاً، فشيخو لا مصلحة كبيرة له في نسبة هذا المارق إلى المسيحية، لأنه ارتد عنها ارتداداً ونطق في شعره بالحط من قدر الصليب. والأب شيخو يغصّ بأقل من هذا. ونأخذ برواية هلموت ريتر في دائرة المعارف الإسلامية، فهو يلخص أقوال القدماء وينتخب منها. على أننا ألممنا بما قال صاحب «الأغاني» وياقوت والبديعي صاحب «هبة الأيام» والصولي صاحب «أخبار أبي تمام»، وبأقوال من أخذوا عنهم من المحدثين (أقصد المحدثين الذين نحترم علمهم كعمر فروخ، وليس أولئك البائسين من غربان الجامعات النُعَّق).

نأخذ بذلك كله ثم نمضي في افتراضنا الذي لا يخرج في أي جزء من أجزائه عن أقوال القدماء والمحدثين. فنحن لا نزعم أننا وقعنا على مخطوط نادر، ولا أننا ضربنا في الرمل فعرفنا ما لم يعرفه غيرنا. على أننا نستدرك: فدرسنا لشعر أبي تمام جعلنا نأخذ رواية ونترك رواية. وتلفيقنا لروايتنا من الروايات المتضاربة إنما يسنده، ويسد خلله، ما استقيناه من شعر الرجل من فهم لنفسيته. هذا بقدر ما تيسر لنا من فهم، ومن وقت.

حياة أبي تمام (١٨٨ ـ ٢٣٢)

نشأ أبو تمام ولداً مسيحياً في قرية جاسم بين دمشق وطبريا، في منطقة من هذا الشرق المعقد، هي أشد تعقيداً من سائره. فعلى مقربة من هذا المكان انهزم الروم عند نهر اليرموك، وتبع فلولهم خالد بن الوليد حتى لحقوا بآسيا الصغرى (تركيا الحديثة)، وبقيت عائلات رومية في دمشق، وعلى الأخص في

قراها، فالناس الذين ترتبط حياتهم بالزراعة يفضلون البقاء في الأرض عند حدوث هزيمة عسكرية تغير وجه التاريخ والمجتمع كتلك الهزيمة؛ يفضلون أن يتأقلموا مع الحكام الجدد، وقد يغيرون دينهم إذا استقر الوضع سنوات طويلة للحكام الجدد، أو إذا مارس هؤلاء الحكام الاضطهاد الديني. والحكام المسلمون آنذاك كانوا معنيين ببسط نفوذ الدولة الجديدة، ولم يضطهدوا الناس اضطهاداً دينياً بل ساروا فيهم سيرة غريبة على ذلك الزمن، إذ فرضوا ضريبة مقابل الإعفاء من الخدمة في الجيش، تلك هي الجزية، وأضيف إليها فيما بعد الخراج. ولكن، ظلت العائلات المسيحية على مسيحيتها، وحتى المسيحيون العرب (من تغلب وبكر وتنوخ) فالكثير منهم بقي على دينه في سوريا كلها. وكان في تلك المنطقة الوعرة جبالها، الخصبة سهولها، الواقعة بين دمشق وطبريا اختلاط عرقي وديني ساعد في المستقبل على استيطان حركات وعقائد أخرى.

كان تدوس النصراني شاباً متعثر الحظ من شبان قرية جاسم، لا يملك أرضاً زراعية، بل يشتغل في مزارع الناس بالأجر. وكان كبير القرية من قبيلة طيء المشهورة. وقد اشترى من دمشق جارية سوداء نوبية، كان استرقَّها من استرقَّها وباعها من باعها صغيرة، ووصلت في قافلة إلى دمشق واشتراها كبير قرية جاسم، وأتى بها إلى بيته للخدمة. فإذا هي حادة المزاج حادة الذكاء، لكنها خرقاء لا تحسن عملاً. وعندما بلغت زوَّجها كبير القرية (ولعله كان نصرانياً) من تدوس النصراني بمهر ضئيل. فولدت له ولداً سماه «حبيباً»، اختار اسماً حبيباً إلى قلوب نصارى المنطقة، لكنه يجوز في المسلمين أيضاً. وولدت له «سهماً»، اختار له اسماً بعيداً عن الأسماء الرومية، كاسمه تدوس، لكنه ليس من الأسماء الإسلامية.

ونزح تدوس بأسرته إلى دمشق وعمل فيها في دكان خمار. لا، لم يملك حانة، فلو أنه ملك حانة لجعل ابنه حبيباً يساعده فيها. لكنه اشتغل عند خمار، وشغَّل حبيباً عند حائك. وعاش حبيب صباه في حارة دمشقية، وتعلم أن يكون محترساً، وأن يكون ابن سوق.

لكنه اشتعل حباً باللغة العربية حتى قبل الهجرة إلى دمشق. وما زال في تلك المنطقة بجنوب دمشق، التي قضى فيها أبو تمام طفولته، من ينطقون العربية أحلى نطق ويخرجون حروفها أجمل مخرج حتى يوم الناس هذا، بل في

تلك المنطقة قرى يقترب حديث أهلها في أيامنا هذه من الفصحى اقتراباً لا تجده في أي مكان في هذا العالم.

لم يعرف حبيب من لغة سوى العربية. وعشقها وهو يسمعها في حلقات المسجد الأموي، وكان لدمشق عراقة لم تكن لبغداد. فهي، وإن خملت وقبعت في الظل بعد بناء بغداد على يدي المنصور قبل خمسين سنة، ما زالت مدينة كبيرة. وسنرى المتوكل بعد بضعة عقود يزورها مفكراً في اتخاذها عاصمة بدلاً من سامراء، غير أنه بدا له. كانت دمشق تختزن تراث تسعين سنة هي عُمْر الدولة الأموية، وتراث مئات السنين قبل الإسلام، إذ مرت بها حضارات عربية وسريانية ورومانية ويونانية تركت في نفوس أهليها تحضراً تتبدل اللغات ويبقى كامناً.

حبيب صبي أسمر داكن السمرة، اختلطت في سحنته ملامح أمه النوبية بملامح أبيه الرومي فإذا هو جائز في العرب بسحنته المحيرة. طويل نحيل، لا يهمه الطعام. حاد الذكاء قوي الحفظ، لا يدخل أذنيه بيت شعر ويخرج.

تعلم في دمشق أيضاً أن العرب هم الكبراء، وأن بقية الناس فعلة. ولعله سمع كثيراً عن نفوذ الفرس في بغداد، ولعله سمع أيضاً أن الخليفة العربي هارون الرشيد نكبهم نكبة كبرى قبل سنة أو سنتين من ولادته. ثم إن عدداً من كبار قادة الجيوش هم من العرب: من طيء ومن شيبان ومن بكر بن وائل. والجو في الشام أعرب منه في العراق.

كان يرى أباه إذا سأله سائل: ممن الرجل؟ يقول: من طيء. وصار حبيب يقول للداته إنه من طيء. وصنع عمود نسب يصله بجد القبيلة، صنعه على عجل فجاء ناقصاً ستة أجداد.

لم يكن الدين من همِّ تدوس الأب، فلقمة العيش جعلته مسيحياً بالاسم فقط. ولم ينتبه الولد حبيب إلى أن الإنسان عندما يولد يجب أن يكون على دين معين. ترعرع في حارته الدمشقية ولداً طائياً، دينه الشعر العربي. انحفرت في ذاكرته لمزات بعض اللامزين في جاسم وهو صغير، ثم في دمشق. كان يعرف حق المعرفة أن أباه نصراني، وأن أمه جارية تربت في كنف طيء. لكنه لبس وجهاً من حجر قابل به العالم. فهو لا يتكلم إلا الفصحى، وإن فاتته حلاوة الصوت؛ إذ كان صوته أجش، وكانت في لسانه حبسة.

كان واضحاً لحبيب أن اللغة والشعر مستقبله. فرأى دكان الحائك سجناً، ورأى دمشق سجناً. ولم يكن يعرف عن بغداد إلا أنها ذلك البلد البعيد. لكنه سمع عن مصر من أمه. لم تكن تتذكر حقاً عن مصر إلا خيالات وأطيافاً (فقد جاءت إلى الشام وهي في السادسة من عمرها)، لكنها عرفت من الناس أنها قادمة من بلد فيه نهر عظيم هو النيل، وفيه خير كثير، وليس فيه برودة جاسم ولا وعورة منطقتها، جعلوها ترسم لمصر في ذهنها صورة بديعة، نقلتها إلى ولدها.

وتيسرت قافلة ذات يوم، وكان صديق حبيب ذاهباً فيها، وأصر حبيب على الالتحاق بها زميلاً لصديقه على ناقته. وانتهى في الفسطاط. ورأى حلقات الدرس في جامع عمرو بن العاص عامرة، فتخلف عن القافلة وهي قافلة، وأقام يسقي الطلبة الماء مقابل جراية ضئيلة، أرغفة قليلة؛ ثلاث سنين وهو يسمع الدروس، وينتقل من حلقة إلى حلقة. وبدأ يقرزم، واتصل بعياش بن لهِيعة أحد قادة الشرطة، فلم يعطه ما يرضيه، فعاتبه وألح عليه، ولكنه لم يحصل على ما كان يؤمل. أمضى على هذه الحال ثلاث سنوات يقرأ كتب الشعر، ويهاجي شعراء مصر قاعداً على باب عياش.

في مصر أتم أبو تمام خروجه من شخصيته الواقعية، ودخوله في شخصيته الافتراضية. وهو الآن عربي طائي مسلم؛ وسنراه عما قليل شديد المحاماة عن دولة الإسلام. والإسلام بالنسبة إليه قومية أكثر مما هو دين.

بعد ست سنوات في مصر رجع حبيب إلى الشام شخصاً راسخاً في إطاره الجديد. واتخذ اللباس العربي، وتمسك به طول عمره، على ما في ذلك من غرابة في أسواق وقصور بغداد وسامراء وخراسان التي سيرتادها عما قليل. لكنه رجل انعقد منه العزم على أن يعيش حياته في جِلد فصَّله لنفسه.

لم يمكث في دمشق، ولم يرد أن يمكث فيها وفي ذكرياتها التي تعيد إلى ذهنه جلده الأصلي، بل انطلق إلى حمص المزدهرة سياسياً وأدبياً، وزار شاعرها ديك الجن، وهو أسن منه بعشرين أو بثلاثين سنة، وعرض عليه شعره.

وديك الجن شاعر رقيق الدين وكانت له معرفة بأبي نواس، ولقي تقديراً من دعبل، ودعبل أسن من ديك الجن بنحو عشر سنوات، ولكنه عاش طويلاً ليصبح خصماً لتلميذ ديك الجن أبي تمام.

في حمص تسلى أبو تمام بهجاء عياش بن لهيعة الموظف المصري بأبيات أجود كثيراً من أبياته القديمة في مدحه؛ لعله فضْلُ ما بين الصدق والكذب.

كل ما مر عن حياة أبي تمام محض افتراء مني.

فلم أقرأ في أي مكان أن أمه نوبية، ولم أحقق أن أباه كان خماراً أم عطاراً، على أنني أستبعد أن يشتغل بالعطارة رجل قروي حديث عهد بالمدينة، فهذه مهنة تتعاطاها فيما أقدِّر أسرة راسخة القَدم في حياة المدينة، فأنا أختار الرواية التي قالت إنه كان خماراً. ولم يقل لي أحد إن أبا تمام ذهب إلى مصر في قافلة تجارية. هذا محض افتراء، لكنه ممكن. ثم إنه حقاً ذهب إلى مصر، وحقاً أقام فيها ست سنوات. عرفت أنه أسمر طويل، وأنه يتكلم الفصحى بصوت أجش وأن في لسانه حبسة، وأنه يحرص على الزي العربي البدوي المستغرب. وعرفت أنه سقى الماء في جامع عمرو بالفسطاط، وأنه قال في مصر شعراً. وأنه ذهب إلى حمص والتقى بديك الجن. وكل ما سوى ذلك من عندي. وما سوى ذلك قليل من حيث الحقائق الظاهرية، فأما من حيث نفسيته فنصيب الإفتاء في كلامي أكبر.

ذهبت مع لويس شيْخو وعمر فروخ إلى أن شاعرنا نصراني. وخالفت شيخو وأبا الفرج الأصفهاني في أنه عربي قح من طيء. ومن عندي جعلت هذا الشاب الذكي يتقمص شخصية صنعها لنفسه، وجعلته يعيش الدور.

ولعل عمر فروخ وهلموت ريتر على صواب في أن أبا تمام ذهب إلى مصر شاباً لا صبياً. وأنه عاش مدة في حمص قال فيها شعراً قبل مصر. ولكنني قررت أن أجعله يذهب إلى مصر صغيراً: فهذا أخلق بمن يسقي الماء لطلبة العلم في جامع عمرو، وثمة من نص على أنه رثا من رثا من آل حميد بعد عودته من مصر، وثمة من قال إنه ذهب مع أبيه إلى مصر. وينقل الصولي في «أخبار أبي تمام» عن البحتري أن أبا تمام قال: «أول شعر قلته: تقي جمحاتي لست طوع مؤنبي، ومدحت بها عياش بن لهيعة وأعطاني خمسة آلاف درهم». وعياش بمصر. وإذا كان أبو تمام قد قعد بحمص للشعراء يأتون إليه ويعرضون شعرهم (وكان من بينهم البحتري) فلا بد أنه كان شاعراً ذا مكانة وصيت، على أن للقائه بالبحتري قصة أخرى تناقض هذه، فقد قيل إنه لقيه أول مرة في مجلس أبي سعيد الثغري.

أن يكون بدأ بحمص صغيراً ثم رحل إلى مصر، ثم عاد إلى حمص فأمر

لا ندفعه. القرائن في الاتجاهين كثيرة. ولكنني رأيت شعره في التشوق للشام وهو مقيم بمصر شعر شاب رقيق، بينما شعره في آل حميد شعر شاعر قد استكمل أداته، واستحكمت فيه مزايا وعيوب الشاعر المحترف.

أقول هذا وأنا على ثقة من أن مزيداً من الدرس خليق بأن يوقفنا على سلسلة زمنية (كرونولوجيا) دقيقة لحياة أبي تمام وشعره. ونترك هذا لأهل الاختصاص الجامعي، شرط ألا يكونوا مثل ذلك الشارح الدكتور الذي سود أربعاً وسبعين صفحة في شرح حياة وفن أبي تمام في مقدمة الديوان أتحفنا فيها ببعض الآراء النقدية من قبيل: «عارض فيها أبو تمام قصيدة أبي فراس الحمداني: أراك عصي الدمع. .» وأبو تمام «يحاكي ما في الروميات. .» و«في ظني أن طول ألفته لشعر أبي فراس قد علمته صياغة مثل هذه المواقف» ويذكر شعراً لأبي فراس الحمداني يزعم أن أبا تمام قلده.

فإذا علمتَ أن أبا فراس ـ الذي طالت ألفة أبي تمام لشعره! ـ ولد بعد موت أبي تمام بتسعين سنة، رأيت كيف يعبث ويعيث ويغِث ويُرِث هؤلاء الدكاترة، بينما نحن، هواة الأدب، ننتظر شيئاً من التحقيق والتدقيق يأخذون ثمنه معاشات من جامعاتهم، ولا يكتبون لنا إلا هذا الهراء.

في دار الخلافة

عندما ذهب أبو تمام إلى بغداد وجد نفسه من ناحية الدين والتدين والمعتقد. نهاية الجملة. فبغدادٌ تلك كانت عاصمة الدنيا. وكانت تمور بالفكر والفلسفة والاعتزال، وتتوهج بالاسترخاء الحضاري. الحرب مستمرة على الثغور، لكنها حرب مناوشات اعتيادية ما فتئت دائرة منذ عقود طويلة، والدولة الإسلامية قوية تكسب في المناوشات أكثر مما تخسر. وفي بغداد والبصرة والموصل حياة مستقرة، والخليفة قوي متمكن يتربع على عرش تؤيده عناصر القوة من عرب وفرس وترك. الاسترخاء مستمر ولما يبدأ الترهل، ولما يبدأ الاضطراب في مراكز القوى. مات قبل سنوات قلائل أبو نواس، وشاخ أو مات صحبُه الفُتَّاك. ولكن مجالس اللهو لم تمت. ولن يعيش أبو تمام ليحضر عصر التهتك المقبل في بلاط المتوكل. لكن بغداد، ثم سامراء، ظلت في زمنه تعيش استرخاء سياسياً وحياةَ ترف لذيذة كأنها نومة الضحى يوم الجمعة.

كان الوزراء والكتاب، وحتى أمراء الحرب، يفهمون الشعر ويتذوقونه،

وعندما وصل أبو تمام إلى بغداد كان الخليفة المأمون من كبار متذوقي الشعر. أسماء كبيرة في الدولة: القاضي أحمد بن أبي دؤاد، الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، القائد أبو دلف العجلي، ومن هم دون هؤلاء من طبقة الكتاب أيضاً، كلهم كانوا يفهمون الشعر، وينقدونه بذائقة فاحصة، وبعضهم كان يقرضه. تعيش في وجداناتهم أشعار الجاهلية ويقدسونها، ويعجبون كيف أن تلك الجزالة غدت عصية على التقليد. لكنهم مع ذلك تذوقوا بساطة أبي نواس واختراعاته في جانب المعاني. وأصغوا إلى ما ابتدعه مسلم بن الوليد من توسع في البديع، وهتفوا له، واستعدت ذائقتهم لجرعة أكبر من البديع، فجاءهم أبو تمام شحمة على فطيرة. رحبوا في مجالسهم بهذا الشاعر الشاب الذي بلغ السابعة والعشرين، ويقول شعراً مختلفاً، وتباهوا بفهم دقائق أبياته.

شاعر الخليفة

قال في المأمون قصيدة بالشام والمأمون قافل من غزوة رومية، ولكنه لقي الزجر على باب الخليفة فازدجر. وقال قصيدتين أخريين أو ثلاثاً لم تصادف عند المأمون أذناً مصغية. ثم مات المأمون، وجاء المعتصم، الخليفة شبه الأمي الذي لا يتذوق الشعر، ولا يتقن سوى الحرب. لكن القدر كان قد ابتسم لأبي تمام فباضت حمامته على الوتد. كان لا بد للخليفة من شعراء، فأخواه اللذان سبقاه في الخلافة كان لهما شعراء رفعوا ذكرهما، وأبوه الرشيد كان له شعراء. حسناً، فليكن للمعتصم شعراء. أوصل القاضي أحمد بن أبي دؤاد أبا تمام إلى المعتصم فمدحه، وبعد حين رافقه في حملته التي ظفر فيها بعمورية وأحرقها، وأنشد قصيدته المشهورة «السيف أصدق أنباء». وصنع في الخليفة قصائد أخرى، ومدح وزراءه وقواد جيوشه بعشرات القصائد.

قبل الاتصال بالخليفة وبعده ارتحل أبو تمام في الأقاليم.

سافر إلى أرمينيا، وإلى خراسان (وخراسان هي نيسابور وطوس الموجودتان اليوم شمال شرق إيران، وهِرات وبلخ الموجودتان اليوم شمال غرب أفغانستان، وبخارى وسمرقند في أوزبكستان، ومرو في تركمانستان)، وسافر إلى منطقة الجزيرة في شمال شرق سوريا الحاضرة منتجعاً أميرها التغلبي.

كان يذرع الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بلا توقف. ولو رافقتْك الخريطة، وأنت تقرأ ديوانه، لملأتها بالخطوط المتقاطعة.

عشر سنوات وأبو تمام يعيش على ظهر ناقته، مثلما يعيش بعض رجال الأعمال اليوم في الطائرة.

الحركية وورشة صناعة الشعر

قد نريد أن نضيف إلى ما أسلفنا، من أن الرجل كان قلقاً لا يجد في نفسه حاجة إلى الارتباط بمكان بعينه، أمراً آخر هو أنه كان ذا طبيعة حركية.

يقسم بعض التربويين المعاصرين الناس إلى فئات فيما يتعلق بطريقة اكتسابهم المعارف: فهناك «البصَري» الذي يكتسب المعلومات عبر عينيه، فهو إذا رأى المعلومة ممثلة في لوحة أو خريطة أو فلم تلفزي كان سريعاً إلى فهمها والاحتفاظ بها، وهناك «السمعي» الذي ترن الكلمات والأصوات في أذنيه ويختزنها، وهناك «الحركي»: وهو ذلك الشخص الذي يجلس في الاجتماع فلا يترك القلم من يده، يكتب كلمات ويرسم رسومات، وهو لا يستوعب درسه إلا إذا لخصه على الورق، ثم لا يضيره بعد ذلك إن رمى بالورق، فالمهم عنده أن يصنع شيئاً وهو يفكر؛ وهذا الشخص كثير الحركة: إذا انشغل ذهنه قام ومشى، وإذا لم يجد شيئاً يصنعه قضم أظفاره، أو ابتدع طرائق للعبث بجسمه.

ونظن أن أبا تمام كان من هذا النوع «الحركي». لم يكن يقرأ شعر القدماء ويحفظه إلا وبيده قلم. وقيل لنا إنه ترك عدة مجموعات شعرية انتخبها من شعر الأقدمين. وقدر لإحداها أن تصبح أشهر مجموعة منتخبات شعرية عرفتها اللغة العربية، وأن تكون أم هذا الباب من أبواب التأليف الأدبي: تلك هي الحماسة.

لم يكن من هم أبي تمام دفع مجموعاته المنتخبة إلى الوراقين ليصنعوا منها النسخ. فقد كتبها لنفسه، لأنه لم يكن يحسن أن يقرأ الشعر القديم قراءةَ حفظٍ ودرس وتبصر إلا وهو يكتب على الورق. وإلا فماذا كان يدعو أبا تمام، وهو أهم وأشهر شعراء عصره، وأروجهم سوقاً، وأقلهم ثباتاً في بلد بعينه، إلى أن يجمع في كراريس «أشعار القبائل»، و«نقائض جرير والأخطل»، و«فحول الشعراء»، و«الوحشيات»، و«الاختيار من شعر الشعراء»؟ يخبرنا التبريزي في مقدمة شرحه على الحماسة أن آل سلمة، الذين دوَّن أبو تمام حماسته الأشهر وهو ضيف عليهم، احتفظوا بالحماسة: «إن كتاب الحماسة بقي في خزائن آل سلمة، يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد، حتى تغيرت أحوالهم». وعلى هذا

فإن أبا تمام لم يأخذ «الحماسة» معه عندما ودع آل سلمة، بل تركها زاهداً في الورق، وحمل في عقله ألفاظ ومعاني ذلك الشعر القديم.

فلا تَسلُكنَّ أبا تمام في المؤلفين، إن هو إلا رجل حركي كان يدرس الشعر القديم مثلما يدرس التلميذ فصول كتابه استعداداً للامتحان، فلا يعرف يدرس إلا وهو يلخص مادة الكتاب.

ومن حسن طالعنا أن أبا تمام كان يلخص تلخيصاً، ولا ينسخ نسخاً. كان في تلخيصه ينتخب أجمل الأبيات وأقواها. كان يدخل في عقل الشاعر، ويعيد نظم القصيدة معه، وقد يُصلح الأشعار، ويغير كلمة هنا وكلمة هناك. وانتقده الأقدمون على هذا الصنيع، وأقره كثيرون عليه. وطارت شهرة عبارة التبريزي: «أبو تمام في حماسته أشعر منه في شعره». كان أبو تمام يدخل في ورشة تدريبية بين الحين والحين يشذب فيها علمه بالشعر. فالشعر عند صاحبنا صنعة. ليس أنه لم يكن يعرف قيمة الإلهام، وقيمة الانخراط في الحدث والشعور به؛ فهو، ولا شك، رأى كيف جاءت قصيدته في فتح عمورية آية في القوة والبلاغة والحرارة؛ وهو، ولا شك، عرف أن مصدر ذلك المعايشة، (كان فخوراً بهذه القصيدة يكثر من إنشادها). على أنه لم يستغن عن الصنعة، وفي قصيدة عمورية نفسها كثير من الصنعة. ثم إنه كان يمدح الناس للمال ويضطر إلى شعر كثير ليس صادراً عن شعور حق، فهنا لا بد من الصنعة. ومن أدوات الصنعة تلك المحسنات البديعية التي أفرط فيها. ومن أدواتها ترصيع القصيدة بالمعارف التاريخية والأدبية. وأبو تمام من أكثر الشعراء احتفالاً بأخبار الشعراء القدامى في شعره. فهو يذكر الشعراء القدامى ويشير إليهم وإلى شعرهم. وللأحداث التاريخية في شعره مكان يستلفت النظر.

بشخصيته المصطنعة التي حدثناك عنها لم يكن في مقدور أبي تمام أن يستدعي إلى ورشته الشعرية عنصراً مهماً هو البراءة. فالرجل الذي صب نفسه في قالب من صنع يديه بعيد عن البراءة. قسا وجفا صاحبنا. قسا على نفسه أولاً. وعاشر الناس بعينين مفتوحتين. فلم يغف في أحضان مجتمع حانٍ، ولم يكن ابن المدينة الذي يشكو ويئن ويفرح ويحزن كابن الرومي البغدادي الذي كتب قصيدة من ١٨٢ بيتاً يحتج بأعلى صوته مستجيراً من فظيعة من كبرى الفظائع: وهي أن الممدوح طلب منه القدوم من بغداد إلى سامراء (١٢٠ كم)، وابن الرومي يريد أن يمكث في بغداد ويرسل قصيدة المدح بالبريد إلى سامراء.

ولم يكن أبو تمام ابن القرية الذي يجمع المال لكي يشتري البيوت لأولاده كما فعل البحتري. أبو تمام أشبه بالمتنبي في قلقه وفي تنقله. وهو أقل منه حرارة، وأكثر احتفالاً بالصنعة.

شاعر له لغته

وفي غياب التدفق، وحضور الصنعة، ميز شاعرنا نفسه باستخراج المعاني الدقيقة وإلباسها حلة من اللفظ المختصر. كان يحشر في الكلمتين والثلاث جملة من المعاني. ولا يندر في شعره أن يصطرع معنيان وأكثر على عبارة، فلا تعرف ما الذي قصده الشاعر. ولعل أدب كل لغة محتاج في مرحلة من مراحله إلى أديب يدق أعناق الألفاظ ويجددها ويلبسها معاني غير ما ألفه أهل اللغة، فتصبح له لغته الخاصة كما يقولون. شكسبير صنع بالإنجليزية هذا الصنيع، («سكَّ نحو ألفي لفظة، ومنحنا ما لا يحصى من العبارات، ولم يلعب أحد بأي لغة من اللغات لعب شكسبير بالإنجليزية» والكلام لبيل برايسون، وبعضهم جعل ما اخترعه شكسبير من الألفاظ ألفاً وستمئة كلمة). وعبد الوهاب صنع بموسيقانا شيئاً شبيهاً. وأنت لو سمعت الموسيقى المصرية في مطلع القرن العشرين لرأيتها تجمدت على أنماط معلومة، ومقامات وأجناس تلتقي وتفترق في هيئة يسهل توقعها. وجاء عبد الوهاب، وعبث بالمقامات عبثاً ذريعاً وهو عارف ما يفعل، متقن كل ما سبقه من فنون النغم، وصاغ لغة موسيقية جديدة.

سترى أبا تمام ضمن شعراء النصرانية، وستراه ضمن شعراء الشيعة، وستراه مبجلاً عند السلفيين لأجل عمورية ولأجل شماتته بالأفشين المتهم بالزندقة. ولكن الوصف الأدق هو أن الرجل كان شاعر السلطان.

وسوى ذلك، فأبو تمام عرف الشذوذ مع الغلمان مثلما عرفه تلميذه البحتري وخليفته الأول المأمون، لكن شعره لا يفيدنا كثيراً في مدى تعلقه بهذا الأمر. ونعرف أنه كان يشرب الخمر، ولكننا لا نصدق أنه كان سكيراً، حتى وإن أُخبِرنا أنه فقد وعيه في مجلس شراب وكسر الآنية.

أبو تمام مسودة المتنبي

عالج أبو تمام اللغة علاجاً عجيباً، وحشر في الكلمة من المعاني فوق ما تحتمل، وراكم الضروب البديعية، من طباق وجناس على الأخص، مراكمة

تجعل البيت أحجية. وأسرف في لعبة «التداعي الحر»: يترك اللفظ يجره إلى معنى، فلفظ، فمعنى. وجاء البحتري فتعلم منه وتبعه في كثير من هذه الأمور، ولكنه لم يسرف إسرافه. وجاء المتنبي فاقتدى بأبي تمام في صنعته ولم يسرف إسرافه، وكان مثله قلقاً وجواب آفاق، فقال شعراً يشبه في نواحٍ منه شعر أبي تمام في الشكل وفي المضمون. وجاء أبو العلاء المعري فاستعملَ كل سخافة لفظية ممكنة في سقطه ولزومياته، وأعجز كل من أتى بعده، أو كاد. وسنرى أن هذا اللعب بالألفاظ أنهك الشعر العربي وسلبه عافيته مئات السنين بعد أبي العلاء، فعرفت العربية من ضروب البديع أنواعاً لا أحسب أن لغة أخرى من لغات العالم جمعتها. وعليك بمقامات الحريري وبالمنظومات المسماة البديعيات أمثلةً.

أبو تمام هو من فتح هذا الباب على مصراعيه، ولنقل ـ احتراساً من المبالغة ـ إن مسلم بن الوليد شق الباب شقاً من قبل.

لكنه شاعر مهم

سوف تصادفك عقبات وأنت تقرأ شعره. ولكنك لن تنفذ إلى روح الشعر العربي العباسي المتأخر، وشعر السنوات الألف التي فصلت أبا تمام عن أحمد شوقي إلا إذا عرفت شعر أبي تمام. وهذه المختارات التي أقدمها إليك مشروحة شرحاً معاصراً لا تمثل كل سخافات أبي تمام وألاعيبه. فأنا اخترت أجود شعره. على أن الرجل آلى ألا يترك بيتاً إلا وضع فيه شيئاً من طريقته. فاقرأ هذه المختارات فهي خير شعر أبي تمام، وهي تمثله تمثيلاً طيباً.

وأنبهك إلى الحذف المعنوي وإلى الالتفات. فأما الحذف المعنوي ـ وهو أعم من «الحذف» المذكور في كتب البلاغة ـ فهو أن الرجل يقول لك عبارة صغيرة، ويستند إلى معرفتك بتقاليد الشعر العربي وحياة العرب لتفهم أضعاف هذه العبارة. يقول لك مثلاً:

حتى إذا مَخَضَ اللَّهُ السِّنينَ لها مَخْضَ البَخِيلةِ، كانتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

وعليك أن تفهم ما يلي: ظل رب الكون يهز سني هذا الدهر مثلما تهز البخيلة كرشة الخروف المملوءة باللبن الحليب؛ تهزها كثيراً لأنها بخيلة تريد ألا تترك شيئاً من الزبدة؛ وبعد هذا جاءت عمورية ووقعت بأيدينا فكانت زبدة الحقب.

وأما الالتفات فهو كقوله في بيتين متتاليين لا يفصل بينهما فاصل:

(مضى) طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روْضةٌ غداةَ ثوى إلَّا اشتهتْ أنها قبرُ
(عليكَ) سلامُ اللّهِ وقْفاً فإنني رأيتُ الكريمَ الحرَّ ليس له عُمْرُ

فهو في البيت الأول يتكلم عنه، ويقول «مضى». ثم نراه في البيت الثاني يخاطبه ويقول «عليك سلام الله». وهذا أمر مألوف في الشعر القديم، ولكن كثرته تتعب القلب. وقد تمر بك في هذه المختارات أبيات كهذين البيتين، فلا تحسب أنني قصصت أبياتاً فيما بين البيتين كان من شأنها أن تجعل السياق مطرداً. كنت أختار بعناية شديدة، ولا أقطع سياقاً حتى لو كلفني الأمر اختيار أبيات ضعيفة كي يستقيم المعنى.

على أنني في الشرح اجتهدت أن أزيل اللبس، وأعوضك بعبارات سهلة عما في القصائد من حذف والتفات.

ما الذي أعجب القدماء في أبي تمام؟

أولاً نعود إلى التذكير بما أعجب المحدثين: أعجبوا بتثويره للغة، وبتحميله الألفاظ فوق ما تحتمل، فكأنه أضاف إلى المعجم العربي معاني جديدة أُلحقت بالألفاظ المعروفة. هو قد وسع طاقة اللغة التعبيرية. وهنا موضع يحسن فيه اقتباس عبارة لأدونيس، قال إن أبا تمام «أفرغ الكلمات من معناها المألوف، وخلصها من الحتمية وأسلمها إلى الاحتمال». ولا أرى رأيه في النصف الثاني من العبارة، على جمال صياغته. أرى أن أبا تمام ألبس الكلمات حتميات جديدة. وأما تحيرنا في فهم معانيه فمرده إلى ما عنده من حذف معنوي، وما عندنا من قصور عن متابعته كي نحقق الفهم، فنكتفي بلمح المعنى من وراء ستر. والتحليق في الخيال، مع الوصول بالإيجاز إلى الغاية التي ما بعدها غاية يوهمان المرء بأن أبا تمام يستعمل الكلمة استعمالاً قلقاً.

فأما القدماء فأحسبهم افتتنوا به لشيئين: معانيه المبتكرة، وجزالته.

ففي العصر العباسي الزاهر، أخذ الشعراء يولدون المعاني الجديدة. ونقصد بكلمة «المعاني» التشبيهات الجديدة والصور الطريفة. ومثال ذلك قول أبي تمام الذي مر بنا: (حتى إذا مخض الله السنين لها/ مخض البخيلة جاءت زبدة الحقب). وقول أشجع السلمي: (وعلى عدوِّك يا ابن عم محمد/ رصدان: ضوء الصبح والإظلام// فإذا تنبه رعته، وإذا غفا/ سلت عليه سيوفَك الأحلام). وقول المتنبي: (بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها/ وقوف شحيح ضاع في

الترب خاتمه). أخذ النقاد يجعلون للمعاني أنساباً، ونشأ ما يمكن أن نسميه بحق «علم السرقات» في نقد الشعر. صاروا يدرسون ديوان الشاعر درساً دقيقاً، ويستخرجون منه المعاني، أي الصور والأفكار، ويعرضونها على محفوظهم، ويا لمحفوظهم في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه إنترنت! كانوا يحفظون من الشعر فوق ما يتصور عقلنا المستطيعُ بغيره. ثم كانوا يصنفون المعاني أصنافاً، ويبوبونها أبواباً. ثم يأتون إلى المعنى المحدد، فيقولون إن الشاعر أخذه من فلان، وفلان أخذه من فلان حتى يصلوا بالمعنى إلى شاعر جاهلي. فإذا وقع للشاعر المحدث معنى طريف لم يسبقه إليه أحد راحوا يبحثون عن معنى في باب آخر استلهمه الشاعر وقلَبه قَلْباً، فيقولون إنه أخذه وعدل به عن وجهه. ويختلفون في الأمر ويسفه بعضهم بعضاً بحسب عصبياتهم. فكان الناقد منهم يتعصب لشاعر وصاحبه يتعصب لشاعر آخر، وتقوم المعارك الأدبية الطريفة.

هذا الآمدي في «الموازنة بين الطائييْن»: أبي تمام والبحتري يناصر البحتري مناصرة خفية. ويرد في كتابه على من زعم أن البحتري سرق مئات المعاني من أبي تمام. وفي عصر المتنبي وبعده رسخ علم السرقات، وسودت فيه أوراق كثيرة، فالمتنبي والبحتري، وأبو تمام قبلهما، من كبار السراق. كان أبو تمام صاحب قريحة جيدة. وكان دارساً للشعر القديم، وأما أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة كما زعموا فما لا يقبله عقلنا المعاصر، ولا عقل أي عصر. وكان صانعاً للشعر. سرق الكثير واعياً، والكثير غير واعٍ. لكنه اجتهد في صناعة معانٍ جديدة. فإذا كان منفعلاً بموضوعه جاءت معانيه المبتكرة حارة تلبس ثوباً جميلاً، وإذا كان شديد الاتكاء على نفسه ـ كما وصفه أحد معاصريه ـ جاءت معانيه جافة تلبس ثوباً ضيقاً يزعجها ويقيد حركتها، وكانت صعبة على الفهم، ناتئة على السمع.

قال بعض القدماء إن لأبي تمام مئة وخمسين بيتاً سائرة على كل لسان، لا تجد أحداً إلا يحفظها، وأضاف أنه ليس لشاعر قديم ولا محدث مثل ذلك.

وهذه السيرورة ليست ابنة المعاني المبتكرة فحسب، هي ابنة القريحة الطيبة. فالسائر من شعر أبي تمام يكون أو لا يكون ذا معنى مبتكر، لكنه في معظم الأحوال سهل رائق. أنشِد معي: (وإذا أراد الله نشر فضيلة/ طُويت، أتاح لها لسان حسود).

وثمة من شعر أبي تمام ما سار في كتب الأدب سيرورة كبيرة لغثاثته

وصعوبته. صرنا نحفظ له أبياتاً من الصعب المرذول لأن النقاد أسرفوا في تقريعه عليها. ولا تخلو مختاراتنا من أمثال هذه الأبيات. هذه واحدة: (هن عوادي يوسف وصواحبه/ فعزماً، فقدماً أدرك السؤل طالبه)، القطعة رقم ١٠٨، والبيت مطلعها.

تلك واحدة أحب القدماء أبا تمام لها: المعاني الجديدة.

وأما الثانية فهي الجزالة. وما نقصده بالجزالة ـ فأما كتب المدارس فالله وحده يعرف ما الذي تقصده عندما تصف القصيدة بالجزالة ـ ما نقصده نحن هو قوة التعبير، وإيجازه، وشبهه باللغة العربية العتيقة. كل هذا هو الجزالة. والشعر الجزل هو كالحطب الجزل: والحطب الجزل هو الحطب القاسي الذي يدوم اشتعاله مدة طويلة.

لقد خرج أبو العتاهية وأبو نواس عن الجزالة خروجاً مستفظعاً. جاءوا بشعر سهل سلس؛ معانيه قريبة إلى الفهم. وبشار الذي عاش شطر عمره في العصر الأموي كان يمسك بالجزالة بيد وبالرقة بيد.

اسمعوا هذه الحكاية عن بشار وأبي العتاهية في مجلس المهدي:

«قال أشجع السلمي: أذِن المهدي للناس في الدخول عليه فدخلنا، فأمرنا بالجلوس، فاتفق أن جلس بجنبي بشار بن برد، وسكت المهدي فسكت الناس، فسمع بشار حِسَّاً فقال لي: من هذا؟ فقلت: أبو العتاهية، فقال: أتراه ينشد في هذا المحفل؟

فقلت: أحسبه سيفعل، فقال: فأمره المهدي أن ينشد، فأنشد:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلاً فأحمِل إدلالها

قال: فنخسني بشار بمرفقه وقال: ويحك! أرأيت أجسر من هذا؟ ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضع. حتى بلغ أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافة منقادةً إليه تجرر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

فقال لي بشار: انظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة عن سريره (يقصد سروراً بالشعر)؟ قال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن هذا المجلس بجائزة غير أبي العتاهية.» (سقنا هذه القصة في شرحنا للمختار من شعر العتاهي، لكننا هنا أردناها لتشهد على شيء، فاحتملْها منا).

قد بدأ العتاهي قصيدته بنسيب على طريقة القدماء، لكنه نسيب سهل مخنث. وعندما مدح الخليفة ظل على سهولته في اللفظ، وكانت ألفاظه على قدِّ معانيه على نحو أعجب بشاراً.

وانقضى زمن بشار، وجاء زمن أبي العتاهية وأبي نواس، ورق الشعر. واستعذب الخلفاء والوزراء هذا الشعر الجديد. كانت بغداد لعهد المهدي فالهادي فالرشيد ترقص الفالس في حلبة الازدهار الإمبراطوري. وفي الوقت نفسه كان أهل اللغة والنحو يدرسون اللغة العربية والشعر القديم، ويجمعون أشعار القدماء جمعاً حثيثاً. كان العصر عصر دراسة، وعصر تجميع وتقنين. ونشأ عن جهود هؤلاء الدارسين تجميد اللغة العربية. وسنرى ابن فارس بعد سنوات يقول، في كتابه «الصاحبي»، إن ألفاظ العربية محدودة لا تتغير ولا تتجدد، فالله علم آدم كل الألفاظ، وبالعربية، وبقيت على حالها، وكل ما هو جديد فهو إما فاسد وإما أن له في العربية أصلاً. بهذا النوع من التفكير خاض الدارسون في العربية وفي شعر العربية.

في الشعر كان وضع القوانين أصعب. كان منهم من أوعزت إليه روحه السمحة بقبول كل شعر جميل: أعني الجاحظ. ليس أنه لم يكن ابن عصره في تقديس الشعر القديم، لكنه كان يستعذب أشياء كثيرة لأبي نواس وأبي العتاهية. وقد ضمن الجاحظ كتابيه الكبيرين «الحيوان» و«البيان والتبيين» أبياتاً لأبي تمام في أكثر من عشرين موضعاً، وهذا برهان على تقديره العالي له، والمرء ـ وخصوصاً في ذلك العصر ـ لا يحفل بشعر المعاصرين حفله بشعر القدماء، فإذا عرفت أن الجاحظ كان أسبق مولداً من أبي تمام بنحو ثلاثين سنة تبين لك أنه كان يعرف قدر الشاعر الشاب، ويحله مكاناً عالياً.

وكان من أهل النقد واللغة المتشدد الذي رفض كل جديد. كانوا يريدون من الشعر أن يشهد على ألفاظ اللغة، لأنهم أهل لغة لا شعر. وكانوا ذوي مكانة عند الخلفاء. وتأثر الشعراء بتشددهم وبنفوذهم، وانحرف الشعر عن سهولته.

تأثر أبو تمام بهذا الجو الأكاديمي الجاف وجاراه. ولأنه من كبار الحافظين للشعر القديم، وكبار العارفين بألفاظ اللغة، فقد استطاع أن يأتي بشعر مختلف. شعر قلد فيه جزالة القدماء تقليداً.

سكَّ أبياتاً تَقُولُها هي جاهلية في أسلوبها. ولم يعزب عن إدراك أهل النقد

واللغة ما في شعر أبي تمام من جزالة، فأقبلوا عليه. وتوجعوا كثيراً لما فيه من مغايرة لطريقة القدماء وخروج عن عمود الشعر: من إغراق في البديع، ومن تعقيد في المعنى، فهم يعشقون جزالته، وينقبضون عن محسناته البديعية. وما حكي عن ابن الأعرابي ذو دلالة:

كان تلميذه الطوسي يقرأ عليه الأراجيز القديمة فأدخل فيها أرجوزة أبي تمام: (وعاذل عذلته في عذله/فظن أني جاهل من جهله) زاعماً أنها من شعر قديم، فأمره ابن الأعرابي أن يكتبها، فشرع في كتابتها، ثم توقف وقال لأستاذه إن الأرجوزة لأبي تمام فقال ابن الأعرابي كلمته المشهورة: خرِّق خرِّق!

وأجمل نقد قرأته لشعر أبي تمام، في أوجز عبارة، ما كتبه المستشرق الألماني هلموت ريتر في دائرة المعارف الإسلامية، وهاك ترجمته:

«تضم قصائد أبي تمام، علاوة على وثبات الخيال البارعة التي هي أساس شهرته، الكثير من المنغصات. فإلى غرامه بالمفردات الشاذة كان مولعاً بالتراكيب المفتعلة التي كثيراً ما تكون ملتوية معقدة، وقد أرهق فهمها الشارحين العرب. ومما يزعج القارئ التشخيص غير الموفق للأفكار المجردة، والاستعارات البعيدة المصطنعة وغير المقنعة، فهي تتلاحق بيتاً بعد بيت إلى أن يعثر القارئ بتعبير شعري رائع. يضاف إلى هذا نزعة مؤسفة إلى الجناس والطباق كثيراً ما يضحي من أجلها بوضوح وجاذبية عبارته.» اهـ ريتر.

وهلموت ريتر هذا ـ والحديث ذو شجون ـ مستشرق ألماني ولد عام ١٨٩٢ ودرس العربية على بروكلمان، المستشرق الخطير، ولبث في ألمانيا حتى الرابعة والثلاثين من العمر متخصصاً في العربية والفارسية والتركية. ثم رحل إلى إستانبول، ودرس التراث التركي درساً عنيفاً وتخرج على يديه كوكبة من الأكاديميين الأتراك (كان يفرض على طلابه أن يتعلموا لغة جديدة في كل سنة.. فتأمل). ولا نستطيع أن نثمن جهوده في مجال التراث التركي، غير أنه مكث في تركيا أربعين سنة ولا نشك في أنه ترك أثراً عظيماً هناك، على أننا نعرف أنه تغلغل في اللغة العربية والأدب العربي بعمق مدهش من شواهده تحقيقه «أسرار البلاغة» للجرجاني. وريتر ليس سوبرماناً، ولا هو أذكى من الأكاديميين العرب ـ ثكِلْتُهم ـ لكنه امتلك المنهجية، وامتلك حرية الفكر، ولم يكن مكبلاً بالوساوس، وامتلك النشاط.

عزيزي القارئ،

قد أثقلت عليك، في الفقرات السابقة التي كتبتها منجمة على مدى سنة. فأغض عما فيها من تكرار، فإنني اجتهدت في التخلص منه فوفقت حيناً، وأخفقت حيناً.

قد رتبت الأشعار على نحو يساعدك في تتبع سيرة أبي تمام بعض الشيء.

جعلت أشعاره المصرية والحمصية في باب، ثم أشعاره في ولاة الأقاليم في باب، ثم أشعاره في دار الخلافة في باب.

ولا يقوم هذا الترتيب بالتسلسل الزمني كل القيام وإن كان يراعيه بعض المراعاة. فشاعرنا مدح المأمون والشاعر في مطلع شبابه، ولكننا ضممنا هذا الشعر إلى الباب الثالث حتى يكون مدحه للخلفاء قريباً بعضه من بعض. وجعلنا قصائد كل أمير أو والٍ أو خليفة متتابعة. وجعلنا أشعاره في الأفشين وبابك في موضع واحد لأنها تروي قصة واحدة.

ولم نرتب القصائد هنا على الأحرف، مع ما في هذا من اليسر علينا، ففهرس قوافٍ يغني، وقد زودنا الكتاب به. وقد تركنا في رأس كل قصيدة السطر الذي يضيء مناسبتها مثلما ورد في شروح القدامى. ولم نسرد من الأحداث التاريخية إلا ما لا بد منه لفهم معنى أو إزالة لبس.

وستجد فهرساً للأغراض، يرشدك بنظرة إلى كل ما يحتويه الباب من شعر في الفخر، أو في الغيوم والأمطار، أو في الغزل، أو في الجهاد. وثمة فهرس للقصائد بعناوينها، يحمل أيضاً وصفاً موجزاً ويدلك على كبريات القصائد، ومشهوراتها.

لم آلُ في تدقيق هذه المجموعة جهداً، والكمال لمن خلقنا ناقصين.

١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١
٢٠ ذي الحجة ١٤٣٢

١ فيضان حسب الطلب

قال يمدح عَيَّاش بنَ لَهِيعَة بمصر، ويعاتبه (وعياش صاحب شرطة مصر، وهو رجل يماني النسب، كأبي تمام في نسبه الذي ارتضاه لنفسه، وسليل أسرة من القضاة والعلماء، وكان ذا أدب وفقه):

وحَيـاةُ القَـريـضِ إحيـاؤُكَ الـجُـو   دَ، فإنْ ماتَ الجُودُ، ماتَ القَريضُ

القريض: الشعر

كُن طَويلَ النَّدى، عَرِيضاً، فقدْ سا   رَ ثَـنـائـي فـيـكَ الـطـويـلُ الـعَـريـضُ
إنَّـمـا صـارتِ الـبُـحـورُ بُـحُـوراً   أنَّـهـا كُـلَّـمـا اسـتُـفِـيـضَـتْ تَـفِـيـضُ

البحور: الأنهار، وكانوا يستفيضون النيل (يطلبون فيضانه) بالدعاء أو بشعوذات فرعونية بقيت حتائذ. وقيلت القصيدة في مصر بلد النيل، وكانوا - وما يزال كثيرون في مصر - يسمون النيل بحراً، وكان شعراء العرب القدامى يصفون الفرات بالبحر

٢ لو كنت حبلى لولدت

وقال يعاتب عياش بن لَهِيعَة:

قَـتَـلَـتْـهُ سِـرَّاً، ثـم قـالـتْ جَـهْـرَةً   قـولَ الـفـرزدقِ: لا بِـظَـبْـيٍ أَعْـفَـرِ

المحبوبة قتلت حبيبها سراً بهجرانها إياه، وقالت شامتة قول الفرزدق: فلتلحق المصيبة به لا يَفدِيَنَّه منها حتى أهون شيء كظبي أعفر (لونه كلون التراب). وبيت الفرزدق: أقولُ لهُ لما أتَاني نَعِيُّهُ/ بِهِ لا بِظَبْيٍ في الصَّرِيمَةِ أعفَرَا

نَظَرَتْ إليهِ، فَما اسْتَتَمَّتْ لَحْظَها   حـتـى تَـمَـنَّـتْ أنَّـهـا لـم تَـنْـظُـرِ

يبدو أنها صُدمت لهول منظره، ونحوله الشديد

ورأتْ شُحوباً، رابَها، في جسمِه؛   مـاذا يَـرِيـبُـكِ مِـنْ جَـوَادٍ مُـضْـمَـرِ

رابها: أثار ريبتها واستغرابها؛ يفاخر بنحوله وكثرة أسفاره، فهو كالحصان المضمَّر النحيل

مـا إنْ يَـزالُ بِـجَـدٍّ حَـزْمٍ مُـقـبِـلٍ   مُـتَـوَطِّـئَـاً أعـقـابَ رِزْقٍ مُـدْبِـرِ

يقول الشاعر عن نفسه: ظل بجدٍّ (بحظٍّ) أساسه الحزم المقبل (الإيجابي) متوطّئاً (ماشياً) في أعقاب (خلف) رزق مدبر (فارّ). يقول: أنا بكل عزم ألاحق رزقاً يفر مني، وحظي ليس حظاً، بل هو إصراري

كـم ظَـهْـرِ مَـرْتٍ مُـقْـفِـرٍ جَـاوَزْتُـهُ،   فَـحَـلَـلْـتُ رَبْـعـاً مِـنْـكَ لـيـسَ بِـمُـقْـفِـرِ

ما أكثر ما عبرت ظهر مرت (أرضٍ صحراوية) قفرة، كي أحل في ربعك غير المقفر أيها الممدوح

الفِطْرُ والأَضْحَى قد انْسَلَخَا، ولي   أَمَـلٌ بِـبـابِـكَ صَـائِـمٌ لـم يُـفْـطِـرِ

انسلخا: مضيا

عَـامٌ ولـم يُـنْـتِـجْ نَـداكَ، وإنَّـمـا   تُـتَـوَقَّـعُ الـحُـبْـلَـى لِـتِـسْـعَـةِ أشـهـرِ

يُنْتِج (يَلِد)

جِشْ لي بِبَحْرٍ واحدٍ، أُغْرِقْكَ في مَـدْحٍ أجـيـشُ لـه بِـسَـبْـعَـةِ أَبْـحُـرِ
جش: تدفق

قَصِّرْ بِبَذْلِكَ عُمْرَ مَطْلِكَ تَحْوِ لِي حَـمْـداً، يُـعَـمَّـرُ عُـمْـرَ سَـبْـعَـةِ أَنْـسُـرِ
قصِّر المماطلة بالبذل، تحو لي (تأخذ مني) حمداً شعرياً يعمَّر عمر سبعة نسور. ويضرب المثل بنسور لقمان السبعة التي وعده الله بحياة بقدر أعمارها جميعاً على التعاقب

كـم مِـنْ كـثـيـرِ الـبَـذْلِ قـد جَـازَيْـتُـهُ شُـكْـراً، بِـأَطْـيَـبَ مِـنْ نَـدَاهُ وأكْـثَـرِ
ما أكثر الأسخياء الذين جازيتهم بمدح أطيب من سخائهم

شَــرُّ الأوائــلِ والأواخِــرِ ذِمَّــةٌ لـم تُـصْـطَـنَـعْ، وصَـنِـيـعَـةٌ لـم تُـشْـكَـرِ
أسوأ شيء عند الأولين والآخِرين ذمة (عهد) لم يصطنع (لم يُرعَ)، وصنيعة (معروف) لم تُشكَر

٣ كل أمري فيك منتقض

وقال يعاتب عياش بن لهيعة:

ذُلُّ السؤَالِ شَجىً في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ مِنْ دونِهِ شَرَقٌ، مِنْ خَلْفِهِ جَرَضُ
شجى (شوكة)، الجرض (غصة الموت)

مَا ماءُ كَفِّكَ، إنْ جَادَتْ وإن بَخِلَتْ، مِنْ ماءِ وَجْهِي، إذا أَفْنَيْتُهُ، عِوَضُ
ماء كفك (عطاؤك) سواء جدت أم بخلت، لا يعوض ماء وجهي (كرامتي) إذا فقدته

مَنْ أَشْتَكِي، وإلى مَنْ أَعْتَزِي، ونَدَى مَنْ أَجْتَدِي؛ كُلُّ أمْرِي فِيكَ مُنْتَقِضُ
أعتزي (أنتسب)، منتقض (مبعثر، مفكك)

٤ المَطُول والملحِف

وقال يعاتب عياشاً:

لا تـنـسَ تـسـعـةَ أَشْـهُـرٍ أَنْـضَـيْـتُـهـا دَأَبـاً، وأَنْـضَـتْـنـي إلـيـكَ ونَـيِّـفَـا
أنضيتها: أتعبتها

بِـقَـصـائـدٍ لـم يَـرْزَ بَـحْـرَكَ وِرْدُهـا، ولَـوِ الصَّفَا وَرَدَتْ، لَفَجَّرَتِ الصَّفَا
قصائد لم يرز (لم ينقص) وردها (ورودها الماء وشربها) بَحْرَك شيئاً، لأنك لم تعطني شيئاً عليها، ولو وردت قصائدي الصفا (الصخر) لفجرت منه ماء

إنّي أخافُ بِلَحْظَتي عُقْبَاكَ أنْ   تُدْعَى المَطُولَ، وأنْ أُسَمَّى المُلْحِفَا

إني أخاف بلحظتي (بانتظاري) عقباك (نتيجتك) أن تسمى المطول (المماطِل) وأن أسمى أنا الملحف (الملحّ)

٥ البِشر روض، والعطاء غدير

وقال يعاتب عياش بن لهيعة:

ليس يَدري إلّا اللطيفُ الخبيرُ   أيَّ شَيْءٍ تُطْوَى عليهِ الصدورُ

ويقولونَ: إنَّكَ المرءُ، بالغَيْـ   ـبِ مُحَامٍ عَنِ الصديقِ نَصُورُ

يقولون إنك تدافع عن الصديق وتنصره في غيبته

فإذا جئتُ زَائِراً حَجَبَتْ وَجْـ   ـهَكَ عَنِّي كَآبةٌ وبُسُورُ

ولكنني آتيك فيحتجب وجهك عني بكآبة وبسور (عبوس)

فَتَطَّلَقْ، مَعَ العِنَايَةِ؛ إنَّ الـ   ـبِشْرَ، في أَكْثَرِ الأمورِ، بَشِيرُ

فتطلق (افرد وجهك) مع العناية (البذل)، فالبشر (البشاشة) بشير بالخير

إنَّ في البِشْرِ رَوْضَةً، فإذا كا   نَ بِبَذْلٍ: فَرَوْضَةٌ وغَدِيرُ

٦ لا رضيتم

وقال يهجو عياش بن لهيعة:

أَشْكَيْتُمُوني، فَلمَّا أنْ شَكَوْتُكُمُ   غَضِبْتُمُ؛ دامَ ذاكَ السُّخْطُ والغَضَبُ!

أشكيتموني (اضطررتموني إلى الشكوى) فلما شكوتكم غضبتم، فلا رضيتم

بَنِي لَهِيعَةَ! مَا بَالِي وبَالُكُمُ،   وفي البِلادِ مَنادِيحٌ ومُضْطَرَبُ

مناديح: بدائل، مضطرَب: مجال للحركة

عَيَّاشُ! مَا لَكَ في أُكْرُومَةٍ أَرَبٌ،   ولا لأُكْرُومَةٍ في سَاقِطٍ أَرَبُ

أرب: حاجة

يا أَكْثَرَ الناسِ وَعْداً، حَشْوُهُ خُلُفٌ،   وأكثرَ الناسِ قولاً، كُلُّهُ كَذِبُ

٧ ظلمتك

وقال يهجو عياش بن لهيعة:

أَعَيَّاشُ ارْعَ، أَوْ لا تَرْعَ، حَقِّي   وَصِلْ، أو لا تَصِلْ، أبداً وَسِيلي

وسيلي: قرابتي (يشير إلى اشتراكهما في النسب اليماني)

وأَعْكَفْتُ المنَى في ذاتِ صَدري عُكُوفَ اللَّحْظِ في الخَدِّ الأَسيلِ

جعلت الأماني مخزونة في صدري لا تتحرك مثلما يثبت النظر في الخد الأسيل (الطويل) متمعناً في جماله

فَصِرْتُ أَذَلَّ مِنْ مَعْنىً دَقيقٍ بِهِ فَقْرٌ إلى ذِهْنٍ جَليلِ

فصرت ذليلاً كمعنىً شعريٍّ دقيق لم يتيسر له ذهن جليل لكي يصوغه

فمَا أَدْري عَمَايَ عَنِ ارتِيَادي دَهَانِيَ، أَمْ عَمَاكَ عَنِ الجَميلِ

لا أدري! هل الذي دهاني هو عماي عن ارتياد المكان الصحيح،
أم عماك أنت عن صنع المعروف

مَتَى طَابَتْ جَنَىً، وزَكَتْ فُرُوعٌ إذا كانَتْ خَبيثاتِ الأُصولِ؟

الجنى: الثمر، الفروع: الغصون، الأصول: الجذور

نَدَبْتُكَ لِلْجَزيلِ، وأنتَ لَغْوٌ؛ ظَلَمْتُكَ؛ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الجَزيلِ

ندبتك: دعوتك، الجزيل: العظيم، لغو: ساقط من الحساب

٨ الغيرة على الأرغفة

وقال يهجو عياشاً:

صَدِّقْ أَلِيَّتَهُ، إنْ قال مُجْتَهِداً: لا والرَّغِيفِ! فَذَاكَ البِرُّ مِنْ قَسَمِهْ

صدق أليته (قَسَمَه) إن قال مجتهداً (متحمساً): لا والرغيف!
فعندئذ يكون صادقاً في الحَلف

فإنْ هَمَمْتَ به، فافْتِكْ بِخُبزَتِه، فإن موقِعَها مِنْ لَحْمِهِ ودمِهْ

إن هممت بإيذائه فافتك بخبزته

قد كان يُعجِبُني لو أنَّ غَيْرَتَهُ على جَرَادِقِهِ كانتْ على حُرَمِهْ

الجَرادق: الأرغفة

٩ جردت في ذمِّيك خيل قصائد

يهجو عياش بن لهيعة:

عَيَّاشُ إنَّكَ لَلَئيمُ، وإنني، مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي، لَلَئيمُ

أنت لئيم، وأنا صرت مثلك عندما قصدتك

السُّحْتُ أَطيبُ مِنْ نَوالِكَ مَطْعَماً والمُهْلُ والغِسْلِينُ والزَّقُّومُ

السحت: المال الحرام، المهل والغسلين والزقوم: هذا كله شراب وطعام أهل النار، ولا حاجة بنا إلى شرحه، وقد اختلف المفسرون فيه

نَجِسٌ تُدَبِّرُ أمرَهُ شِيَمٌ له شُكُسٌ، يُدَبِّرُ أَمْرَهُنَّ اللُّومُ

شيمٌ شُكس: صفات نكدة، اللوم: اللؤم

ومَنازِلٌ لم يبقَ فيها سَاحةٌ إلَّا وفيها سَائِلٌ محرومُ
عَرَصَاتُ سُوءٍ، لم يَكُنَّ لِسَيِّدٍ وَطَناً، ولم يَرْتَعْ بِهِنَّ كريمُ

عرصات: ساحات

لما بَدا لِيَ مِنْ صَميمِكَ ما بَدا، بل لم يُصَبْ لكَ، لا أُصِيبَ، صَمِيمُ..

لما بدا لي من صميمك (أصلك) ما بدا، بل لم يصب (لم يُعثَر) لك، «وإن شاء الله عمره ما يُعثَر»، على أصل..

جَرَّدْتُ في ذَمِّيكَ خيلَ قَصائدٍ جَالَتْ بكَ الدنيا، وأَنْتَ مُقِيمُ

عندئذ جردت (خصصت مفرزة من الجند والخيل) في ذمي إياك خيلاً من القصائد، جالت بك الدنيا وأنت قاعد في مكانك

١٠ أيدٍ صخور وأعراضٌ قوارير

يهجو عياش بن لَهِيعة:

صَرِّدْ ونَكِّدْ وزَنِّدْ، أنتَ مَعْذُورُ، أُسْدُ الشَّرَى ليسَ تَنْمِيها الخَنَازِيرُ

صرد: خفف العطاء، زند: ضيِّقْ، أسد الشرى: أسود تستوطن مكاناً اسمه «الشرى»، تنميها: تنجبها

أُنْظُرْ إِلَيْهِمْ، كفانا اللَّهُ أَمْرَهُمُ: أَيْدٍ صُخورٌ، وأَعْراضٌ قَواريرُ

انظر إلى هؤلاء الأمراء: أيديهم صلبة كالصخر فلا يعطون شيئاً، وأعراضهم هشة كالقوارير (كالزجاج)

١١ القبر المقبور

يهجو عياش بن لَهِيعَة بعد موته:

أَعْزِزْ بِعَيَّاشٍ عَلَيَّ مُغَيَّباً؛ في غيرِ حُفْرَتِه الحِجَا والخيرُ

أعزز علي (ما أصعب الأمر علي) إذ عياش مغيب في قبره؛ تلك حفرة يوجد الحجا (العقل) والخير (الفضل) في غيرها، أي أنه لم يكن عاقلاً ولا فاضلاً

وأَرَى نَكيراً صَدَّ عنكَ، ومُنْكَراً ظَنَّاً بِأَنَّكَ مُنْكَرٌ ونَكِيرُ
وتَضَوَّرَ القبرُ الذي أُسْكِنْتَهُ حتى ظَنَنَّا أنه المقبورُ

تضور: تلوى من الألم

١٢ الغريب.. والعجيب

يهجو يوسف السراج الشاعر المصري:

سمعتُ بكلِّ دَاهِيَةٍ نَآدٍ ولم أَسْمَعْ بِسَرَّاجٍ أَديبِ

سمعت بكل داهية نآد (عظيمة) ولكنني لم أسمع بسراج (صانع سروج) أديب، فتلك من كبريات الدواهي

أمَا لو أنَّ جَهْلَكَ كانَ عِلْماً إذنْ لَنَفَذْتَ في عِلْمِ الغُيوبِ
ومَا لَكَ بالغريبِ يَدٌ، ولكنْ تَعاطِيكَ الغَريبَ مِنَ الغَريبِ

الغريب: فرع في الدراسات اللغوية والدينية يتناول غريب اللغة، أي ألفاظها المهجورة، وغريب الحديث وغريب القرآن. وعلى ذكر الدراسات فإن الدكتور محمد عبده عزام (ولم يضع لقب دكتور على غلاف كتابه) سها في هذا البيت فرواه «تعاطيك الغريب هو الغريبُ»، وهذه رواية نسخة من النسخ، وهي بالطبع غلط سخيف يمكن لأي تلميذ أن يصححه. سها عزام فنسخها كما هي، ولم يقع في الغلطة محقق شرح الصولي؛ ولكننا ابتلينا بدكتورين آخرين نسخا الغلط بلا أدنى تفكير. بكلمة واحدة: ديوان أبي تمام بحاجة إلى تحقيق، وإلى شرح، ونحن في عملنا هذا نرسل التنبيه إثر التنبيه على وجود هذه الثغرة، ولكننا نعترف بأننا لم نراجع المخطوطات، بل اعتمدنا على أولئك الناسخين الذين يسمي الواحد منهم نفسه محققاً لكي يوافونا بنص الديوان، وانظر ماذا يفعلون! ولست أشك طرفة عين في أنني سهوت في شرحي لهذه المجموعة في أكثر من موضع؛ لكن السهو شيء، والإهمال شيء

١٣ الشامي المغترب في مصر

يصف تعذر الرزق عليه بمصر:

أَصِبْ بِحُمَيَّا كأسِها مَقتَلَ العَذْلِ تَكُنْ عِوَضاً، إنْ عَنَّفُوكَ، مِنَ التَّبْلِ

أصب بحميًا (بشدة) الخمر مقتل العذل (اللوم)، تكن هذه الخمر عوضاً لك من التبل (الانتقام) إن عنفوك ووبخوك على سلوكك. يقول: اقتل اللوم بشربك الخمر فهي انتقامك من لومهم، فأنت تسكر ولا تدرك توبيخهم فكأنك قتلته

وكأسٍ كَمَعْسُولِ الأمانِي شرِبتُها ولكنها أَجْلَتْ، وقد شَرِبَتْ عَقلي

أجلت: انكشفت، بمعنى فرغت الكأس

إذا عُوتِبَتْ بالماءِ، كان اعتذارُها لهيباً، كوَقْعِ النارِ في الحَطَبِ الجَزْلِ

يعاتبون الخمرة بالماء (يمزجونها)، فتعتذر عن عتابهم بلهيب (لونها يتوهج)، كاللهيب الذي يبدو عندما تتقد النار في الحطب الجزل (الصلب)

إذا هِيَ دَبَّتْ في الفتَى، خالَ جسمَه، لِما دَبَّ فيهِ، قَرْيَةً مِنْ قُرَى النَّمْلِ

دبيب الخمر في الجسم يجعلك تشعر هكذا، تنميل في كل الجسم

إذا ذَاقَها، وَهْيَ الحَياةُ، رأَيْتَهُ يُعَبِّسُ تَعبيسَ المقَدَّمِ للقَتْلِ

يذوق الفتى الخمر، أول رشفة، فتقبض مرارتها ومُزوزتُها قسمات وجهه، ويعبس كأنما جيء به ليقتل

إذا اليَدُ نالَتْها بِوِتْرٍ تَوَقَّرَتْ على ضِغْنِها، ثم اسْتَقَادَتْ مِنَ الرِّجْلِ

إذا نالت اليد الخمرةَ بوتر (سببت لها ما يوجب الثأر) توقرت الخمرة (ادّعت الوقار) على ضغنها (رغم حقدها) ثم استقادت (انتقمت) من الرِّجل. يقول: يدك ترتكب جريمة في الخمرة بمزجها، ومزج الخمرة قتل لها في عرف شعراء العرب، فتمكث الخمرة برهة كاتمة حقدها، ثم تدب في جسمك، وتنتقم من رجليك إذ تجعل مِشيتك صعبة

سَقَى الرائِحُ الغَادِي المهَجِّرُ بَلْدَةً سَقَتْنِيَ أَنْفَاسَ الصَّبَابَةِ، والخَبْلِ

سقى السحاب الرائح (المقبل ليلاً) الغادي (المقبل صباحاً) المهجر (المقبل في الهاجرة أي ظهراً)، سقى بلدة (وسنعرف لاحقاً أن هذه البلدة هي موطنه في الشام) كانت سقتني أنفاس الصبابة (العشق) والخبل (جنون الغرام)

سَحَابٌ، إذا أَلْقَتْ على خِلْفِهِ الصَّبَا يَداً، قَالَتِ الدُّنيا: أَتَى قَاتِلُ المَحْلِ

هذا سحابٌ إذا ألقت ريح الصبا يدها على خِلفه (ضرعه/ثديه) فكأن الريح تريد أن تحلبه، عندئذ تقول الدنيا أتى قاتل المحل

إذا ما ارْتَدَى بِالبَرْقِ، لم يَزَلِ النَّدَى له تَبَعاً، أو يَرْتَدِي الرَّوْضُ بِالبَقْلِ

يرتدي السحاب حلة بلمعان البرق فيه، فيظل الندى، أي المطر، متواصلاً إلى أن يرتدي الروض بالبقل، أي العشب

ترى الأرضَ تَهْتَزُّ ارتياحاً لِوَقْعِهِ كما ارتاحتِ البِكْرُ الهَدِيُّ إلى البَعْلِ

ترتاح الأرض لوقع المطر كما ترتاح ـ يزعم أبو تمام ـ البكر (العذراء) الهديُّ (المهداة إلى زوجها) للبعل (للزوج)

فلم يُبْقِ مِنْ أَرْضِ البِقَاعَيْنِ بُقْعَةً وجادَ قُرَى الجَوْلانَ بِالمُسْبِلِ الوَبْلِ

لم يبق المطر بقعة بأرض البقاعين إلا رواها، وجاد (أمطر/و«الجوْد» المطر) قرى الجولان بالمسبل (المنساب)، الوبل (الهاطل)

البقاع في لبنان الآن بقاع شمالي وبقاع جنوبي، وكانا في عصر أبي تمام بقاع لبنان وبقاع بعلبك

بِنَفْسِيَ أَرْضُ الشَّامِ، لا أَيْمَنُ الحِمَى، ولا أَيْسَرُ الدَّهْنَا، ولا وَسَطُ الرَّمْلِ

يفدي أرض الشام، دون غيرها من بلاد العرب

ولم أَرَ مِثْلِي، مُسْتَهَاماً بِمِثْلِكُمْ، له مِثْلُ قلبي، فيهِ ما فيهِ، لا يَغْلي

لم أر مثلي مستهاماً (مغرماً) بمثلكم، وله قلب كقلبي، وفيه من الشوق ما فيه، ولا يغلي غلياناً

نَأَيْتُ: فلا مَالاً حَوَيْتُ، ولم أُقِمْ فَأُمْتَعَ، إذْ فُجِّعْتُ بِالمالِ والأَهْلِ

نأيت (بعُدت) فلا مالاً حويت (حُزت)، ولم أقم (أمكث) فأستمتع بمكوثي (في مصر) بعد أن فجعت (حزنت) بعدم المال ومفارقة الأهل

بَخِلْتُ على عِرضي بِمَا فيهِ صَوْنُهُ رَجَاءَ اجْتِنَاءِ الجُودِ مِنْ شَجَرِ البُخْلِ

ولو أَنَّني أَعْطَيْتُ يَأْسي نَصيبَهُ، إذنْ لأَخَذْتُ الحَزْمَ مِنْ مَأْخَذٍ سَهْلِ

لو أعطيت اليأس نصيبه من الاعتبار (لو يئست باكراً من الارتزاق في مصر)، لكنت حازماً

١٤ فما يهتدي إلا لأصغرها الشعر

يفخر بقومه عند انصرافه من مصر:

بكَتْهُ بِمَا أَبْكَتْهُ أيامَ صَدْرُها خَلِيٌّ، وما يَخْلُو له مِنْ جَوىً صَدْرُ

عندما عزم على الرحيل بكته المحبوبة بدموع كانت أبكته بمثلها عندما كان صدرها خلياً، وكان هو آنذاك عاشقاً وفي صدره جوى (ألم)

وقالتْ أَتَنْسَى البدرَ؟ قُلْتُ، تَجَلُّداً: إذا الشمسُ لم تَغْرُبْ، فَلا طَلَعَ البَدْرُ

قالت: أتنسى البدر (تعني نفسها)، فقال تجلداً (متصنعاً الصبر): إذا الشمس لم تغرب، فلا طلع البدر (إذا كان طموحي موجوداً فلا أبالي بالنساء)

وَمَا الدَّمْعُ ثَانٍ عَزْمَتي، وَلَوَ انَّهَا سَقَى خدَّها، مِنْ كُلِّ عينٍ لَهَا، نَهْرُ

جَمَعْتُ شَعَاعَ الرأْيِ، ثم وَسَمْتُهُ بِحَزْمٍ، له في كُلِّ مُظْلِمَةٍ فَجْرُ

جمعت شَعاع الرأي (ما تفرق منه)، ثم وسمته (ختمت عليه) بحزم يضيء كل مظلمة (ليلة مظلمة) ويحيلها فجراً

وصَارَعْتُ عَنْ مِصْرٍ رَجَائي، ولم يَكُنْ لِيَصْرَعَ عَزْمي غيرَ مَا صَرَعَتْ مِصْرُ

صارعت رجائي في تحصيل المجد بمصر، وما كان عزمي ليصرَع غيرَ الرجاء الباطل الذي صرعته مصر في صدري

وما القَفْرُ بِالبيِدِ القَواءِ، بَلِ التي نَبَتْ بيِ، وفيها ساكِنُوها، هِيَ القَفْرُ

ليس القفر هو البيداء القواء (الخالية)؛ بل البلد التي نبت بي (لفظتني)، بينما ساكنوها فيها، **هي** القفر الحقيقي. بعد مئة سنة سيقول المتنبي مثل ذلك

ومَنْ قَامَرَ الأيامَ عَنْ ثَمَراتِها، فَأَحْجِ بِهَا أنْ تَنْجَلي، ولَهَا القَمْرُ

ومن قامر الأيام (لعب معها القمار ليفوز بخيراتها)، فأحج بها (حريٌّ بالأيام) أن تنجلي ولها القَمْرُ (أن تنكشف ولها الفوز)

مَقامَاتُنا وَقْفٌ على الحِلْمِ والحِجَا، فَأَمْرَدُنا كَهْلٌ، وأَشْيَبُنا حَبْرُ

مقاماتنا (مواقفنا) وقف على الحلم والحجا (مخصوصة برجاحة العقل)؛ فأمردنا (فتانا الذي لم تظهر لحيته) كهل في رجاحة عقله، وأشيبنا حبر (عالم كبير)

أَلَنَّا الأكُفَّ بِالعَطاءِ، فجاوَزَتْ مَدَى اللِّينِ، إلّا أنَّ أَعْرَاضَنا الصَّخْرُ

ألنَّا أكفنا بالعطاء (جعلناها لينة تعطي الآخرين) حتى الغاية القصوى، بيد أن أعراضنا صخر

إذا زِينَةُ الدنيا مِنَ المالِ أَعْرَضَتْ، فَأَزْيَنُ منها، عِندَنا، الحَمْدُ والشكرُ
أَبَى قَدْرُنا في الجُودِ إلّا نَباهَةً، فليسَ لِمَالٍ عندنا أبداً قَدْرُ
لِيُنْجِحْ بِجُودٍ مَنْ أرادَ، فإنَّهُ عَوَانٌ لِهَذَا الناسِ، وهْوَ لَنا بِكْرُ

لِيُنجحْ بجود (ليحقق مجده بالسخاء) من أراد، فالسخاء عوان للناس (مستعمَل غير جديد/ والعوان المرأة التي سبق لها الزواج)، وهو بكر لنا (أي أننا نحن بدأناه/ والبكر العذراء)

جَرى حَاتِمٌ في حَلْبَةٍ منه، لو جَرى بها القَطْرُ شَأْواً، قِيلَ أَيُّهُما القَطْرُ

جرى حاتم الطائي في حلبة من الجود لو جرى بها القطر (المطر) شأواً (شوطاً) لساوى حاتماً ولم يزد عليه

فتىً، ذَخَرَ الدُّنيا أُناسٌ، ولم يَزَلْ لها بَاذِلاً، فانظُرْ: لِمَنْ بقِيَ الذُّخْرُ

الناس ذخروا الدنيا (اكتنزوا المال) وحاتم بذله، فبقي لحاتم وحده كنزٌ من السمعة الطيبة

فَمَنْ شاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شاءَ مِنْ نَدىً؛ فليسَ لِحَيٍّ، غَيْرَنا، ذلكَ الفخرُ
جمعنا العُلى بالجُودِ بعدَ افتراقِها إلَيْنَا، كما الأيامُ يجمعُها الشَّهْرُ

جمعنا بجودنا أطراف المعالي إلينا

بِنجْدَتِنا أَلْقَتْ بِنَجْدٍ بَعَاعَها سَحَابُ المنَايَا، وَهْيَ مُظْلِمَةٌ كُدْرُ

ولنا نجدة (معونة في الحرب) وبنجدتنا ألقت سحب الموت في نجد بعاعها (وابلها)، وهي سحب سود مكدرة اللون

بِخَيْلٍ لِزَيْدِ الخَيْلِ، فيها فَوَارِسٌ ... إذا نَطَقُوا في مَشْهَدٍ خَرِسَ الدهرُ

حدث هذا بخيل لزيد الخيل (فارس طيء المشهور) وهذه الخيل فيها فوارس (فرسان) ينطقون بالسيوف والرماح في مشهد الحرب، فيخرس الدهر

مَساعٍ يَضِلُّ الشعرُ في كُنْهِ وَصْفِها ... فَما يهتَدِي، إلَّا لأَصْغَرِها، الشِّعْرُ

هذه مساعٍ (أمجاد) يضل (يضيع) الشعر في كنه وصفها (حقيقة صفتها)، وكل ما قيل فهو وصف لأصغرها فقط

١٥ مجد طيِّء

وقال يصف قومه ويفتخر بهم:

أَلا صَنَعَ البينُ الذي هُوَ صانِعُ ... فإنْ تَكُ مِجْزَاعاً، فَمَا الدهرُ جَازِعُ

أُسِيءُ على الدَّهرِ الثَّنَاءَ، فقد قَضَى ... عَلَيَّ بِجَوْرٍ صَرْفُهُ المتَتَابِعُ

أسيء الثناء (أعيب)

وعَاوٍ عَوَى، والمجْدُ بيْني وبينَه ... له حَاجِزٌ دُوني، ورُكْنٌ مُدَافِعُ

وعاوٍ عوى (رب هاجٍ يهجوني)، ومجدي حاجز يحول بيني وبينه، ويدفعه عني بلا تعب من جانبي

أَنَا ابنُ الذينَ اسْتُرْضِعَ الجودُ فيهِمُ، ... وسُمِّيَ فيهِمْ، وهْوَ كَهْلٌ ويَافِعُ

استرضع الجود فيهم (كان عندهم رضيعاً) واتَّخذ عندهم اسمه، وظل فيهم يافعاً وكهلاً

سَما بِيَ أَوْسٌ في السَّماءِ، وحَاتِمٌ ... وزَيْدُ القَنا، والأَثْرَمَانِ، ورَافِعُ

ارتفع بي إلى السماء هؤلاء الأجداد

وكانَ إِياسٌ ـ ما إِيَاسٌ ـ وعَارِقٌ، ... وحَارِثَةٌ، أوْفَى الوَرَى، والأَصَامِعُ

الأصامع: حي من طيء

نُجُومٌ طَوَالِعٌ، جِبَالٌ فَوارِعُ ... غُيوثٌ هَوامِعٌ، سُيولٌ دَوَافِعُ

فوارع: عالية، غيوث هوامع: أمطار هاطلة، سيول دوافع: متدفقة. يتجمل أبو تمام بهذا الزحاف الجاهلي الذي لم يعد أحد يركبه في العصر العباسي. لكن الرجل يحب أن «يتبدَّى»، نسبة إلى البادية؛ ويريدنا أن نحلف بالله العظيم أننا نصدق نسبته إلى قبيلة طيء. وسنجده في الطويل أحياناً، وفي البسيط كثيراً، يركب هذا الزحاف المستكره المهجور. وقد أسرع محقق «هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام» إلى «تصحيح» الكلمتين اللتين وقع فيهما الزحاف فجعلهما «طواليع» و«هواميع». وقال في الحاشية إن البيت مكسور. ولا نرى إلا أن شاعرنا كبر وهلل عندما جاءته هذه السجعة الداخلية المزدوجة (التجزئة بحسب مصطلح صفي الدين الحلي)، ولما رآها تقتضيه زحافاً عتيقاً كبر وهلل مرة أخرى

مَضَوْا، وكَأَنَّ المَكْرُمَاتِ لديْهِمُ، لِكَثْرَةِ ما أَوْصَوْا بِهِنَّ، شَرائِعُ
فَأَيُّ يَدٍ في المجدِ مُدَّتْ، فلمْ تَكُنْ لـهـا راحَـةٌ مِنْ جُـودِهِـمْ وأَصَـابِعُ
هُمُ اسْتَوْدَعُوا المعروفَ مَحْفُوظَ مالِنا، فَضَاعَ، وما ضَاعَتْ لدَيْنَا الوَدائِعُ

وضعوا مالنا المحفوظ وديعة عند المعروف، فضيع المعروف المال لسخائنا، ولكننا لا نضيع ودائع الناس وحقوقهم

بَهَالِيلُ، لو عايَنْتَ فَضْلَ أَكُفِّهِمْ لأَيْقَنْتَ أَنَّ الرِّزْقَ في الأرضِ واسِعُ

بهاليل: سادة كرام، ترى فضل أكفهم (ما ينفقون) فتحسب أن الرزق واسع في الدنيا

إذا طَيِّءٌ لـم تَـطْوِ مَـنْشُورَ بَـأْسِـهـا فَأَنْفُ الذي يُهْدِي لَهَا السُّخْطَ جَادِعُ

إذا لم تطوِ طيء بأسها، بل نشرته، فهي تجدع أنف من يسبب لها السخط (تقطعه إذلالاً له). والأنف الجادع: أي المجدوع

بِكُلِّ فَتىً: ما شابَ مِنْ رَوْعِ وَقْعَةٍ، ولـكـنَّـهُ قـد شِـبْـنَ مـنـهُ الـوَقَـائِـعُ

تصنع طيء ذلك بفتيان لا يشيبون من روع وقعة (خوف معركة)، ولكن المعارك تشيب من شجاعتهم

إذا ما أَغارُوا، فاحْتَوَوْا مالَ معشرٍ، أغارتْ عليْهِمْ، فاحتَوَتْهُ، الصَّنَائِعُ

يغيرون غازين فيحتوون مال القبائل (المال هو الإبل)،
ثم تغير عليهم الصنائع (المعروف) فتسلبهم المال

فَتُعْطِي، الذي تُعْطِيهِمُ الخيلُ والقَنَا، أَكُـفٌّ لإرْثِ الـمَـكْـرُمَـاتِ مَـوانِـعُ

أكفهم الحامية لإرث المكارم تعطي الناس المال الذي أعطتهم إياه الخيل الغازية والقنا (الرماح)

يَـمُـدُّونَ بـالـبِيضِ الـقَـواطِعِ أيْدِيَاً، وهُـنَّ سَـوَاءٌ والـسـيـوفُ الـقَـواطِـعُ

يمدون بالبيض القواطع (بالسيوف) أيدياً هي في عزمها كالسيوف

إذا أَسَرُوا، لم يَأْسُرِ البأسُ عفوَهُمْ، ولـم يُـمْـسِ عَـانٍ فـيـهِـمُ وهْـوَ كَـانِـعُ

يأسرون الرجال في الحرب، ولكن عفوهم ليس أسيراً، ولا يبيت العاني (الأسير) فيهم كانعاً (منقبض النفس)

إذا أَطْـلَـقُـوا عـنـهُ جَـوامِـعَ غُـلِّـهِ تَـيَـقَّـنَ أنَّ الـمـنَّ أيـضـاً جَـوامِـعُ

إذا أطلقوا عنه جوامع غله (قيوده) أصبح متيقناً أن المن (الإحسان) هو أيضاً جوامع (قيود).. والمرء يقيد أخاه، أو خصمه، بإحسانه إليه

ألا إنَّ نَفْسَ الشِّعْرِ مَاتَتْ، وإنْ يَكُنْ عَـدَاهـا حِـمَـامُ الـموتِ، فَـهْـيِ تُـنَـازِعُ

عداها (تجاوزها)

سأَبْكي القوافيِ بالقوافيِ، فإنَّها   عليها ـ ولم تَظْلِمْ بِذَاكَ ـ جَوازِعُ

جوازع: حزينة

كَشَفْتُ قِناعَ الشِّعْرِ عن حُرِّ وجهِهِ   وطَيَّرْتُهُ عن وَكْرِهِ، وهْوَ وَاقِعُ

كشفت القناع عن حر وجه الشعر (صفحة وجهه البارزة)، وطيرت الشعر عن وكره بعد أن كان واقعاً (هابطاً غير محلق)

بِغُرٍّ يَراها مَنْ يَرَاها بِسَمْعِهِ،   فَيَدْنُو إليْها ذوُ الحِجَا، وَهْوَ شَاسِعُ

بغر: بقصائد غراء، الحجا: العقل

يَوَدُّ وِدَاداً أَنَّ أعضاءَ جسمِه،   إذا أُنشِدَتْ، شَوقاً إليْها، مَسَامِعُ

١٦ أدركتني حرفة الأدب

ما يَحْسِمُ العقلُ، والدنيا تُسَاسُ بِهِ،   مَا يَحْسِمُ الصبرُ في الأحداثِ والنُّوَبِ

النوب: المصائب

الصبرُ كاسٍ، وبَطْنُ الكَفِّ عَارِيةٌ؛   والعقلُ عَارٍ، إذا لم يُكْسَ بِالنَّشَبِ

الصبر يكون كاسياً (لابساً/ مستوراً) حتى وبطن الكف عارية من المال، والعقل يظل عارياً بدون النشب (المال)

ما أَضْيَعَ العقلَ إنْ لم يَرْعَ ضَيْعَتَهُ   وَفْرٌ، وأَيُّ رَحًى دَارَتْ بِلا قُطُبِ

ضائع هو العقل (الذكاء والفهم والكياسة) إن لم يرعَ (يحفظ) ضيعته (قريته) وفر (مال)، ورحى الطاحونة لا تدور بغير قطب (محور)

كم ذُقْتُ في الدَّهرِ مِنْ عُسْرٍ ومن يُسُرٍ،   وفي بَنِي الدهرِ مِنْ رَأْسٍ ومِنْ ذَنَبِ

أُغْضِي، إذا صَرْفُهُ لم تُغْضِ سَوْرَتُهُ   عَنِّي، وأَرضَى إذا ما لَجَّ في الغَضَبِ

أغضي (أتغاضى) عندما لا تتغاضى سوْرة (هجمة) الدهر عني، وعندما يلجُّ (يبالغ) الدهر في الغضب فإنني أرضى

وإنْ بُلِيتُ بِجِدٍّ مِنْ حُزُونَتِهِ   سَهَّلْتُهُ، فَكَأَنِّي مِنْهُ في لَعِبِ

إن كان الدهر جاداً في حزونته (وعورته)
فإنني أسهّل الأمر فيبدو كأنني في لعب (مزاح)

مُقَصِّرٌ خَطَرَاتِ الهَمِّ في بَدَنِي،   عِلْماً بِأَنِّيَ مَا قَصَّرْتُ في الطَّلَبِ

أقصّر بذلك خطرات (جولات) الهم في بدني، علماً بأنني حاولت، وما قصرت

مـاذا عَـلَـيَّ، إذا مـا لـم يَـزُل وَتَـرِي   في الرَّمْيِ، أَنْ زُلْنَ أَغْراضي فَلَمْ أُصِبِ؟

ماذا عليَّ (ما ذنبي) إذا لم يزل (لم ينقطع) وتر قوسي وأنا أرمي، ولكن أغراضي (الأهداف) نفسها زالت، فلذلك لم أصب؟

فـي كـلِّ يـومٍ أَظَـافـيـرِي مُـفَـلَّـلَـةٌ   تَسْتَنْبِطُ الصُّفْرَ لِي مِنْ مَعْدِنِ الذَّهَبِ

مفللة: مثلَّمة، تستَنبط: تستخرج، الصفر: النحاس، معدن الذهب: خاماته في منجمه. يقول: أحفر منجم الذهب وتتثلم أظافري، ولا يخرج لي إلا النحاس

إذا قَـصَـدْتُ لِـشَـأْوٍ، خِـلْـتُ أَنِّـيَ قـد   أَدْرَكْـتُـهُ، أَدْرَكَـتْـنـي حِـرْفَـةُ الأدبِ

إذا قصدت لشأو (لغاية) أظن نفسي أدركته (حققته)، أدركتني (لحقت بي) حرفة الأدب (لعنة الاشتغال بالأدب)

مـا آبَ مَـنْ آبَ لـم يَـظْـفَـرْ بِـبُـغْـيَـتِـهِ؛   ولـم يَـغِـبْ طَـالِـبٌ لـلـنُّـجْـحِ لـم يَـخِـبِ

بعبارته الملتوية يقول شاعرنا: الذي رجع غير ظافر ببغيته (طلبه) فكأنه ما آب (رجع)؛ والذي طلب النجح (تحقيق المبتغى) وأنجزه بلا خيبة فكأنه ما غاب عن أهله ولا تجشم عناء السفر. يقول: العائد فاشلاً كأنه لم يعد إلى وطنه، والذي نجح فكأنه لم يغترب ولم يواجه المشقات. وبعبارة أوجز: الناجح كأنه ما غاب، والفاشل كأنه ما آب

١٧ منَّا أميرها

هلِ اجْـتَـمـعـتْ عُـلْـيَـا مَـعَـدٍّ ومَـذْحِـجٍ   بِـمُـلْـتَـحَـمٍ، إلَّا ومِـنَّـا أَمـيـرُهـا؟

هل اجتمعت عليا معد ومذحِج (أشرف قبائلِ معد العدنانية ومذحجٍ اليمانية) بملتحم (بمعركة) إلا وأميرها من قبيلتنا طيء؟

بلِ اليَمَنُ اسْتَعْلَتْ لَدَى كلِّ مَوْطِنٍ،   وصَـارَ لِـطَـيْءٍ تـاجُـهـا وسَـرِيـرُهـا

السرير (العرش)

مُـحَـرَّمَـةٌ أَكْـفَـالُ خَـيْـلِـيَ فـي الـوَغـى   ومَـكْـلُـومَـةٌ لَـبَّـاتُـهـا ونُـحُـورُهـا

محرمة (محمية من الإصابة) أكفال خيلي (مؤخراتها) لأنني لا أفرُّ، ومكلومة (جريحة) لباتها (صدورها) ونحورها (ما فوق الصدر) لأنني دائماً أواجه الأعداء

١٨ الرئيس والمرؤوس

وقال يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، وكتب بها إليه:

إيـهـاً دمشـقُ! فـقـد حَـوَيْـتِ مَـكـارمـاً   بِـأَبـي الـمُـغـيـثِ، وسُـؤدَداً قُـدْمُـوسـا

إيهاً دمشق (زيدينا يا دمشق)، فقد ضممت، بوجود أبي المغيث، مكارمَ وسؤدداً قدموساً (قديماً)

وأرى الزمانَ غَدا عليكِ بِوَجْهِه   جَذلانَ بَسَّاماً، وكان عَبوسا

نظر الزمن إليك بوجهه جذلان (فرحاً) باسماً، وكان من قبل عبوساً

لم يَشعُروا حتى طَلَعْتَ عليْهِمُ   بَدراً، يَشُقُّ الظُّلْمَةَ الحِنْدِيسا

لم يشعروا إلّا وقد طلعتَ عليهم مثل البدر الذي يشق الظلمة الحنديس (الشديدة)

ما في النجومِ سوى تَعِلَّةِ باطِلٍ   قَدُمَتْ، وأُسِّسَ إفكُها تَأْسيسا

قراءة العرافين حركات النجوم هي منذ القدم تعلة باطل (سبب باطل لوقوع الأحداث المقبلة)، وإفكها (كذبها) مؤسس تأسيساً في الأذهان

إن الملوكَ هُمُ كواكِبُنا التي   تَخْفَى وتَطْلُعُ، أَسْعُداً ونُحُوسا

الملوك (الولاة) هم كواكبنا التي تجلب السعد أو النحس. وكانوا يمدحون الوالي بأنه مسبب للخير وللشر معاً، وبأنه يمنح ويمنع

فِتَنٌ جَلَوْتَ ظَلامَها، منْ بَعدِ ما   مَدُّوا عُيوناً نحوَها، ورُؤُوسا

تلك كانت فتناً جلوت (أزلت) ظلامها، من بعد ما مدوا نحو الفتن عيونهم ورؤوسهم، فكلٌّ يريد أن يستفيد من الأوضاع المضطربة

كم بينَ قومٍ: إنما نَفَقاتُهُمْ   مالٌ، وقومٍ ينفقونَ نُفوسا

ما أكبر الفارق بين قوم ينفقون من مالهم، وبين قوم ينفقون نفوسهم ويخاطرون في المعارك

سارَ ابنُ إبراهيمَ، مُوسى، سيرةً   سَكَنَ الزمانُ لها، وكانَ شَمُوسَا

سيرته الحسنة هدَّأت الأحوال، وكان الزمان قبله شموساً (معانداً)

أَلْوَىً، يُذِلُّ الصَّعْبَ إن هُوَ سَاسَهُ،   ويَلِينُ جانبُه إذا ما سِيسا

الممدوح ألوى (شديد)، يذل البعير الصعب إن ساسه (روَّضه)، ـ يقصد أنه يجعل الخصم ذلولاً منقاداً للطاعة ـ ولكن الممدوح في الوقت نفسه يلين لمن يكون رئيساً له فهو منضبط

مَنْ لم يُقَدْ، فَيَطِيرَ في خَيْشُومِه   رَهَجُ الخَميسِ، فَلَنْ يَقودَ خَمِيسا

من لم يكن جندياً مَقوداً، ولم يجرب كيف يطير رهج الخميس (غبار الجيش) في خيشومه (أنفه)، فلن يستطيع قيادة جيش

١٩ المدَّاح المحترف

يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي:

الآن جُرِّدَتِ المدائحُ، وانتهَى   فَيْضُ القَريضِ إلى عُبابِ الوَادي

الآن جردنا قصائد المدح (استللناها كالسيوف)، وانتهى (وصل) فيض القريض (الشعر) إلى عباب الوادي (خضم الوادي/أي إلى الممدوح الذي هو وادي الجود)

وتَبَجَّسَتْ لِلجُودِ مِنْ نَفَحَاتِهِ   قُلُبٌ يَكَدْنَ يَقُلْنَ: هَلْ مِنْ صَادِ؟

تبجست (تفجرت) للكرم من نفحاته (عطاياه) قُلُبٌ (آبار) تكاد لغزارة مياهها تقول: هل بقي من صاد (عطشان) لم يشرب بعد؟

لم أُبْقِ حَلْبَةَ مَنطِقٍ إلَّا وقد   سَبَقَتْ سوابقَها إليكَ جِيَادي

لم أترك حلبة منطق (قول) إلا وقد سبقتْ سوابقَ هذه الحلبة (جيادَها السابقة) جيادي أنا (قصائدي)

أَبقَيْنَ في أعناقِ جودِكَ جَوْهَراً   أَبْقَى من الأَطواقِ في الأَجْيادِ

هذه القصائد هي جواهر في أعناق كرمك، وستدوم أكثر من أطواق الأجياد (الرقاب). فطوق عنق الحمامة خِلقة ولا يزول كباقي الأطواق

٢٠ صحراء عليها باب

يهجو أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي:

فَاضَ اللِّئَامُ، وغَاضَتِ الأَحْسَابُ   واجْتُثَّتِ العَلْيَاءُ، والآدابُ

غاضت: نشفت؛ الأحساب: الأمجاد، اجتُثت: اقتُلعت

هَبْ مَنْ لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ حِجَابَهُ،   ما بَالُ لاشَيْءٍ عليه حِجَابُ؟

هب (افرِض) أن من عنده سلطة يريد وضْع حاجب على بابه، فما بال الذي يملك «لاشيء» قد وضع عليه حجاباً؟

ما إنْ سَمِعْتُ، ولا أَرَانيَ سَامِعاً،   أبداً بِصَحْراءٍ عليها بابُ

مَنْ كانَ مفقودَ الحياءِ، فوجْهُهُ،   مِنْ غيرِ بَوَّابٍ، له بَوَّابُ

٢١ أمدحك مع الخلق وأهجوك وحدي

وقال يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي، ويعتذر إليه:

أَتاني معَ الرُّكْبانِ ظَنٌّ ظُنِنْتُهُ،   لَفَفْتُ له رأسي حَيَاءً منَ المجدِ

جاءني مع الركبان (الوافدين) ظن (تهمة) ظُنِنتها (اتُهِمتُ بها) فغطيت وجهي خجلاً من مجدك

وكيفَ! وما أَخْلَلْتُ بعدَكَ بالحِجَا،   وأنتَ، فَلَمْ تُخْلِلْ بِمَكْرُمَةٍ بَعدي؟

وكيف يكون ذلك، وأنا ما أخللت (قصرت) بالحجا (التعقل)، وأنت لم تخلل بالمكارم؟

أَأُلْبِسُ هُجْرَ القولِ مَنْ لو هجوْتُهُ   إذنْ لَهَجَاني عنه معروفُه عِندي؟

فهل يمكنني أن أُلبس (أكسو) هجر القول (القول المعيب/الهجاء) شخصاً لو هجوته لكان معروفه إليَّ هجاء لي

كريمٌ متى أمدحْهُ أمدحْهُ والوَرى   معي، ومتى ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحدي
ولـو لـم يَـزَعْـنـي عـنـكَ غـيـرَكَ وازعٌ   لأَعْدَيْتَني بالحِلمِ، إنَّ العُلَى تُعْدي

لو لم يزعني (يردعني) عن ذلك الهجاء المزعوم وازع (رادع) سواك، لكان كافياً أنك نقلت إليَّ عدوى الحلم، والعلى (المكارم) تعدي

أَرُدُّ يَدي عن عِرْضِ حُرٍّ ومَنْطِقي،   وأَمْلأُها مِنْ لِبْدَةِ الأَسَدِ الوَرْدِ

خير لي أن أضع يدي في لبدة (فروة رأس) الأسد الورد (الضارب للحمرة) من أن أمس بها عرض رجل حر، أو أن أتعرض له بمنطقي (بقولي)

٢٢ رياض الباطل

يهجو موسى بن إبراهيم الرافقي:

كم مِنْ لَئيمٍ قد غَزَتْهُ قصائِدي   ودَأَبْنَ فيه، فَمَا ظَفِرْنَ بِطَائِلِ

غزوته بالقصائد محاولاً نيل عطائه، عبثاً

لا خَفَّفَ الرحمنُ عنِّيَ، إنَّني   أَرْتَعْتُ ظَنِّيَ في رِياضِ البَاطِلِ

أرتعت ظني: جعلته يرتع ويرعى

ما أَنْسَلَتْ حَوَّاءُ أَحْمَقَ لِحْيَةً   مِنْ سَائِلٍ يَرجوُ الغِنَى مِنْ سَائِلِ

سائل: مستجدٍ

٢٣ السلام عليك، يا أبا تمام!

وقال في سياق مدح أبي نصر سلميان بن نصر، وقالها في حمص:

كُلُّ فَدْمٍ أَخَافُ حِينَ أَرَاهُ   مُقْبِلاً أَنْ يَشُجَّني بالسَّلامِ

فدم: غبي، يشجني: يجرح رأسي

رافِعاً كَفَّهُ لِبِرِّي، فَلا أَحْـ   ـسَبُهُ جَاءَني لِغَيْرِ اللِّطَامِ

لبري: للإحسان إليَّ بطرح السلام، اللطام: الصفع

٢٤ ما كل رؤيا تصدق

وقال يهجو عتبة بن أبي عاصم، شاعر أهل حمص:

أَخَرِسْتَ إذْ عايَنْتَني، حتى إذا   مَا غِبْتَ عنْ بَصَري، ظَلِلْتَ تَشَدَّقُ

عندما رأيتني سكتَّ، حتى إذا ما ابتعدتُ عنك ظللت تتشدق (تتفاصح) بالكلام

عَيْرٌ رَأى أَسَدَ العَرِينِ، فَهَالَهُ حتى إذا وَلَّى، تَوَلَّى يَنْهَقُ
أنت كالعير (الحمار) الذي رأى أسد العرين فهاله، فلما ولّى الأسد تولّى (بدأ) الحمار ينهق

هَيهاتَ! غَالَكَ أنْ تَنَالَ مَآثِري إسْتٌ بِها سَعَةٌ، وبَاعٌ ضَيِّقُ
بُعْدَك! لقد غالك (أهلكك) قبل أن تصل إلى مآثري (أفعالي) فقحة واسعة (فأنت ممن يلاط به) وباع ضيق (قَذْر سافل)

وتَنَقُّلٌ مِنْ مَعْشَرٍ في مَعْشَرٍ، فَكَأَنَّ أُمَّكَ أو أباكَ الزِّئْبَقُ
وأعجزك عني تنقلك بين الأقوام في النسب، لأنك دعيّ

وفُسُوقُ والِدَةٍ، حَسَتْ جُرَعَ الرَّدَى، وأَظُنُّها في اللَّحدِ أيضاً تَفْسِقُ
حست جرع الردى: لعقت جرعات الموت

جَدْعاً لآنُفِ طَيِّءٍ إنْ فُتَّها، ولَوَ انَّ رُوحَكَ بالسَّمَاءِ مُعَلَّقُ
فلتُجدعْ (لتقطعْ) أنوف قبيلة طيء إن كنت ممن يفوتها ويسبقها

إنـي أَرَاكَ حَلُمْتَ أنَّكَ سالم مِنْ بَطْشِهِمْ؛ ما كلُّ رُؤيا تَصْدُقُ
إيَّاكَ يَعني القائلونَ بِقَوْلِهِمْ: «إنَّ الشَّقِيَّ بِكُلِّ حَبْلٍ يُخْنَقُ»
نُسب الشطر للمساور بن هند، والبيت بتمامه: شقيت بنو أسد بشعر مساور/ إن الشقي بكل حبل يخنق

سِرْ أَيْنَ شئتَ مِنَ البلادِ، فَلِي بِهَا سُورٌ عليكَ، مِنَ الرِّجالِ، وخَنْدَقُ
أخذنا برواية الجاحظ، في البيان والتبيين، لهذا البيت، دون روايات الديوان بنسخه المختلفة

وقَصَائدٌ تَسرِي إليكَ كأنها أحلامُ رُعْبٍ، أو خُطُوبٌ طُرَّقُ
خطوب: مصائب، طرَّق: قادمات ليلاً

مِنْ مُنْهِضَاتِكَ، مُقْعِدَاتِكَ، خَائفاً مُسْتَوْهِلاً، حتَّى كأنَّكَ تَطْلَقُ
قصائدي تقيمك وتقعدك وأنت خائف مستوهل (خائف)، كأنك المرأة التي تطلق قبيل الولادة

مِنْ شاعِرٍ وَقَفَ الكَلامُ بِبَابِهِ، واكْتَنَّ في كَنَفَيْ ذَرَاهُ المَنْطِقُ
اكتن: احتمى، ذَراه: كنفه وحمايته

٢٥ لا للمشاتمة

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ يَغْوِي كي أُشَاتِمَهُ اللَّهُ أكبرُ! أَنَّى اسْتَأْسَدَ النَّقَدُ
النقد: صغار الغنم

إنـيِ لأَعْجَبُ مِمَّنْ في حَقيبَتِهِ   مِنَ المنِيِّ بُحُورٌ، كيفَ لا يَلِدُ؟

حقيبته: هنا معناها «جوفه».. بيت منسوب إلى كثر، ولعلنا ـ غفلة منا ـ قد ضممناه في مختاراتنا إلى غير شاعر

٢٦ بلى، تموت فتستريح

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

بنُو عبدِ الكريمِ نُجُومُ عِزٍّ،   تُرى في طَيِّءٍ أبداً تلوحُ
إذا كان الهجاءُ لَهُمْ ثَواباً،   فأخبِرْني: لِمَنْ خُلِقَ المديحُ؟
وما لكَ حيلةٌ فيهِمْ، فتُجْدي   عليكَ؛ بَلَى، تموتُ فتَستَريحُ

٢٧ أحيا وأمات في الصحارى

يهجو عتبة بن أبي عاصم:

فإنَّكَ إنْ تُسَاجِلْني تَجِدْني   لِرَأسِكَ جَنْدلاً، ولِفيكَ تُرْبا

الجندل: الصخر

تَجِدْ صِلّاً تَخَالُ بِكُلِّ عُضْوٍ   لهُ مِنْ شِدَّةِ الحركاتِ قَلْبا

الصل: الثعبان

أخَا الفَلَوَاتِ، قد أَحْيَا وأَرْدَى   رِكاباً في صَحَاصِحِها، ورَكْبَا

تجدني أخا (قرينَ) الفلوات (الصحارى)، الذي أحيا في صحاصحها (براريها) ركاباً (إبلاً) ورَكْباً (وراكبين) بالوصول بها وبهم إلى الأمان، وأردى (أمَاتَ) إبلاً وأصحاباً لم يتحملوا المشقات

٢٨ نحن مادة السَّمَر

يمدح عمر بن عبد العزيز الطائي من أهل حمص:

يا هذهِ أَقْصِرِي، ما هذهِ بشَرٌ   ولا الخَرائدُ من أتْرابِها الأُخَرُ

يا هذه العاذلة أقصري (كُفِّي) فهذه الفتاة ليست من البشر لحسنها النادر، وكذا الخرائد (الحسان) من أترابها (صاحباتها)

لولا العيونُ وتفَّاحُ الخدودِ إذَنْ   ما كان يحسُدُ أعمَى مَنْ لهُ بَصَرُ

بالشِّعرِ طُولٌ إذا اصطكَّتْ قصائدُهُ   في مَعْشَرٍ، وبهِ عن مَعْشَرٍ قِصَرُ

يطيل الشاعر في مدح من يستحقون المدح. وينقل شرف الدين المستوفي (في الصفحة ٤٨ من الجزء الثاني من مخطوطته «النظام») عكس ذلك في الشرح: فالشعر يكون أطول من بعض الناس لأنهم دونه في القامة، ويكون قصيراً عن القوم الكرام. وهذا ـ فيما نرى ـ بعيد. لكنه يخيرنا بين المعنيين؛ وقد اخترنا

هَلْ أَوْرَقَ المجدُ إلّا في بَنِي أُدَدٍ،   أَو اجْتُنِي مِنْهُ، لَوْلا طَيِّءٌ، ثَمَرُ؟

المجد يورق عندهم

لولا أَحَادِيثُ، بَقَّتْهَا مآثِرُنَا،   من النَّدَى والرَّدَى لم يُعْجِبِ السَّمَرُ

لولا ما تركت مآثرنا للناس من الأحاديث عن الكرم وقتل الأعداء ما كان السمر يعجب الناس

٢٩ فافعل ما تشاء

يُعَرِّض ببعض بني حميد، بعد مقتل محمد بن حميد، ولم يصرح بهجائه، لأنه كان مدحهم، ولأنه طائي، وثمة شك في نسبة هذه الأبيات:

إذا جَارَيْتَ في خُلُقٍ دَنِيئاً   فأنتَ ومَنْ تُجَارِيهِ سَواءُ
رأيْتُ الحُرَّ يَجْتَنِبُ المخازِي   ويَحْمِيهِ عنِ الغَدْرِ الوفَاءُ
ومَا مِنْ شِدَّةٍ، إلّا سيأْتي   لها مِنْ بعدِ شِدَّتِها رَخاءُ
لقد جرَّبتُ هذا الدهرَ، حتى   أفادتْني التَّجَارِبُ والعَنَاءُ
إذا ما رأْسُ أهلِ البيتِ وَلَّى   بَدا لَهُمُ مِنَ الناسِ الجَفَاءُ
يعيشُ المرءُ، ما استَحْيا، بِخَيْرٍ   ويَبْقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحَاءُ

في النبات يبقى الغصن مورقاً نضراً ما بقي له لحاؤه، وكذا فالمرء يظل بخير ما بقي مستوراً بالحياء

فلا واللَّهِ، ما في العيشِ خيرٌ،   ولا الدنيا، إذا ذهبَ الحياءُ
إذا لم تخشَ عاقِبَةَ الليالِي،   ولم تَسْتَحْيِ، فَافْعَلْ ما تشاءُ

٣٠ انتجاع الموت

يرثي بني حميد بن قحطبة:

أيُّ القلوبِ عليْكُمْ ليس يَنْصَدِعُ   وأيُّ نَوْمٍ عليْكُمْ ليس يَمْتَنِعُ؟
يَنْتَجِعُونَ المنايا في مَنابِتِها،   ولم تَكُنْ قبلَهُمْ في الدهرِ تُنْتَجَعُ

ينتجعون المنايا (يزورون الموت وكأنهم يذهبون للرعي)

لو خَرَّ سيْفٌ مِنَ العَيُّوقِ مُنْصَلِتاً   ما كـان إلَّا عـلـى هـامَـاتِـهِـمْ يَـقَـعُ

لو خر (سقط) سيف من العيوق (نجم في السماء) منصلتاً (مجرداً من غمده) ما وقع إلا على رؤوسهم. فهم محترفو حرب لا يموتون حتف أنوفهم

إذا هُمُ شهِدوا الـهَـيْـجاءَ هَاجَ بِهِـمْ   تَـغَـطْرُفٌ فـي وُجُـوهِ الـمـوْتِ يَـطَّـلِـعُ

الهيجاء: الحرب، تغطرف: اعتزاز، يطلع: يبرز

وأَنْفُسٌ تَسَعُ الأرضَ الفضاءَ، ولا   يَرْضَوْنَ أو يَجْشِمُوها فوقَ مَا تَسَعُ

نفوسهم كبيرة، ومع ذلك لا يرضون إلا أن يجشموها (يحملوها) فوق طاقتها

بـِوُدِّ أعـدائِـهِـمْ لـو أنَّـهُـمْ قُـتِـلـوا،   وأَنَّهُمْ صَنَعُوا بعضَ الذي صَنَعُوا

أعداؤهم يتمنون لو أبدوا مثل شجاعتهم حتى لو كان القتل هو الثمن

عَهدي بِهِمْ تَسْتَنِيرُ الأرضُ إنْ نَزَلوا   فيها، وتجتمعُ الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحكُ الدهرُ مِنْهُمْ عَنْ غَطَارِفَةٍ   كـأنَّ أَيّـامَـهُـمْ مِـنْ أُنْـسِـهـا جُـمَـعُ

يضحك الدهر منهم (يضحك بسببهم) عن غطارفة (سادة)،
وأيامهم مليئة بالأنس، فكأنها كلها يوم جمعة

فـيـمَ الـشَّـمَـاتَـةُ إعْـلانـاً بـِأُسْـدِ وَغَـىً،   أَفْـنَـاهُـمُ الـصَّـبْـرُ إذْ أَبْـقَـاكُـمُ الـجَـزَعُ

فلماذا تشمتون بهم علانية وهو أسود الوغى (الحرب)، لقد صبروا حتى الموت، وأنتم عشتم لأنكم فررتم خوفاً

٣١ ثم انثنى فتقطعا

يرثي أبا نصر محمد بن حميد الطائي:

أَصَمَّ بكَ النَّاعي، وإن كان أَسْمَعَا   وأَصبحَ مَغْنَى الجُودِ، بَعْدَكَ، بَلْقَعا

الناعي (ناقل خبرك) أصمنا بالخبر (جعلنا صماً لهول الخبر)، لكننا سمعناه، وأصبح مغنى (مكان) الجود بعدك بلقعاً (قفراً)

فتىً، كلما ارْتَادَ الشُّجاعُ مِنَ الرَّدَى   مَفَرّاً غَدَاةَ المأْزِقِ، ارتَادَ مَصْرَعا

إذا ساءَ يـومٌ فـي الـكَـريهَـةِ مـنـظـراً   تَصَلَّاهُ، عِلْماً أنْ سَيَحْسُنُ مَسْمَعا

الكريهة: الحرب، تصلاه: اصطلى بناره

فَإنْ تَرْمِ عَنْ عُمْرٍ تَدَانَى به المدى   فَخَانَكَ، حتَّى لم تَجِدْ فيهِ مَنْزَعا..

فإن كنت ترمي بقوسك، ووتره عمرك الذي وصل مداه، وخانك الوتر ولم يبق فيه منزع (مدى لمزيد من الشد)..

فما كنت إلا سيفاً لاقى ضريبة (ضحية السيف المضروبة به) فقطعها، ثم تقطع هو. هذا أقصى ما استطعنا فهمه. وفي أبي تمام تشحنك المفردات بمشاعر ومعان تؤلف فيما بينها صورةً أو تصنع جواً. ولا تحاول أن تفسرها بالبحث عن مقابل موضوعي دقيق فتفسدها، فأنت معه كالمتفرج على آلاف الصبية في ستاد الأولمبياد يحملون لوحات ملونة تصنع صورة ضخمة، ثم تتموج وتتحرك بشكل عجيب، فإذا اقتربت فقدت جمال المنظر. لقد ظن عبد السلام هارون بأبي تمام شراً، وحسبه غير دقيق في استخدام اللغة، ثم درسه من كثب فغير رأيه، ووصل به الاقتناع بأبي تمام أن شرح همزياته في كتاب مستقل ونشره، خطوة أولى لشرح الديوان، لكنه مات وترك سبعة وعشرين حرفاً نعالج منها ما نعالج. وافتتن إيليا الحاوي بأبي تمام افتتاناً، فشرح ديوانه شرحاً رديئاً فيه العمومية المفرطة وفيه نسخ لأوهام من سبقه واجتهاداتهم، وفيه إسقاط بيت هنا وبيت هناك من باب الغفلة، وفيه مئات الأغلاط المطبعية، ومع كل هذا الذي قلناه فإيليا الحاوي رجل يعرف الأدب العربي القديم معرفة حسنة ويتذوقه؛ ثم وضع إيليا كتاباً ضخماً عن أبي تمام فيه هيام بهذا الشاعر «الحداثي». والحق أن أبا تمام شاعر متفرد؛ ومع أنني وصمته في المقدمة بعيوب كثيرة، فهو شاعر يجعل المعنى يتوقد في المفردة، ويردفها بغيرها على نحو يزيد المعنى بهاء وإن لم يزده وضوحاً، وما ينتهي البيت إلا وقد تكونت في قلبك حالة نفسية متكاملة صاخبة، وتكونت في عقلك صور شتى تنظر إليها معاً فتفهم، وتحاول التحقق منها فرادى فلا تجد شيئاً خطيراً. أبو تمام شاعر الإيحاء. وقد أزعج هذا النقاد القدماء كثيراً، فتعقبوه وعابوه وتسقطوا أخطاءه، لكن المؤلفين ظلوا يقتبسون في كتبهم أبياتاً كثيرة له. وظل شعره حياً. وكما ذكرت في ملاحظة سابقة، فإن الله لم يوفق أحداً إلى شرح ديوان أبي تمام شرحاً تقليدياً حرفياً يصل بقارئه إلى الفهم الدقيق للمفردة ومعناها ثم يضعها في مكانها من البيت. وسبب ذلك لغة الرجل المتفجرة، واحتمالاتها الكثيرة، ومَوَران هذه المفردات بالمعاني وظلال المعاني. وقد حاولت في هذه المختارات التي لا تتعدى العشرين بالمئة من ديوان الرجل أن أشرح الشرح الحرفي كي يصل القارئ إلى الصورة الكاملة والحالة النفسية بعد تمام الفهم، ووصلت إلى هذا البيت فذكرني بأن أبا تمام صعب وبأنه مختلف، وانظر إلى البيت الأخير، فكيف نشرحه؟ هل نصور لك بطلاً أسطورياً نزل الميدان كي يفني الأعداء وعندما أفناهم انتهى مبرر وجوده فوق الأرض فقرر الوفاء للأسطورة فتبخر في الجو مفنياً نفسه لكي يتحول إلى ذكرى أسطورية رائعة، بطل لا يشيخ، بطل حياته صراع، بطل هو سيف لا إنسان، بطل يمثل لك مفهوماً: مفهوم أن كل الحياة فوق الأرض صراع. هو رمز لسر الحياة، وسر المجتمع الإنساني: رمز للصراع؟ لا بل نشرح البيت بكليمات بسيطة ونترك لك أن تستمتع به. فعلنا مثل هذا في عشرات الأبيات المشحونة بأمثال هذه اللوحات النفسية. شرحناها شرحاً لغوياً، وتركناك معها لتعيش حياتك. وأمامي في عطلتي الحالية من عملي ستة أيام، فإن لم أجد شيئاً أصنعه فسوف أكر راجعاً على كثير من الأبيات التي شرحتها شرحاً لغوياً ظاهرياً فأضيف إليها بعض التفلسف، وأحليها بتأملاتي في مغازيها. قد أجد من يقول لي: عافاك الله، الأمر أهون مما تظن!

٣٢ قتيل الحفاظ

يرثي محمد بن حميد، وأخاه قحطبة:

هيْهاتَ! لا يأتي الزمانُ بمثلِهِ، إنَّ الزمانَ بمثلِهِ لَبَخيلُ
يا ليتَ شِعري بِالمكارِمِ كلِّها، ماذا، وقد فقَدَتْ نداكَ، تقولُ؟
يا يومَ قحطبةٍ لقد أبقيْتَ لي حُرَقاً، أَرَى أيامَها ستَطولُ
لما رأى جمعاً قليلاً في الوَغى؛ وأُولو الحِفَاظِ مِنَ القَليلِ قَليلُ..

رأى أصحابه في الحرب قلة، وأولو الحفاظ (الذين يحفظون الشرف) قليل من القليل

لاقَى الكريهَةَ، وهْوَ مُغْمِدُ رَوْعِهِ فيها، ولكنْ سَيْفُهُ مسلولُ

لاقى الحرب وقد أغمد (خبأ) روعه (خوفه)، ولكنه استل سيفه

ومشَى إلى الموتِ الزُّؤَامِ، كأنَّما هُوَ، في محبَّتِهِ إليهِ، خليلُ

الموت الزؤام: السريع

٣٣ عبث

يرثي بعض بني حميد في مرثية أبي الفضل الحميدي:

لو يعلمُ الناسُ عِلمِي بالزمانِ، وما عاثَتْ يَداه؛ لما ربَّوْا ولا وَلَدُوا

٣٤ الموت ولا المذلة

يرثي جعفراً الطائي:

رحِمَ اللّهُ جَعْفَراً، فلقدْ كا نَ أَبِيّاً، شَهْمَاً، وكانَ رحيما
مَثَّلَ الموتَ بين عينيْهِ، والذُّلَّ ـ ، فَكُلّاً رآهُ خَطْباً عظيما
ثم سَارَتْ بِهِ الحَمِيَّةُ قُدْماً فَأَمَاتَ العِدَى، وماتَ كريما

٣٥ كذا فليجل الخطب

يرثي محمد بن حميد الطوسي الطائي الذي قتل في خلافة المأمون وهو يحارب الخُرَّمية:

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ، ولْيَفْدَحِ الأمرُ فليسَ لِعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

هكذا فلتكن المناحات، وليكن الأمر جليلاً وفادحاً، ولا عذر لعين لم تبك على الميت

تُـوُفِّـيَـتِ الآمـالُ بـعـدَ مـحـمَّـدٍ،   وأصبحَ في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

ماتت آمال الناس بعد محمد بن حميد، وانشغل السفْر (المسافرون) عن بدء سفرهم أو إكماله

ومـا كـانَ إلَّا مـالَ مَـنْ قَـلَّ مـالُـهُ،   وذُخْراً لـمن أَمْسَى وليس له ذُخْرُ

كان محمد مالاً للفقير، وذخراً (كنزاً مذخوراً) لمن ليس له كنز

وما كان يَدري مُجْتَدي جُودِ كَفِّه   إذا ما اسْتَهَلَّتْ أنَّه خُلِقَ العُسْرُ

المجتدي (المستجدي) من كف محمد إذا ما استهلت (أمطرت) بالمال كان ينسى أن في الدنيا عسراً (فقراً)

ألا في سبيلِ اللَّهِ من عُطِّلَتْ له   فِجاجُ سبيلِ اللَّهِ، وانثَغَرَ الثَّغْرُ

مات في سبيل الله هذا الذي تعطلت بموته الفجاج (الطرق الجبلية) المؤدية إلى الجهاد، وانثغر الثغر (اختلت الحدود مع الأعداء)

فتىً كلَّما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ   دماً، ضَحِكتْ عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ

تبكيه القبائل دماً، ولكن سُمعته ضاحكة

فتىً دهرُهُ شَطرانِ فيما يَنُوبُه: ففي بأسِه شَطْرٌ، وفي جُودِه شَطْرُ

فتى كان دهره مقسوماً شطرين (نصفين) نصف للبأس (الشجاعة والقسوة) ونصف للسخاء

فتىً ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ ميتَةً   تقومُ مَقامَ النصرِ، إذْ فاتَهُ النَّصْرُ

وما ماتَ حتى ماتَ مَضْرِبُ سيفِه   من الضَّربِ، واعتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

ما مات حتى تثلم سيفه من الضرب،
واعتلت (مرضت وتلفت) القنا (الرماح) السمر

وقد كانَ فَوْتُ الموتِ سهلاً، فَرَدَّهُ   إليه الحِفَاظُ المرُّ، والخُلُقُ الوَعْرُ

كان فوت (تجنب) الموت سهلاً، ولكن الحفاظ (حفظ الشرف) المرّ ردَّه إلى الموت ومنعه من الفرار، وكذا خلقه الوعر (الشديد)

ونَفْسٌ تَعافُ العارَ، حتَّى كأنَّه   هُوَ الكفرُ يومَ الرَّوْعِ، أو دونَه الكُفْرُ

ومما ردَّه إلى الموت أيضا في يوم الروع (يوم المعركة)
نفس تعاف العار فكأنه الكفر

فأَثْبَتَ في مستنقعِ الموتِ رِجْلَه   وقالَ لها: مِنْ تحتِ أَخْمَصِكِ الحَشْرُ

عرف أن الموقف موقف النهاية فثبَّت رِجْله في هذا المستنقع وقال لها تحت أخمصك يوم الحشر، أي أنه وعد نفسه بالجنة

غدا غُدْوَةً والحَمْدُ نَسْجُ رِدائِه، فلم يَنْصَرِفْ إلَّا وأكفانُه الأجْرُ

غدا غدوة (صباحاً) وهو يرتدي رداء من الحمد (الشعور بالكرامة)، وما انصرف عن موقفه ذاك إلا وهو مكفن ليس بثوب بل بأجر وثواب لأنه شهيد

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً، فما أَتَى لها اللَّيلُ، إلَّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لبس كفناً أحمر من دمه، وما جاء الليل إلا والكفن من سندس (حرير) أخضر، لباس أهل الجنة

كأنَّ بَني نَبْهانَ يومَ وَفاتِه نجومُ سَماءٍ خَرَّ مِنْ بينِها البَدْرُ

كأن قومه نجوم فقدت قمرها

يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ تُعَزَّى بِه العُلَى، ويَبْكِي عليه الجُودُ والبأسُ والشِّعْرُ

يعزيهم الناس عن ثاو (مقيم بلا حراك)، والعلى (الأمجاد) أيضاً تُعزَّى به لأنها فقدته

وأنَّى لهمْ صبرٌ عليه، وقد مضى إلى الموتِ، حتَّى استُشْهِدا هُوَ والصَّبْرُ!

كيف لهم أن يصبروا عليه وقد كان مثالاً للصبر، فلما استشهد مات الصبر نفسه معه

فتىً كانَ عَذْبَ الرُّوحِ لا مِنْ غَضاضَةٍ، ولكنَّ كِبْراً أنْ يُقالَ: به كِبْرُ!

كان أنيساً ولكن ليس من غضاضة (ذل)؛
ومن الكِبْر (الإثم) القول إنَّ به كِبْراً (تكبراً)

أَمِنْ بعدِ طَيِّ الحادثاتِ محمَّداً يكونُ لأثوابِ النَّدى أبداً نَشْرُ؟

إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أصولُها ففي أيِّ فَرْعٍ يوجَدُ الوَرَقُ النَّضْرُ؟

إذا جذت (قطعت) شجرات العرف (المعروف) من أصولها (جذورها)،
فكيف يكون على الفروع ورق؟

لئنْ أُبغِضَ الدَّهرُ الخَؤونُ لِفَقدِه لَعَهدِي به مِمَّنْ يُحَبُّ له الدَّهْرُ

لئن أُلْبِسَتْ فيه المصيبةَ طيِّءٌ لَمَا عَرِيَتْ منها تميمٌ ولا بَكْرُ

كذلكَ ما نَنْفَكُّ نفقِدُ هالِكاً يشارِكُنا في فقْدِه البَدْوُ والحَضْرُ

مضىَ طاهرَ الأثوابِ؛ لم تَبْقَ روضَةٌ، غَداةَ ثَوى، إلا اشتهَتْ أنَّها قبرُ

طاهر الأثواب: عفيف، ثوى: همد

عليكَ سلامُ اللَّهِ وقَفاً، فإنَّني رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ

وقفاً (مخصصاً بك)

٣٦ حوار مع ميت

يرثي محمد بن حميد:

مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ أَخْلَقَتْ رِمَمُهْ   أُرِيقَ ماءُ المعالي مُذْ أُرِيقَ دَمُهْ

أخلقت: اهترأت، رممه: بقايا جثته

رأَيْتُهُ بِنِجادِ السيفِ مُحْتَبِيَاً،   كالبدرِ حينَ انْجَلَتْ عن وجهِهِ ظُلَمُهْ

رأيته جالساً يسند ظهره بحمائل السيف، فكأنه البدر وقد انجلى عن وجهه الغمام، والاحتباء أن تضع مقعدتك على الأرض وتجمع ظهرك إلى ركبتيك بشال أو نحوه

في روضةٍ قد عَلا حافَاتِها زَهَرٌ،   عَلِمْتُ عندَ انْتِبَاهِي أنها نِعَمُهْ

رأيته (أبو تمام يتخيل أنه رآه) في روضة يحفها الزهر، ولكنني عندما انتبهت (صحوت من نومي) فسَّرتُ الزهر بأنه معروفه الذي أنعم به على الناس

فقلتُ، والدَّمْعُ، مِنْ حُزْنٍ ومِنْ فَرَحٍ،   يجرِي، وقد مَلأَ الخَدَّيْنِ مُنْسَجِمُهْ:

منسجمه: سائله

ألم تَمُتْ يا شَقِيقَ النَّفْسِ مُذْ زَمَنٍ؟   فَقَالَ لِي: لمْ يَمُتْ مَنْ لمْ يَمُتْ كَرَمُهْ

٣٧ مزاحفة الأيام

يمدح نوح بن عمرو السكسكي من كندة:

يومَ الفراقِ! لقد خُلِقْتَ طويلا   لم تُبقِ لِي جَلَداً ولا مَعْقُولا

يا يوم الفراق لم تبق لي جلداً (صبراً)، ولا معقولاً (عقلاً)

قالوا: الرَّحِيلَ، فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّها   نَفسِي عن الدنيا تريدُ رَحيلا

الرحيلَ: قرأها كَمْ شئت من الطبعات ومن الكتب بالضمة،
وقرأتُها بالفتحة على تقدير «نريد»، إغراءً

أَتَظُنُّنِي أَجِدُ السَّبِيلَ إلى العَزَا؛   وَجَدَ الحِمَامُ إذن إلَيَّ سبيلا!

أتظنني أجد طريقة للعزاء (النسيان)؟ فليجد الحمام (الموت) إذن طريقه إليَّ لو فعلت

رَدُّ الجَمُوحِ الصَّعْبِ أَسْهَلُ مَطْلَباً   مِنْ رَدِّ دَمْعٍ قد أَصابَ مَسِيلا

إن ردَّ الجموح الصعب (الحصان الهائج) إلى هدوئه، أسهل من رد (منع) دمع قد أصاب (وجد) مسيلاً (طريقاً)

إنِي تَأَمَّلْتُ النَّوَى، فوجَدْتُها   سيْفاً عليَّ، مَعَ الهَوى، مَسلُولا

لا تَأْخُذيني بالزَّمانِ، فليسَ لي   تَبَعاً، ولستُ على الزمانِ كفيلا

لا تأخذيني بالزمان (لا تعاتبيني بذنب الزمان) فالزمان ليس تابعاً لإرادتي، ولست كفيلاً بتغيير صروفه

مَنْ زَاحَفَ الأيامَ، ثُمَّ عَبَا لَهَا   غيرَ القناعَةِ، لم يَزَلْ مَفْلُولا

من زاحف الأيام (من حارب أحداث الأيام زاحفاً بجيشه عليها) ثم عبا لها (جهز لها) سلاحاً سوى القناعة لم يزل (ظل) مفلولاً (مهزوماً)

مَنْ كانَ مَرعى عزمِه وهمومِه   روضُ الأماني، لم يَزَلْ مَهزولا

من كان روضُ الأماني (أحلام اليقظة) المرعى الذي ترتاده همومه (طموحاته) سيظل مهزولاً في مثل ذلك المرعى

لو جازَ سلطانُ القُنُوعِ وحُكْمُهُ   في الخلقِ، ما كانَ القليلُ قليلا

لو جاز (نفذ) سلطان القنوع (قوة القناعة) في البشر لما وجدوا المال القليل قليلاً

الرزقُ: لا تَكْمَدْ عليهِ، فإنَّهُ   يأتي، ولم تَبعثْ إليه رسولا

تكمد: تحزن

لا تَدْعُوَنْ نُوحَ بنَ عَمْروٍ دعوةً   لِلخَطْبِ، إلَّا أنْ يكونَ جَليلا

لا تستنجد بنوح بن عمرو في الخطوب (المشكلات) الصغيرة بل في الكبيرة. (جاء رجل إلى سيد من سادات العرب وقال له: أريد منك خدمة صغيرة، فأجابه: اذهب والتمس لها رجلاً صغيراً. ومن أدب الإنجليزي أنه يقصدك في معاملة يومية بسيطة فيبدأُك بالقول: هل لك أن تسدي إليَّ معروفاً كبيراً؟ ثم يطلب تأجيل الاجتماع ربع ساعة، مثلاً)

لو أنَّ طُولَ قَناتِهِ يَومَ الوَغَى   مِيلٌ، إذنْ نَظَمَ الفَوارِسَ مِيلا

يقول: لو كان طول رمحه ميلاً لشكَّ في الرمح أجسام الفرسان، مثلما تشكُّ قطع اللحم في سيخ الشيّ، ميلاً كاملاً. الميل: قياس روماني من ألف خطوة، وجعله قدماء العرب ثلث فرسخ، نحو ثلاثة كيلومترات؛ وفيه أقوال أخرى. البيت غير موجود عند التبريزي والصولي والحاوي، وأورده محيي الدين الخياط؛ وتنسبه بعض المصادر لبكر بن النطاح، وخلو النسخ الموثوقة منه يعزز هذه النسبة

٣٨ ولا عذرٌ لطائيٍّ لئيمِ

يمدح بعض بني عبد الكريم الطائيين:

ومِمَّا ضَرَّمَ البُرَحَاءَ: أنِّي   شَكَوْتُ، فما شَكَوْتُ إلى رَحيمِ

ضرم (أشعل)، البرحاء (الشِّدَّة)

ولَــيــلٍ بِــتُّ أَكْــلَــؤُهُ، كَــأنِّــي سَلِيمٌ، أو سَهِرْتُ علــى سَلِيمِ

رب ليل بت أكلؤه (أرقبه) كأني سليم (ملدوغ)، أو ساهر على شخص ملدوغ. وكانوا يسهرون على من لدغته أفعى حتى لا ينام فيسرع سريان السم فيه

فأُقسِمُ: لـو سألـتِ دُجَاهُ عنِّي لـقـد أنْـبَـاكِ عـن وَجْـدٍ عـظـيـمِ

دجاه (ظلامه)، أنباك (أخبرك)

أَنَـخْنَـا فـي ديـارِ بـنـي حـبـيـبٍ بَناتِ السَّيْرِ، تحتَ بني العَزِيمِ

بنات السير (الإبل)، بنو العزيم (نحن، ذوو العزيمة القوية)

لِــكُــلٍّ مِــنْ بَــنــي حَــوَّاءَ عُــذْرٌ، ولا عُــذْرٌ لِــطَــائِــيٍّ لَــئـيــمِ
أَحَقُّ الـنـاسِ بِـالـكَـرَمِ امْـرُؤٌ لـم يَــزَلْ يَــأْوِي إلــى أَصْـلٍ كَـرِيـمِ

٣٩ من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقال في أبي الحسن علي بن مر:

قـومٌ إذا هَـطَـلَـتْ جُـوداً أَكُـفُّـهُـمُ عَلِمْتَ أنَّ النَّدَى، مُذْ كانَ، في اليَمَنِ
كم وَقْعَةٍ لكَ، ما يَنْفَكُّ يَذْكُرُها خَليفَةُ اللَّهِ، في سِرٍّ وفي عَلَنِ

وقعة: معركة

لم يبقَ مِنْ شَجَرِ البَغْيِ، التي غُرِسَتْ بِجَانِبِ الشَّامِ، مِنْ جِذْمٍ ولا فَنَنِ

جذم: جذر، فنن: غصن

وكُـلُّ شَـيْءٍ لـه شَـيْءٌ يَـكُـونُ بـه فَسَادُهُ؛ وفَسَادُ الكلبِ في السِّمَنِ

أي أن العصاة أكلوا من مال الدولة وسمنوا فكان في ذلك فسادهم

لِي حُرْمَةٌ بِكَ، فاحفَظْها، وجَازِ بِهَا يا حَافِظَ العهدِ، والعُوَّادِ بِالمنَنِ

المنن: المعروف العواد: الزائرون

أَوْلَـى الـبَـرِيَّـةِ حـقّـاً أنْ تُـرَاعِـيَـهُ، عندَ السُّرُورِ، الذي آسَاكَ في الحَزَنِ

آساك: واساك

إنَّ الـكـرامَ إذا مـا أَسْـهَـلُـوا ذَكَـرُوا مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ في المنزلِ الخَشِنِ

أسهلوا: تحسنت أحوالهم

٤٠ الكبيرة للكبير

وقال في مرض إلياس بن أسد:

اللَّهُ عافاكَ مِنْها عِلَّةً عَرَضاً لم تَنْحُ أظْفارُها إلّا عَلى الكَرَمِ

عافاك الله من مرض عارض لم تنح (تتجه) أظفاره إلا إلى الكرم المتمثل فيك

إنَّ الرِّياحَ إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عِيدانَ نَجْدٍ، ولم يَعْبَأْنَ بِالرَّتَمِ

العيدان: النخلات، الرتم: نبات دقيق الساق

قد يُنْعِمُ اللَّهُ بِالبَلْوى، وإنْ عَظُمَتْ، ويبْتَلي اللَّهُ بعضَ القومِ بِالنِّعَمِ

٤١ عندما يفكر الدهر

وقال يمدح أبا المستهل محمد بن شقيق الطائي:

تَحَمَّلَ عنهُ الصَّبْرُ يومَ تَحَمَّلُوا وعَادَتْ صَباهُ في الصِّبَا وَهْيَ شَمْأَلُ

تحمَّل: حمل متاعه على الجمال متأهباً للرحيل، الصبا: ريح طيبة، الشمأل: ريح تشتت السحاب، وهي مذمومة. يقول: رحل صبْرُ العاشق يوم رحيل الأحباب، وأصبحت رياح الشباب المنعشة رياحاً ذميمة

بِيَوْمٍ كَطُولِ الدهرِ في عَرْضِ مِثْلِهِ وَوَجْدِيَ، مِنْ هذا وهَذَاكَ، أطولُ

كان يوم الرحيل طويلاً عريضاً، وكان وجدي (حزني) أكبر من طوله ومن عرضه

تَحَمَّلْتُ ما لو حُمِّلَ الدهرُ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ دَهْراً: أيُّ عِبْأَيْهِ أثقَلُ

تحملت من الأسى ما لو حمل الدهر شطره (نصفه) لقضى دهراً يفكر أي العِبأين (الحملين) أثقل: عبء كونه دهراً، أم العبء الجديد. لمن يقرأون الشروح المختلفة ويحققون، ويهمهم التنقير: شرح هذا البيت المرزوقي، وسرق شرحه التبريزي، وسرقه الحاوي، وسرقه صبحي، وشرحه شرف الدين المستوفي، وعلق على البيت بكلام كثير الآمدي ولم يشرح العبأين. وجاءت حاشية غفل في نسخة من النسخ، وفيها شرح يوافق ما ذكرناه (أوردها محقق شرح الصولي خلف رشيد نعمان في الهامش). وأما الشرح الذي تهافت عليه القوم ففطير. لنفترض أن «مبدعه» سها، ألا وقفة ثوان معدودات قبل السطو؟ جاء في الشرح الفطير: (الدهر وقف حائراً أمام النصفين لكي يختار أخفهما). فهل يقوم هذا بقوله «عِبأيْه»؟ ثم إن الدهر فكَّرَ «بعد» أن حمل النصف، وليس «قبل». ورأينا الشنتمري قد فهم البيت كما فهمناه فاطمأن القلب. والله أعلم

لِيَهْنِ امْرَأً أَثْنَى عليكَ بأنَّهُ يقولُ، وإنْ أَرْبَى، فلا يَتَقَوَّلُ

هنيئاً لمن يثني عليك، فمهما قال حتى لو أربى (زاد في المدح)
فهو لا يتقول (لا يفتري)

ولا شَكَّ أنَّ الخيرَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ، ولكنَّ خيرَ الخيرِ عنديَ المعجَّلُ

٤٢ الأفاعيل

وينسب إلى أبي تمام القول:

ودهرٌ أَسَاءَ الصُّنْعَ، حتى كأنما يُقَضِّي نُذُورَاً في مَسَاءَتِيَ الدَّهرُ

كأن الزمن يفي بنذر نذَره على نفسه وهو أن يسيء إليّ

فَعلْتُمْ بِأبناءِ النبيِّ ورَهْطِهِ أَفَاعِيلَ، أدناها الخيانةُ والغدرُ

ومِنْ قبْلِهِ أخْلَفْتُمُ لِوَصِيِّهِ بِدَاهِيَةٍ دَهْيَاءَ ليس لها قَدْرُ

وصي النبي: علي بن أبي طالب

وشُدَّ به أَزْرُ النبيِّ محمَّدٍ، كما شُدَّ مِنْ مُوسى بِهَارُونِهِ الأَزْرُ

٤٣ الليث يفترس الكلب

يهجو مَقران المباركي:

رجَا أنْ يُنَجِّيهِ خَساسَةُ قَدْرِهِ ولم يَدْرِ أنَّ الليثَ يفترسُ الكَلْبَا

رجا هذا الرجل أن ينجيه شيء هو خساسة قدره، ولكنني مبتعد للنزول إلى مستواه،
فالأسد يفترس الكلب

٤٤ حزناً على السيدة الحنون

يهجو مَقران المباركي:

إمراةُ مَقْرانَ مَاتَتْ بعدَمَا شابا فَحَسَّتِ السَّلَعَ الفِتْيَانَ، والصَّابَا

بموتها حسَّت (شرَّبت) الفتيان السلع (شجر ثمره مُرّ)
والصاب (نبات عصارته بيضاء مُرَّة)

لم يبقَ خَلْقٌ ببابِ الشامِ نعرِفُهُ بالفَتْكِ، مُذْ هَلَكَتْ، إلّا وقد تابا

الفتك (التجرؤ على المحارم)

يا نَكبَةً هَشَمَتْ أَنْفَ السُّرورِ بِها، ومِيتَةً أَبْقَتِ العُزَّابَ عُزَّابا

النكبة بها (بموتها) هشمت أنف سرور أولئك العزاب، فقد ظلوا عزَّاباً بعد موتها. هذا فن من الشعر حذق فيه أبو تمام، وعلمه تلميذه البحتري. أنشد أبو تمام تلميذه البحتري أبياتاً يصف فيها الفرس، ويصف حوافره الصلبة، وختم بالقول: «أيْقَنْتَ، إنْ لم تَثَبَّتْ، أنَّ حافِرَهُ/مِنْ صَخْرِ تَدْمُرَ أو مِنْ وجهِ عُثمانِ». ثم قال له: ما هذا الشعر؟ فقال البحتري: لا أدري. قال أبو تمام: هذا الاستطراد. فالشاعر يوهمنا بأنه يصف الفرس ثم يختم القطعة بالقول إن حافر الفرس في صلابته يشبه وجه عثمان. وصلابة الوجه تعني: الوقاحة. و«الاستطراد» في الشعر غيره في النثر. ففي النثر هو الخروج من موضوع إلى موضوع. أما في الشعر فهو ما مر بك. ويكون أقوى ما يكون إذا خرج الشاعر إلى الهجاء. فهنا يكون أشبه شيء بالنكتة. (انظر القطع: ٤٥، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد)

٤٥ فيما يقال..

يهجو مَقران المباركي:

يا زوجةَ المسْكينِ مَقْرانَ التي عَظُمَتْ على المُتَظَرِّفِينَ وفَاتُها

المتظرفين، بالظاء المعجمة، قراءتي. وما بيدي من طبعات راوح بين متطرقين ومتطرفين.
فإذا أنكرت أن يفعل المتظرف ما يرميه به أبو تمام فاسمع أبا نواس يضرب المثل بـ «تيه مغن وظرف زنديق»

خَلَتِ القُبورُ بِظَبْيَةٍ، عَهْدي بها، فيما يُقالُ، لذيذَةٌ خَلَواتُها
تَرَكَتْ على المسْكينِ عِدَّةَ صِبْيَةٍ مِثْلَ الفِراخِ، تُخُرِّمَتْ أُمَّاتُها

تخرمت (ماتت) أماتها (أمهاتها/تستعمل لغير العاقل)

لو كانَ أَحْصَنَ بابَه، أو دَارَهُ، قَلَّتْ بَنُوهَا عندَهُ، وبَنَاتُها

هذا أسلوب الاستطراد في الشعر، (انظر القطع: ٤٤، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٤٦ يا ذا القرنين

يهجو محمد بن يزيد الأموي الشاعر:

يا ابْنَ تلكَ التي بِحَرَّانَ، لَمَّا نَبَتَتْ، أَنْبَتَتْ غُصُونَ السِّفَاحِ

أي أن السفاح (الزنا) ولد معها

لا تَهُولَنَّكَ الكِبَاشُ، فقد أُعْـ ـطِيتَ ما شِئْتَ مِنْ أَدَاةِ النِّطَاحِ

أي أنك ذو قرنين مثل الكبش. والقرنان رمز للرجل المخدوع عن حريمه، أو الديوث. (انظر القطع: ٤٤، و٤٥، والبيت الأول من ٤٨، والقطعة ٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٤٧ أشْرجْتَ وأنْحفْتَ

يهجو محمد بن يزيد:

أَشْرَجْتَ قَلبَكَ مِنْ بُغْضي على حُرَقٍ أَضَرَّ مِنْ حُرُقَاتِ الهَجْرِ في الجَسَدِ

أشرجت: خيَّطت، أي أنك كتمت في قلبك الغيظ الشديد مني

أَنْحفْتَ جِسْمَكَ، حتى لو هَمَمْتُ بِأَنْ أَلْهُو بِصَفْعِكَ يوماً، لم تَجِدْكَ يَدي

٤٨ العقاب الجماعي للبشرية

يهجو ابن الأعمش:

لو يَقْدِرُ المسْكِينُ، مِمَّا بِهِ، لاسْتَدْخَلَ الفَيْشَةَ بِالعَرْضِ

لو يقدر المهجو، مما به من إدمان على اللواط، لطلب إدخال الفيشة (ذلك الشيء) ليس بالطول ولكن بالعرض.. فتأمل، (انظر القطع: ٤٤، و٤٥،و٤٦، و٥٠، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذا البيت)

لِتَعْلَمَنْ أنَّ الرَّدَى كُلَّهُ حَتْمٌ على الرَّاتِعِ في عِرضي

قد بلغه علمٌ بذلك في البيت السابق

كَوْنُكَ في صُلْبِ أَبِينَا الذي أَهْبَطَنا جَمْعاً إلى الأرضِ

كونك موجوداً في صلب أبينا (أي: في صلب آدم، وسينجبك أحد أحفاده) هو الذي جعلنا نهبط من الجنة. النسخة الموسومة بالحرف «ر» تريد أن تزيدنا علماً: فالرجل الذي كان في الجنة هو آدم، فوضعت كلمة «آدم» مكان كلمة «الذي» في البيت، وليذهب علم العروض إلى الجحيم؛ وقد اعتمدها عزام بدون إشارة هامشية، واعتمدها بعده الدكاترة الناسخون، رغم إشارة بعضهم في الهامش إلى الرواية التي أوردناها هنا (وهي رواية الصولي) والتي بها يقوم البيت معنىً ومبنىً. وعلى ذكر العروض يحسن بأحد الدكاترة أن يراجع الكامل المرفل، وِيعلم أنه لا يكون إلا مجزوءاً؛ فأما ما وسمه بالكامل المرفل فهو تام لكنه أحذ في ضربه وعروضه، وقد يكون مضمراً في الضرب أو لا يكون، هذا في موضع آخر فأما هذه القطعة فهي من السريع

٤٩ أيها الدميم

قال في ابن الأعمش:

كُحِلْتُ بِقُبْحِ صورَتِهِ، فَأَضْحَى لَهَا إِنْسَانُ عَيْنِي في السِّيَاقِ
اكتحلت عيني بصورته القبيحة فأضحى إنسان عيني (بؤبؤها) في السياق (في النزع الأخير)

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَواني لَمَا جُهِّزْنَ إِلَّا بِالطَّلاقِ
مساو (مساوئ)

قَبُحْتَ، وزِدْتَ فوقَ القُبْحِ، حتَّى كأنَّكَ قد خُلِقْتَ مِنَ الفِرَاقِ

٥٠ رحمها الله

يهجو معدان:

لا تَرْكَنَنَّ إلى الدنيا وزُخْرُفِها فإنَّ أوطانَها ليستْ بأوْطَانِ
وامْهَدْ لِنفسِكَ مِنْ قبلِ المماتِ، ولا يَغْرُرْكَ كَثْرَةُ أصحابٍ وإخوانِ
لو أَنَّهُمْ نَفَعُوا خَلقاً لِحُرْمَتِهِ لَدَافَعُوا الموتَ عنْ إمراةِ مَعْدَانِ

الخلاصة: زوجة معدان كانت كثيرة الأصحاب والإخوان، رحمها الله. (انظر القطع: ٤٥، و٤٦، والبيت الأول من ٤٨، ففيها كلها أسلوب الاستطراد الذي تراه في هذه القطعة)

٥١ واجاريتاه

يرثي جاريةً له:

أَلم تَرَني خَلَّيْتُ نفسي وشَانَهَا ولم أَحْفِلِ الدنيا، ولا حَدَثَانَها
حدثانها: مصائبها

لقد خَوَّفَتْني النَّائبَاتِ صُروفُها، ولو أَمَّنَتْني ما قَبِلْتُ أمانَها
وكيفَ على نارِ اللَّيالي مُعَرَّسي! إذا كانَ شَيْبُ العَارِضَيْنِ دُخَانَها
كيف يكون على نار الليالي (عذاب الزمن) معرسي (نزولي وإقامتي)، وشيب العارضين (السالفين) بكل قسوته هو مجرد دخان تلك النار. ولك أن تتخيل الشيب في أوائله رمادياً كالدخان في لونه

أُصِبْتُ بِخَوْدٍ، سوفَ أَغْبُرُ بعدَها حَليفَ أَسىً، أَبْكِي زماناً زمانَها
خود: فتاة ناعمة، أغبر: أصبح، حليفَ أسى: ملازماً للحزن

يقولونَ: هل يبكي الفتَى لِخَرِيدَةٍ متى ما أَرادَ اعْتَاضَ عَشْراً مَكانَها؟
خريدة: لؤلؤة

وهل يَسْتَعِيضُ المرْءُ مِنْ خَمْسِ كَفِّهِ؟ ولو صَاغَ مِنْ حُرِّ اللُّجَيْنِ بَنانَها

خمس كفه: أصابعه الخمس، حر اللجين: الفضة الخالصة

٥٢ كان الذي خفت أن يكونا

يرثي ابناً له (وفي نسبة القصيدة شك):

كانَ الذي خِفْتُ أن يَكونا إنَّا إلى اللَّهِ راجِعُونا

حينَ انتَهى، واسْتَوى شباباً وحَقَّقَ الرَّأْيَ والظُّنونا

أُصِبْتُ فيهِ، وكانَ عِندي على المصيبَاتِ أنْ يُعينا

كان مفروضاً أن يعينني على المصائب، لا أن يكون موته أحدها

كنتُ عزيزاً به كثيراً، وكنتُ صَبَّاً بهِ ضَنينا

كنت به عزيزاً، وكنت به كثيراً، أي صاحب عزوة وكثير الأنصار

دَافَعْتُ، إلَّا المَنُونَ، عنهُ؛ والمرءُ لا يَدْفَعُ المَنُونا

يَشْخَصُ، طَوْراً بِنَاظِرَيْهِ، وتَارَةً يُطْبِقُ الجُفُونا

ثم قَضَى نَحْبَهُ، فَأَمْسَى في جَدَثٍ للثَّرى دَفِينا

بُنَيَّ يا وَاحِدَ البَنِينا! غَادَرْتَني مُفْرَداً حَزِينا

هَوَّنَ رُزْئي بِكَ الرَّزَايا عليَّ في الناسِ أَجْمَعِينا

بموتك لم أعد أهتم لأية مصيبة أخرى

٥٣ لله ألحاظه والموت يكسرها

للَّهِ أَلحَاظُهُ، والموتُ يَكْسِرُها كأنَّ أجفانَهُ سَكرىَ مِنَ الوَسَنِ

شكوتُ لله عذابي وأنا أرى ألحاظه (نظراته) والموت يكسرها؛
كأن أجفانه بها سُكْرٌ من الوسن (النعاس)

يَرُدُّ أنفَاسَهُ كُرْهاً، وتعطِفُها يَدُ المنِيَّةِ عَطْفَ الريحِ للْغُصُنِ

يا هَوْلَ ما أبصَرَتْ عَيْنِي، وما سمعتْ أُذْني؛ فلا بَقِيَتْ عيني، ولا أُذُني

لم يبقَ مِنْ بَدَني جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ إلَّا وقد حَلَّهُ جُزْءٌ مِنَ الحَزَنِ

٥٤ أصبحت الأرض إذن سماء

يصف المطر:

ألا تَـــرى مَـــا أَصْـــدَقَ الأَنْـــوَاءَ

أصدق: أقوى، الأنواء: الأمطار

قـــد أَفْـــنَـــتِ الـــحَـــجْـــرَةَ والـــلأْوَاءَ

الحجرة: سنة القحط، اللأواء: الشِّدَّة

فَـلَـوْ عَـصَـرْتَ الـصَّـخْـرَ صَـارَ مَـاءَ

مِـنْ لَـيْـلَـةٍ بِـتْـنَـا بِـهَـا، لَـيْـلاءَ

إنْ هِـــيَ عَـــادَتْ لَـــيْـــلَـــةً عَـــدَاءَ

عداء: على التوالي

أَصْـــبَـــحَـــتِ الأَرْضُ إِذَنْ سَـــمَـــاءَ

٥٥ غيمة

وقال يصف غيثاً:

لَـــمَّـــا بَـــدَتْ لِـــلأَرْضِ مِـــنْ قَـــرِيـــبِ

تَـــشَـــوَّفَـــتْ لِـــوَبْـــلِـــهَـــا الـــسَّـــكُـــوبِ

تشوفت الأرض (تطلَّعت) لوبلها (مطرها) السكوب (المدرار)

تَـــشَـــوُّفَ الـــمَـــرِيـــضِ لـــلـــطَّـــبِـــيـــبِ

وطَـــرَبَ الـــمُـــحِـــبِّ لِـــلْـــحَـــبِـــيـــبِ

وفَـــرْحَـــةَ الأديـــبِ بـــالأديـــبِ

وخَـــيَّـــمَـــتْ صَـــادِقَـــةَ الـــشُّـــؤْبُـــوبِ

صادقة: قوية، الشؤبوب: الزخ والتدفق

فَـقَـامَ فـيـهـا الـرعـدُ كـالـخـطـيـبِ

وحَـنَّـتِ الـريـحُ حـنـيـنَ الـنِّـيـبِ

حنين النيب: أنين النياق

كـأنَّـمـا تَـهْـمِـي عـلـى الـقُـلُـوبِ

كأن هذه الغيمة تهمي (تمطر) على القلوب لشدة فرحنا بهطولها

٥٦ اليأس من الناس

اِصـبِـرِي أَيَّـتُـهَـا الـنَّـفْــ ـسُ، فـإنَّ الـصَّـبْـرَ أَحْـجَـى

أحجى: أوْلى

نَـهْـنِـهِـي الـحُـزْنَ، فـإنَّ الـ ـحُـزْنَ، إنْ لـم يُـنْـهَ، لَـجَّـا

نهنهي: خففي عنك، إن لم ينه: إن لم يُمْنَعْ، لجَّ: ألحَّ

والـبَـسِـي الـيـأسَ مِـنَ الـنَّـا سِ، فـإنَّ الـيـأسَ مَـلْـجَـا

ملجا: ملجأ

٥٧ برق ومطر

يصف المطر:

يـا سَـهْـمُ! لِـلْـبَـرْقِ الـذي اسْـتَـطَـارا

يا سهم (اسم أخي أبي تمام) عجباً للبرق الذي يتطاير. وذكر أبو تمام أخاه سهماً في شعره أربع مرات فيما أحصينا

بـاتَ، عـلـى رَغْـمِ الـدُّجَـى، نَـهَـارا

حـتـى إذا مـا أَنْـجَـدَ الأَمْـصَـارا

وَبْـلاً جَـهَـاراً، ونَـدَىً سِـرَارَا

يمطر الأرض بالوابل علانية، وبالندى سراً

آضَ لـنـا مَـاءً، وكـانَ نـارا

هذا البرق آض (صار) لنا ماء وكان ناراً

أرضَـى الـثَّـرَى، وأَسْـخَـطَ الـغُـبَـارا

أرضى المطر التراب، وأسخط الغبار لأنه أهبطه وأنهى وجوده

٥٨ أقرَضَني ثم اقتضى

أَسْـخَـطَـنـي دَهْـرِيَ بـعـدَ الـرِّضَـا وارْتَـجَـعَ الـعُـرْفَ الـذي قـد مَـضَـى

لـم يَـظْـلِـمِ الـدهـرُ، ولـكـنَّـهُ أَقْـرَضَـنـيَ الإحـسـانَ، ثـم اقْـتَـضَـى

اقتضى: طلبَ ردَّ الدين

٥٩ هده الغرام

أَعْطَاكَ دَمْعُكَ جَهْدَهُ فَشَكَا فؤادُكَ وَجْدَهُ
حَمَّلْتَ جِسْمَكَ في الهَوى ما لم يُطِقْهُ، فَهَدَّهُ
يا شَامِتاً بِيَ إذْ رَأَى هَجْرَ الحبيبِ وصَدَّهُ
لا تَشْمَتَنَّ، فإنَّهُ مَوْلىً يُؤَدِّبُ عَبْدَهُ

مولى: سيد

٦٠ نزهة اليد

لا شَيْءَ أَحسنَ منهُ لَيْلَةَ وَصْلِنا وقد اتَّخَذْتُ مِخَدَّةً مِنْ خَدِّهِ
وفَمي على فمِهِ، يُسَامِرُ ريقَهُ، ويَدي تَنَزَّهُ في حَدائِقِ جِلْدِهِ

٦١ كأنها من خده تعصر

وقَهْوَةٍ كَوكَبُها يَزْهَرُ يَسْطَعُ منها المِسْكُ والعَنبرُ

قهوة: خمرة، يزهر: يلمع، يسطع: يفوح

ورْدِيَّةٍ يَحْتَثُّها شَادِنٌ كَأنَّها مِنْ خَدِّهِ تُعْصَرُ

يحتثها: يسرع بها، شادن: ولد الظبية. احتثاث الخمر شيء رأيناه عند أبي نواس الذي قال: إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم/يحثونها حتى تفوتهم سكرا//وقال: قالوا شمطت فقلت ما شمطت يدي/عن أن تحث إلى فمي بالكاس//. ولم أجد في اللسان ولا في التاج ولا في القاموس ولا في الصحاح، ولا في تنبيه ابن بري عليه، شيئاً في مادة «حث» يتعلق بالخمر. ولكن دوزي التقط فعل «حث» وقال فيه: «وحين يكون الشارب أو الكأس مفعول حث فإن معناه يكون أعجله إعجالاً متصلاً بحيث إن الكؤوس تتابَعُ مسرعة»، ثم يقول ناقلاً: «بدأت القيْنة تغني فصار من الغريب أن حثَّ شربه هو عليه وأظهر الطرب» وينقل: «ممن دينه حث الكأس». اهـ رينهارت دوزي. ولعلنا بعد هذا نقول إن الحث هو الموالاة في الشراب، فالساكر يشعر بدبيب الخمر، فيطلب المزيد سعياً لاستتمام النشوة، فهذا هو الحث. وأما عندما تغدر به الخمر وتفقده وعيه فباب آخر

٦٢ عذبت قلب الشاعر

أَغْمِدْ عَنِ المُهَجاتِ سَيْفَ النَّاظِرِ فلقد فَتَرْنَ مِنَ اللِّحَاظِ الفَاتِرِ

أغمد سيف الناظر (العين) عن المهجات (القلوب)، فلقد فترت قلوبنا (ضعفت) من اللحاظ (النظر) الفاتر. يقول: أيتها الحسناء أدخلي سيف عينيك في غمده وارحمينا

كيفَ اعْتَدَلْتَ مَعَ اعْتِدَالِ الغُصْنِ في حَرَكَاتِهِ، وفَعَلْتَ فِعْلَ الجَائِرِ

اعتدل قوامك فكان كالغصن ولكن فعلك هو فعل الجائر الظالم (طباق بين العادل والظالم)

يا شاعِراً في طَرْفِهِ وبهائِهِ وجَمالِهِ، عَذَّبْتَ قلبَ الشاعِرِ

٦٣ الوجه والقفا

ونسبت لأبي نواس:

يا أبا جعفرٍ! خُلقتَ بَديعاً فاقَ حُسْنَ الوجوهِ حسنُ قَفاكا

يا أبا جعفرٍ! هلِ النَّأْيُ يُنْجِي مِنكَ؟ هَيهاتَ! بل يَزيدُ هَلاكا

٦٤ محاسنه في وجنتيْك

بَعَثْتُكَ رَائداً، فسرقتَ منه محاسِنَهُ بِلَحْظَةِ ناظِريْكا

بعثتك أيها الرسول رائداً تفتح لي الطريق فسرقت محاسن المحبوب بنظرك إليه

وجئتَ تقولُ: لم أرَهُ، وهَذي محاسِنُه تَلُوحُ بِوَجْنَتَيْكا

وزعمت أنك لم تره، ولكنني أرى محاسنه في وجنتيك

٦٥ ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال:

البَيْنُ جَرَّعَني نَقيعَ الحَنْظَلِ والبينُ أثْكَلَني، وإنْ لم أثْكَلِ

نقيع الحنظل: الماء المر الذي نُقِع فيه الحنظل

ما حَسرتِي أنْ كِدْتُ أقضي، إنَّمَا حَسَراتُ نَفسيَ أنَّني لم أفعلِ

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شئتَ مِنَ الهَوى ما الحُبُّ إلَّا لِلْحَبيبِ الأوَّلِ

كمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتى وحنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنْزِلِ

٦٦ في دعوة الأحلام

إسْتَزارَتْهُ فِكْرتي في المنامِ فَأتاني في خُفْيَةٍ، واكْتِتامِ

استزارته فكرتي (طلبت منه أفكاري وعقلي الزيارة)

يا لها لَذَّةً تَنَزَّهَتِ الأرْ واحُ فيها سِرّاً مِنَ الأجْسامِ

هي متعة تنزهت الأرواح فيها، سراً من (مع التكتيم على) الأجسام

مَجْلِسٌ لم يكنْ لنا فيهِ عَيْبٌ   غيرَ أَنَّا في دَعْوَةِ الأحلامِ

٦٧ تكسير أبصار

أَليسَ عَجِيباً أنَّ بيتاً يَضُمُّني   وإيَّاكَ، لا نَخْلُو ولا نَتَكلَّمُ
إشَارَةُ أفْوَاهٍ، وغَمْزُ حَواجِبٍ   وتَكْسِيرُ أَبْصَارٍ، وطَرْفٌ يُسَلِّمُ

٦٨ زدني ألما

أنتَ في حِلٍّ، فَزِدْني سَقَمَا   أَفْنِ صبري، واجعلِ الدمعَ دَمَا
وارضَ لي الموتَ بِهَجْرِيكَ، فإنْ   لم أَمُتْ شوقاً، فَزِدْني ألما
مِحْنَةُ العاشِقِ في ذُلِّ الهَوى،   وإذا استُودِعَ سِرّاً كَتَمَا
ليسَ مِنَّا مَنْ شَكَا عِلَّتَهُ؛   مَنْ شَكَا ظُلْمَ حَبِيبٍ ظَلَمَا

٦٩ تساكتْنا

لِخَدَّيْهِ دَقَائِقُ لو تَرَاها   إذَنْ لَسَأَلْتَ عنها في المعاني

دقائق: تفاصيل دقيقة، في المعاني: في علم المعاني بما فيه من تعقيدات

تَساكَتْنَا، وقَلْبَانا جميعاً   بِأَلْفَاظِ الهوى يَتَكَلَّمَانِ

تساكتنا: تبادلنا السكوت

٧٠ قتيل العيون

بَلِيَ الجسمُ، لَكِنِ الشَّوْقُ حَيٌّ   ليسَ يَبْلَى، وليسَ تَبْلَى الشُّجُونُ
إن لِلَّهِ في العِبَادِ مَنَايا   سَلَّطَتْها على القلوبِ العيونُ!

٧١ مكانك مصون

لَعَمْري لَئِنْ قَرَّتْ بِقُرْبِكَ أَعْيُنٌ   لقد سَخَنَتْ بِالبَيْنِ منكَ عُيونُ
فَسِرْ أو أَقِمْ، وَقْفٌ عليكَ مَحَبَّتي   مَكَانُكَ مِنْ قَلبِي عليكَ مَصُونُ

٧٢ الأصل في بدني

الحُسْنُ جُزْءٌ مِنْ وَجْهِكَ الحَسَنِ   يَا قمراً مُوفِياً على غُصُنِ

موفياً: مشرفاً ومعتلياً

إنْ كنتَ في الحسنِ واحداً، فأنا، يا واحدَ الحُسْنِ، واحدُ الحَزَنِ
كلُّ سَقَامٍ تَرَاهُ في أَحَدٍ فَذَاكَ فَرْعٌ، والأَصْلُ في بَدَني
كَوامِنُ الحبِّ، قبلَ كونِكَ في أَفْئِدَةِ العاشِقينَ، لم تَكُنِ

٧٣ اقشعرارهن من الشيب

أرى أَلِفَاتٍ قد كُتِبْنَ على رَاسي بِأَقْلامِ شَيْبٍ، في مَهَارِقِ أَنْقَاسِ

أرى أحرف الأَلِف (شعرات بيض) قد كتبن على رأسي في مهارق (أوراق) أنقاس (مسودة بالحبر).
في هذا التشبيه الورقة سوداء والحبر أبيض

فإنْ تَسْأَلِيني: مَنْ يَخُطُّ حُروفَهُ؟ فَأَيْدِي اللَّيَالي، تَسْتَمِدُّ بِأَنْفَاسي

الذي يخط هذه الحروف هو أيدي الليالي (المصائب)
وهي تستمد (تستقي المداد، أي الحبر) من أنفاسي

جَرَتْ في قُلوبِ الغَانياتِ، لِشَيْبَتي، قُشَعْرِيرَةٌ، مِنْ بَعدِ لِينٍ وإِينَاسِ

كانت الفتيات الحسان يأنسن بي والآن تجري قشعريرةُ اشمئزازٍ في قلوبهن مني

٧٤ الفعل لمالك والشهرة للغيوم

يمدح مالك بن طوق التغلبي:

بَنَى بِهِ اللَّهُ، في بَدْوٍ وفي حَضَرٍ، لِوَائِلٍ سُورَ عِزٍّ غيرَ مُنْهَدِمِ
لو كانَ يَأْمُلُ عَمْرٌو مثلَهُ شَبَهاً مِنْ صُلْبِه، لم يَجِدْ لِلْمَوْتِ مِنْ ألم

لو كان عمرو بن كلثوم الفارس الشاعر الجاهلي، يأمل أن يكون في ذريته المقبلة رجلاً يشبهه كمالك بن طوق، لمات مستريحاً بلا ألم

ولا أَرَى دِيمَةً أَمْحَى لِمَسْغَبَةٍ منهُ؛ على أَنَّ ذِكْراً طَارَ لِلْدِّيَمِ

لا غيمةَ أكثر محواً لمسغبة (لجوع) من مالك بن طوق، ولكن..
للأسف استأثرت الديم (الغيوم) بالذكْر (الشهرة)

٧٥ صادق معك، كاذب مع غيرك

يمدح عمر بن طوق التغلبي:

نَفَقَ المديحُ بِبابِه، فكسوتُه عِقداً من الياقوتِ غيرَ مُثَقَّبِ

نفق المديح (راجَ) ببابه (عنده) فكسوته قصيدة كأنها عقد ياقوت لكنها تتميز بأن ياقوتها غير مثقوب
فهي عبارة عن أبيات شعر

غَرُبَتْ خلائِقُه، وأَغْرَبَ شاعرٌ فيهِ، فأحسَنَ مُغْرِبٌ في مُغْرِبِ

خلائقه (صفاته) غريبة بسموها، وشعري غريب بجودته

لما كَرُمْتَ نطقتُ فيكَ بمنطقٍ حقٍّ، فلم آثَمْ ولم أَتَحَوَّبِ

لأنك كريم حقاً فلم أتجاوز الحق في مدحك، لذا ليس عليَّ إثم الكذب ولا حوبه (إثمه أيضاً)

ومتى امتدحْتُ سواكَ كنتُ متى يَضِقْ في وصفِه صِدقُ المَقالةِ أكذِبِ

تعليق عمران القفيني: (هذا البيت هدم معنى سابقه. ما الذي يقنعني أنه لم يكذب في البيت السابق، وقد أقرّ أنه كذاب أشِرٌ ههنا؟ في كل واد يهيمون)

٧٦ أتيتك مضطراً

يمدح مالك بن طوق ويستبطئه:

قفْ بالطُّلولِ الدَّارساتِ «عُلاثَا» أَمْسَتْ حِبَالُ قَطِينِهِنَّ رِثَاثَا

قف يا «علاثة» (غلام أبي تمام) بالطلول الدارسات (الممحوة) التي أصبحت حبال قطينهن (ساكنيهن) رثاثاً (رثة مهترئة). أي أن الصلة انقطعت بين المكان وساكنيه فغدا أطلالاً

قَسَمَ الزمانُ ربوعَها: بين الصَّبا وقَبولِهَا ودَبُورِها، أَثْلاثا

قسم الزمان ربوع هذه الديار ما بين الرياح الثلاث: الصبا والقبول والدبور، فلكل ريح ثُلث في التخريب

عَمْروُ بنُ كُلْثُومِ بنِ مَالِكٍ الذي تركَ العُلَى لِبَني أَبيهِ تُراثَا

عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة الذي ورَّث أحفاده المجد..

أَلْقَى عليهِ نِجَارَه، فأَتَى بهِ يَقظانَ، لا وَرَعاً ولا مُلْتَاثا

عمر بن كلثوم ألقى بنجاره (بأصله الطيب) على الممدوح، فأنجبه متيقظاً، وليس ورعاً (جباناً)، ولا ملتاثاً (بطيئاً بليداً)

وَزَعُوا الزَّمَانَ وَهُمْ كُهولٌ جِلَّةٌ وَسَطَوْا على أَحْدَاثِهِ أحْدَاثَا

هؤلاء الأحفاد وزعوا الزمان (ردعوا الزمان عن الإتيان بشر) وهم كهول أجلاء، وتحكموا في سير أحداثه وهم أحداث (ناشئون)

يَا مَالِكُ ابْنَ المالِكِينَ! أَرَى الذي كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ عطائكَ رَاثَا

راثَ (أبطأ)

لولا رَجاؤُكَ كنتُ ذا مَنْدُوحَةٍ عن «بَرقَعِيدَ» وأرضِ «بَاعِينَاثَا»

لولا ترقبي عطاياك لكنت ذا مندوحة (مستغنياً) عن القدوم إلى برقعيد وباعيناث

والكـامِخِيَّةُ لـم تـكـنْ لـيَ مـنـزِلاً،   فَـمَـقـابِـرُ الـلَّـذَّاتِ مِـنْ قَـبْـرَاثـا

ولا كنت نزلت بـ«الكامخية»، ولا قبرت لذَّاتي في «قبراث»

لـم آتِـهَـا، مِـنْ أيِّ وَجْـهٍ جـئـتُـهـا،   إلَّا حَـسِـبْـتُ بـيـوتَـهـا أَجْـدَاثـا

أجداث (قبور)

بَـلـدُ الـفِـلاحَـةِ، لـو أتَـاهـا جَـرْوَلٌ،   أعـنـي الـحُـطَـيْـئَـةَ، لاغْـتَـدى حَـرَّاثـا

هذه بلد فلاحة لا شيء آخر فيها، ولو أتاها الشاعر الحطيئة جرول بن أوس، الذي قال في شعره إنه لم يمتهن الحراثة، لغدا حراثاً

تَـصْـدَا بِـهـا الأَفْـهَـامُ بـعـدَ صِـقَـالِـهـا،   وتَـرُدُّ ذُكْـرانَ الـعُـقـولِ إِنَـاثـا

يصيب الصدأ العقول في هذه الأرض، والعقل الذكر (السديد) يتحول إلى عقلٍ أنثى

أرضٌ خَلَعْتُ اللَّهْوَ، خَلْعِيَ خَاتِمِي،   فـيـهـا، وطَـلَّـقْـتُ الـسـرورَ ثَـلاثـا

٧٧ الغباء والتغابي

يمدح مالك بن طوق التغلبي (ويشفع لديه في قبيلة من تغلب شقت عصا طاعته):

لا جُودَ في الأقوامِ يُعلَمُ، ما خَلا   جُـوداً حـلِـيـفـاً فـي بـنـي عَـتَّـابِ

لا يوجد كرم نعرف عنه إلا الحليف (الملازم) في بني عتَّاب (فرع من تغلب، وهم قوم الممدوح)

مـتـدفِّـقـاً صَـقَـلـوا بـه أحـسـابَـهُـمْ؛   إن الـسَّـمـاحَـةَ صَـيْـقَـلُ الأحـسـابِ

جودهم متدفق وبه صقلوا أحسابهم (شرفهم العريق)، فالسماحة (السماح ببذل المال) صيقل، والصيقل هو الصاقل، الأصل الطيب

لِـلـجـودِ بـابٌ فـي الأنـامِ، ولـم تَـزَلْ   يُـمـنَـاكَ مِـفـتـاحـاً لِـذاكَ الـبـابِ

فأَقِلْ «أُسَامَةَ» جُرْمَها، واصْفَحْ لها   عـنـه، وهَـبْ مـا كـانَ لـلـوهَّـابِ

أَقِلْ قبيلة أسامة (وهي جزء من بني تغلب أيضاً) جرمها (اجعلها تنهض من عثرتها)، وسامحها، وامسح ما فعلته بلحيتك الطيبة

لا رِقَّـةُ الـحَـضَـرِ الـلَّـطِـيـفِ غَـذَتْـهُـمُ،   وتَـبـاعَـدُوا عـن فِـطـنـةِ الأعـرابِ

فهم لا يتمتعون برقة أهل المدن، وليس فيهم ما في الأعراب من فطنة ونباهة

فـإذا كَـشَـفْـتَـهُـمُ وجـدْتَ لـديْـهِـمُ:   كَـرَمَ الـنـفـوسِ، وقِـلَّـةَ الآدابِ

نفوسهم كريمة، لكن عندهم قلة أدب جعلتهم يخالفون أوامرك

لـيـسَ الـغَـبِـيُّ بِـسَـيِّـدٍ فـي قـومِـه،   لـكـنَّ سـيِّـدَ قـومِـه الـمُـتَـغَـابـي

السيد يكون فاهماً ما يدور حوله، ولكنه يتصنع عدم الفهم أريحيةً منه وسماحاً

فاضْمُمْ أقَاصِيَهُمْ إليكَ، فإنه　　لا يَزْخَرُ الواديِ بِغيرِ شِعَابِ

ضُمَّ تحت كنفك أقاصيهم (من ابتعد منهم عن طاعتك) فهم سند لك، والوادي لا يزخر ويتدفق بدون شعاب (روافد)

والسهمُ بالرِّيشِ اللُّؤَامِ، ولنْ تَرى　　بيتاً بِلا عَمَدٍ ولا أَطْنابِ

السهم يصبح جيداً بالريش اللؤام (المتلائم)، والبيت (الخيمة) لا تقوم بلا أعمدة وبلا أطناب (حبال). يقول: لا يكتمل السؤدد إلا بلوازمه الفرعية، فالسهم الجيد محتاج إلى الريش الذي يلائم بعضه بعضه (والقبيلة المذكورة تلائم الممدوح لأنها من تغلب مثله)

يا خاطباً مِدَحي إليه بِجُودِه؛　　ولقد خَطَبْتَ قليلةَ الخُطَّابِ

مدحي (قصائدي المدحية) كالعذارى، وأنت خطبتها إليك بكرمك؛ ولا يقدر على خطبتها سوى القليلين لأنها غالية

خُذْها ابْنَةَ الفِكْرِ المهَذِّبِ في الدُّجَى　　والليلُ أسوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبابِ

خذ هذه القصيدة فهي وليدة فكر مهذِّب لها في الدجى (يشذبها في ساعات الليل، ساعات الإبداع) عندما يكون الليل حالك الثوب. والمهذِّب بكسر الذال قراءتي، وخالفت فيها التبريزي والصولي والأسود اللبناني، وكلهم فَتَح

بِكْرَاً تُوَرَّثُ في الحَياةِ، وتَنْثَني　　في السِّلْمِ وَهْيَ كثيرةُ الأَسْلابِ

قصيدتي العذراء هذه (الجديدة المخصصة لك) يمكن لك توريثها لأولادك وأنت حي، فهي تكسبهم جميعاً مجداً وحسنَ ذكر، وتعود عليهم بأسلاب (غنائم) كثيرة دون حرب، وهذه الغنائم هي السمعة الطيبة. كذا قرأتُ البيت: بفتح الراء من (تورَّث)، وخالفت التبريزي والصولي والأسود الذين كسروها جميعاً. والشاعر العربي لا يتباهى بأن قصيدته عادت عليه بالمال الكثير، بل بأنها ستُكسِب الممدوح صيتاً وستبقى على الأجيال. والله أعلم

ويَزيدُها مَرُّ اللَّيالي جِدَّةً،　　وتَقَادُمُ الأيامِ حُسْنَ شَبابِ

وقصيدتي خالدة على مر الأيام

٧٨ وليس لي عمل زاك فأدخلَها

يمدح مالك بن طوق:

قل لابنِ طَوْقٍ، رَحَى سَعْدٍ إذا خَبَطَتْ　　نَوائِبُ الدهرِ أعلاهَا وأَسْفَلَها . .

قل لمالك بن طوق: إذا ضربت مصائب الدهر رحى الطاحون في قبيلة سعد (رمز المنعة للقبيلة/ والرحى هي القبيلة القوية) من شقها الأعلى وشقها الأسفل . .

أَصْبَحْتَ حَاتِمَهَا جُوداً، وأَحْنَفَها　　حِلْماً، وكَيِّسَها عِلْماً ودَغْفَلَها

. . عندئذ فأنت كحاتم الطائي في الجود، وكالأحنف بن قيس في الحلم، وكزيد بن الكيِّس و«دغفل النسَّابة» في علمهما بالأنساب

ما لِي أَرَى الحُجْرَةَ الفَيْحَاءَ مُقْفَلَةً ... عنِّي، وقد طالما اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلَها!

لماذا تبقى الحجرة الفيحاء (الواسعة) مقفلة دوني، مع أنني كثيراً ما استفتحت (حاولت فتح) مقفلها (حالتها وهي مقفلة) بما أقوله من شعر المدح

كأنها جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مُعْرِضَةً، ... وليس لِي عَمَلٌ زَاكٍ فأَدْخُلَها

معرضة: مائلة، زاك: طيب

٧٩ إفراط الحزن لا يليق بالسادة

يمدح مالك بن طوق، ويعزيه عن أخيه القاسم بن طوق:

أَمَالِكُ! إِفْراطُ الصَّبَابَةِ تَارِكٌ ... جَنَاً، واعْوِجَاجاً في قَناةِ المَكَارِمِ

الصبابة: الحزن، جنا: انحناء

تأمَّلْ رُوَيْداً! هلْ تَعُدَنَّ سالماً، ... إلى آدَم، أم هَلْ تَعُدُّ ابنَ سَالم؟

لا أحد من الآن ورجوعاً حتى آدم سلم من الموت

مَتى تُرْعِ هَذا الموتَ عيْناً بَصيرَةً ... تَجِدْ عَادلاً منهُ شبيهاً بِظَالم

تُرْعِ الأمر عينك: تجعل عينك ترعاه وتراقبه

خُلِقْنَا رِجالاً للتَّصَبُّرِ والأَسَى، ... وتِلْكَ الغَواني لِلْبُكَا والمآتِمِ

٨٠ السمح السخي

يرثي القاسم بن طوق:

فتىً لم تكنْ تَغْلي الحُقُودُ بصدرِهِ ... وتَغلي لأَضْيافِ الشتاءِ مَراجِلُهْ

مراجله: قدوره، فهو يطعم الأضياف

٨١ إن الألمعي منجِّم

يمدح مالك بن طوق حين عزل عن الجزيرة:

حَسَدُ القرابةِ لِلْقَرابَةِ قَرْحَةٌ ... أَعْيَتْ عَوانِدُها، وجُرْحٌ أَقْدَمُ

قرحة: جرح، أعيت عواندها: أعجزت جروحها الأطباء

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ: لم تَكُنْ آراؤُها ... تَهْفُو، ولا أحلامُها تتقَسَّمُ

لم تكن آراء قريش تهفو (تخطئ)، ولم تكون أحلامهم (عقولهم) تتشتت

حتى إذا بُعِثَ النبيُّ محمدٌ فيهِمْ، غَدَتْ شَحْناؤُهُمْ تَتَضَرَّمُ

شحناؤهم تتضرم: أحقادهم تشتعل

لما أَقامَ الوَحْيُ بينَ ظُهورِهِمْ ورأَوْا رسولَ اللّهِ أحمدَ منهُمُ..

عَزَبَتْ عُقولُهُمُ؛ وما مِنْ مَعْشَرٍ إلّا وَهُمْ، مِنْهُمْ أَلَبُّ وأَحْزَمُ

عزبت عقولهم (ابتعدت عنهم)، وأصبح كل معشر ألب (أعقل) منهم وأكثر حزماً

إن تَذْهَبُوا عن مَالِكٍ، أو تَجْهَلُوا نُعْمَاهُ، فَالرَّحِمُ القَرِيبَةُ تُعْلَمُ

كانتْ لَكُمْ أخلاقُهُ مَعْسُولَةً، فتَرَكْتُموها وَهْيَ مِلْحٌ عَلْقَمُ

حتى إذا أَجَنَتْ لكُمْ، دَاوَتْكُمُ مِنْ دائِكُمْ؛ إنَّ الثِّقَافَ يُقَوِّمُ

حتى إذا أخلاقه أجنت لكم (تغيرت عليكم)، داوتكم من أحقادكم، والثقاف (بْري الرمح) يقوّم

فَقَسَا لِتَزْدَجِرُوا، ومَنْ يَكُ حازِماً فَلْيَقْسُ أَحيانا، وحِيناً يَرْحَمُ

لتزدجروا: ليكون في فعله زجر لكم وتقريع

وأَخافَكُمْ كَيْ تُغْمِدُوا أَسيافَكُمْ، إنَّ الدَّمَ المغْتَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ

أخافكم كي توقفوا التهور بينكم، فالدم المغتر (الأقارب المتهورون) يحرسه الدم (يحميهم من تهورهم أقارب آخرون)

ولقد جَهَدْتُمْ أنْ تُزِيلُوا عِزَّهُ، فإذا أَبَانٌ قد رَسَا، ويَلَمْلَمُ

عملتم على إزالة عزه فإذا هو راسخ راسٍ مثل جبل «أبان» و«يلملم»

ولقد عَلِمْتُ، لَدُنْ لَجَجْتُمْ، أنه ما بعدَ ذاكَ العُرْسِ إلّا المأْتَمُ

قد علمت عندما لججتم (عاندتم) أنه سيكون بعد عرس العصيان مأتم

عِلْمَاً طَلَبْتُ رُسُومَهُ فَوجَدْتُها في الظَّنِّ، إنَّ الألمعِيَّ مُنَجِّمُ

معرفتي هذه طلبت رسومها (بحثت عن أصلها في آثارها). فوجدت ذلك في الظن، أي أنني اهتديت إلى ذلك بمجرد التفكير، والشخص الذكي يتنبأ بما سيكون، فكأنه منجم

٨٢ غفلات الشباب

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري:

مِنْ سَجَايا الطُّلُولِ أَلّا تُجِيبا فَصَوَابٌ مِنْ مُقْلَةٍ أن تَصُوبا

من سجايا (صفات) الطلول ألا تجيبك وأنت تسألها عن الأحباب، ولذا من الصواب أن تصُوب مقلتك (تمطر بالدمع)

فَاسْأَلَنْها، واجعَلْ بُكَاكَ جواباً، تَجِدِ الشوقَ سائلاً ومُجِيبا

ومع ذلك فاسأل الأطلال، وليكن الجواب منك بكاءً،
فبهذا تجد أن السائل والمجيب هما شوقك لأحبابك

قد عَهِدْنا الرُّسومَ وَهْيَ عُكَاظٌ لِلصِّبا، تَزْدَهِيكَ حُسْناً وطِيبا

عهدنا الرسوم (الأطلال) وهي عكاظ (مزدحمة كسوق عكاظ) للشباب، تزدهيك (تفتنك) بحسنها وطيبها

أَكْثَرَ الأرضِ زائِراً ومَزُوراً وصَعُوداً مِنَ الهَوى وصَبُوبَا

عهدناها أكثر أماكن الأرض ازدحاماً بمن هو زائر ومن هو مزور، وأكثر البقاع صعوداً (تلة) مما فيها من الهوى والحب وصبوباً (منخفضاً) فتلك الأطلال كانت مسارح للحب، فيها وعورته وعذابه، وفيها سهولته وجماله

وكَعَاباً كأنَّمَا أَلْبَسَتْها غَفَلاتُ الشبابِ بُرْداً قَشِيبا

وكانت الأطلال أكثر البقاع كعاباً (فتيات) ألبستهن غفلات الشباب (براءة الفتيات)
برداً قشيباً (ثوباً جديداً)

بَيَّنَ البَيْنُ فَقْدَهَا. قَلَّمَا تَعْـ ـرِفُ فَقْداً لِلْشَّمْسِ حتَّى تَغيبا

بيَّن لي البين (الفراق) فقْد أولئك الفتيات (قيمتهن).
وأنت قليلاً ما تدرك قيمة الشمس إلَّا بعد أن تغيب

لَعِبَ الشيبُ بِالمفَارِقِ، بل جَدَّ ـ فأبْكَى تُمَاضِراً ولَعُوبا

لعب الشيب بمفارق رأسي، بل هو جاد لا لاعب، فقد أبكى «تماضرَ» و«لعوبَ» أسفاً

خَضَبَتْ خَدَّها إلى لُؤْلُؤِ العِقْـ ـدِ دَمَاً أنْ رَأَتْ شَوَاتِي خَضِيبا

الحبيبة خضبت (لونت) خدها بدمع ممزوج بالدم وصل حتى عقدها لأنها رأت شواتي (جلدة رأسي) خضيباً (مخضوبة: مصبوغة لستر الشيب)

كلُّ دَاءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ لهُ، إلَّا ـ الفَظِيعَيْنِ: مِيتةً ومَشِيبا
لو رأى اللّهُ أنَّ لِلْشَّيْبِ فَضْلاً جاوَرَتْه الأبْرارُ في الخُلْدِ شِيبا

إذن ففي الجنة ستسود شعورنا! شكراً أبا تمام على المعلومة. هل يكتسي الأصلع شعراً أيضاً؟

كلَّ يومٍ تُبدِي صُروفُ الليالِي خُلُقاً مِنْ أبي سَعيدٍ رَغِيبا

رغيب: مرغوب فيه

سَبقَ الدهرَ بالتِّلادِ، ولم يَنْـ ـتَظِرِ النَّائِباتِ حتَّى تَنوبَا

يسبق الدهر (مصائب الزمن) ببذل التلاد (المال الموروث)،
ولا ينتظر أن تأتي الحاجة الماسة حتى يعطي

فإذا ما الخطوبُ أَعْفَتْهُ كانتْ ... راحَتَاهُ حَوادِثاً وخُطُوبَا

فإذا لم تأت خطوب (مصائب)، كانت يداه حوادثَ ومصائب على الأعداء

وصَلِيبُ القَناةِ والرَّأْيِ والإسْـ ... ـلامِ، سَائِلْ بِذاكَ عنه الصَّلِيبا

قناته صلبة (عزيمته قوية)، وكذا رأيه وتمسكه بالإسلام، واسأل الصليب
(فقد لقي منه الروم حرباً شرسة)

لقدِ انْصَعْتَ، والشِّتَاءُ لهُ وَجْـ ... ـهٌ يَراهُ الكُمَاةُ جَهْماً قَطُوبا

لقد انصعت (مضيت) والشتاء ذو وجه قطوب (مكفهر) كما يراه الكماة (المسلحون)

في لَيالٍ تَكادُ تُبْقي بِخَدِّ الشَّـ ... ـمسِ، مِنْ رِيحِها البَلِيلِ شُحُوبا

في ليال تترك في خد الشمس شحوباً من ريحها البليل (الباردة المحملة بالمطر)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ في أَخْدَعَيْه ... ضَرْبَةً غادَرَتْه عَوْداً رَكُوبا

ضربت الشتاء في أخدعيه (عرقين في العنق) ضربة غادرته (جعلته) عوداً (جَمَلاً) ركوباً (مذلَّلاً).
أي أنك طوعت فصل الشتاء للحرب

وأَرَادُوكَ بالبَيَاتِ، ومَنْ هَـ ... ـذَا يُرَادي مُتَالِعاً وعَسِيبَا

أرادوك بالبيات (أرادوا خداعك والهجوم ليلاً)، ومن ذا الذي يرادي (يرجم بالحجارة) متالعاً
وعسيباً (هذين الجبلين الكبيرين)، فأنت أكبر من خدعة كهذه

فَرَأَوْا قَشْعَمَ السِّياسَةِ قد ثَقَّـ ... ـفَ مِنْ جُنْدِهِ القَنَا والقُلُوبا

رأوا قشعم (نسراً مسنّاً محنكاً) السياسة (سوْس الناس وقيادتهم) قد ثقف (قوَّم) من جنوده القنا
(الرماح) والقلوب أيضاً

أَنْضَرتْ أَيْكَتي عَطايَاكَ، حتى ... صارَ سَاقاً عُودي وكانَ قَضِيبا

عطاياك جعلت أيكتي (روضتي) ناضرة،
وصار عودي ساقاً مخضرة بعد أن كان قضيباً عارياً من الورق

مُمْطِراً لي بِالجَاهِ والمالِ، لا أَلْـ ... ـقاكَ إلَّا مُسْتَوْهِباً، أو وَهُوبا

أنت تمطر لي إما بجاهك أو بمالك: فأراك تستوهب لي المال (تطلب من الآخرين إعطائي)،
أو تهبه إياي

فإذا مَا أَرَدْتَ كُنتَ رِشَاءً، ... وإذا ما أردْتَ كُنتَ قَلِيبا

فأنت إما رشاء (حبل الدلو) ـ أي واسطة للعطاء ـ أو قليب (بئر)

٨٣ السيوف المغيظة

يمدح أبا سعيد الثغري:

قَلُّوا، ولكنَّهُمْ طابُوا، فأنجَدَهُمْ جيشٌ من الصبرِ، لا يُحْصَى له عَدَدُ

قل عددهم ولكنهم كانوا صادقين، فكان الصبر جيشاً لهم: جيشاً بلا جنود فلا عدد له كي تحصيه

إذا رأوْا لِلمنايا عارِضاً لَبِسُوا من اليقينِ دُرُوعاً ما لها زَرَدُ

إذا رأوا للمنايا عارضاً (سحاباً ماطراً) لبسوا لاتقائه دروعاً من اليقين (الإيمان) ليس لها زرد (حلقات)

نَأَوْا عنِ المُصْرِخِ الأدنى، فليس لَهُمْ إلّا السيوفَ، على أعدائِهِمْ مَدَدُ

ابتَعَدوا عن المصرخ (المنجد) الأدنى لتوغلهم في أرض العدو، فلم يعد لهم مدد (نجدة) إلا السيوف

وَلَّى مُعَاوِيَةٌ عنهُمْ، وقد حَكَمَتْ فيه القَنا، فأَبى المقْدارُ والأَمَدُ

هرب معاوية (اسم بابك الخرمي/أو اسم أخيه)، وقد حكمت فيه القنا (الرماح) بالموت، ولكن المقدار (القدر) والأمد (مدة العمر) منحاه عمراً ففر سالماً

نَجّاكَ في الرَّوْعِ ما نَجّى سَمِيَّكَ في صِفِّينَ، والخَيْلُ بِالفُرسانِ تَنْجَرِدُ

نجاك يا معاوية في الحرب ما نجى سميك (المماثل لك في الاسم: معاوية بن أبي سفيان) في معركة صفين عندما كانت الخيل تنجرد (تعدو) بالفرسان

إن تَنْفَلِتْ، وأُنُوفُ الموتِ رَاغمةٌ، فاذهبْ فأنتَ طَليقُ الرَّكْضِ يَا لُبَدُ

فلئن هربت رغم أنف الموت الذي يطلبك، فأنت طليق الركض (ناجٍ بسبب الفرار) يا لبد (يا طويل العمر: ولبد هو سابع نسور لقمان، إذ قيل للقمان: اتخذ سبعة نسور تعش بقدر عمرها، فكان يتخذ نسراً بعد نسر، وكان سابعها «لبد» أطولها عمراً، وبموته مات لقمان)

لا يومَ أَكْثَرَ منهُ مَنْظراً حَسَناً، والمَشْرَفِيَّةُ في هامَاتِهِمْ تَخِدُ

المشرفية: السيوف، تخد: تركض

كأنها وَهْيَ في الأَوْدَاجِ وَالِغَةٌ، وفي الكُلَى، تَجِدُ الغَيْظَ الذي نَجِدُ

كأن السيوف وهي في الأوداج (عروق العنق) والكلى والغة (شاربة) تحس بالغيظ الذي نجده في صدورنا من هذا العدو

كأنَّ بَابَكَ بِالبَذَّيْنِ بَعدَهُمُ نُؤْيٌ أقامَ خِلافَ الحَيِّ أو وَتَدُ

كأن بابَك الخرمي في البذَّين (اسم مكان) بعد المعركة نؤي (قناة الخيمة: يحفرون قناة تدور حول الخيمة لكي ينزل فيها المطر، ولا يدخل الخيمة)، أو وتد بقي موجوداً بعد رحيل الحي (القوم). أي أن وضع بابك صار مهترئاً كبقايا المنزل بعد رحيل أهله

بِكُلِّ مُنْعَرَجٍ من فارسٍ بَطَلٍ، جَنَاجِنٌ فِلَقٌ فيها قَناً قِصَدُ

في كل منعرج (طريق منعطِف) جناجن فلق (عظام صدر مفلقة) لفارس بطل، وفيها قنا قصد (رماح مكسرة)

لما غَدا مُظْلِمَ الأحشاءِ من أَشَرٍ أَسْكَنْتَ جَانِحَتَيْهِ كَوكَباً يَقِدُ

لما أصبح الفارس مظلم الأحشاء (القلب) من أشر (بطرٍ بالنعمة) أسكنت جانحتيه (جانبي صدره) كوكباً يقد (كوكباً متقداً: سنان الرمح)

يَوْمٌ به أخذَ الإسلامُ زِينتَه بِأَسْرِها، واكتسى فخراً به الأَبَدُ

لم تَبْقَ مُشركةٌ إلّا وقد علِمَتْ، إنْ لم تَتُبْ، أنّه لِلْسَّيْفِ ما تَلِدُ

فافْخَرْ، فَما مِنْ سماءٍ للنَّدَى رُفِعَتْ إلَّا وأفعالُكَ الحُسْنى لها عَمَدُ

عمد: أعمدة

واعذِرْ حسودَكَ فيما قد خُصِصْتَ به؛ إن العُلى حَسَنٌ في مثلِها الحَسَدُ

٨٤ مداراة الرؤساء

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري:

غَدا الهمُّ مُخْتَطّاً بِفَوْدَيَّ خِطَّةً طَرِيقُ الرَّدَى، منها إلى النَّفْسِ، مَهْيَعُ

أصبح الهم وقد اختط في فوديَّ (سالِفيَّ) خطة (طريقاً/يعني الشيب)، وهذا الطريق يمر منه الردى (الموت) إلى المرء، وهو طريق مهيع (واسع)

له منظرٌ في العينِ أَبْيَضُ ناصِعٌ، ولكنه في القلبِ أسودُ أَسْفَعُ

أسفع: مسودّ

ونحنُ نُزَجِّيهِ، على الكُرْهِ والرِّضَا؛ وأَنْفُ الفتى مِنْ وجهِهِ، وَهْوَ أَجْدَعُ

نحن نزجيه (نتماشى معه) رضينا أم أبينا؛ وأنفك منك وإن كان أجدع (هذا مثل معناه: عليك أن ترضى بقسمتك، والأجدع المشروم)

لقد آسَفَ الأعداءَ مجدُ ابنِ يوسُفٍ وذو النَّقْصِ في الدنيا، بِذي الفضلِ، مُولَعُ

مجد الرجل أحزَنَ أعداءه، والناقص مولع (مُغرىً/ مناكِفٌ) بذي الفضل

هُوَ السَّيْلُ: إنْ واجهْتَهُ انْقَدْتَ طَوْعَهُ، وتَقْتَادُهُ مِنْ جانِبَيْهِ فَيَتْبَعُ

إن عاندته فهو كالسيل يقودك ويجرفك، وإن داريت السيل وجئته من الجانبين استقيت من مائه، وكذا الرئيس فلا تواجهه مواجهةً، بل احرص على مداراته كي يلبي رغباتك. كثيرون من مدراء الدوائر في أيامنا يظنون أنفسهم من ولاة العصر العباسي فيعاندون الموظفين ويعطلون مطالبهم إذا واجهوهم بصراحة، ويفضلون الموظف المتملق. ومثل هؤلاء رؤساء وملوك لا يزالون يحكمون شعوباً عربية بعقلية الوالي العباسي

ولم أرَ نَفْعاً عند مَنْ ليس ضائِراً، ولم أرَ ضُرَّاً عند مَنْ ليس يَنفَعُ

الزعيم الذي ينفعك هو من له سطوة، فينفع المقربين ويضر الأعداء

رأى البُخْلَ مِنْ كُلِّ فَظيعاً، فَعَافَهُ على أنَّهُ، منهُ، أَمَرُّ وأفظَعُ

قد رأى الممدوح البخل فظيعاً من كل الناس، ولأنه كريم فالبخل مستفظع منه أكثر من غيره

وكُلُّ كُسُوفٍ في الدَّرَارِيِّ شُنْعةٌ، ولكنه في الشمسِ والبدرِ أشنعُ

فكل كسوف في الدراري (النجوم) بشع، ولكن الكسوف في الشمس والبدر أشنع، لما لهما من بهاء

مَعَادُ الوَرى بعدَ المَماتِ؛ وسَيْبُهُ مَعَادٌ لنَا قبلَ المماتِ ومَرْجِعُ

معاد الورى (مبعث الناس) يكون بعد موتهم، ولكن سيبه (عطاءه) هو لنا كالبعث، ولمَّا نَمُتْ

٨٥ رأيٌ كالشعلة، شعلةٌ كالسيف

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري:

قَطَبَ الخُشُونَةَ واللِّيَانَ بنفسِهِ فَغَدا جَليلاً في القلوبِ لطيفا

قطب (مزج) داخل نفسه خشونة وليناً، فأصبح في قلوب الناس مبجلاً؛ لكن، محبوباً في الوقت نفسه

هَزَّتْهُ مُعْضِلَةُ الأُمورِ، وهَزَّها، وأُخيفَ في ذاتِ الإلهِ، وخيفا

هزته الأمور المعضلة (الجسيمة)، لكنه هزها أيضاً بالتصدي لها،
وهو يخاف الله ويتقيه، والناس يهابونه

يَقْظَانُ أَحْصَدَتِ التَّجارِبُ حَزْمَه شَزْراً، وثُقِّفَ عزمُهُ تثقيفا

أحصدت التجارب (أحكمت فتل الحبل) حزمه شزراً (فتلاً)، وثُقِّف عزمه تثقيفاً (شُذِّب)

واسْتَلَّ مِنْ آرائِهِ الشُّعَلَ التي لو أنَّهُنَّ طُبِعْنَ كُنَّ سُيوفا

٨٦ أمدحك بسهولة

يمدح أبا سعيد الثغري:

سيَّرْتُ فيكَ مَدائحي، فتركتُها غُرَراً تَروحُ بها الرُّوَاةُ وتَغْتَدي

أذعتُ في مدحك قصائد غراء يرويها الرواة رواحاً وغُدُوَّاً (مساءً وصباحاً)

ما لي إذا ما رُضْتُ فيكَ غَريبةً جاءَتْ مَجِيءَ نَجيبَةٍ في مِقْوَدِ!

ما لي كلما رضت (حاولت ترويض) غريبة (قصيدة صعبة كالفرس الصعبة الترويض) جاءتني كالنجيبة (الفرس الأصيلة) وبعنقها المقود

وإذا أَرَدْتُ بِهَا سِواكَ فَرُضْتُها، واقْتَدْتُها بِثَنائِهِ، لم تَنْقَدِ!
ولِرَاحَتَيْهِ دِيمَتَانِ: فَدِيمَةٌ لي بِالوِدَادِ، ودِيمَةٌ بِالعَسْجَدِ
لراحتيك سحابتان واحدة تمطرني وداداً، وواحدة عسجداً (ذهباً)

٨٧ دفاعاً عن الاغتراب

يمدح محمد بن يوسف، أبا سعيد الثغري:

سَرَتْ تَستَجِيرُ الدمعَ خوفَ نَوى غَدِ وعادَ قَتاداً عندَها كلُّ مَرْقَدِ
سرت (أمست) تستعين بالدمع خوفاً من فراق الغد، وأصبح مرقدها قتاداً (شوكاً)

وأنقذَها من غَمرَةِ الموتِ أنَّه صُدُودُ فِراقٍ، لا صُدودُ تَعَمُّدِ
وأنقذها من غمرة الموت (هجمة الموت) أن صدودي هو لوجوب مفارقتي البلد، وليس صدوداً متعمداً عن المرأة

هيَ البَدْرُ، يُغنيها تودُّدُ وجهِها إلى كلِّ مَنْ لاقَتْ، وإنْ لم تَوَدَّدِ
هي بدر، وفي وجهها تودد وبشاشة طبيعية تواجه بها الناس، وتغنيها عن التودد المصطنع

ولكنني لم أَحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً ففزتُ به، إلَّا بِشَمْلٍ مُبَدَّدِ
لكنني لم أحو (لم أنل) وفراً مجمعاً (مالاً) إلا بتبدد الشمل وبالرحيل

ولم تُعطِني الأيامُ نوماً مُسَكَّناً أَلَذُّ به، إلا بِنَومٍ مُشَرَّدِ
ولم يهدأ بالي، ولم أنم، إلا بعد السهر في طلب المعالي

وطولُ مُقَامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيباجَتَيْهِ. فاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ
طول مكث الرجل في الحي (مع القوم) مخلق لديباجتيه (يُبلي خديه: يجعله خاملاً مملولاً). فاغترب تتجدد

فإنِّي رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبَّةً إلى الناسِ، أنْ ليستْ عليهِمْ بِسَرْمَدِ
سرمد: أبدية

حَلفتُ بِربِّ البِيضِ تَدْمَى متونُها، ورَبِّ القَنا المُنْآدِ والمُتَقَصِّدِ
حلفت برب (بصاحب) البيض (السيوف) التي يسيل الدم من متونها (نصالها)، وبرب القنا (الرماح) المنآد (المعوج لكثرة الطعن به) والمتقصد (المكسَّر)

لقد كَفَّ سيفُ الصَّامِتِيِّ محمدٍ تَبارِيحَ ثَأْرِ الصَّامِتِيِّ محمدِ
لقد كف سيف محمد الصامتي (الممدوح محمد بن يوسف) تباريح (آلام) ثأر محمد الصامتي (محمد بن حميد)، وكلاهما ينتسبان إلى جد واحد هو «الصامت»

عَطَطْتَ، على رَغْمِ العِدَا، عَزْمَ بَابَكٍ بِصَبْرِكَ، عَطَّ الأَتْحَمِيِّ المُعَضَّدِ

عططت (شققت) عزم بابك (معنوياته)، عط الأتحمي المعضد (كشق القماش المخطط)

فـإلَّا يَـكُـنْ وَلَّـى بِـشِـلْـوٍ مُـقَـدَّدٍ هـنـاكَ، فـقـد وَلَّـى بِـعَـزْمٍ مُـقَـدَّدِ

فلئن لم يكن فر بشلو مقدد (بعضو ممزق) فقد فر بعزم ممزق

وقد كـانـتِ الأَرْمـاحُ أبْصـرْنَ قـلـبَـه فَـأَرْمَـدَهـا سِـتْـرُ الـقَـضَـاءِ الـمُـمَـدَّدِ

لقد رأت الرماح موضع قلبه واتجهت نحوه، ولكن ستراً من القضاء والقدر أرمدها (أصابها بالرمد، فلم تعد ترى)

رَآكَ سَديدَ الرَّأْيِ والرُّمْحِ في الوَغَى تَـأَزَّرُ بـالإقْـدَامِ فـيـه وتَـرْتَـدي

رآك بابك سديد الرأي (حكيماً) وسديد الرمح، وتتأزر بالإقدام في الوغى (الحرب) وترتدي (تلبس الشجاعة إزاراً ورداء)

ولـيس يُـجَـلِّـي الـكَـرْبَ رَأيٌ مُـسَـدَّدٌ إذا هُـوَ لـم يَـؤْنَـسْ بِـرُمْـحٍ مُـسَـدَّدِ

لا بد للحكمة من رمح مسدد يؤنسها ويعينها

وكـانَ بَـعـيـدَ الـقَـعْـرِ مِنْ كلِّ مِـاتِـحٍ فـغَـادَرْتَـهُ يُـسْـقَـى، ويُـشْـرَبُ بِـالـيَـدِ

كان العدو كالبئر البعيدة القعر على كل ماتح (مستقٍ) فتركته قريباً كماء بئر يمكن شربه باليد دون حاجة إلى دلو. يقول: كان يبدو أن النيل من بابك مستحيل، فجعلته يبدو سهلاً

فَمَهْمَا تَكُنْ مِنْ وَقْعةٍ، بَعْدُ، لا تَكُنْ سِـوى حَـسَـنٍ مـمَّـا فـعـلْـتَ، مُـرَدَّدِ

فالمعارك المقبلة ستكون مجرد تكرار لهذه

مَـحَاسِـنُ أَصْـنـافِ الـمـغَـنِّـيـنَ جَـمَّـةٌ، ومـا قَـصَـبَـاتُ الـسَّـبْـقِ إلَّا لِـمَـعْـبَـدِ

والمهم من الرجال السابق. فالمغنون المجيدون كثر،
ولكن السابق الذي رسم لهم الطريق هو «معبد»

إلـيـكَ هَـتَـكْـنَـا جُـنْـحَ لَـيـلٍ، كـأنَّـه قـدِ اكْـتَـحَـلَـتْ مـنـه الـبـلادُ بِـإِثْـمِـدِ

جئناك وقد هتكنا جنح ليل (خرقنا جناح الليل) كأنه قد كَحَّل البلاد بالإثمد (الكحل)

تَـقَـلْـقَـلُ بي أُدْمُ الـمَـهـارَى وَشُـومُـهـا عـلـى كـلِّ نَـشْـزٍ مُـتْـلَـئِـبٍّ وفَـدْفَـدِ

تقلقل (تهتز) بي المهارى (الإبل) الأدم (الداكنة) والشوم (السود) على كل نشز (مرتقى) متلئب (مرتفع) وفدفد (صحراء)

تُـقَـلِّـبُ فـي الآفـاقِ صِـلًّا، كـأنَّـمـا يُـقَـلِّـبُ فـي فَـكَّـيْـهِ شِـقَّـةَ مِـبْـرَدِ

هذه الإبل تقلِّبني في البلاد؛ وإنني لصل (ثعبان)؛ وإنني لأقلِّب في فمي لساناً كشقة (قطعة) المبرد

تَلافَى جَداكَ المُجْتَدِينَ فأصْبَحُوا ولم يَبْقَ مَذْخُورٌ، ولم يَبْقَ مُجْتَدِ

تلافى جداك المجتدين (أدرك عطاؤك السائلين)، فأصبحوا ولم يبق عندك شيء مذخور (مدَّخر)، ولم يبق فيهم مجتد (سائل فقير)

إذا مَا رَحىً دَارَتْ، أَدَرْتَ ـ سَمَاحَةً ـ رَحَى كلِّ إِنجَازٍ على كلِّ مَوْعِدِ

إذا ما دارت الرحى (حجر الطاحون) فأنت تدير لسماحتك (كرمك) رحى الإنجاز على كل موعد (وعد). فأنت تطحن الوعود وتلغيها بتحقيقها

٨٨ سله كيف نجا

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي، ويذكر وقعته بالخرمية:

لما قَرَا الناسُ ذاكَ الفَتْحَ قلتُ لَهُمْ: وَقائِعٌ حَدِّثوا عنها، ولا حَرجَا

عندما قرأ الناس رسالة البشير بنصرك قلتُ لهم: حدثوا بما علمتم، ولا حرج عليكم، فهو صحيح

أضاءَ سيفُكَ، لما اجْتُثَّ أَصْلُهُمُ، ما كانَ مِنْ جانِبَيْ تلكَ البِلادِ دَجا

أضأت بسيفك ـ عندما اجتثثت أصلهم (قطعت أصل الأعداء) ـ ما كان قد دجا (أظلم) في جانبي البلاد

لما أَبَوْا حُجَجَ القُرْآنِ واضِحَةً كانتْ سيوفُكَ في هاماتِهِمْ حُجَجَا

بِيضٌ وسُمْرٌ، إذا ما غَمْرَةٌ زَخَرَتْ لِلمَوْتِ، خُضْتَ بِها الأرواحَ والمهَجَا

بيض (سيوف) وسمر (رماح) إذا غمرة زخرت للموت (سيل طما/ مصيبة مميتة وقعت) فإنك عندئذ تخوض بأسلحتك أرواح الأعداء ونفوسهم

إنْ يَنْجُ منكَ أبو نَصْرٍ فَعَنْ قَدَرٍ تَنْجُو الرِّجالُ، ولكِنْ سَلْهُ كيفَ نَجَا

لئن استطاع أبو نصر (أحد قادة الأعداء/ وقيل هو بابَك نفسه) أن ينجو فإنما هذا من صنع القدر، لكن اسأله كيف نجا! لقد نجا مذعوراً تاركاً سلاحه

قد حلَّ في صخرةٍ صمَّاءَ مُعْنِقَةٍ فانْحِتْ بِرَأْيِكَ في أَوْعَارِها دَرَجَا

اعتصم القائد الهارب بصخرة صماء معنقة (عالية)؛ فانحت برأيك (بتدبيرك) في هذا المرتقى الوعر درجا يوصلك إليه. وكانت لبابك قلعة حصينة

وغَادِهِ بِسيوفٍ طالما شُهِرَتْ فَأَخْلَفَتْ مُتْرَفاً ما كانَ قبلُ رَجَا

وغادِهِ (بكِّر إليه) بسيوف كثيراً ما شهرت (جُرِّدت) فأخلفت ظن المترف (الذي لا قبل له بالحرب) فيما كان يرجوه من النجاة

وشُزَّبٍ مُضْمَراتٍ طَالما خَرَقَتْ مِنَ القَتَامِ الذي كانَ الوَغَى نَسَجَا

وبكِّر إليه أيضاً بشُزَّبٍ مضمَرات (خيل نحيفة) كثيراً ما خرقت (مزقت) القتام (الغبار) الذي نسجه الوغى (الحرب)

٨٩ كم ترك الأول للآخر

يمدح أبا سعيد الثغري:

لا زِلْتَ مِن شُكرِيَ في حُلَّةٍ لابِسُها ذُو سَلَبٍ فَاخِرِ

أدعو أن تظل لابساً حلة (ثوباً) من مدائحي، ولابسها ذو سلب (ثوب) فاخر

يقولُ مَن تَقْرَعُ أسماعَهُ: كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ

يقول من يسمع قصائدي: ما أكثر ما ترك الأول (الشعراء الأقدمون) للآخِر (للشعراء المعاصرين) من معانٍ!

٩٠ أمد إليك آمالاً طوالا

يعاتب أبا سعيد ويستبطئه:

إذا ما الحاجةُ انبعَثَتْ يدَاها جعلتَ المنعَ منكَ لَها عِقَالا

حاجتي كالناقة التي انبعثت يداها (تحركت قُدُماً)؛
وجعلتَ أنت منعك عقالاً (رباطاً) لها يكفها عن السير

فأينَ قَصائِدٌ ليَ فيكَ تَأْبَى، وتَأْنَفُ، أنْ أُهَانَ، وأَنْ أُذَالا

مِنَ السحرِ الحلالِ لِمُجْتَنيهِ، ولم أَرَ قبلَها سِحْراً حلالا

فلا يَكْدُرْ غديرُكَ لي، فإنِّي أَمُدُّ إليكَ آمالاً طِوالا

٩١ إعصار على حيطان القسطنطينية

يمدح أبا سعيد الثغري:

لا أَنْتَ أَنْتَ، ولا الدِّيَارُ دِيارُ خَفَّ الهوى، وتَولَّتِ الأَوْطَارُ

تغير كل شيء، ورحل شبابك يا أبا تمام، وخف الهوى (رحل) وتولت (ذهبت) الأوطار (الرغبات). رواية الصولي «أنتَ» بتاء مفتوحة، وقد اخترناها على رواية التبريزي التي يخاطب فيها مؤنثاً، فالشاعر يرى نفسه ويخاطب نفسه. والحبيبة رحلت من زمن بعيد فلا وجه لتخيل أنها تغيرت، بل الوجه أن يظل يراها الشاعر شابة، لأن صورتها ثبتت في خياله على ما كانت. وقد لحق بالتبريزي أحد الدكاترة، ولكن إيليا الحاوي وإبراهيم الأسود ومحيي الدين الخياط فتحوها مع الصولي

قد صَرَّحَتْ عنْ مَحْضِهَا الأَخْبَارُ، واستبشَرَتْ بفُتوحِكَ الأَمصَارُ

يمدح: صرحت الأخبار عن محضها (كشفت عن حقيقتها، كما يكشف اللبن الحليب عن حقيقته بانقشاع الرغوة)، واستبشرت نواحي البلاد بفتوحك

قُدْتَ الجِيادَ، كأنَّهنَّ أجادِلٌ، بِقُرَى «دَرَوْلِيَةٍ» لَها أوْكارُ

قدت الخيل كأنها أجادل (صقور) لها أوكار في الجبال التي تقع فيها قرى درولية

حتَّى الْتَوى، مِنْ نَقْعِ قَسْطَلِها على حِيطَانِ قُسْطَنْطِينَةَ، الإعْصَارُ

قدت الجياد حتى تلوى من نقع قسطلها (غبار/غبارها) إعصار وصل سور القسطنطينية

إلَّا تَكُنْ حُصِرَتْ، فقد أَضْحى لهَا، مِنْ خوفِ قَارِعَةِ الحِصارِ، حِصَارُ

فلئن لم تكن القسطنطينية قد حوصرت فعلاً،
فقد أصبح خوفها من قارعة (مصيبة) الحصار حصاراً

خَشَعُوا لِصَوْلَتِكَ التي هِيَ عندَهُمْ كَالموتِ يأتي ليس فيهِ عَارُ

خشعوا هناك لصولتك (لهجمتك)، وهي بالنسبة لهم شبيهة بالموت: فيه ألم ولكن ليس فيه عار، لأنه مكتوب لا مفر منه

فالمشْي همسٌ، والنداءُ إشَارةٌ خَوْفَ انتقامِكَ، والحَدِيثُ سِرارُ

فأصبح مشيهم همساً (الهمس: صوت المشي الخفيف)، وأصبحوا ينادون بعضهم بالإشارة خوف انتقامك، وأصبح حديثهم سراراً (وشوشة)

٩٢ شجاعة الصدر والقفا

يمدح أبا سعيد الثغري:

هل اجتمعتْ أحياءُ عدنانَ كلُّها بِمُلْتَحَمٍ، إلَّا وأنتَ أميرُها؟

ما تجتمع قبائل عدنان في ملتحم (معترك) إلا وأنت أميرها (والأمير الممدوح من طيّء اليمانية، وعدنان غير يمانية)

بكَ اليَمَنُ اسْتَعْلَتْ على كُلِّ مَوْطِنٍ، فصارَ لِطَيٍّ تاجُها وسَريرُها

السرير: العرش

مُحَرَّمَةٌ أكْفَالُ خَيْلِكَ في الوَغى، ومَكْلُومَةٌ لَبَّاتُها ونُحُورُها

أنت لا تنهزم فأكفال خيلك (مؤخراتها) محرمة لا تصاب، ولكن لباتها (صدورها) ونحورها (صدورها) مكلومة (مجروحة)

حرامٌ على أرماحِنا طَعْنُ مُدْبِرٍ وتَنْدَقُّ في أعلى الصُّدورِ صُدورُها

ورماحنا لا تطعن المدبر (الفار)، ولكنْ ندق صدور الرماح (أعاليها) في صدور الأعداء

٩٣ حقن ماء الوجه

يمدح أبا سعيد الثغري:

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجهي في صحيفَتِهِ   رَدَّ الصِّقَالِ بَهاءَ الصَّارِمِ الخَذِمِ

الصقال: الصقل؛ الصارم، والخذم: السيف القاطع

وما أُبالي، وخَيْرُ القولِ أَصْدَقُهُ،   حَقَنْتَ لي ماءَ وجْهي، أَوْ حَقَنْتَ دَمي

٩٤ الثلمة بين الرأيين

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف وقد غاب عنه:

مَتى كان سَمْعي خُلْسَةً لِلَّوائِمِ؟   وكيفَ صَغَتْ للعاذِلاتِ عَزائِمي؟

منذ متى كان سمعي خلسة (نهباً متاحاً) للوائم (العاذلات)، وكيف صغت (مالت) للعاذلات عزيمتي؟

إذا المَرءُ أَبْقَى بينَ رَأْيَيْهِ ثُلْمَةً   تُسَدُّ بِتَعْنيفٍ، فليس بِحَازِمِ

إذا المرء ترك ثغرة بين رأيين يكون محتاراً بينهما ـ وبالطبع سيملأ الناس هذه الثغرة بالتعنيف والتدخل في شؤونه ـ فليس حازماً

فَتىً فَيْصَلِيُّ العَزْمِ، يَعْلَمُ أنه   نَشَا رَأْيُهُ بينَ السُّيُوفِ الصَّوَارِمِ

يمدح: هذا الفتى عزمه منسوب للفيصل (السيف)، ورأيه نشا (ارتفع) ما بين السيوف القواطع

أَساءَتْ يَداهُ عِشْرَةَ المالِ بِالنَّدَى،   وأَحْسَنَتَا فينا خِلافَةَ حَاتِمِ

أساء عِشرة الأموال فهو يبددها، وهو خير خلف لحاتم الطائي

٩٥ بشق النفس

يمدح أبا سعيد الثغري وقد قدم من مكة:

إنَّ عَهْداً لو تَعلَمانِ ذَميما   أنْ تَنامَا عن لَيْلَتي، أو تُنِيمَا

أيها الصديقان إنه لذميم (معيب) في العهد (رابطة الأخوة بيننا) أن تناما أنتما وأنا أقاسي ليلتي الصعبة، أو حتى أن تتركا أحداً ينام، بل شاركاني السهر والحزن

كنتُ أَرْعَى البُدُورَ، حتى إذا مَا   فَارَقوني، أَمْسَيْتُ أرعى النُّجُوما

كنت أرعى (أراقب) البدور (وجوه الأحبة)، وصرت بعد فراقهم أراقب نجوم السماء ساهراً

أَصبحَتْ روضةُ الشبابِ هَشيماً   وغدتْ رِيحُهُ البَليلُ سَمُوما

هشيماً: يابسة العشب، ريحه البليل: نسيمه المنعش، السموم: ريح حارة سافية

شُعْلَةٌ في المفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْني، في صَميمِ الفؤادِ، ثُكْلاً صَميما

الشيب مثل الشعلة في المفارق (الرأس) وقد استودعتني (تركت لي) في صميم قلبي إحساساً بثكل (فقد) الشباب

حَلَّمَتْني - زَعَمْتُمُ - وأَرَاني، قبلَ هذا التَّحليمِ، كنتُ حَليما

شعلة الشيب تزعمون أنها حلمتني (جعلتني حليماً وقوراً)، لكنني حليم من يومي

لن ينالَ العُلى خُصوصاً مِنَ الفِتْـ ـيَانِ مَنْ لم يَكُنْ نَدَاهُ عُمُوما

نَشَأَتْ مِنْ يَمينِهِ نَفَحَاتٌ، مَا عليْها ألَّا تَكونَ غُيُوما

يتكلم عن الممدوح: ارتفعت من يده نفحات (هبات ريح)، فلم لا تتحول إلى غيوم (عطايا سخية)؟

قد بَلَوْنَا أبا سعيدٍ حديثاً، وبَلَوْنَا أبا سعيدٍ قديما

فعلِمْنا أنْ ليس، إلَّا بِشِقِّ النَّـ ـفْسِ، صارَ الكريمُ يُدْعَى كريما

طَلَبُ المجدِ يُورِثُ المرءَ خَبْلاً وهُموماً تُقَضْقِضُ الحَيْزُوما

السعي للمجد يورث المرء خبلاً (جنوناً)، وهموماً تقضقض (تكسّر) الحيزوم (الصدر)

فتَراهُ، وَهْوَ الخَلِيُّ، شَجِيَّاً وتَراهُ، وَهْوَ الصَّحيحُ، سَقِيما

الخلي: الفارغ البال، الشجي: المهموم

تَيَّمَتْهُ العُلى، فليس يَعُدُّ الـ ـبُؤْسَ بُؤْساً، ولا النَّعِيمَ نعيما

أَجْدَرُ الناسِ أنْ يُرَى وَهْوَ مَغْبُو نٌ؛ وهَيْهَاتَ أنْ يُرَى مَظْلُوما

هو أحرى الناس أن تراه مغبوناً (يحب - لسخائه - أن يتغافله الناس ويأخذوا أمواله)، لكنه أبيٌّ يرفض أن يُظلم

وإذا كانَ عَارِضُ المَوْتِ سَحّاً خَضِلاً بِالرَّدَى، أَجَشَّ هَزِيمَا..

إذا كان عارض (سحاب) الموت سحاً (هاطلاً)، خضلاً (ندياً) بالردى، أجش (راعداً) هزيماً (راعداً)..

واكْتَسَتْ ضُمَّرُ الجِيَادِ المذَاكي مِنْ لِبَاسِ الهَيْجَا دَمَاً وحَمِيمَا

واكتست ضمر الجياد (الخيول النحيلة) المذاكي (المكتملة النمو) من لباس الهيجاء (المعركة) دماً وحميماً (عرقاً)..

في مَكَرٍّ تَلُوكُها الحَرْبُ فيهِ، وَهْيَ مُقْوَرَّةٌ تَلُوكُ الشَّكِيما

والخيل في مكر (معترك) تلوكها الحرب، بينما هي مقورَّة (ضامرة نحيلة) تلوك الشكيم (الحدائد في أفواهها)..

قُمْتَ فيهَا بِحُجَّةِ اللَّهِ، لمَّا أنْ جعلتَ السيوفَ عنكَ خُصوما

عندئذٍ قاتلت وقمت بحجة الله (بنصر دينه وإثبات صحته)، وذلك عندما جعلت السيوف خصوماً عنك (نوَّاباً عنك في مجال الحِجاج والاحتكام)

٩٦ وداع فصيام

يمدح أبا سعيد الثغري ويذكر غمه بفراقه:

لأُوَدِّعَـنَّـكَ، ثـم تَـدمَـعُ مُـقـلـتـي إنَّ الـدُّمـوعَ هِـيَ الـوَداعُ الـثـانـي
وأَصومُ بعدَكَ عن سِواكَ، وأَغْتدي مُـتَـقَـلِّـداً صَـوْمَـيْـنِ فـي رمـضـانِ

٩٧ الهيق

وقال يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

لبِسْنَ ظِلَّيْنِ: ظِلَّ أَمْنٍ من الدَّ ـ هْـرِ، وظِـلَّاً مِـنْ لَـهْـوِهِ ودَدِهْ

هؤلاء الفتيات المنعمات الغنيات يتفيأن بأمن من الزمن، وباللهو والدد (اللعب)

فَهُنَّ يُخْبِرْنَ عن بُلَهْنِيَةِ الـ ـعَيْشِ، ويَسْأَلْنَ مِنْهُ عن جَحَدِهْ

ويستطعن إخبارك عن بلهنية العيش (العيش الرغد) فهن يعرفنه، لكنهن يسألن عن جَحَد العيش . (العيش القاسي) لجهلهن به

سَأَخْرِقُ الخَرْقَ بِابْنِ خَرقَاءَ، كالـ ـهَيْقِ إذا ما اسْتَحَمَّ في نَجَدِهْ

سأخترق الخرق (الصحراء) بجمل ابن خرقاء (ناقة سريعة) كالهيق (النعامة) إذ يستحم في نجده (عرقه) والنعامة لا تعرق، بل تلهث كالكلب إذا احترَّت. والجمل لا يعرق عرقاً نراه، بل ينز قليلاً تحت فروته عند اشتداد الحر ولا يُرى له عرق، فضلاً عن الاستحمام به. ولو كان يستحم في عرقه لما كان سفينة الصحراء، ولا ضُرب به المثل في تحمل العطش. ما اقتبست لك البيت إلا كي يوصلنا إلى الممدوح. وكنت أحب أن ألتمس العذر لأبي تمام فأجعل ابن الخرقاء هذا حصاناً (فمن معاني الخرقاء: الأرض الخلاء)، والحصان يعرق، ولكن الأمر لم يستقم لي لأن شاعرنا مضى في وصف سنام الجمل فقطع علينا الطريق. وتناول البيتَ الآمدي ـ وهو الناقد المتحامل على أبي تمام المفتش عن عيوبه ـ وجعل الاستحمام استجماماً بالجيم، ولكنه شرح النجد بالعرق، وقال: ابن خرقاء: يريد بعيراً. ولم ير في المعنى، مع ذلك، ما رأينا من خلل. لا بل عقَّب على البيت وإخوة له قائلاً: «وهذه معان صحيحة، ولكن النسج لا حلاوة له، ولا طُلاوة عليه.» ويندر من الآمدي أن يجد لأبي تمام معاني صحيحة، فإن وجد هذا المعنى صحيحاً فهو يفتح نافذة على الشك في نقدنا نحن. وسأكون مسروراً أن يتعقبني أحد في هذا فيرشدني إلى ما قد يكون غاب عني. (لاحقاً لهذا التحليل الطويل وجدت من يتعقبني، ها هي ملاحظة عمران القفيني: «تعال نتفاوض: ألا يكون هذا من «الإحالة» التي يعيب بها النقاد على الشعراء مبالغاتهم؟ أي أن هذه التي لا تعرق في الصحراء: النعامة والجمل، سأمتطيها حتى تستحم في عرقها وصولاً إلى الممدوح. أو ربما سأقطع صحارى لا قبل لجمل ولا لنعامة بقطعها وصولاً إليه، حتى أنها استحمت بعرقها من طول الطريق أو صعوبتها؟»)

إلـى الـمُـفَـدَّى أبـي يَـزيـدَ الـذي   يَـضِـلُّ غَـمْـرُ الـمُـلـوكِ فـي ثَـمَـدِهْ

قاصداً أبا يزيد الذي يضيع غمر الملوك (ماؤهم الغامر أي عطاؤهم الكثير) في ثمده (مائه القليل). فقليل عطائه أكثر من كثير عطائهم

ظِـلُّ عُـفَـاةٍ، يُـحِـبُّ زائـرَه   حُـبَّ الـكـبـيـرِ الـصـغـيـرَ مِـنْ وَلَـدِهْ

هو ظلٌّ يستظل به العفاء (الفقراء)، ويحب زائريه حب الأب المتقدم في السن أصغر أولاده

إذا أَنَـاخُـوا بِـبَـابِـه أخَـذُوا   حُـكْـمَـيْـهِـمُ مـن لِـسـانِـه ويَـدِهْ

إذا أناخ الوافدون إبلهم في بابه أخذوا حكمهم (ما شاءوا) من لسانه ترحيباً، ومن يده مالاً

٩٨ القصيدة المغرورة

يمدح خالد بن يزيد بن مزيدٍ الشيباني:

مَضَوْا وهُمُ أوتادُ نَجْدٍ وأرضِها،   يُرَوْنَ عِظَاماً كلَّما عَظُمَ الخَطْبُ

انصرمت أيامهم وكانوا أوتاد نجد (ركائزها)، وكنا نراهم عظاماً على مستوى الحدث

وما كان بينَ الهَضْبِ، فَرْقٌ، وبينَهُمْ؛   سوى أنَّهُمْ زالوا، ولم يَزُلِ الهَضْبُ

لم يكن بينهم وبين الهضاب الراسخة فرق إلا أنهم ماتوا وبقيت الهضاب

فَيَا وَشَلَ الدنيا بِشَيْبانَ لا تَغِضْ،   ويا كوكبَ الدنيا بِشيبانَ لا تَخْبُ

يا وشل الدنيا (ما تبقَّى من مائها) لا تغض (لا تجف) بشيبان (بجفاف شيبان، فهم كل ما تبقى من خير في الدنيا)، ويا كوكب الدنيا لا تخبُ (لا تخمد) بشيبان (بخمود شيبان)، فخمودهم خمود للدنيا

فـمـا دَبَّ إلَّا فـي بُـيـوتِـهِـمُ الـنَّـدى   ولم تَرْبُ إلَّا في حُجُورِهِمُ الحربُ

فما دب (مشى) الكرم إلا في بيوتهم، ولم تربُ (تكبر وتترعرع) الحرب إلا في حجورهم (أحضانهم)

أُولاكَ بَنُو الأَحْسَابِ، لولا فَعالُهُمْ،   دَرَجْنَ، فلم يُوجَدْ لِمَكْرُمةٍ عَقْبُ

أولاك (أولئك) بنو الأحساب (الشرف)، ولولا فعالهم (أمجادهم) لدرجن (لدرجت الأحساب، أي انقرضت)، ولما لقيتَ عقِباً (جيلاً جديداً) للمكارم

لَهُمْ يومُ ذي قَارٍ، مَضَى وَهْوَ مُفْرَدٌ   وَحِيدٌ مِنَ الأَشْباهِ، ليسَ له صَحْبُ

حاربوا في يوم ذي قار ضد الفرس في الجاهلية، وكان فريداً لا شبيه له ولا قرين

بـه عَـلِـمَـتْ صُـهْـبُ الأعـاجِـمِ أنّـه   به أَعْرَبَتْ عنْ ذاتِ أَنْفُسِها العُرْبُ

علمت الأعاجم الصهب (الشقر) في هذا اليوم أن العرب تريد أن تعرب عن بأسها وحقيقة مشاعرها الاستقلالية

هُوَ المشهدُ الفَصْلُ الذي ما نَجَا به لِكِسرى بنِ كِسْرى لا سَنَامٌ ولا صُلْبُ

كان مشهداً فاصلاً ولم ينج فيه لكسرى ابن الأكاسرة لا سنام ولا صلب (فَقَدَ كسرى كل شيء: فسنام الجمل يذوب مع طول الرحلة ويعود للنمو بالراحة والجمام، لكن كسرى فقد السنام والظهر نفسه أيضاً)

أقولُ لأَهْلِ الثَّغرِ: قد رُئِبَ الثَّأى، وَأُسْبِغَتِ النَّعْمَاءُ، والْتَأَمَ الشَّعْبُ

أقول لساكني الثغر (مناطق الحدود) لقد رئب الثأى (رُتقَ الخرق)، وأسبغت النعماء (وزعت الأموال)، والتأم الشَّعب (التحم الكَسْر)

فَسِيحُوا بِأَطرافِ الفضاءِ وأَرْتِعُوا؛ قَنا خالِدٍ، مِنْ غيرِ دَرْبٍ، لَكُمْ دَرْبُ

فاسرحوا وأرتِعوا (اجعلوا مواشيكم ترتع)، فقنا خالد (رماحه) هي دربكم (جبلكم) إذا لم يكن لكم جبل يقيكم عدوان الروم. والدرب هو الممر الجبلي المفضي إلى بلاد الروم، واستعارها لكل جبل

فتىً عِندَهُ خيرُ الثَّوابِ وشَرُّهُ، ومنه الإباءُ المِلْحُ، والكَرَمُ العَذْبُ

عنده الثواب والعقاب، وإباته ملح (مالح)، وكرمه عذب

أَشَمُّ شَرِيكِيٌّ، يَسيرُ أمامَه، مَسيرةَ شهرٍ، في كتائِبِه الرُّعْبُ

أشم شريكي (منسوب إلى «شَرِيك» أحد أجداده) يسبقه الرعب مدة شهر قبل وصوله إلى الأعداء. جاء في الحديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»

ولما رأى تُوفِيلُ راياتِكَ التي إذا ما اتْلأَبَّتْ لا يُقَاوِمُها الصُّلْبُ

لما رأى توفيل (توفلس قائد الروم) راياتك التي إذا اتلأبَّت (تلاحقت) لا تستطيع الرايات الموسومة بالصلبان أن تقاومها..

تَوَلَّى، ولم يَأْلُ الرَّدَى في اتِّبَاعِه، كأنَّ الرَّدَى في قَصْدِه هائِمٌ صَبُّ

.. تولى (انصرف) ولم يأل (لم يتوان) الردى (الموت) في اللحاق به، فكأن الموت هائم به صب (محب) له

غَدَا خائِفاً يَستنجِدُ الكُتْبَ، مُذْعِناً، عليكَ، فلا رُسْلٌ ثَنَتْكَ، ولا كُتْبُ

خاف وصار يستنجد عليك الكتب (رسائل الحوار وطلبات التفاوض)، ولكن هذا لم يَثْنِكَ (لم يردَّك عن عزيمتك)

وما الأَسَدُ الضِّرْغَامُ يوماً بِعَاكِسٍ صَريمَتَه إنْ أنَّ، أو بَصْبَصَ الكَلبُ

الأسد لا يعكس (يغير) صريمته (عزمه) إذا صدر من الكلب أنين أو بصبص (حرك ذنبه مستعطفاً)

جُعِلْتَ نظامَ المَكْرُماتِ، فَلَمْ تَدُرْ رَحىَ سُؤْدَدٍ إلّا وأنتَ لَها قُطْبُ

أنت نظام (عقد) المكرمات (الفضائل) تجمعها جمعاً، وإذا دارت رحى سؤدد (حجر طاحون السيادة) فأنت لها القطب الذي هو محور دورانها

وسيـارةٍ في الأرضِ، لـيـسَ بِنَـازِحٍ على وَخْدِهَا حَزْنٌ سَحِيقٌ ولا سَهْبُ

ورب قصيدة (هي قصيدتي هذه) سيارة (تسير على كل لسان بكل بلد)، وليس بنازح (ببعيد) على وخدها (سيرها السريع) حزن سحيق (جبل بعيد) ولا سهب (سهل)

إذا أُنْشِدَتْ في القَومِ ظَلَّتْ كأنَّها مُسِرَّةُ كِبْرٍ، أو تَدَاخَلَـها عُجْبُ

عندما يجري إنشادها تكون القصيدة نفسها فخورة وكأنها مسرة كبر (مخفية زهواً وإعجاباً بنفسها) أو كأنه تداخلها عجب (دخل قلبها الغرور). هذا تشخيص طريف وأيم الحق

٩٩ خرَّ صريعاً بين أيدي القصائد

يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

يـقـول أنـاسٌ فـي «حَبـيـنـاءَ» عـايَـنُـوا عِـمَـارَةَ رَحـلـي مِـنْ طَـرِيـفٍ وتَـالِـدِ:

يقول هؤلاء الذين عاينوا (رأوا) في «حبيناء» عمارة رحلي (حمولة جملي) التي فيها الطريف (الجديد) والتالد (الموروث)

أَصادَفْتَ كَنْزاً أم صَبَحْتَ بِغَارةٍ ذَوي غِرَّةٍ حَامِيهِمُ غيرُ شَاهِدِ؟

يقولون: أصادفت كنزاً، أم صبحت بغارة (هجمت صباحاً) أناساً ذوي غرة (غافلين) وفرسانهم الذين يحمونهم غائبون؟

فقلتُ لهُمْ: لا ذا، ولا ذاكَ دَيْدَني، ولـكـنـنـي أقبـلـتُ مـن عِـنْـدِ خـالـدِ

ديدني: عادتي

جَـذَبْتُ نَـدَاهُ غُـدْوَةَ الـسبـتِ جَـذْبـةً فَـخَـرَّ صَـريـعـاً بـيـن أيـدي الـقَـصَـائِـدِ

فـألْـبـسَـنـي مـن أمّـهَـاتِ تِـلادِهِ وألـبـسـتُـه مـن أُمّـهـاتِ قَـلائِـدي

تلاده: ماله القديم، قلائدي: قصائدي. للآمدي صاحب «الموازنة» في هذه الأبيات أسطر نقدية ما زالت تضحكني كلما قرأتها وهاكها بحرفها: «ومن رديء خروجه لفظاً ومعنىً قوله: «يقول أناس في حبيناء عاينوا/ عمارة رحلي من طريف وتالد// أصادفت كنزاً أم صبحت بغارة/ ذوي غرة حاميهم غير شاهد// فقلت لهم لا ذا ولا ذاك ديدني/ ولكنني أقبلت من عند خالد» وهذا من معاني العوام أن يقولوا لمن رأوا حاله قد حسنت: على من أغرت، أو أي كنز وجدت. وما ظننت مثل هذا يُنظَم شعراً. وقوله: «أقبلت من عند خالد» كلام كالفارغ. وإنما كان ينبغي لمن ابتلاه الله بهذا المعنى أن يقول في جوابهم: نعم كنز خالد، وأغار على ندى خالد. ولكنه، لعمري، بيَّن المعنى في البيت الثاني، وعرفهم سبب عمارة رحله بأن قال: «جذبت نداه غدوة السبت جذبة/ فخر صريعاً بين أيدي القصائد». وهذا، وأبيه، معنى متناهٍ في برده وغثاثته وركاكته، ولَشتيمةُ الممدوح عندي بالزِّنى أحسن وأجمل من جذب نداه حتى يخر صريعاً. ولو لم يُعلمنا أن ذلك كان غدوة السبت كيف كان يتم بَرْدُ المعنى؟ وحبيناء اسم موضع، في غاية القبح والهجانة. فإنهم وإن كانوا قالوا ما قالوا في هذا الموضع فإنه لم يك مضطراً إلى ذكره، كما أنه لم يك مضطراً إلى ذكر غدوة السبت» اهـ الآمدي

١٠٠ الخلود الدنيوي

يمدح خالد بن يزيد بن مزيدٍ الشيباني:

راحتْ غَوانيِ الحيِّ، عنكَ غَوَانِياً   يَلْبَسْنَ نَأْياً تارةً وصُدودا

أصبحت غواني الحي (حسانه) مستغنيات عنك، يبدين النأي (البعد) والصدود

أَحْلَى الرجالِ مِنَ النساءِ مَواقِعاً   مَنْ كانَ أشبَهَهُمْ بِهِنَّ خُدودا

أكثر ما تحب المرأة في الرجل أن يكون شاباً ناعم الخدين مثلها

فاطْلُبْ هُدوءاً بالتَّقَلْقُلِ، واسْتَثِرْ   بِالعيسِ مِنْ تحتِ السُّهادِ هُجُودا

فاطلب الهدوء (العيش الهانئ) بالتقلقل (التنقل)، وعليك أن تستثير ـ بالعيس (بالإبل) التي ترحل بك ـ الهجود (النوم الهادئ) من تحت السهاد (السهر). الراحة تأتيك بأن تسافر، والنوم الهادئ تنتزعه من سهرك (وكانوا يسيرون ليلاً طلباً للبرودة، فيقضون ليلهم ساهرين سائرين فوق الإبل)

نَسَبٌ كأنَّ عليهِ مِنْ شمسِ الضُّحَى   نُوراً، ومِنْ فَلَقِ الصباحِ عَمُودا

يمدح خالد بن يزيد الشيباني: نسبه مشرق، كأنَّ عليه من فلق الصباح (انشقاق الفجر) عموداً (ضوء الفجر)

وإذا رأيتَ أبا يزيدٍ في نَدىً،   وَوَغىً، ومُبْدِئَ غارَةٍ ومُعِيدا

أَيْقنتَ أنَّ مِنَ السَّمَاحِ شجاعةً   تُدْمِي، وأنَّ مِنَ الشجاعةِ جُودا

إذا رأيته في السخاء وفي الحرب أدركت أن السماح (الكرم) تخرج منه شجاعة تدمي العدو، وأن الشجاعة يرافقها الجود

وإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ حولَ قِبَابِه   لم تَلْقَ إلَّا نِعْمَةً وحَسُودا

إذا أجلت نظرك حول بيوته رأيت نعمة على الناس بسببه، ورأيت من يحسده على عظمته

ومتى حَلَلْتَ به أنالَكَ جَهْدَهُ،   ووَجَدْتَ بعدَ الجَهْدِ فيه مَزِيدا

أنالك: أعطاك، جهده: أقصى استطاعته

أبقى يزيدُ ومَزْيَدٌ وأَبُوهُما   وأَبُوه، رُكْنَكَ في الفَخَارِ شَديدا

يا خالد: أبوك يزيد وجدك مزيد وأبوهما، أي أبا جدك، وأبوه أي جد جدك أبقوا لك ركناً شديداً من المجد تفخر به

سَلَفُوا يَرَوْنَ الذِّكْرَ عَقْبَاً صَالِحاً   ومَضَوْا يَعُدُّونَ الثَّناءَ خُلودا

مضوا وهم يعدون الذكر (حسن السيرة) عقباً صالحاً (مثل الأحفاد الصالحين)، ويعتبرون ثناء الناس عليهم خلوداً

١٠١ حُطَّ الرحل والظن

يرثي خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

لِتَبْكِ القَوافي شَجْوَهَا بعدَ خَالدِ   بكـاءَ مُضِـلَّاتِ السَّمَـاحِ نَـواشِـدِ

لتبك القصائد شجوها (حزنها) بعد خالد بكاء من ضاع منه السماح (الجود) فهو ينشده (يبحث عنه). يقول: القصائد مضلات الجود (قد ضيعنه فهن يبحثن عنه بعد موت خالد)

تَقَلَّصَ ظلُّ العُرْفِ في كلِّ بلدةٍ   وأُطْفِئَ في الدُّنْيا سِراجُ القَصائِدِ

العرف: المعروف

ويا شَائِماً بَرقاً خَدُوعاً، وسامعاً   لِـرَاعِـدَةٍ دَجَّـالَـةٍ فـي الـرَّوَاعِـدِ..

يا شائماً (مرتقباً) برقاً خادعاً من سحابة لن تمطر،
ويا سامعاً لسحابة راعدة لكنها كاذبة ولن تمطر..

أَقِمْ، ثـم حُطَّ الرَّحْلَ والظَّنَّ، إنَّـه   مضتْ قِبْلَةُ الأَسفارِ مِنْ بعدِ خالدِ

أقِم (امكث ولا ترحل)، وأنزل رحلك (متاعك) أرضاً، وكذلك أنزِل ظنك (رجاءك) أرضاً، فبموت خالد لم يعد هناك قبلة للمسافرين لكي يقصدوها طلباً للعطاء

فَيَا وَحْشَةَ الدُّنيا، وكانتْ أَنِيسَةً،   ووَحْدَةَ مَنْ فيهـا لِمَصْرَعِ واحِدِ

١٠٢ يا كاسري كسرى!

يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي:

عـلـى مـثـلِـهـا مـن أَرْبُـعٍ ومَـلاعِـبِ   أُذِيلَتْ مَصونَاتُ الدُّموعِ السَّواكِبِ

على مثل هذه الأطلال من الأربع (الربوع، الأماكن) والملاعب (الأماكن التي تلعب فيها الريح) أذيلت (أهينت) الدموع السواكب (المنهمرة) التي كانت مصونة من قبل. يقول: لستُ أول من يبكي على الأطلال، فقد بكى على مثلها أناس قبلي

ورَكْبٍ يُسَاقُونَ الرِّكَابَ زُجَاجَةً   مِنَ السَّيْرِ، لم تَقْصِدْ لها كَفُّ قَاطِبِ

رب ركب (مسافرين) يساقون (يشربون ويسقون) الركاب (الإبل) من زجاجة (كأس) هي عبارة عن السير، وهذه الزجاجة لم تتناولها يد قاطب (مازج لها بالماء). يقول: نحن نتساقى مع إبلنا كؤوس السير فنسكر تعباً لكن: بالسير لا بالخمر

فقد أَكَلوا منها الغَوارِبَ بِالسُّرَى،   فَصارتْ لها أشباحُهُمْ كالغَوارِبِ

لقد أكل المسافرون غوارب الإبل (أسنمتها) بالسرى (سير الليل)، وصارت أشباحهم (أجسامهم المهزولة) وهم يركبون إبلهم كأنها أسنمة لها. وسنام الجمل يذوب مع قلة الأكل وشدة التعب. على بعد ما بين طرفة بن العبد وأبي تمام فكلاهما عايش الناقة وسافر عليها

إذا العِيسُ لاقَتْ بِي أبا دُلَفٍ، فقدْ تَقَطَّعَ ما بَيْني وبينَ النَّوائبِ

إذا العيس (الإبل) جعلتني ألاقي أبا دلف، فقد انقطع ما بيني وبين المصائب لأنه سيكفيني شرها

هنالِكَ تَلْقَى الجُودَ حيثُ تقطَّعتْ تَمائِمُهُ، والمجدَ مُرْخَى الذَّوَائبِ

عند أبي دلف تلقى الجود، فعنده ترعرع الجود وقطعت عنه تمائمه (أزيلت الأحراز والحُجُب والتعاويذ من عنقه كما تزال من عنق الصبي عندما يكبر)، وتلقى المجدَ مرخى الذوائب (منسدل الخصلات شاباً يافعاً)

تكادُ عطايَاهُ يُجَنُّ جنونُها إذا لم يُعَوِّذْها بِنَغْمَةِ طَالبِ

تكاد عطاياه (أمواله المجهزة للإعطاء) تجن جنوناً إذا لم يعوذها (يضع عليها تعويذة، تميمة) هي عبارة عن نغمة طالب (سؤال طالب للعطاء)

إذا حرَّكَتْهُ هَزَّةُ المجْدِ غَيَّرَتْ عَطاياهُ أسماءَ الأماني الكَواذِبِ

إذا اهتز الممدوح تمهيداً للعطاء فإن عطاياه تغير أسماء الأماني الكاذبة (مثل أمنية، ورجاء، واحتمال) وتجعلها حقائق (مثل فوز، وظفر، ونجاح). والإنسان الكريم إذا عزم على دفع مبلغ كبير اهتز جسمه، كأنه بجسمه يريد أن يمنع عقله من التراجع عن نيته، وما أكثر ما وصف الشعراء اهتزاز الممدوح طرباً أو كرماً. الأريحي يهتز كتفاه ويبذل، والشحيح يجمد جسمه ويصمت عقله بوجل في مواقف النجدة

تكادُ مَغانِيهِ تَهَشُّ عِراصُها، فتَرْكَبُ مِنْ شَوْقٍ إلى كُلِّ راكبِ

مغانيه (بيوته) تكاد عراصها (ساحاتها) تهش (تبسط أساريرها فرحاً)، فكأن هذه الساحات تريد أن تركب الناقة لتصل إلى الفقير بدل أن يركب هو الناقة ليصل إليها

يَرى أَقْبَحَ الأَشياءِ أَوْبَةَ آيِبٍ كَسَتْهُ يَدُ المأمُولِ حُلَّةَ خَائِبِ

أقبح شيء عند الممدوح أن يرى أوبة (رجْعة) الزائر وقد كسته يد المأمول (الممدوح) حلة (لباس) الخيبة

وأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ تُفَتِّحُهُ الصَّبَا بَياضُ العَطايا في سَوادِ المطَالِبِ

أجمل من نَوْر (زهر الشجر) الذي تفتحه ريح الصبا، العطايا البيض التي تصادف مطالب (حاجات) سوداً. فالعطايا بيض مشرقات ومطالب الناس سود لشدة الفقر والحاجة

إذا أَلْجَمَتْ يوماً لُجَيْمٌ، وحَوْلَها بنو الحِصْنِ، نُجْلُ المحْصَنَاتِ النَّجَائِبِ..

إذا ألجمت قبيلة لجيم خيلها (وضعت اللجام على فم كل حصان استعداداً للحرب)، ومعهم بنو الحصن من أقاربهم، وهؤلاء هم نُجل (أنجال) النساء المحصنات (الطاهرات) النجائب (أمهات النجباء).. فعندئذٍ..

فإنَّ المنَايا والصَّوارِمَ والقَنا أقارِبُهُمْ في الرَّوْعِ دونَ الأَقَارِبِ

.. فإن المنايا (الموت للأعداء) والصوارم (السيوف) والقنا (الرماح) تصبح جميعاً أقاربهم أكثر من الأقارب المعروفين

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَواصٍ عَواصِمٍ   تَصُولُ بِأَسْيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

يمدون ما شئت من الأيادي العواصي (الأبيّة) العواصم (المجيرة الحامية) التي تصول بسيوف قواض (تقضي بإرادتها، وتجبر الأعداء على حكمها) قواضب (قاطعة)

إذا الخيلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الحربِ صَدَّعُوا   صُدُورَ العَوالِي في صُدُورِ الكَتَائِبِ

إذا الخيل جابت قسطل الحرب (غبارها) صدعوا (كسَّروا) صدور العوالي (أطراف الرماح) في صدور الكتائب (في صدور جنود الكتائب)

إذا افْتَخَرتْ يوماً تميمٌ بِقَوْسِها،   وزَادَتْ على مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِبِ..

إذا افتخرت قبيلة تميم بقوس حاجب بن زرارة (وكان كسرى طلب رهناً من سيد تميم لشأن كان بينهما، فأعطاه قوسه، فضحك أصحاب كسرى، فقال لهم: خذوها، فإنه لا يتركها. فأخذوا القوس. ثم إن حاجباً وفى، واستردَّ قومه القوس)، وإذا زادت تميم بعض الزيادة على مناقبها (فضائلها) الحقيقية التي وطدتها (رسختها)..

فأنْتُمْ بِذي قَارٍ أَمَالَتْ سيوفُكُمْ   عُروشَ الذينَ استَرْهَنُوا قَوْسَ حَاجِبِ

.. فأنتم في موقعة ذي قار أطحْتم إطاحةً بعرش كسرى الذي أخذ قوس «حاجب» رهينة

وقد مر بك في القطعة ٩٨ أن بني شيبان هزموا كسرى في ذي قار،
فاعلم أنه كان معهم بنو عجل أيضاً

مَحاسِنُ مِنْ مَجْدٍ متى تَقْرِنُوا بها   مَحاسِنَ أَقْوَامٍ تَكُنْ كالمعَايِبِ

محاسنكم عظيمة، إذا قورنت بمحاسن غيركم تبدو محاسن الغير صغيرة كأنها العيوب

مَكارِمُ لَجَّتْ في عُلُوٍّ، كأنّها   تُحَاوِلُ ثَأْراً عندَ بعضِ الكواكِبِ

مكارمكم لجت (تمادت) في العلو، وكأنها تريد إدراك ثأر عند بعض الكواكب

وقد عَلِمَ الأَفْشينُ، وَهْوَ الذي به   يُصَانُ رِدَاءُ المُلْكِ عن كُلِّ جَاذِبِ،

قد علم القائد الأفشين، وهو الذي يصان (يحفظ) به الملك عمن يريد اجتذابه لنفسه واغتصابه..

بأنَّكَ، لمَّا اسْحَنْكَكَ الأمرُ، واكتَسى   أَهَابِيَّ تَسْفِي في وُجُوهِ التَّجارِبِ،

.. علم بأنك ـ لما اسحنكك الأمر (ادلهم واسودَّ الموقف) ـ واكتسى الأمر أهابيَّ (أتربةً) تسفي (تثور وتهب) في وجوه التجارب. فالموقف صعب وفيه غبار يعمي عيون التجارب، ولا ينفع الإنسان طول خبرته في مثل هذه المواقف..

تَجَلَّلْتَه بالرَّأْيِ، حتَّى أَرَيْتَه   به مِلءَ عَيْنَيْه مَكانَ العَوَاقِبِ

تجللت الموقف بالرأي (علوت على الموقف بالحكمة والبصر الثاقب)، حتى أريْت الأفشين برأيك الثاقب ملء عينيه مكان (العواقب) النتائج المحتملة

سَلَلْتَ له سَيْفَينِ: رَأْياً ومُنْصُلاً   وكلٌّ كَنَجْمٍ في الدُّجُنَّةِ ثَاقِبِ

سللت لخدمة القائد الأفشين سيفين: أحدهما رأيك، وثانيهما نصل سيفك الحقيقي، وكلاهما لامع كالنجم الثاقب (المشتعل)

إليكَ أَرَحْنا عَازِبَ الشِّعْرِ، بَعْدَمَا   تَمَهَّلَ في رَوْضِ المعاني العَجَائِبِ

هذا الشعر العازب (السارح يرعى في الخلاء) أرحناه (جعلناه يعود مساء) إليك بعد أن تمهل (رعى مرتاحاً) في روض المعاني، وجمع لك أجملها

غَرائِبُ لاقَتْ في فِنائِكَ أُنْسَها   مِنَ اليومِ، فَهْيَ الآنَ غيرُ غَرائِبِ

هذه معان شعرية غريبة وجديدة، وفي جوارك أصبحت أنيسة غير غريبة. واعلم أن «غرائب الإبل» هي التي تضل وتأتي قوماً غير قومها، فهم يضربونها لتبتعد عنهم وتبتعد معها شبهة السرقة؛ واستئناس الوحشي من الحيوان هو تدجينه. وأبو تمام يشبه معانيه المصنوعة العجيبة ـ وإنها لكذلك ـ بالإبل الشاردة، ولكنها تأتنس بالممدوح، وتصبح داجنة عنده لأنه يستحقها

ولو كانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ ما قَرَتْ   حِياضُكَ منهُ في العصورِ الذَّوَاهِبِ

لو كان الشعر يفنى لأفناه ما قرت (جمعت) حياضك (أحواضك) منه في السنين المنصرمة. يقول: لكثرة ما مدحك الشعراء لم يتركوا معنى إلا طرقوه، ولو كان الشعر يفنى لفني بسبب ذلك..

ولكنَّهُ صَوْبُ العقولِ، إذا انجَلَتْ   سَحَائِبُ منهُ أُعْقِبَتْ بِسَحائِبِ

ولكن الشعر صوب (مطر) العقول، فإذا انقشعت غيومه أُعقبت (أُردفت) بغيوم جديدة

١٠٣ الطرف القُلقُل

وقال لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي:

عَجَبٌ، لَعَمْرِي، أنَّ وَجْهَكَ مُعرِضٌ   عني، وأنتَ بِوَجْهِ نَفْعِكَ مُقْبِلُ

عجيب أن تبتعد بوجهك عني، مع أن منفعتك مقبلة عليّ

بِرٌّ بَدأْتَ بِهِ، ودَارٌ بابُها   لِلخَلْقِ مفتوحٌ، ووجهُكَ مقفَلُ

هذا برٌّ بدأت به (قدمته قبل السؤال)، ودارك مفتوحة لكل الناس ووجهك مقفل لا يبش

أَوَلا تَرى أنَّ الطَّلاقَةَ جُنَّةٌ   مِنْ سُوءِ ما تجني الظُّنونُ، ومَعْقِلُ؟

ألست ترى أن الطلاقة (البشاشة) جُنَّةٌ (وقاية) ومعقل (حصن) ضد الظنون السيئة وما تجنيه؟

حَلْيُ الصَّنِيعَةِ أن يكونَ لِرَبِّها   لَفْظٌ يُحَسِّنُها، وطَرْفٌ قُلْقُلُ

حلي (زينة) الصنيعة (العطية) أن يكون لربها (صاحبها) لفظ يحسنها (كلام يزيدها جمالاً) وطرف (نظرٌ) قلقل (متذبذب). فالمضيف الكريم البشوش لا يركز نظره في وجه ضيفه فيحرجه، بل يردد النظر إليه مرة بعد مرة. وقال التبريزي إن أبا تمام لم يسبق إلى استعارة هذه اللفظة. ولعمري، إنه لبيت دقيق المعنى

إنْ تُعْطِ وَجْهاً كاسِفاً، مِنْ تَحتِهِ   كَرَمٌ، وحِلْمُ خَليقَةٍ لا تُجْهَلُ..

إن تعط الناس وجهاً كاسفاً (حزيناً)، وتحته كرم، وحلم خليقة (سماحة طبع)
معروفة عنك وغير مجهولة..

فَلَرُبَّ سَارِيَةٍ عليكَ مَطيرَةٍ،   قد جَادَ عَارِضُها، وما يَتَهَلَّلُ

فرب سارية (غيمة) ماطرة جاد (هطل) عارضها (سحابها)،
بدون أن يتهلل (يبتسم/أي يرسل البرق قبل المطر)

١٠٤ السكوت وعد

يعاتب أبا دلف وقد حجبه، وقيل هي في عبد الله بن طاهر:

يا أَيُّهَا المَلِكُ النَّائي بِرُؤْيَتِهِ،   وجُودُهُ لِمُرَجِّي جُودِهِ كَثِبُ

رؤيته صعبة، وسخاؤه لراجيه كثِب (قريب)

ليس الحِجَابُ بِمُقْصٍ عنكَ لي أَمَلاً؛   إنَّ السماءَ تُرَجَّى حينَ تَحْتَجِبُ

الحجاب (وجود الحُجَّاب، وإغلاق الأبواب) ليس مقصياً (مبعداً) أملي فيك، فالسماء عندما
تحتجب بالغيوم ترجَّى (يرتجى منها المطر)

ما دونَ بابِكَ لي بابٌ أَلُوذُ بِهِ   ولا وراءَكَ لي مَثْوىً ومُطَّلَبُ

ليس قبل بابك ولا بعده باب ألوذ به، وليس لي مثوى (إقامة) أو طلب عند أحد سواك

يا خَيْرَ مَنْ سَمِعَتْ أُذْنٌ بِهِ، ورَأَتْ   عَيْنٌ، ومَنْ وَرَدَتْ أبْوابَهُ العَرَبُ

أمَّا السُّكُوتُ، فَمَطْوِيٌّ على عِدَةٍ؛   وفي كَلامِكَ غُرُّ المالِ يُنْتَهَبُ

سكوتك مطوي على عدة (وعد)، وعندما تتكلم وتأمر بالعطاء فكلامك يجعلنا ننهب المال نهباً

١٠٥ تهديد بالرحيل الغاضب

يعاتب أبا دلف:

أبا دُلَفٍ! لم يَبْقَ طَالِبُ حَاجَةٍ   مِنَ الناسِ غيري؛ والمَحَلُّ جَديبُ

لم يبق طالب حاجة إلا أخذها سواي، والمكان جديب وبنا حاجة

يَسُرُّكَ أَنِّي أُبْتُ عَنْكَ مُخَيَّباً؟   ولم يُرَ خَلْقٌ، مِنْ جَدَاكَ، يَخيبُ

أبت: رجعت

وأَنِّيَ صَيَّرْتُ الثَّناءَ مَذَمَّةً،   وقَامَ بِهَا في العَالمينَ خَطيبُ؟

أَقَمْتُ شُهوراً في فِنَائِكَ خَمْسَةً لَقىً، حَيْثُ لا تَهْمِي عَلَيَّ جَنُوبُ

أقمت لقىً: مكثت مهمَلاً، تهمي: تمطر، جنوب: ريح الجنوب

فإنْ نِلْتُ مَا أَمَّلْتُ فيكَ، فَإنَّني جَدِيرٌ، وإلَّا فالرَّحِيلُ قَرِيبُ

١٠٦ قطعة من الجاه

قال لإسحق بن أبي ربعي كاتب أبي دلف، وقد شفَّعه في أمر:

إنَّ الأميرَ بَلاكَ في أحوالِهِ فرآكَ أَهْزَعَهُ غَداةَ نِضالِهِ

بلاك (جربك) الأمير في حالات شتى، فوجدك أهزعه (السهم الأخير في كنانته) صبيحةَ نضاله

آسَيْتَهُ في المكْرُمَاتِ، ولم تَزَلْ رُكْناً لِمَنْ هُوَ مُمْسِكٌ بِحِبَالِهِ

آسيته (أشبهته) في المكرمات، وظللت ركناً لمن هو متمسك بالولاء للأمير

فَغَدَوْتَ محبوباً إلى أضيافِهِ، وغَدَوْتَ مَقْلِيَّاً إلى عُذَّالِهِ

مقلياً: مكروهاً

فَمتى النُّهوضُ بِحَقِّ شُكْرِكَ إنْ جَنَتْ بالغَيْبِ كفُّكَ لي ثِمَارَ فِعَالِهِ؟

فمتى سأنهضُ بشكرك (سأقوم بشكرك) إذا جنتْ (قطفت) لي كفك، بالغيب (وأنا غائب) ثمار الأمير وعطاياه؟ هذا شكر مشروط. فهو يسأل: متى سأتمكن من شكرك، لكن بشرط أن تستطيع تحقيق مطلبي، عندما تكلم الأمير بشأني بينك وبينه، في غيابي؟

فَلَقِيتُ بينَ يَدَيْكَ حُلْوَ عطائِهِ ولَقِيتَ بينَ يَدَيَّ مُرَّ سُؤَالِهِ

وعندئذ أكون قد لقيت من يدك عطاء الأمير وهو حلو، ولقيت أنت عندي سؤال الأمير، والسؤال مرٌّ وكريه دائماً

وإذا امْرُؤٌ أَسْدَى إليكَ صَنيعَةً مِنْ جَاهِهِ، فكأنَّها مِنْ مَالِهِ

١٠٧ خائفٌ على عنقي

يمدح إسحق بن أبي ربعي:

يا مِنَّةً لكَ، لولا مَا أُخَفِّفُها بِهِ مِنَ الشكرِ، لم تُحْمَلْ ولم تُطَقِ

منَّة: معروف

بِاللَّهِ أَدْفَعُ عَنِّي حَقَّ فَادِحِها، فإنني خَائفٌ منها على عُنُقي

فادحها: ثقيلها

١٠٨ وركب كأطراف الأسنَّة

يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب:

هُنَّ عَـوادي يُـوسُـفٍ وصَـوَاحِـبُـهْ؛ فَعَزْماً، فقِدْمَاً أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

النساء عوادي النبي يوسف (صارفاته عن عزمه)، وصواحبه (المذكورات معه). فلا تلتفت للنساء وتخويفهن إياك من الرحيل ومحاولة صرفك عن همتك، واعقد عزماً؛ فقدماً (دوماً، منذ القِدَم) أدرك السؤل (الأمنية) من يطلبه. يقول أبو تمام إن النساء هن من عرفناهن في قصة يوسف، فقد حاولت زليخا إغواءه، ثم اجتمعت النساء ينظرن إلى جماله وقطعن أيديهن، (ويذكّرنا بحديث النبي إذ وافته المنية، فراجعته عائشة وحفصة في شأن من يصلي بالناس فقال: «إنكنَّ لأنتنَّ صواحب يوسف»). لست تدري وأنت تفسر أبا تمام ما الذي يشير إليه. ليس بالضرورة أن يكون المعنى في بطن الشاعر، فشاعرنا ممتلئ بالثقافة العربية الإسلامية، والكلمة تقفز إلى ذهنه ثم تستقر في بيته وقد تكون آتية من أكثر من مكان، فلا غرو أن يتنازع البيت أكثر من معنى. وهذا البيت لم يلق قبولاً من أبي العميثل مسؤول الشعراء في حاشية الأمير، في قصة طويلة، ملخصها أنه قال لأبي تمام: لم لا تقول ما يُفهم؟، فقال له أبو تمام: ولم لا تفهم ما يقال؟ (والتعليق منسوب لأبي سليمان الضرير في رواية أخرى) وأما الشطر الثاني فقد استرذله الآمدي، وأتى بأربعة بدائل كلهنَّ فيما أرى أجود منه. هذا، ولم نذكر الخرم في أول البيت

أَعاذِلتِي! ما أخشَنَ اللَّيلَ مَرْكَباً. وأَخْشَنُ منهُ في المُلِمَّاتِ راكِبُهْ

أيتها اللائمة لي على السفر! ألا فاعلمي أن الليل مركب خشن (ناقة صعبة)، وأخشن من الليل وأقسى منه من يركبه في الملمات (في الأزمات)

ذَرِيـنـي وأَهـوالَ الـزَّمـانِ أُفَـانِـهـا، فَأَهْوالُه العُظمى تَلِيها رغائِبُهْ

أتركيني مع أهوال الزمان كي أفانيَها (أحاربها حرب فناء)، فأهوال الزمان تأتي بعدها رغائبه (مسراته)

ألم تَعْلَمي أنَّ الزَّمَاعَ على السُّرَى أخو النُّجحِ، عندَ النَّائباتِ، وصَاحِبُهْ؟

الزماع (التصميم)، على السرى (سير الليل)، أخو النجح (مرافق للإنجاز)

دَعيني على أَخلاقِيَ الصُّمِّ لِلَّتي هِيَ الـوَفْـرُ، أوْ سِرْبٌ تُرِنُّ نَـوادِبُـهْ

اتركيني على أخلاقي الصم (التي لا تسمع اللوم) لتحقيق الغاية التي هي الوفر (الغنى)، أو أموت ويأتي سرب من النسوة تُرِنُّ نوادبه (تنوح نادباته)

وقَلْقَلَ نَأْيٌ مِنْ خُرَاسَانَ جَأْشَها، فَقُلْتُ: اطمَئِنِّي، أَنْضَرُ الرَّوْضِ عازِبُهْ

قلقل نأي من خراسان جأشها (هز خبر جاءني من خراسان، بوجوب الذهاب إليها، قلبها)، فقلت لها: اطمئني، فإن أنضر روض عازبه (بعيدُهُ). فالروض البعيد عن المواشي يكون نضراً نامي العشب، وكذا خراسان فهي بعيدة لا يغشاها الشعراء كثيراً، وفيها للشاعر المادح خير كثير

وَرَكْبٍ كأطرافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا على مِثْلِها، والليلُ تَسْطُو غَياهِبُهْ

رب ركب (مسافرين) نخيلين، فكأنهم أطراف أسنة الرماح، وقد عرّسوا (قضوا الليل) على مثلها (على ظهور نياق هزيلة لطول الرحلة فهي أيضا مثل أطراف الأسنة)، وكانت غياهب الليل (ظلماته) تسطو (تهجم). فهؤلاء القوم مسافرون يقضون الليل فوق ظهور الجمال لاجتهادهم في السير، والسير الليلي فيه اجتناب للحر

لأَمْرٍ عليْهِمْ أنْ تَتِمَّ صُدُورُه، وليسَ عليْهِمْ أن تَتِمَّ عَواقِبُهْ

لقد ركبوا الجمال من أجل أمر عليهم (واجبهم) أن تتم صدوره (مقدماته)، وأما عواقبه (نتائجه) فليست بيدهم. طبعاً هي بيد الممدوح الذي يرجى منه أن يكون سخياً

على كلِّ رَوَّادِ المِلاطِ، تَهَدَّمَتْ عَريكَتُهُ العَلياءُ، وانضَمَّ حَالِبُهْ

سافرنا على ظهر كل جمل رواد الملاط (متحرك الأكتاف، إذ يسير حثيثاً)، وقد تهدمت (اهترأت) عريكته العلياء (سنامه)، وانضم حالبه (لهزال الجمل تتقارب عروق بطنه)

رَعَتْهُ الفَيافي، بعدَ أنْ كانَ حِقْبَةً رَعاها، وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ ساكِبُهْ

رعت الفيافي (الصحراء) جسم هذا الجمل وأنهكته، فكأنها أكلته، وكان الجمل حقبةً من الزمن يرعى عشب الفيافي في زمان انسكاب المطر

إلى مَلِكٍ لم يُلْقِ كَلْكَلَ بَأْسِه على مَلِكٍ إلّا ولِلذُّلِّ جَانِبُهْ

سافرنا إلى ملك (أمير أو قائد/وكل صاحب سلطة عصرئذٍ «ملك») لم يضع كلكل بأسه (صدر جبروته) على قائد آخر، إلا وألحقَ الذل بجانب ذلك القائد

سَما لِلْعُلى مِنْ جانِبيْها كِلَيْهِما سُمُوَّ عُبَابِ الماءِ جَاشَتْ غَوارِبُهْ

ارتفع هذا القائد للمجد من كلا طرفي المجد مثلما يرتفع الماء عالياً وقد جاشت (اصطخبت) غواربه (أمواجه). والتعبير بالمثنى «من جانبيها» يعني الإحاطة فكأنه يقول: من الشرق والغرب، أو من اليمين واليسار

فَنَوَّلَ حتى لم يَجِدْ مَنْ يُنِيلُهُ، وحاربَ حتى لم يَجِدْ مَنْ يُحارِبُهْ

نول (أعطى) حتى لم يبقَ من هو بحاجة للعطاء، وحارب حتى أفنى الأعداء

ويومٍ أَمَامَ المَلْكِ دَحْضٍ وقَفْتَهُ ولو خَرَّ فيه الدِّينُ لانهالَ كاثِبُهْ

رب يوم دحض (زَلق) وقفت فيه أمام المَلْك (هنا تعني الخليفة) مدافعاً عنه، ولو كان الدين قد خر (سقط) في ذلك اليوم لانهال كاثبه (كثيبه)

جَلَوْتَ به وَجْهَ الخِلافَةِ، والقَنَا قدِ اتَّسَعَتْ بينَ الضُّلُوعِ مَذَاهِبُهْ

جلوت بهذا اليوم وجه الخلافة (بيضت وجهها)، وكانت الرماح قد اتسعت مذاهبها (ممرّاتها) بين ضلوع المتحاربين

فلو نَطَقَتْ حَرْبٌ لَقالَتْ مُحِقَّةً: ألا هَكذا فَلْيَكْسَبِ المجدَ كاسِبُهْ

لو كان للحرب أن تتكلم لقالت، وهي على حق، هكذا يكون كسب المجد

ويا أيُّها السَّاعي لِيُدرِكَ شَأْوَهُ تَزَحْزَحْ قَصِيًّا؛ أَسوأُ الظنِّ كَاذِبُهْ

يا من يسعى لإدراك شأو (مدى) هذا القائد، وراءَكْ.. تزحزحْ بعيداً، فأسوأ الظن (الأماني) ما كان كاذباً

١٠٩ مطلع الجود

وقال في عبد الله بن طاهر وقد خرج إليه:

يقولُ في «قُومَسٍ» صَحْبِي، وقد أخَذَتْ مِنَّا السُّرَى، وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ

يقول صحبي ونحن في «قومس»، وقد نالت منا السرى (سير الليل)، وخطا المهرية القود (الإبل الكريمة الطويلة الأعناق)

أَمَطْلَعَ الشمسِ تَنْوِي أن تَؤُمَّ بِنا؟ فَقُلْتُ: كَلَّا، ولَكِنْ مَطْلَعَ الجُودِ

يقولون: هل تؤم بنا (تقودنا إلى) مكان طلوع الشمس (إلى اللانهاية)؟ فقلت لهم: كلا، بل مطلع الجود

١١٠ الشواهد والشمائل

وقال يرثي ابني عبد الله بن طاهرٍ وكانا صغيرين:

نجمانِ شاءَ اللَّهُ ألَّا يَطْلُعا إلا ارتِدادَ الطَّرْفِ، حتى يَأْفُلا

طلع هذا النجمان بقدر طرفة العين، ثم أفلا

إن الفَجيعَةَ بالرِّيَاضِ نَواضِراً لأَجَلُّ منها بالرياضِ ذَوَابِلا

لو يُنْسَآنِ، لَكَانَ هذا غَارِباً لِلْمَكْرُماتِ، وكانَ هذا كَاهِلا

ينسآن: يؤجلان، الغارب: الظَّهر، الكاهل: أعلى الظهر ما بين الكتفين

لَهَفي على تلكَ الشَّواهِدِ فيهِما، لو أُمْهِلَتْ حتى تكونَ شَمَائِلا

واحسرتا على الشواهد (البشائر) على نجابة الولدين، لو كان الزمن أمهلها حتى تصبح شمائل (صفات)

إنَّ الهِلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّهُ أَيْقَنْتَ أنْ سيَكُونُ بدراً كاملاً

١١١ إخفاء المعروف سرقة

يمدح أبا زيد كاتب عبد الله بن طاهر، ويشكر سعيه له في حاجة:

وأَخَفُّ ما جَشَّمَ امْرُؤٌ، وسَعَى له يَوماً لِذِي النُّعْمَى، الثَّنَاءُ الصَّادِقُ

جشم: تجشم وتحمل (أقل واجبك علينا أن نثني عليك)

أأرى الصَّنيعَةَ مِنْكَ، ثم أُسِرُّهَا!   إنّـي، إذنْ، لِيَدِ الكِرَامِ لَسَارِقُ

الصنيعة: المعروف، أسرها: أخفيها، اليد: المعروف

١١٢ التضاد

يمدح عبد الحميد بن غالب، والفضل بن محمد بن منصور، وإبراهيم ابن وهب، كتاب عبد الله بن طاهر:

والحادثاتُ، وإنْ أَصَابَكَ بُؤْسُها،   فَهُوَ الذي أَنْباكَ كيف نعيمُها

١١٣ كل غانية هند

يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانة:

إذا انصرَفَ المحزونُ قد فَلَّ صبرَه   سؤالُ المَغاني، فالبكاءُ له رَدُّ

إذا انصرف (أصبح) الحزين قد هزم صبره سؤال المغاني (الديار) عن الأحباب الراحلين، فالجواب الوحيد هو أن يبكي. أخذنا برواية الصولي لكلمة «رد»، بفتح الراء

فلا تَحْسَبا هِنْداً لها الغدرُ وحدَها   سَجِيَّةُ نفسٍ. كلُّ غانِيةٍ هندُ

رقيقُ حَواشي الحِلْمِ، لو أنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ في أنه بُرْدُ

يمدح: هذا الرجل حليم، فكأن حلمه ثوب حواشيه (أطرافه) رقيقة، ولو لمست حلمه لما ماريت (جادلت) في أنه حقاً برد (ثوب)

وذو سَوْرَةٍ تَفْري الفَرِيَّ شَباتُها؛   ولا يَقْطَعُ الصَمْصَامُ ليسَ له حَدُّ

على أنه ذو سورة (هجمة) تفري الفري (تفعل الأفاعيل) شباتها (نصلها)؛ ولا يقطع الصمصام (السيف) الذي ليس له حد. فالسيف أيضاً ناعم لامع فيه رقة، ولكن له حداً قاطعاً

فقد نزلَ المُرتادُ منه بِمَاجِدٍ   مواهبُه غَوْرٌ، وسُؤْدَدُهُ نَجْدُ

لقد نزل المرتاد (طالب العطاء) منه بماجد، أي نزل بمن هو ماجد، مواهبه غور (عطاياه أرض مطمئنة فياضة)، وسؤدده نجد (سيادته هضبة لا ينالها العدو)

١١٤ الحب المنكوح

يمدح محمد بن الهيثم بن شُبانة:

وقالتْ: نِكَاحُ الحُبِّ يُفْسِدُ شَكلَه،   وكمْ نَكَحُوا حُبّاً وليس بِفَاسِدِ!

هي ترى أن المعاشرة الجسدية تفسد الحب، ويقول لها شاعرنا إن الاثنين يسيران معاً

سَآوِي بهذا القلبِ مِنْ لوعةِ الهوى   **إلى ثَغَبٍ من نُطْفَةِ اليأسِ بَاردِ**

سألجأ بقلبي، للتخفيف من لوعة الهوى، إلى ثغب (جدول ماء)
بارد هو عبارة عن نطفة (قطرة) اليأس

وأَرْوَعَ لا يُلقي المقَالِدَ لامرئٍ،   **فَكُلُّ امرئٍ يُلقي له بِالمقَالِدِ**

رب أروع (شجاع) لا يلقي المقالد (يسلم المفاتيح/يسلم أموره) لأحد، بل الناس تكل إليه أمورها

يَصُدُّ عن الدُّنيا إذا عَنَّ سُؤْدَدٌ،   ولو بَرَزَتْ في زِيِّ عَذراءَ نَاهِدِ

يصد عن ملذات الدنيا إن عنَّ (وردَ) واجب يعزز السؤدد (الشرف)، ولو برزت إليه الدنيا مغرية
كأنها عذراء ناهد (ارتفع صدرها)

إذا المرءُ لم يَزْهَدْ، وقد صُبِغَتْ له   بِعُصْفُرِها الدنيا، فليس بِزاهِدِ!

إذا المرء لم يزهد في الدنيا، وقد صبغت له ملابسها بالعصفر (تزيناً)، فليس زاهداً حقيقياً. يقول:
الزهد أن تزهد والدنيا مؤاتية؛ وكان الكبراء العباسيون عندما يريدون الجلوس للشرب والفرح
يلبسون ثياباً معصفرة صفراء

أذابَتْ ليَ الدنيا يَمينُكَ، بَعدما   وَقَفْتُ على شُخْبٍ مِنَ العيشِ جَامِدِ

جعلتْ يمينك الدنيا (النعمة) تذوب لي مثلما يذوب في الفم التمر أو حتى الدسم، بعد أن وقفتُ
على (نلت) الشُخبَ (دفقة من حليب الناقة وقت حلبها)، وكان قليلاً كأنه جامد

أَفَضْتَ على أهلِ الجَزيرةِ نِعمَةً   إذا شُهِدَتْ لم تُخْزِهِمْ في المشَاهِدِ

جَعلتَ صميمَ العدلِ ظِلاً، مَدَدْتَه   على مَنْ بِها مِنْ مسلمٍ أو مُعَاهِدِ

المعاهد: الذمي

سَأَجْهَدُ حتى أُبْلِغَ الشعرَ شَأْوَه،   وإنْ كانَ لِي طَوْعاً، ولستُ بِجَاهِدِ

سأتعب نفسي حتى أَبلغ بالشعر شأوه (غايته) في مدحك،
على أن الشعر الجيد يأتيني طوعاً بلا تعب

فإنْ أنا لم يَحْمَدْكَ عَنِّيَ صَاغِراً   عَدُوُّكَ فاعْلَمْ أنني غَيْرُ حَامِدِ

فإن لم يجعل شعري عدوك يحمدك صاغراً (مجبراً)، بروايته هذا الشعر العظيم، فلا والله لا أكون
وفيتك حقك. سيأتي البحتري ويسرق هذا المعنى ويجيد كل الإجادة، ويزيد زيادة:

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرٍ سَائِرٍ   يَرْوِيهِ فيكَ، لِحُسْنِهِ، الأعداءُ

فَتَظَلُّ تَحْسُدُكَ الملوكُ الصِّيدُ بي،   وأَظَلُّ يَحْسُدُني بِكَ الشُّعَراءُ

١١٥ كاش، لو سمحت

يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة:

عَـفَـتْ آيـاتُـهُـنَّ، وأيُّ رَبْـعٍ يـكـونُ لـه عـلـى الـزَّمَـنِ الـخِـيارُ؟

عفت (امَّحت) آيات الديار (علاماتهن/معالمهن)، وهل هناك ربع له الخيار (يملك خياره) فيصمد على مرور الزمن؟

أَثَـافٍ كَـالـخُـدُودِ لُـطِـمْـنَ حُـزْنـاً، ونُـؤْيٌ مِـثْـلَـمـا انـفَـصَـمَ الـسِّـوَارُ

هذه أثاف (حجارة الموقد المسودَّة) تشبه الخدود التي لطمتها النسوة حزناً، فاختلط الكحل بالدمع فاسودَّت؛ وهذا نؤي (قناة تدور حول الخيمة لمنع المطر) قد اندثر بعضه فصار شبيهاً بسوار قد انفصم

وكـانَـتْ لَـوعَـةٌ، ثـم اطْـمَـأَنَّـتْ، كَـذَاكَ لِـكُـلِّ سَـائِـلَـةٍ قَـرَارُ

كانت (حدثت) لوعة بقلبي ثم هدأت، وكل شيء سائل له استقرار بمكان منخفض فلا يعود يسيل. ههنا مضرب مثل، فإن تجعل السائلة الدمعة تكن ضيَّعت أبا تمام

مَضَى الأَمْلاكُ فانْقَرَضُوا، وأَمْسَتْ سَـرَاةُ مُـلُـوكِـنَـا وَهُـمُ تِـجَـارُ

الأملاك (الملوك) الحقيقيون انقرضوا، وأصبح سراة ملوكنا (الأشراف منهم) تجاراً يكنزون المال، ولا يبذلونه

وُقُـوفٌ فـي ظِـلالِ الـذَّمِّ تُـحْـمـى دَراهِـمُـهـا، ولا يُـحْـمَـى الـذِّمَـارُ

واقفون تحت معرَّة الذم: فالدراهم مصونة، والذمار (الشرف) غير مصون

فـلَـوْ ذَهـبَـتْ سِـنَـاتُ الـدَّهْـرِ عـنـهُ وأُلْـقِـيَ عـنْ مَـنَـاكِـبِـهِ الـدِّثَـارُ..

لو ذهبت سنات (غفوات) الدهر عنه، وخلع عن مناكبه (جوانبه) الدثار (الغطاء)..

لَـعَـدَّلَ قِـسْـمَـةَ الأرزاقِ فـيـنـا، ولـكِـنْ دهـرُنـا هَـذا حِـمَـارُ!

لقسم الأرزاق بالعدل، لكن الدهر حمار (بليد)

نَـؤُمُّ أبـا الـحـسَـيْـنِ، وكـانَ قِـدْمَـاً فـتـىً أعـمـارُ مَـوْعِـدِهِ قِـصَـارُ

نؤم (نقصد) أبا الحسين، وهو من قديم رجلٌ أعمار وعوده قصيرة، لأنه يفي بها فلا تعود مجرد وعود

لَـهُ خُـلُـقٌ نَـهَـى الـقُـرآنُ عـنـهُ وذاكَ عـطـاؤُهُ الـسَّـرَفُ الـبِـدَارُ

ومن أخلاقه (خصاله) خلق نهى عنه القرآن، وهو الإسراف والبدار (الإسراع) في العطاء

ولـم يَـكُ ذاكَ إصْـراراً، ولـكِـنْ تَـمـادَتْ فـي سَـجِـيَّـتِـهـا الـبِـحَـارُ

وهذا ليس إصراراً على مخالفة الشرع، ولكن البحار (الأنهار) تتمادى في سجيتها (طبيعتها)

أرى الـدَّالِـيَّـتَـيْـنِ عـلـى جَـفَـاءٍ   لَـدَيْـكَ، وكُـلُّ واحِـدَةٍ نُـضَـارُ

أرى قصيدتيَّ الداليتين (وقد سبقتا في مجموعتنا هذه) مجفوتين (منبوذتين) عندك،
وكل واحدة منهما نضار (ذهب)

إذا مـا شِـعْـرُ قَـوْمٍ كـانَ لَـيْـلاً   تَـبَـلَّـجَـتَـا كـمـا انْـشَـقَّ الـنَّـهَـارُ

تبلجتا (أشرقتا)

أَغَـرْتَـهُـمَـا، وغَـيْـرُهُـمـا مُـحَـلًّـى   بِـجُـودِكَ، والـقَـوافـي قَـدْ تَـغَـارُ

جعلت القصيدتين تغاران إذ القصائد الأخرى عليها الحلي من كرمك.
والقوافي - تَرَى - تغار مثل النساء

وكـانَ الـمَـطْـلُ، فـي بَـدْءٍ وعَـوْدٍ،   دُخَـانـاً لـلـصَّـنِـيـعَـةِ وَهْـيَ نَـارُ

المطل (المماطلة) هو كالدخان للصنيعة (الإحسان)، والإحسان نفسه هو النار،
فالمطل مؤذٍ كالدخان

نَـسِـيـبُ الـبُـخْـلِ مـذْ كَـانـا، وإلَّا   يَـكُـنْ نَـسَـبٌ فَـبَـيْـنَـهُـمـا جِـوارُ

المطل نسيب (صهر) للبخل منذ وُجدا، وإن لم يكن نسيبه فجاره الملازم له

لِـذلِـكَ قـيـلَ: بـعـضُ الـمـنـعِ أَدْنَـى   إلـى كَـرَمٍ، وبـعـضُ الـجُـودِ عَـارُ

بعض المنع أدنى (أقرب) إلى الكرم إذا كان منعاً صريحاً بلا تسويف،
وبعض الجود عار إن كان مصحوباً بالتسويف

فَـدَعْ ذِكْـرَ الـضِّـيـاعِ، فَـبِـي شِـمَـاسٌ   إذا ذُكِـرَتْ، وبـي عـنـهـا نِـفَـارُ

اترك الكلام عن منحي ضيعة، فبي شماس (صدود) ونفار (صدود)
لدى قولك إنك ستمنحني أرضاً

ومَـا لـيَ ضَـيْـعَـةٌ إلا الـمـطَـايَـا،   وشِـعْـرٌ لا يُـبَـاعُ ولا يُـعَـارُ

وضيعتي (عزبتي) هي في الواقع المطايا (الإبل) وشعري

ومـا أنـا والـعَـقَـارَ، ولـسـتُ مـنـهُ   عـلـى ثِـقَـةٍ، وجُـودُكَ لـي عَـقَـارُ

وما شأني والعقار! إنني لا أثق به، وعقاري الحقيقي هو سخاؤك

١١٦ السواد الأعظم

يمدح ابن شبانة أبا الحسين محمد بن الهيثم:

إنْ شِـئْـتَ أنْ يَـسْـوَدَّ ظـنُّـكَ كُـلُّـه   فَـأَجِـلْـهُ فـي هـذا الـسَّـوَادِ الأَعْـظَـمِ

ليس الصَّدِيقُ بِمَنْ يُعيِرُكَ ظَاهِراً مُتَبَسِّماً، عنْ باطِنٍ مُتَجَهِّمِ

١١٧ ثقل الشكر وثقل تركه

يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة من أهل مرو:

ولو أنِّي استطعْتُ لَقامَ عني بِشُكْرِكَ مَنْ مَشَى فوقَ الترابِ

فمهما شكرت فإنني لن أفيك حقك

فأَشْفِيَ مِنْ صَميمِ الشكرِ نَفْسي وتَرْكُ الشكرِ أثقلُ لِلْرِّقَابِ

فعندئذ سأشفي نفسي من صميم (قلب) الشكر، فإن عدم شكر النعمة يجعلها ثقيلة على الإنسان، كأنها قيد في رقبنه/ وقد قرأنا أشفي منصوبة على السببية ولم نشايع الصولي والتبريزي والأسود في ضبطهم، والله أعلم

١١٨ ظهور العيس أوطاني

يمدح محمد بن حسان الضبي:

ما اليومُ أولَ توديعٍ ولا الثاني البينُ أَكْثَرَ مِنْ شوقي وأحزاني

أكثَرَ: كثَّر، زاد. يقول: أكثر من مرة ودعت الأحباب واكتويت بنار الوداع

دعِ الفراقَ، فإن الدهرَ ساعَدَهُ فصارَ أَمْلَكَ مِنْ روُحي بِجُثماني

الفراق، وساعَدَهُ الدهر، صار أشد تحكماً بجسمي من روحي

خَليفةُ الخَضْرِ؛ مَنْ يَرْبَعْ على وَطَنٍ في بَلدةٍ، فَظُهُورُ العِيسِ أوْطاني

أنا خليفة النبي الخضر المشهور بأسفاره التي لا تنقطع؛ هناك من يربع (يمكث) في وطن معين، أما أنا فأوطاني ظهور العيس (الإبل)

بالشامِ أهلي، وبغدادُ الهوى، وأَنا بالرَّقَّتَيْنِ، وبِالفُسْطاطِ إِخواني

بالرقتين: هناك رقة في ثلاث دول عربية فيما نعرف، ولعله قصد بلدتين بهذا الاسم في ديار بكر، والفسطاط هي أصل قاهرة اليوم

وما أَظنُّ النَّوَى تَرضَى بِمَا صَنعتْ حتى تُطَوِّحَ بي أَقصَى خُراسانِ

وليسَ يَعْرِفُ كُنْهَ الوصلِ صاحبُهُ حتَّى يُغَادَى بِنَأْيٍ، أو بِهِجْرانِ

لا يعرف العاشق حقيقة الوصل حتى يغاديه (يصبّحه) نأي أو هجران

١١٩ كذلك قدرة الضعفاء

يمدح محمد بن حسان الضبي (وكان والياً على مظالم الجزيرة وقنسرين ثم الموصل وأرمينية):

«قَدْكَ. اتَّئِبْ. أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاءِ.» كم تعذِلونَ، وأنتُمُ سُجَرائي؟

تقولون لي: «قدك (حسبك/كفى) اتئب (استح) فقد أربيت (بالغت) في الغلواء (التمادي)»، إلى متى ستظلون تعذلونني (تلومونني) بهذه الكلمات وأنتم سجرائي (أصدقائي)؟ خالفنا في تفسيرنا: التبريزي، والصولي، والأعلم الشنتمري، وعبد السلام هارون، ومحيي الدين الخياط، وإبراهيم الأسود، واثنين من الدكاترة. وجميعهم رأى أن أبا تمام يخاطب صديقاً له ويقول له: يكفيك، واستحِ، وبالغت كثيراً، ثم يلتفت ويخاطب جماعة أصدقاء قائلاً: إلى متى اللوم، وأنتم أصحابي؟ ورغم أن هذا النوع من الالتفات مألوف عند أبي تمام، والبيت التالي فيه التفات وهو يعزز ما ذهب إليه الأفاضل جميعاً، فإنني أراه وضع في البداية كلماتهم الموجهة إليه، ثم عاتبهم. فذلك مثل قول الولد لأبيه: «اسكت، اقعد، ادرس.. إلى متى هذه الأوامر؟» والله أعلم

لا تَسقِني ماءَ المَلامِ، فإنني صَبٌّ قدِ استعْذَبْتُ ماءَ بُكائي

لا تلمني فأنا صب (عاشق) استعذبت (تلذذت) ماء بكائي (دمعي). قيل: أراد رجل أن يسخر من أبي تمام، فجاء بكوب وقال له: اسكب لي شيئاً من «ماء الملام». فرد عليه أبو تمام: إيتني أولا بريشة من جناح الذل. فأفحمه. يشير أبو تمام إلى الآية: «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.» انس كل النكات التي أطلقها الناس على عبارة (ماء الملام)، وانس رد أبي تمام الذي وصفوه بالمفحم؛ وانظر إلى عبارة (ماء بكائي)، فأي فن في وصف الدموع بماء البكاء؟ ستقول لي: إنه قالها كي يوازن بها ماء الملام. فلماذا قال «ماء الملام» أصلاً؟ أنا أقول لك: قالها لكي يأتي بعدها بماء البكاء. وههنا السخف حقاً. مثال ذلك: أن يذهب المرء إلى الدكان، ويشتري قنبلة يدوية، ثم يقتل بها ذبابة مزعجة. نسأله لماذا اشتريت قنبلة، فيقول: كي أقتل الذبابة. ونسأله: لماذا قتلت الذبابة؟ فيقول: لأنني اشتريت قنبلة. هو سخيف لأنه قال ماء الملام، سخيف لأنه قال ماء البكاء، سخيف لأنه اشترى كلمة الماء أصلاً، فهي ليست اللفظة المناسبة لقتل الذبابة. والتشبيه القرآني، الذي احتج به أبو تمام، بعيد كل البعد عن هذا، وهو بليغ وجميل: تشبه الآية الإنسان بطائر يخفض جناحه لأبويه تذللاً، فلا يرفرف ولا يحلق أمامهما، وهذا التذلل ليس من ذل بل من رحمة لهما في كبرهما. لكن، أبا تمام كان موصوفاً بالجواب السريع اللاذع. وما كل من أفحم كان محقاً. ما أتينا بهذا البيت، وسودناه، إلا لأن معركة نقدية حامية الوطيس دارت عليه

ومُعَرَّسٍ لِلغيثِ تخفُقُ فوقَه راياتُ كلِّ دُجُنَّةٍ وَطْفَاءِ

رب معرس (موضع) للمطر، تلوح فوقه رايات كل دجنة (غيمة داكنة) وطفاء (ذات ذيول متدلية)

صَبَّحتُه بِسُلافَةٍ، صبَّحتُها بِسُلافةِ الخُلَطاءِ والنُّدماءِ

صبحت هذا الموضع بسلافة (بخمر صافية)، وصبحت هذه الخمر بسلافة الخلطاء، أي بأصفى الرفاق والندماء

بمُدامةٍ تغدو المُنى لِكؤوسِها خَوَلاً، على السَّرَّاء والضَّرَّاءِ

هذه الخمر تصبح المنى خولاً (خدماً) لكؤوسها، فالمنى تطوف حول كؤوس الخمر، وتعطي الشاربين الفرح، سواء أكانوا مسرورين قبلها أم حزانى

راحٌ، إذا ما الرَّاحُ كُنَّ مَطِيَّها، كانتْ مطايا الشوقِ في الأحشاءِ

راح (خمر) إذا كانت الراح (الأكُفّ) مطياً لها (نياقاً تركبها الكؤوس)، فإن الخمر تصبح مطايا (نياقاً) تحمل الشوق، وتبثه في الأحشاء (القلوب)

عِنَبيَّةٌ، ذهبيَّةٌ، سَبَكتْ لها ذهبَ المعاني صاغَةُ الشعراءِ

خمر من العنب، وهي ذهبية اللون، وطالما صاغ الشعراء لها الشعر الحافل بالمعاني الشبيهة بالحلي الذهبية الثمينة

أَكَلَ الزمانُ، لِطولِ مُكْثِ بقائِها، ما كان خامَرَها من الأقْذاءِ

مع تعتيق الخمر ومكوثها طويلاً، أكل الزمان كل ما خامرها (خالطها) من أقذاء (شوائب)

صَعُبَتْ، وراضَ المزجُ سَيِّءَ خُلْقِها، فتعلَّمَتْ من حسنِ خُلْقِ الماءِ

هذه الخمر صعبةٌ كالفرس الجامحة الصعبة، ولكن مزجها بالماء روَّضها. تعليق عمران القفيني: يا سلام!

خَرقاءُ يَلعبُ بالعقولِ حَبابُها، كتَلَعُّبِ الأفعالِ بالأسماءِ

خرقاء (عابثة) هذه الخمر ويلعب حبابها (فقاقيعها) بالعقول، مثلما تلعب الأفعال بالأسماء فتؤدي إلى نصبها ورفعها إلخ

وضعيفةٌ، فإذا أصابتْ فرصةً قَتلتْ، كذلك قدرةُ الضعفاءِ

وكأنَّ بهجتَها، وبهجةَ كأسِها، نارٌ ونورٌ قُيِّدَا بوِعاءِ

أو دُرَّةٌ بيضاءُ بِكْرٌ أَطْبَقَتْ، حَبَلاً، على ياقوتةٍ حمراءِ

كأن الكأس الزجاجية درة بيضاء، لكنها حبلى تحمل في أحشائها ياقوتة حمراء هي الخمر

لما رأيتُكَ قد غَذَوْتَ مودَّتي بِالبِشْرِ، واستحْسَنْتَ وجهَ ثنائي..

لما رأيتك قد غذوت (كافأت) مودتي لك بالبشر (بالترحاب)، واستحسنت مديحي لك..

أَنْبَطْتُ في قلبي لِوَأْيِكَ مَشْرَعاً ظَلَّتْ تحومُ عليه طيْرُ رَجائي

أنبطت (حفرت) في قلبي لوأيك (لوعدك) مشرعاً (مورد ماء)، وأخذت طيور الرجاء، رجائي بالثواب، تحوم على هذا المورد

فَثَوَيْتُ جاراً لِلحَضيضِ، وهِمَّتي ... قد طُوِّقَتْ بِكواكبِ الجَوْزاءِ

وثويت أنا (مكثت) مجاوراً للقاع، ولكن همتي (طموحي) عالية وتلتف حول عنقها كواكب الجوزاء

يَسِّرْ لِقولِكَ مَهْرَ فِعلِكَ، إنه ... يَنوي افْتِضاضَ صَنيعةٍ عَذراءِ

وفر لوعدك مهراً هو فعلك، وهذا الفعل سيكون عبارة عن صنيعة (جائزة) عذراء لم يسبق لأحد أن أعطى مثلها.. يحث الممدوح على إعطائه جائزة كبيرة

١٢٠ ضميره يتبسم

يمدح محمد بن حسان الضبي:

لم يَنْأَ عنِّيَ مَطْلَبٌ، ومحمدٌ ... عَوْنٌ عليهِ، أو إِلَيْهِ سُلَّمُ

لم يبعد عني مطلب (حاجة) إذا كان محمد معيناً لي عليه، أو سلماً إليه (واسطة لتحقيقه)

مِمَّنْ إذا مَا الشعرُ صَافَحَ سَمْعَهُ ... يَوماً رأيْتَ ضَميرَهُ يَتَبَسَّمُ

إذا سمع الشعر فوجهه يشرق بنشوة تخرج من أعماقه

١٢١ الحسناء الخجول

يمدح أبا العباس نصر بن منصور بن سيار:

فَلا دمعَ ما لم يَجْرِ في إِثْرِهِ دمٌ، ... ولا وَجْدَ ما لم تَعْيَ عن صِفَةِ الوَجْدِ

البكاء الحقيقي هو ما صحب الدم فيه الدمع، والوجد (الحزن الذي «يجده» الإنسان في قلبه) هو ما تعيا (تعجز) عن صفته (وصفه)

تُعَصْفِرُ خدَّيْها العيونُ بِحُمرةٍ ... إذا وَرَدَتْ كانتْ وَبالاً على الوَرْدِ

العيون الناظرة إلى هذه الفتاة تعصفر (تصبغ) خديها بحمرة الخجل، وهذه الحمرة المحببة إذا وردت (جاءت) كانت وبالاً (مصيبة) على الورد، فحمرة الورد يتضاءل حسنها بجانب حمرة خدي الفتاة

إذا أَزْهَدَتْني في الهوى، خِيفَةَ الرَّدَى، ... جَلَتْ لِيَ عن وجهٍ يُزَهِّدُ في الزُّهْدِ

كلما جعلتني هذه الفتاة أزهد في الهوى وأتركه مخافة الموت عشقاً، كشفت عن وجه يجعلني أزهد في زهدي، وأغير رأيي

١٢٢ الليل الطويل

يمدح نصر بن منصور بن سيار:

أَفْنَى، وليلي ليس يَفْنَى آخِرُهْ ... هاتَا مَوارِدُهُ، فأينَ مَصادِرُهْ؟

هاتا: هذه، الورود: القدوم نحو الماء، والصدور: الرجوع بعد سقي الإبل. يقول: رأيت الليل يقبل، ولكن هيهات أن يدبر

لا شيءَ ضَائِرُ عَاشِقٍ، فإذا نَأَى عنه الحبيبُ فكلُّ شيءٍ ضائِرُ

١٢٣ ترمي بأشباحنا

يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

لستُ مِنَ العِيسِ، أو أُكَلِّفَها وَخْداً يُدَاوِي المريضَ مِنْ وَصَبِهْ

لست من العيس (فسروها فقالوا: لست بصاحب هذه النياق) إن لم أجشِّمْها وخداً (سيراً سريعاً) يداوي المريض من علته (يداويني من فقري). أفهم أن يحلف المرء فيقول «لست من طيء إن لم..» فهو ينفي نفسه عن قبيلته ما لم يفعل كذا وكذا، أما أن ينفي نفسه عن العيس فذلك خروج بالتعبير عن طريقته. هكذا أنقدُه على طريقة الآمدي، وإن لم يتعرض الآمدي للبيت بنقد، مع أنه أورده

تَرْمِي بأشبَاحِنا إلى مَلِكٍ نأْخُذُ مِنْ مالِه ومِنْ أَدَبِهْ

النياق ترمي بأشباحنا (توصل أجسامنا المهزولة من طول السفر) إلى ملك (صاحب ولاية، وكل من يملك أمراً سموه في تلك الحقبة ملكاً) نأخذ من ماله ومن أدبه. وقد عرف العصر العباسي وزراء مثقفين كثراً ورأينا ابن الرومي والبحتري وأبا تمام، ومن بعدهم المتنبي، يمدحون الملوك بعلمهم، وليس فقط بسخائهم

نَجْمِ بني صَالحٍ، وَهُمْ أَنْجُمُ الـ ـعَالَمِ: مِنْ عُجْمِهِ ومِنْ عَرَبِهْ

رَهْطُ الرَّسولِ الذي تَقَطَّعُ أَسْـ ـبَابُ البَرايَا غداً سوى سَبَبِهْ

بنو صالح رهط (قوم) الرسول الذي ستتقطع أسباب (واسطات/ شفاعات) الخلق كلهم سوى شفاعته

مُهَذَّبٌ، قُدَّتِ النُّبُوَّةُ والـ إسْلامُ، قَدَّ الشِّرَاكِ، مِنْ نَسَبِهْ

مهذب (مثقف) قدت (قُطعت) النبوة والإسلام من نسبه، كما يقد الشراك (الشريط) من قطعة الجلد

من ذا كَعَبَّاسِهِ، إذا اصْطَكَّتِ الـ أَحْسَابُ، أمْ مَنْ كَعَبْدِ مُطَّلِبِهْ؟

من مِن الناس يشبه العباس أو عبد المطلب عمَّي النبي ـ وهما من أجداد الممدوح فهما عباسه وعبد مطلبه ـ إذا اصطكت الأحساب (قورن فيما بين مناقب الناس)

١٢٤ الطامسة الصوى

يمدح حُبيش بن المعافى قاضي نَصِيبين ورأس عين:

نسائلُها أيَّ المواطنِ حَلَّتِ وأيَّ دِيارٍ أَوْطَنَتْها وأَيَّتِ

نسأل المحبوبة أين حلت، وأيَّ ديارٍ أوطَنَتِ المحبوبةُ (اتخذت وطناً)

وماذا عليها لو أشارتْ، فَودَّعَتْ، إلينا بأطرافِ البَنانِ، وَأَوْمَتِ؟

أومت (أومأت/ أشارت)

عليها سلامُ اللَّهِ أَنَّى اسْتَقَلَّتِ، وأَنَّى استقرَّتْ دارُها، واطمَأَنَّتِ

استقلت (ارتفعت فوق البعير ورحلت)

ومَجْهُولَةِ الأعلامِ طَامِسَةِ الصُّوَى إذا اعتَسَفَتْها العِيسُ بالرَّكْبِ ضَلَّتِ

رب صحراء مجهولة الأعلام (المعالم) طامسة (=مطموسة) الصوى (جمع صُوَّة: صخور مميزة يستدل بها على الطريق)، إذا اعتسفتها العيس (سارت فيها الإبل على غير هدى) بالركب (براكبيها) ضلت الطريق

إذا ما تَنادَى الرَّكْبُ في فَلَوَاتِها أجابتْ نِدَاءَ الرَّكْبِ فيها، فَأَصْدَتِ

إذا نادى المرتحلون في فلواتها (أراضيها المقفرة) بعضهم بعضاً أجابت الصحراء نداءهم فأصدت (صنعت صدى)

تَعَسَّفْتُها والليلُ مُلْقٍ جِرانَه وجَوْزَاؤُه في الأُفْقِ حينَ استَقَلَّتِ

تعسفتها (سرت فيها على غير هدى) والليل قد ألقى جرانه (عنقه/أي تقدم وحل)، وجوزاء الليل قد ظهرت في الأفق حين استقلت (هنا معناها: ارتفعت)

بِمُفْعَمَةِ الأَنْسَاعِ، مُوجَدَةِ القَرَا أَمُونِ السُّرَى، تَنْجُو إذا العِيسُ كَلَّتِ

لقد سرت بناقة مفعمة الأنساع (ممتلئة السيور الجلدية التي تشُدُّ الرحل على الناقة/أي أنها ناقة سمينة)، موجدة القرا (قوية الظهر) أمون السرى (مأمونة في السير الليلي)، تنجو (تسير) إذا العيس كلت (الإبل تعبت)

إلى خَيرِ مَنْ ساسَ الرعيةَ عدلُه ووَطَّدَ أعلامَ الهدى فاستَقَرَّتِ

أعلام الهدى (جبال يُهتدى بها). فالممدوح قد ثبَّت للناس مناهج الحق كأنها الجبال التي يعرف بها السائر في الصحراء طريقه

أَقَرَّ عَمُودَ الدينِ في مُسْتَقَرِّهِ وقد نَهِلَتْ منه اللَّيالي وَعَلَّتِ

ثبت عمود الدين (والعمود هو الأساس وسط الخيمة، فإذا استقر استقر كل شيء) في موضعه، بعد أن نهلت الليالي وعلت منه (بعد أن شرب منه الزمن مرة أولى ثم مرة ثانية/أي بعد اضطرابه)

وأحْيَا سبيلَ العدلِ بعدَ دُثُورِه وأَنْهَجَ سُبْلَ الجُودِ حينَ تَعَفَّتِ

دثوره (اندثاره)، أنهج (أوضح النهج أي الطريق)، تعفت (امَّحتْ)

ويَجْزِيكَ بالحُسنَى إذا كنتَ مُحْسِناً ويَغْتَفِرُ العُظْمى، إذا النَّعْلُ زَلَّتِ

العظمى (الزلة الكبيرة) إذا النعل زلت (إذا انزلقت قدمك/كناية عن ارتكاب خطأ، أو الوقوع في الفقر)

يمدح أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدي:

أَنَخْتُ، إلى ساحاتِهِمْ وجَنَابِهِمْ، رِكَابي، وأَضْحَى في دِيارِهِمُ وَفْدي
أنخت إبلي في جوارهم، وغدا وفدي (قُدومي) حاصلاً في ديارهم

إلى سيفهِمْ حَفْصٍ، وما زال يُنتضَى لَهُمْ مِثْلُ ذاكَ السَّيْفِ مِنْ ذلكَ الغِمْدِ
أنخت إبلي إلى سيفهم حفص، وقد ظل يُنتضَى (يُسل) لهؤلاء القوم سيف كهذا السيف، من غمد كذلك الغمد (يقول: ظلوا يتوارثون السيادة أباً عن جد)

فَلَمْ أَغْشَ باباً أَنْكَرتْني كلابُهُ، ولم أَتَشَبَّثْ بالوَسيلَةِ من بُعْدِ
فلم أغش (آتِ) باباً أنكرتني كلابه (فأنا لست غريباً، ثم إن كلاب الكريم لا تنبح الضيف لألفتها الأضياف)، ولم أتشبث بواسطة بعيدة للتقرب فأنا قريب منهم

فأصبحتُ: لا ذُلُّ السُّؤالِ أصابَني، ولا قَدَحَتْ في خَاطري رَوْعَةُ الرَّدِّ
لم أشعر بذل للسؤال (طلب الرفد)، ولا قدحت (خطرت) ببالي روعة الرد (خشية الصد)

وأنتَ، وقد مَجَّتْ خُراسَانُ دَاءَها وقد نَغِلَتْ أطرافُها نَغَلَ الجِلْدِ..
أنت، وقد مجت (لفظت) خراسان داءها (أي ظهرت مشكلاتها)، ونغلت (تلفت) نواحيها كما يتلف ويتهرَّأ الجلد..

ليالِيَ باتَ العِزُّ في غَيْرِ بيتِهِ وعُظِّمَ وَغْدُ القومِ في الزمنِ الوَغْدِ
. حدث هذا لياليَ (في زمن) انتقل العز فيه إلى من ليسوا له بأهل، وعندما أصبح السفلة مبجلين في هذا الزمن السافل

ورامُوا دَمَ الإسلامِ، لا من جَهالةٍ ولا خَطَأٍ، بل حاوَلُوهُ على عَمْدِ
.. وعندما راموا (طلبوا) إراقة دم الإسلام ليس جهلاً، ولا خطأ، بل عمداً..

ضَمَمْتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها ولم يَجِدُوا، إذ ذاك، مِنْ ذَاكَ مِنْ بُدِّ
أنت عندئذ ضممت كل العرب، القحطانية والعدنانية، تحت لوائك، وما وجدوا بداً من التوحد

وما كنتُ ذا فقرٍ إلى صُلْبِ مالِهِ، وما كانَ حَفْصٌ بِالفقيرِ إلى حَمْدي
وما كنت ذا فقر (محتاجاً) إلى ماله، ولا هو محتاج إلى حمدي (مدحي)

ولكنْ، رأى شُكْري قِلادَةَ سُؤْدَدٍ، فَصَاغَ لها سِلْكاً بَهِيّاً مِنَ الرِّفْدِ
رأى شكري (مدحي له) قلادة سؤدد (عقد سيادة ومجد)، فصاغ لهذا العقد سلكاً (الخيط الذي تنظم فيه الجواهر/ولم يكن أيامها سلوك كهرباء) هو عبارة عن الرفد (العطاء)

فَما فاتَني ما عندَهُ مِنْ حِبَائِهِ، ولا فَاتَهُ مِنْ فاخِرِ الشِّعرِ ما عِندي

الحباء: العطاء

١٢٦ صاعاً بصاع

يمدح مهدي بن أصرم:

أَقِلِّي، قد أَضَاقَ بُكَاكِ ذَرْعِي، ومَا ضَاقَتْ بِنازِلَةٍ ذِراعِي

خففي من بكائك أيتها الزوجة، فقد ضاق به ذرعي، ولكن ما ضاقت بأية نازلة (مصيبة) ذراعي (لم أفقد الصبر على المصائب)

أَآلِفَةَ النَّحيبِ! كَم افْتِراقٍ أَظَلَّ، فكانَ داعِيَةَ اجتماعِ!

كم افتراق أظل (ما أكثر ما رمى الفراق ظله) فكان داعية (سبباً) لعودة اللقاء

وليستْ فرحةُ الأَوْبَاتِ إلَّا لِمَوْقُوفٍ على تَرَحِ الوَدَاعِ

الأوبات (الأوبة: العودة)، موقوف على (مخصوص بـ)، ترح (حزن)

تَوَجَّعُ أنْ رأتْ جسمي نحيفاً، كَأَنَّ المجدَ يُدْرَكُ بالصِّراعِ

تتوجع هذه المرأة لنحافتي، ولكن المجد لا يدرك
(يتم إحرازه) بالصراع (إلقاء الخصم أرضاً)

بِمَهْدِيِّ بنِ أَصْرَمَ عادَ عُودي إلى إيراقِهِ، وامْتَدَّ بَاعي

بهذا الممدوح عاد عودي (غصني) إلى إيراقه (اكتسائه بالورق)، وامتد باعي (اتسع رزقي)

أَطالَ يَدي على الأيامِ، حتى جَزَيْتُ صُروفَها صَاعاً بِصَاعِ

جعل يدي طويلة في مخاصمة الأيام (الأحداث)، فصرت أرد لها الصاع بالصاع

إذا أَكْدَتْ سَوامُ الشِّعْرِ أَضْحَتْ عَطاياهُ، وَهُنَّ لها مَراعِ

إذا افتقرت سوام الشعر (المواشي/يشبه القصائد بالمواشي) فإن عطايا الممدوح تصبح كالمرعى، ويعود الشّعر ناضراً قوياً

ولم يَحْفَظْ مُضَاعَ المجدِ شيءٌ، مِنَ الأشياءِ، كالمالِ المُضَاعِ

المجد الذي ضيعه أهله لا يحفظه شيء كما يحفظه تفريق المال على الناس، ففي هذا استعادة للمجد بالسخاء

فلو صَوَّرْتَ نفسَكَ، لم تزِدْها على ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

١٢٧ مات شاباً

يرثي محمد بن الفضل الحميري:

إنَّ رَيْبَ الزمانِ يُحْسِنُ أنْ يُهْـ ـدي الرَّزَايا إلى ذَوِي الأَحْسَابِ

الرزايا: المصائب، الأحساب: الأمجاد

أَنْزَلَتْه الأيامُ عن ظهرِها، مِنْ بعدِ إثباتِ رِجلِه في الرِّكابِ

كان قد وضع رجله في ركاب الفرس (الأنشوطة التي تساعد الفارس في اعتلاء الفرس)، ولم يكن يفعل ذلك حتى جاءه الموت. يقول: مات شاباً

حينَ سَامَى الشَّبابَ، واغْتَدَتِ الدُّنْـ ـيا عليهِ مَفتوحَةَ الأبوابِ

سامى (علا ووصل)

قَصدتْ نحوَهُ المنِيَّةُ، حتَّى وَهَبَتْ حُسْنَ وجهِه للترابِ

١٢٨ ساعات الدهر تفترسنا

يرثي هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي:

لَنِمْنَا، وصَرْفُ الدهرِ ليس بِنَائِمِ خُزِمْنَا له قَسْراً بغيرِ خَزائِمِ

لنمنا (والله لقد نمنا) ولكن مصائب الدهر لا تنام، وقد خُزمنا للدهر (ذللنا له) بغير خزائم (بدون الحلقات التي تجعل في أنف البعير بغرض تذليله)

أَلَسْتَ تَرى سَاعاتِه، واقْتِسَامَها نُفُوسَ بَنِي الدنيا اقْتِسَامَ الغَنَائِمِ

هذه المشاعر الوجودية سنراها أقوى عند المتنبي، ثم سيوصلها أبو العلاء إلى غاية الغايات

إذا فُقِدَ المفقودُ مِنْ آلِ مَالِكٍ تَقَطَّعَ قلبِي رَحْمَةً لِلْمَكَارِمِ

رحمة لـ (شفقة على)

١٢٩ إني انتجعتك

يعاتب جعفر بن دينار:

مَلِكٌ، إذا مَا الشعْرُ حَارَ بِبَلْدَةٍ، كانَ الدَّليلَ لِطَرْفِهِ المتَحَيِّرِ

ملك (حاكم) إذا تحير الشعر فهو الدليل الذي يهديه، لأنه سخي يحب الشعر ويثيب عليه

إنِّي انْتَجَعْتُكَ يا أبا الفضلِ الذي بالجودِ قَرَّبَ مَوْرِدِي مِنْ مَصْدَرِي

انتجعتك (قصدتك سائلاً)، وبجودك تقرب بين موطني ومورد رزقي

وأَعُوذُ باسْمِكَ أنْ تَكُونَ كَعَارِضٍ لا يُرْتَجَى، وكَنَابِتٍ لم يُثْمِرِ

العياذ باسمك أن تكون كعارض (سحاب) لا رجاء منه أن يمطر، وكنبات لا ثمر له

١٣٠ التصدق بالخمر

يعاتب أبا علي موسى القمي في نبيذ أهداه إليه:

فَاجَأْتَنَا كَدْرَاءَ، لم تُشْبَ مِنْ تَسْـ ـنِيمِ جِرْيَالِهَا، ولا سَلْسَبِيلِ

فوجئنا بخمرك كدراء (غير صافية)، لم تسب (تؤخذ) من تسنيم (عين صافية في الجنة) جريالها (خمرها)، ولا من سلسبيل (عين صافية في الجنة)

وَهْيَ نَزْرٌ، لو أَنَّها مِنْ دُمُوعِ الصَّـ ـبِّ لم تَشْفِ مِنهُ حَرَّ الغَلِيلِ

نزر: قليلة، الغليل: الاحتقان

وكَأَنَّ الأَنَامِلَ اعْتَصَرَتْهَا، بعدَ كَدٍّ، مِنْ ماءِ وَجْهِ البَخِيلِ

اِحْتِسَاباً بَذَلْتَهَا؟ أم تَصَدَّقْـ ـتَ بِهَا رَحْمَةً على ابنِ السَّبِيلِ؟

احتساباً: لوجه الله

١٣١ يكون غلاماً لغلمانه

يعاتب يحيى بن عبد الله:

أبا جعفرٍ، وأُصولُ الفتى تَدُلُّ عليهِ بِأَغْصَانِهِ

أصول الإنسان تدل على قيمته بواسطة أغصانه (الناس المقربين إليه)، فالأغصان هي التي نراها وتدل على الجذور

أَلَيسَ قبيحاً بِأَنَّ أَخَاكَ رَجَاكَ لِحَادِثِ أَزْمَانِهِ

فَتَأْمُرُ أنتَ بِإِعْطَائِهِ، ويَأْمُرُ فَتْحٌ بِحِرْمَانِهِ

فتح، خادمك، يمنعني ما أمرت لي به

ولستُ أُحِبُّ الشَّرِيفَ الظَّرِيفَ يَكونُ غُلاماً لِغِلْمَانِهِ

١٣٢ صدقت، ولكن..

ما ابْيَضَّ وجْهُ المرءِ، في طَلَبِ العُلَى، حتَّى يُسَوِّدَ وجهَهُ في البِيدِ

وصَدَقْتَ: إنَّ الرِّزْقَ يطلُبُ أَهْلَهُ، لكنْ بِحِيلَةِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ

حقاً الرزق المقدر لك مقدر لك، لكنه لا يأتي إلا بحيلة صاحب الرزق المتعب المكدود (المتعب)

١٣٣ جدع الأنوف

لَيس جَدْعُ الأُنوفِ جَدْعاً، ولكِنْ بعضُ مَنْ نَصْطَفيِهِ جَدْعُ الأُنوفِ

جدع (قطع) الأنوف ليس هو الجدع الحقيقي، بل بعض من نصطفيه (نصادقه) هو جدع الأنوف (أي الذل)

لَوْ بِأُسْدِ العَريفِ نيطَتْ عُرَى المنِّ ـ لَـذَلَّـتْ رِقَـابُ أُسْـدِ الـعَـرِيـفِ

لو نيطت (علقت) عرى (حلقات) المن (التعيير بالعطاء) بأسود منطقة العريف لذلت رقابها

١٣٤ شكوى الغريب

يصف سوء مطلبه بنيسابور ويشكو الدهر:

صَـرِيـعُ هَـوىً، تُـغَـادِيـهِ الـهُـمـومُ بِـنَـيْـسَـابُـورَ لـيـس لـهُ حَـمِـيـمُ

صريع غرام تغاديه (تباكره صباحاً) الهموم، وليس له في نيسابور حميم (صديق)

غَـرِيـبٌ، لـيـس يُـؤْنِـسُـهُ قـريـبٌ، ولا يَـأْوي لِـغُـرْبَـتِـهِ رَحِـيـمُ

فـقـد فَـارقْـتُ بِـالـغَـرْبِـيِّ دَاراً بِـأَرْضِ الـشَّـامِ، حَفَّ بِهَا النَّعيمُ

الغربي: لم أعرفها، سوى أن الشام تقع غرباً عندما يكون المرء في نيسابور

هِـيَ الـوطـنُ الـذي فَـارَقْـتُ فـيـهِ، وفَـارَقَـنـي، الـمـسَـاعِـدُ والـنَّـديـمُ

وكـنـتُ بِـهَـا الـمـمَـنَّـعَ، غَـيْـرَ وَغْـدٍ ولا نَـكِـدٍ، إذا حَـلَّ الـعَـظـيـمُ

الممنع (المحمي)، العظيم (البلاء الكبير)

إذا أنَـا لـم أَلُـم عَـثَـراتِ دَهْـرٍ أُصِـبْـتُ بـهـا الـغَـدَاةَ، فَـمَـنْ أَلُـومُ

١٣٥ أشعر الثقلين

يصف حجةً حجها:

وقـد أَمَّـمْـتُ بَـيْـتَ الـلَّـهِ نِـضْـواً عـلـى عَـيْـرَانَـةٍ حَـرْفٍ سَـعُـومِ

أممت (قصدت) بيت الله نضواً (مهزولاً) على عيرانة (ناقة شديدة كالبعير) حرف (ناقة ضامرة) سعوم (سريعة)

وبَـذَّلَـهـا الـسُّـرَى بِـالـجَـهْـلِ حِـلْـمـاً وقَـدَّ أَدِيـمَـهـا، قَـدَّ الأَدِيـمِ

جعلها السرى (سير الليل) هادئة وكانت جهولاً (مستثارة)، وهذا السير قدَّ أديمها (شقق جلدها) قدَّ الأديم (كقطعك الجلد المدبوغ)

طَـواهـا طَـيُّـهَـا الـمـوْمَـاةَ وَخْـدَاً إلـى أَجْـبَـالِ مَـكَّـةَ والـحَـطِـيـمِ

طواها (أهزلها) طيها الموماة (قطعها الصحراء) وخداً (جرياً)
قاصدة جبال مكة والحطيم (بناء قرب الكعبة)

أقـولُ لـهـا، وقـد أَوْحَـتْ بِـعَـيْـنٍ إليَّ، تَـشَـكِّـيَ الـدَّنِـفِ الـسَّـقِـيـمِ. .

أقول لها وقد أوحت (أومأت) بعينها كما يشتكي الدنف (المريض). .

بِـكُـورِكِ أَشْـعَـرُ الـثَّـقَـلَـيْـنِ طُـرَّاً، وأَوْفَـى الـنـاسِ في حَـسَـبٍ صَـمِـيـمِ

بكورك (على سرجك) يركب أشعر الثقلين (الإنس والجن) طراً (جميعاً)، وأوفى الناس مع حسب صميم (نسب متين)

فَـمَـرَّتْ مِـثْـلَـمَـا يَـمْـشـي شَـهِـيـدٌ سَـوِيَّـاً فـي صِـرَاطٍ مُـسْـتَـقِـيـمِ

يبدو أن الناقة فهمت كلامه. . فعندئذ مرت مسرعة
كالشهيد الذي يقطع الصراط المستقيم سوياً (معتدلاً)

١٣٦ العصر الذهبي

يمدح المأمون:

أهـلاً وسـهـلاً بـالإمـامِ ومَـرْحـبـاً، سَـهُـلَـتْ حُـزُونَـةُ كـلِّ أمـرٍ قَـرْدَدِ

حزونة: وعورة، قردد: أرض مرتفعة

في دَوْلَـةٍ لَـحَـظَ الـزَّمـانُ شُـعـاعَـهـا فـارتَـدَّ مُـنْـقَـلِـبـاً بِـعَـيْـنَـيْ أَرْمَـدِ

رأى الزمان (بمصيباته ومشكلاته) شعاع دولتكم فتراجع وفي عينيه رَمَد

مـن كـانَ مـولِـدُهُ تَـقـدَّمَ قـبـلَـهـا، أو بـعـدَهـا، فـكـأنـه لـم يُـولَـدِ

وأَرى الأمـورَ الـمـشْـكِـلاتِ تَـمَـزَّقَـتْ ظـلـمـاتُـهـا عـن رأيِـكَ الـمـتـوقِّـدِ

عـن مـثـلِ نَـصْـلِ الـسـيـفِ، إلا أنَّـه مُـذْ سُـلَّ أوَّلَ سَـلَّـةٍ لـم يُـغْـمَـدِ

تمزقت المشكلات عن رأيٍ هو مثل نصل السيف، غير أنه منذ استُلَّ أول مرة لم يعد إلى غمده بل ظل مسلولاً

لو يَعلَمُ العَافُونَ كمْ لَكَ في النَّدَى مِـنْ لَـذَّةٍ أو فَـرْحَـةٍ لـم تُـحْـمَـدِ

لو عرف العافون (الفقراء) مقدار الفرح الذي ينتابك عندما تعطيهم المال لم يشكروك

١٣٧ الإمام العادل

قال في المأمون:

لـم يُـذكَـرِ الـجُـودُ إلَّا خُـضْـتَ وادِيَـهُ ولا انْـتُضـيِ السيفُ إلَّا خافَكَ القَدَرُ

ما ضَرَّ منْ أصبحَ المأمونُ سائِسَهُ أنْ لم يَسُسْهُ أبو بكرٍ ولا عُمَرُ
وما على الأرضِ، والمأمُونُ يملِكُها أنْ لا تُضِيءَ لنا شمسٌ ولا قمرُ

١٣٨ فكأنها وكأنهم أحلام

يمدح المأمون:

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقالَ: سلامُ كمْ حَلَّ عُقدةَ صبرِهِ الإلْمامُ

هذه دمن (أطلال) المحبوبة، وقد أَلَمَّ بها العاشق (زارها) وسلم عليها،
وهذا الإلمام حل العقدة عن صبره، كما يحل المرء عقدة القربة،
فتدفق الصبر ولم يبق لدى العاشق صبر

نُحِرَتْ رِكابُ القومِ، حتَّى يَغْبُرُوا رَجْلَى؛ لقد عَنُفُوا عَلَيَّ ولامُوا

أدعو الله أن تُنحَر ركاب (إبل) أصحابي الذين وقفوا معي بالأطلال حتى يغبروا (يصبحوا) رجلى (مترجلين يسيرون على أقدامهم)، فقد كانوا عنيفين في لومي وتقريعي

ولقدْ أراكِ، فهلْ أراكِ بِغِبْطَةٍ والعيشُ غَضٌّ، والزمانُ غُلامُ؟

وإنني لأنظر إليك أيتها الديار الخربة! فهلا رأيتك بعين أخرى سعيدة إذ أنت عامرة، وإذ العيش غض (طري)، والزمان غلام (أي عندما كنت شاباً وكان الزمان شاباً مثلي)؟

أعْوامَ وَصْلٍ، كانَ يُنْسِي طولَها ذِكْرُ النَّوَى، فَكأنها أَيَّامُ

هلا رأيتك أيتها الديار في أعوام وصل المحبوبة، وكانت أعواماً طويلة، وكان ذكر النوى (الفراق) ينسيني طولها، فكأنها كانت أياماً فقط

ثم انقضَتْ تلكَ السِّنُونَ، وأهلُها فكأنها، وكأنَّهُمْ أحلامُ
اللَّهُ أكبرُ! جاءَ أكْبَرُ مَنْ جَرَتْ، فَتَحَيَّرَتْ، في كُنْهِهِ الأوْهامُ

الله أكبر! جاء أكبر من جرت في كنهه الأوهام فتحيرت
(من سعت العقول لإدراك حقيقته، فتحيرت)

مَنْ شَرَّدَ الإعْدَامَ عن أوطانِهِ بِالبَذْلِ، حتى اسْتُطْرِفَ الإعْدَامُ

جاء الذي شرد (طرد) الإعدام (الفقر) عن أوطانه (أماكن وجوده) ببذل المال،
حتى لقد استطرف (عُدَّ نادراً) الفقر

وتَكَفَّلَ الأيْتَامَ عن آبائِهِمْ حتى وَدِدْنَا أننا أيْتَامُ

١٣٩ شماتة الأعداء

قال يمدح خالد بن يزيد الشيباني. وأراد المعتصم معاقبته فألغى قراراً بتوليته على الحرمين، فاستأذن خالد في التوجه إلى مكة للحج فأُذن له. ثم شفع فيه أحمد بن أبي دؤاد، فرضي المعتصم عنه وخلع عليه، ولكنه لم يمنحه ولاية الحرمين. فحسنت حاله، واستقر في العراق، ولم يقصد مكة، لا حاجاً ولا والياً:

قـد كـان خـطـبٌ عـاثـرٌ، فـأقـالَـه   رأيُ الـخـلـيـفـةِ كـوكـبِ الـخـلـفـاءِ

أقاله: يعني أقالك منه، أي عفا عنك

فخرجتَ منه كالشهابِ؛ ولم تزلْ،   مُـذْ كـنـتَ، خَـرَّاجَـاً مـن الـغَـمَّـاءِ

الغماء: المصيبة

مـا سـرَّنـي بِـخِـدَاجِـهـا مـن حَـجَّـةٍ   مـا بـيـنَ أَنـدَلُـسٍ إلـى صـنـعـاءِ

سررت بخداج (إجهاض) هذه الحَجَّة إلى مكة أكثر من سروري لو كنت ملكت البلاد بين الأندلس وصنعاء. قد جعلها الصولي «حُجة» بضم الحاء، وفسَّر أنها حُجة خصم الممدوح الذي كاد له عند المعتصم. ونقل التبريزي تفسير الصولي دون تغيير. وقد ذكر شرف الدين المستوفي أن الأصح حَجة بفتح الحاء وقال إن الصولي صحَّف. وهي «حَجة» أيضاً في نسخة الإسكوريال التي أطنب محمد عبده عزام محقق شرح التبريزي في وصفها بالدقة. ونعود للصولي فإنه بعد أن فسرها ذلك التفسير، راح يشرح قصة خالد والحجة التي لم يحجها إلى مكة. وعاد وفسر البيت على ضوء هذا مناقضاً نفسه. وأبى التبريزي إلا أن يصنع صنيعه فقد عاد في ذيل شرحه للبيت ونقل رواية «حَجة» بفتح الحاء وفسرها التفسير الصحيح وناقض نفسه. هذا هذا؛ أما شارحو الديوان المحدثون من الدكاترة فنقلوا الغلط واكتفوا به. وأورد التفسير على وجهه ملحم الأسود اللبناني؛ وزاد عبد السلام هارون أن جعلها «حِجة» بكسر الحاء مفسراً أنها المرة من الحج على غير قياس. وكتاب هارون صدر قبل طبع شرحي الصولي والتبريزي. وأغلب الظن أنه استقى المتن من طبعة محيي الدين الخياط، و«حجة» عند الخياط غير مشكولة. وهي غير مشكولة في طبعة شاهين عطية ١٨٨٩. وإنما أوردنا عليك هذا كله حتى تطمئن نفسك إلى أننا نخدم الأبيات قدر الاستطاعة، وعندما ترانا لا نورد كل هذه التفاصيل والاختلافات بين الشروح في أبيات أخرى ستسعد لأننا أسقطنا عنك المؤنة، وسيبقى في قلبك الاطمئنان

أجرٌ. ولكنْ، قد نظرتُ فلم أجِدْ   أجـراً يَـفـي بـشـمـاتَـةِ الأعـداءِ

قد فاتك أجر (ثواب) الحج. ولكنْ، لا ثواب يفي (يوازي) بشماتة الأعداء

١٤٠ السيف أصدق أنباءً

يمدح المعتصم، ويذكر انتصاره على الروم في موقعة عمورية:

اَلسيفُ أصْدَقُ أَنباءً من الكتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

السيف أصدق من «الأنباء» التي نقلها المنجمون من كتبهم، وحد السيف هو الحد الفاصل بين الخبر الحقيقي وبين اللعب (كلام العرافين). قارن أبو تمام بين أنباء ينقلها السيف وهي صحيحة قطعاً لأن السيف فاعل، وبين أنباء في كتب العرافين. والتقط حقيقة أن السيف والكتب يجوز عليهما حمل الأنباء، لكن، كلاً بطريقته. وصنع جناساً تاماً بين حد السيف، والحد الفاصل بين صدق وكذب، وزاد بجناس ناقص مع كلمة الجد. وبدأ هذا المطلع بكلمة اَلسيف، وهمزتها همزة وصل، ولكنك مضطر إلى قطعها، وفي الشطر الثاني تصنع الشدَّات إيقاعاً فيه تقطيع حادّ يشبه وضع حدود فاصلة بسيف قاطع. هذا بيت يمكن الكلام كثيراً على قوته وتأثيره. وكل شطر في البيت يتضمن حكماً قائماً بذاته يحسن السكوت عليه، وهذا من محاسن الشعر في رأي نقادنا القدماء، ولكنه هنا بالفعل أمر مستحسن لأن المناسبة تحتاج إلى القطع والبت. والطباق بين الجد واللعب ظاهر

بِيضُ الصَّفائحِ، لا سودُ الصَّحَائِفِ، في مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

الصفائح البيض (السيوف)، وليس الصحائف السود (أوراق العرافين)، هي التي في متونها (نصالها) جِلاء (كشف) الشكوك. مضى أبو تمام في مقارنة. السيف بالكتب، فالتقط كلمتي «الصفائح» و«الصحائف» وصنع منهما جناساً. وجاء بكلمة «متون» وهي كلمة مشتركة أيضاً فالكتاب له متن والسيف له متن

والعلمُ في شُهُبِ الأَرماحِ لامعةً بين الخميسيْنِ، لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

المعلومة الحقيقية قابعة في سنان الرماح اللامعة كالشهب وهي تتحرك فيما بين الخميسين (الجيشين) المتقاتلين، وليست المعلومة قابعة في الشهب السبعة (الكواكب السبعة في عرف ذلك الزمان). التقط أبو تمام تشبيهاً مطروقاً لأسنة الرماح بالشهب، لكنه زاد فقارنها بالشهب (الكواكب) السماوية السبعة المعروفة آنذاك. سترى في القصيدة عشرات الشواهد على الصناعة اللفظية ـ المعنوية، وهي قادرة على أن تقوي المعنى وترفع الشعر، وقادرة أيضاً على تبديد حرارته وجعله مفتعلاً. ولأبي تمام من كلٍّ نصيب. غير أنه في هذه القصيدة جمع بين الأستاذية في الصنعة والتدفق الشعري كما لم يفعل في أي قصيدة أخرى له

أينَ الرِّوايةُ؛ بل أين النجومُ؛ وما صاغُوه من زُخْرُفٍ فيها، ومن كَذِبِ؟

أين رواية المنجمين، وأين نجومهم، وأين ما صاغوه من كلام مزخرف كاذب؟

تَخَرُّصاً، وأحاديثاً ملفَّقَةً ليستْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ، ولا غَرَبِ

صاغوه تخرصاً (كذباً) وصاغوه أحاديث ملفقة (مركبة من هنا وهنا)، وهي ليست بنبع (شجر صلب) ولا غرب (شجر ضعيف). يقول: ليست أحاديث صحيحة، ولا ضعيفة، بل مجرد أكاذيب

عَجائباً زَعَموا الأيامَ مُجْفِلَةً عنهُنَّ في صَفَرِ الأصْفَارِ، أو رَجَبِ

زعموا أن هناك عجائب ستجفل عنها الأيام (ستنصرف الأيام وتمضي، فتكشفها)، وذلك في شهر صفر الأصفار (صفر ذاك الذي علمتموه بنحسه المعروف) أو في رجب

وخَوَّفوا الناسَ من دَهْيَاءَ مُظْلِمةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنَبِ

خوفوا الناس من دهياء (مصيبة) عندما يبدو الكوكب الغربي ذو الذنب (مذنب «هالي» فيما قيل، ورأينا هذا المذنب يظهر في هذا الوقت في شعر علي بن الجهم معاصر أبي تمام)

وصيَّروا الأبْرُجَ العُليا مرتَّبَةً ما كانَ منقلِباً، أو غيرَ مُنقَلِبِ

وجعلوا أبراج السماء مرتبة، فبعضها سموه منقلباً وبعضها غير منقلب، ورتبوا لها أدواراً في التأثير في سير الأحداث. أخذنا برواية (مرتَّبة) بفتح التاء، فبها استقام لنا السياق، وبغيرها لم يستقم

يقضُونَ بالأمرِ عنها، وهْيَ غافِلةٌ ما دارَ في فَلَكٍ منها، وفي قُطُبِ

يتكلمون باسم النجوم وهي لا تدري بهم، سواء الدائرات منها في فلك (مدار) أو ما كان جزءاً من قطب تدور حوله نجوم أخر

لو بَيَّنَتْ قَطُّ أمراً قبلَ موقِعِه لم تُخْفِ ما حَلَّ بالأوثانِ والصُّلُبِ

لو كانت الأبراج تكشف المستقبل لكانت كشفت للمنجمين ما حل بالتماثيل والصلبان في عمورية من تدمير قبل أن يقع

فتحُ الفُتوحِ تَعالى أن يُحيطَ به نَظْمٌ من الشعرِ، أو نثرٌ من الخُطَبِ

هذا فتح عظيم، تعالى (جل) عن أن يصفه بالتفصيل الشعر أو النثر

فَتحٌ تَفَتَّحُ أبوابُ السماءِ له، وتبرُزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُبِ

فتح تتفتح له أبواب السماء بهجة، وتتزين الأرض بأثواب قشيبة (جديدة) من العشب والزهر

يا يومَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ، انْصَرَفَتْ مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعسُولَةَ الحَلَبِ

يا هذا اليوم لقد انصرفت (رجعت) الأماني بعدك وقد تحققت، فكأنها ضروع الناقة الحافلة الممتلئة بالحليب المعسول (الحلو المذاق)

أَبْقَيْتَ جَدَّ بني الإسْلامِ في صَعَدٍ، والمشركينَ ودَارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ

يا هذا اليوم لقد أبقيت جد (حظ) المسلمين في صعد (مكان عال)، وأبقيت المشركين ودار الشرك (بلادهم) في صبب (مكان منخفض)

أُمٌّ لَهُمْ، لو رَجَوْا أن تُفتَدى جَعلوا فداءَها كلَّ أمٍّ بَرَّةٍ وأَبِ

عمورية أم لهم (معقل مهم، ومكان تاريخي)، ولو كان لديهم أي رجاء في إنقاذها لافتدوها بكل أم برة (بارة) وكل أب

وبَـرْزَةُ الـوَجْهِ قـد أَعْيَـتْ رِيَـاضَـتُهـا كِسرى، وصَدَّتْ صُدوداً عن أَبي كَرَبِ

برزة (جميلة) الوجه أتعب ترويضها كسرى، وصدت عن أبي كرب (ملك اليمن) فلم يستطع امتلاكها. بدأ أبو تمام يشبهها بالفتاة

بِكْرٌ، فما افْتَرعَتْها كَفُّ حادِثَةٍ، ولا تَـرَقَّـتْ إلـيـهـا هِـمَّـةُ الـنُّـوَبِ

عذراء، لم تفترعها (تفتض بكارتها) حادثة (نكبة)،
ولا تجرأت أن تترقى إليها همة النوب (تطلُّعات المصائب)

مِن عهدِ إِسكَنْدَرٍ، أو قبلَ ذلكَ، قد شابَتْ نواصي اللَّيالي، وهْيَ لم تَشِبِ

منذ القدم شابت نواصي (سوالف) الليالي السود فابيضت،
ولكن عمورية شابة لم يحل برأسها الشيب

حتى إذا مَخَضَ اللَّهُ السِّنينَ لها مَخْضَ البَخِيلةِ، كانتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ

ظل رب الكون يهز سني هذا الدهر مثلما تهز البخيلة القِربة المملوءة باللبن الحليب؛ تهزها كثيراً لأنها بخيلة تريد ألا تترك شيئاً من الزبدة؛ وبعد هذا جاءت عمورية ووقعت بأيدينا فكانت زبدة الحقب (الأزمان). مخض بدون شدة فانتبه، وكل محققي الشروح زينوها بالشدة، والمخْض يستدعي مَخَضَ. قد صفق النقاد لهذا البيت، ولم يستطع أحد فيما علمت أن يجد له أباً عند القدامى، وقال التبريزي «هذه استعارة لم تستعمل قبل الطائي»

أَتـتْـهُـمُ الـكُـرْبَـةُ الـسـوداءُ سَـادِرةً منها، وكانَ اسمُها فَرَّاجَةَ الكُرَبِ

جاءت للروم الكربة (المصيبة) السوداء سادرة (هوجاء) من عمورية، وكانوا يتفاءلون بها ويسمونها فارجة المصائب

جَرى لـهـا الـفَـأْلُ بَـرْحـاً يـومَ أَنْقِـرَةٍ إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ السَّاحَاتِ والرُّحُبِ

جرى لها الفأل برحاً (كان طالعها سيئاً) بعد يوم أنقِرة التي غودرت وحشة الساحات والرحب (الساحات). فقد هزم الروم أولاً قرب أنقرة وهجرها أهلها

لما رأتْ أختَها بالأمسِ قد خَرِبَتْ كان الخرابُ لها أَعْدَى مِنَ الجَرَبِ

كـم بين حيطانِها من فارسٍ بطلٍ قـانـيِ الـذَّوائِـبِ مـن آنـي دَمٍ سَـرِبِ

داخل أسوار عمورية أبطال كثر، تلطخت ذاوئبهم (خصال شعرهم) بالدم القاني (الأحمر) الآني (الحار) السرب (المتدفق)

بِسُنَّةِ السيفِ والـخَطِّيِّ، من دَمِه، لا سُنَّةِ الدينِ والإسلامِ، مُخْتَضِبِ

هذا البطل الرومي شعره مختضب (مصبوغ) بدمائه، وذلك على سنة (شرع) السيف والخطي (الرمح)، وليس مختضباً بالحنَّاء على سنَّة الدين الإسلامي

لقد تَركْتَ، أميرَ المؤمنينَ، بها　　للنارِ يوماً ذليلَ الصخرِ والخَشَبِ

تركت أيها المعتصم بعمورية يوماً ذا خشب وصخر ذليلين بتهدم البيوت، المبنية بالخشب والحجارة. فهو يوم خشبه وحجارته ذليلة. ويجوز لك أن تجعل كلمة «يوماً» زائدة، وهذا أشبه بالشعر القديم

غادَرْتَ فيها بَهِيمَ الليلِ وهْوَ ضُحَىً　　يَشُلُّهُ وَسْطَها صُبْحٌ من اللَّهَبِ

تركت الليل البهيم (الأسود) وهو ضحى منير، والذي يشل (يطرد) الليل وسط عمورية صبح صناعي سببه اللهب لا الشمس

حتى كأنَّ جَلابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ　　عن لونِها، أو كأنَّ الشمسَ لم تَغِبِ

فكأن جلابيب (ملابس) الليل رغبت عن لونها (كرهت لونها)، أو كأن الشمس لم تغرب في ذلك اليوم

ضَوْءٌ من النارِ، والظلماءُ عاكِفةٌ　　وظُلمةٌ من دُخَانٍ في ضُحَىً شَحِبِ

النار تضيء رغم الظلمة العاكفة (الماكثة)، والظلام إنما يأتي من الدخان وسط هذا الضحى الشاحب

فالشمسُ طالعةٌ من ذا، وقد أَفَلَتْ　　والشمسُ واجِبَةٌ من ذا، ولم تَجِبِ

الشمس طالعة من ذا (من اللهب)، مع أنها في الواقع أفلت (غربت)؛ والشمس واجبة (غاربة) من ذا (من الدخان)، لكنها لم تجب (لم تغرب) بسبب اللهب

تَصَرَّحَ الدَّهْرُ، تصريحَ الغَمامِ، لها　　عن يومِ هَيْجاءَ منها طَاهِرٍ جُنُبِ

تصرح (تكشَّف) الزمن مثلما يتكشف الغيم وتصفو السماء، ورأينا يوم هيجاء (حرب) طاهراً لكنه أيضاً جنب (هذا اليوم لحقته الجنابة بالجماع)..

لم تَطْلُعِ الشَّمسُ فيهِ يومَذاكَ على　　بَانٍ بأهلٍ، ولم تَغْرُبْ على عَزَبِ

عندما طلعت الشمس لم يكن في جنودنا أحد قد بنى بأهل (اتخذ زوجة)، وعندما غربت الشمس كان كل جندي قد فارق العزوبة وتزوج البنات المسبيات تعرضن للسبي وللاغتصاب بحسب أعراف ذلك الزمان. وربما أيضاً بحسب أعراف هذا الزمان. فالجنود الغائبون عن النساء مدة طويلة ـ عمورية تبعد ١٢٠٠ كم عن سامراء ـ فعلوا ما وصفه أبو تمام مفتخراً به. وفي حرب البوسنة فعل الجنود بالنساء ذلك. ولعل من أول واجبات الفقيه المسلم الجديد، الذي نرجو أن يبعثه الله، أن يفتينا فتوى معقولة في هذا الأمر غير المعقول. نقرأ هذا الشعر ونقدر أنه قيل في زمن غابر، ولكن هذه الحيوانية في الإنسان تظل مصدر توتير لنا. لكننا نعود ونقول: لن نقيس الشعر بمقاييس الأخلاق. ولن نرضى أن يسرف الغرب المجرم في تعييرنا بتفاصيل كهذه. فجريمة الغرب في الكونغو ـ ولا أريد تسمية بلد عربي ـ يقشعر لها البدن. لأجل معادنها الثمينة يصنع الغرب هناك الحروب الأهلية وغير الأهلية، والنتيجة مقتل خمسة ملايين إنسان. لا تشعر بالتقزز من ملحمة أبي تمام هذه بأكثر مما يجب، فالعرب في الجاهلية كانوا يسبون نساء بعضهم بعضاً. والروم كانوا يسبون المسلمات أيضاً

ما رَبْعُ مَيَّةَ، مَعْمُوراً، يُطِيفُ به غَيْلانُ أَبْهَى رُبَىً من رَبْعِها الخَرِبِ

ليس ربع (موطن) «مية» إذ هو معمور آهل بسكانه ويطيف (يطوف) به غيلان (ذو الرمة الشاعر، حبيب مية) ليس هذا الربع بأجمل في عينيْ غيْلان من عمورية إذ هي خربة محترقة في عيون جنودنا، فما أحلى خرابها وانتصارنا عليها

ولا الخدودُ، وإنْ أُدْمِينَ من خَجَلٍ، أشهى إلى ناظرٍ من خدِّها التَّرِبِ

ولا الخدود المحمرة من خجل، فكأنها دامية، أشهى منظراً من خد عمورية المغبر

سَمَاجَةٌ غَنِيَتْ مِنَّا العُيونُ بها عن كل حُسْنٍ بدا، أو مَنظرٍ عَجَبِ

هذه سماجة (قبْح) استغنت به عيوننا عن كل جمال أو منظر عجيب

وحُسنُ مُنْقَلَبٍ تبدو عواقِبُه، جاءتْ بشاشَتُه عن سوءِ مُنْقَلَبِ

وهذا حسن منقلب (نتيجة طيبة) تظهر عواقبه (نتائجه)، وجماله ناشئ عن سوء منقلب الروم

لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصُرٍ كَمَنَتْ له المنيَّةُ بينَ السُّمْرِ والقُضُبِ

لو يعلم الكفر كم من عصور مرت والمنية (الموت) كامنة له بين السمر (الرماح) والقضب (السيوف) تنتظر البروز

تدبيرُ معتصِمٍ باللَّهِ، منتقِمٍ للَّهِ، مرتَقِبٍ في اللَّهِ، مرتَهِبِ

ما حدث تدبير رجل معتصم بالله (محتمٍ بالله)، مرتقب لأمر الله، ويرهب عذاب الله

ومُطْعَمِ النَّصْرِ، لم تَكْهَمْ أسنَّتُهُ يوماً، ولا حُجِبَتْ عن رُوحِ مُحْتَجِبِ

وهو تدبير مطعَم النصر (الذي أطعمه الله نصراً) ولم تكهم أسنته (لم تخطيء) ولا حُجِبت عن روح جندي العدو المحتجب بدرعه وترسه

لم يَغْزُ جَيشاً، ولم ينْهَدْ إلى بَلَدٍ، إلا تقدَّمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ

ينهد: ينهض

لو لم يَقُدْ جَحْفَلاً يومَ الوَغى، لغَدا، من نفسِه وحدَها، في جَحْفلٍ لَجِبِ

لجب: كثير الضجيج، أي أنه جيش كبير

رمَى بكَ اللَّهُ بُرْجَيْها فَهَدَّمَها؛ ولو رَمَى بكَ غيرُ اللَّهِ لم تُصِبِ

لا أدري إن كان أحد قد فطن لهذا البيت وقت انهدام البرجين الكبيرين في نيويورك في حادي عشر سبتمبر أيلول عام ٢٠٠١. وها قد كادت تمر سنوات عشر على تلك الجريمة البشعة (وأنا أكتب في يناير كانون الثاني ٢٠١١)، ولكن القلب غير مطمئن إلى هوية الفاعلين. وأستحسن هنا الاستدلال بالنتائج على الأسباب: فما سعت واشنطن إلى تحقيقه وما حققته فعلاً في أعقاب، وبذريعة، تلك الفعلة يدل بعض الدلالة على أن لها ضلعاً

من بعدِ ما أَشَّبُوهَا واثِقينَ بِها. والله مِفتاحُ بابِ المعْقِلِ الأَشِبِ

لقد تهدمت عمورية من بعد ما أشبوها (حصنوها) ووثقوا بها. ولكن الله يفتح باب المعقل الحصين

وقالَ ذُو أمرِهِمْ: لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ للسَّارِحِينَ، وليسَ الوِرْدُ مِنْ كَثَبِ

قال رئيس الروم: لا يوجد مرتع (مرعى) صدد (قريب) للمسلمين عند عمورية ليسرحوا بمواشيهم، وليس الورد (مورد الماء) من كثب (قريب)، لذا فلن يتمكنوا من حصارها وسيذهبون عنها

أمَانِياً سلبَتْهُمْ نُجْحَ هاجِسِها ظُبَى السيوفِ، وأَطْرافُ القَنا السُّلُبِ

كانت هذه أمنياتهم ولكنْ، سلبتهم نُجح (تحقُّقَ) هذه الهواجس ظبى السيوف (نصالها) وأسنة القنا (الرماح) السلب (الطويلة)

إنَّ الحِمامَيْنِ، من بِيضٍ ومن سُمُرٍ، دَلْوَا الحياتيْنِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

إن الموتين: من بيض (سيوف) ومن سمر (رماح)، هما مثل دلوين لحياتين: حياة بالماء وحياة بالعشب. أي أن المسلمين حققوا بأسلحتهم أسباب الحياة، ونالوا الماء والعشب لمواشيهم بالنصر

لَبَّيْتَ صوتاً زِبَطْرِيّاً، هَرَقْتَ له كأسَ الكَرى، ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

أيها المعتصم لقد لبيت صوت المرأة العربية في زِبَطْرَة التي صرخت وامعتصماه، وقد هرقت (أرقت) في سبيلِ ذلك كأس الكرى (النوم) فسهرت وأنت تقطع المسافة الطويلة وتسير ليلاً، وأرقت أيضاً رضاب الخرد (الفتيات) العُرُب (المتحببات للأزواج) فلم تعاشر النساء. ومن عادات العرب الغضاب أن يحلفوا ألا يمسوا النساء إلا بعد خوض المعركة. وقيل: عندما نقل إلى المعتصم خبر المرأة التي صرخت «وامعتصماه» كانت بيده كأس فوضعها، وسار من فوره ليتجهز للزحف، وحُفظت له الكأس ليشربها بعد عودته

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المسْتَضامَةِ عن بَرْدِ الثُّغُورِ، وعن سَلْسَالِهَا الحَصِبِ

حرارة الثغور (المواقع الحدودية) المستضامة (المظلومة) عداك (صرفك) عن برد الثغور (أفواه النساء)، وعن سلسالها (مائها العذب) الحصب (الذي يترقرق بين الحصى). يشبه ثغور النساء وما فيها من ريق وأسنان بجدول يترقرق فيه الماء بين الحصى

أَجَبْتَهُ مُعْلَمَاً بالسيفِ مُنْصَلِتاً ولو أجبتَ بغيرِ السيفِ لم تُجِبِ

أجبت صوت المرأة وأنت معلَم (واضع علامة كالريشة التي كان الفارس الشجاع يضعها على رأسه في الحرب) وعلامتك كانت السيف، وكان السيف منصلتاً (مسلولاً)، ولو كنت أجبت جواباً بغير السيف لما كان مقنعاً

حتى تركتَ عمودَ الشركِ منقَعِراً ولم تُعَرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ

تركت (جعلت) عمود الشرك منقعراً (مقتلَعاً) ولم تذهب للأوتاد والطنب (حبال الخيمة). فأنت قصدت أكبر مدنهم كمن يريد هدم الخيمة فيقتلع عمودها، ولا يأبه بأوتادها وحبالها

لما رأى الحربَ، رَأْيَ العينِ، تُوفِلِسٌ؛ والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنَى من الحَرَبِ. .

لما أدرك قائدهم توفلس أنها الحرب الحقيقية؛
والحرب مشتقة من الحرب (سلب الأموال). .

غَدَا يُصَرِّفُ بالأموالِ جِرْيَتَها، فَعَزَّهُ البحرُ ذو التيَّارِ والعُبُبِ

. . أصبح يبذل المال (محاولاً إغراء المعتصم به) ويريد أن تجري الحرب على هواه بأمواله،
ولكن غلبه التيار والعباب (تيار الزحف الجارف)

قد رأينا تفسير الصولي لجريتها، وتفسير التبريزي المشتق منه، وفسرْنا بما فتح الله علينا

هيهاتَ! زُعْزِعَتِ الأرضُ الوَقُورُ به عن غزوِ مُحْتَسِبٍ، لا غَزْوِ مُكْتسبِ

الأرض الوقور (الثابتة) تزعزعت من تحت توفلس، فالغازي محتسب ثواب ربه، وليس مكتسباً للمال

لم يُنفِقِ الذهبَ، المُرْبِي بِكَثْرَتِهِ على الحَصَى، وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ

والمعتصم الذي أنفق في تجهيز الجيش المال المربي (الزائد)
عن الحصى كثرةً ليس مفتقراً للذهب

إنَّ الأُسُودَ، أُسُودَ الغَابِ، هِمَّتُها يومَ الكَريهَةِ في المسْلُوبِ، لا السَّلَبِ

مسعى الأسود يوم الكريهة (الحرب) يكون لنيل روح الشخص المسلوب نفسها وليس لنيل السلب (الثياب والمال)

وَلَّى، وقد أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تحتَها الأحشاءُ في صخبِ

ولى (فرَّ) قائدهم وقد ألجم (أخرس) الخطي (الرمح) منطقه (كلامه)، فأسكته السلاح سكتة كانت تحتها أحشاؤه تصطخب من القلق والرعب

أَحْذَى قَرابِينَهُ صِرْفَ الرَّدَى، ومَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطاياهُ إلى الهَرَبِ

أحذى (أعطى) قرابينه (المقربين منه) صرف الردى (الموت الصافي)، ومضى يحتث (يحث) أنجى مطاياه (أسرع خيله) هارباً

مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ الأرضِ يُشْرِفُهُ من خِفَّةِ الخوفِ، لا من خفَّةِ الطَّرَبِ

موكلاً (معنياً) بيفاع الأرض (المرتفع من الأرض) يشرفه (يعتليه) ليراقب هل يلحق به أحد بسبب خوفه، لا بسبب شعوره بالطرب لنجاته

إنْ يَعْدُ من حَرِّها عَدْوَ الظَّلِيمِ، فقد أَوْسَعْتَ جَاحِمَها من كَثْرَةِ الحَطَبِ

إن يركض من حر المعركة ركض الظليم (ذكر النعام) فإنك مكثت تملأ جاحمها (جحيمها) بالحطب الذين هم جنوده. .

تِسْعُونَ ألفاً، كَآسَادِ الشَّرَى، نَضِجَتْ جُلودُهُمْ، قبلَ نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

قتلت حرقاً تسعين ألف نسمة من أبطال الروم، ونضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب اللذين قال المنجمون إن الحظ لن يبتسم للمعتصم إلا عند موسم نضجهما

يا رُبَّ حَوْبَاءَ لَمَّا اجْتُثَّ دابِرُهُمْ طابَتْ، ولو ضُمِّخَتْ بالمِسْكِ لم تَطِبِ

رب حوباء (نفْس) طابت (استراحت) لما تم اجتثاث الأعداء، ولو كانت ضمخت (لطخت) بالمسك لما طابت. والعربي إذ يذهب للحرب يقسم لا يمس الطيب ولا النساء إلا إذا ظفر. فالمعتصم كان غير متطيب بالطيب. وطيبه الحقيقي كان قتل الروم

ومُغْضَبٍ رَجعَتْ بِيضُ السيوفِ به حَيَّ الرِّضَا عن رَدَاهُمْ، مَيِّتَ الغَضَبِ

ورب مغضب (غاضب)، هو المعتصم، جعلته السيوف البيض يعود وقد أصبح رضاه حياً وغضبه ميتاً بقتل العدو

والحربُ قائمةٌ في مأْزِقٍ لَجِجٍ، تَجْثُو الرجالُ به صُغْراً على الرُّكَبِ

الحرب مشتعلة في مأزق (مضيق من الأرض) لجج (ضيق)، تجثو فيه الرجال (تقعي) على ركبهم صغراً (مائلين بأجسامهم) لشدة القتال. يتخيل المحاربين إذا اشتدت المبارزة ووقع أحدهم فواصل المبارزة وهو على ركبتيه وجسمه يميل يمينا ويساراً. هذا ما فتح الله به علينا وللشراح أقوال وروايات كثيرة

كم نِيلَ تحتَ سَناها من سَنا قَمَرٍ، وتحتَ عارِضِها من عارِضٍ شَنِبِ

كم نال جنودنا تحت سنا (ضوء هذه الحرب المحرقة) من سنا قمر (من فتاة مضيئة الوجه)، وكم نالوا تحت عارض الحرب (غمامتها الماطرة بالموت) من عارض شنب (أسنان عذبة لفتاة سبية)

كم كان في قَطْعِ أسبابِ الرِّقَابِ بِها إلى المخَدَّرَةِ العَذراءِ من سَبَبِ

وكم قد كان في قطع أسباب (عروق) الرقاب في هذه الحرب من سبب (وسيلة) للوصول إلى عذراء مخدرة (مستورة)

كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهِندِيِّ، مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ، من قُضُبٍ تَهْتَزُّ في كُثُبِ

وكم قد أحرزت قضب الهندي (السيوف) وهي مصلتة (مسلولة) ومهتزة من فتيات هن كالقضب (الأغصان) التي تهتز في الكثب (في كثبان الرمل). يشبه جسم الفتاة بجذع نحيل كالغصن يتمايل فوق أرداف كبيرة ككثيب الرمل

بِيضٌ إذا انْتُضِيَتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ أَحَقَّ بِالبِيضِ أبْدَاناً من الحُجُبِ

بيض (سيوف) إذا انتضيت (سحبت) من حجبها (أغمادها) رجعت (أصبحت) أحق بالبيض أبداناً (الفتيات البيض أجساماً) من الحجب (من الستور التي تحتجب وراءها النسوة)

خَليفةَ اللَّهِ! جازَى اللَّهُ سعيَكَ عن   جُرثُومَةِ الدِّينِ والإسلامِ والحَسَبِ

يا خليفة الله، أثابك الله عن سعيك (دفاعك) عن جرثومة الدين (أصله)، وعن الحسب (ذلك أنهم قالوا إن المرأة العربية التي صرخت «وامعتصماه» كانت هاشمية ذات حسب ونسب)

بَصُرْتَ بالرَّاحَةِ الكبرَى، فَلَمْ تَرَها   تُنَالُ إلَّا على جِسْرٍ من التَّعَبِ

إن كان بين صُروفِ الدهرِ من رَحِمٍ   مَوْصُولةٍ، أو ذِمَامٍ غيرِ مُنْقَضِبِ..

إن كان بين صروف الدهر (أحداثه) رحم (نَسب) أو ذمام غير منقضب (حرمة غير مقطوعة)..

فبينَ أيامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بها،   وبينَ أيامِ بَدْرٍ، أقربُ النَّسَبِ

.. فبين أيام نصرك هذا وبين أيام معركة بدر قرابة

أَبْقَتْ بني الأَصفرِ المِمْرَاضِ، كاسْمِهِمُ،   صُفْرَ الوُجوهِ، وجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

أيام نصرك أبقت (جعلت) بني الأصفر الممراض (الروم، وهم أبناء جدهم المسمى «الأصفر» وهو كثير المرض) جعلتهم صفر الوجوه من الرعب مثل اسمهم، وهذه الأيام جلَّت (بيضت) أوجه العرب. يقول: جعلتهم أيام نصرك صفر الوجوه مثل اسمهم، فاسمهم بنو الأصفر الممراض، وأيام نصرك بيضت أوجه العرب

١٤١ دنيا معاش للورى

يمدح المعتصم:

رَقَّت حَواشي الدهرِ، فَهْيَ تَمَرْمَرُ   وغَدا الثَّرى في حَلْيِهِ يَتَكَسَّرُ

صارت أطراف الزمن تتمرمر (تتموج) لما نحن فيه من نعمة وسرور، وأصبح التراب يتكسر (يتشقق) في حليه (في زينته/بسبب ما يخرج منه من نبات)

مَطرٌ يذوبُ الصَّحْوُ منهُ، وبعدَهُ   صَحْوٌ يكادُ من الغَضَارَةِ يُمْطِرُ

مطر يلغي الصحو، ثم يأتي صحو يكاد من الغضارة (الخصب) يمطر، فالدنيا طرية والمطر متقطع لكنه ليس بقليل

ما كانتِ الأيامُ تُسْلَبُ بَهْجَةً   لو أنَّ حُسْنَ الروضِ كان يُعَمَّرُ

يا صاحبَيَّ! تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُما   تَرَيَا وُجُوهَ الأرضِ كيفَ تَصَوَّرُ

يا صاحبي! تقصيا نظريكما (انظرا بعيداً) تريا كيف تتخذ وجوه الأرض في الرياض المختلفة صوراً شتى

تَرَيَا نهاراً مشمِساً قد شَابَهُ   زَهْرُ الرُّبَى، فكأنَّما هُوَ مُقْمِرُ

النهار مشمس، وبوجود الأزهار البهيجة وشمس الربيع اللطيفة والنبات المتكاثف (حيث تكتسي الأشجار ورقاً)، فكأن النهار مقمر لا مشمس وإنما جعله مقمراً لوجود الأزهار التي هي كالنجوم. والذي التقط العلاقة بين القمر النهاري وبين وجود الأزهار من بين الشراح هو الأعلم الشنتمري، ومنه التقطناها، ونزيد فنقول: النجوم توصف بأنها «زُهْر» ولعل قوله «زَهرُ الربى» جعل عقله الباطن يفكر بالنجوم الزُّهر فجاء إليها بقمر

دُنـيَـا مَـعَـاشٌ لِـلْـوَرَى، حـتـى إذا حـلَّ الـربـيـعُ فـإنَّـمـا هِـيَ مَـنْـظَـرُ

هذه الدنيا معاش للناس (مخلوقة ليعيشوا فيها)، فإذا حل الربيع أصبحت لوحة تتمتع فيها العين.. هذا بيت عن ديوان

أَضْحَتْ تَصُوغُ بطونُها لظُهورِها نَـوْرَاً تـكـادُ لـه الـقُـلُـوبُ تُـنَـوِّرُ

أصبح بطن الأرض يصوغ لظهرها نوْراً (براعم وأزاهر) تجعل القلوب تنور (تزهر). كأنه جعل في باطن الأرض مصنعاً ينتج الأزاهير

مِـنْ كـلِّ زاهِـرَةٍ تَـرَقْـرَقُ بـالـنَّـدَى، فـكـأنَّـهـا عَـيْـنٌ إلـيـكَ تَـحَـدَّرُ

الأزهار يترقرق فيها الندى، فكأن كل زهرة عين إليك (ناظرة إليك) تحدَّر (تبكي وينحدر دمعها)

تبدو ويَحْجُبُها الجَمِيمُ، كأنها عَـذراءُ، تـبـدو تَـارةً وتَـخَـفَّـرُ

تبدوة الزهرة ثم يحجبها الجميم (خضرة النبات) مع تحرك الأغصان، فكأنها عذراء تبدو ثم تتخفر (تخجل وتتوارى)

حتَّـى غَـدَتْ وَهَـداتُـهـا ونِـجَـادُهـا فِـئَـتَـيْـنِ في خِـلَـعِ الـربـيـعِ تَـبَـخْـتَـرُ

حتى أصبحت وهدات الأرض (سهولها) ونجادها (رباها) فئتين (شكلين مختلفين/ فنبات السهول مختلف عن نبات الربى العالية) وكلتاهما تتبختر في خلع (ملابس) الربيع

مُـصْـفَـرَّةً مُـحْـمَـرَّةً، فـكـأنـهـا عُـصَـبٌ تَـيَـمَّـنُ في الـوَغَـى وتَـمَـضَّـرُ

أصبحت الأرض مصفرة محمرة بألوان الأزهار فكأنها عصب (جماعات) تتيمن وتتمضر (فرايات اليمن صفر، ورايات مضر حمر)

في الأرضِ، مِنْ عَدْلِ الإمامِ وجُودِهِ ومِـنَ الـنَّـبـاتِ الـغَـضِّ، سُـرْجٌ تُـزْهِـرُ

عدل الإمام وكرمه، والنبات الغض (الطري) هذه سرج (مصابيح) تزهر (تلمع كالنجوم الزاهرة)

سَـكَـنَ الـزَّمـانُ: فـلا يَـدٌ مَـذمُـومَـةٌ لِـلْـحَـادثـاتِ، ولا سَـوَامٌ يُـذْعَـرُ

سكن الزمان (كفَّ شروره المعتادة)، وقصُرَت يد الحادثات (المصائب)، وحتى السوام (المواشي) لم يعد ذئب يذعرها

نَـظَـمَ الـبـلادَ، فـأصـبـحـتْ وكـأنـهـا عِـقْـدٌ، كَـأَنَّ الـعـدلَ فـيـه جَـوْهَـرُ

الإمام (الخليفة) نظم البلاد كأنها عقد، وكأنَّ عدله جواهر العقد

١٤٢ إلَّا أنها لم تُقاتلِ

أبو تمام يشهد للأفشين بالشجاعة:

لقد لَبِسَ الأَفْشِينُ قَسْطَلَةَ الوَغَى   مُحِشًّاً بِنَصلِ السيفِ، غَيْرَ مُوَاكِلِ

لبس القائد «الأفشين» قسطلة (غبار) الوغى (الحرب) لبساً، لبسها مُحِشًّاً (محركاً الجمر بالمحش/ الحديدة التي يحرك بها الجمر) ولكنه يُحِشُّ بنصل السيف لا بحديدة، ولبس غبار الحرب غير مواكل (غير متكل على غيره بل مباشراً الحرب بنفسه)

ومُحِشاً بضم الميم قراءتنا، وانفردنا بها (ومن قرأ بكسر الميم أو بإبدال الحاء خاء أعنت نفسه في تعليق الجار والمجرور بعدها)

وسارتْ به، بين القنابِلِ والقَنا،   عزائِمُ كانتْ كالقَنا والقَنَابِلِ

القنابل (جماعات الخيل المندفعة)، القنا (الرماح)

قد ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ أعلامِهِ ضُحَىً   بِعِقْبانِ طيرٍ في الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ

كان يرفع رايات العُقاب (راية سوداء من صوف قيل إنها راية الرسول) وكانت تطير فوقها وتظللها عقبان حقيقية تنتظر وقوع قتلى لكي تنهل (تشرب) من الدم

أقامَتْ مع الرَّاياتِ، حتى كأنها   مِنَ الجيشِ، إلَّا أنها لم تقاتِلِ

أقامت (مكثت) العقبان مع الرايات، فكأنها جزء من الجيش، إلا أنها لم تقاتل

عشِيَّةَ صَدَّ البَابَكِيُّ عَنِ القَنَا   صدودَ المُقَالي، لا صُدودَ المُجَامِلِ

حدث هذا عشية (عندما) صد البابكي (بابَك الخرمي) عن الرماح صدود المقالي (الكاره) لا صدود المجامل (الذي يفعل الفعل الجميل ويكره قتل الأعداء)

تَحَدَّرَ مِنْ لِهْبَيْهِ يرجُو غنيمةً   بِسَاحَةِ لا الوَاني ولا المتَخاذِلِ

تحدر (نزل) من لهبيه (المضيقين بين الجبال) راجياً الغنيمة، لكنه نزل بساحة الأفشين الذي لم يكن وانيا (بطيئاً) ولا متخاذلاً (متراجعاً)

فكانَ كَشَاةِ الرمْلِ؛ قَيَّضَهُ الرَّدَى   لِقَانِصِهِ، مِنْ قبلِ نصبِ الحَبائلِ

فكان بابَك كشاة الرمل (البقرة الوحشية). وقد قيضه الردى (يسَّره الموت) لقانصه، قبل أن ينصب القانص حبائله (شبكته)

وعاذَ بأَطرافِ المَعاقِلِ مُعْصِمَاً   وأُنْسِيَ أن اللَّهَ فوقَ المَعاقِلِ

عاذ (التجأ) بابَك بمعاقله (حصونه) معصماً (طالباً الحماية) ناسياً أن الله أقوى من الحصون، فهو عدو الله

فَوَلَّى، ومَا أبْقَى الرَّدَى مِنْ حُمَاتِهِ   لـه غَـيْـرَ أَسْـآرِ الـرمَـاحِ الـذَّوَابِـلِ

هرب وما أبقى له الموت من أصحابه الذين يحتمي بهم سوى أسآر (بقايا) الرماح الذوابل (الجافة الدقيقة). يقول: لم يبق منهم سوى البقية التي أخطأتها الرماح. أخذنا بشرح الخارَّزنجي للبيت الذي اقتنع به شرف الدين المستوفي. والمستوفي هذا عالم جليل صادق. يفهم الشعر أدق فهم، ويعرض للشروح المختلفة وينسب كل شرح إلى صاحبه. إنه من القلة الذين لا يسرقون أفكار واجتهادات الناس. ولم يطبع - فيما نعلم - كتابه عن أبي تمام والمتنبي، ولكن محققي الشروح الأخرى ينقلون عنه في الحواشي. ونحن ننقل بين الفينة والفينة شيئاً من أقواله من الجزء الثاني من كتابه الموجود بصورته المخطوطة على النت في موقع «ودود»

أَمَـا وأبـيـه - وَهْـوَ مَـنْ لا أَبـا لَـهُ   يُعَدُّ - لقدْ أَمْسَى مُضِيءَ المقَاتِلِ

وأحلف بأبيه - وليس له أب ذو قيمة أصلاً - أنه صار مكشوف المقاتل، فكأن المواضع التي يمكن أن يؤتى منها غدت مضيئة وواضحة للعيان

١٤٣ الأفشين واصطياد بابك

يمدح الأفشين:

لم يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصَّبْرَ في   هَـيْـجَـاءَ إلَّا عَـزَّ هـذا الـدِّيـنُ

لم يقر (يُطعَم) سيفك ما عندك من صبر في الحرب إلا رأينا الدين يزداد عزاً

مَلِكٌ تُضِيءُ المَكْرُماتُ، إذا بَدا   لِـلْـمُـلْـكِ مـنـهُ غُـرَّةٌ وجَـبـيـنُ
لانَـتْ مَـهَـزَّتُـهُ، فَـعَـزَّ؛ وإنَّـمـا   يَـشْـتَـدُّ بَـأْسُ الـرُّمْـحِ حيـن يَـلـيـنُ

لان الممدوح وسهُل اهتزازه للمكارم فازداد عزاً؛ وأجود للرمح أن يكون ليناً

وتَـرى الـكـريـمَ يَـعِـزُّ حـيـنَ يَـهُـونُ   وتَـرى الـلَّـئِـيـمَ يَـهُـونُ حيـنَ يَـهُـونُ
لـو أَنَّ هَـذا الـفَـتْـحَ شَـكٌّ لاشْـتَـفَـتْ   منهُ القُلوبُ، فَكَيْفَ وَهْوَ يَقينُ؟
وأَخَـذْتَ بَابَـكَ حَائِراً دونَ الـمنَى؛   ومُـنَـى الـضَّـلالِ مِـيَـاهُـهُـنَّ أُجُـونُ

بابَك: قائد العصيان بابَك الخُرَّمي؛ أجون: معكرة

ورَجَا بِـلادَ الرُّوم، فـاسْـتَـعْـصَى بـه   أَجَـلٌ أَصَـمُّ، عَـنِ الـنَّـجَـاءِ حَـرُونُ

حاول اللحاق ببلاد الروم ولكن أجله الذي لا يسمع أمانيه استعصى به (منعه)، فهذا الأجل مثل الحصان الحرون (العنيد) الممتنع عن النجاء (الركض)

هَيْهَاتَ! لـم يَـعْـلَـمْ بِـأَنَّـكَ لـو ثَـوَى   بـالـصِّـيـنِ، لـم تَـبْـعُـدْ عليكَ الصِّينُ

ثوى: أقام

١٤٤ الظفر ببابك الخرمي

وقال يمدح المعتصم ويذكر فتح الخرمية (أصلها ٨٨ بيتاً وهي من ملاحمه):

آلَتْ أمورُ الشِّركِ شرَّ مَآلِ   وأَقَرَّ، بعد تَخَمُّطٍ وصِيَالِ

آلت أمور الشرك شر مآل (مصير)، وأقر الشرك بالوحدانية وبسلطة الدولة بعد تخمط (هياج) وصيال (اندفاع)

غَضِبَ الخليفةُ للخلافةِ غَضْبَةً   رَخُصَتْ لَهَا المُهَجَاتُ، وَهْيَ غَوالِ

المهجات (القلوب)، غوال (غالية)

لمَّا انْتَضَى جَهْلَ السيوفِ لِبَابَكٍ   أَغْمَدْنَ عنهُ جَهَالَةَ الجُهَّالِ

عندما انتضى (استل) الخليفة جهل السيوف (غضبها) لبابك الخرمي المنشق عن الدولة أغمدت هذه السيوف عن الخليفة (أخفَتْ) جهالة الجهال من أنصار بابك وغيرهم من العصاة

فَلِأَذْرَبَيْجَانَ اخْتِيالٌ، بعدما   كانتْ مُعَرَّسَ عَبْرةٍ ونَكَالِ

فاختالت أذربيجان مسرورة بعد أن كانت معرس (موضع) عَبرة (تأديب) ونكال (تنكيل)

أَطْلَقْتَها مِنْ كَيْدِهِ، وكأنما   كانتْ بِهِ مَعقُولةً بِعِقَالِ

أطلقتها من كيد بابك، وكان قد قيدها تقييداً بثورته

قد أُتْرِعَتْ منهُ الجَوَانِحُ رَهْبةً   بَطُلَتْ لَدَيْها سَوْرَةُ الأبْطالِ

أترعت (امتلأت) جوانح (أعضاء) بابك رهبة أبطلت سورة (هجمة) الأبطال من رجاله

لو لم يُزَاحِفْهُمْ، لَزَاحَفَهُمْ له   ما في صُدُورِهِمُ مِنَ الأَوْجَالِ

لو لم يزحف الخليفة رداً على زحف رجال بابك، لزحفت عليهم الأوجال (الرعب) الذي في قلوبهم من بطش الخليفة

يا يومَ أَرْشَقَ! كنتَ رَشْقَ مَنِيَّةٍ   لِلْخُرَّمِيَّةِ صَائِبَ الآجَالِ

يا يوم معركة «أرشق»، لقد كنت كرشقات سهام تحمل الموت للخرمية (أصحاب بابك الخرمي)، وكانت سهاماً مسددة صائبة تأتي بآجالهم

أسْرَى بنو الإسلامِ فيهِ، وأَدْلَجُوا   بِقُلوبِ أُسْدٍ في صُدورِ رِجَالِ

في هذا اليوم (المعركة) أسرى المسلمون (ساروا ليلاً)، وأدلجوا (ساروا قبيل الفجر) بقلوب أسود

ما طَالَ بَغْيٌ قَطُّ إلَّا غَادَرَتْ   غُلَوَاؤُهُ الأَعْمَارَ غيرَ طِوَالِ

ما طال البغي (الظلم) واستمر إلا غادرت (جعلت) غلواؤه (تماديه) أعمار أهله قصيرة

أُبْنَا بِكُلِّ خَرِيدَةٍ، قد أُنْجِزَتْ فيها عِدَاتُ الدهرِ بعدَ مِطَالِ

أُبنا (رجعنا) بكل خريدة (بفتيات جميلات)، وبنيلها أُنجزت لنا عدات (وعود) الدهر بعد طول مماطلة

خَاضَتْ مَحَاسِنَها مخاوفُ، غادرتْ ماءَ الصِّبا والحُسْنِ غيرَ زُلالِ

وهذه الفتيات خاضت المخاوف في محاسنهن (مثلما يخوض المرء في ماء البركه فيعكرها)، وهذه المخاوف غادرت (جعلت) ماء الصبا والحسن في وجوههن غير زلال (غير صاف)

أُعْجِلْنَ عن شَدِّ الإزَارِ، وربما عُوِّدْنَ أنْ يَمْشِينَ غيرَ عِجَالِ

عندما تم سبي هؤلاء النسوة جاء الأمر على عجل فلم يشددن أزرهن (أرديتهن)، وكن قبلئذ يمشين الهوينا غير مستعجلات

مُسْتَرْدَفَاتٍ فوقَ جُرْدٍ أُوقِرَتْ أكْفَالُها مِنْ رُجَّحِ الأكْفَالِ

مستردفات فوق جرد (راكبات على أرداف الخيل)، وقد أوقرت (أُثقلت) أكفال الخيل من الفتيات الراجحات الأكفال (الكبيرات المؤخرات)

ونَجَا ابنُ خَائِنَةِ البُعُولَةِ، لوْ نَجَا، بِمُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ والآطَالِ

ونجا ابن خائنة البعول (الأزواج/أي ابن الزانية)، هذا لو كان نجا حقاً، بمهفهف الكشحين (بحصان خفيف الخاصرتين) والآطال (الخواصر أيضاً)

لاحظ أن أبا تمام، وقد ذكر الأرداف الثقيلة في البيت السابق، راح هنا يذكر الحصان الرشيق، فشاعرنا يعشق الطباق (إيراد المعنى وعكسه) إدماناً

ما زالَ مَغْلُولَ العزيمةِ، سَادِراً حتى غَدَا في القَيْدِ والأَغْلالِ

ظل مغلول (مقيد) العزيمة، سادراً (حائراً)، حتى أصبح فعلاً مقيداً وتم القبض عليه

ما نِيلَ حتى طارَ مِنْ خوفِ الرَّدَى كلَّ المَطَارِ، وجَالَ كُلَّ مَجَالِ

ما نيل (أُخذ أسيراً) حتى طار خائفاً، وتجول في البلاد

والنَّحْرُ أَصْلَحُ للشَّرُودِ، ومَا شَفَى مِنْهُ كَنَحْرٍ بعدَ طُولِ كَلالِ

والنحر (الذبح) أصلح للجمل الشرود الكثير الفرار، وليس شيء يشفي الغليل من هذا الجمل كذبحه بعد طول التعب في ملاحقته

لاقَى الحِمَامَ بِسُرَّ مَنْ رَاءَ التي شَهِدَتْ لِمَصْرَعِه بِصِدْقِ الفَالِ

لقي بابَك الحمام (الموت) بسر من راء (سر من رأى)، التي كان اسمها فألاً طيباً بمصرعه لأن هذا المصرع سَرَّ من رآه

قُطِعَتْ بهِ أَسْبَابُهُ لمَّا رَمَى ... بِالطَّرْفِ بينَ الفيلِ والفَيَّالِ

وقد قطعت به أسبابه (حباله التي يتعلق بها بهذه الدنيا) عندما رمى بصره بين الفيل وقائده الفيال (فقد أركب على فيل للتشهير به وعرضه على الناس، والتشهير به سيعقبه قتله، ولا مجال بعدها لاستبقائه). وللقارئ أن يرى في بابك الخرمي رأي أبي تمام شاعر الدولة؛ وله أن يرى فيه رأي المتدينين في زمننا، من أنه إباحي وعدو للإسلام، وخائن اتصل بالروم للاستقلال عن الدولة الإسلامية؛ وله أن يرى فيه شعوبياً حريصاً على تراث قومه المتآكل بتأثير توليفة ثقافية مركزية فيها عناصر تركية وعربية وفارسية. على أننا نقرأ هذه القطعة من التاريخ في شعر أبي تمام وهمنا متجه إلى الناحية الفنية، واعلم - حفظك الله - أن المعتصم سيقتل القائد الأفشين بعد قليل متهماً إياه بالزندقة. واعلم أن مؤرخينا القدامى كانوا أصدق من المعاصرين المشحونين بأحقاد عجيبة وتعصب سخيف، فقد وصف القدامى ما جرى بدقة وتفصيل، فأما المعاصرون فيوردون الأحداث مفرقة وسط أكوام من العبارات المائجة الممتلئة بالغضب للدين، فلا تفهم منهم إلا أن عليك أن تلعن فلاناً وأن تتعصب ضد فلان

١٤٥ قتل الأفشين

وقال يمدح المعتصم ويذكر إحراق الأفشين (خيذر بن كاوس) وصلبه:

الحقُّ أبْلَجُ، والسيوفُ عَوَارِ ... فَحَذارِ مِنْ أَسَدِ العَرينِ، حَذارِ

الحق أبلج (واضح) والسيوف عوار (عارية مسلولة)، فاحذروا أسَد العرين

يا رُبَّ فِتنةِ أُمَّةٍ قدْ بَزَّها ... جَبَّارُها في طاعةِ الجبَّارِ

رب فتنة حدثت في الأمة بزها (غلبها) جبار الأمة (المعتصم) طاعةً لله

جَالَتْ بِخَيْذَرَ جَوْلَةُ المِقدارِ ... فأحَلَّهُ الطُّغْيانُ دارَ بَوَارِ

المقدار (القضاء)، بوار (هلاك)

كم نِعمَةٍ للهِ كانتْ عندَه، ... فكأنَّها في غُربةٍ وإِسَارِ

كُسِيَتْ سَبائِبَ لُؤْمِه، فَتضاءَلَتْ ... كَتضَاؤُلِ الحَسناءِ في الأَطْمَارِ

كسيت نعمة الله عنده سبائب (أثواب) لؤمه، فتضاءلت النعمة (أصبحت قميئة) مثلما تتضاءل الحسناء في الأطمار (الملابس الرثة)

صَادَى أميرَ المؤمنينَ بِزِبْرِجٍ ... في طَيِّهِ حُمَةُ الشُّجَاعِ الضَّاري

صادى (دارى) الأفشين المعتصم بزبرج (خداع) في طيه حمة الشجاع الضاري (زبانى الثعبان الشرس)

مَـكْـراً بَـنـىَ رُكْـنَـيْـهِ، إلّا أنَّــه وَطَـدَ الأسـاسَ عـلـى شَـفِـيـرٍ هَـارِ

مكر مكراً وبنى ركنيه (أي أركانه، وأبو تمام كثيراً ما يعبر بالمثنى عن الشمول)، غير أنه وطد (ثبت) أساس بنائه على شفير هار (حافة منهارة)

حتَّـى إذا مَـا الـلَّـهُ شَـقَّ ضـمـيـرَه عـن مُـسْـتَـكِـنِّ الـكـفـرِ والإصْـرارِ

فإذا ما شق الله ضميره عن الكفر المستكن (الكامن) والإصرار عليه

ونَـحا لـهـذا الـدِّيـنَ شَـفْـرَتَـهُ، انْـثَـنـى والـحـقُّ مـنـه قَـانِـئُ الأظْـفـارِ

وعندما نحا (وجَّه) الله للدين شفرته (نصله القاطع)، انثنى (غدا) الأفشين وقد أصبح الحق قانئ (محمر) الأظفار من دمه

ما كانَ، لـولا فُـحْـشُ غَـدْرَةِ خَـيْـذَرٍ، لِـيَـكُـونَ فـي الإسـلامِ عَـامُ فِـجَـارِ

لولا غدرة خيذر (الأفشين) الفاحشة ما كان ليكون في الإسلام عام فِجَار (كعام الفجار في الجاهلية الذي وقعت فيه الحرب في الأشهر الحرم)

مـا زالَ سِـرُّ الـكـفـرِ بـيـنَ ضُـلُـوعِـه حتى اصْطَلَى سَـرَّ الـزِّنَـادِ الـوَاري

ظل سر الكفر كامناً في قلبه حتى اصطلى سَرَّ (حَشْوَ) الزناد (أداة قدح الشرر) الواري (المشتعل). ويصر الشارحون الستة الذين ننظر في شروحهم، ونحن نكتب هذا، على أن «سر» الثانية مكسورة السين كالأولى، وهذا لا معنى له؛ ولا نظنهم التفتوا إلى هذا المعنى الدقيق لـ«سَرّ» رغم وجوده في المعاجم، ورغم أن البيت يوجِّه الذهنَ إليه

نـاراً يُـسَـاوِرُ جِـسْـمَـهُ مِـنْ حَـرِّهـا لَـهَـبٌ، كـمـا عَـصْـفَـرْتَ شِـقَّ إزَارِ

اصطلى ناراً يساور (يواثب ويهاجم) جانبَ جسمه من حرها لهب مثلما تعصفر (تصبغ بالعصفر الأصفر) شق إزار (النصف الطولي للثوب)

طَـارَتْ لـهـا شُـعَـلٌ، يُـهَـدِّمُ لَـفْـحُـهـا أركـانَـه هَـدْمـاً بِـغَـيـرِ غُـبَـارِ

لـلـهِ مِـنْ نَـارٍ رَأَيْـتُ ضِـيـاءَهـا ضـاقَ الـفـضـاءُ بِـهِ عَـلـى الـنُّـظَّـارِ

الضوء المتولد من هذه النار أضاء الفضاء فملأه كله في أعين الناظرين

مَـشْـبُـوبَـةٍ، رُفِـعَـتْ لأَعْـظَـمِ مُـشْـرِكٍ، مـا كـانَ يَـرْفَـعُ ضَـوءَهـا لـلـسَّـاري

موقدة هذه النار لمشرك لم يكن يوقد ناراً للساري (السائر ليلاً) لكي يهتدي وينال الطعام الواجب تقديمه للضيف

صَـلَّـى لَـهـا حَـيَّـاً، وكَـانَ وَقُـودَهـا مَـيْـتـاً، ويَـدْخُـلُـهـا مـعَ الـفُـجَّـارِ

هذا من بدائع التقسيم، فالبيت كعقد: لؤلؤته الأولى الصلاة أثناء الحياة، والثانية الوقود في الموت، والثالثة الدخول بعد البعث. . والسلك الناظم هو. . النار. . ولا تنس التسلسل: حياة، فموت، فبعث. هذا الجواهرجي أبو تمام في أمثل حالاته

وكَذاكَ أَهلُ أُلنارِ في الدنيا، هُمُ، يومَ القيامةِ، جُلُّ أهلِ النارِ

أهل النار (المجوس)

يا مَشهداً صَدَرَتْ بِفَرْحَتِه إلى أمصارِها القُصوى بنُو الأَمصارِ

صدرت (رجعت)

رَمَقُوا أَعَالِيَ جِذْعِهِ، فكأنما وَجَدُوا الهلالَ عشيةَ الإفطارِ

رأوا أعالي جذعه (الخشبة التي صلب عليها) ففرحوا كأنهم رأوا هلال شوال المؤذن بعيد الفطر

واستَنْشَقُوا منهُ قُتاراً، نَشْرُهُ مِنْ عَنْبَرٍ ذَفِرٍ ومِسْكٍ دَاري

استنشقوا منه قتاراً (رائحة الشواء) نشره (عبيره) كأنما هو من العنبر الذفر (النفاذ) والمسك الداري (المجلوب من دارين)

قد كانَ بَوَّأَهُ الخليفةُ جانباً من قلبِه حَرَمَاً على الأقدارِ

كان الخليفة بوأه (أنزله) مكاناً من قلبه آمناً لا يصل إليه حتى القضاء والقدر

فسقَاهُ مَاءَ الخَفْضِ غيرَ مُصَرَّدٍ، وأَنَامَهُ في الأمنِ غيرَ غِرَارِ

وسقاه ماء الخفض (الرفاهية) غير مصرد (غير مقلل وغير بعيد عن الإرواء)، وجعله ينام في حضن الأمن نوماً غير غرار (غير قصير)

فإذا ابنُ كافِرَةٍ يُسِرُّ بِكُفْرِهِ وَجْداً، كوجْدِ فَرَزْدَقٍ بِنَوَارِ

فإذا هذا الرجل يسر (يخفي) بكفره وجداً (غراماً) كغرام الفرزدق بزوجته نوار

يا قَابِضاً يَدَ آلِ كَاوُسَ، عادِلاً أَتْبِعْ يَميناً مِنْهُمُ بِيَسَارِ

أيها الخليفة الذي قبض يد هذه العائلة، وقوض نفوذها، اقبض على اليد الأخرى. وإنك لعادل فيما تفعل

واعْلَمْ: بِأَنَّكَ إنما تُلْقِيهِمُ في بعضِ ما حَفَرُوا مِنَ الآبَارِ
لو لم يَكِدْ للسَّامِريِّ قَبِيلُهُ ما خَارَ عِجْلُهُم بِغَيْرِ خُوَارِ

لولا أن قبيل (قوم) السامري كادوا له (دبروا له) لما خار عجلهم (أصدر صوته، وهو الخوار) بدون خوار (ذلك أنهم أعطوه ذهب نسائهم ليصنع العجل المثقوب الذي يصدر صوتاً كالخوار لمرور الريح فيه، وما هو بخوار حقيقي)

وثَمُودُ لو لم يُدْهِنُوا في رَبِّهِمْ لم تَدْمَ نَاقَتُهُ بِسَيْفِ قُدَارِ

وقوم ثمود لو لم يدهنوا (ينافقوا) في ربهم لما دميت ناقة ربهم، التي أرسلها لهم لتشبعهم لبناً، وذبحت بسيف «قدار بن سالف»

ولقد شَفَى الأَحشاءَ مِنْ بُرَحائِها ... أن صارَ بابَكُ جارَ مازَيّارِ

شفى الأحشاء (القلب) من برحائها (عذابها) أن صار بابك المصلوب جذعه منذ سنتين (٢٢٣هـ) جاراً لمازيار (وهو قائد آخر قبض عليه مع الأفشين عام ٢٢٥هـ)

ثانِيهِ في كَبِدِ السماءِ، ولم يَكُنْ ... لاثنينِ ثانٍ إذْ هُمَا في الغارِ

صار ثانياً له في كبد (وسط) السماء. ولكن «الاثنين» صاحبي الغار ليس لهما «اثنين» آخرين يكونان زوجاً ثانياً، فشتان بين الرسول وأبي بكر في الغار أثناء الهجرة، وبين هذين الاثنين

وكأنما انْتَبَذا، لِكَيْمَا يَطْوِيا ... عن «نَاطِسٍ» خبراً مِنَ الأخبارِ

كأنهما انتبذا (ابتعدا) كي يطويا (يخفيا) حديثهما عن ناطس (شقي ثالث كان مصلوباً في مكان الصلب هذا)

سُودُ الثِّيابِ، كأنما نَسَجَتْ لَهُمْ ... أيدي السَّمُومِ مَدَارِعاً مِنْ قَارِ

وهؤلاء المصلوبون الثلاثة كانت ثيابهم مسودة، فكأنما نسجت لهم ريح السموم مدارع (ثياباً) من قار (قطران)

بَكَرُوا وأَسْرَوْا في مُتُونِ ضَوَامِرٍ ... قِيدَتْ لَهُمْ مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّارِ

كأنهم خرجوا باكراً راكبين متون ضوامر (ظهور خيل مضمرة نحيلة) لكنها خيل جُرَّت لهم بقيودها من مربط النجار لا من مربط سائس الخيل (فهي أعواد خشبية لا خيول)

لا يَبْرَحُونَ؛ ومَنْ رَآهُمْ خَالَهُمْ ... أَبَداً على سَفَرٍ مِنَ الأسْفَارِ

غير أنهم لا يبرحون (لا يتحركون) وإن كان من رآهم ظنهم يزمعون سفراً

فاشْدُدْ بِهارُونَ الخِلافَةَ، إنَّه ... سَكَنٌ لِوَحْشَتِها، ودَارُ قَرارِ

اشدد ساعد الخلافة بابنك هارون (الواثق) فهو يسكن وحشتها (واستوحشت بعد خيانة وإعدام القائدين الأفشين ومازيار)، ويأتي لها بالاستقرار

بِفَتَى بني العبَّاسِ، والقَمَرِ الذي ... حَفَّتْهُ أَنْجُمُ يَعْرُبٍ ونِزارِ

هو قمر تحيط به نجوم (كبار القوم) من يعرب (قبائل اليمن) ونزار (قبائل عدنان)

لِيَسِيرَ في الآفاقِ سِيرةَ رَأْفَةٍ ... ويَسُوسَها بسكِينةٍ ووَقَارِ

فالصِّينُ مَنْظُومٌ بِأَنْدَلُسٍ، إلى ... حِيطانِ رُومِيةٍ، فَمُلْكِ ذَمَارِ

وكان المعتصم ينوي غزو الأندلس وضمها إلى ملكه ومات عن ذلك. وذمار مملكة يمنية، وروميه هي القسطنطينية، وقد وصل المعتصم قريباً من أسوارها فعلاً

ولقد عَلِمْتَ بِأَنَّ ذَلكَ مِعْصَمٌ ... ما كنتَ تَتْرُكُه بِغَيْرِ سِوارِ

وإنك قد علمت أن الخلافة معصم (رسغ اليد) وكنت لا بد أن تحليه بسوار هو الواثق

فالأرضُ دَارٌ أَقْفَرَتْ، ما لم يَكُنْ   مِـنْ هَـاشِـم رَبٌّ لِـتِـلْـكَ الـدَّارِ
سُـوَرُ الـقُـرَانِ الـغُـرُّ فِـيكُـمْ أُنْـزِلَـتْ،   ولَـكُـمْ تُـصَـاغُ مَـحَـاسِـنُ الأَشْـعَـارِ

القران: القرآن

١٤٦ اقتتال القوافي

يمدح المعتصم بالله:

بالقائِمِ الثَّامِنِ المسْتَخْلَفِ اطَّأَدَتْ   قَواعِدُ الملْكِ، مُمْتَدّاً لها الطِّوَلُ

بالخليفة القائم (الحالي)، وهو ثامن بني العباس في الخلافة، اطأدت (توطدت) دعائم الملك، وامتد لها الطول (الحبل) أي دامت زمناً طويلاً

يَهْنِي الرَّعِيَّةَ أنَّ اللَّهَ، مُقْتَدِراً،   أَعطاهُمُ، بِأبي إسحَقَ، مَا سَأَلُوا

هنيئاً للرعية! فالله باقتداره أعطاهم في شخص أبي إسحق (المعتصم) أمانيهم

لو كانَ في عاجِلٍ مِنْ آجِلٍ بَدَلٌ،   لَـكـانَ فـي وَعْـدِهِ مِـنْ رِفْـدِهِ بَـدَلُ

لو كان العاجل ينوب عن الآجل، لكان مجرد وعده يكون بديلاً من رفده، ذلك أنه إذا وعد فلا مجال للخلف. يسأل الآمدي في «الموازنة»: ولماذا لا يكون في العاجل بدل من الآجل؟ ولو أردنا أن نسأل أبا تمام عن كل معنى معقد له لما غادرنا بيتاً في ديوانه إلا وعلقنا عليه الأسئلة تعليقاً

تَغَايَرَ الشِّعْرُ فيهِ، إذْ سَهِرْتُ له،   حتى ظننتُ قوافيهِ ستقتَتِلُ

غارت الأبيات بعضها من بعض وأنا سهران أنظم فيه الشعر، وظننت القوافي ستقتتل لتقعد في أماكنها. وحق «قوافيه» أن تكون «قوافيَه» بالنصب مفعولاً أول لظن، ولكنْ: الضرورة شيء خبره من نظم الشعر: تأتي الكلمة البديعة التي تكون قافية مجلجلة في آخر البيت، ثم يأتي البيت الذي يليه فيطلب الكلمة نفسها، ويصطرع عليها البيتان؛ أو تأتي كلمات كثيرات كل منها رائع ويصلح لموضع القافية، وتتصارع القوافي للحلول في نهايات الأبيات. وقد يصنع الشاعر قائمة بالكلمات المناسبة للقافية، والويل للكلمة التي فاتها قطار القصيدة، ولم تجد لها مكاناً. لم أر شاعراً عبر عن هذا بأوجز وأحلى من أبي تمام هنا (لهذا البيت قصة، وقصصناها في شرحنا لقصيدة البحتري ذات الرقم ١٠٤ في هذا الكتاب)

شَرِسْتَ، بل لِنْتَ، بل قانَيْتَ ذاكَ بِذا،   فأنتَ، لا شَكَّ، فيكَ السهلُ والجبلُ

كنت شرساً، بل ليناً؛ لا، بل قانيت (خلطت) بينهما، ففيك الصفتان

ومَشْهَدٍ بينَ حُكْمِ الذُّلِّ مُنقطِعٌ   صَاليهِ، أو بِحِبَالِ الموتِ مُتَّصِلُ..

رب مشهد حربي صاليه (المكتوي بناره) منقطع (منكسر) محكوم عليه بالذل إذا جبُن، أو يكون شجاعاً وعندئذٍ يصبح قريباً من الموت

جَلَّيْتَ، والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صَفحَتِهِ، وقد تَفَرْعَنَ في أَوْصَالِه الأَجَلُ

هذا المشهد جليته (كشفته) بينما الموت كاشف عن حُرِّ صفحته (البارز من وجهه) وقد تفرعن (طغى كفرعون) الموت في أوصال (مفاصل) هذا الموقف. تعليق عمران القفيني: (وقتها قامت قيامة أبي تمام، فضحوه على «تفرعن» لأنها «ليست فصيحة»، ثم مضى زمن طويل وأصبحت الكلمة سائرة لا يخطر ببال أحد أنها لا تستقيم والقياسَ ولا حتى السماع. سيأتي زمن يا صديقي يترك فيه الناس ما نتسلى به أنا وأنت من غريب اللغة وفصيحها. وهذا الكلام.. إني ـ وحياتك ـ أراه قريباً). المؤلف: موافق

آلُ النَّبِيِّ، إذا ما ظُلْمَةٌ طَرَقَتْ، كانوا لنا سُرُجاً، أَنْتُمْ لها شُعَلُ

آل النبي هم سرج (مصابيح) الظلمات، وأنتم (يا بني العباس) الشعلة نفسها

يَستَعذِبونَ مَنايَاهُمْ، كأَنَّهُمُ لا يَيْأَسُونَ مِنَ الدنيا إذا قُتِلوا

١٤٧ وقفنا على جمر الوداع

يمدح المعتصم:

أَجَلْ! أَيُّهَا الرَّبْعُ الذي خَفَّ آهِلُهْ لقد أدرَكَتْ فيكَ النَّوَى ما تُحَاوِلُهْ

نعم، أيها الربع (المكان) الذي خف (رحل) آهله (سكانه)، لقد أدركت النوى (حقَّق الفراق) ما تحاوله فيك (ضدك)، فها قد أصبحتَ مقفراً خرباً

وَقَفْتُ، وأَحْشائي مَنَازِلُ للأَسَى بِهِ، وَهْوَ قَفْرٌ قد تَعَفَّتْ مَنَازِلُهْ

وقفت بهذا الربع وجوفي قد أصبح منزلاً للحزن، والربع نفسه قفر قد تعفت (امَّحت) منازله

أُسَائِلُكُمْ: ما بَالُهُ حَكَمَ البِلَى عليهِ؛ وإلَّا فاتْرُكوني أُسَائِلُهْ

فيا أصحابي! لماذا حكم البِلى (التلف) على هذا الربع؛ وإلَّا (إلَّا تجيبوني: إن لم تجيبوني) فاتركوني أسأله!

وَقَفْنا على جَمْرِ الوَدَاعِ عَشِيَّةً، ولا قَلْبَ إلَّا وَهْوَ تَغْلي مَرَاجِلُهْ

وفي الكِلَّةِ الصَّفْراءِ جُؤْذُرُ رَمْلَةٍ غَدا مُسْتَقِلّاً، والفِرَاقُ مُعَادِلُهْ

وداخل الكلة (الستر) التي تجلل الهودج جؤذر رملة (فتاة شبيهة بصغير البقرة الوحشية التي تعيش في الصحراء) أصبح مستقلاً (راكباً)، والفراق معادله (راكب يعادله على الجهة الأخرى). فالفتاة ركبت البعير وركب معها الفراق. ولو شاء أبو تمام لجعل الفراق يبقى في الربع وكفى النقاد القدامى ما خاضوا فيه من قول في هذا البيت

أَتَتْكَ أَميرَ المؤْمنينَ، وقدْ أَتَى عَلَيْها المَلا: أَدْمَاثُهُ وجَرَاوِلُهْ

أتتك ناقتي يا أمير المؤمنين بعد أن أتى عليها وأنهكها الملا (الأرض الواسعة) بأدمائه (سهوله) وجراوله (حجارته)

رَعَى اللَّهُ فيهِ للرَّعِيَّةِ رَأْفَةً تُزَايِلُهُ الدنيا، وليستْ تُزَايِلُهْ

عند الخليفة رأفة بالرعية قد حرسها الله، وهذه الرأفة تبقى معه طول عمره

وقَامَ، فقامَ العدلُ في كلِّ بلدةٍ خَطِيباً، وأَضْحَى المُلْكُ قَد شُقَّ بَازِلُهْ

شق بازل البعير: برز نابه، أي كبر وترعرع

وجَرَّدَ سيفَ الحقِّ، حتى كأنَّهُ مِنَ السَّلِّ مُودٍ غِمْدُهُ وحَمَائِلُهْ

جرد السيف على الأعداء بالحق، وظل مسلولاً حتى ظن المرء أنه مود (منعدم) غمده (جرابه) وحمائله (سيوره التي بها يعلق)

وكَمْ نَاكِثٍ لِلعهْدِ قد نَكَثَتْ بِهِ أمانيه، واسْتَخْذَى لِحَقِّكَ باطِلُهْ

فَأمْكَنْتَهُ مِنْ رُمَّةِ العفْوِ رَأْفَةً ومَغْفِرَةً، إذْ أَمْكَنَتْكَ مَقَاتِلُهْ

فأمكنته من الإمساك برمة (حبل) العفو بعد أن تمكنتَ منه

وحَاطَ له الإقْرارُ بالذَّنبِ رُوحَهُ وجُثْمَانَهُ، إذْ لم تَحُطْهُ قبائِلُهْ

وحاط (حمى) له اعترافه بالذنب روحه وجسمه، إذ لم تحمه قبائله

إذا مَارِقٌ بِالغدرِ حاول غَدْرَةً فَذَاكَ حَرِيٌّ أنْ تَئِيمَ حَلائِلُهْ

تئيم: تترمل، حلائله: أزواجه

فإنْ بَاشَرَ الإصْحَارَ، فالبِيضُ والقَنا قِرَاهُ، وأَحْواضُ المنايا مَناهِلُهْ

فإن بدأ بالإصحار (الخروج إلى الصحراء عاصياً) فالبيض (السيوف) والقنا (الرماح) قراه (طعامه)، وأحواض الموت مناهله (مواضع شربه)

وإنْ يَبْنِ حِيطَاناً عليهِ، فإنَّما أولئِكَ عُقَّالاتُهُ، لا مَعَاقِلُهْ

عقالاته: العُقَّال داء يصيب الفرس فيعطله عن السير

بِيُمْنِ أبي إسحَقَ طَالتْ يدُ العُلى، وقامتْ قناةُ الدِّينِ، واشتدَّ كاهِلُهْ

كاهله: ظهره

هُوَ اليَمُّ: مِنْ أيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ فَلُجَّتُهُ المعروفُ، والجُودُ سَاحِلُهْ

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حتى لو انَّهُ ثَنَاها لِقَبْضٍ لم تُجِبْهُ أَنامِلُهْ

ولو لم يَكُنْ في كَفِّهِ غيرُ رُوحِهِ لجادَ بِهَا، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ

عَطَاءٌ لو اسْطَاعَ الذي يَسْتَمِيحُهُ لأَصْبَحَ، مِنْ بينِ الوَرى، وَهْوَ عَاذِلُهْ

يستميحه: يطلب عطاءه. يقول: إن عطاءه كبير حتى ليكاد المحظوظ بنيله يعذله (يلومه) على إسرافه فيه

يمدح أحمد ابن الخليفة المعتصم:

مـا فـي وُقـوفِـكَ سـاعـةً مِـنْ بَـاسِ   نَـقـضـي ذِمَـامَ الأَرْبُـعِ الأَدْراسِ

لا بأس بوقوفك ساعةً عند أطلال الحبيبة لقضاء ذمام (عهود) الأربُع (المنازل) الأدراس (الدارسة، الممحوة الأثر)

فلعلَّ عـينَكَ أنْ تُعِينَ بِمائِها؛   والـدمـعُ مـنـه: خَـاذِلٌ ومُـوَاسِ

خاذل: مقصر عن النجدة، مواسٍ: الذي يواسي

بَـدْرٌ أطـاعـتْ فيـكَ بـادرةَ الـنوى   وَلَـعاً، وشـمسٌ أُولِعَـتْ بِشِمَـاسِ

الحبيبة بدر، وقد أطاعت فيك (ضدك) بادرة (مصيبة) النوى (الفراق) وَلَعاً (كيْداً)؛ يقول: هي بدر وقد أطاعت الفراق ففارقتك، وهي شمس، وقد أولعت (أُغرمت) بالشماس (العناد)

وإذا مَشَتْ تَركتْ بِصَدرِكَ ضِعْفَ ما   بِـحُـلِـيِّـهـا مـن كَـثْـرَةِ الـوَسْـوَاسِ

عندما تمشي المحبوبة تترك في قلبك من الوسواس (القلق) ضعف ما يصدره حليها من الوسواس (خشخشة الأساور والعقود)

قـالـتْ، وقـد حُـمَّ الفِراقُ، فَكأْسُـه   قد خُولِطَ السَّاقِي بها والحَاسي:

قالت لي، وقد حم (قُدِّر) الفراق، وكأس الفراق قد خولط (جُنَّ) بسببها الساقي والشارب معاً (المفارق والماكث كلاهما حزين). جعلها في هذا البيت حزينة أيضاً

لا تَـنْـسَـيَـنْ تـلـكَ الـعُـهـودَ، فإنـمـا   سُـمِّـيـتَ إنـسـانـاً لأنَّـكَ نـاسـي

قالت: لا تنسَ عهودنا.. تناقض؟ في البداية نراها معاندة ومولعة بالصدود، ثم إذا هي قد جنت للفراق، وتوصيه بحفظ العهد. مَن خَبِرَ الحسان يعرف أن هذا من شأنهن، فلا تناقض

إن الـذي خَـلَـقَ الـخـلائِـقَ قَـاتَـهـا   أَقْـواتَـهـا لِـتَـصَـرُّفِ الأَحْـراسِ

الله يؤتي المخلوقات أرزاقها لتصرف الأحراس (بسبب تقلب الدهور)، فتقلب الدهر إحسانا لناس وظلماً لناس يسبب الرزق لكل الناس

فالأرضُ معروفُ السَّماءِ قِرىً لها،   وبـنـو الـرَّجَـاءِ لَـهُـمْ بـنـو الـعـبـاسِ

فالأرض - وهي من مخلوقات الله - يعطيها الله قراها (رزقها) من معروف السماء (المطر)، وبنو الرجاء (الناس/والناس دوماً على رجاء وترقب) ليس لهم إلا بنو العباس

الـقـومُ ظِـلُّ الـلَّـهِ، أَسْـكَـنَ ديـنَـه   فيهِمْ، وهُمْ جَبَلُ المُلوكِ الرَّاسي

بنو العباس ظل الله على الأرض. هم حماة الدين، والجبل الراسي الراسخ الذي يحتمي به الملوك (والملوك في القاموس العباسي هم الولاة وحكام الأقاليم، وكل من يملك قراراً)

أَبْلَيْتَ هذا المجدَ أبعَدَ غايةٍ فيهِ، وأكرمَ شيمةٍ ونُحَاسِ

أبليت أيها الممدوح بلاء حسناً في المجد فوصلت إلى أبعد مدى، وحققت الأمل من أكرم شيمة (خصلة) ونحاس (طبيعة)

إقدامُ عَمْروٍ، في سَماحَةِ حَاتِمٍ، في حِلْمِ أَحْنَفَ، في ذَكاءِ إِياسِ

لك شجاعة عمرو (بن معديكرب الزبيدي)، وسماحة (سخاء) حاتم (الطائي)، وحلم الأحنف (بن قيس)، وذكاء القاضي إياس (بن معاوية). تقول القصة التي رواها كل من كتب عن أبي تمام، منذ الصولي حتى يومنا هذا: بعدما أنشد أبو تمام هذا البيت، اعترض أحدُ جلساء الأمير، وقال: كيف تشبه الأمير بهؤلاء السوقة (يقصد بالسوقة أنهم ليسوا أمراء)؟ فأكمل أبو تمام إنشاده.. بقية القصة في البيتين التاليين..

لا تُنْكِروا ضَربي لهُ مَنْ دونَه مَثلاً شَروداً في النَّدَى والبَاسِ

لا تنكروا أنني أضرب له مثلا شَروداً (سائراً) مشبِّهاً إياه في الندى (الكرم) والبأس (الشجاعة) بمن هو دونه في القدر. وهنا يطلب الشاعر ألا ينكر المنكرون عليه ضرب أمثلة للأمير ممن هم دونه في المنزلة..

فاللَّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنورِهِ مَثلاً مِنَ المِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ

فالله ضرب لنوره مثلاً من المشكاة (التجويف في الجدار) والنبراس (المصباح الموضوع فيها).. «الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح..» الآية. خير مثال على ضرب المثل ممن هو أدنى لمن هو أعظم أن الله شبه نوره بنور مصباح! تتمة القصة التي بدأناها قبل بيتين: عندما أنهى أبو تمام إنشاد قصيدته، نظروا في الرقعة التي بيده، فلم يجدوا البيتين السابقين. فعجبوا لحدة ذهنه وسرعة بديهته، فقد ارتجل البيتين، وإنهما لَمِن فاخر الشعر، ارتجالاً. ولما خرج أبو تمام من المجلس، قال الكندي الفيلسوف: هذا الرجل قد استفرغ ذهنه حتى جاء بهذين البيتين، ولا أراه يعيش بعدهما طويلاً (عبارة صاحب «العمدة»: هذا رجل ينحت من قلبه). وفعلاً مات أبو تمام بعد أربعين يوماً. من شبه المؤكد أن القصة بكاملها مصنوعة، رغم أنها ـ بل لأنها ـ طريفة، فأبو تمام ارتحل بعد هذه القصيدة إلى الموصل وعاش بها سنتين قبل أن يموت

غَلَبَ السرورُ على هُمُومِيَ بالذي أظهرتَ مِنْ بِرِّي، ومِنْ إِينَاسي

إيناسي: تبديد قلقي

١٤٩ صاحب القلادة الجديد

يمدح الواثق ويهنئه بالخلافة، ويرثى أباه المعتصم بالله:

لا قَدْحَ في عُودِ الإمَامَةِ بعدَمَا مَتَّتْ إليكَ بِحُرْمَةٍ وذِمَامِ

لا عيب في الخلافة بعد أن متت إليك (ارتبطت بك) بعهد يحرُمُ نقضه

هَيْهَاتَ! تلكَ قِلادَةُ اللَّهِ التي ما كانَ يَتْرُكُها بِغَيرِ نِظامِ
هيهات أن ينالها عيب، فهي قلادة الله (عِقده) التي لا يتركها تنتثر

لَسْنَا مُريدي حُجَّةٍ نَشْفِي بِها، مِنْ رِيبةٍ، سُقْماً مِنَ الأسْقَامِ
لا نبحث عن حجة لنشفي أي سقم (خلل) نرتاب في وجوده

الصُّبْحُ مشهورٌ بِغيرِ دَلائلِ، مِنْ غيرِه ابْتُغِيَتْ، ولا أَعْلامِ
الصبح لا يشكك فيه أحد، ولا يحتاج دليلاً عليه يُطلب من غير نفسه، ولا أعلاماً (جبالاً: وهي عند العرب معالم يستدلون بها في صحاريهم)

١٥٠ في بعض القلوب عيون

يمدح الواثق بالله:

جعلَ الخلافةَ فيهِ رَبٌّ قَوْلُهُ، سُبحانَه، للشيءِ: كنْ، فَيَكُونُ
ولقد رَأيْناها له بِقلوبِنا؛ وظُهُورُ خَطْبٍ، دُونَهُ، وبُطُونُ
رأينا الخلافة لا تصلح إلا له؛ في وقت كانت بعيدة جداً عنه، ودونه (بينه وبينها) ظهور الخطب (الأمر) وبطونه.. أي أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الخلافة لن تكون له

ولِذاكَ قِيلَ: مِنَ الظُّنونِ جَلِيَّةٌ صِدْقٌ، وفي بعضِ القُلوبِ عُيونُ
جلية: حقيقة (ألسنا نقول جلية الأمر؟)

جَاءَتْكَ، من نَظْمِ اللِّسانِ، قِلادَةٌ سِمْطَانِ، فِيها اللؤْلؤُ المكْنُونُ
قصيدتي كقلادة مزدوجة من سمطين (سلكين)، وفيها اللؤلؤ المكنون (الذي كان مخبأً في محاراته)

إنْسِيَّةٌ، وَحْشِيَّةٌ، كَثُرَتْ بِها حَرَكَاتُ أهلِ الأَرْضِ وَهْيَ سُكُونُ
قصيدتي فيها المأنوس من الألفاظ وفيها الوحشي (الغريب)، ويرويها الناس ويتناقلونها وهي سكون (ساكنة)

أَمّا المعانِي: فَهْيَ أَبْكارٌ إذا نُصَّتْ، ولكِنَّ القَوافيَ عُونُ
المعاني أبكار (عذارى/مبتكرة) إذا نُصَّت (فُحص عنها)، ولكن القوافي عون (سبق لها الزواج/ استعملها قبلي الشعراء)

أَحْذَاكَها صَنَعُ اللسانِ، يُمِدُّهُ جَفْرٌ، إذا نَضَبَ الكَلامُ، مَعِينُ
أحذاكها (أعطاكها) صنع اللسان (حاذق اللسان)، يُمِدُّه جفر (بئر) يظل معيناً (غزيراً) عندما ينضب الكلام (يجف)

ويُسِيءُ بالإحْسَانِ ظَنَّاً، لا كَمَنْ   هُوَ، بِابْنِهِ وبِشِعْرِهِ، مفتونُ

وهذا الشاعر يسيء الظن بأشعاره، لأنه يسعى دائماً للأفضل، وليس ممن هو مفتون (معجب) بشعره افتتانه بأولاده

١٥١ السيل حرب للمكان العالي

يمدح الحسن بن رجاء:

كُفِّي وَغَاكِ، فإنني لكِ قَالِ   ليستْ هَوادِي عَزْمَتي بِتَوالِ

كفي عني وغاك (صخبك/ والوغى على الأصل الصخب) فإنني قالٍ لك (هاجر)، فهوادي (طلائع) عزيمتي ليست بالتوالي (المتأخرة في ذيل القافلة)

يقول: عزيمته مثل طلائع الركب المتقدمة، لا مثل التوالي التي في الخلف

أَنا ذُو عرفتِ، فإنْ عَرَتْكِ جَهَالَةٌ   فأنا المقيمُ قِيامَةَ العُذَّالِ

أنا ذو (الذي/ بلغة طيء) عرفت، فإن عرتك (تداخلتك) جهالة بي، فاعلمي أنني شديد على العذال (اللائمين)

لا تُنْكِري عَطَلَ الكريمِ مِنَ الغِنَى   فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالي

العَطَل: الخلو من المكياج والإكسسوارات، والفتاة العاطل هي التي لم تلبس الأساور ولم تتزين، مستغنية بجمالها. يقول: لا تنكري أن يكون الكريم الأصل فاقداً الغنى، فالسيل (المال) حرب (عدو) للمكان العالي. يقول: السيولة المالية تهرب من الكريم مثلما ينزلق ماء السيل عن الأماكن المرتفعة

وتَنَظَّرِي خَبَبَ الرِّكَابِ يَنُصُّها   مُحْيِي القريضِ إلى مميتِ المالِ

ترقبي خبب الركاب (سير الإبل) ينصها (يحثها على السير) محيي القريض (الشعر) إلى مميت المال (الممدوح الذي يُفني الأموال ببذلها)

لما بَلغْنَا ساحةَ الحسنِ انقضَى   عنَّا تَعَجْرُفُ دولةِ الإمْحَالِ

انقضى عنا (زال) تعجرف (قسوة) دولة الإمحال (عهد الفقر)

ورأيتَني، فسأَلْتَ نفسَكَ سيْبَها   لي، ثم جُدْتَ، وما انتظرتَ سُؤَالي

سيبها: عطاءها

كالغيثِ، ليس له، أُريدَ غَمامُهُ   أوْ لم يُرَدْ، بُدٌّ مِنَ التَّهْطَالِ

أنت كالمطر الذي ينزل سواء أراده الناس أم لا

١٥٢ ابتسام الرأي والأدب

يمدح الحسن بن سهل:

أَبْدَتْ أسىً أنْ رأَتْني مُخْلِسَ القُصَبِ   وآلَ ما كانَ مِنْ عُجْبٍ إلى عَجَبِ

حزنت هذه المرأة عندما رأتني مخلس (مختلط) القُصَب (الخصلات) ـ أي شابَ شعريَ الشيْب ـ وقد آل (تحول) عجبها (إعجابها بي) إلى عجب (تعجب)

سِتٌّ وعِشرونَ تَدعُوني فَأَتْبَعُها   إلى المشيبِ، ولم تَظْلِمْ ولم تَحُبِ

ست وعشرون سنة تجرني نحو الشيب، ولم تظلمني ولم تحُب (والحوب هو الظلم)، فالسنوات ليست هي سبب الشيب بل الهموم

ولا يُؤرِّقْكَ إيماضُ القَتيرِ به   فإن ذاكَ ابتِسامُ الرَّأْيِ والأدبِ

لا تأرَقْ لإيماض (لمعان) القتير (الشيب) برأسك، فالشيب كأنه ابتسام الرأي (الحكمة) والأدب

١٥٣ أنا والشعر

يعاتب أبا القاسم بن الحسن بن سهل:

أَإِيَّايَ جَارَى القَوْمُ في الشِّعْرِ! ضَلَّةً!   وقد عَايَنُوا تلكَ القَلائِدَ مِنْ نَظْمي

أيجارونني في الشعر؟ أضلهم الله! بعد أن رأوا تلك القلائد التي هي قصائدي

طَلَعْتُ طُلُوعَ الشمسِ من كلِّ تَلْعَةٍ   وأَشْرَفْتُ إِشْرَافَ السِّمَاكِ على الخَصْمِ

طلعت عليهم من وراء كل تلعة (تلة) طلوع الشمس، وأشرفت على خصمي كالسماك (نجم بعيد)

ومَا أَنا بِالغَيْرَانِ، مِنْ دُونِ جَارِهِ،   إذا أنا لم أُصْبِحْ غَيُوراً على العِلْمِ

لا أكون غيوراً على جاري (المستجير بي) حامياً له، إن لم أكن غيوراً على العلم

لَصِيقُ فُؤَادِي، مُذْ ثَلاثُونَ حِجَّةً،   وصَيْقَلُ ذِهنِي، والمرَوِّحُ عَنْ هَمِّي

العلم (والشعر عندهم علمُ نحوٍ وصرفٍ ومفردات) لصيق بقلبي منذ ثلاثين سنة، وهو صيقل (صاقِلُ) ذهني، ومخفف همي

١٥٤ أخو الأسفار

يمدح الحسن بن سهل:

وغَرَّبْتُ حتى لم أَجِدْ ذِكْرَ مَشرقٍ   وشَرَّقْتُ حتى قد نسيتُ المغَارِبا

خُطُوبٌ إذا لاقيْتُهُنَّ رَدَدْنَني   جَريحاً، كأنِّي قد لَقيتُ الكتائبا

وكنتُ امْرَأً أَلْقَى الزّمانَ مُسالِماً، فَآلَيْتُ لا ألقاه إلا مُحَارِبا

آليت: حلفت

١٥٥ حلاوة القصائد

يعاتب محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل:

لم تُسْقَ، بعدَ الهوى، مَاءً على ظَمَأٍ كَماءِ قَافِيةٍ يَسْقِيكَها فَهِمُ

باستثناء الهوى، ليس شيء يرويك ريَّ الشارب وهو ظمآن،
مثل قصيدة تسمعها من شاعر فهم (ذكي)

مِنْ كُلِّ بيتٍ، يَكادُ الميْتُ يَفْهَمُهُ حُسْناً، ويَحْسُدُهُ القِرْطَاسُ والقَلَمُ
ما لِي وما لَكَ شِبْهٌ حينَ أُنْشِدُهُ، إلَّا زُهَيْرٌ، وقد أَصْغَى لَهُ هَرِمُ

أنا وأنت «كزهير بن أبي سلمى» وهو يمدح «هرم بن سنان»

١٥٦ الإخوة والإخوان

يمدح سليمان بن وهب، ويشفع في سليمان بن رزين بن أبي دعبل الخزاعي:

ذو الوُدِّ مِنِّي، وذُو القُربَى بِمَنْزِلَةٍ وإخْوَتي أُسْوَةٌ، عِنديِ، وإِخْوَاني

الإخوة: الأشقاء؛ الإخوان: الأصدقاء

عِصَابَةٌ جَاوَرَتْ آدابُهُمْ أَدَبي، فَهُمْ، وإنْ فُرِّقُوا في الأرضِ، جيراني
أَرْواحُنا في مكانٍ واحدٍ؛ وغَدَتْ أَبْدانُنا في شَآمٍ، أو خُراسانِ

١٥٧ قلبي لكم، وقلبي لغيركم

يمدح سليمان بن وهب:

كلُّ شِعْبٍ كنتُمْ به، آلَ وَهْبٍ، فَهْوَ شِعبي، وشِعْبُ كلِّ أديبِ

شعب: طريق

لم أَزَلْ باردَ الجوانِحِ مُذْ خَضْـ ـخَضْتُ دَلْوي في ماءِ ذاكَ القَلِيبِ

ظللت بارد الجوانح (مرتوياً)، منذ خضخضت (حركت) دلوي في ماء ذاك القليب (البئر). يقول:
منذ نلت عطاءكم وأنا مرتوٍ

إن قلبي لكُمْ لَكَالكَبِدِ الحَرَّ ى، وقلبي لِغيرِكُمْ كالقلوبِ

قلبي حارٌّ من حبكم كأكباد العاشقين، ولغيركم.. عادي

١٥٨ يا فصيح، يا بليغ

يمدح الحسن بن وهبٍ ويصف غلاماً أهداه له:

وإذا رأيْـتُـكَ، والـكـلامُ لآلِـئٌ   تُـومٌ فَـبِـكْـرٌ فـي الـنِّـظَـامِ وثَـيِّـبُ

إذا رأيتك والكلام يتساقط من فمك مثل اللآلئ التوم (التومة اللؤلؤة الكبيرة)، فمنها في النظام (العقد) لؤلؤة لم تثقب من قبل فهي بكر، ومنها لؤلؤة مثقوبة فهي ثيب (المرأة التي سبق لها زواج)..

فكـأنَّ قُـسَّـاً فـي عُـكَـاظٍ يَـخْـطُـبُ،   وكـأنَّ لـيْـلـى الأَخْـيَـلِـيَّـةَ تَـنْـدُبُ

.. فكأنني إذ ذاك أرى قس بن ساعدة يخطب في سوق عكاظ، أو كأنني أرى ليلى الأخيلية تندب حبيبها توبة بن الحمير

وكُـثَـيْـرُ عَـزَّةَ يـومَ بَـيْـنٍ يَـنْـسُـبُ،   وابنُ الـمقفَّـعِ في الـيَـتِـيمـةِ يُـسْـهِـبُ

وكأنني برؤيتك تتكلم أرى كثيّر عزة (كثيِّر عزة) يوم بين (فراق) ينسب (يتغزل)، وابن المقفع في رسالته «اليتيمة» يسهب في القول

١٥٩ أفسدتك النعمة

يعاتب الحسن بن وهب:

أَلْهَتْكَ، عنْ حَاجَةٍ ضَيَّعْتَ حُرْمَتَها،   وِلايـةٌ؛ ودَوَاعـي الـنَّـفْـسِ تُـتَّـهَـمُ

منصب الولاية ألهاك عن حاجاتنا، ودواعي النفس (ما يدعو النفس إلى قلة المروءة) هي السبب الذي نتهمه (نظنه)

أَنْشَبْتَ نفسَكَ في ظَلْمَاءَ مُسْدِفَةٍ،   وأَفْسَـدَتْـكَ عـلـى إِخْـوانِـكَ الـنِّـعَـمُ

أنشبت (ورطت) نفسك في ظلماء مسدفة (كثيفة)، وأفسدتك النعمة على أصحابك

دنـيـا! ولـكـنَّـهـا دنـيـا سَـتَـنْـصَـرِمُ،   وآخِـرُ الـحَـيَـوانِ الـمـوتُ والـهَـرَمُ

ستنصرم: ستنتهي، الحيوان: كل حي

١٦٠ أسير كرم آبائه

يمدح الحسن بن وهب، ووجه بها إليه من الموصل:

وابْـنُ الـكـريـمِ مُـطَـالَـبٌ بِـقَـديـمِـهِ   غَلِقٌ، وصَافي العَيْشِ لابْنِ الزُّمَّلِ

غَلِقٌ: أسير تعذَّر فداؤه، الزمل: الضعيف

والـحـمْـدُ شَـهـدٌ، لا تَـرى مُـشْـتَـارَهُ   يَـجْـنـيـهِ إِلَّا مِـنْ نَـقـيـعِ الـحَـنْـظَـلِ

مشتار العسل: جانيه من خلاياه، نقيع الحنظل: ماء الحنظل المرّ: يقول إن السمعة الطيبة عسل، ولكن لا بد قبل الحصول عليه من تجرع ماء الحنظل أي بذل الجهد الكبير

١٦١ صاحب الحُظوة

يمدح الحسن بن وهب:

تَشَكَّى الأَيْنَ مِنْ نِصْفٍ سَرِيعٍ إذا قَامَتْ، ومِنْ نِصْفٍ بَطِيٍّ

تتشكى هذه المرأة عند قيامها الأين (التعب) من نصف سريع (نصفها الأعلى) ومن نصف بطيء (مؤخرتها الكبيرة)

ومَحْدُودِ الذَّرِيعَةِ سَاءَهُ مَا تَرَشَّحَ لي مِنَ السَّبَبِ الحَظِيِّ

رب شاعر محدود الذريعة (محروم من الواسطة/ قيل قصد بذلك دعبلاً الشاعر) وقد ساءه ما ترشح لي (وصلني) من السبب الحظي (العلاقة والحظوة)

يَدِبُّ إليَّ في شَخْصٍ ضَئِيلٍ، ويَنْظُرُ مِنْ شَفَا طَرْفٍ خَفِيِّ

يأتيني متضائلاً، وينظر إليَّ بحسد من شفا (طَرَف) طَرْفٍ (نظر) خفي. يقول: ينظر إلي بطرف عينه حاسداً

ويُتْبِعُ نِعْمَتي بِكَ عينَ ضِغْنٍ، كما نظرَ اليتيمُ إلى الوَصِيِّ

الضغن: الحقد

رَجَاءَ أنَّهُ يُورِي بِزَنْدِي إليكَ، وأنَّهُ يَفْرِي فَرِيِّي

يتمنى أن يوري (يشعل ناره) بزندي (بأداة إيقادي/ ولاعتي)، ويتمنى أن يفري فريي (يفعل فعلي)

وذاكَ له إذا العَنْقاءُ صارتْ مُرَبَّبَةً، وشَبَّ ابنُ الخَصِيِّ

هذا يحدث إذا صارت العنقاء (الطائر الخرافي) مربية (داجنة)، وإذا كبر ابن الخصي (والخصي لا يولد له). أبو تمام يتسلى بمبالغة مضاعفة، فالعنقاء مستحيلة أصلاً، ولكنه يريدها مثل الدجاجة؛ وابن الخصي غير ممكن أصلاً، ويريده أن يشب ويترعرع

أَرَى الإخوانَ، ما غُيِّبْتَ عَنْهُمْ، بِمَسْقَطِ ذلكَ الشِّعْبِ القَصِيِّ

عندما تغيب أيها الأمير عن الإخوان الشعراء فهم نكرات كأنهم قاعدون في مسقط (آخِر) ذلك الشعب (الطريق) القصي

ومَرْدُودٌ صَفَاؤُهُمُ عليْهِمْ، كما رُدَّ النِّكَاحُ بِلا وَلِيِّ

ولا أريد صفاءهم (صداقتهم) بل أردُّه رداً مثلما يردُّ الفقيه الزواج لعدم وجود وليّ (فالحسن بن وهب وليُّهم الذي يبرر وجودهم في مجلس الأدب)

وإنَّ لَهُمْ لإحْسَاناً، ولكنْ جَرَى الوَادِي، فَطَمَّ على القَرِيِّ

بعضهم شعراء محسنون، ولكن أنا سيل الوادي الذي يطم على القريّ (يغمر الجدول الصغير).
رغم أنه مات عن أربع وأربعين سنة فإن أبا تمام حقق في حياته شهرة عظيمة، يكفي أن معاصره الجاحظ (وهو أسنُّ منه بنحو ثلاثين سنة) ينقل أبياتاً له كثيرة في «الحيوان» و«البيان والتبيين» في نحو عشرين موضعاً

وهَلْ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الفتحِ يَسْعَى   كَصاحِبِ هِجْرَتَيْنِ مَعَ النبيِّ؟

هل الذي أسلم بعد فتح مكة متأخراً كمن أسلم باكراً وهاجر مرة إلى الحبشة ومرة إلى يثرب، ورافق النبي

١٦٢ انزلاق النظر

يمدح الحسن بن وهب، ويصف فرساً حمله عليه:

دِمَنٌ لَوَتْ عَزْمَ الفؤادِ، ومُزِّقَتْ   فيها دموعُ العينِ كلَّ مُمَزَّقِ

هذه الدمن (أطلال المحبوبة) ثنت عزمي عن المضي في السير واستوقفتني، وتمزقت (تفرقت) فيها دموع العين

تَأبىَ مع التَّصْريدِ إلّا نَائِلاً   إلّا يَكُنْ ماءً قَرَاحاً، يُمْذَقِ

تأبى المحبوبة مع التصريد (قطع شرب المرء قبل الري) إلا أن تعطينا نائلاً (وصلاً) مغشوشاً: فهو إما ماء قراح (صاف)، أو في أحسن الحالات حليب ممذوق (ممزوج بماء). وهم يعيبون على المرء أن يقدم لضيفه ماء صافياً، فالضيف يريد لبناً

نَزْراً، كما اسْتَكْرَهْتَ عائِرَ نَفْحَةٍ   مِنْ فَارَةِ المسْكِ التي لم تُفْتَقِ

ونوالها نزر (قليل)، فهو كما استكرهت (اجتلبت بالإكراه) عائر نفحة (شمَّة ضالة) من فارة المسك التي لم تفتق (الجلدة التي تحتوي المسك قبل فضها)

يقول: وصلها قليل جداً فهو مثل تنسُّمِك شمَّة من فارة مسك قبل فتقها. ويعدون هذا البيت من معاني أبي تمام المبتكرة التي لا يمارِي أحد في سبقه إليها

صافِي الأَديمِ، كأنما أَلْبَسْتَهُ   مِنْ سُنْدُسٍ بُرْداً، ومِنْ إستَبْرَقِ

يصف الفرس: صافي الأديم (الجلد)، كأنه يلبس بُرداً (ثوباً) من سندس وإستبرق (من الديباج)

إمْلِيسُهُ إمْلِيدُهُ، لو عُلِّقَتْ   في صَهْوتَيْهِ العَينُ لم تَتَعَلَّقِ

إمليسه إمليده (هذا الفرس أملس، وأملد: ناعم)، وكأن العين تنزلق عن صهوتيه (جانبي ظهره) لملاسته

١٦٣ شاب رأسي

يمدح أحمد بن أبي دؤاد:

شابَ رَأْسي، ومَا رأيتُ مَشيبَ الرَّ ـ   أْسِ إلّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفؤادِ

من فضل (بسبب)

وكَذاكَ القلوبُ، في كُلِّ بُؤْسٍ ونعيم، طَلائعُ الأجْسَادِ

فالقلب، في الخير والشر، يسبق الجسد، فهو كطليعة الجيش التي تسبقه للاستطلاع

طَالَ إنْكارِيَ البَياضَ، وإنْ عُمِّـ ـرْتُ شيئاً أنْكَرْتُ لونَ السَّوَادِ

مدةً طويلة والبياض بشعري قليل فأنا أنكره (أستغرب وجوده)، وإن طال عمري قليلاً سأرى السواد في رأسي غريباً

١٦٤ تنصُّل من غير جرم

قال يمدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، ويعتذر إليه مما نسب إليه من الافتخار على مضر، وأبو تمام ينسب نفسه إلى طيء اليمانية:

لقد أنْسَتْ مَساوِئَ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُؤَادِ

وما سافرتُ في الآفاقِ، إلَّا ومن جَدْوَاكَ راحِلَتي وزَادي

جدواك: عطاؤك

مقيمُ الظَّنِّ عِندَكَ والأماني، وإن قَلِقَتْ رِكابي في البِلادِ

ظني (أملي) مقيم عندك، وإن قلقت (تقلقلت وتحركت) ركابي (إبلي) في البلاد

أَتاني عَائِرُ الأنْباءِ تَسْري عَقَارِبُهُ بِدَاهِيَةٍ نَآدِ

جاءني عائر الأنباء (النبأ المنتشر) وعقارب هذا النبأ تسري وتحمل معها داهية نآداً (موجعة)

نَثَا خَبَرٍ كأنَّ القلبَ أمْسى يُجَرُّ به على شَوْكِ القَتَادِ

الداهية هي نثا خبر (انتشار خبر) أصبح القلب بسببه كأنه يجر على شوك نبات القتاد الشائك

بِأَنِّيَ نِلْتُ منْ مُضَرٍ. وخَبَّتْ إليكَ شَكِيَّتي خَبَبَ الجَوَادِ

والخبر هو أنني انتقصت من مضر. وقد خبت (أسرعتْ) إليك شكواي من ظلم ناقلي الخبر إسراع الفرس في عدوه/ هذا هو المعنى الذي ألمحه

وما رَبْعُ القَطِيعَةِ لي بِرَبْعٍ ولا نَادي الأذى مِنِّي بِنَادِ

النادي: المجلس

وأينَ يَجُورُ عن قَصْدٍ لِساني وقلبي رَائحٌ بِرِضَاكَ غَادِ؟

وكيف يجور (يتحول) عن قصد (عن السبيل المستقيم) لساني بينما قلبي دائم الرضا مِنْك

وغيري يَأكُلُ المَعروفَ سُحْتَاً وتَشْحُبُ عندَهُ بِيضُ الأيادي

سواي يأكل المعروف سحتاً (ينال الأعطيات مالاً حراماً بلا شكر عليه)، وتصبح الأيادي البيض (الإحسان) شاحبة عنده (متغيرة اللون مكدرة بالنكران)

تَـشَـبَّـتْ. إنَّ قَـوْلاً كـانَ زُوراً أَتَـى الـنُّـعْـمـانَ قـبـلَـكَ عـنْ زِيـادِ

فاستوثق من الخبر. فقديما جاء الملكَ النعمان خبرٌ كاذب عن زياد (النابغة الذبياني)

إلـيـكَ بَـعـثـتُ أبـكـارَ الـمـعـانـي يَـلـيـهـا سَـائـقٌ عَـجِـلٌ وحَـادِ

بعثت إليك قصيدة معانيها أبكار (عذارى لم يقلهن شاعر من قبل) يليها (يتبعها) سائق يسوقها ومعها حادٍ (منشد) يحدوها

شِدَادَ الأَسْرِ، سَالِمَةَ النَّوَاحي مـن الإقْـوَاءِ فـيـهـا والـسِّـنَـادِ

هذه المعاني هي أبيات شعر شديدة الأسر (قوية)، وسالمة من عيوب الشعر كالإقواء والسناد

يُـذَلِّـلُـهـا بِـذِكْـرِكَ قِـرْنُ فِـكْـرٍ إذا حَـرَنَـتْ فَـتَـسْـلَـسُ فـي الـقِـيـادِ

يذلل هذه الأبيات (يروضها)، إذا حرنت (استعصت)، شاعر هو قرن فكر (صاحب تمحيص للشعر) فيصبح قيادها سلساً

مُـنَـزَّهَـةً عـن الـسَّـرَقِ الـمـوَرَّى مُـكَـرَّمَـةً عـن الـمـعـنـى الـمُـعَـادِ

أبيات منزهة عن السرقة المموهة، ومرتقية عن أن تكون معانيها مكررة

تَـنَـصَّـلَ ربُّـهـا مـن غَـيـرِ جُـرْمٍ إلـيـكَ، سوى الـنَّـصِـيحَـةِ والـوِدَادِ

رب هذه الأبيات (صاحبها) تنصل من ذنبٍ لم يرتكبْه أصلاً، وليس لديه سوى النصح والود

ومَـنْ يَـأذَنْ إلى الـوَاشـيـنَ تُـسْـلَـقْ مَـسـامِـعُـهُ بِـأَلْـسِـنَـةٍ حِـدادِ

ومن يأذن (من يعطِ أذنه) للواشين يسلقوا سمعه بألسنتهم الحادة

١٦٥ فائدة الحسود

يمدح أحمد بن أبي دؤاد، ويعتذر إليه، ويستشفع بخالد بن يزيد:

ظَعَنوُا فكـانَ بُكَـايَ حَـوْلاً بعدَهُـمْ ثـمَّ ارْعَـوَيْـتُ، وذاكَ حُـكْـمُ لَـبـيِـدِ

ظعنوا (رحلوا) فكان بكائي بعدهم سنة، ثم ارعويت (امتنعت)، وذاك حكم لبيد الشاعر القائل: ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

أَجْـدِرْ بِـجَـمْـرةِ لَـوْعـةٍ إطـفـاؤُهـا بـالـدَّمْـعِ أن تَـزدَادَ طُـولَ وُقُـودِ

ما أجدر جمرة اللوعة التي يكون إطفاؤها بالدمع أن تتقد أكثر

يـا أحـمـدَ بـنَ أبـي دُؤَادٍ حُـطْـتَـنـي بِـحِـيَـاطَـتـي ولَـدَدْتَـنـي بِـلَـدُودِي

يا أحمد بن أبي دؤاد قد حطتني (رعيتني) بما يناسب قدري، ولددتني (داويتني) بلَدودي (بالدواء المناسب)

لـمَّـا أَظَـلَّـتْـنـي غَـمَـامُـكَ أصـبـحـتْ   تـلـكَ الـشـهـودُ عـلـيَّ وَهْـيَ شُـهُـودي

لما أظلتني غمامات رضاك أصبح الذين يشهدون ضدي عندك يشهدون معي

مِنْ بعدِ أنْ ظَنُّوا بأنْ سَيَكونُ لِي   يـومٌ بِـبَـغْـيِـهِـمُ كـيـومِ عَـبـيـدِ

وكانوا يظنون أن بغيهم سيجعل لي يوماً كيوم عبيد بن الأبرص
(الذي جاء الملك في يوم بؤسه فكان نصيبه القتل)

نَـزَعُـوا بِـسَـهْـمٍ قَـطـيـعـةٍ يـهـفُـو بـه   ريشُ الـعُـقـوقِ، فـكـانَ غـيـرَ سَـدِيـدِ

نزعوا (شدوا وتر القوس) بسهم قطيعة (وأرادوا أن يرسلوا من قوسهم سهم الوقيعة) ويهفو (يطير)
بهذا السهم ريش هو العقوق، فكان السهم طائشاً

وإذا أرادَ الـلَّـهُ نـشـرَ فَـضـيـلـةٍ   طُـوِيـتْ، أتـاحَ لَـهَـا لِـسـانَ حَـسُـودِ
لـولا اشْـتِـعـالُ الـنـارِ فـيـمـا جـاوَرَتْ   مـا كـانَ يُـعْـرَفُ طـيـبُ عَـرْفِ الـعُـودِ

العَرف (الرائحة الذكية)

لـولا الـتَّـخَـوُّفُ لِـلعـواقِـبِ لـم تَـزَلْ   لِـلحـاسِـدِ الـنُّـعْـمَـى عـلى الـمَـحْـسُـودِ

لولا التخوف للعواقب (النتائج الوخيمة) لظل الحاسد أعلى قدراً من المحسود لأنه هو الذي يظهر
فضل المحسود بحسده إياه

خُـذْهَـا مُـثَـقَّـفَـةَ الـقَـوافـي، ربُّـهَـا   لِـسَـوابِـغِ الـنَّـعْـمـاءِ غـيـرُ كَـنُـودِ

خذ هذه القصيدة مثقفة القوافي (محككة ومشذبة)، ربها (صاحبها) غير كنود (غير جاحد) لسوابغ
النعماء (للنعم الكثيرة)

كـالـطَّـعْـنـةِ الـنَّـجـلاءِ مِـنْ يَـدِ ثَـائِـرٍ   بِـأَخـيـهِ، أو كـالـضَّـرْبَـةِ الأُخْـدُودِ

هذه القصيدة مثل الطعنة النجلاء (الواسعة) من يد ثائر بأخيه (آخذ بثأر أخيه)، أو هي كالضربة
الأخدود (التي تصنع أخدوداً أي شقاً)

كـالـدُّرِّ والـمـرجـانِ، أُلِّـفَ نَـظـمُـه   بِـالـشَّـذْرِ فـي عُـنُـقِ الـفَـتـاةِ الـرُّوُدِ

قصيدتي كالدر (اللؤلؤ الكبار) والمرجان (اللؤلؤ الصغار) المنظوم مع الشذر (قطع الذهب الصغار)
في عقد يزين عنق الفتاة الرود (الناعمة)

يُعطِي بِهَا البُشْرى الكريمُ، ويَحْتَبِي   بِـرِدَائِـهـا فـي الـمـحْـفِـلِ الـمـشـهـودِ

الكريم يعطي من يبشره بهذه القصيدة حُلواناً، ويحتبي بها كالرداء في المحافل (والاحتباء أن تجمع
ظهرك إلى ساقيك بردائك وأنت جالس، فكأنك مُسنِد ظهرك)

١٦٦ المهم رضاك أنت

يمدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد:

مَعشرٌ أصبحوا حُصُونَ المعالي، ودُروعَ الأَحسابِ والأَعْراضِ
كَمْ ظَلامٍ عنِ العُلَى قد تجلَّى بكَ، والمكْرُمَاتُ عنكَ رَوَاضِ
كَمْ مَعَانٍ وَشَّيْتُها فيكَ قدْ أمْـ ـستْ، وَأضْحَتْ ضَرائِراً لِلرِّياضِ

ما أكثر المعاني التي وشيتها (زينتها) في مدحك ثم أصبحت ضرائراً (منافسات) للرياض في جمالها

بِقَوافٍ هِيَ البَواقي على الدَّهْـ ـرِ، ولكنْ أَثْمَانُهُنَّ مَواضِ

لقد زينت هذه المعاني ضمن قواف (قصائد) هي البواقي (الخالدات)، ولكن أثمانهن من العطايا مواض (ذاهبات)

ما أُبالِي، بعدَ انبِساطِكَ بِالمعـ ـروفِ، مَنْ كان منهُمُ ذا انقِباضِ

١٦٧ بناء الجار قبل الدار

يمدح أبا الوليد أحمد بن أبي داؤد الإيادي:

بَوَّأْتُ رَحْلي في المرَادِ المُبْقِلِ فَرَتَعْتُ في إِثْرِ الغَمَامِ المسْبِلِ

بوأت رحلي (أنزلت متاعي) في المراد المبقل (في المرعى الذي نبت فيه البقل) ورتعت في إثر (عقب) الغمام المسبل (الهاطل)

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلِّها أَنِّي ابْتَنَيْتُ الجَارَ قبلَ المنزِلِ

أفناء: ساحات

هَتَكَ الظَلامَ أبو الوليدِ بِغُرَّةٍ فتحتْ لنا بابَ الرجاءِ المقْفَلِ

مزق الممدوح ستر الظلام بغرة (بوجه مشرق) فتحت لنا باب الرجاء المقفل

بِأَتَمَّ مِنْ قمرِ السماءِ، وإنْ بَدَا بَدْراً، وأَحْسَنَ في العُيونِ وأَجْمَلِ

مزق الممدوح الظلام بوجه هو أتم استدارة من القمر ـ حتى والقمر بدر تام الاستدارة ـ، والممدوح عندنا أجمل من البدر

١٦٨ الحمد لله على السلامة

وقال في علة أحمد بن أبي دؤاد:

لا نَالَكَ العَثْرُ مِنْ دهرٍ، ولا الزَلَلُ ولا يَكُنْ للعُلَى في فَقْدِكَ الثَّكَلُ

العثر/والزلل: السقوط، لا يكنْ: أدعو الله أن لا يكون

تضاءَلَ الجُودُ مُذْ مُدَّتْ إليكَ يَدٌ   مِنْ بَعضِ أَيْدي الضَّنَى، واسْتَأْسَدَ البَخَلُ

الضنى: المرض، استأسد البَخَل: ظهرت شراسة البُخل

لم يَبْقَ في صدرِ رَاجِي حاجَةٍ أَمَلٌ   إلّا وقد ذَابَ سُقْماً ذَلِكَ الأَمَلُ

بيْنَا كذلكَ، والدنيا على خَطَرٍ،   والعُرْفُ فيكَ إلى الرَّحمَنِ يَبْتَهِلُ

العرف: المعروف

سُقْمٌ أُتيحَ لَهُ بُرْءٌ، فَذَعْذَعَهُ؛   والرمحُ يَنْآدُ حيناً، ثم يَعتدِلُ

ذعذعه: هزه هزاً عنيفاً، ينآد: يعوَجُّ

وحَالَ لَوْنٌ، فَرَدَّ اللَّهُ نَضْرَتَهُ   والنَّجْمُ يَخْمُدُ شيئاً، ثم يشتَعِلُ

حالَ: تغير وتحوَّل

١٦٩ شريعة الشعر

يمدح أحمد بن أبي دؤاد:

ينالُ الفتى من عَيْشِه، وهْوَ جاهِلٌ   ويُكْدِي الفتى في دهرِه، وهْوَ عالمُ

ينال الفتى كفايته من الرزق رغم أنه جاهل، ويكدي (يفتقر) الفتى رغم أنه عالم

ولو كانتِ الأرزاقُ تَجري على الحِجَا   هَلَكْنَ إذنْ، من جهْلِهِنَّ، البَهائمُ

لو كانت الأرزاق توزع بحسب الحجا (وفرة العقل) لهلكت البهائم لجهلها

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ،   ولا المجدُ في كفِّ امْرِئٍ والدَّراهِمُ

وكما لا يمكن للقاصد (المسافر) أن يتجه شرقاً ويتجه غرباً في وقت واحد، كذلك لا يجتمع المجد والمال في كف المرء

ولم أرَ كالمعروفِ: تُدعَى حقوقُه   مَغارِمَ في الأقوامِ، وَهْيَ مَغانِمُ!

لم أر كالمعروف (إعطاء المال): يزعم بعضهم أن بذله بحق للناس هو مغارم (مخاسر مالية)، بينما هو غنيمة تعود على السخي بالسمعة الطيبة

ولا كَالعُلَى: ما لم يُرَ الشِّعرُ بينَها،   فَكَالأرضِ غُفْلاً ليس فيها مَعَالمُ

ولم أر كالعلى (الأمجاد): فإذا لم يكن الشعر شاهداً على الأمجاد كانت كالأرض الغفل (الجرداء) ليس فيها معالم

وما هُوَ إلا القولُ يَسرِي فتغتَدِي   لـه غُـرَرٌ فـي أوْجُـهٍ، ومَـوَاسِـمُ

ما إن يسري القول (الشعر) حتى يصبح له غرر (الغرة: بياض محمود في وجه الفرس)، وله أيضاً مواسم (الميسم: علامة تكوى كيّاً على جلد البعير ليعرف صاحبه). يقول: الشعر يبيض وجوه قوم، ويسود وجوه قوم

يُرى حِكْمَةً ما فيهِ، وَهْوَ فُكاهَةٌ؛ ويُقضَى بِمَا يَقْضي به، وَهْوَ ظالمُ!

يكون الشعر مجرد فكاهة فيصر الناس أن يروا فيه حكمة؛ ويظلم الشعر قوماً في هجاء، فيكون قوله فيهم حُكماً قاطعاً. هذه قيمة الشعر وأثره. وفسر المرزوقي الشطر الأول كما يلي: «ترى الكلمة فيه يكون ظاهرها مزحاً فتوجد في الحقيقة حكمة» وهذا تفسير من لم يقرأ البيت على وجهه. وأبو تمام إنما يقول: إن حقيقة الشعر تكون الفكاهة، ولكن الناس يعتبرونه حكمة لشدة تأثيره في نفوسهم. وأما التبريزي فقد سرق تفسير المرزوقي على جاري عادته، فقال: «أي ترى الكلمة فيه يكون ظاهرها مزحاً فتوجد في الحقيقة حكمة»

له مِنْ إيَادٍ قِمَّةُ المجدِ حيثُما سمَتْ، ولهَا منه البِنَا والدَّعائِمُ

للقاضي أحمد بن أبي دؤاد قمة المجد في قبيلة إياد حيثما سمت (في المكان العالي الذي سمت إليه)، وهو دعامتها وراعيها

أخذْتَ بأعْضَادِ العُرَيْبِ، وقد خَوَتْ عُيونٌ كَليلاتٌ، وذَلَّتْ جَماجِمُ

أخذت بأعضاد (بأيدي) العريب (العرب) وقد خوت (فرغت) عيونهم الكليلة (المتعبة) من بريق المجد، وذلت رؤوسهم، لأن العناصر الأخرى من فرس وترك بدأت تغلب على الدولة

فأَضْحَوْا: لو اسْطَاعُوا لِفَرْطِ محبَّةٍ لقد عُلِّقَتْ، خَوفاً عليكَ، التَّمَائمُ

فأصبح العرب لو استطاعوا لعلقوا عليك التمائم (الحُجُب والرُّقى)

ولو عَلِمَ الشيخانِ، أُدٌّ ويَعْرُبٌ، لَسُرَّتْ إذنْ تلكَ العِظامُ الرَّمائِمُ

لو علم جَدَّا العرب «أدّ» و«يعرب» بنصرك للعرب لسرت عظامهما البالية

فما بالُ وجهِ الشعرِ أغْبَرَ قَاتِماً؟ وأَنفُ العُلى، من عُطْلَةِ الشعرِ، راغِمُ؟

فما بال الشعر مهملاً؟ ولماذا يبقى أنف العلى راغماً (ذليلاً) من عطلة الشعر (لأنه عاطل، غير محلّىً بالقصائد)؟

تَدارَكْهُ. إنَّ المكْرُماتِ أَصَابِعٌ، وإنَّ حُلَى الأشعارِ فيها خَواتِمُ

تداركه: أنجِدِ الشعر

إذا أنتَ لم تحفظْهُ لم يَكُ بِدْعَةً، ولا عَجباً، أن ضَيَّعَتْه الأعاجِمُ
فقد هَزَّ عِطْفَيْهِ القريضُ تَوَقُّعاً لِعَدلِكَ مُذْ صارتْ إليكَ المظالم

هز عطفيه: هز خصريه، المظالم: ديوان المظالم

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشعرُ ما دَرَى بُغَاةُ النَّدى من أينَ تُؤْتَى المكارمُ

لولا أخلاقيات سنها الشعر (جعلها سنة وشرعاً) لما عرف بغاة الندى (الراغبون في بذل مالهم) كيف يحصلون على المكارم

١٧٠ المطر على جثة عطشان

يعاتب ابن أبي دؤاد ويستبطئه وعداً له عليه:

وَمَا نَفْعُ مَنْ قد ماتَ بالأمسِ صَادِياً إذا ما سماءُ اليومِ طَالَ انْهِمَارُها

صادياً: عطشان

وخيرُ عِدَاتِ المرءِ مُخْتَصَراتُها، كما أنَّ خَيْراتِ اللَّيالي قِصَارُها

١٧١ هذا هو التهديد

يهجو أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد:

أَتَـدْري أَيَّ بَـارِقَـةٍ تَـشـيـمُ ومَـهْـلَـكَـةٍ إلـيْـهـا تَـسْـتَـنِـيـمُ

بارقة (غيمة فيها برق) تشيم (تنظر)، مهلكة (مصيبة)، تستنيم (تطمئن)

فـإنَّـكَ لـم تُـعَـوَّدْ مِـنْ سُـهَـادي إذا مـا عَـانَـقَ الـسِّـنَـةَ الـنَّـؤُومُ

أنت لم تتعود على سهادي (سهري) بينما يعانق السنة (النوم) النؤوم. يقول: أنت لا تعرفني عندما أسهر وينام النائمون..

ومِنْ تَقليبِ قلبي عنْ لساني إذا بـاتـتْ تُـقـلِّـبُـهُ الـهـمـومُ

ولا تعرف كيف يقوم قلبي بتقليب المعاني على لساني إذا بات يتقلب مهموماً

فـمـا أنـتَ الـلَّـئـيـمُ، إذنْ، ولـكـنْ زَمـانٌ سُـدْتَ فـيـهِ هُـوَ الـلَّـئـيـمُ
أَتـطـمَـعُ أنْ تُـعَـدَّ كـريـمَ قـومٍ وبَـابُـكَ لا يُـطـيـفُ بـه كَـريـمُ؟
لَنِمْتَ، ونَامَ عِرْضُكَ، والقَوافِي سَـواخِـطُ، لا تَـنـامُ، ولا تُـنـيـمُ

لنمت: والله لقد نمت

١٧٢ ديمة سمحة القياد

يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

دِيـمَـةٌ سَـمـحـةُ الـقِـيـادِ سَـكـوبُ مُـسـتَـغِـيـثُ بـهـا الـثَّـرَى الـمـكـروبُ

هذه ديمة (سحابة) سمحة القياد (سلسة في حركتها) سكوب (ماطرة). ويستغيث بها الثرى (التراب) المكروب (المصاب بالجفاف)

لو سَعَتْ بُقْعَةٌ لإعْظَامِ نُعْمَى لَسعَى نحوَها المكانُ الجَدِيبُ

لو أنه يعقل أن تسير بقعة من الأرض، لسار وراء هذه السحابة المكان الجديب (المقفر) لإعظام النعمى (لتكثير نصيبه من نعمة الماء). وقد فسر الشراح البيت على أن إعظام تعني «تعظيم وشكر» ولا وجه لذلك، وإن كانت كلمة «إعظام» توحي بهذا المعنى. ومن قال إن أبا تمام يقصد إلى القريب؟ لا تنس أن السحابة سلسة في سيرها، وهي تروي المكان وتسير عنه، فجدير بالمكان أن يفكر في اللحاق بها ليشرب أكثر، أما أن يسير المكان فقط ليشكرها فليس مما يستدعي السير. فليشكرْها المكان قاعداً في محله ما شاء له، فلماذا يسير؟ وقد تتبعنا هذا البيت المشهور وتفسيره في كل موطن ـ مثلما تتبع المكانُ الجديب السحابة ـ فلم نجد شارحاً وقع على المعنى الذي بسطناه لك، والذي نظنه هو المعنى

لذَّ شُؤْبُوبُها، وطَابَ فَلَوْ تَسْـ ـطِيعُ قامتْ فعانَقَتْها القلوبُ

لذ (طاب) شؤبوبها (زخُّها) فلو استطاعت قلوب الناس
لغادرت صدورهم كي تعانق هذه السحابة

فَهْيَ ماءٌ يجري، وماءٌ يَليهِ، وعَزَالٍ تُنشَا، وأُخْرَى تَذُوبُ

فالسحابة ماء يجري، ثم ماء آخر بعده، إنها مثل عزالٍ (الأفواه السفلى للقِرَبِ) تُنْشَا (تُرفَع) وأخرى تذوب (تسكب الماء). حار الرواة في «تُنشا» فجعلوها تهمي (هذه القراءة عند الصولي وأخذها إيليا الحاوي)، ولم يشرح البيت التبريزي. وشرحه ـ وليته أغفله ـ الأسود. ولمن يحب الاستقصاء ها شرحُنا مفصلاً:

العزلاء: هي الفتحة السفلى للقربة، ويجعلونها لإفراغ القربة من الماء عندما يصلون إلى بئر عذبة ويريدون التخلص مما في قربهم من ماء قد تغير طعمه. وجمعها عَزَالٍ. تُنشا: أي تُنشأ، سُهِّلَت همزتها: ومعناها تُرْفع. (وإليك عبارة ابن فارس في «مقاييس اللغة» ـ وإنما نأخذ المعنى عنه لأن ابن فارس يدل على معنى الجذر في مهده ـ يقول: «النون والشين والهمزة أصل صحيح يدل على ارتفاع في شيء وسموّ، ونَشأ السحاب ارتفع. وأنشأه الله رفعه.» اهـ). ولسان ابن منظور لَهِجٌ بها المعنى. وعليك أن تتخيل سَفْراً وردوا بئراً واستيقنوا من عذوبة مائها، ثم راح كل منهم يفك الوِكَاء (السير الجلدي) عن فم قربته، ثم الوِكَاء السفلي عن عزلائها (فتحتها السفلى) كي يتدفق الماء الآسن بقوة وبسرعة؛ نرى الرجل منهم يرفع القربة إلى الأعلى ويهزها بعض الهز حتى يتخلص من مائها، بينا آخر قد أوشكت قربته تفرغ. وهكذا قربة وراء قربة، والماء يتدفق. ويتخيل شاعرنا أن سحابته الماطرة تزخ زخات متوالية، لا تكاد الزخة تهدأ حتى تأتي زخة أخرى كقوم واقفين وكل منهم يفرغ قربته

كَشَفَ الروضُ رأسَه، واسْتَسَرَّ الـ ـمَحْلُ منها، كما اسْتَسَرَّ المرِيبُ

أطل الروض برأسه (خرجت براعمه مع المطر)، واستسر المحل (اختبأ) كأنه الشخص المريب (المطلوب بجناية)

فـإذا الـرَّيُّ بـعـدَ مَـحْـلٍ؛ وجُـرجَـا نُ لـديْـهـا يَـبْـريـنُ أو مَـلْـحُـوبُ

فإذا بالري (الارتواء) قد حل بعد المحل (الجدب). وإذا بـ«جرجان» لدى هطول هذه السحابة وكأنها «يبرين» أو «ملحوب» الغنيتان بالكلأ. وقد هام التبريزي والصولي وإيليا الحاوي في صحراء التأويلات. ولسنا نشك في أن إتيان أبي تمام ببلدتين في فارس ومكانين في بلاد العرب هو بعض ألاعيبه، غير أن المعنى هو ما ذكرنا، لا ينطق البيت بغيره

أيُّـهـا الـغَـيْـثُ حَـيَّـهَـلًا بِـمَـغْـدَا كَ، وعـنـدَ الـسُّـرَى، وحـيـنَ تَـؤُوبُ

أيها المطر حيَّهلاً بمغداك (مرحبا بقدومك صباحاً)، وعند السرى (مساء)، وحين تؤوب (حين تأتي ليلاً)

لأَبـي جَـعْـفَـرٍ خَـلائِـقُ تَـحْـكِـيـ ـهِنَّ؛ قد يُشْبِهُ النَّجِيبَ النَّجِيبُ

للممدوح خلائق (صفات) تحكيهن أيها المطر (تشبههن)، فالمطر يشبه الممدوح في السخاء؛ ولا عجب فقد يشبه النجيب النجيب

أنـتَ فِـيـنـا فـي ذا الأوانِ غَـريـبٌ، وَهْـوَ فـيـنـا فـي كـلِّ وقـتٍ غـريـبُ

أنت أيها المطر غريب إذ تأتي في غير وقتك، وأبو جعفر في كل وقت غريب فهو يفعل من المكارم ما لا يفعل غيره

يَأْخُذُ الزَّائِرِينَ قَسْراً، وَلو كَفَّ ـ دَعَـاهُـمْ إلـيـهِ وادٍ خَـصِـيـبُ

يصر على استضافة الزائرين، ولو لم يصرَّ لدعاهم إلى زيارته واديه الخصيب بسخائه

غـيـرَ أنَّ الـرَّامـي الـمـسَـدِّدَ يَـحْـتَـا طُ، مَـعَ الـعِـلْـمِ أنـه سَـيُـصِـيـبُ

فمع أنهم سيأتون على كل حال فهو يأخذهم قسراً، مثل رامي السهم المسدد (المصوب تصوباً صحيحاً) يأخذ حيطته ويدقق التصويب رغم اطمئنانه إلى أنه سيصيب

١٧٣ وصف القلم

وقال أبو تمام في محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وصديق أبي تمام. وهو أديب، وسنراه يرثي أبا تمام بأبيات عذبة بعد سنوات:

مَـتـى أنـتَ عـن ذُهْـلِـيَّـةِ الـحَـيِّ ذَاهِـلُ وقـلـبُـكَ مـنـهـا مُـدَّةَ الـدهـرِ آهِـلُ؟

متى ستذهل (ستنسى) المرأة المقيمة في حي بني ذُهَل، وقلبك آهل (مملوء) منها طول الزمن؟

مِنَ الهِيفِ، لو أنَّ الخَلاخِلَ صُيِّرَتْ لَهَا وُشُحَاً، جَالَتْ عليْها الخَلاخِلُ

هذه الفتاة من الهيف (جمع هيفاء أي رشيقة) ولو أن الخلاخيل في رجليها صيرت وشحاً (جمع وشاح يلف كتفها وخصرها) لجالت (تحركت) عليها الخلاخيل لدقة خصرها

أبـا جـعـفـرٍ! إنَّ الـجـهـالـةَ أمُّـهـا وَلُـودٌ، وأمُّ الـعِـلْـمِ جَـدَّاءُ حَـائِـلُ

الجهالة منتشرة فأمها كثيرة الأولاد، وأم العلماء جداء (صغيرة الصدر) حائل (غير حبلى)

أرى الحَشْوَ والدَّهْمَاءَ أضحَوْا كأنَّهُمْ شُـعُـوبٌ تَـلاقَـتْ دُونَـنَـا وقَـبـائِـلُ

الحشو والدهماء: الرعاع

غَـدَوْا وكَـأَنَّ الـجـهـلَ يـجـمَـعُـهُـمْ بِـهِ أَبٌ، وذَوُو الآدابِ فـيـهِـمْ نَـواقِـلُ

أصبح الرعاع مجتمعين متلاحمين وكأن الجهل أب لهم جميعاً فنسبهم لذلك واحد، بينما أهل الأدب بين الرعاع نواقل (متنقلون بين القبائل لا نسب لهم)

لَـكَ الـقَـلَـمُ الأَعـلَـى الـذي بِـشَـبَـاتِـه تُـصَـابُ مِـنَ الأمـرِ الـكُـلَـى والـمَـفاصِـلُ

أيها الوزير لك القلم الأعلى قدراً الذي تصاب بشباته (بسنه) الكلى والمفاصل (فهو يفعل فعل سن الرمح)

لَـهُ الـخَـلَـوَاتُ الـلَّاءِ لَـوْلا نَـجِـيُّـهَـا لَـمَـا احْـتَـفَـلَـتْ لِـلْـمُـلْـكِ تـلـكَ الـمَـحافِـلُ

لقلمك خلوات تختلي به فيهن، ولولا نجيها (المناجاة بين سن القلم ووجه الورقة في هذه الخلوات) لما احتفلت (اهتمت) المحافل والمجالس بالملك

لُـعَـابُ الأَفـاعـي الـقَـاتِـلاتِ لُـعَـابُـهُ، وأَرْيُ الـجَـنَـى اشْـتَـارَتْـهُ أَيْـدٍ عَـوَاسِـلُ

لعاب قلمك (حبره) كلعاب الأفاعي، أو هو كالأري (العسل) الذي تشتاره (تجنيه) الأيدي العواسل (التي تجمع العسل)

لَـهُ رِيـقَـةٌ طَـلٌّ، ولَـكِـنَّ وَقْـعَـهـا، بِـآثـارِهِ فـي الـشَّـرْقِ والـغـربِ، وَابِـلُ

ريق قلمك كالطل (الندى) ولكن أثره في كل مكان مثل وابل المطر

فَـصِـيـحٌ إذا اسـتَـنْـطَـقْـتَـهُ وَهْـوَ رَاكِـبٌ، وأَعْـجَـمُ إنْ خـاطـبـتَـه وَهْـوَ رَاجِـلُ

إذا طلبت من قلمك أن ينطق وهو راكب أصابعك فهو فصيح، وإن كان راجلاً (مترجلاً) فهو أعجم (لا ينطق)

إذا مَا امْتَطَى الخَمْسَ اللِّطَافَ، وأُفْرِغَتْ عليهِ شِعَابُ الفِكْرِ، وَهْيَ حَوافِلُ..

إذا ركب قلمك الأصابع الخمس اللطاف (الدقيقة) وأُفرغت عليه شعاب الفكر (جداول أفكارك)، وهي حوافل (زاخرة مملوءة)..

أَطَـاعَـتْـهُ أطْـرافٌ لـهـا، وتَـقَـوَّضَـتْ لِنَجْوَاهُ، تَقْويضَ الخِيامِ، الجَحَافِلُ

عندئذ تطيعه أطراف الأصابع، وتتقوض (تتهدم) لنجواه (لهمساته فوق الورق) جحافل الجنود مثلما تتقوض الخيام

إذا استغْزَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيَّ، وأَقْبَلَتْ أَعاليهِ في القِرْطَاسِ وَهْيَ أَسَافِلُ..

إذا استغزر القلم (طلب المدد الغزير) من الذهن الذكي، وأقبلت أعالي القلم لتصبح أسافل على القرطاس (الورق)، أي عندما يصبح سن القلم، وهو أعلاه، منكساً للأسفل استعداداً للكتابة..

وقَدْ رَفَدَتْهُ الخِنْصَرَانِ، وشَدَّدَتْ ثَلاثَ نَواحِيهِ الثَّلاثُ الأَنامِلُ..

وعندما ترفد القلم (تدعمه) الخنصران (الإصبع الصغير والمجاور له)، وعندما تشد على جهاته الثلاث الأناملُ الثلاث الباقية. لعلك تحسب القلم مستديراً وليست له ثلاث جهات؟ قد أصبت. ولكن، عندما تمسكة بأناملك الثلاث تصبح له ثلاث جهات

رأَيْتَ جَليلاً شَأْنُهُ، وَهْوَ مُرْهَفٌ ضَنىً؛ وسَميناً خَطْبُهُ، وَهْوَ نَاحِلُ

عندئذ سترى شأنه عظيماً رغم أنه مرهف (رفيع) ضنىً (تَعَباً)، وسترى خطبه (أثره) سميناً رغم نحوله. رفعت كل الروايات التي بأيدينا «شأنه»، و«خطبه»، على الفاعلية للصفة المشبهة، وفي هذا حرمان «رأى» القلبية من أحد مفعوليها بارزاً، واعتبارُ الصفة المشبهة نائبةً مناب مفعولين، وهذا الوجه البعيد، أو اعتبار المفعول الأول مستتراً بعد «رأى» كأنه قال «رأيته جليلاً شأنُه»، وهو الوجه القريب. كأنهم وقفوا بوجل أمام من قال إن الصفة المشبهة رافعة فاعلها حتماً، ومن منع تأخر ما أصله الفاعل في مفعولي «رأى» عما أصله المفعول، ولا نرى المنع مع توفر القرينة. وقد قرأنا البيت بإضمار فاعل الصفة المشبهة، وإبراز المفعول الأول المؤخر لرأى القلبية. ذلك أن الذهن يترقب مفعولاً ثم لا يجده، ولا بد للمرء من العود إلى البيت وقراءته مرتين أو ثلاثاً قبل أن تنجلي له الصورة القريبة «رأيته جليلاً شأنُه». ورأينا قراءتنا توصل إليك المعنى سائغاً من المرة الأولى، والله أعلم

أرى ابنَ أبي مَرْوَانَ: أمَّا عَطاؤُهُ فَطَامٍ، وأمَّا حُكْمُهُ فَهْوَ عَادِلُ

عطاء الممدوح طام (طافح كثير غير معتدل)، وحكمه عادل ليس فيه زيادة ولا نقصان

هُوَ المرءُ: لا الشُّورَى اسْتَبَدَّتْ بِرَأْيِهِ، ولا قَبَضَتْ مِنْ راحَتَيْهِ العَوَاذِلُ

الشورى لا تجعله متردداً بل يظل له رأي قاطع، والعواذل (اللائمون له على جوده) لا يقبضون يده عن السخاء

أبا جَعْفَرٍ! إنَّ الخَليفةَ، إنْ يَكُنْ لِوُرَّادِنَا بَحْراً، فإنَّكَ سَاحِلُ

الخليفة هو البحر (يقصد النهر) للواردين منا، وأنت ساحل هذا البحر

ولو حَارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقَاحَهَا، ولَكِنْ حُرِمْتُ الدَّرَّ، والضَّرْعُ حَافِلُ

لو حاردت (امتنعت من الحلب) شول (مجموعة نياق قليلة اللبن) لعذرت لقاحها (ناقاتها)، ولكنني حرمت الدَّرَّ (اللبن) وضرع الناقة حافل (ممتلئ لبناً)

مَنَحْتُكَها تَشفي الجَوى، وَهْوَ لاعِجٌ وتَبْعَثُ أَشْجَانَ الفَتَى، وَهْوَ ذَاهِلُ

منحتك هذه القصيدة التي تشفى الجوى (الحزن) وهو لاعج (محرق)، والتي تبعث (تحيي) أشجان الفتى وهو ذاهل (ناسٍ) عن الحزن

فَكيفَ إذا حَلَّيْتَها بِحُلِيِّها تَكُونُ، وهَذا حُسْنُها وَهْيَ عَاطِلُ؟

فكيف تكون قصيدتي لو أنك حليتها بما يناسبها من الحلي (أي العطايا)، وهي حسناء جداً الآن وهي عاطل (بدون حلي)؟

أَكابِرَنا عَطْفاً علَيْنا، فإنَّنا بِنَا ظَمَأٌ مُرْدٍ، وأَنْتُمْ مَنَاهِلُ

مرد (مميت)، مناهل (موارد الماء)

فلما قرأ محمد بن عبد الملك الزيات هذه القصيدة استحيا من جفائه، لكنه احتج على صديقه الشاعر بأنه مدح غيره ممن هم دونه، وبأن إكثار مدحه الناس زهده فيه، فقال ابن الزيات:

رأَيْتُكَ سَمْحَ البَيْعِ سَهْلاً، وإنَّمَا يُغالي، إذا مَا ضَنَّ بالشَّيْءِ، بَائِعُهْ

رأيتك سمح البيع (متساهلاً)، ويجب على البائع أن يغالي (يرفع سعر) الشيء إذا كان حقاً يضن به (يقدره عالياً)

فأمَّا الذي هَانَتْ بَضائِعُ بيْعِهِ، فَيُوشِكُ أنْ تَبْقَى عليْهِ بَضَائِعُهْ

والذي تهون عليه بضائعه يوشك أن يراها كاسدة وباقية عنده، يقول: كذلك الأشعار إن مدحت بها الكثيرين زهدنا فيها، وكسدت

فقال أبو تمام وكتبها إليه:

أبا جعفرٍ إنْ كنتُ أَصْبَحْتُ شاعِراً أُسَاهِلُ في بَيْعِي له مَنْ أُبَايِعُهْ
فقد كُنْتَ قبلي شاعِراً تاجِراً بِهِ تُسَاهِلُ مَنْ عادَتْ عليكَ منافِعُهْ
فَصِرْتَ وزيراً، والوِزَارَةُ مَكْرَعٌ يَغَصُّ بِهِ بعدَ اللَّذَاذَةِ كَارِعُهْ

بعد أن كنتَ شاعراً صرت وزيراً، والوزارة مكرع (مشرب) يلذه كارعه (الشارب منه) حيناً ثم يغص به

وكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قد رَأَيْنا مُسَلَّطٍ، فَعادَتْ، وقد سُدَّتْ عليْهِ مَطَالِعُهْ

كثيراً ما رأينا وزيراً متسلطاً ثم بعد ذلك سدت عليه مطالعه (انسدت الأبواب في وجهه وعزل)

ولِلهِ قَوْسٌ لا تَطِيشُ سِهَامُها ولِلهِ سَيْفٌ ليسَ تَنْبُو مَقاطِعُهْ

عقب محمد عبده عزام محقق «شرح التبريزي على ديوان أبي تمام» تعقيباً طيباً على هذه القطعة الأخيرة، فشك في أنها لأبي تمام، فلا يجترئ المرء هذا الاجتراء على رجل كابن الزيات الذي نعرف كيده وبطشه. وقد يزيدني شكاً في القطعة الأخيرة أن ابن الزيات لاقى فعلاً هذا المصير فقد قتله المتوكل شر قتلة، فكأن الأبيات وُضعت وضعاً بعد مقتل ابن الزيات لتكون كأنها النبوءة. ويحكي لنا الجاحظ أن ابن الزيات اتخذ تنوراً من حديد فيه مسامير بارزة إلى الداخل يضع الناس فيه ويعذبهم حتى الموت. ثم إن المتوكل وضعه في تنوره وقتله بعد أن أذاقه سوء العذاب. وكان ابن الزيات ـ وهذا ما يقلل من شكنا في أن القطعة الأخيرة قيلت له ـ شاعراً رقيقاً يحب الشعراء، وكان لأبي تمام صديقاً، وكانت في أبي تمام جرأة على الوزراء المتأدبين، عليها هنا في مجموعتنا شواهد (القصائد رقم: ١١٥، و١٣٠، و١٥٩، و١٧٠، و١٨٠)

١٧٤ الخوض في لجة اللؤم

يمدح إسحق بن إبراهيم المصعبي:

والدهرُ ألأمُ مَنْ شَرِقْتَ بِلُؤْمِهِ، إلَّا إذَا أَشْرَقْتَهُ بِكَرِيمِ

الدهر ألأم ما وقف في حلقك وشرقت به، والحل أن تُشْرِقه (أن تجعله هو يشرق) بشخص كريم يكف أذاه عنك

ولقد نَكُونُ، ولا كريمَ نَنالُهُ حتَّى نَخُوضَ إليهِ أَلْفَ لَئيمِ

مثلما تفتح آلاف المحارات وترميها حتى تأتي المحارة التي تضم لؤلؤة، نحن نخوض في بحر طام من أبيات أبي تمام المفتعلة؛ لماذا يا ترى؟ لكي نعثر على بيت رائع كهذا يتحدث عن الخوض في ألف لئيم قبل العثور على كريم

١٧٥ وليّ الأمر

قال في إسحق بن إبراهيم:

وَلِيتَ المسلمينَ فلمْ تُضَيِّعْ أمورَهُمُ الصغارَ، ولا الكِبارَا

إذا ما كانَ جارُكَ مُصْعَبِيّاً فلا ضَيْراً تخافُ، ولا افتِقَارَا

١٧٦ الويل للذهب وللفضة

يمدح إسحق بن إبراهيم، ويذكر إيقاعه بالمحمرة بأصحاب بابك، وكانوا تواعدوا إلى موضع علم به، فوقف لهم فيه، فكل من جاء قتل وحُزَّت أذنه، حتى وجَّه إلى المعتصم بستين ألف أذن:

ألا إنَّ النَّدَى أَضْحَى أميراً على مالِ الأميرِ أبي الحسينِ

إذا يدُهُ بِنَائِلِهِ اسْتَهَلَّتْ فَوَيْلٌ للنُّضَارِ وللُّجَيْنِ

استهلت: أمطرت، بنائله: بعطائه، النضار: الذهب، اللجين: الفضة

نَوالُكَ رَدَّ حُسَّادي فُلُولاً، وأَصْلَحَ بينَ أيَّامي وبَيْني

١٧٧ لات حين تنصُّل

يمدح إسحق بن إبراهيم، قائد شرطة بغداد:

مَشَتْ قلوبُ أُناسٍ في صُدورِهِمُ لمَّا تَرَاءَوْكَ تمشي نَحْوَهُمْ قُدُمَا

تحركت قلوب بعض الناس داخل صدورهم، خوفاً، لما تراءوك (رأوك) متجهاً نحوهم

أَمْطَرْتَهُمْ عَزَماتٍ: لو رَمَيْتَ بها، يومَ الكَرِيهَةِ، رُكْنَ الدَّهْرِ لانْهَدَما

يوم الكريهة (المعركة)

راحَ التَنَصُّلُ مَعقُوداً بألْسُنِهِمْ لما غَدَا السيفُ في أعْنَاقِهِمْ حَكَما

كانُوا على عَهْدِ كِسرى في الزمانِ، ولن يَسْتَشْرِيَ الخَطْبُ إلّا كُلّما قَدُمَا

في الزمان؟ لعل هؤلاء العصاة كانوا في بلد لم يحكمه كسرى (في الشام مثلاً) ولذلك قال «في الزمان» أي أنهم كانوا على زمان كسرى، لكن لم يثوروا على كسرى نفسه؟ والله أعلم

في كلِّ جَوْشَنِ دهرٍ مِنْهُمُ فِئَةٌ تُرْحِي رَحَى فِتْنَةٍ قد أَشْجَتِ الأُمَما

في جوشن (صدر) كل عصر فئة من هؤلاء العصاة ترحي (تدير) رحى (حجر طاحون) فتنة أشجت (أقلقت) الأمم

حتَّى إذا أَيْنَعَتْ أَثْمارُ مُدَّتِهِمْ أَرْسَلَكَ اللَّهُ للأعْمَارِ مُصْطَرِمَا

حتى إذا أينعت (نضجت) أثمارهم وبرز عصيانهم جلياً، أرسلك الله لكي تصطرم (تقطع) أعمارهم

أَطَعْتَ ربَّكَ فيهِمْ؛ والخليفةَ قد أَرْضَيْتَهُ، وشَفَيْتَ العُرْبَ والعَجَما

تَرَكْتَهُمْ سِيَراً، لو أنّها كُتِبَتْ لم تُبْقِ في الأرضِ قِرْطَاساً ولا قَلَما

جعلتهم في خبر كان، مجرد سير (أخبار) لكنها كثيرة ومليئة بالتفاصيل

سَمَّاهُمُ البَطَرُ الأُسْدَ الغِضَابَ، فَلَمْ تَهْجَعْ سيوفُكَ حتى صُيِّروا نَعَما

بطرهم (جحودهم النعمة) جعلهم في عيون الناس شجعاناً، فلم تهجع (تنم) سيوفك حتى جعلتهم نعماً (مواشي مذللة)

وَلَّتْ شياطِينُهُمْ عن حَدِّ مَلْحَمَةٍ كانتْ نجومُ القَنا فيها لَهُمْ رُجُما

هربت شياطينهم عن معركة كانت فيها أسنة الرماح كالنجوم، وكانت لهم رجماً (شهباً يرمي بها الله الشياطين)

١٧٨ كلمات تنهمر من عينيها

وقال يعرِّض بإسحق بن إبراهيم المصعبي لأنه حجبه:

بَسَطَتْ إليَّ بَنَانَةً أُسْرُوعَا تَصِفُ الفِراقَ، ومُقْلَةً يَنْبُوعا

أشارت إليَّ ببنانة (أنملة) كالأسروع (كالدودة) فكأنَّ هذه الإصبع النحيلة تصف الفراق (تنبئ عما سيفعله الفراق بجسمي من نحول) وكانت مقلتها ينبوعاً من الدمع. هذا هو المعنى الذي لمحته، ولم أوفق إلى خير منه. وتشبيه أصابع الفتيات بالأساريع (الديدان) سنة سنها امرؤ القيس في معلقته، وحُق للآمدي أن يستثقل هذا من أبي تمام

كـادَتْ لِعِـرْفَـانِ الـنَّـوَى أَلـفَـاظُـهـا، مِـنْ رِقَّـةِ الـشَّـكـوَى، تَـكُـونُ دُمُـوعـا

لمعرفتها بوشك الفراق كادت كلماتها أن تكون دموعاً

ومُـحَـجَّـبٍ حَـاولـتُـهُ، فـوجَـدْتُـهُ نَـجْمَاً على الرَّكْبِ العُفَاةِ شَسُوعَا

رب أمير محجوب حاولت الاتصال به فوجدته نجماً شسوعاً (بعيداً) عن الركب (المقبلين من سفر) العفاة (الفقراء)

لـمـَّا عَـدِمْـتُ نَـوالَـهُ، أَعْـدَمْـتُـهُ شُـكرِي، فَرُحْنَا مُعْدِمِينَ جَميعا

المعدِم: الفقير

١٧٩ الشكوى فائض البلوى

يستبطيء إسحق بن إبراهيم:

شَكَوْتُ، وما الشَّكوَى لِمِثْلِيَ عَادَةً، وَلَكِنْ تفيضُ النفسُ عند امتلائِها

١٨٠ وسائل شعر

يعاتب ويمدح إسحق بن إبراهيم بن مصعب المصعبي الخزاعي (صاحب شرطة بغداد لعهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وله حملات مهمة خارج بغداد وتوفي سنة ٢٣٥):

إنِّـي، وإنْ كـانَ قَـوْمٌ مَـا لَـهُـمْ سَـبَـبٌ إلَّا قَـضَـاءٌ كَـفَـاهُـمْ دُونِـيَ الـسَّـبَـبا . .

الذين فازوا بالعطايا لم يكن لهم سبب، واسطة، بل كان لهم حظ، بقضاءٍ وقَدَر، وكفاهم القضاء السبب، عوضهم القضاء عن وجود واسطة، دوني (أي بخلافي، فأنا صاحب واسطة هي أدبي الغزير وقربي من الممدوح). .

لَمُضْمِرٌ غُلَّةً في القلبِ، يُضْرِمُها أَنِّي سَبَقْتُ، وتُعْطِي غيْرِيَ القَصَبَا

إني لمضمر في قلبي غلة (حقداً) يضرمها (يشعلها) أنني أنا السابق، ومع ذلك يأخذ القصبة غيري. وكانوا في سباق الخيل يغرسون في الأرض قصبة فمن سبق نزعها وعاد بها، ومن هنا قولنا «فاز بقصب السبْق»

ونَـادِبٌ رِفْـعَـةً قـد كـنـتُ آمُـلُـهـا لـديـكَ؛ لا فِـضَّـةً أَبْـكـي ولا ذَهَـبـا

أندب (أبكي) رفعة شأنٍ كنت آمل الحصول عليها عندك، فلم أكن أطمع في فضة ولا في ذهب

اِحْفَظْ وَسَائِلَ شِعْرٍ فِيكَ، ما ذهبَتْ خَـواطِـفُ الـبـرقِ إلَّا دُونَ مـا ذَهـبَـا

احفظ وسائل شعر (أشعار كانت وسائل لنيل العطية) قلتها فيك، وقد انتشرت بمدحك في الآفاق أكثر من انتشار البرق الخاطف

فلا تُضِعْها؛ فما في الأرضِ أَحْسنُ مِنْ ... نَظْمِ القَوافيِ إذا ما صَادَفَتْ حَسَبَا
يَغْدُونَ مُغْتَرِبَاتٍ في البِلادِ، فما ... يَزَلْنَ يُؤْنِسْنَ في الآفاقِ مُغْتَرِبا

هذه الأشعار تغترب في البلاد، وتؤنس في الآفاق (المناطق القصية) الغرباء

أَدعوكَ دعوةَ مظلومٍ وسيلَتَه. ... إن لم تَكُنْ بي رحيماً، فارحَمِ الأَدبا

أدعوك دعوة شخص مظلوم وسيلتَه (مظلوم حقَّه، وقد أنكرت عليه الوسيلة التي بها يتوسل، أي تجاهلت قصائده). وقد قرأنا البيت قراءتنا، وللصولي والتبريزي فيه كلام

١٨١ ليتني كنت ترابا

أقول لِنَفسيِ حينَ مَالَتْ بِصَغْوِهَا ... إلى خَطَراتٍ قد نَتَجْنَ أَمانِيا:

أقول لنفسي حين مالت بصغوها (بميلها) إلى خطرات (أفكار) قد نَتجن (وُلدن) على شكل أمنيات: . .

هَبِينِي مِنَ الدنيا ظَفِرْتُ بكلِّ ما ... تَمَنَّيْتُ، أَوْ أُعْطِيتُ فوقَ أَمَانِيا

افرضي، يا نفسي، أنني نلت كل ما أتمنى، وزيادة

أليس اللَّيالي غَاصِبَاتِي بِمُهْجَتي؟ ... كما غَصَبَتْ قَبْلِي القُرُونَ الخَوالِيا

أليست الليالي ستغصبني (تسلبني) روحي؟ ككل من مضى قبلي؟

فيا ليتَني، مِنْ بعدِ مَوْتي ومَبْعَثي، ... أَكُونُ رُفَاتاً: لا عَليَّ، ولا لِيَا
أَخَافُ إِلَهيِ، ثم أرجوُ نَوَالَهُ، ... ولكنَّ خوفيِ قَاهِرٌ لِرَجَائِيا
ولولا رَجَائيِ، واتِّكَاليِ على الذي ... تَوَحَّدَ لي بِالصُّنْعِ كَهْلاً ونَاشِيَا. .

الصنع: الإحسان، ناشياً: ناشئاً

لَمَا سَاغَ لي عَذْبٌ مِنَ الماءِ بارِدٌ، ... ولا طابَ لي عَيْشٌ، ولا زِلْتُ بَاكِيا
على إِثْرِ ما قد كانَ منِّي صَبَابَةً ... لَيَالِيَ فيها كنتُ للهِ عَاصِيَا

صبابة: شغفاً

١٨٢ إخْوة في الأدب

يمدح علي بن الجهم الشاعر، وقد جاء علي يودعه لسفرٍ أراده علي، وكان له صديقاً:

وإذا فَقَدْتَ أخاً، ولم تَفقِدْ له ... دَمعاً ولا صَبراً، فلستَ بِفاقِدِ

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخَاءِ، فإننا نَغدو ونَسري في إخاءٍ تَالِدِ
إن يكد (يفشل) مطرف الإخاء (الصداقة الجديدة)، فنحن نغدو ونسري (نذهب صباحاً ونعود مساء) في صداقة تالدة (قديمة)

أو يَخْتَلِفْ ماءُ الوِصالِ فماؤُنا عذبٌ تَحَدَّرَ من غَمامٍ واحِدِ
وإذا اختلف ماء الوصال (ها قد جعل للوصال ماء)، فماؤنا تحدر (انصب) من غمام واحد

أو يفترِقْ نَسَبٌ، يُؤَلِّفْ بينَنا أدبٌ أقَمْناهُ مَقامَ الوالِدِ
وإذا اختلفنا نسباً ألَّف بيننا (جمعنا) الأدب الذي جعلناه في مقام الوالد (النسب)

١٨٣ الشعر والكيمياء

يعاتب علي بن الجهم ويطلب إليه انتجاز وعد من عثمان بن إدريس بن بدر الشامي:

بِأَيِّ نُجُومِ وَجْهِكَ يُسْتَضَاءُ أَبا حَسَنٍ! وشِيمَتُكَ الإبَاءُ
نريد أن نستضيء بك، وننتفع نفعاً لا يضرك ولا ينقص منك شيئاً، نريدك واسطة فقط؛ ونحن نعلم أن خلقك الإباء ولهذا صعب عليك التوسط

أَتَتْرُكُ حَاجَتي غَرَضَ التَّوَاني؟ وأَنْتَ الدَّلْوُ فيها، والرِّشَاءُ
أتترك حاجتي عرضة للتواني (للكسل)، وأنت لها كل شيء: الدلو والرشاء (الحبل)

تَأَلَّفْ آلَ إِدْرِيسَ بْنِ بَدْرٍ؛ فَتَسْبِيبُ العَطاءِ هُوَ العَطاءُ
تألف القوم (اجعل قلوبهم ودودة لنا)، فالواسطة لتسبيب العطاء هي كالعطاء نفسه

وخُذْهُمْ بالرُّقَى، إنَّ المهَارِيَ يُهَيِّجُها على السَّيْرِ الحُدَاءُ
وخذهم بالرقى (التعاويذ/يقصد الكلام اللطيف)، فالمهاري (الإبل الأصيلة) يحثها الحداء (الغناء الموقع) على السير

فإمَّا جَازَ مِنِّي الشعرُ فِيهِمْ، وإِمَّا جَازَ مِنْكَ الكِيمِياءُ
فإما أن ينفع شعري في تليينهم، أو ينفع منك الكيمياء (التحايل)

١٨٤ ملتقى الدموع

يمدح إسماعيل بن شهاب ويشكره:

دِمَنٌ طالما الْتَقَتْ أَدْمُعُ المزْ نِ عليها، وأدمُعُ العُشَّاقِ
أطلال المحبوبة يسقيها دمع المزن (السحاب) وتسقيها دموع العشاق، فيلتقي المطر والدمع فيها

حَفِظَ اللّهُ، حيثُ يَمَّمَ، إسما عيلُ، وَلْيَسْقِهِ مِنَ الغيثِ سَاقِ
ليحفظ الله إسماعيل أين يمم (حيثما توجَّه)، وليسقه الغيث

قد سَقَتْني الأَيّامُ مِنْ يدِها سُمّـ ـاً، لِفَقْدي لَهُ، بِكأسٍ دِهَاقِ
كأس دهاق (ممتلئة)

وَشَجَتْ بينَنا الأُخُوَّةُ؛ إنَّ الـ ـوُدَّ عِرْقٌ زَاكٍ مِنَ الأعْراقِ
وشجت (تشابكت)

لو تَرَى ذَبَّهُ هُنالِكَ دُوني لم تَلُمْني في حُبِّ أهلِ العِرَاقِ
ذبه دوني: محاماته عني

١٨٥ سال بك السيل

يهجو عبد الله الكاتب:

اِقْطَعْ حِبالي، فقدْ بَرِمْتُ بِكا وخَلِّني، حَيثُ شِئْتَ، مِنْ يَدِكا
أَنتَ كثيرُ الألوانِ مُشترَكٌ فاطْلُبْ خليلاً سِوايَ مُشْتَرَكا
أنت شخص متلون، ومشترك (لا تخلص الود للصديق، بل تشارك في أسراره الآخرين)

فاذهبْ، إلى حيثُ شِئتَ، مُنْطَلِقاً سَالَ بكَ السَّيْلُ حيثُما سَلَكا

١٨٦ فوق الشرك

يهجو عبد الله الكاتب:

هلِ اللّهُ لو أَشْرَكْتُ كانَ مُعَذِّبي بِأَكْثَرَ مِنْ أَنّي لِجَاهِكَ آمِلُ

١٨٧ ما أضيق الغمد بغير نصله

يهجو صالح بن عبد الله الهاشمي:

وسُوقَةٍ في قولِهِ وفعلِهِ
سوقة: سوقي

بَذَلْتُ مَدْحي فيهِ، بَاغي بَذْلِهِ
طالباً بذله (عطاءه)

فَجَذَّ حَبْلَ أَمَلي مِنْ أَصْلِهِ
جذَّ: قطع

مِـنْ بَـعْـدِ مـا اسْـتَـعـبَــدَنـي بِـمَـطْـلِـهِ

مطله: مماطلته

يَــا واحــداً مــقــتــدِراً بِــعَــدلِــه
أَلْـبَــسْــتَــهُ الــغِــنَـى فَـلا تُـمَـلِّـه

جعلته غنياً فلا تمله (لا تجعله يتمتع طويلاً)

مَـا أَضْـيَـقَ الـغِـمْــدَ بِـغـيـرِ نَـصْـلِـهِ

ما أضيق (ما أشد ضيق وانزعاج) الغمد عندما يدخل فيه نصل غير نصله الأصلي

والـشِّـعْـرَ، مـا لـم يَـكُ عِـنْـدَ أَهْـلِـه

وكذا الشعر ما أشد انزعاجه عندما يكون عند من لا يستحقونه

١٨٨ إن كنت ممن يفكر

وقال في الوعظ والزهد:

وقد يَسْتُرُ الإنْسَانُ بِاللَّفْظِ فِعْلَهُ فَيُظْهِرُ منهُ الطَّرْفُ ما كانَ يَسْتُرُ

الطرف: النظر

تَذَكَّرْ، وفَكِّرْ في الذي أنتَ صَائِرٌ إليـهِ غَـداً، إنْ كُنْتَ مِـمَّـنْ يُـفَـكِّـرُ
فَـلا بُـدَّ يـومـاً أنْ تَـصِـيـرَ لِـحُـفْـرَةٍ بِأَثْنَـائِـهـا تُـطْـوَى، إلـى يَـوْمَ تُـنْـشَـرُ

بأثنائها: في داخلها، تنشر: تُبعث يوم القيامة

تم الشرح في ثاني أضحى عام ١٤٣٢، الموافق للثامن من نوفمبر/تشرين الثاني عام ٢٠١١

فهارس أبي تمام

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

القطع المنتخبة بأسمائها وأوصافها

الأرقام أرقام القصائد لا الصفحات

فهرس الأغراض (أبو تمام)

الأرقام أرقام القصائد لا الصفحات

(المدح المباشر مستثنى من هذا الفهرس، لأنه موجود في معظم القطع)

البُحْتُرِيّ

(٢٠٦هـ ـ ٢٨٤هـ)

سماه أهله الوليد. وكَنَّوْه صغيراً ـ على عادتهم ـ فكان أبا عبادة؛ كنية بدوية، سنراه يتظرف في بغداد ويجعلها أبا الحسن، ثم يعود إليها لأن أبا عبادة أميز.

فاسمه على هذا: أبو عُبادَة، الوليد بن عُبيْد بن يحيى البُحْتُرِيّ. جده الأعلى (بُحْتُر)، وهو من قبيلة طَيِّء. وإذ ينقسم العرب إلى عاربة من اليمن، ومستعربة من الشمال، فطيِّء من العرب العاربة، من عرب اليمن؛ وقد رحلوا إلى الحجاز قبل الإسلام، وشَعّوا شمالاً وشرقاً، وفي كل مكان. ومن العرب العاربة الأوس والخزرج، ومنهم الغساسنة والمناذرة، وحتى يوم الناس هذا يحلو لبعضهم تقسيم العرب إلى قيس ويمن.

حدثني رجل مسيحي يبيع العَرَق والفستق في بلدة بيرزيت الفلسطينية قال إنهم من القيس، وإن أهالي قرية كذا من اليمن. وعجبت كيف بقيت هذه القسمة موجودة في النفوس لا تعبأ بالدين، ولا بالاحتلال. وكانت حماتي رحمها الله، وهي مقدسية، تسمي الحلوى التي تصنعها من طبقة من الحليب المعقود، فوقها طبقة من عصير البرتقال، المعقود أيضاً، بـ «قيس ويمن»، ذلك أن راية القيس كانت حمراء وراية اليمن بيضاء. فلا نعجب إذا رأينا البحتري يتحدث عن «حمِيَّة شعبٍ جاهلي»، ويفتخر بقومه افتخاراً جاهلياً.

ولد البحتري في قرية زَرْدَفْنَة القريبة من مَنْبِج بشمال سوريا اليوم. ولد سنة ٢٠٦، وتوفي في منبج سنة ٢٨٤. ولئلا يغير النظام الحاسوبي مواضع خانات الأرقام هاكها بالحروف: ولد سنة مئتين وست، وتوفي سنة مئتين وأربع وثمانين، فيكون عاش ثمانياً وسبعين سنة قمرية أي ستاً وسبعين سنة من السنين

التي نقيس بها أعمارنا اليوم. (فإن أنقصتَ سنة من تاريخ مولده وزدت مثلها على تاريخ وفاته وصلت به إلى ثمانين سنة قمرية. وهذا شيء قال به بعض من أرخ حياة البحتري).

وصنعته الوحيدة، التي لم يعرف غيرها، الشعر. كان وهو صغير يسير في طرقات البلدة ينشد الشعر، يقوله لأهل السوق «لأصحاب البصل والباذنجان».

مزاجه مزاج البدوي الذي سكن قومه قرية، واستقروا فيها وزرعوا وعرفوا حياة الفلاحة.

تعلم في كتَّاب قريته القرآن والعربية والتقط عدوى الشعر المزمنة صغيراً فيما يبدو، ربما من شيخ الكتَّاب الذي كان ينشد الأولاد القصائد. وساعدته لهجة القبيلة القريبة من الفصحى. ولعله حضر مجالس القاضي والفقيه صبياً، يجلس صامتاً، فعرف عن ماضي القبيلة. وكانت القرى والبلدات في بلاد الشام، ولا تزال، مسكونة بناس من أصول قبلية متقاربة.

أربعة أوطان

امتلأ البحتري بالولاء لقبيلة طيء. فهي وطنه أولاً، ومنبج وطنه ثانياً، والعروبة وطنه الثالث؛ على أنه كان قابلاً الموالي قَبولاً حسناً يمدح الوزراء والقُواد من ذوي الأصل الفارسي بلا حرج، ويشيد بماضي الفرس مرتاحاً، غيرَ متخذ موقفاً عروبياً ضد شعوبية ذلك الزمن؛ ذلك أن وطنه الرابع هو الإسلام، رغم ما كان في الرجل من رقَّة دينٍ لازمته عمره، وكان مبعثها البداوة لا الزندقة.

لعله كان لأبيه أرض يفلحها في زردفنة، ثم تركها سريعاً وعاش في منبج. فالبحتري لا يذكر في شعره زردفنة هذه. ومنبج هي الجغرافيا التي يحن إليها، ويَعُدُّها المكان الذي يجب أن تستقر فيه عظامه. ولعل الأسرة رحلت إلى حلب، على بعد مئة كيلومتر، والبحتري فتى يافع. وفي حلب عشق عَلْوَة، ولَها معها.

كان فتى ذكياً، ذا مزاج عامي. عرف شظف العيش في صغره، فبخل في كبره. وعرف قدر الدرهم فصانه. ولكنه انجرف في حبه للشعر انجرافاً منعه من التفكير في زراعة أو حرفة. ولعل مما صرفه عن الزراعة أن الأسرة انصرفت

عن هذا الأمر في طفولته الباكرة؛ ولعل مما صرفه عن الحرفة أن العرب تحتقر المهنة، وليس من شك في أن البحتري قرأ وحفظ صبياً الكثير مما قاله جرير والفرزدق في هذا المعنى. ثم إن الشعر كان رائجاً في ذلك الزمن. فما إن بلغ البحتري الثانية عشرة من عمره حتى كان يسمع في مجالس قومه ذكر شاعر القبيلة أبي تمام الذي غدا أشهر شاعر في الدنيا. وكان علي بن الجهم آنذاك يأخذ عطايا الخلفاء ويتولى لهم الأعمال. وكان الناس يرددون أشعار دِعْبِل ويعجبون بتمرده وسلاطة لسانه. وليس من شك في أن ديك الجن، الذي لزم بلدته حمص، كان من المذكورين في مجالس القوم. ولعلهم خاضوا في قصته من محبوبته التي قتلها، مثلما خاض فيها نقاد الأدب مئات السنين، وكانت القصة في صبا البحتري طازجة، والأشعار التي قيلت فيها متداولة. ولم تكن قد مرت على وفاة أبي نواس، والبحتريُّ فتىً واعٍ، سوى سنوات قلائل، وأقل منها على وفاة أبي العتاهية.

بداية الطريق

تدرج البحتري في المدح. قد لا تريد أن تأخذ على محمل الجد أنه مدح بائعي البصل والباذنجان، فلنبدأ من الكُتَّاب والقُواد والأثرياء في منبج وحلب وحمص. سَنَّ البحتري أسنانه عليهم. وامتطى الشعر للوصول إلى المال. لكنه كان أيضاً يقول الشعر في هذه السن الطرية في التغزل بعلوة الحلبية، وهي فتاةُ صباه، وكانت تغني في حفلات الأغنياء تصحبها أمها زريقة التي تشتغل في النهار في غسل ثياب الناس. وهذا افتراض من جانبنا له في شعر البحتري وأخباره أساس.

وعلوة وزريقة هاتان من البشر الذين كان يستنسخهم العصر العباسي من أمهات بلا آباء خارج نطاق القبائل، ويرميهم في سوق الخدمة والغناء والدعارة.

في تلك الفترة افتخر البحتري بقبيلته التي قال لها الله في الحرب «كوني حجارة أو حديدا». وقال شعراً جميلاً في الفخر. ثم التقى بشاعر طيء الكبير، وشاعر شعراء العرب في زمنه أبي تمام. لعله التقى به في حمص، ورواية المرزباني هي أقرب الروايات إلى العقل، وأجودها سنداً وأقربها عهداً، والمرجع كتابه «الموشح».

البحتري وأبو تمام

لقي البحتري أبا تمام في حمص، فشجعه أبو تمام وأثنى على شعره، ووضع رجله على أول طريق التكسب، وعلمه أشياء صغيرة وثمينة. كان أبو تمام ذا بصر بالشعر، قد اتخذه شهوة وصناعة وفناً، وحياة. وقُدِّر للبحتري أن يكون في هذه شبيهاً بأبي تمام. فهو ناقد للشعر جيد، وقد عاناه طول عمره المديد وسارت له نقدات حارقة، أُحِبُّ منها قوله في رد حكم نقدي لثعلب: «ليس هذا من عِلْم ثعلبٍ وأضرابه، ممن يحفظ الشعر ولا يقوله، فإنما يعرِفُ الشعرَ من دُفع إلى مَضايقه». وأَحَبَّ النقاد القدامى كلمة له في المقارنة بينه وبين أبي تمام؛ قال البحتري: «جيِّده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه».

وعندما قال له أحدهم: يقول القوم إنك أشعر من أبي تمام، قال البحتري: «والله ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام، والله ما أكلت الخبز إلا به، ولَوَدِدتُ أن الأمر كان كما قالوا، ولكنِّي واللَّهِ تابع له آخذٌ منه لائذٌ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه.» وهذه عبارة بليغة جداً لا يقولها المرء بل يكتبها. وأغلب ظني أنها من صياغة النقاد اللاحقين. على أن أخبار اعتراف البحتري لأستاذه بالتفوق والإمامة متواترة. وانظر في ديوان البحتري تجدْه سرق عشرات المعاني من أبي تمام ـ قيل سرق منه معاني خمسمئة بيت ـ (ساعد على هذا وفاة أبي تمام المبكرة، فالبحتري عاش بعده خمسين سنة مشغول اليدين بتناول ما لذ وطاب من ديوان أستاذه).

اتصل البحتري بأبي تمام سبع سنوات تقريباً، لكنه لم يلتقه فيها سوى مرات قليلة فيما نقدر. ومرة تكفي. الشاعر لا يحتاج إلى أن يتعلم الشعر تدريساً وتلقيناً، بل تكفيه الكلمة العابرة، ويكفيه التشجيع إن كان لديه الميل، ويكفيه المثال يحتذيه. وقد رأيت في زمني دكاترة ـ عدمتُهم ـ يحملون شهادات في الأدب العربي لا يذوق الواحد منهم شعراً ولا يقيم بيتاً.

شاعر متفرد

لم يأكل التكسب بالشعر عقل البحتري تماماً. وإلا لما عددناه شاعراً كبيراً. كان يحب شعره كثيراً ويفتخر به: (فإذا ما بَنيتُ بيتاً تبخترتُ كأني بَنيتُ ذاتَ العمادِ). وله في وصف الذئب قصيدة مهمة. خذ منها قوله «كلانا بها ذئب»، واعرف للرجل قدره في الشعر، ولا يحملك الهوى على أن تعصف به،

وتسقطه من حسابك، كما صنع بعض النقاد الذين يشتطون في رفع الشاعر أو في إسقاطه، وكأن الله لم يخلق بين سمائه وأرضه فضاء واسعاً.

أما الأقدمون فسُرُّوا بديباجة البحتري. فهو يسوق الكلام سوقاً عربياً، لا يصوغ في شعره المعاني الفلسفية ولا يجعل البيت لغزاً من الألغاز. جاء متوسطاً بين شاعرين معاصرين له صنعا بعض ذلك: أبي تمام قبله بسنوات قليلة، وابن الرومي بعده بسنوات قليلة في الميلاد. وقد عرفهما كليهما، وتأثر بهما. ولكن طبيعته وتربيته لم تتيحا له أن يقلد أياً منهما في التعمق وفي تجريح وجه الشعر بالتعمل. أحبه الأقدمون، وظلوا يختلفون في شأنه وشأن أبي تمام: أيهما أفضل. وكأنه سباق لا بد فيه من معرفة الفائز الأول حتى نعطيه الكأس. وقال الآمدي صاحب الكتاب الضخم في الموازنة بين الشاعرين الطائيين إن البحتري أفضل. قالها في ألفي صفحة. وقال كثيرون غيره العكس.

نعود إلى قصة البحتري: التقى بأبي تمام في حمص، فقال له الشاعر المشهور: قم فأنت شاعر. فاكتسب ثقة بنفسه. وتدرج في المدح.

استطراد

نقول شيئاً قلناه أكثر من مرة في أكثر من كتاب سابق. (ملاحظة استطرادية داخل الاستطراد: كنت أنوي نشر مختاراتي لكل شاعر على حدة في كتاب مستقل، وعدلت عن هذا، فصرت أضم شعراء كل عصر في كتاب كبير). نقول: الشاعر بجيده لا برديئه. فنحن نُعنِّي النفس بدراسة الخمسة عشر ألف بيت التي قالها البحتري، ثم نأخذ في الموازنة. ونتعب في مقابلة القصيدة الحسنة بالقصيدة الرديئة، والبيت الجيد بالبيت الضعيف؟ ثم نهمل الضعيف وننظر في الجيد، فإذا كان عالياً سررنا به واستمتعنا، واخترناه، ولا يندر أن نترك الكثير من الجيد، ولا سيما في ديوان كبير كديوان البحتري، فالغرض انتقاء الدرر الثمينة. اسمع ما يقول البحتري لممدوحه: (ليواصلنك ركب شعر سائرٍ/ ترويه فيك لحسنه الأعداء// فتظل تحسدك الملوك الصِّيد بي/ ويظل يحسدني بك الشعراء). هذه ديباجة بديعة، وأما المعنى.. فطبعاً من أبي تمام.

إلى العراق

قطع البحتري الثلاثين كيلومتراً التي تفصل منبج عن نهر الفرات، وعبره ثم سار نحو مئتين من الكيلومترات إلى رأس العين. وجال في هذه المنطقة ـ منطقة

الجزيرة الفراتية ـ متكسباً بشعره، لا يهمه التنقل ولا شظف العيش، فهو قد تربى في كنف القِلَّة. وصل إلى القادة والزعماء الطائيين بسهولة لأنه طائي، ووصل إلى غيرهم مع اتساع شهرته. ووصل إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد ووصل إلى علي بن يحيى المنجم. وقبل أن يبلغ البحتري الثلاثين من العمر أوصله هذا الأخير إلى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل. ثم وصل إلى المتوكل.

وما كررنا كلمة (وصل) في الفقرة المنصرمة إلا لنقول لك إن الرجل كان وصولياً. فرش البحتري في بغداد بساطاً من كرامته وسار عليه إلى بلاط المتوكل، وافاه وهو في بداية خلافته. وقال في ثلاث عشرة سنة قصائد كثيرة في المتوكل. كلها في ديوانه. وقليل فيها المدح الجميل. وظل البحتري يمدح الفتح بن خاقان الوزير أو يعاتبه أو يعتذر إليه، وأشعاره في الوزير خير من أشعاره في الخليفة، وقد طرب ابن المعتز كثيراً لشعر الاعتذار الذي قاله البحتري للفتح بن خاقان الوزير.

ظل البحتري يمدح كبار رجال الدولة في بغداد غيرَ مكتفٍ بأنه الشاعر المقرب للخليفة. المهم أن يدفعوا الإتاوة التي فرضها عليهم أبو عبادة. وكان يتجرأ فيشتد في مخاطبتهم وتقريعهم، وهم بالطبع يخشون معرة لسانه، ويحسبون له حساباً لأنه «واصل» ويحضر مجلس الخليفة. لهذا تراه لا يتورع عن قدح من يحرمه.

وكان البحتري على ارتباط مستمر بمنبج. لم ينس قط وهو بالعراق أنه رجل شامي. وفي منبج كان يشتري الأراضي ويبني البيوت شأن المغتربين في دول الخليج في الستين سنة الفائتة.

في هذه السنوات الذهبية من حياة البحتري ببغداد كان لاهياً ساكراً حاضراً مجالس الغناء. لم يكن متكبراً. ولم يترفع عن معاشرة الناس. ظل ابن بلد.

لم يكن قارئ كتب فلسفية، ولا صبوراً على مجالس العلم. على أنه ما كان يستطيع ـ في بغدادٍ تلك ـ أن يهرب من الثقافة، فهي تلقاء وجهه أيان ذهب. وبالتأكيد فقد أقبل على كتب الشعر، يردد النظر فيها عند الوراقين، ويستعير الكتب ويعيدها. ولم يكن يعتني باقتنائها لأنه بخيل ولأنه مقيم ظاعن، ولأنه تربى بدوياً. لعل استعارته الكتب دون شرائها هي ما دفعه إلى تدوين الأبيات الجميلة حتى يحتفظ بها. ونظن أن كتابه الموسوم بحماسة البحتري نشأ هكذا، ثم إنه نسخَهُ للفتح بن خاقان.

وصف البحتري عظمة موكب المتوكل، ووصف بركته المترامية الأطراف. وذكر في شعره الأحداث السياسية في معرض مدحه للخليفة.

وفي سنة ٢٤٧ قتل المتوكل ذبحاً بالسيف. تآمر عليه مع القادة ولده المنتصر، فقتله الأتراك في مجلسه، وقتلوا معه الفتح بن خاقان وزيره عندما وقع عليه يحميه بجسده. وأما البحتري فقيل إنه كان حاضراً المجلس وإنه اختبأ وراء باب. لكنه عاش بحمد الله لكي يصف المشهد بقصيدة بديعة.

بعد المتوكل حج البحتري، وذهب إلى منبج قبلها أو بعدها. ثم عاد إلى بغداد. ومدح المنتصر الذي تولى الخلافة بعد مقتل أبيه. كانت ولاية المنتصر ستة أشهر. ومات (٢٤٨هـ) وجاء المستعين من عمومته خليفةً، فمدحه البحتري. وعُزل المستعين وجاء المعتز (٢٥٢هـ) فمدحه البحتري وهجا المستعين المعزول. وأرسل المعتز بعد عدة أشهر رجلاً إلى سجن المستعين فذبحه ذبحاً.

وجاء المهتدي بالله (٢٥٥هـ) فمدحه. كان البحتري آنذاك في الخمسين من عمره. مضى عصره الذهبي مع الخلفاء بذهاب المتوكل. لكنه حريص على بغداد وعلى ما تدره عليه من مال، وحريص على الخلفاء، مهتم بما يكسبه من حضوره مجالسهم من مكانة اجتماعية. وقد ظل يفتخر طول عمره بأنه جليس الخلفاء.

وجاء المعتمد على الله سريعاً (٢٥٦هـ) فمدحه. وبقي المعتمد في الخلافة أكثر من عشرين سنة. وحدثت في أيامه ثورة الزنج، وكان خراب البصرة. وكان مغلوباً على أمره، وهذا الخليفة هو صاحب البيت الشهير الذي اقتبسه شوقي: (وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً/ وما من ذاك شيء في يديه). لم يكن للمعتمد سيطرة على أموال الدولة كما كان الأمر في عهد المعتز. كان يأخذ مصروفه من أخيه الموفق طلحة القائد المسيطر على الأمور. على هذا ليس مستغرباً ألا نجد للبحتري مدحاً كثيراً في المعتمد مع أنه بقي في الخلافة فوق العشرين سنة. ظل البحتري يمدح القادة والوزراء والكتاب. هذه حرفته، وهو يمارسها.

هذا يذكرني بصاحب محل في بلدي نابلس كان وكيلاً لشركة سبيني الإنجليزية التي تصنع الحلوى والبسكوت. وعندما احتل اليهود المدينة سنة ٦٧ جاء الرجل ببضاعة من عندهم ليبيعها، فانتقده الناس لأن البسكوت مادة كمالية

ويمكن الاستغناء عنها، فلماذا يستوردها من العدو؟ فقال لهم: بالنسبة لكم هي كذلك، وبالنسبة لي هي تجارتي التي لا أعرف سواها.

ونظن البحتري كان ـ لو اقتضى الأمر ـ يرجع إلى أصحاب البصل والباذنجان يمدحهم.

على أننا لا نسرف على الرجل، فله في الشعر غير هذا المدح الباهت الرديء البارد؛ ففي هذه الفترة من هبوط الخلافة ذهب أبو عبادة مع ولده أبي الغوث يحيى في زيارة إلى إيوان كسرى على بعد كيلومترات قليلة جنوب بغداد، وقعد على حجر هناك وقال لولده افتح باطية النبيذ واسقنا شربة. وشرب. وقال قصيدة بادَ إيوانُ كسرى وستبيد القصور الرئاسية التي تلته، والقصيدة حية. قال السينية العظيمة. ليس فيها مدح لأحد، بل هي شعر رائق وحسب. هناك، في نحو سنة ٢٧٠هـ، قال البحتري أعظم قصيدة له. وقد اقتبسناها لك كاملة وتنوَّقنا في شرحها. وكلما بلغ كارهو البحتري ومنتقدوه هذه القصيدة عضوا على شفاههم، وسكتوا. فهي من الشعر الذي يخلد به الشاعر طول الزمن. اسمعه يقول في البيت الثاني: (وتماسكتُ حين زعزعني الدهر)، هذا كلام قوي وبليغ جداً.

كان البحتري قد جاوز السبعين بسنوات عندما رثا العلاء بن صاعد (القطعة رقم ١٨٩) قائلاً إن هذه الدنيا متقلبة فكأنها ليست من صنع واحد حكيم بل من صنع اثنين: أحدهما حكيم والآخر أخرق. وفي هذا ما يدل على قلة دين، وفيه استهتار. ثار العامة في بغداد على البحتري بتحريض من بعض الفقهاء. فقال شاعرنا لولده أبي الغوث: قم بنا نذهب إلى منبج حتى تهدأ هذه الثائرة. فذهبا. وظل البحتري هناك. وشكا من شعوره بالغربة في موطنه بعد عودته. قد كان يجالس الخلفاء في بغداد وها هو يقول لوالي منبج: أيها الأمير!

عُزل المعتمد، ومات سريعاً بعد عزله، وكان أخوه المتسلط الموفق قد مات قبله بقليل، فتولى الخلافة المعتضد ابن الموفق (٢٧٩هـ) وكان البحتري قد مدحه قبل توليه الخلافة بقليل بقصيدة ربما كان أرسلها من منبج. كان المعتضد جباراً قاسياً كأبيه. وكان عادلاً، وشديداً في الدين تقياً. ولم يفد عليه البحتري بل بقي في منبج شيخاً غنياً ذا خدم وعبيد، يحس بمرارة. في قلبه حسرة لما باع من ماء وجهه في بغداد. ولكنه مستمتع بالثروة، باقٍ على بخله. يعتني

بالأراضي والبيوت كي ينالها الوارثون. وهو في غير حاجة إلى مدح من أحد لذا لا يعطي أحداً. هو سيد المديح، وسيد الزمارين في بلاطات الخلفاء. وإذا راق مزاجه قال شعراً وجدانياً يعرف هو قيمته، ويحبه.

وَصَلَنا ديوانه سالماً

نعم، كان يحب شعره، ويحرص على تدوينه وجمعه، ويجد في ذلك مساعدة من ولده (أبي الغوث يحيى بن الوليد) الذي كان راوية ممتازاً لشعر أبيه، شديد الغيرة عليه، يأبى تغيير كلمة فيه حتى لو تبين له أن في البيت خللاً عروضياً. وحفظ لنا شعر البحتري أيضاً علماء بغداد. فنسقه الصولي ونسقه حمزة الأصبهاني. وبين أيدينا ديوان كامل نظيف. لا تقدح فيه أسطورة أن البحتري طلب من ولده إحراق قصائد الهجاء حتى لا يتضرر بها عقبه. فتلك قصة ينفيها وجود هجاء كثير في الديوان، ولا نظن أن أبا الغوث قالها إلا دفعاً لتهمة أن البحتري ضعيف في الهجاء. وهذه تهمة ظل النقاد يرددونها. ولا أراها صحيحة. كان البحتري مقبلاً على المدح إقبالاً شديداً لما فيه من فائدة. ولم تكن أبياته المدحية عظيمةً، والجميل البارع في قصائده المدحية ما فيها من وصف. وكان كثير المعاتبة. وله شعر جميل في التقريع والتهديد بالهجاء، وهذا لغرض انتفاعي أيضاً: فهو يهز العصا للممدوح المتأخر عن دفع المال. فأما الهجاء المحض فلم يكن من شأن البحتري. كانت نفسيته متوازنة، وكان يحاول الحفاظ على علاقاته في غربته البغدادية حتى يستمر في استدرار المال من الناس. ولعل التهمة بضعف هجائه قد جاءته من مقارنته بمعاصريْه ابن الرومي ودعبل، فقد كانا هجاءين خطيرين. وينطلق النقاد في إلصاق تهمة الضعف في الهجاء بأبي عبادة من قصة له مع ابن الرومي.

هجاه ابن الرومي عدة مرات، فأرسل إليه البحتري هدية، ثم اجتمعا وتناشدا. وحذر ابن الرومي البحتري ـ الذي يكبره بخمس عشرة سنة ـ من الهجاء قائلاً إنه لن يبلغ فيه مبلغاً مهماً، وهكذا ترك البحتري الهجاء لابن الرومي. هذه الواقعة مروية في الكتب القديمة على نحو يشعرك بأنها حدثت فعلاً، ولكنها لا تعني أن البحتري ترك الهجاء آخذاً بنصح زميله.

مات البحتري في منبج بالسكتة في عام ٢٨٤هـ.

كان قوالاً فصيحاً. قيل كان قذر الثوب، زري الهيئة. وهذه خصلة

شخصية واجتماعية في آن معاً. فالبحتري غير أنيق خلقة. والبشر اثنان: أنيق بالولادة، وزريٌّ بالولادة. الأنيق يظل أنيقاً حتى لو افتقر، والزري الهيئة يبقى زريًّا حتى لو اغتنى. هذا عن الجينات. وأما الأساس الاجتماعي لقلة أناقته ولقذارة ملبسه فهو أنه تربى في أحضان الفقر الريفي. وحياة الريف غير حياة المدينة، وفقراء الريف أبعد عن الأناقة ونظافة الملبس من مياسيره، ومن فقراء المدن. وكان فيه سذاجة. لا نرجعها إلى نشأته الريفية إلا قليلاً. فابن الرومي المديني البغدادي القح كان ساذجاً بطريقته. لكن البحتري كان على بعض الجفاء في معاملة الناس وفي اقتضائهم، وفي مطالبتهم باستحسان شعره. وكانوا يضحكون لذلك ويستثقلونه في آن.

عملنا في هذا الكتاب

إن كنت تدرس البحتري لإعداد بحث عنه فاعلم أن كتابنا هذا لا يضم شعر البحتري كله، ولا نصفه، ولا ربعه، بل أقل. كتابنا يضم (٨٪) ثمانية بالمئة من شعر البحتري فقط. يضم أبدع وأرق ما قاله ابن منبج العظيم. لكنك أيها الدارس ستجد عندنا من الشرح ومن التدقيق ما نرجو أن يرضيك.

وأما إن كنت محباً للشعر القديم، غير آبه بتلك الأوراق التي توزعها الجامعات على من يدفع القسط السنوي، وتسميها شهادات، فقد وصلتَ إلى بئر عذبة.

قد تخيرت لك من الخمسة عشر ألف بيت التي تركها لنا البحتري نحو ألف بيت. وشرحتها لك شرحاً بسيطاً سلساً بلغة معاصرة كالتي تقرأها في الجريدة. وقصصت عليك مناسبات القصائد بحسب ما جاء في الكتب القديمة. وقد أشركك في رأي يعن لي هنا أو هناك، قد أستطيب بيتاً فأهتف بك أن انظر فيه ملياً وتأمل بديع صنعه. وما ذاك إلا رغبة في التواصل معك، والتحدث إليك.

استطراد ثانٍ

يا قارئ! أنا تعبان معك. أكتبُ مسدود النَّفْس. كنت كتبت لك كتاباً عن أحمد شوقي في خمسمئة صفحة سميته (شاعر الألف سنة) مخضت لك فيه العشرين ألف بيت التي قالها أحمد شوقي وتخيرت زبدة الزبدة وشرحت شرحاً

ذريعاً. ثم كتبت كتاباً عن المتنبي في ثلاثمئة صفحة سميته (عصارة المتنبي)، عصرت لك فيه روح أبي الطيب، وصنعت كما صنعت مع شوقي. ولم يقرأ كتابيَّ أحد. ولم يقل فيهما أحد شيئاً. فإن كنت تظن أنني أكتب لنفسي أو للأجيال المقبلة فاعلم أن لا. لتذهب الأجيال المقبلة إلى سقر. وبعد أن أضع رأسي على طوبتي لن يهمني أقال فيَّ الناس خيراً أم شراً، أداسوا على قبري أم وضعوا عليه الورد.

وها أنا أعود وأقدم لك البحتري مختصراً مشروحاً شرحاً أزعم أنه واف بالغرض. وكنت قلت إنني أخطط لتقديم دواوين كثيرة من الشعر القديم بهذه الطريقة. والآن فترت همتي. كنت أريد أن أختصر حقبة شعرية هي أطول وأعظم حقبة شعرية عرفها البشر. حقبة تمتد ألفاً وخمسمئة سنة من التراث الشعري العربي العمودي.

ذلك أن الشعر العمودي مات بالسكتة قبل ستين سنة. وصدرت على مدى هذه السنوات الستين شهادات وفاة تثبت أن قلبه توقف عن النبض. واستبدل به العرب شعراً آخر. خرجوا من ثوبهم القديم ولبسوا ثوباً جديداً. كان لشعر التفعيلة عصره الذهبي. وولّى. وجاء شعر آخر منثور. ونهض الشعر العامي بقوالبه المتعددة: القديمة المعتمدة على الأشطار المتساوية، أو الجديدة التي استفادت من الشعر الحديث مفاوَتةً بين شطر وشطر في الطول، وتوزيعاً حراً للقوافي. تجرأ الشعر العامي الآن في كل بلد عربي، وعزز شرعيته. في العراق تسمع قصائد رنانة تحكِي الوجع اليومي وتترجم المشهد السياسي، وفي الخليج يعيش الشعر النبطي أياماً زاهية، وفي مصر وفلسطين ولبنان وسوريا وبلاد الغرب شعر عامي حار.

التقيت قبل نحو شهر في الدوحة ـ وأنا أكتب لك في مارس آذار ٢٠١٠ ـ بالشاعر الشعبي الحمصي عمر الفرا صاحب (ما أَريدَكْ) وقرأ لي قصيدة سياسية بالفصحى، ونُبذاً من جديده بالعامية. رأيته جالساً في الردهة ينتظر سيارة تُقِلُّه إلى مكان احتفال ضمن مهرجان في الدوحة، فجلست إليه وحييته وآنسته حتى تأتي سيارته، لم يهن علي أن يجلس شاعر وحده ينتظر. رأيت فيه البحتري. صناعته الشعر، وهو يحفظ كل شعره، ويعيب على الشاعر ألا يحفظ كل ما قال.

العرب يعيشون سنوات الحيرة بين العامية والفصحى. وقد تظل هذه الحقبة

معنا بضعة قرون، فنحن بطيئون في حسم الأمور. والمشكلة عميقة وذات رؤوس كثيرة. وها أنا ذا أكتب إليك بالفصحى، ولا أدري لو قرأ كلامي قارئ بعد مئة سنة أكان سيفهم كثيراً من هذه الأسطر.

المهم في كل هذا أن الشعر العربي العمودي عاش حقبة مذهلة في طولها وفي ثرائها. ألفاً وخمسمئة سنة ونحن نقول الشعر على نظام ثابت: ستة عشر بحراً وشطران متساويان، وقافية تختم الشطر الثاني.

الطريف أن شاعرنا الذي نخصص له هذا الكتاب ـ البحتري ـ هو الذي أوحى بتسمية «الشعر العمودي». فقد قال أبو عبادة عندما سئل عن الفرق بينه وبين أبي تمام: (كان أغوَصَ على المعاني مني، وأنا أقْوَم بعمود الشعر منه).

وما عناه البحتري بعمود الشعر: تقاليده الموروثة، فأبو تمام خرج عن هذا الأساس واستولد المعاني وجدد في طريقة صوغها، وابن الرومي في العصر نفسه خرج عن طريقة القدماء في التعبير كثيراً، وقبلهما كان لأبي نواس خروجه المشهور. فجاء البحتري وراعى عمود الشعر، واحترم تقاليده. وفي زمننا نستعمل تعبير الشعر العمودي اسماً لكل شعر موزون مقفى على بحور الخليل. والسلام.

لقد انتهى الشعر العمودي. وأصبح في مقدورنا أن ننظر إلى كل هذا التراث الهائل من علُ.

لم ننقطع عن ذلك التراث انقطاعاً مطلقاً. ولم يكن الشعر العامي منقطعاً عن الشعر العمودي. رأيت صديقي الشاعر الشعبي الخليجي ينظر إليَّ نظرة في غاية الذكاء والحدة وأنا أنشده أبياتاً من الشعر العمودي، واستعادني بيتاً عويصاً فأعدته عليه، وعرفت من نظرته أنه فهم وأنه يريدني أن أتابع. علّمتني نظرته تلك أن الشعر شعر. وأن الشاعر يحب الشعر كله. وعلمتني أيضاً أن العربي يحب الشعر، وأن الشاعر الشعبي يحب الفصيح ويتعلم منه ويزيد عليه من روحه. وكثير من شعراء الفصحى في لبنان قالوا الزجل. وفي مصر، شوقي مثال ساطع. وفي الأندلس قالوه.

على أن الشعر العمودي مات. والشعر العربي الآن يتخذ معايير جديدة ويضطرب في اتخاذها كثيراً. نعيش معمعة. ما زال أحمد مطر يقول شعر التفعيلة ويبقيه حياً. وقد استقرت معايير هذا اللون من الشعر. أقصد المعايير

الشكلية. فأما في معاني الشعر فإن محمود درويش المتأخر هاجر إلى الرمز والإيحاء، واقترب من شعراء النثر في هذا الأمر، ولو عاش لكان هجر التفعيلة أيضاً فيما نقدر.

لأننا في معمعة شعرية، في فترة انتقالية كما يقولون، فإنه مريح للقلب أن يجمع المرء دواوين القدماء والمحدثين من أهل العمودي، ويضعها حوله مثلما يتحصن المقاتل بأكياس الرمل؛ شيء يُشعر بالاستقرار.

وقد أدمنت قراءة هذه الأشعار. وقدمت البسيط المفهوم منها في الإذاعة والتلفزيون سنوات طويلة. وآلمني أنَّ تطور اللغة جعل الكثير من هذا الشعر عصياً على الفهم، فقلت: أَنتقي زبدتَه وأشرحه للناس.

(استطراد متأخر: أكتب هذا الاستطراد في يوليو تموز ٢٠١٦، وكنت شاركت على مدى الأشهر الماضية في برنامج تلفزي اسمه «فصاحة» بثه تلفزيون قطر. كنت عضو لجنة تحكيم، شاركني فيها الأستاذان أحمد الشيخ وعبد الله العذبة.

سافرنا جميعاً إلى تونس والتقينا بـ ١٨٩ شاباً وفتاة واختبرناهم جميعاً، وسافرنا إلى عُمان والتقينا بعشرات الشباب والفتيات هناك، ثم ثوينا في الدوحة نستقبل العشرات ونمتحنهم.. كل هذا قبل أن يرسو اختيارنا على ستة وثلاثين شاباً وفتاة قام عليهم البرنامج، وبعد إحدى عشرة حلقة، طول الحلقة منها بين الساعة والنصف والساعتين، فاز محمد ياسين صالح بالنصف مليون ريال قطري، وفازت زينب المحمود بثلاثمئة ألف، وفازت غادة تهيمش بمئتي ألف، وفاز أحمد الكلباني بجائزة طيبة. وفزنا نحن أعضاء لجنة التحكيم بلذة الاستماع إلى فصحاء العرب في هذا الزمن. والشاهد في حكايتي كلها أننا، بعد استعراضنا نحواً من ثلاثمئة من شباب العرب، أصبنا بصدمة. فبرنامجنا برنامج نثر، وهو يسعى جاهداً إلى تمييز نفسه عن برامج شبيهة كانت مخصصة للشعر، كنا نريد أن نبرز فصاحة الفصحاء في النثر لا في الشعر. فإذا شباب العرب يتدفقون بالشعر تدفقاً، رغم أنفنا وأنف البرنامج. ووجدنا الكثيرين ممن يتقنون صوغ معانيهم في شعر عمودي.. أكثر بكثير ممن يقولون شعر التفعيلة.

كانت معانيهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم قريبة القرب كله من طريقة شعراء التفعيلة، وكانت في أشعارهم رقة وشموخ وتمرد الشعر الجديد، لكن معظم ما سمعناه كان شعراً عمودياً. ونظن أن السبب في هذا قرب عهدهم بما حفظوه

في المدارس من الشعر العمودي، ونظن أنهم سيعدلون بشعرهم إلى التفعيلة، وربما إلى قصيدة النثر بعد حين).

رجع الكلام إلى البحتري

تعلَّم البحتري من معاصره علي بن الجهم شيئاً: اجتمع بابن الجهم يوماً، واستعرضا قصيدة لأشجع السلمي فانتقدها ابن الجهم قائلاً: أشجع (يُخلي). ولم يفهم البحتري المقصود بكلمة يُخلي، واستحيا أن يسأل. ذهب إلى بيته، وأمرَّ على ذهنه شعر أشجع. فرآه عادياً لا يكاد يمر فيه بيت بديع. فعلم أن هذا هو المراد بكلمة (يخلي). والكلمة تقال لرامي السهام يضل سهمه عن الهدف فيقال إنه أخلى.

على أن البحتري لم يعرف كيف يجعل شعره محكماً مكتنزاً. هو نفسه يخلي كثيراً. تمر بك أبيات كثيرة مغسولة ليس فيها معنى بديع ولا لفظ شريف. وتمر بك قصائد كاملة باردة أو فاترة. ثم يمر بك بيت يجعلك تقف إن كنت قاعداً. وتمر بك قصيدة تجعلك تترنم بأبياتها. ولم يسلم من ذلك أي من الشعراء المداحين. ونعود فنقول: الشاعر بجيده لا برديئه.

طبعات الديوان

قرأت ديوان البحتري بصفحاته التي تزيد عن ثلاثة آلاف ومئتين في طبعة حسن كامل الصيرفي الثالثة (واستفاد في هذه الطبعة من ملاحظات عبد السلام هارون الكثيرة التي بلغت أن ملأت كتاباً نشره هارون). والديوان محقق تحقيقاً ممتازاً لا يدانيه تحقيق لديوان، وأُلحقت به الملاحق والفهارس الكثيرة التي تجعلك تصدِّق ما قال المحقق في المقدمة من أنه أنفق السنين في عمله. وقد فسر الصيرفي بعض الألفاظ، ولكنه ظل يهرب من المعاني الصعبة. ولا نلومه، فهو محقق لا شارح.

وانتفعت بشرح محمد ألتونجي (١٩٩٣) الذي أقر بجهد الصيرفي. ومتن ألتونجي مطابق لمتن الصيرفي. غير أنه شرح معاني الأبيات، وفي شرحه علة: يشرح لك البيت بكلام عام يهمل المعاني الدقيقة، ولا يندر أن يقع في شرحه بعيداً. في هذا الشرح قدر من الكسل. إنه في معظم الأحوال يلخص مغزى البيت ولا يشرحه. ولو كرس ألتونجي من وقته للشرح ما كرسه الصيرفي

للتحقيق لكان بين أيدينا الآن شرح لديوان البحتري يشابه ما بأيدينا من شروح للمتنبي. ولا نلوم ألتونجي كثيراً، فطبعته مضبوطة بالشكل ضبطاً جيداً ومماثلاً لضبط الصيرفي.

وأما طبعة دار صادر فكنت قرأت شعر البحتري القراءة الأولى فيها، وعندما رجعت إليها هذه المرة، لم أجدها تضيف شيئاً. ومثلها في هذا طبعة الجوائب وطبعة هندية، والطبعات البيروتية والمصرية المشتقة منهما. حمانا تضييع الوقت في كل ذلك حسن كامل الصيرفي، فطبعته جوف الفرا، تحتوي كل ما عداها وتزيد زيادة وافرة.

إذن ما فضيلة كتابنا هذا؟

له فضيلتان: الاختيار والشرح. فقد تعمقت روح البحتري. عشت معه، وعشت مع نقاده، مع الآمدي في كتاب الموازنة بين الطائيين بأجزائه الثلاثة، ومع المرزباني وأبي الفرج الأصفهاني وابن خلكان وياقوت وابن الأثير، والقاضي الجرجاني في اختياراته. وقرأت ما كتب المحدثون عن البحتري: مارون عبود، والمقدسي، وشلق، وشرف الدين. ولطه حسين فصل طيب عن شاعرنا، ولزكي مبارك موازنة مدرسية بين سينية البحتري وسينية شوقي. ورأيت رسالتين جامعيتين عن البحتري أُسدِلُ على صاحبيهما ستر الله، وأحتسب عنده الساعات التي قضيتها وأنا أفتش فيهما عن رأي أو معلومة مفيدة.

ولم أُعِد قراءة حماسة البحتري، وكنت قرأتها قبل نحو من ثلاثين سنة. لم أرد أن أجدد معرفتي بذوق البحتري في الشعر، فموضوعي هو شعر الرجل وكيف تذوَّقَه الناس في عصره وبعد عصره. على أنني تصفحت الكتاب بطبعة شيْخو حتى لا يكون فاتني فيه شيء. واستفدت، عرفت شيئاً عن ثقافة الرجل الشعرية.

أقول، عشت في جو البحتري زمناً. ثم أقبلت على شعره، أقرأه من جديد بذوق أرهفته آراء القدامى والمحدثين دون أن تستولي عليه. قد فات زمنٌ أن يستولي على ذوقي أحد. واخترت لك ما قاله البحتري من قلْبه، واخترت ما قاله بفن وصنعة. اخترت ألف بيت تزيد قليلاً، هي خير ما قال شاعرنا.

هذا عن الاختيار.

ثم إنني شرحت الأبيات التي اخترتها شرحاً مفصلاً. ثم رتبت الشعر كله ترتيباً زمنياً. فأنت تقرأ كتابي هذا وتمضي مع البحتري وتراه شاباً فرجلاً

فشيخاً، واستعنت في هذا بتواريخ تقريبية اجتهدها محقق الديوان الصيرفي. على أن محققنا تحير في المقطعات الغزلية فرماها في صبا البحتري رمْيَ الثمامة.

وقد شكلتُ الأبيات وطبعت الشروح بنفسي على الحاسوب، ثم راجعت كل ذلك مرات كثيرة إلى أن أصبحت أشتهي أجدُ غلطة. لكنها موجودة. لا بد أنها موجودة. فإن عثرت عليها ففرحتك بلقياها مكافأتك. وبعد هذا وضعت لكل قطعة عنواناً حتى يكون لها اسم تتسمى به، ثم رقماً لأجعله المعتمد في الفهرسة. على أنني تركت السطر الذي يصف كل قصيدة على حاله في معظم الأحيان. ثم كتبت هذه المقدمة.

وسأمضي الآن إلى فهرسة الكتاب. وستجد في ذيله فهرساً للقوافي، وكشافاً لأغراض الشعر، وفهرساً عاماً لمحتويات الكتاب.

الدوحة ١٩ مارس/ آذار ٢٠١٠

ملحق بالمقدمة:

ضحك إليَّ الزمن في سبتمبر أيلول ٢٠١٥، عندما بعثت إلى صديقي اللغوي المدقق أحمد عبد الرحيم نسخة من مختاراتي البحترية، فأعادها إلي بعد أيام قلائل وبها إشارات بثلاثة ألوان. أشار إلى أخطاء في النحو، وفي الصرف، وفي الرسم، وفي التاريخ، وعارضني في فهم أبيات كثيرة. أعاد إلي النسخة وبها نحو من ألف إشارة. كل هذا بعد أن ذكرت لك في المقدمة أعلاه أنني راجعت كثيراً إلى أن «أصبحت أشتهي أجد غلطة».

كثير من تلك الإشارات كان يتعلق بخلاف بيننا في رسم التنوين أو الكسرة تحت الياء، لكن كثيراً منها كان يتعلق بأخطاء في النحو والإملاء والمعلومات يجب أن تصحح.

قد صححتها.

وقد تعلمت أن أضبط أكثر، وأن أتواضع أكثر. وحملت هماً: فسوف أسير في عملي من الآن فصاعداً ببطء أكبر وشبح أحمد عبد الرحيم ماثلٌ أمامي، فإن تفضل ووضع أقلامه الثلاثة في أشغالي المقبلة فهذا هذا، وإلا سأظل أراها تتقافز أمامي، كسيوف الرشيد المسلولة على أعناق أعدائه، إن أفلتوا منها في صحوهم رأوها في منامهم. ولن يرى القارئ ما صححه لي صاحبي، فهذا قد استتر، ولكنه سيرى أثره في تذوق بعض الأبيات، فقد استجاد أبياتاً بعينها

لم أكن سودتها، فأنا أسودها ذاكراً له يده البيضاء على هذا الباب.

ملحق آخر: ابتسم لي الزمن ثانية في أواسط عام ٢٠١٦ فقرأ هذا الباب ـ وكل أبواب هذا الكتاب ـ صديقي الشاعر عمران القفيني، فكان لهذا الباب قلم رابع تعقب ما بقي فيه من أخطاء.

أقول: إذا كانت أخطائي بهذا القدر، فلماذا لا أريح نفسي وإياكم، وأترك هذا العناء كله؟ على أنني اخترت أن أجتهد. اخترت أن أتعلم من صديقين يصغرني أحدهما بعشرين، والثاني بثلاثين.. ليتها كانت من الأشهر.. هي من السنين. ولعلي أفتخر أنني شخت وما زلت أتعلم. على أن ما سأنجزه من أبواب وكتب من بعد سيكون أفضل ضبطاً.. قد تعلمت كثيراً.

١ أمجاد بحتر

قال البحتري في صباه الباكر:

تُحَمِّلُنِي الأيَّامُ ما لا أُطِيقُهُ وتَحْمِلُنِي منها على مَرْكَبٍ وَعْرِ

الزمن يحمّلني ما لا طاقة لي به، ثم يجعلني أركب بعيراً صعباً هو مصائب الزمن. فأنا على هذا حامل الصعب، محمول على الصعب في آن معاً

بَنو بُحْتُرٍ قَومي، ومَنْ يَكُ بُحْتُرٌ أَبَاهُ يَكُنْ في مُنْتَهَى المَجْدِ والفخرِ

وما نحنُ إلا كالقَضاءِ، فإنَّنا ضربْنَا جميعَ الناسِ بالخيرِ والشرِّ

بنو بحتر مثل القضاء يصيبون الناس بالخير وبالشر. وكان الشاعر القديم يفتخر بأن قومه نفّاعون ضرّارون، المهم أن يكونوا ذوي أثر، ولهم احترام وهيبة

أَبَدْنَا جُموعَ الرومِ حينَ تَنازَعَتْ فَوَارِسُنا الهيْجَاءَ في وَقعةِ الجِسرِ

أبدنا جموع الروم إبادة بعد أن تداول فوارسنا (فرساننا) الهيجاء (الحرب) في وقعة (معركة) الجسر. لا بد أن تكون هذه وقعةَ الجسرِ المشهورةَ في زمن عمر (سنة ١٣ ـ ١٤هـ)، فالبحتري يذكر الوقعة في قصيدة له أخرى ويصرح فيها باسم «عمر»: (ووليُّ فتحِ الجسرِ إذ أُغري به//عمرٌ، وفاعلُ تلكُمُ الفَعَلاتِ)، ووقعة الجسر تلك حارب فيها رجال من طيء، قبيلة البحتري. وغريب هنا أمران: أولهما أن وقعة الجسر كانت مع الفرس لا مع الروم، وثانيهما أن العرب هُزموا فيها، فلا موضع للفخر. على أن هناك موضعاً قرب منبج، بلدة البحتري، اسمه (جسر منبج)، ومنبج على حدود دولة الروم. ها مسألةٌ لمؤرخ أدب يحلها ويكتب فيها مقالاً، أو أطروحة، فتاريخ الأدب في جامعات العرب قد آل إلى أوراقٍ تافهة يكتبها تلامذة خائبون وينالون عليها الدرجات الرفيعة، ثم يحتلون كراسي التدريس في الجامعات ليعيدوا إنتاج خيبة أساتذتهم، هابطين عنهم دركة. ولعلك تريد أن تنصب (فوراسنا) على المفعولية فتكون الهيجاء قد تنازعتهم وطحنتهم في وقعة الجسر مع الفرس

سَمَوْنَا لهمْ في عُصْبةٍ بُحْتُرِيَّةٍ يَكُرُّونَ؛ ليْسوا يَعْرِفونَ سِوَى الكَرِّ

سمونا (برزنا) للأعداء في عصبة (جماعة) يكرون (يهجمون)، ولا يعرفون سوى الهجوم

لَنَا حَسَبٌ لو كان لِلْشَّمْسِ لم تَغِبْ ولِلْبَدرِ ما اسْتَولَى المَحَاقُ على البَدْرِ

لنا حسب (مجد) لو كان للشمس مثله لما غابت في الليل، ولو كان للبدر مثله لما لحق به المحاق

فَأَبْخَلُنَا بالمالِ نِدٌّ لِحَاتِمٍ وأَجْبَنُنَا في الرَّوْعِ أَشْجَعُ مِنْ عَمْرِو

أبخلُ شخص في فرع بحتر من قبيلة طيء ندٌّ (مساوٍ) لحاتم الطائي المشهور بجوده، وأكثرنا جبناً أشجع في الروع (الحرب) من عمرو بن مَعْدِيكَرِب الفارس المشهور

٢ مخصوص بالهوى

طافَ الهَوى بَينَ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمُ حتَّى إذا مَرَّ بي مِنْ بَيْنِهِمْ، وقَفَا

قد قلتُ لمَّا رأَيْتُ الموتَ ينزِلُ بي وكاد يَهتِفُ بي نَاعِيَّ، أو هَتَفا:

إنِّي لأَعْجَبُ مِنْ قَلْبٍ يُحِبُّكُمُ وما يَرى مِنْكُمُ وُدّاً ولا لُطُفَا

٣ الهدف بناتهم

لَعَمْرُكَ ما يَنْفَكُّ يَخْطِرُ بيْنَنا مع الرُّومِ حَرْبٌ بِالقَنَا والمَنَاصِلِ

القنا (الرماح)، المناصل (السيوف)

نُقَارِعُهُمْ بِالموتِ دونَ بَناتِهِمْ مُقَارَعَةَ الأُسْدِ الغِضَابِ البَواسِلِ

كان السبي فاشياً بين الطرفين في حروب تلك الأزمنة. وقد سبى الروم النساء المسلمات، ولعلهم باعوهن رقيقاً، ولكن المؤرخ والشاعر العربيين صمتا عن ذلك

٤ الدَّلّ

وقدْ وَثِقَتْ بالوَصْلِ مِنْكَ، فَأَصبَحَتْ تَزِيدُكَ بُعْداً كُلَّمَا زِدْتَها قُرْبَا

٥ يأس وانتظار

سأَرْحَلُ عنكَ مُعْتَصِماً بِيأسٍ وأَقْنَعُ بالذي لِي فيهِ قُوتُ

سأرحل عنك أيها الأمير معتصماً بيأس (مستعيناً بشعور اليأس من عطائك)، وسأقنع بمجرد الحصول على قوتي

وآمُــلُ دَوْلَــةَ الأيّــامِ حَــتّــى   تـجـيءُ بـمـا أُؤَمِّـلُ، أَوْ أمـوتُ

وسآمل دولة الأيام (تبدل الأيام) حتى تأتيني بآمالي أو يأتيني الموت. واختار المعري في «عبث الوليد» رفع (تجيءُ) فرفعناها. تعليق عمران القفيني: رفعها المعري حتى يرفع أموت معطوفة عليها فلا يقع إقواء

٦ غربة العاشق

أَنـا فـي أُسْـرَتـي وأهـلـي كـأنِّـي   بَـيْـنَـهُـمْ، حـيـنَ لا أراكِ، غـريـبُ

أعيش بين أبناء أسرتي ومع أهلي كالغريب عندما لا أراك أيتها المحبوبة

مِـنْ قُـروحٍ نَـبَـتْـنَ فـي كَـبِـدٍ، جَـا   دَ عَـلـيْـهـا مِـنَ الـبُـكَـا شُـؤْبـوبُ

هذا بسبب قروح (جراحات) نبتت بكبدي التي جاد (أَمْطَرَ) عليها شؤبوب (زخٌّ) من الدمع

فَـأَهِـيـنـي أو أَكْـرِمـي، فَـلَـعَـمْـري   مَـا لِأُنْـثَـى سِـواكِ عِـنـدي نَـصـيـبُ

أهينيني بحبك أو أكرميني، فليس لأنثى غيرك نصيب في قلبي

٧ عذِّبوا

قال في عَلْوَة حبيبة الصِّبا:

فإنْ ساءَكُمْ ما بي مِنَ الضُّرِّ، فارحَمُوا   وإنْ سَرَّكُمْ هـذا الـعذابُ، فَعَذِّبـوا

٨ عندما يحدِّث الحديد الحديد

قال يفتخر بنفسه وبقومه، وهذه عندنا (الفخرية الكبرى):

إنَّـمـا الـغَـيُّ أَنْ يَـكُـونَ رَشِـيـدا   فَـانْـقُـصَـا مِـنْ مَـلَامِـهِ، أَوْ فَـزِيـدَا

الغي (الضلال) بالنسبة لهذا العاشق هو أن يكون رشيداً (عاقلاً)، فانقصا أيها العاذلان في لومه أو زيدا (أكثِرا منه)، فهذا لا يهمه

خَـلِّـيَـاهُ وَجِـدَّةَ الـلَّـهْـوِ، مَـا دَا   مَ رِدَاءُ الـشَّـبـابِ غَـضّـاً جَـديـدَا

خلياه (أتركاه) مع جدَّة اللهو (اللهو الذي جاء جديداً إلى حياته) ما دام رداء (ثوب) الشباب غضاً (طرياً) وجديداً

إنَّ أيّـامَـهُ مِـنَ الـبِـيـضِ بِـيـضٌ   مَـا رَأَيْـنَ الـمَـفَـارِقَ الـسُّـودَ سُـودَا

أيام هذا العاشق بيضاء سعيدة مع الفتيات الحسان البيض ما رأين (ما دمن يرين) مفرق رأسه الأسود ما زال أسود. الفتيات يحفظن الود شرط ألا يهجم الشيب على رأس الفتى

أيُّها الدَّهْرُ! حَبَّذَا أنتَ دَهْرَاً؛ قِفْ حَمِيداً، ولا تُوَلِّ حَمِيدَا

ما أجملك أيها الزمن! قف وأنت في أزهى حالاتك، ولا تول (لا تنصرفْ) عندما تصل إلى الذروة. ما أكثر ما يردد البحتري هذا المعنى. كلما رأى الزمن حلواً طلب منه أن يقف. وقد أبدع شاعر الكلثومية اليتيمة جورج جرداق عندما ختم كلثوميته بقوله: ملء قلبي شوق، وملء كياني/هذه ليلتي، فقف يا زماني

كلَّ يَوْمٍ تَزْدادُ حُسْناً، فَمَا تَبْـ ـعَثُ يَوماً إلَّا حَسِبْنَاهُ عِيدَا

ما أجمل هذا البيت رديفاً للذي قبله، فاقرأهما معاً وترنم

إنَّ في السِّرْبِ، لَوْ يُساعِفُنَا السِّرْ بُ، شُموسَاً يَمْشِينَ مَشْياً وَئِيدَا

السرب: سرب الجميلات، يساعفنا: يحِنُّ علينا و«يُعَبِّرنا»، وئيداً: بطيئاً

رُحْنَ، واللَّيلُ قد أقامَ رُوَاقاً، فَأَقَمْنَ الصَّباحَ فيهِ عَمُودَا

رحن (روَّحن بالتعبير العامي، أي انصرفن مساء)، وقد عقد الليل فوق الرؤوس رواقاً (سقفاً) من الظلمة، وبظهورهن كنَّ مثل عمود الصبح (الضوء الساطع في الصبح، بخلاف الضوء الخفيف الذي يسمونه الفجر الكاذب)

بِمَهاةٍ مِثْلِ المَهاةِ، أَبَتْ أنْ تَصِلَ الوصْلَ، أوْ تَصُدَّ الصُّدُودَا

رحن وبرفقتهن مهاة (المحبوبة التي تشبه بقرة وحشية) وهي مثل المهاة حقاً، وقد رفضت أن تصلنا وصلاً حقيقياً، كما أنها لا تصد صدوداً تاماً

ذاتُ حُسْنٍ، لوْ اسْتَزادَتْ مِنَ الحُسْـ ـنِ إلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا

حسناء، لو طلبت زيادة في الحسن (الجمال) لما أصابت (لما وجدت) زيادة تضيفها إلى حسنها

فَهِيَ الشَّمْسُ بَهْجَةً، والقَضِيبُ الـ ـغَضُّ لِيناً، والرِّئْمُ طَوْقاً وجِيدَا

القضيب (الغصن)، الغض (الطري)، الرئم (الغزال)

يا ابنةَ العَامِرِيِّ! كيفَ يَرَى قَوْ مُكِ عَدْلاً أَنْ تَبْخَلِي، وأَجُودَا؟

أجود (أكون جواداً كريماً)

إنَّ قَومِي قَوْمُ الشَّرِيفِ قَديماً وحَديثاً، أُبُوَّةً وجُدُودَا

قومي هم قومُ مَنْ كان قديمه وحديثه شريفاً، هم قوم من كان شريف الآباء والأجداد. لِمَن النحوُ مِنْ هَمِّه: الشريف هنا صفة مشبهة عاملة. والأسلوب يشبه قولك: هؤلاء الرجال هم أبناء العظيم أباً، والأسلوب معوج بعض الشيء. فلو أنه قال أنا الشريف قديماً وحديثاً لكان أقرب إلى الذهن

ذَهَبَتْ طَيِّءٌ بِسَابِقَةِ المجـ ـدِ على العالَمينَ بَأساً وجُودَا

قبيلة طيء نالت سابقة المجد (الأولية، والأسبقية) على كل الناس في البأس (القوة) وفي الكرم

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حُلومُهُمُ الأر ضَ، وكادتْ مِنْ عِزِّهِمْ أنْ تَمِيدَا

حلومهم (عقولهم الراجحة) راسخة كالجبال وقد ثبَّتت الأرض في مكانها، ولكن هذه الأرض كادت من عزهم (قوتهم) أن تميد (تتزعزع). والعربي في صحرائه يرى كثبان الرمل تتحرك ويتخيل أن الجبال هي التي تمسك الأرض، ويشبهون الحلوم أو الأحلام (العقول الرزينة) بالجبال.

وعندما تجرأ أبو تمام وشبَّهَ الحلوم بشيء غير الجبال قامت عليه قيامة النقاد القدامى

نَزَلُوا كاهِلَ الحِجازِ، فَأَضْحَى لَهُمُ ساكِنُوهُ طُرّاً عَبِيدَا

نزل قومي من طيء كاهل (ظهر) الحجاز، قادمين من اليمن، وجعلوا سكانه طُرّاً (جميعاً) عبيداً لهم

مَنْزِلاً قَارَعُوا عَلَيْهِ العَمَالِيـ ـقَ، وعَاداً في عِزِّها، وثَمُودَا

اتخذوا الحجاز منزلاً (بلداً) وقارعوا (نافسوا) عليه العماليق (القوم الكبار الأجسام الذين قيل إنهم سكنوا الجزيرة قبل العرب)، ونافسوا قوم عاد وقوم ثمود

ولُيُوثٌ مِنْ طَيِّءٍ وَغُيُوثٌ لَهُمُ المجدُ طَارِفاً وتَلِيدَا

الليوث (الأسود)، الغيوث (الأمطار)، الطارف (الجديد)، التليد (الموروث)

فإذَا المَحْلُ جاءَ، جَاءُوا سُيُولاً وإذا النَّقْعُ ثارَ، ثارُوا أُسُودَا

المحل (القحط) النقع (الغبار، يقصد غبار المعركة)

يَحْسُنُ الذِّكْرُ عَنْهُمُ والأَحادِيـ ـثُ، إذا حَدَّثَ الحَديدُ الحَديدَا

ذِكرهم والحديث عنهم حسن، ولا سيما عندما يتكلم الحديد مع الحديد (عندما تشتبك السيوف في المعركة)

عَدَلُوا الهَضْبَ مِنْ تِهَامَةَ أَحْلا مـاً ثِقَالاً، ورَمْلَ نَجْدٍ عَدِيدَا

عدلوا (ساووا) الهضب (المرتفعات) من جبال تهامة بأحلامهم الثقيلة (عقولهم الراجحة)، وساووا حبات رمل نجد في كثرة عددهم

مَلَكُوا الأرضَ قبلَ أنْ تُمْلَكَ الأَرْ ضُ، وقَادُوا في حَافَتَيْها الجُنودَا

قبل أن يملك الفرس والروم الأرض ملكها بنو طيء، وقادوا الجنود في حافتيها. [أرض البحتري قطعة مستوية لها حافتان. ولم يُلْقِ أبو عبادة بالاً للفرغاني الذي كوَّر الأرض قبل سنَيَّهات قلائل (في عصر المأمون، عندما كان عمر البحتري ١١ سنة، كتب الفرغاني كتابه «الحركات السماوية وجوامع علم النجوم»). وائتم بأرقام الفرغاني (سموه ألفراغانوس باللاتينية) بعد بضع مئات من السنين كولومبوس خالطاً بين الميل العربي والميل الروماني. وفي كتاب لنا بعنوان «جولة في خريطة العالم السياسية» أوردنا أن يحيى بن أبي منصور قاس، في عهد المأمون أيضاً، محيط الكرة الأرضية بدقة مدهشة]

وجَرَوْا، عِنْدَ مَوْلِدِ الدَّهْرِ، في السُّؤْ   دَدِ والـمَـكْـرُمَـاتِ شَـأْوَاً بَـعـيـدَا

قبيلة طيء، كما يخبرنا البحتري، كانوا ثَمَّ عند مولد الزمان، وجروا في حلبة (ميدان الخيل) السؤدد (السيادة) والمكرمات شأواً (شوطاً) بعيداً

سَائِلِ الدَّهْرَ مُذْ عَرَفْنَاهُ: هَلْ يَعْـ   ـرِفُ مِنَّا إلَّا الـفَـعَـالَ الـحَـمِـيـدَا؟

سائل (اسأل) الزمن منذ أن عرفناه، هل رأى منا سوى الفعال الحميد (الأمجاد)

قَدْ، لَعَمْرِي، سُدْنَاهُ كَهْلاً وشَيْخاً   وشَـبِـيـبـاً ونَـاشِـئَـاً وَوَلِـيـدَا

كانوا سادة الزمن في كل مراحله

نُـحْـنُ ـ أَبْـنـاءَ يَـعْـرُبٍ ـ أَعْرَبُ النَّا   سِ لِـسَـانـاً، وأَنْـضَـرُ الـنَّـاسِ عُـودَا

نحن ـ أعني أبناء يعرب (ويعرب جد العرب العاربة القحطانيين/ وطيء قبيلة قحطانية يمنية) ـ أعرب (أفصح) الناس لساناً، وأنضر الناس عوداً (غصناً). في البيت فخر قحطاني على العدنانيين، والكتب المدرسية تجعله فخراً عربياً عاماً

وكَـأَنَّ الإلـهَ قـالَ لـنَـا: فـي الـ   ـحَرْبِ كـونُـوا حِـجَـارَةً أو حَـديـدَا

من الآيتين: (وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنَّا لمبعوثون خلقاً جديدا/ قل كونوا حجارة أو حديدا)، وأخذ أبو عبادة أخذاً حلواً. **هذه القصيدة**: هذا البحتري في أفصح حالاته، وأخذنا معظم أبيات هذه القصيدة. وفيها عربيته الصافية القوية الفخمة، وفيها حرارة شاعريته وتدفق عصبيته، وفيها أيضاً ما أخذه من أبي تمام من الخروج إلى المجاز، وجعْل اللغة ترقص. وفيها خيال وشطح معجِبان. وإن يكن حقاً أنه قالها وهو في السادسة عشرة من عمره، وهذا ينقله الصيرفي عن مصدر قديم ويطلب إلينا تصديقه، فتلك العجيبة الثامنة. البحتري شيطان شعر وفصاحة. ثم إن أبا الغوث بن الوليد (ابن البحتري) قال للصولي ـ الذي رواها في كتابه «أخبار البحتري» ـ: (من أول أشعار أبي قوله وهو حدث يفتخر: إنما الغي أن يكون رشيدا)، فهي من أوائل أشعاره، وكان زمانئذ (حدثاً). والحدث هو الشاب والغلام، في وصف صاحب اللسان

٩ اعصِ.. واخضع

اِقْـبَـلْ مَـعَـاذِيـرَ مَـنْ يَـأْتِـيـكَ مُـعْـتَـذِرا   إنْ بَـرَّ عِـنـدكَ فـيـمـا قـالَ، أو فَـجَـرا

اقبل معاذير (أعذار) المعتذر، سواءٌ أبرَّ (أصدَقَ) أم فَجَرَ (كذب)

فقد أطاعَكَ مَنْ أرضاكَ ظاهِرُهُ   وقد أجَلَّكَ مَنْ يَعصِيكَ مُسْتَتِرا

فمجرد تظاهره بالسعي لإرضائك يعني أنه مطيع لك، والذي يخالفك في السر يجلك ويجد في نفسه هيبتك. ويروي الصيرفي البيت واضعاً كلمة «أضلك» مكان أجلك. ويصر عليها. وقد وجدها «أجلَّك» في كتاب «عين الأدب والسياسة» فعلق في الحاشية: «هذا تحريف وصوابه «أضلك» فأي ضلال في فهم الشعر هذا! وتابعه في هذا الضلال محمد ألتونجي. ولم ترد الأبيات لا في طبعة هندية للبرقوقي، ولا في طبعة الجوائب. على أنها وردت في كتب كثيرة منها السمط والعقد مع اختلاف في الرواية، فبعضهم جعل «أطاعك» في المصراع الثاني، وهذا يقوم بحق الذوق الأدبي. ولم يتعرض لهذه الهنة عبد السلام هارون في نقده للصيرفي، فهو وقف دون حرف الراء بكثير في نقد تحقيق الديوان. ونحن اخترنا ألا نأخذ الصيرفي بأغلاطه التي أخذه بها هارون. انظر المزيد عن نقد هارون في أثناء شرحنا القصيدةَ المقبلة

خَيْرُ الخَلِيلَيْنِ مَنْ أَغْضَى لِصَاحِبِه   ولو أَرَادَ انْتِصاراً مِنْهُ لانْتَصَرا

خير صاحبيك الذي يغضي (يتغاضى) عن ذنبك، في حين أنه لو أراد الانتقام لوسعه ذلك. «خير الخليلين»: أسلوب في التعبير يفترض وجود نوعين متضادين من الجنس نفسه، كأن تقول: (شر الأميرين المتعجل بالعقاب)

١٠ الفرح بالإبداع

إنْ تَرَيْنِي تَرَيْ حُسَاماً صَقِيلاً   مَشْرَفِيّاً مِنَ السُّيُوفِ الحِدَادِ

مشرفياً (سيفاً)، الحِداد (الحادَّة)

ثَانِيَ اللَّيْلِ، ثَالِثَ البِيدِ والسَّيْـ   ـرِ، نَدِيمَ النُّجُومِ، تِرْبَ السُّهَادِ

ثاني الليل (أي مصاحباً للّيل، فالليل أوّل وأنا ثانيه)، وثالث البيد (الصحارى) والسير، وجليس النجوم في ليل الصحراء، وترب (قرين) السهاد (السهر)

كَلَّمَ الخَضْرُ لي، فَصَيَّرَني بَعْـ   ـدَكِ عَيْناً على عِيَارِ البِلادِ

كَلَّم بعضُهم الخَضِرَ (النبي الجوال المستور) لي (بشأني/ توسط لي) فجعلني بعد فراقِكِ أيتها المحبوبة عيناً (رقيباً) على عيار البلاد (نظام البلاد). يقول: إنه صار بعد انقضاء الهوى جوالاً كثير الأسفار. ولعمري لَلإخفاق في الحب يزعج المرء إلى غربة بعد غربة. خص عبد السلام هارون في نقداته المئة والأربع والتسعين على تحقيق الصيرفي لديوان البحتري هذا البيت بنقدةٍ. يريد هارون أن يكون معنى عيار البلاد (كثرة الانفلات والمجيء والذهاب في الأرض). وله سند في لسان العرب، وهو لم يقصر في تعضيد رأيه بأكثر مما جاء في لسان العرب، على أنه لم يجعلني أرى المعنى الذي أراد، وإن شككني. وقد كتب عبد السلام هارون مئة صفحة في نقد الجزء الأول من تحقيق الصيرفي لديوان البحتري. وهذه الصفحات المئة شاهد على فحولة هارون، وتمكنه من أدب العربية ولغتها على نحو يرفعه درجات فوق من عاصره. وقد عاش ومات لا يعرفه سوى قلة من مدمني العربية وحَرَسها المخلصين. وله في التحقيق والتأليف مئة وواحد وعشرون كتاباً ليس كمثلها شيء. وما مضى هارون إلا وقد حقق لنا جل المتوفر من كتب الجاحظ. وكنت أتمنى لو كان حقق كتب الشعر، لأنه كان في الشعر علامة قل نظيره

لَيْلَةً بِالشَّآمِ، ثُمَّتَ بِالأَهْـ ـوَازِ يَوْماً، ولَيْلَةً بِالسَّوَادِ

أقضي ليلة بالشام، ثم يوماً في الأهواز (في إيران، على حدود عراق اليوم)، وليلة بالسواد (ما بين النهرين بالعراق)

وَطَنِي حَيْثُ حَطَّتِ العِيسُ رَحْلِي، وذِرَاعِي الوِسَادُ، وَهْيَ مِهَادِي

شردني هواك المبتور فصرت بلا وطن؛ وطني أي مكان تحط الجِمال فيه رحلي (متاعي) عن ظهورها، ووسادتي ذراعي، وذراعي هي مِهادي (فراشي) أيضاً

لِي مِنَ الشِّعْرِ نَخْوَةٌ واعْتِزَازٌ وهُجُومٌ على الأُمورِ الشِّدَادِ

رأسمالي شعري، وبه تقوى نفسي وأُقْدم على الأمور الصعبة

فإذا مَا بَنَيْتُ بَيتاً تَبَخْتَرْ تُ، كَأَنِّي بَنَيْتُ ذَاتَ العِمَادِ

فإذا قلت بيتاً من الشعر تبخترتُ معتزاً به كأنني بنيت ذات العماد (إرم ذات العماد: مدينة ذات جمال أسطوري وصفها القرآن، وخسفها الله خسفاً) لا يفوتنك ما في هذا البيت من جمال. يجعل البحتري بيت الشعر يُبنى بناء، لا يُقال قولاً. وفي هذا البيت تعبير عن لذة الخلق. يصحو الشاعر من نومه ملهوفاً على أبيات قالها في الليلة الفائتة، يسترجعها في ذاكرته، أو في ورقته، وينبض قلبه بحب المولود الجديد نبضاً يعرفه المبدع الفنان. لعل هذه اللهفة هي الخط الفاصل بين الفنان والحرفي

أَوْ كَأَنِّي أَحُوكُ حَوْكَ زِيَادٍ أَوْ كَأَنِّي أَبو دُؤَادَ الإيَادي

كأني أحوك (أنسج) القصيد حوك زياد (النابغة الذبياني)،
أو كأني أبو دؤاد الإيادي (الشاعر الجاهلي)

لِي مُعِينَانِ: هِمَّةٌ واعْتِزَامٌ تِلْكَ مِنْ طَارِفِي، وذا مِنْ تِلادي

لي مساعدان: همة (طموح) وعزم؛ فالطموح هو طارفي (جديدي، أي مما اكتسبته أنا)، والعزم تلادي (موروثي)

لِي نَدِيمَانِ: كوكبٌ وظَلامٌ، لا يَخُونَانِ صُحْبَتِي ووِدَادي
لِي مِنَ الدَّهرِ كُلَّ يَومٍ عَنَاءٌ: فُرْقَتِي مَعْشَرِي، وقِلَّةُ زَادي

كل يوم يعاني من الغربة ومن الفقر

١١ لذة الشهرة

إنَّ شِعْرِي سارَ في كُلِّ بَلَدْ واشْتَهَى رِقَّتَهُ كُلُّ أَحَدْ
قُلْتُ شِعْراً في الغَوانِي حَسَناً تَرَكَ الشِّعْرَ، سِواهُ، قَدْ كَسَدْ

١٢ سيوف بلا رجال

قال يرثي قومه:

أَبَعْدَ «مُبَشِّرٍ» و«أبي عُبَيْدٍ» و«مَعْيُوفِ» المَكَارِمِ والمَعَالي
وبَعدَ أبي «أَبي العَطَّافِ» أرْجُو وفَاءَ الدهرِ، أو عَهْدَ اللّيالي؟
وَرِثْتُ سُيوفَهُمْ، ومَضَوْا كِراماً، ومَا نَفْعُ السيوفِ بِلا رِجَالِ؟

التسويد لصديقي ومصححي «أحمد عبد الرحيم»، وأنا: موافق

١٣ لا أستطيعها

ونَدِيمٍ حُلْوِ الشَّمَائِلِ كالدِّيـ ـنارِ، مَحْضِ النِّجَارِ، عَذْبٍ مُصَفَّى

الشمائل (الصفات)، كالدينار (حتى الآن بعضهم يشبِّه الشخص الجيد بالليرة الذهب)، محض النجار (خالص الأصل)

لم أَزَلْ بِالخِدَاعِ أَسْقِيهِ، حَتى وَضَعَ الكَأْسَ مَائِلاً يَتَكَفَّا

يتكفَّا (يتمايل)

قلتُ: عبدَ العزيزِ! تَفْدِيكَ نفسي، قالَ: لبَّيْكَ، قلتُ: لَبَّيْكَ أَلْفَا
هَاكَها. قال: هَاتِها. قلتُ: خُذْها قال: لا أَسْتَطِيعُها، ثم أَغْفَى

هاكها (خذها)

لم يقل أحد في أدب المنادمة أجمل ولا أرق ولا أحلى من هذه الأبيات.

ورغم الظاهر من نثرية الحوار فالموقف كله يغلي بالشعر غلياناً. هذا شاعر يصف موقفاً مع صديق أو ربما حبيب له. وأغلب ظني أن البحتري ينقل ما حدث نقلاً كما لو بكاميرا فيديو. وسَبَك الموقف سبكاً بديعاً

١٤ تمرين في الاستطراد

يمدح مالك بن طوق التغلبي:

فَتىً شَقِيَتْ أموالُه بِسَمَاحِهِ كَمَا شَقِيَتْ بَكْرٌ بِأَرْمَاحِ تَغْلِبِ

هذا الفتى أمواله شقيت (تعذبت) من سماحه (كرمه) كما شقيت قبيلة بكر برماح قبيلة تغلب، والممدوح تغلبي. وقد اتكأ البحتري على المدح ليخرج إلى هجاء طرف آخر، وهذا أسلوب الاستطراد في الشعر ـ كما سماه أبو تمام وبصَّر البحتريَّ به

١٥ حيَّ على الرحيل

يمدح مالك بن طوق:

مـا لـيِ ولِـلأيَّـامِ! صَـرَّفَ صَـرْفُـهـا حـالـيِ، وأَكْـثَـرَ في الـبِـلادِ تَـقَـلُّـبي

صرف صرفها (بدلت حوادثها)، تقلبي (تنقُّلي)

فأكُونُ طَوْرَاً مَشْـرِقاً لِلمَشْرِقِ الـ أَقصىَ، وطَوْراً مَغرِباً لِلمَغْرِبِ

أكون في أقصى المشرق فأكون شرقاً له، وأكون كالمغرب بالنسبة للمغرب/ يقول إنه يذرع البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب

وإذا الـزمـانُ كَسـاكَ حُـلَّـةَ مُـعْـدِمٍ فَـالـبَسْ لهُ حُـلَـلَ الـنَّـوَى، وتَـغـرَّبِ

إذا ألبسك الزمان حلةَ (ثوبَ) معدِم (فقيراً)، فالبس حلل (أثواب) النوى (الفراق)، وتغرَّبْ

كان أبو تمام حبب المرء في الرحيل قائلاً: (ألم تر أن الشمس زيدت محبة/إلى الناس أنْ ليست عليهم بسرمد)، وهذا البحتري يتدرب على معاني أبي تمام، وليس معه شمسه. ستشرق شمس البحتري فيما بعد، وسيؤسس لنفسه طريقة. امض في المطالعة

١٦ مجد مرفوع مع رفع السماء

يمدح أحمد بن إبراهيم الأزدي:

اللَّهُ أَكْسَبَكَ الـمَحَامِدَ مُكْمِلاً لَـكَ كُـلَّ إِنْـسَـانِـيَّـةِ الإنْـسَـانِ

رَفَعَ السَّمَاءَ ومَجْدَ فَخرِكَ، قَبْلَ أَنْ يَـبْـدا بِـوَضْـعِ الأرْضِ والـمِـيـزَانِ

يبدا: يبدأ، جاء في الذكر: «والسماء رفعها ووضع الميزان» الرحمن ٧

إنِّـي أَتَـيْـتُ مُـوَدِّعَـاً؛ وأَقُـولُ: لـو لـم آتِ فَـضْـلَـكَ طَـالِـبـاً، لأَتَـانـي

١٧ خير المجانين

يهجو دحمان بن نهيك:

أُمْرُرْ على (حَلَبٍ) ذَاتِ البَسـاتِيـنِ والـمَنْظَرِ السَّهْلِ، والعَيْشِ الأَفَانِينِ

ما كـانَ في عُقَلاءِ النَّاسِ لي أَمَلٌ فكيفَ أَمَّلْتُ خَيْراً في المَجَانِينِ؟

لا تَـفْـخَـرَنَّ، فَـلَـمْ يُـنْـسَـبْ أَبُـوكَ إلـى بَـهْـرَامِ جُـورٍ، ولا بَـهْـرَامِ شُـوبِـيـنِ

يستعرض البحتري معرفته بتاريخ الفرس: بهرام جور هو بهرام الخامس الساساني الذي انتهى حكمه عام ٤٣٨م، وبهرام شوبين هو بهرام السادس الذي حكم سنةً انتهت في عام ٥٩١م، لكنه كان قائداً مهماً قبل اغتصابه الملك

١٨ أنا والذئب والصحراء

إذا جُزْتَ صَحْرَاءَ الغُوَيْرِ مُغَرِّباً وجَازَتْكَ بَطْحَاءُ السَّواجِيرِ يا سَعْدُ

إذا تخطيت صحراء «الغوير»، وأصبحت وراءك بطحاء السواجير
(مسيل الماء عند نهر الساجور قرب منبج) يا سعد..

فَقُلْ لِبَنِي الضَّحَّاكِ: مَهلاً، فإنَّني أَنا الأُفْعُوَانُ الصِّلُّ، والضَّيْغَمُ الوَرْدُ

.. فقل لبني الضحاك (قبيلة الحسن بن رجاء): إنني أنا، البحتري، الأفعوان الصل (الثعبان الخبيث)، والضيغم الورد (الأسد المحمر اللون)

يَوَدُّ رِجَالٌ أَنَّني كنتُ بَعضَ مَنْ طَوَتْهُ المنايَا، لا أَرُوحُ ولا أَغْدُو

بعض أعدائي يودون أن الموت طواني وأصبحت لا رواح ولا مجيء لي على ظهر الأرض

ولَيلٍ كَأَنَّ الصُّبْحَ في أُخْرَياتِهِ حُشَاشَةُ نَصْلٍ ضَمَّ إِفْرِنْدَهُ غِمْدُ

ورب ليل كأنه في أواخره حشاشة نصل (بقية سيف) بقيت ظاهرة تلمع
وقد دخل معظم إفرند السيف (صفحته) في الغمد. يشبه بداية الشروق بنصل سيف
خرج قليلاً من غمده

تَسَرْبَلْتُهُ، والذِّئْبُ وَسْنَانُ هَاجِعٌ بِعَيْنِ ابنِ لَيْلٍ ما لَه بِالكَرَى عَهْدُ

هذا الليل تسربلته (لبسته)، بينما الذئب وسنان (ناعس) هاجع (راقد) بعين ابن ليل (لص) ليس له عهد قريب بالكرى (النوم). فالذئب نائم بعين لص، أي نصف نائم وآخذ حذره

وأَطْلَسَ مِلءِ العَيْنِ يَحْمِلُ زَوْرَه وأَضْلاعَهُ، مِنْ جَانِبَيْهِ شَوَىً نُهْدُ

ورب ذئب أطلس (مغبر اللون كالتراب) يملأ العين مهابة، يَحمل زورَه (أعلى صدره) وأضلاعَه (عظام قفصه الصدري) شوى (قوائم) نهد (مرتفعة). [أظن هذا هو المعنى]

لَـهُ ذَنَـبٌ مِـثْـلُ الـرِّشَـاءِ يَـجُـرُّهُ ومَـتْـنٌ كَمَتْنِ القَوْسِ أَعْوَجُ مُنْأَدُّ

له ذنب مثل الرشاء (الحبل) يجره جراً على الأرض،
ومتن (ظهر) كمتن القوس أعوج منأدّ (معوج)

طَوَاهُ الطَّوَى حتى استَمَرَّ مَرِيرُهُ فَمَا فيهِ إلَّا العَظْمُ والرُّوحُ والجِلْدُ

طواه الطوى (أرهقه الجوع)، حتى استمر مريره (اشتد عزمه)،
فلم يبق فيه إلا العظم والجلد.. والروح. وإضافة (الروح) إلى العظم
والجلد من بدائع البحتري

يُقَضْقِضُ عُصْلاً في أَسِرَّتِها الرَّدَى   كَقَضْقَضَةِ المَقْرُورِ أَرْعَدَهُ البَرْدُ

يقضقض عصلاً (يقعقع بأنيابه المعوجة)، وفي أسرَّة هذه الأنياب (في حُزوزها) يقبع الردى (الموت)، وهو في قعقعته بأنيابه يشبه المقرور (البردان) الذي يرتعش من البرْد. لو كان طه حسين نقد هذا البيت لقال: «واسمعه يصف ذئباً يحرِّق أنيابه واسمعه يشبهه بإنسان مقرور، خَصِر، تصطك أسنانه اصطكاكاً متصلاً متتابعاً لا يكاد ينقطع، وردِّد على نفسك أو على جليسك إن كان لك من تجالس كلمة واحدة؛ أو قلها في قلبك واجعل أذنك تسمعها أو كأنها تسمعها؛ لا إخالك إلا عرفت الكلمة التي إليها أقصد وإياها أعني. إنها كلمة (كقضقضة). انظر في حروفها كيف تخرج من كل مخرج يخرج منه حرف، وتأمل هيأتك وأنت تجاهد فمك في إخراجها جهاداً. وأنا زعيم لك أنْ ستحسُّ في جسمك رِعدة المقرور»، نعتذر عن محاكاة طه، فهو في حديث الأربعاء وقف قبل عصر البحتري بقليل، وإن قال إن خير ما قاله البحتري كان في مدح المتوكل

سَمَا لي، وبي مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ مَا بِه،   بِبَيْدَاءَ لم تُحْسَسْ بِهَا عِيشَةٌ رَغْدُ

سما لي (برز إليَّ) ـ وبي مثل ما به من شدة الجوع ـ في بيداء لم يشعر الناس فيها قط بعيشة رغد (هنيئة)

كِلانَا بِهَا ذِئْبٌ يُحَدِّثُ نفسَهُ   بِصَاحِبِه، والجَدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ

كلانا في هذه البيداء ذئب يحدث نفسه بصاحبه (يبيِّت الغدر بصاحبه)، والجد (الحظ) يتعسه الجد (يغلبه حظ مضاد له)، أي أن المسألة مسألة حظ: من سيقتل الآخر ويفوز بلحمه؟

عَوَى ثُمَّ أَقْعَى، فارتَجَزْتُ، فَهِجْتُهُ   فَأَقبَلَ مِثْلَ البرقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ

عوى الذئب ثم أقعى على قائمتيه الخلفيتين، فارتجزت (قلت أشطاراً حماسية من الرجز)، فهجته (هيجته)، فأقبل علي سريعاً كالبرق، عاوياً بصوت كالرعد

فَأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسَبُ رِيشَهَا   على كَوكَبٍ يَنْقَضُّ واللَّيْلُ مُسْوَدُّ

فأوجرته خرقاء (ألقمته حربة غير صائبة) كأنها ـ والريش بذيلها ـ كوكب يهوي في سواد الليل

فَمَا ازدَادَ إلَّا جُرْأَةً وصَرَامَةً،   وأَيْقَنْتُ أنَّ الأمرَ مِنْهُ هَوَ الجِدُّ

فزاده ذلك جرأة وصرامة، وتأكدت أنه جاد في مهاجمتي

فأَتْبَعْتُها أخرى، فَأَضْلَلْتُ نَصْلَها   بِحَيْثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

فأتبعت الحربة الأولى بأخرى صائبة، فانغرس نصلها في مكان اللب (الفَهْم) والرعب والحقد (أي في القلب)

فَخَرَّ، وقد أَوْرَدْتُهُ مَنْهَلَ الرَّدَى،   على ظَمَأٍ؛ لَوْ أَنَّهُ عَذُبَ الوِرْدُ

فخر (فوقع) صريعاً ـ بعد أن جعلته يرد منهل (مورد) الموت ـ على ظمأ (عطشان)؛ لو أنه عذُبَ الورد (ليته كان وَرَدَ ماء عذباً بعد هذا العطش، لا بل قد سقيته الموت)

وقُمْتُ فَجَمَّعْتُ الحَصَى، واشْتَوَيْتُهُ عليْهِ، ولِلرَّمْضَاءِ مِنْ تحتِهِ وَقْدُ

شويته بعدئذ على الحصى، والرمضاء (الحصى الحارة) متّقدة تحته

ونِلْتُ خَسِيسَاً منه ثُمَّ تَرَكْتُهُ، وأَقْلَعْتُ عنه وهْوَ مُنْعَفِرٌ فَرْدُ

نلت خسيساً (قليلاً) من لحمه لسد جوعي وتركته، ثم أقلعت عنه (فارقته) وهو منعفر بالتراب ومتروك وحده

لقد حَكَمَتْ فينَا اللَّيالي بِجَوْرِها وحُكْمُ بَنَاتِ الدَّهْرِ ليس لَهُ قَصْدُ

هذا حكم الليالي (الزمن) فينا وهو حكم جائر (ظالم)؛ وحكم بنات الدهر (مصائب الزمن) ليس فيه قصد (عدل)

قارن خليل شرف الدين قصيدة البحتري هذه في وصف الذئب بقصيدة الشاعر الفرنسي ألفرد دو فيني (مصرع الذئب). وهي قصيدة رومنسية قصصية بلغت في الطول خمسة أضعاف قطعة البحتري هذه. ليفرح دو فيني في قبره إذ نقارن قصيدته بقصيدة أحد كبار شعرائنا. ولنترك لكل ناس شعرهم، فالشعر لا يترجم. علموا أولادكم الشعر العربي الجديد وبعض القديم، ولا تنسوا هذه القصيدة. وإذا علمتموهم شعر الأقوام الآخرين في المدارس المستوردة فغايتهم فيه أن يكونوا أضيافاً في بيتٍ خالٍ لا يستطيعون مزاحمته بأبٍ جَلْدٍ كما قال الحماسي. من لنا أن نزاحم الإنجليز في تذوقهم شكسبير؟ ومن قال إن شكسبير خير من المتنبي؟ أو أن دو فيني خير من البحتري؟ في الشعر قعقعة ألفاظ لا يحسها سوى أبناء اللغة. واترك ـ من فضلك ـ بيتَ «كقضقضة» السابق، وخذ بيت: عوى ثم أقعى، في هذه القصيدة، وانظر بعينك إلى هذا المشهد المتلاحق، ورَهْ كيف أن الألفاظ تتوالى وتساهم بصوتها ـ وليس فقط بمعناها ـ في خلق المشهد

١٩ التنازع في الرئاسة

يرثي قومه:

إنَّ التَّنازُعَ في الرِّئاسةِ زَلَّةٌ لا تُسْتَقالُ، ودَعْوَةٌ لم تُنْصَرِ

التنازع في الرئاسة زلة (سقطة)، لا تستقال (لا تقال عثرتها، لا قيامَ منها)، ودعوة لا تجد أنصاراً

أَفْنَى أَوائِلَ جُرْهُمٍ إِفْرَاطُهُمْ فيهِ، وأَسْرَعَ في مَقَاوِلِ حِمْيَرِ

أفنى قبيلة جرهم البائدة هذا التنازع، وأسرع في (أي في إفناء) مقاول قبيلة حمير (رؤسائها)

٢٠ الانسحاب في الوقت المناسب

يمدح أبا الخطاب الطائي:

رَفعتْ مِنَ السَّجْفِ المُنِيفِ، وسَلَّمَتْ بأنامِلٍ فيهِنَّ دَرْسُ خِضَابِ

رفعت السجف المنيف (الستار العالي)، وسلمت بأنامل فيهن درس خضاب (بقايا حناء)

وتعجَّبَتْ مِنْ لَوعَتي، فَتَبسَّمَتْ عن واضِحَاتٍ، لَوْ لُثِمْنَ، عِذَابِ

تبسمت عن واضحات (أسنان بيض)، ولهن طعم عذب لو لُثمن (قُبِّلن)

لو تُسْعِفِينَ، ومَا سألْتُ مَشَقَّةً، لَعَدَلْتِ حَرَّ هَوىً بِبَرْدِ رُضَابِ

لو تساعدين ـ وما سألتُ مشقة (ما طلبتُ طلباً صعباً) ـ لخففتِ حرارة الهوى في قلبي ببرد الرضاب (اللعاب) من فمك

ولَئِنْ شَكوْتُ ظَمَايَ، إنَّكِ لَلَّتي قِدْمَاً جَعَلْتِ مِنَ السَّرابِ شَرابي

لئن شكوت ظمأي، فأنتِ سابقاً جعلتِ شرابي سراباً (يعني: كانت وعودك كاذبة كالسراب)

ولَقد عَلمْتُ، وللمُحِبِّ جِهالةٌ، أنَّ الصِّبا، بَعدَ المَشيِبِ، تَصَابِ

أنا علمت ـ رغم جهالة العاشق ـ أن الصبا (اللهو)، بعد مشيب الرأس، هو من التصابي

وأَمَا لَوَ انَّ الغَدْرَ يَجْمُلُ في الهَوى لَسَلَوْتُ عنكِ وفيَّ بعضُ شَبابي

لو كان يجمل (يليق) بي الغدر في الحب لسلوت عنك (نسيتك) في وقت كانت لديَّ فيه بقية من الشباب

٢١ مطر على خربة

يمدح أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

فُؤادٌ مَلاهُ الحزنُ حتى تَصَدَّعا، وعَيْنَانِ قالَ الشَّوقُ: جُودَا معاً معَا

لِمَنْ طَلَلٌ جَرَّتْ به الرِّيحُ ذَيْلَها وحَنَّتْ عِشَارُ المُزْنِ فيه فَأَمْرَعا

لمن هذا الطلل (بقية الدار) الذي جرَّت به الريح ذيلها فعلاه التراب، وحنَّتْ عشار المزن (الغيوم التي تشبه النياق الحوامل في شهرها العاشر، وحليبها يدر غزيراً)، فأمرع (صار خصباً). وحنين الناقة على ولدها يأتي بعده الحليب مدراراً. يشبه الغيوم بالنياق في آخر أيام حملها وقد امتلأت ضروعها بالحليب

لِلَيْلاكَ، إذْ لَيْلى تُعِلُّكَ رِيقَها وتَسْقِيكَ مِنْ فِيها الرَّحِيقَ المُشَعْشَعَا

هذا الطلل لليلاك، إذ كانت ليلى تسكن هنا وتعلك (تُرشِفك) ريقها، وتسقيك من فمها ما يشبه الرحيق (الخمر) المشعشع (الممزوج بالماء)

٢٢ الوطن.. الحضن الدافئ

يمدح أبا الحسن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

يا بَرقُ أَسْفِرْ عنْ (قُوَيْقَ)، (فَطُرَّتَيْ حَلَبٍ)، فَأَعْلَى القَصرِ مِنْ (بِطْيَاسِ)

يا برق أسفر عن (اكشِف) هذه المناطق، والطرة (جانب الوادي). والبرق إذ يلمع ليلاً يكشف الأشياء؛ معظمنا لم يعد يرى هذا إلا في الأفلام

أَرْضٌ إذا اسْتَوْحَشْتُ ثم أَتَيْتُهَا حَشَدَتْ عَلَيَّ، فَأَكْثَرَتْ إِينَاسِي

إذا أحسست بالوحشة والغربة في قلبي وجئت هذه الأماكن حشدت علي وآنستني (والمرء يأنس إذ يحتشد حوله الأهل بعد أوبته من غربته، ومن لذيذ الاختصار واللمْح أن جعل البحتري الأرض «تحشد عليه». أليس هو القائل: والشعر لمح تكفي إشارته/وليس بالهذر طُوِّلتْ خُطَبهْ (القصيدة ١٦٥»

اليومَ حَوَّلَني المَشِيبُ إلى النُّهَى وذَلَلْتُ لِلْعُذَّالِ بعدَ شِمَاسِ

اليوم نقلني الشيب إلى النهى (التعقل)، وذللت (انْصَعْتُ) للعذال (الناصحين اللائمين) بعد شماس (تمرد)

ورَفَعْتُ مِنْ نَظَرِي إلى أَهْلِ الحِجَا ولَوَيْتُ عنْ أهلِ الغَوَايَةِ راسي

ورفعت نظري متطلعاً إلى أهل الحجا (العقل)، ولويت رأسي مبتعداً عن أهل الغواية (الاستهتار)

٢٣ عبث الزمن

يمدح سعيد بن محمد:

إن الخُطوبَ طَوَيْنَنِي ونَشَرْنَنِي عَبَثَ الوَلِيدِ بِجَانِبِ القِرْطَاسِ

طوتني الخطوب (المصائب) ونشرتني كعبث الطفل الوليد بالقرطاس (الورقة). والورقة المفردة في زمنهم تكون ملفوفة، كما نراها في المسلسلات التاريخية، وأتخيل أن الطفل من شأنه أن ينشرها ثم يتلذذ وهو يراها تكر راجعة إلى حالتها الأسطوانية مرة بعد مرة. وقد أوحى هذا البيت إلى المعري ـ وهو رجل في قلبه عبث كثير رغم قناع الكآبة الذي اتخذه ـ بأن يسمي كتابه في نقد شعر البحتري «عبث الوليد»، فأصاب المعري عدة عصافير بهذا الحجر، فاسم البحتري «الوليد»، ورأى المعري في شعره أنه رقيق وأنه يعد كالعبث إذا قيس بشعر المتنبي، وثالثة: أن المعري سلخ من بيت البحتري كلمتين أسمى بهما كتابه

ما شِبْتُ مِنْ طُولِ السِّنِينَ، وإِنَّمَا طُولُ المَلامَةِ فِيكِ شَيَّبَ رَاسي

٢٤ كان البكاء طويلا

يمدح أبا جعفر محمد بن علي بن عيسى القمي:

ذاكَ (وَادِي الأَرَاكِ) فَاحْبِسْ قَلِيلا مُقْصِراً مِنْ مَلامَتِي، أوْ مُطِيلا

احبس ناقتك يا صاحبي (أجبِرْها على الوقوف) سواء أَختصرت في لومي أم أَطَلْت

إنَّ بينَ (الكَثِيبِ) (فَالجَزْعِ) (فَالآ رَامِ) رَبْعاً لآلِ هِنْدٍ مُحِيلا

فيما بين هذه الأماكن ربع (منزل) محيل (خَرِب) لأهل المحبوبة هند

وخِـلافُ الـجَـمـيـلِ قَـوْلُـكَ لِـلْـذَّا كِرِ عَهْدَ الأَحْبَابِ: صَبْراً جَمِيلا

ومن غير الجميل (المناسب) أن تقول لمن يتذكر أحبابه: اصبر صبراً جميلاً، بل اتركه ولوعة قلبه

لا تَـلُـمْـهُ عـلـى مُـوَاصَـلَـةِ الـدَّمْـ ـعِ، فَلُؤْمٌ لَوْمُ الـخَلِيـلِ الـخَلِيلا

لا تلمه على الاستمرار في ذرف الدموع، فلؤم من الخليل (الصاحب) لوم خليله

عَـلَّ مـاءَ الـدُّمُـوعِ يُـخْـمِـدُ نَـاراً مِنْ جَوَى الـحُبِّ، أَوْ يَبُلُّ غَلِيلا

لعل الدمع يخمد ناراً سببها جوى (حرقة) الحب أو يبل غليلاً (عطشاً)

لـم يَـكُـنْ يَـوْمُـنَـا طَـوِيـلاً «بِـنَـعْـمَـا نَ»، ولَـكِـنْ، كـانَ الـبُـكَـاءُ طَـويـلا

لكل شاعر عندي بيت أسميه المدهش لأنه يدهشني إدهاشاً. أبو نواس أدهشني إذ قال: (من كف ذات حر في زي ذي ذكر/لها محبان لوطي وزنَّاء)، وبدوي الجبل أدهشني إذ قال: (الخالدان، ولا أعُدُّ الشَّـ /ـمسَ، شعري والزمانُ)، وإبراهيم بن هرمة أدهشني ببيته: (أسألُ الله سكرة قبل موتي/ وصياحَ الصبيان يا سكرانُ). وهذا بيت البحتري الذي أدهشني

٢٥ الأضحية الحمارية

وقال لأبي جعفر القمي يستهديه أضحيةً:

جُعِلْتُ فِدَاكَ، لي خَبَرٌ طَرِيفٌ؛ وأَنْـتَ بِـكُـلِّ مَـكْـرُمَـةٍ خَـبِـيـرُ
غَـداةَ الـنَّـحْـرِ يَـنْـحَـرُ كُـلُّ قَـوْمٍ، ولا شَـــاةٌ لَــدَيَّ ولا بَــعِــيـــرُ
بلَى عِندي حِمَارٌ لي، فَقُلْ لي: أَتُـقْـبَلُ مِنْ مُضَحِّيهَا الـحَمِيرُ؟
لَئِنْ لـم تَـفْـدِهِ، تَـفْـدِيكَ نَـفْـسِي، بِـذِبْـحٍ، فَـهْـوَ فـي غَـدِهِ نَـحِـيـرُ

ذِبح (أضحية)، نحير (منحور، مذبوح)

٢٦ يرويه فيك لحسنه الأعداء

يمدح أبا جعفر محمد بن علي بن عيسى القُمِّيَّ الكاتب:

ليسَ التي ضَلَّتْ تَمِيمٌ وَسْطَهَا «الدَّ هْـنَـاءَ»، لا بَـلْ صَـدْرُكَ الـدَّهْـنَـاءُ

ليست الصحراء التي قيل إن قبيلة تميم تاهت فيها هي الدهناء، بل صدرك أنت الدهناء (صحراء واسعة بنجد). يقول: صدرك أيها الممدوح واسع

مَـلِـكٌ أَغَـرُّ، لآلِ طَـلْـحَـةَ نَـجْـرُهُ، كَـفَّـاهُ أَرْضٌ سَـمْـحَـةٌ، وَسَـمَـاءُ

القمي الممدوح ملك أغر (بارز/وأصل «الأغر» الحصان ذو الغرة البيضاء)؛ ونجره (أصله) يعود لآل طلحة، وكفَّاه معطاءان كالأرض السمحة (الخيرة)، وكالسماء الممطرة

أَحْشَمْتَني بِنَدَى يَدَيْكَ، فَسَوَّدَتْ ما بيْنَنا تِلْكَ اليَدُ البَيْضاءُ

أحشمتني (أخجلتني) بكرم يديك، فسوَّدَت العلاقةَ ما بيننا هذه اليدُ البيضاء (المعروف) لشدة الإحراج

وقَطَعْتَني بالجُودِ، حتى إنَّني مُتَخَوِّفٌ ألَّا يكونَ لِقَاءُ

وقطعتني، إذ وصلتني بالجود الغامر، حتى إنني أخاف ألا يحدث بيننا لقاء آخر

صِلَةٌ غَدَتْ في النَّاسِ وهْيَ قَطِيعَةٌ، عَجَباً، وَبِرٌّ راحَ وَهْوَ جَفَاءُ

صلتك هذه غدت معروفة بين الناس بأنها سببت القطيعة، فيا للعجب،
والبر (أي المعروف) أصبح جفاءً

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرٍ سَائِرٍ يَرْوِيهِ فيكَ، لِحُسْنِهِ، الأعداءُ

ليواصلنك (والله سيصلك تكراراً) ركب شعر (قافلة قصائد) سائر (شعر مشهور يسير بين الناس)
ويروي هذا الشعر، لجماله، حتى أعداؤك

حتى يَتِمَّ لكَ الثَّناءُ مُخَلَّداً أَبداً، كما تَمَّتْ ليَ النَّعْمَاءُ

حتى يكون الثناء عليك خالداً لخلود شعري، مثلما صارت نعمتك عليَّ تامة

فَتَظَلُّ تَحْسُدُكَ الملوكُ الصِّيدُ بي، وأَظَلُّ يَحْسُدُني بِكَ الشُّعَراءُ

وستظل الملوك الصيد (الكرام) تحسدك بي (بسببي)، ويظل الشعراء يحسدونني بسببك. إن قال أحد إن شعر المدح لا خير فيه فأنشد له هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة. وإذا قالت الكتب إن لشعر البحتري ديباجة وعذوبة وإنه سلاسل الذهب إلخ، فهذه الأبيات برهان وأنموذج. وأصل المعنى من أبي تمام، ولكن البحتري امتلكه بهذه الديباجة

٢٧ العدو الكامن، والصديق النافر

يمدح إبراهيم بن الحسن بن سهل:

ومُكَايِدٍ لي بِالمَغِيبِ رَمَيْتُه بِصَرِيمَةٍ كالنَّجْمِ في مُنْقَضِّهِ

رب مكايد لي بالمغيب (متآمر عليَّ في غيبتي) قد رميته بصريمة (بقطيعة)
كأنها النجم في منقضه (انقضاضه)، أي مثل الشهاب الهاوي، الذي يرجم الله به الشيطان،
بحسب التفسير الحرفي للآية

أَمْضَيْتُ ما أَمْضَيْتُ فيه، ولو ثَنَى بِإِشَارةٍ أَمْضَيْتُ مَا لم أُمْضِهِ

اتخذت فيه القرار الحاسم، ولكنه لو كان ثنى بإشارة (رجع عن غوايته) لكنت اتخذت قراراً آخر
أكثر تسامحاً [كذا فهمت البيت]

وعِتَابِ خِلٍّ قد سَمِعْتُ، فَلَمْ أَكُنْ جَلْدَ الضَّمِيرِ على اسْتِماعِ مُمِضِّهِ

ورب عتاب سمعته من خل (صاحب) فلم أكن جلد الضمير (قاسي الوجدان) لأحتمل الممض (الجارح) من هذا العتاب، فلذلك رددت رداً قاسياً

أَنَبَوْتُ عَنْكَ بِزَعْمِهِمْ؟ ومَتَى نَبَا في حَالَةٍ بَعْضُ امْرِئٍ عَنْ بَعْضِهِ

أنبوتُ عنك (هل هجرتك) كما يزعمون؟ ومتى استطاع ـ في كل الحالات ـ أن ينبو (يهجر) جزء من الإنسان عن سائر الأجزاء!. يقول: هيهات أن أهجرك فأنت جزء مني

٢٨ عندما سَكِرت الرماح

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي:

حَجَبُوُهَا حتى بَدَتْ لِفِراقٍ كانَ داءً لِلعاشِقِ ودَواءَ

حجبوها حتى بدت (ظهرت) لفراق (في يوم رحيلهم)، فكان الفراق داء لقلبي لكنه كان أيضاً دواء لأنه أتاح لي رؤيتها ساعة ركبتُ للرحيل

أَضحَكَ البَيْنُ يومَذَاك وأَبْكَى كلَّ ذي صَبْوَةٍ؛ وسَرَّ، وسَاءَ

وهكذا أضحَكَ الفراق وأبكى ـ في الوقت نفسه ـ كل ذي صبوة (غرام)؛ وسرّني وساءني في آن معاً

ووَشَتْ بي إلى الوُشاةِ دُموعُ الـ ـعَينِ، حتى حَسِبْتُها أعداءَ

وشت بي (فضحت سري) للوشاة (النمامين) دموعي، حتى حسبت هذه الدموع أعداء لي

كيفَ نُثْني على ابنِ يوسُفَ. لا، كيـ ـفَ سَرَى مَجْدُهُ، ففاتَ الثَّناءَ؟

يسأل الشاعر نفسه: كيف نثني على ابن يوسف؟ ثم يقول: لا، بل الأجدر بنا أن نتعجب كيف سرى (مشى) مجده، فسبق كل ثناء

جادَ حتى أَفْنَى السُّؤَالَ، فلمَّا بادَ مِنَّا السُّؤالُ، جادَ ابْتِدَاءَ

جاد (كَرُم) حتى لم يعد هناك محتاج يسأل ويستجدي، فعندما باد (اختفى) سؤالنا واستجداؤنا، جاد (أعطى) ابتداء (مبتدئاً بلا سؤال من طرفنا)

أحسَنَ اللّهُ في ثوابِكَ عَنْ ثَغْـ ـرٍ مُضَاعٍ، أحسَنْتَ فيهِ البَلاءَ

أحسن الله مكافأتك عن ثغر (موقع حدودي) مضاع (مهمل بلا حماية)
أحسنتَ فيه البلاء (قتال الأعداء)

لم يَكُنْ جَمعُهُمْ على المَرْجِ إلَّا زَبَداً، طارَ عَنْ قَنَاكَ جُفَاءَ

لم تكن جموع الأعداء على المرج (السهل) سوى زبد (رغوة)، وطار هذا الزبد عن قناك (رماحك) جُفاءً (فَضَلاتٍ وزوائدَ)

حِينَ أَبْدَتْ إِلَيْكَ (خَرْشَنَةُ) العُلْـ ـيا مِنَ الثَّلْجِ هَامَةً شَمْطَاءَ

عندما أظهرت لك مدينة خرشنة العليا من ثلوجها ما يشبه الهامة الشمطاء
(الرأس الذي شابه شيب)..

ما نَهاكَ الشتاءُ عنها، وفي صَدْ رِكَ نارٌ لِلحقدِ تُنْهي الشتاءَ

.. عندئذ لم ينهَكَ (لم يمنعك) الشتاء عن مهاجمتها، ففي صدرك نار الحقد التي تُنهي الشتاء

طالعتْكَ الأبْنَاءُ مِنْ شُرَفِ الأبْـ ـراجِ زُرْقاً إذْ تَذْبَحُ الآباءَ

برز لك أبناء القوم من شُرُفات أبراج المدينة زُرْقاً (زارقين بعيونهم أي ينظرون من أطراف عيونهم لأنهم مائلون بوجوههم خوف السهام/هذا المعنى الذي لمحته) ورأوْك تذبح آباءهم خارج أسوارها

في نَواحي (بُرْجَانَ) إذْ أنْكَرُوا التَّكْـ ـبيرَ، حتى تَوَهَّمُوهُ غِنَاءَ

حدث هذا في نواحي منطقة برجان حيث الروم لا يعرفون التكبير (قولة الله أكبر) فتوهموا تكبير الجنود (ظنوه) غناء

حيثُ لم تُورِدِ السيوفَ على خِمْـ ـسٍ، ولمْ تُصْدِرِ الرِّمَاحَ ظِمَاءَ

وهناك لم تجعل سيوفك تصل بطيئة، على خمس (كالإبل التي تأتي الماء خامس يوم من أيام العطش)، ولم تصدر أنت الرماح (تُرجِعْها من المورد) ظمأى، بل جعلتها ترتوي من دمائهم

يَتَعَثَّرْنَ في النُّحورِ وفي الأوْ جُهِ، سُكْراً، لَمَّا شَرِبْنَ الدِّمَاءَ

تتعثر رماحك كيفما اتفق في النحور (أعالي الصدور) وفي الوجوه،
كأنها سكرانة مما شربت من دماء

وأَزَرْتَ الخيولَ قَبْرَ (امْرِئِ القيْـ ـسِ)، سِرَاعاً، فَعُدْنَ مِنْهُ بِطَاءَ

وأزرت الخيول (جعلتها تزور) قبر امرئ القيس الشاعر (وقيل مات ودفن هناك) مسرعة للقاء العدو، ولكنها مكثت مدة في الحرب فعادتْ من بلادهم بطاء (بطيئة)

وجَلَبْتَ الحِسَانَ حُوّاً وحُوراً آنِسَاتٍ، حتى أَغَرْتَ النِّسَاءَ

وجلبت الحسان حواً (سمراوات الشفاه) وحوراً (بيضاً) وآنسات (فتيات)، حتى لقد غارت زوجات المسلمين من هؤلاء السبايا

٢٩ القمر الضائع بين وجوههن

اِسْتَوَى الحُبُّ بَيْنَنا، فَغَدا الدهـ ـرُ قَصيراً، واللَّهْوُ غيرَ قصيرِ

نادر أن يتساوى مقدار الحب بين العاشق والعاشق؛ لكنه تساوى بيننا، فأصبح الدهر سريع الجريان قصيراً، فأما اللهو فغير قصير

أَنـخـيـلٌ «بِـعَـالِـجٍ»، أم سَـفِـيـنٌ عَـائِـمـاتٌ، أم أُولَـيَـاتُ خُـدُورِ؟

هل هذه نخلات رشيقات، أم سفن عائمات تمشي وتتهادى ببطء، أم هن أوليات خدور (ذوات ستور/ أي نساء)؟

ضَعُفَ الدهرُ عَنْ هَوانَا، وما الدهـ ـرُ عـلـى كُـلِّ دَوْلَـةٍ بِـقَـديـرِ

ضعف الدهر فلم يستطع أن يُنَكِّد هوانا؛ والدهر، الموصوف بأنه قاهر كل دولة، لم يقهر دولة العشق هذه المرة

حَسُنَتْ ليلةُ الكَثِيبِ، فكانتْ لِيَ أُنْسَاً، ووَحْشَةً لِلْغَيورِ

بقدر ما لقيت من أنس في ليلة الكثيب (عندما التقيت محبوبتي على كثيب الرمل) وجد الغيور الحاسد وحشة في قلبه

ضَلَّ بدرُ السَّمَاءِ، أو كادَ، لَمَّا وَاجَهَتْهُ وُجُوهُ تلكَ البُدُورِ

٣٠ المُعِمُّ المُخْوِل

يمدح إبراهيم بن الحسن بن سهل:

مَلِكٌ، إذا افتَخَرَ الشَّريفُ بِسُوقَةٍ، عَدَّ المُلُوكَ خُؤولَةً وعُمُوما

إذا كان أشراف الناس يفتخرون بسوقة (بناس عاديين) فهذا الملك يعُدُّ ضمن أسلافه من جهتي الأم والأب ملوكاً سابقين. أبوه وعمه كانا قائدين مشهورين في الدولة العباسية، كما أن أصولهم الفارسية القديمة أصول شريفة

نَزَلُوا بِأَرْضِ الزَّعْفَرانِ، وغَادَرُوا أَرْضَاً تَرُبُّ الشِّيحَ والقَيْصُوما

هم نازلون بأرض فارس التي ينبت فيها الزعفران، تاركين أرضاً تربُّ (تنبت) الشيح والقيصوم (النباتين الصحراويين). هم فُرس لا عرب

وابْنُ الذي ضَمَّ الطَّوَائِفَ، بعدَمَا افْـ ـتَرَقَتْ؛ فَعَادَتْ جَوْهَراً مَنْظُوما

وإبراهيم الممدوح هذا ابن الحسن الذي ضم طوائف المسلمين بعد فتنة الأمين والمأمون، فرجعت الخلافة إلى وحدتها

وَرَدَ العراقَ، ومُلْكُها أَيْدِي سَبَا، فَاسْتَارَ سِيرَةَ أَرْدَشِيرَ قَدِيمَا

كان الحسن بن سهل ورد العراق من خراسان مع المأمون، والحُكم يومئذ أيدي سبا (تعبير معناه: مشتَّت)، فاستار (سار) سيرة أردشير (الملك الفارسي القديم)

٣١ العثور على الشوق التائه

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري الطائي:

أَخَذَتْ ظُهُورُ (الصَّالِحِيَّةِ) زِينَةً عَجَبَاً، مِنَ الصَّفراءِ والحمراءِ

أخذت ظهور (هضاب) الصالحية زينة عجباً (مُعْجِبة) مكونة من الأزهار الصفر والحمر

نَسَجَ الرَّبيعُ لِرَبْعِها دِيباجَةً ... مِنْ جَوْهَرِ الأَنوارِ، بِالأَنْواءِ

نسج الربيع لربع الصالحية (موقعها) ديباجة (سجادةً حريريةً) مكونةً من الأنوار (نوَّار النباتات) الذي يشبه الجواهر؛ وأداة النسج هي الأنواء (الأمطار)

فاشْرَبْ على زَهْرِ الرِّياضِ، يَشُوبُهُ ... زَهْرُ الخُدُودِ وزُهْرَةُ الصَّهباءِ

فاشرب الخمر على مرأى زهر الحدائق الذي يشوبه (يتخلله) زهر خدود الحسان، وزُهرة الصهباء (صفاء الخمر). وكانوا يشربون الخمر في مجلس مزين بالرياحين والأزهار

مِنْ قَهْوَةٍ تُنْسي الهُمومَ وتَبْعَثُ الشَّـ ... ـوقَ الذي قد ضَلَّ في الأَحْشَاءِ

اشرب.. من قهوة (خمر) تنسي الهموم وتثير الشوق الكامن الذي كأنه ضل وضاع في الأحشاء (باطن الإنسان/ قلبه)/[«ضل في الأحشاء» هذه.. بديعة]

يُخْفي الزُّجاجةَ لونُها، فكأنَّها ... في الكفِّ قائمةٌ بِغَيْرِ إناءِ

لون الخمر يخفي الزجاجة (الكأس)، فكأن الخمر قائمة في الكف بدون إناء [أكثَرَ القدماء لومَ البحتري على هذا المعنى، وقالوا: لو كان الذي في الزجاجة دبساً لتلونت الزجاجة بلونه، فما الغريب في هذا؟ على أننا نراه معنى جميلاً مطروقاً سيق في لفظ خفيف جميل]

إنَّ الأميرَ محمداً لَمُهَذَّبُ الـ ... أفعَالِ، في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ

ما زِلْتَ تَقْرَعُ بابَ (بَابَكَ) بِالقَنَا ... وتَزُورُهُ في غَارَةٍ شَعْوَاءِ

أيها الأمير ظللت تقرع باب بابك الخُرَّمِيّ (الخارج على الدولة) بالقنا (بالرماح)، وظللت تزوره مغيراً عليه غارةً شعواء (متشعبة واسعة)..

حتى أخذْتَ، بِنَصْلِ سيفِكَ عَنْوَةً، ... منهُ الذي أَعْيَا على الخُلَفَاءِ

حتى أخذت منه، بقوة السيف، ما أعيا (أعجز) الخلفاء

٣٢ نضوب الدمع

يمدح أبا سعيدٍ محمد بن يوسف الثغري:

فِيمَ ابْتِدَارُكُمُ المَلامَ وُلُوعَا؟ ... أَبَكَيْتُ إلَّا دِمْنَةً ورُبوعَا؟

لماذا ابتداركم (بدؤكم) اللوم ولوعاً به وإقبالاً عليه؟ فهل بكيت سوى دمنة (خربة) ومنازل مهجورة؟

عَذَلُوا، فَما عَدَلُوا بِقَلْبيَ عَنْ هَوىً ... وَدَعَوْا، فَمَا وَجَدُوا الشَّجِيَّ سَمِيعا

عذلوا (لاموا) فما عدلوا بقلبي (مالوا بقلبي) عن هواه، ودعوني للنسيان فما وجدوا الشجي (الحزين) سميعاً لدعوتهم

يا دارُ، غيَّرَها الزمانُ وفرَّقتْ عنْها الحوادثُ شَمْلَها المَجْمُوعا،
لا تَخْطُبي دَمْعي إليَّ، فلم يَدَعْ في مُقْلَتيَّ جَوَى الفِراقِ دُمُوعا

٣٣ الوشاح الجوال

يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم:

أمْزُجُ كأسي بِجَنَا رِيقِهِ وإنَّما أمْزُجُ راحاً بِرَاحْ

أمزج كأسي بجنا (بقطاف) ريق المحبوب. وريقه راح (خمر) كالخمر التي في كأسي

إنْ لانَ عِطْفَاهُ قَسَا قَلْبُهُ أوْ ثَبتَ الخَلْخَالُ جَالَ الوِشَاحْ

لئن كان عطفاه (جانباه) ليِّنين فقلبه قاس. ولئن ثبت الخلخال في أسفل ساق المحبوب (لأن ساقه ممتلئة) فإن وشاحه (الوشاح هو أشبه شيء بذلك الشريط الذي تتخذه ملكات الجمال مائلاً على جسومهن) يجول على جسمه لرشاقته

٣٤ بين شراب وطبيخ

يمدح الحسن بن وهبٍ، وكان الواثق نكب آل وهب وأخذ منهم ألف ألف دينار:

لنَا في الدَّهْرِ آمَالٌ طِوَالٌ نُرَجِّيهَا، وأعمارٌ قِصَارُ
وأهْوِنْ بالخُطُوبِ على خَلِيعٍ إلى اللَّذَّاتِ ليس لَهُ عِذَارُ

ما أهون الخطوب (البلايا) على خليع (مستهتر) يلحق لذاته، ليس له عذار (تعبير معناه: متهتك)

نَزَلْنا مَنزلَ الحَسنِ بنِ وَهْبٍ وقدْ دَرَسَتْ مَغَانِيهِ القِفَارُ

نزلنا منزل (محلة) الحسن بن وهب وقد درست (امّحت) مغاني هذا المنزل (محاسنه) وصار قفراً (خراباً)

تَلَقَّيْنَا الشِّتَاءَ بِه، وَزُرْنَا بَنَاتِ اللَّهْوِ إذْ قَرُبَ المَزَارُ

هناك استقبلنا الشتاء، وزرنا بنات اللهو ـ وكان في ذلك الزمن دور للمحترفات ـ لقربهن من المكان

أقمْنَا؛ أكْلُنا أكْلُ اسْتِلابٍ هُناكَ، وشُرْبُنا شُرْبٌ بِدَارُ

مكثنا هناك، وأكْلُنا أكلٌ سريع كأنه انتهاب، وشربنا شرب متواصل سريع نبادره بِداراً

تَنازَعْنَا المُدَامَةَ وَهْيَ صِرْفٌ وأعْجَلْنَا الطَّبَائِخَ وَهْيَ نَارُ

لقد تنازعْنا الخمرة وهي صافية، واستعجلنا فأكلنا ما في القدور من طبيخ وهو حار كالنار

وَلَم يَكُ ذاكَ سُخْفاً، غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ الشَّرْبَ سُخْفُهُمُ الوَقَارُ
وهذا ليس سخفاً، فأنا أرى الوقار للشَّرب (شاربي الخمر) هو السخف الحق

رَضِينَا، مِنْ (مُخَارِقَ) و(ابنِ خَيْرٍ)، بِصَوْتِ الأَثْلِ إذْ مَتَعَ النَّهارُ
رضينا من مخارق وابن خير (بدلاً منهما، وهما مغنيان) بصوت شجر الأثل إذ تحركه الريح عندما متع (توسَّط) النهار

تُزَعْزِعُهُ الشَّمَالُ، وقد تَوَافَى على أنفاسِها قَطْرٌ صِغَارُ
تحركه ريح الشمال، وقد توارد على أنفاس (هبات) هذه الريح رذاذ خفيف

غَداةَ دُجُنَّةٍ لِلْغَيْثِ فيها خِلالَ الرَّوْضِ حَجٌّ واعْتِمَارُ
حدث هذا غداة (صبيحة) دجنَّة (ليلة معتمة) كان للغيث فيها صخب في الروض كصخب الحجاج والمعتمرين

كأنَّ الرِّيحَ والمَطَرَ، المُنَاجِي خَواطِرَهَا، عِتَابٌ واعْتِذَارُ
كأن الريح والمطر اللذين يناجيان خواطر الغصون (أي الغصون التي تخطر وتتحرك) عتاب واعتذار

أَصَابَ الدهرُ دولةَ آلِ وَهْبٍ وَنَالَ اللَّيلُ مِنْهُمْ والنَّهارُ
أنزل الدهر مصيبة بدولة آل وهب، ونال منهم الليل والنهار (الزمن)

أَعَارَهُمُ رِدَاءَ العِزِّ حتى تَقَاضَاهُمْ، فَرَدُّوا مَا اسْتَعَارُوا
أعارهم الدهر ثياب العز ثم تقاضاهم إياها (استردها منهم) فردوها

وما كانوا فَأَوْجُهُهُمْ بُدُورٌ لِمُخْتَبِطٍ، وأَيْدِيهِمْ بِحَارُ
وما كانوا (طيلةَ وجودهم في السلطة) كانت أوجههم بدوراً يهتدي بها المختبط (الساري ليلاً) وأيديهم كانت بحاراً (سخية بالعطاء)

٣٥ واعُمُرا

عَادَيْتُ مِرْآتِي، فَآذَنْتُها بِالهَجْرِ، ما كانتْ ومَا كُنْتُ
عاديت مرآتي فآذنتها (أبلغتها) بالهجر طول حياتي وطول حياتها.
كأن مرآته حبيبة وهو يريد أن يهجرها

كانَتْ تُرِينِي العُمْرَ مُسْتَقبَلاً وَهْيَ تُرِينِي الفَوْتَ مُذْ شِبْتُ
كانت تريني وجهي شاباً والعمر مقبلاً علي، والآن أصبحت المرآة تريني الفوت (الذهاب) منذ حل بي المشيب

وَاعُمُرَا، نَوْحَاً لِفِقْدَانِهِ، سِيَّانِ عِندي شِبْتُ أمْ مُتُّ
واعمرا (حسرة على العمر)، أنُوح لذهابه، ويتساوى عندي حلول الشيب والموت

٣٦ هكذا التعزية!

قال يعزي أبا نهشلٍ محمد بن حميد بن عبد الحميد الطوسي عن ابنته:

ظَلَمَ الدهرُ فِيكُمُ، وأَساءَ فَعَزاءً (بَنِي حُمَيْدٍ)، عَزاءَ
ظالم هذا الدهر فيما أصابكم به يا بني حميد من وفاة ابنتكم، فأنا أعزيكم. وانتظر بقية القصيدة لترى كيف يعزيهم!

يا (أبا القاسم)، المقَسَّمُ في النَّجـ ـدةِ والجودِ والنَّدَى أَجْزاءَ
يا أبا القاسم، وأنت مقسَّم النفس بين النجدة (النخوة) والكرم..

والهِزَبْرُ الذي، إذا دارتِ الحر بُ بهِ، صَرَّفَ الرَّدَى كيفَ شاءَ
.. ويا أيها الهزبر (الأسد) الذي، عندما تدور الحرب بك، تُوَجِّه الردى (الموت) نحو أعدائك كيفما شئت..

الأَسَى واجبٌ على الحُرِّ: إمَّا نِيَّةً حُرَّةً، وإمَّا رِياءَ
الحزن واجب على الحر، إما حقيقةً،
وإما رياء (بإظهار الحزن دون وجود حزن حقيقي)

وسِفَاهٌ أنْ يَجْزَعَ المرءُ مِمَّا كانَ حتماً على العِبادِ قَضاءَ
وسفاه (حُمْقٌ) أن يجزع (يتهيج حزناً) الإنسان من حَتْمٍ (محتوم) على كل الناس (الموت)

أَتُبَكِّي مَنْ لا يُنَازِلُ بالسَّيـ ـفِ مُشِيحاً، ولا يَهُزُّ اللِّوَاءَ؟
هل تُبَكِّي (تَبْكي) شخصاً لا يحارب بالسيف مشيحاً (مُقْدِماً)، ولا يرفع لواء (راية الحرب)؟ يقول: هل تبكي امرأة؟

والفَتَى مَنْ رأَى القبورَ، لِمَا طَا فَ بِهِ مِنْ بناتِهِ، أَكْفَاءَ
الفتى (الرجل الحقيقي) هو الذي يعتبر القبور الأكفاء الحقيقيين لمن طافَ حوله من بناته.
والكفء، في اعتبار فقهاء ذلك الزمن، الرجل المناسب مالاً ونسباً وديناً للزواج من امرأة بعينها.
عمران القفيني يقول: يرجى شتم البحتري على هذا البيت. قد فعلنا

لَسْنَ مِنْ زينةِ الحياةِ، كَعَدِّ اللَّـ ـهِ مِنْهَا الأموالَ والأَبْنَاءَ
البنات لسن من زينة الحياة، كما عدَّ الله في الآية زينة الحياة الدنيا
فكانت المال والبنين فقط

قد وَلَدْنَ الأعداءَ قِدْماً، وَوَرَّثْـ ـنَ التِّلادَ الأَقاصِيَ البُعَدَاءَ

زوَّجْنا بناتنا قدماً (قديماً) لغرباء وجاء أبناؤهن أعداءً لنا، وهن يورِّثن نصيبهن من التلاد (الميراث) للأزواج الأقاصي (الغرباء)

لَمْ يَئِدْ كُثْرَهُنَّ (قَيْسُ تَمِيمٍ) عَيْلَةً، بل حَمِيَّةً وإبَاءَ

ولم يقم قيس بن عاصم (رئيس قبيلة تميم) بوأد كثرهن (معظمهن: قيلَ وَأَدَ ثمانيَ بنات، وقيل اثنتيْ عشرة بنتاً في الجاهلية) عَيْلَةً (فقراً)، بل حميَّة (حفاظاً على الشرف) وإباء (رفضاً للذل)

وَشُعَيْبٌ مِنْ أَجْلِهِنَّ رأى الوَحْـ ـدَةَ ضَعْفاً، فَاسْتأْجَرَ الأنبياءَ

والنبي شعيب كان عنده بنتان، ولا ذكور، ولكنه مع ذلك شعر بالوحدة والضعف، فاستأجر النبي موسى

واسْتَزَلَّ الشَّيْطانُ آدمَ في الجنَّـ ـةِ لمَّا أغْرَى به حَوَّاءَ

استزلَّ الشيطان آدم: أوقعه في الزلل (الخطأ)

ولَعَمْرِي، مَا العَجْزُ عِندِيَ إلَّا أنْ تَبِيتَ الرجالُ تَبكي النِّساءَ

عجزٌ من الرجل أن يبكي امرأة ماتت

٣٧ احتجاج للشيب

قال يمدح الشيب:

بَكَرَتْ تُعَيِّرُني (نَوارُ) سَفَاهةً وَضَحَ المَفَارِقِ، وابْيِضَاضَ المِسْحَلِ

بكرت (جاءت) نوار تعيرني، لسفاهتها، وضح المفارق (بياض مفرق الرأس) وبياض المسحل (السالف)

وَيْكُمْ! بَياضُ الصُّبْحِ أَحْسَنُ مَنْظراً، في العينِ، مِنْ ظَلْماءِ ليلٍ أَلْيَلِ

ويكم! (ويحكم) البياض في العين (إذ تراه العين) أجمل من السواد

والصَّارِمُ المَصْقُولُ أَحْسَنُ حَالةً، يومَ الوَغى، مِنْ صَارِمٍ لم يُصْقَلِ

الصارم (السيف) المصقول اللامع، يكون أفضل في الوغى (الحرب) من سيف صدئ

والشَّمْسُ، لولا ضَوْؤُها، ما اسْتُحْسِنَتْ والبدرُ، لولا نُورُهُ، لم يَجْمُلِ

وكذا الشمس والقمر جمالهما في ضوئهما

٣٨ قاهر الروم

يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الصامتي:

نَـكْـرَهُ الـعَـاجِـزَ الـضَّـعِـيـفَ إذا جَـا   ءَ؛ وكُـنْـتَ الـقَـوِيَّ، فـيـنَـا، الأَمِـيـنَـا
ثَـبَّـتَ الـلَّـهُ وَطْـأَةً لَـكَ، أَمْـسَـتْ   جَـبَـلاً رَاسِـيـاً عـلـى الـمُـشْـرِكِـيـنـا
رُبَّـمَـا وَقْـعَـةٍ شَـمَـلْـتَ بِـهـا الـرُّو   مَ، فَـبَـاتُـوا أَذِلَّـةً خَـاضِـعِـيـنـا

ربما (ربَّ)

قَـدْ أَمِـنَّـا أَنْ يَـأْمَـنُـوكَ، عـلـى حَـا   لٍ، ولـو صَـيَّـرُوا الـنُّـجُـومَ حُـصُـونـا

قد أمنا (تأكدنا) أنهم لن يأمنوك (لن يكونوا في أمان منك) مهما كان، حتى لو جعلوا النجوم حصوناً لهم

فَـزَّعُـوا بِـاسْـمِـكَ الـصَّـبِـيَّ، فَـعَـادَتْ   حَـرَكَـاتُ الـبُـكَـاءِ مِـنْـهُ سُـكُـونَـا

يخوفون باسمك الصبي عندهم، فإذا بكى الولد ذكروا له اسمك، كما نذكر اليوم للولد الغول، فيكف عن البكاء خوفاً

وتَـوَافَـتْ خَـيْـلاكَ مِـنْ أَرضِ (طَـرْسُـو   سَ) و(قَـالِـي قَـلا)، (بِـأَرْدَنْـدُونـا)

جاءت طائفتان من خيلك من طرسوس وقالي قلا لتحل في أردندون

عَـابِـسَـاتٍ يَـحْـمِـلْـنَ يـومـاً عَـبُـوسَـاً   لأُنَـاسٍ عـنْ خَـطْـبِـهِ غَـافِـلِـيـنَـا

الخيل عابسة لشدة تعبها، وهي تحمل نذيراً عابساً للأعداء الغافلين عما سيحل بهم

مَـا أَطَـاقُـوا دَفْـنَ الـذي أَظْـهَـرُوهُ؛   كَـبُـرَ الـحِـقْـدُ أَنْ يَـكـونَ دَفِـيـنـا

لم يستطع الأعداء إخفاء حقدهم لأنه كبير

بَـعْـضَ بَـغْـضَـائِـكُـمْ! فَـلَـيْـسَ مُـفِـيـقَـاً،   أَوْ يَـرُدَّ الأَدْيَـانَ، بِـالـسَّـيْـفِ، دِيـنـا

بعضَ بغضائكم (خففوا من كرهكم)! فلن يُفيق (يكف) أبو سعيد إلا عندما يرد (يحول) الأديان بالسيف ديناً واحداً، بأن يدخل الجميع في الإسلام

ولَـعَـمْـرِي! مَـا مـاءُ زَمْـزَمَ أَحْـلَـى   عِـنْـدَهُ مِـنْ دَمٍ «بِـزَارِمِّـيـنَـا»

الدم المراق في تلك المعركة في زارمِّين أطيب عنده من ماء زمزم

يَـجْـعَـلُ الـبِـيضَ، حِـينَ يَـأْسِرُ، أَغْـلا   لاً لأَسْـرَاهُ، والـمَـنَـايَـا سُـجُـونَـا

يجعل أبو سعيد البيض (السيوف) بمثابة أغلال (قيود) للأسرى ـ أي يقتلهم ـ، ويجعل الموت لهم سجناً

٣٩ الجود عند المقدرة

يمدح الحسن بن وهب:

يا صَيْقَلَ الشِّعْرِ، المُقَلَّدُ بالذي يُختَارُ مِنْ قَلْعِيِّهِ ويَمانِه

يا صيقل (صانع السيوف) الشعر المقلَّد (المتخذ قلادة: عقداً) بأجود الشعر المختار. والقلعي واليماني نوعان من السيوف. يقول: أنت شاعر وعارف بالشعر الجيد وتتقلد القصائد المختارة الجميلة التي يمدحك بها المادحون كما يتقلد صانع السيوف أفضل الأنواع

إسْمَعْهُ مِنْ قَوَّالِهِ تَزْدَدْ بِهِ عُجْباً، وطِيبُ الوَرْدِ في أَغْصَانِه

اسمع الشعر من قائله (صاحبه) يزدد إعجابك به، لأنه طازج. والورد على غصنه أطيب منه مقطوفاً

أَحْسَنْتُ فيهِ مُبَرِّزاً، فَجَفَوْتَني وتَبَرُّ أَقْوَاماً على اسْتِحْسانِه

أنا أحسنت في الشعر وبرَّزت (تفوقت) فجفوتني (أبعدتني) وفي الوقت نفسه تكافئ الناس على استحسانك الشعر

والأَرْضُ تَبْذُلُ في الرَّبيعِ نَبَاتَها، وكَذَاكَ بَذْلُ الحُرِّ في سُلْطَانِه

الأرض تكون معطاء في الربيع، وكذلك الرجل الحر يكون معطاء في زمن سلطانه

واعْلَمْ بِأَنَّ الغَيْثَ ليسَ بِنَافِعٍ لِلْنَّاسِ، ما لم يأْتِ في إِبَّانِهِ

والغيث (المطر) لا ينفع الناس إلا إذا جاء في إبانه (وقته)

٤٠ لستَ من أكفائه

يهجو أحدهم في معرض مدحه يوسف بن محمد الثغري:

ومُؤَمَّرٍ صارَعْتُهُ عَنْ عُرْفِهِ فَوَجَدْتُ (قُدْسَ) مُعَمَّماً بِعَمَائِهِ

رب مؤمر (صاحب إمارة) صارعته عن عرفه (جاهدت للحصول على مال منه)، فوجدته جامداً كجبل قدس المعمم عند قمته بعمائه (بغيومه)

جِدَةٌ يَذُودُ البُخْلُ عَنْ أطرافِهَا، كالبَحْرِ يَدْفَعُ مِلْحُهُ عنْ مائِهِ

لديه جدة (غنى) يذود البخل عن أطرافها (يحميها البخل)،
مثل ماء البحر الذي يحميه ملحه من أن نشربه

خَطَبَ المديحَ، فقلتُ: خَلِّ طريقَه لِيَجُوزَ عنكَ؛ فَلَسْتَ مِنْ أَكْفَائِهِ

طلب هذا البخيل مديحي كمن يخطب عروساً، فقلت له: اترك طريق المدح، فلست كفئاً له (والرجل يخطب المرأة إذا كان لها كفئاً من حيث المال والنسب والدين)

٤١ رقيب اللُّقَم

يهجو بعض بني حُمَيْد:

جَـزْلُ الـرَّقَـاعَـةِ، فَـدْمٌ، يَـدَّعـي أَدَبـاً   ولـيـسَ يَـفْـرُقُ بـيـنَ التِّـيـنِ والطِّـيـنِ

جزل الرقاعة (كثير الحماقة) فدم (غبي) يدعي الذوق الأدبي، لكنه لا يفرق بين التين والطين

جَهْمٌ عَبُوسٌ، على ظَهْرِ الخِوَانِ لَهُ   تَفرِيقُ لَحْظٍ كَأَطْرَافِ السَّكَاكِينِ

جهم (عبوس)، يكون له على المائدة إذ يدعو الناس تفريق لحظ (توزيع نظرات) كأنها أطراف السكاكين. رجل بخيل يرشق ضيوفه بنظرات حادة وهم يأكلون

٤٢ الغزو بجيش القوافي

يعاتب إبراهيم بن الحسن بن سهلٍ على عربدةٍ كانت منه عليه:

أَمَـا اسْـتَـحْـيَـيْـتَ مِـنْ مِـدَحٍ سَـوَارٍ   بِـوَصْـفِـكَ في التَّـهَـائِـمِ والـنُّـجُـودِ؟

ألم تستحْيِ من مِدَحٍ (قصائد مدح) سوار (سارياتٍ مسافرات) تسافر ـ حاملة وصفك ـ في التهائم (المرتفعات) والنجود (الأغوار)؟

تَـوَدُّ بِـأَنَّـهـا لَـكَ فِـيَّ عُـجْـبـاً   بِجَوْهَـرِهَـا الـمُـفَـصَّـلِ في الـنَّـشِـيـدِ

أنت تودُّ لو أنك أنت قلت هذه القصائد في مدحي أنا، فأنت تضحي بمدح ذاتك لإعجابك بهذه الدرر التي يُبرز روعتها الإنشاد. [هذا المعنى الذي لمحته]

بَنَتْ لكَ مَعْقِلاً في الشِّعْرِ ثَبْتَاً،   وأَبْـقَـتْ مِـنْـكَ ذِكْـرَاً في الـقَـصِـيـدِ

على أن قصائدي بنت لك حصناً ثابتاً في دنيا الشعر، وتركت لك ذكراً منقوشاً بالشعر

وتَـبْـدَهُـنـي إذا مَـا الـكَـأْسُ دَارَتْ   بِـنَـزْقَـاتٍ تَـجِـيءُ عَـلـى الـبَـرِيـدِ

وتبدهني (تفاجئني) إذا دارت الكأس بنزقات (عربدات) يشيع ذكرها ويذهب بها البريد إلى كل مكان. [هذا المعنى الذي لمحته]

ومَـا لـي قُـوَّةٌ تَـنْـهَـاكَ عَـنِّـي   ولا آوِي إلـى رُكْـنٍ شَـديـدِ

وليس لي قوة تنهاك (تكفُّك) عني، ولا ظهر لي يسندني من أذاك

سوى شُعَلٍ يَخَافُ الحُرُّ مِنْها   لَـهِـيـبـاً غَـيـرَ مَـرْجُـوِّ الـخُـمُـودِ

اللهم إلا شُعلاً ناريةً (أبيات هجاء) يخاف منها الحر الحريص على سمعته لهيباً لا يرجى له انطفاء

ولـو أنِّـي أشَـاءُ ـ وأنـتَ تُـرْبِـي   عَـلَـيَّ ـ لَـثُـرْتُ ثَـوْرَةَ مُـسْـتَـقِـيـدِ

ولو شئت ـ رغم أنك تربي (تزيد) عني في البأس ـ لثرت ثورة مستقيد (طالب للقصاص)

ظَلَمْتَ أَخاً لَوِ التَمَسَ انتِصَاراً   غَـزَاكَ مِـنَ الـقَـوافـي فـي جُـنُـودِ
ظلمت أخاً (صاحباً) لو التمس (طلب) انتصاراً (انتقاماً) لغزاك بجنود هي عبارة عن أبيات الهجاء

٤٣ العراق أنْت

مودِّعاً أبا نهشل:

لا أُطِيقُ الـسُّـلُوَّ عَـنْـكَ، ولـو أنَّ ـ   فُـؤَادِي مِـنْ صَـخْـرَةٍ مَـرْمَـرِيـسِ
السلو (النسيان)، مرمريس (ضخمة)

لَيسَ حُزْني على العِرَاقِ، ومَا يُلْـ   ـبِسُـهَـا الـدَّهـرُ مِـنْ نَـعِـيـمٍ وَبُـوسِ
بوس (بؤس)

مـا تُـرَابُ الـعِـرَاقِ بِـالـعَـنْـبَـرِ الـوَرْ   دِ، ولا مَـاءُ دِجْـلَـةٍ بِـمَـسُـوسِ
فتراب العراق ليس من العنبر الورد (الوردي اللون)، ولا ماء دجلة المسوس (الترياق الشافي)

غَيْرَ أَنِّي مُخَلَّفٌ، مِنْكَ، في آ   خِـرِ بَـغْـدَادَ، فَـضْـلَ عِـلْـقٍ نَـفِـيـسِ
لكنني خلفت (تركت ورائي) في بغداد منك (أي ممثلا بك) فضل علق نفيس (بقية جوهر ثمين)، أي أنك جوهرة غالية على قلبي

٤٤ نفوسنا تتبعك

قال في وداع سليمان بن وهب:

وذي رَاحَـةٍ مِـثْـلِ صَـوْبِ الـغَـمَـا   مِ، لَـيـسَ لـه فـي الـعُـلا مُـؤْنِـسُ
رُبَّ صاحبِ راحةٍ (كفٌ) تشبه صوب الغمام (مطرَ الغيم)، يجلس في العلا (المجد) وحيداً ليس معه أحد يؤنسه، لأنه لا يوجد من هو في علوّه

تَـحَـمَّـلَ نَـحْـوَ بِـلادِ الـشَّـآ   مِ، يَـحْـمِـلُـهُ مَـهْـمَـهٌ أَمْـلَـسُ
تحمَّل (زم متاعه للرحيل) نحو الشام، وحَمَلَه مهمه أملس (صحراء جرداء)

إذا مَـجَّـهُ بَـلَـدٌ بَـسْـبَـسٌ   تَـلَـقَّـمَـهُ بَـلَـدٌ بَـسْـبَـسُ
في ترحاله كان يمجه (يقذفه) بلد بسبس (مقفر) ليتلقفه بلد بسبس آخر

أَقُـولُ لـه عِـنْـدَ تَـودِيـعِـنـا   وكُـلٌّ بِـحَـاجَـتِـهِ مُـبْـلِـسُ:
أقول له عند الوداع، وبينما كل شخص مبلس (قلق ومشغول) بحاجته (بشأنه)، فهو رجل راحل وهمومه أمامه، وأنا مقيم ولي شغل يشغلني مختلف عن شغله هو، أقول له..

لَئِنْ قَعَدَتْ عنكَ أجْسامُنا   لقد سافَرَتْ مَعَكَ الأَنْفُسُ

.. لئن بقينا بأجسامنا، فإن أنفسنا (أرواحنا) تسير معك

هذا شأن من يودع عزيزاً، فهو يتابعه بقلبه؛ فأما من يودِّع غير عزيز فهو يترقب انتهاء لحظة الوداع ليعود إلى شأنه ويسقط من حسابه ـ ولو إلى حين ـ الشخص المرتحل

٤٥ رابعها لا ثالثهما

يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

يا نَديميَّ بِالسَّواجِيرِ مِنْ وُدِّ ـ   ابْنِ مَعْنٍ وبُحْتُرِ بْنِ عُتُودِ

يا صاحبيَّ في منطقة السواجير (قرب نهر الساجور عند منبج بشمال سوريا)

أُطْلُبَا ثَالِثاً سِوَايَ، فَإنِّي   رَابِعُ العِيسِ والدُّجَى والبِيدِ

اتركاني وابحثا عن ثالث لكما، فأنا رابع العيس (الجِمال) والدجى (الليل) والبيد (الصحارى).
يقول إنه رجلُ سَفَرٍ ومغامرة

٤٦ القنفذ

يمدح يوسف بن محمد بن يوسف:

ومُحْتَرِسٍ، مِنْ أينَ رُمْتَ اغتِرَارَه   وَجَدْتَ لَهُ سَهْماً إلَيْكَ مُفَوَّقا

هذا رجل محترس؛ من أي جهة رمت (أردت) اغتراره (خداعه) رأيته قد سدد إليك سهماً مفوقاً (مفلوجَ الذيل كي يثبت فيه الوتر، أي جاهزاً للإطلاق)

٤٧ مع السلطان.. ضد الخارجي

يمدح أبا سعيدٍ محمداً الثغري، ويذكر قتاله محمد بن عمرٍو الشاري الخارجي:

أَأَفاقَ صَبٌّ مِنْ هَوَىً، فَأُفِيقا؟   أم خَانَ عهداً، أم أَطَاعَ شَفِيقا؟

أفاق (كفَّ)، صب (عاشق)، الشفيق (المشفِق عليه)

إنَّ السُّلُوَّ، كَما تقولُ، لَرَاحَةٌ   لو راحَ قلبي لِلسُّلُوِّ مُطِيقَا

مثلما تقول أيها المشفق فإن السلو (النسيان) راحة، هذا لو أطاق (احتمل) قلبي السلو

غَدَتِ الجَزيرةُ في جَنَابِ محمدٍ   رَيَّا الجَنابِ، مَغارِباً وشُرُوقا

الجزيرة (منطقة في شمال شرق سوريا) ريا الجناب (مرتوية الأنحاء)

رَفَعَ الأميرُ أبو سَعيدٍ ذِكرَها   وأقامَ فيها للمَكارِمِ سُوقا

يَسْتَمْطِرونَ يَداً يَفِيضُ نَوالُها فَيُغَرِّقُ المحْرومَ والمرْزُوقا

الناس يستمطرون (يطلبون المطر والخير) من يده التي يفيض نوالها (عطاؤها) فيعم المحروم والمرزوق

كُنَّا نُكَفِّرُ مِنْ أُمَيَّةَ عُصْبةً طَلَبوا الخِلافةَ، فَجْرَةً وفُسُوقا

كنا نكفر جماعة من بني أمية سعوا لأخذ الخلافة فجرة (كذباً) وفسوقاً

ونَلُومُ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ كِلَيْهِما ونُعَنِّفُ الصِّدِّيقَ والفَارُوقا

ونلوم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، ونوبخ أبا بكر الصديق وعمر الفاروق، وكل هؤلاء يعدهم الشيعة مخطئين في مسألة حق آل البيت في الخلافة

وهُمُ قُرَيْشُ الأَبْطَحَيْنِ إذا انْتَمَوْا طَابُوا أُصُولاً فِيهِمُ وعُرُوقا

نلومهم مع أنهم من قريش الأبطحين (قريش ساكنة البطاح، ونسبها أعلى من بطون قريش الأخرى)

ونقولُ تَيْمٌ قَرَّبَتْ وعَدِيُّهَا أَمْراً بعيداً، حيثُ كانَ، سَحِيقا

وكنا نقول إن تيماً (فرع أبي بكر الصديق) وعديًّا (فرع عمر بن الخطاب) قربا الخلافة مع أنها بعيدة بعداً سحيقاً عن استحقاقهم

حتى غَدَتْ جُشَمُ بْنُ بَكْرٍ تَبْتَغي إِرْثَ النبيِّ، وتَدَّعِيه حُقُوقا

والآن تريد قبيلة جشم بن بكر (قبيلة محمد الشاري الطامع في الخلافة) إرث النبي وتراه حقها، فيا للمسخرة!

جَاءُوا بِرَاعِيهِمْ لِيَتَّخِذُوا به عَمْداً، إلى قَطْعِ الطَّرِيقِ، طَرِيقا

جاءوا برجل منهم هو راعي إبل أو غنم وجعلوا مطالبته بالخلافة طريقة لقطع الطريق والنهب

وأَقامَ يَنْفُذُ في الجزيرةِ حُكْمُه ويَظُنُّ وَعْدَ الكاذِبِينَ صَدُوقا

وأقام بالجزيرة متسلطاً، وهو يظن وعد حلفائه بمساندته صدقاً

حتى إذا مَا الحَيَّةُ الذَّكَرُ انْكَفَا مِنْ «أَرْزَنٍ» حَنِقاً، يَمُجُّ حَرِيقا

حتى إذا ما انكفأ (رجع) الحية الذكر (الرجل القوي المدبر) من منطقة أرزن وهو حنق (غاضب) يمج (ينفث) النار..

غَدَرَتْ أَمَانِيه به، وتَمَزَّقَتْ عَنْه غَيَابَةُ سُكْرِهِ تَمْزِيقا

.. عندئذ غدرت أماني المنشقِّ به، وتمزقت غيابة سكره (يقصد غيابه عن وعيه سكراً/والغيابة في المعجم القعر)

طَلَعَتْ جِيَادُكَ مِنْ رُبَا الجُودِيِّ، قد حُمِّلْنَ مِنْ دُفَعِ المَنُونِ وُسُوقا

طلعت جيادك (خيولك) من ربا جبل الجودي (جبل يقع جنوب شرق تركيا الحديثة)، وهي محملة وسوقاً (أحمالاً) من دفع المنون (زخات الموت)

يَطْلُبْنَ ثَأْرَ اللَّهِ عندَ عِصابةٍ خَلَعُوا الإمامَ، وخَالَفُوا التَّوْفِيقا

الإمام (الخليفة)

٤٨ ترفع عن الشتم

يمدح أبا نهشلٍ محمد بن حميدٍ الطوسي ويعاتبه:

لآلِ حُمَيْدٍ مَذْهَبٌ فيَّ، لم أَكُنْ لأذْهَبَه فِيهِمْ، ولو جَدَعُوا أَنْفي

لآل حميد طريقة في معاملتي ما كان يمكن أن أتبعها معهم ولو جدعوا أنفي

ولم أَرْمِ إلَّا كانَ عِرْضُ عَدُوِّهِمْ مِنَ الناسِ قُدَّامي، وأَعْراضُهُمْ خَلْفِي

لم أكن أرمي بسهامي (بشعري وهجائي) إلا وأعراض أعدائهم أمامي أرميها، وأما أعراضهم هم فهي خلفي أحميها

جَعَلْتُ لِساني دونَهُمْ، ولَوَ انَّهُمْ أَهَابُوا بِسَيْفِي كان أَسْرَعَ مِنْ طَرْفي

جعلت لساني دونهم (حامياً لهم)، ولو أهابوا (طلبوا) أن أنصرهم بالسيف لكان سيفي أسرع من طرفي (نظري). أي أنني كنت نصرتهم بأسرع من رمشة العين

رَجَعْتُ إلى حِلْمِي، ولو شِئْتُ شُرِّدَتْ نَوافِذُ تَمْضِي في الدِّلاصِيَّةِ الزُّغْفِ

وبعد أن دافعت بالهجاء عن هؤلاء القوم رجعت إلى حلمي (مسامحتي)، ولو شئت لشُرِّدتْ (لأطلقت) سهام نوافذ (نافذة) تمضي (تدخل) في الدلاصية الزغف (الدرع الواسعة). يقصد لو شئت لأسرفت في الشتم، ولكن..

أَبَى لي العُبَيْدُونَ الثَّلاثَةُ أَنْ أُرَى رَسِيلَ لَئِيمٍ في المُبَاذَاةِ والقَذْفِ

..أبى لي العبيدون الثلاثة (أسلافه ومنهم أبوه عبيد) أن يراني الناس رسيل (شريك) لئيم في المباذاة (تبادل البذاءات) والقذف (الشتم)

وأَجْبُنُ عَنْ تَعريضِ عِرْضي لِجَاهِلٍ وإنْ كنتُ في الإقدامِ أَطْعَنُ في الصَّفِّ

أنا جبان عن تعريض عرضي لجاهل (سفيه)، وإن كنت في الحرب أطعن صف الأعداء

ولما تَبَاذَيْنا فَرَرْتُ مِنَ الخَنا بِأَشْياخِ صِدْقٍ، لم يَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ

لما تباذينا (تبادلنا الشتم البذيء) هربت من الخنا (الفحش) منقذاً من العار ذكرى أشياخ صدق (أسلاف ذوي مكانة)، كانوا شجعاناً لا يفرون من الزحف

وإنِّي لَئِيمٌ إنْ تَرَكْتُ لأُسْرَتِي أَوَابِدَ تَبْقَى في القَرَاطِيسِ والصُّحْفِ

سأكون لئيماً لو تركت لأحفادي أوابد (قصائد خالدة) يقولها الأعداء في هجائنا وتبقى في القراطيس والصحف (الأوراق)

وَإِنِّـي لأَسْـتَـبْـقـي وِدَادَكَ لـلَّـتـي   تُلِمُّ، وأَرْضَى مِنْكَ دونَ الذي يَكْفي

يا أبا نهشل: إنني أبقي على الود معك لوقت الملمات، وأما بالنسبة للعطايا والمكافآت المالية فأنا أرضى منك بأقل مما يكفي حاجتي

وأَسْأَلُكَ النِّصْفَ احْتِجازاً؛ ورُبَّمَا   أَبَيْتُ، فلَمْ أَسْمَحْ لِغَيْرِكَ بِالنِّصْفِ

أسألك النصف (أن تنصفني فلا تزيد عن الحد الأدنى) احتجازاً (فضاً للخلاف)، ومن غيرك لا أقبل بالحد الأدنى

فلا تَجْعَلِ المَعْرُوفَ رِقّاً، فَإِنَّنا   خُلِقْنا نُجُوماً ليس يُمْلَكْنَ بِالعُرْفِ

فلا تجعل معروفك عبودية لي، فنحن نجوم لا يملكنا المال

٤٩ تقويم الأضلاع

يمدح يوسف بن محمد بن يوسف:

مـا أَحْـسَـنَ الأيّـامَ! إلّا أَنّـهـا   يا صاحِبَيَّ! إذا مَضَتْ لم تَرْجِعِ

كانوا جَمِيعاً، ثم مَزَّقَ شَمْلَهُمْ   بَيْنٌ، كَتَقْويضِ الجَهَامِ المُقْلِعِ

بين (فراق)، كتقويض (كتشتيت) الجهام (السحاب غير الماطر) المقلع (المتبدد)

ووراءَهُمْ صُعَداءُ أَنْفاسٍ، إذا   ذُكِرَ الفِراقُ أَقَمْنَ عُوجَ الأَضْلُعِ

وبعد ذهابهم كنت أزفر الأنفاس الحرى التي تكاد لشدتها تقوم أضلاع صدري المعوجة. أخذ المعنى إيليا أبو ماضي في قوله: (لقد تُوشِكُ الحُمَّى، إذا جَدَّ جِدُّهَا//تُقَوِّمُ مِنْ أَضْلاعِيَ المُتَأَوِّدَا)

مَدَّتْ وِلايَةُ يوسُفَ بْنِ مُحمدٍ   سُوراً على ذاكَ الفَضاءِ البَلْقَعِ

ولاية هذا الرجل كانت بمثابة سور أحاط بالفضاء البلقع (الأرض الواسعة الفارغة) فحمى البلاد من الأعداء

وأَعِنَّةُ الإسلامِ في يَدِ حَازِمٍ   قد قَادَها زمناً، ولم يَتَزَعْزَعِ

أعنة (مقاود، حبال تقاد بها الإبل الخ)

وَلْتَهْنِكَ الآنَ الوِلايَةُ، إنَّها   طَلَبَتْكَ مِنْ بَلَدٍ بَعيدِ المَنْزِعِ

هنيئاً لك الولاية، فهي التي طلبتك وكنت في بلد بعيد المنزع (المرمى، الموقع)

لم تُعْطِها أَمَلاً، ولم تَشْغَلْ بِهَا   فِكْراً، ولم تَسْأَلْ لها عَنْ مَوْضِعِ

لم تكن الولاية ضمن أمنياتك، ولم تكن تفكر فيها

ورأيتَ نفسَكَ فوقَها، وَهِيَ التي   فوقَ العَلِيِّ مِنَ الرِّجالِ الأَرْفَعِ

وصَلَتْكَ حينَ هَجَرْتَها، وتَزَيَّنَتْ بِأَغَرَّ وافي السَّاعِدَيْنِ سَمَيْدَعِ

أنت هجرت المنصب وهو جاءك. وتزين المنصب بك وأنت رجل أغر (بارز) وافي الساعدين (قوي) سميدع (شريف)

٥٠ نحن محاويج للمباهيج

أمَّا فؤادي! فَعِنْدَ اللَّهِ حِسْبَتُهُ فقد تَقَسَّمَهُ الغُرُّ المَبَاهِيجُ

عند الله حسبة قلبي (ثوابه عن معاناته/وفي الدين أن الذي يعاني يؤجر حتى لو لم يصنع خيراً) فقد اقتسم قلبي الغر (البيض) المباهيج (الحسان)

الغَانياتُ اللواتي قد رُزِقْنَ غِنَىً عَنَّا، ونَحْنُ إلَيْهِنَّ المَحَاوِيجُ

هؤلاء الحسان رَزَقهن الله غنى عنا (هكذا يظن أبو عبادة)، وأما نحن فنحتاج إليهن

٥١ الشيب الأسود

يمدح أبا أيوب:

وفُتُوَّةٍ جَمَعَ التُّقَى أطرافَها ونَدىً أحاطَ بِجَانِبَيْهِ السُّؤْدَدُ

هذه فتوة (شباب مع شهامة) ولكنها محاطة من أطرافها بالتقوى، وندى (كرم) وهو محاط من جانبيه بالسؤدد (السيادة)

وشَبِيبَةٍ فيها النُّهى، فإذا بَدَتْ لِذَوي التَّوَسُّمِ، فَهْيَ شَيْبٌ أسْوَدُ

وشبيبة (شباب) فيها النهى (العقل)، فإذا رآها ذوو التوسم (أهل الفراسة) عرفوا أنها شبيبة عاقلة، فكأن أصحابها شابوا ولكن.. شيباً أسود. أرأيت كيف يلوي البحتري اللغة ليّاً حتى يختصر المعنى ويجعله يرقص داخل عبارة ترقص

٥٢ وما عليَّ إذا لم تفهم البقر

يمدح علي بن مُرٍّ الطائي:

في الشَّيْبِ زَجْرٌ لهُ، لَوْ كانَ يَنْزَجِرُ، ووَاعِظٌ مِنْهُ، لولا أنه حَجَرُ

يخاطب نفسه كأنه يخاطب شخصاً غائباً: في الشيب زجر (ردع) له لو كان يرتدع، وفي الشيب واعظ ذاتي له، ولكن هذا الرجل حجر لا يتعظ

اِبْيَضَّ ما اسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيْهِ، وارْتَجَعَتْ جَلِيَّةُ الصُّبْحِ مَا قد أَغْفَلَ السَّحَرُ

ابيض ما كان مسوداً من فوديه (سالفيه)، واسترجعت جلية الصبح (انجلاء الصباح) ما كان أغفله السحر (قبيل الفجر). يقول إن بقايا شعرات سود كانت ما زالت باقية على سوادها، ثم طلع عليها فجر المشيب فبيَّضها

وَلِلفَتَى مُهْلَةٌ في الحُبِّ واسِعَةٌ   مَا لم يَمُتْ في نَواحِي رأسِهِ الشَّعَرُ

للفتى مهلة طويلة لكي يعشق، ولكن قبل أن يموت الشعر (يبيضّ) في جوانب رأسه

قالتْ: مَشِيبٌ وعِشْقٌ رُحْتَ بَيْنَهُما،   وذاكَ في ذاكَ ذَنْبٌ ليس يُغْتَفَرُ!

قالت له العاشقة: أنت معلق بين مشيب وعشق، والعشق مع وجود الشيب ذنب لا يغتفر

عَزَّى عنِ الحَظِّ أنَّ العَجْزَ يُدْرِكُهُ،   وهَوَّنَ العُسْرَ عِلْمي فيمَنِ اليُسُرُ

عزاني عن قلة حظي أن المحظوظ سيؤول يوماً إلى عجز عندما يسن، وهون علي العسر (الفقر) علمي في أي الناس يحل الغنى. فالأغنياء هم السفلة، لذلك لست آسفاً على فوات الغنى

لم يَبْقَ مِنْ جُلِّ هذَا النَّاسِ بَاقِيَةٌ   يَنالُها الوَهْمُ إلَّا هذه الصُّوَرُ

لم يبق من معظم هؤلاء الناس بقية ينالها الوهم (يتصورها العقل) إلا هذه الصور الزائفة

بُخْلٌ وجَهْلٌ، وحَسْبُ المَرْءِ واحِدَةٌ   مِنْ تَيْنِ حتى يُعَفَّى خَلْفَهُ الأَثَرُ

فيهم بخل وجهل، وتكفي المرء واحدة من تين (هاتين) حتى يعفَّى (يزال) خلفه أثر أقدامه لئلا يكُرَّ عائداً

إذا مَحَاسِنِيَ اللاتِي أُدِلُّ بِها   كانتْ ذُنوبِي، فَقُلْ لِي: كيف أَعْتَذِرُ؟

إذا كانت محاسني اللاتي أدل بها (أفخر بها) معدودة في الذنوب،
فكيف أعتذر (كيف أجد تسويغاً لمطالبي)

أَهُزُّ بِالشِّعْرِ أَقواماً ذَوِي وَسَنٍ   في الجَهْلِ، لو ضُرِبُوا بالسَّيْفِ مَا شَعَرُوا

أهز بشعري (أبعث النخوة) أناساً ذوي وسن (نعاس) نائمين في جهلهم، لو ضربوا بالسيف لما شعروا لتحجر مشاعرهم

عَلَيَّ نَحْتُ القَوافِي مِنْ مَقَاطِعِها   ومَا عَلَيَّ إذا لم تَفْهَمِ البَقَرُ

عليَّ نحت القوافي من أماكن قطعها في الصخر، ولا ذنب علي إن لم تفهم البقر شعري أخذنا رواية «الموازنة» لهذا البيت لأنها أحلى

٥٣ بغال البشر

يخاطب سعيد بن معاوية:

أُشَرِّقُ أم أُغَرِّبُ يا سَعِيدُ   وأَنْقُصُ مِنْ زَمَاعِي، أم أَزِيدُ؟

زماعي: عزمي

تَقَاذَفُ بِي بِلادٌ عن بِلادٍ   كأَنِّي بينَها جَمَلٌ شَرُودُ

البلاد تتقاذفني كما يتجول الجمل الشرود (الفار) بين الخيام، وكل قوم يضربونه ليبتعد عنهم درءاً لشبهة السرقة

وخَلَّفَني الزمانُ على أُناسٍ وجوهُهُمُ وأَيْدِيهِمْ حَدِيدُ

تركني الزمان لكي أرى ناساً وجوههم كشرة وأيديهم جامدة بخلاً

لهُمْ حُلَلٌ حَسُنَّ، فَهُنَّ بِيضٌ وأَفعالٌ سَمُجْنَ، فَهُنَّ سُودُ

لهم حلل (ثياب) حسنَّ (جَمُلْنَ) فهن بيض، ولهم أفعال سمجة (قبيحة) فكأنها سوداء

وأخلاقُ البِغَالِ؛ فَكُلَّ يَومٍ يَعِنُّ لِبعضِهِمْ خُلُقٌ جَديدُ

ولهم أخلاق البغال. ونقل لنا الجاحظ: «البغل كثير التلون.. وهو مع هذا قتّال لصاحبه»، وصنع في كتابه المعروف قائمة بمن قتلتهم بغالهم

وأكثرُ ما لِسَائِلِهِمْ لَديْهِمْ إذا ما جاءَ قولُهُمُ: تَعُودُ

أكثر شيء لديهم يعطونه لسائلهم (المستعطي منهم) قولهم: تعودُ (فوت علينا بُكرة)

أُناسٌ لو تَأَمَّلَهُمْ لَبِيدٌ بَكَى الخَلْفَ الذي يَشْكُو لَبِيدُ

أناس لو تأملهم الشاعر لبيد لبكى وترحم على الخلْف (الجيل الجديد الطالح) في زمنه الذين هجاهم لسوئهم إشارة إلى بيت لبيد بن ربيعة، وقد أَسَنَّ كثيراً: (ذهب الذين يُعاش في أكنافهم/ وبقيت في خلْف كجلد الأجرب)، فلبيد يتأفف من معاصري شيخوخته لأن الأكارم من السلف ماتوا ولم يبق سوى ناسٍ متعفنين رديئين كجلد البعير الأجرب. والبحتري يقول: هؤلاء الناس في زمني أنا لو رآهم لبيد لبكى على المتعفنين شوقاً إليهم، فمعاصِرِيَّ أردأ بكثير

ألا لَيْتَ المَقَادِرَ لم تُقَدَّرْ ولم تَكُنِ الأَحَاظي والجُدُودُ

ليت الأقدار لم تقدَّر بشكلها الحالي، وليتَ لم تكن موجودة الأحاظي (الحظوظ) والجدود (جمع الجَدِّ وهو الحظ). ذلك أن الحظوظ في نظره هي التي ترفع بعضاً وتخفض بعضاً

فَنَنْظُرَ أَيُّنا يُضْحي ويُمْسي له هذِي المَوَاكِبُ والعَبِيدُ

فلو حدث ذلك لرأينا من الذي يكون له هذه المواكب والعبيد

فَلَوْ كانَ الغِنَى حَظّاً كَريماً لأَخْطَأَهُ النَّصَارَى واليَهودُ

لو كان الغنى شيئاً مشرفاً لما وجدنا أغنياء بين النصارى واليهود

٥٤ فقر الأنبياء

قال ضمن معاتبته يوسف بن محمد:

مَنْ كانَ يَحْمَدُ أو يَذُمُّ زمانَهُ هَذا، فَمَا أَنا لِلزَّمانِ بِحَامِدِ

فَقْرٌ كَفَقْرِ الأنبياءِ، وغُربةٌ، وصَبابَةٌ؛ ليسَ البَلاءُ بِوَاحِدِ

صبابة (اشتياق)

٥٥ الهجاء بعد المديح

يهجو ابن بنت أبي منصور الكاتب:

زَنَتْ زَمَاناً فَلَمَّا عَنَّسَتْ هَرَماً قَادَتْ على كُلِّ قَوَّادٍ وخَمَّارِ

زنت (فَعَلت الزنا) وهي شابة، فلما كبرت وهرمت بلا زواج قادت (صارت قوادة تضارب بنشاطها) على كل خمار وقواد

فهي لم تكتف بالقيادة (أي قيادة النساء للرجال والعكس، بيعاً للجنس وشراء) بل قادت على الخمارين والقوادين فضاربت عليهم في صناعتهم

لَرَهْزَةٌ مِنْ غَوِيٍّ في مَضارِطِها أشْهَى إلى قلبِها مِنْ ألفِ دينارِ

الرهز (الهزُّ والدفْع)، الغوي (الضال)، مضارطها (اختر الفتحة الأنسب لمعنى الكلمة)، وقد أسرف البحتري، ومعاصره ابن الرومي في هجاء أمهات الناس، وأوردوا هذا المعنى: أن المومس تلتذ الجنس، ومما يخبرنا به علماء الاجتماع في زمننا نقلاً عن المحترفات أنهن لا يجدن في الجنس مع الرجال المشترين له أي متعة

جَاءَتْ بِنَغْلٍ وَقَاحٍ باردٍ وَضِرٍ ذِي مَوْلِدٍ نَجِسٍ مِنْ غَيْرِ تَطْهَارِ

وولدت نغلاً (ابن زنا) وقاح (وقح) بارد (ثقيل الدم) وضر (وسخ)، وقد ولدته في فراش النجاسة من غير تطهار (طهارة)، لا يريدها البحتري أن تكون اغتسلت بعد النفاس؟ هذا المعنى الملموح

وليسَ يَصْلُحُ، إنْ كَشَّفْتَ هِمَّتَهُ، إلَّا لِفَاحِشَةٍ، أو حَمْلِ مِزْمَارِ

لا يصلح هذا الرجل - إذا كشفت (اختبرت) همته (طموحه) - إلا لتفعل فيه الفاحشة، أو لعزف المزمار

مَازَحْتُهُ، غيرَ ذي عِلْمٍ بِخِسَّتِهِ، في نَظْمِ مَمْدَحَةٍ مِنْ حُرِّ أَشْعَارِي

نظمت فيه قصيدة مدح على سبيل المزاح، وأنا لا أعلم مدى خسته (حقارته)

فأَظْهَرَ التِّيهَ مِنْ جَهْلٍ، وَقَابَلَنِي بِسَيِّءٍ لم يَكُنْ مِنْ حَقِّ مِقْدارِي

فأظهر التيه (التكبر) لجهله، وقابلني بالسوء

يا ابْنَ التي ضَرَطَتْ مِنْ تَحْتِ (بَائِكِها) ضَرْطَ الحِمَارِ ضَغَا مِنْ كَيِّ بِيطارِ

يا ابن التي فعلت كذا تحت كذا (صحّف الباء)، فعل الحمار ضغا (نهق) عندما كواه البيطار (الطبيب البيطري)

إحْدَى النَّوادِرِ مِنْ قِرْدٍ تَعَرُّضُهُ، مِنْ غَيْرِ مَقْدِرَةٍ، لِلْقَسْوَرِ الضَّارِي

إن من النوادر (العجائب) التي نراها من القرد أن يتعرض (يتصدى) بغير مقدرة منه للقسور الضاري (للأسد المفترس)

٥٦ مددت يدي.. لكن للصديق

قال في أبي مسلمٍ الكَجِّي وأسد بن جهور:

أَهْوَى الثَّراءَ، وكمْ مِنْ ثَرْوةٍ كَسَبَتْ   لِيَ العَداوةَ مِنْ رَهْطِي ومِنْ وَلدي

رهطي (قومي)

حتى لأَنْكَرْتُ مَنْ قد كنتُ أعرِفُهُ   مِنَ الأخِلَّاءِ، واسْتَوحَشْتُ مِنْ بَلدي

الأخلاء (الأصدقاء)

وكَمْ أَضَقْتُ، وما أَشْفَقْتُ مِنْ بُلَغٍ،   ولا مَدَدْتُ، إلى غيرِ الصَّديقِ، يَدي

كثيراً ما أضقت (افتقرت)، ولكنني ما أشفقت (خفت) من العيش على بُلَغ (تصبيرات)، وما مددت يدي إلا لصديق

٥٧ توليد الذهب من الحديد

يمدح مُرَّ بنَ علي الطائي:

أقِيمُوا بَنِي الدَّيَّانِ مِنْ سُفَهَائِكُمْ   فقد طَالَ عن قَصْدِ السَّبيلِ مَحِيدُها

أقيموا (قوّموا) يا بني الديان اعوجاج سفهائكم، فقد طال محيدهم (انحرافهم) عن قصد السبيل (الطريق القويم)

أمَا آنَ أَنْ يَنْهَى عنِ الجَهْلِ والخَنَا   قِيَامُ المنايَا فِيكُمُ وقُعُودُها؟

أما حان الوقت كي ينهاكم عن الجهل (الطيش)
والخنا (البذاءة) استفحال القتل فيكم

قَرَابَتَكُمْ، لا تَظْلِمُوها، فَتَبْعَثُوا   عليْكُمْ صُدُوراً ما تَمُوتُ حُقُودُها

احفظوا أقرباءَكم ولا تظلموهم، لئلا تبعثوا (تثيروا) عليكم صدوراً لا يموت فيها الحقد، ولا تنسى الإساءة

لها الحَسَبُ الزَّاكِي الذي تَعْرِفُونَه   وفيها طَرِيفَاتُ العُلا وتَلِيدُها

قرابتكم فيها الحسب الزاكي (السمعة الطيبة) وفيها من المعالي طريفها (مكتَسَبها) وتليدها (موروثها)

فلا تَسْأَلُوها عن قَديمِ تُرَاثِها   فَعَسْجَدُها مِمَّا أَفادَ حَديدُها

ولا تسألوا هؤلاء الأقارب عما ورثوه من خير، فعسجدهم (ذهبهم) اكتسبوه بحديدهم. أي أنهم نالوا الأموال بالسيف

٥٨ قتيل الكلاب

يرثي حُمَيْداً الطوسي:

ولَـمَّـا رَأَوْا بَـعْـضَ الـحـيـاةِ مَـذَلَّـةً   عَلَيْهِمْ، وعِزَّ الـمَـوْتِ غَـيْـرَ مُـحَـرَّمِ
أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا العَيْشَ، والذَّمُّ واقِعٌ   عَـلَـيْـهِ، ومَـاتُـوا مِـيـتَـةً لـم تُـذَمَّـمِ

رفضوا أن يذوقوا العيش وصفة الذم واقعة عليه (ملتصقة به)،
وماتوا ميتة شريفة غير مذمومة

سـلامٌ عـلـى تِـلْـكَ الـخَـلائِـقِ، إنَّـهـا   مُـسَـلَّـمَـةٌ مِـنْ كُـلِّ عَـارٍ ومَـأْثَـمِ
ولا عَـجَـبٌ لِلأُسْدِ أَنْ ظَفِرَتْ بِـهـا   كِلابُ الأَعَادي مِنْ فَصِيحٍ وأَعْجَمِ
فَحَرْبَةُ وَحْشِيٍّ سَقَتْ حَمْزَةَ الرَّدَى،   وحَتْفُ عَلِيٍّ في حُسَامِ ابْنِ مُلْجِمِ

وحشي، وهو من العبيد، قتل حمزة عم النبي بحربته؛، وابن ملجم قتل علياً بسيفه، فلا عجب أن يُقتَل الشريف بيد الوضيع

أَبَـا مُـسْـلِـمٍ لا زِلْـتَ بَـيـنَ مُـوَدِّعٍ   مِنَ المُزْنِ مَسْكُوبِ الحَيَا، ومُسَلِّمِ

لا زلت (أبقاك الله) بين نوعين من المزن (السحاب): مودع ذاهب بعد أن سكب الحيا (الماء)، ومسلم (قادم يطرح السلام لكي يهطل). وكانوا يدعون للميت بالسقيا

ومَا جَدَثٌ فيهِ ابْتِسَامُكَ لِلْنَّدَى،   إذا أَظْلَمَتْ أَجْدَاثُ قَوْمٍ، بِمُظْلِمِ

والجدث (القبر) الذي يضم الابتسامة ـ التي كانت ترتسم على وجهك وأنت تعطي الناس ـ قبر مضيء، في حين قبور الآخرين مظلمة. التسويد من أحمد عبد الرحيم

٥٩ قعي إن شئت أو طيري

حُلِّي سُعَادُ غُرُوضَ العِيسِ، أو سِيري   وأَنْجِدي في التِماسِ الحَظِّ، أو غُوري

فكي يا سعاد غروض العيس (حبال النياق) وانزلي بالمكان، أو سيري وارحلي؛ وأنجدي (اصعدي الهضاب) في التماس (طلب) الحظ، أو غوري (انزلي الوديان)

كُـلُّ الـذي نَـتَـرَجَّـاهُ ونَـأْمُـلُـهُ   مُـضَـمَّـنٌ فـي ضَـرُوراتِ الـمَـقَـادِيرِ

فكل شيء بقدر محتوم

فَـمَـا يُـقَـرِّبُ تَـقْـرِيـبِـي شَـواسِـعَـهَـا   ولا يُـبَـاعِـدُ مَـا أَدْنَـيْـنَ تَـأْخِـيـري

لا يقرب تقريبي (التقريب: السير السريع على الناقة) شواسع المقادير (النائي منها)، ولا يباعد ما أدنته (قربته) الأقدار تأخيري

تَغْدُو الكِلابُ ولا فَضْلٌ يُعَدُّ لَها   سِوَى الذي بَانَ مِنْ نَقْصِ الخَنَازِيرِ

كذا هي الحظوظ: فضيلة الكلاب هي معرفتنا أنها أقل نقصاً (عيباً) من الخنازير، ليس أن الكلاب ذات فضل حقاً

قد قُلْتُ لِلرَّخَمِ المَرْذُولِ مَكْسَبُهَا: خَسَّ الجَدَا، فَقَعِي إنْ شِئْتِ، أو طِيرِي

قلت للرخم (نوع طيرٍ يأكل المستقذرات) ذات الطعام المرذول (الحقير): لقد خسَّ (قلَّ) الجدا (العطاء)، فقعي (اهبطي واقعةً) أو طيري، فلا يهمني الأمر. يقول: هؤلاء الشعراء الذين يمدحون الكبراء لقاء دريهمات قليلة لا يهمونني، ولن أنافسهم في مكسبهم الخسيس

٦٠ بدر ينير النَّقَرَى

يعاتب علي بن يحيى المنجم، ويستبطئ الفتح بن خاقان:

وَمَا منَعَ الفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ نَيْلَهُ   ولكِنَّها الأَقْدَارُ تُعْطِي وتَحْرِمُ

النيْل (العطاء)

سَحَابٌ خَطَانِي جَوْدُهُ، وَهْوَ مُسْبِلٌ   وبَحْرٌ عَدَانِي فَيْضُهُ، وَهْوَ مُفْعَمُ

سحاب خطاني (تخطاني) جَوْده (مطره)، وهو مسبل (هاطل)؛ وبحر (نهر) عداني (تعداني) فيضانه مع أنه مفعم (مليء)

وبَدْرٌ أَضَاءَ الأرضَ شرقاً ومَغْرِباً   ومَوْضِعُ رِجْلي مِنهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

أَأَشْكُو نَدَاهُ بعدَما وَسِعَ الوَرَى؟   ومَنْذَا يَذُمُّ الغَيْثَ إلَّا مُذَمَّمُ!

٦١ هيبة اللقاء

يمدح الفتح بن خاقان، ويصف دخوله إليه وسلامه عليه:

ولَيْلَةَ هَوَّمْنَا على العِيسِ، أَرْسَلَتْ   بِطَيْفِ خَيَالٍ يُشْبِهُ الحَقَّ بَاطِلُهْ

في الليلة التي هومنا (نعسنا) فيها فوق العيس (الجمال) أرسلت المحبوبة طيفها الذي هو باطل وخيال ولكنه أشبَهَ الحق لشدة شعوري به

فَلولا بَيَاضُ الصُّبْحِ طالَ تَشَبُّثي   بِعِطْفَيْ غَزالٍ، بِتُّ وَهْناً أُغَازِلُهْ

ولولا طلوع الصباح لبقيت متشبثاً بعطفي (جانبي) غزال بت وهناً (ليلاً) أغازله في أحلامي

وقد قُلْتُ لِلْمُعْلِي إلى المجدِ طَرْفَهُ:   دَعِ المجدَ، فالفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ شَاغِلُهْ

قلت للرافع طرفه (نظره) باتجاه المجد يريده: اترك المجد فهو من نصيب الفتح بن خاقان وحده

سِنَانُ أميرِ المؤمنينَ، وسَيْفُهُ   وسَيْبُ أميرِ المؤمنينَ، ونَائِلُهْ

هو سنان (طرف رمح) الخليفة وسيفه، وهو سيبه (عطاؤه)، ونائله (عطاؤه)

وما السَّيْفُ إلا بَزُّ غَادٍ لِزِينَةٍ، إذا لم يَكُنْ أَمْضَى مِنَ السيفِ حَامِلُهْ

ليس السيف سوى بز (ثوب فاخر) لرجل غاد لزينة (ذاهب لحفل)
إذا لم يكن حامل السيف أمضى من سيفه. يقول: السيف مجرد زينة كالثوب الفاخر،
ولكنه يصبح سيفاً حقاً إذا كان حامله شجاعاً

ولما حَضَرْنا سُدَّةَ الإذْنِ أُخِّرَتْ رِجالٌ عَنِ البابِ الذي أنا دَاخِلُهْ

لما حضرنا إلى سدة الإذن (القاعة الخارجية التي يؤذن لنا فيها بالدخول على الأمير) كنت من المتقدمين، وبعضهم أُخِّر عني

فَأَفْضَيْتُ، مِنْ قُرْبٍ، إلى ذي مَهَابةٍ أُقَابِلُ بَدْرَ الأُفْقِ حينَ أُقَابِلُهْ

فأفضيت (وصلت) قريباً من رجل ذي هيبة، كأنني أقابل البدر إذ أقابله

فَسَلَّمْتُ، واعْتَاقَتْ جَنَانِيَ هَيْبَةٌ تُنَازِعُني القولَ الذي أنا قائِلُهْ

طرحت السلام، ثم اعتاقت جناني (أعاقت قلبي) هيبته،
فصارت هيبته تجاذبني كلامي وتمنعني الإفصاح

فلَمَّا تَأَمَّلْتُ الطَّلاقَةَ، وانْثَنَى إلَيَّ بِبِشْرٍ، آنَسَتْني مَخَايِلُهْ

فلما تأملت (رأيت) الطلاقة (الانشراح) في وجهه، آنستني (شرحت صدري) مخايله (ملامحه)

دَنَوْتُ، فَقَبَّلْتُ النَّدَى في يَدِ امْرِئٍ جَمِيلٍ مُحَيَّاهُ، سِبَاطٍ أَنَامِلُهْ

اقتربت وقبلت يده فكأنني قبلت الندى (الكرم)، وهو جميل الطلعة،
وسباط أنامله (طويلة أصابعه/ كناية عن الكرم)

٦٢ في بغداد العاصمة

قال البحتري (ولعله قالها في أول سنواته ببغداد):

اِخْلَعْ بِبَغْدَادَ العِذَارا ودَعِ التَّنَسُّكَ والوَقَارَا

اخلع العِذار (تهتَّكْ، وصِعْ)

فلقد بُلِيتَ بِعُصْبَةٍ مَا إنْ يَرَوْنَ العَارَ عَارَا

ففيها ابتُليتَ بعصبة (بجماعة) لا يرون العار عاراً

لا مُسْلِمِينَ، ولا يَهُو دَ، ولا مَجُوسَ، ولا نَصَارَى

هم على دين أبي نواس رحمه الله!

٦٣ قل لي ماذا أفعل

قال، وهي من أوائل ما مدح به الفتح بن خاقان:

لـكَ الـنَّـعْـمَـاءُ، والـخَـطَـرُ الـجَـلـيـلُ   ومِـنْـكَ الـرِّفْـدُ، والـنَّـيْـلُ الـجَـزِيـلُ

الخطر (القدر)، الرفد (العطاء)

أُمِـرْتُ بِـأَنْ أُقِـيـمَ عـلـى انـتـظـارٍ   لِـرَأْيِـكَ، إنَّـهُ الـرَّأْيُ الأَصِـيـلُ

أمرني أفراد حاشيتك أن أنتظر

ورَاقَـبْـتُ الـرَّسُـولَ، وقُـلْـتُ يَـأْتِـي   بِـتِـبْـيَـانٍ؛ فَـمَـا جـاءَ الـرَّسُـولُ

فـلـيـسَ، بِـغَـيْـرِ أَمْـرِكَ، لِـي مُـقَـامٌ،   ولا، عَـنْ غَـيـرِ رَأْيِـكَ، لـي رَحِـيـلُ

وقـد أَوْقَـفْـتُ عَـزْمِـيَ والـمَـطَـايـا   فَـقُـلْ شَـيـئـاً، لأَفْـعَـلَ مَـا تَـقُـولُ

أوقفت عزمي والمطايا (الدواب) رهن إشارتك، فقل لي أأرحل أم أبقى؟

٦٤ الإنذار الأخير

يعاتب الحارثي الشاعر:

ومـا أنَـا بِـالـظَّـمْـآنِ فِـيـكَ إلـى الـتـي   أَرَى بَـيْـنَ قُـطْـرَيْـهـا لِـجَـنْـبِـكَ مَـصْـرَعـا

لست شديد التوق إلى حرْبة يكون بين طرفيها مصرعك [كذا فهمت المعنى]

أَغَـارُ عـلـى مـا بـيْـنَـنـا أَنْ يَـنـالَـهُ   لِـسَـانُ عَـدُوٍّ لـم يَـجِـدْ فـيـكَ مَـطْـمَـعـا

أغار على الود الذي بيننا أن يتناوله لسان عدو لم يكن يطمع في إلحاق الأذى بك سابقاً

مَلَكْتُ عِنَانَ الهَجْرِ أَنْ يَبْلُغَ المَدَى   ونَـهْـنَهْـتُ قَوْلَ الشِّعْرِ أَنْ يَتَسَرَّعا

أمسكت بعنان (بحبل) الهجر ومنعته أن يبلغ مداه، ونهنهت (خففت) من الشعر حتى لا يتسرع بهجائك

فَإِنْ تَدْعُنِي لِلْشَّرِّ أُسْرِعْ، وإِنْ تُهِبْ   بِصُلْحِي فقد أَبْقَيْتُ لِلْصُّلْحِ مَوْضِعا

فإن فعلت ما يدعوني إلى الشر (المهاجاة) سأسرع، وإن تُهِبْ (تبادر) بالصلح فإنني تركت للصلح موضعاً

٦٥ الخميس الخامس

قال في علي بن يحيى المنجم:

مَـا أَنْـصَـفَـتْ بـغـدادُ حـيـنَ تَـوَحَّـشَـتْ   لِـنَـزِيـلِـهـا، وَهِـيَ الـمَـحَـلُّ الآنِـسُ

توحشت (أصبحت موحشة)

لَـم يَـرْعَ لـي حَـقَّ الـقَـرَابَـةِ طَـيِّءٌ فـيـهـا، ولا حَـقَّ الـصَّـدَاقَـةِ فَـارِسُ

لم يراعِ حق القرابة أبناء قبيلة طيء (وهي قبيلة البحتري)، ولا حق الصداقة فارس (الفُرس)

أَعَـلِيُّ! مَـنْ يَـأْمُـلْـكَ بَـعْـدَ مَـوَدَّةٍ ضَـيَّـعْـتَـهـا مِـنِّـي، فَـإِنِّـيَ آيِـسُ

يا علي! إن كان هناك من يأمل خيرك بعد تضييعك مودتي، فإنني أنا آيس (يائس) ولا آمل خيرك

وَاعَدْتَني يومَ الـخَميسِ، وقَدْ مَضَى مِنْ بَعدِ مَوْعِدِكَ الخميسُ الخَامسُ

قَـدَّمْـتَ قُـدَّامـي رِجـالاً، كُـلُّـهُـمْ مُـتَخَـلِّـفٌ عَـنْ غَـايَـتـي مُـتَـقـاعِـسُ

لبيت طلبات رجال آخرين، وكلهم متخلف عن غايتي (منخفض عن قدري)، متقاعس (متقهقر، أي أدنى مرتبة)

وأنا الذي أَوْضَحْتُ، غَيْرَ مُدَافَعٍ، نَـهْجَ الـقَـوافـي، وَهْيَ رَسْمٌ دَارِسُ

وأنا الذي أوضحت غير مدافَعٍ (بلا منازع) نهج القوافي (طريق الشعر)، بعد أن كانت رسماً دارساً (معالم ممحوَّة)

وشُهِرْتُ في شَرْقِ البلادِ وغربِها فَـكـأَنَّـنـي فـي كـلِّ نَـادٍ جَـالِـسُ

٦٦ عليه اعتمادي

وقال يمدح الفتح بن خاقان:

كَـفَـانـي نَـائِـبـاتِ الـدَّهْـرِ أَنّـي على الفَتْحِ بنِ خَاقَانَ اعتِمادِي

ولـي هَـمَّـانِ مِـنْ ظَـعْـنٍ ولَـبْـثٍ وكُـلٌّ قـد أَخَـذْتُ لـهُ عَـتَـادِي

لي نية في الظعن (الرحيل) ونية أخرى في اللبث (الإقامة)، وللحالين أخذت استعدادي

فَـإِنْ أُوطِـنْ، فَـقَـدْ وَطَّـدْتَ رُكْـنـي وإنْ أَرْحَـلْ، فَـقَـد وَفَّـرْتَ زَادِي

فإن أوطن (إن أُقِمْ) فأنت قد وطدت ركني بعطاياك، وإن أرحل فقد زودتني ما يكفيني

٦٧ تفاوت الرجال

يمدح الفتح بن خاقان وابنه أبا الفتح:

ولـم أَرَ أَمْـثـالَ الـرِّجَـالِ تَـفَـاوَتَـتْ إلى الفَضْلِ، حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

لم أجد مثل الرجال في التفاوت في الفضل، فالرجل الواحد قد يكون بألف رجل

ولَنْ تَسْتَبِينَ، الدَّهْرَ، مَوْضِعَ نِعْمَةٍ إذا أَنْتَ لم تُدْلَلْ علَيْها بِحَاسِدِ

ولن تعرف الدهرَ (طولَ الدهر) مكان النعمة عند شخص إلا إذا حسده حاسد فدلك عليها. هذا بيت سرق فيه البحتري معنى أستاذه أبي تمام، فوقع دونه. وما أكثر ما سرق من أبي تمام

٦٨ المنعم المحسود

يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم:

قلبٌ مَشُوقٌ عَنَاهُ البَثُّ والكَمَدُ   ومُقْلَةٌ تَبْذُلُ الدَّمعَ الذي تَجِدُ

قلب مشتاق عناه (أتعبه) البث (البوح) كما أتعبه الكمد (الكتمان)، وعين تريق الدمع الذي يتيسر لها

تَدنُو سُلَيْمَى، ولا يَدنُو اللِّقاءُ بِها،   فَيَسْتَوِي في هَوَاها القُرْبُ والبُعُدُ

تقترب سليمى مكاناً ولكن اللقاء بها لا يكون ميسوراً، فلهذا يتساوى عندي قربها وبعدها

آلَيْتُ لا أَجْعَلُ الإعْدَامَ حادِثَةً   تُخْشَى، وعِيسى بنُ إبرَاهِيمَ لِي سَنَدُ

آليت (حلفت) أن لا أجعل من الإعدام (الفقر) حادثة (معضلة) أتخوف من حلولها ما دام عيسى بن إبراهيم سنداً لي

ولا يُؤَخِّرُ شُغْلَ اليومِ يَدْخَرُهُ   إلى غَدٍ؛ إنَّ يومَ الأعْجَزِينَ غَدُ

ولا يؤخر إنجاز ما يجب إنجازه اليوم ولا يدخره (يخبئه) للغد؛ والتأجيل للغد حيلة الأكثر عجزاً من الناس

مُحَسَّدٌ بِخِلالٍ فِيهِ فَاضِلَةٍ؛   وليس تَفْتَرِقُ النَّعْماءُ والحَسَدُ

محسد (محسود) بخلال (بصفات) فيه فاضلة (متميزة)؛ والنعمة دائماً مقرونة بحسد الحاسدين لصاحبها

٦٩ التصدق بالمديح

قال يخاطب محمد بن نصر بن منصور بن بسام:

رأيتُكَ تَهوَى اقْتِنَاءَ المدِيحِ   وَتَجْهَلُ مِقْدارَ إيجابِهِ

إيجابه (ما يوجبه عليك من دفع مقابل)

وكيفَ تُرَجِّي وُصولاً إليهِ   ولم تَتَوصَّلْ بأَسبابِهِ؟

كيف تأمل الوصول للمديح، ولم تتوصل بأسبابه (تحصل على لوازمه)

لئنْ كنتُ أمنَحُهُ الأكرَمِينَ   فما أنتَ أولُ أَربابِهِ

أربابه (أصحابه)

وإنْ أتَطَلَّبْ بهِ نَائِلاً   فَلَسْتَ مَلِيَّاً بإطْلابِهِ

إن أتطلب (أطلب) بالمديح الذي أقدمه نائلاً (عطاءً)، فأنت يا هذا لست مليّاً (جديراً) بإطلابه (بتحقيقه)

وإنْ أتَـصَـدَّقْ بـه حِـسْـبَـةً   فـإنَّ الـمَـسَـاكِـيـنَ أوْلَـى بِـهِ

وإن كنت أتصدق به حسبة (لوجه الله)، فالمساكين أولى به منك

٧٠ صحراء بسبعة أبواب

لَـن تَـرانـي لَـكَ الـعـيـونُ بِـبَـابِ   لـيسَ مِـثْـلِـي يُـطِـيقُ رَدَّ الـحِـجَـابِ

لن أقف ببابك بعد الآن منتظراً إذن الدخول، فلستُ ممن يحتمل ردَّ الحجاب إياه خائباً

يـا أَمـيـراً عـلـى جَـرِيـبٍ مِـنَ الأر   ضِ، لَـهُ سَـبْـعَـةٌ مِـنَ الأَبْـوابِ

أنت أمير على جريب (أرض يكفيها جراب من البذور لزراعتها)، ومع ذلك لك سبعة أبواب، باباً وراءَ بابٍ، مغلقة تمنع الوصول إليك

جَالِساً في الخرابِ يُحْجَبُ عنهُ؛   مَـا سـمِـعْـنَـا إِمَـارةً فـي خَـرَابِ

يجلس في خراب ويُحْجَبُ عنه (يحجُبُ الحجَّابُ الناسَ عن لقائه)، فما هذه الإمارة في الخراب؟

٧١ تغيَّرَ بعدما أثرى

قال معاتباً:

وَذي ثِـقَـةٍ تَـبَـدَّلَ حـيـنَ أَثْـرَى،   ومِـنْ شِـيَـمـي مُـرَاقَـبَـةُ الـثِّـقَـاتِ

رب صاحب أثق به تبدل حين صار ثرياً، ومن شيمي (صفاتي) مراقبة الثقات (الاهتمام بأهل الثقة). المراقبة هنا معناها الاهتمام الإيجابي وليس الفرجة السلبية

فَـقُـلْـتُ لَـهُ: عَـتَـبْـتَ بِـغَـيْـرِ جُـرْمٍ   فِـراراً مِـنْ مَـؤُونَـاتِ الـعِـدَاتِ

فقلت له: قد عتبت علي ولا جرم (ذنب) لي، وعتبك هو طريقة لكي تتهرب من مؤونات العدات (مستلزمات الوعود التي كنتَ قدمتها)

فَـعُـدْ لِـمَـوَدَّتـي، وعَـلَـيَّ أَلَّا   أَبُـثَّـكَ حَـاجَـةً حـتـى الـمَـمَـاتِ

فارجع لمودتي، ولك عليَّ ألَّا أبثك (أبلغك) حاجة من حاجاتي حتى الموت

٧٢ مصير العاشق

يمدح أبا نوحٍ عيسى بن إبراهيم:

لو زارَ، في غَيْرِ الكَرَى، لَشَفَاكَ مِنْ   خَبَلِ الغَرامِ، ومِنْ جَوَى بُرَحَائِهِ

لو زار المحبوب بجسمه، وليس في الكرى (في النوم، وأنت تحلم به)، لشفاك من خبل (جنون) الغرام، ومن جوى (ألم) برحائه (آلامه)

فَدَعِ الهَوَى، أوْ مُتْ بِدَائِكَ؛ إنَّ مِنْ شـأنِ الـمُـتَـيَّـمِ أنْ يَـمُـوتَ بِـدَائِـهِ

فاترك الحب، أو مت بالداء الذي سببه لك؛
ومن شأن المتيم (طبيعي للعاشق) أن يموت بداء العشق

٧٣ الغزل بالأصابع

قال البحتري لأبي صالح بن عمار يداعبه:

مُـنْـعِـظُ الـطَّـرْفِ، لا يَـزَالُ يُـوَالـِي لَـحَـظَـاتٍ يُـحْـبِـلْـنَ قَـبْـلَ الـنِّـكَـاحِ

منعظ (منتصب، كما متاع الرجل) الطرف (العين)، يوالي (يكرِّر) لحظات (نظرات) يحبلن (يؤدين إلى الحَبَل) قبل حصول الجماع. فصاحبه هذا نظراته فيها انتصاب

ومُـغِـيـرٌ عـلـى الأَصَـابِـعِ بـالـلَّـمْـ ـسِ لَـهـا فـي أَسَـافِـلِ الأَقْـدَاحِ

ويشن غارات على أصابعها يتلمسها بأصابعه في أسفل القدح. لا بد أن أبا عبادة صنع ذلك بنفسه أو رآه، فصعْبٌ اختلاق موقفٍ كهذا

٧٤ سمن على عسل

يمدح الفتح بن خاقان:

وجَدْتُ نَفْسَـكَ مِنْ نَفْـسِي بِمَنْزِلَةٍ هِـيَ الـمُـصَـافَـاةُ بيـنَ الـمـاءِ والـرَّاحِ

يشبهون سهولة الامتزاج بين روحين بسهولة الامتزاج بين الماء والخمر. ولو خلطت زيتاً بماء لطَفَا الزيت لخفته، فأما الخمر والماء فكثافتهما متقاربة. وأرى أنهم يعنون بالراح، وبالخمر أيضاً، ضرباً من المشروب أقرب إلى العرق والويسكي (نسبة الكحول في كل منهما نحو ٤٠٪)؛ ولهذا فهم يتغنون بمزجها، فأما النبيذ (نسبة الكحول من ١٢،٥٪ ـ ١٤٪) فلا يخلطه بالماء عاقل

٧٥ السر المفضوح

يمدح الفتح بن خاقان:

عَـلاقَـةُ حُـبٍّ كُـنـتُ أَكْـتُـمُ بَـثَّـهـا إلـى أنْ أذاعَـتْـهـا الـدموعُ الـهَـوَامِـعُ

الهوامع (الهاطلات)

إذا العينُ رَاحتْ وَهْيَ عَيْنٌ عَلى الجَوَى فـلـيـس بِـسِـرٍّ مَـا تُـسِـرُّ الأَضَـالِـعُ

إذا عين المرء راحت (أصبحت) وهي عين (جاسوس) تفضح ما يكنه قلبه من الجوى (الحزن) فلا يعود سراً ما تسر (تخفي) الأضالع (الضلوع)

٧٦ القفل المستعصي

يهجو السيبي (وبها مدح الحسن بن مخلدٍ):

لَـنـا مَـواقِـفُ فـي أَفْـنَـاءِ عَـرْصَـتِـهِ   تُـهَـانُ أَخـطَـارُنَـا فِـيـهـا وتُـطَّـرَحُ

لنا وقوف في أفناء عرصته (في نواحي ساحته) تهان أخطارنا (أقدارنا) فيها وتُطَّرح (تُرمى)

نَغْشَاهُ، لا نَحْنُ مُشْتاقونَ مِنْهُ إِلى   أُنْـسٍ، ولا هُـوَ مَـسْـرُورٌ بِـنَـا فَـرِحُ

نغشاه (نأتي إليه) ليس لشوقنا إلى أنسه، ولا هو يفرح بنا

إِذَا طَـلَـبْـنَـا بِـلِـيـنِ الـقَـوْلِ غُـرَّتَـهُ   ظَـلْـنَـا نُـعَـالِـجُ قُـفْـلاً لـيسَ يَـنْـفَـتِـحُ

إذا قلنا له كلاماً ليناً لتنبسط لنا غرته (وجهه/ليهش لنا) فإنما نعالج قفلاً عصياً، أي نتحايل عليه

أَعـيَـا عَـلَـيَّ، فَـلا هَـيَّـابَـةٌ فَـرِقٌ   مِـنَ الـهِـجَـاءِ، ولا هَـشٌّ فَـيُـمْـتَـدَحُ

أعيا علي (أعجزني)، فلا هو هيابة (خواف) فرِق (خواف) من الهجاء، ولا هو هش (منشرح) فيليق به المدح

٧٧ الأهزوجة المشؤومة

يمدح المتوكل على الله:

عَـنْ أيِّ ثَـغْـرٍ تَـبْـتَـسِـمْ؟   وبِـأَيِّ طَـرْفٍ تَـحْـتَـكِـمْ؟

أيها المحبوب ما هذا الثغر (الفم) الجميل الذي تطلق منه الابتسامة؟ وما هذا الطرف (النظر) الذي ترمقنا به فتحتكم (تملي ما تشاء)

أَفْـدِيـهِ مِـنْ ظُـلْـمِ الـوُشَـا   ةِ، وإِنْ أَسَـاءَ، وإِنْ ظَـلَـمْ

قُـلْ لِـلـخَـلِـيـفَـةِ جَـعْـفَـرِ الـ   ـمُـتَـوَكِّـلِ بْـنِ الـمُـعْـتَـصِـمْ:

يَـا بَـانِـيَ الـمَـجْـدِ الـذي   قَـد كَـانَ قُـوِّضَ فَـانْـهَـدَمْ

اِسْـلَـمْ لِـديـنِ مـحـمـدٍ   فـإذا سَـلِـمْـتَ فـقـد سَـلِـمْ

قصيدة مشهورة لقصتها. هذه القصيدة في بساطتها وجمال نغمها تذكرني بقصيدة أبي العتاهية التي أنشدها المهدي (أتته الخلافة). وقصة قصيدة البحتري أنه كان يلقيها وهو يميل ذات اليمين وذات الشمال مختالاً معجباً بنفسه (وكانت هذه طريقته في الإنشاد). فلما فرغ منها بدأ يعيدها. فغمز الخليفة المتوكل شويعراً يقال له أبو العنبس، فقام أبو العنبس وبدأ يقول: (من أي سلح تلتقم//وبأي كف تلتطم) والسلح هو ما يخرج من الدبر. وراح يردد أبياتاً على هذا الوزن، والكل يضحك. وانصرف البحتري غاضباً وأبو العنبس يصرخ في إثره (وعلمتُ أنك تنهزم). ونال أبو العنبس جائزة البحتري. شكا البحتري إلى صديق له ما جرى، وسأله: أأذهب إلى منبج بغير إذن؟ فهوَّن الصديق عليه، وقال له: الملوك تمزح بأكثر من هذا. وأخذه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل فهون عليه وأعطاه مالاً

٧٨ قبلة على خوف

لِي حَبِيبٌ قد لَجَّ في الهَجْرِ جِدًّا وأَعـادَ الـصُّـدُودَ مِـنْـهُ، وأَبْـدَا

لجَّ (بالَغَ)، أعاد وأبدأ (عاد وزاد)

ذُو فُـنـونٍ، يُـرِيـكَ فـي كُـلِّ يـومٍ خُـلُـقَـاً مِـنْ جَـفَـائِـهِ مُـسْـتَـجَـدَّا

وبِـنَفْـسِـي أَفْدِي، عـلى كُلِّ حالٍ، شادِنـاً لـو يُمَسُّ، بِـالحُسْـنِ أَعْدَى

شادناً (غزالاً صغيراً)، لو يمس لأعدى بالحسن (لو أمكن لَمْسُ المحبوبة لجعَلَتْ من يلمسها جميلاً بالعدوى لشدة جمالها)

مَرَّ بِي خَالِياً، فَأَطْمَعَ في الوَصْـ ـلِ، وعَـرَّضْـتُ بـالـسَّـلامِ، فَـرَدَّا

مر بي خالياً (وحدَه)، فأطمعني (جعلني أطمع) في وصله، وعرَّضت بالسلام (طرحت السلام خفية)، لكنه ـ ويا للمفاجأة الحلوة ـ رد علي السلام

وثَـنَـى خَـدَّهُ إِلَـيَّ عـلـى خَـوْ فٍ، فَـقَـبَّـلْـتُ جُـلَّـنَـاراً وَوَرْدَا

الجلنار: زهر الرمان

٧٩ المنافسون الحاسدون

يمدح الفتح بن خاقان:

وإنِّـي، وإنْ بَلَّـغْـتَـنِـي شَـرفَ الـعُـلا وأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ المَطامِعِ أَخْدَعِي

رغم أنك أوصلتني إلى شرف (مرتَفَع) العلا وحررت أخدعي (يعني عنقي) من ذل المطامع المالية

فَـمـا أنَا بِـالـمَـغْـضُـوضِ فِـيـمـا أَتيْتَه إِلَيَّ، ولا المَوْضوعِ في غيرِ مَوضِعي

رغم ذلك فلستُ بالمغضوض (المحتقَر) بسبب ما أتيتَه إليَّ (أعطيتنيه)، ولست آخذاً فوق استحقاقي

وقد نـافَـسَـتْـنِي عُصْبةٌ: مِنْ مُقَصِّرٍ ومُـنْـتَـحِـلٍ مَـا لـم يَـقُـلْـهُ، ومُـدَّعِ

والمنافسون لي من الشعراء هم بين مقصر عن التجويد، ومنتحل لمعاني الآخرين، ومدَّعٍ ليس بشاعر أصلاً

٨٠ المُضيئة للمصباح

وقال يصف مغنية (في قصيدة يمدح بها أبا مسلم البصري):

فَـأَضـاءَتْ تـحـتَ الـدُّجُـنَّـةِ لِـلْـشَّـرْ بِ، وكـادَتْ تُـضِـيءُ لِـلْـمِـصْـبـاحِ

الشرْب (الشاربون)

وأشــارتْ مَـعَ الـغِـنَـاءِ بـأَلـحــا ظِ مِرَاضٍ، مِنَ التَّصابي، صِحَاحِ

أشارت بغمز من ألحاظ مراض (نظرات مسترخية)، وذلك من التصابي (دلال الصبايا)، ولكن نظراتها صحيحة بيولوجياً. يقول: نظراتها مريضة مسترخية من الدلال، وعيناها ليس فيهما علة جسمية

فَطَـرِبْـنَـا لَـهُـنَّ قـبلَ الـمَـثَـانـي وسَـكِـرْنـا مِـنْـهُـنَّ قـبـلَ الـرَّاحِ

طربنا من نظراتها قبل طربنا من المثاني (الموسيقى)، وسكرنا بنظراتها قبل أن نسكر من الراح (الخمر)

٨١ الكريم لئيماً

يهجو البجباني المغني:

إذا رَامَ الـتَّـخَـلُّـقَ، جَـاذَبَـتْـهُ خَـلائِـقُـهُ إلـى الـطَّـبْـعِ الـقَـدِيـمِ

إذا رام (أراد) التخلق (التطبع بغير طبعه) جذبته خلائقه (أخلاقه) إلى الطبع القديم

تُـعَـرْبِـدُ غَـيْـرَ مُـحْـتَـشِـمٍ، وتَـشْـدُو فـلا تَـأْتـي بِـلَـحْـنٍ مُـسْـتَـقـيـمِ

أيها المغني أنت تعربد غير خجلان، وتغني ولا يستقيم لك اللحن

فَتُخْطِئُ في الغِنَاءِ على المُغَنِّي وتُـخْطِئُ في النِّدَامِ عـلى النَّدِيـمِ

مخطئ في غنائك، ومخطئ في كلامك فلست تعرف حرمة الندام (المنادمة على الشراب). ولم أفهم مقصده في (على المغني)

نَـهَـيْـتُـكَ عَـنْ تَـعَـرُّضِ عِـرْضِ حُـرٍّ فَـإِنَّ الـذَّمَّ مِـنْ شَـأْنِ الـذَّمِـيـمِ

مَـتَـى أَحْـرَجْـتَ ذَا كَـرَمٍ تَـخَـطَّـى إِلَـيْـكَ بِـبَـعْـضِ أَخْلاقِ الـلَّـئِـيـمِ

إذا أحرجت الكريم تجاوز عادته وآذاك بأفعال هي في الأصل من أفعال اللئام

٨٢ المطرب البغيض

يهجو أحمد بن أبي العلاء المغني:

مُـغَـنِّـيـكَ لِـلْـبُـغْـضِ فـيـهِ سِـمَـةْ تَـلُـوحُ عـلـى خِـلْـقَـةٍ مُـبْـهَـمَـةْ

في مغنيك سمة (علامة مكوية بالحديد المحمَّى) هي خاتم رسمي بالبغض (كونه بغيضاً كريهاً)، وهذه العلامة تبدو في خلقته المبهمة (المختلطة)

تَـزِيـدُ الإهَـانَـةُ فـي شَـأْنِـه صَـلاحَـاً، وتُـفْـسِـدُهُ الـتَّـكْـرِمَـةْ

يُـرَعِّـشُ لَـحْـيَـيْـهِ عِـنْـدَ الـغِـنَـاءِ كَـأَنَّ بَـه الـنَّـافِـضَ الـمُـؤْلِـمَـةْ

يرتعش حنكاه وهو يغني كأنه يعاني النافض (الحُمَّى الرعاشية)

وأَنْـفِ إِذا احْـمَـرَّ فـي وَجْـهِـه ... وقَـامَ تَـوَهَّـمْـتَـهُ مِـحْـجَـمَـةْ

مِحْجمة (كأس زجاج للحجامة ينزل فيه الدم فيحمر الكأس)

إذا صَـاحَ سَـالَـتْ لَـهُ مَـخْـطَـةٌ ... عـلى الـعُـودِ، وانْـقَـلَـعَـتْ بَـلْـغَـمَـةْ

يُـبَـظْـرِمُـهُ الـقَـوْمُ، مِـنْ بُـغْـضِـه، ... جِـهَـاراً؛ وقَـلَّـتْ لَـهُ الـبَـظْـرَمَـةْ

لأنه بغيض يبظرمه القوم (يقولون له عُضَّ بظر أمك) جهاراً، وهذا قليل عليه

هِـرَاشٌ نُـعَـانِـيـهِ طُـولَ الـنَّـهَـارِ ... فَـمَـجْـلِـسُـنَـا مَـعَـهُ مَـلْـحَـمَـةْ

يَـجِـيءُ بِـمَـا هُـوَ أَهْـلٌ لـه ... فَـلَـوْلا الـحَـيَـاءُ كَـسَـرْنَـا فَـمَـهْ

كسرنا فمه: كسرنا أسنانه

٨٣ لَمَشى إليك المنبر

يمدح المتوكل، ويصف موكبه يوم العيد، والبداية غزل:

أُخْفِي هَوىً لَكِ في الضُّلُوعِ، وأُظْهِرُ؛ ... وأُلَامُ فـي كَـمَـدٍ عَـلَـيْـكِ، وأُعْـذَرُ

خفي هواك أيتها المحبوبة حيناً وأظهره حيناً؛ ويلومونني في الكمد (التكدر) البادي عليَّ بسببك، ويعذرونني حيناً

وأَرَاكِ خُنْتِ على النَّوَى مَنْ لم يَخُنْ ... عَهْدَ الهَوى، وهَجَرْتِ مَنْ لا يَهْجُرُ

وطَـلَـبْـتُ مِـنْـكِ مَـوَدَّةً لـم أُعْـطَـهـا؛ ... إنَّ الـمُـعَـنَّـى طَـالِـبٌ لا يَـظْـفَـرُ

المعنَّى (الموجَع)

هلْ دَيْنُ عَلْوَةَ يُسْتَطَاعُ، فَيُقْتَضَى؟ ... أم ظُلْمُ عَلْوَةَ يَسْتَفِيقُ، فَيُقْصِرُ؟

ل تستطيع المحبوبة «علوة» أن تقضي ديْنها (وعدها) وتفي به؟ أم هل ـ على الأقل ـ يفيق ظلمها من جنونه ويقصر (يكف)

بَيْضَاءُ يُعْطِيكَ القَضِيبُ قَوامَهَا ... ويُـرِيكَ عَـيْـنَـيْـهَا الـغَـزَالُ الأحْـوَرُ

علوة بيضاء. وأنت ترى القضيب (الغصن) فيعطيك (يمثل لك) قوامها، وترى الغزال الأحور (ذا العينين الواسعتين الصافيتين) فترى فيه عينيها

تَمْشِي فَتَحْكُمُ في القلُوبِ بِدَلِّهَا ... وتَمِيسُ في ظِلِّ الشَّبَابِ فَتَخْطِرُ

تميس (تتمايل)

وتَمِيلُ مِنْ لِينِ الصِّبَا فَيُقِيمُهَا قَـدٌّ يُـؤَنَّـثُ تَـارَةً، ويُـذَكَّـرُ

تتمايل هذه الغندورة الحلبية سكرى بخمر شبابها، ثم تعتدل بقد جميل هو قدُّ أنثى في مقاييسه، وقدُّ غلام في رشاقته. وكانوا يحبون الفتاة الرسحاء (الخفيفة من وراء) الرشيقة ويقولون إنها غلامية. والبحتري من هؤلاء الذين أشبهوا أبا نواس في ميلهم للولدان. وكان لأبي عبادة مع الغلمان قصص شتى، وإن لم ينجرف في الأمر انجراف النواسي

إنِّي، وإنْ جَانَبْتُ بعضَ بَطَالَتِي وتَـوَهَّـمَ الـوَاشُـونَ أَنِّـيَ مُـقْـصِـرُ،

رغم أنني جانبت (هجرت) بعض بطالتي (استهتاري)، ورغم أن الواشين (النمامين) توهموا أنني مقصر (منقطِع عما كنت فيه)..

لَيَشُوقُنِي سِحْرُ العُيُونِ المُجْتَلَى ويَـرُوقُـنـي وَرْدُ الـخُـدودِ الأحـمـرُ

.. مع ذلك يشوقني سحر العيون المجتلى (البادي للرائي) وتروقني حمرة الخدود

اللَّهُ مَكَّنَ للخليفةِ جَعفَرٍ مُلْكاً يُحَسِّنُهُ الخليفةُ جعفرُ

الآن ينتقل إلى مدح الخليفة جعفر المتوكل: لقد مكَّن له الله ملكاً وهو يحسِّنه (يجعله أكثر حسناً بكونه على رأس هذا الملك). للشاعر ما ليس لأحد: له أن يخاطب الخليفة باسمه مجرداً

نُعْمَى مِنَ اللَّهِ اصطَفاهُ بِفضلِها والـلَّـهُ يـرزُقُ مَـنْ يـشـاءُ ويَـقْـدُرُ

الله اصطفى (اختار) المتوكل لنيل فضل هذه النعمة

بِالبِرِّ صُمْتَ، وأنتَ أفضلُ صائِمٍ، وبِـسُـنَّـةِ الـلَّـهِ الـرَّضِـيَّـةِ تُـفْـطِـرُ

مصحوباً بعمل الخير كان صيامك رمضان أيها الخليفة، والآن على سنة الله تحتفل بعيد الفطر. لا أدري إن غاب عني شيء من المعنى؛ أليس كل صوم يكون براً، وأليس كل فطر يكون بسُنَّة الله؟ كذا البحتري، يقول أبياتاً حلوة اللفظ رشيقة، والمعنى قد يكون عادياً أو ـ كمثل هذا البيت ـ نافلاً. لم أره في هذا البيت أتى بشيء، إلا بالديباجة البحترية المشهورة. هذا يذكرني بالمذيعين الذين يصرون على «أسعد الله اوقاتكم.. بالخير» وكأن السادة المستمعين لا تكون أوقاتهم سعيدة إلا بركوب الكبائر، فالمذيع يؤكد أنه يدعو لهم بسعادة مشروطة بالخير

فانْعَمْ بِيَومِ الفِطْرِ عَيْناً، إنَّهُ يَـومٌ أَغَـرُّ مِـنَ الـزَّمـانِ مُـشَـهَّـرُ

فيوم الفطر هذا أغر (وضيء) ومشهر (بارز بين أيام الزمان)

أَظهَرْتَ عِزَّ المُلْكِ فيهِ بِجَحْفَلٍ لَـجِـبٍ يُـحَـاطُ الـدِّيـنُ فـيـه ويُـنْـصَـرُ

أبرزت عز الخلافة بجحفل (جيش) لجب (صخَّاب لكثرة جنوده) يحاط (يُحمى) به الدين وينصر

خِلْنَا الجبالَ تسيرُ فيه، وقد غَدَتْ عُـدَداً يَـسـيـرُ بِـهَـا الـعَـدِيـدُ الأَكْـثَـرُ

خلنا (توهمنا) الجبال تسير مع الجيش وقد غدت الجبال عدداً (سلاحاً وعتاداً)، ويسير بها الجنود الكثر

فالخيْلُ تَصْهَلُ، والفَوارِسُ تَدَّعِي والبِيضُ تَلْمَعُ، والأَسِنَّةُ تَزْهَرُ

الخيل تصهل، والفوارس تدعي (الفرسان ينتسبون إلى قبائلهم أو شعوبهم بفخر)، والبيض (الخُوَذ) تلمع، والأسنة (رؤوس الرماح) تزهر (تتلألأ)

والأرضُ خَاشِعَةٌ تَمِيدُ بِثِقْلِها والجَوُّ مُعْتَكِرُ الجَوَانِبِ أَغْبَرُ

والأرض خاشعة من هذا الحشد تميد (تميل) بما أثقل ظهرها، والجو معتكر مغبرٌّ، وقال المؤرخون إن ذلك اليوم كان حقاً بهذه الصفة أثناء ذلك الاستعراض العسكري

والشَّمْسُ مَاتِعَةٌ تَوَقَّدُ في الضُّحَى طَوْراً، ويُطْفِئُها العَجَاجُ الأَكْدَرُ

الشمس كانت ماتعة (مرتفعة) متوقدة في وقت الضحى (قبيل الظهر)، ولكنها كانت أحياناً تغيم بسبب العجاج (الغبار) الأكدر (القاتم)

حَتَّى طَلَعْتَ بِضَوْءِ وَجْهِكَ، فانجَلَى ذاكَ الدُّجَى، وانْجَابَ ذاكَ العِثْيَرُ

حتى طلعت على الحشد بضوء وجهك فانجلى الظلام، وانجاب (زال) العثير (الغبار)

وافْتَنَّ فِيكَ النَّاظِرونَ: فَإِصْبَعٌ يُومَا إِلَيْكَ بِها، وعَيْنٌ تَنْظُرُ

فتنتَ الناظرين فهذه إصبع يُومَأُ (يشار) بها إليك، وتلك عين تنظر

ذَكَرُوا بِطَلْعَتِكَ النَّبِيَّ، فَهَلَّلُوا لَمَّا طَلَعْتَ مِنَ الصُّفُوفِ، وكَبَّرُوا

خطر ببال الجمع النبيُّ عندما طلعت عليهم فهللوا (قالوا لا إله إلا الله)، وكبروا (قالوا الله أكبر)

حتى انتَهَيْتَ إلى المُصَلَّى لابِسَاً نورَ الهُدَى يَبْدُو عليكَ ويَظْهَرُ

ومَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَواضِعٍ للهِ، لا يُزْهَى، ولا يَتَكَبَّرُ

يزهى (يتكبر)

فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فوقَ مَا في وُسْعِهِ، لَمَشَى إِلَيْكَ المِنْبَرُ

إذ أنت تمشي نحو المنبر وَدَّ المنبر لو مشى هو نحوك ليلاقيَك، لو كان ذلك مستطاعاً. بيت أعجب الأقدمين كثيراً. وأخذ البحتري معناه من بيت أبي تمام: (لو سعت بقعة لإعظام نعمى/لسعى نحوها المكان الجديب) يقول أبو تمام إن المكان المجدب لو استطاع أن يمشي للازدياد من نعمة المطر لمشي في اتجاه تلك الغيمة الماطرة ولحقها. وتفنن الشعراء في الإتيان بالمعنى نفسه في قوالب مختلفة فقال البلاذري يمدح المستعين بعد أن تحداه المجلس في الإتيان بمعنى البحتري في بيت أحسن من بيت البحتري: (ولو أن بُردَ المصطفى إذ لبستَه/يظنُّ، لظن البردُ أنك صاحبُهْ)، وثَنَّى البلاذري ببيت جميل رقيق: (وقال، وقد أُعطيتَه ولبستَه:/نعم هذه أعطافُه ومناكبُهْ)

أُيِّدْتَ مِنْ فَصْلِ الخِطَابِ بِخُطْبَةٍ تُنْبِي عَنِ الحقِّ المُبِينِ وتُخْبِرُ

وُفِّقت من فصل الخطاب (الخطب التي تبدأ بالتحميد ثم بعبارة أما بعد) إلى خطبة تنبي (تبلِّغ) عن الحق

وَوَقَـفْـتَ فـي بُـرْدِ الـنَّـبـيِّ مُـذَكِّـرَاً بِـالـلَّـهِ، تُـنْـذِرُ تَـارةً وتُـبَـشِّـرُ

ووقفت وأنت ترتدي برد النبي (الثوب الموروث عن النبي فيما زعموا)، وذكَّرْتَ الناس بالله، وسقت إليهم الوعد والوعيد. هذه القصيدة أحبها القدماء، ومؤلفو كتب المدارس أيضاً، حباً جماً لجمال ألفاظها وسلاستها. لم لا

٨٤ مشاور السيف

يمدح يوسف بن محمد:

رَأَيْتُ أبا يعقوبَ، والناسُ: ذو حِجَاً يُـؤَمِّـلُـهُ، أو ذو ضَـلالٍ يُـحَـاذِرُهْ..

الناس في شأن أبي يعقوب نوعان: ذو حجا (عقل) يرجو خيره، وذو ضلال يحذر أذاه، وقد رأيته..

إذا وَقَـعـتْ بـالـقـربِ مـنـه مُـلِـمَّـةٌ ثَـنَى طَرْفَهُ نَحْوَ الـحُـسَامِ يُشَـاوِرُهْ

رأيته إذا اقتربت منه ملمة (مشكلة) انثنى بعينه نحو السيف يشاوره في أمرها، فهو يسارع إلى الحسم

وما كان (بُقْراطُ بنُ آشُوطَ) عندَهُ بِـأَوَّلِ عَـبْـدٍ أَسْـلَـمَـتْـهُ جَـرائِـرُهْ

القائد الأرمني «بقراط بن آشوط» ليس أول أسير لأبي يعقوب أسلمته جرائره (أدت ذنوبه إلى تسليمه لعدوه)

وقد شاغَبَ الإسلامَ خمسينَ حِجَّةً فلا الخوفُ ناهِيهِ، ولا الحِلْمُ زَاجِرُهْ

فقد ظل يناوش الدولة الإسلامية خمسين سنة لا هو خائف، ولا حلم المسلمين (تغاضيهم) عنه زاجره (ناهيه)

ولـمَّا الْتَقَى الجَمْعَانِ لم تَجْتَمِعْ له يَداهُ، ولـم يَثْبُتْ على البِيضِ نَاظِرُهْ

عندما التحم الجيشان اضطربت يدا القائد الأرمني، ولم يثبت على البيض (السيوف) ناظره (بصره)، أي زاغ بصره رعباً

ولـم يَرْضَ مِنْ (جُرْزَانَ) حِرزَاً يُجِيرُهُ ولا فـي جبـالِ الـرومِ رَيْداً يُـجَـاوِرُهْ

لم يرض هذا القائد الأرمني من «جرزان» حرزاً يجيره (معقلاً يحميه)، ولا رضي ريداً (جرفاً جبلياً) في جبال الروم يجاوره (يأوي إليه)

فـجـاءَ مَـجِـيءَ الـعَـيْـرِ، قـادَتْـهُ حَـيْـرَةٌ إلى أَهْرَتِ الـشِّـدْقَـيْـنِ تَـدْمَـى أظافِرُهْ

بل جاء إليك مثلما يجيء العير (حمار الوحش) لشدة حيرته نحو الأسد الأهرت الشدقين (الواسع الفم) الدامي الأظافر

فـإنْ أَدْرَكَـتْـهُ بِـالـعِـراقِ مَـنِـيَّـةٌ فَـقَـاتِـلُـهُ عـنـدَ الـخـلـيـفـةِ آسِـرُهْ

فإن قرروا في العراق قتله، فإن الذي تمكن منه وقتله، عند الخليفة (بالنسبة للخليفة)، هو الذي أسره

بِتَدبِيرِكَ المَيمونِ أُغْلِقَ كيدُهُ عليه، وكَلَّتْ سُمْرُهُ وبَواتِرُهْ

بتدبيرك الميمون (المبارك) أغلق صندوق كيد هذا العدو عليه، وكلت (ضعفت) سمره (رماحه السمر) وبواتره (سيوفه القاطعة) عن نصره

ولم يَبْقَ بِطْرِيقٌ له مِثْلُ جُرْمِهِ (بِأَرَّانَ) إلّا عازِبُ اللُّبِّ طائِرُهْ

لم يبق في «أران» بطريق (قائد رومي) له مثل جرمه (ذنبه) إلا وهو عازب اللب (شارد العقل) وطائر القلب

كَسَرْتَهُمُ كَسْرَ الزُّجاجَةِ بَعْدَهُ؛ ومَنْ يَجْبُرُ الوَهْيَ الذي أنتَ كاسِرُهْ؟

بعد أسرك بقراط ذاك كسرتهم مثلما تكسر الزجاجة، ومن يستطيع جبر (إصلاح) الوهي (الشرخ) الذي صنعتَه؟

وقد عَلِمَ العَاصِي، وإنْ أَمْعَنَتْ به مَحَلَّتُهُ في الأرضِ، أنَّكَ زائِرُهْ

وقد علم كل عاصٍ آخر، مهما أمعنت به محلته (ابتعدت منطقته)، أنك قادر على القدوم إليه

٨٥ المكرمات وجديس وجرهم

يمدح الفتح بن خاقان:

لَقَدْ جَشِمَ الفَتْحُ بْنُ خاقَانَ خُطَّةً مِنَ المجدِ، ما يَسْطِيعُها المُتَجَشِّمُ

جشم (تكفل) الفتح بن خاقان بخطة مجد (أمر مجيد) لا يسطيعها (يستطيعها) المتجشم (المتكلف غير ما في طبعه)

رَبَا في حُجُورِ المُلْكِ، يُغْرِيهِ بِالحِجَا خَلائِفُ مِنْهُمْ مُرْشِدٌ ومُقَوِّمُ

حجور (أحضان)، الحجا (العقل)، خلائف (خلفاء)

فَآضَ كَمَا آضَ الحُسَامُ، تَرَادَفَتْ عليهِ القُيُونُ، فَهْوَ أَبْيَضُ مِخْذَمُ

آض (أصبح) كالسيف الذي ترادف عليه (توالى عليه) القيون (الحدادون)، فأصبح مصقولاً أبيض مخذماً (قاطعاً)

ولو بَلَغَ الجَانِي أَقَاصِيَ حِلْمِه لأَعْقَبَ بَعدَ الحِلْمِ مِنْهُ التَّحَلُّمُ

لو وصل الجاني إلى أقصى موقع في حلم (صفح) الفتح بن خاقان، لأعقب (لتلا) بعد وصول الحلم مداه التحلم (تكلف الحلم). يقول: لو كانت الجناية مما لا يحتمله صفح الفتح فإن التحلم سيأتي بعد الحلم لينقذ الجاني

أَرَى المَكْرُمَاتِ استُهْلِكَتْ في مَعاشِرٍ وبَادَتْ، كَمَا بَادَتْ جَدِيسُ وجُرْهُمُ

المكرمات انتهت وانقرضت كانقراض قوم جديس وقوم جرهم

وَمُشْرِقَةٍ في النَّظْمِ غَرَّا، يَزِيدُهَا بَهَاءً وحُسْناً أَنَّها لَكَ تُنْظَمُ

ورب قصيدة مشرقة غراء (بيضاء الجبين كالفرس ذات الغرة البيضاء)، يزيدها جمالاً أنها منظومة في مدحك

٨٦ ليلة مع الحبيب

بَرَّحَ بي حُبُّكَ المُعَنِّي وغَرَّني مِنْكَ ما يَغُرُّ

برَّح بي حبك (أوجعني) المعنِّي (المؤلم)، واغتررت بك

تَذْكُرُ كَمْ لَيْلَةٍ لَهَوْنا في ظِلِّهَا، والزَّمانُ نَضْرُ؟

غَابَ دُجَاهَا، وأيُّ لَيْلٍ يَدْجُو عَلَيْنا وأَنْتَ بَدْرُ؟

دجاها (سوادها)

تَمْزُجُ لي رِيقَةً بِخَمْرٍ؛ كِلا الرُّضَابَيْنِ مِنْكَ خَمْرُ

٨٧ الأموال الفضيحة

قال في ضرب صالح بن وصيف «أحمدَ بن إسرائيل» و«أبا نوح»:

نَهَيْتُكُمُ عَنْ صَالحٍ، فَأَبَى بِكُمْ لَجَاجُكُمُ إلَّا اغْتِرَاراً بِصَالِحِ

نهيتكم أيها الناس عن اتهام صالح فأبى لكم لجاجكم (عنادكم) إلا اغتراراً (انخداعاً) بأن صالحاً غافل عنكم

فقد ظَهَرَتْ أموالُكُمْ، بَعْدَ سَتْرِها وبعدَ تَخَفِّيهَا، ظُهُورَ الفَضَائِحِ

والآن ظهرت أموالكم ـ التي كنتم تسترونها ـ كما تظهر الفضائح

ذَخَائِرُ ذِيدَ الحَقُّ عنها، وأُرْتِجَتْ عليها مَغَالِيقُ الصُّدورِ الشَّحَائِحِ

إنها ذخائر (مدخرات) ذيد (أبعد) الحق عنها، وأرتجت (أغلقت) عليها مغاليق (أقفال) الصدور الشحائح (البخيلة)

أبا الفضلِ! لا تَعْدَمْ عُلُوّاً مَتى اعتَدَى لِسَانُ عَدُوٍّ، أَوْ صَغَا قلبُ كَاشِحِ

يا أبا الفضل! لا حُرمت من العلو كلما اعتدى عليك لسان عدو، وكلما صغا (أشاح) عنك قلب كاشح (مبطن العداوة)

تقَطَّعَتِ الأَسبابُ بِالقومِ، وانتَهَوْا إلى حَدَثٍ مِنْ نَبْوَةِ الدَّهرِ فَادِحِ

تقطعت الأسباب بالقوم (تفرقوا) وانتهوا (آل بهم المآل) إلى حدث فادح من نبوة الدهر (المصيبة)

فلم تَبْقَ إلَّا سَطْوَةٌ مِنْ مُطَالِبٍ   بأَضْغَانِهِ، أوْ نِعْمَةٌ مِنْ مُسَامِحِ

وكل ما بقي بالنسبة لهم سطوة رجل يطلب الاشتفاء من أضغانه (أحقاده)، أو نعمة رجل يسامحهم

إذا أنتَ لم تُضْرِبْ عنَ الحِقْدِ لم تَفُزْ   بِذِكْرٍ، ولم تَسْعَدْ بتَقْرِيظِ مَادِحِ

إذا لم تضرب (تكف) عن الحقد، فلن تفوز بالذكر (السمعة الحسنة)،
ولن تسعد بتقريظ (بمديح) مادح

ولَنْ يُرْتَجَى في مَالِكٍ غيرِ مُسْجِحٍ   فَلاحٌ، ولا في قَادرٍ غيرِ صَافِحِ

ولن يرتجى فلاح من رجل ذي نفوذ لكنه غير مسجح (متسامح)، ولا فلاحَ أيضاً لرجل قادر لا يصفح. وهذا كلامٌ النثر أليق به من الشعر. فالبحتري يخاطب صالح بن وصيف كي يصفح عن المخطئين، ولكن ديباجة البحتري الجميلة تجعل المرء يصغي إليه

٨٨ الشرب على غير عطش

مرَّت بالبحتري الجارية بُرهان ومعها كوز ماء. سألها: لمن تأخذينه؟ فقالت: لستي قبيحة. وقبيحة هي جارية المتوكل الأثيرة، فأخذ الكوز وصبه في حلقه عابثاً. فعرف المتوكل الخبر (بحسب رواية أبي الفرج) فقال للبحتري: قل في هذا شعراً. فقال:

مَا قَهْوَةٌ مِنْ رَحِيقٍ كَأْسُها ذَهَبٌ   جَاءَتْ بِها الحُورُ مِنْ جَنَّاتِ رِضْوَانِ

قهوة (خمر)، رحيق (خمر)، رضوان (اسم حارس الجنة)

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْ مَاءٍ، بِلا عَطَشٍ،   شَرِبْتُهُ، عَبَثاً، مِنْ كَفِّ بُرْهَانِ

٨٩ الملك فيه وفي بنيه

وقال يمدح المتوكل (٢٤٠هـ): وقيل إن المتوكل وهبه خاتماً كان بيده، فنظر البحتري إلى يد الخليفة الأخرى وفيها خاتم، وأطرق، فسأله المتوكل: ماذا بك؟ فقال: أفكر بأبيات أستخرج بها الخاتم الآخر. ثم قال هذا الشعر، وأخذ الخاتم الثاني. والقطعة تنسب أيضاً إلى علي بن الجهم:

بِسُرَّ مَنْ رَا لَنَا إمَامٌ   تَغْرِفُ مِنْ بَحْرِهِ البِحَارُ

بسر من را (بسامراء) لنا إمام (خليفة) كريم كالبحر، بل إن البحر يحتاج إلى أن يغرف منه

خَلِيفَةٌ يُرْتَجَى وَيُخْشَى   كَأَنَّهُ جَنَّةٌ ونَارُ

كِلْتَا يَدَيْهِ تَفِيضُ سَحّاً   كَأَنَّهَا ضَرَّةٌ تَغَارُ

كل يد من يديه تفيض سحاً (هطولاً) كأن كل يد ضرة للأخرى وتغار منها

فَلَيْسَ تَأتِي اليَمِينُ شَيئاً   إلّا أَتَتْ مِثْلَهَا اليَسَارُ
فَالمُلْكُ فيه وفي بَنِيهِ   مَا بَقِيَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ

ما بقي (طيلة بقائه). أين بنو العباس اليوم؟ يقول عبود الشالجي في كتابه (موسوعة العذاب) إنه لا يُعرَف في العراق اليوم سوى عائلتين تنتسبان إلى بني العباس، واحدة ببغداد وواحدة بالبصرة

٩٠ مذهولون بأبهة الخلافة

يمدح المتوكل، ويذكر وفد الروم عليه:

عَرِّجْ على حَلَبٍ فَحَيٍّ مَحَلَّةً   مَأْنُوسَةً، فيها لِعَلْوَةَ مَنزِلُ

يحيي في حلب محلة (حيًّا) مأنوسة (معمورة بأهلها، وليست خربة كالأطلال التي يحييها الشعراء عادة)، وفي هذا الحي يوجد منزل علوة

وأَعِزُّ، ثم أَذِلُّ ذِلَّةَ عَاشِقٍ،   والحُبُّ فيه تَعَزُّزٌ وتَذَلُّلُ
إنَّ الرَّعِيَّةَ لم تَزَلْ في سِيرةٍ   عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَها المُتَوَكِّلُ
اللَّهُ آثَرَ بالخلافةِ جَعْفَراً   ورَآهُ نَاصِرَها الذي لا يُخْذَلُ

آثر (خصَّ)

هِيَ أَفْضَلُ الرُّتَبِ التي جُعِلَتْ له   دُونَ البَرِيَّةِ، وَهْوَ مِنْها أَفْضَلُ
لا يَعْدَمَنْكَ المُسْلِمُونَ، فإنَّهُمْ   في ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَّلُوا
فَادَيْتَ بِالأَسْرَى، وقد غَلِقُوا، فَلا   مَنٌّ يُنَالُ، ولا فِدَاءٌ يُقْبَلُ

غلقوا (احتُبسوا بلا فداء)، منٌّ (عفو)

ورَأَيْتُ وَفْدَ الرُّومِ، بعدَ عِنَادِهِمْ،   عَرَفُوا فَضَائِلَكَ التي لا تُجْهَلُ
لَحَظُوكَ أَوَّلَ لَحْظَةٍ، فَاسْتَصْغَرُوا   مَنْ كان يُعْظَمُ فِيهِمُ ويُبَجَّلُ

من النظرة الأولى إلى طلعتك استصغر أفراد وفد الروم رؤساءهم الذين كانوا حتَّائذ مبجلين في عيونهم

حَضَرُوا السِّمَاطَ، فَكُلَّما رَامُوا القِرَى   مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عُقُولٌ ذُهَّلُ

حضروا السماط (المائدة) فكلما راموا القرى (التمسوا الطعام)، مالت أيديهم لأن عقولهم ذاهلة من عظمة المشهد

تَهْوِي أَكُفُّهُمُ إلى أَفْواهِهِمْ   فَتَجُورُ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وتَعْدِلُ

تتجه أكفهم إلى أفواههم ثم تضل الطريق، وتعدل (تنحرف)، لذهولهم

وَبِوُدِّ قَوْمِهِمُ الأُلَى بَعَثوا بِهِمْ   لو ضَمَّهُمْ بِالأَمْسِ ذاكَ المَحْفِلُ

وكان بودِّ الروم في القسطنطينية الذين أرسلوا هذا الوفد أن يكونوا هم في هذا المحفل بدلاً من رُسُلهم

٩١ الحب الأخير

يمدح الفتح بن خاقان:

ولمَّا تَزايَلْنَا مِنَ «الجَزْعِ»، وانْتَأى   مُشَرِّقُ رَكْبٍ مُصْعِدَاً عَنْ مُغَرِّبِ

لما تزايلنا عن (فارقنا) موضع «الجزع»، وانتأى (ابتعد) الركب (القافلة) المشرّق، وهو صاعد هضبةً، عن الركب المغرِّب..

تَبَيَّنْتُ أنْ لا دَارَ مِنْ بَعْدِ «عالِجٍ»   تَسُرُّ، وأنْ لا خَلَّةً بَعْدَ زَيْنَبِ

تبينت (تأكدت) أن لا دار ستسرني بعد «عالج»، ولا خلة (صاحبة) ستسرني بعد زينب

٩٢ دماء ودموع وحمية جاهلية

يمدح المتوكل، ويذكر صلح بني تغلب:

مُنَى النَّفْسِ في أَسْمَاءَ لو تَسْتَطِيعُها،   بِهَا وَجْدُهَا، مِنْ غَادَةٍ، وَوُلُوعُها

منايَ منحصرة في أسماء لو أنني أستطيع الوصول إليها. ووجدُ نفسي وولوعها هو بأسماء، ويا لها من غادة

وقد رَاعَني منها الصُّدودُ، وإنَّما   تَصُدُّ لِشَيْبٍ في عِذَارِي يَرُوعُها

راعني صدودها، وسببه الشيب في عذاري (سالفي)

حَمَلْتُ هَواهَا يومَ (مُنْعَرَجِ اللِّوَى)   على كَبِدٍ قد أَوْهَنَتْها صُدُوعُها

أوهنتها صدوعها (أضعفت كبدي الشقوق التي فيها)

وكنتُ تَبيعَ الغَانِياتِ، ولم يَزَلْ   يَذُمُّ وَفَاءَ الغَانياتِ تَبِيعُها

تبيع (ملاحق)

وحسناءَ لم تُحْسِنْ صَنيعَاً، ورُبَّما   صَبَوْتُ إلى حَسْناءَ سِيءَ صَنِيعُها

صبوت (اشتقت)، سيء (ساء)

عَجِبْتُ لَها: تُبْدي القِلَى، وأَوَدُّها؛   ولِلْنَّفْسِ: تَعصِيني هَوىً، وأُطِيعُها

عجبت لأسماء تبدي القلى (الصدود) وأستمر في حبي لها، وعجبت لنفسي تعصيني عندما أريد الفكاك من هذا الحب.. وأطيعها

أَسِيتُ لأَخْوالي (رَبِيعَةَ) إذْ عَفَتْ مَصَانِعُها منها، وأَقْوَتْ رُبُوعُها

أسيت (تألمت) لأخوالي من قبيلة ربيعة إذا عفت (خربت) مصانعها (مبانيها)، وأقوت ربوعها (أقفرت منازلها)

بِكُرْهِيَ أنْ بَاتَتْ خَلاءً دِيَارُها، ووَحْشاً مَغَانِيها، وشَتَّى جَمِيعُها

أنا كارهٌ أن أصبحت ديار ربيعة مهجورة، ومغانيها (منازلها العامرة) موحشة، وجميعها (اجتماع شملها) شتى (متفرقاً)

إذا افْتَرَقُوا عَنْ وَقْعَةٍ جَمَعَتْهُمُ لأُخْرَى دِماءٌ مَا يُطَلُّ نَجِيعُها

إذا انتهت وقعة (معركة) اجتمعوا ليخوضوا غيرها بسبب دماء أريقت في المعركة الأولى يريدون الثأر لها، ما يطل (لا يذهب هدراً) نجيعها (دمها)

تَذُمُّ الفَتاةُ الرُّودُ شِيمَةَ بَعْلِها إذا باتَ دونَ الثَّأْرِ وَهْوَ ضَجِيعُها

الفتاة الرود (الناعمة) تذم شيمة (خُلُق) بعلها إذا بات معها قبل أن يأخذ الثأر

حَمِيَّةُ شَعْبٍ جَاهِلِيٍّ، وعِزَّةٌ كُلَيْبِيَّةٌ أَعْيَا الرِّجَالَ خُضُوعُها

هذه حمية شعب جاهلي الطبع، وعزة كليبية (كاعتزاز كليب، وائل أخي المهلهل وقتيل جساس، بنفسه) أعيا الرجال إخضاعها

وفُرْسانُ هَيْجَاءٍ تَجِيشُ صُدورُها بِأَحْقَادِها، حتى تَضِيقَ دُروعُها

هؤلاء فرسان هيجاء (حرب) تجيش صدورهم بأحقادها (تضطرم بالحقد) فيكاد الحقد يخرج من الدروع التي يلبسونها

تُقَتِّلُ مِنْ وِتْرٍ أَعَزَّ نُفوسِها عليها، بِأَيْدٍ مَا تَكادُ تُطِيعُها

هؤلاء الفرسان يقتلون من وتر (لغرض الثأر) أناساً من أقاربهم عزيزين عليهم، يقتلونهم بأيدٍ لا تكاد تطيعهم في عملهم هذا

إذا احْتَرَبَتْ يَوماً، فَفاضَتْ دِمَاؤُها تَذَكَّرَتِ القُرْبَى، فَفاضَتْ دُموعُها

إذا احتربت الفرسان يوماً ففاضت دماؤها تذكرت صلة القرابة ففاضت دموعها

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرَ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قُطُوعُها

شواجر أرماح (رماح مشتبكة) تقطع صلات الرحم المتشابكة، التي يلامونَ على قطعها

فَلَوْلا أَميرُ المؤمنينَ وطَوْلُهُ لَعَادَتْ جُيُوبٌ والدِّمَاءُ رُدُوعُها

لولا أمير المؤمنين وطوله (قدرته) لعادت الجيوب (الملابس) والدماء ردوعها (زعفرانها)، فالملابس كانت تتطيب بالدم بدلاً من الزعفران قبل تدخُّل الخليفة

ولا عُـذْرَ إلّا أنَّ حِلْـمَ حَـلِـيـمِـهـا   تَـسَـفَّـهَ فـي شَـرٍّ جَـنَـاهُ خَـلِـيـعُـهـا

وليس للمتقاتلين من عذر سوى أن الحليم دخل في السفاهة والحماقة بسبب جنايات جناها الخليع (المستهتر المنشق عن القبيلة)

ومُشْفِقَةٍ تَخْشَى الحِمامَ على ابْنِها   لأوَّلِ هَـيْـجَـاءٍ تَـلاقَـى جُـمُـوعُـهـا

ورب امرأة مشفقة (خائفة) على ابنها من الموت في أول مرة يدخل فيها الحرب..

رَبَطْتَ بِصُلْحِ القوْمِ نَافِرَ جَأْشِها،   فَقَرَّتْ حَشَاها، واطْمَأَنَّتْ ضُلُوعُها

.. ربطتَ، أيها الخليفة بالصلح الذي عقدته، جأش هذه المرأة النافر (قلبها المضطرب)، فاستقر حشاها (قلبها) واطمأنت (سكنت) ضلوعها

٩٣ بين أطلال سُعدى

قِفِ العِيسَ، قد أَدْنَى خُطَاهَا كَلالُهَا   وسَلْ دارَ سُعْدَى، إنْ شَفاكَ سُؤالُها

قف (أوْقِف) العيس (الإبل) فقد أدنى خطاها كلالها (جعل خطواتها متقاربةً تعبُها)،
واسأل بقايا دار سعدى عن الحبيبة الراحلة، إن كان في مجرد السؤال شفاء لنفسك؛
فأما الجواب، فلا جواب

وما أَعْرِفُ الأطلالَ مِنْ بَطْنِ (تُوضَحٍ)   لِطُولِ تَـعَـفِّـيـهـا، ولَـكِـنْ إخَـالُـهـا

لا أكاد أتعرف على بقايا الديار في هذه المنطقة لطول تعفيها (خرابها)،
لكن إخالها (أخمن مكانها تخميناً)

إذا قلتُ: أَنْسَى دارَ ليلى على النَّوَى،   تَـصَـوَّرَ في أَقْـصَـى ضَـمِـيري مِـثَـالُـهـا

كلما قلت إنني سأنسى دار ليلى (يغيِّر الشاعر اسم محبوبته في القصيدة الواحدة.. عادي) مع النوى (الفراق)، تمثلتْ صورتها في أعماق قلبي

تَـمَـنَّـيْـتُ لـيـلـى بعدَ فَوْتٍ، وإنَّـمـا   تَـمَـنَّـيْـتُ مِـنْـهـا خُـطَّـةً لا أنـالُـهـا

فوت (فوات الأوان)، خطة (أمر)

٩٤ السقوط من الحظوة

يعاتب الفتح بن خاقان، ويعتذر إليه:

عَـذِيـرِي مِـنَ الأَيَّـامِ رَنَّـقْـنَ مَـشْـرَبِـي   ولَـقَّـيْـنَـنِـي نَـحْـساً مِـنَ الـطَّـيْـرِ أَشْـأَمـا

عذيري (عبارة شعرية معناها: منذا الذي يقبل عذري) فالأيام (الزمن) رنقن (كدَّرن) مشربي،
ولقَّينني (جلبن عليَّ) نحساً أشأم من نحس الطير (إذ تتجه شمالاً، وهذا نحس)

وأَكْسَبْنَنِي سُخْطَ امْرِئٍ بِتُّ مَوْهِناً أَرَى سُخْطَهُ لَيْلاً مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِما

وأكسبتني الأيام سخط رجل، هو الفتح بن خاقان، بت موهناً (ليلاً)
وأنا أرى سخطه يزيد الليل سواداً

تَبَلَّجَ عَنْ بَعضِ الرِّضا، وانْطَوَى على بَقِيَّةِ عَتْبٍ شَارَفَتْ أَنْ تَصَرَّما

تبلج (أشرق) وجه الفتح عن قليل من الرضا عليَّ، ثم انطوت نفسه على بقية عتاب شارفت (كادت) أن تتصرم (تنقضي)

إذا قُلْتُ يوماً: قد تَجَاوَزَ حَدَّها تَلَبَّثَ في أعقَابِها، وتَلَوَّما

كلما قلت قد تجاوز الفتح حدَّ بقية العتاب، إذا به يتلبَّث (يبطئ) في أعقابها (أواخرها)
ويُنحي عليَّ باللوم

وأَصْيَدَ إِنْ نَازَعْتُه اللَّحْظَ، رَدَّهُ كَلِيلاً، وإِنْ رَاجَعْتُه القَوْلَ جَمْجَما

رب أصيد (عزيز) إن نازعته اللحظ (اصطادت عيني عينه مرة بعد أخرى) رد لحظه كليلاً (ضعيفاً)
وانصرف بنظره عني، وإذا راجعته بالقول فيما بيننا جمجم (تمتم)

ثَنَاهُ العِدىَ عَنِّي، فَأَصبحَ مُعْرِضاً وأَوْهَمَهُ الوَاشُونَ، حَتَّى تَوَهَّمَا

ثناه العدى عني (صرفه الأعداء) فأعرض، ودس له الواشون الأوهام حتى علقت بقلبه

وقد كانَ سَهْلاً واضِحاً، فَتَوَعَّرتْ رُبَاهُ؛ وطَلْقاً ضَاحِكا، فَتَجَهَّما

كان سهل المعاملة معي واضحاً (مكشوفاً)، فأصبحت رباه وعرة، وكان ضاحكاً لي فتجهم (كشر)

يُخَوِّفُني مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ، ولا خَوْفَ إلَّا أَنْ تَجُورَ وتَظْلِما

يخوفني قوم من سوء رأيك فيَّ؛ والخوف الحقيقي هو أن تجور (تظلم)، وهذا بالطبع غير وارد..

أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ، مِنْ غَيرِ حَادِثٍ تَبَيَّنَ، أو جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّما

أعيذك (أُجِلُّكَ) أن أخشاك دون أن يكون بدر مني حادث أو جرم، فأنت لا تظلم بلا سبب

أَلَسْتُ المُوَالِي فيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الأَنْجُمُ، اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا؟

ألستُ الموالي (المواصِل) فيك قصائد المدح التي تشبه النجوم

فَلَو أَنَّنِي وَقَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ وأَجْلَلْتُ مَدْحِي فيكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا،

يُتهضم (يُظلَم)

لأَكْبَرْتُ أنْ أُومِي إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ تَضَرَّعُ، أَوْ أُدْنِي لِمَعْذِرَةٍ فَما

لوجدتها كبيرة أن أومي (أشير) إليك بإصبع تتضرع (تتوسل)، أو أن أدني (أقرّب) الاعتذار من فمي

وكـانَ الـذي يَـأْتـي بـه الـدَّهْـرُ هَـيِّـنـاً عَـلَـيَّ، ولـو كـانَ الـحِـمَـامَ الـمُـقَـدَّمـا
ولكان كل ما يأتي به الزمن هيناً عليَّ حتى لو كان الموت العاجل

ولـكِـنَّـنـي أُعْـلـي مَـحَـلَّـكَ أَنْ أُرَى مُـدِلًّا وأَسْـتَـحْـيِـيـكَ أَنْ أَتَـعَـظَّـمـا
ولكنني مع ذلك أتضرع، لأن مقامك أعلى من أن أُدِلَّ عليك (أتمادى عليك)، وأستحيي منك أن أتعظم (أستكبر)

أَعِدْ نَظَراً فيمَا تَسَخَّطْتَ؛ هَلْ تَرَى مَـقَـالاً دَنِـيَّـاً أو فَـعَـالاً مُـذَمَّـمَـا؟
راجع نفسك في الذي أغضبك، فهل رأيتني قلت قولاً دنيئاً فيك، أو فعلت فعلاً ذميماً

رَأَيْتُ العِراقَ أَنْكَرَتْنِي؛ وأَقْسَمَتْ عَـلَـيَّ صُـروفُ الـدهـرِ أَنْ أَتَـشَـأَّمَـا
تنكرت لي العراق، وحلفتْ عليَّ مصائب الزمن لأذهبن إلى الشام

وكـانَ رَجَـائـي أَنْ أَؤُوبَ مُـمَـلَّـكـاً، فـصـارَ رَجـائـي أَنْ أؤوبَ مُـسَـلَّـمَـا
كنت أرجو أن أرجع إلى موطني بالشام وأنا ذو أملاك، فصار أقصى رجائي أن أعود سالماً

وأَكْـبرُ ظَـنِّـي أَنَّـكَ الـمَـرْءُ لـم تَـكُـنْ تُـحَـلِّـلُ بِـالـظَّـنِّ الـذِّمَـامَ الـمُـحَـرَّمَـا
أكبر ظني أنك ذلك المرء الذي لا يحلل بمجرد الظن الذمام (العهد والعشرة) الذي يحرُمُ نقضه

ولـم أَعْرِفِ الذَّنْبَ الذي سُؤْتَني لَهُ فَـأَقْـتُـلَ نَـفْـسـي حَـسْـرَةً وتَـنَـدُّمَـا
لم أعرف سبب سخطك عليَّ حتَّى أقتل نفسي حسرة وندماً

أُذَكِّـرُكَ الـعَـهـدَ الـذي لـيـس سُـؤْدَداً تَـنَاسِيهِ، والـوُدَّ الـصَّحِيحَ الـمُـسَلَّمـا
أُقِـرُّ بَـمـا لَـمْ أَجْـنِـهِ مُـتَـنَـصِّـلاً إلـيْـكَ، عَـلَـى أَنِّـي إخَـالُـكَ أَلْـوَمَـا
إنني أقر بذنب لم أجنه ولا أعرفه، وأتنصل منه تقرباً إليك، وأغلب ظني أنك أنت أولى باللوم مني

ومِـثْـلُـكَ إنْ أَبْـدَا الـفَـعَـالَ أَعَـادَهُ وإنْ صَـنَـعَ الـمَـعْـروفَ زَادَ وتَـمَّـمَـا
ومثلك إذا أبدأ (بدأ) بفعل طيب كرره، وإن صنع المعروف أكمله وزاد عليه

٩٥ الموت ولا الشيب

حَـلَـفْـتُ لـهَـا بِـالـلَّـهِ يـومَ الـتَّـفَـرُّقِ وبِـالـوَجْـدِ مِـنْ قَـلْـبـي بِـهَـا الـمُـتَـعَـلِّـقِ
حلفت لها بوجد قلبي المتعلق بها

وبِـالـعـهـدِ، مَـا الـبَـذْلُ الـقـلـيـلُ بِـضَـائـعٍ لَـدَيَّ، ولا الـعَـهْـدُ الـقـديـمُ بِـمُـخْـلِـقِ
حلفت لها بأن البذل القليل (العطاء القليل منها) لا يضيع لدي، والعهد القديم لا يخلق (يهترئ)

وإنِّـي، وإنْ ضَـنَّـتْ عَـلَـيَّ بِـوُدِّهَـا، لأَرْتَـاحُ مِـنْـهـا لِـلْـخَـيـالِ الـمُـؤَرِّقِ

أرتاح لطيفها الذي يأتيني فيؤرقني (يذهب بنومي)

أَجِدَّكَ! مَا وَصْلُ الغَوَانِي بِمُطْمِعٍ، ولا القَلْبُ مِنْ رِقِّ الغَوَانِي بِمُعْتَقِ

أجدَّك (تعبير للقسم معناه: وحياتِكَ) ليس وصل الغواني مما يُطمِع (يجعلني أطمع في الوصل)، ولا القلب من رق (عبودية) الغواني (الحسان) بمعتَق (متحرر)

وَدِدْتُ بَياضَ السَّيْفِ، يومَ لَقِينَني، مَكَانَ بَياضِ الشَّيْبِ كَانَ بِمَفْرِقي

ليت بياض صفحة السيف ـ يوم لقيتني الحسان ـ كان بمفرق رأسي بدلاً من بياض الشيب

وصَدَّ الغَواني عندَ إِيماضِ لِمَّتي وقَصَّرْنَ عَنْ: «لَبَّيْكَ» ساعةَ مَنْطِقي

صدت النساء عني عند إيماض (إشراق) لمتي (شعري) ببياض الشيب، ولم يعدن يقلن لبيك عندما أكلمهن

إذا شِئْتَ أَلَّا تَعْذِلَ، الدهرَ، عَاشِقاً على كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الحُبِّ، فَاعْشَقِ

تعذل (تلوم)، الدهرَ (طول الزمن)، كمد (حزن)

٩٦ دمشق الجميلة

يمدح المتوكل عند قدومه إلى دمشق: (٢٤٤هـ)

الـعـيـشُ فـي لَـيـلِ دَارَيَّـا إذا بَـرَدَا والـرَّاحُ نَـمْـزُجُـهـا بـالـمـاءِ مِنْ بَرَدَى

العيش الحقيقي إنما هو في ليل داريًّا (قرية بغوطة دمشق) عندما يبرد الجو في هذا الليل، ونحن في هذه الأثناء نمزج الخمر بماء بردى (نهر دمشق)

قُـلْ لـلإمـامِ الـذي عَـمَّـتْ فَـوَاضِـلُـهُ شرقاً وغرباً، فَما نُحْصِي لها عَدَدا:

الإمام: الخليفة المتوكل على الله، فواضله: خيراته (وهي في الأساس الأموال التي يجمعها له جنوده وولاته بحد السيف من الفلاحين الفقراء ويوزعها على أعوانه وشعرائه بحمق)

الـلَّـهُ وَلَّاكَ عَـنْ عِـلْـمٍ خِـلافَـتَـهُ والـلَّـهُ أعـطاكَ مـا لـم يُـعْـطِـه أحـدا

قل للمتوكل إنّ الله ولاه الخلافة عالماً بقدرته عليها وحقه فيها

ومـا بَـعَـثْـتَ عِـتَـاقَ الـخـيـلِ في سَـفَـرٍ إلا تَـعَـرَّفْـتَ فـيـه الـيُـمْـنَ والـرَّشَـدَا

عتاق الخيل (الخيل الأصيلة)، اليُمن (البركة). ما أرسلت الخيل في سفر إلا وأنت تعرف أن في السفر خيراً

أَمَّا دِمَشْقُ فقد أَبْدَتْ محاسِنَها   وقد وَفَى لَكَ مُطْرِيها بِمَا وَعَدا

أبدت دمشق محاسنها، ووفى لك مطريها (مادحها) بوعده. وكان القوم وصفوا للمتوكل جمال دمشق، فها هو يتبين صدق وصفهم. وخطر للمتوكل أن يجعل دمشق عاصمته، ثم غير رأيه

إذا أَرَدْتَ مَلأتَ العَيْنَ مِنْ بَلَدٍ   مُسْتَحْسَنٍ، وزَمَانٍ يُشْبِهُ البَلَدا

ما أجمل المكان والزمان

يُمْسي السَّحابُ على أَجْبالِها فِرَقاً   ويُصْبِحُ النَّبْتُ في صَحْرائِها بَدَدا

الغيوم تمسي (تكون في المساء) متفرقة فوق جبالها، والنبات يصبح صباحاً وهو في صحراء دمشق بدداً (متفرقاً). ذلك أن الغيوم تمطر وتجعل النبت ينمو في الصحراء

فَلَسْتَ تُبْصِرُ إلّا واكِفاً خَضِلاً   أو يانِعاً خَضِراً، أو طائراً غَرِدا

الواكف الخضل (المبتل النديّ)، اليانع الخضر (الطري الأخضر). باختصار: الماء والخضرة والجمال

٩٧ أُنبِّيك عن عيني وطول سهادها

قال يذكر جارية له ماتت بدمشق:

أَنَبِّيكِ عَنْ عَيْنِي، وطولِ سُهَادِها،   وحُرْقَةِ قَلبي بالجَوى، واتِّقَادِها

أنبيك (أخبرك) عن طول سهاد (سهر) عيني، وعن حرقة قلبي بالجوى (الهجران) واتقاد هذه الحرقة

وأَنَّ الهُمومَ اعْتَدْنَ بَعْدَكِ مَضْجَعي   وأنتِ التي وَكَّلْتِني باعتِيادِها

وأن الهموم اعتدن (أتين) بعد فراقك مضجعي (فراشي)، وأنت كنت حملتِني الهموم في حياتك لعشقي لك

٩٨ حيرت قلبي معك

يمدح الفتح بن خاقان ويعاتبه:

يُريبُنِيَ الشيءُ تأتي به   وأُكْبِرُ قَدْرَكَ أنْ أَسْتَرِيبا

يريبني (يجعلني مرتاباً متخوفاً) الشيء - الذي - تأتي به (تفعله)، ولكنني أجلُّك عن إبداء شكوكي

أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قد سَخِطْتَ   ومَا كنتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبا

متحير البحتري في الفتح بن خاقان، فهو لا يعرف لسخط الوزير سبباً؛ يكذب ظنه، ولكنه يعلم في قرارة نفسه أن ظنه لا يكذبه

ولو لم تَكُنْ ساخطاً لم أكُنْ   أَذُمُّ الزمانَ وأشكو الخُطوبا

سخطك عليَّ هو السبب الوحيد لذمي الزمان وشكواي من الخطوب (المصائب)

ولا بُــدَّ مِــنْ لَــوْمَــةٍ أَنْــتَــحــي عــليكَ بِهَا، مخطِئاً أو مُصِيبا

ولا بد من لومة أنتحي عليك بها (أوجهها لك)،
سواء أصبتُ أم أخطأت، فأنت تحيرني

أَيُــصــبِــحُ وِرْدِيَ فــي ســاحَــتَــيْــ ــكَ طَرْقاً، ومَرْعَايَ مَحْلاً جَدِيبا؟

أيصبح وردي (مائي الذي أرِدُه) في ساحتيك (يقصد: عندك) طَرْقاً (مكدراً ملوثاً)، ويصبح مرعاي الذي أرعى فيه لديك ممحلاً مجدباً؟

ولــو كــنــتُ أعــرفُ ذَنــبــاً، لَــمَــاَ تَــخَــالَــجَنــي الــشَّــكُّ فــي أنْ أتُــوبــا

لو عرفت ذنباً اقترفته لما تخالجني (داخلني) الشك في وجوب التوبة

ســأَصْــبِــرُ حــتــى أُلاقــيِ رِضَــا كَ، إمَّــا بَــعــيــداً، وإمَّــا قــريــبــا

سيأتيني رضاك في النهاية أكان بعيداً عني أم قريباً مني. هذه من قصائد البحتري للفتح بن خاقان التي تخلط الاعتذار بالعتاب خلطاً طريفاً. وقد أعجب القدماء بهذه القصائد، وعدها ابن المعتز من أجمل ما قيل في هذا الباب منذ اعتذارات النابغة للنعمان. ولم أر القدماء نوهوا بهذا الخلط بين الاعتذار والعتاب مع تأكيد المحبة. فأحببت أن أكتب في هذا كلمة. والواقع أن قضية الخلط هذه موجودة في غرضين آخرين - وفي قصائد أخرى للبحتري - ذانك الغرضان هما المدح والهجاء. تراه يمدح أحدهم فيخرج إلى العتاب، ومنه إلى لسعات هجاء لا تخفى، كأنه يريد أن يذيقه بعض ما يمكن أن يصيبه إن هو تأخر في دفع المستحقات. وهذا شأن بشري طبيعي. ترى الموظفة تدخل على مديرها بوجه مختلط تصعب قراءته، وتقول له: يا سيد الكل، جئت أطرح السلام، ودائرتنا - ما شاء الله - أحسن دائرة بوجودك. ودعك عن كل ما يقولون. يتدخل المدير ويقول: وما هذا الذي يقولون؟ ومن هم؟ تقول له: لا، ليس له قيمة. أنا مثلاً، صحيح أنني لم أنل ما أستحق من زيادة، ولكنني أعرف أنك تخطط على المدى البعيد. هنا ينشغل عنها المدير بتفحص شاشته وصندوق رسائله، فتمضي إلى القول: لقد رأيت أمس في الندوة عضو مجلس الإدارة فلاناً. وهو أيضاً يسمع عما سماه تجاوزات. لكنني أكدت له عدم وجود شيء كهذا. ملخص الأمر أن تلك الموظفة تعطي مديرها موشحاً يخلط الطاعة بالتمرد، والمدح بالعتاب بالتهديد. الناس فيهم كثير من هذا. ولا أقول الكرام من الناس. فالكرام يكاشفون، ولا يسترون إلا ما يقدمونه من خير. والبحتري لم يكن من كرام الناس. كان جشعاً لا يشبع

٩٩ الحلال المخلوط

في العشق ضمن مدح للمتوكل:

غَــادَةٌ بِــتُّ أَحْــمِــلُ الــلَّــوْمَ فِــيــهــا، وعَــنَــاءُ الــمُــحِــبِّ طُــولُ الــمَــلامِ

أُنِّثَتْ ثم ذُكِّرَتْ فَبِها دَلٌّ ـ فَتَاةٍ رُودٍ، وقَدُّ غُلامِ

فيها من صفات الفتاة الرود (الناعمة) الدلال، ولها من الغلام قده الرشيق. وكان بعض أهل ذلك الزمن في بغداد يحبون الفتاة التي ضمرت أكفالها فكأنها غلام في قدها؛ أما قدماء الشعراء فكانوا يمدحون اكتناز العجيزة

ولِحُسْنِ الحَلالِ فَضْلٌ، إذا مَا شَابَهُ، في العُيُونِ، ظَرْفُ الحَرَامِ

الحلال يكون فيه فضل (زيادة) إذا شابه (اختلط به) قليل من الحرام الظريف

١٠٠ لست من أنداده

وقال في مدح المتوكل:

قَدْ قلتُ للغَيْمِ الرُّكَامِ، ولَجَّ في إبْرَاقِه وأَلَحَّ في إرعَادِهِ

قلت للغيم المتراكم، وقد لجَّ (استمر) في إبراقه وألحَّ في إرعاده

لا تَعْرِضَنَّ لِجَعْفَرٍ مُتَشَبِّهاً بِنَدَى يَديْهِ، فَلَسْتَ مِنْ أَنْدَادِهِ

لا تعرضن (لا تتعرض) لجعفر (للمتوكل) متشبها بكرم يديه، فلستَ نداً له

١٠١ واهب «البدور»

قال يمدح المتوكل:

تَنَاءتْ دارُ عَلْوَةَ، بعدَ قُرْبٍ، فهل رَكْبٌ يُبَلِّغُها السَّلاما؟
وَرُبَّتَ ليلةٍ قد بِتُّ أُسْقَى بِعيْنيْها وكَفَّيْها المُداما

ربت (رب)

قَطعْنَا الليلَ، لَثْمَاً واعْتِناقاً وأفنيْناهُ، ضَمَّاً والتِزاما

لثما (تقبيلاً)، التزاماً (معانقة)

لَئِنْ أَضْحَتْ مَحَلَّتُنا عِراقاً مُشَرِّقَةً، وحِلَّتُها شَآما

الحلة والمحلة (المكان الذي يقيم به القوم)

فلم أُحْدِثْ لها إلّا وِدَاداً، ولم أَزْدَدْ بِها إلا غَراما
خِلافَةُ جَعْفَرٍ عَدْلٌ وأَمْنٌ وحِلْمٌ لم يَزَلْ يَسَعُ الأَناما
إذا وَهَبَ البُدُورَ رأَيْتَ وَجْهاً تَخَالُ بِحُسْنِه البَدْرَ التَّمَاما

البدور (أكياس النقود، وقيل البدرة الواحدة ألف درهم). يمنح المال وهو مبتسم

غَـنِـيٌّ أَنْ يُـفَـاخِـرَ أو يُـسَـامِـي جَـلِـيـلٌ أَنْ يُـفـاخَـرَ أو يُـسَـامَـى

غني (مستغنٍ) أن يفاخِر أحداً أو أن يساميه (يعلو فوقه)، وهو جليل القدر عن أن يفاخره أحد أو يعلو عليه

١٠٢ الفتح يواجه الأسد

يمدح الفتح بن خاقان، ويذكر منازلته الأسد:

ومـا نَـقَـمَ الـحُـسَّـادُ إلَّا أَصـالَـةً لَـدَيْـكَ، وفِـعْـلاً أَرْيَـحِـيَّـاً مُـهَـذَّبَـا

ما نقم الحسادُ (اغتاظوا من) إلا أصالةً لديك (رأياً ثاقباً)، وإلا فعلاً أريحياً (فيه انشراح للمعروف) مهذباً (متمدِيناً حضارياً). والرجل المهذب في شعر القدماء هو الذي ليس فيه جفاء الأعراب، بل عنده إتيكيت السلوك الحضري

وقَدْ جَرَّبُوا بالأمسِ مِنْكَ عَزِيمةً فَضَلْتَ بِها السَّيفَ الحُسامَ المُجَرَّبَا

وقد رأوا بأعينهم مؤخراً عزيمتك التي فضَلت بها الحسام (تفوقت على السيف) المجرب

غَدَاةَ لَقِيتَ اللَّيْثَ، واللَّيْثُ مُخْدِرٌ يُـحَـدِّدُ نَـابـاً لِـلِّـقـاءِ ومِـخْـلَـبَـا

حدث هذا صبيحة لقائك الأسد وهو مخدر (قابع في خدره، مَخْبَأه) يحدد (يشحذ) نابه ومخلبه لهذا اللقاء

يُحَصِّنُهُ، مِنْ نَهْرِ (نَيْزَكَ)، مَعْقِلٌ مَـنِـيـعٌ تَـسَـامَـى غـابُـهُ وتَـأَشَّـبَـا

كان يحصِّن الأسدَ معقل منيع (حصن حصين) هو عبارة عن نهر نيزك، وهذا الحصن تسامى (ارتفع) غابه (قصبه) وتأشب (صار منيعاً). ونهر نيزك قناة جرَّها المتوكل إلى منطقة الحير في سامراء. وكانت بها غابة كبيرة فيها الوحوش على أنواعها فيما يشبه حديقة حيوان. ونهر نيزك كان يصب في بركة ضخمة سنرى البحتري يصفها في قصيدة مشهورة (رقم ١٠٤ هنا)

إذا شاءَ غَادَى عَانَةً، أو عَدَا على عَـقَـائِلِ سِرْبٍ، أو تَـقَـنَّـصَ رَبْـرَبَـا

إذا شاء هذا الأسد غادى (أغار صباحاً) عانةً (سرباً من حمر الوحش)، أو عدا على (هاجم) عقائل سرب (إناثه)، أو تقنص (اصطاد) ربرباً (بقرة وحشية)

يَـجُـرُّ إلـى أَشـبـالِـهِ كُـلَّ شَـارِقٍ عَبِيطاً مُدَمَّىً، أوْ رَمِيلاً مُخَضَّبَا

يجر الأسد إلى أشباله كل شارق (صباح) عبيطاً مدمىً (ذبيحاً ملطخاً بدمه)، أو رميلاً مخضباً (ذبيحاً ممرغاً بالرمل وملطخاً بدمه)

ومَنْ يَبْغِ ظُلْماً في حَرِيمِكَ يَنْصَرِفْ إلى تَـلَـفٍ، أوْ يَـثْـنِ خَزْيَانَ أَخْيَبَا

والذي يريد أن يظلم حريمك (من هم في جوارك وحرمك، أي هذه الحيوانات) يؤول إلى تلف (هلاك)، أو يثني (يرتدُّ) بالخزي والخيبة

شَهِدْتُ لقدْ أَنْصَفتَهُ يومَ تَنْبَرِي لهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ البِيضِ مِقْضَبا

أشهد أنك أنصفت الأسد (أعطيته جزاءه) عندما انبريت له مصلتاً عضباً (موجهاً سيفاً) من البيض (السيوف) مقضباً (ماضياً)

فلَمْ أَرَ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكاً، إذا الهَيَّابَةُ النِّكْسُ كَذَّبَا

لم أر أسدين أشد منكما عراكاً، في حين الهيابة (الخواف الجبان) النكس (الدون من الرجال) يكذب إذ يتحدث عن شجاعة مزعومة. انتقد القدماء البحتري على هذا البيت. وقالوا: الأجدر أن يقول: إن الشجاع يكذب وأما أنت أيها الفتح فأشجع من الشجاع؛ فأما القول إنك أشجع من الجبناء فليس فيه مدح. وأنا أرى أن البحتري لا يقارن بل هو كمن يقول: أنت العظيم الشجاع، وليخسأِ الجبناء. وجاء شيء كهذا كثيراً في شعر العرب

هِزَبْرٌ مَشَى يَبْغي هِزَبْراً، وأَغْلَبٌ مِنَ القومِ يَغْشَى باسِلَ الوَجْهِ أَغْلَبَا

هزبر (أسد) مشى يريد هزبراً مثله، وأغلب من الناس (ذو رقبة غليظة/ ووصف العرب القدماء سادتهم بهذا الوصف) يغشى (يداهم) باسل الوجه (مكشر الوجه) أغلب (غليظ الرقبة/ و«الأغلب» من أسماء الأسد على كل حال)

فَأَحْجَمَ، لمَّا لم يَجِدْ فيكَ مَطْمَعاً وأَقْدَمَ، لمَّا لم يَجِدْ عنكَ مَهْرَبَا

أحجم الأسد عندما وجد أنه لا سبيل للطمع في قهرك، لكنه عاد فتقدم إذ لم يجد عنك مهرباً

فلم يُغْنِهِ، أنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ولم يُنْجِهِ، أنْ حَادَ عنكَ مُنَكِّبَا

فلم يفده تقدمه، ولا نجّاه أن حاد (انحرف) عنك منكباً (متجنباً). وقد وضعنا فاصلة (،) في الشطر الأول، ومثلها في الثاني بغير حاجة ماسة يحوجها توصيل المعنى، لكننا أردنا أن ندلك على طريقة البحتري في تقسيم أبياته. وكثيراً ما وضعنا أمثال هذه الفواصل لنكشف صنعة البحتري في هذا التقسيم المتوازن المتناظر الجانبين. فكأنه الخطاط محمد حسني، الذي كانت لوحاته آيات في التوازن و«التوزيع» بتعبير الخطاطين، فإذا نظرت إلى اللوحة عن بعد رأيت فيها هندسة تروق العين. ووصف بعض القدماء شعر البحتري بأن تقسيماته أحسن من تقسيمات إقليدس

حَمَلْتَ عليهِ السَّيْفَ، لا عَزْمُكَ انْثَنَى ولا يَدُكَ ارتَدَّتْ، ولا حَدُّهُ نَبَا

حملت عليه السيف (هجمت) فلا عزمك تراخى، ولا يدك رجعت بالخيبة، ولا حد السيف نبا (انحرف)

١٠٣ لِدات أبي ثم لداتي

يفتخر ويعاتب قوماً من أهل بلده:

أَبُنَيَّ! إنِّي قد نَضَوْتُ بَطَالَتي فَتَحَسَّرَتْ، وصَحَوْتُ مِنْ سَكَراتي

يا بنيَّ! أنا نضوت (خلعت) بطالتي (عبثي) فتحسرَتْ (انحسرت وزالت)

نَظَرَتْ إليَّ الأَرْبَعونَ فَأَصْرَخَتْ   شَيْبي، وهَزَّتْ لِلْحُنُوِّ قَنَاتي

نظرت إليَّ الأربعون سنة (وهي عمري) فأصرخت شيبي (جعلته يصرخ/والشيب عند بعض شعرائنا القدامى يعلن عن نفسه بالصراخ)، وهزت هذه الأربعون للحنو قناتي (جعلت قامتي تهتز، وجعلتها محنية). كان الفرزدق قال: والشيب ينهض في الشباب كأنه/ليل يصيح بجانبيه نهار. . وللفرزدق في هذا «الصياح» عند النهار مسوغ إذ هو يلمح إلى صياح الديك في النهار، وصراخ «البحتري» من باب آخر، ولعله يقصد بأصرخت: أنجدت. . ولم نجد لها وجهاً

وأَرَى لِدَاتِ أَبي تَتَابَعَ كُثْرُهُمْ   فَمَضَوْا، وكَرَّ الدَهْرُ نَحْوَ لِدَاتي

وأرى لدات أبي (مجايليه/المولودين وقت مولده) قد تتابع كثرهم (أكثرهم) نحو الموت، وكر الدهر (هجم) نحو لداتي أنا

ومِنَ الأقارِبِ مَنْ يُسَرُّ بِمِيتَتي   سَفَهاً، وعِزُّ حياتِهِمْ بِحَياتي

من أقاربي من سيسرون بموتي لأنهم سفهاء، فحياتي تجلب العز لهم

إنْ أَبْقَ، أَو أَهْلِكْ، فقد نِلْتُ التي   مَلأَتْ صُدورَ أَصادِقي وعُدَاتي

سواء أبقيت أم هلكت فإنني نلت الأماني التي ملأت صدور أصادقي (أصدقائي) بالسرور، وصدور عداتي (أعدائي) بالغيظ

وغَنِيتُ، نَدْمَانَ الخَلائِفِ، نَابِهاً   ذِكْري، ونَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتي

غنيت (تمتعت) وأنا نَدمان (نديم) الخلائف (الخلفاء)، وذكري نابه (صيتي منتشر)، ونشواتي (جلسات الخمر) ناعمة بهم (لذيذة مع الخلفاء) يقول: تمتعت وأنا نديم للخلفاء، أجالسهم على الخمر، وتمتعت بالشهرة

وشَفَعْتُ في الأَمْرِ الجليلِ إِلَيْهِمُ   بَعْدَ الجَلِيلِ، فَأَنْجَحُوا طَلَبَاتي

وكنت أشفع للخلفاء في الأمر المهم بعد الأمر المهم، وأنجحوا (أنْفَذوا) طلباتي

وَصَنَعْتُ في العَرَبِ الصَّنائِعَ عِنْدَهُمْ   مِنْ رِفْدِ طُلَّابٍ، وفَكِّ عُنَاةِ

وصنعت الصنائع (حققت الخدمات) للعرب لدى الخلفاء، ومن ذلك رفد الطلاب (تزويد طالبي الحاجات) وفك العناة (إطلاق الأسرى). والعرب أيامئذ هم بدو الشام، ومنهم البحتري، وبدو العراق؛ وكانوا مستضعفين فقراء مع تغلُّب العنصر الفارسي ثم التركي في عاصمة الخلافة. وكانوا يقتتلون أو يتمردون على الدولة، ويتعرضون للأسر في الحالتين. وعند شاعرنا وصف طيب لنزاعاتهم اخترنا منه قطعة على حرف العين (القصيدة رقم ٩٢) هي من أجمل شعره وأكثره حرارة

جَدِّي الذي رَفَعَ الأَذَانَ (بِمَنْبِجٍ)   وأَقَامَ فيها قِبْلَةَ الصَّلَواتِ

جدي هو الذي أدخل الإسلام في منبج (مدينة بشمال سوريا)، وأقام محراباً للصلاة يتجه للقبلة

١٠٤ وصف بِركة المتوكل

يمدح المتوكل، ويصف البركة:

مِيلُوا إلى الدَّارِ مِنْ لَيْلَى نُحَيِّيها نَعَمْ، ونَسْأَلُها عَنْ بعضِ أَهْلِيها

ميلوا (عرجوا) إلى الدار، دار ليلى نحييها، ونسألها عن بعض أهليها (عن ليلى التي رحلت عنها)

يا دِمْنَةً جَاذَبَتْهَا الرِّيحُ بَهْجَتَهَا تَبِيتُ تَنْشُرُها طَوْراً، وتَطْوِيها

يا دمنة (خِرْبة) جاذبتها الريح بهجتها (أخذت الريح تشد بهجتها منها، فالريح تشد والدار تشد ويتجاذبان حتى فقدت الدار بهجتها)، والريح تنشر الرمل على آثار الدار الخَرِبة ثم تطويه، فكأنها تنشر الديار ثم تطويها

قَد أَطْرُقُ الغَادَةَ الحَسْنَاءَ مُقْتَدِراً على الشَّبَابِ، فَتُصْبِينِي وأُصْبِيها

قد أطرق الغادة الحسناء (أزورها ليلاً)، وأنا ممتلئ بطاقة الشباب، فتصبيني (تستهويني) وأصبيها

في لَيْلَةٍ، لا يَنَالُ الصُّبْحُ آخِرَهَا، عَلِقْتُ بِالرَّاحِ أُسْقَاهَا وأَسْقِيها

لطول الليلة لا يكاد الصبح يصل بها إلى نهايتها؛ وأنا متعلق بالخمر، والمحبوبة تصبُّ لي، وأنا أصب لها

عَاطَيْتُها غَضَّةَ الأَطْرَافِ مُرْهَفَةً، شَرِبْتُ مِنْ يَدِها خَمْراً، ومِنْ فِيها

عاطيتها (أخذت وأعطيت الخمر) مع غضة الأطراف مرهفة (فتاة ناعمة الأطراف، كأنه ينظر بعين خياله إلى أصابعها وهي تناوله القدح)، وشربت الخمر من يدها، ومن فمها أيضاً

يا مَنْ رَأَى البِرْكَةَ الحَسْنَاءَ رُؤْيَتُها، والآنِسَاتِ، إذا لاحَتْ مَغَانِيها

يا من رأى البركة الحسناءَ رؤيتُها (التي تحسُنُ رؤيتُها)، ورأى الفتيات، إذ بدت مغانيها (أماكنها، وقال بطرس البستاني إنه كان للجواري مقصورات للاغتسال حول البركة)

بِحَسْبِها أَنَّها، مِنْ فَضْلِ رُتْبَتِها، تُعَدُّ واحِدَةً، والبَحْرُ ثانِيها

يكفي البركة أنها، لعلو منزلتها، تعتبر واحدة (الأولى)، والبحر (نهر دجلة) يأتي ثانياً بعدها

ما بَالُ دِجْلَةَ كَالغَيْرَى تُنَافِسُها في الحُسْنِ طَوْراً، وأَطْوَاراً تُبَاهِيها؟

ما بال دجلة غيرى تنافس البركة في الحسن وتباهيها؟

أَمَا رَأَتْ كَالِئَ الإسلامِ يَكْلَؤُها مِنْ أَنْ تُعَابَ، وبانِي المجدِ يَبْنِيها؟

ألم تر دجلة كالئ (حامي) الإسلام يحمي بركته من أن يلحق بها عيب (ذلك هو المتوكل على الله)

كَـأَنَّ جِـنَّ سُـلَـيْـمَـانَ الـذيـن وَلُـوا   إِبْـدَاعَـهـا، فَـأَدَقُّـوا فـي مَـعَـانِـيـهـا

كأن الجن الذين سُخِّروا لسليمان وبنوا له القصور هم الذين وَلُوا (تَوَلَّوْا) إنشاء البركة، فأدقُّوا (تفننوا) في معانيها (في رموزها، فهي رمز لعظمة الخليفة)

فَلَوْ تَـمُـرُّ بِـهَـا بِـلْـقِـيسُ عَـنْ عُـرُضٍ   قالتْ: هِيَ الصَّرْحُ، تَمْثِيلاً وتَشْبِيها

لو مرت الملكة بلقيس بالبركة عن عرض (من جانبها) لقالت إن البركة هي الصرح (القصر الزجاجي الذي بناه سليمان). وكانت بلقيس ظنت أرضية البهو، عندما وردت على سليمان، مغمورة بالماء فرفعت طرف ثوبها، ولكن الأرض كانت من زجاج و.. جافة

تَـنْـحَـطُّ فـيـهـا وُفُـودُ الـمَـاءِ مُـعْـجَـلَـةً   كالـخَـيْـلِ خَارِجَـةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيها

تنحط (تنصب هابطةً) في البركة المياه وافدة من دجلة كأنها الوفود المعجلة (التي وراءها من يستعجلها)، وهي تشبه خيل السباق عندما تخرج مندفعة إذ يفلت الشخص الذي يجريها لها الحبل إيذاناً ببدء السباق

كَـأَنَّـمـا الـفِـضَّـةُ الـبَـيْـضَـاءُ، سَـائِـلَـةً   مِنَ السَّبَائِكِ، تَجْرِي في مَجَارِيها

كأن الفضة البيضاء - وهي سائلة من سبائكها عند الصائغ - تجري في قنوات المياه القادمة من دجلة إلى البركة

إذا عَـلَـتْـهَـا الـصَّـبَـا أَبْـدَتْ لَـهـا حُـبُـكَـاً   مِثْلَ الجَوَاشِنِ، مَصْقُولاً حَوَاشِيها

إذا مرت ريح الصبا فوق البركة أظهرت حبكاً (تموجات) مثل الجواشن (الدروع) التي صقلت حواشيها (أطرافها)، شبه سطح الماء المتموج بالدرع المنسوجة من حلقات الحديد

فَـرَوْنَـقُ الـشَّـمْـسِ، أَحْـيَـانـاً يُـضَـاحِـكُـهـا   ورَيِّـقُ الـغَـيْـثِ، أَحْـيَـانـاً يُـبَـاكِـيـهـا

رونق الشمس (ضوءُها) يضاحك البركة أحيانا وينعكس فوقها، وريق الغيث (أول المطر) أحياناً يباكيها (يقطر على سطحها فتستجيب لقطراته)

إذا الـنُّـجُـومُ تَـراءَتْ فـي جَـوانِـبِـهـا   لَـيْـلاً، حَـسِـبْـتَ سَـمَـاءً رُكِّـبَـتْ فِـيـهـا
لا يَـبْـلُـغُ الـسَّـمَـكُ الـمَـحْـصُـورُ غـايَـتَـهـا   لِـبُـعْـدِ مَـا بَـيْـنَ قَـاصِـيـهـا ودَانِـيـهـا

واسعة هذه البركة فلا يكاد السمك المحصور فيها يصل إلى آخرها. لست أعرف سرعة ذلك السمك ولا حيويته، على أن (الأغاني) يخبرنا أنه بلغ من اتساع هذه البركة أنْ كان المتوكل يعبث بالشاعر الماجن أبي العبر فيأمر بأن يُقذف به بالمنجنيق من شاطئ البركة فيقع فيها. لا بد أنها كانت كبيرة

يَعُمْنَ فِيها بِأَوْسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ، كالطَّيْرِ تَنْفُضُ في جَوٍّ خَوَافِيها

تعوم الأسماك ووسط جسمها مجنح بالزعانف، فكأنها الطير التي تنفض في الجو خوافيها (ريشاتها)، وخوافيها حقها النصب بفتحة على الياء واضطر الشاعر. (كنت في نحو العشرين من العمر عندما عهد إليَّ بإخراج الكتاب السنوي للجامعة، وكنت في السنة الثانية. وجدت صورة لفتاة من الخريجات، كانت الفتاة محجبة، فلما أخذت لها صورة لنشرها في الكتاب السنوي خلعت الحجاب. فإذا هي نور على نور. فكبَّرت الصورة وجعلتها في صفحة وحدها، وكتبت تحتها «طيف أتاني في المنام وقالا.. هيهاتَ أن يخفي الحجاب جمالا». ومرت أربعون سنة. وجاءني الصديق خالد سليم، وهو لغوي مدقق، وأنشدني هذا البيت. فابتسمت، فاستفسر. فقلت له: هذا البيت لي. وقصصت عليه قصته. ولم يترك القصة تمر كنادرة طريفة جاءته بعد أربعين سنة، فقال: «أن يخفي» حقها أن تكون «أن يخفيَ» بفتحة على الياء. فأفسد عليَّ بيتي. على أنني أقول: المضارع الواوي واليائي أهمل نصبه الشعراء كثيراً، ويقع فيه المذيعون ليل نهار. وثمة بيت فيه معنى من أبدع المعاني وسأقص قصته: اجتمع الناس وفيهم أبو الشيص الشاعر ببغداد يتناشدون الأشعار. فإذا شاب في أخريات المجلس ينشدهم، ومر في إنشاده بيت يصف فيه شعره: (تغاير الشعر فيه إذ سهرت له/حتى ظننت قوافيه ستقتتل)، فكأن أبيات الشعر غار أحدها من الآخر وأصبحت كلمات القافية تقتتل لكي تحل في مواضعها. عندما مر هذا البيت عقد أبو الشيص خنصره. ثم انفض المجلس. وعلق أحد الحاضرين: للآن ما دريت أعقد أبو الشيص خنصره لروعة البيت أم لأن الشاب المنشد لم ينصب كلمة (قوافيه) اضطراراً. وللآن لا ندري لم عقد أبو الشيص خنصره. لكننا ندري أن ذلك الشاعر الشاب كان أبا تمام

لَهُنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ في أَسَافِلِها إِذَا انْحَطَطْنَ، وبَهْوٌ في أَعَالِيها

للسمك صحن (قاع) واسع في أسفل البركة إذا انحططن (هبطن)، ولهن بهو (صالة) في الأعلى

صُوَرٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفِينِ، يُؤْنِسُها مِنْه انْزِوَاءٌ بِعَيْنَيْهِ، يُوَارِيها

الأسماك صوَر (مائلات) تنظر بخوف إلى تمثال الدلفين بجانب البركة، ولكنها تطمئن إذ ترى عينيه منزويتين إلى الجهة الأخرى، فهذا الانزواء كأنه يواري الأسماك عنه. كل الطبعات تصر على أنها (يوازيها) بالزاي، وأنا أقرأ (يواريها) بالراء. وقراءتي تجعل للبيت معنى جميلاً. وأما يوازيها فليست بشيء. إذا لقينا البحتري في جنة أو في نار فسوف نسأله أي الوجهين يختار، ويغلب على ظني أنه سيقول: أنستني أهوال الموقف كل شعري

تَغْنَى بَسَاتِينُها القُصْوَى، بِرُؤْيَتِها، عَنِ السَّحَائِبِ مُنْحَلاًّ عَزَالِيها

تغنى (تستغني) بساتين البركة القصوى (البعيدة) بمجرد رؤيتها للبركة عن الغيوم التي انحلت عزاليها (العزالي: فتحات القِرَب السفلية، فإذا أرادوا إفراغ القربة من مائها لملئها بماء جديد فكوا فمها، وفكوا عِزلاتَها، فينزل الماء من العزلاة سريعاً)/ /مرة أخرى بعضهم أراد بدل (برؤيتها) (بريِّتِها). أي أن البركة تروي البساتين البعيدة. وهذا ليس شعراً بل زراعة وبستنة. فأما أن تكون البساتين ـ البعيدة ـ تكتفي بمجرد رؤية البركة وتستغني عن المطر فهذا، أي نعم، شعر

كَأَنَّها حِينَ لَجَّتْ في تَدَفُّقِها يَدُ الخَلِيفَةِ، لَمَّا سَالَ وَادِيها

قنوات البركة عندما لجت (تلاطمت) متدفقة بالمياه كأنها يد الخليفة المتدفقة بالمال

وزَادَها زِينَةً، مِنْ بَعْدِ زِينَتِها، أَنَّ اسْمَهُ، حِينَ يُدْعَى، مِنْ أَسَامِيها

زاد القنوات جمالاً فوق جمالها أن اسم الخليفة هو بعض أسمائها (واسمه جعفر، وجعفر بعض أسماء الجدول، ومعنى جعفر «النهر الصغير»)

مَحْفُوفَةٌ بِرِيَاضٍ، لا تَزَالُ تَرَى رِيشَ الطَّوَاوِيسِ تَحْكِيهِ ويَحْكِيها

البركة محفوفة (محاطة) برياض. وأنت ترى ريش الطواويس فتجده يحكيها (يشبهها)

إذا مَسَاعِي أَمِيرِ المؤمنينَ بَدَتْ لِلْوَاصِفِينَ، فَلا وَصْفٌ يُدَانِيها

مساعي (أمجاد)

إنَّ الخِلافَةَ، لَمَّا اهْتَزَّ مِنْبَرُها بِجَعْفَرٍ، أُعْطِيَتْ أَقْصَى أَمَانِيها

بتولي جعفر الخلافة نال هذا المنصب كل ما يتمنى من عز وقوة

أَبْدَى التَّوَاضُعَ لَمَّا نَالَها، رِعَةً مِنْهُ، ونَالَتْهُ فَاخْتَالَتْ بِهِ تِيها

لما نال جعفر المتوكل على الله الخلافة أبدى التواضع رعة (ورعاً وتقوى)؛ وأما الخلافة فعندما نالت جعفراً اختالت (تكبرت) تيهاً (غروراً)

مَا ضَيَّعَ اللَّهُ، في بَدْوٍ ولا حَضَرٍ، رَعِيَّةً أَنْتَ، بِالإِحْسَانِ، رَاعِيها

وأُمَّةٍ كانَ قُبْحُ الجَوْرِ يُسْخِطُها دَهْراً، فَأَصْبَحَ حُسْنُ العَدْلِ يُرْضِيها

رب أمةٍ كان الجور (الظلم) يغضبها، أصبحت راضية بعدلك. وقبل المتوكل كان أخوه الواثق شديداً، وكان كثير الإهانة للمتوكل، بل كان يأمر الوزير ابن الزيات بتوبيخه، وجاء المتوكل فقتل ابن الزيات بعد بضعة أشهر تعذيباً، ورجع عن سياسة أخيه في مسألة خلق القرآن فاستراح أهل السنة. ولكنه شدد على الطالبيين فامتعض الشيعة من حكمه. وفي أيام المتوكل كان الشعراء يقدحون في أخيه الواثق والمتوكل راضٍ مسرور (علي بن الجهم: أنا المتوكلي هوى ورأياً/ وما بالواثقية من خفاء)

مَا زِلْتَ تُرجَى لِعَافِينَا، فَكَيفَ وقد قَابَلْتَنَا ولَكَ الدُّنْيَا بِمَا فِيها؟

كنت رجاء لعافينا (فقيرنا) يرجوك رجاءً قبل الخلافة، فكيف الآن وأنت تقابلنا ولك الدنيا وما فيها؟ «قابلْتنا» هذه قلقة، وأحسن منها (أتيتنا) لو كان قالها، لكن لم ترد لا عند الصيرفي ولا الجوائب ولا البرقوقي

أَعْطَاكَهَا اللَّهُ عَنْ حَقٍّ رَآكَ لَهُ أَهْلاً، وأَنْتَ بِحَقِّ اللَّهِ تُعْطِيها

أعطاك الله الدنيا (متاع الدنيا والأموال) وهي حق لك، وأنت أهل له، وأنت تمنح الأموال للناس بالحق

١٠٥ فساد العمال

قال في رجل كان يتولى بريد الرقة واسمه نهشل:

أَمِيرَ المؤمنينَ! أَمَا غِيَاثٌ نُؤَمِّلُهُ؛ فقد طَالَ القُنُوطُ؟

غياث (إعانة)

أَبَى عُمَّالُنَا إلّا فُسُوقاً لِكُلٍّ مِنْ أَحِبَّتِهِمْ شُروطُ

المقربون للولاة يشترطون.. وشروطهم واضحة من البيت التالي..

فَمِنْ وَالٍ يُلاطُ بِهِ فَتَخْزَى رَعِيَّتُهُ، ومِنْ وَالٍ يَلُوطُ

تخزى (يصيبها العار). وكان اللواط في ذلك الزمن منتشراً
وكان مجتمع الطبقة الحاكمة متساهلاً بشأنه

١٠٦ إما عدل وإما عفو

يمدح المتوكل:

شَرَفاً بَنِي العباسِ إِنَّ أَبَاكُمُ عَمُّ النَّبيِّ وعِيصُهُ المُتَفَرِّعُ

فلتشرُفوا شرفاً يا بني العباس، فأبوكم (جدكم الأعلى) هو عم النبي، وعيصه (شجرته العظيمة) المتفرع، أي العالي. يقصد أن العباس من «أصول» النبي، والعم من الأصول. سيقول شوقي بعد ألف سنة (شَرَفاً أبا العباسِ، هذا مُلْكُ مصـ رَ وذي خزائِنُهُ، وذلكَ دَسْتُهُ) في مدح الخديوي توفيق، وكان شوقي من المفتونين بالبحتري

وأَرَى الخلافَةَ، وَهْيَ أَعْظَمُ رُتْبَةٍ، حَقّاً لَكُمْ، وَوِرَاثَةً مَا تُنْزَعُ

الخلافة حق لكم بالوراثة. وكان الشعراء في عهد هارون الرشيد قد استنفدوا هذا المعنى وقرروا أن بني العم أحق بالوراثة من بني البنت؛ أي أن العباسيين، بني العباس عم النبي، أولى بالخلافة من العلويين أبناء بنت الرسول فاطمة (مروان بن أبي حفصة: أنى يكون وليس ذاك بكائن/لبني البنات وراثة الأعمام). وهذه مساهمة بسيطة من البحتري، رغم ما قيل من أنه كان يميل شيئاً ما إلى آل البيت. إن كان مؤسفاً أن يدور نقاش كهذا في عصر زاهر كالعصر العباسي، فاقرأ ما يكتبه شبابنا الناهض في منتديات الإنترنت عن حق الخلافة بين الشيعة والسنة وستحمد العصر العباسي وتغفر له سيئاته؛ اقرأ الشتائم التي يتبادلها أبناء الطوائف والأديان، واقرأ وراءها كمية الحقد الدفين

مَا زالَ لي مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ مَوْئِلٌ آوِي إليهِ مِنَ الخُطُوبِ، ومَفْزَعُ

ما زال لي من حسن رأيك (رضاك) موئل (ملجأ) من المصائب، ومفزع (ملجأ)

فَعَلامَ أَنْكَرْتَ الصَّديقَ، وأَقْبلَتْ نَحْوِي رِكَابُ الكَاشِحِينَ تَطَلَّعُ؟

فلماذا أنكرت من هو لك صديق، وجاءتني ركاب الكاشحين
(وفود المبطني العداوة) يتطلعون إليَّ بشماتة

وأقامَ يَطْمَعُ في تَهَضُّمِ جَانِبِي مَنْ لم يَكُنْ مِنْ قَبْلُ فِيهِ يَطْمَعُ؟

وأقام (صار) يطمع في تهضم جانبي (انتقاص حقي) من لم يكن يجرؤ على ذلك وأنت عليَّ راضٍ

إلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ، فَعَدْلُكَ واسِعٌ أَو كانَ لي ذَنْبٌ، فَعَفْوُكَ أَوْسَعُ

إن لم يكن لي ذنب فعدلك واسع، وإن كان لي ذنب فعفوك أوسع. استشهد ابن زيدون في رسالته الجدية بهذا البيت. وسترانا في كتب خمسةٍ نورد فيها زبدة الشعر العربي لا نلتفت إلى الأندلس. كانوا مقلدين. ويجعل الأكاديميون في زمننا ابن زيدون على رأس شعراء الأندلس، وقد لزمناه مدة، وخلصنا إلى أنه مقلد، وله فلتات قليلات كقوله (يقرع السن على أن لم يكن.. زاد في تلك الخطى إذ ودعك) أي أنه نادم لأنه لم يسر مع المحبوب خطوات إضافية ساعة الوداع. وقصيدته التي لا تمل كتب المدارس من تعذيب الطلبة بها (أضحى التنائي) ليست سوى تمرينٍ في التناظر النصفي.. فكل شطر قد حلف يميناً بالله أن يكون عكس الشطر المقابل له.. شيء يغثي النفس. هذا شيء ليس بحَسَن، ولا حتى في الزخرفة. لأمر ما أحب ابن زيدون هذا البيت المتناظر نصفياً للبحتري. وعند أبي عبادة كثير من التقسيم.. لكنه خفيف على القلب

١٠٧ المتوكل القتيل

قال يرثي المتوكل:

مَحَلٌّ على (القَاطُولِ) أَخْلَقَ دائِرُهْ وعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ جَيْشاً تُغَاوِرُهْ

هذا الموقع على نهر القاطول (قصر الجعفري الذي فيه قتل المتوكل) قد أخلق (بليَ) داثره (ما دثر وتهدم من بنائه)، وعادت صروف (مصائب) الزمن وكأنها جيش يغاوره (يشن الغارات عليه). اضح من هذا المطلع أن رثاء المتوكل جاء بعد مدة طويلة من قتله، فالقصر متهدم. وفي هذه المدة مات المنتصر ابن الخليفة الذي تآمر على أبيه، وزال الخطر عن البحتري. وأما ما قاله بعض النقاد (ثعلب، ونقلنا كلامه من زهر الآداب) من أن البحتري «صرح تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب» فلا يستقيم مع ما عُرف عن البحتري من جبن. والأمثل أن البحتري قال الرثاء الحار ضمن هذه القصيدة يوم مقتل المتوكل آملاً أن يتولى المعتز الخلافة، ثم آل الأمر سريعاً إلى المنتصر، فحبس البحتري القصيدة. وبعد زمن طويل أضاف إليها وصف أطلال قصر الجعفري، ثم أظهرها. ويقول زكي مبارك في «الموازنة بين الشعراء» إن البحتري كان في قصيدته هذه «من أشجع الناس وأوفاهم..» ويورد كلمة ثعلب. أما الشجاعة فلم يذكرها أحد للبحتري قبل زكي مبارك. وأما الوفاء فنحب أن نورد عليك ما قاله شارل بِللا في دائرة المعارف الإسلامية: «خلافاً لكل توقع لا يبدو أن البحتري رثا أبا تمام الذي كان أول من شجعه، وكان أبرز من تعلم البحتري على

يديه، وهذه أولى بوادر النكران والانتهازية؛ وسيقدم البحتري لاحقاً الدليل الساطع عليهما.» (ط ١٩٨٦ ليدن، ص١٢٩٠، ج١). ولعل المحصلة هي أن البحتري لحق به الغم بعد مقتل المتوكل فحج البيت، ثم عاد سريعاً ليمدح ابنه، المتآمر على قتله، المنتصر. ومات المنتصر بعد ستة أشهر من مقتل أبيه. وروى الصولي في أخبار البحتري أنه سأل ابن المعتز: أكان البحتري يجسر أن يقول لما قتل المتوكل في يوم المنتصر: لنعم الدم المسفوك.. [وروى ثلاثة أبيات] فقال [ابن المعتز]: إنما عمل هذه الأشعار في أيام المعتز، يتقرب بها إليه.» وملاحظة الصيرفي محقق الديوان مهمة إذ يقول: «والأبيات التي ذكرت هنا فيها حرارة متصلة بالحرارة التي تصهر القصيدة كلها. ولو كان قد نظمها في أيام المعتز لفترت حرارتها.» إن كافة الأدلة موجودة في كلمات القصيدة، وكلما أمعن المرء فيها استخرج براهين جديدةً على الأوقات التي نظمت فيها شذراتها

كأَنَّ الصَّبَا تُوفي نُذُوراً إذا انْبَرَتْ   تُـرَاوِحُـهُ أذيـالُـهـا وتُـبَـاكِـرُهْ

ريح الصبا، التي تمر على هذا الموقع مرة بعد مرة، مصممة على تهديمه، فكأنها توفي نذراً نذرته بأن تخرِّب القصر، وأذيال هذه الريح تراوح القصر وتباكره (تأتيه بكرة وعشياً)

ورُبَّ زمـانٍ نـاعِـمٍ ثَـمَّ عَـهْـدُهُ   تَـرِقُّ حَـواشِـيـهِ، ويُـونِـقُ نـاضِـرُهْ

ورب زمان ناعم (رغد) ثَمّ (هناك) كان عهده، وكان زماناً ترق حواشيه (تهنأ أيامه) ويونق ناضره (تسر القلب نضارته)

تَـغَـيَّـرَ حُـسْـنُ الـجَـعْـفَـرِيِّ، وأُنْـسُـهُ   وقُـوِّضَ بَادي الجَعْفَرِيِّ، وحَاضِرُهْ

انقلب حال قصر الجعفري، وتقوض (انهدم) باديه وحاضره (أي كل شيء فيه). البدو والحضر هم كل الناس بحسب مفهوم ذلك الزمان. فإذا قلت البادي والحاضر فكأنك تقول الأخضر واليابس، أي كل شيء، ومن أتى بالنقيضين فقد شَمَل

تَـحَـمَّـلَ عـنـه سـاكِـنـوهُ فُـجَـاءَةً   فـعـادَتْ سَـواءً دُورُهُ ومَـقـابِـرُهْ

تحمل (رحل) ساكنو القصر فجأة بعد مقتل المتوكل، فأصبحت سواء (متساوية) الدور والمقابر فيه

إذا نـحـنُ زُرنَـاهُ أَجَـدَّ لَـنـا الأسَـى   وقـد كـان قـبـلَ الـيـومِ يَـبْـهَـجُ زائِـرُهْ

إذا زرناه الآن أجدَّ (جدد) لنا الأسى (الحزن)، وكان في أيام عزه يَبهَج (يبتهج) زائره

ولـم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذْ رِيعَ سِرْبُه   وإذْ ذُعِـرَتْ أطْـلاؤُهُ وجَـآذِرُهْ

لم أنس الوحوش هناك إذ ريع سربها (أخيفت فنفرت)، وإذ ذعرت الأطلاء (صغار الظباء) والجآذر (صغار المها). وقيل إن ذلك الموضع كان فيه شبه حديقة حيوان، وكان فيها من كل الحيوانات حتى الأسود. ولا أرى تفسيراً للبيت غير ما فسرت

وإذْ صِيحَ فيه بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ،   عـلـى عَـجَـلٍ، أسـتَـارُهُ وسَـرائِـرُهْ

لم أنس عندما صاح القوم بالرحيل، فهتكت (خلعت) بسرعة الستائر، وما كان أكثرها في الجعفري، لحجْب النساء، وسرائره (ما يخفيه من أسرار) هتكت أيضاً. وقال لنا بعض المؤرخين إن المتوكل كان لديه أربعة آلاف جارية، وزادوا بأنه وطِئهن كلَّهن

ووَحْشَتَهُ، حتى كأنْ لم يُقِمْ به أَنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لِعَيْنٍ مَناظِرُهْ

ولم أنس وحشة القصر، فكأنه لم يكن منزلاً للأنيس (البشر)، وكأنه لم يكن قط جميلاً

كأَنْ لم تَبِتْ فيه الخَلافَةُ طَلْقَةً بَشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ

وكأن الخلافة لم تكن مقيمة فيه طلقة (سعيدة) ذات بشاشة، والملك زاهراً

ولم تَجْمَعِ الدنْيا إليهِ بهاءَها وبَهْجَتَها، والعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ

وكأن جمال الدنيا لم يكن يجتمع في ذلك القصر، هذا عندما كان الزمان غض المكسر (طري العود/أي كان زمناً حلواً). بالطبع، كان الخراج يجبى من الفلاحين في البلاد ويصب في حضن الخليفة لينفق على نسائه وشعرائه. كانت حقاً تُجمَعُ الدنيا لتصب في الجعفري. وإذا بدت لك عزيزي القارئ هذه الملاحظة اشتراكية فاسمع الجواهري، وكان شيوعياً، يتوجع للجعفري عندما زار أطلاله: (ولقد شجتني عبرة رقراقة/حيرانة في العين عند دخوله). على أننا لا نحاكم عصراً بمعايير عصر آخر

فَأَيْنَ الحِجَابُ الصَّعْبُ حيثُ تَمَنَّعَتْ بِهَيْبَتِها أبوابُه ومَقَاصِرُهْ؟

أين الحجاب الصعب (منع القاصدين من الدخول إلا بإذن شديد)؟، وكان هذا الحجاب يسبغ على أبواب القصر ومقاصره (غرَفه) هيبة كبيرة

وأينَ عَمِيدُ النَّاسِ في كُلِّ نَوْبَةٍ تَنُوبُ، ونَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وآمِرُهْ؟

وأين عميد الناس (مرجعهم) في كل نوبة (مشكلة) تنوبهم (تعرض لهم)، والذي كان ينهى ويأمر الزمن، فيطيعه الزمن؟

تَخَفَّى له مُغْتَالُهُ تحتَ غِرَّةٍ، وأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لو يُجَاهِرُهْ

تخفى له مغتاله تحت غرة (خدعة)، وأولى بالقاتل أن يكون شجاعاً فيجاهر الخليفة وينازله ولا يتآمر. أبا عبادة! إذن لا يعود هذا اغتيالاً!

فما قَاتَلَتْ عنه المَنُونَ جُنودُهُ ولا دافَعَتْ أَمْلاكُهُ وذَخائِرُهْ

لم تتصد جنود الخليفة للمنون (الموت) دفاعاً عنه، ولا دافعت عنه ممتلكاته وكنوزه

ولا نَصَرَ المُعْتَزَّ مَنْ كانَ يُرْتَجَى له؛ وعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزَّ نَاصِرُهْ

ولم ينصر الأميرَ المعتزَّ ابنَ المتوكل من كان يرتجى أن ينصره، (ولذلك فاز المنتصر ابنه الآخر بالخلافة، ثم عزل أخويه المعتز والمؤيد عن ولاية العهد)؛ والعزيز هو من يجد له سنداً قوياً

تَعَرَّضَ رَيْبُ الدَّهْرِ مِنْ دونِ «فَتْحِهِ» وغُيِّبَ عنهُ في خُرَاسانَ «طَاهِرُهْ»

اعترض ريب الدهر (المصيبة) لفتحه (الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذي قتل معه)، وكان قائده طاهر بن الحسين غائباً في خراسان

ولـو عَـاشَ مَـيْـتٌ، أو تَـقَـرَّبَ نَـازِحٌ　　لَـدَارَتْ مِـنَ الـمَـكْـرُوهِ ثَـمَّ دَوَائِـرُهْ

ولو عاش له الفتح، أو كان طاهر قريباً، لكانت الدوائر دارت ثَمَّ (هناك) على المعتدين

ولـو لِـعُـبَـيْـدِ الـلَّـهِ عَـوْنٌ عَـلَـيْـهِـمُ　　لَـضَـاقَـتْ عـلـى وُرَّادِ أَمْـرٍ مَـصَـادِرُهْ

ولو وجد عبيد الله، أخو الفتح، أنصاراً لضاقت على المهاجمين الواردين طريق الصدور (العودة) بعد تنفيذ خطتهم

حُـلُـومٌ أَضَـلَّـتْـهـا الأمَـانـي، ومُـدَّةٌ　　تَـنَـاهَـتْ، وحَـتْـفٌ أَوْشَـكَـتْـهُ مَـقَـادِرُهْ

حلوم (عقول) أضلتها الأماني، فكل ما قلتُ في الأبيات السابقة أمنيات مستحيلة؛ هذا أجَلٌ تحقَّق وعُمْر وصل منتهاه، وحتف (موت) أوشكته مقادره (أسرعت به أقداره). التسويد من أحمد عبد الرحيم، وكتب: «هذا بيت قصيد القصيدة»

ومُغْتَصَبٌ لِلْقَتْلِ لم يُخْشَ رَهْطُهُ　　ولـم يُـحْـتَـشَـمْ أسـبَـابُـهُ وأَوَاصِـرُهْ

هذا الخليفة الذي قتل غصباً (بغير رضا الفقهاء ولا مشورة أحد) لم يخش قاتلوه رهطَه (قومه) ولم يحتشموا (يراعوا) أسبابَه (مرجعيته وأحقيته) وأواصره (أقاربه). وزراء وكبراء وقواد كثر قتلوا في العشرين سنة التي سبقت مقتل المتوكل وفي عشرات السنين التي تلته، وكانت مؤسسة الخلافة حريصة دائماً على نيل صك فقهي بقتلهم، سواء برضا الفقهاء الحقيقي أم بختلهم. واضطر الخلفاء في عدة نوبات إلى قتل الكبراء بالعطش، يقدمون لهم الطعام الفاخر ويمنعونهم الماء، ويحرصون على ألا يظهر على الجثة أثر لتعذيب. وسيموت بالتعطيش ابن المتوكل المعتز بالله بعد سنوات قليلة. لعل البحتري استعمل كلمة (مغتصب) ليشير إلى أن قتل المتوكل كان اغتصاباً وخروجاً عن مألوف

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً　　يَجُودُ بِها والموتُ حُمْرٌ أَظَافِرُهْ

صريع (ملقى أرضاً) تتقاضاه السيوف حشاشة (تأخذ منه السيوف بقية روحه)، وهو يجود بروحه بينما الموت يطل عليه بأظافر حمر

أُدَافِعُ عنهُ بِاليَدَيْنِ، ولم يَكُنْ　　لِيَثْنِي الأعَادِيَ أَعْزَلُ اللَّيْلِ حَاسِرُهْ

البحتري هنا يتكلم عن نفسه، فقد حضر المقتلة. ويقول إنه دافع القتلة بيديه، ولكن لم يكن ليثنيهم (يردهم) رجل أعزل في تلك الليلة وحاسر (لا يلبس خوذة). قيل: بل اختبأ البحتري خلف الباب

ولو كان سَيْفِي ساعةَ القَتْلِ في يَدِي　　دَرَى القَاتِلُ العَجْلانُ كيف أُسَاوِرُهْ

لو كان سيفي - يقول أبو عبادة - في يدي ساعة قتلوا المتوكل لعرف القاتل المستعجل كيف أساوره (أواثبه، وأبارزه)

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ، أو أَرَى　　دَماً بِدَمٍ يَجْرِي على الأرضِ مَائِرُهْ

أحرم على نفسي الراح (الخمر) بعدك، حتى أرى دم قاتليك يجري على الأرض مائره (المائر: المترقرق) مقابل دمك

وهل أرتَجِي أنْ يَطْلُبَ الدَّمَ وَاتِرٌ، يَدَ الدَّهرِ؛ والمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِرُهْ؟

وهيهات أن يطلب الدم واتر (قاتل) يد الدهر (طول الزمن)؛ والموتور (المطالِب بالثأر) في حالتنا هذه هو الواتر (القاتل)

أكانَ وَلِيُّ العَهدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً؟ فَمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ العَهْدَ غَادِرُهْ

فهل كان ولي العهد (المنتصر) قد أضمر (بيَّت) غدراً؟ وعجيب أن يولَّى العهد من يغدر، سوَّدنا هذا البيت، وإن لم نجد فيه معنى لافتاً، إكراماً لطه حسين الذي كان شديد الإعجاب به

فَلا مُلِّيَ البَاقي تُراثَ الذي مَضَى ولا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ

فلا مُلِّيَ (استمتع) الباقي تراث من مضى، ولا حملت منابر الخطباء في المساجد الدعاء له، وكانوا يدعون في آخر خطبة الجمعة للخليفة. وفي هذه الأبيات ما يبعث على الظن بأن البحتري قال الشعر في عهد المنتصر المتآمر على أبيه. ولعله قالها فعلاً قبل موت المنتصر، ثم بعدئذ أضاف إليها الأبيات الأولى السابقة في وصف خراب القصر، ثم أذاع القصيدة في الناس بعد انقضاء عهد المنتصر

ولا وَأَلَ المَشْكُوكُ فيه، ولا نَجَا مِنَ السَّيْفِ نَاضي السَّيْفِ، غَدْراً، وشَاهِرُهْ

ولا وأل (نجا) المشكوك في أنه المجرم، ولا نجا من السيف من نضاه (سلَّه) وشهره غدراً

لَنِعْمَ الدَّمُ المَسْفُوحُ لَيْلَةَ جَعْفَرٍ هَرَقْتُمْ وجُنْحُ اللَّيْلِ سُودٌ دَيَاجِرُهْ

نعم الدم دم الخليفة جعفر المتوكل الذي هرقتم (أرقتم)
بينما جنح الليل سُود دياجره (ظلامه)

كَأَنَّكُمُ لم تَعْلَمُوا مَنْ وَلِيُّهُ ونَاعِيهِ تَحتَ المُرْهَفَاتِ وثَائِرُهْ

كأنكم لم تعلموا من وليُّ ذلك الدم (المطالب به)، ومن سينعاه في ظل السيوف المرهفة (الحادة) وثائره (الآخذ بثأره)

وإنِّي لأَرْجُو أَنْ تُرَدَّ أُمُورُكُمْ إلى خَلَفٍ مِنْ شَخْصِهِ لا يُغَادِرُهْ

وأرجو أن يعود أمر الخلافة إلى امرئ يكون فعلاً خليفة للمتوكل لا يغادر خطه (يقصد ابنه المعتز الذي كان ولي عهد ثم خلعه المنتصر المتآمر)

مُقَلِّبِ آرَاءٍ تُخَافُ أَنَاتُهُ إذا الأَخْرَقُ العَجْلانُ خِيفَتْ بَوادِرُهْ

هذا المرجو للخلافة متأنٍّ، ولكن أناته مرهوبة لما سيتمخض عنها من أفعال، وليس كالأخرق الذي يخاف المرء من بوادره (غضباته). هذه الأبيات الأخيرة تشي بأن أجزاء شتى من هذه القصيدة إنما قيلت بعد تولي المعتز. وكأن البحتري قصد إلى الإيهام بأنه قال القصيدة كلها بُعَيْد مقتل المتوكل، ولكن شعره دل عليه

١٠٨ مدح القاتل

يمدح الخليفة المنتصر بالله:

وما أَنْسَ لا أَنْسَ عَهْدَ الشَّبابِ   وعَلْوَةَ إذْ عَيَّرَتْني الكِبَرْ

مهما نسيت فلن أنسى عهد الشباب وعلوة، إذ عيرتني بالتقدم في السن

ولا بُدَّ مِنْ تَرْكِ إحدَى اثنَتَيْـ   ـنِ: إمَّا الشَّبابِ، وإمَّا العُمُرْ

في نهاية المطاف يجب على المرء أن يترك الشباب ويكبر، أو يترك العمر ويموت

حَجَجْنَا البَنِيَّةَ شُكْراً لِمَا   حَبَانا بِهِ اللَّهُ في المُنْتَصِرْ

حججنا البنية (الكعبة) شكراً لما حبانا (منحنا) به الله في شخص «المنتصر» الخليفة

تَطَوَّلَ بالعَدْلِ لَمَّا قَضَى   وأَجْمَلَ في العفْوِ لَمَّا قَدَرْ

تطوَّل (تفضل) بالعدل، وكان له عفو جميل عندما تمكن له الأمر

تلافَى الرَّعِيَّةَ مِنْ فِتنةٍ   أَظَلَّهُمُ لَيْلُهَا المُعْتَكِرْ

جنَّب الناس الفتنة التي أظلهم (خيم عليهم) ليلها المعتكر (الدامس). هذا بعد مقتل والده المتوكل. قال من شئت من المؤرخين إن للمنتصر اليد الطولى في تدبير قتل والده. كان أبوه المتوكل يقول له ساخراً: (سميتك المنتصر وسماك الناس لحمقك المنتظر، وصرت الآن المستعجل) يشير إلى أنه مستعجل موتَ أبيه لكي يخلفه

سَدادٌ فَتَلْتَ بِهِ يَوْمَذَا   كَ حَبْلَ الخِلافَةِ حتى اسْتَمَرّ

كان عندك سداد (حكمة) فتلت به حبل الخلافة حتى استمر (قَوِيَ)

وسَطْوٌ ثَبَتَّ بِهِ قائِماً   على كَاهِلِ الْمُلْكِ حتى اسْتَقَرّ

وعندك سطو (بطش) جعلك تثبت على كاهل (كتف) الملك حتى استقر. رأينا البحتري بعد موت المنتصر (الذي مات بعد توليه بستة أشهر) يقول قصيدة طويلة يرثي بها المتوكل ويتهم المنتصر بالتآمر لقتله. مطلعها: (مَحَلٌّ على القَاطُولِ أَخْلَقَ دائِرُهْ/ وعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ جَيْشاً تُغَاوِرُهْ). وقد اخترنا منها هنا قدراً صالحاً، ووضعناها قبل هذه لأن الظن أنه قال قسماً منها فور مقتل المتوكل ولكنه لم يظهرها إلا بعد موت المنتصر (انظر القصيدة ١٠٧)

١٠٩ لا سؤال ولا جواب

يمدح محمد بن عبد الله بن طاهر:

وَقفْنا على دَارِ البخيلةِ فانْبَرَتْ   بَوَادِرُ قد كانتْ بِها العينُ تَبخَلُ

وقفنا على دار المحبوبة التي كانت بخيلة بوصلها، فانبرت (خرجت) بوادر (بدايات الدموع) كانت العين بخيلة بها من قبل

فلم يَدْرِ رَسْمُ الدارِ كيف يُجيبُنا، ولا نحن مِنْ فَرْطِ الجَوَى كيف نَسْأَلُ

رسم الدار (بقايا الدار المهجورة)

١١٠ لا فائدة منك

قال لعلي بن يحيى الأرمني:

ولـم أَرَ مِثْلي قِيدَ بِالـمَطْلِ والمُنَى ولا مِـثْـلَ نَـفْـسـي لِـلـدَّنـيـئـةِ ذَلَّـتِ

لم أر مثلي قيد (تم اقتياده) بالمطل (المماطلة) والأماني،
ولا مثل نفسي التي ذلت للعطايا الدنيئة (القليلة)

وقـد كـانَ عـنـدِي لِـلـصَّـنيعةِ مَوْضِـعٌ لَـوَ انَّ سَـمـاءً مِـنْ نَـداكَ اسـتَـهَـلَّـتِ

وقد كان عندي للصنيعة موضع (كنت جديراً بوضع الإحسان عندي) لو أن سماء نداك (كرمك) استهلت (أمطرت)

تَركنَاكَ، لا يُبْكَى الرَّجاءُ الذي انْقَضَى ولا تُنْدَبُ الآمَالُ حينَ اضْـمَـحَلَّـتِ

تركناك ونحن لا نبكي رجاءنا الذي مضى، ولا نندب (نتحسر على) الآمال التي اضمحلت

ومـا فيكَ لِلرَّكْـبِ الـمُرَجِّينَ مَرْغَبٌ فَـتُـلْـقَـى، ولـكِـنَّ الـرَّكـائِـبَ كَـلَّـتِ

وليس فيك للركب (المسافرين) الراجين للعطاء مرغب (رغبة) فيأتوا للقائك؛ ولكنهم ظلوا مقيمين في بلدك لأن الركائب (الإبل) كلت (تعبت). فهم يستريحون فقط استعداداً للرحيل عنك. أخي القارئ لا تستطل الشرح، فوالله ما أركب الركاكة والتطويل إلا من أجلك؛ على أنني أقول لك: لا تقرأ الشرح إلا بعد أن تقرأ البيت مرة ومرة، فالشعر والفصاحة موجودان في البيت، ولسنا نشرح هذا الشرح الفاضح المفصل إلا لتعزيز جمال الشعر في نفسك، ولننقلك من حال الاستمتاع بإيقاع البيت إلى حال الاستمتاع بإيقاعه وبمعناه معاً. وكائن رأينا صاحباً يتغنى ببيت شعر، ويقول يا سلام! متعجباً من جماله، وهو يفهم منه عكس ما أراد الشاعر. ولا بأس. لا بأس أن يترنم المرء بما يريد أن يترنم به، وأن يطرب على طريقته مخطئاً أم مصيباً. على أن معاني الشعر العربي القديم واضحة المعالم، وخير لنا ألا نغالي في القوة الإيحائية للَّفظة

١١١ اشتغل بها عنهم

وقال يهجو الشاعر علي بن الجهم:

إذا مَـا حُـصِّـلَـتْ عُـلْـيَـا قُـرَيْـشٍ فَـلا فـي الـعِـيـرِ أنـتَ ولا الـنَّـفـيـرِ

إذا ما حصلت (غُرْبِلَتْ) عليا قريش (أي قريش العليا، وليس الفروع الأدنى منها) عندئذ لا نراك في العير ولا في النفير (لا شأن لك بالأمر). وعلي بن الجهم قرشي من بني سامة، وليسوا من قريش العليا، وفي نسبهم بعض مغمز

لأَيَّـةِ حَـالـةٍ تَـهْـجُـو عَـلِـيَّـاً   بِـمَـا لَـفَّـقْـتَ مِـنْ كَـذِبٍ وزُورِ؟

وكان علي بن الجهم يطعن على علي بن أبي طالب وعلى العلويين في زمن المتوكل الذي عادى العلويين

أَمَا لَكَ في اسْتِكَ الوَجْعَاءِ شُغْلٌ   يَـكُـفُّـكَ عَـنْ أَذَى أَهْـلِ الـقُـبُـورِ؟

استك الوجعاء (الاست والوجعاء بمعنى، وكلاهما: فتحة الدبر). يهجوه بأنه يُلاطُ به

١١٢ تفنن في التعذيب

يهجو علي بن الجهم:

يـا ثَقيلاً عـلى القلوبِ، إذا عَنَّ ـ   ـلَـهَـا أَيْـقَـنَـتْ بِـطـولِ الـجِـهَـادِ

أيها الثقيل على القلوب، الذي إذا عنَّ (ذُكر) أيقنت القلوب بطول الجهاد (المعاناة)

يـا رُكُـوداً فـي يـومِ غَـيْـمٍ وَصَـيْـفٍ   يـا وُجُـوهَ الـتُّـجَّـارِ يـومَ الـكَـسَـادِ

أنت مثل الركود (الجو القابض للنفس) في يومِ غيم في فصل الصيف، وأنت مثل وجوه التجار في يومِ الكساد

خَـلِّ عَـنَّـا، فـإنَّـمَـا أنـتَ فِـيـنـا   وَاوُ عَـمْـرٍو أَوْ كـالـحَـدِيـثِ الـمُـعَـادِ

«افرقنا» يا هذا، فأنت لا قيمة لك كحرف الواو غير المنطوق في كلمة «عمرو»، أو كالحديث المكرر

امْضِ، في غَيْرِ صُحْبَةِ اللَّهِ مَا عِشْـ   ـتَ، مُـلَـقًّـىً فـي كُـلِّ فَـجٍّ وَوَادِ

اذهب ولا صحبتك سلامة الله طول عمرك، ولتكن ملقًّىً (منكوباً) في كل فج (طريق) وواد

يَـتَـخَـطَّـى بِـكَ الـمَـهَـامِـهَ والـبِـيـ   ـدَ دَلـيـلٌ أَعـمَـى كَـثـيـرُ الـرُّقَـادِ

وليصحبك في المهامه (الصحارى) دليل أعمى، كثير النوم والسهو. لم يكتف أن جعل دليله أعمى حتى جعله غافلاً لا يهتدي

خَلْفَكَ الـثَّـائِرُ الـمُـصَـمِّـمُ بِـالـسَّـيْـ   ـفِ، ورِجْـلاكَ فـوقَ شَـوْكِ الـقَـتَـادِ

وليكن خلفك طالباً رأسَك ثائر (طالب ثأر) يحمل سيفاً، ولتكن رجلاك فوق نبات القتاد الشوكي. هذا هجاء من لون نادر. فيه تقليل شأن، وفيه اشمئزاز من المهجو، وفيه دعاءٌ عليه مبالغ فيه كثيراً بقصد السخرية، وفيه تصوير كثير وفن. وعلي بن الجهم رجل فيه صلف، وكان شاعراً مهمّاً ومقلاً معاصراً للبحتري، ومزاحماً له عند الممدوحين. وابن الجهم ـ على شاعريته القوية ـ كان رجلاً صلب الوجه (أي وقحاً) بحسب تعبير القدماء. وقد أخرج ديوانه خليل مردم بك، واخترنا منه أبياتاً كثيرة، في باب سابق في هذا الكتاب. وهو، بعد، صاحب (عيون المها بين الرصافة والجسر)

١١٣ تأليب

من قصيدة يمدح بها الخليفة المستعين، يهجو أحمد بن الخصيب:

لابْنِ الخَصِيبِ الوَيْلُ، كيف انْبَرَى   بِـإِفْـكِـهِ الـمُـرْدِي وإِبْـطَـالِـهِ؟

الويل لأحمد بن الخصيب كيف ظهر بإفكه (كذبه) المردي (المميت) وإبطاله (تعطيله الخيرات). وكان ابن الخصيب وزيراً للمنتصر ثم للمستعين بعده، وسريعاً ما نكبه المستعين ونفاه إلى إقريطش (جزيرة كريت). وكان ابن الخصيب وزيراً متجبراً كثير الشر، قيل: رفسَ رجلاً جاءه بشكوى في صدره فقتله

فَـأَنْـزَلَ الـلَّـهُ بـه نِـقْـمَـةً   غَـيَّـرَتِ الـنِّـعْـمَـةَ مِـنْ حَـالِـهِ

يا نَاصِرَ الدِّينِ! انتَصِرْ مُوشِكاً   مِـنْ كَـائِـدِ الـدِّيـنِ ومُـغْـتَـالِـهِ

أيها المستعين انتصر (انتقم) موشكاً (مسرعاً) من الذي يكيد للدين ويغتاله

فَـهْـوَ حَـلالُ الـدَّمِ والـمـالِ، إِنْ   نَـظَـرْتَ فـي بَـاطِـنِ أَحْـوَالِـهِ

فدمه حلال وماله حلال للمصادرة إن تعمقت في باطنه، إذ يبطن الغدر والفسق. تعليق أحمد عبد الرحيم: «أهذا شعر؟»

والـرَّأْيُ كـلُّ الـرَّأْيِ فـي قَـتْـلِـهِ   بـالـسَّـيْـفِ، واسْـتِـصْـفَـاءِ أَمْـوَالِـهِ

والرأي الحصيف قتله واستصفاء (مصادرة) أمواله. نقل المرزباني في الموشح عن أحمد بن أبي طاهر بسند يطمئن إليه القلب: «ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا أسقط، رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه، فحلف عليه ليجلسن، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه... ثم نَكَبَ المستعينُ أحمدَ ابن الخصيب بعد هذا بشهور، فلعهدي به [بالبحتري] قائماً ينشده: ما الغيث... كان ابنُ العلجة فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس، نزحه الله، ثم ختم القصيدة بقوله: والرأي كل الرأي في قتله...». تعليق أحمد عبد الرحيم على القصيدة: «قطعة لا جمالَ، ولا شعرَ فيها البتة!»

١١٤ أحلى من النوم والأمنيات

يمدح الخليفة المعتز بالله:

أَيُّهَا الآمِرِي بِتَرْكِ التَّصَابِي!   رُمْتَ مِنِّي مَا ليسَ مِنْ إِمْكَانِي

ونَـدِيـمٍ نَـبَّـهْـتُـهُ، وُدَجَـى الـلَّـيْـ   ـلِ وضَـوْءُ الـصَّـبَـاحِ يَـعْـتَـلِـجَـانِ

نبهت نديمي من نومه بينما عتمة الليل وضوء المصباح يعتلجان (يتصارعان)

قُمْ نُبَادِرْ بِها الصِّيَامَ، فَقَدْ أَقْـ ـمَرَ ذَاكَ الهِلالُ مِنْ شَعْبَانِ

قم نبادر بها الصيام (نسابق بالخمر الصيام) فهلال شعبان صار قمراً، أي أن شعبان انتصف ولم يبق على رمضان سوى نصف شهر

بِنْتُ كَرْمٍ، يَدْنُو بِها مُرْهَفُ القَدِّ ـ غَرِيرُ الصِّبَا، خَضِيبُ البَنَانِ

بنت كرم (خمرة) يقترب بها ليسقينا شخص مرهف القد (رشيق القوام) غرير الصبا (بريء لصغر السن) خضيب البنان (على رؤوس أصابعه الحناء) فهو إذن بنت

أُرْجُوَانِيَّةٌ، تُشَبَّهُ في الكَأْ سِ بِتُفَّاحِ خَدِّهِ الأُرْجُوَانِي

الخمر أرجوانية (حمراء)

بَاتَ أَحْلَى لَدَيَّ مِنْ سِنَةِ النَّوْ مِ، وأَشْهَى مِنْ مُفْرِحَاتِ الأَمَانِي

بات الحبيب وهو أحلى عندي من سنة النوم (الإغفاء) ومن الأماني المفرحة

١١٥ فما يكلَّم إلا حين يبتسم

يمدح المعتز بالله:

لِلَّهِ مُعْتَمِدٌ على اللَّهِ اكْتَفَى بِاللَّهِ والرأيِ الأَصِيلِ الأَوْثَقِ

طَلْقٌ، فَإِنْ أَبْدَى العُبُوسَ تَطَأْطَأَتْ شُوسُ الرِّجَالِ، وخَفَّضَتْ في المَنْطِقِ

طلق (باسم) فإن عبس تطأطأت رؤوس شوس الرجال (الرجال ذوو النظرات الحادة الغاضبة)، وخفضوا أصواتهم لهيبة الخليفة

١١٦ خلف الدجاج

وقال يمدح المعتز، ويهجو المستعين (وكان المعتز يرى أن المستعين خرب الملك خراباً لا ينجبر بعده، وكان يحب أن يسمع ثلبه، وأدرك البحتري ذلك فتقرب إلى المعتز به، وكان المعتز يذوق الشعر، ويرى في البحتري زيادة في أبهة خلافته):

بَكَى المِنبرُ الشرقيُّ، إذْ خَارَ فوقَه على الناسِ ثَوْرٌ، قد تَدَلَّتْ غَبَاغِبُهْ

بكى المنبر الشرقي (مركز الخلافة في بغداد أو سامراء) عندما خار (صوَّت الثور، وصوته هو الخُوار) من فوقه ثور تدلت غباغبه (جلدة ما تحت العنق في الثور)

ثَقيلٌ على جَنْبِ الثَّرِيدِ، مُرَاقِبٌ لِشَخصِ الخِوَانِ يَبْتَدِي فَيُوَاثِبُهْ

وهو ثقيل في جلوسه على الثريد، ويراقب الخوان (المائدة) بشغف ثم يبدأ فيواثبه (يصارعه). «يواثبه» كلمة جرتها القافية، ولكنها تصنع صورة حلوة لرجل يأتي المائدة لكي يخوض مع طعامها مباراة مصارعة: يثب على الطعام، والطعام يثب عليه

إذا ما احْتَشَى مِنْ حَاضِرِ الزَّادِ لم يُبَلْ أَضَاءَ شهابُ المُلْكِ، أم كَلَّ ثَاقِبُهْ

فإذا حشا جوفه من الطعام الحاضر أمامه لم يبل (لم يبالِ) أأضاء شهاب الملك (ازدهرت الخلافة) أم كل ثاقبه (أم ضعف بَريقه الثاقب المشتعل)

ولـم يَكُنِ الـمُغْتَرُّ بِـاللَّـهِ إذْ سَـرَى لِيُـعْـجِـزَ، و(الـمُعْتَـزُّ بِـاللَّـهِ) طَـالِـبُـهْ

هذا المغتر بالله (الذي غره تأخُّر جزاء الله) لم يكن إذ سرى (مشى) في طريقه المعوج ليُعجز الناس عن إصلاح الأمر، خصوصاً وأن المعتز بالله يطلبه ويتعقبه

رَمَى بـالـقـضيـبِ عَنْوَةً وَهْوَ صَـاغِـرٌ وعُـرِّيَ مِـنْ بُـرْدِ الـنَّـبِـيِّ مَـنَـاكِـبُـهُ

رمى المستعين، الخليفة المخلوع، بالقضيب (صولجان الخلافة) عنوة (غصباً عنه) وهو صاغر (ذليل)، وعُرِّيت من برد النبي (من عباءة النبي المتوارثة) مناكبه (أكتافه). انظر التعليق اللاحق بالبيت الثالث قبل الأخير من القصيدة (٨٣) وفيه بيتان للبلاذري يصف فيهما لبس المستعين لبرد النبي، وفيه كلمة (مناكبه)، وبيتا البلاذري منسوجان على منوال بيت للبحتري، وهنا يأخذ البحتري من البلاذري العبارة

وقد سَرَّنـي أنْ قِيـلَ: وُجِّهَ مُسْرِعـاً إلى الـشَّـرقِ تُـحْـدَى سُـفْـنُـهُ ورَكَـائِـبُـهْ

سرني أن قيل إنه أرسل إلى الشرق تحدى (تُساق) سفنه وركائبه (إبله)

إلى (كَسْكَرٍ) خَلْفَ الدَّجَاجِ، ولـم تَكُـنْ لِتَـنْـشَـبَ، إلَّا في الـدَّجـاجِ، مَـخَـالِـبُـهْ

وأُرسل إلى كسكر (الواقعة بين البصرة والكوفة، والمشهورة بالفراريج)، وهو لا يصلح إلا لأكل الدجاج. تكملة القصة أن الخليفة المعتز بعث برجل ليذبح عمَّه المستعين.. وذبحه

١١٧ في العجلة السلامة

قال يمدح المعتز بالله ويعتذر للموالي:

عاجِلْ بِنا الرَّاحَ والرَّيْحَانَ مُبْتَكِراً فـلـيس يَـحْـسُـنُ إلَّا فـيـهِـمـا الـعَـجَـلُ

الراح (الخمر) وكانوا يشربونها في مجلس يزينونه بالرياحين

واشْرَبْ على دَوْلَةِ المُعْتَزِّ، إنَّ لهـا حَظّاً مِنَ الحُسْنِ، لم تَسْعَدْ به الدُّوَلُ

اشرب نخب دولة المعتز بالله. كانوا يشربون على الخبر المفرح والقصيدة الجميلة والأغنية الرائقة

أمَّا المَوَالِي فَجُنْدُ اللَّهِ، حَمَّلَهُمْ أنْ يَنْصُروكَ، فقد قَامُوا بِمَا احْتَمَلُوا

الموالي (أنصار وقواد الخليفة غير العرب)

بَـقَـاؤُهُـمْ عِـصْـمَـةُ الـدُّنْـيـا، وعِـزُّهُـمُ سِـتْـرٌ عـلـى بَـيْـضَـةِ الإسْلامِ مُـنْـسَـدِلُ

بقاء هؤلاء القادة عصمة (حماية) في هذه الدنيا، وعزهم ستر منسدل (نازل) على بيضة الإسلام (تعبير يقصد به حماية ما هو هش وجاذب للأعداء)

١١٨ العدو في ثوب صديق

كم مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ   مَا دُمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ في يُسْرِ

كُثُرٌ هم الإخوان الذين لا تستنكر من تصرفاتهم شيئاً ما دمت غنياً

مُتَصَنِّعٍ لَكَ في مَوَدَّتِه   يَلْقَاكَ بِالتَّرْحِيبِ والبِشْرِ

يكون الواحد منهم متصنعاً في حبه لك، يلقاك بالترحيب والبشر (الانشراح)

فإذا عَدَا ـ والدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ ـ   دَهْرٌ عَلَيْكَ، عَدَا مَعَ الدهْرِ

فإذا عدا (هجم) عليك الزمن، والزمن ذو غِيَر (تقلُّب)، عدا (هجم) هذا الصديق عليك مع الزمن

١١٩ الحلاف المهين

سَأَلُوني اليَمِينَ، فَارْتَعْتُ مِنْهُمْ   لِيَقَرُّوا بِذَلِكَ الارْتِيَاعِ

طلبوا مني أن أحلف اليمين، فارتعت (خفت) منهم مراءاة فقط، لِيَقَروا (ليطمئن بالهم) من ارتياعي، ويشعروا أنني رجل أرى اليمين شيئاً عظيماً

ثُم أَمْرَرْتُها كَمُنْحَدِرِ السَّيْـ   ـلِ تَهاوَى مِنَ المكانِ اليَفَاعِ

ثم أطلقت اليمين لتمرَّ من فمي كالسيل المنحدر الذي يهوي من مكان مرتفع

١٢٠ الدين أنتم

وقال يمدح المعتز:

قد لَبِسْتُ الهَوى، وإِنْ كانَ ضُرّاً   وتَحَمَّلْتُهُ، وإِنْ كانَ ثِقْلا
وتَذَلَّلْتُ، جَاهِداً، لِمَلِيكي   وقَلِيلٌ مِنْ عاشِقٍ أَنْ يَذِلَّا
أَصْبَحَتْ رُتْبَةُ الخِلافَةِ لِلْمُعْـ   ـتَزِّ بِاللَّهِ مَنْزِلاً ومَحَلَّا
جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَها في يَدَيْهِ   ورَآهُ لَهَا مَكَاناً وأَهْلا
لابِسٌ حُلَّةَ الوَقَارِ: ومِنْ أُبَّـ   ـهَةِ السَّيْفِ أَنْ يَكونَ مُحَلَّى
مَنْ أَبَى حُبَّكُمْ فَلَيْسَ مِنَ اللـ   ـهِ، ولَوْ صَامَ أَلفَ عَامٍ وصَلَّى

١٢١ مدح المعتز

سَلاهَا: كيف ضَيَّعَتِ الوِصَالا   وبَتَّتْ مِنْ مَوَدَّتِنا الحِبَالا؟

بتَّت (قطعت)

وَلـي كَبِدٌ تَلِينُ على التَّصَابي وتَـأْبَى فـي الـهَـوى إلّا اشْـتِعَـالا
وقـد عَلِمَ الـوُشَـاةُ ثَباتَ عـهْـدِي، إذا عَــهْــدُ الــذي أهــواهُ حَــالا

حالَ (تحول)

وأَنّــي لــم أَزَلْ كَـلِـفـاً بِـلَـيْـلَـى عـلـى كُـرْهِ الـوُشَـاةِ، ولـنْ أَزَالا

كلف (مشغوف)، على كره (رغم أنف)

أَمـيـرَ الـمـؤْمِـنـينَ! وأنـتَ أَرْضَـى عِـبـادِ الـلَّـهِ، عِـنْـدَ الـلَّـهِ، حَـالا
إذا الــخُـلَـفَـاءُ عُـدُّوا يـومَ فَـخْـرٍ وبَـرَّزَ مَـجْـدُهُـمْ، فَـسَـمَـا وطَـالا

سما (ارتفع)

غَـدَوْتَ أَجَـلَّـهُـمْ خَـطَـراً وذِكْـراً وأَعْـلاهُـمْ وأَشْـرَفَـهُـمْ فَـعَـالا

خطراً (أهميةً)

ومَا حَسُنَتْ نَواحي الأرضِ حتى مَلَكْتَ السَّهْلَ منها والجِبَالا
بِـوَجْـهٍ يَـمْـلأُ الـدُّنْـيـا ضِـيَـاءً وكَـفٌّ تَـمْـلأُ الـدُّنْـيـا نَـوَالا

نوالاً (عطاءً)

فُـتُـوحٌ يَـدَّرِكْـنَ مِـنَ الـنَّـوَاحِـي كـمـا ادَّرَكَ الـسَّـحَـابُ إذا تَـوَالـى

يدَّركن (يتتابعن)

وجـاءَكَ بِـالـرَّغَـائِـبِ مَـالُ مِـصْـرٍ فَـلَـمْ أَرَ مِـثْـلَـهَـا ظَـفَـراً ومَـالا

الرغائب (النفائس)

يُـحَـسِّـنُ مِـنْ مَـدِيـحـي فـيـكَ أَنّـي مَـتـى أَعْـدُدْ عُـلاكَ أَجِـدْ مَـقَـالا

ما يجعل مديحي أجود أنني أجد مادة للقول فأمجادك كثيرة. التسويد لأحمد عبد الرحيم

ولَـسْـتُ أُلامُ فـي تَـقْـصِـيرِ شُـكْـرِي وقـد حَـمَّـلْـتَـنـي الـمِـنَـنَ الـثِّـقَـالا

لست ملوماً إذا قصرت في الشكر فإنك حملتني عبئاً كبيراً بإحسانك الكثير الذي لا يوازيه شكر

لـقـد نَـوَّهْـتَ بـي شَـرْقـاً وغـربـاً وقـد خَـوَّلْـتَـنـي جَـاهَـاً ومَـالا

نوهت بي (جعلتني مشهوراً)، خولتني (جَعلت في خدمتي) الجاه والمال

ومَـا أَلْـفٌ بِـأَكْـثَـرِ مَـا أُرَجِّـي وآمُـلُ مِـنْ نَـدَاكَ إذا تَـوَالـى

والألف ليست أقصى ما أرجو وآمل من نداك، أي كرمك

١٢٢ الزفرة

وبكَتْ، فاستَثارَ مِنّي بُكاها زَفْرَةً ما تُطِيقُها أَضْلاعي

١٢٣ جيوش ملأن الأرض

يمدح المعتز بالله:

أقامَ قناةَ الدِّينِ بعدَ اعوِجاجِها وأَرْبَى على شَغْبِ العَدُوِّ المُشَاغِبِ

أقام قناة الدين (جعل رمح الدين مستقيماً)، وأربى (فاقَ) في الشدة على ما أبداه العدو من شغب

أخو الحزْمِ قد ساسَ الأمورَ، وهَذَّبَتْ بَصِيرتَه فِيها صُروفُ النَّوائبِ

إنه أخو حزم (ذو حزم) وقد ساس الأمور (أدارها)، وقد أدت صروف النوائب (تفاصيل المصائب) إلى تشذيب بصيرته (رأيه)

إمامُ هُدًى، عَمَّ البَرِيَّةَ عدلُهُ فأَضحَى لَدَيْهِ آمِناً كُلُّ راهِبِ

إمام يهتدي به الناس وقد عمَّ (شمل) البرية (الخلق) عدله، فأصبح كل راهب (خائف) آمناً في ملكه

تَدارَكَ، بعدَ اللَّهِ، أنفُسَ مَعْشَرٍ أَطَلَّتْ على حَتْمٍ مِنَ الموتِ واجِبِ

تدارك (أنقذ) ـ بفضل الله ـ أرواح أناس كانت موشكة على موت محتم

وقالَ: لَعَاً لِلعاثِرِينَ، وقد رأى وُثُوبَ رِجَالٍ فَرَّطُوا في العَواقِبِ

وقال للعاثرين (المتعثرين بأغلاطهم) لعاً (كلمة تقال لمن يتعثر. كما نقول اليوم: «الله» أو «اسم الله عليك»)، وهو يرى وثوب (تمرد) رجال فرطوا في العواقب (تجاهلوا نتائج أفعالهم)

تَجَافَى لَهُمْ عنها، ولو كانَ غَيْرُهُ لَعَنَّفَ بِالتَّثْرِيبِ، إنْ لم يُعَاقِبِ

تجافى لهم عنها (غفرها لهم)، ولو كان غيره في مكانه لعنَّف المذنبين بالتثريب (بالتوبيخ)، هذا إن لم يعاقبهم

ولولا تَلافِيكَ الخِلافَةَ لانبَرتْ لَهَا هِمَمُ الغَاوِينَ مِنْ كلِّ جانبِ

لولا تلافيك الخلافة (إنقاذك إياها) لتصدت لهذه الخلافة همم الغاوين (طموحات الضالين) من كل جانب

فما زِلْتَ حتى أذعَنَ الشرقُ عَنْوةً ودانَتْ على صُغْرٍ أعالِي المَغَارِبِ

ظللت مصمماً حتى أذعن الشرق (مناطق الدولة شرقي العراق) بالقوة، ودانت (أذعنت) على صغر (بِذُل) أعالي المغارب (مناطق الدولة غربي الشام)

جُيوشٌ مَلْأنَ الأرضَ، حتى تَرَكْنَها   وما في أَقَاصِيهَا مَفَرٌّ لِهَارِبِ

مَدَدْنَ وراءَ (الكَوْكَبِيِّ) عَجَاجَةً   أَرَتْهُ نَهاراً طَالِعَاتِ الكَواكِبِ

مدت هذه الجيوش وراء الكوكبي (متمرد علوي على الدولة) عجاجة (سحابة غبار) جعلته يرى في النهار الكواكب الطالعة (لمعان السيوف والأسنَّة وسط الغبار مثل الكواكب)

وقدْ أَفِنَ (الصَّفَّارُ) حتى تَطَلَّعَتْ   إليهِ المَنايَا في القَنا والقَواضِبِ

وقد أفن (حَمُق) الصفار (يعقوب الصفار المتمرد) إلى أن رأى المنايا (الموت) في القنا (الرماح) والقواضب (السيوف)

حَنَوْتَ عليهِ بعدَ أنْ أَشْرَفَ الرَّدَى   على نَفْسِ مُزْوَرٍّ عنِ الحقِّ نَاكِبِ

حنوت عليه (ضممته برفق) بعد أن كاد الموت يقضي على نفسه، وهو المزور (المبتعد) عن الحق الناكب عنه (المجتنب له)

تَأَنَّيْتَهُ حتَّى تَبَيَّنَ رُشْدَهُ   وحتى اكتفَى بالكُتْبِ دونَ الكتائِبِ

تأنيته (ترفقت به) إلى أن عرف رشده، وصار يكتفي بالكتب (بالرسائل) ولم يعد يلجأ للكتائب

بِلُطْفِ تَأَتٍّ منكَ ما زالَ ضامِناً   لنا طاعةَ العَاصِي وسِلْمَ المُحَارِبِ

فعلت هذا بلطف تأتٍّ منك (بالمحاسنة والإقناع)، وهذا التأنِّي يضمن لنا دوماً طاعة العاصي (المخالف) وسلم (مسالمة) المحارب

فعادَ حُسَاماً عنْ وَلِيِّكَ ذَبُّهُ   وَحَدَّ سِنَانٍ في عدوِّكَ ناشِبِ

فعاد (فأصبح) العاصي حساماً، ذبه (دفاعه) عن وليك (نصيرك)، وأصبح العاصي حدَّ سنان (رأس رمح) ناشب (منغرس) في قلب عدوك

١٢٤ فراق من أجل اللقاء

بِوُدِّيَ لو يَهوَى العَذُولُ، ويَعْشَقُ   فَيَعْلَمَ أَسبابَ الهَوى، كيفَ تَعْلَقُ

أسباب (حبال)

أَرى خُلُقاً، حُبِّي لِعَلْوَةَ دائماً   إذا لم يَدُمْ بالعَاشِقِينَ التَّخَلُّقُ

حبي لعلوة صار كأنه خلق (طبع من طباعي)، وليس مجرد تطبع زائل كحال العاشقين الآخرين

فَأَحْسِنْ بِنَا والدَّمْعُ بِالدَّمْعِ واشِجٌ   تَمَازُجُهُ، والخَدُّ بالخَدِّ مُلْصَقُ

أحسِن بنا (ما أجملنا) ودمعي مختلط بدمعها، وخدي على خدها

ومِنْ قُبَلٍ، قَبْلَ التَّشَاكي وبَعْدَه،   نَكادُ لَها، مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ، نَشْرَقُ

هذه الـ «ومن» في أول البيت أسلوب بحتريّ. انظر قوله: (ومن شجر رد الربيع لباسه..)، وستأتيك بعد بضع صفحات (القصيدة ١٣٠). المعنى: كانت بيننا قُبَلٌ قبلَ أن نتبادل الشكوى وبعده، ومن شده الوجد (الشوق) نكاد نشرق بقبلاتنا

فلو فَهِمَ الناسُ التَّلاقيٍ، وحُسْنَهُ   لَحُبِّبَ مِنْ أجْلِ التَّلاقيِ التَّفَرُّقُ

١٢٥ بقي منها تذكُّرها

يمدح المعتز بالله ويذكر علوة:

كَمْ لَيْلَةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُها   ولَوْعَةٍ في هَوَاكِ أُضْمِرُها

وحُرْقَةٍ والدُّمُوعُ تُطْفِئُهَا   ثم يَعُودُ الجَوَى فَيُسْعِرُها

يسعرها (يوقدها)

يَا عَلْوَ! عَلَّ الزَّمَانَ يُعْقِبُنَا   أَيَّامَ وَصْلٍ نَظَلُّ نَشْكُرُها

يا علو (يا علوة)، يعقبنا (يكافئنا)

بَيْضَاءُ رُودُ الشَّبابِ، قَدْ غُمِسَتْ   في خَجَلٍ ذَائِبٍ يُعَصْفِرُها

رود الشباب (ناعمة)، يعصفرها (يجعلها صفراء محمرة خجلاً، ونبات العصفر أصفر مشوب بحمرة)

مَجْدُولَةٌ هَزَّهَا الصِّبا، فَشَفَى   قَلْبَكَ مَسْمُوعُها ومَنْظَرُها

مجدولة (قوامها متناسق)

لا تَبْعَثُ العُودَ تَسْتَعِينُ به   ولا تَبِيتُ الأَوتَارُ تَخْفُرُها

لا تبعث في طلب عودٍ لتستعين به في غنائها، ولا تريد من أوتاره أن تخفرها (تحرسها) من النشاز

اللَّهُ جارٌ لها، فَمَا امْتَلأَتْ   عَيْنيَ إلَّا مِنْ حيثُ أُبْصِرُها

الله يحميها! فلا يملأ عيني إلا رؤيتها

إنَّ قُوَيْقاً له عَلَيَّ يَدٌ   بِالأمسِ بَيْضَاءُ، لستُ أَكْفُرُها

نهر قويق له علي يد بيضاء (معروف)، ولست أجحدها

ولَيْلَةَ الشَّكِّ، وَهْوَ ثالِثُنا،   كانتْ هَنَاتٌ واللَّهُ يَغْفِرُها

في ليلة الشك (الليلة التي يرقب فيها الناس هلال رمضان) كان نهر قويق هو الثالث معي أنا وعلوة، وقد حدثت هنات (أمور بسيطة) والله يغفرها. ما أجمل هذا الاستقبال لرمضان! وهي ـ بعدُ ـ هَنات، ثم إن رمضان لم يدخل!

أيامُ لَهْوٍ في جَانِبَيْ حَلَبٍ   لم يَبْقَ مِنْها إلّا تَذَكُّرُها

لم يبق من أيام اللهو في حلب إلا الذكرى

١٢٦ عشيرتي

أَقْرِي الحَوادِثَ، إنْ حَلَلْنَ، تَجَلُّدَاً؛   وأَعُدُّ شَأْنَ عَشِيرَتي مِنْ شَاني

أقري (أقدم الطعام للضيف). إذا حلت الحوادث (المصائب) فإنني أقدم لهذا الضيف النازل تجلداً (صبراً)؛ وأنا أعد ما يهم عشيرتي شأناً من شؤوني

قَوْمٌ ترى أَرْمَاحَهُمْ، يومَ الوَغى،   مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ الكِتْمَانِ

قومي تندق رماحهم في الحرب في مواطن الكتمان (في القلوب)

١٢٧ أنطقَ القوافي

وقال يمدح يونس بن بغا:

سَيِّدٌ أَنْطَقَ القَوافيَ بِنُعْمَا   هُ، وكانَتْ، مِنْ قَبْلُ، ذَاتَ وُجُومِ

عطاياه أنطقت الشعراء بالقصائد، وكانت القصائد قبل ذاك واجمة (ساكتة)

١٢٨ زبدة قريش

يمدح الخليفة المهتدي بالله، وهو أزهد خلفاء بني العباس:

قَضَى اللّهُ أَنّي مِنْكِ ضَامِنُ لَوْعَةٍ   تَقَضَّى اللّيَالي، وَهْيَ بَاقٍ مُقِيمُها

قضى الله عليَّ بأنني ضامن (مضمر) لوعة في قلبي منكِ (بسببكِ)، تتقضّى (تنقضي) الليالي واللوعة باقية مقيمة. باق مقيمها معناها (مقيم مقيمها)، وهذا أسلوب قديم في الشعر العربي للوصول إلى القافية، أعان الله الشعراء

أَمِيلُ بِقَلْبي عنكِ، ثم أَرُدُّهُ   وأَعْذِرُ نَفْسي فيكِ، ثم أَلُومُها

إذا المُهْتَدي بِاللّهِ عُدَّتْ خِلالُهُ   حَسِبْتَ السَّمَاءَ كَاثَرَتْكَ نُجُومُها

خلاله (مزاياه)، كاثرتك (فاخرتك بالكثرة)

لقد خَوَّلَ اللّهُ الإمَامَ محمداً   خُصُوصَ مَعَالٍ، في قُرَيْشٍ عُمُومُها

خول الله الخليفة (أعطاه) الأمجاد المخصوصة الفريدة التي عمومها في قريش. فقريش ذات مجد، ولكن المهتدي له زبدة هذا المجد

بَنُو هاشِمٍ في كلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ   كِرَامُ بَني الدنيا، وأَنتَ كَرِيمُها

بنو هاشم (وهم فرع من قريش) هم أكرم الخلق، وأنت كريم بني هاشم الأول

تَـدَارَكَ مَـظْـلُـومُ الـرَّعِـيَّـةِ حَـقَّـهُ وخَلَّى له وَجْهَ الطَّرِيقِ ظَلُومُها

أدرك المظلوم من الرعية حقه، وأما الظلوم (الظالم) فقد اضطر إلى ترك طريق الظلم

وقد أَعْطَتِ الرُّومُ الذي طُولِبَتْ به (بِإِبْرِيقَ) لَمَّا خُبِّرَتْ مَنْ غَرِيمُها

والروم رضيت بشروط الصلح في منطقة (إبريق) عندما علمت أنك أنت غريمها (خصمها)

هَـجَرْتَ الـمَلاهِيِ حِسْبَةً، وتَفَرُّداً بِآيَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ يُتْلَى حَكِيمُها

هجرت الملاهي (اللهو) حسبةً (احتساباً للثواب عند الله) وكي تخصص الوقت كله لذكر الله. كان الخليفة المهتدي العباسي زاهداً حقاً، لذا لم يدم حكمه سوى سنة.. وقُتل بعصر الخصيتين

١٢٩ نهر بين النهرين

يمدح سليمان بن عبد الله بن طاهر، وكان السلطان أقطعه (المخرم) ببغداد فقال فيه البحتري هذا الشعر، وسأله إقطاع ناحيةٍ منه يبني بها منزلاً فأقطعه ألف ذراع في ألف ذراع:

شَفِيعِي أَميرُ المؤمنينَ، وعُمْدَتِي سُلَيْمانُ، أَحْبُوهُ القَرِيضَ المُنَمْنَمَا

أحبوه القريض المنمنم (أهديه الشعر المنمّق)

قَصَائِدُ، مَنْ لم يَسْتَعِرْ مِنْ حُلِيِّها تُخَلِّفْهُ مَحرُوماً مِنَ الحَمْدِ، مُحْرِمَا

من لم يستعر بعض أبياتي كي يتحلى بها يظل محروماً من الحمد مُحْرِماً
(لابساً ثوب الإحرام الذي لا زينة فيه)

وكَمْ لَبِسَتْ مِنْكَ العِراقُ صَنِيعَةً يُشَارِفُ مِنها الأُفْقُ أَنْ يَتَغَيَّمَا

أنعمت على العراق حتى لقد إن أفق السماء يشارف (يكاد) أن يظهر فيه الغيم (والغيم بركة)

ثَلَثْتَ فُرَاتَيْها بِجُودِ سَجِيَّةٍ. وَجَدْنَاكَ أَوْلَى بِالتَّدَفُّقِ مِنْهُما

كنت ثالث الفراتين (دجلة والفرات) بجود سجية (كرم طباع). وقد وجدناك أولى بالتدفق من هذين النهرين لكثرة عطاياك

١٣٠ أتاك الربيع

وقال يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي:

أَلَسْتَ تَرَى مَدَّ الفُرَاتِ، كَأَنَّه جِبَالُ (شَرَوْرَى) جِئْنَ في البَحْرِ عُوَّمَا؟

ألا ترى مد الفرات وفيضانه كأنه جبال شرورى وقد حملها البحر (النهر) عائمة فيه؟

وَلَـمْ يَـكُ مِـنَ عـادَاتِـهِ، غَـيـرَ أَنَّـهُ رَأَى شِـيـمَـةً مِـنَ جَـارِهِ، فَـتَـعَـلَّـمـا

ولم يكن هذا من عادة الفرات، ولكنه رأى شيمة (طبعاً) من جاره الهيثم هي الفيضان بالعطايا فتعلم منه

وَمَا نَوَّرَ الرَّوْضُ الشَّآمِيُّ؛ بَلْ فَتىً تَـبَـسَّـمَ مِـنْ شَـرْقِـيِّـهِ فَـتَـبَـسَّـمـا

وليس هذا النوار نوار روض شامي، بل إن ابتسام هذا الفتى شرق الشام (أي في العراق) أعدى الرياض فتبسمت

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ، يَختالُ ضَاحِكاً مِنَ الحُسْنِ، حتَّى كادَ أَنْ يَتَكَلَّما

جاءك الربيع الطلق (الباسم) يختال (يتبختر) من شدة جماله، حتى كاد أن يتكلم لقوة ما فيه من تعبير

وقَد نَبَّهَ النَّوْرُوزُ في غَلَسِ الدُّجَى أَوَائِـلَ وَرْدٍ كُـنَّ بِـالأَمْـسِ نُـوَّمَـا

نبه النوروز (عيد الربيع) في غلس الدجى (في ساعات الليل) أوائل ورد (براعم) كانت أمس مضمومة نائمة فخرجت في آخر الليل زهوراً نراها مع إشراقة الصبح

يُـفَـتِّـقُـهـا بَـرْدُ الـنَّـدَى، فَـكَـأَنَّـه يَبُثُّ حَدِيثاً كانَ أَمسِ مُكَتَّما

يفتق الندى البارد النوار، فكأن الندى يشيع حديثاً كان بالأمس سراً مكتوماً. يشبه بروز الأزهار بشكل يلفت الأنظار بقوة لما فيها من ألوان وبهجة، بشيوع السر الذي كان من قبل مكتوماً ثم إذا به يملأ المجالس

ومِـنْ شَـجَـرٍ رَدَّ الـرَّبِـيـعُ لِـبَـاسَـهُ عَلَيْهِ، كَما نَشَّرْتَ وَشْيَاً مُنَمْنَمَا

وهذا شجر أعاد له الربيع أوراقه، فكأنها مع الزهر وشي منمنم (قماش مطرز). هذه الـ «ومن» تبدو معلقة، ولها عند البحتري مثيلات. وقد تكون معطوفة على «من الحسن» قبل بيتين. أي أن الربيع يختال ضاحكاً من شجر ارتدى لباساً جديداً من الورق. .

أَحَلَّ، فَـأَبْـدَى لِـلـعُـيـونِ بَـشـاشَـةً وكانَ قَذَىً لِلْعَيْنِ، إذْ كانَ مُحْرِمَا

أحل الشجر (خلع لباس الإحرام البسيط ولبس الملابس المزركشة)، فأبدى للعيون بشاشة بعد أن كان منظره قذى للعين يؤذيها وهو محْرِم

ورَقَّ نَسِيمُ الرِّيحِ، حتى حَسِبْتَه يِجِيءُ بِأَنْـفَـاسِ الأَحِـبَّـةِ نُـعَّـما

رق النسيم حتى حسبناه يحمل أنفاس الأحباب نعَّماً (وهم مسروورون/ وهذا غير الزفرات الحرى المعتادة في الأحبة)

١٣١ الرعاع

وقال يهجو قوماً من غَنِيّ:

بَـنِـي عُـثْـمَـانَ أنـتُـمْ فـي «غَـنِـيٍّ» رَعَـاعٌ، وَهْـيَ فـي «قَـيْـسٍ» رَعَـاعُ

أنتم رعاع (حثالة) عشيرة غني، وهم رعاع قبيلة قيس

مَتَى يُقْرَى السَّدِيفُ بِسَاحَتَيْكُمْ   ومُرُّ المَاءِ عِندَكُمُ يُبَاعُ؟

منذ متى يقرى (يقدم للأضياف) السديف (شحم السنام) في دياركم، وأنتم الذين تبيعون الماء المرَّ بيعاً؟

١٣٢ التقي السَّاطي

وقال يمدح المهتدي بالله:

عَلِمَ اللَّهُ سِيرةَ المُهْتَدِي بِالـ   ـلهِ فَاخْتَارَهُ لِمَا يَخْتَارُ

علم الله أن الخليفة المهتدي سيكون تقياً فاختاره للخلافة

ولديهِ، تحتَ السَّكِينةِ والإخْـ   ـبَاتِ، سَطْوٌ على العِدَى واقْتِدارُ

ولديه، تحت السكينة (الوقار) والإخبات (الخشوع) سطو (بطش) على الأعداء وقدرة

١٣٣ الوصل

وقال يتغزل ضمن قصيدة يمدح بها الخليفة المعتمد على الله:

جَائِرٌ في الحُكْمِ، لوْ شاءَ قَصَدْ   أَخَذَ النومَ، وأَعطاني السَّهَدْ

جائر (ظالم)، قصد (عدل)، السهد (السهر)

كيف يَخْفَى الحُبُّ مِنَّا، بَعدمَا   قامَ وَاشٍ بِهَوانا وقَعَدْ؟

واش (نمام)، قام بهوانا وقعد (اشتغل بنا وبحبنا)

لستُ أَنْسَى ليلتي مِنْهُ، وقَدْ   أَنْجَزَتْ عَينَا بَخِيلٍ مَا وَعَدْ

لن أنسى ليلتي تلك منه (مع المحبوب)، وقد أنجز البخيل (يقصد حبيبته، وما أكثر ما وصفوا المحبوبة بالبخل) وعده. فهي في تلك الليلة أعطته ما أراد. وكلمة تنبيه: كان البحتري ممن يتعشق الغلمان، ولكن شعره يشي بأن ذلك لم يكن متمكناً من نفسه، كان فقط يجاري تقليعة العصر

عَلِقَتْ كَفٌّ بِكَفٍّ بيْنَنا   واعْتَنقْنَا، فَالتَقَى خَدٌّ وَخَدّ

وتَشاكَيْنَا مِنَ الحُبِّ جَوَىً   مَلأَ الأَحشاءَ نَاراً تَتَّقِدْ

تشاكينا: تبادلنا الشكوى، جوى: حزن

١٣٤ هارب من الفراق

وقال في أبي جعفر بن سهلٍ المروزي، وتفارقا بلا وداع، فكتب إليه:

اللَّهُ جارُكَ في انْطِلاقِكْ   تِلْقَاءَ شَامِكَ، أو عِرَاقِكْ

لا تَعْذُلَنِّي في مَسِيري   يومَ سِرْتُ، ولم أُلاقِكْ

إنِّـــي خَـــشِـــيــتُ مَــوَاقِــفــاً لِـلْـبَـيْـنِ تَـسْـفَـحُ غَـرْبَ مَـاقِـكْ

خشيت مواقف البين (الفراق) التي ستسفح (تُريق) غرب ماقك (دمع عينك)

وعَـــلِـــمْـــتُ أنَّ بُـــكـــاءَنـــا حَـسَـبَ اشْـتِـيـاقِـي واشْـتِـيـاقِـكْ

وذَكَــرْتُ مــا يَــجِــدُ الــمُــوَدِّ ـ عُ عــنــدَ ضَــمِّــكَ واعــتِــنــاقِــكْ

فــتَــرَكْــتُ ذاكَ تَــعَــمُّــداً وخـرجْـتُ أهـرُبُ مِـنْ فـراقِـكْ

النكتة في هذه الأبيات موجودة هنا: أهرُبُ من فراقك

١٣٥ أصبحت العراق عراقي

يمدح إبراهيم بن المدبر:

حُـفِـظَ الـقَـرِيـضُ فَـمَـا يُـضَـيَّـعُ حَـقُّـه أَبَـداً، وأَنْـتَ لـه مِـنَ الـعُـشَّـاقِ

القريض (الشعر)

هَـا إِنَّـهُ وعَـطَـاؤُكَ الـجَـمُّ الـلُّـهَـى أَخَـوَانِ: ذَا فَـانٍ، وهـذا بَـاقِ

ها إن الشعر يؤاخي ويلازم عطاءك الجم (الكثير) اللهى (العطاء)، والعطاء يفنى والشعر خالد

أُثْنِي عَلَيْكَ بِمَا بَسَطْتَ به يَدِي وحَلَلْتَ مِنْ أَسْرِ الزمانِ وِثَاقِي

أثني عليك بالعطاء الذي جعلت به يدي مبسوطة لأعطي الآخرين، وحللت به وثاقي (قيدي) الذي أسرني به الزمان

كُنْتُ الغَرِيبَ، فَمُذْ عرفتُكَ عادَ لِي أُنْسِي، وأَصْبَحَتِ العِراقُ عِرَاقي

١٣٦ تجاربي

وجَرَّبْتُ حتى ما أَرَى الدهرَ مُغْرِباً عَلَيَّ بِصَرْفٍ لم يكنْ في تَجارِبي

مغرباً (آتياً بشيء غريب)، صرف (موقف صعب). هذا البيت يتنازعه أكثر من شاعر

وما غَرَّنِي حُسْنُ المَبَادِي، لأَنَّهُ مِنَ الدهرِ مَختومٌ بِسُوءِ العَوَاقِبِ

المبادي (بدايات الأمور)، سوء العواقب (النتائج السيئة)

١٣٧ انحدار وارتفاع

يمدح إبراهيم بن المدبر:

فَـدَتْـكَ أَكُـفُّ قَـوْمٍ مـا اسـتَـطـاعُـوا مَـسـاعِـيَـكَ الـتـي لا تُـسْـتَـطَـاعُ

لتفدِكَ أكف الناس الذين لم يستطيعوا من مساعيك (أمجادك) ما استطعت أنت

عَلَوْتَهُمُ بِجَمْعِكَ ما أَشَتُّوا مِنَ العَلْيا، وحِفْظِكَ مَا أَضَاعُوا

تفوقت عليهم بأنك جمعت من المجد ما فرقوا، وحفظت منه ما ضيعوا

دَنَوْتَ تَواضُعاً، وبَعُدْتَ قَدْراً فَشَأْنَاكَ: انْحِدَارٌ وارْتِفَاعُ

لتواضعك فأنت قريب، ولعظمتك فأنت عالٍ، فهذان متناقضان فيك: انحدار وارتفاع

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى ويَدْنُو الضَّوْءُ منها والشُّعَاعُ

فأنت في هذا كالشمس بعيدة فلا تُسامَى (لا يعلوها شيء)، ولكن ضوءها قريب يغمرنا

١٣٨ اجعلها مزدوجة

يمدح إبراهيم بن المدبر:

ومَا زالتِ العِيسُ المَراسِيلُ تَنْبَرِي فَيُقْضَى، لدى آلِ المُدَبِّرِ، حَاجُها

ظلت العيس (الإبل) المراسيل (السهلة في سيرها) تنبري (تهزل ويبريها طول السير) ـ وعليها راكبوها ـ فيقضي آل المدبر حاجاتها

أُناسٌ، قَدِيمُ المَكْرُمَاتِ وَجَدْتُها لَهُمْ؛ وسَرِيرُ العُجْمِ فِيهِمْ وتَاجُها

أناس لديهم المكرمات (الأمجاد) القديمة، وفيهم سرير (عرش) العجم وتاجهم

إذا خَيَّمُوا في الدَّارِ ضَاقَتْ رِباعُها وإِنْ رَكِبُوا في الأرضِ ثارَ عَجَاجُها

وهم كثر (والقدماء يفتخرون بكثرة العدد) تضيق بهم رباع الدار (ربوع المحلة التي ينزلون بها)، وإن ركبوا الخيل ثار عجاج الأرض (غبارها)

مَلِيُّونَ أَنْ تُسْقَى البِلادُ غِيَاثَها بِأَوْجُهِهِمْ حتى تَسِيلَ فِجَاجُها

مليُّون (جديرون) أن تُسقَى البلاد بالمطر ببركة وجوههم حتى تسيل فجاجها (وديانها)

فإِنَّ على بَغدادَ ظِلَّ غَمَامَةٍ بِجُودِ أبي إسحَقَ، يَهْمِي انْثِجَاجُها

وفوق بغداد غمامة (غيمة) ـ تتمثل بكرم أبي إسحق ـ يهمي (يهطل) انثجاجها (زَخُّها)

يَدٌ لَكَ عِندي قد أَبَرَّ ضِيَاؤُهَا عَلى الشَّمْسِ حتى كادَ يَخبُو سِرَاجُها

لك عندي يد (معروف) أبَرَّ (زاد) ضوءُها على ضوء الشمس حتى كاد يخبو سراج الشمس لسطوع معروفك

هِيَ الرَّاحُ تَمَّتْ في صَفاءٍ ورِقَّةٍ فلمْ يبقَ لِلمَصْبُوحِ إلَّا مِزَاجُهَا

هذه النعمة منك هي مثل الراح (الخمر) صافية ورقيقة (والخمر الجيدة فيها رقة، وليست كثيفة ولا لزجة، فاعلم!)، ولم يبق للمصبوح (الشارب الخمر صباحاً) إلا مزج الخمر بالماء. يقول: نعمتك عظيمة، ولم يبقَ سوى القليل لكي تكون تامة

فإنْ تُلْحِقِ النُّعْمَى بِنُعْمَى، فإنَّهُ   يَزِينُ اللآلِي في النِّظَامِ ازْدِواجُها

فإن تلحق النعمى (المعروف) بنعمى أخرى فهذا يتممها، فاللآلئ في النظام (العقد) تزداد حسناً بازدواجها (بأن تكون مضاعفة فكل لؤلؤة في الجانب الأيمن تقابلها مثيلة لها في الأيسر). سيأخذ أحمد شوقي بعد ألف سنة الشطر الثاني ليهجو المويلحي. في كتابنا الرابع من هذه السلسلة الخمسية سنعرض لشعر شوقي، أما هذا فالكتاب الثاني

١٣٩ قبل أن يتلون الألوانا

أمَّا العُدَاةُ فقد أَرَوْكَ نُفُوسَهُمْ   فَاقْصِدْ بِسُوءِ ظُنُونِكَ الإخْوَانا

قد عرفتَ يا بحتري الأعداء وكشفوا لك صفحتهم، فالآن كن سيء الظن بالإخوان (الأصدقاء)

وأَخِفُّ عَنْ كَتِفِ الصديقِ نَزَاهَةً   مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَلَوَّنَ الأَلْوَانا

إنني أخفف حضوري عند الصديق متنزهاً مترفعاً، قبل أن يتلون ويتغير عليّ

وأَخٍ أَرَابَ، فلم أَجِدْ في أَمْرِهِ   إلَّا التَّمَاسُكَ عنه، والهِجْرَانَا

وربَّ أخ أراب (صار مريباً) فلم أجد من سلوك سوى التَّماسك (الانقباض عنه) والابتعاد عنه

أَغْبَبْتُه أَنْ أَسْتَمِيحَ له يَداً   أَوْ أَنْ أُعَنِّيَ فِيَّ مِنْهُ لِسَانا

أغببته (أقللت رؤيته) فلم أستمح يده (لم أطلب معروفه) ولم أكلفه بأي كلام في الاعتذار

وأَرَاهُ، لَمَّا لم أُطَالِبْ نَفْعَهُ،   أَنْشَا يَضُرُّ تَغَيُّباً وعِيَانا

وأراه الآن ـ وأنا لا أكلفه أي عطاء ـ قد أنشأ (بدأ) يسعى في ضرري تغيباً (في غيبتي) وعياناً (وفي حضوري)

وكَمَا يَسُرُّكَ لِينُ مَسِّي رَاضِياً   فَكَذَاكَ، فَاخْشَ خُشُونَتِي غَضْبَانا

مثلما تسرك ليونتي في وقت الرضا فعليك أن تخشى خشونتي عندما أغضب

١٤٠ مرسل الريح

قال في ريح خرجت من وهب بن سليمان في حضرة الوزير:

أَبِينِي لَنا أَيَّتُهَا الوَاسِعَةْ   أَعَاصِيَةٌ أنتِ أم طَائِعَةْ؟

يكلم البحتري فقحة وهب. يسألها: أأنت عاصية له أم مطيعة؟

فقد أنْكَرَ الناسُ ما قد جَنَيْتِ   فهل أنتِ في مِثْلِها رَاجِعَةْ؟

فقد أنكر الناس الجناية التي بدرت منك، فهل ستعودين إلى مثلها؟

أَيَـا وَهْـبُ! لِـمْ هَـتَـفَـتْ بِـالـوَزِيـرِ؟ لَـعَـلَّـكَ بَـيَّـتَّـهـا جَـائِـعَـةْ

يا وهب! لماذا تركتها تهتف في حضرة الوزير؟ هل جعلتها تبيت جائعة (قصده أن الرجل لم يستدخل شيئاً من دبر)

فَـجَـاءَتْ تَـظَـلَّـمُ مِـنْ ظَـالِـمٍ إلـى مُـنْـصِـفٍ أُذْنُـه سَـامِـعَـةْ

فجاءت تتظلم (ترفع شكواها) لمن ينصفها ويسمع منها

١٤١ قف يا زماني

يمدح أبا الحسين محمد بن صفوان العقيلي:

لِـلـهِ أيَّـامُـنـا مَـا كـانَ أحـسَـنَـهـا لـو أنَّ دهـراً تَـوَلَّـى ذَاهـبـاً وَقَـفـا

لله تلك الأيام ما كان أحسنها، لو أن الزمن الذي انقضى قد توقف ولزم حاله الأولى

لا تُـكْـذَبَـنَّ! فَـمـا الـدُّنـيـا بِـرَاجِـعَـةٍ مَـا فـاتَ مِـنْ لَـذَّةِ الـدُّنـيـا ومَـا سَـلَـفـا

لا يكذبن عليك أحد! فليست الدنيا راجعة (مُرْجِعة) ما فات (ذهب) من ملذاتها

١٤٢ تفريط الطبيب

يمدح أبا المعمر الهيثم بن عبد الله:

أَمَـا (لِـرَبِـيـعـةِ الـفَـرَسِ) انْـتِـهـاءٌ عَـنِ الـزَّلْـزَالِ فِـيـهـا، والـحُـرُوبِ؟

ألا تنتهي هذه القبيلة عن الزلزال (المصائب) فيها والحروب؟

وكـانـوا رَقَّـعُـوا أَيَّـامَ سِـلْـمٍ عـلـى تـلـكَ الـقَـوَارِحِ والـنُّـدُوبِ

وكانوا جعلوا بضعة من أيام السلم رُقَعاً تغطي تلك القوارح (الجروح) والندوب (آثار الجروح)

إذا مَـا الـجُـرْحُ رُمَّ عـلـى فَـسـادٍ تَـبَـيَّـنَ فـيـهِ تَـفْـرِيـطُ الـطَّـبـيـبِ

ولكن الجرح إذا رم (تم ترميمه) على فساد (دون تنظيف)، فسيظهر تفريط (إهمال) الطبيب

يُـشَـقُّ الـجَـيْـبُ، ثـم يـجـيءُ أمـرٌ يُـصَـغِّـرُ فـيـهِ تَـشْـقـيـقُ الـجـيـوبِ

يُشق الجيب (يمزَّق القميص/وفي المصيبة كانوا يمزقون أقمصتهم)، ويأتي بعدئذ أمر أخطر مما سبق، يصبح تمزيق الأقمصة هيناً بالنسبة إليه

وفـي حَـرْبِ الـعَـشـيـرةِ مُـؤْيَـدَاتٌ تُـضَـعْـضِـعُ تَـالِـدَ الـعِـزِّ الـمَـهِـيـبِ

في الحرب العشائرية مؤيَدات (مصائب) تضعضع تالد (موروث) العز المهيب

١٤٣ قتيل القرود

يرثي أخا الصابوني قاضي أنطاكية، وكان قَتَلَه سيما الطويل حاكمها:

ونُنْكِرُ أَنْ تَطَرَّقَنَا المنايَا، كأَنَّا قد خُلِقْنَا لِلْخلودِ

تطَرَّقنا (تعترض طريقنا)

ومَا بَرِحَتْ صُرُوفُ الدَّهرِ حتى أَرَتْنا الأُسْدَ قَتْلى لِلْقُرودِ

ما زالت صروف الدهر (مصائبه) تتنابنا حتى أرتنا الأسود قتلى بيد القرود

١٤٤ يا صاحب البريد

يهجو ابن أبي قماش:

دَهَتْكَ بِعِلَّةِ الحَمَّامِ فَوْزٌ ومَالَتْ في الطَّريقِ إلى سَعِيدِ

دهتك (خدعتك) بعلة (بحجة) الحمام فوز زوجتك، ومالت في طريقها إلى سعيد. قالت لزوجها إنها ذاهبة للحمام العمومي!

أرَى أَخبارَ بَيْتِكَ عَنْكَ تُطْوَى، فَكيفَ وَلِيتَ أَخبارَ البَرِيدِ؟

أخبار بيتك تطوى (تحجب) عنك، فكيف وليت (توليت) ديوان البريد!

١٤٥ الحمار المرزوق

يمدح صاعد بن مخلد، ويهجو يعقوب بن أحمد بن صالح بن شيرزاد:

وإِخَاءٍ منهُ لو يُعْرَضُ لِلْـ ـبيْعِ في سُوقِ الثُّلاثَا مَا نَفَقْ

لا أحد يريد إخاءه (صداقته)، فلو عرضت صداقته للبيع في هذه السوق الأسبوعية ـ لا أدري لعلها سوق للماشية ـ ما نفقت (ما بيعت)

لا تَعَجَّبْ أنْ تَرَى خَاتِمَهُ وعَلَيْهِ: «الجَحْشُ بِاللَّهِ يَثِقْ»!

لا تعجَّب (تتعجب) أن ترى خاتمه منقوشاً عليه عبارة «الجحش بالله يثق». وكانوا في القديم يتخذ كل أحد شعاراً ينقشه على خاتمه

لو صَفَرْنَا عَبَّ في الماءِ، ولو مَرَّ مُجْتَازاً على الأُتْنِ نَهَقْ

هذا المهجو له إحساس الحمار، فلو صفرنا له كما نفعل للحمار عب في الماء (شرب)، ولو كان مجتازاً (ماراً) على الأتن (إناث الحمير) لنهق

إنْ مَشَى هَمْلَجَ، أو صَاحَ إلى صَاحِبٍ عَشَّرَ، أو ماتَ نَفَقْ

وهذه هي المفردات اللائقة به: هملج (مشى رويداً، وهي للحمار والبغل)، عشَّر (نهق عشراً)، نفق (مات، وتستعمل للحيوان)

تُخْطِئُ الدنيا المقاديرَ، ففي الـ جَوِّ مَنْ لم يَكُ في قَعْرِ النَّفَقْ

الدنيا تخطئ في فهم مقادير الناس (أقدارهم) فيكون أحدهم في أعالي الجو بينما مقداره لا يجيز له أن يكون حتى في قعر النفق

كانَ يُحْيِي مَيِّتاً مِنْ ظَمَأٍ فَضْلُ مَا أَوْبَقَ مَيْتاً مِنْ غَرَقْ

كان يمكن أن يحيي الميتَ من العطش فضلُ (بقية) الماء التي أوبقت (أهلكت) الآخر غرقاً. يقول: بعض يموت عطشاً وبعض يموت غرقاً، فيا لسوء التوزيع. وكان يمكن للمياه التي غرقت هؤلاء أن تروي أولئك. (أكتب هذه الإضافة في ٢٠ أغسطس آب ٢٠١٠، وقد بلغ قتلى الفيضان في باكستان ألفاً وخمسمئة، بينما الناس في النيجر يموتون عطشاً)

١٤٦ إذا جحد الله والمرسلين..

يهجو أحمد بن صالح وولده:

عُلَيْجٌ يَدِينُ بِأَنْ لا إِلَهَ وأَنْ لا قَضَاءَ، وأَنْ لا قَدَرْ

عليج (علج حقير/العلوج هم العوامُّ من غير العرب) يدين (يعتقد) بعدم وجود الله، ولا يؤمن بقضاء ولا بقدر

وشَتَّامَةٌ لِصِحَابِ النَّبِيِّ - يُزْجَرُ عنهُمْ فَمَا يَنْزَجِرْ

وهو شتامة (كثير الشتم) للصحابة، ويُزجر (يعنَّف) عن شتمهم فلا ينزجر

إذا جَحَدَ اللَّهَ والمُرْسَلِينَ فَكَيفَ نُعاتِبُهُ في عُمَرْ؟

وهو ينكر الله والأنبياء فكيف نعاتبه في عدم احترام عمر بن الخطاب؟

١٤٧ أرميهم باسمك

يمدح إسماعيل بن بلبل الوزير:

وإِنِّي لَمَرْفُودٌ على كُلِّ تَلْعَةٍ بِنَصْرِ ابْنِ خَالٍ، يَحْمِلُ السَّيْفَ، أو عَمِّ

إنني مرفود (حاصل على العون) فوق كل تلعة (ربوة) إذ ينصرني أبناء الخؤولة والعمومة بسيوفهم

ومَا أَبْهَجَتْنِي كَبْوَةُ الجَحْشِ، إذْ كَبَا لِفِيهِ، لَوَ انَّ الجَحْشَ أَقْلَعَ عَنْ ظُلْمِي

وما كنت أبتهج لكبوة (سقطة) الجحش إذ سقط لفيه (على فمه، على وجهه) لو أنه كان كفَّ عن ظلمي

فَلَوْلا أَبُو الصَّقْرِ الأَغَرُّ وَجُودُهُ، رَضِيتُ قَلِيلِي، واقْتَصَرْتُ على قِسْمِي

لولا أبو صقر الأغر (المشرق) ولولا جوده لرضيت بالقليل واقتصرت
على ما قسم الله لي من الرزق

كَأَنَّكَ مِنْ جِذْمٍ مِنَ النَّاسِ واحِدٍ، وسَائِرَ مَنْ يَأْتِي الدَّنِيَّاتِ مِنْ جِذْمِ

كأنك، يا أبا الصقر، مخلوق من جذم (أصل) من بين هؤلاء الناس، وسائر الذين يقدمون على
الدنيات (أفعال السوء) من أصل مختلف

وكم ذُدْتَ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ وسَوْرَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

كثيراً ما ذدت عني (دَفَعْت عني) تحامل حادث (وطأة مصيبة) وسورة (هجمة) أيام صعبة حزت
لحمي ووصلت إلى العظم

أُحَارِبُ قَوْماً لا أُسَرُّ بَسُوئِهِمْ، ولَكِنَّنِي أَرْمِي مِنَ النَّاسِ مَنْ تَرْمِي

إنني أحارب أناساً لا عداوة بيني وبينهم، ولست أسَرُّ بأن يلحق بهم السوء، وذلك نصرة لك، فأنا
أرمي بأسهمي من ترمي أنت

١٤٨ مشغول بقطع الأرزاق

يمدح أبا الصقر إسماعيل بن بلبل ويهجو أحمد بن صالح بن شيرزاد:

وَصَلْنَ الغَوَانِي حَبْلَهُ وَهْوَ نَاشِئٌ وقَارَضْنَهُ الهِجْرَانَ والشَّيْبُ واخِطُهْ

وصلت الغواني حبله (بادلته الحسان الغزل) وهو ناشئ (شاب)، وقارضنه الهجران (تعاملن معه
بالهجر) والشيب واخطه (والشيب متسلل إلى رأسه)

لَعَمْرُكَ مَا في شِيرَزَادَ ولا ابْنِهِ مَكَانٌ تُدَانِيهِ العُلا أو تُخالِطُهْ

ليس في هذا الرجل ولا في ابنه موضع يقترب منه المجد

يَبِيتُ مُعَنَّى النَّفْسِ، مِنْ لُؤْمِ أَصْلِهِ، بِأَنْ يَقْبِضَ الرِّزْقَ الذي اللَّهُ بَاسِطُهْ

للؤم أصله يبيت شيرزاد معنَّى النفس (مُتْعَباً نفسياً) وهو يفكر كيف يقطع الرزق الذي بسطه الله
لأحد الناس

١٤٩ أتعبت شكري

يمدح إسماعيل بن بلبل:

أتعَبْتَ شُكْرِي، فَأَضْحَى مِنْكَ في نَصَبٍ فاذهَبْ، فَمَا لِيَ في جَدْوَاكَ مِنْ أَرَبِ

جعلتَ شكري في نصب (تعب)، فاذهب فما لي في جدواك (عطائك) أرب (غرض)

لا أَقبَلُ، الدهرَ، نَيْلاً لا يَقومُ بِه شُكْرِي، ولَوْ كانَ مُسْدِيهِ إِلَيَّ أبي

لا أقبل الدهرَ (طول الدهرِ) نيْلاً (عطاءً) لا يقوم به شكري (لا يوازيه شكري)، حتى لو كان مسديه (مقدمه) إلي والدي

١٥٠ عمري شباب وزماني ربيع

قال في وداعه أبا غانم الشاه ابن ميكال عند خروجه إلى البصرة:

رُكْنِي بِآلاءِ أبي غانِم ثَبْتٌ، وكَهْفي في ذَرَاهُ مَنِيعْ

ركني (دعامتي) بسبب آلاء (نِعَم) أبي غانم ركن ثابت، وكهفي (يقصد حمايتي) في ذراه (في كنفه) منيع (حصين)

كم أَدَّتِ الأَيَّامُ لي ذِمَّةً مَحْفُوظَةً في ضِمْنِه مَا تَضِيعْ

كم أدى الزمن إليَّ ذمة (أمانة) كانت محفوظة في كفالته لا ضياع لها

وكم لَبِسْتُ الخَفْضَ في ظِلِّهِ عُمْرِي شَبَابٌ، وزَمَانِي رَبِيعْ

كثيراً ما تمتعت بالخفض (الدعة) في ظله. عمري شباب وزماني ربيع (هذا الشطر الثاني شعر رائق جداً)

١٥١ ابن أصل

يمدح إسماعيل بن بلبل:

لا تُلْحِقَنَّ إلى الإساءَةِ أُختَها شَرُّ الإساءَةِ أنْ تُسيءَ مُعَاوِدَا

وارْفَعْ يَديْكَ إلى السَّماحَةِ مُفْضِلاً إنَّ العُلا في القومِ لِلأعلى يَدَا

مفضلاً (متكرِّماً)

ويَسُرُّني أنْ ليسَ يَكْرُمُ شِيمَةً، مِنْ مَعْشَرٍ، مَنْ ليسَ يَكْرُمُ والِدَا

شيمةً (خُلُقاً)

١٥٢ أشق الأفعال

يمدح بني مخلدٍ وكاتب ابن لَيْثَوَيْهِ:

ثَقُلَتْ وَطْأَةُ الزمانِ على جَا نِبِ وَفْرِي، وأقسَمَتْ لا تَخِفُّ

الوفر (الغنى)

وأَشَقُّ الأفعَالِ أَنْ تَهَبَ الأَنْـ ـفُسُ ما أُغْلِقَتْ عليْهِ الأَكُفُّ

من أصعب الأشياء على النفوس أن تهب (تمنح) مالاً حصل في كيسها

يَفْسُدُ الأمرُ، ثم يَصْلُحُ مِنْ قُرْ بِ؛ ولِلْماءِ كَدْرَةٌ ثم يَصْفُو

من قرب (من أهون سبيل)

١٥٣ استرقاق بالجود

يمدح ابن الفرات:

كُلَّمَا قلتُ: أَعْتَقَ المَدْحُ رِقِّي، رَجَعَتْنِي له أَيَادِيهِ عَبْدا

كلما ظننت أن مدحي له خلصني من عبوديتي لإحسانه رجعتني (أرجعتني) أياديه (أعطياته) عبداً له

١٥٤ اغتنم الفرصة

وقال لصاعدٍ، وقد طالبه بإقطاع:

بينَنا حُرْمَةٌ وعَهْدٌ وثيقُ وعلى بَعضِنا لِبَعْضٍ حُقوقُ

فاغتَنِمْ فرصةَ الزمانِ، فَمَا يَدْ رِي مُطِيقٌ لَها، مَتَى لا يُطِيقُ

لا يدري المطيق للفرصة (الذي يستطيع استغلالها) متى تفلت منه

١٥٥ كل شيء بقدر

لن تَنالَ المَزْوِيَّ عَنْكَ بِتَدْبِيـ ـرِ، ولن تَصْعَدَ السَّمَاءَ بِحِيلَةْ

المزوي عنك (الممنوع عنك)

وإذا ما اعْتَبَرْتَ ظَاهِرَ حالِي كان خَطْباً مِنَ الخُطُوبِ الجَلِيلَةْ

١٥٦ لعنه الله من كار

وقال يستبطئ جماعةً من كتاب الجبل، وكان أنفذ إليهم بغلامه نصرٍ لتنجُز رسومه فأبطأ عليه:

وَصَدَّتْ (رَبِيعَةُ) عَنْ شاعرٍ يُسَمِّي (رَبِيعَةَ) أَخْوَالَهُ

فَلا بُورِكَ الشِّعْرُ مِنْ صَنْعَةٍ ومَنْ قِيلَ فيه، ومَنْ قَالَهُ

١٥٧ الكنيف

يهجو أبا أحمد بن المنجم:

بَلَوْتُ أبا أحمدٍ مَرَّةً فأَلْفَيْتُ منه بَخِيلاً سَخِيفَا

بلوت (جربت)، ألفيت منه (ألفيته)

ولـــولا الــضَّـــرُورَةُ لـــم آتِـــهِ وعـنـدَ الـضَّـرُورَةِ آتـي الـكَـنِـيـفَـا

الكنيف (المرحاض)

١٥٨ النجيب حقاً

يمدح إسحاق بن إسماعيل نوبخت:

وأَرَى الـنَّـجـابَـةَ لا يـكـونُ تـمـامُـهـا لِـنَـجـيـبِ قـوم لـيـسَ بِـابـنِ نَـجـيـبِ

النجابة (الذكاء والنجاح) لا تتم لشخص إلا إذا كان أبوه نجيباً أيضاً

١٥٩ خوش تعزية

يعزي أبا الحسن بن الفرات عن ابنته:

ومِـنْ نِـعَـمِ الـلَّـهِ، لا شَـكَّ فِـيـهِ، بَـقـاءُ الـبَـنِـيـنَ، ومَـوْتُ الـبَـنَـاتِ

لِـقَـوْلِ الـنـبـيِّ عـلـيـهِ الـسَّـلا مُ: دَفْـنُ الـبَـنَـاتِ مِـنَ الـمَـكْـرُمَـاتِ

والحديث يتردد في الكتب ولكنه في رأي الثقات ضعيف، وقال ابن الجوزي إنه موضوع. [انظر مثالاً آخر لتعزية البحتري في الأنثى (القصيدة ٣٦)]

١٦٠ الداهية الأريب

يمدح إسحاق بن إسماعيل بن نوبخت:

أَحْكَمْتَ مَا دَبَّرْتَ بِالتَّبْعِيدِ، والتَّـ ـقْرِيبِ، والتَّصْعِيبِ، والتَّسْهِيلِ

لقد ضبطت أمورك بكثير من الحيلة وباتباع طرق شتى مع أناس شتى

لولا التَّبَايُنُ في الطَّبَائِعِ لم يَقُمْ بُنْيَانُ هـذا الـعَـالَـمِ الـمَـجْـهُـولِ

التباين (الاختلاف) في طبائع الناس هو أساس العالم

١٦١ الخِذلان

وما زالَ خَذْلُ الدهرِ حتى تَوَقَّعَتْ يميني، غَداةَ النَّصْرِ، خَذْلَ شِمَالي

ظل خذل (خذلان، وعدم مساعدة) الزمن يريني عجائبه حتى توقعتْ يدي اليمنى غداة النصر (وقت الحاجة للنُّصْرة) أن تخذلها يدي اليسرى

على أنَّ لـِي سُـلْـطـانَ رَغْـبٍ ورَهْـبَـةٍ أَصُـولُ بـه فـي الـعِـزِّ كـلَّ مَـصَـالِ

لكن لي سلطان ترغيب وترهيب بشعر المدح والهجاء، وأنا أصول وأجول كل مصال (صولان) في ميدان العز بسبب سلطة شعري

١٦٢ صديق الكلب ضاربه

يمدح محمد بن بدر:

الأرضُ أوْسَعُ مِن دَارٍ أُلِطُّ بها، والناسُ أكثَرُ مِن خِلٍّ أُجَاذِبُهُ

الأرض أوسع من دار أُلِط بها (ألتصق بها)، والناس أكثر من مجرد خل أجاذبه (صديق آخذ وأعطي معه)

أُعاتِبُ المرْءَ، فيمَا جاءَ، واحِدَةً ثم السَّلامُ عليهِ، لا أُعَاتِبُهُ

أعاتب المرء فيما جاء (فيما فعل) مرة واحدة، ثم أكف عنه ولا أعود لعتابه

ولو أَخَفْتُ لئيمَ القومِ جَنَّبَني أَذَاتَهُ؛ وصديقُ الكَلْبِ ضارِبُهُ

ولو كنت أخيف اللئيم وأهدده بالهجاء لجنَّبني أذاه، كالكلب الذي يصادق من يضربه

١٦٣ حبذا لو يقف الزمان

يمدح علي بن محمد بن الفياض:

شَطَّ مِنْ ساكِنِ (الغُوَيْرِ) مَزَارُهْ وطَوَتْهُ البِلادُ، فَاللَّهُ جَارُهْ

شط (ابتعد) مزار (مكان) سكان «الغوير» لرحيلهم، وقد طوتهم البلاد فالله الآن جارهم، فقد أصبحوا بعيدين ولم يعودوا جيراني

كُلَّ يَوْمٍ عَنْ (ذي الأَرَاكِ) خَلِيطٌ يَلْتَوِي وَصْلُهُ، وتَعْفُو دِيَارُهْ

في كل يوم يرحل عن وادي «ذي الأراك» خليط (قوم) فيلتوي وصلهم (يتعذر اللقاء بهم)، وتعفو ديارهم (تمَّحي آثار مخيماتهم)

يَبْتَغي المَرْءُ وَقْفَةَ العَيْشِ، والعَيْـ ـشُ سِجَالٌ كَثِيرَةٌ أَطْوارُهْ

يتمنى المرء أن يقف الزمن وَقفةً لينعم بلذة اللحظة الهانئة، ولكن العيش سجال (متقلب) كثير الأطوار

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ اللَّئيمِ إذا لِيـ ـمَ عَلى فَرْطِ بُخْلِهِ، ما اعتِذَارُهْ؟

ليم (تلقَّى اللوم). بيت وجدناه رائقاً في القصيدة وسط حشف كثير فألصقناه في ذيل القطعة

١٦٤ كل ممنوع..

ليس يَحْلُو وُجُودُكَ الشَّيْءَ تَبْغِيـ ـهِ التِمَاساً، حتَّى يَعِزَّ طِلابُهْ

ليس حلواً وجودك الشيء (عثورك عليه) الذي تريده وتلتمسه (تطلبه) إلا إذا عز طلابه (صعب مناله)

١٦٥ كلفتمونا حدود منطقكم

وقال يهجو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (وهو من كبراء الدولة، وكان شاعراً، وقد هجا البحتري، فرد عليه البحتري بهذه القصيدة. وبحسب شرح طويل في ذيل تحقيق الصيرفي للديوان فإن ابن الرومي والأمير تعاونا في هجاء البحتري). وفي القصيدة أدناه ينال البحتري من ابن الرومي وتطويله في الشعر دون أن يسمِّيه:

لا الدَّهْرُ مُسْتَنْفَدٌ، ولا عَجَبُهْ تَسُومُنَا الخَسْفَ كُلَّهُ نُوَبُهْ

الدهر ليس مستنفَداً (منتهياً) وكذلك أعاجيبه، وتسومنا ألوانَ الخسف (ترغمنا على الذل) نوب الدهر (مصائبه)

نالَ الرضا مادِحٌ ومُمتَدَحٌ فقُلْ لهذا الأميرِ ما غَضَبُهْ؟

المادح والممدوح راضيان، فعلام غضب هذا الأمير؟

ونحنُ مَنْ لا تُطالُ هَضْبَتُهُ وإنْ أَنافَتْ بِفاخِرٍ رُتَبُهْ

نحن من لا تطال هضبته (لا أحد يبلغ شرفنا)، مهما أنافت (ارتفعت) بالفاخر (الذي يفخر علينا) رتبه

لو أَعْرَبَ النَّجمُ عن مَناقِبِهِ لم يَتَجاوَزْ أَحسابَنا حَسَبُهْ

لو أن النجم نفسه كشف مناقبه (محاسنه)، لما تجاوز حَسَبُه (مجده) أحسابنا

لولا غَرامي بالعفوِ قد لَقِيَ الظَّـ ـالِمُ شرّاً، وساءَ مُنْقَلَبُهْ

لولا حبي للعفو للقي الظالم جزاء ظلمه، وساء منقلبه (عوقب نتيجة فعله)

وخِيرَتي عَقْلُ صاحِبي، فَمَتَى سُقْتُ القَوافي فَخِيرَتي أَدَبُهْ

خيرتي (ما يهمني فأختارُه) عقل صاحبي، ولكنني إذا قلت شعراً فالذي يهمني ما عنده من فهم للأدب

كَلَّفْتُمُونا حُدودَ منطِقِكُمْ والشعرُ يُغني عنْ صِدْقِهِ كَذِبُهْ

أيها النقاد والمتحذلقون بشأن معاني الشعر قد كلفتمونا حدود (تعريفات) المنطق؛ والشعر يغني فيه الكذب عن الصدق (فيه خيال ووهم كثير)

ولم يَكُنْ ذُو القُرُوحِ يَلْهَجُ بالـ ـمنطقِ: ما نوعُهُ وما سببُهْ؟

ولم يكن ذو القروح (لقب امرئ القيس) يلهج (يتكلم) بالمنطق والفلسفة، والأسباب والنتائج

والشِّعْرُ لَمْحٌ تَكفي إشارَتُهُ وليسَ بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

الشعر لمح تكفي إشارته (تلميح بالمعنى وليس استقصاء منطقياً)، وليس بالهذر (اللغو) المطول. ولو فتحت ديوان ابن الرومي ـ وهو المعرَّضُ به في هذه القصيدة ـ لوجدت قصائده تطول حتى تبلغ المئتي بيت والثلاثمئة

وَاللَّفْظُ حَلْيُ المعنَى، وليس يُرِيـ ـكَ الصُّـفْـرُ حُسْـناً يُـرِيـكَـهُ ذَهَـبُـهْ

اللفظ حلية للمعنى. وليس يريك الصفر (نوع من النحاس) ذلك الجمال الذي يريك إياه الذهب. بيت ملتوي المعنى حصيلته: أن اللفظ والمعنى كليهما مهم، فالذهب فيه خواص دفينة، وعليه رونق ظاهري ليسا كلاهما في النحاس

١٦٦ المدح المجاني

يمدح علي بن محمد بن الحسين بن الفياض كاتب ابن كنداج:

أَبَـعْـدَمَـا أَعْـلَـقَ الأَقْـوَامُ مِيسَـمَـهُـمْ بِصَفْحَتِي، وقَتَلْتُ الأَرْضَ عِرْفَانا؟

هل بعد أن وضع كل قوم على وجهي ميسمهم (حديدتهم المحماة بالنار علامة الملكية)، وبعد أن قتلت الأرض معرفة بها..

يَرْجُو البَخِيلُ اغْتِرَارِي، أو مُخَادَعَتِي، حتى أَسُوقَ إِلَيْه الـمَـدْحَ مَجَّـانـا؟

.. أبعد ذلك يرجو البخيل اغتراري (خداعي) لكي أمدحه مجاناً؟ نعم، قد مدح البحتري بائعي البصل والباذنجان وهو صغير، ومدح صغار القواد، ونال العطايا بالدراهم القليلة، وتدرج إلى أن مدح سبعة خلفاء ضمن العشرات الذين مدحهم، فهذا التاجر الماهر في سوق المدح لم يعد يغتر بالبخلاء

١٦٧ اللياذ بالله

يمدح ابن الفياض:

كُـلُّ مَـاضٍ أَنْـسَـاهُ، غَـيْـرَ لَـيَـالٍ مَـاضِـيَـاتٍ لَـنَـا (بِـبَـارَى) و(بِـنَّـا)

مُـغْـرَمٌ بِـالـمُـدَامِ، أُتْـرِعُ كَـأْسـاً سَـاطِـعَـاً ضَـوْءُهـا، وأُنْـزِفُ دَنَّـا

أُترع (أَمْلأُ)، أُنزِف دناً (أُفرغ دناً/ والدن خابية الخمر الكبيرة)

حَيْثُ لا أَرْهَبُ الزمانَ، ولا أُلْـ ـقِي إلى الـعَـاذِلِ الـمُـكَـثِّـرِ أُذْنـا

يَـزْعَـمُ الـبِـرَّ فـي الـتَّـشَـدُّدِ، والأَسْـ ـمَـحُ أَحْـجَـى لأَنْ يُـبَـرَّ ويُـدْنَـى

العاذل يزعم أنه مخلص في تشدده باللوم، ولكن الشخص السمح أحجى (أجدر) أن يبر (يُحْسَن إليه) وبأن يكون صديقاً مقرباً

لَـم تَـلُـمْـنِـي أَنِّـي سَـمَـحْـتُ، ولَـكِـنْ، لُـمْـتَ أَنِّـي أَحْـسَـنْـتُ بِـالـلَّـهِ ظَـنَّـا

فيا أيها المتشدد! أنت لا تلومني لسماحتي وتساهلي في شرب الخمر، ولكنك تلومني لأنني أحسن الظن بالله وغفرانه. وهكذا الشاربون الساكرون، يزعمون أن الله لا شغل له إلا أن يغفر لهم، والمتشددون المتوعدون يزعمون أن الله لا شغل له إلا عد الكؤوس على شاربيها

١٦٨ ماوية وكثيبها

يمدح عبدون بن مَخْلَد:

خَـيَـالُ مَـاوِيَّـةَ الـمُـطِـيـفُ   أَرَّقَ عَـيْـنـاً لَـهَـا وَكِـيـفُ

وَكِيف (هطول دمع)

أَكْـثَـرَ لَـوْمِـي عـلـى هَـواهـا   رَكْـبٌ عـلـى دِمْـنَـةٍ وُقُـوفُ

لامني على حبها الركب (الراكبون إبلهم) الذين وقفوا معي لتحية الدمنة (الخربة)

يَـرْتَـجُّ مِـنْ خَـلْـفِـهـا كَـثِـيـبٌ   يَـعْـيَـا بـه خَـصْـرُهـا الـضَّـعِـيـفُ

ماوية هذه يرتج من خلفها كثيب (مؤخرة شبيهة في كبرها بكثيب الرمل)، وهذا الكثيب يعيا به (يتعَب بسببه) خصرها الضعيف

واهْـتَـزَّ فـي بُـرْدِهـا قَـضِـيـبٌ   مُـعْـتَـدِلٌ قَـدُّهُ قَـضِـيـفُ

واهتز داخل بردها (ثوبها) قوامُها الشبيه بالقضيب (الغصن) المعتدل القضيف (النحيل)

أَصْـبـحَ فـي الـحـارِثِ بـنِ كَـعْـبٍ   طَـوْدٌ عَـلـى مَـذْحِـجٍ مُـنِـيـفُ

أصبح في (ممتلأً بـ) الحارث طودٌ (جبل) منيف (مشرف) على قبيلة مذحج

تُـرْجَـى الـرَّغِـيـبـاتُ فـي ذَرَاهُ   ويُـؤْمَـنُ الـحـادثُ الـمَـخُـوفُ

الرغيبات (العطايا)، ذراه (كنفه)

لـلـهِ عَـبْـدُونُ! أيُّ فَـذٍّ!   تَـخِـفُّ عَـنْ وَزْنِـهِ الأُلُـوفُ

فذ (متفرد) يوزن بألوف الناس

تَـرَى أَجِـلَّاءَ كُـلِّ قـومٍ   وَهُـمْ عـلـى رِفْـدِهِ عُـكُـوفُ

على رفده عكوف (عاكفون على عطائه)

١٦٩ الإيوان: الزيارة الصغرى

يمدح عبدون بن مخلد:

لا جـديـدُ الـصِّـبـا، ولا رَيْـعَـانُـهْ   رَاجِـعٌ، بَـعْـدَمَـا تَـقَـضَّـى زَمَـانُـهْ

ريعانه (أوَّله)

يَـذْهَـبُ الـبَـرْقُ حَـيْـثُ شَـاءَ بِـلُـبِّـي   إِنْ بَـدا الـبَـرقُ، أو بَـدا لـمَـعَـانُـهْ

والبرق يذكِّر العاشق بحبيبته التي رحلت في أيام البرق والرعد لأن قومها بدو رُحَّل يلحقون المطر

وإذا صَـحَّـتِ الـرَّوِيَّـةُ يَـوْمـاً فَـسَـواءٌ: ظَـنُّ امْـرِئٍ، وعِـيَـانُـهْ

إذا صحت الروية (التدبر) تساوى ظن المرء وعيانه (تقديره للأمور يصبح دقيقاً كأنه يراها عياناً)

إنْ تَغَطَّى عَنْكَ الأَصَادِقُ، تُبْدِي شِـدَّةُ الـدهـرِ، عَـنْـهُـمُ، ولِـيَـانُـهْ

إذا تغطى عنك الصادقون ولم تعد تميز بين الناس،
فالذي يبرزهم تقلب الزمن بين شدة وليان (لين)

يُعْرَفُ السَّيْفُ بِالضَّرِيبَةِ يَلْقَا ها، ويُنْبِي عَنِ الصَّدِيقِ امْتِحَانُهْ

السيف تُعرف جودته بالضريبة (المضروبة/العنق مثلاً)
وينبي (يخبر) عن حقيقة الصديق امتحانه في الأزمات

وإذا مَـا أَرَابَ دَهْـرٌ، فَـمِـنْ أَعْـ ـدَاءِ شَـاجٍ بِـرَيْـبِـهِ إِخْـوانُـهْ

إذا ما أراب (أصاب) الدهرُ أحداً أصبح من أعداء هذا الشاجي (الحزين) إخوانُه (أصحابه)

فَـالْـهُ عَـنْ نَـبْـوَةِ الأَخِـلَّاءِ، إذْ كـا نَ عَـتِـيـداً فـي كُـلِّ عُـودٍ دُخَـانُـهْ

فاله (فعليك أن تلهو وتنسى) عن نبوة الأخلاء (انحراف الأصدقاء)، ولا تفكر في ذلك فعتيد (موجود) في كل عود دخانه. نظرية القدماء أن الدخان الذي سيتصاعد من العود عند حرقه موجود في داخله كامن ينتظر الفرصة للظهور

حَفِظَ اللَّهُ، حَيْثُ أَصْبَحَ عبدُ الـ ـلَّـهِ، أَوْ حَـيْـثُ أَصـبـحَـتْ أَوْطَـانُـهْ

ليحفظه الله أينما حل. يبدو أن عبد الله هذا سافر قبل قدوم البحتري عليه بقليل فلم يتمكن من لقائه (ولك في عبد الله النصب والرفع على اعتبارين متقاربين)

غِبْتُ عنهُ، فَغَابَ عَنِّي سُرُورِي إِنَّـمَـا يَـجْـمَـعُ الـسُّـرورَ مَـعَـانُـهْ

معانه (منبعه)

نِـيَّـةٌ عُـقِّـبَـتْ بِـحِـرْمَـانِ حَـظٍّ، رُبَّ نَـاءٍ يـنْـأَى بِـهِ حِـرْمَـانُـهْ

نويت مقابلته وحرمت منها، والنائي (البعيد) إنما ابتعد به حرمانه المقدور

سَعِدَ الشَّاهِدُ المُقِيمُ، وَمِنْ أَسْـ ـعَـدِ قَـوْمٍ بِـوَابِـلٍ جِـيـرانُـهْ

الشاهد الذي حضر يسعد بالعطية، كالقوم الذين يكون وابل المطر قريباً منهم فيستفيدون منه

زَوْرَةٌ قُـيِّـضَـتْ لِإِيـوَانِ كِـسْـرَى لـم يُـرِدْهـا كِـسْـرَى، ولا إِيـوَانُـهْ

قيضت (تهيَّأت). لعل موقع هذه القصيدة بعد قصيدته السينية في إيوان كسرى (رقم ١٨٥). أم هي زيارة أولى للإيوان؟

١٧٠ الخضاب بالمقراض

يمدح علي بن محمد بن الحسين بن الفياض كاتب ابن كنداج:

لـيـس يـرضَـى عَـنِ الـزمـانِ مُـرَوٍّ　　فـيـه، إلّا عَـنْ غَـفْـلَـةٍ أو تَـغَـاضِ

مروٍّ (متأمل)

والـبَـوَاقـي عـلـى الـلَّـيـالـي ـ وإنْ خَـا　　لَـفْـنَ شَـيئاً ـ فَـمُـشْـبِـهـاتُ الـمَـوَاضـي

الأوقات المقبلة ـ وإن اختلفت قليلاً ـ فهي تشبه ما مضى

وإذا ما امـتَـعَـضْـتُ مِـنْ وَلَـعِ الـشَّـيْـ　　ـبِ بِـرأسـي لـم يَـثْـنِ مـنهُ امـتِـعـاضـي

شَـعَـرَاتٌ أَقُـصُّـهُـنَّ، ويَـرْجِـعْـ　　ـنَ رُجُـوعَ الـسِّـهَـامِ فـي الأَغْـرَاضِ

أقص الشعرات البيض ويرجعن للطلوع، كأنهن سهام في الأغراض (الأهداف). للبيت ثلاثة تفسيرات عند المرتضَى كما نقل الصيرفي. وأختارُ تفسيراً منها: الغرض هو الهدف المنصوب للتدرب على الرماية، وهو ـ كما في حانات بلاد الإنجليز ـ مصنوع من الفلين أو ما أشبهه، ويرمي الرامون سهامهم، ثم ينزعونها ثم يرمونها، وتظل تقع على هذا الهدف غير مقلعة عنه

وأَبَـتْ تَـرْكِـيَ الـغُـدَيَّـاتُ والآ　　صَـالُ حتَّـى خَـضَـبْـتُ بِـالـمِـقْـرَاضِ

لم يتركني كر الزمن غُديَّاتٍ وآصالاً (صباحات ومساءات) وبقيت حياً، وصرت أخضب شعري بالمقراض (بالملقط). أي أنه بدل أن يصبغ شعره صار ينزع الشعرات البيض بالملقط. وقولته (حتى خضبت بالمقراض) فيها خيال وصنعة. ونقل عن البحتري قوله: «مكثت في (خضبت بالمقراض) أربعين سنة حتى أتممتها»

١٧١ الدنيا وأحوالها

يمدح صاعد بن مَخْلد:

يُفَاوِتُ مِنْ تَأليفِ شِعْبِي وشِعْبِها　　تَـنَـاهِـي شـبـابـي، وابـتـداءُ شـبـابِـهـا

المعنى الذي ألمحه: يباعد شعبي (طريقي)

من طريقها أن شبابي وصل إلى نهايته بينما شبابها في أوله

مَتى تَسْتَزِدْ فَضلاً مِنَ العُمْرِ تَغْتَرِفْ　　بِسَجْلَيْكَ مِنْ شَهْدِ الخطوبِ وصابِها

إذا نِلتَ فضلاً (زيادة) من العمر فسوف تغترف بسجليك (بِدَلْوَيْك) من شهد الأحداث ومن صابها (مُرِّها)

يُـسَـرُّ بَـعُـمْـرانِ الـدِّيـارِ مُـضَـلَّـلٌ　　وعُـمْـرانُـهـا مُـسْـتَـأْنَـفٌ مِـنْ خـرابِـهـا

الذي يسره كون الديار عامرة مضلل (مخطئ)،

فالعمران مستأنف بعد خراب سابق، وبالطبع سيتبعه خراب

ولـم أَرْتَـضِ الـدنـيـا أَوانَ مـجـيـئِـهـا ... فَـكـيـفَ ارتِـضَـائِـيـهَـا أوانَ ذهـابِـهـا؟

لم أرتض (لم أرْضَ) الدنيا أوان مجيئها (عندما كنت شاباً) فكيف ارتضائي إياها وهي ذاهبة؟

١٧٢ البضاعة وصلت

قال لبعض ولد يزيد بن المهلب:

ولا مَجْدَ إلَّا حِينَ تُحْسِنُ عَائِداً، ... وكُلُّ فَتَىً في النَّاسِ يُحْسِنُ بَادِيَا

المجد الحقيقي أن تكرر الإحسان، فكل إنسان يبدأ بالإحسان مرة،
المهم ألا يندم عليها وأن يكررها

ومَا لَكَ عُـذْرٌ في تَـأَخُّرِ حَاجَتِي ... لَدَيْكَ، وقد أَرْسَلْتُ فِيها القَوَافِيا

ليس لك عذر الآن بعد أن مدحتك. يجب تسديد الحساب

١٧٣ ارتقاب المكروه

أَجِدَّكَ! مَا المَكْرُوهُ إلَّا ارتِقَابُهُ، ... وأَبْـرَحُ مِـمَّـا حَـلَّ مَـا يُـتَـوَقَّـعُ

واللَّهِ إن المكروه الحقيقي هو توقعه، وأبرح (أسوأ) مما حل حقاً ما يتوقع المرء حلوله. قال أحمد شوقي: (قد قال من علّمه اختبارُهْ/ السعيُ للموت ولا انتظارُهْ)

١٧٤ القبول بالحد الأدنى

يعاتب العلاء بن صاعد:

شَرْطِيَ الإنصافُ لو قيلَ: اشْتَرِطْ ... وعَـدُوِّي مَـنْ إذا قـالَ قَـسَـطْ

شرطي الإنصاف فقط ولا أريد زيادة، وعدوي من يقول قولاً ثم يقسط (يظلم)

أَدَعُ الـفَـضْـلَ فـلا أَطْـلُـبُـهُ ... حَسْبِيَ العَدْلُ مِنَ النَّاسِ فقطْ

أنا أترك طلب الفضل (الزيادة فوق الحق) وأريد فقط العدل

وَسَطُ الإخْوَانِ لا يَدْخُلُ لِي ... في حِسَابٍ، وأَخُو الدُّونِ الوَسَطْ

الوسط من الصحاب لا يدخل في حسابي، فالوسط هو أخو الدون (مثل المنحط)

والـمُـعَـنَّـى مَـنْ تَـمَـنَّـى خَـالِـياً ... نَـقْـلَ أَخْـلاقِـيَ مِـنْ بَـعْـدِ الـشَّـمَـطْ

المعنّى (المتعَب) هو الذي يتمنى خالياً (بينه وبين نفسه) نقل أخلاقي (أن أغير طباعي) بعد الشمط (اختلاط بياض الشعر بسواده)

١٧٥ الحازم بالبديهة

إذا المَرْءُ لم تَبْدَهْكَ بِالحَزْمِ والحِجَا قَريحَتُهُ، لم تُغْنِ عنكَ تَجارِبُهْ

إذا المرء لم تبدهك (تطالعك فوراً) قريحته (بديهته) بالحزم والحجا (العقل) ـ أي أنه كان حازماً وعاقلاً على البديهة وبطبعه ـ فلا تغني عنه كثرة تجاربه

١٧٦ قسمة المدح والذم

يمدح عبدون بن مَخْلَدٍ، ويعتذر إليه:

حَارَبَتْنِي الأَيَّامُ، حتَّى لقد أَصْـ ـبَحَ حَرْبِي مَنْ كُنْتُ أَعْتَدُّ سِلْمِي

حربي (عدوي)، سلمي (مسالماً لي)

غَيرَ أَنِّي أُدَافِعُ الدهرَ عنِّي باحْتِقاري لِصَرْفِه المُسْتَذَمِّ

أدافع الدهر عني (أصد الزمن عني) باحتقاري لصرفه المستذم (لأحداثه المذمومة)

وحَديثي نَفْسِي بِأَنْ سَوْفَ أُكْفَى حَيْفَ قَاضِيَّ، واسْتِطَالةَ خَصْمي

وأصد الزمن بحديثي نفسي (بأن أقول لنفسي) أنني سوف أُكفَى حيْف قاضيَّ (سوف أجد ما يحميني من ظلم القاضي الذي يفصل بيني وبين خصمي)، واستطالة (استقواء) خصمي

إنْ أَخَسَّتْ تِلْكَ الحَقَائِقُ حَظِّي، أَجْزَلَتْ هذهِ الأَمَانِيُّ قِسْمِي

إن أخست (قللت) الحقائق الواقعة حظي، فإن أمنياتي قد أجزلت (كثَّرت) قسمي (نصيبي)

وإذا مَا أَبَى الحبيبُ مُؤَاتَا تِي تَبَلَّغْتُ بِالخَيالِ المُلِمِّ

إذا رفض الحبيب مؤاتاتي (مطاوعتي) تبلغت (تصبرت بالقليل)،
والقليل هو خيال المحبوب الذي يزورني ليلاً

مِنْ عَطاءِ الإلَهِ بَلَّغْتُ نَفْسِي صَوْنَها، ثم مِنْ عَطاءِ ابْنِ عَمِّي

مما أعطاني الله وصلت بنفسي إلى صونها (حفظها)، وكذلك من عطاء ابن عمي (يقصد الممدوح)

كُلَّما قُلْتُ: أَيْبَسَ المَحْلُ أَرْضِي، وَلِيَتْنِي غَمَامَةٌ مِنْهُ تَهْمِي

كلما ظننت أن المحل (القحط) سيجعل أرضي يابسة، وليتني (لحقتني) غمامة منه تهمي (تهطل)

فَلَهُ مِنْ مَدائِحي حُكْمُهُ الأَوْ فَى، وَلي مِنْ نَوَالِهِ الغَمْرِ حُكْمي

له من قصائد المدح حكمه الأوفى (بقدر ما يريد)، ولي من نواله الغمر (عطائه الكثير) ما أشاء

بِأَبي أنتَ عَاتِباً، وقَلِيلٌ لَكَ مِنِّي أَبِي، فِدَاءً، وأُمِّي

بأبي أنت (أفديك بأبي) أيها العاتب علي، وقليل لك أن أفديك بأبي وبأمي أيضاً

لُمْتَنِي أَنْ رَمَيْتُ في غَيرِ مَرْمَىً؛ وعَزِيزٌ عَلَيَّ تَضْيِيعُ سَهْمِي

لمتني لأنني رميت بلا هدف (أي مدحت غيرك)؛ وفعلاً، عزيز علي تضييع سهمي سدى

إنْ أَكُنْ حُبْتُ في سُؤَالِ بَخِيلٍ، فَبِكُرْهِي ذَاكَ السُّؤَالُ ورُغْمِي

إن كنت حبت (ظلمت نفسي) إذ سألت بخيلاً عطاءً، فإن ذلك كان بكرهي ورغمي (رغماً عني)

والذي حَطَّنِي إلى أَنْ بَلَغْتُ الـ ـمَاءَ، مَا كانَ مِنْ تَرَفُّعِ هَمِّي

الذي حطني (أنزلني) حتى بلغت الماء واستطعت أن أشرب هو ترفع همي (علو طموحي)، فالطموح الكبير جعلني فقيراً ومحتاجاً إلى النزول لكي أنال ما أبل به رمقي

ثم حَالَتْ حَالٌ، تُكَلِّفُنِي قِسْـ ـمَةَ حَمْدِي، بينَ الرِّجَالِ، وذَمِّي

ثم تغيرت الأحوال فصرت أقسم مدحي وذمي بين الرجال، أمدح بعضهم وأهجو بعضهم

فَعَلامَ التَّثْرِيبُ واللَّوْمُ، إذْ عِلْـ ـمُكَ فِيما أَقولُه مِثْلُ عِلْمِي؟

فعلام (على ماذا) التريب (اللوم) وأنت تعلم الحال مثلما أعلمها أنا

وكَأَنَّ الإعْرَاضَ عَنِّي قَضَاءٌ فَاصِلٌ عَنْ أَلِيَّةٍ مِنْكَ حَتْمِ

كأن إعراضك عني جاء بقضاء وقدر فاصل (صادر) عن ألية (قَسَم) منك محتوم

حينَ لا مَلْجَأُ سِوَاكَ أُرَجِّيـ ـهِ تَجَهَّمْتَنِي، ولَسْتَ بِجَهْمِ

حينما لم يعد لي ملجأ سواك أرجوه تجهمتني (كشرت في وجهي)، مع أنك لست كَشِراً

وإذا مَا سَخِطْتَ والمُخُّ رَارٌ، رَقَّ عَنْ أَنْ يُطِيقَ سُخْطَكَ عَظْمِي

وإذا ما سخطتَ وغضبت والمخ رار (حشو العظم جاف ذاهب/كناية عن المحل والهزال جوعاً) فعندئذ سيكون عظمي أرق من أن يحتمل سخطك

١٧٧ زيارة قصيرة

يمدح أحمد بن علي الإسكافي:

دَعِ المَطِيَّ مُنَاخَاتٍ بِأَرْحُلِها لم يُنْضَ عَنْهُنَّ تَصْدِيرٌ ولا حَقَبُ

اترك المطي (الإبل) مناخات (بارِكات) بأرحلها (بمتاعها من كسوة وحبال)، لم يُنْضَ عنهن (لم يُخلَع عن الإبل) تصدير (حبل يشد إلى صدر البعير) ولا حقب (حبلُ مؤخرة البعير)

فَمَا تزيدُ على إلْمامَةٍ خُلُسٍ بِأَحمدَ بنِ عليٍّ، ثم تَنْقَلِبُ

فأنت لن تزيد عن إلمامة خلس (زيارة خاطفة)، ثم تنقلب (ترجع) بعدها

قَضَاءَ حقٍّ، ومَا نَقضِي بِطَاقتِنا مِنْ ذلكَ الحقِّ، إلَّا بعضَ مَا يَجِبُ

نقضي الحق (الواجب)، ولسنا نقضي إلا بعض الواجب. . بحسب طاقتنا

١٧٨ اجعلها ألفاً

يعاتب بعض إخوانه ويستبطئه:

دَاعَبَنِي بالمَطْلِ مُسْتَأْنِياً وَعَدَّهُ مِنْ فِعْلِهِ ظَرْفَا

داعبني بالمطل (المماطلة) مستأنياً (طالباً مني التمهل)، وهو يعد ذلك ظرفاً منه. مثل الذي تطلب منه حاجة فيمازحك ويقول لك: خلها للغد، ويضحك ويمرح لأنه يملك تنفيذها ولكنه يداعبك ويتظارف عليك. ستجد أمثال هؤلاء الناس في كل مكان، وهم في الطبقة الوسطى بين اللئام والكرام، والحر يراهم أثقل على صدره من اللئام

قد كُنْتَ مِنْ أبعَدِهِمْ هِمَّةً عندي، ومِنْ أَجْوَدِهِمْ كَفَّا

كنت أعتبرك أكبر الناس همة (قدراً) وأجودهم

المئةُ الدِّينارُ مَنْسِيَّةٌ في عِدَةٍ أَشْبَعْتَها خُلْفَا

المئة الدينار منسية، وهذا وعد أشبعته إخلافاً

إنْ كنتَ لا تَنْوِي نَجَاحاً لها فكيف لا تَجْعَلُها أَلْفا؟

إن كنت لا تنوي نجاحاً (تحقيقاً) للمئة الدينار، فليكن وعدك لي بألف دينار

هَلْ لَكَ في الصُّلْحِ، فَأُعْفِيكَ مِنْ نِصْفٍ وتَسْتَأْنِفَ لي نِصْفَا؟

هل لك في حل بيننا؟ ادفع لي نصف المئة فقط وأنا راضٍ. لمن يسأل عن نصب (وتستأنفَ): على العطف على محل (فأعفيكَ)، التي وجب انتصابها بفاء السببية، ولكن أبا عبادة أعفاها من الفتحة ضرورة. وعدم تحلية المضارع اليائي أو الواوي بفتحة عندما يكون في محل نصب شنشنة وجدناها عند أبي تمام والمتنبي والبحتري وعند أحمد شوقي في مواضع قليلة. وهي ليست نادرة في شعر الأقدمين. أما عند المعاصرين فحدث ولا حرج. انظر في مختاراتنا هذه بيت السينية ففيه واو يبدو غير ذات فتحة (يتظنى من الكآبة أن يبـ/ـدوُ لعيني مصبح أو ممسي) (القصيدة ١٨٥)

أو تَتْرُكَ الوُدَّ على حالِهِ وتَسْتَوِي أقدَامُنا صَفَّا

أو حل آخر: نبقي الود على حاله بيننا، ولكننا نصبح نِدَّيْن متساويين، فلا أحد متفضل على الآخر. ولمن يفكر في إدانتنا لأننا نختار مثل هذا الشعر الذي فيه مقايضة ومتاجرة بالشعر نقول: ويحك، هذه المعاتبات والمتاجرات أثمن من قصائد المدح الفخيمة العظيمة. ههنا تبرز النفوس، وههنا نرى طمع الشاعر وضيقه، وحرصه على نصف كرامته، فهو قد فقد نصفها على باب الممدوح، ويحاول أن يقبض ثمن النصف الباقي. هذه عواطف ومخاوف ومطامع ومواجع بشرية. وما الشعر إن لم يكُنْها؟

١٧٩ القوافي قوارير الأمجاد

يمدح محمد بن العباس الكلابي:

عَجِبْتُ لِحَيْرَتي وضَلالِ رَأْيِي؛ وكُنْتُ أُرادُ لِلرَّأْيِ الرَّشِيدِ

عجبت لضلالي، وكنت في الماضي أُطلَب لكي أزود الناس بالرأي السديد

ومِنْ قَصْدي لِرَأْسِ العينِ أَسْعَى إلى حَظِرٍ بِعَقْوَتِها زَهِيدِ

وعجبت من ذهابي لبلدة «رأس العين» ساعياً للحظِر (شجر شائك) بعقوتها (بساحتها) زهيد (قليل النفع). ورأس العين قرية في الطريق بين منبج والموصل، وهي الآن في شمال سوريا على الحدود مع تركيا

وبعضُ السَّعْيِ لِلمُرتَادِ حَيْنٌ وبَعْضُ الصُّنْعِ في بَعضِ القُعُودِ

بعض السعي يكون من الحين (الموت)، وبعض الصنع (الرشاد) يكون في المكوث في المكان

غُلِبْتُ على الصَّوَابِ، وصَفَّدَتْني ضَرُوراتُ المطامِعِ والجُدُودِ

صفدتني (قيدتني)، الجدود (الحظوظ)

وما تَرْكي لِمَنْبِجَ واختِياري لِرَأْسِ العَيْنِ فِعْلٌ مِنْ مُرِيدِ

لم يكن تركي لمنبج وذهابي لرأس العين بإرادتي

ومَا الخَابُورُ لي بَدَلاً رَضِيّاً مِنَ السَّاجُورِ، لو فُكَّتْ قُيودِي

الخابور (نهر يمر برأس العين)، الساجور (نهر بمنبج)

أَلا إِنَّ ابنَ عَبَّاسٍ حَبَانِي بِنُعْمى أَظْهَرَتْ بُؤْسَى حَسُودِي

الممدوح ابن عباس حباني (منحني) بنعمى أبرزت بؤسى (حزن) حسودي

مَنَاقِبُ لا يَزالُ الشِّعْرُ فيها طَوالَ الدَّهْرِ في شُغْلٍ جَديدِ

له مناقب (مزايا) يظل الشعر مشتغلاً في وصفها طول الزمن

وأَلْفَيْتُ القَوَافِيَ كالأَوَاخي ضَمِنَّ غَوابِرَ الشَّرَفِ التَّليدِ

وقد وجدتُ القوافي (القصائد) كالأواخي (الذمم) تضمن بقاء غوابر الشرف (ما سلف من مجد) التليد (الموروث) وتجعله يستمر مذكوراً

تُضَيَّعُ في الحَدِيثِ على أناسٍ إذا قَدُمَتْ، وتُحْفَظُ في النَّشِيدِ

غوابر الشرف هذه تتلاشى في الحديث (في الكلام المنثور) بالتقادم ويفقدها الورثة، ولكن النشيد (الشعر) يحفظها

وَلَمْ يَدَّخِرْ لأُسْرَتِهِ كَرِيمٌ   عَتاداً مِثْلَ قافِيَةٍ شَرُودِ

لم يدَّخِر الكريم لأسرته من عتاد مثل قافية شرود (قصيدة سائرة ومشتهرة)

أبا مُوسى! ومَا بِكَ مِنْ نُبُوٍّ   عَنِ الحقِّ المُلِمِّ، ولا جُمُودِ

يا أبا موسى! وليس بك نبو (ابتعاد) عن الحق الملم (الذي جاء وقت إحقاقه) ولا جمود (إهمال)

فأيْنَ بِحَاجَتي عَنْ وَشْكِ نُجْحٍ   وقد أَوْشَكْتَ حاجَاتِ الوُفُودِ؟

فأين وشك النجح (سرعة التنفيذ) عن حاجتي؟، وأنت قد أوشكتَ (سارعت بتلبية) حاجات الوفود (الوافدين عليك)

يُدَافِعُ (مُسْلِمٌ) عَنْها، ويَكْني   عَنِ الإِقْرَارِ فيها، بِالجُحُودِ

ووكيلك «مسلم» يصدني عن نيل حاجتي، ويكني (يلمح تلميحاً) عن الإقرار فيها (بدلاً من الإقرار بشأنها) بالجحود (بنكرانها). فالوكيل يلمح بالنكران تلميحاً

يُحِيلُ على سَعِيدٍ؛ واعْتِمَادِي   على مِئَتَيْكَ لا مِئَتَيْ سَعِيدِ

وهو يحيلني على أخيك سعيد، وأنا معتمد على مئتي الدينار التي وعدتني بها أنت لا التي وعدني بها سعيد

١٨٠ عافى الله من عافى

يمدح أبا جعفر الطائي:

تَصْدُقُنا المَنْعَ سُعْدَى حينَ نَسْأَلُها   نَيْلاً، وتَكْذِبُنا بَذلاً وإِسْعَافا

حيت تمنعنا من الوصل تكون سعدى صادقة، وحين تتكلم عن البذل والإسعاف تكذب

قَضَى لنا اللَّهُ بَلْوَى في نَواظِرِها   تَقْضِي علَيْنا، وعَافَى اللَّهُ مَنْ عَافى

قضى علينا الله أن نُبتلى ببلوى تقضي علينا، والبلوى موجودة في عينيها الجميلتين. وعافى الله بعض الناس ممن لم يلاقوها، أو لم يقعوا في أسرها

١٨١ الطريق الطريق

يمازح علي بن جبير التميمي من أهل رأس العين:

زائرٌ زَارَنِي، لِيَسْأَلَ عن حَا   لِي، كَما يَسْأَلُ الصَّدِيقُ الصَّديقا

كيف حَالِي، وقد غَدا ابْنُ جُبَيْرٍ   لِيَ، دُونَ الجِيرانِ، جَاراً لَصِيقا؟

غادِياً رائِحاً عَلَيَّ، فَمَا يَتْـ   ـرُكُني أَنْ أُرِيحَ، أَوْ أَنْ أُفِيقا

يَقْتَضِينِي الغَدَاءَ، والشَّمْسُ لم تَبْـ ـزُغْ طُلوعاً، ولم تَبَلَّجْ شُروقا

يقتضيني (يطالبني بـ)

مِعْدَةٌ أَوَّلِيَّةٌ كَرَحَى البُرِّ ـ تُلَقَّى حَبَّاً، وتُلْقِي دَقِيقا

معدته أولية (لعل معناها: شديدة، ولعل فيها تصحيفاً) مثل مطحنة القمح، تلقَّى (تلقَّم) الحب وتلقيه طحيناً

ويَدٌ لا تَزالُ تَرْمِي بِأَحْجَا رٍ مِنَ اللَّقْمِ تُعْجِزُ المَنْجَنِيقا

ويده ترمي في فمه باللقم التي يعجز عن حجمها المنجنيق

صَاحَ بُلْعُومُهُ، فَخِلْنَا المُنادِي صاحَ في حَلْقِه: الطَّرِيقَ الطَّرِيقَا

وهو يأكل تجشأ من حلقه فظننا منادي الزعيم يصيح أمام موكبه: الطريق الطريق (افتحوا الطريق)

وكَأَنَّ الفَتَى يَطُمُّ رَكَايَا قد تَهَوَّرْنَ، أو يَسُدُّ بُثُوقَا

كأنه إذ يأكل يطم (يردم) ركايا (آباراً)، مهدومة، أو يسد بثوقاً (انهدامات في الأرض)

وإذا جِيءَ بِالخِوَانِ تَخَوَّفْـ ـتُ وأَشْفَقْتُ أنْ يَموتَ خَنِيقا

إذا حضر الخوان (السفرة) خفتُ عليه أن يموت اختناقاً لشدة أكله. تعليق أحمد عبد الرحيم: «قطعة رديئة جداً»

١٨٢ العيش المؤبد

يمدح صاعد بن مَخْلد وابنه أبا عيسى:

عَيْشٌ لَنا (بِالأَبْرَقَيْنِ)، تَأَبَّدَتْ أَيَّامُهُ، وتَجَدَّدَتْ ذِكْرَاهُ

تأبدت (خلدت)

والعَيْشُ مَا فَارَقْتَه فَذَكَرْتَهُ لَهَفاً، ولَيْسَ العَيْشُ مَا تَنْسَاهُ

١٨٣ يا علوَ لو شئتِ

يا عَلْوَ لو شِئْتِ أَبْدَلْتِ الصُّدُودَ لنا وَصْلاً، ولانَ لِصَبٍّ قلبُكِ القَاسي

علو (علوة الحلبية حبيبته)

أَمُدُّ كَفِّي لأَخْذِ الكَأْسِ مِنْ رَشَإٍ وحَاجَتِي كُلُّهَا في حَامِلِ الكَاسِ

رشإ (غزال). التسويد لأحمد عبد الرحيم

بِبَرْدِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِي الغَلِيلَ إذا دَنَا فَقَرَّبَها مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

الغليل (العطش)

١٨٤ قتل القتيل

يمدح أبا عيسى العلاء بن صاعد:

أَقُولُ: أَزِيدَ مِنْ سُقْمٍ فُؤادي؟ وهل يَزْدادُ مِنْ قَتْلٍ قَتيلُ؟

هل زيد (ازداد) قلبي من السقم؟ هذا مستحيل فقد وصل غاية السقم، وهل يزداد القتيل من القتل؟

لنا في كُلِّ دَهْرٍ أَصْدِقاءٌ تَعُودُ عِدًى، وحَالاتٌ تَحُولُ

تحول (تتحول)

ومَا فُقِدَ الجَمِيلُ لِقُرْبِ عَهْدٍ فَنَسْأَلَ عنهُ، بَلْ نُسِيَ الجَمِيلُ

ويَلْؤُمُ سائلُ البُخلاءِ، حِرْصاً وإشْفَاقاً، كَمَا لَؤُمَ البخيلُ

الذي يطلب المال من البخلاء لئيم مثلهم فهو حريص على العطية مشفق من الحرمان منها

١٨٥ وصف إيوان كسرى

صُنْتُ نَفْسي عَمَّا يُدَنِّسُ نَفْسي وتَرَفَّعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جِبْسِ

صنت نفسي عما يدنسها، وترفعت عن جدا (عطاء) كل جبس (لئيم)

وتَمَاسَكْتُ، حِينَ زَعْزَعَني الدهْـ ـرُ التِمَاساً مِنْهُ لِتَعْسي، ونُكْسي

وتماسكت عندما زعزعني الدهر (عصف بي) التماساً منه (سعياً منه) لتعسي ونكسي (إضعافي)

بُلَغٌ مِنْ صُبَابَةِ العَيْشِ عِنْدي، طَفَّفَتْها الأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسِ

كانت عندي بلغ (بقايا) من صبابة العيش (من قليل المال)، طففتها الأيام (بددها الزمن) تطفيف بخس (إنقاص)

وبَعِيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفْهٍ، عَلَلٍ شُرْبُهُ، وَوَارِدِ خِمْسِ

الفرق كبير بين بعير يرد الماء ليشرب وورود رفه (يرد في أي وقت يشاء) ويكون شربه عللاً (مضاعفاً)، وبين وارد خِمس (وارد الماء في اليوم الخامس بعد عطش أربعة أيام)

وكَأَنَّ الزمانَ أَصْبَحَ مَحْمُو لاً هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ

صار ميل الزمان باتجاه أخس الناس. تخير القاضي عبد القاهر الجرجاني من أشعار البحتري ما مقداره خمسون صفحة، (ضمن طرائف الميمني ٢ في طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)، ولم يعجبه في هذه القصيدة سوى هذا البيت. وأما ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقد أتى على أبياتها، رغم أن ترجمته للبحتري جاءت في خمس صفحات فقط

واشْتِرائي العِرَاقَ خُطَّةُ غَبْنٍ، بَعْدَ بَيْعي الشَّآمَ بَيْعَةَ وَكْسِ

شرائي العراق (ذهابي إليه) خطة غبن (أمر غلبت فيه) بعد بيعي الشام (مفارقتي الشام) بيعة وكس (بيع خسارة). فهو خسر عندما باع الشام وخسر عندما اشترى العراق

لا تَرُزْنِي مُزَاوِلاً لاخْتِبَارِي، عِنْدَ هَذي البَلْوَى، فَتُنْكِرَ مَسِّي

لا ترزني (تتفحصني، كما يروز المرء شيئاً بيده ليقدر وزنه) مزاولاً (ساعياً) لاختبار أحوالي في وقت البلاء هذا، فإنك إذّاك ستنكر مسي (ملمسي)

وقَديمَاً عَهِدْتَنِي ذَا هَنَاتٍ، آبِيَاتٍ، عَلَى الدَّنِيَّاتِ، شُمْسِ

وكنتَ تعهدني في الماضي صاحب هَنات (مزايا) آبيات على الدنيات (رافضات للقليل الخسيس)، شُمْس (متمردة)

ولَقَدْ رَابَنِي نُبُوُّ ابْنِ عَمِّي، بَعْدَ لِينٍ مِنْ جَانِبَيْهِ، وأُنْسِ

رابني (شكّكني) نبو (تغير مشاعر) ابن عمي بعد أن كان جانبه ليناً، وكان يأتنس بي (ربما قصد «بابن عمه» عبدون بن مخلد. وقد وصفه في قصيدة أخرى على النون بابن عمه)

وإذا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيَّاً أَنْ أُرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي

إذا ما جفيت (أحسست بالجفاء والتجهم لي) كنت حرياً (جديراً) أن لا أبيتَ في المكان نفسه، بل أنصرف فوراً

حَضَرَتْ رَحْلِيَ الهُمُومُ، فَوَجَّهْـ ـتُ إلى أَبْيَضِ المَدائِنِ عَنْسِي

حضرت رحليَ الهمومُ (أسرعت الهمومُ ركضاً وحُضراً بمتاعي)، فوجهت عنسي (إبلي) إلى أبيض المدائن (القصر الأبيض في المدائن قرب بغداد)

أَتَسَلَّى عَنِ الحُظُوظِ، وآسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ، دَرْسِ

أتسلى عن حظي الرديء، وآسى (أتعظ) بمحل لآل ساسان الفرس درْسٍ (خَرِب)

ذَكَّرَتْنِيهِمُ الخُطُوبُ التَّوَالِي، ولقد تُذْكِرُ الخُطُوبُ وتُنْسي

ذكرتني بهم المصائب المتتالية؛ وقد تذكرنا الخطوب لكنها أيضاً قد تنسينا

وَهُمُ خَافِضُونَ في ظِلِّ عَالٍ، مُشْرِفٍ يُحْسِرُ العُيُونَ، ويُخْسي

تذكرتهم إذ هم خافضون (متنعمون) في ظل قصر عالٍ، مشرف (مرتفع) يحسر العيون (يتعب النظر لعلوّه)، ويخسي (يخسيء البصر: يتعبه)

مُغْلَقٍ بَابُهُ على جَبَلِ (القَبْـ ـقِ)، إلى دَارَتَيْ (خِلاطٍ) و(مَكْسِ)

باب هذا القصر مغلق على جبل القبق (أي كأنه يضم داخله جبل القبق الكبير)، إلى (أي إضافة إلى) دارتي «خلاط ومكس» (فهو عال ضخم، وواسع أيضاً كأن في جوفه كل تلك المناطق)

حِلَلٌ، لم تَكُنْ كَأَطْلالِ سُعْدَى   في قِفَارٍ مِنَ البَسَابِسِ، مُلْسِ

حلل (أماكن) لم تكن (ليست) مثل أطلال سعدى (اسم بدوي لفتاة) في البسابس المقفرة الملساء (الصحارى الجرداء)

ومَسَاعٍ، لَوْلا المُحَابَاةُ مِنِّي،   لم تُطِقْهَا مَسْعَاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ

ومساع (أمجاد) عظيمة للفرس؛ ولولا المحاباة من جانبي لقلت إن مسعاة (مفاخر) قبيلتي عنس وعبس لا تقارن بها

نَقَلَ الدهرُ عَهْدَهُنَّ عَنِ الجِدَّ ـ   ةِ، حَتَّى غَدَوْنَ أَنْضَاءَ لَبْسِ

هذه الأمجاد نقل الزمن عهدهن عن الجدة (صارت قديمة)،
حتى غدون (أصبحن) أنضاء لبس (نياقاً مهزولة في الظلام). يشبه الإنجازات المادية للفرس (قصر كسرى بعد خرابه) بنياق مهزولة لكثرة سيرها لدى رؤيتك إياها عند اللَّبْس (اختلاط الظلام)

فَكَأَنَّ (الجِرْمَازَ)، مِنْ عَدَمِ الإنْـ   ـسِ وإِخْلاقِهِ، بَنِيَّةُ رَمْسِ

كأن الجرماز (اسم أطلقه القدماء على ذلك الأثر فيما يبدو) من عدم الإنس (عدم وجود البشر)، ومن إخلاقه (خرابه) بنية رمس (بناء قبر). الجرماز: يقول الصيرفي محقق ديوان البحتري، ويتابعه إحسان عباس في تحقيقه لمعجم الأدباء لياقوت، إن كرمازي بالفارسية تعني القصر، والصيرفي ينقلها عن القدماء. ويقول معجم لغت نامه دهخدا (أوسع معاجم اللغة الفارسية) إن الجرماز مبنى كان موجوداً بجانب الإيوان ولم يبق منه شيء. ويحيلنا المعجم الفارسي (وراجَعَهُ لي مشكوراً الصديق الإيراني حسين شهيدي ـ إضافة لاحقة في يوليو تموز ٢٠١٦: توفي الصديق حسين في أبريل/نيسان ٢٠١٤ ـ) إلى معجم البلدان وإلى تاج العروس، فتأملْ!

لو تَرَاهُ عَلِمْتَ أنَّ اللَّيَالي   جَعَلَتْ فيهِ مَأْتَماً، بَعدَ عُرْسِ

كأن الليالي (الزمن) جعلت فيه مأتماً بعد أن كان بهيجاً كأن فيه عرساً

وَهْوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ،   لا يُشَابُ البَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ

ولكنه مع ذلك ينبيك (يخبرك) عن عجائب قوم لا يشاب (يختلط) البيان (القول) في شأنهم بأي التباس، فعظمتهم لا شك فيها

فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا   كِيَّةَ، ارْتَعْتَ بَينَ رُومٍ وفُرْسِ

فإذا رأيت صورة مرسومة على الجدار للحرب في أنطاكية ارتعت
(أحسست بخوف) وأنت ترى جنود الروم والفرس. وتلك حرب بين الإمبراطوريتين
وقعت قبل الإسلام بنحو سبعين سنة

والـمَـنَـايَـا مَـوَاثِـلٌ، وأنُـوشِـرْ وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ، تَحْتَ الدِّرَفْسِ

وترى المنايا (الموت) مواثل (حاضرات)، وترى كسرى أنوشروان يزجي (يرسل) صفوف العسكر وهو تحت الدرفس (الراية الضخمة). أنوشروان (وتعني الروح الخالد) أعظم ملوك الأسرة الساسانية/وهو كسرى الأول العادل الذي روى العرب الكثير من قصص عدله وحكمته، وقد حكم أقل بقليل من خمسين سنة، بدأها بما سمي الصلح الدائم مع الرومان، وختمها بمساع للصلح معهم، وفيما بين الصلحين أنهك الطرفان قواهما حرباً وضرباً، كما يصف البحتري. قال أحمد شوقي في مقدمة نثرية لقصيدته التي يعارض بها هذه البحترية إن هذا البيت قد انعقد الإجماع على أنه البديع الفرد من أبياتها، وساءله زكي مبارك في كتابه الموازنة: ومن هو الذي عقد هذا الإجماع؟

في اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلى أَصْـ ـفَرَ، يَـخْـتَـالُ فـي صَـبِـيـغَـةِ وَرْسِ

تراه في لباس أخضر مصفر، يختال في صبيغة (لباس مصبوغ) ورس (نبات يستعمل للصبغ)

وعِـرَاكُ الـرِّجَـالِ بـيـنَ يَـدَيْـهِ، في خُفُوتٍ مِنْهُمْ، وإِغْمَاضِ جَرْسِ

ويمثُلُ لعينيك عراكُ الرجال بين يديه في خفوت منهم (بصمت)، وإغماض جرس (خفوت صوت)، ذلك أنك ترى اللوحة الجدارية فحسب. وهي صامتة «تماماً» بالطبع، ولكن البحتري لشدة انفعاله بها تخيل أن الصوت فيها.. خافت

مِنْ مُشِيحٍ، يُهْوِي بِعَامِلِ رُمْحٍ ومُلِـيـحٍ، مِـنَ الـسِّـنَـانِ، بِتُـرْسِ

فهذا رجل مشيح (مقبل مائلاً جسمه مستقيماً رمحه) بعامل رمح (برأس رمح)، وذاك رجل مليح (ملوِّح) بترسه ليتقي به السنان (سن الرمح)

تَـصِـفُ الـعَـيْـنُ أَنَّـهُـمْ جِـدُّ أَحْـيَـا ءٍ، لَـهُـمْ بَـيْـنَـهُـمْ إِشَـارَةُ خُـرْسِ

العين تراهم وكأنهم جد أحياء، ولكن يتكلمون بالإشارة، وهذا سبب انعدام الصوت

يَـغْـتَـلـي فِـيـهِـمُ ارْتِـيَـابِـيَ، حـتَّـى تَـتَـقَـرَّاهُـمُ يَـدَايَ بِـلَـمْـسِ

يغتلي (يزداد) ارتيابي حتى تتقراهم (تَـتَـتَبَّعهم) يداي باللمس لأتأكد أنهم مجرد صور منقوشة نافرة

قد سَقَانيِ، ولـم يُصَرِّدْ، أَبُو الغَوْ ثِ، عَلَى العَسْكَرَيْنِ، شَرْبَةَ خَلْسِ

لقد سقاني ولم يصرد (يقلل) ابني أبو الغوث، وأنا أشاهد العسكرين، شربة خلس (شربة خمر سريعة)

مِـنْ مُـدَامٍ، تَـقُـولُـهـا هِـيَ نَـجْـمٌ أَضْوَأَ الـلَّـيْـلَ، أَوْ مُجَاجَةُ شَـمْـسِ

سقاني من مُدام (خمر) تقولها (تحسبها) نجماً أضاء الليل، أو مجاجة (بصقة) من الشمس

وتَـــراهَــــا، إذا أَجَـــدَّتْ سُــرُوراً وارْتِـيـاحـاً لِـلـشَّـارِبِ الـمُـتَـحَـسِّي،

وترى الخمر إذا أجدت (جددت) السرور والارتياح لشاربها المتحسي (المتمزمز عليها)..

أُفْرِغَتْ في الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ   فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إلى كُلِّ نَفْسِ

.. تراها وكأنما هي عصارة قلوب الناس تم إفراغها في الكأس الزجاجية، ولذلك فكل قلب يحبها لأن فيها منه شيئاً

وتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى أَبَرْوِيـ   ـزَ مُعَاطِيَّ، والبَلَهْبَذَ أُنْسِي

لقد توهمت وأنا أشرب أن كسرى أبرويز (خسرو بيرويز بالفارسية، هو عظيم الفرس الذي كتب إليه النبي يدعوه إلى الإسلام) هو معاطيَّ (الشارب معي، يعطيني خمراً وأعطيه)، وتخيلت أن البلهبذ (مغنّي كسرى المشهور) أنسي (أنيسي)

حُلُمٌ مُطْبِقٌ على الشَّكِّ عَيْنِي،   أَمْ أَمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وحَدْسِي؟

أهذا حلم يجعل عيني تنطبقان على شك، أم هي أمنيات غيرن ظني وحدسي (جعلن تفكيري يختل)

وكَأَنَّ الإيوَانَ، مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ   ـعَةِ، جَوْبٌ في جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ

كأن الإيوان (المجلس، المفتوح بلا باب من جهة واحدة) بنقوشه والصنعة العجيبة التي فيه جوب (ترس) في جنب أرعن (جبل) جلس (راسخ) هو القصر نفسه

يُتَظَنَّى، مِنَ الكَآبَةِ، أَنْ يَبْـ   ـدُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّحٍ، أَوْ مُمَسِّي،

يتظنى (يلوح) من كآبته، وهو يبدو لعيني الشخص في الصباح أو في المساء..

مُزْعَجاً بِالفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ   عَزَّ، أَوْ مُرْهَقاً بِتَطْلِيقِ عِرْسِ

.. يلوح وكأنه مزعَج بالفراق (مضطر للرحيل) عن أنس إلف (أليف، وليف) عزَّ (أصبح عزيزاً ممتنعاً)، أو كأنه مرهق (مكتئب) بعد طلاق عرس (زوجة)

عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي، وبَاتَ الـ   ـمُشْتَرِي فيهِ، وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ

عكس الزمن حظه، فبات المشتري واقعاً فيه وهو كوكب نحس. (هذا اليوم الذي أدقق فيه الشرح، ٥ يوليو تموز ٢٠١٦، شهد حلول مركبة فضاء ـ «المسبار جونو» ـ في مدار حول كوكب المشتري.. نرجو ألَّا يلحقها نحسه المزعوم، وعند بعضهم أن المشتري كوكب سعد، وزحل عندهم كوكب نحس)

فَهْوَ يُبْدِي تَجَلُّداً، وعَلَيْهِ   كَلْكَلٌ، مِنْ كَلاكِلِ الدهرِ، مُرْسِ

فالقصر يظهر تجلداً (صبراً) بينما يقعي فوقه كلكل (صدر) من كلاكل الدهر الراسية. وكانوا إذا أرادوا تصوير الهم الجاثم فوق القلب تخيلوا ناقة تقعد بصدرها فوق الإنسان. مؤكد أن الحداثيين سيعجبهم هذا البيت لما فيه من تشخيص. وهو حلو، فالبحتري يتكلم عن القصر وعن حظه التعس ويشفق عليه كأنه إنسان

لم يَعِبْهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّيـ   ـبَاجِ، واسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ

لم يعبه (يلحق به العار) أنه بز (انتُزع) من بسط الديباج (الحرير)، واستل (انتُزع) من ستائر (الدمقس). وهل فرق بين أن يُنتزع القصر منها أو تُنتزع هي من القصر؟

مُـشْـمَـخِـرٌّ، تَـعْـلُـو لَـهُ شُـرُفَـاتٌ رُفِعَتْ في رُؤُوسِ (رَضْوَى) و(قُدْسِ)

فهو مشمخر (عالٍ) وتعلو شرفاته المرفوعة كأنها مبنية على رؤوس الجبال كجبل رضوى وجبل قدس

لابِسَاتٌ مِنَ الـبَـيَـاضِ، فَـمَـا تُـبْـ ـصِـرُ مِـنْـهـا إلّا فَـلائِـلَ بُـرْسِ

وشرفاته مرتدية اللون الأبيض، فلا ترى منها إلا فلائل برس (شلل قطن)

لَـيْـسَ يُـدْرَى: أَصُـنْـعُ إِنْـسٍ لِـجِـنٍّ سَـكَـنُـوهُ، أَمْ صُـنْـعُ جِـنٍّ لإنْـسِ

لا تدري هل هو بناء بناه الإنس ليسكنه الجن (لوحشته وخلوه)، أم بناه الجن للبشر (لعظمته)، والجن فيما نقل من أخبار النبي سليمان بناءون مهرة

غَـيْـرَ أَنّـي أَرَاهُ يَـشْـهَـدُ أَنْ لـم يَـكُ بَـانِـيهِ، في الـمُـلُـوكِ، بِـنِـكْـسِ

على كل حال فهو يشهد أن من بناه من الملوك لم يكن نكساً (ضعيفاً)

فَـكَـأَنّـي أَرَى الـمَـرَازِبَ، والـقَـوْ مَ، إذا مَـا بَـلَـغْـتُ آخِـرَ حِـسّـي

إذ أنظر إلى المجلس أتخيل المرازب (قادة الفرس/ المرزبان هو القائد الحدودي)، وأتخيل القوم (الناس العاديين) موجودين فعلاً، هذا عندما أصل بخيالي إلى آخر حسي (إلى الحد بين الحقيقة والوهم)

وكَـأَنَّ الـوُفُـودَ ضَـاحِـيـنَ حَـسْـرَى، مِنْ وُقُوفٍ، خَلْفَ الزِّحَامِ، وخُنْسِ

كأنني أرى الوفود ضاحين (جالسين في الشمس قبل الدخول على كسرى) حسرى (كاشفي الرؤوس)، بعضهم واقفون خلف الزحام، وبعضهم خنس (بعيدون عن الجمع)

وكَـأَنَّ الـقِـيَـانَ، وَسْـطَ الـمَـقَـاصِـيـ ـرِ، يُـرَجِّـحْـنَ بـيـنَ حُـوٍّ ولُـعْـسِ

وكأني أرى القيان (المغنيات) وسط المقاصير (الغرف)، متأرجحات بين الحواء واللعساء (كلاهما بمعنى التي في شفتيها سُمرة)

وكَـأَنَّ الـلِّـقَـاءَ أَوَّلَ مِـنْ أَمْـ ـسِ، وَوَشْـكَ الـفِـرَاقِ أَوَّلَ أَمْـسِ

وكأنه لقاء سريع مقتضب حدث قبل يومين وانتهى قبل يوم. نترك لأهل اللغة تفسير الفرق بين (أول من أمس) وبين (أول أمس)

وكَـأَنَّ الـذي يُـرِيـدُ اتِّـبَـاعـاً طَامِعٌ في لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ

ولقرب عهدهم فكأن المتخلف عن ركبهم والذي يريد اللحاق طامع أن يلحق بركبهم بعد أربعة أيام ليصل صبح اليوم الخامس

عَـمَـرَتْ لِـلـسُّـرُورِ دَهْـراً فَـصَـارَتْ لِـلـتَّـعَـزِّي، رِبَـاعُـهُـمْ، والـتَّـأَسِّـي

رباعهم (ديارهم) كانت عامرة ملأى بالسرور دهراً ثم صارت مكاناً للتعزي (ليعزي المرء نفسه عن ظلم حاق به) والتأسي (الاتعاظ)

فَـلَـهَـا أَنْ أُعِـيـنَـهـا بِـدُمُـوعٍ   مُـوقَـفَـاتٍ عـلى الـصَّـبَـابَـةِ حُبْسِ

لهذه الديار عليَّ عهدٌ أن أساعدها بدموع عيني الموقفات (المكرسات) الحبس (المخصصات) للصبابة (للشوق)

ذاكَ عِـنْـدِي، ولـيـسَـتِ الـدَّارُ دَارِي   بِاقْتِرابٍ مِنْها، ولا الجِنْسُ جِنْسِي

هذا شأني والموطن ليس موطني (فموطني الشام غير قريب منها)،
ولا الجنس جنسي (فهم فرس وأنا عربي)

غيـرَ نُـعْـمَـى لأَهْـلِـهـا عـنـدَ أَهْـلِـي   غَـرَسُـوا مِـنْ ذَكـائِـهَـا خَـيْـرَ غَـرْسِ

سوى النعمى (المساعدة) التي قدمها أهل هذه الدار لأهلي، فقد غرسوا من ذكائها (بركتها) أطيب غرس. والمساعدة المذكورة هي إمداد الفرس أهلَ اليمن بالعسكر لصد الاحتلال الحبشي الذي استمر سبعين سنة، والعون الفارسي الذي استجلبه سيف بن ذي يزن كان قبل الإسلام بنحو خمسين سنة. والبحتري من قبيلة طيء اليمانية الأصل

أَيَّـدُوا مُـلْـكَـنَـا، وشَـدُّوا قُـوَاهُ   بِـكُـمَـاةٍ، تَـحْـتَ الـسَّـنَـوَّرِ، حُـمْـسِ

أيَّد الفرس مُلك أهل اليمن بكماة (مسلحين) تحت السنوَّر (العتاد)، حمس (أشداء)

وأَعَـانُـوا عـلـى كَـتَـائِـبِ (أَرْيَـا   طَ) بِطَعْنٍ على النُّحُورِ، ودَعْسِ

وأعانونا على كتائب القائد الحبشي أرياط، وذلك بحرب كان فيها طعن في النحور (أعالي الصدور) ودعس (طعن بالمداعس أي الرماح الغليظة).

وأَرَانِي، مِنْ بَعْدُ، أَكْلَفُ بِالأَشْـ   ـرَافِ طُـرًّاً، مِـنْ كُـلِّ سِـنْـخٍ وَأُسِّ

وإني لأرى نفسي أكلف (أُغرم) بالأشراف طُرًّاً (جميعاً) من كل سنخ (جنس) وأس (أصل)

١٨٦ بيت مالي في لساني

يمدح أبا العباس بن ثوابة:

لا تَخَفْ عَيْلَتِي، وتِلْكَ القَوافِي   بَـيْـتُ مَـالٍ مَـا إِنْ أَخـافُ ذَهَـابَـهْ

لا تخف عيلتي (افتقاري) فالشعر بيت مال لديَّ لا يفنى

قد مَدَحْنَا إِيوَانَ كِسْرَى، وجِئْنا   نَسْتَثِيبُ النُّعْمَى مِنَ ابْنِ ثَوَابَهْ

المدح كان لقصر كسرى، وجئنا لابن ثوابة نستثيب النعمى (نأخذ ثواباً على ما قدمنا من المدح).
قالها بعد أن كان وصف إيوان كسرى بقصيدة ليس في الدنيا أحلى منها
(القصيدة السابقة مباشرة، رقم ١٨٥)

وإذا مَــا أَلَــطَّ بِــالــحــقِّ قَــوْمٌ   فَــمِــنَ الــحَــقِّ أنْ تَــنُــوبَ الــقَــرَابَــهْ

وإذا ما ألط بالحق بعضهم (منعوه)، فجدير بأقاربهم أن ينوبوا عنهم. وآل ثوابة من الفرس، فعليهم إذن أن يدفعوا ثمن مديح إيوان كسرى. حلوة هذه منك يا أبا عبادة، كنا امتدحنا كثيراً قولك تلك القصيدة البديعة التي ليس فيها شيء من المديح، فها أنت تطلب لها ثمناً. «يظل ذيل الكلب أعوج ولو وضعوه في سبعين قالباً» قولةَ عمة أبي

١٨٧ عبادة العباد

يعاتب العلاء بن صاعد:

مَــلَّــنَــا، أَمْ نَــبَــا بِــنــا، أَمْ جَــفَــانــا   أَمْ قَــلانَــا، فَــاعْــتَــاضَ مِــنَّــا سِــوَانــا؟

سَــاخِــطٌ، نَــبْــتَــغي رِضَــاهُ، ولا يَــسْــ   ــأَلُ عَــنْ سُــخْــطِــنَــا، ولا عَــنْ رِضَــانــا

مــا لَــنَــا نَــعْــبُــدُ الــعِــبَــادَ، إذا كــا   نَ إلــى الــلَّــهِ فَــقْــرُنَــا وغِــنَــانــا؟

١٨٨ أواخر الشهوات

يمدح أبا العباس بن بسطام:

مَغَانِي سُلَيْمَى بِالعَقِيقِ ودُورُهَا   أَجَدَّ الشَّجَى إِخْلاقُهَا ودُثُورُهَا

مغاني (ربوع) سليمى ودورها في «العقيق» أجد (جدد) الشجى (الحزن) إخلاقها (خرابها) ودثورها (اندثارها)

وأَلحَقَنِي بِالشَّيْبِ في عُقْرِ دَارِهِ   مَنَاقِلُ في عُرْضِ الشَّبَابِ أَسِيرُها

وجعلني ألحق بالشيب في عقر داره (أي أشيب تماماً)، مناقل (مراحل) سرتها في عرض الشباب (وسطه)

مَضَتْ في سَوَادِ الرَّأْسِ أُولَى بَطَالَتِي   فَدَعْنِي يُصَاحِبْ وَخْطَ شَيْبِي أَخِيرُها

مضت مرحلة بطالتي (استهتاري) الأولى أيام كان الشَّعر أسود، فدعني لأقضي أواخر أيام الاستهتار في وقتٍ وَخَطَ (أسرع) الشيبُ فيه في رأسي

ومَا صَرَعَتْنِي الكَأْسُ حتى أَعَانَها   عَلَيَّ بِعَيْنَيْهِ الغَدَاةَ مُدِيرُها

ما صرعتني الكأس (ألقتني أرضاً) إلا بعد أن ساعدها عليَّ مديرها (ساقيها الذي يدور بها على الشاربين) بنظرات عينيه

لقد كُوثِرَتْ مِنْكَ القَوافِي بِمُنْعِمٍ   يُكَايِلُها، حتى يَقِلَّ كَثِيرُها

لقد كوثرت (غُلبت) القوافي (القصائد) من جانبك فأنت منعم عليَّ يكيل لي العطايا مقابل القصائد حتى تبدو القصائد قليلة بجنب العطاء

أُحِبُّ انتظاراتِ المَواعِدِ؛ والتي تَجِيءُ اختلاساً لا يدومُ سُرورُها

أحب انتظار الوعد بالعطاء. فانتظار الأعطيات حلو. وأما العطاء الذي يأتي اختلاساً (فجأة) فلا يكون السرور به طويلاً

وإنَّ جِمَامَ الماءِ يَزْدَادُ نَفْعُها إذا صَكَّ أسماعَ العِطاشِ خَرِيرُها

وجمام الماء (دفقاته الكثيرة) يزيد نفعها عندما يسمع العطاش لها خريراً قبل الشرب

١٨٩ دنياوان

يرثي أبا عيسى العلاء بن صاعد:

أُخَيَّ! مَتَى خاصَمْتَ نَفْسَكَ فَاحْتَشِدْ لَها، ومَتَى حَدَّثْتَ نَفْسَكَ فاصْدُقِ

يا أخي إذا شددت الحساب على نفسك فاحشد لهذا التشديد كل قوتك، وكن صادقاً مع نفسك

أَرَى عِلَلَ الأَشياءِ شَتَّى، ولا أَرَى التَّـ ـجَمُّعَ إلَّا عِلَّةً لِلتَّفَرُّقِ

أرى علل (أسباب) الأحداث شتى (متفرقة)، وأرى التئام الشمل بحد ذاته سبباً للتفرق (كأن يقول المرء إن الصحة هي سبب المرض)

أَرَى العَيْشَ ظِلّاً تُوشِكُ الشَّمْسُ نَقْلَهُ فَكِسْ في ابْتِغاءِ العيشِ كَيْسَكَ، أَوْ مُقِ

أرى العيش مؤقتاً وغير حقيقي مثل الظل الذي توشك الشمس بحركتها أن تنقله وتذهب به، فكس (كن كيِّساً حكيماً في طلب الرزق) بما أوتيت من حكمة، أو مق (كن مائقاً أحمق) فلا فرق، فالعيش كله ظل زائل

أَرَى الدهرَ غُولاً لِلنُّفُوسِ، وإنَّما يَقِي اللَّهُ في بَعْضِ المَواطِنِ مَنْ يَقِي

فلا تُتْبِعِ المَاضِي سُؤالَكَ لِمْ مَضَى؟ وعَرِّجْ على البَاقِي فَسائِلْهُ: لِمْ بَقِي؟

لا تسأل عن الشخص الماضي (الذاهب الميت) لِمْ (لِمَ) ذهب، فهذا هو الطبيعي، بل اسأل الباقي لمَ بقي

ولَم أَرَ كَالدُّنيا حَلِيلَةَ وَامِقٍ مُحِبٍّ، متى تَحْسُنْ بِعَيْنَيْهِ تَطْلُقِ

لم أرَ مثل الدنيا حليلة وامق (زوجة رجل محب لها)، عندما يراها جميلة في عينيه يقع بينهما الطلاق

تَراها عِياناً، وَهْيَ صَنْعَةُ واحدٍ، فَتَحْسَبُها صُنْعَيْ لَطِيفٍ وأَخْرَقِ

إنك لترى الدنيا بعينيك، وهي خلق الله الواحد، فتحسبها ـ لتبدل أحوالها ـ مِنْ خَلْقِ اثنين أحدهما لطيف (متقِن)، والآخر أخرق (مهمل). هاج العامة على البحتري بسبب هذا البيت عندما فسره لهم بعض أعداء البحتري بأنه ينم عن إيمان البحتري بالثنوية، دين ماني نبي الفرس القديم، فاضطر إلى ترك بغداد، والرجوع إلى بلده منبج. هاك ما أورده المرزباني على لسان أبي الغوث ابن البحتري: «كان أبي قد قال في قصيدته التي رثا فيها أبا عيسى بن صاعد أبياتاً وجد بها بعض أعدائه عليه مقالاً فشنع عليه أنه ثنوي ودارت في الناس. وكانت العامة حينئذٍ غالبة ببغداد، فخافهم على نفسه، فقال لي: قم بنا يا بني حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا، ونعود، قال: فخرجنا وأقام فلم يعد.» اهـ المرزباني

١٩٠ آخر زمن

يمدح إسماعيل بن بلبل، وكتب بها إلى المبرِّد:

مَضَى جَعْفَرٌ والفَتْحُ، بَيْنَ مُرَمَّلٍ　　وبـيـن ضَـجِـيـعٍ بِـالـدِّمَـاءِ مُـضَـرَّجِ

رحل جعفر المتوكل (الخليفة المقتول)، والفتح بن خاقان (وزيره الذي قتل معه)، بين مرمل (معفر) وبين ضجيع (مطروح أرضاً) مضرج بدمه

أَأَطْلُبُ (أَنْصَاراً) على الدَّهرِ، بَعدَمَا　　ثَوَى مِنْهُما في الدهر أَوْسِي وخَزْرَجي

فهل أطلب «أنصاراً» على مصائب الزمن بعد أن ثوى (اندفن) منهما (ممثلاً في المتوكل والفتح) أوسي وخزرجي (كل أنصاري على الزمن، كما أن الأوس والخزرج يشكلون كل الأنصار)

مَضَوْا أَمَماً قَصْداً، وخُلِّفْتُ بَعْدَهُمْ　　أُخَاطِبُ بِالتَّأْمِيرِ وَالِيَ (مَنْبِجِ)

كل أنصاري مضوا أمماً (قُدُماً) قصداً (دغري، سيده، قُبَلْ)، وخلفت (أبقيت) بعدهم لكي أخاطب بالتأمير والي منبج (أقول له أيها الأمير) فيا لتغير الزمان، بعد أن كنت أقول للمتوكل: يا أمير المؤمنين!

١٩١ البضاعة

يمدح أبا عبد الله محمد بن غالبٍ الأصبهاني:

يـا أبـا عـبـدِ الـلَّـهِ! عَـمَّـرَكَ الـلـ　　ـهُ لِعُرْفٍ عَمَمْتَنا بِاصْطِنَاعِهْ

أطال الله عمرك لمعروف شملتنا باصطناعه (ببذله)

إنَّ هـذا الـقَـرِيـضَ نَـبْـتٌ مِـنَ الـقـو　　لِ يَـزِيـدُ الـفَـعَـالُ فـي إِيـنَـاعِـهْ

القريض (الشعر) مثل النبات لكنه نبات من كلام، والفعل (أي العطاء) يزيد في إيناعه (نضوجه)

هُوَ عِلْقٌ تَاجَرْتَني فيه بالحيـ　　ـلَةِ حتى غَبَنْتَني بِابْتِيَاعِهْ

الشعر علق (جوهر ثمين) ساومتني فيه وتحايلت علي، حتى غبنتني (غلبتني) في شرائك إياه. أي لم تعطني ما يكفي

١٩٢ كل مصيبة تهون

قال في غلامه:

عسى آيِسٌ مِنْ رَجْعَةِ البَيْنِ يُوصَلُ　　ودَهْرٌ تَوَلَّى بِالأَحِبَّةِ يُقْبِلُ

رب آيس (يائس) من رجوع الحبيب بعد البين (الفراق) يوصل (يتصل بحبيبه)، ورب دهر ذهب بالأحبة يقبل علينا ويعيدهم إلينا

فَلا تَعْجَبَنْ أَنْ لم يَغُلْ جِسْمِيَ الضَّنَى   ولـم يَخْتَرِمْ نَفْسي الحِمَامُ المُعَجَّلُ

لا تعجب إذا لم يغل (لم يقتل غيلة) الضنى (الهزال) جسمي، وإذا لم يخترم (يقتل) نفسي الموت المعجل

فَقَبْلَكَ بَانَ الفَتْحُ عَنِّي مُوَدِّعاً   وفَارَقَنِي شَفْعاً له المُتَوَكِّلُ

فقبلك بان (فارق) الفتح بن خاقان قتيلاً، وفارقني شفعاً له (تالياً له) المتوكل الخليفة قتيلاً، رمى الفتح نفسه على المتوكل يحميه فقتل، ثم قتل المتوكل

فَمَا بَلَغَ الدمعُ الذي كنتُ أَرْتَجِي،   ولا فَعَلَ الوَجْدُ الذي خِلْتُ يَفعَلُ

فما بلغ دمعي ما كنت أرجو أن يبلغ في البكاء عليهما، ولا قتلني الوجد (الحرقة) كما ظننت

وما كلُّ نِيرانِ الجَوَى تُحْرِقُ الحَشَا   ولا كُلُّ أدوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

أدواء (جمع داء)

١٩٣ علام التعب

من قصيدة يرثي فيها القائد الموفق ويمدح ابنه أبا العباس المعتضد، وبعد القصيدة بأشهر يموت الخليفة المعتمد أخو الموفق فيتولى المعتضد الخلافة ٢٧٩هـ:

نَسْعَى، وأَيْسَرُ هذا السَّعْيِ يَكْفِينا،   لولا تَكَلُّفُنَا مَا ليس يَعْنِينا

نشقى بالسعي في هذه الدنيا مع أن أقل السعي يكفينا،
إلا أننا رغم ذلك نتكلف أموراً لا أهمية لها

نَرُوضُ أَنْفُسَنَا أَقْصَى رِيَاضَتِها   على مُوَاتَاةِ دهرٍ، لا يُوَاتِينا

نروض (نروِّض) أنفسنا ونعودها بأقصى ما نستطيع على مواتاة (مسايرة) زمن لا يسايرنا

١٩٤ غريب في موطني

يمدح جعفر بن عبد الغفار:

وأخٍ رابَنِي فأَضْرَبْتُ عنهُ؛   أيُّ إخْوانِكَ الذي لا يَرِيبُ؟

رب أخٍ (صديق) رابني (شكَّكني في مودته) فأضربت عنه (أهملت إساءته). ومَنْ مِنَ الأصدقاء لا يريب (يفعل الفعلات المريبة)؟

أَنا بالشَّامِ مَوطِني، غيرَ أَنِّي   بَعْدَ عهدِ العراقِ فيهَا غريبُ

موطني الشام (والبحتري من منبج بشمال سوريا الحديثة)، غير أنني أصبحت غريباً في وطني بعد أن قضيت زمناً في العراق. التسويد لأحمد عبد الرحيم

نَـبَـواتٌ مِـنَ الـصـديـقِ يُـرَوِّعْـ ـنَ جَنابي، كَمَا يَروعُ المَشِيبُ
ألاقي نبوات (تجاهلات/إهمالات) من الصديق يروعن جنابي (يُخِفْنني) مثلما يخيفني المشيب حين أفاجأ بانتشاره

١٩٥ غُراب الشباب

عَوِّلْ على الصَّبْرِ، واتَّخِذْ سَبَباً إلى اللَّيالي، فَإنَّها دُوَلُ
عول (استند) إلى الصبر، واتخذ سبباً (طريقة) إلى الليالي (الزمن)، فالزمن يتداوله الناس يوماً لهذا ويوماً لذاك. يقول: اصبر، واجتهد واصنع أسباب النجاح، فالزمن متقلب وستأتي فرصتك فكن مستعداً لها

مَا أَبْعَدَ المَكْرُمَاتِ عَنْ رَجُلٍ على سُؤَالِ الرِّجَالِ يَتَّكِلُ
سؤال الرجال (طلب الحاجات منهم)

فَكُنْ على الدَّهْرِ فَارِساً بَطَلاً فَإنَّمَا الدَّهْرُ فَارِسٌ بَطَلُ
طَارَ غُرَابُ الشَّبابِ مُرْتَحِلاً وحَلَّ شَيْبٌ فَلَيْسَ يَرْتَحِلُ
غراب الشباب (الشعر الأسود)

إيَّاكَ والنَّاسَ أنْ تُحَمِّلَهُمْ فَوقَ الذي الآدَمِيُّ يَحْتَمِلُ
إيَّاكَ والبُخْلَ عندَ مَكْرُمَةٍ وإنْ رَأَيْتَ الرِّجَالَ قد بَخِلُوا
وقالوا: كان البحتري من أبخل خلق الله

١٩٦ لذيذة على كل حال

وينسب إلى البحتري:

مُنَىً، إنْ تَكُنْ حَقَّاً تَكُنْ أعذَبَ المُنَى، وإلَّا فقدْ عِشْنَا بِها زَمَناً رَغْدَا
الأماني، ويسمونها اليوم «أحلام اليقظة»، لا غنى لعاقل عنها. البحتري أحلام يقظته واقعية: فإن تكنْ حقاً (واقعية، وتحققت) فهذا عذب جداً، وإلا (إن لم تتحقق) فقد عشنا بها زمناً رغداً (سعيداً)

١٩٧ هات عمراً للمال

ينسب إلى البحتري:

يا جَامِعاً مَانِعاً، والدَّهرُ يَرْمُقُه مُفَكِّراً أَيَّ بَابٍ فيه يَطْرُقُه
يا جامع المال المانع لإنفاقه! الزمن يقف مفكراً من أي باب يدخل عليك لينكبك

جَمَعْتَ مَالاً، فَفَكِّرْ هَلْ جمعتَ له ، يـا جَـامِعَ الـمَـالِ، أيّـامـاً تُـفـرِّقُـه؟

جمعت مالاً، فهل جمعت عمراً كي تنفق كل هذا المال فيه؟ الجواب طبعاً عند البحتري نفسه: فقد جمع مالاً واشترى ضياعاً ودوراً خلَّفها لأولاده. وأشبهت هجرته من منبج بشمال سوريا إلى بغداد هجرتنا إلى دول الخليج في فورة النفط؛ أتيناها وقلنا لأرباب العمل فيها: طال عمرك! ثم عدنا إلى بلداننا وبنينا بيوتاً سنموت عنها وتؤول إلى أولادنا، (وأنا أكتب هذه الكلمات في الدوحة في الأول من فبراير ٢٠١٠). وقد نهض البحتري بأسرته، وأصبح أولاده وأحفاده نابهين في المجتمع، حتى لقد مدح المتنبي اثنين من أحفاد البحتري، بَخٍ بَخٍ أبا عبادة!

١٩٨ أي الرجال المهذب؟

إذا مَا صَديقي رَابَني سُوءُ فِعْلِه ولـمْ يَـكُ عَـمَّـا رَابَـنـي بِـمُـفِـيـقِ

رابني (أزعجني)، مفيق (كاف)

صَبَرْتُ عَلى أَشياءَ مِنْه تَرِيبُنِي مَـخَـافَـةَ أَنْ أَبْـقـىَ بِـغَـيْـرِ صَـديـقِ

١٩٩ شبيه الباطل

ولـم أرَ مِثْلَ الـمَوْتِ حَقّاً؛ كَأنَّهُ، إذا مَـا تَـخَـطَّـتْـهُ الأَمَـانِـيُّ، بَـاطِـلُ

ليس شيء محتوم كالموت، وفي الوقت نفسه عندما تتخطاه (تتجاوزه) أمنيات الإنسان يصبح كأنه باطل (غير مؤكد). يقول: الموت مؤكد، ولكننا برغباتنا، أو إن شئت بتفكيرنا الرغائبي، نجعله يبدو أمراً مشكوكاً في حدوثه

٢٠٠ عرفت خيرك

وَيَـرْجِـعُـنـي إلـيْـكَ، وإنْ تَـنَـاءَتْ دِيـارِي عَـنْـكَ، تَـجْـرِبَـةُ الـرِّجَـالِ

يَرجعني إليك (يُرجعني)، وإن تناءت (بعدت) دياري عنك، أنني أجرب الرجال وأرى ما عندهم من رديء الأفعال. التسويد لأحمد عبد الرحيم

٢٠١ بلدة مثل بلدة

إذا نِلْتَ في أَرْضٍ مَعَاشاً، وإنْ نَأَتْ، فَلا تُكْثِرَنْ فِيها نِزَاعاً إلى الوَطَنْ

نزاعاً (حنيناً)

فَـمَـا هِـيَ إلَّا بَـلْـدَةٌ مِـثْـلُ بَـلْـدَةٍ وخَيْرُهُمَا مَا كانَ عَوْناً على الزَّمَنْ

٢٠٢ أعطنا حقنا أو تصدق علينا

أَيُّـهَـذَا الأَمِـيـرُ قـد مَـسَّـنَـا الـضُّـرُّ ـ ومُـدَّتْ يَـدُ الـخُـطُـوبِ إلـيْـنـا

وَلَـدَيْـنَـا بِـضَـاعَـةٌ مُـزْجَـاةٌ   قَـلَّ خُـطَّـابُـهـا، فَـبَـارَتْ لَـدَيْـنَـا

الضر (الجوع)، مزجاة (كاسدة)، وبضاعتنا قل خطابها (مريدوها) وبارت (كسدت). لا يجيز أهل العروض للشاعر مثل هذا الزحاف في عروض البيت، لكن البحتري ارتكبه وارتكب غيره. وأبو تمام أستاذه له هنات عروضية، ذكرها القدماء في كتبهم. وكان أبو العتاهية عندما يراجعونه في شيء كهذا يقول: أنا أكبر من العروض

أَيُّـهَـذا الأَمـيـرُ أَوْفِ لَـنَـا الـكَـيْـ   ـلَ، بِمَا شِئْتَ، أَوْ تَـصَـدَّقْ عَلَـيْنا

يقول: إن لم ترد مكافأتنا على الشعر، فتصدق علينا صدقة على الأقل. هذه الأبيات تنظم الآية: «فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» يوسف ٨٨

٢٠٣ ضحك يوم ببكاء سنة

ينسب إلى البحتري:

إذا الـمـرءُ لـم يَـرْضَ مَـا أَمْـكَـنَـهْ   ولـم يَـأْتِ مِـنْ أَمْـرِهِ أَزْيَـنَـهْ

إذا المرء لم يرض بالممكن المتاح، ولم يفعل الفعل الحسن

وأُعْـجِـبَ بِـالـعُـجْـبِ، فـاقْـتَـادَهُ   وتَـاهَ بِـهِ الـتِّـيـهُ، فَـاسْـتَـحْـسَـنَـهْ

وإذا أعجب بالعجب (التكبر) فقاده تكبره، وتاه (ضل) به تيهه (تكبره)، واستحسن التكبر

فَـدَعْـهُ، فـقـد سَـاءَ تَـدبِـيـرُهُ   سَـيَـضْـحَـكُ يَـوماً، ويَـبْـكـي سَـنَـةْ

فاتركه عندئذ فقد ساء تدبيره، وسيسعد يوماً ويبكي سنة

٢٠٤ عاقدة اللسان

وقال في الخمرة:

مـا أُبَـالـي إذا شَـرِبْـتُ ثَـلاثـاً   مَـنْ غَـدا رَاضِـيـاً، ولا مَـنْ جَـفَـانـي

مِـنْ سُـلافٍ عَـتِـيـقَـةٍ سَـلْـسَـبِـيـلٍ   بِـنْـتِ عَـشْـرٍ، تُـجِـيـدُ عَـقْـدَ الـلِّـسَـانِ

سلاف (خمر صافية)، سلسبيل (صافية)، بنت عشر (معتقة عشر سنين)، والخمرة تحسِنُ عقد اللسان فشاربها يبلع الحروف ويمطها

تَـرَكَـتْـنـي، عـلى فَـصَـاحَـةِ نُـطْـقـي،   وأَنَـا مُـحْـوَجٌ إلـى تَـرْجُـمَـانِ

تركتني الخمرة رغم فصاحتي وأنا محتاج إلى من يترجم كلامي لصحبي كي يفهموني

هِـيَ نِـعْـمَ الـرَّفِـيـقُ لـي إِنْ دَهَـتْـنـي   نَـائِـبَـاتُ الـزَّمَـانِ والأَحْـزَانِ

فـإذا مَـا أَرَدْتَ رُشْـدِيِ، فَـخُـذْ لـيِ   مِـنْ صُـرُوفِ الـرَّدَى كـتَـابَ الأَمَـانِ

إذا أردتني أن أسلك سبيل الرشاد وأترك الخمرة فخذ لي من صروف (مصائب) الزمان كتاباً بالأمان، وهذا مستحيل بالطبع، فسوف إذن أواصل شربها

٢٠٥ قاطعو النور

إِنَّ الـــزمـــانَ زَمَـــانُ سَـــوّ   وجَـمِـيـعُ هَـذا الـخَـلْـقِ بَـوّ

سوّ (سوء)، بوّ (جلد مسلوخ، يحشى بالتبن، ويقرب من الناقة لتظن أنه ولدها الذي ذبحوه ليأكلوه، فيدر لبنها فيحلبها بنو آدم)، والبو على هذا زائف وكذا جميع البشر في رأي البحتري

لـو يَـمْـلِـكُـونَ الـضَـوْءَ، بُـخْـ   ـلاً لـم يَـكُـنْ لِـلْـخَـلْـقِ ضَـوّ

ذَهَـبَ الـكِـرَامُ بِـأَسْـرِهِـمْ   وبَـقَـى لَـنَـا لَـيْـتٌ وَلَـوْ

بقى (بقي)

فهرس القوافي

(القافية فرقم القطعة)

فهرس الأغراض (البحتري)
(الأرقام كلها أرقام القصائد لا الصفحات)

العشق والغزل وتوابعهما

طبائع ومشاعر

مدح وقدح، وحرب وضرب

وصف

فخر

فخر بالشعر: ١٠/ ١١/ ٢٦/ ٣٩/ ٤٢/ ٥٢/ ٦٥/ ٧٩/ ٨٥/ ١٢٩/ ١٣٥/ ١٦١/ ١٦٥/ ١٨٦

فخر بالقبيلة: ١/ ٨/ ١٢/ ٤٨/ ٥٧/ ١٠٣/ ١٢٦/ ١٤٧

فخر بالنفس: ١٠/ ١٨/ ٤٥/ ٥٦/ ٧٠/ ١٠٣/ ١٠٧/ ١٤٩ (هذه أرقام القصائد)

فهرس القوافي العام

أبواب الكتاب: ١ بشار ٢ العتاهي ٣ العباس ٤ مسلم ٥ أبو نواس ٦ دعبل ٧ ديك الجن ٨ ابن الجهم ٩ أبو تمام ١٠ البحتري

تجدد الشعر زبدة الشعر العباسي من بشار إلى البحتري

يضم هذا الكتاب ألفاً ومئتي قطعة. تكون القطعة بيتاً وتكون قصيدة كبيرة، أو أي شيء بينهما.

هي أشعار انتخبتها من دواوين عشرة شعراء حملوا الشعر العربي وانطلقوا به عالياً كي يحلق في مدار جديد. البدء ببشار، الشاعر المتهتك المتمرد، وكل شعرائي متهتكون متمردون، جزئياً أو كلياً. ظل بشار «يتخيل» أنه يحن إلى دين أجداده عبدة النار «الأرض مظلمة والنار مشرقة/ والنار معبودة مذ كانت النار»، هذا رغم نشوئه في أحضان العربية لم يعرف لغة غيرها. كان بشار رغم عماه شهوانياً - ومن قال إن الأعمى أبعد عن الشهوانية من أخيه المبصر؟ -، وعبر بشار عن شهوانيته في أشعار كثيرة نقلنا منها الكثير. يحدثنا عن فتاته: «تقول وقد خلوتُ بها: تكلم واكفني يدكا».

والمتهتك الثاني مجن سنوات قلائل ثم انعكس انعكاسة غريبة أنتجت لنا أطرف دواوين الشعر العربي. هذا أبو العتاهية. عاش طويلاً، وعاش وهو في مطلع كل صباح ومطلع كل قصيدة يذكر الموت. كان يعشق الحياة عشقاً أنساه أن يعيشها...

- كل باب مذيل بفهرس للقوافي، وفي آخر الكتاب فهرس عام للقوافي

- مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد «تجدد الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب

- تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي. مهندس الصوت: محمد ماضي



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com



2020
8.1.2020

عارف حجاوي



إحياء الشعر

البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

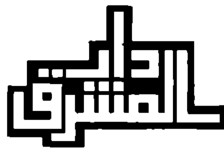


دار المشرق

إحياء الشعر

البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

عارف حجاوي



إحياء الشعر

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار المشرق

حجاوي، عارف

إحياء الشعر: البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري/عارف حجاوي.

٦٣٩ ص.

١. شعر. أ. العنوان.

???

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

نفخ البارودي في صورِه وأقام الشعر العربي من قبره، فنهض يفرك عينيه، ولبس جبته، واعتجر عمامته وركب ناقته.

لا، ليس كذلك بالضبط.

أريد أن أدخل إلى أشعار هذا العصر من باب أكاديمي، ولو على سبيل التغيير. هذا العصر الذي يتناول كتابنا أشعاره عصر قريب منا، بعضنا عاشه، وكلنا عايشه. فآخر من تناولنا من شعراء هذا العصر توفي عام ١٩٩٧، وله حضور قوي بصوته وصورته، ذلك هو الجواهري. وكل شعرائنا في هذا الكتاب ـ وهو الكتاب الرابع من سلسلة الزبدة ـ ماتوا في القرن العشرين. وسترى أننا في الكتاب الخامس والأخير سنعرض لشعراء ماتوا جميعاً في القرن العشرين أيضاً. سيعترض أحدهم قائلاً: ما أراك جعلت القرن العشرين في كتابين إلا لأن المادة كثرت عليك، فلم يكن لك بد من القسمة. في هذا الاعتراض شيء من الحق. وليس كل الحق.

سأقنع القارئ بأن ثمة فارقاً بين هذا الكتاب الرابع، وبين الخامس الذي سيتبعه. ومن هنا التمست مدخلاً أكاديمياً. والكلمة المفتاح هنا هي الكلاسيكية.

عندما انتصف إنتاج بيتهوفن ركبه عفريت «التعبير». صار يعبر في موسيقاه عن الحنان والرقة والغضب. تسمعه في سيمفونياته المتأخرة ويدك على مفتاح الصوت حتى تخفضه خفضاً سريعاً عندما يجن جنون صاحبنا وتأخذ الأوركسترا تصرخ بطبولها ونحاسها بغضب.. أنت لا تريد أن يدق لك ساكن الشقة المجاورة على الحائط.

خرج صاحبنا من الكلاسيك إلى نمط جديد، سيسميه أهل الصناعة «الرومنس».

الكلاسيك انضباط ووقار، والتزام بالأعراف الفنية في الشكل وفي المشاعر. والرومنس حرية في التعبير عن مكنونات الفؤاد، وقسط من الحرية في الخروج عن الشكل المعروف.

في الشعر العربي أعراف راسخة من حيث الشكل، فالأوزان أوزان الخليل، واللغة لغة الخليل، فإذا أدخل الشاعر في قصيدته لفظة عامية فلا يكون ذلك إلا من باب التظرف، وسرعان ما يستغفر آلهة اللغة ويعود إلى الفصحى المعجمية.

عندما «أحيا» البارودي الشعر العربي لم يخرج عن الكلاسيك، بل عاد به إلى زمن أوغل في القدم من زمن مجايليه. لا بل جعل معظم شعره مصبوباً في قوالب الشعراء القدامى تقليداً في الشكل واللغة، ومجاراة في المعاني وطريقة سوقها.

الكلاسيك انضباط، والرومنس تحرر. لكن، حنانيك، الرومنس ليس فلتاناً. فيه تحرر عظيم في المشاعر وفي التعبير عنها، ولكنه يتخذ لنفسه ضوابط. فماذا لو مل الشعراء من الرومنس، وابتغوا التجديد؟

سأعيدك إلى الموسيقى هنيهة. بعد بيتهوفن، الذي جاء عند مسمار المقص بين الكلاسيك والرومنس، أتحفنا أهل الرومنس بموسيقى بديعة فسمعنا برليوز وتشايكوفسكي وبيزيه. ثم حدثت أشياء.

المشعوذون

في سنة ١٩٥٢ قُدمت على مسرح في نيويورك قطعة موسيقية غريبة اسمها ٤:٣٣. جلس العازف إلى البيانو، وصمتت القاعة.. وضع العازف النوطة الموسيقية أمامه بعناية، وأخرج من جيبه ساعة وقْف، وضغط على الزر. وظل جالساً أربع دقائق وثلاثاً وثلاثين ثانية، لم يلمس البيانو. ثم قام. هذه القطعة «الموسيقية» هي موسيقى بلا صوت. يقول «الموسيقار» جون كيج إن الموسيقى في قطعته تلك «ليست صوتاً منبعثاً من البيانو، بل هي همهمات الجمهور». فإذا كنت تملك حاسوباً وكان عندك إنترنت فاكتب ٤:٣٣ وستسمع تلك القطعة العبقرية. وستسمع أن الجمهور لم يهمهم ولا صنع شيئاً بل قعد مؤدباً وصفق للعازف، الذي لم يعزف، عندما قام ـ قامت قيامته ـ عن البيانو. ولك أن تسمع هذه الموسيقى الفريدة معزوفة ـ بغير صوت ـ على أوركسترا كاملة.

ولي مع هؤلاء الدجالين تجربتي الخاصة. كان ذلك في الإسكندرية في نحو عام ٢٠٠٩. وكان ملتقىً إعلامياً ـ فنياً في شبه قرية سياحية قرب بحيرة مريوط. حضر من لبنان بعض مشاهير الممثلين، حضرت نضال الأشقر وحضر روجيه عساف، ومن فلسطين حضرت ممثلة عن مؤسسة يبوس، ومن تونس حضرت فتاة لا أذكر اسمها، وكنت أمثل مؤسسة إعلامية عربية، وحضر من مصر كثيرون بالطبع؛ لكن المصيبة كانت لبنانية.

جرى نقاش حاد في إحدى الجلسات عن الأعمال الفنية وحظها من الظهور إعلامياً. وصدع الحاضرون رأسي بكلمات من قبيل الفضاءات والمَدَيات والإبداع والجديد وما بعد الجديد والحداثة والحرائة في السباخ. فقلت في مداخلتي إن ما يهمني عرضه إعلامياً ـ وكنت أشغل موقع مدير البرامج في مؤسستي ـ هو الفن الذي يصل إلى الجمهور ويحمل قضية أو فيه على الأقل متعة، ويجعل المشاهد يشاهد. ولعلي أيضاً مسحت بلاط القاعة بتلك المصطلحات التي أراها بضاعة الضعيف. وانبرت لي الفتاة التونسية. تكلمت واقفة ومتشنجة، وشنت هجوماً عليَّ كاد أن يكون شخصياً. ولأنها تصغرني كثيراً فقد آثرت أن يكون ردي رد الشيوخ الهادئين المحتملين نزوات الشباب. وانتهت تلك الجلسة.

وقبل ختام المنتدى دعينا إلى حفل موسيقي. حملونا في حافلة كبيرة إلى وسط الإسكندرية. الفرقة لبنانية. وعلى المسرح أشياء عجيبة. وفي الصالة مجموعتنا الكبيرة، وراهبتان، وبضعة أشخاص آخرين. وبدأ العزف. بدأ «العزف» على لوح فيه ترانزستورات وأسلاك ويصدر أصوات صعقات كهربائية مصحوبة ببعض الشرر، وهناك آلة نفخ في الزاوية تقول شيئاً واحداً أععع أععع. وفي الوسط منشار كهربائي راح يلوث الجو بضجيجه. بدأ الناس ينسلون واحداً واحداً، وخرجت الراهبتان بعد نحو عشر دقائق. وصبرت أنا حتى أرى آخرتها. وانتهى العرض. ولا أتذكر إن كان الخمسة أو الستة الباقون قد صفقوا.

في طريق العودة إلى منتجعنا كنت جالساً في الحافلة صامتاً. وسمعت من خلف ظهري الفتاة التونسية تقدم لي اعتذاراً.

وسأنقلك إلى الرسم حتى تكتمل لديك صورة الحداثة وما بعدها. لعلك تقف متأدباً أمام تلك اللوحات الخرابيش؟ مؤكد أن تقف متأدباً. أنا مثلك. لا أحب أن أقول للرسام: إلى الجحيم بك وبلوحاتك يا مشعوذ.

قد أحتمل سلفادور دالي، فلديه الريشة وجنون التعبير، ولديه الشكل. وقد أحتمل بيكاسو مع بعضٍ التفسير. لكن فن الرسم أصبح شعوذة خالية من أي شكل ومن أي معنى، اللَّهُمَّ إلا تلك المعاني التي يجب أن يقولها لك الرسام، بيد أنك لا تراها في لوحته.

كلاسيك الكراسي

كنا في سن اليفاعة نشتغل في مشغل في الحي نقشش الكراسي بقشور الخيزران. القشة طولها نحو متر وعرضها مليمتران، وننسج القش في ست طبقات: الأولى عرضية بأجر قرشين، والثانية طولية بأجر قرشين، والثالثة مورّوبة قطرية بستة قروش، والرابعة تكرار للأولى بقرشين، والخامسة طولية بثمانية قروش (السبب أن القشة في هذه الطبقة يجب أن تقتحم ما بين الأولى والرابعة)، والسادسة موروبة قطرية بستة قروش. ولربط القشة بالقشة طريقة معينة، ولا بد من بلِّ القش بالماء باستمرار وشده شداً. ويخرج الكرسي بخلاياه السداسية المميزة آية في الجمال. كلاسيك. ثم أخذ أصحاب المقاهي يسترخصون، فيطلبون وضع قطعة من الخشب المعاكِس، الأبلكاج، بدل القش، فيخرج الكرسي قبيحاً، وغير مريح. لكن، البشر تفننوا في الكراسي، وإنك لتجد تصميمات بالعشرات للكراسي بتوقيع جماعة الباو هاوس المعمارية المشهورة، وفيها تفنن كثير، وبعضها يعتمد التقشيس الذي كنا نصنعه بالخلايا السداسية نفسها.

صادف في مدينة دارمشتادت بألمانيا ذات سنة أن كنت في جلسة لعب ورق مع الشباب العرب، وذكر صديقي المخضرم في البلد ـ كان في السنة السادسة عشرة من دراسته.. تلك ألمانيا التي كانت تبتلع الشاب العربي ابتلاعاً ـ أن له صديقاً ألمانياً يملك كراسي موروثة ثمينة ولكن للأسف! لقد تخرق القش عليها، ولا سبيل لتجديده لأن إنتاج هذ النوع من الكراسي توقف منذ زمن طويل. في اليوم التالي كانت الكراسي عندي في غرفتي، وجلبت القش الفرنسي الملائم، وبعد أيام كنت أدفئ جيبي ببعض الماركات.

للكلاسيك رونقه. وأنت لا تطلب من الشعر أن يشبع معدتك، لا بد من الجمال، ولا بد للجمال من شكل، ومن ضوابط.

كتابنا هذا يضم الكلاسيك الجديد، وكتابنا المقبل يضم الرومنس المنضبط

عمودياً. . فأما عندما خرج الشعر العربي إلى التفعيلة، وهذا نمط جميل وله انضباطه وإيقاعه الحلو، فقد اجترح فعلاً صاخباً وكبيراً، وسيحتاج شعر التفعيلة إلى بضعة عقود كي تبرز قممه، فالزمن يغربل كل الأشياء. عندها سيكون الأمر، والعمر، قد خرج من يدنا. نعم، قد قصرنا جهودنا على الشعر العمودي التقليدي في هذه السلسلة الخماسية كلها.

شعراء الإحياء

كان البارودي يعيش طفولته وصباه في برج عاجي هو طبقته المتميزة عن بقية الناس. فهو من الجراكسة، ولكنه أتيح له أن يكون عربي اللسان، وأن يكون متعلقاً بالأدب منذ الطفولة. واتصل سريعاً بحماة الشعر القديم. . لم يدرس ـ لحسن حظه ـ المتون والحواشي، وعاش يقرأ الفصيح من كلام الفصحاء القدامى. وقلدهم. وليس البارودي طفرة بأي حال. ففي زمنه وقبل زمنه كانت الأشعار تجري على ألسنة الفصحاء. في لبنان نسمع مدائح الشعراء في أمراء الجبل، ونسمع أكثر ما نسمع تهادي الشعراء بقصائد المدح، وهذه القصائد من أركِّ ما ورد في باب «الإخوانيات»، وفي مصر انتشر شعر الإخوانيات في غياب السلطان الذي يفهم الشعر أو يقدره. وطرق الشعر باب الهزل، والغزل، وباب الرقاعة.

لكنه لم يقيض للشعر رجل تلقى الفصاحة عن غير طريق حلقات المساجد حتى جاء البارودي. كان ضابطاً فوزيراً، وكان يشعر في أعماقه بأنه من حكام البلاد، وكان يعيش في بلد مستقل استقلالاً لا بأس به عن الدولة العثمانية وله جيشه ويملك إلى حد بعيد قراره، وكان ثائراً عانى النفي الطويل. . فجعله كل ذلك ـ الذي لم يتوفر لغيره ـ أكبر شاعر عربي في القرن التاسع عشر. زودته تجاربه الحربية ووضعه الطبقي بالشموخ، وزودته المعمعة الثورية ـ المتمثلة في اشتراكه بعض الاشتراك في ثورة عرابي وما تلا ذلك سريعاً من العيشة القاسية في المنفى ـ برقة ومرارة وبعمقِ فهمٍ للطبيعة البشرية.

لا، لم يقل البارودي للشعر العربي قم فقام. لكن ظروفه جعلته المرشح لاستهلال شعور العربي بذاته في عالم الشعر.

وفي العراق بدأ الزهاوي يقول الشعر في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن الزهاوي صاحب سيف، لكنه كان صاحب قلم وكتاب، وكان من كبار

المثقفين، وبدأ يشم ريح التحرر ضمن الدولة العثمانية مع الدستور، ١٩٠٨، ثم ريح الاستقلال السياسي للعراق مع الحكم الفيصلي، وكان مهادناً للإنجليز كمليكه. لكنه كان يشتاق إلى أن يتحرر العربي من الجهل ومن الأمية ومن الخرافات ومن حجب المرأة عن النشاط الاقتصادي والاجتماعي. كأنما لم ير الزهاوي أن الاستقلال السياسي سيكون شيئاً عظيم الأهمية في حضور الجهل والأمية والتخلف الاجتماعي. وستصدقه السنين. وكالزهاوي في فكره كان الرصافي في العراق، مع اختلاف في المزاج، ومثلهما كان الجواهري في الفكر وفي أشواق الانعتاق من أسر التخلف؛ ولكنهم، ثلاثتهم، تمسكوا بالشكل الشعري الكلاسيكي. الأقدمان منهما كانا مع سهولة اللفظ، والجواهري ابن القرن العشرين ميلاداً كان أميل إلى اللفظة القديمة، وإن عاقه السير في طرق ملتوية لبلوغ المعنى الدقيق عن أن يبلغ صاحبيه في الفصاحة.

وفي مصر كان شوقي ابن ثقافة واسعة، وبيئة مترفة. أحس في نفسه بشموخ واستقلال لأن أميره الذي يمدحه ابن بلده. نعم، قد مدح سلطان الدولة العثمانية ونال منه رتبة البكوية؛ لكن، كان له في مصر من دواعي الفخر الكثير، فبنى صرح فخره على صخر الفراعنة، وأحس بما في مصر من نهضة تبشر بعودة النهضة الأولى في عصر محمد علي، والثانية في عصر إسماعيل فافتخر ببنك مصر وبما كانت مصر تعالجه من وضع دستور جديد وحياة سياسية نشطة. ورغم أن شوقي كان من كبار المثقفين، فلم يكن في جرأة الزهاوي. على أن ثقافة شوقي العريضة، وخياله الواسع، وتبحره في شعر القدماء فتحت له أبواب القول، فديوانه بستان. لم يجعله شعر البارودي ـ وهو أكثر شعر أثر في نفسه، على اختلافه في السياسة مع البارودي ـ ينظر نظرة مراجعة في مسألة تقليد القدماء. لا، بل مضى يصب الشعر في قوالبهم. لكن، ديوان شوقي ليس نمطاً واحداً، ففيه أشعار في أولاده، وفيه أناشيد للأطفال، وفيه تلك المسرحيات، التي جعلها ضعفة النقاد ميزته الكبرى. شوقي دنيا شعرية جميلة، وقد أنفقنا صفحات كثيرة معه في كتابنا، عرضنا فيها أحداث ذلك الزمن، وتتبعناها تتبعاً من خلال شعره.

وقرين شوقي حافظ إبراهيم صوت شعري رنان. ولم يكن حافظ بأقل محافظة من شوقي. كان إمعة في مسائل الفكر والمجتمع، وكثير التحفظ في جانب السياسة، لا سيما بعد أن نال الوظيفة السمينة.

بثلاثة من مصر، وثلاثة من العراق قام الشعر العربي في القرن العشرين، وقبله بقليل، ليكون صوتاً لضمير أمة خرجت بعد أربعمئة سنة من القمقم العثماني، وأخذت تفرك عينيها. ترى في هذا الشعر الأمة العربية تتوق إلى التقدم والاستقلال، وترى أيضاً أنها غير واثقة، وأنها لا ترى معالم الطريق الذي يؤدي إلى اللحاق بالأمم المتقدمة. أعاد شعراؤنا الستة إلينا بعض الثقة بأن لغتنا الفصحى لم تمت، فها هي على ألسنتهم تترنم بشعر جميل. لكنهم أدركوا وأدركنا أن شعرهم شعر النخبة. فلئن كانت الفصحى لغة حية وقادرة على أداء كل المعاني فإن عامة الناس لا يتقنونها، لا قولاً ولا فهماً، إلا بقدر.

حال بين الناس وبين إتقان الفصحى أن قواعدها النحوية ليست كقواعد لهجاتهم، وأن مفردات اللغة الأدبية تختلف اختلافاً غير هين عما يستعملون من مفردات. وحال بينهم وبين شعر الفصحى الذي أتاهم به هؤلاء الرواد، علاوة على القواعد والمفردات، أن أوزان الشعر العربي خرجت من آذانهم منذ قرون.

قال شوقي، فيما نقل إلينا، «أخشى على الفصحى من بيرم». واعترف الرصافي للملا عبود الكرخي الشاعر العامي بأن أشعاره العامية هي ما يفهمه الناس.

لكننا لا نقول إن الفصحى كائن لا مبرر لوجوده، ليس فقط لأننا نكتب هذه الأسطر بها، بل لأنها هي ما يجمع العرب. هذا مظفر النواب يعد نفسه شاعر العامية البغدادية، ويقول إنه لا يعرف العروض، ثم رأيناه في السبعينات، عندما دعته دواعي النضال والسياسة، يقول أشعاراً فصيحة موزونة على التفعيلة مع قليل جداً من التجاوزات، فيتسامع بشعره العالم العربي كله، ويخرج من ضيق بغداد إلى رحاب العالم العربي، ويعبر عن أوجاع العرب السياسية أحر تعبير وأقواه.

المعركة بين الفصحى والعامية مستمرة في مجال الشعر، وفي كل مجال.

عرفان

صحوت على موظفة المصرف تقول لي «البوليس». وبما أنني «صحوت» فلا شرطة ولا بوليس، هو كابوس. والذي فتح الباب للكابوس أمران: الأول أكلة دسمة شبعت منها وبقيت في الطبق بقية، لا هي تصلح للثلاجة، ولا أنا

أصلح أن أرمي طعاماً في كيس القمامة، فرميت بالباقي في معدتي. والثاني أنني كنت في المصرف فعلاً قبل هذه القيلولة الثقيلة.

للمرة الكذا يعيدون لي صكوك أجرة المنزل.. ويطلبونني لفرع المصرف كي أوقع أمامهم. لكن هذه المرة، وهي المرة الكذا، كانت مختلفة. أحالني الموظف إلى الموظفة ذات الخال كي أسجل بصْمتي في الحاسوب، فمنذ اليوم لن يُقبل مني أي توقيع. وعلي، أسوة بالحاجَّة فلانة والحاج فلان، أن أبصم بإبهامي الأيمن. وفرحت. وبعد طول استعلام، كانت المسألة قد وصلت إلى نائب المدير. وانشغل نصف موظفي المصرف بهذه القضية العجيبة. (هذا ليس الكابوس، بل هو ما حدث فعلاً).

ثم تبين أن البصمة غير مقبولة في الصكوك.

أخذ نائب المدير بنفسه يدربني على توقيع جديد. وتوقيعي الجديد مثل القديم، هو كتابة اسمي ليس غير. لكنني مبتلىً بمرض لم يكن مكتشفاً حتى ظهر اليوم: أنا لا أستطيع التوقيع مرتين بنفس الطريقة. وأنا عارف هذا الشيء عن نفسي، فقد واجهت مشكلات في معاملاتي في أكثر من مناسبة للسبب نفسه. لكن مصرفي الحالي أراد أن يداويني. وبعد أن اتفقنا على صورة مبسطة جداً لكتابتي اسمي، أخذت أتدرب على ورقة وموظف الصندوق يرفع أمامي النموذج قبل أن يعتمده في الحاسوب.

ثم وقعت. ثم ذهب الموظف إلى نائب المدير، ثم عاد وهو يمزق ورقة المعاملة. ومرة أخرى وقعت. وهذه المرة مشت المعاملة مع شفتين تتحركان من الموظف المرهق. وعندما ستكون لي معاملة مقبلة فسوف تتكرر المأساة.

لم أقل لأحد في المصرف إنني كنت أعمل ذات سنة خطاطاً في وزارة حكومية، تلك وزارة الدفاع في الكويت في أواخر السبعينات. ولم أقل لهم إنني رجل صحب القلم والورقة سنين طويلة قبل دخول الحاسوب في حياتنا. فلم يكن ينقصهم المزيد من الأعاجيب في تلك الظهيرة.

قواعد الخط العربي

القواعد في الخط العربي مقيسة قياساً دقيقاً بالنقاط التي تضبط النسبة بين عرض القلم وحجم الحرف، وهي ترشد الخطاط حتى يكتب الحرف في كل مرة بالكيفية نفسها. وتعلمت هذه القواعد وسرت عليها وأصبحت خطاطاً. لكن

علتي ليست في أصابعي فحسب، هي في عقلي أيضاً. والخطاط الجيد يضبط عقله ضبطاً محكماً فيسكب الحرف على وجه الورقة سكباً من قالب ذهني لا يتغير. وأقص هنا قصة عن خطاط لم أر أضبط من ذهنه، هو المرحوم عبد الغني الباشا، وكان لي زميلاً في القدس، يعمل خطاطاً في جريدة الشعب، وكنت فيها محرراً.

ذات يوم زرت صديقاً لي يعمل أستاذاً في مدرسة الأمة في ضواحي القدس. وبينما نحن نهبط الدرجات رأيت على مبعدة مجلات الحائط. قلت لصاحبي: تلك المجلة هل تراها! يبدو أن أحد الطلبة من أقارب الخطاط عبد الغني، فخطوط عناوينها بقلم عبد الغني. صاح بي الصديق: هذه خطوط بأقلام ملونة رفيعة، فلوماستر، وكيف حكمت من هذه المسافة أنها من خطوط عبد الغني؟ وعبد الغني أهم خطاط في القدس. وتحققنا من الأمر - ولم يكن بي حاجة للتحقق أصلاً - فتيقن صاحبي أنني على حق، وتعجب. فشرحت له أنني أميز خط الرجل ولو من حرف واحد. لكن أحداً لا يميز خطي أنا، لا من حرف ولا من فقرة فهو شديد التقلب.

أنا لا أصنع كوب شاي ولا طبخة مقلوبة مرتين بنفس الطريقة.

عزيزي القارئ، أكتب لك فقرة من هذا الكلام، وأنصرف بعدها إلى ورقة بجانب الحاسوب أتدرب على توقيعي المبسط الجديد.

لهذه العلة في ذهني، ولعلة أخرى، عرفت باكراً أنني لن أصبح خطاطاً ماهراً. العلة الأخرى أن يدي غير ثابتة الثبات المطلوب من يد الخطاط.

العرفان الآن

في الكابوس - وقبل أن تتوعدني الموظفة بالـ «بوليس» - سألتها وماذا يكون شأن رصيدي في المصرف وأنتم قد حجزتم عليه؟ فقالت لي ببساطة: اشتر به لوحة فنية. وثرت بها ثورة عارمة ربما هي التي أدت إلى ذلك التهديد. وعندما سأنام الليلة سأقول للموظفة في الكابوس المقبل: يا فالحة، عندما سأشتري لوحة فنية سأكتب للبائع صكاً بالمبلغ وأوقع عليه، وسيعود الصك مرفوضاً. ألم تفكري في هذا؟

خليق بمن يكتب كتاباً أن يكون لديه ميزان في رأسه، بحيث يضبط الإملاء فلا يكتب بعض الكلمات كتابة مختلفة في كل مرة. وأنا قد اعتمدت في هذا

الكتاب على أخي الشاعر عمران القفيني، اعتمدت عليه في الإملاء، وفي ضبط النحو والصرف، وفي بضعة أمور أخرى، منها مراجعة فهمي المنحرف لبعض الأبيات. في كل مرة يصحح لي خطأ في النحو أقول في نفسي: لعلي معذور، فأنا أشكل بعض الكلمات «على الوهم». وهذا من معاذير قدامى الكتاب. ولعله يقول في نفسه: حسناً، هذا مشكول خطأ «على الوهم». ثم أسمعه بأذن التوهم يردف قائلاً: ما أكثر أوهامك يا أخي!

قد قرأ عمران معي هذا الكتاب منجماً لم يغادر منه باباً، وأشركت القارئ في ملاحظاته واستحساناته حتى يقرأ ما يقرأ وكأنه جالس إلينا.

وللصديق محمد عبد العزيز الشكر الجزيل لأنه يأبى أن يتركني بحالي، فهو يلح علي أن أوافيه بالمخطوط حتى يدفعه إلى المطبعة. وما إن يطبع الكتاب في بلد بعيد حتى أراه تجشم أجر البريد السريع ـ وهو أجر غير هين ـ لكي يأتيني بنسخة سريعة. لعله رأى فيَّ، أنا الكسول المتواني، فرخاً في العش لم ينبت ريشه، فهو يزقني زقاً، أو سيارة تعطلت في الطريق الصحراوي، فهو يزقها زقاً.

محمود سامي البارودي
(١٨٣٩م ـ ١٩٠٤م)

كان محمود سامي البارودي ـ الذي تعبت الأقلام وهي تصفه بأنه الشاعر الذي قاد عملية «إحياء الشعر العربي» ـ زعيم حركة شعرية رجعية. خرج من الركاكة التي وجدها في شعر زمانه ماشياً إلى الوراء. ركب «آلة الزمن» وضغط على الزر الخطأ فأعاده تسعمئة سنة، فرأى من النافذة رياضاً حسنة فنزل.

هذا قدر، ولا نناقش في القدر. ولا نقول لو.

كان البارودي شاعراً. كان في قلبه شعر حق، وكانت نفسه نفس شاعر، وكان ذا خيال خصب. وكان لديه من خفة الدم قدر صالح، لعله كان صالحاً جداً. . غير أن اصطناع شاعرنا اللغة القديمة عقَد لسانه.

مشكلة البارودي ـ ومشكلتنا جميعاً، المستمرة حتى اليوم، ومشكلتي وأنا أكتب هذا الكلام ـ أن إرثنا اللغوي قديم ومكتنز، فنحن لا نريد أن نخلع ذلك الثوب خلعاً. لا نريد أن نكتب باللهجة التي تعلمناها من أمهاتنا، بالعامية كيفما كانت، باللهجة التي نتحدث بها في الشارع وفي الجلسة الثقافية، وفي كل مكان. اللهجة التي ليس فيها «تشكيل»، وليست فيها ألفاظ وأساليب عتيقة. نحن كلنا ـ حتى دعاة الحداثة، وحتى كاتبو قصيدة النثر ـ نكتب بالفصحى. والفصحى ليست لساننا البريء. وقد ورثنا، ضمن ما ورثنا، شعراً كثيراً طال تردادنا له في المدارس، وهذا الشعر ذو رائحة نفاذة، وهو طبيخ معقد فيه مكونات كثيرة وتوابل، له أوزان كثيرة ولهذه الأوزان قواعد صارمة. وله طرائق في التعبير بناها القدماء عبر قرون كثيرة. فكل عصر شعري يتخذ من كل ما سبقه أساساً، ويضيف مدماكاً.

انظر إلى شعر إيليا أبو ماضي في بواكيره، وستفتح عينيك دهشة. . ستسمع صليل السيوف، وستقابل لغة متنبئية.

البارودي قَدَرُ شعر الفصحى. قدر هذا الشعر أن يستأنف مسيرته الطويلة بعملية «مراجعة». عز علينا أن نرمي ما بقي في القِدر من طبخة الأمس ـ التي وضعنا فيها ألواناً من التوابل وبالغنا في تجويدها بمقادير محسوبة من المكونات المختلفة ـ ونطبخ طبيخاً جديداً؛ فأضفنا إلى طبخة الأمس بعض الخضار ورفعنا القدر على النار.

قد وفر البارودي على نفسه كثيراً من الجهد إذ جعل الشعر العباسي وحده نموذجه، وهذا واضح من «مختاراته» التي لم تضم شيئاً سوى الشعر العباسي. على أن الشعر العباسي يحمل في جوفه قدراً كبيراً من طبخة أول أمس. فهو امتداد للشعر الأموي والجاهلي.

حتى الطرماح والكميت، اللذان عاشا في قلب العصر الأموي، كانا موضع انتقاد لأنهما كانا يحاولان تمثل القديم ويسعيان في ذلك سعياً. وحتى الفرزدق، فهو كان يحفظ الشعر الجاهلي ويطبع شعره عليه.

هذه السمة الرجوعية التي نجدها بتفاوت في شعرنا العربي كله جعلت من هذا الشعر إرثاً واحداً، وجعلته لوحة جدارية ضخمة يروعك وأنت تنظر إليها من بعيد ذلك التماسك رغم كثرة التفاصيل. وهذه الجدارية البديعة هي ما أدى بنا إلى تعقب أكثر من أربعين شاعراً في سلسلة «الزبدة» هذه، التي بيدك الجزء الرابع منها. . أردنا أن ننظر إلى اللوحة التي اكتملِ تشكلها وقعدت داخل إطارها. فأما لو نظرت إلى الشعر الذي قلناه بعد أن طلَّقنا العمودي فسوف ترى لوحة أخرى مختلفة، ولعلها لم تكتمل بعد.

المتنبي والبارودي والمتقمصات الهنديات

ترفع سماعة الهاتف وأنت في بيتك في كاليفورنيا، عذراً للتعبير العتيق. . بل أنت تدق الرقم على موبايلك. تريد أن تعرف عن العرض المغري الذي طرحته شركة السيارات. ويأتيك على الخط صوت فتاة رقيقة تحدثك بلهجة نيويورك وتشرح لك العرض وشروطه، وتجيب عن أسئلتك. هذه الفتاة ليست من نيويورك، وليست أميركية. هي تعيش في شقة ضيقة في نيودلهي بالهند على مسافة ١٢ ألف كيلومتر. وهذه الفتاة تعيش حياة غريبة. . تلبس الملابس التي تلبسها فتيات نيويورك، وتصبغ شعرها كشعورهن، وتتعاطى مساحيق تبييض البشرة، وتنفق ساعات عمرها وهي تتقمص شخصية فتاة نيويوركية، وتتخذ

لنفسها اسماً ملائماً للحالة. . تسمي نفسها ماري مثلاً. وتخوض مع نفسها صراعاً، قد تجده لذيذاً، لتقمص شخصية أخرى، ونقطة البداية هي «دي إندياناiيزيشن» أي «نزع الهنديَّة»، تخلع الفتاة شخصيتها الهندية، وتتعلم طريقة الكلام النيويوركية من حيث اللهجة ومن حيث الكلمات المستعملة، ومن حيث اتخاذ الموقف الأميركي من الأشياء. وفي النهاية تنجح. . وآلاف نجحن. عندما تطلب رقاقة بيتزا من المطعم المجاور لبيتك في سان فرانسيسكو فالفتاة الهندية على بعد اثني عشر ألف كيلومتر ستسألك إن كانت البيتزا التي تريدها رقيقة أم منفوخة، وستخوض معك في الزوائد التي تريدها فوق بيتزتك. . لائحة المطعم محفوظة في عقلها.

تعيش «ماري» هنديةً في الصباح ونيويوركية في الليل. قد لا تستطيع أن تتخلى عن الكاري والماسالا لصالح البيتزا الرديئة التي تبيعكها، لكنها تستطيع أن تفرض على إنسانيتها شيزوفرينا لذيذة.

في حياته اليومية كان المتنبي إنساناً يعيش عصره، فإذا جنه الليل أوقد شمعته وكتب أبياتاً يستحضر فيها روح الشعراء القدامى وأساليبهم.

والبارودي عاش فِصامه، يتقمص الشعراء القدامى حيناً ويحاكيهم حيناً. ومثلما كانت تبرز شخصية المتنبي الحقيقية عندما يغضب كانت شخصية البارودي الحقيقية تظهر عندما يحزن. فأما إن غضب البارودي فكان يستعير ثوب المتنبي ليغضب فيه.

عارض البارودي أبا فراس الحمداني في قصيدته (أراك عصي الدمع)، فقال قصيدة في بحرها وقافيتها، ولم نأخذ من قصيدة البارودي شيئاً. وستر انا - إذا قرأت ما صنعناه عن أبي فراس - نأخذ أبياته الأربعة والخمسين كلها، لم نترك منها بيتاً واحداً. أعود الآن وأقرأ قصيدة أبي فراس، يا لها قصيدة! هذا شيء لا يحاكى.

لئن جازت الهندية المتقمصةُ قميصَ نيويورك في الأميركيات فإن الشاعر المحاكي لا يجوز في الشعراء الأصل.

الآن، كيف أخلع نفسي من أبي فراس ومن المتنبي ومن أبي نواس وأعود إلى البارودي المقلد؟ هل أستطيع بعد الشوكولاطة السويسرية والبلجيكية أن أعود إلى شوكولاطة بلدنا التي كنا نمضغها طويلاً وتأبى أن تذوب.

أضع القلم. وأنتظر سانحة أكمل فيها هذه المقدمة.

الإمساك بالقلم

فلماذا، بعد كل هذا الذي قلته عن البارودي المقلد، أختار من شعره وأكتب مقدمة عنه؟ لا بل لماذا أهتم أصلاً بكل الشعر العربي الذي قيد نفسه بقيود محاكاة القديم؟

هذا كله تاريخنا، وهذا ما عندنا من زاد شعري. وقد قرأت أمس مقالة لأحمد أمين شن فيها حرباً هوجاء على الشعر العربي، وطالب بأن لا ندرس التلاميذ إلا أقل القليل منه. وكنت طالبت بذلك كثيراً، وقد فرحت إذ وجدت من يؤيدني. وثمة شيء آخر.. أنا نفسي نتاج كل هذا التاريخ. فلا تظن أبداً أنني لا أستمتع بشعر المتنبي، وبشعر شوقي، و.. بشعر البارودي أيضاً. أنا عتيق في ذوقي الشعري.. هكذا رمتني رحم أمتي.. هكذا شكلتني العصور السابقة. ومثلما أشتهي أن أعتمر طربوش جدي، وأرتدي بذلته ذات الصدرية، وأن أضع في جيب تلك الصدرية ساعة بسلسلة مثل ساعته، أشتهي أن أطالع الشعر القديم. لكنني لا أرتدي ملابس جدي، ربما خشية أن أصبح أضحوكة في البلد. فلماذا أطالع الشعر القديم؟ ثمة ههنا أمران: فائدةٌ تاريخية، فالشعر القديم أبلغ في وصف عصوره المختلفة من كتابات المؤرخين، وومضاتٌ شعورية، فكل شعر ـ حتى ذلك الذي يحاكي في موضوعاته، وأسلوبه، ومفرداته العصور السابقة عليه ـ فيه شيء من نبض الشاعر، وفيه قدر من مشاعره.

حياة البارودي

سماه محمود شاكر «الإمام الأول» الذي «ردَّ الشعر إلى شباب فقده في عصور متتابعة». ومدحه مصطفى صادق الرافعي كثيراً، ونبهنا إلى أن البارودي وَلَد شوقي. وقال فيه العقاد إنه «وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمتانة... فإذا أرسلت بصرك خمسمئة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر إلى قمة واحدة تساميه أو تدانيه» فهو «الإمام القدير» و«الفضل الذي له على عصره أكبر من الفضل الذي لعصره عليه.. وذلك وحده خليق أن يبوئه زعامة جيله، ويقدمه إلى طليعة معاصريه وتابعيه». وفي الكلمة الأخيرة «تابعيه» يريد العقاد أن يجعل البارودي أعلى من شوقي مقاماً.

ذكروا في تاريخ مولده ثلاثة أعوام ميلادية متتالية، فإن صح ما اتفقوا عليه من أنه ولد في رجب عام ١٢٥٥ للهجرة فقد ولد محمود سامي البارودي عام ١٨٣٩.

ولد جركسياً ابن جركسي وجركسية. وهؤلاء من بعض المماليك. وكان محمد علي باشا قد قتل قادة المماليك في مذبحة القلعة قبل ولادة شاعرنا بثمان وعشرين سنة. قتل منهم بضع مئات غيلة وغدراً، ثم تعقبهم جنوده بالقتل في أنحاء مصر. واستتب الأمر لمحمد علي. والبقية الباقية من المماليك الذي لجأوا إلى دنقلة بشمال السودان ظلوا فيها حتى بعد أن اكتسحتها جنود محمد علي. واحتفظ الصف الثاني من المماليك بمزارعهم وبوظائفهم وخدموا دولة محمد علي جنوداً وموظفين، فهذا الحاكم الباطش دخيل على مصر وقادته دخلاء، والمماليك دخلاء. بانتهاء سطوة المماليك دخلت بقيتهم في خدمة الدولة، ومن هؤلاء والد شاعرنا حسن حسني بك أحد أمراء المدفعية.

لعل العائلة منسوبة إلى إيتاي البارود في مديرية البحيرة بمصر، ولعله كان لها أملاك في الدلتا، وفي القاهرة، فقد قيل لنا إن محمود سامي ولد في القاهرة. وقد ذاق اليتم باكراً، فأبوه يعيش في دنقلة بالسودان وهو يعيش عند أخواله بمصر، وما بلغ السابعة حتى توفي أبوه في دنقلة.

تهمنا هذه السنوات السبع الأولى في حياة البارودي، وفي حياة كل إنسان نحاول أن نفهمه. لقد عاش فيها مدللاً عند أخواله، ولا نظنه عانى كل ما يعانيه يتيم الأب. وكان خاله إبراهيم شاعراً. وبخاله افتخر في الشعر، كأنما أراد أن يقول إنني من بيت فيه شعر. وخير ما صنعه له بيت خاله أنه جنَّبه دخول تلك المدارس التي كانت موجودة في القاهرة آنذاك ـ وسيأتي زمن تغلق فيه، ثم سيأتي زمن تفتح فيه من جديد ـ، لقد درس في البيت. درس على خاله وعلى معلمين كانوا يَغْشون ذلك البيت. وطالع كتب النحو والصرف والعروض والبلاغة. (وقد مزق الباحثون الجادون أسطورة، اخترعها حسين المرصفي وتلقاها دون تمحيص الرافعي، بأن البارودي لم يعرف شيئاً من علوم اللغة). على أن دراسة البارودي كانت تلك الدراسة الحرة التي تؤتي ثمراً أطيب بكثير من الدراسة المقيدة في المدارس.

لعله بين السابعة والثانية عشرة لم يقرأ سوى الأشعار والقصص، على أنه بعد ذلك ثقف نفسه بعلوم العربية، ما وسعه.

في الثانية عشرة دخل المدرسة الحربية أسوة بأبناء الجراكسة. وتخرج بعد

أربع سنين وعمره ست عشرة سنة. وأصبح ضابطاً في الجيش. في تلك السنة نفسها تولى سعيد باشا عرش مصر.

وهو طفل يقرأ القصص في بيت خاله كان البارودي يسمع عن أمجاد محمد علي العجوز الذي حكم مصر قرابة خمسين سنة، وما دخل المدرسة الحربية إلا وعباس الأول على عرش مصر، وتخرج منها وسعيد في الحكم. ومكث البارودي بضع سنوات لاهياً، ثم توجه إلى إستانبول، والتحق بوزارة الخارجية، وفي عاصمة الدولة العثمانية ـ وكانت مصر تتبعها بعض التبعية ـ أتقن البارودي التركية، وتعلم الفارسية، وزعموا أنه قال شعراً في اللغتين، غير أنه لم يصلنا شيء من هذا. ولا نظنه إلا قد انشغل بما في إستانبول من كتب عربية مطبوعة ومخطوطة، ولا سيما دواوين الشعراء القدامى.

ومات سعيد باشا، وتولى عرش مصر إسماعيل، وفي سنة توليه الحكم توجه إسماعيل باشا إلى إستانبول، ليعود منها وبصحبته محمود سامي البارودي الذي كان بلغ الرابعة والعشرين. وترقَّى البارودي في الجيش، وحضر دورة عسكرية في فرنسا وأخرى في بريطانيا، وكانت هاتان الدولتان قد بدأتا تعدان الخطط لتضييق الخناق على مصر التي كانت تُحفر فيها قناة السويس، وتعِد بموقع استراتيجي متزايد الأهمية.

وكان إسماعيل باشا (وسنقول «الخديوي» إسماعيل منذ سنة ١٨٦٦ حين نال اللقب من السلطان العثماني، ونال معه الحق في توريث العرش لأكبر أبنائه) قد بدأ نهضة كبيرة في التعليم والعمران ذكَّرت الناس بجده محمد علي. في هذه السنة نفسها قامت في جزيرة كريت (في اليونان حالياً) ثورة على الحكم العثماني، فأرسل إسماعيل جيشاً لقمعها كان من بين ضباطه البارودي. وأخمدت الثورة. وقال البارودي في ذلك شعراً، غير عالم أنه سيشارك عما قليل في ثورة ستُخمد، وسيقول فيها شعراً من نوع آخر.

ثم استرخى البارودي في مزرعته، يلهو ويقول الشعر، ويتصل بأقطاب البيان في مصر، وأهمهم الشيخ حسين المَرصَفي، صاحب الكتاب التعليمي المدرسي المهم «الوسيلة الأدبية»، وأهم شيء في هذا الكتاب على الإطلاق أنه احتوى على قصائد عديدة للبارودي. كان حسين المرصفي شيخ العربية في دار العلوم التي أنشئت في أواسط عهد إسماعيل. وكانت داراً للعلوم حقاً، وفيها عدد من الأساتذة الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين يدرسون العمارة والسكة

الحديد والآلات والفلك والتاريخ. وجاءها المرصفي من الأزهر، وهو شيخ معمم أعمى يحب اللغة ويحب الأدب، ويعرف كيف يصيخ بسمعه إلى شعر متين السبك حتى لو جاء من شاب يافع. وباعتناء الشيخ بأشعار الشاب ونشره لها في كتابه الخطير عرف شوقي أن الشعر العربي المتين يمكن له أن يولد في هذا الزمن أيضاً. ويخبرنا الرافعي بأن تأثر شوقي بالبارودي أهم من تأثره بالمتنبي والبحتري لما بين شوقي والبارودي من معاصَرة.

في هذه الفترة عب البارودي من شعر القدماء ما شاء له أن يعب.

ولما كنا قلنا «ما شاء له» وهي عبارة طه حسين الأثيرة، فنحن نذكر المرصفي الآخر «سيد بن علي المرصفي» الذي تلقى عليه طه حسين وعدد من كبار الأدباء في زمنه علمهم، وكان سيد المرصفي محباً للأدب راعياً للشباب كابن قريته حسين المرصفي.

اثنتا عشرة سنة وضع فيها البارودي السيف في قرابه، وراح يدرس الأدب، ويحفظ روائع الشعر القديم، وقد يقوم بمهام دبلوماسية إلى إستانبول، وقد يخلد إلى مزرعته يلهو ويشرب، ويقول في ذلك الشعر. ثم قامت حرب البلقان بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٨٧٨، فأُرسل البارودي، وهو الآن ضابط مهم في نحو الأربعين من عمره، إلى الجبهة. وقال في ذلك شعراً كثيراً.

بعد هذه الحرب بقليل نُحي إسماعيل عن الحكم بضغط من فرنسا وبريطانيا، وتولى عرش مصر ابنه توفيق. وكان البارودي قريباً من توفيق وهو ولي عهد. فترقى البارودي وأصبح مديراً للأوقاف، ثم جمع إليها الحربية. ثم اختلف مع رئيس النظار (رئيس الوزراء) رياض باشا، فاستقال، وجيء بشريف باشا، فعاد البارودي، ثم استقال شريف، فعين البارودي في عام ١٨٨٢ رئيس وزراء لأربعة أشهر. وسميت وزارته «وزارة الثورة» لأنها ضمت ثلاثة من أقطاب الثورة.

كان الجيش متململاً، يشعر ضباطه أن أقدار البلاد ومقدراتها تتسرب لتكون بيد الإنجليز والفرنسيين. وكان في الجيش سخط على عدم إعطاء الوطنيين، وعلى رأسهم أحمد عرابي، المكانة التي يستحقون بإزاء الجراكسة. ومع أن البارودي كان رأس الجراكسة فقد كان محبوباً من الجميع، وكان يعطف على قضية الجيش في وجه التضييق الأوروبي.

كانت ديون مصر كثيرة، فقد أسرف إسماعيل في الاستدانة ليبني البنايات وينشئ المدارس ويقوي الجيش، و.. ليكون مسرفاً.. واتخذ الأوروبيون من

هذه الديون حجة للاستيلاء على مصر التي جعلت لها قناة السويس من الموقع الاستراتيجي ما أسال لعاب أوروبا.

أراد الجيش خلع الخديوي توفيق، ولكن عرابي تلكأ في إعلانها صريحة، ولعل حلم السلطة نما في عقل البارودي، ولكنه آثر الاكتفاء بالتعاطف مع الجيش، دون التقدم خطوة أخرى نحو الانقلاب على توفيق.

ودخل الإنجليز مصر، وهزموا جيش عرابي، وحكموا عليه وعلى البارودي وعلى بعض كبار الضباط بالنفي. وعلى سفينة إنجليزية حُمل الضباط إلى جزيرة سيلان، سرنديب.

قضى البارودي سبع سنين في كولمبو، ولما استفحل الشقاق بين الضباط وتراشقوا بالاتهامات بشأن أسباب فشل حركتهم، انتحى البارودي في «كاندي» في وسط الجزيرة (و١٤٪ من سكانها الآن، بحسب الويكيبيديا، مسلمون). وراح يعلم المسلمين العربية ويؤمهم في صلاتهم. وقيل إنه تعلم الإنجليزية هناك. ومن سرنديب (جزيرة سيلان، وهي الآن دولة سريلانكا) كان البارودي يتصل بمصر بالبريد، ويتساجل مع الأدباء كالأمير شكيب أرسلان.

كان منفاه السرنديبي سبع عشرة سنة قال فيها بعض أجمل شعره، ورجع بعدها إلى مصر بعفو في مايو/أيار ١٩٠٠، وفي القاهرة توفي في ديسمبر/كانون الأول ١٩٠٤.

خدم البارودي شعره بأن جمعه قبل وفاته، وكتب له مقدمة. وقد غير في أبياته بعض التغيير، وخفف من غلواء الغزل والمجون بعض التخفيف، ويبدو هذا واضحاً من خلال مقارنة أبيات الديوان بأبيات نشرها المرصفي في «الوسيلة الأدبية». كان البارودي في آخر سنواته قد فقد بصره، على أن بيته أصبح مجلساً عامراً بأهل الأدب.

وقد طبع ديوانه بعد وفاته، طبعتْه أرملته، وطَبعت مختاراته التي هي قصائد لثلاثين شاعراً عباسياً جمعها البارودي ورتب شعراءها تاريخياً، وهي تملأ ثلاثة مجلدات كبيرة.

عاش شعر البارودي، واخترنا منه صفحات كثيرة رغم ما قلنا عن صاحبه من أنه رجع للوراء.. فقد عاش شعر البارودي لأنه شعر جميل فيه قوة وفيه تعبير صادق عما في نفس صاحبه من فرح وألم. هذا شعر طيب، فإن كنت ما زلت تحت تأثير كلامنا الأول فهذه دعوة إلى الاتزان: شعر البارودي شعر ذكي، وفصيح.

١ شقيقة القمرين

يا هاجري مِن غيرِ ذنبٍ في الهوى، مهلاً، فهجرُكَ والمنونُ سَواءُ

المنون: الموت

أَغريْتَ لَحْظَكَ بالفؤادِ فَشَفَّهُ ومِنَ العيونِ على النفوسِ بَلاءُ

أغريت نظرك بفؤادي فشفه (براه بريأ فجعله شفافاً)، وقد يقع البلاء على النفوس من عيون الجميلات

هِيَ نظرةٌ، فامْنُنْ عَلَيَّ بِأُختِها فالخمرُ، مِن ألمِ الخُمارِ، شفاءُ

انظر إليَّ أيها المحبوب مرة أخرى تشفيني من النظرة الأولى، فهذا مثل الخمر التي تصيب المرء بالخمار (صداع السكر) فيداويه بشرب مزيد من الخمر

لا أنتَ ترحمُني، ولا نارُ الهوى تخبو، ولا للنفسِ عنكَ عزاءُ

فبِقلبِ كلِّ فتىً غرامٌ كامنٌ وبِعِطْفِ كلِّ مليحةٍ خُيَلاءُ

العطف: الخصر، الخيلاء: الزهو والتثني

فَدَعِ التكَهُّنَ يا طبيبُ، فإنَّما دائيِ الهوى، ولكلِّ نفسٍ داءُ

أَلَمُ الصَّبابةِ لَذَّةٌ تحيا بها نفسي، ودائيِ لو علمْتَ دواءُ

حَكَمَ الجمالُ لها بما تختارُهُ فتحكَّمَتْ في الناسِ كيف تشاءُ

أَشقيقةَ القَمريْنِ! أيُّ وسيلةٍ تُدْنيِ إليكِ، فليس ليِ شُفَعَاءُ

يا شقيقة الشمس والقمر، كيف أتقرب منك؟ فليس لي من يشفع عندك

والناسُ أشباهٌ، ولكنْ فَرَّقَتْ ما بينَهُمْ في الرُّتْبةِ الآراءُ

الناس متشابهون جسماً، والفوارق بينهم في المنزلة قائمة على الآراء (الفكر والمواقف). التسويد لعمران القفيني

والنفسُ إنْ صَلَحَتْ زَكَتْ، وإذا خَلَتْ مِن فِطنةٍ لعبتْ بها الأهواءُ

النفس الصالحة تزكو (تسمو وتنمو)، وإذا خلت من الفطنة تميل مع شتى الأهواء

كيف الوثوقُ بذِمَّةٍ مِن صاحبٍ وبِكُلِّ قلبٍ نُقطةٌ سوداءُ؟

كيف أثق بصاحب وكل امرئ له قلب وكل قلب فيه نقطة سوداء (يشير إلى تعبير سويداء القلب أي وسطه/ إن فلقت قلب دجاجة رأيت النقطة السوداء)

فانفُضْ يديْكَ مِن الزمانِ وأهلِه فالسعيُ في طلبِ الصَّديقِ هَبَاءُ

٢ الصغيرة الواسعة

قال يمدح الخديوي عباس حلمي الثاني:

أَوْلَيْتَنِي منكَ الرضا، وجَلَوْتَ لِي ... وجهاً قرأتُ البِشْرَ في أثنائِهِ

أوليتني: منحتني، جلوت لي: بينت لي

العدلُ مِنْ أخلاقِهِ، والعلمُ مِنْ ... أوصافِهِ، والحِلْمُ مِن أسمائِهِ

هذا الخديوي عادل عالم حليم، والحلم من أسمائه إشارة إلى اسمه المركب «عباس حلمي»

لا غَرْوَ أنْ جمعَ المَحامِدَ يافِعاً ... وسما بِهِمَّتِهِ على نُظَرائِهِ

لا غرو: لا عجب، يافعاً: فتى، وارتفع بهمته (طموحه) على أقرانه

فالعينُ وَهْيَ صغيرةٌ في حجْمِها ... تَسَعُ الفضاءَ بِأرضِهِ وسمائِهِ

فهو في صغره واسع المعرفة والطموح، ولا عجب فالعين على صغرها ترى الأرض والسماء فكأنها تسعهما

٣ في الواقع.. هي نار

قال يذكر أياماً مضت له بالجيزة:

حمراءُ دارَ بها الحَبابُ، كأنَّها ... شَفَقٌ بَدَتْ فيهِ نجومُ سماءِ

خمر حمراء دار على وجه كأسها الحباب (الفقاقيع)، فكأن الخمر بحمرتها شفق الشمس عند المغيب، وكأن الفقاقيع نجوم تتلألأ

وإذا رجعتَ إلى اليقينِ فإنَّها ... نارٌ تَحَلَّلَ جسمُها في ماءِ

وفي الواقع فالخمر بلونها الأحمر ومذاقها اللاسع كالنار، وعند مزجها بالماء فكأن جسمها يتحلل فيه

تَجرِي فتفعَلُ بالعقولِ كؤوسُها ... ما تفعلُ الألحاظُ بالأحشاءِ

التسويد لعمران القفيني

هِيَ جَمْرَةُ الفُرْسِ التي سجدتْ لها ... أَمْلاكُها في سالِفِ الآناءِ

الخمر كنار المجوس التي كان يسجد لها أملاكها (ملوكها) في سالف الآناء (الأزمان)

أنا في زمانٍ غادرٍ، ومَعَاشِرٍ ... يَتلوَّنونَ تَلَوُّنَ الحِرباءِ

شَقِيَ ابنُ آدَمَ في الزمانِ بعقلِه ... إن الفضيلةَ آفةُ العُقلاءِ

٤ حفل زفاف

أَلَا عاطِنيها بنتَ كَرْمٍ تَزوَّجَتْ … على نَغَماتِ العودِ بِابنِ سماءِ

عاطنيها (بادلني كؤوسها) بنت كَرْم (معصورة من عنب الكروم) وقد مزجت بالماء الذي هو ابن السماء، وهكذا تزوجت بنت الكرم ابن السماء على نغمات العود في مجلسنا هذا

إذا اتَّقَدتْ في الكأسِ خِلْتَ وَميضَها … على وَتَراتِ الكَفِّ نَضْحَ دِمَاءِ

تشتعل الخمر في الكأس بلونها الأحمر وتظن وميضها إذ ينعكس على وترات الكف (الجلد الذي بين الأصابع) نضح دماء (دم مرشوش)

أبـي آدَمٌ باعَ الجِنانَ بِحَبَّةٍ … وبِعْتُ أنا الدنيا بِجَرْعَةِ ماءِ

آدم أخرجته من الجنة تفاحة، وأنا بعت دنياي بشربة ماء (يعبث بالتعبير العامي، وهنا تورية لطيفة، فشربة الماء هي الخمر، وهي أيضاً أنه باع الدنيا بسهولة.. بشربة ماء). التسويد لعمران القفيني

٥ إلا أقلهم

ومِنَ الناسِ مَنْ تَراهُ سَليماً … وبه لِلْحُقودِ داءٌ عَياءُ

سليماً: بريئاً، الحقود: الأحقاد، داء عياء: أعيا الأطباء

فاحْذَرِ الناسَ ما استطعْتَ فإنَّ النَّـ … ـاسَ، إلَّا أَقَلَّهُمْ، أَعداءُ

٦ سواي

قال في صباه يَرُوض القول:

سِوايَ بِتَحْنَانِ الأَغاريدِ يَطربُ … وغيرِيَ باللَّذاتِ يلهو ويُعْجَبُ

لست أنا من يهتم بالأغاريد (الأغاني) وبالملذات.. فأنا أخو حرب وضرب

وما أنا مِمَّنْ تَأْسِرُ الخمرُ لُبَّهُ … ويملِكُ سَمْعَيْهِ اليَراعُ المُثَقَّبُ

ولا تستولي الخمر على قلبي (يشربها لكن دون أن يكون عبداً لها)، ولا يستولي على سمعي اليراع المثقب (القصبة ذات الثقوب، أي الناي، أي الموسيقى)

ولكنْ أَخُو هَمٍّ، إذا ما تَرَجَّحَتْ … به سَوْرَةٌ نحوَ العُلا راحَ يَدْأَبُ

لكنني أخو هم (صاحب طموح) إذا ترجحت به (تأرجحت) سورة (فورة نشاط وغضب) تؤدي نحو المجد فهو يحث خطاه

نفَى النومَ عن عَينيْهِ نفسٌ أَبِيَّةٌ … لها بينَ أطرافِ الأَسِنَّةِ مَطْلَبُ

أسهرته نفسه الأبية (الرافضة لما يشين) التي تجد مطلبها في الكفاح بين الأسنة (أطراف الرماح)

وَمَن تَكُنِ العَلياءُ هِمَّةَ نفسِه فكلُّ الذي يَلقاهُ فيها مُحَبَّبُ

من تكن العلياء (المجد) همة نفسه (طلبه ومطمحه) أحب الصعوبات التي يلقاها في سبيل الوصول

إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها فَلا عَزَّني خَالٌ، ولا ضَمَّني أَبُ

إذا لم أبذل للمكارم (الأمجاد) ما تستحق من جهد فليس لي أن أعتز بأخوال ولا أعمام

ولا حملتْ دِرعي كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ولا دارَ في كفِّي سِنانٌ مُذَرَّبُ

ولا معنى لركوبي، لابساً درعي، الكميت (الفرس الداكنة اللون) الطمرَّة (الفرس العالية)، ولا لحملي الرمح ذا السنان المدبب الحاد

خُلِقْتُ عَيُوفاً لا أَرى لابْنِ حُرَّةٍ لَدَيَّ يَداً أُغضي لها حين يَغْضَبُ

خلقت عيوفاً (أبياً) لا أرى لأحد يداً علي (فضلاً يمن به) بحيث أغضي (أطأطئ رأسي) عند غضبه

فلستُ لِأمرٍ، لم يكنْ، مُتَوَقِّعاً ولستُ على شيءٍ مضى أَتَعَتَّبُ

لا أترقب بخوف أمراً لم يحدث بعد، ولا أتعتب (أتذمر) على شيء حدث وانتهى

أسيرُ على نهجٍ يرى الناسُ غيرَه، لكل امْرِئٍ فيما يحاولُ مَذهَبُ

طريقي خلاف ما يرى الناس، ولكل إنسان في تحقيق أغراضه طريق

وبَحْرٍ مِنَ الهيْجاءِ خُضْتُ عُبَابَهُ ولا عَاصِمٌ إلَّا الصَّفيحُ المُشَطَّبُ

ورب هيجاء (حرب) كأنها البحر، وقد خضت عبابه (موجه) إذ لم يكن هناك ما يعصم المرء (يقيه) إلا الصفيح المشطب (السيف ذو الحزوز)

تظلُّ به حُمْرُ المنايا وسُودُها حَواسِرَ في أَلوانِها تتقلَّبُ

وبحر الحرب هذا فيه المنايا الحمر والسود (الموت جرحاً أو خنقاً)، وهذه الميتات حواسر (كاشفة رؤوسها) وتتقلب بين المتحاربين آخذة هذا وذاك

تَوَسَّطْتُهُ والخيلُ بالخيلِ تلتقي وبِيضُ الظُّبَا في الهَامِ تبدُو وتَغْرُبُ

دخلت وسط القتال حيث الخيل تلتقي بالخيل، وحيث بيض الظبا (شفرات السيوف) تظهر ثم تغرب (تغيب) داخل الرؤوس

فما زِلْتُ حتى بَيَّنَ الكَرُّ مَوقِفي لدى ساعةٍ فيها العقولُ تَغَيَّبُ

ظللت في المعمعة أقاتل حتى بدأ الكر (التقدم) فشوهدتُ هاجماً بعد إذ كنت مختفي الشخص في الالتحام، وهذه ساعة تغيب فيها العقول لهولها

لَدُنْ غُدْوَةٍ حتى أَتى الليلُ، والتَقى على غَيْهَبٍ مِن سَاطِعِ النَّقْعِ غَيْهَبُ

هذا عند غدوة (باكراً). . ثم استمر القتال حتى الليل فالتقى غيهب (ظلام) ساطع النقع (الغبار المرتفع) بظلام الليل

يَوَدُّ الفتى ما لا يكونُ طَمَاعَةً ولم يَدْرِ أن الدهرَ بالناسَ قُلَّبُ

المرء يتمنى ما لا يكون (المستحيل) طمعاً، غير مدرك أن الزمن يتقلب بالناس

ولو عَلِمَ الإنسانُ ما فيه نَفْعُه لأَبصَرَ ما يأتي وما يَتَجَنَّبُ

ولو علم المرء سلفاً الأمر الذي فيه فائدة له، لكان عرف ما الذي يجب أن يأتيه (يفعله) وما الذي يجب أن يتجنبه. التسويد لعمران القفيني

٧ ذو الهيبة والبديهة

في مدح الخديوي إسماعيل:

ذو هَيْبَةٍ تكفيهِ سَوْقَ جنودِه وبَديهةٍ تُغني عن التَّجريبِ

له هيبة لا حاجة به معها إلى أن يقود الجنود ليحارب عدواً، فالعدو لا يجرؤ على تحديه أصلاً، وله بديهة (فكر فطري) يجعله يدرك الأمور قبل أن يجربها

٨ نعاشر من لقينا

قال يذكر أيام الشباب:

زمانٌ كلَّما لاحَتْ بِفِكري مَخايِلُهُ بَكَيْتُ لِفَرْطِ ما بي

مخايله: صوره المنطبعة في الخيال

مَضى عنِّي وغادرَ بي وَلُوعاً تَوَلَّدَ منه حُزني واكتِئابي

الوَلوع، ونقول اليوم الوُلوع، وهي أقيس: شدة التعلق

وكيف تَلَذُّ بعد الشَّيْبِ نفسي وفي اللَّذاتِ إنْ سَنَحَتْ عذابي

إن أتيحت الملذات وجدتها تعذبني لأنني شبت

أَصُدُّ عن النَّعيمِ صُدودَ عَجْزٍ وأُظْهِرُ سَلْوَةً، والقلبُ صَابِ

أتجنب الحياة المرفهة عجزاً عن الاستمتاع بها، وأبدي سلوة (انصرافاً عنها)، مع أن قلبي يصبو (يحن)

حَلَبتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ مَلِيَّاً وذُقتُ العيشَ مِنْ أَرْيٍ وصَابِ

حلبت الدهر أشطره (تمرست واحتنكت) ملياً (كثيراً)، وذقت الأري (العسل) والصاب (المرّ)

فما أبصرتُ في الإخوانِ نَدْباً يَجِلُّ عنِ المَلامَةِ والعِتابِ

لم أجد في الأصدقاء ندباً (مبادراً للنصرة) يرتفع قدره عن اللوم والعتب

ولـكـنَّـا نُـعـاشِـرُ مَـنْ لَـقِـينـا عـلـى حُكْـمِ الـمُـروءَةِ والتَّـغَـابـي

نعاشر من نلقى ونستعمل معهم المروءة والتغابي (التغاضي بادعاء الغباء)

٩ انتهاء العمران بدء الخراب

قال وهو بسَرَنْدِيب يتشوق إلى مصر، ويرثي صديقه الشيخ حسيناً المَرْصَفِيّ، وعبد الله باشا فكري:

كـلُّ شـيءٍ يَـسْـلُـوهُ ذو الـلُّـبِّ إلَّا مـاضِـيَ الـلَّـهْـوِ فـي زمـانِ الـشـبـابِ

ينصرف العاقل عن كل شيء إلّا ذكرى لهوه في شبابه

فـلـئِـنْ زالَ، فـاشْـتـيـاقـي إلـيـهِ، مِـثْـلُ قـولـي، بَـاقٍ عـلـى الأَحْـقـابِ

زال الشباب ولكن اشتياقي إليه باق على مرور الأزمان، وكذا شعري.. فشعري باقٍ على الزمان

يـا نَـديـمَـيَّ مِـنْ «سَـرَنْـدِيـبَ» كُـفَّـا عـن مَـلامـي، وخَـلِّـيَـانـي لِـمَـا بـي

سرنديب: جزيرة سيلان، وهي دولة سريلانكا، وكان البارودي منفياً فيها

كـيـف لا أَنْـدُبُ الـشـبـابَ وقـد أَصْـ ـبَـحْـتُ كَـهْـلاً فـي مِـحْـنَـةٍ واغـتـرابِ

أَخْـلَـقَ الـشـيـبُ جِـدَّتـي، وكَـسـانـي خِـلْـعَـةً مـنـه رَثَّـةَ الـجِـلـبـابِ

أخلق (أبلى، وهرأ/ من الاهتراء) الشيب ما كان جديداً من جسمي ونفسي، وكساني خلعة (ثوباً) رثة (مهترئة)

ولَـوى شَـعـرَ حَـاجِـبَـيَّ عـلـى عـيْـ ـنَـيَّ، حـتَّـى أَطَـلَّ كـالـهُـدَّابِ

الهَداب: الشراشيب، الخيوط المتدلية من أطراف النسيج

لا أرى الـشـيْءَ حـيـن يَـسْـنَـحُ إلَّا كـخـيـالٍ كـأَنَّـنـي فـي ضَـبـابِ

أرى الأشياء حين تسنح (تبدو) خيالاً كأن حولي الضباب لضعف بصري

وإذا مـا دُعِـيـتُ حِـرْتُ كـأَنِّـي أَسـمـعُ الـصـوتَ مِـن وراءِ حِـجـابِ

إذا ناداني أحد تحيرت لا أعرف مصدر الصوت، كأنه يناديني من وراء ستر

كـلَّـمـا رُمْـتُ نَـهـضَـةً أَقـعَـدَتْـنـي وَنْـيَـةٌ لا تُـقِـلُّـهَـا أعـصـابـي

إذا رمت (ابتغيت) نهضة (قياماً) أقعدتني ونية (ضعف) لا تحتملها أعصابي

لـم تَـدَعْ صَـوْلَـةُ الـحـوادثِ مِـنِّـي غـيـرَ أَشـلاءِ هِـمَّـةٍ فـي ثـيـابِ

هجمة الحوادث (المصائب) علي تركتني أشلاء همة (بقايا عزيمة)

فَجَعَتْني بِوَالِدَيَّ، وأَهلي ثم أنحَتْ تَكُرُّ في أَتْرابي

فجعتني المصائب بأبوي وأهلي، ثم أنحت (مالت) تكر (تهجم) على أترابي (من هم في سني، لداتي)

أينَ مِنّي (حُسَينُ) بَلْ أينَ (عبدُ الـ ـلـهِ) ربُّ الكمالِ والآدابِ؟
لم أجِدْ منهما بَديلاً لِنفسي غيرَ حُزني عليهِما واكتئابي

ليس لي من يعوضني عن فقدهما، وبقي لي منهما الحزن والاكتئاب

قد لَعَمري عرفتُ دهري، فأنْكَرْ تُ أُموراً ما كُنَّ لي في حِسابِ
وتَجَنَّبْتُ صُحبةَ الناسِ حتى كانَ عَوْنَاً على التُّقَاةِ اجتِنابي

اجتنابي الناس أعانني على التقوى

لا أُبالي بِما يُقالُ، وإن كُنْـ ـتُ مَلِيَّاً بِرَدِّ كلِّ جوابِ

ملياً: قادراً

قد كفاني بُعدي عن الناسِ أنّي في أمانٍ مِن غِيبةِ المُغْتابِ
ليس يَخفَى عليَّ شيءٌ، ولكِنْ أتغَابَى، والحَزْمُ إِلْفُ التَّغَابي

الحصافة مصاحبة للتغابي، فمن أراد أن يكون حازماً فعليه أن يتغاضى عن السفاسف، وهو مدرك إياها

وكَفَى بِالمشيبِ، وَهْوَ أخُو الحَزْ مِ دَليلاً إلى طريقِ الصَّوابِ
إنَّما المرءُ صورةٌ سوف تَبْلَى وانتهاءُ العُمْرانِ بَدْءُ الخَرابِ

١٠ سبب فيضان النيل

قال بَرُوض القول:

إذا لم تُعينوني وأنتُمْ عشيرتي فسيرُوا، وخَلُّوني، فلستُ بِذاهِبِ
إذا المرءُ لم يَنصُرْ أخاه بِنفسِه لدى كلِّ مكروهٍ فليسَ بِصاحبِ
لَعَمْرُكَ ما في الأرضِ، وَهْيَ رَحيبةٌ كَغِزْلانِ هذا الحَيِّ عُذْرٌ لِناسِبِ

ليس في الدنيا على اتساعها من عذر للناسب (المتغزل) مثل غزلان (فتيات) هذا الحي (هؤلاء القوم). فمن يتغزل معذور لفرط جمالهن

فَلا تَطلُبَنَّ الحُسْنَ في غيرِ أهلِهِ فأَبْدَعُ ما في الأرضِ حُسْنُ الأَعارِبِ
فَهُنَّ الأُلَى عَوَّدْنَ قلبي على الهوى وأخلَفْنَ ظَنّي بالعِدَاتِ الكَواذِبِ

عودن قلبي على الهوى، ثم أعطينني الوعود الكاذبة

ومــا زَادَ مــاءُ الـنــيـلِ إلَّا لِأَنَّــنــي وقفتُ به أَبْكي فِراقَ الحَبائبِ

يقول إن دموعه رفعت منسوب مياه النيل. أواثق يا محمود باشا من هذا؟ مبالغة قد يراها بعضهم سمجة، لكنها جارية على طريقة القدماء في صنع صورة كاريكاتيرية

١١ ملكت حلمي

وقال وهو بسرنديب:

أَضَعْتُمونِي وكانَتْ لِي بِكُمْ ثِقَةٌ متَى خَفَرْتُمْ ذِمَامَ العهدِ يا عَرَبُ؟

خفرتم ذمام العهد: نقضتم العهد

أَبيتُ في غُربةٍ لا النفسُ راضيةٌ بِها، ولا المُلْتَقَى مِن شِيعَتي كَثَبُ

أصبحت في غربة فلا نفسي راضية، ولا اللقاء بشيعتي (أصحابي) كثب (قريب)

فلا رفيقٌ تَسُرُّ النفسَ طلعتُه ولا صديقٌ يَرى ما بي فيكتَئِبُ

فَهل دِفاعِيَ عن دينِي وعن وطني ذَنْبٌ أُدَانُ به ظُلْماً وأَغْتَرِبُ؟

فلا يَظُنَّ بِيَ الحُسَّادُ مَنْدَمَةً فإنني صابرٌ في اللَّهِ مُحْتَسِبُ

مندمة: ندم، محتسب: راض بنيل الثواب من الله

لا يَخْفِضُ البُؤْسُ نَفساً وَهْيَ عَالِيةٌ ولا يُشيدُ بِذكرِ الخامِلِ النَّشَبُ

الخامل: غير المعروف، النشب: المال

إنِي امْرُؤٌ لا يَرُدُّ الخَوفُ بَادِرتي ولا يَحيفُ على أَخلاقِيَ الغَضبُ

بادرتي: إقدامي، يحيف: يجني وينتقص

مَلَكْتُ حِلْمِي فلم أَنْطِقْ بِمُنْدِيَةٍ وصُنْتُ عِرضِي فلم تَعْلَقْ بِهِ الرِّيَبُ

مندية: كلمة مخجلة يندى لها الجبين، الريب: الشبهات

١٢ في المعركة

ولـمَّا تَداعَى القومُ، واشتَبَكَ القَنا ودارتْ كما تَهوى على قُطْبِها الحربُ..

لما دعا القوم بعضهم بعضاً، واشتبكت القنا (الرماح)، ودارت الحرب كما تهوى الحرب (دون أن يتحكم بها أحد) على قطبها (محورها) مثلما تدور الرحى فتطحن..

وزُيِّنَ لِلناسِ الفِرارُ مِن الرَّدَى ومَاجَتْ صُدورُ الخيلِ، والتَهَبَ الضَّرْبُ..

زين للناس الفرار (صار حسناً في عيونهم الهرب) من الموت، وصارت صدور الخيل تتلاقى كالموج، واشتد الضرب بالسيوف..

ودارَتْ بِنـا الأرضُ الـفَـضَـاءُ كـأنَّـنـا سُقِينا بِكأسٍ لا يُفِيقُ لها شَرْبُ. .
. . ودارت بنا الأرض الفضاء (الواسعة) كأننا سقينا بكأس لا يصحو لها شرب (شاربون). .

صَبَرتُ لها حتى تجلَّتْ سماؤُها وإنـي صَبـورٌ إنْ أَلَـمَّ بِيَ الـخَـطْـبُ
عندئذ صبرت حتى انجلت سماء المعركة وركد غبارها، وأنا صبور إن ألم بي (عرض لي) خطب ومصيبة

١٣ الجود بالنفس والمال

لا يُدركُ المجدَ إلَّا مَن إذا هَتَفَتْ به الـحَمِيَّةُ هَزَّ الرمحَ وانتَصَبا
يستَسْهِلُ الصَّعبَ إن هاجَتْ حفيظَتُه ولا يُشاوِرُ غيرَ السيفِ إن غَضِبا
حفيظته: غضبه

إن حَلَّ أرضاً حَمَى بالسيفِ جانبَها وإن وَعَـى نَبْـأَةً مِـن صَـارِخٍ رَكِبـا
إن وعى نبأة (سمع صوتاً خفيفاً) يطلب النجدة، ركب حصانه لتلبية النداء

فَذَاكَ إنْ يَحْيَ تَحْيَ الأرضُ في رَغَدٍ وإنْ يَمُتْ ينْقَلِبْ صِدْقُ المُنى كَذِبا
فاحْمِلْ بِنفسِكَ تبلُغْ ما أَردْتَ بها فالليثُ لا يَرهَبُ الأَخطارَ إن وَثَبا
لا يَقعُدُ البطلُ الصِّنْديدُ عن كَرَمٍ مَنْ جادَ بالنفسِ لم يبْخَلْ بِمَا كَسَبا
الصنديد (الشجاع) لا يقعد (لا يتوانى) عن كرم، فمن يجود بروحه لا يبخل بماله

١٤ صوني القناة

أَفَتَّانَةَ العينينِ كُفِّي عن القَلْبِ وصُونِي حِمَاهُ، فَهْوَ مَنزِلَةُ الحُبِّ
منزلة: موضع

ولا تُسْلِمِي عينيَّ للسُّهْدِ والبُكا فإنَّـهُـما مَجرَى هَواكِ إلى قَلْبي

١٥ يا حُسنَه من حديث

قالتْ، وقد سمِعَتْ شِعري فَأعجَبَها: إنـي أخـافُ عـلى هَـذا الـغُلامِ أَبي
تخاف عليه من سطوة أبيها

أَراهُ يهتِفُ بِاسمِي غيرَ مُكْتَرِثٍ ولو كَنَى لم يَدَعْ لِلظَّنِّ مِنْ سَبَبِ
لو كنى: لو تحايل ولم يذكر الاسم صراحةً

فكيف أصنَعُ إنْ ذاعَتْ مَقالَتُه ... ما بين قَومي، وهُمْ مِنْ سَادَةِ العَرَبِ؟
فنَازَعَتْها فتاةٌ مِنْ صَواحِبِها ... قَولاً يُؤَلِّفُ بين الماءِ واللَّهَبِ
نازعتها (خالفتها) صديقتها بقول توفيقي يجمع بين المتناقضين

قالتْ دَعيهِ يَصُوغُ القولَ في جُمَلٍ ... مِنَ الهوى، هِيَ آياتٌ مِنَ الأَدَبِ
وما عليكِ وفي الأَسماءِ مُشْتَرَكٌ ... إن قالَ في الشِّعْرِ يا لَيْلَى ولم يَعِبِ؟
يَا حُسْنَهُ مِنْ حَديثٍ شَفَّ باطِنُهُ ... عن رِقَّةٍ أَلْبَسَتْني خِلْعَةَ الطَّرَبِ
ما أجمل حديث صاحبتها

١٦ النائحات

قال وقد مرَّ بصحراء القرافة، فرأى نسوة ينُحْنَ على ميت:

رأيْتُ بصحراءِ القَرافَةِ نِسْوَةً ... نَوازِعَ، لا يَأْوِينَ حُزْناً إلى بَيْتِ
نوازع: خارجات من بيوتهن

يَنُحْنَ على مَيْتٍ سَيَتْبَعْنَ إِثْرَهُ ... ومِنْ عَجَبٍ مَيْتٌ يَنوحُ على مَيْتِ

١٧ براعة بلا براهين

قال يمدح النبي ﷺ:

أَبِيتُ أَرعَى نجومَ الليلِ في ظُلَمٍ ... يخشَى الضلالَةَ فيها كلُّ مُدَّلِجِ
أراقب النجوم في ظلمات ليل يخشى أن يضل فيه كل مدلج (سائر ليلاً)

كأنَّ أَنْجُمَهُ والجَوُّ مُعْتَكِرٌ ... غِيدٌ بِأَخْبِيَةٍ ينظُرْنَ مِنْ فُرَجِ
كأن النجوم والجو معتكر (مسود) عيون الغيد (الحسان) وهن ينظرن من فرج (شقوق) الأخبية (الخيام)

ليلٌ غَياهِبُهُ حَيْرَى، وأَنْجُمُهُ ... حَسْرَى، وسَاعاتُه في الطُّولِ كالحِجَجِ
ليل غياهبه (ظلماته) حيرى، أي يتحير فيها المرء، ونجومه حسرى (متعَبة)، أي تتعب في مراقبتها العين، وساعاته طويلة كأنها الحجج (السنوات)

فَلَيْتَ مَن لامَني لانَتْ شَكيمَتُهُ ... فَكَفَّ عنِّي فُضُولَ المَنطِقِ السَّمِجِ
ليت اللائم لانت شكيمته (خفف تشدده)، فكف عني فضول المنطق (أي الزائد من الكلام)

هَيهاتَ يَسْلُكُ لَوْمُ العَاذِلينَ إلى ... قلبٍ بِحُبِّ رسولِ اللَّهِ مُمْتَزِجِ

يا رَبِّ بِالمُصطَفَى هَبْ لِي، وإنْ عَظُمَتْ جَرائِمي، رَحمةً تُغني عن الحُجَجِ

أعطني يا رب، بشفاعة النبي، رحمة تغنيني عن تقديم الحجج (البراهين على براءتي) مهما كبرت ذنوبي

ما لي سِواكَ وأنتَ المُسْتعانُ، إذا ضاقَ الزِّحامُ غَداةَ المَوقِفِ الحَرِجِ

ما لي سوى شفاعة النبي في زحمة الموقف الحرج (يوم القيامة)

١٨ حسام الفجر

قال يوازن قصيدة ابن النبيه (يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت):

خَفَّتْ مَعاطِفُها لَكِنْ رَوادِفُها بمثلِ ما حَمَّلَتْني في الهَوى رَجَحَتْ

معاطفها (خصرها) رقيقة، وأردافها ثقيلة وراجحة مثل الهم الذي حملتني إياه في حبها

وليلةٍ سالَ في أعقابِها شَفَقٌ كأنَّها بِحُسَامِ الفجرِ قد ذُبِحَتْ

ليلة جاء بعدها شفق (غسق، النور الخفيف المؤذن بالفجر) كأنه دم سال عندما ذبح سيف الفجر ظلمة الليل

طَالَتْ وقَصَّرَها لَهْوي بِغانِيةٍ إن أعرَضَتْ قَتَلَتْ، أو أقبَلَتْ فَضَحَتْ

طالت الليلة وأحسست أنها قصيرة وأنا ألهو مع غانية (جميلة)، إعراضها يقتلني وإقبالها علي يفضحني (يفضح شهواتي، أو يفضحني بين الناس)

دَارتْ علينا بها الكاساتُ مُتْرَعَةً بِخمْرةٍ لو بَدَتْ في ظُلْمَةٍ قَدَحَتْ

مترعة: مملوءة

١٩ ابنة الفرح

قال على وزن مخترع:

إمْــــلَإِ الــــقَــــدَحْ واغْــــصِ مَــــن نَــــصَــــحْ
وارْوِ غُــــلَّــــتــــي بِــــابْــــنَــــةِ الــــفَــــرَحْ

غلتي: عطشي

وَهْــــيَ إنْ سَــــرَتْ فــــي الــــعَــــلــــيــــلِ صَــــحّ

٢٠ روح بلا جسد

وقال في الروح بعد مفارقة الجسم:

بلغتِ مَداكِ مِنْ أرَبٍ فَسيحِي فَأنتِ اليومَ في جَوٍّ فَسيحِ

بلغت أيتها الروح، بعد موت الإنسان، أقصى المدى من أربك (مبتغاك) فانطلقي

فَعَادَتْ صورةُ الجُثمانِ عُطْلاً   لِفَقْدِكِ مِثلَ دينارٍ مَسيحِ
أصبح الجسم معطلاً من روحه، فهو كالدينار الذهبي المسيح (الممسوح، فلا كتابة ولا صورة عليه)

فَليتَكِ تَرجِعينَ لَنا بِصِدْقٍ   يُباغِتُ كلَّ خَتَّالٍ مَسيحِ
ليتك ترجعين للجسم في البعث فيفاجأ كل منكر ختال (ماكر) مسيح (دجال)

بِربِّكِ هل وجدتِ كما وَجَدْنا   خِلافاً بينَ أحمدَ والمسيحِ؟
سؤال للروح: هل ثمة فعلاً خلاف بين دين أحمد، الإسلام، ودين المسيح؟

٢١ عش عزيزاً

قال يفخر ويعرِّض بالمظالم على عهد الحكومة الاستبدادية:

رضيتُ مِن الدنيا بما لا أَوَدُّهُ   وأيُّ امرِئٍ يَقْوَى على الدهرِ زَنْدُهُ
رضيت من الدنيا بما لا أرغب فيه فعلاً، وليس هناك إنسان يستطيع زنده (ذراعه) أن يلوي ذراع الدهر

أُحاولُ وَصْلاً، والصُّدودُ خَصيمُهُ   وأَبْغي وَفاءً والطبيعةُ ضِدُّهُ
أحاول وصل المليحة، ولكن الصدود يعترضني، وأطلب الوفاء ولكن طبع الأشياء ضد الوفاء

حَسبتُ الهوى سهلاً، ولم أَدْرِ أنَّهُ   أَخُو غَدَراتٍ يَتْبَعُ الهَزْلَ جِدُّهُ
وما الحبُّ إلَّا حاكِمٌ غيرُ عادلٍ   إذا رامَ أمراً لم يجِدْ مَن يصُدُّهُ
لَعَمْري لقد ولَّى الشبابُ، وحلَّ بي   مِنَ الشيبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مَرَدُّهُ
حل بي من الشيب خطب (مصيبة) لا سبيل إلى مقاومته

وكيف أَلومُ الناسَ في الغَدْرِ بَعدَما   رأيتُ شبابي قد تغيَّرَ عَهْدُهُ؟
كيف ألوم الناس على الغدر وشبابي غدر بي، وذهب

أُطالِبُ أيّامي بما ليس عندَها   ومَنْ طلبَ المَعدُومَ أَعياهُ وَجْدُهُ
أعياه وجده: أعجزه إيجاده والعثور عليه

أَبَى الدهرُ إلَّا أنْ يَسُودَ وَضيعُهُ   ويَملِكَ أَعناقَ المَطالِبِ وَغْدُهُ
أبى الدهر إلا أن يجهل الوضيع يصبح في موقع سيادة، وأن يتحكم الوغد في الأرزاق

إذا المرءُ لم يَدفَعْ يَدَ الجَوْرِ إنْ سَطَتْ   عليهِ، فلا يَأْسَفْ إذا ضاعَ مَجْدُهُ
من لم يقاوم يد الجور (الظلم) عندما تسطو عليه فلا يأسفنَّ عندما يضيع مجده

وأَقْتَـلُ دَاءٍ رُؤْيَـةُ الـعيـنِ ظـالـمـاً يُسيءُ ويُتْلَى في المحافِلِ حَمْدُهُ

مما يؤذي المرء أن يرى ظالماً مسيئاً ومع ذلك يشيدون به في المجالس

عَفَاءٌ على الدنيا إذا المرءُ لم يَعِشْ بهـا بطـلاً يَحمـي الحقيـقةَ شَدُّهُ

عفاء على الدنيا (لتذهب إلى الجحيم) إذا لم يعش المرء بطلاً يحمي شدُّه (إقدامه) الحقيقة (الشرف)

أَبَتْ لـيَ حَمـلَ الـضَّيْـمِ نفسٌ أَبِيَّةٌ وقـلـبٌ إذا سِيـمَ الأذى شَـبَّ وَقْدُهُ

نفسي الأبية ترفض تقبل الظلم، وقلبي إذا سيم الأذى (تعرض للأذى) شبت ناره غضباً

وحَسْبُ الفتى مجداً إذا طالَبَ العُلا بـمـا كـانَ أوصَـاهُ أبُـوهُ وجَـدُّهُ

كفى المرء مجداً أن يطلب من المكارم ما كان أوصاه به أبوه وجده

أَصُدُّ عنِ الـمَرمَى الـقَريبِ تَرَفُّعاً وأَطلُبُ أمراً يُعْجِزُ الطيرَ بُعْدُهُ

أترك المرامي (الأهداف) السهلة مترفعاً عنها، وأطلب البعيد العالي الذي لا يصل إليه الطير في سمائه

ولا بُدَّ مِنْ يومٍ تَلاعَبُ بِالقَنا أُسُودُ الوَغَى فيهِ وتَمْرَحُ جُرْدُهُ

لا بد من يوم تتلاعب بالرماح فيه أسود الوغى (الحرب)، وتمرح الجرد (الخيل)

يُـمَـزِّقُ أسـتـارَ الـنَّـوَاظِـرِ بَـرْقُـهُ ويَـقرعُ أَصدَافَ الـمَسَامِعِ رَعْدُهُ

لمعان السيوف يمزق أستار النواظر (العيون) والعيون مستورة بغبار المعركة، ويقرع رعد الضرب صواوين الآذان التي كالأصداف

تُـدَبِّـرُ أَحـكـامُ الـطِّـعَـانِ كُـهُـولُـهُ وتَـمْـلِـكُ تـصـريـفَ الأَعِـنَّـةِ مُـرْدُهُ

الكهول يدبرون سير المعركة، والمرد (الشباب الذين لم تنبت لحاهم بعد) يصرفون الأعنة (يتحكمون في مقاود الخيل). أي أن التخطيط للكهول والقتال للشباب

فإِمَّا حياةٌ مثلُ ما تشتهي العُلا وإِمَّا رَدىً يَشْفي مِنَ الداءِ وَفْدُهُ

إما حياة عزيزة ترضى عنها المكارم، وإما موت يشفي وفده (قدومه) ما بالنفس من حمية ضد الظلم

٢٢ مسحتها وخلبتها

وقال على روي قصيدة النابغة الذبياني التي أولها «أمن آل مية رائح أو مغتد»:

قالوا غداً يومُ الرحيلِ، ومَنْ لَهُمْ خوفَ التَّفَرُّقِ أن أعيشَ إلى غَدِ؟

قالوا سيرحلون غداً، فقلت إنني لشدة خوفي من فراقهم قد لا أعيش إلى يوم الغد

هِيَ مُهْجَةٌ ذَهَبَ الهوى بِشِغَافِها ... مَعْمُودَةٌ، إن لم تَمُتْ فَكَأَنْ قَدِ

مهجتي (قلبي) ذهب الهوى بشغافها (غشاء القلب) وهي معمودة (منهوكة حباً) إن لم تمت نفسي فكأنْ قد (كادت)

يَا أَهلَ ذا البيتِ الرَّفيعِ مَنَارُهُ ... أَدْعوكُمُ يا قَومُ دَعْوَةَ مُقْصَدِ

يا أهل البيت العالي أدعوكم دعوة رجل مقصد (مصاب بطعنة)

إني فقدْتُ اليومَ بين بُيوتِكُمْ ... عقلي، فَرُدُّوهُ عَلَيَّ لأَهْتَدي

أو فاسْتَقيدوني ببعضِ قِيَانِكُمْ ... حتى تَرُدَّ إليَّ نَفْسي أَوْ تَدِي

استقيدوني (ادفعوا دية قلبي) بإعطائي بعض قيانكم (إحدى فتياتكم)، حتى ترجع لي نفسي أو تدي (تدفع الدية)

ولقد شَهِدْتُ الحربَ في إِبَّانِها ... ولَبِئْسَ راعي الحَيِّ إنْ لم أَشْهَدِ

شهدت الحرب في إبانها (في عزِّ التهابها)، وسأكون بئس راعي الحي (حامي القوم) لو لم أشهدها

بِمُضَمَّرٍ أَرِنٍ كَأَنَّ سَرَاتَهُ ... بعدَ الحَميمِ سَبيكَةٌ مِنْ عَسْجَدِ

شهدت الحرب بمهر مضمر (مدرَّب نحيل اكتملت عضلاته بالجري) أرن (ممراح) كأن سراته (ظهره) بعد الحميم (العرق) سبيكة عسجد (ذهب)، فجسمه يلمع مع العرق

خَلَصَتْ له اليُمْنَى وعَمَّ ثَلاثَةً ... منهُ البَياضُ إلى وَظيفٍ أَجْرَدِ

قائمته اليمنى خلصت من البياض، فلونها كلون سائر جسمه، والقوائم الثلاث الأخرى فيها بياض من الحافر حتى الوظيف (الساق تحت الركبة) الأجرد (ذي الشعر القصير)

فَكَأَنَّما انتَزَعَ الأَصيلَ رِداءَه ... سَلَباً، وخَاضَ مِنَ الضُّحَى في مَوْرِدِ

كأنه بلونه المحمر قد انتزع من الأصيل (وقت الغروب) رداءه سلباً (أي غنيمة)، وكأنه خاض شمس الضحى بدل أن يخوض مورد الماء، فلونه محمر على اصفرار

مُتَلَفِّتاً عن جانِبَيْهِ، يَهُزُّهُ ... مَرَحُ الصِّبَا كالشَّارِبِ المُتَغَرِّدِ

يتلفت بمرح كأنه شارب خمرة يترنم

فإذا ثنيْتَ له العِنانَ وجَذْتَهُ ... يَمْطُو كَسيدِ الرَّدْهَةِ المُتَوَرِّدِ

إن ثنيت عنانه (مقوده) وشددته فهو يمطو (يسير حثيثاً) كسيد الردهة (كذئب الرابية) المتورد (الوردي اللون)

وإذا أَطَلْتَ له العِنانَ رأيتَه ... يَطوي المَهَامِهَ فَدْفَداً في فَدْفَدِ

وإذا أرخيت مقوده أسرع وصار يطوي المهامه (الصحارى) فدفداً بعد فدفد (فلاة بعد فلاة)

نِعْمَ العَتادُ إذا الشِّفَاهُ تَقَلَّصَتْ ... يومَ الكَريهَةِ في العَجَاجِ الأَرْبَدِ

المهر خير عتاد (عدة الحرب) إذا اشتد القتال وتقلصت شفاه المحاربين لشدة التوتر في يوم الكريهة (الحرب) وسط العجاج (الغبار) الأربد (القاتم)

بل رُبَّ غانيةٍ طَرَقْتُ خِباءَها ... والنَّجمُ يَطْرِفُ عن لَواحِظِ أَرْمَدِ

رب غانية طرقت خباءها (أتيت خيمتها ليلاً) بينما النجم يرتجف كأنه لواحظ (عيون) شخص مصاب بالرمد تطرف

قالتْ وقد نظَرَتْ إليَّ: فَضَحْتَني ... فارجِعْ لِشأْنِكَ فالرجَالُ بِمَرْصَدِ

فَمَسَحْتُها حتَّى اطمَأَنَّ فؤادُها ... ونَفَيْتُ رَوْعَتَها بِرَأْيٍ مُحْصَدِ

مسحتها مثلما يمسح الحالب ضرع البقرة لتهدئتها عند الحلب، ونفيت روعتها (خوفها) برأي محصد (سديد). تعليق عمران القفيني: هل أنت متأكد أن البارودي كان يفعل هذا؟ الجواب: لعله!

وخَلَبْتُها بالقولِ حتَّى رُضْتُها ... وطَوَيْتُها طَيَّ الحَبيرَةِ باليدِ

وخلبتها (فتنتها) بالكلام حتى روضتها، ثم ضممتها كما يضم المرء الحبيرة (الثوب) بيدي. البيت أسقطه البارودي عندما جمع ديوانه، لكنه موجود في كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي

وخرجْتُ أَختَرِقُ الصُّفوفَ مِنَ العِدَا ... متَلَثِّمَاً والسيفُ يَلْمَعُ في يَدي

٢٣ سرى البرق

وقال وهو بأقريطش (جزيرة كريت) أيام الحرب يتشوق إلى مصر (١٨٦٥ م):

سرى البرقُ مِصرياً، فأرَّقَنِي وحدي ... وأَذْكَرني ما لستُ أنساهُ مِن عهدِ

سرى البرق (سار ليلاً) آتياً من مصر فسهرت له وحدي، وذكَّرني بعهود لن أنساها

فيا بَرقُ حدِّثني، وأنتَ مُصَدَّقٌ، ... عن الآلِ والأصحابِ: ما فعلوا بَعدي

٢٤ صؤول ضروب

وقال وهو في حرب الروس مع الدولة العثمانية ١٨٧٧م، وأرسل بها إلى الشيخ حسين المرصفي:

ومَن كان ذا نفسٍ كنفسي تصدَّعَتْ ... لِعِزَّتِه الدنيا، وذَلَّتْ له الأُسْدُ

يقول إن نفسه كبيرة شديدة عزيزة تتصدع (تتشقق وتتكسر) لها الدنيا وتذل الأسود

ومِن شِيَمي حبُّ الوفاءِ سَجِيَّةً ... وما خَيْرُ قَلْبٍ لا يدومُ له عَهْدُ

سجيتي وشيمتي (خُلقي وطبعي) الوفاء، وما خير (لا خير في) قلب لا يدوم له عهد

ولـكـنَّ إخْـوَانـاً بـمـصـرَ ورُفْـقَـةً   نَسُونا، فَلا عهْدٌ لدَيْهِمْ ولا وعْدُ
فيَا سَاكني الفُسْطَاطِ ما بالُ كُتْبِنا   ثَوَتْ عندَكُمْ شهراً وليس لها رَدُّ؟

الفسطاط: القاهرة القديمة، ثوت: قعدت

نَأَتْ بيَ عنكُمْ غُربةٌ، وتَجَهَّمَتْ   بِـوَجْـهِـيَ أيـامٌ خـلائِـقُـهَـا نُـكْـدُ

أبعدتني عنكم غربة، وكشرت بوجهي أيام خلائقها (طباعها) نُكد (مشاكسة)

أَدُورُ بِـعـيـنـيِ لا أَرى غـيـرَ أُمَّـةٍ   مِنَ الرُّوسِ بِالبَلقانِ يُخْطِئُها العَدُّ

الروس: يعني السلافيين بشكل عام

جَـواثٍ عـلـى هَـامِ الـجـبـالِ لِـغَـارَةٍ   يَطيرُ بـهـا ضَـوْءُ الـصـباحِ إذا يَبـدُو

هؤلاء القوم جواث (جاثون رابضون) على رؤوس الجبال مستعدون لغارة، يطيرون فيها من جبالهم مع بزوغ شمس الصباح

إذا نـحـن سِرْنـا صَرَّحَ الـشرُّ باسْـمِهِ   وصاحَ القَنا بِالموتِ، واسْتَقْتَلَ الجُندُ

إذا مشينا إلى أعدائنا غدا واضحاً أن شراً سيقع، واستدعى القنا (الرماح) الموت استدعاء، ورمى الجنود أنفسهم على الموت

إذا اشتَبَكُوا، أوراجَعُوا الزَّحْفَ، خِلْتَهُمْ   بُـحوراً تَـوالَـى بـيـنَـهـا الـجَـزْرُ والـمَـدُّ

ففي الاشتباك، وفي الكر والفر، تحسب جموع الجند مثل بحر يعتوره الجزر والمد

فـهُـمْ بـين مـقـتـولٍ طـريـحٍ، وهـاربٍ   طَـلـيـحٍ، ومَـأسـورٍ يُـجَـاذِبُـهُ الـقِـدُّ

الجنود موزعون بين مقتول مطروح أرضاً وبين فار طليح (مرهق) ومأسور يجاذب القد (القيد المصنوع من سير جلدي)

نَروحُ إلى الشُّورَى إذا أَقْبَلَ الدُّجَى   ونَغْدُو علـيْهِـمْ بِـالـمـنـايـا إذا نَـغْـدُو

في الليل نتشاور ونخطط، ونغدو (ننطلق صباحاً) ومعنا للأعداء المنايا (الموت)

ونَقْعٍ كَلُجِّ الـبـحـرِ خُضْتُ غِـمـارَهُ   ولا مَـعْـقِـلٌ إلَّا الـمَـنـاصِـلُ والـجُـرْدُ

رب نقع (غبار) كلج البحر (مائه) خضت في غماره (مياهه العميقة)، وليس من معقل (حصن يحميني) إلا المناصل (السيوف) والجرد (الخيل)

صَـبـرتُ لـه والـمـوتُ يَـحْـمَـرُّ تـارَةً   ويَـنْـغَـلُّ طَوراً فـي الـعَـجـاجِ فَـيَـسْوَدُّ

صبرت وحولي الموت يحمر بدم القتلى تارة، وينغل (يتغلغل) طوراً وسط العجاج (الغبار) فيكون موتاً أسود

فَما كنتُ إلَّا اللَّيْثَ أَنْهَضَهُ الطَّوَى   وما كـنـتُ إلَّا الـسـيفَ فَـارَقَـهُ الغِـمْـدُ

كنت كالليث نهض شرساً للصيد بفعل الطوى (الجوع)، وكالسيف الذي فارق غمده (بيته)

صَؤُولٌ ولِلأبطالِ هَمْسٌ مِنَ الوَنَى   ضَروبٌ وقَلْبُ القِرْنِ في صدرِهِ يَعدُو

صؤول (هاجِم) بينما الأبطال يهمسون من الونى (التعب)، وضارب بينما قلب القرن (الخصم) يركض في صدره خوفاً

فَما مُهجَةٌ إلَّا ورُمْحي ضَميرُها   ولا لَبَّةٌ إلَّا وسيفي لها عِقْدُ

رمحي دخل في كل مهجة (قلب) فصار كأنه ضمير لها مختبئ فيها، ولا لبة (عنق) إلا جعلت سيفي لها مثل العقد

إذا القلبُ لم يَنْصُرْكَ في كلِّ مَوطِنٍ   فما السيفُ إلَّا آلةٌ حَمْلُها إِدُّ

إذا لم يكن قلبك قوياً فينصرك فلا نفع في السيف وحده، فهو فقط أداةٌ حملها إد (يؤودك ويتعبك)

٢٥ الصبا في وادي الفناء

وقال يَرُوضُ الشعر:

تولَّى الصِّبا عنِّي، فكيف أُعيدُه   وقد سَارَ في وادِي الفَناءِ بَرِيدُهُ

البريد هو البغل، وكانت البغال تحمل الرسائل من بلد إلى بلد. المعنى: ذهب عهد الصبا ولا عودة له، فقد سار عني إلى.. وادي الفناء..

أُحاولُ منهُ رَجْعَةً بعد ما مضى،   وذلكَ رأيٌ غابَ عَنِّي سَديدُهُ

أحاول إرجاع الصبا وهذا ليس بالرأي السديد

وفي الحِيِّ ظَبْيٌ إن تَرَنَّمْتُ باسمِه   تَنَمَّرَ واشيهِ وهَاجَ حَسُودُهُ

في الحي (القوم) فتاة حسناء إن ترنمت باسمها في شعري تنمر الواشي (تحفز) واستنفر الحسود

تَهيمُ به أَستَارُهُ وخُدُورُهُ   وتَعْشَقُهُ أَقْراطُهُ وعُقودُه

تهيم بالظبي أستاره وخدوره (تلفه وتحوطه/ والخدر بيت داخل البيت، أو خيمة داخل الخيمة، كانت المرأة تستتر بها عن الغرباء قديماً/ واليوم لبست المرأة في بلادنا خيمتها)، وتتعلق بالظبي المحبوب أقراطه (والقرط الحلق) وعقوده

تَأَنَّقَ فيه الحُسْنُ فامتَدَّ فَرْعُهُ   إلى قَدَمَيْهِ، واسْتَدارَتْ نُهودُهُ

الجمال تأنق في صوغ هذا الظبي فطال فرعه (شعره) ووصل إلى قدميه، واستدارت أثداؤه

فَلِلْمِسْكِ رَيَّاهُ، ولِلْبانِ قَدُّهُ   ولِلْوَرْدِ خدَّاهُ، ولِلظَّبيِ جيدُهُ

رياه (رائحته) منسوبة للمسك، وقده منسوب لغصن البان، وخداه في حمرتهما كالورد، وجيده كجيد الظبي

أُضَاحِكُ وجْهَ المرءِ يَغْشَاهُ بِشْرُهُ وأَعلَمُ أن القلبَ تَغْلي حُقُودُهُ

حكمة: أبادل المرء الضحك إذا كان يغشى (يغطي) وجهه البشر والانشراح، مع أنني أعلم أن الحقود (الأحقاد) تغلي في قلبه. التسويد لعمران القفيني.. وأنبني لأنني لم أكن سودته، في المسودة، فها قد سودناه يا سيدي

ومَنْ لم يُدَارِ الناسَ عَادَاهُ صَحبُهُ وأنكَرَهُ مِنْ قومِهِ مَنْ يَسُودُهُ

لكن من لا يداري الناس يعاديه مصاحبوه، ويستنكر أفعاله من قومه من هو سيد لهم، والسيد يجب أن يكون بشوشاً، حليماً لا يعادي الناس بسهولة

٢٦ رجال السياسة

وقال يذم رجال الحكومة الاستبدادية في عهد إسماعيل خديوي مصر:

لن يَسودَ الفتى ولو مَلَكَ الحِكـ ـمةَ مَا لم يَكُنْ مِن الأَجْوَادِ

السيادة ليست بامتلاك الحكمة فقط، بل لا بد من أن يكون المرء أيضاً من الأجواد (الأسخياء)

رُبَّ خِلٌّ تَراهُ طَلْقَ المُحَيَّا وَهْوَ جَهْمُ الضَّميرِ بِالأَحْقادِ

رب خل (صديق) تراه طلق المحيا (بشوشاً) وضميره جهم (مسود) بالأحقاد

فتأمَّلْ مَواقِعَ اللَّحْظِ تعلَمْ مَا طَوَتْهُ صَحائِفُ الأَكْبادِ

فأمعن النظر في مواقع اللحظ (النظرات) فالعيون تفضح ما طوته صحائف الأكباد من حقد ونيَّة غدر (شبَّه الكبد بكتاب له صحائف مكتوبة فيها أشياء)

إن في العينِ وَهْيَ عُضْوٌ صَغيرٌ لَدَليلاً على خبايا الفؤادِ

أنا ما بينَ نِعمَةٍ وحَسودٍ والمَعالي كَثيرةُ الحُسَّادِ

فَلْيَمُوتوا بِغيْظِهِمْ، فاحتِمَالُ الـ ـغَيْظِ مَوْتٌ لَهُمْ بِلا ميعادِ

الغيظ للحاسدين عقاب، فهو كالموت جاءهم قبل موعده

كيف تَبْيَضُّ مِن أُناسٍ وُجوهٌ صَبغَ اللؤمُ عِرضَهُمْ بِسَوادِ؟

فترى المَرءَ مِنْهُمُ ضَاحِكَ السِّنِّـ وفي ثوبِهِ دِماءُ العِبادِ

مَعشَرٌ لا وَليدُهُمْ طَاهِرُ المَهْـ ـدِ، ولا كَهْلُهُمْ عفيفُ الوِسَادِ

حَكَمُوا مصرَ وَهْيَ حَاضِرَةُ الدُّنْـ ـيا، فَأَمْسَتْ وقد خَلَتْ في البَوَادي

أَصْبحتْ منزلَ الشقاءِ، وكانتْ جَنَّةً ليس مِثْلُها في البِلادِ

وقَليلاً مَا يَصْلُحُ المَرءُ للجِدِّ إذا كانَ ساقِطَ الأَجْدَادِ

٢٧ رثاء الزوجة

وقالي يرثي زوجته وقد ورد إليه نعيها وهو بسرنديب، وتوفيت سنة ١٨٨٣ بالقاهرة:

أَيَدَ المَنونِ! قَدَحْتِ أَيَّ زِنادِ ... وأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤادي

يا يد الموت، قدحت أي زناد (حجر النار)! فأوقعت الحريق بقلبي

أَسْتَنْجِدُ الزَّفَراتِ وَهْيَ لَوَافِحٌ ... وأُسَفِّهُ العَبَراتِ وَهْيَ بَوَادِ

أطلب النجدة من زفراتي اللوافح (الحارة)، وأُسفِّه الدموع (لا أدرك وجودها) وهي ظاهرة

لا لَوْعَتي تَدَعُ الفُؤادَ، ولا يَدٌ ... تَقْوَى على ردِّ الحبيبِ الغَادي

لا لوعتي تترك قلبي، ولا يدي تستطيع رد الحبيب الغادي (المفارق)

يا دهرُ فِيمَ فَجَعتَني بِحَليلَةٍ ... كانت خُلاصَةَ عُدَّتي وعَتادي

فيم (لماذا) فجعتني يا دهر بحليلة (زوجة) كانت خلاصة عدتي في هذه الحياة. تعليق عمران القفيني: (رغم أنه استخدم «حليلة» بدل «حبيبة»، إلا أن البيت يبقى تحفة.. انظر إليه تره يقطر تفجعاً)

إن كنتَ لم ترحَمْ ضَنايَ لِبُعْدِها ... أَفَلا رَحِمْتَ مِن الأَسَى أَوْلادي

أَفْرَدْتَهُنَّ فلم يَنَمْنَ تَوَجُّعاً ... قَرْحَى العيونِ، رَواجِفَ الأكبادِ

بناتي أصبحن في وحدة، وعيونهن قرحى من البكاء (مجرحة)، وأكبادهن راجفة

أَلْقَيْنَ دُرَّ عُقودِهِنَّ، وصِغْنَ مِن ... دُرِّ الدموعِ قَلائِدَ الأَجْيادِ

رمين لآلئ العقود واستبدلن بها لآلئ هي الدموع في الأجياد (الأعناق)

وَلَهي عليكِ مُصَاحِبٌ لِمَسيرتي ... والدمعُ فيكِ مُلازِمٌ لِوِسادي

ولهي عليك (حزني) يصاحبني في مسيرة النهار، ودمعي فيك يلازم وسادتي ليلاً

فإذا انتبهْتُ فأنتِ أَوَّلُ ذُكْرَتي ... وإذا أَوَيْتُ فأنتِ آخرُ زَادي

التسويد لعمران القفيني. وعبارته: أدرك هذا البيت بالتسويد

فَلَئِنْ «لَبيدُ» قَضى بِحَوْلٍ كَامِلٍ ... في الحزنِ فَهْوَ قضاءُ غيرِ جَوادِ

لبيد الشاعر، الذي يقول إن الذي يبكي حولاً (سنة) قد بلغ المدى واكتفى، لم يكن جواداً (سخياً).. فالسنة لا تكفي

كلُّ امْرِئٍ يوماً مُلاقٍ ربَّه ... والناسُ في الدنيا على مِيعادِ

الناس في دنياهم ماكثون على ميعاد يكون في الآخرة حين يلاقون ربهم

فاستَهْدِ «يا محمودُ» ربَّكَ، والتمسْ   منه المَعونَةَ فَهْوَ نِعْمَ الهَادي

يا محمود سامي البارودي اطلب الهداية من ربك واستعن به

٢٨ واكبدي يا علي بعدك

وقال يرثي ولده علياً من زوجته الثانية التي تزوجها وهو في المنفى أواخر سنة (١٨٨٥):

كيف طَوَتْكَ المَنونُ يا ولدي؟   وكيف أوْدَعْتُكَ الثَّرى بِيَدي؟

واكَبِدي يا «عليُّ» بَعدَكَ! لو   كانتْ تَبُلُّ الغَليلَ «وَاكَبِدي»

فَقْدُكَ سَلَّ العِظَامَ مِنِّي وردَّ۔   الصَّبرَ عني، وفَتَّ في عَضُدي

فت في عضدي: أنهكني

كم لَيْلَةٍ فيكَ لا صَباحَ لها   سهِرتُها باكياً بلا مَدَدِ

٢٩ رثاء الوالد

وقال في صباه يرثي والده:

أَبي، ومَن كَأَبي في الحَيِّ نعلَمُهُ   أوْفى وأكْرمُ في وعدٍ وإيعادِ

والدي ليس في الحي (القوم) مثله، وهو وفيٌّ عندما يعد وعندما يوعد (يهدد)

لا يستبدُّ بِرأيٍ قبل تَبْصِرَةٍ   ولا يَهُمُّ بأمرٍ قبل إعدادِ

كان حصيفاً لا يستبد برأيه إلا بعد التبصرة (إدامة النظر)، ولا يهم بتنفيذ أمر إلا وقد أعد له عدته

تَراه ذا أُهْبَةٍ في كلِّ نائبةٍ   كالليثِ مرتَقِباً صيْداً بِمِرْصَادِ

٣٠ حوار العاشق مع سيفه

وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى مصر:

ومِن عَجبِ الأيَّام أنِّيَ مُولَعٌ   بمَنْ ليس يَعنيهِ بُكائي ولا سُهدي

أَبيتُ عَليلاً في «سَرَنْدِيبَ» ساهِراً   أُعالِجُ ما أَلقاهُ مِن لَوعَتي وَحْدي

ولا صَاحِبٌ غيرُ الحُسامِ مَنُوطَةٌ   حَمائِلُهُ مِنِّي على عاتِقٍ صَلْدِ

صاحبي الوحيد السيف المنوطة حمائله (المعلقة سيوره) على عاتقي (كتفي) الصلد (الشديد)

لقد كنتَ لي عَوْناً على الدهرِ مَرَّةً   فما لي أراكَ اليومَ مُنثَلِمَ الحَدِّ

فقالَ: إذا لم تستَطِعْ سَوْرَةَ الهوى   وأنتَ جَليدُ القومِ، مَا أنا بِالجَلْدِ

قال السيف: إذا لم تقوَ على سورة (هجمة) الهوى، وأنت الجليد (الصبور) فأنا لن أكون أصبر منك

وهـل أنـا إلَّا شِـقَّـةٌ مِـن حَـديـدَةٍ   أَلَحَّ عليها القَيْنُ بِالطَّرْقِ والحَدِّ؟

ما أنا ـ يقول السيف ـ سوى قطعة حديد بالغ القين (الحداد) في طرقها وتمضية شفرتها

فما كنتُ لولا أَنَّني وَاهِنُ القُوَى   أُعَلَّقُ في خيطٍ وأُحْبَسُ في جِلْدِ

وأنا جماد ـ يقول السيف ـ ولولا أنني ضعيف القوى لما عُلِّقت بخيط، ولما حبست في قِراب من جلد

فدونَكَ غَيري، فاستَعِنْهُ على الجَوى   ودَعني مِن الشَّكوى فَدَاءُ الهَوى يُعْدي

دونك (التمسْ) غيري ليعينك على الجوى (حزن العاشق)، واتركني بحالي فداء الهوى يعدي

٣١ ما لي وللناس

لـو عَـلِـمَ الإنـسـانُ مـا أَضْـمَـرَتْ   أَحـبَـابُـهُ هَـانـتْ عـلـيـهِ الـعِـدا

لو علم الإنسان ما تضمر له الأحباب من غدر لهان عليه الأعداء

مـا لـي ولِـلـنـاسِ وأَعـمـالِـهِـمْ؟   كُـلُّ امْـرِئٍ رَهْـنَ حِـسـابٍ غَـدا

نصبنا رهن على الظرفية، ولك أن تنصبها على أنها مفعول مطلق، ولك الرفع على الإخبار فعل شارحي الديوان

هـل هِـيَ إلَّا مـدةٌ تـنـقـضـي؟   وكـلُّ نـفـسٍ خُـلِـقـتْ لـلـرَّدى

٣٢ طلب اللهو

هل في التَّصابي على امْرِئٍ فَنَدُ؟   أم هل يَعيبُ الفتى الكَريمَ دَدُ؟

هل في التصابي (لهو الكهل) فند (خطأ) أم هل يعيب الفتى الكريم دد (لَعِب)؟

وأَيُّ لومٍ على امْرِئٍ طَلَبَ اللَّـ   ـهـوَ وَأَثْـوابُ عـمـرِهِ جُـدُدُ؟

وهل ثمة لوم على من التمس اللهو وأثواب عمره جديدة (وهو شاب)؟

فاسْعَ لِمَا شئتَ غيرَ مُتَّئِدٍ   فلن يَحُوزَ الكمالَ مُتَّئِدُ

اصنع ما شئت غير متئد (بلا إبطاء)، فالمتردد لا يصل إلى الكمال

٣٣ اللوم في الحب من الحسد

دَعني مِن اللومِ إن كنتَ امْرَأً فَطِناً فاللومُ في الحبِّ مَعدودٌ مِن الحَسَدِ
لو كان للمرءِ عقلٌ يَستدلُّ به على الحقيقةِ لم يَعتَبْ على أَحَدِ

التسويد لعمران القفيني

إن كنتَ ذا إِمْرَةٍ فَانْهَ الصَّبابَةَ عَنْ قلبي لِتغْنَمَ شُكري آخرَ الأبدِ

إن كنت ذا إمرة (قدرة) فاجعل الصبابة (الغرام) تنتهي عن الحلول بقلبي، وأنا لك شاكر

أَوْ لا ، فَدعني ولا تَعْنُفْ عليَّ فَما أمري إليَّ، ولا حكمُ الهوى بِيَدي

وإلا فاتركني، فليس أمر الهوى طوع يدي

٣٤ عنصراً الدنيا

وما الدنيا سوى عَجزٍ وحِرصٍ هما أصلُ الخَليقَةِ في العِبادِ
فلولا العجزُ ما كان التَّصافي ولولا الحرصُ ما كان التعادي

عجز المرء عن مقارعة عدوه يلجئه إلى التصافي (المصالحة)، وحرص المرء على جرِّ النفع إلى نفسه يوقعه في معاداة الآخرين. وكل شيء سوى هذين تفاصيل، الحياة صراع

٣٥ واحدة بواحدة

قال يصف أيام الربيع ويذكر مواسم اللهو في عصر الشباب:

وقد شاقَني، والصُّبحُ في خِدْرِ أُمِّهِ، حنينُ حَماماتٍ تَجاوَبْنَ في وَكْرِ

شاقني (أهاج شوقي) والصبح لم يطلع بعد صوت حمامات يتردد في عشهن

هَتفنَ فأَطربْنَ القلوبَ كأنَّما تعلَّمْنَ ألحانَ الصَّبابَةِ مِن شِعري

فبَادِرْ لِمِيقَاتِ الصلاةِ، ومِلْ بِنا إلى القَصْفِ ما بين الجزيرةِ والنهرِ

لنصل أولاً، ثم لنذهب للقصف (اللهو) في ذلك المكان على النيل

إذا ما قَضَينا واجبَ الدِّينِ حَقَّهُ فليس علينا في الخلاعَةِ مِن وِزْرِ

لا إثم علينا في الخلاعة بعد أن أدينا واجب الدين

لدى روضةٍ رَيَّا الغصونِ تَرنَّحَتْ مَعاطِفُها رَقْصاً على نَغْمَةِ القُمْري

نلهو في روضة ريا (طرية) الغصون، تترنح جنباتها على نغمة القمري (الحمام)

تـدورُ عـلـيـنـا بـالـمُـدامَـةِ بـيـنَـهـا تـمـاثـيـلُ إِلّا أنَّـهـا بـيـنـنـا تَـجْـري

تدور الفتيات الشبيهات بالتماثيل لحسنهن علينا بكؤوس الشراب

لَوَى قَدَّها سُكْرُ الخَلاعَةِ والصِّبَا فَمالَتْ بِشَطْرٍ، واسْتَقَامَتْ على شَطْرِ

تلوي قدود الفتيات نشوة اللهو والشباب، فنصف الجسم الأسفل معتدل والنصف الأعلى يتمايل. أو العكس. للرجل الذي لم يفهم معنى البيت نقول: استعمل عينيك

وعَـلَّـمَـهـا وَحْـيُ الـدَّلالِ كَـهـانَـةً فإن نَطَقَتْ جاءتْ بشيءٍ مِن السِّحرِ

الدلال أوحى للفتيات بكهانة (سحر) فينطقن بكلام يذيب قلوبنا

٣٦ قلبي ولساني: سراج وسيف

ولا تَـحسَـبَـنَّ الـحِـلْـمَ يـمـنـعُ أهـلَـه وُقُوعَ الأذَى، فالماءُ والنارُ مِن صَخْرِ

لا تظننَّ أن الشخص الحليم السمح يمتنع من إيقاع الأذى بالآخرين، ففي الإنسان كل المتناقضات فهو مثل الصخر الذي ينبجس منه الماء، لكنه أيضاً يُخرج الشرر عندما يُقدح

بلغْتُ مَدى خَمسينَ وازدَدْتُ سَبعَةً جعلتُ بها أَمشي على قَدمِ الخِضْرِ

عمري سبع وخمسون سنة، وطفت بلاداً كثيرة كأنني أرافق النبي «الخضر»، النبي الرحالة

فكيف تَراني اليومَ أَخْشَى ضَلالَةً وشيبيَ مصباحٌ على نُورِهِ أَسري؟

لا أخشى أن أضل عن الطريق السوي فشيبي مصباح أسري (أسير ليلاً) على نوره. يعني أنه أصبح رزيناً وتقياً يمنعه الشيب من العبث

أقـولُ بِـطـبْـعٍ لـسـتُ أَحـتَـاجُ بـعـدَه إلى المَنهلِ المَطْروقِ، والمَنهجِ الوَعْرِ

أقول الشعر عن طبع، فلا أضطر إلى المنهل المطروق (الحوض الذي يرده الناس) ولا إلى المنهج الوعر (الطريق الوعر)، أي أنه لا يأتي بالمعاني المعروفة المطروقة ولا بالمعاني الملتوية

وَلِي مِنْ جنَاني، إن عزمتُ، ومِقْوَلي سراجٌ وعَضْبٌ: ذا يُضِيءُ وذا يَفري

جناني (قلبي) ومقولي (لساني) هما لي كالسراج والسيف: قلبي يضيء لي الطريق، ولساني يفري (يقطع)

إذا جاشَ طَبعِي فاضَ بِالدُّرِّ مَنطِقي ولا عَجَبٌ فالدُّرُّ يَنشَأُ في البحرِ

إذا جاش طبعي (زخر وماج) فاض من كلامي الدر (اللؤلؤ)، أليس اللؤلؤ يتكون في البحر؟

سيَذكُرني بالشعرِ مَنْ لم يُلاقِني وذِكْرُ الفتى بعدَ المَماتِ مِن العُمْرِ

من لم يلتق بي في الحياة سيذكرني من شعري، وذكر المرء (شهرته الحسنة) امتداد لعمره بعد إذ يموت. تعليق عمران القفيني: (قال المتنبي: ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته/ ما قاته وفضول العيش أشغال، وسيأتي أحمد شوقي ويقول: فاحفظ لنفسك بعد موتك ذكرها/ فالذكر للإنسان عمر ثان، ولا نعلم من سيمضغ هذا المعنى لاحقاً)

٣٧ دوران الكرة الأرضية

وقُلنا لِساقِينا أدِرْها، فإنَّما ... بقاءُ الفتى بعد الشبابِ يَسيرُ

أدرْ كؤوس الشراب فالحياة قصيرة

إذا ما شربناها أَقمْنا مَكانَنا ... وظلَّتْ بنا الأرضُ الفضاءُ تَدُورُ

نشرب الخمر، ونمكث في مجلسنا قاعدين، ولكننا نشعر أن الأرض تدور بنا

٣٨ عندي أمل

وقال بعد وصوله إلى جزيرة سَرَنْدِيب، وقد رأى ابنته الوسطى في المنام:

صبرتُ على كُرْهٍ لِمَا قد أَصَابَنِي ... ومَنْ لم يَجِدْ مَندوحَةً فَهْوَ صَابِرُ

من لم يجد مندوحة (بديلاً) فلا بد له من الصبر

ومَا الحِلْمُ عند الخَطْبِ، والمرءُ عاجِزٌ، ... بِمستَحْسَنٍ كالحِلْمِ والمرءُ قادِرُ

الحلم والتسامح عند وقوع الخطب (المصيبة) ليس مصدر فخر عندما يكون الإنسان عاجزاً، فهو إذ ذاك مضطر للحلم، ولا كذلك الحلم عندما يكون المرء مقتدراً

وقد يَستقيمُ الأمرُ بعد اعْوِجَاجِه ... وتَنهضُ بالمرءِ الجُدودُ العَواثِرُ

قد تنصلح الأحوال، وقد تنهض بالمرء الجدود العواثر (الحظوظ المتعثرة)

ولِي أَمَلٌ في اللهِ تَحيا به المُنى ... ويُشْرِقُ وجهُ الظنِّ، والخَطْبُ كَاشِرُ

أملي في الله يحيي في قلبي الأمنيات ويجعل وجه الظن (الفكر) يشرق بينما الخطب كاشر (المصيبة صعبة مكشرة)

ولولا تكاليفُ السِّيادَةِ لم يَخِبْ ... جبانٌ، ولم يَحْوِ الفضيلةَ ثَائِرُ

لولا تكاليف السيادة (متطلباتها) لكان كل الناس سادة، ولكان الجبان لا يبوء بالخيبة، ولما كان الثائر على الظلم يعد ذا فضل. المعنى: صعوبة الوصول إلى السيادة تكشف معدن الإنسان، وتجعل الجبان يقصر عنها، والثائر على الظلم ينالها

ولو رُمْتُ ما رَامَ امْرُؤٌ بِخيانَةٍ ... لَصبَّحَنِي قِسْطٌ مِن المالِ غَامِرُ

لو طلبت ما يطلبه الإنسان عن طريق ارتكاب الخيانة لجاءني صباحاً المال الغامر الكثير

ولو أن أَسبابَ السيادةِ بِالغِنى ... لكاثَرَ رَبَّ الفضلِ بالمالِ تَاجِرُ

ولو كانت السيادة بالغنى لكاثر (افتخر) التاجر الغني رب الفضل (صاحب الفضل)

٣٩ تاريخ اللهو

فَيا لها لَيلةً كانت بِرَونَقِها تاريخَ لَهْوٍ، لِما أَحرَزْتُ مِن وَطَرِ

حوت تلك الليلة برونقها (بهائها) كل عناصر اللهو فهي تاريخ اللهو كله، وقد نلت فيها وطري (بغيتي)

لو كان يَسمَحُ لي دهري بعَوْدتِها لَبِعْتُ فيها لذيذَ النومِ بالسَّهرِ

٤٠ لا تكلني لمن يعذبني

وقال، ولعله قالها وقد لجأ إلى عزبته بعد إخفاق حركة عرابي:

صُبْحٌ مَطيرٌ، ونَسمَةٌ عَطِرَةْ وأَنْفُسٌ للصَّبوحِ مُنتَظِرَةْ

الصبوح: شرب الخمر عند الصباح

فَيا ابنَ وُدِّي هَلُمَّ نَقْتَسِمُ اللَّهْـ ـوَ، فنفسي إلى الصِّبا حَسِرَةْ

يا صديقي تعال للهو فنفسي تتحسر على انقضاء الشباب

وخَلِّنا مِن سِياسَةٍ دَرَجَتْ بينَ أُناسٍ قلوبُهُمْ وَغِرَةْ

وغرة: حاقدة

يَقضُونَ أَيَّامَهُمْ على خطَرٍ فبِئْسَ عُقبَى السِّياسَةِ الخَطِرَةْ

الساسة يحيط بحياتهم الخطر، وبئس عقبى السياسة (نتيجتها)

مَا لِي وللناسِ، لا لَدَيَّ لهُمْ حَقٌّ يُؤَدَّى، ولا عَلَيَّ تِرَةْ

ليس للناس عندي حقوق، ولا ترات (ثأرات)

يا رَبِّ هَبْ لي مِنَ الكرامةِ ما يَسُرُّ نفسي، فإنَّها وَجِرَةْ

وجرة: خائفة

ولا تَكِلْني لِمَنْ يُعَذِّبُني فإنَّ نفسي إليكَ مُفتَقِرَةْ

٤١ كرم العنصر

صبرتُ على رَيْبِ هذا الزمانِ ولولا المَعاذِرُ لمْ أَصْبِرِ

المعاذر: السعي لتجنب اللوم

فلا تَحْسَبَنِّي جهِلْتُ الصَّوابَ ولكنْ، هَمَمْتُ فلم أَقْدِرِ

وكـنَّـا جـمـيـعـاً، فـلـمَّـا وقـعـتُ صـبـرتُ وغَـادَرَنـيِ مَـعـشَـري

كنا معاً فلما وقعت في المشكلة صبرت وغادرني صحابي

ولـو أنَّـنـيِ رُمْـتُ إعـنَـاتَـهُـمْ لـقـلـتُ مَـقـالَـةَ مُـسْـتَـبْـصِـرِ

لو قصدت إعناتهم (إرهاقهم) لقلت قول مستبصر يعرف حقيقة تخاذلهم

ولـكـنـنـيِ حـيـنَ جَـدَّ الـخِـصَـامُ رجَـعْـتُ إلـى كَـرَمِ الـعُـنْـصُـرِ

لكنني حين اشتد الخصام رجعت إلى طيب أصلي فلم أقل شيئاً

٤٢ معاكسة في «شبرة»

سَـمْـراءُ تَـهـفُـو بِـقَـدٍّ كـالـرمـحِ لِـيـنَـاً وسُـمْـرَةْ

تتحرك بقد مثل الرمح في لينه ولونه الأسمر

مَـرَّتْ عَـلَـيَّ تَـهَـادَى مِـثْـلَ الـمَـهـاةِ بِـشُـبْـرَهْ

مرت تتهادى كالمهاة (البقرة الوحشية) في حي شبرا بالقاهرة

فـقُـلـتُ يـا نـورَ عـيـنـيِ! مـا لـيِ عـلـى الـصـبـرِ قُـدْرَةْ
فَـنَـقَّـبَـتْ وَجْـنَـتَـيْـهـا يـدُ الـحَـيـاءِ بِـحُـمْـرَةْ

يد الحياء وضعت نقاباً من الحمرة على خديها. أي أنها احمر وجهها خجلاً

٤٣ أعطيه فرصة بعد فرصة

أُصافيِ خليليِ ما صَفا ليِ، فإن جَفا عَتَبْتُ عـليـهِ غيرَ جَافٍ ولا وَعْـرِ

أصافي خليلي (أعامل صاحبي بصفاء نية) ما دام لي مصافياً، فإن جفا وابتعد عتبت عليه بلا جفاء وبلا خشونة

فإن عادَ لي بِالوُدِّ عُدْتُ، وإنْ أَبَى صَبرتُ لأَرْعَى ذِمَّةَ الوُدِّ بِالصَّبْرِ

فإن عاد إلى الود عدت، وإن رفض صبرت احتراماً لذمة الود (لعهد المودة السابق)

فإن زادَنيِ هَجْراً ضربْتُ على اسمِه، وأَمْسَكْتُ عن سُخطيِ عليه وعن شُكري

فإن زاد في الهجر ضربت على اسمه (محوت اسمه)، ولم أكن لا ساخطاً ولا شاكراً

ومـا تِـلـكَ مِـنـيِ نَـبْـوَةٌ، غـيـرَ أنـنـي أُنَـزِّهُ نـفـسـيِ عـن مُـلابَـسَـةِ الـغَـدْرِ

وهذا اللين من جانبي ليس نبوة وليس انحرافاً في الخلق، ولا ضعفاً.. بل إنني أترفع عن ملابسة (مخالطة) الغدر

٤٤ نعيش مرة واحدة

فَخُذْ في أفانينِ الخَلاعَةِ والصِّبا   ودَعْنِيَ مِن زَيْدِ النُّحَاةِ ومِنْ عَمْرِو

مارسْ أفانين (صنوف) الخلاعة والصبا (العبث)، واترك هذا العلم العتيق

وكيف يَعيشُ المَرْءُ في الدهرِ آمِناً   ولِلْموتِ فينا وَثْبَةُ اللَّيْثِ والنِّمْرِ؟

على أن الإنسان لا يعيش آمناً وهو يرى الموت يختطف الناس، ويثب عليهم كأنه أسد أو نمر

٤٥ العصامي والعظامي

أتْلَفْتَ دُنياكَ التي أُوتِيتَها   ولَسوفَ تَهْلِكُ حَسْرةً في الآخِرَةْ

أتلفت دنياك التي أُعطيتها بما ارتكبت، وسوف تهلك حسرة (حزناً) في الآخرة

حتَّام تفخَرُ بالجُدودِ، ولم تنلْ   ما أَحرَزَتْ تلكَ الجُدودُ الفَاخِرَةْ؟

إلى متى تظل تفتخر بجدودك، وأنت لم تحرز ما أحرزته تلك الجدود؟

فاجْعَلْ لِنفسِكَ مِن فَعالِكَ شَاهداً   يُغنيكَ عن ذِكرِ العِظامِ النَّاخِرَةْ

ليكن شاهدك فعالك أنت، بحيث تستغني عن ذكر عظام أجداد الناخرة (المنخورة). انظروا من يقول هذا!

٤٦ سلطان الشعر

للشِّعْرِ في الدهرِ حُكْمٌ لا يُغيِّرُهُ   ما بِالحوادثِ مِن نَقضٍ وتَغييرِ

الشعر يحكم على الحوادث حكماً يبقى على الدهر

لولا أبو الطيِّبِ المَأثورُ مَنطِقُهُ   ما سارَ في الدهرِ يوماً ذِكْرُ كافورِ

لولا المتنبي ذو القول المأثور الخالد لما سار لكافور الإخشيدي ذكر ولما سمع به أحد

٤٧ صفة الحاكم

وقال في ما يجب على الحاكم:

إذا سُدْتَ في مَعشرٍ فاتَّبِعْ   سبيلَ الرَّشادِ وكُنْ مُخلِصا

إن كنت سيداً لقوم فكن رشيداً مخلصاً

ووَالِ الكريمَ، ودَارِ السَّفيهَ   وَصِلْ مَن أَطَاعَ، وخُذْ مَن عَصَى

حالف الكريم الأصل، ودارِ السفيه مداراة، وصل (كافئ) المطيع وخذ (عاقب) العاصي

ونَقِّبْ لِتَعلَمَ غَيْبَ الأُمورِ فإنَّ مِنَ الحزمِ أن تفْحَصا

تعقب الأمور لتعرف الخفايا

ولا تُبقِيَنَّ على فاجرٍ فإنَّ اللئامَ عبيدُ العَصَا

لا تبقين (لا تترك بدون عقوبة) الفاجر الذي لا يبالي بأي أخلاق، فاللئام لا يرتدعون إلا بالعقوبة

وإن خَفِيَ الحقُّ فاصبِرْ له وبادِرْ إليه إذا حَصْحَصَا

اصبر حتى تتبين وجه الحق، فإذا حصحص (ظهر) فأسرع إليه

٤٨ سطور على وجه الماء

قال يَرُوض القول:

ومَرْبَعٍ، لِنسيمِ الفجرِ هَيْنَمَةٌ فيهِ، وللطَّيْرِ في أَرجائِهِ لَغَطُ

رب مربع (مكان معشوشب) لنسيم الفجر فيه هينمة (غمغمة، همس) وللطير لغط (كلام غير مفهوم)

كأنَّما القَطْرُ دُرٌّ في جوانِبِه يكادُ مِن صَدَفِ الأزهارِ يُلْتَقَطُ

كأن حبات المطر في أنحائه لآلئ، نلتقطها من أوراق الأزهار الشبيهة بالأصداف

ولِلنسيمِ خلالَ النَّبْتِ غَلْغَلَةٌ كما تغلغَلَ وَسْطَ اللِّمَّةِ المُشُطُ

ويتغلغل النسيم خلال النبات كما يتغلغل المشط في اللمة (الشعر)

والريحُ تَمْحُو سُطوراً ثم تُثبِتُها في النهرِ، لا صِحَّةٌ فيها ولا غَلَطُ

والريح تصنع على وجه مياه النهر أمواجاً صغيرة كأنها السطور. لكنها سطور ليس فيها كلمات صحيحة وكلمات خطأ

٤٩ فيم اقتناء الدرع؟

قال يروض القول:

فلا تَحسَبَنَّ الدهرَ لُعبةَ هَازِلٍ فما هُوَ إلَّا صرْفُهُ والفَجائِعُ

ليس الدهر لعبة، ولا هزلَ فيه، فكله صروف (أحداث مؤلمة) وفجائع (مصائب)

فيا ربَّما بَاتَ الفَتى وَهْوَ آمِنٌ وأصبحَ قد سُدَّتْ عليهِ المَطالِعُ

قد ينام المرء شاعراً بالأمان، ويأتي عليه الصباح وقد سدت في وجهه المطالع (الطرق)

ففيمَ اقتنَاءُ الدِّرْعِ والسَّهْمُ نافِذٌ؟ وفيمَ ادِّخَارُ المالِ والعمرُ ضَائعُ؟

لماذا نقتني الدرع والسهام ستنفذ في جسمنا؟ ولماذا ندخر المال والعمر كله زائل؟

٥٠ شيب القلب

إذا شَابَ رأسُ المرءِ شَابَ فؤادُه ... ولم يَبْقَ فيه للبَشاشَةِ مَوضِعُ

فعلاً لا نرى شيخاً مستبشراً ضاحكاً إلا في الفلتات. فإن رأيت شيخاً هازلاً لاعباً فهو بالتأكيد ذو صحة جيدة أولاً، وذو عقل خفيف.. أو ربما كان فيلسوفاً عرف أن الدنيا شيء سخيف

٥١ النصح التقريع

لكلِّ قولٍ مَنارٌ يستقيمُ به ... عند الخطابِ فَمَلْفُوظٌ ومسمُوعُ

لكل قول ميزان يوزن به: عندما يقال، وعندما يصل إلى أذن السامع

فالعَتْبُ إن جازَ حَدَّ العَدْلِ مَقْطَعَةٌ ... والنُّصحُ ما لم يكنْ في السرِّ تَقْرِيعُ

العتاب الذي يتجاوز حد العدل (درجة التوسط) مقطعة (يؤدي للقطيعة)؛ والنصح العلني تقريع (توبيخ)

٥٢ همي بين أضلاعي

قال وهو بسرنديب:

وَيْلاهُ من حاجةٍ في النفسِ هامَ بها ... قلبِي، وقَصَّرَ عن إدراكِها بَاعي

الويل لي من حاجة لنفسي لا يدركها باعي (لا أستطيع تحقيقها)

يا هل أَراني بذاكَ الحَيِّ مجتمِعاً ... بِأهلِ وُدِّيَ مِن قَومي وأَشياعي؟

يا هل أراني (يا هل ترى) أجتمع بذاك الحي (القوم) من أحبابي وأشياعي (رفاقي)

وهل أسوقُ جَوادي للطِّرادِ إلى ... صيدِ الجَآذِرِ في خَضراءَ مِمْراعِ؟

وهل يتاح لي أن أسوق حصاني للطراد (الصيد) فأصيد الجآذر (بقر الوحش) في أرض خضراء ممرعة (خصبة)؟

منازلٌ كنتُ منها في بُلَهْنِيَةٍ ... مُمَتَّعاً بين غِلْماني وأَتْباعي

منازل (مواضع) كنت أعيش فيها في بلهنية (رخاء) مستمتعاً بالحياة بين غلماني وأتباعي

فاليومَ أصبحْتُ لا سَهْمي بِذي صَرَدٍ ... إذا رميْتُ، ولا سيفي بقطَّاعِ

اليوم أصبحت عاجزاً: لا سهمي ذو صرد (صائب)، ولا سيفي قاطع

لا في «سَرَنْدِيبَ» خِلٌّ أستعينُ به ... على الهمومِ إذا هَاجَتْ، ولا رَاعِ

لا صديق بسرنديب يعينني على الهموم إن تكاثرت علي، ولا من يرعاني

يَظُنُّني مَن يراني ضَاحكاً جَذِلاً   أَنِّي خَلِيٌّ، وهَمِّي بين أَضْلاعي

من رآني ضاحكاً جذلاً (منشرحاً) ظن أنني خلي من الهم، ولكن همومي مكنونة داخل صدري

فإن يَكُنْ سَاءَني دهري، وغادَرني   رَهْنَ الأَسى بين جَدْبٍ بعدَ إمْراعِ . .

إن كان دهري قد ساءني وتركني بيد الأسى في جدب روحيّ بعد زمن الخصب . .

. . فإنَّ في مِصرَ إخواناً يَسُرُّهُمُ   قُربي، ويُعجِبُهُمْ نَظمي وإبْداعي

فهناك في مصر من يسره قربي ومن يعجبه شعري

٥٣ العثور على صديق

وقال يجيب رجلاً عن قصيدة أرسلها إليه من الهند يخطب بها مودته:

قَليلٌ بِآدابِ المَوَدَّةِ مِن يَفي   فمَنْ لي بِخِلٍّ أَصطَفيهِ وأَكْتَفي؟

ما أقل من لديهم الوفاء ومراعاة أدب المودة، فكيف لي بالحصول على صاحب أصطفيه وأكتفي بصحبته؟

بَلَوْتُ بني الدنيا، فلمْ أَرَ صَاحباً   يَدومُ على وُدٍّ بِغيرِ تَكَلُّفِ

بلوت (جربت) الناس فلا صاحب يدوم على الود الخالي من التكلف

رَضيتُ بمَنْ لا تَشتهي النفسُ قربَهُ،   ومَن لم يَجِدْ مَنْدُوحَةً يَتَكَلَّفِ

رضيت بالمتاح الذي لا أشتهي معاشرته؛ ومن لم يجد بديلاً فهو يتكلف (يتجشم ما لا يريد)

أَديبٌ له في جَنَّةِ الشِّعرِ دَوْحَةٌ   أَفاءَتْ على الدُّنيا بِأَجْمَلِ زُخْرُفِ

هذا أديب له دوحة (شجرة وارفة) في عالم الشعر، أفاءت (ظللت) على الدنيا بظلال مزخرفة بديعة

تَأَلَّفَ نفسي بعدَما زالَ أُنسُها   ونوَّهَ باسمي بعدما كادَ يختَفي

تألف نفسي (جعلها أليفة) بعد أن توحشت وزال منها الأنس، وذكر اسمي بخير بعد أن نسيني الناس

تَوَسَّمْتُ فيهِ الخَيرَ قبلَ لقائِه   وأَحْمَدْتُ منهُ الخُبْرَ بعد التَّعَرُّفِ

تأملت خيراً منه قبل اللقاء به، وأحمدت الخبر (وجدت حقيقته حميدةً) بعد التعرف عليه

٥٤ .. وقامتي ألفُ

وعِصَابَةٍ غَلَبَ الكمالُ على   أخلاقِهِمْ، وغَذاهُمُ التَّرَفُ

رب جماعة فيهم كمال الأخلاق، ونشأوا على الترف

لـلـهِ أيـامٌ بِـهِـمْ سَـلَـفَـتْ   لـو أنَّـهـا بِـالـوصْـلِ تُـؤْتَـنَـفُ

ما كان أجمل الأيام القديمة بصحبتهم، ويا ليتها تؤتنف (تستأنف)

إذ لِـمَّـتـي فَـيـنَـانَـةٌ، ويَـدي   فـوقَ الأَكُـفِّ، وقَـامَـتـي أَلِـفُ

أيامئذ كانت لمتي (شعري) فينانة (طويلة، كأنها ذات أغصان)، وكانت يدي فوق الأكف (كنت محسناً للناس/ فاليد العليا خير من اليد السفلى)، وكانت قامتي معتدلة كحرف الألف

٥٥ استخفاف

قـلـبـي عـلـيـكَ يَـرِفُّ   وعَـبْـرتـي لا تَـجِـفُّ

وأنـتَ يـا نُـورَ عـيْـنـي   بِـلَـوْعـتـي تَـسـتَـخِـفُّ

٥٦ خذي ما بقي

عُـودي بِـوَصْـلٍ، أو خُـذي ما بَـقِـي   فـقـد تَـداعَـى الـقـلـبُ مِـمَّـا لَـقـي

عودي للوصل أو خذي ما بقي من قلبي، فهو قد تداعى (تهدم) مما لقي من هجرانك

عَـلَّـمـتِـنـي الـذلَّ، وكـنـتُ امْـرَأً   أفـعـلُ مـا شـئـتُ ولا أتَّـقـي

علمتني الذل في العشق وكنت أفعل ما أشاء لا أحسب حساب أحد

٥٧ وحيداً في سرنديب

وقال وهو بسرنديب يتشوق إلى وطنه:

قد كان أبقَى الهوى مِن مُهجَتي رَمَقاً   حتى جَرى البيْنُ فاستَوْلَى على الباقي

الهوى كان قد استولى على مهجتي مبقياً رمقاً (بقية قليلة)، ثم جاء البين (الفراق) فذهب بهذه البقية

حزنٌ بَراني، وأَشواقٌ رَعَتْ كَبِدي   يا وَيْحَ نفسِيَ مِن حُزْنٍ وأشواقِ

الحزن أنحلني وبرى جسدي، والشوق أكل كبدي فيا ويلي

لا في «سَرَنْدِيبَ» لي خِلٌّ أَلوذُ به   ولا أنـيـسٌ سِوى هَـمِّـي وإِطْـراقـي

ليس لي بسرنديب صديق ألجأ إليه وآنس به، اللهم إلا الهم والإطراق بالرأس في تفكير

يا قلبُ، صبراً جميلاً، إنه قَدَرٌ   يجرِي على المرءِ مِن أَسْرٍ وإطلاقِ

يحث قلبه على الصبر، فالأسر والإطلاق قضاء وقدر

لا بد للضيقِ بعدَ اليأسِ مِنْ فَرَجٍ وكــلُّ داجِـيَـةٍ يـومـاً لإشــراقِ

كل ليلة داجية (مُظلِمة) ستؤول إلى إشراق

٥٨ الخذلان

وقال يعرِّض برؤساء الجند الذين تخاذلوا في الثورة العرابية:

بَلَوْتُ بنـي الدنيا فلـمْ أَرَ صادقاً فأين لَعَمْري الأكرمونَ الأَصادقُ؟

بلوت: جربت

أُحاولُ أمـراً قـصَّـرَتْ دونَـه النُّهَـى وشابَتْ، ولم تبلُغْ مَداهُ، المَفَارِقُ

أسعى لتحقيق أمر قصَّرت دونه النهى (العقول)، وشابت المفارق (الرؤوس) قبل أن تبلغ آخره

وأَعـظَـمُ مـا تـرجُـوُه مـا لا تَـنـالُـهُ وأكـثـرُ مَـن تَـلـقـاهُ مَـن لا يُـوافِـقُ

الأمنيات الكبرى تبقى بلا تحقق، وأكثر من تلقى من الناس من لا يوافق طبعه طبعك. التسويد لعمران القفيني

مَعاشِرُ سَادُوا بالنِّفَاقِ، وما لَهُمْ أُصـولٌ أَظَـلَّـتْـهـا فُـروعٌ بَـواسِـقُ

قوم وصلوا إلى السيادة بالنفاق، وليس لهم أنساب عريقة تكون لهم كالجذور التي لها فوقها أغصان بواسق (عالية) ترمي بظلها

طَلاقَةُ وَجْهٍ تـحـتَـهـا الـغَـيْـظُ كاشِرٌ ونَـغْـمَـةُ وُدٍّ بـيـنَـهـا الـغـدرُ نَـاعِـقُ

يبتسمون لك ويكتمون غيظاً مكشراً، ويتكلمون بنغمة ود، ولكنها تكتم نعيق الغدر

تعلَّمْتُ كَظْمَ الغَيْظِ فِيهِمْ، وإنه لَحِلْمٌ، ولكنْ لِلحَفيظَةِ مَاحِقُ

تعلمت بوجودي بينهم أن أكظم غيظي، وهذا من الحلم (التسامح) ولكنه يمحق الحفيظة (الغضب للشرف)

دَعَوْني إلى الجُلَّى فقمتُ مُبَادِراً وإنـي إلـى أمـثـالِ تِـلـكَ لَـسَـابِـقُ

دعوني إلى الجلى (العمل العظيم) فأسرعت وبادرت، وأنا لمثل هذا مبادر سابق

علـى أَننـي حذَّرْتُهُـمْ غِـبَّ أَمرِهِـمْ وأَنْـذَرْتُـهُـمْ لـو كـانَ يـفْـقَـهُ مَـائـقُ

لكنني حذرتهم غب (عاقبة) أمرهم، وأنذرتهم لو كان المائق (الأحمق) يفقه

فيا ليتَني راجعْتُ حِلمِي ولم أَكُنْ زَعيماً، وعاقَتْنِي لِذاكَ العَوائِقُ

ليتني كنت راجعت حلمي (عقلي) ولم أرض بالزعامة، وليتها كانت عاقتني العوائق عن ذلك

هُمُ عَرَّضُونيِ للقَنا ثم أَعْرَضُوا   سِراعاً، ولم يَطْرُقْ مِن الشَّرِّ طَارِقُ
لقد عرضوني للقنا (الرماح) ثم أعرضوا (تجنبوا) القتال سريعاً وقبل أن يلم بهم أي خطر

وقد أَقْسَمُوا أَلَّا يَزُولوا، فما بَدا   سَنا الفجرِ إلَّا والنِّساءُ طَوالِقُ
وكانوا قد أقسموا بالطلاق ألا يزولوا (يفروا)، فما إن بدا سنا الفجر (ضوءُه) حتى فروا، فلذا نساؤهم يجب أن يكنَّ طوالق!

ولكنْ دَعَتْهُمْ نَبْأَةٌ فَتَفَرَّقُوا   كما انقضَّ في سِربٍ مِن الطيرِ بَاشِقُ
دعتهم نبأة (همهمة بسيطة) فتفرق جمعهم، كأنهم سرب طيور انقض عليه باشق (طير كاسر)

إذا أَبصَرُوا شخصاً يقولونَ جَحْفَلٌ   وجُبْنُ الفتى سيفٌ لِعينيْهِ بَارِقُ
إذا رأوا شخصاً قالوا هذا جحفل (جيش)، والجبن سيف مسلط يبرق أمام عيني الجبان ويخيفه

أُسودٌ لَدى الأَبياتِ بين نِسائِهِمْ   ولكنَّهُمْ عند الهِياجِ نَقَانِقُ
أسودٌ في بيوتهم، وعند الهياج (المعركة) نقانق (نَعام)

إذا المرءُ لم يَنهضْ بِقائِمِ سيفِه   فيا ليتَ شِعريِ كيف تُحْمَى الحَقائِقُ؟
إذا المرء لم ينهض وقائم سيفه (مقبضه) بيده، فكيف تُحمَى الحقائق (الشرف)

٥٩ الصديق الحق

إذا ما المرءُ لم يَنْفَعْ أَخاهُ   على الحالَيْنِ في سَعَةٍ وضيقِ..
من لم ينفع صديقه، سواء أكان في سعة من الرزق أم في ضيق..

فدَعْهُ غيرَ مَأْسُوفٍ عليهِ   فخيرٌ منهُ إخوانُ الطريقِ
فاتركه، فأحسن منه إخوان الطريق (زملاء السفر الذين تنتهي صحبتهم بانتهاء السفر)

٦٠ العين بالعين

إذا المرءُ لم يَرْمِ الهَناةَ بِمثلِها   لِيَدْفَعَ ضَيْماً فهو بالذلِّ أَخْلَقُ
إذا لم يردَّ الإنسان على الهناة (الإساءة) بمثلها كي يدفع الظلم، فهو خليق (مستحق) بالذل

ومَن شهدَ الهيْجاءَ مِن غيرِ آلَةٍ   يَذودُ بها عن نفسِه فَهْوَ أَحمَقُ
فهو كمن يشهد الحرب بغير سلاح

٦١ أنا والشعر

وما كَلَفي بالشِّعرِ إلَّا لِأنَّه مَنارٌ لِسارٍ، أو نَكالٌ لأَحْمَقِ

كلفي بالشعر (غرامي به) إنما هو لأنه ينير الطريق للساري (السائر ليلاً)، أو يمثل تقريعاً وتنكيلاً بالأحمق وهجاء له

عَلِقْتُ به طِفْلاً وشِبْتُ، ولم يَزَلْ شديداً بأهْدَابِ الكَلامِ تَعَلُّقي

تعلقت بالشعر منذ الطفولة، وقد شاب رأسي وما زلت شديد التعلق بأهداب الكلام (شديد الشغف به)

بَلغتُ بِشِعري ما أردْتُ، فلم أَدَعْ بَدائِعَ في أَكْمامِها لم تُفَتَّقِ

بلغت بشعري ما أردت من ذيوع الصيت، ولم أترك إبداعاتي مخبأة كالزهر الذي ظل في أكمامه لم يفتّح

٦٢ تبرير بعد الهزيمة

كَفَى بِمُقامي في «سَرَنْدِيبَ» غُرْبَةً نزعْتُ بها عنِّي ثِيابَ العَلائِقِ

كفى بهذه الغربة في جزيرة سرنديب (سيلان) أنني نزعت بها عني صلاتي بكل من كنت أعرف

فإنْ تَكُنِ الأيَّامُ رَنَّقْنَ مَشْربي وثَلَّمْنَ حَدِّي بِالخطوبِ الطَّوَارِقِ..

إن يكن الزمن قد رنق مشربي (كدَّر عيشتي)، وثلم حدي (أضعفني) بالخطوب الطوارق (المصائب التي تهجم ليلاً)..

فما غَيَّرتْني مِحْنَةٌ عن خَليقَتي ولا حَوَّلتْني خُدْعَةٌ عن طَرائقي

فالمحنة لم تغير أخلاقي، والخداع لم يحرفني عن طريقتي في الحياة

فحَسْرَةُ بُعدي عن حبيبٍ مُصادِقٍ كَفَرْحَةِ بُعدي عن عدوٍّ مُمَاذِقِ

فالحزن لبعدي عن الحبيب يقابله الفرح ببعدي عن العدو المماذق (المخادع). التسويد لعمران القفيني

فتِلْكَ بِهذي، والنَّجاةُ غَنيمَةٌ مِن الناسِ، والدنيا مَكيدَةُ حاذِقِ

فهذه واحدة بواحدة، والنجاة من الناس غنيمة، والدنيا كلها كأنها مكيدة من تدبير حاذق (ذكي)

يقولُ أُناسٌ إنَّني ثُرْتُ خالِعاً وتلْكَ هَناتٌ لم تكُنْ مِن خَلائقي

يقولون إنني ثرت خالعاً طاعة من ولاني الأمر، وهذه هنات (صفات) ليست من أخلاقي

ولكنَّني ناديْتُ بِالعدْلِ طالباً رضَا اللَّهِ واستنْهَضْتُ أهلَ الحَقائقِ

فأنا ناديت بالعدل طلباً لرضا الله، واستنهضت أهل الحقائق (الشرف) وأهبت بهم للخروج

فإن كـانَ عِصْيـانـاً قِيامي، فإنَّنـي أردتُ بـعِصيـانـي إطـاعَـةَ خـالـقي
فإن كان قيامي بما قمت به عصياناً فلم أرد به إلا طاعة الله

على أنَّنـي لـم آلُ نُصْحـاً لِمَعْشَرِ أَبَى غدرُهُمْ أنْ يقبَلُوا قولَ صادِقِ
لكنني لم آلُ (لم أقصر) نصحاً للقوم، ولكن غدرهم منعهم من قبول نصحي

فلمَّا استمرَّ الظُّلْمُ قامَتْ عِصابَةٌ مِن الجُنْدِ تَسْعَى تحتَ ظِلِّ الخَوافِقِ
فلما استمر الظلم قامت جماعة من الجنود تسعى لتحقيق العدل تحت ظل الخوافق (الرايات)

وشَايَعَهُمْ أهلُ البلادِ، فأقبَلُوا إليْهِمْ سِراعاً بيـن آتٍ ولاحِقِ
وشايعهم (ناصرهم) أهل البلاد فالتفوا حولهم بين مبادر سريعاً ولاحق به فيما بعد

يَرومُونَ مِن مَوْلَى البِلادِ نَفاذَ مَا تَأَلَّاهُ مِن وَعْدٍ إلى النـاسِ صَادِقِ
يطلبون من مولى البلاد (الخديوي) تنفيذ ما تألّاه (أقسم عليه) من وعود

فيا مصرُ مَدَّ اللَّهُ ظِلَّكِ، وارْتَوَى ثَراكِ بِسَلْسَالٍ مِن النيلِ دَافِقِ
يدعو لمصر بدوام النعيم، ولثراها بالارتواء من سلسال النيل (مائه المتدفق)

فإنْ تَكُنِ الأيامُ ساءَتْ صُروفُها فإنِّي بفضلِ اللَّهِ أوَّلُ واثِقِ
فقد يَستقيمُ الأمرُ بعد اعْوِجَاجِهِ ويَرجِعُ للأوطانِ كلُّ مُفَارِقِ

٦٣ تحريض

وقال يذم سيرة الحكام، ويحض الناس على طلب العدل في الأحكام، وذلك في عهد الخديوي إسماعيل:

فانهَضْ إلى صَهَواتِ المجدِ مُعْتَلِياً، فالبازُ لم يَأْوِ إلَّا عَالِيَ القُلَلِ
قم لاعتلاء صهوات المجد، والباز (الطير الجارح) لا يسكن إلا القلل (القمم) العالية. صهوات الخيل ظهورها، وجعلها صهوات مجد، وعندما انصرف بسرعة إلى الباز خلط طيراً بدابة فجعل في البيت طعوماً شتى كذلك الطباخ الذي حشا جوف الخروف بديك رومي فاضطرب مذاق طبخته

ودَعْ مِن الأمرِ أَدناهُ لِأَبعَدِهِ، في لُجَّةِ البحرِ ما يُغني عن الوَشَلِ
اترك الأمر القريب لصالح الأمر البعيد، ففي لجة البحر (وسطه) من الصيد واللؤلؤ ما يغنيك عن الوشل (الماء الضحل)

حَلَبْتُ أَشْطُرَ هذا الدهْرِ تَجْرِبَةً وذُقْتُ ما فيهِ مِن صَابٍ ومِن عَسَلِ
حلبت ضروع هذا الزمن مثلما يحلب المرء البقرة لكثرة ما جربت، وذقت الصاب (المرّ) والعسل

فمـا وجـدْتُ عـلـى الأيـامِ بـاقِـيَـةً   أَشهَى إلى النفسِ مِن حُرِّيَّةِ العَمَلِ

أشهى شيء أن يعمل المرء بحرية ودون أن يتقيد بتنفيذ أمور سخيفة يريده عليها مديره أو رئيسه. فعلاً المرء يستمتع بالعمل الحر، فمهنة اللص أمتع من مهنة الشرطي، ومهنة الروائي أمتع من مهنة كاتب المحكمة

لـكـنَّـنـا غَـرَضٌ لـلـشـرِّ فـي زمـنٍ   أهـلُ الـعـقـولِ بـه فـي طـاعـةِ الـخَـمَـلِ

نحن هدف للشر في زمن يسيطر فيه الخمل (الخاملون البليدون) على أهل العقول، ويجعلونهم عاملين في طاعتهم

قـامَـتْ بـه مِـن رجالِ الـسُّـوءِ طائِفَةٌ   أدهَى على النفسِ مِن بُؤْسٍ على ثَكَلِ

قامت به (بهذا الزمن) مجموعة من رجال السوء وأخذت تحكم، وهي أسوأ تأثيراً على نفس الإنسان من بؤس يأتي بعد ثكل (فقدان عزيز)

مِن كُلِّ وَغْدٍ يكادُ الدَّسْتُ يَدفَعُهُ   بُغْضـاً، ويَلْفِظُهُ الديوانُ مِن مَلَلِ

هؤلاء مكونون من كل وغد يكاد الدست (المنصب) يرفضه كراهة له، ويكاد ديوان الوزارة يلفظه (يطرده) لأنه ممل

ذَلَّتْ بِهِمْ مصرُ بعدَ العِزِّ، واضطربَتْ   قَواعِدُ المُلْكِ حتى ظلَّ في خَلَلِ

ولا تلِجُّوا إذا مَا الرأْيُ لاحَ لَكُمْ   إن اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إلى الفَشَلِ

يا صحبي لا تلجوا (لا تكثروا الجدل) إذا اهتديتم إلى الرأي الصحيح، فاللجاجة مدعاة (سبب) للفشل (الجبن)

ولا تَخافوا نَكالاً فيه مَنْشَؤُكُمْ   فالحوتُ في اليَمِّ لا يَخشَى مِن البَلَلِ

لا تخافوا النكال (العقوبة) فقد نشأتم في ظل العقوبات والمظالم، فأنتم متعودون، ومثَلكم في هذا مثَل الحوت الذي لا يخاف من البلل لأنه نشا في جوف البحر

٦٤ مضى اللهو

وقال، وكتب بها إلى الشيخ حسين المرصفي:

مَضَى اللَّهْوُ، إلَّا أنْ يُخَبِّرَ سَائِلُ   ووَلَّى الـصِّـبـا إلَّا بَـوَاقٍ قَـلائِـلُ

انتهى زمن اللهو، ولم يبق منه إلا كلام أقوله جواباً لسؤالِ من يسألني، وولّى عهد الشباب إلا بقية قليلة

رَضِينا بِحُكْمِ الحُبِّ فينا، وإنَّنا   لَلُدٌّ إذا التَفَّتْ علينا الجَحَافِلُ

رضينا بحكم الحب فينا، مع أننا لد (شديدو الخصام) في الحرب حيث تلتف علينا جموع الجند

وإنَّـا رِجـالٌ تَـعـلَـمُ الـحـربُ أنَّـنـا بَنُوها، ويَدري المجدُ ماذا نُحاوِلُ

نحن أبناء الحرب، وهي تعلم ذلك؛ ويعلم المجد ما الذي نسعى إليه

إذا ما ابْتَنى الناسُ الحُصونَ فمَا لنا سوى البِيضِ والسُّمْرِ اللِّدَانِ مَعاقِلُ

الناس يبنون الحصون يحتمون بها، ونحن نحتمي بالبيض (السيوف) والسمر اللدان (الرماح السمراء اللينة) فهي فقط معاقلنا

إذا أنتَ أعْطَتْكَ المَقاديرُ حُكْمَها فَأضْيَعُ شيءٍ ما تقولُ العَواذِلُ

إذا أتاح لك حسن طالعك أن تسيطر على مجريات الأمور، عجزت العواذل عنك وضاع كلامها سدى. والعواذل كالفوارس تصلح لجماعة الذكور ولجماعة الإناث

بَلَوْتُ ضُروبَ الناسِ طُرّاً فلم يَكُنْ سوى المَرْصَفِيِّ الحَبْرِ في الناسِ كامِلُ

جربت صنوف الناس طراً (جميعاً) فلم يكن فيهم من كامل سوى الحبر (العالم) الشيخ حسين المرصفي

٦٥ تصديق الأباطيل

لا تَحْسَبِ الناسَ في الدنيا على ثِقةٍ مِن أمرِهِمْ، بل على ظَنٍّ وتَخييلِ

يظهر لك الواحد من الناس وكأنه واثق من كل شيء، كلام فارغ.. كل أمورهم قائمة على الظنون والتخييل (الوهم)

حبُّ الحياةِ وبُغضُ الموتِ أوْرَثَهُمْ جُبنَ الطِّباعِ وتَصْديقَ الأباطيلِ

حب الحياة وكره الموت أورثهم (زودهم) الجبن في الطبع، وتصديق كل باطل.
كأنني ألمح بادرة جحد عند البارودي في هذين البيتين اللذين وردا وحدهما، كأنه يقول إن حب الحياة والخوف من الموت جعل الناس يتخيلون حياة أخرى، لا نضع الكلام في فمه، بل نحاول قراءته، والبارودي في شعره من أشد الناس إيماناً بالله وتمسكاً بالإسلام، لكن كذلك كان أبو العتاهية وقالوا في دينه ما قالوا

٦٦ عدو في ثياب صديق

لیس الصديقُ الذي تَعْلُو مَناسِبُه بل الصديقُ الذي تَزْكُو شَمائِلُهُ

ليس صديقك الحق من كان ذا نسب عال، بل من كان ذا شمائل زكية (طباع طيبة)

لا كالذي يدَّعي وُدّاً وباطِنُهُ بِجمرِ أحقادِهِ تَغلي مَراجِلُهُ

فهذا ليس كمن يدعي الود بينما باطنه كالمرجل الذي يغلي بجمر الحقد

يَذُمُّ فعلَ أخيهِ مُظهِراً أَسَفاً لِيوهِمَ الناسَ أنَّ الحُزنَ شامِلُهُ

هذا النوع من الناس يؤنبك على أفعالك وهو يظهر الأسف، ليوهم الناس أنه حزين من أجلك

وذاكَ منه عَداءٌ في مُجامَلَةٍ   فاحْذَرْهُ، واعْلَمْ بأنَّ اللهَ خاذِلُهُ

فهذا عداء من جانبه يسوقه سَوْق المجاملة، فاحذر منه فسوف يخذل الله مسعاه. في هذه الأبيات لقطة بارعة لما عند أهل النفاق من طباع

٦٧ هجاء الصَّعْل

وقال يهجو عثمان رفقي، وهو ناظر الحربية الذي عزله الخديوي توفيق وعين بدلاً منه البارودي:

صَغُرَتْ رأسُهُ، وأفرَطَ في الطُّو   لِ شَواهُ وعُنْقُهُ، فَهْوَ صَعْلُ

رأسه صغير وشواه (أطرافه) وعنقه طويلة، فهو صَعْل (أي صغير الرأس). وأنث الرأس على العامية المصرية، وعلى وجه ضعيف في الفصحى

أَبرزَتْ قُدرةُ الطبيعةِ منهُ   شكلَ لُؤْمٍ، إن كان للُّؤْمِ شَكلُ

قدرة الطبيعة أرتنا شكل اللؤم في شخصه، هذا إن كان للُّؤم شكل

هَدَفٌ لِلعُيوبِ، في كلِّ عُضوٍ   منهُ سَهْمٌ للطَّاعنينَ ونَصْلُ

في كل عضو من جسمه هدف لأسهم ونصال الطاعنين

نَسَلَتْهُ مِنَ اسْتِها أُمُّ سُوءٍ   مَا لَها غيرُ طَائِفِ الليلِ بَعْلُ

ولدته أمه من خلف، وهي أم سوء ليس لها زوج سوى شخص يطوف ليلاً ويدخل عليها

نَازَعَتْكَ اليَهودُ واختلفَتْ فيـ   ـكَ النَّصارَى، فأنتَ لا شَكَّ بَغْلُ

اليهود تدعيك لنفسها والنصارى مختلفون هل أنت منهم أم لا، فأنت كالبغل أبوه حمار وأمه فرس

إنَّ بيتَ الوَزَّانِ لم يَزِنُوا شيـ   ـئاً، ولكنْ فيهِمْ على ذَاكَ ثِقْلُ

أسرة الوزان لم تزن شيئاً (ليس لها وزن ولا قيمة)، ومع ذلك فهم ثقلاء. من هذه الأسرة، والأغلب أنها كانت يهودية، مصطفى رياض الذي أصبح رئيس وزراء في عهد توفيق، وكأن البارودي يعد عثمان رفقي من أقارب هذه الأسرة.. ولم أجد مصدراً يصل نسب رفقي بأسرة الوزان

كَثُروا عِدَّةً، ولو أَحْصَنَ البَا   بَ أَبوهُمْ عنِ الزُّناةِ لَقَلُّوا

عددهم كثير، ولو كان أبوهم أحصن الباب (أغلقه) ولم يسمح للزناة بالدخول، لقلوا.. أي أنهم أولاد زنا

لو عَزَوْنا كلَّ امْرِئٍ لأَبيهِ   مِنْ فِراخِ الوَزَّانِ لم يبقَ نَسْلُ

لو نسبنا أولاده لآبائهم الحقيقيين لم يبق للوزان نسل

كلُّ وَغْدٍ أَهْدَى إلى اللُّؤْمِ مِنْ بَا   زٍ، ولكِنْ مِنَ الحِمَارِ أَضَلُّ

كل وغد منهم أهدى (أكثر اهتداء) إلى اللؤم من الباز (الطير الجارح ذي البصر الحديد) ولكنه أكثر ضلالاً من حمار

كنتُ لا أُحْسِنُ الهِجاءَ، ولكنْ   عَلَّمَتْني صِفاتُهُمْ كيف أَتْلُو

لم أكن أحسن الهجاء، ولكن صفاتكم علمتني كيف أتلوه

٦٨ ها هي الأهرام

ذَهَبَ الصِّبا وتَولَّتِ الأَيَّامُ   فعَلى الصِّبا وعلى الزمانِ سَلامُ

تَجري علَيْنا الكأسُ بين مَجالِسٍ   فيها السَّلامُ تَعانُقٌ ولِزَامُ

في مجالس الشراب تلك كان سلامنا عناقاً ولزاماً (بالأحضان)

حتى انتَبَهْنا بعدمَا ذهَبَ الصِّبا   أَنَّ الخَلاعَةَ والصِّبا أَحْلامُ

لا تَحْسَبَنَّ العيشَ دامَ لِمُتْرَفٍ   هيهاتَ، ليس على الزمانِ دَوامُ

تأتي الشهورُ وتنتهي أيامُها   لَمْعَ السَّرابِ وتنقضي الأَعْوامُ

فادْرأْ هُمومَ النفسِ عنكَ إذا اعْتَرَتْ   بالكأسِ فَهْيَ على الهمومِ حُسَامُ

ادرأ (ادفع) عنك الهموم بالكأس فهي سيف مصْلت على الهموم

مِن خَمرةٍ تَذَرُ الكبيرَ إذا انتَشى   بعدَ اشْتِعالِ الشَّيبِ وَهْوَ غُلامُ

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لم يَقُمْ بِفِنَائِهِ   نُورٌ ولم يَبْرَحْ عليه ظَلامُ

حبست الخمر في دن أكلف (جرة كبيرة مغبرة اللون) في قبو مظلم لم يظهر نور في فنائه، وما برح الظلام سائداً حوله

فاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هل تَرى مِن أُمَّةٍ   خَلَدَتْ، وهل لابْنِ السبيلِ مُقامُ؟

اطمح بطرفك (ارفع رأسك وانظر بعينيك) هل ترى أمة خلدت؟ وهل لابن السبيل (المسافر) مكوث؟

هَذي المَدائِنُ قد خَلَتْ مِن أهلِها   بعدَ النعيمِ، وهذهِ الأَهرامُ

هذه المدن خلت من أهلها الأولين، وها هي أمامك الأهرام. . كل قوم إلى زوال. يوازن زكي مبارك بين قصيدة البارودي هذه وبين قصيدة أبي نواس (يا دار ما فعلت بك الأيام)، وينصف ديباجة البارودي الجميلة، ولا يعجبه وصفه للخمر، فهو ليس منغمساً في حمأتها انغماساً مقنعاً، فأما أبو نواس ففي شعره حرارة جعلت زكي مبارك يقف عند البيت (وبلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه/ فإذا عصارة كل ذاك أثام) قائلاً: «الله أكبر، هذا هو الشعر، وذاك هو الشاعر، أبو نواس!» وعن وصف الشاعرين للخمر يقول زكي مبارك: «إن خمرية البارودي هذه لن تهوي بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمريات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار، وسيكون يوم الدين جبلاً يتفجر بالبراكين»

٦٩ لذَّات فانيات

وقال يصف روضة المقياس:

ومَـنـزِلَـةٍ لـلأُنْـسِ كـنَّـا نَـحُـلُّـهـا ... ونَرعَى بِها اللَّذاتِ رَعْيَ السَّوائِمِ

رب مكان أنس ولهو كنا نحل فيه ونستمتع باللذات كأننا نرعاها رعي السوائم (المواشي)

عَفَتْ وكَأَنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ، والتَقَتْ ... عـليـهـا أعـاصيرُ الريـاحِ الـهَـواجِـمِ

هذه المنزلة (المكان) عفت (امّحت) كأنها لم تكن عامرة بالأمس، والتقت فيها الرياح الهاجمة عليها فغيرت معالمها

ومـا خَـيْـرُ دُنـيـا لا بَـقَـاءَ لِـعَـهْـدِهـا ... ومـا طيـبُ عَـيْـشٍ رَبُّه غـيـرُ سَـالـم؟

ما خير دنيا (لا خير في دنيا) لا يبقى لها عهد، ولا طيب لعيش ربه (صاحبه) غير سالم، فلا بد له بعد العيش من موت

٧٠ إلى كم تنام؟

وقال، وكتب بها من حرب الدولة العثمانية مع روسيا (١٨٧٧م) إلى صديقه الشيخ حسين المرصفي:

يـا نَـاعِـسَ الـطَّـرْفِ إلـى كـمْ تـنـامْ؟ ... أَسـهَـرْتَـنـي فـيـكَ ونَـامَ الأَنـامْ

يا أيها المحبوب الناعس الطرف (النائم)، أسهرني عشقي لك، ونام الناس

أَوشَـكَ هـذا الـلـيـلُ أن يَـنـقـضـيَ ... والـعـيـنُ لا تـعـرِفُ طِـيـبَ الـمَـنـامْ

الـلَّـهَ فـي عـيـنٍ جَـفـاهَـا الـكَـرَى ... فـيـكُـمْ، وقـلـبٍ قـد بَـراهُ الـغَـرامْ

اتق اللهَ في عيني التي جفاها الكرى (هجرها النوم) فيكم (بسببكم)، وفي قلب براه (أنهكه) الغرام

طـالَ الـنَّـوَى مِـن بَـعدِكُـمْ، وانقَضَتْ ... بَـشـاشَـةُ الـعـيـشِ، وسـاءَ الـمُـقـامْ

طال النوى (البعاد) وذهبت بشاشة العيش (طيبه)، وساء وجودي ههنا

أَرتَـاحُ إنْ مَـرَّ نَـسـيـمُ الـصَّـبـا، ... والـبُـرْءُ لـي فـيـهِ مَـعـاً والـسَّـقَـامْ

نسيم الصَّبا يذكرني بك فهو لي برء (شفاء)، لكنه أيضاً سقام (مرض)

يـا لـيْـتـنـي فـي الـسِّـلْـكِ حَـرْفٌ سَـرَى ... أو رِيـشَـةٌ بـيـنَ خَـوافـي الـحَـمـامْ

ليتني حرف يسير في سلك التلغراف فأصل إليك بشخصي، أو ليتني ريشة بين خوافي الحمام (الريشات الداخلية في الجناح)

حـتَّـى أُوافـيَ مِـصْـرَ فـي لَـحْـظَـةٍ ... أَقـضِـيَ بـهـا فـي الـحُـبِّ حَـقَّ الـذِّمَـامْ

حتى آتي إلى مصر فأقضي حق الذمام (العهد) للحب

٧١ عذر العاشق

ألا لا تَلُمْ صَبّاً على طولِ سُقْمِهِ ودعْهُ فليس الأمرُ فيهِ لِحُكْمِهِ

لا تلم الصب (العاشق) على طول سقمه (مرضه)، فهذا أمر ليس خاضعاً لحكمه

إذا ما أَقَرَّ المرءُ يوماً بذنبِهِ فماذا الذي تُغني لَجَاجَةُ خَصْمِهِ؟

لجاجة: جدال، ومماحكة

٧٢ أنا كمجلة الأحكام

أنا في الدهرِ ضائعٌ بين فَهْمٍ فاتِكٍ حَدُّهُ، وجَدٌّ كَهَامِ

أنا ضائع بين فهم حاد وذكاء، وبين جدٍّ (حظٍّ) كهام (متثلم). يعني أنه فاهم وذكي لكن حظه سيء

حُزْتُ عِلْماً، وما رُزِقْتُ قَبولاً فكأنّي مَجَلَّةُ الأَحْكَامِ

أحرزت العلم، ولكنني لم أحرز القبول، تماماً كمجلة الأحكام الرسمية التي تنشر بنود القوانين: فهي مملوءة بالمعلومات، لكنها جافة لا يقبل الناس عليها

٧٣ صديق صعب

أَلا مَن مُعيني على صاحبٍ جَرَعْتُ بِصُحبتِهِ العَلقَما؟

من يعينني على صديق تجرعت في صحبته العلقم؟

يلومُ على غيرِ ذنبٍ جَرى ويَغضَبُ مِن قبلِ أنْ يَفْهَما

سريع اللوم سريع الغضب

فإن قلتُ مَهلاً لَوى شِدْقَهُ وإن لم أُجِبْ قولَهُ بَرْطَمَا

برطَمَ: زعل

٧٤ ارغب عن الدنيا

المرءُ طَوْعُ يدِ الزمانِ، يقودُهُ قَوْدَ الجَنيبِ لِغايَةٍ لم تُعْلَمِ

المرء بيد الزمان يقوده مثلما يقود المرء الجنيب (الحصان) ويأخذه إلى غاية مجهولة

إن الحياةَ شَهِيَّةٌ ما لم تكنْ غَرضاً لإمْرَةِ ظالمٍ لم يرحَمِ

ما لم تكن أنت مستهدفاً من ظالم

لا أرتَضي عَيْشَ الجبانِ، ولا أَرى فضلاً لِذي حَسَبٍ إذا لم يُقْدِمِ

لا فضل للشريف ذي الحسب إذا لم يكن شجاعاً مقداماً

لـو كـان لـلإنـسـانِ عـلـمٌ بـالـذي　　　فـي الـغـيـبِ لـم يـفـرَحْ ولـم يـتـنَـدَّمِ
فـدَعِ الأمـورَ إلـى مـدبِّـرِ شـأنِـهـا　　　وارغَـبْ عـن الـدنـيـا بـنـفـسِـكَ تَـسْـلَـمِ

٧٥ سيف وقيد

سُـكـوتـي إذا دَامَ الـحـديـثُ كـلامُ　　　وتَـقـليـبُ عـيـنـي فـي الـوُجُـوهِ مَـلامُ
سكوتي وهم يتكلمون له معنى فهو كالكلام، ونظراتي في وجوه المتحدثين تحمل اللوم لهم

وصَـبـري عـلـى الأيـامِ لا مِـن مـذَلَّـةٍ　　　ولـكـنْ يَـدٌ مَـغـلُـولَـةٌ وحُـسَـامُ
صابر على الأيام ليس لأنني ذليل، لكن لأن يدي مغلولة (مقيدة) وإن كانت تحمل سيفاً

أُلامُ على أنِّي صبرتُ، وهل فَتىً　　　على الصبرِ، إن قلَّ المُعينُ، يُلامُ؟

٧٦ المال الضعيف

لا تَـعْـذِلَـنِّـي عـلـى وَفْـرٍ سـمـحـتُ بـه　　　لـلـمُـعْـتَـفـيـنَ فـإنِّـي مـاجِـدُ الـشِّـيَـمِ
لا تلمني على مال سمحت به (تفضلت به) للمعتفين (الفقراء) فأنا ماجد الشيم (شريف الطباع)

فـإنْ يـكُـنْ قَـلَّ مـالـي بـعـد وفـرَتِـه　　　فـإنَّ مَـالِـيَ لا يَـقْـوَى عـلـى كَـرَمـي
فإن كان مالي قد أصبح قليلاً بعد ثراء، فذلك لأن مالي لا يتحمل سخائي

٧٧ الذم بالمدح

أيُّـهـا الـشـاعـرُ الـمُـجـيـدُ تَـدَبَّـرْ　　　واجـعـلَ الـقـولَ مـنـكَ ذا تَـحـكـيـمِ
لا تَـذُمَّ الـلـئـيـمَ، وامْـدَحْ كَـريـمـاً　　　إنَّ مـدحَ الـكـريـمِ ذمُّ الـلـئـيـمِ

٧٨ القامة المقوسة

حنَى الشيبُ عُودي، فاستَقامَتْ رَوِيَّتِي　　　ولولا انحناءُ القوسِ ما صَرَّدَ السهمُ
حنى العمر قامتي، فاستقامت رويتي (حكمتي)، وكذا القوس فإنها محنية ولذا فالسهم الذي ينطلق عنها يصرد (يصيب)

٧٩ رب السيف والقلم

ولـو كـان لـلإنـسـانِ عِـلـمٌ يَـدُلُّـهُ　　　على خافياتِ الغيبِ ما كان يَندَمُ
لو علم الإنسان الغيب لما ندم على شيء، إذ سيعرف أن كل شيء مقدر محتوم

كتمتُ الهوى خوفَ الوُشاةِ، فلم يَزَلْ بيَ الدمعُ حتَّى بَانَ ما كنتُ أكْتُمُ

كتمت حبي خوفاً من الوشاة، وظل دمعي يسيل حتى ظهر ما أكتم

ويَصْحَبُني في كلِّ رَوْعٍ ثَلاثةٌ: حسامٌ، وطِرْفٌ أَعْوَجِيٌّ، ولَهْذَمُ

يصحبني في الروع (الحرب) سيف، وطرف أعوجي (حصان أصيل) ولهذم (رمح)

ويَنصُرُني في كلِّ جَمْعٍ ثَلاثةٌ: لِسانٌ، وبُرهانٌ، ورَأيٌ مُحَكَّمُ

ينصرني في المجالس لساني، وما عندي من براهين على ما أقول، ورأيي الصائب

فلا تحتقِرْ فضلَ الكلامِ، فإنَّه مِن القولِ ما يَبني المَعالي ويهدِمُ

لا تحتقر أهمية الكلام، فمنه ما يصنع للمرء المعالي (الأمجاد)، ومنه ما يُسقط صاحبه ويفضحه

فما كُلُّ مَن حاكَ القصائدَ شاعرٌ ولا كلُّ مَن قالَ النَّسيبَ مُتَيَّمُ

فإنْ يَكُ عَصْرُ القولِ وَلَّى، فإنَّني بِفَضْلي، وإنْ كنتُ الأخيرَ، مُقَدَّمُ

لئن ولى عصر الفصاحة فإنني مقدم متميز وإن جئت في هذا الزمن المتأخر

٨٠ بين يوسف وكافور

ومَا مِصْرُ، عُمْرَ الدهرِ، إلَّا غَنيمَةٌ لِمَنْ حَلَّ مَغنَاها، ونَهْبٌ مُقَسَّمُ

مصر، طولَ عمرها، غنيمة لمن ينزل في مغناها (جنانها) ومنهوبة مقسمة بين الفاتحين

تَداوَلَها المُلَّاكُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ونَال بها حَظَّاً فَصيحٌ وأَعْجَمُ

تداولها الملوك، ونال بها الغنى الفصيح والعيي. فالعرب الفصحاء نالوا بها حظوة عندما فتحوها، وفي زمن البارودي كان للإيطاليين واليونانيين والفرنسيين ثم الإنجليز مكانة، واغتنوا بمصر

فما أَهلُها إلَّا عَبيدٌ لِمَنْ سَطَا ولا رَيْعُها إلَّا لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمُ

سطا: استبد

عِدَادُكَ في سِلْكِ البَرِيَّةِ خِزْيَةٌ ودَعْواكَ حَقَّ المُلْكِ أدْهَى وأَعْظَمُ

أن نعُدَّك في سلك البشر شيء مخزٍ، وادعاؤك الملك أدهى، وينطبق هذا القول على الخديوي توفيق الذي شايع الإنجليز

لقد هانَتِ الدنيا على الناسِ عندما رأَوْكَ بها في مُلْكِ «يُوسُفَ» تَحْكُمُ

الدنيا هان شأنها على الناس عندما رأوك تحكم مصر التي حكمها ذات يوم النبي يوسف

فإنْ تَكُ أَوْلَتْكَ المقاديرُ حُكْمَها فقد حَازَها مِن قبلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ

إن كنت توليت أمر مصر، فقد تولاها قبلك عبد مزنم (دعي منسوب إلى غير أبيه)، يقصد كافوراً الإخشيدي الذي هجاه المتنبي

٨١ الداء القديم

أَعِدْ على السَّمْعِ ذِكْرَ البَانِ والعَلَمِ واعذِرْ شآبيبَ دَمعي إن جَرَتْ بِدَمِ

كرر على مسامعي ذكر البان والعلم (مكانين في الحجاز)، واعذرني على شآبيب (زخات) دمعي إن جرى معها الدم لشدة البكاء

وكيف أنسَى دِياراً قد نشأتُ بها في منبتِ العِزِّ بين الأَهلِ والحَشَمِ؟

يتذكر الآن مكان نشأته بمصر في بيئة العز وحوله الأهل والحشم (الخدم)

ودَّعْتُ شطرَ حياتِي يومَ فُرْقَتِهِمْ وصافَحَتْنِي يَدُ الأحزانِ والهَرَمِ

ودعت شطر (نصف) حياتي عندما فارقتهم، وجاءني الحزن وهجمت علي الشيخوخة

تَغيَّرَ الناسُ عمَّا كنتُ أَسمَعُهُ واستَحْكَمَ الغَدْرُ في السَّادَاتِ والحَشَمِ

وظَلَّ أَعْدَلُ مَن تلقَاهُ مِن رَجُلٍ أَعْدَى على الخلقِ مِن ذِئبٍ على غَنَمِ

أعدل الناس صار أكثر اعتداءً من الذئب على الغنم

لم أدْرِ هل نَبَغَتْ في الأرضِ نابِغَةٌ أم هذهِ شِيمَةُ الدنيا مِن القِدَمِ؟

هل انبثقت طفرة من الطفرات فصار الأمر كذلك، أم أن هذه شيمة وطبع الدنيا منذ القدم؟

٨٢ تفرَّدْ

كلَّما قلتُ قد أَصَبْتُ خليلاً أَضحَكَتْني مِنْ غدرِهِ الأيامُ

أصبت خليلاً: عثرت على صديق

فتفَرَّدْ تعِشْ بنفسِكَ حُرَّاً رُبَّ فَرْدٍ يخشاهُ جيشٌ لُهَامُ

عش وحيداً حراً، فرب فرد يخشاه الجيش اللهام (الكبير)

٨٣ وداع الوطن

وقال يذكر وداعه للوطن، (كان ذلك في ديسمبر/ كانون الأول ١٨٨٢، إذ احتل الإنجليز مصر، ونفوا البارودي وعرابي وخمسة آخرين من قادة الثورة إلى جزيرة سيلان التي كانت مستعمرة بريطانية):

مَحَا البينُ ما أبقَتْ عيونُ المَها مِنِّي فَشِبْتُ، ولم أَقْضِ اللُّبَانَةَ مِنْ سِنِّي

محا الفراق ذلك القليلَ الذي أبقته عيون المها مني، فداهمني الشيب قبل أن أقضي اللبانة (الحاجة) من شبابي

فَإنْ أَكُ فارقْتُ الديارَ فَلي بها فؤادٌ أَضَلَّتْهُ عُيونُ المَها مِنِّي
لئن فارقت البلاد فلي بها قلب ضيعته مني عيون المها

فهل مِنْ فتىً في الدهرِ يجمعُ بينَنا؟ فليس كِلانا عن أَخيهِ بِمُسْتَغْنِ
فهل أجدُ من يجمعني بقلبي؟ فلا غنى لي عنه، ولا غنى له عني

ولمَّا وقفْنا للوَداعِ، وأَسبَلَتْ مدامعُنا فوقَ التَّرائِبِ كالمُزْنِ..
لما وقفنا نتوادع، وأسبلت دموعنا (نزلت) فوق الترائب (أعلى الصدر) كالمزن (السحاب)

أَهَبْتُ بِصبري أن يعودَ فعَزَّني ونَادَيْتُ حِلمِي أن يثوبَ فلَمْ يُغْنِ
طلبت من صبري أن يعود فعزني (قوي علي وأبى)، وناديت حلمي (عقلي) أن يثوب (يعود) فلم يغن ندائي شيئاً

ولم تَمْضِ إلَّا خَطْرَةٌ ثم أَقْلَعَتْ بِنا عن شُطُوطِ الحَيِّ أَجْنِحَةُ السُّفْنِ
وما هي إلا خطرة (برهة) حتى أقلعت بنا السفن ناشرة أجنحتها (أشرعتها)

ولولا بُنَيَّاتٌ وشيبٌ عَواطِلٌ لَمَا قَرَعَتْ نَفسي على فَائِتٍ سِنِّي
لولا بناتي الصغيرات، والنساء الكبيرات العواطل (غير المتزينات) من الأهل لما قرعت نفسي السن (لما ندمت) على ما فات من أمر

ومَنْ شَاغَبَ الأيامَ لانَ مَريرُهُ وأَسْلَمَهُ طولُ المِراسِ إلى الوَهْنِ
من عاند الأيام لان مريره (قوته)، وأسلمه (أدى به) طول المراس (المعافرة ومزاولة المخاطر) إلى الضعف

٨٤ واطولَ شوقي

وقال وهو بسرنديب:

وَاطُولَ شَوقِي إليكَ يَا وطنُ! وإن عَرَتْنِي بِحبِّكَ المِحَنُ
عرتني: اعترتني

لستُ أُبالِي، وقد سَلِمْتَ على الدَّهْرِ، إذا مَا أَصابَنِي الحَزَنُ
إن سلم الوطن فلست أبالي ما أصابني من حزن

٨٥ المكتفي بعقله

رَضِيتُ مِن الهوى بِنُحولِ جِسمي ومِن صِلَةِ البخيلةِ بالأماني

ولستُ بِطالِبٍ في الناسِ خِلّاً يُناصِحُني، فعَقْلِي قد كَفاني

٨٦ ليلة أنس

لاعَبَ السُّكْرُ قدَّهُ فتَثَنَّى ودعاهُ فَرْطُ السُّرورِ فغَنَّى

سكر المحبوب فأخذ يميل بقده ويتثنى، ومن فرط سروره أخذ يغني

رَشَأٌ تَعْبُدُ النَّواظِرُ مِنْهُ وَاحِداً في الجَمالِ ليسَ يُثَنَّى

رشأ (غزال) تعبد النواظر (العيون) إذ تنظر إليه الواحد الذي لا ثاني له، يقول الناس سبحان الله الخالق عندما يرون مثل هذا الجمال

أَنْبَتَ الحُسْنُ فوقَ خَدَّيْهِ وَرْداً ليسَ إلّا بِغمْزَةِ اللَّحْظِ يُجْنَى

الحسن جعل في خديه ورداً هو الاحمرار، ونقطف هذا الورد بنظراتنا

لم يَزَلْ يَرْضَعُ السُّلَافَةَ حتى غابَ عنَّا كأَنَّه ليس مِنَّا

شرب المحبوب كثيراً من السلافة (الخمر) حتى غاب عن الوعي

٨٧ حبيب افتراضي

يا ذُكْرَةً أَبصَرْتُ في مِرْآتِها صُوَرَ التمَنِّي

يا ذكرة (خاطرة) رأيت فيها صورة من صور التمني

خَطَرَتْ عليَّ فَنَفَّرَتْ طَيْرَ الكَرى مِنْ وَكْرِ جَفْنِي

خطرت لي، فنفرت طير الكرى (أبعدت النوم) من وكر جفني

عَلِقَتْ حِبَالَةُ خَاطِرِي منها بِمَكْحُولٍ أَغَنِّ

حبالة خاطري (مصيدة ذهن) أمسكت هذا الغزال المكحول الأغن (الأكحل العينين ذا الصوت الذي فيه غنة)

كانتْ مِثَالاً خَطَّهُ بِمَخيلَتي نَقَّاشُ ذِهني

كانت هذه الخاطرة كالمثال (الصورة) التي رسمها ذهني فكأنه نقاش يرسم بإزميله على الحجر رسماً

هِيَ لُقْيَةٌ وَهْمِيَّةٌ سمحَتْ بها خَطَراتُ ظَنِّي

هذا لقاء وهمي، من بنات الظنون

٨٨ نصحت قومي

نصحتُ قوميِ وقلتُ الحربُ مَفجَعَةٌ وربـمـا تَـاحَ أمـرٌ غـيـرُ مَـظـنـونِ

قلت لقومي: الحرب تأتي بالفواجع، وقد يأتي أمر لم يخطر بالبال

فـخَالَـفـونـيءِ، وشَـبُّـوهـا مُـكَـابَـرةً وكـان أوْلـى بِـقـوميِ لـو أطـاعُـوني

خالفوني وأشعلوا نار الحرب مكابرة وعناداً، وكان أولى بهم لو أطاعوني

تأتيِ الأمورُ على ما ليس في خَلَدِ ويُخطِئُ الظنُّ في بعضِ الأَحايينِ

الأمور تأتي بما ليس في خلد (عقل) والظن يخطئ أحياناً

٨٩ علَّمت الحمام الأغانيا

وما ليَ ذنبٌ عندَهُمْ، غيرَ أنَّنيِ شَدَوْتُ فَعَلَّمْتُ الحمامَ الأَغانِيا

وهل يكتُمُ المرءُ الهَوى وَهْوَ شَاعِرٌ ويَثْنيِ على أعقَابِهِنَّ القَوافيا

الشاعر لا يكتم الهوى، ولا يرد القوافي على أعقابها ولا يرفضها

فيَا نَسَماتِ الفَجْرِ مَا لَكِ كلَّما تنَسَّمْتِ أَضْرَمْتِ الهوى في فؤاديا

ويا رَوْضَةَ المِقْيَاسِ جَادَكِ سَلْسَلٌ مِنَ النيلِ يَدعُو لِلحنينِ السَّواقِيا

أيتها الروضة جادك سلسل من مياه النيل يجعل السواقي تدور وتصدر صوتاً كحنين الإبل. وفي جزيرة الروضة هذه مقياس يقيس ارتفاع النيل

هِيَ الوطنُ المألوفُ والنفسُ صَبَّةٌ بِمنزِلِها الأَدْنى، وإن كان نَائيا

هذا وطني الذي ألفته، والنفس صبة (مغرمة) بمنزلها القريب إلى القلب حتى وإن كان بعيد المسافة

فلا حَبَّذا الدنيا إذا هِيَ أَدْبَرَتْ وإن أَقْبَلَتْ يومَاً فيا حَبَّذَا هِيَا

الدنيا رديئة عندما تدبر عن المرء وتوليه ظهرها، وما أجملها عندما تقبل

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

جميل صدقي الزهاوي

(١٨٦٣م ـ ١٩٣٦م)

يذهب الرجل للتعزية. وما يكاد يسخن تحته الكرسي حتى يتنحنح ويسأل ابن الفقيد أو أخاه هامساً: كيف مات؟ أبجلطة على قلبه، أم ببلطة شقت رأسه؟

وما لك ولهذا السؤال البارد يا ثقيل!

وهبْك تريثت بعد أن تنحنحت، ولم تشعر بعد أنك استجمعت ما يكفي من الشجاعة كي تسأل سؤالك. لا بأس عليك! لا تستجمع شجاعتك يا أخي، لا لزوم لذلك. فذوو الفقيد سيصدعون رأسك بوصف الميتة كيف مِيتت، وبالميت كيف لفظ آخر أنفاسه. ولن تجدهم يذرفون دمعة وهم يقصون القصة بأدق التفاصيل، لا بل سيتدفقون في الحديث بحماسةٍ وشهوةِ حَكْيٍ عجيبتين.

وكيف مات جميل صدقي الزهاوي؟ وقع وهو يمشي داخل بيته وتفتت عظم في قدمه، فلزم سريره. ومات.

فكيف إذن عاش؟

كل الكتب والمقالات تعدد لك وظائفه ومناصبه كأنها تكتب سيرة وظيفية لإرفاقها بطلب عمل. الزهاوي أكبر من وظائفه ومناصبه.

لا أكتمك أنني أذكر وظائفي ومناصبي في بعض ما أكتب وبعض ما أقول. وقد تراني أفعل ما يفعله صغار النفوس من دسِّ عبارة في أثناء كلامي تُشعِر بأنني توليت ذات يوم الوظيفة الفلانية أو الفلانية. هذا بعض ما في طباعي من لؤم. وإنما أفعل ذلك كي أدرأ عن نفسي تهمة كان ينبغي أن أشرُف بها: تهمة أنني فاشل في المناصب.

لا، لا، لست فاشلاً فقد كنت ذات يوم كذا أو كذا. سبحان من خلقني!

لا شيء أجلب للشرف على الكاتب من أن يكون فاشلاً في سباق الجرذان، هذا السباق على المناصب.

على أنني، ككل الناس، أريد أن أبدوَ ناجحاً اجتماعياً ووظيفياً. لكنني ما سمعت بكاتب أو أديب ذي مناصب إلا وهو مخفق في أدبه بقدر نجاحه في مناصبه. وعندما تدبرت حياة الشاعر ابن المعتز، الذي تولى الخلافة يوماً وليلة ثم قتل، قلت في نفسي: هكذا ينبغي للأمر أن يكون.

لن أذكر لك مناصب الزهاوي. لكنني سأقول لك إنه كان يعيش في بيت مريح بناه هو بماله في بغداد مع زوجته «زكية» التي تصغره كثيراً. ولم ينجبا، غير أنه كان عنده كلب أسود وحمارة بيضاء يتنقل بها بين مقاهي بغداد.

وقد تعجَّب بعض الأدباء من رفائيل بُطي كيف يعتني في كتابه عن تاريخ الأدب المعاصر في العراق بذكر كلب الزهاوي وبذكر اسمه، واسمه بالمناسبة «ولك»، وأما اسم الحمارة فهو من غوامض الأمور التي تحتاج إلى دفتر من هذه الدفاتر التي يسمونها رسائل دكتوراه لتحقيقها.

أحذرك من أن ما ستقرأه من شعر الزهاوي مزعج. فالزهاوي متمرد على المعتقدات حد الجحد. وهو علماني، وإن لم يكن ملحداً ولا عدمياً.. قد كان صاحبنا يؤمن بالإنسان. لكنه سيزعج كثيرين الآن مثلما أزعج كثيرين في حياته. يكفي أن ابن أخيه الفقيه الدَّيِّن رفض أن يشيع جنازته.

عاش الزهاوي مع زوجة أحبته وخدمته، وكان لها محباً مخلصاً. وكان على بعض اليسار، (ربما بسبب الوظائف والمناصب، لا حول ولا قوة إلا بالله.. وهل تريده أن يعيش سائلاً أمام باب المسجد؟)

هذا رجل عتيق.. ولد والعراق عثمانية جداً. ولد عام ١٨٦٣، بحسب المتواتر، أو قبلها بعشرة أعوام إن صدَّقنا إبراهيم عبد القادر المازني وأحمد حسن الزيات. وانتزعه أبوه، وحده من بين إخوته، وأعاشه في بيته. يبدو أن أمه كانت تعيش وأولادَها في بيت آخر. لعل والده رأى فيه نبوغاً باكراً. وأبوه رجل فقه وعلم وفتيا، ورجل شعر أيضاً، وكان يتقن الفارسية وينظم بها علاوة على نظمه بالعربية.

كان أبوه يعطيه درهماً على كل بيت يستقيم له نظمه بغض النظر عن معناه.

ذلك بالعربية. ونشأ الزهاوي على اللغة العربية. لكنه تعلم الفارسية والتركية حدثاً، وأجادهما إجادة بلغت أن كان ينظم بالفارسية، وينشد بها شعره، وأن كان يكتب في الصحف التركية ويترجم القوانين من التركية إلى العربية، ويتولى التدريس في معاهد إستانبول العليا. وقيل إنه عرف الكردية، وبعض الفرنسية.

آن أن نقول لك إنه كردي. قال إبراهيم الدروبي صاحب كتاب «البغداديون في أخبارهم ومجالسهم» إن أصل العشيرة من مخزوم القرشية، غير أن العائلة أخذت اسمها من «زهاو» التي عاش بها الأجداد، وهي اليوم في إيران. وقيل إنه من أصل كردي.

لا تلمس في كل شعر الزهاوي وحياته شيئاً من كرديته. فهو قد نشأ في حضن أبيه الفقيه المفتي على حب اللغة العربية، ونشأ عربياً.

الزهاوي فحل من فحول البيان العربي. انظر في الصفحات السبع التي كتبها تقديماً لديوانه المطبوع بمصر، عام ١٩٢٤، وسترى قلماً بديعاً. وانظر في شعره وسترى الرجل يعرف العربية معرفة عميقة. ولا تغتر بهذه البساطة في شعره، ولا بأسلوبه المعاصر والمباشر، هذا كله وليد فكرِه المعاصر والمتمرد على القديم.

أُشبِّه الزهاوي بابن الرومي في هذه، وأشبهه به في كثير غيرها. فهو بغدادي جداً، وابن الرومي لم يكد يبرح بغداد طول عمره. والزهاوي يبلغ به تطلُّب المعنى أن يسترسل في «نثرية» يتململ منها الشعر ويكاد يأباها، والزهاوي يطيل جداً ويكرر المعنى نفسه باللفظ نفسه في القصيدة بعد القصيدة، والزهاوي كان مضطرب الأعصاب مصاباً في نخاعه الشوكي منذ سن الخامسة والعشرين، وكان نحيلاً شديد النحول. وهذه كلها كانت في ابن الرومي. وكان الشاعران كلاهما متمردين، وكانا على معرفة عميقة بالعربية يسترها الأسلوب السهل. على أن ابن الرومي، المعتزلي المتمرد الرافض، كان يثوب إلى الإيمان بين الحين والحين فيقول أشياء تشعرنا بإيمانه الديني العميق، ولكن الزهاوي كان في هذه شبيهاً بالمعري.

يقول الزهاوي الأبيات الكثيرة في الجحد ثم يدس بيتاً يتقي به تهمة الإلحاد. وقد يلقي قصيدة في احتفال المولد النبوي فتأتي باردة.

عاش الزهاوي في بغداد، وقضى فترات تطول وتقصر في إستانبول،

وأُزعج عن بغداد، أي هجَّ منها وطفش، فرحل إلى الشام فبيروت وزار مصر وتعرف على أدبائها وعلمائها. وقابل يعقوب صروف.

كانت صحيفة «المقتطَف»، التي أسسها يعقوب صروف ثم حررها خمسين سنة، معلِّماً درس الزهاوي على يديه العلم والفكر. كان والده يحتفظ بمجلدات من هذه المجلة، والتهمها الزهاوي يافعاً. وكانت المقتطف مدرسة تقدم العلم والأدب. وعلى هذه الصحيفة ـ التي بدأت في بيروت ثم انتقلت إلى مصر ـ نشأ خلق من كبار الأدباء والعلماء. منها ومن الكتب التركية المترجمة عن اللغات الأوروبية استقى الزهاوي العلم.

طريف أن ترى الزهاوي والعقاد يتناقشان عبر الصحف في نظرية آينشتاين عن الضوء والكون المحدب وطبيعة الجاذبية. ولعل العقاد كان أحسن اطلاعاً على الكتب الأوروبية لأنه كان يقرأُها مباشرة بالإنجليزية، غير أن الزهاوي كان أثقب ذهناً.

كان الزهاوي من الأدباء الذين اشتهوا أن يكونوا علماء طبيعيين. مثَله في ذلك مثل غوته الألماني الذي حبر مئات الصفحات في العلم المحض، وأصاب وأخطأ، وظل مجرد أديب يرفض تحويل أمور العلم إلى «الجهات المختصة». مثل غوته كتب الزهاوي في العلم كتباً، ونشرها. وما بقي لها من القيمة هو أنها تنبئ عن ذهن منفتح وتوق شديد إلى العلم.

غير أن ما تعلمه الزهاوي من المقتطف، ومن الكتب التركية المترجمة عن أصول أوروبية، كان ثميناً. كان الأساس في فلسفة الرجل. وللزهاوي فلسفة حقيقية: هو مادي يرى الحياة مجرد تعبير عن التركيب المعقد للمادة، فالجماد مادة دنيئة بسيطة التركيب، والحي معقد التركيب بدرجات بين حيوان وحيد الخلية وإنسان فيه ما بين ٣٧ تريليون خلية (دراسة من الدراسات لشخص وزنه ٧٠ كغم)، و٧٢٤ تريليون خلية (دراسة أخرى). والروح هي الحياة، هي تعبير عن هذا التعقيد في التركيب. وعليه فإذا فني الجسم، أي تفكك التركيب، فالروح تفنى.

ولأن الروح من أمر ربي فلا نمعنُ في مناقشة الزهاوي، ونظل نطالب العلماء بتخليق خلية حية في المختبر ـ وهو أمر حاولوه مراراً منذ خمسينات القرن العشرين، ومنتهى ما توصلوا إليه أن اشتقوا حياة من حياة عن طريق الاستنساخ ـ قبل أن نحملهم على محمل الجد. الاستنساخ شيء وتخليق الحياة شيء آخر.

وقد عالج الزهاوي المقولة الإلهية معالجة عابثة جرَّت عليه كثيراً من العنت، وألجأته مرةً إلى التزام بيته أياماً خوفاً على نفسه من «الاغتيال» على يد العامة ببغداد. والعامة اليوم تغتال الزهاوي على صفحات الإنترنت. لا تراهم يصفونه إلا بالكلب، أو لعل أحدهم وصفه بهذه الكلمة ثم ببَّغها الناس من بعده، فالإنترنت حديقة حيوان يكثر فيها على وجه الخصوص طائر الببغاء.

عرف الزهاوي أنه كان في القديم آلهة، وعرف أنهم في القديم وحَّدوها في إله. ولو كان حسن الإيمان بالدين لما أتعب نفسه وأزعج القوم بعشرات الأبيات التي يرواح فيها بين الجد والهزل متناولاً قضية أصل الكون وخالق الكون.

ونحن لسنا ممن أزعجهم الزهاوي، بل نقول: ليقل ما شاء كيفما شاء. إيماننا بحرية الفكر وحرية الجهر به فوق أن ننزعج من أي رأي.

كان يجلس في مقاهي بغداد، وكان يجلس إليه بعض مريديه. ولا يندر أن يتلاسن بأبيات الهجاء مع رضا الطالباني، وبأبيات المديح مع معروف الرصافي. ومن عجبٍ أنه كان للطالباني صديقاً، وللرصافي خصماً. فكان بين شاعري العراق الكبيرين منافسة شديدة تثور فتصبح خصومة، فتعقبها مصالحة ينشد فيها كل منهما أبياتاً في تقريظ صاحبه.

في إستانبول مدح الزهاوي السلطان عبد الحميد ثم هجا الاستبداد، ثم سجن سَجنةً صغيرة، ثم رحَّلوه إلى بغداد. كانت الأمور في تلك الحقبة، في أواخر القرن التاسع عشر، مختلفة عما عهدناه بعدها، حتى إنه ليصعب عليَّ تخيُّل أن العراق وسوريا ولبنان. . الخ، لم تكن سوى قطعة من الدولة العثمانية.

وعندما انقلب ضباط الاتحاد والترقي على السلطان ثم خلعوه رحب الزهاوي بالخطوة وبالدستور الجديد. ثم بدأ يشعر بتوجه الحكام الجدد إلى مزيد من التتريك. ولئن كان شاعرنا يحسن من الثقافة التركية ما يحسنه أهلها فإنه كان عربياً منزرعاً في تراب اللغة العربية. وهبه كان تركي الهوى، أفلا يعني التتريك أن حكام إستانبول قد جعلوا هذا المستترك في درجة ثانية بعد درجة التركي الأصيل؟

مع تفكك الدولة العثمانية في أخريات الحرب العالمية الأولى انقلب

الزهاوي عليها، فأصبح أكثر عروبية، ومالأ الإنجليز الذين احتلوا العراق بعد الحرب، وتقرب من فيصل بن الحسين الذي عينوه ملكاً.

لكنه ظل يشكو من أنه لم يعين في وظيفة كبيرة.

وظل الزهاوي ينظم. برغم قلمه النثري الجميل فإن الزهاوي عاش للشعر، وأدمن النظم. عندما أصدر ديواناً له في مصر باسم «ديوان الزهاوي»، عام ١٩٢٤ في ٤٤٣ صفحة، قال إن الديوان يضم أقل من الثلث وأكثر من الربع من شعره. وقد ترجم ما صح له من رباعيات الخيام نثراً وشعراً، مثبِتاً الأصل الفارسي فوق الترجمتين لكل رباعية. وطبع دواوين أخرى وكتباً في العلم، قد لا تريد أن تعد كتابه عن لعبة «الدامة» أحدها.

في الزهاوي خفة تجدها في شعره مختلطة بغير قليل من التذمر. يصطاد قوافيه بمهارة، وقد تتحكم فيه الفكرة فيلقي بالقوافي على عواهنها، ولكنه في كل ذلك محافظ على العربية القويمة السليمة المتينة، لا غرو فقد حفظ جزء عم من القرآن طفلاً لم يتعلم النطق سوى أول أمس.

نقلوا عنه كثيراً قوله إنه كان يسمى «المجنون» في طفولته لحركاته غير المألوفة، و«الطائش» في شبابه لنزوعه إلى الطرب، و«الجريء» في كهولته لمقاومته الاستبداد، و«الزنديق» في شيخوخته لمجاهرته بآرائه الفلسفية.

كان كذلك.

إن كنت ممن يقرأون الشعر بآذانهم، ويحسون بوزنه ـ وهذا ما ينبغي للشعر، وإلا كان الشعر كطبخة صاحبنا الذي وجد امرأته تلف أوراق العنب ورقة بعد ورقة على حشوة من الأرز واللحم وتقضي في ذلك بياض يومها، فجاءها باختراع جديد: فتت أوراق العنب تفتيتاً وجعلها في القدر مع الأرز واللحم وصب على ذلك الخليط ماء وطبخه، فكانت طبخته بدعة منكرة، ونال من زوجته المثل المعروف: العين هي اللي تأكل، وهنا نقول: الأذن هي التي تأكل الشعر. فعندما تقرأه بعينك وحدها غير حاسٍّ بما فيه من إيقاع يفوتك شيء هو الفارق بين الشعر والنثر ـ إن كنت ممن يحسون بالوزن فسوف تجد في الزهاوي ما يزعجك، بخلاف آرائه الخارجة عن المألوف إن كنت من أهل المألوف.

الزهاوي يحب البحر الخفيف. وكأنه لم يكتف بما في هذا البحر من علة

وقوع الكلمة بين الشطرين، وهي علة ظاهرة في الخفيف ظهوراً لا تراه في أي بحر آخر، فصاحبنا يُجلس كلماته فيما بين التفعيلات في داخل الشطر على هيئة غير مألوفة. وقد ظن العقاد ـ بعد إذ سمع الزهاوي ينشد ـ أن شاعرنا إنما تأثر بالطريقة الفارسية في الإنشاد. وليس لنا على قول العقاد تعليق، فلا نحن نعرف الفارسية ولا طريقة إنشادها، ولا ندري إن كان العقاد يعرف. وزاد العقاد فقال أشياء عن مستفعلن ومتفعلن، ونرى أن الأمر أهون من ذلك، فكل شعراء العربية ركبوا هذا الزحاف المستساغ كل الاستساغة، على أن شاعرنا كان لا يبالي أن يقطع الكلمة بين التفعيلة وجارتها في مكان غريب (فأنت إن قطعت بعد أل التعريف ساغ ذلك ولم يجلب تلك الضعضعة التي تحدث عند تحطيم الكلمة من منتصفها).

لن أحدثك عن معارك الزهاوي الأدبية الكثيرة، فتفاصيلها موجودة في الكتب، ولكنني أطللت من خلالها على خصلة في شخصية الزهاوي، فهو كثير الامتداح لشعره عميق الإيمان بشاعريته، ينافح عن نفسه وعن آرائه وشعره ويمقت النقد مقتاً ـ كلنا ذلك الرجل ـ ويزيد صاحبنا فيجأر بالشكوى من النقد، وكثيرون منا يكرهون النقد لكنهم يسكتون تعالياً أو دهاء، فإهمال الناقد أسكَتُ له من الرد عليه، ولا كذلك الزهاوي، فهو يرد على كل ناقد.

الزهاوي على نور أبيض

ذكرني بالزهاوي الليلة مصباحي الأثير ذو الضوء الأبيض، وهو مصباح لا يكاد ينفق شيئاً من الكهرباء، وإذا انقطعت الكهرباء فهو يبقى مشتعلاً ساعات، فإذا شئت وصلته بالحاسوب فيستمد قليل ما يحتاجه من طاقة من جوف الحاسوب، غير أنني أركبته قائم سريري ليلقي عليَّ أشعته البيضاء من خلف كتفي فينير صفحة كتابي. أخذت في ساعات المساء أقرأ عن الزهاوي على نور مصباحي الأبيض ـ الواقع أن المصباح نفسه أبيض، لكنني أقصد أن نوره أبيض، وأنا عاشق للنور الأبيض من مصابيح النيون، ولا أرى ما يرى كثيرون من أن النور البرتقالي يعطيهم إحساساً بالدفء؛ ويتفوق مصباحي على مصابيح النيون، وهي اقتصادية، في أنه اقتصادي جداً حتى إنني لأخجل منه وهو يدوِّي بنوره ساعة بعد ساعة لا يكل ولا يمل فأكاد أُخرج من جيبي بعض الدراهم لأعوضه بها عما يبذله في خدمتي ـ ومرت ساعات المساء ودخلتُ في عمق الليل، وأشحت بوجهي عن كتبي، وعادت بي الذاكرة عقوداً.

قبل أربعين سنة، قد تنقص سنة لا أكثر، وقد تزيد سنة لا أكثر، اشترى لي أبي مصباح نيون للمنضدة. كان في متجر ورأى المصباح، وقال في نفسه: ما أجدر أن يكون هذا ذا نفع لولدي الذي يقرأ كثيراً. لم يكن والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرف ما سأصنع بالمصباح فور استقبالي الهدية الثمينة. كنت آنذاك في نحو العشرين من العمر، أصغر من ذلك بسنة لا أكثر، أو أكبر من ذلك بسنة لا أكثر.

نصبت المصباح على منضدة عالية سوداء بجانب سريري، واتفق أن كانت والدتي رحمها الله وسائر إخوتي مد الله في أعمارهم.. هل سأمضي هكذا في الحديث عن أفراد العائلة الكريمة؟ الحاصل.. أنهم كانوا جميعاً مسافرين.. ربما كانوا يحضرون مناسبة ما في بلد قريب.. لا أدري. كنت وحيداً في البيت مع أبي. مثلما كان الزهاوي ملازماً لأبيه الذي انتزعه من بين إخوته واختص نفسه بالطفل النابغ. على أن أبي لم يكن يقرأ عليَّ ديوان المتنبي مثلما فعل والد الزهاوي بطفله، كان أبي صاحب مخيطة يروح إلى عمله صباحاً ويغدو إلى البيت عند العصر فيؤلف من بطن الثلاجة طبقاً نتغدى به. لكنه في تلك المدة رأى مني عجباً.. كان يصحو ومصباحي مشتعل وأنا تحته أقرأ، ويعود من عمله ومصباحي مطفأ لكنني أقرأ، ويهبط الظلام فيشتعل المصباح وأنا أقرأ، فإذا أيقظتْ أبي حاجة في قلب الليل رأى المصباح مشتعلاً ورآني أقرأ. مضت علي ست وثمانون ساعة وأنا أقرأ. كنت أنام ساعاتي الثماني على الكتاب وأصحو عليه. وهذه الساعات تعُد ثلاثة أيام ونصف يوم وساعتين، وبانقضائها عاد أهل البيت إلى البيت واعتدلت حياتي. وقعدت فور عودتهم أحسب كم مضى علي وأنا منشغل بقراءاتي، فمن هنا جاء الرقم الدقيق ٨٦. والشاهد في الموضوع أنني في تلك الأيام المضاءة بالأبيض كنت أقرأ الزهاوي وعن الزهاوي في كتب كانت تحفل بها المكتبة العامة في بلدنا نابلس بفلسطين.

تركت كتبي في ليلتي هذه التي أكتب لك فيها، وقلت في نفسي: أما اكتفيت من الزهاوي؟ أما أعدت قراءة شعره كله كي أنتخب منه أبياتاً، ثم شرحتها؟ لا، لم أكتف. قد عدت إلى الزهاوي وقرأت عنه في كتب أخرى يسَّرها الإنترنت في صورة بي دي إف، ونبشت مواقع النت ـ وأنا أفعل ذلك عادة حتى أتجنب ترداد ما في النت من أشياء، فقد أصابتني مواقع النت بعقدة لكثرة ما فيها من القص واللصق ـ ورأيت أننا بحاجة إلى كتاب سيرة حقيقي عن الزهاوي. وهذا يحيلني إلى استطراد جديد.

أولعت، بعد ذلك المصباح القديم بنحو عشر سنين، بكاتب إنجليزي هو سومرست موم، وقرأت معظم ما كتب في سنوات حياته الاثنتين والتسعين. إدمان. ولما صار الرجل شغلي الشاغل مضيت إلى الكتب التي كتبت عنه فقرأت منها اثنين، وقرأت له هو نفسه ثلاثة كتب تحدث فيها عن مهنته ككاتب. ثم؟ طبعاً نسيت كل شيء قرأته.

وبقي عالقاً في نفسي أن القوم يكتبون السيرة بحرفية عالية. وقرأت بعد ذلك حمل بعير من كتبهم التي تروي سير المشاهير. ثمة حرفة ههنا. أذكر كتاباً من ثلاثة أجزاء عن برنارد شو، بلغ فيه كاتبه مايكل هولرويد أن اندس في أدق تفاصيل حياة وفكر وإنتاج الرجل. كان برنارد شو يحب أن تصنع له شطيرته أمه لا الخادم، لأن أمه كانت تضع زبدة ومربى أكثر في الشطيرة. تلك طرفة أتت في سياقها، ومثلها مئات، لكن الكتاب ليس كتاب طرائف، هو كتاب منسوج نسجاً محكماً ومبحوث بحثاً لا أصفه إلا بأنه ذلك النوع من البحث الذي لم نعرفه نحن العرب حتى الآن.

وأسارع بالإقرار بأنني لست كاتب سيرة ولا باحثاً. أنا هنا، وهناك أيضاً وفي كل ما أكتب، امرؤ يسجل انطباعاته. فاعلم أنني لا أنتقد الآخرين لأنني صنعت ما لم يصنعوا، بل أنتقدهم لأنني أريد أن يصنعوا ما عجزت أنا عن صنعه، وما رأيت قوماً آخرين يصنعونه.

كتاب السير الأدبية الكبير الذي انحدر إلينا عبر العصور هو الأغاني للأصفهاني. وسيرة كل أديب داخل الأغاني هي مجموعة من الطرائف والخرافات، والروايات المتضاربة. قد كنا في ذلك العصر، قبل أكثر من ألف سنة مرت على تأليف الأغاني، متفوقين على غيرنا.

واليوم تغيرت الدنيا، وتوفرت المعلومات، وتيسرت أدوات البحث. ولكننا لم نقطع شوطاً بعيداً، وما زالت الكتب التي تترجم لأديب أو لسياسي بعيدة عن التجرد، قريبة من الخرافة. نحن في دائرة السِّيرة التمجيدية، فإن خرجنا منها فإلى دائرة سيرة اللعنات. فالمشهور عندنا إما قديس أو شيطان. وهناك شيء أسوأ: أن نكتب عن المشهور كتاباً مثل الماء لا لون ولا طعم له ولا رائحة، ولكنه لا يروي كالماء بل يهوم تهويماً في ثرثرة باردة. عند أهل الثقافة السكسونية من بريطان وأمريكان كثير من السير التمجيدية، ووجدت عندهم في القديم، قبل مئة سنة مثلاً، سيراً فيها الثرثرة والتهويم، لكن أدب

السيرة عندهم ظل في صعود، وأحسبهم فيه الآن رواداً في العالم.

فماذا يصنع الأكاديميون في جامعاتنا؟ هؤلاء قاعدون ـ أُقعِدوا ـ ينتظرون مستشرقاً يأتي ويكتب لهم كتاباً يسرقون مادته ويشوهونها ثم ينشرونها مشوهة، ثم.. يشتمون المستشرقين. رأيتهم بعيني يمشون في ممرات الأبنية الجامعية فيلتقي الواحد منهم بزميله الدكتور الآخر ـ وبالمناسبة فدكاتيرنا ينادون بعضهم بعضاً بيا دكتور ـ يقول له: يا دكتور. ويتلمظ ويتمطق. هو لا يريد أن يقول له شيئاً سوى يا دكتور، فيجيب الآخر: يا دكتور.

لست أتهمهم بالغباء، ولا والله لن تجدني في أي شيء أقوله أو أكتبه أتَّهم أحداً بالغباء، فكل إنسان لديه عقل، ولكن بعض خلق الله يملك من القحة أن يأخذ ثمن عقله ثم لا يستعمله، ويمد يده ـ شَلَّت ـ لأخذ مرتبه وهو لا يصنع شيئاً سوى تشغيل الطلبة في كتابة أبحاث ليست بالأبحاث، ويحسبها لجهله أبحاثاً فيسرقها ويضمنها كتاباً له يضيفه إلى قائمة الكتب التي يبتغي بها نيل ترقية جامعية. يؤذيني الدكاتير التقليديون الذين يلوذون بالماضي لياذ خائف من أسد مَزير. ويؤذيني من بين هؤلاء التقليديين أكثر من هو نشط متبحر في علوم الأوائل. تراه يمشي كالطاووس، مستشهداً بألفية ابن مالك، أو متكئاً ـ مالت عليه ـ على نص لابن جني، أو كاتباً كتاباً ثقيلاً، في وزن نكبتنا بوجوده، عن خزعبلة تافهة أساسها رمل رجراج، لكنها ـ والله غالب ـ قد وردت في نص قديم.

وقد رأيت في الأشهر الأخيرة كتاباً من أربعة أجزاء لكاتب عباسي، قامت على نشره وزارة الثقافة في دولة نفطية. ذهبتْ الوزارة إلى بلد عربي آخر فيه رمل، ولكن لا يوجد تحت رمله سوى مزيد من الرمل، ووظفت لتحقيق الكتاب خمسة من الرجال. وطبعوا الكتاب مرة ثم صدرت بعد تسع عشرة سنة طبعة ثانية، وهذه الطبعة الثانية وقعت، ووقع محققوها، في يدي.

خمسة من الدكاتير أصروا على وضع كلمة «الدكتور» كاملة قبل اسم كل منهم، غير قانعين بحرف الدال. ثم إذا التحقيق ـ وفي طبعته الثانية، وبعد طول المهلة ـ مشحون بالأخطاء، وبالحواشي القلقة، وبالفهارس غير النافعة. أحتسبُ هذه الدراهم التي أهدرتها في ذلك الكتاب. ليس أنه يخلو من كل فائدة، فالمرء يستطيع أن يعثر في صفحاته على معلومة مفيدة هنا وهناك، لكن ثمة فرقاً بين أن تمشي واثقاً في ردهات كتاب حققه محقق أمين، وأن تمشي خائفاً متحسباً في ممرات مظلمة داخل كتاب مملوء بالأغلاط وبإساءة الفهم.

بعد هذه الوصلة المعتادة في قدح الأكاديميين لا بد من عودة إلى جميل صدقي الزهاوي.

هذا رجل داعية: يدعو إلى السفور، ويدعو إلى العلم، ويدعو إلى نظرية داروين. وهو ابن عصر بدأت تنفتح فيه لنا طاقة صغيرة على الغرب فملأت الدهشة نفوسنا.

ما زلنا في هذا العصر.

١ أبيات فرائد

وما زلتُ في جَوٍّ مِن الفكرِ طائراً   ومِن عادَتي ألَّا أَطيرَ مَعَ السِّرْبِ

* * *

إنني إنْ حَمِدْتُ ربِّي على ما   أَتَشَكَّى منهُ أُكَذِّبُ نفسي

* * *

يحيا الجمادُ إذا الشروطُ توفَّرتْ   والحيُّ إن فَقَدَ الشروطَ جَمادُ

الحياة لا تكون بوجود روح، بل بتوفر «الشروط»

* * *

ذهبَ الشبابُ وأنتَ بعدَ ذهابِه   مُتَمَسِّكٌ بالعيشِ مِنْ أَذْنابِهِ

* * *

وليسَ بِعقلِ المرءِ يَكبُرُ شِعْرُهُ   ولكنْ بما في روحِهِ مِن تَكَهْرُبِ

٢ نتف

مَن كان في سَعَةٍ تَسيرُ وراءَهُ   أتباعُه، فكأنَّهُمْ أَفْياءُ

كأنهم أفياء: أي يتبعونه كظله

وإذا الليالي غيَّرتْ سَعْدَ امْرِئٍ   يخفَى الصديقُ وتظهرُ الأعداءُ

* * *

يا سماءَ العراقِ إنِّي مريضٌ   يا سماءَ العراقِ أنتِ شِفائي
اِفتحِي في ستارِ سُحْبِكِ شِقّاً   وانظُريني بِعينِكِ الزرقاءِ

* * *

مَـن لـم يَـجِـئْ بِـحُـجَّـةٍ   فـلا يـفـيـدُه الـصَّـخَـبْ
لا تـسـتـقـلُّ أمَّـةٌ   فـي الأرضِ مِـن غـيـرِ تَـعَـبْ

* * *

لا خـيـرَ فـي نـاسٍ إذا   أفـحـمـتَـهُـمْ وَلَّـوْا غِـضـابـا
عَـزَوُا الـحِـجـابَ إلـى الـكـتـا   بِ، فـلـيْـتَـهُـمْ قـرأُوا الـكـتـابـا

* * *

أنـا لا يَـسـألُ عَـنِّـي   أحـدٌ حـيـنَ أغـيـبُ
أنـا كـالـرَّحـمـةِ مَـنْـبُـو   ذٌ، وكـالـحَـقِّ غَـريـبُ

* * *

أهـوَى الـصـبـاحَ فـإنـنـي   فـي ظِـلِّـهِ أنـسـى اكـتـئـابـي
وكـأنـمـا هُـوَ قِـطـعَـةٌ   رجـعـتْ إلـيَّ مِـن الـشـبـابِ

* * *

يا جهلُ أنتَ بِرَغْمِ العلمِ والأدبِ   ممتَّعٌ بِعُلُوِّ الجاهِ والرُّتَبِ
يا جهلُ يَأتيكَ عفواً ما تحاوِلُهُ   يا جهلُ مِن غيرِ سعيٍ منكَ أو تَعَبِ

* * *

لَـكَ فـي الـحـيـاةِ، فـلا تَـخَـفْ   مِـن أن تُـفـارِقَـهـا، ثُـبـوتُ
ومِـنَ الـطـبـيـعـةِ أنـتَ جُـز   ءٌ، والـطـبـيـعـةُ لا تَـمـوتُ

* * *

فـي حـيـاتـي أنـا لاقَـيْـ   ـتُ صُـنـوفَ الـمُـشـكـلاتِ
غـيـرَ أنِّـي لـم أجِـدْ مُـشْـ   ـكِـلَـةً مـثـلَ حـيـاتـي

* * *

إن الـذيـن عـن الأقْـرادِ قـد بَـعُـدُوا   لـم يَجْحَدُوا أنهُمْ مِنهُنَّ قد وُلِدُوا
الناس الذين تطوروا كثيراً وابتعدوا عن جنس القردة، وآمنوا بنظرية التطور، لا ينكرون أن أصل الإنسان قرد

أما الأُلَى لم يَزالُوا في مَدارِكِهِمْ   أدنَى إلى أصلِهِمْ منها فقد جَحَدُوا
ومن ظلوا في مداركهم، فهمهم، قريبين من أصلهم القردي فهم ينكرون نظرية التطور

* * *

أقولُ لِباكٍ صُنْ مِن الدمعِ بعضَه ... لِآتـي الـرَّزَايـا، إنـهـا تَـتـجـدَّدُ
وما بيِ على عينيكَ خَوفٌ مِن العَمى ... إذا بَـكـتـا، لـكـنْ دُمـوعُـكَ تـنـفَـدُ

وفّر دموعك للرزايا، المصائب، المقبلة.. ولست خائفاً على عينيك ولكن دموعك تنفد.. لا يَفُتْكَ ما في البيتين من سخرية

* * *

أيـهـا الـروحُ الـذي اسـتـقـرأْتُـه ... بـاذلاً فـي الـبـحـثِ عـنـه جَـلَـدي
إنـكَ الـمُـخُّ الـذي قـد ذَهَـبَـتْ ... شُـعَـبـاً أعـصـابُـه فـي جَـسَـدي

الروح، الذي ظللت أبحث عنه، هو في الواقع المخ والأعصاب التي انتشرت في الجسم

* * *

مَنعَ الذين تَسيْطَروا أن يُحسِنُوا ... ثِـخَـنُ الـوُجـوهِ وغِـلـظـةُ الأكـبـادِ
مـهـمـا تـقـدَّمَ في حضـارَتِـه الـفـتـى ... لـم يَـخْـلُ مِـن هَـمَـجِـيَّـةِ الأجـدادِ

* * *

عـجـبـي مِـن الإنـسـانِ يَـهـجَـعُ آمـنـاً ... والـمـوتُ لِـلإنـسـانِ بـالـمـرصـادِ
لا تـطـمـئِـنَّ بِـكـونِ لـيـلِـكَ هـادئـاً ... فلسوف يأتيِ السيلُ مِلْءَ الوادي

* * *

لا تَـخـونُ الـعـقـولُ أصـحـابَـهـا فـيـ ... ـمـا تَـراهُ، وقـد يـخـونُ الـضَّـمـيـرُ
قـيـلَ لـي قِـفْ فـقـلـتُ غـيـرَ مُـلَـبٍّ: ... أنـا إنْ لـم أَسِـرْ فَـمَـنْ ذا يَـسـيـرُ

غير ملب: غير مستجيب، ولا ألبّي الدعوة للوقوف

* * *

فِـتَـنٌ عَـمَّـتِ الـبـلادَ فـمـا أَغْـ ... ـنـى عـنِ الـمـرءِ أهـلُـه والـعَـشـيِـرُ
وإذا ثَـارتِ الـجَـمـاعَـةُ يـومـاً ... فَـهْـيَ قـد لا تَـدريِ لـمـاذا تَـثُـورُ

* * *

يـا عِـلْـمُ يـا كُـلَّ الـهِـدَايَـةِ لِـلـوَرى ... صـلَّـى عـلـيـكَ الـلـهُ والأَبـرارُ
الـحربُ بعدَ الـيومِ حَرْبُ سِياسةٍ ... والـغـالـبـونَ بِـهـا هُـمُ الأَحـرارُ

* * *

لسانيِ على الصمتِ الطويلِ مُواظبٌ ... وفي الصدرِ آراءٌ يضيقُ بها صدري

وقد كنتُ لا أدري حقيقةَ ما أرى   زمـانـاً، ولا أدري بِـأَنِّـيَ لا أدري

* * *

أقولُ لِشِعري أيها الشعرِ صُلْ وَجُلْ   فـأنـتَ بـميدانِ الـفـصـاحـةِ فـارسُ
يُمـارسُ شِعـرِي اليومَ إِصلاحَ أمةٍ   فلِلّٰهِ شعـرِي الـيـومَ مـاذا يُمـارسُ

* * *

قـلـتُ لـلـشـاعـرِ والـشـا   عـرُ ذو سـهـمٍ يَـطـيـشُ
أنـتَ إن عـشـتَ تَـمُـتْ جـو   عـاً وإن مُـتَّ تَـعـيـشُ

المبدعون يكرمون بعد موتهم

* * *

إذا ما قضى ربُّ السماواتِ حاجَنا   حَمِدْناهُ حَمْدَ المخلصينَ على الأرضِ
وإنْ يَأْبَ مِنْ بعدِ الدعاءِ قَضاءَها   نَكُنْ نحنُ أَرْباباً لحاجاتِنا نَقْضي

أرباباً: أصحاباً

* * *

رثاء عبد الله، والد الشاعر اللبناني بشارة الخوري:

جزعـتُ لِعبدِ اللّٰهِ إذ مـات إنـنـيِ   عـلى كـلِّ ذي فـضـلٍ يموتُ جَزوعُ
فَتىً مثـلَـمـا تـرجُوه: أَمَّـا لِسانُـه   فَـرَطْـبٌ، وأمَّـا كـفُّـه فَـرَبـيـعُ

* * *

مـا فـي الـسُّـفـورِ مَـعَـرَّةٌ   تُـخـشَـى عـلـى امـرأةٍ عـفـيـفـةْ
إن الـنـظـيـفـةَ فـي قـرا   رةِ نـفـسِـهـا تـبـقـى نـظـيـفـةْ

* * *

أنـا يـا شـمـسُ ذَرَّةٌ فـوقَ أرضٍ   هِـيَ فـي سيـرِهـا عـلـيكِ تَطُوفُ
لا تـكـونـي مـغـرورَةً، إنَّـمـا مثـ   ـلُـكِ فـي أَجـوَازِ الـفـضـاءِ أُلُـوفُ

* * *

لا يـخـافُ الـرَّاعـيِ ذِئـابـاً تَـعَـاوَى   مِـن بَـعـيـدٍ مُـلِـحَّـةً فـي الـطَّـوافِ
إنَّـمـا خـوفُـهُ إذا الـلـيـلُ أَدْجَـى   مِـنْ ذئـابٍ تَـنْـدَسُّ بـيـنَ الـخِـرافِ

* * *

وإنَّ الـذي يـسـعـى لـتـحـريـرِ أمَّـةٍ　　يهونُ عليه النفيُ والسَّجْنُ والشَّنْقُ
إذا رُمْـتَ عـن دارِ الـمَـذَلَّـةِ رِحـلـةً　　فسِرْ قبل أن تنْسَدَّ في وجهِكَ الطُّرْقُ

* * *

أَخـبَـثُ الـنـاسِ صـديـقٌ　　عـن نِـفـاقٍ يـتـحـرَّكْ
فـمـعَ الـمـظـلـومِ يـبـكـي　　ومـع الـظـالـمِ يـضـحَـكْ

* * *

أَحْـبَـلَ الـلـيـلَ نـهـارٌ　　قـد نَـزا ثـم تَـوَلَّـى

أحبل: جعله يحبل ويحمل جنيناً، نزا: اعتلى

فـانـتـظـرْ مـا تَـلِـدُ الـليـ　　ـلـةُ، فـالـلـيـلـةُ حُـبْـلَـى

* * *

أما الـنـجـاحُ فـلا نـجـاحَ لِأمَّـةٍ　　مـا أيَّـدتْ أقـوالَـهـا أفـعـالُـهـا
غُـلَّـتْ فـمـا أبـدَتْ أقـلَّ تَـذَمُّـرٍ　　فـكـأنَّـمـا طـابَـتْ لـهـا أغـلالُـهـا

غُلَّت: قيِّدت

* * *

إنِّـي إذا حـادِثـةٌ غَـيَّـرَتْ　　حـقـيـقـةً، غَـيَّـرْتُ أقـوالـي
لـو نَـبَـتَـتْ لِـخَـالَـتـي لِـحـيـةٌ　　سَـمَّـيْـتُـهـا عـنـدئـذٍ خـالـي

كان العقاد يفاخر بأنه لم يغير قط آراءه، الزهاوي يفاخر بأنه مستعد لتغيير آرائه بحسب ما يجدُّ من حقائق

* * *

يا حاملَ الصَّمْصامِ لا يحمِي به　　حقاً، لماذا تحمِلُ الصَّمْصاما؟

الصمصام: السيف

جَـهِـلَ الـذيـن عـلـى قـديـمٍ عَـوَّلُـوا　　أَنَّ الـزمـانَ يُـغَـيِّـرُ الأَحـكـامـا

* * *

الـنـاسُ إمَّـا أذْؤُبٌ　　فـتَّـاكـةٌ أو غَـنَـمُ
الـذئـبُ لا يَـروي غَـلـيـ　　ـلَ جَـوْفِـه إلَّا الـدَّمُ

غليل: عطش

* * *

لـم نـكـنْ بـالأرزَاءِ نَـعـبـأُ حـتـى أخـذَ الـمـوتُ قـاهـراً إِدِسُـونـا

الأرزاء: المصائب، توماس إديسون: المخترع الأميركي المشهور

أيـهـا الـمـبـدعُ الـكـثـيرُ الـمَـنـاحـيِ أيَّ شـيءٍ تـركـتَ لِـلآخَـرِيـنـا

* * *

وواعِظٍ غـارقٍ فـي لِـحـيـةٍ كَـبُـرَتْ يـأتـي بـكـلِّ قـبـيـحٍ ثـم يَـنـهـانـا

لا واللِّحَى، والذي في الوجهِ أَنْبَتَها ما إنْ تكونُ اللِّحَى لِلفضلِ مِيزانا

* * *

يـقـولـونَ إنَّ الـشـعـرَ نـحـنُ عِـمـادُهُ فمَنْ أنتُمُ حتى يَكونَ لَكُمْ «نَحنُ»

ومَنْ لـم يَـزِنْ عـنـدَ الـتـكـلُّـمِ نـفـسَـه فـمِـن حَـقِّـهِ أنْ لا يُـقـامَ لـه وَزْنُ

* * *

لقد جاءَ شيطانٌ مِن الجِنِّ داعياً إلـى جنَّـةٍ فـيـهـا عَـذارى وغِـلـمـانُ

فقلتُ له: اغرُبْ أنتَ لستَ بِخادِعِي فـإنِّيَ شـيـطـانٌ كـمـا أنـتَ شـيـطـانُ

* * *

بـأعـمـالِـهِ الإنـسـانُ يُـعـرَفُ عـقـلُـه فليس سِواها للنُّهَى مِنْ مَوازينِ

النهى: العقول

سَليما يَظَلُّ الخَيْطُ بينَ أُولِي النُّهَى وينقَطِعُ الجَنزيرُ بينَ المجانينِ

الجنزير: السلسلة الحديدية. وتسمي البنت المخطوبة السوار الذهبي الذي هو عبارة عن حلقات من ذهب يمسك بعضها ببعض، وتمسك كلها بخناق الخطيب المسكين، جنزيراً

* * *

فُـهْـتُ بـالـحَـقِّ فَـجَـازَوْ نـي بِـسَـبٌ وامـتِـهـانِ

فهتُ: تفوَّهت

إنَّـنـيِ يـا لَـشَـقـائـيِ جـئـتُ فـي غـيـرِ زمـانـي

* * *

أَتَـتْ فـي صـورةِ الأطـيـافِ لَـيـلـى بِـلـيـلٍ فـيـه قـد هَـاجَـتْ شُـجـونـي

جعلتُ لِنومِها صَدريِ فِراشاً   فَعافَتْهُ، ونامَتْ في عُيوني

تعليق صديقي الشاعر عمران القفيني: (هذا نفسه: بذلت لها المطارف والحشايا ـ فعافتها ونامت في عظامي)، وتعليقي أن بيت المتنبي أشهر من أن يسرق، ولكن كأن الزهاوي «استعان» بالكبير العظيم

* * *

لقد جُنِنْتُ بِليلى   فطابَ فيها جنوني
سِيروا.. ارجِعُوا، عند ليلى   لا تَذكُرونيِ، اذْكُروني

* * *

في حَبَّةَ الرملِ فوقَ الأرضِ ساكنةً   مِنَ القُوى ما بِه الأَطوادُ تَنْفَطِرُ
ليس القُوى غيرَ بعضِ الجسمِ قد لَطُفَا   والجسمُ إلَّا قُوىً مَجموعةً كِثَفا

هذان البيتان يختصران النظرية الذرية الحديثة: الذرات مادة تتحول إلى طاقة تنفطر بها الأطواد، تحطم الجبال. فالقوى، أي الطاقة، هي مادة في الأصل. والمادة ليست سوى طاقة مجموعة كثفاً، أي جماعات

* * *

إنْ طِبْتَ طِبْتُ وإن هُنْـ   ـتَ، يا عراقُ، أَهُونُ
إنِّيِ على كُلِّ حالٍ   كما تكونُ أكونُ

* * *

أنا يا شِعرُ كَئيبٌ   مثلَما أنتَ كئيبُ
وكِلانا أيُّها الشِّعْـ   ـرُ بِبغدادَ غَريبُ

* * *

آهِ مِنْ هَمٍّ تَظَلُّ النَّـ   ـفسُ فيهِ وتَبيتُ
لا تَموتُ النَّفْسُ بِالهَمِّـ   ولا الهَمُّ يَموتُ

* * *

لا تُطِلْ شِعرَكَ وابْذُلْ   كلَّ جَهْدٍ أن تُجيِدَهْ
ربَّ بيتٍ هُوَ إنْ أحـ   ـسَنْتَ خيرٌ مِن قَصيدَهْ

* * *

إنَّما المرأةُ والمَرْ   ءُ سَواءٌ في الجَدارَةْ

عَــلِّــمُــوا الــمــرأةَ فــالــمَــرْ أَةُ عــنــوانُ الــحَــضــارَةْ

* * *

يَــرفَــعُ الــشــعــبَ فَــريــقَــا نِ: إنــاثٌ وذُكــورُ
وهَــلِ الــطــائــرُ إلّا بِــجــنــاحَــيْــهِ يَــطــيــرُ

* * *

أَصْحَبُ النـاسَ ومنهُمْ حَـذَري مِـثْـلُ وُثـوقـي
كـلُّ إنسـانٍ عَـدُوِّي، كـلُّ إنسـانٍ صَـديـقـي

* * *

لا تَــقِــفْ فــي وجــهِ لَــذَّا تِــكَ مَــكــتُــوفَ الــيــديــنِ
أنــتَ لا تــأتــي إلــى دنــيــاكَ هَــذي مَــرَّتَــيْــنِ
كان عباس العقاد يحب هذين البيتين للزهاوي

* * *

إنَّ جِـسـمَ الـمـرءِ لِـلـرُّو حِ الـتـي فـيـهِ يَـقُـوتُ
فـإذا مـا مـاتَ جـسـمُ الـ ـمَـرْءِ فـالـرُّوحُ تَـمـوتُ
سيظل الزهاوي يكرر هذه المقولة، ومن مجمل شعره فالرجل «مادي» فلسفياً

* * *

الـغـربُ يَـلـقـاكَ مِـن مَـكْـ ـرِهِ بِـوجْـهٍ طَـلـيـقِ
يـا شَـرقُ لا تَـأْتَـمِـنْـهُ فـالـغـربُ غـيـرُ صَـديـقِ

* * *

سـئـمـتُ كـلَّ قـديـمٍ عَـرفْـتُـه فـي حـيـاتـي
إن كـان عـنـدَكَ شـيءٌ مِـن الـجـديـدِ فَـهـاتِ

* * *

إن الـحـقـيـقـةَ تـأبَـى لِـنـاظِـرِي أن تَـبـيِـنـا
تبين: تظهر

إذا جَـمَـعْـتُ شُـكـوكـي فـلا تُـسـاوِي يَـقِـيـنـا
مجرد شكي في أمور كثيرة لا يعني أنني وصلت إلى معرفة يقينية. صفر + صفر = صفراً

* * *

قــالــوا لِــشــاعِــرِ مِــصْــرٍ   قــصــرُ الإمــارَةِ يُــبــنَــى
فــقــلــتُ: يــا أهــلَ مِــصْــرٍ،   مــنــكُــمْ أمــيــرٌ ومِــنَّــا..

قال الزهاوي البيتين عندما نصب الناس أحمد شوقي أميراً للشعراء، في حفل كبير عام ١٩٢٧، ويردد الزهاوي قول الأنصار للمهاجرين بعد وفاة الرسول: «منكم أمير ومنا أمير». وحذف الأمير الأخيرة اكتفاء.. وظرف في هذين البيتين ما شاء له.. واتته القافية أي مواتاة

* * *

قــد مَــدَحْــتُ الــذيــن لــمْ   يَــســتَــحِــقُّــوا مَــدائِــحــي
إحْــسِــبُــوهــا عــلــى ضَــرُو   رَتِــهــا مِــنْ قَــبــائِــحــي

على ضرورتها: أي رغم أنها جاءت لضرورة. والمدح لا يأتي إلا لضرورة نفاقية. قد حسبناها من قبائحك، ولم نقتطف منها شيئاً في مختاراتنا

* * *

اِرتَــحِــلْ عــن بــلــدٍ   أنــتَ فــيــه مُــهْــمَــلُ
إنَّــمــا الــحُــرُّ إذا   سِــيــمَ خَــسْــفــاً يَــرحَــلُ

سيم خسفاً: عُرِّض للذل

* * *

ليس تَرقَى الأبناءُ في أُمَّةٍ مَا   لم تَكُنْ قد تَرَقَّتِ الأُمَّهاتُ
أَخَّرَ المسلمينَ عن أُمَمِ الأَر   ضِ حِجابٌ تَشْقَى به المسلماتُ

* * *

إنَّ الخيالَ نِهايةٌ في أُمَّةٍ   لِسُكونِها، وبَداءَةُ الحَرَكاتِ
كُنَّا نَذُمُّ مِنَ الشعوبِ خَيالَها   وإذا الخَيالُ مُوَلِّدُ الرَّغَباتِ

مشكلة المدارس أنها تقتل في الطفل الخيال، لصالح الواقع، المدرسة تسعى لتحويلك إلى خروف اجتماعي يساهم في تثبيت الأحوال، والخيال يجعلك تسعى لتغيير الأحوال

* * *

لقد علِمْتُ، لو انَّ العِلمَ ينفَعُني،   مِنْ طولِ ما جِئتُ قَبْلاً أَدْرُسُ النَّاسا..
أَنَّ الجَماعَةَ دونَ الفَرْدِ مَعرِفَةً   وفوقَهُ بِصُروفِ الدهرِ إِحْسَاسا

* * *

ما زالَ لِلمرءِ مِنْ لَذَّاتِ عيشَتِه رِضىً، ولِلمرءِ مِنْ آلامِهِ بَرَمُ

برم: ضجر

لم يعرفِ المرءُ في كلِّ الحياةِ سوى حقيقتينِ هُما اللَّذاتُ والألمُ

* * *

مَنِ اطمأنَّ بِدينٍ كانَ يَرْضَعُهُ فليسَ يَسمَعُ تَأنيبَ البَراهينِ
وليس يقبلُ في دينٍ مُعارَضَةً إلَّا الذي هُوَ في شَكٍّ مِنَ الدِّينِ

في نظر الزهاوي فالدين فكرة مسيطرة تستولي على الإنسان استيلاء، وتصنع سداً يمنع دخول فكرة أخرى. والمرء يصادف في حياته المتدين الذي يقبل أن يناقش في العقائد، والمتدين الذي يقبل أن يناقش في «المسح على الخفين» ثم يقف عندها. قلت: «المرء»، ولم أقل أنا، فأنا فرغت من مثل هذا النقاش منذ أن كنت في المرحلة الإعدادية، وأعددت نفسي لاستقبال المعلومات عن هذه الدنيا تاركاً الأخرى لصاحب الكون الجليل

* * *

إنَّها العاداتُ لا يَخْلَعُها غيرُ ذاكَ المارِقِ المُنْطَلِقِ
قد تَلَقَّاها تُراثاً سيِّئاً أَحمَقٌ عن أحمقٍ عن أحمقِ

* * *

قد استَطَابَ فوقَ صَدْ رِها الهوى رُقَادَهْ
مُتَّخِذاً لِنَفْسِهِ مِنْ ثَديِها وِسَادَةْ

* * *

جَمَلاً أَبصَرْتُ في حَوْ مَانَةِ الدَّرَّاجِ أَمْسِ

حومانة الدراج: موضع تغنى به قدامى الشعراء

يَتراءَى كَالكَثيبِ الـ فَرْدِ، فاسْتَصْغَرْتُ نَفسي

* * *

لَيسَ يَسْطيعَ وإنْ جَدَّ ابنُ آوَى أن يَطيرا
قبلَ أن يملِكَ رِيشاً كافياً أو يَستَعيرا

ولماذا اخترت هذين البيتين؟ لا أدري. ربما لأنهما يعبران عن هذا الشاعر المهذار الذي لا يقدر يقعد دون أن ينظم شيئاً. لا يستطيع ابن آوى أن يطير.. لكن، لا تعجلوا.. بإمكانه الطيران إن امتلك الريش.. أو إن استعار ريشاً. بالله عليك يا جميل صدقي ما هذا؟ أرجوك! أرأيتم كيف يمكن لعبث صراح أن يكون شعراً؟

* * *

رأيـتُ بـالأمـسِ شـيـخـاً   قـد انـحـنَـى بـاضْـطِـرابِ
فـقـلـتُ: يـا شـيـخُ، مـاذا   أضـعـتَ؟ قـالَ: شـبـابـي

يا سلام!

٣ الجماعة الخشب

لـيـسَ تَـسْـتَـحِـقُّ حـيـا   ةً جَـمـاعـةٌ خَـشَـبُ
مَـعْـشَـرٌ إذا وَعَـدُوا   فـي كـلامِـهِـمْ كَـذبـوا
أو إذا بَـدا وَهَـنٌ   مِـنْ أخٍ لَـهُـمْ وَثَـبُـوا

٤ ذهبت السعادة

سـكـتْـنـا حـيـن ذَمُّـونـا وعَـابـوا   وإنَّ سـكـوتَـنـا عـنـهُـمْ جـوابُ
سـأرحـلُ جـاعـلاً بـغـدادَ خَـلـفـي   فـمـا عَـيْـشـي بِـهـا إلَّا عـذابُ
ولا أرجـوُ الـسَّـعـادةَ بـعـد شَـيْـبي   فقـد ذهـبـتْ كـمـا ذهـبَ الـشـبـابُ

٥ الزهاوي يتمشى في دروب بغداد

لقد كنتُ في دَرْبٍ بِبغدادَ ماشياً   وبـغـدادُ فـيـهـا لِـلـمُـشـاةِ دُروبُ
فصادفتُ شيخاً قد حَنَى الدهرُ ظهرَهُ   لـه فـوقَ مُـسْـتَـنِّ الـطـريـقِ دَبـيـبُ

مستن الطريق: أي الطريق المستن، أي الممهد

عـلـيـهِ ثـيـابٌ رثَّـةٌ غـيـرَ أنـهـا   نِـظـافٌ فـلـم تَـدْنَـسْ لَـهُـنَّ جُـيـوبُ

تدنس: تتسخ، جيب الثوب: فتحة العنق فيه

تَـدُلُّ غُـضُـونٌ فـي وَسـيـعِ جـبـيـنِـه   عـلـى أنـه بـيـن الـشـيـوخِ كـئـيـبُ
يَسيرُ الهُوَيْنا والجماهيرُ خلفَه   يـسُـبُّـونَـه، والـشـيـخُ لـيـسَ يُـجـيـبُ
لـه وَقْـفـةٌ يَـقْـوَى بِـهـا ثـم شَـهْـقَـةٌ   تـكـادُ لـهـا نـفـسُ الـشـفـيـقِ تَـذُوبُ
فـسـاءَلْـتُ مـن هـذا؟ فـقـال مُـجـاوِبٌ   هُـوَ «الـحقُّ» جاء الـيـومَ فَـهْـوَ غـريـبُ
فـقُـلـتُ لـه: «إنَّـا غـريـبـانِ هَـهُـنـا   وكـلُّ غـريـبٍ لِـلـغـريـبِ نَـسـيـبُ»

تضمين لبيت امرئ القيس المشهور

٦ رسالة إلى الدمعة

أنتِ ما إنْ تُخَفِّفِينَ مُصابِي دَمعَتي؛ فارجِعي على الأعقابِ
أنتِ لا تدفعينَ وَطْأَةَ شيْبي أنتِ لا تُرجِعِينَ عهدَ شبابي
إنما أنتِ قطرةٌ ستَبُلِّيـ ـنَ إذا سِلْتِ بُقْعَةً مِن ثِيابي
يا ابْنَةَ الهَمِّ إنَّ غُرْفَتَكِ القَلْـ ـبُ، فلا تَخْرُجي إلى الأبوابِ
أنا لم أسأَلِ العيونَ بُكاءً لِتَكُوني عَنِ السؤالِ جوابي

٧ غروبها وشروقها

ماذا تُحِسُّ الشمسُ عند غروبِها فيكونَ ذلكَ باعِثاً لِشُحُوبِها؟
ما إنْ رأتْ عيني وقد راقبْتُها كالفَرقِ بين طُلُوعِها وغروبِها
إنِّي لَيُحْزِنُني الغُروبُ، فإنَّهُ لَمُذَكِّرٌ نفسي بِكُلِّ كُروبِها

٨ ميت ابن موتى

تناسيتَ يا إنسانُ أنكَ ميِّتٌ وأنتَ مِن الأمواتِ تَرفَعُ أبياتا

الإنسان يبني بيوتاً ويرفعها، والتراب الذي يستخدمه فيه شيء من رفات البشر الذين ماتوا قبل أزمان

وتَمشي على الأمواتِ في كل خُطوةٍ وتأكلُ أمواتاً وتلبَسُ أمواتا
تَناسَلْتَ مِن أمواتِها ثمَّ رُمْتَ أنْ تَعيشَ بها عيشَ الخلودِ وهَيْهَاتا
وإنَّكَ في أعماقِ قبرِكَ لا ترى وُجوهاً، ولا في القبرِ تسمعُ أصواتاً
ولستَ بِمسؤولٍ إذا ما سكنْتَهُ أكنتَ عَبدتَ اللَّهَ قَبْلاً أم اللَّاتا

اللات: اسم صنم

٩ نهاية الحركات

تبكي الشبابُ على شيـ ـبٍ في الحفائِرِ باتُوا

الشيب: الشيوخ الشائبون، الحفائر: القبور

والشِّيبُ تبكي شباباً عاشُوا قليلاً وماتوا
إلى سكونٍ طويلٍ ستنتهي الحركاتُ

يَردَى الصديقُ وتبقى ... مِن بعدِه الذكرياتُ

يردى: يموت

١٠ ورقة الأسئلة

هاتُوا اذكُروا لِيَ هاتُوا ... ما هذهِ الكائِناتُ
ما أنتَ، ما أنا، ماذا ... وجودُنا والحياةُ؟
وما المكان، وماذا ... مِن المكانِ الجهاتُ؟
ما الجسمُ، ما الجذبُ، ماذا السُّـ ... ـكونُ والحركاتُ؟
وما لِشيءٍ زَوالٌ ... وما لِشيءٍ ثباتُ

لا شيء يزول، بل يتحول إلى صورة أخرى، ولا شيء ثابت فالحركة أساس الكون

وربما سوف تَنْحَلُّـ ... ـهذهِ المُشكِلاتُ
إذا تفكرتُ كانتْ ... للشكِّ بي وَخَزَاتُ
دعِ الغُرورَ فما فيـ ... ـكَ وحدَكَ المَلَكاتُ

يخاطب الإنسان: لست وحدك صاحب الملكات، أي المواهب والمهارات

إن كنتَ طِرْتَ فقدْ طا ... رتْ قبلَكَ الحَشَراتُ
أو كنتَ غُصْتَ فقد غا ... صَتْ مِثْلَكَ السُّلْحَفاةُ

الأكثر في اللغة السُّلَحفاة بفتح اللام، وأورد تاج العروس السُّلْحفاة كما أجاء الوزن الزهاوي إليها. يومئ عمران القفيني إلى أن هذه القصيدة تناظر قصيدة «الطلاسم» لإيليا أبو ماضي، فهذه طلاسم الزهاوي

١١ النهايات المتشابهة

ستَجِدُ الأبناءُ سَيْراً لِدارٍ ... نَزلَتْها الآباءُ والأمَّهاتُ
رُبَّ قومٍ عاشوا بأمنٍ زماناً ... ثم دارتْ عليهِمُ الدائراتُ
وقَبيلٍ باتُوا جميعاً بِلَيْلٍ ... فإذا هُمْ في صُبْحِهِ أَشْتاتُ

قبيل: قوم، جميعاً: مجتمعين

١٢ لن أسكت

إنَّ هذا الحجابَ قبرٌ كثيفٌ ... حالَ بين الفتاةِ والنَّسَماتِ

إن هــذا إِثــمٌ أُقَــبِّــحُــهُ، مــا   جــاءَ حَــضٌّ عــلــيــهِ فــي الآيــاتِ
أيُّها المُسكِتِي عنِ القَولِ ما أنــ   ـتَ بِذي قُدرةٍ عـلـى إسـكـاتـي

١٣ أسفل الدرجات

جَنَّـةٌ عـنـدَ جَنَّـةٍ عـنـدَ أخـرى   هـكـذا يَـمْـتَـدِدْنَ مُـتَّـصِـلاتِ
غـادَرَتْـهـا أَيْـدي الـجـهـالَـةِ قَـفْـراً   بـعـدَ تـلـكَ الـرِّيـاضِ والـجَـنَّـاتِ

قفراً: قاحلة غير مزروعة

مَن رأى الأرضَ في العراقِ مَواتاً   ذَهـبَـتْ مـنـهُ نـفـسُـهُ حَـسَـراتِ
وانـتـهـتْ سُـلـطَـةُ الـبـلادِ لِـقـومٍ   خُـلِـقُـوا لِـلـرِّشَـى ولِـلـسَّـرِقـاتِ
اِرْتَـقَـتْ سُـلَّـمَ الـتـقـدُّمِ نـاسٌ   ووقـفْـنـا فـي أسـفـلِ الـدرجـاتِ
فَـخَـرُوا بـالـعـلـومِ إذْ رفـعَـتْـهُـمْ   وفَـخَـرْنـا بـالأَعْـظُـمِ الـنَّـخِـراتِ

١٤ سوف تاتي!

يَـرجُـو وِصـالَ الـحُـورِ بَـعــ   ـدَ الـمـوتِ قـومٌ بِـالـصَّـلاةِ
هَـيـهـاتَ، لـيـس لِـمَـنْ بِـه   تُـودي الـمـنـيَّـةُ مِـن حـيـاةِ
إلّا إذا أَتَـــتِ الـــقـــيـــا   مَـةُ، وَهْـيَ يَـوْمـاً سَـوفَ تَـاتـي

١٥ الموت ميراثاً

أَحْـدَثَـتْـنِي الأيـامُ عن غيرِ قصدٍ   فَـهْـيَ مَـدفُـوعـةٌ إلـى إِحْـداثـي
أَحْـدَثَـتْـنـي، وبـعـدَمـا أَحْـدَثَـتْـنـي   أَلْـبَـثَـتْـنـي فـلـم تُـطِـلْ إِلْـبـاثـي

أحدثتني: أوجدتني، إلباثي: إبقائي

إنـمـا الـمـوتُ خـيـرُ مـا خَـلَّـفَـتْـهُ   لِـبـنـيـهـا الآبـاءُ مِـن مـيـراثِ

١٦ الامتزاج

نظرتُ إليها، وَهْيَ بيضاءُ تَبْهَجُ   بِـخَـدٍّ بِـه مـاءُ الـصِّـبـا يَـتـمـوَّجُ

تبهج: تتألق. قال بيرم التونسي: ليه يا بنفسج بتبهج/ وانت زهر حزين

على صدرِها نهدانِ قَاما أمامَها   ومِـن خـلـفِـهـا أردافُـهـا تَـتـرجـرجُ

بل «قاما» وقعدا بك يا جميل صدقي

وقـد خَـرجَـتْ مِـن دارِهـا لِـلُبَـانَـةٍ فـأحَـسَـسْـتُ منهـا أنَّ رُوحِـيَ تَـخْـرُجُ

لبانة: حاجة

مَشتْ ومَشى قلبيِ المتيَّمُ خلفَها يُقبِّلُ آثـارَ الـخُـطَى حيث تَـنْـهَـجُ

تنهج: تسير في النهج أي الطريق

أُريـدُ إذا قـابـلـتُـهـا أنْ أَبُـثَّـهـا غـرامـي بِـهـا، لـكِـنَّـنـي أتـلَـجْـلَـجُ

أتلجلج: أتلعثم

تمنيتُ يا ليلَى، وهل تنفعُ المنى لـو أنَّ حيـاتـيِ فـي حيـاتِـكِ تُـمْـزَجُ

كان ابن الرومي، على صراحته، أعفَّ إذ جعل الروحين يمتزجان

١٧ الفرار

يُـثَـبِّـطُـنـيِ حـبٌّ لِـبـغـدادَ لازمٌ ويـدفعُنيِ شوقٌ إلى مصرَ مُشْـتَـدُّ

يثبطني: يفل عزمي ويحبطني

ولـم تَـكُ بـغـدادٌ سوى دارِ كُـربـةٍ نـهـاريَ فـيـهـا مثـلُ لَـيـلـيَ مُـسْـوَدُّ

مَـشـيـتُ إلـى مـصـرٍ أُسـارِعُ قـبـلَـمـا طريقيِ إلى مصرَ الجميلةِ يَـنْـسَـدُّ

شهد الزهاوي الدولة العثمانية شاباً فرجلاً وكانت إستانبول قبلته ورئته الثقافية، يهرب إليها من العراق ويتمتع بالاقتراب من مركز الكون (بالنسبة إلى عربي يعيش في ظل الدولة العثمانية)؛ وفجأة تبخرت إستانبول من عالم الزهاوي. فأصبحت مصر بالنسبة إليه هي الجنة، وهي المهرب: فيها نشر شعره، وفيها لقي التكريم، وهي الملاذ.. بعيداً عن بغداد وما يلقى فيها من عنت المتشددين في الدين، وما يعاني فيها من ضيق الأفق الثقافي

١٨ فرار الشيخ

جَـعـلـتُ عـلـى سـيـارةٍ ذاتِ سُـرعـةٍ إلـى الـشـامِ أَطْـوي فَـدْفَـداً ثـم فَـدْفَـدا

جعلت: بدأت، الفدفد: الأرض الخلاء

فـأدركـتُـهـا مـن بـعـدِ يـومٍ ولـيـلـةٍ ومنهـا إلى بيروتَ قد جئتُ مُوفَـدا

وكـنـتُ بـبـغـدادٍ أُكـابِـدُ جَـفْـوةً وكـان يُـسمِّـيني بهـا الـقـومُ مُـلْـحِـدا

وقالوا لِيَ ٱحْمَدْ في البلادِ هُمامَها فقلتُ لَهُمْ هَاتُوا هُماماً لِأَحْـمَـدا

الهمام، بالمعنى القديم: الزعيم

إذا المرءُ رامَ البُعدَ عن أرضِ ذِلَّةٍ   فلا ينبغي لِلمرءِ أن يَترَدَّدا
ولا خيرَ في غِمْدٍ خَلا مِن حُسامِهِ   ولا في حسامٍ ظَلَّ يَصْدَأُ مُغْمَدا
وإني على شيخوختي وزَمانَتي   أُريدُ بِشعري في الحياةِ التَّجَدُّدا

زمانتي: مرضي المزمن

ولا خيرَ في شعرٍ مضَى اليومَ عهدُه   وفي شاعرٍ إن قالَ قالَ مُقلِّدا
وما شاعرُ العصرِ الجديدِ سوى الذي   على دولةِ الشعرِ القديم تَمَرَّدا

هذا الزهاوي شيخاً. وكان شهد العز وارتقاء الحال أيام الدولة العثمانية، ثم جاء الإنجليز وجاء فيصل ملكاً على العراق فتعلق الزهاوي بالعصر الجديد متأملاً أن يزداد رفعة، وتقرب من الحكم الجديد، ومات فيصل وأحس الزهاوي بوطأة الشيخوخة، ووطأة الناس الذي ضجوا لأفكاره، فهو الآن شيخ برم بالحياة.. يفر من بغداد إلى الشام وإلى مصر كأنه يفر من زمن لم يعد زمنه

١٩ الفيلسوف المؤمن!

مَلأُوا صُدورَ الصُّحْفِ حِقْدا   والحقدُ قد سَمَّوْهُ نَقْدا
قالوا دَخيلٌ في القَريـ   ـضِ فما أجادَ ولا أَجَدَّا
قالوا صغيرٌ لا يُعَدُّ   مِنَ الفُحولِ ولن يُعَدَّا
ولهُ جَراءَةُ فيلسو   فٍ يُوسِعُ الأديانَ جَحْدا
كَذبُوا فإنِّيَ شاعرٌ   وأدينُ بالإسلامِ جِدَّا
إنَّ الخُطوبَ نَزلْنَ بي   فتركْنَني عظْماً وجِلْدا

٢٠ اللامتناهي

لقد ضَحِكْتُ فكان الضِّحْكُ مِلءَ فَمي   مِنَ الذي قالَ إنَّ الكونَ محدودُ
ما الأرضُ بين شُموسٍ لا عِدادَ لها   إلّا حَصاةٌ حَوالَيْها جَلاميدُ

جلاميد: صخور

وكم بِها سُدُماً تمتَدُّ واسِعةً   فيها النجومُ عناقيدٌ عناقيدُ

السدُم، وواحدها سديم: الغيوم الكونية، مجموعات من الشموس تبدو كأنها غيوم

٢١ القيامة؟

ما لِلحياةِ وراءَ الموتِ تَجديدُ   فلا يقومُ مِن الأجداثِ مَلْحودُ

فيها النهارُ كَلَيْلٍ لا صباحَ له　　أما الليالي فَتِلْكُمْ كلُّها سُودُ
القبرُ آخرُ بيتٍ لِلألى هَلَكُوا　　والحِسُّ في الهالِكِ المَلْحُودِ مفقودُ

٢٢ معاهدات

تُلغَى معاهدةٌ وأخرى تُعقَدُ　　والشعبُ يُستفتَى لها، ويُهَدَّدُ
والشعبُ يُطري لِلجهالةِ خِنجَراً　　في صدرِه عمَّا قريبٍ يُغمَدُ
أمَّا الزعيمُ فما تحرَّكَ، ذائِداً　　عن حقِّهِمْ، منهُ اللِّسانُ ولا اليَدُ

٢٣ قصيدة عتيقة

يُحَوِّلُ عنها العينَ ثم يُعيدُها　　حِذارَ عِدىً تَغلي عليه حُقُودُها
ويُغضي خلالَ النَّظْرَتيْنِ محاذِراً　　رقيباً لها، إن لم يَكِدْهُ يَكيدُها

بداية غزلية ثم دخول في معنى آخر

تُنازِعُهُ حَوضَ المنيَّةِ نفسُه　　فتطلُبُ وِرْداً عندَهُ ويَذُودُها

نفس الشاعر تنازعه حوض الموت طالبة وروده، ولكنه يذود نفسه ويصدها عن حوض الموت

إذا هِيَ ماتتْ ماتَ كلُّ همومِها　　وأقلعَ عنها نحسُها وسُعودُها

إذا النفس ماتت انتهى كل شيء

سواءٌ على مَنْ باتَ في بطنِ حُفرةٍ　　رهينَ البِلى بيضُ الليالي وسُودُها
يَعِزُّ على عَينيَّ أن تنظرا إلى　　بلادٍ تَسوسُ الناسَ فيها قُرودُها

٢٤ شوق إلى المجد

وَهُوَ العراقُ يَسوؤُني ألَّا يُرى　　متقدِّماً ولِأهلِه استعدَادُ
لا ريبَ في أن العراقَ بِأهلِهِ　　يَسمُو إذا أهلُ العراقِ أرادوا
يَغلي سُروريَ كلَّما فكرتُ في　　مجدٍ إلى بغدادَ سوف يُعادُ

شعور متوقع من ابن مدينة كانت عاصمة الدنيا ذات يوم. على أن المجد الزائل لا يعود، بل يخلق مجد جديد.. إذا أراد الناس

٢٥ قيود الشعر

بادتْ شُعوبٌ لا تريدُ　　وإذا أرادتْ لا تَبيدُ

لا تريد: ليس عندها إرادة

لا الــــنــــارُ تُــوقِــفُ مــا أرا | دَتْـهُ الـشـعـوبُ ولا الـحَـديـدُ
الـعِـزُّ فـي صِـدقِ الـعـزيـ | ـمةِ، والـشـعـوبُ كـمـا تُـريـدُ
والــنـــاسُ إمَّـــا ســـادةٌ | لَـهُــمُ الإرادةُ أو عـبـيــدُ
كــلُّ الــفــنـونِ تـجـدَّدَتْ | والـشـعـرُ يُـعـوِزُهُ الـجـديـدُ
مـا قـامَ حـتـى أثـقَـلَـتْـ | ـهُ مِـنْ قَـوافـيـهِ الـقُـيـودُ
وضـعَ الـوَرى حـدّاً لـه | والـشـعـرُ لـيـس لـه حـدودُ
مـا ضَـرَّ سـامـعَـهـا لـو اخـ | ـتَلَفَتْ قَـوافـيـهـا الـقَـصـيـدُ
مَـن كـان يـنـظِـمُ عـن شـعـو | رٍ صـادقٍ فَـهُـوَ الـمُـجـيـدُ

وفي أخريات حياته كتب الزهاوي قصائد مرسلة القوافي، لكنه ظل حبيس الأشطر المتساوية، وسينتظر الشعر في العراق بعد الزهاوي عشرين سنة حتى يكسر شعراؤه قالب الشطرين المتساويين

٢٦ فلسفتي

حَـيَّـرَتْـكَ الـحـيـاةُ وَهْـيَ لَـعَـمـري | لـيـس إلَّا تـطـوُّراً فـي الـجـمـادِ

فكرة فلسفية عميقة في نفس الزهاوي: الكائن الحي ليس شيئاً مختلفاً نوعياً، بل هو مادة تعقدت في تركيبها فنشأت فيها «الحياة»

تَـخِـذَ الـنـوعُ فـي الـوَرى لِـلـتَّـعـالـي | سُـلَّـمـاً مِـن جَـمـاجِـمِ الأفـرادِ

تخذ: اتَّخذ، أي أن أجيالاً تموت وتأتي أجيال وبتعاقبها يتطور الكائن

لـيـس مَـن يـدرسُ الـطـبـيـعـةَ بـحَّـا | ثـاً بِـنـاجٍ مِـن تُـهـمـةِ الإلـحـادِ
أنـتَ يـا عـقـلُ، فـي جـمـيـعِ حـيـاتـي، | سَـنَـدٌ يـنـتـهـي إلـيـه اعـتـمـادي
قـد تـعـوَّدتُ أن أكـونَ صـريـحـاً | فـأقـولَ الـذي عـلـيـه اعـتـقـادي
إن تـكـنْ مِـنِّـيَ الـصـراحـةُ إثـمـاً | فَـهْـوَ جـزءٌ مـتـمِّـمٌ لِـجِـهـادي
فـقـد اخـترتُ لـيِ جـهـنـمَ مَـثْـوىً | وتـركـتُ الـجِـنـانَ لـلـزُّهَّـادِ
أنـا هـذا، ولـسـتُ أقـوَى عـلـى تَـغْـ | ـيـيرِ نـفـسـي يـومـاً أوِ اسـتـعـدادي

٢٧ كفر وإيمان

سـبـقـتْـنـيِ إلـى الـمـقـابـرِ مـوتـى | أنـا فـي الـراحـلـيـنَ غـيـرُ وحـيـدِ
مَـن قـضـى نـحـبَـهُ ونـامَ بـقـبـرٍ | لا يُـبـالـيِ طُـولَ الـلـيـالـيِ الـسُّـودِ

لستُ أدري ألِلفناءِ سنمضي بعد أنّا نموتُ أم لِلخلودِ
حبّذا لو حَظيتُ مِن بعدِ موتي بِحياتي التي انتهتْ مِن جديدِ
إنني في شَكٍّ وإنْ مَلأُوا سمْـ ـعي بِوَعدٍ يَروُونَهُ وَوَعيدِ
لا تثقْ بالجمهورِ يا عقلُ يوماً إنَّ رأيَ الجمهورِ غيرُ سَديدِ
يَمِّمي يا نَفسيِ السماءَ فإنِّي لا أرى في الثَّرى طريقَ الخلودِ
أنتِ إنْ تَعزِمي يَهُنْ كلُّ صعْبٍ لا يَنالُ المرادَ غيرُ المُريدِ
أحمَدُ البَارِئَ الذي يتَساوى عنده إيماني به وجُحُودي
قيلَ إنَّ الشهيدَ يحيا لدى الربِّ فمَنْ ذا في الأرضِ غيرُ شهيدِ
كلُّنا مؤمنٌ يسبِّحُ للرحـ ـمنِ في ظِلِّ عرشِهِ المَمْدُودِ
إنني ما سجدتُ يوماً لِغيرِ اللّـ ـهِ، فاللَّهُ وحدَهُ مَعبودي

٢٨ العربة والحصان

ليس مِنّا الأجسادُ بِالروحِ تَحيا إنّما يَحيا الرُّوحُ بالأجسادِ
أنا بِالشعرِ وحدَه أتسلَّى إنه كلُّ طَارِفي وتِلادي
وإذا وافَتْهُ المنيَّةُ قبلي فاحفِرُوا حفرةً له في فؤادي

٢٩ زجاج المعري

بعد أنّي أموتُ فَلْـ ـيَدفَعُوا بي إلى سَقَرْ
لا تُؤَمِّلْ تَجدُّداً لِزجاجٍ قد انكسرْ
أتَرى الروحَ باقياً بعد جِسمٍ له دَثَرْ

قال المعري: يحطمنا ريب الزمان كأننا/زجاج ولكن لا يعاد له سبك

٣٠ درجات الهيام

أولُ الحبِّ في القلوبِ شَرارَةْ تختفي تارةً وتظهرُ تَارةْ
ثم يَرقَى حتى يكونَ حريقاً فيه هُلْكٌ لأهلِهِ وخَسارةْ
ثم يَرقى حتى يُمَثِّلَ بُركا ناً يرى الناسُ مِن بعيدٍ نَارَهْ
ثم يَرقى حتى يكونَ جَحيماً عن تفاصيلِها تضيقُ العِبارَةْ

٣١ سياسة وشعر

عـامَلَ الـنـاسَ بـالـعدالـةِ والـظُّلْـ ـمِ فـكـانُـوا يَـلْـقَـوْنَ نـوراً ونـارا

يتحدث عن الوالي العثماني المنصرف

جَـرَّ عِـزّاً إلـى الـعـراقِ وذُلّاً وحـيـاةً لأهـلِـه وبَـوارا
وأَصـارَ الـنـهـارَ لـيـلاً بَـهـيـمـاً وأصـارَ الـلـيـلَ الـبـهـيـمَ نـهـارا

جعل النهار ليلاً بظلمه، ولكنه اهتم بالمرافق العامة فأنار الشوارع ليلاً

أَفـقَـرَ الـقـومَ بـالـعـراقِ، وأَغـنـى وَسَّـعَ الـطُّـرْقَ، ضَـيَّـقَ الأفـكـارا
اِخـتَـفـى عـنْ قـوم وخَـالَـطَ قـومـاً فـأرى الـنـاسَ خـفَّـةً ووَقـارا
أخضَعَ الناسَ، نفَّذَ الحكمَ فيهِمْ، وَطَّـدَ الأمـنَ، أَرخَـصَ الأسـعـارا
غَـرَّبَ الأَبـرِيـاءَ، بَـثَّ الـجَـواسيـ ـسَ على الناسِ، أَسعَفَ الفُجّارا
مَـقَـتَ الـعـلـمَ سـاخـراً مِـنْ ذَويـهِ بَـذَّرَ الـمـالَ، جَـرَّأَ الأشـرارا
قـال لِـلـنـاسِ إنـمـا الأمـرُ شُـورى بـيْـنَـنـا، ثـم إِنَّـه مـا اسـتـشـارا
أيـهـا الـمـسـتـبِـدُّ بـالأمـر إِيـهـاً لا تـحـاربْ بِـظُـلْـمِـكَ الأحـرارا

إيه: كلمة لا معنى لها

إن شـمـسَ الـدسـتـورِ لِـلقومِ لاحـتْ فـأضـاءتْ بِـنُـورِهـا الأبـصـارا

أيها الوالي العثماني.. لقد جاء دستور ١٩٠٨، فأضاء الطريق

قـد مَـشـاهـا خُـطَـىً تـعَـثَّـر فـيـهـا لا أَقـالَ الـرحـمـنُ مـنـه الـعِـثـارا
لـم يـكـنْ مـجـلـسُ الإدارةِ إلّا آلـةً فـي يـديـهِ تُـمـضـي الـقـرارا
إن فـي مـجـلـسِ الإدارةِ عُـضـواً حـيـثـمـا دارتِ الـزجـاجـةُ دارا
رَبِّ إنَّ الـمـنـافـقـيـنَ بـبـغـدا دَ كـثـيـرٌ، وقـد أَتَـوْا أَضْـرارا
رَبِّ إنِّـي دعـوتُـهُـمْ فَـتَـمـادَوْا وأَصـرُّوا، واسـتـكـبـروا اسـتـكـبـارا
إنَّـنـي والـهَـزارَ فَـرعـانِ مِـنْ أصـ ـلٍ كِـلانـا قـد مـارسَ الأشـعـارا

الهزار: عصفور مغرد

وكـلانـا بَـثَّ الـصَّـبـابَـةَ إلّا أنـنـي قـد صَـرَّحـتُ وَهْـوَ أَشـارا
وكـلانـا أجـادَ نـظـمَ الـقـوافـي غـيـرَ أنّـي قـد فُـقْـتُ فـيـهـا الـهَـزارا

أنا قد طِرْتُ في سماءِ المعاني ... وَهْوَ في جَوٍّ روضةٍ قد طارا
وجناحُ الهَزارِ رِيشٌ قليلٌ ... وجناحي فِكري الذي لا يُجارى
أعشقُ الزُّهرَ في السماءِ فَأشْدُو ... وَهْوَ في الأرضِ يعشقُ الأزهارا

الزهر: النجوم اللامعة

هُوَ في نَظمِه يقلِّدُ طيراً ... سبقَتْه وإنَّ فِيَّ ابتكارا
يَصِفُ الحُبَّ وحدَه، ثم إنِّي ... أَصِفُ الناسَ والهوى والديارا
وقُصارى أنغامِه الوَجْدُ، أمَّا ... نَغماتي فما لَهُنَّ قُصَارى
إنَّهُ شاعرٌ يكرِّرُ ما قا ... لَ، وإنِّي لا أَحْمَدُ التَّكرارا
شعرُه في الحياةِ وَقْفٌ عليه ... فَهْوَ إنْ عاشَ عاشَ أو بَار بارا

بار: هلك

وقَريضي يَعيشُ بَعدي طويلاً ... ويجوبُ البلادَ والأمصارا

إيه، يا جميل صدقي ـ وإيه كلمة لا معنى لها، هي تسليك حنجرة ـ إيه، قد والله عاش شعرك بعدك. هذا كلام فصيح غاية الفصاحة، جار على سَنن العربية ألطف جري، دونما إغراب. ما أجهل من تفتنه سهولة الزهاوي عن فصاحته!

٣٢ ثورة في الجحيم

هذه القصيدة تعد ٤٣٣ بيتاً وفيها يقص الزهاوي كيف مات وكيف حوسب، واقتطفنا منها أبياتاً تحكي القصة وبقدر من التفاصيل. نشرها الزهاوي عام ١٩٣١، وقيل إن الملك فيصل ملك العراق أنبه عليها، فرد الزهاوي: عجزت عن إشعال ثورة في الأرض فأشعلتها في السماء:

بعد أن مُتُّ واحتواني الحَفيرُ ... جاءني يَبْلُوُ مُنكَرٌ ونَكيرُ

يبلو: يمتحن

مَلَكانِ اسْطَاعا الظُّهورَ، ولا أد ... ري لِماذا وكيف كان الظهورُ
ولكلٍّ أنفٌ غليظٌ طويلٌ ... هُوَ كَالقَرنِ بِالنِّطاحِ جَديرُ
كنتُ في رقدةٍ بقبري إلى أن ... أَيْقظاني منها، وعادَ الشعورُ
أَتَيا للسؤالِ فَظَّيْنِ، حيث الـ ... ـمَيْتُ بعدَ استيقاظِهِ مذعورُ..
عن أمورٍ كثيرةٍ قد أتاها ... يومَ، في الأرضِ، كان حيّاً يَسيرُ

صيْحةٌ تحتَ الأرضِ ثم حِوارٌ بين أَقسَاهُما وبيني يَدورُ
واقفاً لي كأنَّما هُوَ نَسْرٌ وكأنّي أمامَه عُصفورُ
قالَ مَن أنتَ، وَهْوَ ينظُرُ شَزْراً قلتُ: شيخٌ في لَحْدِهِ مَقبورُ
قالَ ماذا أتيتَ إذ كنتَ حيَّاً قلتُ: كلُّ الذي أَتَيْتُ حقيرُ
قال ما دِينُكَ الذي كنتَ في الدنـ ـيا عليهِ وأنتَ شيخٌ كبيرُ
قلتُ كان الإسلامُ دِينِيَ فيها وَهْوَ دِينٌ بالاحترامِ جَديرُ
قالَ مَنْ ذا الذي عبدتَ فقلتُ اللَّـ ـهَ رَبِّي، وَهْوَ السميعُ البصيرُ
قالَ هلَّا كَسَبْتَ غيرَ المَعاصي قلت إن لم أَكْسِبْ فَرَبِّي غَفورُ
كان إثمي أَنِّي إذا سَألوني لم أقُلْ ما يقولُهُ الجُمهورُ
وإذا لم يكنْ هنالِكَ رأيٌ لِيَ أُفْضي بِهِ فَلا أَسْتَعيرُ
رُبَّ أَمرٍ يقولُ في شأْنِهِ العقـ ـلُ نَقيضَ الذي يقولُ الضميرُ
قال هل صَدَّقْتَ النَّبِيِّينَ فيما بَلَّغُوهُ ولم يَعُقْكَ الغَرُورُ
والكتابَ الذي مِنَ اللَّهِ قد جا ءَ، فَأَدْلَى بهِ البَشيرُ النَّذيرُ
قلتُ في خَشيةٍ: بَلى، وفُؤادي مِن شَعاعٍ به يكادُ يَطيرُ

شَعاع: دم منتشر.. لعله يقصد إن قلبه أراد أن يطير مفارقاً دمه؟

إنه مُنزلٌ مِنَ اللَّهِ يَهدي النا سَ طُرَّاً فَهْوَ السِّراجُ المُنيرُ
قال: هل كنتَ لِلصَّلاةِ مُقيماً؟ قلتُ: عنها ما إن عَراني فُتورٌ
إنَّما في اقْتِناءِ حُورٍ حِسانٍ بِصَلاةٍ، تِجَارةٌ لا تبورُ
قالَ هل كنتَ قائلاً بِنُشورٍ؟ قلتُ رَبِّي على النُّشورِ قَديرُ
فإذا شاءَ لِلعبادِ نُشوراً فمِنَ السهلِ أن يكونَ نُشورُ
قال ماذا تقولُ في الحَشْرِ والميـ ـزانِ، ثم الحسابِ، وهْوَ عَسيرُ
والسؤالِ الدقيقِ عن كلِّ شيءٍ والصِّراطِ الذي عليه العُبورُ
قلتُ مَهْلاً يا أيُّها المَلَكُ المُلْـ ـحِفُ مَهلاً، فإنَّ هذا كثيرُ

الملحف: الملحّ

كان إيماني في شبابِيَ جَمَّاً ما بِه نَزْرَةٌ ولا تَقصيرُ

نزرة: قلّة

غيرَ أن الشُّكوكَ هَبَّتْ تُلاحِيـ ـنِي، فلم يَستَقِرَّ مِنِّي الشعورُ

تلاحيني: تتجاذبني

ثم عادَ الإيمانُ يَقوَى إلى أن سَلَّهُ الشيطانُ الرَّجيمُ الغَرورُ

ثم آمنتُ ثم أَلْحَدْتُ حتَّى قيلَ هذا مُذَبْذَبٌ مَمْرُورُ

ممرور: ملتاث، به شيء من اكتئاب جنوني

ثم إنِّي في الوقتِ هَذا لِخوفي لَسْتُ أدري ماذا اعتقادِي الأخيرُ؟

لم يَرِبْني أمرُ الصِّراطِ مُقَاماً فوقَ وادٍ مِنَ الجَحيمِ يَفورُ

غيرَ أَنِّي أُجِلُّ رَبِّيَ مِنْ إتْـ ـيانِ مَا يَأْباهُ الحِجا والضَّميرُ

فإذا صَحَّ أنَّه كَغِرارِ السَّـ ـيفِ أو شَعْرَةٍ، فكيفَ العُبورُ؟

غرار السيف: حده

ولعلَّ الذين ضَحَّوْا بِأَكْبا شٍ، عليْهِمْ بِها يَهُونُ المُرورُ

بها: أي بسبب تلك الأكباش التي ضحوا بها في دنياهم سيهون عليهم المرور على الصراط

أنا لو كنتُ بِالبَعيرِ أُضَحِّي سارَ بي مُرْقِلاً عليْهِ البَعيرُ

مرقلاً: مسرعاً. عليه: أي على الصراط

قالَ ماذا رأيتَ في الجِنِّ قَبْلاً ومِنَ الجِنِّ صَالِحٌ وشَرِيرُ

ثم في جِبريلَ الذي هُوَ بينَ اللَّـ ـهِ ذي العرشِ والرسولِ سَفيرُ

قُلتُ للَّهِ في السَّماواتِ والأر ضِ وما بَينَهُنَّ خَلْقٌ كثيرُ

غيرَ أَنِّي أرتابُ في كل ما قد عَجَزَ العقلُ عنه والتفكيرُ

لم يكُنْ في الكتابِ مِن خَطَإٍ كلَّا ـ ولكِنْ قد أَخطَأَ التفسيرُ

قال هل في السُّفورِ نفعٌ يُرَجَّى قلتُ خيرٌ مِن الحِجابِ السُّفورُ

إنَّما في الحجابِ شَلٌّ لِشعبٍ وخَفاءٌ، وفي السُّفورِ ظُهورُ

كيف يسمُو إلى الحَضارَةِ شعبٌ منه نِصفٌ عن نِصفِهِ مَسْتُورُ؟

ليس يَأتي شَعبٌ جَلائِلَ ما لم تَتَقَدَّمْ إناثُهُ والذكورُ

جلائل: أعمال جليلة

قالَ هل في الإلَهِ عندَكَ شَكٌّ؟ قلتُ لا، والذي إليهِ المصيرُ

إنَّما هذهِ الطبيعةُ ذاتُ الـ ـلاتَناهي كِتابُه المَسطورُ
إن هذا ما قد تَلقَّنْتُهُ والـ ـقلْبُ مِنْ شَكِّهِ يكادُ يَخُورُ

يخور: يضعف

وأَرَى في الصِّفاتِ ما هُوَ للَّـ ـهِ، تَعالَتْ شُؤُونُه، تَصغيرُ

من التصغير لأمر الله أن نصفه بصفات نستمدها من بيئتنا

ما عِقابي مِنْ بعدِمَا صَحَّ نَقْلاً أنَّ ما قد أَتَيْتُهُ مَقْدُورُ؟

ما وجه معاقبتي بعد أن صح ما نقل عن السلف من أن كل أفعالي مقدرة سلفاً، وليس لي فيها اختيار؟

وإذا كانَ منهُ كُفري وإِيما نِي فإنَّ الجَزاءَ شَيءٌ نَكيرُ
أَمِنَ الحَقِّ خَلْقُ إبليسَ وَهْوَ الـ ـمُسْتَبِدُّ المُضَلِّلُ الشريرُ
قالَ إِنِّي أَرَى بِخَدِّكَ تَصْعيـ ـراً فهلْ أنتَ يَزدَهيكَ الغُرورُ؟

التصعير: إمالة الخد، كناية عن التكبر

قلتُ مَن مَاتَ لا يُصَعِّرُ خَدّاً ليسَ بِالموتَى يِخْلُقُ التَّصْعيرُ

يخلُق: يجدُر

إنَّني أَخْشى الظَّالِمِينَ فلا أُفْـ ـضي إِلَيْهِمْ بِما بِرأسي يَدورُ
لا تكونا عَليَّ فَظَّيْنِ في قَبْـ ـري فإنِّي شيخٌ، بِعَطفٍ جَديرُ
إن قولَ الحَقِّ الصُّرَاحِ على الأحـ ـرارِ حتى في قَبرِهِمْ مَحظُورُ

الصراح: الخالص الصافي

فَدعاني في حُفرتي مُستريحاً أنا مِن ضَوضاءِ الحياةِ نَفُورُ
إنَّما قد سَأَلْتُما عن أمورٍ هِيَ ليستْ تُغْني وليستْ تَضيرُ
ولماذا لم تَسألا عن ضَميري والفتى مَن يَعِفُّ مِنْه الضميرُ
ولماذا لم تسألا عن جِهادي في سبيلِ الحقوقِ وَهْوَ شَهيرُ
ولماذا لم تسألا عن وَفائي ووفائي لِمَنْ صحبْتُ كثيرُ
وسَلاني عمَّا نظمتُ مِنَ الشعـ ـرِ، فَبِالشعرِ يَرتقي الجُمهورُ
وسَلاني عن جَعْلِيَ الصدقَ كالصَّخـ ـرِ أساساً تُبنَى عليه الأمورُ
أَسُكوتٌ عن كلِّ ما هُوَ حَقٌّ وسؤالٌ عن كلِّ ما هُوَ زُورُ؟

قالَ كُلُّ الذي عَرضْتَ علينا أيها الشيخُ الهِمُّ شَيءٌ حَقيرُ

الشيخ الهم: المسن الضعيف

نحنُ لَسنا بِسائِلينَ سِوى ما كانَ حولَ الدِّين المُبينِ يَدُورُ

قلتُ مَا لي بِكُلِّ ذلكَ عِلْمٌ فَبِجَحْدي عَقْلي عليَّ يُشيرُ

كنتُ حَيّاً فَمُتُّ، والموتُ حَقٌّ شاهِداتٌ بِما هناكَ القُبورُ

كنتُ فوقَ التُّرابِ بالأمسِ أَمشي وأنا اليومَ تحتَه مَقبورُ

قالَ ما أنتَ أيها الرِّجْسُ إلّا مُلْحِدٌ قد ضَلَّ السبيلَ، كَفُورُ

ثم تَلَّاني لِلجَبينِ وقَالا لِيَ: ذُقْ أنتَ الفيْلَسوفُ الكبيرُ

تلاني للجبين: ألقياني أرضاً

قُلتُ صَفْحاً فَكُلُّ فلسفتي قد كانَ مِمَّا يُمليهِ عقلي الصَّغيرُ

لم تَكُنْ أقوالي الجَريئةُ إلَّا نَفَثاتٍ يَرمي بِها المَصْدُورُ

أقوالي الجريئة كان نفثات، بصقات بلغم، يرمي بها المصدور، المصاب بداء في صدره، فهو يرمي بالبلغم فيستريح قليلاً

فأَجابَاني قَائِلَيْنِ بِصوتٍ لا يَسُرُّ الأَسْمَاعَ منهُ الهَدِيرُ

ثم صَبَّا بِقَسوَةٍ فوقَ رأسي قَطِراناً لِسوءِ حَظِّي يَفُورُ

القطران: الزفت، مستخرجاً من نفط أو من فحم

فَشَوَى رَأْسي ثم وَجْهِيَ حتى بانَ، مِثْلَ المَجْدُورِ، فيهِ بُثُورُ

ثم طَارا بي في الفضاءِ إلى الجَنَّـ ـةِ حتى يُغْرَى بِلَوْمي الضَّميرُ

وأَسَرَّا في أُذْنِ «رِضوانَ» شيئاً فأباحَ الجَوازَ وَهْوَ عَسيرُ

رضوان: حارس الجنة

لَمَسَتْ، إذ دخلتُها، الوجهَ مِنّي نَفْحةٌ فاحَ عِطرُها والعبيرُ

جَنَّةٌ عَرْضُها السَّماواتُ والأر ضُ بِها مِنْ شَتَّى النعيمِ الكثيرُ

فَطعامٌ لِلآكلينَ لذيذٌ وشرابٌ للشاربينَ طَهُورُ

سَمَكٌ مَقْلِيٌّ وطَيْرٌ شَوِيٌّ ولذيذٌ مِنَ الشِّوَاءِ الطُّيورُ

وعلى أرضِها زَرَابِيُّ قد بُثَّـ ـتْ حِسانٌ كَأَنَّهُنَّ زُهورُ

زرابي: سجاجيد

وعـلــيــهــا أَسِــرَّةٌ وفِــراشٌ، مثلَمـا يَـهوَى المؤمنونَ، وَثيرُ
وعــلــى تِـلْـكُـمُ الأَسِـرَّةُ حُـورٌ فـي حُـلِيٍّ لـهـا، ونِـعْـمَ الـحُـورُ
ليسَ يَخشَيْنَ في المَجَانَةِ عَاراً وإنِ اهـتَـزَّ تـحـتَـهُـنَّ الـسَّـريـرُ
وكـأَنَّ الـوِلْـدَانَ حـيـنَ يَـطُـوفـو نُ عـلـى الـقـومِ لُـؤْلُـؤٌ مَـنـثُـورُ
اِئْـتِ مـا شِـئْـتَـهُ ولا تَـخْـشَ بَـأْساً لا حَـرامٌ فـيـهـا ولا مَـحـظُـورُ
فـإذا مـا اشْـتَـهَـيْتَ طَـيْراً هَوى مِنْ غُـصْـنِـهِ مَـشْـوِيَّـاً وجـاءَ يَـزُورُ
وإذا رُمْـتَ أن يَـحُـولَ لَـكَ الـتِّـيـ ـنُ دَجـاجـاً أَتـى إِلـيـكَ يَـطـيـرُ

لو قال حماماً أو إوزاً لكان الطيران معقولاً، فأما الدجاج الذي يطير فهو.. لا علينا، ربما كان دجاج الجنة كذلك

أو إذا شئتَ أن يصيرَ لَكَ الحصـ ـبـاءُ دُرّاً فـإنـه لَـيَـصـيـرُ
ولـقـد رُمْـتُ شَـرْبـةً مِـنْ نَـمـيـرٍ فَـتَـيَـمَّـمْـتُـه فَـفَـرَّ الـنَّـمـيـرُ

النمير: الماء العذب

وتَـذَكَّـرْتُ أَنَّـنِـي رَجُـلٌ جِـيـ ءَ بِـهِ كـيْ يُـراعَ مـنـهُ الـشُّـعـورُ
قلتُ عُودَا مِنْ حيثُ قد جِئْتُما بي إنَّـمـا هـذهِ لِـهَـمِّـي تُـثـيـرُ
أَخْـرَجـانـي مـنـهـا وشَـدَّا وِثـاقـي بِـنُـسُـوعٍ كـمـا يُـشَـدُّ الـبَـعـيـرُ

نسوع: أحزمة من جلد

ثـم قَـامـا فَـدَلَّـيَـانـي ثَـلاثـاً في صَميمِ الجحيمِ وَهْيَ تَفورُ

ثلاثاً: ثلاث مرات، أو ربما ثلاث قامات.. أي بقدر طول الرجل ثلاث مرات

وأخـيـراً فـي جـوفِـهـا قـذَفـا بـيِ مثلَما يُقذَفُ المَتاعُ الحَقيرُ
ربِّيَ اصْرِفْ عنِّي العذابَ فإنِّي إنْ أَكُنْ خاطِئاً، فأنتَ الغفورُ
وأشـدُّ الـعـذاب مـا كـان فـي الـهـا وِيَةِ السُّفْلى، حيثُ يَطغَى السَّعيرُ
حيثُ لا ينصُرُ الهَضيمَ أَخُوهُ حيثُ لا يُنْجِدُ العَشيرَ العَشيرُ

الهضيم: الضعيف المهزول، العشير: الصاحب

اَلـطَّـعـامُ الـزَّقُّـومُ فـي كـلِّ يـومٍ والـشـرابُ الـيَـحْـمُـومُ والـيَـحْـمُـورُ

اليحموم: الأسود، اليحمور: الأحمر

ولـقـد يُسقَى الظَّامِئُونَ عصيراً هُـوَ مِـنْ حَـنْـظَـلٍ وسـاءَ الـعَـصـيـرُ

يَضْرعُ المُجرمونَ فيها عِطاشاً والضَّراعاتُ ما لها تأثيرُ
ولَهُمْ مِن غَيْظٍ تَأجَّجَ فيهِمْ نَظَراتٌ شَرارُها مُستَطيرُ
ولقد أبْصَرْتُ الفَرزدَقَ نِضْواً يتلوَّى ووجهُهُ مَعْصُورُ

نضواً: مهزولاً

وإلى جَنْبِه، يقاسي اللَّظَى الأخـ ـطَلُ مُسْتَعْبِراً، ويَشكُو جَريرُ

مستعبراً: باكياً

قلتُ ما شأنُكُمْ؟ فقالوا دَهانا مِن وَراءِ الهِجَاءِ ضُرٌّ كثيرُ
ولقد كانَ آخَرونَ حَوالَيْـ ـهِمْ جُثوماً وكلُّهُمْ مَوْتورُ

كانوا جثوماً: كانوا جاثمين، موتور: شاعر بظلم وطالب للثأر

منهُمُ العَالِمُ الكبيرُ ورَبُّ الـ ـفَنِّ والفيلسوفُ والنِّحْريرُ

النحرير: المتبحر في علمه

لم أشاهِدْ، بعد التَّلَفُّتِ، فيها جاهلاً ليس عندَه تفكيرُ
ثم حَيَّاني أحمَدُ المتنَبِّي والمعَرِّيُّ الشَّيخُ، وَهْوَ ضَريرُ
ولقد كادَ يَخْنُقُ الغيظُ بَشَّا راً، وفي وجهِهِ الدَّميمِ بُثورُ
ويَليهِمْ أبو نُواسٍ كئيباً وهو ذاكَ المِمْرَاحةُ السِّكِّيرُ
مثلُهُ الخيَّامُ العظيمُ، ودَنْتي وإمامُ القَريضِ شاكِسْبيرُ
ولقد كان لامْرِئِ القيسِ بين الـ ـقومِ صَدْرٌ، ولِلمُلوكِ الصُّدُورُ
قلتُ ماذا بِكُمْ؟ فقالوا لَقِينا مِن جَزاءٍ ما لا يُطيقُ ثَبيرُ

ثبير: جبل في بلاد العرب كبير

إنَّنا كُنَّا نَسْتَخِفُّ بِأَمْرِ الدِّ ـينَ في شعرِنا، فَساءَ المصيرُ
ثم إنِّي سمعتُ سُقراطَ يُلقي خُطبةً في الجحيم، وَهْيَ تَفورُ
وإلى جنبِه، على النارِ، أَفْلا طُونُ يُصغي كأَنَّهُ مَسرورُ
وأَرِسْطَاليسُ الكبيرُ وقد أَغْـ ـرَقَ مِنه المَشاعِرَ التفكيرُ
ثم كُوبَرنيكُ الذي كان قد أَفْـ ـهَمَنا أنَّ الأرضَ جِرْمٌ يَدورُ
تَتْبَعُ الشمسَ أيْنما هِيَ سارَتْ وعليها مثلَ الفَرَاشِ تَطُورُ

تطور: تحوم

ثــم دَرْوِيــنُ وَهْــوَ مَــنْ قــالَ إِنَّــا نَسْـلُ قِرْدٍ قَضَتْ عـليه الـدُّهُـورُ
ونُـيُــوتُــونُ الــحَـبْـرُ ثــم رِنَــانٌ ثــم رُوسُّــو ومـثْـلُـه فُــولْـتِـيـرُ
وزَرَادَشْـــتُ ثــم مَــزْدَكُ يَــأتــي وجُـمـوعٌ إِمَـامُـهُـم أَبِـقُـورُ
والـحَكيمُ الكِنْدِّيُّ ثم ابنُ سيِنا وابنُ رُشْدٍ، وَهْوَ الحَفِيُّ الجَسُورُ

الحفي: العالم المستقصي

كـان سُقْـراطُ أَثْبَتَ الـقومِ جَأْشاً فَـهْـوَ ذُو عَـزْمٍ فَـائـقٍ لا يَـخُـورُ
قال، مِنْ بعدِ شرحِهِ مَنْشَأَ النَّا رِ، وفـي قـولِـه إِلـيْـهـا يُـشـيـرُ

كان يشرح منشأ النار، وهو يشير بيده نحوها

سوفَ يَقضي فينَا التَّطَوُّرُ أنْ نَقْـ ـوَى عـلـيـهـا، وأنْ تَـهُـونَ الأُمُـورُ
إن في ذا الـوادي السحيقِ عُيوناً ثَـرَّةً لِـلـبِـتْـرُولِ، مـنـهـا يَـفُـورُ
ولـقـد تـنـضِبُ الـعـيـونُ، فـلا نـا رٌ ولا سَــاعِـرٌ ولا مَـسْـعُـورُ
مَكثُوا حتى جاءَ منهُمْ حكيمٌ بـاختِـراعٍ لـم تَـنـتَـظِرْهُ الـدهـورُ
آلَــةٌ تُـطْـفِـئُ الـسـعـيـرَ إذا شـا ءَ فلا تُحْرِقُ الجسومَ السَّعِيرُ
ولـقد قامَ في الأخيرِ فَتىً يخـ ـطُبُ فيِهِمْ، والصَّوْتُ منهُ جَهُورُ
قـال يـا قـومَـنـا جـهـنـمُ غَـصَّـتْ بِالأُلَى يُظلَمونَ منكُمْ، فَثُوروا
قال يا قـومَـنـا أَرى الأمرَ مِنْ سُو ءِ إِلـى الأَسْـوَأِ الأَمَـضِّ يَـسـيـرُ
أنـتُـمُ الـيـومَ فـي جـهـنـمَ أَسْرى ولْـيَـكُـنْ مِـنـكُـمُ لـكُـمْ تَـحـريـرُ
أنـتُـمُ الـيــومَ الأكْـثَـرونَ وأَمَّــا عَـددُ الـحـارِسـيِـنَ فَـهْـوَ صَـغـيـرُ
فَعَلا مِنْ أهلِ الجَحيِمِ ضَجيِجٌ رَجَـفَ الـوَادي مـنـهُ والـسَّـاعـوُرُ

الساعور: التنور

أَطْفَأُوا جَمْرَةَ الجَحيِـم فكانتْ فـتـنـةً مـا جَـرى بِـهـا الـتَّـقـديـرُ
ثورةٌ في الـجحيمِ أرجفَتِ العَرْ شَ، وكـادتْ منهـا الـسماءُ تَمُورُ

تمور: تموج

زَحَـفـوا ثَـائِـريـنَ مِـن كـلِّ صَـوْبٍ فـي صُـفـوفٍ كـأَنَّـهُـنَّ سُـطُـورُ
لَـكُـمُ الأكْـواخُ الـمَـشـيِـدَةُ بِـالـنَّـا رِ وَلِلْبُلْهِ في الجِنانِ القُصورُ!
إنْ خَضَعْتُمْ فما لَكُمْ مِن نَصيبٍ فـي طَـوالِ الـدهـورِ إلَّا الـسـعـيـرُ

ولقد أسرعَتْ زَبانِيَةُ النا … رِ إليْهِمْ وكلُّهُمْ مَذْعُورُ
ثم جاءَتْهُمُ الشياطينُ أنصا … رأ، وما جيشُ المَارِدِينَ حَقيرُ
كان إبليسُ قائداً لِلشياطيـ … ـنِ وإبليسُ، حيثُ كان، قَديرُ
ولقد جاءَ مِنْ مَلائكةِ العَرْ … شِ لإرجاعِ الأمنِ جَمٌّ غفيرُ
وتلاقَى فوق الجحيمِ الفريقا … نِ، وهذا نارٌ وهذا نورُ
يتَرامَوْنَ بالصَّواعقِ صَفَّيْـ … ـنِ، فيشتدُّ القتلُ والتدميرُ
حارَبوا بالجبالِ تُقَذَفُ بالأيـ … ـدي تِباعاً كأنَّهُنَّ قُشُورُ
بالبراكينِ ثائِراتٍ، جَرَتْ مِن … حُمَمٍ فيها أبْحُرٌ ونُهورُ
وقد اهتَزَّ عرشُ رَبِّكَ مِنْ بعـ … ـدِ سُكونٍ، والدَّائراتُ تَدُورُ
كانتِ الحربُ في البِدَاءِ سِجَالاً … ما لِصُبْحِ النصرِ المبينِ سُفُورُ
ثم لِلنَّاظِرينَ بَانَ جَلِيَّاً … أنَّ جيشَ المَلائِكِ المَدْحورُ
ولِأهلِ الجحيمِ تَمَّ، بِإنجا … دِ الشياطِينِ، في القتالِ الظُّهورُ
فاستَراحُوا مِن العذابِ الذي كا … نُوا يُقاسُونَه وجاءَ السُّرورُ
ثم طارُوا على ظهورِ الشياطيـ … ـنِ خِفافاً كما تطيرُ النُّسورُ
يطلبونُ الجِنانَ حتى إذا ما … بَلغُوها جَرى نِضالٌ قصيرُ
طَرَدُوا مَن بها مِنَ البُلْهِ واحتَلُّوا … القصورَ العُليا، ونعمَ القصورُ
غيرَ مِنْ كانُوا مُصلِحِينَ، فَهذا الـ … ـقِسمُ منهُمْ، بالاحترامِ جَديرُ
فَرَّ رِضوانُ لِلنَّجاةِ ومِنْ أَتـ … ـباعِ رِضوانَ، مُسرعاً، جُمْهورُ
وأَقاموا لِفتحِهِمْ حفلةً أعـ … ـقَبها مِنهُمُ الهُتافُ الكثيرُ
إنه أكبرُ انقِلابٍ به جا … دَتْ على كَرِّها الطويلِ، الدهورُ
وتنبَّهتُ مِنْ مَنامِيَ صُبحاً … وإذا الشَّمْسُ في السماءِ تُنيرُ
وإذا الأمرُ ليس في الحَقِّ إلَّا … حُلُماً قد أثارَهُ الجَرْجِيرُ

سودنا ما سودنا من الأبيات التي اخترناها من هذه القصيدة الطويلة كي تتسق القصة، وهي قصيدة تلبس ثوب الملحمة، لكنه ثوب مرقع بألوان كثيرة من السخرية ومن التندر بالمعتقدات الشائعة، ومن آراء الزهاوي المعروفة عن الحجاب والسفور وحرية الرأي، إلخ. ويغفر للزهاوي هذه النثرية العالية روحه الفكهة، وتمرده، وأنه مختلف عن غيره؛ وأما تناوله عرش رب الكون الجليل فلا يغفره إلا رب الكون الجليل

٣٣ الهامس والجاهر

وليس بِحُرٍّ من تكلَّمَ هامساً ... ولكنَّ مَن نَادى جَهاراً هُوَ الحُرُّ
يقولون في الإيمانِ كلُّ نجاتِنا ... ويا رُبَّ إيمانٍ قَوِيٍّ هُوَ الكفرُ
وينتظرون الفجرَ في ليلِ قبرِهِمْ ... ولكنْ ليالي القبرِ ليس لها فجرُ

٣٤ سفر سفر

أحييكِ يا مصرُ الجميلةُ يا مصرُ ... بشعرٍ يُزَكِّيهِ شعوريَ والفِكْرُ
إذا الشعرُ لم يَهزُزْكَ عندَ سَماعِهِ ... فليسَ خَليقاً أن يقالَ له شعرُ

التسويد من عمران القفيني

إلى بلدٍ يَلقَى بهِ الحقُّ ذَادَةً ... ويَنْعُمُ في أكنافِهِ الشاعرُ الحُرُّ

أسيرُ إلى بلد يلقى به الحق من يذود ويدافع عنه

قصدتُ بِسيْري مِصرَ حتى وَصلْتُها ... ولا بُدَّ مِنْ مصرٍ وإنْ بَعُدَتْ مِصرُ
صَبرتُ على ضَيْمي ببغدادَ حِقبةً ... فما سِرْتُ إلَّا بعدَ أن نَفِدَ الصبرُ
وقد ذُقْتُ حُلْوَ العيشِ دهراً ومُرَّهُ ... إلى أن تَساوَى في فميِ الحُلْوُ والمُرُّ

٣٥ الطفل الضرير

أُمَّاهُ إنِّي ضَريرُ ... والقلبُ مِنِّي كَسيرُ
يا أُمُّ إنَّ شَقائي ... لو تَعلمينَ كبيرُ
يَومي ولَيلي سواءٌ ... كِلاهما لا يُنيرُ
يا أُمُّ إنْ لم يَضِرْني الـ ... ـعَمى فَماذا يَضِيرُ؟
هلِ الضِّياءُ جميلٌ ... كما يقولُ البصيرُ
وهل هناك خَفاءٌ ... وهل هُناك ظُهورُ
وهل هناك سماءٌ ... فيها النجومُ تَدورُ
وهل إذا جاء فصلُ الرَّ ... بيعِ تَزهُو الزهورُ
وهل جميلٌ عليها الـ ... ـفَراشُ حين يَطيرُ
مَا لي غِنَىً عن جَوابٍ ... يا أُمُّ إنِّي ضَريرُ

هذه القصيدة تشبه قصيدة أخرى عذبة جداً مطلعها: (يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر)، وهي منسوبة إلى ولي الدين يكن، ولم أجدها في ديوانه، وإن وجدت له قصيدة رقيقة عن فتاة ضريرة

٣٦ مهنتي كشاعر

إنِّـــي امْـــرُؤٌ لا أَجْـــهَـــرُ ... إلَّا بِـــمـــا أنـــا أَشْـــعُـــرُ
إنَ نَـــابَـــنـــي شَـــرٌّ فَـــإنِّـــ ... ـيَ مـــنـــهُ لا أَتَـــذَمَّـــرُ
أو جـــاءنـــي خـــيـــرٌ فـــلا ... أَغْـــتَـــرُّ مـــنـــه وأَبْـــطَـــرُ
ولـــقـــد قَـــنِـــعْـــتُ مـــنَ الـــطـــعَـــا ... مِ بِـــبُـــلْـــغَـــةٍ تَـــتَـــيَـــسَّـــرُ
لا كـــالـــذيـــنَ عـــلـــى طـــعـــا ... مٍ واحـــدٍ لـــم يـــصـــبِـــرُوا

قال العباس بن الأحنف «لكنني جربتكم فوجدتكم/ لا تصبرون على طعام واحد» يتهم محبوبته بأنها تواصل سواه

أو كـــالـــذيـــن إذا تـــغـــيَّـــ ... ـرَتِ الـــظُّـــروفُ تَـــغَـــيَّـــروا
لـــيـــس الـــقـــريـــضُ بِـــطُـــولِـــه ... بـــل قـــد يـــفـــوقُ الأَقْـــصَـــرُ
وإذا شـــرعـــتُ بِـــنـــظـــمِـــه ... لِـــلـــذِّهْـــنِ فـــيـــه أَحْـــضُـــرُ
فـــإذا نـــظـــمـــتُ الـــبـــيـــتَ مـــنـــ ... ـهُ أُعـــيـــدُهُ وأُكَـــرِّرُ
وإذا رأيـــتُ الـــلـــفـــظَ لـــيـــ ... ـس كـــمـــا أَرُومُ أُغَـــيِّـــرُ
وأظـــلُّ أَصـــقُـــلُـــهُ إلـــى ... أنْ تـــســـتَـــقـــيـــمَ الأَشْـــطُـــرُ
مَـــا لِـــلأديـــبِ بِـــقُـــطْـــرِهِ ... فـــي الـــشـــرقِ قَـــدْرٌ يُـــذْكَـــرُ
ولـــقـــد يُـــصـــادِفُ عِـــزَّةً ... مِـــن بـــعـــدِمـــا هُـــوَ يُـــقْـــبَـــرُ
مِـــن بَـــعـــدِمـــا فـــي قَـــبـــرِهِ ... أَوْصَـــالُـــه تَـــتـــبـــعـــثَـــرُ..
مـــاذا مِـــن الـــتَّـــكـــريـــمِ يَـــرْ ... جُـــو مَـــيِّـــتٌ لا يَـــشـــعُـــرُ؟

٣٧ في المغني عبد الوهاب

وَصَـبَـوْنـا إلـى الـلـقـاءِ، ولـكـنْ ... حـالَ دونَ الـلـقـاءِ شَـحْـطُ الـمَزارِ

شحط المزار: بُعد المكان

ولـقـد كـان صـوتُـكَ الـعَـذْبُ قَـبْـلاً ... فـي الـفُـنُـغْـرافِ مَـالِـئـاً كُـلَّ دارِ

الفونوغراف: البك أب، جهاز له إبرة تسلط على قرص مخدد بأخدود لولبي دقيق في جوفه هضاب ووديان، ويدور القرص وتسير الإبرة صاعدة هابطة، وتنقل ذبذباتها إلى سماعة مكبرة مكهربة فتتحول الذبذبات إلى صوت. بهذه الطريقة الميكانيكة تمكن الإنسان لأول مرة في التاريخ من حفظ الصوت (يسمى القرص أسطوانة لأن المخترع إديسون أدار إبرته الأولى على أسطوانة، ١٨٧٧). ودخل الفونوغراف العالم العربي عام ١٩٠٤

فإذا ما رَفَعْتَ في مِصرَ صوتاً رَدَّدَتْهُ بقيَّةُ الأَمصارِ
إنَّ مَنْ لا يَهُزُّهُ منكَ لَحْنٌ حَجَرٌ جامدٌ مِن الأحجارِ

٣٨ أنا والمتعصبين

يا قومُ مَهلاً مُسلمٌ أنا مِثْلَكُمْ اللَّهَ ثم اللَّهَ في تَكفِيري

اللهَ: اتقوا الله

أَسَفِي على مُتَعَصِّبينَ تَأَلَّبُوا يَحْمُونَ حوضَ الجَهلِ بِالسَّاطُورِ

الساطور: سكين القصاب الكبير

ماذا عليَّ مِنَ الذي قد قلتُه أوَلَسْتُ حُرَّ الرأيِ والتفكيرِ
يا ظلمُ إن طالَتْ يدٌ لكَ بُرْهةً فالعدلُ ليس ذراعُهُ بِقصيرِ

٣٩ رثاء

قال في رثاء صديقه عبد الرحمن عميد آل جميل:

القلبُ مِنِّيَ مُضْغةٌ والهَمُّ أكبرُ مِنْ ثَبيرِ

ثبير: جبل كبير.. يقع في قصائد القدماء

إنَّ اعتمادَ الأكثَريـ ـنَ على الحياةِ مِنَ الغُرورِ
ولقد رأيتُ مصيرَهُمْ فعرفتُ حينئذٍ مَصيري
أمَّا النساءُ فقد أقَمْـ ـنَ مَناحةً حولَ السريرِ
يَلْدِمْنَ بالأيدي هنا كَ على التَّرائِبِ والنُّحُورِ

يلدمن: يلطمن

يَنْدُبْنَ فقْدَ وَلِيِّهِنَّـ وَضَيْعَةَ الحامي الكبيرِ
لم يبقَ في بَغدادَ، غيـ ـرَ الحزنِ، بَعْدَكَ مِن كَبيرِ

٤٠ منتهى العجز

وأرى بينَ الموتِ وَهْوَ أمامي وحياتي في كلِّ يومٍ صِراعا
أَمهَلَتْني الصُّروفُ حيناً من الدهـ ـرِ فلمَّا أتَيْنَ جِئْنَ سِراعا
وكأنِّي أرى حَفِيري بِعيْنِي فاغِراً فَاهُ يبتغي لي ابْتِلاعا

وأرى أيْـدِيـاً تُـحـاوِلُ دَفْـنـي ثـم إنِّـي لا أسـتـطـيـعُ دِفـاعـا

٤١ الروح

وإذا تـصدَّعَ منكَ جسمُكَ للرَّدَى يـومـاً فَـروُحُـكَ مِثلَه تـتـصـدَّعُ
والروحُ ليس سوى الحياةِ تَشارَكَتْ زُمَراً خلايا الجسمِ فيها أجمَعُ
هِيَ في الجمادِ خَفِيَّةٌ لِبساطَةٍ فيها، فلا تبدُو ولا تتفَرَّعُ

الروح لا تظهر في الجماد، ولا تتفرع أي لا تتكاثر الجمادات

أمَّا النَّباتُ فإنَّها مُنْحَطَّةٌ فيه فلا يَرنُو ولا يَتَسَمَّعُ

فلسفة الزهاوي ببساطة: الروح هي الحياة لا غير

٤٢ العقل والخلق

قد مَيَّزَتْكَ رَجاحَةٌ في العقلِ، والخُلُقُ الوسيعُ
وصنعتَ ما بلغَتْ يَدا كَ وحبَّذا منكَ الصنيعُ
والمرءُ ليس بِفاعِلٍ إلَّا لِمَا هُوَ يستطيعُ

٤٣ يا رب

قرأتُ اسمَكَ المحمودَ في الليلِ والضُّحى إذِ الشمسُ تَستَخفي إذِ الشمسُ تَطْلُعُ
فأيقنتُ أنَّ الكونَ بِاللَّهِ قائمٌ وآمنتُ أن اللَّهَ لِلكونِ مُبدِعُ
وأنَّك مَعنىً والخَليقَةُ لَفْظَةٌ وأنَّك حُسْنٌ والطَّبيعَةُ بُرْقُعُ
أيَذكُرُكَ الإنسانُ في العُسرِ جائعاً وينساكَ عندَ اليُسرِ إذْ هُوَ يَشبَعُ
تَعالَيْتَ أنتَ اللَّهُ مُقْتدراً فما يَضُرُّكَ نِسيانٌ ولا الذِّكْرُ يَنفَعُ

٤٤ خرج ولم يعد

قد طَلَعَتْ في خَيْلَعِ فَيا لِحُسْنِ المَطْلَعِ

الخيلع: البلوز الحَفْرُ، الذي بلا أكمام، وهو الخيعل أيضاً، وهو الإتْبُ والشَّوْذَر والقَرقَر والصِّدار والمِجول والشامال. وقال قوم السامال، وهو العِلْقَة. وهو عندنا اليوم الكطّ، مسمَّىً بالكلمة الأجنبية. وهو الحفْر، بتسمية الشيء بالمصدر كقولك حديد سَكْبٌ، وهذه أفصح من كل ما سبق، وقد ترى المرأة نزعت الكمين ولم تكتف بهذا فحفرت في قماش قميصها حفرتين أخريين كي تعرض علينا المزيد من لحم ترائبها، فالحفر على هذا كلمة مناسبة جداً

دعـنـي بِـحـسـنِ وجـهِـهـا   لِــنــاظِــري أُمَــتِّــعِ
فــإنَّ عـيـنـي بـعـدُ مِـنْ   رؤيــتِــهــا لــم تَـشـبَـعِ
ودِدتُ لــو أَنِّــي أرا   هــا بِــعُــيــونٍ أربَــعِ
ذَهَـبْـتُ فـي حُـبِّـي لِـلَـمْــ   ـيــاءَ، ولَــمَّــا أرجِــعِ

٤٥ المُزْبئِرّ

اِفتحُوا لِلفتى الهَضيمِ الطريقا   فـلـقـد جاءَ يَـزْبَـئِـرُّ حَـنـيـقـا

الهضيم: النحيل، يزبئر: ينتفش ويتهيأ للصراع

رافِـعـاً رايـةَ الـتَّـمَـرُّدِ تَـهـفُـو   حـامـلاً مِـن يَـراعِـهِ مَـنـجـنـيـقـا
لا يُـبـالـي مِـن بـعـدِ إدراكِـه الـثأ   رَ أَلاقَـى سَـلامـةً أم زُهُـوقـا
ذاكَ حُـرٌّ يَـأْبـى الـقَـبـولَ لِـضَـيْـم   واثـقـاً فـي صـراعِـهِ أن يَـفُـوقـا
جـاءَ يـعـدُو لِـيـسـتَـرِدَّ بَـمـا أُوُّ   تِـيَ مِـن قُـوَّةِ الـجَـنـانِ الـحُـقـوقـا

الجنان: القلب

رُبَّ غِـرٍّ إذا عَـلا أَكْـمَـةً ظَـنَّـ   ـغُـروراً أَنْ صَـافَـحَ الـعَـيُّـوقـا

أكْمة: الأكَمة التلَّة، العيوق: نجم بعيد. ويزعم صديقي عمران القفيني أن ناسا تبحث عنه منذ أن سمعت به من الشعراء العرب.. دون جدوى

سَـيُـلاقـي الـبُـغَـاةُ يـومـاً ثـقـيـلاً   فـيـهِ لا يَـنـفـعُ الـصـديـقُ الـصـديـقـا
مـا يـزالُ الـهَـضـيـمُ يَـشـهَـقُ يَـأْسـاً   ثـم لا يُـشـبِـهُ الـشـهـيـقُ الـشـهـيـقـا
أيـهـا الـدَّائِـسـونَ بِـالـرِّجْـلِ حَـقّـي   لـيـس حَـقّـي بـأن يُـداسَ حَـقـيـقـا

حقيقاً: مستحقاً

يـحـزنُ الـعَـنـدلـيـبُ أن يَـجِـدَ الـجَـوَّ   جـمـيـلاً ولا يَـكـونُ طَـلـيـقـا
قُـلْ لِـمَـنْ أَحْـفَـظَـتْـهُ زَنـدقـةٌ لـي   سـيـدي أنـتَ لا تـكُـنْ زِنـديـقـا

أحفظته: أغضبته

ذاك أمـرٌ لـه مَـسـاسٌ بِـنـفـسـي   فَـمِـنَ الـحُـمْـقِ أن تـكـونَ حَـنـيـقـا
وَهُـوَ الـعِـلـمُ لا يـقـولُ بـمـا لـم   تـأتِ فـيـه الـعـيـونُ فـحـصـاً دقـيـقـا
وَهُـوَ الـعِـلـمُ شَـكَّ فـي حِـسِّ مَـيْـتٍ   مَـزَّقَـتْـهُ أيـدي الـبِـلَـى تـمـزيـقـا

البلى: اهتراؤنا بعد إذ نموت

إنَّني مُؤمِنٌ، على الشكِّ مِنِّي ... ومِنَ اللَّهِ أطلبُ التَّوفيقا
حيثُما ألتَفِتْ أُشاهِدْ بِعيني ... ساحِقاً في الحياةِ أو مَسحوقا
وإذا نِمتُ في قَرارةِ رَمْسي ... فمِنَ الخيرِ الجَمِّ ألَّا أُفيقا
حَبَّذا جنةٌ سَتَشربُ فيها ... لبناً طابَ طعمُه ورَحيقا
وهناك الحُورُ الحِسانُ يُقَعْقِعْـ ... ـنَ حَوالَيْكَ الكأسَ والإبريقا
إنني لا ألْتَذُّ إلَّا بدنيا ... يَ، وإنْ لم أكنْ بها مَرزوقا
وإذا اليأسُ كَظَّ نفسي فضاقتْ ... منهُ فَرَّجْتُ بِالخيالِ الضِّيقا

كظ: ملأ

٤٦ المملوكة

لقد أضاعتْ عندَه ... مِنَ الحياةِ حقَّها
فهل تزوجتْ به ... أمْ مَلَّكتْهُ رِقَّها
يَسُومُها الخَسْفَ، فإنْ ... تَذَمَّرَتْ طلَّقَها

يسومها الخسف: يظلمها

٤٧ الحياة حريق

يُودي الفَتى مِن حيثُ يَسْلَمُ غيرُه ... ما لِلسَّلامَةِ مَنهَجٌ مَطروقُ

يودي: يموت

الكونُ بحرٌ مِن لهيبٍ لاهِبٍ ... والناسُ فيه سابحٌ وغريقُ
في كل حيٍّ شُعلةٌ مِن نارِهِ ... فكأنَّما هذي الحياةُ حَريقُ

٤٨ في السياق

إنَّ أعدائي في العراقِ كثيرٌ ... كلُّهُمْ فيه آخِذٌ بِخِناقي
سأُوَلِّي رُبوعَ بغدادَ ظَهري ... تاركاً خيرَها لِأهلِ النفاقِ
أصلحَ اللَّهُ ثُلَّةً شَتموني ... وأَطالُوا في مَوطِني إرهاقي
ليس قَصدي ممَّا ذكرتُ عتاباً ... غيرَ أنِّي أوردتُه في السِّياقِ

هذا البيت الأخير تحفة في الخفة واقتناص النكتة

٤٩ الجامعة البائدة

قد أَمَمْنا المُسْتَنصِرِيَّةَ صُبْحاً فوجدْناها أَرْسُماً وطُلولا
وكِلانا يا معهدَ العِلم مُبْدٍ جسداً ناحلاً وجسماً عليلا
قد لَعَمري أمستْ عليكَ الليالي وعَلَيَّ الحياةُ عِبئاً ثَقيلا
أيها المعهدُ الجليلُ سلامٌ ليس ما قد قاسيتَ شيئاً قليلا

٥٠ تأمُّل

ينسب كتاب إبراهيم الدروبي «البغداديون وأخبارهم ومجالسهم» هذه الأبيات إلى والد الزهاوي. ويقول إبراهيم المازني في مقال له عن شاعرنا إن الزهاوي نفسه أسمعه هذه الأبيات ـ وفيها ما يشير إلى بلوغ صاحبها التسعين ـ وهو ببغداد، ويزعم المازني أن الزهاوي أسن بكثير مما هو مرقوم في كتاب رفائيل بُطي من أنه مولود عام ١٨٦٣. ونظرة إلى ما توفر لنا من صور الزهاوي تجعلنا نرى في افتراض المازني بعض الوجاهة، ويقول الزيات عن أول لقاء له بالزهاوي إنه وجد أمامه شيخاً في حوالي الثمانين، وكان عمر الزهاوي عندما التقاه الزيات في عام ١٩٣٠ سبعة وستين عاماً بحسب رفائيل بطي.

وليس يعني ورود «التسعين» في القصيدة أن الزهاوي يتحدث عن نفسه:

بانَ لي في المرآةِ شيخٌ كبيرٌ عاشَ حتَّى تَعرَّفَ الأحوالا
قلتُ كم عِشْتَ قالَ تِسعينَ عاماً قلتُ ماذا فعلتَ فيها فقالا:
أَكَلاتٌ دفعتُها فَضَلاتٍ وشُروباً أَرَقْتُها أَبْوالا
وثياباً لبستُها فاخِراتٍ جُدداً وانتَزَعْتُها أسمالا
كلُّ شيءٍ مع الجَديدَيْنِ يَفْنَى ثم يبقَى جلالُ رَبِّي تَعالى

الجديدان: الليل والنهار، فهما يتجددان دوماً ويبليان كل شيء

٥١ مقالة

في الغربِ حيثُ كِلا الجنسيْنِ يشتغِلُ لا يَفْضُلُ المرأةَ المِقدامَةَ الرجلُ
كِلا القرينَيْنِ معتزٌّ بصاحبِه عليه إن نالَ منه العجزُ يَتَّكِلُ
وقد يُطلِّقُها أو قد تطلِّقُه إذا قضَى بالطلاقِ الكُرْهُ والمَلَلُ
أمَّا العراقُ ففيه الأمرُ مختلِفٌ فقد ألمَّ بنصفِ الأمَّةِ الشللُ
وقد يُطلِّقُها في حانةٍ ثَمِلاً وليس تَدري لماذا طَلَّقَ الثَّمِلُ
كم قد تزوجَ ذو الستينَ يافِعَةً والشيبُ في رأسِه كالنارِ يشتعلُ

يقضي لُبانَتَه منها إلى أجلٍ وقد يكونُ قصيراً ذلك الأجلُ
ولم تكنْ أَرْبَعٌ يُشبِعْنَ نَهْمَتَهُ والذئبُ يُشبِعُه مِن جُوعِه حَمَلُ

٥٢ المصير

تَؤُولُ حَياتِيَ بعد الرَّدَى ولكنْ إلى أيِّ شيءٍ تَؤُولُ؟
أَسيرُ بِليلٍ مِن الشكِّ دَاجٍ على ضَوْءِ عقلِيَ، وَهْوَ ضئيلُ

داجٍ: مظلم

سيبقى شقائي بقاءَ حَياتي فإن هِيَ زالتْ فهذا يزولُ
وإنِّي على كَبْرتي هذه أَوَدُّ لو اَنَّ حياتي تَطولُ

٥٣ بيروت الأمل

لولا تفاقُمُ شرٍّ ليس يُحتَملُ ما كنتُ عن وطني بَغدادَ أرتَحِلُ
قد كفَّرُوني لأَنِّي في مجالِسِهِمْ على الحقيقةِ إمَّا قُلتُ أَتَّكِلُ

إمَّا قلت: كلما تكلمت

اليأسُ بالأمسِ مِن بغدادَ أخرَجَني واليومَ جاءَ إلى بيروتَ بي الأملُ

٥٤ المستبدّ

فيا وَيْحَ قومٍ فوَّضُوا أمرَ نفسِهِمْ إلى مَلِكٍ عن فِعلِه ليس يُسأَلُ
وذي سُلطةٍ لا يرتَضِي رأيَ غيرِه إذا قالَ قولاً فَهْوَ لا يتبَدَّلُ
أيأمُرُ ظِلُّ اللّهِ في أرضِه بما نَهَى اللّهُ عنه والكتابُ المنزَّلُ
فيُفْقِرُ ذا مالٍ ويَنفي مُبَرَّأً ويسجُنُ مظلوماً ويسبي ويَقتلُ
تمهلْ قليلاً لا تُغِظْ أمَّةً إذا تأجَّجَ فيها الغيظُ لا تتمهَّلُ
وأَيديكَ إن طالَتْ فلا تغترِرْ بها فإن يدَ الأيامِ مِنهُنَّ أطْوَلُ

٥٥ التعايش مع المرض

ساكِتٌ أنتَ والأعادي تقولُ ومُضِرٌّ بكَ السكوتُ الطويلُ
أين ذاك الشعرُ الرقيقُ المُنَقَّى أين ذاك النثرُ النفيسُ الجميلُ

لكَ في الذَّبِّ مِن لِسانِكَ سيفٌ　　شهِدَ اللّهُ إنَّهُ مَصقُولُ

الذبُّ: الدفاع

القَوافِي، يا شاعرَ العصرِ فانظِمْ،　　بينَ أيْديكَ واقِفاتٌ مُثولُ
إن تُسالِمْ بِها فتِلْكَ أغانٍ　　أو تحارِبْ بِها فتِلْكَ نُصولُ
أيها اللائمي على الصمتِ إيهاً　　أوَمَا قد دَرَيْتَ أنِّي عليلُ
قبل عِشرينَ حِجَّةً جاءَ داءٌ　　نازلاً بي، وذاكَ ضيفٌ ثقيلُ
هُوَ داءٌ مَبيتُه في نُخاعي　　إن داءَ النُّخاعِ داءٌ وَبيلُ

كان الزهاوي مضطرب الأعصاب شديد النحول، وألم به مرض في النخاع الشوكي وهو في الخامسة والعشرين

فتَهاوَنْتُ في البِداياتِ فيه　　راجياً أنَّ وَطْأَهُ سَيَزُولُ
فمضتْ تِلْكُمُ السِّنونَ ودَائي　　ذلكَ الداءُ نفسُه لا يَحُولُ
وتَداوَيْتُ عند كلِّ طبيبٍ　　ونصيبي مِنَ التَّداوي نُحولُ
كنتُ في أوّلي أُقاوِيه حتى　　خارَ جِسمي فقلتُ صبراً «جميلُ»

الصبر الجميل: الصبر الكبير، و«جميل» هو اسم الشاعر

ثم صافَحْتُهُ أداريهِ باللِّيـ　　ـنِ كما صَافحَ الخَليلَ الخَليلُ

٥٦ رثاء العروبيين

قال الزهاوي في رثاء نحو أربعين رجلاً شنقهم جمال باشا في بيروت ودمشق بين ١٩١٥ و١٩١٧ لتخليهم عن الدولة العثمانية وسعيهم للاستقلال في سنوات الحرب العالمية الأولى:

على كل عودٍ صاحبٌ وخليلُ　　وفي كلِّ بيتٍ رَنَّةٌ وعويلُ

رنة: نواح

وفي كلِّ عينٍ عَبْرةٌ مُهَراقَةٌ　　وفي كلِّ قلبٍ حَسرةٌ وغليلُ

غليل: غيظ

كأنَّ وجوهَ القومِ فوقَ جُذُوعِهِمْ　　نجومُ سماءٍ في الصباحِ أُفولُ
دَنَوْا فَرَقُوها واحداً بعد واحدٍ　　وقالوا وَجيزاً ليس فيه فُضولُ

اقتربوا ورقوا، أي صعدوا، سُدَّة المشنقة وكانت لكل منهم عبارة قصيرة

ولـلَّـهِ مـا كـانـوا يُـحِـسُّـونَ مِـن أذىً إذِ الأرضُ تَـنـأى تـحـتَـهُـمْ وتَـزُولُ
سَـرَتْ روحُـهُـمْ تَطوي السماءَ لِربِّها ومـا غـيـرَ ضَـوْءِ الـفَـرقَـدَيْـنِ دلـيـلُ
ولـلَّـهِ عـيـدانٌ مِـن الـلـيـلِ أَثْـمـرتْ رجـالاً عـلـيـهِـمْ هَـيْـبـةٌ وقَـبُـولُ

لله أمر هذه الأعواد الخشبية التي كأنها أغصان لها ثمر هو أولئك الرجال الذين شنقوا عليها

ويـا لَـكَ مِـنْ رُزْءٍ حَـمِـدْتُ له الـبُـكـا وقَـبَّـحْـتُ فيه الـصـبرَ وَهْـوَ جـمـيـلُ

هذا رزء، مصيبة، يحسن فيه البكاء ويقبح الصبر

فما رَدَّ عنهُمْ بِالشَّفاعَةِ عُصْبةٌ ولا ذَبَّ عـنـهُـمْ بِـالـسـلاحِ قَـبـيِـلُ

ذب عنهم: دافع

لَـعَـمْـرُكَ لـيـس الأمـرُ ذنـبـاً أصـابَـه قِـصـاصٌ، ولـكـنْ يَـعْـرُبٌ ومَـغُـولُ

المسألة ليست عقاباً على ذنب ارتكبوه، بل هو الصراع بين العرب والمغول، أي الأتراك ذوي الأصول الآسيوية

وإنِّي على ما بي مِنَ الحَرِّ والصَّدَى لَأَنْـظُـرُ مـاءً مـا إلـيـهِ سـبـيـلُ

الصدى: العطش

أفكِّرُ في الـمـاضـي فـيـأتـي خَـيـالُـه جـمـيـلاً أمـامَ الـعـيـنِ ثـم يـزولُ

كان الزهاوي منعَّماً في ظل الدولة العثمانية، ولكنه يرى الآن تفككها، ويرى قومه العرب يريدون الاستقلال.. وكان الزهاوي سريع الانصراف عن ولائه العثماني، بخلاف زميله معروف الرصافي الذي ظل على هذا الولاء زمناً وانتقده الناس لأنه لم يتحرك لشنق الوطنيين، لقد رأى أنهم خانوا الدولة في وقت محنتها

أَبـعْـدَ بـنـي قَـومـي أُنَـهْـنِـهُ عَـبْـرَتـي وأمـنـعُـهـا؟ إنِّـي إذن لَـبـخـيـلُ

أنهنه عبرتي: أحبس دمعتي

قد اسوَدَّ لـيـلُ الـظـلـمِ حـتـى كـأنَّـه سِـتارٌ على الأرضِ الفضاءِ سَدِيلُ
ويـا لَـكَ مِـن لـيـلٍ يَـرُوعُ كـأنَّـمـا بِـكُـلِّ مـكـانٍ مـنـه يَـرقُـبُ غُـولُ

٥٧ حيرة

لستُ أدري ما غَايَتي مِن حياتي ما وُجودي، ما مبدَئي ما مَآلي
وإذا ما قلبي عَصَى حُكْمَ عقلي لم يُفِدْ مَنطقي ولا استدلالي
خَطَلي بعد أن ضَلَلْتُ سبيلي هُوَ أنِّي أرى الهُدى في ضَلالي

خطلي: حمقي

٥٨ انهيار الشعر

قد انْهارَ صَرحُ الشِّعرِ إلَّا أقلَّهُ ... وقد كانَ مِلءَ العينِ كالجَبلِ العالي
لقد ظلَّ هذا الشعرُ خمسينَ حِجَّةً ... يُهذِّبُ أقوالي ويُصلِحُ أعمالي
نشأتُ على استقلالِ نفسٍ تمرَّدتْ ... فلا أرتضي نَسجاً على غيرِ مِنوالي

٥٩ مؤمن نصف إيمان

أنا في حياتيَ ما كذبْـ ... ـتُ لِنَيْلِ شيءٍ ليس لي
أنا ما كفرتُ بكلِّ عُمـ ... ـريَ بالكتابِ المُنزَلِ
أنا لم أزَلْ أشدُو بِنعـ ... ـتِ للنبيِّ المرسَلِ
أنا لستُ بالمسؤولِ عن ... نَزَوَاتِ عقلٍ مُبْطِلِ
ما زالَ يُبدي رأيَه ... سألُوهُ أم لم يُسألِ
قد شاءَ عقلي بعد تفـ ... ـكيرٍ وطُولِ تأمُّلِ
باللَّه حَلَّ المشكلا ... تِ، فكانَ أكبرَ مُشكِلِ

أراد عقلي أن يحل مشكلة الوجود بإرجاع كل أمر إلى الله، فكانت فكرة الله أكبر مشكلة

ما ضَرَّنا لو ظَلَّ هـ ... ـذا الكونُ غيرَ مُعَلَّلِ؟

بالله نعلل هذا الكون فهو السبب والمسبب، ولكن ماذا يضيرنا إن ظل الكون بلا تعليل؟

الكونُ ماضيهِ يعُو ... دُ بِنا إلى المستقبَلِ
وتعودُ هذي الأرضُ بعـ ... ـدَ خرابِها كالأوَّلِ
ونعودُ نَحيا مثلَما ... كنَّا بِغيرِ تبَدُّلِ
ونموتُ ثم نعودُ في ... أدوارِها بِتَسلسُلِ
كذبَ الذي قد قال إنَّـ ... ـالقبرَ آخرُ منزِلِ
هذا لَعَمْرِي ما يرى ... عقلي بوجهٍ مُجمَلِ

عقله يقول له إن المرء يموت ثم تنتشر مكوناته ثم يخلق منها خلق جديد، فليس ثَمَّة فناء

أمَّا الضميرُ فقائلٌ ... لي بالحِجا لا تَحْفِلِ

يقول له ضميره، أي قلبه، لا تحفل بالعقل ولا تهتم بما استنتجه

الدِّينُ مَعْقِلُ أهلِه ... والدينُ أمنَعُ معقِلِ

وأخافُ ناراً في الجحيـ ـمِ بها الأثيمُ سيصطلي
أما الصِّراطُ فإنَّه فوق الجحيمِ كمُنْصُلِ

المنصل: السيف

لا يأمنُ الماشي بأر جُلِهِ سُقوطاً مِن عَلِ
إلَّا إذا عبرَ الصِّرا طَ على أَغَرَّ مُحَجَّلِ

أغر محجل: فرس له غرة وبياض في أسفل قوائمه

أو فوقَ كَبْشٍ قَرْنُه في رأسِه كالمِعْوَلِ
يا ربِّ، حينَ أَجُوزُه مَشياً، عليكَ تَوكُّلي
صَعْبٌ عليَّ عبورُه يا ربِّ ثَبِّتْ أرجُلي

٦٠ الحمار والجزرة

ولستُ مِن الموتِ ذا خَشيةٍ وإن كان حين يُلِمُّ زُؤَاما

الموت الزؤام: السريع

ولكنَّ حَشْوَ الحياةِ مُنىً تُحَبِّبُها لِيَ عاماً فعاما
لقد عشتُ عُمراً أؤمِّلُ أن تُميطَ الحقيقةُ عنها اللِّثاما
ولمَّا أَبَتْ أن تُميطَ اللِّثا مَ باتَتْ شُكوكي رُكاماً رُكاما

٦١ الاستقلال

عِشْ هكذا في عُلُوٍّ أيها العَلَمُ فإنَّنا بكَ بعدَ اللهِ نَعتصِمُ
عِشْ لِلعروبةِ، عِشْ لِلهاتِفينَ لها عِشْ لِلألَى في العراقِ اليومَ قد حَكَمُوا
عِشْ خافِقاً في الأعالي لِلبقاءِ، وثِقْ بأَنْ تُؤَيِّدَكَ الأحزابُ كُلُّهُمُ
كأنَّما الناسُ في بغدادَ إذْ هَتَفُوا بَحرٌ خِضَمٌّ به الأمواجُ تَلتَطِمُ
إنَّ العيونَ قَريراتٌ بِما شهِدتْ والقلبُ يفرحُ والآمالُ تبتسِمُ
هذا الهُتافُ الذي يعلُو فتَسْمَعُه جميعُه لَكَ فاسلَمْ أيها العَلَمُ

٦٢ شاكٌّ ظانٌّ

يُسائِلُني عن مذهبي وعقيدتي فريقٌ مِن الأَشْياخِ ما أنا مِنهُمُ

فقلتُ لهُمْ أمَّا السؤالُ فبَارِدٌ   وأما جوابي فَهْوَ أنّيَ مُسلِمُ
ولكنني ما كنتُ يوماً مقلّداً   يرى أن حُكمَ العقلِ في الدينِ مَأْثَمُ
فما القلبُ منِّي بِالسخافاتِ مُولَعٌ   ولا الرأسُ منِّي بِالخرافاتِ مُفْعَمُ
ولم أَكُ يوماً بالإصابةِ واثِقاً   فإنِّيَ في داجٍ مِن الليلِ أَرْجُمُ

أرجم: ألقي بالظنون

٦٣ أصابني ما أصابك

قد قلتَ «حقاً» فلم تقبَلْهُ أذهانُ   وحاربَتْكَ سياساتٌ وأديانُ

فأنتَ مِن بعدِ إنكارِ الجميعِ «له»   شَهرتَه فَهْوَ مثلَ السيفِ عُريانُ

بعد إنكار الجميع للحق شهرتَه وأبرزته

وكنتَ أنتَ البصيرَ الفردَ يومئذٍ   وحولَكَ الناسُ كلُّ الناسِ عُميانُ
تَخِذْتَ بيتَكَ سِجناً ثانياً فَغَدا   وأنتَ فيه سجينٌ ثُمَّ سَجَّانُ

وألجأ عوامٌّ بغداد الزهاوي مرة إلى بيته لا يجرؤ يخرج منه لما سمعوه من بعض المتشددين عن انحراف شاعرنا عن الدين

الشرقُ ما زالَ يَحْبُو وهْوَ مُغتَمِضٌ   والغربُ يركضُ وَثْباً وهْوَ يَقظانُ
الغربُ يَشغَلُهُ مالٌ ومَتْرَبَةٌ   والشرقُ يَشغَلُهُ كفرٌ وإيمانُ

الغرب منشغل بالمال وبالمتربة، بقضايا الفقر

أصابَنِي في زمانِي ما أصابَكَ مِن   حَيْفٍ فما رَدَّ هذا الحيفَ إنسانُ

٦٤ يا ضيعة الشعر

مَسروقَةٌ كلُّها تلكَ المَضامينُ   وليس منها لهم إلّا العَناوينُ
لقد أهانَكَ مِنهُمْ غيرُ ذي أَدَبٍ   يا شِعْرُ إنِّي عليكَ اليوم محزونُ
قد يفضُلُ البيتُ ديواناً بِرُمَّتِهِ   وقد تُقصِّرُ عن بيتٍ دواوينُ

٦٥ في مدح النبي

قالوا امتَدِحْ فخرَ البَرِيَّةِ أحمَدا   بقصيدةٍ تشْدو بِرِفعَةِ شَانِهِ
فأجبتُهُمْ ماذا أقولُ بِمدحِ مَنْ   أَثنَى عليهِ اللّهُ في فُرقانِهِ

مَـنْ ذا أنـا حـتـى أقـومَ بـمـدحِـه   بـل أيـنَ شِـعـري مِـن عُـلُـوِّ مكـانِـه
كـم قـد رَدَدْتُ الـشـعـرَ عـنـهُ قـائـلاً   هـذا مـجـالٌ لـسـتُ مِـن فُـرسـانِـه

٦٦ المسبة والبرهان

إليكِ يا نفسُ عنِّي لا تلوميني   إن المَلامَ على ما جئتُ يُؤذِيني
يا نفسُ لومُكِ هذا مُكثِرٌ شَجني   أليس ما بي مِن الأشجانِ يَكفيني
نَـشـرتُ لِـلـقـومِ آراءً أريـدُ بـهـا   إصلاحَ دُنياهُمُ لا الطَّعْنَ في الدِّينِ
فـإنْ أصَـبْـتُ فـهـذا نـافـعٌ حـسـنٌ   أو كنتُ أَخطأتُ فيها فَلْيَرُدُّوني
رَدُّوا بِسَبِّي على ما خَطَّهُ قَلمي   كأنَّما السَّبُّ مِن بعضِ البَراهينِ
إنَّ الأَكُـفَّ الـتي قـد كـنـتُ آمُـلُـهـا   لـلـذَّوْدِ صَارتْ مَـع الأيـامِ تَـرمِـيني

للذود: للدفاع

أَمْسَتْ رماحُ بني عَمِّي وقد غَضِبوا   تنوشُ جِسمي وكانتْ شُرَّعاً دُوني

صارت رماح قومي تنوش جسمي، تصيبه وتؤذيه، وكانت مرفوعة مشرعة دوني، للدفاع عني

لـلـجـهـلِ حَـقٌّ رُعَـاةُ الـجـهـلِ تَـضْـمَـنُـه   لـهُ، ولِـلـعـلـمِ حَـقٌّ غـيـرُ مَـضـمُـونِ
قُمْ مِن ضَريحِك يا مَأْمونُ واشْكُ إلى   أَبـيـكَ حـامـي ذِمـارِ الـشِّـعـرِ هـارونِ

قم أيها الخليفة المأمون يا ناصر العلوم، وارفع الشكوى إلى أبيك هارون الرشيد الذي كان يحمي ذمار الشعر، والذمار هي الأعراض والأملاك، وذمار الشعر.. حماه

وقُـلْ عَـنـادِلُ بَـغـدادٍ قـد اكـتَـأَبَـتْ   على المعالي فَماتَتْ في البَساتينِ
إلّا شَـقِـيَّـيـنِ: هـذا طـارَ مُـرتَـحِـلاً   وذا أَقـامَ طَـريـداً لِـلـشَّـواهـيـنِ

ارتحل الشاعر معروف الرصافي، وكانت في دينه رقة كتلك التي في دين الزهاوي، عن بغداد في العشرينات فاراً بآرائه السياسية والفكرية فمكث في بيروت قليلاً ثم توجه إلى القدس فعمل في التدريس. وأقام الزهاوي ببغداد والشواهين، الطيور الكاسرة، تطارده.. وسيفر الزهاوي إلى بيروت فمصر وسيعود.. وسيعود الرصافي أيضاً. الحال لم تتغير بالمناسبة. ولن تجد في العالم العربي اليوم ـ وأكتب في يناير ٢٠١٧ ـ أحداً يقول نصف ما قاله شاعراً العراق. فأما في المهجر فتجد كثيرين

لـهُ بِـبَـغـدادَ عُـشٌّ لا يُـفـارِقُـهُ   بَـنـاهُ فـي دَوْحِـهـا بـيـن الأَفـانـيـنِ

الدوح: الشجرة، الأفانين: الأغصان

وقـد يُـغـرِّدُ فـي الـواديِ عـلـى وَجَـلٍ   مُـرَفْـرِفـاً فـوقَ أوراقِ الـرَّيـاحـيـنِ

٦٧ رثاء أحمد شوقي

خَرَّتْ لِعِزَّةِ شِعرِكِ الشُّعَراءُ فكأنَّهُمْ أرضٌ وأنتَ سَماءُ
يا رَاحِلِينَ لِغَيْرِ عَوْدٍ إنَّنا لا نستطيعُ فِراقَكُمْ فَخُذُونا
سِيرُوا خِفافاً إن أردْتُمْ أو قِفُوا إنَّا على آثارِكُمْ آتُونا

* * *

مِنْ بعدِ دُرٍّ كنتَ تنظِمُ عِقْدَهُ بَرَزَتْ تُريدُ لِتَلْمَعَ الحَصْبَاءُ
عَجَّلْتَ في التَّرَحَالِ يا شَوقِي وقد بَقِيَتْ هَنالِكَ، لم تُقَلْ أشياءُ

القصيدة ملونة القوافي

الأبيات فيما سيلي من شعر الزهاوي منتخبة من ديوان له لم ينشره في حياته، بل تركه كي ينشر بعد موته، لما فيه من أبيات فلسفية قاسية لا يحتملها الناس. وقد نشر هذا الديوان، واسمه «النزغات» أي وساوس الشيطان، الأديب العراقي هلال ناجي، وأبدل كلمات معينة بنقاط بقدر عدد حروف الكلمة المبدلة.. ونحن نصنع صنيعه حتى لا نؤذي مشاعر من مشاعره رقيقة. وقد أشار الزهاوي نفسه إلى ديوان النزغات المخطوط في مقدمة ديوانه المطبوع بمصر عام ١٩٢٤

٦٨ دع المحال

دعِ المُحَالَ وكَلِّمْ بِلَهجَةِ المُستَدِلِّ

دع المحال، المستحيل قبوله عقلاً، وكلمني بلهجة المستدل، أي الذي يقدم دليلاً على كلامه

ما كنتُ أقبَلُ إلَّا ما ليس يأباهُ عقلي

٦٩ الخفاء والظهور

هذهِ الدنيا دارُ كلِّ جَزاءٍ فَهْيَ للناسِ جَنَّةٌ وسَعيرُ
ولقد يُعْقِبُ الظهورَ خَفاءٌ ثم لا يُعقِبُ الخَفاءَ ظُهورُ

٧٠ الترهيب

لا تَخَفْ بعدَ المنايا مِنْ عذابٍ وشَقاءِ
إنَّ ما قَالُوهُ تَرهيـ ـبٌ لِناسٍ بُسَطاءِ

٧١ الصلاة

الـخـمْـسُ مِـن صَـلَـواتـيِ ... عِـبْءٌ عـلـيَّ ثَـقـيـلُ
أَمَـا لِإرضـاءِ رَبِّـي ... غـيـرَ الـصَّـلاةِ سَـبـيـلُ؟

٧٢ الدليل

قـالـوا سَـنَـحـيـا جـمـيـعـاً ... بـعـدَ الـرَّدَى خـالِـديـنـا
فـقـلـتُ: هـاتُـوا دلـيـلاً ... إن كـنـتُـمُ صـادقـيـنـا

٧٣ أين الدليل؟

فـكـرتُ فـي كـل شـيءٍ ... مِـن حـادِثٍ وقـديـمِ
فـلـمْ أُشـاهِـدْ دلـيـلاً ... عـلـى (...) حـكـيـمِ

٧٤ المسير

أنـا لـو كـنـتُ مُـخـتـاراً ... لَـمَـا جـئـتُ إلـى الـدنـيـا
وأكـبـرُ سَـلْـوَتـي أنِّـي ... بَـعـدَ الـمـوتِ لا أحـيـا

٧٥ التجديد

إنَّ ديـنَ الـخَـلَـفِ ... مِـن تُـراثِ الـسـلـفِ
وهُـوَ الـيـومَ بِـحَـا ... جَـاتِـهِـمْ لـيـسَ يَـفـي

٧٦ قد بُحتَ الآن

مَـا عـلـى كُـفـرِيَ عـنـ ... ـدَ خُـصـومـي سَـنَـدُ
أنـا مـا بُـحْـتُ لَـهُـمْ ... بِـالـذي أعـتَـقِـدُ

٧٧ قد تزندقت لكن غير متعمد

ولا تَحْسَبَنِّي قد تَزَنْدَقْتُ عامِداً ... لأُحْرِزَ مُكثاً في جهنَّمَ خالدا
ولكنَّنِي لم أقتَنِعْ بِكلامِهِمْ ... فأصبحتُ مِن جَرَّاءِ ذلكَ جاحِدا

٧٨ مشكلة أكبر

لما جهلتَ مِن الحقيقةِ أمرَها وأقمتَ نفسَكَ في مقامِ مُعَلِّلِ
أثبتَّ (...) تبتَغي حَلَّاً بِهِ لِلمُشكلاتِ، فكانَ أكبَرَ مُشْكِلِ

٧٩ الجنة والسعير

يرجُو أُناسٌ أن ينالُوا بعدَما يَعثُو الرَّدَى فيهِمْ وِصالَ الحُورِ

يعثو: يفسد

أو يُبْصِرُوا في العالَمِ المَستورِ ما لم يُبْصِرُوا في العالَمِ المنظورِ
أَمَّا أنا فإِخَالُني في هَذهِ الدُّ ـنيا مُلَاقِيَ جَنَّتي وسَعيري

٨٠ غير واثق

توقفتُ لا أدري تِجاهَ الحَقائِقِ أأَنِّي خلقتُ (....) أم هُوَ خَالقي
لئِنْ وَثِقَ الجمهورُ (......) خالِقاً فرُبَّ حَكيم بينَهُمْ غيرُ واثِقِ
أأكفُرُ لَمَّا شاءَ لي الكفرَ سَاعةً وأَخلُدُ في النيرانِ غيرَ مُفارِقِ

٨١ المستريب

إلى (....) أشكو أنني منه في رَيْبِ تمكَّنَ مِنِّي في شبابِي وفي شيْبي
إذا كانَ هذا فيَّ عَيباً يَشينُني فإِنِّي بإِقرَاري أَدُلُّ على عَيْبي
ومَا رَابَني (..) الشهادةِ وحدَها ولكنَّما (..) الشَّهادَةِ والغَيْبِ

هذا البيت الأخير فيه فوق الزندقة مجون

٨٢ اقتناص فرصة

قَالُوا بَأَنَّ (.....) حَيٌّ له على عرشِه ثُبوتُ
فقلتُ ما (....) غيرَ وَهْمٍ أكبَرَهُ الوصفُ والنُّعُوتُ
إنْ حَيِيَ العلمُ في أُناسٍ (......) مِنْ ذاتِهِ يَموتُ
أَوْسَعَني المؤمنونَ سَبّاً فكانَ بي يَحْسُنُ السكوتُ
لكنَّني قُلتُها لِأنِّي حسِبْتُها فُرصَةً تَفُوتُ

٨٣ أهل الديانات السماوية

إنَّ اليهودَ أصابُوا ... مِنَ التِّجارةِ مالا
وللنَّصارَى مكانٌ ... مِن الرُّقِيِّ تَعالى
والمسلمونَ تَراهُمْ ... بِكلِّ أرضٍ كُسَالى

٨٤ خالق الناس والطاعون

ما ذَكَرْتُ (....) ذا إلّا ... تَذكَّرْتُ جَحيما
ليسَ (..) الناسِ لِلنا ... سِ كما قالوا رحيما
خَلَقَ الطَّاعونَ والهَيْـ ... ـضَةَ والسِّلَّ الأَليِمَا

الهيضة: الكوليرا

٨٥ محنة الإنسان

جاءَ ولم يَدْرِ السببْ ... وَهْوَ كما جاءَ ذَهَبْ
جِيءَ بِه إلى الوُجُو ... دِ، وهْوَ قَطُّ ما طَلَبْ
وقَيَّدُوهُ بالحَلا ... لِ والحرامِ والأَدَبْ

٨٦ عتاب

الناسُ إِمَّا غَنَمٌ سَارِحٌ ... ليس له حولٌ، وإمَّا ذِئابْ
ليس على الذئبِ إذا ما جَنَى ... يُزيلُ جُوعَ بطنِهِ مِنْ عِقابْ
بل إنَّما العَتْبُ على بَارِئٍ ... قد سَلَّحَ الذئبَ بِظُفْرٍ ونَابْ

٨٧ النعيم الدنيوي

ما الناسُ إلَّا نَباتٌ ... يحورُ بَعْدُ هَشِيما
فلا تَخافَنَّ يوماً ... قِيامَةً وجَحيما
ولا صراطاً كما يَذْ ... كُرونَهُ مُستَقِيما
وفي حياتِكَ فانْعَمْ ... إذا أردتَ نَعيما

٨٨ استغفار

أتَى غيرَ مُختارٍ وفَارَقَ مُضْطَرًّا ... ولم يَكُ لَمَّا عاشَ في نفسِه حُرًّا
تَرَأَّفْ ولا تقذِفْ بِنارِ جَهَنَّمٍ ... فتىً غيرَ مُسطيعٍ على حَرِّها صَبْرا
إذا لم تكُنْ دارٌ يُجازَى بِها الفَتى ... تَساوَى إذَنْ مَن يَفعَلُ الخيرَ والشَّرَّا
لقد قلتُ قولاً بَاطِلاً بِجَهالَةٍ ... وألحَدْتُ فَاللَّهُمَّ يا خَالِقي غُفْرا

٨٩ الدين والحجاب

لقد جَهِلُوا الإسلامَ كلَّ جَهالَةٍ ... فآذَوْهُ ذَمَّاً شَأْنَ مَن ليس يَفْهَمُ
وقالوا بَنَى الإسلامُ عُمرانَ أهلِهِ ... زماناً، وأمَّا اليومَ فَهْوُ يُهَدِّمُ
وعَدُّوا مِن الأسبابِ، وَهْيَ كثيرةٌ ... لَديْهِمْ، حِجابَ المسلماتِ وأَعْظَمُوا
وليسَ مِنَ الدينِ الحِجابُ لو انَّنا ... رجعْنا إلى أحكامِه نَتَفَهَّمُ

٩٠ أنا وعقلي

ما قلتُ شيئاً بِفَمي ... إلَّا وعقلِي مُلهِمي
أنا ابْنُ عقلِي وحدَهُ ... تُنْبِئُ عنِّي كَلِمي
بهِ اهتَدَيْتُ في شبَا ... بي مِثلَما في هَرَمي
وربَّما كانتْ أمو ... رٌ أنا عَنْهُنَّ عَمِ
أو قَدْ رَمَيْتُ أسهُماً ... فما أَصابَتْ أسهُمي

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

أحمد شوقي
(١٨٦٨م ـ ١٩٣٢م)

قرأتُ شعر شوقي، هذه المرة، وبيدي قلم. فكلما وقعت على بيت جميل جعلت بإزائه علامة. ولما أنهيت المجلدات العشرة، وعدد صفحاتها أكثر من أربعة آلاف، انتهت المتعة وبدأ الشغل.

رحتُ أنظر في الأبيات التي أخذتها من كل قصيدة، فأزيد بيتاً هنا أو هناك، حتى تقف القصيدة.

ثم دققت ذلك كله بيدي على الحاسوب، وشكلته. ثم عرضته على المصدر الذي منه أخذت، وهو «الموسوعة الشوقية» لإبراهيم الأبياري، وعارضته بـ «الشوقيات».

وبعد ذلك سميت كل قصيدة باسم من عندي، وأخذت أكتب تحت كل بيت شرحه، وصنعت فهرساً للأشعار على القوافي.

أما معيار الاختيار فهو ذوْقي. وأما طريقة الشرح فامش بضع صفحات حتى تراها.

ولا أزعم أنني فتحت فتحاً، فقبلي اختار الناس من أشعار الناس، وقبلي شرحوا. لكنني أرى شرحي متميزاً بثلاث: الاجتهاد، والأمانة، والتفاعل.

فأما الاجتهاد فأنني كنت أقلِّب البيت المشْكل على أوجهه، وأنظر في المعاجم، وفي شروح الشوقيات والموسوعة الشوقية، وفي كتب التاريخ؛ وأنني قرأت مرات وظللت أصحح حتى اطمأن القلب.

وأما الأمانة فأنني لم أترك معنى بقي غامضاً علي إلا أشرت إلى ذلك؛ ولم أكن أعرض للكلمة السهلة فأشرحها تاركاً الكلمة الصعبة دون شرح. ذلك

عمل لم أعمله. ولم أذكر حادثةً أو مناسبةَ قصيدة إلا وأنا مطمئن إلى صحتها، فإن داخلني شك فيها فإما أن أضرب عن ذكرها، أو أن أذكرها، لطرافتها، مع التنبيه على الشك في صحتها.

وأما التفاعل فأنني تعمدت أن أنقل إليك ما أشعر به حيال بعض الأبيات. فالبيت الذي يحسن اقتباسه وحفظه للمذاكرة جعلته بالحرف المشدد، فإذا كانت فيه تورية لطيفة أو علة خفيفة أشرت إليهما. وإذا رأيتُ القصيدة معبرة عن حادثة ذكرتُ ذلك في صدرها أو في ذيلها. ومسعاي في كل ذلك أن يحس القارئ أنني أقرأ معه وأشاركه. فإن أحس القارئ في خلال ذلك، ما لا بد أن يحس، من ميل إلى التعالُم والتفاصح، فهذه نقيصة ابن آدم، وستزول عني عندما أزول.

شرحت مختاراتي هذه من أبيات شوقي للكبير والصغير والمقمَّط في السرير. كنت أحياناً أحس أنني أُفرط في التبسيط وأنني أشرح كل كلمة، فأرفع القلم عن الكلمات التي يفهمها عامة المثقفين؛ ثم أعود وأكرُّ عليها كرة أخرى فيبدُو ليَ فيها، فأشرحها، رفقاً بشاب في مقتبل ثقافته العربية. وألزمتُ نفسي بشرح الكلمة في كل موضع ترد فيه، فلعل من قرأ شرحها أولَ ورودها يكون قد نسي معناها عندما ترد مرة أخرى بعد صفحات، ولست افترض أنك تقرأ الباب من أوله إلى آخره، فهذا ليس رواية.

عليَّ في هذا الكتاب دَيْن لصاحب الموسوعة الشوقية، إبراهيم الأبياري، فقد أفدت من شرحه الوافي؛ ولئن خالفته في فهم المعنى في أبيات كثيرة، ووجدته لم يعط البيت حقه من الشرح في أبيات أكثر، فذلك لأنه شرح الثلاثين ألف بيت كلها ملزماً نفسه ألا يهرب من بيت مغلق؛ فأما أنا فاخترت ما راقني وما سهُل عليّ، وكنت إذا اعترضني بيت عسير تجاوزته مُريحاً نفسي من تمحُّل وجه له، وجارياً على معتقد لي في الأبيات الصعبة: وهذا المعتقد هو أن البيت المغلق الصعب هو نتاج مخاض صناعي تكبده الشاعر، ويكون بعيداً عن القريحة الحرة، وصفاء الروح. وليس من المصادفات أن البيت الجميل يكون سهلاً قريب المأخذ.

وعليَّ دَيْن لشارحي الشوقيات على اختلافهم، فلئن كانت شروحهم قليلة الغناء في معظم الأحيان، فقد اجتهدوا في ضبط الشعر ضبطاً طيباً.

ولا أذكر الكتب الكثيرة التي تحدثت عن شعر شوقي وحياته حتى لا

أغمس لساني فيما لا ينفع. وما استفدت منه ذكرته في محله.

أما أن أصنع صنيع الأكاديميين فألملم أسماء الكتب ومؤلفيها في جريدة بآخر الكتاب، فقد كُفيته، وأنا آكل لقمتي من مائدة أخرى غير تلك المعابد التي يسمونها جامعات.

أردت في هذا الكتاب بأبوابه أن أثبِّت لنفسي طريقة في اختيار الشعر وشرحه، واستندت إلى تراث عربي غني في مضمار الاختيار والشرح. وقد بسطت رؤيتي العامة للشعر العربي في مكان آخر من هذه المقدمة.

سميت أحمد شوقي «شاعرَ الألف سنة» لأنني لم أجد بين المعريِّ وبينه شاعراً أهم ولا أعظم منه. وكنت أطلقتُ هذا الاسم على البرنامج التلفزيوني الذي أعدته وأخرجته لقناة «الجزيرة» الزميلة هويدا طه في الذكرى الخامسة والسبعين لوفاة شوقي، ثم اكتشفتُ أنني لست أول من فكر بهذه الفكرة. فقد كتب الشاعر شفيق جبري بعد أيام من وفاة شوقي مقالاً بعنوان «أحمد شوقي: شاعر لم يظهر مثله من ألف سنة» في جريدة الأيام الدمشقية.

وقد انغمست في شعر شوقي أكثر وأنا أقدم برنامجاً آخر قصيراً في قناة «الجزيرة» كان اسمه «قال الشاعر» أنتجته الزميلة نِعَم عيتاني. وقد خصصت شوقي باثنتين وعشرين حلقة من أصل نحو مئتين وعشرين حلقة تم إنتاجها قبل توقف البرنامج، ولو قيض له أن يستمر لأربت الحلقات المخصصة لشوقي على الخمسين.

سميت كل قصيدة أو قطعة في هذه المختارات باسم من عندي. واستندت إلى الطبعة البيروتية الثانية من «الموسوعة الشوقية». فأما الطبعة الأولى ـ التي ازدانت مجلداتها جميعاً بصورة خليلِ مطران ـ فكنزتها على أحفادي حتى يبيعوها بالمال الكثير بيعَ النوادر. وأذكر للناشر البيروتي، سوى جودة أحرفه وورقه، أنه ضبط الأبيات بالشكل ضبطاً جيداً، فلم يقصر في هذا عن الطبعة المصرية.

وأما الشوقيات فهي ديوان شوقي الذي نشره بنفسه في مارس عام ١٩٠٠ (وإن كان مؤرخاً في عام ١٨٩٨)، وسماه «الشوقيات» على حياء، لائذاً بأن شكيب أرسلان هو من اقترح التسمية، وهذه حقيقة يؤكدها أرسلان في كتابه عن شوقي. ثم صدرت طبعة أخرى وشوقي في السابعة والخمسين من عمره

فأضاف إليها الكثير، لكنه ـ أيضاً ـ حذف كثيراً من المدح في أولياء نِعَم لم يعودوا أولياء نعم. وكانت طبعة الشوقيات الأولى محلاة بمقدمة ثمينة وطويلة من قلم شوقي، فأسقطها في الطبعة الثانية وأبدل بها مقدمة من قلم محمد حسين هيكل. وأضيف إلى الشوقيات الكثير بعدئذٍ، فطبع منها جزء ثانٍ في حياة شوقي، وجزء ثالث بعد وفاته بأربع سنوات، ثم رابع بعد وفاته بعشر سنوات. وعبثت السياسة بطبعات الشوقيات بعد ثورة ١٩٥٢ في مصر. وجاءت بعدئذ طبعات لبنانية رديئة كثيرة. على أن طبعة إميل كبا محققة تحقيقاً حسناً، ومخدومة بقطع نثرية قد تعين الطلبة. وفيها «مداخلات» تذوقية طيبة. وسعت إلى الالتزام بالطبعات الأصلية، بدلاً من التسكع في تيه الطبعات «المهذبة». وفهرسها ممتاز، بخلاف فهرس الموسوعة الشوقية الذي جُعل له مجلد برأسه ولكنه قليل النفع.

وفي الستينات نشر محمد صبري السوربوني كتاب «الشوقيات المجهولة»، فكان جهداً علمياً طيباً. لكن بعض شعر شوقي ظل دفين الجرائد. فكان نشر الموسوعة الشوقية في مطلع الثمانينات خدمة جليلة للأدب، ولئن سبقتها ولحقتها كتب حاولت جمع شعر شوقي الغنائي ومسرحياته ونثره، فإن الموسوعة الشوقية هي التي جمعت فاستوعبت.

قد بذلتُ جهداً في ترتيب هذه الأشعار التي اخترتها ترتيباً زمنياً صارماً يجعلك تقرأ الكتاب وتتابع فيه حياة الرجل وتطور فنه ومواقفه السياسية والاجتماعية. ولكن التناقض في التأريخ بين كِتاب وكِتاب حال دون الترتيب الصارم، وحال دونه أيضاً إهمال المؤلفين، وكثرة أغلاطهم. وأكبر المهملين أحمد شوقي. فهذا الرجل الذي عاش لشعره، كان مهملاً في جمعه. كان أحياناً ينشر القصيدة في جريدة أو مجلة باسم مستعار ثم يعود إليها فيحككها ويزيد في أبياتها وينقص، ثم ينشرها في طبعة من ديوانه. أو تنشرها له بعلمه أو بدون علمه جريدة أخرى.

وحاد بي عن الترتيب الصارم قليلاً أنني جمعت قصائده التي على لسان الحيوان في مكان واحد. فهو، وإن يكن نظمها كلها تقريباً في سن الشباب الباكر، غير أنه أضاف إليها قصائد قليلة كهلاً. فضممت الشبيه إلى الشبيه.

قد صدعتك بمزايا مختاراتي هذه، وأزيدك في الختام واحدة: اخترت ما اخترته لك بمزاج.

حياة أحمد شوقي

إذا آمنتَ، مثلما أُومن، بأن الشاعر بجيده لا برديئه، وبأن أكثر ما يعنينا من سيرة الشاعر شعره، فخير سيرة لأحمد شوقي هي ما يتضمنه هذا الباب من شعر. فقد عرضت لك مختاراتي من شعر الرجل: ما كتب في صباه فشبابه فرجولته فكهولته، مرتباً ترتيباً زمنياً، مشروحاً، مع ذكر المناسبات والمواقف والمعلومات التي تُعينك على فهم الجو السياسي والاجتماعي الذي أحاط بالقصائد.

ولكنك قد تحب أن تعرف عن نشأة الرجل.

نشأته

اسم جده «أحمد شوقي» أيضاً، وهو كردي ـ عربي، «سمعت أبي، رَحِمَهُ اللَّهُ، يرُدُّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب».

قدم الجد إلى مصر حاملاً رقعة توصية من أحمد باشا الجزار والي عكا إلى محمد علي باشا والي مصر. وكان الجدُّ يتقن العربية والتركية ويكتب بهما، فالتحق بالمعيَّة؛ وما زال يتقدم حتى صار أميناً للجمارك المصرية في منتصف القرن التاسع عشر. وجمع ثروة طيبة بددها ابنه «علي» سريعاً.

عاش «علي»، أبو شاعرنا، من عمله. وتزوج فتاة أبوها مصري من أصل تركي وأمها يونانية أُسرت في الحرب وجيء بها لتكون وصيفة أو شبه ذلك عند إبراهيم باشا ابن محمد علي. وأنجبا ابناً في عام ١٨٦٨ سمياه باسم جده. فهذا «أحمد شوقي» الشاعر. وقيل، استناداً إلى شهادة الليسانس الفرنسية، بل ولد عام ١٨٧٠.

يذكر شوقي جدته أمَّ أمه، واسمها تمزار، كثيراً. فهي بنت القصر، جاءته سبيَّة وعمرها عشر سنين، واعتنقت الإسلام بالطبع؛ ولعلها نسيت كل ما تعرف من لغتها اليونانية، فكانت تتكلم ـ فيما أحسب ـ العربية والتركية. وكبرت، وزوَّجها القائد الذي أسرها إبراهيم بن محمد علي من رجل عالي المكانة، واحتفظت بصلتها بالقصر. واحتفظت بمعاش زوجها بعد وفاته. وقد أخذت شاعرنا من المهد وكفلته. «حدثتني أنها دخلت بي على الخديوي إسماعيل وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه. فطلب الخديوي بدرة من الذهب، ثم نثرها على البساط عند قدميه، فوقعتُ

على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به، فقال لجدتي: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض. قالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي. قال: جيئي به إليَّ متى شئت، إني آخر من ينثر الذهب في مصر». انتهى كلام شوقي في مقدمة الشوقيات.

أدخله أهله في مكتب الشيخ صالح وهو في الرابعة من العمر، «وهي من أهلي جناية على وجداني أغفرها لهم». ثم انتقل للمبتديان فالتجهيزية، فكان ترتيبه الثاني في المدرسة وهو في الخامسة عشرة فحصل على المجانية لتفوقه.

نبوغ شاعر

كان دخوله الكُتَّاب في هذه السن الطرية الشرارة الأولى التي لن تخبو. لقد عرف اللغة العربية الفصحى وهو طفل صغير، وعرف أن هذا هو المضمار الذي يجب أن يركض فيه. وفي المدرستين اللاحقتين التصق بلغة القرآن ولغة الأدب ولغة المثقفين. هنا التقط شوقي فيروس العربية الذي لن يفارقه. ووضع في جيبه المسطرة التي سيقيس بها كل أدب. عرف المتنبي والبهاء زهيراً، وقرأ على الشيخ حسين المرصفي صاحب كتاب «الوسيلة الأدبية» «كشكول» العاملي ثم «الوسيلة»، وكان آنذاك في الرابعة عشرة من عمره. وعثر على قالبه في شعر محمود سامي البارودي الذي قرأ منه عدة قصائد في «الوسيلة». ولمصطفى صادق الرافعي تحليل طيب لسبب التأثر الشديد بالبارودي: السبب هو المعاصَرة، «فالمعاصَرة اقتداء، ومتابعة على الصواب إن كان الصواب، وعلى خطأ إن كان الخطأ». ويعلل الرافعي خروج البارودي عن غثاثة الشعر في زمنه تعليلاً طيباً: «كان البارودي جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة، لا يحسن منها شيئاً، وجهله هذا هو كل العلم الذي حَوَّل الشعر من بعده، فيا لها عجيبة من الحكمة. أكبَّ البارودي على ما أطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول، إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة، وكانت فيه سليقة، فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الأول. وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرُج به للعربية حافظٌ وشوقي».اهـ.

نظم شوقي وهو في الرابعة عشرة. وجليٌّ في أول قصيدة وصلتنا، وهي وصف للخريطة، واقتبسنا معظمها هنا، أن هذا التلميذ ذو خيال عجيب، وأنه يمتلك ناصية اللغة، ويتصرف بها باقتدار.

درس شوقي على حسين المرصفي مدة غير قصيرة. قال في مقابلة نشرتها الأهرام عام ١٩٢٧: «أستاذي الوحيد الذي أعد نفسي مديناً له هو الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الأدبية، وتتلمذت سنتين لحفني بك ناصف، وهما أستاذاي حقيقة اللذان استفدت منهما».

ثم دخل شوقي مدرسة الحقوق وهو دون السن القانونية، فدرس بها سنتين، وعندما أنشئ بها قسم للترجمة دخله وأقام به سنتين أخريين. ونال إجازة في الترجمة.

كان وهو تلميذ يمدح الخديوي توفيقاً، وكان هذا يصل إلى الخديوي، فتوفيق يتقن العربية ويبدو أنه كان يتذوق أدبها، إذ إنه درس بمصر ولم يتسن له السفر إلى أوروبا للدراسة.

ثم ألحق الخديوي توفيق شوقي في معيته. وعين أباه مفتشاً بعد أن كان فقد وظيفته.

بقي شوقي سنة في معية الخديوي توفيق، ثم أرسله إلى فرنسا للدراسة وخيَّره، فاختار شوقي الحقوق، فنصح له الخديوي توفيق أن يجمع بين «الحقوق وبين الآداب الفرنسوية بقدر الإمكان».

الدراسة في فرنسا

ركب شوقي البحر إلى مرسيليا في يناير عام ١٨٩١، وأنفق عامين في مونبلييه، وعاماً في باريس، ورجع إلى مصر في نوفمبر عام ١٨٩٣. ومنعه الخديوي من القدوم إلى مصر في العطلة الدراسية، وطلب منه أن يقيم «أربع سنوات كاملة في أوروبا»، وألا يضيع منها دقيقة واحدة، «ثم أرسل إليَّ خمسين جنيهاً لأنفقها في رحلة أزمعها إلى أي بلد أشاء، إلا مصر».

في السنة الثالثة نال شوقي شهادة الحقوق الفرنسية، ولكن الخديوي توفيقاً طلب إليه أن يبقى في باريس ستة أشهر ليتمكن من «معرفة أشياء باريز وأهلها».

الخلاصة أن شوقي مكث في فرنسا ثلاث سنوات تنقص شهراً.

موظفاً في القصر

رجع شوقي إلى مصر ليجد توفيقاً قد مات، وابنه الشاب عباس حلمي قد

تولى الحكم. عمل شوقي في القصر. ولا شك أنه أحس بغصة، فالخديوي توفيق كان يحب الآداب، وهو رجل تربى على اللغة العربية. أما عباس حلمي فشاب يصغر شوقي بست سنوات، ودرس في مصر ثم في فيينا مدة قصيرة وقطع دراسته بموت والده ليتولى الحكم بعده.

لكن شوقي نال ثقة عباس حلمي، وتولى له رئاسة القلم الإفرنجي. وبعد سنتين مثَّل مصر في مؤتمر المستشرقين في جنيف بسويسرا عام ١٨٩٤. وعاد فكتب تقريراً «إلى سيدنا ومولانا، وليّ النعم الأكبر، الخديوي المعظم».

في المؤتمر عرض شوقي قصيدة من ٢٩٠ بيتاً قص فيها تاريخ مصر الفرعوني والإسلامي. وقال كلمة بالفرنسية، ترجمها بنفسه لاحقاً إلى العربية، حث فيها المستشرقين على الاهتمام بالحاضر الأدبي للعرب الذي «دخل في الحركة العصرية من نحو نصف قرن،» ودعاهم إلى ألّا يقصُروا اهتمامهم على ماضي العرب وتراثهم القديم، وعرض عليهم روايته الشعرية علي بك الكبير، و«مجموعة حكايات منظومة على ألسنة الحيوانات، بإنشاء عربي محض، وفكر مصري خالص». وستظل هذه الحكايات من درر أدبنا العربي زمناً طويلاً. وقد اخترنا منها الكثير هنا، ليس لطرافة موضوعها فحسب، بل لأنها من أجمل الأدب.

تغزل شوقي بالحسان في مصر وفي إستانبول التي كان يزورها كثيراً. ولم يكن في غزله سوى رجل يحب الجمال، و«الجمال البشري سيد الجمال كله» كما قال ناثراً.

وعرف مكائد الوظيفة، ودسائس القصور جيداً، وانطبع هذا في شعره بشكل حِكَم كان يقصد إليها قصداً، على أنه كان يغترفها من حياته. وتأثر ولا شك بالأدب الفرنسي، وهو يقول لنا إنه تأثر كثيراً بفكتور هوغو وألفريد دي موسيه ولامرتين، وأما لافونتين القديم فقد تأثر بقصصه وصنع قصصاً على طريقته. وعرف شكسبير باكراً من ترجمات صديقه خليل مطران لبعض مسرحيات شكسبير من الفرنسية إلى العربية. ولكن مثله الأعلى ظل المتنبي «صاحب اللواء، والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء، ولو سلم من الغرور، وسلم الناس من لسانه لأجللتُه إجلال الأنبياء».

الزواج والأولاد

تزوج شوقي خديجة ابنة حسين باشا فهمي شاهين، وأنجبت له أمينة في

الليلة التي مات بها أبوه. ثم وُلد له علي، ثم بعد حين حسين. وأحب أولاده بشغف. وكتب فيهم قصائد فيها مرح وحب وفيها تعلق. وأخذنا معظم أبياتها هنا، ليس فقط لأن مثيلها نادر في شعر العربية، ولكن لأنها جميلة أيضاً. ولم يقل في زوجته شيئاً، ولعله كان في هذا الأمر الرجل الشرقي الذي يتفنن في إخفاء زوجته عن العيون والأذهان، تقرأ شعره في أولاده فلا تملك أن تسأل: وأين أمهم، ولا تملك أن تظن أنه كان يعثر عليهم تحت الشجرة في الحديقة. ويصرح ابنه حسين في كتابه عن أبيه بأن شاعرنا كان يسهر كثيراً ويهمل زوجته، وهي صابرة لا تؤاخذه في شيء.

شوقي شاعراً متميزاً

كان شوقي رجل سماع، يحب الموسيقى الشرقية، ويألف الموسيقى الكلاسيكية. ونحن نرى هذه الألفة من خلال أذن محمد عبد الوهاب الذي رافق شوقي في فرنسا لاحقاً واستمع بمعيته إلى الموسيقى في مسارح باريس.

ونعرف أنه كان يسهر في مجالس الغناء، ويحضر المسرحيات الغنائية في القاهرة. لكن ارتباطه بالقصر يمنعه من التمادي في علاقات نسائية. ولعل الرجل لم يكن شهوانياً. كان يحب الخمر، ويعاقرها باتئاد. وكان يحب الجمال. ولكنه كان قد أصبح منذ أوائل الصبا راهباً في معبد الشعر.

«كان شوقي يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، ولم يقل لنفسه في وقت من الأوقات: دعينا من هذا الآن لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود إليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المبتكر هدفاً له كيفما عنّ وأنى عرض.. لم يخلط شوقي الشعر بالسياسة ولا التجارة ولا الفقه ولا الإدارة ولا الزراعة ولا عمل من الأعمال الأخرى التي يتعاطاها الناس،» كما قال شكيب أرسلان في كتابه «شوقي: صداقة أربعين سنة».

و«كان شوقي يفكر في الشعر قاعداً وحاضراً وبادياً وسائراً وسارياً وفي المركبة وماشياً، إلى غير ذلك. فقد أعطى شوقي نفسه للشعر فأعطاه الشعر ما لم يعطه غيره في هذا العصر»، كما قال عنه صديقه خليل مطران.

ولم يكن موسراً. كان موظفاً نافذاً في معية الخديوي. لا بل يرى شكيب أرسلان أنه «في عام ١٩٠٠ كان شوقي ضعيف الحال، لم يحصل على الثروة التي جمعها فيما بعد، والتي كان السبب فيها شعره بدون نزاع». أما أنه كان

ينفق من سعة بسبب ثروة زوجته وأهلها، فأمر مشكوك فيه. لقد كان شوقي محجة لأصحاب الحاجات سنين طويلة. ولعله كان لا ينسى نفسه من عمولة هنا أو هناك على الطريقة التي كانت متبعة كثيراً في ذلك الزمن التركي. وهذه تهمة يؤكدها محمد كرد علي في كتابه «المعاصرون»، من حيث نفاها ضمناً شكيب أرسلان. ولعل «بدون نزاع» هذه التي وردت في عبارة شكيب أجلَبُ للتهمة منها لدفعها.

لا نعرف الكثير عن معتقد شوقي. لكن شعره يوحي بأنه كان مؤمناً دون تمسك بالعبادات. كان منتمياً إلى أمة الإسلام انتماء روحياً وسياسياً، فقد ناصب الإنجليز العداء مجاراة لأميره، وناصر الخليفة عبد الحميد في إستانبول مثلما ناصره أميره في مصر، وكان نصيراً لدولة الخلافة بمعنييها الزمني والديني. على أنه كان في شعره كثير الشك في الحياة الأخرى. ولكن، أليس هذا دأب كثيرين من الشعراء؟ قد لا يحل لنا التعويل على أبياته تلك في رسم خريطة لوجدانه الديني. على أننا نقول إن شوقي انتمى إلى الإسلام حضارياً وعاطفياً بعد إذ قدس اللغة العربية، وليس العكس.

وإذ رأى السفور في كثير من نساء إستانبول، واجتلى جمالهن ووصفه، أخذ يميل إلى السفور كفكرة، وحبذه للمرأة العثمانية في قطعة نثرية طويلة كتبها عن زيارته لعاصمة الإسلام، قبل سنة من كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة». ولم يسارع إلى تأييد قاسم أمين في مطلع القرن العشرين. فوقف متحفظاً من صاحب كتابيْ «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ثم رصد في شعره تحول مواقف الأمة، ومال إلى السفور بالتدريج.

ناصر شوقي الحزب الوطني وزعيمه مصطفى كامل، الذي كان منسجماً مع قصر عابدين ومؤيداً لإستانبول والخلافة، لكن شوقي لم يكن سياسياً حزبياً.

دخل القرن العشرون وشوقي أكبر مثقف في مصر. ولئن فاقه أحمد لطفي السيد، الذي يصغره ببضع سنين، في ثقافته الفلسفية والقانونية، فإن شوقي كان يمسك بزمام العربية كما لم يتسنَّ لأحد منذ مئات السنين. وكان العقاد وطه حسين، كلاهما، آنذاك مع بدء القرن في الحادية عشرة من العمر.

وسنرى طه حسين بعد ثلاثين سنة يشهد لثقافة خصمه شوقي: «كان شوقي يحسن التركية، وكان متقناً للفرنسية، فقد برع فيها نطقاً وفهماً. وكان في أول أمره كثير القراءة حريصاً على الفهم، فقد قرأ كثيراً وفهم كثيراً وتمثلت نفسه ما

قرأ وما فهم. . العنصر الفرنسي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله. . عاشر شوقي العرب في شعرهم وأدبهم فعظم حظه من العربية، وعاشر الترك في حياته اليومية، واتصل بهم أشد اتصال فعظم العنصر التركي فيه».

وإذا عرفت شح طه حسين في الشهادة لأي أحد ـ ولا سيما فيما يتعلق بالثقافة الفرنسية ـ عرفت قدر شهادته هذه في شوقي.

نرى شوقي مُنقَلبَ القرن شاباً تخطى الثلاثين، قصيراً، بدأت صباحة الصبا تنحسر عن وجهه سريعاً، ولم يشفع له من جسمه شافع. يحضر حفلات الرقص في قصر عابدين ويستمتع بالجمال وهو يرى الفتيات يرقصن على أنغام الفالس، وتسيل خصورهن من أكف الرجال، والخديوي، الذي درس في فيينا سنة أو سنتين، يعيش الدور بجانب زوجته النمساوية.

ذاق شوقي هجمة نقدية من المويلحي وأخرى من اليازجي، في مطلع القرن، وكره النقد وسيظل يكرهه. وهاجم سعد زغلول المقرب من المعتمد البريطاني في مصر. وكان صديقاً لزعيم الحزب الوطني مصطفى كامل. فلما مات هذا عام ١٩٠٨، لم يكن شوقي ميالاً لخلفه محمد فريد.

عاد إلى المسرح الشعري وهو في أواخر الثلاثين بعد تلك الرواية الباكرة التي نظمها وهو في أواسط العشرين من عمره. فكتب مسرحيتين هما «الست هدى» و«البخيلة». وانصرف عن الأمر.

رحب بالانقلاب العثماني وبالدستور عام ١٩٠٨، ثم لم يذرف الدموع على عزل ممدوحه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩، الذي كان أنعم عليه بالبكوية. وبكوية إستانبول كانت في ذلك الزمن تجعل صاحبها أهلاً لأن يلقب بصاحب السعادة، وكانت، كما زعم محبو شوقي، مساوية للباشوية المصرية.

وانغمس في السياسة المصرية مع اغتيال بطرس غالي رئيس مجلس النظار عام ١٩١٠، لاتهامه بعدم الوقوف بصلابة أمام تجديد ولاية الإنجليز على قناة السويس. وعاش جو مصر وجو الدولة العثمانية المحتضرة شاعراً بما يجري شعوراً دفيناً وقوياً. كان يرتفع عن الأحداث الصغيرة ويرى حاضر الأمة الإسلامية، ويراه في انهيار متسارع.

المنفى

عندما قامت الحرب العالمية الأولى كان شوقي في إستانبول، وفيها كان

عباس حلمي. وطلب الإنجليز من عباس عدم العودة إلى مصر. وأسرعوا فأعلنوا مصر سلطنة وعينوا حسين كامل ابن إسماعيل سلطاناً، ففصلوها بذلك عن الدولة العثمانية التي كانت في المعسكر المعادي.

ورجع شوقي إلى مصر وهنأ السلطان الجديد. ولكن سلطات الاحتلال الإنجليزي في مصر أبعدته، مع كثيرين من أصحاب الولاء للدولة العثمانية، إلى مكان يختاره. فاختار إسبانيا لبعدها ـ على الأرجح ـ عن الأطراف المتحاربة.

وعاش مع أسرته وأربعة من الخدم في برشلونة. وانقطع إلى كتب العرب ودواوينهم. وكتب شعراً ونثراً، وأرجوزة قص فيها تاريخ عظماء العرب. ولم يكن له نشاط اجتماعي يذكر في إسبانيا. ولم يتميز شعره هناك عن شعره قبل النفي، إلا في قليل. كتب قصيدتين عامرتين واحدة في الحنين إلى مصر، وأخرى في وصف آثار العرب في الأندلس.

كان أولاده قد شبوا، وكانوا له سلوى في منفاه. يقص علينا ابنه الأصغر حسين، في كتابه «أبي شوقي» الذي كتبه بعد موت والده، قصة طريفة عن أبيه في إسبانيا: «ركبنا الحافلة ذات يوم، هو وأنا، فصعد رجل عملاق بادي الترف والثراء، يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفي فمه سيجار ضخم، ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن من العربة، وراح يغط غطيطاً يرهق الأعصاب. وصعد نشال في مقتبل العمر جميل الصورة، وهمّ بأن يخطف السلسلة، لكنه أدرك أن أبي يلمحه، فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها: هل آخذها؟ فأجابه أبي برأسه «خذها»، فنشلها الشاب ونزل، بعدما حيّا أبي برفع قبعته! ولم يكد ينزل حتى التفتُّ إلى أبي وقلت: هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم؟ فأجاب: شيء عجيب يا بني! لو كنتَ مقسماً الحظوظَ فلمن كنتَ تعطي السلسلة الذهبية؟ أكنت تعطيها عملاقاً دميماً أم شاباً جميلاً؟ فقلت: كنت أعطيها الشاب الجميل، فأجاب ببساطة: ها هو ذا أخذها».

هذا شوقي وهو يقترب من الخمسين.. شاعر الأخلاق. لكن معياره الأخلاقي داخلي ذاتي. ويصرح ولده حسين بأن أباه كان ذا نزعة بوهيمية دفينة.

العودة من المنفى

عاد شوقي إلى مصر بعد انتهاء الحرب بقليل، وكانت مصر تخرج من

عقابيل ثورة ١٩١٩، وسعد زغلول لم يعد مقرباً من الإنجليز، بل هو زعيم وطني نفاه الإنجليز، ثم عاد وراح يفاوضهم بعناد.

رجع شوقي إلى مصر وفيها حاكم جديد. السلطان أحمد فؤاد الذي تولى الحكم بعد وفاة السلطان حسين كامل. لم يقرِّب السلطان أحمد فؤاد أحمد شوقي. ولعل شوقي أحس براحة في البعد عن القصر. وهو الذي كتب قبل عشرين سنة «أوَ لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها أقصى الشباب، ثم يموت عن نحو مئتي صحيفة من الشعر تسعة أعشارها لممدوحيه، والعُشر الباقي، وهو الحكمة والوصف، للناس؟ هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله؟ فأجيب: أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى.. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد، فما زلت أتمنى هذه المنزلة.. حتى وفقت بفضل الله إليها، ثم طلبت العلم في أوروبا، فوجدت فيها نور السبيل، من أول يوم، وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه». انتهى كلامه في مقدمة الشوقيات (١٩٠٠).

لكن شوقي أحس بالمرارة التي يحسها كل امرئ كان قريباً من مركز السلطة ثم صار بعيداً. حقاً لم يبتعد عن الملك فؤاد كل البعد، بل ظل يمدحه بين الفينة والأخرى مدحاً عارضاً في الأغلب، لكنه لم يعد شاعر القصر، ولا الموظف ذا النفوذ فيه.

انصرف شوقي إلى دنيا من الشعر والفن أوسع. فقال قصيدة في النيل فاخرة. وقال قصائد في رثاء الكبراء كان بها يحافظ على منابره الشعرية، وينفث مخاوفه التي لا تهدأ من الموت. كان يعيش مرتاحاً ثرياً. وأظن أن شوقي الصبي الذي رأى أباه يبدد الثروة ويعيش عيشة عادية عرف كيف يمسك يده على ما نال في زمن الخديوي عباس حلمي من ممتلكات.

بعد المنفى

رجع شوقي إلى تمجيد مصر، وهي نغمة باهى كثيراً بأنه أول من صدح بها. فقد كان وقف على آثار الفراعنة واستوقف وهو شاب في الخامسة والعشرين في قصيدته أمام مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤.

وقبل الكشف الأثري الباهر عن مقبرة توت عنخ آمون بسنة وقف شوقي يخاطب أبا الهول، ثم جاء الكشف الشهير الذي اهتزت له الدنيا، فتفجر شوقي بشعر كثير في وصف آثار الفراعنة ومناجاتها. وألبس حجارتهم من فنون القول ما هز النفوس، وكان العصر عصر بحث عن هوية وطنية. لم يتمسح شوقي بمومياءات الفراعنة تمسحاً بليداً، ولا هو تنكر لماضي مصر العربي الإسلامي. لكنه قال شعراً مليئاً بالجمال، وكفى.

كأنما كان في نفس هذا الشاعر حسرة لأنه لن يستطيع أن يقف على الإطلال وقوف شعراء العرب القدماء، الذين كانوا، وظَلُّوا، مثله الأعلى وقالبه الخالد، فوجد في قبور الفراعنة مناسبة للوقوف والاستيقاف دون أن يتهم بأنه صدى باهت للقدماء. كان أصيلاً في هذا الشعر ليس لدقة الوصف وحسب، ولكن ـ أكثر ـ لأنه رأى الموت حياً أمامه في آثار الأقدمين فتحدث عن شعوره تجاه الموت؛ وتحدث ـ وأسرف في الحديث ـ عن الخلود الدنيوي وبقاء الذكر.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انهارت الدولة العثمانية، فبكاها شوقي. ولكنه أثنى على أتاتورك وتحمس له في حربه مع اليونانيين، وفي مساعيه للحد من أطماع الدول المنتصرة في تركيا. ثم ألغى أتاتورك الخلافة فلامه شوقي ثم انقلب عليه. وأحس شاعرنا أن مصر هي الكيان الوحيد الذي يمكن أن يعده وطناً. ولم يعد إلى إيمانه بدولة الخلافة ولا بالخلافة. ولم يعر أذناً للدعوة التي كانت لها جلبة في العشرينات لتجديد الخلافة.

أصبح شوقي قريباً من سعد زغلول يحضر مجالسه، في بيت الأمة ومسجد وصيف، ويمدحه بالشعر. وقربه سعد، وجعله عضواً في مجلس الشيوخ عن محافظة سيناء سنة ١٩٢٤. وكانت هذه السنة بداية الحياة البرلمانية الحديثة في مصر وقد زالت عنها الحماية البريطانية ونالت استقلالاً إسمياً.

في مجلس سعد، وفي جلسات ضاحكة في بار اللوا ومحل صولت، كانت لشوقي جولات ساخرة مع الدكتور محجوب ثابت. واشتهرت قصائده العابثة في حصان الدكتور محجوب وسيارته وعيادته.

شوقي السميع

اتخذ شوقي لنفسه صديقاً شاباً، مطرباً صاعداً لم يبلغ العشرين، هو محمد

عبد الوهاب. آمن بموهبته، وأخذ يصقلها بالمعرفة. كان عبد الوهاب يحضر مجالسه ويلازمه كظله. وكانت له غرفة في قصر شوقي. وأخذه شوقي معه إلى باريس مراراً، وإلى لبنان أخذه، وإلى الشام. وعلى عهدة عبد الوهاب، فيما نقله لنا مجدي العمروسي، فإن شوقي أخذه إلى باريس لأول مرة وعمر عبد الوهاب خمس عشرة سنة. ويروي لنا عبد الوهاب كيف أن شوقي خالف نصح طبيبه وشرب زجاجة ويسكي كاملة في الباخرة، وذلك عندما علم أن في الباخرة ثقباً وظن أنها غارقة.

وكان لشوقي في باريس معارفه من الناس العاديين في مطعمه وفندقه، تماماً مثلما كان له في القاهرة. وكان يقرأ بالفرنسية كثيراً. وفي إحدى الرحلات الأولى مع عبد الوهاب أحضر كتباً فرنسية كثيرة عن كليوباترا إذ كان يتهيأ لكتابة مسرحيته الشعرية «مصرع كليوباترا».

لقد عرف شوقي عبد الوهاب ولداً صغيراً يغني بين فصول مسرحية تقدمها فرقة عبد الرحمن رشدي، فكلم حكمدار بوليس القاهرة الإنجليزي لمنعه من الغناء لصغر سنه. كان ذلك فيما يروي عبد الوهاب (في كتاب عن سيرته نشر مرتين: مرة بقلم محمد رفعت المحامي ومرة بقلم لطفي رضوان!) سنة ١٩٢١. ثم في سنة ١٩٢٤ سمع شوقي عبد الوهاب في كازينو سان استفانو بالإسكندرية، واستقبله بحرارة ودعاه لزيارته في مكتبه بشارع جلال بالقاهرة. وبعد ثلاثة أشهر وانقضاء موسم التصييف ذهب عبد الوهاب إلى مكتب شوقي، وكان لقاءٌ طيبٌ أعقبته دعوة عشاء، ثم ثماني سنوات من الالتصاق الشديد بين مغن ناشئ وبين أشهر شاعر في العالم العربي.

من عبد الوهاب عرفنا طرائف لا بأس بها عن شوقي. فهو يتناول إذ ينظم الشعر، ثلاث بيضات نيئة ـ يرفعها عبد الوهاب، عندما يحكي القصة لسعد الدين وهبة، إلى خمس بيضات ـ يشربها شرباً. وعندما سأله عبد الوهاب عن سر البيض النيء قال: «علشان بحرق فسفور كتير». وشوقي ينظم الشعر في قلبه ولا يدونه إلا بعد أن ينظم عدة أبيات منه. يمشي هائماً في الشوارع، يدخل صيدلية، ويخرج منها دون أن يطلب شيئاً، ويدخل محلاً ويخرج، ثم يكتب أبياتاً على علبة سجائر، وكان مدخناً شرهاً، أو يمليها على أحد، ولا يزال كذلك حتى يفرغ من القصيدة. وبعد ذلك. . «ألاقيه بعدما يولد الولادة وِشُّه أصفر، عرقان تعبان منهوك، ويقول لي حتعمل إيه ما مخمد، ها. . تتعشى فين يا مخمد؟» كان يناديه كذلك تحبباً.

ومن حديث عبد الوهاب، وغيره، عن شوقي نعرف أن شاعرنا كان يرجع إلى المعجم كثيراً. نجد ذكراً لرجوعه إلى المعجم وهو في بيته بالقاهرة «كرمة ابن هانئ» ووهو في السفينة مسافراً إلى فرنسا. وفي بيته كان له من يساعد في إعادة ترتيب كتبه على الرفوف. فبعد الخاطر «تيجي هنا عملية الصنعة».

وقد عرفنا عن طريقة شوقي في النظم من مصادر عدة أهمها وأوثقها رواية سكرتيره الشخصي أحمد عبد الوهاب أبو العز الذي حدثنا كيف نظم شوقي قصيدة «قفي يا أخت يوشع خبرينا»: «جاء من منزله في المطرية فوجدني في المكتب في الساعة الحادية عشرة والنصف فأملى علي ثمانية وعشرين بيتاً، ثم قال لي لا تبعد عني حتى إذا جاءني شيء أمليته عليك. وخرج يمشي حول العمارة، فكان كل بضع دقائق يعود فيملي علي خمسة أو ستة أو سبعة أبيات. وأخيراً دخل المكتب وجلس على مقعده وأخذ يمر براحته اليسرى على رأسه ففهمت أنه ينظم في سرِّه قال: اكتب، فكتبت وكتبت، ونظرنا إلى الساعة فإذا هي الواحدة بعض الظهر فقال: كفى، أعطني ما كتبت لأني على موعد في هذه الساعة مع داود [بركات] في جريدة الأهرام، فقدمتها له بعد أن عددت أبياتها ووجدتها أربعة وثمانين بيتاً».

وقد وجدنا القصيدة زادت عشرة أبيات فأصبحت أربعة وتسعين بيتاً اقتبسنا لك منها هنا نحو نصفها.

وعرفنا من عبد الوهاب كيف زار سعد زغلول بيت شوقي لتهنئته بعرس ابنه البكر. وكيف التقط لهما المصور صورة. وأثناء التحضير للصورة بمعدات ذلك الزمن قال أحدهم، هذه صورة تجمع الخلودين: خلود الوطنية، وخلود الشعر. فعلق سعد زغلول ويده على كتف شوقي: «هذا الرجل وحده هو الخلود، فبعد خمسين سنة لن تجدوا من يذكر اسم سعد، ولكن ستجدون للأبد من يذكر شوقي ويترنم بشعره».

كان شوقي عاشقاً للغناء، ولفت نظري وصف الناقد الموسيقي كمال النجمي لعبد الوهاب بأنه «آخر مطربي شوقي». فقد كان شوقي متابعاً لفن محمد عثمان وعبده الحامولي، ثم بعد موتهما منقَلَب القرن تعلق بيوسف المنيلاوي وعبد الحي حلمي وسلامة حجازي ومنيرة المهدية وأم كلثوم. وعرف قيمة سيد درويش جيداً، وبرز تذوقه لما أتى به سيد درويش من جديد في القصيدة التي رثاه بها. وكتب الشعر بالعامية لعبده الحامولي وسلامة حجازي

ثم لمحمد عبد الوهاب. وقد أحصى إدوارد ميخائيل في كتابه المتميز بالدقة العلمية عن عبد الوهاب تسعاً وعشرين قصيدة غناها عبد الوهاب من شعر شوقي، عشر منها بالعامية. والعدد قابل للزيادة والنقصان، لأن الكلمات لم تكن تنسب لشوقي إلا بعد حين.

لقد بلغ من حب شوقي للطرب أنه كان يأتي بالأطباء لعلاج المغني الشيخ محمد المسلوب وهو في المئة من عمره. ويبدو أن هذا العلاج كان نافعاً حقاً فقد عاش الشيخ حتى تجاوز المئة والعشرين.

هجمة نقدية شرسة

في أوائل العشرينات تعرض شوقي لأقسى هجمة نقدية. فقد نشر العقاد والمازني كتاب الديوان (١٩٢١)، وفيه حمل العقاد على شوقي حملة قاسية: «كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتاً كما نمر بغيرها من الضجات في البلد، لا استضخاماً لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد، فإن أدب شوقي ورُصَفائه من أتباع المذهب العتيق هدمُهُ في اعتقادنا أهون الهينات، ولكنْ، تعفُّفاً عن شهرةٍ يَزحَف إليها زحف الكسيح، ويضن عليها من قولةِ الحق ضن الشحيح، وتُطوى دفائن أسرارها طي الضريح. ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا ازدروْا شيئاً لسبب يقنعهم، لم يبالوا أن يُطْبِق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله، والتنويه به. فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة، وعلى كل باب وقفة». وحمل العقاد حملته منوهاً إلى أن كثيرين يؤيدونه، ومشدداً النكير على شوقي وعلى آلته الدعائية. وكان شوقي ممن يحسنون الذب عن أدبهم بتسخير الأقلام لمدحه، والصحف لنشره. كان إذا غضب غضب له ألف قلم مأجور. فمن هذه الناحية لم يتجن العقاد كثيراً. كان شاباً في الثلاثين يرى أن شوقي ينال اهتمام الصحف، فأراد أن ينال قسطاً من الشهرة بالتعرض لشوقي. وأجابه شوقي الإجابة المتوقعة من مشهور يتعرض له أديب ناشئ ليقتطع جزءاً من شهرته لنفسه: سكت عنه سكوت قبر.

ثم انثنى العقاد إلى قصائد شوقي فتناول منها قصيدة متوسطة فسلقها بلسانه. ثم أخذ قصيدة رديئة حقاً فأنشأ يسخر من شوقي في نثر مليء بالحيوية والتدفق. وعرج على قصيدة من الجياد هي مرثيته في مصطفى كامل ـ واخترنا

في كتابنا ثُلث أبياتها ـ فأوسعها تهكماً. وغرس في قلب شاعرية شوقي، بعد التهكم من قصيدته الجيدة، أربعة نصال: التفكك، والإحالة، والتقليد، والولع بالأعراض دون الجوهر. فأما التفكك فقد عالجه العقاد علاجاً عجباً. كتب قصيدة شوقي بأبياتها الأربعة والستين كاملة، ثم عاد وكتبها مرة أخرى بعد أن بدل وغير مواضع الأبيات فبدأ بالبيت الأول ثم الرابع عشر ثم الحادي والعشرين ثم الرابع والستين وهلم جرا. ورأى العقاد بعد أن صنع ذلك أن القصيدة صارت أحسن نسقاً وأقرب نظماً. وأكد العقاد نظريته المشهورة بأن الشعر العربي العتيق يقوم على وحدة البيت لا وحدة القصيدة. وأن شعر شوقي مفكك.

وأما الإحالة فهي الإتيان بمعنى مستحيل الحدوث في الواقع كقول شوقي:

يزجون نعشك في السناء وفي السنى   فكأنما في نعشك القمران

وعلق عليه العقاد قائلاً: «وزعيمنا الفقيد كان فرداً، والقمران اثنان، فمن كان الثاني في ذاك النعش؟»

وكقوله:

مصر الأسيفة، ريفها وصعيدها   قبر أبر على عظامك حان

وعلق العقاد: «مصر، أيها القارئ، ولا تخطئ فتحسبها القاهرة المعزية ـ فإنها مصر بريفها وصعيدها ـ مصر كلها، ما هي إلا قبر واحد. فلله در شاعرها يرثي رجلاً أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً. ولأي ضرورة؟ وليدل على ماذا؟ لا شيء».

وأما التقليد فعنى به العقاد ما عبر عنه نقاد الشعر منذ القدم بالسرقة. ولشوقي سرقات كثيرة، ولكنه إذا قيس بالمتنبي كان عفيف الوجه واليد واللسان.

وأما الولع بالأعراض دون الجوهر فضرب له العقاد مثلاً البديع الفرد من أبيات هذه القصيدة:

دقات قلب المرء قائلة له: إن الحياة دقائق وثوانِ

وعلق قائلاً: «إنه بيت القصيد في رأي عشاق شوقي، فعلى أي معنى تراه يشتمل؟ معناه أن السنة أو مئة السنة التي قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق

وثوانٍ. وهذا هو جوهر البيت.. بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعاني النفسية، بل بمشابهات الحس العارضة».

كان العقاد متحاملاً، وآية تحامله أنه لم يرض أن يسلِّم لشوقي ببيت واحد جيد أو حتى متوسط. لقد حكم على الرجل حكماً جارفاً، ولم يعجبه من الثلاثين ألف بيت التي نظمها شوقي في حياته شيء.

كانت هجمة نقدية عاتية. وكانت فيها فائدة للأدب العربي. ولكن شوقي، وهو موضوعنا لم يزل، مضى في طريقه لم يغير شيئاً. ظل الحارس الأمين للطريقة الكلاسيكية في الشعر العربي. وظل شعره «مفككاً»، أو إن شئت قائماً على وحدة البيت. وظل يعارض الشعراء الأقدمين ويباريهم، و«يسرق» منهم.

وظل العقاد يهاجم شوقي، ولكن شوقي راح ينعم بالتكريم في مصر والشام ولبنان، إلى أن توجته تلك الحفلة الكبيرة، سنة ١٩٢٧ في دار الأوبرا بالقاهرة برعاية سعد زغلول، أميراً للشعراء.

لقد اضطر حافظ إبراهيم إلى مبايعة شوقي حتى لا يقال حسَدَه فتخلف. لكن العقاد اعترض بصراخ وزئير. وفي العراق قال الزهاوي:

قالوا لشاعر مصرٍ ... دار الإمارة تبني
فقلت يا أهل مصرٍ ... منكم أميرٌ ومنّا

مستعيداً قولة الأنصار للمهاجرين بعد وفاة الرسول: «منكم أمير ومنا أمير».

وكان الرصافي أكيس. فقال، وأشار إلى محنة طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي»، ومحنة علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»:

إذا احتفلت مصر بشوقي فما لها ... تقيم على الأحرار في العلم حاجرا
فقد أسمعتنا ضجة أمطرت بها ... عليّاً وطه حاصباً متطايرا
إذا لم تكُ الأفكار في مصرَ حرة ... فليس لمصرٍ أن تكرِّم شاعرا

وفي لبنان كتب مارون عبود بعد ست سنوات من التتويج: «فهل كانت إمارة شوقي ـ وهو شاعر جيله ـ غير مهزلة سجلها الدهر؟» على أن الجملة المعترضة عند مارون «وهو شاعر جيله» لم تكن لمجرد المجاملة، فقد رددها بعد أكثر من عشر سنوات عندما جعل شوقي «خلاصة الرؤوس وخاتمة الشعر

الكلاسيكي»، «كان شوقي قويَّ المخيلة، وعَيْنُه أحَدُّ من قلبه، فوثب وثبات استولى بها على الأمد فكان شاعر جيله.. فلولا وثبات رائعة فاق بها شوقي شعراء جيله ودنا بها من كبار القدماء لما كان هو ذلك «الرأس» الذي نختم به المدرسة القديمة. إن حظ الشعر القديم المصقول قد ختم بشوقي الذي أعاد عهد الديباجة البحترية». انتهى كلام مارون عبود في كتابه الرؤوس.

سافر شوقي في العقد الأخير من عمره كثيراً، إلى فرنسا حيث كان ولداه علي وحسين يدرسان، وإلى لبنان وسوريا حيث كان يلقى الترحيب الكثير ـ رأيناه يشكو لمحمد عبد الوهاب كثرة مجاملات أهل لبنان ـ، وكان يعجبه من أهل سوريا ولبنان أنهم يحفظون شعره. وكان يطرب لسماع شعره من أفواه الآخرين. وسنراه يسأل كامل الشناوي في أول لقاء بينهما عام ١٩٣١ إن كان يروي شيئاً من شعره، ويطلب إليه أن ينشده قصيدة «أبو الهول». حدث هذا اللقاء في مسرح الأزبكية عقب حضور شوقي لبروفة إحدى مسرحياته، وكان يقوم عليها زكي طليمات.

في السنوات الخمس الأخيرة من حياة أحمد شوقي عاد إلى المسرحيات الشعرية فكتب خمساً أو ستاً منها، وكان شوقي مولعاً بحضور بروفات مسرحياته. ولعل الممثلين كانوا يذوقون الأمرين من تلك النصوص. فماذا يفعلون ببيت من الشعر مقسوم بين ثلاثة أو حتى أربعة ممثلين؟ عليهم أن يتقنوا الأداء وأن يلتزموا بالوزن الصارم! عجب ذلك الذي صنعه شوقي في مسرحياته، فقد التزم بأوزان الخليل، وحاول مع ذلك أن يُبقي على التدفق، وأن يراعي تطور القصة. وقد لاقت مسرحياته من اهتمام النقاد الكثير. ولقي من ثناء النقاد الكثير لأنه فتح هذا الباب في الأدب العربي. ولكن أي باب؟

لقد ولد المسرح الشعري على طريقة شوقي ميتاً. وهو الآن نصوص في الكتب، لا تنفع الممثل، وترهق المطالع. وهي قد لاقت المصيرين، ثناء النقاد والموت الزؤام، للسبب نفسه: فكرة طريفة لكنها فطيرة. استوردت على عجل قبل أن تجد في أوزان الشعر العربي ما يساعدها على النمو. ومن أراد أن يحيل الشعر العربي الغنائي بطبيعته وبتاريخه إلى شعر مسرحي عليه أن يجري الكثير من التغييرات ليس فقط على بنية الشعر واللغة، بل أيضاً على نفوس السامعين والمشاهدين. وعندما جاء الرحبانيان فصاغا مسرحياتهما خالطيْن الشعر بالنثر بالموسيقى نجحا عند الجمهور؛ ثم عاد الجمهور وسقط ـ الجمهور

هو الذي سقط - لأنه لم يواصل الاهتمام بهذه الأهرامات الفنية الخالدة، وساعد الجمهور في ذلك بلادته ورداءة المؤسسات الإعلامية في الدول العربية.

ارتاد شعرُ شوقي في سنواته الأخيرة موضوعات جديدة، وسافر في بلاد العرب، ولا سيما في سوريا ولبنان، وظل هذا الشعر يؤبن الموتى كعادته.

لما مات حافظ إبراهيم رثاه شوقي متمنياً أن يكون حافظ هو الراثي:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي　　　يا منصف الموتى من الأحياء

وبعد حافظ بشهرين وثلاثة أسابيع مات أحمد شوقي، في ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٢.

لم يكن ناسياً الموت. بل لم تطلع على أحمد شوقي شمس نهار إلا تذكر الموت. ولو اضطرني أحد عشاق التصنيف إلى أن أضع شوقي في زمرة لوضعته في زمرة شعراء «تقديس الحياة»، ولوضعت بجانبه أبا العتاهية وأبا العلاء. فهؤلاء الثلاثة كانوا يحبون الحياة حباً جماً، إلى درجة أنهم نغصوها على أنفسهم بتذكر الموت. فأبو العتاهية شغف بالمال مع شغفه بالحياة وكان زاهداً وبخيلاً في النصف الثاني من حياته؛ وأبو العلاء زهد زهده المشهور في النصف الثاني من حياته ولكنه ظل متعلقاً بالحياة، نعرف ذلك لكثرة ما قال عكسه. وشوقي كان يلهو في النصف الأول من حياته، وفي النصف الثاني أيضاً. ولكنه كان دائماً كالولد الذي أعطته أمه قطعة جاتوه كبيرة، فراح ينظر إليها متحسراً ويفكر في اللحظة التي سوف تنتهي فيها، وظل يكزم من طرفها قليلاً ويتحسر قليلاً.

نظرة ذاتية في الشعر العربي

ليس مستحيلاً أن تمر بك أبيات للبارودي أو لبدوي الجبل ليس عليها اسم الشاعر فتحسبها لعنترة أو للأعشى. وقد تقرأ نصف ديوان البهاء زهير، الذي مات قبل أكثر من سبعمئة سنة، فتحسب أن هذا الشعر قيل قبل سبعين سنة أو سبع سنين.

تلك مشكلة في اللغة، وفي التقدم، وفي الشعر، وفي صدق الشعور والتعبير. وهي ظاهرة. فرغم أن التبدل في مجتمعات العرب كثير: لأن البداوة والارتحال المستمر طابع مسيطر عليهم في قديمهم، وموجود ملموس في

حديثهم، ولأن بلادهم تقع في وسط العالم، فكثر في أرضهم الغزو والفتح، منهم وعليهم، ولأن بلادهم واسعة ومرقَّطة بالجماهر البشرية التي تفصل فيما بينها الفيافي والكثبان، رغم ذلك ثبتت لغتهم ثباتاً عجيباً.

القرآن الذي وحد العرب على لسان واحد قبل أربعة عشر قرناً، جعلهم يلفون لغتهم براية القداسة. والقرآن كتاب أحكام ودين لا كتاب لغة، وهو لا يضم من مفردات اللغة إلا ما شاء ربك أن يضم. لكن أثره كان أن قَدَّس العرب اللغة العربية. ثم دخل في الإسلام وفي اللغة العربية الأعاجم، فقدسوا العربية أكثر من العرب. ومن عرف لغتين كان في اللغة امرَأً لعوباً. لقد وجد الأعاجم في العربية لعبة جميلة، وراحوا «يخدمونها» بتأسيس قاعدة ثابتة لها من النحو والصرف وتحقيق المفردات. وما انقضت مئتا سنة على نزول القرآن إلا والناطقون بالعربية قد اشتعلوا شغفاً بتأصيلها. فأخذوا كالمجانين يجمعون المفردات من ألسنة الأعراب، ويقدسون الشعر الجاهلي تقديساً، ويتخذونه مسطرة يقيسون بها كل شعر.

لغة كل عصر هي بصمته التي لا يمكن لعصر آخر أن يقلدها. وقد أنفق العرب ألف سنة وبضعة قرون يحاولون ـ سدى ـ تقليد بصمة العصر الجاهلي. يستعملون الكلمات نفسها والتراكيب نفسها، ثم يفلت منهم الوجدان الجاهلي. البصمة لا تقلد. ولكن الإسراف في محاولة تقليدها يسلب المرء أصالته ويسلكه في المقلِّدين.

عربية الجرائد اليوم غير عربية الحجاج بن يوسف، وعربية الناس في بيوتهم وأسواقهم غير عربية الجرائد. والتمسك بالفصحى بوصفها جوهراً لم يتغير فيه شيء ألبتة منذ أوقفها الله على لسان آدم، تمسك شكلي بالطبع. فلا قواعد اللغة ظلت على حالها، ولا مفرداتها. فالنحو غير موجود على الألسنة اليوم ومراعاته في الكتابة تقتضي جهداً غير قليل؛ والألفاظ المأنوسة اليوم لا تتعدى عشرين بالمئة مما يضمه «لسان العرب»، فأما الثمانون بالمئة الباقية فمومياءات.

وحالنا في الشعر قريب من هذا في أشياء، بعيد في أشياء.

الشعر العمودي

وصف أبو علي المرزوقي المتوفى قبل ألف سنة (٤٢١هـ/ أما ما ورد في

ترجمته في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام من أنه مات سنة ٢٤١، فهو بعض ما تفعله المطابع بالأرقام)، وصف «قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها، حتى تصير جوانبها محفوظة من الوهن، وأركانها محروسة من الوهي، إذ كان لا يُحكَمُ للشاعر أو عليه بالإساءة أو بالإحسان إلا بالفحص عنها وتأمل مأخذه منها...». واستقرأ صفة «عمود الشعر المعروف عند العرب» واستقر على سبع خصال، فالعرب «كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر». اهـ كلام المرزوقي.

هذا عمود الشعر أي أساسه، مثلما يكون العمود في وسط الخيمة أساسها. ومن هنا تسمية «الشعر العمودي»، فعندما ابتدع الناس في منتصف القرن العشرين طريقة أخرى في رصف التفاعيل وتوزيع القوافي ظنوا أنهم خرجوا على عمود المرزوقي (أو عمود البحتري إن صح أنه أول من نطق بالمصطلح)، فسموا كل الشعر العربي القديم عمودياً، وسموا ما ابتدعوه الشعر الحديث. وما صنعوه في الواقع هو أنهم خرجوا خروجاً محدوداً عن البحور كما وصفها الخليل بن أحمد. فأما عمود المرزوقي الموصوف أعلاه بكلمات صاحبه فلم يخرج عليه ـ في جانب المعنى ـ إلا شعراء السريالية والرمزية المغرقة، أما في جانب المبنى فقد خرج عليه شعراء قصيدة النثر. وسوى ذلك من قصائد شعر التفعيلة فمعظمه يتبع عمود الشعر العربي كما وصفه المرزوقي بدرجة كبيرة.

لقد قام الشعر العربي وقعد كثيراً في القرن العشرين. ودخلنا القرن الحادي والعشرين وكثيرون من شعرائنا مصممون على ألا يكون شعرهم كشعر الألف والخمسمئة سنة المنصرمة. لا بد من الاعتراف بأن العرب يشتهون أن يكسروا كل قوالب الماضي في الشعر. لقد وجهوا ضربة لبحور الخليل أحسبها قاضية. وأوغل العديد من شعرائهم في الرمزية، وتحللوا من التفعيلة، ومن القافية. أفليست هذه مناسبة لتأبين الشعر القديم؟ أم لعلها مناسبة للوقوف على معالمه البارزة؟ أم هي من مفترقات الطرق تلك التي تمر بها الأمم فتنظر في عِطفيها وتتأمل ما مر بها، وما يوشك أن يرِد عليها؟

حفل وداع للشعر العمودي

ما نصنعه في هذه السلسلة هو أن نقدم مجموعة كبيرة ومنتقاة من الشعر العربي بحسب تقاليده التي ثبتها أهلها تثبيتاً لعدد من السنوات كبيرٍ يفتِنُ العقل ويدهش إدهاشاً، وتتعجب منه الثقافات الأخرى. وكما قدمنا فليس هذا بالأمر الممدوح، فمن يمدح الجمود! ولا هو بالأمر المذموم، فمن ذا الذي يملك القِحَة الكافية كي يذم حالة من الحالات دامت هذا الدوام! من يملك أن يذم الماء لأنه يتجمد على درجة الصفر المئوية. إنه أمر واقع، وحال وجدنا شِعْرَنا عليها، ونحن نصفها. هذا وضعنا نحن العرب، وهذا شعرنا. وهو من أعظم الشعر الذي عرفته البشرية.

سلسلتنا الحاضرة تستمد سبب وجودها من هذا الانقلاب الذي يشهده الشعر العربي.

إحياء الشعر القديم: حلاوة الروح

جاء البارودي خاتماً لشعراء القرن التاسع عشر، فكان ملحة الوداع. ثقب ثقباً صغيراً في السد الذي أقامه «علماء» الشعر العربي في وجه الإبداع. لكنْ رشح الماء، وأصيب الشعر العربي بالبلل الذي لا ينفع فيه سوى تغيير الملابس. وجاء شوقي ففتح ثغرة في السد في موضع المقتل. وسيجيء بعد شوقي شعراء يهدمون السد صخرة صخرة فيكون الري ويكون الفيضان، ويدخل إلى الشعر العربي ماء كثير، ويدخل معه طين وحشرات.

والشعر يحب الثورة ويحب التغيير، وهو بين المخلوقات الأدبية مخلوق بوهيمي. لكنه، ويا للغرابة، مخلوق منضبط بإيقاع هو نصف حلاوته.

بعد شوقي جاء عصر رومنسي حالم نام على وسادة الذاتية أعواماً ثم على وسادة العروبة ثم على وسادة الاشتراكية. وكان يتخلله شعراء يديرون الناعورة بالعكس فتسحبهم الناعورة. ثم جاء نزار قباني فكان جسراً عبر عليه الشعر العربي من الإيقاع الرتيب إلى الإيقاع الحر.

وانبهم الوضع العربي انبهاماً بعد أن نفق الحصان القومي فالاشتراكي. وبعد أن بعثنا رقعة دعوة إلى الاستعمار، أوصلناها إلى باب بيته، وفيها: تفضل بالعودة إلى بلادنا، لأننا لم نستطع أن نصنع شيئاً وحدنا، فنحن مثل الحمار الذي هرب من سيده يريد الصحراء ليتحرر، وفي منتصف الطريق تذكر أنه نسي رسنه، فرجع أدراجه.

والتقط نزار قباني الوضع العربي في لحظة انهيار الأمل فتفجر ينبوعاً من الشعر الفاخر في عام ١٩٦٧ وما بعدها.

والآن في عام ٢٠٠٨ يقف الشعر العربي مذهولاً. (معظم هذه المقدمة وما تلاها من شرح كتب عام ٢٠٠٨، وأنا أحرره وأهيئه للطباعة في آخر شهر من عام ٢٠١٦).

سمع الشعر العربي صرخات قوية من مظفر النواب في السبعينات والثمانينات، وترددت في جنبات الإنترنت نغمات على ربابة أحمد مطر الرتيبة الحانقة. لكننا لا نزال نجد أبناء يوسف الخال يحاولون دخول السينما بلا تذاكر. وهؤلاء قوم بدأوا سيرتهم بالنفور من اللغة العربية الفصحى، واشتدوا في البحث عن شيء يميزهم فقرروا أن يكون ما يسمونه قصيدة النثر.

وهذا موضع يحسن بي فيه أن أبين حد الشعر عندي. حده عندي الكلام الذي فيه إيقاع. وأما الخيال والصدق وأناقة التعبير والموسيقى الداخلية فتجدها جميعاً في الشعر وفي النثر وفي الرواية. ولست متكلماً عن قصيدة النثر بأكثر من ذلك.

لا، بل يطيب لي أن أتكلم.

جبراً لخواطر الحداثيين

تلك الخواطر التي يتهمونها بأنها شعر أُحِبُّ لها أن تكتب كتابة النثر لسبب اقتصادي، فإن ما يصنعونه من وضع كلمة أو كلمتين في السطر، وبضعة أسطر في الصفحة، يكلفني شراء كتب كثيرة، ثم لا يكون الكتاب كله سوى بضع مئات من الكلمات أقرأُها وأنا أنتظر الباص في طريقي إلى البيت، وأود لو أعود إلى بائع الكتب لكي أرد إليه ما اشتريت منه، فأخجل وأتكبد. ويُخرِج عليَّ هذا في كل شهر غرماً ثقيلاً. ولانبهام وضعنا العربي صارت هذه الخواطر التي يسمونها قصيدة النثر مغرقة في الرمزية أو في التعقيد، وأظن أن هذا فتح باباً واسعاً للمشعوذين.

ولست، بعد، من محبي اللغة العربية الفصحى على الطريقة القديمة. لست ممن يتمطق بعبارة «اللغة الشريفة». وفي قلبي للشعر المقول بالدارجة موقع جليل. أُجلُّ بيرم وأحمد فؤاد نجم ونخلة وكل زجالي لبنان وفلسطين، ولا أضع شعرهم في مرتبة تنحط عن شعر الفصحى بحال، ويلمس وتراً في قلبي

مدى تعلق أهل العراق والخليج بأشعارهم المقولة بالدارجة وإن لم أستطع تذوقها بدون مساعدة. شعر الدارجة شعر ذو لغة معينة ويلمس قلوب من يفهمونها. إنه شعر وحسب، ولكنه مكتوب بلغة أخرى غير اللغة العربية الفصحى.

ولست من كارهي النافرين من الفصحى. وليوسف الخال في قلبي مكانة. أحب إنسانيته وغضبته القوية على التقليديين، وأرضى تعبيره عن مسيحيته وعن لبنانيته، وأحب عذاباته التي تعذبها على ألسنة القوميين المفلسين، وأقدره تقديراً. فهو ناثر ذو قلم جميل منفعل. ولكنه لم يصنع شعراء. وأزيد أنني عارف بما قيل عن ارتباطه بمؤسسات أجنبية. وعارف أيضاً أن هذا الوطن العربي كله يقف بأبواب الأجنبي سائلاً صدقة. ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. وفي زمنه كان شعراء القومية يحررون فلسطين كل يوم بما يتقاضونه من ميزانيات وزارات الثقافة والصحف التابعة لها. فلست ممن يصغي إلى الراجمين الناس بالتهم.

مشكلتي مع قصيدة النثر مشكلة تبويب، مشكلة صغيرة. لكنها كبيرة على من يصنف كتاباً يريد أن يقصره على الشعر.

الحد الذي أرسمه للشعر قائم على الشكل فحسب. وفي هذا كفاية. فالشكل في الشعر عماد.

لا أعرف أحداً يحسنُ يرقصُ على أنغام منشار كهربائي، فلماذا يريدوننا على أن نطرب لشعر لا نحس بإيقاعه ولا نفهم معناه؟

ومثلما كان السدُّ يحجز وراءه ماء آسناً مليئاً بالديدان فإن السيل الذي جاء بانفجاره جاء بكثيرين مهارتهم في فنون الشعر قليلة، ومعرفتهم باللغة قليلة، وقلوبهم ليس فيها شعر. دخلوا علينا من باب الشللية ومن باب العلاقات العامة. وكان أسلافٌ لهم من الدخلاء في مرحلة الركود يدخلون عالم الشعر من باب أنهم يحسنون قول الكلام الموزون المقفى. في الماضي كان إتقان وزن الكلام الشهادة الوحيدة المطلوبة لنيل لقب شاعر. وقد عشنا مئات السنين ولا شعر عندنا إلا ما يقيئه أولئك الوزانون. ولعل بعض ثورتنا على الشعر العمودي ثورة على تلك الشهادة. ثم جاء يوسف الخال وعصبته فرفعوا الشرط فجاءنا دخلاء آخرون.

عودة لحلاوة الروح، ووصف للذهول الحاضر

حطم الشعر العربي سد البلادة في مصر. وكان لصوت شوقي وحافظ في مصر رجعٌ في العراق. ولولا أن الزهاوي كان يشغل نفسه بالحمام المطوق والنظريات العلمية فوق ما يجب، والرصافي يبدد طاقته في نقد الدين والخوض في السياسة، لكان للعراق في الشعر ديباجة أحلى مما كان. على أن الرجلين قالا شعراً بنكهة تاريخ العراق المضطرب. وجاء بعدهما الجواهري فكان من عبيد الشعر، وجاء السياب فركز راية الشعر العربي في العراق بضع سنين.

ومثلما كان للعباسيين مشرق ومغرب في الشعر، كان لعرب القرن العشرين موطن ومهجر. من المهجر جاءتنا روح إيليا أبو ماضي ورشيد سليم الخوري وإلياس فرحات. وفي لبنان كان بشارة الخوري قيثارة لها صوت عذب، وكان بالشام بدوي الجبل وعمر أبو ريشة كهرمي خفرع ومنقرع، وكان نزار قباني خوفو الشعر العربي ثلاثين سنة لا ينازعه أحد.

ولست أعرف عن المغارب سوى ما يعرفه كل الناس عن الشابي. ولا أعرف عن فلسطين سوى أن نكبتها أطلقت إبراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي، ثم تلاهما شعراء المقاومة الذين نكافئهم على وطنيتهم بلا حساب، ونحاسبهم في الشعر كما نحاسب الأغراب.

يصعب على المرء أن يرسم خريطة إبداع للشعر المعاصر. فهو كثير، وتجعله المعاصرة عصياً على القياس.

نحن العرب نقف على مفترق طرق. دخلنا عهد الافتقار والاستعمار الجديد منذ أربعين سنة، وجاء احتلال العراق مجرد تأكيد لحقيقة معروفة، ولكننا في هذه الأربعين سنة لم نتحرك، وبقينا نحدق في خيبتنا بذهول. وفي الشعر نقف على مفترق أرجو أن أوفق إلى وصفه.

كان المتعلمون في عصر شوقي والرصافي يحسنون الفصحى إلى درجة يطربون معها للشعر العمودي المألوف لآذانهم من ألف وخمسمئة سنة. وكان وزن الشعر يَصنع في أجسامهم إيقاعاً.

ثم ازداد عدد المتعلمين ازدياداً كبيراً. وصار محصولهم من العلم موزعاً بين العلوم المختلفة، ولم يعد للفصحى ما كان لها من شأن. وسقطت أوزان الخليل من الأذن العربية. وصرت ترى أساتذة اللغة العربية يقرأون الشعر

العمودي كما يقرأون مقالاً في جريدة، ويكسرون ما طاب لهم. فجاء اتخاذ التفعيلة لبنة لبناء القصيدة «إجراء» منطقياً يستدعيه حال الأذن العربية، فقصيدة التفعيلة قائمة على لَبِنةٍ واحدة تتكرر حتى النهاية، وليس فيها ذلك الخلط بين التفاعيل الذي تسمعه في البحور الستة عشر. ثم رأينا الناس لا يحسون حتى بالتفعيلة. ومعنى هذا نهاية الشعر، وبدء عصر الخواطر. وقد بدأ.

قد يترك الناس الفصحى تماماً، فعندئذ يصبح لكل قرية قوالها، يصدح بالمواويل في أعراسها، وكفى الله العرب القتال.

وأظن أن هذا لن يكون. بل ستشتد الفصحى كثيراً لأن فيها قدرة تعبيرية كبيرة، ولأنها تصل إلى مسافة أبعد، ولأن المشاعر الإسلامية نهضت كثيراً، وهي تعيد الفصحى إلى الأذهان بحضور القرآن والنصوص الدينية الكبير في آذان ووجدانات الناس، رغم رطانة كثير من الدعاة المتلفَزين بالعامية.

لست واثقاً الثقة نفسها من أن الإعراب سيعيش. لا بل أعرف أنه سيضمحل. أقصد سيموت، فأما الاضمحلال فهو يحدث من زمن أبي عثمان الجاحظ المتوفى قبل ألف ومئة سنة شمسية.

ولن يعاني إيقاع الشعر كثيراً بغياب الإعراب. ولكن هذا الإيقاع يعاني أشد المعاناة بسبب الشعراء. والغريبة العجيبة أن أكثر من يذبحون الإيقاع الشعراء الحريصون عليه. ترى نزار قباني يكتب قصيدته بتفاعيلها وقوافيها الرنانة، ثم يقف يلقيها أمام الناس كأنه يلقي قصيدةَ عدو له. يجردها من كل ما أتعب نفسه في حقنه فيها من إيقاع. قصيدته على الورق رقصة وأغنية، وعلى لسانه مجرد خاطرة. شدَّما كان يهتم بإبراز المعنى فينسى الإنشاد. ورأيت محمود درويش يصنع صنعه. أما المذيعات اللائي يهمسن بالشعر بعد منتصف الليل فهن أخبر بما يردن ويصنعن. ووالله لو قرأن بدل شعر السياب وقباني افتتاحية جريدة فنلندية لما قل تأثرنا ببحة أصواتهن، وبهمسهن البهيج. وأي حَجَر في ركن السور لا يهتز لهمس امرأة بعد منتصف الليل.

على أن إلقاءهن الهامس ذاك لم يعزز في أذن العرب ضربة الطبل، التي هي تكرار التفعيلة.

وأنا مدرك، من تجربة لي غير قصيرة، أن الذي يلقي الشعر جاهراً به يكون طول الوقت متحيراً بين أن يبرز ضربة الطبل وأن يجلو المعنى. وأنا

مدرك أن الأمر ممكن. وإذا لم يكن الجمع بين الإيقاع والمعنى ممكناً على لسان من الألسنة فخير لي أن أسمع الشعر منه موقّعاً توقيعاً بلا معنى من أن أسمعه مجلوَّ المعاني بلا إيقاع، خلا ما كنت ذكرته عن مذيعات آخر الليل.

الاجتزاء من الشعر

يغضب أحدهم، أحد هؤلاء الحداثيين، إذا اقتبستَ بيتاً أو بيتين. ويجأر بالشكوى مما اقترفت من تشويه لهذا الخلق المكتمل الذي خلقه الشاعر. يقولون في ذلك نظريات يضحك لها المنكوب في البورصة ليومه، يقولون: القصيدة كائن حي، فكيف تقتطع جزءاً منه ولا يتشوه!

تلك دعوى فارغة. ألم يسمعوا العرب يستشهدون بالبيت ونصف البيت؟ وبالآية ونصف الآية؟ ألم يروا كتب الأقوال المأثورة عند أمم الدنيا تقتبس نتفاً نتيفة من أشعار الأولين والآخرين. لا أقف عند هذه الدعوى كثيراً، ولكنني أوردها مثالاً لصرعات ونظريات يطلع بها علينا الطالعون، ويريدون لنا أن ندين بها، اقتنعنا أم لم نقتنع.

كتب الاختيارات كثيرة، وزادت كثيراً في الآونة الأخيرة. والموجود في السوق لا يعجبني أبداً. ولذا، مضيت في طبع مختاراتي.

رأيت بعض المؤلفين ينسخون بضع قصائد من هنا وهناك، ويجعلونها بين جلدتين، وتصب المطابع على الغلاف الألوان الفاقعة، وتجعل فيه نتوءات تغري الناس بشرائه لتزيين رف في صالة البيت. ورأيت بعضهم يهبر من كل قصيدة أبياتاً، أو يهبر قطعة من قطعة أخرى كان هبرها مؤلف قبله، ولا يُشعرني أنه تخير لي. ولا أرى عند الهابر ولا في المهبور تحقيقاً ولا ضبطاً ولا شرحاً. وإذا شرح أحدهم بيتاً فسر لك الكلمات التي تعرفها، وترك الكلمات التي لا تعرفها ولا يعرفها.

تكفي ذبابة واحدة لتجعلني أشيح عن الطبق، فكيف بكتاب فيه عشرات الذبابات. وقد وجدت كتب المختارات عامرة بالأغلاط، وجدتها طروحاً ألقاها في وجه الجمهور ناشر مستعجل، ومؤلف عابث ومقصر. فعقدت العزم على أن أمضي في نشر مختاراتي. وقد تعمدت في هذا الباب عن أحمد شوقي أن أشرح وأستقصي، ليكون حجتي فيما أنتقد الناس فيه. ولكنني لا أضمن أن أشرح شرحاً مستفيضاً في كل باب آخر. على أنني لن أرتكب كبيرةَ «شرح

الكلمة السهلة وترك الصعبة»، فإن عجزت عن كلمة فلن أغادرها إلا وقد أخبرتك بعجزي. وفي كل مرة مقبلة ستراني اخترت من المصدر الأصلي، وستراني اخترت ما أراه الزبدة. وسترى من التحقيق والضبط ما يرضيك. في هذا الباب عن أحمد شوقي شرحت كثيراً، إلى درجة ثقل الدم. وتصورت قارئي شاباً في مقتبل العمر محتاجاً إلى شرح كثير.

ليلتمس لي القارئ المتمكن من الفصحى العذر.

حياة مليئة بأنصاف المواهب

من حقك علي وأنا أتصدى لاختيار شعر من أجلك أن أخبرك عن نفسي. عن حياة مليئة بأنصاف المواهب.

حب النكتة، وفهم النكتة، وليبرالية الذوق، والنملية مواهب وهبنيها الذي خلقني. وسأشرحها لك في فقرة مقبلة متأخرة.

على أنني أكشف لك عن مواطن قصور عندي كنت اكتشفتها واحداً بعد واحد، وكان لكل اكتشاف لسعة بقي لها في نفسي أثر.

زميل لي يصغرني بنحو عشر سنين، يتذوق الشعر كثيراً، ويقوله بالفصحى وبالعامية وعلى كل الموازين. خلطت نفسي به زمناً. ففضح كماله من قصوري أنني أسمع في الغناء اللحن وحده، لا أبالي أن يكون عبد الوهاب يغني للجندول أو ينادي على البصل في سوق الخضار، فالكلمة في الأغنية تلبس أمامي طاقية الإخفاء، ولست أهتم إلا باللحن. رأيت صاحبي ذاك وثاباً إلى تذوق الكلمة. ثم سمعته يغني، فوجدته يحسن تصيد الطبقة، ويحتفظ بصحة اللحن، ووجدت له صوتاً. ووجدته يتذوق الألحان كما أتذوقها، وأحسن مما أتذوقها.

فتح في عقلي نافذة مقارنة وحسد. وعرفني بما حرمني الله.

وظللت أسمع الموسيقى والغناء. ومضيت فصنعت برنامجاً للإذاعة عن الموسيقى الكلاسيكية في أربع وخمسين حلقة، وبرامج عن الغناء العربي لا أحصيها. ومضيت فصنعت برامج في الشعر العربي رتلت فيها آلاف الأبيات.

رأيت بعد صاحبي ذاك أشخاصاً أفضل مني في تذوق الكلمة. أو لعلهم وجهوا طاقتهم هذه الوجهة. ورأيت من يفضلني في الثقافة اللغوية والأدبية وفي قوة الذاكرة.

ضع فوق ذلك كله تلجلج لساني في المذاكرة، وافتقار حججي إلى الصقل في أتون المناظرة، وتشرذم معارفي تشرذماً جعلها في أحيان معلومات من نوع ما يحفل به طلبة المدارس.

ما أكثر ما أوبخ نفسي: ويحك! كأنك لم تبرح مقعد الدراسة، لك في المطالعة وفي التفكير، وحتى في التعبير عن نفسك، طريقة هي أشبه بطريقة المراهق الذي فتح عينيه على الدنيا لتوه فهو مندفع مندهش أبداً، مرتبك عندما يكتشف أنه مسبوق إلى كل فكرة من أفكاره، زائغ في أحكامه، متمسك بالقديم كما يتمسك الرضيع بثدي أمه، خواف من الجديد، يغوص في الفكر قليلاً ثم يضيع في اللجة.

أليس يحق لي أن أيأس من نفسي؟ وأن أمضي في ترتيب تقاعد يضمن لي أن أعيش عيشة رجل لا يعرف الثقافة ولا تعرفه الثقافة؟

الآن عرفت لماذا أنفقت ثلاثين سنة متسكعاً بين الوظائف، هارباً فيها من مواهبي الناقصة، متعللاً بها عن الخوض في استهلاك المعرفة وإنتاجها.

طالت علي «سن اليأس»، فلا أزال منذ خمس عشرة سنة أحاسب نفسي على ما لم أنجز.

أما المواهب التي وهبنيها الله فهي التلذذ بالنكتة وفهمها، لكن دون روايتها. والشعر نكت كثيرة. وكل بيت رائع فيه نكتة دفينة أو غير دفينة. تكون النكتة في المعنى، أو في استخدام اللفظة، أو في كلمة القافية، أو في تورية، أو في جَلَبة تحدثها ألفاظ البيت إمّا يتلى أو يُرى بالعين. والنكتة في بيت الشعر ليست زخرفة الجصّ يضيفها البنّاء إلى سقف البيت بعد الفراغ من بنائه، بل هي بعض البناء، وشمعة يقوم عليها.

لن أضرب لك مثالاً، ثقةً من أنك عرفت ما أقصده بالنكتة، وحتى يبقى لهذه المقدمة عُطلها من الأمثلة.

وليبرالية الذوق، وهذه ثانية المواهب، لها علاقة بفهم النكتة. فأنا أجد في كل شعر شيئاً حسناً، وأسعى في البحث عما في القصيدة من دواعي الدهشة. وليست ليبرالية الذوق بالموهبة النادرة، فأنت تجدها عند الملايين، ولكنها في المثقفين أعز منها في عامة الناس. وكائن رأيت من مثقف يقسم الأشعار قسمين: قسماً نُفايةٌ، وقسماً هو شعر شاعره المفضل أو شعره هو، إن كان أخا شعر.

والنملية موهبة أخرى. فأنا أحب الجمع والتصنيف. وترى هذه الموهبة كثيراً عند صغار الموظفين، وعند قليلي الطموح ومحدودي الذكاء. وهل تشك في أن النملة محدودة الذكاء، وأن سلوكها صادر عن غريزة شبه ميكانيكية؟

بمواهبي وعيوبي جمعت أبياتاً لشعراء كثر. كتبتها حيناً بالقلم في اثني عشر دفتراً، ثم جعلتها ملفات على الحاسوب الذي فرض نفسه على حياتي. وتنوقت في ترتيبها وشكلها، ونويت أن أشرحها.

فإذا لم يعنَّ لي شيء أجدى على نفسي وعلى عيالي وعلى البشرية من هذا الذي أنتويه، فسوف يجد الناس بين أيديهم مجموعة كبيرة من المختارات الشعرية تزاحم مئات الكتب المشابهة التي تختنق بها رفوف المكتبات.

لغز بيت الشعر العربي

كل كائن حي أو ميت يوضع في بيئة مدة من الزمن يتشكل بحسبها، ويصبح آية في الكمال النسبي. فمرور السنين يوائم الأشياء مع بيئاتها، ويجعلها الأصلح. تنظر إلى الشجرة الاستوائية فترى أوراقها وجذعها، وثمارها وجذورها ملائمة تماماً لبيئتها. ازرعها في بيئة أخرى ترها أقل نجاحاً.

البيئة قيد. والقيد خلّاق. والبيئة ليست الشيء السهل دائماً ولا هي الشيء الأمثل. فالبركان في مكان مّا يخلق بيئة غريبة عما كان مألوفاً. ومع تراكم السنين تتشكل الأحجار والأشجار على نحو يوافق هذه البيئة، ويصنع معها انسجاماً.

اللبناني في أعراسه وفي سهراته الصيفية على الأسطح، وسهراته الشتوية في أكواخه الجبلية، كان يغني ويباري جاره في فنون القول، وقد قيَّد نفسه بقوالب من الإيقاع اللفظي، وأخرى من النغم. وصار هذا القيد يفجر المعاني في نفوس شبانه. صاروا يكدون أذهانهم ليبرزوا المعاني الغريبة والجميلة من قمقم الوزن، فتنطلق هذه المعاني موقعة توقيعاً ومحلاة بقافية فيها نكتة. فأنت تنتظر القافية لكي تشعر بسعادة شبيهة بسعادتك وأنت تسمع ختام النكتة فتنفجر ضاحكاً. يهتز جسمك مع إنشاد البيت لأنه موقع، وتهتز نفسك وخيالك مع القافية، والمعنى في أثناء ذلك يتسلل إلى مكانين في وقت واحد: يتسلل إلى عقلك، المكان الطبيعي للمعنى، ولكنه يحاول أن يتفلت ليتسلل إلى قلبك قبل عقلك.

أن المعاني مقيدة بقيد الوزن والقافية يجعلها تنطلق بقوة أكبر.

الوزن والقافية للزجال اللبناني بيئة، وهي قيد. وجدهما، بعد أن أوجدهما أجداده، مفروضين عليه. رأى أبناء قريته محتاجين إلى أن يهزوا أجسامهم على كلامه، قبل أن تهتز قلوبهم وتدرك عقولهم، فصنع لهم الشعر فطربوا وهزوا أجسامهم ما شاءوا، وما زالوا يهزونها، وما زالوا يأبون أن يهزوها إلا على القرَّادي والمعنَّى ومع قوافٍ رنانة. ولو قلت كلاماً عذباً باللهجة اللبنانية وسرحت بخيالك إلى الأعالي ثم لم تقيد نفسك بالقافية لما صنعت سوى ما يصنعه أي عجوز يجلس بباب الدكان ويحدث الشباب عن سنة الثلجة الكبيرة.

والعربي في صحرائه، وفي مدنه القديمة في الحيرة ودمشق والطائف، كان يرتجز على إيقاع رتيب، ثم صار يلون رجزه ألواناً. وقيد نفسه بقيود وجدها أحفاده حافزاً، وبيئة إبداع.

واليوم، في سنة ٢٠٠٨، ما مبرر التمسك بهذه القيود؟ لا الشعراء يعرفونها، ولا السامعون يهتزون لها. صار الشعر مقروءاً بالعين في معظم الأحيان. وصارت الأمسية الشعرية ترفاً يمارسه طالب الجامعة مرة في السنة. وصار شعراء هذه الأمسيات يترنمون بمعانيهم يوجهونها إلى العقول كاسرين أوزانها التي تعبوا في إقامتها، أو تكون من الأصل أوزاناً مكسورة لأنهم قليلو المعرفة بالوزن. والفصحى نفسها ضعفت في النفوس كما أسلفنا. فكان لا بدَّ من الانصراف عن أوزان الخليل.

وجاء الشعر الحديث مبنياً على نظام التفعيلة لكي يواكب حالة فقدان التوازن وفقدان الوزن هذه، ولكنْ.. لا الشعراء ولا مستمعوهم يهزون أجسامهم على التفعيلة. ودخلنا عصر الخاطرة، أيضاً كما أسلفنا.

وبما أنني بدأت أكرر نفسي فقد آن الأوان للانتقال إلى عنوان جديد.

ما العمل؟

حتى لا تفاجأ في آخر هذه الفقرة، فإن السؤال الذي يطرحه العنوان قد يبقى بدون إجابة شافية.

لست أدعو إلى الرجوع إلى أوزان الشعر العمودي. وما سُمِّيت الرجعية رجعية إلا لأنها رجوع.

ولكن ذخيرتنا من الشعر العربي مليئة بكل ما هو معجِب وجميل. هي ذخيرة، هي تراث، وكفى. علينا أن نمشي إلى الأمام، بشعر أو بدون شعر. الخواطر تكفينا في هذا الزمن. وليعلم العالَم أن أبرع قوم في الشعر في الدنيا قرروا نبذه.

قصتي مع الشعر قصة تستحق سطرين. فقد قرأت منه الكثير، وصارت أبياته تشكل الفواصل والنقط في كتاب عيشتي. صرت أستلهم الشعر العربي في مواقفي من الأشياء. به ازددت انتماء إلى العروبة. وبه اهتديت أخلاقياً في كثير من أمري. ومنه صنعت هيكلاً تاريخياً للأحداث. وهو يطربني، ويسليني.

ولأنني قرأته قراءة جهرية في الإذاعات، وحتى في التلفزيون، وأكثرت من ذلك، فقد استولى علي صوتياً، أي بصورته الأصلية. فالأصل في الشعر أن يقرع طبلة الأذن لا شبكية العين. وعندما أقرأ شعراً بعينيَّ الآن، تراني أنقله فوراً إلى لساني لكي أسمعه فأتذوقه. ولهذا تراني، إذ لا أبالي أن أقرأ الجريدة على أنغام الموسيقى، لا أستطيع أن أقرأ بيتاً واحداً من الشعر إلا إذا خلا الجو من أي صوت موقَّع.

الشعر العربي العمودي ديوان العرب، ليس في جاهليتهم فحسب، بل هو ديوان الناطقين بالعربية في كل العصور. وفيه اختزنوا تجربتهم الإنسانية والشعورية. لا، لن تستطيع صناعة سيارة استناداً إلى مخزونك من الشعر العربي، ولن تستطيع حتى أن تتخيل شكل الناقة من قراءتك لقصائد الأقدمين ـ وأنصح للراغبين في معرفة شيء عن النياق أن يتفرجوا على فلم وثائقي في ديسكفري، فذلك خير لهم ـ، لكن الشعر العربي خزان مشاعر ومواقف وأخلاقيات. بعضها منحرف عما نراه صحيحاً، فعندنا من شعر الغزل بالمذكر الكثير.

لن نستغني عن الشعر العمودي لبضع مئات من السنين. سيظل هو السجلات القديمة التي فيها وجدان العرب.

التمسك الزائد بالشعر العمودي ومحاولات إحيائه دليل رجعية. والطوفان الذي نشهده من كتب المختارات الشعرية القديمة ظاهرة رجعية. فالناس كفروا بالمد القومي والمد اليساري، وأدركوا مبكراً وبحساسية مدهشة أن الاتصال بأوروبا والتشبه بها في كل شيء ليس الطريق إلى النهضة. والآن يقف العرب مذهولين، يبتلعون أطناناً من الشطائر السريعة من مكدونالد، ويستهلكون الفلم

الأميركي بجنون. ويسيرون في ركب هذا العالم. وهم كالغريق الذي يبلع ماء البحر، لكن ليس بإرادته. وتنتابهم صحوات يثوبون فيها إلى الدين فيتمسكون بجوهره حيناً وبتفسيرات متشددة أحياناً، ويثوبون إلى التراث الشعري القديم فيمجدونه حيناً وينبذونه أحياناً.

العرب بحاجة إلى صحوة عاقلة. صحوة يابانية. محتاجون إلى كثير من المعرفة المادية، وإلى غذاء روحي متوازن، وإلى أن يخلقوا الثروة من كدهم، وأرضهم. ستنحسر عنهم مرحلة الذيلية الحاضرة بعد بضع سنوات أو بضعة عقود، وسينهضون. وسيكون لهم صوت شعري لا أقدر أتكهن بشكله. لكنهم سيجدون دائماً في شعرهم القديم جذوراً ثقافية مهمة.

من هنا يحتاجون إلى التعرف على تراثهم الشعري.

فضيلة هذه المجموعة التي أسعى في تقديمها أنها معاصرة.

أما ما العمل؟ فأرى أن نستمر في تدريس أبنائنا الصغار قصائد أجدادهم، في مختلف العصور، وأن نزيد جرعة الشعر ذي التفعيلة، وأن نضع ما يسمى بقصيدة النثر ضمن باب الخواطر، وألا نكثر منه، فلا الأولاد سيفهمونه، ولا هو ذو شأن كبير. أما لمن يريد أن يكون شاعراً فأقول: منذ متى يأخذ الشاعر نصائح النقاد؟ انصرف.

مقاييس الاختيار

كتبت لك كل الكلام السابق وفي ضميري هدف خفي. أردتك أن تعرف من أنا وكيف أفكر وكيف أتكلم، وكيف تتداعى أفكاري، وكيف أسكبها في اللغة، وذلك حتى تعرف مقاييسي في اختيار الشعر. فالمقياس هو أنا، إنه مقياس ذاتيٌّ محض. إذا أرسلت ابنك إلى السوق فسوف يشتري من المكسرات ما لا يلائم أسنانك المخلخلة، ومن الحلوى ما لا يلائم السكريّ الذي معك. سيشتري على هواه. وإذا كان باراً، مثلي، فسوف يحضر لك علبة مياه غازية دايت.

صنعت صنع ذلك الصبي. اخترت أساساً ما يطربني، ثم إنني كنت أمر بالبيت الذي أعرف أنه يستهوي اللاهين فأختاره لهم، ولست باللاهي؛ وقد أمرُّ بالبيت الذي يعجب المتزمتين الجادين كل الجد، فآخذه في طريقي، وما أنا بالمتزمت ولا الكثير الجد.

اخترت الأبيات التي سلمت فيها اللغة، وسلم فيها الخيال، والتي فيها معنى غريب، والتي لها وقع على الأذن جميل، والتي فيها صدق، والتي كانت الصناعة فيها أقرب إلى الفن وأبعد عن التعمُّل. واضطرني الربط بين الأبيات الجميلة إلى أبيات ليس فيها رواء. ولا بد بين الروض والروض من ممر مفروش بالحصباء.

كنت أختار الأبيات الرائقة، ويزدهيني عملي. وأتلذذ بحصول هذا الكنز الثمين في قبضتي. ثم أقرأها فأجد في المعنى قفزة هنا أو هناك، فأجد بيتاً يَصلح جسراً فأختاره. وأدُقُّ القصيدة على الحاسوب بيدي وأراها بدأت تتخلق خلقاً جديداً، وتصنع لنفسها موقعاً في قلبي. وقد أعود إلى القصيدة الأمِّ باحثاً عن جسر.

وقد أقرأ قصيدة في ديوان الشاعر تكون مغسولة من أولها إلى آخرها، ليس فيها بيت يهزني. فأهملها الإهمال كله. وقد أقرأ قصيدة ليس فيها سوى بيت واحد فيه بريق، فأختاره ولا أختار غيره، وقد أشد أزره بأخٍ يسبقه لغيرما علة سوى أن يسمع القارئ رنين القافية تتكرر على أذنه.

قد أجد بيتاً قامت عليه ضجة نقدية، لِعيب فيه. فإذا كان سخيفاً مرذولاً، كقلاقل المتنبي، تركته دفين ديوانه، فإن بعثه ناقد لغرض فذلك من شغل الناقد. وإن أراد قارئي أن يقرأ رديء المتنبي أو رديء شوقي فالديوانان موجودان، ولم أزعم قط أن مختاراتي تلغيهما. وإن كان البيت المعيب في لفظه يضم فكرة لها بريق اخترته لفكرته، وتشجعني الضجة النقدية على اختياره. وقد يكون للبيت قصة طريفة، فأتحمس له حتى لا تفوت القارئ هذه القصة. وقد يكون البيت حزيناً باعثاً على الكآبة، فأريد أن أشرك القارئ معي في اكتئابي به. أو باعثاً على الانشراح والسرور، أو مستنهضاً للهمة، أو مادحاً لفضيلة أو لرذيلة بأسلوب فيه فن وفيه جمال، فهذا كله مما أريد إشراك القارئ فيه. وما اختياري الخمريات إلا من هذا الباب. وإلا فأي خير في الخمر؟ لكن الشعراء عبروا في وصفها وفي وصف مجالسها عن كثير من تمردهم ومن بوهيميتهم، واستثمروا في ذلك فناً كثيراً.

كنت أقرأ الشعر في وسيلة إعلام قبل أشهر فقط. فاخترت أبياتاً في مدح جمال عبد الناصر لنزار قباني، واخترت في مرة أخرى أبياتاً في هجائه لبدوي الجبل. وكنت في كلتا الحالتين سعيداً بما اخترت، وقرأت هذه وتلك

بالحماسة نفسها. وأما موقفي من عبد الناصر فلا أظنه يعنيك.

أحب من الشعر الجزل. والجزالة هي الصلابة في الحطب. والحطبة الصلبة تشتعل طويلاً وتدفئ كثيراً. والشعر الجزل موجز مكتنز لا ترى به كلمات زائدة. والكلمة فيه مشحونة بالمعنى شحناً.

وأحب من الشعر المهلهل الذي رق نسجه وانساب انسياباً، فأنت تفهمه بالسرعة التي بها تسمعه. فلا تكد ذهنك في ألفاظه ولا في معانيه.

وأحب الشعر الصادق. يقف أبو الطيب أمام سيف الدولة شاكياً باكياً صارخاً يقول: أنت لا تحبني كما أحبك، وتحب الآخرين وهم لا يحبونك، ظلمتني، وأنا أحسن واحد في الدنيا! فما هذه المعاني؟ أليست كأحط ما تسمعه من موظف يزعم أن مديره تخطاه في الترقيات؟ ثم تجد نفسك تترنم بقصيدة أبي الطيب تلك، ثم تلقى العرب قد ترنموا بها ألف سنة. هذا لما فيها من صدق. ولما فيها من فن أيضاً.

أنا لا أحاكم معاني الشعر محاكمة عقلية محضة، وإلا لكنت خسفت الأرض بكل شعر العرب وغير العرب.

أحب، ككل عاقل متزن، شعر الهجاء. فهو أصدق من غيره. وفيه فكاهة غالباً. وقد تجر الفكاهة والحقد الشاعر فيكذب في هجائه ويجعل المهجو إبليساً. هذا كذب في الوقائع فقط، أما في وصف نفسية الشاعر فالمبالغة في الهجاء هي الصدق كله. وشيطنة المهجو ونزع كل صفة حميدة عنه ضرب من الشعر. ولعل الهجاء المقتصد أشد إيلاماً. ووالله لَلقولُ إن فلاناً «سخي اليد واسع العلم لكنه جبان»، أوجع له من القول إنه «خسيس بخيل جبان».

أحب من شعر الرثاء والمديح ما كان صادقاً، وهذا نادر. وأحب منه ما كان عامراً بالفن، وهذا كثير. وقد رأيت نفسي ـ عندما اخترت من شعر المتنبي ـ آخذ من مدحه لسيف الدولة أضعاف ما آخذ من مدحه لكافور، وذلك لفضل ما بين الصادق الجميل، والكاذب الجميل.

أبحث عن الأبيات التي تنطلق من لاوعي الشاعر انطلاقاً يتعجب هو نفسه منه. هذه الأبيات التي يعتصرها الشاعر من أعماق وجدانه دون جهد الاعتصار. هذه وثبات نادرة. وأنا قاعد لها، متحفز، محدِّق بأذني تحديقاً متواصلاً حتى أتصيدها لك.

وتعجبني أبيات الحكمة، ما كان منها أصيلاً وجديداً، وما كان مصنوعاً.

ويعجبني الشعر في المشيب، وشعر النواح على الشباب؛ صار يعجبني الآن أكثر. والصادق منه، كالصادق من كل شعر، أحلى.

ويعجبني وصف الخمر؛ ويعجبني أكثر، وصف مجلسها.

أحب الشاعر يباهي بشعره، وأحبه أكثر وهو يصف صنعته ويحدثنا كيف أدرك النعاس ربة الشعر وهو قد توسط لجة القصيدة، وكيف راح يوقظها، ويرقق لها الهمس حيناً، ويغلظ لها الشكوى حيناً، وهي تغط في سباتها.

أحب الشاعر يعترف بدناءة اقترفها، ويعجبني المفتخر بسموه من غير تنفج. والمفتخر بقومه يعجبني إن كان صادقاً. والهاجي عشيرته يعجبني. الصدق هو المحك.

ويكذب الشاعر، فإن كذب ظريفاً فهذا شعر، وإن كذب ثقيلَ دمٍ تركت كذبته في ديوانه وسترت عليه.

وقد أتعبني الشعراء وأنا أتعقبهم بالستر. أستر رديئهم فلا أشير إليه؛ وأستر أغلاطهم فيما أخذت منهم من شعر حلو لكنَّ به خللاً، وأتمحل لهم وجهاً في غوامضهم. وهدفي على الجملة هو أن أجلو لك الشاعر وأقدم خير ما قال.

وأحس بالشاعر إن كان ينظم مرتاحاً أو كان يتجشم. وتقاليد الشعر العربي الصارمة - التي زادها كر الدهور شدةً - تقاليدُ فضَّاحةٌ، تخبرك عن الشاعر بأكثر مما يقول من كلمات، وتنبئك إن كان ينحت من صخر أو يغرف من بحر.

يعجبني البيت تقعد في آخره كلمة القافية مرتاحة، كأنها جاءت لموقعها عبر صندوق الاقتراع، ولا تجد كلمة أخرى تصلح لتحتل مكانها.

يعجبني بعض الشعر الذي لغته صعبة، وأشترط فيه كي يعجبني فأختاره صدقاً كثيراً وجمالاً كثيراً. فأنا، بعدُ، أنتقي بذوقي المعاصر لقارئ معاصر. فإذا أسرف الشاعر في الوقوف والاستيقاف تراني اكتفي بأبيات قليلة. وأنا أفضل البيت السهل على البيت المغلق. فإن انفتح لي المغلق بجهدي وبقاموسي وبما تيسر من شروح القدماء، فلي فيه طريقان: إن وجدت وراء كلماته الكالحة وأسلوبه الملتوي معنى بديعاً أخذته وتوكلت على الله في شرحه شرحاً وافياً، وإن وجدته بعد كل ما بذلت في فهمه عادياً اطَّرحته اطِّراحاً واحتسبت عنائي في فهمه. وقد وجدت الصدق لصيقاً بالبيت السهل، والتصنع لصيقاً بالبيت المغلق المعقد، فهذه من نعم الله.

يعجبني شاعر يجترئ على اللغة، وشاعر يحترم اللغة. وقلَّ شاعر اجترأ عليها إلا وهو يحترمها.

ولا أخوض في النحو والصرف في شرحي. وحسبي أن أضبط الأبيات بالشكل، وألا أدخر جهداً في ضبطها الضبط الصحيح. ولا أكترث أن تكون لغتي وأنا أشرح البيت فصيحة كل الفصاحة. لا بل أضطر إلى كثير من الركاكة حتى أظل سائراً مع البيت بنفس ترتيب كلماته وأفكاره. وأسعى أن أضع في مكان الكلمة الصعبة كلمة تطابقها في المعنى وفي الاشتقاق، وفي هذا مشقة غير قليلة. وأرى الشاعر يسهل الهمزة ويصرف الممنوع ويمنع المنصرف، فلا أجاريه، فهو معذور، وأنا غير.

وألفِتُ القارئ بين الفينة والفينة إلى بيت مشهور، أو بديع، أو إلى بيت أحبه كثيراً، فأجعله بالحرف السميك.

الشاعر بجيده لا برديئه. وقد اخترت أجود الشعر. فمن أراد دراسة حياة شاعر من شعره دراسة أكاديمية فليرجع إلى ديوانه. أما من أراد أن يقرأ خير ما قال هذا الشاعر فأنا له، على المقاييس التي بسطتها فيما مضى.

الشاعر الشاب

في هذا الفصل ما اخترته من شعر شوقي في القرن التاسع عشر، والرجل عاش اثنتين وثلاثين سنة في القرن التاسع عشر، ومثلها في القرن العشرين. والقصائد مرتبة تاريخياً. على أنني جعلت القصائد القصصية، ومعظمها على لسان الحيوان، معاً في آخر هذا القسم، وهي على كل حال تتبع هذه الفترة من حياة شوقي. وقد اعتمدت في الترتيب على ما ذكرته «الموسوعة الشوقية» و«الشوقيات المجهولة». ولكنني لم أذكر التاريخ عندما شعرت بوجود تناقض. وشعر شوقي كله محتاج إلى تحقيق تواريخ نظمه بالاستعانة بصحف ذلك الزمان. وهذه مهمة لم أتصدَّ لها.

١ عنقود في ماء مِلْح

قال شوقي (وهو تلميذ في الثانوية):

إفـريـقِـيـا قِـسـمٌ مِـنَ الـوُجـودِ   فـي شـكْـلِـهِ أشْـبَـهُ بـالـعُـنـقـودِ

إفريقيا جزء من الكون، وهذا الجزء أشبه ما يكون في شكله بعنقود العنب. في هذا البيت سذاجة شوقي الفتى، لكن فيه أيضاً طريقة القدماء في أراجيزهم التعليمية. وكان شوقي في أيام التلمذة يقرأ كشكول بهاء الدين العاملي المليء بأمثال هذه الأراجيز

وذلكَ العُنقودُ في الماءِ انْغمرْ ما أملحَ الماءَ، وما أحلى الثمرْ

العنقود منغمر في ماء البحار والمحيطات التي تكتنفه، فما أملح الماء وما أحلى الثمر! فكرة حلوة، تنبئ عن أن عقل الصبي فيه شعر وفيه غوص على المعاني. وهل ترى جاءته المطابقة بين كلمتي «أملح» و«أحلى» عفواً؟ وهل التورية في كلمة «أملح» وحدها جاءت عفواً (فمعناها المقصود أشد ملوحة، والمعنى الذي تستدعيه عبارة «أحلى الثمر» أشد ملاحة)؟ لعل كثيراً من ألاعيب شوقي اللفظية يأتيه عفواً، أي بِتداعٍ لاواعٍ. لكنه في الجانب الأعظم صانع صائغ

مَدَّتْ إليهِ يَدَها أورُبّا مِنْ فوقِهِ، كَمَنْ يريدُ الحَبَّا

مدت أوروبا يدها إلى العنقود من الأعلى كأنها تريد أن تأخذ الحَب. أهو يصف شكل الخريطة فقط، أم أنه واعٍ نهبَ الإنجليز والفرنسيين لمصر، وكان النهب متصلاً من نيف وعشرين سنة؟

وآسِيا بالجنْبِ كالمحتالِ تنقُصُهُ من شرْقِهِ الشَّمالي

آسيا من الجنب تقضم جزءاً من إفريقيا من شمالها الشرقي. دقة في وصف الخريطة، فسيناء التي هي جزء من آسيا تبدو وكأنها مقضومة من جسم إفريقيا

وبينَ هذينِ ترى القَنالا يتَّصلُ الماءُ به اتِّصالا

بين أوروبا شمالاً، وآسيا في الشمال الشرقي يقع قنال السويس

أنشاهُ إسماعيلُ عُنوانَ الظَّفَرْ فوقَعَ الحافرُ فيما قد حَفَرْ

أنجز القنال في عهد إسماعيل الذي احتفل بتمام حفره احتفالاً عظيماً، لكنه وقع في شر تبذيره. في استخدام كلمتي «حافر، وحفر» دقة في اللغة وخفة روح، فالقنال حفر حفراً، ومن حفر حفرةً وقع فيها، والحافر أيضاً هو حافر الفرس، ولست على يقين من أن شوقي قصد هذه. قد قال صاحب «الموسوعة الشوقية» إن القصيدة فيها خلل في الوزن في بيتين هما:

بثت شكواي فذاب الجليدُ/ وأشفق الصخر ولان الحديد ـ وقلبك القاسي على حاله/ هيهات بل قسوته تزيدُ

وقال إن القصيدة ارتجال. فأما أنها ارتجال فمحال، فهي مصنوعة صناعة متقنة. وأما الغلط فغلط في النسخ، والبيتان بعد التصحيح يؤولان إلى:

بثت شكواي فذاب لي الجليد/ وأشفق الصخر ولان لي الحديد ـ وقلبك القاسي على حالته/ هيهات بل قسوته تزيد

الصبي الذي قال هذه القصيدة بلغ في «صناعة» الشعر مبلغ من لا يغلط في الوزن هذا النوع من الغلط، لا بل هو يلعب بالكلمات لعباً يبعث على الدهشة. وليس شوقي، بعد، بالمعصوم عن الغلط في الوزن، وقد نبهه إبراهيم اليازجي سنة ١٨٩٧ إلى أنه خلط بين السريع والمنسرح مرتين في قصيدة

٢ الجدة الحنون

لي جَدَّةٌ تَرْأفُ بي أحْنى عليَّ مِنْ أبي

لي جدة تعطف علي، وهي أشد حُنُوّاً عليَّ من أبي

وكـــــلُّ شـــــيءٍ سَـــرَّنـــــي   تـــذهـــبُ فـــيـــهِ مَـــذهـــبـــي
وكل شيء يسعدني توافقني عليه

مـــشـــى أبـــي يـــومـــاً إلـــيَّ   مِـــشـــيـــةَ الـــمـــؤدِّبِ
مشى أبي يوماً نحوي يريد تأديبي

غـضـبـانَ قـدْ هـدَّدَ بـالـضَّـــ   ـربِ، وإنْ لـــم يَـــضـــربِ
وكان غضبان يهدد بضربي، وإن لم يفعل

فـلَـمْ أجِـدْ لـيِ مـنـهُ غَـيْـــ   ـرَ جـدَّتـي مِـنْ مَـهْـرَبِ
فَـجَـعَـلَـتْـنـيِ خَـلْـفَـهـا   أنـجـو بـهـا، وأخـتـبـي
وهْـــيَ تـــقـــولُ لأبـــي   بِـلَـهْـجـةِ الـمـؤنِّـبِ
لم أجد مهرباً سوى جدتي، فوضعتني خلف ظهرها، وأخذت تقول لأبي بلهجة تأنيب:

ويْـــحٌ لـــهُ، ويـــحٌ لـــهـــ   ـذا الـــوَلـــدِ الـــمـــعـــذَّبِ
مسكين هذا الولد الذي يلاقي منك التعذيب،

ألـــم تَـــكُـــنْ تـــصـــنـــعُ مـــا   يـــصـــنـــعُ إذْ أنـــتَ صـــبـــي
ألم تكن تصنع مثله وأنت صبي؟ القصيدة ناضجة في مغزاها على سهولتها وخفتها، ولم نتحقق من تاريخ نظمها، لكنها ليست مما يقوله صبي

٣ كوثر الدنيا

الـــنـيـلُ الـعـذْبُ هُـوَ الـكـوْثَـرْ   والـجـنـةُ شـاطِـئُـهُ الأخـضـرْ
النيل العذب (وكأنَّ هناك نيلاً مِلْحاً) هو نهر الكوثر (نهر الجنة)، وضفافه الخضر هي الجنة

ريَّـانُ الـصـفـحـةِ والـمـنـظـرْ   مـا أبـهـى الـخُـلْـدَ ومـا أنـضـرْ
النيل ريان (جميل) الصفحة (السطح) والمنظر، فما أجمل الخلد (الجنة)، فهو نهر الجنة لا راح ولا جاء. هذا البحر المتدارك ينساب بإيقاع يشغل الأذن عما في البيت من حاجة إلى ربط عجزه بصدره

* * *

الـبـحـرُ الـفـيَّـاضُ الـقُـدُسُ   الـسَّـاقـي الـنـاسَ ومـا غَـرَسـوا
البحر (نهر النيل) الفياض (الممتلئ) القُدْس (المبارك) هو الساقي الناس والساقي ما زرعوا

وهُـوَ الـمِـنْـوالُ لِـمـا لَـبِـسـوا   والـمُـنـعِـمُ بـالـقـطـنِ الأنْـوَرْ
والنيل كأنه المنوال (آلة النسج) لملابسهم، إذ ينعم عليهم بالقطن الأنور (ذي النُوَّار الأبيض)

* * *

جـعـلَ الإحـسـانَ لـهُ شَـرْعـا   لـم يُـخْـلِ الـوادي مِـنْ مَـرعـى
جعل النيل الإحسان شرعاً (أسلوباً) له. ولم يُخلِ الوادي (لم يترك الوادي يخلو) من مرعى

فـتـرى زَرعـاً يـتـلـو زَرعـا   وهـنـا يُـجـنـى، وهـنـا يُـبْـذَرْ
الحقول متراصة، فهنا يجني الفلاحون الثمار وهناك يبذرون

* * *

جـارٍ ويُـرى لـيـسَ بِـجـارِ   لأنـاةٍ فـيـهِ ووَقـارِ
النيل يجري، ولا نلاحظ أنه يجري لما فيه من الأناة (التأني) والوقار

يَـنْـصـبُّ كَـتَـلٍّ مُـنـهـارِ   ويَـضِـجُّ فـتـحـسَـبُـهُ يَـزأرْ
ثم إذا به يصب ماءه صباً كالتل المنهار، ويهدر (يضج) فتحسبه يزأر كالأسد. ويترك لنا شوقي أن نفهم وحدنا أن الحالة الثانية هي نقيض الأولى، فالنيل الآن غادَرَ وقاره وتأنيه، ولم يمهد الشاعر للانتقال من الحالة إلى نقيضها

* * *

حَـبَـشِـيُّ الـلـونِ كَـجـيـرتِـهِ   مِـنْ مـنـبـعِـهِ وبـحـيـرتِـهِ
النيل معكَّر المياه لما حمله من طين، فلونه داكن كلون أهل الحبشة الذين هم جيرانه في المنبع من جبالهم، وكذا جيرانه الآخرون في بحيرته فكتوريا. سيكتب شوقي في أخريات حياته أغنية لعبد الوهاب تبدأ بـ «النيل نجاشي حليوة أسمر»

صَـبَـغَ الـشَّـطَّـيْـنِ بِـسُـمْـرَتِـهِ   لـونـاً كـالـمـسـكِ وكـالـعـنـبـرْ
وهو يلقي طينه على شاطئيه فيسمر لونهما، ويصبح كلون المسك البني الداكن، أو العنبر (وهو داكن اللون في الغالب)

٤ العبث

قال شوقي ضمن رثاء الأميرة تفيدة هانم (١٨٨٩):

النفسُ ترغبُ في الدنيا، وما حَصَلَتْ   مِنْ الـحـيـاةِ عـلـى صَـفْـوٍ بِـلا كَـدَرِ
النفس ترغب في الدنيا وهي ما حصلت من الحياة على صفو (سعادة) خالص من التكدير

ولِـلـحـيـاةِ مـدىً، واللهُ يـعـلـمُـهُ   ما أشبهَ الطولَ في الأعمارِ بالقِصَرِ
للحياة مدى علمه عند الله. ولكن، بما أن كل الحياة عبارة عن صفو مختلط بالتكدير، فالطول والقصر في العمر سيان. كأني بالعقاد يقف لشوقي قائلا: «بربك هل الحياة لها مدى؟ كنَّا والله نظنها أبدية! وهل يعلم الله حقاً هذا المدى؟ ما أعجب

ما أتيت به!» ولكن الشعر لا يقوم على المعنى وحده. ومع ذلك فالنصف الثاني من البيت له رنة جميلة، ومعناه يفضي إلى تفكر في العمر وطوله. حقاً إذا كانت سنوات العمر أشبه بالخبز البلدي المخلوط بالرمل فلا فرق بين أن تأكل رغيفاً أو خمسة. وقد سخر العقاد في كتابه الديوان من طريقة شوقي في الرثاء سخرية بلغ بها في الإضحاك مسْك الخواصر. تعليق عمران القفيني: «إعجابنا أنت وأنا بشوقي عجيب، حتى إذا أردنا نقده بحثنا عن لسان آخر واستأجرناه للتعليق»

٥ عبدك وابن عبدك

قال يهنئ الخديوي محمد توفيق بعيد الجلوس (١٨٨٩):

شَرَفاً أبا العباسِ، هذا مُلْكُ مصـ ـرَ وذي خزائِنُـهُ، وذلكَ دَسْتُهُ

ازدد شرفاً يا أبا العباس، فهذا ملك مصر، وهذي خزائنه (قال يوسف لملك مصر: «اجعلني على خزائن الأرض» يوسف ٥٥)، وهذا الدست (مجلس الحكم) كلها لك. قال البحتري «شرفاً بني العباس إن أباكم/عم النبي وعيصه المتفرع»

مُلْكٌ كبيٌر جاءَ في التَّوْراةِ والـ إنجيلِ والقرآنِ قِدْماً نَعْتُهُ

ملك كبير ورد في التوراة والإنجيل والقرآن قِدْماً (في الزمن القديم) نعته (وصفه)

مولايَ! عُذْراً إنَّ لي فِكْراً أَبَتْ إلّا الزِّفافَ إلى عَفافِكَ بِنْتُهُ

مولاي! اعذرني على السكوت حتى الآن فإن لي فكراً أَبَتْ بنته إلا أن تُزفَّ إلى مقامك العفيف (جعل «بنات الأفكار» بنتاً وزفها إلى الخديوي)

فاسمعْ لِعبدِكَ وابنِ عبدِكَ مَنْطِقاً مُتَطايِراً بِكَ في القوافي صِيتُهُ

فاسمع لعبدك وابن عبدك (وأبو شوقي كان في حاشية الخديوي) منطقاً (كلاماً) صيته يتطاير بذكرك على هيئة قوافٍ. رنين وقعقعة. وتكثيف لغوي مفعم بالإيحاء، وإن كان فيه كثير من ليّ أعناق التعابير. هذا، إلى سِناد رِدف أجازه شوقي لنفسه وركبه في أكثر من موضع

٦ الوفاء وعدمه

قال شوقي (١٨٩٠):

إنَّ الوفاءَ سياجُ أخلاقِ الفتى مَنْ حازَهُ حازَ المحامِدَ أجْمَعا

الوفاء سياج يحمي أخلاق الإنسان، فمن حازه (مَلَكَه) حاز المحامد (الفضائل) كلها

كَمْ مِنْ لبيبٍ كان يُرجَى نفْعُهُ لكنْ أبى عدمُ الوفا أنْ يَنفَعا

كثيراً ما لقينا عاقلاً رجوْنا منه النفع، لكنّ عدم وفائه منع حصول هذا النفع

٧ لا مثيل لها

قال شوقي يمدح الخديوي محمد توفيق (١٨٩٠):

يـا مُـكْـرِمَ الـشُّـعـراءِ كَـمْ مِـنْ آيـةٍ لـي فـيـكَ لـيـسَ لِـشـاعـرٍ تـبـديـلُـهـا

يا مكرم الشعراء كم من آية (قصيدة كأنها في بلاغتها آية) قلتها فيك، ليس لشاعر تبديلها. فهي كآي الكتاب الحكيم الذي لا تبديل له

ويَـزيـدُهـا مَـرُّ الـزمـانِ حـلاوةً حـتـى يَـلَـذَّ لأهـلِـهِ تـرتـيـلُـهـا

يزيد مَرُّ (مرور) الزمن «آياتي» حلاوة، حتى يلذَّ (يطيبَ) لأهل الزمن ترتيلها، وليس قراءتها فقط

ألبسْتَني حُلَلَ القَبولِ، فنلتُ شأْ واً في القوافي لَمْ ينلْهُ فُحولُها

ألبستني حلل (أثواب) القبول، فنلت شأواً (مدى) في القوافي (القصائد) لم ينله فحول القصائد

فإلَيْكَها عذراءَ لا يُرجى لها وَصْلٌ، ولا باعُ الشُّيوخِ يَطولُها

إليكها (خذها) قصيدة عذراء (مبتكرة) لا رجاء في وصلها (علاقة معها)، كالحال مع الفتاة العذراء؛ ولا يطولها باع الشيوخ (فحول الشعر). قال «الشيوخ»، ولم يقل الفحول، لأنه شبه القصيدة بالعذراء فجعل الشعراء شيوخاً كباراً في السن، فزادهم بعداً عن عذرائه. وهذا من التكثيف اللفظي والمعنوي عند شوقي. وفي الشعر شبه من الدعاية التلفزيونية، تكون الدعاية مكتظة بالصور ومليئة باللفتات الكثيرة فتشاهدها المرة تلو المرة وتكتشف في كل مرة شيئاً جديداً

تهتزُّ أعطافُ الملوكِ لِمثلِها لو كانَ يوجدُ في القريضِ مثيلُها

تهتز أعطاف (خصور) الملوك طرباً لمثل هذه القصيدة، هذا لو كان يوجد في القريض (الشعر) مثيل لها

٨ خدعوها

قال شوقي (١٨٩١):

خدعوها بقولهم: حسناءُ والغواني يَغُرُّهُنَّ الثَّناءُ

خدعوها بقولهم إنها حسناء. والغواني (الجميلات) يغرهن الثناء

أتُراها تناستِ اسميَ لَمَّا كثُرتْ في غرامِها الأسماءُ

هل تناست اسمي عندما كثر المغرمون بها كثرة صاروا معها مجرد أسماء؟

إنْ رأتْنيِ تميلُ عنّي، كأنْ لمْ تَكُ بيني وبينَها أشياءُ

إن رأتني تنحرفْ عني كأنه لم يكن بيني وبينها أشياء. و«أشياء» هذه مليئة بالظرف والشعر، وفيها فخر الرجل وكذبه وتشدقه

نـظـرةٌ، فـابـتـسـامـةٌ، فـسـلامٌ   فـكـلامٌ، فـمـوعـدٌ، فـلـقـاءُ

بيت كهذا لا يتاح إلا في الفلتات

فـفـراقٌ يـكـونُ فـيـه دواءٌ   أو فـراقٌ يـكـونُ مـنـهُ الـدَّاءُ

ثم الفراق الذي إما أن يشفي الصدر من العلاقة، أو يكون داء (مرضاً) للقلب

يـومَ كُـنَّـا، ولا تَـسَـلْ كـيـفَ كُـنَّـا   نَـتَـهـادى مِـنَ الـهـوى مـا نـشـاءُ

أتذكَّرُ كيف كنا، ولا تسل (تسأل) كيف كنا! كنا نتهادى (نتبادل كالهدايا) ما نشاء من لوازم الغرام كالقبل والهمسات

وعـلـيـنـا مِـنَ الـعَـفـافِ رقـيـبٌ   تـعِـبـتْ فـي مِـراسِـهِ الأهـواءُ

وكان علينا رقيب هو عفافنا (والعفاف هو الامتناع الجنسي بانتظار الفرصة الأفضل)، وهو رقيب تعبت في مراسه (مغالبته) أهواؤنا (رغباتنا)

جاذبَتْني ثوبي العَصِيَّ، وقالتْ:   أنـتـمُ الـنـاسُ أيُّـهـا الـشـعـراءُ

جاذبتني (كانت تشد وأنا أشد) ثوبي العصي (الممتنع)، ـ كما فعلت امرأة العزيز بيوسف عندما جاذبته قميصه طلباً للفعل الجنسي ـ، وقالت لي: أنتم فقط الناس أيها الشعراء، فلا أحد غيركم جدير بالاهتمام

فاتقوا اللَّهَ في قلوبِ العذارى   فـالـعـذارى قـلـوبُـهُـنَّ هـواءُ

وقالت: اتقوا الله في قلوب العذارى، فقلوبهن رقيقة كالهواء. كتب أحمد شوقي في مقدمة الشوقيات (١٩٠٠): «رفعت إلى الخديوي السابق [محمد توفيق] قصيدتي التي مطلعها: خدعوها بقولهم حسناء/ والغواني يغرهن الثناء، والتي غزلها في أول الديوان، وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية وكان يحررها يومئذ أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدُفعت القصيدة إليه، وطُلِبَ منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل. ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر»

٩ نومة القلم موت

قال شوقي يمدح عباس حلمي الثاني (١٨٩٣):

قُـلْ لـراجٍ أنْ يَـسْـتَـرِقَّ يَـراعـي   أنـا لا أَشـتَـرِي بِـذَا الـتـاجِ قَـيْـدَا

قل لمن يرجو أن يسترق يراعي (يستعبد قلمي) إنني لا أرضى قيداً سوى ارتباطي بتاج مصر

نَـوْمَـةُ الـسَّـيْـفِ قـد تـكـونُ حـيـاةً   ورأيـتُ الـيَـراعَ إنْ نـامَ أَرْدى

نوم السيف في غمده قد يسبب بقاء الحياة للناس وإبعاد شبح القتل عنهم، وأما القلم فإذا نام عن الكتابة أردى (قتل) المجتمع بنومه

خَلَقَ اللَّهُ ذاكَ صاحِبَ غِمْدٍ   وبَرا ذا لا يعرِفُ الدهرَ غِمْدَا
وقد خلق الله السيف وخلق له غمدا (غلافاً)، وبرأ (خلق) القلم لا يُغمَدُ أبد الدهر

١٠ كبار الحوادث في وادي النيل

ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في جنيف بسويسرا في سبتمبر (١٨٩٤)، وكان مندوباً عن مصر:

هَمَّتِ الفُلْكُ، واحتواها الماءُ   وَحَداها بمن تُقِلُّ الرجاءُ
همت الفلك (السفينة) بالرحيل، ثم احتواها الماء، وحداها (سيَّرها) بمن تقل (تحمل) رجاء الوصول بسلام. فكأن السفينة ناقة يحدوها (يغني لها) الحادي؛ وما الحادي سوى الرجاء. ما أخلق مؤلفي كتب البلاغة المدرسية أن يجدوا في مثل هذا البيت مادة لتعذيب التلامذة!

قل لبانٍ بنى فشادَ فغالى: لم يَجُزْ مصرَ في الزَّمانِ بِناءُ
قل لمن يبني الصروح ويبالغ في رفعها: لم يجز (يتفوق على) مباني مصر في كل الزمن أي بناء

زعموا أنها دعائمُ شِيدتْ   بِيَدِ البَغْيِ، مِلْؤها ظَلْماءُ
زعموا أن مباني مصر، كالأهرام، دعائم للملك العظيم شِيدت (بُنيت) بيد البغي (الظلم)، وأن المباني مليئة بالظلام - ظلام تسخير الناس -

فاعذِرِ الحاسدينَ فيها إذا لا   موا، فصعبٌ على الحَسودِ الثناءُ
اعذر الحاسدين في شأنها إذا لاموا، فصعب على الحسود أن يمدح

لا رعاكَ التاريخُ يا يومَ قَمبيـ   ـزَ، ولا طَنطَنتْ بكَ الأنباءُ
لا رحمكَ التاريخ يا يوم (غزو/وأيام العرب غزواتها) قمبيز (ملك الفُرس)، ولا طنطنت (رددت) الأنباء بذكرك

بنتُ فِرعوْنَ في السَّلاسلِ تمشي   أزعجَ الدهرَ عُريُها والحَفاءُ
هذه بنت فرعون تمشي في قيودها، وعريها وحفاؤها يزعجان الدهر (أحرارَ الناس على مر الدهر)

فكأنْ لمْ ينهضْ بهَوْدَجِها الدهـ   ـرُ، ولا سارَ خلفَها الأُمراءُ
كأنما لم يحمل الدهر نفسه في أيام العز هودجها (والهودج إنما يحمله الجمل أو الفيل لا الدهر)، وكأنما لم يكن يسير خلفها الأمراء

وأبوها العظيمُ ينظرُ لمَّا   رُدِّيتْ مثلما تُردَّى الإماءُ
وأبوها فرعون كان ناظراً عندما رُدِّيتْ (أُلبست) كما تُلبَس الإماء (الجواري)

أُعطيتْ جَرَّة، وقيل إليكِ النَّـ ـهرَ، قومي كما تقومُ النساءُ

أُعطيت بنت فرعون جرة، وقيل: إليكِ (ها هو) النهر، قومي كغيرك من النساء!

فمشتْ تُظْهِرُ الإباءَ، وتحمي الدَّ ـمْعَ أن تَسْتَرِقَّهُ الضَّرَّاءُ

مشت وفي مِشيتها الإباء (العِزَّة)، وهي تحمي دمعها من أن تسترقه (تستعبده) الضرَّاء (المصيبة)

والأعادي شَوَاخِصٌ، وأبوها بِيَدِ الخَطْبِ صخرةٌ صمَّاءُ

والأعداء شاخصون (رافعو الرؤوس)، وأبوها واقع في قبضة الخطب (المصيبة) وكأنه صخرة صماء (مصمتة) لا تعابير على وجهه

فأرادوا لينظُروا دمعَ فِرْعَوْ نَ، وفِرْعَوْنُ دمعُهُ العَنْقاءُ

فأراد الأعداء أن يروا دمع فرعون، وفرعون دمعه العنقاء (الطائر الخرافي غير الموجود)، فلا وجود لشيء اسمه «دمع فرعون»

فأَرَوْهُ الصديقَ في ثوبِ فقرٍ يسألُ الجمعَ. والسؤالُ بلاءُ

فأروه صديقه في ثوب رث يدل على الفقر وهو يسأل الناس إحساناً. والسؤال بلاء

فبكى رحمةً، وما كان مَنْ يبـ ـكي، ولكنَّما أرادَ الوفاءُ

عندئذٍ بكى فرعون رحمة له، وما كان فرعون ممن يبكون، إنما أراد منه وفاؤه أن يبكي

وابْكِ عَمْراً إن كنتَ مُنْصِفَ عَمْرٍو إنَّ عَمْرواً لَنَيِّرٌ وَضَّاءُ

وابكِ، أيها السامع، عمرو بن العاص إن كنت منصفاً إياه ـ وما أكثر أعداء عمرو! ـ، فعمرو نيّر وضّاء (مشرق)

جادَ للمسلمينَ بالنيلِ، والنيـ ـلُ لِمَنْ يقتنيهِ إفريقِياءُ

فقد جاد للمسلمين (تفضّل عليهم) بالنيل بفتحه مصر، والنيل لمن يقتنيه (يملكه)، مفتاح إفريقية

واذكُرِ الغُرَّ آلَ أيُّوبَ وامدحْ فَمِنَ المدحِ لِلرجالِ جَزاءُ

واذكر الغر (المشرقين إشراقاً) آل أيوب (الأيوبيين)، وامدحهم، ـ فلئن كان كثير من المدح تزلفاً ـ فإن من المدح أيضاً جزاءً (مكافأة) للرجال

هكذا المسلمونَ والعَرَبُ الخا لونَ، لا ما يقولُهُ الأعداءُ

هذه حقيقة المسلمين والعرب الخالين (الماضين)، لا ما يقوله الأعداء

لـيسَ لـلـذُّلِّ حِيـلَـةٌ فـي نُـفـوسٍ   يـسـتـوِي الـمـوتُ عـنـدَهـا والـبَـقـاءُ

لا حيلة للذل في الوصول إلى نفوس ـ كنفوس أولئك العرب الفاتحين ـ يستوي (يتساوى) بالنسبة لها الموت والحياة. لغة شوقي الشاب (نحو ٢٦ سنة) غنية، مفعمة بالإشارات التاريخية، وتنبئ عن ثقافة عربية متينة، وهو يستعمل اللغة باقتدار ويقلبها بين يديه كيف شاء، متعسفاً حيناً، آتياً بالطريف حيناً. وهو مع ذلك يقول ما يريد، ولا تجره الألفاظ إلى أن يقول ما لا يريد. وهو يعبر عن موقف. وهذه القصيدة فيها نَفَس خطابي هو نَفَس الشعر العربي في عصوره الزاهية. هذه القصيدة تعود إلى سنة ١٨٩٤ ففيها انعقد مؤتمر المستشرقين العاشر في جنيف. وفي مقدمة شوقي لديوانه الصادر للمرة الأولى عام ١٩٠٠ قال إن المؤتمر عقد سنة ١٨٩٦، ولعل هذا منه نسيان أو إهمال. وقد تكرر هذا الغلط في إعادة طبع مقدمة الديوان في عدة كتب. لكن مؤتمرات المستشرقين مرصودة في عدة وثائق. أول مؤتمر لهم عقد قبل ذلك بمئة وعشرين سنة في باريس، وآخر مؤتمر ـ فيما وصل إلى علمنا ـ كان مؤتمر موسكو ٢٠٠٤، وهو السابع والثلاثون. والمؤتمر الذي حضره شوقي عقد في جنيف سنة ١٨٩٤ خلافاً لما تكاد تجمع عليه الكتب ومواقع الإنترنت. لا بد أن المستشرقين هزوا رؤوسهم دهشة وهم يسمعون مندوب مصر يلقي قصيدة، بدل أن يساهم ببحث علمي. ولكننا نعرف أن شوقي صنع علاقات طيبة مع عدد من المستشرقين، ولعل حماسة هذا الشاب الشرقي لمست ركناً في نفوسهم

١١ العاقبة الأكيدة

أرى الـمـوتَ عـلـى الـغَـبْـرا   هُـوَ الـجـامـعـةَ الـكُـبـرى

أرى الموت على الغبرا (الأرض) هو الجامعة الكبرى (هو العنصر الجامع بين الناس كلهم)، فهو القاسم المشترك بين الناس كلهم

هـو الـدربُ إلـى الـدنـيـا   هـو الـدربُ إلـى الأُخـرى

الموت هو الدرب إلى الدنيا، فلولا أن هناك ناساً يموتون لما كان ثمة موضع لناس يولدون، وهو الدرب إلى الأخرى (الحياة الأخرى)

فـإنْ لـمْ يَـكُ غـيـرُ الـمـو   تِ مِـنْ عـاقـبـةٍ تُـدرَى

فإذا لم يكن بعد الموت حياة تُدرى (تُعرف)..

فـإنْ شـئـتَ فـمُـتْ عـبـداً   وإنْ شـئـتَ فـمُـتْ حُـرَّا

فإن شئت فمت وأنت عبد، وإن شئت فمت وأنت حر، فما أقل الفرق بين عبد وحر في حياة زائلة لا يترتب عليها شيء

١٢ الدنيا بستان

وروضٍ، كما شاءَ المُحِبُّونَ، ظِلُّهُ ... لـهُـمْ ولأسـرارِ الـغـرامِ مَـديـدُ

رب روض (بستان) هو كما يريده المحبون، فظله ممتد يضمهم ويضم أسرار غرامهم

تُظلِّلُنا، والطيرَ، في جَنَباتِهِ ... غصونٌ قيامٌ للنسيمِ سجودُ

تظللنا، نحن والطيور في جنباته (نواحيه)، غصون ترتفع وتهبط مع النسيم (كما يقوم ثم يسجد المصلي)

وقامتْ لديها الطيرُ شتَّى فآنِسٌ ... بأهلٍ، ومفقودُ الأليفِ وحيدُ

ووقفت عند هذه الغصون أنواع الطير، فمنها الآنس (المنشرح) بأهل (بزوج)، ومنها الوحيد الذي لا أليف له

وباكٍ ولا دمعٌ، وشاكٍ ولا جوىً ... وجَذْلانُ يشدو في الرُّبى ويُشيدُ

ومنها من يبكي لكن بلا دمع، ومنها الشاكي لكن بلا جوى (حزن)، ومنها الجذلان (الفرِح) الذي يشدو (يغرد) في الهضاب ويشيد (يتغنى راضياً)

غشِيناهُ والأيامُ تَندَى شَبيبةً ... ويقطُرُ منها العيشُ وهْوَ رغيدُ

غشينا الروض (أتيناه) والأيام تندى (يغلفها الندى) لما نحن فيه من حلاوة الشباب، ويقطر العيش كالعسل من أيامنا رغيداً (هانئاً)

ونَحكُمُ حتى يَقبلَ الدهرُ حُكمَنا ... ونحنُ لسلطانِ الغرامِ عَبيدُ

ونحكم (نصر على رغباتنا) والزمن يقبل حكمنا وينفذ إرادتنا، لكننا عبيد لسلطان الغرام

أقولُ لأيامِ الصِّبا كلما نَأَتْ: ... أما لكَ يا عهدَ الشبابِ مُعيدُ

أقول لأيام الصبا كلما نأت (ابتعدت): أليس هناك من يعيدك يا عهد الشباب؟

ومِنْ عبثِ الدنيا، وما عبثَتْ سُدىً ... شَبَبْنا وشِبْنا والزمانُ وليدُ

ومن عبث الدنيا، وليس عبثها سدى (جزافاً)، أننا كنا شباباً ثم شبنا والزمان ما زال وليداً. الإنسان الطبيعي كلما تقدمت به السن يظن أن «الدنيا آخر وقت» لأن الزمن تغير كثيراً إلى حد الظن بأن أشراط الساعة أخذت تظهر؛ ولكنه عندما يرى كيف يستقبل أولاده وأحفاده من الدنيا ما استدبر يوقن أن الزمان يبقى طفلاً، وأنه هو فقط الذي شاخ

١٣ دهاء

قد أتعبَ الأعداءَ مَنْ داراهُمُ ... فأقِمْ عدوَّكَ باللِّيانِ وأَقْعِدِ

قد أتعب أعداءه فعلاً من داراهم. فاجعل عدوك يقوم ويقعد ويضطرب بما تبديه له من اللّيان (الملاطفة)

إنَّ الأراقمَ لا يُطاقُ لقاؤها   وتُنالُ مِنْ خَلْفٍ بأطرافِ اليدِ

إن الأفاعي لا يطاق لقاؤها من الأمام، لكنها تُنال (تُمسك) من الخلف بأطراف اليد (بالأصابع). اتخذ طه حسين، في مقال له من خمسين صفحة صغيرة سماه «حافظ وشوقي»، من هذين البيتين تكأة لكي يتحدث عن شخصية شوقي وعن نظرته إلى التجديد: «.. هو لا يستقبل التجديد ولكن يستدبره. وهو لا يدخل البيوت من أبوابها، ولكن يأتيها من ظهورها. وهو لا يجدِّد في صراحة وشجاعة وثبات للخصوم، ولكنه يجدد في لباقة ومداورة والتواء على المناهضين. وكأن هذه القاعدة صيغت من طبع شوقي فسيطرت على حياته الأدبية، وسيطرت على حياته الشخصية أيضاً. فهو لم يواجه الناس بتجديد عنيف في الأدب قط. وهو لم ينهض لخصومةِ ناقد من نقاده، بل لم يجرؤ على أن يلقى نقاده بالعتب. إنما كان يعاملهم معاملة الأراقم، لا يلقاهم ولكنْ يأخذهم من خلف بأطراف اليد. يغري بهم ويؤلب عليهم، ثم يلقاهم باسماً مراوغاً. ولا يتحرج من زيارتهم واستزارتهم كأنهم من أحب الناس إليه.. يُظهر لهم صفحة واضحة نقية، ومن وراء هذه الصفحة صفحات بيض، وصفحات سود». انتهى كلام طه حسين

١٤ صوني جمالك عنا

قال شوقي (١٨٩٤):

اللَّهَ في الخلقِ من صَبٍّ ومِنْ عانِ   تَفْنى القلوبُ ويبقى قلبُكِ الجاني

اللهَ (أي اتقي اللهَ) في الخلق: الصبُّ (المحب) منهم والعاني (الأسير بحبك). القلوب تفنى عشقاً ويبقى قلبك الجاني (المجرم)

صُوني جمالَكِ عنَّا، إنَّنا بشرٌ   مِنَ الترابِ، وهذا الحسنُ رُوحاني

احفظي جمالك بعيداً عن نظرنا، فنحن بشر من تراب وحسنك (جمالك) روحاني

١٥ نبتٌّ بين جوانحي

قال شوقي (١٨٩٤):

مُضْنىً وليس بِهِ حَراكْ   لكنْ يَخِفُّ إذا يَراكْ

عاشقكَ مضنىً (مريض) وليس به حراك، لكن يخف (يشفى/وينشط) إذا رآكَ

ويميلُ مِنْ طربٍ إذا   ما مِلْتَ يا غُصنَ الأَراكْ

ويميل من الطرب إذا ملتَ يا غصن الأراك (شجرٌ له ساق طويلة)

إن الجمالَ كساكَ مِنْ   وَرَقِ المحاسِنِ ما كَساكْ

إن الجمال كساك أيها الغصن ورقاً ليس كورق الشجر بل هو المحاسن نفسها

ونَـبَـتَّ بـيـنَ جـوانـحـي   والـقـلـبُ مِـنْ دمِـهِ سـقـاكْ

وقد نبتَّ أيها الغصن داخل جوانحي (أعضائي)، وسقاك قلبي من دمه

حـلـوَ الـوعـودِ! مـتـى وفـاكْ   أتُـراكَ مُـنـجـزَهـا تُـراكْ

يا حلوَ الوعود متى وفاءُك بها، هل أنت منجزها يا ترى؟

مِـنْ كـلِّ لـفـظٍ لـو أَذِنْـ   ـتَ لأجـلِـهِ قَـبَّـلْـتُ فـاكْ

ووعودك مكونة من كل لفظ عذب لو أذنت (سمحت) لي لقبلت فمك لأجله

يَـروِي الـحـلاوةَ عـن ثـنـا   يـاكَ الـعِـذابِ وعَـنْ لَـمـاكْ

وهذا اللفظ يروي (ينقل شفاهاً) الحلاوة عن ثناياك (أسنانك) العذبة، وعن لَماك (ريقك)

ظُـلـمـاً أقـولُ: جـنـى الـهـوى،   لـم تـجـنِ إلّا مُـقـلـتـاكْ

أنا أظلم الحق إذ أقول الجاني هو الهوى، ما جنى علي إلا مقلتاك (عيناك)

مـن عـلَّـمَ الأجـفـانَ فـي   أهـدابِـهـا مـدَّ الـشِّـبـاكْ

من الذي علَّم الأجفان القابعة خلف أهدابها (رموشها) أن تمد الشِّباك لنقَعَ فيها؟

وتَـصَـيُّـدَ الآسـادِ بـالـ   آجـامِ تـسـلُـبُـهـا الـحَـراكْ

ومن علمها تصيُّدَ الأسود في الآجام (الأدغال) فتسلبها الحراك؟

١٦ المخاطرة

قال شوقي (١٨٩٥):

عـرضـوا الأمـانَ عـلـى الـخـواطِـرْ   واسـتـعـرضـوا الـسُّـمْـرَ الـخـواطِـرْ

لقد عرضوا الأمان على الخواطر (النفوس) إذ استعرضوا قاماتهم الرشيقة الشبيهة بالسمر (الرماح) الخواطر (المهتزة). يتحدث عن الأغصان ويقصد النساء فمن هنا التذكير وخطاب العاقل

فـوقـفـتُ فـي حَـذَرٍ، ويَـأْ   بـى الـقـلـبُ إلّا أنْ يُـخـاطِـرْ

فوقفتُ حذِراً، والقلب يأبى إلا المخاطرة

يـا قـلـبُ! شـأنَـكَ والـهـوى   هـذي الـغـصـونُ وأنـتَ طـائـرْ

يا قلبي الزم شأنَك مع الهوى (أنت حر بشأن الهوى)، هذه النساء غصون، وأنت كالطائر

إنَّ الـتـي صـادتْـكَ تَـسْـ   ـعـى بـالـقـلـوبِ لـهـا الـنَّـواظِـرْ

أمر الحسناء التي صادتك هو: أن نواظر الناس (عيونهم) تسوق قلوب أصحابها إليها

١٧ وإنما الأمم الأخلاق

قال شوقي (١٨٩٥):

الصدقُ أرفعُ ما اهتزَّ الرجالُ لَهُ   وخيرُ ما عَوَّدَ ابْناً في الحياةِ أبُ

الصدق أرفع (أعلى) شيء اهتزَّ له الرجال (حركتهم الشهامة)، وخير ما يعوِّد الأبُ ابنَه في الحياة

وإنما الأممُ الأخلاقُ، ما بقيتْ،   فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهُمْ ذهبوا

والأمم بأخلاقها، طالما بقيت لها أخلاق. فإن لم تبق أخلاق لم تبق الأمم

١٨ الغبيّ والدنيّ

قال شوقي (١٨٩٥):

أخا الحلمِ مهلاً في المكارمِ والندى   وفي رحمةِ الحُسَّادِ والرفقِ بالعِدى

يا ذا الحلم (يا صاحب الحلم) تمهل ولا تبالغ في العفو والكرم، وفي الرفق بالحساد والأعداء

فلنْ تُدنيَ النفسَ التي قد قصدتَها   بحِلْمِكَ أقصى من هواها وأبعَدا

فلن تدني (تقرِّب) النفس التي طوقتها بحلمك بأكثر من رغبتها في الاقتراب

ومِنْ حُرمةِ النَّعْماءِ ألَّا تُنيلَها   غبياً فيَنْسى أو دَنيّاً فيَجْحَدا

ومن واجب النعماء (النعمة) عليك ألا تنيلها (تمنحها) شخصاً غبياً فإنه ينسى المعروف، ولا دنياً (دنيئاً حقيراً) فإنه ينكر المعروف

١٩ مماطلة

قال شوقي (١٨٩٦):

أذعَنَ للحُسْنِ عَصِيُّ العِنانْ   وحاولَتْ عيناكَ أمراً فكانْ

أذعن (خضع) للجمال هذا الرجل العصي العِنان (الممتنع، وكأنه الحصان الصعب الإمساك بعنانه)، وحاولت عيناكَ أمراً (إيقاعه في الحب) فكان لك ذلك

يا مُسْرِفاً في التِّيهِ ما ينتهي   أخافُ أن يَفنَى علَيْنا الزَّمانْ

أيها المسرف في التيه (المبالغ في التكبر) الذي لا ينتهي (يقلع) عن إسرافه، أخاف أن ينتهي الزمان نفسه وأنت ما تزال في تكبرك

ويا كثيرَ الدَّلِّ في عِزِّهِ   لا تنسَ لي عِزِّي قُبَيْلَ الهَوانْ

ويا كثير الدلّ (التدلل)، يا مفتخراً بعزه، لا تنس أنني كنت عزيزاً قبل الهوان (الذل) في حبك

٢٠ خير الأمور الوسط

قال في ذكرى الأمير محمد عبد المنعم (١٨٩٦):

وما الدنيا بمثوىً للعبادِ   فكنْ ضيفَ الرِّعايةِ والودادِ

الدنيا ليست مثوى (مقراً دائماً) للناس، فكن ضيفاً محاطاً بالرعاية والحب

ولا تَستكثِرَنَّ مِنَ الأعادي   فشرُّ الناسِ أكثرُهُمْ خُصوما

ولا تجعل أعداءك كُثراً، فأسوأ الناس أكثرهم خصوماً

ولا تجعلْ تودُّدَكَ ابتذالا   ولا تسمحْ بحِلْمِكَ أنْ يُذالا

ولا تبتذل ودك بمنحه لمن هب ودب، ولا تتسامح بحلمك أن يذال (يهان)

وكُنْ ما بينَ ذاكَ وذاكَ حالا   فلنْ تُرضيِ العدوَّ ولا الحَميما

كن وسطاً، فالمبالغة في التودد أو في التشدد غير مفيدة. وأنت ـ بعد ـ لن ترضي العدو والصديق الحميم معاً

٢١ رب الشعر

قال شوقي (١٨٩٧):

قَوافٍ لربِّ الشِّعرِ، لا النَّظْمُ طائلٌ   إذا هِيَ سارتْ في البلادِ ولا النقدُ

هذه قصائد لرب الشعر (صاحب الشعر)، لا النظم الآخَرُ طائل (نافع) في التفوق عليها إذا هي سارت (انتشرت) في البلاد، ولا النقد نافع في الحد من أثرها. كان داود عمون انتقد قصيدة سابقة لشوقي، فشوقي هنا يشير إليه. وقد عاد عمون فرد على شوقي قائلاً:

أكُلَّ الذي خطَّتْ يمينُكَ مُنْزَلٌ/ وكلَّ الذي يُلقيهِ فوكَ لنا شهدُ ـ على أنَّه لو كان خصميَ مُنصفي/ لكان جزائي عندَه الشكرُ والحمدُ ـ فإنيَ قد داويتُهُ من غرورِه/ ولوْلايَ كان الداءُ ينمو ويشتدُّ

أوانسُ أحياناً، شواردُ تارةً   لها لَعِبٌ آناً، وآناً لها جِدُّ

القصائد أوانس (أليفة) أحياناً، وشوارد (غريبة كالناقة الشاردة) أحياناً، وهي لاهية أحياناً، وجادة أحياناً

وتُؤْوي يتيماتِ الدُّهورِ بيوتُها   فتُمسي ومِنْ مَبْنى الجَلالِ لها مَهْدُ

وأبيات قصائدي تُؤوي المعاني اليتيمة (النادرة) التي لا تأتي إلا نادراً في الدهور، وتمسي هذه المعاني وقد جُعل مبنى الجلال (البناء اللفظي الفخم) مهداً لها. إنَّ حل كلامِ شوقي (تفسيره بالنثر) يلجئنا إلى الكثير من التحايل. تراه يسمي أبيات الشعر بيوتاً، ثم ترى ما وراء ذلك، فالبيت «يؤوي» المعاني، فهي أبيات لأنها من شعر، وهي بيوت لأنها تُؤوي. لغة شوقي مركب، ويسير فيها أكثر من تيار في آن معاً. ومن هنا تكتسب رنيناً أقوى، وتشحن المعنى وتكثفه

٢٢ جمدت عيني وعينك

قال شوقي يرثي والده (١٨٩٧):

انـظُـرِ الـكـونَ وقُـلْ فـي وصْـفِـهِ كـلُّ هـذا أصـلُـهُ مِـنْ أَبَـوَيْـنْ

انظر إلى الكون (يعني أهل الكون) وقل في وصفه: كل هذا أصله من رجل وامرأة

فَـقَـدا الـجـنَّـةَ فـي إيـجـادِنـا ونَـعِـمْـنا مِـنْـهُـما في جـنَّـتَـيْـنْ

فقدَ آدم وحواء الجنة في سياق عملية إنجابنا، ونعِمنا بهما بجنتين: الأب جنة، والأم جنة

يـا أبـي! والـمـوتُ كـأسٌ مُـرَّةٌ لا تـذوقُ النفسُ مِنها مرَّتـيْـنْ. .

يا أبي! بما أن الموت كأس مرة تذوقها النفس مرة واحدة. .

لا تـخـفْ بَـعـدكَ حُـزنـاً أو بُـكـا جَـمَـدَتْ مِـنِّـي ومِـنْـكَ الـيومَ عَـيْـنْ

فلا تخفْ عليَّ بعدك حزناً أو بكاء، فبموتك جمدت عيني فلن أبكي غيرك، وجمدت عينك لأنك مت

أنـتَ قـد عـلَّـمْـتَـنـي تَـرْكَ الأسـى كـلُّ زيْـنٍ مُـنـتـهـاهُ الـمـوتُ شَـيْـنْ

علمتني ترك الأسى (الحزن)، فكل أمر جميل منتهاه (مصيره) الموت هو على الحقيقة قبيح

لـيـتَ شِعـري! هـلْ لـنـا أنْ نـلـتـقـي مَـرَّةً، أمْ ذا افـتـراقُ الـمَـلَـوَيْـنْ

ليت شعري (يا تُرى) هل لنا أن نلتقي مرة أخرى، أم هذا الفراق بيننا كفراق المَلَوَيْن (الليل والنهار) فهما دائماً مفترقان لا يأتي أحدهما إلا بذهاب الآخر

٢٣ ليلة عجيبة

قال شوقي في مولد ابنته أمينة ووفاة والده (١٨٩٧):

يـا لـيـلـةً! سَـمَّـيْـتُـهـا لـيـلـتـي لأنـهـا بـالـنـاسِ مـا مَـرَّتِ

يا لها من ليلة، وقد سميتها ليلتي أنا دون غيري لأن مثلها لم يمر بأحد قبلي

نَـبَّـهَـنـي الـمَـقْـدورُ في جُـنْـحِـهـا وكـنـتُ بـيـنَ الـنـومِ والـيـقْـظَـةِ

أيقظني المقدور (القدر المحتوم) في وسطها، وكنت نصف نائم

الـمـوتُ عَـجْـلانُ إلـى والـدي والوضعُ مُستَعصٍ على زوجتي

كان أبي يحتضر والموت يعاجله، والولادة مستعصية على زوجتي

حـتـى بـدا الـصـبـحُ فـولّـى أبـي وأَقـبـلـتْ بـعـدَ الـعـنـاءِ ابـنـتـي

وبمجيء الصباح ذهب أبي، وجاءت بعد طول التعب ابنتي

فـقـلـتُ: أحـكـامُـكَ حِـرْنـا لـهـا   يـا مُـخـرِجَ الـحـيِّ مِـنَ الـمـيـتِ

فقلت: استبدت بنا الحيرة لأحكامك يا رب، يا من يخرج الحي من الميت

٢٤ الحكم للقوي

قال في الحرب بين تركيا واليونان سنة (١٨٩٧) ويخاطب السلطان عبد الحميد:

بسيفِك يعلو الحقُّ، والحقُّ أَغلَبُ   ويُـنـصَـرُ ديـنُ الـلـهِ أَيَّـانَ تَـضـرِبُ

الحق يعلو بسيفك، والحق ذو غلبة، ودين الله يُنصر أيان (أينما) تضرب وتحارب

وما السيفُ إلَّا آيةُ الملك في الوَرى   ولا الأمـرُ إلَّا لـلـذي يـتـغـلَّـبُ

وما السيف إلا آية (دليل) الملك عند الناس، وما الأمر (الحكم) إلا لمن يغلب في الحرب

سـهـرتَ ونـام الـمـسـلـمونَ بـغِـبطةٍ   ومـا يُـزعَـجُ الـنُـوّامُ والـسَّـاهـرُ الأبُ

سهرت ترعى شؤون المسلمين فناموا هانئين، ولا ينزعج النائمون أثناء نومهم إذا كان من يسهر عليهم هو أباهم

ولـمْ يـتـكـلَّـفْ قـومُـكَ الأُسْـدُ أُهْـبَـةً   ولـكـنَّ خُـلْـقـاً في الـسِّـبـاعِ الـتـأهُّـبُ

لم يتكلف قومك الأسود الاستعداد تكلفاً، فالاستعداد خلق (طبع أصيل) في السباع

أسأْتُمْ، وكان السُّوءُ منكمْ إليكمُ،   إلى خيرِ جارٍ عندَهُ الخيرُ يُطلَبُ

أسأتم أيها اليونانيون، وارتد السوء إليكم؛ أسأتم إلى أفضل جار، جارٍ يرتجى منه الخير

فلَوْلا سيوفُ التُّرْكِ جرَّبَ غيرُكمْ   ولـكـنْ مِنَ الأشـيـاءِ ما لا يُـجـرَّبُ

ولولا أن للترك قوة لجرب غيركم العصيان، ولكن هناك أشياء لا تجرَّب لخطورتها

لـقـد فَـنِـيَـتْ أرزاقُـهُـمْ ورجـالُـهـمْ   ولـيـس بِـفـانٍ طـيـشُـهُـمْ والـتـقـلُّـبُ

هؤلاء اليونانيون نفدت مؤنتهم وقُتل رجالهم، ولكن طيشهم وتقلبهم لا ينفدان

فإنْ يـجـدوا لـلـنفسِ بـالـعَـوْدِ راحـةً   فقد يشتهي الموتَ المريضُ المعذَّبُ

فإذا وجدوا في العودة للعصيان راحة، فهم كالمريض المتألم الذي يشتهي الموت

وإنْ هـمَّ بـالـعفـوِ الـكـريـمِ رجـاؤهـمْ   فـمِـنْ كَـرَمِ الأخـلاقِ ألَّا يُـخَـيَّـبـوا

وأمّا إن همَّ (تطلَّعَ) أملهم ورجاؤهم بالعفو الكريم، فمن حُسن الأخلاق ألا يُردَّ طلبهم

٢٥ أكُفٌّ تسيل بالخصور

قال شوقي يصف حفل رقص في قصر عابدين (١٨٩٧):

حَفَّ كأسَها الحَبَبُ فَهْيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ

أحاط بكأس الخمر الحبب (الفقاقيع)، فالفقاقيع مثل الفضة والخمر كالذهب

اَللُّيوثُ ماثِلَةٌ والظِّبَاءُ تَنْسَرِبُ

الليوث (الأسود/الرجال) واقفون متأهبون، والظباء (الغزلان/النساء) تنسرب (تنساب) أثناء الرقص

فالقُدودُ بانُ رُبىً بَيْدَ أنَّها تَثِبُ

وقدودهن مثل أغصان البان، بيد أنها (غير أنها) تقفز في الرقص

والخُصورُ واهِيَةٌ بالبَنانِ تَنْجَذِبُ

وخصورهن واهية (نحيلة ضعيفة)، ويجذبها الرجال بالبنان (أطراف الأصابع)

سالَتِ الأكُفُّ بها فَهْيَ أغْصُنٌ نُهُبُ

أكف الرجال سالت بالخصور، فهي غصون مليئة بالثمر وهي منهوبة على أيدي الرجال

والمُدامُ أكْؤُسُها ما تَغِيضُ والعُلَبُ

لا كؤوس الخمر تغيض (تنضب)، ولا العلب (الأوعية الأكبر/والعلبة هي الوعاء الذي يحلبون فيه الناقة، ولم تكن البيرة في زمن شوقي تُعَبَّأُ في العلب)

وَهْيَ بيْنَنا سَلَبٌ والنُّهَى لها سَلَبُ

والخمر بين الحاضرين سَلَب (غنيمة)، والنهى (العقول) غنيمة للخمر تأخذها وتذهب بها

ليلةٌ عَلَتْ وغَلَتْ ليتَ فَجْرَها كَذِبُ

ليلة عالية القدر وغالية علينا، ليت الفجر الذي جاء بعدها كان فجراً كاذباً (الفجر الكاذب يسبق الفجر الحقيقي بمدة)

٢٥ لا أحد بعدك

قال شوقي يرثي سليمان أباظة الذي كان وزير المعارف عقب الثورة العرابية (١٨٩٧):

من ظنَّ بعدَكَ أن يقولَ رثاءَ فليرثِ مِنْ هذا الورى مَنْ شاءَ

من أراد بعدك رثاء أحد فليرث من الورى (الناس) من يشاء فالناس متشابهون، وأنت فقط كنت المميز

فَجَعَ المكارمَ فاجعٌ في رَبِّها والمجدَ في بانيهِ والعلياءَ

فجع الموتُ المكارمَ وكانت الفجيعة في رب المكارم (صاحبها/أي المرثيّ)، وفجع الموتُ المجد بأخذه باني المجد، وفجع العلياء أيضاً

٢٧ أمينة في مصيدة البصر

قال شوقي في ابنته عندما بلغت سنة من عمرها (١٨٩٨):

أمينَتي في عامِها الـ أوَّلِ مثلُ المَلَكِ

ابنتي أمينة في عامها الأول مثل الملاك

صالحةٌ للحُبِّ مِنْ كُلٍّ ولِلتبرُّكِ

جديرة بالحب من الجميع، ويتبركون بها

فإنْ مَشَتْ فخاطِري يسبِقُها كالمُمْسِكِ

إن مشت ففكري يسبقها حتى ليكاد يمسكها خوفاً عليها وشغفاً بها

ألحَظُها كأنها مِنْ بَصَري في شَرَكِ

ألحظها (أتابعها ببصري) كأن بصري لها المصيدة فلا تفلت منه

إنَّ الليالي، وَهْيَ لا تنفكُّ حربَ أَهْلِكِ

إن الليالي (مشكلات الدنيا) وهي لا تنفك حرباً (معادية) لأهلك..

لوْ أنصَفَتْكِ طفلةً لكنتِ بنتَ الملكِ

لو أن هذه المشكلات كانت منصفة، يا طفلة، لكنت بنت الملك

٢٨ أنانية الطفل

قال شوقي في ابنته أمينة وكلبها:

يا حبَّذا أمينةٌ وكلبُها تحبُّهُ جداً كما يحبُّها

يا حبذا (ما أبدع!) أمينة وكلبها! وهي تحبه وهو يحبها

جاءت بِهِ إليَّ ذاتَ مَرَّةْ تحمِلُهُ، وهْيَ بِهِ كالبَرَّةْ

أحضرتْه إليَّ مرة تحمله وهي كأنها برَّة (بارّة) به

فقلتُ: أهلاً بالعروسِ وابنِها ماذا يكونُ يا تُرى مِنْ شأنِها

فقلت: أهلا بالعروس وابنها، فماذا شأنك؟

قـالـتْ: غُـلامـي يـا أبـي جَـوْعـانُ   ومــا لــهُ كــمــا لــنــا لــســانُ

قالت: غلامي جوعان، وليس له لسان ناطق مثلنا ليطلب الطعام

فَـمُـرْهُـمُ يـأتـوا بـخـبـزٍ ولَـبَـنْ   ويُـحـضِـروا آنـيـةً ذاتَ ثَـمَـنْ

فلتأمرهم حتى يحضروا له الخبز واللبن الحليب في وعاء ثمين

فـقـمـتُ كـالـعـادةِ بـالـمـطـلـوبِ   وجـئـتُـهـا أنـظـرُ مِـنْ قـريـبِ

فقمت بما طلبت كالعادة، ووقفت أنظر إليها من كثب

فـعَـجـنـتْ فـي الَّـلـبَـنِ الـلُّـبـابـا   كـمـا تَـرانـا نُـطـعِـمُ الـكـلابـا

فعجنتْ لُبَّ الخبز في اللبن الحليب، كما كانت ترانا نطعم الكلاب

ثــم أرادتْ أنْ تــذوقَ قــبــلَــهُ   فـاسـتـطْـعَـمَـتْ بـنـتُ الـكِـرامِ أكـلَـهُ

وأرادت أن تذوق قبله، فاستطعمت (ذاقت) أكله

هـنـاكَ ألـقـتْ بـالـصـغـيـرِ لِـلـورا   وانـدفـعـتْ تـبـكـي بـكـاءً مُـفـتَـرى

عندئذ رمت الكلب الصغير خلفها، وأخذت تبكي بكاءً مفترى (كاذباً)

تـقـولُ: بـابـا أَنـا دَحَّـا وهْـوَ كُـخّ   مـعـنـاهُ بـابـا لِـيَ وحـدي مـا طُـبِـخْ

وتقول: أنا دحًا وهو كخ، ومغزى كلامها هو أن هذا الذي «طبَخْتَه» لها وحدها

فـقـلْ لـمـنْ يـجـهـلُ خَـطْـبَ الآنـيـةْ   قـدْ فُـطِـرَ الـطـفـلُ عـلـى الأنـانِـيَـةْ

المعنى الملموح: نعم، «كل إناء بما فيه ينضح» والإناء في هذا القول القديم هو نفوس البشر.
فقل لمن يجهل خطب (موضوع) الآنية (النفوس)، إن الطفل أناني بفطرته

٢٩ بنتي الغالية

قال شوقي وقد أتمت ابنته أمينة السنة الثانية:

أمـيـنـةُ يـا بِـنـتـيَ الـغـالـيـةْ   أُهَـنِّـيـكِ بـالـسـنـةِ الـثـانـيـةْ

وأسـألُ أن تـسـلـمـي لـي الـسـنـيـنَ   وأن تُـرزَقـي الـعـقـلَ والـعـافـيـةَ

أسأل الله أن تسلمي لي طول السنين، وأن ترزقي العقل الراجح والصحة

وأن تُـقْـسَـمـي لأَبَـرِّ الـرجـالِ   وأنْ تَـلِـدي الأَنْـفُـسَ الـعـالـيـةْ

وأن تقسَمي (تكونين في قسمة ونصيب) لأبرّ رجل (رجل كثير البِرّ والفضل)، وأن تنجبي أبناء نفوسهم متطلعة للأعلى

ولـكـنْ، سـألـتُـكِ بـالـوالـديـنِ   ونـاشـدتُـكِ الـلُّـعَـبَ الـغـالـيـةْ
ولكن، أسألك بالوالدين، وأحلِّفك بلعبك الغالية عليك (وعلينا أيضاً؟)

أَتـدْريـنَ مـا مـرَّ مـنْ حـادثٍ   ومـا كـانَ فـي الـسـنـةِ الـمـاضـيـةْ
أتعرفين ما مرَّ من أحداث، وما وقع في السنة الماضية؟

وكَـمْ بُـلْـتِ فـي حُـلَـلٍ مِـنْ حـريـرٍ   وَكَـمْ قـدْ كـسـرتِ مِـنَ الآنـيـةْ
وكم قد بُلْتِ في حلل (أثواب) من حرير، وكم كسرت من الأواني؟

وكـمْ سَـهِـرَتْ فـي رضـاكِ الـجـفـونُ   وأنـتِ عـلـى غَـضَـبٍ غـافـيـةْ
وكم سهرتْ جفوننا لترضيكِ، وأنت تنامين غاضبة؟

وكـمْ قـد خَـلَـتْ من أبيكِ الـجـيـوبُ   ولـيـسـتْ جـيـوبُـكِ بـالـخـالـيـةْ
وكم مرة خلا جيب أبيك من المال، وجيوبك ملأى (بالحلوى)؟

وكـمْ قـد شـكـا الـمُـرَّ مـن عَـيْـشِـهِ   وأنـتِ وحَـلـواكِ فـي نـاحـيـةْ
وكم شكا أبوك عيشته المُرَّة، وأنت منتبذة مكاناً قصياً ولا هم لك إلا الحلوى؟

وكـمْ قـد مـرضْـتِ فـأسْـقـمـتِـهِ   وقـمـتِ فـكـنـتِ لـهُ شـافـيـةْ
وكم قد مرضت فمرض أبوك لمرضك، وقمت من المرض فشفيته بقيامك؟

ويَـضـحـكُ إنْ جـئـتِـهِ تـضـحـكـيـنَ   ويـبـكـي إذا جـئـتِـهِ بـاكـيـةْ
ويضحك إن ضحكت، ويبكي إن بكيت

ومِـنْ عَـجَـبٍ مـرَّتِ الـحـادثـاتُ   وأنـتِ لأحـداثِـهـا نـاسـيـةْ
كل هذا مرَّ، وأنت ناسية كل شيء

فـلـوْ حَـسَـدتْ مـهـجـةٌ وُلْـدَهـا   حـسـدتُـكِ مِـنْ طـفـلـةٍ لاهـيـةْ
لو كان يمكن أن تحسد المهجة (القلب) ولدها، لحسدتك أيتها الطفلة التي تلهو دائماً

٣٠ وقد جنيت على علي

قال شوقي في مولد ابنه علي، حوالي سنة (١٨٩٨):

صـار شـوقـي أبـا عـلـي   فـي الـزمـان الـتَّـرَلَّـلـي
صار شوقي «أبا علي» في هذا الزمان التَّرَلَّلي (المتقلب/ كلمة تركية الأصل)

وَجَناها جنايةً ليس فيها بأوَّلِ

وجنى شوقي جناية على ولده بأن أتى به للدنيا، وهو ليس أول جانٍ، فأبو شوقي جنى على شوقي

٣١ العبقرية لا تورث

قال شوقي في مولد ابنه علي، حوالي سنة (١٨٩٨):

رُزِقتُ صاحبَ عهدي وتمَّ لي النسلُ بعدي

رزقت وليّ عهدي، وضمنت أن يستمر نسلي

هُمْ يحسُدوني عليهِ ويغبِطوني بِسَعْدي

يحسدونني عليه، ويغبطونني (يتمنون لأنفسهم مثلي بلا حسد) بسعدي (حظي)

ولا أَراني ونَجْلي سنلتقي عندَ مَجْدِ

ولا أرى أن ابني سيساويني في المجد والمكانة

وسوفَ يعلمُ بيتي أنِّي أنا النسلُ وحدي

سوف يعلم أهل بيتي أن النسل الحقيقي الذي سيخلد هو أنا فقط

فيا عليِ لا تلُمْني فما احتقارُكَ قصْدي

فلا تلمني على هذا القول يا علي، فلست أقصد احتقارك (تصغير شأنك)

وأنتَ منِّي كَروحي وأنتَ مَنْ أنتَ عِندي

فأنت بالنسبة لي مثل روحي، وأنت هو أنت عندي وكفى

فإنْ أساءَكَ قَوْلي كَذِّبْ أباكَ بِوعدِ

فإن ساءك قولي، فتفضل كذِّبني بوعد بأن تكون نابغاً

٣٢ ظالم

قال شوقي (١٨٩٨):

علِّموهُ كيف يجفو فجفا ظالمٌ لاقيتُ منْهُ ما كفى

علِّموه كيف يجفو (يهجر) فجفا، هذا الظالم لاقيت منه ما يكفي

مسرِفٌ في هجرِهِ، ما ينتهي أتُراهُمْ عَلَّموهُ السَّرَفا

يبالغ في الهجر، ولا ينتهي (لا يكفُّ)، فهل تُراهم علموه أيضاً السَّرَف (الإسراف)

٣٣ رثاء الجدة

قال شوقي يرثي جدته لأمه واسمها تمزار، وهي من معتوقات إبراهيم باشا وأصلها من بلاد المورة «اليونان»، جلبت منها أسيرة حرب، قالها عام (١٨٩٨):

خُلِقنا للحياةِ ولِلمماتِ ... ومِنْ هذينِ كلُّ الحادثاتِ

خلقنا لنحيا ثم لنموت، ومن الحياة والموت تتشكل كل أحداث الدنيا

صلاةُ اللَّهِ يا تِمْزارُ تُجزي ... ثَراكِ عَنِ التِّلاوةِ والصلاةِ

صلاة الله (ثناؤه) يا جدتي تمزار تجزي (تُغني) تربتك عن التلاوة والصلاة

تَبَنّاكِ الملوكُ، وكنتِ مِنهُمْ ... بمنزلةِ البَنينَ أوِ البناتِ

تبناك الملوك، وكنت منهم (أي بالنسبة لهم) بمنزلة ابن أو بنت حقيقيْن

وما مَلَكُوكِ في سوقٍ، ولكنْ ... لدى ظِلِّ القنا والمُرهَفاتِ

ولم يشتروك في سوق العبيد، ولكنهم أخذوك سبية تحت ظل القنا (الرماح) والمرهفات (السيوف)

عَنَنْتِ لهُمْ بمُورَةَ بِنْتَ عَشْرٍ ... وسيفُ الموتِ في هامِ الكُماةِ

عننتِ (برزت) لهم في المورة (بلاد اليونان) وعمرك عشر سنين، وكان الموت وقتها ينزل في هام (رؤوس) الكُماة (المسلحين)

تَبِعْتِ محمداً مِنْ بعدِ عيسى ... لِخَيرِكِ في سِنِيكِ الأُولَياتِ

أسلمت بعد أن كنت من أتباع عيسى، وهذا كان خيراً جاءك في سنوات عمرك الأولى

ولوْ لم تَظْهَري في العُرْبِ إلَّا ... بأحمدَ كنتِ فخرَ الوالداتِ

ولو لم تظهري (يبرز اسمك) عند العرب إلا بأحمد (أي هو/حفيدها أحمد شوقي) لكنت فخر الوالدات (فُضْلاهنّ)

وأنظُرُ في ترابِكِ ثم أُغْضي ... كما يُغضي الأبيُّ على القَذاةِ

أنظر إلى قبرك ثم أغضي (أخفض بصري)، مثلما يخفض الأبي (العزيز النفس) بصره على القذاة (الوسخ في العين/والمقصود الإهانة التي لا يستطيع ردها)

وأذكُرُ مِنْ حياتِكِ ما تَقَضَّى ... فكانَ مِنَ الغَداةِ إلى الغَداةِ

عندما أتذكر ماضي حياتك الذي انقضى أراه كأنما كان من الغداة (الصباح) إلى الصباح التالي، فعمر المرء يمر بلمحة بصر. تعليق عمران القفيني: «شوقي هنا المتنبي لا راح ولا جاء»، يشير إلى قصيدة المتنبي في رثاء جدته.. وعندما رثى شوقي أمه اتخذ قافية المتنبي وبحره، وفي قصيدته «ضخما» أيضاً لكن الضخم عند شوقي كان موكباً لا شخصاً.. انظر القطعة ١٧٢

٣٤ السلام وفطرة السباع

قال شوقي في ديسمبر (١٨٩٩):

صِـغـارٌ بـحُـلـوانَ تَـسـتـبـشِـرُ ورؤيـتُـهـا الـفـرحُ الأكـبـرُ

الصغار في «حلوان» (الضاحية التي كان شوقي يسكن بها آنذاك) مستبشرون (فرحون) بقدوم العيد، والفرح الأكبر هو رؤيتنا لهم

تَـهُـزُّ الـلـواءَ بِـعـيـدِ الـمـسـيـحِ وتُـحْـيـيـهِ مِـنْ حـيـثُ لا تَـشـعُـرُ

يلوّحون بأعلام صغيرة في عيد السيد المسيح، ويحيون العيد غير عارفين بمغزاه

ومِـنْ عَـجَـبٍ مِـنْـهُـمُ الـمـسـلـمو نَ، أوِ الـمـسـلـمـونَ هُـمُ الأكـثـرُ

والعجيب أن منهم مسلمين، بل أكثرهم مسلمون

فـلاسـفـةٌ كـلُّـهُـمْ فـي اتِّـفـاقٍ كـمـا اتَّـفـقَ الآلُ والـمَـعْـشَـرُ

هؤلاء الأطفال فلاسفة في التسامح، ومتفقون على هذا العيد كاتفاق أهاليهم

دِسِـمْـبَـرُ شعـبـانُ عـنـدَ الـجـمـيـعِ وشـعـبـانُ لـلـكـلِّ ديـسِـمْـبَـرُ

فشهر ديسمبر (وفيه عيد الميلاد عند الغربيين، أما الأقباط فيحتفلون به في أوائل يناير، ولعل شوقي يصف هنا احتفال أجانب مصر بعيد الميلاد) هو بالنسبة للجميع كشعبان (الذي يحتفل المسلمون في منتصفه)، والعكس بالعكس

فيا لـيـتَ شِـعـرِي! أَضَـلَّ الـصـغـارُ أمِ الـعـقـلُ مـا عـنـهُـمُ يُـؤْثَـرُ

فهل يا ترى أخطأ الصغار، أم ما يؤثر (يؤخذ) عنهم هو العقل بعينه؟

سـؤالٌ أقـدِّمُـهُ لـلـكـبـارِ لـعـلَّ الـكـبـارَ بِـهِ أخـبَـرُ

ولـي طـفـلـةٌ جـازتِ الـسـنـتَـيْـنِ كـبـعـضِ الـمـلائـكِ أو أطْـهَـرُ

ولي طفلة جازت (تخطت) السنتين، وهي كملاك من الملائكة أو أطهر من ملاك

بِـعـيْـنـيـنِ فـي مـثـلِ لـونِ الـسـمـاءِ وسِـنَّـيْـنِ يـا حـبَّـذا الـجَـوْهـرُ

عيناها زرقاوان، ولها سنان كجوهرتين

أَتَـتْـنـي تُـسـائـلـنـي لُـعْـبَـةً لـتـكـسـرَهـا ضـمـنَ مـا تـكـسـرُ

جاءت تطلب مني لعبة، لتكسرها ضمن ما تكسر من أشياء

فـقـلـتُ لـهـا: أيُّـهـذا الـمـلاكُ تُـحِـبُّ الـسـلامَ، ولا أُنـكِـرُ

فقلت لها: يا أيها الملاك، أنت تحب السلام، ولا أنكر عليك ذلك

ولـكـنَّ قـبلَـك خـابَ الـمـسـيـحُ   وبـاءَ بـمـنـشـورِهِ الـقـيـصـرُ

ولكن المسيح من قبلك خاب مسعاه السلمي، والقيصر باء (خاب) بمنشوره الداعي لتوحيد المسيحيين. (أصدر القيصر قسطنطين الأول عقب عقده المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م، منشوراً بتوحيد عيد الفصح بين المسيحيين في الإسكندرية وروما والقدس وغيرها من أعمال روما. وقد التزم الشرقيون بهذا، ولكن الغربيين نقضوه بعد مئات السنين في عهد البابا غريغوري)

فـلا تَـرْجُ سِـلْـمـاً مِـنَ الـعـالَـمِـيـنَ   فـإنَّ الـسِّـبـاعَ كـمـا تُـفْـطَـرُ

فلا ترج (تأمل) سلماً من الناس، فالسباع تبقى كما تُفطَر (تخلق)

ومَـنْ يَـعْـدَمِ الـظُّـفْـرَ بـيـنَ الـذئـابِ   فـإنَّ الـذئـابَ بِـهِ تَـظْـفَـرُ

ومن يعدَم (يفقد) الظُّفْر (يقصد التوحُّش) بين البشر، الذين هم كالذئاب، ظفرت به الذئاب

٣٥ ثأر القدس

قال شوقي في «آيا صوفيا» الكنيسة التي شيدت عام ٥٣٢م، وحُوِّلت إلى مسجد عام ١٤٥٣م، ثم حُوِّلت إلى متحف عام ١٩٣٥م، بعد وفاة شوقي بثلاث سنوات، ولا تزال متحفاً. قال القصيدة سنة (١٨٩٩):

كـنـيـسـةٌ صـارتْ إلـى مـسـجـدِ   هـديـةُ الـسَّـيِّـدِ لـلـسَّـيِّـدِ

كنيسة تحولت إلى مسجد، فهي هدية السيد المسيح لسيد الإسلام محمد

كـانـتْ بـهـا الـعـذراءُ مـن فِـضَّـةٍ   وكـانَ رُوحُ الـلـهِ مِـنْ عَـسْـجَـدِ

كان بها تمثال للعذراء من الفضة، وكان تمثال روح الله (المسيح) من عسجد (ذهب)

جَـلّاهـمـا فـيـهـا وحَـلّاهـمـا   مُـصَـوِّرُ الـرومِ الـقـديـرُ الـيـدِ

جلاهما (أبرزهما) في الكنيسة، وحلاهما (زينهما بالحُليِّ) مصور (نحّات) الروم ذو اليد الماهرة

فـقـلْ لِـمَـنْ شـادَ فَـهَـدَّ الـقُـوى   قُوى الأجيرِ الـمُتْـعَـبِ المُجْهَدِ..

فقل لمن بنى هذا البناء المهيب وهد قوى العمال المتعبين..

كـأَنَّـهُ فِـرْعَـوْنُ لـمـا بَـنـى   لِـرَبِّـهِ بـيـتـاً فـلـمْ يـقْـصِـدِ..

إنه مثل فرعون عندما بنى لربه بيتاً (الأهرام) فلم يقصد (لم يقتصد، بل بالَغَ)

أيُـعْـبَـدُ الـلَّـهُ بِـسَـوْمِ الـوَرى   ما لا يُـسـامُ الـعَـيْـرُ في الـمِـقْـوَدِ

قل له: هل يُعبَدُ الله بسوم (بتكليف) الورى (الناس) ما لا يسام (يكلَّف) العيْر (الحمار) وهو مقيد بمقْوده

كـنـيـسـةٌ كـالـفَـدَنِ الـمُـعـتَـلـي ومـسـجـدٌ كـالـقـصْـرِ مِـنْ أَصْـيَـدِ

هذه كنيسة كأنها الفدن (القصر) العالي، وصارت مسجداً كانه قصر من الأصيَد (الحجر اللامع)

والـلَّـهُ عـنْ هـذا وذا فـي غِـنـىً لـوْ يـعـقـلُ الإنـسـانُ أو يَـهـتـدي

والله في غنى عن المعابد لو يعقل الإنسان ويهتدي للحق

قـد جـاءَهـا الـفـاتـحُ فـي عُـصْـبـةٍ مِـنَ الأسْـودِ الـرُّكَّـعِ الـسُّـجَّـدِ

محمد الفاتح جاء إلى الكنيسة ومعه عصبة (جماعة) من الأسود (الرجال الأشداء) الركَّع السجَّد

فـكـبَّـروا فـيـهـا، وصـلَّـى الـعِـدى واخـتـلـطَ الـمـشـهَـدُ بـالـمـشـهَـدِ

فكبروا في الكنيسة، وصلى الأعداء أيضاً صلاتهم، فاختلط المشهدان

فـخـانَـهـا مِـنْ قـيـصـرٍ سـعـدُهُ وأُيِّـدَتْ بـالـقَـيْـصَـرِ الأسـعَـدِ

وفيها خان قيصرَ الروم البيزنطيين سعدُه (حظه)، ووجدت تأييداً من القيصر الأسعد (ذي الحظ الأوفر/ محمد الفاتح)

ونـابَ عـمَّـا كـانَ مِـنْ زُخْـرُفٍ جـلالـةُ الـمـعـبـودِ فـي الـمـعـبـدِ

وناب عما كان فيها من زخارف جلالة الله الذي يُعبد في هذا المعبد

فـيـا لَـثـأرٍ بـيـنـنـا بـعـدَهُ أقـامَ لـم يـقـرُبْ ولـم يَـبْـعُـدِ

فيا له من ثأر بيننا بعد هذا الفتح، وقد أقام (استمر) الثأر، لم يقترب من التحقق ولم يبتعد بل ظل في النفوس كامناً

بـاقٍ كـثـأْرِ الـقُـدْسِ مِـنْ قَـبْـلِـهِ لا نـنـتـهـي مـنْـهُ ولا يَـبْـتَـدي

وهو باق كثأر القدس قبله (التي احتلها الصليبيون ثم أخرجوا منها)، ولا ننتهي من أمر هذا الثأر، ولا هو يبتدئ في التحول إلى حرب دموية

قال شوقي هذا قبل أن يجهز الأوروبيون على الدولة العثمانية، وكانوا في زمنه يقضمون سيادتها بشتى الوسائل ويحتلون بعض أطرافها كمصر

فـلا يَـغُـرَّنْـكَ سـكـونُ الـمَـلا فـالـشـرُّ حـولَ الـصـارمِ الـمُـغْـمَـدِ

فلا تغترَّ بسكون الملأ (القوم)، فالشر يحوم حول الصارم (السيف) المغمد (الكامن في غمده)

لـنْ يـتـركَ الـرومُ عـبـاداتِـهِـمْ أو يـنـزلَ الـتـركُ عَـنِ الـسُّـؤدَدِ

لن يترك الروم تعبدهم في هذه التي كانت كنيسة إلا إن ينزل (يتنازل) الترك لهم عن السيادة عليها. في القصيدة قراءة للتاريخ تشبه كثيراً ما نجده في هذا الزمن (٢٠٠٨م) عند الإسلاميين من متشددين ومعتدلين، وعند كثيرين من بسطاء الناس. ولعل هذه القراءة تحتوي على قدر من الصحة أكبر بكثير مما يظن المثقفون، ولا سيما أولئك

الذين صاغ الغرب ثقافتهم أو أثر في وجدانهم. قد قرأ ماركس التاريخ من جهة الاقتصاد، أما توينبي فنظر إليه من جهة الدين. ولا أشك أن هناك طريقة ثالثة أو رابعة تجمع العوامل في توليفة أقرب إلى الصحة. شوقي هنا شاعر الإسلام الذي يحس بالموجة الأوروبية المقبلة، ولكنه يفسرها من ثقب باب الدولة العثمانية دون التفات كبير للمصالح الاستعمارية

٣٦ المستحيل

قال شوقي (١٨٩٩):

لا والقوامِ الذي، والأعينِ اللاتيِ ما خنتُ رَبَّ القنا والمَشْرَفِيَّاتِ

لا وحق القوام الذي ـ سباني ـ، والأعين اللاتي ـ ذبحنني ـ، ما خنتُ صاحب القنا (الرماح) والمشرفيات (السيوف). واضح أن قوامها معتدل كالرمح، وعينيها ذبّاحتان كالسيف

ولا أردتُ لِسهمِ اللحظِ في كَبِدي رَدّاً، ولا رأيَ لِي في المُستحيلاتِ

ولا أردت أن أردَّ سهم لحظها (نظرتها) الذي وقع في كبدي، وليس لي حتى رأي (تفكير) في ذلك فهو من المستحيلات

وأنتَ تَطْرَبُ للواشي وتُطْمِعُهُ كالطفلِ ألقى بِسَمْعٍ للخرافاتِ

وأنت أيها المحبوب تطرب لكلام الواشي (ناقل الكلام)، وتُطمِعه (تشجعه)، كأنك الطفل الذي يلقي سمعه (يصدق) للخرافات

إن السهامَ إذا ما واصَلَتْ غَرَضاً كانت خواطِئُها مثلَ المُصيباتِ

إن كلام الواشي كالسهام التي إن ظلت تُرمى نحو المرء تزعجه الخواطئ منها (التي تخطئ الهدف) كما تزعجه المصيبات (التي تصيب الهدف)

هذا بيت يفهمه من تعرض لحملات تشنيع، ومن اشتغل مديراً

٣٧ زاحِم

قال شوقي في دخول ابنه علي السنة الثانية (١٩٠٠):

هـذهِ أولُ خُـطْـوَةْ هـذهِ أولُ كَـبْـوَةْ

هذه أول خطوة لك، وأول كبوة (سقْطة)

يـا عـلـيِ! إنْ أنـتَ أوفـيْـتَ عـلـى سِـنِّ الـفُـتُـوَّةْ

يا علي! إن أوفيت (قاربت) على سن الفتوّة، وصرت فتى يافعاً

دافـعِ الـنـاسَ وزاحِـمْ وخُـذِ الـعَـيْـشَ بـقُـوَّةْ

فزاحم الناس، وخذ حقك ورزقك بقوة

لا تـقُـلْ: كـان أبـي، إيَّـــ ـاكَ أنْ تــحــذُوَ حَـــذْوَهْ

لا تقل: كان أبي يفعل كذا، إياك أن تحذو حذوي

أنـا لـمْ أَغـنـمْ مِـنَ الـنَّـا سِ سـوى فـنـجـانِ قـهـوةْ

فأنا لم أغنم (أكسب) من الناس شيئاً، ربما فنجان قهوة فقط

أنـا لـمْ أُجْـزَ عَـنِ الـمـد حِ مِـنَ الأَمْـلاكِ فَـرْوَةْ

ولم أُجْزَ (أكافَأ) عن المدح من الأملاك (الملوك) فروة (كسوة فرو/وكانت الملوك تعطي الشعراء الملابس جوائز لهم)

أنـا لـمْ أُجْـزَ عَـنِ الـكُـتْـ ـبِ مِـنَ الـقُـرَّاءِ حُـظْـوَةْ

ولم أجز (أكافأ) عن كتبي بحظوة (مكانة) من القراء

ضـيَّـعَ الـكـلُّ حـيـاتـي وعَـفـافـي والـمُـرُوَّةْ

كلهم ضيَّع لي حياتي وعفافي والمروءة (كرم النفس)

٣٨ أنا الغريق..

قـلْ لـلـزَّمـانِ يَـصُـبُّ مِـنْ أحـداثِـهِ أو لا يـصـبُّ فـمـا بِـنـا إشـفـاقُ

ليصبَّ الزمان أحداثه (مصائبه) إن شاء أو لا يصب فليس بنا إشفاق (خوف)

غـمـرتْ مـصـائـبُـهُ فـأغْـرَقَـنـا بِـهـا والـغَـمْـرُ فـيـهِ تـسـتـوي الأَعـمـاقُ

غمرتنا مصائبه، وفي الغمْر تستوي (تتساوى) الأعماق، فإن غَمَرَنا من الماء شبر أو متر فالحال واحدة

٣٩ طعين القدود

لا تـأخُـذَنَّ مِـنَ الأمـورِ بِـظـاهِـرٍ إن الـظـواهـرَ تـخـدعُ الـرَّائـيـنـا

لا تأخذ بظواهر الأمور، فهي تخدع الناظرين

فَلَكَمْ رجعتُ مِنَ الأَسِنَّةِ سالماً وصَدَرْتُ عَنْ هِيفِ القدودِ طَعِينا

فكثيراً ما عدتُ سالماً بعد مطاعنة بالأسنة (أطراف الرماح)، وصدرت (رجعت) بعد تعرضي للقدود الهِيف (بوزن البِيض/القدود الهيفاء الرشيقة) طعيناً (مطعوناً)

٤٠ الشكر

هَـل تـرى أنـتَ، فـإنـي لـمْ أجِـدْ   كـجـمـيـلِ الصُّنْعِ بـالـشـكـرِ اقـتِـرانـا
هل ترى رأيي، فأنا لم أجد كالاقتران بين المعروف والشكر عليه

وإذا الـدنـيـا خَـلَـتْ مِـنْ خَـيِّـرٍ   وخَـلَـتْ مِـنْ شـاكـرٍ هـانـتْ هَـوانـا
فإذا خلت الدنيا من خيِّر وممن يشكره هانت هواناً (أصبحت تافهة)

٤١ عشق العلياء

هِـيَ الـجـزيـرةُ فـاحـذرْ فـتـنـةَ الـنـظرِ   وكيفَ، والـحُـبُّ يأتِي غيرَ منتَظَرِ
إنها الجزيرة (الجزيرة وسط النيل في القاهرة) فاحذر أن يفتنك نظرك، وكيف لك أن تنجح في حذرك والحب يأتي فجأة

أرضٌ ترى الأُسْدَ تَرعىَ في ملاعبِها   فكلُّ ماشٍ عليْها راكبُ الـخَطَرِ
هذه أرض ترى الأسود ترعى في ملاعبها (رياضها)، فكل من يمشي فيها يركب الخطر

آليتُ لا دارتِ الأشواقُ في خَلَدي   ولا قطعتُ الليالي واصِلَ الفِكَرِ
آليت (حلفت) ألا تدور الأشواق في خلدي (بالي)، وألا أمضي الليالي مفتكراً..

ولا أجابتْ سوى داعي التُّقى مُقَلِي   ولا وقفتُ على غيرِ العُلى سَهَري
وألا تجيب مقلي (عيوني) سوى ما يدعوني إلى التقوى، وألا أقف (أكرس) سهري على غير العلى (الطموحات الكبيرة)..

ولا عشقْتُ سوى العلياءِ غانيةً   ولا كَلِفْتُ بغيرِ المجدِ والخَطَرِ
وحلفت ألا أعشق غانية (حسناء) سوى العلياء (المجد)، وألا أكْلَفَ (أهيم) إلا بالمجد والخطر..

ولا استعنتُ على دهري سوى قلمي   ولا صحِبْتُ سوى الصَّمصامةِ الذَّكَرِ
وحلفت ألا أستعين على زمني بغير قلمي، وألا أصحَبَ سوى الصمصامة (السيف) الذَكَر (ذي الحديد الصلب)

٤٢ الفجر الضائع

قـلـبٌ يـذوبُ ومَـدْمَـعٌ يـجـري   يـا لـيـلُ هـلْ خـبـرٌ عَـنِ الـفَـجْـرِ
مثلما يسأل المرء عن غائب طال أمد غيابه يَسأل شوقي الليل: هل جاءك خبر عن الفجر؟

٤٣ العمر ليلة

يا ناعِماً رَقَدَتْ جُفونُهْ مُضناكَ لا تَهدا شُجونُهْ

يا ناعماً (منعَّماً في عيشته) رقد وأغمض جفونه، مضناك (عاشقك الذي أضنيته وأمرضته) لا تهدأ شجونه (أحزانه)

حملَ الهوى لكَ كلَّهُ إن لمْ تُعِنْهُ فَمَنْ يُعينُهْ

عاشقك حمل وحده ثقل الهوى كله، فإن لم تعنه (تساعده) فمن يعينه؟

ما العمرُ إلَّا ليلةٌ كانَ الصباحَ لها جبينُهْ

ما العمر إلا ليلة صباحها يطلع من جبين المحبوب

بينَ الرقيبِ وبيننا وادٍ تُباعِدُهُ حُزونُهْ

بيننا وبين الرقيب (العذول) وادٍ، ويُبعِدُ الوادي عنا حزونه (جباله)

نَغتابُهُ، ونقولُ: لا بقيَ الرقيبُ، ولا عيونُهْ

نغتاب العذول، وندعو عليه: «عَدِمناه وعدمنا عيونه». ومن حلاوات الغرام، لمن لم يجربه، اغتياب العذول

٤٤ أحوال العشق

يرومونَ سُلواناً لِقلبي يُريحُهُ ومِنْ ليَ بالسُّلوانِ أَشْرِيهِ غالِيا

يرومون (يريدون) سلواناً (نسياناً) يحل بقلبي ليريحه، ومن أين السلوان حتى اشتريه ولو غالياً

وما العشقُ إلا لَذَّةٌ ثُمَّ شِقْوَةٌ كما شَقِيَ المخمورُ بالسُّكْرِ صاحِيا

وما العشق إلا لذة تليها شقوة (عذاب)، كالمخمور (السكران) يلتذ بالشرب ثم يصحو من سكرته فيشقى بالصداع

٤٥ الهمشري

يحكُونَ أنَّ رجلاً كُرْدِيّا كان عظيمَ الجسمِ هَمْشَرِيّا

همشري: صائع لامبالٍ، واقع بين البوهيمية والفتك

وكُلَّما مَرَّ هناكَ أو هُنا يصيحُ بالناسِ: أنا أنا أنا

نَمَى حديثُهُ إلى صبيٍّ صغيرِ جسمٍ بَطَلٍ قويِّ

نمى: بلغَ

فقال للقومِ: سأُدرِيكُمْ بِهِ   فتَعلمونَ صِدْقَهُ مِنْ كِذْبِهِ

سأُدريكم به: ساريكموه، سأعرِّفكم بحقيقته

ومَدَّ نحوَهُ يميناً قاسِيَةْ   بضربةٍ كادتْ تكونُ القاضيةْ

فلم يُحَرِّكْ ساكناً ولا ارتَبَكْ   ولا انتهى عَنْ زعمِهِ ولا تَرَكْ

وقف الهمشري وما ارتبك، ولكنه ظل على زعمه ولم يتركه

بل قالَ للغالِبِ قولاً لَيِّنا: الآنَ صرنا اثنينِ أنتَ وأنا

وهكذا الدهاة، لا يخوضون معركة فاصلة، معركة إما قاتلاً وإما مقتولاً، بل يمارسون الخصم مراساً، فإذا أخذ لنفسه حيزاً أعطوه حيزه وناصفوه وتعايشوا معه. قد أعجبني الهمشري أكثر مما أعجبني الصبي

٤٦ نديم الباذنجان

كانَ لِسُلطانٍ نديمٌ وافِ   يُعيدُ ما قال بلا اختلافِ

نديم السلطان الوفي يساير السلطان في كل ما يقول

فجلسا يوماً على الخِوَانِ   وجيءَ في الأكلِ بباذِنجانِ

الخوان: المائدة

فأكلَ السلطانُ منهُ ما أكلْ   وقال هذا في المذاقِ كالعسلْ

قال النديمُ: صَدَقَ السلطانُ   لا يستوي شَهْدٌ وباذِنجانُ

لا مقارنة بين الشهد (العسل) والباذنجان، فالباذنجان بالطبع أطيب وألذ، أليس هكذا يريد السلطان؟

قال: ولكنْ عندَهُ مرارةْ   وما حَمِدْتُ مرةً آثارَهْ

السلطان يتم كلامه: الباذنجان مر. وأثره في المعدة سيء

قال: نعمْ مُرٌّ، وهذا عيبُهُ   مُذْ كنتُ يا مولايَ لا أحبُّهُ

النديم موافق. ويعلن أنه لم يحبَّ الباذنجان قط

هذا الذي ماتَ به بُقْراطُ   وسُمَّ في الكأسِ بِهِ سُقْراطُ

بل يزيد النديم أن الباذنجان قتل بقراط طبيب اليونان، وكان هو السم الذي شربه سقراط

فالتفتَ السلطانُ فيمَنْ حولَهُ   وقال: كيف تجدونَ قولَهُ

يستغرب السلطان من هذا التناقض

قـال الـنـديـمُ: يـا مـلـيـكَ الـنـاسِ عُـذْراً فـمـا فـي فِـعْـلـتـي مِـنْ بـاسِ
جُـعِـلْـتُ كـيْ أنـادمَ الـسُّـلـطـانـا ولـم أنـادمْ قَـطُّ بـاذِنـجـانـا
أنا أنادمك فأمدحك وأسايرك، ولم أكن نديماً للباذنجان فأمدحه

٤٧ ما دام في العالم أم تلد

كـانَ بِـرَوْضٍ غُـصُـنٌ نـاعـمٌ يـقـولُ جَـلَّ الـواحـدُ الـمـنـفـرِدْ
كان في البستان غصن ناعم يقول: سبحان الله الواحد المنفرد

فـقـامـتـي فـي ظَـرفِـهـا قـامـتـي ومِـثلُ حُـسـنـي فـي الـورى مـا عُـهِـدْ
ويقول الغصن: أما قامتي فهي في ظرفها (جمالها) قامتي ـ وأنتم أعلم بما هي عليه من جمال ـ، ومثل حسني (جمالي) ما عُهد (وُجد) في الدنيا

فـأقـبـلَـتْ خُـنْـفُـسَـةٌ تَـنـثـنـي ونـجـلُـهـا يـمـشـي بـجـنْـبِ الـكَـبِـدْ
فجاءت خنفساء تثني جسمها (فهكذا مشيها، يتحدب ظهرها ثم ينبسط) وابنها يمشي قريباً من كبدها

تـقـولُ: يـا زيـنَ ريـاضِ الـبَـهـا إنَّ الّـذي تـطـلُـبُـهُ قـدْ وُجِـدْ
وهي تقول للغصن المعجب بقامته: إن الحسن الشبيه بحسنك، والذي تفتش عنه، موجود

فـانـظـرْ لِـقَـدِّ ابـنـي ولا تـفـتـخِـرْ مـا دامَ فـي الـعـالـمِ أُمٌّ تَـلِـدْ
فانظر لقدّ ابني ـ وقدّ ابنها متحدب مثل قدها بالطبع ـ، ولا تفتخر علينا ما دام هناك في العالم أم تلد، فكل أم ترى ابنها في منتهى الجمال

٤٨ من رأيكم في الحمار

الـلَّـيْـثُ مَـلْـكُ الـقِـفـارِ ومـا تـضـمُّ الـصَّـحـاري
الليث: الأسد، القفار: البراري الجرداء

سَـعَـتْ إلـيـهِ الـرَّعـايـا يـومـاً بِـكُـلِّ انـكـسـارِ
الرعايا: أفراد رعيته من مختلف الحيوانات

قـالـتْ: تـعـيـشُ وتـبـقـى يـا دامـيَ الأظـفـارِ
مـاتَ الـوزيـرُ فـمَـنْ ذا يَـسُـوسُ أمـرَ الـضَّـواري
يسوس: يدبر، الضواري: الحيوانات المفترسة

قـالَ: الـحـمـارُ وزيـري قـضـى بـهـذا اخـتـيـاري

فـاسـتَـضْـحَـكَـتْ ثـمَّ قـالـتْ: مـاذا رأى فـي الـحـمـارِ؟
استضحكت: ضحكت، ثم قالت الرعايا لنفسها: ماذا رأى في الحمار من مزايا حتى يجعله وزيراً؟

وخـلَّـفـتْـهُ وطـارتْ بِـمُـضْـحِـكِ الأخـبـارِ
خلفته (تركته) وطارت (انطلقت مسرعة) بالأخبار المضحكة

حـتـى إذا الـشـهـرُ ولَّـى كَـلـيْـلـةٍ أو نـهـارِ
ومضى شهر بسرعة كأنه ليلة أو نهار

لـمْ يـشـعـرِ الـلـيـثُ إلَّا ومـلـكُـهُ فـي دمـارِ
الـقـردُ عـنـدَ الـيـمـيـنِ والـكـلـبُ عـنـدَ الـيَـسـارِ
والـقـطُّ بـيـنَ يـديْـهِ يـلـهـو بـعَـظْـمـةِ فـارِ
فـقـالَ: مَـنْ فـي جُـدودي مِـثْـلـي عـديـمُ الـوَقـارِ
أيـنَ اقـتـداري وبَـطـشـي وهـيـبـتـي واعـتِـبـاري
فـجـاءَهُ الـقـردُ سِـرّاً وقـالَ بـعـدَ اعـتـذارِ
يـا عـالـيَ الـجـاهِ فـيـنـا كُـنْ عـالـيَ الأنـظـارِ
يا صاحب الجاه (المكانة) بين الحيوانات، كن صاحب نظر وتدبُّر

رأيُ الـرَّعِـيَّـةِ فـيـكُـمْ مِـنْ رأيِـكُـمْ فـي الـحـمـارِ
رأي الرعية فيكم مشتق من رأيكم في الحمار

٤٩ فوق التفاصيل

كانَ لـلغِربانِ في العَصْرِ مَليكْ وَلَهُ في النَّخلةِ الكُبْرى أَرِيكْ
مليك: ملِك، أريك: سرير، أريكة

فـيـهِ كُـرْسِـيٌّ وخِـدْرٌ ومُـهـودْ لـصِغارِ الملك أصْحابِ العُهودْ
فيه كرسي (عرش) وخدر (ستر تقبع وراءه النساء) ومهود للصغار أولياء العهد

جـاءَهُ يـومـاً «نُـدُورُ» الـخـادِمُ وهْوَ في البابِ الأمينُ الحازِمُ
ندور: اسم الغراب الخادم الواقف بباب ملك الغربان

قالَ يا فَرْعَ الملوكِ الصَّالحينْ أنتَ ما زلتَ تحبُّ الناصِحينْ
قال للملك: يا سليل الملوك الصالحين، أنت دوماً كنت تحب الناصحين

سُوسَةٌ كانتْ على القصرِ تَدُورْ جازتِ القصرَ ودبَّتْ في الجُذورْ

وهناك سوسة (حشرة قارضة) كانت تدور قرب قصركم ثم دبت في الجذور تقرضها

فابعثِ الغِربانَ في إهلاكِها قبلَ أنْ نَهلِكَ في أشْراكِها

فابعث الغربان لقتلها قبل أن توقعنا في أشراكها (مصايدها) ونهلك

ضحكَ السلطانُ مِنْ هذا المقالْ ثم أدْنى خادمَ الخيرِ وقالْ

المقال: القول، أدنى: قرَّب

أنا ربُّ الشَّوْكةِ الضافِي الجَناحْ أنا ذو المِنْقارِ، غَلَّابُ الرياحْ

أنا ربُّ (صاحب) الشوكة (القوة) الضافي (الواسع) الجناح، أنا ذو المنقار، وأنا الذي يغلب الرياح

أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ أنا لا أُبصرُ تحتي يا نُدُورْ

أنا أعالج الأمور الخطيرة فقط

ثم لمَّا كانَ عامٌ بعدَ عامْ قامَ بينَ الريحِ والنخلِ خِصامْ

اشتدت الريح وأخذت تهز النخل

وإذا النخْلةُ أقْوى جِذْعُها فبدا للريحِ سهلاً قلعُها

أقوى: صار فارغاً منخوراً

فَهَوَتْ للأرضِ كالتَّلِّ الكبيرْ وهوى الدِّيوانُ وانقضَّ السَّريرْ

فسقطت النخلة أرضاً كأنها «التل الكبير» (كسقوط جيش عرابي السريع أمام الإنجليز في معركة التل الكبير، ولا أرى شوقي يعني شيئاً آخر، وهو الذي أسرف في تبكيت عرابي على هذه الهزيمة)، وهوى ديوان الملك وانقضَّ (سقط) السرير (سرير الملك: العرش)

فَدَهَا السلطانَ ذا الخطبُ المهولْ ودعا خادمَهُ الغالي يقولْ

فدها (فاعترى) السلطان ذا (هذا) الخطب (الشأن) المهول، ونادى خادمه يقول له:..

يا نُدُورَ الخيرِ أسعِفْ بالصِّياحْ ما تُرى فَعَلَتْ فينا الرياحْ!

أسعف: ساعِدْ

قالَ: يا مولايَ لا تسألْ نُدُورْ أنا لا أنظرُ في هذي الأمورْ

فالأمر الآن خطير و«ندور» لا ينظر في هذه الكارثة الخطيرة بل ينظر في التفاصيل

٥٠ دودتان

لِـدُودةِ الـقَـزِّ عِـنـدي   وَدُودةِ الأضـواءِ

دودة القز: دودة الحرير، دودة الأضواء: الدودة المضيئة

حـكـايـةٌ تَـشـتـهـيـهـا   مَـسـامِـعُ الأذكـيـاءِ
لـمـا رأتْ تـلـكَ هـذي   تُـنـيـرُ فـي الـظَّـلـماءِ
سـعـتْ إلـيـهـا وقـالـت: تـعـيـشُ ذاتُ الـضـيـاءِ
أنـا الـمـؤمَّـلُ نـفْـعـي   أنـا الـشـهـيـرُ وفـائـي
حـلا لـي الـنـفـعُ حـتَّـى   رَضِـيـتُ فـيـه فـنـائـي

فدودة القز تموت أثناء عملية استخراج الحرير، فعندما تنسج حول جسمها شرنقة من الخيوط الحريرية يضعونها في الماء المغلي لتموت وليأخذوا الشرنقة الحريرية

وقـد أتـيـتُ لأَحـظـى   بـوجـهِـكِ الـوضَّـاءِ
فـهـل لـنـورِ الـثَّـرى فـي   مـودَّتـي وإخـائـي

فهل لك يا نور الأرض أن تقبلي مودتي وإخائي (صداقتي)

قـالـت: عـرضْـتِ عـلـيْـنـا   وجـهـاً بـغـيـرِ حـيـاءِ
مـن أنـتِ حـتـى تُـدانـي   ذاتَ الـسَّـنـا والـسَّـنـاءِ

السنا: الضوء، السناء: الرفعة

فـامـضـي، فـلا وُدَّ عـنـدي   إذْ لـسـتِ مـن أكـفـائـي
وعـنـد ذلـك مـرَّتْ   حـسـنـاءُ مـعْ حـسـنـاءِ
تـقـولُ: لله ثـوبـي   فـي حُـسـنِـه والـبـهـاءِ
كـم عـنـدَنـا مـن أَيـادٍ   لِـلـدُّودةِ الـغـرَّاءِ

هناك أيادٍ (أفضال) لدودة القز الغراء (المشرقة)

ثـم انـثـنـتْ فـأتـتْ ذي   تـقـولُ لـلـحـمـقـاءِ

ثم انثنت (التفتت) فأتت دودة القز تقول للحمقاء دودة الضياء

هـل عـنـدكِ الآنَ شـكٌّ   فـي رُتـبـتـي الـقَـعْـسـاءِ

هل عندك الآن شك في رتبتي (مرتبتي) القعساء (العظيمة)

وقــد رأيــتِ صــنــيــعــي   وقــد ســمــعــتِ ثــنــائــي
إن كـــان فـــيـــكِ ضِـــيـــاءٌ   إن الـــثَّـــنـــاءَ ضِـــيـــائـــي

٥١ الغزال والكلب

كـانَ فـيـما مضى مِنَ الـدَّهـرِ بيتٌ   مِـنْ بـيـوتِ الـكِـرامِ فـيـهِ غـزالُ

بيت لأحد كرام الناس فيه غزال

يُطْعَـمُ الـلـوزَ والـفَـطيـرَ، ويُسقَى   عــســلاً لــم يَــشُــبْــهُ إلَّا الــزُّلالُ

يقدَّم للغزال اللوز والفطير (المخبوز المكلف بالسكر أو الدَّسَم)، ويسقى عسلاً لم يَشُبْهُ (يخالطه) إلا الماء الزلال (العذب)

فـأتـى الـكـلـبَ ذاتَ يـوم يُـنـاجيـ   ـهِ، وفـي الـنَّـفْـسِ تَـرْحَـةٌ ومَـلالُ

جاء إلى الكلب يوماً يناجيه (يهامسه) وفي نفس الغزال ترحة (حزن) وملال (ملل)

قـالَ: يـا صـاحـبَ الأمـانـةِ قُـلْ لـي   كيفَ حـالُ الـوَرى وكيفَ الـرِّجـالُ

قال الغزال: يا صاحب الأمانة (فالكلب مشهور بها) كيف حال الدنيا والرجال

فأجابَ الأمينُ وهْوَ القؤولُ الصّـ   ـادقُ الـكـامـلُ الـنُّـهى الـمِـفـضـالُ

قال الأمين (الكلب) وهو القؤول للصدق، الكامل النهى (العقل) المفضال (صاحب الفضل)

لا يَـغُـرَّنْـكَ يـا أخـا الـبـيـدِ مِـنْ مَـوْ   لاكَ ذاكَ الــقَــبــولُ والإقــبـــالُ

لا تغترَّ يا أخا البيد (صاحب الصحارى) من مولاك (سيدك) بقبوله لك، وإقباله عليك

أنتَ في الأَسْرِ ما سَلِمْتَ فإنْ تَمْـ   ـرضْ تُقَطَّعْ مِنْ جسمِكَ الأوصالُ

فأنت مجرد أسير لديه وستظل أسيراً ما بقيتَ سالماً، فإذا مرضت ذبحوك وقطعوا أوصالك (أعضاءك)

فاطلُبِ البِيدَ، وارْضَ بالعُشبِ قُوتاً   فـهـنـاكَ الـعـيـشُ الـهـنـيُّ الـحـلالُ

فاطلب البيد (اذهب للصحارى)، وارض بالعشب قوتاً (طعاماً)، فهناك العيش الهنيء الحلال

أنـا لـولا الـعـظـامُ، وهْـيَ حـيـاتـي   لـمْ تَـطِـبْ لـي مَـعَ ابـنِ آدَمَ حـالُ

أنا لولا العظام وهي أصل حياتي، لم تكن لتطيب لي مع البشر الحال

٥٢ سليمان والهدهد

وقــفَ الــهُــدْهُــدُ فــي بـــا   بِ ســلــيــمـــانَ بِـــذِلَّـــةْ

قــالَ يــا مَــوْلايَ كُــنْ لــي عِــيـشَـتــي صــارتْ مُــمِــلَّــةْ

قال الهدهد لسليمان: يا مولاي كن لي معيناً، فعيشتي صارت مملة

مُــتُّ مِــنْ حــبَّــةِ بُــرٍّ أحــدثَــتْ فــي الـصَّــدْرِ غُــلَّــةْ

كدت أموت من حبة بُرّ (قمح) أحدثت في صدري غُلة (عطشاً)

لا مــيــاهُ الــنِّــيــلِ تَــرويــ ــهــا، ولا أمــواهُ دِجْــلَــةْ

وهذه الغلة (العطش) لا ترويها مياه النيل ولا أمواه (مياه) دجلة

وإذا دامَــتْ قــلــيــلاً قــتــلــتــنــي شَــرَّ قِــتْــلَــةْ

فــأشــارَ الــسَّــيِّــدُ الــعــا لــي إلــى مَــنْ كــانَ حــولَــهْ:

قــدْ جــنــى الــهُــدْهُــدُ ذنــبــاً وأتــى فــي الــلــؤمِ فِــعْــلَــةْ

قال سليمان لمن في مجلسه: قد ارتكب الهدهد ذنباً، وجاء بفعلة لئيمة

تــلــكَ نــارُ الإثــمِ فــي الــصَّــدْ رِ، وذي الــشَّــكــوى تَــعِــلَّــةْ

وما في صدره إنما هي نار الإثم، وأما شكواه فهي تعلة (حجة باطلة)

مــا أرى الــحــبَّــةَ إلَّا سُــرِقَــتْ مِــنْ بــيــتِ نــمــلــةْ

إن لِــلــظَّــالــم صــدراً يــشــتــكــي مِــنْ غــيــرِ عِــلَّــةْ

كان من فضل المدرسة علَيّ أن جعلتني أحفظ هذه القصيدة، فلما حاق بالحافظة المحاق، واكتفى الذهن بما ضمه وضاق، ظلت هذه القصيدة من المحفوظ القديم الذي أؤدي به صلاة الأدب. وقد عجبت كثيراً لهذا الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين ينظم، وهو يطلب العلم في فرنسا، أشعاراً عن الحيوان فيها أصالة وظرف وذكاء، وتنم عن تجربة واسعة ومعرفة بأغوار النفس الإنسانية. وقرأت أشعار لافونتين، وبه اقتدى شوقي في قصائده عن الحيوان، وأنا أتمنى ألا يكون شوقي سرق منه شيئاً. قرأت لافونتين بترجمة الأب نقولا أبو هنا، وسعدت به، بخفته وظرفه وجمال حكاياته. وسعدت أكثر لأن قصائد شوقي أحلى منها. وبلغت سعادتي منتهاها عندما وجدت شاعرنا مبدعاً في كل قصصه. فهو لم يسرق من الفرنسي شيئاً، بل استوحى الفكرة لا غير. وأما لافونتين فقد تأثر بإيسوب ونقل عنه، وتأثر بكليلة ودمنة ونقل عنها. وشوقي في قصائده التي على لسان الحيوان صنع قصصه وصنع لكل منها حكمتها، وبعضها ليس فيه حكمة ذات بال، بل فيه نكتة أو كشف لنفاق الإنسان. شوقي في هذا الشعر شاعر خطير، وفنان كبير، وظريف من ظرفاء الأدب العربي النادرين، وعبقري نضج في روحه ونفسه مبكراً. وهذه القصائد تصلح للأطفال، وتصلح للكبار أكثر. وكثير منها يحتاج تذوقه إلى نضج ومعرفة بدقائق النفس البشرية لا يتأتى لطفل. على أن شوقي كتب في المقدمة التي جعلها في صدر الشوقيات عندما صدرت أول مرة عام ١٩٠٠: «أتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثل ما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة: منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم».

٥٣ النملة والمقطم

كانتِ النملةُ تمشي مرةً تحتَ المُقَطَّمْ

المقطم: جبل في القاهرة

فارتخى مَفْصِلُها مِنْ هيبةِ الطَّوْدِ المُعَظَّمْ

الطود: الجبل

قالتِ اليومَ هَلاكي حلَّ يومي وتَحَتَّمْ
ليتَ شِعْرِي كيفَ أنجو، إنْ هوى هذا، وأسْلَمْ

هوى: سقط

فَسَعَتْ تجري وعيْنا ها تَرى الطَّوْدَ فتنْدَمْ

تندم؟ ربما على مجيئها لهذا المكان. ولا أراها إلا ولدت فيه

سَقَطَتْ في شِبْرِ ماءٍ هُوَ عندَ النملِ كاليَمّ

ثم إنها وهي تجري سقطت في شبر ماء، وهو بالنسبة للنمل كاليم (البحر)

فبكتْ يأساً و٢١٥ قبلحتّجَرْيِ الماءِ في الفَمْ
ثم قالتْ، وهْيَ أدرى بالذي قالتْ وأعلَمْ:

البيت كله حشوة طريفة

ليتَني لم أتأخرْ ليتَني لم أتقدمْ
ليتَني سلَّمْتُ، فالعا قلُ مَنْ خافَ فسَلَّمْ
صاحِ! لا تخشَ عظيماً فالذي في الغيبِ أعظمْ

صاحِ: يا صاحبي

٥٤ الثعلب الزاهد

برزَ الثعلبُ يوماً في شِعارِ الواعِظينا

ظهر الثعلب يوماً في شعار (لباس) الواعظين

فمشى في الأرضِ يَهدي ويسُبُّ الماكِرينا
ويقولُ الحمدُ للَّـ ـهِ إلهِ العالَمينا

كهف: ملاذ

وازهَــدوا فــي الـطَـيْـرِ إنَّ الـــ ـعـيـشَ عـيـشُ الـزَّاهـديـنـا
واطــلــبــوا الــديــكَ يــؤذِّنْ لـصــلاةِ الـصـبـحِ فـيـنـا
فــأتــى الــديــكَ رســولٌ مِــنْ إمــامِ الـنَّـاسـكـيـنـا

فجاء للديك رسول من الثعلب الذي ادعى أنه إمام الناسكين

عَــرَضَ الأمــرَ عــلــيْــهِ وَهْــوَ يــرجــو أنْ يَـلـيـنـا
فــأجــابَ الــديــكُ: عُــذْراً يــا أضَــلَّ الـمُـهـتَـديـنـا

أنت أيها الرسول مهتدٍ وصالح، ولكنك ضال لعدم فهمك لنوايا الثعلب

بَــلِّــغِ الــثــعــلــبَ عــنِّــي عَــنْ جُـدودي الـصَّـالـحـيـنـا
أنــهــمْ قــالــوا، وخــيــرُ الـــ ـقــولِ قــولُ الـعـارِفـيـنـا:
مُــخْــطِــئٌ مَــنْ ظَــنَّ يــومــاً أنَّ لــلــثــعــلــبِ دِيــنــا

٥٥ وجه الشؤم

مــرَّ الــغــرابُ بِــشــاةٍ قــدْ غــابَ عــنــهــا الــفَــطــيــمُ

الفطيم: المفطوم، ابنها

تــقــولُ والــدمــعُ جــارٍ والــقــلــبُ مِــنْــهــا كَــلــيــمُ

كليم: مجروح

يــا لــيــتَ شِــعْــرِيَ يــا ابْــنــي وواجِــدي، هــلْ تَــدومُ

هل تدوم: هل تعيش لي

فــقــالَ يــا أمَّ سَــعْــدٍ هــذا عــذابٌ ألــيــمُ

أم سعد: الشاة، وقال الأبياري إن العوام يلقبون الخروف سعداً

لــكــلِّ يــومٍ خُــطــوبٌ تَــكْــفــي، وشُــغْــلٌ عــظــيــمُ

خطوب: مصائب

وبــيــنــمــا هُــوَ يَــهــذي أتــى الــنَّــعِــيُّ الــذَّمِــيــمُ

بينما الغراب يهذي (يثرثر) جاء النعي (الناعي) الذميم (المذموم)

يــقــولُ خَــلَّــفْــتُ سَــعْــداً والــعَــظْــمُ مــنــهُ هَــشــيــمُ

هشيم: مهشم

رأى مِــنَ الــذِّئْــبِ مــا قــدْ رأى أبــوهُ الــكــريــمُ

فــقــالُ «ذو الــبــيــنِ» لــلأمِّ حــيــنَ وَلَّــتْ تَــهــيــمُ

ذو البين: الغراب الذي ينذر بالبين (الفراق)

ألــمْ أقــلْ لَــكِ تَــوّاً لِــكُــلِّ يــومٍ هُــمــومُ

قــالــتْ صــدقــتَ، ولــكــنْ هــذا الــكــلامُ قــديــمُ

فــإن قَــومِــيَ قــالــوا: وَجْــهُ الــغُــرابِ مَــشــومُ

مشوم: مشؤوم

٥٦ خيانة صغيرة

كــانَ ابــنُ داودٍ يُــقَــرِّ بُ فــي مــجــالِــسِــهِ حَــمــامَــةْ

ابن داود: النبي سليمان، يقرب: يفضل. والحاكم إذا قرب شخصاً يقربه فعلاً في المجلس فيجلسه قريباً منه

خَــدَمَــتْــهُ عُــمْــراً مــثْــلَــمــا قــدْ شــاءَ، صِــدقــاً واســتــقــامــةْ

فــمــضــتْ إلــى عُــمَّــالِــهِ يــومــاً تُــبَــلِّــغُــهُــمْ سَــلامَــهْ

والــكُــتْــبُ تــحــتَ جــنــاحِــهــا كُــتِــبَــتْ لــهــا فــيــهــا الــكَــرامَــةْ

فقد حمّلها سليمان كتباً (رسائل) وفيها تكريم لها

فــأرادتِ الــحــمــقــاءُ تــعــرِفُ مِــنْ رســائِــلِــهِ كــلامَــهْ

عَــمَــدَتْ لأوَّلِــهــا، وكــا نَ إلــى خــلــيــفَــتِــهِ بِــرامَــةْ

«رامة»: مكان يعرفه سليمان والحمامة وأحمد شوقي

فــرأتْــهُ يــأمُــرُ فــيــهِ عــا مِــلَــهُ بــتــاجٍ لــلــحــمــامــةْ

عامله: واليه

ويُــشــيــرُ فــي الــثــانــي بِــأنْ تُــعــطَــى رِيــاضــاً فــي تِــهــامَــةْ

تهامة: منطقة في الحجاز

وأتَــتْ لــثــالــثِــهــا ولــمْ تَــسْــتَــحْــيِ أنْ فَــضَّــتْ خِــتــامَــهْ

فضت ختامه: فكت الختم

فـرأتْـهُ يـأمُـرُ أنْ تـكـو نَ لـهـا عـلـى الـطـيـرِ الـزَّعـامَـةْ
فـبـكـتْ لـذاكَ تـنـدُّمـاً هـيـهـاتَ لا تُـجْـدي الـنَّـدامَـةْ
وأتـتْ نـبـيَّ الـلـهِ وهْـ ـيَ تـقـولُ: يـا ربِّ الـسَّـلامَـةْ
قـالـتْ: فـقـدتُ الـكُـتْـبَ يـا مَـوْلايَ فـي أرضِ الـيَـمـامَـةْ
لـتَـسَـرُّعـي لـمَّـا أتـا نـيِ الـبـازُ يـدفـعُـنـي أمـامَـهْ

البازُ: طائر من الكواسر

فـأجـابَ بـلْ جـئـتِ الـذي كـادتْ تـقـومُ لـهُ الـقِـيـامَـةْ
لـكـنْ كـفـاكِ عـقـوبـةً مَـنْ خـانَ خـانـتْـهُ الـكَـرامَـةْ

من خان الأمانة خانته (خذلته) الكرامة (التكريم)

٥٧ الثعلب الساذج

قـدْ سـمِـعَ الـشـعـلـبُ أهـلَ الـقُـرى يَـدْعُـونَ مُـحْـتـالاً بِـ «يـا ثـعـلـبُ»
فـقـالَ: حـقّـاً هـذهِ غـايـةٌ فـي الـفـخـرِ لا تُـؤْتَـى ولا تُـطْـلَـبُ

سُرَّ الثعلب لأنهم جعلوه مثالاً في الاحتيال. وهكذا الطفل، ومعظم الكبار، إن تعجبت من شيء يصنعونه أسرفوا في صنعه. قل عن طفل إنه يوسخ ثيابه كثيراً، يأتِكَ بعد قليل وثيابه ملطخة بالطين. وقل عن رجل إنه سكير، تره أخذ يبالغ في السكر حتى يعزز هذه المزية. وكل واحد منا يبحث عن مزية تجعله منفرداً لا يشبه غيره.
فإن كانت مما يستحسن فبِهِ، وإن لم تكن فهي أكثر تمييزاً له

مَنْ في النُّهى مِثْلِيَ، حتَّى الورى أصـبـحْـتُ فـيـهِـمْ مَـثَـلاً يُـضْـرَبُ

من مثلي في النهى (العقل)، فحتى الآدميون أصبحوا يضربونني مثلاً

مـا ضَـرَّ لـوْ وافَـيْـتُـهُـمْ زائـراً أُريـهِـمُ فـوقَ الـذي اسْـتـغـرَبُـوا

ها هو يريد تعزيز سمعته بأنه داهية

لـعـلَّـهُـمْ يُـحْـيُـونَ لـي زيـنـةً يـحْـضُـرُهـا الـديـكُ أوِ الأرنـبُ

زينةً: مِهرجاناً

وقَـصَـدَ الـقـومَ، وحـيَّـاهُـمُ وقـامَ فـيـمـا بـيـنَـهُـمْ يَـخـطُـبُ
فـأُخِـذَ الـزائـرُ مِـنْ أُذْنِـهِ وأُعْـطِـيَ الـكـلـبُ بِـهِ يـلـعـبُ
فـلا تَـثِـقْ يـومـاً بِـذِي حِـيـلَـةٍ إذْ رُبَّـمـا يـنـخـدِعُ الـثـعـلـبُ

٥٨ المَنصِبُ الفصيح

مِنْ أَعجَبِ الأخبارِ أنَّ الأرنبا   لما رأى الديكَ يسُبُّ الثعلبا
وهْوَ على الجدارِ في أمانِ   يغلِبُ بالمكانِ لا الإمكانِ

رأى الأرنب (ويبدو أنه أرنب ذكر) الديك واقفاً على الجدار العالي متحصناً بمكانه لا بإمكانه (بقدرته) يسب الثعلب

داخَلَهُ الظنُّ بأنَّ الماكِرا   أمسى مِنَ الضعفِ يُطيقُ السَّاخِرا

داخله (خالجه) الظن بأن الثعلب صار ضعيفاً ولذلك فهو يطيق (يصبر على) الديك الساخر منه

فجاءه يَلعنُ مثلَ الأولِ   عِدادَ ما في الأرضِ مِنْ مُغَفَّلِ

فجاء الأرنب وبدأ يسب الثعلب مثل الأول (يعني الديك) يسبه عداد (بعددِ) ما في الأرض من مغفلين (ومَن المغفل سوى الأرنب؟)

فعَصَفَ الثعلبُ بالضَّعيفِ   عَصْفَ أخيهِ الذيبِ بالخَروفِ

ففتك الثعلب بالأرنب مثلما فتك أخوه الذئب بالخروف

وقالَ لي في دمِكَ المسفوكِ   تَسليةٌ عن خيْبَتي في الديكِ

لي تسلية: لي عزاء

فالتفَتَ الديكُ إلى الذَّبيحِ   وقالَ قوْلَ عارفٍ فصيحِ

فقال الديك من فوق جداره للأرنب الذبيح (المذبوح)

ما كُلُّنا يَنفعُهُ لسانُهُ   في الناسِ مَنْ يُنْطِقُهُ مكانُهُ

ليس المهم الفصاحة، المهم الموقع الذي تتكلم منه. كان ليون تروتسكي أفصح من جوزيف ستالين، ولكن ستالين صنع لنفسه موقعاً داخل الحزب، وكوَّن قاعدة ولاء غلب بها تروتسكي

٥٩ النملة العابدة

كانتْ بأرضٍ نملةٌ تَنْبالَةْ   لم تَسْلُ يوماً لَذَّةَ البِطالَةْ

كان هناك نملة تنبالة (كسولة)، لم تسل (لم تنس) يوماً لذة البطالة (القعود عن العمل)

واشتَهرتْ في النملِ بالتقشُّفِ   واتصفتْ بالزُّهدِ والتَّصوُّفِ
لكنْ، يقومُ الليلَ مَنْ يقتاتُ   فالبطنُ لا تملأُهُ الصَّلاةُ

لكن ـ يقول شوقي ـ يستطيع قيام الليل وإحياءه بالعبادة من يقتات (يأكل)، فالبطن لا تملأه الصلاة

والـنـمـلُ لا يَـسـعـى إلـيـهِ الـحَـبُّ   ونـمـلـتـيِ شَـقَّ عـلـيـهـا الـدَّأْبُ

والنمل يسعى للحّب وليس العكس، وأما نملتي فقد شق عليها (صعب عليها) الدأب (الاجتهاد)

فـخـرجَـتْ إلـى الـتـمـاسِ الـقـوتِ   وجَـعـلـتْ تـطـوفُ بـالـبـيـوتِ

فخرجت تلتمس (تطلب) القوت (الطعام) وتطوف ببيوت النملات الأخريات

تـقـولُ: هـل مِـنْ نـمـلـةٍ تـقـيَّـةْ   تُـنـعِـمُ بـالـقـوتِ لِـذي الـوَلِـيَّـةْ

تقول: هل من نملة تقية تنعم بالقوت (تمنح الطعام) لذي الولية (لهذه الولية). ولو كسرتَ الواو في الوِلية لما أخطأت فشوقي يعنيها أيضاً، وكدت أضع كسرة على الواو فرأيت شوقي رافعاً حاجبيه

لـقـد عـيـيـتُ بـالـطَّـوى الـمـبرِّحِ   ومـنـذُ لـيـلـتـيـنِ لـم أُسَـبِّـحِ

لقد عييت (تعبت) بالطوى (الجوع) المبرح (الشديد) ومنذ ليلتين لم أسبح لله

فـصـاحـتِ الـجـاراتُ: يـا لَـلـعـارِ   لَـمْ تَـتْـرُكِ الـنـمـلـةُ لـلـصُّـرصـارِ

صاحت الجارات: يا للعار، لم تترك النملة شيئاً للصرصار الكسول

متـى رضِـيـنـا مـثـلَ هـذي الـحـالِ   مـتـى مَـدَدْنـا الـكـفَّ لـلـسُّـؤالِ

منذ متى نرضى، معشر النمل، هذه الحال، ومتى مددنا أيدينا للسؤال (للشحذة)؟

ونـحـنُ فـي عـيـنِ الـوجـودِ أمَّـةْ   ذاتُ اشـتـهـارٍ بِـعُـلُـوِّ الـهِـمَّـةْ

ونحن في نظر الناس أمة مشتهرة بعلو الهمة (الطموح والجد)

نـحـمِـلُ مـا لا يَـصْـبِـرُ الـجِـمـالُ   عـن بـعـضِـهِ لـو أنـهـا نِـمـالُ

نحمل من الأثقال ما لا تطيق الجمال حمل جزء منه لو أنها مثلنا (فبالنسبة والتناسب تحمل النملة أضعاف وزنها والجمل لا يحمل هذا)

ألـمْ يـقـلْ مَـنْ قـولُـهُ الـصَّـوابُ:   مـا عـنـدنـا لـسـائـلٍ جـوابُ

السائل: الشحاذ

فـامـضـي، فـإنَّـا يـا عـجـوزَ الـشُّـومِ   نـرى كـمـالَ الـزُّهـدِ أنْ تَـصـومـي

الشوم: الشؤم

٦٠ نقرة المهماز

بَـغْـلٌ أتـى الـجـوادَ ذاتَ مَـرَّةْ   وقـلـبُـهُ مُـمْـتَـلِـئٌ مَـسَـرَّةْ

بغل أتى إلى الحصان مسروراً

فقالَ: فضْلـي قد بدا يا خِلِّي وآنَ أنْ تـعـرِفَ لـي مَـحَـلِّي
فقال البغل: فضلي قد ظهر يا خلي (صديقي)، وآن أن تعرف لي مكانتي

إذْ كنتَ أمسِ ماشياً بجانبي تَعْجَبُ مِنْ رقْصيَ تحتَ صاحبي
فأمس كنتَ أنت تمشي بجانبي، وتتعجب من مشيي الراقص وصاحبي يركبني

فضحكَ الحصانُ مِنْ مقالِهِ وقالَ بالمعهودِ مِنْ دَلالِهِ
فضحك الحصان من مقاله (قوله)، وقال له بدلاله المعهود:..

لم أرَ رقْصَ البغلِ تحتَ الغازي لكنْ سمعتُ نَقرةَ المِهْمازِ
لم أر رقصك تحت صاحبك الغازي (الفاتح)، لكنني سمعت نقرة مهمازه ينخسك به بكعبه، فأنت كنت تعاني الإهانة ولا ترقص بإرادتك

٦١ المستعجل

رأيتُ في بعضِ الرِّياضِ قُبَّرَةْ تُطَيِّرُ ابنَها بأَعلى الشجرةْ
القبرة: طائر يستحسن الناس صوته

وهْيَ تقولُ: يا جمالَ العُشِّ لا تعتمدْ على الجَناحِ الهَشِّ
وقِفْ على عودٍ بجنْبِ عودِ وافعلْ كما أفعَلُ في الصُّعودِ
لكنَّهُ قد خالَفَ الإشارةْ لما أرادَ يُظْهِرُ الشَّطارةْ
وطارَ في الفضاءِ حتى ارتَفَعا فخانَهُ جناحُهُ فوَقَعا
فانكسرتْ في الحالِ رُكْبتاهُ ولم يَنَلْ مِنَ العُلى مُناهُ
ولو تأنَّى نالَ ما تمنى وعاشَ طولَ عمْرِهِ مُهَنَّا
لكلِّ شيءٍ في الحياةِ وقتُهُ وغايةُ المستَعجِلينَ فوتُهُ

فوته: تضييعه

٦٢ فأر الوليمة

فأرٌ رأى القطَّ على الجِدارِ معذَّباً في أضيقِ الحصارِ
والكلبُ في حالتِهِ المعهودةْ مستجمِعاً للوثبةِ الموعودةْ
رأى الفأر القط فوق الجدار، والكلب من الأسفل يحاصره ويستجمع قوته للوثوب عليه

فحاولَ الفأرُ اغتنامَ الفرصةْ   وقال أكفيِ القطَّ هذي الغُصَّةْ

حاول الفأر اغتنام الفرصة وقال لنفسه: سأكفي القط (سأجنِّبه) هذه الغصة (المشكلة)

لعله يكتُبُ بالأمانِ   ليِ ولأصحابيِ مِنَ الجيرانِ

لعله يعطيني أنا وأصحابي الفئران الأمان

فسارَ للكلبِ على يديْهِ   ومَكَّنَ الترابَ مِنْ عينيهِ

فسار الفأر نحو الكلب، ونعف التراب ومكَّنه من إصابة عينيه

فاشتَغَلَ «الراعيِ» عنِ الجِدارِ   ونَزَلَ القطُّ على بَدارِ

فاشتغل الراعي (لقب الكلب) بتنظيف عينيه وسها عن الجدار، فنزل القط على بَدارِ (بسرعة)

مبتهِجاً يُفكِرُ في وليمةْ   وفي فريسةٍ لها كريمةْ

كان القط مبتهجاً (مسروراً) وأخذ يفكِّر في وليمة، وفي فريسة كريمة (كبيرة)

يجعلُها لخَطْبِهِ عَلامةْ   يَذْكُرُها فيذْكُرُ السلامةْ

يريد جعل الوليمة علامة على سلامته، فكلما تذكرها تذكر أنه سلم من الخطر

فجاءَ ذاكَ الفأرُ في الأثناءِ   وقالَ: عاشَ القطُّ في هَناءِ

فجاءه الفأر في هذه الأثناء (في هذا الوقت) ودعا له بالعيش بهناء

رأيتَ في الشِّدَّةِ مِنْ إخلاصي   ما كان فيه سببُ الخَلاصِ

وقال: قد رأيت في الشدَّة (المصيبة) من إخلاصي ما كان سبب خلاصك

وقد أتيتُ أطلبُ الأمانا   فامنُنْ بِهِ لمعشريِ إحسانا

امنُن: تفضل علينا

فقالَ: حقَّاً هذهِ كَرامةْ   غنيمةٌ وقبلَها سلامةْ

يكفيكَ فخراً يا كريمَ الشيمةْ   أنكَ فأرُ الخَطْبِ والوليمةْ

يكفيك فخراً يا كريم الشيمة (الخلق)، أنك فأر الخطب (المصيبة) والوليمة أيضاً

وانقضَّ في الحالِ على الضعيفِ   يأكُلُهُ بالمِلْحِ والرَّغيفِ

ثم انقض على الفأر الضعيف وأكله بالملح والرغيف. فلم كرتون لتوم وجيري قبل نحو خمسين سنة من ظهورهما

فقلتُ في المَقامِ قولاً شاعا   مَنْ حَفِظَ الأعداءَ يوماً ضاعا

٦٣ حصائد الألسنة

يـمـامـةٌ كـانـتْ بـأعـلى الـشـجـرةْ　　آمـنـةً فـي عُـشِّـهـا مـسـتـتِـرةْ

يمامة: حمامة برية

فـأقـبـلَ الـصـيـادُ ذاتَ يـوْمِ　　وحـام حـوْلَ الـروضِ أيَّ حَـوْمِ

فـلـم يـجـدْ لـلـطـيـرِ فـيـهِ ظِـلّا　　وهَـمَّ بـالـرَّحـيـلِ حـيـنَ مَـلّا

فـبـرزتْ مِـنْ عُـشِّـهـا الـحـمـقـاءُ　　والـحُـمْـقُ داءٌ مـا لـهُ دواءُ

تـقـولُ جـهـلاً بـالـذي سيحـدثُ:　　يـا أيُّـهـا الإنـسـانُ عَـمَّ تـبـحـثُ

فالـتفـتَ الصيادُ صَوْبَ الصوتِ　　ونـحـوهُ سـدَّدَ سـهـمَ الـمـوتِ

فـسـقـطـتْ مـن عـرشِـهـا الـمـكـيـنِ　　ووقـعـتْ فـي قـبـضـةِ الـسِّـكِّـيـنِ

المكين: المنيع

تـقـولُ قـولَ عـارفٍ مـحـقِّـقِ　　ملكتُ نفسي لوْ ملكتُ مَنْطقي

منطقي: نُطقي

٦٤ الأسد والضفدع

قالوا استوى الليثُ على عرشِهِ　　فجِيءَ في المجلسِ بالضِّفْدَعِ

وقـيـلَ لـلـسـلـطـانِ هـذي الـتـي　　بـالأمـسِ آذَتْ عـالـيَ الـمِـسْـمَـعِ

قيل للأسد هذه هي التي آذت المسمع العالي (أزعجت أذنك المبجلة)

تُـنَـقْـنِـقُ الـدهـرَ بِـلا عِـلَّـةٍ　　وتَـدَّعـي فـي الـمـاءِ مـا تَـدَّعـي

تنقنق الضفدع الدهرَ (طولَ الدهرِ) بلا علة (سبب)، وتدَّعي أنها سلطانة الماء

فانظرْ ـ إليكَ الأمرُ ـ في ذَنبِها　　ومُـرْ نـعـلِّـقْـهـا مِـنَ الأربَـعِ

مُرْ: فلتأمر

فـنـهـضَ الـفـيـلُ وزيـرُ الـعُـلـى　　وقـالَ: يـا ذا الـشـرفِ الأرفَـعِ

لا خيـرَ فـي الـمـلـك وفـي عِـزِّهِ　　إن ضاقَ جاهُ اللَّيْثِ بالضِّفْدَعِ

جاه: مكانة

فـكـتـبَ الـلـيـثُ أمـانـاً لـهـا　　وزادَ أنْ جـادَ بـمُـسْـتَـنْـقَـعِ

كل مؤسسة لا بد أنها تضم بعض الحمقى، ويجب على مدير كل قسم، ورئيس كل شعبة ألا يضيق بهم. وإلا فمن أين يرتزقون؟

٦٥ الضيف المقيم

بَيْنا ضِعافٌ مِنْ دَجاجِ الرِّيفِ تخطِرُ في بيتٍ لها ظريفِ
بينا (بينما) دجاجات ضعاف تخطر (تتمشى) في بيتها

إذ جاءها هِنْدِي كبيرُ العُرْفِ فقامَ في البابِ قيامَ الضَّيْفِ
جاءها ديك هندي (ديك رومي/ديك الحبش) ذو عرف كبير ووقف منها موقف الضيف الزائر

يقول: حيَّا اللَّهُ ذي الوُجوها ولا أراها أَبَداً مَكروها
يقول حيا الله ذي (هذه) الوجوه، ولا أراها الله مكروهاً

أتيتُكُمْ أنشُرُ فيكم فضْلي يوماً وأقضي بينَكُمْ بالعَدْلِ
وكلُّ ما عندَكُمُ حرامُ عليَّ إلّا الماءُ والمَنامُ
فعاوَدَ الدجاجَ داءُ الطيْشِ وفَتَحَتْ للعِلْجِ بابَ العُشِّ
عاد إلى الدجاج داء الطيش، وفتحت للعلج (الأجنبي) باب العش

فجالَ فيهِ جَوْلةَ المليكِ يدعو لكلٍّ فرخةٍ وديكِ
وباتَ تلكَ الليلةَ السعيدةْ ممَتَّعاً بدارِهِ الجديدةْ
ممتَّعاً: متمَتِّعاً

حتى إذا تهلَّلَ الصباحُ واقتبستْ من نورِهِ الأشباحُ
تهلل: أطل، الأشباح: المخلوقات التي تبدو في الليل كالأشباح

صاحَ بها صاحبُها الفصيحُ يقولُ: دام منزلِي المَليحُ
فانتبهتْ من نومِها المشؤومِ مذعورةً مِنْ صيحةِ الغَشومِ
الغشوم: الظالم

تقولُ: ما تلكَ الشروطُ بيننا غدرتَنا واللَّهِ غدراً بَيِّنا
بيِّن: واضح

فضحكَ الهنديُّ حتى استلقى وقالَ: ما هذا العمى يا حمقى
استلقى: استلقى على ظهره من الضحك. في الزمن القديم كان الناس فيما يبدو هانئين أكثر، فكان الواحد منهم إذا استبد به الضحك استلقى على قفاه؛ أو لعلهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يجلسون على الأرض فيسهل عليهم الاستلقاء على القفا

متى ملكتُمْ ألسُنَ الأربابِ؟ قد كانَ هذا قبلَ فتحِ البابِ
منذ متى تملكون ألسن أرباب البيت (أصحابه)! نعم كان ذلك صحيحاً قبل أن تفتحوا لي الباب

٦٦ عصفورتان

عُصفورتانِ في الحجا زِ حَلَّتا على فَنَنْ

فنن: غصن

في خاملٍ مِنَ الرِّيا ضِ، لا نَدِ ولا حَسَنْ

في روض من الرياض الخاملة (غير المعروفة)، وهو روض جاف غير نديّ

بَيْنا هُما تَنْتَجيا نِ سَحَراً على الغُصُنْ

بينا (بينما) هما تنتجيان (تتهامسان) وقت السحر على الغصن

مَرَّ على أيْكِهِما ريحٌ سَرى مِنَ اليَمَنْ

مر على الأيك (الأشجار) ريح سرى (سافر ليلاً) قادماً من اليمن

حَيَّا وقالَ: دُرَّتا نِ في وِعاءٍ مُمْتَهَنْ

حياهما وقال: أنتما جوهرتان في وعاء ممتهن (مهمَل)؛ أي: أنكما في موضع رديء

لقد رأيتُ حولَ صنـ ـعاءَ وفي ظِلِّ عَدَنْ

خمائلاً كأنَّها بقيةٌ مِنْ ذي يَزَنْ

رأيت هناك خمائلَ (بساتين معشوشبة) من حدائق الملك القديم ذي يزن

الحَبُّ فيها سُكَّرٌ والماءُ شَهْدٌ ولَبَنْ

لم يَرَها الطيرُ ولم يسمعْ بها إلَّا افتَتَنْ

هذا جناحيَ ارقيا هُ ساعةً مِنَ الزمنْ

قالتْ لهُ إحداهُما والطيرُ مِنْهُنَّ الفَطِنْ

الفطن: الذكي

يا ريحُ أنتَ ابنُ السبيـ ـلِ ما عرفتَ ما السَّكَنْ

ابن السبيل: المسافر

هَبْ جنةَ الخُلْدِ اليمنْ لا شيءَ يَعدِلُ الوطنْ

افرض أن اليمن هي جنة الخلد، لا شيء يعدل (يساوي) الوطن

٦٧ من يبكيه؟

سـمـعـتُ أنَّ فـأرةً أتـاهـا   شـقـيـقُـهـا يَـنْـعـى لـهـا فـتـاهـا

أخو الفأرة جاء ينعى لها ابنها

يصيحُ: يا لي مِنْ نُحوسِ بَخْتي   مَنْ سَلَّطَ القِطَّ على ابنِ أُختي

ويصيح: يا لنحوس (نحس) حظي، لقد افترس القط ابن أختي!

فَـوَلْـوَلَـتْ وعَـضَّـتِ الـتُّـرابـا   وجـمـعـتْ لـلـمـأتـمِ الأَتْـرابـا

ولْوَلَت الفأرة وعضت التراب، وجمعت للمأتم الأتراب (الصديقات)

وقـالـتِ: الـيـومَ انـقـضـتْ لَـذَّاتي   لا خـيـرَ لـي بـعـدَكَ فـي الـحـيـاةِ

انقضت: انتهت

مَـنْ لـي بـهِـرٍّ مـثـلِ ذاكَ الـهـرِّ   يُـريـحُـنـي مِـنْ ذا الـعـذابِ الـمُـرِّ

من لي بهر (ليت هناك هراً) مثل الهر الذي أكل ولدي ليريحني من ذا (هذا) العذاب المر

وكـان بـالـقـربِ الـذي تـريـدُ   يَـسـمـعُ مـا تُـبـدي ومـا تُـعـيـدُ

وكان بالقرب منها ما تريد (أي الهر) وهو يسمع ما تبدي وتعيد (تكرر) من قول

فـجـاءَهـا يـقـولُ: يـا بُـشْـراكِ   إنَّ الـذي دعـوتِ قـد لَـبَّـاكِ

فجاءها يقول: أبشري، فالذي دعوتِهِ قد لبى نداءك

فـفـزِعَـت لـمـا رأتْـهُ الـفـارَهْ   واعـتـصـمـتْ مـنْـهُ ببيتِ الـجـارةْ

اعتصمت: تحصنت

وأشـرفَـتْ تـقـولُ لـلـسَّـفـيـهِ:   إنْ مُـتُّ بـعـدَ ابـنـي فَـمَـنْ يـبـكـيـهِ

أشرفت (أطلَّت) تقول للقط السفيه: إن مت أنا فمن سيبكي ولدي؟ لا أحب أن أختار هذه القصيدة للتلاميذ في كتاب مدرسي، فالنكتة التي فيها تحتاج إلى أن يمارس المرء الحياة حتى يعرف يضحك عليها ملء شدقيه

٦٨ المستَتِر السعيد

ألـمَّ عُـصـفـورٌ بـمـجـرىً صـافِ   قد غابَ تحتَ الغابِ في الألفافِ

ألمَّ (زار) عصفور مجرى مياه صافياً، ولكنه مستور تحت الغاب (القصب) في الألفاف (الأدغال)

يسقي الثَّرى مِنْ حيثُ لا يَدري الثَّرى   خَـشْـيَـةَ أن يُـسْـمَـعَ عـنـهُ أو يُـرى

يسقي الثرى (التراب الندي) وهو مستتر، لا يريد أن يعرف أحد مكانه

فاغترفَ العُصْفورُ مِنْ إحسانِهِ   وحرَّكَ الصنيعُ مِنْ لسانِهِ

الصنيع: المعروف

فقالَ: يا نورَ عيونِ الأرضِ   ومُخْجِلَ الكوثرِ يومَ العَرْضِ

قال العصفور للجدول: يا نور عيون (ينابيع) الأرض، ويا مخجل الكوثر (نهر الجنة) يوم العرض (القيامة). قد خلع شوقي على جدوله كل صفات البشر وجعله يقول ويسمع، ثم أبى إلا أن يبعثه يوم القيامة ليُعرض على الخالق ويحاسَب

هل لكَ في أنْ أُرشدَ الإنسانا   ليعرفَ المكانَ والإمكانا

قال له العصفور هل لك في أن أدل الإنسان على مكانك وإمكانك (قُدُراتك)

لعلَّ أنْ تُشْهَرَ بالجميلِ   وتُنسِيَ الناسَ حديثَ النيلِ

فستشتهر بالمعروف وتتفوق على النيل

فالتفتَ الغديرُ للعُصفورِ   وقالَ يَهدي مهجةَ المغرورِ

فقال الغدير للعصفور هادياً مهجته المغرورة (قلبه المغتر بالناس)

يا أيُّها الشاكرُ دونَ العالَمِ   أمَّنَكَ اللَّهُ يَدَ ابنِ آدمِ

يا من تشكرني دون كل العالم، وقاك الله من يد ابن آدم

النيلُ، فاسمعْ وافهمِ الحديثا   يُعطِي ولكنْ يأخذُ الخبيثا

فالنيل يعطي الخير ويأخذ من الناس كل خبيث. يأخذون منه ماء عذباً ويلقون فيه النفايات والمخلفات البشرية والصناعية

من طُولِ ما أبصَرَهُ الناسُ نُسِي   وصارَ كلُّ الفضلِ للمهندسِ

ولطول عهد الناس بالنيل يبصرونه أمامهم نسوا فضله، وصار الفضل لمهندس المياه

وقد عرفتَ حالتي وضدَّها   فقلْ لمنْ يسألُ عني بعدَها

فها قد عرفت يا عصفور حالتي المستترة وضدها (عكسها)؛ أي: حالة النيل المشهور

إنْ خَفِيَ النافعُ فالنفْعُ ظَهَرْ   يا سَعْدَ مَنْ صافى وصوفي واستترْ

ليَكتب المشاهير هذا البيت الأخير بماء الذهب. كلهم يتمنون لو أن الله ألقى في قلوبهم حب «السترة» وكراهية الشهرة. لكن للشهرة بريقاً عجيباً، ولا يطيقون عنها ابتعاداً. ومن يقع في أسرها تستعبدْه

٦٩ أحمال الظهر وأحمال الصدر

كان على بعضِ الدُّروبِ جَمَلُ   حمَّلَهُ المالِكُ ما لا يُحْمَلُ

فقالَ: يا لِلنَّحسِ والشَّقاءِ   إن طال هذا لم يَطُلْ بقائي
فجاءه الثعلبُ مِنْ أمامِهِ   وكان نالَ القَصْدَ مِنْ كلامِهِ

جاء الثعلب إلى الجمل الشاكي من ثقل حمله، وقال له وقد نال (فهم) القصد من كلامه

فقالَ: مهلاً يا أخا الأحمالِ   ويا طويلَ الباعِ في الجِمالِ

قال: مهلاً يا أخا الأحمال (يا ذا الأحمال)، ويا طويل الباع (أيها المتفوق) في الجمال (بين الجمال)

فأنتَ خيرٌ من أخيكَ حالا   لأنني أتعبُ مِنْكَ بالا

فأنت أفضل مني حالاً، وأنا أتعب منك بالاً

كأنَّ قُدَّامِيَ ألفَ ديكِ   تسألُني عَنْ دمِها المسفوكِ

يقول الثعلب: أتخيل قدَّامي (أمامي) ألف ديك عادوا إلى الحياة ليسألوني عن دمهم الذي سفكته

كأنَّ خلفي ألفَ ألفِ أرنبِ   إذا نهضتُ جاذبَتْني ذَنَبي

وأتخيل كأن خلفي ألف ألف أرنب كلما قمت أخذت تجذبني من ذَنَبي مطالبة بحقها بعد أن أكلتها وجنيت عليها

ورُبَّ أُمٍّ جئتُ في مُناخِها   فَجَعتُها بالفَتْكِ في أفراخِها

وثمة أم من أُمَّات الطير كنت جئت إلى مناخها (مكانها) وفجعتها (دهيتها بداهية) بأن فتكت بأفراخها

يبعثُني مِنْ مَرْقَدي بُكاها   وأفتحُ العينَ على شكواها

يبعثني (يوقظني) من مرقدي بكاؤها، وأفتح عيني على شكواها

وقد عرفتَ خافيَ الأحمالِ   فاصبِرْ، وقُلْ لأُمَّةِ الجِمالِ

الآن أيها الجمل، وقد عرفتَ الأحمال الخفية، عليك بالصبر، وقل لأمة الجمال..

ليس بحِمْلٍ ما يَمَلُّ الظَّهْرُ   ما الحِمْلُ إلَّا ما يعاني الصَّدْرُ

.. ليس حملاً ذلك الذي يملّه الظهر، ما الحمل الحقيقي إلا ما يعانيه الصدر من وخز الضمير

٧٠ أخو الوتد

كان لِبعضِهِمْ حمارٌ وجَمَلْ   نالَهُما يوماً من الرِّقِّ مَلَلْ

كان لأحدهم حمار وجمل نالهما (لحق بهما) ملل من الرق (العبودية)

فـانـتـظـرا بـشـائـرَ الـظَّـلْـمـاءِ وانـطـلـقـا مـعـاً إلـى الـبـيـداءِ

فانتظرا بشائر (أوائل) الظلام، وانطلقا إلى البيداء (الصحراء)

يـجْـتـلـيـانِ طَـلْـعـةَ الـحـريـةْ ويـنـشَـقـانِ ريـحَـهـا الـذَّكِـيَّـةْ

يجتليان (يتفرجان على) طلعة (شكل) الحرية، ويتنشقان ريحها (رائحتها) الذكية

فـاتـفـقـا أنْ يـقـضـيـا الـعـمـرَ بـهـا وارتـضـيـا بـمـائـهـا وعـشـبِـهـا

واتفقا أن يقضيا عمريهما معاً، وارتضيا (قبِلا) بما في الصحراء من ماء وعشب

وبـعـد لـيـلـةٍ مِـنَ الـمـسـيـرِ اِلـتـفـتَ الـحـمـارُ لـلـبـعـيـرِ

وبعد أن سارا ليلتهما، التفت الحمار للبعير (الجمل)

وقـال: كـرْبٌ يـا أخـي عـظـيـمُ فَـقِـفْ، فَـمَـشْـيـي كُـلُّـهُ عـقـيـمُ

قال له: كرب (مصيبة) عظيم، فقف لأن كل مشيي عقيم (سدى)

فـقـال: سَـلْ فِـداكَ أمـي وأبـي عـسـى تـنـالُ بـي جـلـيـلَ الـمـطْـلَـبِ

قال الجمل: سل (اسأل) فديتك بأمي وأبي، لعلك تنال بواسطتي المطلب الجليل (العظيم)

قـال: انـطَـلِـقْ مـعـي لإدراكِ الـمـنـى أوِ انـتـظـرْ صـاحِـبَـكَ الـحُـرَّ هُـنـا

قال الحمار: اذهب معي لإدراك (لتحصيل) المنى، أو انتظرني هنا. الحمار يسمي نفسه حراً..

لا بُـدَّ لـي مِـنْ عـودةٍ لـلـبَـلَـدِ لأنَّـنـي تـركـتُ فـيـهِ مِـقْـوَدي

فلا بد أن أعود للبلد، لأنني تركت هناك مقودي (رَسَني)

فـقـال: سِـرْ والـزَمْ أخـاكَ الـوَتَـدا فـإنـمـا خُـلِـقْـتَ كـيْ تُـقَـيَّـدا

قال له الجمل: سر والزم (وصاحِب) أخاك الوتد الذي يربطونك به، فأنت قد خلقت عبداً يقيد بالقيود ولا تليق بك الحرية

٧١ أَدَبُ النعجة

كـان لـبـعـضِ الـنـاسِ نَـعـجـتـانِ وكـانـتـا فـي الـغَـيْـطِ تَـرعـيـانِ

الغيط: الحقل

إحـداهـمـا سـمـيـنـةٌ، والـثـانـيـةْ عـظـامُـهـا مـن الـهُـزالِ بـاديـةْ

الهزال: النحافة، بادية: ظاهرة

فكـانـتِ الأولـى تُـبـاهـي بـالـسِّـمَـنْ وقـولِـهِـمْ بـأنـهـا ذاتُ الـثَّـمـنْ

نعجة تباهي الأخرى بأنها سمينة وغالية الثمن

فتصبرُ الأخرى على الإذلالِ حاملةً مرارةَ الإدْلالِ
الإدلال: الترفُّع

حتى أتى الجزَّارُ ذاتَ يومِ وقَلَّبَ النعجةَ دونَ القَوْمِ
جاء الجزار، وقلَّب النعجة (تفحصها) دون (أمام) القوم

فقالَ للمالِكِ: أشتريها، ونَقَدَ الكيسَ النفيسَ فيها
وانطلقتْ مِنْ فورِها لأختِها وهْيَ تشُكُّ في صلاحِ بَخْتِها
تقولُ: يا أُختاهُ خبِّريني هل تعرفينَ حاملَ السِّكِّينِ
قالتْ: دعيني وهُزالي والزمنْ وكَلِّمي الجَزَّارَ يا ذاتَ الثَّمَنْ
لكُلِّ حالٍ حلوُها ومُرُّها ما أَدَبُ النعجةِ إلَّا صبرُها
حسن الأدب للنعجة هو صبرها

٧٢ الذي أضحك الحمار الصغير

غزالةٌ مرَّت على أتَانِ تُقَبِّلُ الفَطيمَ في الأسْنانِ
غزالة مرت على أتان (حمارة) تقبل ولدها الفطيم (المفطوم) في فمه ومن أسنانه

وكان خلفَ الظبيةِ ابنُها الرَّشا بِوُدِّها لو حَمَلَتْهُ في الحشا
وخلف الظبية (الغزالة) كان يمشي الرشا (ولد الغزال)، وهي من حبها له تود لو حملته في الحشا (داخل جسمها)

ففعلتْ بسيِّدِ الصِّغارِ فِعْلَ الأتانِ بابنِها الحمارِ
فقبلته مثلما فعلت الحمارة بابنها الحمار

فأسرعَ الحمارُ نحوَ أمِّهِ وجاءها يضحكُ ملءَ فَمِهِ
فركض الحمار نحو أمه ضاحكاً

يصيحُ: يا أمَّاهُ! ماذا قدْ دَها حتى الغزالةُ استخَفَّتِ ابنَها
يقول: يا أمي! ماذا قد دها (حصل)، فحتى الغزالة استخفت ابنها (وجدته خفيف الدم)

٧٣ مصرع الغراب

ومُمَهَّدِ في الوَكْرِ مِنْ وَلَدِ الغرابِ مُزَقَّقِ
رب ممهد (جالس في المهد) من أولاد الغراب، مزقق (يُزَقُّ له الحَب في فمه)

كَـــرُوَيْـــهِـــبٍ مُـــتَـــقَـــلِّـــسٍ   مُـــتَـــأَزِّرٍ مُـــتَـــمَـــنْـــطِـــقِ

كرويهب (راهب صغير)، متقلس (يلبس قلنسوة أي طاقية)، متأزر (يلبس إزاراً)، متمنطق (يضع نطاقاً؛ أي: حزاماً)

لَـــبِـــسَ الـــرمـــادَ عـــلـــى ســـوا   دِ جـــنـــاحِـــهِ والـــمَـــفْـــرِقِ

اتخذ لوناً رمادياً يوشح سواد جناحه ومفرقه (رأسه)

كـــالـــفـــحـــمِ غـــادَرَ فـــي الـــرمـــا   دِ بـــقـــيـــةً لـــم تُـــحْـــرَقِ

فكأنه الفحم الذي تَرَكَ بقايا منه لم تحترق وسط الرماد

ثُـــلُـــثـــاهُ مِـــنْـــقـــارٌ ورأْ   سٌ، والأظـــافـــرُ مـــا بَـــقـــي

منقاره ورأسه ثلثا جسمه، والبقية الأظافر

ضـــخـــمُ الـــدِّمـــاغِ عـــلـــى الـــخـــلـــوِّ   مِـــنَ الـــحِـــجَـــا والـــمـــنـــطـــقِ

رأسه ضخم وإن لم يكن فيه حجى (عقل) أو منطق

مِـــنْ أُمِّـــهِ لَـــقِـــيَ الـــصـــغـــيـــ   ـرُ مِـــنَ الـــبَـــلِـــيَّـــةِ مـــا لَـــقِـــي

لقي هذا الصغير من أمه من البلية (المصيبة) ما لقي

جَـــلَـــبَـــتْ عـــلـــيـــهِ مـــا تَـــذُو   دُ الأمَّـــهـــاتُ وتَـــتَّـــقـــي

جلبت عليه أمه الأمر الذي تذوده (تبعده) الأمهات عن أولادهن ويتقين شره

فُـــتِـــنَـــتْ بـــه، فـــتـــوهـــمـــتْ   فـــيـــهِ قُـــوىً لـــم تُـــخْـــلَـــقِ

أعجبت به فتوهمت أن فيه قوى غير موجودة

قـــالـــتْ: كَـــبِـــرْتَ، فَـــثِـــبْ كـــمـــا   وَثَـــبَ الـــكـــبـــارُ، وحَـــلِّـــقِ

فقالت له: كبرت فثب (فاقفز) كالكبار وحلِّق (طِرْ)

ورَمَـــتْ بـــه فـــي الـــجـــوِّ، لـــم   تـــحـــرِصْ ولـــم تَـــسْـــتَـــوْثِـــقِ

ورمت به في الجو دون أن تحرص عليه أو تستوثق (تتأكد)

فَـــهـــوى، فَـــمُـــزِّقَ فـــي فِـــنـــا   ءِ الـــدارِ شَـــرَّ مُـــمَـــزَّقِ

فسقط فتمزق شر تمزُّق

وســـمِـــعْـــتُ قـــاقـــاتٍ تَـــرَدَّ   دُ فـــي الـــفـــضـــاءِ وتَـــرتَـــقـــي

وقد سمعتُ قاقاتٍ (نعبات غُرابية) تتردد في الفضاء وتصعد فيه

ورأيــتُ غِــربــانــاً تَــفَــرَّ ـ قُ فــي الــسـمــاءِ وتَــلــتـقــي
ورأيت الغربان مضطربة في الجو تتفرق وتلتقي

وعـــرفـــتُ رنَّـــةَ أُمِّـــهِ فـــي الـصـارخـاتِ الـنُّـعَّـقِ
وعرفت رنة (صوت) أمه بين إناث الغربان الناعقات

فـأشـرْتُ، فـالـتـفـتَـتْ، فـقـلـ ـتُ لـهـا مَـقـالـةَ مُـشْـفِـقِ:
فأومأت إليها وقلت لها قول مشفق عطوف لما حدث لابنها:

أطـلـقـتِـهِ، ولـو امـتـحـنْـ ـتِ جـنـاحَـهُ لـم تُـطـلـقـي
لقد أطلقته دون أن تمتحنيه، ولو امتحنته لما أطلقتِه

وكـــمـــا تـــرفَّـــقَ والـــدا كِ عـلـيـكِ لـم تـتـرفَّـقـي
ولم تترفقي به كما ترفق بك والداك

٧٤ إياك أن تغتر بالزهاد

ألـقـى غُـلامٌ شَـرَكـاً يَـصـطـادُ وكـلُّ مَـنْ فـوقَ الـثَّـرى صـيَّـادُ
وضع غلام شركاً (مصيدة)، وكل من على ظهر الأرض صياد يسعى لرزقه

فانحدرتْ عصفورةٌ مِنَ الشَّجَرْ لم يَنْهَها النَّهْيُ، ولا الحزمُ زَجَرْ
فنزلت عصفورة من الشجر لم ينهها (يمنعها) النهي الطبيعي لمثلها عن مثل ذلك الفعل، ولم يزجرها (يمنعها) الحزم (التعقل)

قـالـتْ: سـلامٌ أيُّـهـا الـغـلامُ قـال: عـلـى الـعـصـفـورةِ الـسـلامُ
قـالـتْ: صـبـيٌّ مـنـحـنـي الـقـنـاةِ! قـالَ: حَـنَـتْـهـا كَـثْـرَةُ الـصَّـلاةِ
القناة: القامة

قـالـتْ: أراكَ بـاديَ الـعـظـامِ قـال: بَـرَتْـهـا كَـثْـرَةُ الـصِّـيـامِ
عظامه مبرية لكثرة الصيام

قـالـتْ: أرى فـوقَ الـترابِ حَـبَّـا مِـمَّـا اشـتـهـى الـطـيـرُ ومـا أَحَـبَّـا
قـالَ: تـشـبَّـهْـتُ بـأهـلِ الـخـيـرِ وقـلـتُ أَقْـرِي بـائـسـاتِ الـطَّـيْـرِ
أقري بائسات الطير: أطعِم الطيور البائسة

قالتْ: فجُدْ لي يا أخا التَّنَسُّكِ قـالَ: الـقُـطِـيـهِ بـاركَ الـلَّـهُ لَـكِ
قالت: جد لي (اسمح لي) يا صاحب التنسك (العبادة)، فقال: القطي الحَب

فَصَلِيَتْ في الفخِّ نارَ القَاري   ومَصرَعُ العُصفورِ في المِنقارِ

فصليت (اصطلت) في الفخ بنار هذا القاري (المُطعِم)، ومنقار العصفور الذي يريد التقاط الحب هو سبب مصرعه

وهتفتْ تقولُ للأغرارِ   مقالةَ العارفِ بالأسرارِ

صاحت تقول للأغرار (للمغفلين) قول العارف بالأسرار

إياكَ أنْ تَغتَرَّ بالزُّهَّادِ   كمْ تحتَ ثوبِ الزُّهدِ مِنْ صيَّادِ

٧٥ الحالة القديمة

لما أتمَّ نوحٌ السفينةْ   وحرَّكَتْها القُدْرةُ المُعينةْ

لما صنع نوح سفينته وحركتها قدرة الله المعينة (المساعِدة)

جرى بها ما لا جرى ببالِ   فما تعالى الموجُ كالجبالِ

جرى لها ما لا يخطر ببال، فما إن علا الموج وصار كالجبال..

حتى مشى الليثُ مَعَ الحمارِ   وأخذَ القِطُّ بأيدي الفارِ

.. حتى ترافق من الحيوان ما لم يكن يترافق

واستمعَ الفيلُ إلى الخِنْزيرِ   مؤْتَنِساً بصوتِهِ النَّكيرِ

مؤتنساً: منشرحاً

وجلسَ الهرُّ بجنْبِ الكلبِ   وقَبَّلَ الخَروفُ نابَ الذئبِ

حتى إذا حَطُّوا بسفحِ الجُودي   وأيْقنوا بعودةِ الوُجودِ

ثم رست السفينة على الجودي (اسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح بعد أن غيض الماء) وأيقن الجميع بعودة الحياة الطبيعية

عادوا إلى ما تقتضيهِ الشِّيمَةْ   ورَجَعوا للحالةِ القديمةْ

فعادوا إلى ما تقتضيه (تتطلبه) الشيمة (الطبيعة)

فقِسْ على ذلكَ أحوالَ البشرْ   إنْ شَمِلَ المحذورُ أوْ عَمَّ الخطرْ

وكذلك يصنع البشر إن شملهم المحذور (الشرّ الذي منه يحذرون) أو عمهم الخطر

٧٦ النملة فارس الميدان

قدْ وَدَّ نوحٌ أن يُباسِطَ قومَهُ   فدعا إليه معاشرَ الحَيَوانِ

يباسط: يرفع الكلفة

وأشارَ أنْ يَلِيَ السفينةَ قائدٌ   منهمْ يكونُ مِنَ النُّهى بِمَكانِ
دعا نوح إلى أن يلي (يتولى) السفينة قائد من الحيوانات يكون معروفاً بالنُّهى (العقل)

فتقدمَ الليثُ الرفيعُ جلالُهُ   وتعرَّضَ الفيلُ الفخيمُ الشَّانِ
وتلاهُما باقي السباعِ، وكلُّهمْ   خَرُّوا لِهَيْبَتِهِ إلى الأذقانِ
اجتمعت حوله الحيوانات، وخروا (سجدوا) لهيبته حتى مست أذقانهم الأرض

حتى إذا حيُّوا المؤيَّدَ بالهُدى   ودَعَوْا بطولِ العِزِّ والإمكانِ
فلما أدوا التحية للنبي المؤيد (المدعوم) بالهدى الرباني، ودعوا له بطول العز والإمكان (القدرة)

سبقَتهُمُ لخطابِ نوحٍ نملةٌ   كانتْ هناكَ بجانبِ الأَرْدانِ
سبقتهم في التحدث إلى نوح نملة كانت تقف قريباً من أردانه (أكمامه)

قالتْ: نبيَّ اللَّهِ، أرضي فارسٌ   وأنا يقيناً فارسُ الميْدانِ
قالت: يا نبي الله أرضي بلاد فارس، وأنا خير من يتولى الأمر

سأُديرُ دَفَّتَها وأحمي أهلَها   وأقودُها في عِصمةٍ وأمانِ
وسأدير دفة السفينة في عصمة (حماية) وأمان

ضحكَ النبيُّ وقالَ: إنَّ سفينتي   لَهِيَ الحياةُ وأنتِ كالإنسانِ
قال نوح: سفينتي هذه مثال مصغر للحياة، وأنت أيتها النملة مثل الإنسان

كلُّ الفضائلِ والعظائمِ عندَهُ   هُوَ أولٌ والغيرُ فيها الثاني
فهو الأول في كل الفضائل والعظائم (الأمور المهمة)

ويَوَدُّ لو ساسَ الزمانَ، وما لَهُ   بأقلِّ أشغالِ الزمانِ يَدانِ
ويود الإنسان لو ساس (أدار) الزمان، في حين ليس له بأقل أشغال (شؤون) الزمان يدان (ليس له يدان بالشيء: عاجز عن الشيء)

٧٧ غير مهضوم

سَقَطَ الحمارُ مِنَ السفينةِ في الدُّجى   فبكى الرفاقُ لفَقْدِهِ وتَرَحَّموا
سقط الحمار من سفينة نوح في الدجى (الظلام)، فبكت الحيوانات وترحمت عليه

حتى إذا طَلَعَ النهارُ أتَتْ بِهِ   نحوَ السفينةِ موجةٌ تتقدَّمُ
ومع النهار جاءت به موجة تتقدم باتجاه السفينة

قالتْ: خُذوهُ كما أتانيَ سالماً لم أبتلِعْهُ لأنَّهُ لا يُهْضَمُ

قالت: خذوه كما جاءني، فهو لا يهضم (ثقيل الظل، غير مهضوم!)

٧٨ تكفيك منه صحبة السفينة

أبو الحُصَينِ جالَ في السفينةْ فعرفَ السمينَ والسمينةْ

أبو الحصين (الثعلب) تجول في سفينة نوح، وعرف السمين من الفراخ والسمينة

يقولُ إنَّ حالَهُ استحالا وإنَّ ما كان قديماً زالا

وهو يقول إن حاله استحال (تبدل)، وإن ما كان يفعله في الماضي من افتراس الطيور قد انتهى

لكوْنِ ما حلَّ مِنَ المصائبِ مِنْ غضبِ اللَّهِ على الثعالبِ

وقد أدرك أن مصيبة الطوفان كانت لغضب الله على الثعالب

ويُغْلِظُ الأَيْمانَ للدُّيوكِ لِما عَسى يبقى مِنَ الشُّكوكِ

وأقسم الأيْمان الغليظة للديوك حتى يزيل شكوكها

قيلَ فلمَّا تَركوا السفينةْ مشى مَعَ السمينِ والسمينةْ

وعندما انتهى الطوفان، وغادروا السفينة مشى الثعلب بجانب الفراخ السمينة

حتى إذا ما نَصَفوا الطريقا لم يبقَ منهُمْ حولَهُ رفيقا

وفي منتصف الطريق، هربوا منه، ويبدو أنه بادرهم بمحاولة اعتداء

وقال، إذ قالوا عديمُ الدِّينِ، لا عَجَبٌ أنْ حَنِثَتْ يميني

وقالوا له: أنت عديم الدين، فقال: لا عجب أن يميني حنثت (بَطَلت)

فإنما نحنُ بني الدهاءِ نعملُ في الشِّدَّةِ للرَّخاءِ

فنحن أهل الدهاء (الحيلة) نخطط في أيام الشدة (الأزمة) لكي ننتفع بتخطيطنا في أيام الرخاء

ومَنْ خَشِيتَ أنْ يَبيعَ دينَهْ تكفيكَ منهُ صُحبَةُ السفينةْ

والحكمة: الذي ليس ثابتاً على مبدأه، تكفيك صحبته في وقت الضرورة كما في سفينة نوح

٧٩ ضع رأسك بين الرؤوس

الدُبُّ معروفٌ بسوءِ الظَّنِّ فاسمعْ حديثَهُ العجيبَ عنِّي

لمَّا استطالَ المُكْثُ في السفينةْ　　ملَّ دَوامَ العيشةِ الظَّنِينةْ

عندما طال المكث (المكوث) في سفينة نوح، مل الدب العيشة الظنينة (المشكوك في مصيرها)

وقالَ إنَّ الموتَ في انتظاري　　والماءُ لا شَكَّ بِهِ قَراري

وقال لنفسه: الموت في انتظاري، وسيكون قراري (مستقري) في قاع الماء

ثمَّ رأى موجاً على بُعْدٍ عَلا　　فَظَنَّ أنَّ في الفضاءِ جَبَلا

ورأى موجاً يعلو كأنه جبل في الفضاء

فقالَ: لا بُدَّ مِنَ النُّزولِ　　وصلتُ أو لمْ أحظَ بالوُصولِ

فقرر النزول سواء حظي بالوصول إلى الشاطئ أم لم يحظ

قد قالَ مَنْ أدَّبَهُ اختبارُهْ　　السعيُ للموتِ ولا انتظارُهْ

فقد قال من أدَّبه (علمه) اختباره للحياة إن السعي للموت أهون من انتظاره

فأَسْلَمَ النفْسَ إلى الأمواجِ　　وَهْيَ مَعَ الرياحِ في هِياجِ

فسلم الدب نفسه للأمواج وهي في هياج (صخب) مع الرياح

فشربَ التَّعيسُ مِنها فانتفخْ　　ثمَّ رسا على القَرارِ ورَسَخْ

وشرب من الأمواج ماء حتى انتفخ، ورسا في قرار (قعر) البحر

وبعدَ ساعتينِ غِيضَ الماءُ　　وأقلعتْ بأمرِهِ السَّماءُ

وسريعاً غيض (أُنضِب) الماء، وأقلعت (صحت) السماء بأمر الله

وكانَ في صاحِبنا بعضُ الرَّمَقْ　　إذ جاءَهُ الموتُ بطيئاً في الغَرَقْ

وكان في الدب رمق (بقية حياة)، حيث إن الموت جاءه بطيئاً بعد غرقه

فلَمَحَ المرْكَبَ فوقَ الجُودي　　والرَّكْبُ في خيرٍ وفي سُعُودِ

فرأى المركب قد رسا على الجودي (اسم الجبل الذي رست عليه سفينة نوح)، والركب (الركاب) بخير وسعود (حظ طيب)

فقالَ: يا لِجَدِّيَ التعيسِ　　أسأتُ ظنِّي بالنَّبيِ الرئيسِ

فقال يا لجدي (حظي) التعس إذ أسأت الظن بنوح

ما كانَ ضَرَّني لوِ امتثلتُ　　ومثلَما قدْ فعَلوا فَعَلْتُ

هلا كنتُ امتثلت (أطعت) وفعلت مثل كل الحيوانات!

شوقي شاعر البلاط

في هذا الفصل ما اخترته من شعر شوقي منذ بداية القرن العشرين وحتى إبعاده إلى إسبانيا. كان شوقي شاعر بلاط منذ أن كان في المدرسة، فقد كان ينشر مدائحه في الخديوي وهو تلميذ، ثم دخل المعية الخديوية في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. وظل حتى وفاته يمدح الخديوي، ثم السلطان، ثم الملك. فتقسيم الفصول، كما ترى، تقسيم لغرض التقسيم؛ وكيلا يبدو الباب قطعة كبيرة في عينيك. ولعل فيه تنشيطاً على القراءة، أو معونة للقارئ في الاهتداء إلى طريقه.

٨٠ كرمة المسلمين

قال شوقي في ثورة البوكسر على المستعمرين في الصين (١٩٠٠):

لِمَنِ المساكنُ كالمقابرْ　　يَأوِي لها حَيٌّ كَغابِرْ

لمن هذه المساكن التي كأنها مقابر، ويأوي لها حي كأنه غابر (ميت)

مُتَجَنِّبُ الدنيا عدوٌّ　　للأوائلِ والأواخِرْ

من يتجنب المشاركة في أمور الدنيا يصبه الانحطاط، ويصبحْ عدواً للأوائل (لأجداده) وللأواخر (لنفسه ولمن سيأتي بعده)

ولُغاتُهُ لا لِلْمنابرِ قد خُلِقْنَ ولا المحابِرْ

ولغات هؤلاء الذين يتجنبون الدنيا لا تصلح للخطابة من على المنابر ولا للكتابة باستخدام المحابر (آنية الحبر)

وعلومُهُ دَرَسَتْ وعفَّاها مِنَ الأزمانِ دائِرْ

ومتجنب الدنيا علومه قديمة دَرَسَتْ (امّحت)، وعفَّاها (مسحها) الزمان الدائر

والأمرُ فيهِ لِكاهنٍ　　والنهْيُ مَرْجِعُهُ لِساحرْ

وصاحب الأمر فيه كاهن، وصاحب النهي ساحر مشعوذ، وهذه هي حال المتخلفين

ومِنَ العجائبِ ما لوى　　ذَنَباً ولا رَفَعَ العَقائِرْ

وعجيب أن الأمم المتخلفة لا تلوي ذنباً (لا تعترض) ولا ترفع عقائرها (أصواتها بالاحتجاج)

بينَ العِبادِ وبينَهُ　　غَوْرٌ مِنَ الأحقادِ غائِرْ

وبين المتخلف وبين بقية العباد غور (وادٍ) غائر (عميق) من الأحقاد

أممٌ يُكاثِرُها الحَصى　　عَدّاً، وليسَ لها بِكاثِرْ

في الصين أمم يكاثرها الحصى (ينافسها في الكثرة) وليس كاثراً لها (متغلباً في الكثرة)

هـيـهـاتَ قـدْ نـفـذَ الـقـضـا ءُ وصِـرْتُـمُ فـي حـكـمِ قـادرْ
انتهى الأمر أيها الصينيون فقد نفذ القضاء وصرتم محكومين لحاكم قادر (للأمم الأوروبية)

مـتـلـهِّـبِ الـطَّـغْـوى إذا أخـذَ الـفـريـسـةَ لـمْ يُـغـادرْ
هذا الحاكم متلهب الطغوى (شديد الطغيان)، إذا أخذ فريسة لم يتركها

يـا لـيـتَ شِـعـري مَـنْ تـدو رُ عـلـيـهِ بـعـدَكُـمُ الـدوائـرْ
يا ترى من تدور عليه الدوائر (المصائب) بعدكم؟

الـوقـتُ أضـيَـقُ أنْ نُـغـا لِطَ فـي الـحـقـائـقِ أوْ نـكـابـرْ
أمامنا وقت قصير ولا مجال للمغالطة والمكابرة

لـم يـبـقَ إلَّا كَـرْمَـةٌ لـلـمـسـلـمـيـنَ بـغـيـرِ نـاظِـرْ
بقي للمسلمين كرمة (بستان) وليس لها ناظر (ناطور/حارس)

إن نـام عـنـهـا الـحـافـظـو نَ فـإنَّ جَـفْـنَ الـشـرِّ سـاهـرْ
إن نام حافظو البستان عنه فإن عين الشر ساهرة متربصة به

مَـنْ كـان يـرقُـبُ فـرصـةً فـلـيـغـنـمِ الـفـرصَ الـحـواضِـرْ
إن كنا نريد انتهاز الفرصة، فلنغنم الفرصة الحاضرة

لا يـمـشِـيَـنَّ الـسُّـلْـحَـفـا ءَ وغـيـرُه لـلـمـجـدِ طـائـرْ
ولا نمشِ السلحفاءَ (مشي السُّلَحْفاة) بينما غيرنا يطير طيراناً في تقدمه العلمي

٨١ حكمة

أَتَغْلِبُني ذاتُ الدَّلالِ على صِبري إذنْ أنا أوْلى بالقِناعِ وبالخِدْرِ
هل تغلبني الفتاة ذات الدلال وتجعلني أفقد صبري؟ إذن فأنا أولى منها بالقناع (الخمار) وبالخدر (الستار الذي «كان» يفصل الحريم عن الرجال)

تـتـيـهُ، ولـي حِـلْـمٌ إذا مـا رَكِـبْـتُـهُ رددْتُ بِـهِ أمـرَ الـغـرامِ إلـى أمـري
تتيه (تتكبر) ولي حِلم (طول بال) إذا ما ركبته (استعملته) أرجعت الأمر ليكون في يدي أنا

ومـا دَفْـعِـيَ الـلُّـوّامَ فـيـهـا سـآمـةً ولـكـنَّ نـفْـسَ الـحُـرِّ أزجَـرُ لـلـحُـرِّ
ولست أرد كلام اللائمين بشأنها مللاً منهم، ولكن لأن نفس الحر هي الأزجر (الأكثر ردعاً) له

إذا لـم يَكُنْ للمرءِ مِنْ عِيشةٍ غِنىً فلا بُدَّ مِنْ يُسْرٍ ولا بُدَّ مِنْ عُسْرِ
وبما أن المرء لا غنى له عن العيشة فلا بد أن يأخذها بيسرها وبعسرها

وَمَنْ يَخْبُرِ الدنيا ويَشربْ بكأسِها   يجِدْ مُرَّها في الحُلوِ، والحلوَ في المُرِّ
والذي يعرف الدنيا حقاً ويشرب من كأسها يجد حلوها ممزوجاً بالمر، ومرها ممزوجاً بالحلو

وَمَنْ كان يغزو بالتَّعِلَّاتِ فَقْرَهُ   فإني وجدتُ الكَدَّ أَقْتَلَ للفقرِ
ومن يحارب فقره بالتعلات (بالحجج)، فإنني وجدت الكد (الاجتهاد والتعب) أحسن لقتل الفقر

وَمَنْ يستعِنْ في أمرِهِ غيرَ نفسِهِ   يَخُنْهُ الرفيقُ العَوْنُ في المَسْلَكِ الوَعْرِ
والذي يستعين في شؤونه بالآخرين يخونه الرفيق العون (المعين) في لحظة الضيق وفي المسلك (الممر) الوعر

وَمَنْ لمْ يُقِمْ سِتْراً على عَيْبِ غيرِهِ   يعِشْ مُستباحَ العِرضِ منهَتِكَ السِتْرِ
والذي لا يستر عيوب الآخرين يعيش مستباح العرض ومنهَتِك (ممزق) الستر

وَمَنْ لمْ يُجَمِّلْ بالتواضعِ فضلَهُ   يَبِنْ فضلُهُ عنْهُ، ويَعْطَلْ عَنِ الفَخْرِ
والذي لا يزين معروفه بالتواضع يَبِنُ (يَبْعُدُ) فضلُه عنه، ويَعْطَل (يتجرد) عن الفخر

٨٢ شاعر لا يجارى

قال شوقي (١٩٠٠):

بدأَ الطيفُ بالجميلِ وزارا   يا رسولَ الرِّضا وُقِيتَ العِثارا
بدأني طيف (خيال) المحبوب بالجميل (بالمعروف) فزارني وأنا غافٍ. فيا أيها الطيف، يا أيها الرسول الذي يحمل رضا المحبوب، وقاك الله العثار (التعثر)

حسنٌ يا خيالُ صنعُكَ عِندي   أجملُ الصُّنعِ ما يُصيبُ افتقارا
حسن يا خيال صنعك (معروفك) عندي، وأجمل المعروف ما يصيب (يصادف) افتقاراً (حاجة ماسَّة)

أيُّها العاذِلونَ نِمْتُمْ ورامَ السُّـ   ـهْدُ مِنْ مُقلتيَّ أمراً فصارا
أيها العاذلون نمتم أنتم، ورام (طلب) السهد (النوم الخفيف) من مقلتيَّ (عيني) أمراً فحدث الأمر

آفةُ النُّصْحِ أنْ يكونَ جِدالاً   وأذَى النُّصحِ أنْ يكونَ جِهارا
آفة (مشكلة) النصح أن يكون جدالاً، ويتحول النصح إلى أذى عندما يكون جهاراً (علانية)

سألَتْني عَنِ النهارِ جُفوني   رَحِمَ اللَّهُ يا جفوني النَّهارا
سألتني جفوني متى يطلع النهار، ألا رحمة الله على النهار (يبدو أن النهار مات ولم يعد يطلع لطول ليلي)

قُلْنَ: نبكيهِ، قُلْتُ: هاتي دُموعاً   قُلْنَ: صبراً، فقلتُ: هاتي اصْطِبارا

فقالت الجفون: هلم نبكي النهار، قلت هاتي دموعاً فقد نفدت دموعي؛ فقلن اصبر، فقلت: هاتي اصطباراً (صبراً)

لَمْ نُفِقْ منكَ يا زمانُ فنشكو   مدمنُ الخمرِ ليسَ يشكُوْ الخُمارا

أيها الزمان لم نفق (نصْحُ) بعد من مصائبك حتى نتفرغ للشكوى، ومدمن الخمر يتعود على الخمار (صداع السكر) فليس يشكوه

فاصرفِ الكأسَ مُشْفِقاً، أو فَواصِلْ   خرجَ الرُّشْدُ مِنْ أكُفِّ السُّكارى

فاصرف (أبعِد) الكأس رفقاً بي، أو فواصل سَقيي، فقد خرج الأمر من أيدي السكارى ولم يعودوا يهتمون بشيء

شُعراءَ الزمانِ مهلاً رُوَيْداً   إنَّ في مصرَ شاعراً لا يُجارى

يا شعراء الزمان مهلاً، وتريثوا، إن في مصر شاعراً لا يجارى (ينافَس)

حاملاً في الصِّبا لواءَ القوافي   مُسْتَرِقّاً لِمُلْكِهِ الأَشعارا

حاملاً منذ صباه لواء (راية) القوافي (الشعر)، مسترقّاً (مستعبداً) لملكه الأشعار

٨٣ الغواني السوافر

قال شوقي يصف (كوك صو) وهو موضع في الآستانة (١٩٠٠):

تحيةُ شاعرٍ يا ماءَ جُكْسو   فليْسَ سِواكَ للأرواحِ أُنْسُ

تحية من شاعر لك يا ماء (موضع) جكسو فأنت وحدك أنس الأرواح

وَرَدْنَكَ كوثراً وسَفَرْنَ حُوراً   وهلْ بالحورِ إن أسفرنَ بأْسُ؟

وردنك الحسان فكأنك نهر الجنة «الكوثر» إذ يترقرق، وسفرن عن وجوههن فإذا بهن كحور الجنة، وهل هناك بأس إذا أسفرت الحور؟

فقُلْ للجانحينَ إلى حجابٍ   أتُحجَبُ عن صنيعِ اللَّهِ نَفْسُ

فقل للجانحين (الميالين) إلى حجاب المرأة: هل تحجب النفس عن رؤية خلق الله البديع؟

إذا لم يستُرِ الأدبُ الغوانيِ   فلا يُغْني الحريرُ ولا الدِّمَقْسُ

إذا الأدب لم يستر الغواني (الحسان) فلا يغني الحرير ولا الدمقس (نوع من الحرير)

تأمَّلْ هلْ ترى إلَّا جَلالاً   تُحِسُّ النفسُ منهُ ما تُحِسُّ

تأملْ هذه الوجوه الحسان ترَ جلالاً تحس النفس منه بأحاسيس حلوة

غَشِيتُكَ والأصيلُ يفيضُ تِبْراً ... وينسُجُ للرُّبى حُلَلاً ويَكسو

غشيتك (أتيتكَ) والأصيل (الغروب) يفيض تبراً (ذهباً)، وينسج من أشعته حللاً (أثواباً) ويكسو الربى

على فُلْكٍ تسيرُ بنا الهُوَيْنى ... ومِنْ شِعْري نديمٌ لي وجِلْسُ

أتيتك على فلك (سفينة) تسير الهوينى (ببطء)، وشِعري هو نديمي وجِلسي (جليسي)

٨٤ نهاية المسرحية

قال شوقي يرثي بشارة تقلا أحد مؤسسيْ جريدة الأهرام (١٩٠١):

حَلَّ بالأُمَّتيْنِ خَطبٌ ثقيلُ ... رجلٌ ماتَ، والرجالُ قليلُ

الأمتان: الشَّوام والمصريون

زالَ عنْ سورِيا فتاها المُرَجَّى ... وعَنِ النيلِ جارُهُ المأمولُ

وكانت بلاد الشام كلها تسمى آنذاك سوريا

هذه الأرضُ والأنامُ عليها ... مَلعبٌ، ثُمَّ ينقضي التمثيلُ

ملعب: مسرح

٨٥ الهوى قدر

قال شوقي (١٩٠١):

لكَ أنْ تلومَ، ولي مِنَ الأعذارِ ... أنَّ الهوى قَدَرٌ مِنَ الأقدارِ

لك يا عاذلي أن تلومني، ولكن أحد أعذاري أن الهوى قدر محتم

يا قلبُ شأنَك، لا أَمُدُّكَ في الهوى ... أبداً، ولا أدعوكَ للإقصارِ

أنت وما تريد يا قلبي، لا أمدك بمساعدة في الحب، ولا أدعوك للإقصار (الكَفّ عنه)

أمري وأمرُك في الهوى بِيَدِ الهوى ... لو أنهُ بِيَدي فَكَكْتُ إِساري

٨٦ ضد عرابي

قال شوقي متشفياً بأحمد عرابي بعد عودته إلى مصر (١٩٠١):

صَغَارٌ في الذَّهابِ وفي الإيابِ ... أَهذا كلُّ شأنِكَ يا عُرابي؟

صَغار: حقارة

عـفـا عـنـكَ الأبـاعـدُ والأدانـي   فـمَنْ يعفو عنِ الوطنِ المُصابِ

الأباعد: الإنجليز، والأداني: الخديوي (وبعفو هذين الطرفين عاد عرابي إلى مصر من منفاه)

٨٧ شكوى العظام إلى عرابي

قال شوقي متشفياً بأحمد عرابي بعد عودته من منفاه (١٩٠٢):

عُـرابـيِ كـيـف أُوفِـيـكَ الـمَـلامـا   جـمـعـتَ عـلـى مـلامَـتِـكَ الأنـامـا

فقِفْ «بالتلِّ» واستمِعِ العِظاما   فـإنَّ لـهـا، كـمـا لـهُـمُ، كـلامـا

التل: هو التل الكبير الذي وقعت عليه معركة مع الإنجليز احتلوا بعدها مصر، ويطلب شوقي من عرابي أن يستمع إلى عظام الذين استشهدوا في معركة التل الكبير، فإن للعظام مثلما للأنام (للناس) كلاماً تقوله

* * *

تـقـولُ لـكَ الـعـظـامُ مـقـالَ صدقٍ   ورُبَّ مـقـالـةٍ مِـنْ غـيـرِ نُـطْـقِ:

قـتـلـتَ الـمـسـلـمـيـنَ بـغـيـرِ حـقٍّ   وضـيَّـعْـتَ الأمـانـةَ والـذمـامـا

* * *

نَجيئُكَ يومَ يحضُرُكَ الحِمامُ   يَـسُـلُّ حُـسـامَـهُ، ولـنـا حـسـامُ

وتـسـبِـقُ سـهـمَـهُ مـنَّـا سِـهـامُ   لـهـا بـالـحـقِّ رامٍ لا يُـرامَـى

لا يُرامى: لا ينافَس في رمي السهام. يريد شوقي لعظام الشهداء أن تلاحق عرابي حتى سرير الموت فتسابق عزرائيل عليه. لقد خجل الوطنيون كثيراً من بضع قصائد لشوقي ضد عرابي، ومن عشرات القصائد الأخرى في مدح توفيق وعباس حلمي، وعتَّمت ثورة ٥٢ ما استطاعت على هذه القصائد. ولعل سبب عداوة شوقي لعرابي ولاء شوقي للخديوي توفيق، أما قال له في قصيدة: «فاسمع لعبدك وابن عبدك»؟ فتوفيق هو الذي أرسله إلى فرنسا ليتعلم، وكان يراعيه، فعندما أتم شوقي تعليمه أمره توفيق بالمكوث في باريس بعض الوقت لتوسيع آفاقه. يقول شوقي في مقدمة الشوقيات: «فرأى لي الجناب العالي أيده الله أن أقضي في العاصمة ستة شهور أتمكن فيها من معرفة أشياء باريز وأهلها». وما صنعه عرابي هو أنه تحدى توفيقاً ووقف يدافع عن مصر في وجه الغزاة الإنجليز. وكان تحدى توفيقاً قبلها في ملاسنة مشهورة لها روايات عديدة. ومعركة التل الكبير موقعة حامية قتل فيها نحو ٥٥٠ من الإنجليز، و١٤٠٠ من المصريين. وكان الإنجليز أكثر عددَ جنودٍ وعددَ مدافع. وبعد انتصارهم نفى الإنجليز عرابي إلى سيلان مع عدد من قادة حركته، وظل منفياً نحو عشرين سنة

٨٨ لؤلؤة على خد المويلحي

عندما نشر شوقي ديوانه في نحو عام ١٩٠٠ تعرض له بالنقد محمد المويلحي الذي انتقد تصدير شوقي الديوان بمقدمة يروي فيها سيرته. وسخر المويلحي من شوقي لأنه روى حادثة جرت له في صباه مع الشيخ علي الليثي. ودافع عن شوقي صديقه شكيب أرسلان، فكتب إليه شوقي يشكره: «دفعت عني اليازجي بيد هدمت كيانه وألغت بيانه؛ وتحامل علي المويلحي فرددت عني الرد الذي قطع حجته. فسبحان من جعلك جلاداً لأعدائي وروبرتساً لحسادي» يشير إلى روبرتس قائد الإنجليز الذي غلب الأفريقان البيض في جنوب أفريقيا. ثم حدث بعد حين أن صفع شاب محمداً المويلحي لأنه مازحه، فكانت فرصة لشوقي كي ينتقم. فاتخذ الحادثة مادة للتفكه والشماتة في قطع كثيرة كان ينشرها باسم مستعار. هذه واحدة منها. (١٩٠٢)

لقدْ صفعوهُ صفعةً جلَّ شأنُها وأعيا على حِذْقِ الطبيبِ علاجُها

أعيا: أتعَبَ، حذق الطبيب: مهارته

ولوْ أتْبَعوا صَفعاً بصَفعٍ لأَحسَنوا وزانَ اللآلِي في النُّحورِ ازدِواجُها

فالعقد مكون من صفين من اللآلئ، والصف الأيمن يناظر الأيسر، وهذا الازدواج يجعل العقد جميلاً.
المصراع الأخير من البحتري: فإن تُلْحِقِ النُّعمى بنُعمى فإنه/ يَزين اللآلِي في النظام ازدواجها

٨٩ الحال كما صورتها

في ذكرى مئة سنة على مولد فكتور هوغو (١٩٠٢)

الحالُ باقيةٌ كما صَوَّرتَها مِنْ عهدِ آدَمَ، ما بها تغييرُ
البؤسُ والنُعمى على حالَيْهِما والحظُّ يَعدِلُ تارةً ويجورُ
ومِنَ القويِّ على الضعيفِ مسيطرٌ ومِنَ الغنيِّ على الفقيرِ أميرُ
والنفسُ عاكفةٌ على شَهَواتِها تَأوي إلى أحقادِها وتثورُ

النفس منكبَّة على الشهوات، وأحياناً تلجأ إلى الحقد وإخفاء البغض، وأحياناً تثور وتظهر البغض

والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي والموتُ أصدقُ، والحياةُ غرورُ

العيش آمال تتجدد ثم تنتهي، والموت أصدق من العيش فهو وحده الدائم

٩٠ حريق ميت غمر

قال شوقي في حريق ميت غمر (١٩٠٢):

اللَّهُ يحكُمُ في المدائنِ والقُرى يا مِيتَ غَمْرَ خُذِي القضاءَ كما جَرى

ما جلَّ خَطْبٌ ثم قيسَ بِغيرِهِ إلّا وهوَّنَهُ القياسُ وصَغَّرا
قد جئتُ أبكِيها، وآخذُ عِبْرَةً فوقفْتُ مُعتبِراً بها مُسْتَعبِرا

مستعبِراً: باكياً. نشرت القصيدة في مايو/أيار ١٩٠٢ وقالت المجلة التي نشرتها: «إن شوقي اهتم بحادثة ميت غمر اهتماماً زائداً فسافر لمحل الحادثة ونظم قصيدته»

والأُمَّهاتُ بغيرِ صبرٍ: هذهِ تبكي الصغيرَ، وتلكَ تبكي الأَصغرا
مِنْ كلِّ مُودِعَةِ الطُّلولِ دُموعَها مِنْ أجلِ طفلٍ في الطُّلولِ اسْتَأْخَرا

استأخر: تأخَّر

كانتْ تُؤَمِّلُ أنْ تطولَ حياتُهُ واليومَ تسأَلُ أنْ يعودَ فيُقْبَرا
مُدُّوا الأكُفَّ سخيةً، واستغفري يا أمةً قد آنَ أنْ تستغفِرا
أَوْلى بعطفِ المُوسِرينَ وبِرِّهِمْ مَنْ كان مِثْلَهُمُ فأصبَحَ مُعْسِرا
يا أيُّها السُّجناءُ في أموالِهِمْ أَأَمِنْتُمُ الأيّامَ أنْ تتغيَّرا
لا يملِكُ الإنسانُ مِنْ أحوالِهِ ما تملِكُ الأقدارُ، مهما قَدَّرا

٩١ الوِنْش

قال شوقي يرثي عبده الحمولي (١٩٠٢):

لا يجاريهِ في تَفَنُّنِهِ العو دُ، ولا يشتكي إذا لم يجارِهْ

لشدة تفننه يعجز العود أن يلحق بصوت عبده الحمولي، وهو لا يحتاج إلى العود حتى يُظهر له تفريعات المقامات. كنت سألت الملحن المرحوم سيد إسماعيل: ترى هل كان عبده صالح يفتح أبواب النغم لأم كلثوم بقانونه، ويقود خطواتها، فقاطعني صارخاً: «أم كلثوم كانت زي الوِنش»، والونش هي الشاحنة التي تسحب السيارات المعطلة، ولا شيء يسحبها

يُسمِعُ الليلَ في الفجرِ «يا ليـ ـلُ»، فيُصغي مُسْتمهِلاً في فِرارِهْ

الليل يولي هارباً بقدوم الفجر، فيقول عبده الحمولي «يا ليل»، فيقف الليل ويتمهل حتى يسمعها قبل أن ينصرف .الله! على هذا البيت. ليقل شوقي آلاف الأبيات المغسولة بعد هذا وقبله، الشاعر بجيِّده لا برديئه. وقد أحب سعد الدين وهبة هذا البيت وأفرده من القصيدة في مقابلته المطولة مع عبد الوهاب. وقال السوربوني عن البيت: «هذا بيت واحد لشوقي من شعر الوجدان تتضاءل بجانبه قصائد ودواوين بعض المجددين»

٩٢ صليبيَّة

قال شوقي من قصيدة يهنئ بها عبد الحميد بعيد الجلوس. وانتعشت في ذلك الوقت حركات في البلاد التي يحكمها الأتراك في أوروبا تطالب بالانفصال، وتتلقى الدعم من الروس والإنجليز والفرنسيين والنمساويين. وفي سنة ١٩٠٣ قمعت إستانبول بقسوة المدن البلغارية والمقدونية في سياق ثورة مقدونيا على الحكم العثماني (١٩٠٣)

عِشْ للخلافةِ ترضاها وتُرضيها — وتنشئُ السِّكَّةَ الكبرى وتَحميها

وقعت الدولة العثمانية معاهدة مع ألمانيا، في مارس ١٩٠٣، لإنشاء سكة حديد إستانبول ـ بغداد

وتحمِلُ الملك والإسلامَ عن أُممٍ — شَلَّاء لا تحمِلُ الأشياءَ أيديها

فالأمم الإسلامية من عرب وغيرهم يحتاجون لعبد الحميد لكي يحمل عنهم الملك والدين، فهم مشلولون وأيديهم لا تقدر على حمل الأشياء. وكلمة «الأشياء» هنا أحلى من الأعباء أو الأثقال، ليس لأنها ترجِّع صدى شلاء ـ أو ما يحب النقاد أن يسموه الموسيقى الداخلية ـ ولكن لمعناها

إنْ أَضْحَكَ الملأَ المفتونَ حاضرُها — أبكى الأجنةَ في الأرحامِ آتيها

وحاضر هذه الأمم جيد ويضحك له مستبشراً الملأ المفتون (القوم المخدوعون)، ولكن الآتي (المستقبل) سيكون مظلماً إلى درجة أن تبكي له الأجنة في الأرحام

توهَّموا العِزَّ في ذُلٍّ يُرادُ بِهِمْ — وشُبِّهَتْ لهُمُ النَّعماءُ تشبيها

توهم المسلمون الذل الذي يريده الغرب لهم عزاً واستقلالاً. ورأوا في وعود الغرب ما يشبه النعيم وليس بنعيم

لا عيشَ في الذلِّ إلَّا للذليلِ، ولا — حياةَ للنفسِ إنْ ماتتْ أمانيها

ما هذهِ الحربُ، في زِيِّ السلامِ، لكمْ — إلَّا صَليبيةٌ والكلُّ صاليها

أمم الغرب منذ ذلك الوقت يكثر في كلامها الحديث عن السلام؛ وهي كانت تساعد ثورات الأمم الكارهة للحكم العثماني ومنها أمم مسلمة، باسم السلام، ولكن القصد الدفين للغرب كما يرى شوقي صليبي ومتصل بحروب قامت قبل مئات السنين ولما تهدأ ثاراتها

يا أمَّةَ المصطفى جَلَّتْ حوائِجُكُمْ — فقدِّموا الخيرَ عَلَّ اللَّهَ يَقضيها

لا تَسمعوا لِمُريبٍ في خلافتِكمْ — كفى الخلافةَ ما يأتي أعاديها

٩٣ .. ناحيةً في الهرم

قال شوقي يصف حفلاً راقصاً في قصر عابدين (١٩٠٣):

طالَ عليْها القِدَمْ — فَهْيَ وُجودٌ عَدَمْ

الخمرة القديمة انعدمت فيها كل خواص العنب واكتسبت كل خواص الخمر. معنى قديم لا يمل الشعراء من تكراره

خَــبَّــأهـــا كــاهِـــنٌ   نـــاحـيـــةً فـــي الــهَـــرَمْ

قال عشرات الشعراء هذا المعنى، وجعلوا الخمر كسروية، وجعلوها من عهد نوح ومن عهد آدم. ولكن بيت شوقي هذا ظريف كل الظرف. فقد خبأها كاهن من كهنة الفراعنة في ناحية من الهرم ونسيها

نَـــمَّ بِـــهـــا دَنُّـــهـــا   وهْــيَ عــلــيــهِ أنـــمّ

الدن وعاء الخمر الكبير، وقد نم عن الخمر (وشى بوجودها)، ولكنها برائحتها نمَّت على الدن أكثر مما نم عليها بحجمه

بـــي رَشَـــأٌ نـــاعِـــمٌ   مـــا عَـــرَفَ الـــعُـــمْـــرَ هَـــمّ

بي (أي موكَّلٌ بي لا يفارق ذهني) رشأ (غزال) ناعم (منعَّم في عيشه)، لم يعرف همّاً

أخــرَجَــهـــا الـــلّـــهُ كـــالـــزَّ-   هْـــرةِ، والـــحـــســـنُ كِـــمّ

هذه الفتاة كالزهرة، وكِمها (أكمامها التي تكون مضمومة عليها) هو الجمال بعينه

تـــخـــطِـــرُ عَـــنْ عـــادِلٍ   لـــم يُـــرَ إلّا ظَـــلَـــمْ

قدها الذي تخطر به عادل (مستو)، وهو ظالم لكل من يراه لما يترك من حسرة في النفوس. وهذا المعنى القديم ظل الشعراء يعالجونه ألفي سنة حتى جاء إبراهيم ناجي وقال (فيما تغني أم كلثوم):
«ظالم الحسن شهي الكبرياء»

تَـــســـألُ أتـــرابَـــهـــا   مُـــومِـــئـــةً بـــالـــعَـــنَـــمْ

تسأل صديقاتها، وهي تشير بأطراف أصابعها الشبيهة بالعَنَم (ثمر أحمر)

أيُّ فـــتـــىً ذلـــكُـــنَّ-   الـــعَـــرَبـــيُّ الـــعَـــلَـــمْ
يَـــشـــرَبُـــهـــا ســـاهـــراً   لـــيـــلـــتَـــهُ لـــمْ يَـــنَـــمْ
قـــلـــنَ: تـــجـــاهَـــلْـــتِـــهِ؟   ذلـــكَ رَبُّ الـــقـــلـــمْ
شـــاعـــرُ مـــصـــرَ الـــذي   لـــوْ خَـــفِـــيَ الـــنَّـــجـــمُ لـــمْ. .

أي لو خفي النجم لم يخفَ شاعرنا لشهرته

قـــلـــتُ لـــهـــا: لـــيـــتَ لـــمْ   نُـــرْمَ ولـــمْ نُـــتَّـــهَـــمْ

قلت لها: ليت لم نُرْمَ (ليتك لا ترمينني بالتهمة لشرب الخمر)

عـــاذِلـــتـــي فـــي الـــطِّـــلا   لـــو أنـــصـــفَـــتْ لـــمْ أُلَـــمْ

التي تعذلني في الطلا (الخمر) ليست منصفة

إنْ عَـــبَـــسَ الـــعـــيـــشُ لـــي   عـــذْتُ بـــهـــا فـــابْـــتَـــسَـــمْ

فأنا إن عبس الدهر لي عذت (لجأت) بالخمر فابتسم الدهر لي

يـــشـــربُـــهـــا كـــابـــرٌ   بـــيـــنَ ضـــلـــوعـــي أشـــمّ

يشرب الخمر كابر (سيد) أشم (معتز بنفسه) وهو يقيم بين ضلوعي، أي أنا

يُـــكْـــسِـــبُـــهـــا خُـــلْـــقَـــهُ   يـــمـــزِجُـــهـــا بـــالـــشِّـــيَـــمْ

وهذا الذي يشرب الخمر يضفي عليها من خلقه الحميد، ويمزجها بشيمه (بصفاته النبيلة)

تـــلـــك شـــمـــوسُ الـــدُّجـــى   أم ظَـــبَـــيـــاتُ الـــخِـــيَـــمْ

أهذه الفتيات شموس طلعت ليلاً؟ أم هي في رشاقتها كفتيات البدو التي تكون كالغزلان في الخيام؟

إجـــتـــمـــعـــتْ فـــالـــتـــقـــتْ   حـــولَ خِـــوانٍ نُـــظِـــمْ

وقد اجتمعن الآن حول خوان (مائدة) منصوب

مـــائـــدةٌ مـــدَّهـــا   بـــحـــرُ نَـــوالٍ خِـــضَـــمّ

هذه المائدة مدَّها الخديوي، بحر النوال (العطايا) الخضم (العظيم)

تـــحـــسَـــبُـــهـــا صُـــوِّرَتْ   مِـــنْ شَـــهَـــواتِ الـــنَّـــهِـــمْ

والمائدة كأنها تحقيق لحلم شخص نهم، فمهما تخيل هذا النهم فهو موجود عليها. قرأها الأبياري «النَّهَم» بفتح الهاء (وأرادها أحمد محفوظ وعلي شوقي اللذان أعدا ذلك الجزء من الشوقيات في حياة شوقي نَهَماً أيضاً)، ونرى فيها تجريداً لا مسوغ له، ونريدك أن تقرأها النهِم بكسر الهاء

٩٤ الجد واللعب

قال شوقي يرثي على رفاعة باشا، ابن رفاعة الطهطاوي (١٩٠٣):

كلُّ الحقائقِ فيها الشكُّ محتَمَلٌ   إلّا المَنِيَّةَ تأبى الشكَّ والرِّيَبا

وما رأيتُ، على عِلمي وتَجْرِبتي،   كالموتِ جِدّاً، ولا ما قبْلَهُ لَعِبا

٩٥ النشور المبكر

رآه ولداه علي وحسين خارجاً من البيت في زورة (زيارة) فبكيا

بَكَيا لأجْلِ خروجِهِ في زَوْرةٍ   يا ليتَ شِعري كيفَ يومَ فراقِهِ

لو كانَ يَسمعُ يومَذاكَ بُكاهُما   رُدَّتْ إليْهِ الروحُ مِنْ إشفاقِهِ

٩٦ آدم العنب

قال شوقي يصف حفل رقص في عابدين (١٩٠٤):

مـــالَ واحـــتـــجـــبْ   وادَّعـــى الـــغَـــضـــبْ

مال بوجهه عني وابتعد مدعياً الغضب

لـــيــــتَ هـــاجِـــري يـــشـــرحُ الـــسَّـــبــبْ
مـــــــاءُ خَــــــدِّهِ شَـــفَّ عـــن لَـــهَـــبْ

ماء خده (وماء الوجه نضارته) يشف عن لهب لحمرة الخد وتورده

ســـاقـــيَ الـــطِّـــلا شُـــرْبُـــهـــا وَجَـــبْ

يا ساقي الطلا (الخمر) وجب شربها الآن

هـــاتِـــهـــا مَـــشَـــتْ فـــوقَـــهـــا الـــحِـــقَـــبْ

هاتها خمرةً مشت فوقها الحقب (الأزمان).. أي أنها معتقة

بـــــابِـــــلِـــــيَّـــــةٌ تـــنـــفُـــثُ الـــحَـــبَـــبْ

خمرة من بابل المشهورة بالخمور، تُخرِجُ الحبب (الفقاقيع)

إنَّ كَـــــرْمَـــــهـــــا آدمُ الـــــعِـــــنَـــــبْ

وكرمها (بستان العنب الذي منه أخذت) هو أول كَرْم خلقه الله، فهو، في الكروم، كآدم في البشر

هُـــذِّبَـــتْ فَـــفـــي دَنِّـــهـــــا الأدَبْ

لقد صفت هذه الخمر وراقت فكأنها هُذِّبت، وأما هذا التهذيب والتأديب فقد تم في الدن (خابية الخمر)

إســـقِـــهـــا فـــتـــىً خـــيـــرَ مَـــنْ شَـــرِبْ
كُـــلَّـــمـــا طَـــغَـــتْ راضَـــهـــا الـــحَـــسَـــبْ

كلما طغت الخمرة ولعبت برأسه فإن حسبه النبيل يروضها ويجعلها لا تفضي به إلى العربدة. الأبياري يريد في شرحه «حسب الخمرة»، فهي ذات حسب عريق وهو الذي يمنعها من الطغيان. وهذا تفسير جميل، وإن كنت أرى البيت الذي قبل هذا البيت يستدعي المعنى الذي شرحته أعلاه، وبي ميل شديد إلى تفسير الأبياري فالبيت عليه أحلى: الخمرة تطغى وتعصف بشاربها، والذي يروضها هو حسبها، فهي مهذبة ومن أصل كريم وعريق

رَبَّ مـــصـــرَ عِـــشْ وابـــلُـــغِ الأَرَبْ

رب مصر: صاحب مصر عباس حلمي الثاني

هـــاكَ مِـــدْحَـــةَ الـــشَّـــاعـــــــرِ الأَرِبْ

الأرِب: الماهر

لـــــمْ يَـــجِـــئْ بِـــهـــا شـــــاعـــــرٌ ذَهَـــبْ

ولم يجئ بمثل هذه القصيدة شاعر قبل شوقي لأن وزنها مبتدع، وأما بعد شوقي فقد ارتجل حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري وهما يتمشيان على الكوبري أبياتاً فكاهية على هذا الوزن منها: شال وانخبط/وادعى العبط، ليت هاجري/يبلع الزلط. وينبهني صديقي الشاعر عمران القفيني إلى أن شوقي ليس أول من نظم على هذا الوزن: «أعرف أبياتاً للبارودي (المتوفى آخر ١٩٠٤)، سبقت أبيات شوقي (التي قالها في ١٩٠٤)، إلا أن يكون البارودي قالها في آخر عام في حياته بُعيد قصيدة شوقي، وهذا صعب. أول القصيدة: املأ القدح ـ واعص من نصح//وارو غلّتي ـ بابنة الفرح»

٩٧ أسلمتهم لعيون الله

وقال وهو في الآستانة في عيد جلوس عبد الحميد (١٩٠٤):

بِاللَّهِ يا نَسَماتِ النيلِ في السَّحَرِ هل عندَكُنَّ عنِ الأحبابِ مِنْ خبرِ

مصرُ العزيزةُ، مالِي لا أُوَدِّعُها وَداعَ محتفِظٍ بالعهدِ مُدَّكِرِ

مدَّكر: متذكّر للعهد

خلَّفْتُ فيها القَطا ما بينَ ذي زَغَبٍ وذي تمائمَ لم ينهضْ ولم يَطِرِ

القطا (من الطيور): يعني أبناءه، بعضهم له زغب (ريش نابت)، وبعضهم عليه التمائم (الخَرَزات توضع على الطفل لرد العين)

أسْلمتُهُمْ لعيونِ اللَّهِ تحرسُهُمْ وأسلموني لظلِّ اللَّهِ في البَشَرِ

سلمت أبنائي لعيون الله، وهم سلموني لظل الله بين البشر وهو السلطان عبد الحميد

وديعةٌ لهُمُ عندَ الإمامِ، ومَنْ يستودعِ الروضَ يَستثمرْ ويَدَّخِرِ

وأنا وديعة أودعها أبنائي عند إمام المسلمين، ومن يضع وديعة عند الروض (يبذر بذوراً) فهو يستثمر ويدخر للمستقبل

يا ابنَ الخلائفِ مِنْ عثمانَ! فضلُكُمُ كَواضحِ الصبحِ عند البيتِ والحَجَرِ

فضل بني عثمان كالصبح الذي يشرق في بيت الله بمكة عند الحجر الأسود المبارك

حفظتُمُ الدينَ دهراً في كرامتِهِ مجمَّلاً بحُجولِ الفتحِ والغُرَرِ

جملتم الدين بفتوحكم التي هي كالحجول والغرر (الحجول: هي البياضات في قوائم الفرس، والغرر البياضات في جبهته)

خلافةُ اللَّهِ كالعنقاءِ في يدِكُمْ فوقَ الحبائلِ والأرزاءِ والغِيَرِ

الخلافة بيدكم كالعنقاء (طائر قيل إنه لا يمكن أن يصاد)، فهي فوق الحبائل (المصائد) والأرزاء (المصائب)، والغير (النكبات)

تظلُّ في فَلَكِ العلياءِ هالتُها   يزُفُّها قمرٌ منكمْ إلى قمرِ

فالخلافة هالة (دائرة الضوء التي حول القمر) وخلفاء بني عثمان هم الأقمار يتوارثون هذه الهالة

لما اضطلَعْتَ أميرَ المؤمنينَ بها   مَلَكْتَ ناصيتَيْها مِلْكَ مقتدِرِ

لما اضطلعت بالخلافة (توليتها) ملكتها من ناصيتيها (جانبيها) بقدرة

حَمَلْتَها واثقاً باللّهِ مصطبراً   ينوشُكَ الدهرُ فيها غيرَ مصطبِرِ

ينوشك: يتناولك بالمكروه

٩٨ شاعر النيل!

قال شوقي (١٩٠٤):

أيُّها النفْسُ تَجِدِّينَ سُدىً   هلْ رأيتِ العيشَ إلّا لَعِبا

جرِّبي الدنيا تَهُنْ عِنْدكِ؛ ما   أَهْوَنَ الدنيا على مَنْ جَرَّبا

نِلْتِ فيما نِلْتِ مِنْ مَظْهَرِها   وَمُنِحْتِ الخُلْدَ ذِكْراً وَنَبا

نلتِ يا نفسي ضمن ما نلته من الأشياء مظاهر الدنيا، ونلت أيضاً الخلود فيها بالذكر والنبأ (الخبر الطيب)

أنا في دنيايَ أوْ آخِرَتي   شاعرُ النيلِ، وحَسْبي لَقَبا

هكذا لقَّب شوقي نفسه بشاعر النيل في سنة ١٩٠٤، وهو صريح في أن هذا خير لقب يرجوه، وبعد ذلك بعدة سنوات نال حافظ إبراهيم «نيشان النيل» ـ بعد سنة ١٩١٢ ـ ولقب إثر ذلك بشاعر النيل، وانتظر شوقي حتى سنة ١٩٢٧ لينال لقباً آخر هو أمير الشعراء

٩٩ رمضان ولّى

قال شوقي (١٩٠٤):

رمضانُ ولّى، هاتِها يا ساقِ   مشتاقةً تسعى إلى مُشتاقِ

جعل الخمرة مشتاقة أيضاً لشاربها

ما كانَ أكثَرَهُ على أُلّافِها   وأقلَّهُ في طاعةِ الخلّاقِ

كم كان رمضان طويلاً على أُلاف (محبي) الخمرة، وكم كان قصيراً في طاعة الله

اللّهُ غفارُ الذنوبِ جميعِها   إن كان ثَمَّ مِنَ الذنوبِ بَواقِ

الله يغفر الذنوب، هذا إن كان ثَمَّ (هناك) ذنوب ليغفرها بعد صيام رمضان. أرأيت إلى هذه الروح التي تثب خفة؟ شوقي يتصيد النكتة الخفية ببراعة، وهو رغم خوفه من الله، شديد التوق إلى العبث

بالأمسِ قدْ كُنّا سَجينيْ طاعةٍ   واليومَ مَنَّ العيدُ بالإطلاقِ
هو والخمر كانا حتى يوم أمس سجيني طاعة الله، واليوم منَّ (تفضَّل) عليهما العيد بإطلاق سراحهما

ضحِكتْ إليَّ مِنَ السرورِ، ولم تزلْ   بنتُ الكرومِ كريمةَ الأعراقِ
الأعراق: الأصول

حمراءُ أو صفراءُ، إنَّ كريمَها   كالغيدِ، كلٌّ مليحةٍ بمذاقِ
الخمر تكون حمراء أو صفراء؛ والخمر الكريمة (الجيدة) مثل الغيد (الحسان) فكل امرأة حسناء فريدة في حسنها ولا تماثل امرأة أخرى. في يومنا هذا يقولون: نبيذ أحمر ونبيذ «أبيض»، مراعاة للغة الأجنبية التي عنها ينقلون، ومراعاة للأجنبي الذي منه يستوردون النبيذ، ولكن النبيذ «الأبيض» هو أصفر على التحقيق

لا تسقِني إلّا دِهاقاً، إنَّني   أُسقَى بكأسٍ في الهمومِ دِهاقِ
دهاقاً: ممتلئة

فلعلَّ سلطانَ المُدامةِ مُخرجي   مِنْ عالمٍ لم يحوِ غيرَ نِفاقِ

١٠٠ الميراث

قال شوقي في مدح عباس حلمي (١٩٠٤):

النيلُ يا ابنَ عليٍّ، وهْوَ مِنْ ذَهَبٍ،   مَصَبُّهُ لَكَ مِيراثٌ ومنبَعُهُ
النيل يا ابن علي (عباس حلمي وهو حفيد محمد علي) كأنه الذهب لما يعطي من خيرات؛ ومصبه ومنبعه (أي كله) ميراث لك

جرى يُحاكِيكَ إحساناً وعارِفَةً   فقصَّرَتْ عَنْ ندى كفَّيْكَ أذرُعُهُ
يحاكيك النيل (يقلدك) في الإحسان والعارفة (الإحسان)؛ ولكنْ، قصَّرت أذرعه بكاملها عن ندى (كرم) كفَّيك وحدهما

أَهْدى لَكَ الحمدَ واديهِ وشاطِئُهُ   وأُمَّةٌ في ظلالِ الأمْنِ تَزرَعُهُ

١٠١ الترامي

قال شوقي ينعى على مصطفى رياض، وولي رئاسة الوزارة ثلاث مرات، تملقه المعتمد البريطاني كرومر. وكان الخديوي عباس قد انتقد شيئاً على القائد البريطاني كتشنر فغضب كرومر وطلب من القصر اعتذاراً فأبى الخديوي عباس، فقدم رياض الاعتذار (١٩٠٤):

كبيرَ السَّابِقينَ مِنَ الكِرامِ   بِرُغْمي أنْ أنالَكَ بالمَلامِ

إذا ما لم تكنْ للقولِ أهلاً … فما لَكَ في المواقفِ والكلامِ

خطبْتَ فكُنْتَ خَطْباً لا خطيباً … أُضيفَ إلى مصائِبِنا الجِسامِ

الخطب: النكبة، الجسام: الكبيرة. قال محمد صبري السوربوني: (الشطر الأول «خطبت فكنت خطباً لا خطيباً» كنتُ أسمعُ الكبار يهتفون به في كل مناسبة في السنوات التي أعقبت القصيدة)

وهل تركتْ لكَ السبعونَ عقلاً … لعِرفانِ الحلالِ مِنَ الحرامِ

كان المهجو في السبعين، فهو قد ولد عام ١٨٣٤. وعندما مات عام ١٩١١ نال مرثية من شوقي، ولم نختر منها شيئاً

لَهِجْتَ بالاحْتِلالِ وما أتاهُ … وجُرْحُكَ مِنْهُ، لو أحسَسْتَ، دامِ

لهجتَ: أُغرمت

وما أغناهُ عمَّنْ قالَ فيهِ … وما أغناكَ عَنْ هذا التَّرامي

١٠٢ تأليب

قال شوقي يستصرخ السلطان عبد الحميد من عسف شريف مكة «عون الرفيق» بالحجاج (١٩٠٤):

ضَجَّ الحِجازُ وضجَّ البيتُ والحرمُ … واسْتَصْرَخَتْ ربَّها في مكةَ الأُمَمُ

استصرخت: استنجدت

قد مَسَّها في حِماكَ الضُّرُّ فاقْضِ لها … خليفةَ اللَّهِ، أنتَ السَّيِّدُ الحَكَمُ

لكَ الربوعُ التي رِيعَ الحَجيجُ بِها، … أَلِلشَّريفِ عليها أم لَكَ العَلَمُ؟

ريع: أُخيف

أُهينَ فيها ضيوفُ اللَّهِ واضطُهدوا … إنْ أنتَ لم تنتقِمْ فاللَّهُ منتقِمُ

يدُ الشريفِ على أيدي الوَلاءِ عَلَتْ … ونعلُهُ دونَ رُكْنِ البيتِ تُسْتَلَمُ

سلطة شريف مكة صارت أعلى من ولائه للخليفة، وصارت نعله تستلم (تُقبَّل) بدلاً من ركن البيت الحرام

عزَّ السبيلُ إلى طَهَ وتُرْبَتِهِ … فَمَنْ أرادَ سبيلاً فالطريقُ دَمُ

صار صعباً الوصول إلى طه (أي الرسول)، وتربته (قبره) في المدينة المنورة

١٠٣ تفسير آية

قال شوقي ينعى محمد عبده (١٩٠٥):

مُفَسِّرَ آيِ اللَّهِ بالأمسِ بينَنا　　قمِ اليومَ فسِّرْ للوَرى آيةَ الموتِ

لم يكن محمد عبده على وفاق مع الخديوي، فاكتفى شوقي شاعر الخديوي بثلاثة أبيات في رثائه

١٠٤ أحمد الوقت

قال يهنئ السلطان عبد الحميد بنجاته من قنبلة قذف بها سنة (١٩٠٥):

بَلَوْناكَ يقظانَ الصوارمِ والقَنا　　إذا ضَيَّعَ الصِّيدَ الملوكَ سُباتُ

بلوناك (خبرناكَ) يقظان الصوارم (السيوف) والقنا (الرماح)، في حين يضيِّع السبات (النوم) الملوك الصيد (الشامخين)

فلوْلاكَ مُلْكُ المسلمينَ مُضيَّعٌ　　ولوْلاكَ شملُ المسلمينَ شَتاتُ

أكانَ لِهذا الأمرِ غيرُكَ صالحاً　　وقدْ هَوَّنَتْهُ عندَكَ السنواتُ؟

أكان يصلح غيرك للخلافة، وقد ملأتك السنوات خبرة وهونت عليك الحكم؟

ومَنْ يَسُسِ الدنيا ثلاثينَ حِجَّةً　　تُعِنْهُ عليها حِكْمَةٌ وَأناةُ

من ظل يسوس الدنيا ثلاثين سنة، فإن ما اكتسبه من الحكمة والأناة (التأني) يكون له مُعيناً

وما زِلْتُ حَسّانَ المَقامِ، ولم تَزَلْ　　تَلِيني، وتَسْرِي مِنْكَ لِي النَّفَحاتُ

وأنا مثل حسان بن ثابت شاعر الرسول، وأنت ظللت تليني (توليني الرعاية)، وتأتيني النفحات (النسائم) منك (الإيماءات والبوادر كالاستضافة في إستانبول والثناء)

زهِدْتُ الذي في راحتيْكَ، وشاقَني　　جوائزُ عندَ اللَّهِ مُبْتَغَياتُ

لست طامعاً في المال الذي في كفيك، وأنا مشتاق إلى ثواب الله لقاء تأييدي لك، فتأييدك واجب ديني

ومَنْ كان مِثْلي أحمدَ الوقتِ لم تَجُزْ　　عليهِ، ولوْ مِنْ مثلِكَ، الصَّدَقاتُ

ومن كان مثلي أحمد الوقت (أحمد الوقت هو الرسول الذي جاء في ميعاد مضروب، أي أن شوقي هو نبي الشعر الذي ساقه القدر في وقته)، لم يجز له أن يأخذ الصدقة (ولم تجز الصدقة للنبي)

ولِي دُرَرُ الأَخْلاقِ في المدحِ والهوى　　ولِلْمُتَنَبِّي دُرَّةٌ وحَصاةُ

وعندما جعل نفسه «أحمد الوقت» تداعى إلى ذهن شوقي أحمد بن الحسين المتنبي، فجعل شوقي لنفسه الدرر في المدح والغزل، وأما المتنبي فله أبيات عظيمة وأخرى رديئة أخذها النقاد عليه

محمد علي علم الشرق ١٠٥

قال في ذكرى مرور مئة عام على تولي محمد علي مصر (١٩٠٥):

عَلَمٌ أنتَ في المشارقِ مُفْرَدْ　　لكَ في العالمينَ ذكرٌ مخلَّدْ
حبذا دولةٌ ومُلْكٌ كبيرٌ　　أنتَ باني رُكنيهما يا محمدْ
تملأُ الأرضَ صافِنَاتٍ، ويُجرَى　　لكَ في البحرِ كلُّ بُرجٍ مُشَيَّدْ

يا محمد علي باشا كنت تملأ الأرض بالصافنات (الخيول)، وكان قوادك يسيِّرون لك في البحر السفن التي هي كالبروج المشيدة (الحصون العالية)

هكذا فَلْيَنَلْ سماءَ المعالي　　مَنْ سعى في الوَرى لمجدٍ وسُؤْدَدْ
هِمَّةٌ تَبْتني الممالكَ شَمَّا　　ءَ، ورأيٌ يَسوسُهُنَّ مُسَدَّدْ
وثباتٌ في الحادثاتِ، وعزمٌ　　مثلُ ريبِ الزمانِ لا يتردَّدْ

عزم مثل ريب الزمان (مصائبه) لا يتردد

لا تبالي بحاسدٍ وعدوٍّ　　آيةُ الفضلِ أنْ تُعادَى وتُحْسَدْ

كنت لا تهتم بالحاسد وبالعدو، وآية (علامة) الفضل العداوة والحسد

هِمَّةُ الفاتحينَ حُكْمٌ وقهرٌ　　وَلكَ الهمةُ التي هِيَ أبعدْ

همة الفاتحين (طموحهم) السلطان وقهر البشر، وهمتك أبعد من ذلك فأنت باني دولة

يا مُديمَ الرُّقادِ في خيرِ مَرْقَدْ　　قُمْ فما حلَّ قَبْلَكَ الأرضَ فَرْقَدْ

يا مديم (مواصِل) الرقاد في قبرك، قم من قبرك فما سكن الأرض قبلك فرقد (الفرقد نجم معين)

وانظرِ الشرقَ كيفَ أصبحَ يَهْوِي　　وانظرِ الغربَ كيفَ أصبحَ يَصْعَدْ

١٠٦ منك يا هاجر دائي

قال شوقي (١٩٠٥):

منكَ يا هاجرُ دائي　　وبكفَّيْكَ دوائي
يا مُنى رُوحيِ، ودنيا　　يَ وسُؤْلي ورجائي

سؤلي: مطلبي

أنتَ، إن شئتَ، نعيمي　　وإذا شئتَ شقائي
كلُّ ما ترضاهُ، يا مَوْ　　لايَ، يرضاهُ وَلائي

١٠٧ حسبنا الله ونعم الوكيل

نقل عن فلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا قوله إنه يريد للإمبراطورية الألمانية أن تكون مثل الإمبراطورية الرومانية قوة وسعة. وأنه يريد لابن إمبراطوريته أن يقول في أي مكان حل به: «أنا مواطن ألماني»، تماماً مثلما كان الروماني يقول «سيفيك رومانوس سوم»، وهذه باللاتينية، ومعناها «أنا مواطن روماني». ويبدو أن صحف ذلك الزمان نقلت العبارة موحية أن فلهلم الثاني يريد أن يقسم العالم بين الرومان والألمان. وفي هذا الإيحاء قدر من الصحة، ففي هذا العام ١٩٠٦، وقعت «الأزمة المغربية الأولى» التي تنافس فيها الفرنسيون والإنجليز والإسبان والألمان على المغرب، وكان فلهلم، أو غليوم بالتهجئة الفرنسية، ماضياً في تكوين إمبراطورية ألمانية. فقال أحمد شوقي (١٩٠٦):

يا ربِّ ما حكمُكَ؟ ماذا ترى — في ذلكَ الحُلْمِ العَريضِ الطويلْ
قد قامَ غِلْيُومُ خَطيباً فَما — أعطاكَ مِنْ مُلْكِكَ إلَّا القليلْ
فالنِّصفُ للجِرمانِ في زَعمِهِ — والنصفُ للرومانِ فيما يقولْ
يا رَبِّ قُلْ: سيفُكَ أمْ سيْفُهُ؟ — أيُّهما، يا رَبِّ، ماضٍ صقيلْ
إنْ صَدَقَتْ يا ربِّ أحلامُهُ — فإنَّ خطبَ المسلمينَ الجليلْ
لا نحنُ جِرْمانٌ لنا حِصَّةٌ — ولا بِرومانٍ فنُعطَى فَتيلْ

فتيل: الشيء الصغير الحقير

يا ربِّ، لا تنسَ رعاياكَ في — يومِ رعاياكَ الفريقُ الذليلْ
جنايةُ الجهلِ على أهلِهِ — قديمةٌ والجهلُ بِئْسَ الدَّليلْ
يا ليتَ لم نَمْدُدْ لشرٍّ يداً — وليتَ ظِلَّ السِّلْمِ باقٍ ظَليلْ
جنى علينا عُصْبَةٌ جازفوا — فحسبُنا اللَّهُ ونِعْمَ الوكيلْ

١٠٨ زائر لندرة

قال شوقي لسعد زغلول عند سفره إلى لُنْدَرَة (لندن) للتفاوض (١٩٠٦):

يا سعدُ إنْ أنتَ دَخَلْتَ لُنْدَرَهْ — مُنْتَصِراً مُظَفَّراً كَعَنْتَرَهْ

يسخر شوقي من سعد زغلول، هذا في زمن كان فيه شوقي صديقاً لمصطفى كامل زعيم الحزب الوطني وخصماً لسعد زغلول. وكان سعد قريباً من المعتمد البريطاني كرومر

وسِرْتَ محمولاً على الأكتافِ — بينَ قيامِ الناسِ والهُتافِ
وقيلَ تلميذُ الإمامِ مَرَّا — يا مَرحباً به وألفَ هُورَّا

كان سعد زغلول تلميذ الإمام محمد عبده، هورَّا: مرحى بالإنجليزية

فقمْ خطيباً في بني التاميزِ   وامدحْ مُذِلَّ الوطنِ العزيزِ

بنو التاميز: الإنجليز، نسبة إلى نهر لندن التِمز، مذل الوطن: اللورد كرومر

١٠٩ جسر البسفور

قال شوقي في جسر البسفور (١٩٠٦):

أميرَ المؤمنينَ! رأيتُ جِسْراً   أَمُرُّ على الصِّراطِ، ولا عليْهِ

الصراط المستقيم مرعب، والسقوط من عليه سقوط في الجحيم

وأسمَجُ منهُ في عيني جُباةٌ   تَراهُمْ وسْطَهُ وبِجانبيْهِ

يُفيدُ حكومةَ السُّلطانِ مالاً   ويعطيها الغِنى مِنْ مَعْدِنَيْهِ

الجسر يجلب للحكومة المال، ويعطيها المعدنين (الذهب والفضة)

وغايةُ أمرِهِ أنَّا سمِعْنا   لسانَ الحالِ يُنْشِدُنا لديْهِ:

أليسَ مِنَ العجائبِ أنَّ مِثلي   يُرَى ما قلَّ ممتَنِعاً عليهِ

يقول الجسر: أليس عجيباً أن مثلي يكون الشيء القليل ممتنعاً عليه (محرَّماً عليه)

وتؤخَذُ باسمِهِ الدنيا جميعاً   وما مِنْ ذاكَ شيءٌ في يديْهِ

تجبى الأموال الطائلة باسم الجسر، ولا ينال شيئاً. البيتان الأخيران قالهما الخليفة المعتمد على الله العباسي (خلافته من ٢٥٦هـ ـ ٢٧٩هـ) الذي حجر عليه أخوه الموفق طلحة، وفرض عليه ما يشبه الإقامة الجبرية

١١٠ فداديني الثلاثون

من مسرحية «الست هدى»، (١٩٠٦):

يقولونَ في أمري الكثيرَ، وشُغْلُهُمْ   حديثُ زواجِي أو حديثُ طلاقي

يقولونَ إني قدْ تزوجتُ تِسْعةً   وإنِّيَ واريْتُ التُّرابَ رِفاقي

وما أنا «عِزرِيلٌ»، وليسَ بمالِهِمْ   تزوجتُ، لكنْ كانَ ذاكَ بمالي

وتلك فداديني الثلاثونَ، كلَّما   تولَّى رجالٌ جِئْنَني بِرجالِ

١١١ لا حُرموا خيرَك

قال شوقي من مسرحية «البخيلة» على لسان الجدَّة الغنية، وقد ادَّعى حفيدها ـ كما يفعل كل مرة ـ أن نقوده نُشلت، (١٩٠٧):

لـم تَـلْـقَـنـي وتَـنْـصَـرِفْ بـمـالـيِ   إلّا وعــادتْ قـصـةُ الـنَّـشَّـالِ
لا حَـرَمَ الـلَّـهُ الـلُّـصـوصَ خَـيـرَكـا   مـا بـالُـهـمْ لا يَـسْـرِقـونَ غَـيْـرَكـا

هذا بيت في غاية غايات الظرف، فيه تهكم مر في شطره الأول، وتخوين مبطن وماكر في شطره الثاني

١١٢ والله لا

قال شوقي يعرِّض بفارس نمر صاحب جريدة المقطم، الذي أراد الالتفاف على حكم قضائي (١٩٠٧):

يــا فــارســاً تــرجَّــلا   وانــحــطَّ بــعــدمــا عــلا
هــلِ الــقــضــاءُ لــعــبــةٌ   تَــلــهُــو بِــهــا، والــلَّــهِ لا

١١٣ الهوى

وقال شوقي (١٩٠٧):

ومـا الـحـبُّ إلَّا طـاعـةٌ وتـجـاوُزٌ   وإنْ أكـثَـروا أوصـافَـهُ والـمـعـانِـيـا

الحب طاعة المحبوب والتجاوز (التغاضي) عن سيئاته

ولا هوَ إلَّا العينُ بالعينِ تلتقِي   وإن نَـوَّعُـوا أسـبـابَـهُ والـدَّواعِـيـا

ولا تفسير له سوى أن العين تلتقي بالعين

وعنديَ الهوى، موصوفُهُ لا صفاتُهُ   إذا سَألوني: ما الهوى، قلتُ: ما بِيا

عندي الموصوف بالهوى (أي الهوى نفسه)، ولا أعرف صفاته، فإذا سئلت ما الهوى قلت: هو ما بي

١١٤ دنشواي

قال شوقي بعد مرور عام على فظيعة دنشواي (١٩٠٧):

يـا دِنـشَـوايَ! عـلـى رُبـاكِ سَـلامُ   ذهـبَـتْ بـأُنْـسِ ربـوعِـكِ الأيـامُ
كـيـفَ الأراملُ فيـكِ بـعـدَ رجـالِـهـا   وبـأيِّ حـالٍ أصـبـحَ الأيـتـامُ
عِشرونَ بيْـتـاً أقـفـرتْ وانـتـابَـهـا،   بـعـدَ الـبَـشـاشـةِ، وَحْـشَـةٌ وظـلامُ
يا ليْتَ شِعري في البروجِ حمائمٌ   أم فـي الـبـروجِ مَـنِـيَّـةٌ وحِـمـامُ
نِـيـرونُ! لـوْ أدركـتَ عـهـدَ كُـرومَـرٍ   لـعَـرفـتَ كـيـفَ تُـنَـفَّـذُ الأحـكـامُ

نُوحي حمائمَ دِنْشَوايَ، وروِّعي　　شعباً بوادي النيلِ ليسَ يَنامُ
والمستشارُ إلى الفظائعِ ناظِرٌ　　تَدْمَى جُلودٌ حَوْلَهُ وعظامُ

في ١٣/٧/١٩٠٦ توفي جندي إنجليزي في قرية دنشواي بالمنوفية عندما كان يصطاد الحمام مع أربعة من زملائه. مات بضربة شمس بعد وقوع صدام بين الجنود وأهل دنشواي. إثر وفاة الجندي اعتقل الإنجليز اثنين وخمسين من أهالي القرية، وأقيمت محكمة صورية قضت بشنق أربعة رجال، وسجن وجلد ستة وعشرين رجلاً. والجندي المصري الذي كان يرافق الإنجليز أفاد في شهادته بغير ما يرضي المحكمة فرُفضت شهادته وحكم عليه بالحبس سنتين.

كان رئيس المحكمة المستشار أحمد فتحي زغلول (أخا سعد زغلول). وكان المعتمد الإنجليزي في مصر اللورد كرومر. من بين من شنق حسن محفوظ، وشنق عند باب بيته وعلى مرأى من أولاده وأحفاده.

كتب جورج برناردشو في مقدمة مسرحيته «جزيرة جون بول الأخرى» وصفاً بعنوان «فظيعة دنشواي»: «كانت مشنقة واحدة، وكانوا يتركون المشنوق عليها نصف ساعة ليتأكدوا من موته، وليمنحوا أسرته ما يكفي من الوقت لمشاهدته متدلياً. لذا استمرت العملية ساعتين لقتل الرجال الأربعة. وللترويح عن أنفسهم في هذا الوقت كانوا يجلدون ثمانية رجال، خمسين جلدة لكل منهم».

١١٥ وداع كرومر

استقال اللورد كرومر على إثر فظيعة دنشواي، بعد أربع وعشرين سنة في منصبه معتمداً بريطانياً بمصر. وأقيم حفل لوداعه، فخطب خطبة كان فيها قليل الأدب مع مصر ومع الإسلام. وتكهن أن تظل مصر بلداً متخلفاً. فقال شوقي يذكره أن مصر شهدت ازدهاراً.. لكن قبل الاحتلال البريطاني (١٩٠٧):

أيامُكُمْ أم عهدُ إسماعيلا　　أم أنتَ فِرْعَوْنٌ يسوسُ النيلا
أم حاكمٌ في أرضِ مِصْرَ بأمرِهِ　　لا سائلاً أبداً ولا مَسؤولا؟

أم أنت كالحاكم بأمر الله الفاطمي المستبد الأهوج

يا مالِكاً رِقَّ الرِّقابِ بِبأسِهِ　　هلَّا اتَّخذْتَ إلى القلوبِ سبيلا
لما رحلتَ عنِ البلادِ تشهَّدتْ　　فكأنَّكَ الداءُ العياءُ رَحيلا

الداء العياء: الذي لا برء منه

أوْسَعتَنا يومَ الوَداعِ إهانةً　　أدبٌ لَعَمْرُكَ لا يُصيبُ مَثيلا!

أوسعتنا (ملأتنا) يوم توديعك إهانة، وهذا أدب لا يصيب (يلاقي) مثيلاً له!

هلَّا بدا لَكَ أنْ تُجامِلَ بعدما　　صاغَ الرئيسُ لكَ الثنا إكليلا

الرئيس: رئيس الوزراء مصطفى فهمي، الذي أثنى في الحفل على كرومر

أنــذرْتَــنــا رِقَّــاً يــدومُ وذِلَّــةً   تبقى، وحالاً لا تَرى تَحويلا
أَحَسِبْتَ أنَّ اللَّهَ دونَكَ قدرةً   لا يملِكُ التغييرَ والتَّبديلا
قالوا: جلبتَ لنا الرَّفاهةَ والغِنى   جَحَدُوا الإلهَ وصُنْعَهُ والنِّيلا
وحياةَ مصرَ على زمانِ محمدٍ   ونهوضَها مِنْ عهدِ إسماعيلا

ومن قال ذلك جحد ما كان من نهضة على زمان محمد (محمد علي) والخديوي إسماعيل

ومدارساً تَبني البلادَ حوافلاً   حظُّ الفقيرِ بِهِنَّ كان جَزيلا

حوافل: حافلة، ممتلئة، ولم تكن لأبناء الأغنياء فقط

ومَعاقِلاً لا تَمَّحي آثارُها   وجيوشَ إبراهيمَ والأُسطولا
وجداولاً بينَ الضِّياعِ جَوارياً   تَذَرُ اليَبابَ مَزارِعاً وحُقولا

الجداول الجواري: الجداول الجارية، بين الضياع: المزارع، اليباب: الأرض الخراب غير المزروعة

والقطنَ مَزروعاً بِفضلِ محمدٍ   في مصرَ محلوجاً بها مغزولا

لم يزرع القطن بها فقط، بل أدخل تصنيع القطن أيضاً. للبيت رنة جميلة، ومعنى جميل

قد مدَّ إسماعيلُ قبلَكَ للوَرى   ظلَّ الحضارةِ في البلادِ ظَليلا
إنْ قِيسَ، في جُودٍ وفي سَرَفٍ، إلى   ما تُنفقونَ اليومَ عُدَّ بخيلا
أو كان قد صَرَعَ المفتِّشَ مَرَّةً   فَلَكَمْ صَرَعْتَ بِدِنْشَوايَ قتيلا

كان الخديوي إسماعيل قد قتل إسماعيل باشا مفتش الأقاليم في حادثة شنيعة

في كُلِّ تقريرٍ تقولُ خلقتُكُمْ   أَفَهلْ ترى تقريرَكَ التَّنْزيلا؟
هلْ مِنْ نَدَاكَ على المدارسِ أنَّها   تَذَرُ العلومَ وتأْخُذُ الفُتْبولا

نداك: كرمك، الفتبول: كرة القدم

أم مِنْ صِيانَتِكَ القضاءَ بِمِصْرَ أنْ   تأتيِ بقاضي دِنْشَوايَ وَكيلا

المستشار أحمد فتحي زغلول كان رئيس المحكمة التي قضت بإعدام وجَلد وسجن الناس في فظيعة دنشواي، وكافأه كرومر بأن جعله وكيل وزارة الحقانية «العدل»

فارحلْ بحفظِ اللَّهِ جلَّ صنيعُهُ   مُسْتعفِياً إنْ شئتَ أو مَعزولا
إنَّا تَمَنَّيْنا على اللَّهِ المُنى   واللَّهُ كانَ بِنَيْلِهِنَّ كفيلا
مَنْ سَبَّ دينَ محمدٍ، فمحمدٌ   مُتَمَكِّنٌ عندَ الإلهِ رَسولا

١١٦ باض وفرخ

قال شوقي، ونشر هذين البيتين باسم مستعار، وما أكثر ما صنع ذلك، ولكن محمد صبري السوربوني في كتابه الكبير «الشوقيات المجهولة» رصد لنا الكثير مما نشره شوقي باسم مستعار ثم لم يضمه في ديوانه (١٩٠٧):

أيُّها البحرُ! ألْقِ في مصرَ أملا حَـكَ حتى تُرابُها يَتَسَبَّخْ

يتسبخ: يصبح سبخة (مستنقعاً) غير صالح للزراعة

كلُّ مَنْ ضاقتِ الحياةُ عليْهِ جاءَ مصراً، وباضَ فيها وفَرَّخْ

يعرّض شوقي بالأجانب ذوي الامتيازات من الطليان واليونانيين والإنجليز، وأستبعد أن يكون قصد أيضاً اللبنانيين الذين كان لهم في المجتمع الثقافي المصري شأن. فمن هؤلاء كان له أصدقاء خلّص كثر، وكانوا ـ مثله ـ متمصرين لا متطفلين

١١٧ أرجوزة الحِكَم

قال شوقي يخاطب النشء (١٩٠٧):

اطلبِ العلمَ لذاتِ العلمِ، لا لظهورٍ باطلٍ بينَ الملا
عندَ أهلِ العلمِ للعلمِ مَذاقْ فإذا فاتَكَ هذا فافتراقْ
طَلَبُ المحرومِ لِلعِلْمِ سُدى ليس لِلأعمى على النُّور هُدى

المحروم من تذوُّق لذة العلم لا فائدة من طلبه للعلم

فإذا فاتَكَ توفيقُ العليمْ فامتنعْ عن كلِّ تحصيلٍ عقيمْ
واطلبِ الرزقَ هنا أو هُهنا كمْ مَعَ الجهلِ يَسارٌ وغِنى

فليطلب الإنسان رزقه من غير طريق العلم، وكم من جاهل أصاب يساراً (غنى)

إنَّ لِلعلمِ جميعاً فلسفةْ من تَغِبْ عنهُ تَفُتْهُ المعرِفةْ
قل إذا خاطبتَ غيرَ المسلمينْ لَكُمُ دِينٌ رضِيتُمْ وَلْيَ دِينْ
خَلِّ لِلدَّيَّانِ فيهِمْ شانَهُ إنه أوْلى بِهِمْ سبحانَهُ
كلُّ حالٍ صائرٌ يوماً لِضِدّ فَدَعِ الأقدارَ تجري واستعِدّ
فَلَكٌ بالسَّعدِ والنحسِ يدورْ لا تُعارضْ أبداً مجرى الأمورْ
كلُّ حيٍّ، ما خلا اللَّهَ، يموتْ فاترُكِ الكِبْرَ لهُ والجَبَروتْ
اطْلُبِ الحقَّ برفقٍ تُحْمَدِ طالبُ الحقِّ بعنفٍ مُعتدِ

أَحبِبِ الطفلَ، وإنْ لمْ يَكُ لَكْ　　　إنما الطفلُ على الأرض مَلَكْ
عَطْفَةٌ منهُ على لُعْبَتِهِ　　　تُخرجُ المحزونَ مِنْ كُربتِهِ
واجعلِ الحجَّ إلى أمِّ القُرى　　　غِبَّ حَجٍّ لبيوتِ الفُقَرَا

غب: بعد

ليس لي في طبِّ جالينوسَ باعْ　　　بَيْدَ أنَّ العيْشَ درسٌ واطِّلاعْ
احذَرِ التُّخْمةَ إن كنتَ فَهِمْ　　　إن عِزْرائيلَ في حَلْقِ النَّهِمْ
واتَّقِ البردَ فكَمْ خَلْقٍ قَتَلْ　　　مَنْ توقَّاهُ اتَّقى نصفَ العِلَلْ
واتركِ الخمرَ لِمَشْغوفٍ بِها　　　لا يَرى مَنْدوحةً عنْ شُرْبِها
وتَعَشَّقْ وتعفَّفْ واتَّقِ　　　ما درى اللذةَ مَنْ لمْ يَعشقِ

سخر العقاد من هذه الأرجوزة كثيراً. ولعل المرء لا يملك إلا أن يكبت ابتسامة وهو يقرأ نصائح شوقي في اجتناب التخمة والبرد. على أن شاعرنا ربما كان يريد فقط مباراة أبي العتاهية في أرجوزته المعروفة بذات الأمثال، التي امتدح الجاحظ بيتها: (يا للشباب المرح التصابي/ روائح الجنة في الشباب). وأنا أمتدح، مجيزاً لنفسي القعود بجانب أبي عثمان، البيت: (إن الشباب والفراغ والجدة/ مفسدة للمرء أي مفسدة)، أو لعله كان يقلد ابن الوردي في لاميته النصحية (اعتزل ذكر الأغاني والغزل/ وقل الفصل وجانب من هزل) وهي على بحر الرمل كقصيدة شوقي

١١٨ النفوس حرائر

قال شوقي (١٩٠٨):

إن النفوسَ، كما علمتَ، حرائرٌ　　　كَذَبَ الأُلى قالوا: النفوسُ إماءُ

النفوس حرة، وقد كذب الأُلى (الذين) قالوا إنها إماء (جوارٍ مستعبدة)

والشعبُ إن ملَّ الحياةَ ذليلةً　　　هانَ الرجالُ عليه والأشياءُ

إذا مل شعب الحياة مع الذلة هانت عليه النفوس والأشياء (الممتلكات)

١١٩ الصعب والسهل

قال شوقي (١٩٠٨):

ما أصعبَ الفِعْلَ على مَنْ رامَهُ　　　وأسهلَ القولَ على مَنْ أرادْ

١٢٠ سبحانهم

قال شوقي ينتقد الحزب الوطني، ويؤيد أحمد زكي باشا شيخ العروبة في خصومته مع الحزب بعد وفاة زعيمه مصطفى كامل وتزعم محمد فريد للحزب (١٩٠٨):

شَـرُّ الـبَـلِـيَّـةِ أنْ يـكـونَ زعـيـمـا   مَنْ لا يُسالِمُ في الرجالِ كَريما

عـابُوكَ إذ وَجدوا صَنيعَكَ بارِعاً   وَرَأَوْا سبيلَكَ في الحياةِ قَويما

فَتَحُوا لِحِزْبِهِمُ الجِنانَ، وأَعْتَدُوا   سُبْحانَهُمْ للكافرينَ جَحيما

كان شوقي صديقاً لزعيم الحزب الوطني مصطفى كامل، وعندما مات انصرف عن الحزب ولم يكن شديد التحمس لمحمد فريد. وكان شوقي يناصب سعد زغلول العداء لقربه من الإنجليز الذين يقتطعون قطعة كبيرة من نفوذ الخديوي عباس حلمي ولي نعمة شوقي. ورأينا شوقي يسخر من سعد زغلول عندما زار لندن سنة ١٩٠٦، ويسخر من أخيه الذي كان رئيس محكمة دنشواي، وسنرى شوقي يقترب من الأحرار الدستوريين بعض الاقتراب، وهو رجل غير حزبي، حزبه الخديوي فحسب. وسنراه يقترب من سعد زغلول بعد سنوات، بل ويصبح كثير التردد على مجالسه، ثم ينال مقعداً في مجلس الشيوخ عن الوفد، حزب سعد، سنة ١٩٢٤

١٢١ النفس الكريمة

قال شوقي (١٩٠٨):

اللّهُ يَعلَمُ ما نفسي بِجاهلةٍ   مَنْ أهلُ خُلَّتِها مِمَّنْ يُعادِيها

علم الله أنني لا أجهل أهل خلتي (صداقتي) من أعدائي

والنفسُ إنْ كَبُرَتْ رقَّتْ لحاسِدِها   واستغفرتْ، كَرَماً مِنْها، لِشانِيها

شانيها: كارهها

١٢٢ إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

قال شوقي يرثي مصطفى كامل (١٩٠٨):

المَشْرِقانِ عليكِ يَنتحبانِ   قاصيهِما في مَأتَمٍ والدَّاني

الشرق الأقصى والشرق الأدنى ينتحبان عليك

يتساءلونَ: أَبِالسُّلالِ قَضَيْتَ، أم   بالقلبِ، أم هلْ مُتَّ بالسَّرَطانِ

السلال: مرض السل

اللّهُ يشهدُ أنَّ موتَكَ بالحِجا   والجِدِّ والإقدامِ والعِرْفانِ

سبب موتك توقد الحجى (العقل)، والنشاط المفرط

إنْ كـان لـلأخـلاقِ رُكْـنٌ قـائـمٌ   فـي هـذهِ الـدنـيـا فـأنـتَ الـبـانـي
والخلدُ في الدنيا، وليسَ بِهَيِّنٍ،   عـلـيـا الـمـراتـبِ لـم تُـتَـحْ لِـجَـبـانِ
وأَحَـبُّ مِـنْ طـولِ الـحـيـاةِ بِـذلـةٍ   قِـصَـرٌ يُـريـكَ تَـقـاصُـرَ الأَقـرانِ

مات مصطفى كامل عن ٣٤ سنة، وقِصَر حياته يبرز تفوقه على أقرانه

دقـاتُ قـلـبِ الـمـرءِ قـائـلـةٌ لَـهُ:   إنَّ الـحـيـاةَ دقـائـقٌ وثـوانِ

أنفق العقاد صفحة من كتاب «الديوان» في نقد هذا البيت. ولكن العقاد، في كل كتابه الذي سخره لنقد وشتم شوقي، كان يغفل أن مما يحبه المرء في الشعر إيقاعاً تفهمه الأذن دون الدماغ. هذا بيت بديع في معناه، بديع في إيقاعه، وأحب أن أقرأه جهراً مشدداً على قافاته الخمسة

فارفعْ لِنفْسِكَ بعدَ موتِكَ ذكرَها   فـالـذكـرُ لـلإنـسـانِ عُـمْـرٌ ثـانِ
لـو كـان لـلـذكـرِ الـحـكـيـم بـقـيـةٌ   لـم تـأتِ بـعـدُ، رُثِـيـتَ في الـقـرآن
ولقد نظرتُكَ والرَّدَى بِكَ مُحْدِقٌ   والـداءُ مـلءَ مـعـالـمِ الـجـثـمـانِ

محدق بك: محيط بك

يبغِي ويطغَى والطبيبُ مُضَلَّلٌ   قَـنِـطٌ، وسـاعـاتُ الـرَّحـيـلِ دَوَانِ

قنط: قانط يائس، دوان: دانية قريبة

ونـواظـرُ الـعُـوَّادِ عـنـكَ أمـالَـهـا   دمـعٌ تُـعـالِـجَ كَـتْـمَـهُ وتُـعـانـي

العواد (الزوار الذين يعودونك في مرضك) مالت نواظرهم (عيونهم) بعيداً عنك وهم يعالجون (يغالبون) الدمع لمنعه من الهمول

تُمْلي وتكْتُبُ والمشاغلُ جَمَّةٌ   ويـداكَ فـي الـقـرطـاسِ تـرتَـجِـفـانِ

أما أنت فتشتغل رغم مرضك

فهشَشْتَ لِي حتى كأنَّكَ عائدي   وأنـا الـذي هـدَّ الـسَّـقـامُ كِـيـانِـي

رحبت بي منشرحاً كأنك أنت الذي تعودني، وكأنني أنا الذي هد السقام (المرض) كياني

ورأيتُ كيف تموتُ آسادُ الشَّرَى   وعَرَفْتُ كيف مصارعُ الشجعانِ

رأيت فيك كيف تموت أسود الشرى (الشرى مأسدة كانت عند الفرات)

وجعلتَ تَسْأَلُني الرثاءَ فهاكَهُ   مِـنْ أدمُـعـي وسـرائِـري وجَـنـانـي

طلبت مني أن أرثيك فهاك (خذ) الرثاء من دموعي وسرائري (ضميري) وجناني (قلبي)

لولا مغالبةُ الشجونِ لخاطري   لـنـظـمـتُ فـيـكَ يـتـيـمـةَ الأزمـانِ

لولا مغالبة (منازعة) الشجون (الأحزان) لخاطري (لقريحتي) لنظمت فيك قصيدة هي الدرة اليتيمة

وأنا الذي أرثي الشموسَ إذا هَوَتْ فتعودُ سِيرَتَها إلى الدَّوَرانِ
قد كنتَ تهتفُ في الوَرى بِقصائدي وتُحِلُّ فوقَ النَيِّراتِ مَكاني

النيرات: النجوم

ماذا دهاني يومَ بِنْتَ فَعَقَّني فيكَ القريضُ، وخانَني إمكاني

بنتَ: فارقتَ، عقني القريض: خانني الشعر، وخانني إمكاني (قدرتي)

يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غرامِها هذا ثرى مِصْرٍ فنَمْ بأَمانِ

صب: محب

أقسمْتُ أنَّكَ في التُّرابِ طهارةٌ مَلَكٌ يَهابُ سؤالَه الملكانِ

١٢٣ العدل بين الأولاد

قال شوقي في أولاده الثلاثة (١٩٠٩):

يقولونَ: لِمْ تُطْرِي عَلِيًّا وأختَهُ وتنسى حُسَيْناً، والحسينُ كريمُ

يقولون لِمْ (لماذا) تطري (تثني على) علياً وأخته أمينة، وتنسى حسيناً، وإنه لعزيز علي

فقلتُ: فؤادي للثلاثةِ منزلٌ هُما طُنُباهُ، والحسينُ صَميمُ

فقلت قلبي منزل (المنزل في العربية القديمة هو الخيمة) الأولان طنبان فيه (حبلان يشدان الخيمة) والحسين صميم (الأصل)

إذا ما بدا لي أنْ أفاضِلَ بينهُمْ أبى ليَ قلبٌ عادلٌ ورحيمُ
أُحِبُّ صغارَ العالَمِينَ لأجلِهِمْ ويَعطِفُ قلبِي ذو أَبٍ، ويتيمُ

أحب الصغار جميعاً لأجل أولادي، ويعطف قلبي (يستميله) الطفل ذو الأب والطفل اليتيم

١٢٤ ريم على القاع

قال شوقي (١٩٠٩):

ريمٌ على القاعِ بينَ البانِ والعَلَمِ أَحَلَّ سفْكَ دَمِي في الأَشْهُرِ الحُرُمِ

ريم (غزال) على القاع (السهل) بين موضعي «البان» و«العلم» أحل لنفسه أن يسفك دمي في الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب التي لم تكن العرب تحترب فيها)

رمى القضاءُ بِعَيْنَيْ جُؤْذُرٍ أسداً ... يا ساكنَ القاعِ أدرِكْ ساكنَ الأَجَمِ

رمى قضاء الله عن طريق عيني جؤذر (صغير البقر الوحشي) أسداً (أي رماني، وأنا الأسد، بسهام العشق التي انطلقت من عيني هذه الفتاة الجميلة)، فيا ساكن السهل أدرك (ارحم) ساكن الأجم (الغابة)، أي يا أيتها الفتاة ارحمي هذا العاشق

لمَّا رَنا حَدَّثَتْني النفسُ قائلةً ... يا ويْحَ جنبِكَ بالسَّهْمِ المُصيبِ رُمِي

عندما رنا (نظر) قالت لي نفسي: يا ويح جنبك فقد رماه هذا الحبيب بسهم صائب

جَحَدْتُها، وكَتَمْتُ السهمَ في كَبِدِي ... جرحُ الأَحِبَّةِ عنديَ غيرُ ذي ألَمِ

جحدت (تجاهلت) نفسي وقولها، وكتمت السهم في كبدي، فضرب الحبيب مثل أكل الزبيب.
يقول عمران القفيني: «لو كنا سننوه بكل بيت، ونكشف من أين أخذه شوقي لاحتاج الكتاب عشرين صفحة إضافية على الأقل. على أنها «وَلَّعَتْ معي» عند هذا البيت! أليس هذا من قول المتنبي «وما لجرح إذا أرضاكم ألم؟»

رُزِقْتَ أسمحَ ما في الناسِ مْن خُلُقٍ ... إذا رُزِقْتَ «التماسَ العُذْرِ» في الشِّيَم

أيها الإنسان تكون قد رزقت أسمح خلق إذا رزقت التماس العذر للناس ضمن الشيم (الخصال) التي في نفسك

يا لائِمي في هواهُ، والهَوى قَدَرٌ ... لو شَفَّكَ الوَجْدُ لم تَعذِلْ ولم تَلُمِ

يا لائمي في حبه، والعشق قدر، لو شفَّك (أوجعك) الوجد (الغرام) لم تعذل (لم تلم)

لقد أَنَلْتُكَ أُذْناً غيرَ واعيةٍ ... ورُبَّ مُنْتَصِتٍ والقلبُ في صَمَمِ

لقد أعطيتك أذناً ولكنها غير مصغية، وكثيراً ما يظهر على المرء أنه منتصت (منصت)، ولكن قلبه أصم

يا ناعسَ الطَّرْفِ! لا ذقتَ الهوى أبداً ... أسهرتَ مُضناكَ في حِفظِ الهوى فَنَمِ

ويا أيها المحبوب، يا من طرفه (عيناه) ناعس، أدعو لك ألا تذوق الهوى رحمة بك. لقد أسهرت مضناك (المريض بحبك) فنم

يا نفسُ! دنياكِ تُخْفي كلَّ مُبْكِيَةٍ ... وإنْ بدا لَكِ مِنْها حسنُ مُبْتَسَمِ

يا نفسي! دنياك تخبئ لك كل ما يبكي، وإن بدا لك منها مبتَسَم (ابتسام) حسن

صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُهُ ... فقوِّمِ النفسَ بالأخلاقِ تَسْتَقِمِ

إنْ جَلَّ ذنبي عنِ الغُفرانِ لي أَمَلٌ ... في اللّهِ يجعلُني في خيرِ مُعْتَصَمِ

المعتَصَم: الحصن المنيع

وإنْ تَقَدَّمَ ذو تَقوى بِصالحةٍ ... قَدَّمْتُ بينَ يديْهِ عَبْرَةَ النَّدَمِ

إن قدم ذو التقوى عملاً صالحاً قدمت عبرة (دمعة) الندم على معاصيَّ

يا أفصحَ الناطقينَ الضَّادَ قاطبةً حديثُكَ الشَّهْدُ عندَ الذّائقِ الفَهِمِ

يا محمدا! حديثك النبوي هو الشهد عند الذائق (المتذوق) الفَهِم (الذكي)

أَتيْتَ والناسُ فوضى، لا تَمُرُّ بِهِمْ إلَّا على صنمٍ قد هامَ في صنمِ

أتيت برسالتك والناس فوضى لا ترى فيهم إلا رجلاً جاهلاً كالصنم هائماً بصنم يعبده

أسْرى بكَ اللَّهُ ليلاً إذْ مَلائِكُهُ والرُّسْلُ في المسجدِ الأقصَى على قَدَمِ

أسرى بك الله ليلاً إذ الملائك (الملائكة) والرسل قد قاموا واقفين في المسجد الأقصى لتصلي بهم

حتى بلغتَ سماءً لا يُطَارُ لها على جناحٍ، ولا يُسعَى على قَدَمِ

ثم عرج بك إلى السماء التي لا يصلها واصل، طائراً بجناح أم سائراً بقدم

وقيلَ: كلُّ نَبِيٍّ عند رُتْبَتِهِ ويا محمدُ هذا العرشُ فاسْتَلِمِ

وقيل فليلزم كل نبي رتبته، ويا محمد هذا عرش الله فاستلمه (قبِّله)

يا أحمدَ الخيرِ لِي جاهٌ بِتَسْمِيَتي وكيف لا يَتسامَى بالرَّسولِ سَمِي

يا أحمد (من أسماء الرسول) لي شرف بتسميتي فأنا أحمد، وكيف لا يتسامى (يعلو) بالرسول سميٌّ (المسمَّى بنفس الاسم)

المادِحونَ وأربابُ الهوى تَبَعٌ لِصاحبِ البُرْدَةِ الفيْحاءِ ذي القِدَمِ

كل من مدح الرسول وأرباب الهوى (ذوو الحب للرسول) تبع (تابعون) لصاحب البردة الفيحاء (العطرة) ذي القِدم (السابق/ المتقدِّم زماناً)

وصاحب البردة هو البوصيري الذي عارضه شوقي في قصيدته هذه

اللَّهُ يَشْهَدُ أنِّي لا أُعارِضُهُ مَنْ ذا يُعارضُ صَوْبَ العارِضِ العَرِمِ

إذن فشوقي لا يعارضه (ينافسه)، ومن ذا الذي ينافس صوب (انهمار) العارض (السحاب) العرم (المتدفق)

قالوا: غزوتَ، ورُسْلُ اللَّهُ ما بُعِثوا لقتلِ نَفْسٍ، ولا جاءوا لسفكِ دَمِ

قالوا إنك يا رسول الله غزوت، والرسل ما بعثوا للقتل

جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسَفْسَطَةٌ، غزوتَ بالسيفِ بعدَ الغَزْوِ بالقلمِ

وما قالوه جهل وسفسطة (حجج ملفقة)

والشرُّ إنْ تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقْتَ به ذَرْعَاً وإنْ تَلْقَهُ بالشرِّ يَنْحَسِمِ

إن واجهت الشر بالخير ضقت به ذرعاً، وإن واجهته بشر مثله حسمته (قطعت دابره)

دعوتَهُمْ لجهادٍ فيهِ سؤدَدُهُمْ والحربُ أُسُّ نظامِ الكونِ والأمَمِ

دعوت يا محمد العرب لجهاد فيه سؤدد (سيادة) لهم، والحرب هي أساس نظام الكون والأمم

يا رَبِّ هبَّتْ شُعوبٌ مِنْ مَنِيَّتِها واستيقظَتْ أُمَمٌ مِنْ رَقْدَةِ العَدَمِ

يا رب قد هبت (استيقظت) شعوب أخرى من منيتها (من موتها)، واستيقظت من رقدة الفناء. وكانت اليابان قبل سنوات قلائل من هذه القصيدة قد أكدت نهضتها الباهرة بنصر مؤزر على روسيا، واستيقظ الوعي القومي عند اليونان والبلغار والصرب الذين يحكمهم الترك، وبدا جلياً أن دولة الترك التي يناصرها شوقي آيلة للتفكك

فالطُفْ لأَجْلِ رسولِ العالمينَ بِنا ولا تَزِدْ قومَهُ خَسْفاً ولا تَسُمِ

لا تزدنا خسفاً ولا تَسُمْنا (لا تُذِلّنا)

يا ربِّ أحسنْتَ بَدْءَ المسلمينَ به فتمِّمِ الفضلَ وامنحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ

١٢٥ الرقيب

قال شوقي في الرقيب على الصحف في تركيا، وذلك بعد أن ألغى رجال العهد الجديد منصبه (١٩٠٩):

الحمدُ للَّهِ الذي رَحَّلَهْ لنا «رقيبٌ» كانَ ما أثْقَلَهْ
لو ابتَلى اللَّهُ به عاشقاً ماتَ به لا بالجَوى والوَلَهْ

الرقيب رقيب الصحف، والرقيب أيضاً الشخص المكلف بمراقبة العاشقين، فلو ابتلى الله برقيب الصحف التركي هذا عاشقاً لمات العاشق منه لا من الجوى (ألم العشق) ولا من الوله (شدة العشق)

لو دامَ للصُّحُفِ ودامتْ لَهُ لم تنجُ مِنْهُ الصُّحُفُ المُنْزَلَةْ

لو دام هذا رقيباً على الصحف لامتد أذاه فأصاب «الصحف» المنزلة (الكتب السماوية/ صحف إبراهيم وموسى)

لو خالَ «بِسْمِ اللَّهِ» في مُصْحَفٍ تُغْضِبُ تَحْسيناً محا البَسْمَلَةْ

لو ظن أن البسملة في المصحف تغضب تحسيناً (حسن تحسين باشا القائد البحري التركي) لمحاها

جرائدُ التُّرْكِ على عهدِهِ كانتْ بِلا شَأْنٍ ولا مَنْزِلَةْ
الشرُّ بالشرِّ، فيا قَوْمُ لا إثمَ إذا راقَبْتُمُ مَنْزِلَهْ

فقابلوا شره بشر، وراقبوا منزله جزاء ما كان يراقب الصحف

فحاصِرُوا الأبوابَ واستوقِفوا مَنْ أخرَجَ الزَّادَ ومَنْ أَدْخَلَهْ

وأوقفوا للتفتيش من يحمل إليه الطعام

إنْ كان في السَّلَّةِ تفاحةٌ ضَعُوا لَهُ موضِعَها حَنْظَلَةْ

فإن وجدتم في الطعام تفاحة فأبدلوا بها حنظلة (الثمرة المرة)

ذلك يَا قومُ جزاءُ امرِئٍ كمْ غيَّرَ الحقَّ، وكمْ بَدَّلَهْ

تبديل بتبديل

١٢٦ انقلاب شوقي على عبد الحميد

قال شوقي في الانقلاب العثماني (١٩٠٩):

عبدَ الحميدِ! حسابُ مِثْـ ـلِكَ في يدِ الملك الغفورِ

سُدْتَ الثلاثينَ الطِّوا لَ ولَسْنَ بالحُكمِ القصيرِ

حكم عبد الحميد الثاني تركيا ٣٣ سنة (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩). إذا قرأ هذا الشرح معلم مدرسة، ورأى أن يدرِّس القصيدة لتلامذته، فليعلم أنني ما وضعت التواريخ حتى يفرضها على ذاكرتهم. وضعتها زيادة في الشرح، وحتى أريحك من عناء البحث

تنهَى وتأمُرُ ما بدا لَكَ في الكبيرِ وفي الصغيرِ

لا تستشيرُ، وفي الحِمَى عددُ الكواكِبِ مِنْ مُشيرِ

لا تستشير أحداً رغم أن في البلد عدد الكواكب من العقلاء المشيرين بالصواب

أينَ الرَّوِيَّةُ والأنا ةُ وحكمةُ الشيخِ الخَبيرِ

إنَّ القضاءَ إذا رَمى دَكَّ القَواعِدَ مِنْ ثَبيرِ

القضاء حين يرمي بسهمه يدك قواعد جبل ثبير

دَخَلوا السَّريرَ عليكَ يَحْـ ـتَكِمونَ في رَبِّ السَّريرِ

دخل الانقلابيون السرير (قاعة الحكم) وتحكموا في رب (صاحب) الديوان، فأسروه ونفوه إلى سالونيك (ومات هناك بعد تسع سنين/ ليست للحفظ)

أعظِمْ بِهِمْ مِنْ آسِريـ ـنَ وبالخليفةِ مِنْ أسيرِ

فما أعظمهم، وما أعظم الخليفة الأسير!

١٢٧ الصابر على معتقداته

قال في أربعين قاسم أمين، الذي مات في ١٩٠٨، ونشرت القصيدة في (١٩٠٩):

يا غائبِينَ وفي الجوانِحِ طيفُهُمْ أبكِيكُمُ مِنْ غُيَّبٍ حُضَّارِ

يا غائبين وفي الجوانح (الصدور) صورتهم، أبكيكم وأنتم غائبون عن العين حاضرون في الذهن

بيْنـي وبينَـكُـمُ وإنْ طالَ الـمَدى   سَـفَـرٌ سـأُزْمِـعُـهُ مِـنَ الأَسْـفـارِ
والذي يفصلني عنكم سَفَر سوف أزمعه (أقوم به)

إنّـي أكـادُ أَرى مَـحَـلِّـيَ بينَكُـمْ   هــذا قــرارُكُــمُ وذاكَ قَــراري
هذا قراركم (مكان استقراركم/قبركم) وذاك بقربه قراري الذي سأنزل به

أوفـى الـرجـالِ لـعـهـدِهِ ولـرأيِـهِ   وأبـرُّهُـمْ بـصـديـقِـهِ والـجـارِ
قاسم أمين كان أوفى الرجال وأبرهم

وأشـدُّهُـمْ صـبـراً لـمـعـتَـقَـداتِـهِ   وتَـأَدُّبـاً لـمـجـادلٍ ومُـمـارِ
المماري (المجادل المكابر)

١٢٨ شعوبك يا محمد في سبات

قال شوقي يهنئ الخديوي عباس حلمي بالحج. يقول حسين أحمد شوقي في كتابه «أبي شوقي» إن الخديوي عباس حلمي عزم على شوقي أن يحج معه، ولكن شوقي تفلت من الموكب ولم يذهب للحج، وكانت هذه الاعتذارية (١٩١٠):

إلـى عَـرَفـاتِ الـلَّـهِ يـا خيـرَ زائـرٍ   عـلـيـكَ سـلامُ الـلَّـهِ فـي عَـرَفـاتِ
لكَ الدينُ يا ربَّ الحجيجِ، جمعتَهُمْ   لِبَيْتٍ طَـهـورِ الـسَّـاحِ والـعَـرَصـاتِ
الساح: الساحات، العرصات: الساحات

أرى الناسَ أصنافاً، ومِنْ كلِّ بُقْعَةٍ   إلـيـكَ انـتـهَـوْا مِـنْ غُـربـةٍ وشَـتـاتِ
تساوَوْا، فلا الأنسابُ فيها تفاوُتٌ   لـديـكَ، ولا الأقـدارُ مـخـتـلِـفـاتِ
دعـانـيِ إليكَ الـصـالـحُ ابنُ مـحـمـدٍ   فـكـانَ جـوابـي صـالـحَ الـدَّعَـواتِ
دعاني الخديوي «عباس بن محمد توفيق» إلى بيتك الحرام يا رب، فدعوت له بالخير

وخَـيَّـرَنـي فـي سـابـحٍ أو نَـجـيـبـةٍ   إلـيـكَ، فـلـم أَخْـتَـرْ سوى الـعَـبَـراتِ
وخيرني في ركوب سابح (فرس) أو نجيبة (ناقة)، فاخترت عبرات الاعتذار (دموع الاعتذار)

وقَـدَّمْـتُ أعـذاريِ وذُلِّـي وخَـشْـيـتـي   وجـئْـتُ بِـضَـعـفـي شـافِـعـاً وشَـكـاتـي
اعتذرت وقدمت خضوعي، وجعلت الشافع لي ضعفي وشكاتي (مرضي)

ركـائـبُ عـبـاسِ الـعُـلا كِـسْـرَوِيَّـةٌ   ولـكـنْ لِـذي سـيـفٍ ورَبِّ قـنـاةِ
ركائب عباس (دوابُّه) كسروية (فاخرة التجهيز كدواب كسرى)، ولكنها تصلح لذي السيف، ورَبٌّ (صاحب) الرمح

وفي راجتـي ماضٍ إذا ما هـزَزْتُـهُ تـركـتُ عـدوَّ الـلَّـهِ فـي الـسَّـكَـراتِ

وأما أنا ففي يدي قلم ماضٍ، إذا حركته تركت أعداء الله في سكرات الموت

أتـيـتَ بِـهِ يـا ربِّ نـوراً وحـكـمـةً ونـزَّهْـتَـهُ عـن رِيـبـةٍ وأَذاةِ

أنت جئتني يا رب بهذا القلم لتفيض منه الحكمة، ونزهته عن الريبة (العيب) والأذى

ويـا رَبِّ لَـوْ سَـخَّـرْتَ نـاقـةَ صـالـحٍ لـعـبـدكَ ما كـانـتْ مِـنَ الـسَّـلِـسـاتِ

وحظي سيء، فلو سخر لي الله ناقة النبي صالح المعطاء السلسة، لما كانت سلسة معي

ويا رَبِّ هلْ تُغني عَنِ العبدِ حَجّةٌ وفي الـعـمـرِ ما فـيـهِ مِـنَ الـهَـفَـواتِ

وماذا ينفعني الحج وقد ارتكبت هفوات كثيرة

إذا زُرْتَ يـا مـولايَ قـبـرَ مـحـمـدٍ وقـبَّـلْـتَ مَـثْـوى الأَعْـظُـمِ الـعَـطِـراتِ

مولاي الخديوي عندما تزور قبر محمد، وتُقبِّل مثوى (موضع) عظامه الطاهرة

فقُلْ لرسولِ اللَّهِ: يا خيرَ مُرسَلٍ أَبُـثُّـكَ مـا تَـدري مِـنَ الـحَـسَـراتِ

فقل له: أبثك (أخبرك بـ) حسرات قلبي

شُعوبُكَ في شرقِ البلادِ وغربِها كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُباتِ

١٢٩ مضناك جفاه مرقده

قال شوقي يهنئ الخديوي عباس حلمي (١٩١٠):

مـضـنـاكَ جـفـاهُ مَـرقَـدُهُ وبَـكـاهُ وَرَحَّـمَ عُـوَّدُهُ

مضناك (المريض بحبك) جفاه (نَبَذَه) مرقده (سريره) فهو ساهر، وبَكاه عُوَّدُه (زائروه) وترحموا عليه

حـيـرانُ الـقـلـبِ مُـعَـذَّبُـهُ مـقـروحُ الـجَـفْـنِ مُـسَـهَّـدُهُ

جفنه مقروح (مجرَّح) من بكائه ومسهَّد (ساهر)

أَوْدَى حُـرَقـاً إلَّا رَمَـقـاً يُـبْـقِـيـهِ عـلـيـكَ وتُـنْـفِـدُهُ

أودى (مات) من الحُرَق (حُرْقة في إثر حُرْقة)، ولم يبق فيه سوى رمق (بقية حياة)، وهو يحافظ على هذه البقية من أجلك وأنت تُنفِد هذه البقيه (تفنيها)

يَـسْـتَـهْـوِي الـوُرْقَ تـأَوُّهُـهُ ويُـذيـبُ الـصـخـرَ تـنـهُّـدُهُ

يستهوي الورق (الحمام) تأوهه، ويذيب الصخر تنهده

ويـنـاجـي الـنـجـمَ ويُـتْـعِـبُـهُ ويـقـيـمُ الـلـيـلَ ويُـقْـعِـدُهُ

لكثرة سهره يتعب النجم وهو يناجيه (يحدثه)، ويتعب الليل أيضاً

الـحـسـنُ حَـلَـفْـتُ بِـيُـوسُـفِـهِ والـسُّـورَةِ أنَّـك مُـفْـرَدُهُ

حلفت بأحسن الحسن (بيوسف النبي مضرب المثل في الحسن)، وحلفت بسورة يوسف أيضاً، أنك أنت المتفرد بالحسن

قـدْ ودَّ جـمـالَـكَ أو قَـبَـسـاً حَـوْراءُ الـخُـلْـدِ وأَمْـرَدُهُ

وقد تمنى جمالك أو قبساً منه (بعضاً منه) حوراءُ الجنة (ذات العينين الجميلتين) وأمرد الجنة (الغلام ولما ينبت شعر وجهه)

وتـمـنَّـتْ كـلُّ مُـقَـطِّـعَـةٍ يَـدَهـا لـو تُـبْـعَـثُ تَـشْـهَـدُهُ

وتمنت كل واحدة من تلك النسوة اللائي قطعن أيديهن لمَّا أذهلهنَّ جمال يوسف، لو بعثها الله لتشهد جمالك أنت

جَـحَـدَتْ عـيـنـاكَ زَكِـيَّ دَمِـي أَكَـذلِـكَ خَـدُّكَ يـجـحَـدُهُ

أنكرت عيناك دمي الزكي الذي سال في حبك، فهل خدك ينكر دمي؟ (وخدك محمر من دمي النازف فكيف له أن ينكر؟)

قـد عـزَّ شُـهـودِي إذْ رَمَـتَـا فـأشـرتُ لِـخَـدِّكَ أُشْـهِـدُهُ

عز علي العثور على شهود يشهدون لي عندما رمت عيناك بسهميهما قلبي، فأشرت لخدك المحمر حتى يكون شاهداً على هذه الجريمة

بَـيْـنـي فـي الـحـبِّ وبـيـنَـكَ مـا لا يَـقْـدِرُ واشٍ يُـفْـسِـدُهُ
مـا بـالُ الـعـاذلِ يـفـتـحُ لـي بـابَ الـسُّـلْـوانِ وأُوصِـدُهُ

العاذل (اللائم) يسهل عليَّ السلوان (النسيان)، لكنني أوصد (أسد) هذا الباب

ويـقـولُ: تـكـادُ تُـجَـنُّ بـه فـأقـولُ: وأُوشِـكُ أعـبُـدُهُ
مـوْلايَ، وروُحِـي فـي يـدِهِ، قـد ضـيَّـعَـهـا سَـلِـمَـتْ يـدُهُ
نـاقـوسُ الـقـلـبِ يـدقُّ لَـهُ وحـنـايـا الأضـلُـعِ مـعـبَـدُهُ
يـا سـيْـفَ الـدولـةِ عِـشْ أبـداً لـلـعـصْـرِ يـهُـزُّكَ أحـمَـدُهُ

سيف الدولة عباس حلمي الثاني، والذي يهز السيف في هذا العصر ويثير نخوته هو أحمد شوقي. وكان الذي يهز سيف الدولة الحمداني في العصر المنصرم أحمدٌ آخر هو أحمد بن الحسين المتنبي

كُـرْسِـيُّـكَ أثْـبَـتُ مِـنْ أُحُـدٍ مـمـدودُ الـعِـزِّ مُـؤَبَّـدُهُ

كرسي حكمك ثابت كجبل أحد، وعزك مستمر للأبد

١٣٠ لو لم يقتل لمات

اغتيل بطرس غالي رئيس مجلس النظار (ما يعادل رئيس الوزراء)، على يد الصيدلي إبراهيم الورداني بست رصاصات أصابته اثنتان منها، لأنه كان - فيما قيل - يدبر لتمديد امتياز قناة السويس. وكان غالي يساير الإنجليز، مثله في ذلك مثل معظم كبار الموظفين، ويسعى للتوفيق بينهم وبين الوطنيين (أنصار الحزب الوطني، وكان الورداني منهم) والعرابيين قبل ذلك. وأدى اغتيال بطرس غالي إلى استياء كبير في نفوس القبط (١٩١٠):

بني القبطِ! إخوانَ الدُّهورِ! رُوَيْدَكُمْ   هَبُوهُ يَسوعاً في البريَّةِ ثانيا

أيها القبط! يا إخواننا على مدى الدهور، رويدكم (تمهلوا)، وهبوه يسوعاً ثانياً (أي افرضوا أنه يسوع) في البرية (العالم)

حملتُمْ لحُكْمِ اللَّهِ صَلْبَ ابنِ مَرْيَمٍ   وهذا قضاءُ اللَّهِ قد غالَ غاليا

احتملتم صلب عيسى بن مريم لأنه قضاء الله، واغتيال بطرس غالي كان بقضاء الله

سديدُ المَرامِي قد رماهُ مسدِّدٌ   وداهيةُ السُّوَّاسِ لاقى الدَّواهيا

كان غالي سديد المرامي (الغايات)، ورماه بالرصاص رجل مسدد (يحسن التسديد)، وغالي داهية السواس (السياسيين) لاقى الدواهي

وواللَّهِ لوْ لمْ يُطْلِقِ النارَ مُطْلِقٌ   عليهِ لأَوْدى فَجْأَةً أو تَداوِيَا

والله لو لم تُطلَق عليه النار لأودى (مات) فجأة أو بعد التداوي من المرض. أهناك في الرثاء أوقح من هذا البيت؟

قضاءٌ ومِقْدارٌ وآجالُ أنفُسٍ   إذا هِيَ حانَتْ لم تُؤَخَّرْ ثَوانيا

ألم تَكُ مصرٌ مَهْدَنا ثم لَحْدَنا   وبينَهُما كانت لِكُلٍّ مَغانيا

المغاني: الربوع

ألم نَكُ مِنْ قَبْلِ المسيحِ ابنِ مَرْيَمٍ   وموسى وطهَ نعبدُ النيلَ جارِيا

فهلَّا تَساقَيْنا على حُبِّهِ الهوى   وهلَّا فَدَيْناهُ ضِفافاً ووادِيا

فهلا سقى بعضنا بعضاً من كأس محبتنا للنيل

وما زالَ مِنْكُمْ أهلُ وُدٍّ ورحمةٍ   وفي المسلمينَ الخيرُ ما زالَ باقِيا

فلا يَثْنِكُمْ عنْ ذِمَّةٍ قتلُ بُطْرُسٍ   فَقِدْماً عَرفنا القتلَ في الناسَ فاشِيا

فلا يجعلْكم قتل بطرس غالي ترجعون عن العهد، فقِدماً (منذ القديم) عرفنا القتل فاشياً (منتشراً) في الناس

١٣١ صداح

قال شوقي يتوجع عندما حكم على إبراهيم الورداني بالإعدام، لاغتياله بطرس غالي رئيس مجلس النظار/ الوزراء، والقصيدة مشحونة بالتقية (١٩١٠):

صَــدَّاحُ يــا مَــلِــكَ الــكــنــا ـرِ ويــا أمــيــرَ الــبُــلْــبُــلِ

أيها الصداح يا ملك الكنارات وأمير البلابل

يــا لــيــتَ شِــعــري يــا أســيــ ـرُ شَــجٍ فــؤادُكَ أم خَــلِــي

ليت شعري أيها الطائر الأسير هل فؤادك شجٍ (حزين) أم خليٌّ من الهم؟

وحــلــيــفُ سُــهْــدٍ أم تــنــا ـمُ الــلــيــلَ حــتــى يَــنْــجَــلــي

هل أنت حليف سهد (سهر)، أم تنام الليل بطوله؟

يــا طَــيْــرُ والأمــثــالُ تُــضْــ ـرَبُ لــلَّــبــيــبِ الأَمْــثَــلِ

يا أيها الطائر إنما نحن نضرب مثلاً للبيب

دنــيــاكَ مِــنْ عــاداتِــهــا ألَّا تــكــونَ لأَعــزَلِ

الدنيا عادتها أن لا تكون للأعزل

جُــعِــلَــتْ لــحُــرٍّ يُــبْــتَــلــى فــي ذي الــحــيــاةِ، ويَــبــتَــلــي

الدنيا للحر الذي يبتلى ويبتلي أعداءه بنضاله

يَــرمــي ويُــرمَــى فــي جِــهــا ـدِ الــعــيــشِ غــيــرَ مُــغَــفَّــلِ

أَسَــمِــعْــتَ بــالــحَــكَــمَــيْــنِ فــي الــ إســلامِ يــومَ الــجَــنْــدَلِ

هل سمعت بقصة الحَكَمين في دومة الجندل (عندما خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري)

رضــيَ الــصــحــابــةُ آنــذ ـلــكَ بــالــكــتــابِ الــمُــنْــزَلِ

فالصحابة رضوُا بالمصحف حكماً

وهُــمُ الــمــصــابــيــحُ الــرُّوا ةُ عــنِ الــنــبــيِّ الــمــرسَــلِ

حــتــى إذا وَسِــعَــتْ مُــعــا ويــةً، وضــاقَ بِــهــا عَــلــي

حتى إذا جاءت نتيجة التحكيم لصالح معاوية بعد الخدعة، فَوَسِعَت الأمور معاوية وضاق علي بها..

رَجَــعــوا لِــظُــلْــمٍ كــالــطَّــبــا ئِــعِ فــي الــنــفــوسِ مُــؤَصَّــلِ

لم يرض الناس، فالظلم من طبائعهم

نَـزَلـوا عـلـى حُـكْـمِ الـقـويِّ ـ وعـــنـــدَ رأيِ الأحْـــيَـــلِ

وكان الأمر للقوي والأحيل (الأكثر حيلة)

صـــدَّاحُ حـــقٌّ مـــا أقـــو لُ حَـفَـلْـتَ أمْ لـمْ تَـحْـفِـلِ

فيا صداح ما أقوله هو الحق، فالدنيا للقوي ولصاحب الحيلة، وأنت قمت بفعل وأخذت طريق القوة ولا يعنيني أكان الحق معك أم لم يكن، فالشريعة في هذه الغابة هي أن الدنيا «تؤخذ غِلابا»

صِحْ بِـالـصَّـبـاحِ وبَـشِّـرِ الـ أبـنـاءَ بِـالـمـسـتـقـبَـلِ
واسـألْ لـمـصـرَ عـنـايـةً تـأتِـي وتَـهْـبِـطُ مِـنْ عَـلِ

نشرت القصيدة في الشوقيات المطبوعة سنة ١٩٢٦ بعنوان «بين الحجاب والسفور» إمعاناً في التمويه على موضوعها الأصلي. وشوقي لم يضطر إلى كل هذا التمويه خوفاً من الإنجليز فحسب، بل مراعاة للأقباط أيضاً

١٣٢ بساط الريح

قال شوقي يحيي الطيارين الفرنسيين (١٩١٠):

قـم سـلـيـمـانُ، بـسـاطُ الـريـحِ قـامـا مَـلَـكَ الـقـومُ مـن الـجَـوِّ الـزِّمـامـا

قم يا سليمان يا من سخَّر لك الله الريح، فقد قام بساط الريح، وقد امتلك القوم زمام الأمور من الجو. هذا ولما تقم بعد حروب الجو، فلو عرف شوقي ما حدث عام ٦٧ عندما انتصرت إسرائيل في ساعة لأنها «ملكت من الجو الزمام» لظن نفسه نبياً

حـيـنَ ضـاقَ الـبـرُّ والـبـحـرُ بـهِـمْ أَسْرَجوا الريحَ وسامُوها اللِّجاما

وضعوا سرجاً على الريح كأنها فرس، وساموها (أذلوها بـ) اللجام

صـارَ مـا كـان لـكُـمْ مـعـجـزةً آيـةً لِـلـعـلـمِ آتـاهـا الأنـامـا

ما كان عندكم يا سليمان معجزة، صار آية (برهاناً) أعطاها العلم للأنام (للبشر)

قـدرةٌ كـنـتَ بـهـا مـنـفـرِداً أصبحتْ حِصَّةَ مَنْ جَدَّ اعتزاما
طِـلْـبَـةٌ قـد رامَـهـا آبـاؤُنـا وابـتـغـاهـا مَـنْ رأى الـدهـرَ غُـلامـا

الطيران طلبة (هدف) طلبها آباؤنا، وابتغاها الأقدمون الذين شهدوا الزمن وهو يافع

أسـقَـطَـتْ إيـكـارُ فـي تـجـرِبَـةٍ وابـنَ فِـرْنـاسٍ فـمـا اسـطـاعـا قـيـامـا

هذه الأمنية أسقطت اليوناني إيكاروس، والعربي العباس بن فرناس، من الأعالي فماتا في شهوة الطيران

فـي سـبـيـلِ الـمـجـدِ أوْدَى نَـفَـرٌ شُـهَـداءُ الـعـلـمِ أعْـلاهُـمْ مَـقـامـا

في سبيل المجد أودى (مات) نفر (أناس)، وشهداء العلم هم أعلاهم مقاماً

خـلـفـاءُ الـرسـلِ فـي الأرضِ هُـمُ   يَـبـعـثُ الـلّـهُ بـهِـمْ عـامـاً فَـعـامـا

شهداء العلم هم خلفاء الأنبياء في الأرض، والله يبعث بهم حيناً بعد حين

قـطـرةٌ مِـنْ دمِـهِـمْ فـي مُـلْـكِـهِ   تـمـلأُ الـمـلـك جـمـالاً ونِـظـامـا

والقطرة الواحدة من دمهم تنير الدولة وتزين الملك

أيُّـهـا الـشـرقُ انـتـبـهْ مِـنْ غَـفْـلـةٍ   ماتَ مَنْ في طُرُقاتِ السَّيْلِ ناما

الشرق غافل، وهو مثل النائم في طريق السيل، يأتيه السيل ليلاً فيجرفه

١٣٣ قصر أنس الوجود

قيلت هذه القصيدة في قصر أنس الوجود، معبد إيزيس على جزيرة فيلة، وبعد بناء السد العالي نقلت أحجاره وشيد من جديد على مبعدة نصف كيلومتر من موقعه الأصلي. وكان الرئيس الأميركي المنصرف لتوِّه من المنصب تيودور روزفلت (١٩٠١ ـ ١٩٠٩) زار مصر وقصد أسوان ضمن جولة صيد إفريقية قتل فيها مع رفاقه ١١ ألف حيوان أرسلوا كثيراً منها مملَّحة إلى واشنطن لتَعْمُر المتاحف. وقبل أسوان كان روزفلت في الخرطوم، وفيها قال كلاماً مؤيداً للاحتلال الإنجليزي، وغاضّاً من الثقافة الشرقية والإسلامية. (١٩١٠):

أيـهـا الـمـنـتـحـي بِـأَسْـوانَ داراً   كـالـثُّـريَّـا تُـريـدُ أنْ تَـنْـقَـضَّـا

يا روزفلت! أيها المنتحي (القاصد) داراً (قصر أنس الوجود) في أسوان كأنها نجوم الثريا توشك أن تنقض على الأرض

اخْلَعِ النَّعلَ واخفِضِ الطَّرْفَ واخشعْ   لا تُـحـاوِلْ مِـنْ آيـةِ الـدَّهـرِ غَـضَّـا

اخلع نعليك احتراماً (كما فعل موسى إذ كلم ربه) واخفض بصرك، ولا تحاول الغض (الانتقاص من) آية الدهر (معجزته)

قِفْ بتلكَ القصورِ في اليَمِّ غَرْقَى   مُمْسِكاً بعضُها مِنَ الذُّعْرِ بَعْضا

هذا الأثر مكون من عدة مبان بعضها فرعوني وبعضها بطلمي، وهي متشابكة متجاورة

كـعَـذارى أَخْـفَـيْـنَ في الـماءِ بَضّـاً   سـابـحـاتٍ بـه، وأبـديْـنَ بَـضّـا

كأن تلك القصور والمياه تغمر أسافلها فتيات سابحات أخفين بضاً (طرياً) من أجسامهن في الماء يسبحن به، وأظهرن بضاً فوق سطح الماء

مُـشْـرِفـاتٍ عـلـى الـزَّوالِ وكـانـتْ   مُـشْـرِفـاتٍ عـلـى الـكـواكـبِ نَـهْـضـا

الآن تشرف (توشك) هذه القصور على الزوال، وكانت في الماضي تشرف (تطل) على الكواكب ناهضة شامخة برؤوسها

شابَ مِنْ حولِها الزمانُ وشابَتْ   وشبابُ الفنونِ ما زالَ غَضَّا
الزمان شاب والقصور شابت، ولكنها تثبت أن الفن ما زال منتعشاً شاباً غضاً (طري العود)

رُبَّ نَقْشٍ كأنَّما نَفَضَ الصَّا   نعُ منهُ اليديْنِ بالأمسِ نَفْضا
وضحايا تكادُ تَمشي وتَرعى   لو أصابتْ مِنْ قدرةِ اللَّهِ نَبْضا
النقوش تصور الحيوانات المذبوحة على المعبد وهي تكاد تمشي لبراعة النحت، وكل ما ينقصها النبض

ومحاريبَ كالبُروجِ بَنَتْها   عَزَماتٌ مِنْ عَزْمَةِ الجنِّ أمضى
وربَّ محاريب عالية في المعبد بنتها همم أمضى من همة الجن (الذين سخرهم سليمان فبنوا له الصروح ومات وهم في كد وتعب)

سَقَتِ العالمينَ بالسَّعدِ والنحـ   ـسِ إلى أنْ تعاطَتِ النحسَ مَحْضا
هذه المحاريب كان بيدها، وبيد كهنتها، حظوظ الناس من سعد ونحس، ثم حل بها النحس وزالت قدسيتها

صَنعةٌ تُدهِشُ العقولَ، وفنٌّ   كان إتقانُهُ على القومِ فَرْضا
وأنا المُحْتَفي بتاريخِ مِصرٍ،   مَنْ يَصُنْ مجدَ قومِهِ صانَ عِرْضا

١٣٤ تولستوي يلتقي بالمعري

قال شوقي يرثي ليف نيكولايفيتش تولستوي الذي مات في سنة ١٩١٠. ونشرت القصيدة (١٩١١):

تُولِستويُ! تُجْري آيةُ العِلْمِ دمعَها   عليكَ، ويَبكي بائسٌ وفقيرُ
تبكيك يا تولستوي آية العلم (برهانه) والفقراء الذين تخليت لهم عن أملاكك. لا أدري لماذا بكى العلم تولستوي، إلا إن كان شوقي يعني المعرفة الإنسانية بأوسع مفهوم

إذا أنتَ جاورْتَ المَعَرِّيَّ في الثَّرى   وجاورَ رَضْوى في الترابِ ثَبِيرُ
إذا جاورت المعري في التراب، كما تجاوَرَ جبلا رضوى وثبير، فأنتما جبلان كبيران من جبال الحكمة، . .

فقُلْ: يا حكيمَ الدَّهرِ حَدِّثْ عنِ البِلَى   فأنتَ عَليمٌ بالأمورِ خبيرُ
فقل للمعري: حدثنا عن البِلى (تحلل الجسم بعد الدفن) فأنت عليم بالأمور

أرى راحةً بينَ الجنادلِ والحَصى   وكلُّ فِراشٍ قد أَراحَ وَثيرُ
يقول تولستوي: أرى راحة بين الجنادل (الصخور) والحصى

نَظَرْنا بِنورِ الموتِ كلَّ حقيقةٍ وكُنَّا كِلانا في الحياةِ ضَريرُ

الموت لكلينا كان نوراً رأينا فيه الحقائق، وفي الحياة كنا كلانا، وليس أبو العلاء وحده، ضريرين

إليكَ اعترافي لا لِقَسٍّ وكاهنٍ ونَجْوايَ بعدَ اللَّهِ وَهْوَ غَفورُ

أعترف لك يا أبا العلاء، وليس للقس كما يعترف المسيحيون، وأناجيك أنت بعد مناجاتي لله

فزُهدُكَ لم ينْكِرْهُ في الأرضِ عارِفٌ ولا متعالٍ في السماءِ كبيرُ

وزهدك أقر به العارفون في الأرض، وأقر به رب السماء المتعالي

بيانٌ يُشَمُّ الوحيُ مِنْ نَفَحاتِهِ وعِلمٌ كعلمِ الأنبياءِ غزيرُ

وبيانك يشم المرء منه عطر الوحي، فكأنه من التنزيل، وعلمك غزير كعلم الأنبياء

تُسائِلُنِي هل غيَّرَ الناسُ ما بِهِمْ وهل حدثَتْ، غيرَ الأمورِ، أمورُ

وإنك لتسألني، أنا القادم عليك بعد ألف سنة من موتك، هل تغير الناس؟

وهل آنَ مِنْ أهلِ الكتابِ تسامُحٌ خليقٌ بآدابِ الكتابِ جَديرُ

وهل آن (حان) بين أهل الكتاب (أصحاب الأديان السماوية) وقت التسامح الذي هو خليق (جدير) بالكتاب (الكتب المنزلة)

أُناسٌ كما تدري، ودنيا بحالِها ودهرٌ رخيٌّ تارةً، وعسيرُ

الناس كما تعرفهم، والدنيا كما هي، والزمن رخي (فيه رخاء) تارة، وعسير أخرى

وأحوالُ خَلْقٍ غابرٍ متجدِّدٍ تشابَهَ فيها أولٌ وأخيرُ

وأحوال الخلق الماضي والمتجدد متشابهة، الأول يشبه الأخير

وقامَ مقامَ الفردِ في كلِّ أمَّةٍ على الحُكمِ جَمٌّ يستبِدُّ غفيرُ

وبدل حكم الفرد، قام في كل أمة على شؤون الحكم جم (جمع) غفير يستبد بالأمر

وحُوِّرَ قولُ الناسِ مولىً وعبدُهُ إلى قولِهِمْ: مستأجِرٌ وأَجيرُ

وحُوِّر (بُدِّل) قول الناس مولى وعبده (سيد وعبده) إلى قولهم: مستأجِر وأجير

وأضحى نفوذُ المال لا أَمْرَ في الوَرى ولا نَهْيَ إلَّا ما يَرى ويُشيرُ

وصار لا يوجد أمر أو نهي بين الناس إلا بحسب ما يرى نفوذ المال وما يشير به

١٣٥ أمم الهلال

قال شوقي في مولد هلال العام الهجري الجديد (١٩١١):

أُمَمَ الهلالِ! مقالةٌ مِنْ صادقٍ والصدقُ أليَقُ بالرجالِ مَقالا

يا أمم الهلال (والهلال رمز الدولة العثمانية ورمز الإسلام) هذا قول رجل صادق، والصدق أليق بالرجال

مِنْ عادةِ الإسلامِ يرفعُ عاملاً ويُسَوِّدُ المِقْدامَ والفَعَّالا
الإسلام من عادته أن يرفع شأن من يعمل، وأن يسود (يعطي السيادة) الجريء الفعال

ظَلَمَتْهُ أَلْسِنَةٌ تؤاخِذُهُ بِكُمْ وظَلَمْتُموهُ مُفَرِّطِينَ كُسالى
ظلمت الإسلامَ الألسنة التي تؤاخذه بسببكم، وأنتم ظلمتموه بتفريطكم في الحقوق وكسلكم

هذا هلالُكُمْ تَكَفَّلَ بالهُدى هل تعلمونَ مَعَ الهلالِ ضَلالا
هلالكم، رمز دينكم، يكفل لكم الهداية، ولا ضلال مع وجود الهلال (فالسائر ليلاً يهتدي بهلال السماء، وهلال الإسلام يهدي المسلمين)

سَرَتِ الحضارةُ حِقْبَةً في ضوْئِهِ ومشى الزمانُ بِنُورِهِ مُخْتالا
الحضارة مشت في ضوء الهلال (دولة الإسلام) حقبة، وكان الزمان يمشي بنور هذا الهلال مختالاً (فخوراً)

وبَنى لَهُ العَرَبُ الأجاوِدُ دولةً كالشمسِ عَرشاً والنجومِ رجالا
وبنى العرب الأجاود (الكرام) للهلال دولة عرشها (حكومتها) كالشمس، ورجالها (قوادها) كالنجوم

حتى إذا انقَسَموا تقوَّضَ مُلْكُهُمْ والملك إنْ بَطَلَ التعاونُ زالا

١٣٦ نعالج الأيام

قال شوقي في ذكرى وفاة بطرس غالي الذي اغتيل عام ١٩١٠، (١٩١١):

الدِّينُ للدَّيَّانِ جلَّ جلالُهُ لوْ شاءَ ربُّكَ وَحَّدَ الأَقْواما

يا قومُ بانَ الرُّشْدُ فاقْصُوا ما جرى وخُذُوا الحقيقةَ وانبُذوا الأوهاما
ظهر الحق فأقصوا (أبعِدوا) ما جرى من خلاف بين المسلمين والقبط بعد اغتيال بطرس غالي، وافهموا حقائق الوضع وانبذوا التهويل

هذي ربوعُكُمُ وتلكَ ربوعُنا متقابِلَيْنِ نعالجُ الأيَّاما
هذي أماكنكم أيها القبط وهذي أماكننا، فنحن نعالج الأيام (نسعى في الدنيا) متقابلين متجاورين

هذي قبورُكُمُ وتلكَ قبورُنا متجاوِرَيْنِ جَماجِماً وعِظاما
فَبِحُرْمَةِ الموتى وواجبِ حقِّهِمْ عيشوا كما يقضي الجوارُ كراما

١٣٧ حشرات الناس

قال شوقي يؤبن عمر لطفي، وهو من رواد النهضة التعاونية في مصر، وله كتب في حق المرأة وحرية المساكن وإنشاء شركات التعاون. (١٩١١):

نَمْ ما بَدا لَكَ آمِناً في منزلٍ　　أَلدهرُ أقصَرُ فيهِ مِنْ سِنَةِ الكَرى

نم كما شئت في منزل (يقصد القبر)، الدهر الطويل فيه أقصر من سنة (غفوة) الكرى (النوم)

لا تَشْكُوَنَّ الضُّرَّ مِنْ حَشَراتِهِ،　　حَشَراتُ هذا الناسِ أقبحُ مَنْظرا

لا تَشْكُ الضرّ (الأذى) من حشرات القبر، فحشرات البشر أقبح

لم تَدْرِ نفسُكَ ما الغرورُ، وطالما　　دخلَ الغُرورُ على الكبارِ فصَغَّرا

كنت متواضعاً، وكثيراً ما دخل الغرور نفوس الكبار فصغرهم

في كُلِّ ناحيةٍ تَخُطُّ نِقابَةً　　فيها حياةُ أخي الزراعةِ لو دَرى

في كل ناحية رحت تؤسس نقابات، فيها الحياة لأخي (لصاحب) الزراعة

هي كيمياؤُكَ لا خرافةُ جابرٍ　　تَذَرُ المُقِلَّ مِنَ الجماعةِ مُكْثِرا

كيمياؤك (سرُّك/وكانت الكيمياء علماً سرياً هدفه تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) وليس خرافة جابر بن حيان (الذي مارس الكيمياء) هي التي تترك المقلّ (الفقير) من الجماعة مكثراً (موسراً). وكيمياء عمر لطفي كانت النقابات والعمل الجماعي

والمالُ لا تُجْبَى ثِمارُ رؤوسِهِ　　حتى يُصيبَ مِنَ الرُّؤوسِ مُدَبِّرا

رؤوس الأموال لا تؤتي ثمارها حتى يصيب (يجد) المال مدبراً له هو عبارة عن رؤوس الناس المبدعين

والملك بالأموالِ أمنعُ جانباً　　وأعزُّ سلطاناً وأصدقُ مَظْهَرا

الملك بوجود الأموال يصبح أحسن تحصيناً وأعز (أقوى) سلطاناً، وأصدق تعبيراً عن حقيقته

إنَّا لَفي زمنٍ سِفاهُ شعوبِهِ　　في مُلْكِهِمْ كالمرْءِ في بيتِ الكِرا

نحن في زمنٍ سفاه شعوبه (الشعوب السفيهة الحمقاء) تعيش في بلدانها كالمرء في بيت الكراء (الأجرة)، فهي منقوصة السيادة كالمستأجر

١٣٨ حيلة المصلوب في المسمار

قال شوقي في مؤتمر المستشرقين في أثينا (١٩١٢):

وَثلاثةٍ شَبَّ الزمانُ حِيالَها　　شُمٌّ على مَرِّ الزمانِ كِبارِ

رُبَّ ثلاثة (الأهرامات الكبرى) شب الزمان (صار شاباً) حيالها (بجانبها) فقد كانت ـ لقدمها ـ موجودة والزمان صغير في السن، وهي شمٌّ (شاهقة) وكبيرة على مدى الدهر

مِنْ كلِّ مَرْكوزٍ كَرَضْوَى في الثَّرى ... مُتَطاوِلٍ في الجوِّ كالإعصارِ

والواحد منها مركوز (ثابت) كجبل «رضوى» في التراب، وذاهب في السماء صاعد في الأعالي كالإعصار

الجنُّ في جَنَباتِها مَطروفَةٌ ... ببدائعِ البَنَّاءِ والحَفَّارِ

الجن (التي كانت بارعة في البناء إذ سخرها سليمان لبناء قصوره) تقف مطروفة (مبهورة) في جنبات الأهرامات لما أبدع البناء والحفار

والأرضُ أضْيَعُ حيلةً في نزعِها ... مِنْ حيلةِ المصلوبِ في المِسمارِ

والأرض حيلتها ضائعة (أي أنها عاجزة) في نزع الأهرامات، كحيلة المصلوب في نزع المسمار المدقوق في جسمه

تلكَ القبورُ أَضَنُّ مِنْ غَيْبٍ بِما ... أخفتْ مِنَ الأَعْلاقِ والأذْخارِ

الأهرامات قبور، وهي أضن (أحفظ) من الغيب (والغيب حافظ كتوم فلا أحد يعرف ما يخبئ) بما أخفته من الأعلاق (الكنوز) والأذخار (الكنوز)

١٣٩ فرحانُ بالحب

قال شوقي (١٩١٢):

بي مثلُ ما بِكِ يا قُمْرِيَّةَ الوادي ... ناديتُ ليلي، فقُومِي في الدُّجى نادي

بي مثل ما بك من الحزن يا قمرية (حمامة) الوادي، ناديتُ ليلي (قلت «يا ليل» كالمطربين)، فقومي في الدجى (الليل) نادي

تَذَكَّري قُبْلَةً في الشَّعْرِ حائرةً ... أَضَلَّها، فَمَشَتْ في فَرْقِكِ الهادي

يخاطب حبيبته: تذكري قبلة حائرة طبعتها على شعرك فأضلَّها شعرك (أضاع لها طريقها)، ثم مشت في فَرْق الشعر مهتدية بخطه المستقيم

تَذَكَّري مَنظرَ الوادي ومجلِسَنا ... على الغديرِ كعُصْفوريْنِ في الوادي

والغصنُ يحْنُو علَيْنا رِقَّةً وَجَوىً ... والماءُ في قَدَمَيْنا رائحٌ غادِ

الجوى: العشق. «الماء في قدمينا رائح غاد»، هذا من نحاس شوقي المطلي بالذهب. فالعبارة ذات رنة حلوة. لكنْ تخيل كيف يروح الماء ويجيء في اتجاهين تر الصورة اهتزت، فكأن شوقي وحبيبته كانا يغمسان أقدامهما في حوض غسالة نصف أوتوماتيك لا في جدول يسير باتجاه واحد ككل جداول رب العالمين. على أن المطلي بالذهب يسر العين، وكذا بيت شوقي فهو يسر الأذن

تَذَكَّري مَوْعِداً جادَ الزمانُ به ... هلْ طِرْتُ شوقاً، وهل سابقتُ مِيعادي

فنلتُ ما نلتُ من سُؤْلٍ ومِنْ أملٍ ... ورُحْتُ لم أُحْصِ أفراحي وأعيادي

سؤل: مطلب

١٤٠ متقمصاً البحتري

قال شوقي في مهرجان جمعية الهلال الأحمر (١٩١٢):

جِبْرِيلُ هَلِّلْ في السماءِ وكَبِّرِ   واكتُبْ ثوابَ المحسنينَ وسَطِّرِ

يا جبريل هلل (قل لا إله إلا الله) في السماء وكبر (قل الله أكبر)، وسجل الثواب للمحسنين

وادعُ الذي جعلَ الهلالَ شعارَهُ   يفتحْ على أُمَمِ الهلالِ ويَنْصُرِ

وادع الله الذي جعل الهلال شعاراً له (للإسلام) أن يفتح على أمم الإسلام بالنصر

يا مِهْرجانَ البِرِّ أنتَ تحيةٌ   للَّهِ مِنْ مَلأٍ كريمٍ خَيِّرِ

يا مهرجان البر (الخير) أنت تحية للخالق من ملأ (جمْع) كريم خيِّر

يا بنتَ إلهامِي دُعاءُ مُعَظِّمٍ   لسماءِ عِزِّكِ في البَرِيَّةِ مُكْبِرِ

يا بنت إلهامي (أم الخديوي عباس حلمي) هذا الدعاء الذي يدعو به المهرجان هو دعاء من يعظم سماء عزك في البرية (بين الناس) ودعاء من يُكْبِرُكِ

أحييْتِ، في فضلِ الملوكِ وعزِّهِمْ،   ما ماتَ مِنْ أمِّ الخليفةِ جعفرِ

أحييتِ في جانب فضل الملوك وكرمهم وعزهم ما ذهب زمنه من أعمال الخير التي قامت بها أمُّ الخليفة جعفر (المتوكل)

إنَّ الذي قد ردَّها وأعادَها   في بُرْدَتَيْكِ أعادَ فِيَّ البُحْتُري

اللهُ الذي أحيا ذكرها في بُردتيك (في ثوبيك، أي ممثلاً فيك) أعاد في شخْصي ذكرَ الشاعر البحتري

فنظمْتُ ما نثرتْ يمينُكِ شاكراً   لا يَحْسُنُ الإحسانُ ما لم يُشْكَرِ

فأنا نظمت شعراً ما نثرته يمينك من مال وأنا لك شاكر، والإحسان لا يكون جميلاً إن لم يرافقه الشكر

١٤١ ولد الهدى

في ذكرى المولد النبوي (١٩١٢):

وُلِدَ الهدى، فالكائناتُ ضياءُ   وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثَناءُ

زانَتْكَ في الخُلُقِ العَظيمِ شَمائلٌ   يُغرَى بهنّ ويُولَعُ الكُرماءُ

يا رسول الله زانتك (زينتك) في خلقك العظيم شمائل (خصال) يُغرى (يُحس بالإغراء) الكرام باتباعها، ويولَعون بها

وإذا رحِمتَ فأنتَ أمٌّ أو أبٌ   هذانِ في الدنيا هما الرُّحماءُ

وإذا حَمَيْتَ الماءَ لم يُورَدْ، ولو أنَّ القياصرَ والملوكَ ظِماءُ

إذا حميت الماء (منعته) لم يرده أحد، ولو أن القياصرة والملوك ظماء (عِطاش)

في كلِّ نفسٌ من سُطاكَ مهابةٌ ولكلِّ نفسٍ في نداكَ رجاءُ

سطاك (سطوتك)، نداك (كرمك)

١٤٢ ردت الروح

قال شوقي يحيي المطربة ليلى لزمي (١٩١٢):

رُدَّتِ الرُّوحُ على المُضنى مَعَكْ أحسنُ الأيَّامِ يومٌ أَرْجَعَكْ

بعودتك يا حبيبي ردت الروح على المضنى (المتعب) معك، وأجمل يوم هو الذي رجعت فيه

مَوْقِعي عندَكَ لا أَعْلَمُهُ آهِ لو تَعْلَمُ عندي موقِعَكْ

١٤٣ عشوائية النبوغ

قال شوقي في جماعة رعاية الطفل (١٩١٢):

خَلَقَ اللَّهُ جُماناً وحَصىً خالقُ الإنسانِ مِنْ ماءٍ وطِينْ

خلق الله الناس جماناً (لؤلؤاً) وحصى فمنهم النابغ والخامل، مع أن الله خلق كل إنسان من ماء وطين

ولأَمْرٍ مَّا، وسِرٌّ غامِضٍ تَسْعَدُ النُّطْفَةُ أو يَشْقَى الجَنينْ

لأمر ما تسعد (تنال الحظ السعيد) النطفة (أصل الجنين) أو يشقى الجنين، يقول إن المستقبل المكتوب سعداً أو شقاء للإنسان قبل ولادته سر غامض

رُبَّ مهدٍ أَزْرَتِ البُؤْسى به فيهِ كَنْزٌ خَبَّأَ الغيبُ ثَمينْ

فهناك مهد أزرت البؤسى به (عابه البؤس) فيه طفل هو كنز ثمين خبّأه الغيب

مُرْضَعٌ يَقْطُرُ بُؤْساً يومُهُ مُغْدِقُ النُّعمَى غداً في العالَمينْ

هذا الطفل المرضَع (الرضيع) يومه مليء بالبؤس، وهو نفسه سيصبح مُغدِقاً النعيمَ في الغد على العالم

أو طويلُ الصمتِ أَعمى في الصِّبا بينَ بُرْدَيْهِ المَعَرِّيُّ المُبينْ

أو يكون صبياً طويل الصمت وأعمى، ولكن بين برديه (في ثوبه/أي هو نفسه) معريُّ المستقبل المبين (البليغ)

١٤٤ لا وجدان للبخيل

قال شوقي (١٩١٢):

إنَّ الحياةَ نهارٌ أو سحابَتُهُ   فعِشْ نهارَكَ مِنْ دنياكَ إنسانا

الحياة كالنهار (سريعة الزوال) أو كسحابة النهار (وسحاب النهار سريع الانقشاع)، فعش هذا النهار من دنياك إنساناً

أرى الكريمَ بِوِجدانٍ وعاطفةٍ   ولا أرى لِبخيلِ القومِ وِجْدانا

لم أجد شعراً قسا على البخيل قسوة هذا البيت: البخيل لا وجدان له. والبخلاء عندي نوعان: بخيل كمريض الفصام، الذي يعرف أنه مريض، فيداري مرضه ويتكارم متكلفاً؛ وبخيل كمريض الذهان (البارانويا) الذي تتحطم دفاعاته النفسية ولا يعود يعترف بمرضه؛ فهو يرى كل الناس مسرفين مجانين ولا يقدر يفهم كيف ينفق الواحد من ماله دريهماً، وأنا مشفق عليهما كليهما

١٤٥ أخت الأندلس

قال شوقي في استيلاء البلغار على أدرنة من الدولة العثمانية (١٩١٢):

يا أخْتَ أندلُسٍ! عليكِ سَلامُ   هَوَتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ

يا أدرنة، يا أخت الأندلس (التي سقطت وزال عنها حكم الإسلام) عليك سلام، قد هوت (سقطت) الخلافة والإسلام عنك. ما أكثر ما في عبارة «أخت أندلس» هذه من إيجاز. ففيها موقف إسلامي، وفيها تفجع وفيها إبلاغ بسقوط المنطقة

نَزلَ الهلالُ عنِ السماءِ، فليتَها   طُوِيَتْ وعَمَّ العالَمِينَ ظلامُ

الهلال (وهو الشعار على علم الدولة العثمانية) نزل عن سمائك يا أَدِرْنة بعد أن كان يرفرف فيها، فليت السماء طويت (كما ستطوى يوم القيامة) وعم الظلام العالم

واليومَ حُكْمُ اللَّهِ في مَقدونِيا   لا نَقْضَ فيهِ لنا ولا إبرامُ

واليوم حكم الله في مقدونيا غير موجود، ولا نقض ولا إبرام (لا حل ولا عقد) لنا هناك

ومسيْطرِينَ على الممالِكِ سُخِّرَتْ   لهُمُ الشعوبُ كأنَّها أنعامُ

رب مسيطرين على الممالك (ملوك أوروبا) سُخِّرتْ لهم الشعوب كأنها الأنعام (المواشي)

مِنْ كلِّ جزَّارٍ يرومُ الصَّدْرَ في   نادي الملوكِ، وجدُّهُ غَنَّامُ

كل واحد منهم جزار في جلافته، ويروم (يطلب) التصدر في نادي (مؤتمر) الملوك، بينما كان جده غنّاماً (راعياً)

سِكِّينُهُ ويَمينُهُ وحِزامَهَ   والصَّوْلَجانُ جميعُها آثامُ

هذا الملك الأوروبي سكينه ويده وحزامه وصولجانه (عصا الملك) كلها ملطخة بالآثام

عيسى ! سبيلُكَ رحمةٌ ومحبةٌ   في العالَمِينَ وعِصْمَةٌ وسلامُ

يا عيسى! نهجك رحمة ومحبة في الدنيا وأهلها وعصمة من الخطأ وسلام

ما كنتَ سفَّاكَ الدِّماءِ، ولا امْرَأً   هانَ الضِّعافُ عليهِ والأيْتامُ

يا حاملَ الآلامِ عن هذا الوَرى   كَثُرَتْ عليهِ باسمِكَ الآلامُ

يا حامل آلام الورى (الناس)، كثرت الآلام على الورى باسمك (باسم الدين ناصر الأوروبيون رعايا الدولة العثمانية المسيحيين في ثوراتهم على إستانبول)

أنتَ الذي جعلَ العِبادَ جميعَهُمْ   رَحِماً، وباسْمِكَ تُقطَعُ الأرحامُ

أنت يا عيسى جعلت الناس جميعاً رحماً (أقارب)، والآن باسمك تقطع الأرحام ويتم تهجير الناس وتبديد شملهم. التسويد من عمران القفيني

واليومَ يَهْتِفُ بالصليبِ عَصائِبٌ   هُمْ لِلإلهِ ورُوحِهِ ظُلَّامُ

اليوم تنادي عصائب (جماعات) باسم الصليب، وهم ظالمون لله ولروح الله (عيسى)

خَلَطوا صليبَكَ والخناجرَ والمُدَى   كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمامُ

جعلوا صليبك أداة حرب وسياسة.. مع الخناجر والمدى (السكاكين)، وبها جميعاً أوقعوا الأذى والحمام (الموت)

أَوَما تَراهُمْ ذَبَّحوا جيرانَهُمْ   بينَ البيوتِ كأنَّهُمْ أغنامُ

كَمْ مُرْضَعٍ في حِجْرِ نِعمتِهِ غدا   ولهُ على حدِّ السيوفِ فِطامُ

كم طفل مرضَع (رضيع) في حجر (حضن) النعمة والرزق أصبح مفطوماً بحد السيف

وصَبِيَّةٍ هُتِكَتْ خميلةُ طُهرِها   وتناثرتْ عنْ نَوْرِهِ الأكمامُ

وكم صبية هُتكت خميلة (روضة) طهرها، وتناثرت عن نُوَّار هذا الطهر البتلات (كما تناثر ورق الورد)، هذا التشبيه المزدوج، الذي أعجب شكيب أرسلان، كناية عن تعرض الفتيات للاغتصاب. يقول شكيب أرسلان: «تقضي أمانة التاريخ أن نذكر كون الجيش الصربي تجنب الآثام في معاملة المسلمين أكثر من الجيشين البلغاري واليوناني». وتقضي أمانة التاريخ علينا أن نذكر أن الصرب في تسعينات القرن العشرين ارتكبوا ضد مسلمي البوسنة أفظع المذابح، واغتصبوا النساء بوحشية

وأخي ثمانينَ استُبيحَ وَقارُهُ   لم يُغْنِ عنهُ الضَّعفُ والأعوامُ

ورب شيخ ثمانيني انتُهك وقاره، ولم يشفع له ضعفه وعمره

ومهاجِرِينَ تنكَّرتْ أوطانُهُمْ ضلُّوا السبيلَ مِنَ الذُّهولِ وهاموا

وربّ مهاجرين تنكرت أوطانهم (تغيرت معالمها) ضلوا سبيلهم وهاموا. يقول شكيب أرسلان، وكان عضواً في لجنة الإعانات المصرية لمنكوبي الأزمة: «بلغ عدد الذين هاجروا من مسلمي البلقان مئة وخمسين ألف نسمة دخلوا الآستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس، وكان ذلك في قلب الشتاء، وفشت فيهم الكوليرة».

السيفُ إنْ رَكِبوا الفِرارَ سبيلُهُمْ والنِّطْعُ إنْ طلبوا القَرارَ مُقامُ

فإذا فروا فالسيف سبيلهم، وإذا اختاروا الإقامة فلهم النطع (البساط الجلدي يفرش تحت السياف وضحيته)

يَتَلفَّتونَ مُوَدِّعينَ ديارَهُمْ واللحْظُ ماءٌ، والدِّيارُ ضِرامُ

يتلفتون لإلقاء نظرة وداع على ديارهم، واللحظ (العين) دموع، والديار ضرام (نار) لأن المحتلين أحرقوها

يا أُمَّةً بِفَرُوقَ فَرَّقَ بينَهُمْ قَدَرٌ تَطيشُ - إذا أَتى - الأحلامُ

يا أمة بفروق (إستانبول) فرق بينهم قدر تطيش الأحلام (العقول) إذا أتى، (فروق هي إستانبول، وكأنها لم يكفها أن سميت بيزنطة، والقسطنطينية، والآستانة، وإستانبول، فها اسم خامس، وأطرف أسمائها «تخت الروم»)

فيمَ التخاذُلُ بينَكُمْ، ووراءَكُمْ أُمَمٌ تُضاعُ حقوقُها وتُضامُ

لماذا التخاذل بينكم (تقاعس بعضكم عن نجدة بعض)، ووراءكم أمم تُضاع حقوقها وتضام (تُظلَم)

هذا جَناهُ عليكُمُ آباؤُكُمْ، صبراً وصفْحاً فالجُناةُ كِرامُ

هذا سبَّبه لكم بناة الدولة الأوائل، فصبراً وغفراً لهم فهؤلاء الجناة كرام

رَفَعوا على السَّيفِ البناءَ فلمْ يَدُمْ؛ ما لِلبِناءِ على السيوفِ دوامُ

بنوا الدولة على القوة العسكرية فليس لها دوام

أبقى الممالِكِ ما المعارفُ أُسُّهُ والعدلُ فيهِ حائِطٌ ودِعامُ

أكثر الممالك بقاء وصموداً ما أساسه العلم، وما يدعمه العدل

فإذا جرى رُشْداً ويُمْناً أمرُكُمْ فامْشُوا بنورِ العلمِ فَهْو زِمامُ

فإذا وفقتم بعد هذه الأزمة فاستنيروا بالعلم فهو الزمام (المقود) الذي يقودكم إلى الأمان

ودَعوا التفاخُرَ بالتُّراثِ وإنْ غَلا فالمجدُ كَسْبٌ، والزمانُ عِصامُ

واتركوا التفاخر بالتراث (ما ورثتموه عن الأجداد)، فالمجد الحق مكتسب لا موروث، والزمان عصامي (أي هو لمن يصنع نفسه بنفسه)

صبراً أَدِرْنَةَ! كلُّ مُلْكٍ زائلٌ   يوماً، ويبقى المالِكُ العَلَّامُ
فصبراً يا أدرْنة، فكل ملك زائل يوماً، والبقاء لله

١٤٦ الحب كل صبابة بمذاق

قال شوقي (١٩١٢):

ولقد يقولُ ابنايَ في نَجواهُما   ماذا يُكابِدُ في النَّوى ويُلاقي
يتعجب ولداي في نجواهما (تهامسهما) لما أكابده (أعانيه) في النوى (الفراق)

ولديَّ! مصرُ لها، كما لَكُما، هَوىً   والحُبُّ كلُّ صبابةٍ بِمَذاقِ
فيا ولديَّ، مصر لها حب في قلبي كحبي لكما، والحب هكذا: لكل صبابة (شغف) مذاق مختلف

١٤٧ نكبة بيروت

قال شوقي يرثي بيروت بعدما أنزله بها الأسطول الإيطالي. وبعد هذا القصف صار أهل بيروت يرجعون سبب كل مشكلة إلى القصف الإيطالي، ومن هنا المثل اللبناني «كل الحق ع الطليان» (١٩١٢):

بيروتُ ماتَ الأُسْدُ حتفَ أُنوفِهِمْ   لم يَشهَروا سيْفاً، ولم يَحْموكِ
مات أبناؤك الأسود حتف أنوفهم (بلا قتال)، إذ لم يتح لهم أن يقاتلوا عنك

كلٌّ يَصيدُ الليثَ وَهْوَ مُقَيَّدٌ   ويَعِزُّ صيدُ الضَّيْغَمِ المَفْكوكِ
بإمكان كل واحد أن يصيد الأسد المقيد، ويعز (يصعب) صيد الضيغم (الأَسد) الطليق

سالتْ دماءٌ فيكِ حولَ مساجدٍ   وكنائسٍ ومدارسٍ وبُنوكِ
تعليق عمران القفيني: «جاءت بنوك ههنا كأنها مخلوق فضائي نزل من المريخ، وهبط بجانب مسجد بعد صلاة الجمعة وتحلق الناس حوله ينظرون إليه مندهشين».
وتعليقي: «أحياناً أختار أبياتاً لا لون لها ولا طعم ولا رائحة. وعندما أمر بها شارحاً أو مشكِّلاً ـ وأنا قد قلت لك مراراً إنني أشكل كل كلمة بيدي حتى تعرف مقدار ما أنفقه من نور عينيَّ عليك يا قارئ ـ أقول في نفسي: ما أسخف هذا البيت! ثم لا تواتيني الشجاعة كي أحذفه. أعود وأقول: لا أريد تشويه الحالة الشعورية التي كنت فيها عندما اخترته أول مرة. وأمر بالبيت السخيف ثالثة، وربما رابعةً، ويصبح ـ ويا للعجب ـ كأنه طفل مشوه رزقته، فأنا أحمد الله عليه، وأدعوه أن يرزقني به رزقاً وفيراً. فكيف إذا كان في هذا البيت «بُنوك» حشو خزائنها مال وفير؟»

لَكِ في رُبا النيلِ المبارَكِ جِيرَةٌ   لو يَقْدِرونَ بدمعِهِمْ غَسَلوكِ
أبناء مصر لو تمكنوا لغسلوك بدموعهم لشدة حزنهم عليك

١٤٨ ميثاق الغواني

قال شوقي (١٩١٣):

ذُقْتُ مِنها حُلواً ومُرَّاً وكانتْ لَذَّةُ العِشْقِ في اختلافِ المَذاقِ
ضربَتْ موعداً فلما التقيْنا جانَبَتْني، تقولُ: فيمَ التَّلاقي
قلتُ: ما هكذا المواثيقُ، قالتْ: ليسَ لِلغانياتِ مِنْ ميثاقِ

١٤٩ إن السيوف قليل

قال شوقي، ويذكر عزيز المصري واعتقال الحكومة التركية له، (١٩١٤):

اللَّهُ يعلمُ أنَّ في خُلَفائِهِ عدلاً يُقيمُ المُلكَ حينَ يميلُ
والعدلُ يَرفعُ للممالِكِ حائطاً لا الجيشُ يرفعُهُ ولا الأُسطولُ
باللَّهِ، بالإسلامِ، بالجرحِ الذي ما انفكَّ في جَنْبِ الهلالِ يسيلُ

أستحلفك بالله، بالإسلام، بالجرح في جنب (خاصرة) الهلال (شعار الدولة العثمانية) الذي ما انفك يسيل منه الدم

هلَّا حَلَلْتَ عنِ السجينِ وِثاقَهُ إنَّ الوِثاقَ على الأُسودِ ثَقيلُ
أيقولُ واشٍ أو يردِّدُ شامتٌ صنديدُ بُرقةَ مُوثَقٌ مَكْبولُ

أتترك الواشي والشامت يقولان إن صنديد (بطل) برقة (وكان عزيز المصري قد حارب الإيطاليين الغزاة في برقة بليبيا قبل القصيدة بنحو ثلاث سنين ثم حكم عليه في إستانبول بالإعدام لدوره في الحركة العربية، وألغي الحكم) موثق (مقيد) مكبول (مقيد)

فاذكرْ أميرَ المؤمنينَ بلاءَهُ واستَبْقِه، إنَّ السيوفَ قليلُ

فاذكر جهاده، واستبقه (دعه يبقى ليخدمك) يا أمير المؤمنين (السلطان محمد رشاد) فالرجال الذين هم سيوف قلة

١٥٠ صناديق بأقفال

قال شوقي يرثي جرجي زيدان (١٩١٤):

لا تجعلوا الدِّينَ بابَ الشرِّ بينَكُمُ ولا مَحَلَّ مُباهاةٍ وإدْلالِ

إدلال: زهو

ما الدِّين إلَّا تُراثُ الناسِ قبلَكُمُ كلُّ امرِئٍ لأَبيهِ تابعٌ تالِ

لِي دولةُ الشعرِ دونَ العَصْرِ وائلةٌ   مَفاخِري حِكَمِي فيها وأَمثالي

المعنى الذي ألمحه: لي دولة الشعر وائلة (راجعة/ فأنا مَوْئلها) دون عصري كله، ومفاخري فيها الحكم والأمثال الموجودة في شعري

وأشكُرُ الصُّنْعَ في سِرِّي وفي عَلَني   إنَّ الصنائِعَ تزْكُو عندَ أمثالي

أشكر الصنع (المعروف) سراً وعلانية، والمعروف يزكو (يطيب) عند أمثالي

وأَتْرُكُ الغيبَ للَّهِ العليمِ به   إنَّ الغيوبَ صناديقٌ بأقفالِ

بيت فيه من قعقعة اللفظ ما جعلني أسوِّده لك. فأما معناه فلا أكثر من وصف الناس عندنا للمستقبل بأنه: «بطيخة مسكرة» أي مقفلة

١٥١ أمة واحدة

قال شوقي في تكريم واصف بن بطرس غالي (١٩١٤):

رُبَّ مدْحٍ أذاعَ في الناسِ فضلاً   وأَتاهُمْ بِقُدْوَةٍ ومِثالِ

رب مدح نشر في الناس ذكر الفضل، وأعطاهم قدوة حسنة

وثناءٍ على فَتى عَمَّ قوماً   قيمةُ العِقْدِ حُسْنُ بعضِ اللآلي

ورب ثناء على رجل كان ثناء على قومه، فالعقد ثمين ببعض لآلئه، فهي تجمل غيرها

إنَّما نحنُ، مسلمينَ وقِبْطاً،   أمةٌ وُحِّدَتْ على الأجيالِ

سبقَ النيلُ بالأُبُوَّةِ فينا   فَهْوَ أصلٌ وآدمُ الجدُّ تالِ

النيل سبق غيره في الأبوة لنا، وتلاه جدنا آدم أباً لاحقاً

نحنُ مِنْ طينِهِ الكريمِ على اللـ   ـهِ، ومِنْ مائِهِ القَرَاحِ الزُّلالِ

نحن من طين النيل المكرم لدى الله، وحياتنا هي بسبب مائه القراح (الصافي) الزلال (العذب)

مَرَّ ما مَرَّ مِنْ قرونٍ علينا   رُسَّفاً في القُيودِ والأَغلالِ

رُسَّفٌ: ماشون مقيدين

وانقضى الدهرُ بينَ زغْرَدَةِ العُرْ   سِ وحَشْوِ الترابِ والإعْوالِ

طول الزمن ونحن بين زغردة عرس وبين حشو (نَثْر) التراب على الرؤوس والإعوال (النوح)

ما تَحَلَّى بِكُمْ يسوعُ، ولا كَنـ   ـا لِطَهَ وديـنِهِ بِجَمالِ

لا يسوع ازدان بكم، ولا نحن ازدان بنا الرسول ودينه

وتُـضـاعُ الـبـلادُ بـالـنَّـومِ عـنـهـا وتُــضــاعُ الأُمــورُ بــالإهــمــالِ

١٥٢ سلوا قلبي

قال شوقي في ذكرى المولد (١٩١٤):

سـلـوا قـلـبـي، غـداةَ سـلا وتـابـا لـعـلَّ عـلـى الـجَـمـالِ لـهُ عِـتـابـا

أيها العاذلون اسألوا قلبي بعد أن سلا (نسي) وتاب عن الحب، فلعل لقلبي عَتْباً على جمال المحبوب لكثرة ما عذب هذا الجمال قلبي

ويُـسْـأَلُ فـي الـحـوادثِ ذو صـوابٍ فـهـل تَـرَكَ الـجَـمـالُ لـهُ صـوابـا

والذي يُسأل في الشؤون المهمة هو الذي لديه صواب (عقل)، فهل ترك الجمال لقلبي صواباً (عقلاً)؟

وكـنـتُ إذا سـألـتُ الـقـلـبَ يـومـاً تـولَّـى الـدمـعُ عـن قـلـبـي الـجـوابـا

وكنت كلما سألت قلبي عن السلو ونسيان المحبوب، بكيت وتولى (تكفل) دمعي الجواب بدلاً من قلبي

ولـي بـيـنَ الـضُّـلـوعِ دَمٌ ولـحـمٌ هـمـا الـواهـي الـذي ثَـكِـلَ الـشـبـابـا

ولي بين ضلوعي دم ولحم هما عبارة عن قلبي الواهي (الضعيف) لأنه ثكل (عدِم) الشباب

تـسـرَّبَ فـي الـدمـوعِ فـقـلـتُ ولَّـى وصـفَّـقَ فـي الـضـلـوعِ فـقـلـتُ ثـابـا

تسرب قلبي من خلال دموعي، فحسبته ولى (ذهب)، ثم صفق (خفق) في ضلوعي فقلت: قد ثاب (رجع)

ولـوْ خُـلِـقَـتْ قـلـوبٌ مـن حـديـدٍ لـمـا حَـمـلـتْ كـمـا حَـمَـلَ الـعـذابـا

وكـلُّ بِـسـاطِ عَـيْـشٍ سـوفَ يُـطْـوى وإنْ طــالَ الــزَّمــانُ بِــهِ وطــابــا

ولا يُـنـبـيـكَ عـنْ خُـلُـقِ الـلـيـالـي كَـمَـنْ فَـقَـدَ الأحِـبَّـةَ والـصِّـحـابـا

لا يخبرك عن خلق (طبع) الليالي (الزمن)، مثل الذي فقد أحبابه وأصحابه

أخـا الـدنـيـا! أرى دنـيـاكَ أفـعـى تُــبَــدِّلُ كــلَّ آونــةٍ إهــابــا

يا أخا الدنيا (صاحبها) أرى دنياك أفعى تبدل كل آونة (حين) إهابا (جلداً)

فـمَـنْ يـغـتـرَّ بـالـدنـيـا فـإنِّـي لـبِـسـتُ بـهـا فـأبـلـيْـتُ الـثـيـابـا

فلمن يغتر بالدنيا أقول إنني جربت أحوالها كمن يلبس ثوباً بعد ثوب، وقد أبليت (هَرَأْتُ) الثياب

لـهـا ضَـحِـكُ الـقِـيـانِ إلـى غـبـيٍّ ولـي ضَـحِـكُ الـلـبـيـبِ إذا تـغـابـى

تضحك الدنيا ضحكاً مصطنعاً كما تضحك القيان (مغنيات المجالس) للغبي، ولي أنا ضحك اللبيب (العاقل) عندما يتغابى (يدعي الغباء)

جَـنَـيْـتُ بِـرَوْضِـهـا ورداً وشَـوْكـاً   وذقـتُ بـكـأسِـهـا شَـهْـداً وصـابـا

جنيت في بستان الدنيا الورد والشوك، وذقت بكأسها الشهد والصاب (عصير شجر الصاب المر)

فـلـمْ أَرَ غـيـرَ حُـكْـمِ الـلَّـهِ حُـكْـمـاً   ولـم أَرَ دونَ بـابِ الـلَّـهِ بـابـا

ولـم أَرَ مـثـلَ جـمْـعِ الـمـالِ داءً   ولا مـثـلَ الـبـخـيـلِ بِـهِ مُـصـابـا

وسـوَّى الـلَّـهُ بـيـنَـكُـمُ الـمـنـايـا   ووسَّـدَكُـمْ مَـعَ الـرُّسُـلِ الـتُّـرابـا

سوى الله (وزع بالتساوي) بينكم المنايا (الموت)، ووسدكم (مدَّدكم) مع الرسل في التراب.
والموت نعمة نفسية لأنه يجعل القهر محدوداً بحد، وفي البيت حوْم على هذا المعنى

وأرسـلَ عـائـلاً مـنـكـمْ يـتـيـمـاً   دنـا مـن ذي الـجـلالِ فـكـانَ قـابـا

وأرسل الله من البشر عائلاً (فقيراً/ هو النبي كما وصفه القرآن) يتيماً، دنا من الله فكان قاب..
(قريباً جداً: قاب قوسين)

وكـان بـيـانُـهُ لـلـحـقِّ سُـبْـلاً   وكـانـتْ خـيـلُـهُ لـلـحـقِّ غـابـا

وكان بيان (بلاغة) الرسول سُبُلاً (طُرُقاً) للحق، وكانت خيوله غابة يحتمي فيها الحق

وعـلَّـمَـنـا بـنـاءَ الـمـجـدِ حـتَّـى   أَخـذْنـا إِمْـرَةَ الأرضِ اغـتـصـابـا

ومـا نَـيْـلُ الـمَـطـالـبِ بـالـتـمـنِّـي   ولـكـنْ تُـؤْخـذُ الـدنـيـا غِـلابـا

غلاباً: انتزاعاً

ومـا اسـتـعـصـى عـلـى قـومٍ مَـنـالُ   إذا الإقـدامُ كـان لـهـمْ رِكـابـا

ما استعصى على قوم منال (هدف) إذا كان الإقدام (الشجاعة) ركابهم (وسيلة ركوبهم/ فالناقة ركاب)

أبـا الـزَّهـراءِ قـدْ جـاوزتُ قـدري   بـمـدحِـكَ بَـيْـدَ أنَّ لِـيَ انـتـسـابـا

يا محمد، يا أبا فاطمة الزهراء، تجاوزت قدري بأن مدحتك، إلا أن لي انتساباً (صلة) بك؛
والصلة هي البلاغة التي لي منها نصيب

فـمـا عـرفَ الـبـلاغـةَ ذو بـيـانٍ   إذا لـمْ يـتَّـخِـذْكَ لَـهُ كـتـابـا

ولا يعرف البلاغة صاحب بيان إلا إذا جعلك له كتاباً يستمد منه

مَـدحـتُ الـمـالـكـيـنَ فـزِدْتُ قَـدْراً   فـحـيـنَ مدحـتُـكَ اقـتَـدْتُ الـسَّـحـابـا

مدحت المالكين (الملوك) فارتفع قدري، وحين مدحتك انتشيت حتى لقد اقتدت (وجَّهت) السحب

سـألـتُ الـلَّـهَ فـي أبـنـاءِ ديـنـي   فـإنْ تَـكُـنِ الـوسـيـلـةَ لـي أجـابـا

طلبت من الله الرفق بأبناء ديني، فإن تكن يا رسول الله وسيلتي لهذا الطلب فهو سيجيبني. «كلَّمته في فلان» في الأساليب القديمة معناها «توسطت لفلان»، ومثلها هنا «سألت الله في أبناء ديني» وقد يكون شوقي قاس عليها قياساً جميلاً أو يكون أخذها عن كاتب قبله؛ وما أكثر ما عند شوقي من هذه الأساليب، وما أحسن ما يستعملها!

ومـا لِـلـمـسـلـمـيـنَ سـواكَ حِـصْـنٌ   إذا مـا الـضُّـرُّ مَـسَّـهُـمُ ونـابـا

وليس للمسلمين حصن سواك يا محمد إذا مسهم (حل بهم) الضر (الأذى) ونابهم (انتابهم)

١٥٣ الباكياتك حين ينقطع البكا

قال شوقي يرثي مصطفى فهمي باشا (١٩١٤):

أأبـا الـبـنـاتِ! رُزِقْـتَـهُـنَّ كَـرائـمـاً   ورُزِقـتَ فـي أصـهـارِكَ الـكُـرمـاءِ

يا أبا البنات قد رزقتهن كريمات، ورزقت رزقاً آخر يتمثل في أزواجهن الكرماء

إن الـبـنـاتِ ذخـائـرٌ مِـنْ رحـمـةٍ   وكـنـوزُ حـبٍّ صـادقٍ ووفـاءِ

البنات ذخائر (كنوز) من الرحمة..

والـسـاهـراتُ لـعِـلَّـةٍ أو كَـبْـرَةٍ   والـصـابـراتُ لـشِـدَّةٍ وبـلاءِ

وهن الساهرات عليك لعلة (لمرض) تحيق بك أو كبرة (شيخوخة)..

والـبـاكـيـاتُـكَ حـيـنَ يـنـقـطـعُ الـبُـكـا   والـزائـراتُـكَ فـي الـعَـراءِ الـنَّـائـي

وهن الباكيات إياك حين تجف دموع الآخرين، والزائرات إياك في العراء النائي (البرية البعيدة.. في مكان دفنك)

عُـذْراً لـهُـنَّ إذا ذهـبـنَ مـع الأسـى   وطـلـبـنَ عـنـد الـدمـعِ بـعـضَ عـزاءِ

اطلب لهن العذر إذا ذهبن مع الأسى (الحزن)، وطلبن العزاء بذرف الدموع

مـا كـلُّ ذي ولـدٍ يـسـمَّـى والـداً   كـمْ مِـنْ أبٍ كـالـصـخـرةِ الـصـمَّـاءِ

لكن الأب نفسه قد لا يكون جديراً بالأبوة، فمن الآباء من هو كالصخرة الصماء (الصلبة)

١٥٤ أسخطوا الله ولم يرضوا البشر

قال شوقي ينعى على الطلبة جنوحهم للانتحار (١٩١٥):

روِّحـوا الـقـلـبَ بـلَـذَّاتِ الـصِّـبـا   فـكَـفـى الـشَّـيْـبُ مـجـالاً لـلـكَـدَرْ

روِّحوا القلب (رفِّهوا عنه) بمتع الشباب، ففي المشيب الذي سيحل بكم ما يكفي من الكدر (الكآبة)

واطلبوا العلمَ لِذاتِ العلمِ، لا لـلشـهـاداتِ وآرابٍ أُخَرْ

اطلبوا العلم لذاته، لا للشهادات وللآراب (الأهداف) الأخرى

كـمْ غـلامٍ خـامـلٍ فـي درسِـهِ صـارَ بحرَ العلمِ أستاذَ العُصُرْ

كثيراً ما نجد صبِّياً خاملاً في دروس المدرسة، ثم إذا به يصير بحر العلم وأستاذ العُصُر (الزمن)

ومُـجِـدٌّ فـيـهِ أمـسـى خـامـلاً ليس فيمنْ غابَ أو فيمنْ حَضَرْ

وكثيراً ما نجد مجتهداً في الدرس صار خاملاً.. لا هو معدود في الغائبين ولا في الحاضرين

قـاتِـلُ الـنـفـسِ، ولـو كـانـتْ لَـهُ، أَسْخَطَ اللَّهَ ولـم يُـرْضِ البَشَرْ

والمنتحر ـ وإن تكن نفسه ملكه ـ يسخط الله، ولا يرضي البشر

١٥٥ أخت الحوت

قال شوقي في إغراق غواصة ألمانية الباخرةَ لوزيتانيا (أغرقت ١٩١٥):

ودَبَّابةٍ تحتَ العُبابِ بِمَكْمَنٍ أمينٍ، تَرى السَّاري وليسَ يَراها

ربَّ دبَّابة (بهيمة تدبُّ).. لكنها تدب تحت العباب (الموج) في مكمن (مخبأ) أمين، ترى الساري (السائر) ولا يراها

وكانت الدبابة، ذلك السلاح، اختراعاً جديداً في عام ١٩١٥، ورآها العرب في بلادهم مع قدوم جيوش الاستعمار بعد سنة ١٩١٨، ووصفها شوقي في رثائه عمر المختار ١٩٣١ وسماها بالاسم الإنجليزي «التنك»، واستخدم اللفظ نفسه «التنك» الشاعر القروي عام ١٩٢٥ في وصف هجوم سلطان باشا الأطرش على التنك الفرنساوي. فدبَّابة شوقي في هذا البيت ليست ذلك «السلاح المعروف» كما قال بعض الشارحين

هِيَ الحوتُ، أو في الحوتِ مِنْها مَشَابِهٌ فَلَوْ كانَ فُولاذاً لَكانَ أخاها

هي الحوت، أو لنقل: في الحوت منها مشابه (مواضع شبه)، فلو كان جسم الحوت من الفولاذ لكان أخاها

خؤونٌ إذا غاصتْ، غَدُورٌ إذا طَفَتْ مُلَعَّنَةٌ في سَبْحِها وسُراها

الغواصة خؤون (خائنة) إذا غاصت وغدور (غادرة) إذا طفت فوق الماء، وملعَّنة (ملعونة) في سباحتها وفي سراها (سيرها)

فلا كان بانيها، ولا كان رَكْبُها ولا كان بحرٌ ضمَّها وحَوَاها

فليته انعدم من الوجود بانيها وركبها (راكبوها) والبحر الذي يضمها

وأُفٍّ على العِلْمِ الذي تَدَّعُونَهُ إذا كان في عِلْمِ النُّفوسِ رَدَاها

وأفٌ على العلم الذي يدَّعيه الغرب إذا كان علم الناس سبباً في رداهم (هلاكهم)

١٥٦ ولقد ولدت بباب إسماعيلا

قال شوقي يهنئ حسين كامل بتوليه الحكم سلطاناً، ويقول زكي مبارك إن هذه القصيدة هي التي سببت نفي شوقي إلى إسبانيا بعد نشرها بأسبوعين، (١٩١٥):

المُلك فيكُمْ آلَ إسماعيلا   لا زالَ بيتُكُمُ يُظِلُّ النِّيلا

الملك باق فيكم يا آل الخديوي إسماعيل (والسلطان الجديد ابن إسماعيل)، وأدعو أن يبقى بيتكم المالك يظلل مصر

هذي أصولُكُمُ وتلكَ فروعُكُمْ   جاء الصَّميمُ مِنَ الصَّميمِ بَديلا

إسماعيل أصل والسلطان الجديد ابنه، والخديوي المعزول عباس حلمي فرع منه (حفيده)، فأنت يا حسين كامل وعباس حلمي كلاكما صميم (أصيل)

النيلُ إنْ أَحصى لكُمْ حَسَناتِكُمْ   ملأَ الزمانَ محاسِناً والجِيلا

أحيا أبوكُمْ شاطِئَيْهِ، وابْتنى   مجداً لمصرَ على الزمانِ أثيلا

أبوكم: الخديوي إسماعيل، أثيل: أصيل

نَشَرَ الحضارةَ فوقَ مِصرَ وسُورِيا   وامتدَّ ظِلّاً للحجازِ ظَليلا

حفظَ الإلهُ على الكنانةِ عرشَها   وأدامَ مِنْكُمْ للهلالِ كَفيلا

حفظ الله للكنانة (مصر) عرش أسرتكم، وأدامكم كفلاء للهلال (الهلال كان يتوسط علم مصر آنذاك)

أأَخونُ إسماعيلَ في أبنائِهِ   ولقد وُلِدْتُ ببابِ إسماعيلا

كان والد شوقي يعمل في حاشية الخديوي إسماعيل عند مولد شوقي؛ وكان شوقي في شبابه مقرباً من الخديوي توفيق ثم من الخديوي عباس حلمي؛ والآن بعد عزل عباس حلمي يقول شوقي لخلفه إنه سيواصل الولاء للأسرة المالكة لأنه ولد بباب إسماعيل والسلطان الجديد هو ابن إسماعيل بينما المعزول حفيده

ولبِسْتُ نعمتَهُ ونعمةَ بيتِهِ   فلبِسْتُ جَزْلاً وارتديتُ جَميلا

الجزل: الكثير

يا أكرمَ الأعمامِ حسبُكَ أنْ نَرى   للعَبْرتيْنِ بِوجْنَتَيْكَ مَسيِلا

أيها السلطان الجديد، وهو عمّ الخديوي المخلوع، يكفي أن نرى للعبرتين (الدمعتين) بوجنتيك (بخديك) مسيلاً

مِنْ عَثْرَةِ ابنِ أخيكَ تَبكي رحمةً   ومِنَ الخشوعِ لِمَنْ حَباكَ جَزيِلا

تبكي من عثرة (نكبة) ابن أخيك راحماً إياه، وتبكي أيضاً من الخشوع المفروض عليك للإنجليز الذي حبوك (أعطوك) حباء جزيلا وهو السلطنة

هلْ كانَ ذاكَ العهدُ إلَّا موْقِفاً   للسُّلطتيْنِ وللبلادِ وبيلا

وهل كان العهد الماضي سوى موقف وبيل (ثقيل مزعج) للسلطتين (الخديوي والإنجليز)؟

وانفضَّ ملعَبُهُ وشاهِدُهُ، على   أنَّ الروايةَ لم تَتِمَّ فُصولا

وانفض ملعب (مسرح) العهد الماضي وشاهده (المتفرج)، على أن (ولكن) الرواية لم تتم فصولاً. لا نظن أن هذه القصيدة كانت سبباً في نفي أحمد شوقي إلى إسبانيا، رغم ما فيها من إشارات تقدح في الإنجليز، فشوقي قد نفي في عصبة من الرجال. تفتح وعي شوقي وهو في الرابعة عشرة على الإنجليز يحتلون مصر، مع بقائها إسمياً جزءاً من الدولة العثمانية. ولكن عاطفته اتجهت نحو الخديوي توفيق بتأثير جو بيته، فقد كان أبوه في المعية الخديوية كاتباً أو حاسباً أو نحو ذلك. وحقد شوقي، ولداً غراً، على عرابي ورفاقه الذين شاقّوا الخديوي قبل الاحتلال، وتصدوا للاحتلال وفشلوا في درئه، وظل شوقي على موقفه من عرابي، ربما عِناداً. ومات الخديوي توفيق الذي كان يحاسن الإنجليز بعد عشر سنوات (١٨٩٢)، وتولى عباس حلمي الذي كان أصغر من شوقي ببضع سنوات. وكان يتململ من نفوذ الإنجليز المتعاظم. وكان شوقي يتململ معه، فهو شاعره. وبعد اثنتين وعشرين سنة مليئة بالمدائح لعباس حلمي وبالغمز من الإنجليز قامت الحرب العالمية الأولى. وكان الخديوي آنئذ في إستانبول. وإستانبول في هذه الحرب في صف ألمانيا والنمسا، ضد إنجلترا وفرنسا. قررت إنجلترا أنه آن الأوان لفصل مصر عن جسم الدولة العثمانية. فعزلت الخديوي عباس حلمي فبقي في إستانبول، وعينت عمه حسين كامل ولقبته بالسلطان. وفي هذا اللقب إشارة واضحة إلى تغير في وضع مصر من ناحية ارتباطها بإستانبول. كان شوقي في هذه الأيام في إستانبول وكان يلتقي الخديوي المعزول باستمرار ولا سيما بعد تعرضه لاعتداء بالرصاص وإصابته بجراح. وقد حاول شوقي تدبير زيارة يقوم بها الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد للخديوي، ولكنه لم يفلح في مسعاه. وعاد شوقي إلى مصر ونشر قصيدته هذه في تهنئة سلطان مصر الجديد حسين كامل. ولكن الإنجليز كانوا قد قرروا إبعاد عدد كبير من المصريين البارزين من أعوان الخديوي المعزول. وبعبارة شكيب أرسلان: «دفع الإنجليز إلى مالطة جماً غفيراً وأزعجوا آخرين إلى أوروبة وكان فيمن أزعج عن بلاده إلى أوروبة أحمد شوقي فانتجع إسبانية، وناح على الأندلس، ولكنه خَفَضَ في عيشة راضية، وبيئة هادية، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن انطفأت نار الحرب». ويحدثنا حسين أحمد شوقي، ابن الشاعر، في كتابه «أبي شوقي» أن الأسرة ذهبت بأفرادها الستة ومعها أربعة من الخدم إلى المنفى

شاعر الأمة

في هذا الفصل شعر شوقي في منفاه، وبعد منفاه إلى حين وفاته عام ١٩٣٢. وكانت فترة خصبة في حياته الشعرية، تحلل فيها من الارتباط الوثيق بالحاكم، فعبر عن الأمة: المصرية، والعربية (وهذا جديد هذه المرحلة)، والإسلامية

١٥٧ يا نائح الطلح

قال شوقي في منفاه في إسبانيا (١٩١٥):

يـا نـائِحَ الـطَّـلْـحِ أَشْـبـاهٌ عـوادِيـنـا　　نَـشْـجَى لـوادِيكَ أَو نَـأْسَـى لِـوادِيـنـا

يا ذَكَر الحمام، أيها النائح بوادي الطلح (واد في إشبيلية فيه شجر الطلح) أشباهٌ (متشابهة) عوادينا (مصائبنا)؛ فهل نشجى (نحزن) لواديك، وادي الطلح، أم نأسى (نحزن) لوادينا، وادي النيل؟

مـاذا تَـقُـصُّ عـلـيـنـا؟ غـيـرَ أنَّ يـداً　　قَـصَّـتْ جناحَكَ جالتْ في حَواشِينا

ماذا تخبرنا؟ سوى أن اليد التي قصت جناحك (فخرج العرب من الأندلس) هي التي عبثت بجوانب وطننا. والغرب عند شوقي أمة واحدة، وعداوتهم للشرق وللمسلمين متصلة منذ الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش في إسبانيا، إلى الحرب العالمية الأولى التي كانت مشتعلة وقت هذه القصيدة وانجلى غبارها عن هدم دولة الخلافة العثمانية

كلٌّ رمَتْهُ النَّوى، رِيشَ الفِراقُ لنا　　سهماً، وسُلَّ عليكَ البيْنُ سِكِّينا

كل منا رمته (أصابته) النوى (الفراق)؛ فالفراق كان سهما رِيشَ (ذُيِّل بالريش) ليصيبنا نحن، والبين (الفراق) سُلَّ سِكيناً عليك أنت

فإنْ يَكُ الجِنسُ، يا ابنَ الطَّلْحِ، فَرَّقَنا　　إنَّ الـمـصـائـبَ يَـجْـمَـعْـنَ الـمُـصـابِـيـنـا

فإن كان الجنس يا ساكن وادي الطلح فرقنا (فأنت من جنس الحمام، ونحن من البشر) فالمصائب تجمع المصابين بها

لـم نَـسْـرِ مِـنْ حَـرَمٍ إلَّا إلـى حَـرَمٍ　　كـالـخمرِ مِنْ بابِلٍ سارتْ لِداريـنا

لم نسر (ما سرينا ومشينا) من حرم (مكان مقدس/ وادي النيل) إلا لنحل حرماً في الأندلس؛ فنحن كالخمر نقلت من بابل بالعراق إلى دارين بالبحرين، وكلاهما موطن للخمر الجيدة

لـمـا نـبـا الـخـلـدُ نـابَـتْ عـنـه نـسـخَـتُـهُ　　تـمـاثَـلَ الـوردُ خَـيْـرِيَّـاً ونِـسْـرِيـنـا

عندما نبا عنا (ابتعد) الخلد (الجنة)، أي مصر، نابت عنه نسخة منه في الأندلس؛ والخيري (المنثور الأصفر) يماثل النسرين (الورد الأبيض)

نَـسـقِـي ثَـراهُـمْ ثَـنـاءً، كُـلَّـمـا نُـثِـرَتْ　　دمـوعُـنـا نُـظِـمَـتْ مـنـهـا مَـراثِـيـنـا

نسقي تراب أهل الأندلس القدماء بثنائنا، وكلما انتثرت الدموع من عيوننا نثراً نظمناها نظماً في قصائدِ رثاء

كـادتْ عـيـونُ قـوافِـيـنـا تُـحَـرِّكُـهُ　　وكِدْنَ يوقِظْنَ في التُّرْبِ السَّلاطِينا

كادت عيون قوافينا (قصائدنا الجيدة) تحركِ التراب، وكادت توقظ السلاطين المدفونين في هذا التراب

جئنا إلى الصبرِ ندعوهُ كعادَتِنا   في النائباتِ، فلم يأخذْ بأيْدينا

النائبات: المصائب

ونابغيٍّ كأنَّ الحشرَ آخِرُهُ   تُميتُنا فيه ذِكراكُمْ وتُحيينا

ورب نابغي (أي ليل مخيف طويل كليل الشاعر النابغة) كأنه يفضي إلى الحشر (يوم القيامة)، كانت فيه ذكراكم أيها الأحبة بمصر تميتنا حزناً ثم تحيينا أملاً

نَطوي دُجاهُ بِجُرحٍ مِنْ فراقِكُمُ   يكادُ في غَلَسِ الأسحارِ يَطْوينا

نقضي الوقت في دجى هذا الليل وفينا جرح من فراقكم يكاد في غلس (ظلمة) الأسحار (أواخر الليل) يطوينا (يقتلنا)

نحنُ اليَواقيتُ خاضَ النارَ جوهرُنا   ولم يَهُنْ بِيَدِ التَّشْتيتِ غالِينا

نحن اليواقيت (أحجار الياقوت) التي خاض النارَ جوهرها (حجرها الأصلي)، والنار هي المنفى؛ ولم تهن (ترخص) اليواقيت الغالية بالتشتيت بل تجوهرت به

ولا يحولُ لنا صِبْغٌ ولا خُلُقٌ   إذا تَلَوَّنَ كالحِرْباءِ شانِينا

ولا يحول (يتغير) لنا صبغ (لون) ولا خلق، في حين يتلون كالحرباء شانئنا (كارِهُنا)

لم تنزلِ الشمسُ ميزاناً، ولا صَعِدَتْ   في مُلْكِها الضخمِ عرشاً مثلَ وادِينا

المعنى الملموح: لم تنزل الشمس برج الميزان (لينتصف النهار)، ولا ارتقت عرشاً في مُلكها الضخم، الذي هو العالم كله، يشبه وادي النيل

وهذهِ الأرضُ مِنْ سهلٍ ومِنْ جبلٍ   قبلَ القياصِرِ دِنَّاها فَراعِينا

والأرض بسهلها وجبلها، قبل عهد قياصرة الرومان دِنَّاها (أخضعناها) في عهود الفراعنة

ولم يَضَعْ حجراً بانٍ على حجرٍ   في الأرضِ إلَّا على آثارِ بانِينا

ولم يبن أحد في الأرض بناءً إلا على آثار (تالياً لـ) بانينا الفرعوني

كأنَّ أهرامَ مِصْرٍ حائطٌ نَهَضَتْ   به يدُ الدهرِ، لا بُنيانُ فانِينا

فكأن الأهرام جدار رفعته يد الزمن، وليس من بناء الإنس الفانين

١٥٨ كل ميت أخوك

قال شوقي في مصرع اللورد كتشنر (١٩١٦):

كلُّ محمولٍ على النعشِ أخٌ   لَكَ، صافٍ وُدُّهُ بعدَ الكَدَرْ

إنْ تَكُنْ سِلْماً لهُ لم يَنْتَفِعْ   أو تَكُنْ حرباً فقد فاتَ الضَّرَرْ

سلماً له: مسالماً إياه، حرباً عليه: محارباً إياه

وإذا الموتُ إلى النفسِ مشى   وركبتَ النجمَ، بالموتِ عَثَرْ

إذا جاءك الموت وأردت الهروب منه فركبت النجم؛ فإن النجم، وهو الذي لا يتعثر بشيء، يجد نفسه قد تعثر بالموت

رُبَّ ثاوٍ في الظُّبَى مُمْتَنِعٍ   سَلَّهُ المِقْدارُ مِنْ جَفْنِ الحَذَرْ

رب ثاوٍ (قابعٍ) داخل طوق من الظُّبى (نصال السيوف) ممتنع (محتمٍ) استلَّه المقدار (القدر)، وأخذه الموت من جفن الحذر

و«جفن الحذر» هذه يعرف يقولها أبو تمام وشوقي والمتنبي. هي من شوقي بديعة، وإن يكن لها عند أبي الطيب أصل

١٥٩ زواج الزنى

قال شوقي في زواج الكبار بصغيرات (١٩١٦):

المالُ حَلَّلَ كلَّ غيرِ مُحَلَّلٍ   حتَّى زواجَ الشِّيبِ بالأبكارِ

الشِّيب: الرجال الشائبون، الأبكار: العذارى

سَحَرَ القلوبَ، فَرُبَّ أمٍّ قلبُها   مِنْ سِحْرِهِ حجرٌ مِنَ الأحجارِ

المال سَحَر القلوب، فربَّ أمٍّ حوَّل هذا السحر قلبها إلى حجر

دَفَعَتْ بُنَيَّتَها لأشأمِ مَضْجَعٍ   ورَمَتْ بِها في غُربةٍ وإِسارِ

دفعت هذه الأم بابنتها لمضجع (سرير) مشؤوم، ورمتها في غُربة وأَسْر مع هذا العجوز

وتعلَّلتْ بالشَّرْعِ، قُلْتُ: كَذَبْتِهِ   ما كان شرعُ اللَّهِ بالجزَّارِ

وتعللتْ (تحججت) الأم بالشرع، وأقول لها: كذبت على الشرع في تأويلاتك، فليس شرع الله جزاراً

ما زُوِّجَتْ تلكَ الفتاةُ وإنَّما   بِيعَ الصِّبا والحُسْنُ بالدِّينارِ

بعضُ الزَّواجِ مُذَمَّمٌ، ما بِالزِّنى   والرقِّ، إن قيسا به، مِنْ عارِ

بعض الزواج مذمَّم (مذموم)، ولكثرة ما به من العار فلو قيس به الزنى والرق (العبودية) لما رأينا بهما عاراً

فَتَّشْتُ، لم أَرَ في الزَّواجِ كفاءةً   ككفاءةِ الأزواجِ في الأعمارِ

الكفاءة في الزواج: مفهوم فقهي يجعل النسب والمال المقياس الأهم لتكافؤ الزوجين، وشوقي يرى التقارب في العمر خير معيار للكفاءة. هذا لا يعني أن شوقي كان ضد الزواج المبكر للفتاة، فقد زوج ابنته أمينة وهي دون الخامسة عشرة من عمرها حسبما أخبرنا أخوها حسين في كتابه «أبي شوقي»

١٦٠ رثاء شكسبير

قال شوقي في ذكرى ٣٠٠ سنة على وفاة شكسبير، (١٩١٦):

أعلى الممالِكِ ما كُرْسِيُّهُ الماءُ ... وما دِعامَتُهُ بالحقِّ شمّاءُ

أعلى الدول ما كان كرسيه (عرشه) على الماء، وما كانت دعامة عرشه شماء (عالية) بالحق. وإنجلترا كانت سيدة البحار (في عهد شوقي، وقبله بثلاثمئة سنة أيضاً في عهد شكسبير الذي شهد الأرمادا وسيطرة إنجلترا على البحار)

دستورُهُمْ عَجَبُ الدُّنيا، وشاعرُهُمْ ... يَدٌ على خَلْقِهِ للَّهِ بيضاءُ

دستور الإنجليز، وهو غير مدون في صورة دستور كبقية البلاد، من الأعاجيب، وشاعرهم يد بيضاء لله (نعمةٌ منه) على خلقه

نالتْ به وحدَهُ إنجلْتِرا شَرَفاً ... ما لمْ تنلْ بالنجومِ الكُثْرِ جوزاءُ

شَرُفَتْ إنجلترا بشكسبير أكثر مما شَرُفَ برج الجوزاء بنجومه

لمْ تُكْشَفِ النفسُ لوْلاهُ، ولا بُلِيَتْ ... لها سرائرُ لا تُحصَى وأَهواءُ

لولا شكسبير لما كُشفتْ حقائق النفس البشرية، ولا بُليتْ (اختُبرتْ) سرائر (خفايا) النفس وأهواءُها التي لا تحصى. قد طالبني الصديق الشاعر عمران القفيني أن أثبت ههنا شيئاً عن شكسبير وما أودع مسرحياته من تدسس في خبايا النفس البشرية. وقد صنعت بعض ذلك في شرحي لقصيدة حافظ إبراهيم في ذكرى شكسبير، القطعة رقم ٥٠ في باب حافظ إبراهيم، ولن أكرر نفسي هنا، بل ألتقط طرف خيط تركته هناك: مسرح شكسبير شعري، ويحس به أهل اللغة الإنجليزية، ويقطفون تسعين بالمئة من حلاوته، وأما نحن فنفهم القصة والمغزى فهذه عشرة بالمئة نستمتع بها. رأيتُنا عندما لخص لنا المنفلوطي مسرحية يوليوس قيصر بلغته المنفلوطية همنا بتلخيصه هياماً، وطربنا لنثره العذب، وبيانه العربي. نعم، عزيزي عمران، شكسبير مشهور بأنه كان يتغلغل في عواطف ومصالح البشر، ويكشف عن دوافعهم، وخصوصاً ما كان منها دنيئاً شريراً، وتميز بهذا عن كتاب مسرحيين كثر في زمنه وبعد زمنه انصرفوا إلى عناصر أخرى كالحبكة والمفاجأة والإثارة

شِعرٌ من النَّسَقِ الأعلى يؤيِّدُهُ ... مِنْ جانبِ اللَّهِ إلهامٌ وإيحاءُ

شعر من النسق (النظم) الأعلى (الأرقى) يرفده إلهام إلهي

بِمَنْ أماتَكَ قُلْ لي: كيفَ جُمْجُمَةٌ ... غبراءُ في ظُلُماتِ الأرضِ جوفاءُ

بحق الله الذي أماتك قل لي: جمجمتك هذه التي أصبحت مغبرة مجوفة مدفونة في التراب..

كـانـت سـمـاءَ بـيـانٍ غـيـرَ مُـقْـلِـعَـةٍ   شُـؤْبـوبُـهـا عـسـلٌ صـافٍ وصَـهْـبـاءُ

كيف كانت هذه الجمجمة سماء بلاغة غير مقلعة (لا ينقطع مطرها)، وكان شؤبوبها (مطرها) عسلاً وخمراً. تعليق عمران القفيني: (في مارس/آذار ٢٠١٦، اكتشفوا بعد مسح بالرادار أن جمجمة شكسبير سرقت من قبره المكتوب عليه بيتان لأديب إنجلترا الأشهر أحدهما «ملعون من حرك عظامي»)

والناسُ صِنْفانِ: موتى في حياتِهِمُ   وآخـرونَ بـبـطـنِ الأرضِ أحـيـاءُ

لامُوكَ في جعلِكَ الإنسانَ ذِئْبَ دَمٍ   والـيـومَ تـبـدو لـهـمْ مِنْ ذاكَ أشـيـاءُ

كانوا يلومونك لأنك صورت الإنسان ذئباً متعطشاً للدم؛ واليوم ـ وكانت الحرب العالمية الأولى في أوجها ـ تبدو لهم أشياء مما كنتَ قلتَ

١٦١ دول العرب وعظماء الإسلام

قال شوقي من أرجوزة «دول العرب وعظماء الإسلام» وهي أرجوزة تاريخية طويلة من مزدوج الرجز، ونظمها في منفاه بإسبانيا (بلغت أبياتها ١٥٢٦ بيتاً):

الـحـمـدُ لـلَّـهِ الـقـديـمِ الـبـاقـي   ذي العرشِ، والسَّبعِ العُلى الطِّباقِ

الطباق: طبقات السماوات

وأفـضـلُ الـصَّـلاةِ والـسَّـلامِ   عـلـى أجـلِّ رُسُـلِ الـسَّـلامِ

صلَّـى عـلـيـهِ الـلَّـهُ فـي سَـمـائِـهِ   وعـرشِـهِ الـسَّـابـحِ فـي أَسـمـائِـهِ

صلى على النبي عرش الله الذي يسبّحُ في أسمائه الحسنى

لـمـا رمـى الـلَّـهُ بـهـذي الـحـربِ   عـلـى بنـي الـشَّـرْقِ وأهـلِ الـغَـربِ

وكانت الحرب العالمية الأولى مستعرة وقت قيلت الأرجوزة

تـحـرَّكـتْ سَـواكـنُ الأقْـدارِ   واطَّـرَدَتْ عـوامـلُ الأكْـدارِ

تحرك من الأقدار ما كان ساكناً، واطردت (تتابعت) أسباب الأكدار (المنغِّصات)

وحَـكَـمَ الـلَّـهُ بِـهِـجـرةِ الـوطـنْ   وطـالـما ابْـتَـلَـى بـهـا أهـلَ الـفِـطَـنْ

حكم الله عليَّ بأن أهاجر عن مصر، والهجرة كثيراً ما ابتلى الله بها أهل الفطن (النابهين)

فـكـنـتُ أَسْـتَـعْـدي عـلـى الـهُـمـومِ   بـنـاتِ فِـكْـرٍ لـيـسَ بـالـمَـلـمـومِ

فكنت في مهجري أستعدي (أستعين) على الهموم بنات فكرٍ ليس بالملموم (فكر مشتت)

أَسْـتَـدْفِـعُ الـفـراغَ والـعَـطـالَـةْ،   وبَـطَـلٌ مَـنْ يَـقْـتُـلُ الـبِـطـالَـةْ

أستدفع (أُبعِدُ شبح) الفراغ والعطالة (قلة العمل)، وإنه لبطل من يستطيع قتل البطالة

حتى أرادَ اللَّهُ أنْ نَظَمْتُ مِنْ سِيَرِ الرجالِ ما اسْتَعْظَمْتُ

نظمت سير (قصص حياة) الرجال الذين استعظمتهم (عددتهم عظماء)

واخترتُ بحراً واسعاً مِنَ الرَّجَزْ قدْ زَعَمُوهُ مَرْكَباً لِمَنْ عَجَزْ

اخترت بحر الرجز للنظم وفيه جوازات كثيرة وسعة، وزعموا أنه مركب سهل للعاجز. أمَا سماه الأقدمون حمار الشعراء؟

يَرَوْنَ رَأْياً وأرى خِلافَهْ الكأسُ لا تُقَوِّمُ السُّلافَةْ

ورأيي غير رأيهم، فالكأس لا تقوم (تحدد قيمة) السلافة (الخمر)، وكذا فالبحر الشعري لا يحدد قيمة معنى الشعر

وقيمةُ اللؤلؤِ في النُّحورِ بِنفسِهِ وليْسَ بالبُحورِ

واللؤلؤ وهو في نحور (أعناق) الحسان يقوَّم بنفسه وليس بالبحور التي منها أتى. و«البحور» هذه عذبة ـ إن جازت على البحور العذوبة ـ فهي «البحور» التي أتى منها اللؤلؤ، لكنها أيضاً «بحور» الشعر

شِعْرٌ لزمتُ فيهِ ما لا يَلْزَمُ وتَرْكُهُ أليقُ بي وأَحْزَمُ

ولزمت في شعري ما لا يلزم، وكان أحزم لي (أكثر حصافة) ألا أفعل ذلك. وشوقي التزم بحرفي روي بدل حرف واحد كما ترى

وما أَيِسْتُ مِنْ كَريمٍ يُغْضِي ولا أَمِنْتُ حاسداً ذا بُغْضِ

وما أيست (يَئِست) من وجود كريمٍ يغضي (يتجاهل) على أغلاطي، كما أنني لم آمن حاسداً مبغِضاً

رُبَّ لسانٍ جَمَّعَ الأقواما وكان كالجنسِ لهمْ قِوامَا

رب لسان (لغة) جمع شمل الأقوام وكان لهم قِواماً كالعِرْق، وهذا اللسان هو اللغة العربية

وقد حَباهُ اللَّهُ بالجَزيلِ واختارَهُ للوحيِ والتَّنزيلِ

هذا اللسان حباه (أعطاه) الله بالجزيل (الكثير)، واختاره للوحي والتنزيل (القرآن)

لسانُكَ الأولُ في الكُتَّابِ ولغةُ الصَّبْوَةِ والعِتابِ

لسانك (لغتك) الأول في الكتّاب (المدرسة)، ولغة الصبوة (الشوق) والعتاب..

لا ترضَ منهُ مَبْلَغَ الرُّعاعِ وحِصَّةَ الأَعمى مِنَ الشُّعاعِ

.. هذا اللسان لا ترض أن تقف في إتقانه عند مبلغ (مستوى) الرعاع (الجهلة)، ولا تكتَفِ منه بحصة تشبه حصة الأعمى من النور

النفسُ ترجوُ هِمَّةَ الخُلودِ في العِلمِ والبُنْيانِ والمَوْلودِ

النفس تطمح إلى الخلود: بالعلم الذي تورثه للأجيال، وبالبنيان الشامخ الذي يخلد الذكر، وبالأولاد الذين يحيون ذكر آبائهم

تَـوَهَّـمُ الـحـيـاةَ بـعـدَ مـوْتِ   وتَـزْعُـمُ الـوِجْـدَانَ بـعـدَ فَـوْتِ

وتتوهم النفس وجود حياة بعد الموت، وتزعم أن هناك وجداناً (وجوداً) بعد الفوت (فوات الأوان)

ضـاقـتْ عـلـى الـنـوابـغِ الآجـالُ   فـكـانَ فـي الـذِّكْـرِ لـهـمْ مـجـالُ

ضاقت على النوابغ آجالهم (أعمارهم)، فكان خلود الذكر مجالاً لإطالة العمر

انـظـرْ إلـى الآبـاءِ كـيـفَ هـامُـوا   بـالـخُـلْـدِ، واحـتـالـتْ لـهُ الأَفْـهـامُ

انظر كيف هام القدماء بالخلود، وكيف احتالت أفهامهم (عقولهم) لتخليد ذكرهم

مَـنْ دَرَسَ الـتـاريـخَ أوْ مَـنْ دَرَّسَـهْ   يَمضيِ الزمانُ وهُما في المدرسةْ

لا يَـبْـلُـغـانِ فـي الـكـتـابِ غـايـةْ   ولا الـكـتـابُ بـالـغُ الـنِّـهـايَـةْ

إيـاكَ والـمـؤرخَ الـمِـقَـصَّـا   مـا كـلُّ مَـنْ قَـصَّ فـقـدْ تَـقَـصَّـى

احذر المؤرخ الذي يقتطع الأحداث كالمقص بلا تثبُّت، وما كل من قص (روى) قد تقصى (تحقَّق). وفي زمننا هذا صار للمقص معنى آخر مع دخول ثقافة القص واللزق. ولعل شوقي كان سيقول في الأكاديمي الذي يلملم بحوثه من أردأ مواقع الإنترنت: (ذاكَ الذي يقصُّ ثم يَلزقُ/ مُقَوْقِلُ المنتديات النزقُ/ آكِلُ ما قد حَرَثوا وعَزَقوا/ أوْ لاحسُ الذي بها قد بَزَقوا/ بومٌ بغيرِ صوتِهِ يزقزقُ)

مـضـى أبـو بـكـرٍ، وولَّاهـا عُـمَـرْ   الـشـمـسُ لا تُـخْـلَـفُ إلَّا بـالـقَـمَـرْ

ذهب أبو بكر الصديق وولَّى الخلافةَ عمرَ، والشمس لا يخلُفُها إلا القمر

وُلاتُـهُ فـي مُـلْـكِـهِـمْ رُهْـبـانُ   والـفُـلْـكُ حـيـثُ سـاقَـهـا الـرُّبَّـانُ

الولاة الذين ولَّاهم عمر فقراء عفيفون كالرهبان، والفلك (السفينة) تذهب إلى حيث يسوقها الربان، فهم كالسفينة وعمر كالربان

أمَّـا الإمـامُ فـالأغـرُّ الـهـادي   حـامـي عَـرِيـنِ الـحـقِّ والـجـهـادِ

الإمام علي بن أبي طالب هو الأغر (المشرق) الهادي، حامي عرين (بيت الأسد) الحق والجهاد

لـو صـانـعَ الإمـامُ أو تـأنَّـى   مـا بـلـغَ الـشَّـامِـيُّ مـا تـمـنَّـى

لو كان علي صانع (دارى) أو تمهل، لما بلغ الشامي (معاوية والي الشام) ما تمنى

وقـيـلِ عِـلْـمٌ مـا لَـهُ انـتـهـاءُ   لـم يـجـرِ فـيـهِ الـرأيُ والـدَّهـاءُ

وقيل إن علم علي غزير لا نهاية له، ولكن هذا العلم لم يجرِ معه في تياره رأي ودهاء

١٦٢ حال الغريب

قال شوقي في منفاه:

قالتْ: تَغَرَّبَتِ الرجالُ، فقلتُ: في ضَيْمٍ أُرِيدَ بجانبي فأبَيْتُهُ

قالت: تغربت الرجال فقلت: ذلك في (بسبب) ضيم (ظلم) أُريد إلحاقه بجانبي (بي) فأبيْته (فرفضته)

قالتْ: أَخِفْتَ الموتَ، قلتُ: أَمُفْلِتٌ أنا مِنْ حبائِلِهِ إذا ما خِفْتُهُ؟

حبائله: مصائده

قالتْ: لقدْ شَمِتَ الحسودُ، فقلتُ: لوْ دامَ الزمانُ لِشامتٍ لَحَفِلْتُهُ

لحفلته: لحفلت به

قالتْ: كأنّي بالهجاءِ قلائداً سارتْ، فقلتُ: هممْتُ، ثم تَركتُهُ

قلائد: عقود (وكانوا يشبهون القصائد بالعقود التي يرتديها الممدوح أو المهجو فتظل معلقة بعنقه)

١٦٣ المال

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة:

«يا مالُ! الدُّنيا أنتْ، والناسُ حيثُ كنتْ. حالُك وحالُ الناسِ عَجَبٌ، تَمْلِكُهُمْ مِنَ المهدْ، ويقولونَ أصَبْنا ومَلَكْنا؛ وتَرِثُهُمْ عندَ اللحدْ، ويقولون ورِثْنا وتَرَكْنا؛ مَنْ عاشَ قوَّمُوهُ بِما مَلَكْ، ومَنْ هَلَكَ تساءلوا كَمْ تَرَكْ؟ المحرومُ مَنْ أَوْثَقَكْ، والضائعُ مَنْ أَطْلَقَكْ، وهُما فقيرانِ: مَنْ جَمَعَكَ ومَنْ فَرَّقَكْ. كثيرُكَ هَمّ، وقَليلُكَ غَمّ، ومَعَ التَوسُّطِ الخوفُ والطمعْ، والحرصُ والجشعْ، حَذَرَ النَّفادْ، ورغبةٌ في الازدياذْ. الملك سُوقةٌ إذا نزلَ إليكْ، والسُّوقةُ مَلِكٌ إذا علا عليكْ. فسبحانَ مَنْ قَهَرَ بكَ الخَلْقْ، وقَهَرَكَ بِرجالِ الخُلُقْ».

١٦٤ الجمال

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة، وهذه القطعة كانت تغلي في رأس شوقي غلياناً، لأنه يعشق «الجمال» فجاءت من بين أخواتها في الكتاب.. غير مسجوعة، وقد سودناها لك كي تتمتع بهذا النثر الذي جل عن السجع فصار كأنه الشعر (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

«جمعتِ الطبيعةُ عبقريَّتَها فكانتِ الجمالْ. وكانَ أحسنَهُ وأشرفَهُ ما حَلَّ في الهيكلِ الآدَمِيِّ، وجاوَرَ العقلَ الشريفَ والنفْسَ اللطيفةَ والحياةَ الشاعِرةَ. فالجمالُ البَشَريُّ سيدُ الجمالِ كلِّهِ، لا المَثَّالُ البارعُ استطاعَ أنْ يَخْلَعَهُ على الدُّمَى الحِسانِ، ولا للنَّيِّراتِ الزُّهْرِ في ليالِي الصحراءِ ما لَهُ مِنْ لمحةٍ وبهاءٍ، ولا لبديعِ الزَّهْرِ وغريبِهِ في شبابِ الربيعِ ما لَهُ مِنْ بشاشةٍ وطيبٍ. وليسَ الجمالُ بِلَمْحَةِ العيونِ، ولا ببريقِ الثغورِ، ولا هَيَفِ القُدودْ، ولا أَسالَةِ الخدودْ، ولا لؤلؤِ الثَّنايا وراءَ عَقيقِ الشِّفاهِ، ولكنْ.. شُعاعٌ عُلْويٌّ يَبسُطُهُ الجميلُ البديعُ على بعضِ الهياكلِ البشريةِ، يكسُوها رَوْعَةً ويجعلُها سِحْراً وفِتنةً للناسِ».

١٦٥ الأمس واليوم والغد

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

الأمس: «أمسِ ما أمسْ، خُطْوَةٌ إلى الرَّمْسْ. جُزْءٌ مِنْ عُمْرِكَ حَضَرْتَ وَفاتَهْ، وقَبَرْتَ بِيَدِكَ رُفاتَهْ. وَهُوَ أبو يومِكَ، والولدُ سرُّ أبيهْ، وجَدُّ غَدِكَ، فاجعلْهُ النبيلَ في الجُدودِ النَّبيهْ».

اليوم: «طَلَعَتِ الشمسْ، ونُفِضَتِ الخَمْسُ مِنْ تُرابِ أمسْ. فسبحانَ الذي أَلهَى بالأملْ، وشَغَلَ بالعملْ، واستَنْهَضَ الإنسانَ لأعباءِ اليومِ فَحَمَلْ».

الغد: «بَرِيدُ المَلكِ القهَّارْ، مَوْعِدُهُ حواشي الأسحارْ، أوْ غُرَّةُ النَّهارْ، حَمَلَتِ الفُجاءاتِ نجائِبُهْ، واشتَمَلَتْ على المُسْتَجَدَّاتِ حقائِبُهْ. هو الشخصُ الثالثُ في روايةِ الأيامِ والحوادثْ، والخَلَفُ مِنْ صاحِبَيْهِ والوارِثْ».

١٦٦ مقتطفات

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

المسجد الحرام: «حَرَمُ اللهِ المُطَهَّرْ، وبيتُهُ العتيقُ المُستَّرْ، الذي وَجَّهَ إليهِ الوجوهْ، وفرضَ على عِبادِهِ أن يَحُجُّوهْ؛ نظرَتْ إليه المساجدُ في كلِّ خَمْسْ، وقامت إليه قيامَ الحِرباءِ للشمسْ».

الطلاق: «حلالٌ.. عليهِ بشاعةُ الحرامْ، وحقٌّ.. يَشْرَهُ إليهِ اللئامْ، ويُكرَهُ عليهِ الكِرامْ».

الأسد: «طاغيةُ الصَّحراءِ، وجبارُ العَراءِ، وأجرأُ مَنْ وَطِئَ الغبراءَ. عرشُهُ غابتُهْ، وحِجابُهُ مهابتُهْ، والوَحدةُ مجلسُهُ وصَحابتُهْ».

الكاتب العمومي: «تِمْثالٌ مِنَ الجهلِ العامِّ، صنعتْهُ القرونُ والأجيالُ. حفَّارُهُ عَبَثُ الحاكمِ، وطينَتُهُ غَفْلَةُ المحكومِ، وَهُوَ الأميَّةُ على قارعةِ الطريقِ، لا يجمَعُهُ والحضارةَ مكانٌ».

السجع: «السَّجَعُ شعرُ العربيةِ الثَّاني؛ وكلُّ موضعٍ للشعرِ الرَّصينِ محلٌّ للسجَعِ».

الشيخ المهندم: «أيُّها الشيخُ المُهَنْدَمُ، ما غَرَّكَ بالسِّنِّ حتى لبستَ للصِّبا ثيابَهْ، ونازَعْتَ حفيدَكَ شبابَهْ؟ إنما مَثَلُكَ كَمَثَلِ الضِّرْسِ المحشُوِّ المكْسُوِّ: نُزِعَ مِنْهُ العَصَبْ، وخُلِعَ عليهِ الذَّهَبْ».

١٦٧ خواطر

قال أحمد شوقي في كتابه النثري «أسواق الذهب» الذي كتبه وهو في منفاه بإسبانيا على شكل فقرات مسجوعة فيها الوصف والحكمة (بين ١٩١٥ و١٩١٩):

ما نَبَّهَ على الفضْلِ الكاذبِ مثلُ الثَّناءِ الكاذب.

هلكتْ أمةٌ تحيا بفردٍ وتموتُ بفرْد.

الصالحونَ يبنُونَ أنفسَهُمْ، والمُصْلِحونَ يبنُونَ الجماعات.

المتحيِّزُ لا يُمَيِّز.

لا سلطانَ على الذَّوْقِ فيما يُحِبُّ ويَكْرَه.

الغنيُّ مَعَ الفقيرِ في كَبَدْ: إذا مَنَعَهُ حَسَدْ، وإذا أعطاهُ حَقَدْ.

قد يُداويكَ مِنَ المرضِ اتقاؤُه، ولا يُنجيكَ مِنَ الموتِ إلَّا لِقاؤُه.

قلَّما طارَ اسمُ الشَّاعِرِ في حياتِهْ، فوقَعَ بعدَ مماتِهْ.

عندَ الكمالْ، يبتدئُ الجمالْ.

للجمالِ حينَ يزولْ، جلالةُ الملكِ المعزولْ.

رُبَّ استِحْياءٍ تحتَهُ رِياءْ.

كادَ صَفْحُ الوالدِ يسبقُ ذَنْبَ الوَلد.

لو حَطَّمَتِ السِّنُّ المرأةَ ما حَطَّمَتْ مِرآتَها.

مَنْ عاشَ وعاشَرَ أَمَلَّ مُحِبّاً أَوْ مَلَّ مَحبوباً.

كِبْرُ الصَّغيرِ قبيحٌ كتواضُعِهْ، كلاهُما في غيرِ مَوْضِعِهْ.

شورى مِنَ الحجَّاجِ وزيادٍ، خيرٌ مِنَ الفَرْدِ ولوْ كانَ عُمَرْ.

اللهُ أَعْيُنْ، والنَّاسُ أَلْسُنْ، فأينَ المَفَرّ؟

تَكَثَّرْ مِنَ الحُسَّادِ بفضلِكْ، ولا تَتَكَثَّرْ مِنَ الأعداءِ بِجَهلِكْ.

١٦٨ ما أبعدَ النيل!

بعث شوقي، من منفاه بإسبانيا، إلى حافظ إبراهيم بواسطة داود بركات رئيس تحرير الأهرام ثلاثة أبيات (١٩١٧):

يا ساكِني مِصْرَ إنَّا لا نزالُ على　　عهدِ الوفاءِ، وإنْ غِبْنا، مُقيمِينا

يا أهل مصر! نحن مقيمون على العهد رغم غيابنا

هلَّا بَعثتُمْ لنا مِنْ ماءِ نهرِكُمُ　　شيئاً نَبُلُّ به أحشاءَ صادِينا

هلا بعثتم لنا من ماء النيل حتى نبل أحشاء صادينا (القلب العطشان فينا)

كلُّ المناهلِ، بعدَ النِّيلِ، آسِنةٌ　　ما أبعدَ النيلَ إلَّا عنْ أمانِينا

كل المناهل (موارد الماء) بعد النيل آسنة (فاسدة)، والنيل بعيد إلا أننا نتمنى قربه كثيراً فهو قريب في أمانينا

رد حافظ إبراهيم يقول:

«عجبتُ للنيلِ يدري أنَّ بُلْبُلَهُ/ صادٍ، ويسقي رُبى مصرٍ ويَسقينا

واللهِ ما طابَ للأصحابِ موردُهُ/ ولا ارتَضوْا بعدَهُ مِنْ عَيْشِهِمْ لِينا

لم تَنْأَ عنه وإنْ فارقْتَ شاطِئَه/ وقد نأيْنا وإنْ كُنَّا مُقيمينا»

١٦٩ أردتُ أعرِّفها من أنا

كان شوقي يردد هذه الأبيات كثيراً (١٩١٧):

رأيْتُ على صخرةٍ عقرباً　　وقد جعلتْ ضربَها دَيْدَنا

رأيت عقرباً على صخرة وقد جعلت العقرب ضرْب الصخرة ديدَناً (عادةً) لها

فـقـلـتُ لـهـا: إنَّـهـا صـخـرةٌ   وطـبـعُـكِ مِـنْ طـبـعِـهـا أَلْـيَـنـا

فقلت لها: يا مجنونة! هذه صخرة، وهي أقسى من جسمك، وطبعُكِ (خِلقتك) وألين منها، فلا فائدة من لسعها. وجد عمران القفيني مشكلة في نصب «ألينا» ودعاني إلى التأول لها. وأشار إلى أنه رأى الأبيات في حياة الحيوان الكبرى للدميري. فهي إذن ليست لشوقي. حسناً، فلنضمر قبلها «ما انفكَّ» ولننصبها خبراً لها، أو لنضمر ـ وهذا اقتراح عمران ـ «وجدتُ»

فـقـالـتْ: صـدقْـتَ، ولـكـنَّـنـي   أردتُ أُعَـرِّفُـهـا مَـنْ أَنـا

١٧٠ رثاء أمه

وقال يرثي والدته، وماتت وهو في غربته بالأندلس، (١٩١٨):

إلى اللّهِ أشكو مِنْ عوادِي النَّوى سَهما   أصابَ سُوَيْداءَ الفؤادِ وما أَصْمَى

إلى الله أشكو سهماً من عوادي (مصائب) النوى (الفراق) أصاب سويداء (حبة) القلب، ولكنه لم يُصْمِ (يقتل)

ولـم أرَ حُـكْـمـاً كـالـمقـاديرِ نـافِذاً   ولا كَلِقاءِ الموتِ مِنْ بينِها حَتْما

١٧١ وطني لو شغلت بالخلد عنه..

قال شوقي (١٩١٩):

اِخـتـلافُ الـنـهـارِ والـليـلِ يُـنْـسـي   اذكُـرا لـيِ الـصِّـبـا وأيَّـامَ أُنـسـي

اختلاف النهار والليل على الإنسان (سيْر الزمن) يُنسي الأيام الحلوة، فاذكرا لي يا صاحبيَّ أيام الصبا والأنس

وسلا مصرَ هل سلا القلبُ عنها   أو أَسـا جـرحَـهُ الـزمـانُ الـمُـؤَسِّـي

وسلا (اسألا) مصر هل سلا (انصرف) القلب عنها، أو هل أسا (شفى) جرحَ القلب الزمانُ المؤسي (الشافي)

كـلَّـمـا مـرَّتِ الـلـيـالـي عـلـيْـهِ   رَقَّ، والـعـهـدُ بـالـلَّـيـالـيِ تُـقَـسِّـي

كلما مرت الليالي (الزمن) على قلبي صار أرقَّ، والمعهود بمرور الزمن أن يُقسِّي لا أن يرقِّق

أحـرامٌ عـلـى بـلابِـلِـهِ الـدَّوْ   حُ، حـلالٌ لـلـطَّـيْـرِ مِـنْ كـلِّ جِـنْـسِ

هل الدوح (الشجر) حرامٌ (محرَّمٌ) على بلابله، وحلالٌ (محلل) للطير من الأجناس الأخرى؟ فشوقي منفيٌ عن مصر، وبها من الأجانب أشكال وألوان

كـلُّ دارٍ أحـقُّ بـالأهـلِ إلَّا   في خـبـيـثٍ مِـنَ الـمـذاهـبِ رِجْـسِ

البلد أحق بأهله إلا في مذهب (سلوك) المستعمرين الخبيث الملوث بالرجس (الدنس)

وطني، لوْ شُغِلْتُ بالخلدِ عنْهُ   نازَعتْني إليهِ في الخُلْدِ نَفْسي

وطني! لو انشغلت عنه بالخلد (الجنة) لنازعتني نفسي وأنا في الجنة تريد الوطن

وهَفا بالفؤادِ في «سَلْسَبيلٍ»   ظمأٌ للسَّوادِ في عينِ شمْسِ

وفي عين السلسبيل في الجنة سأرى فؤادي قد هفا به (حرَّكه) الظمأ للسواد (الأرض المخضرة) في عين شمس (الضاحية القاهرية). البيت فيه عبث بالكلمات غير قليل، فعين شمس اسم مكان وسوادها أرضها المخضرة، وعين الإنسان لها سواد في وسطها، وعين الشمس ليس بها سواد بل هي مشرقة كل الإشراق؛ والسلسبيل في البيت عين ماء في الجنة، وكلمة «سلسبيل» هي التي جلبت كل هذا التداعي وإن لم يصفها الشاعر بكلمة عين. وشعر شوقي مَراد للتداعي الحر. تراه يقول كلمة ثم تتدفق كلمات وأفكار منبثقة من هذه الكلمة، ويشحن هذه الأفكار التي جاءت بطريق التداعي الباطني بمشاعره وآرائه

شَهِدَ اللَّهُ لم يَغِبْ عنْ جُفوني   شخصُهُ ساعةً، ولم يَخْلُ حِسِّي

لم يغب عن جفوني سواد (خضرة) «عين شمس» بشخصه (بشكله المادي)، كما لم يخل إحساسي من أثره

يا فؤادي لكلِّ أمرٍ قرارٌ   فيهِ يبدو وينجَلي بَعْدَ لُبْسِ

لكل أمر قرار (نهاية)، ولا بد للنفي من أن ينتهي

أينَ مرْوانُ، في المشارقِ عَرْشٌ   أُمَويٌّ وفي المغاربِ كُرْسي

أين عهد مروان (يقصد بني مروان، وفي عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان فتحت الأندلس)؟ كان له عرش في دمشق شرقاً، وكرسي (عرش) في المغارب، في الأندلس

وَعَظَ البحتريَّ إيوانُ كِسْرى   وشَفَتْني القصورُ مِنْ عبدِ شَمْسِ

وعظ إيوان كسرى الشاعر البحتري، عندما ذهب إليه في خلوة روحية بعد مقتل الخليفة المتوكل؛ وأنا شفت نفسي قصور عبد شمس (بني أمية) في الأندلس

لم يَرُعْني سوى ثرىً قُرْطُبِيٍّ   لَمَسَتْ فيهِ عِبْرَةَ الدهرِ خَمْسي

لم يُدخِل الروع (الرهبة) إلى قلبي سوى تراب قرطبة الذي لمستُ فيه عِبرةَ الزمن بأصابعي الخمس كلها

قريةٌ لا تُعَدُّ في الأرضِ، كانتْ   تُمْسِكُ الأرضَ أنْ تَميدَ، وتُرْسي

قرطبة الآن قرية لا قيمة لها في العالم، ولكنها كانت تمسك الأرض حتى لا تميد (تهتز) وترسيها على قواعدها، هذا في أيام عزها

سِنَةٌ مِنْ كرىً وطيفُ أمانٍ   وصَحا القلبُ مِنْ ضلالٍ وهَجْسِ

ذلك العز سِنَة من كرى (غفوة)، وطيف جاء في الأحلام بالأماني الجميلة، ثم صحا القلب من الضلال والهواجس

وإذا الـدَّارُ مـا بـهـا مِـنْ أنـيـسٍ وإذا الـقـومُ مـا لـهـمْ مِـنْ مُـحِـسِّ

فإذا الدار ما بها إنسان، وإذا القوم ليس لهم من يُحِسُّ بهم، فقد رحلوا

مَشَتِ الحادثاتُ في غُرَفِ الحمـ ـراءِ مَشْيَ الـنَّعِيِّ فـي دارِ عُرْسِ

مشت الحادثات (المصائب) في غرف قصر الحمراء، كمشي النعي (خبر الموت) في دار بها عرس

لا تـرى غـيـرَ وافِـديـنَ عـلـى الـتَّـا ريـخِ ساعِـيـنَ فـي خُـشـوعٍ ونَـكْـسِ

والآن ليس بقصر الحمراء سوى السياح الوافدين لمشاهدة قطعة من التاريخ، تراهم يمشون خاشعين منكسين رؤوسهم

خـرجَ الـقـومُ فـي كـتـائـبَ صُـمٍّ عن حِفاظٍ، كَمَوْكِبِ الدَّفْنِ خُرْسِ

خرج العرب في كتائبَ صَمَّتْ آذانها عن حفاظ (غيرة على الشرف)، وكانت كتائبهم خرساء (صامتة) كموكب الدفن

رِكِبُوا بـالـبـحـارِ نَـعْـشـاً، وكـانـتْ تـحـتَ آبـائِـهِـمْ هِـيَ الـعـرشُ أمـسِ

ركبوا البحر منهزمين إلى المغرب كأنما ركبوا النعش، والبحر نفسه ركبه آباؤهم عرشاً عندما فتحوا الأندلس

رُبَّ بـــانٍ لـــهـــادِمٍ، وجَـــمُـــوعٍ لِـمُـشِـتٍّ، ومُـحْـسِـنٍ لِـمُـخِـسِّ

رب بانٍ يبني الملك لحفيده الذي يهدمه، ورب جَموع (كثير الجمع) يجمع المال لمن يشتته، ومحسن يحُوز الفضائل لمخس (لمن يجعلها خسيسة)

إمْـرَةُ الـنـاسِ هِـمَّـةٌ لا تَـأَتَّـى لـجـبـانٍ، ولا تَـسَـنَّـى لِـجِـبْـسِ

إمرة (قيادة) الناس همة (طموح) لا تتأتَّى لجبان، ولا تتسنَّى (تسنح) لجبس (ضعيف). قصيدة عامرة بأبيات الحكمة. عرف شوقي أن أبيات الحكمة تجلب لشعره السيرورة، فتعمَّدها وصار يرصدها، وأقر بذلك. والقصد إلى الحكمة قصداً أضعف شعر شوقي. فهو إذ يُعمل فكره في استخراج أبيات الحكمة يستهلك جزءاً من طاقته الشعورية فتبرد قصيدته، ولا تتدفق. وفي هذه القصيدة يعارض شوقي البحتري في سينيته (صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس)

١٧٢ ثورة ١٩١٩

قال شوقي في ثورة مصر (١٩١٩):

عَـطَـفَ الـدهـرُ عـلـى ثـورتِـكُـمْ ولـوَى الـنـاسَ عـلـيـهـا مُـعْـجَـبـيـنْ

عطف (أمَالَ) الزمن على ثورتكم قلوب الناس، ولوى (أمال) الناس عليها وهم متعجبون منها، لأنها..

هـزَّتِ الـلـيـثَ ولـمَّـا يَـصْـحُ مِـنْ دمِ غِـلْـيـومَ وَصِـيـدٍ آخَـريـنْ

هزت الأسد (أي إنجلترا، وشعارها الأسد)، ولما يَصْحُ من نشوة البطش بغليوم قيصر ألمانيا وبالصِّيدِ (الأسياد) الآخرين الذين هُزموا في الحرب العالمية الأولى

قـامَ رهـطٌ مـنـكُـمُ فـاقـتَـحَـمـوا كِـبـريـاءَ الـفـاتـحـيـنَ الـظَّـافِـريـنْ

قام رهط (جماعة) منكم فاقتحموا كبرياء المنتصرين. حلوٌ تعبير «اقتحموا كبرياء الفاتحين»

اسـتَـخَـفَّ الـلـيـثُ إجـمـاعَـكُـمُ وهْـوَ نـابُ الـعَـجَـمِ الـدَّاهـي الـرَّزيـنْ

واستخفت إنجلترا بإجماعكم، وهي رأس الحربة في الأجانب، والداهية الرزينة

مـسـتـعـيـذاً مِـنْـكُـمُ بـالـلَّـهِ أنْ تُصْبِحوا الهندَ وتُمسوا الصِّينَ فِينْ

استعاذ الأسد الإنجليزي بالله منكم لئلا تصبحوا (في بدء أمركم) كالهند (وآنذاك كانت المقاومة السلمية قد بدأت هناك)، وتُمسوا (بعد ذلك) مثل الصين ـ فين (منظمة «الشين فين» الإيرلندية التي استخدمت العنف ضد الحكم البريطاني)

١٧٣ .. إذا أخلاقهم كانت خرابا

قال شوقي في اجتماع لجنة التموين، بُعَيدَ عودته من منفاه بإسبانيا، (١٩٢٠):

وَداعــاً أرضَ أنــدَلُــسٍ، وهــذا ثـنـائـي إنْ رضـيـتِ بـهِ ثَـوابـا

ويـا وطـنـي لـقِـيـتُـكَ بـعـدَ يـأسٍ كـأنّي قـد لَـقِـيـتُ بِـكَ الـشـبـابـا

وكـلُّ مـسـافـرٍ سـيـؤوبُ يـومـاً إذا رُزِقَ الـسـلامـةَ والإيـابـا

أُديـرُ إلـيـكَ قـبـلَ الـبـيـتِ وَجـهـي إذا فُـهْـتُ الـشَّـهـادةَ والـمَـتـابـا

أُدير إليك يا وطني وجهي إذا تفوهت بالشهادة والمتاب (دعاء التوبة)

فـصـفْـحـاً لـلـزمـانِ لـصـبـحِ يـومٍ بِـهِ أضـحـى الـزمـانُ إلـيَّ ثـابـا

صفحت عن الزمان ومصائبه لأنه ساق إليَّ هذا الصباح الذي ثاب (عاد) الزمان إليَّ به وصافاني

وحـيَّـا الـلَّـهُ فِـتْـيـانـاً سِـمـاحـاً كَـسَـوْا عِـطْـفَـيَّ مِـنْ فـخـرٍ ثـيـابـا

حيا الله الفتيان السِّماح (السمحين الكرام) الذين كسوا عِطفيَّ (جانبيَّ) ثياباً من الفخر

عـبـادُكَ رَبِّ قـد جـاءوا بـمـصـرٍ أَنِـيـلاً سُـقْـتَ فـيـهِـمْ أم سـرابـا؟

أَمَـنْ أَكَـلَ الـيـتـيـمَ لـهُ عِـقـابٌ ومَـنْ أَكَـلَ الـفـقـيـرَ فـلا عـقـابـا؟

ولـيـس بـعـامـرٍ بُـنـيـانُ قـومٍ إذا أخـلاقُـهُـمْ كـانـتْ خـرابـا

١٧٤ مطية لا تستريح

قال شوقي يرثي محمد فريد (١٩٢٠):

كُـلُّ أعـوادِ مِـنـبـرٍ وسـريـرٍ ... بـاطـلٌ غـيـرَ هـذهِ الأعـوادِ

كل أعواد (أخشاب) منبر أو سرير (عرش) هي باطل سوى أعواد التابوت

تستريحُ المَطِيُّ يوماً، وهذي ... تنقُلُ العالمينَ مِنْ عهدِ عادِ

كل المطيّ (الدواب) تستريح يوماً، وأما هذه المطيَّة (التابوت) فهي تنقل الناس إلى القبر من عهد قبيلة «عاد» البائدة

لا وراءَ الجيادِ زِيدَتْ جَلالاً ... منذُ كانتْ، ولا على الأجيادِ

والتابوت منذ الأزل لا يزداد هيبة إن مشى وراء الجياد (الخيول) في جنازة فخمة، ولا إن رُفِعَ فوق الأجياد (الأعناق)، فهيبة الجنازة هي هيبة الموت لا هيبة الموكب

هل تَرى كالترابِ أحسنَ عدلاً ... وقياماً على حُقوقِ العبادِ

ما أعدل التراب وأحسن قيامه على حقوق الناس! أليس هو الذي يسوي بينهم؟

نزلَ الأقوياءُ فيه على الضَّعْـ ... ـفَى، وحلَّ الملوكُ بالزُّهَّادِ

١٧٥ المهد جسر المقبرة

قال شوقي يرثي الأميرة فاطمة إسماعيل (١٩٢٠):

لا يَنْفَعُ المَيْتَ سوى ... صالحةٍ مُدَّخَرَهْ

لا ينفع الميت سوى صالحة (عمل صالح) يدخرها لآخرته

فاطِمُ! مَنْ يولَدْ يَمُتْ ... المهدُ جسرُ المَقْبَرَهْ

يا فاطمة! كل من يولد سيموت، فالمهد ما هو إلا جسر يوصل للمقبرة

وكُلُّ نفسٍ في غدٍ ... مَيِّتَةٌ فمُنْشَرَهْ

كل نفس ستموت غداً، ثم يأتي النشور (البعث)

وإنَّهُ مَنْ يَعمَلِ الـ ... ـخيرَ أوِ الشرَّ يَرَهْ

وإنَّما يُنَبَّهُ الـ ... ـغافلُ عندَ الغَرْغَرَهْ

الغافل الأحمق لا يتنبه للخير والشر إلا عند الغرغرة (لفْظ النَفَس الأخير)

يلفِظُها حَنْظَلَةً ... كانت بِفِيهِ سُكَّرَهْ

يلفظ روحه مرة كالحنظلة؛ وقد كانت من قبل حلوة في فمه كالسكر

وَلَــــنْ تَـــزالَ مِـــنْ يَـــدٍ   إلـــى يَـــدٍ هــــذي الـــكُـــرَةْ

الحياة كالكرة، وستظل تنتقل من يد إلى يد

١٧٦ الشجاعة الحقة

قال شوقي (١٩٢٠):

إنَّ الشجاعَ هُوَ الجبانُ عنِ الأذى   وأرى الجريءَ على الشُّرورِ جبانا

١٧٧ ليس بالقطن وحده

قال شوقي (١٩٢٠):

العصرُ حُرٌّ والشُّعوبُ طليقةٌ   ما لم يَحُزْها الجهلُ في أَرسانِهِ

العصر عصر حرية، والشعوب طليقة ما لم يحزها (يضمها) الجهل في أرسانه (الرسن: مقود الفرس)

أينَ الزراعةُ في جِنانٍ تحتَكُمْ   كخمائلِ الفِردوْسِ أوْ كجِنانِهِ

أين الزراعة في الجنان التي تعيشون فوقها والتي تشبه خمائل (بساتين) الفردوس

أئِذا أصابَ القطنَ كاسدُ سوقِهِ   قُمْنا على ساقٍ إلى أَثْمانِهِ

أئذا أصابت القطنَ السوقُ الكاسدة، قمنا على سيقاننا فزعاً نراقب بورصة القطن وأسعاره

يا مَنْ لِشَعْبٍ رُزْؤُهُ في مالِهِ   أنساهُ ذِكرَ مُصابِهِ بكيانِهِ

يا من ينقذ هذا الشعب الذي أنساه رزؤه (مصيبته) في ماله مصابَه (مصيبته) في كيانه

المُلك كانَ ولم يكنْ قُطْنٌ، فلم   يُغلَبْ أُبُوَّتُنا على عُمْرانِهِ

كان لنا مُلك ولم يكن القطن يزرع في مصر، فلم يفشل أبوتنا (آباؤنا) في تعمير الملك

الفاطِمِيَّةُ شَيَّدَتْ مِنْ عِزِّهِ   وبَنى بَنو أيوبَ مِنْ سُلطانِهِ

الحكم الفاطمي شيد جزءاً من عز هذا الملك، وبنى الأيوبيون جانباً من سلطانه

بالقُطْنِ لم يَرْفَعْ قواعدَ مُلْكِهِ   فِرْعَوْنُ، والهَرَمانِ مِنْ بُنْيانِهِ

وفرعون لم يرفع قواعد ملكه بالقطن، ومع ذلك فالهرمان من تشييده. يتابع شوقي المتنبي في الاكتفاء بهرمين، وهكذا صنع علي محمود طه في «الجندول». ورأيت مؤرخين عرباً فعلوا ذلك، «قال الحوقليّ في صفة مصر: وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير». على أن بمصر من الأهرام عدداً يزيد عن ٨١، ويوصله بعضهم إلى ١١٢. وقد زرت الأهرام مرة؛ جرني صديقي إليها جراً لأنه «لا يجوز لإنسان أن يزور القاهرة ولا يزور أهرام الجيزة». كانت الحادية عشرة ليلاً، ونظرت إلى هرم خوفو فرأيته منبطحاً فاستصغرته، ربما لأنني متعود على البنايات الواقفة عمودياً. على أن كتابي يقول إن هرم خوفو أكبر بناء شيده الإنسان على وجه الدهر

١٧٨ القريض الأصيل

قال شوقي (١٩٢١):

الشِّعْرُ صِنفانِ: فَباقٍ على قائِلِهِ، أو ذاهبٌ يومَ قيلْ

الشعر صنفان: شعر يبقى أبد الدهر مفخرة لقائله، وشعر يتبخر يوم نظمه

ما فيهِ عصرِيٌّ ولا دارِسٌ الدهرُ عُمْرٌ للقَرِيضِ الأصيلْ

ليس في الشعر عصري ودارس (قديم)، فالقريض (الشعر) الأصيل عمره طويل بطول الزمن، أي أنه خالد

١٧٩ النيل

قال شوقي (١٩٢١):

مِنْ أيِّ عهدٍ في القرى تتدفَّقُ وبِأيِّ كفٍّ في المدائن تُغدِقُ

من أي عهد وأنت تتدفق في القرى أيها النيل؟ وبأي كف تغدق (تمنح) على المدن الخيرات

ومِنَ السماءِ نزلتَ، أمْ فُجِّرْتَ مِنْ عُلْيا الجِنانِ جَداولاً تَتَرقْرقُ

وهل نزلت من السماء، أم تفجرت من الجنة على هيئة جداول تترقرق

وبِأَيِّ نَوْلٍ أنتَ ناسِجُ بُرْدَةٍ للضَّفَّتيْنِ جديدُها لا يَخْلُقُ

وبأي نول (آلة النسج) تنسج بردة (ثوباً/من النبات) لضفتيك، وهي جديدة دوماً لا تَخْلُق (تهترئ)

دِينُ الأوائلِ فيكَ دينُ مُروءَةٍ لِمْ لا يُؤَلَّهُ مَنْ يَقُوتُ ويَرْزُقُ

دين القدماء الذين عبدوك دين مروءة وعرفان، فلم لا يؤلَّه من يقوت (يُطعِم) ويرزق الناس!

مُتَقَيِّدٌ بِعُهودِهِ ووعودِهِ يَجري على سَنَنِ الوَفاءِ ويَصْدُقُ

النيل متقيد بوعوده فيفيض في مواسمه جارياً على سَنَن (طريقة) الوفاء

ولِمَنْ هياكلُ قد علا الباني بِها بينَ الثُّريَّا والثَّرى تَتَنَسَّقُ

ولمن هذه الهياكل التي شيدها بُناتها؟ وهي منسقة واحداً بعد الآخر وتبدو، لارتفاعها، كالمعلقة بين التراب ونجوم الثريا

منها المشيَّدُ كالبروجِ، وبعضُها كالطَّوْدِ مضطجِعٌ أشمُّ مُنَطَّقُ

منها ما هو كالبروج العالية، ومنها ما هو منبطح مفلطح كالجبل الأشم (العالي) المنطَّق (المحلّى بنطاق أي حزام/ربما من السحب أو الشجر)

أهو يشير إلى هرم منقرع وحوله حزام من ثلاثة أهرام صغيرة، أم إلى كل هرم تبدو حجارته كالنطاق الملتف عليه؟

جُدُدٌ كأوَّلِ عهدِها، وحيالَها تتقادمُ الأرضُ الفضاءُ وتَعْتَقُ

هذه الهياكل تبدو جديدة، وحيالها (بجانبها) الأرض الفضاء (الفسيحة) تتقادم وتصبح عتيقة

مِنْ كلِّ ثِقْلٍ كاهلُ الدنيا به تَعِبٌ، ووجهُ الأرضِ عنْهُ ضَيِّقُ

هذه الهياكل مكونة من كل ثقل يتعب منه كاهل (ظهر) الأرض، ويضيق به وجهها

متمَكِّنٌ كالطَّوْدِ أصلاً في الثَّرى، والفرعُ في حَرَمِ السَّماءِ مُحَلِّقُ

هذا الثقل أصله (قاعدته) متمكن في الثرى (التراب) كالطود (الجبل)، وأما فرعه (رأسه) فمحلق في حرم السماء (والسماء محرمة على الإنسان لعدم الجناح، فهي إذن حَرَم)

هِيَ مِنْ بِناءِ الظُّلمِ، إلَّا أنَّهُ يَبْيَضُّ وجهُ الظُّلمِ منهُ ويُشْرِقُ

هذه الهياكل بناء مؤسس على الظلم والسخرة، لكنها مفخرة تُحَسِّن وجه الظلم لعظمتها

ونَجيبَةٍ بينَ الطُّفولةِ والصِّبا عذراءَ تَشْرَبُها القلوبُ وتَعْلَقُ

وربَّ فتاة نجيبة بين سن الطفولة والصبا، أنيسة حتى لَتَشربها القلوب وتعلَّقُها (تعشقها)

كان الزِّفافُ إليكَ غايةَ حظِّها والحظُّ إنْ بلغَ النِّهايةَ مُوبِقُ

هذه الفتاة كانت نهايةُ حظها أن زُفَّت إليك، والحظ إن بلغ بالإنسان النهاية موبق (مميت)

في كلِّ عامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بِلا ثمنٍ إليكَ، وحُرَّةٌ لا تُصْدَقُ

في كل عام كان قدماء المصريين يلقون إليك أيها النيل بنتاً كالدرة بلا مقابل، ويعطونك امرأة حرة لا تُصدَق (لا تأخذ مهراً)

والحرة من النساء لها صداق، والأمة المسكينة صداقها عتقها في قول من قال ذلك

والمجدُ عندَ الغانياتِ رَغيبةٌ يُبغَى كما يُبغَى الجمالُ ويُعْشَقُ

والحسان يرغبن في المجد، وهن يسعين إليه سعيهن إلى الجمال (التجمل).. والتجميل

ما أجملَ الإيمانَ لولا ضِلَّةٌ في كلِّ دينٍ بالهدايةِ تُلْصَقُ

الإيمان جميل لولا ضلة (خرافة) في كل دين تلتصق بالهداية

مَجْلُوَّةٌ بالفُلْكِ يحدو فُلْكَها بالشاطئينِ مُزَغرِدٌ ومُصَفِّقُ

وهذه الفتاة مجلوَّة (مزينة) في الفلك (السفينة) ويحدو (يغني) للسفينة على الشاطئين المزغردون والمصفقون

ألقتْ إليكَ بنفسِها ونفيسِها وأتتْكَ شيِّقةً حواها شَيِّقُ

ألقت إليك الفتاة بنفسها وبما عليها من نفيس الجواهر، وجاءتك مشتاقة للموت في سبيل المجد، وأنت تبتلعها مشتاقاً إليها

خلعتْ عليكَ حَياءَها وحياتَها أأعزُّ مِنْ هذينِ شيءٌ يُنفَقُ
أعطتك حياءها وحياتها، فهل هناك أعز من هذين؟

قومٌ وقارُ الدِّينِ في أخلاقِهِمْ والشعبُ ما يَعتادُ أو يَتَخلَّقُ
المصريون تأصل في أخلاقهم وقار الدين، والشعب هو ما يعتاده ويتخلق به من أخلاق

أصلُ الحضارةِ في صعيدِكَ ثابتٌ ونباتُها حسنٌ عليكَ مُخَلَّقُ
أيها النيل أصل الحضارة ثابت في صعيدك (ترابك)، ونبات هذه الحضارة من هياكل وأهرام زيْن لك مخلق (مطيب بالخَلوق وهو من الزعفران)

وودائعُ الفاروقِ عندَكَ دِينُهُ ولِواؤُهُ وبيانُهُ والمنطِقُ
وقد أودع الفاروق عمر بن الخطاب عندك دينه (الإسلام) ولواءه (حُكْمَه) وبيانه ومنطقه (لغته/اللغة العربية)

بعثَ الصحابةَ يحملونَ مِنْ الهُدى والحقِّ ما يُحْيِي العقولَ ويَفْتُقُ
بعث الفاروق الصحابة يفتحون مصر، وحملوا إليها الدين الذي أحيا العقل وفتق اللسان باللغة العربية

يَبْنونَ للَّهِ الكنانةَ بالقنا واللَّهُ مِنْ حولِ البناءِ مُوَفِّقُ
يبنون بالقنا (بالرماح) الكنانة (مصر) لله بعد أن كانت لآلهة أخرى، والله يحوطهم ويوفقهم

والفتحُ بَغْيٌ لا يهوِّنُ وقعَهُ إلَّا العفيفُ حسامُهُ المترفِّقُ
الفتح ظلم، ولكنَّ ما هوَّنَه عفةُ الحسام وترفق الفاتحين بأهل البلد

ما كانتِ الفسطاطُ إلَّا حائطاً يأوي الضعيفُ لركنِهِ والمُرْهَقُ
ولم تكن الفسطاط (وهي أول ما اختط عمرو بن العاص بمصر من مدائن) إلا جداراً يحتمي به كل ضعيف أرهقته ضرائب البطالسة

وبه تلوذُ الطيرُ في طلبِ الكَرى ويبيتُ قيصرُ وهْوَ منهُ مُؤَرَّقُ
وحتى الطير تلوذ (تلجأ) بهذا الجدار طلباً للكرى (النوم)، وأما قيصر البطالسة فيبيت بسبب بناء الفسطاط مؤرقاً (ساهراً قلقاً)

لِي فيكَ مدحٌ ليسَ فيه تكلُّفٌ أملاهُ حُبٌّ ليس فيهِ تَمَلُّقُ
أمدحك أيها النيل بلا تكلف، ويملي هذا المدح عليَّ حب ليس فيه تملق

مما يُحَمِّلُنا الهوى لكَ أَفْرُخٌ سنَطيرُ عنها وَهْيَ عندكَ تُرْزَقُ
والذي يحمِّلنا بالحب لك أبناؤنا الذين سنموت ونتركهم ورزقهم عليك

تـهـفـو إليـهِـمْ فـي الـتـرابِ قـلـوبُـنـا   وتـكـادُ فـيـهِ بـغـيـرِ عِـرْقٍ تَـخْـفُـقُ

تهفو (تتحرك) قلوبنا ونحن موتى في التراب إشفاقاً على أبنائنا، وتكاد قلوبنا الميتة تخفق بلا عروق

تُـرجَـى لـهـمْ، واللهُ جـلَّ جـلالُـهُ   مـنَّـا ومـنـكَ بِـهِـمْ أبـرُّ وأرفَـقُ

وأنت المرجو لهؤلاء الأبناء؛ والله أبرُّ وأرفق بهم منا ومنك

فـاحـفَـظْ ودائـعَـكَ الـتـي اسـتُـودِعْـتَـهـا   أنـتَ الـوَفِـيُّ إذا اؤْتُـمِـنْـتَ الأَصْـدَقُ

فاحفظ يا نيل ما استودعناك من ودائع، أي أبناءنا، فأنت الوفي

١٨٠ نشيد مصر

قال شوقي:

بَـنـي مِـصْـرٍ مـكـانُـكُـمُ تَـهَـيَّـا   فَـهَـيَّـا مَـهِّـدوا لِـلـمُـلْـكِ هَـيَّـا

يا بني مصر! مكانكم تهيأ، فمهدوا للملك

خُـذُوا شـمـسَ الـنـهـارِ لـهُ حُـلِـيَّـا   ألـم تَـكُ تـاجَ أوَّلِـكُـمْ مَـلِـيَّـا

وخذوا الشمس حِلية لملككم، فقد كان قرص الشمس تاج الفراعنة مليّاً (طويلاً). ويصر العقاد، ويتبعه مصطفى صادق الرافعي، على أن قرص الشمس لم يكن قط حلية لتاج مصر بل معبود وحسب. وقد قص علينا العقاد في كتاب الديوان قصة طويلة عن ظروف فوز هذا النشيد بجائزة اللجنة المشكَّلة لاختيار كلمات نشيد وطني. وهو ينقد كل حرف فيه، وقال في نقده للبيت الأول: «فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة؟ أأجنبي يخاطبهم؟»

١٨١ تحرك أبا الهول

قال شوقي (١٩٢١):

أبـا الـهَـوْلِ! طـالَ عـلـيـكَ الـعُـصُـرْ   وبُـلِّـغْـتَ فـي الأرضِ أقـصـى الـعُـمُـرْ

يا أبا الهول طال عليك العُصُر (الزمان)، وبلَّغك الله عمراً طويلاً

فـيـا لِـدَةَ الـدهـرِ! لا الـدهـرُ شَـبَّ   ولا أنـتَ جـاوزتَ حَـدَّ الـصِّـغَـرْ

فيا لدة الدهر (رفيق الدهر/الذي ولد معه)، لا الدهر بلغ شبابه، ولا أنت تجاوزت طفولتك

إلامَ ركـوبُـكَ مَـتْـنَ الـرِّمـالِ   لِـطَـيِّ الأصـيـلِ وجَـوْبِ الـسَّـحَـرْ

إلام (إلى متى) تظل راكباً متن (ظَهر) الرمال لكي تطوي الأصيل (الغروب) وتجوب وقت السحر (قبيل الفجر)

تُـسـافـرُ مُـنـتـقـلاً فـي الـقـرونِ فـأيَّـانَ تُـلـقِـي غـبـارَ الـسَّـفـرْ

وبهذا الطي والجوب تسافر في القرون وأنت ماكث مكانك؛ فأيان (فمتى) تنفض عنك غبار السفر وتصل إلى غايتك؟

أَبَـيْـنَـكَ عـهـدٌ وبـيـنَ الـجـبـالِ تـزولانِ فـي الـمـوعـدِ الـمُـنـتَـظَـرْ

هل بينك وبين الجبال عهد ألا تزولا إلا معاً في الموعد المنتظر (يوم القيامة)

أبـا الـهـولِ مـاذا وراءَ الـبـقـاءِ إذا مـا تـطـاولَ غـيـرُ الـضَّـجَـرْ

يا أبا الهول! ماذا بعد طول البقاء سوى الضجر؟

عـجـبـتُ لِـلُـقـمـانَ فـي حـرصِـهِ عـلـى «لُـبَـدٍ» والـنـسـورِ الأُخَـرْ

عجبت للقمان الحكيم في حرصه على البقاء، فقد أُعطي عمراً بعمر سبعة نسور متعاقبة، وكان آخرها النسر «لُبَد» وكان عليه حريصاً

وشـكـوى «لَـبـيـدٍ» لِـطُـولِ الـحـيـاةِ ولـو لـم تَـطُـلْ لَـتَـشَـكَّـى الـقِـصَـرْ

وعجبت لشكوى «لبيد» الشاعر من طول الحياة، ولو لم تكن حياته طويلة لاشتكى قصرها

ولـو وُجـدَتْ فـيـكَ يـا ابـنَ الـصَّـفـاةِ لَـحِـقْـتَ بـصـانِـعِـكَ الـمُـقْـتَـدِرْ

ولو وُجِدت الحياة فيك يا أبا الهول يا ابن الصفاة (الصخرة)، لكنت لحقت بصانعك المقتدر الذي نحتك ومات

فـإنَّ الـحـيـاةَ تَـفُـلُّ الـحـديـدَ إذا لَـبِـسَـتْـهُ، وتُـبْـلـي الـحَـجَـرْ

فالحياة تفل (تثلم) الحديد إذا لبسته (لزمته)، وتبلي (تهرأ) الحجر

كـأنَّ الـرمـالَ عـلـى جـانِـبَـيْـكَ وبـيـنَ يـديْـكَ ذنـوبُ الـبَـشَـرْ

كـأنَّـك فـيـهـا لـواءُ الـقَـضـاءِ عـلـى الأرضِ أو ديـدبـانُ الـقَـدَرْ

كأنك في الرمال لواءُ (عَلَم) القضاء، أو ديدبانُ (حارس) القدر

فَـحَـدِّثْ فـقـد يُـهْـتَـدَى بـالـحـديـثِ وخَـبِّـرْ فـقـد يُـؤْتَـسَـى بـالـخـبـرْ

فحدثنا بما مر بك فقد يُهتدى بحديثك، وخبرنا فقد يؤتسى (يُتَّعَظ) بما تخبر

ألـم تَـبْـلُ فِـرْعَـوْنَ فـي عِـزِّهِ إلـى الـشـمـسِ مُـعْـتَـزِيـاً والـقـمـرْ

ألم تبلُ (تختبرْ) فرعون في أيام عزه وهو يعتزي (ينتسب) إلى الشمس والقمر، فهو ابن إلهَيِ الشمس والقمر

وراعَكَ ما راعَ مِنْ خيلِ قَمْبيـــ ـزَ تَرْمي سنابِكُها بالشَّرَرْ

وقد راعك (أخافك) ما راعك من خيل قمبيز ملك الفرس التي راحت سنابكها (أطراف حوافرها) ترمي الشرر إذ ترتطم بالصخور

وأَبصرْتَ إسْكَندراً في المَلا قَشيبَ العُلا في الشَّبابِ النَّضِرْ

وأبصرت الإسكندر في الملأ (في الجمْع من جنوده) وهو قشيب (جديد) العلا (المجد)، وكان في شبابه النضر

تَبَلَّجَ في مِصْرَ إكليلُهُ فلم يَعْدُ في المُلكِ عُمْرَ الزَّهَرْ

تبلج (أشرق) في مصر إكليله، ثم لم يَعْدُ (يتجاوز) في الملك عمر الأزهار

وشاهدْتَ قَيْصَرَ كيف استبدَّ وكيف أذلَّ بمصرَ القَصَرْ

القَصَر: (الرقاب)

وكيف تجبَّرَ أعوانُهُ وَساقُوا الخلائِقَ سَوْقَ الحُمُرْ

ورأيت كيف تجبر أعوان قيصر الرومان وساقوا الناس سوق الحمير

وكيف ابْتُلُوا بقليلِ العَديدِ مِنْ الفاتحينَ كريم النَّفَرْ

وكيف ابتلي هؤلاء الأعوان من الرومان بالعدد القليل من الفاتحين، وهذا العديدُ كريمٌ نفراً

رمَى تاجَ قيصرَ رَمْيَ الزُّجاجِ وفَلَّ الجموعَ وثَلَّ السُّرُرْ

هذا العديد القليل من الفاتحين رمى تاج قيصر فانكسر كأنه الزجاج، وفرق الجموع وثل (هدم) السُّرُر (العروش/فسرير الحكم هو العرش)

فَدَعْ كلَّ طاغيةٍ للزمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيمُ الصَّعَرْ

فاترك يا أبا الهول كل طاغية للزمان، فالزمان يقيم (يقوِّم) الصَّعَر (ميل الرؤوس/والمتكبر يُميل رأسه ميلاً خفيفاً)

أبا الهولِ لو لم تكنْ آيةً لكان وفاؤكَ إحدى العِبَرْ

ولو لم تكن أنت آية (برهاناً) لكان وفاؤك عبرة

أَطَلْتَ على الهَرَمَيْنِ الوقوفَ كَثاكِلَةٍ لا تَرِيمُ الحُفَرْ

فمن وفائك وقوفك طويلاً بجانب الهرمين كأنك المرأة الفاقد التي لا تريم (تبتعد) عن الحُفَر التي دفن في إحداها ابنها

تُرَجِّي لِبانِيهِما عَوْدَةً وكيف يعودُ الرميمُ النَّخِرْ

وأنت قاعد بجانبهما كأنك تُرَجِّي (ترجو) لمن بناهما عودة للحياة، وكيف يعود الجثمان الرميم (البالي) النخر (المنخور الأجوف)

فهل مَنْ يُبَلِّغُ عنَّا الأُصولَ بأنَّ الفروعَ اقتَدَتْ بالسِّيَرْ
فهل ثمة من يبلغ الأصول (الأجداد) بأن الفروع (الأحفاد) اقتدوا بسيرة أجدادهم

ولم تفتَخِرْ بأَساطيلِها ولكنْ بِدُستورِها تَفتَخِرْ
وأن الأحفاد لم يفتخروا بأساطيلهم بل بدستورهم

تَحَرَّكْ أبا الهولِ! هذا الزمانُ تَحَرَّكَ ما فيهِ حتَّى الحجرْ

١٨٢ الضاد سر الجمال

قال شوقي في حفل ترحيب بأمين الريحاني (١٩٢٢):

إنَّ الَّذي ملأَ اللُّغاتِ مَحاسِناً جعلَ الجمالَ وسِرَّهُ في الضَّادِ

١٨٣ سماح لضيق الوقت

قال شوقي (١٩٢٢):

اِغْفِرْ لِحاسِدِ نعمةٍ بالأمسِ نالَكَ، أو وَقَعْ
وقع: وقع فيك، أي ذمك ونال منك

ما في الحياةِ لِأَنْ تُعاتِبَ أو تُحاسِبَ مُتَّسَعْ

١٨٤ دستور وبرلمان

جاء تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ليلغي الحماية عن مصر، ويعترف بها مملكة مستقلة، ذات سيادة، مع احتفاظ بريطانيا بالدفاع عنها وعن السودان في حال التدخل الأجنبي. أما الاستقلال فقد أُعلن رسمياً في ١٥/٣/١٩٢٣ وشكلت لجنة من ٣٠ مصرياً بارزاً لوضع الدستور. قال أحمد شوقي في تصريح إلغاء الحماية (١٩٢٢):

أُعِدَّتِ الراحةُ الكبرى لِمَنْ تَعِبا وفازَ بالحقِّ مَنْ لمْ يَأْلُهُ طَلَبا
لم يألُهُ طلباً: لم يقصِّرْ في طلبه

لا تُثْبِتُ العينُ شيئاً أو تحقِّقُهُ إذا تحيَّرَ فيها الدمعُ واضطربا
لا تبصر العين بوضوح إذا ترقرق فيها الدمع، وكذلك فإن الإنسان المنفعل لا يكون ذهنه واضحاً

والصبحُ يُظْلِمُ في عينيكَ ناصِعُهُ إذا سَدَلْتَ عليْكَ الشكَّ والرِّيَبا
والصبح الناصع يصبح ظلاماً في عينيك إذا سَدَلْتَ (أنزلتَ) على نفسك الرِّيَب (الشكوك)

إذا طلبتَ عظيماً فاصْبِرَنَّ لَهُ   أو فاحشُدَنَّ رماحَ «الخَطِّ» والقُضُبا

إذا أردت تحقيق أمر عظيم فعليك بالصبر، أو بحشد رماح «الخط» (الرماح المنسوبة إلى مرفأ «الخط» في البحرين) والقُضُب (السيوف)

ولن تَرى صُحْبَةً تُرضى عَواقِبُها   كالحقِّ والصبرِ في أمرٍ، إذا اصطَحبا

ولن تجد صحبة ترضيك عواقبها (نتائجها) كاصطحابك الحق والصبر معاً

لا تَعْدَمُ الهِمَّةُ الكبرى جوائزَها   سِيَّانِ: من غَلَبَ الأيامَ أو غُلِبا

لا تعدم (لا تفتقد) الهمة الكبيرة جوائزها (ثمراتها)، ويستوي في ذلك من حقق النصر على مصائب الأيام أو من هُزم

وكلُّ سَعْيٍ سيَجزي اللّهُ ساعِيَهُ   هيهاتَ يذهبُ سَعْيُ المُحْسِنينَ هَبَا

هبا: هباء

لم يُبْرَمِ الأمرُ، حتى يستبينَ لكُمْ   أساءَ عاقبةً أم سَرَّ مُنْقَلَبا

لم يتم إبرام الأمر (نيل السيادة) بعد، ولذلك لم يستبن (لم يظهر) لكم بعدُ هل عاقبته (نتيجته) سيئة أم سارَّة

تَمهَّدَتْ عَقَباتٌ غيرُ هَيِّنَةٍ   تلقى ركابُ السُّرى مِنْ مِثْلِها نَصَبا

تمهدت حتى الآن عقبات (طرق جبلية صعبة) غير سهلة، وهي عقبات تلاقي ركابُ السُّرى (الإبلُ السائرة ليلاً) من أشباهها نصباً (تعباً)

وأَقْبَلَتْ عَقَباتٌ لا يُذَلِّلُها،   في موقفِ الفصلِ، إلَّا الشعبُ منتخِبا

وأقبلت علينا عقبات أخرى لا يذللها (يسهلها) في موقف الفصل إلا الشعب عندما ينتخب ممثليه

إذا رأيتَ الهوى في أمةٍ حَكَماً   فاحكُمْ هنالك أنَّ العقلَ قد ذهبا

إذا رأيت الهوى (المصلحة الشخصية) متحكماً في أمة فاحكم عندئذٍ بأن عقلها قد ذهب

قالوا: الحمايةُ زالتْ، قلتُ: لا عجبٌ   بل كان باطلُها فيكمْ هو العجبا

قالوا: الحماية البريطانية زالت، فقلت: لا عجب في ذلك، بل العجب كان وجود هذا الباطل

يا ابنَ السَّنا عالياً، والعزِّ مُمْتَنِعاً   والبأسِ مُحْتَدِماً، والعُرْفِ مُنْسَكِبا

يا ابن السنا (الشرف)، وابن العز المصون، وابن البأس المحتدم (المتّقد)، والعُرف (المعروف) المتدفق. .

باهِ الملوكَ بهذا التاجِ، إنَّ لَهُ   في جوْهرِ الشمسِ، لا في الناسِ، مُنْتَسَبا

باهِ (قم بالمباهاة) الملوك بتاج مصر، فهو تاج يرجع في نسبه إلى جوهر (أصل) الشمس وليس إلى الناس، والشمس معبود الفراعنة

وتِهْ عليهِمْ بعرشٍ غيرِ ذي لِدَةٍ   مِنْ عهدِ «خوفو» على الماءِ استوى عَجَبا

وتهْ (لك أن تتيه وتفخر) على الملوك بعرش ليس له لدة (مثيل)، وهو عرش استوى (استقر مستوياً) على الماء (النيل) من عهد «خوفو»

وإنَّ لِلمجدِ آفاتٍ إذا جُمِعَتْ   وَجَدْتَّهُنَّ اثنتينِ: الحقدَ والغضبا

وللمجد آفات (عيوب) تتلخص في عيبين: الحقد والغضب

إنْ سَرَّكَ المُلكَ تبنيهِ على أُسسٍ   فاستنهِضِ البانِيَيْنِ: العلمَ والأدبا

استنهض (ادفع للنهوض) العنصرين اللذين يبنيان الملك وهما العلم والأدب

وارفعْ لَهُ مِنْ بناءِ الحقِّ قاعدةً   ومُدَّ مِنْ سببِ الشورى له طُنُبا

وارفع للملك قاعدة هي الحق، ومُدَّ له من سبب (حَبْل) الشورى طُنُباً (حبال الخيمة)، فكأن الملك خيمة أرضها الحق والحبال التي تشدها هي الشورى

دارُ النيابةِ قد صُفَّتْ أَرائِكُها   لا تُجلسوا فوقَها الأحجارَ والخَشَبا

دار مجلس النواب اكتملت وصُفَّت فيها الأرائك (المقاعد)، فلا تُجلسوا فوقها الجهلة الذين هم كالحجارة والخشب. البرلمان المصري الأول افتتح في ١٥/٣/١٩٢٤، كان النواب ٢١٤، والشيوخ ١١٩، وأمامه حلف الملك الممدوح في هذه القصيدة أحمد فؤاد اليمين: «أحلف بالله العظيم أن أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية، وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه». وكان رئيس الوزراء آنئذٍ سعد زغلول

١٨٥ رثاء كارنارفون

يرثي شوقي اللورد كارنارفون، الذي موّل كشف مقبرة توت عنخ آمون، بينما قام بالحفر والبحث الآثاري هوارد كارتر، وحدث الكشف في ٤/١١/١٩٢٢. ومات كارنارفون بعد الكشف بأسابيع من بعوضة لسعته بأسوان في الصعيد. وكانت بريطانيا التي تحتل مصر أعطت كارنارفون امتياز التنقيب في وادي الملوك. (١٩٢٣):

في الموتِ ما أَعيا وفي أسبابِهِ   كُلُّ امرئٍ رَهْنٌ بِطَيِّ كتابِهِ

في الموت ما أتعب (أعيا) الفكر، وكذا في أسباب حدوث الموت؛ والمرء مرهون بطيّ (بمضمون) كتابه (قَدَره)

إن نامَ عنكَ فكُلُّ طِبٍّ نافعٌ   أو لمْ يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذنابِهِ

إن نسيك الموت ظننت الطب نافعاً، وإن تذكَّرك الموت فكأن الطب ـ وأخطاء الأطباء ـ من أذنابه (من أعوان الموت)

داءُ النفوسِ، وكلُّ داءٍ قبلَهُ هَمٌّ نَسِينَ مجيئَهُ بِذَهابِهِ

الموت هو مرض النفوس الحقيقي، وكل مرض يلم بالنفوس قبل الموت هو مجرد هم تنسى النفوس مجيئه فور ذهابه

وشِفاءُ هذي الروحِ من آلامِها ودواءُ هذا الجسمِ مِنْ أوصابِهِ

والموت أيضاً شفاء، فهو يخلص الروح من آلامها، ويخلص الجسم من أوصابه (أوجاعه)، إذ لا مرض بعد الموت

من سَرَّهُ ألَّا يموتَ.. فبِالعُلا خَلَدَ الرجالُ، وبالفَعالِ النَّابِهِ

من أحب أن لا يموت، فإن الرجال يخلدون بالعلا (بالمجد) وبالفَعال النابه (بالأفعال الحسنة الذائعة الصيت)

ما ماتَ مَنْ حازَ الثَّرى آثارَهُ واستولتِ الدنيا على آدابِهِ

لم يمت من له في التراب آثار، ومن تخاطفت الدنيا آدابه، كتوت عنخ آمون

هذا فتىً يمشي عليْهِ مُجَدِّداً ديباجَتَيْهِ، معمِّراً بخَرابِهِ

ها هو فتى (اللورد كارنارفون) يمشي فوق تراب المدفن مجدداً ذكر توت عنخ آمون وكاشفاً وجهه للعالم مجدداً ديباجتيه (خدَّيْه)، ومعمِّراً مدفنه الذي كان مطموراً

صادَتْ بقارعةِ الصَّعيدِ بعوضةٌ في الجوِّ صائدَ بازِهِ وعُقابِهِ

صادت بعوضة في قارعة (وسط) الصعيد ذلك الرجل الذي صاد باز توت عنخ آمون وعقابه (والباز والعقاب طيران من الجوارح)، والطير الجارح من شعارات ملوك مصر القدماء

لا تسمَعَنَّ لعُصْبَةِ الأرواحِ ما قالوا بباطِلِ علمِهِمْ وكِذَابِهِ

لا تأبه لما قالت عصبة الأرواح (جماعة قالوا إن كارنارفون لحقته لعنة الفراعنة وطاردته أرواحهم)، فما قالوه باطل وكِذاب (كذِب)

الرُّوحُ للرَّحمنِ جلَّ جلالُهُ هِيَ مِنْ ضَنائِنِ علمِهِ وغِيابِهِ

فالروح لله، وهي من ضنائن علمه (النفائس المخبأة). فالروح من أمر ربي

أفضى إلى خَتْمِ الزمانِ ففَضَّهُ وحبا إلى التاريخِ في مِحرابِهِ

أفضى (وصل) كارنارفون إلى ختم الزمان ففضه (كسره) فانفتح له الزمان، وحبا (زحف) إلى التاريخ في محرابه (أهم موضع منه)

وطوى القرونَ القَهقَرى حتَّى أتى   فِرْعَوْنَ بينَ طعامِهِ وشرابِهِ

وطوى القرون القهقرى (إلى الخلف)، حتى أتى فرعون مسجى وعن جانبيه الطعام والشراب. وكان يوضع في مدافن ملوك مصر طعام وشراب، ومدفن توت عنخ آمون مدفن بكر لم يهتد إليه اللصوص القدماء، وعندما اكتشف كانت فيه كل محتوياته، وجاءت بعدئذ لصوصية المستعمر الجديدة. والبيتان الماضيان (أفضى.. وطوى) قال فيهما حافظ إبراهيم، على ذمة زكي مبارك، «قتلني شوقي بهذين البيتين»

أَخرجتَ مِنْ قبرٍ كتابَ حَضارةٍ   الفنُّ والإعجازُ مِنْ أبوابِهِ

يا كارنارفون أخرجت من قبرٍ أشياء هي بمثابة كتاب حضارة؛ وإن الفن والإعجاز (كالتحنيط، ودقة الصنعة) من أبواب (فصول) هذا الكتاب

فرفعتَ رُكْناً للقضيَّةِ، لم يَكُنْ   سَحْبانُ يرفَعُهُ بسِحْرِ خِطابِهِ

فدعمت بذلك قضيتنا الوطنية بركن مكين، لم يكن خطيب العرب (سحبان) ليرفع هذا الركن ببلاغته. فبهذا الاكتشاف تيقن العالم أن مصر بلد مُعْرِق في الحضارة، ولا يجوز أن يستمر احتلاله

١٨٦ نبل أخلاق

قال شوقي يرثي سعيد زغلول ابن أخت سعد زغلول (١٩٢٣):

لم يكنْ في غُلُوِّهِ ضيِّقَ الصد   رِ، ولا كان عاجزاً في اعتدالِهْ

لم يكن في غلوّه (مبالغته) ضيق الصدر بمخالفيه، ولم يكن في اعتداله عاجزاً

لا يعادِي ويَتَّقي أنْ يُعادَى   ويُخَلِّي سبيلَ مَنْ لم يُوالِهْ

لا يعادي الناس ويتقي (يتجنب) أن يعاديه الناس، ولا يشغب على من لم يواله (لم يناصره)

١٨٧ سرقة الآثار

قال شوقي في الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون (١٩٢٣):

قِفي يا أختَ «يُوشَعَ» خَبِّرينا   أحاديثَ القرونِ الغابِرينا

قفي يا أخت يوشع (الشمس) وخبرينا أحاديث القرون (الأجيال) الغابرين (الماضين). وسمى الشمس «أخت يُوشَع» لأن نبي اليهود المحارب «يوشع بن نون» أراد القضاء على أعدائه قبل غروب الشمس والدخول في السبت المحرم فيه القتال، وعندما جنحت للغروب أمرها الرب.. «فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل» ـ يَشُوع/ أصحاح ١٠، آية ١٣ ـ، وقضى عليهم

وقُصِّي مِنْ مصارِعِهِمْ علَيْنا   ومِنْ دُولاتِهِمْ ما تَعلَمينا

وقُصِّي علينا قصص مصارع (كيفية موت) الأجيال السابقة، وقصص دُولاتهم (مصائبهم التي تداولت عليهم)

نرى لكِ في السماءِ خَضيبَ قَرْنٍ   ولا نُحْصي على الأرضِ الطَّعِينا

نرى لك أيتها الشمس قرناً (ظفر الشمس حين يبرز) خضيباً (مصبوغاً بالحمرة)، ولا نحصي الطعين (المطعونين) بهذا القرن على الأرض فالشمس في شروقها وغروبها تجعل الزمن يمر، وبمروره يموت الناس

مَشَيْتِ على الشَّبابِ شُواظَ نارٍ   ودُرْتِ على المَشيبِ رَحَىً طَحُونا

مشيت أيتها الشمس على أيام الشباب شواظَ نار (لهباً)، ثم درت على أيام المشيب كالرحى (حجر الطاحون) الطَّحون (الشديدة الطحْن)

تُعِينينَ المَوالِدَ والمنايا   وتَبنينَ الحياةَ وتَهدِمينا

بدورانك تساعدين الموالد (الوِلادات) وتساعدين المنايا (الميتات)، فدورانك هو الزمن وهو سبب ولادة الحياة وحدوث الموت

فيا لَكِ هِرَّةً أكلتْ بَنِيها   وما وَلَدُوا، وتَنْتَظِرُ الجَنينا

فيا لك من هرة أكلت أولادها، وأكلت أولاد أولادها، وتنتظر الجنين القادم

أَأُمَّ المالِكينَ بني أَمونٍ   لِيَهْنِكِ أنَّهُمْ نَزَعُوا أَمونا

أيتها الشمس، يا أم الفراعين من أبناء الإله آمون، هنيئاً لك أنهم نزعوا أمون (أشبهوه)

وَلَدتِ لهُ المَآمِينَ الدَّواهي   ولم تَلِدي لهُ قَطُّ الأمِينا

ولدت لآمون المآمين (الأبناء الشبيهين بالمأمون الخليفة العباسي الحازم)، ولم تلدي قط (أبداً) الأمين (الخليفة العباسي العابث المهزوم)

مَشَتْ بمنارِهِمْ في الأرضِ روما   ومِنْ أنوارِهِمْ قَبَسَتْ أَثِينا

هؤلاء الملوك من سلالة آمون مشت بنورهم حضارة روما، ومنهم اقتبست أثينا

ملوكُ الدهرِ بالوادي أقاموا   على وادي الملوكِ مُحَجَّبِينا

ملوك الزمان في الوادي (وادي النيل/أي ملوك مصر)، أقاموا الآن في «وادي الملوك» (موضع عند الأقصر) مدفونين محجوبين عن الأنظار

فَرُبَّ مُصَفَّدٍ مِنْهُمْ، وكانتْ   تُساقُ لهُ الملوكُ مُصَفَّدِينا

رب ملك هو الآن مصفد (مقيد) في قبره، وكان الملوك الآخرون المهزومون في المعارك يساقون إلى حضرته مقيدين

تَقَيَّدَ في الترابِ بِغيرِ قَيْدٍ   وحَلَّ على جوانِبِهِ رَهِينا

لقد تقيد في مدفنه ولكن دون أغلال، وحل التراب رهيناً (مرهوناً بمكانه لا يبرحه)

تـعـالـى اللهُ! كـان الـسِّـحـرُ فـيـهِـمْ   أَلَـيْـسـوا لِـلـحـجـارةِ مُـنْـطِـقِـيـنـا

سبحان الله! كانوا بارعين في السحر، أوَ لم يجعلوا الحجارة تنطق في تماثيلهم؟

ولـسـتُ بِـقـائـلٍ ظَـلَـمـوا وجـارُوا   عـلـى الأُجَـراءِ أو جَـلَـدوا الـقَـطـيـنـا

ولا أقول إن أولئك الملوك ظلموا الأجراء (العمال المأجورين)، أو أنهم جلدوا القطين (الخدم)

فـإنَّـا لـم نُـوَقَّ الـنـقـصَ حـتـى   نـطـالِـبَ بـالـكـمـالِ الأَوَّلِـيـنـا

فنحن لم نوقَّ (لم نُجنَّب) النقص لنطالب الأولين بالكمال

ومـا «الـبَـسْـتـيـلُ» إلَّا بـنـتُ أمـسٍ   وكـمْ أَكَـلَ الـحـديـدُ بِـهـا سَـجِـيـنـا

وما سجن «الباستيل» سوى بنت الأمس، وكانت قيود الحديد في الباستيل تأكل أجسام السجناء

وَرُبَّـةَ بِـيـعَـةٍ عَـزَّتْ وطـالَـتْ   بَـنـاهـا الـنـاسُ أمـسِ مُـسَـخَّـرِيـنـا

وربَّة (رُبَّ) بِيعة (كنيسة) عزيزة (منيعة) وعالية بناها الناس بالسخرة

مُـشَـيَّـدةٍ لِـشـافـي الـعُـمْـيِ عـيـسـى   وكـمْ سَـمَـلَ الـقُـسـوسُ بِـهـا عُـيـونـا

وقد شيدت تلك الكنيسة لعيسى شافي العمي (العميان)، ولكن كثيراً ما سمل (فقأ) القسس فيها عيون الناس

أخـا الـلـورداتِ مِـثْـلُـكَ مَـنْ تَـحَـلَّـى   بِـحِـلْـيَـةِ آلِـهِ الـمُـتَـطَـوِّلِـيـنـا

يا أخا اللوردات (أيها اللورد كارنارفون)! يُنتظر من مثلك أن يتحلى بحلية (بزينة) آله (قومه) المتطولين (القادرين)

أُبُـوَّتُـنـا وأَعـظُـمُـهُـمْ تُـراثٌ   نُـحـاذِرُ أنْ يـؤولَ لآخَـرِيـنـا

أبوتنا (آباؤنا) وعظامهم تراث ورثناه ونحاذر (نمانع) أن يؤول للآخرين

ونَـأْبَـى أنْ يَـحُـلَّ عـلـيـهِ ضَـيْـمٌ   ويَـذْهَـبَ نُـهْـبَـةً لـلـنَّـاهِـبـيـنـا

ونرفض أن يقع على هذا التراث ضيم (ظلم)، وأن ينهبه الناهبون

سَـكَـتَّ فَـحـامَ حـوْلَـكَ كـلُّ ظـنٍّ   ولـو صَـرَّحْـتَ لـم تُـثِـرِ الـظُّـنـونـا

لقد سكتَّ عندما اكتشفت مدفن توت عنخ آمون ولم تفصح عن محتوياته، فحامت حول مقاصدك الظنون بسبب صمتك

يـقـولُ الـنـاسُ فـي سِـرٍّ وجَـهْـرٍ   ومـا لَـكَ حيلةٌ في الـمُـرْجِـفـيـنـا . .

وقال الناس سراً وجهراً ـ ولا حيلة لك في المرجفين (المشككين) ـ قالوا . .

أَمَنْ سَرَقَ الخليفةَ وَهْوَ حَيٌّ   يَعِفُّ عنِ الملوكِ مُكَفَّنِينا

هل الذي سرق الخليفة حياً، سيعف (يترفع) عن الملوك وهم في أكفانهم. وكانت بارجة بريطانية حملت الخليفة العثماني وحيد الدين إلى منفاه عام ١٩٢٢، بعد أن ثار به الكماليون

خَليلَيَّ اهبِطا الوادي، ومِيلا   إلى غُرَفِ الشموسِ الغارِبينا

يا صاحبيَّ (والشاعر العربي له دائماً صاحبان يكلمهما) اهبطا وادي الملوك، وميلا معي (عرِّجا معي) إلى غرف الفراعنة المدفونين الذين هم كالشموس الغاربة

وخُصَّا بالعَمَارِ وبالتَّحايا   رُفاتَ المجدِ مِنْ توتَنْخَمينا

وخصا بالعمار (الريحان) والتحية رفات (بقايا) المجد من توت عنخ آمون

وقبراً كادَ مِنْ حُسْنٍ وطِيبٍ   يُضِيءُ حِجارةً ويَضوعُ طِينا

وحيِّيا قبراً كاد من جماله ورائحته الزكية يضيء بحجارته، ويتضوع العبير من طينه

وكان نزيلُهُ بالمَلْكِ يُدْعَى   فصارَ يُلَقَّبُ الكَنْزَ الثَّمِينا

ونزيل القبر كان يدعى المَلْك (المَلِك)، وأما الآن وهو ميت فصار يدعى الكنز الثمين

فَثَمَّ جلالةٌ قَرَّتْ ودامتْ   على مَرِّ القرونِ الأَرْبَعِينا

فثَمَّ (فهناك) جلالة استقرت واستمرت أربعين قرناً

وقُولا للنَّزيلِ: قدومَ سعدٍ   وحيَّا اللَّهُ مقدَمَكَ اليَمِينا

وقولا يا صاحبي لنزيل القبر، جئت إلينا الآن فقدومك قدوم سعد علينا (وكانت مصر أيامئذ تستقبل عهداً دستورياً، وفكاكاً من الحماية البريطانية) فحيا الله قدومك اليمين (الميمون)

سلامٌ يومَ وارَتْكَ المنايا   بِواديها، ويومَ ظَهَرْتَ فِينا

سلام عليك يوم وارتك (حجبتك) المنايا (الموت) في واديها (وادي الملوك الذي هو مقبرة كبيرة)، وسلام عليك يوم ظهورك الآن بالكشف عن مدفنك

خرجْتَ مِنَ القبورِ خُروجَ عيسى   عليكَ جلالةٌ في العالَمِينا

خرجت كما خرج عيسى من قبره ورفعه الله إليه

وأُقْسِمُ كنتَ في لُوزانَ شُغْلاً   وكنتَ عجيبةَ المُتَفاوِضينا

وأقسم أنك كنت شغلاً شاغلاً للمتفاوضين في لوزان بسويسرا (المؤتمر دام نحو ثلاثة أشهر وعقد لاقتسام تركة الدولة العثمانية)، وكلهم تعجبوا من هذا الكشف

أتعلمُ أنَّهُمْ صَلَفُوا وتاهُوا   وصَدُّوا البابَ عنَّا مُوصِدِينا

فهل تعلم أنهم صلفوا (تغطرسوا) وتاهوا (تكبروا)، وأوصدوا الباب دون الوفد المصري الذي ذهب يطالب بجلاء الإنجليز

وَلـو كُـنَّـا نَـجُـرُّ هـنـاكَ سـيْـفـاً وَجَـدنـا عـنـدَهُـمْ عَـطْـفـاً ولِـيـنـا
سَـيَـقْـضِـي كِـرْزِنٌ بـالأمْـرِ عـنَّـا وحـاجـاتُ الـكـنـانـةَ مـا قُـضِـيـنـا

سيقضي في شأننا اللورد جورج كيرزون (وزير خارجية بريطانيا)، وحاجات الكنانة (مصر) لم يتم قضاؤها

زمـانُ الـفَـردِ يـا فِـرْعَـوْنُ وَلَّـى ودالـتْ دولـةُ الـمُـتَـجَـبِّـريـنـا

فيا فرعون الدفين اعلم أن زمان حكم الفرد ولّى، وانتهت دولة المتجبرين بالناس

وأصـبـحَـتِ الـرُّعـاةُ بـكـلِّ أرضٍ عـلـى حُـكْـمِ الـرَّعـيـةِ نـازِلِـيـنـا

وأصبح الرعاة (الحكام) في كل بلد نازلين عند رأي الرعية (الشعوب)

فـؤادُ أجَـلُّ بـالـدُّسـتـورِ دُنْـيـا وأشـرفُ مِـنْـكَ بـالإسـلامِ دِيـنـا

الملك أحمد فؤاد بوجود الدستور أكثر جلالاً منك في دنياه يا فرعون، وهو بالإسلام أشرف منك في دينه

وأهـدَى فـي بـنـاءِ الـمُـلْـكِ جَـدًّا وأَجْـوَدُ والـداً فـي الـمُـحْـسِـنـيـنـا

وأحمد فؤاد جدُّه أكثر هداية (حِكمة) في بناء الملك (وجده هو إبراهيم باشا ابن محمد علي)، ووالده أجود من فرعون إحساناً (ووالده الخديوي إسماعيل)

بـنـى الـدَّارَ الـتـي لا عِـزَّ إلَّا عـلـى جَـنَـبـاتِـهـا لِـلـمـالِـكـيـنـا

بنى أحمد فؤاد الدار التي لا عز للملوك إلا في جنباتها (نواحيها)، وهي دار البرلمان

فـعَـجِّـلْ يـا ابـنَ إسـمـاعـيـلَ عَـجِّـلْ وهـاتِ الـنـورَ واهْـدِ الـحـائِـريـنـا

عجل يا أحمد فؤاد بالدستور ليهدي الحائرين

مـلايـيـنٌ تَـجُـرُّ الـجـهـلَ قَـيْـداً وتُـسْـحَـبُ بـالـقَـلـيـلِ الـمُـطْـلَـقِـيـنـا

الملايين تمشي ويقيدها الجهل، والذين يسحبون ملايين الجهال هم القلة من المطلقين (الذين نالوا حرية عقولهم بالعلم)

فـداوِ بـه الـبـصـائـرَ، فَـهْـوَ عـيـسـى وفُـكَّ بِـراحَـتَـيْـهِ الـمُـقْـعَـدِيـنـا

فداوِ بالدستور البصائر (العقول) فالدستور مثل عيسى شافي المرضى، وفك بيديْ الدستور الكسيحين

ومَـنْ يَـرَ دونَـهُ حـقّـاً فـإنِّـي أراهُ وَحْـدَهُ الـحـقَّ الـمُـبِـيـنـا

ولمن يرى الحق في أمر سوى الدستور، فإنني أرى الدستور وحده الحق الواضح.

نقد طه حسين هذه القصيدة بادئاً بأن شوقي «قد شبع ثناءً وتقريظاً، وأحسبه لم يشبع نقداً بعد» وبالطبع فقد أحب طه النغمة الفرعونية في القصيدة. وآخذ شوقي في ألفاظ

كلفظة «نزعوا» في البيت السابع مما اخترنا، فقد اضطر شوقي إلى أن يشرحها عندما نشر قصيدته في الأهرام، وما كان طه ليفهمها لولا الشرح، كما قال. وأثنى طه على اللطف وخفة الروح في البيت: (أمن سرق الخليفة وهو حي/ يعف عن الملوك مكفنينا). وعن كلام شوقي عن الشأن المصري إزاء عسف المحتل الإنجليزي قال طه حسين: «الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة أن تتعظ وخليقة أن تعمل». وقال: «ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال، ويثب ويخيل إليك أنه يخطو. يثب من عصر الفراعنة إلى العصر الذي نعيش فيه. فتراه شاعراً مصرياً يعيش في هذه السنة، يحس ما نحس، ويشفق مما نشفق منه. يحب الدستور ويكلف به، ويتمنى على صاحب الجلالة في ألذ لفظ وأعذبه، وفي أمتن أسلوب وأصفاه، وفي أشد العبارات تمثيلاً لأصدق العواطف، يتمنى على صاحب الجلالة إصدار الدستور». انتهى كلام طه حسين

١٨٨ عصركم بطل

قال شوقي (١٩٢٣):

قُلْ لِلشبابِ بمصرٍ عصرُكُمْ بَطَلٌ　　بكلِّ غايةِ إقدامٍ لَهُ وَلَعُ

عصركم بطل جريء، مولع بالنتائج التي تجرها الشجاعة

البَرُّ ليس لَكُمْ في طولِهِ لُجُمٌ　　والبحرُ ليس لَكُمْ في عُرْضِهِ شُرُعُ

وليس لكم في طول البر لُجُم (خيل على كل منها لجام)، وليس لكم في عُرض البحر (وسطه) شُرُع (سفن لها أشرعة)، يريد القول إنه ليس لمصر قوة برية أو بحرية

هل تَنهضونَ! عساكُمْ تَلْحَقونَ به　　فليس يَلْحَقُ أهلَ السَّيْرِ مُضْطَجِعُ

فهل تنهضون! لعلكم تلحقون بعصركم، لأن المضطجع (المستلقي) لا يلحق الماشين

لا يُعْجِبَنَّكُمُ ساعٍ بِتَفرقةٍ　　إنَّ المِقَصَّ خفيفٌ حينَ يَقْتَطِعُ

لا تصبوا إعجابكم على من يسعى للتفرقة، فالتفرقة سهلة ولكنها تؤدي إلى تخريب دائم، كالمقص الذي يسهل عليه أن يقطع القماش ولا إصلاح لما قطع

ما لِلشَّبابِ ولِلماضي! تمرُّ بِهِمْ　　فيهِ على الجِيَفِ الأحزابُ والشِّيَعُ

والشباب، ما لهم وللماضي! والأحزاب والشيع (المنظمات السياسية) تأخذ الشباب وتطوف بهم على الماضي وتريهم ما به من الجيف (الجثث) وتملأهم أحقاداً

لا يَمْنَعَنَّكُمُ بِرُّ الأُبُوَّةِ أنْ　　يكونَ صُنْعُكُمُ غيرَ الذي صَنَعُوا

الوفاء للأبوة ليس معناه الامتناع عن صنع شيء لم يصنعه آباؤكم

وكلُّ بُنْيانِ قومٍ لا يَقومُ على　　دعائِمِ العَصْرِ مِنْ رُكْنَيْهِ مُنْصَدِعُ

وكل بناء للأمة لا يكون مدعماً بمفاهيم عصرية يتصدع من ركنيه (جانبيه)

كَمْ في الحياةِ مِنَ الصَّحراءِ مِنْ شَبَهٍ   كِلْتاهُما في مُفاجَاةِ الفَتَى شَرَعُ
ما أشبه الحياة بالصحراء. كلتاهما شرع (سواء) في مفاجأة الإنسان

ولسْتَ تدري، وإن كنتَ الحريصَ، متى   تَهُبُّ رِيحاهُما أَوْ يَطْلُعُ السَّبُعُ
مهما كنت حريصاً فأنت لا تعرف متى تهب ريح الصحراء وريح الحياة، أو متى يطلع عليك السبع

ولسْتَ تأْمَنُ عند الصَّحْوِ فاجِئَةً   مِنَ العواصِفِ فيها الخوفُ والهَلَعُ
ولا تأمن عاصفة مفاجئة فيها خوف لك وهلع

ولسْتَ تدرِي، وإنْ قَدَّرْتَ مُجْتَهِداً،   متى تَحُطُّ رِحالاً أو مَتى تَضَعُ
وأنت لا تدري، مهما تحسبت، متى ستحط (ستُنزل) رحلك من على ظهر مطيتك، ومتى تضعه عليها. أنت تأتي للدنيا وترحل عنها وتسافر فيها مُسَيَّراً لا مخيراً

ولسْتَ تملِكُ مِنْ أمرِ الدليلِ سِوى   أنَّ الدليلَ وإنْ أَرْداكَ مُتَّبَعُ
وفي الصحراء ـ وأيضاً في الحياة ـ ليس في يدك من أمر المرشد إلا أنه يجب عليك اتِّباعه وإن أرْداك (أهلكك)

وما الحياةُ إذا أَظْمَتْ وإنْ خَدَعَتْ   إلّا سرابٌ على صحراءَ يَلْتَمِعُ
والحياة تظمئك (تعطشك) وتخدعك، مثل سراب يلمع في الصحراء

١٨٩ يومٌ كبدر

قال شوقي يهنئ الأتراك بانتصارهم على اليونانيين سنة (١٩٢٣):

اللَّهُ أكبرُ! كمْ في الفتحِ من عَجَبِ   يا خالدَ التُّرْكِ جدِّدْ خالدَ العربِ
يا خالد الترك (مصطفى كمال) جدد ذكرى خالد العرب (خالد بن الوليد)

سُئِلْتَ سِلماً على نصرٍ فجُدْتَ بها   ولو سُئِلتَ بغيرِ النصرِ لم تُجِبِ
طُلب منك السلْم بعد انتصارك، فمنحتهم السلم وجنحت لها، ولو لم تكن قد انتصرت عليهم فلن ترضى بالسلم

قذفْتَهُمْ بالرياحِ الهُوجِ مُسْرَجَةً   يحمِلْنَ أُسْدَ الشَّرى في البَيْضِ واليَلَبِ
وفي الحرب كنت قد قذفت اليونانيين بالرياح الهوجاء المسرجة (التي عليها السروج/ يعني الخيل)، وهي تحمل أسود الشرى (والشرى مكان قرب الفرات كثير الأسود) التي تلبس البَيْض (الخُوَذ) واليَلَب (الدروع)

يومٌ كبدرٍ، فخَيْلُ الحقِّ راقصةٌ   على الصعيدِ، وخيلُ اللّهِ في السُّحُبِ

هذا اليوم (المعركة) مثل يوم بدر، فخيل الترك التي معها الحق ترقص على التراب، وخيل الله ترقص في السحب، يقول إن الله أيد مصطفى كمال في حربه مع اليونانيين بجند من عنده كما حدث يوم بدر. انتقد طه حسين هذه القصيدة في مقالين. فأبو تمام صاحب «السيف أصدق أنباء من الكتب» هو الذي «قدَّم إلى شوقي قوافيَه وشيئاً غير قليل من ألفاظه ومعانيه». وللحق فإن قصيدة شوقي لا تصمد طويلاً لملحمة أبي تمام العظيمة. ويمضي طه حسين في لهجة تذكرنا بلهجة العقاد في الديوان: «هذه القصيدة أصدق دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة، وفشل الشعر العربي العصري فيما قصد إليه من إمتاع النفوس وإشعارها لذة الجمال الفني.. هذه القصيدة هي أشبه شيء بالتمرين المدرسي يذهب به الأطفال مذهب المحاكاة للنماذج الفنية التي تلقى إليهم فيوفقون في الصورة ويخطئون في الموضوع،» انتهى كلام طه. وليتذكر القارئ أن النقد موجه إلى قصيدة من ثمانية وثمانين بيتاً، أما ما اخترناه هنا فهو زبدتها

١٩٠ شمس الخلافة

قال شوقي يهنئ الثائرين بأنقرة (١٩٢٣):

قُمْ نادِ أَنْقَرَةً، وقلْ: يَهْنيكِ   مُلْكٌ بَنَيْتِ على سيوفِ بَنيكِ

قمْ أيها المنادي وناد أنقرة، وقل هنيئاً لك هذا الملك الذي بنيتِه على سيوف أبنائك. وأنقرة كانت عاصمة مصطفى كمال أتاتورك في المعارك التي خاضها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لكي ينشئ تركيا الحديثة، ثم ظلت عاصمة لتركيا

مِنِّي لعهدِكِ يا فَروقُ تَحِيةٌ   كعيونِ مائِكِ أو رُبى واديكِ

ولفروق (إستانبول) مني تحية جميلة كعيون مائها وربى واديها

إنْ أنسَ لا أنسَ الشبيبةَ والهوى   وسوالفَ اللَّذَّاتِ في ناديكِ

مهما نسيت فلن أنسى عهد الشباب والحب، وسوالف اللذات (ما سلف من لذات) في مجالسك

وليالياً لم نَدْرِ أينَ عِشاؤُها   مِنْ فجرِها لولا صياحُ الديكِ

ولن أنسى لياليَ مرت سريعة فلم نعرف وقت العشاء من وقت الفجر فيها لولا صياح الديك

قلْ للخلافةِ قولَ باكٍ شمسَها   بالأمسِ لمَّا آذَنَتْ بِدُلوكِ

قل للخلافة قول من يبكي شمسها بالأمس لما آذنت بدلوك (أوشكت على الغروب)

إنَّ الذينَ توارثوكِ على الهوى   بعدَ ابنِ هندٍ طالما كَذَبوكِ

إن الذين توارثوك أيتها الخلافة على الهوى (لمصالحهم) بعد ابن هند (معاوية أول خليفة ورَّث الحكم لمن بعده توريثاً) كثيراً ما كَذَبوك (تصرفوا بغير ما يتطلبه معنى الخلافة)

لـم يَـلْـبَـسـوا بُـرْدَ الـنـبـيِّ، وإنـمـا   لَـبِـسـوا طـقـوسَ الـرومِ إذ لَـبِـسـوكِ

لم يلبسوا برد النبي (عباءة النبي/التي كان الخلفاء يتوارثونها)، أي أنهم لم يسلكوا مسلك النبي، وإنما لبسوا (اتخذوا) طقوس الروم عندما آلت إليهم الخلافة

١٩١ أعلمت للقمرين من أسلاف؟

قال شوقي يرثي الشاعر إسماعيل صبري (١٩٢٣):

شَرَفُ العصامِيِّينَ صنعُ نفوسِهِمْ   مَنْ ذا يقيسُ بِهِمْ بني الأشرافِ
قـلْ لـلـمـشـيـرِ إلـى أبـيـهِ وجـدِّهِ:   أَعَـلِـمْـتَ لـلـقَـمَـرَيْـنِ مِـنْ أَسْـلافِ

القمران: الشمس والقمر، وهما عزيزا المنال ولا أسلاف (أجداد) يفتخران بهم

١٩٢ إتقان

قال شوقي (١٩٢٣):

أيُّـهـا الـعـمـالُ أفْـنُـوا الـ   ـعُـمْـرَ كَـدّاً واكـتِـسـابـا

يخاطب العمال ويريد منهم إفناء العمر كدّاً (تعباً). وهل يملكون سوى ذلك؟ هلّا خاطب أولاد الباشوات في زمنه!

واعـمُـروا الأرضَ فَـلَـوْلا   سـعْـيُـكُـمْ أمْـسَـتْ يَـبـابـا

يباباً: خراباً

أيـنَ أنـتـمْ مِـنْ جُـدودٍ   خَـلَّـدوا هـذا الـتـرابـا
أتـقَـنـوا الـصَّـنْـعَـةَ حـتَّـى   أَخَـذوا الـخُـلْـدَ اغـتـصـابـا

قدماء المصريين أتقنوا الصنعة (الفن) حتى نالوا بمخلفاتهم الخلود غصباً من الزمن

إن لِـلْـمُـتـقِـنِ عـنـدَ الـلَّـ   ـهِ والـنـاسِ ثَـوابـا

هذا بيت بسيط، وليس فيه لا معنى بديع، ولا.. ولا شيء. لكنَّ إتقان العمل أمر نفتقده في مجتمعاتنا كثيراً، فرأيت في هذا البيت صدى لمعنى يتردد في نفسي

١٩٣ كُفِّنتِ في ثوب الزفاف

قال شوقي ينعى الخلافة (١٩٢٤):

عـادتْ أغـانـي الـعُـرْسِ رَجْـعَ نُـواحِ   ونُـعِـيـتِ بـيـنَ مـعـالـمِ الأفـراحِ

عادت (أصبحت) أغاني العرس (الفرحة بانتصار الترك على اليونانيين وتأسيس تركيا الحديثة) رجع (صدى) نواح، ونُعِيَتِ الخلافة وسط مظاهر الفرح

كُفِّنْتِ في ليلِ الزِّفافِ بِثوبِهِ   ودُفِنْتِ عندَ تَبَلُّجِ الإصباحِ
تبلُّجُ الإصباح: ظهور الفجر

والشامُ تسألُ والعراقُ وفارسٌ   أَمَحا مِنَ الأرضِ الخلافةَ ماحِ
تسأل هذه البلاد هل محا الخلافة أحد من الوجود محواً

أَستغفرُ الأَخلاقَ! لستُ بجاحدٍ   مَنْ كنتُ أدفعُ دونَهُ بسلاحي
عذراً أيتها الأخلاق، فلست جاحداً! لا أجحد فضل مصطفى كمال «أتاتورك» الذي كنت أدافع عنه بسلاحي (وسلاح شوقي قلمه)

ما لي أطوِّقُهُ المَلامَ، وطالما   طوَّقْتُهُ المأثورَ من أَمْداحي
ما لي أطوق عنقه باللوم، وكثيراً ما طوقته بمدائحي المأثورة (التي يبقى أثرها بين الناس)

أدُّوا إلى الغازي النصيحةَ ينتصحْ   إن الجوادَ يثوبُ بعدَ جِماحِ
أدُّوا (أعطوا) إلى الغازي (أتاتورك) النصيحة، والحصان الأصيل يثوب (يعود) إلى طبيعته بعد الجماح (الجموح)

١٩٤ يا ربِّ قوِّ يدها وشُدَّها

قال شوقي في افتتاح البرلمان المصري (١٩٢٤):

مصرُ الفتاةُ بَلَغَتْ أَشُدَّها
وأَثْبَتَ الدَّمُ الزكِيُّ رُشْدَها
يا رَبِّ! قَوِّ يَدَها وشُدَّها
وافتحْ لها السُّبْلَ ولا تَسُدَّها

بعد انحسار الحرب العالمية الأولى عن انهيار الدولة العثمانية التي كان شوقي يرى فيها ركناً تستند إليه مصر لحمايتها من أطماع أوروبا، وبعد نفيه وعودته إلى مصر وتولي السلطان (ثم الملك) أحمد فؤاد الحكم، ولم يكن متحمساً لشوقي، بدأ شوقي يرى أن مصر هي الأمل وهي ركن نفسها. آمن أكثر بالشعب، ولكنه رأى بعين ثاقبة ما ينقص مصر من وسائل النهوض. أجد هذه الأشطر من أجمل الشعر، ثمة هنا دعاء وضراعة لله كي يقوي مصر وهي مُقْدمة على مرحلة الاستقلال، وألمس في الأشطر إحساس شوقي بعدم الأمان

١٩٥ استبداد باسم الجماعة

قال شوقي (١٩٢٤):

الفردُ بالشورى وباسمِ نَدِيِّها   لَفَظَ الخليفةَ في الظلامِ شَريدَا
هذا الفرد (مصطفى كمال) بالشورى وباسم ناديها (الجمعية العامة التي كان يرجع إليها) لفظ (رمى) الخليفة في ظلام النسيان وشرده

خَلَعَتْهُ دونَ المسلمينَ عِصابةٌ   لم يجعلوا للمسلمينَ وُجودا

خلعته، دون أن يخلعه المسلمون كلهم، عصابة (جماعة) تجاهلت وجود المسلمين

إني نظرتُ إلى الشعوبِ فلم أجِدْ   كالجهلِ داءً للشعوبِ مُبيدا

وإذا سَبى الفردُ المسلَّطُ مَجْلِساً   أَلْفَيْتَ أحرارَ الرجالِ عبيدا

الفرد المتسلط إذا سبى (استولى على) مجلساً، فإنك تجد الرجال الأحرار صاروا عبيداً

١٩٦ فإنك شمس

قال شوقي في مكسويني حصان محجوب ثابت، ولقبوا الحصان، فيما نظن، باسم تيرنس ماك سويني Terence MacSwiney المجاهد الإيرلندي الذي صام حتى الموت في سجن الإنجليز عام ١٩٢٠، فقد كانت الشلة تزعم أن الدكتور محجوب ثابت لا يعلف حصانه، وأن الحصان سيموت من الجوع. وقد يكون ورد معك في بعض الكتب أن مكسويني هذا عدّاءٌ إيطالي. لعل أصحاب تلك الكتب رأوا الاسم ذا جرس إيطالي فصنعوا ذلك التأويل. على أنني سألت وفداً إيطالياً مكوناً من نحو سبعة صحافيين عن مكسويني هذا فلم يعرفوه، وراجعت سجلات الألعاب الأولمبية، وسجلات الرياضيين الطليان فلم أجد له أثراً، فلا بدَّ أن يكون ماك سويني الإيرلندي هو جالب اللقب على ذلك الحصان (١٩٢٤):

تُفَدِّيكَ يا مَكْسُ الجيادُ الصَّلادِمُ   وتَفْدِي الأُسَاةُ النُّطْسُ مَنْ أنتَ خادِمُ

تفديك يا مكسويني (لقب حصان الدكتور محجوب ثابت) الجياد (الخيول) الصلادم (صلاب الحوافر)، وتفدي الأساة (الأطباء) النطس (الماهرون) الشخص الذي أنت خادم إياه وهو الدكتور

كأنَّك إنْ حاربْتَ فوقَكَ عَنْتَرٌ   وتحتَ ابنِ سينا أنتَ حينَ تُسالِمُ

في الحرب يكون فوقك عنترة (الدكتور ثابت)، وفي السلم تكون أنت تحت ابن سينا (د. أيضاً)، فالدكتور في حالَيْ الحرب والسلم بارع

فإنَّكَ شمسٌ، والجيادُ كواكبٌ   وإنَّك دينارٌ، وهُنَّ الدراهِمُ

فأنت يا مكسويني شمس والجياد (الخيول) الأخرى كواكب، وأنت دينار والجياد الأخرى دراهم

مِثالٌ بساحِ البرلمانِ مُنَصَّبٌ   وآخرُ في بارِ اللِّوا لَكَ قائمُ

ولك مثال (تمثال) في ساحة البرلمان، وآخر في بار اللوا (وكانت الشلة ترتاده). وكان محجوب ثابت من شخصيات ذلك العصر التي تستدر فكاهة الشعراء. كانت له دعاوى عريضة، وصوت عالٍ في المجالس، وصار نائباً في البرلمان، وكان يُمَنِّي النفس بوزارة الصحة. والقصيدة دعابة ثقيلة على البحر الطويل، وفيها إيماء فكه إلى قصيدة جاهلية في مدح النعمان. والشعر عند العرب ديوان لحياتهم، ويدخل فيه الظرف والسخرية والدعابة والتهكم والحزن والفرح وكل شيء. كل ما يحسُنُ بالمرء أن يقوله نثراً، وما لا يحسُنُ، داخل في حد الشعر. والمدار بعد ذلك على الإجادة والفن ووفرة ما في الشعر من شعور

١٩٧ الدنيا الغدارة

قال شوقي يداعب محجوب ثابت، وقد استبدل بحصانه مَكْسِويني سيارة، (١٩٢٤):

لـكُـمْ فـي الـخَـطِّ سـيَّـارَةْ حـديـثُ الـجـارِ والـجـارَةْ
وقـد تَـحْـرُنُ أحـيـانـاً وتـمـشـي وحـدَهـا تـارَةْ

تحرن: تعاند ولا تمشي

ولا تُـشْـبِـعُـهـا عَـيْـنٌ مِـنَ الـبَـنْـزيـنِ فَـوَّارَةْ
تـرى الـشـارعَ فـي ذُعْـرٍ إذا لاحـتْ مِـنَ الـحـارَةْ
فـقـد تـمـشـي مـتـى شـاءت وقـد تـرجِـعُ مُـخـتـارَةْ
قـضـى الـلَّـهُ عـلـى الـسَّـوَّا قِ أنْ يـجـعَـلَـهـا دارَهْ
يُـقَـضِّـي يـومَـهُ فـيـهـا ويَـلْـقَـى الـلـيـلَ مَـنْ زارَهْ

الليلَ: أي في الليل

أَدُنـيـا الـخـيـلِ يـا مَـكْـسِـي كـدنـيـا الـنـاسِ غَـدَّارَةْ؟

مكسي: مكسويني، حصان الدكتور محجوب ثابت

فـصـبـراً يـا فـتـى الـخَـيْـلِ فـنـفـسُ الـحُـرِّ صَـبَّـارَةْ
ولا والـلَّـهِ مـا كَـلَّـفْـتَ مـحـجـوبـاً ولا بَـارَةْ

البارة: قطعة عملة ضئيلة القيمة

فـلا الـبَـرسـيـمُ تـدريـهِ ولا تـعـرفُ نُـوَّارَهْ

١٩٨ انتحار الحصان

قال شوقي يعزي محجوب ثابت في نفوق حصانه (١٩٢٤):

يـا مَـكْـسُ دنـيـاكَ عـارَةْ والـمـوتُ كـأسٌ مُـدارَةْ

يا مكس (مكسويني: حصان الدكتور محجوب ثابت) دنياك عارة (شيء مستعار)، والموت كأس تدور على الشاربين

إذا بَـلَـغْـنَ الـتَّـراقـي فـكـلُّ رِبـحٍ خَـسـارَةْ

إذا بلغت الأرواح التراقي (الترقوة عظمة في أعلى الصدر)، فكل ما ربحه المرء يتحول إلى خسارة

لَـمَّـــا جـفــاكَ ابــنُ سـيـنــا وهـــامَ بـــالـــسَّـــيَّـــارَةْ

عندما جفاك (هجرك) ابن سينا (أي الدكتور محجوب ثابت)، وهام هياماً بسيارته التي..

تَــفِـــرُّ مِـــنْـــهُ وتَــجـــري كـــالـــنـــحـــلـــةِ الـــدَّوَّارَةْ
فــلا إلــى الــبــوقِ تُــصـغـي ولا إلـــى الـــزَّمَّـــارَةْ
وقــد تَــهَــتَّــكَ فــيــهــا حـــتـــى أضـــاعَ وَقـــارَهْ
حَــمَــلْـــتَ مِـــنْ ذاكَ غَـــمَّـــاً أذابَ مِـــنْـــكَ الـــمَـــرارَةْ
حــتــى انــتــحــرتَ جــريــئــاً والانــتــحـــارُ جَـــســـارَةْ

١٩٩ .. ويبكي البلشفي والاشتراقي

قال شوقي متفكهاً، والقصيدة على لسان الدكتور محجوب ثابت بعد أن نفق حصانه مكسويني:

يـمـيـنـاً بـالـطَّـلاقِ وبـالـعِـتـاقِ وبـالـدنـيـا الـمُـعَـلْـقَـمَـةِ الـمَـذاقِ

أحلف بالطلاق وبالعتاق (بعتق عبيدي)، وبهذه الدنيا المعلقمة (المرَّة) المذاق، والكلام على لسان الدكتور محجوب ثابت

وكـلِّ فَـقـارَةٍ فـي ظـهـرِ مَـكْـسـي بِـصـحـراءِ الإمـامِ، وعـظـمِ سـاقِ

وأحلف بكل فقرة في ظهر الحصان النافق مكسويني والمدفون في صحراء الإمام (الشافعي)، وأحلف بعظام ساقه

وتُـربـتِـهِ، وكـلُّ الـخـيـرِ فـيـهـا، ونـسـبـتِـهُ الـشـريـفـةِ لـلـبُـراقِ

وأحلف بتربته، وبنسبه الذي يعود للبراق (الدابة التي عرجت بالرسول إلى السماء). لا تُرضي هذه الفكاهة المتزمتين في أيامنا، ولكن عصر شوقي كان عصراً يضحك فيه الأزهريون، ويتسامرون مع الأدباء ويروون خمرياتهم، وينقدونها نقداً أدبياً لا دينياً، تماماً مثلما كان الفقهاء يفعلون في عصور الإسلام الزاهية

وبـالـخُـطَـبِ الـطِّـوالِ ومـا حَـوَتْـهُ وإنْ لـم يـبـقَ فـي الأذهـانِ بـاقِ

وأحلف بالخطب الطويلة وما فيها من معان، وإن نسيها الجميع

وكَـسْـرِي الـشِّـعْـرَ إنْ أنـشـدْتُ شـعـراً ونُـطْـقـيِ الـقـافَ واسـعـةَ الـنـطـاقِ

وأحلف بكسري للشعر وأنا أرويه، وبنطقي القاف الفخمة (وقد شبه حافظ إبراهيم قاف محجوب ثابت بطلقات المدفع)

أَيَشْتُمُني «سليمانُ بنُ فوزي» وبِيبي في يَدي ومَعي طِباقي

بعد هذا الحلف كله لا يقول لنا الدكتور ماذا سيفعل، بل يشكو من أن سليمان فوزي (صاحب مجلة الكشكول المعادية للوفد) يشتمه وهو في كامل أُبَّهته يحمل بيبه (غليونه) ومعه طباقه (تَبْغُه)

تُقاقِي ذقنُهُ مِنْ غيرِ بَيْضٍ ولِي ذَقْنٌ تبيضُ ولا تُقاقِي

ذقن سليمان فوزي تقاقي (تخرج كصوت الدجاج): يتكلم وذقنه تتحرك ولكنها لا تبيض، وأما ذقني أنا ـ والكلام على لسان محجوب ـ فهي تبيض دون أن تقاقي

أنا الطَّيَّارُ: رِجْلٌ في دِمَشْقٍ إذا اشتدَّتْ ورِجْلٌ في العراقِ

أنا أطير (أسافر مسرعاً) فرِجل في دمشق ورِجل في العراق إذا اشتدت الأزمات

أَلا طُزٌّ على العَيْهورِ طُزٌّ وإنْ أَبْدى مجاملةَ الرِّفاقِ

طز على العيهور (الفاجر) رغم ما يبدي من مجاملة

بِقارِعَةِ الطريقِ ينالُ منِّي ويوسِعُني عِناقاً في الزُّقاقِ

بقارعة الطريق (وسط الطريق وأمام الناس) ينال مني (يؤذيني)، ويوسعني (يملأني) عناقاً في الزقاق بعيداً عن الأنظار

وليس مِنَ الغريبِ سوادُ حظِّي وبالسودانِ قد طالِ التصاقِي

والدكتور محجوب أصل أبيه من دنقلة بالسودان، وظل يناصر قضية ارتباط مصر بالسودان

فسبحانَ المُفرِّقِ! حظُّ قومٍ قناطيرٌ، وأقوامٌ أَوَاقِ

فسبحان المفرق (الموزع للرزق)! فحظ البعضٍ قناطير، وحظ آخرين أواقٍ (الأوقية عيار وزن ضئيل جداً بالقياس إلى القنطار)

أُمورٌ يَضحكُ السُّعَدَاءُ منها ويَبْكي البَلْشَفِيُّ والاشْتِراقِي

السعداء: الأغنياء المسعدون. الاشتراقي هذه فيها ظرف كثير، رجوت ألا يكون فاتك

٢٠٠ سحر الدرهم

قال شوقي يداعب الدكتور محجوب ثابت:

قُلْ لابنِ سينا: لا طبيـ ـبَ اليومَ إلَّا الدرهمُ

قل لابن سينا (يسخر من الدكتور محجوب ثابت) إن الطبيب الحقيقي اليوم هو الدرهم

هُوَ قبلَ «بُقْراطٍ» وقبـ ـلَكَ للجراحةِ مَرْهَمُ

فهو قبل بقراط (طبيب اليونان) وقبلك يا دكتور محجوب مرهم الجراح

والنـاسُ، مُـذْ كـانـوا، عـلـيــ ـهِ دائـــــــرونَ وحُـــــــوَّمُ

والناس، منذ كان ناس، يدورون ويحومون حول الدرهم

وبِـسِـحْـرِهِ تَـعـلـو الأَسـا فِـلُ فـي الـعـيـونِ وتَـعْـظُـمُ

بسحر الدرهم يعلو أسافل الناس ويعظمون في العيون

٢٠١ براغيث محجوب

قال شوقي يداعب الدكتور محجوب ثابت:

بـراغـيـثُ مـحـجـوبَ لـم أَنْـسَـهـا ولـم أَنْـسَ مـا طَـعِـمَـتْ مِـنْ دَمـي

طعِمَتْ: أَكَلَتْ

تَـشُـقُّ خـراطـيـمُـهـا جَـوْرَبـي وتـنـفُـذُ فـي الـلَّـحـمِ والأَعْـظُـمِ
تُـرَحِّـبُ بـالـضـيـفِ فـوقَ الـطـريـقِ فـبـابِ الـعـيـادةِ فـالـسُّـلَّـمِ
قـد انـتـشـرتْ جـوقـةً جـوقـةً كـمـا رُشَّـتِ الأرضُ بـالـسُّـمْـسُـمِ
وترقُصُ رقْصَ الـمَـواسِـي الـحِـدَادِ عـلـى الـجـلـدِ، والـعَـلَـقِ الأَسْـحَـمِ

ترقص رقص المواسي (السكاكين) الحداد (الحادة)، على الجلد، وترقص مثل العلق (الحشرات الماصة للدم) الأسحم (الأسود)

إذا مـا ابـنُ سـيـنـا رَمَـى بَـلْـغَـمـاً رأيـتَ الـبـراغـيـثَ فـي الـبَـلـغـمِ
وتُـبـصِـرُهـا حـولَ بِـيـبـا الـرئـيـسِ وفــي شــارِبَــيْــهِ وحــولَ الــفــمِ

بيبا: غليون، والرئيس لقب ابن سينا

وبــيــنَ حَــفــائــرِ أســنــانِــهِ مَـعَ الـسُّـوسِ في طَـلَـبِ الـمَـطْـعَـمِ

حفائر: حُفَر، المطعم: الطعام

٢٠٢ رثاء المنفلوطي

قال شوقي يرثي المنفلوطي، ومات يوم أطلق الرصاص على سعد زغلول في محاولة اغتيال. (يوليو/تموز ١٩٢٤):

اِخـتـرتَ يـومَ الـهـولِ يـومَ وَداعِ ونَـعـاكَ فـي عَـصْـفِ الـريـاحِ الـنَّـاعـي

اخترت، وكأن المنفلوطي هو الذي اختار يوم موته!، يوم الهول (يوم إطلاق النار على سعد زغلول) لتودعنا، ونعاك الناعي والرياح عاصفة (قيل كان يوماً عاصفاً)

هَتَفَ النُّعاةُ ضُحىً فَأَوْصَدَ دونَهُمْ   جُرْحُ الرئيسِ منافذَ الأَسماعِ

جاء النعاة (ناقلو خبر وفاة المنفلوطي) بالخبر عند الضحى، ولكنَّ إصابة سعد بجرح سدت أسماع الناس، وشغلتهم عن وفاة المنفلوطي

مَنْ ماتَ في فَزَعِ القِيامةِ لم يجِدْ   قَدَماً تُشَيِّعُ أو حَفاوَةَ ساعِ

من مات في يوم القيامة لم يجد قدماً تسير في تشييعه؛ وإصابة سعد جعلت مصر كيوم القيامة. وشوقي في هذه الفترة من أصدقاء سعد، بعد أن كان عرَّض به في شعر سابق، وقد مكنه حزب سعد «الوفد» في هذه الفترة من مقعد في مجلس الشيوخ

ما ضرَّ لو صَبَرَتْ ركابُكَ ساعةً   كيف الوقوفُ إذا أهابَ الدَّاعي

ماذا كان يضر لو صبرت ركابك (مطيتك) التي تأخذك إلى العالم الآخر ساعة (بعض الوقت) كي يعطيك الناس ما تستحق من التوديع، ولكن هل يمكن الوقوف إذا أهاب (حثَّ) داعي الآخرة؟

خلِّ الجنائزَ عنْكَ، لا تَحْفِلْ بِها   ليس الغرورُ لِميِّتٍ بِمتاعِ

دع الجنائز والاهتمام بها، فالغرور الذي يجعل المرء حريصاً على جنازة فخمة لا يفيد الميت شيئاً

مَنْ ضاقَ بالدنيا فليسَ حكيمَها   إن الحكيمَ بها رحيبُ الباعِ

حكيم الدنيا الحقيقي من كان رحيب الباع (واسع الصدر)

مَنْ شَوَّهَ الدنيا إليكَ فلم تَجِدْ   في المُلْكِ غيرَ مُعَذَّبينَ جياعِ؟

يخاطب المنفلوطي: من ذا الذي شوه الدنيا في عينيك فلم تكن ترى في الملك (ملك الله/أي الدنيا) سوى المعذبين والجياع، وهذا كان حال المنفلوطي في نظراته وعبراته وما ترجم من روايات جميعاً

لا الفقرُ بالعَبَراتِ خُصَّ، ولا الغِنى   غِيَرُ الحياةِ لَهُنَّ حكمُ مَشَاعِ

ليست العبرات (الدموع/ وهو اسم كتاب للمنفلوطي) خاصة بالفقير ولا بالغني، وغِيَرُ (مصائب) الدنيا مشاع

ما زالَ في الكوخِ الوضيعِ بواعثٌ   منها، وفي القصرِ الرفيعِ دَواعِ

يوجد في الكوخ دائما بواعث تبعث على الدموع، وفي القصر الفخم ما يدعو للدموع أيضاً

في الفقرِ حيَّاتٌ يسيِّبُها به   حاوي القضاءِ، وفي الرِّياض أَفاعِ

كأن القضاء له حاوٍ ماهر من الحواة يسيب (يترك) الأفاعي تسرح في الفقر وحياة الفقراء؛ لكنْ أيضاً في الرياض (البساتين) أفاعٍ

ولَرُبَّ بُؤسٍ في الحياةِ مُقَنَّعٍ   أَرْبَى على بُؤسٍ بِغَيْرِ قِناعِ

وثمة بؤس مقنَّع أربى (زاد) على بؤس صريح

سَكَنَ الأحبَّةُ والعِدى، وفرغتَ مِنْ حِقْدِ الخصومِ ومِنْ هوى الأشياعِ

الآن بموتك سكن (هدأ) الأحبة والأعداء، واسترحت من حقد الخصوم ومن ميل الأشياع (الأنصار) على حد سواء

فافزعْ إلى الزمنِ الحكيمِ، فعندَهُ نقدٌ تَنَزَّهَ عن هوىً ونِزاعِ

فافزع (فالجأ) إلى الزمن الحكيم، فالنقد الذي يوفره كَرُّ السنين نقد منزه عن الغرض وعن الخصومة. وكان شوقي يكره النقاد كراهية شديدة، وفي هذه السنة كانت قد مرت ثلاث سنين على الهجمة القوية التي شنها العقاد على شوقي في كتاب الديوان. وقيل إن شوقي كان يدفع للصحف لتمدح شعره، أو لتمتنع عن نقده

فإذا قضى لك أُبْتَ مِنْ شُمِّ العُلى بَثَنِيَّةٍ بَعُدَتْ على الطُلَّاعِ

فإذا حكم لك الزمن بالتفوق أُبْت (رجعت) من الجبال العالية سالكاً ثنية (طريقاً جبلياً) بعيدة على الطلاع (الطالعين)، يقصد المنتقدين

وأجلُّ ما فوقَ الترابِ وتحتَهُ قلمٌ عليهِ جلالةُ الإجْماعِ

وأجل الأحياء والأموات صاحب قلم يجمع الناس على عبقريته

٢٠٣ نجاة سعد

قال شوقي عندما اعتدى على سعد زغلول شاب أطلق الرصاص فأصابه في ذراعه، (١٩٢٤):

نجا وتماثَلَ رُبَّانُها ودَقَّ البشائِرَ رُكْبانُها

نجا ثم تماثل للشفاء ربان السفينة، ودق ركبان السفينة (ركابها) الطبول بإعلان البشائر (الأخبار الطيبة)

وهلَّلَ في الجوِّ قَيدومُها وكَبَّرَ في الماءِ سُكَّانُها

وهلل (قال لا إله إلا الله) قيدوم السفينة (مقدمتها)، وكبَّر (قال الله أكبر) سكان السفينة (دفتها)؛ والقيدوم أول السفينة والسكان في آخرها

تحوَّلَ عنها الأذى، وانثنى عُبابُ الخطوبِ وطُوفانُها

تحول الأذى بعيداً عن السفينة التي هي مصر، وانثنى بعيداً عباب (موج) الخطوب (المصائب) وطوفانها

نجا نوحُها مِنْ يدِ المُعتدي وضلَّ المَقاتِلَ عُدْوانُها

نجا نوحها (قائد السفينة ويشبهه بنوح النبي) من يد المعتدي، وقد ضل (أخطأ) المقاتل (أجزاء الجسم التي تتسبب إصابتها في الموت قتلاً) عدوان هذه اليد

وَقَى الأرضَ شرَّ مقاديرِهِ لطيفُ السماءِ ورحمانُها

وقى (حمى) الله الأرض شرَّ مقاديره (الشرور التي كتبها علينا)

ونَجَّى الكنانةَ مِنْ فِتْنَةٍ تهدَّدَتِ النيلَ نيرانُها

ونجى الكنانة (مصر) من فتنة كانت ستحدث لو قتل سعد، وقد هددت نيران هذه الفتنة النيل (مصر)

يسيلُ على قَرْنِ شيطانِها عَقِيقُ الدماءِ وعِقْيانُها

وكانت ستسيل على قرن شيطان هذه الفتنة (والشيطان، حسبما يتخيله الأوروبيون، ذو قرنين) الدماء التي تشبه العقيق (الحجر الكريم الأحمر) وتشبه العِقيان (الذهب الأحمر)، فالدماء ثمينة كهذين الشيئين وحمراء مثلهما

فيا سعدُ! جُرْحُكَ ساءَ الرجالَ فلا جُرِحَتْ فيكَ أوطانُها

جرحك ساء الرجال، وأدعو أن لا تجرح بجرحك أوطان هؤلاء الرجال

وَقَتْكَ العنايةُ بالرَّاحتَيْنِ وطَوَّقَ جِيدَكَ إحسانُها

وقتك (حَمَتْك) العناية الإلهية براحتيها، وطوَّق جيدَك (عنقك) إحسانُ الله

أرى مصرَ يَلهو بحدِّ السلاحِ ويلعبُ بالنارِ وِلْدانُها

وراحَ بغيرِ مجالِ العقولِ يُجيلُ السياسةَ غِلْمانُها

وراح الغلمان بمصر يجيلون (يديرون) السياسة في مجال غير مجال العقل

وأينَ النُّبوغُ وأينَ العُلومُ وأينَ الفنونُ وإتقانُها

فأين اعتبار النبوغ والعلم والفن والإتقان. وهذه الأربعة جميعاً مهمة عند شوقي الذي اطلع على ما حققته فرنسا من كل ذلك. وهو يردد هذه النغمة كثيراً في قصائده

وأينَ مِنَ الخُلْقِ حَظُّ البلادِ إذا قَتَلَ الشِّيبَ شُبَّانُها

وما حظ بلدنا من الأخلاق عندما يقتل الشبانُ الشيب (الشائبين/المسنين)

وأينَ المعلِّمُ، ما خَطْبُهُ؟ وأينَ المدارسُ، ما شانُها؟

وما شأن المعلم، وشأن المدارس؟ وهل تربي النشء على الخلق السليم

لقد عبِثَتْ بالنِّياقِ الحُداةُ ونامَ عنِ الإبْلِ رُعْيانُها

لقد عبث الحداة (الجمَّالون الذين يغنون لجمالهم وهي تسير) بالنياق (إناث الجمل)، ونام الرعاة وأهملوا الإبل

ويا سعدُ! أنتَ أمينُ البلادِ قدِ امتَلأَتْ مِنكَ أَيْمانُها

أيمانها: أياديها اليمنى، فقد ملأت مصر يدها بسعد واكتفت بقيادته

ولَـنْ تَـرتَـضـيِ أنْ تُـقَـدَّ الـقـنـاةُ ويُـبْـتَـرَ مِـنْ مـصـرَ سـودانُـهـا

لن ترضى أن تقد (تقطع) القناة منها، وفي ذلك الوقت كان الكلام كثيراً بشأن سيادة مصر على قناة السويس، ولن ترضى أن يبتر السودان فلا تعود لمصر سيادة عليه

وحُـجَّـتُـنـا فـيـهِـمـا كـالـصَّـبـاحِ ولـيـسَ بِـمُـعْـيِـيـك تِـبْـيـانُـهـا

وحجة مصر، في القناة والسودان كليهما، واضحة ولا يعييك (يعجزك) تبيانها (توضيحها)

فـمـصـرُ الـريـاضُ، وسـودانُـهـا عـيـونُ الـريـاضِ وخُـلـجـانُـهـا

فمصر هي البساتين، والسودان هو عيون الماء والخلجان (الأنهار) لهذه البساتين. أليس من السودان يأتي النيل لمصر؟

ومـا هُـوَ مـاءٌ، ولـكـنَّـهُ وَرِيـدُ الـحـيـاةِ وشِـرْيـانُـهـا

وليس النيل ماء فحسب بل شريان حياة

وأمَّـا الـشـريـكُ فَـعِـلَّاتُـهُ هِـيَ الـشَّـرِكـاتُ وأَقْـطـانُـهـا

وأما الشريك (إنجلترا، شريكة مصر في السيادة على السودان) فعلاته (حججه) في عدم إعطاء السيادة لمصر وجود شركات تحتاج إلى القطن. وقد أصيب سعد بالرصاصة في ساعده الأيمن وهو في طريقه إلى إنجلترا للتفاوض على الاستقلال مع رئيس الوزراء البريطاني رمزي مكدونالد، وقد سافر بُعيد شفائه واجتمع مع مكدونالد في سبتمبر أيلول ١٩٢٤، وتمسك الإنجليز بالسيطرة شبه المنفردة على السودان

وحـربٌ مَـضَـتْ نـحـنُ أوزارُهـا وخَـيْـلٌ خَـلَـتْ نـحـنُ فـرسـانُـهـا

ومن حجج الإنجليز الحرب ضد المهدي في السودان لكننا كنا نحن أوزارها (أسلحتها)، ومن حججهم الخيل التي خلت (مضت)، ولكننا كنا نحن فرسان هذه الخيل

فـأيـن مِـنَ الـمَـنْـشِ بـحـرُ الـغـزالِ وفـيـضُ نِـيـانْـزا وتَـهـتـانُـهـا

فأين من بحر المنش (القنال الإنجليزي بين فرنسا وإنجلترا) بحر الغزال (منطقة نيلية في السودان) ونيانزا (بحيرة من منابع النيل، واسمها الأشهر بحيرة فكتوريا) وفيضها وتهتانها (هطولها بالمطر)، فقد نتفهم مطالبة الإنجليز بحصة في بحر المنش أما بحر الغزال فما أبعده عنهم!

وأيـن الـتـمـاسـيـحُ مِـنْ لُـجَّـةٍ يـمـوتُ مِـنَ الـبَـرْدِ حِـيـتـانُـهـا

وأين تماسيح النيل من لجة (بحر) يموت من البرد حيتانها، فالتمساح يعيش في جو إفريقيا الحار فقط

ولـكِـنْ رؤوسٌ لأمـوالِـهِـمْ يـحـرِّكُ قـرنَـيْـهِ شَـيْـطـانُـهـا

ولكن الأمر هو أن رؤوس أموالهم كرؤوس الشياطين التي تحرك قرونها

ودعوى القويِّ كدَعوى السِّباعِ مِنَ النَّابِ والظُّفْرِ بُرهانُها

ودعوى (قضية) القوي هي كقضية السباع لا برهان عليها إلا الناب والظفر

٢٠٤ العلم والخلق

قال شوقي (١٩٢٤):

وَجَدْتُ العِلمَ لا يبْني نُفوساً ولا يُغْني عنِ الأخلاقِ شَيَّا

ولم أرَ في السِّلاحِ أضلَّ حدَّاً مِنَ الأخلاقِ إنْ صَحِبَتْ غَوِيَّا

كنت أحب لو كان شوقي قال غبياً بدل غوياً

٢٠٥ الروح

قال شوقي (١٩٢٤):

ضُمِّي قِناعَكِ يا سعادُ أوِ ارفعي هذي المحاسنُ ما خُلِقْنَ لِبُرقعِ

ضمي قناعك واستري به وجهك يا سعاد، أو ارفعيه، لكن.. محاسنك ما خلقها الله لكي تتبرقعي وتحجبيها

بلْ ما يضرُّكِ لوْ سمحتِ بجَلوةٍ إنَّ العروسَ كثيرةُ المُتَطَلَّعِ

ولماذا لا تسمحين بجلوة (انكشاف العروس في عرسها)، والعروس كثيرة المتطلَّع (المتطلعين الناظرين إليها)

ليس الحجابُ لمنْ يَعِزُّ منالُهُ إنَّ الحجابَ لِهَيِّنٍ لم يُمنعِ

الحجاب ليس لمن يكون عزيز المنال، بل للفتاة التي ليس هناك من يمنعها ويحميها، وأنت ممتنعة محمية ولست بحاجة لقناع. شوقي هنا يتغزل، لكنه يتحدث أيضاً عن «الروح» التي هي محجوبة عنا مع أنها في حفظ الله

أنتِ التي اتخذَ الجمالُ لِعِزِّهِ مِنْ مَظْهَرٍ، ولِسِرِّهِ مِنْ مَوْضِعِ

أنت اتخذك الجمال (ذات الجميل/الله) مظهراً لعزه وموضعاً لسره

لمستْكِ راحتُهُ، ومَسَّكِ روحُهُ فأتى البديعُ على مثالِ المبدِعِ

لمستك يد الله وروحه، فجئت بديعة لأنك مخلوقةُ المبدع

ما بالُ أحمدَ عَيَّ عنْكِ بيانُهُ بل ما لِعيسى لم يَقُلْ أو يَدَّعِ

فكيف عَيَّ أحمد (عجز بيان الرسول محمد) عن شرحك، بل ما لعيسى لم يقل فيك شيئاً ولا ادعى معرفة بك أيتها الروح

ولسانُ موسى انحلَّ إلَّا عُقدةً مِنْ جانبيكِ علاجُها لم يَنجعِ

ولسان موسى النبي كان فيه لثغة ثقيلة فانحلت عقدته (بأن رافقه أخوه المُبين هارون) ولكن العقدة التي به من جانبك لم ينجع (يفد) فيها العلاج

٢٠٦ قم للمعلم

قال شوقي في حفل نادي المعلمين، وكان هذا الحفل قبل أسبوع من افتتاح البرلمان (١٩٢٤):

قُمْ لِلمعلمِ، وَفِّهِ التَّبجيلا كاد المعلمُ أنْ يكونَ رسولا

قم للمعلم موفياً له التبجيل، فالمعلم كاد أن يكون رسولاً. ما أكثر ما يأمر شوقي قراء شعره بالقيام، حتى لكأننا قاعدون على قلبه

أَعَلِمْتَ أشرفَ أو أجلَّ مِنَ الذي يبني وينشئُ أنفُساً وعقولا

سبحانَكَ اللهمَّ! خيرَ مُعلِّمٍ علَّمْتَ بالقلمِ القرونَ الأولى

القرون: الأجيال، يشير إلى الآية: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾

أخرجْتَ هذا العقلَ مِنْ ظُلُماتِهِ وهديتَهُ النورَ المبينَ سبيلا

عَلَّمت يوناناً ومصرَ، فزالتا عنْ كُلِّ شمسٍ ما تُريدُ أُفولا

علمت يا رب اليونان ومصر، فزالتا عن (خلَّفتا) شموساً من الحضارة لا تريد أفولا (غياباً)، بخلاف شمس السماء التي تأفل كل يوم

واليومَ أصبحتا بحالِ طُفولةٍ في العلمِ تَلْتَمِسانِهِ تطفيلا

ورجعت اليونان ومصر إلى حال الطفولة الحضارية، وهما الآن تلتمسان (تطلبان) العلم تطفيلاً (تطفلاً)

ذهبَ الذين حَمَوْا حقيقةَ علمِهِمْ واسْتَعذَبوا فيها العذابَ وَبِيلا

ذهب الذين حموا حقيقة (شرف) علمهم واستعذبوا (استطابوا) في سبيلها العذاب الوبيل (الشديد)

سقراطُ أعطى الكأسَ، وهْيَ مَنِيَّةٌ، شَفَتَيْ مُحِبٌّ يشتهي التَّقبيلا

سقراط اليوناني أعطى كأسَ السم ـ وهي منية (موت) ـ شفتيْ محب

عَرضوا الحياةَ عليهِ، وهْيَ غَباوةٌ، فأبى، وآثَرَ أنْ يموتَ نبيلا

عرضوا عليه التراجع عن آرائه أو الهرب من سجنه، ولكنه وجد الحياة غباوة بغير مبادئ، فرفض وآثر (فضل) أن يموت نبيلاً

إن الشجاعةَ في القلوبِ كثيرةٌ   ووجدتُ شُجعانَ العقولِ قليلا

شجاعة القلب (التحمس وخوض القتال مثلاً) شائعة، وشجاعة العقل (الصمود في سبيل المبدأ) نادرة

أَوَكُلُّ مَنْ حامى عَنِ الحقِّ اقتنى   عندَ السَّوادِ ضغائناً وذُحولا

هل كل من حامى (دافع) عن الحق صار عليه أن يقتني (يجتلب) لنفسه عند السواد (عامة الناس) الضغائن (الأحقاد) والذحول (الثارات)

لو كنتُ أعتقِدُ الصليبَ وخطبَهُ   لأقمتُ مِنْ صَلْبِ المسيحِ دليلا

لو كنت مؤمناً بالصليب وخطبه (شأنه/أن المسيح صلب ومات على الصليب كما يعتقد المسيحيون) لجعلت من صلبه دليلاً على قولي

وَنِيَتْ خُطى التعليمِ بعدَ محمدٍ   ومشى الهُوينى بعدَ إسماعيلا

ونيت (ضعُفَت) خطى التعليم في مصر بعد محمد علي باشا، ومشى التعليم الهوينى (بطيئاً) بعد الخديوي إسماعيل

حتى رأينا مصرَ تخطو إِصبعا   في العلم إنْ مَشَتِ الممالكُ مِيلا

تلكَ الكُفورُ، وحشوُها أُمِّيةٌ،   مِنْ عهدِ خوفو، لم تَرَ القِنديلا

هذه الكفور (القرى) المحشوة بالأمية من عهد الفرعون خوفو، لم تعرف الكهرباء بعد

تجدُ الذين بنى المِسَلَّةَ جدُّهُمْ   لا يُحْسِنونَ لإبرَةٍ تشكيلا

هؤلاء الذين بنى جدهم الفرعوني المسلة (نصب على شكل إبرة ضخمة) لا يحسنون تشكيل (صناعة) إبرة

رَبُّوا على الإنصافِ فِتيانَ الحِمى   تَجدوهُمُ كهفَ الحقوقِ كُهولا

أيها المعلمون: ربوا الفتيان على العدل تجدوهم في كهولتهم (رجولتهم المتقدمة) كهفاً (ملاذاً) لحفظ الحقوق

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقِهِمْ   فأقِمْ عليهِمْ مأتماً وعَويلا

إني لأعذِرُكُمْ، وأحْسَبُ عِبْئَكُمْ،   مِنْ بينِ أعباءِ الرجالِ، ثقيلا

لكم العذر فعبئكم، من بين كل الرجال، ثقيل

وَجَدَ المُساعِدَ غيرُكُمْ، وحُرِمْتُمُ،   في مصرَ، عَوْنَ الأمهاتِ جليلا

غيركم وجد من يساعده في عمله، وأنتم حرمتم المساعدة الجليلة المنتظرة من الأمهات في التربية

وإذا النساءُ نشأنَ في أُمِّيةٍ   وَرِثَ الرجالُ جَهالةً وخُمولا

لیسَ الیتیمُ مَنِ انتهی أبواهُ مِنْ   هَمِّ الحیاةِ، وخلّفاهُ ذلیلا
إنَّ الیتیمَ هوَ الذي تَلْقى لَهُ   أُمّاً تخلَّتْ، أو أباً مَشغولا

الیتیم الحقیقي هو الذي تجد له أماً تخلت عن واجباتها، وأباً شغلته المشاغل عن العنایة بابنه

مصرٌ إذا ما راجَعَتْ أیّامَها   لم تلقَ للسبتِ العظیمِ بدیلا

السبت العظیم: ١٥/٣/١٩٢٤ الیوم الذي سیفتتح فیه البرلمان بعد أسبوع من إلقاء القصیدة

البرلمانُ غداً یُمَدُّ رُواقُهُ   ظلّاً على الوادي السعیدِ ظَلیلا

غداً یُمَدُّ رواق (مظلة) البرلمان لیظلل وادي النیل

حیُّوا مِنَ الشهداءِ كلَّ مُغَیَّبِ   وضَعوا على أحْجارِهِ إكلیلا
ناشدتُكُمْ تلكَ الدماءَ زكیّةً   لا تبعثوا للبرلمانِ جَهولا

٢٠٧ عزة الموت

قال شوقي في أربعین عاطف بركات، وكیل وزارة التعلیم، (١٩٢٤):

خَفَضْتُ لِعِزَّةِ الموتِ الیَراعا   وجَدَّ جَلالُ منطِقِهِ فَرَاعا

خفضت الیراع (القلم) لعزة (سطوة) الموت، وكان منطق الموت (كلام الموت) جاداً وجلیلاً فراعني (أخافني)

فإنْ تَقُلِ الرثاءَ فقُلْ دموعاً   یُصاغُ بهنَّ، أو حِكَمًا تُراعى

فإن تقل الرثاء فلیكن من الدموع یصاغ منها، أو من الحكم التي تراعى (تُتَّبع)

ولا تَكُ مثلَ نادِبَةِ المُسَجَّى   بَكَتْ كَسْباً، ولم تَبْكِ التیاعا

ولا تكن مثل النادبة التي تنوح على الجثمان المسجى (الممدد)، فهي تبكي لكسب المال ولیس لالتیاعها (حرقتها)

خَلَتْ دولُ الزمانِ، وزُلْنَ رُكْناً   ورُكْنُ الأرضِ باقٍ ما تَداعى

خلت (زالت) دول الزمان، وزالت أركانها، ولكن الأرض باقیة لا تتداعى أركانها

ولو آبتْ ثواكلُ كلِّ قَرْنٍ   وَجَدْنَ الشمسَ لمْ تَثْكَلْ شُعاعا

ولو رجعت النساء الثواكل (الفاقدات للأبناء) من كل قرن (جیل) مضى لوجدن الشمس على حالها لم تفقد شعاعاً واحداً من أشعتها

٢٠٨ من خانه الدهر

قال شوقي في المؤتمر الجغرافي (١٩٢٥):

يا لِلّيالي لإسماعيلَ مِنْ سِنَةٍ   طالَتْ، وحَيْنٍ مِنَ الأقدارِ قد حَانا

أستغيث بالليالي لذكرى الخديوي إسماعيل من هذه السِنة (الغفوة) التي طالت، وهذا الحيْن (الهلاك) الذي جاءت به الأقدار وحان (اقترب) وقته

قد خَطَّ شِعرِي على الشِّعرَى لهُ جَدَثاً   وخاطَ مِنْ لَمَحاتِ الشمسِ أكفانا

لقد خططت (بنيت) بشعري على الشعرى (النجم المعروف) جدثاً (قبراً) للخديوي إسماعيل، وخاط (حاك حياكة) شِعري له من لمحات (بريق) الشمس كفناً، فقد مدحته ونوهت بذكره

ولو مشتْ بي الليالي تحتَ كوكَبِهِ   غادرتُ أحمدَ نِسْياً، وابنَ حَمْدانا

ولو قُدِّر لي أن تمشي الليالي (الزمن) بي تحت كوكبه (في ظل حكمه)، لكنت غادرت (تركت) أحمد (أحمد بن الحسين المتنبي) نسياً (منسياً) وكذلك ابن حمدان (سيف الدولة الحمداني، ونحن نتذكره بسبب المتنبي؛ فلو أفلح شوقي في شطب المتنبي لشطب معه سيف الدولة تلقائياً)

مدَّ الكنانةَ أطرافاً، ووسَّعَها   مُلْكاً، وأتْرَعَها خَيْلاً وفُرْسانا

وسع إسماعيل مصر، وأترعها (ملأها) خيلاً وفرساناً

خَيالُ مُلْكٍ تَلَمَّسْنا حقيقَتَه   فأخطَأَتْنا، وكانتْ حَظَّ يابانا

وكان ذلك التوسيع خَيال (شبح) مُلْك أردنا له أن يكون حقيقياً، ولكن حقيقته أخطأتنا (لم تصبنا) وكانت من حظ اليابان. يطرح هذا البيت سؤالاً يحتاج إلى كتاب كبير لتوفير الإجابة. وليس عندي شيء من هذه الإجابة لذا أكتفي بتفسير السؤال: قد نهضت مصر في عهد محمد علي، وكانت لها نهضة في عهد إسماعيل (ورأى إسماعيل في أواسط سني حكمه الستة عشر اليابان تنهض بقوة)، وفي بدايات القرن العشرين ظللنا نحس أن مصر ستخرج من قمقم الدول المتخلفة وستلحق باليابان، لكن نهضة مصر انتكست كما يقول شوقي في هذا البيت (والبيت يسبق ثورة ١٩٥٢ وحكم العسكر بسبع وعشرين سنة). فلماذا لا تنهض مصر كاليابان وماليزيا وكوريا الجنوبية؟ في البيت التالي سيكون جواب شوقي أن الدهر خان مصر. وهو جواب شاعر.. وهو كلاجواب. على أن هذا البيت، الحالي، يحمل إحساساً عميقاً بأن قطار النهضة فات مصر

مَنْ خانَهُ الدهرُ خانَتْهُ صنائِعُهُ   وعادَ ذَنْباً لهُ ما كان إِحسانا

من خانه الدهر خانته صنائعه (حسناته)، وعاد (صار) يُعَدُّ ذنباً من ذنوبه ما كان من إحسانه

٢٠٩ سباق في التنويه بالسبَّاقين

قال شوقي متذكراً الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون قبل ثلاث سنوات (١٩٢٥):

دَرَجَتْ على الكَنْزِ القُرونْ   وأتتْ على الدنِّ السِّنونْ

درجت (مشت) على الكنز القرون (مئات السنين)، وأتت (مرت) على الدن (وعاء الخمر) السنوات

حتى أتى العِلْمُ الجَسو رُ، ففضَّ خاتِمَهُ المصونْ
حتى جاء العلم الجريء ففض (فتح) ختم هذا الكنز المصون (المحميّ)

والعِلْمُ بَدْرِيٌّ أُحلَّ لأهلِهِ ما يَصنعونْ
والعلم بدريٌّ (مثل مقاتلي بدر الذين غفرت لهم زلاتهم السابقة واللاحقة، لذا فلهم أن يصنعوا ما يشاؤون)، وحلال لأهل العلم كل ما يصنعون

واندسَّ كالمصباحِ في حُفَرٍ مِنَ الأجداثِ جُونْ
اندس العلم كأنه المصباح في حفر جُون (سود) هي حفر الأجداث (القبور)

خانتْ أمانةَ جارِها والقبرُ كالدنيا يخونْ
هذه القبور خانت أمانة جارها (ساكنها)، بأن سلمت جثمانه للآثاريين

يا ابنَ الثَّواقِبِ مِنْ رَعٍ وابْنَ الزَّواهرِ مِنْ أمونْ
يا توت عنخ آمون، يا ابن النجوم الثاقبة (المتقدة) من نسل رع (إله الشمس)، وابن النجوم الزاهرة من نسل آمون (إله الخصب)

هذا القيامُ، فقلْ لنا الـ يومُ الأخيرُ متى يكونْ
ظهورك بمثابة القيام (قيام المسيح من قبره، بحسب معتقد المسيحيين)، فمتى يا ترى يكون يوم القيامة؟

البعثُ غايةُ زائلٍ فانٍ، وأنتُمْ خالدونْ
البعث من القبور ودخول حياة الخلود غاية كل إنسان زائل فانٍ، وأما أنتم فخالدون أولِردي بما تركتم من معالم

السبْقُ من عاداتِكُمْ أتُرى القيامةَ تسبِقونْ؟
وعادتكم هي السبق، فهل بقيامك هذا تريد أن تسبق يوم القيامة؟

ذَهَبٌ ببطنِ الأرضِ لم تذهبْ بِلمْحتِهِ القُرونْ
عُثر على ذهب في جوف الأرض لم تذهب القرون بلمحته (بريقه)

مَلِكَ الملوكِ! تحيةٌ وولاءُ مُحْتَفِظٍ أمينْ
يا ملك الملوك تحية مني أنا الذي حفظتُ لك حسناتك وكنتُ أميناً على تراثك

هذا المَقامُ عرفتُهُ وسبقتُ فيهِ القائلينْ
فأنا عرفت مقام (مكانة) الفراعنة، وسبقت كل الشعراء في التنويه بذكرهم وآثارهم

سـالـتْ عـيـونُ قـصـائـدي ... وجـرى مِـنَ الـحَـجَـرِ الـمَـعـيـنْ

سالت عيون قصائدي (ينابيع قصائدي) بالأبيات العذبة، وجرى المعين (الماء) من الحجر (الآثار الحجرية للفراعنة). تلعاب لفظي متداخل. فعيون القصائد جيادها، وعيون الوجه هي التي تسيل بالدموع، والعيون هي الينابيع؛ والمعين نبع وقد يخرج من الحجر بقدرة الله، والحجر أيضاً هو آثار الفراعنة، وكلٌّ أولئك قصد شوقي

أقـعـدتُ جـيـلاً لـلـهـوى ... وأقـمـتُ جـيـلاً آخَـريـنْ

أنا أقعدت الجيل السابق بقصائد الغزل، وأقمت الجيل الحاضر بشعري الفرعوني، يقول إنه أقام الدنيا وأقعدها بألوان شعره المختلفة. وفي حديث صحافي لأحمد شوقي، للأهرام عام ١٩٢٧، قال إن هذه القصيدة هي الأثيرة عنده. كانت جديدة آنذاك وكان ممتلئاً بها

٢١٠ تحرش

قال شوقي يذكر ربوع لبنان (١٩٢٥):

دخلَ الكنيسةَ، فارتقبْتُ فلمْ يُطِلْ ... فـأتـيْـتُ دونَ طـريـقِـهِ فَـزَحَـمْـتُـهُ

دخل محبوبي الكنيسة فارتقبت (انتظرت) فلم يُطِل المكوث، وعندما خرج تحرشت به وزاحمته في الطريق

فـازْوَرَّ غـضـبـانـاً وأعـرضَ نـافـراً ... حـالٌ مـن الـغِـيـدِ الـمِـلاحِ عَـرَفـتُـهُ

فازور (أشاح عني) غاضباً ونفر مني، وهذا الحال أعرفه من الغيد (الحسان) الملاح (الجميلات)

فـصـرفـتُ تَـلـعـابـيِ إلـى أتـرابِـهِ ... وَزَعَـمْـتُـهُـنَّ لُـبـانـتـيِ، فَـأَغَـرْتُـهُ

فصرفت تلعابي (لهوي وغزلي) عنه إلى الفتيات الأخريات، وزعمت أنهن لبانتي (غايتي) فأغرته (أشعرته بالغيرة)

فـمـشـى إلـيَّ، ولـيـسَ أولَ جُـؤْذُرٍ ... وَقَـعَـتْ عـلـيـهِ حـبـائـلـيِ فـقَـنـصْـتُـهُ

فأتى المحبوب إلي عندئذ، وليس هو أول جؤذر (ولد بقر الوحش) رميت عليه حبائلي (شباكي) فقنصته (صدته)

٢١١ قم ناج جلق

قال شوقي في حفل تكريمه بالمجمع العلمي العربي بدمشق (١٩٢٥):

قُمْ ناجِ جِلَّقَ، وانشُدْ رَسْمَ مَنْ بانوا ... مَشَتْ على الرَّسْمِ أحداثٌ وأزمانُ

على طريقته التي لا يدعها يطلب شوقي من قارئه أن يقوم ليناجي (يحادث) جلق (دمشق) ولِيَنشُد (يتعقب) رسم (أثر) من بانوا (رحلوا)، وقد مشت الأحداث والسنوات على هذا الأثر

بنو أميةَ للأنباءِ ما فَتَحوا ولِلأحاديثِ ما سادوا وما دانوا

بنو أمية فتوحاتهم صارت نبأ من الأنباء، وما سادوا ودانوا (أخضعوا) من أقوام صار للأحاديث

كانوا ملوكاً سريرُ الشرقِ تحتَهُمُ فهلْ سألتَ سريرَ الغربِ ما كانوا

كانوا ملوكاً تحتهم سرير (عرش) الشرق، فهل سألت عرش الغرب أيضاً ماذا كان شأنهم؟ فهم أيضاً ملكوا عرش الأندلس في الغرب

بالأمسِ قمتُ على الزَّهراءِ أندُبُهُمْ واليومَ دمعي على الفيحاءِ هتَّانُ

بالأمس (وأنا منفي في إسبانيا) ندبت بني أمية في «الزهراء» قرب قرطبة، واليوم دمعي هتان (هطال) على الفيحاء (دمشق)

لولا دمشقُ لما كانتْ طُلَيْطِلَةٌ ولا زَهَتْ ببني العبَّاسِ بَغدانُ

لولا دمشق لما فتح العرب طليطلة بالأندلس، ولا زهت (ازدانت) بغداد ببني العباس

مررتُ بالمسجدِ المحزونِ أسألُهُ هل في المُصَلَّى أوِ المحرابِ مَرْوانُ

مررت بالمسجد الأموي الحزين أسأله عن مروان (مروان بن الحكم أبو الخلفاء الأمويين بعد معاوية الثاني)

تغيَّرَ المسجدُ المحزونُ، واختلفتْ على المنابرِ أحرارٌ وعُبْدانُ

تغير المسجد الأموي وتعاقبت على منابره السادة والعبيد يحكمون دمشق

خلَّفْتُ لبنانَ، جناتِ النعيمِ، وما نُبِّئْتُ أنَّ طريقَ الخُلْدِ لُبنانُ

تركت لبنان وهو في عيني الجنة، ولم يخبرني أحد أنه هو الطريق إلى الجنة لا الجنة نفسها..

حتى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارفةٍ فيها الندى، وبها طَيٌّ وشَيْبانُ

حتى انحدرت (نزلت) إلى فيحاء (زكية الرائحة/ الفيحاء لقب دمشق) وارفة الظلال، وبها قوم أصولهم من عرب طيّء وشيبان، فههنا الجنة

نزلتُ فيها بِفِتيانٍ جَحاجِحَةٍ آباؤهمْ، في شبابِ الدهرِ، غَسَّانُ

نزلت ضيفاً بفتيان جحاجحة (سادة)، آباؤهم الأقدمون - عندما كان الزمن في شبابه - قبيلة غسان. ما كان ضر شوقي لو أبعد هذه الجحاجحة عن شعره. إنها لكالذبابة في طبق المهلبية

بِيضُ الأسِرَّةِ، باقٍ فيهِمُ صَيَدٌ مِنْ عبدِ شمسٍ، وإنْ لم تَبقَ تيجانُ

بيض الأسرة (الوجوه) فيهم صَيَد (شموخ) باقٍ من زمن عبد شمس (جد بني أمية)، وإن لم تبق لهم التيجان

المُلْكُ أنْ تعمَلوا ما اسْطَعتُمُ عملاً وأنْ يَبينَ على الأعمالِ إتقانُ

الملك هو أن تعملوا بجد، وبإتقان

المُلْكُ أن تَخرُجَ الأموالُ ناشِطةً لِمَطْلَبٍ فيهِ إصلاحٌ وعُمْرانُ

الملك هو أن تُنفَق الأموال في الإصلاح والعمران

المُلك تحتَ لِسانٍ حولَهُ أدَبٌ وتحتَ عَقْلٍ على جَنبيْهِ عِرفانُ

الملك يحتاج إلى لسان يدعمه الأدب، وإلى عقل مدعوم من جانبيه بالمعرفة

المُلك أنْ تتلاقَوْا في هوى وطنٍ تفرَّقتْ فيهِ أجناسٌ وأبْدانُ

الملك هو الالتقاء في حب الوطن، وإن تفرقت (اختلفت) أجناس وأشكال المواطنين

نصيحةٌ مِلؤُها الإخلاصُ صادقةٌ والنصحُ خالِصُهُ دِينٌ وإيمانُ

والشِّعْرُ، ما لم يكنْ ذكرى وموعظةً أو حكمةً، فهْوَ تقطيعٌ وأوْزانُ

٢١٢ على قبر نابليون

قال شوقي بعد زيارة لقبر نابليون (١٩٢٥):

ليسَ في قبرٍ وإنْ نالَ السُّها ما يزيدُ الميْتَ وزناً ويَزِينْ

ليس في أي قبر، حتى وإن رفعوا بنيانه ليصل إلى نجمة «السها»، ما يزيد من قيمة الميت أو يَزِينه (يُزَيِّنه)

فانزِلِ التاريخَ قبراً، أو فَنَمْ في الثَّرى غُفْلاً كبعضِ الهامِدينْ

فانزل التاريخ واتخذه قبراً (ليكن التاريخ هو موضع ذكراك فهذا هو الخلود في الدنيا)، وسوى ذلك فلتنم في الثرى (التراب) غفلاً (نكرة مجهولاً) كبعض الناس الهامدين (المنطفئين)

واخدَعِ الأحياءَ ما شِئْتَ، فلَنْ تَجِدَ التاريخَ في المُنْخَدِعينْ

اخدع الأحياء ما شئت، ولكن التاريخ لا ينخدع

لا يقولَنَّ امْرُؤٌ أصلي، فما أصلُهُ مِسْكٌ وأصلُ الناسِ طينْ

لا يتباهَ امرؤ بأصله، فكلنا من طين وليس أحد مخلوقاً من المسك

قد تتوَّجْتَ، فقالتْ أُمَمٌ: وَلَدُ الثورةِ عَقَّ الثائرينْ

يا نابليون! عندما وضعت التاج على رأسك وأعلنت نفسك إمبراطوراً قالوا إن ابن الثورة عق (خان) الثائرين

وتزوَّجْتَ، فقالوا: ما لَهُ ولِحورٍ مِنْ بناتِ المُلْكِ عِينْ

وعندما تزوجت من بيتٍ مالك قالوا: ما لهذا الرجل ذي الأصل العادي ولبنات الملوك الحور (الجميلات العيون) العين (الجميلات العيون)

قَسَماً لو قَدَرُوا ما احتَشَموا، لا يَعِفُّ الناسُ إلّا عاجِزين

وأقسم لو أن هؤلاء المعترضين قدروا على ما صنعت لما احتشموا (خجلوا) من الشيء نفسه، والناس لا يعِفّون (يترفعون) إلا عندما يعجزون عن نيل الشيء

أرأيتَ الخيرَ وافى أمَّةً لم ينالوا حظَّهُمْ في النَّابِغينْ

هل وجدتَ أمة نالها الخير والازدهار دون أن تنال نصيبها من الأفراد النابغين؟

يَصْلُحُ المُلْكُ على طائفةٍ هُمْ جمالُ الأرضِ حِيناً بعدَ حِينْ

الملك يصبح صالحاً على طائفة (بوجود جماعة) من المتميزين الذين هم جمال الأرض، والذين يأتون حيناً بعد حين

قُمْ إلى الأهرامِ واخشعْ واطَّرِحْ خَيْلَةَ الصِّيدِ وزَهْوَ الفاتِحينْ

قم يا نابليون من قبرك وتعال إلى الأهرام واخشع أمامها، واطَّرح (اخلع) خيلة (تكبر) الصيد (الأسياد) وزهو (تكبر) الفاتحين

وأَعِدْها كَلِماتٍ أَرْبَعاً قد أحاطتْ بالقُرونِ الأربعينْ

وأعد كلماتك الأربع المشهورة التي قلتها لجنودك عند الأهرام (أربعون قرناً تطل عليكم) والتي أحاطت بـ (لخصت) أربعين قرناً من الزمان

قد عرضْتَ الدهرَ والجيشَ معاً، غايةٌ قَصَّرَ عنها الفاتحونْ

قد استعرضت جيشك والزمان معاً، وهذه غاية قصر عنها الفاتحون قبلك

عِظَةٌ قومي بها أَوْلى، وإنْ بَعُدَ العهدُ، فهل يَعتَبِرونْ

والأهرام عظة (عبرة)، وقومي من بني مصر أولى بها من غيرهم رغم بعد عهد الفراعنة، فهل تراهم يعتبرون؟

هذهِ الأهرامُ تاريخُهُمُ، كيف مِنْ تاريخِهِمْ لا يَسْتَحونْ

الأهرام تاريخهم، فكيف لا يستحون منه، إذ هم مقصرون عن إنجازات أجدادهم

قُمْ تَرَ الدنيا كما غادرتَها منزلَ الغدرِ وماءَ الخادِعِينْ

قم يا نابليون، وسترى الدنيا كما غادرتها، ستراها مكان الغدر، وماء الخادعين (موضع الخادعين). وكانت العرب تنزل في المكان وتسميه ماء كذا أو كذا لوجود عين ماء فيه، فكلمة «ماء» صارت تعني «موضعاً»

وتَرَ الحقَّ عزيزاً في القَنا هَيِّناً في العُزَّلِ المُسْتَضْعَفينْ

وسترى الحق عزيزاً (قوياً) وسط القنا (الرماح)، وهيناً (مُهاناً) في صحبة العزَّل المستضعفين (الضعفاء)

وتَـرَ الـعِـزَّ لِـسَـيْـفٍ نَـزِقٍ   في بنـاءِ الـمُـلـكِ، أو رأيٍ رَزيـنْ

وسترى العز للسيف النزق (الخفيف) في تشييد الملك، وللرأي الرزين (الحكيم)

سُـنَـنٌ كـانـت، ونَـظْـمٌ لـم يـزَلْ   وفـسـادٌ فـوقَ بـاعِ الـمـصـلـحـيـنْ

هذه سنن (قوانين) كانت موجودة دائماً، ونظام لم يزل على حاله، نظام «الحق للقوي»، وهناك فساد فوق باع (قدرة) المصلحين

٢١٣.. وهذي الضجة الكبرى علاما؟

قال شوقي في الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل (١٩٢٥):

إلامَ الـخُـلْـفُ بـيْـنَـكُـمُ إلامـا   وهـذي الـضَّـجَّـةُ الـكـبرى عَـلامـا

إلى متى الخلف (الاختلاف) بينكم؟ وهذه الضجة الكبرى على ماذا؟

وفـيـمَ يَـكـيـدُ بـعـضُـكُـمُ لـبـعـضٍ   وتُـبْـدونَ الـعـداوةَ والـخِـصـامـا

وفي ماذا يكيد بعضكم لبعض، وتظهرون العداوة والخصومة؟

وأيـنَ الـفـوْزُ؟ لا مـصـرُ اسـتـقـرَّتْ   عـلـى حـالٍ، ولا الـسُّـودانُ دامـا

وأين الفوز (النجاح)؟ فلا مصر استقرت على حال، ولا السودان دام تحت السيادة المصرية الحقيقية

وأيـنَ ذهـبْـتُـمُ بـالـحـقِّ لـمَّـا   رَكِـبْـتُـمْ فـي قـضـيـتِـهِ الـظَّـلامـا

وأين ذهبتم بالحق بعد أن انتهجتم في المطالبة به طريق التآمر والدسائس؟

شَـبَـبْـتُـمْ بـيـنَـكُـمْ فـي الـقُـطْـرِ نـاراً   عـلـى مُـحْـتَـلِّـهِ كـانـتْ سَـلامـا

شببتم (أشعلتم) بينكم ناراً في مصر من الفتن، ولكنها كانت سلاماً على المحتلين

إذا كـان الـرُّمـاةُ رُمـاةَ سُـوءٍ   أَحَـلُّـوا غـيـرَ مـرمـاهـا الـسِّـهـامـا

والرماة إذا كانوا ذوي نية سيئة لم يصوبوا سهامهم إلى المرمى (الهدف)

وَلِـيـنـا الأمـرَ حِـزْبـاً بـعـدَ حِـزْبٍ   فَـلَـمْ نَـكُ مُـصْـلِـحـيـنَ ولا كِـرامـا

ولينا الأمر (تولينا الحكم) حزباً بعد حزب، فلم نكن مصلحين ولا كراماً

وسُـسْـنـا الأمـرَ حـيـنَ خـلا إلـيـنـا   بِـأهـواءِ الـنـفـوسِ فـمـا اسـتـقـامـا

وسسنا الأمر (سيَّرنا الحكم بالسياسة) حين خلا إلينا (آل إلينا بعد رفع الحماية البريطانية) بأهواء النفوس (حسب مصالحها) فما استقام الحكم

٢١٤ خير جليس

قال شوقي في الكتاب (١٩٢٥):

أَنا مَنْ بَدَّلَ بالكُتْبِ الصِّحابا   لَمْ أجِدْ لي وافياً إلَّا الكِتابا

تركت أصحابي واتخذت الكتب أصحاباً، فلم أجد وافياً سوى الكتاب

صُحْبَةٌ لَمْ أَشْكُ منها رِيبَةً   وَوِدادٌ لم يُكلِّفْني عِتابا

وصحبة الكتاب لست أشكو منها أي ريبة (شك)، ووداد الكتاب ليس فيه عتاب كوداد الأصحاب

٢١٥ تصفير المسألة

قال شوقي في تأبين عبد اللطيف الصوفاني، من رجال الحزب الوطني، (١٩٢٥):

شأنَكَ والدمعَ والبكاءَ   لا تدَّخِرْ في الشُّؤونِ ماءَ

حرر الدمع وأطلق البكاء على هواك، ولا تدخر في الشؤون (مجاري الدمع في العيون) ماء (دمعاً)

ما كان قُسّاً ولا زياداً   ولا بسِحْرِ البيانِ جاءَ

المرثي لم يكن فصيحاً كقس بن ساعدة الإيادي، ولا كزياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني، ولم يأت بسحر البيان

لكِنْ إذا قامَ قالَ صِدقاً   وجانَبَ الزُّورَ والرِّياءَ

لكنه كان صادق القول، ويجانب (يتجنب) الزور (الكذب) والرياء (الادعاء). يقول زكي مبارك ما معناه: كنت مع شوقي وقد مات الصوفاني، وأخذ شوقي يردد متحيراً متبرماً: أكان الرجل فيلسوفاً، أم خطيباً؟ أم أي شيء كان؟ ثم جاءت القصيدة فإذا بها «ما كان قساً ولا زياداً...».

سبحانَ مَنْ قاتَهُ غُدُوّاً   وكَفَّ عنْ قوتِهِ عِشاءَ

فسبحان الله الذي قاته (رزقه طعامه) غدوّاً (صباحاً)، ومنعه قوته عِشاءً، لأنه مات في يومه

يا لَكِ دنيا لَذَّتْ نعيماً   للقوم، واستُعذِبَتْ بلاءَ

يا لكِ من دنيا لذت للقوم (طابت لهم) وهي نعيم، واستُعذبت (طابت) لهم أيضاً وهي بلاء، فنحن نحب الحياة في كل أحوالها

إذا انتهيْنا منها تَساوَى   ما سرَّ من حالها وساءَ

إذا انتهينا من الدنيا تساوى طرفا المعادلة وأصبح الجواب صفراً، وصار ما سرَّنا وما ساءنا من الدنيا متساويين. رويُّ القصيدة الهمزة المفتوحة، وأبياتها الثلاثة والأربعون مفتوحة الهمزة، ولكن الموسوعة الشوقية قيدت القافية وأضاعت تعب الشاعر في اجتناب الكسر والضم واصطياد الموقع الإعرابي الذي يأذن بالفتحة

٢١٦ قم في فم الدنيا وحي الأزهرا

قال شوقي في حفل إصلاحات الأزهر (١٩٢٥):

قُمْ في فمِ الدنيا وحيِّ الأزهرا وانثُرْ على سَمْعِ الزَّمانِ الجوْهرا

قم يا هذا كأنك لسان يلعلع داخل فم الدنيا، وحي الأزهر، وانثر الجواهر من كلمات هذه التحية على سمع الزمان

واخشعْ مَلِيَّاً، واقضِ حَقَّ أئمةٍ طَلَعوا بِهِ زُهْراً وماجوا أبحُرا

واخشع ملياً (طويلاً)، واقض حق الأئمة الذي طلعوا في الأزهر كالنجوم الزُّهر (المضيئة) وماجوا (تدفقوا) بالعلم كأنهم البحار

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ يجدونَ كلَّ قديمِ شيءٍ مُنْكَرا

ولا تحذ حذو عصابة (جماعة) مفتونة (غاوية) تستنكر كل قديم

ولوِ استطاعوا في المجامعِ أنكروا مَنْ ماتَ مِنْ آبائِهمْ أوْ عُمِّرا

وهؤلاء لو استطاعوا في المجامع (المجالس) لأنكروا آباءهم، من مات منهم ومن عُمِّر

مِنْ كلِّ ماضٍ في القديمِ وهدمِهِ وإذا تقدمَ للبنايةِ قصَّرا

وهؤلاء يتألفون من كل شخص ماض في هدم القديم، وأما إذا جاء ليبني فهو يقصر

وأتى الحضارةَ بالصِّناعةِ رثَّةً والعلمِ نزراً، والبيانِ مثَرثِرا

ويأتي الواحد منهم ليساهم في الحضارة الحديثة فيساهم بصناعة رثة (غير متقنة)، وبعلم نزر (قليل)، وبيان مثرثِر (ضحل المعنى)

يا معهداً أفنى القرونَ جِدارُهُ وطوى الليالِيَ ركنُهُ والأعصُرا

أيها الأزهر! يا معهداً عتيقاً أفنى جدارُهُ الزمن، وطوى ركنه الليالِيَ والعصور

عينٌ مِنَ الفُرقانِ فاضَ نَميرُها وَحَيَاً مِنَ الفُصحى جرى وتحدَّرا

الأزهر نبعٌ فاض نميره (ماؤه العذب) من القرآن، وهو حَيَاً (مطرٌ) من الفصحى جرى وتحدر (انسكب)

اللَّهُ أكبرُ يا ابْنَ إسماعيلَ، لم تترُكْ لصُنَّاعِ المآثرِ مَفْخَرا

الله أكبر يا ابن إسماعيل (الملك أحمد فؤاد)، فأنت لم تترك لمن يصنعون المآثر (الإنجازات) شيئاً يفخرون به إلا وسبقتهم إليه

أرْعَيْتَهُ عَيْنَ العِنايةِ مُصْلِحاً وأَجَلْتَ فيهِ يدَ البِناءِ مُعَمِّرا

لقد أرعيت الأزهر (منحته) عين العناية، وأصلحت بناءه، وأجلتَ (أدرتَ) فيه يد التعمير

وبلغتَ بالمعروفِ غايةَ صفْوِهِ   أيكونُ معروفُ الملوكِ مُكَدَّرا

وكان معروفك صافياً بلا ثمن، وهل لمعروف الملوك مقابل؟

لم تبغِ بالضُّعَفاءِ عُدْواناً، ولم   تقذِفْ على حَرَمِ الشَّريعةِ عَسْكرا

لم تبغ (تُرِد) عدواناً على الضعفاء من طلبة الأزهر، ولم تقذف بالعسكر على حرم الأزهر الذي هو حرم الشريعة، كما فعلت السلطات سابقاً عندما وجهت الجنود ضد المتظاهرين الأزهريين

نظراً وإِحساناً إلى عُمْيانِهِ   وكُنِ المسيحَ مُداوياً ومُجَبِّرا

فلتنظر نظراً ولتحسن إحساناً إلى من فيه من الكفيفين، وكن كالمسيح يداوي الجراح ويجبر الكسور

واللَّهِ ما تدري، لعلَّ كفيفَهُمْ   يوماً يكونُ أبا العلاءِ المبصرا

ولستَ تدري لعل أحد الكفيفين يكون ذات يوم كأبي العلاء المعري الكفيف المبصر بذكائه. كان شوقي يعرف حينئذ عن طه حسين الذي كان في السادسة والثلاثين، وكان طه قاعداً في وقت إلقاء هذه القصيدة يكتب كتاباً يهاجم فيه طرق التدريس بالأزهر لينشره في العام المقبل، وليكون له صدى مدوٍّ. كان بين طه حسين وشوقي نفور، لا بل قد نقل على لسان طه حسين في هذه السنة ١٩٢٥ أنه وصف نفسه بالعدو اللدود لشوقي. قال طه حسين لزكي مبارك (على عهدة الأخير): «مجنون أنت! ترفض كتابة مقدمة للطبعة المقبلة من ديوان شوقي. هذا تشريف لا يناله أحد، ولو أن شوقي طَلب إليَّ ذلك، وأنا من ألد أعدائه، لأجبته شاكراً. فشوقي أعظم شاعر عرفته العربية منذ المتنبي». ولعل طه كان في ذهن شوقي في القصيدة، لكن ضمن الهدامين، لا ضمن الكفيفين العباقرة. على أننا سنرى طه حسين يلتقي بشوقي ويجالسه في بعض الصحف التي كان يزورها شاعرنا حفاظاً على علاقاته الطيبة مع رؤساء تحريرها، وسنراهما يلتقيان في «عاليه» بلبنان في فندق شاهين بعد سنتين ومعهما محمد عبد الوهاب وفكري أباظة

لو تشتريهِ بنصفِ مُلْكِكَ لم تجدْ   غَبْناً، وجَلَّ المشترِي والمشترَى

لو تشتري الأزهر أيها الملك بنصف ملكك لم تجد غبناً (خسارة)، وإنك لجليل والأزهر جليل

اليومَ صَرَّحَتِ الأمورُ فأظهرتْ   ما كان مِنْ خِدَعِ السياسةِ مضمَرا

اليوم صرحت (توضحت) الأمور فأظهرت ما أضمرته (سترته) خدع السياسة

قد كان وجهُ الرأيِ أنْ نبقى يداً   ونرى وراءَ جنودِها إنجِلْتِرا

كان الرأي الحصيف أن نبقى يداً واحدة ونحن نرى إنجلترا تأتينا قادمة وراء جنودها

فإذا أتتنا بالصُّفوفِ كثيرةً   جئنا بصفٍّ واحدٍ لنْ يُكْسَرا

فرغم صفوف الجنود الكثيرة لإنجلترا فصفنا صف واحد، ولذا لن يكسر

٢١٧ قدرة ابن آدم

قال شوقي في احتفال وضع حجر الأساس لمبنى بنك مصر، وأسس طلعت حرب البنك قبلها بخمس سنوات، (قيلت القصيدة عام ١٩٢٥):

تـأنّـى حـيـنَ أسَّـسَـكَ ابـنُ حـربٍ وحـيـنَ بـنـى دعـائِـمَـكَ الـشِّـدادا

تأنى طلعت حرب حين أسسك يا مبنى البنك، وحين بنى دعائمك الشديدة

ولا تُـرجـى الـمـتـانـةُ فـي بـنـاءٍ إذا الـبَـنّـاءُ لـم يُـعْـطَ اتِّـئـادا

ولا ترجى المتانة في بناء إذا لم يُرزق البنَّاء اتئاداً (تأنِّياً)

ولـم يَـبـعُـدْ عـلـى نـفْـسٍ مَـرامٌ إذا رَكِـبَـتْ لَـهُ الـهِـمَـمَ الـبِـعـادا

ولا يبعد على نفس مرام (مطلب) إذا اتخذت له الهمم (الطموحات) البعيدة (الكبيرة)

ولـم أرَ بـعـدَ قـدرتِـهِ تـعـالـى كـمـقـدِرَةِ ابـنِ آدمَ إنْ أرادا

٢١٨ صاحب القضية الدؤوب

قال شوقي يمدح سعد زغلول (١٩٢٦):

سَلُوا عنْهُ الـقـضـيـةَ هل حَـمـاهـا وكـانَ حِـمـى الـقـضـيـةِ مُـسْـتـبـاحـا

اسألوا قضية حرية مصر هل حَماها (سعد زغلول)، وكان حِماها (وطنها) مستباحاً

هو الشيخُ الفَتِيُّ، لو استراحتْ عن الدَّأبِ الكواكبُ ما استراحا

إنه شيخ مسن ولكنه فتيٌّ في عزمه، ولو استراحت عن الدأب (المثابرة) الكواكب فهو لا يستريح

٢١٩ ناع من الإسكندرية

قال في رثاء أحمد لطفي، وكان نقيباً للمحامين ووكيلاً للحزب الوطني (١٩٢٦):

لا تَـنْـهَـيَـنَّ الـشـاكـلاتِ عـن الـبُـكـا فـلـعـل فـي ذَرْفِ الـدمـوعِ شـفـاءَهـا

لا تنهين (تمنعنَّ) يا صاحبي الثاكلات (الفاقدات) عن البكاء، فربما كان في ذرف الدموع شفاء لنفوسهن الحزينة

ولِمِثْلِ نارِ الثُّكلِ، وهي شديدةٌ، خَلَقَ الرحيمُ لنا الشؤونَ وماءَها

ولمثل نار الثكل (الفقد) ـ وهي شديدة ـ، خلق الله الرحيم لنا الشؤون (مجاري الدمع في العينين) وخلق ماءها (دموعها)

أَوْحى إلى الحُزْنِ اللَّجُوجِ شُبُوبَها   وإلى الدموعِ سَوَاكِباً إطفاءَها

الله أوحى إلى الحزن اللجوج (الملحّ) أن يشعل النار في القلوب، وأوحى إلى الدموع وهي سواكب (منهمرة) إطفاء هذه النار

ناعٍ من الإسكندريَّةِ هاتفٌ   راعَ الكنانةَ: أرضَها وسماءَها

ثمة ناعٍ من الإسكندرية هتف بخبر موت الراحل فراع (أخاف) الكنانة (مصر) أرضاً وسماءً

وإذا البلادُ تذَكَّرتْ خُدَّامَها   لم تَنْسَ موتاها ولا أحياءَها

والبلاد تتذكر من خدمها أكان ميتاً أم حياً

إن الشعوبَ كِيانُها حريةٌ   تحيا عليها، أو تموتُ فداءَها

٢٢٠ ودفنتها ودفنت خير قصائدي معها

قال شوقي ينعى الخلافة، وقد انعقد مؤتمر في مصر في هذه السنة للنظر في أمر الخلافة، وكان الملك فؤاد يمني نفسه بالحصول على هذا اللقب (١٩٢٦):

بَعَثُوا الخلافةَ سِيرَةً في النَّادي: أينَ المُبايِعُ بالإمامِ يُنادي؟

بعثوا (أثاروا) سيرة الخلافة في المحافل، وسألوا: أين من يبايع لكي يسمي لنا خليفة؟

ومَنِ ابتغاها صاحباً فمحلُّها   بينَ القواضِبِ والقنا المَيَّادِ

ومن ابتغى الخلافة ليكون صاحبها فإن مكانها هو بين القواضب (السيوف) والقنا (الرماح) المياد (المهتز)

لم تَسْتقِمْ للقومِ خلْفَ عِمادِهِمْ   هل تستقيمُ وهُمْ بِغيرِ عِمادِ

لم تستقم الخلافة للمسلمين وهم متراصون وراء عمادهم (سندهم/أي الخليفة الذي كان موجوداً)، فهل تستقيم وقد ذهب الخليفة؟

أَتُحاوِلونَ بِلا جِهادٍ خُطَّةً   لم يستطِعْها التُّرْكُ بعدَ جَهادِ

هل تحاولون إنجاح خطتكم بلا جهاد، والأتراك لم يستطيعوا إنجاحها بعد جهادهم؟

جَعَلوا الهوى سلطانَها، وَدَعَوْا لها   مَنْ لا يُسَدُّ به مكانُ الهادي

جعلوا سلطان (قوة) الخلافة ـ وهم يريدون تجديدها ـ قائماً على الهوى (المصالح)، ودعوا لتسلمها من لا يسد مسد من يهدي إلى الرشد

وأنا الذي مرَّضْتُها في دائِها   وجمعتُ فيهِ عواطِفَ العُوَّادِ

وأنا مرَّضتها (اعتنيت بها) وهي في أواخر أيامها، وجمعت في مرضها ذاك عواطف العواد (زوار المريض)

ونصرْتُها نصرَ المجاهدِ في ذَرا عبدِ الحميدِ وفي جناحِ رشادِ

ونصرتها كالمجاهد في ذَرا (حماية) السلطان عبد الحميد، وفي جناح (كنف) السلطان محمد رشاد

ودفنْتُها، ودفنتُ خيرَ قصائدي مَعَها، وطالَ بقبرِها إنشادي

وعندما أُلغيت الخلافة دفنتها ودفنت معها خير قصائدي في مدحها، ورثيتها بعد موتها

حتى اتُّهِمْتُ، فقيلَ تُرْكِيُّ الهوى، صَدَقوا؛ هوى الأبطالِ ملءُ فؤادي

حتى لقد اتهمني الناس بأنني تركي الهوى، وقد صدقوا فحب الأبطال يملأ قلبي

اللَّهُ يعلمُ ما انفردْتُ وإنما صوَّرْتُ شِعْريَ مِنْ شعورِ الوادي

ولم أكن، علم الله، وحدي في ذلك، وإنما صورت في شعري ذاك شعور وادي النيل كله

وفْدَ الخلافةِ! لا أُنَبِّهُكُمْ على بَلَدٍ حَفِيٍّ بالنَّزيلِ جَوادِ

فيا أيها الوفد الذي قدم مصر لمؤتمر الخلافة، لستم بحاجة لأن أنبهكم إلى بلدنا الحفي (المضياف) بالنزيل (بالضيف)، وبلدنا الجواد (الكريم)

٢٢١ وزدته حبتين

قال شوقي في حفيد له اسمه أحمد (١٩٢٦):

رُوحي ولَذَّةُ عَيْني عَوَّذْتُهُ بالحسَيْنِ

حفيدي هو روحي ومتعة عيني، عوذته (رَقَيْتُهُ) بالحسين (مشهد «الحسين» في مصر)

سُلالَتي مِنْ عَلِيٍّ وَلَدْتُهُ مَرَّتَيْنِ

هذا الطفل هو نسلي أنا من ابني علي، فكأنني أنجبت علياً مرتين

أحببتُهُ كأبيهِ وزِدْتُهُ حَبَّتَيْنِ

أحببته كحبي لأبيه وزيادة

طفلٌ علينا أميرٌ مُقَبَّلُ الرُّكبَتَيْنِ

كالأمير علينا هذا الطفل لما نحوطه به من اهتمام، وركبتاه للتقبيل

رِضاهُ غيرُ قليلٍ وسُخطُهُ غيرُ هَيْنِ

رضاه ليس قليلاً، وسخطه (غضبه) ليس هَيْناً (هَيِّناً)

٢٢٢ صحبة المكتب

قال شوقي (١٩٢٦):

أَلا حَبَّذا صُحْبَةُ المَكْتَبِ وأَحْبِبْ بِأَيَّامِهِ أَحْبِبِ

ألا حبذا (ما أبدع!) صحبة المكتب (الكُتَّاب)، وما أحبَّ أيامه!

ويا حَبَّذا صِبْيَةٌ يَمْرحونَ عِنانُ الحياةِ عليْهِمْ صَبي

وما أجمل أولئك الصبية الذين يمرحون، وعِنان الحياة (أي مقوَدها، كأنه مقوَد الحصان) خفيف عليهم فكأنه صبي مثلهم (هكذا فهمت المعنى)

ويُغدَى بِهِمْ، ويُراحُ قَطِيعاً على مَشرقِ الشمسِ والمَغرِبِ

يؤخذون في الغدو (الصباح)، ثم في الرواح (عند الغروب) كأنهم القطيع، عند الشروق وعند الغروب..

إلى مَرْتَعٍ أَلِفُوا غيرَهُ وراعٍ غريبِ العصا أَجنَبي

يؤخذون إلى مرتع (موضع الرعي/وقد شبههم بالقطيع) لم يألفوه بل ألفوا غيره، ليجدوا راعياً عصاه هي عصا الغريب، وهو أجنبي (من غير أهلهم)

ومُستقبَلٍ مِنْ قيودِ الحياةِ شديدٍ على النفسِ مُسْتَصْعَبِ

يؤخذون إلى مستقبل مكون من قيود الحياة، وهو شديد تستصعبه النفس

فِراخٌ بِأَيْكٍ، فَمِنْ ناهضٍ يَرُوضُ الجَناحَ، ومِنْ أَزْغَبِ

إنهم فراخ في الأيك (الشجر)، منهم من نهض يَروض (يدرب) جناحه، ومنهم الأزغب (الذي نبت له ريش صغير)

عصافيرُ عندَ تَهَجِّي الدروسِ مِهَارٌ عَرابيدُ في المَلْعَبِ

عند تهجي الدروس يكونون كالعصافير فعلاً، وفي الملعب مِهار عرابيد (كلٌ منهم مهر صاخب)

خَلِيُّونَ مِنْ تَبِعاتِ الحياةِ على الأمِّ يُلْقُونَها والأبِ

خليون (فارغون) من تبعات (مسؤوليات) الحياة، ويلقونها على الأم والأب

لَهُمْ جَرَسٌ مُطْرِبٌ في السَّراحِ وليسَ إذا جَدَّ بالمُطْرِبِ

جرس المدرسة مطرب لهم في السراح (وقت الانصراف)، وعند الجد والدرس لا يطربهم

وتلكَ الأَوَاعي بأَيْمانِهِمْ حقائبُ فيها الغدُ المُخْتَبي

وتلك الأواعي (الحقائب) التي بأيمانهم (أيديهم اليمنى)، هي حقائب يختبئ فيها المستقبل

وفيها المؤخَّرُ خلْفَ الزِّحامِ وفيها المقَدَّمُ في الموْكِبِ

وفي الحقائب (أي في المستقبل) بعضهم يتأخر ويتخلف في زحمة الناس، وبعضهم يتقدم الموكب

جميلٌ عليهِمْ قَشِيبُ الثيابِ وما لم يجمَّلْ ولم يَقْشُبِ

الثياب القشيبة (النظيفة/الجديدة) جميلة عليهم، وكذا الثياب التي هي لا جميلة ولا قشيبة، فهي جميلة عليهم أيضاً

كساهُمْ بَنانُ الصِّبا حُلَّةً أعزَّ مِنَ المُخْمَلِ المُذْهَبِ

كساهم بنان (أصابع) الصبا حلة (ثوباً) أعز (أندر وأغلى) من المخمل المذهب

فيا ويْحَهُمْ هل أحَسُّوا الحياةَ لقدْ لعِبوا وَهْيَ لَمْ تَلعبِ

فويل لهم هل يشعرون بالحياة؟ إنهم يلعبون وهي لا تلعب

تُجرِّبُ فيهِمْ، وما يعلمونَ، كتجرِبَةِ الطِّبِّ في الأرنبِ

الحياة تجرب أحداثها عليهم، وهم غافلون، كما يجرب العلماء عقاقيرهم في أرانب المختبرات

ودارَ الزمانُ فدالَ الصِّبا وشَبَّ الصغارُ عنِ المكتبِ

ثم دار الزمان، فدال (انتهى) الصبا، وشب الصغار عن المكتب (الكُتَّاب)

وعُذِّبَ بالعِلْمِ طلابُهُ وغَصُّوا بمَنهلِهِ الأَعْذَبِ

وأخذوا يدرسون في الثانويات والمعاهد ويتعذبون بطلب العلم، ويغصون (يشرَقون) بمنهله (بنبعِه) العذب

رمتهُمْ بِهِ شَهَواتُ الحياةِ وحُبُّ النَّباهةِ والمَكْسَبِ

رمتهم (ورطتهم) بالعلم رغبات الحياة، وحب النباهة (الشهرة)، والسعي للمكسب

وزَهْوُ الأُبوَّةِ مِنْ مُنْجِبٍ يُفاخِرُ مَنْ ليس بالمنْجِبِ

وكذلك ورطهم في العلم زهو (فخر) الأبوة، فالأب المنجب (ذو الابن النجيب) يفاخر من ليس ابنه نجيباً

قدِ انصرفوا بعدَ عِلمِ الكِتابِ لِبابٍ مِنَ العلم لم يُكْتَبِ

وبعد انتهاء الطلبة من علم الكتب، يدخلون باباً من العلم ليس موجوداً في أي كتاب..

حياةٌ يغامرُ فيها امْرُؤٌ تَسَلَّحَ بالنَّابِ والمِخْلَبِ

إنها الحياة. والمرء يغامر فيها وقد تسلح بناب ومخلب من العلم أو من غيره

وصارَ إلى الفاقةِ ابنُ الغنيِّ ولاقى الغِنى وَلَدُ المُتْرَبِ
وقد يصبح ابن الغني فقيراً، وقد يحصل على الغنى ابن المترب (الفقير)

وقدْ ذهبَ المُمْتَلي صحةً وصحَّ السقيمُ فلمْ يَذهبِ
وقد يموت الذي كان ممتلئاً صحة، وقد يصح المريض ويعيش

وكمْ مُنجِبٍ في تَلَقِّي الدروسِ تَلَقَّى الحياةَ فلم يُنْجِبِ
وكثيراً ما ترى منجِباً (نجيباً) في الدروس، تلقّى درس الحياة فلم يكن نجيباً

وغابَ الرفاقُ كَأَنْ لم يَكُنْ بِهِمْ لكَ عهْدٌ ولم تَصْحَبِ
ثم إن رفاق الدراسة غابوا عنك، فكأنه لا عهد لك بهم، ولم تصحبهم

إلى أنْ فَنَوْا ثُلَّةً ثُلَّةً فَناءَ السَّرابِ على السَّبْسَبِ
وأخيراً.. يفنوْن ثلة (جماعة) بعد جماعة، مثلما يفنى السراب على السبسب (الصحراء). لا تفوت شوقي فرصة يتعجب فيها من عبث الحياة إلا اقتنصها. قال محمد صبري السوربوني عن هذه القصيدة: «كلها درر.. ولا أعرف لها نظيراً في الشعر قديمه وحديثه في بكاء الشباب وزمن الدرس والمكتب»

٢٢٣ زلزال القيامة

قال شوقي في زلزال طوكيو ويوكاهاما (١٩٢٦):

قِفْ بِطُكْيو وطُفْ على يُكُهامَهْ وسَلِ القريتيْنِ: كيفَ القِيامَةْ
قف بإزاء طوكيو وطُفْ على (تَجَوَّلْ في) يوكوهاما، واسأل القريتين (البلدين) كيف تكون القيامة، فقد شهدا شبهها في الزلزال

دنتِ الساعةُ التي أُنذِرَ النا سُ، وحلَّتْ أَشْراطُها والعَلامَةْ
عندئذ اقتربت الساعة التي أنذر الله الناس بقدومها، ووقعت أشراطها (دلائلها) والعلامة (العلامة التي بها يعرف قيام الساعة)

حازَهُمْ مِنْ مَراجِلِ الأرضِ قبرٌ في مدى الظنِّ عمقُهُ ألفُ قامَةْ
حازهم (احتواهم) من المراجل (خزانات الغليان) قبر يظن المرء أن عمقه ألف قامة (ألف مرة طول الإنسان)

تحسَبُ الميْتَ في نواحيهِ يُعْيِي نَفْخَةَ الصُّورِ أَنْ تَلُمَّ عِظامَهْ
تحسب أن الميت في هذا القبر الجماعي يعيي نفخة الصور (يجعل نفخة البوق التي تنفخ في يوم القيامة عاجزة)، فلا تستطيع هذه النفخة أن تلم عظامه

دولـةُ الـشـرقِ وهْـيَ فـي ذِرْوَةِ الـعِـزِّ ـ تَـحـارُ الـعُـيـونُ فـيـهـا فَـخـامَـةْ
اليابان دولة الشرق العظيمة وهي في ذروة (قمة) العز، والعيون تحار من فخامة نهضتها.. هذه الدولة

لـو تـأمَّـلـتَـهـا عَـشِـيَّـةَ جـاشـتْ خِـلْـتَـهـا فـي يـدِ الـقـضـاءِ حـمـامَـةْ
لو رأيتها في ذلك المساء عندما جاشت (اهتزت) لخلتها (ظننتها) حمامة صغيرة في يد القضاء

٢٢٤ شروط الملك

قال شوقي (١٩٢٦):

يا طالباً لمعالي المُلْكِ مجتَهِداً خُذْها مِنَ العلمِ أو خُذْها مِنَ المالِ
يا من يطلب أمجاد الملك مجتهداً (مثابراً في طلبها)، عليكَ بالعلم أو بالمال

بالعلمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلْكَهُمُ لم يُبْنَ مُلْكٌ على جهلٍ وإقلالِ
بهما كليهما يبني الناس الملك، فلا ملك بجهل ولا بإقلال (فقر)

٢٢٥ سلام أرق من صبا بردى

قال شوقي يذكر قصف الفرنسيين دمشق جواً وبراً في أكتوبر تشرين الثاني ١٩٢٥، قالها عام (١٩٢٦):

سَـلامٌ مِـنْ صَـبـا بَـرَدى أَرَقُّ ودَمْـعٌ لا يُـكَـفْـكَـفُ يـا دمـشـقُ
سلام أرق من صبا (نسيم) بردى (نهر دمشق)، ودمع لا يكفكف (يُمنَع من الهمول) لكِ يا دمشق

ومـعـذِرةُ الـيَـراعـةِ والـقـوافـي! جـلالُ الـرُّزْءِ عَـنْ وصـفٍ يَـدِقُّ
ولك معذرة من البراعة (القلم) والقوافي (القصائد) فهما لا يفيانِكِ حقك، فجلال (ضخامة) الرزء (المصيبة) يدق (يصعب) عن الوصف

وبـي مِـمَّـا رَمَـتْـكِ بِـهِ الـلَّـيـالـي جِـراحـاتٌ لـهـا فـي الـقـلـبِ عُـمْـقُ
وقد حل بي مما رمتك به الليالي (أحداث الزمن) جراح عميقة الغور في القلب

دخـلـتُـكِ والأصـيـلُ لـهُ ائْـتِـلاقٌ ووجْـهُـكِ ضـاحـكُ الـقَـسَـمـاتِ طَـلْـقُ
دخلتك قبل حين من الزمن وكان للأصيل (الغروب) ائتلاق (بريق)، وكان وجهك ـ آنذاك ـ ضاحك القسمات (التقاطيع) طلقاً (مستبشراً)

وتـحـتَ جِـنـانِـكِ الأنـهـارُ تـجـري ومِـلءَ رُبـاكِ أوْراقٌ ووُرْقُ
وكانت الأنهار تجري تحت جنانك (بساتينك)، وملء رباك أوراق الشجر والوُرْق (الحمائم)

وحـولـي فِـتْـيَـةٌ غُـرٌّ صِـبـاحٌ   لـهـمْ في الـفـضـلِ غـايـاتٌ وسَبْـقُ

وحولي فتية غر (بيض الوجوه) صِباحٌ (مشرقون)، سباقون للفضل يصلون فيه إلى الغايات البعيدة

عـلـى لَـهَـواتِـهِـمْ شُـعَـراءُ لُـسْـنٌ   وفـي أعْـطـافِـهِـمْ خُـطـبـاءُ شُـدْقُ

على لهواتهم (ألسنتهم/اللهاة لحمة الحلق المتدلية) شعراء لسن (فصحاء)، وفي أعطافهم (جنوبهم) خطباء شدق (فصحاء). وهو إذ يقول في أعطافهم خطباء إنما يقصد هم خطباء، ومن بيان العربية أنك إن قلت «بين جنبيك خير صديق» فالمعنى «أنت خير صديق»

رُواةُ قـصـائـدي، فـاعـجَـبْ لِـشِـعـرٍ   بِـكُـلِّ مَـحَـلَّـةٍ يَـرويـهِ خَـلْـقُ

هؤلاء رواة لقصائدي يحفظونها ويرددونها، فاعجب لهذا الشعر الذي يرويه خلق (ناس) في كل محلة (بلدة)

غَـمَـزْتُ إبـاءَهُـمْ حـتـى تَـلَـظَّـتْ   أنـوفُ الأُسْـدِ واضـطَّـرَمَ الـمَـدَقُّ

غمزت إباءهم (أثرت نخوتهم) حتى تلظت (اشتعلت) أنوف الأسود غضباً، واضطرم (التهب) المدق (أرنبة الأنف). عندما سأل شوقي محمد عبد الوهاب عن أجمل بيت في القصيدة اختار هذا البيت، سأله شوقي: فهمته؟ قال لا. فقط لجرسه. وغنى عبد الوهاب أبياتاً من القصيدة وتجنب هذا البيت

وضـجَّ مِـنَ الـشَّـكـيـمـةِ كـلُّ حـرٍّ   أبـيٍّ، مِـنْ أُمَـيَّـةَ فـيـهِ عِـتـقُ

وضج (سئم) من الشكيمة (حديدة اللجام يعضها الحصان) كل حر أبي (رافض)، فيه عتق (أصالة) موروثة من عهد بني أمية

لَـحـاهـا الـلَّـهُ أنـبـاءً تـوالـتْ   عـلـى سَـمْـعِ الـولـيِّ بـمـا يَـشُـقُّ

لحاها (لعنها) الله هذه الأنباء التي توالت على سمع الولي (الصديق) بما يشق (يؤذي)

تَـكـادُ لـروْعَـةِ الأحـداثِ فـيـهـا   تُـخـالُ مِـنَ الـخُـرافـةِ وهْـيَ صِـدْقُ

تكاد هذه الأنباء لما فيها من روعة الأحداث (الأحداث المريعة) تخال (تُظَنُّ) من الخرافات، ولكنها للأسف صادقة

وقـيـلَ مـعـالـمُ الـتـاريـخِ دُكَّـتْ   وقـيـلَ أصـابَـهـا تَـلَـفٌ وحَـرْقُ

قيل معالم دمشق التاريخية قد دكت، وأصابها الخراب والحرق

ألـسْـتِ، دمـشـقُ، لـلإسـلامِ ظِـئْـراً   ومُـرْضِـعَـةُ الأُبُـوَّةِ لا تُـعَـقُّ

ألستِ يا دمشق ظئر (مرضعة) الإسلام؟ (ودمشق احتضنت الإسلام باكراً)، وإن مرضعة الأبوة (الآباء) لا يجوز عقوقها

صلاحُ الدينِ، تاجُكِ، لم يُجمَّلْ ولم يوسَمْ بأزْيَنَ مِنْهُ فَرْقُ

صلاح الدين (المدفون في دمشق) تاج لك، وهو تاج لم يجمَّل ولم يوسم (يزيَّن) بأجمل منه فرق (رأس)

وكلُّ حضارةٍ في الأرضِ طالتْ لها مِنْ سَرْحِكِ العُلْويِّ عِرْقُ

وكل حضارة في الأرض طال عزها أخذت عِرْقاً (غصناً) من سرحك (شجرك) العلوي (المجيد)

بَنَيْتِ الدولةَ الكبرى، ومُلْكاً غبارُ حضارتيْهِ لا يُشَقُّ

بنيت يا دمشق دولة كبرى، وملكاً في المشرق وآخر في الأندلس، فلكِ بهذا حضارتان لا يشق غبارهما (لا يلحق بهما أحد)

لهُ بالشامِ أعلامٌ وعُرْسٌ بشائرُهُ بأندَلُسٍ تُدَقُّ

هذا الملك له بالشام أعلام الفرح والزينة والنصر، وهو عرس نسمع في الأندلس بشائره (أخباره السارة) تدق بها الطبول

رِباعُ الخُلْدِ، ويْحَكِ، ما دَهاها أحقٌّ أنَّها دَرَسَتْ، أحَقُّ؟

يخاطب دمشق: رباعُ (ربوع) الخلد (الجنة) ما الذي دهاها؟ وهل صحيح أنها درست (مُحِيت)؟

وأينَ دُمَى المقاصِرِ مِنْ حِجالٍ مُهَتَّكَةٍ وأستارٍ تُشَقُّ

وأين دمى (عرائس/يقصد نساء) المقاصر (البيوت)؟ أين هي من هذه الحجال (الستور) المهتَّكة (الممزقة) المشقوقة؟

بَرَزْنَ وفي نواحي الأيكِ نارٌ وخَلْفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ

برزت النساء (خرجن) من بيوتهن بعد حرق دمشق على أيدي الفرنسيين، وكان في نواحي الأيك (الغاب) نار، وخلف الغاب أطفالهن كالأفراخ التي تزق بالحَبِّ زقّاً

إذا رُمْنَ السَّلامةَ مِنْ طريقٍ أتتْ مِنْ دونِهِ للموتِ طُرْقُ

إذا رمن (طلبن) السلامة بسلوك طريق، كان للموت قبل هذا الطريق طرق أخرى يأتي منها لهؤلاء النسوة

بِلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا وراءَ سمائِهِ خَطْفٌ وصَعْقُ

حدث لهن هذا في ليل للقنابل والموت في سمائه خطف للأرواح وصعق للناس

إذا عَصَفَ الحديدُ احمَرَّ أُفْقٌ على جَنَباتِهِ، واسوَدَّ أُفْقُ

إذا عصف حديد المدافع احمر الأفق على جنبات الليل بالنار، واسود الأفق مرة أخرى بالدخان

سَلِي مَنْ راعَ غِيدَكِ بعدَ وَهْنٍ   أَبَيْنَ فؤادِهِ والصخرِ فَرْقُ

فاسألي يا دمشق من راع (أخاف) غيدك (جميلاتك) بعد وهن (بعد حلول الظلام): هل يوجد فرق بين قلبه وبين الصخر؟

ولِلمستعمرينَ، وإنْ ألانوا،   قُلوبٌ كالحجارةِ لا تَرِقُّ

وللمستعمرين ـ وإن ألانوا (أظهروا اللين) ـ قلوب مثل الحجارة لا ترق (تلين)

رماكِ بطيشِهِ، ورمى فرنسا،   أخو حرْبٍ بِهِ صَلَفٌ وحُمْقُ

رماك بطيشه ـ ورمى بلده فرنسا أيضاً ـ صاحب حرب (هذا الجنرال) به صلف (تكبر) وحمق

إذا ما جاءَهُ طُلَّابُ حقٍّ   يقولُ عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا

إذا جاءه أصحاب الحق يطلبونه يعدهم عصابة (جماعة) خرجوا على السلطة وشقوا عصا الطاعة

دمُ الثوارِ تعرفُهُ فرنسا   وتعلمُ أنَّه نورٌ وحقُّ

فرنسا تعرف خير المعرفة دم الثوار وتضحياتهم، وهي تعلم أن هذا الدم مجيد وينير طريق الحرية، فهي صاحبة ثورة مجيدة

جرى في أرضِها، فيهِ حياةٌ   كمُنْهَلِّ السماءِ وفيهِ رِزْقُ

وقد جرى دم الثوار في أرض فرنسا، وكان فيه حياة، كان مثل منهل السماء (المطر) الذي يأتي بالخير

بلادٌ ماتَ فِتْيَتُها لِتَحْيا   وزالوا دونَ قومِهِمُ لِيَبْقُوا

تلك بلاد مات شبابها لتحيا، وزالوا (ماتوا) دون قومهم (دفاعاً عن قومهم) ليبقى القوم

وحُرِّرَتِ الشعوبُ على قَناها   فَكيفَ على قَناها تُسْتَرَقُّ

وقد تحررت الشعوب على قنا (رماح) فرنسا عقب ثورتها ١٧٨٩، فكيف تسترق (تستعبد) الشعوب على هذه الرماح نفسها؟

بني سوريَّةَ، اطَّرِحوا الأماني   وألقُوا عنكُمُ الأحلامَ ألْقُوا

يا بني سورية اطَّرِحوا (اتركوا جانباً) الأماني، وألقوا عنكم الأحلام

فَمِنْ خِدَعِ السياسةِ أنْ تُغَرُّوا   بألقابِ الإمارةِ وهْيَ رِقُّ

فمن خِدَع السياسة أن يُغَرَّ المرء بألقاب الإمارة، بينما هي رق (عبودية). وكانت فرنسا تسعى في تفتيت سوريا إلى لبنان الكبير، ودولة جبل الدروز، وحكومة العلويين. وسايرها في هذا المسعى عدد من الساسة

وكَـمْ صَـيَـدٍ بـدا لَـكَ مِـنْ ذليـلٍ　　كما مالتْ مِنَ المصلوبِ عُنْقُ

وكثيراً ما يظهر لعينيك صَيَدٌ (فخر وإمالة عنق) من شخص ذليل، فهو يُميل عنقه لا فخراً ولكن كالمصلوب

فُتوقُ المُلْكِ تَحدُثُ ثمَّ تَمضي　　ولا يمضي لمختَلِفينَ فَتْقُ

فتوق الملك (الشقوق في بنيانه) تحدث ثم يمكن إصلاحها، ولكن المختلفين من أبناء البلد لا يسهل إصلاح الفتق بينهم

نصحتُ ونحنُ مُختلفونَ داراً　　ولكنْ، كلُّنا في الهمِّ شرقُ

نصحت لكم مع اختلافنا في القطر، ولكننا جميعاً نشترك في الهم، فالشرق كله مظلوم والغرب له ظالم

ويجمعُنا إذا اختلفتْ بلادٌ　　بيانٌ غيرُ مختلِفٍ ونُطْقُ

ولئن اختلف بلدي عن بلدكم فإن ما يجمعنا هو البيان الذي لا نختلف فيه والنطق باللغة العربية

وقفْتُمْ بينَ موتٍ أو حياةٍ　　فإنْ رُمْتُمْ نعيمَ الدهرِ فاشْقُوا

أنتم بين الموت والحياة، وإذا رمتم (أردتم) النعيم والعز طول الدهر فاشقوا (اتعبوا). وحق كلمة «اشقوْا» أن تكون بفتح القاف، ومثلها كانت قبل بضعة أبيات كلمة «يبقوا». ولكن هذا إقواء لا تقبله الأذن

وللأوطانِ في دَمِ كلِّ حُرٍّ　　يدٌ سَلَفَتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقُّ

وللأوطان في دم كل حر من أبنائها يدٌ (معروفٌ) سابق، ولها عليه دين مستحق الوفاء

ومَنْ يَسْقي ويَشْرَبُ بالمنايا　　إذا الأحرارُ لم يُسقَوْا ويَسقُوا

ومن ذا الذي يسقي عدوه الموت ويشرب الموت إذا لم يفعل ذلك الأحرار

ولا يبني الممالِكَ كالضَّحايا　　ولا يُدْني الحقوقَ، ولا يُحِقُّ

ولا شيء يبني الدول مثل الضحايا من أبنائها، ولا شيء مثلهم يدني (يقرب) الحقوق لأصحابها وينجزها

ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ　　وفي الأسرى فدىً لهُمُ وعِتْقُ

ففي قتلى الحرية حياة للأجيال اللاحقة، وفي الأسرى عتق (تحرر) وفداء

ولِلْحُرِّيَّةِ الحمراءِ بابٌ　　بِكُلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

وللحرية الحمراء المصبوغة بدم الفداء بابٌ يَدُق عليه أبناء الوطن بأيديهم المضرجة (المصبوغة بالدم)

جَـزاكُـمْ ذو الـجَـلالِ بـنـي دمـشـقٍ   وعِـزُّ الـشـرقِ أوَّلُـهُ دمـشـقُ

جزاكم الله ذو الجلال يا أبناء دمشق، فأنتم كنتم بداية عز الشرق في عصر بني أمية

٢٢٦ كان شعري الغناء في فرح الشرق

قال شوقي في حفل مبايعته بإمارة الشعر (١٩٢٧):

مـرحـبـاً بـالـربـيـعِ فـي رَيْـعـانِـهْ   وبـأنـوارِهِ وطـيـبِ زمـانِـهْ

ريعانه: أوله، أنواره: نوّار الشجر وزهره

أيـنَ نَـوْرُ الـربـيـعِ مِنْ زَهَـرِ الشِّعْـ   ـرِ إذا مـا اسْـتـوى عـلـى أفـنـانِـهْ

لا مقارنة بين نَوْر (نوَّار) الربيع وزهر (نوَّار) الشعر عندما يستوي على أفنانه (أغصانه)

سَرْمَدُ الحسنِ والبَشاشةِ، مهما   تـلـتَـمِـسْـهُ تـجِـدْهُ فـي إبَّـانِـهْ

فالشعر سرمد الحسن (أبدي الجمال)، ومهما (في أي وقت) تلتمس (تطلب) الشعر تجده يانعاً كأنه في إبانه (في موسمه)

حَـسَـنٌ فـي أوانِـهِ كـلُّ شـيءٍ   وجـمـالُ الـقـريـضِ بـعـدَ أوانِـهْ

كل شيءٍ جميل في أوانه، والقريض (الشعر) جماله يزيد بعد انقضاء زمن عليه

أَمَـرَ الـلـهُ بـالـحـقـيـقـةِ والـحـكـ   ـمةِ فـالـتـقَّـتـا عـلـى صَـوْلـجـانِـهْ

أمر الله الحقيقة والحكمة فالتفتا على صولجان الشعر ترافقانه دوماً. أحقاً؟ الشعراء يتَّبعهم المهتدون؟

لـم تَـثُـرْ أمـةٌ إلـى الـحـقِّ إلَّا   بِهُدى الشِّعرِ أو خُطى شَيْطانِهْ

لم تثر أمة للمطالبة بحقها إلا والشعر يهديها ملاكاً أو يثيرها شيطاناً

وشيطان الشاعر هو الذي يوحي إليه بالشعر في الخرافة الأدبية المعروفة، وشوقي هنا يومئ إليها

لـيـس عـزفُ الـنـحـاسِ أوقـعَ مـنـهُ   فـي شُـجـاعِ الـفـؤادِ أو فـي جـبـانِـهِ

عزف الآلات النحاسية ليس أشد وقْعاً من الشعر في قلوب الشجعان والجبناء

ظَـلَّـلَـتْـنـي عـنـايـةٌ مِـنْ فـؤادٍ   ظَـلَّـلَ الـلَّـهُ عـرشَـهُ بـأمـانِـهْ

ظللتني عناية الملك أحمد فؤاد، وأدعو الله أن يظلل عرشه بأمان منه

مَلِكُ النيلِ مِنْ مَصَبَّيْهِ بالشطِّ   إلـى مَـنْـبَـعَـيْـهِ مِـنْ سُـودانِـهْ

هو ملك النيل من مصبَّيْه (فرعي دمياط ورشيد اللذين يصبان ماء النيل في شاطئ المتوسط) وحتى منبعيه في السودان (فالنيل الأبيض والأزرق بمثابة المنبعين اللذين يؤلفان النيل وكلاهما يمر بالسودان قبل دخول مصر)

يـا عُـكـاظـاً تـألَّـفَ الـشَّـرْقُ فـيـهِ   مِـنْ فِـلِـسْـطـيـنِـهِ إلـى بَـغـدانِـهْ

أيها الحفل الشبيه بعكاظ، وقد تألف (تجمَّع) الشرق فيه من فلسطين إلى بغدان (بغداد)

قلَّـدتْـنـي الـمـلـوكُ مِـنْ لـؤلـؤِ الـبحـ   ـريْـنِ آلاءَهـا ومِـنْ مُـرْجـانِـهْ

لقد قلدني (طوق عنقي) الملوك آلاءهم (نِعمهم) من لؤلؤ ومرجان (لؤلؤ) البحرين، مشيراً إلى هدية حاكم البحرين له آنذاك

مـوكـبُ الـشـعـرِ حرَّكَ الـمـتـنـبـي   فـي ثَـراهُ، وهـزَّ مِـنْ حَـسَّـانِـهْ

هذا الحفل كان موكباً للشعر، وقد حرك المتنبي في ثراه (تربته)، وهز حَسَّان الشعر (حسان بن ثابت)

رُبَّ سـامـي الـبـيـانِ نَـبَّـهَ شـأْنـي   أنـا أسـمـو إلـى نـبـاهـةِ شـانِـهْ

رب رجل سامي البيان (عالي الفصاحة/يشير إلى محمود سامي البارودي الذي سبقه في الشعر زمناً وفتح له الطريق) وأنا أسمو (أتطلع) إلى نباهة شأنه (أهميته)

كـان بـالـسَّـبْـقِ والـمـيـاديـنِ أوْلـى   لـو جـرى الـحـظُّ فـي سَـواءِ عِـنـانِـهْ

كان أولى مني بالسبق في الشعر وفي ميادينه لو أن الحظ جرى في سواء عنانه (واتاه). كان البارودي رجل ميادين، كان محارباً ووزيراً للحربية، وكان شاعراً مهماً

إنَّـمـا أَظـهـروا يَـدَ الـلـهِ عِـنـدي   وأذاعـوا الـجـمـيـلَ مِـنْ إحـسـانِـهْ

ما يصنعه هؤلاء المحتفلون هو أنهم يبرزون يد (نعمة) الله علي، ويذيعون جميل إحسان الله علي

مـا الـرَّحـيـقُ الـذي يـذوقـونَ مِـنْ كَـرْ   مـيِ، وإنْ عِـشْـتُ طـائـفـاً بِـدِنـانِـهْ

ورحيق شعري الذي يذوقونه ليس من كرْمي (بستاني)، وإن عشت وأنا أطوف بدنان الكرم (جِرار الخمر). فشوقي يطوف حول أوعية الخمر الكبيرة يستقي منها خمرة الشعر ليقدمها للناس وليس له سوى فضل الاستقاء لغيره

وهَـبُـونـيِ الـحَـمـامَ لَـذَّةَ سَـجْـعٍ   أيـنَ فـضـلُ الـحَـمـامِ فـي تَـحْـنـانِـهْ؟

وهبوني (افرضوا أنني) كالحمام في لذة سجعه (لحنه)، أين فضل الحمام في تحنانه (غنائه)؟ فالحمام من طبعه السجع وليس له فضل فيه

وَتَـرٌ فـي الَّـلـهـاةِ مـا لِـلـمُـغَـنِّـي   مِـنْ يـدٍ فـي صـفـائِـهِ ولِـيـانِـهْ

الشعر كأنه وتر في اللهاة (اللحمة المتدلية في آخر الحلق بين اللوزتين)، وليس للمغني يد (فضل) في أن يكون للوتر صفاء أو ليانة (لين)

كـان شـعـري الـغـنـاءَ فـي فَـرَحِ الـشـر   قِ وكـان الـعـزاءَ فـي أحـزانِـهْ

كان شعري غناء في أفراح الشرق، وعزاء للناس لينسوا أحزانه

قد قضى اللَّهُ أنْ يُؤلِّفَنا الجُر ... حُ، وأنْ نلتقيَ على أشجانِهْ

قضى الله أن يؤلفنا (يجمعنا) الجرح، وأن نلتقي على أشجانه (أحزانه)

كلَّما أنَّ بالعراقِ جريحٌ ... لمَسَ الشرقُ جنبَهُ في عُمانِهْ

كلما أنَّ (تأوه) بالعراق جريح، لمس الشرق خاصرته في عُمَان إذ يحس بالألم

وعليْنا كما عليكُمْ حديدٌ ... تَتَنزَّى الليوثُ في قُضْبانِهْ

وتحبسنا قضبان الحديد مثلما تحبسكم، وداخلها تتنزى (تتواثب) الليوث طلباً للحرية

٢٢٧ يحسدون الميت

قال شوقي يرثي إسماعيل أباظة، أحد الأعيان، وعضو الجمعية التشريعية، (١٩٢٧):

يقولونَ: يَرثي الرَّاحِلينَ، فَوَيْحَهُمْ ... أأمَّلْتُ عندَ الراحِلينَ الجوازِيا

يلومني بعضهم لأنني أرثي الراحلين، فالويل لهم، هل أنا أؤمل عند الراحلين الجوازيَ (المكافآت)

أبَوْا، حسداً، أنْ أجعلَ الحيَّ أُسْوَةً ... لَهُمْ، ومِثالاً قدْ يُصادفُ حاذِيا

هؤلاء الحاسدون رفضوا أن أجعل الشخص الحي أسوة (قدوة) ومثالاً، وكان أملي إذ أمدح الأحياء أن يصادف الممدوح بشعري حاذياً (شخصاً يحذو حذوه)

فلمَّا رثيتُ الميْتَ أقْضي حقوقَهُ ... وجدْتُ حَسُوداً للرُّفاتِ وشَانِيا

فعندما رثيت الميت لقضاء حقه وتكريمه، وجدت حسوداً للرفات وشانئاً (مبغضاً) للميت

إذا أنتَ لم تَرْعَ العهودَ لهالِكٍ ... فلسْتَ لحيٍّ حافظَ العهدِ راعِيا

إذا أنت لم ترعَ (تحفظ) العهود لهالك (ميت)، فأنت لن ترعى عهد الحي

فلا يَطْوِيَنَّ الموتُ عهدَكَ مِنْ أخٍ ... وهبْهُ بِوادٍ غيرِ واديكَ نائيا

فلا تدع الموت يطوي عهدك إزاء أخ لك، وهبه يا شوقي (افترض أنه) رحل ليعيش في واد بعيد غير واديك ولم يمت موتاً

أقامَ بأرضٍ أنتَ لاقِيهِ عندَها ... وإنْ بِتُّما تستبعِدانِ التَّلاقِيا

وافترض أن الميت سكن أرضاً ستلاقيه فيها، وإن كان اللقاء مستبعداً الآن، فالموت سيجعلنا كلنا نتلاقى في التراب

وليسَ البيانُ الهَجْوَ إنْ كنتَ ساخطاً ... ولا هُوَ زُورَ المدحِ إنْ كنتَ راضِيا

والبيان ليس الهجاء في وقت سخطك، ولا المدح الكاذب وقت رضاك

ولكنْ هُدَى اللهِ الكريمِ ووحْيُهُ   حَمَلْتَ بهِ المِصباحَ في الناسِ هاديا

ولكن البيان هدى الله وإلهامه، وأنتَ يا شوقي ـ يخاطب نفسه ـ حملت مصباح البيان تهدي الناس به

تُفِيضُ على الأحياءِ نوراً، وتارةً   تُضيءُ على الموْتى الرِّجامَ الدَّواجِيا

تُفيض على الأحياء نوراً، وأحياناً تنير على الموتى الرجام (حجارة القبر) الدواجيَ (المعتمة)

هياكلُ تَفْنى، والبيانُ مُخَلَّدٌ   ألا إنَّ عِتْقَ الخَمْرِ يُنْسي الأوانِيا

أجسام الناس هياكل فانية، والبيان خالد، كالخمر العتيقة فإن عتقها يجعلها جيدة وننسى معه دنانها وخوابيها المسودة المطلية بالقار

٢٢٨ الشاعر والرواة

قال شوقي في الحفل الخمسيني لدار العلوم (١٩٢٧):

نَظَمَ اللَّهُ مُلكَهُ بعِبادٍ   عَبقريِّينَ أوْرَثوا الملك حُسْنا

نظم الله ملكه (كما ينظم المرء العقد من اللآلئ) بالعباقرة من خلقه الذين أورثوا الملك حسناً (تركوا له زينة)

شغلتْهُمْ عَنِ الحَسودِ المعالي   إنما يُحسَدُ العظيمُ ويُشنا

شغلت هؤلاء العباقرة عن الحسود الأمجادُ، والعظيم دائماً يُحسد ويُشنأ (يُمقَت)

كُلَّما صارَ لِلْكُهولةِ شِعري   أنْشَدوهُ فعادَ أمْرَدَ لَدْنا

كلما صار شعري كهلاً (كبير السن) أنشده هؤلاء الشباب الذين يتعلمون ليصبحوا عباقرة المستقبل، فعاد (فصار) أمرد (فتياً) لدناً (طري العود)

أسرةُ الشاعرِ الرواةُ، وما عَنَّـ   ـوْهُ، والمرءُ بالقريبِ مُعَنَّى

الرواة هم أُسرة الشاعر، وهم لا يُعَنُّونَه (لا يتعبونه)، بينما الإنسان يتعب من أقارب النسب

هُمْ يَضِنُّونَ في الحياةِ بما قا   لَ، ويُلْفَوْنَ في المماتِ أَضَنَّا

في حياة الشاعر يضنُّ الرواة بما قال (يحرصون على شعره)، وتلفيهم (تجدهم) بعد موته أضنَّ (أحرص) على شعره

وإذا ما انقضى، وأهلوه، لم يَعْـ   ـدَمْ شقيقاً مِنْ الرُّواةِ أوِ ابْنا

وإذا ما انقضى (مات) ومات أهله، لم يعدم الشاعر من الرواة من يكون كالشقيق أو الابن

نحنُ في صورةِ الممالِكِ ما لم   يصبحِ العلمُ والمعلمُ مِنَّا

نحن لسنا مملكة حقيقية بل شبح مملكة إلا إذا أصبح العلم والمعلم نابعين من بلدنا

لا تُنادُوا الحُصونَ والسُّفْنَ وادعُوا الـ ـعِلمَ يُنشِئْ لكُمْ حصوناً وسُفْنا
لا تنادوا من ينشئ لكم الحصون والسفن، بل نادوا العلم لكي تنشئوا به حصوناً وسفناً بأنفسكم

إنَّ رَكْبَ الحضارةِ اخترقَ الأر ضَ وشقَّ السماءَ ريحاً ومُزْنا
موكب الحضارة اخترق أعماق الأرض، وشق السماء بريحها ومزنها (غيمها)

وصحِبناهُ كالغُبارِ فلا رَحْـ ـلاً شدَدْنا ولا رِكاباً زَمَمْنا
ونحن! لقد صحبنا موكب العلم كأننا الغبار الذي يصاحب الموكب، فلم نكن جزءاً من الموكب، فما شددنا رحلاً (خُرج الدابة) ولا زممنا ركاباً (ربطنا ركاب الحصان)

٢٢٩ جارة الوادي

قال شوقي يذكر زحلة بلبنان، (١٩٢٧):

شيَّعْتُ أحلامي بِقلبٍ باكِ ولَمَمْتُ مِنْ طُرُقِ المِلاحِ شِباكي
شيعت (ودعت) أحلامي بقلب باكٍ، ولممت شباكي التي كنت أنصبها في طرق الملاح (الجميلات)

ويحَ ابنِ جَنبيَ، كلُّ غايةِ لَذَّةٍ بعدَ الشبابِ عزيزةُ الإدراكِ
مسكين ابن جنبي (قلبي)، فكل لذة كبيرة تصل الغاية تصبح بعد انقضاء الشباب عزيزة الإدراك (صعبة التحقيق)

لم تَبْقَ منَّا يا فؤادُ بقيَّةٌ لِفُتُوَّةٍ، أوْ فضلةٌ لعِراكِ
لم تبق منا يا قلبي بقية لفتوَّة (لاعتزاز الشباب بقوته) ولا فضلة لعراك (مقارعة اللهو)

كنَّا إذا صفَّقْتَ نستبقُ الهوى ونشُدُّ شدَّ العُصْبةِ الفُتَّاكِ
كنتُ وأصحابي يا قلبي إذا صفقتَ (خفقت) نسابق الهوى، ونشتد إثر الملاهي اشتداد عصبة (جماعة) من الفُتّاك (المنغمسين في اللهو)

واليومَ تَبعثُ فيَّ حينَ تَهُزُّني ما يَبعثُ الناقوسُ في النُسَّاكِ
واليوم! تبعث في نفسي يا فؤادي عندما تهزني مشاعر هادئة كالتي يبعثها الناقوس (جرس الكنيسة) في النساك (المترهبين)

يا جارةَ الوادي طربْتُ، وعادَني ما يُشبهُ الأحلامَ مِنْ ذِكراكِ
يا جارة الوادي (بلدة زحلة بلبنان) طربتُ، وعادني (زارني) من ذكراك ما يشبه الأحلام

مَثَّلْتُ في الذِّكرى هواكِ وفي الكَرى والذِّكرياتُ صَدى السِّنينَ الحاكي

أكرر ذكراك في ذهني وفي نومي، والذكريات كأنها صدى السنين الحاكي (المقلِّد)، فهي تشبه الحدث الأصلي وتحاكيه كما يشبه الصدى الصوت الأصلي

ولقد مررتُ على الرياضِ بِرَبْوَةٍ غَنَّاءَ، كنتُ حيالَها ألقاكِ

مررت الآن وأنا على الرياض (البساتين) بربوة غناء (تلة جميلة) كنت حيالها (عندها) كأنني ألقاك

ضحِكَتْ إليَّ وُجوهُها وَعيونُها ووجدتُ في أنفاسِها رَيَّاكِ

ضحكت إلي وجوه الربوة (أزهارها) وعيونها (السواد في وسط الأزهار)، ووجدت في أنفاس (رائحة) الربوة رياك (عطرك)

لم أَدْرِ ما طيبُ العِناقِ على الهوى حتى ترفَّقَ ساعدي فَطواكِ

لم أكن أدري ما طيب (لذة) العناق مع وجود الحب حتى ترفق (تأنى) ساعدي فطواك في ضمة حب

وتَأَوَّدَتْ أعطافُ بانِكِ في يَدي واحمَرَّ مِنْ خَفَرَيْهِما خدَّاكِ

وتأودت (تمايلت) أعطاف (جنبات) بانك (شجر البان) في يدي، واحمر خدَّاك من خفريهما (خجلهما). احمر الخدان من «خفرهما» أي خجلهما، ولكن الوزن جعلها «خفريهما» فكأن لكل خد خجلاً خاصاً به

ودَخلْتُ في ليليْنِ: فَرْعِكِ والدُّجى، ولَثَمْتُ كالصُّبحِ المُنَوِّرِ فاكِ

ومع العناق دخلت في ليلين: فرعك (شعرك)، والدجى (الليل)؛ ولثمت (قبَّلت) فاك الذي كان كالصبح المشرق

وتَعطَّلَتْ لغةُ الكلامِ، وخاطبَتْ عينيَّ في لغةِ الهوى عيناكِ

وتعطلت لغة الكلام، وتخاطبت عيوننا بلغة الهوى

ومحوْتُ كلَّ لُبانَةٍ مِنْ خاطِري ونَسيتُ كلَّ تَعاتُبٍ وتَشاكِ

ومحوت كل لبانة (رغبة) أخرى من خاطري، ونسيت كل تبادل للعتاب والشكوى

لا أمسِ مِنْ عُمْرِ الزَّمانِ ولا غدٌ جُمِعَ الزمانُ فكانَ يومَ رِضاكِ

فلا الأمس ولا الغد محسوبان في عمر الزمن، فكل الزمن هو اللحظة الحاضرة، لحظة رضاك

إِنْ تُكْرِمي، يا زَحْلَ، شِعريَ إنني أنكرتُ كلَّ قصيدةٍ إلَّاكِ

إن تكرمي شعري يا زحلة فإنني أنكرت كل القصائد إلا إياك أيتها القصيدة

أنتِ الخيالُ، بديعُهُ وغريبُهُ، اللَّهُ صاغَكِ، والزمانُ رَواكِ

فأنت قصيدة مكونة من الخيال البديع الغريب، وقد صاغك الله ورَدَّدَكِ الزمان

٢٣٠ البناء بالحاسدين

قال شوقي في بناء الدار الجديدة لبنك مصر، ويخاطب طلعت حرب (١٩٢٧):

مـا زِلْـتَ أنـتَ وصـاحِـبـاكَ بِـرُكْـنِـهِ   حـتـى اسـتـقـامَ عـلـى أعـزِّ دِعـامِ

ما زلت أنت وصاحباك (مدحت يكن، وفؤاد سلطان) بركن هذا المبنى حتى قام على أعز (أقوى) دِعامة

أسَّسْتُمُ بـالـحـاسِـدِيـنَ جِـدارَهُ   وبَـنَـيْـتُـمُ بـمـعـاوِلِ الـهَـدَّامِ

وأنتم بنيتم جدرانه بأجسام الحساد، وبنيتموه بمعاول الهادمين، فكأنكم استخدمتم قوى الحسد والهدم لتشحذوا بها هممكم فبنيتم ما بنيتم. معنى جديد، ها؟

شَرِكاتُكَ الدُّنيا العريضةُ، لم تُنَلْ   إلّا بِـطُـولِ رِعـايـةٍ وقِـيـامِ

شركاتك يا طلعت حرب ملء الدنيا، وقد حققتها بطول الرعاية والقيام عليها

الـلَّـهُ سـخَّـر لـلـكـنـانـةِ خـازِنـاً   أخـذَ الأمـانَ لـهـا مِـنَ الأعـوامِ

الله سخر لمصر خازناً (أمين صندوق) أخذ أماناً لمصر من الزمن الغدار

وكـأنَّ عـهـدَكَ عـهـدُ يـوسُـفَ، كـلُّـهُ   ظِـلٌّ وسُـنْـبُـلَـةٌ وقَـطْـرُ غَـمـامِ

فكأن عهدك عهد يوسف الصديق (الذي كان خازناً لفرعون)، فعهدك كله ظل من الشجر وسنابل وقطر (مطر) من الغمام

وكـأنَّ مـالَ الـمـودِعـيـنَ وزَرْعَـهُـمْ   فـي راحـتـيْـكَ ودائـعُ الأَيْـتـامِ

وكأن ودائع الناس وزرعهم (يودعون المال عندك، أو يقترضونه لتحسين مزارعهم) في يديك ودائع الأيتام التي يحرَّم العبث بها كل التحريم

مـا زِلْـتَ تـبـنـي رُكْـنَ كُـلِّ عـظـيـمـةٍ   حـتـى أتـيْـتَ بِـرابِـعِ الأَهـرامِ

لا تفتأ تبني كل مبنى عظيم، حتى جئتنا الآن بهذا المبنى وكأنه هرم رابع

٢٣١ قد يكون الغلو رأياً أصيلا

قال شوقي يرثي أمين الرافعي، الكاتب السياسي وعضو الحزب الوطني، ثم نصير الوفد إلى أن اختلف مع سعد، (١٩٢٧):

مـالَ أحـبـابُـهُ خـلـيـلاً خـلـيـلا   وتـولَّـى الـلِّـدَاتُ إلّا قـلـيـلا

شوقي يتكلم عن نفسه: مال (ذهب) أحباب شوقي واحداً واحداً، وتولى (انصرف) اللدات (الرفاق) إلا قليلاً منهم

نَصَلُوا أمسِ مِنْ غبارِ الليالي ومضى وحدَهُ يحُثُّ الرَّحيلا

نصلوا (انسحبوا) أمس من غبار الليالي، فكأن الزمن كوكبة خيل وفرسان مسرعة يصحبها الغبار، ومن ينسحب يترك الغبار سائراً ويتخلف عنه، ومضى شوقي يحث (يتعجل) الرحيل كما رحلوا

سكنَتْ مِنْهُمُ الركابُ، كأنْ لم تضطربْ ساعةً ولم تمضِ مِيلا

سكنت الركاب (الخيل) التي كانوا يركبونها، وكأنها لم تكن تضطرب (تتحرك)، وكأنها لم تمض (تمشِ) بهم ميلاً واحداً

جُرِّدوا مِنْ منازلِ الأرضِ إلَّا حَجَراً دارساً ورَملاً مَهِيلا

جُردوا من منازلهم في الأرض عدا الحجر الدارس (حجر القبر الممحو الأثر) والرمل المهيل عليهم

في يَبابٍ مِنَ الثَّرى ردَّهُ المو تُ نَقِيّاً مِنَ الحُقُودِ غَسِيلا

وهم في يباب (قفر) من التراب رده (جعله) الموت نقياً غسيلاً (مغسولاً) من الحُقود (الأحقاد)

طَرَحوا عندَهُ الهمومَ، وقالوا إنَّ عبءَ الحياةِ كانَ ثقيلا

طرحوا همومهم عند شوقي وذهبوا، وقالوا إن عبء الحياة كان ثقيلاً

رُبَّ يوم يُناحُ فيهِ علَيْنا لو نُحِسُّ النُّواحَ والترتيلا

رب يوم يُناحُ فيه علينا نحن أيضاً، هذا لو كنا سنحس بهذا النواح والترتيل وقد متنا

بِمَراثٍ كُتِبْنَ بالدمعِ عنَّا أسطُراً مِنْ جَوىً وأخرى غَليلا

سيناح علينا بمراث كتبت بالدموع، ففيها أسطر من الجوى (اللوعة) وأسطر من الغليل (اللوعة)

يجِدُ القائلونَ فيها المعاني يومَ لا يأذَنُ البِلى أنْ نَقولا

سيجد أصحاب المراثي معانيَ لرثائنا في وقت لا يأذن لنا البِلى (تحلل الجسم) أن نقول الشعر

أخذَ الموتُ مِنْ يدِ الحقِّ سيفاً خالديَّ الغِرارِ عَضْباً صَقيلا

بموت الرافعي أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالدي الغرار (حده كحد سيف خالد بن الوليد) عضباً (قاطعاً) مصقولاً

لم يَخَفْ في حياتِهِ شبحَ الفقـ ـرِ إذا طافَ بالرجالِ مَهُولا

لم يكن الرجل يخاف شبح الفقر إذ يطوف هذا الشبح بالرجال مهولاً (مخوفاً)

جاءَ حيناً فكانَ كالليثِ، آبى ما تُلاقيهِ يومَ جوعٍ هزيلا

جاع الرافعي حيناً فكان كالأسد أكثر ما يكون إباء وعزة يوم يجوع ويهزل جسمه

قيلَ: غالٍ في الرأيِ، قلتُ: هَبُوهُ   قـدْ يـكـونُ الـغُـلُـوُّ رأيـاً أصيـلا

قيل عنه إنه كان غالياً في رأيه (مغالياً متشدداً)، فقلت: هبوه (افرضوا أنه) كذلك، قد يكون الغلوُّ (التشدد) رأياً أصيلاً للمرء وليس مجرد عناد

وقـديـمـاً بـنـى الـغُـلُـوُّ نـفـوسـاً   وقـديـمـاً بـنـى الـغُـلُـوُّ عُـقـولا

والتشدد بنى في القديم نفوساً وعقولاً، لأنه تشدد في الحق

عاشَ لم يغْتَبِ الرجالَ، ولم يجـ   ـعلْ شؤونَ النفوسِ قالاً وقيلا

عاش الرافعي ولم يغتب الرجال، وكان يجتنب القال والقيل

إنْ يُفِتْ فيكَ مِنْبَرَ الأمسِ شِعري   إنَّ لي المنبرَ الذي لنْ يزولا

لئن أفات (أضاع) شعري منبر الأمس إذ لم أسارع في تأبينك، فإن لي منبراً لن يزول. والرجل مات سنة ٢٦ ورثاه شوقي سنة ٢٧ فيما بين يدينا من تواريخ. و(يُفِت) قرأها جامع الشوقيات وصاحب الموسوعة الشوقية كلاهما (يَفُت) بفتح فضم، وفضلت الضم فالفتح

جلَّ عنْ مُنْشِدٍ سوى الدَّهرِ يُلْقيـ   ـهِ على الغابِرِينَ جيلاً فَجيلا

فشعري جل عن أي منشد سوى الدهر، الذي يرتله على الغابرين (الفانين) جيلاً يفنى بعد جيل، وشعري باقٍ

٢٣٢ رثاء سعد

قال شوقي يرثي سعد زغلول (١٩٢٧):

شَيَّعُوا الشمسَ ومالوا بِضُحاها   وانحنى الشرقُ عليها فَبَكاها

شيعوا (ودَّعوا) الشمس، ومالوا (ذهبوا) بضحاها، وانحنى الشرق، مطلع الشمس، عليها وبكاها. والشرق أيضاً هو بلاد الشرق

ليتني في الرَّكبِ لمَّا أَفَلَتْ   يُوشَعٌ هَمَّتْ فنادى فَثَناها

ليتني وأنا في ركب المشيعين إذ أفلت (غابت) هذه الشمس، ليتني كنتُ يوشع (قائد اليهود الذي أرادت الشمس المغيب فطلب إلى ربه منعها من الغروب كي يقتل أعداءه قبل دخول السبت) حين همت الشمس بالمغيب فنادى ربه فثناها (أعادها)

جلَّلَ الصُّبحَ سواداً يومُها   فكأنَّ الأرضَ لمْ تخلَعْ دُجاها

يومُ مغيب شمس سعد جلل الصبحَ بالسواد، فكأن الأرض لم تدخل في النهار وبقيت لابسة ثوب الدجى (الظلمة)

ما دَرَتْ مصرُ بدفنٍ صُبِّحَتْ   أم على البعثِ أفاقتْ مِنْ كَراها

لم تدر مصر هل صُبّحت بدفنٍ، أم أنها أفاقت من كراها (نومها) على البعث (يوم القيامة) لاهتياج المشاعر في يوم موت سعد

خَفَضُوا في يومِ سعدٍ هامَهُمْ ... وبِسَعْدٍ رفعوا أمسِ الجِباها

خَفَض الناس جباههم في يوم موت سعد، وكانوا بهذا الرجل قد رفعوا رؤوسهم بالأمس

حَضَنَتْ نعشَكَ والتفَّتْ بِهِ ... رايةٌ كنتَ مِنَ الذُّلِّ فِداها

حضنت نعشك والتفت عليه راية مصر التي كنت تفديها من أن يصيبها الذل

ضَمَّتِ الصدرَ الذي قد ضمَّها ... وتلقَّى السَّهمَ عنها فَوَقاها

ضمت الراية صدراً كان يضمها ويتلقى سهم الأعادي عنها ويقيها

تَسكبُ الدمعَ على سعدٍ دماً ... أمةٌ مِنْ صخرةِ الحقِّ بَناها

تسكب الدمعَ على سعد دماً أمة بناها سعد من صخرة الحق

رقدَ الثائرُ إلّا ثورةً ... في سبيلِ الحقِّ لم تَخْمُدْ جُذاها

رقد الثائر إلا أن ثورته لم تخمد جُذاها (جمراتها)

قد تولَّاها صَبيّاً فَكَوَتْ ... راحتيْهِ، وفَتِيَّاً فَرَعاها

قد تولّى سعد الثورة صبياً، فكوت راحتيه، وتولاها فتيّاً (شاباً) فرعاها

جالَ فيها قَلَماً مستنهِضاً ... ولِساناً كلَّما أَعْيَتْ حَداها

جال (تجول) سعد في الثورة صاحبَ قلم يستنهض العزائم، وصاحبَ لسانٍ كلما تعبت الثورة حداها (أنشَدَها حداء لتسير قدماً)

ورمى بالنفْسِ في بُركانِها ... فتلقَّى أوَّلَ الناسِ لَظاها

ورمى نفسه في بركان الثورة فكان أول من تلقى لظاها (لهيبها) فنُفي

أَعَلِمْتُمْ بعدَ موسى مِنْ يدٍ ... قذفتْ في وجهِ فِرْعَوْنَ عصاها

هل علمتم بعد موسى النبي يداً رمت في وجه المستبد عصاها كما فعل موسى بفرعون؟ إنه سعد زغلول الذي تحدى الإنجليز

أينَ مِنْ عينيَّ نفسٌ حرةٌ ... كنتُ بالأمسِ بعينيَّ أراها

أين من عيني الآن تلك النفس الحرة التي كنتُ بالأمس أراها

كلما أقْبَلْتُ هزَّتْ نفسَها ... وتَواصَى بِشْرُها بي ونَداها

كنت كلما أقبلت اهتزت نفس سعد، وتواصى بشرها بي ونداها (أوصت بشاشة نفسه، كرم تلك النفس، بي خيراً)

ألـمـحُ الأيَّـامَ فـيـهـا، وأرى مِـنْ وراءِ الـسِّنِّ تـمـثـالَ صِـبـاهـا

ألمح الأيام (مرور السنين) في هذه النفس، وأرى وراء السن صورة الصبا، فنفس سعد في شيخوخته احتفظت بحيوية الصبا

حَـلَّـتِ الـسَّـبْـعـونَ فـي هـيـكـلِـهـا فـتـداعـى، وَهْـيَ مـوفـورٌ بِـنـاهـا

حلت السبعون سنة في هيكل (جسم) هذه النفس، فتداعى الجسم (هَرِمَ) بينما النفس موفورة البنيان عامرة بالحيوية

روعـةُ الـنَّـادي إذا جَـدَّتْ، فـإنْ مَـزَحَـتْ لـم يُـذْهِـبِ الـمزحُ بَـهـاهـا

هذه النفس هي روعة (مهابة) النادي (المحفل) في الجدّ، فإن مزحت فالمزح لا يذهب ببهائها ووقارها

ولـهـا صـبـرٌ عـلـى حُـسَّـادِهـا يُـشْـبِـهُ الـصَّـفْـحَ، وحِـلْـمٌ عَـنْ عِـداهـا

ولها صبر على الحساد شبيه بالصفح (المسامحة)، ولها حلم (احتمال) لعداها (لأعاديها). والقول إن «صبر سعد على الحساد يشبه الصفح» جديد وجميل، ودقيق. وكلمة «يشبه» في هذا البيت مطربة لأنه ليس فيها مبالغة

أيـنَ مـنِّـي قَـلَـمٌ كـنـتُ إذا سُـمْـتُـهُ أنْ يـرثـيَ الـشَّـمـسَ رثـاهـا

أين قلمي الذي كنت إذا سمته (أجبرته) أن يفعل المستحيل، كأن يرثي الشمس، فعل؟

خـانَـنـي فـي يـومِ سـعـدٍ، وَجَـرى فـي الـمـراثـي فَـكَـبـا دونَ مَـداهـا

خانني قلمي في يوم موت سعد، وجرى في الرثاء فكبا (سقط أرضاً) دون الوصول إلى المدى (الغاية القصوى)

فـي نـعـيـمِ الـلَّـهِ نـفـسٌ أوتِـيَـتْ أنـعُـمَ الـدُّنـيـا فـلـم تـنـسَ تُـقـاهـا

فلتذهب إلى نعيم الله هذه النفس التي أوتيت (مُنحت) نِعَمَ الدنيا ولكنها لم تنس تقاها (تقواها)

لا الـحِـجـا، لـمَّـا تَـنـاهـى، غـرَّهـا بـالـمـقـاديـرِ، ولا الـعِـلـمُ زَهـاهـا

لا هي اغترت عن الأقدار بالحجا (الحكمة) عندما نالت الحجا حتى أقصاه، ولا زهاها (غرَّها) العلم

ذهـبـتْ أوَّابَـةً مُـؤمـنـةً خـالـصـاً مِـنْ حَـيْـرةِ الـشـكِّ هُـداهـا

ذهبت نفس سعد أوابة (تائبة) مؤمنة، وهُداها خالص لا تشوبه حيرة الشك في الخالق

آنَـسَـتْ خَـلْـقـاً ضَـعـيـفـاً، ورأَتْ مِـنْ وَراءِ الـعـالـمِ الـفـانـي إلـهـا

آنست (وجدت) هذه النفس خَلقاً (جسماً) ضعيفاً، ورأت فيما وراء العالم الفاني إلهاً خالداً

مـا دَعـاهـا الـحـقُّ إلَّا سـارعـتْ لـيـتَـهُ يـومَ «وَصِـيـفٍ» مـا دَعـاهـا

نفْس سعد ما كان يدعوها الحق إلا سارعت بالقدوم إليه، فليت هذا الحق (هنا معناه الموت) في يوم وصيف («مسجد وصيف»، عزبة سعد التي بها مات) لم يدْعُها

٢٣٣ الله أعلم والقبور

قال شوقي (١٩٢٧):

الـلَّـهُ أعـلـمُ والـقُـبـورُ الـنـفـسُ تَـخـلُـدُ أوْ تَـبـورُ

الله والقبور يعلمان هل النفس تخلد أو تبور (تفنى)

سِـرٌّ مـضـى الـمـوتـى بِـهِ ومـضـتْ عـلـى الـمـوتـى الـدُّهـورُ

هذا السر ذهب الموتى به، ومضت عليهم دهور

مَـنْ كـان يُـحْـيـي أو يـمـيـ ـتُ فـلـيـسَ يُـعْـجِـزُهُ الـنُّـشـورُ

من يحيي الناس ويميتهم فلن يعجز عن النشور (البعث). القصيدة بأبياتها التسعة والثلاثين على الراء المضمومة، لا الساكنة كما أرادها بعضهم

٢٣٤ جبان

قال شوقي في مسرحية «عنترة» على لسان عبلة، تصف الرجل الجميل الجبان، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

جـمـيـلٌ ولـيـسَ بِـحـامـي الـبـيـوتِ وَلا مـانـعٌ مِـنْ يـدٍ مـالَـهُ
إذا ما عَوى الكلبُ ضَلَّ السِّلاحَ وبَـلَّ مِـنَ الـخـوفِ سِـرْوالَـهُ

ضلَّ: نسي

يـجـودُ بـزوجـتِـهِ لـلـمُـغِـيـرِ ويَـرْمـي إلـى الـذئـبِ أطـفـالَـهُ

٢٣٥ شكوى التيوس

قال شوقي من مسرحية «قمبيز»، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

خَـلِّـنَـا بـالـلَّـهِ مِـنْ سـا سَ ودَعْـنـا مِـنْ يَـسُـوسُ
كـلَّ حِـيـنٍ حـاكـمٌ يَـمْـ ـشـي عـلـيْـنـا ويَـدوسُ
هـكـذا يـخـتـلـفُ الـحـظْـ ـظُ سُـعُـودٌ ونُـحُـوسُ
إنَّ بـعـضَ الـنـاسِ أذْنـا بٌ لِـبَـعْـضٍ هُـمْ رُؤوسُ

مَـــنـــزِلُ الأُسْـــدِ الـــصَّـــحـــارَى وعـــلـــى الـــمـــرعـــى الـــتُّـــيـــوسُ

٢٣٦ طريق النجاة

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

أحـبُّ الـحـسـيـنَ، ولـكـنَّـمـا لـسـانـيِ عـلـيـهِ، وقـلـبـيِ مَـعَـهْ
حَـبَـسْـتُ لـسـانـيَ عـنْ مَـدْحِـهِ حِـذارَ أمـيَّـةَ أنْ تَـقْـطَـعَـهْ
إذا الـفـتـنـةُ اضـطـرَمَـتْ في الـبـلادِ ورُمْـتَ الـنـجـاةَ فَـكُـنْ إمَّـعَـةْ

اضطرمت: اشتعلت، إمَّعة: شخص لا رأي له

٢٣٧ حامل العشق

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان قيس (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

سجا الليلُ حتى هاجَ لِي الشِّعْرَ والهوى وما البِيدُ إلَّا الليلُ والشعرُ والحبُّ

سجا الليل: سكن، هاج: أهاج

ملأتَ سماءَ البِيدِ عِشْقاً وأرضَها وحُمِّلْتُ وحدِي ذلكَ العشقَ يا رَبُّ

يا رب! قد ملأت سماء الصحراء وأرضها عشقاً، وحُمِّلت أنا كل هذا العشق وحدي

٢٣٨ هيبَتَها

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان زوج ليلى «وَرْد» يصارح قيساً بأنه لم يمسها (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

اســـمـــعْ حـــديـــثـــيِ إنَّـــهُ مـــا خَـــطَّ مـــثـــلَـــهُ الـــقـــلـــمْ
وسِـــرُّهُ لا الأهـــلُ يَـــدْ رُونَ بِـــهِ ولا الـــخَـــدَمْ
أنـــا الـــذي ظُـــلِـــمْـــتُ، قـــيْـــ ـسُ، مـــا أنـــا الـــذي ظَـــلَـــمْ
كَـــمْ مَـــرَّتِ الـــلـــيـــلـــةُ بـــيِ والـــلـــيْـــلـــتـــانِ لـــمْ أنـــمْ
مـــنـــذُ حَـــوَتْ داريَ لـــيْـــ ـلـــى مـــا خَـــلَـــوْتُ مِـــنْ نَـــدَمْ
كـــانـــتْ إطـــافَـــتـــيِ بِـــهـــا كـــالـــوَثَـــنِـــيِّ بـــالـــصَّـــنَـــمْ
ورُبَّـــمـــا جـــئـــتُ فِـــرا شَـــهـــا، فَـــخـــانَـــتْـــنـــيِ الـــقَـــدَمْ
شِـــعْـــرُكَ يـــا قـــيـــسُ جَـــنَـــى عـــلـــيَّ هـــذا واجـــتَـــرَمْ

هـيَّـبْـتَـهـا فـامـتَـنَـعَـتْ كـأنَّـهـا صَـيْـدُ الـحَـرَمْ

شعرك جعل ليلى مهيبة ومحرمة كالصيد في الحرم

٢٣٩ قد يهون العمر إلا ساعة

قال شوقي من مسرحية «مجنون ليلى»، على لسان قيس، (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

جبلَ التَّوْبادِ! حَيَّاكَ الحَيَا وسَقى اللَّهُ صِبانا، وَرَعَى

يا جبلَ التوباد (جبل في نجد) حياك الحيا (المطر)، وسقى الله ورعى أيام الصبا

وعلى سَفحِكَ عِشْنا زَمَناً ورَعَيْنا غَنَمَ الأهلِ مَعَا

هذهِ الرَّبْوَةُ كانتْ مَلْعَباً لِشَبابَيْنا وكانتْ مَرْتَعا

كَمْ بَنَيْنا مِنْ حَصاها أَرْبُعاً وانثَنَيْنا فَمَحَوْنا الأَرْبُعا

الأربُعْ: البيوت

وخَطَطْنا في نَقَا الرَّملِ، فَلَمْ تَحْفَظِ الرِّيحُ، ولا الرَّمْلُ وَعَى

نقا: كثيب

لم تزلْ ليلى بِعَيْني طِفْلَةً لم تَزِدْ عنْ أمسِ إلَّا إِصْبَعا

كلَّما جِئْتُكَ راجَعْتُ الصِّبا فأَبَتْ أيامُهُ أنْ تَرْجِعَا

قدْ يَهُونُ العمرُ إلَّا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلَّا مَوْضِعا

بيت من خمرة شوقي المعتقة

٢٤٠ عد ظافراً أو لا تعُدْ

كليوباترا تحث أنطونيو على القتال، من مسرحية «مصرع كليوباترا» (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

اِمضِ إلى الهَيْجاءِ أَنْـ ـطُنْيو كما يَمْضي الأَسَدْ

الهيجاء: الحرب

اِمضِ إلى المجدِ، وَلا يُقْعِدْكَ شُغْلٌ في البلدْ

المجدُ لا يَسْأَلُ عَنْ صاحِبَةٍ ولا وَلَدْ

يا لَيْثُ سِرْ، يا نَسْرُ طِرْ عُدْ ظافِراً، أو.. لا تَعُدْ

٢٤١ الذابلتان

قال شوقي على لسان كليوباترا وقد رأت قبيل انتحارها زنبقة في إناء، من مسرحية «مصرع كليوباترا» (١٩٢٧ ـ ١٩٣٢):

زَنْـبَـقَـةٌ فـي الآنِـيَـةْ   ضَـحِـيَّـةُ الأنـانِـيَـةْ
جَـنَـتْ عـلـيْـهـا غُـرْبَـةَ الـ   أَسْـرِ الأَكُـفُّ الـجَـانِـيَـةْ

جنت عليها (أجرمت بحقها) وكبَّدتها غربةً وأسراً في المزهرية تلك الأكف الجانية (القاطفة التي جَنَتها)

وبُـدِّلَـتْ مِـنْ سَـعَـةِ الـرَّ-   بْـوَةِ ضِـيـقَ الـبـاطِـيَـةْ

الباطية: الإناء

يَـسْـقُـونَـهـا مِـنْ جَـرَّةٍ   بـعـدَ الـعـيـونِ الـجَـارِيَـةْ

تسقى الزنبقة من الجرة بعد أن كانت تشرب من العيون الجارية

يـا جـارتـا! شـأنُـكِ لا   يَـشْـبِـهُ إلَّا شـانِـيَـهْ
لـمْ يَـبْـقَ مِـنْ مُـلْـكِـي الـعَـرِيـ   ـضِ غـيـرُ دَارٍ خَـاوِيَـةْ

وكُلُّنا ذابِلَةٌ عمَّا قليلٍ ذَاوِيَةْ

زالَ الـنَّـعـيـمُ وفَـرَغْـ   ـنـا مِـنْ حـيـاةٍ فـانِـيَـةْ

٢٤٢ عبث في عبث

قال شوقي (١٩٢٨):

نـعيشُ ونَـمضي في عـذابٍ كَـلَـذَّةٍ   مِـنَ الـعيشِ، أوْ فـي لَـذَّةٍ كَـعَـذابِ

عيشتنا وموتنا عذاب مختلط باللذة

وكلُّ أخي عَيْشٍ، وإنْ طالَ عَيْشُهُ،   تُـرابٌ لَـعَـمْـرُ الـموتِ وابْـنُ تـرابِ

وكل أخي عيش (كل حي) مهما طال عمره، فهو تراب (لأنه خلق من تراب ويؤول إلى التراب) وابن تراب (فأبواه مثله)

٢٤٣ يدور حيث تدور المجد والحسد

قال شوقي يرثي عبد الخالق ثروت، وهو رئيس وزراء مرتين في العشرينات، ومات في باريس فجأة (١٩٢٨):

يموتُ في الغابِ، أو في غيرِهِ، الأسدُ   كـلُّ الـبـلادِ وِسـادٌ حـيـنَ تُـتَّـسَـدُ

يموت الأسد في الغاب أو بعيداً عنه، وكل بلد هي وساد (وسادة) لك حين تُتَّسد هذه البلد (تُتَّخذ وسادة)

قد غَيَّبَ الغربُ شمساً لا سَقامَ بِها كانتْ على جَنَباتِ الشرقِ تتَّقِدُ

إذ مات الفقيد في باريس فقد غيَّب الغرب هذه الشمس التي لم يكن بها من سقام (مرض)، وكانت متوقدة في جنبات بلادنا في الشرق

طوى حِمايتَهُ المحتلُّ وانبسطتْ حمايةُ اللَّهِ فاستذْرى بِها البلدُ

طوى المحتل حمايته عنا، وانبسطت فوق البلد حماية الله فاستذرى (احتمى) بها

نم غيرَ باكٍ على ما شِدْتَ مِنْ كَرَمٍ ما شِيدَ للحقِّ فَهْوَ السَّرْمَدُ الأبَدُ

نم يا عبد الخالق ثروت غير آسف على الكرم (المعروف) الذي شدته (بنيته)، فما شيد للحق فهو سرمدي (أبدي)

لم يُطْغِكَ الحُكْمُ في شتَّى مظاهِرِهِ ولا استخفَّكَ لِينُ العيشِ والرَّغَدِ

لم يجعلك الحكم في شتى مظاهره طاغية مستبداً، ولا استخفك (أطربك) لين العيش والرغد (الغنى)

نَشأتَ في جَبْهةِ الدنيا وفي فمِها يَدورُ حيثُ تدورُ المجدُ والحَسَدُ

نشأت وأنت في المقدمة وذكرك على ألسنة الناس، والمجد والحسد يلازمانك، مثل كل عظيم

لكلِّ يومٍ غدٌ يمضي بِروْعِتِه وما لِيومِكَ يا خَيرَ الِّلدَاتِ غَدُ

لكل يوم حزين غد يذهب بالروعة (بالارتياع)، ولكن يومك الذي مت فيه يا خير اللدات (الرفاق) ليس له غد ننسى فيه حزننا، فحزننا عليك دائم

٢٤٤ ما الناس إلا أول

قال شوقي في حفل نسائي في دار التمثيل العربي برئاسة هدى شعراوي (١٩٢٨):

إنَّ السماءَ جديرةٌ بالطيرِ وَهْوَ بِها جَديرُ

السماء جديرة بالطائر الذي ينشد حريته وهو جدير بها

هِيَ سَرْجُهُ المشدودُ وهْـ ـوَ على أعِنَّتِها أميرُ

السماء للطير كالسرج للحصان، والطير إذ يمسك بأعنتها (بزمامها) مثل الأمير

حريةٌ خُلِقَ الإنا ثُ لها كما خُلِقَ الذُّكورُ

يا قاسِمُ! انظُرْ كيف سا رَ الفكرُ وانتقلَ الشعورُ

يا قاسم أمين (وتوفي قبل القصيدة بعشرين سنة) انظر كيف سار (اكتسب سيرورة وانتشر) فكرك وانتقل شعورك لغيرك

جـابـتْ قـضـيـتُـك الـبـلا دَ كـأنَّـهـا مَـثَـلٌ يـسـيـرُ

قضية المرأة، وهي قضيتك، طافت بالبلاد كالمثل السائر

مـا الـنـاسُ إلّا أوَّلٌ يـمـضـي فـيـخْـلُـفُـهُ الأخـيـرُ

الناس المؤثِّرون في سير الأمور هم ذلك «الأول» الذي يبادر، ثم يمضي، ثم يتبعه المتأخر زمناً

الـفـكـرُ بـيـنَـهُـمـا، عـلـى بُـعْـدِ الـمـزارِ، هُـوَ الـسـفـيـرُ

ويصل بين الأول والأخير الفكر، وهو على البعد الزماني والمكاني سفير بين الأجيال

مـا فـي كـتـابِـكَ طَـفْـرَةٌ تُـنـعَـى عـلـيـكَ ولا غُـرورُ

كتابك عن تحرير المرأة ليس فيه طفرة (شذوذ) تُنعى (تُنتقد) عليك، ولا غرور

ووضـعْـتَـهُ، وعـلـمـتَ أنَّـ حِـسـابَ واضِـعِـهِ عـسـيـرُ

وضعت كتابك وأنت تعلم أن واضع كتاب كهذا سيتعرض للصعاب

لَـكَ فـي مـسـائِـلِـهِ الـكـلا مُ الـعَـفُّ والـجَـدَلُ الـوَقـورُ

كنت في المسائل التي طرحتها عفيف اللسان وذا جدل رصين

عَـصْـرُ الـعـبـاقـرةِ الـنـجـو مِ بـنـورِهِ تـمـشـي الـعَـصـورُ

قصيدة من واحد وخمسين بيتاً كلها مضمومة القافية، فلماذا جعلتها الموسوعة الشوقية وجامعو الشوقيات المتأخرون موقوفة مقيدة؟ كأنما لم يسمعوا بمجزوء الكامل المرفل؟ ولم نعلم أن شوقي لزم في هذا الأمر ما لا يلزم. فأما ما صنعه العجاج في «قد جبر الدينَ الإله فجبر» حين أسكن رويَّه، مع أن كل أشطره التي بلغت نحو المئتين كانت تكون منصوبة لو أنها أطلقت فأمر مختلف. فذلك رجز، وأبيات العجاج رُويت موقوفة، والوزن يقتضي ذلك

٢٤٥ مشى ومشت فيالق من فرنسا

قال شوقي في ذكرى استقلال سوريا (١٩٢٨):

حـيـاةٌ مـا نُـريـدُ لـهـا زِيـالا ودنـيـا لا نـودُّ لـهـا انـتـقـالا

نحن متعلقون بهذه الحياة لا نريد لها زوالاً، ولا نود عن الدنيا انتقالاً

ولـو زادَ الـحـيـاةَ الـنـاسُ سَـعْـيـاً وإخـلاصـاً لـزادتْـهُـمْ جـمـالا

ولو زاد الناس دنياهم مثابرة وإخلاصاً لازدادت جمالاً

كَـأنَّ الـلَّـهَ إذ قَـسَـمَ الـمـعـالـي لأهـلِ الـواجـبِ ادَّخَـرَ الـكَـمـالا

كأنَّ الله عندما قسم المعالي (الأمجاد) ادَّخر لمن يقومون بالواجب الكمال

ترى جِدّاً، ولستَ ترى عليْهِمْ وُلوعاً بالصغائرِ واشتغالا
ترى من «أهل الواجب» جداً ومثابرة، ولا ترى بهم ولعاً (شغفاً) أو اشتغالاً بصغائر الأمور

وليسوا أرغدَ الأحياءِ عيْشاً ولكنْ أنعَمُ الأحياءِ بالا
وليسوا أغنى الناس، ولكنهم أنعم (أهدأ) الناس بالاً

وإن سألَتْهُمُ الأوطانُ أعطَوْا دماً حُرّاً، وأبناءً، ومالا
سأذكرُ ما حييتُ جدارَ قَبْرٍ بظاهِرِ جِلَّقٍ رَكِبَ الرِّمالا
سأذكر ما حييت حجارة قبر بظاهر (خارج) جلق (دمشق)

تغيَّبَ عَظْمَةُ العَظَماتِ فيهِ وأوَّلُ سيِّدٍ لقيَ النِّبالا
تغيب في هذا القبر يوسف العظمة الذي كان أول سيد لقي بصدره النبال (السهام)

مشى ومشتْ فيالقُ مِنْ فرنسا تَجُرُّ مَطارِفَ الظَّفَرِ اختيالا
زحف لملاقاة فيالق الفرنسيين الذين كانوا يجرون مطارف (أردية) الظفر (النصر في الحرب الأولى) اختيالاً (تكبراً)

أقامَ نهارَهُ يُلْقي ويَلقَى فلما زالَ قرصُ الشمسِ زالا
مكث نهاره يقذفهم ويتلقى قذائفهم، فلما غربت الشمس غربت حياته

فَكُفِّنَ بالصَّوارمِ والعَوالي وغُيِّبَ حيثُ جالَ وحيثُ صالا
فكفن بالصوارم (بالسيوف) والعوالي (الرماح)، ودفن حيث جال وصال

٢٤٦ اللؤلؤة لمن نالها

قال شوقي في تمثال نهضة مصر (١٩٢٨):

وَرُبَّ امرِئٍ لم تَلِدْهُ البلادُ نَماها ونَبَّهَ أَنسالَها
رب رجل لم يولد في البلاد، ولكنه نماها (أنماها) وجعل أنسالها (أبناءها الأصليين) نابهين

وليسَ اللآلئُ مِلْكَ البُحورِ ولكنَّها مِلْكُ مَنْ نالَها
واللآلئ ليست ملكاً للبحر، بل يملكها من غاص ونالها، ومصر ملكها محمد علي وهو غريب عنها

وما كَعَلِيٍّ ولا جيلِهِ إذا عَرَضَتْ مصرُ أجيالَها
وليس يوجد كمحمد علي وجيله بين أجيال مصر المتعاقبة

بنوْا دولةً مِنْ بناتِ الأسِنَّـ ـةِ لم يشهدُ النيلُ أمثالَها
بنوا دولة من بنات الأسنة (ذوات الأسنة من سيوف ورماح) لم يشهد وادي النيل مثلها

٢٤٧ في الليل لما خلي

قال شوقي (١٩٢٩):

فــي الِّـلـيــلْ لـمَّــا خِـلِـي إلّا مِــنِ الــبــاكـــي
والـنـوحْ عـلـى الـدّوحْ حِـلِـي لِـلـصّــارِخِ الـشــاكـــي
مــا تِـعْـرَفِ الـمِـبْـتِـلـي فــي الـروضْ مِـنِ الـحـاكـي

عندما يخلو الليل من كل شيء إلا من عاشق يبكي، وعندما يحلو النوح على الدوح (الشجر) لمن يصرخ بشكواه، لا تعرف عندئذ المبتلي (المبتلَى) من الحاكي (المردد للصوت تقليداً ومحاكاة)

سـكـونْ وِوَحْـشَـة وظُـلْـمَـة ولـيـلْ مـا لــوشْ آخِـرْ
ونِـجـمَـةْ مـالِـتْ، ونِـجْـمَـةْ حِـلْـفِـتْ مـا تِـتَّـاخِـرْ
دا النومْ يا ليلْ نِعْمَةْ يِحْلَمْ بِها السَّاهِرْ

سكون الليل ووحشته، ونجمة مالت للمغيب، وأخرى حلفت ألا تِتَّاخر (تتزحزح)

الـفـجـرِ شَـقْـشَـقْ وفـاضْ عـلـى سـوادِ الـخَـمـيـلَـةْ
لـمَـحْ كَـلَـمْـحِ الـبـيـاضْ مِـنِ الـعـيـونِ الـكـحـيـلَـةْ
والـلـيـلْ سَـرَحْ فـي الـريـاضْ أَدْهَـمْ بِـغُـرَّةْ جَـمـيـلَـةْ

شقشق الفجر على الخميلة (البستان) التي كانت سوداء، لمح الفجر (أبرق) مثل بريق بياض العين الكحيلة (السوداء)، وأما الليل فسرح (مشى) في البستان كأنه حصان أدهم (داكن) ولكن له غرة بيضاء جميلة

هِـنـا نُـواحْ ع الـغُـصـونْ وهْـنـاكْ بُـكـا فـي الـمـضـاجِـعْ
لـيـهْ تِـشْـتِـهـي الـنـومْ عُـيـونْ وِعْـيـونْ سَـوالـي هَـواجِـعْ
وِدوحْ غِـرِقْ فـي الـشُّـجـونْ ودوحْ مـا شـافـشِ الـمَـواجِـعْ

نواح على الغصون وبكاء في الأسرَّة. ولماذا تسهر عيون حتى لَتشتهي النوم، بينما عيون أخرى سَوالٍ (سالية وناسية للهم) وهواجع (هاجعة نائمة)؟ ولماذا يكون هناك دوح (شجر) غارق في الشجون (الأحزان)، ودوح لم ير ما يوجع؟

يـا لـيـلْ أنـيـنـي سْـمِـعْـتُـهْ والـشـوقْ رِجِـعْ لـي وعـادْ
وكُـلِّ جَـرْحِ وْسـاعْـتُـهْ وكُـلِّ جَـرْحِ بـمـيـعـادْ
كَـمْ مِـنْ مِـفـارِقْ وَجَـعْـتُـهْ ونِـضْـوِ هَـجْـرِ وبِـعـادْ

يا ليل قد سمعت أنيني، وها قد عاد لي الشوق، وكل جرح له ساعته وميعاده، وكم هناك من شخص مفارق لحبيبه قد أصبته بالوجع، وكم هناك من نضو هجر وبعاد (مهزول بسبب الهجر)

٢٤٨ قتيل السم

قال شوقي في تأبين فوزي الغزي الدمشقي المتوفى عام (١٩٢٩) وقيل دست له زوجته السم:

طُبِعَتْ مِنَ السُّمِّ الحياةُ، طعامُها وشرابُها وهواؤُها المُتَنَشَّقُ

طبعت الحياة من السم فهذا هو طبعها، فطعامها وشرابها وهواؤها الذي نستنشقه سم

والناسُ بينَ بطيئِهِ وزُعافِهِ لا يَعلَمونَ بأَيِّ سُمَّيْها سُقُوا

والناس بين السم البطيء المفعول والزعاف (السريعِهِ) لا يعلمون أي سم تناولوا

أما الوَلِيُّ فقد سقاكَ بِسُمِّهِ ما ليسَ يَسْقيكَ العدوُّ الأزرقُ

لكن الوليّ (الصديق) سقاك يا فوزي الغزي بسمه كما لا يسقيك العدو الأزرق (الشديد العداوة)

٢٤٩ كالعمي حول سفرة

قال شوقي (١٩٢٩):

لستُ بِناسٍ ليلةً مِنْ رَمَضانَ مَرَّتِ

فلمْ يَرُعْني غيرُ صو تِ كمُواءِ الهِرَّةِ

لم يَرُعني: لم يُخفني

كَرَّتْ، ولكنْ كالجَبا نِ قاعِداً، وفَرَّتِ

كرَّت (هجمت) لكنْ وهي قاعدة كما يفعل الجبان، ثم فرت

لم أجْزِها بِشِرَّةٍ عنْ غَضَبٍ وشِرَّةِ

لم أجزها (أقابلها) بشرة (بشر) عما فعلته وهو الغضب والشر

ولا رأيتُ غيرَ أمٍّ بالبَنينَ بَرَّةِ

ولم أر فيها سوى أم بارة بأبنائها

رأيتُ جِدَّ الأُمَّها تِ في بِناءِ الأُسْرَةِ

رأيت فيها مثابرة الأمهات في بناء الأسرة

فلم أَزَلْ حتى اطمأنَّ جأشُها وقَرَّتِ

فظللت معها حتى اطمأن جأشها (قلبها)، وقرت (هدأت)

أتيتُها بِشَرِبَةٍ وجِئْتُها بِكِسْرَةِ

جئتها بشربة وكسرة خبز

فـاضْـطـجَـعَـتْ تـحـتَ ظِـلا لِ الأمـــنِ واسْـــبَـــطَـــرَّتِ

فاضطجعت (استلقت) في ظل الأمن واسبطرت (تمددت)

وقَـــــــرَأَتْ أورادَهـــــــا ومـــــا دَرَتْ مـــــا قَـــــرَتِ

وهمَّرت تهميراً كأنها تقرأ أوراداً (أدعية)، وهي لا تدري ما تقرأ

وسَـــرَحَ الـــصِّـــغـــارُ فـــي ثُـــدِيِّـــهـــا فَـــدَرَّتِ

وسرح (انساب) صغارها في ثديها (أثدائها) فدرت لهم اللبن

اخـــتَـــلَـــطُـــوا وعَـــيَّـــثُـــوا كـــالـــعُـــمْـــيِ حَـــوْلَ سُـــفْـــرَةِ

فاختلط واحدهم بالآخر وعيثوا (كَرْكَبوا وأفسدوا) كأنما هم قوم عميان حول سفرة (مائدة). ليس طريفاً فقط هذا التشبيه، بل جميل

٢٥٠ تلك الحياة وهذه أثقالها

قال شوقي في حفل تكريم السيد نصير بطل رفع الأثقال، وقد فاز بميدالية ذهبية في أولمبياد ١٩٢٨ بأمستردام في رفع الأثقال (١٩٣٠):

يـا قـاهـرَ الـغـربِ الـعـتـيـدِ مـلأتَـهُ بـثـنـاءِ مـصـرَ عـلـى الـشِّـفـاهِ جـمـيـلا

يا قاهر الغرب العتيد (المكين) ملأت هذا الغرب بالثناء (المديح) على مصر يتردد جميلاً على الشفاه

قـلَّـبْـتَ فـيـهِ يـداً تـكـادُ لِـشِـدَّةٍ في البأسِ، تَرْفَعُ في الفضاءِ الفِيلا

قلبت في الغرب يدك القوية التي تكاد لشدة البأس (القوة) ترفع الفيل في الهواء

إنَّ الـذي خـلـقَ الـحـديـدَ وبـأسَـهُ جـعـلَ الـحـديـدَ لِـسـاعـدَيْـكَ ذَلـيـلا

إن الله الذي خلق الحديد وبأسه (شدته) جعل الحديد يذل لقوة ساعديك. «.. وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد.. الآية» ٢٥ الحديد، وسيد نصير كان يرفع حديداً

قُلْ لـي نُـصَيْرُ، وأنـتَ بَرٌّ صـادِقٌ: أَحَـمَـلْـتَ إنـسـانـاً عـلـيـكَ ثـقـيـلا

قل لي يا سيد نصير وأنت البار الصادق: هل حملت إنساناً من الثقلاء؟

أَحَـمَـلْـتَ دَيْـنـاً فـي حـيـاتِـكَ مَـرَّةً أَحَمَلْتَ يوماً في الضُّلوعِ غَليلا

هل حملت دَيْناً؟ هل حملت في ضلوعك غليلاً (حقداً)؟

أَحَـمَـلْـتَ ظُـلْـمـاً مِـنْ قَـريـبٍ غـادرٍ أو كـاشِـحٍ بـالأمـسِ كـان خَـلـيـلا

أحملت ظلماً من قريب غادر، أو من كاشح (عدو يبطن العداوة) كان بالأمس لك من الأصدقاء؟

أَحَمَلْتَ مَنّاً، بالنهارِ مُكَرَّراً والليلِ، مِنْ مُسْدٍ إليكَ جَميلا

هل حملت منّاً (جميلاً في عنقك) يذكّرك به بالنهار والليل رجل مُسْدٍ (معطٍ) إليك جميلاً

أَحَمَلْتَ طُغْيانَ اللئيمِ إذا اغتَنى أوْ نالَ مِنْ جاهِ الأُمورِ قَليلا

هل حملت طغيان (تجبُّر) اللئيم إذا اغتنى أو صار وجيهاً بعض الشيء

أَحَمَلْتَ في النَّادي الغَبِيَّ إذا التقى مِنْ سامِعِيهِ الحمدَ والتَّبجيلا

هل حملت في النادي (في جماعة الناس) الغبي عندما يلاقي من السامعين الحمد والتبجيل؟

تلكَ الحياةُ، وهذهِ أثقالُها وُزِنَ الحديدُ بها فعادَ ضئيلا

تلك هي الحياة وأثقالها، وُزِن (قورن) الحديد بها فعاد (فصار) ضئيل الوزن.. أي تبين أنه خفيف بالقياس إلى الحياة

٢٥١ سلوا كؤوس الطِّلا

قيل كان شوقي يجالس أم كلثوم في حفل، فقدم لها كأس شراب، فرفعتها مجاملةً إلى شفتيها، لكن الكأس ما لامست فاها. وفي اليوم التالي ـ هكذا قالوا، وهم في قصصهم يحبون أن يجعلوا الأمر يحدث في اليوم التالي مباشرة، على أنني أميل لتصديق سائر القصة، وقد رواها رياض السنباطي قبيل وفاته في مقابلة مع تلفزيون الكويت ـ قدم لها شوقي قصيدته. وغنتها بعد موته بـ ١٤ سنة. ولشوقي غنت أم كلثوم تسع قصائد، غنتها كلها بعد وفاته:

سَلُوا كؤوسَ الطِّلا: هل لامسَتْ فاها واستخبِروا الرَّاحَ: هل مَسَّتْ ثناياها

اسألوا كؤوس الطلا (الخمر) هل لامست فم المحبوبة، واستخبروا (اسألوا) الراح (الخمر) هل مست ثناياها (أسنانها)

حديثُها السِّحْرُ، إلَّا أنَّهُ نَغَمٌ جَرَتْ على فَمِ داودٍ فغنَّاها

حديثها السحر، إلا أنه نَغَمٌ (أنغام) جرت على فم داود النبي صاحب المزامير

حمامةُ الأيْكِ مَنْ بالشَّجْوِ طارَحَها ومَنْ وراءَ الدُّجى بالشوقِ ناجاها

من ذا الذي طارح (بادل) حمامة الأيك (الشجر) بالشجو (الحزن)، ومن ذا الذي في الدجى (الليل) ناجاها (هامَسَها) بالشوق

يا جارةَ الأيْكِ، أيامُ الهوى ذهبتْ كالحُلْمِ، آهاً لأيامِ الهوى آها!

أيتها الحمامة يا جارة الأيك (يا ساكنة الشجر) لقد ذهبتْ أيام الهوى كأنها الحلم

٢٥٢ رثاء المويلحي

قال شوقي يرثي محمد المويلحي، وكان شوقي سخر منه في قطع عديدة لا تحمل توقيعاً قبل ثلاثين سنة ـ انظر إحداها في أشعار سنة ١٩٠٢ ـ ذلك أن المويلحي نشر نقداً لاذعاً لشوقي، ولكن شاعرنا عاد ووافاه بالهدايا واسترضاه، على عهدة العقاد في «الديوان»، (١٩٣٠):

رُبَّ سَجْعٍ كَمُرْقِصِ الشِّعْرِ لمَّا ... يختلفْ لحنُهُ ولا إيقاعُهْ

رب سجْع (سَجَع: نثر مقفى) كالشعر المرقص (المطرب جداً) لما (لم) يختلف لحنه ولا إيقاعه عن الشعر لجودة الأسجاع. في تقسيم الناقد القديم للشعر فإن «المرقص» منه في الطبقة العليا

هُوَ فيهِ بديعُ كلِّ زمانٍ ... ما بديعُ الزمانِ! ما أسجاعُهْ!

المويلحي في هذا السجع بديع الأزمنة كلها، فما قيمة بديع الزمان الهمذاني، وما قيمة أسجاعه بالمقارنة!

صارَعَ العيشَ حِقبةً، ليتَ شِعري ... ساعةَ الموتِ كيفَ كان صراعُهْ

والذي تَحْرِصُ النفوسُ عليْهِ ... عالمٌ باطلٌ قليلٌ متاعُهْ

٢٥٣ باكيات على الحسين الفواطم

قال شوقي في رثاء الشريف حسين الذي مات في عَمَّان ودفن في القدس (١٩٣١):

لكَ في الأرضِ والسماءِ مآتِمْ ... قامَ فيها أبو الملائِكِ هاشِمْ

لك مآتم في الأرض والسماء، قام فيها يقبل العزاء أبو الملوك هاشم جد النبي، وأصل السلالة الهاشمية، وكان الشريف حسين كبير هذه السلالة في زمنه

قَعَدَ الآلُ للعزاءِ، وقامتْ ... باكياتٍ على الحسينِ الفَواطِمْ

قعد آل هاشم للعزاء، وقامت تبكي على الحسين نساء آل هاشم (فهن كلهن شبيهات فاطمة الزهراء بنت رسول الله)

قمْ تَحَدَّثْ أبا عليٍّ إليْنا ... كيفَ غامرتَ في جِوارِ الأَراقِمْ

قم يا أيها المتوفى، يا أبا علي، وتحدث إلينا كيف خاطرت وتعاملت مع الإنجليز الأراقم (الأفاعي)

لم تُبالِ النُّيوبَ في الهامِ خُشْناً ... وتعلَّقْتَ بالحَواشِي النَّواعِمْ

ولم تبال (لم تهتمّ) بالنيوب البارزة الخَشنة في الهام (في رؤوسهم)، وتعلقت بالحواشي (الجوانب) الناعمة. أي نظرت إلى رقة كلامهم لا إلى لؤم فعلهم، وتقول العرب «هو رقيق الحاشية» إذا كان حلو الكلام ليناً

قـد رَجَـوْنـا مِـنَ الـمـغـانِـمِ حـظًّـاً   وَوَرَدْنـا الـوَغـى فَـكُـنَّـا الـغَـنـائِـمْ

رجونا أن ننال شيئاً من الغنائم، ووردنا الوغى (الحرب) فكنا نحن الغنائم. يشير إلى حرب الحسين للدولة العثمانية في أواخر الحرب العالمية الأولى، وكيف وعدوه باستقلال العرب وخانوه، وفي كلام شوقي تشف خفي، فقد كان نصيراً للدولة العثمانية حتى سقوطها

٢٥٤ يا شراعاً وراء دجلة يجري

قال شوقي يشيد بالعراق والملك فيصل، وكتب هذه الأبيات ليغنيها محمد عبد الوهاب أمام فيصل في بغداد (١٩٣١):

يـا شـراعـاً وراءَ دِجـلَـةَ يَـجـري   فـي دُمـوعـي، تـجـنَّـبَـتْـكَ الـعَـوادي

يا شراعاً (مركباً) يجري وراء نهر دجلة في نهر من دموعي، أدعو أن تتجنبك العوادي (المصائب). يقول كمال النجمي إن محمد عبد الوهاب كان عليلاً عندما أزمع السفر إلى بغداد ملبياً دعوة الملك فيصل، فيقول له شوقي أيها الشراع الذي سيجري، لكن ليس في دجلة بل وراء دجلة بقليل في نهر آخر من دموعي، أدعو لك أن تتجنبك المصائب

سِرْ عـلـى الـمـاءِ كـالـمـسـيحِ رُوَيْـداً   واجْـرِ فـي الـيَـمِّ كـالـشُّـعـاعِ الـهـادي

سر على الماء أيها المركب كالمسيح (وكان من معجزاته السير على الماء) رويداً (متمهلاً) واجرِ في البحر كشعاع يهدي الناس

وأْتِ قـاعـاً كَـرَفْـرَفِ الـخُـلْـدِ طِـيـبـاً   أو كَـفِـرْدَوْسِـهِ بَـشـاشَـةَ وادِ

وأت (جِئ) قاعاً (سهلاً) كأنه في طيبه رفرفُ الخلد (الأغصان المتدلية في الجنة)، وكأنه في بشاشة واديه فردوس الخلود

قِـفْ تـمـهَّـلْ وخُـذْ أمـانـاً لِـقـلـبـي   مِـنْ عـيـونِ الـمَـهـا وراءَ الـسَّـوادِ

قف أيها المركب وتمهل، وخذ الأمان لقلبي من عيون المها (الجميلات الشبيهات ببقر الوحش) وراء السواد (بلاد العراق)

والـنُّـواسـيُّ والـنَّـدامـى! أَمِـنْـهُـمْ   سـامـرٌ يـمـلأُ الـدُّجـى أو نـادِ

وماذا عن النواسي (أبي نواس) والندامى؟ هل منهم سامر (مجلس سمر) أو نادٍ (محفل) يملأ الليل

خَـطَـرَتْ فـوقَـهُ الـمِـهـارةُ تـعـدو   فـي غُـبـارِ الآبـاءِ والأجـدادِ

خطرت (مشت) فوق هذا السهل المهارة (الخيل) تعدو في غبار الآباء والأجداد (أي مصاحبة لهم، وغير مقصِّرة عن إنجازاتهم)

أمـةٌ تُـنـشـئُ الـحـيـاةَ، وتَـبـنـي   كـبِـنـاءِ الأُبُـوَّةِ الأمـجـادِ

هذه أمة تنشئ حياة لنفسها، وتبني كما بنى الأبوةُ (الآباء) الأمجادُ (الماجدون/ ذوو المجد)

تـحـتَ تـاجٍ مِـنَ الـقـرابـةِ والـمُـلْـ ـكِ عـلـى فَـرْقٍ أريَـحِـيٌّ جـوادِ

تبني الأمة نفسها تحت تاج عماده القرابة (قرابة فيصل للنبي فهو من آل هاشم) والملك، والتاج على فرق (رأس) أريحي (كريم عطوف) جواد (كريم)

مَلِكُ الشطِّ والفُراتيْنِ والبَطْـ ـحاءِ، أعْظِمْ بفيصلٍ والبلادِ

إنه ملك الشط (شط العرب) والفراتين (دجلة والفرات)، والبطحاء (مكان في مكة)، فما أعظم فيصلاً والبلاد!

٢٥٥ القدس

قال شوقي في تأبين محمد علي، أحد زعماء المسلمين في الهند، وتوفي في القدس، (١٩٣١):

بيتٌ على أرضِ الهُدى وسمائِهِ الـحـقُّ حـائـطُـهُ وأُسُّ بـنـائِـهِ

هذا البيت (المسجد الأقصى) قائم على أرض الهدى وفي سماء الهدى (الحديث النبوي: أقرب بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس)، والحق جداره وأساسه

«الفتحُ» من أعلامِه، والطُّهرُ مِنْ أوصافِه، والقدسُ من أسمائِهِ

كلمة «الفتح» علم على المسجد الأقصى (اسم مقصور عليه)، والطهر من أوصافه، و«القدس» من أسمائه

٢٥٦ بلبل لم يتح أمثاله للخلفاء

قال في ذكرى سيد درويش (١٩٣١):

بُـلْـبُـلٌ إسـكَـنْـدَرِيٌّ، أيْـكُـهُ ليس في الأرضِ، ولكنْ في السماءْ

سيد درويش بلبل من الإسكندرية أيكُهُ (شَجَرُهُ) في السماء

ربـمـا استَـلهَـم ظـلـمـاءَ الـدُّجـى وأتى الكوكَبَ فاستوحى الضِّياءْ

تراه يستلهم ظلام الدجى (الليل) يقعد يلحن في الليل، ويأتي الكوكب فيستوحي من الضياء فناً. وكان لسيد درويش ألحان عتيقة الطراز كالأدوار العشرة التي منها «أنا هويت» وهي من شغل الليل، وكانت له ألحان تعج بحياة النهار ومشاغل الناس كالحلوة دي قامت تعجن

ورمـى أُذْنَـيْـهِ فـي نـاحـيـةٍ يخلِسُ الأصواتَ خلْسَ الببَّغاءْ

ويرمي أذنيه بعيداً يختلس الأصوات ليصوغ منها فنه كأنه الببغاء في جودة الاقتباس. وسيد درويش كان يختلس فنه من أصوات الناس ونداء الباعة، وكان رائداً في التعبير بالغناء عن نبض الشارع؛ فإن يكن ببغاء فببغاء الشعب

سيدَ الفنِّ! استرِحْ مِنْ عالَمٍ آخرُ العهدِ بنُعماهُ البَلاءْ

سيد درويش! يا سيد الفن! استرح من هذا العالم الذي آخر ما عهدناه فيه من النُّعمى (النعيم) كان بلاء، فحتى نعيم هذه الدنيا بلاء

لقدِ استخْلفتَ فنّاً نابغاً دَفَعَ الفنُّ إليهِ باللِّواءْ

لقد استخلفت (نصَّبت خليفة) فنّاً نابغاً (لفنانٍ نابغة/ ويعني عبد الوهاب) دفع إليه الفن بلواء القيادة

إنَّ في مُلْكِ فؤادٍ بُلبُلاً لم يُتَحْ أمثالُهُ للخلفاءْ

إن في ملك فؤاد (في مصر) بلبلاً (عبد الوهاب) لم يحظ بمثله الخلفاء. وكان للخلفاء العباسيين خاصة مغنون مشهورون حدثنا عنهم كثيراً صاحب «الأغاني»

يَستحي أنْ يهتفَ الفنُّ بهِ وجمالُ العبقريَّاتِ الحياءْ

هذا البلبل (عبد الوهاب) يستحي أن يهتف فن الشعر بمدحه، وجمال العبقرية ذلك الحياء الملازم لها

٢٥٧ عقيدة وجهاد

قال شوقي بيتاً ليكون شعاراً لجريدة الجهاد لتوفيق دياب ١٩٣١:

قِفْ دونَ رأيِكَ في الحياةِ مُجاهِداً إنَّ الحياةَ عقيدةٌ وجِهادُ

دون رأيك: وراء معتقدك

٢٥٨ شجرة نسيتْها الشعراء

وقال يصف النخيل بين المنتزه وأبي قير، والمنتزه حي بالإسكندرية، (١٩٣١):

أرى شَجَراً في السَّماءِ احتجبْ وشقَّ العَنانَ بِمَرأىً عَجَبْ

أرى شجراً عالياً كأن رؤوسه تختفي في السماء، وقد شق العَنان (السحاب) في منظر عجيب

مآذنُ قامتْ هُنا أو هُناكَ ظواهرُها دَرَجٌ مِنْ شَذَبْ

هي كالمآذن، وفي ظواهرها (خارجها) دَرَج من شذب (قشور). والمآذن درجها من باطنها في العادة

وليس يُؤذِّنُ فيها الرجالُ ولكنْ تَصيحُ عليها الغُرُبْ

ومآذننا هذه لا يؤذن فيها المؤذن، بل تصيح عليها الغُرُب (الغربان)

وباسِقةٍ مِنْ بَناتِ الرِّمالِ نَمَتْ ورَبَتْ في ظِلالِ الكُثُبْ

ورب باسقة (عالية) من بنات الرمال (نخلة)، نمت وكبرت في ظلال الكثب (كثبان الرمل)

تَطُولُ وتَقْصُرُ خلْفَ الكثيبِ　　إذا الريحُ جاءَ بِهِ أوْ ذَهَبْ

أنت تراها طويلة ثم قصيرة خلف كثيب الرمل، بحسب الريح التي تحرك الكثيب. هذا معنى مصنوع. فلا نظن أن شوقي رأى كثيب الرمل يجيء ويذهب مع الريح فتطول النخلة وتقصر في عيني الرائي. لكنه وثب بخياله وصنع الصورة. وأي بأس في ذلك! قال مارون عبود عن شوقي: «وفيه من أبي تمام تصيده المعاني وأخذها عنوة إذا اقتضى الأمر».

وهذا هُوَ النخْلُ مَلْكُ الرِّياضِ　　أميرُ الحقولِ عروسُ العِزَبْ

هذا النخل ملك البساتين، وأمير الحقول، وعروس العزب (البيارات/ المزارع)

طعامُ الفقيرِ، وحَلوى الغَنيِّ　　وزادُ المسافرِ، والمُغْتَرِبْ

فيا نَخْلةَ الرَّمْلِ لم تَبخَلي　　ولا قَصَّرتْ نَخَلاتُ التُّرَبْ

فنخلة الصحراء لم تبخل، ونخلة التراب كنخيل الإسكندرية ما قصَّرت في العطاء

وأَعْجَبُ كيفَ طوى ذِكْرَكُنَّ　　ولم يَحْتفِلْ شعراءُ العربْ

أنا أعجب كيف طوى شعراء العرب ذكركن (أغفلوا ذكركن) أيتها النخلات

ألَيْسِ حَراماً خُلُوُّ القصائِـ　　ـدِ مِنْ وَصفِكُنَّ وعُطْلُ الكُتُبْ

عُطل الكتب: خلوها

٢٥٩ ركزوا رفاتك لواء

قال شوقي في رثاء عمر المختار، (١٩٣١):

رَكَزوا رُفاتَكَ في الرِّمالِ لِواءَ　　يَستنهِضُ الواديِ صباحَ مساءَ

ركز (غرس) الطليان رفاتك يا عمر المختار في الرمال لواءً (راية)، يستنهض (يثير) الوادي (بلدك) صباح مساء. و«الوادي» عند شوقي مرادف لمصر، فإذا قال «الوادي» فهو يعني مصر، وصارت على لسانه كأنها تعني «البلد».. كل بلد

يا وَيْحَهمْ! نصبوا مناراً مِنْ دمٍ　　يوحي إلى جيلِ الغدِ البَغْضاءَ

الويل لهم! نصبوا مناراً مضيئاً ولكنه من الدمِّ، وهو يوحي إلى الجيل الجديد البغضاء (الكراهية للمستعمر)

خُيِّرْتَ، فاخترتَ المبيتَ على الطَّوَى　　لَمْ تَبْنِ جاهاً، أو تَلُمَّ ثراءَ

اخترت المبيت على الطوى (الجوع)، ولم تصنع لنفسك جاهاً (رياسة)، ولا ثراء

إنَّ البطولةَ أنْ تموتَ مِنَ الظَّما　　ليسَ البطولةُ أنْ تَعُبَّ الماءَ

البطولة هي الموت عطشاً، وليس أن تَعُبَّ (تكرع) الماء

والمسلمونَ، على اختلافِ ديارِهِمْ، لا يملكونَ مع المُصابِ عَزاءَ

كل المسلمين لا يجدون ما يعزيهم (ينسيهم) المصاب (البلاء) بفقدك

في ذمَّة اللَّهِ الكريمِ وحفظِهِ جسدٌ ببُرْقَةَ وُسِّدَ الصحراءَ

ليكن في ذمة (حفظ) الله هذا الجسد الذي وُسِّد (سُجِّيَ/ومدد) في الصحراء ببرقة (في ليبيا)

بطلُ البداوةِ لم يكنْ يغزُو على تَنْكٍ، ولمْ يَكُ يَركبُ الأجواءَ

لم يكن بطل البداوة يغزو على تنك (دبابة)، ولا في طائرة

لكنْ أخو خيلٍ حَمَى صَهَواتِها وأدارَ مِنْ أعرافِها الهيجاءَ

لكنه كان أخا خيل (صاحب خيل) حمى صهواتها (ظهورها)، وأدار من أعرافها (شَعْر رؤوسها) الهيجاء (الحرب). هنا صورة زعيم على صهوة جواده ويده تداعب شعر عنق الفرس، واليد الأخرى توجه جنوده في الحرب، عَصَرَ شوقي هذا في أربع كلمات

لبَّى قضاءَ الأرضِ أمسِ بمُهجةٍ لمْ تخشَ، إلَّا للسماءِ، قضاءَ

لبى (أجاب) حكم القضاء الأرضي فجاد بمهجته (قلبه) التي لم تكن تخشى إلا من قضاء السماء. أرأيت كيف يداعب شوقي كلمات اللغة! ترى قضاء الطليان الجائر بشنق عمر المختار واقفاً موقف مقارنة مع قضاء الله، وترى عمر المختار يلبي قضاء الطليان فيقدم مهجته شهيداً. وهو لا يخاف القضاء الذي يلبي دعوته بل يخاف قضاء الله، كل هذا في كلمات قلائل، وهذا الإيجاز سر من أسرار البيان، وقد تعمدت أن أنثر لك البيت بكلام كثير حتى يقف كلامي، مظلوماً، وقفة مقارنة مع بيت شوقي، ولتعرف ما في الإيجاز من جمال

وأتى الأسيرُ يجُرُّ ثِقْلَ حديدِهِ أسَدٌ يجَرِّرُ حيَّةً رقْطاءَ

جاء الأسير يجر ثقل قيوده، كأنما هو الأسد يجر أفعى رقطاء (مرقطة/ مُبَقَّعَة)

سبعونَ لو ركبتْ مناكبَ شاهِقٍ لترجَّلتْ هَضَباتُهُ إعياءَ

سبعون عاماً، هي عمر الشهيد، لو اعتلت مناكب (أكتاف) شاهق (جبل) لترجلت (لهبطت) هضبات الجبل تعباً من ثقل هذه السنوات

يا أيُّها الشعبُ القريبُ، أسامعٌ فأصوغَ في عُمَرَ الشهيدِ رثاءَ

يا شعب ليبيا القريب منا، هل تسمعني حتى أرثي شهيدك

ذهب الزعيمُ، وأنت باقٍ خالدٌ فانقُدْ رجالَكَ، واخترِ الزُّعماءَ

الزعيم ذهب وأنت (الشعب) باق، فانقُد (تفحَّص) رجالك، واختر الزعماء

وأرِحْ شيوخَكَ مِنْ تكاليفِ الوَغى واحملْ على فتيانِكَ الأعباءَ

واترك الشيوخ (المسنين) ليستريحوا من تكاليف (مشقات) الوغى (الحرب)، واحمل الأعباء (المشكلات) على الفتيان

٢٦٠ يا منصف الموتى من الأحياء

قال في رثاء حافظ إبراهيم (١٩٣٢):

قـدْ كـنـتُ أُوثِـرُ أنْ تـقـولَ رثـائـي   يـا مـنـصـفَ الـمـوتـى مِـنَ الأحـيـاءِ

كنت أوثر (أفضِّل) أن أموت قبلك فتقول أنت رثائي يا حافظ، يا من أنصف الموتى من ظلم الأحياء، لكثرة ما رثى حافظ الموتى

لكنْ سَبَقْتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ   قَـدَرٌ، وكـلُّ مَـنِـيَّـةٍ بـقـضـاءِ

لكنك سبقت، وكل سلامة تطول فهي بقدر من الله، وكل منية (موت) فبقضاء الله

بـالأمـسِ قـد حَـلَّـيْـتَـنـي بـقـصـيـدةٍ   غـرَّاءَ تُـحـفَـظُ كـالـيـدِ الـبـيـضـاءِ

بالأمس (قبل خمس سنوات عند تكريمي أميراً للشعراء) حليتني (زينتني) بقصيدة غراء (باهرة) حفظتُ لك فيها الجميل فهي يد بيضاء (إحسان منك)

غِيظَ الحسودُ لها، وقمتُ بشكرِها   وكـمـا عـلـمـتَ مـودَّتـي ووفـائـي

غيظ (اغتاظ) الحسود منها، وقمتُ أنا بواجب الشكر، وأنت تعلم مودتي ووفائي

قلمٌ جرى الحِقَبَ الطوالَ، فما جرى   يـومـاً بـفـاحـشـةٍ ولا بـهـجـاءِ

قلمك جرى الحقب (المُدَد) الطويلة ولكنه لم يكتب فاحشة ولا هجاء

يا حافظَ الفصحى، وحارسَ مجدِها   وإمـامَ مـن نَـجَـلَـتْ مِـنَ الـبُـلَـغـاءِ

أنت حفظت الفصحى وحرست مجدها، وأنت إمام (زعيم) من نجلت (أنجبت) من البلغاء

جـدَّدْتَ أسـلـوبَ الـولـيـدِ ولـفـظَـه   وأَتـيْـتَ لـلـدُّنـيـا بـسِـحْـرِ الـطَّـائـي

جددت أسلوب الوليد (البحتري) ولفظه، وجئتنا ببيان ساحر كبيان الطائي (أبي تمام)

كَـمْ ضِـقْـتَ ذرْعـاً بـالـحـيـاةِ وكـيْـدِهـا   وهـتـفـتَ بـالـشَّـكـوى مِـنَ الـضَّـرَّاءِ

كم كنت تعبر عن ضيقك بالدنيا ومكرها، وكم هتفت (جاهرت) بالشكوى من الضراء (البلوى)

فَـهَـلُـمَّ فـارِقْ يـأسَ نـفـسِـكَ سـاعـةً   واطـلُـعْ عـلـى الـوادي شـعـاعَ رجـاءِ

فهيا اترك اليأس ساعة، واطلع على مصر شعاعاً من رجاء في مستقبل زاهر

خـلَّـفْـتَ فـي الـدُّنـيـا بـيـانـاً خـالـداً   وتـركْـتَ أجـيـالاً مـن الأبـنـاءِ

تركت في الدنيا بياناً خالداً، وأجيالاً ممن هم أبناؤك في البلاغة

٢٦١ نغمة المهد

قال شوقي (١٩٣٢):

ألحانُ كلِّ جماعةٍ وغناؤُهُمْ ... لغةٌ ونَجوى بينَهُمْ وحِوارُ

الألحان والأغاني في كل شعب لغة أخرى ونجوى (حديث هامس) فيما بينهم وحوار

لا تعشقُ الآذانُ إلَّا نَغْمَةً ... كانتْ عليها في المُهودِ تُدارُ

الأذن لا تعشق إلا النغمات التي كانت تدور عليها (تسمعها) في المهد (في الطفولة). وهذه فكرة عميقة لشوقي لا نظنه أخذها من كتاب. فهو رجل سميع عرف ألحان مصر في عهد الحامولي ومحمد عثمان وأم كلثوم، وصنع من ربيبه محمد عبد الوهاب طاقة موسيقية مثقفة أهداها لأجيال من العرب من بعده. ثم سافر شوقي إلى فرنسا وعاش سنوات وسمع موسيقاهم. وظل يسافر إليها ـ مصطحباً عبد الوهاب لاحقاً ـ وظل يعيش على زادين موسيقيين: زادٍ من الشرق وزادٍ من الغرب. كان يحب موسيقى الغرب، لكن العشق ظل للموسيقى التي سمعها في المهد. ألا ترى الصبي في بلدنا يأكل مخلل الخيار المالح من يد أمه، ثم يسافر إلى أوروبا ويتغرب نصف قرن يقضيه وهو يتفحص الرقعة الملصقة على مرطبانات المخلل في السوبرماركتات بحثاً عن مخلل مصنوع بالملح لا بالسكر؟ فكيف الحال بالموسيقى التي هي ألصق بالنفس. واليوم حالنا أعجب وأعقد. فالموسيقى الغربية صارت تعطى لأطفالنا في المهد، أو في المدارس التي تحتقر اللغة العربية والتي صار يذهب إليها أبناء الأغنياء. ودخلنا مرحلة متقدمة في بيع نفوسنا للغرب. ونشأ عندنا ناس يسخرون من مفردات موسيقانا الشرقية. منذ الخمسينات بدأوا بهذا، وحذروا من «ربع الصوت» كأنه الطاعون، وقالوا إنه سبب الرخاوة والميوعة في موسيقانا. وما لربع الصوت؟ على مقام الراست العامر بربع الصوت مجَّد السنباطي مصر تمجيداً في «وقف الخلق»، وعليه أيضاً غنى عبد الوهاب «أخي جاوز الظالمون المدى» و«يا سماء الشرق»، وهما لحنان فيهما عظمة واستنهاض

٢٦٢ وجد الرعية والرعاة نياما

قال شوقي يندد بالاحتلال (١٩٣٢):

أَعطى العهودَ وأقسَمَ الأقساما ... ألَّا يَطولَ مُقامُهُ فأقاما

عاهد المستعمر الإنجليزي مصر وأقسم لها ألا يطول مقامه، ولكنه أقام (مكث)

خمسونَ عاماً في البلادِ يسوقُها ... بالعُنفِ عاماً والهَوادَةِ عاما

خمسون عاماً (١٨٨٢ ـ ١٩٣٢) قضاها الإنجليز في مصر يسوقونها بالعنف عاماً وبالهوادة (اللين) عاماً

مستعمرٌ جعلَ الخِلافَ ذَريعةً ... ليَهُزَّ رُمْحاً أوْ يَسُلَّ حُساما

مستعمر اتخذ من الخلافات الداخلية ذريعة (حجة) ليهز لنا الرمح ويسل علينا السيف

لـمَّـا أتـى الـواديَ وعـبَّـأَ جـيـشَـهُ   وَجَـدَ الـرعِـيَّـةَ والـرُّعـاةَ نِـيـامـا

لما جاء المستعمر وادينا وعبأ جيشه زاحفاً وجد الرعية والحكام نائمين. بل كان في مصر من أصرَّ على عدم النوم آنذاك: عدو شوقي اللدود أحمد عرابي

لقد هجا شوقي عرابي هجاء مراً لمخالفته الخديوي توفيقاً وكان والد شوقي من حاشية الخديوي. وشمت شوقي بعرابي لهزيمته أمام الإنجليز في معركة التل الكبير (وكان شوقي آنذاك في الرابعة عشرة من العمر). وظل شوقي على موقفه حتى بعد عودة عرابي من المنفى. والآن يقر شوقي بأن الراعي (توفيقاً) كان نائماً. أما عرابي، أقر شوقي أم لم يقر، فهو الذي قاد جيش مصر برغم أنف الخديوي ليقف وقفة عز ومجد وليقدم ١٤٠٠ شهيد، ويقتل ٥٥٠ من الغزاة، وليعلن للأجيال اللاحقة أن مصر لم تُستَبح رخيصة، وليكون مناراً

يـا أيُّـهـا الـجـيـلُ الـذي يَـبـنـي غـداً   كُـنْ فـي بـنـائِـكَ حـازِمـاً مِـقْـدامـا

مقدام: شجاع

وإذا بَـنَـيْـتَ الـمـلـك فـابـنِ حـقـيـقـةً   لا تـبــنِ أوهــامــاً ولا أحــلامــا

٢٦٣ اطلب القطن وزاول غيره

قال شوقي في مشروع القرش، وهو آخر شعر قاله، ومات أحمد شوقي في ١٤ أكتوبر (١٩٣٢):

اجمَـعِ الـقِـرْشَ إلـى الـقـرشِ يَـكُـنْ   لَـكَ مِـنْ جَـمْـعِـهِـمـا مـالٌ لُـبَـدْ

لبد: كثير

اطـلـبِ الـقـطـنَ، وزاوِلْ غـيـرَهُ   واتـخـذْ سـوقـاً إذا سـوقٌ كَـسَـدْ

اطلب القطن (اسع في إنتاجه)، وزاول (مارس) إنتاج محاصيل أخرى أيضاً، فهذا يفتح لك سوقاً بديلة إذا كسدت سوق القطن

نـحـنُ، قـبـلَ الـقُـطْـنِ، كُـنَّـا أمـةً   تـهـبِـطُ الـوادي وتَـرعـى وَتَـرِدْ

كنا قبل أن يزرع بمصر القطن أمة تهبط وادي النيل وترعى الأنعام فيه وترد (تستقي الماء). لم يكن للقطن شأن كبير في مصر القديمة، وأصبح سلعة تجارية مهمة، تغني الفلاح أو تكسره بحسب السوق العالمية للقطن، منذ عهد محمد علي

فهرس القوافي
(القافية فرقم القصيدة)

حافظ إبراهيم

(١٨٧١م - ١٩٣٢م)

هيأتُ «عناصر الموضوع».. أو قل رؤوس الأقلام، وضبطت التواريخ، وقلت: أكتب مقدمة لهذه الأشعار التي انتخبتها من ديوان حافظ إبراهيم. ثم رميت بورقة العناصر جانباً. وأغلقت الكتب التي قرأتها عن حافظ إبراهيم، وأعدت ديوانه إلى الرف. وقلت في نفسي: أحدثك عنه حديثاً، فهذا أروح لي ولك.

وها أنت تراني متعثراً أبحث عن طرف الخيط.

غاظني حافظ، وقد عدت إليه الآن بعد سنوات كثيرة من قراءتي الأولى لديوانه. انتخبت له الأبيات المشهورة، والأبيات الجميلة، والأبيات التي تعبر عن حياته وشخصيته، ورجعت إلى ما انتخبت فازددت غيظاً.

غاظني في الأولى كثرة ما في ديوانه من القصائد المغسولة التي ليس فيها بيت يلفتك، وغاظني في الثانية أنني رأيت مختاراتي التي ضمت خير أبياته مملوءة بالحَشَف، وكان عليَّ أن أعود فأنحي منها ما لم أعد أراه جيداً.

ثم إن حافظاً غاظني مرة ثالثة لأنه خدعني بقعقعةٍ في شعره تحجب عن المرء ما في الشعر من سخف أو إحالة أو تكرار غير نافع، أو تكرار ضار بالمعنى.

وبدأت أشحذ أسناني. قلت في نفسي: أنا دائماً أقول إن الشاعر بجيده لا برديئه، وها هو أخونا في الله حافظ إبراهيم قد دسَّ لي ضمن ما كنت حسبته «جيده» أبياتاً رديئة غير أن عليها طلاء خالباً. فلأخرج عن سياستي مع شعرائي، ولأشهر على حافظ سكين التعريق. ثم عدل بي عن هذه الفعلة شيئان وشيء.

أول الشيئين أنني قرأت كتاب المازني الذي وضع فيه حافظاً على السفود. والسفود سيخُ شيِّ اللحم، وكان أخلق بنا أن نقول «وضع السفود في حافظ واشتواه»، ولكن الرافعي شاء أن يكون التعبير «على السفود»، فهو عليه!

وثانيهما أنني رأيت حشداً من الأساتيذ قد سرقوا نقدات المازني ونسبوها لأنفسهم الصغيرة، وسلخوا عبارات كاملة من المازني وزينوا بها صفحات المسوخ التي أصدروها. لا، لم يستفرغ المازني كل سفاسف شاعرنا. ولكنني، لو مضيت في عزمتي السفودية، سأكون مضطراً إلى انتقاد بعض ما انتقده الرجل، فهل أفعل ما فعله الأساتيذ؟

والشيء الثاني.. الشيء الثاني في الواقع هو ذلك الذي صنعه الأساتيذ. لكن بقي شيء آخر.. ثالث، وهو الأهم.

الشيء الثالث الذي منعني من تعقُّب ما وقع فيه حافظ من إحالات وركاكات هو أن شاعرنا كان يكتب للأذن لا للعين.

قرأت وصفاً جميلاً كتبه عبد الرحمن صدقي لحفل ألقى فيه حافظ قصيدة في تكريم يعقوب صروف ونبيه فارس. وصف صدقي إقبال حافظ على الجمهور، بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وهامته الكبيرة. ووصف إيماءاته «التمثيلية» وصوته الفخم وإلقاءه الأخاذ، وتكراره بعض الأبيات قبل أن يمضي في سائر القصيدة، فرأيت مصداق ما قاله كثيرون من أن حافظاً كان يمتلك مهارة كبيرة في الإلقاء. ثم قرأت ما كتبه طه حسين عن سؤاله حافظاً عن عبارة «جثا قبرُه» التي وردت في مطلع قصيدة رثى فيها مصطفى كامل (أيا قبرُ! هذا الضيف آمال أمةٍ/ فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا)، فكيف للقبر أن يجثو على ركبتيه؟ وردَّ حافظ: «دعني من نقدك وتحليلك. ولكن، حدثني أليس يحسن وقع هذا البيت في أذنك؟ أليس يثير في نفسك الحزن؟... قال طه: ولكن. فقال حافظ: دعني من لكن، واكتف مثلي بهذا».

الرجل يستعمل اللغة القديمة، والأساليب العتيقة، ويتكلف في سبيل ذلك ما يتكلف، ويخطئ، ويحيل، ولكنه ينظم ناصباً أذنيه يسمع ما ينظمه بآذان جمهوره. والجمهور غفور للشاعر رحيم به إن هو أحسن سوق القضية بمجملها ناثراً في أثناء الأبيات درراً قليلة وسط حشد من العبارات ذات الوقع الفخيم، وليس مهماً بعد ذلك إن كانت فيها قبور جاثية.

قررت أن آخذ حافظ إبراهيم على بعضه. وفعلت. وشرحت ما اخترته من أبياته وأنا مغيظ محنق، لكنني كففت لساني عن انتقاده إلا ما ندر. كان في نظمه بوهيمياً كما كان في سلوكه منذ أن ترك الدرسة يافعاً إلى أن مات.

كان حافظ شاعراً. وملأ بشعره الأندية. وعاشت له أبيات، وقصائد كاملة أيضاً، ظل الناس يرددونها. لم يكن رجل فكر، ولا رجل سياسة، وأزيد وأقول ولا وطنياً مناضلاً. كان يحب وطنه، وهذه ليست فضيلة، فكلنا يحب وطنه. وكان يفكر في رفعة وطنه كثيراً، ويتألم لأن نهضة بلده مصر لم تكتمل، بل لقد انتكست. ولعل في هذا بعض الرد على قوم يزعمون أن العهد الملكي بمصر قبيل ثورة ١٩٥٢ كان عهد نهضة مباركة وكبيرة، وأن حركة الضباط أجهضت هذه النهضة. في شعر حافظ، مأخوذاً في مجمله ـ ومضافاً إليه شعر شوقي ـ مجموعة كبيرة من القرائن على أن مشاعر أهم شاعرين في تلك الحقبة كانت مشاعر أسىً على نهضة كانت في عصر محمد علي، وخفتت قليلاً ثم كانت تريد أن تستمر في عهد إسماعيل فأجهضتها الأمم الأوروبية، ثم بالاحتلال الإنجليزي ١٨٨٢ بدأ الانحسار، وظل متواصلاً.

من حق أي مؤرخ ـ مصرياً أو غير مصري ـ أن ينتقد حركة ضباط ٥٢، ومن حقه أن يفضل على مؤسسات حكم العسكر آنذلك المؤسسات الأشبه بالديمقراطية التي كانت في العهد الملكي، فأما تصوير العهد الملكي على أنه كان نهوضاً متصلاً، فهذا عكس الحقيقة.

رأى كثيرون حافظاً وطيب قلبه، ووفاءه لأصدقائه ولمن أحسنوا إليه، واغتفاره إساءة من أساء، وتغمده هجوم من هاجمه بالعفو السريع فعدوه رجلاً من كَمَلة الرجال. ليكن. على أن الرجل الكامل يحتفظ في ركن من شخصيته بخزانة سوداء يودع فيها قمامات سلوكه، فإن لم ير الناس في شخصية حافظ المنفتحة شيئاً عليه قفل ومفتاح، فربما كان ذلك لأنهم غضوا البصر.

كان حافظ حقاً طيب المعشر لطيفاً.. لكن ليس مع كل الناس. فهو ابن بلد، يعامل من يصغره سناً أو قدراً بجلافة ابن البلد، ويعامل من يحسن إليه بالإجلال، وهو يحفظ المعروف، ويحسن إلى الناس كثيراً. وكان سخياً سخاء خرافياً، ونوادر سخائه تملأ الكتب، والسخاء ستر يحجب عن الأعين كثيراً من علل الشخصية. وكان صاحب نكتة، وذا محضر جميل وبديهة مساعفة، ويحسن السخرية المرة. يراه المرء أول معرفته به متجهماً، ثم سرعان ما يفيض بشراً،

حتى ليقبل ضيفه الجديد عليه يريد أن يقبله بين عينيه، وهذا شيء قاله أحد من عرفوه، ونسيت من هو.

درس حافظ الشعر العربي من «الوسيلة الأدبية» وفيها قرأ شعر البارودي، ولقي البارودي وسمعه وجالسه، فحافظ امتداد طبيعي لمدرسة إحياء الشعر العربي، التي جعلوا البارودي رأسها. وقرأ أغاني أبي الفرج مراراً، وصاحبته لزوميات المعري، وسمع أشعار شوقي وكان يقفو أثره في بعض الموضوعات.

لم يكن الشاعر المثقف. كان يحب رنين الشعر العربي القديم وقرأه كثيراً وحفظ منه كثيراً، وجعلوا حفظه آية من الآيات، إذ كان يستحضر من خزانة ذاكرته ما شاء أيان شاء.

وأعود إلى غيظي.

كل هذا الغيظ الذي حدثتك عنه.. ثم أختار لحافظ بضع مئات من الأبيات! لا، وإنني لأبرز الكثير منها بالتسويد!

لم يكن لحافظ دقة أبي تمام، ولا سلاسة البحتري، ولا صنعة ابن الرومي، ولا فخامة المتنبي، ولا فحولة المعري، ولا خيال شوقي.

ولكن، كان لحافظ شيء لم يكن لأي من هؤلاء. كانت له شخصيته، تماماً مثلما لك ولي ولكل إنسان شخصيته. وعبر حافظ عن شخصيته في شعره، وليس كل أحد قادراً على أن يعبر عن شخصيته، وعن.. إمَّعيته أيضاً.

عبر عن إمعيَّته الفكرية بوضوح: لا رأي له في كرومر، ويودعه بقصيدة يذكر فيها المحاسن والمساوئ، ثم يتنصل ببيت يقول فيه إن هذا «ما يقوله الناس»؛ ولا رأي له في السفور والحجاب، ويريد في رثائه قاسم أمين أن ينتظر كي يكشف له المستقبل صحة أو خطل آراء الفقيد. وهو ناقم على الأجانب المقيمين في مصر ثم يعود ويحييهم على نشاطهم التجاري.

وعبر حافظ عن أحداث زمنه. وكانت له قدرة الخطيب، الذي أدمن النظر في عيون جمهور السامعين، على تخير العبارة الطنانة. والعبارة الطنانة من بعض المكونات المفيدة للشعر. فإن شبهت مكونات الشعر بمكونات صلصة الطماطم فاعلم أن العبارة الطنانة ليست من المواد الحافظة، التي لا مهمة غذائية لها بل هي تحفظ الصلصة من التلف السريع. لا، العبارة الطنانة جزء من الشعر، لأن إنشاد الشعر جزء من الشعر، ولأن الإيقاع جزء من الشعر،

ولأن الشعر يصبح نثراً إن عدم هذه المكونات. فهل المعنى جزء من الشعر؟ يقول لك القدماء: نعم، ولا. ويقولون إن المعاني ملقاة على قارعة الطريق، والمعول إنما هو على حسن السبك، وعلى الالتزام بعمود الشعر العربي. ويقول لك قدماء ومحدثون كثر: بل المعنى مهم، شرط ألا تتحول القصيدة إلى مقالة.

حافظ غير المثقف أشعر من حافظ لو كان مثقفاً. وأكاد أجزم بنسبة ٩٩٪ كما يقول العوام - في أول مناسبة تسوق تعسَ حظٌّ عامياً ليقول لي هذه العبارة، سأجيبه ببرود وبكل جدية: وكيف قست هذه النسبة المئوية لطفاً؟ - أجزم بأنه لو كان حافظ قد تثقف وقرأ كثيراً لكان شعره في غاية الغثاثة. وكنت في مقدمة كتابي الأول في هذه السلسلة قد بحت لك بأنني حاولت الشعر وأخفقت فيه، وعبرت عن ذلك بالقول:

أتيت بقاموسي وألفيَّتي إلى الـ ـقصيدة أبغيها، وأخشى تعاليها
فألفيتها تهوى البريء ولو به جنون، بل المجنون أقصى أمانيها
فيا شعرُ، يا ولَّادُ، يا خَلْقُ، فُتَّني لأنَّ علومي شوهتنيَ تشويها

وفي حافظ سذاجة تظهر جلياً كلما طرق موضوعاً ثقافياً، ولكنه قد يجيء بعد أن يستعرض عضلاته الثقافية، المنفوخة بمنفاخ الدراجات، بأبيات قليلة يشكو فيها بؤسه، صادقاً في شبابه كاذباً في كهولته: كاذباً لأنه لَطَى في السنوات العشرين الأخيرة من حياته في وظيفة دسمة (بلغ راتبه الأقصى ثمانين جنيهاً في الشهر.. هذا عام ١٩٣٢، عندما كان الجنيه يُغني «أنا أنطونيو وأنطونيو أنا»).

أبيات الشكوى عند حافظ فيها عذوبة، وفيها استمرار لنغمة مألوفة عند شعراء العرب أصبحت من أركن أركان القصيدة في عصور الانحطاط. وهي بالمناسبة عصور انحطاط وانحسار وسفه وسفاسف وأنوف بعض الأكاديميين في التراب. نعم رغم السفاسف فإن مما يجعل السامع يترنح ويتخدر أن يسمع شعراً فيه نغمات عتيقة. (مثال على ذلك من دنيا الألحان أغنية لنجاة الصغيرة تقول «أيظن أني لعبة بيديه؟/أنا لا أفكر في الرجوع إليه» وتصحب هذه الكلمات ألحان تعبيرية جديدة، ثم تمضي الأغنية بلا إيقاع وبلا تطريب.. «اليوم عاد كأن شيئاً لم يكن/وبراءة الأطفال في عينيه»، وعندما يريد

عبد الوهاب أن يقيم الناس عن كراسيهم يلحن لهم البيت «حتى فساتيني التي أهملتها/ فرحت به رقصت على قدميه» تلحيناً آخر مختلفاً.. تلحيناً فيه طرب وإيقاع وجملة ميلودية متقنة من الطراز القديم). وألا ترانا نستمع إليك بأدب وأنت تلقي علينا قصيدة ألفرد دوفيني عن الذئب، فإذا أتبعتها بقصيدة البحتري حيث يقول: «كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه» استيقظت فينا روح الصحراء التي كلانا فيها ذئب حقاً، وصفقنا لقديمنا المضمخ بمسك السنين؟

شكا حافظ من الأجانب بمصر: من اليونانيين، ومن الشوام أيضاً. ولكن حافظاً رجل رقيق، وهو ابن بلد. كان يحب صديقه خليل مطران اللبناني ويمدحه شعراً ونثراً، وكان مطران بثقافته العميقة، وفرنسيته المتقنة يساعد حافظاً في الترجمة. وكان يغشى مجالس أهل الصحافة، وجلهم من الشوام، وكانوا يرفعون ذكره عالياً بنشر قصائده في صدور جرائدهم. وفي السوريين قال حافظ بعض أجمل شعره، وطوقهم بحبه وبإعجابه. ولكن تذمره كان من المصريين الذين كانوا ـ حسب تحليله الساذج ـ متوانين وكسالى. وكان اسم أكسل رجل في مصر.. لعلك حزرت.. فلا داعي للتشهير.

هذا سجل حياة شاعرنا:

ولد في عوامة راسية قرب ديروط في الصعيد، عند قناطر التقسيم.. قناطر تقسيم حصص المياه. كان محمود سليمان باشا أحد كبار ملاك الأراضي قد أسكن إبراهيم فهمي والد شاعرنا وأمه هانم البورصلي فيها. فإبراهيم فهمي مهندس مياه، والباشا بحاجة إلى «مساعدة صديق» كي يحصل على نصيب وافر ليروي فدادينه الـ ١٦٠٠. وأنجبت هانم ـ هذا اسمها ـ الطفل حافظاً في عام ١٨٧١، ربما قبله بعام، وربما بعده بعام. ثم أختاً له. ثم مات زوجها إبراهيم فهمي ولحافظ من العمر أربع سنين. فخسر الباشا الصديق المساعد، وخسرت الأسرة العوامة.

رحلت الأم بولديها إلى القاهرة، إلى بيت أخيها، المهندس في مصلحة التنظيم، محمد نيازي البورصلي، وكان يسكن في حي المغربلين بين القلعة والتحرير. وأخوال حافظ قوم من قدامى أتراك مصر نسوا لسانهم التركي واستعربوا وتمصروا. لم يكن خال حافظ من ذوي اليسار، لكنه كان يعيش مع زوجته وحدهما ولم يرزقا بأبناء.

تربى حافظ في كنف خاله بلا أب، ولكن كان له في البيت أم، وكانت له

أم أخرى هي زوجة خاله، وكانت أخته. وقد تزوجت، من بعد، وأنجبت أربعة وماتت شابة.

درس في مدارس القاهرة حتى بداية المرحلة الثانوية، ثم كان أن رحلت العائلة كلها إلى طنطا، فانقطع حافظ عن الدراسة، إذ لم يكن بطنطا مدرسة ثانوية كما ذكر بعضهم، أو لأنه كان يكره المدرسة كما قال محمد إسماعيل كاني الذي ينتسب إلى أسرة أخت حافظ.

أخذ حافظ، وهو في السادسة عشرة يعاشر طلاب المعهد الأحمدي بطنطا، وحضر دروساً في النحو والصرف في الجامع الأحمدي. ويصف الشيخ عبد الوهاب النجار أول لقاء له بحافظ في طنطا عام ١٨٨٨، وحافظ في نحو السادسة عشرة، يقول: «فتى غض الإهاب، له ظرف ولطف محاضرة، وبديهة وحضور.. . قضينا رمضان نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً، ثم نسمر حتى السحور، ونظل حتى يؤذن لصلاة الفجر، وبعدها نمضي في صحبتنا حتى طلوع الشمس، فيذهب كل منا إلى بيته» بتصرف عن الشيخ النجار.

مضت على حافظ سنة خصبة جداً من حيث امتلاكه لأدوات اللغة والبيان، وقاحلة بوهيمية في نظر خاله المهندس. وضاق حافظ ذرعاً بكلمات خاله التأنيبية، فقال بيتيه المشهورين: (ثقلت عليك مؤونتي/إني أراها واهية//فافرح فإني ذاهب/متوجه في داهية). وكانت الداهية استمراراً في معاشرة طلاب المعهد، فقد سكن حافظ عند صديق كان مجاوراً للجامع الأحمدي.

ولعل هذا الصديق ضاق بحافظ.. على أن شاعرنا أصبح الآن يعرف قدر نفسه، فهو يحسن أن ينظم، واستقامت على لسانه اللغة العربية الفصحى. عاد إلى منزل خاله. لكنه بدأ يبحث عن عمل. ولم يجد خيراً من المحاماة، فهو فصيح اللسان، حسن الكتابة سريع الفهم وسريع البديهة.

عمل في مكتب المحامي الشيمي، ثم وجده يدنِّق عليه في الأجر، فانتقل إلى مكتب محمد أبي شادي، ثم إلى مكتب عبد الكريم الفهيم.

قد وضحت الصورة الآن، نحن بإزاء شخص قلق. فما الذي يلقي بهذا الشاب القلق، الذي بدا أنه مشروع شاعر، في أحضان الجيش؟ ربما طوله وكتفاه العريضتان.

إلى القاهرة، والمدرسة الحربية. ولحسن حظه كان المحتل الإنجليزي قد

ألغى من منهاج هذه المدرسة معظم ما كانت تدرسه من علوم، وبعد سنتين أو ثلاث تخرج حافظ ملازماً ثانياً. وقضى في الجيش ثم في الشرطة ثلاث سنوات، كان فيها مثال الضابط المهمل.

ونقل إلى السودان في حملة كتشنر.

فقد بعث الإنجليز الجنرال هربرت كتشنر إلى الخرطوم للقضاء على الحركة المهدية وقدع أطماع فرنسا في السودان. وفي الثاني من سبتمبر/أيلول عام ١٨٩٨ كانت المواجهة بين جيش الأنصار السوداني بقيادة عبد الله التعايشي خليفة المهدي، وبين القوة البريطانية. وكان مع الثمانية آلاف جندي بريطاني ١٣ ألفاً من المصريين والسودانيين. وكان جيش التعايشي يزيد عن الخمسين ألفاً.

فتح كتشنر على جموع جيش الأنصار المدافع. كانوا يزحفون بملابسهم البيضاء موجة إثر موجة، وكان الإنجليز يعالجون زحوفهم بالمدافع أولاً ثم بالبنادق الرشاشة لمن لم يسقط بالقذائف، ثم بالبنادق يتصيدون بطلقاتها من تبقى. وانجلت هذه المقتلة عن ١٢،٠٠٠ قتيل سوداني، وأكثر منهم من الجرحى، ويخبرنا ونستون تشرشل الشاب، الذي شهد الوقيعة، أن كتشنر نفسه كان يشجع جنوده على الإجهاز على الجرحى، طائفاً بينهم قائلاً «تذكروا غوردون»، الجنرال البريطاني الذي قتله جيش المهدي قبل خمس عشرة سنة. وخسر كتشنر ٤٧ جندياً فقط. ثم إنه نسف ضريح المهدي في أم درمان. ينقل لنا الوصف مع استنكار للفعلة تشرشل نفسه. وقد قيل إن الملكة فكتوريا العجوز بكت عندما علمت بتدنيس مقام المهدي.

حتى بعض الصحف البريطانية استنكرت وحشية كتشنر وجيشه، وصفه أحدهم قائلاً، كتشنر ليس إلا آلة للقتل، ولا بأس بعرضه في المعرض الدولي بباريس مع لافتة تقول آلة القتل في السودان.

فأين كان الضابط حافظ إبراهيم وقتها؟ كان في الخرطوم وعلى رأس عمله. فماذا صنع؟ لا تذكر لنا الكتب شيئاً عن ذلك، ولم أر أحداً اهتم بالأمر أصلاً، بله أن يبحث للشاعر عن مفلص (ألاباي/برهان بالكينونة في مكان آخر).

أنت لا تشهد يوم القيامة بالبيجامة.

وتكملة القصة أن لندن أبرقت لكتشنر بما معناه: ليس ما ابتغيناه الانتقام لمقتل غوردون، الغرض وقف مطامع باريس في السودان. فانطلق كتشنر إلى فاشودة بالسودان حيث دس الفرنسيون مشط قدمهم في الباب. وبعد رفع البنادق ثم التفاوض ورحلت فرنسا عن السودان. ثم نودي بكتشنر أن اذهب إلى الترانسفال بجنوب إفريقيا.. لتصبح بطل حرب البوير. وفعل.

وذكر حافظ إبراهيم في كتابه «ليالي سطيح» بعض ما حدث في السودان. ذكر شيئاً على هامش الهامش، ولكن له دلالة.

لقد سحب البريطانيون من المصريين في الجيش الذخيرة. فغدت البنادق في أيديهم عصياً. فثار الضباط المصريون. واجتمعوا، وقال قائل منهم ـ والنقل الآن حرفي عن حافظ ـ: «أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود، ونحن في بلد غير آمن، وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة، وتغلغل الضغن في نفوسهم».

ويحدثنا حافظ بتطويل ممل عن استدراج الإنجليز للسودانيين في الجيش لمعرفة خبر هذا التمرد، وعن إسكارهم، وعن خيانة ضابط مصري لزملائه، وكيف أن الإنجليز توصلوا إلى قائمة بنحو ثمانين اسماً، ثم لم يريدوا إحداث ضجة فاختاروا منهم بالقرعة ثمانية عشر أحالوهم على الاستيداع وأعادوهم إلى مصر، وكان بينهم شاعرنا.

لا يذكر لنا حافظ، لا شعراً ولا نثراً شيئاً عن مقتلة أم درمان وما تلاها من فظائع. ونحب أن نظن أنه لكسله الشديد لم يضغط على زناد. على أننا، من قليل ما وصلنا من أشعاره في السودان التي كان يبعث بها إلى أصدقائه في مصر، نعرف أن غاية همه كانت تذكر مجالس الخمر في مصر، والشكوى المتصلة من بقائه في السودان، ورغبته الشديدة في العودة إلى مصر. لقد خدم حافظ في حلفا وطوكر وسواكن في السودان. ولكن نصه في «ليالي سطيح» الذي يعتبر الأنصار هم الأعداء صريح.

لقد كانت جموع السودانيين الذين ذبحهم كتشنر من المسلمين، وكان لسانهم عربياً، ولعل حافظ نسي ذلك وهو يكتب الأبيات الجميلة في نصرة الإسلام «سلام على الإسلام بعد محمد/ سلام على أيامه النضرات» وفي نصرة اللغة العربية «أنا البحر في أحشائه الدر كامن».

ثمة هيكل عظمي ههنا في خزانة سوداء أبقاها حافظ، وأبقاها الذين كتبوا عنه الكتب، مقفلة. وكلمة «أعدائنا» الواردة في المقتطف أعلاه من كلام حافظ بليغة في الإشارة إلى أنه وصحبه من الضباط كانوا يعتبرون جيش الأنصار السوداني «العدو».

لحافظ الضابط بضع قطع قصيرة في جندي مليح، إحداها صريحة «ومن عجب أن قلدوك مهنداً/ وفي كل لحظ منك سيف مهند». وهذا مألوف من رجل يحب الجمال وجد نفسه ضابطاً يقترب من الثلاثين وسط جنود، وانقطع عن الإناث زمناً. وفي قصص جيش إسبرطة، وجيوش العباسيين الثغرية حالات كهذه فشت حتى لقد صارت سمة من سمات ذينك المجتمعين.

أعيد حافظ أخيراً إلى مصر، محالاً على الاستيداع، ثم أحيل على المعاش بعد ثلاث سنوات ونصف السنة بناء على طلبه. كان ذلك في سنة ١٩٠٣.

تفرغ حافظ لأستاذه وإمامه محمد عبده مفتي الديار المصرية والقطب الفكري والعملي لحركة الإصلاح. ونهل من علم محمد عبده الغزير، وقيل إن الإمام كان يساعد حافظاً حتى في فهم اللغة الفرنسية التي ألم بها محمد عبده وهو في باريس. ومات الإمام عام ١٩٠٥ فرثاه حافظ بدموع حرى وظل يذكره في شعره فيما بعد. وفي عام ١٩٠٦ نجحت السيدة هانم في تزويج ولدها. لكنه لم يلبث مع زوجته سوى أربعة أشهر، لم يعد بعدها لزواج ولا لغير زواج. يقول أحمد حسن الزيات «ذوى في قلبه حب المرأة» ولا يزيد.

ونحن أيضاً لا نزيد. ولم نر في سيرة الرجل ما يدعم أية تكهنات. غير أننا نريد التنويه بكتاب جيد عن حافظ إبراهيم بقلم السعيد محمود عبد الله، ولندخل إلى التنويه من هذا الباب الذي فتحناه والمتعلق بحقيقة ميول حافظ الجنسية. يعرض المؤلف لما أورده مؤرخ حافظ وصديقه الذي عايشه، أحمد محفوظ، من أن حافظاً انصرف عن تلك الزوجة لأنه لم يشاهدها قبل الزواج، فلم تقع في نفسه موقعاً حسناً، ويدير صفحتين على أن هذا لا يكفي لتبرير انصراف الشاعر عن المرأة كلياً بعد ذلك رغم أنه أصبح موسراً. وينتهي المؤلف إلى القول إن السبب هو ما «مني به من فتور في ميله الغريزي إلى الأنثى».

بعد سنتين من هذا الزواج الفاشل توفيت والدة حافظ، وكانت تعيش معه

في منزل مستقل. فانتقل مرة أخرى للعيش مع زوجة خاله التي رعاها حافظ في شيخوختها، وظلت تقيم معه عشرين سنة حتى ماتت.

ظل حافظ بعد وفاة الإمام، بل حتى في حياته، يغشى مجالس الوجهاء من أبناء الأسر الكبيرة وينال صلاتهم، وله مدائح في أبناء هذه الأسر. وظل ينشر شعره في المحافل، وأصبح ذا صيت. طرقت قصائده في الحرب الروسية اليابانية، وفي الإمام، وفي دنشواي، الآذان، وتندر الناس بأبياته في مجالسهم. ونشر كتاباً استحضر فيه روح الكاهن الجاهلي سطيح، وألقى على لسانه كلاماً عن السودان، كما أسلفنا، وعن دهاء الإنجليز وغطرسة ضباطهم. وهاجم أحمد شوقي في بضع صفحات.

كان في هذه الفترة ينظم الشعر محاولاً الوصول إلى السدة الخديوية، ولكن شوقي كان يسد عليه الطريق، وتقرب حافظ من شوقي، وأقر له في أبيات مفرقة على عدة قصائد بالسبق، ونشأت بين الرجلين علاقة طيبة. لكن شوقي ظل حتى النهاية ينزعج كلما قرن الناس اسمه باسم حافظ، فهو شاعر مصر الأوحد. قالها كذا مرة في شعره.

فرض حافظ وجوده بأشعاره الرنانة التي كانت تزداد رنيناً عندما يلقيها في حفلات التهنئة ومحافل التأبين الكثيرة التي كانت تلتقي فيها قصيدة حافظ مع قصيدة شوقي ملقاة على لسان آخر، فشوقي لا يحسن الإلقاء.

ظل حافظ يسترضي الإنجليز بأشعار «ماتت الملكة عاش الملك» ثم بقصيدة سيئة الصيت في وداع المعتمد البريطاني اللورد كرومر في أعقاب حادثة دنشواي. كان شوقي أيامئذ وطنياً، في تصنيف من يعشقون التصنيف، لكنه كان وطنياً من النافذة لا من الباب. فهو شاعر الخديوي عباس حلمي، في وقت كانت العلاقة فيه بين عابدين (قصر الخديوي) والدوبارة (قصر المعتمد البريطاني) متوترة. وكان حافظ أيامئذ حائراً بين مجالس العائلات ذوات الأطيان، وبين مصانعة الإنجليز، ومحاولة التقرب من السدة الخديوية، ومدح السلطان عبد الحميد، ثم الترحيب بعزله، وبين مدح الشوام الذين كان يسيطرون على الصحافة، ورثاء كبرائهم.

وفي أثناء هذا كله كان حافظ يقول شعراً يتوجع فيه للأيتام، ولضحايا الحريق في مصر والزلزال في إيطاليا، ويرى شوقي يرثي تولستوي فلا يقصر، فيرثي تولستوي. ومثلما كان يصانع الإنجليز كان يهاجم احتلالهم للبلاد.

وأخيراً انفتح له باب السماء. عينه وزير المعارف أحمد حشمت رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب. فعرف حافظ نعمة المرتب الجيد. وعاش عشرين سنة ممسكاً بالمرتب بكلتا يديه. ليس أنه كان موظفاً حسن الدوام والانضباط.. بهذا لا يكون حافظ حافظاً. كان شاعرنا يقضي ساعات الدوام على مقهى الكتبخانة. ويطل بين الحين والآخر على دار الكتب ليتحادث مع زملائه، وكان جل حديثهم عن العلاوات والتعيينات وما إلى ذلك من أحاديث الموظفين. من سنة ١٩١١ حتى خروجه من الوظيفة (أو «إخراجه» منها على يد حكومة إسماعيل صدقي/والعهدة في «الإخراج» على أحمد حسن الزيات) عام ١٩٣٢ ظل حافظ شاعراً موظفاً. يمدح بحساب ويرثي بغير حساب، فإن قال شعراً وطنياً فهو مقيس بمقياس الاعتدال والعمومية «وبناة الأهرام في سالف الدهر كفوني الكلام عند التحدي». وقامت الحرب العالمية الأولى فأنب حافظ الألمان على إضرام نارها، وانتهت الحرب، فلم يجد حافظ من يستحق الرثاء أو المدح فمدح عمر بن الخطاب في ملحمة طويلة. وقامت ثورة ١٩١٩ في مصر، فقال حافظ شعراً وطنياً لم ينشره، لكنه انتشر بين الناس. وعاد شوقي من منفاه فحياه حافظ، وتوطد الود بين الشاعرين على قاعدة قبول حافظ أن يكون ثاني اثنين، مع أن شوقي المجلي ظل يرى نفسه الأوحد ولا ثاني له.

جمع الشاعرين مجلس سعد زغلول الذي جمع الأمة حوله، وعندما أقام سعد لشوقي حفل مبايعة بإمارة الشعر جاء حافظ مبايعاً. وبعدها بقليل، وفي العام نفسه ١٩٢٧، مات سعد زغلول فرثاه كل شعراء مصر وغير مصر.

كان من محاسن حافظ في هذه الفترة، وفي كل حياته، أنه ظل يسأل: لماذا لا نتقدم مثلما تقدمت أوروبا؟ لماذا لا نتعلم، ولماذا لا نتقن صناعاتنا، ولماذا لا تكون لنا أخلاق كأخلاقهم؟ كانت هذه الأسئلة التي يطرحها حافظ ـ رغم أنه لم تتوفر لها إجابات لا على لسانه، ولا في سلوكه الشخصي البوهيمي ـ الأسئلة الوجودية الحقيقية.

كان جواب طه حسين على مثل هذه الأسئلة حث الأمة المصرية على أن تكون جزءاً من أوروبا. وكانت إجابات بعض أصحابه الدستوريين تتمثل في اطّراح الفصحى، وفي التخفف من التدين ـ على الأقل كانت هذه نصيحة اللورد كرومر قبل انصرافه ـ. ولكن الكل كان يجمع على ضرورة التعلم. واحتلفت

مصر بفتح جامعة، وظل حافظ متعجباً من ذلك النشاط عند الشوام، في مقابل ما ظنه خمولاً عند المصريين.

لقد كانت مصر وما زالت ـ ونكتب في ثاني يناير/كانون الثاني عام ٢٠١٧ ـ القاطرة في العالم العربي. لكنها قاطرة عتيقة تقطر عربات أعتق منها.

حملت مصر عن بغداد الراية بسقوط بغداد، وحتى قبل سقوطها، فالفاطميون كانت لهم خلافة بجانب الخليفة في بغداد، وكانوا يحكمون مصر وبعض الشام ولهم في المغارب وجود قوي وجذور. وحكم الأيوبيون مصر والشام، ومثلهم المماليك. ثم لما انضوى العرب تحت جناح الدولة العثمانية، خفت صوتهم وتبددت قيادتهم. لكن مصر كانت أول من رفع رأسه، فكان عهد محمد علي نهضة كبرى بلغ من قوتها أن جيشه هدد إستانبول، بعد أن سحق الجيش العثماني في قونية، ١٨٣٢، مما اضطر السلطان العثماني إلى الاستنجاد بقيصر روسيا لحماية عاصمته. وتدخلت القوى الأوروبية، وانكمش محمد علي، لكنه ظل يسيطر على مصر، وبعض الشام وبعض الحجاز، والسودان.

وكان الاحتلال الإنجليزي، ١٨٨٢، وقبله كان شق قناة السويس، وشهد عصر شاعرنا تململاً مصرياً متصاعداً وسعياً إلى الاستقلال الحقيقي. ونالته مصر، وظلت تقود الأمة العربية في عهد عبد الناصر. وظلت نهضتها الاقتصادية اللحاقية ـ نسبة لشهوة اللحاق بأوروبا ـ أشواقاً.

ومصر اليوم ما تزال الكبرى عددَ سكانٍ، وهي رائدة الفن السينمائي وفنون الموسيقى وما زالت في الطليعة. إلا أنها ما تزال تبحث عن جواب السؤال: كيف نلحق بأوروبا؟ ومثلما كان لهذه المعضلة أثر في نفسية حافظ إبراهيم، فلها أثر في الشخصية المصرية اليوم.

ترى الممثل السوري أو التونسي لا يكاد ينزل مصر حتى يكتشف أن عليه أولاً أن يقدم فروض الولاء اللساني. فيقول للمذيعة إن مصر أم الدنيا، وبقية هذا الموشح.

لقد تعمقت المعضلة المصرية باكتشاف النفط في دول الخليج، وبالتراجع في نمو الاقتصاد المصري. ظلت مصر القاطرة، ليس أنها قاطرة حديثة، ولكن لأن ما سواها لا يملك العمق الثقافي كي يقود. وكانت الحقبة السعودية (والتعبير لمحمد حسنين هيكل) حقبة سياسية فارغة من المحتوى النهضوي، والفكري.

نكتب هذا لما وجدناه من طرافة في التشابه بين مشاعر حافظ إبراهيم ومشاعر كثير من المصريين اليوم. فثمة أزمة نفسية عند مثقفي مصر، تلخصها عبارة «أم الدنيا». فكل نقد أو حتى تحليل يصدر عن عربي آخر محمول على الحسد. والبلوى أن بعض العرب الآخرين أصابتهم أزمة نفسية معاكسة فهم يضعون مسألة التصدر المصري موضع الشك، وموضع النفي. ثم تتدفق أنهار التلاسن فالتشاتم. هل أنت ممن يعاقر الإنترنت؟ إذن لا حاجة بي لسرد المزيد.

غير أني أقول إن العمق التاريخي لمصر بوصفها القاطرة ذخر لا يملكه بنفس القدر أي بلد عربي آخر، والفرشة الاجتماعية الواسعة والخصبة في مصر منبع للفن والأدب، والتنوع الفكري في مصر ـ حتى عندما تمر في مخاض سياسي صعب ـ أمر لا يوجد في بلد عربي آخر.

هي رب الأسرة العربية، ورب الأسرة مريض نفسياً، وجسدياً. شفاه الله. وما يستر عليه أن أهل البيت كلهم مرضى، فإن كان في جيوب بعضهم دراهم كثيرة فهي دراهم ملوثة بالزيت والزفت. ولم أجد دراهم الزيت والزفت قد عادت على أهلها بعلم ولا بحضارة، لا بل هي اجتذبت غفيراً من البلاد الفقيرة لكي يتشوهوا بالكاش. هذه حال دول الفقر العربية مع دول الخليج الغنية، يأتي الرجال والنساء من دول الفقر إلى دول الخليج، ويعيشون كما يعيش الناس في معسكر عمل. وفيها يفقد أولادهم وبناتهم الحس الحضاري ويستعيضون عنه حساً استهلاكياً سمسرياً، ويعودون إلى بلاد الفقر ليشكلوا طبقة وسطى غير منتجة.

هذا كلام لا يعيدنا إلى شاعرنا بأي قدر من السهولة. لكن ربما استطعنا العودة.. بصعوبة. هو كلام ككلام شاعرنا.. كلام شخص محبط من حالة عربية فظيعة. بين عشية وضحاها انتقلت دول عربية عديدة من حال الاستقرار الخامل إلى حال الحرب الأهلية، والآفاق ملبدة بغيوم سود.

عاش حافظ إبراهيم حياته وبلاده تبحث عن نفسها، فقد رأى، وهو بعد طفل، الإنجليز يحتلون البلد ومات ولما تقلع مصر ذلك المسمار. وظل يحلم بأن تصبح مصر كاليابان. نحن الآن نحلم بأن تعود البلاد العربية عشر سنوات إلى الوراء.. إلى ذلك الاستقرار الخامل.

ها هي أشعار حافظ إبراهيم مرتبة القديم فالأحدث.

١ المعجز الثاني

تقريظ كتاب «فحول البلاغة» لمؤلفه السيد توفيق البكري، نشر البيتان في (١٨٩٥):

هــذا كــتــابٌ مُــذْ بــدا سِــرُّهُ　　لِــلــنــاسِ قــالــوا: مُــعْــجِــزٌ ثَــانِ

منذ أن نشر كتابك ولم يعد سراً قال الناس هذا معجز ثانٍ بعد القرآن

أثَــابَــكَ الــلَّــهُ عــلــى جــمــعِــه　　ثَــوابَ عُــثــمــانَ بــنِ عَــفَّــانِ

جزاك الله خيراً كجزاء عثمان الذي جمع القرآن

٢ استعطاف

كتب يستعطف محمد سليمان أباظة:

طالَ الحديثُ عليكُمْ أيُّها السَّمَرُ　　ولاحَ لِلنومِ في أَجفانِكُمْ أثَرُ

السمر: السامرون

وذلكَ الليلُ قد ضاعتْ رَواحِلُهُ　　فليسَ يُرجَى لهُ مِن بعدِها سَفَرُ

ضاعت رواحل، نياق، الليل فليس يرحل عنا فهو مقيم

هذي مضاجِعُكُمْ يا قومُ فالتَقِطُوا　　طِيبَ الكَرى بِعُيونٍ شَابَها السَّهَرُ

التسويد من الشاعر عمران القفيني

أَبيتُ أَسألُ نفسي كيفَ قَاطَعَني　　هذا الصديقُ ومَا لي عنهُ مُصْطَبَرُ

فَمَا مُطَوَّقَةٌ قد نالَها شَرَكٌ　　عندَ الغُروبِ إليهِ سَاقَها القَدَرُ..

ليست الحمامة المطوقة، التي كأن ريشها عند العنق طوق، وقعت في الشرك، الشبكة، عند الغروب..

بَاتَتْ تُجاهِدُ هَمّاً وَهْيَ آيِسَةٌ　　مِن النَّجَاةِ وجُنْحُ الليلِ مُعتَكِرُ..

وبَات زُغْلُولُها في وَكْرِهَا فَزِعاً　　مُرَوَّعاً لِرجوعِ الأُمِّ يَنتَظِرُ..

يُحَفِّزُ الخوفُ أَحشَاهُ وتُزعِجُهُ　　إذا سَرَتْ نَسْمَةٌ أو وَسْوَسَ الشَّجَرُ..

يحرك الخوف أحشاء الزغلول، أي صغير الحمام، ويزعجه أي صوت في غياب أمه

مِنّي بِأَسْوَأَ حَالاً حين قَاطَعني　　هذا الصديقُ، فَهَلَّا كانَ يَدَّكِرُ؟

صغير الحمام ليس أسوأ حالاً مني عندما قاطعني هذا الصديق، فهلا تذكر صديقي صحبتنا فعدل عما أتى به؟

يا ابنَ الكِرامِ أَتَنْسَى أَنَّنِي رَجُلٌ — لِظِلِّ جَاهِكَ بعدَ اللهِ مُفْتَقِرُ
إنِّي فَتَاكَ فلا تَقْطَعْ مُواصَلَتِي — هَبْنِي جَنِيْتُ، فقُلْ لِي كيفَ أَعْتَذِرُ؟

٣ أدرِكْ فَتاك

تهنئة الإمام الشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء ١٨٩٩، وبعث بالأبيات من السودان:

تبسَّمَ المصطفى في قبرِه جَذَلاً — لما سمَوْتَ إليها وَهْيَ مِعطالُ

تبسم النبي فرَحاً في قبره لما سموت وارتفعت إلى وظيفة الإفتاء، وكانت معطالاً، غير متزيِّنة بالحُلِيّ

يا مَن تيمَّنَتِ الفُتْيا بِطلعتِه — أدرِكْ فَتاكَ فقد ضاقتْ به الحالُ

يا من تيمنت، تفاءلت، وظيفة الفتيا بطلعته، محيَّاه، الحقْ فتاك فهو في ضيق، وحالته، وهو ضابط بالسودان، صعبة

٤ جيش الأقداح

وفِتيانِ أُنْسٍ أَقسَموا أن يُبدِّدُوا — جيوشَ الدجى ما بينَ أُنسٍ وأَفراحِ
فَهَبُّوا إلى خمَّارَةٍ قيلَ إنَّها — قَعيدةُ خَمْرٍ تَمزُجُ الرُّوحَ بِالراحِ

الخمارة: صاحبة الحانة

وقالوا لها: إنَّا أَتَيْنا على ظَما — نُحاولُ وِرْدَ الراحِ رَغْماً عن اللَّاحي

جئنا عطشانين نحاول ورود الخمر رغم اللاحي، الموبِّخ

فقامتْ وفي أجفانِها كَسَلُ الكَرى — وفي رِدْفِها، واسْتعرَضَتْ جيشَ أقداحِ

٥ عكوف

ذكرى مجلس شراب، بعث بها من السودان لأصحابه بمصر:

رُبَّ ليلٍ قد تعاهَدْنا على — ما تعاهَدْنا، وكُنَّا فاعلينْ
فقضَيناهُ، ولم نحفِلْ بما — سطَّرَتْ أيدي الكرامِ الكاتبينْ

الكرام الكاتبون: ملائكة تسجل كل ما يفعل الإنسان

وتواثَبْنا إلى مَشمولةٍ — ذاتِ ألوانٍ تَسُرُّ النَّاظِرينْ
عمَدَ الساقي لِأَنْ يقتُلَها — وَهْيَ بِكْرٌ أُحْصِنَتْ منذُ سنينْ

قتْل الخمر يكون بمزجها بالماء، وهي بكر أحصنت، وكانت مصونة، لم تمسها يد، منذ عُصرت

ثـم لَـمَّـا أنْ رأى عِـفَّـتَـهـا   خافَ فيها اللَّهَ ربَّ العالمينْ
وأَجَلْنا الكأسَ فيما بيننا   وعلى الصَّهباءِ بِتْنا عاكِفينْ

٦ القطيعة

يعاتب محمد البابلي، نشرت (١٩٠٠):

أخـي واللهِ قد مُلِئَ الوِطابُ   وداخَلَني بِصُحبَتِكَ ارتيابُ
ملئ الوطاب، امتلأ الوعاء وفاض بي ومللت منك، وصرت مرتاباً بصداقتك

رجوْتُكَ مرَّةً وعَتبْتُ أخرى   فلا أجدَى الرجاءُ ولا العِتابُ
نبذْتَ مودَّتي، فاهْنَأْ بِبُعدي   فآخِرُ عهدِنا هذا الكتابُ

٧ أضرحة الأولياء

أَحياؤُنا لا يُرْزَقُونَ بِدِرهَمٍ   وبألفِ ألفٍ تُرزَقُ الأمواتُ
عند قبور الأولياء صناديق يضع فيها الناس الدراهم

مَن لي بِحَظِّ النائِمينَ بِحُفْرةٍ   قَامتْ على أَحْجارِها الصَّلَواتُ
يَسعَى الأنامُ لَها، ويَجري حَوْلَها   بَحرُ النُّذُورِ، وتُقْرَأُ الآياتُ

٨ قَلَماً لو سمحت!

مدح محمود سامي البارودي، أكتوبر/تشرين الأول (١٩٠٠):

أَعِرْني لِمَدحِيكَ اليَراعَ الذي به   تخُطُّ، وأَقْرِضْنِي القريضَ المُسَدَّدا
اليراع: القلم

سَلَبْتَ بحارَ الأرضِ دُرَّ كنوزِها   فأمستْ بحارُ الشِّعرِ للدُّرِّ مَوردا
الدر: اللؤلؤ. المعنى الملموح: كأنك ـ بإحيائك الشعر وإعادته إلى رونقه القديم ـ جعلت كل لآلئ البحار موجودة في الشعر، فصارت «بحور» الشعر مصدر اللؤلؤ

٩ البدلة القديمة.. والجديدة

يصف كساء له، نشرت (١٩٠٠):

لي كِساءٌ أَنْعِمْ به مِن كِساءِ   أَنا فيهِ أَتيهُ مِثلَ الكِسائي
الكسائي: من نحاة الكوفة، ومشاهير القراء

صَحِبَتْني قبل اصطحابِكَ دَهراً بَــدْلَــةٌ فــي تَــلَــوُّنِ الـحِــربــاءِ

كانت بدلته السابقة تتغير ألوانها فتبهت لتعرضها للشمس والمطر فهي كالحرباء

نَـسَـبـوهـا لِطَـيْـلَـسـانِ ابـنِ حَـرْبٍ نِــسـبَـةً لـم تَـكُـنْ بِـذاتِ افـتـراءِ

طيلسان ابن حرب: كساء حباه ابنُ حرب للشاعر الحمدوي، وظل يعيره به حتى بعد أن اهترأ الكساء شر اهتراء، وكُتبت في هذه الكساء أشعار كثيرة

كَسَفَ الـدهـرُ لونَـهـا واستـعـارتْ لَـونَ وجـهِ الـكَـذوبِ عـنـدَ الـلِّـقـاءِ

يـا رِدائـي جـعـلـتَـنـي عـنـد قَـومـي فـوق مـا أَشـتَـهـي وفـوق الـرَّجـاءِ

قـيـمـةُ الـمـرءِ عـنـدَهُـمْ بـيـن ثَـوبٍ بَــاهِــرٍ لَــونُــهُ وبــيــن حِــذاءِ

قَـعَـدَ الـفـضـلُ بـيِ، وقُـمْـتَ بِـعِـزِّي بـينَ صَـحْـبِـي، جُـزِيـتَ خيرَ الـجَـزاءِ

١٠ الذنب للقدماء

عام (١٩٠٠):

هــذا الــظــلامُ أثــارَ كــامِــنَ دائــي يــا سَـاقِـيَـيَّ عــلــيَّ بــالــصَّــهْــبــاءِ

مَـشْـمُـولَـةً لـولا الـتُّـقَـى لَـعَـجِـبْـتُ مِـن تـحـريـمِـهـا، والـذَّنْـبُ لِـلـقُـدمـاءِ..

لولا أنني تقي لتعجبت كيف أن الله حرم الخمر، والذنب في تحريمها للقدماء..

قَـرِبُـوا الـصَّـلاةَ وهُـمْ سُـكـارَى بَـعـدَمـا نـزلَ الـكـتـابُ بِـحِـكْـمَـةٍ وجَـلاءِ

فقد قربوا الصلاة سكارى بعد أن قال لهم القرآن «ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فحرم الله الخمر تحريماً كاملاً

يـا طِـبَّ جَـالـيـنـوسَ فـي أنـواعِـهِ مــا لــيِ أراكِ كــثــيــرةَ الأعــداءِ

أيتها الخمرة.. يا طب جالينوس، لماذا يجورون عليك كثيراً..

عَـصَـرُوكِ مِـنْ خَـدَّيْ سُـهَـيْـلٍ خُـلْـسَـةً ثـم اخْـتَـبَـأْتِ بِـمُـهْـجَـةِ الـظَّـلْـمَـاءِ

عصروك من خدي نجم سهيل، وهو نجم لامع محمر، ثم عتَّقوك في قلب الظلام

فَـلَـبِـثْـتِ فـيـهـا قـبـلَ نـوحٍ حِـقْـبَـةً وتَــداوَلَــتْــكِ أَنــامِــلُ الآنــاءِ

فبقيت في قلب الظلام زمناً سبق نوح، وتداولتك أصابع الآناء، العصور

حـتـى أتـاحَ الـلَّـهُ أن تَـتَـجَـمَّـلـي بِـيَـدِ الـكـريـمِ ورَاحَـةِ الأُدبـاءِ

حتى أذن الله أن تظهري بهية في يد الكريم وفي أكف الأدباء

١١ الكاس والطاس

بعث حافظ بهذه الأبيات إلى الكاتب محمد المويلحي (١٩٠٠):

أَوْشَكَ الديكُ أن يَصيحَ، ونَفسي بـيـن هَـمٍّ وبـيـن ظَـنٍّ وحَـدْسِ
يا غُلامُ. . المدامَ والكاسَ والطّا سَ، وهَـيِّءْ لـنـا مَـكـانـاً كـأمْـسِ
أَطْلِقِ الشمسَ مِن غَياهِبِ هذا الدَّ نِّ، وامْـلأْ مِـن ذلـكَ النُّـورِ كـأسي
خَـمْـرَةٌ قـيـلَ إنَّـهُـمْ عَـصَـرُوهـا مِن خُدُودِ المِلاحِ في يومِ عُرْسِ

١٢ اليأس

نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٠٠):

سَعَيْتُ إلى أن كِدْتُ أَنْتَعِلُ الدَّما وعُـدْتُ وما أُعْـقِـبْـتُ إلَّا الـتَّـنَـدُّما

أنتعل الدم: ألبس الدم كأنه نعل

لَحَى اللَّهُ عهدَ القَاسِطينَ الذي به تَـهَـدَّمَ مِـن بُـنـيـانِـنـا مـا تَـهَـدَّمـا

القاسطين: الظالمين

إذا شئتَ أن تَلقَى السَّعادةَ بينَهُمْ فلا تَكُ مِصرياً ولا تَكُ مُسلِما
سـلامٌ عـلـى الـدنـيـا سَـلامَ مُـوَدِّعٍ رأى في ظلامِ القبرِ أُنساً ومَغْنَما
أَضَـرَّتْ بـه الأُولـى فَـهـامَ بِـأُخـتِـهـا فإن ساءتِ الأخرى فويْلاهُ منهُما

الأولى: الدنيا، الأخرى: الآخرة

فَهُبِّي رِياحَ الموتِ نُكْباً وأَطْفِئي سِراجَ حياتي قبلَ أن يَتَحَطَّما

نُكباً: آتيةً من كل الجهات

فما عَصَمَتْني مِن زَماني فَضائِلي ولكنْ رأيتُ الموتَ لِلحُرِّ أَعْصَما

أعصم: أكثر حماية

فيا قَلْبُ لا تَجزَعْ إذا عَضَّكَ الأَسى فـإنَّـكَ بـعـدَ الـيـومِ لـن تَـتـألَّـمَـا
ويـا قَـدَمـي مـا سِـرْتِ بـي لِـمَـذَلَّـةٍ ولـم تَـرتَـقـي إلَّا إلـى الـعِـزِّ سُـلَّـمـا
فلا تُبْطِئي سَيراً إلى الموتِ، واعْلَمي بأنَّ كريمَ القومِ مَنْ ماتَ مُكْرَما
ويا نَفْسُ كم جَشَّمْتُكِ الصبرَ والرِّضا وجَشَّمْتِني أنْ أَلْبَسَ المجدَ مُعْلَما

معلماً: متخذاً شارة الحرب، وكان الفارس البطل يميز نفسه بعلامة

فما اسْطَعْتِ أنْ تَستَمْرِئي مُرَّ طَعْمِه   وما اسْطَعْتُ بينَ القومِ أنْ أَتَقَدَّما
فهذا فِراقٌ بينَنا فتجَمَّلي   فإنَّ الرَّدى أحلى مَذاقاً ومَطْعَما
ويا قَبْرُ لا تبخلْ بِردِّ تَحيةٍ   على صاحبٍ أَوْفَى علينا وَسَلَّمَا

يريد أن يكون قبره كريماً فيرد التحية على من يزوره!

١٣ الإخفاق بعد الكدّ

نشرت (١٩٠٠):

كم هِمْتُ في البيدِ والآرامُ قَائِلَةٌ   والشمسُ تَرمي أديمَ الأرضِ بِاللَّهَبِ

همت على وجهي كثيراً في الصحارى والآرام، الظباء، قائلة، غافية في قيلولة، والشمس ملتهبة

وكم لَبِسْتُ الدُّجى والتُّرْبُ نَاعِسَةٌ   والليلُ أَهْدَأُ مِنْ جَأْشي لدى النُّوَبِ

كم قد لبست ثوب الظلام والتراب ناعس مرطب بالندى، والليل أهدأ من جأشي، قلبي، لدي حلول المصائب

والنجمُ يَعجَبُ مِن أمري ويَحْسَبُني   لَدى السُّرَى ثامناً للسَّبْعَةِ الشُّهُبِ
لكنَّني غيرُ مَجْدُودٍ، وما فَتِئَتْ   يدُ المقاديرِ تُقْصيني عن الأَرَبِ

غير مجدود: غير محظوظ

فقد غَدَتْ مصرُ في حالٍ إذا ذُكِرَتْ   جادتْ جُفوني لها باللُّؤلُؤِ الرَّطِبِ
إذا نَطَقْتُ فقاعُ السِّجْنِ مُتَّكَأٌ   وإنْ سَكَتُّ فإنَّ النفسَ لم تَطِبِ

قاع السجن: كان السجن في الزمن القديم حفرة عميقة، كتلك التي سجن عمر بن الخطاب فيها الحطيئة، (ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة، فاغفر عليك سلام الله يا عمر)

أَيَشتكي الفَقرَ غَادِينا ورائِحُنا   ونحن نَمشي على أرضٍ مِن الذهبِ؟

١٤ الأيام دول

نشرت في يونيو/حزيران (١٩٠٢):

لم يبقَ شيءٌ مِن الدنيا بأَيْدينا   إلَّا بقيَّةَ دمعٍ في مآقينا
كنَّا قِلادَةَ جيدِ الدهرِ فانْفَرَطَتْ   وفي يمينِ العُلا كنَّا رياحينا
كانتْ منازلُنا في العزِّ شامِخَةً   لا تُشرقُ الشمسُ إلَّا في مَغانِينا

كأنه يريد أن يقول إن الشمس لم تكن تشرق إلا على بلد تحكمه مصر الفرعونية، وفي هذا الكلام نظر، ولكن بما أن الإنجليز كانوا في وقتها كذلك.. فلا أحد أحسن من أحد

حتى غَدَوْنا ولا جَاهٌ ولا نَشَبٌ   ولا صديقٌ ولا خِلٌّ يُواسِينا

النشب: المال

١٥ الملك الساهر

تهنئة إدوارد السابع البريطاني بتتويجه، أغسطس/ آب (١٩٠٢):

لا تَعجَبَنَّ لِمُلْكٍ عزَّ جانبُه   لولا التعاونُ لم تَنظُرْ له أَثرا

ما ثَلَّ ربُّكَ عرشاً باتَ يحرُسُه   عدلٌ، ولا مَدَّ في سلطانِ مَنْ غَدَرا

ثلَّ: هدم

خَبِرْتُهُمْ فرأيتُ القومَ قد سهِرُوا   على مرافِقِهِمْ، والمَلْكُ قد سهِرا

الإنجليز حرصوا على مصالحهم، وملكهم حرص أيضاً

تشاوَرُوا في أمور المُلْكِ مِن مَلِكٍ   إلى وزيرٍ إلى مَن يَغرِسُ الشَّجرا

وكلهم في الشورى مشتركون حتى البستاني، يشير بإعجاب إلى الديمقراطية في بريطانيا

١٦ أنا البحر

اللغة العربية تشكو حظها بين أهلها، نشرت (١٩٠٣):

رجَعتُ لِنفسي فاتَّهَمْتُ حَصاتي   ونَاديتُ قَومي فاحتَسَبْتُ حياتي

رجعت لنفسي ـ تقول اللغة العربية ـ فاتهمت حصاتي، أي عقلي، وناديت قومي لنصرتي فلم يتحركوا لي، فاحتسبت أجري عند الله في حياتي التي ستنقضي.. إذ ها هم أهلي يتركونني أموت

رَمَوْني بِعُقْمٍ في الشبابِ، ولَيْتَني   عَقِمْتُ فلم أَجزَعْ لِقولِ عُداتي

أنا شابة فهل ترمى الفتاة الشابة بالعقم.. وليتني كنت عقيماً حقاً فلا أكترث لرمي بالعقم لأنه عندئذ حقيقة لا مجرد اتهام

وَلَدْتُ، ولَمَّا لم أجِدْ لِعَرائِسي   رجالاً وأَكْفاءً وَأَدْتُ بناتي

على أنني ولدت فعلاً.. فلست عقيماً، ولدت ألفاظاً حساناً وأدباً جليلاً.. ولما وجدت قومي غير أكفاء لبناتي العرائس وأدتهن

وَسِعْتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً   وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

كل ما في القرآن من لفظ ومن غرض في هداية الناس ومن عظات قد وسعتُه وعبرت عنه، أنا اللغة العربية

فكيفَ أَضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتنسيقِ أسماءٍ لِمُخْتَرَعاتِ

وقد «نسق» حافظ إبراهيم وزميله خليل مطران أسماء كثيرة لمفاهيم في علم الاقتصاد عندما ترجما كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» ونشر عام ١٩١٣، مثال ذلك تعريبهما للبورصة بـ «المَصْفَق».. أي حيث تتم الصفقات، ولعمري لو درج هذا الاسم للبورصة لكان حلواً، وكم من رجل صفقته البورصة صفقات مؤلمة على حر وجهه

أنا البحرُ في أَحشائِهِ الدُّرُّ كامِنٌ فهل سَأَلُوا الغَوَّاصَ عن صَدَفاتي

إن كنت سمعت البرنامج الإذاعي «لغتنا الجميلة» لفاروق شوشة، وفي مقدمة كل حلقة هذا البيت مقروءاً بـ «ساءلوا» بدل «سألوا»، فهذا جائز في العروض أيضاً، ونظن أن حافظاً كان سيأخذ بهذه القراءة لو سمعها، ففيها مَدٌّ كان سيعجب حافظاً الخطيب المنشد. لكن «سألوا» أحسن للمعنى، فالعرب أهملوا لغتهم ولم يكلفوا أنفسهم عناء سؤال الغواص عن دررها ولو مرة واحدة، لا مساءلته مرة بعد مرة

فيا وَيْحَكُمْ أَبْلَى، وتَبْلَى مَحاسِني ومِنكُمْ، وإنْ عَزَّ الدَّواءُ، أُسَاتي

أساتي: أطبائي

فلا تَكِلُوني لِلزَّمانِ فإنَّني أخافُ عليكُمْ أن تَحينَ وَفاتي

تكلوني للزمان: تتركوني، وتوكِّلوا بي الزمان

أَرى لِرجالِ الغَرْبِ عِزّاً ومَنْعَةً وكم عَزَّ أقوامٌ بِعِزِّ لُغاتِ

أَتَوْا أَهْلَهُمْ بِالمعجزاتِ تَفَنُّناً فيا لَيتَكُمْ تأتونَ بِالكلماتِ

أَيُطرِبُكُمْ مِن جانِبِ الغربِ نَاعِبٌ يُنادي بِوَأْدِي في ربيعِ حياتي

في تلك السنين اشتدت الدعوة إلى العامية، وقال بها عدد من المستشرقين الذين رأوا لهجات البلدان العربية مختلفة جداً، ورأوها سائرة في طريق التبلور إلى لغات

أرى كلَّ يومٍ بالجرائدِ مَزْلَقاً مِن القبرِ يُدنيني بِغيرِ أَناةِ

وأَسمَعُ لِلكُتَّابِ في مصرَ ضَجَّةً فَأعلَمُ أنَّ الصَّائِحينَ نُعاتي

كان من بين الدعاة إلى العامية عدد من كتاب مصر أيضاً، وكان هناك من يدعون إلى تبسيط اللغة، ونبذ الألفاظ المماتة

أَيَهْجُرُني قومي ـ عفا اللهُ عنهُمُ ـ إلى لُغَةٍ لم تَتَّصِلْ بِرُواةِ

سَرَتْ لُوثَةُ الإفْرَنْجِ فيها كما سَرى لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فُراتِ

سرت لوثة، جنون، الإفرنج الداعين إلى التجديد والعامية في هذه «اللغة» العربية المجددة التي لم تتصل برواة، لم ترد على ألسنة قدامى الرواة، مثلما يسري سم الأفاعي في مجرى ماء فرات، عذب

فجاءتْ كثوبٍ ضمَّ سبعينَ رُقعَةً مُشكَّلَةَ الألوانِ مُختلِفاتِ

اللغة المجددة كالثوب المرقع.. فهي مشحونة بالكلمات الأجنبية، أو غير المقبولة معجمياً

١٧ بشكل عام.. لا شيء

قال في زواج الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» من صفية السادات ومحاولة والدها التفريق بينهما لعدم الكفاءة، فالشيخ جورنالجي و«السادات» عائلة تزعم أنها من نسل الحسين، وتكملة القصة أن صفية عادت إلى زوجها ورضي أبوها بعد تحايل ووسائط، ولم يقل حافظ رأياً صريحاً جريئاً بل حام حول الموضوع، نشرت القصيدة في سبتمبر/ أيلول (١٩٠٤):

فما أنتِ يا مِصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبلدِ الطَّيِّبِ
وكم فيكِ يا مصرُ مِن كاتبٍ أَقالَ اليَراعَ ولم يَكْتُبِ
وكم غَضِبَ الناسُ مِنْ قبلِنا لِسَلْبِ الحقوقِ، ولم نَغضبِ
أنَابِتَةَ العَصرِ إنَّ الغَريبَ مُجِدٌّ بِمِصْرَ، فَلا تَلْعَبي

نابتة العصر: النشء الجديد

يقولونَ: في النَّشْءِ خيرٌ لنا ولَلنَّشْءُ شَرٌّ مِنَ الأَجنبي
وكم ذا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكاتِ كما قال فيها أبو الطَّيِّبِ
أمورٌ تَمُرُّ وعيشٌ يُمِرُّ ونحنُ مِن اللَّهْوِ في مَلْعَبِ

عيش يُمِرَ: يصبح مُرّاً

وشَعبٌ يَفِرُّ مِن الصَّالحاتِ فِرارَ السَّليمِ مِن الأَجْرَبِ
وصُحْفٌ تَطِنُّ طَنينَ الذُّبابِ وأخرى تَشُنُّ على الأقربِ
وهذا يلوذُ بقصرِ الأميرِ ويَدعُو إلى ظِلِّهِ الأَرْحَبِ
وهذا يلوذُ بقصرِ السفيرِ ويُطْنِبُ في وِرْدِهِ الأَعذَبِ
أَلِفْنا الخُمولَ ويا لَيْتَنا أَلِفْنا الخُمولَ ولم نَكْذِبِ

١٨ أمنية

يهنئ الخديوي عباساً الثاني بالعام الهجري مارس/ آذار (١٩٠٤):

أَمَولايَ إنَّ الشرقَ قد لاحَ نَجْمُهُ وآنَ له بعدَ المماتِ نُشورُ

لاح نجمه: بدا في أفقه نجم السعد، والحظ الطيب، والنشور: البعث بعد الموت

جرَتْ أمَّةُ اليابانِ شَوْطاً إلى العُلا ... ومصرُ على آثارِها ستسيرُ

١٩ أنا يابانية

نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٠٤):

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السيفُ نَبا ... صَحَّ مِنِّي العزمُ، والدهرُ أبى

لا تلمني إذا نبا سيفي ولم يقطع، أي فشلتُ في الحياة.. فلقد صحَّحتُ العزم، ولكن الدهر أبى أن يسعفني بالحظ.. كان حافظ قد ترك الجيش قبل سنة من تاريخ هذه القصيدة، وعاد إلى حياة لا تخلو من تشرد

رُبَّ ساعٍ مبصِرٍ في سَعْيِهِ ... أَخطَأَ التوفيقَ فيما طَلبا

مرحباً بالخَطْبِ يَبْلُوني إذا ... كانتِ العلياءُ فيهِ السَّبَبا

مرحباً بالشدائد إذا كانت الطريق إلى المعالي

عَقَّني الدهرُ ولولا أَنَّني ... أُوثِرُ الحُسْنَى عَقَقْتُ الأَدَبا

إِيهِ يا دُنيا اعبِسي أو فابْسِمي ... لا أرى بَرقَكِ إلَّا خُلَّبا

يا دنيا أنت خداعة كالبرق الذي يبشر بالمطر ولكن، لا يأتي بعده مطر

أنا لولا أنَّ لي مِن أُمَّتي ... خَاذِلاً مَا بِتُّ أَشْكُو النُّوَبا

أُمَّةٌ قد فَتَّ في ساعِدِها ... بُغْضُها الأَهلَ وحُبُّ الغُرَبا

فت في ساعدها: أضعَفَها

تَعشَقُ الأَلْقابَ في غيرِ العُلا ... وتُفَدِّي بِالنفوسِ الرُّتَبا

وكان حافظ برتبة ملازم أول، ولكنه كان لامبالياً وصُرف من الخدمة، وقالوا إنه كان كثير المخالفة للضباط الإنجليز أيضاً

وَهْيَ والأحداثُ تَستَهْدِفُها ... تعشقُ اللَّهْوَ وتَهوَى الطَّرَبا

لا تُبالي لَعِبَ القومُ بِها ... أم بِها صَرْفُ اللَّيالي لَعِبا

القوم: الإنجليز

ليتَها تسمعُ مِنِّي قِصَّةً ... ذاتَ شَجْوٍ وحَديثاً عَجَبا:

كنتُ أَهْوَى في زَماني غَادَةً ... وَهَبَ اللَّهُ لها ما وَهَبا

ذاتُ وجهٍ مَزَجَ الحسنُ بهِ ... صُفْرَةً تُنسي اليَهودَ الذَّهَبا

وجهها فيه صفرة لأنها يابانية

حَـمَـلَـتْ لـي ذاتَ يـوم نَـبَـأً لا رَعـاكَ الـلـهُ يـا ذاكَ الـنَّـبـا
وأَتـتْ تَـخْـطِـرُ والـلـيـلُ فَـتـىً وهِـلالُ الأُفْـقِ فـي الأُفْـقِ حَـبـا
ثـم قـالـتْ لـي بِـثـغْـرٍ بـاسِـم نَـظَـمَ الـدُّرَّ بـه والـحَـبَـبـا

ثغرها باسم وتبدو أسنانها التي كأن فمها نظمها من اللؤلؤ أو من الحبب، فقاقيع الكؤوس

نَـبَّـأُونـي بِـرحـيـلٍ عـاجِـلٍ لا أرى لـي بَـعـدَهُ مُـنْـقَـلَـبـا

منقلب: رجوع

ودَعـانـي مَـوطـنـي أن أَغْـتَـدي عَـلَّـنـي أَقْـضـي لـه مـا وَجَـبـا
نَـذْبَـحُ الـدُّبَّ ونَـفْـري جِـلْـدَهُ أَيَـظُـنُّ الـدُّبُّ أَلَّا يُـغْـلَـبـا

الدب: روسيا

قُـلْتُ والآلامُ تَـفـري مُـهْـجَـتـي: وَيْكِ! ما تَصنَعُ في الحربِ الظُّبَا؟

ويك: ويحك، الظبا: الظباء

مـا عَـهِـدنَـاهـا لِظَبْـي مَـسـرحـاً يـبـتَـغـي مَـلـهـىً بـه أو مَـلْـعَـبـا
لـيستِ الـحـربُ نـفـوسـاً تُـشـتَـرى بِـالـتَّـمَـنِّـي أو عُـقـولاً تُـسْـتَـبـى

الحرب ليست مجالاً للنساء يشترين فيه نفوس الرجال بالأماني الكواذب، أو يسبين عقولهم بالدلال

أَحَـسِـبْـتِ الـقَـدَّ مِـن عُـدَّتِـهـا أم ظننتِ اللَّحْظَ فيها كالشَّبا؟

القد المياس ليس من عتاد الحرب، واللحظ الفتان ليس كالشبا، سن الرمح

فَـسَـلِـيـنـي، إنـنـي مـارَسْـتُـهـا وركِـبْـتُ الـهـولَ فـيـهـا مَـركَـبـا
وتَـقَـحَّـمْـتُ الـرَّدَى فـي غَـارةٍ أَسْـدَلَ الـنَّـقْـعُ عـلـيـهـا هَـيْـدَبـا

اقتحمت الموت في غارة هبط فيها النقع، الغبار، فكأنه الهيدب، الغيم

قَـطَّـبَـتْ مـا بـيـن عَـيْـنـيـهـا لـنـا فـرأيْـتُ الـموتَ فـيـهـا قَـطَّـبـا

يصف الحرب بأنها قطبت جبينها فكأنها الموت

جَـالَ عِـزرائـيـلُ فـي أَنـحـائِـهـا تَـحتَ ذاكَ الـنَّـقْـعِ يَـمْـشي الـهَـيْـذَبى

وتحت غبار الحرب مشى عزرائيل يخترم الأنفس ويمشي الهيذبى، مِشية سريعة للإبل

فَـدعـيـهـا لِـلَّـذي يَـعـرِفُـهـا والـزَمِـي يـا ظَـبـيـةَ الـبـانِ الـخِـبـا

الزمي خباءك، خيمتك أيتها الظبية واتركي الحرب لأهلها

فَـأجَـابَـتْـنـي بِـصـوتٍ رَاعَـنـيٍ وأرَتْـنـي الـظَّـبْـيَ لَـيـثـاً أغْـلَـبـا:
إنَّ قَـوْمـي اسـتَـعْـذَبُـوا وِرْدَ الـرَّدَى كـيـف تَـدعُـونِـيَ ألَّا أشْـرَبـا؟
أنـا يَـابـانِـيَّـةٌ لا أنْـثَـنـيٍ عـن مُـرادِي أو أذُوقَ الـعَـطَـبـا
أنـا إنْ لـم أُحْـسِـنِ الـرَّمْـيَ، ولـم تَـسـتَـطِـعْ كَـفَّـايَ تَـقـلـيـبَ الـظُّبـا

الظبا: جمع ظبة وهي حد السيف

أَخْدُمُ الـجَـرحَـى وأَقْـضـي حَـقَّـهُـمْ وأُوَاسـي فـي الـوَغَـى مَـن نُـكِـبَـا
هَـكَـذا الـمِـيـكَـادُ قـد عَـلَّـمَـنـا أن نَـرى الأَوْطَـانَ أُمَّـاً وأَبـا

الميكادو: كلمة يابانية كانت تستعمل في الإنجليزية لتعني «الحضرة الإمبراطورية اليابانية»، ولا يستعملها اليابانيون

مَـلِـكٌ يَـكـفِـيـكَ مـنـهُ أنَّـهُ أنْـهَـضَ الـشـرقَ فَـهـزَّ الـمَـغْـرِبـا
وإذا مَـارَسْـتَـهُ ألْـفَـيْـتَـهُ حُـوَّلاً فـي كـلِّ أمْـرٍ قُـلَّـبـا

الحُوَّل القُلَّب: الداهية الأريب

كـانَ والـتَّـاجَ صَـغـيـرَيْـنِ مـعـاً وجَـلالُ الـمُـلْـكِ فـي مَـهْـدِ الـصِّـبـا

أيامئذ كان الإمبراطور الياباني هو «موتسوهيتو»، وهو أول أباطرة أسرة ميجي، بدأ الحكم وهو في الخامسة عشرة، كان صغيراً وكان تاج الأسرة جديداً، وفي عهده بدأ النهوض الكبير لليابان

فَـغَـدا هـذا سَـمـاءً لِـلْـعُـلا وغَـدا ذَلِـكَ فـيـهـا كـوكَـبـا
بَـعَـثَ الأمـةَ مِـن مَـرقَـدِهـا ودعـاهـا لـلـعُـلا أن تَـدْأَبـا
فَـسَـمَـتْ لِـلـمـجـدِ تَـبـغـي شَـأْوَهُ وقَـضـتْ مِـن كـلِّ شـيءٍ مَـأْرَبـا

شأوه: غايته. ومع أسرة ميجي نهضت اليابان نهضة أدهشت العالم، وأكثر شخص في هذا العالم اندهش منها وهشَّ لها حافظ إبراهيم، لأن قلبه كان يخفق بشوق لأن تنهض مصر مثل اليابان

٢٠ الصفر والبيض

الحرب اليابانية الروسية، نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٤):

أَسـاحَـةٌ لِـلـحـربِ أمْ مَـحْـشَـرُ ومَـوْرِدُ الـمـوتِ أمِ الـكَـوْثَـرُ؟

أهذه ساحة حرب أم يوم القيامة الذي تحشر فيه النفوس؛ وهذا مورد، منهل ويَنبوع، للموت، أم هو نهر الكوثر في الجنة؟ وما الذي حشر نهر الكوثر هنا؟ سوى القافية، وسوى أن المحشر استدعاها، رغم أن المعنى يأباها

وهــذِهِ جُــنْــدٌ أطــاعُــوا هَـوَى أَربــابِــهِــمْ، أم نَــعَــمٌ تُــنْــحَــرُ؟

أربابهم: أسيادهم، نَعَمٌ: إبل

لِــلَّــهِ مــا أقــسَــى قُــلــوبَ الأُلَــى قــامُــوا بــأمرِ الـمُـلْـكِ واسْـتَـأْثَـرُوا!

الألى: الذين، استأثروا: استبدوا

وغَـرَّهُـمْ فـي الـدهـرِ سـلـطـانُـهُـمْ فـأمْـعَـنُوا فـي الأرضِ واسْـتَـعْـمَـرُوا

قـد أَقـسَـمَ الـبـيـضُ بِـصُـلـبـانِـهِـمْ لا يـهـجُـرونَ الـموتَ أوْ يُـنـصَـرُوا

البيض: الروس

وأَقـسَـمَ الـصُّـفْـرُ بِـأوثَـانِـهِـمْ لا يُـغْـمِـدُونَ الـسَّـيـفَ أو يَـظْـفَـرُوا

الصفر: اليابانيون

فَــمَــادَتِ الأرضُ بِــأوتَــادِهــا حـيـن الـتـقَـى الأبـيـضُ والأصـفـرُ

وأثْــمَــلَــتْــهــا خَــمْــرةٌ مِــن دَمٍ يَـلْـهُـو بِـهـا الـمِـيكَـادُ والـقَـيْـصَـرُ

الميكادو: لقب إمبراطور اليابان، والقيصر: لقب إمبراطور روسيا

وأَشـبَـهَـتْ يـومَ الـوَغَـى أُخْـتَـهـا إذْ لاحَ فـيـهـا الـشَّـفَـقُ الأَحْـمَـرُ

أخت الأرض: الشمس

وأَصـبَـحَـتْ تـشـتـاقُ طُـوفَـانَـهـا لَـعـلَّـهـا مِـن رِجْـسِـهـا تَـطْـهُـرُ

نبهنا المازني في كتابه الذي ندم عليه أن البيت مستوحى من أبي العلاء: (والأرضُ لِلطُّوفَانِ مُشتاقةٌ/ لعلّها مِن دَرَنٍ تُغسَلُ)، وانظر كتابنا «تألق الشعر»، وفيه مئة وخمسون صفحة من مختاراتنا من شعر أبي العلاء، مسبوقة بثلاثين صفحة عن قصة حياته. وكانت أبيات لزوميات أبي العلاء مما يستشهد به حافظ كثيراً

أَشْـبـعـتِ يـا حَـربُ ذئـابَ الـفَـلا وغَـصَّـتِ الـعِـقـبـانُ والأَنْـسُـرُ

هذا لِمَا أكلته هذه الجوارح والكواسر من لحم القتلى

ومِـيـرَتِ الـحِـيـتـانُ فـي بَـحْـرِهـا ومَـطـمَـعُ الإنـسـانِ لا يُـقْـدَرُ

ميرت: زُوِّدتْ بالميرة أي الغذاء، لا يقدر: لا حد له

إن كـانَ هـذا الـدبُّ لا يَـنـثَـنـي وذلـكَ الـتِّـنِّـيـنُ لا يُـقْـهَـرُ

والـبِـيـضُ لا تَـرضَـى بِـخِـذْلانِـهـا والـصُّـفْـرُ بـعـد الـيـومِ لا تُـكْـسَـرُ

فَـمـا لِـتِـلْـكَ الـحـربِ قـد شَـمَّـرَتْ عـن سـاقِـهـا حـتـى قَـضَـى الـعَـسْـكَـرُ

إن كانت النتيجة مجرد قتل بغير حسم، فلماذا الحرب والتقتيل؟ والواقع أن اليابان حسمت الحرب لصالحها بنصر مؤزر

تَـسـوءُنـا الـحـربُ وإنْ أصـبـحـتْ تَـدعُـو رجـالَ الـشـرقِ أن يَـفـخَـرُوا

يفخر الشرقيون بانتصار اليابان الشرقية على روسيا التي تعد من بلدان الغرب

أَتـى عـلـى الـشـرقـيِّ حـيـنٌ إذا مـا ذُكِـرَ الأحـيـاءُ لا يُـذْكَـرُ
ومَـرَّ بـالـشـرقِ زَمـانٌ ومَـا يَـمُـرُّ بِـالـبـالِ ولا يَـخْـطُـرُ
حـتـى أَعـادَ الـصُّـفْـرُ أيّـامَـهُ فـانـتَـصَـفَ الأَسـودُ والأسـمـرُ

٢١ رثاء محمود سامي البارودي

يناير/ كانون الثاني (١٩٠٥):

رُدُّوا علـيَّ بيانـي بعـدَ محمـودِ إنِّي عَيِيتُ وأَعيا الشعرُ مَجهودي
ما لِلبلاغةِ غَضبَى لا تُطاوِعني وما لِحبلِ القوافي غيرَ مَمدودِ؟
لقد نَزحتَ عن الدنيا كما نَزَحَتْ عنها لَياليكَ مِن بيضٍ ومِن سودِ

رحلت عن الدنيا بعد أن قعدت بك الحال، وفقدت البصر، فلم تبق لك تلك الليالي السود الكئيبة، ولا تلك البيض في أيام عزك بما فيها من لهو

أغمَضْتَ عينيكَ عنها وازدَرَيْتَ بها قبلَ المماتِ، ولم تَحفِلْ بِموْجودِ
تَجري السَّلاسَةُ في أَثناءِ مَنطِقِه تحتَ الفصاحةِ جَرْيَ الماءِ في العودِ
إنْ هُدَّ رُكنُكَ مَنكوباً فقد رَفَعَتْ لـكَ الـفـضيلةُ ركـنـاً غيرَ مَهدُودِ

بنكبتك يا محمود سامي البارودي، وعزلك ونفيك إلى سيلان هُدَّ ركنك، ولكن فضلك رفع لك ذكراً عالياً

إنَّ المناصِبَ في عَـزْلٍ وتَولِيَـةٍ غيرُ المواهِبِ في ذكرٍ وتَخليدِ
أكرِمْ بها زَلَّةً في العمرِ واحِدَةً إنْ صَحَّ أنَّكَ فيها غيرُ محمودِ

الزلة: الخطأ في تقدير الموقف أثناء الثورة العرابية، ولكن.. لعلها ليست زلة بل موقف وطني مشرف

كـم وَقْفَـةٍ لَـكَ والأبـطـالُ طـائِـرَةٌ والحربُ تَضربُ صِنديداً بصِنديدِ
نَسخْتَ يَومَ كَريدِ كلَّ ما نَقَلُوا في يومِ ذي قَارَ عن هانِي بنِ مَسعودِ

يوم كريد: الحرب في جزيرة كريت تحت الراية العثمانية. وكان البارودي ضابطاً في تلك الحملة، وهانئ بن مسعود بطل ذي قار

أَودَى المعرّيِ تَقِيُّ الشعرِ مُؤْمِنُهُ   فكادَ صَرحُ المعالي بَعدَهُ يُودي

مات المعري الذي كان تقياً ومؤمناً في شعره (وإن لم يكن كذلك في معتقده!) وكاد صرح الشعر يموت بعد المعري، وقد ظل الشعر يتحدر بعد المعري ألف سنة حتى جاء البارودي فأحياه

وأَصبحَ الشعرُ والأسماعُ تنبُذُه   كأنه دَسَمٌ في جوفِ مَمعُودِ

الممعود: المصاب في معدته. وكان حافظ يشكو دائماً من أمعائه ويقول إنها نقطة الضعف التي ستقتله.. ونال حافظ علقة ساخنة على هذا التشبيه من النقاد

أَلْوَى به الضعفُ واسترَختْ أَعِنَّتُه   فراحَ يعثُرُ في حَشْوٍ وتَعقيدِ

ألوى بالشعر الضعف، أي أنهكه، واسترخت أعنته، كما يصبح مقود الفرس رخواً غير مشدود فهو متعب قد كف عن الجري. وهذا من بيت الطرماح، يتخيل كيف سيصبح حال الشعر بعد موته:
(إذا قُبضتْ نفسُ الطِّرِمَّاحِ أخلَقَتْ/ عُرى المجدِ واستَرخى عِنانُ القصائِدِ)

٢٢ سلام على الإسلام

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، أغسطس/ آب (١٩٠٥):

سلامٌ على الإسلامِ بعدَ محمدٍ   سلامٌ على أيامِه النَّضِراتِ

على الدينِ والدنيا، على العلمِ والحِجا   على البِرِّ والتقوى، على الحسناتِ

لقد كنتُ أخشى عاديَ الموتِ قبلَه   فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتي

فوالَهفي ـ والقبرُ بيني وبينَه ـ   على نظرةٍ مْن تِلكُمُ النَّظراتِ

أتحسر ألماً الآن، إذ يقف القبر عائقاً بيني وبين الإمام، على نظرة من نظراته

وقفتُ عليهِ حاسِرَ الرأسِ خاشعاً   كأنِّي ـ حِيالَ القبرِ ـ في عَرفاتِ

وقفت حاسراً عن رأسي. وعندما كنت حيال قبر الإمام، أي بجانبه، كنت كأني واقف بعرفات خشوعاً. التسويد من عمران القفيني

تباركْتَ؛ هذا الدينُ دينُ محمدٍ   أَيُترَكُ في الدنيا بغيرِ حُماةِ؟

تباركت يا ربّ، أتترك الإسلام بدون حماة يحمونه؟

تباركْتَ؛ هذا عالِمُ الشرقِ قد قَضى   ولانتْ قناةُ الدينِ لِلغَمَزاتِ

لانت قناة الدين للغمزات: أصبح مكشوفاً معرضاً للاعتداء

زَرعتَ لنا زرعاً فأخرجَ شَطْأَهُ   وبِنْتَ ولَمَّا نَجْتَنِ الثَّمراتِ

أخرج شطأه: أنبت رؤوس سنابله، بنت: فارقت

مَشى نعشُه يختالُ عُجْباً بِرَبِّهِ ويخطِرُ بين اللَّمْسِ والقُبُلاتِ

مشى النعش مختالاً فخوراً بربه، بصاحبه، والناس يلمسونه ويقبلونه تبركاً

تكادُ الدموعُ الجارياتُ تُقِلُّهُ وتدفَعُه الأنفاسُ مُستَعِراتِ

تقله: تحمله

٢٣ آلة تسحق الكسل

إلى رجال الدنيا الجديدة، أنشدها في حفل كلية البنات الأمريكية بمصر لتوزيع الشهادات على خريجاتها، مايو/ أيار (١٩٠٦):

كاشِفَ الكَهرباءِ ليتَكَ تُعنَى بِاختراعٍ يَرُوضُ مِنَّا الطِّباعا

آلةٍ تَسْحَقُ التَّواكُلَ في الشَّرْ قِ، وتُلقي عن الرِّياءِ القِناعا

يهيب بإديسون أن يخترع آلة تزيل الكسل والنفاق

٢٤ إلى ناظر المعارف

سعد زغلول، نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٠٦):

يا سعدُ أنتَ مَسيحُها فاجعلْ لِهذا الموتِ حَدَّا

والمسيح أحيا الموتى

يا سعدُ إنَّ بِمصرَ أيـ ـتاماً تُؤَمِّلُ فيكَ سَعْدا

السعد: الحظ الحسن

قد قامَ بينَهُمُ وبيـ ـنَ العِلْمِ ضِيقُ الحالِ سَدَّا

أنا لا أَلومُ المستشا رَ إذا تَعَلَّلَ أو تَصَدَّى

كان دنلوب هو «المستشار» الإنجليزي لشؤون التعليم، وسعد زغلول هو الوزير، وكان بينهما شد وجذب. سعد يريد تعليماً وطنياً واسعاً والمستشار الإنجليزي يريد تعليما ضيقاً يوفر طبقة موظفين لإدارة الروتين الحكومي

فسبيلُه أن يَستَبِدَّ وشَأنُنا أن نَستَعِدَّا

هِيَ سُنَّةُ المُحْتَلِّ في كلِّ العُصورِ، وما تَعَدَّى

وما تعدى: ما تجاوز المتوقع منه، ولكنه بالطبع معتد أثيم

٢٥ صيدوا العباد

حادثة دنشواي، وقُتل فيها جندي إنجليزي، ربما بضربة شمس وهو يصطاد ورفاقَه الحمام، فشَنق الإنجليز أربعة رجال وجلدوا العشرات في قرية دنشواي، بعد محاكمة هزيلة ثار لها الإنجليز أنفسهم، وأدت إلى عزل المعتمد البريطاني كرومر بعد أشهر. فصَّلنا القول في الحادثة في الفصل المخصص لأحمد شوقي. نشرت القصيدة في يوليو/تموز (١٩٠٦):

أيـهـا الـقـائـمـونَ بـالأمـرِ فـيـنـا ... هـل نَـسِـيـتُـمْ وَلاءَنـا والـوِدَادا

القائمون بالأمر: الإنجليز

خفِّضُوا جيشَكُمْ وناموا هنيئاً ... وابتَغُوا صيْدَكُم وجُوبوا البِلادا

وإذا أَعْـوَزَتْـكُـمُ ذاتُ طَـوْقٍ ... بينَ تِلكَ الرُّبا فَصِيدُوا العِبادا

إنَّـمـا نـحـنُ والـحـمـامُ سَـواءٌ ... لـم تُـغـادِرْ أَطـواقُـنـا الأَجـيـادا

لبعض الحمام شبه أطواق من الريش عند الرقبة، ونحن مطوقون بقيود الاحتلال في أجيادنا، رقابنا

لا تُـقـيـدُوا مِـن أُمَّـةٍ بِـقَـتـيـلٍ ... صَادَتِ الشمسُ نفسَه حينَ صَادا

تُقيدوا: تقتصُّوا قصاصاً

جـاءَ جُـهَّـالُـنـا بـأمـرٍ وجِـئْـتُـمْ ... ضِعْفَ ضِعفَيْهِ قَسْوةً واشْتِدادا

ليتَ شِعري أَتلْكَ مَحكَمَةُ التَّفْـ ... ـتيشِ عادَتْ أَمْ عهدُ نيرُونَ عادا؟

محاكم التفتيش: محاكم ظالمة عقدها الإسبان على مدى ٣٥٠ سنة للتخلص من آثار الحكم العربي في الأندلس، نيرون: إمبراطور روماني قيل إنه أحرق روما وقعد يتفرج عليها

كيفَ يَحلُو مِنَ القَويِّ التَّشفِّي ... مِن ضعيفٍ أَلقَى إِليهِ القِيادا

إِنَّـهـا مُـثْـلَـةٌ تَـشِـفُّ عـنِ الـغَـيْـ ... ـظِ وَلَـسْـنـا لِـغَـيْـظِـكُـمْ أَنْـدَادا

التشفي بالضعيف هو كالمثلة، أي التمثيل بالمقتول

أَيُّـهـا الـمُـدَّعِـي الـعُـمـومِـيُّ مَـهـلاً ... بـعـضَ هـذا فـقـدْ بـلـغـتَ الـمُـرادا

المدعي العمومي في تلك المحكمة كان إبراهيم الهلباوي، وكان القاضي أحمد فتحي زغلول أخا سعد زغلول، وقد كان الهلباوي من أشهر المحامين، وندم على فعلته واعتذر من مواطنيه بعد أربع سنين، وكان له دور في الحركة الوطنية، وكان القاضي أحمد فتحي زغلول من كبار المثقفين والداعين للتحرر ومن الوطنيين في الحركة العرابية. ولكن الرجلين عاشا بعد دنشواي وماتا خائنين، وظل الشعب يحتقرهما لأنهما احتقرا الشعب ورضيا أن يكونا أداة للمحتل. ألا إن الإنسان موقف

قد ضَمِنَّا لكَ القَضاءَ بمصرٍ   وضَمِنَّا لِنَجلِكَ الإسْعادا

وترقى الهلباوي فعلاً بعد دوره الشنيع

لا جَرى النيلُ في نَواحِيكِ يا مصـ   ـرُ، ولا جادَكِ الحَيا حيثُ جادا

الحيا: المطر

أنتِ أنبَتِّ ذلِكَ النَّبْتَ يا مِصـ   ـرُ فأضْحَى عليكِ شَوكاً قَتادا

القتاد: الشوك

إيهِ يا مِدْرَهَ القَضاءِ ويا مَن   سادَ في غَفْلَةِ الزمانِ وشَادا

المدره: الزعيم

أنتَ جَلَّادُنا فلا تَنْسَ أنَّا   قد لَبِسْنا على يديكَ الحِدادا

قيل: أنشد المصريون هذا البيت في جنازة الهلباوي عام ١٩٤٠

٢٦ الظلم المنظم

شكوى مصر من الاحتلال، نشرت في يناير/ كانون الثاني (١٩٠٧):

لقد كان فينا الظلمُ فوضَى فَهُذِّبَتْ   حَواشيهِ حتى باتَ ظلماً منظَّما

عَمِلْتُمْ على عِزِّ الجَمادِ وذُلِّنا   فأَعْلَيْتُمُ طِينا وأرخَصْتُمُ دما

إذا أَخصَبَتْ أَرضٌ وأَجْدَبَ أهلُها   فلا أَطْلَعَتْ نَبْتاً ولا جادَها السَّما

السما: المطر

نَهَشٌّ إلى الدينارِ، حتى إذا مَشى   به رُبُّهُ لِلسُّوقِ أَلْفَاهُ دِرْهَما

فإنَّ كثيرَ المالِ ـ والخَفْضُ وارِفٌ ـ   قليلٌ إذا حَلَّ الغَلاءُ وخَيَّما

٢٧ العهدة على الراوي

وداع اللورد كرومر، قالها عند استقالته، ونشرت في أبريل/ نيسان (١٩٠٧):

سلامٌ، ولو أنّا نُسيءُ إلى الأُلى   أَساءُوا إلينا ما مَدَدْنا لَهُمْ يَدا

سَنُطْري أياديكَ التي قد أَفَضْتَها   علينا فلَسْنا أُمَّةً تَجْحَدُ اليَدا

أياديك: أفضالك

أَمِنَّا فلم يَسْلُكْ بِنا الخوفُ مَسْلَكاً   ونِمنا فلم يَطْرُقْ لنا الذُّعْرُ مَرقَدا

وكنتَ رَحيمَ القلبِ تَحمي ضَعيفَنا   وتدفعُ عنَّا حادِثَ الدهرِ إنْ عَدا
تَشَعَّبَتِ الآراءُ فيكَ: فقائِلٌ   أفادَ الغِنَى أهلَ البِلادِ وأَسْعَدا
وآخرُ لم يَقْصِرْ على المالِ هَمَّهُ   يَرى أنَّ ذاكَ المالَ لا يَكْفُلُ الهُدى

بعضهم نظر إلى فوائد حصلت عليها البلاد في عهد كرومر وبعضهم قال إن المال ليس كل شيء

قَضَيْتَ على أمِّ اللُّغاتِ، وإنَّه   قضاءٌ علينا أو سبيلٌ إلى الرَّدَى

كان كرومر قليل الاعتبار للغة العربية وللدين الإسلامي، ويرى أن طريق مصر هو التحرر من الماضي

ووافَيْتَ والقُطْرانِ في ظِلِّ رايَةٍ   فما زِلْتَ بِالسُّودانِ حتى تَمَرَّدا
وحَاولْتَ إعطاءَ الغَريبِ مَكانَةً   تَجُرُّ علينا الوَيْلَ والذُّلَّ سَرمَدا

شجع كرومر الأجانب ونشاطهم التجاري، ومنحهم امتيازات غير متاحة للمصريين، وهذا جر على مصر الذل السرمدي، الأبدي

وزَاحَمَنا في العيشِ كلُّ مُمارِسٍ   خبيرٍ، وكُنَّا جاهِلِينَ ورُقَّدا
وما الشَّركاتُ السُّودُ في كلِّ بَلْدَةٍ   سوى شَرَكٍ يُلْقي به مَنْ تَصَيَّدا

المتصيد لخيرات البلاد الأخرى يُلقي الشرك، أي الشبكة، في هذه البلاد على هيئة شركة. الدول الخائرة العزم، حتى يومنا هذا، تتغنى بالاستثمار وتشجيع الاستثمار وجلب الاستثمارات الأجنبية. ما لها لا تتغنى بالتصنيع وبالتعليم كي يفتح أهل البلد المصانع والشركات؟

فهذا حديثُ الناسِ والناسُ أَلْسُنٌ   إذا قالَ هذا، صاحَ ذاكَ مُفَنِّدا

اكتفى حافظ من وداع كرومر بسرد ما يقوله الناس من مادح وقادح. ولم يفت هذا الموقف الخنثى منتقدي حافظ

٢٨ رثاء قاسم أمين

يونيو/حزيران (١٩٠٨):

لَهْفي عليكَ قَضيتَ مُرتَجِلاً   لم تَشْكُ، لم تَسْتَوْصِ، لم تَقُلِ

مُتَّ موتاً ارتجالياً بلا شكوى من مرض وبلا وصية

إنْ رَيْتَ رأياً في الحِجابِ ولم   تُعْصَمْ، فتِلْكَ مراتبُ الرُّسُلِ

لئن كنت ريت، أي رأيت، رأياً ضد الحجاب، ولم تُعصَم من الخطأ، فلا بأس فالعصمة للأنبياء

الحكمُ للأيامِ مَرجِعُهُ   فيما رأيتَ، فَنَمْ ولا تَسَلِ

فلا تهتم، فالحكم بشأن الحجاب متروك للأيام المقبلة

وكــذا طُــهــاةُ الــرأيِ تَــتــرِكُــهُ لــلــدهــرِ يُــنــضِــجُــهُ عــلــى مَــهَــلِ
فــإذا أصــبْــتَ فــأنــتَ خــيــرُ فَــتــىً وَضَــعَ الــدواءَ مَــواضِــعَ الــعِــلَــلِ
أو لا، فَــحَــسْــبُــكَ مــا شَــرُفْــتَ بــه وتــركــتَ فــي دنــيــاك مِــن عــمــلِ

٢٩ الدخول بين السلطان والوالي

تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه، سبتمبر/ أيلول (١٩٠٨):

مِــنّــي عــلــى دارِ الــســلامِ تــحــيــةٌ وعــلــى الــخــلــيــفــةِ مِن بَنِي عثمانِ
دار السلام، هنا، إستانبول عاصمة الخلافة

وعلى رجالِ الجيشِ مِنْ ماشٍ به أو راكــبٍ أو نــازحٍ أو دَانِ
يحيي من الجيش المشاة والخيالة، والنازح البعيد في مهمة، والداني القريب المرابط في الديار

وعلى الأُلَى سَكَنُوا إلى الحُسنَى، سوى ذاكَ الــذي يــدعُــو إلــى الــعــصــيــانِ
الأُلى: الذين

والــي الــحــجــازِ الــخــارجيِّ، ومــا بِــه إلّا اقــتــنــاصُ الأصــفَــرِ الــرنَّــانِ
بخلاف والي الحجاز الخارجي العاصي الذي يقتنص الأصفر الرنان، الذهب، من أموال الحج

ما لِلشَّريفِ المُنتَمِي حَسباً إلى خيرِ البَرِيَّةِ مِن بني عدنانِ..
ما لي أرى شريف مكة الذي ينتمي بنسبه إلى النبي..

أَمْــسَــى يُــمَــالِــئُــه ويَــنــصُــرُ غَــيَّــهُ وضَــلالَــهُ بِــحُــثَــالَــةِ الــعُــرْبــانِ
ما لي أراه يمالئ الوالي، يطاوعه، ويؤيد ضلاله ببعض من أبناء القبائل من الحثالة، أردأ الناس

تَــالــلَّــهِ لــو جَــنَّــدْتُــمــا رَمْــلَ الــنَّــقــا ونــزلــتُــمــا بِــمــواطِــنِ الــعِــقْــبــانِ..
فيا والي الحجاز ويا شريفها لو جندتما من الجنود بعدد حبات رمل النقا، الكثيب، ولو رابطتما في أماكن العقبان، الصقور والنسور، في معاقلها الجبلية..

وغَــرسْــتُــمــا أرضَ الــحــجــازِ أَسِــنَّــةً وأَسَــلْــتُــمــا بَــحــراً مِــن الــنــيــرانِ..
ولو غرستما الحجاز بأسنة الرماح، ولو سالت النيران من أسلحتكما..

وأَقــمْــتُــمــا فــيــهــا الــمَــعــاقِــلَ مَــنْــعَــةً مِن أرضِ نجدَ إلى خليجِ عُمانِ..
ولو أقمتما الحصون المنيعة من نجد إلى عمان..

لَـدَهـاكُـمـا ورَمـاكُـمـا وذَراكُـمـا مَـاحـي الـحُـصـونِ ومَـاسِـحُ الـبُـلـدانِ

لدهاكما السلطان العثماني، فاجأكما بالنكبة، ولتركّكما كالغبار تذروه الريح. . فهي الذي يمحو الحصون ويمسح البلاد مسحاً

٣٠ سورية ومصر

ألقاها في فندق شبرد لتكريم جماعة من السوريين، ونشرت في مارس/ آذار (١٩٠٨):

لِـمِـصْـرَ أم لِـربـوعِ الـشـامِ تَـنـتَـسِـبُ هُـنا الـعُـلا وهُـناكَ الـمجدُ والـحَـسَـبُ

رُكـنـانِ لـلـشـرقِ لا زالـتْ ربـوعُـهُـمـا قـلـبُ الـهـلالِ عـلـيـهـا خَـافِـقٌ يَـجِـبُ

لا زالت: أدعو الله أن تبقى، وخبر لا زال الجملة الإسمية (قلب الهلال خافق) الهلال: رمز الدولة العثمانية وكانت آنذاك تحكم مصر إسمياً وبلاد الشام فعلياً، يجب: يخفق

خِـدْرانِ لـلـضَّـادِ لـم تُـهْـتَـكْ ستورُهُـمـا ولا تَـحَـوَّلَ عـن مَـغـنـاهُـمـا الأَدَبُ

خدران للضاد: بيتان للغة العربية، والخدر حجرة النساء في الخيمة أو البيت

أُمُّ الـلـغـاتِ غَـداةَ الـفـخـرِ أُمُّـهُـمـا وإنْ سَـألـتَ عـنِ الآبـاءِ فـالـعَـرَبُ

إذا أَلَـمَّـتْ بِـوادي الـنـيـلِ نـازِلَـةٌ باتَـتْ لـها راسياتُ الشامِ تَضْطَرِبُ

نازلة: مصيبة، الراسيات: الجبال

وإنْ دعـا فـي ثَـرى الأهـرامِ ذُو أَلـمٍ أجـابَـهُ فـي ذُرَا لُـبـنـانَ مُـنـتَـحِـبُ

لـو أَخـلَـصَ الـنـيـلُ والأُردُنُّ وُدَّهُـمـا تَـصـافَـحَـتْ منهُما الأَمْواهُ والعُشُبُ

نَـسيـمَ لُـبـنـانَ! كـم جَـادَتْـكَ عَـاطِـرَةٌ مِـن الـريـاضِ وكـم حَـيَّـاكَ مُـنسَـكِـبُ؟

فـي الـشـرقِ والـغـربِ أنـفـاسٌ مُـسَـعَّـرَةٌ تَـهـفُـو إِلـيـكَ وأَكـبـادٌ بـهـا لَـهَـبُ

أنفاس المغتربين في أصقاع الأرض تهفو، تهب حنيناً، إلى الوطن لبنان

لـولا طِـلابُ الـعُـلا لـم يَـبْـتَـغُـوا بَـدلاً مِـن طيـبِ رَيَّـاكَ، لكـنَّ الـعُـلا تَـعَـبُ

التسويد لعمران القفيني

كـم غـادةٍ بِـرُبـوعِ الـشَّـامِ بَـاكِـيَـةٍ عـلـى أَلِـيـفٍ لـهـا يَـرمـي بِـهِ الـطَّـلَـبُ

كم فتاة تبكي على زوج رمى به طلب المعاش إلى الهجرة

يَـمـضـي ولا حـيـلَـةٌ إِلَّا عَـزيـمـتُـه ويَـنـثَـنـي وحُـلاهُ الـمـجـدُ والـذَّهَـبُ

يذهب وليس معه إلا العزم، وينثني، أي يعود، ومعه مجد ومال

بِأَرضِ كُولُمْبَ أبطالٌ غَطارِفَةٌ ... أُسْدٌ جِياعٌ إذا ما وُثِبوا وَثَبوا

أرض كولمب: أميركا، وفيها أسود بلاد الشام الذين يقفزون على الرزق قفزاً. جمعني جامع ذات سنة، لعلها ٢٠٠٧، بوزير الخارجية البرازيلي، وكانت تصحبه زوجته. وسألته ملياً عن أبناء بلده ذوي الأصل الشامي، ويسمونهم توركو، أي الأتراك لأنهم هاجروا في زمن كانت بلاد الشام فيه تحت الحكم التركي، وكنت مهتماً بسيرة الشاعرين القروي وفرحات اللذين عاشا في البرازيل، وتحدث طويلاً، وفي ختام حديثه أشار إلى زوجته الجالسة بجانبه: «هي أيضاً سورية الأصل»

أُسطُولُهُمْ أَمَلٌ في البحرِ مُرْتَحِلٌ ... وجيشُهُمْ عملٌ في البَرِّ مُغتَرِبُ
ما عابَهُمْ أنَّهُمْ في الأرضِ قد نُثِروا ... فالشُّهْبُ مَنثُورةٌ مُذْ كانتِ الشُّهُبُ
رادُوا المَناهِلَ في الدنيا، ولو وَجَدُوا ... إلى المَجَرَّةِ رَكْباً صاعداً رَكِبوا

كانوا روّاداً لمنابع الرزق

سَعَوْا إلى الكسبِ محموداً وما فَتِئَتْ ... أمُّ اللُّغاتِ بِذاكَ السَّعيِ تَكتَسِبُ

أم اللغات، اللغة العربية، انتعشت على ألسنة، وفي صحف، المغتربين زمناً. ثم ماتت في الأجيال اللاحقة

فأينَ كانَ الشَّآمِيُّونَ كانَ لها ... عيشٌ جديدٌ وفضلٌ ليس يَحْتَجِبُ
هذي يَدِي عن بَنِي مِصرٍ تُصافِحُكُمْ ... فصافِحُوها تُصافِحْ نفسَها العَرَبُ
لولا رِجالٌ تَغالَوْا في سِياسَتِهِمْ ... مِنَّا ومنهُمْ لَما لُمْنَا ولا عَتَبُوا

وممن أبدى ضجراً لما ناله السوريون بمصر من نجاح حافظ إبراهيم نفسه في كتابه «ليالي سطيح»، حيث شكا من الوجود الاقتصادي السوري، ومن تقاعس المصريين عن دخول ميدان الاقتصاد بقوة، هذا إلى ترحيب دائم من حافظ بالمثقفين السوريين

إنْ يَكتُبُوا لِيَ ذنباً في مودَّتِهِمْ ... فإنما الفخرُ في الذَّنْبِ الذي كَتبوا

٣١ مدح مغنٍّ

نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٨):

يا جاكُ إنَّكَ في زمانِكَ واحِدٌ ... ولِكلِّ عصرٍ واحدٌ لا يُلْحَقُ

جاك رومانو مغنٍّ يهودي إسكندري

إنَّ الأُلى قد عاصَروكَ وفاتَهُمْ ... أنْ يَسمعُوكَ كأنَّهُمْ لم يُخْلَقُوا

التسويد لعمران القفيني

قد جاءَ موسى بِالعصا، وأتيتَنا ... بِالعودِ يَشدُو في يديكَ ويَنطِقُ

تَتسابَقُ الأسماعُ صَوْبَكَ كلَّما غنَّيْتَها شوقاً إليكَ وتُعْنِقُ

تعنق: تتطلع مسرعةً وتمد العنق

خُلُقٌ كما شاءَ الجليسُ وشِيمَةٌ يَذكُو بِها صَدْرُ النَّدِيِّ ويَعْبَقُ
ومُرُوءَةٌ لو أَنَّها قد قُسِّمَتْ بينَ اليَهودِ لأَحْسَنُوا وتَصَدَّقُوا

٣٢ تسونامي مسينا

(٢٨/١٢/١٩٠٨):

نَبِّئانيِ إن كنتُما تَعلمانِ ما دَهَى الكونَ أيها الفَرقَدانِ

الفرقدان: نجمان

غضِبَ اللَّهُ أم تَمَرَّدَتِ الأرْ ضُ، فَأَنْحَتْ على بَنيِ الإنسانِ؟

أنْحَت: أقبلت بالأذى أو باللوم

ليس هذا، سبحانَ رَبِّي، ولا ذَا كَ، ولكنْ طَبيعَةُ الأَكْوانِ
غَلَيانٌ في الأرضِ نَفَّسَ عنهُ ثَوَرانٌ في البحرِ والبُركانِ
رَبِّ، أينَ المَفَرُّ والبحرُ والبَرُّ على الكَيْدِ لِلوَرى عامِلانِ؟
كنتُ أخشَى البحارَ، والموتُ فيها راصِدٌ غَفلَةً مِنَ الرُّبَّانِ
سابحٌ تَحتَنا، مُطِلٌّ علينا حائمٌ حولَنا، مُناءٍ مُدَانِ

الموت في البحر يسبح تحت السفينة ويحوم حولها.. يبتعد ويقترب

فإذا الأرضُ والبحارُ سواءٌ في خَلاقٍ: كِلاهُما غَادِرانِ

خلاق: خلق وطبيعة

ما لِمَسِّينَ عُوجِلَتْ في صِباها ودَعاها مِنَ الرَّدَى دَاعِيانِ

مسينا في صقلية بإيطاليا، وقد ضربها ما نسميه اليوم تسونامي في آخر ثلاثة أيام من عام (١٩٠٨)، فقتل بها مئة ألف نسمة

ومَحَتْ تِلْكُمُ المَحاسِنَ منها حينَ تَمَّتْ آياتُها آيَتانِ

حين اكتملت آياتها العمرانية، معالمها، جاءت آيتان، برهانان من براهين القدرة الإلهية وهما الزلزال والفيضان، فمحتا المعالم

خُسِفَتْ، ثم أُغْرِقَتْ، ثم بادَتْ قُضِيَ الأمرُ كلُّه في ثَوانِ

وأتى أمرُها فأضحَتْ كأنْ لمْ تَكُ بالأمسِ زينةَ البُلدانِ
ليتَها أُمْهِلَتْ فَتَقضي حُقوقاً مِن وَداعِ اللِّداتِ والجيرانِ

اللدات: الأصحاب، المولودون في وقت واحد

بَغَتِ الأرضُ والجبالُ عليها وطَغَى البحرُ أيَّما طُغْيانِ
تِلكَ تَغلي حِقداً عليها فَتَنْشَقُّـ انشِقاقاً مِنْ كَثرةِ الغَلَيانِ
فتُجيبُ الجبالُ رَجْماً وقذفاً بِشُواظٍ مِن مَارِجٍ ودُخانِ

مارج: لهب

وتَسُوقُ البحارُ رَدّاً عليها جيشَ مَوْجٍ نَائي الجَناحَيْنِ دَانِ

والجيش له جناحان ميمنة وميسرة

فهُنا الموتُ أسودُ اللونِ جَوْنٌ وهُنا الموتُ أحمرُ اللونِ قَانِ

الجون: الأسود، الموت الأسود: خنقاً أو غرقاً، والأحمر: جَرحاً

جَنَّدَ الماءَ والثرى لهلاكِ الـ ـخَلقِ ثم استعانَ بالنِّيرانِ

الموت جند الماء واليابسة بالطوفان والزلزال.. ثم استعان بنيران البركان

ودعا السُّحْبَ عَاتِياً فأمَدَّتْـ ـهُ بِجيشٍ مِنَ الصواعقِ ثانِ
فاستحالَ النَّجاءُ واسْتَحْكَمَ اليأ سُ وَخارتْ عزائمُ الشجعانِ
وشَفى الموتُ غِلَّهُ مِن نفوسٍ لا تُباليهِ في مَجالِ الطِّعانِ

شفى الموت غله، أي غيظه، من نفوس أهل المدينة التي ما كانت تبالي الموت في مجال الطعان، الحرب والطعن بالرماح

رُبَّ طِفلٍ قد سَاخَ في بَاطِنِ الأر ضِ يُنادي: أُمِّي! أَبِي! أَدرِكاني!

ساخ: غاص. يعلق المازني في كتابه المندوم عليه «شعر حافظ» على هذا البيت قائلاً: «على وفرة علامات النداء، لا يعقل أن السائخ في باطن الأرض يستطيع شيئاً من ذلك».. وتعليقنا: يا مازني، ما أصدرته أنت من شعر، وهو كثير، غثٌّ غثاثة لم تحتملها أنت نفسك، فتبرأت منه. ولا والله لم أجد لك بيتاً واحداً يحسن بالمرء أن يقرأه بله أن يحفظه. وقد كان حافظ يستقبلك في دار الكتب أحسن استقبال غافراً لك كتابك المشحون بالغض من شعره. ولعلك هاجمت الرجل لموقف قديم ناداك فيه بيا ولد، عندما انتقدت ترجمته للبؤساء. ولك يا مازني، بعدُ، حسنتان: أولاهما أنك كتبت مقالاً أبديت فيه الندم على كتابك، وثانيتهما أنك برهان عظيم على أن الناثر الكبير قد يكون مفلساً إفلاساً إدقاعياً في الشعر، فأنت ممن كتبوا أجمل نثر العربية في القرن العشرين. والآن إلى بيت الشعر الذي نحن بصدده: هذا تصوير هائل لطفل

بدأ جسمه يغوص في الوحل أو حتى في الحمم البركانية وبقيت في صدره قوة تعينه على أن يدفع إلى حنجرته بثلاث كلمات: أمي! أبي! أدركاني! فأين المستحيل في هذا؟ وانظر إلى الأبيات التي تلي هذا البيت فهي ترسم صورة مخيفة لمعاناة أولئك الضحايا في ساعة الموت المحقق

وفَتاةٍ هَيفاءَ تُشْوَى على الجَمْـ ـرِ، تُعاني مِن حَرِّهِ ما تُعاني
وأبٍ ذاهلٍ، إلى النارِ يَمشي مُستَميتاً تَمتَدُّ منهُ اليَدانِ
باحثاً عن بناتِهِ وبَنيهِ مُسرعَ الخَطْوِ مُسْتَطيرَ الجَنانِ

مستطير الجنان: منخلع القلب

تأكُلُ النارُ منه: لا هُوَ ناجٍ مِن لَظاها ولا اللَّظَى عنهُ وَانِ

وان: متوانٍ، متأخر

غَصَّتِ الأرضُ أُتْخِمَ البحرُ مِمَّا طَوَياهُ مِنْ هذهِ الأَبْدانِ
وشَكا الحُوتُ لِلنُّسورِ شَكَاةً رَدَّدَتْها النُّسورُ لِلحيتانِ
أَسْرَفا في الجُسومِ نَقْراً ونَهشاً ثم بَاتا مِنْ كِظَّةٍ يَشْكُوانِ

الكظة: التخمة، الحوت والنسر يشكوان التخمة لكثرة ما أكلا من لحوم الموتى

لا رَعَى اللَّهُ ساكِنَ القِمَمِ الشُّمِّ- ولا حَاطَ ساكِنَ القيعانِ

يدعو على ساكن القمم الشماء العالية، النسر، وساكن قاع البحر، الحوت

قد أَغَارا على أَكُفٍّ بَراها بَارئُ الكائناتِ لِلإتقانِ
لَهْفَ نفسي وأَلْفَ لَهْفٍ عليها مِنْ أَكُفٍّ كانتْ صَناعَ الزَّمانِ

صَناع: حاذقة، متقنة لعملها

مُولَعَاتٍ بِصَيْدِ كلِّ جميلٍ نَاصباتٍ حَبائِلَ الألوانِ

فأيدي الإيطاليين تنصب حبائل، شباكاً، هي في الواقع الألوان لتصيد الفن الجميل

حَافِراتٍ في الصخرِ أو ناقِشاتٍ شائِداتٍ روائِعَ البُنيانِ
مُنْطِقاتٍ لِسانَ كلِّ جَمادٍ مُفْحِماتٍ سَواجِعَ الأفنانِ

سواجع الأفنان: الطيور المغردة على الأغصان

مُلْهَماتٍ مِنْ دِقَّةِ الصُّنْعِ ما لا يُلْهَمُ الشعرُ مِنْ دقيقِ المعاني
مِنْ تَماثيلَ كالنُّجومِ الدَّراريِ يَهْرَمُ الدهرُ وَهْيَ في عُنفُوانِ

الدراري: المتلألئة

إنَّ إيطاليا بَنُوها بُناةٌ فاطْمَئِنِّي ما دامَ في الحَيِّ بَانِ

إيطاليا بنوها، أي أبناؤها، بناة، يحسنون البناء.. فاطمئني يا مسينا فسوف يعاد بناؤك

فَسَلامٌ عليكِ يومَ تَوَلَّيْـ ـتِ بِما فيكِ مِنْ مَغانٍ حِسانِ

المغاني الحسان: الربوع الجميلة

وسَلامٌ عليكِ يومَ تَعودِيـ ـنَ كما كنتِ جَنَّةَ الطِّلْيانِ

وسَلامٌ على امْرِئٍ جادَ بِالدَّمْـ ـعِ، وثَنَّى بِالأَصْفَرِ الرَّنَّانِ

ذاكَ حَقُّ الإنسانِ عند بني الإنـ ـسانِ، لم أَدْعُكُمْ إلى إحسانِ

التبرع لمسينا حق على الإنسان وليس إحساناً

٣٣ المتهم على الحالين

ذكرى مصطفى كامل، أنشدها في ذكرى وفاته الأولى فبراير/شباط (١٩٠٩):

قد اتُّهِمنا ولَمَّا نَطَّلِبْ جَلَلاً إن الضعيفَ على الحالَيْنِ مُتَّهَمُ

قالوا: لقد ظَلموا بالحقِّ أنفسَهُمْ واللّهُ يعلمُ أن الظالمينَ هُمُ

إذا سَكتْنا تَناجَوْا، تلكَ عادَتُهُمْ وإن نطَقْنا تَنادَوْا: فِتنَةٌ عَمَمُ

إن سكتنا تهامس الإنجليز يدبرون لنا تدبيراً، وإن نطقنا قالوا إننا ندعو لفتنة شاملة

٣٤ الانقلاب العثماني

نشرت في مايو/أيار (١٩٠٩)، بعد خلع عبد الحميد:

فَرِحَ المسلمونَ قبل النصارى فيكَ قبلَ الدُّرُوزِ قبلَ اليهودِ

شمِتُوا كلُّهُمْ وليس مِنَ الهِمَّـ ـةِ أنْ يَشمَتَ الوَرى في طَريدِ

نفي عبد الحميد إلى سلانيك بعد عزله

لكَ في الدهرِ ـ والكمالُ مُحالٌ ـ صَفَحاتٌ ما بينَ بيضٍ وسُودِ

كانَ عبدُ الحميدِ بالأمسِ فرداً فغَدا اليومَ أَلْفُ عبدِ الحَميدِ

٣٥ سقوط الطاغية

أنشدها حافظ في حديقة الأزبكية في يوليو/تموز (١٩٠٩)، بعد سقوط عبد الحميد وصدور الدستور:

ومَنْ لم يُشاهِدْ يِلدِزاً بعدَ رَبِّهِ وقد زالَ عنه المُلْكُ وانْدَكَّ جانِبُهْ..

يلدز: قصر عبد الحميد، ربه: صاحبه

وأَسْلَمَهُ أحبابُهُ لِقُضاتِهِ   وفَرَّ - ولم يَخْشَ المَعَرَّةَ - كاتِبُهْ..
وقَلَّمَتِ الأَقْدارُ أظفارَ بَطشِهِ   ودَلَّ على ما تَجْهَلُ الجِنُّ حَاجِبُهْ..

حاجب عبد الحميد دلهم على مكانه الذي تجهله حتى الجن

فما شَهِدَ الدنيا تَزولُ ولا رأى   بَلاءَ قَضاءِ اللهِ فيمَنْ يُحارِبُهْ

من لم يشاهد تلك الأحداث فهو لم يشهد كيف تزول الدنيا، أي النعمة، وكيف يقع قضاء الله على رأس من يحارب الله بظلمه لعباده

ولم يُغْنِ عن عبدِ الحميدِ دَهَاؤُهُ   ولا عَصَمَتْ عبدَ الحميدِ تَجارِبُهْ
ولم يُخْفِهِ عن أَعيُنِ الحقِّ مَخدَعٌ   ولا نَفَقٌ في الأَرضِ جَمٌّ مَسارِبُهْ

النفق الكثير المسارب لم يستطع مواراة عبد الحميد

وأَسرَفَ في حُبِّ الحياةِ فَحاطَها   بِسُورٍ مِن الأهوالِ لم يَنْجُ راكِبُهْ
وفي كُلِّ ركْنٍ صُورَةٌ لو تَكَلَّمَتْ   لَمَا شَكَّ في عبدِ الحَميدِ مُخاطِبُهْ
تَماثيلُ إِيهَامٍ أُنيمَتْ وأُقْعِدَتْ   تَراءَى بِها أَعطَافُهُ ومَناكِبُهْ

كان في القصر صور وتماثيل لعبد الحميد في شتى الأوضاع للتمويه، وتبدو فيها جوانب جسمه وكتفاه، فهي صور وتماثيل كاملة للتمويه وليست لوحات بورتريه بغرض الفن

تُمَثِّلُهُ في نومِهِ وجُلُوسِهِ   وتَخْدَعُ فيهِ الموتَ حينَ يُقَارِبُهْ
أقامَ عليهِ أَلفَ مَوْتٍ مُحَجَّبٍ   لِيغلِبَ موتاً واحداً عَزَّ غَالِبُهْ
وأَخرَجَهُ مِنْ يِلْدِزٍ رَبُّ يِلْدِزٍ   وجَرَّدَهُ مِن سيفِ عُثمانَ وَاهِبُهْ

سيف عثمان: سيف توارثه سلاطين بني عثمان عن مؤسس دولتهم، وكان السلطان يتقلده بعد أسبوعين من توليه السلطنة

مَضى عهدُ الاسْتِبدَادِ وانْدَكَّ صرحُه   ووَلَّتْ أفاعيهِ وماتَتْ عقَارِبُهْ

٣٦ سقى الله «أيام زمان»

إلى البرنس حسين كامل باشا، رئيس مجلس شورى القوانين الذي سيصبح سلطاناً بعد ست سنين، ونشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٠٩):

لقد نَصَلَ الدُّجى فمَتى تَنامُ   أَهَمٌّ ذادَ نَومَكَ أم هُيامُ

نصل الدجى: بدا في سواد الليل بياض الفجر مثلما ينصل الشعر المصبوغ فيبدو البياض في أصوله، ذاد نومك: صدَّه

لَعَمْرُكَ ما أَرِقْتُ لِغَيرِ مِصْرٍ ... ومَا لي دونَها أَملٌ يُرامُ
ذَكرتُ جلالَها أيامَ كانتْ ... تصولُ بها الفَراعِنَةُ العِظامُ
وأيامَ الرجالُ بها رِجالٌ ... وأيامَ الزمانُ لها غُلامُ
هَلاكُ الفَردِ مَنْشَؤُهُ تَوانٍ ... وموتُ الشعبِ مَنْشَؤُهُ انقِسامُ
وإنَّا قد وَنِينا وانقَسَمْنا ... فلا سعيٌ هناكَ ولا وِئامُ

ونينا: توانينا وتكاسلنا

فساءَ مُقامُنا في أرضِ مصرٍ ... وطَابَ لِغيرِنا فيها المُقامُ

أسطوانة حافظ الأثيرة: الأجانب يرتعون في مصر وأوضاع المصريين سيئة

٣٧ تقييد الصحافة

من قصيدة في تحية العام الهجري، يناير/ كانون الثاني (١٩١٠):

إن البَلِيَّةَ أن تُباعَ وتُشْتَرى ... مِصْرٌ وما فيها وألَّا تَنطِقا
كانتْ تُواسِينا على آلامِنا ... صُحُفٌ إذا نزلَ البَلاءُ وأَطْبَقا
كانتْ صِماماً لِلنفوسِ إذا غَلَتْ ... فيها الهُمومُ وأوْشَكَتْ أنْ تُزْهَقا
ما لي أَنوحُ على الصِّحافَةِ جَازِعاً ... ماذا ألَمَّ بها، وماذا أَحْدَقا؟
قَصُّوا حَواشِيَها وظَنُّوا أنَّهُمْ ... أَمِنُوا صَواعِقَها فكانَتْ أَصْعَقا

٣٨ الأم مدرسة

أنشدها في حفل ببورسعيد لإعانة مدرسة البنات، مايو/ أيار (١٩١٠):

كم ذا يُكَابِدُ عاشقٌ ويُلاقي ... في حبِّ مِصرَ كثيرةِ العُشَّاقِ
إنِّي لَأَحمِلُ في هَواكِ صَبابَةً ... يا مِصْرُ قد خَرجتْ عنِ الأَطْواقِ

لعله يقصد: أحبك حباً خرج عن طوقي وقدرتي

لَهْفي عليكِ مَتَى أراكِ طَليقَةً ... يَحمي كَريمَ حِماكِ شَعبٌ راقِ
مَا البابِلِيَّةُ في صفاءِ مِزاجِها ... والشَّرْبُ بينَ تَنافُسٍ وسِباقِ..

ليست الخمر البابلية الصافية والشَّرْب، أي الشاربون، الذين يتنافسون على ارتشافها..

والشمسُ تَبدُو في الكؤوسِ وتَختَفي ... والبدرُ يُشرِقُ مِن جَبينِ السَّاقي..

بينما الخمر لامعة كالشمس ترسل أشعتها من الكؤوس الملأى وتختفي في حلوق الشاربين، والساقي الذي يدور عليهم بالخمر وجهه كالبدر..

بِألَذَّ مِنْ خُلُقٍ كريمٍ طَاهِرٍ قد مَازَجَتْهُ سَلامَةُ الأَذْواقِ

.. ليست ألذ من الخلق الكريم الممزوج بسلامة الذوق

مَنْ لي بتربيةِ النساءِ فإنَّها في الشرقِ عِلَّةُ ذلكَ الإخفاقِ

الأمُّ مَدرسةٌ؛ إذا أَعدَدْتَها أعدَدْتَ شَعباً طَيِّبَ الأَعْراقِ

حتى لو كان هذا أحد أشهر أبيات الشعر السائرة على الألسن فإن التربية الحسنة تنشئ شعباً طيب الخلق ومتقناً للعمل.. هذا شيء والأعراق.. أي النسب العالي شيء آخر. ولا أدري أين ذهبت كلمة «الأخلاق» عن شاعرنا كي يقعدها في مقعد القافية ويريحنا من أعراقه

الأُمُّ رَوْضٌ إنْ تَعَهَّدَهُ الحَيا بالرَّيِّ أَوْرَقَ أَيَّما إيراقِ

الأم بستان إن تعهده الحيا، وافاه المطر، أصبح مورقاً بورق كثير

أنا لا أقولُ دَعُوا النِّساءَ سَوافِراً بين الرجالِ يَجُلْنَ في الأسواقِ

يَفعلْنَ أفعالَ الرجالِ لَواهِياً عن واجباتِ نَواعِسِ الأَحْداقِ

لواهياً: لاهيات عابثات، «نواعس الأحداق» تعبير بارد لكنه يظل أحسن من مرادفه «الجنس اللطيف»

في دُورِهِنَّ شُؤونُهُنَّ كثيرةٌ كَشُؤونِ رَبِّ السَّيفِ والمِزْراقِ

المزراق: الحَربة

كَلَّا، ولا أدعُوكُمُ أن تُسْرِفُوا في الحَجْبِ والتَّضييقِ والإرهاقِ

ليست نِساؤُكُمُ حُلَىً وجَواهِراً خوفَ الضَّياعِ تُصَانُ في الأَحقاقِ

الأحقاق: العلب الصغار، والمفرد حُقّ

ليست نساؤُكُمُ أثاثاً يُقتَنَى في الدُّورِ بينَ مَخادِعٍ وطِباقِ

المخادع: الحجرات، الطباق: لعلها الأدوار أو الطوابق

تَتَشَكَّلُ الأزمانُ في أدوَارِها دُولاً، وهُنَّ على الجُمودِ بَواقِ

الزمن يتغير دولاً، تتداوله الحوادث والأقوام، والنساء جامدات على وضعهن

فَتوسَّطُوا في الحالَتَيْنِ وأَنصِفُوا فالشرُّ في التقييدِ والإطلاقِ

رَبُّوا البَناتِ على الفضيلةِ إنَّها في المَوْقِفَيْنِ لَهُنَّ خيرُ وِثاقِ

الموقفان: التقييد والإطلاق لحرية المرأة، الوِثاق: الحبل

وعليكُمُ أن تَستَبِينَ بَناتُكُمْ نُورَ الهُدى، وعلى الحَياءِ البَاقي

٣٩ رثاء تولستوي

نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٠):

ولستُ أُبالِي حينَ أبكيكَ لِلورى حَوَتْكَ جِنانٌ أم حَواكَ سَعيرُ
فإنِّي أُحِبُّ النَّابِغينَ لِعِلْمِهِمْ وأَعْشَقُ روضَ الفكرِ وَهْوَ نضيرُ
دعوتَ إلى عيسى فضجَّتْ كَنائِسٌ وهُزَّ لها عرشٌ ومَادَ سَريرُ

وفي آخر حياته مال تولستوي إلى الدين ميل زهد

وقالَ أُناسٌ إنَّه قولُ ملحدٍ وقال أناسٌ إنَّه لَبشيرُ
إذا زُرْتَ رَهْنَ المَحبِسَيْنِ بِحُفْرَةٍ بها الزهدُ ثاوٍ والذكاءُ سَتيرُ..

إن زرت حفرة رهين المحبسين أبي العلاء المعري التي فيها الزهد ثاو، مقيم، والذكاء ستير، مستور..

فقِفْ ثم سَلِّمْ، واحتشِمْ إنَّ شيخَنا مَهيبٌ على رغمِ الفناءِ وَقورُ
وسَائِلْهُ عمَّا غابَ عنكَ، فإنه عليمٌ بأسرارِ الحياةِ بَصيرُ
يُخَبِّرُكَ الأعمَى وإن كنتَ مبصراً بما لم تُخَبِّرْ أَحرُفٌ وسُطورُ
يُناديكَ: أهلاً بالذي عاش عَيْشَنا وماتَ ولم يَدْرُجْ إليه غُرورُ

وكان تولستوي من النبلاء ذوي المال والمزارع، وترك هذا كله في آخر عمره زهداً

قَضيتَ حياةً مِلؤُها البِرُّ والتُّقَى فأنتَ بِأجرِ المُتَّقينَ جديرُ
حياةُ الورى حربٌ وأنتَ تريدُها سلاماً، وأسبابُ الكفاحِ كثيرُ
أبَتْ سُنَّةُ العُمرانِ إلَّا تَناحُراً وكدحاً ولو أنَّ البقاءَ يَسيرُ

سنة العمران: طبيعة المجتمع الإنساني

ولولا امتزاجُ الشرِّ بالخيرِ لم يَقُمْ دليلٌ على أنَّ الإلَهَ قديرُ
ولم يبعثِ اللَّهُ النبيينَ لِلهُدى ولم يتطلَّعْ للسريرِ أميرُ

السرير: العرش

ولم يَعشقِ العَلياءَ حُرٌّ ولم يَسُدْ كريمٌ ولم يَرْجُ الثَّراءَ فقيرُ
فكم في طَريقِ الشرِّ خيرٌ ونِعْمَةٌ وكم في طريقِ الطيِّباتِ شُرورُ

٤٠ يا وابور قل لي

إعانة ملجأ رعاية الأطفال، أنشدها في حفل بالأوبرا، فبراير/شباط (١٩١١):

صفحةُ البرقِ أَوْمَضَتْ في الغمامِ　　أم شهابٌ يَشُقُّ جوفَ الظلامِ؟

يصف القطار: أهو في سرعته كالبرق بين الغيوم، أم كالشهاب الساقط وسط الظلام؟

أم سَليلُ البُخارِ طارَ إلى القَصْـ　　ـدِ فأَعيا سَوابِقَ الأَوْهامِ؟

أم أن هذا هو سليل البخار، ابن البخار أي القطار، يطير نحو مقصده فيعجز سوابق الأوهام، الخيال السابق عصره؟

مَرَّ كاللَّمْحِ لم تَكَدْ تَقِفُ العَيْـ　　ـنُ على ظِلِّ جِرْمِهِ المُتَرامي

أو كَشَرْخِ الشبابِ لم يَدْرِ كَاسيـ　　ـهِ تَوَلَّى في يَقظَةٍ أَوْ مَنامِ

مر القطار سريعاً كعصر الشباب الباكر الذي يمر وينقضي سريعاً فلا يدري كاسيه، أي صاحبه المكتسي به، أذهب الشباب في اليقظة أم في الحلم

لا يُبالي السُّرَى إذا اعتَكَرَ الليـ　　ـلُ وخَانَتْ مَواقِعُ الأَقدامِ

يَقطَعُ البِيدَ والفَيافي وحيداً　　لم تُضَعْضِعْهُ وَحشةُ الإِظلامِ

البيد هي الفيافي هي الصحارى

ليسَ يَثنيهِ ما يُذيبُ دِماغَ الضَّـ　　ـبِّ يومَ الهَجيرِ بينَ المَوامي

ليس يثني القطار عن عزمه الحر الشديد، الذي تصورت العرب أنه يذيب دماغ الضب في الهجير، القيظ، بين الموامي، أي الصحارى

لا ولا يَعتَريهِ ما يُخرِسُ النَّا　　بِحَ في الزَّمْهَريرِ بينَ الخِيامِ

ولا يعتريه البرد الذي يجعل الكلب يخرس عن النباح بين خيام القوم في الزمهرير

هائِمٌ كالظَّليمِ أَزْعَجَهُ الصَّيْـ　　ـدُ وَراعَتْهُ طَائِشاتُ السِّهَامِ

الظليم: ذكر النعام

يا حَديداً يَنسابُ فوقَ حَديدٍ　　كانسِيابِ الرَّقْطاءِ فوقَ الرَّغَامِ

الرقطاء: الحية المرقطة أي المنقطة، والرغام: التراب

قد مَسَحْتَ البلادَ شرقاً وغرباً　　بِذِراعَيْ مُشَمِّرٍ مِقدامِ

بينَ جَنْبَيْكَ ما بِجَنْبَيَّ لَكِنْ　　ما بِجَنْبَيَّ مُستَديمُ الضِّرامِ

بين جنبيك أيها القطار حرارة من المرجل المشتعل كي ينتج البخار، وفي جنبيَّ أنا لهيب. لكن ضرام لهيبي، اشتعاله، دائم

أنتَ لا تعرفُ الغَرامَ، وإن كُنْـ ـتَ تُرينا زَفيرَ أهلِ الغَرامِ
أنتَ لا تعرفُ الحنينَ إلى الإلْـ ـفِ فَما هَذهِ الدُّموعُ الهَوامي
الهوامي: الهاطلة.. يتحدث عن قطار يسير بالبخار

لا تُبالي أَرُعْتَ بِالبَيْنِ أَحَبا باً وأَسْرَفْتَ في أَذى المُسْتَهامِ..
لا تبالي أرعت، أأخفت، بالفراق أحباباً وأسرفت في إلحاق الأذى بالمستهام، العاشق الهائم..

أمْ جَمعْتَ الأعداءَ فوقَ صَعيدٍ وخَلَطْتَ الأُسودَ بِالآرامِ
أم جمعت الأعداء داخلك على صعيد واحد، وخلطت الأسود، الرجال، بالآرام، بالنساء. سيقول أحمد رامي بعد ثلاثين سنة من هذه القصيدة «يا وابور قُلْ لي رايح على فين.. قربت غريب وبعدت قريب/وجمعت حبيب على شمل حبيب» والوابور هو القطار، من كلمة «فيبر» ومعناها بخار

قد عَلِمْنا أنَّ الزَّكَاةَ سَبيلُ اللَّـ ـهِ قبلَ الصَّلاةِ قبلَ الصِّيامِ
لم أَقِفْ مَوقِفي لِأُنشِدَ شِعراً صُبَّ في قَالَبٍ بَديعِ النِّظامِ
إنّما قُمْتُ فيهِ والنفسُ نَشْوى مِن كُؤُوسِ الهُمومِ، والقلبُ دَامِ
ذُقْتُ طعمَ الأَسى وكابَدْتُ عيشاً دونَ شُربي قَذاهُ شُربُ الحِمامِ
ذقت عيشة أخف من قذاها، شوائبها ووسخها، الموت نفسه

فتَقَلَّبْتُ في الشقاءِ زماناً وتنقَّلْتُ في الخطوبِ الجِسامِ
ومَشى الهمُّ ثاقباً في فُؤادي ومَشى الحزنُ نَاخراً في عِظامي
ثاقباً: مشتعلاً

فَلِهذا وَقَفْتُ أَسْتَعطِفُ النَّا سَ على البائِسينَ في كلِّ عامِ

٤١ رثاء المرتاب

رثاء الدكتور شبلي شميل، أنشدها في فبراير/شباط (١٩١١):

سكنَ الفيلسوفُ بعدَ اضْطِرابِ إنَّ ذاكَ السكونَ فَصْلُ الخطابِ
حزِنَ العلمُ يومَ مُتَّ، ولكنْ أَمِنَ الدينُ صَيْحَةَ المُرْتابِ
بموتك حزن العلم، واطمأن الدين من صيحة رجل مرتاب في الدين هو أنت

كنتَ تَبغي بَرْدَ اليقينِ على الأر ضِ وتَسعَى وراءَ لُبِّ اللُّبابِ
حاولت معرفة حقيقة الإنسان وخلقه وأنت بعد على الأرض حياً.. وهذا شيء قد يعرفه المرء بعد موته

فاسترِحْ أيها المجاهدُ واهْدَأْ   قد بلغتَ المرادَ تحتَ الترابِ

هذا عزاؤنا كلنا.. فبعد الموت سنعرف حقيقة الحكاية

وعرفتَ اليقينَ وانبَلَجَ الحقُّـ   لِعينَيْكَ ساطعاً كالشهابِ
ليتَ شِعري وقد قَضيتَ حَياةً   بينَ شكٍّ وحَيْرَةٍ وارتِيابِ..
هل أتاكَ اليقينُ مِن طُرُقِ الشكِّـ   فَشَكُّ الحكيمِ بَدْءُ الصَّوابِ؟
لم يَكُنْ مُلْحِداً ولكنْ تَصَدَّى   لِشؤونِ المُهَيْمِنِ الوهَّابِ
رامَ إدراكَ كُنهِهِ ما أعجزَ النا   سَ قديماً، فلم يَفُزْ بالطِّلَابِ
إيهِ شِبلي! قد أكثرَ الناسُ فيكَ الـ   ـقولَ حتى تفنَّنُوا في عتابي
قيلَ: تَرثي ذاكَ الذي ينكرُ النُّو   رَ ولا يَهتَدي بِهَدْيِ الكتابِ؟
قلتُ: كُفُّوا فإنَّما قمتُ أَرثي   منه خِلّاً أمْسى طويلَ الغيابِ
أنا واللَّهِ لا أُحابيهِ في القو   لِ فقد كانَ صَاحِبِي لا يُحابي
أنا أَرْثي شَمائلاً منه عندي   كُنَّ أَحلَى مِن الشِّهادِ المُذابِ

أرثي شمائلاً منه، أي أخلاقاً، عندي كُنَّ، أي كُنَّ بالنسبة لي، أحلى من الشهاد، جمع شهد

كانَ حُرَّ الآراءِ لا يعرِفُ الخَتْـ   ـلَ ولا يَستَبيحُ غَيْبَ الصِّحَابِ

الختل: الخداع

مُفْضِلاً محسناً على العسرِ واليسـ   ـرِ، جميعَ الفُؤادِ رَحبَ الجَنابِ

كان جميع الفؤاد: شجاعاً، كان رحب الجناب: واسع الصدر كريماً

كان في الوُدِّ موضعَ الثقةِ الكبـ   ـرى، وفي العلمِ موضعَ الإعجابِ
نُكِبَ الطبُّ فيهِ يومَ تَوَلَّى   وأُصيبَتْ رَوائِعُ الآدابِ

٤٢ فراش العاشق

من قصيدة مدح في الخديوي عباس حلمي (١٩١١):

أَشْكُو لِذاتِ الخالِ ما صَنعتْ بِنا   تلكَ العُيونُ وما جَناهُ المِعْصَمُ
لو تَنظُرِينَ إليهِ في جوفِ الدُّجَى   متَمَلْمِلاً مِن هَولِ ما يَتَجَشَّمُ
يَمشي إلى كَنَفِ الفِراشِ مُحاذِراً   وَجِلاً يُؤَخِّرُ رجلَهُ ويُقَدِّمُ
يَرمِي الفِراشَ بِناظِرَيْهِ ويَنثَني   جَزَعاً ويُقْدِمُ بعدَ ذاكَ ويُحْجِمُ

يخشى العاشق دخول فراشه لأنه لن يستطيع النوم، وسيتقلب متألماً من عشقه

رُشِقَتْ بـه فـي كـلِّ جَنْبٍ مُـدْيَـةٌ   وانـسـابَ فـيـه بِـكـلِّ رُكْـنٍ أَرْقَـمُ

فكأن في كل جنبات فراشه مدى، سكاكين، وقد انساب في كل ركن من أرقم، ثعبان

فـكـأنَّـهُ فـي هَـوْلِـهِ وسـعـيـرِهِ   وادٍ قـد اطَّـلَـعَـتْ عـلـيـهِ جَـهَـنَّـمُ
هـذا وحَـقِّـكِ بـعـضُ مـا كـابَـدْتُـهُ   مِن نَـاظِـرَيكِ، وما كَتَمْتُكِ أَعظَمُ
أَصْغَتْ إلى قولِ الوُشاةِ فَأسْرَفَتْ   في هَجْرِها وجَنَتْ عليَّ وأَجْرَمُوا
حتى إذا يئِسَ الطبيبُ وجاءَها   أَنّـي تَـلِـفْـتُ تَـنَـدَّمَـتْ وتَـنَـدَّمُـوا

٤٣ المتصدي للخديوي

رثاء مصطفى رياض، رئيس وزراء مصر في ثلاث حكومات، وأنشدها في حفل الأربعين يوليو/تموز (١٩١١):

وَقَـفْـتَ لإسـمـاعـيـلَ والأمـرُ أمـرُهُ   وفي كَفِّهِ سيفٌ مِنَ البطشِ يَلمَعُ

كان رياض باشا نائب رئيس لجنة التحقيق في الوضع المالي لمصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل، ورغم أنه صنيعة إسماعيل فقد أدى دوره بأمانة مما أزعج الخديوي، لكن الإنجليز والفرنسيين دعموا رياضاً. وبعد ذلك بسنة وبعض السنة تولى رياض رئاسة أول حكومة في عهد الخديوي توفيق بعد عزل إسماعيل

إذا صـاحَ لَـبَّـاهُ الـقـضـاءُ وأسـرعـتْ   إلـى بـابِـه الأيـامُ، والـنـاسُ خُـشَّـعُ

كأن القضاء والقدر كانا في خدمة إسماعيل

فـمـا أَغْـلَـبٌ شَـاكـي الـعـزيـمـةِ أَرْوَعٌ   يُصارِعُهُ في الغابِ أَغْلَبُ أَرْوَعُ. .

فليس الأغلب، أي الأسد، الشاكي العزيمة، المسلح بجرأته وعزمه، الأروع، الشجاع، الذي يصارع مثيله في الغابة. .

بِـأَجـرأَ مِـن ذاكَ الـوزيـرِ مـصـادِمـاً   إرادَةَ إسـمـاعـيـلَ والـمـوتُ يَـسـمَـعُ

ليس بأجرأ من هذا الوزير وهو يصادم الخديوي إسماعيل، وهو يسمع صوت الموت يتهدده

وأَرهَـبْـتَ حُـكَّـامَ الأقـالـيـمِ فَـارْعَـوَوْا   وكانوا أناساً في الجَهالَةِ أَوْضَعُوا

أرهبت حكام الأقاليم فارعووا، كفوا عن غيهم، وكانوا قد أوضعوا، أسرعوا، في طريق الجهالة، الضلال

فَـخـافُـوكَ حتى لـو تـنـاجَـوْا بِـنَـجْـوَةٍ   لَـخـالُـوا رِيـاضـاً فـوقَـهُـمْ يـتَـسَـمَّـعُ

تناجوا: تهامسوا

أَقـمتَ عـلـيْـهِـمْ زَاجِـراً مِـنْ نُـفـوسِـهِـمْ   إذا سَـوَّلَـتْ أمـراً لَـهُـمْ قـامَ يَـرْدَعُ

٤٤ اعتذار عن التخلف

اعتذار إلى أحمد شوقي، عن عدم حضور زواج ابنته، نشرت في يناير/ كانون الثاني (١٩١٣):

قــد عــاقَــنــي ســوءُ حَــظِّــي عــن حَــفــلَــةِ الــمِــهــرَجــانِ
وقــد كَــفــانــي عِــقــابــاً مــا كــانَ مِــن حِــرمــانــي
إنْ فَــاتَــنــي أنْ أُوَفِّــي بــالأمــسِ حَــقَّ الــتَّــهــانــي
فــاقْــبَــلْــهُ مِــنِّــي قَــضــاءً وكُــنْ كــريــمَ الــجَــنــانِ

الجنان: القلب

والــلَّــهُ يَــقــبَــلُ مِــنَّــا الــصَّــلاةَ بــعــدَ الأوانِ

٤٥ القُعود

من محاورة بين حافظ وخليل مطران في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل بالأوبرا: نشرت في مارس/ آذار (١٩١٣):

قَــعَــدَتْ شُــعــوبُ الــشــرقِ عــن كــســبِ الــمَــحــامِــدِ والــمَــفــاخِــرْ
فَــوَنَــتْ وفــي شَــرعِ الــتَّــنَــا حُــرِ مَــن وَنَــى لا شَــكَّ خَــاسِــرْ

ونت: توانت وكسلت

تَــمــشــي الــشــعــوبُ لِــقَــصــدِهــا قُــدُمــاً وشــعــبُ الــنِّــيــلِ آخِــرْ

٤٦ رثاء متأخر

(١٩١٤):

مَلِلْتُ وقوفِي بينَكُمْ مُتَلَهِّفاً على راحلٍ فارقْتُهُ فَشَجاني
أفي كلِّ يومٍ يَبْضَعُ الحزنُ بَضْعَةً مِن القلبِ؟ إنِّي قد فَقدتُ جَناني

يبضع بضعة: يقطع قطعة، والجنان هو القلب

كَفانيَ ما لُقِّيتُ مِن لَوْعةِ الأسى، وما نابني يومَ الإمامِ كَفاني

كفاني ذلك الحزن على الإمام محمد عبده

تفرَّقَ أحبابِي وأهلِي، وأَخَّرَتْ يدُ اللّهِ يَومِي فانتظرتُ أَواني

وفـي ذِمَّـتـيِ لِـلـيـازِجـيِّ وديـعـةٌ   وأخـرى لِـزَيْـدانٍ وقـد سَـبَـقـانـي

في ذمتي وديعة، أمانة، برثاء إبراهيم اليازجي وتوفي قبل القصيدة بثماني سنين، وأخرى برثاء جرجي زيدان، وقد سبقاني للقبر. . وهل ترانا يا حافظ سنظن أنك سبقتهما؟

فيا ليتَ شِعري ما يَقولانِ في الثَّرى   إذا الـتَـقَـيـا يـومـاً وقـد ذَكَـرانـي

وقد رَمَيا بالطَّرْفِ بينَ جُموعِكُمْ   ولـم يَشـهـدا في المشهدينِ مكاني

أيَـجـمُـلُ بـيِ هـذا الـعـقـوقُ، وإنَّـمـا   على غيرِ هذا العهدِ قد عَرَفاني

دعـانـيِ وفـائـيِ يـومَ ذاكَ فـلـم أكُـنْ   ضَـنـيـنـاً ولـكـنَّ الـقَـريـضَ عَـصَـانـي

٤٧ شعرنا وشعرهم

تحية إلى واصف غالي، وقد نشر ترجمة لقصائد من الشعر العربي القديم إلى الفرنسية، يونيو/حزيران (١٩١٤):

غَرَستَ مِن زَهَراتِ الشرقِ طائفةً   في أرضِ هيجو فجاءتْ طُرْفةَ الجاني

غرست من زهرات الشعر العربي مجموعة في أرض هيجو، فرنسا، فكانت شيئاً طريفاً، غريباً، لمن يجني هذه الزهرات أي لمن يقرأ هذه الأشعار

أسمعْتَهُمْ مِن نَسيبِ القومِ فانطَلَقَتْ   شـؤونُ كـلِّ شَـجِـيِّ الـقـلـبِ وَلـهـانِ

انطلقت شؤون كل شجي القلب: اندفعت الدموع من عينيه، «فالشؤون» مجاري الدمع في العيون

وزِدْتَـهُـمْ مِـن كـلامِ الـبـحـتُـريِ قِـطَـعـاً   مثلَ الرياضِ كَسَتْها كَفُّ نيسانِ

سَلْ أَلْـفَـريـدَ ولامَـرْتـيـنَ هـل جَـرَيـا   مـع الـولـيـدِ أو الـطَّـائـيِ بِـمَـيْـدانِ

ألفريد دي موسيه، ولامرتين من شعراء فرنسا، والوليد هو البحتري، والطائي هو أبو تمام

ما لـيِ أفاخِرُ بالـموْتَى وبينَ يديِ   مِن شعرِ أَحيائِنا ما ليس بِالفاني

في شعرِ شوقي وصبري ما نَتيِهُ به   عـلـى نـوابِـغِـهِـمْ، دَعْ شِـعـرَ مُـطْـرانِ

أي ناهيك بشعر مطران

٤٨ فلهلم القصاب

إلى فلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا وقد بدأت الحرب العالمية الأولى، نشرت في يناير/كانون الثاني (١٩١٥):

لا تَـحْـسَـبَـنَّ الـفـخـرَ مـا أَحْـرَزْتَـهُ   الـفـخـرُ بِـالـذكـرِ الـجـمـيـلِ رَهـيِـنُ

هل شِدْتَ في بِرلِينَ غيرَ مُعَسْكَرٍ   قـامـتْ عـلـيـه مَـعـاقِـلٌ وحُـصـونُ

وجَمَعْتَ شَعبَكَ كلَّهُ في قَبْضَةٍ   إن لم تَكُنْ لانَتْ فسوفَ تَلينُ
نَظَمَتْ تِجارَتُكَ المدائنَ والقُرى   فالنيلُ ناءَ بِها وناءَ السِّينُ

النشاط التجاري الألماني انتشر في كل مكان، وناء به، تضرر من ثقله، الناس في مصر وفي فرنسا.. والسين نهر باريس

فبِكُلِّ أرضٍ مِن رِجالِكَ عُصْبَةٌ   وبكلِّ بحرٍ مِن لَدُنْكَ سَفينُ
فالأمرُ أَمْرُكَ والمُهَنَّدُ مُغمَدٌ   والنَّهْيُ نَهْيُكَ والسُّرى مَأْمُونُ

كان الأمر والنهي لك قبل الحرب، وكانت الطرق آمنة والسرى، سير الليل، آمناً. وكان للألمان مع الدولة العثمانية عهود وتجارات وإنشاءات

فَعلامَ أرهَقْتَ الوَرى وأثَرْتَها   شَعْواءَ فيها لِلهلاكِ فنونُ؟
تَاللَّهِ لو نُصِرَتْ جيوشُكَ لانْطَوى   أَجَلُ السلامِ وأَقْفَرَ المَسْكونُ
سَبعونَ مِليوناً إذا وَزَّعْتَها   بين الحَواضِرِ نَالنا مِليونُ

لو انتصرت فسوف يقفر المسكون، أي العالم، وسيتوزع السبعون مليون ألماني على الدنيا، وسيكون نصيب مصر منهم مليوناً. مع بدء الحرب العالمية الأولى كان عدد سكان ألمانيا ٦٨ مليوناً، وسكان مصر عشرة ملايين. اليوم في مطلع ٢٠١٧: ألمانيا: ٨٠، ومصر ٩٢ مليوناً

أكثَرْتَ مِن ذكرِ الإلهِ تَوَرُّعاً   وزَعَمْتَ أنَّكَ مُرسَلٌ وأَمينُ
عجباً أتذكُرُهُ وتَملأُ كَوْنَهُ   وَيْلاً، لِيَنعَمَ شعبُكَ المَغْبُونُ
وكذلكَ القَصَّابُ يذكُرُ رَبَّهُ   والنَّصْلُ في عُنُقِ الذَّبيحِ دَفينُ

٤٩ لا مثيل للإنجليز!

تهنئة السلطان حسين كامل بالسلطنة، يناير/ كانون الثاني (١٩١٥):

هنيئاً أيها المَلِكُ الأجَلُّ   لكَ العرشُ الجديدُ وما يُظِلُّ

العرش الجديد: عرش مصر الذي أصبح صاحبه الآن سلطاناً لا مجرد خديوي، فدخول تركيا الحرب العالمية الأولى مع المحور ضد بريطانيا جعل بريطانيا تلغي تبعية مصر لإستانبول، وتعزل الخديوي عباساً وتولي حسين كامل العرش باسم «السلطان»، مضاهاة للقب «السلطان» العثماني. فله العرش وله ما يظله هذا العرش، وهو يظل أرض مصر

وجَدِّدْ سيرةَ العُمَرَيْنِ فينا   فإنكَ بينَنا للهِ ظِلُّ

العمران: أبو بكر وعمر

فعِشْ للنيلِ سلطاناً أَبِيّاً   له في مُلْكِهِ عَقْدٌ وحَلُّ

وَوالِ الـقـومَ إنَّـهُـمُ كِـرامٌ   مَـيـامـيـنُ الـنَّـقـيـبَـةِ أيـنَ حَـلُّـوا
ينصحه بموالاة الإنجليز فهم ميامين النقيبة، كرام الطباع، ولهم في كل بلد يحلونه مآثر. السلطان لم يكن بحاجة للنصيحة فالإنجليز هم الذين ولوه العرش، وأما أنهم كرام ففي هذا نظر

لَهُمْ مُلْكٌ على التَّاميزِ أضْحَتْ   ذُراهُ عـلـى الـمَـعـالـي تَـسْـتَـهِـلُّ
ملكهم على نهر التّمز، نهر لندن، ذراه، قممه تستهل، وتظهر، على المعالي

فـإن صَـادقْـتَـهُـمْ صَـدَقُـوكَ وُدّاً   ولـيـس لـهُـمْ، إذا فَـتَّـشْـتَ، مِـثْـلُ
وإن نـادَيْـتَـهُـمْ لَـبَّـاكَ مِـنْـهُـمْ   أَسـاطـيـلٌ وأسـيـافٌ تُـسَـلُّ

٥٠ شكسبير

في ذكرى ثلاثمئة عام على وفاة شكسبير، نشرت في مارس/ آذار (١٩١٦):

يُحيِّيكَ مِن أرضِ الكِنانَةِ شاعِرٌ   شَغوفٌ بِقَوْلِ العَبقرِيِّينَ مُغرَمُ
نظرتَ بعينِ الغيبِ في كلِّ أمَّةٍ   وفي كلِّ عصرٍ ثم أَنشأْتَ تَحكُمُ
فلم تَخْطِئِ المَرمَى، ولا غَرْوَ أن دَنَتْ   لكَ الغايةُ القُصْوى، فإنَّكَ مُلْهَمُ
أَفِقْ ساعةً وانظُرْ إلى الخلقِ نظرةً   تجِدْهُمْ وإن راقَ الطِّلاءُ هُمُ هُمُ
فَليتَكَ تَحيا يا أبا الشِّعرِ ساعةً   لِتنظُرَ ما يُصْمي ويُدْمي ويُؤْلِمُ
يصمي: يصيب إصابة قاتلة

وقـائعَ حـربٍ أَجَّجَ العِلْمُ نارَها   فـكـادَ بِـهـا عـهـدُ الحَـضـارةِ يُـخْـتَـمُ
الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨

وتَـعْـلَـمَ أنَّ الـطـبـعَ مـا زالَ غـالـبـاً   سـواءٌ جَـهـولُ الـقـومِ والـمـتـعَـلِّـمُ
وَلُوعٌ بِتصويرِ الطِّباعِ فلَمْ يَجُزْ   بِـعـاطِـفَـةٍ إلَّا حَـسِـبْـنـاهُ يَـرْسُـمُ
لشكسبير ولع بتصوير طباع البشر فلم يجز، يمر، بعاطفة إلا وصفها كأنه يرسمها رسماً

وقالوا تَحَدَّانا بِما يُعْجِزُ النُّهَى   فَـلَـسْـنـا إذنْ آثـارَهُ نَـتَـرَسَّـمُ
قال بعضهم: لن نترسم آثار شكسبير، ولن نحاكيه، لأنه تحدانا بما يعجز النهى، العقول

ولـم يَـتَـحَـدَّ الـنـاسَ لـكـنَّـهُ امْـرُؤٌ   بِـمـا كـانَ فـي مَـقْـدُورِهِ يَـتـكـلَّـمُ
لئن كانَ في ضَخْمِ الأَساطيلِ فَخْرُكُمْ   لَفَخْرُكُمْ بِالشاعِرِ الفَرْدِ أَعظَمُ
أيها الإنجليز فخركم بشكسبير أعظم من فخركم بأساطيلكم الضخمة. لو عاش حافظ حتى عام ١٩٤٥ لرأى بريطانيا تسلم قوتها البحرية للولايات المتحدة بكل هدوء ضمن خطة «الإعارة والإيجار» الأميركية. في هذا العام ٢٠١٦ ـ وأنا أكتب في اليوم قبل

الأخير من أيامه ـ احتفل العالم بالذكرى الأربعمئة على وفاة شكسبير. يبدو أن الرجل خالد فعلاً رغم ما رماه به تولستوي من نقد جارف ماحق، وأديب روسيا الكبير قرأ شكسبير بالإنجليزية وبالروسية ولم يجد فيه عظمة، ونال من الإنجليزي جورج أورويل ما يستحق من ردّ. وحافظ إبراهيم لم يقرأ شكسبير لا بالروسية ولا بالإنجليزية، ولكنه اطلع على بعض مسرحياته من ترجمات صديقه مطران عن الفرنسية. وللأمانة أقول إنني قرأت عدداً من مسرحيات شكسبير في بداية سن الشباب في ترجمات مطران، وعندما قرأت بعضها بلغتها لم أجد فيها شيئاً مختلفاً، ولا ألوم نفسي، بل أتذكر آدم متز. فهذا المستشرق الألماني كتب كتاباً كبيراً عن الحضارة العربية استند فيه إلى عشرات المخطوطات والكتب القديمة التي حرثها حراثةً وأظهر في كتابه معرفة عميقة باللغة العربية في شتى عصورها، آدم متز هذا عندما بدأ يتكلم عن الشعر العربي منح المتنبي فقرة صغيرة ونبذه ظِهريًّا واستخف بأبي فراس الحمداني استخفافاً، ثم رأيته منح الصنوبري صفحات عدة ومدحه كثيراً! وجدته لا يحس بما في الشعر من تيار خفي يتجاوز المعنى الظاهر. ولو عاش متز ليسمع نصح الفرنسي بلاشير في الصفحات الأخيرة من كتابه عن المتنبي لشاب إلى الرشد: لقد أقر بلاشير، وهو من خير من يفهم العربية بين كل المستشرقين، بأن الإحساس بالشعر هو شغل أبناء اللغة الأصليين، خيراً قال

٥١ بين شوقي وحافظ

نشرت القطعتان عام (١٩١٧) كتب شوقي من منفاه بإسبانيا:

يا سَاكِنِي مِصرَ إنَّا لا نَزالُ على ... عهدِ الوفاءِ ـ وإنْ غِبْنا ـ مُقيمِينا
هـلَّا بعثْتُمْ لنا مِن ماءِ نَهرِكُمُ ... شيئاً نَبُلُّ به أحْشاءَ صَادِينا

صادينا: عطشاننا

كلُّ المَناهِلِ بعدَ النيلِ آسِنَةٌ ... مَا أبعَدَ النيلَ إلَّا عنْ أمانينا

آسنة: راكدة فاسدة

فأجابه حافظ:

عَجِبْتُ للنيلِ يَدري أن بُلبُلَهُ ... صَادٍ ويَسقي رُبَا مِصْرٍ ويَسقينا
واللَّهِ ما طابَ لِلأصحابِ مَوْرِدُهُ ... ولا ارْتَضَوْا بعدَكُمْ مِن عيْشِهِمْ لِينا
لـم تَنْأَ عنهُ وإنْ فارقْتَ شاطِئَهُ ... وقد نَأَيْنا وإنْ كُنَّا مُقيمِينا

٥٢ أيا صوفيا

قالها في أعقاب الحرب العالمية الأولى وقد خيف أن تحتل دول الغرب إستانبول، وتعود آيا صوفيا كنيسة، ونشرت في (١٩٣٢):

أَيَا صُوفِيا حانَ التفَرُّقُ فاذكُري ... عهودَ كِرامٍ فيكِ صَلَّوْا وسَلَّمُوا

نفض حافظ يديه من إستانبول وظن دول الغرب ستمتلكها وتحول المعلم المشهور إلى كنيسة مثلما كان

فلا تُنكِري عهدَ المآذِنِ إنَّهُ على اللَّهِ مِنْ عهدِ النَّواقيسِ أكرَمُ
وكيف يَذِلُّ المسلمونَ وبيْنَهُمْ كتابُكَ يُتلَى كلَّ يومٍ ويُكْرَمُ؟
نَبِيُّكَ مَحزونٌ وبيتُكَ مُطرِقٌ حياءً وأنصارُ الحقيقةِ نُوَّمُ
عَصَيْنا وخالَفْنا فعاقَبْتَ عادِلاً وحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَن ليس يَرحَمُ

في كل العصور، عند المسلمين والمسيحيين وعند كل الناس في كل الأزمات، تتردد بعد الهزيمة عبارة: «عصينا الله فهذا عقاب منه»، وهي عبارة المغلوبين المتواكلين المهملين اللاعقلانيين الكسالى الذين يلقون باللوم في هزيمتهم على الآلهة بينما المسؤول عنها حضراتهم

٥٣ حياء السلطان المعطاء

رثاء السلطان حسين كامل، نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٧):

دُكَّ ما بينَ صَحْوَةٍ وعَشِيٍّ شَامِخٌ مِن صُروحِ آلِ عَلِيٍّ

انهدم صرح شامخ من صروح آل «محمد علي» مؤسس الدولة، وهذا الصرح هو السلطان حسين كامل

حبسَ الخطْبُ فيكَ ألسِنَةَ القولِ، وأعيا قَريحَةَ العَبقَرِيِّ
وإذا جلَّتِ الخطوبُ وطَمَّتْ أعجزتْ في القريضِ طَوْقَ الرَّوِيِّ
لَهْفَ نفسي على انبِساطِكَ لِلضَّيْفِ وذَيَّالِكَ الحَديثِ الشَّهِيِّ

وكان السلطان يقرب حافظاً قبل تولي السلطنة وبعده

يَحسَبُ الدارَ دارَهُ وَهْوَ يَمشي فوقَ زاهي بِساطِكَ الأحْمَدِيِّ

الضيف يحسب دارك داره، وأنت تبسط له البساط الأحمدي، أي تعامله بأريحية (وأصل العبارة بساط كان للسيد أحمد البدوي وكان كلما قعد ناس عليه اتسع)

خُلُقٌ مثلَما نَشَقْتَ أَريجَ الزَّهْرِ جَادَتْهُ زَوْرَةُ الوَسْمِيِّ

أخلاقك كانت كرائحة الزهر وقد جادته، أمطرته، مطرة الوسمي، وهي أول مطر الربيع

واهْتِزازٌ لِلعُرْفِ مِثلُ اهتِزازِ السَّيفِ في قَبْضَةِ الشجاعِ الكَمِيِّ

الكمي: المسلح

وحياءٌ عند العَطِيَّةِ يَنفي خَجَلَ السائلِ الكريمِ الأَبِيِّ
رَحِمَ اللَّهُ يا حسينُ خِلالاً فيكَ لم يَجْتَمِعْنَ في نفسِ حَيِّ

٥٤ العُمَرِيَّة

ألقيت في مدرج وزارة المعارف مساء الجمعة ٨ فبراير/شباط (١٩١٨):

حَسْبُ القَوافي وحَسبي حينَ أُلقِيها   أَنِّي إلى ساحةِ الفاروقِ أُهديها

حسب القوافي، يكفيها، شرفاً أنها في الفاروق

مَولَى المُغيرَةِ، لا جَادَتْكَ غَادِيَةٌ   مِن رحمةِ اللَّهِ ما جَادَتْ غَواديِها

يا مولى المغيرة، يا أبا لؤلؤة قاتل عمر، لا جادتك غادية، لا أمطرتك سحابة، من رحمة الله ما ظلت رحمة الله تجود بالسحاب على البشر

طَعَنْتَ خَاصِرَةَ الفَاروقِ منتقِماً   مِن الحَنيفَةِ في أعلى مَجاليِها

الحنيفة: الدين الحنيف، مجاليها: تجلياتها، فالخليفة هو ممثل الدين الحنيف ورأسه

فأصبحتْ دولةُ الإسلامِ حائرةً   تشكُو الوَجيعَةَ لَمَّا ماتَ آسِيها

الوجيعة: المصيبة، آسيها: طبيبها

واللَّهِ ما غَالَها قِدْماً وكادَ لها   واجتثَّ دَوحَتَها إلَّا مَواليِها

ما اغتال الدين منذ القدم واجتث دوحته، قطع شجرته، إلا الموالي من غير العرب

لو أَنَّها في صميمِ العُرْبِ قد بَقِيَتْ   لَمَا نَعاها على الأيامِ ناعيها

يا ليتَهُمْ سمِعوا ما قالَه عُمَرٌ   والروحُ قد بلغتْ منهُ تَراقيها

التراقي: عظام أعلى الصدر

لا تُكْثِروا مِن مَوالِيكُمْ فإنَّ لَهُمْ   مَطَامِعاً بَسَمَاتُ الضَّعفِ تُخْفيها

رأَيْتَ في الدِّينِ آراءً مُوفَّقَةً   فأنزلَ اللَّهُ قرآناً يُزَكِّيها

كانت لعمر آراء عدة وافقها القرآن من بعد وزكاها، أقرَّها

سمعتَ سُورَةَ طَهَ مِن مُرَتِّلِها   فَزُلْزِلَتْ نِيَّةٌ قد كنتَ تَنْويها

سمع عمر سورة طه فعدل عن نيته إيقاع الأذى بالمسلمين، وأسلم

ويومَ أَسْلَمْتَ عزَّ الحقُّ وارتفعتْ   عن كاهلِ الدِّينِ أثقالٌ يُعانيها

وموقِفٍ لَكَ بعد المصطفى افترقَتْ   فيه الصحابةُ لما غابَ هاديها

لما غاب الهادي، الرسول، افترق الصحابة بين أنصار ومهاجرين، وكان لعمر موقف الفيصل

بايعتَ فيه أبا بكرٍ فبايَعَهُ   على الخلافةِ قاصيها ودانيها

وأطفئتْ فتنةٌ لولاكَ لاسْتَعَرتْ بينَ القبائلِ، وانسابَتْ أفاعيها
فَلِلسَّقِيفَةِ يومٌ أنتَ صاحبُه فيه الخلافةُ قد شِيدتْ أَواسِيها

في سقيفة بني ساعدة كان ثمة يوم، يوم مشهود بطله عمر، وفيه شيدت وبنيت أواسي الخلافة، دعائمها، جمع آسية

وقولَةٌ لِعليٍّ قالَها عمرٌ أكْرِمْ بسامعِها أعظِمْ بِمُلقيِها!
«حَرَّقْتُ دارَكَ لا أُبقي عليكَ بها إن لم تبايعْ»، وبنتُ المصطفى فيها
ما كان غيرُ أبي حَفْصٍ يفُوهُ بها أمامَ فارسِ عدنانٍ وحاميها

أبو حفص: عمر، فارس عدنان: علي بن أبي طالب

سَلْ قاهرَ الفُرسِ والرومانِ هل شَفَعتْ له الفتوحُ وهل أَغْنَى تَواليها

قاهر الفرس والروم: خالد بن الوليد

ما واقَعَ الرومَ إلَّا فَرَّ قَارِحُها ولا رمى الفُرْسَ إلَّا طاشَ راميها

قارحها: كبيرها المجرب

ولم يَجُزْ بلدةً إلَّا سمعتَ بها «اللَّهُ أكبرُ» تَدْوِي في نواحيها

لم يجز بلدة: لم يمر بها

أَتاهُ أمرُ أبي حَفْصٍ فقَبَّلَهُ كما يُقَبِّلُ آيَ اللَّهِ تاليها

أتى أمر أبي حفص، عمر، لخالد بالعزل، فقبل الكتاب وعزل نفسه

واستقبلَ العَزْلَ في إبَّانِ سَطوتِه ومجدِهِ مُستريحَ النفسِ هاديها
إن الذي بَرأَ الفاروقَ نَزَّهَهُ عن النقائصِ والأغراضِ تنزيها

قيل إن لعمر غرضاً من عزل خالد، هو الحسد لمكانته أو الحقد عليه لخصومة قديمة، ولكن شاعرنا ينزه عمر عن النقائص والأغراض

وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عُمراً بينَ الرعيَّةِ عُطْلاً وَهْوَ راعيها

رسول كسرى ريع، تعجب ودهش، لما رأى عمر عطلاً، معطلاً من الحراسة، يمشي بين الرعية

وعَهدُهُ بِملوكِ الفرسِ أنَّ لها سُوراً مِنَ الجُندِ والأحراسِ يَحميها
رآهُ مُستغرِقاً في نومِه فرأى فيه الجلالةَ في أَسْمى معانيها
فهانَ في عينِه ما كان يُكْبِرُهُ مِنَ الأكاسِرِ والدنيا بأيديها

هان في عيني رسول كسرى ما كان يعظمه، ويبجله، من أكاسرة الفرس وهي الملوك التي تملك الدنيا

وقالَ قَوْلَةَ حقٍّ أصبحتْ مثلاً ... وأصبحَ الجيلُ بعد الجيلِ يَرويها

أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ العدلَ بينَهُمُ ... فنِمتَ نومَ قَريرِ العينِ هانيها

وما استبدَّ بِرأيٍ في حُكومَتِهِ ... إنَّ الحكومةَ تُغري مُستبِدِّيها

إنْ جَاعَ في شِدَّةٍ قومٌ شَرِكْتَهُمُ ... في الجوعِ أو تَنجَلي عنهُمْ غَواشيها

غواشيها: جمع غاشية، مصائبها

فمَنْ يُباري أبا حَفْصٍ وسيرَتَه ... أو مَنْ يحاوِلُ لِلفاروقِ تَشبيها

يومَ اشتَهَتْ زَوجُهُ الحَلْوى فقالَ لها: ... مِنْ أينَ لي ثمنُ الحَلوَى فَأَشْريها

أَغْنَتْ عَنِ الصَّارِمِ المصقولِ دِرَّتُهُ ... فكمْ أخافَتْ غَوِيَّ النفسِ عاتيها

درته: سوطه، وكان لعمر سوط يؤدب به المخالفين والعتاة، المتجبرين بالناس

أَخافَ حتى الذَّراري في مَلاعِبِها ... وراعَ حتى الغَواني في ملاهيها..

الذراري: الأولاد من ذرية الرجل، فقد فر منه الأولاد في لعبهم عندما ظهر، ولم يثبت له سوى ولد واحد في قصة معروفة، وكذا الغواني، أي النساء، في لهوهن..

أَرَيْتَ تلكَ التي لِلَّهِ قد نذرَتْ ... أُنْشُودَةً لِرسولِ اللَّهِ تُهديها

أريت، هل رأيت، تلك المرأة التي نذرت أن تهدي للرسول أغنية..

قالتْ: نذرْتُ لئنْ عادَ النبيُّ لنا ... مِنْ غَزْوَةٍ لَعَلَى دُفِّي أُغَنِّيها

ويَمَّمَتْ حضرةَ الهادي وقد مَلأَتْ ... أنوارُ طَلْعَتِه أرجاءَ ناديها

واستأذَنَتْ ومَشَتْ بِالدُفِّ وانْدَفَعَتْ ... تُشجي بِألحانِها ما شَاء مُشْجيها

مشت بالدف تغني وتطرب بألحانها ما شاء الله الذي يشجي القلوب

والمصطفى وأبو بكرٍ بِجانِبِهِ ... لا يُنكِرانِ عليها مِنْ أَغانيها

حتى إذا لاحَ مِن بُعْدٍ لها عمرٌ ... خارتْ قُواها وكادَ الخوفُ يُرديها

لاح عمر فكفت عن الغناء وارتبكت حتى كاد الخوف يرديها، يقتلها..

وخبَّأَتْ دُفَّها في ثوبِها فَرَقاً ... منه، ووَدَّتْ لو انَّ الأرضَ تَطويها

فرقاً: خوفاً

قد كان حِلْمُ رسولِ اللَّهِ يُؤْنِسُها ... فجاءَ بطشُ أبي حفصٍ يُخَشِّيها

فقالَ مَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ مبتَسِما ... وفي ابتسامَتِه معنىً يُواسيها

مهبط الوحي: موضع هبوطه، وهو النبي

قد فَرَّ شيطانُها، لَمَّا رأى عُمراً   إنَّ الشياطينَ تَخشى بأسَ مُخْزيها
وفِتيةٍ وَلِعُوا بِالرَّاحِ فانتَبَذُوا   لَهُمْ مكاناً وجَدُّوا في تَعاطيها
ظهرْتَ حَائِطَهُمْ لَمَّا عَلِمْتَ بِهِمْ   واللَيلُ مُعتَكِرُ الأرجاءِ سَاجيها

ظهرت حائطهم وتسورت عليهم والليل معتكر الأرجاء، مظلم النواحي، ساجيها، ساكنها

سَفَّهْتَ آراءَهُمْ فيها فمَا لَبِثوا   أنْ أَوْسَعُوكَ على ما جئتَ تَسفيها

سفهت آراءهم، ألصقت السفه بعقولهم فيها، في الخمر، فسفهوا فعلك في التجسس عليهم

قالوا: مكانَكَ! قد جِئْنا بِوَاحِدَةٍ   وجئتَنا بثلاثٍ لا تُباليها

قالوا لك مكانك، قف، فأنت أخطأت في ثلاث ونحن في واحدة

فَأْتِ البيوتَ مِنَ الأَبوابِ يا عُمَرٌ   فقد يُزَنُّ مِنَ الحِيطانِ آتيها

يزنُّ: يُتهم

واسْتَأْذِنِ الناسَ أنْ تَغشَى بُيوتَهُمُ   ولا تُلِمَّ بِدارٍ أو تُحيِّيها
ولا تَجَسَّسْ فَهذي الآيُ قد نَزَلَتْ   بِالنَّهْيِ عنه فلم تَذْكُرْ نَواهِيها
فَعُدْتَ عنهُمْ وقد أَكْبَرْتَ حُجَّتَهُمْ   لَمَّا رأيتَ كتابَ اللَّهِ يُمليها
وما أَنِفْتَ وإن كانوا على حَرَجٍ   مِنْ أنْ يَحُجَّكَ بِالآياتِ عَاصيها

لم تأنف حتى وهم على حرج، على إثم، من أن تنصاع لحجتهم المقرونة بالآيات رغم أنهم عصاة

وسَرْحَةٍ في سماءِ السَّرْحِ قد رَفِعَتْ   بِبَيْعَةِ المصطفى مِنْ رَأْسِها تيها

ورب سرحة، شجرة، رفعت رأسها بين الشجر في السماء تيهاً، وافتخاراً، لأنها الشجرة التي جرت تحتها بيعة الرضوان

أَزَلْتَها حين غَالَوْا في الطَّوافِ بها   وكانَ تَطوافُهُمْ للدِّينِ تَشويها

أنت قطعتها عندما بالغوا في الطواف بها وتقديسها

أُهدي مَناقِبه في عَهدِ دَوْلَتِه   لِلشَّاهِدينَ ولِلأعْقَابِ أَحكيها
لعلَّ في أُمَّةِ الإسلامِ نابِتَةً   تَجْلُو لِحاضِرِها مِرآةَ مَاضيها

لعل النابتة، أي الشباب، يجلون ويلمّعون مرآة الماضي لخدمة حاضرهم

٥٥ رثاء باحثة البادية

نشرت في سنة (١٩١٨):

مَـلَـكَ الـنُّـهـى لا تَـبْـعَـدي فـالـخَـلْـقُ فـي الـدنـيـا سِـيَـرْ

ملك ابنة حفني ناصف كانت أديبة واشتهرت بلقب باحثة البادية، وجعلها ملاكاً للنهى، أي للعقل. لا تبعدي: كلمة تقال للميتة. لتبق ذكراك حاضرة فالناس في هذه الدنيا ما هم إلا سير، ذكرى وسيرة

إنِّـي أَرى لَـكِ سِـيـرَةً كـالـروضِ أَرَّجَـهُ الـزَّهَـرْ

أرَّجه: عطَّره

وتـركـتِ شَـيـخَـكِ لا يَـعـي هـل غـابَ زيـدٌ أو حَـضَـرْ

تركت أبوك، وكان حفني ناصف معلماً ونحوياً، ذاهلاً لا يدري أغاب «زيد»، الاسم المستخدم في أمثلة النحاة، أم حضر

ثَـمِـلاً تُـرَنِّـحُـهُ الـهـمـو مُ إذا تَـحـامَـلَ أو خَـطَـرْ
كـالـفَـرْعِ هَـزَّتْـهُ الـعَـوا صِـفُ فـالـتَـوى ثـم انـكَـسَـرْ

ومات أبوها في السنة التالية

يـا بَـرَّةً بَـالـوالـديْـ ـنِ أبـوكِ بَـعـدَكِ لا يَـقَـرّ
فَـسَـلـي إلَـهَـكِ سَـلْـوَةً لِأَبـيـكِ فَـهْـوَ بِـه أَبَـرّ

الله أبرُّ منك بأبيك

٥٦ العود «أحمد»

أعد حافظ هذه القصيدة لاستقبال شوقي عائداً من منفاه، ونشرها قبيل وصوله، نشرها في أغسطس/ آب (١٩١٩):

وَرَدَ الـكِـنـانَـةَ عـبـقـرِيُّ زمـانِـه فـتَـنَـظَّـري يـا مـصـرُ سـحـرَ بَـيـانِـه
والـقُـطْـرُ فـي شَـوْقٍ لِأَنْـدَلُـسِـيَّـةٍ شَـوْقِـيَّـةٍ تَـشـفـيـه مِـن أَشـجـانِـه

مصر مشتاقة إلى قصيدة أندلسية من قلم شوقي تشفيها من أشجانها، أحزانها، الناتجة عن ثورة (١٩١٩)

يُـصـغـي لِأحـمَـدَ إنْ شَـدا مُـتـرنِّـمـا إِصـغـاءَ أُمَّـةِ أَحـمَـدٍ لِأَذانِـه

القطر، أي مصر، يصغي لأحمد شوقي وهو يترنم بشعره كإصغاء أمة أحمد، النبي، للأذان

واذْكُرْ لنا الحمراءَ، كيفَ رأيتَها والقصرَ، ماذا كان مِن بُنْيانِه؟

حدثنا عن آثار العرب في إسبانيا التي أتيت منها

ماذا تَحَطَّمَ مِن ذُراهُ، وما الذي أبقَتْ صروفُ الدهرِ مِن أركانِه

قل لنا ماذا تحطم من ذرا، أعالي، قصر الحمراء، وما الذي أبقى الزمن من أركانه

إذْ مُلْكُ أندلُسٍ عَريضٌ جَاهُهُ وشَبابُهُ المَبْكِيُّ في رَيْعَانِه

وكان ملك العرب هناك ذا جاه، ومنزلة، وكان في شبابه الذي أصبحنا نبكي على زواله وهو في ريعانه، في نضارته

زالَتْ بشاشتُه، وزالَ وأقفَرَتْ مِنْ أُنسِهِ الدنيا ومِن إنسانِه

ذهب أنس وبهجة ذلك الملك وذهب إنسانه أيضاً بجلاء العرب

أشكو إليكَ مِنَ الزَّمانِ وزُمْرَةٍ جَرحَتْ فؤادَ الشِّعرِ في أَعيَانِه

يشكو من زمرة المدعين الذين جرحوا قلب الشعر بانتقاصهم أعيانه، كبار أصحابه

كم خارجٍ عن أُفْقِه حَصَبَ الوَرى بِقَريضِه والعُجْبُ مِلْءُ جَنانِه

كم من شخص خارج عن أفق الشعر لا علاقة له به، قد حصب الناس بقريضه، رماهم بحجارة هي عبارة عن قصائده، والعجب، التيه والفخر، يملأ جنانه، قلبه

يَختالُ بين الناسِ مُتَّئِدَ الخُطا ريحُ الغُرورِ تَهُبُّ مِن أَرْدَانِه

يمشي هذا الشاعر المدعي بطيئ الخطا، تهب ريح الغرور من أردانه، أكمام ثوبه

كم صَكَّ مِسمَعَنا بِجَنْدَلِ لَفْظِهِ وأَطالَ مِحنَتَنا بِطولِ لِسانِه

جندل: صخر

قلْ لِلذي قد قامَ يَشْأُو أَحمَداً خَلِّ القَريضَ فلستَ مِن فُرسانِه

يشأو: يباري

ما كان يَأْمَنُ عَثْرَةً لو لم يَكُنْ روحُ الحقيقةِ مُمْسِكاً بِعِنانِه

ما كان شوقي ليأمن الزلل لو لم تكن الحقيقة هي الممسكة بلجام فرسه

فأَتى بِما لم يَأْتِه مُتَقَدِّمٌ أو تَطْمَعِ الأذهانُ في إتيانِه
فالحمدُ للَّهِ الذي قد رَدَّهُ مِن بَعدِ غُربَتِه إلى أوطانِه

٥٧ مظاهرة السيدات

قالها في (١٩١٩)، وتأخر نشرها حتى مارس/ آذار (١٩٢٩):

خـرجَ الـغَـوانـي يَـحْـتَـجِـجْـ ـنَ، ورُحْـتُ أَرْقُـبُ جَـمْـعَـهُـنَّـهْ
فـإذا بِـهِـنَّ تَـخِـذْنَ مِـن سُـودِ الـثـيـابِ شِـعـارَهُـنَّـهْ
فَـطَـلَـعْـنَ مـثـلَ كَـواكِـبٍ يَـسْـطَـعْـنَ فـي وَسَـطِ الـدُّجُـنّـةْ
وأَخَـذْنَ يَـجْـتَـزْنَ الـطَّـريـ ـقَ ودارُ سَـعْـدٍ قَـصْـدُهُـنَّـهْ
يَـمـشِـيـنَ فـي كـنَـفِ الـوَقـا رِ، وقَـدْ أَبَـنَّ شُـعُـورَهُـنَّـهْ

يمشين وقورات مع أنهن أبرزن شعورهن وسفرن

وإذا بِـجَـيْـشٍ مُـقْـبِـلٍ والـخـيـلُ مُـطْـلَـقَـةُ الأَعِـنَّـةْ
وإذا الـجـنـودُ سـيـوفُـهـا قـد صُـوِّبَـتْ لِـنُـحـورِهِـنَّـهْ
وإذا الـمـدافِـعُ والـبـنـا دقُ والـصَّـوارِمُ والأَسِـنَّـةْ..
والـخـيـلُ والـفـرسـانُ قـد ضَـرَبَـتْ نِـطـاقـاً حَـوْلَـهُـنَّـهْ
والـوردُ والـرَّيْـحـانُ فـي ذاكَ الـنـهـارِ سِـلاحُـهُـنَّـهْ
فَـتَـطـاحَـنَ الـجَـيْـشـانِ سَـا عـاتٍ تَـشـيـبُ لـهـا الأَجِـنَّـةْ
فَـتَـضَـعْـضَـعَ الـنِّـسْـوانُ والـنِّـ ـسْـوانُ لـيـس لَـهُـنَّ مُـنَّـةْ

منة: قوة

ثـم انـهَـزَمْـنَ مُـشَـتَّـتـا تِ الـشَّـمـلِ نـحـوَ قُـصُـورِهِـنَّـهْ
فَـلْـيَـهـنَـأِ الـجـيـشُ الـفُـخـو رُ بِـنـصـرِهِ وبِـكَـسْـرِهِـنَّـهْ
فـكـأنَّـمـا الأَلـمـانُ قـد لَـبِـسـوا الـبـراقِـعَ بَـيْـنَـهُـنَّـهْ
وأَتَـوْا بِـهِـنْـدِنْـبِـرْجَ مُـخْـ ـتَـفِـيـاً بِـمِـصْـرَ يَـقُـودُهُـنَّـهْ

باول فون هندنبرغ جنرال ألماني سيصبح رئيساً للجمهورية (١٩٢٥)، وسيعين هتلر مستشاراً، أي رئيس وزراء، عام (١٩٣٣)

فَـلِـذاكَ خـافُـوا بَـأْسَـهُـنَّـ وأَشْـفَـقُـوا مِـنْ كَـيْـدِهِـنَّـهْ

٥٨ أبق شيئاً

قيلت عام (١٩١٩)، وانتشرت بين الناس ولم تنشر في صحيفة:

يا مَلِيكاً بِرَغْمِهِ يَلبَسُ التَّا ... جَ، ويَرقَى لِعرشِهِ مَمْلُوكا

المليك: السلطان فؤاد ابن الخديوي إسماعيل، وتولى السلطنة عام (١٩١٧)، وتسمى ملكاً عام (١٩٢٢)

إنْ أَتَمَّتْ يَداكَ تَخريبَ مِصرٍ ... فلقد مَهَّدَ الخَرابَ أَبُوكا

وكان الخديوي إسماعيل، الذي عزل عام (١٨٧٩)، قد أسرف وأضر بمالية البلاد رغم إنشاءاته الكثيرة

أَبْقِ شيئاً ـ إذا مضيتَ ذَميماً ... عن قَريبٍ ـ يَأْتِي عليهِ بَنُوكا

٥٩ الأب الثاكل

رثاء عبد الحميد رمزي، قالها على لسان والد الشاب المتوفى، ونشرت في مارس/ آذار (١٩٢٠):

ولدي، قد طالَ سُهْدِي ونَحيبِي ... جئتُ أَدعوكَ فهل أنتَ مُجيبي؟

جئتُ أَرْوِي بِدموعِي مضجعاً ... فيه أودعتُ مِن الدنيا نصيبي

لا تخَفْ مِن وَحشَةِ القبرِ، ولا ... تَبتئسْ إِنِّي مُوافٍ عن قريبِ

أنا لا أَترُكُ شِبلِي وَحدَهُ ... في جَديبٍ مُوحِشٍ غيرِ رحيبِ

أَوَحِينَ ابْتَزَّ دهرِي قُوَّتِي ... وذَوى عُودِي ووافانِي مَشيبي

ابتز: سلب

واكتَسى غصنُكَ مِن أوراقِه ... تحت شمسِ العزِّ والجاهِ الخصيبِ

يَنتَوِيكَ الموتُ في شَرْخِ الصِّبا ... والشبابُ الغَضُّ في البُرْدِ القَشيبِ

لم يدَعْ آسِيكَ جُهداً إنَّما ... غابَ عِلمُ اللّهِ عن عِلمِ الطَّبيبِ

آسيك: طبيبك

إيهِ يا عبدَ الحَميدِ انظُرْ إلى ... والدٍ جَمِّ الأَسى بادِي الشُّحوبِ

ذاهلٍ مِن فَرطِ ما حَلَّ بِه ... بين أترابِكَ يَمشِي كالغريبِ

كلَّما أبصَرَ منهُمْ واحداً ... هَزَّهُ الشوقُ إلى وجهِ الحبيبِ

٦٠ البابا والباب

كتب بها إلى السيد محمد البيلاوي لما أصبح نقيب الأشراف (١٩٢٠):

قلْ لِلنَّقيبِ لقد زُرْنا فضيلَتَه ... فذَادَنا عنه حراسٌ وحُجَّابُ

ذادنا عنه: حال بيننا وبينه

لو أنَّني جئتُ لِلبَابا لأكرَمَني وكان يُكْرِمُني لو جِئْتُهُ البَابُ

الباب: إمام العقيدة البابية التي ورثتها البهائية، والباب أيضاً هو الباب، يقول حافظ، على المعنى الظاهر: لو جئت إلى الباب الخشبي لأكرمني من حيث ردني الحُجَّاب

لا تخشَ جَائِزةً قد جئتُ أطلُبُها إنِّي شريفٌ ولِلأشرافِ أحْسَابُ

فاهْنَأْ بِما نِلْتَ مِن فضلٍ وإن قُطِعَتْ بيْني وبَينَكَ بعدَ اليومِ أسبابُ

٦١ مصر تتحدث عن نفسها

أنشَدَها في حفل بفندق الإنتركونتننتال لتكريم عدلي يكن بعد عودته من أوروبا قاطعاً المفاوضات مع الإنجليز، ومستقيلاً من الوزارة. نشرت في ديسمبر/ كانون الأول (١٩٢١):

وَقَفَ الخلقُ يَنظرونَ جميعاً كيف أَبني قواعدَ المجدِ وَحدي

وبُناةُ الأهرامِ في سالِفِ الدهـ ـرِ كَفَوْني الكلامَ عند التحدي

أنا تاجُ العَلاءِ في مَفرِقِ الشر قِ ودُرَّاتُهُ فَرائِدُ عِقْدي

أنا إنْ قَدَّرَ الإلَـهُ مَماتي لا ترى الشرقَ يرفعُ الرأسَ بعدي

ما رماني رامٍ وراحَ سليماً. مِن قديمٍ عنايةُ اللَّهِ جُندي

كم بَغَتْ دولةٌ عليَّ وجارَتْ ثم زالتْ وتلكَ عُقبَى التَّعَدي

هل فهِمْتُمْ أسرارَ ما كانَ عندي مِن علومٍ مخبوءَةٍ طَيَّ بَردي؟

البردي: ورق شجر كتب فيه الفراعنة علومهم

إنَّ مَجدِي في الأُولَياتِ عَريقٌ مَن له مِثلُ أُولَياتي ومجدي؟

الأوليات: المجد القديم

أنا أُمُّ التَّشريعِ قد أَخَذَ الرُّو مانُ عنِّي الأُصولَ في كلِّ حَدِّ

الحد: الحكم القانوني، والقانون الروماني مشهور

ورَصَدْتُ النجومَ منذُ أَضاءَتْ في سماءِ الدُّجى فأَحْكَمْتُ رَصدي

وقديماً بَنى الأساطيلَ قومي فَفَرَقْنَ البِحارَ يَحمِلْنَ بَندي

سفني فرقت، شقت، طريقها في البحار حاملة بندي، رايتي، والكلام لمصر

أيُّ شعبٍ أَحَقُّ مِنِّي بِعيْشٍ وارفِ الظِّلِّ أخضَرِ اللَّوْنِ رَغْدِ؟

أَمِنَ العدلِ أنَّهُمْ يَرِدُونَ الـ ـماءَ صَفْواً وأن يُكَدَّرَ وِرْدي؟

نِصْفُ قرنٍ إلّا قليلاً أعاني ما يُعاني هَوانَهُ كلُّ عَبْدِ

منذ أن احتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢

نظرَ اللَّهُ لي فأرشَدَ أَبنَا ئي فَشَدُّوا إلى العُلا أيَّ شَدِّ

إنَّما الحقُّ قُوَّةٌ مِن قُوى الدَّيَّـ ـانِ أَمْضَى مِنْ كلِّ أبيضَ هِندي

قد وَعدْتُ العُلا بِكُلِّ أَبِيٍّ مِن رِجالي، فَأَنْجِزُوا اليومَ وَعدي

وارْفَعوا دولتي على العلمِ والأخـ ـلاقِ، فالعلمُ وحدَه ليس يُجْدي

إنَّ في الغربِ أَعْيُناً راصِداتٍ كَحَلَتْها الأطماعُ فيكُمْ بِسُهْدِ

في الغرب أعين ساهدة ساهرة طامعة تترقب الانقضاض على ثروات مصر

فَوقَها مِجْهَرٌ يُريها خَفايا كُمْ ويَطْوي شُعاعُهُ كلَّ بُعْدِ

وهذه الأعين تنظر بمجهر مكبر لترى الخفايا، وشعاع المجهر يقرب البعيد (أصبح تلسكوباً)

فاتَّقُوها بِجُنَّةٍ مِن وِئامٍ غيرِ رَثِّ العُرا وسَعْيٍ وكَدِّ

اتقوا مطامع الغرب بجنة، وقاية، هي الوئام الشديد غير رث العرا، غير مهترئ العرا، جمع عروة

واصْفَحُوا عن هَناتِ مَن كانَ مِنكُمْ رُبَّ هَافٍ هَفا على غيرِ عَمْدِ

الهنات: الذنوب الصغيرة

نحنُ نَجتازُ موقِفاً تَعثُرُ الآ راءُ فيهِ، وعَثْرَةُ الرأيِ تُرْدي

تردي: تميت

ويَظُنُّ الغَوِيُّ أنْ لا نِظامٌ ويقولُ القويُّ قد جَدَّ جِدِّي

فَقِفُوا فيه وِقْفَةَ الحَزْمِ وارْمُوا جانِبَيْهِ بِعَزْمَةِ المُسْتَعِدِّ

إن كنت لم تسمع بأن أم كلثوم غنت أبياتاً من هذه القصيدة في لحن رياض السنباطي فاسمع، واذهب واسمع الأغنية. مقدمتها وحدها تحفة

٦٢ سيرا إلى إنجلترا

وداع محمد بدر وأحمد بدر عند سفرهما إلى بلاد الإنجليز للتعلم:

سِيرا إلى الأرضِ التي أنبتَتْ عِزّاً وأضحتْ لِلمَلا مَوْئِلا

أصبحت بلاد الإنجليز للملا، للملأ أي الناس، موئلاً، ملتجأً

يَمشي عليها الدهرُ مُسْتَخْذِياً وتَجزعُ الأَحداثُ أن تنزلا

مستخذياً: خاضعاً

شِـعـارُ أهـلـيِـهـا وأبـنـائِـهـا أن يـعـلَـمَ الـمـرءُ وأن يـعـمَـلا
لَـئِـنْ غـدا الـدهـرُ بِـنـا مُـدبِـراً لا بُـدَّ لـلـمُـدبِـرِ أن يُـقْـبِـلا

التسويد لعمران القفيني، ويقول: لعل الدهر يقبل علينا، فمنذ زمن بعيد لم يقبل! وعدد المازني لحافظ الدول التي أدبرت ثم استمر بها الإدبار حتى الاندثار

٦٣ رائحة الاستقلال

تصريح ٢٨ فبراير/شباط، نشرت في أبريل/نيسان (١٩٢٢):

أَلْـمَـحُ لِاسـتـقـلالِـنـا لَـمْـعَـةً فـي حـالِـكِ الـشـكِّ فَـأَسْـتَـرْوِحُ

أستروح: أشعر بالراحة، لأن هذا الإعلان في ٢٨ فبراير/١٩٢٢ جاء فيه من طرف بريطانيا أن الحماية رفعت عن مصر، وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأن لبريطانيا الحق في حماية طرق مواصلاتها وحمايتها ضد أي اعتداء خارجي، ويبقى الوضع في السودان على حاله

وتَـطْـمِـسُ الـظـلـمـةُ آثـارَهـا فَـأَنْـثَـنـي أُنـكِـرُ مـا أَلْـمَـحُ
فـقـائـلٍ: لا تـعـجَـلُـوا إنَّـكُـمْ مَـكـانَـكُـمْ بـالأمـسِ لـم تَـبْـرَحُـوا

بعضهم رفض الإعلان البريطاني لأنه لا يغير من الحال شيئاً فاليوم مثل الأمس. مكانكم لم تبرحوا، أي لم تبرحوا مكانكم

وقـائـلٍ أوسِـعْ بِـهـا خُـطْـوَةً وراءَهـا الـغـايـةُ والـمَـطْـمَـحُ

وبعضهم قال إنها لخطوة واسعة، وبعدها تتحقق الغاية التي نطمح إليها

وقـائـلٍ أسـرَفَ فـي قـولِـه: هـذا هُـوَ استـقـلالُـكُـمْ فـافْـرَحُـوا

وبعضهم قال وبالغ: هذا هو الاستقلال الحق

إن تَـسـأَلـوا الـعـقـلَ يَـقُـلْ عَـاهِـدوا واسـتَـوْثِـقـوا فـي عـهـدِكُـمْ تَـربَـحُـوا

العقل يقول، عقل شاعرنا طبعاً، اقبلوا المعاهدة، وأكدوها بالمواثيق

وأَسِّـسُـوا داراً لِـنُـوَّابِـكُـمْ لِـلـرأيِ فـيـهـا والـحِـجـا أَفْـسِـحُـوا

وأسسوا دار نواب واجعلوا للحجا، للعقل، المكان الفسيح فيها

أو تَـسـأَلُـوا الـقـلـبَ يَـقُـلْ حَـاذِروا وصـابِـروا أعـداءَكُـمْ تُـفْـلِـحُـوا

والقلب يقول، وهو قلب شاعرنا، احذروا دهاء الإنجليز وصابروهم في نضال مستمر

إنِّـي أرى قـيـداً فـلا تُـسْـلِـمـوا أَيـدِيَـكُـمْ فـالـقـيـدُ لا يَـسْـجَـحُ

المعاهدة تتضمن قيداً فلماذا نسلم أيدينا لمن يريد تقييدها، والقيد لا يسجح، لا يلين. وكانت ذكريات ثورة ١٩١٩ طرية بعد في الأذهان

إنْ هَيَّأُوهُ مِن حريرٍ لَكُمْ	فَهْوَ على لِينٍ به أَفْدَحُ

القيد الحريري أفدح، وأقسى، من القيد الحديدي

٦٤ جاء دوري

ذكرى الشيخ محمد عبده، أنشدها في حفل بالجامعة المصرية في يوليو/تموز (١٩٢٢):

راعني فَقْدُ شَبابِي وأَنا	لا أُراعُ اليومَ مِن فَقْدِ مَشيبي

حَنَّ جَنباايَ إلى بَرْدِ الثَّرى	حيثُ أُنْسى مِنْ عَدُوٍّ وحَبيبِ

أحن إلى التراب حيث ينساني العدو والحبيب

مَضْجَعٌ لا يَشْتَكي صاحبُه	شدَّةَ الدهرِ ولا شَدَّ الخطوبِ

لا ولا يُسْئِمُه ذاك الذي	يُسئِمُ الأحياءَ مِن عَيْشٍ رَتيبِ

قد وَقَفْنا سِتَّةً نَبكِي على	عَالِمِ المشرقِ في يومٍ عَصيبِ

وقفَ الخمسةُ قَبلي فَمَضَوْا	هكذا قبلِي، وإنِّي عن قَريبِ

وقف ستة على قبر الإمام يؤبنونه، وهم على ترتيب التأبين: أحمد أبو خطوة، حسن عاصم، حسن عبد الرازق، قاسم أمين، حفني ناصف، حافظ إبراهيم. وماتوا واحداً بعد الآخر وبنفس الترتيب.. وعندما مات الرابع ١٩٠٨، كتب خامسهم، حفني ناصف، لشاعرنا حافظ:

أتذكر إذ كنَّا على القبر ستة	نعدِّدُ آثار الإمام وننْدبُ

وقفنا بترتيبٍ وقد دبَّ بيننا	ممات على وَفق الرثاء مرتبُ

أبو خطوة ولى وقفَّاه عاصمٌ	وجاء لعبد الرازق الموتُ يطلبُ

فلبى وغابتْ بعدَه شمسُ قاسمٍ	وعما قليل شمسُ مَحْيايَ تغربُ

فلا تخشَ هُلكاً ما حييتُ فإن أمت	فما أنت إلا خائفٌ تترقبُ

فخاطِرْ وقَعْ تحت التُّرماي لا تخفْ	ونم تحت بيتِ الوَقْفِ وهو مخرَّبُ

وخُضْ لُجَجَ الهيجاءِ أعزلَ آمناً	فإن المنايا عنك تنأى وتهربُ

.. وفي تكريم حفني ناصف (١٩١٢)، وقف حافظ وقال قصيدة:

أخشى عليك المنايا	حتى كأنك مِنِّي

إذا شكوتَ صداعاً	أطلتُ تسهيدَ جفني

وإن عراكَ هزالٌ	هيَّأتُ لحدي وقُطني

وإن دعـــوتُ لـــحـــيٍّ يــومــاً فــإيَّــاك أعــنــي
عُــمــري بــعُــمــرِك رهــنٌ فــعــشْ أعِــشْ ألــفَ قــرنِ

٦٥ رثاء إسماعيل صبري

أنشدها في حفل التأبين في مايو/ أيار (١٩٢٣):

نـعـاكَ الـنُّـعـاةُ وحُـمَّ الـقَـدَرْ ولـم يُـغْـنِ عـنَّـا وعـنـكَ الـحَـذَرْ

حم القدر: وافى وحلَّ

أُهَـنِّـي الـثَّـرى أمْ أُعَـزِّي الـوَرى لـقـد فـازَ هـذا وهـذا خَـسِـرْ
رُحِمْتَ، فقد كنتَ حُلْوَ اللِّسانِ جَلِيَّ الـبـيـانِ صَدوقَ الـخَـبَـرْ
قـلـيـلَ الـتَّـعَـجُّـبِ، جَـمَّ الأَنـاةِ حـكـيـمَ الـوُرودِ حـكـيـمَ الـصَّـدَرْ
لـقـد كـنـتُ أغـشَـاهُ فـي دارِهِ ونَـادِيـهِ فـيـهـا زَهـا وازْدَهَـرْ

أغشاه: أزوره، ناديه: مجلسه

وأَعْـرِضُ شِـعـري عـلـى مِـسْـمَـعٍ لَـطـيـفٍ يُـحِـسُّ نُـبُـوَّ الـوَتَـرْ
عـلـى سَـمْـعِ بَـاقِـعَـةٍ حـاضِـرٍ يَـمـيـزُ الـقـديـمَ مِـن الـمُـبْـتَـكَـرْ

رجل باقعة: شديد الذكاء والحيلة

فـيـصْـقُـلُ لَـفـظِـيَ صَـقْـلَ الـجُـمـانِ وَيـكـسُـوهُ رِقَّـةَ أهـلِ الـحَـضَـرْ

الجمان: اللؤلؤ

كـذلـك كـانَ، عـلـيـه الـسـلامُ، إمـامـاً لـكـلِّ أديـبٍ شَـعَـرْ

شعر: قال شعراً. وكان إسماعيل صبري ينقح شعر شوقي أيضاً

٦٦ رحلة إلى إيطاليا

نشرت في نوفمبر/تشرين الثاني (١٩٢٣):

أرضُـهُـمْ جَـنَّـةٌ وحُـورٌ وَوِلْـدا نٌ كـمـا تَـشْـتَـهـي، ومُـلْـكٌ كَـبـيـرُ
تَـحـتَـهـا ـ والـعـيـاذُ بِـالـلـهِ ـ نـارٌ وعـذابٌ ومُـنـكَـرٌ ونَـكـيـرُ
إنَّ يـومـاً كَـيـومِ رِدْجُـو ومَـسِّـيــنـا وكَـالَـبْـرِيـا لَـيَـوْمٌ عَـسـيـرُ

مسينا في صقلية، وكالَبريا منطقة مشط القدم في إيطاليا وضربتها زلازل كثيرة في ذلك الزمن وقبله، ورِدجو من مدنها الصغيرة، وضربها زلزال في سنة ١٩٠٨، وآخر سنة ١٩٢٣ عند نشر القصيدة

سَاعةٌ منهُ تُهْلِكُ الحَرْثَ والنَّسْـ ... ـلَ وتَمْحُو ما سَطَّرَتْهُ الدُّهورُ
ذاكَ فيزُوفُ قائماً يَتَلَظَّى ... قد تَعالى شَهيقُهُ والزفيرُ

بركان فيزوف عند مدينة نابولي بإيطاليا

يُنذرُ القومَ بالرحيلِ، ولكنْ ... ليس يُغني مَعَ القَضاءِ النَّذيرُ
وكذاكَ الأَوطانُ مَهْما تَجَنَّتْ ... ليس للحُرِّ عن حِماها مَسيرُ
وَلِعَ القومُ بِالنظافَةِ حتى ... جُنَّ فيها غَنِيُّهُمْ والفقيرُ
فإذا سِرْتُ في الطريقِ نهاراً ... خِلْتُ أنِّي على المرايا أسيرُ
أفرَطَ القومُ في النِّظامِ، وعندي ... أنَّ فرطَ النِّظامِ أَسْرٌ ونيرُ
ولَذيذُ الحياةِ ما كانَ فَوضَى ... ليس فيها مُسَيْطِرٌ أو أميرُ
فإذا ما سَأَلْتَني قُلْتُ عنهُمْ: ... أُمَّةٌ حُرَّةٌ وفَرْدٌ أسيرُ
قد بَلَوْتُ الحياةَ في الشرقِ والغَرْ ... بِ فَما في الحياةِ أمرٌ يَسيرُ
مِنْ ثَواءٍ فيهِ المَلالُ لِزامٌ ... أو رحيلٍ فيه العَناءُ كثيرُ

الثواء: الإقامة والمكث

٦٧ هجاء للشعر

ضِعْتَ بين النُّهَى وبينَ الخيالِ ... يا حكيمَ النفوسِ يا ابنَ المَعالي

النهى: العقول

ضِعْتَ في الشرقِ بين قومٍ هُجُودٍ ... لم يُفيقُوا، وأمةٍ مِكْسَالِ
قد أَذَالُوكَ بين أُنْسٍ وكأسٍ ... وغَرامٍ بِظَبْيَةٍ أو غَزالِ
ونَسيبٍ ومِدْحَةٍ وهِجاءٍ ... ورثاءٍ وفِتْنَةٍ وضَلالِ
وحَماسٍ أراهُ في غيرِ شيءٍ ... وصَغارٍ يَجُرُّ ذَيْلَ اختِيالِ
عِشتَ ما بينَهُمْ مُذَالاً مُضاعاً ... وكذا كنتَ في العصورِ الخوالي
حَمَّلُوكَ العَناءَ مِنْ حُبِّ ليلى ... وسُلَيْمَى، ووَقْفَةِ الأطلالِ
وبُكاءٍ على عزيزٍ تَوَلَّى ... ورسومٍ راحَتْ بِهِنَّ اللَّيالي
وإذا ما سَمَوْا بِقَدْرِكَ يوماً ... أَسكَنُوكَ الرِّحالَ فوقَ الجِمالِ
آنَ يا شِعرُ أنْ نَفُكَّ قُيوداً ... قَيَّدَتْنا بِها دُعاةُ المُحَالِ

فـارفَـعُـوا هـذهِ الـكَـمَـائِـمَ عـنَّـا   ودعـونـا نَـشُـمُّ رِيـحَ الـشَّـمـالِ

٦٨ إياك والإنجليز

تهنئة سعد زغلول بالنجاة من إطلاق الرصاص عليه في محطة القطار. نشرت في ١٣ يوليو/تموز (١٩٢٤):

لا تـقـرَبِ الـتَّـامـيـزَ واحْـذَرْ وِرْدَهُ   مـهـمـا بـدا لـكَ أنـه مَـعـسُـولُ

لا تقرب التاميز، نهر التّمز.. يعني الإنجليز الذين كان سعد يشايعهم من قبل، واحذر ورده، ماءه، مهما بدا لك أنه ماء معسول، حلو

الـكـيـدُ مَـمـزوجٌ بِـأصـفَـى مـائِـه   والـخـتـلُ فـيـه مُـذَوَّبٌ مَـصـقُـولُ

الختل: الخداع

فـاحـذَرْ سِـيـاسَـتَـهُـمْ وكـنْ فـي يَـقْـظَـةٍ   سَـعْـدِيَّـةٍ إنَّ الـسـيـاسـةَ غُـولُ

نَـصَـلَـتْ سِـيـاسَـتُـهُـمْ وحـالَ صِـبـاغُـهـا   ولِـكُـلِّ كـاذِبَـةِ الـخِـضـابِ نُـصـولُ

نصلت سياستهم مثلما ينمو الشعر فينصل الخضاب، الصبغ، ويظهر لون الشعر الحقيقي

جَـمَـعُـوا عَـقـاقـيـرَ الـدَّهـاءِ ورَكَّـبـوا   مـا رَكَّـبُـوهُ، وعـنـدَكَ الـتَّـحـلـيـلُ

ركبوا سياستهم على نحو معقد، وعندك يا سعد القدرة على تحليل هذه السياسة إلى مكوناتها لترى ما فيها من سموم

فـادفَـعْ ونـاضِـلْ عـن مَـطـالِـبِ أمَّـةٍ   يـا سـعـدُ أنـتَ أمـامَـهـا مَـسـؤُولُ

الإنجليز يعرفون الحق ـ يقول هذا صاحب الشرح الذي عايشهم سنوات طويلة ـ ولكنهم إذا ضويقوا كانوا متعالين متعجرفين عنصريين مخادعين.. بشراً عاديين. لكن، بصراحة.. برودهم الذي ضُربت به الأمثال يضفي عليهم سمة الرَّوَقان .لله أنتم أيها الإنجليز، تعلمت منكم الكثير، ورأيت رجالاً كثراً ونساء، من عرب ومن هنود يعشقون أن يتنجلزوا، وقد رأيت في حانوت كتب بمطارٍ مؤخراً كتاباً عنوانه «كيف تصبح بريطانياً». وقد حماني من مثل هذا الشعور، وأنا أعايش أولئك القوم، أنني كنت مُكِباً على مطالعة تراث قومي، وأنني كنت أقول في نفسي كل يوم وكل ليلة: أنا عربي

٦٩ باني الهرم

سَـخَّـرَ الـعِـلْـمَ لِـيـبـنـيِ آيـةً   فـوق شـطِّ الـنـيـلِ تـبـدُو كـالـعَـلَـمْ

آية: علامة، العلم: الجبل

هِـيَ ذِكْـرٌ خـالِـدٌ، لـكـنَّـهُ عـابِسُ الـوجـهِ إذا الـذِّكْـرُ ابْـتَسَمْ
كـلُّ مـا فـيـهـا، عـلـى إعـجَـازِهـا، أنَّـهـا قـبـرٌ لِـجـبَّـارٍ حُـطَـمْ

حُطَم: عنيف مسيطر

لـيـتَـه سَـخَّـرَ مـا فـي عـهـدِهِ مِـن قُـوىً في غـيرَ تَـقـديـسِ الـرِّمَـمْ

الرمم: الرفات

٧٠ رثاء المنفلوطي

نشرت في سبتمبر/ أيلول (١٩٢٤):

رَحِـمَ الـلَّـهُ صـاحِـبَ الـنَّـظَـراتِ غـابَ عـنَّـا فـي أَحْـرَجِ الأوقـاتِ

مات المنفلوطي يوم إصابة سعد زغلول برصاص معتدٍ، فانشغل الناس عن تشييع المنفلوطي بحادث سعد

كـيـف غـادَرْتَـنـا سـريـعـاً، وعَـهْـدي بِـكَ يـا مُـصْـطَـفَـى كـثـيـرَ الأَنـاةِ

التسويد لعمران القفيني

كنتَ في مِصْرَ شاعِراً يَبْهَرُ اللُّبَّـ ـبِـآيـاتِ شِـعْـرِهِ الـبَـيِّـنـاتِ
فَـهَـجَرْتَ الـشعـرَ الـسَّرِيَّ إلى النَّثْـ ـرِ فـجئـتَ الـكُـتَّـابَ بِـالـمُـعْـجِـزاتِ

السري: العالي الراقي. وللمنفلوطي بضع قصائد أشهرها قصيدة هجاء في الخديوي عباس حلمي وهو عائد من إستانبول، مطلعها: (قدوم ولكن لا أقول سعيد/ وملك وإن طال المدى سيبيد). وقيل اشترك في نظم القصيدة عدة أدباء فسميت قصيدة السفهاء، وانتشرت وطبع منها بشتى الطرق آلاف النسخ، وجرَّت على المنفلوطي سجناً لأشهر ستة

مُـتَّ عـن يَـافِـعٍ وخَـمْـسِ بَـنـاتٍ لـم تُـخَـلِّـفْ لـهـا سِـوى الـذِّكْـريـاتِ
وتُـراثُ الأَديـبِ فـي الـشـرقِ حُـزْنٌ لِـبَـنِـيـهِ، وثَـرْوَةٌ لِـلـرُّوَاةِ

٧١ دين طه حسين

عن طه حسين بعد نشر كتابه في الشعر الجاهلي (١٩٢٦)، وفي البيتين ذكر للدكتور عبد الحميد سعيد عضو مجلس النواب الذي كان من المطالبين بإهدار دم طه حسين:

إنْ صَـحَّ مـا قـالـوا، ومـا أَرْجَـفُـوا وأَلْـصَـقُـوا زُوراً بِـدِيـنِ الـعَـمـيـدْ

أرجفوا: أشاعوا بغرض الفتنة

فَـكُـفْـرُ «طَـهَ» عـنـد دَيَّـانِـهِ أَحَـبُّ مِـن إسـلامِ عـبـدِ الـحـمـيـدْ

الديان: الله

٧٢ رثاء أحمد حشمت

وكان وزيراً للمعارف، وهو من توسط لحافظ في وظيفة بدار الكتب وكان له إفضال كثير على الشاعر (١٩٢٦):

لَكَ مِنَّةٌ قد طَوَّقَتْ عُنُقي ... ما إنْ أُريدُ لِطَوْقِها نَزْعا
مَاتَ الإمامُ وكانَ لي كَنَفاً ... وقَضَيْتَ أنتَ وكنتَ لي دِرْعا
سَلْني فإنِّي مِن صَنائِعِهِ ... وسَلِ «المعارِفَ» كم جَنَتْ نَفْعا

اسألني أيها المستمع، واسأل وزارة المعارف كم جنت من المنافع في عهد وزيرها

وغَدَوْتُ في بَلَدٍ تَكَنَّفُني ... فيهِ الشُّرورُ ولا أَرى دَفْعا

تكنفني: تحيط بي

كم مِن صديقٍ لي يُحاسِبُني ... وكَأَنَّ تحتَ ثِيابِه أَفْعَى
كم حَاوَلَتْ هَدمي مَعاوِلُهُمْ ... وأَبَى الإلَهُ فزَادَني رَفْعا
وَلَرُبَّ حُرٌّ عَابَهُ نَفَرٌ ... لا يَصْلُحُونَ لِنَعْلِهِ شِسْعا

الشسع للنعل: السير الجلدي بين الأصابع

٧٣ مبايعة شوقي

ألقيت في مهرجان تنصيب شوقي أميراً للشعراء، في ٢٩ أبريل/ نيسان (١٩٢٧):

يَعيبُونَ شَوقي أن يُرى غيرَ مُنشِدٍ ... وما ذاكَ عن عِيٍّ به أو تَرَفُّعِ

لا عيب في أن يدع شوقي إنشاد شعره لغيره، فليس هذا عن عي، قلة فصاحة، ولا عن ترفع

فهذا كَليمُ اللَّهِ قد جاءَ قبلَه ... بِهارونَ مَا يأْمُرْهُ بِالوَحْيِ يَصْدَعِ

فهذا موسى الذي كلم الله جاء بأخيه هارون ليصدع، ليجهر، بما يأمر الوحيُ به موسى

تَمَلَّكْتَ مِن مُلْكِ القريضِ فَسيحَهُ ... فلم تُبْقِ يا شوقي لنا قِيْدَ إصبعِ
فبِاللَّهِ دَعْ لِلنَّاثِرينَ وَسيلَةً ... تُفيءُ عليهِمْ، واتَّقِ اللهَ واقْنَعِ

ولعمري لشوقي ناثر مبدع، بدا هذا في مقدمته للشوقيات في طبعة قديمة، وفي كتابه أسواق الذهب، واقتطفنا منه عبارات في فصلنا الذي عن شوقي في الكتاب

أَميرَ القَوافي قد أَتَيْتُ مُبَايِعاً ... وهذِي وُفودُ الشرقِ قد بايَعَتْ مَعي

٧٤ صاحب القاف

قال حافظ في الدكتور محجوب ثابت، وهو طبيب كان يحلم بالوزارة، ويهتم بكل شأن سياسي في كل بلد، وكان يتكلم بالعامية محققاً القاف، وله حضور فكه في مجالس سعد زغلول، ولشوقي فيه أكثر من قصيدة (١٩٢٧):

يُرغي ويُزبِدُ بالقَافاتِ تَحْسَبُها ... قَصفَ المَدافِعِ في أُفْقِ البَساتينِ
مِن كلِّ قَافٍ كأنَّ اللَّهَ صَوَّرَها ... مِن مَارِجِ النارِ تَصويرَ الشَّياطِينِ

المارج: اللهب

قد خَصَّهُ اللَّهُ بِالقَافاتِ يَعْلُكُها ... واختَصَّ سبحانَهُ بِالكَافِ والنُّونِ
لا يَأمَنُ السامِعُ المسكينُ وَثبَتَهُ ... مِن كُردُفانَ إلى أعلى فِلَسْطينِ

يقفز في حديثه من موضوع إلى آخر بعيد عنه

ولم يكنْ ذاكَ عن طيشٍ ولا خَبَلٍ ... لكنَّها عبقَرِيَّاتُ الأَسَاطينِ

٧٥ رثاء سعد زغلول

أنشدها في حفل تأبينه في أكتوبر/تشرين الأول (١٩٢٧):

إيهِ يا ليلُ هل شَهدتَ المُصابا ... كيف ينصبُّ في النفوسِ انصِبابا؟
قُدَّ يا ليلُ مِنْ سوادِكَ ثوباً ... للدَّراري ولِلضُّحَى جِلْبابا

اقطع أيها الليل قطعة من سوادك لتكون ثوباً يستر النجوم اللامعة والضحى.. حداداً على سعد

أَنْسُجِ الحَالكاتِ منكَ نِقاباً ... واحْبُ شمسَ النهارِ ذَاكَ النِّقابا
قلْ لها: غابَ كوكبُ الأرضِ في الأر ... ضِ فَغيبي عن السماءِ احتِجابا
أينَ سَعْدٌ؟ فذاكَ أَوَّلُ حفلٍ ... غابَ عن صدرِهِ وعافَ الخِطابا

وكان سعد في كل حفل خطيباً فصيحاً

لم يُعَوِّدْ جنودَه يومَ خَطْبٍ ... أن يُنادَى فلا يَرُدَّ الجوابا
قلْ لِمَنْ باتَ في فِلَسْطينَ يَبكي ... إن زِلزالَنا أَجَلُّ مُصابا

وكان ألمَّ بفلسطين سنتئذ زلزال مشهور ما زال الناس يؤرخون به. قالت لي عمتي رحمها الله ـ وكانت تخفي حقيقة عمرها ـ إنها تتذكر يوم الزلزال بمدينة نابلس فقد أخذها الأهل إلى الجبل وكان عمرها ثلاث سنوات.. هززت رأسي وقلت في نفسي: ٢٧ ناقص٣ يساوي ٢٤، وعرفت تاريخ ميلادها

يا كبيرَ الفؤادِ والنفسِ والآما ... لِ أينَ اعتَزَمْتَ عنَّا الذهابا؟
كيف نَنسى مواقفاً لَكَ فينا ... كنتَ فيها المَهيبَ لا الهَيَّابا؟
جَزِعَ الشرقُ كُلُّه لِعظيم ... مَلأَ الشرقَ كُلَّهُ إعجابا
تَقْتُلُ الدَسَّ بِالصَّراحَةِ قتلاً ... وتُسْقِّي مُنافِقَ القومِ صابا

الصاب: نبات مرُ

قد جَمعتَ الأحزابَ حَولَكَ صَفَّاً ... ونَظَمتَ الشيوخَ والنُّوَّابا

أي مجلسي الشيوخ والنواب

قد بَلَوْناكَ قاضِيا ووزيراً ... ورئيساً ومِدْرَهاً خلَّابا

مدره: زعيم

فوَجدناكَ مِن جميعِ نواحيـ ... ـكَ عظيماً مُوَفَّقاً غَلَّابا

٧٦ رثاء يعقوب صروف

أنشدها في حفل تأبينه بدار الأوبرا في مارس/ آذار (١٩٢٨):

أَبْكي وعينُ الشرقِ تَبكي مَعي ... على الأريبِ الكاتبِ الألْمَعي
كُرِّمَ بالأمسِ وأكفانُهُ ... تَنسُجُها الأقدارُ لِلمَصرعِ

كان تكريمه قريباً وسرعان ما مات، فكأنه وهو في حفل التكريم كان غافلاً عن أن القدر جادٌّ في نسج أكفانه

يا صائِغَ الدُّرِّ لِتَكريمِه ... صُغْهُ لِمَنْعاهُ مِن الأَدْمُعِ
قد زَيَّنَ العِلْمَ بِأخلاقِه ... فعاشَ مِلْءَ العينِ والمِسمَعِ
تواضُعُ العِلْمِ له رَوْعَةٌ ... يَنهارُ منها صَلَفُ المُدَّعي
وحُلَّةُ الفَضلِ لها شارةٌ ... أَزْهى مِن السَّيْفَيْنِ والمِدْفَعِ
يُشْبِعُ مَنْ حَصَّلَ مِن عِلْمِهِ ... وَهْوَ مِن التحصيلِ لم يَشْبَعِ

يشبع الناس الذين يحصلون علومه التي ينشرها في المقتطف (فحتى الشاعر العراقي الزهاوي، وهو أسن من حافظ بتسع سنين، تربَّى معرفياً على يد مجلدات المقتطف في بيت والده)، لكن صروف نفسه لم يشبع من العلم. وكان من حسن طالع جيلنا أن أصدرت دولة الكويت مجلة «العربي» عام (١٩٥٨)، وكانت علمية أدبية كالمقتطف، وزادت عن المقتطف الصور الملونة الخلابة، وترأس تحريرها عالم جليل وصاحب لغة وأدب هو أحمد زكي الكيميائي المصري فجعلها مدرسة تعلم فيها جيل من الناس، وفي «العربي» قرأت أول الأسطر ومنها تعلمت، ومنها صرت لا أرى الآداب تقوم بغير العلوم المادية، وأحسب أن الزهاوي تعلم من المقتطف أن يكون أديباً وطالب علم مادي في آن معاً

قـد غَـالَـتِ الأسـقـامُ أضـلاعَـهُ   والـرأسُ فـي شُـغْـلٍ عـن الأَضْـلُـعِ

ظل تفكيره حيوياً رغم المرض

يَـقْـتَـطِـفُ الـزَّهْـرَ ويـخـتـارُهُ   كـالـنـحـلِ لا يَـعْـفُـو عـنِ الأَيْـنَـعِ

كان يقتطف في مجلته «المقتطف» الأزهار من رياض العلم والأدب، كالنحل الذي لا يعفو عن الزهرة ويتركها لأنها يانعة بل يغشاها

فـتـحـسَـبُ الـقُـرَّاءَ فـي جَـنَّـةٍ   عُـقـولُـهُـمْ فـي رَوْضِـهـا تَـرتَـعـي

صَـرُّوفُ لا تَـبـعَـدْ، فـلـسـتَ الـذي   يَـطـويـهِ طَـاوي ذلـكَ الـمَـضْـجَـعِ

لا تبعد: كلمة تقال للميت، أي لا بَعُدَ ذكرك

أَسْـكَـتَـكَ الـمـوتُ، ولـكـنَّـهُ   لـم يُـسْـكِـتِ الآثـارَ فـي الـمَـجْـمَـعِ

لم تتبدد آثارك في المجمع، المجلس، ولم يكن أنشئ مجمع اللغة العربية في مصر بعد

٧٧ نضال النساء

تحية لجمعية المرأة الجديدة، نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٢٨):

يقولونَ: نصفُ الناسِ في الشرقِ عاطِلٌ   نِساءٌ قَضَيْنَ العُمْرَ في الحُجُراتِ

وهَذي بَناتُ النيلِ يَعْمَلْنَ لِلنُّهَى   ويَغْرِسْنَ غرساً دَانِيَ الثَّمَراتِ

النهى: العقل

وفي السَّنَةِ السَّوداءِ كُنْتُنَّ قُدْوَةً   لنا حينَ سالَ الموتُ بِالمُهَجاتِ

في السنة السوداء، أثناء ثورة (١٩١٩)، بادرت النساء بالاحتجاج حين أودى الموت بمهج وقلوب الناس

وَقَفْتُنَّ في وجهِ الخَميسِ مُدَجَّجاً   وكُنْتُنَّ بالإيمانِ مُعتَصِماتِ

وقفت النسوة في وجه الخميس، الجيش، وسلاحهن الإيمان بمطالب الشعب

تعَلَّمَ مِنكُنَّ الرجالُ فأصبحوا   على غَمَراتِ الموتِ أهلَ ثَباتِ

٧٨ رثاء محمود سليمان

كان محمود سليمان من كبار ملاك الأراضي، وقد وظف والد شاعرنا مهندساً للري في ديروط، وأسكنه عوامة فيها ولد شاعرنا. نشرت في فبراير/ شباط (١٩٢٩):

قَسَّمْتَ ما جمعتْ كَفَّاكَ مِن نَشَبٍ   على بَنِيكَ فكنتَ الوالدَ الحاني

وأصبح «محمد محمود» ابن الباشا رئيساً للوزراء وكان ينعم على حافظ إبراهيم كما كان ينعم أبوه على أبيه

مالٌ حَلالٌ مُزَكَّىً ما خَلَطْتَ بِه   مِلِّيمَ سُحْتٍ ولا حَقّاً لإنسانِ

السحت: الحرام

٧٩ الواقف على الستين

تحية الشام، أنشدها في الجامعة الأميركية ببيروت، ونشرت في ٢ يونيو/حزيران (١٩٢٩):

أهلَ الشّآمِ لقد طَوَّقْتُمُ عُنقي   بِمِنَّةٍ خَرجتْ عن طَوْقِ تِبيَاني

منة: نعمة

لي مَوْطِنٌ في رُبوعِ النيلِ أُعْظِمُه   ولي هُنا في حِماكُمْ مَوطنٌ ثانِ

سَكَنْتُمُ جَنَّةً فَيْحَاءَ ليسَ بِها   عيْبٌ سِوى أنَّها في العالَمِ الفاني

يا لَيْتَني كنتُ مِن دُنيَايَ في دَعَةٍ   قلبي جَميعٌ، وأمري طَوْعَ وِجْداني

بل كان حافظ في دعة مرفهاً يقبض معاشاً محترماً من «دار الكتب»، ولكنه كان مقيداً في الوظيفة وأمره ليس طوع وجدانه، فالوظيفة المغرية حبست لسانه

أَقْضي المَصيفَ بِلُبنانٍ على شَرَفٍ   ولا أَحُولُ عنِ المَشْتى بِحُلْوانِ

ليتني وادع أقضي الصيف في لبنان على شرف، في مكان عالٍ، ولا أغير مشتاي في حلوان بمصر

تَاهَتْ بِقبرِ صَلاحِ الدِّينِ تُربَتُها   وتَاهَ أَحياؤُها تِيهاً بِمُطرانِ

تفتخر الشام بأن فيها قبر صلاح الدين، هذا عن الأموات، أما الأحياء فيفتخرون بمطران، وخليل مطران ابن زحلة بلبنان، وكانت لبنان في ذلك الزمن، ١٩٢٩، قد انفصلت سياسياً عن سوريا، ولكنها بقيت في وجدان الناس جزءاً من سوريا الكبرى

يَبني ويَهْدِمُ في الشعرِ القديمِ وفي الشِّـ   ـعرِ الحديثِ فَنِعْمَ الهادمُ الباني

إذا لَمَحْتُمْ بِشِعري وَمْضَ بَارِقَةٍ   فبعضُ إحسانِه في القولِ إحساني

شَقَقْتُ أسواقَ بَيروتٍ فما أَخَذَتْ   عينايَ في سَاحِها حَانُوتَ يُوناني

.. وليس كأسواق الإسكندرية العامرة بحوانيت اليونانيين.. وحوانيت الشوام أيضاً

فقلتُ في غِبْطَةٍ: للّهِ دَرُّهُمُ   ليس الفلاحُ لِوانٍ غيرِ يَقظَانِ

ليس الفلاح، والنجاح، لِوانٍ، لكسول مُتَوانٍ

متَى أرى الشرقَ أدنَاهُ وأبعَدَهُ   عن مَطْمَعِ الغربِ فيهِ غيرَ وَسْنانِ

وسنان: نعسان

لا فَرْقَ ما بينَ بُوذِيٍّ يَعيشُ به ومسلمٍ ويَهُودِيٍّ ونَصرانـي
إن دامَ ما نحنُ فيهِ مِنْ مُدَابَرَةٍ وفتنةٍ بينَ أجناسٍ وأدْيانِ

المدابرة: أن يعطي كل واحد صاحبه دبره أي ظهره فيخاصمه

رأيتُ رَأْيَ المعَرِّيِ حينَ أرهقَهُ ما حلَّ بِالناسِ مِنْ بَغْيٍ وعُدوانِ
لا تَطْهُرُ الأرضُ مِنْ رِجْسٍ ومِنْ دَرَنٍ حتى يُعاوِدَها نوحٌ بِطُوفانِ

تمنى المعري، وكانت لزومياته تلازم حافظاً، طوفاناً يغسل الأرض من وسخها

وَلَّى الشَّبابُ وجَازَتْني فُتُوَّتُه وهَدَّمَ السُّقْمُ بعد السُّقْم أركاني
وقد وقَفْتُ على السِّتِّينَ أسألُها أسَوَّفَتْ أم أعَدَّتْ حُرَّ أكفاني

وقفت قبيل بلوغ الستين أسألها هل سوفت أكفاني، وأجلتها، أم أعدتها وهيأتها. الحُر: من الوجه ومن المال ومن كل شيء هو حقيقته ووسطه. قد قلتُ وأنا في التاسعة والأربعين، ونشرتها في جريدة «الحال»، في شباط/ فبراير (٢٠٠٥):

«وقفت على الخمسين» حيران في أمرِي كأنيَ ناسٍ موعداً غابَ عن فكري
أَمَسُّ جبيني بالبنان، وإنني لأشْوَقُ للنسيانِ مِنِّي إلى الذِّكْرِ
بعينيَّ أرنُو للفراغِ، ولا أرى، ولو مَرَّ جمْعٌ من أماميَ لم أدرِ
وأطبقْتُ أجفاني، زَفَرْتُ تقلقَلَتْ بحلقي حُصَيَّاتٌ، وفاجَأني عُمري

كنت أعرف أنني سرقت هذه الـ «وقفت على» من أحد، ونسيت من يكون، والآن عرفت أنني سرقتها من حافظ. وقد وقفت الآن على الستين وتجاوزتها بسنة، فأنا في العمر الذي مات عليه حافظ.. وتراني كلما قال لي أحدهم «أحسن الله ختامك» أتعجب، فلم أعد أحس بمر السنين، وتركت الأمر لصاحب الأمر.. ربما سأشعر بشيء من الفراغ بعد أن أكمل هذا الكتاب ذا المجلدات الخمسة، هذا إن بقي من الوقت وقت للشعور بالفراغ

كم مِنْ قريبٍ نَأى عنِّي فأوجَعَني وكم عزيزٍ مضى قبلي فأبكاني
مَنْ كانَ يسألُ عن قومي فإنَّهُمُ وَلَّوْا سِراعاً وخَلَّوْا ذلكَ الوَاني

الواني: الضعيف

إنـي مَلِلْتُ وُقوفي كُلَّ آوِنَةٍ أبكي وأنْظِمُ أحزاناً بِأحزَانِ
إذا تصفَّحْتَ دِيواني لِتقرَأني وجدتَ شعرَ المراثي نِصفَ ديواني
أتيتُ مُسْتَشْفِياً والشوقُ يدفَعُ بي إلى رُباكُمْ وعُودي غيرُ فَيْنانِ

العود الفينان: الساق الناضر ذو الأغصان

فأَنزِلُوني مَكاناً أَسْتَجِمُّ بِه وينجَلي عن فؤادي بَرْحُ أحزاني
البرح: الأذى

وجَنِّبُوني، على شُكْرٍ، مَوائِدَكُمْ بِما حَوَتْ مِنْ أَفَاوِيهٍ وأَلوانِ
الأفاويه: التوابل

حَسْبي وحَسْبُ النُّهَى ما نِلْتُ مِنْ كَرَمٍ قد كِدْتُ أَنْسَى به أَهلي وخُلّاني

٨٠ تأبين محمد المويلحي

نشرت في أبريل/ نيسان (١٩٣٠):

دمعَةٌ مِن دموعِ عهدِ الشَّبابِ كنتُ خبَّأتُها لِيومِ المُصابِ
لَبَّتِ اليومَ يا محمدُ لَمَّا راعَني نَعْيُ أَكْتَبِ الكُتَّابِ
وكان محمد المويلحي ناثراً مشهوراً وله «حديث عيسى بن هشام» على طريقة المقامات

هَدَّأَتْ لَوعَتي وسَرَّتُ قليلاً عن فؤادي ولَطَّفَتْ بعضَ ما بي
سرَّت عن فؤادي تسريةً: خففت عنه

لو شَهِدْتُمْ محمداً وَهْوَ يُملي آيَ «عيسى» ومُعجِزاتِ الكِتابِ
كتاب «حديث عيسى بن هشام».. والتورية في آي عيسى أي معجزاته، ومعجزات القرآن التي تكمن في بلاغته

وَقفَتْ حولَهُ صُفوفُ المعاني وصُفوفُ الأَلفاظِ مِن كلِّ بابِ
لَعَلِمْتُمْ بأنَّ عهدَ ابنِ بَحْرٍ عَاوَدَ الشرقَ بعد طولِ احتِجابِ
ابن بحر: عمرو بن بحر الجاحظ

٨١ حنين للدموع

نشرت في فبراير/ شباط (١٩٣٢):

كم رَوَّحَ الدمعُ عن قلبيٍ وكم غَسَلَتْ منه السَّوابِقُ حُزناً في حَناياهُ
كان الدمع يروح عني ويخفف حزن قلبي وكانت سوابق الدمع، الدمعات التي تنزل فوراً، تغسل الحزن في حنايا قلبي، أنحائه

لم أَدْرِ ما يَدُهُ حتى تَرَشَّفَهُ فَمُ المَشيبِ على رُغمي فأَفناهُ
لم أعرف يد الدمع، نعمته، إلا بعد أن ارتشفه فم المشيب وأفناه فجفت دموعي

قالوا تَحَرَّرْتَ من قَيدِ المِلاحِ فعِشْ حُرّاً ففي الأسرِ ذلٌّ كنتَ تأباهُ

علَّلوني بأنني تخلصت من أسر الميل للحسان وتخلصت من ذل هذا القيد

فقلتُ يا ليتَه دامَتْ صَرامَتُهُ ما كان أرفقَه عندي وأَحْناهُ

لكنني أتحسر على ذلك الميل للنساء، ففيه رفق وحنوّ. لعله نادم أن طلق زوجته بعد أربعة أشهر من الزواج وبقي عزباً ربع قرن فدهمته الشيخوخة فشعر بالوحدة

بُدِّلْتُ منهُ بِقَيْدٍ لستُ أُفْلِتُهُ وكيف أُفْلِتُ قيداً صاغَهُ اللَّهُ

القيد الثاني فيه نظر. لعله الميل المتأصل في نفس حافظ للشبان! أو لعله المشيب كما يصرح البيتُ المقبل

أسرى الصبابةِ أحياءٌ وإنْ جَهَدوا أمَّا المَشيبُ ففي الأمواتِ أَسراهُ

٨٢ فاض الكيل

نشرت (١٩٣٢):

أخذتُمْ كلَّ ما تَبغُونَ مِنَّا فما هذا التَّحَكُّمُ في العبادِ؟

فليس وراءَكُمْ غيرُ التَّجَنِّي وليس أمامَنا غيرُ الجِهادِ

٨٣ تعميم الخصب

أنشدهما في حفل أقامه لطه حسين طلبته بعد فصله من الجامعة، نشر البيتان في ٧ أبريل/ نيسان (١٩٣٢):

قد أَجْدَبَتْ دارُ الحِجَا والنُّهَى بعدَكَ مِنْ آرائِكَ النَّافِعَةْ

أجدبت، وأقفرت، الجامعة التي هي دار الحجا، العقل، والنهى، العقل أيضاً، من آرائك النافعة

وأَخْصَبَتْ أَرجَاءُ مِصرَ بِمَنْ صَيَّرَ مِصراً كلَّها جَامِعَةْ

٨٤ حكومة صدقي

من قصيدة في شؤون مصر السياسية، قالها في عهد وزارة إسماعيل صدقي، بعد إحالته إلى التقاعد (١٩٣٢)، وقيل إنها بلغت مئتي بيت، وعثر من هذه الأبيات على قليل، منه هذا الأقل:

قد مَرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ وابنُ الكِنَانَةِ في حِماهُ يُضامُ

لم يبقَ فينا مَن يُمَنِّي نفسَهُ بِوِدادِكُمْ فَوِدَادُكُمْ أَحلامُ

أَمِنَ السياسةِ والمروءةِ أَنَّنا نَشقَى بِكُمْ في أرضِنا ونُضَامُ؟
إنَّا جَمعْنا للجهادِ صفوفَنا سنموتُ، أو نحيا ونحن كِرامُ
أَشكُو إلى قَصْرِ الدُّبَارَةِ ما جَنى صِدقيٍ الوزيرُ وما جَبَى عَلَّامُ

قصر الدوبارة: مقر المعتمد البريطاني، وصدقي: رئيس الوزراء إسماعيل صدقي، وعلام: محمد علام وزير الزراعة

ودعا عليكَ اللَّهُ في مِحرابِه الشيخُ والقِسِّيسُ والحاخامُ

هذه لإسماعيل صدقي

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

معروف الرصافي
(١٨٧٥م ـ ١٩٤٥م)

نامت جارتي الهندية، فهذا حين أقعد إلى حاسوبي لأكتب شيئاً.

أُنصت وأُصيخ السمع.

نامت.

فجارتي ـ ولا أعرف لها وجهاً، ولا صادف أن التقينا في الردهة أو في المصعد ـ لا تسكت ساعة من ساعات النهار أو المساء، فإذا ساد الصمت فلا بد أنها نامت.

بقي أن أدعو الله ألا يُهيب بي ذلك الدافع الخفي فأهب من جلستي، غير هائب ولا وجل، لكي أصقل الغرفة. ولا بأس أن أقول لمن يقرأ هذا إنني أسكن منذ سنة وشهر في غرفة ملساء. أكثر ما أعجبني فيها وقت اكتريتها أنها ذات بلاط أملس، بخلاف شقة قديمة كنت أسكنها وكان بلاطها خشناً. وفي غرفتي الصغيرة تحتل معدات التنظيف مساحة يمكن تقديرها بنسبة مئوية لا بأس بها. ويطيب لي أن أمسح الغرفة بالممسحة مرتين أو ثلاثاً في اليوم، ليس لكي أرى مقدار ما تساقط من شعر جسمي في الزمن الذي انقضى بين المسحة والمسحة، ولكن كي أحس أنني أعيش في بانيو.

يا إلهي! عادت إلى الكلام. بيني وبين جارتي جدار صفيق، جدار أسمنتي حقيقي، ولكن صوت جارتي الهندية يخترق جدار الصوت. أسمعها دائماً وحدها، يبدو أن زوجها مخلوق أنيس لا يلاسنها، أو أنه يكتفي بهمهمة خفيفة.

يحسن بي أن أقوم ببعض التلميع عساها تنام.

نامت جارتي لا شك. وأنا الآن أجلس وتحتي شبه بحيرة، فالبلاط الأملس لا يجف بسرعة. ولا قومة لي لساعة أو ساعتين حتى يجف. الآن أشعر حقاً أنني أعيش في بانيو. وهذا جد ملائم للكتابة عن شاعر. فأنا إذ أكتب عن شاعر أحب ألا أعيش في بيئتي بل في بيئته. أحب أن أخرج من زماني ومكاني، وأنتقل إلى زمانه ومكانه.

لم يكن معروف الرصافي يعيش في المكان. فقد اهتزت الأرض من تحته طفلاً، وظلت تهتز. فإن ثبتت هزها.

كان سومرست موم الأديب البريطاني كذلك. كان مكانه الذي فيه يعيش ثروته الطائلة. في الأربعينات من القرن العشرين، كانت له سفرة في شرق آسيا، وحمل في حقيبته مئة ألف دولار أميركي. استهوتني الفكرة، فقلت لنفسي يجب أن أجمع مالاً كثيراً كي أقضي سنوات الشيخوخة عائشاً في ثروتي. وسألني صحفي يوماً عن أمنيتي، فقلت له: أن أجمع مليون دولار. وتردد صدى هذا التصريح، وظل الأصدقاء يسألونني: هل اكتمل لك المليون؟ الجواب: لا. بل ها قد دخلت في الشيخوخة، وإني لأرى أحياناً بجانبي ورقة، فأنظر ذات اليمين وذات الشمال، فإذا وجدت نفسي وحيداً استللت قلمي وبدأت أحسب القروش التي وفرتها. كذا يفعل كل من أوشك على التقاعد. وخير رزق للشيخ بعد أن تصد عنه الوظائف التوفير والتدنيق.

سنة، وأكون قد تخلصت من هذه السلسلة التي أحدثك فيها عن الشعراء وأسمعك شعرهم. سنة، ويأتي الزمن الشيخوخي الذي يحس فيه الإنسان بأنه يملك الكثير من الوقت، وهو في الحقيقة لا يملك منه سوى القليل. سنة، وتبدأ مرحلة جديدة تصبح فيها أحلام اليقظة صعبة. ربما لهذا السبب يقبل المسنون على الدين إقبالاً ملحوظاً، فعندما تنتهي أحلام يقظتهم ينتبهون إلى أن هناك حلماً خالداً ويركزون اهتمامهم فيه.

على أنني الآن قاعد في البانيو، وتحتي ما زال البلاط يلمع، ولمَّا تجفَّ البحيرة. ولا حيلة لي في القيام. إن جاءتني فكرة حسنة فها أنذا أكتبها، وإن لم تجئ فعلى القارئ أن يحتمل كل ثرثرتي، فلا قومة لي حتى تجف بحيرتي.

جف الماء.. ليس ماء بحيرتي بل ماء حلقي. فقد عادت جارتي إلى

الكلام، ليس صراخاً هذه المرة بل كلام هادئ. ومع ذلك أقسم لو أنني أعرف لغتها لفهمت كل كلمة من كلامها، ففي صوتها خاصية غريبة هي الاستواء. إنه لا يصعد ويهبط مثل أصوات البشر، بل يظل على وتيرة واحدة، هادئاً كان أم صارخاً. وهو الآن ليس بصارخ، لكنه عالٍ، ومتواصل.

وعلى صوتها الهادئ، وكلامها الذي لا أفهمه، يمكنني أن أركز ذهني في حياة معروف الرصافي المضطربة. فإن لم أحسن التركيز فلا بأس.. فحياته كانت مضطربة.

هذا رجل بغدادي. والواقع أنه طفل بغدادي لا رجل. فعلى غير ما عودتك سوف أبدأ من شاعرنا منذ الولادة وأصعد درجة درجة حتى أوسده حفرته.

معروف الرصافي

ولدته أم عربية، في بيت أبيها جاسم، وربته عربياً. فقد كان أبوه الكردي عبد الغني محمود، العريف في الجيش العثماني، ثم شرطي الجندرمة، غائباً معظم الوقت، ثم مات ومعروف في نحو السابعة من العمر، فإن رأيته يذرف الدموع في أكثر من قصيدة على اليتيم فاعلم أنه يستقي من بئر حديقته.

كانت فاطمة بنت جاسم تعتني بولدها وترسله مع شطيرته إلى الكتاب كل يوم. ثم أخذ معروف يتردد على «المدارس الدينية»، لا أدري طبيعة هذه المدارس، ولا الجهة التي كانت تنفق عليها، وأنا أنقل لك بعض المعلومات من نجدة فتحي صفوة في كتابه عن الشاعر ضمن سلسلة «الأعمال المجهولة»، والكتاب طيب وذو أسلوب قويم، رغم أنه المؤلف فيما بدا لي لم يدقق النص بعد أن دفعه إلى المطبعة.

بعد ذلك التصق الرصافي بأستاذ كبير هو الشيخ محمود شكري الآلوسي اثنتي عشرة سنة لا يفارقه. والآلوسي بحر زاخر في علوم اللغة والأدب القديم وعلوم الدين على مذهب أهل السنة. فمن نظر في كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» عرف أن الرصافي عبّ من البحر.

لقَّب الآلوسي تلميذه النابه «الرصافي» مستذكراً معروف الكرخي الصوفي الزاهد، والرصافة جانب بغداد الشرقي المقابل للكرخ، وكان التلميذ يتدرب على الشعر بمدح أستاذه.

عمل الرصافي في التدريس، وظل ينظم، وأخذ ينشر أشعاره في مجلات مصر وسورية وهو بعد فتى، فظن الناس أن «الرصافي» اسم يستخفي وراءه شاعر كبير لا يريد أن يتأذى بما في قصائده من صراحة. ومع إعلان الدستور العثماني ١٩٠٨، ثم خلع السلطان عبد الحميد في السنة التالية، كان الرصافي في الثالثة والثلاثين من العمر، معلماً واعياً لما تحدثه التغيرات في إستانبول على أحوال العراق. وقد نشط في تأييد ضباط جماعة «الاتحاد والترقّي» الذين أرغموا السلطان على الدستور، فانقلب عليهم، فعزلوه. وكان لجماعة الاتحاد والترقي في بغداد حضور، وأصدروا صحيفة بالعربية والتركية، وتولى الرصافي تحرير نسختها العربية.

برزت في ذلك الحين الأفكار العلمانية للرصافي. كأن صاحبنا بعد أن أخذ عن أستاذه الكبير علمه الغزير باللغة والأدب خالفه في تمسكه القوي بالدين على المنهج السلفي القريب من الوهابية.

استدعى القطب الصحافي في إستانبول «أحمد جودت» الرصافي ليحرر جريدة في عاصمة الدولة، فذهب الرصافي، ليجد أن المشروع قد ولد ميتاً.

توجه الرصافي إلى بيروت حيث احتفت به الأوساط الأدبية، وطبع له هناك، عام ١٩١٠، ديوان بوبه وقدم له اثنان من كبار أهل الأدب (محيي الدين الخياط، ومصطفى الغلاييني)، وفي هذا ما يدلك على أن أهل الأدب واللغة في ذلك الزمن عرفوا قيمة الرصافي الأدبية وعمق معرفته باللغة وأساليبها، وهو بعد في الخامسة والثلاثين من العمر. ثم عاد الرصافي إلى بغداد.

واستدعي الرصافي ثانية إلى إستانبول لتحرير صحيفة «سبيل الرشاد»، فذهب. وخلع في إستانبول الجبة والعمامة وتزوج امرأة تركية. وأخذ يدرِّس الواعظين، وكان طلعت باشا أحد كبار رجال الاتحاد والترقي يدرس العربية على يديه، ويقول «شيخي معروف الرصافي».

وعلى يدي طلعت دخل الرصافي مجلس المبعوثان نائباً في عام ١٩١٢، و«زامل في ذلك المجلس نائباً شاباً من الحجاز اسمه الشريف فيصل ولم يكن يخطر لأي منهما في ذلك الوقت ببال أن هذا الشاب الحجازي سيتوج بعد أقل من عشر سنوات ملكاً على العراق، وأن الرصافي سيصبح من أشد مناوئيه»، اهـ عن نجدة فتحي صفوة.

بقي الرصافي في النيابة أزيد من أربع سنين مؤيداً للدولة العثمانية في حربها ضد نصف العالم، الحرب العالمية الأولى. كان على بعض اتصال مع الجمعيات العربية التي تتطلع إلى نيل العرب حقوقهم، ثم صارت تتطلع ـ بعد أن بدا واضحاً أن الدولة العثمانية آيلة للتفكك ـ إلى نيل بلاد العرب الاستقلال، وكان الرصافي ينتقد هذا التحرك. قد ظل الرصافي عثماني الهوى.

وعندما قام شريف مكة، الشريف حسين، بالتحرك ضد الدولة العثمانية بدعم بريطاني رماه الرصافي بخيانة الدولة العثمانية الإسلامية وممالأة أعدائها. وبدأت أعراض الهزيمة تظهر بوضوح متسارع على الدولة العثمانية وحليفتيها ألمانيا والنمسا في الحرب العالمية الأولى، وظل الرصافي عثمانياً.

توجع الرصافي عندما سقطت بغداد بيد الإنجليز عام ١٩١٧، وظل في إستانبول حتى انتهت الحرب في عام ١٩١٨. ودخلت تركيا نفسها مع انتهاء الحرب في أتون حروب داخلية ستنتهي بقيام الدولة التركية الحديثة على يد مصطفى كمال أتاتورك.

غادر الرصافي إستانبول إلى دمشق، حيث كان الأمير فيصل يهيء نفسه لتسلم العرش بدعم بريطاني، ولأن موقف الرصافي من الإنجليز معروف فقد تعذر عليه أن يمكث في دمشق، فتوسط له محمد كرد علي في وظيفة بالقدس.

مكث الرصافي في القدس عامين سعيدين احتفى فيهما به أدباء فلسطين. كان معلماً في مدرسة المطران. لا ندري إن كان الرصافي قد عرف قبل مقدمه أن هذه المدرسة إنما أنشأها المبشرون الأنجليكان الإنجليز قبل عشرين سنة من مقدمه، وظلوا يديرونها حتى يومنا هذا. على أن الأنجليكان، بخلاف كل الطوائف، يتسمون بسماحة لم يتسم بها الحكم الإنجليزي الذي كان قد وطد لنفسه في فلسطين قبل قدوم شاعرنا. لقد دخل الجنرال إدموند ألنبي القدس في أواخر عام ١٩١٧ راجلاً احتراماً للمدينة المقدسة، ولكن وزير خارجيته في لندن آرثر بلفور، صاحب الاعتقاد بالشعوذة والرئيس السابق لجمعية غيبية لا تؤمن بأن الإنسان يموت، كان قد أصدر الوعد المعروف باسمه لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين قبل شهر وتسعة أيام من احتلال الإنجليز للقدس.

عاش الرصافي في القدس مع إخوته من الفلسطينيين وجلهم كان غافلاً عما يدبر للبلد رغم الإشارات الواضحة.

وبعد هذين العامين السعيدين استدعت بغداد ابنها. لقد بدأ زعماء العراق يحشدون قواهم تحت شعار «العراق للعراقيين». ذلك أن فيصلاً طرد من دمشق شر طردة بعد أن أخلاها الإنجليز للفرنسيين ودخلها الجنرال غورو دخولاً وقحاً وهو يبشر نفسه بأنه قد بلغ بالحروب الصليبية نهايتها بانتصار الغرب. وبدأ الإنجليز يرتبون لفيصل كي يتسنم عرش العراق.

استدعى زعماء بغداد الرصافي المعادي للإنجليز كي يحرر جريدة لهم تدعم مطلبهم.

لكن الإنجليز شقوا صف الزعماء العراقيين وتوجوا فيصل ملكاً على العراق. وصل فيصل في صيف ١٩٢١، واستقبله الرصافي بقصيدة قدح ثم بقصيدة مدح. لكن فيصلاً زوى وجهه عن زميله القديم في المبعوثان. واستعطفه الرصافي برسالة بعد سنة. ولم يقبل عليه فيصل بوجهه. فأخذ شاعرنا يبث في الناس أهاجيه في فيصل.

سافر الرصافي إلى إستانبول، وكان قد طلق زوجته التركية قبل رحيله في نهاية الحرب، ورأى أن ما كانت عليه إستانبول وهي عاصمة الإمبراطورية تغير كثيراً. فلم تعد عاصمة دولة نصف أهلها عرب، بل كبرى مدن تركيا وحسب. وبسرعة مضى الرصافي إلى بيروت يريد أن يقيم بها. لكنه عدم في بيروت مورداً للرزق مع أنه اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، فعاد إلى العراق وشارك في انتخابات المجلس التأسيسي ١٩٢٤، ولم ينجح. لا، ولم يقربه فيصل الذي بلغته أبيات الرصافي في هجائه.

عمل الرصافي في تدريس اللغة العربية موظفاً في المعارف. وأخذ يمدح الملك ورجال الحكم ويهجوهم طامعاً في منصب كبير. كان فيصل رجلاً حكيماً عاقلاً، وكان الرصافي شاعراً قلقاً.. فعاش الملك مغضياً ومحتملاً ما تجود به قريحة الشاعر، وعاش الشاعر آمناً ومقصىً عن رفيع المناصب.

لكن الله أرسل للرصافي رجلاً رقيق القلب وصاحب سياسة هو رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون. أقنع السعدون الملك بأن يسمح للرصافي بالترشح لمجلس النواب. وانتخب الرصافي نائباً في عام ١٩٢٨. ومرت سنة وانتحر رئيس الوزراء السعدون، في الأغلب لأنه شعر أن المطلوب منه أن يكون لعبة ثانية بيد الإنجليز، حيث اللعبة الأولى فيصل نفسه.

بقي الرصافي في مجلس النواب أربع سنين، ثم ضاق رزقه فارتحل إلى الفلوجة على بعد ثمانين كيلومتراً من بغداد، وعاش في بيت أفرده له بعض من يقدر أدبه. ومات فيصل عام ١٩٣٣، ورثاه الرصافي. وعاد الرصافي إلى مجلس النواب عام ١٩٣٥ وظل فيه أربع سنين أخرى.

في الفلوجة، حيث مكث الرصافي سبع سنين، كتب كثيراً من النثر. فيها كتب «الشخصية المحمدية» الذي سنتحدث عنه بعد أن نوصل الرصافي بأمان إلى حفرة قبره.

عاد الرصافي إلى بغداد مع قيام انقلاب رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١. كان حكام البلد الإنجليز يخوضون حربهم العالمية الثانية، ولم يكونوا في مزاج يسمح لهم بقبول انقلاب مدعوم من هتلر. فقمعوا الانقلاب الذي أيده الرصافي بكل قوة.

كان الرصافي يعيش في بغداد في دار مستأجرة مع خادمه عبد بن صالح وأولاد الخادم الكثر. فتح الرصافي دكاناً لبيع السجائر، وتوسط له أهل الخير لكي يأخذ حصة من سجائر «غازي» من الشركة ليبيعها. ونظم شاعرنا بيتاً، ربما رشحناه ليكون أسخف بيت شعر عربي، في الدعاية لسجائره: دخِّن سيجارة غازي/ واشعُرْ بفخر اعتزاز. ونشر البيت في دعايات السيجارة المذكورة في صحف بغداد. ولكن هذا لم يشفع للدكان المنحوس فسرعان ما أغلق أبوابه.. إن كان له أكثر من باب. وقال شاعرنا: «والله لو حاولت بيع الأكفان لما استأثرتْ يد الرحمن بنفس من الأنفس».

خصص مظهر الشاوي، أحد شيوخ القبائل، مرتباً للرصافي. وشاعرنا صاحب مزاج، وهو سخي متلاف. يصف لنا أحمد حسن الزيات زيارته للرصافي في بيته ببغداد.. وسأنقل لكم وصفه.

العودة عصر اليوم التالي

قد مضى ذلك المساء الذي كتبت فيه الصفحات السابقة.. والآن أكتب في عصر اليوم التالي.. فاسمعوا الآن معي ما أسمعه من خلال الجدار الأسمنتي في غرفتي! كاكا آآع.. ددي ننيكاب أوز دوب. هل فهمتم شيئاً؟ لحظة.. سورات! ماذا؟ هنا بدأت الأحرف تتوالى على نحو يصعب معه تدوينها. إن كنت تفهم لغة هذه الآدمية فأنت بحول الله قد عرفت عن جيراني ما لا أعرف. همنا هاما دي! ما معنى هذا لو سمحت؟

وأسمع بوضوح شديد: تيكا ماسالا، كاري كاري. والصوت غير الصوت. هذا في الواقع صوت بطني. فقد أخذ يتجاوب مع جارتي الهندية تحت وقع الجوع بكلمات حبيبة إلى قلبي. وكيف لا تكون حبيبة وهذه الخلطة من البهارات الهندية كافية للقضاء على كل نكهة. أُطبخ بها نعل جدك العتيق على نار هادئة وستجد له مذاقاً رائعاً. . مذاق المسالا طبعاً. لا أدري ماذا يقدمون لنا في المطاعم الهندية الرخيصة. . تأكل وتملأ بطنك وتدفع أقل مما تدفعه في شطيرة جبن.

سأقوم إلى إعداد غدائي الآن، فمنذ الصباح لم أتناول شيئاً. وعندي سمكة. ليست كالسمكة التي نصحني بها صديقي في لندن.

جلد السمك

كان الشاعر العراقي صلاح نيازي يقف أمامي في طابور مطعم الإذاعة البريطانية يسوق صينيته على السكة وأسوق صينيتي خلفه، والتفت إليَّ ووجهه مشرق بالفرح: «عيني شوف. سمك. سمك، سمك، وبجلده. عيني! لا تطرح جلد السمكة جانباً. أرجوك، أرجوك». وتغضن وجهه وكأنه يلقي قصيدة حزينة. «لا، لا. كل الفائدة في جلد السمكة. يود! مليء باليود. يصعد إلى قشرة الدماغ فوراً، وكُلِّشْ مفيد للذاكرة».

لا أذكر إن كنت عملت بنصيحته أم لم أعمل. لكنني من يومها وأنا أغمض عيني كلما قدمت إلي سمكة بجلدها، وأبلع قطعة من هذا الجلد بلعاً، وها هي ذاكرتي تسبِّح بحمد ربها. سلني عن أي شاعر أكتب الآن؟

غدائي سمكة منزوعة القشر والشوك معاً. لا أريد يوداً، ولا أريد أن أخوض لعبة البحث عن الشوك. عندي نصف سمكة منزوعة الفائدة، وسأشحنها شحناً بالكاري والمسالا، وأعود إلى شاعرنا. كائناً من كان شاعرنا. وليكن في علمك أنني عندما أملأ بطني أكتب كتابة مملة مشحونة بالثرثرة. تماماً مثلما أفعل الآن وأنا أتضور جوعاً.

العودة إلى الرصافي

اللهم أَدِم النعمة، واحفظها من الزوال.

كنا نقول إن الرصافي قعد في سنينه الأخيرة في بغداد تحت حكم الإنجليز

الذين كرههم وكرهوه. ولكنه عرف دهاءهم. ورأى كيف تتحرك السياسة العراقية في زمنهم، فكان كمن يشهد مسرح العرائس. . يرى العرائس ولا يرى الأصابع الخفية التي تحركها.

استطراد عن الإنجليز

الإنجليزي مخلوق من مخلوقات الله، يمكن أن يكون ذكياً ويمكن أن يكون بغلاً. ولكن ستين مليون بغلٍ يسيرون في اتجاه واحد يحركون الجبال، وثلاثمئة مليون عربي ـ كل واحد منهم، زعيم، أو فقيه، أو ولي من أولياء الله، له قول في خالق الكون وفي فوائد جلد السمك ـ يسير كل منهم في اتجاه مختلف يتحركون فقط حركة موضعية، كان يسميها معلم التربية البدنية «مكانك سر».

قبل أزيد من ربع قرن خاطبني زميل إنجليزي يشتغل في الراديو القومي الثالث، المتخصص في الموسيقى، وقال لي: قد نصحوني بك لهذا البرنامج الذي نريد إنتاجه في لبنان. اسم البرنامج «نجوم فوق لبنان» وهذه ترجمة حرفية لـ «ستارز أوفر لبنون». هل رأيت كلمة لبنان وهي مكتوبة باللفظ الإنجليزي؟ في الواقع أهل ذلك البلد الشقيق ينطقونها لبنين. ولكنهم إذا استمروا في إهمال اللغة العربية قد يقولونها ليبون، أو أي شيء آخر.

المهم، مضينا إلى لبنان. وذهبنا إلى الحازمية ورأينا وديع الصافي. قال لي: من وين حضرتك؟ قلت له: فلسطيني. قال لي كلمة واحدة: معلش. وكان لقاء طريفاً. أطرف ما فيه أن وديع الصافي لا يتحدث كلمة إنجليزية واحدة. فترك لي صاحبي الإنجليزي، وهو مخرج البرنامج وأنا المقدِّم، المجال لكي أسرح مع وديع الصافي في ذكريات أيام زمان مع صباح وفيروز، وبعلبك.

ثم ذهبنا إلى عجلتون لنرى فادية الحاج، وبعد السؤال الأول بدأت توجه كلامها للإنجليزي لا إليّ. ومثلها فعل وليد غلمية الذي قابلناه في معهد الموسيقى في سن الفيل. ما الذي يميز هذا الإنجليزي عني؟ أهو فهمه للموسيقى والغناء في لبنان؟ بالطبع لا. ولا هو عمره، فربما كان يصغرني ببضع سنوات. ولا حتى لغته الإنجليزية، فقد كنت أتكلم مع النجوم بالعربية أو بإنجليزية مبسطة كي أستل منهم بعض العبارات الإنجليزية، لأن البرنامج سيكون لجمهور إنجليزي.

عقدة الأجنبي متمكنة منا.

عند الرحابنة في أنطلياس

ذهبنا إلى أنطلياس والتقينا منصور الرحباني. كان قد دخل في مرحلة العزوف الشيخوخي، وبدأ يحدثني ـ وبحمد الله أنه لم يكن يحسن شيئاً من الإنجليزية ـ عن العلاقات المميزة بين المسلمين والمسيحيين. ولم يكن هذا الأمر مما يعنيني، لا في ذلك اللقاء ولا في أي لقاء آخر في حياتي كلها. فهؤلاء القوم في لبنان يتبادلون القبلات اليوم ويسحبون خناجرهم غداً، وكلهم يقتتلون: طائفياً يقتتلون، وعشائرياً يقتتلون. فإذا لم يكن ثمة تهديد من طائفة أخرى فإن أبناء الطائفة الواحدة يتسلون فيما بينهم بحرب أهلية صغيرة.

وخرجنا من عند منصور الرحباني. وفي الشارع أمام البيت وقفت كي ألقي في آلة التسجيل كلاماً يكون بمثابة المقدمة للقاء. لاحظت لون الشبابيك، إنه أحمر أحمر.. في حمرة الدم. وأعادني هذا، ليس إلى الدم الذي سفحه أشقاؤنا في حربهم الأهلية الأخيرة، بل إلى هذا الوضوح الطفولي في أغاني الرحابنة. كانت الدنيا في العالم الرحباني بسيطة وملونة بألوان أساسية. كان أغرب لون عندهم اسم مغنيتهم «فيروز»، وبخلافه فليس عندهم تلك الألوان المختلطة: الخمري والبطيخي والتركواز، بل اكتفوا بالأحمر والأصفر والأخضر والأزرق بأبسط صورة. قلت أشياء من هذا القبيل.

وسقط في يد صاحبي الإنجليزي. وبدأ يحاججني في إشارتي إلى اللون الأحمر. قلت له: أحاجيك أن تجد لي في بيروت كلها شبابيك بهذا اللون. هذا لون اختاره ناس صنعوا عالماً في الهواء، صنعوا دنيا أحلامية. هؤلاء ارتفعوا عن واقع بلدهم بما يكفي ليقولوا في كلامهم وموسيقاهم أشياء تصلح لكل زمان ومكان. لقد صنع الرحابنة في نحو سبع عشرة مسرحية عالماً من الخيال، فيه الحب والسياسة، وفيه المرح والنكتة، وفيه أجمل الشعر وأجمل الموسيقى. وحري بالمثقف العربي أن يربأ بنفسه عما تفعله إذاعات الإف إم من إعمال السكين في هذه المسرحيات، واستخراج الأغاني منها، وإلقاء الحوار في سلة المهملات. حري بالمثقف العربي أن يعود إلى هذه المسرحيات فيسمعها كاملة لكي يدخل في هذا العالم الرحباني، ويتذوق الفن على درجة تذوقية أرفع من درجة التذوق البسيطة بالأغنية وحدها منزوعة من المسرحية.

مكثت على حالي تلك مع مخرجي الإنجليزي أسبوعاً ذقت فيه مرارة عقدة الخواجا عند كبار أهل الفن، ومرارة ضيق الأفق عند هذا الرجل. وعدنا إلى لندن، وسجلت المزيد من الوصلات والمقدمات. وكان من محاسن شخصية صاحبي أنه منظم غاية التنظيم فجمع البرنامج من القصاصات الصوتية الكثيرة، وصاغه في أحسن صورة في ثلاث حلقات.

عودة ثانية إلى الرصافي

لا تنتظر من الرصافي أن يكون خانعاً للإنجليز، فهو حر، وفي شخصيته خليط من القسوة والرقة والجلافة وطيبة القلب. ولا تنتظر منه أن يكون مفكراً رصيناً لما في شخصيته من تقلب وحدة مزاج. وربما أيضاً لأنه شاعر، وربما أيضاً لأنه كف عن المطالعة في سن مبكرة مكتفياً بما تعلمه من أستاذه الآلوسي. وشر ما تعلمه الرصافي التعصب الطائفي. وهو في كتبه «السياسة في العراق»، و«الشخصية المحمدية» متحامل على الشيعة تحامل من هو واثق من أنه على حق. لكنك تراه يتعامل مع أبناء بلده من الشيعة بأريحية وطيب نفس. كان في حياته وفي أفكاره التي ستراها واضحة كل الوضوح في شعره علمانياً بعيداً عن الدين. وترك لنا مصداق ذلك في كتابه الكبير «الشخصية المحمدية».

سمعت عن الكتاب من زكي مبارك.

فقد زار الأديب المصري الشاعر الرصافي وهو في الفلوجة، وقد أنهى لتوه كتاب «الشخصية المحمدية». وجاء الرصافي لزكي مبارك بمخطوط الكتاب، اسمع زكي مبارك: «ألح عليَّ الشاعر في أن ألقي نظرة على ذلك الكتاب، وهو مخطوط في عشرة كراريس، وكنت قضيت ساعة في هدوء. فلما وقع بصري على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة، وانطلقت أجادله بلا ترفق ولا تلطف. وقابل الشاعر ثورتي بأدب رائع دلني على أنه من أقطاب العقل [...] والرصافي، مؤلفاً، غير معروف، لكن كتابه عن النبي محمد كتاب هائل جداً، وترجع أهميته إلى ما فيه من نقد الأخبار والأحاديث، وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الكتاب، وهذا هو الشاهد على أن أسلافنا كانوا أوسع صدراً وأعلى مقاماً»، اهـ عن «وحي بغداد» لزكي مبارك.

قرأت هذه الفقرة عند زكي مبارك، وقلت في نفسي لعل كتاب الرصافي ضاع. وقرأت في مكان آخر ما يدل على أن نسخة منه محفوظة في بغداد. ثم

فجأة جاءني من يقول إن الكتاب قد طبع في ألمانيا. كنت أوشك على سفر إلى هناك، بل إلى المدينة نفسها التي زعم الزاعم أن الكتاب طبع بها.

لم أعثر على الناشر في مكتبه. ولكن صديقاً أهدى إليَّ نسخته. فإذا هو كتاب كبير حقاً، يتجاوز السبعمئة صفحة. وقد عهدت الرصافي الناثر يكتب الفقر القصيرة والكتب الصغيرة ككتابه عن السياسة في العراق.

جعلت كتاب «الشخصية المحمدية» زادي في أسبوع قضيته في لندن وآخر في أمستردام. ويا له من كتاب! ولكثرة ما فيه من جحد الغيبيات، والتشكيك في أحداث ظل الناس يروونها وكأنهم رأوها بأعينهم، ولكثرة ما فيه من نقد للدين بسن الرمح لا بسن القلم، لم يعد أحد قادراً على حجبه عن النت. فنسخته المصورة موجودة في كل مكان. والممنوع مرغوب. ولا أجادل الرجل في كلامه، وحتى عندما أُورد له من الشعر بعض ما يشبه ما جاء في نثره فإنني إن ناقشته في مسألة لغوية فلا أناقشه في أفكاره.

لم يتزوج الرصافي بعد امرأته التركية. وعاش الثلاثين سنة الأخيرة من حياته عيشة بوهيمية، حتى وهو نائب في مجلس النواب. زاره الأديب المصري أحمد حسن الزيات، صاحب «الرسالة»، في بيته في بغداد بعد عودته من الفلوجة. وكتب عن هذه الزيارة عقب وفاة الرصافي: «... ودخلنا البيت فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف، لا أثاث ولا نظام ولا حرمة... وليس في البيت مكتب ولا مكتبة، فقد كان لا يقرأ، وإنما يتكئ على شدة ذكائه وحدة فهمه، ويكتفي بما حصل في شبابه من أدبه وعلمه. وكان في الردهة قوم يأكلون ويشربون، وفي حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون، وكان الرصافي يتصدر هؤلاء وفي يمناه كأس وفي يسراه ورق [اللعب]، فلما رآني فض اللعب وأقبل بأنسه علي، ثم أخذ يشرب ويتحدث عن الحقائق العارية في غير اكتراث ولا تحفظ، ويظلم الرصافي من يقيد عليه في مثل هذه الحال... هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم، أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس».

ويصف الشاعر محمد مهدي الجواهري الرصافي وهو في آخر أيامه: «... في تلك الغرفة الجرداء التي لا أنساها أبداً، وكأنما أنا فيها الآن، كان الرصافي على سرير من السرر الرخيصة... وقد أحس بي وأنا أدب على أطراف أصابعي لئلا أوقظه... وكانت الحيرة في أين أجلس إذ ليس في الغرفة

كرسي أو خشبة أو حتى حجر للجلوس، ويتحامل الرصافي على نفسه فأُلح عليه ملتمساً ألا يفعل، فيأبى وأطيع، فأتحدث إليه آخر حديث وأوجعه قبل أن يموت بأيام».

وكتب الرصافي وصيته وأودعها لدى محام صديق، وعند وفاته قرأها على الحاضرين صديقه وراويته مصطفى علي. أوصى الرصافي بكل ما يملك، وبحقوق مؤلفاته لأسرة خادمه عبد بن صالح. وأوصى أن يدفن في أي مقبرة كانت، «على أن يكون قبري في طرف منها، وأن يكون في أرض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلاً». والتوقيع: «المؤمن بالله وحده لا شريك له معروف الرصافي».

أحسن إلى الرصافي كل الإحسان راويته مصطفى علي، وهو لغوي مدقق وأديب، بنشر ديوان الشاعر نشراً محترماً في خمسة أجزاء. وعلى هذه الطبعة اعتمدنا. ومصطفى علي في هذه المجلدات الخمسة يروي وينقب لك عن المعنى القاموسي مع ضبط طيب للكلمة في الهامش ببيان بابها الصرفي، لكنه لا يشرح معنىً دقيقاً ولا يشفي غليل من أراد أن يعرف مناسبة القصيدة أو تاريخ نظمها.. فهو يورد من ذلك الشيء بعد الشيء. وقد أخذنا عنه تواريخ بعض القصائد، ولم نبحث كثيراً عند غيره.

الرصافي شاعر مهمل، يكتب قصيدته على ظهر مغلف أو علبة سجائر.. أو هكذا أتخيله. يكتبها قبل الحفل الذي سيلقيها فيه بيوم أو بساعتين. وقد تأتي قافيته قلقة، أو قد يحشو البيت بحشوة منكرة. وقد نقتبس له في القطعة بعد القطعة بيتاً من هذه الأبيات المتعَبة لأنه يقيم لنا السياق. لا عليك من ذلك. الرصافي كان لسان زمنه وبلده، وكان جريئاً، وكان صاحب موقف، وكان يحسن أن يقول بين الحين والحين بيتاً رناناً يردده الناس في العراق. وخير لك أن تتحرى مزاج العراق عصرئذ في شعره من أن تقرأ كتب التاريخ. وقالوا: خياله ضيق. وأقر هو بذلك في أكثر من قصيدة، وافتخر بواقعيته.

كنا ونحن نقرأ ديوانه نشعر كأن الرصافي واقف أمامنا يلقي هذه القصائد، وهذا شيء جميل. لكنك قد لا تريد أن تقرأ الألف والسبعمئة صفحة التي هي الديوان. حسناً فهذه خمسون صفحة فقط هي أجمل ما قال معروف الرصافي.

١ الضمير لثاماً

(١٩٢٢):

وَلَرُبَّ خافِيَةٍ يُكَتِّمُها الفَتى   والوجهُ منهُ بِسِرِّها يتكلَّمُ
كلٌّ يُشيرُ إلى السَّريرَةِ وجهُهُ   فكأنَّه بِضميرِهِ مُتَلَثِّمُ

السريرة: الضمير وما يخفيه المرء، والمرء لا يستطيع أن يخفي مكنونه فكأنه يضعه على وجهه كما يضع الكوفية

إنَّ الوجوهَ صَحائِفٌ مَطمُوسَةٌ   يَمحُو كِتابَتَها ويُثْبِتُها الدَّمُ

الدم الذي يتدفق إلى الوجه كأنه الحبر الذي يكتب في الوجه ما يخفيه الضمير. . فالوجه يحمر أو يصفر بما يتدفق أو لا يتدفق من دم

إنِّي أرى هذي الوُجوهَ نَواطِقاً   بالسِّرِّ لكنْ نُطْقُهُنَّ مُجَمْجَمُ

مجمجم: مغمغم، غير واضح، مثل نطق الإنجليز عندما يتحدثون باليابانية، أو العكس

٢ المرأة بين الأب والزوج

ما أَهْوَنَ الأُنثى على ذُكرانِنا   فلقد شَجانِيَ ذُلُّها وخُضوعُها
ضَعُفَتْ فَحُجَّتُها البكاءُ لِخَصْمِها   فسلاحُها عند الدفاعِ دُموعُها
هِيَ مُتْعَةُ المستمتِعينَ، ولَيْتَها   كانتْ لِزاماً لا يجوزُ مَبيعُها

بيع اللزوم في الفقه: الذي لا يجوز للمشتري فيه رد السلعة

فَوَلِيُّها عند الزواجِ يَبيعُها   وحَليلُها عند الطلاقِ يُضيعُها

ولي المرأة: أبوها أو من يقوم بتزويجها، حليلها: زوجها

وكَلاهُما مُتَحَكِّمٌ في أمرِها   هذا يُعَرِّيها وذاكَ يُجيعُها

٣ كون عجيب

ولمَّا رأيتُ الكونَ في الأصلِ واحداً   عجبتُ لأنَّ الخلقَ فيه ضُروبُ

ضروب: أنواع

وإنَّ اختلافَ الآدميِّينَ سِيرةً   وهُمْ قد تَساوَوْا صُورةً لَعجيبُ
وأَعجبُ ما في الكائناتِ ابْنُ آدَمٍ   فما غيرُه في الكائناتِ مُريبُ
يُذَمِّمُ فعلَ السُّوءِ وهْوَ حَليفُهُ   ويحْمَدُ قولَ الصِّدقِ وهْوَ كَذوبُ

تسويد البيتين من عمران القفيني

ولو باحَ كلٌّ بالذي هُوَ كاتِمٌ   لَمَا عُدَّ في هذا الأنامِ أديبُ

المتأدبون هم كذلك لأنهم يكتمون ما بأنفسهم من خساسة، ولو أظهر كل إنسان ما يكتمه لما كان في البشر أي شخص على خلق

وقد يَفتري المالُ الفضائلَ لِلورَى   وليس لَهُمْ ممَّا افْتراهُ نَصيبُ

المال يفتري الفضائل للورى: ينسب إلى الناس محاسن ليست لهم

٤ المصير

وما المرءُ إلَّا بيتُ شِعْرٍ عَروضُهُ   مَصائِبُ، لكنْ ضَرْبُهُ حُفْرَةُ القبرِ

العروض: الجزء الأخير من الشطر الأول من بيت الشعر، الضرب: الجزء الأخير من الشطر الثاني من البيت

وتَنْظِمُنا الأيَّامُ شِعراً، وإنَّما   تَرُدُّ المنايا ما نَظَمْنَ إلى النثرِ

ورُبَّ نِيامٍ في المقابرِ زرتُهُمْ   بِمُنهَلٍ دمعٍ لا يُنَهْنَهُ بالزَّجْرِ

زرتهم ودمعي منهل، مسكوب، لا ينهنه، لا يُردَع، بالزجر، بالنهر وبالتعنيف

أَسُكَّانَ بَطْنِ الأرضِ! هلَّا ذَكُرْتُمُ   عُهوداً مضتْ منكُمْ، وأنتمْ على الظَّهْرِ

على الظهر: على ظهر الأرض

رَضِيتُمْ بأَكفَانِ البِلَى حُلَلاً لكمْ،   وكنتمْ أُولي الدِّيباجِ والحُلَلِ الحُمْرِ

رضيتم بالأكفان حللاً، أي ملابس، وكنتم أولي الديباج، أصحاب الحرير، والملابس الحمر.. وكانت الملابس الحمر ملابس علية القوم، وحتى النساء فقد كن «حمر الجلابيب» كما وصفهن المتنبي دلالة على العز

فقلتُ، ولِلأَجْدَاثِ كَفِّي مُشِيرةٌ:   أَلَا إنَّ هذا الشِّعْرَ مِنْ أَفْجَعِ الشِّعْرِ

٥ الفوق والتحت

نَحنُ على رَغْمِ ما عَلِمْنا   نَعيشُ في غَيْهَبِ العَماءِ

غيهب: ظلام، العماء: العمى.. وأصل العماء الغيم لكن شاعرنا في الأغلب قصد العمى وهمزها كمن همز الرضا فجعلها الرضاء

نَشربُ ماءَ الظُّنونِ عَبًّاً   فلم نَعُدْ منه بارتِواءِ

فليس فوقٌ وليس تحتٌ   ولا اعتلاءٌ لِذي اعتِلاءِ

هذا من العلوم المعاصرة التي فهمنا منها أنه لا يوجد فوق ولا تحت، وإلا كان سكان أستراليا وكناغرها سقطوا في الفراغ.. وعلى هذا فلا صعود لمن يريد الصعود

وإنَّــمــا نــحــن فــوق نَــجْــمٍ نــحــيــا مُــحــاطــيــنَ بِــالــهــواءِ
على الأصحّ نحن فوق كوكب

فــلــيــتَ شِــعــري أيُّ ارتِــقــاءٍ لِــلــرُّوحِ يَــبــقَــى، أيُّ ارتــقــاءِ!
بانتفاء الفوق والتحت لم يعد للروح صعود بعد الموت!

٦ الماء المهدر

يـا مِـيـاهـاً جَـرَتْ بِـدجْـلَـةَ تَـجْـتَـا زُ مُـروراً بِـجـانِـبَـيْ بَـغـدادِ
أيـهـا الـمـاءُ أيـنَ تَـجـري ضَـيـاعـاً وحَـوالَـيْـكَ قَـاحِـلاتُ الـبَـوادي
لـو زَرعـنـا بِـكَ الـبِـقـاعَ حُـبـوبـاً لَـحَـصـدْنـا الـنُّـضـارَ يـومَ الـحَـصـادِ
النضار: الذهب.. قد أخذ الترك والإيرانيون كل ماء دجلة تقريباً فلم يعد ثمة ماء مُهدَر

٧ شدوق الضراغم

سعى الناسُ والأقدارُ مَخْبوءَةٌ لَهُمْ ونامُوا وما ليلُ الخطوبِ بِنائمِ
جَرَتْ سُفُنُ الأيامِ مشحونةً بِنا على بحرِ عَيْشٍ بِالرَّدى مُتلاطِمِ
دَأَبْتُ لِنفسي في الحياةِ كأنَّني مِن العيشِ مُلْقىً في شُدُوقِ الضَّراغِمِ
دأبت وثابرت في كسب الرزق كأن العيش، الرزق، تنهشه شدوق الضراغم، أفواه الأسود، وأنا بينها. تعليق عمران القفيني: «حقوق الطبع للمتنبي القائل: (فما لي وللدنيا طِلابي نجومها/ ومسعاي منها في شدوق الأراقم)»

يُخاصِمُني فيها على غيرِ طائلٍ أُناسٌ فأُبدي الصَّفْحَ غيرَ مُخاصِمِ
وأقنعُ بالقوتِ الزهيدِ لِطيبِهِ حِذارَ وُقوعي في خبيثِ المَطاعِمِ
خبيث المطاعم: الرزق الحرام

٨ الانعتاق الفكري

متَى تُطلِقُ الأيامُ حُرِّيَّةَ الفكرِ فينشَطَ فيها العَقلُ مِن عُقْلَةِ الأَسْرِ
ينشط: يفتكُّ من الربط، العقلة: العقدة

ويَصدَعَ كلٌّ بِالحقيقةِ ناطقاً ويتركَ ما لم يَدْرِ منها لِمَنْ يَدري
يصدع: يجهر

أَرانـا إذا رُمْـنـا بـيـانَ حـقـيـقـةٍ عُزِينا، مَعاذَ اللهِ، فيها إلى الكفرِ
رمنا: أردنا، عُزينا: نُسبنا

٩ بصراحة

أُحِـبُّ صـراحـتـي قـولاً وفـعـلاً وأكـرهُ أن أَمـيـلَ إلـى الـرِّيـاءِ
ولـسـتُ مِـن الـذيـن يَـرَوْنَ خـيـراً بـإبـقـاءِ الـحـقـيـقـةِ فـي الـخَـفـاءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرى الأديـانَ قـامـتْ بِـوحـيٍ مُـنـزَلٍ لِـلأنـبـيـاءِ
ولـكـنْ هُـنَّ وَضْـعٌ وابْـتِـداعٌ مِـنَ الـعُـقَـلاءِ أَربـابِ الـدَّهـاءِ
ولـسـتُ مِـن الأُلَـى وَهِـمُـوا وقـالـوا بـأَنَّ الـروحَ تَـعـرُجُ لِـلـسـمـاءِ
الأُلى: الذين

لأنَّ الأرضَ تَـسـبـحُ فـي فـضـاءٍ وما تـلـكَ الـسـمـاءُ سـوى الـفـضـاءِ
ولـسـتُ مِـنَ الـذيـنَ يَـرَوْنَ فَـخـراً لِـمُـفـتـخِـرٍ بِـإهـراقِ الـدِّمـاءِ
ولا مِـمَّـنْ قـد ارتَـبـطُـوا بِـمـاضٍ فـعـاشُـوا يـنـظـرونَ إلـى الـوَراءِ
ولا مِـمَّـنْ تَـوَدَّدَ فـي حُـضـورٍ وعـنـد الـغَـيْـبِ جَـاهَـرَ بِـالـعَـداءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرى الأَنـسـابَ مِـمَّـا يَـمُـتُّ بـه الأَنـامُ إلـى الـعَـلاءِ
ولا مِـمَّـنْ إذا وُبِـئُـوا اسـتـعـاذُوا بِـتَـمـتَـمَـةِ الـدُّعـاءِ مِـن الـوَبـاءِ
ولا مِـنْ مـعـشـرٍ صَـلَّـوْا وصَـامُـوا لِـمَـا وُعِـدُوهُ مِـن حُـسْـنِ الـجـزاءِ
ولا مِـمَّـنْ يَـرَوْنَ الـلَّـهَ يَـجـزي عـلـى الصَّـلَـواتِ بِـالـحُـورِ الـوِضـاءِ
الحور: النساء ذوات الأعين الخالصة السواد وسط بياض ناصع، الوضاء: البيض

ولـسـتُ مِـن الـذيـن يَـرَوْنَ فَـضْـلاً كـبـيـراً لِـلـرجـالِ عـلـى الـنـسـاءِ
ولـكـنْ دَالَـتِ الأيـامُ حـتـى تَـهـاوَنَ هـؤلاءِ بِـهـؤلاءِ
دالت: مثل دارت

١٠ حديث الروح

(١٩٢٩):

أرى لـلـروحِ بِـالـبـدنِ اتـصـالاً خـفـيًّـاً لا تَـبـيـنُ لـه رسـومُ
رسوم: آثار

هـمـا مُـتـلازمـانِ فـمـا لِـكـلٍّ بِـغـيـرِ قَـريـنِـهِ أبـداً لُـزُومُ
ولـسـتُ أظـنُّ أنَّ الـروحَ تَـبـقـى إذا مُـحِـيَـتْ مِـن الـجـسـدِ الرُّسـومُ

١١ الأديان

لـو قـاسَ كـلُّ فـتـىً سِـواهُ بِـنـفـسِـهِ فـيـمـا أرادَ لَـمَـا تَـعـادى اثـنـانِ
لو أَنصَفَ الخَصمانِ ما اصْطَادَ الرِّشَا أهلُ القَضاءِ بِما ادَّعَى الخَصمانِ
لـو أخـلـصَ الإنـسـانُ في إحـسـانِـه لـم يَـرْجُ أن يُـجزَى عـلى الإحـسـانِ
لـو لـم يَـشُـكَّ بِـربِّـهِ مُـتـفـلْـسِـفٌ في الـديـنِ لـم يُـحْـتَـجَّ بـالـبُـرهـانِ
لـو أنَّ عـقـلَ الـمـرءِ يَـغـلِـبُ حُـبَّـهُ لِـلـنـفـسِ لـم يَـلْـجَـأْ إلى الأديـانِ

حب النفس يجعل المرء يلجأ للدين لأنه يعِده بالخلود

لـولا جـمـودٌ فـي الـشـرائـعِ مُـهـلِـكٌ لَـتـغـيَّـرَتْ بِـتَـغَـيُّـرِ الأزمـانِ
لـو كـانَ أمـرُ الـحَـجِّ مـعـقـولاً لَـمَـا كـان اسْـتِـلامُ الـقـومِ لِـلأَركـانِ

استلام: لمس، وفي الكلمة معنى التقبيل

لو حَكَّمَ العقلَ الحَجيجُ بِحَجِّهِمْ أَبَـوُا الـطَّـوافَ بِـتِـلْـكُـمُ الـجُـدرانِ

١٢ الأظافر الدامية

لـقـد قـدَّمَ الـمـوتُ الـحـيـاةَ أمـامَـهُ نـذيـراً ومَـنْ يُـنـذِرْ فـلـيـس بِـغـادِرِ
فـلا عَـجَـبٌ أنّـا نـرى كـلَّ سـاعـةٍ أَكُـفَّ الـمـنـايـا دامـيـاتِ الأَظـافِـرِ

١٣ مساعدة الموت

في ذكرى الكاتب الفلسطيني روحي الخالدي، وقالها في القدس:

وماذا عسى يُجديِ التَّوجُّعُ والأَسى مِن الموتِ إذ كلٌّ على الموتِ وارِدُ
نُـعـيـنُ مَـنـايـانـا عـلـيـنـا بِـحُـزنِـنـا فـيَـقْـرُبُ مِـن آجـالِـنـا الـمُـتَـبـاعِـدُ

١٤ بلاد الدامِعَيْن

في رثاء أستاذه محمود شكري الآلوسي (١٩٢٤):

أزمَـعْـتَ عـنَّـا إلـى مَـولاكَ تَـرحـالا لَـمَّـا رأيـتَ مُـنـاخَ الـقـومِ أَوْحـالا

أزمعت: نويت، مولاك: ربك، مناخ: مكان

كَرِهْتَ طولَ مُقامٍ بين أَظْهُرِنا   بحيثُ تُبصِرُنا لِلحقِّ خُذّالا
خذال: متقاعسون ومقصرون عن النجدة

ولم تَرُقْ نفسَكَ الدنيا ونحن بها   لسنا نُؤكِّدُ بالأفعالِ أقوالا
وما رَكَنْتَ إلى الدنيا وزُخرُفِها   ولا أردتَ بها جاهاً ولا مالا
أَمَّا العراقُ فأمسى الرافِدانِ به   سَطرَيْنِ لِلدمعِ مِن خَدَّيْهِ قد سالا
أصبح دجلة والفرات سطرين من الدموع حزناً عليك

ما ضَرَّ مِن بَعدِما خَلَّدْتَ مِن كتبٍ   أَلَّا نَرى لكَ بين الناسِ أَنْجالا
لا ضرر من أنك لم تترك عقباً من الأولاد ففي كتبك ما يكفي، وخلف الآلوسي نحو خمسين كتاباً

١٥ الدنيا المسبَّبة

في أربعين الآلوسي (١٩٢٤):

لقد تَرَحَّلْتَ في يومٍ بِنا انقَلَبَتْ   حوادثُ الدهرِ فيهِ شَرَّ مُنقَلَبِ
وباتَ يَحسُو الطِّلا بِالكأسِ مِن ذهبٍ   مَن كان يشربُ رَنْقَ الماءِ بِالعُلَبِ
صار يشرب الطلا، الخمر، بكؤوس الذهب من كان يشرب رنق الماء، الكدر منه، بالعلب، بآنية من خشب

والخيرُ قد ضاعَ حتى إنَّ طالِبَه   لم يَلقَ منهُ سوى المَسْطورِ في الكتبِ
أَمَّا الرجالُ فَنارُ الشَّرِّ مُوقَدَةٌ   فِيهِمْ، وهُمْ بين نَفَّاخٍ ومُحْتَطِبِ
الناس فيهم نار شر بعضهم ينفخ في هذه النار لتزداد اتقاداً، وبعضهم يجمع لها الحطب

أفعالُهُمْ لم تكنْ جِدّاً ولا لَعِباً   لكنْ تُراوِغُ بين الجِدِّ واللَّعِبِ
هذه الميوعة.. لعل فحص مفهوم الميوعة مدخل طيب لدرس المجتمعات العربية اليوم

وليس تَنْدَى مِن النَّكْراءِ أوجُهُهُمْ   كأنَّما القومُ مَنجُورونَ مِن خَشَبِ
لا تندى وجوههم، أي لا يخجلون، من النكراء، الفعل المخزي، فكأنهم من خشب

بينَ الدواءِ وبين الدَّاءِ مُعتَرَكٌ   فيه قَضى ربُّنا للدَّاءِ بِالغَلَبِ
لا يَخلُقُ اللَّهُ مخلوقاً يَجُولُ بِهِ   دَمُ الحياةِ بِلا أُمٍّ لَهُ وأَبِ
ولا يُميتُ بِلا داءٍ ولا سَقَمٍ   ولا يُعيشُ بِلا كَدٍّ ولا تَعَبِ
كل شيء له سبب.. سبب وجود المرء أمه وأبوه، وسبب الموت الداء وسبب العيش الكد

وليس ذلكَ مِن عَجْزٍ بِخالِقِنا   عن أيِّ زَجٍّ بِنا في قَبضَةِ الشَّجَبِ..
لا يعجز الله عن زجنا، وإدخالنا في قبضة الشجب، الموت..

لكنَّه جعلَ الدنيا مُسَبَّبَةً   لكلِّ أمرٍ بها لا بُدَّ مِن سَبَبِ
لكنه جعل لكل شيء سبباً

١٦ أرثيك رغم السياسة

في ذكرى الشيخ الخالصي:

أنا أَبكي عليه مِن جِهَةِ العِلـ   ـمِ وأُغْضي عن خَوْضِهِ في السياسةْ
لا لِأَنِّي أراهُ فيها مَلوماً   بل لِأَنِّي أَعيبُ فِعلَ السَّاسَةْ
ليس في هذهِ الهَناتِ السِّيَاسِيَّـ   ـاتِ إلَّا ما يَنجَلي عن خَساسَةْ
الهنات: الأمور، ينجلي: يتكشَّف

١٧ المعقول والمنقول

قد قتلتُ الحياةَ خُبْراً، ولكنْ   أنا منها بِحَيْرتي مَقتولُ
كلُّ ما قيلَ في الحياةِ ظُنونٌ   جَرَّها في افتِكارِنا التَّخييلُ
وَيْكَ! إنَّ المعقولَ ما صَحَّ عندي   فمَتى صَحَّ عِندكَ المنقُولُ
ويحك! فالأمر الذي يقر به العقل لا أكاد أجده صحيحاً فكيف بالمنقول، ما ذكره الأقدمون وتناقلوه

إنَّ حُبَّ الحياةِ أَوْهَمَ أنَّ الـ   ـموتَ نومٌ تحتَ الثَّرى لا يَطولُ
لحبنا للحياة نتوهم أن الموت مجرد نوم وتأتي بعده حياة أخرى

١٨ حافظ وشوقي

الشعرُ بعدَ مُصابِه بِكَبيرِهِ   في مصرَ جَلَّ مُصابُهُ بِأميرِهِ
كبير الشعر: حافظ، وأميره: شوقي

بَيْناهُ يَبكي حافِظاً بِشهيقِه   إذ قامَ يَبكي أحمداً بِزَفيرِهِ
أَخَذَتْ فَرَزْدَقَهُ المنونُ وضاعَفَتْ   جُلَّى مُصيبَتِه بِأَخْذِ جَريرِهِ
يشبه حافظاً بالفرزدق وشوقي بجرير، وقد رحل شاعرا مصر متلاحقين بينهما أشهر، ورثى اللاحق السابق، ورحل جرير والفرزدق متلاحقين بينهما أشهر، ورثى اللاحق السابق

١٩ أسنان الحمار

كلُّ مَن يَخْبُرُ الأُناسِيَّ خُبْرِي ... لا يُبالي أَأَحْسَنُوا أم أَساءوا
أنا جَرَّبتُهُمْ إلى أن تَساوى الـ ... ـيومَ عندي سِبابُهُمْ والثَّناءُ

٢٠ تقدم أيها العربي

أجَلْ إنَّ القَبائِلَ مِن مَعَدٍّ ... عَلَوْا فَتَسَنَّمُوا المجدَ المجيدا

معد: جد عرب الشمال، تسنموا: قعدوا فوق سنام الجمل، أي علوا وارتفعوا

ولكنْ أيُّها العربيُّ إنِّي ... أراكَ لِغيرِ ما يُجْدِي مُريدا

أراك أيها العربي مُريداً، طالباً، ما لا يجدي ولا ينفع

وما يُجدي افتِخارُكَ بالأَوالي ... إذا لم تَفْتَخِرْ فخراً جديدا

الأوالي: الأوائل

أرى مستقبلَ الأيامِ أوْلَى ... بِمَطْمَحِ مَن يُحاولُ أنْ يَسُودا
فَوَجِّهْ وَجْهَ عزمِكَ نحوَ آتٍ ... ولا تَلْفِتْ إلى الماضِينَ جيدا
وهل إنْ كان حاضِرُنا شقياً ... نَسُودُ بِكونِ ماضِينا سعيدا؟
تقدَّمْ أيها العربيُّ شَوطاً ... فإنَّ أمامَكَ العَيْشَ الرَّغِيدا
وأَسِّسْ في بِنائِكَ كلَّ مَجْدٍ ... طَرِيفٍ، واتْرُكِ المجدَ التَّليدا

الطريف: الجديد، التليد: الموروث

فشرُّ العالَمِينَ ذَوُو خُمولٍ ... إذا فاخَرْتَهُمْ ذَكَرُوا الجُدودا
وخيرُ الناسِ ذو حَسَبٍ قديمٍ ... أقامَ لِنفسِهِ حَسَباً جديدا
تراهُ إذا ادَّعَى في الناسِ فخراً ... تُقيمُ له مَكارِمُهُ الشُّهودا
فَدعْنِي والفَخارَ بِمجدِ قومٍ ... مضى الزمنُ القديمُ بِهِمْ حميدا
قد ابتَسَمَتْ وجوهُ الدهرِ بِيضاً ... لَهُمْ ورَأَيْنَنا فَعَبَسْنَ سُودا
وقد عَهِدُوا لنا بِتُراثِ مُلْكٍ ... أَضَعْنا في رعايَتِهِ العُهودا
وعاشُوا سادةً في كلِّ أرضٍ ... وعِشْنا في مواطِنِنا عبيدا
إذا ما الجهلُ خَيَّمَ في بلادٍ ... رأيتَ أُسودَها مُسِخَتْ قُرودا

٢١ الغاية الكبرى

كتبتُ لِنفسيِ عهدَ تحريرِها شِعْرا وأشهَدْتُ فيما قد كتبتُ لها الدهرا
لذاكَ جعلتُ الحقَّ نُصْبَ مَقاصِدي وصَيَّرتُ سِرَّ الرأيِ في أَمرِهِ جَهرا

جهرت بما أراه حقاً، ولم أبقه سراً

وجَرَّدْتُ شِعري مِن ثيابِ ريائِهِ فلم أَكْسُهُ إِلَّا مَعانِيَهُ الغَرَّا

الغرا: الغراء، أي الناصعة

وأَرْسَلْتُه نَظماً يَروقُ انسِجَامُه فيَحْسَبُه المُصْغي لإنشادِهِ نَثْرا
فجاءَ مُضيئاً، ليلُه كنهارِه وإن كان بعضُ القومِ يَزعُمُه كُفرا
أُضَمِّنُه معنىَ الحقيقةِ عارياً فيحسَبُه جُهَّالُها منطِقاً هُجرا

جهالها: يعني الجاهلين بالحقيقة، الهُجر: الفُحش

ويَحمِلُه الغَاوِي على غيرِ وجهِه فيُوسِعُني شتماً وينظُرُني شَزْرا
رُوَيْدَكَ إنَّ الكفرَ ما أنتَ قائلٌ وإنَّ صريحَ العُرْفِ ما خِلتَهُ نُكرا
هلِ الكفرُ إلَّا أن تَرى الحقَّ ظاهراً فتضرِبَ لِلأَنظارِ مِن دونِه سِترا

الكفر هو أن ترى الحق بادياً فتضرب، أي تنصب، ستاراً يواريه عن الأنظار

إذا كان في عُرْيِ الجُسومِ قَباحَةٌ فأحسَنُ شيءٍ في الحقيقةِ أن تَعْرَى

إن كان العري قبيحاً بالجسم، فالحقيقة تزداد حسناً عندما تكون عارية، مكشوفة واضحة

أُحِبُّ الفتى أنْ يَستَقِلَّ بنفسِه فيصبِحَ في أفكارِه مُطْلَقاً حُرًّا
وأَكرَهُ منهُ أن يكونَ مُقَلِّداً فَيُحْشَرَ في الدنيا أسيراً مع الأسرى

يحشر: يُعَدّ

إذا كان في الأوطانِ لِلناسِ غايةٌ فحريةُ الأفكارِ غايتُها الكبرى
فأوطانُكُمْ لن تستقلَّ سياسةً إذا أنتُمُ لم تستَقِلُّوا بها فِكرا
إذا السيفُ لم يَعْضُدْهُ رأيٌ مُحَرَّرٌ فلا تَأْمُلَنْ مِن حدِّهِ ضَرْبَةً بِكرا

يعضده: يدعمه، الضربة البكر: الضربة الأولى التي تصيب مقتلاً

إذا لم يَعِشْ حُرًّاً بِموطِنِهِ الفَتى فَسَمِّ الفتَى مَيْتاً، وموطِنَه قبرا
أَحُرِّيَّتي إنِّي اتَّخذتُكِ قِبْلَةً، أُوَجِّهُ وجهِي كلَّ يومٍ لها عَشْرا

وأُمْسِكُ منها الركنَ مُستَلِماً له وفي رُكْنِها استبْدَلْتُ بِالحَجَرِ الحِجْرا

ألمس ركن الحرية وأستلمه، أي أقبله، وقد استبدلت بالحَجر الحِجر، أي العقل. جعل الحرية كعبة يقدسها (والركن والاستلام والحجر الأسود من لوازم الحج)

وإنْ لامَني قومٌ عليكِ فإنَّني لَمُلْتَمِسٌ لِلقومِ مِن جهلِهِمْ عُذْرا

٢٢ تحية للعبقرية

وَضَحَ الحقُّ، واستقامَ السبيلُ بعظيم هُوَ النبيُّ الرسولُ

قامَ يَدعُو إلى الهُدَى بِكتابٍ عربيٍّ قُرآنُه تَرتيلُ

طالباً غايةً مِن المجدِ قُصْوَى صَدُّهُ عن بُلوغِها مُستحيلُ

ووُصولاً إلى مَقامٍ رَفيعٍ عَزَّ مِن قَبْلِهِ إليهِ الوُصولُ

ودهاءٍ لو مَاكَرَتْهُ دَواهي الدَّهرِ طُرَّاً لاغْتالَها منه غُولُ

دهاء لو اتخذت معه دواهي الدهر، مصائب الزمن، طراً، جميعاً، سبيل المكر لاغتالها منه غول، لقضى دهاؤه عليها

تَدْلَهِمُّ الخطوبُ، والرأيُ منهُ في دُجاها كأنهُ قِنديلُ

تدلهم: تسودّ

كلُّ أوصافِه الجَليلةِ بِدْعٌ فَهْوَ مِن عَبْقَرِيَّةٍ مَجْبولُ

بدع: جديد غير مسبوق

أَطلَقَ الناسَ مِن تَقاليدِ جهلٍ كلُّ فردٍ منهُمْ بها مَغلُولُ

مغلول: مقيد

نَهضةٌ عالَمِيَّةٌ في وَغاها مَن أَمامِ البعيرِ فَرَّ الفيلُ

أحدث النبي نهضة عالمية، وفي وغاها، في حربها، يفر الفيل من البعير.. يشير إلى غزو العرب فارس وتغلب جمالهم على فيلة الفرس

يَعرِفُ النيلُ فضلَها وعُلاها مِن قديمٍ ويشهَدُ الدَّردَنيلُ

النيل، حيث السودان ومصر، والدردنيل، حيث تركيا، يعرفان فضل هذه النهضة

غيرَ أنَّا عن نهجِها اليومَ حِدْنا واستَحَلْنا، وكلُّ حالٍ تَحولُ

استحلنا: تغيرنا، تحول: تتغير

واختَلَفْنا في الدينِ حتى افترقْنا فِرَقاً لا يُسيغُها المَعقُولُ

المعقول: العقل

لـو رآنـا والـشـرُّ فـيـنـا كـثـيـرٌ مـسـتـفـيـضٌ، والـخـيـرُ نَـزْرٌ قـلـيـلُ

نزر: شحيح قليل

والـدَّعـاوَى فـي الـحـقِّ مِـنَّـا كـبـارٌ طـالَ فـيـهـا الـتـزمـيـرُ والـتَّـطـبـيـلُ

دعاوانا في الحق: ادعاؤنا أننا على حق

قـالَ مُـسـتـنـكِـراً لِـمَـا نـحـنُ فـيـهِ: مـا بِـهـذا قـد جـاءنـي جِـبـريـلُ

٢٣ دفاعاً عن الإسلام

يقـولـونَ فـي الإسـلامِ ظُـلـماً بـأنَّـهُ يَـصُـدُّ ذَويـهِ عـن طـريـقِ الـتـقـدُّمِ

وإن كان ذنبُ المسلمِ اليومَ جَهلَهُ فماذا على الإسلامِ مِن جهلِ مُسلمِ

هلِ العلمُ في الإسلامِ إلَّا فريضةٌ وهـلْ أُمَّـةٌ سـادَتْ بِـغـيـرِ الـتَّـعَـلُّـمِ

ألَا قُلْ لِمَنْ جارُوا علينا بحُكمِهِمْ رُوَيـداً فـقـد قَـارفْـتُـمُ كـلَّ مَـأْثَـمِ

قارفتم: ارتكبتم

عَلَوْنا وكنتُمْ سافِلينَ، فلم نكنْ لِنُبْدِي إليكُمْ جفوةَ الـمُـتَـهَـكِّـمِ

كنا في ازدهار بينما الغرب في انحطاط، ولم نكن نظهر له الجفاء والخشونة والازدراء

ولـم نترُكِ الحسنَى أَوانَ جِدالِكُمْ وتـلـكَ لَـعَـمْـري شيـمـةُ الـمُـتَـحَـلِّـمِ

المتحلم: الرزين الحليم

٢٤ نحن والغرب

هِـمَـمُ الـرجـالِ مَـقـيِـسَـةٌ بِـزمـانِـهـا وسـعـادةُ الأوطـانِ فـي عُـمْـرانِـهـا

إنَّ الـتَّـجـارِبَ لِـلـشُّـيـوخِ، وإنَّـمـا أَمَـلُ الـبـلادِ يَـكـونُ فـي شُـبَّـانِـهـا

هـذي لَـدى الـعَـرَبِ الـكـرامِ مَـبـادِئٌ نَـزلَـتْ بـهـا الآيـاتُ فـي قُـرآنِـهـا

والـعُـرْبُ أكـبـرُ أُمَّـةٍ مَـشـهـورَةٍ بِـفُـتُـوحِـهـا، وعـلـومِـهـا، وبـيـانِـهـا

يـا أُمَّـةً عـاشَ الـبَـرِيَّـةُ أَعْـصُـراً فـي عـدلِـهـا رَغَـداً وفـي إحـسـانِـهـا

البرية: الناس

ثـم انـقـضَـتْ تـلـكَ الـعـصـورُ فـجـاءَهـا زمـنٌ بـهِ انـقـادَتْ إلـى عُـبْـدانِـهـا

فَنَضَتْ مَلابِسَ عِزِّها وتَثاقَلَتْ   في الذلِّ راسَفَةً بِقَيْدِ هَوانِها

نضت أمة العرب، أي خلعت، ملابس العز، وأصبحت تسير متثاقلة بطيئة راسفة، أي ماشية ببطء، في قيود هي الهوان والذل

٢٥ مريم وابنها

رَمَتْ مِسمَعي ليلاً بِأَنَّةِ مُؤلَمِ   فَأَلْقَتْ فؤادي بين أَنيابِ ضَيْغَمِ

رمت هذه المرأة في مسمعي، أي أذني، برنة مؤلَم، بأنين شخص متألم، فكأنها رمت قلبي بين أنياب ضيغم، أسد

تُقَطِّعُ في الليلِ الأنينَ كأَنَّها   تُقَطِّعُ أَحشائي بِسيْفٍ مُثَلَّمِ

مثلم: غير حاد

يَهُزُّ نِياطَ القلبِ بالحزنِ صَوْتُها   إذا اهتزَّ في جوفِ الظلامِ المُخيِّمِ
فمَا خَفَقانُ النَّجْمِ إلَّا لِأَجْلِها   وما الشُّهْبُ إلَّا أَدْمُعُ النجمِ تَرتَمي

خفقان النجم: اهتزازه، وكانت العرب ترى في النجوم اهتزازاً. يتخيل الشاعر النجم يبكي وجسمه يرتجف ودموعه تسيل وهي الشهب الساقطة

أَرى فَحْمَةَ الظلماءِ عند أنينِها   فأَعجَبُ منها كيف لم تَتَضَرَّمِ

كأن الليل فحم لسواده، وأعجب لما لا يتوهج جمراً لحرارة أنينها

وبَيْتٍ بَكَتْ فيه الحياةُ نُحُوسَةً   ولاحَتْ بِوجهِ العابِسِ المُتَجَهِّمِ

الحياة باكية ومنحوسة وعابسة ومتجهمة، مكشرة، في هذا البيت

دخلتُ به عند الصباحِ على التي   سَقانِي بُكاها في الدُّجى كأسَ عَلْقَمِ
فألفَيْتُ وجهاً خَدَّدَ الدمعُ خَدَّهُ   ومُحْمَرَّ جَفْنٍ بِالبُكا مُتَوَرِّمِ

خدَّد: شقق

لقد جَثَمَتْ فوق التُّرابِ وحولَها   صغيرٌ لها يَرنُو بِعيْنَي مُيَتَّمِ

جثمت، قعدت، في بيتها على التراب، وعندها طفل يرنو، أي ينظر، بعين اليتيم، أي أنه يتيم

تَراهُ وما إنْ جاوَزَ الخَمْسَ عُمْرُهُ   يُديرُ لِحاظَ اليَافِعِ المُتَفَهِّمِ
بَكى حولَها جُوعاً فغَذَّتْهُ بِالبُكا   وليس البُكا إلَّا تَعِلَّةَ مُعْدِمِ

ليس عندها ما تغذيه به إلا البكاء، والبكاء تعلة المعدم، تصبيرة الفقير

وقفْتُ لديها والأسى في عيونِها   يكلِّمُني عنها، ولم تتكلَّمِ

ومذْ عَرَضَتْ لِلإبنِ منها التِفاتَةٌ   أشارتْ إليهِ بِالمدامِعِ أنْ قُمِ
أَبُوكَ تَرامَتْ فيهِ سَفْرَةُ رَاحِلٍ   إلى الموتِ لا يُرجَى له يومُ مَقْدَمِ
مشى أرمَنِيًّاً في المَعَاهِدِ فارتَمَتْ   بهِ في مَهاوِي الموتِ ضَربَةُ مُسلِمِ

مشى أبوك وهو من الأرمن في المعاهد، المواقع، فرمته في مهاوي الموت، وِديانه، ضربة من مقاتل مسلم

ولولاكَ لاخْترتُ الحِمامَ تخلُّصاً   بِنفسِيَ مِن أتعابَ عَيْشٍ مُذَمَّمِ
فأنتَ الذي أخَّرتَ أُمَّكَ مَريماً   عن الموتِ أنْ يُودي بِأُمِّكَ مَريمِ
أَمَريمُ مهلاً بعضَ ما تذكُرِينَهُ   فانَّكِ تَرمِينَ الفؤاد بِأَسْهُمِ
لئِنْ مَلأُوا الأرضَ الفضاءَ جرائِماً   فَهُمْ أَجْرَمُوا والدِّينُ ليس بِمجرِمِ

الذين أجرموا بحق الأرمن مجرمون ولكن ليس دين الإسلام هو المجرم. وكان الأرمن تعرضوا لمقتلة كبيرة في زمن الحرب العالمية الأولى على يد الأتراك

ولَمَّا رأيتُ اللَّوْمَ لُؤماً تِجاهَها   سَكَتُّ فلم أَنْبِسْ ولم أَتَبرمِ
وأَطْرقْتُ نحوَ الأرضِ أطلُبُ عفوَها   وما أنا بِالجانِي، ولا بِالمُتَيَّمِ

طلبت العفو منها مع أنني لست جانياً في تلك المقتلة، ولست متيماً بها، بل مشفق عليها

بَكيتُ، وما أدري أأبكي تَضَجُّراً   مِن القومِ أمْ أَبْكِي لِشِقْوَةِ مريمِ؟

لا أدري هل كان بكائي لأنني مللت من أفعال الترك أم لشقاء مريم. وكان الرصافي عثماني الهوى

٢٦ الروائح

هِيَ الساحةُ النَّكْراءُ فيها تلاعَبَتْ   مَخاريقُ ضَيْمٍ تَخلِطُ الجِدَّ بِالدَّدِ

في ساحة السجن النكراء، القبيحة، ترى السجناء يتلاعبون فيما بينهم كأنهم مخاريق، كرات قماش، لكنها تعاني الظلم.. ولعبهم هو بين الجد والدد، أي اللعب

تَصَعَّدَ مِن جوفِ المراحيضِ فوقَها   بُخارٌ إذا تَمْرُرْ به الريحُ تَفْسُدِ

وفوق الساحة روائح المراحيض

هناكَ يَوَدُّ المرءُ لو قاءَ نفسَهُ   وأَطلَقَها مِن أَسرِ عَيْشٍ مُنَكَّدِ
مَقابِرُ بِالأحياءِ غَصَّتْ لُحُودُها   بِخَمْسِ مِئينٍ أَنْفُسٍ أو بِأَزْيَدِ
يَخوضُونَ في مُستَنقَعٍ مِن رَوائِحٍ   خَبائِثَ مَهما يَزدَدِ الحَرُّ تَزْدَدِ
تَدورُ رُؤوسُ القَومِ مِن شَمِّ نَتْنِها   فَمَنْ يَكُ منهُمْ عادِمَ الشَّمِّ يُحسَدِ

٢٧ الشمس الخجلى

خَرَجْتُ بِعيدِ النَّحْرِ صُبحاً فَلاحَ لي مَسارِحُ لِلأَضدادِ فيهِنَّ مَرتَعُ

خرجت بعد ذبح الخراف في عيد الأضحى فرأيت مسارح ترتع فيها الأضداد، مشاهد فيها أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء

صباحٌ به يكسُو الغنيُّ وَليدَه ثياباً لها يبكي اليتيمُ المُضَيَّعُ

خَرَجْتُ وقُرصُ الشمسِ قد ذَرَّ شارقاً ترى النورَ سيَّالاً به يَتَدَفَّعُ

عندما خرجت كان قرص الشمس قد ذر شارقاً، برز عند الشروق، والنور يسيل منه

ولَمَّا بَدَتْ حَمْراءَ أيقنتُ أنَّها بِها خَجَلٌ مِمَّا تَراهُ وتَسْمَعُ

لما بدت الشمس وعليها احمرار أيقنت أنها خجلى مما تراه من تفاوت طبقي

٢٨ كلامي غير معقد

لَعَمْرُكَ إنَّ الحُرَّ لا يَتقَيَّدُ ألا فَلْيَقُلْ ما شاءَ فِيَّ المُفَنِّدُ

المفند: المنتقِد المؤنِّب

إذا أنا قَصَّدتُ القصيدَ فليس لي به غيرُ تِبيانِ الحقيقةِ مَقْصِدُ

ولا عَجَبٌ أن عابَني الشاعرُ الذي يقولُ سخيفَ الشعرِ، وَهْوَ مُقَلِّدُ

فإِنَّ ابْنَ بُرْدٍ، وَهْوَ أكبرُ شاعرٍ، تَنَقَّصَهُ في الشعرِ حَمَّادُ عَجْرَدُ

ابن برد: بشار، وحماد عجرد: غريمه وكان بينهما هجاء متصل

إذا رُمْتُ نُصحاً جئتُ بِالنُّصحِ واضحاً وما كان مِن شأني الكلامُ المُعَقَّدُ

يبدي الرصافي عذره لعدم وجود وثبات خيال جامح في شعره

٢٩ بلبل وذباب

إذا دُفِعَ الشرُّ القبيحُ بِمثلِهِ تَحَصَّلَ شرٌّ ثالِثٌ وتَولَّدا

ولِي خُلُقٌ يأبَى عليَّ انطِباعُه على الخيرِ تَسليمِي إلى الشرِّ مِقْوَدا

وتَكرَهُ نفسِي كلَّ عبدٍ مُذَلَّلٍ فقد كرهتْ حتى الطريقَ المُعَبَّدا

لكرهي للعبودية كرهت حتى الطريق المعبد

إذا ما اتَّقَتْ نفسٌ رَداها بِذِلَّةٍ فعنديَ نفسٌ تَتَّقي الذُّلَّ بِالرَّدَى

إذا تجنبت نفس من النفوس رداها، موتها، بأن تتذلل، فأنا أحمي نفسي من الذل بأن أعرضها للموت. التسويد لعمران القفيني

وكم رامَ إسكاتي أُناسٌ أَبى لَهُمْ خنَا الطَّبْعِ إلَّا أَنْ يُرَوْا لِيَ حُسَّدا

الخنا: العار

ومِن عَجَبٍ أنْ يعشَقَ الروضَ بُلبلٌ ويَمنَعَهُ ذِبَّانُهُ أنْ يُغَرِّدا

٣٠ ليس لمصر!

أُمارِسُ دهراً مِن جَديدَيَّ داهرا وما زالَ ليلي بِالعراقَيْنِ ساهرا

من جَديديَّ: أي من زمني، والجديدان هما الليل والنهار، الدهر الداهر: الطويل الثقيل، والعراقان: تعبير قديم يشير إلى عراق العرب وعراق العجم

أَبى الحقُّ إلَّا أن أقومَ لأَجلِه على الدهرِ في كلِّ المَواطنِ ثائرا
وأنْ أَتَمادَى في جدالِ خُصومِه وأقرَعَ مِنهُمْ بِالبيانِ المُكابِرا
وتَكرَهُ نفسي أنْ أكونَ مُخادِعاً لِأُدرِكَ نفعاً أو لِأَدفَعَ ضائرا
ومِن أجلِ مَقْتي لِلمَخانيثِ أنكرَتْ يَدي أنْ تُحَلَّى في الجِنانِ أَساوِرا

ففي الجنة تحلَّى معاصم الفائزين بالأساور

يقولونَ لي في مِصرَ لِلعلْمِ نَهضَةٌ تُفَتِّقُ أذهاناً، وتَجلُو بَصائرا
وإنَّ بِها لِلعِلْمِ قَدْراً وحُرْمَةً وإنَّ بِها لِلحَقِّ عَوْناً وناصِرا
وقد ضَرَبُوا وَعْداً لِتَكريمِ شاعرٍ تَمَلَّكَ صيتاً في الأقاليمِ طائرا
هُوَ الشاعرُ الفَحْلُ الذي راحَ شعرُهُ بِإنشادِهِ في البَرِّ والبحرِ سائرا
فلو قُلْتَ بعضَ الشعرِ في يومِ حَفْلِهِمْ تَشُدُّ به مِنَّا لِمِصرَ الأَواصِرا

يقولون للرصافي: ألا قلت بعض الشعر في هذا الحفل لتكريم أحمد شوقي أميراً للشعراء فتشد أواصرنا بمصر، أي روابطنا؟

فقلتُ: أَجَلْ. والشعرُ ليسَ بِمُعجِزي ولنْ تعدِمُوا مِنِّي على الشعرِ قَادِرا
أَلا إنَّ شوقي شاعرٌ جِدُّ شاعرٍ يَفُوقُ الأَوالي، بل يَبُزُّ الأَوَاخِرا

يبز: يفوق، الأوالي: الأوائل

تَمَلَّكَ حُرَّ الشعرِ فَهْوَ رَقيقُهُ　　وقامَ عليه بالذي شاءَ آمِرا

الشعر رقيقه: الشعر عبده

إذا رامَ جَزْلاً منهُ أَنشَدَ زَاخِراً　　وإنْ رامَ سهلاً منه أَنشَدَ ساحِرا

رام: أراد، زاخر: متدفق

فلا عَجَبٌ مِنْ أهلِ مصرَ وغيرِهِمْ　　إذا عَقَدُوا منهُمْ عليه الخَناصِرا

عقدوا الخناصر: استحسنوا. والخنصر الإصبع الصغرى.. ألا ترى أنك عندما تعد واحد اثنان ثلاثة على أصابعك فإنك تبدأ بالخنصر!

ولكنَّني قد أَنْظُرُ الحَفْلَةَ التي　　تقامُ له ذا اليومَ في مِصرَ سَاخِرا

إذا احتَفَلتْ مصرٌ بِشوقي فمَا لَها　　تُقِيمُ على الأحرارِ في العِلْمِ حَاجِرا

كيف تحتفل مصر بشوقي وتحجر على الأحرار وتسكتهم؟

فقد أَسْمَعَتْنا ضَجَّةً أَمطَرَتْ بِها　　عَلِيَّاً وطَهَ حَاصِباً مُتَطايِرا

أسمعتنا مصر ضجة حين أمطرت علي عبد الرازق وطه حسين حاصباً، ريحاً فيها حصىً وتراب. وقد عاقبوا الأول على كتابه «أصول الحكم في الإسلام»، وحاكموا الثاني على كتابه «في الشعر الجاهلي»

فما بالُ هذا عُدَّ في مِصرَ مارِقاً　　وما بالُ هذا عُدَّ في مِصرَ كافرا

علي عبد الرازق عدوه مارقاً، خارجاً عن الشرع، وطه حسين كفروه

إذا لم تَكُ الأَفكارُ في مِصرَ حُرَّةً　　فليس لِمِصرٍ أنْ تُكَرِّمَ شاعرا

ألا إنَّ هذا الشعرَ ليس بِطائِلٍ　　إذا كان عمَّا يَبْلُغُ العِلْمُ قاصِرا

ليس بطائل: لا فائدة منه

كما أنَّ هذا العلمَ ليس بِنافِعٍ　　إذا لم تكنْ فيهِ النُّفوسُ حَرائرا

وإلَّا فعصرُ الجَاهِلِيَّةِ قبلَنا　　له السبْقُ في تَكريمِ مَن كان شاعرا

٣١ الغربال

خليليَّ إنَّ الأرضَ غِربالُ قُدْرَةٍ　　تَجَمَّعَتِ الأَحياءُ ضِمنَ إطارِهِ

الأرض كغربال كبير يفحص القدرة، قدرة كل فرد على الصمود في المعترك، وكل الأحياء ضمن إطاره.. والبقاء للأصلح

فلا عيشَ في الدنيا لمنْ لم يكنْ بها　　قديراً على دفعِ الأذى والمَكارِهِ

فمن لم يكن ذا قدرة على دفع الأذى والمكروه عنه سقط من خروم الغربال ومات

ومَن لم يُهِنْ صَرفَ الزمانِ بِرحلَةٍ　　تُهِنْهُ صروفُ الدهرِ في عُقْرِ دارِهِ

من لم يوجه إهانة إلى مصائب الدهر بأن يرحل ليبحث عن تحقيق ذاته فإن المصائب تأتيه لتهينه في عقر داره، في وسطها

ومَا شَرُفَ الدُّرُّ الثمينُ فَريدُهُ　　إذا هُوَ لم يَبْرَحْ بُطونَ مَحارِهِ

لا يصبح اللؤلؤ الذي فريده ثمين، أي حباته الكبيرة ثمينة، لا يصبح شريفاً إلا إذا غادر داره وهي بطن المحار، أي الصدف

أرى كلَّ ذي فَقْرٍ لدى كلِّ ذي غِنىً　　أجيراً له مستخدَماً في عَقارِهِ
ولم يُعطِهِ إلَّا اليسيرَ وإنما　　على كَدِّه قامتْ صُروحُ يَسارِهِ

ينال الفقير يسيراً من المال مع أن صروح الغِنى واليسار، قصوره، قامت على تعب الفقير

لَعَمرُكَ إنَّ الدهرَ يَجري لِغايَةٍ　　فإن شئتَ أن تحيا سعيداً فَجارِهِ

وليستْ حياةُ الناسِ إلَّا كالنَّهْرِ في إيبَاسِهِ واخضِرارِهِ

وما الناسُ إلَّا الماءُ يُحييهِ جَرْيُهُ　　ويُرْدِيهِ مُكْثٌ دائمٌ في قَرارِهِ

الماء الجاري يكون نظيفاً حياً صالحاً للشرب والراكد يرديه، أي يميته، ركوده. والقاعدة العلمية هي العكس، فالماء الجاري يموت فيها الطحلب، أما الماء الراكد فتعيش به مخلوقات كثيرة

٣٢ الملاعق

وكم مُدَّعٍ فضلَ التمدُّنِ ما له　　مِن الفضلِ إلَّا أكْلُهُ بالمَلاعِقِ
وقد تُعرِضُ الأَسْماعُ عن ذي فَصاحةٍ　　وتُصْغي إلى ذي اللُّكْنَةِ المُتَشادِقِ

ذو اللكنة، العيي السيء النطق، المتشادق: الذي يحرك شدقيه أي جانبي فمه متفاصحاً

وألْطَفُ جَوْرِ الدهرِ جَوْرٌ نَرى بِه　　تَدَلُّلَ معشوقٍ وذلَّةَ عاشِقِ

جور: ظلم

نَفَضْتُ مِن الدنيا يَدَيَّ لِأنَّني　　تعرَّفْتُ منها مَا بها مِن خَلائِقِ

الخلائق: الصفات

ولي عندَ إخوانِ الصَّفا أرْيَحِيَّةٌ　　إلى كلِّ خِلٍّ في الزمانِ مُوافِقِ
إذا ما عَقَدنا مجلسَ الأُنسِ بالطِّلا　　فَبَيْني وبين السُّكْرِ خَمْسُ دقائقِ

فأَقْرَعُ بالكأسِ الرَّوِيَّةِ جَبْهَتي　　بِشُرْبٍ كما عَبَّ القَطا مُتَلاحِقِ

الروية: الملآنة، وطير القطا، وهو كحمامة سمينة، يشرب ويرفع رأسه مرة بعد مرة بشكل متلاحق

أُسابِقُ نُدماني إلى السُّكْرِ طائِراً بِجِنْحٍ مِن الأُنْسِ المُضاعَفِ خَافِقِ

يسابق الندماء إلى الشرب مسرعاً كأنه يطير بجناح خافق، وما هذا الجناح سوى الأنس والفرح

فما هِيَ إلَّا بعدَ شُربي سُوَيْعَةً وقد دَبَّ مِن رأسِي الطِّلا في المَفَارِقِ

فَنادَمْتُ أصحابي على غيرِ حِشْمَةٍ وقلتُ لَهُمْ ما قلتُ غيرَ مُنافِقِ

على السكر تزيد صراحته ويقول ما في قلبه

تعوَّدْتُ سَبْقي في الفَخارِ فلم أُرِدْ مِن السُّكْرِ أنْ أَحْظى به غيرَ سَابِقِ

لكثرة ما تعودت أن أكون سباقاً إلى المكارم صرت لا أستطيع أن أحظى بالشرب إلا سابقاً غيري

كما اعتَادَ سَبْقاً في المكارِمِ خَزْعَلٌ بلا سابقٍ فيها عليهِ، ولاحِقِ

إذا سارَ سارَ المجدُ في طَيِّ بُرْدِه يُرافِقُهُ، أَكرِمْ بهِ مِن مُرافِقِ

الشيخ خزعل والمجد يسيران معاً. وكان الشيخ خزعل محسناً لشاعرنا

فَيرحَلُ مِنْ أَنْسابِه في مَواكِبٍ وينزِلُ مِن أحسابِه في سُرادِقِ

يسير ويسير نسبه العريق معه كأنه في موكب لعظمة نسبه، وينزل فينزل معه حسبه، شرفه، فلا يكاد يسعه السرادق، الخيمة الكبيرة

وإنْ جاءَ أَغْضَى مَن رآهُ تَهَيُّباً سوى نظرٍ منهُمْ بِعَيْنَيْ مُسارِقِ

إن جاء خزعل غض الناس أبصارهم لهيبته، فلا ينظر الناظر إليه إلا باستراق النظر

جَوادٌ إذا استَمْطَرْتَه جادَ كَفُّهُ بِأَغْزَرَ مِن وَبْلِ الغُيومِ الدَّوافِقِ

إذا طلبت منه العطاء كان سخياً وكفه أغزر من وبل، مطر، الغيوم المتدفقة

٣٣ الضرب بالنعل

سَبَرْتُ زماني بِالنُّهَى ومَخَضْتُهُ بِتجرِبتي حتى تجلَّتْ عَواقِبُهْ

سبرت زماني: قست عمقه واختبرته، بالنهى: بالعقل، ومخضته: فحصته فحصاً دقيقاً

ولم أستشِرْ في الناسِ إلَّا تَجارِبي وهل يَصْدُقُ الإنسانَ إلَّا تَجارِبُهْ

أَلا رُبَّ شيطانٍ مِن الإِنْسِ قد غدا يُخاتِلُني خَلْساً وعَيني تُراقِبُهْ

يخاتلني: يخدعني

فقلتُ له اخْسَأْ إنَّما أنتَ خَائِبٌ وقبلَكَ أَعْيا الجِنَّ ما أنتَ طَالِبُهْ

فَولَّى على الأعقابِ يَحْبُو وقد دَرى، ولِلَّهِ دَرِّي، أَنَّني أنا غَالِبُهْ

فَأَتْبَعْتُه مِنِّي شِهابَ تَسامُحٍ يَشُقُّ ظلامَ الجَهلِ بِالحِلْمِ ثَاقِبُهْ
يشبه حِلمه وتسامحه بالشهاب الثاقب، أي المتوقد

ولو شئتُ أرسَلْتُ الخَديعَةَ خَلْفَهُ تُطارِدُهُ حتى تَضيقَ مَذاهِبُهْ
ولكنْ أَبَى مِنِّي الخِداعَ مُهَذَّبٌ تعوَّدَ فِعلَ الخيرِ مُذْ طُرَّ شَارِبُهْ
رفض الخداع مني، أي شخصاً أنا هو، مهذب تعوّد فعل الخير مذ طر، نبت، شاربه

وذي سَفَهٍ أَغضَيْتُ عنه تكرُّماً فَدَبَّتْ على رِجْلَيَّ غدْراً عَقَارِبُهْ
فقمتُ له بِالنَّعْلِ ضَرْباً، فلم تَزَلْ يَدايَ بهِ حتى اطْمَأَنَّتْ غَوارِبُهْ
اطمأنت غواربه: هبطت أمواجه، أي سكن وهدأ

٣٤ طريد بغداد

لقد طَوَّحَتْنِي في البلادِ مُضاعَا طَوائِحُ جاءتْ بِالخُطوبِ تِباعا
طوحتني: رمتني بعيداً

فبارَحْتُ أرضاً ما مَلأْتُ حقائِبي سوى حبِّها عند البِراحِ مَتاعا
البراح: المغادرة والفراق

عَتَبتُ على بغدادَ عَتْبَ مُوَدِّعٍ أَمَضَّتْه فيها الحادثاتُ قِراعا
أمضته الحادثات قراعاً: آلمته المصائب وهو يقارعها ويحاربها

أَضاعَتْنِيَ الأيامُ فيها، ولو دَرَتْ لَعَزَّ عليها أن أكونَ مُضاعا
فيها: أي في بغداد

ولو شئتُ كَايَلْتُ الذين انطَوَوْا بِها عَلى الحِقدِ صاعاً بِالعَداءِ فَصاعا
كايلتهم صاعاً فصاعاً: رددت عليهم بالمثل، والصاع كيل قديم

على أنَّني دَارَيْتُ ما شاءَ حِقدَهُمْ فلم يُجْدِ نَفعاً ما أَتيتُ وضاعا
داريت كيدهم ما شاء الله لي.. لكن سدى

وأَشقَى الورى نَفساً وأَضْيَعُهُمْ نُهىً لَبيبٌ يُداري في نُهاهُ رَعاعا
النهى: العقل

تَركتُ مِن الشعرِ المديحَ لأهلِه ونزَّهتُ شِعري أنْ يكونَ قَذَاعا
القذاع: الشتم والتعيير

وأَرسَلْتُه عفْواً فجاءَ كما تَرى قَوافِيَ تَجتَابُ البلادَ سِراعا
كَأنِّي وقد جَدَّ الفِراقُ سَفينةٌ أَشالَتْ على الريحِ الهَجومِ شِراعا

كأني سفينة أشالت، رفعت، شراعها لتستقبل الريح الهاجمة

فمالَتْ بها الأَرْوَاحُ والبحرُ مائجٌ وقد أَوْشَكَتْ أَلواحُها تَتَداعى

الأرواح: الرياح

فَتَحْسَبُني مِن هَزَّةٍ فِيَّ أَفْدَعاً تَرقَّى هِضاباً زُلْزِلَتْ وتِلاعا

تحسبني وأنا في غربتي، وكأني راكب سفينة تتقاذفها الأمواج، أفدعَ، ملتوي الأقدام، يتضعضع كأنه يترقى ويصعد هضاباً وتلاعاً، تلالاً، ضربها الزلزال

فما أنا إلَّا قَوْمَةٌ وانْحِنَاءَةٌ وسِرٌّ أذاعَتْهُ الدموعُ فَذاعا

فأنا بعد التضعضع أقوم ثم أنحني.. ومشاعري سر لكن دموعي تفضحه

٣٥ الحكم العسكري

نَفضتُ يديَّ مِن أبناءِ دهرٍ أهانُوا الشَّهْمَ واحتَرمُوا الزَّرِيَّا

الزري: المستحق للاحتقار والازدراء

وقلَّ حياؤُهُمْ حتى رأيْنا ظَنينَ القومِ يَتَّهِمُ البَرِيَّا

الظنين: أخو الشبهات، المطعون في سلوكه

تقلَّدَتِ السيوفَ رُعاةُ مَعْزٍ وكانتْ قبلُ تَحتَمِلُ الهُرِيَّا

تحتمل الهري: تحمل العصيّ

وكيفَ تُساسُ مَملَكَةٌ بِعدلٍ إذا ما الحكمُ أصبحَ عَسكَرِيَّا؟

٣٦ العلم المفيد

اِبْنُوا المدارسَ واسْتَقْصُوا بِها الأَمَلا حتى نُطاوِلَ في بُنيانِها زُحَلا

سِيرُوا إلى العلمِ فيها سَيْرَ مُعتَزِمٍ ثم اركَبُوا الليلَ في تحصيلِه جَمَلا

اركبوا في تحصيل العلم الليل، تقطعونه بالدرس، اركبوه كأنه جمل

لا تَجْعَلُوا العلمَ فيها كلَّ غَايَتِكُمْ بل علِّمُوا النَّشْءَ عِلْماً يُنتِجُ العَمَلا

وجَنِّبُوهُمْ على فَعْلٍ مُعَاقَبَةً إنَّ العِقابَ إذا كَرَّرْتَهُ قَتَلا

فَجَيِّشُوا جَيشَ عِلْمٍ مِن شَبيبَتِنا   عَرمْرَماً تَضرِبُ الدنيا به المَثَلا

العرمرم: الجيش الكبير

وإنْ غَزا مُستَظِلّاً ظِلَّ رايَتِه   هَزَّ البلادَ وأَحْيا الأَعْصُرَ الأُوَلا

إنّا لَمِنْ أُمَّةٍ في عهدِ نَهضَتِها   بالعلمِ والسيفِ قَبْلاً أنشَأَتْ دُوَلا

ماذا تقولونَ في نَقْدِي مَناهِجَكُمْ   وقد كَفَيْتُكُمُ التفصيلَ والجُمَلا؟

نقدت المناهج حتى كفيتكم التفصيل والإجمال

وأَيُّ نَفعٍ لِمَنْ يأتِي مَدارِسَكُمْ   إنْ كانَ يَخْرُجُ منها مِثلَما دَخَلا؟

٣٧ الدور قبوراً

إذا ما عَقَّ مَوطِنَهُمْ أُناسٌ   ولم يبنُوا به لِلعلمِ دُورا

فإنَّ ثِيابَهُمْ أكفانُ موتَى   وليس بُيوتُهُمْ إلّا قُبورا

٣٨ كذبة الدهر

كم كَذَّبَ الدَّهرُ في فَعائِلِهِ   وسُؤْدَدُ الجاهِلينَ مِنْ كَذِبِهْ

الدهر يكذب، ومن بعض أكاذيبه نيل الجاهلين مواقع السيادة

٣٩ التخصص

أَطعِمِ العقلَ ما اشتهاهُ مِن العِلـ   ـمِ وإلّا اسْتَقَأْتَ مِن سُوءِ هَضْمِ

استقأت: تقيأت

لَيس في أَرْؤُسِ الرِّجالِ دِماغٌ   هاضِمٌ في ذَكائِهِ كُلَّ عِلْمِ

فَمِنَ النقصِ أن تُحاوِلَ أنْ تَضْـ   ـربِ في كلِّ ذي العُلومِ بِسَهْمِ

أَوَلَيسَ البدْرُ التَّمامُ، وإن كا   نَ وَحيداً، يَربُو على أَلْفِ نَجْمِ

٤٠ نَشيد لعبد الحميد

سَكَنّا مِن جَهالَتِنا بِقاعا   يَجورُ بها المُؤَمَّرُ ما استَطاعا

المؤمر: المجعول أميراً

فكِدْنا أن نموتَ بها ارتِياعا   فَهَبْنا أُمَّةً هَلَكَتْ ضَياعا

تَـوَلَّـى أمـرَهـا عـبـدُ الـحـمـيـدِ

* * *

أيـا حُـرِّيَّـةَ الـصُّـحُـفِ ارْحَـمِـينـا فَـإنَّـا لـم نَـزَلْ لـكِ عـاشِـقـيـنـا
متى تَـصِـلـيـنَ كـيـمـا تُـطْـلِـقِـينـا عِـدِيـنـا فـي وِصَـالِـكِ وامْـطـلِـينـا

متى تصلين إلينا حتى ننطلق.. قدمي لنا وعداً بالوصال أيتها المعشوقة، ثم امطلينا، كوني مماطِلة

فـإنَّـا مِـنـكِ نَـقْـنَـعُ بِـالـوُعـودِ

* * *

تَـنَـعَّـمْ فـي قُـصـورِكَ غـيـرَ دَارِ أَعـاشَ الـنـاسُ أَمْ هُـمْ فـي بَـوَارِ

بوار: هلاك

فـإنَّـكَ لـم تُـطـالَـبْ بِـاعـتِـذَارِ وَهَـبْ أنَّ الـمَـمـالِـكَ فـي دَمـارِ
أَلـيـس بِـنـاءُ يِـلْـدِزَ بِـالـمَـشـيـدِ

يِلدز: قصر السلطان عبد الحميد في إستانبول

٤١ دخان ولهيب

إنْ كَلَّفَتني السُّكارَى شُرْبَ خَمْرَتِهِمْ شَرِبْتُ لكنْ دخاناً مِن سِكَاراتي

سكاراتي: سيجاراتي، وفي العراق يكتبون القاف البدوية كافاً، وفي مصر جيماً، وفي بلاد الشام يتحيرون، وفي الخليج يكتبونها قافاً فيقولون عن اللفافة زقارة

إنّـي لَأَمْـتَـصُّ جَـمـراً لُـفَّ فـي وَرَقٍ إذْ تَـشـرَبـونَ لـهـيـبـاً مِـلْءَ كـاسـاتِ

٤٢ تحريم الغناء

رَطِّـبْ حَـيـاتَـكَ بِـالـغِـنـاءِ إذا عـرا هَـمٌّ يُـجَـفِّـفُ فـي الـحُـلـوقِ الـرِّيـقـا

عرا: اعترى، وجاء مفاجئاً

واتْـرُكْ مُـجـادَلَـةَ الـذيـن تَـوَهَّـمُـوا هَـزَجَ الـغِـنـاءِ خَـلاعَـةً وفُـسـوقـا
أَفـأَنْـتَ أَغـلَـظُ مُـهْـجَـةً مِـن نُـوقِـهِـمْ فـقـد اسـتَـحَـثُّـوا بِـالـحُـداءِ الـنُّـوقـا

الحداء: الغناء للإبل

أَرقَـى الـشـعـوبِ تـمـدُّنـاً وحَـضـارَةً مَـن كـانَ مِـنـهُـمْ فـي الـفـنـونِ عـريـقـا

٤٣ الاستهلاك

أَوَمـا تَـرى أهـلَ الـبـلادِ تَـقَـيَّـدوا　　لِـلـغـربِ مِـن حـاجـاتِـهِـمْ بِـقـيـودِ!
الغربُ يَكسُوهُمْ مَلابِسَ هُمْ بِها　　يَـعْـرَوْنَ مِـن مـالٍ لـهُـمْ ونُـقـودِ
وتَـراهُ يَـسْـلَـخُـهُـمْ بِـمصـنُـوعـاتِـه　　سَلْخَ الشِّياهِ، فَهُمْ بِغَيرِ جُلودِ
هَـذي سَـفـائِـنُـهُـمْ تَـروحُ وتَـغـتَـدي　　بِـبـضـائـعٍ لـم تُـحْـصَ بـالـتَّـعـديـدِ
فَـكـأنَّـمـا هِـيَ لامْـتِـصـاصِ دِمـائِـنـا　　بعضُ المَحاجِمِ أو كبعضِ الدُّودِ

تمتص بضائعهم دمنا كما تمتصه المحاجم، المحجم أداة فصد الدم في الحجامة، أو الدود، العَلَق الذي يستخدمه المعالجون في امتصاص الدم

مَـن كـانَ مَـحـلُـولَ الـعُـرا فـي مَـالِـه　　وَجَـبَ انْـحِـلالُ لِـوائِـهِ الـمَـعـقُـودِ

من لم يحسن القيام على الميزانية وجب أن يتخلى عن حمل اللواء وقيادة البلد

٤٤ التمويه

دَعِ الأُنـاسِـيَّ وانْـسُـبْـنـي لِـغَـيْـرِهِـمُ　　إن شئتَ لِلشَّاءِ، أو إن شئتَ لِلبَقَرِ
فـإنَّ فـي الـبَـشَـرِ الـرَّاقـي بِـخِـلْـقَـتِـه　　مَـن قـد أَنِـفْـتُ بِـه أَنِّـي مِـن الـبـشـرِ
وأَشنَعُ الكِذْبِ عندي ما يُمازِجُهُ　　شَيْءٌ مِن الصدقِ تمويهاً على الفِكَرِ
فـإِنَّ إِبـطـالَ هـذا فـي الـنُّـهَـى عَـسِـرٌ　　وليس إِبطالُ مَحْضَ الكِذْبِ بِالعَسِرِ

٤٥ تلخيص «رأس المال»

كُـلُّ مـا فـي الـبـلادِ مِـن أَمـوالِ　　لـيـس إِلَّا نـتـيـجـةَ الأَعـمـالِ

تلخيص حسن للنظرية الماركسية في القيمة المضافة: قيمة كل سلعة هي مقدار ما وُضع فيها من عمل. وسيبدو في الأبيات المقبلة أن الرصافي كان يصدر عن إلمام بالنظرية الماركسية

عـنـدنـا الـيـومَ لِـلـحـيـاةِ نـظـامٌ　　قـد حَـوى كـلَّ بـاطـلٍ ومُـحـالِ
حيثُ يَسعى الفقيرُ سَعْيَ أَجيرٍ　　لِـغَـنِـيٍّ مُـسْـتـأْثِـرٍ بِـالـغِـلالِ
وتَرى الغَائِصينَ في البحرِ أَمْسَى　　لِـسِـواهُـمْ مـا أَخْـرَجُـوا مْـن لآلِ

لآل: لآلئ

أكـثـرُ الـنـاسِ يـكـدَحُـونَ لِـقـومٍ　　قَـعَـدُوا فـي قُـصـورِهِـمْ والـعَـلالـي
إنَّـمـا الـحـقُّ مَـذهَـبُ الاشـتِـراكِـيَّـ　　ـةِ فـيـمـا يَـخْـتَـصُّ بِـالأمـوالِ

مَـذهَـبٌ قـد نَـحـا إلـيـهِ أَبُـو ذَرٍّ - قَـديـمـاً فـي غـابِـرِ الأجـيـالِ

أبو ذر الغفاري: من الصحابة، وزهد ودعا إلى التسوية بين الناس في العطاء

ليس فَرضُ الزَّكاةِ في الشَّرعِ إلَّا خُـطْـوَةً نَـحـوَ مـبـتَـغـاهُ الـعـالـي

الزكاة خطوة أولى نحو هذا المذهب: الاشتراكية

مـــا رُؤوسُ الأمـــوالِ إلَّا أداةٌ لِـلـمَـسـاعـي كَـالـحَـبـلِ لِلْأَحْـمـالِ

رؤوس الأموال أداة لتشغيل الناس ودوران عجلة الاقتصاد وليست للتخزين والكنز

أيُّـهـا الـعـامِـلـونَ إنَّ اتّـحـاداً بَـيْـنَـكُـمْ مُـرخِـصٌ لَـكُـمْ كـلَّ غَـالِ

وقال البيان الشيوعي: «يا عمال العالم اتحدوا»

فَليكُنْ بعضُكُمْ لِبعضٍ نصيراً ومُـعـيـنـاً لـه عـلـى كـلِّ حـالِ

٤٦ الازدراد

أَكَبَّ علـى الـخِـوانِ وكـانَ خِـفَّـاً فـلـمَّـا قـامَ أثـقَـلَـهُ الـقِـيـامُ
ووالـى بـيـنَـهـا لُـقَـمـاً ضِـخَـامـاً فـمـا مَـرِئَـتْ لـه الـلُّـقَـمُ الـضِّـخَـامُ
وعـاجَـلَ بَـلْـعَـهُـنَّ بِـغـيـرِ مَـضْـغٍ فَـهُـنَّ بِـفـيـهِ وَضْـعٌ فـالـتِـهـامُ
فـضـاقَـتْ بَـطـنُـهُ شِـبَـعـاً وشَـالَـتْ إلـى أنْ كـادَ يَـنـقَـطِـعُ الـحِـزامُ
فـأرْسَـلْـتُ الـلِّـحـاظَ إلـيـهِ شَـزْراً وقـلـتُ لـه: رُوَيْـدَكَ يـا غُـلامُ
أرى الـلُّـقْـمـاتِ تـأخُـذُهـا حَـلالاً فـتَـدخُـلُ فـاكَ وَهْـيَ بِـه حَـرامُ
فـلا تـأكُـلْ طَـعـامَـكَ بِـازْدِرادٍ مُـعـاجَـلَـةً فَـيـأْكُـلْـكَ الـطَّـعـامُ
طَـعـامُ الـنـاسِ أَعْـجَـبُ ما أَحَـبُّـوا فـمْـنـه حـيـاتُـهُـمْ وبـه الـحِـمـامُ

أعجب الأشياء التي يحبها الناس الطعام، فمنه يحيون وبه يموتون

ولـو أنِّـي اسـتَـطَـعْـتُ صِـيـامَ دَهـرِي لَـصُـمْـتُ فَـكـانَ دَيْـدَنِـيَ الـصِّـيـامُ

ديدني: عادتي

ولـكِـنْ لا أصـومُ صِـيـامَ قَـومٍ تَـكـاثَـرَ فـي فُـطُـورِهِـمُ الـطَّـعـامُ
ونـامُـوا مُـتْـخَـمِـيـنَ عـلـى امـتِـلاءٍ وقـد يَـتَـجَـشَّـأُونَ وَهُـمْ نِـيـامُ

يتجشأ: يخرج فقاعة هواء من بطنه.. يخرجها من فمه بصوت

فـقـلْ لِـلـصَّـائِـمـيـنَ أداءَ فَـرْضٍ ألا مـا هـكَـذا فُـرِضَ الـصِّـيـامُ

٤٧ إلى الصديق اللدود

أرى بـغـدادَ مِـن بـعـدِ اغـبـرارٍ زَهَـتْ بِقُدومِ شـاعـرِهـا الـزَّهـاوي
ومـا الآدابُ فـي بـغـدادَ لـولا يَـراعُ جـمـيـلِـهـا إلَّا دَعَـاوِ

يراع: قلم، دعاوٍ: ادعاءات

إذا مـا قـالَ فـي بـغـدادَ شـعـراً رَوَاهُ لـه بِـأقـصَـى الأرضِ راوِ

٤٨ أبناء إماء

لقد غَمَطُوا حقَّ النساءِ فَشَدَّدُوا عليْهِنَّ في حبسٍ وطولِ ثَواءِ

غمطوا الحق: لم يقروا به، طول ثواء: طول إقامة

وقد أَلزَمُوهُنَّ الحجابَ وأنكروا عـلـيْـهِـنَّ إلَّا خَـرْجَـةً بِـغِـطـاءِ
أَهـانُوا بِهِنَّ الأمَّهاتِ فأصبحوا بـمـا فـعـلـوا مِـن أَلأَمِ الـلُّـؤَمـاءِ
ولـو أَنَّـهُـمْ أَبْقَوْا لَـهُـنَّ كـرامـةً لَكـانـوا بِـمـا أَبْقَوْا مِـن الـكُـرمـاءِ
ألـم تَـرَهُـمْ أَمْسَوْا عـبـيـداً لِأَنَّـهُـمْ على الذُّلِّ شَبُّوا في حُجُورِ إِماءِ

صار رجالنا عبيداً للأجنبي لأنهم تربوا في حجور، أحضان، نساء هن كالإماء، الجواري

وهانَ عليْهِمْ حين هانَتْ نِساؤُهُمْ تَحَمُّلُ جَوْرِ السَّاسَةِ الغُرباءِ
أَيَسْعَدُ مَحْياكُمْ بِغيرِ نِسائِكُمْ وهـل سَعِدَتْ أرضٌ بِغيرِ سَماءِ

المحيا: الحياة

وما العارُ أنْ تَبدُو الفتاةُ بِمَسْرَحٍ تُـمَـثِّـلُ حَـالَـيْ عِـزَّةٍ وإبـاءِ
ولـكـنَّ عـاراً أنْ تَـزَيَّـا رجـالُـكُـمْ عـلـى مـسـرحِ الـتـمـثـيـلِ زِيَّ نِـسـاءِ

٤٩ النعجة والذئب

قُلْ لِلأُلى ضَرَبُوا الحِجابَ على النِّسا أَفتعلَمُونَ بما جَرى تحتَ العَبا؟
شَرَفُ الـمـلـيـحـةِ أن تـكـونَ أديـبـةً وحـجـابُـهـا فـي الـنـاسِ أنْ تَـتَـهَـذَّبـا
والـوَجْـهُ إن كـانَ الـحـيـاءُ نِـقَـابَـهُ أَغـنَـى فـتـاةَ الـحَـيِّ أنْ تَـتَـنَـقَّـبـا
والـلُّـؤْمُ أَجـمـعُ أن تـكـونَ نِـسـاؤُنـا مـثـلَ الـنِّـعـاجِ، وأنْ نـكـونَ الأَذْؤُبـا

٥٠ الذين واللواتي

هِيَ الأخلاقُ تَنبُتُ كالنباتِ ... إذا سُقِيَتْ بماءِ المَكْرُماتِ
ولم أَرَ لِلخلائِقِ مِن مَحَلٍّ ... يُهَذِّبُها كَحِضْنِ الأُمَّهاتِ
فَحِضْنُ الأُمِّ مدرسةٌ تَسامَتْ ... بتربِيَةِ البَنينَ أو البناتِ
وقالوا شِرْعةُ الإسلامِ تَقضي ... بتفضيلِ الذين على اللواتي
وقالوا إنَّ مَعنى العلمِ شيءٌ ... تَضيقُ به صدورُ الغانياتِ
أليسَ العِلْمُ في الإسلامِ فرضاً ... على أبنائِهِ، وعلى البناتِ؟
وكانتْ أُمُّنا في العلمِ بَحراً ... تَحُلُّ لِسائِليها المشكلاتِ

أمنا: أم المؤمنين عائشة

ألم نَرَ في الحِسانِ الغيدِ قَبلاً ... أَوَانِسَ كاتِباتٍ شاعِراتٍ؟
وقد كانتْ نساءُ القومِ قِدْماً ... يَرُحْنَ إلى الحروبِ مع الغُزَاةِ

يرحن: أراد يذهبن

لَئِنْ وَأَدُوا البناتِ فقد قَبَرنا ... جميعَ نِسائِنا قبلَ المماتِ

الجاهليون وأدوا البنات ونحن قبرنا النساء بإبقائهن في البيوت أو بالحجاب

حَجَبْناهُنَّ عن طَلَبِ المعالي ... فعِشْنَ بِجَهْلِهِنَّ مُهَتَّكاتِ
ولو عَدِمَتْ طِباعُ القومِ لُؤْماً ... لَمَا غَدَتِ النساءُ مُحَجَّباتِ
فِدىً لِخَلائِقِ الأَعرابِ نَفسي ... وإن وُصِفُوا لدينا بِالجُفاةِ
فكَمْ بَرَزَتْ بِحَيِّهِمُ الغَواني ... حَواسِرَ غيرَما مُتَرَيِّباتِ

حواسر: كاشفات الشعر، غيرما متربيات: غير واقعات في شبهة أو ريبة

٥١ أَمة ومحبوسة

لم أَرَ بينَ الناسِ ذا مَظْلَمَةْ ... أَحَقَّ بِالرَّحْمَةِ مِن مُسْلِمَةْ
مَنقُوصَةٌ حتى بِميراثِها ... محجوبةٌ حتى عن المَكْرُمَةْ
قد جَعَلُوا الجهلَ صِواناً لها ... مِن كلِّ ما يَدعُو إلى المَأثَمَةْ

صواناً: حافظاً صائناً

والعلمُ أعلى رُتبةً عندَهُمْ ... مِن أنْ تُلَقَّاهُ وأن تَعْلَمَهْ

مـا تَـصـنـعُ الـمـرأةُ مَـحـبُـوسَـةً في بيتِها إن أَصبحتْ مُعْدِمَةْ
كـم فـي بـيـوتِ الـقـومِ مِـن حُـرَّةٍ تَـبـكـيِ مِـن الـبُـؤْسِ بِـعَـيْـنَـيْ أَمَـةْ

٥٢ نحن السفوريين

نـحـنُ الـسُّـفُـورِيِّـيـنَ أَعْـلَـمُ بـالـذي شَـرَعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدٌ مِـن دِيـنِ
أَيَـكـونُ مـا شَـرعَ الـنـبـيُّ مـحـمـدٌ شيئاً يـخـالِـفُ شِـرعَـةَ الـتَّـمْـدِيـنِ؟

٥٣ يا شعبي الضائع

قالها والعراق تحت الحكم العثماني:

أَمَا آنَ أن يَغْشَى البلادَ سُعودُها ويذهبَ عن هذي النِّيامِ هُجُودُها

يغشى: يغطي، سعودها: حظها الحسن، هجودها: نومها

بَـرِئْـتُ إلـى الأحـرارِ مِـن شَـرِّ أُمَّـةٍ أَسـيـرةِ حُـكَّـامٍ ثِـقـالٍ قُـيـودُهـا
جَرى الجَوْرُ منها في بلادٍ وَسيعَةٍ فضاقَتْ على الأَحرارِ ذَرعاً حُدودُها
عـجبتُ لِقومٍ يـخضَعونَ لِدولةٍ يَسُوسُهُمُ بالموبِقاتِ عَميدُها
وأَعـجَبُ مِن ذا أَنَّهُمْ يَرهَبُونَها وأموالُها مِنهُمْ، ومِنهُمْ جُنودُها
وصارتْ لِئامُ الناسِ تَعلُو كِرامَها وعابَ لبيداً في النَّشيدِ بَليدُها

صار اللئام يرتفعون فوق الكرام، وصار البليد يعيب في الشعر لبيداً الشاعر المشهور

ومَـا ثُـلَّـةٌ قـد أهـمَـلَـتْـهـا رُعـاتُـهـا بِمَأْسَدَةٍ جاءَتْ لِعَشْرٍ أُسودُها..

الثلة: قطيع الغنم، المأسدة: أرض كثرت أسودها، جاءت لعشر: مضت عليها عشرة أيام بلا طعام..

فـبـاتَـتْ ولا راعٍ يُـحـامـي مَـراحَـهـا فَرائِسَ بين الضَّارِياتِ تُبيدُها..

بات القطيع بلا راع يحمي مراحه، أرضه، فأصبح فرائس تفترسها الأسود الضارية، المفترسة

بِأَضْيَعَ مِنكُمْ حيثُ لا ذو شَهامَةٍ يَـذِبُّ الـرَّزَايـا عـنـكُـمُ ويَـذُودُهـا

ليست هذه الأغنام أشد ضياعاً منكم إذ لا شهم يذب الرزايا، يدفع المصائب ويذودها، يبعدها عنكم

٥٤ الإسلام ذنباً

أيـهـا الـمـسـلـمونَ لَسْتُمْ مِن الـغـرْ بِ بِـحـالٍ تَـسْـتَـوْجِـبـونَ احـتـرامـا

وإذا ما فعلتُمُ الخيرَ يوماً حَسِبُوهُ جِنايةً وأثاما
وإذا ما افترى عليكُمْ عَدُوٌّ أيَّدُوهُ وصَدَّقُوا الأوْهَاما
وإذا ما جَنَى عليكُمْ أُناسٌ سَكَتُوا عنهُمُ ومَرُّوا كِراما

مرور الكرام: أي المرور بلا اهتمام. المعنى مأخوذ من صفة الكريم النفس الذي يرى الخطأ فيمر به بلا تأنيب لصاحبه

كم بِأَرضِ البلقانِ منكُمْ قتيلٍ وأَيَامَى مُضَاعَةٍ ويَتامى

أيامى: أرامل.. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى تفككت الدولة العثمانية وخلفت في مناطق البلقان حيث كانت تحكم كثيرين من المسلمين يتعرضون للأذى

رَحِمَ اللَّهُ أُمَّةً أصبحَ الغَر بُ يَرى كلَّ ذنبِها الإسلاما

٥٥ وعود العروبيين

عجبتُ لِقومٍ أصبحُوا يُنكِرونَنا وقد عَرفونا في الزمانِ الذي مَرَّا
هُمُ أسمَعُونا نُعْرَةً عَربيَّةً فَدَوَّى صَداها في المَسامِعِ مُصْطَرَّا

نعرة: عصبية وحماسة للنسب، مصطر: مصطخب. ينتقد العروبيين

فكمْ مِن خطيبٍ قامَ فيها مُثَرثِراً فَطَرَّى لنا مِن يابِسِ القولِ ما طَرَّى
وكم شاعرٍ قد أَرخَصَ الشعرَ دونَها وكم قلمٍ فوقَ الطُّرُوسِ بِها صَرَّا

كم من شاعر بذل شعره رخيصاً في سبيل الدعوة للعروبة، وكم قلم قد سُمع له صرير فوق الطروس، الأوراق، وهو يشيد بها، بالنعرة العروبية

وكُنَّا أَجَبْناهُمْ إليها إجابَةً بها قد تَرَكْنا جانبَ الدِّينِ مُزْوَرَّا

وقد تفاعلت ـ يقول الرصافي ـ مع تلك الدعوات، مخالفاً بذلك الرابط الديني الذي يربطني بالدولة العثمانية

رجاءَ اتِّحادٍ في طَريقِ سياسةٍ تَعُمُّ مَراميها بني يَعْرُبٍ طُرَّا

جاريتهم رجاء التوحد في سياسة تعم مراميها، أغراضها، العرب طراً، جميعاً

فمُذْ حانَ أنْ يَخْضَلَّ غُصْنُ اعتِزازِنا ويَرتَعَ بَعدَ اليَبْسِ رَطْباً ويَخْضَرَّا..

منذ أن حان الوقت ليخضل، ليبتل بالندى، غصن اعتزازنا ويخضر..

نَصَبْنا خَياشِيمَ الرَّجاءِ لِريحِهِمْ فهبَّتْ لنا نَكباءَ عاتِيَةً صِرَّا

نصبنا أنوفنا راجين أن نشم رائحة طيبة، فهبت علينا ريح نكباء، مخربة، صِرٌّ، باردة

٥٦ رويدك غورو!

رُوَيْدَكَ، غُورُو، أيُّهَذا الجُنَيْرالُ   فقد آلَمَتْنا مِن خِطَابِكَ أقوالُ

دخل الجنرال غورو دمشق وألم بقبر صلاح الدين ورفسه وقال: «قم فقد عدنا يا صلاح الدين، ووجودي هنا إيذان بانتصار الصليب على الهلال» العبارة في ص٣٥٩ من كتاب «غزو الشرق الأوسط الحديث» لماير وبرايزاك

ذكرتَ لنا الحربَ الصَّلِيبِيَّةَ التي   بها اليومَ قد تَمَّتْ لِقومِكَ آمالُ

ولو أنَّنا قُلنا كما أنتَ قائِلٌ   لَأَنحى علينا بالتَّعَصُّبِ عُذَّالُ

أنحى بالتعصب: اتهم بالتعصب

وقالوا لنا أنتُمْ أُولُو جاهليَّةٍ   وإن خالفوا وجْهَ الصَّوابِ بِما قالوا

فقد قادَتِ الأعرابُ نحوَ عَدُوِّكُمْ   خُيولاً لها في حَوْمَةِ الحربِ تَجْوالُ

الأعراب في الحجاز والأردن بقيادة الشريف حسين شريف مكة حاربوا عدوكم، يا غورو، وهو الدولة العثمانية

وقامتَ لَكُمْ منهُمْ بِمَكَّةَ رَايَةٌ   لَكَمْ فُتِحَتْ فيها مِن القُدْسِ أَقْفالُ

ورفع الهاشميون في مكة راية قتال ساعدت الغرب في فتح القدس مع نهاية الحرب العالمية الأولى

٥٧ عندما يحيض الزمن

لَمَّا تَكَرَّهَنِي الأَراذِلُ سَرَّنِي   أنِّي إليهِمْ، يا أُمَيْمَ، بَغيضُ

وجَزَيْتُ كلَّ صنيعةٍ بِمثالِها   إن الصَّنائِعَ في الرجالِ قُروضُ

صنيعة: معروف

لا تَطلُبَنَّ مِن الزمانِ حقيقَةً   ما لِلحقيقَةِ في الزمانِ وَمِيضُ

تسويد عمران القفيني

وحوادثُ الأيامِ مثلُ نِسائِها   في الحُكْمِ، تَطْهُرُ تارةً وتَحيضُ

أحداث الزمن تشبه في حكمنا عليها النساء تطهر وتحيض.. أي فيها ما يسر وما يسوء

وإذا الفتى قَعَدَتْ به أَفعالُه   أعياهُ بِالنَّسَبِ الرفيعِ نُهوضُ

تسويد عمران القفيني

٥٨ يا قوم لا تتكلموا

يـا قـومُ لا تـتـكـلَّـمـوا — إن الـكـلامَ مُـحَـرَّمُ
نـامـوا ولا تـسـتـيـقـظـوا — مـا فـازَ إلّا الـنُّـوَّمُ
أمّـا الـسـيـاسـةُ فـاتـركـوا — أبـداً وإلّا تَـنـدَمُـوا
إن الـسـيـاسـةَ سِـرُّهـا — لـو تـعـلـمـونَ مُـطَـلْـسَـمُ

مطلسم: غامض

مَـن شـاءَ مِـنـكُـمْ أن يـعـيـ — ـشَ الـيـومَ وَهْـوَ مُـكَـرَّمُ
فَـلْـيُـمْـسِ لا سَـمْـعٌ ولا — بَـصَـرٌ لـديـهِ ولا فَـمُ
وإذا ظُـلِـمـتُـمْ فـاضـحَـكُـوا — طـربـاً ولا تَـتَـظَـلَّـمـوا
إنْ قـيـلَ هـذا شـهـدُكُـمْ — مُـرٌّ فـقـولـوا عَـلْـقَـمُ
أو قـيـلَ إنَّ نـهـارَكُـمْ — لـيـلٌ فـقـولـوا مُـظْـلِـمُ
أو قـيـلَ إنَّ بَـلادَكُـمْ — يـا قـومُ سـوفَ تُـقَـسَّـمُ
فـتـحـمَّـدوا وتـشـكَّـروا — وتَـرنَّـحـوا وتَـرنَّـمـوا

٥٩ حكم الدخيل

في حفل تكريم أمين الريحاني:

أأمـينُ لا تـغـضـبْ عـليَّ فـإنَّـني — لا أَدَّعـي شـيـئـاً بـغـيـرِ دَلـيـلِهِ
مِـن أيـنَ يُـرجَـى لِـلـعـراقِ تـقـدُّمٌ — وسبيـلُ مُـمتَلِكـيـهِ غيرُ سبيلِهِ

ممتلكوه: حكامه

لا خيرَ في وطنٍ يكونُ السيفُ عنـ — ـدَ جبانِهِ، والمالُ عنـدَ بَخيلِهِ
والرأيُ عند طَريدِهِ، والعِلْمُ عنـ — ـد غَريبِهِ، والحُكْمُ عند دَخيلِهِ

استاء الملك فيصل مما رآه تعريضاً به في كلمة «دخيله»، فقالوا له: لعل الرصافي يقصد الإنجليز

وقـد اسـتَـبَـدَّ قـلـيـلُـه بِـكـثـيـرِهِ — ظُـلْـمـاً، وذَلَّ كـثـيـرُهُ لِـقَـلـيـلِـهِ
وإذا الـمَـخـاطَـبُ كـان مِـثـلَـكَ واعـيـاً — أَغْـنـى اخـتِـصـارُ الـقـولِ عن تَـطْـويـلِهِ

يخاطب أمين الريحاني

يـا مَـن يُـكَـتِّـمُ فـضـلَـهُ مُـتَـواضِـعـاً — والـنـاسُ مُـجْـمِـعَـةٌ عـلى تَـفـضِـيـلِهِ

شَكوايَ بُحْتُ بها إليكَ وليس في شكوى الزميلِ غَضاضَةٌ لِزميلِهِ
إنَّ المريضَ لَيَستريحُ إذا اشْتَكى مِمَّا به لِطَبيبِهِ، وخليلِهِ

٦٠ ويل لبغداد

ويلٌ لِبغدادَ مِمَّا سوف تذكُرُه عنِّي وعنها الليالي في الدواوينِ
لقد سَقيْتُ بِفيْضِ الدَّمعِ أَربُعَها على جوانبِ وادٍ ليس يَسقِيني
ولستُ أَبذُلُ عِرضي كيْ أعيشَ به ولو تَأَدَّمْتُ زَقُّوماً بِغِسلينِ

تأدمت: اتخذت غموساً لخبزتي، الزقوم والغسلين: من طعام أهل النار

عاهَدْتُ نفسِيَ والأيامُ شاهدةٌ ألّا أَقَرَّ على جَوْرِ السَّلاطينِ
ما كنتُ أَحْسَبُ بَغداداً تُحَلِّئُني عن ماءِ دجلَتِها يوماً وتُظْمِيني

تحلئني: تمنعني ورود الحوض

حتى تَقَلَّدَ فيها الأمرَ زِعْنِفَةٌ مِن الأُناسِ بِأخلاقِ السَّراحينِ

زعنفة: شرذمة، حثالة، السراحين: الذئاب

لَأَجْعَلَنَّ إلى بيروتَ مُنتَسَبي لعلَّ بيروتَ بعدَ اليومِ تُؤْوِيني
قد كان في الشامِ لِلأَيَّامِ مُذْ زمنٍ ذَنْبٌ مَحَتْهُ اللَّيالي في فِلَسْطينِ

أذنبت الشام بحقي عندما جئتها وفيصل فيها فلم أحظ باستقبال حسن، فذهبت إلى القدس فعملت هناك واحتفى الناس بي

إن كان في القدسِ لي صَحْبٌ غَطارِفَةٌ فكَمْ بِبَيروتَ مِن غُرٍّ مَيامينِ

الغطارفة والميامين: السادة من أشراف الناس

٦١ ملك ينتظر آخر الشهر

لَهُمْ مَلِكٌ تَأْبى عُصَابَةُ رَأسِهِ لها غيرَ سيفِ التَّيْمِسِيِّينَ عاصِبا

تأبى عصابة رأسه، عمامته، أن يعصبها ويلفها له إلا سيف الإنجليز، أي أن عرشه قائم بفضل وجودهم العسكري في العراق (التيمسيين نسبة إلى نهر لندن التَّمز)

وليس لهُ مِن أَمْرِهِمْ غيرَ أَنَّهُ يُعَدِّدُ أياماً ويَأْخُذُ راتِبا

قيل عندما التقى الملك فيصل الرصافي بعد حين عاتبه قائلاً: أما زلت تقول إنني أعدد أياماً وآخذ راتباً؟ فقال الرصافي: آمل ألا يكون الأمر كذلك يا صاحب الجلالة

٦٢ الكراسي الخجلى

أنا بِالحكومةِ والسياسةِ أعرَفُ ... أَألامُ في تفنيدِها وأُعَنَّفُ

تفنيدها: انتقادها

سأقولُ فيها ما أقولُ ولم أَخَفْ ... مِن أنْ يقولوا شاعرٌ مُتَطَرِّفُ

هذي حكومتُنا وكلُّ شُموخِها ... كَذِبٌ، وكلُّ صنيعِها مُتَكَلَّفُ

عَلَمٌ ودُستورٌ ومجلسُ أُمَّةٍ ... كلٌّ عنِ المعنَى الصحيحِ مُحَرَّفُ

أَسماءُ ليسَ لنا سوى أَلفاظِها ... أمَّا معانِيها فليستْ تُعرَفُ

تعليق عمران القفيني: (منَعَ أسماء للوزن، ومنع المصروف قبيح حتى في الضرورات.. الشعراء الكبار يصرفون الممنوع لا العكس)

مَن يَقرأِ الدُّستورَ يَعلَمْ أنه ... وَفقاً لِصَكِّ الانتدابِ مُصَنَّفُ

تَشكُو البلادُ سياسةً ماليةً ... تجتاحُ أموالَ البلادِ وتُتلِفُ

تُجبَى ضَرائِبُها الثِّقالُ وإنَّما ... في غيرِ مَصلَحَةِ الرَّعيَّةِ تُصْرَفُ

يا قومُ خَلُّوا الفاشِسِيَّةَ إنَّها ... في السَّائِسينَ فَظاظَةٌ وتَعَجْرُفُ

الفاشِسِية: الفاشستية، وكان بدأ يتشكل حزب يأخذ بنهج الفاشستية الإيطالية

لِلإنجليزِ مَطامِعٌ بِبلادِكُمْ ... لا تنتهي إلَّا بِأنْ تَتَبَلْشَفُوا

تتبلشفوا: تصبحوا بلشفيين، والحزب البلشفي هو حزب لينين الشيوعي في روسيا/الاتحاد السوفييتي

بِاللَّهِ يا وُزَراءَنا ما بَالُكُمْ ... إن نحن جَادلناكُمُ لم تُنْصِفوا

هذي كَراسِيُّ الوِزارةِ تَحتَكُمْ ... كادتْ لِفَرْطِ حيائِها تَتَقَصَّفُ

أنتمْ عليها والأجانبُ فوقَكُمْ ... كلٌّ بِسُلْطَتِه عليكُمْ مُشْرِفُ

أَيُعَدُّ فَخراً لِلوزيرِ جُلوسُهُ ... فَرِحاً على الكُرْسِيِّ وَهْوَ مُكَتَّفُ

مكتف: مقيد بالحبال

كم مِن نَواصٍ لِلعِدَى سَنَجُزُّها ... ولِحىً بِأيدي الثائِرينَ سَتُنْتَفُ

نواصٍ: الناصية شعر مقدم الرأس، نجزها: نقصها. وكان من عادة العربي إذا أسر خصمه أن يحلق له شعره

٦٣ أم الدنيا

في زيارة مع وفد برلماني عراقي للقاهرة لحضور المعرض الصناعي (١٩٣٦):

إذا العروبةُ حلَّتْ عرشَ دولتِها   فمِصْرُ تاجٌ لها قد صيغَ مِن ذَهَبِ
مِن أُفْقِ فُسطاطِها في الشرقِ قد طَلَعَتْ   شمسٌ إذا غابَ قُرصُ الشمسِ لم تَغِبِ

الفسطاط: القاهرة القديمة

٦٤ من العجائب

ومِنَ العجائبِ في الزمانِ وأهلِه   بَلَهُ الفَقيهِ وفِطْنَةُ الزِّنديقِ

٦٥ الجمهورية

قالها في عهد السلطان عبد الحميد:

سوقٌ تُباعُ بها المَراتِبُ سُمِّيَتْ   دارَ الخِلافَةِ عند مَن لم يَعقِلِ

دار الخلافة: إستانبول

أَبَتِ السياسةُ أن تدومَ حُكومةٌ   خُصَّتْ بِرأْيِ مُقَدَّسٍ لم يُسْأَلِ

المقدَّس الذي لا يُسأل: السلطان، فهو ليس موضع مساءلة. التسويد لعمران القفيني

إنَّ الحكومةَ، وَهْيَ جُمهورِيَّةٌ   كَشفَتَ عَمايَةَ قلبِ كلِّ مُضَلَّلِ

الحكومة، إذ تكون جمهورية، تكشف العماية، السحابة، التي تغطي قلب المضلَّلين المغرر بهم

٦٦ الأمير المأمور

قالها عند قدوم فيصل إلى بغداد (١٩٢١):

خرجَ الناسُ يُهْرَعونَ احتِفاءً   بِقُدومِ الأميرِ غيرِ الأميرِ
مَلأُوا الشارعَ الكبيرَ لِأَمْرٍ   في كبيرِ العقولِ غيرِ كبيرِ
كيف جاءَ الأميرُ قبلَ ائتِمار الـ   ـقومِ فيما يَخْتَصُّ بِالتَّأْميرِ

ائتمار: تشاوُر

ثم سَمَّوْهُ بِالأميرِ، وهذا   مِن ضُروبِ الخِداعِ في التَّعبيرِ
أَأَميراً والآمِرونَ سِواهُ   لم يكنْ عِندهُمْ سوى مَأْمُورِ

الآمرون هم الإنجليز الذين عينوا فيصلاً ملكاً على العراق

٦٧ العهود قيوداً

لـنـا مَـلِـكٌ ولـيـس لـه رعـايـا　　وأوطـانٌ ولـيـس لـهـا حُـدودُ
وأَجـنـادٌ ولـيـس لـهُـمْ سِـلاحٌ　　ومَـمـلَـكَـةٌ ولـيـس بِـهـا نُـقـودُ
وكم عـنـد الـحـكـومـةِ مِن رجالٍ　　تَـراهُـمْ سـادةً وهُـمُ الـعـبـيـدُ
كـلابٌ لِـلأجـانـبِ هُـمْ، ولـكِـنْ　　عـلـى أبـنـاءِ جِـلـدَتِـهِـمْ أُسـودُ
ولـيـس الإنـجِـلـيـزُ بِـمُـنْـقِـذِيـنـا　　وإن كُـتِـبَـتْ لـنـا مـنـهُـمْ عُـهـودُ
مـتَـى شَـفِـقَ الـقَـوِيُّ عـلـى ضـعـيـفٍ　　وكـيـفَ يُـعـاهِـدُ الـخِـرفـانَ سِـيـدُ

شفق: أشفق، سيد: ذئب

ولـكـنْ نـحـن فـي يـدِهِـمْ أَسـارَى　　ومـا كَـتَـبـوهُ مِـن عَـهْـدٍ قُـيـودُ

٦٨ الوعد الكاذب

فـعـلَ الإنـجـلـيـزُ فـيـكُـمْ فِـعـالاً　　قـد رضُـوهـا لَـكُـمْ ولـم تَـرْتَـضُـوهـا
تَـتَـشَـكَّـوْنَ فـي الـسـيـاسـةِ مـنـهـا　　ثـم أَنـتُـمْ تَـأْبَـوْنَ أن تَـرفُـضُـوهـا
وَعـدُوكُـمْ مِـن قـبـلُ مَـمـلَـكَـةَ الـعُـرْ　　بِ اجْـتَـلَـوْهـا بِـالـمَـيْـنِ وافْـتَـرَضُـوهـا

اجتلوها: رأوها، بالمين: بالكذب. وكان الإنجليز وعدوا الشريف حسين في سنوات الحرب العالمية الأولى مملكة للعرب يكون على رأسها، ونكثوا

قُـبَّـةٌ زُخْـرِفَـتْ لـكُـمْ بِـالأمـانـيِ　　هُـمْ بَـنَـوْهـا لـكُـمْ وهُـمْ قَـوَّضُـوهـا

٦٩ المخَّارة

قالها في واقعة (تسوشيما) البحرية بين الروس واليابان (١٩٠٤):

سَـعَّـرُوهـا فـي الـبـحـرِ حربـاً ضَـروسـاً　　تَـأكُـلُ الـمـالَ نـارُهـا والـنُّـفـوسـا
قُـربَ تُـوشـيـمَ قـد تـصـادَمَ أُسْـطُـو　　لانِ أَرْدى الـيـابـانُ فـيـه الـرُّوسـا

أردى: أمات

كـلُّ مَـخَّـارَةٍ إذا حَـرَّكَـتْ دُفَّـا　　ـعَـهـا خَـضْـخَـضَـتْ بِـهِ الـقَـامُـوسـا

مخارة: سفينة تمخر عباب الماء، الدُفَّاع: السيل العظيم، القاموس: البحر.. المعنى الملموح أن السفينة عندما تتحرك بمن عليها من الجند تضعضع سطح البحر

أَلْـبَـسُـوهـا مِـنَ الـحـديـدِ وِشـاحـاً　　فَـتَـهـادَتْ عـلـى الـعُـبـابِ عَـرُوسـا

٧٠ لو أن سيفي في يدي

تعرضت برقة (في ليبيا اليوم) لغزو الإيطاليين عام (١٩١١)، وتصدى لها جنود الدولة العثمانية التي كانت تحكم بلاد العرب آنذاك، وكان مصطفى كمال أتاتورك على رأس القوة العثمانية التي أبلت بلاء حسناً، ولكن إيطاليا بمئة وخمسين ألف جندي مقابل عشرة آلاف سيطرت على كل ليبيا في خريف (١٩١٢):

يَـعِـزُّ عـلـيـنـا أهـلَ بُـرْقَـةَ أنـكُـمْ　　تدورُ عليكُمْ بالدمارِ رَحَى الحربِ
وأنَّـا إذا مـا تَـسـتـغـيثـونَ لـم نَـجِـدْ　　إليكمْ على بُعدِ المسافةِ مِن دَرْبِ
وقـد عَـلِـمَ الأعـداءُ أنَّ سـيـوفَـنـا　　تَمَلْمَلُ في الأغْمادِ شوقاً إلى الضَّرْبِ
وما نـحـن إلَّا الـلـيـثُ شُـدَّتْ قيودُه　　وأُلْقِيَ حيَّاً شِبلُهُ في فَمِ الـذئبِ

٧١ عذر المدبرين

في الحرب العثمانية الإيطالية في ما سيعرف بـ «ليبيا» (١٩١١):

لَـئِـنْ أَدبَـرَ الـطِّـلْـيـانُ عـنـد كـفـاحِـنـا　　فإنَّ لَهُمْ في بَطشِ شجعانِنا عُذرا

أدبر: فر، لشدة بطش جنودنا فالإيطاليون معذورون أنهم فروا من القتال

فـإنَّـا لَـقـومٌ إن نَـهـضْـنـا لِـحـادِثٍ　　مِن الدهرِ أَفْزَعنا بِنهضَتِنا الدهرا
ونـأكُـلُ مُـرَّ الـمـوتِ حـتـى كـأنَّـنـا　　نَـلوكُ بـه مـا بـيـنَ أضْراسِـنا تَـمْرا
وكم قد نَثَرنا بِالسيوفِ جماجماً　　نَظَمْنا بِها فوق الثَّرى لِلعِدَى شِعْرا
وهلْ حَسِبُوا قتلَ النِّساءِ شجاعةً　　وقد تَرَكُوا عند الرجالِ لَهُمْ ثَأْرا
يَعِزُّ عـلـى أَسـيـافِـنـا الـيـومَ أنَّـهـا　　تُقارِعُ قوماً قَرْعُهُمْ بِالعَصا أَحْرَى

الواقع أن الدولة العثمانية سلمت ليبيا بعد كفاح طويل للمملكة الإيطالية في معاهدة لوزان الأولى في أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٢

ومِنْ مُبْكِياتِ الدهرِ أو مُضْحِكاتِهِ　　لدى الناسِ: حُرٌّ لم يَكُنْ خَصْمُه حُرَّا
سَـنَـثْـأَرُ حـتـى تَـسـأَمَ الـحـربُ ثَـأْرَنـا　　ونقتلُ عن كلِّ امْرِئٍ أَنْفُساً عَشْرا

وعلى ذكر العشرة فإن المحتلين الإيطاليين طبقوا في ليبيا أثناء ثورات الشعب عليهم ممارسة رومانية قديمة ـ حسب التافهون أنهم حقاً ورثة الإمبراطورية الرومانية ـ هي التعشير البشري، فكانوا يصفون رجال المقاومة صفوفاً ويعدونهم واحداً واحداً ويقتلون كل عاشر تأديباً

٧٢ الشعر الواضح

أَلا لا اهْتَدَتْ لِلشِّعرِ يوماً هَواجِسي   إذا هِيَ لم تَنْزِعْ إلى مُسْتَبِينِهِ

ليجعل الله هواجسي، وأفكاري، لا تهتدي إلى الشعر إن هي لم تنزع، وتمِلْ، نحو الشعر الواضح المستبين

ولا غُصْتُ في بَحرِ القَريضِ مخاطِراً   إذا لم أَفُزْ مِن دُرِّهِ بِثَمينِهِ
إذا انتَظَمَتْ أبياتُه في قصائدي   ترى كلَّ بيتٍ مُمْسِكاً بِقَرينِهِ
وما كانَ دَوْحُ الشعرِ يوماً لِتُجْتَنَى   بِغيرِ اليدِ الطُّولَى ثِمارُ غُصونِهِ

دوح الشعر، شجرته، لا تقطف ثماره إلا بيد طويلة.. أي من جانب شاعر قدير

ولِلشِّعرِ عَينٌ لو نَظرْتَ بِنورِها   إلى الغَيبِ لاسْتَشْفَفْتَ ما في بُطونِهِ
فكمْ بِتُّ في نَهْرِ المَجَرَّةِ في الدُّجَى   مِنَ الشِّعرِ أُجْرِي مُنشآتِ سَفينِهِ

كنت أبات ليلاً في نهر المجرة، محلقاً بخيالي بين النجوم، وأنا أسير في هذا النهر منشآت سفن الشعر، أي سفنه العالية الأشرِعة

هُوَ الشعرُ لا أَعتاضُ عنهُ بِغيرِهِ   ولا عن قوافيهِ ولا عن فُنونِهِ

٧٣ الأرملة المرضعة

لَقِيتُها ليتني ما كنتُ أَلقاها   تَمشي وقد أَثقَلَ الإملاقُ مَمشاها

الإملاق: الفقر

أثوابُها رَثَّةٌ والرِّجْلُ حافِيةٌ   والدمعُ تذرِفُهُ في الخَدِّ عيناها

رغم تسويدي لهذا البيت الرقيق، فعمران القفيني يقول: (شكراً على هذه المعلومة، أول مرة نعرف أن الدمع يذرف، لا بل من العينين، وفوق ذلك يسيل على الخد.. ما شاء الله)

بَكتْ مِن الفقرِ فاحمرَّتْ مدامِعُها   واصفرَّ كَالوَرْسِ مِن جوعٍ مُحَيَّاها

الورس: الكركم، نبات أصفر يصبغون به الطعام. وفيه بعض مرارة. وصبغوا الأرز بالعُصفُر، وبالزعفران

ماتَ الذي كان يَحميها ويُسعِدُها   فالدهرُ مِن بَعدِهِ بِالفقرِ أَشقاها
الموتُ أَفْجَعَها، والفقرُ أَوْجَعها،   والهَمُّ أَنحَلَها، والغَمُّ أَضْناها

أنحلها: جعلها نحيلة

تَمشي بِأطمارِها والبردُ يَلسَعُها   كأنه عَقْرَبٌ شالَتْ زُبَاناها

الأطمار: الأسمال.. الملابس المهترئة، شالت: رفعت، زباناها: الزبانى أداة اللسع في ذيل العقرب

حتى غَدا جسمُها بِالبردِ مُرتَجِفاً   كالغُصنِ في الريحِ، واصطكَّتْ ثناياها

ثناياها: أسنانها

تقولُ: يا رَبِّ لا تَتْرُكْ بِلا لَبَنٍ   هَذي الرَّضيعَةَ وارحمني وإِيَّاها

يا رَبِّ ما حيلَتي فيها وقد ذَبُلَتْ   كزهرةِ الرَّوضِ فَقْدُ الغَيْثِ أَظْماها

ما بَالُها وَهْيَ طولَ الليلِ بَاكيةٌ   والأُمُّ ساهِرَةٌ تَبكي لِمَبْكاها

يَكادُ يَنْقَدُّ قلبي حين أَنظُرُها   تبكي وتَفتَحُ لي مِن جُوعِها فاها

ينقد: يتقطَّع

كانتْ مصيبَتُها بِالفقرِ واحدةً   وموتُ والدِها بِاليُتْمِ ثَنَّاها

هذي حِكايةُ حَالٍ جِئتُ أَذكُرُها   وليس يخفَى على الأحرارِ مغزاها

أَوْلَى الأنامِ بِعطفِ الناسِ أَرملةٌ   وأَشرفُ الناسِ مَن في المالِ وَاساها

٧٤ أرذل العمر

واهاً على شَرْخِ الشبابِ المُشتَهى   خَلَّفَ ذِكراهُ بِقلبي ومَضى

أَطْيَبُ عَيْشِ المرءِ في شبابِه،   فَإنْ تَولَّى فَهْوَ عيشٌ مُزْدَرَى

وهل يَطيبُ العيشُ لِلْهِمِّ الذي   إنْ هَمَّ بِالنَّهْضَةِ خَانَتْهُ القُوى

الهم: الشيخ، المسن

وإنَّ ظَهرَ الأرضِ يَستَثْقِلُ مَنْ   قامَ يَدِبُّ فوقَها على العَصا

٧٥ يقيني يقيني

أَيا بَغدادُ لا جازَتْكِ سُحْبٌ   ولا حَلَّتْ بِساحَتِكِ الجُدوبُ

يدعو الله ألا تتجاوز الغيوم بغداد بل تجودها بالمطر، وألا يحل بها الجدب، القحط

تَطاوَلَ ساكِنوكِ عَليَّ ظُلماً   فَضاقَ عليَّ مَغناكِ الرَّحيبُ

مغناك: ربعك، والمغاني هي الربوع

رَماني القومُ بِالإلحادِ جهلاً   وقالوا عنده شَكٌّ مُريبُ

فَمَنْ ذا منكُمُ قد شَقَّ قلبي وهل كُشِفَتْ لكُمْ فيَّ الغُيوبُ
فَعِندَ اللَّهِ لي مَعَكُمْ وُقوفٌ إذا بلغتْ حَناجِرَها القلوبُ

تبلغ القلوب الحناجر في يوم القيامة

يَقيني شَرَّ فِرْيَتِكُمْ يَقيني بِأنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ رَقيبُ

يحفظني من شر افترائكم عليَّ يقيني، إيماني، بأن الله يعلم كل شيء

٧٦ ذكرى المتنبي

ألقاها في الجامعة الأميركية ببيروت (١٩٣٥):

لو حازَ مُوسى مَضاءَ عَزْمَتِهِ ما تَاهَ في التِّيهِ عندما دَخَلَهْ

لو امتلك موسى عزيمة المتنبي لما تاه في التيه، أي صحراء سيناء. وكان المتنبي قطع هذه الصحراء فاراً من كافور، وافتخر بذلك

كَمْ شاعرٍ قد قَفا له أثراً وناقدٍ راحَ يبتَغي زَلَلَهْ

اقتفى الشعراء أثر المتنبي وقلدوه، وانتقده المتقدون طالبين له زللاً، غلطاً

فأخفقوا عاجزينَ عن دَرَكٍ لِبعضِ ما كُلُّهُ تَيَسَّرَ لَهْ

عجزوا عن إدراك بعض المجد الذي حازه كله المتنبي

٧٧ أنشودة للمعري

في ذكرى أبي العلاء المعري (١٩٣٨):

حَيَّهَلْ يا أخا مُضَرْ نَدَّكِرْ خيرَ مُدَّكَرْ

يا أخا مضر، أيها العربي، هيا نذكر خير من هو جدير بالذكر

نَدَّكِرْ شاعرَ البَشَرْ خيرَ مَن قالَ وافتَكَرْ

* * *

نَفْسُهُ وَهْيَ ثائِرَةْ تَرَكَتْ غيرَ خاسِرَةْ
كلَّ دنيا وآخِرَةْ ونَفَتْ كلَّ ما اسْتَقَرْ

نفس أبي العلاء تركت الدنيا والآخرة، ونفى عقله كل المعتقدات التي استقر عليها الناس، (فأبو العلاء، وارجع إلى شرحنا لحياته ولشعره في كتابنا «تألق الشعر» ترك الدنيا لأهلها، ولم يعلق كبير أمل على الآخرة. ولم نقل في مقدمتنا لشعر الرصافي قبل صفيحات إنه كان كذلك، فها نحن نقول: كان كذلك في عدم تعليقه أملاً على الآخرة،

فأما عن ملذات الدنيا فصاحبنا نهل وعلَّ منها). استقرْ: هي استقرّ بتشديد الراء، وفي موضع كهذا، عند القافية، كان أبو العلاء يكره وضع الشدة، ونحن في العادة نضعها كي يدرك القارئ الكلمة بالنظر سريعاً، ولكننا هنا - إكراماً لأبي العلاء - رفعناها

* * *

جَعَلَ الحقَّ ذَوْقَهُ   بَاذلاً فيهِ طَوْقَهُ

طوقه: طاقته

شَاعرٌ ليس فَوقَهُ   شاعرٌ مِن بَني البَشَرْ

* * *

ليس لِلموتِ عندَهُ   مِن تَقاريعَ بَعدَهُ

تقاريع: عقاب وتأنيب

إنْ عَرا الحَيَّ رَدَّهُ   فاقِدَ الحسِّ كالحَجَرْ

إن عرا الموت الحي، أي جاء الموت للإنسان، رده، أي جعله، فاقد الحس فكأنه حجر

* * *

نحن أَسْرى ذَواتِنا   خَشْيَةً مِن مَماتِنا

نحن أسرى لذواتنا التي تعلق آمالاً على الخلود وذلك لشدة خشيتنا من الموت

كم وكم في حياتِنا   مُبتَدا مَا لهُ خَبَرْ

فنحن نقول كل شيء له أول وله آخر، لذا لا بد من وجود حياة أخرى، ولكن، يقول الرصافي، كثيرة هي الأمور التي لها أول وليس لها آخر

٧٨ الأرض مسجدنا

الأرضُ مسجدُنا ففيمَ مَساجدٌ   أَمستْ تُعَدُّ اليومَ بِالآلافِ؟

كانَ الصلاةُ بِمسجدٍ وبِغيرِه   في الحكمِ واحدةً لدى الأسلافِ

هلَّا جُعِلْنَ مدارساً فيَّاضةً   مِن كلِّ علمٍ بِالزُّلالِ الصافي

هلا بنيتم المدارس بدل المساجد

ينتابُها أبناؤكُمْ كي يأخذُوا   مِن كلِّ فنٍّ بالنصيبِ الوافي

٧٩ أمَّة وحدها

أمُّ كُلثومَ في فنونِ الأغاني   أمَّةٌ وحدَها بهذا الزمانِ
هِيَ في الشرقِ وحدَها ربَّةُ الفَنَّ-   فما إنْ لِلفَنِّ رَبٌّ ثانِ

٨٠ الاحتشام العاري

زهرةٌ قد بَدَتْ مِن الأكمامِ   فتَجلَّى منها الجمالُ السامي

هذه الفتاة كزهرة بدت بين أكمامها، بتلاتها، فتجلى جمالها

إنَّ تجريدَها مِن الثوبِ يَحكي   أنْفُساً جُرِّدَتْ مِن الآثامِ
إنَّ قُدْسَ الأَقداسِ يَغضَبُ مِن أنْ   تَتوارى وَسامَةُ الأجسامِ
خَلَعَتْ ثوبَها وأَغْضَتْ حياءً   فَأَرَتْنا خَلاعَةً في احتِشامِ
لِسُقوطِ الرِّداءِ عن مَنكِبَيْها   نهضَ الفنُّ قائماً باحترامِ

يبدو أنه يصف لوحة لعارية

٨١ المتربص

وما غَرَّني ذو ظاهرٍ مُتوَدِّدٍ   إذا كان فيه باطنٌ مُتَلَصِّصُ
ويا رُبَّ وجهٍ لم يَرُقْني بَياضُهُ   فلمَّا دنا مِنّي إذا هُوَ أَبْرَصُ

رب وجه أراه من بعيد أبيض ولكنني لفراستي أحس أنه لا يعجبني فلما دنا مني إذا الشخص أبرص، فبياضه بياض علة لا بياض جمال

دعُوا كشفَ مَكنونِ الصُّدورِ لِفِطْنَتي   فإنِّي بِذا مِن دونِكُمْ متخَصِّصُ
ذكاءٌ لو اجْتَزْتُ الجِدارَ بِنُورِهِ   لَشَفَّ لِعينيَّ الجدارُ المُجَصَّصُ

المجصص: المطلي بالجبصين

على أنَّ لي في معرِضِ الشَّكِّ رَبْصَةً   ورُبَّ يَقينٍ نالَهُ المُتَرَبِّصُ

إذا شككت في أمر فإن لي ربصة، وقفة للتروي، والمتروي يحصل على اليقين

٨٢ تعصب في مصر

مِن جَوْرِ مصرَ على العُروبَةِ أنَّها   تتعمَّدُ التَّمصيرَ في آدابِها
فترى بمصرَ تعصُّباً لِأَديبِها   متحَكِّمَ النَّزَغاتِ في أَعصابِها

النزغات: الوساوس

فاذكُرْ أُولِي الآدابِ مِن غيرِ الأُلَى   في مصرَ يَغضَبْ منكَ أَهْلُ جَنابِها

جنابها: منطقتها

فالشاعرُ المصريُّ فيها فاضلٌ   وسِواهُ مَفضولٌ وإنْ يَكُ نابِها

٨٣ المختصر

لِسانُكِ يَسحرُ في ظَرْفِهِ   وجَفنُكِ يَفتِنُ في ضَعفِهِ
وقَدُّكِ يخطِرُ في لُطْفِهِ   فَيُطْنِبُ رِدفُكِ في وَصْفِهِ
ويُوجِزُهُ خَصْرُكِ المُختَصَرْ

يطنب: يكثر القول

٨٤ النجوم الهاربة

والليلُ قد طالَ على مَن شَتَا   وصارَ ليلاً بارداً مُظلِما
لعلَّ هذا الرعدَ مُذْ صَوَّتا   هَرَّبَ مِنهُ تِلكُمُ الأَنْجُما

٨٥ أموت غراماً

إسْمعِي لي قبلَ الرحيلِ كلاما   ودعِيني أَموتُ فيكِ غَراما
كلَّما زادَ عاذِلي فيكِ عَذْلاً   زِدْتُ في حُسْنِكِ البديعِ هُياما

٨٦ العصية على القياس

وصاحٍ وَجَّهَ النُّدَماءُ كأساً   إِليهِ فقالَ لَستُ لَها بِحاسِ

رب رجل صاح غير سكران، أعطاه الندماء كأساً فقال لست حاسياً، شارباً

وغَالَى في الإِباءِ فمَارَسُوهُ   فَلانَ أَبِيُّهُ بعدَ المِراسِ

بالغ في الرفض لكنهم مارسوه، ألحوا عليه، فلان أبيه، ما كان رافضاً الكأس في نفسه

فقالَ، وقد مَشَتْ فيهِ ودَبَّتْ   دَبيبَ الماءِ في وَرَقِ الغِراسِ

مشت الخمر في جسمه كما يمشي الماء في ورق الشجر

لَعَمْرُكَ إِنَّ في الصَّهْباءِ مَعنىً   دَقيقاً ليس يُعرَفُ بالقِياسِ

في الخمر شيء لا يدركه المرء بأن يقارنه بمفعول شيء آخر.. فيها شيء فريد

٨٧ المتكَهْرِب

قـامـتْ تَـمـيـسُ بِـأعـطـافٍ وأوْراكِ رَقصاً على نغماتِ المِقْوَلِ الحاكي

أعطاف: خصور، المقول: اللسان في الأصل، وكل ما يصدر كلاماً، الحاكي: البيك أب، الفونوغراف

قالتْ وقد شاهدَتْ وَجدي المُبَرِّحَ ما أغراكَ؟ قلتُ لـهـا: عـيـنـاكِ عيناكِ

فاستضحَكَتْ وَهْيَ تَجْني الوردَ قائلةً ما أحسنَ الوردَ! قلتُ: الوردُ خَدَّاكِ؟

وقلتُ: أَهوى، فقالتْ بِالدلالِ: ومَن تَـهـوى؟ فـقـلـتُ لـهـا: إِيَّـاكِ إِيَّـاكِ

الـحسنُ يَفتِنُ والألـحـاظُ فـاتِـكَـةٌ واحَـيْـرتـي بـيـن فَـتَّـانٍ وفَـتَّـاكِ

أَمسى غرامُكِ يَجري في عُروقِ دَمي كـالـكَـهـرَبـاءِ الـتـي تَـجـري بِـأَسْـلاكِ

تعليق عمران القفيني: (هذا ملطوش من البارودي لطشاً ذريعاً: وسرت بجسمي كهرباءة حسنه/ فمن العروق بها سلوك تخبر)

٨٨ تحية الوفد المصري

رجـالَ الـنـيـلِ حُـيِّـيـتُـمْ رِجـالاً بِـمـا لِـلـعُـرْبِ فـيـكُـمْ مِن سِـمـاتِ

بِـكُـمْ طَـرِبَ الـفـراتُ وقـالَ جَـهْـراً لِـوادِي الـنـيـلِ إِنَّـكَ مِـنْ لِـداتـي

لداتي: رفاقي المولودون في زمن معي، أترابي

كِـلانـا جَـارِيـانِ عـلـى سُـهـولٍ بِـأبـنـاءِ الـعُـروبَـةِ آهِـلاتِ

وتَـجـمَـعُـنـا جَـوامِـعُ كُـبـريـاتٌ وأَكْـبَـرُهُـنَّ سَـيِّـدَةُ الـلُّـغَـاتِ

٨٩ بمنتهى الدقة

مَـثَـلَـتْ فـي دَلالِـهـا عُـريَـانَـةْ فَـأَرَتْـنـي مـحـاسـنـاً فَـتَّـانَـةْ

حيـثُ طـارَحْـتُـهـا الـغـرامَ بِـبـيـتٍ بِـالـمـرايـا قـد زَوَّقـوا جُـدْرَانَـهْ

ما أرى البيت إلا حجرة في مبغى. وقال الزيات إن الرصافي كان يسكن في بغداد في حي البغايا

هِـيَ غَـمَّـازَةُ الـلِّـحـاظِ لَـعـوبٌ ذاتُ دَلٍّ ظَـريـفَـةٌ لَـحَّـانَـةْ

لحانة: تتكلم بدلال وتلوي الكلمات ليّاً. لو كنت أشرح هذا لشخص سويدي لاضطررت لكثير من الكلام، ولكنك فاهم ما أعني!

بَضَّةٌ، فَعْمَةٌ، لَمِيسٌ، رَدَاحٌ   غَادةٌ، أَحْوَرِيَّةٌ، بَهْنَانَةْ

بضة: طرية، فعمة: ممتلئة، لميس: لينة، رداح: سمينة الأرداف، غادة: ناعمة، أحورية: بيضاء، بهنانة: مرحة

نَاهِدُ النَّوْدَلَيْنِ مَحْطُوطَةُ المَتْـ   ـنَيْنِ، خَوْدٌ، رَجْرَاجَةٌ، وَرْكَانَةْ

النودلان: الثديان، محطوطة المتنين: مصقولة الظهر على جانبي العمود الفقري، خود: ناعمة، رجراجة: تمشي وتهُزّ، وركانة: ممتلئة الوركين

خَدْلَةٌ سَاقُها، مُهَفْهَفَةُ الخَصْـ   ـرِ، كَعابٌ، بَرَّاقَةٌ، سَيْفَانَةْ

خدلة ساقها: ساقها ممتلئة، مهفهفة الخصر: ضامرة البطن، كعاب: بارزة الصدر، براقة: ذات دلال تشير للرجال، سيفانة: طويلة

ذاتُ وَجْهٍ كأنَّهُ بَدْرُ تِمٍّ   وقَوام كأنَّهُ خَوْطُ بَانَةْ

خوط بانة: غصن شجرة البان

لو رآها كِسرى الملوكِ لَخَلَّى   مُلْكَهُ تاركاً لها إيوانَهْ
وتدلَّى قُرْطٌ بِسالِفَتَيْها   رُصِّعَتْ فيهِ مَاسَةٌ بِجُمَانَةْ

الجمان: شذرات فضة على شكل اللؤلؤ

وَقَفتْ لي عُريانَةً فتقدَّمْـ   ـتُ إليها بِذِلَّةٍ واستِكانَةْ
فَتمَشَّتْ تَخلُّعاً، وتَثَنَّتْ،   وتَلَوَّتْ كأنَّها خَيْزُرانَةْ
ثم صَدَّتْ فأدبَرَتْ عن دَلالٍ   ثم عادتَ فأقبلَتْ عن مَجَانَةْ

المجانة: الفحش وترك الحياء

ولقد راعَني، وزادَ فؤادي   وَلهاً ما رأيتُ تحتَ المَثانَةْ
رَكَباً، كَعْثَباً، عَضُوضاً، مَصُوصاً،   ناشِزاً، ذا بَضاضَةٍ ورَزَانَةْ

يصف ما لا يصفه المتحرج من المرأة، وكل تلك أسماء لذلك العضو

مُشْرِفَ السطحِ، رَابِئاً، ذا انتِصابٍ،   حامِيَ الجَوْفِ، ضَنْكَهُ، رَيَّانَهْ

رائباً: بارزاً، ضنك: ضيق، ريان: ممتلئ

قد حَكَى كَوْمَةً مِنَ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْـ   ـبِ وإنْ كانَ فائِقاً أَثْمانَهْ

حكى: أشبه

نِعمَةُ العيشَ أَتْرَفَتْهُ، وأَخْلَتْ   أَسْكِتَيْهِ مِن الأذَى، وعِجَانَهْ

الأسكتان: الشفران، خاليان من الأذى: أي من البرص، والعجان: ما بين السبيلين

عَطِرُ الريحِ، قد تَشَمَّمْتُ منهُ إذْ تَشَمَّمْتُهُ شَذَا أُقْحُوانَةْ

الريح: الرائحة

وشَرِبْتُ الرَّحيقَ وَهْوَ تِجاهي جَاثِمٌ فَاتَّخَذْتُهُ فِنجَانَهْ
لو رآهُ العِنِّينُ يوماً لَأَمْسى مُبْرَأً مِن رَخَاوَةٍ وعَنَانَةْ
سَلِسَتْ في انْقِيادِها بعد أَن قد أظهرتْ لي تَمَنُّعاً وحَصَانَةْ
فَدَعتْني إلى الكفاحِ بِغَمْزٍ كَرَّرَتْهُ مِن عينِها الوَسْنَانَةْ
فتَعَرَّيْتُ مِثلَها ثم أشْرَعْتُ إلى الطَّعْنِ صَعْدَةً مُرَّانَةْ

الصعدة: الرمح، المرانة: الرمح

فَرَمَتْ كَفَّها على ذَلِكَ الدَّوْ سَرِ كَيْما تَشُوصَهُ بِالبَنَانَةْ

الدوسر: المسمار، يشوص: يدلك، البنانة: الأصابع

وغَدَتْ في تَجَضُّمٍ وامْتِلاجٍ بِشِفاهٍ وَرْدِيَّةٍ، غَيْسانَةْ

التجضم: الأخذ بالفم، الامتلاج للصبي: مص ثدي الأم

ثم أَضْجَعْتُها على الأرضِ واعْرَوْ رَيْتُ منها مَطِيَّةً خَيفانَةْ

اعرورى فرسه: ركبها بلا سرج، خيفانة: الفرس الخفيفة

فَتَبَطَّنْتُها وقد أَخَذَ الشَّا قُولُ مِنْ ذلكَ المَحَلِّ مَكانَهْ

الشاقول: من اسم عضو التذكير

واضِعاً فَايَ فوقَ فِيها وكلٌّ قد أَمَصَّ الضَّجيعَ منهُ لِسانَهْ
فالتَصَقْنا صدراً بصدرٍ، وبطناً فوق بطنٍ، وعانةً فوقَ عانَةْ
فَغَدَتْ في ارْتِهازِها تَتَلَكَّا بِكلامٍ لا تَسْتَتِمُّ بَيَانَهْ

رهز: هزَّ

ثم قالتْ وقد ذَوَتْ مُقلَتاها وشكَتْ مِن فُؤادِها خَفَقانَهْ
أَطْعَنُ الطَّاعِنينَ لِلضَّأْدِ مَنْ بِالضَّـ ـادِ قد أَنطَقَ الإلهُ لِسانَهْ

الضأد: عضو التأنيث

٩٠ المهندس يتأمل

كلُّ القصورِ عبيدٌ وَهْوَ سيِّدُها إذ كان أكرمَها صُنعاً وبُنيانا

هذا قصر شيراغان على البسفور

يمشي المهندسُ فيهِ وَهْوَ ينظُرُهُ مَشْيَ المُقَيَّدِ يستقصيهِ إمعانا
ومهندس القصر، الأرمني باليان، يمشي ببطء كأنه مقيد ويتأمل بديع ما صنعت يداه

يَضُمُّ كَفَّيْهِ لِلإبْطَيْنِ مُنْبَهِراً مُقَلِّباً في الأعالي منه أَجْفانا
لو كان عرشاً لِبِلْقيسٍ لَمَا خَضَعَتْ لِلأمْرِ حين أتاها مِن سليمانا
فلو رأيتَ وقد شَبَّ الحريقُ به والريحُ تَصْفِقُ لِلنيرانِ أَرْدَانا
أردان: أكمام، كأن الريح إذ تلعب بالنيران شخص يحرك أكمامه الواسعة

رأيتَ مُلْكاً كبيراً ثَمَّ مُحتَرقاً يُذيبُ منهُ لَهيبُ النارِ عِقْيانا
العقيان الذهب. وقد حدث الحريق بعيد الدستور وخلع السلطان عبد الحميد. وهذا القصر أصبح اليوم فندقاً، وأجرة الليلة الواحدة للجناح السلطاني فيه ٣٥ ألف دولار (من ويكيبيديا. حتى لا يحسب أحد أنني فعلتها)

٩١ الصادق الوحيد.. الخورنق

لقد خامَرَتْني في الزمانِ وأَهلِهِ شكوكٌ عليها يُعْذَرُ المُتَزَنْدِقُ
الشكوك التي خامرتني، انتابتني، في الزمن والناس كبيرة إلى درجة أن الزنديق بالمقارنة بها يصبح معذوراً، فشكوكه أقل من شكوكي

أرى الدهرَ في أمرَيْنِ يَعملُ دائباً صَناعَ اليَديْنِ فيهما يَتَأَنَّقُ..
الزمن يعمل عملين وهو فيهما صناع اليدين، ماهر، ومتأنق..

يجدِّدُ لِلمَوْتى مَناقِبَ لم تكنْ لديْهِمْ، ولِلأحياءِ يُبْلي ويُخْلِقُ
مرور الزمن يكسب الموتى مناقب، محامد، لم تكن أصلاً موجودة فيهم، ويبلي ويخلق، يتلف، الأحياء لأنهم يكبرون ويمرضون

فكم مِن قبورٍ عَظَّمَ الناسُ أهلَها بما لم يكنْ عند النُّهَى يَتحقَّقُ
قبور كثيرة يبجل الناس أصحابها، ولكن لأمور غير حقيقية في النهى، العقول

ورُبَّ امْرِئٍ قد عاشَ يستَقْطِرُ الثَّنا فلما قَضى سالَ الثَّنا يَتَدفَّقُ
رب شخص عاش يستجلب الثناء من الناس قطرة بعد قطرة، فعندما مات تدفق عليه الثناء والمديح

سَقى الدهرُ لِلأمواتِ غَرْسَ مَناقِبٍ بِمَيْنٍ فظلَّ الغَرْسُ ينمُو فَيَبْسُقُ
الزمن يسقي للأموات أشجاراً من الحسنات بمين، بكذب، وتظل هذه الأشجار تنمو وتبسق، تعلو

إذا شَطَّ جيلٌ خَطَّ مَن جاءَ بعدَهُ أَكاذيبَ عنهُ بِالثَّناءِ تُزَوَّقُ
شط: بعُد

فما كُتُبُ التَّاريخِ في كلِّ ما رَوَتْ لِقُرَّائِها إلَّا حديثٌ مُلَفَّقُ
نَظرنا لِأمرِ الحاضِرينَ فَرابَنا فكيفَ بِأَمْرِ الغابِرينَ نُصَدِّقَ

نظرنا في سيرة الموجودين فرابنا ما رأينا، شككنا فيه، فكيف سنصدق ما يروى عن الغابرين، الذاهبين

وهل قد خُصِصْنا دونَ مَن ماتَ قَبلَنا بِخُبْثِ السَّجَايا؟ شدَّما نَتَحَمَّقُ!

فهل السجايا الخبيثة، الصفات السيئة، لنا نحن، ولم يكن للميتين مثلها؟ ما أشد حمقنا!

خليليَّ هل مَن بالرُّصافَةِ عالِمٌ بِأَنِّي إلى مَن بالرُّصافَةِ شَيِّقُ

يا صاحبيَّ هل يعلم أحد في الرصافة، الشاطئ الشرقي لدجلة في بغداد، أنني مشتاق إلى من بالرصافة

إذا ما تَذَكَّرْتُ العَجوزَ بَكَيْتُها بِدمعٍ به الأهدابُ تَطفُو وتَغرَقُ

أتذكر أمي فأبكي بدموع تطفو فوقها أهداب، رموش، العين، ثم لكثرة الدموع تغرق هذه الأهداب فيها

لَحى اللَّهُ قوماً لا يعيشُ بِأَرضِهِمْ سوى مَن يُداجِيهِمْ، ومَن يَتَمَلَّقُ

لحى الله، لعن، قوماً لا يعيش بينهم مرتاحاً إلا من ينافقهم ويتملق لهم

ولم يَحْظَ إلَّا اثنانِ منهُمْ بِحُظْوَةٍ مِن المالِ مُثْرٍ، أَو مِن العِرضِ مُمْلِقُ

الذي يحظى بالقبول عند الناس واحد من اثنين: ثري، أو فقير في العرض والشرف

قتلتُ الورى خُبراً فليس بِخادِعي حديثٌ مُطَرًّى أو كلامٌ مُنَمَّقُ
هَذَاذَيْكَ! لا تَحْفِلْ مَقالَ مُؤَرِّخٍ ولا يَسْتَفِزَّنْكَ الكلامُ المُشَقَّقُ

هذاذيك: قف! قف! واسمعني، لا تحفل بكلام المؤرخين، ولا تشعر بحماسة واستفزاز من الكلام المشقق: المنمق

كِذابٌ على وَجْهِ الطُّروسِ مُسَطَّرٌ يَغَصُّ به العقلُ السليمُ ويَشْرَقُ

هذا كله كذاب، كذب، مسطر على الطروس، الأوراق، ولا يقبله العقل السليم بل يغص به ويشرق، أي يلفظه ويرفضه

فدعْ عنكَ لَغْوَ النَّاطِقينَ وخُذْ بِما رَواهُ مِن الآثارِ ما ليس يَنطِقُ
فإِنْ ذَكَروا النُّعمانَ يوماً فلا تَثِقْ بِأَكْثَرَ مِمَّا قالَ عنه الخَوَرْنَقُ

لا تصدق الروايات التي يوردونها عن الملك النعمان، إلا ما بقي من أثر ملموس من قصره المعروف «الخورنق»

فأصدَقُ منهُمْ في المسامِعِ لَهْجَةً ضَفادِعُ في المستنقعاتِ تُنقْنِقُ
مَلكتُ مِن الدنيا حقيقةَ أهلِها وإنّي على الدنيا بِها أَتَصَدَّقُ

٩٢ السكران بمجد زائل

أَلَا فاذْكُروا يا قومُ أَرْبُعَ مجدِكُمْ فقد دَرَسَتْ إلَّا بَقِيَّةَ أطلالِ

أربع: ربوع، درست: بليت

وما أنْتُمُ إلَّا كَسَكْرانَ طَافِحٍ تَحَسَّى مِن الصَّهباءِ عَشْرَةَ أرطالِ

كانوا يقيسون الشراب بالرطل ولعله كأس كبيرة

مَشى بِارْتِعاشٍ في الطريقِ فتارَةً يقومُ، وأُخرى يَنْهَوِي فوقَ أَوْحَالِ
يَمُدُّ إلى الجُدرانِ كَفَّ اسْتِنَادِهِ فتقذِفُهُ الجدرانُ قَذْفَةَ إِذْلالِ
ويَفتَحُ لِلطُّرَّاقِ مُقْلَةَ حَانِقٍ فَيُغمِضُها خزيانَ عن شَتْمِ عُذَّالِ

هذا السكران يفتح عينه بحنق وغضب للطراق، المشاة في الطريق، ثم يغمضها بخزي وذل إذ يسمع شتم من يلومونه. القصيدة طويلة جداً ويروي فيها الرصافي سيرة الطبيب القديم أبي بكر الرازي

٩٣ سقوط عبد الحميد

لقد جمعُوا الجُموعَ فَمِنْ نَصارى ومِنْ هُودٍ هناكَ ومُسلِمينا

جمع قادة المعارضة في سلانيك باليونان، وكانت تحت الحكم العثماني، جموع الجند لكي يردعوا السلطان الذي تراجع عن الدستور

فكانوا الجيشَ أُلِّفَ مِن جنودٍ مُجَنَّدَةٍ ومِن مُتطوِّعينا
تراهُمْ فيه مُتَّحِدِينَ عزماً وما هُمْ فيه مُتَّحِدينَ دِينا
ولما جَدَّ جِدُّهُمُ استَقَلُّوا على ظهرِ القطارِ مُسافِرينا
فلم يَتَصَرَّمِ الأُسبوعُ إلَّا وهُمْ بِرُبا فَرُوقَ مُخَيِّمُونا

لم يمض أسبوع حتى نصبوا خيامهم في ربا فروق، من أسماء إستانبول

هنالِكَ قمتُ مُرتَحِلاً إليْهِمْ لِأُبْصِرَ ما أُؤَمِّلُ أنْ يكونا
وبَاخِرَةٍ عَلَتْ في البحرِ حتى حَكَتْ بِعُبابِهِ الحِصنَ الحَصينا

وفي الميناء رست باخرة ذات مداخن عالية كأنه الحصن المنيع في عباب البحر

يُؤَثِّرُ جَريُها في البحرِ أثْراً تكادُ به تَظُنُّ الماءَ طِينا

ترك سير الباخرة أثراً في الماء يدوم بعض الوقت فكأن الماء طين

ركبتُ بها على اسمِ اللَّهِ بحراً غدا بِسُكونِ لُجَّتِهِ رَهِينا
أَتَيْنا دارَ قُسْطَنطِينَ صُبحاً وقد فُتِحَتْ لَهُمْ فتحاً مُبينا

دار قسطنطين: القسطنطينية، إستانبول

وظَلَّ الجيشُ جيشُ اللَّهِ يَشْفي بِحَدِّ سيوفِهِ الداءَ الدَّفينا
وحَطُّوا قصرَ يِلْدِزَ عن سماءٍ له فانحَطَّ أسفَلَ سافِلينا
هوى عبدُ الحميدِ بِهِ هُوِيّاً إلى دَرَكِ الملوكِ الظالمينا

أسقطوا السلطان عبد الحميد فهوى ليكون مع الظالمين

وأُنزِلَ عن سريرِ المُلْكِ خَلْعاً وأُفْرِدَ لا نديمَ، ولا قَرِينا
فَسِيقَ إلى سَلانيكَ احتِباساً لَهُ كَيْ يَستريحَ بِها مَصُونا

أخذه المعارضون من الجيش إلى سلانيك باليونان، وحبسوه في قصر هناك

وموتُ المرءِ خيرٌ مِن مُقامٍ له بينَ الذين سَقَوْهُ هُونا
لقد نَقَضَ اليَمينَ وخانَ فيها فذاقَ جزاءَ مَن نقضَ اليَمينا
فقَرَّتْ أعينُ الدستورِ أمْناً وشاهَتْ أوجُهُ المُتمَرِّدينا

٩٤ المقيدون بأوجالهم

لِمَنِ القصرُ لا يُجيبُ سؤالي آهِلاتٌ ربوعُه أم خَوالِ؟

لمن هذا القصر؟ وما له لا يجيب سؤالي؟ هل ربوعه مسكونة آهلة أم خالية مهجورة؟

ما تَداعَى مِنكَ البِناءُ، ولكنْ قد تَداعَى بناءُ تلكَ المعالي

ما تداعى، تهدم، بناؤك، ولكن ذلك المجد قد انهدم

كنتَ مَأوَى العُلا مَثارَ الدَّنايا مَهبِطَ العِزِّ، مَصدَرَ الإذلالِ

كان فيك العلا، المجد، وكنت مثار الدنايا، سبب الرذائل، وكنت مهبط، موضع، العز، ومصدر الإذلال للناس.. كنت كل هذا يا قصر يلدز

أينَ خاقانُكَ الذي كان يُدْعى قاسِمَ الرزقِ، باعثَ الآجالِ

خاقان: أمير تركي.. وكان يقال عن عبد الحميد إنه يقسم الرزق للناس ويحدد آجالهم بقتلهم أو العفو عنهم

وعَـزاءً . . فـلـسـتَ أولَ قـصـرٍ   نَكَّسَ الـدهـرُ مِـن ذُرَاهُ الـعَـوالـي

ذراه العوالي: قممه الشامخة

قد تَداعَى من قبلُ إيوانُ كسرى   بعدَ أن طالَ شَاهقاتِ الجبالِ

إنَّـمـا نـحـنُ أُمَّـةٌ تَـدْرَأُ الـضَّـيْـ   ـمَ وتَـأبـى أن تَـسـتَـكـيـنَ لِـوالِ

نحن، رعايا الدولة العثمانية، ندرأ الضيم، ندفع الظلم ولا نستكين لولاة الأمر

يـا مُـلـوكَ الأنـامِ هَـلَّا اعـتـبـرتُـمْ   بـمـلـوكٍ تَـجـورُ فـي الأفـعـالِ!

لـيس عـبدُ الـحـميـدِ فـرداً ولـكـن   كـمْ لِـعـبدِ الـحـمـيدِ مِـن أَمـثالِ

فـاتـركـوا الـنـاسِ مُـطـلَـقـيـنَ وإلَّا   عِـشْـتُـمُ مُـوثَـقـيـنَ بِـالأَوْجـالِ

أعطوا الناس حريتهم، وإلا فإنكم أنتم ستكونون مقيدين أيضاً لكن بالأوجال.. بمخاوفكم

٩٥ الخطيب الساكت

يا ساكتاً وَهْوَ مَشنوقٌ على عَمَدٍ   لَأَنْتَ أبلغُ مَن نَادَى ومَن خَطبا

رغم سكوتك فأنت خطيب بليغ أيها المشنوق على عمود خشبي

طالبتَ بِالشَّرعِ حتى قد قُتِلتَ به   كذاكَ مَن جَهِلَ الشيءَ الذي طَلَبا

يا ظالمَ الشعبِ مظلوماً بِفِعلَتِه   عليكَ أم منكَ يَبكي الشعبُ مُنتحِبا

يا مُفسِداً قام تحت الدينِ مستَتِراً   لِيجعلَ الأمرَ في البُلدانِ مُضْطَرِبا

انظرْ إلى ذلكَ المصلوبِ مُتَّعِظاً   فإنَّـمـا قَتْلُهُ في الشرعِ قد وَجَبا

انظر أيها السامع إلى هذا المشنوق واتعظ به.. جعل المشنوق مصلوباً كي يأتي بشاهد قرآني في البيت التالي..

وآيـةُ الـلَّـهِ فـي الـتـنـزيـلِ قـائـلـةٌ   مَن كان يُفسِدُ في أوطانِه صُلِبا

الآية: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض»

٩٦ رجال الدين

لا دَرَّ دَرُّ رجـالِ الـديـنِ إنَّـهُـمُ   قد أظهروا فيه مِنْهُمْ غيرَ ما كَتَمُوا

لا در درهم: عكس لله درهم

واستعـمَلُوهُ كما تَهوَى مَآرِبُهُمْ   كـأنـه لـيـس إلَّا آلـةً لَـهُـمُ

وإنْ تَصادَمْتَ بالعاداتِ تنكِرُها　　فأنتَ في زعمِهِمْ بالدينِ تَصْطَدِمُ
وإنْ أتيتَ ببرهانٍ فأعجَزَهُمْ　　لم يُحْسِنوا الردَّ، بل مِن عجزِهِمْ شَتَمُوا
وإن تقُلْ لَهُمُ قولاً لِتُقْنِعَهُمْ　　شَدُّوا عليكَ ورَدُّوا قَبلَما فَهِمُوا
خلائقٌ كظلامِ الليلِ مَن يَرَها　　يَقُلْ بِأمثالِ هَذي تُمْسَخُ الأُمَمُ

٩٧ سأرحل عنهم

يخاطب الشاعر محمد مهدي الجواهري:

أقولُ لِرَبِّ الشعرِ مهدي الجواهري　　إلى كم تُناغي بالقوافي السَّواحِرِ!

تناغي: تترنم

ركبتُ بحورَ الشعرِ قبلَكَ خائِضاً　　لَعَمْرُكَ منها كلَّ طامٍ وزَاخِرِ
وسَيَّرْتُ مِن غُرِّ القوافي بِلُجِّها　　قَصائدَ سَارَتْ كالسفينِ المَواخِرِ

سيرت في لج بحور الشعر، في عمقها، قصائد كأنها السفن التي تمخر، تشق الماء

فلم أُلْفِ إلّا مُنكِرينَ مَكانَتي　　يَحيدونَ عَنّي كالوُحوشِ النَّوَافِرِ
فقابَلْتُهُمْ بِالصَّفْحِ عنهُمْ تَرَفُّعاً　　وأعرضْتُ عن شتمِ السَّفيهِ المُهَاتِرِ
أنا اليومَ مِن هذي الحياةِ على شَفاً　　أُشارِفُ منهُ مَرقَدي في المقابِرِ

أنا على شفا، على طرف، الحياة أشرف على مرقدي الأخير

سَأرحَلُ عنهُمْ عائذاً مِن شُرورِهِمْ　　بِرَبٍّ كريمٍ، قابِلِ التَّوْبِ، غافِرِ

عائذ: ملتجئ

٩٨ وداع بمرارة شديدة

قال الرصافي في أواخر أيامه (١٩٤٣):

يا مَوْطناً لستُ منهُ في مُوَادَعَةٍ　　عِشْ بعدَ موتيَ عَيْشَ الوَادعِ الهاني

يا وطني الذي لا موادعة منه لي، لم يكن وديعاً معي، عش وادعاً هانئاً

فكُلُّ مَن فيكَ تعَنْيني سَعادَتُهُمْ　　وكلُّ أَبنائِكَ الأعداءِ إِخواني

أعدائي من أبناء الوطن هم في الواقع إخواني

إنْ سَرَّكَ الدهرُ يوماً سَرَّني، وإذا　　آذاكَ بِالمُزعِجاتِ الدهرُ آذاني

ما ضَرَّني أن كلَّ الناسِ تَحْقِرُني إن كنتَ أنتَ جَليلَ القَدْرِ والشَّانِ
وليس يَنفَعُني عِزٌّ ولا شَرَفٌ إن لم تكنْ أنتَ ذا عِزٍّ وسُلطانِ
يا قومُ إنِّي مِن الدنيا ضَحَيَّتُكُمْ فَقَرِّبُوا مِن حياتِي كُلَّ قُربانِ

أنا ضحية من ضحاياكم فلأكن قرباناً تنالون به الرضا

لا تَحْسَبونِيَ منكُمْ جازِعاً ضَجِراً وإن يَكُنْ شَظَفِي في العيشِ أَضْواني

أضواني: أنحلني وأهزلني

إنِّي أَلِفْتُ على الأيامِ مَخْمَصَتي فالنُّعْمُ والبُؤْسُ عندي اليومَ سِيَّانِ

مخمصتي: جوعي

تَختارُ نَفسِي الطَّوَى بِالعِزِّ قَانِعَةً وتتركُ القَصفَ في ذُلٍّ لِمِبْطَانِ

الطوى: الجوع، القصف: اللهو، المبطان: كبير البطن

يا لاهِجِينَ بِشَتْمِي في مجالِسِهِمْ ناموا على الأمنِ في أَحْضانِ غُفراني
جَادَلْتُمونِي فما أَحسَنْتُمُ جَدَلِي حتى بَذَيْتُمْ بِذَاءَ الماجِنِ الخاني

بذيتم: قلتم البذاءات، الخاني: المفحش

ومِن عَناءِ اللَّيالِي أن يُجادِلَنِي مَن ليسَ يَقرعُ بالبُرهانِ بُرهاني
كم تُظهِرونَ عفافاً في تَدَيُّنِكُمْ وتُضمِرونَ ضَميرَ الفاجِرِ الزاني

٩٩ ليل متحجر

وليلٍ بِهِ قد بِتُّ أَخْتَلِسُ الكرى وأرقبُ فيه النجمَ أن يَتَغَوَّرا

يتغور: يغيب

تَمَطَّى على الآكَامِ منهُ بِغَيْهَبٍ تَكاثَفَ حتى خِلتُهُ قد تَحَجَّرا

تمطى الليل، تمدد، على الآكام، التلال، بغيهب، بسواد، كان كثيفاً حتى خلت هذا السواد قد تحجر

وكادَ دُجاهُ يُمْكِنُ الكَفَّ لَمْسَهُ فلو سارَ سارٍ في دُجاهُ تَعَثَّرا

ولكثافة الظلمة كانت كأن بإمكان المرء لمسها بكفه، ولو سار فيها لتعثر بها.. أليست قد تحجرت؟

١٠٠ استسلام الفصحى

الشعرُ ما قلتَ يا عَبُّودُ فانْحُ به   مَدحَ الصَّناديدِ لا هَجْوَ الرَّعاديدِ

يخاطب الملا عبود الكرخي الشاعر الشعبي: انح بالشعر، توجه به، إلى مدح الصناديد، الشجعان، لا هجاء الرعاديد، الجبناء

دَعْ هذهِ اللُّغَةَ الفُصحى فنحن بها   ظَلْنَا نُخاطِبُ جيلاً غيرَ مَوْجودِ

فالناسُ غَيَّرَتِ الأيامُ لَهْجَتَهُمْ   بِكلِّ لحنٍ على الأفواهِ مَعقُودِ

فانْظِمْ لنا زَجَلاً في الشعرِ يفهَمُه   مَن في الرَّسَاتِيقِ مِن تلكَ العَباديدِ

انظم زجلاً يفهمه أهل الرساتيق، القرى، من العباديد، جماعات الناس

١٠١ الالتفات

لقِيتُها في الطريقِ عابِرَةً   يَهْصِرُ مِن قَدِّها تَبَخْتُرُها

يهصر: يُميل. كانت المرأة مقبلة عليه وهو ماش والتقيا وجهاً لوجه.. ومضى كل في طريقه..

أَعجَبَها منظري وأعجَبَني   بالحسنِ عند اللقاءِ منظَرُها

فصارَ قلبي بِالحُبِّ يأمُرُني   وقلبُها بالغرامِ يَأمُرُها

وحين مَرَّتْ والشَّوْقُ يُسْكِرُني   بِخَمْرِهِ تارةً ويُسْكِرُها

لَفَتُّ جِيدي أرى أَتَنظُرُني   والتَفَتَتْ لي ترى أَأَنْظُرُها

بعد أن اجتازتني التفت لأرى هل ستلتفت هي إلي، والتفتت هي للغرض نفسه

فقلتُ والشوقُ فيَّ مُلتَهِبٌ   إنْ عَذَرَتْني فسوف أَعْذِرُها

إن عذرتني على عدم التعرض لها فسوف أعذرها على ما فعلت بقلبي.. والمرأة ـ لمن يقرأ هذا ولا يعرف النساء ـ تغفر لك أن تتغنى بجمالها، ولا تغفر لك أن تتجاهله. هذه قطعة عذبة عذوبة أخاذة.. هذا موقف سجله قلم شاعر فصيح

١٠٢ بكل بساطة

أرى الحياةَ بسيطاً أمرُ صاحِبِها   فكيفَ يَشكُونَ منها كَثرَةَ الحَاجِ

إن الحياةَ لَعَمْرُ اللَّهِ قائِمَةٌ   بِحُكْمِ شيئينِ إِدخالٍ وإِخراجِ

الحياة هي أكل وتخلص من الفضلات ليس غير، ولا حاجة حقيقية للإنسان سوى هذا

١٠٣ شيخ وفتية

أنـا شـيـخٌ وذي عَـصـايَ فَـتِـيَّـةْ   قـد أَتَـتْـني مِـن مَـظْـهَـرٍ لـيِ هَـدِيَّـةْ

جاءته عصا مفضضة من مظهر الشاوي الذي كان يحسن إليه في أخريات حياته

صَـاغَـةُ الـصَـابِـئِـيـنَ قـد أَلْـبَـسُـوهـا   حِـلْـيَـةً ذاتَ صَـنْـعَـةٍ عـبـقَـرِيَّـةْ

الصابئة في العراق اشتهروا بالصياغة. الصنعة العبقرية: المتقنة جداً، كأن من صاغها من الجن الذين يسكنون وادي عبقر

فَـسأَمْـشـي بـهـا قـويـاً سـويـاً   بـعـدَمـا كـنـتُ مـاشـيـاً كـالـحَـنِـيَّـةْ

الحنية: القوس

١٠٤ معلومات وهمية

لُقِّنْتُ في عصرِ الشبابِ حَقائقاً   في الـديـنِ تَـقْـصُـرُ دونَـهـا الأَفـهـامُ

تلقنت شاباً معلومات دينية كثيرة ومعقدة لا تكاد تستوعبها أفهام، عقول، الناس

ثم انقَضى عصرُ الشبابِ وطيشُهُ   فـإذا الـحـقـائـقُ كـلُّـهـا أَوْهـامُ

١٠٥ التجارة بالوطن

لا يَخْدَعَنْكَ هُتافُ القومِ بِالوطنِ   فالقومُ في السرِّ غيرُ القومِ في العَلَنِ

أُحْبُولَةُ الدينِ رَكَّتْ مِن تَقادُمِها   فاعتاضَ عنها الوَرى أُحْبُولَةَ الوطنِ

أحبولة: مصيدة، ركت: أصبحت ركيكة ضعيفة

١٠٦ ملك بلا شعب!

قُـلْ لِـمَـنْ صَـيَّـرَ الـمـلـيـكَ عِـمـاداً   لِأُمورٍ في المُلْكِ تَأبى الشَّريكا..

قل لمن جعل الملك صاحب أمر لا يشاركه فيه أحد ولا يشاور أحداً..

قـد رأيـنـا شـعـبـاً بِـغـيـرِ مَـلـيـكٍ   هل رَأَيْتُمْ بِغيرِ شَعْبٍ مَليكا؟

١٠٧ كان آدمياً

إنَّ نُـورِي الـسَّـعـيـدَ قـد كـانَ قـبـلاً   آدَمِـيَّـاً فَـرُدَّ بِـالـمـسـخِ قِـردا

قـد أبَـى أن يـعـيـشَ حـراً مَـعَ الـتُّـرْ   كِ وأَمْـسـى لِـلـتَّـيْـمِـسـيـيـنَ عَـبْـدا

التيمسيين: الإنجليز، نسبة لنهر التمز الذي يقطع لندن

مثلَ إبليسَ ما أطاقَ سُجوداً وأطاقَ الهَوانَ لَعْناً وطَرْدا

١٠٨ المعاهدة القيد

قد أبْلَعُونا حَبَّةَ استِعبادِنا لكنْ مُمَوَّهَةً بِالاسْتقلالِ

جعلونا نبلع حبة دواء هي الاستعباد لكنها مموهة بمعاهدة تعد بالاستقلال، وحبة الدواء المرة تكون مغلفة بالسكر

مَن ذا رأى ذِئبَ الذئابِ مُصافحاً بِتَوَدُّدٍ حَمَلاً مِن الأَحْمالِ
لكنَّهُمْ خافُوا انْفِكاكَ قُيودِنا فاستَوثَقُوا مِنْهُنَّ بالأقفالِ

١٠٩ الحثالة

قد كان لي وَطَنٌ أَبْكي لِنَكْبَتِه واليومَ لا وَطَنٌ عندي ولا سَكَنُ
ولا أرى في بلادٍ كنتُ أَسكُنُها إلَّا حُثَالَةَ ناسٍ قَاءَها الزَّمَنُ

١١٠ جربوني

يا مُبْعِديَّ بِظُلْمٍ عن مناصِبِهِمْ وقَاطِعينَ إلى ما أَبْتغي طُرُقي
عَلِمْتُ كلَّ خَفِيٍّ مِن ضمائِرِكُمْ وما عَلِمْتُ الذي تَرْضَوْنَ مِن خُلُقِ

لا أعرف ما الذي تريدونه من صفات تتوفر فيَّ لكي تولوني منصباً

ماذا يُوافِقُكُمْ مِن شأنِ صَاحِبِكُمْ حتى يكونَ لديْكُمْ حَائِزَ السَّبَقِ
إن كان عقلٌ فإنِّي عاقِلٌ فَطِنٌ أو كان حُمْقٌ فَعِندي أَحْمَقُ الحُمُقِ
فَجَرِّبُوني تَفوزُوا عند تَجرِبَتي بَما تُريدونَ مِن طَيْشٍ ومِن نَزَقِ

النزق: الخفة والطيش. لابن الرومي ـ قبل ألف سنة من الرصافي ـ قصيدة تشبه هذه شبهاً كبيراً يشبه الشبه بين هذين الشاعرين البغداديين. انظرها في كتابنا «تألق الشعر» ضمن الفصل الضافي عن ابن الرومي

وإنْ أَبَيْتُمْ سوى مَنْ عِرْضُهُ دَنِسٌ فلستُ معْكُمْ على شيءٍ بِمُتَّفِقِ
لا أبعدَ اللّهُ غيري عنْ مَناصِبِكُمْ إنِّي بِتدنِيسِ عِرضِي غيرُ مُرْتَزِقِ

فليكن غيري قريباً من مناصبكم فأنا لا أرتزق بتدنيس شرفي

١١١ لا يبالون لأنهم موتى

قالَ ذُو الحِزْبِ إذْ أتاهُ مَقالِي ... نحن لَسنا بِما يُقالُ نُبالي
صَادِقٌ في الذي ادَّعاهُ، وأنَّى ... يَألَمُ المَيْتُ مِن جُروحِ النِّصالِ

هو لا يلتفت لقولي.. فأنّى، كيف، يتألم الميت من الجرح بنصل السيف؟

إنَّما تَجزَعُ الكرامُ مِن الذَّمِّ ... وتَخشَى الأمجادُ لَذْعَ المَقالِ

الأمجاد: أهل المجد

١١٢ سنلتقي

قُلْ لِلذي أنْحَى عليَّ بِظُلْمِهِ ... سَفَهاً وجارَ بِقولِه وبِفعلِهِ
الموتُ يَجمعُ بيننا وسنلْتَقي ... عند الذي تثِقُ الخُصومُ بِعَدْلِهِ

١١٣ أثواب الرياء

سَوَّدَ اللّهُ مِنكَ يا شيخُ وجهاً ... غَشَّ حتى بِاللِّحيَةِ السوداءِ
لِحيةٌ طالَ ذَقْنُها فَهْوَ فيها ... أَلِفٌ خُطَّ بينَ عَينٍ وراءِ

لحيته مقسومة نصفين وذقنه في الوسط مثل الألف.. وحرف الألف هذا واقع بين العين والراء.. ففي وجهه كلمة «عار»

لو نَتَفْنا مِن شَعرِها وغَزَلْنا ... لَنَسجْنا خَمسِينَ ثَوبَ رِياءِ
وَصَفُوهُ بِالمستقيمِ فقُلْنا ... إنه المستقيمُ في الأمعاءِ

المستقيم في علم الأحياء: الجزء الأخير من الأمعاء

١١٤ استطراد

وشامِخِ الأنفِ ما ينفكُّ مُكْتَسِياً ... ثوبَ التَّكَبُّرِ في بُحبُوحَةِ النادي
قد لازمَ الصمتَ عِيّاً في مجالِسِهِ ... كأنَّما هُوَ مِن نُوَّابِ بَغدادِ

هذا في الشعر أسلوب الاستطراد الذي برع فيه أبو تمام والبحتري. أن يتناول الشاعر موضوعاً ثم ينفتل عنه ليجري مقارنة كقولك: «رئيس الدولة قلبه مفتوح لا يخفي شيئاً، فكأن ملفات مخابراته في أيدي العدو»، فأنت قد مدحته توصلاً إلى الإساءة إليه

١١٥ آكل الثوم

ما أقبحَ الجهلَ يُبْدي عيبَ صاحبِهِ　　لِلناظرينَ، وعن عَيْنَيْهِ يُخْفيهِ
كذلكَ الثُّومُ لم يَشْمَمْهُ آكِلُهُ　　والناسُ تَشْتَمُّ نَتْنَ الرِّيحِ مِن فيِهِ

فهرس القوافي
(القافية فرقم القصيدة)

محمد مهدي الجواهري

(١٩٠٢م ـ ١٩٩٧م)

عاش الجواهري عُمرين.

عاش خمساً وتسعين سنة ميلادية.

ومن يعش عمرين يكمل الدائرة مرتين: رثى الجواهري زوجتين، وسقط سقطتين، وخلف لنا مذكراته في جزأين اعترف فيهما بالسقطتين، وسماهما الهاويتين. وخاض في الجزأين ـ وأتم ثانيهما في عام ١٩٩١ ـ مبارزات دونكشوتية مع ناس ماتوا.

ولما كنت أدخلت نفسي في دوامة ضمير المثنَّى المزعج، فلأخاطب اثنين: القارئ والقارئة، في موضوع مختلف، ثم ستكون لي عودة إلى «شاعر العرب الأكبر» كما سماه الناس. طبعاً «الأكبر»! فمن قهر عزرائيل كل هذه السنين، فقد أمات المنافسين، وأمات الشعر العمودي، وبقي متربعاً على خرائبه.

أيتها القارئة،

القارئ يكون رجلاً أو امرأة، فإن قلنا «شخصاً» كي نريح أنفسنا من توجيه الكلام دائماً إلى مذكر «فالشخص» مذكر، ويصبح علينا عندئذ أن نقول «شخصة»! لم تحَلَّ المشكلة.

ليس عند الإنجليز هذه المشكلة، فهم يقولون قارئ، ريدر، وهي تنصرف إلى مذكر ومؤنث. قد ارتاحوا من هذه. فأما إن جاءوا للضمائر فيلحق بهم ما يلحق بنا.

انتفضتْ نساء الغرب في مطلع القرن العشرين انتفاضة كبيرة، ونِلنَ في

معظم دول العالم حق التصويت. وللآن لم يهدأن: يُرِدْن تخليص البشرية من تراث عمره آلاف السنين جعَلَ الذكر ذا حقوق أكثر من الأنثى. أولئك هن «النِّسْوِيَّات»، وفي هذه الفئة رجال كثر همُ «النسويون». وفي أواخر القرن العشرين ثارت النسويات والنسويون على الضمائر. فأصبح الكاتب في البلاد الناطقة بالإنجليزية يقول عبارة «هو أو هي» في كل مرة ورد فيها ضمير الغائب المفرد. بعضهم تفنن فصار يقول «هي أو هو»، مقدما الهي على الهو. وبعضهم صار يقول «هو» مرة، و«هي» مرة. ولحقنا من هذا العنت شيء، ولكن ضمائرنا مفصلة تفصيلاً يعود علينا بإزعاج لا تعرفه الإنجليزية، فضمير الجمع عندنا «هم وهن» فيه تذكير وتأنيث، وعند أولئك القوم للجنسين ضمير واحد في الجمع.

أنا فيما أكتب أقول «هو» ولا أبالي، تاركاً للأجيال المقبلة أن تتخلص من عبء الإرث القديم.

وقد تحمس شعراء مصر والعراق للمرأة ولتحررها. وفي كتابنا الذي بين يديك ثلاثة شعراء من مصر وثلاثة من العراق، فأما شعراء مصر فقد وقفوا وقفة الهائب من دعوة نصير المرأة ورائد الفكر النسوي قاسم أمين (ت ١٩٠٨) المصري. وتلجلجوا في شأن المرأة ومكانتها، ولم يخرج من شعرهم ولا من حياتهم فكر نسوي واضح. وأما ثلاثة شعراء العراق فقد كان لهم شأن آخر.

وقبل أن نمضي في هذا الشأن نقف وقفة قصيرة بإزاء سلسلتنا هذه: «الزبدة»، التي استعرضنا فيها أشعار نحو أربعين شاعراً منذ الجاهلية حتى خبا الشعر العمودي في أواسط القرن العشرين. ونسجل على أنفسنا أننا لم نأخذ شاعرة واحدة. فلماذا؟ لم نسلك في هذا الأمر سبيل النسويين الذين يريدون حشر المرأة في كل مجال لمجرد إعطائها فرصة. التاريخ العربي ذكوري والشعر العربي ذكوري. وعندما ثارت في العراق نازك الملائكة على الشعر العمودي، وسارت في درب شعر التفعيلة، ونظَّرت له تنظيراً باسقاً في كتاب هو أحد أهم كتب التقعيد لصناعة الشعر منذ مئات السنين، وعندما تبعتها شاعرة فلسطين فدوى طوقان، وانحرفت بسرعة عن العمودي إلى التفعيلي، كان الشعر العمودي يذوي. وهكذا فمع دخول شاعرتين كبيرتين إلى ساحة الشعر العربي كان هذا الشعر قد شق طريقاً جديداً، وإحداهما كانت من أوائل من شق الطريق، والثانية تحولت مسرعة وسارت فيه. وسلسلتنا تتناول الشعر العمودي فقط.

فلماذا لم آخذ الخنساء ضمن شعرائي؟

ديوانها صغير ومحوره ضيق. فأخذت لها قصيدة في موضوعها الوحيد: الرثاء.

ونعود إلى شعراء العراق. كان هؤلاء من أشد أنصار المرأة في كل العالم العربي، كانوا على يسار قاسم أمين. وقد اقتطفنا من أشعارهم النسوية الكثير لأنهم قالوا ذلك الشعر بحماسة، وكانوا رواد فكر في العالم العربي كله. وهنا يتدخل توجهي الشخصي، فأنا نسوي مؤيد لنيل المرأة كل ما للرجل من الحقوق. وليكن بعد ذلك في أعماق نفسيتي ذلك الإرث الذكوري المتغلغل فينا الذي لا نملك له صداً. تربية النفس على شيء جديد أبطأ من الاقتناع به فكرياً.

كان الجواهري شاعراً عمودياً. بدأ باكراً، وله أشعار كثيرة معاصرة لشوقي وحافظ والزهاوي والرصافي. وخاض عالم الشعر مع هؤلاء الذين أنهضوا الشعر العمودي نهضته الأخيرة. لكنه عاش طويلاً، فحضر في اليوتيوب، ورآه شباب زمننا هذا.. فنال بطول العمر تقديساً. وسنعود إلى الجواهري، فهذه السطور هي في التقديم لما اخترناه من شعره.

فهل مات الشعر العمودي؟

لم يمت الشكل. فما زال بعض الشباب ممن قرأ الشعر القديم وأكبَّ عليه إكباب درس وتمحيص يقول شعراً على البحور المعروفة.. أو على الأصح على بعضها. ولكن مصطلح «الشعر العمودي» يعني شيئين لا شيئاً واحداً. فهو الشعر الموزون المقفى على الطريقة القديمة، وهو أيضاً الشعر الذي يتناول المعاني بانضباط كلاسيكي. وكثير من العمودي الذي يكتبه شباب العرب اليوم رومنسي، مفرط في المجاز المزدوج، فهو عمودي وزناً، رومنسي محتوىً.

لن نحكم على الشعر العمودي بالموت. لكنه ـ حتى عند شوقي والبارودي والرصافي وكل شعراء كِتابنا هذا «إحياء الشعر» ـ شعر «يحاول» أن يكون قديماً.. يحاول أن يضاهي البحتري.. يحتفل بالمفردة المهجورة.. هو شعر لاهث. لم ينجح شوقي في الوصول إلى البحتري ولا إلى المتنبي. ولن أنجح أنا إن كتبت لك بلغة عتيقة في أن أبلغ الجاحظ، سأبقى مغموط الحظ مضئوز النصيب، واقفاً أمام صوان ملابس عتيق أتخير منه أبراداً وطيالسة وقلانس أرتديها كي تظنني عتيقاً، ثم يضحك مني الزمن. نثرُ الجاحظ لزمن الجاحظ

وشعر المتنبي لزمن المتنبي. واللغة تتغير حتى لو صك المنفلوطي رأسه بالجدار.

كان الجواهري من ساقة شعراء الإحياء، غير أنه فعل فعل صاحب لوائهم البارودي في أنه كان يلتمس الأسلوب العتيق.

أيها القارئ،

بالله عليك إلا ما ذهبت عني الآن، ومضيت إلى شعر الجواهري تقرأُه! هذه الأسطر التي أكتبها لك في هذه المقدمة، بعد فراغي من الاختيار فالتشكيل فالشرح، فضلة قلم، وبقية مداد أنثره فوق الصفحة، فكأنها قطرات العرق تتساقط من جبين الراكض الذي وصل شريط النهاية في جري المسافات الطويلة. قد أنصبت نفسي وأنا أتخير لك الشعر وأشرحه، ثم أراك بعد ذلك تمر به مر الكرام. حرام عليك أن تتسلى بقراءة مقدمتي هذه ـ على ما فيها من استطراد، يشي بضعف الاستعداد، وعلى ما يلوح عليها من غثاثة، تمشي في كتابتي كأنما بوراثة ـ وتترك شعر الجواهري وذلك الجهد الكبير الذي وضعته في انتخاله وشرحه.

خذ قصيدة الجواهري المشهورة «أم البساتين». ها هي مجلوة لك هنا كالعروس في ثلاثين بيتاً، قصيدة من بديع الشعر. صعبة قاسية حلَّيتُها بشرح يفتح لك مغاليقها. فأما أصلها فمئة وخمسة وستون بيتاً. قرأها لك صاحب هذه الأسطر في طبعة ديوان الجواهري ذات الأجزاء السبعة الصادرة في بغداد، ١٩٧٣، في حياة الشاعر، وعارضها على الطبعة التي أصدرها ذووه لديوانه الكامل بعد وفاته. قرأتها وانتخلت لك منها الأبيات الثلاثين، وأتعبت القاموس والصحاح وأسهرت المصباح.

قد فعلت مثل هذا بكل ما سيأتيك من أشعار الجواهري. ثم أراك تقرأ بيتاً أو بيتين، وتقول لنفسك: لا أريد المختارات، أريد القصيدة الأصلية كاملة. فاذهب عني، ورح اقرأ الدواوين؛ ما الذي أتى بك أصلاً.

قد اشتغلت بهذه الأشعار زمناً طويلاً، وإلا أكن مللت منها فإنني مللت من القراء الكرام، وإن كان عندي أمل في أن يأتي زمن يجد فيه الناس في هذا الجهد ما ينفع. أنا، والحال هذه، كالشيخ الذي رآه كسرى ملك الفرس يزرع شتلة زيتون، فقال له: أنت شيخ هرم، ولن تعيش لتأكل من ثمر هذه الشتلة!

فقال الشيخ: غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون. فقال كسرى: زِهْ. وأعطاه ألف شيء.. ماذا كان اسم العملة الفارسية العتيقة؟ لا أدري. لكنني أدري أن الناشرين في عالمنا لا يقولون زه.

بعض أصحابي، ولهم في القلب موضع، يرددون عليَّ أبياتاً من قصيدة للجواهري، يقولون إنها رائعة وعظيمة.. يصدعون رأسي بها. عظيمة فقط لأنهم سمعوها منه في اليوتيوب. ولم يسمعوا من شعره غيرها. فهم مثل رجل دخل كهف علاء الدين ـ بعد أن فتحَ له سمسم ـ فوجد في فم الكهف قفة دراهم فملأ منها كيسه وخرج. ليته تعمق ليجد الذهب والألماس. أنا تعمقت يا بعض أصحابي. وأخرجت لكم ألماس الجواهري، فلا تصدعوا رأسي برنين نحاسكم.

للأسف، الجواهري صعب، وأشعاره تتعطش للشرح: صعب في مفرداته، التي يلوي أعناقها لتؤدي معاني منحرفة بعض انحراف عما وضعت له؛ وصعب في معانيه التي تختفي وراء ستار من لفظ رنان.

هو معاصر لأنه عاش السياسة في زمنه، وذاق كثيراً من النفي وقليلاً من السجن والأذى، وأصدر الجرائد، ومدح الرؤساء والملوك، ودخل في الفكر الاشتراكي من باب الشيوعية بعض دخول؛ وهو قديم لأنه عاش في شعر المتنبي والبحتري وشب على الجبة والعمامة في النجف؛ وهو مثقف قرأ الكتب، لكنه لم يُغرق فيها فلم تَغرق شاعريتُه؛ وهو شاعر لأن الله خلقه شاعراً.

لا أخفي عليك أنني دخلت عالم الجواهري متأخراً. قد صرفني عنه أولئك الأصحاب الذين جعلوني أظن أن الرجل إنما نال عندهم من المكانة ما نال لأنه عاش خمساً وتسعين سنة، فسجل حضوراً في دفاترهم. لكنني، في هذه على الأقل، كنت متواضعاً. قلت في نفسي: ليكن! يقولون إن الجواهري شاعر كبير، فلأفحص عن الأمر. وفحصت. ورأيت الجواهري شاعراً كبيراً فعلاً. ورأيت تلك الشلالات الغزيرة التي هي قصائده الطويلة تحجب عن العين المعاصرة ما عنده من شاعرية.

هو في قصيدته خطيب، وكان يلقي القصائد في شتى المحافل، وكان يطرب لما يراه من إعجاب الجمهور بأبياته الرنانة. وهو في قصيدته مطيل يروي أحداثاً. وهو في قصيدته صائغ يتعب في تركيب البيت، فيتعب معه البيت ويأتي معوجاً.

ما أحوج شاعراً كهذا إلى منخلي.

استندت في اختياراتي إلى المجموعتين اللتين أشرت إليهما سابقاً، وقد خلتا، كلتاهما، من الشرح، إلا من سطر في الصفحة بعد الصفحة فيه المعنى القاموسي لمفردة.

محمد مهدي الجواهري

الجواهري من النجف بالعراق، واسم الأسرة منسوب إلى كتاب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» الذي كتبه أحد قدامى الأجداد واسمه محمد حسن. وكانت لأسرته أواصر نسب مع أسر عريقة كثيرة في النجف والحلة. كان أبوه عبد الحسين فقيهاً وشاعراً. وأراد لولده الثاني «مهدي» أن يكون فقيهاً، وأراد الله غير ذلك.

نشأ الطفل مهدي مدللاً من أم تحنو عليه - هل تلاحظ أنني بدأت أكتب كما يكتب رقعاء منتديات النت.. لا ينقصني الآن إلا أن أقول «منذ نعومة أظفاره» حتى يكتمل الانحدار، وهل هناك أم لا تحنو على طفلها؟ -. الجواهري نشأ مدللاً. أمه تحنو عليه، وأبوه يحنو عليه، والأمة التي في بيتهم، واسمها تفاحة، تحنو عليه وتقص عليه القصص. وجدته لأبيه تحنو عليه. وهذه الجدة اسمها صيتة. وماتت والجواهري طفل في الخامسة، وأقيم للجدة «صيتة» عزاء مهيب لم يقم من قبل لامرأة، كما يخبرنا الجواهري.

في هذا المحفل، وفي محافل تشبهه، سمع الجواهري شعر الشعراء. وكانت النجف مدينة شعر وأدب، وكانت مدينة علم. نقصد ما كان يقصده القدماء بكلمة «علم»: علوم الدين واللغة والأدب.

لم يكمل محمد مهدي - قد أضيف اسم محمد لاسمه فيما بعد - علومه الشرعية واللغوية في حوزات النجف كي يصبح فقيهاً. بل أخذ منها ما تحتاج إليه روحه الشاعرة. كان يتعلم في بيته على أبيه وأقاربه، وليس في ذهنه سوى أنه يريد أن يصبح شاعراً. ونظم باكراً، لا ندري درجة نعومة أظفاره عندما بدأ ينظم، لكنه قرزم مثلما يقرزم الشعراء ثم استوى له الشعر وهو في نحو الثامنة عشرة. وفي هذه السن الطرية شهد الجواهري ثورة العشرين في العراق ضد الحكام الجدد: الإنجليز.

كان كثيرون من أبناء النجف لا يحملون «الجنسية» العراقية. ففي العهد

العثماني حمل الكثيرون منهم الجنسية الإيرانية فراراً من الجندية. وكأن الزلزال الكبير الذي حدث بانحسار الظل العثماني عن العراق والوطن العربي، وزلزال ثورة العشرين على المحتل الإنجليزي، لم يكونا كافيين للخروج من حالة انعدام الجنسية العراقية لدى الكثيرين.

ثم بدأ العهد الفيصلي مع تتويج الإنجليز فيصل بن الحسين ملكاً على العراق سنة ١٩٢١. ونالت الجواهري الشاب، وكثيرين من الشيعة في العراق، بقية باقية غير قليلة من أذى الطائفية، التي كانت لذلك الزمن في العراق مثل ألم الضرس الذي ينقح عليك نقحاً خفيفاً: لا يخفت فتستطيع له نسياناً، ولا يشتد فيجعلك تهرع إلى طبيب الأسنان.

ولو صدقنا الجواهري في أن عشرة بالمئة فقط من أعضاء مجلس النواب المستحدث كانوا من الشيعة، وحتى لو كذبناه وجعلنا النسبة عشرين بالمئة، فإن مجرد هذه المعلومة تدل دلالة محملة بالمغازي على أن مئات السنين التي انصرمت على حكم العثمانيين السُّنَّة للعراق، بما وقع فيها من تحاكٍّ وتنافس مع إيران الشيعية، تركت العراق محكوماً برجال السنَّة.

عُيِّن الجواهري مدرساً، ثم قيل له أنت لست عراقياً، فأين الجنسية؟ وفصل من التعليم، وعاد إلى التعليم. وزار إيران، حيث كان يعمل أخوه الأكبر، مرتين. وقال شيئاً في قصيدة طهرانية جعل ساطع الحصري، المسؤول عن شؤون التعليم في حكومة فيصل والكاتب القومي المشهور، يفصله، ثم تدخل وزير شيعي فأعاده. ثم استقال الجواهري.

ولما كان صاحبنا قد أصبح شاعراً له كلمة مسموعة بين الناس فقد تلافى البلاط الأمر بتعيينه في التشريفات. وفي هذه الوظيفة كان الشاب الشاعر لصيقاً بالملك فيصل يتمرغ في رعايته ويميل على جوانبه ميل الطفل على أبيه. ووصف لنا ذلك في صفحات كثيرة مدهشة: يندهش القارئ لهذا الأدب الملوكي الجم عند ذلك الملك العربي. كان لفيصل بعض ما لأخيه الأصغر عبد الله بن الحسين ملك الأردن من دهاء، وكان له أضعاف ما لأخيه من رقة وحلم. وكان الرصافي موظف التشزيفات يتمرد في شعره وينتقد، وكان الملك يتغمد كل ذلك بالنسيان، أو بعتب ناعم. كان فيصل يتذوق الشعر كأخيه عبد الله، وكان يبشر الجواهري بأنه سيكون شاعر العراق الأكبر.

واستقال الجواهري من القصر بعد ثلاث سنين، متمرداً على التشريفات

وعلى الملك فيصل، ولم يفت الملك أن يقرص أذن الشاعر الذي انصرف عن مليكه. ولم يفت الجواهري أن يمدح الملك السعودي الذي سلب الهاشميين ملكهم الحجازي نكاية بفيصل.

أصدر الجواهري بعد إذ تمرد وتحرر صحيفة «الفرات». ثم عاد إلى الوظيفة في التعليم ثم في ديوان وزارة المعارف. ومات الملك فيصل عام ١٩٣٣، وتولى الحكم ابنه غازي، فلم تكن للجواهري حظوة.

ومع انقلاب بكر صدقي، تموز/يوليو ١٩٣٦، أحس الجواهري بقرب الفرج، فأيد الانقلاب، وأصدر صحيفة باسم «الانقلاب». لا غرو، كان هذا أول الانقلابات التي زركشت سياسة العالم العربي في القرن العشرين فلم تكن كلمة «انقلاب» قد اكتسَت معناها السلبي، وكانت الحركة الدستورية العثمانية قبل نحو ثلاثين سنة قد سميت انقلاباً، وكان العرب يعدونها حركة حميدة. ثم بعد سنة وشهر اغتيل بكر صدقي فانقضى بذلك أول تموز يمر على رأس الجواهري. فجعل اسم جريدته «الرأي العام».

ومات الملك غازي في عام ١٩٣٩ بحادث سيارة، يزعم الجواهري أن السياسي الداهية نوري السعيد قد دبره، وبعد موته بأشهر قامت الحرب العالمية الثانية وعلى عرش العراق الطفل فيصل بن غازي وهو ابن خمس سنوات، وتولى الوصاية عليه خاله الأمير عبد الإله.

وفي عام ١٩٤١ انقلب على الحكومة ـ وكان قطباها الوصي عبد الإله، والسياسي نوري السعيد المدعوم إنجليزياً ـ رشيد عالي الكيلاني، فهرب «الوصي» و«السياسي» كلاهما من العراق، ولم يسع الإنجليز أن يسكتوا على الأمر لميول الانقلابي الألمانية، فقضوا على الحركة الانقلابية بعد أشهر، وعاد عبد الإله ونوري السعيد إلى بغداد. لم يؤيد الجواهري الانقلاب فسافر إلى إيران ومكث بها زمناً قصيراً.

نجده في سنة ١٩٤٤ في سورية يشارك في إحياء الذكرى الألفية لأبي العلاء المعري. ونراه ـ وهو الآن رجل في أوائل الأربعين من العمر ـ شاعراً له صوت عالٍ في أحداث البلاد، وله صيت ذائع. قد كانت له علاقة طيبة بالشاعر الزهاوي الذي توفي قبل سنوات، وله الآنَ علاقة طيبة بالشاعر الرصافي الذي سيموت عام ١٩٤٥ قبيل انتهاء الحرب. وبموت الرصافي صار الجواهري «شاعر العراق الأكبر» فعلاً.

أصبح الجواهري نائباً عن كربلاء في برلمان ١٩٤٧، ووالى نشر قصائده، في العراق وخارجه. وفي العام التالي هب العراقيون في انتفاضة ضد معاهدة بورتسموث التي أراد الإنجليز بها التمسك بأكبر قدر ممكن من النفوذ في العراق، بعد أن انتصروا في الحرب العالمية الثانية انتصاراً هو أشبه شيءٍ بالهزيمة. فبعد انتصارهم الباهظ طلب التاريخ ـ وأميركا ـ من الإنجليز أن يفككوا إمبراطوريتهم.

في هذه الانتفاضة على المعاهدة قتل الأخ الأصغر للجواهري، جعفر. فتدفق الجواهري بشعر كأنه النار. وبعد سنة أعدم الحكم عدداً من الشيوعيين، من بينهم يوسف سليمان يوسف، المعروف بفهد. ولم نجد للجواهري رثاء في الرجل. كان الجواهري يعطف على الشيوعيين، لكنه لم ينتظم حزبياً في حياته.

نجده في عام ١٩٥٠ في مصر بدعوة من طه حسين، ثم عام ١٩٥١ في لبنان يؤبن عبد الحميد كرامي. وعقب انتفاضة تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٢ سجن الجواهري في معتقل أبو غريب ثم رحل إلى سورية حيث وجد الملجأ الآمن. وعاد إلى العراق عام ١٩٥٧، وفي العام التالي كان انقلاب عبد الكريم قاسم، تموز/يوليو ١٩٥٨. هذا التموز الثاني للجواهري كان الضربة القاضية للملكية في العراق. فقد اغتال الانقلابيون العائلة المالكة، وجروا جثة الوصي عبد الإله في الشوارع. وقتل، أو انتحر، نوري السعيد.

قربت حكومة قاسم الشيوعيين، وتقربت من الاتحاد السوفييتي. لكن حكم العسكر يظل حكم عسكر، وقد تحير الجواهري في قاسم فقد كان يقرب هذا الاتجاه ثم ذاك لغيرما غرض سوى أن يتخلص من خصومه.

تغنى الجواهري بعبد الكريم قاسم وحكمه. ولكنه لم يتخل عن وجدانه العروبي. كان عبد الكريم قاسم لا يرد طلباً للجواهري. ولكن شاعرنا أحس بعد قليل أنه عالق في شبكة تأييد الحكم. هذا الحكم الذي دخل في مهزلة المحاكمات الصورية حتى قبل انقلاب عبد الوهاب الشواف الفاشل. فقد عين قاسم ابن خالته «عباس المهداوي» رئيساً لمحكمة «ثورية» أخذت تهين المتهمين على شاشة التلفزيون، الذي كان دخل العراق حديثاً، قبل أن ترسل العديد منهم إلى حتفهم. واصطدم الجواهري بقاسم في أكثر من مناسبة.

انسلَّ الجواهري سنة ١٩٦١ إلى بيروت ليشارك في تكريم الأخطل

الصغير، بشارة الخوري، ومضى بعدها إلى تشيكوسلوفاكيا البلد الاشتراكي ضمن «المعسكر السوفييتي».

أطيح بعبد الكريم قاسم، أوائل ١٩٦٣، وقتل قتلة شنيعة في ستوديو الإذاعة بعد محاكمة مضحكة مدتها نصف ساعة.

لكن الجواهري بقي في تشيكوسلوفاكيا سبع سنين، حتى جاء تموزه الثالث.

في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ انقلب البعثيون على الرئيس عبد الرحمن عارف الذي كان خلف أخاه عبد السلام عارف. كان انقلاباً أبيض بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين، وعاد الجواهري إلى العراق ليجد التكريم والراتب التقاعدي. وهو الآن أهم شاعر عربي عمودي. فالجواهري بحكم السن والعادة لم يتمكن من السباحة في تيار شعر التفعيلة، وحافظ على طريقته.

لم تطب الإقامة للجواهري في العراق، فرحل إلى سورية عام ١٩٧٣، وعاش في كنف الرئيس حافظ الأسد بضع سنين. وظل يتنقل بين دمشق وبغداد وبراغ في تشيكوسلوفاكيا حتى سنة ١٩٨٠ عندما غادر العراق للمرة الأخيرة، وأخذ يعيش في دمشق حتى وفاته عام ١٩٩٧. وظل محتفظاً ببيته في براغ معظم هذه الفترة الأخيرة.

يصدع رأسَك «أبو فرات»، وهذه كنيته وفرات هو ابنه الشيوعي، على مدى ألف صفحة وهو يقص قصة السبعين ديناراً الفلانية، والمئة دينار العلانية. وهو مدرك أن طفولته الفقيرة ـ رغم رجحان شأن والده وأسرته في ميزان النسب ـ ظلت تعيش في أعماقه.

لا ألوم الأب الذي يغدق على أطفاله، ويهين نفسه في سبيل أن يجنبهم أي شعور بالعوز. فمن جاع صغيراً ظل جائعاً طول عمره حتى لو اغتنى كبيراً. وأدركها الجواهري وسجلها على نفسه وعلى عبد الكريم قاسم الذي نشأ في أحضان الحرمان.

في نفوسنا حجرات مغلقة، مفاتيحها في يد الطفولة.

عندما كنت في نحو الخامسة من العمر رماني أبواي في القسم الداخلي بمدرسة راهبات مار يوسف أسبوعين ليقضيا شهر عسل متأخراً في مصر. قالت لنا المعلمة جانيت: انسخوا الدرس. ولم يكن عندي ورقة. فنسخت الكلمات

على نصف الصفحة في ذيل الدرس. ولم يكن نصف الصفحة فارغاً، بل كانت عليه كلمات مكتوبة بخط دقيق، هي أسئلة وتوجيهات للمعلم، إلخ. نسخت بقلم الرصاص فوق الكلمات الصغيرة المطبوعة. ووبختني المعلمة وتراقصت شامة كبيرة مخيفة في خدها أمام وجهي. والآن وبعد أكثر من نصف قرن تراني أبخل خلق الله في الورق. اطلب مني رقم هاتف، وستراني أقص لك من طرف الورقة قطعة صغيرة لا تكاد تكفي للرقم.

سقط الجواهري عندما تصالح مع الرجعية فأنشد قصيدة في تتويج فيصل الثاني، وسقط عندما التصق بعبد الكريم قاسم. لكنه عاش حياته نابذاً للطائفية باذلاً في سبيل ذلك جهده، متعاطفاً مع الفقراء كارهاً التفاوت في الرزق بين الناس، ووجد هذان الاتجاهان صدى طيباً في شعره.

كانت حياته الطويلة بكاملها المرحلة الأولى من طفولة العالم العربي. فبعد أن رمتنا الدولة العثمانية من رحمها إلى حضن الاستعمار أخذنا نتبوَّل لاإرادياً.

وما زلنا.

إذ انغمست في تاريخ العراق في القرن العشرين كي أتمكن من فهم الجواهري وعصره عشت كوابيس الإعدامات والسحل وحكم الفرد. وصادف أن تعثرت بكتاب عن تاريخ بريطانيا، فقلت أروح عن نفسي قليلاً. وأي ترويح! قرأت كيف أعدم هنري الثامن اثنتين من زوجاته الست، وكيف ترك ثالثة تموت في سجنها. وكيف أعدَمت ابنته إليزابيث الأولى «ماري ملكة الاسكوتلنديين» على الوضم.

الوضم

الوضم خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم.

جيء بالملكة ماري وصعدت إلى المنصة وهي في أتم زينتها. خلعت طيلسانها بابتسامة وهي تقول: ما تعودت أن أخلع طيلساني على مشهد من الناس. وأقعى قصابها ومساعده على الركبتين وطلبا المغفرة، فغفرت لهما. ثم أقعت هي بركبتيها على وسادة وثيرة، ووضعت رأسها على الوضم بعد أن قالت: بين يديك أيها الرب أضع روحي. وبضربتين من البلطة قطع رأسها، وعندما رفعه الجلاد صائحاً «عاشت الملكة»، يقصد إليزابيث، سقط الرأس لأن الشعر كان مستعاراً.

وكانت حرب أهلية، وأعلنت بريطانيا الجمهورية، وأقعى تشارلز الأول على ركبتيه أمام الوضم، وكانت ضربة واحدة. ثم أعيدت الملكية بعد بضعة عقود، وعاقب تشارلز الثاني أنصار الجمهورية قدرَما استطاع. وجاء جيمس الثاني وحاول أن يكون الحاكم الفرد، ولكن بريطانيا كانت قد شبَّت وتحول برلمانها إلى مؤسسة تعرف كيف ترعى مصالح الطبقة التي تمثلها. لا أصبحت بريطانيا ديمقراطية ولا غدت حريصة على حقوق الإنسان، لكنها تبينت الطريق إلى «حكم الطبقة» لا حكم الفرد. تخلصت من نزوات الفرد يوم عزلت جيمس الثاني عن الحكم فيما عرف بـ «الثورة المجيدة»، ١٦٨٨.

التاريخ ليس فيزياء، والمستقي العبر منه كالأعمى يدخل بيته الجديد. أدري أن الشعوب العربية تعيش طفولتها، ولا أدري كم جيلاً سيعيش ويموت قبل أن تشب.

ها هو الجواهري يمدح قاسماً ويجعله البطل و«الزعيم الأوحد» ثم بعد سنة يفر من وجهه، ثم بعد سنة يصله خبر قتله فيحمد الله ويوقد الشموع. وها هو يمدح عبد الناصر قبيل الهزيمة ويرثيه بعدها. لا نضع الشعراء على درجات، ولا نصنفهم، ولا نحكم عليهم بحصافة فكرهم الاجتماعي أو السياسي، بل بجودة شعرهم: بحرارته، وبصدقه، وبما فيه من صنعة متقنة.

١ الأمنيات

النجف (١٩٢١):

جَـلَـبَـتْ لـيِ الـهـمَّ، والـهـمُّ عَـنـا   آهِ مـا أَرْوَحَـنـيِ لـولا الـمُـنـى

الأمنيات وأحلام اليقظة جلبت لي الهم، وهو عناء، وما كان أروحني، أي ما كان أكثر ارتياحي، لولا هذه الأمنيات

إنَّـمـا أشـكـو حـيـاةً كـلُّـهـا   تَـبِـعـاتٌ كـنـتُ عـنـهـا فـي غِـنـى

غَـرَّدَ الـطـيـرُ فـقـالـوا: مُـسْـعَـدٌ   رُبَّ نَـوْحٍ خَـالَـهُ الـغِـرُّ غِـنـا

يظنون الطير عندما يغرد سعيداً، لكن ربَّ نوح، أنين، ظنه الغر، الغشيم الجاهل، غناء.. وكذا الشاعر يتغنى بالشعر ولكنه متألم

وانْـثَـنـى الـغُـصـنُ، ولـولا أنَّـه   حـامِـلٌ مـا لـم يُـطِـقْـهُ مـا انـثَـنـى

وينثني الغصن فيظنونه يتمايل غنجاً.. لكنه ما انثنى إلا من ثقل الثمر الذي يحمله

٢ القنوط

النجف (١٩٢٣):

قـد كـنـتُ أَقـربَ لـلـرجَـا ءِ فـصِـرْتُ أقـربَ لـلـقُـنـوطِ

القنوط: اليأس

كـلُّ الـبـلادِ إلـى صـعـو دِ والـعـراقُ إلـى هـبـوطِ
يـا نـائـمـاً مـا نـبَّـهـتْـ ـهُ الـحـادثـاتُ مِـن الـغَـطـيـطِ

الغطيط: الشخير

لـم يـبـقَ مِـن نَـسْـجِ الأكُـفِّ ـ الـمُـحـكِـمـاتِ سـوى الـخـيـوطِ

لم يبق من أمجاد الماضي، التي هي كالبساط الذي أُحكِم نسجه، سوى خيوط

٣ هذَّبه الحب

النجف (١٩٢٤):

عـاطـفـاتُ الـحـبِّ مـا أبـدَعَـهـا هَـذَّبـتْ طَـبـعـي وصَـفَّـتْ خُـلُـقـي
حُـرَقٌ تَـمـلأُ رُوحـي رِقَّـةً أنـا لا أُنـكـرُ فـضـلَ الـحُـرَقِ
ثِـقْ بـأنَّ الـقـلـبَ لا تَـشـغَـلُـهُ ذكـريـاتٌ غـيـرُ ذِكـراكَ ثِـقِ
لـسـتَ تَـدري بـالـذي قـاسـيـتُـه، كـيـف تَـدري طَـعـمَ مـا لـم تَـذُقِ
لـم تَـدَعْ مِـنِّـيَ إلّا رَمـقـاً، وفـداءٌ لـكَ حـتـى رَمـقـي

رمق: بقيةٌ من حياة

أنـا، مـا عِـشـتُ، عـلـى ديـنِ الـهـوى فـهَـواكُـمْ بَـيْـعَـةٌ فـي عُـنـقـي

بيعة: عهد ومبايعة. سودت هذه القطعة كلها لأنني كنت قرأتها في برنامج تلفزي اسمه «قال الشاعر»، ثم سمعت نفسي أقرأها من اليوتيوب بضع مرات فأخذت مكانها في أذني، كذا هو الشعر.. نسمع القصيدة مراراً فنخلع عليها ما قد لا يكون لها من حلل الجمال

٤ فارس الشعر

النجف (١٩٢٤):

أنـا فـي الـشـعـرِ فـارِسٌ إن أُغـالَـبْ يَـكُـنِ الـطـبـعُ لـي مِـجَـنّـاً وتُـرسـا

أغالَب: أُبارى، الطبع: القريحة الطبيعية، والشاعر المطبوع هو الذي يقول الشعر منطلقاً من طبع، وليس بعد طول فكر وصناعة، المجن: الترس

وإذا ما ارتَمَتْ عليَّ القَوافي   نِلْتُ مُختارَها وعِفْتُ الأَخَسّا

إذا رمت القوافي نفسها علي اخترت أحسنها وعفت وكرهت الخسيس منها

إنْ أَكُنْ أَصغَرَ المُجيدينَ سِنّاً   فأنا أَكبَرُ المُجيدينَ نَفْسا

النفس الكبيرة: الشخصية الواثقة الشامخة

طَبَّقَتْ شُهرتي البلادَ وما جا   وَزَ عُمري عَشْراً وسَبْعاً وخَمْسا

الجواهري من مواليد ١٩٠٢، وفي الأمر خلاف شديد اقتضى من علي جواد الطاهر صفحات كثيرة.. ضاعت سدى

٥ عَزَّ المرتقى

النجف (١٩٢٤):

وَطني، ومَنْ لَكَ أن تَعودَ فَترتَقي؟   مِنْ بعدِ ما أَعيا وعَزَّ المُرتَقى

كيف لك يا وطني أن تعود للصعود، بعد أن أعيا، صعُبَ، المرتقى، طريق الصعود، وصار عزيزاً، صعباً

لو يَعلَمُ الشجرُ الذي أَنْبَتَّه   ما حلَّ فيكَ مِن الأذى ما أَوْرَقا

٦ السهر اللذيذ

إيران (١٩٢٦):

كم أُرى مُنتظِراً وعْدَكُمُ   ثَقُلَ الوعدُ على المُنتَظِرِ

قد سهِرنا فوجدْنا أَنَّه   فوقُ طعمِ النومِ طَعْمُ السهرِ

وجدنا السهر في حبكم ألذ من النوم

٧ نظرية

(١٩٢٦):

سَحَرتْنا ظواهرُ الأمرِ حتى   أَوْهَمَتْنا أنَّ البلادَ قَويَّةْ

نَتَغَنَّى، وعصرُنا مِن نُحاسٍ،   بأغاني عُصورِنا الذَّهبِيَّةْ

كُلُّنا بالذي تَمنَّى سعيدٌ   لا نُبالي أنَّ البلادَ شَقِيَّةْ

كثُرَ المُدَّعونَ، لَمّا اختلفْنا   في البَديهِيِّ، فِكرةً فَلسَفِيَّةْ

عندما نختلف في موضوع بديهي يأتي الأدباء والنقاد بفكرة يدعون أنها فلسفية

لو يقولُ الأديبُ في الشرقِ «إن الـ أرضَ تَـحتـيِ»، لَسُمِّيَتْ نَظريَّةْ

٨ القصائد الشاربة الآكلة

بغداد (١٩٢٧):

أَيَـدري مَـن يُـردِّدُهـا حِـسـانـاً خَـلاءً مِـن زِحـافٍ أو سِـنـادِ. .

هل علم من يردد أشعاري الخالية من المشكلات العروضية كالزحاف والسناد. .

بِـأنَّ الـشـعـرَ تَـشـربُ مِن عُـيـونـي قَـوافِـيـهِ، وتَـأكُـلُ مِـن فـؤادي؟

هل يعلم أن قوافي الشعر ترهقني كأنها تشرب الماء من عيوني، وتأكل من قلبي؟ فالشعر ينطلق من أعماق وجداني

٩ حبس الغيث

بغداد (١٩٢٨):

سَكَتُّ حتى شَكَتْني غُرُّ أشعاري والـيـومَ أَنـطِـقُ حُـرّاً غـيـرَ مِـهـذارِ

ثُرْ يـا شـعـورُ عـلى ضَـيْـمٍ تُـكـابِـدُهُ أو لا، فـلـسْـتَ عـلـى شَـيءٍ بِـثَـوَّارِ

ثر يا شعور على ظلم تعانيه، وإن لم تفعل فلست ثائراً على شيء

لو في يَدي، لَحَبَسْتُ الغيثَ عن وطنٍ مُستسلِمٍ، وقَطَعْتُ السَّلسَلَ الجاري

السلسل الجاري: الماء المترقرق كأنه، وهو يجري، سلسلةً من حلقات. وفي العراق سلسلان جاريان: دجلة والفرات

الـعـذرَ يـا وطـنـاً أَغـلَـيْـتُ قـيـمَـتَـه عن أنْ يُرى سِلعَةً للبائعِ الشاري

العذرَ: أطلبُ المعذرة

وكيف يُسمَعُ صوتُ الحقِّ في بلدٍ لِلإفْكِ والزُّورِ فيهِ أَلْفُ مِزْمارِ؟

الإفك والزور: الكذب والافتراء. . ففي البلد كثيرون ممن يزمرون للكاذبين ويمجدونهم. تسويد عمران القفيني

ما ذَا السُّكونُ؟ ألا تَهتاجُ نَخوَتُكُمْ أنَّ الـعُـروبَـةَ قـد حُـفَّـتْ بِـأخْـطـارِ؟

ما ذا: أي ما هذا

١٠ الإنجليز يقتلون شابين

بغداد (١٩٢٨):

مـشـى نَـعْـشٌ يَـجُـرُّ وَرَاهُ نَـعْـشـاً سَـحـابٌ مُـقْـلِـعٌ قَـفَّـى سَـحـابـا

النعش يأتي بعده نعش والمشيعون كالسحاب المقلع، المنكشف الزائل، الذي يقفي سحاباً زال قبله. يصور جمهورين كبيرين يشيعان نعشين واحداً بعد الآخر

سيعلمُ مَن يَخالُ الجَوَّ صَفْواً بأنَّ الجوَّ مملوءٌ ضَبابا
ومَن ظَنَّ المجالِسَ عامِراتٍ بِمدحٍ، أنَّها شُحِنَتْ سِبابا
ولو عَرَفَتْ بِلادي ما أرادَتْ بِها النُّوّابُ لم تُرِدِ انتِخابا
وقد تَخِذُوا لُحومَ بَنيهِ زَاداً وقد لَبِسُوا جُلودَهُمُ ثِيابا
فيا وطني مِن النَّكَباتِ فَأْمَنْ فقد وَفَّتكَ حَظَّكَ والنِّصابا

يهزأ: أنت يا وطني آمن من حلول المصائب بك لأنك أخذت منها النصاب، أي النصيب، الوافي

١١ أزمات وصدمات

بغداد (١٩٢٩):

ستبقَى طَويلاً هذهِ الأزَماتُ إذا لم تُقَصِّرْ عُمرَها الصَّدَماتُ
مَشتْ كلُّ جَاراتِ العراقِ طَموحَةً سِراعاً، وقامَتْ دونَه العَقَباتُ

الدول المجاورة تقدمت، والعراق بينه وبين التقدم عقبات، صعاب

ومِن عجبٍ أنَّ الذين تَكَفَّلُوا بِإنقاذِ أهلِيهِ هُمُ العَثَراتُ

من تكفلوا بإنقاذ أهل العراق هم أنفسهم العثرات، العقبات المعيقات

غَداً يُمنَعُ الفِتيانُ أن يَتعلَّمُوا كما اليومَ، ظُلماً، تُمنَعُ الفتياتُ
أقولُ لِقومٍ يَحْمَدُونَ أَناتَهُمْ وما حُمِدَتْ في الوَاجِباتِ أَناةُ

الأناة: التروي والبطء

بِأَسرعَ مِن هذي الخُطَى تُدرَكُ المُنى، بِطَاءٌ لَعَمري منكُمُ الخُطُواتُ

تحقيق الأماني إنما يتم بخطى أسرع من خطاكم البطيئة

١٢ الأمم تتعثر وتقوم.. وتندثر أيضاً

بغداد (١٩٢٩):

هل أنقذَ الشامَ كُتَّابٌ بِما كَتَبوا أو شاعرٌ صانَ بَغداداً بِما نَظَما؟
يا أمَّةً غَرَّها الإقبالُ ناسِيَةً أنَّ الزمانَ طَوى مِن قبلِها أُمَما

غرَّ الأمة الإقبال، الازدهار، ونسيت أن الزمن طوى، أباد، أمماً في السابق

سيُلحِقُونَ فِلَسْطِينا بِأَنْدَلُس ... ويَعطِفونَ عليها البيتَ والحَرَما
ويَسْلُبُونَكِ بَغداداً وجِلَّقَةً ... ويتركونَكِ لا لحماً ولا وَضَما

سيسلبونكِ أيتها الأمة بغداد وجلقة، دمشق، ويتركونك وليس بك لحم ولا وضم، والوضم هو الخشبة التي يقطع عليها القصاب اللحم.. ولم ترض القافية هنا بكلمة عظم فجاء الشاعر بكلمة رضيت عنها القافية ولم يرض المعنى

يا أُمَّةً لِخُصوم ضِدَّها احْتَكَمَتْ ... كيف ارتَضَيْتِ خَصيماً ظالماً حَكَما
سَلِي الحوادِثَ والتاريخَ هل عَرفا ... حقّاً ورَأياً بِغيرِ القُوَّةِ احتُرِما

١٣ ضد الغالبية

أنا ضِدَّ الجُمهورِ في العيشِ والتفـ ... ـكيرِ طُرّاً وضِدَّهُ في الدينِ

الجمهور: الغالبية

كلُّ ما في الحياةِ مِن مُتَعِ العيـ ... ـشِ ومِنْ لَذَّةٍ بِها يَزدَهِيني

يزدهيني: يفرحني

ابْسِمي لِي تَبْسِمْ حَياتِي، وإنْ كا ... نَتْ حياةً مَليئةً بالشُّجونِ

أيتها الحبيبة ابتسمي لي فحياتي مملوءة بالشجون، الهموم

أَنصِفيني تُكَفِّري عنْ ذُنوبِ النَّـ ... ـاسِ طُرّاً، فإنَّهُمْ ظَلَموني

طراً: جميعاً

مَتِّعيني قبلَ المَماتِ، فما يُدْ ... رِيكِ ما بَعدَهُ وما يُدْرِيني
فَسَتُغْرِينَ بِالمَحاسِنِ رِضْوا ... ناً فَيُلقيكِ بينَ حُورٍ وعِينِ

بعد الموت ستذهبين ليوم الحساب وستقومين بإغراء رضوان حارس الجنة فيجعلك ضمن الحور العين

وأنا في جَهَنَّمٍ مَعَ أَشْيا ... خِ غُواةٍ بِغَيِّهِمْ غَمَروني
عن يَساري أَعْمى المَعَرَّةِ والشَّيْـ ... ـخُ الزَّهاوِيُّ مُقْعَداً عن يَميني

يحشر الجواهري نفسه، محقاً، مع اثنين من كبار الشاكين في تاريخ شعرنا العربي: الزهاوي، والمعري.. وزاد فجعل الزهاوي مقعداً حتى لا يكون المعري الوحيد صاحب العاهة

١٤ الشريف حسين

بغداد (١٩٢٩):

سلامٌ على شيخِ الجزيرةِ كلِّها ... سلامٌ على تاريخِهِ المُتَأَلِّقِ

الشريف حسين كان شريف مكة، وجعله شيخ الجزيرة العربية كلها.. وفي هذا تعريض بحكام نجد السعوديين الذين أخذوا الحجاز من الحسين

أبا فيصلٍ بعضَ التَّعَزِّي فكَمْ رَمَتْ   شَهامةُ قومٍ شَمْلَهُمْ بِالتَّفَرُّقِ

كثيراً ما شتتت الشهامة شمل القوم وفرقتهم.. والحسين تفرق بنوه فمنهم من ملَك الأردن ومنهم من ملَك العراق، وهو نفسه ذهب إلى قبرص منفياً عن الحجاز سنة ١٩٢٥

ولِي فيكَ قبلَ اليومِ غُرُّ قَصائِدٍ   كفاها سُمُوّاً أنَّها بَعضُ مَنطِقي

يكفي قصائدي فيك علواً أنها من شعري أنا

مِنَ اللّاءِ غَذَّاها جَريرٌ بِروُحِهِ   ولاءَمَ شَطْرَيْها نَسيجُ الفَرزدقِ

ومِن قبلُ كانُوا إن أرادُوا انتِقَاصَةً مِن الشعرِ قالوا عنه لم يَتَعَرَّقِ

كانوا ينتقصون من شعر الشاعر إذا لم يكن زار العراق وأقام بها «فتعرق» شعره

فإنْ لا تَبُذَّ المُفْلِقينَ فإنَّها   يُقَصِّرُ عنها شاعِرٌ غيرُ مُفْلِقِ

إن لم تبذ، أي تفُق، هذه القصيدة الشعراء المفلقين، الفحول، فإنها لا تصدر عن شاعر غير فحل

سَهِرتُ لها الليلَ التَّمامَ أُجيدُها   أَغوُصُ على غُرِّ المعاني، وأَنتَقي

الليل التمام: أطول ليلة في السنة

فمَنْ يَتَنَكَّرْ مِن هُمومٍ فإنَّني   لَأُنْكِرُ أنْ أعتَادَ غَيرَ التَّحَرُّقِ

من يتنكر من الهموم، يعتبر حضورها في نفسه شيئاً منكراً رديئاً، فأنا أستغرب أن أتعود شيئاً سوى التحرق والتوهج

وأُنْكِرُ نَفسيِ أن تُرى في انبِساطَةٍ   وأُنْكِرُ صَدريِ أن يُرى غيرَ ضَيِّقِ

أَخِفُّ إلى المرآةِ كُلَّ صَبيحَةٍ   أَرى هل أَشابَ الهَمُّ بِالأَمْسِ مَفرِقي

أخف، أسرع، إلى المرآة، صباحاً لأرى هل جعل الهم مفرق رأسي يشيب مما عانيته ليلاً من هموم

١٥ جنس الشعراء

بغداد (١٩٣١):

غريبٌ عالَمُ الشعراءِ تَقْسُو   ظُروفُهُمُ، وأَلْسُنُهُمْ تَرِقُّ

كبعضِ الناسِ هُمْ، فإذا استُثِيرُوا   فبينَهُمُ وبينَ الناسِ فَرْقُ

١٦ علي وعمر

قال الجواهري محيياً بعثة الجامعة المصرية إلى العراق، بغداد (١٩٣١):

إنَّ السِّياسةَ لم تُبَقِّـ ... على البلادِ ولَمْ تَذَرْ
وبِرَغمِ ما في الرَّافِدَيْـ ... ـنِ مِن المصائبِ والغِيَرْ

الغير: المصائب

وبِرَغمِ أنَّا قد تَزَعَّـ ... ـمَ عِندنا حتى البَقَرْ
فهُنا شَبابٌ ناهضو ... نَ عُقوقُهُمْ إحدَى الكُبَرْ

عقوقنا نحن للشباب وتخلينا عنهم إحدى الكبر، الآثام

تَمشي على نُورِ الثَّقا ... فَةِ مَشْيَ مُوثُوقِ الظَّفَرْ

تمشي الشباب على نور الثقافة بثقة بالظفر، الفوز. لم تقعد كلمة «واثق» في صندوق الوزن فأقعد الشاعر موثوقاً.. وصلت الفكرة

فيها الشجاعةُ مِن عَليٍّـ ... والسياسةُ مِن عُمَرْ
شَوْقي يعيشُ كما يَليـ ... ـقُ بِمَنْ تَفَكَّرَ أو شَعَرْ

يعيش أحمد شوقي عيشة منعمة تليق بالمفكر وبالشاعر

وتَحُوطُ إبراهيمَ عا ... طِفَةُ الأميرِ مِن الصِّغَرْ

وحافظ إبراهيم تحوطه رعاية أمير الشعراء شوقي من وقت أن كانا صغيرين.. ليس كذلك بالضبط.. فقد كان بينهما دائماً تنافس، وانتقد حافظ شوقي في كتابه «ليالي سطيح»، ثم صارا صديقين ودودين في آخر عشرين سنة من حياتهما، وسيموتان كلاهما بعد سنة واحدة من قصيدة الجواهري هذه

أمَّا هُنا فالشعرُ شي ... ءٌ لِلتَّمَلُّحِ يُدَّخَرْ

أما في العراق فالشعر يدخر ويخبّأ للتملح، للتسلية

١٧ الطموح

بغداد (١٩٣١):

مضتْ حِجَجٌ عَشْرٌ ونَفسِيَ كأنَّها ... مِن الغيظِ سَيْلٌ سُدَّ في وجهِهِ المَجْرَى

حجج: سنوات

خَبِرْتُ بها ما لو تَخَلَّدْتُ بعدَه ... لَمَا ازدَدْتُ عِلماً بِالحياةِ ولا خُبْرا

وأَبصَرْتُ ما أَهْوى على مِثْلِهِ العَمَى   وأُسمِعْتُ ما أَهوى على سَمْعِهِ الوَقْرا

أبصرت أشياء كنت أحب لو عميت فلم أرها، وأسمعني الناس أشياء كان الوقر، ضعف السمع، أحب إلي من سماعها

ولـيـس بِـحُـرٍّ مَـن إذا رامَ غـايَـةً   تَخَوَّفَ أن تَرْمِي به مَسْلَكاً وَعْرا

رام غاية: سعى نحو هدف

ومـا أنـتَ بـالـمُـعْـطِي الـتَّـمَرُّدَ حَقَّهُ   إذا كنتَ تَخشَى أنْ تَجوعَ وأن تَعْرَى

مَشى الدهرُ نَحوي مُستَثِيراً خُطوبَهُ   كأنِّي بِعينِ الدهرِ قَيْصَرُ أو كِسرى

وقد كان يكفي واحِدٌ مِن صُروفِهِ   لقد أَسْرَفَتْ إذْ أقبَلَتْ زُمَراً تَتْرى

من صروفه: من مصائب الدهر، تترى: متواترة متتابعة

ومـا كـان ذَنـبي عـنـدَهُ غـيـرَ أنَّـنـي   إذا مَسَّني بِالخَيْرِ لم أُطِلِ الشُّكْرا

طُـمـوحٌ يُـرِيـنـي كـلَّ شـيءٍ أنـالُـهُ   وإنْ جَلَّ قَدْراً، دونَ ما أَبتَغي قَدْرا

حُببِيتُ بِنُدْمانٍ وخَمْرٍ فَغاظَني   بِأَنِّيَ لا مُلْكاً حُبِيتُ ولا قَصْرا

حُبيت: أُعطيتُ

ولو بِهِما مُتِّعْتُ ما زِلْتُ سَاخِطاً   على الدَّهرِ، إذْ لم يَحْبُنِي حَاجَةً أُخْرى

وجُوزِيتُ شَرّاً عنْ طُموحِي، فَها أنا   بِرَغمِيَ لا خَلّاً تَخِذْتُ ولا خَمْرا

لا حصلت على خمر ولا على خل. وصانع النبيذ إذا لم يحسن عمله تحول عصير عنبه إلى خل لا خمر.. والخل أقل سعراً بكثير

وإنْ تُلْهِبِ الشَّكْوى قَوافِيَّ حُرْقَةً   وغـيـظـاً فـإنِّـي قـادِحٌ كَـبِـداً حَـرَّى

ولو حُمَّ لِي أنْ أَحْكُمَ الناسَ ساعةً   وأن أَتَولَّى فيهِمُ النَّهيَ والأَمْرا..

حم: قُضيَ. كل واحد فينا يحلم أن يتحكم في رقاب الناس ولو ساعة من الزمن ليرفع راية العدل.. هكذا نظن كلنا. ولكن الإنسان غشوم. فلو جاءته ساعة كهذه الساعة لما صنع إلا ما يصنعه كل طاغية. محمد مهدي الجواهري يريد في هذه الساعة أن يعاقب المنافقين الطعانين في الظهر

لَمَزَّقْتُ وَجْهاً بِالخَديعَةِ باسِماً   ولاشَيْتُ ثَغْراً بِالضَّغِينَةِ مُفْتَرّا

لاشيت: أفنيت، مفتراً: مبتسماً

وقَطَّعْتُ كَفَّيْ مَنْ يَمُدُّ يَمينَهُ   يُصَافِحُني في حِينَ تَطْعَنُني اليُسرى

١٨ النواميس المفسَّرة

بغداد (١٩٣١):

حُرِّيـةُ الـفـكـرِ مـا زالـت مُـهَـدَّدَةً   فـي الـرَّافِـديـنِ بِـهَـمَّـازٍ ومَـشَّـاءِ

هماز: مُغتاب، مشاء: يمشي بين الناس ناقلاً أقوال بعضهم لبعض إفساداً، وتمام العبارة القرآنية: مشاء بنميم

وبِـالـنَّـواميـسِ مـا كـانـتْ مُـفَـسَّـرَةً   إلَّا لِـصـالـحِ هـيـئـاتٍ وأَسـمـاءِ

النواميس: القوانين، ما كانت: لم تكن. بعد سنين سيجد الجواهري نفسه مقرباً من وزير معارف، وسيطلب منه طلباً واحداً: أن يجعل ولده ينجح في إحدى السنوات بالمدرسة الثانوية بعد أن أسقطته درجاته المدرسية، وكان للجواهري ما أراد. المصدر: مذكرات الجواهري

١٩ عذبيني لو سمحتِ

بغداد (١٩٣٢):

لا تَـشِـحِّـي ولا تَـجـودي، ولـكـنْ   أتـرُكـيـنـي مـا بـيـن جَـزْرٍ ومَـدِّ

ثـم قُـولـي هـاكَ الـذي تَـبـتـغـيـهِ   ثـم لَـمَّـا أَقـولُ: هَـاتـيـهِ، رُدِّي

لَـوحَـةٌ مـا لـهـا الـنَّـظِـيرُ وُقـوفُ الـ   ـعـاشـقِ الـصَّـبِّ بـيـن أَخْـذٍ وَرَدِّ

هذه لوحة نفسيَّة لا نظير لها: وقوف الصب، أي العاشق، محتاراً في أمر المعشوق

لا لِأجلـي لـكـنْ لِأجـلِ الـتَّـلَـهِّـي   بِـقـوافِـيَّ حَـرِّكـي بـعـضَ وَجْـدي

يريدها أن تحرك وجده، أي غرامه، ليس لأجله بل كي يتلهَّى، ويتسلى، بالقوافي أي يقول شعراً

٢٠ أسود وثعالب

بغداد (١٩٣٢):

وفـاتَـتْ أُنـاسـاً قُـدرةٌ فـتَـمَـسْـكَـنُـوا   ولـم يُـخْـلَـقوا أُسْـداً، فعاشُـوا ثعالِبا

إلـى رُوحِ مَـكـيـافـيـلَ نَـفْـحُ تَـحِـيَّـةٍ   وصـوبُ غَـمـامٍ يَـتـرُكُ الـقَـبـرَ عَـاشِـبـا

أهدي نفح تحية، أي تحية منفوحة ممنوحة، إلى روح مَكيافيلّي الإيطالي صاحب كتاب «الأمير» الذي وصف غشْمَ القوي وصلفه ودهاء الضعيف ومكره، وأهديه دعاء بصوب غمام، أي بمطر، يجعل العشب ينبت على جنبات القبر

أَبـانَ لـنـا وَجْـهَ الـحـقـيـقـةِ بـعـدَمـا   أقـامَ الـوَرى سِـتـراً عـلـيـهـا وحـاجِـبـا

ولـو رُمْـتُ لِـلـعَـوْراتِ كَـشْـفـاً أَرَيْـتُـكُـمْ   مِـن الـنـاسِ حـتـى الأَنـبـيـاءِ عـجـائِـبـا

٢١ إقرار بالتفوق لشوقي

قال الجواهري ضمن رثاء أحمد شوقي، وكان رثى حافظاً قبله، بغداد (١٩٣٢):

لقد فاتَ بِالسَّبْقِ كلَّ الجِيا دِ في الشعرِ هذا الجوادُ الأغَرّ

الجواد الأغر: الفرس الذي في جبهته غرة بيضاء

كأنَّ عُيونَ القوافي الحسا نِ، مِن قبلُ كانتْ له تُدَّخَرْ

٢٢ تغير حُسن الجعفري

قال الجواهري وزار في سامراء أطلال «الجعفري»، قصر الخليفة المتوكل على الله:

والجَعْفَرِيُّ فلم يُقَصِّرْ رَسْمُهُ الـ باقي بِرَغْمِ الدهرِ عن تمثيلِهِ

الجعفري، قصر الخليفة العباسي جعفر المتوكل، قبل نحو ١٢٠٠ سنة، لم تقصر رسومه، أي أطلاله، في تمثيل القصر، أي إعطاء صورة عما كان عليه.. رغم مرور كل هذه السنين

بادي الشُّحوبِ، تكادُ تَقرأُ لَوْعَةً لِنعيمِهِ المسلوبِ فوق طُلولِهِ

وكأنَّما هُوَ لم يَجِدْ عن جَعفَرٍ بَدَلاً يُسَرُّ به، ولا عن جيلِهِ

جعفر المتوكل الخليفة الذي بناه

ولقد شَجَتْني عَبْرَةٌ رَقْراقَةٌ حَيْرانَةٌ في العينِ عند دخولِهِ

إنِّي سألتُ الدهرَ عن تَخطيطِهِ عن سطحِهِ، عن عَرضِهِ، عن طُولِهِ

فأَجابَني: هذي الخُرَيْبَةُ صَدْرُهُ والبَلْقَعُ الخالي مَجَرُّ ذُيولِهِ

صدر القصر، واجهته، هي هذه الأطلال الخربة، ومجر ذيوله، أي بقية مرافقه، بلقع خال، أرض قاحلة

وسَلِ الرِّياحَ السَّافِياتِ فإنَّها أَدْرى بِكُلِّ فُروعِهِ وأُصولِهِ

السافيات: التي تأتي بالتراب

وتَعلَّمَنْ أنَّ الزمانَ إذا انْتَحَى شُهُبَ السَّما كانتَ مَداسَ خُيولِهِ

انتحى: قصد

مَدَّتْ بَنُو العبَّاسِ كَفَّ مُطاوِلٍ فَمَشى الزمانُ لَهُمْ بِكَفِّ مَغُولِهِ

استطال بنو العباس ومدوا سلطانهم فوق الناس، فنكبهم الزمن بالمغول الذين أنهوا خلافتهم في العراق

٢٣ تقصير اللغة

بغداد (١٩٣٢):

كم في الطبيعةِ مِن معنىً يُضَيِّعُهُ   على القَراطيسِ نَقصٌ في التَّعابيرِ

القراطيس: الأوراق

حتى كأنَّ عيونَ الشعرِ يُعْوِزُها   وَصفُ الدَّقائِقِ مِن هذي التَّصاويرِ
فَما تُلِمُّ بِها إلَّا مُقارَبَةً   ولا تُحيطُ بِها إلَّا بِتَقديرِ

يتألم الشاعر، وحق له، لأن الشعر واللغة عاجزان عن أداء المعاني.. هذه أبيات يقولها رجل كان يمد يده عميقاً داخل روحه وهو يقول الشعر، ويحاول أن يمسك بأبدع سمكة ملونة.. ثم قد تخرج يده وبها سمكة شبوط

٢٤ إذا لم تكن ذئباً..

بغداد (١٩٣٣):

دَعِ النُّبلَ لِلعاجِزِ القُعْدُدِ   وما اسْطَعْتَ مِن مَغْنَمٍ فازْدَدِ

القعدد: القاعد عن القتال، الجبان

ولا تُخدَعَنَّ بقولِ الضِّعافِ   مِنَ الناسِ إنَّكَ عَفُّ اليَدِ

الضعاف يمدحونك لأنك نظيف اليد.. فلا تنخدع بذلك، أنت فقط جبان لا يجرؤ على الوصول إلى الثمار المحرمة

سَفاسِفُ تَضحَكُ مِن أمرِها   صَرامَةُ ذي القُوَّةِ الأَيِّدِ

أقوال الناس هذه سفاسف، أي سخافات، يضحك منها الأيِّد، أي القوي

فلا تَغْدُ طَوْعاً لأمثالِها   متى ما تُغَرَّرْ بِها تَنْقَدِ

فلا تنخدع بأقوالهم، فإنك إن تغرر بها وتخدع أصبحت مقوداً لا حراً

إليكَ النصيحةَ مِن مُصْطَلٍ   بِنارِ التَّجارِبِ مُسْتَحْصِدِ

مستحصد: مجرب ناضج

رِدِ العيشَ مُزدَحِمَ الضَّفَّتَيْنِ   مِنَ الغِشِّ مُلتَحِمَ المَوْرِدِ

رد العيش، عليك ورود العيش، وهو كالنهر المزدحمة ضفتاه بالغش وقد التحم الناس وتكاثفوا وتقاتلوا على الخيرات

وكُنْ رجلَ الساعةِ المُجْتَلي   مِنَ اليومِ ما يُرتَجى في غَدِ

كن رجل الساعة الواقعي الذي يجتلي، أي يرى، اليوم ما يرجى حدوثه غداً.. أي أنه ذو بصيرة

إذا ما مَخَضْتَ نفوسَ الرجالِ: مِن الأَقربينَ إلى الأَبعَدِ.
مخضت: محصت وفحصت بدقة

تَيَقَّنْتَ أنَّ الذي يَدَّعُونَ مِن المجدِ لِلآنَ لم يُولَدِ
المجد كما يصفونه شيء خرافي لم يوجد بعد

هُمُ الناسُ لا يَفضُلونَ الوُحوشَ بِغيرِ التَّحَيُّلِ لِلمَقْصِدِ
الناس يتميزون عن الوحوش فقط بأنهم ذوو حيلة في الوصول إلى مقاصدهم

فلا تَأْتِ سَاحَةَ هذي الذئابِ تُنازِلُها بِفَمٍ أَدْرَدِ
فم أدرد: فم سقطت أسنانه

وما اسْطَعْتَ فاقطَعْ يَدَ المُعْتَدى عليهِ، وقَبِّلْ يَدَ المُعْتدي
كن ظالماً ـ ذلك أحسن من أن تكون مظلوماً ـ وشارك الظالمين في قطع يد الضعيف الذي اعتُديَ عليه، وقبِّل يد المعتدي.. يا لها من نصيحة.. لكننا رأينا كثيراً من الرجال «الناجحين» يرمون كل المبادئ في سلة المهملات حرصاً على أن يكونوا مع القوي، وعلى من يخدم مصالحهم. قال البريطاني بول ميسون، في كتاب له صدر عام ٢٠١٥: «في أغسطس ٢٠١٤، قضيت عشرة أيام في غزة، في مجتمع يتم تدميره تدميراً منتظماً بقصف طائرات بلا طيار، وبالقصف المدفعي، وبالقنص. قتل ١٥٠٠ مدني، ثلثهم أطفال. وفي فبراير ٢٠١٥ رأيت الكونغرس الأميركي يصفق واقفاً خمساً وعشرين مرة للرجل الذي أعطى الأوامر بتلك الهجمات» اهـ بول ميسون

أَقولُ لِنفسي وقد عَرْبَدَتْ رِجالٌ لِغاياتِها: عَربِدي
وإنَّكِ إنْ لم تُواتي الحياةَ بِنَفْسِ المُخاطِرِ تُسْتَعْبَدي
يا نفسي إذا لم تواتي الحياة، تُقبلي عليها، بنفسية المجازف فسيكون نصيبك الاستعباد

٢٥ التجارب المؤذية

بغداد (١٩٣٤):

لم يبقَ مَن يستَثيرُ الشعرُ نَخْوَتَهُ ومَن يُحرِّكُهُ لُطفُ التَّراكيبِ
تعليق عمران القفيني: (يبدو أن الشعر سيخيِّب ظننا ـ ونرجو ذلك ـ ويبقى صامداً. في زمن الجواهري «لم يبق من يستثير الشعر نخوته»، وفي زمن المتنبي قبله بأكثر من ألف سنة كذلك تعب «ببيع الشعر في سوق الكساد»، وإن قصد المتنبي شيئاً في ذلك السياق، إلا أنه كان يشكو كساد بضاعته في المحصلة)

أعلى مِن الشعرِ عند القومِ مَنزلةً نفخُ البُطونِ وتَطريزُ الجلابيبِ
أهم من الشعر عند الناس أن يأكلوا حتى الانتفاخ، وأن يلبسوا الجلابيب المطرزة

قالوا: استفدْتَ مِن الأيامِ تَجرِبَةً.   والموتُ أروحُ مِن بعضِ التجاريبِ

قالوا لي إنك استفدت من مصائب الأيام تجارب، وأقولُ إن الموت أروح، أخف وقعاً، من بعض التجارب التي يمر بها الإنسان

تُعفي الشَّدائِدُ أَقواماً بِلا أدبٍ   وتَبتَلي غيرَ مُحتاجٍ لِتأديبِ

٢٦ الجَلَب

بغداد (١٩٣٤):

أَلا إِنَّ وضعَ النَّهْيِ والأمرِ عندنا   غريبٌ، وأهلُ النَّهْيِ والأمرِ أَغْرَبُ

الأمر والنهي: يقصد الحكم

تَداولَ هذا الحكمَ ناسٌ لو انَّهُمْ   أَرادُوهُ طَيفاً في مَنامٍ لَخُيِّبُوا

تداول الحكم، وتبادله فيما بينهم، ناس غير لائقين للحكم حتى لو أنهم - في أوضاع طبيعية - أرادوا أن يحلموا به حلماً لما استطاعوا

وإنَّ مِن المُستَحْدَثِ الحكمِ عادةً   يَرى فُرصةً منه اقْتِداراً فيَضْرِبُ

إنها لعادة عند المستحدَث الحكم، الجديد عليه، أن يقتنص الفرصة فيضرب بقسوة. وفي هذا تعريض بالملك فيصل وبمن جاء معه من سورية وأصبح يتحكم في الناس بالعراق، ومن هؤلاء ساطع الحصري المسؤول عن التعليم، وكان الجواهري ناقماً عليه

وما جئتُ أَهْجُوهُ فلم يَبقَ مَوضِعٌ   نَزيهٌ لهُ بِالهَجْوِ يُؤْتَى فَيُثْلَبُ

يثلب: يذم

أفي كلِّ يومٍ بالعراقِ مُؤَمَّرٌ   غريبٌ بهِ، لا الأُمُّ منهُ ولا الأَبُ

مؤمَّر: صاحب أمر ونهي

أكلُّ بَغيضٍ يُثْقِلُ الأرضَ ظِلُّهُ   وتأباهُ، يُجْبَى لِلعراقِ ويُجْلَبُ؟

أكل شخص بغيض، كريه، ثقيل.. وحتى ظله على الأرض ثقيل، وترفضه الأرض يجبى، يؤتى به، للعراق؟

٢٧ أحِبَّ نفسَك

بغداد (١٩٣٤):

لِأُمِّ القَوافي الويلُ إنْ لم يَقُمْ لَها   ضَجيجٌ، ولم تَرتَجَّ منها المَحافِلُ

الويل للشعر إن لم يكن مؤثراً

أرى القومَ مَنْ يَقْذَعْ يُقَرَّبْ إليْهِمُ ... ومَن يَجْتَنِبْ يَكْثُرْ عليه التَّحامُلُ

الشاعر المقذع، الشتَّام، يصبح مقرباً لتفادي ضرره، ومن يجتنب الشتم يتحاملون عليه

وأعلمُ عِلماً يقطعُ الظنَّ أنَّه ... لِكلِّ امْرِئٍ في كلِّ شيءٍ عَواذِلُ

أعرف يقيناً أن الإنسان يجد من يعذله، يلومه، على كل شيء يأتي به. تسويد عمران القفيني

فما اسْطَعْتَ فاجعلْ دَأْبَ نفسِكَ خيرَها ... ولا تُدْخِلَنَّ الناسَ فيما تُحاوِلُ

فما الحُرُّ إلَّا مَنْ يُشاوِرُ عقلَهُ ... وأُمُّ الذي يَستَنْصِحُ الغيرَ ثاكِلُ

نَصيحُكَ إمَّا خائفٌ أو مُغَرِّرٌ ... كلا الرجُليْنِ في المُلِمَّاتِ خاذِلُ

الذي تطلب نصيحته إما خائف فلا يمحضك النصح، أو مغرر، مضلل، وكلاهما يخذلك في الملمات، الصعاب الطارئة

٢٨ الحكم بالترقيع

بغداد (١٩٣٤):

هُوَ الحكمُ، إنْ حَقَّقْتَ، لُعبةُ لاعبٍ ... يُسَمُّونَ تَرقيعاتِهِ بِالتَّجارِبِ

الحكم مجرد ترقيع وإرضاء فلان على حساب فلان، ويسمون هذا الترقيع «التجارب». «هو» في أول البيت ضمير شأن كـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقد أولع به شعراء العراق

فتجربةٌ لِلحُكمِ خَلْقُ مُوظَّفٍ ... وتجربةٌ للشَّعبِ تَخريجُ نائبِ

فمن هذه «التجارب» خلق وظيفة لموظف، ومنها انتخاب الشعب لنائب

وإنَّ بلاداً بالتَّجارِبِ هُدِّمَتْ ... وضُيِّعَ أهلُوها لَإحدى العجائبِ

تُعَطَّلُ أَربابُ المواهبِ رَيْثَما ... يُتَمَّمُ تَخريجُ الضِّعافِ المواهبِ

يتم تعطيل أصحاب المواهب بحجة منح فرصة للصف الثاني.. والنتيجة تخريج، وتعيين، غير الموهوبين. ومن ذلك تعيين الجواهري، وهو الشاعر الفصيح، مدرساً في مدرسة ابتدائية، وحجب المناصب اللائقة به عنه

مِن الظلمِ أن تأتي قصيدةُ شاعرٍ ... لِتُصلِحَ حالاً، أو مقالةُ كاتبِ

فما دامَ حكمٌ للتَّجاريبِ رَاهِناً ... فليس لنا غيرُ انتظارِ العَواقِبِ

ما دام الحكم في بلادنا مرهوناً للتجارب فلن تنفع فيه القصائد والمقالات، بل نجلس وننتظر العواقب، النتائج

وما خيرُ شعبٍ لستَ تَعثُرُ بينَه ... على قارِئٍ مِن كلِّ ألفٍ وكاتبِ

وما خيرُ شعب: أي لا خيرَ في شعبٍ، أسلوب قديم

تَـمشَّى يَـجُـرُّ الـفـقـرَ رِدْفـاً وراءَه؛ وأَتْعِسْ بِمَصْحُوبٍ وأَتْعِسْ بِصاحِبِ

مشى هذا الشعب يجر الفقر وراءه كأنه أردفه خلفه على حصان؛ وما أتعس المصحوب، هذا الراكب، وما أتعس صاحبه الفقر

٢٩ فيضان الفرات

(١٩٣٥):

طَغى فَضُوعِفَ منه الحسنُ والخَطَرُ وفاضَ فالأرضُ والأشجارُ تَـنغَمِرُ

طغى الفرات بفيضانه فتضاعف جماله وخطره معاً

وراعَـتِ الـطـائـرَ الـظَّـمـآنَ هَـيـبَـتُـهُ فَـمَـرَّ وَهْـوَ جَـبـانٌ فـوقَـهُ حَـذِرُ

الطيور خافت هيبة النهر إذ فاض

هُوَ الفُراتُ وكم في أمرِهِ عَجبٌ في حالَتَيْهِ، وكم في آيِهِ عِبَرُ

بَيْنا هُوَ البَحْرُ لا تُسْطَاعُ غَضْبَتُهُ إذا اسْتَشاطَ فلا يُبقي ولا يَذَرُ..

بينما الفرات كالبحر لا يطيق الناس غضبه..

إذا بِـه وَاهِـنُ الـمَـجـرَى يُـعـارِضُـهُ عُـودٌ، ويَـمْـنَـعُـهُ مِـن سَـيْـرِهِ حَـجَـرُ

إذا به بعد حين واهن المجرى، ضعيف الجريان، يعترض مجراه عود فيؤثر فيه، ويعترضه حجر فيمنع جريانه

٣٠ الكراسي الشواغر

بغداد (١٩٣٥):

تَصَفَّحْتُ أعمالَ الوَرى فوجدتُّها مَخازِيَ غَطَّوْها بِشَتَّى السَّتائِرِ

وحُبِّبَ تَدليسٌ، وذُمَّتْ صَراحةٌ فلا عيشَ إلَّا عن طَريقِ التآمُرِ

ولم يبقَ مَعنىً لِلمناصِبِ عندنا سوى أَنَّها مِلْكُ القريبِ المُصاهِرِ

تُسَنُّ ذُيولٌ لِلقوانينِ يُبْتَغَى بها جَلْبُ قومٍ لِلكَراسيِ الشَّواغِرِ

وكانتْ طِباعٌ لِلعشائِرِ تُرتَجى فقد لُوِّثَتْ حتى طِباعُ العَشائِرِ

وكان لنا منهُمْ سلاحٌ فأصبَحوا سلاحاً علينا بين حينٍ وآخَرِ

ولا تحسَبَنَّ الشعرَ سَهلاً مَهَبُّهُ بِهذي المَساوِيِ بين بادٍ وحاضِرِ

لا تحسب الشعر سهل الهبوب وسط هذه المساوئ..

فإنَّ عظيماً أن يخلِّدَ شاعرٌ مخازِيَ جيلٍ بِالقَوافي السَّوائِرِ

فإن عظيماً، فظيعاً، أن يخلد الشاعر مخازي جيله بقصائد سائرة مشهورة

سنُضحِكُ قُرَّاءَ التَّواريخِ بعدَنا ونَبدُو لَهُمْ فيهِنَّ إحدى النَّوادِرِ

فلو قصرنا شعرنا على التنديد بالمساوئ سيضحك منا قراء التاريخ مستقبلاً، وسيتندرون بنا

٣١ دموع يزيد

بغداد (١٩٣٥):

تولَّى يَزيدٌ دَفَّةَ الحُكمِ فانطَوى على الجمرِ مَن قد كان بِالحُكمِ أَجْدَرا

تولى يزيد الحكم بعد أبيه معاوية فأحس الجديرون بالحكم، من نسل علي، بجمر في أحشائهم

بنُو هاشمٍ رَهْطُ النبيِّ وفيهِمُ تَرعرَعَ هذا الدينُ غَرْساً وأَثْمرا

هؤلاء هم بنو هاشم قوم النبي الذين ترعرع فيهم الدين مغروساً وحين أثمر وانتشر

تَرَدَّى على كُرْهٍ رِداءَ خِلافَةٍ ولم يُلْقِ عنهُ بعدُ لِلخَمْرِ مِئْزَرا

تردى، لبس، يزيد ثوب الخلافة كارهاً له.. ذلك أنه لم يخلع عنه مئزر، أي ثوب، الخمر. وكان يزيد صاحب شعر وخمر وسماع وصيد

وشَقَّ عليه أن يُصَوِّرَ نفسَه على غيرِ ما قد عُوِّدَتْ أن تُصَوَّرا

وشق عليه، صعُب عليه، أن يصور نفسه بغير صورتها، فلم يغير عاداته

وأن يُبْتَلى بِالأمرِ والنَّهْيِ مُكرَهاً وأنْ يَجْمَعَ الضِّدَّيْنِ سُكراً ومِنْبَرا

وصعب عليه أن يبتلى بالأمر والنهي، أي بالحكم، وأن يجمع بين السكر واعتلاء المنبر لخطبة الجمعة

على أنَّه بِالرَّغْمِ مِنْ سَقَطاتِهِ وقد جاءَهُ نَعْيُ الحُسيْنِ تَأَثَّرا

لكنه رغم سقطاته، عيوبه، تأثر عندما ورده خبر مقتل الحسين بن علي

أقولُ لأقوامٍ مَضَوْا في مُصابِهِ يَسومُونَهُ التَّحريفَ حتى تَغَيَّرا

أقول للشيعة الذي أخذوا يعرِّضون مصاب الحسين، نكبة كربلاء ومقتل الحسين، للتحريف حتى تغيرت الرواية

دَعُوا رَوْعَةَ التاريخِ تأخذْ مَحَلَّها ولا تُجهِدُوا آياتِهِ أن تُحوَّرا

اتركوا روعة التاريخ، ذلك الفزع الذي حدث في التاريخ، تأخذ محلها التاريخي الحقيقي، ولا تلووا أعناق الحقائق لكي تبدلوا آيات، علامات، التاريخ

٣٢ على قبر الزهاوي

بغداد (١٩٣٦):

على رَغْمِ أنفِ الموتِ ذِكرُكَ خَالِدُ تَرِنُّ بِسَمْعِ الدهرِ منكَ القَصائِدُ
لقد كنتَ فَخراً لِلعراقِ وزِينَةً تُزَانُ نَوادِيهِ بِها والمَعاهِدُ
وكنتَ على خِصْبِ العِراقِيِّ شاهِداً إذا أَعْوَزَتْنا في التَّباهي شَواهِدُ
ثَوى اليومَ في هَذي الحُفَيْرَةِ عالِمٌ بِأَسرارِها، لِلَّهِ بِالعقلِ نَاشِدُ

ثوى، أقام، بهذه الحفيرة، القبر، عالم بأسرار القبر والموت، وناشد، أي ساعٍ، لمعرفة الله بالعقل

أقامَ على العلمِ الصحيحِ اعتِقادَهُ عَدُوٌّ لِأَشباحِ الخُرافاتِ طَارِدُ
وكان نَقيّاً فِكْرَةً وعقيدةً عزيزاً عليه أنْ تُسِفَّ العَقائدُ

تسف: تنحطّ

يؤكِّدُ أنَّ الدينَ حُبٌّ ورحمةٌ وعدلٌ، وأنَّ اللهَ لا شَكَّ واحِدُ
وأنَّ الذي قد سَخَّرَ الدِّينَ طامعاً يُتاجِرُ بِاسمِ اللَّهِ لِلَّهِ جَاحِدُ
جَميلٌ أعانَ الرَّافِدَيْنِ بِثالِثٍ مِنَ الشِّعرِ تَنميهِ بُحورٌ رَوافِدُ

أعان بلاد الرافدين، نهري دجلة والفرات، برافد ثالث هو الشعر.. وشعره كانت ترفده بحور من الفكر والفصاحة

٣٣ التكريم الموعود

بغداد (١٩٣٦):

حباني العراقُ السَّمْحُ أحسنَ ما حَبا به شاعِراً لِلحقِّ والخيرِ داعِيا
رجاءً كما استَمْطَرْتَ في الصيفِ مُزْنَةً ورزقاً كما أَسْأَرْتَ في الكأسِ باقِيا

منحني العراق أملاً ضعيفاً، كضعف أمل من يطلب المطر من مزنة، أي غيمة، في الصيف، ومنحني رزقاً قليلاً كأنه ما أسأرتَ، أي أبقيتَ في قعر الكأس

وعَيْشاً إذا استعرضتُهُ قلتُ عنده «كفى بِكَ داءً أنْ تَرى الموتَ شافِيا»

عندما أنظر في عيشتي في العراق أردد مع المتنبي قوله.. يكفيك مما بك من الضيق الذي يشبه الداء أن تعتبر الموت جيداً لأنه يشفيك

ووَاعَدَني بعدَ المَماتِ احتِفاءَةً يُجَوِّدُ فيها المُنشِدُونَ المَراثِيا

ووعدني العراق بعد مماتي باحتفاء ينشد فيه الشعراء المراثي، فالمرء يكرَم بعد موته لا في حياته

٣٤ الخرافات

بغداد (١٩٣٧):

ورُبَّ رُؤوسٍ بَـرْزَةٍ عَـشَّـشَـتْ بِـهـا　　خُرافاتُ جهلٍ فاشْتَكَيْنَ صُداعا

برزة: مشهورة

وساوِسُ لـو حـقَّـقْـتَـهـا لَـوجـدتَـهـا　　مِـن الـمـهـدِ كـانـت أَذْؤُبـاً وضِـبـاعـا

أصل هذه الوساوس والخرافات التي يؤمنون بها تخويف الطفل بالذئب والضبع وهو صغير

بـهـا نَـوَّمَـتْـنـا الأمَّـهـاتُ تَـخَـوُّفـاً　　ومـا أَيـقَـظَـتْـنـا الـحـادِثـاتُ تِـبـاعـا

وإنَّ شـبـابـاً يـرقُـبُ الـموتَ جـائـعـاً　　مَتى اسْطَاعَ عن حَوضِ البلادِ دِفاعا؟

الجائع لن يستطيع الدفاع عن الوطن

يَرى في الصناعاتِ احتِقاراً، وَيَزْدَهي　　إذا طَـمْـأَنَ الـتـوظـيـفُ مـنـه طَـمـاعـا

يحتقر الشباب المهنة، ويزدهون، يفرحون، إذا طَمْأن التوظيف طمعهم في نيل الرزق

وجَدْتُ جَبـانـاً مَـن وجـدتُ مـهـذَّبـاً　　وجَدْتُ جَهولاً مَن وَجَدْتُ شُجاعا

المهذب أجده جباناً، والشجاع.. أكتشِفُ أنه جاهل

٣٥ نِعم الخصم

في ذكرى ياسين الهاشمي رئيس الوزراء، بغداد (١٩٣٨):

سـايَـرْتُ حُـكـمَـكَ نـاقِـمـاً لـم أدَّرِعْ　　حـزبـاً، ولـم أَزْحَـفْ بِـظِـلِّ زَعـيـم

عشت أثناء حكمك ناقماً معارضاً، ولكنني لم أتخذ حزباً درعاً لي، ولم أناصر زعيماً أتفيأ ظَله

حـاشـا! ولـم أَهْـتِـفْ لِـغـيـرِكَ داعـيـاً　　أو أنْ أَخُـصَّ سَـواكَ بـالـتَّـقـديـمِ

لم أكن داعية لغيرك، ولم أفضل غيرك عليك.. رغم معارضتي لك

لـكـنْ طُـمـوحٌ لـيـس يُـرضـي أهـلَـهُ　　أن تـسـتَـمِـرَّ سـيـاسـةُ الـتَّـرمـيـمِ

لكن، كان عندي طموح. ولا يرضى أصحاب مثل هذا الطموح بسياسة الترقيع والترميم غير الجذرية

سايَرْتُ حكمَكَ ناقِماً، ووجدتُني　　بِإزاءِ شَهْـمٍ في الـخـصـامِ حَـلـيـمِ

وجدت نفسي أمام رجل حليم وشهم مع خصومه

رَحْـبٍ بِـنـقـدِ خُـصـومِـه مُـتَـفَـتِّـحٍ　　بِـالـبِـشْـرِ آونـةً وبِـالـتَّـفـهـيـمِ

رحب، واسع الصدر، لنقد يوجهه الخصوم إليه، ويستميل الناس بالبشر، والبشاشة، وبتفهيمهم مقاصده

يُعطيهِمُ نِصْفاً، ويعلمُ أنَّه   رَجلٌ يَسوسُ وليس بِالمَعصومِ
يعطيهم نصفاً، ينصفهم، وهو يدرك أنه رجل سياسة وليس نبياً معصوماً

٣٦ بكاء زوجة

في رثاء زوجته أم فرات، بغداد (١٩٣٩):

خلعتُ ثوبَ اصْطِبارٍ كان يَستُرُني   وبانَ كِذْبُ ادِّعائي أنَّني جَلِدُ
تركت التظاهر بالصبر، وتبين للناس أن ادعائي بأنني جلد، صبور، ادعاء كاذب

بَكيْتُ حتى بَكى مَن ليس يَعرِفُني   ونُحْتُ حتى حَكاني طَائرٌ غَرِدُ

٣٧ الطبيعة ترقص

ألقاها في مهرجان بلبنان (١٩٣٩):

زَهْوُ حُمْرِ القِبابِ في الجَبلِ الأخْـ   ـضرِ يَسْبي كَزَهْوِ أهلِ القِبابِ
إشراق القباب، الخيام، الحمر في هذه الجبال الخضر بلبنان يسبي العقل مثل إشراق الناس هناك

والكرومُ المُعَرَّشاتُ حَبالَى   مُرْضِعاتٍ كَرائِمَ الأعنابِ
الكروم المعرَّشة، المرفوعة أغصانها فوق العرائش، حبلى بالثمر.. وهي تُرضع من مائها عناقيد العنب الكريمة، أي التي من النوع الأصيل الذي ـ كما سيأتيك ـ يصلح للخمر

حَانياتٍ على الدَّوالِي تَحَلَّيْـ   ـنَ عَناقيدَ زِينةً لِلكَعابِ
تحنو الكروم بأوراقها على الغصون الدوالي، المتدلية، والمتحلية بالعناقيد التي تصلح زينة للكعاب، للفتاة الشابة

رافعاتِ الرؤوسِ شكراً، وأُخرى   ساجداتٍ شكراً على الأَعْتابِ
بعض غصون العنب رافع الرأس كأنما تشكر الله، وبعضها منبطح على الأرض ساجد شكراً. و«الأعتاب» تذكر المرء «بالعتبات المقدسة» في النجف بلد الشاعر، وفيها سجود كثير وعبادة

سِلْنَ في الحقلِ مثلَ رُوحٍ لِجِسمٍ   وتَمَدَّدْنَ فيه كالأَعصابِ
وتصايَحْنَ: أينَ، أينَ النَّدامى؟   وتغامَزْنَ ثَمَّ لِلأكوابِ
تصايحت الكروم: أين الندامى ليشربوا خمري؟ وتغامزن ثم، أي هناك، للأكواب المهيأة

وتَخازَرْنَ والمَعاصِرَ أَبْصا   راً حِداداً مَلِيئةً بِالسِّبابِ
تخازرت الكروم ومعاصر الخمر، أي نظر بعضها إلى بعض بأطراف العيون.. وهي نظرات غضبى لأن المعاصر أبطأت في استقبال العنب لعصره

نـظـراتٍ كـانـتْ خِـطـابـاً بـلـيـغـاً   ولدى العاصِرينَ فَحْوَى الخِطابِ
أصحاب المعاصر عندهم الجواب فسرعان ما سيباشرون القطف فالعصر

كيف لا تَرقُصُ الطبيعةُ في أر   ضٍ تَراها مُخَضَّبٌ بِالشَّرابِ

٣٨ المهادنة

بغداد (١٩٤٠):

أنا اليومَ إذْ صَانَعْتُ أحسنُ حالَةً   وأُحدوثَةً مِنِّي كَغيرِ مُصَانِعِ
اليوم إذ صانعت، داريتُ وتنازلتُ، أحسن حالاً وأحدوثة، سيرة، مما كنت عليه قبلئذ وأنا عنيد

خَبَتْ جُذْوَةٌ لا أَلْهَبَ اللّهُ نارَها   إذا كان حتماً أن تَقُضَّ مَضَاجِعي
فلتنطفئ ولتخْبُ جذوة، جمرة، عنادي، ولا أعاد الله اتقادها، إن كانت ستقض مضاجعي، ستقلقني.. ومؤكد أنها ستقلقني

بَلى، وشكرتُ العُمْرَ أن مَدَّ حَبْلَهُ   إلى أنْ حَباني مُهْلَةَ المُتَراجِعِ
وشكرت عمري لأنه طال، فمنحني بذلك مهلة للتراجع عما كنت عليه

تَمَنَّيْتُ مَنْ قاسَتْ عناءَ مَطامِحي   تعودُ لِتَهْنا في رَخاءِ تَواضُعي
تمنيت لو تعود زوجتي المتوفاة أم فرات، التي عانت من طموحاتي، حتى تجد الهناء والراحة في ظل تواضع هذه الطموحات والتخفف منها

٣٩ شكر

إلى نوري الأورفه لي، بغداد (١٩٤١):

كم مِن يدٍ بيضاءَ ضِقْتُ بِشُكرِها   ذَرْعاً، وعاشَتْ ـ لا تضيقَ ـ يَداكا!
ما أكثر الأيادي البيض، المعاريف.. جمع معروف، التي لم أعرف كيف أشكرك عليها فضقت بها ذرعاً؛ أدعو الله أن تعيش يداك وألّا تضيقَ هاتان اليدان

حاشايَ لم أَدْلِفْ إليكَ تَزَلُّفاً   كلَّا، ولستَ تُريدُه حاشاكا
حاشاي أن أكون دلفت إليك، دخلت خلسة، دخول متزلف متملق.. وحاشاك أن تريد من المرء مثل هذا التذلل

للشعرِ منزِلَةٌ لَدَيَّ أُجِلُّها   وأُجِلُّها ـ لو أَقْدِرُ ـ الأَفْلاكا
لكنْ وجدتُ الشعرَ مِهنةَ عاجِزٍ   إن لم يَقُمْ عَنِّي بِشُكرِ نَداكا
نداك: سخاؤك

٤٠ المتشاغل

لبنان (١٩٤٢):

عَجَّ الرصيفُ بأَسرابِ المَها وهَفا قلبي بِزَفْرَةِ قنَّاصٍ، ولم يَصِدِ

عج، ازدحم، الرصيف بأسراب الحسان، وهفا وتطلع قلبي إليهن وزفرت زفرة صياد.. لكن لم يصد

فمِنْ مُوافِيَةٍ وعْداً، وراقِبَةٍ وعداً، وأينَ التي وفَّتْ ولم تَعِدِ؟

فواحدة منهن تعطي وعداً، وأخرى تترقب وعداً، ولكن أين التي وفت حتى دون أن يكون هناك وعد؟

قالُوا تَشاغَلَ عنْ أهلٍ وعن وَلَدٍ فقال نَهداكِ: لم يَشْغَلْهُ مِن أَحَدِ

سِوى رَضيعَيْ لِبانٍ تَوْأَمِ حُبِسا رَهْنَ الغِلالَةِ إشفاقاً مِن الحَسَدِ

لم يشغلني سوى النهدين، اللذين كأنهما طفلان رضيعان محبوسان في غلالة، ثوب رقيق، كأنما للاستتار من عيون الحساد

٤١ السوفييت

قال الجواهري في معركة ستالينغراد التي صدَّ فيها السوفييت الألمان، بغداد (١٩٤٣):

أمَّ غُوركي ليتَ عندي وَحْيَهُ لِأُوَفِّي بِنْتَكِ اليومَ الثَّناءَ

يخاطب الأم بطلة رواية «الأم» لمكسيم غوركي الروائي الروسي، ثم السوفييتي: ليت عندي إلهام غوركي لكي أوفي بنتك، المرأة الروسية المحاربة ضد الغزو الألماني، ما تستحقه من ثناء

لو يعودُ اليومَ حياً لَرأى مِثلَها ألفاً تَهُزُّ البُلَغاءَ

لو عاد غوركي للحياة لرأى ألف امرأة مثلك تهز مشاعر البلغاء

بل ولولا أنَّ غُوركي أمُّه مثلُ هَذي لم يَبُزَّ النُّبَغاءَ

ولولا أن أم غوركي نفسه كانت مثل الأم التي كتب عنها لما بزَّ البلغاء، تفوق عليهم

يا تُولُسْتويُ، ولم تَذهبْ سُدىً ثَورةُ الفِكرِ، ولا طَارَتْ هباءَ

يخاطب روح الأديب الروسي تولستوي، الذي مات سنة ١٩١٠: لم تذهب سدى الثورة الفكرية التي انبثقت عنك

يا ثَرِيّاً وَهَبَ الناسَ الثَّراءَ قُم تَرَ الناسَ جميعاً أَثْرِياءَ

يا تولستوي، أيها الثري الذي وهب ثروته للفلاحين، قم من قبرك لترى كيف أصبح الناس كلهم أثرياء في ظل الحكم الشيوعي. (قد خاطب تولستوي وهو في قبره الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدة له «رقم ٣٩» في هذا الكتاب ضمن الفصل عن حافظ، وخاطبه في قبره أحمد شوقي في القصيدة «رقم ١٣٤» هنا أيضاً)

قُمْ تَجِدْهُمْ مَالِكي غَلَّتِهِمْ   مِن على عَهْدِكَ كانُوا أُجَراءَ
هكذا الفكرةُ تَزْكُو ثَمراً   إنْ زَكَتْ غَرساً وإن طابَتْ نَماءَ

٤٢ الطحالب

بغداد (١٩٤٤):

أُمَمٌ تَجِدُّ، ونَلْعَبُ   ويُعَذَّبونَ ونَطْرَبُ

الأمم الأخرى تلقى العذاب بالجهد والعمل وخوض الحروب.. ونحن نطرب، والقصيدة من بنات الحرب العالمية الثانية

ونعيشُ نحن كما يعيـ   ـشُ على الضِّفافِ الطُّحْلُبُ
مَتطفِّلينَ على الوجو   دِ نَعُومُ فيه ونَرْسُبُ
نُوحِي التَّطَيُّرَ كالغُرا   بِ إلى النفوسِ ونَنْعَبُ

التطير: التشاؤم، النعيب: صوت الغراب

ونَبُثُّ رُعباً في الصفو   فِ بِما نَدُسُّ ونَكذِبُ
ندعو إلى المُستعمِريـ   ـنَ، لِسَوْطِهِمْ نَتجنَّبُ

ندعو لمهادنة المستعمرين كي نتجنب سياطهم. وكان رشيد عالي الكيلاني في العراق انقلب على الحكم في أوائل الأربعينات، ولكن الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية قمعوا انقلابه، وتعاون عدد من الساسة في العراق مع الإنجليز لتجنب بطشهم وللانتفاع بالتقرب منهم

نَهوى تَقَرُّبَهُمْ وفيـ   ـهِ حَتفُنا يَتَقَرَّبُ
إن العراقَ بما نُحَشِّـ   ـدُ ضِدَّهُ ونُؤَلِّبُ

نؤلب: نحشد الرأي المعادي

بيتٌ على يدِ أهلِهِ   مِمَّا جَنَوْا يَتَخَرَّبُ
إنَّ الحياةَ سريعةٌ   وجريئةٌ لا تُغْلَبُ
وتدوسُ مَن لا يستطيـ   ـعُ لِحَاقَها وتُؤَدِّبُ

٤٣ المغامر المجاهر

قالها للرصافي وأجاب عنها الرصافي بقصيدة مطلعها: بكَ اليومَ لا بي أصبحَ الشعرُ زاهراً/ وقد كنتُ قبلَ اليومِ مثلَكَ شاعراً بغداد (١٩٤٤):

تَمَرَّسْتَ بِالأُولى فكنتَ المغامِراً   وفكرتَ بالأُخرى فكنتَ المجاهرا

الأولى: الدنيا، الأخرى: الآخرة

وفضَّلتَ عيْشاً بينَ تِلكَ وهذهِ   بهِ كنتَ - بل لولاهُ - ما كنتَ شاعرا

فضلت أن تعيش بين المغامرة في الحياة وبين المجاهرة برأيك في شأن الآخرة.. وبهذا كنت شاعراً ولولا تمسكك بالأمرين: المغامرة والمجاهرة لما كنت شاعراً

وكنتَ جريئاً حين يدعوكَ خاطِرٌ   مِن الفِكرِ أن تدعُو إليكَ المَخاطرا

كنت جريئاً حين يدعوك خاطر من خواطر الفكر لذا كأنك كنت تدعو المخاطر لتلم بك

على ثِقةٍ أنْ لستَ في الناسِ واجِداً   على مثلِه - إلّا القليلَ - مُناصِرا

وكنتَ واثقاً أنك لن تجد مناصراً على مثله، على مثل ذلك الخاطر الفكري، إلا قليلين

وكنتَ صَريحاً في حياتِكَ كلِّها   وكان - وما زالَ - المُصارِحُ نادِرا

فإنْ شابَها ما لم تَجِدْ عنه نُدْحَةً   شَفَعْتَ به حُكْمَ الظُّروفِ مُسايِرا

إن شاب الحياة ضرورة لم تجد ندحة عنها، مخرجاً منها، فإنك تساير الناس بحكم الظروف، وليس لأنك تخليت عن فكرك. وهكذا كان الرصافي.. يهادن قليلاً ثم يعود ويطلق أفكاره الجريئة

فقد كنتَ عن وَحْيِ الضرورةِ ناطِقاً   وقد كنتَ عن محضِ الطبيعةِ صادِرا

وإنِّيَ إذْ أُهْدي إليكَ تَحيَّتي   أَهُزُّ بكَ الجيلَ العَقوقَ المُعاصِرا

أَهُزُّ بكَ الجيلَ الذي لا تهزُّهُ   نوابِغُه، حتى تَزورَ المَقابِرا

هذا الجيل العاق لا تهز وجدانه أفكار ومعاناة النوابغ إلا بعد موتهم. ومات الرصافي بعد القصيدة بسنة على سرير معدني من الذي لا يكلف سوى دينار، بحسب تقديرِ الجواهري الذي زاره في آخر أيامه، وبعد موته نصبوا له تمثالاً معدنياً أيضاً ولكنه كلّف آلاف الدنانير

٤٤ قف بالمعرة

ألقاها في دمشق في الاحتفالات بألفية أبي العلاء المعري (١٩٤٤):

قِفْ بالمَعَرَّةِ وامسحْ خدَّها التَّرِبا   واستَوْحِ مَنْ طَوَّقَ الدنيا بما وَهَبا

قف بالمعرة، بلد أبي العلاء، وامسح بكفك خدها المغبّر، واستوحِ، استنزل الوحي والإلهام، من شاعرها الذي طوق عنق الدنيا بطوق متمثل في فكره وأدبه

واستَوْحِ مَنْ طَبَّبَ الدنيا بِحكمَتِهِ   ومَنْ على جُرحِها مِن رُوحِهِ سَكَبا

أبا العَلاءِ، وحتى اليومِ ما بَرِحَتْ   صَنّاجَةُ الشعرِ تُهدي المُتْرَفَ الطَّرَبا

يا أبا العلاء ما زالت صناجة الشعر، صاجاته الإيقاعية الرنانة، كعهدها تُطرب المترف، الغني. أي أن الشعر ما زال مجرد تسلية للأغنياء الممدوحين

يَستَنْزِلُ الفكرَ مِن عُليا مَنازِلِهِ   رأسٌ لِيَمْسَحَ مِن ذي نِعْمَةٍ ذَنَبا

ترى رأس الشاعر، أي ذهنه، ينزل بالفكر من مراتبه العليا لكي يمسح ذيل ذي النعمة، الغني، فيمدحه تملقاً

وزُمْرَةُ الأدبِ الكابي بِزُمْرَتِهِ   تَفرَّقَتْ في ضَلالاتِ الهوى عُصَبا

وزمرة الأدب الكابي بزمرته، الخامد بسبب هذه الزمرة، تفرقوا عصباً، جماعات شتى، وكلهم منشغلون بضلالات أهوائهم، مصالحهم

تَصَيَّدُ الجاهَ والألْقابَ ناسِيَةً   بِأنَّ في فِكْرَةٍ قُدْسِيَّةٍ لَقبا

هذه الزمرة تصَيَّد، أي تتصيد، الجاه والألقاب ناسية أن الفكر بما فيه من قدسية هو خير لقب

وأنَّ لِلعبقَرِيِّ الفَذِّ وَاحِدَةً   إمَّا الخلودَ وإمَّا المالَ والنَّشَبا

وناسية أن العبقري الفذ، المتفرد، له احتمال واحد من اثنين: الخلود أو نيل النشب، المال

على الحصيرِ، وكُوزُ الماءِ يَرْفِدُهُ   وذِهْنُه، ورُفوفٌ تَحمِلُ الكُتُبا..

وهو جالس على حصير وليس لديه سوى كوز ماء وذهن وقاد، وحوله رفوف عليها الكتب..

أقامَ بِالضَّجَّةِ الدنيا وأقعَدَها   شيخٌ أَطَلَّ عليها مُشْفِقاً حَدِبا

.. بهذه الصفة أقام الدنيا وأقعدها هذا الشيخ، المعري، الذي نظر إلى الدنيا نظرة إشفاق وحدب، حنان، لما يلاقيه أهلها من عناء

لم ينسَ أنْ تَشْمَلَ الأنعامَ رحْمَتُه   ولا الطيورَ ولا أَفراخَها الزُّغُبا

لم ينس المعري أن تشمل رحمته المواشي والطيور وأفراخها الزغب، التي ما نبت من ريشها إلا الضعيف.. وكان المعري نباتياً جارفاً

حَنا على كلِّ مَغْصوبٍ فَضَمَّدَهُ   وشَجَّ مَنْ كانَ، أيّاً كانَ، مُغتَصِبا

كان يحنو على كل مظلوم فيضمد جرحه، وكان يشج، يجرح، المغتصبين أياً كانوا بنقده لهم

سَلِ المَقاديرَ، هل ما زِلْتِ سادِرَةً   أم أنتِ خَجْلى لِمَا أَرهَقْتِهِ نَصَبا؟

اسأل الأقدار هل ما زلت سادرة، لامبالية، أم أنت تشعرين بالخجل لكثرة ما أرهقت المعري نصباً، ما حمَّلته من العناء؟

نَعَوْا عليكَ، وأنتَ النورُ، فَلسَفَةً   سَوداءَ لا لَذَّةً تَبغي ولا طَرَبا

نددوا بفلسفتك لأنها سوداء لا فيها لذة ولا طرب.. لكنك كنت مستنيراً

لا أَكْذِبَنَّكَ إنَّ الحُبَّ مُتَّهَمٌ   بِالجَوْرِ يَأْخُذُ منَّا فوقَ ما وَهَبا

الحب والعشق متهم بالجور، بالظلم، فهو يعطينا قليلاً من المتعة، ويأخذ منا الكثير من راحة البال

عانَى لَظَى الحُبِّ بَشّارٌ وعُصْبَتُه فهل سِوى أَنَّهُمْ كانُوا له حَطَبا

فبشار بن برد وصحبه ذاقوا عذاب الحب، وكانوا حطباً لناره

هل كنتَ تَخْلُدُ إذْ ذَابُوا وإذْ غَبَروا لو لم تَرُضْ مِن جِماحِ النَّفسِ ما صَعُبا

فبينما أولئك الشعراء قد ذابوا وغبروا، مضوا وانتهت سيرتهم، لكنك باقٍ خالد لأنك رضت جماح النفس، روضت نفسك المنفلتة وضبطت شهواتك

تَأْبَى انحِلالاً رِسالاتٌ مُقَدَّسَةٌ جاءتْ تُقَوِّمُ هذا العالَمَ الخَرِبا

أَجلَلْتُ فيكَ مِنَ المِيزَاتِ خَالِدَةً: حُرِّيَّةَ الفِكْرِ، والحِرمانَ، والغَضَبا

لِثورةِ الفكرِ تاريخٌ يُحَدِّثُنا بِأنَّ ألفَ مَسيحٍ دونَها صُلِبا

تاريخ ثورة الفكر يقول إن ألف مفكر صلب كالمسيح دونها، أي حماية لثورة الفكر

٤٥ ترحيب بطه حسين

وعد طه حسين بزيارة العراق، دمشق (١٩٤٤):

أُنَبِّيكَ أنَّ الرَّافِدَيْنِ تَطَلَّعَتْ ضِفافُهُما واستَنْهَضَ الشَّجَرُ الزَّرْعا

تطلعتْ ضفاف النهرين اللذين يرفدان العراق إلى مقدمك وأخذ الشجر يطلب من الزرع أن ينهض لاستقبالك

نَمَى خبرٌ أنْ سوفَ تَسعَى إليْهِما فكادَ إليكَ النخلُ مِن طَرَبٍ يَسْعَى

وصل خبر أنك ستأتي فكاد النخل يمشي لاستقبالك. مجنون طه حسين! سمع بيتين كهذين في الترحيب به ثم لا يزور العراق.. من يُقَل فيه بيتان كهذين يأتِ إلى العراق زحفاً على ركبتيه وراحتيه. قد ألقى الجواهري القصيدة في دمشق، في خضم احتفال بذكرى المعري، وردَّ طه رداً جميلاً قائلاً إنه ينتظر أن تتهيأ الأسباب. وطه حسين الذي كان في ذلك المهرجان مثل أم العروس متصدراً الندوات ويلقي خطباً كأنها مكتوبة لرئيس دولة ـ نقل ذلك كلّه لنا كتاب صدر عن مجمع دمشق ـ كان «أليطاً»، والأليط في لغة أهل مصر: المتكبر تكبراً أنيقاً، العارف قدر نفسه، التارك بينه وبين الآخرين مسافة محسوبة بالسنتمتر. لكن طه أحب الجواهري وساعده ورفده، وكان طه حسين يعرف أقدار الناس، ويبذل للأدباء من جاهه، ومن مال الدولة

٤٦ يافا

(١٩٤٥):

بِيافا يومَ حُطَّ بِها الرِّكابُ تَمَطَّرَ عارِضٌ ودَجا سَحابُ

يوم أُنزل ركابنا في يافا، أي وصلناها، أمطر عارض، غيم، ودجا سحاب، أي عقد ظلمةً في الجو

وقـفـتُ مُـوزَّعَ الـنـظـراتِ فـيـهـا   لِطَـرْفـيِ فـي مَـغـانـيِـهـا انـسِـيـابُ
ومَـوْجُ الـبـحـرِ يَـغـسِـلُ أَخْـمَـصَـيْـهـا   وبِـالأنـواءِ تـغـتَـسِـلُ الـقِـبـابُ

الأنواء: الأمطار

وبَـيّـاراتُـهـا ضَـرَبَـتْ نِـطـاقـاً   يُـخَـطِّـطُـهـا، كـمـا رُسِـمَ الـكِـتـابُ

البيارات: بساتين البرتقال، وكانت تحيط بيافا وتخطط لها حدودها، كما تكون الكتابة في صفحة الكتاب، أي المصحف، محاطة بإطار

أَقَـلَّـتْـنـي مِـن الـزَّوْراءِ ريـحٌ   إلـى يـافـا وحَـلَّـقَ بـي عُـقـابُ

حملتني من الزوراء، لقب بغداد، ريح، وحلق بي عقاب، العقاب من الكواسر. سافر الجواهري إلى فلسطين بالطائرة (أول مرة يفعلها، ثم إن شاعرنا وقع في حب السفر جواً).. وحط في مطار اللد القريب من يافا

ركِـبْـنـاهُ لِـيُـبـلِـغَـنـا سَـحـابـاً   فـجـاوزَه لِـيَـبـلُـغـنـا الـسـحـابُ

ركبنا هذا العقاب، الطائرة، ليبلغ بنا السحاب، فتجاوز السحاب علواً فصار السحاب هو الذي يريد أن يصعد إلينا

أَحَـقّـاً بـيـنَـنـا اخـتـلَـفَـتْ حُـدودٌ؟   ومـا اخـتـلـفَ الـطـريـقُ ولا الـتُّـرابُ
ولا افـتـرَقَـتْ وُجـوهٌ عـن وُجـوهٍ   ولا الـضـادُ الـفـصـيـحُ ولا الـكِـتـابُ
لَـئِـنْ حُـمَّ الـوَداعُ فَـضِـقْـتُ ذرعـاً   بِـه، واشْـتَـفَّ مُـهْـجَـتِـيَ الـذَّهـابُ

حم: أزف وحان وقُضي، اشتف مهجتي: برى قلبي برياً

فَـمِـن أَهْـلـيِ إلـى أَهْـلـيِ رُجـوعٌ   وعـن وَطَـنـيِ إلـى وَطَـنـيِ إِيـابُ

وقال الجواهري من بعد: ليتني ما كنت رأيت فلسطين كي لا أتحسر على ضياعها

٤٧ تقحمت صدري

في ذكرى الحسين، بغداد (١٩٤٧):

تَـقَـحَّـمْـتَ صَـدرِي ورَيْـبُ الـشُّـكُـوكِ   يَـضِـجُّ بِـجُـدرانِـهِ الأَرْبَـعِ

يخاطب الحسين: دخلت في قلبي بقوة رغم أن قلبي مملوء بالشكوك في أمر الدين

وقَـدَّسْـتُ ذِكـرَكَ لـم أَنْـتَـحِـلْ   ثِـيـابَ الـتُّـقـاةِ ولـم أَدَّعِ

وقدست ذكرك، لكن دون أن ألبس لبوس الأتقياء ودون ادعاء بأنني متدين

٤٨ جراح الشهيد

ألقاها في حفل بعد سبعة أيام من مقتل أخيه الأصغر جعفر، بغداد (١٩٤٨):

أَتَعْلَمُ أمْ أنتَ لا تَعْلَمُ بِأنَّ جِراحَ الضَّحايا فَمُ؟
يَصيحُ على المُدْقِعينَ الجِياعِ أَرِيقُوا دِماءَكُمْ تُطْعَمُوا

هذا الفم يصيح على المدقعين، الفقراء، طالباً منهم أن يثوروا لكي ينالوا رزقهم وحقهم

ويَهْتِفُ بِالنَّفَرِ المُهْطِعينَ أهينُوا لِئامَكُمُ تُكْرَمُوا

المهطعين: الخانعين

أَتَعْلَمُ أَنَّ جِراحَ الشَّهيدِ تَظَلُّ عن الثَّأْرِ تَستَفْهِمُ
تَمُصُّ دَماً ثم تَبْغي دماً وتَبقَى تُلِحُّ وتَسْتَطْعِمُ

تستطعم: تطلب الطعام.. من دم العدو

فقُلْ لِلمُقيمِ على ذِلَّةٍ هَجيناً يُسَخَّرُ أو يُلْجَمُ

الهجين: غير الأصيل، يلجم: يوضع له لجام لكي يروض ويذلل

تَقَحَّمْ، لُعِنْتَ، أَزيزَ الرَّصاصِ وجَرِّبْ مِنَ الحَظِّ ما يُقْسَمُ

اقتحم الرصاص وجرب الحصول على ما قسمه الله لك من حظ

وخُضْها كما خاضَها الأسبَقُونَ وثَنِّ بِما افْتَتَحَ الأَقْدَمُ

ثنِّ: كن ثانياً بعد آبائك الأمجاد.. أي أكمل مسيرتهم

يقولونَ مَن هُمْ أُولاءِ الرَّعاعُ؟ فَأفْهِمْهُمُ بِدَمٍ مَنْ هُمُ
وأَفْهِمْهُمُ بِدمٍ أَنَّهُمْ عَبيدُكَ إنْ تَدْعُهُمْ يَخْدُمُوا

أفهم المستعمرين بأنهم، بأن المستعمرين، عبيدك

وأَنَّكَ أشرفُ مِنْ خَيرِهِمْ وكُعْبُكَ مِن خَدِّهْ أكْرَمُ

أنت أشرف من أحسنهم، وكعبك أكرم من خد هذا الذي هو أحسنهم

أرى أُفُقاً بِنَجيعِ الدِّماءِ تَنَوَّرَ، واخْتَفَتِ الأَنْجُمُ

أرى الأفق محمراً لكن احمراره هذا من النجيع، الدم

ستَبقى طويلاً تُجَرُّ الدماءُ ولَنْ يُبْرِدَ الدَّمَ إلَّا الدَّمُ

ستواصل الدماء جر مزيد من الدماء، ولن يبرد دم شهدائنا إلا سكب دم الأعداء

وأُخْتٍ تُناشِدُ عنكَ النجومَ   لَعلَّكَ مِن بَيْنِها تَنْجُمُ

تنجم: تظهر

وتَزعُمُ أنَّكَ تَأتِي الصَّباحَ   وقد كَذَّبَ القبرُ ما تَزْعُمُ

تزعم أختك أنك ستأتي في الصباح، ولكن قبرك يكذب زعمها

يَميناً لَتَنْهَشُنِي الذكرياتُ   عليكَ كما يَنْهَشُ الأَرْقَمُ

الأرقم: الثعبان

٤٩ ضياع فلسطين

بغداد (١٩٤٨):

فما ذَهَبَتْ فِلَسطينٌ بِسِحْرٍ   ولا كُتِبَ الفَناءُ بِلا مِدادِ

فلسطين لم تذهب بقدرة سحرية بل بسبب عدو قوي، والفناء للشعوب والبلاد لا يكون من الطلاسم بل من أسباب واضحة كأنها كتبت بالمداد، الحبر

ولا طاحَ البِناءُ بِلا انحِرافٍ   ولا بَنَتِ اليَهودُ بِلا عِمادِ

طاح: سقط، عماد: قوة واستعداد، وهو في الأصل عمود الخيمة

٥٠ الذوق، وقلة الذوق

بغداد (١٩٤٩):

تَعَالَيْ أَذُقْكِ فكُلُّ الثِّمارِ   تَرِفُّ، ونُوَّارُها يُقطَفُ

يريد أن يذوق المحبوبة! فالثمار تتمايل على غصونها ومصيرها أن تقطف لنأكلها لا أن تبقى لنتفرج عليها

صِراعٌ يَطولُ فكَمْ تَهدُفِينَ   إلى الرُّوحِ مِنِّي وكم أَهْدُفُ..

صراع يطول بين الفتى والفتاة.. هو صراع الغزل والدلال.. والفتاة تهدف إلى امتلاك روح فتاها.. وهو يهدف إلى..

إلى الجِسمِ مِنكِ، وكم تَعرِفيـ   ـنَ أينَ المَحَزُّ وكم أَعْرِفُ

يهدف إلى جسمها.. وهي تعرف أين المحز، المفصل، وهو يعرف.. والبارع هو الذي «يطبق المفصل» مثلما يعرف القصاب جيداً أين مكان التقاء العظمتين فيدس سكينه في المكان الصحيح. يقول إن العاشقين كليهما يعرفان طقوس هذه اللعبة جيداً

وما بينَ هَذَيْنِ يَمشِي الزمانُ   ويُفْنِي مُلوكاً ويَسْتَخْلِفُ

وبين هدف المرأة إلى امتلاك روح الرجل وتكوين أسرة، وهدف الرجل إلى المغامرة تنشأ الأجيال ويمشي الزمن ويخلد الجنس البشري

٥١ صبية الاستعمار

ألقاها في لبنان، في تأبين عبد الحميد كرامي (١٩٥٠):

باقٍ، وأعمارُ الطُّغاةِ قِصارُ، مِنْ سِفْرِ مَجدِكَ، عاطِرٌ مَوَّارُ

سيبقى ذكر عاطر موار، مترقرق، من كتاب مجدك. . بينما أعمار الطغاة قصيرة، إذ لا يدوم لهم ذكر

فإذا ذَكرتُ بكَ البِلادَ فَعاذِرٌ فَهِيَ الحبيبُ لِنفسِكَ المُخْتارُ

فإن ذكرت في تأبينك أوضاع البلاد فأنت تعذرني لأنها الحبيبة إلى نفسك

عبدَ الحميدِ وما تزالُ كعهدِها شَعْبٌ يُذَلُّ، وأُمَّةٌ تَنْهارُ

البلاد يا عبد الحميد على حالها

تَنْهَى وتأمُرُ ما تَشاءُ عِصابَةٌ يَنْهَى ويَأْمُرُ فوقَها اسْتِعمارُ

وقيل إن القصيدة سببت للشاعر مشكلة مع السلطات اللبنانية، فمنع من دخول لبنان مدة من الزمن، وأزال المنع ابن المؤبن «رشيد كرامي» عندما صار رئيس وزراء

٥٢ نامي

(١٩٥٠):

نامي جِياعَ الشعبِ نَامي حَرَسَتْكِ آلِهَةُ الطَّعامِ
نامي فإنْ لم تَشبَعي مِن يَقْظَةٍ فَمِنَ المَنامِ
نامِي على زَبَدِ الوُعو دِ يُدَافُ في عَسَلِ الكَلامِ

نامي يا جموع الشعب على زبد الوعود، والزبد الرغوة، يداف، يخلط، بالكلام المعسول من الحاكمين بقرب تحقق الرخاء

نامِي تَزُرْكِ عَرائِسُ الـ أَحلامِ في جُنْحِ الظلامِ
تَتَنَوَّري قُرْصَ الرَّغيـ ـفِ كَدَوْرَةِ البَدْرِ التَّمامِ

نامي حتى تتنوري، تشاهدي، الرغيف كأنه البدر

وتَرَيْ زَرائِبَكِ الفِسا حَ مُبَلَّطاتٍ بِالرُّخامِ

في الأحلام ترى الشعوب بيوتها ـ التي هي كالزرائب، بيوت الماشية ـ قصوراً مبلطة بالرخام

نامي تَصِحّي، نِعْمَ نَوْ مُ المرءِ في الكُرَبِ الجِسامِ
نامِي إلى يومِ النُّشُو رِ ويومَ يُؤْذَنُ بالقِيامِ

النشور: البعث من القبور

نــامــيِ وســبِـــريِ فــي مَـــنـــا   مِـكِ مـا اسـتَـطَـعْـتِ إلـى الأمـامِ
نــامــيِ عــلــى تــلــكَ الـعِـظـا   تِ الـــغُـــرِّ مِـــنْ ذاكَ الإمـــامِ
نــامــيِ يُـســاقَـطْ رِزْقُـكِ الــ   ـمَـوْعُـودُ فـوقَـكِ بِـانـتِـظـامِ
نــامــيِ فــمــا الــدنــيــا ســوى   جِـسْـرٍ عــلــى نَـكَـدٍ مُـقـامِ
نــامــيِ عــلــى الـمـجـدِ الـقـديـ   ـمِ وفــوقَ كَــوْمٍ مِــن عِــظــامِ

النائم على كوم عظام هو المفتخر بعظام أجداده، هو «العظامي» في مقابل «العصامي» المفتخر بما أنجز بنفسه

٥٣ العواء

بغداد (١٩٥٣):

عَدا عَلَيَّ كما يَسْتَكْلِبُ الذِّيبُ   خَلْقٌ ببغدادَ أنمـاطٌ أَعاجِيبُ

عدا علي: ظلمني، استكلب: توحش

تِسعونَ كَلباً عَوى خَلفي وفَوْقَهُمُ   ضَوْءٌ مِنَ القَمَرِ المَنْبُوحِ مَسْكوبُ

يشير إلى المثل: كلب ينبح القمر، لمن يشتمك ولا يستطيع أن يؤذيك

وقبلَ أَلْفٍ عَوى أَلْفٌ فمَا انتَقَصَتْ   أَبا مُحَسَّدَ بِالشَّتْمِ الأَعارِيبُ

قبل ألف عام عوى ألف كلب على أبي محسد، المتنبي، ولم ينتقص ذلك شيئاً من مجده

٥٤ انتظار الفرج

بغداد (١٩٥٥):

كُنَّا نَقولُ إذا ما فاتَنا سَحَرٌ   لا بُدَّ مِن سَحَرٍ ثانٍ يُواتِينا

السحر: قبيل الشروق، يواتينا: يتاح لنا

لا بُدَّ مِن مَطلَعٍ لِلشمسِ يُفرِحُنا   ومِن أَصيلٍ على مَهْلٍ يُحَيِّينا
واليومُ نَرقُبُ في أَسحارِنا أَجَلاً   تَقومُ مِن بعدِه عَجْلى نَواعِينا

٥٥ صنائع الاستعمار

ألقيت بدمشق في ذكرى عدنان المالكي، الضابط الذي اغتيل بتدبير نوري السعيد كما قيل، وأراد الشاعر إغاظة حكام العراق بقصيدته، ومنح بعد القصيدة اللجوء السياسي في الشام (١٩٥٦):

واهُـزْأَةَ الأَحـلافِ بـيـنَ مُـسَـخِّـرٍ   ومُـسَـخَّـرِيـنَ، وسَـيِّـدٍ وإِمـاءِ

يا للسخرية لحلف يقوم بين السيد والعبد، وبين المستعمِر والقوم الذين تحت استعماره

يـا مَـن رأى حِـلْـفـاً عـجـيـبـاً أمرُهُ — بـيـن الـثَّـرى وكَـواكِـبِ الـجَـوْزاءِ
دَوَّى عـلـى الـمـسـتـعـمِـريـنَ صَـواعِـقـاً — وَعْـيُ الـشـعـوبِ ويَـقْـظَـةُ الـدَّهْـمـاءِ

الدهماء: عامة الناس.. ويستعملها الجواهري بالمعنى الإيجابي خلافاً للمألوف

وتَـكَـشَّـفُـوا عُـرْيـاً عـلـى أضـوائِـهـا — مـثـلَ الـلُّـصـوصِ بِـلـيـلـةٍ قَـمْـراءِ
وتَـقَـيَّـحَـتْ مِـن زِمْـنَـةٍ فَـتـعـفَّـنَـتْ — بِـصَـديـدِهِـنَّ ضَـمـائـرُ الأُجَـراءِ

ضمائر المأجورين الذين يعملون لصالح المستعمر تقيحت من الزمنة، المرض المزمن، وتعفنت بما فيها من صديد، مِدَّة وقيح

فـهُـمُ كـفـاجِـرَةٍ تُـغَـطِّـي جَـهـدَهـا — صِـدْقَ الـفُـجـورِ بِـكـاذِبِ الـخُـيَـلاءِ
الـسَّـائِـرونَ الـقَـهْـقَـرى، لـم يَـعـرِفُـوا — بـيـن الـجـهـاتِ الـسِّـتِّ غـيـرَ وَراءِ
وهُـمُ يَـرُمُّـونَ الـحـقـائـبَ خَـشـيـةً — مِـن فَـجْـأَةِ الأقـدارِ كـالـنُّـزلاءِ

يجعلون متاعهم وأموالهم في حقائب لكي يفروا من البلد إن فاجأتهم الثورة. وكان الوصي عبد الإله ونوري السعيد قد فرا فراراً من العراق في خضم حركة رشيد عالي الكيلاني قبل القصيدة بخمس عشرة سنة

٥٦ البساتيل

دمشق (١٩٥٦):

جَـزائِـرُ! دَارَتْ بِـمُـسْـتَـعـمِـرٍ — رَحـىً مَـن يُـضَـرَّسْ بِـهـا يَـهْـلَـعِ

أيتها الجزائر لقد دارت على المستعمر الرحى، الطاحون، التي تجعل من يضرس بها، يطحن، يشعر بالهلع

مَـشَـتْ لَـكِ بـاريـسُ أمُّ الـحـقـو — قِ وَحْـشـاً يَـدِبُّ عـلـى أَرْبَـعِ
تُـهَـدِّمُ بَـسْـتِـيـلَ فـي مَـوضـعٍ — وتَـبـنـي بَـسـاتِـيـلَ فـي مَـوضـعِ

هدمت فرنسا الباستيل، رمز سطوة الملكية، بباريس؛ وبنت بساتيل في مستعمراتها لاضطهاد الشعوب

٥٧ بردى والنيل

في ذكرى عدنان المالكي، دمشق (١٩٥٧):

هُـنـا بِـجِـلَّـقَ عـمـلاقٌ عـلـى بَـرَدَى — وثَـمَّ في مصرَ يَحمي النِّيلَ جَبَّارُ

هنا في الشام وعلى ضفاف بردى يقف عملاق هو الجيش السوري الذي كان من بناته عدنان المالكي صاحب الذكرى وثَمّ، أي هناك، جبار يحمي النيل

اسْلَمْ جَمالُ لنا نَسْلَمْ، فقد عَرَفَتْ   بِكَ الكرامةَ في الشَّرْقَيْنِ أمصارُ
جمال عبد الناصر، وكان يتم آنذاك الإعداد لوحدة مصر وسورية التي تمت وشيكاً

وانصاعَ يَبري سيوفَ الهندِ لاهِبَةً   مُهَنَّدٌ يَعْرُبِيُّ الحَدِّ بَتّارُ
انصاع: انشغل

تَغشَى المشاكِلُ مَتْنَيْهِ فَيحسِمُها   لا حيثُ تَطْغَى ولكنْ حيثُ يَختارُ
هذا السيف العربي الذي هو عبد الناصر تغشى المشاكل متنيه، تحل المشاكل بجانبيه، فيحسم أمرها ليس بالضرورة في مكان وقوعها بل في المكان الذي يختاره هو

لم يَعرِفِ الدهرُ مِثلَ العُرْبِ مِن صُبُرٍ   بِهِمْ على الضُّرِّ إلحاحٌ وإصرارُ
صبر: صابرون، وفيهم على الضر، أي رغم الضيق، إصرار

نحنُ الذين أعَرْنا الكونَ بَهجَتَهُ   لكِنَّما الدهرُ إقبالٌ وإدْبارُ
شِدْنا الحياةَ وكُوفِئْنا المَماتَ كما   شادَ الخَوَرْنَقَ كيْ يَرْدَى سِنِمَّارُ
شاد العرب حياة وحضارة عمّت الآخرين وكوفئوا بهبوط وانحطاط دولتهم، فهم مثل «سنمار» المهندس الذي بنى للنعمان قصر الخورنق ثم قتله النعمان

٥٨ الرتوع

إلى شكري القُوَّتْلي، رئيس سورية، دمشق (١٩٥٧):

أنا واللَّهِ راتِعٌ في ذَرا لُطْـ   ـفِكَ ما بي إلى سِواكَ احتِياجُ
يخاطب رئيس سورية شكري القوتلي، وكان الجواهري في ضيافة سورية. في ذرا: في كنف

غيرَ أنِّي بِالمالِ أَضْوَى، وإنْ أَسْـ   ـمَنَ غيري، إنَّ النُّفوسَ مِزاجُ
بالمال أَضْوَى، أُصبحُ مهزولاً، وإن كان المال يجعل غيري سميناً. وكان الجواهري يتلقى المال من الحكومة السورية والعراقية والتشيكوسلوفاكية والمصرية ومن بعض أثرياء العراق.. كل هذا في أوقات مختلفة تلتقي وتفترق.. وتألّفته الحكومة العراقية بعد انتفاضة تشرين بمزرعة من ثلاثة آلاف دونم معظمها غامر، بور غير صالح للزراعة، واعتبر المنحة حقاً، لكنه سكت زمناً بعدها

٥٩ الذئب

بغداد (١٩٥٩):

مَن مِنكُم، رَغمَ الحياةِ وعبئِها   لم يَحتَسِبْ لِلموتِ ألفَ حِسابِ
ذِئبٌ تَرَصَّدَني وفوقَ نُيُوبِه   دَمُ إخْوَتي وأقارِبي وصِحابي
الموت ذئب يقف لي بالمرصاد، وأنا أرى على أنيابه دم من مات من أهلي وأصحابي

٦٠ في تمجيد الحاكم

في افتتاح المستنصرية متحفاً ومزاراً (١٩٦٠):

أَعِدْ مجدَ بغدادٍ ومجدُكَ أَغلَبُ وجَدِّدْ لها عهداً وعهدُكَ أَطيَبُ
تَسَرَّبَ هَمْسٌ أنَّ فَقعاً بِقَرْقَرٍ يُعِدُّ شِراكاً لِلهِزَبْرِ ويَنْصِبُ

الفقع الفطر، والقرقر المكان المنخفض (وفقع بقرقر: أي شخص تافه)، وقد بلغني أن هذا الشخص ينصب شباكاً للأسد، والأسد هو عبد الكريم قاسم. وكان الجواهري ذا منزلة عنده.. ثم تغير الوضع في أواخر عهده

وأنَّ الذي خلفَ الحدودِ يَمُدُّهُ كَلِصٍّ يجوسُ البيتَ ليلاً ويَهرُبُ

المتآمرون على حكمك تَمُدُّهم بالمال جهة خارجية

أبا الشعبِ لا يَتْعَبْ خَؤُونٌ مُغامِرٌ فخلفَكَ شَعْبٌ لِلخَؤُونِينَ مُتعِبُ

أبو الشعب: عبد الكريم قاسم، حاكم العراق

سَلِ الشعبَ زَحفاً تَدْرِ كيف زُحوفُه وبَذلاً تَجِدْ أَرواحَهُ كيف تُوهَبُ
ستهوي رؤوسٌ ما اشتكى مِنكَ إِصْبَعٌ وتُلوَى رِقابٌ ما التَوى مِنكَ مَنْكِبُ

وكان قاسم تعرَّض لمحاولة اغتيال أصيب فيها في كتفه برصاصة

٦١ فاوست

في مهرجان الأخطل الصغير، بيروت (١٩٦١)، وقد اتخذ الجواهري المناسبة حجة ليفر من بطش عبد الكريم قاسم

يا مَن يُقايِضُني صَدى الـ ـهَمَساتِ والسَّمَرِ المُريبِ

يريد أن يعقد مقايضة.. فمن ذا يمنحني السمر المريب، هذا سمَر مريب غير بريء بل به خمر ونساء..

وتَنابُزَ القُبُلاتِ في نَجْوى كَمُسْتَرَقِ الدَّبيبِ

من ذا يعطيني تنابز، تبادل، القبلات مع نجوى، همس، كأنها دبيب على أطراف الأصابع مسترَقٌ استراقاً:.

ويداً تَخَبَّطُ في الهوى ويداً تُعابِثُ في الجُيوبِ

ومن يعطيني يد محبوب تتخبط أثناء العناق، ويد حبيب تعبث في الجيوب.. والجيب هو فتحة العنق في القميص

يـا مَـن يُـقـايِـضُـنـي ربـيـ ـعَ الـعُـمْـرِ ذا الـمـرجِ الـعَـشـيـبِ
من ذا يعطيني الشباب الذي هو كالربيع المعشب
بِـالـعَـبْـقَـرِيَّـةِ كـلِّـهـا بِـخُـرافَـةِ الـذِّهـنِ الـخَـصـيـبِ
وله مقابل ذلك العبقرية الشعرية وخرافة الذهن الخصيب
شـيـطـانَ غُـوتَـةَ! يـا رَبـيـ ـبَ الـغَـدْرِ والـدَّمِ والـحُـروبِ
يا شيطان غوتِهْ، يا مِفستوفيليس الذي جعله غوتِهْ في ملحمته يخوض مقايضة شبيهة مع البطل فاوست (شيطان غوته عرض العلم اللامتناهي والملذات مقابل أن يتملك روح البطل)
ومُـقـايِـضَ الـسَّـبـعـيـنَ بِـالـ ـعِـشـريـنَ عـن ثَـمَـنٍ رَهـيـبِ
يا من يقايض فيعطيني سن العشرين بدل سن السبعين مقابل الثمن الرهيب
لـو جِـئـتَـنـي لَـوَجَـدْتَـنـي مَـحضَ الـسـمـيـعِ الـمُـسـتَـجـيـبِ
لـبـنـانُ يـا وطـنـي إذا حُـلِّـئْـتُ عـن وطـنـي الـحـبـيـبِ
حلئتُ: أبعدْتُ عن الماء
أَبـشَـارةٌ! وبِـأَيِّـمـا شَـكـوى أَهُـزُّكَ يـا حـبـيـبـي
هـل صَـكَّ سَـمْـعَـكَ أَنَّـنـي مِـن رافِـدَيَّ بِـلا نَـصـيـبِ؟
هل وصل إلى سمعك يا بشارة الخوري أنه لا نصيب لي من الرافدين، العراق؟

٦٢ المنفيّ

براغ (١٩٦١):

أنا مِنْ تِلْكُمُ الضَّحايا، رَمَتْ بي فِـكـرةٌ حُـرَّةٌ وَراءَ الـحُـدودِ
لم أُطِقْ كَتْمَها، وأَعلَمُ كلَّ الـ ـعِلْمِ أَنّي بِها أَحُزُّ وَريدي
أنا في عِزَّةٍ هُنا، غيرَ أَنّي في فُؤادي يَنِزُّ جُرْحُ الشَّريدِ
لي عِتابٌ على بِلادي شَديدٌ وعلى الأَقْرَبينَ جِدُّ شَديدِ
يا لِبغدادَ حين يَنْتَصِفُ التّا ريخُ مِن كلِّ ناكِرٍ وجَحُودِ

٦٣ أم البساتين

قال الجواهري عام (١٩٦١) وهو لاجئ سياسي في براغ:

حَيَّيْتُ سَفْحَكِ عن بُعْدٍ فَحَيِّيني يا دِجْلَةَ الخيرِ يا أُمَّ البَساتينِ
يا دجلة.. يا ساقية البساتين فكأنك أمها.. حييتُ سفحك، شاطئك، وأنا بعيد عنه

حَيَّيْتُ سَفْحَكِ ظَمآناً أَلُوذُ به   لَوْذَ الحَمائِمِ بين الماءِ والطِّينِ
يا دِجْلَةَ الخيرِ يا نَبْعاً أُفارِقُه   على الكَراهَةِ بين الحينِ والحينِ
إِنِّي وَرَدْتُ عيونَ الماءِ صَافِيةً   نبعاً فنبعاً فما كانتْ لِتَروِيِني
وأنتَ يا قَارباً تَلْوِي الرِّياحُ بِه   لَيَّ النَّسائِمِ أَطْرافَ الأَفانينِ

تلوي الرياح القارب يميناً ويساراً كما تلوي النسائم أطراف الأفانين، الأغصان، ليّاً

ودِدْتُ ذاكَ الشِّراعَ الرَّخْصَ لو كَفَني   يُحاكُ منه غَداةَ البَيْنُ يَطوِيني

وددت أن الشراع الرخص، الناعم، يخاط لي منه كفني عندما يغيبني البين، الفراق. فالموت أسهل من فراق الوطن

يا أُمَّ بغدادَ مِنْ ظَرْفٍ ومِنْ غَنَجٍ   مَشَى التَّبَغْدُدُ حتى في الدَّهاقِينِ

من ظرفك يا دجلة يا أم بغداد، التي لولاها لما كانت بغداد، ومن رقتك وغنجك انتشر التبغدد، التمدين والرقة والدلال والنعمة، حتى في الدهاقين، ملاك الأرض من العجم. وظلت كلمة البغددة حتى يومنا تعني الدلال والنعمة

يا أُمَّ تِلكَ التي مِن أَلْفِ لَيْلَتِها   لِلآنَ يَعْبَقَ عِطْرٌ في التَّلاحِينِ

يخاطب دجلة: يا أم تلك المدينة (بغداد) التي ظل أثر قصصها المسماة «ألف ليلة وليلة» عابقاً في التلاحين، الغناء

يا دِجلةَ الخيرِ ما يُغْليكِ مِنْ حَنَقٍ   يُغْلِي فُؤادِي، وما يَشجِيكِ يَشجِيني

ما يجعلك تغلين من الحنق والغضب يجعل فؤادي يغلي أيضاً

أَدري بِأَنَّكِ مِن ألفٍ مَضَتْ هَدَراً   لِلآنَ تَهْزَيْنَ مِن حُكْمِ السَّلاطِينِ

من ألف سنة مضت هدراً، مهدورة لم نشهد فيها ازدهاراً، وحتى اليوم أنتِ تهزأين من حكم السلاطين

تَهْزَيْنَ أنْ لم تَزَلْ في الشرقِ شَارِدَةً   مِن النَّواوِيسِ أَرواحُ الفَراعينِ

تهزأين لأن الشرق يعاني من المستبدين، فكأن أرواح الفراعنة ظلت شاردة من النواويس، القبور، وتحل في أجساد الحكام الحاليين.. وفرعون العراق وقتذاك عبد الكريم قاسم

تَهْزَيْنَ مِن خِصْبِ جَنَّاتٍ مُنَثَّرَةٍ   على الضِّفافِ ومِن بُؤْسِ الملايينِ

تهزأين من هذا التضاد بين الخصب والجنان على شاطئيك وبين وجود الملايين من الفقراء

يا دجلةَ الخيرِ كم مِن كَنْزِ مَوْهِبةٍ   لديكِ في القُمْقُمِ المسحورِ مَخزونِ

ما أكثر المواهب التي كبتت في العراق كأنها مخزونة في قمقم مسحور، جرة النحاس التي يحبس فيها المارد

لعلَّ يوماً عَصوفاً جارفاً عَرِماً آتٍ فتُرضيكِ عُقْباهُ وتُرضيني

لعل هناك ثورة عارمة ستأتي ونرضى بعقباها، بنتيجتها

يا دِجلَةَ الخيرِ إنَّ الشعرَ هَدْهَدَةٌ لِلسَّمْعِ ما بين تَرخيمٍ وتَنوينِ

هدهدة للسمع: تحريك هادئ له، كما تحرك الأم وليدها كي ينام، التنوين: الغنة، الصوت الأنفي الحنون

حتى الضَّفادِعُ في سفحَيْكِ سَارِيَةً عَاطَيْتُها فَاتِنَاتٍ حُبَّ مَفْتُونِ

حتى الضفادع في شاطئيك أحببتها وتبادلت معها وهي سارية، ماشية ليلاً، وفاتنة، حب المفتون بها. وسبقت للجواهري أبيات جعل فيها نقيق الضفادع رسولاً بين المحبين

غَازَلْتُهُنَّ خَليعاتٍ وإنْ لَبِسَتْ مِن الطَّحالِبِ مَزْهُوَّ الفَساتينِ

خليعات: عاريات.. رغم أن الضفادع تلبس لباساً معجباً من الطحالب

يا دِجلةَ الخيرِ مِن كلِّ الأُلَى خَبِرُوا بَلوايَ لم أُلْفِ حتَّى مَن يُواسِيني

من بين كل من عرفوا بمصيبتي لم أجد من يواسيني

يا دِجلةَ الخيرِ يا مَن ظَلَّ طائِفُها عن كلِّ ما جَلَتِ الأحلامُ يُلهِيني

طائف دجلة، طيفها الذي ينتابني في صحو أو منام، يلهيني عن كل طيف تجلوه، وتبديه، الأحلام

يا دِجلةَ الخيرِ خَلِّيني وما قَسَمَتْ لِيَ المقاديرُ مِن لَدْغِ الثَّعابينِ

وأَرْكَبُ الهولَ في رَيْعانِ مَأْمَنَةٍ حُبُّ الحياةِ بِحُبِّ الموتِ يُغرِيني

أركب المخاطر في ريعان مأمنة، في عز زمن الأمان، وحبي للحياة الكريمة يغريني بأن أستهين بالموت.. بل بأن أحبه

وما البُطولاتُ إعجازٌ وإن قَنِعَتْ نفسُ الجبانِ عن العَلياءِ بِالهُونِ

البطولات ليست معجزات بل هي سهلة على الشجاع، فأما نفس الجبان فترضى بالهون، الذل، بدلاً من العلياء، المجد

لا يُولَدُ المرءُ لا هِرّاً ولا سَبُعاً لكنْ عُصارَةُ تَجريبٍ وتَلْقينِ

إنَّ المصائبَ طَوْعاً أو كَرَاهِيَةً أَعَدْنَ نَحْتِي، كما أَبدَعْنَ تَلوِيني

يا دِجلةَ الخيرِ كم مَعْنىً مَزَجْتُ له دَمِي بِلَحْمِيَ في أَحْلى المَواعينِ

ما أكثر المعاني التي وضعت فيها دمي ولحمي، أي الأشعار التي كانت قطعة من روحي، ثم جعلت ذلك في أحلى المواعين، الآنية.. وأواني المعنى في الشعر هي الأبيات والقوافي

سَهِرْتُ ليلَ أخي ذُبْيانَ أحضِنُه حَضْنَ الرَّواضِعِ بينَ العَتِّ واللِّينِ

سهرت بليل كليل النابغة الذبياني الموصوف بالطول والكآبة، وأنا أحضن الشعر كما تحضن المرضع رضيعها وهي تعالجه بين جذب ولين (تلقمه ثديها بقوة ليأخذه ويبدأ يمص، ثم تترفق به حتى ينسجم ويرضع).. خوش تشبيه

أُعيدُ مِن خَلْقِه نَحتاً وخَضْخَضَةً والنجمُ يَعجَبُ مِن تلكَ التَّمارينِ

أكتب شعري وأغير فيه وأبدل والمعاني والألفاظ والأوزان تتفاعل وتعتلج اعتلاجاً.. أنحت الألفاظ نحتاً ثم أخضخضها لتستقر.. ولا أحد معي سوى النجم يراقبني ويعجب لهذه التمارين الغريبة

حتى إذا آضَ رَيَّانَ الصِّبا غَضِراً مَهوَى قلوبِ الحسانِ الخُرَّدِ العِينِ..

حتى إذا آض، أي صار، الشعر مكتملاً كأنه الفتى الشاب الممتلئ حيوية، وصار مهوى، موضع، قلوب الفتيات الحسان الخرد، الناعمات، العين ذوات الأعين الواسعة

أَتاحِ لِي سُمَّ حَيَّاتٍ مُرَقَّطَةٍ تَدِبُّ في حَمَأٍ بِالحِقْدِ مَسنُونِ

عندئذ.. جلب عليَّ الشعر هجمات الأعداء التي هي مثل سم حيات مرقطة، منقطة، تزحف في حمأ مسنون، في طين نتن، هو الحقد

فهل بِحَسْبِ اللَّيالي مِن صَدَى أَلَمِي أَنِّي مَضيِغَةُ أنيابِ السَّراحينِ؟

ألا يكفي الليالي، المصائب، من صدى ألمي، من بعض آلامي، أنني صرت مضغة بين أنياب السراحين، الذئاب؟

٦٤ غريب الدار

براغ (١٩٦٢):

يا غريبَ الدارِ، والأيّـ ـامُ كالناسِ تُدارَى

وبناتُ الدهرِ يَغلِبْـ ـنَ بَني الدهرِ ابْتِكارا

بنات الدهر، أي المصائب، تغلب أبناء الدهر، أي الناس، بما تبتكره من أفانين العذاب

يا غريبَ الدارِ لم تَكـ ـفُلْ لَه الأيامُ دَارا

يا لِبَغدادَ مِنَ التا ريخِ هُزْءاً واحتِقارا

حَلَّأَتْهُ ومَرَتْ لِلـ ـوَغْدِ أَخْلافاً غِزارا

حلأت بغداد المغترب، صدَّته عن الماء، ومرت للوغد، أي حلبت له، أخلافاً غزارا، أي ضروعاً مليئة بالحليب

واصْـطَـفَـتْ بُـومـاً وأَجْـلَـتْ   عـن ضِـفـافَـيْـهـا كَـنـارا

بغداد اصطفت، اختارت، البوم، وطردت عن ضفافيها، ضفتيها على دجلة، الكنار

لـيـس عـاراً أنْ تُـوَلِّـي   مِـن مُـسِـفِّـيـنَ فِـرارا

يقول لنفسه: ليس عاراً أن تفر من وجه المسفين، الهابطين أهل الإسفاف

جَـافِـهِـمْ كـالـنَّـسْـرِ إذْ يَـأْ   نَـفُ دِيـدَانـاً صِـغـارا

جافهم: عالجهم بالجفاء والبُعد

خِـلْـقَـةٌ صُـبَّـتْ عـلـى الـفَـجْـ   ـرَةِ دَعْـهـا والـفِـجَـارا

الخلقة التي جبلت على الفجور دعها وفجورها

أنـتَ لا تَـقْـدِرُ أن تَـزْ   رَعَ فـي الـعُـورِ احْـوِرارا

الاحورار: شدة سواد بؤبؤ العين مع شدة بياض حوله.. وهذه صفة حميدة وهيهات أن تزرعها فيمن هو أعور

يـا غـريـبَ الـدَّارِ فـي قـا   فِـلَـةٍ سـارَتْ وسـارا
لِـمَـصـيـرٍ واحـدٍ ثُـمَّ   تَـنـاسَـتْ أيـن صَـارا
سـامِـحِ الـقـومَ انـتِـصـافـاً   واخـتَـلِـقْ مِـنـكَ اعـتِـذارا

اختلق أعذاراً لمن أساءوا إليك

عَـلَّـهُـمْ مِـثْـلَـكَ فـي مُـفْـ   ـتَـرَقِ الـدَّرْبِ حَـيـارَى
فـإذا مـا عَـاصِـفُ الـدهـ   ـرِ بِـكُـمْ أَلْـوَى وجَـارا

ألوى بكم الدهر: رماكم

فَـكُـنِ الأوْثَـقَ عـهـداً   وكُـنِ الأَوْفَـى ذِمـارا

الذمار: الشرف

أو، فـلا لَـوْمٌ، ولا عُـذْ   رٌ ولا قَـوْلٌ يُـمـارَى

يمارى فيه: يجادَلُ بشأنه

٦٥ كردستان

ميونخ (١٩٦٣):

قـلـبِـي لِـكُـردِسـتـانَ يُـهـدَى والـفَـمُ   ولـقـد يَـجـودُ بِـأَصْـغَـرَيْـهِ الـمُـعْـدِمُ

المعدم، أي الفقير، ليس له ما يقدمه سوى أصغريه: قلبه ولسانه

شَعْبٌ دعائِمُهُ الجَماجِمُ والدَّمُ   تَتحطَّمُ الدنيا ولا يَتَحطَّمُ

٦٦ حلم النصر

قالها قبيل نكسة (١٩٦٧)، وكنا وقتها نحلم بنصر وشيك ومؤكد، براغ:

يا ناصِرَ الأُمَّةِ الكبرَى وحاضِنَها   لا العُجْبُ يَملأُ بُرْدَيْهِ ولا البَرَمُ..

يا عبد الناصر الذي نصر الأمة الكبرى، كل الأمة العربية وليس مصر فقط، ولا يملأ ثوبيك العُجب، التكبر، ولا البرم، الملل..

أَنقِذْ فِلَسطينَ مَردُوداً بِها حَرَمٌ   على ذَويهِ، ومَرْكُوزاً بِها عَلَمُ

التركيب للمتنبي: (مخلىً له المرجُ، منصوباً بصارخةٍ/له المنابرُ، مشهوداً بها الجمع). وكان المتنبي يسلي بقصيدته سيف الدولة عن هزيمة ألمت بجيشه، والجواهري هنا يحث عبد الناصر على حرب ستفضي إلى هزيمة نكراء

ولَبِّ في جَنَباتِ القُدسِ صَارِخَةً   مِن قَبلُ أَدرَكَها في الرومِ مُعْتَصِمُ

قم بتلبية امرأة تصرخ في نواحي القدس، وكان المعتصم قد أدرك وأنقذ مثل هذه المرأة عندما اعتدى عليها الروم

جَمَعْتَ تِسعينَ مِليوناً كما جَمَعَتْ   لُبْدَ اللُّيوثِ على أشبالِها أَجَمُ

جمعت التسعين مليون عربي مثلما جمعت الأجم، الغابات، الأسود اللبد، التي لها لبدة من شعر الرأس، ومعها أشبالها

وصُغْتَ مِن أَنهُرٍ شَتَّى وأَخْلِجَةٍ   بَحراً بِمُصْطَخِبِ الأَمواجِ يَلتَطِمُ

وصُنتَ بِالقُوَّةِ الحقَّ الذي دَلَفَتْ   تِسعونَ عاماً عليهِ وَهْوَ يُهْتَضَمُ

دلفت: مشت، يهتضم: يظلم

٦٧ اشتياق

براغ (١٩٦٧):

سَهِرْتُ وطالَ شوقيَ لِلعراقِ   وهل يَدنُو بَعيدٌ بِاشتِياقِ

٦٨ الصفو والكدر

من قصيدة في حفل تكريم أقامته له وزارة الإعلام العراقية، بعد انقلاب البعث، بغداد (١٩٦٩):

يا سامِرَ الحَيِّ إنَّ الدهرَ ذو عَجَبٍ   أَعْيَتْ مَذاهِبُهُ الجُلَّى على الفِكَرِ

مذاهبه الجلى: أفعاله العظيمة التي يَذهب بها كل مذهب

كأنَّ نعماءَهُ حُبْلى بِأَبْؤُسِهِ　　مِن ساعةِ الصَّفْوِ تَأتي ساعةُ الكَدَرِ

كأن النعمة حبلى وستلد قريباً البؤس والشقاء

يُنَغِّصُ العيشَ أنَّ الموتَ يُدرِكُهُ　　فنحن مِن ذَيْنِ بينَ النَّابِ والظُّفُرِ

ينغص علينا حياتنا أن الموت سيدرك هذه الحياة ويفنيها.. فنحن بين ذين، أي هذين، بين ناب السبع وظفره

٦٩ ضد الشعر الحديث

بغداد (١٩٦٩):

في الشعرِ مِن فَرْطِ ما احْتَكُّوا بِه دَبَرٌ　　كما تَأَكَّلَ عَظْمَ الناقَةِ القَتَدُ

في الشعر دبر، أي قروح وجروح كالتي في قفا البعير، أو مثلما يحفر خشب القتد، الرحل، عظم الناقة

تَشَكَّتِ الضَّادُ مِمَّا يُنزِلُونَ بِها　　كما اشتَكى الجسمُ مِمَّا تُفْرِزُ الغُدَدُ

نَجَوْا بِزَعْمِهِمُ مِن أَسْرِ قافيةٍ　　والشعرُ لولا إِسَارٌ نُثْرَةٌ قِدَدُ

يزعمون أنهم استراحوا من أسر القافية، ولولا هذا الأسر لصار الشعر منثوراً وصار قدداً، قطعاً

يا شاتِمِيَّ وفي كَفِّي غَلاصِمُهُمْ　　كمُوسِعِ اللَّيْثِ شَتْماً وَهْوَ يَزْدَرِدُ

يا من يشتمونني وفي يدي غلاصمهم، غضاريف حناجرهم، أنتم مثل من يشتم الليث وهو يفترسه ويزدرده، يبلعه

أَتَلْطِمُونَ جبينَ الشمسِ أنْ قَذِيَتْ　　عُيونُكُمْ فَبِها مِنْ ضَوئِها رَمَدُ

إذا أصبح في عيونكم قذى وأصابها الرمد لشدة ضوء الشمس فلا ينفعكم أن تلطموا الشمس

٧٠ النساء

بغداد (١٩٦٩):

إِنِّي ورَبٌّ صاغَهُنَّ　　كما اشْتَهى هِيفاً لِطَافا

يحلف بالله الذي صاغ وخلق الفتيات هِيفاً، هيفاوات ممشوقات، ولطيفات

لَأَرى الجِنانَ إذا خَلَتْ　　مِنْهُنَّ أَوْلَى أنْ تُعافا

تُعافُ الجنة بدونهن. لا يخشَ الجواهري شيئاً فالجنة طافحة بهن، فأما أنه سيدخل الجنة ففي الأمر نظر

٧١ النصف الأفضل

براغ (١٩٧٠):

لِجَاجُكَ في الحبِّ لا يَجْمُلُ وأنتَ ابْنُ سبعينَ لو تَعقِلُ

اللجاج: كثرة الأخذ والعطاء

تَقَضَّى الشبابُ وودَّعْتَهُ ورُحْتَ على إثْرِهِ تُرْقِلُ

انقضى وزال الشباب، وأنت الآن ترقل، تسرع، وراء الشباب الذاهب متجهاً صوب الموت

مَضى مِنكَ فيهِ رَبيعُ الحياةِ وماتَ بِهِ نِصفُكَ الأفضلُ

ما كان ضره لو قال: نصفك «الأسفل»

٧٢ هلُمِّي

براغ (١٩٧٠):

وقالَ محمدُ المِصباحُ يوماً لِفاتِنةٍ مِن الغِيدِ الحِسانِ

مِن الجِيكِ السَّواحِرِ لَسْتَ تَدري بِهِنَّ المُحْصَناتِ مِن الزَّواني:

الجيك: التشيك

هَلُمِّي أَرْسُمَنْكِ غَداً، فقالَتْ: غداةَ غَدٍ، وفي المَقْهى الفُلاني

فقالَ: بِمَرْسَمي حيثُ اسْتَتَمَّتْ مِنَ الرَّسْمِ المَعاني والمَباني

فقالتْ: لا، ومَن أعطاكَ ذِهْناً وعَلَّمَكَ التَّفَنُّنَ في البَيانِ!

قالت له: لا، وحقِّ من منحك المخ، وعلمك التفنن في الكلام مع النساء!

أداةُ الرَّسْمِ تَحمِلُها سِلاحاً على فَخِذَيْكَ مَشْحُوذَ السِّنانِ

ولكنْ، كلُّ ما تَبْغيهِ مِنِّي خُفُوتُ الضَّوْءِ في ضَنْكِ المكانِ

ضنك: ضيق

٧٣ رثاء عبد الناصر

براغ (١٩٧١):

أَكْبَرْتُ يومَكَ أن يكونَ رِثاءَ الخالِدونَ عَهِدْتُهُمْ أحياءَ

قد كنتَ شاخِصَ أُمَّةٍ، نَسَماتِها وهَجيرَها، والصُّبحَ والإمْساءَ

شاخص أمة: نصبها ورمزها، هجيرها: ظهيرتها

قد كانَ حَوْلَكَ أَلْفُ جارٍ يَبتَغي هَدْماً، وَوَحْدَكَ مَنْ يُريدُ بِناءَ
أُثني عليكَ، على الجُموعِ يَصوغُها الزُّعماءُ، إذْ هِيَ تَخْلُقُ الزُّعَماءَ

أمدح الجموع التي جمعتها أنت حولك فصارت جماهير موحدة، وغيرك من الزعماء تخلقه الجماهير لا يخلقها

ونُكِسْتَ، فانْتَكَسَتْ، وكنتَ لِواءَها يَهوي، فما رَضِيَتْ سِواكَ لِواءَ

الجموع انتكست بنكستك في عام ٦٧، وهوى لواؤها وهو أنت، ولكنها ظلت تريدك. فبعد هزيمة ٦٧ تنحى عبد الناصر، فخرجت الجماهير، في مصر وغير مصر، تطالبه بالبقاء رئيساً

٧٤ النفط

براغ (١٩٧٢):

خمسونَ عاماً والعراقُ على البلاءِ مُصَفَّدُ

مصفد: مقيد

ذهباً يسيلُ وفي مَصارِفِ لَندَنٍ يَتَجَمَّدُ

يسيل البترول ذهباً ويرسله مصاصو الدم إلى بنوك لندن ليتجمد هناك بأسمائهم

صُهْبُ السِّبالِ يَهُزُّها طِفلٌ جَميلٌ أَسْوَدُ

صهب السبال، شُقْر اللحى أي الإنجليز، يهز عواطفهم الطفل الجميل الأسود، يعني الذهب الأسود.. النفط

يَتَخَطَّفونَ نَظيرَهُ مِن أيِّ حِضْنٍ يُولَدُ

فهم يتخطفونه من أي بلد يكتشف فيه

٧٥ ثورة على الموت

فارنا، بلغاريا (١٩٧٣):

في دَمي ثورةٌ على الموتِ تَكفي أنْ تُعَفِّي عليه، لو كان يُكْفَى

في دمي عنفوان يكفي أن يعفي على الموت، يمحوه محواً.. هذا لو كان الموت يكفى، يُكفَى شرُّه

يَنفَدُ العمرُ شَدَّما كان حَوْجاً كَسِراجٍ في فَحْمَةِ الليلِ يُطْفَا

ينفد العمر وينتهي والمرء في أمس الحاجة إليه، كالسراج الذي ينطفئ والليل حالك السواد

ليتَ أنَّ الحِمامَ، إذْ لم يَكُنْ بُدٌّ ... مِنَ الموتِ، عِلَّةٌ ثم تُشْفَى

يَجِدُ المرءُ بعدَها العيشَ أَحْلَى ... وهِباتِ الدنيا أَلَذَّ وأَصْفَى

ليتَ شِعري والموتُ مِثلُ عُقَابِ الـ ... ـجَوِّ يُدْمي بِنا مَخالِبَ عُقفا..

الموت مثل العقاب، الطائر الكاسر، يدمي مخالبَه المعقوفة بقبضه علينا.. فليت شعري..

أَقَرابينُ نحن شَوْهاءُ تُزْجَى ... لِلْإِلَه الغضبانِ قُربى وزُلْفى؟

أنحن قرابين شوهاء، مشوهة لأننا نموت في سن الشيخوخة عادة، تقدم للإله زلفى، تقرباً منه؟

٧٦ المتصابي

براغ (١٩٧٣):

لا تَلُمْ أَمْسَكَ فيما صَنعا ... أمسِ قد فاتَ، ولن يُسْتَرْجَعا

أَمسِ قد ماتَ، ولن يَبْعَثَهُ ... حَملُكَ الهَمَّ لهُ، والهَلَعا

اِطَّرِحْهُ واسْتَرِحْ مِن ثِقْلِهِ ... لا تُضِعْ أَمْسَكَ واليومَ مَعا

ما أَخَسَّ المرءَ يَشكُو يومَهُ ... فإذا وَلَّى بَكاهُ جَزِعا

نظل نشكو في يومنا.. فإذا ذهب بكيناه

يا بَقايا ذِكرياتٍ كُلَّما ... جُسَّ عُودٌ مِن صَداها رَجَّعا

الذكرى مثل عود بأوتار كلما لمسناه رجَّع صداها، كررها وذكرنا بها

حَدِّثي ما شِئتِ عن أُبْدُوعَةٍ ... ولقد يَأتي الزَّمانُ البِدَعا

أيتها الذكريات قُصّي على الناس أبدوعة، عجيبة من العجائب

عن فتىً أَخْصَبَ في شَتْوَتِهِ ... لاعِناً فيها الربيعَ البَلْقَعا

قصي قصة فتى جاءه الخصب والإلهام الشعري في شتاء العمر، وهو عجوز.. والجواهري الآن قد تخطى السبعين، وراح يلعن الربيع الذي لا يكون فيه إلهام

عاشَ في العِشرينَ شيخاً، ورَعَى ... بعدَ سِتِّينَ شَباباً مُمْرِعا

عندما كان في العشرين كان وقوراً كشيخ مسن، وبعد الستين صار صاحب شباب ممرع، خصب

قِفْ على بْراهَا وجُبْ أَرْبَاضَها ... وسَلِ المُصْطافَ والمُرْتَبَعا

براها: الاسم التشيكي لبراغ. يريد أن يجوب أرباض براغ، هضباتها، وأن يسائل أماكن الاصطياف والارتباع، الأماكن التي ينزلها القوم صيفاً وربيعاً

وسَلِ الخَلَّاقَ هل في وُسْعِهِ   فوقَ ما أبْدَعَهُ أنْ يُبْدِعا

مَرَّتِ الأَسْرابُ تَتْرى.. مَقْطَعٌ   مِن نَشيدِ الصَّيفِ يَتْلُو مَقْطَعا

مرت أسراب الحسان تترى، متلاحقة متواترة، فكأنها مقطع من نشيد الصيف

وتَخَفَّفْنَ فما زِدْنَ على   ما ارتَدَتْ حَوَّاءُ إلَّا إصْبَعا

حواء ارتدت ورقة توت.. وهن ارتدين تنانير تزيد عن ورقة التوت بإصبع

رَحْمَتا لِابْنِ زُرَيْقٍ لو رَأى   فَلَكَ الأَزْرارِ ماذا أَطْلَعا

وكان ابن زريق البغدادي قال «أستودع الله في بغداد لي قمراً/ بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه» متخيلاً زوجته المحبوبة قمراً ولكن هذا القمر يطلع - ليس من فلك من أفلاك السماء، بل - من فلك أزرار قميصها

كُلَّ مَضْمُومٍ إلى صاحِبِهِ   مُشْرَئِبَّيْنِ إلى النُّورِ مَعا

ومن وراء أزرار قميص التشيكية الجميلة لمح الجواهري نهداً مضموماً إلى صاحبه وقد اشرأبّا معا، أي رفعا رأسيهما، نحو النور. سيأتي مظفر النواب ويشبه النهد برأس القط

٧٧ إلى أمونة

براغ (١٩٧٣):

ما لَذَّةُ الوَصلِ لم يَلْوِ الصُّدُودُ بِهِ   والحُبِّ لم يَخْتَلِسْ مِنْ أَمْنِهِ الفَرَقُ؟

ما لذة الوصل الذي لم يلو به، لم يذهب به، الصدود.. وما لذة الحب الذي لم يسرق منه الأمان الفرق، الخوف؟ يقول إن لذة وصل الحبيبة يكون في وجود احتمال صدودها، ولذة الحب في تلك المخاوف من الوشاة

تلكَ الثَّلاثُونَ والتِّسْعُ التي دَلَفَتْ   تَسْتاقُنا عَنَتاً طَوْراً وتَرْتَفِقُ

دلفت، أي مضت، على زواجنا ٣٩ سنة، وكانت تسوقنا أمامها سوقاً عنيفاً تارةً وترتفق، تتلطف بنا تارة أخرى

سِرْنا على الشَّوْكِ يُدمِينا ونَأْلَفُهُ   وفي مَفاوِزَ تَرمِينا ونَلْتَصِقُ

مفاوز: صحارى

كُنَّا نَرى الجَمْرَ مَشْبُوباً ونَحْتَرِقُ   ومَغْرِسَ الرِّجْلِ مَلْغُوماً ونَخْتَرِقُ

مغرس الرجل: موضع غرس القدم

إنِّي وعَيْنَيْكِ لا أُمْنَى بِداجِيَةٍ   إلَّا وأَنتِ لِيَ الإصباحُ والفَلَقُ

لا أمنى، أصابُ، بداجية، بمشكلة مظلِمة، إلا وأنت لي صبح وفلق، إشراق الشمس. وسيفقد الجواهري زوجته آمنة بعد عشر سنين وسيقول: (ها نحن أمونة نتأى ونفترق/ والليل يمكث والتسهيد والحرق)

٧٨ محكُّ الرجال

المغرب (١٩٧٤):

تَقَحَّمْتُ الوَغى وتَقَحَّمَتْني وخُضْتُ عَجاجَها حَرباً سِجالا

الوغى: الحرب، عجاجها: غبارها. وما عرف الجواهري حرباً ولا عرف ضرباً، إن كانت إلا مماحكات وخصومات

ولم أرَ كالخُصُومَةِ مِن مِحَكٍّ يُبينُ لَكَ الرُّجُولَةَ والرِّجالا

عندما تخاصم رجلاً تكتشف فيه الرجولة والشهامة، أو العكس

٧٩ فرح ومرح

طنجة (١٩٧٤):

لِلَّهِ دَرُّكِ طَنْجُ مِنْ وَطَنٍ وَقَفَ الدَّلالُ عليه والغَنَجُ

طنجة وقف عليها الدلال، صار وقفاً عليها ثابتاً صفة لها

صَفَتِ النُّفوسُ فَلَفَّها مَرَحٌ يَهفُو بِها، وتَلاقَتِ المُهَجُ

النفوس صافية ويهفو بها، يحركها المرح، والقلوب تتلاقى

فَيَدٌ على خَصْرٍ ولا رَصَدٌ وفَمٌ على ثَغْرٍ ولا حَرَجُ

يتراقصون ويده على خصرها ولا رصد، دون رقيب.. والبقية عندك

٨٠ ابتسام في الطرقات

براغ (١٩٨٠):

كَعَهْدِكَ ما تَزالُ بِراغُ تُزْهَى كأنَّ ثُلَيْجَ شَتْوَتِها اغْتِلامُ

ما زالت براغ كعهدك بها زاهية، والثلج الخفيف في شتوتها كأنه اغتلام، شبق..

أَعَنْها قلتُ أم عَنِّي؟ سواءٌ كِلانا عِندَهُ كَلَفٌ عُرَامُ

فهل تراني شبهت هذا التشبيه وفي ذهني براغ، أم في ذهني نفسي؟ كلا الأمرين سواء، فكلانا لديه كلف، أي رغبة، عارمة. نعم يا محمد مهدي.. تشبيه الثلج بالاغتلام يصرف الذهن إلى هذا الرجل الثمانيني وقد صحا من نومه وأحس بعارض أبيض يعرض له..

تَحَدَّبَتِ الثلوجُ على زُروعٍ تَغَشَّاها لِيُدْفِئَها رُكَامُ

أحاطت الثلوج بالزروع، وهذا الركام تغشاها، وضمها، ليدفئها

وبُيِّضَتِ الفِجاجُ فكُلُّ دَرْبٍ   على شَفَتَيْهِ يَضْطَرِبُ ابْتِسامُ

وساد البياض الفجاج، الطرق الضيقة، فكل طريق كأنه فم مفتوح تظهر فيه الأسنان.. كأنه فم يتبسم

٨١ الدخول في الثمانين

براغ (١٩٨٢):

حَسْبُ الثَّمانينَ مِن فَخْرٍ ومِن جَذَلِ   غِشيانُها بِجَنانٍ يافِعٍ خَضِلِ

يكفي الثمانين فخراً وفرحاً أنني أغشاها، آتيها، بقلب يافع، فتيّ، خضل، ريان مبتلّ بماء الشوق

كَمْ هَزَّ دَوْحَكَ مِنْ قِزْمٍ يُطاوِلُهُ   فلم يَنَلْهُ ولم تَقْصُرْ، ولم يَطُلِ

كثيراً ما هز دوحك، شجرتك الكبيرة، قزم يريد أن يطاول هذا الدوح.. فلا هو ناله ولا الدوح قصُر

وكم سَعَتْ إمَّعاتٌ أن يكونَ لها   ما ثارَ حَوْلَكَ مِن لَغْوٍ ومِن جَدَلِ

كثيرون من الإمعات، الناس الذين لا شخصية مستقلة لهم، سعوا أن يثور حولهم ما ثار حولك من جدل، ومن لغو، كلام فارغ أيضاً

ثَبِّتْ جَنانَكَ لِلبَلْوى فقد نُصِبَتْ   لَكَ الكمائِنُ مِن غَدْرٍ ومِن خَتَلِ

ثبت قلبك للمصيبة، فقد نصبت لك الكمائن من الغدر والختل، الخداع

لا تَنْسَ أَنَّكَ مِن أَشْلاءِ مُجتَمَعٍ   يَدينُ بالحِقدِ والثّاراتِ والدَّجَلِ
كنتَ الغريبَ بهِ: لا أنتَ تألَفُهُ   فتستَريحَ، ولا عنهُ بِمُنْعَزِلِ

أنت من مجتمع مريض بالحقد والثأر والدجل، وكنت غريباً فيه لكنك لم تكن عنه بمعزل

فكيفَ تَطْمَعُ أن تُعفيكَ ثاكِلَةٌ   أنتَ النَّذيرُ لها بالوَيلِ والثَّكَلِ؟

فكيف تطمع أن تتركك ثاكلة أنت الذي جئتها بالثكل وفقدان الولد. يعني كيف يعفيك المجتمع الفاسد وأنت الذي شننت عليه حرب الإصلاح لتقتل فساده؟

٨٢ إلى عدن

(١٩٨٢):

مِن مَوطِنِ الثلجِ زَحّافاً إلى عَدَنِ   خَبَّتْ بِيَ الريحُ في مُهْرٍ بِلا رَسَنِ

ذاهباً من براغ حيث الثلج إلى عدن.. خبت، أسرعت، بي الريح وأنا في مهر لكن ليس له رسن، أي مقود، وهذا المهر هو الطائرة

حَسِبْتُنِي، وعُقابُ الجَوِّ يَصْعَدُ بيِ   إلى السَّماواتِ، مَحمُولاً إلى وطني
وأنا راكب الطائرة ظننُتني ذاهباً إلى العراق

ما أقربَ الشَّمسَ مِنِّي، غيرَ أنَّ دَمي   ما إنْ يُصَلِّي لِغَيرِ الشعرِ مِن وَثَنِ
يرى نفسه في الطائرة قريباً من الشمس معبودة القدماء، لكنه لا يصلي إلا للشعر

٨٣ الانسلال

دمشق (١٩٩٣):

خَطَرٌ أن يُصْبِحَ المرءُ خَطيرا   يَملِكُ الدنيا، ويَنْسَلُّ حَسيرا
خطير: مهم. ما أصعب أن ينال المرء في دنياه كل المجد.. ثم ينسل منها حسيراً، متحسراً على فقدان كل شيء

واجِماً والرَّوْضُ مِن صَنْعَتِهِ   وظَمِيئاً وَهْوَ يَنسابُ غَديرا
صعب أن يقف المرء واجماً، ساكتاً حزيناً، بينما هو الذي زرع الروض. وصعب أن يكون عطشان وهو ينساب غديراً متدفقاً بالشعر العذب. الشاعر يخلق الجمال ولا يستمتع به

فهرس القوافي

(القافية فرقم القصيدة)

فهرس القوافي العام
(القافية، فرقم القطعة، فاسم الشاعر)

أبواب الكتاب

١ البارودي ٢ الزهاوي ٣ شوقي ٤ حافظ ٥ الرصافي ٦ الجواهري

ومَدِّ ١٩ الجواهري
يَصِدِ ٤٠ الجواهري
يُنادي ٢٢٠ شوقي
أرادْ ١١٩ شوقي
الأَسَدْ ٢٤٠ شوقي
العَميدْ ٧١ حافظ
المنفرِدْ ٤٧ شوقي
لُبَدْ ٢٦٣ شوقي
مخلَّدْ ١٠٥ شوقي
أشُدَّها ١٩٤ شوقي
تُجيدَهْ ٢ الزهاوي
رُقَادَهْ ٢ الزهاوي
بَرِيدُهُ ٢٥ البارودي
حُقُودُها ٢٣ الزهاوي
زَنْدُهُ ٢١ البارودي
عُوَّدُهُ ١٢٩ شوقي
هُجُودُها ٥٣ الرصافي
أثرا ١٥ حافظ
أَجْدَرا ٣١ الجواهري
الجوْهرا ٢١٦ شوقي
الدهرا ٢١ الرصافي
العِثارا ٨٢ شوقي

الكُبرى ١١ شوقي
الكَرى ١٣٧ شوقي
المجاهرا ٤٣ الجواهري
المَجْرَى ١٧ الجواهري
تُدارَى ٦٤ الجواهري
جَرى ٩٠ شوقي
حُرًّا ٨٨ الزهاوي
حَسيرا ٨٣ الجواهري
دُورا ٣٧ الرصافي
ساهرا ٣٠ الرصافي
عُذرا ٧١ الرصافي
مَرًّا ٥٥ الرصافي
ونارا ٣١ الزهاوي
يَتَغَوَّرا ٩٩ الرصافي
يَطيرا ٢ الزهاوي
أَثَرُ ٢ حافظ
أَشْعُرُ ٣٦ الزهاوي
الأكبرُ ٣٤ شوقي
الحُرُّ ٣٣ الزهاوي
الضَّميرُ ٢ الزهاوي
الكَوْثَرُ ٢٠ حافظ
تَبورُ ٢٣٣ شوقي

إحياء الشعر

البارودي والزهاوي وشوقي وحافظ والرصافي والجواهري

عندما بايعوا أحمد شوقي بإمارة الشعر، قال الزهاوي: «منكم أمير ومنا أمير»، فكأنه همس في أذن عقلي الباطن همسةً تجلت في هذا الكتاب، فما إن فرغتُ من وضع خطته حتى رأيتني قد أخذت ثلاثة شعراء من مصر، وثلاثة من العراق زاعماً أن هؤلاء قد أحيوا الشعر العربي بعد قرون من الموت السريري. في البدء كان البارودي، لا خلاف، قد لبث زمناً يحاول أن يلبس عباءة المتنبي، ويراها فضفاضةً عليه، حتى تقاذفته رياح السياسة فرفعته إلى رئاسة الوزراء، ثم رمته بعد أشهر في سيلان منفياً، فلبس عباءة نفسه، فكان بشيرَ عصر جديد في الشعر العربي. ثمّ مضيتُ أرتب الشعراء بحسب سنة الميلاد. أفهمنا الزهاوي أن الشعر يمكن أن يقال بلغة عصرية، وزاد فشحن شعره بالفكر والفلسفة. وفي مصر اعتلى شوقي كتفي البارودي، وظلّ مثله يقلد القدماء؛ ولكنه، بثقافته العريضة وبحياة مصر السياسية النشطة في زمنه حلّق فوق النسور. والقلب كان شاعريته. وواكب حافظ إبراهيم شوقي ونافسه في محافل التهاني والتأبين بشعر فيه رنين يصلح للمنابر، وعاش شعر حافظ بما فيه من سهولة وفصاحة ولقلة ما فيه من إيماءات تاريخية اكتظ بها شعر شوقي. وأسهل من شعر حافظ كان شعر الرصافي، فشاعر العراق، على فصاحة لسانه، كان يشبه حافظاً في بوهيميّته وفي قلة احتفاله بالإشارات التاريخية. وخاتمة شعراء هذا الكتاب الجواهري، هذا شاعر عاش القرن العشرين كله، تنقص سنتان من أوله وثلاث من آخره. كان منبريَّ الأسلوب كحافظ، وكانت حياته ترجمة شعرية لحياة العراق السياسية في القرن العشرين، قال الشعر في زمن بني عثمان، وزمن الإنجليز، وزمن فيصل، وكان مقرباً لعبد الكريم قاسم ثم هجره، وناوش العهد البعثي قرباً وبعداً. أصدق التاريخ ما تجده في قصائد الشعراء، فإنْ زعمَ زاعمٌ أن هذا الكتاب كتاب تاريخ فَليزعم.

مرفق مع الكتاب تسجيلات صوتية من قصائد «إحياء الشعر» بصوت المؤلف عارف حجاوي، وهي مرقمة بحسب ترقيمها في الكتاب.

تم التسجيل في استديوهات مركز الجزيرة للتدريب الإعلامي.



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com





إحياء الشعر

2020
8.1.2020

عارف حجاوي



آخر الشعر

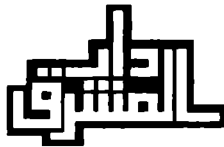
رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين

دار المشرق

آخِر الشعر

رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين

عارف حجاوي



آخِر الشعر

الـفـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر - إعـداد دار الـمـشـرق

حجاوي، عارف
آخِر الشعر: رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين/ عارف حجاوي.
٥٥٩ ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨

دار المشرق

القاهرة - المعادي - شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

أشعر بارتعاش وأنا أشرع للمرة العاشرة بتعريش هذا الكتاب بمقدمة، فلعلي في هذه المرة أفلح في المضي بها حتى نهايتها لتُظلِّل ثمانمئة (بالضبط ٨٠٠) قطعة وقصيدة تضمها صفحات هذا الكتاب. وهو خامس خمسة كتب عرضتُ فيها للشعر العربي العمودي.

أحس بالإحساس الذي أحست به سيارة لي عتيقة، كان يسقط منها الجناح بعد الجناح، والغماز بعد الغماز، والطاسة بعد الطاسة. حرنت بي مرة في طريق فجئت لها بمن أصلحها، وسارت قليلاً. ثم سقط منها عضو، فمشيت غير عابئ به. كل ما كنت أريده منها أن توصلني إلى مأمني، ولتذهب بعد ذلك إلى مدفن السيارات.

ووصلتُ، وذهبتْ.

وعاملت نفسي وأنا أكتب هذا الكتاب بالطريقة نفسها. كل ما كان يهمني أن أنتهي منه. وها قد أوشكت. كنت أفقد مع كل جزء من الأجزاء الخمسة ضرساً، و٢٣٠٩٧٨ شعرة؛ وكنت أكسب مع كل جزء خمسة كيلوغرامات، وخمس ملاعق من السكر في الدم.

قبل عامين قلت لسيدة مهذبة، وتلقائية، إنني أكتب كتاباً من ثلاثة آلاف صفحة، فسألتني: ألم تتأخر؟ قلت لها معابثاً: أنا بعدُ شاب. فقالت ما يجب أن يقوله كل عاقل، وكاذب: بل شيخ الشباب.

يصلح هذا الكتاب بأجزائه الخمسة أن يكون تاريخاً للنفس العربية مرويّاً بلسان الشعراء. وأكثر هذه الأجزاء التصاقاً بالأحداث هذا الجزء الذي بين يديك. أقبلت على «آخِر الشعر» متذمراً مما لحق اللغة من ارتباك. فالشعراء ما فتئوا يطمحون إلى أن تكون لهم فصاحة المتنبي، ولكن زمنهم يجبرهم على أن

يقولوا أشياء كثيرة لا تسعها لغة المتنبي، وأن يعبروا عن مشاعر لم يكن يشعر بها أحد في زمن المتنبي.

تعودت أن أكتب المقدمات الطوال لكل فصل، ولكل كتاب من كتب الشعر هذه. والسبب الخفي، ولا أظنني صرحت به في أي مقدمة سابقة، هو أن الكتاب يضم إبداعات ليس لي فيها من نصيب سوى الانتقاء والشرح، وإنني لأدقُّ كل شيء على الحاسوب ثم أضع علامات التشكيل، ثم أصنع الفهارس. فأين أنا من كل هذا؟ أين ذاتي؟ صحيح أنني موجود في الاختيارات نفسها، فأنا من يختار. لكن أنانيتي تأبى عليَّ إلا أن أطل برأسي في هذه المقدمات، كي أقول للناس: اسمعوا، هذا صوتي أنا. أنا الآن أحكي. هذا ما سماه الناس في زمننا «شهوة الحكي». هي شهوة موجودة عند كل من لم يضربهم الفصام وإخوته ضربات موجعة.

وبمناسبة الفصام، أي الشيزوفرينيا، فبين يدي الآن كتاب لرجل ضربتْ ألوان من الفصام ثلاثة أرباع أعمامه وأولاد أعمامه في مراحل مختلفة من أعمارهم، وهو ينتظر. الطبيب البرفسور سيدهارتا موخيرجي البنغالي الهندي بلغ السابعة والأربعين الآن. ونرجو له السلامة.

يعرف من يعرفني أنني مثل المراهقين لا أمضي في قراءة كتاب إلا وأزعج كل من حولي بالحديث عنه، وأبالغ في امتداحه كأنني لم أقرأ سواه. وهذا ما سأفعله الآن.

اسم الكتاب «الجين». وهو يتحدث عما تفعله جيناتنا، التي ورثناها عن آبائنا، في جسومنا وعقولنا. صدر الكتاب في العام الماضي، أي عام ٢٠١٦، عن دار سكرايبنر.

اهتمامي في الوقت الحاضر بالجينات ليس كاهتمامي بها وأنا في السادسة عشرة من عمري عندما كتبت للأستاذ محمد سليم اشتية، أبهج الله أيامه فقد كان أستاذاً وعالماً جليلاً، بحثاً في علم الوراثة. أيامئذ لم أكن سمعت بالجينات.

اختار صديقي نزار أن يكتب عن التطور، واخترت الوراثة. لا أدري إن كان أستاذنا الجليل، لم يكن جليلاً في السن أيامها بل شاباً حديث تخرج، أدرك القدر العظيم من الفائدة التي نلناها بسبب هذه البدعة التي ابتدعها. قد

أرادنا أن نكتب بحوثاً فكتبنا. لم أترك كتاباً في الموضوع أو فيما يقاربه في مكتبة نابلس العامة، العامرة بثلاثين ألف مجلد على أرففها، إلا نظرت فيه. ونالني ما ينال التلميذ من إطراء. وطويت الصفحة.

ستفتحُ لي الآن محضراً كي تحاكمني على قول كثيراً ما ردَّدتُه بأن المدارس لا تعلم المرء شيئاً. لكنني أدافع عن نفسي: المدرسة لم تعلمني شيئاً. الذي علمني هو فقط أن أستاذاً امتلك سعة العلم والقدرة على الخروج عن المنهاج، فطلب مني أن أذهب وأبحث بنفسي. هذا هو التعلُّم لا التعليم.

فهل أنا قلق لحال العرب؟

ولماذا هذا الاستطراد البعيد؟

هذا لأن الهند تسير، وأميركا تسير، والصين ونصف الدنيا تسير، ونحن أيضاً نسير.. لا ليس للخلف.. لكننا نسير ببطء شديد.

هل أنا قلق لحال العرب؟ ومن هم العرب؟ أيقض مضجعي أن أربعمئة مليون خامل يتعرضون للتجويع والتعطيش؟ وتسبق ذلك عملية تبدو عشوائية، وهي ككل عملية عشوائية تملك في أحشائها نظاماً خفياً، عملية عشوائية للتطهير.. يريد العالم قبل أن يأكلنا لقمة سائغة أن يسحب من عالمنا العربي النوابغ والعلماء، ثم لا بأس بتطهير ديني، فالكنائس العالمية تسحب، بطريقة غير مقصودة أبداً، ولكن لها نظامها الخفي، العرب المسيحيين لكي يلتحقوا بدول أخرى.

فلماذا لا نصنع شيئاً؟ الحكومة العربية في بلد من البلدان تمسك بزمامها عصابة من النهابين، الذين يرتعون في المال القادم عن طريق الاتجار بموجودات الوطن. إنهم مثل ذلك الشاب الذي تبدو عليه النعمة لأنه يبيع أساور أمه.

دول الغرب ليست شديدة التوق إلى نوابغنا فعندها من النوابغ ما يكفي، فقط هو شيء من الطمع. فإذا نبغ عندنا شاب بعد أن علمناه وكبرناه، وحرمنا إخوته من ثياب العيد لكي يدرس في الجامعة، فلا بأس من سرقته لكي يعمل في مختبرات لندن وباريس ونيويورك، وينتج علماً.

وبعد عقود من سرقة العقول دخل الغرب في مرحلة صناعة النبوغ. والوسيلة «الجينوم». ذلك المخطط العجيب للتركيبة الجينية للإنسان.

ما زال هذا العلم جنيناً، يرقد عليه العلماء في مختبراتهم، وهم أعلم الناس بأنهم يرقدون على بيضة سيخرج منها فرخ تمساح. لكن العلم شبِق.

بدأ العلماء يعبثون بالجينات. والنتائج تظهر بالتدريج. في كل يوم هناك أخبار عن فتوح جديدة. والهندسة الوراثية لا سقف لها. سيكون في مقدورهم أن يجهزوا على عديد من الأمراض الوراثية في مهدها، مثلما أجهزوا على كثير من الأمراض الجرثومية بالمضادات الحيوية، وشتى الأدوية. هذه ليست خرافات.. قبل مئة سنة كان متوسط عمر الفرد خمسين سنة، وهو الآن ثمانون. وبعد مئة سنة سيكون في البلدان المتقدمة أفراد كثْرٌ في عمر يقرب من مئة وخمسين سنة. وسيكون لديهم، بسبب الهندسة الجينية، ذاكرة جيدة وجسم صحيح. فتخيل ما سيكون عليه هؤلاء من الخبرة وسعة العلم. مثل هؤلاء الأفراد سيحكمون العالم. وبهم ستحكم دولهم العالم وتستعبده. هذه المرة الاستعباد سيكون بيولوجياً علمياً.

هذا الفرع من فروع العلم خطر بحق. ألم يكن علم الذرَّة في بداياته بريئاً؟

الويل للشعوب المتخلفة من الغد المظلم. ولا نركننَّ على الأخلاق. فبلدان أوروبا حرَّمت الرقيق قبل مئتي سنة، وبدا للناظر السطحي أنها تندفع في هذا الاتجاه بقوة أخلاقية عظيمة. ثم في أواخر القرن العشرين رأينا الشركات الأوروبية تؤجج نار الفتن في الكونغو لكي تحصل على المعادن النادرة بثمن بخس. والنتيجة.. مقتل خمسة ملايين إنسان. فاين أخلاق الأسلاف الذين «حرروا» العبيد؟

وانظر إلى أبراهام لنكولن «محرر العبيد»، واعلم أن مطلبه كان تحرير الأفراد ليشتغلوا عبيداً في مصانع الشمال، بدل أن يكونوا عبيداً في مزارع الجنوب. هذا تحليل قرأته، وليس عندي اقتباس. ولكنني أقتبس لك من كتاب بين يدي عن الحرب الأهلية الأميركية: «دخل لنكولن الحرب بادئاً للحفاظ على تماسك الاتحاد، وليس لتحرير العبيد، ولكن معارضي العبودية في الشمال، وانخراط العبيد الهاربين في جيش (الاتحاد) جعلاه يغير رأيه».

لا اختيار لنا في مسقط الرأس، ولو اخترنا لوُلدنا كلنا في سويسرا وكفي الله المؤمنين القتال. على أننا نحاول الفرار، ونرضى أن نعيش في البلدان المتقدمة ونظرات الكراهية تسلق وجوهنا السمراء. هذا لو لم يغرق المركب.

في الزمن القديم كان يأتي على الإمبراطورية وقت تشعر فيه أنها خالدة، ثم إذا هي تنهار وتسلم الراية إلى إمبراطورية أخرى. واليوم ثمة تغيير أساسي يطرأ على قواعد اللعبة. فالإمبراطوريات الغلابة ستؤسس قاعدة قوتها على نوعية الفرد. هذا المستوى البيولوجي من الهيمنة غير مسبوق في التاريخ. ههنا لا تصْدق مقولة «التاريخ يعيد نفسه».

العالم العربي يتلقى المياه النهرية من تركيا، وقليلاً من إيران، ومن إثيوبيا. وقد بدأ يعاني النقص. وهو يتلقى المياه السماوية من الغيوم. والذي حبس مياه الأنهار عنا قادر بعد حين أن يسوق الغيوم بعيداً عنا. وإذا كانوا يرسلون إلينا شحنات القمح اليوم فهذا لأنهم يأخذون مقابلها ولاء ومكاسب سياسية بعضها ظاهر وبعضها سيظهر. ولا قمح لمن لا يعود يملك ما يقايض به.

سأعود إلى مقولة كتاب «لماذا تفشل الدول»، وأظن أنني تطرقت إليه سابقاً، وكنت هجوته لما فيه من تكرار وتطويل بغير داع. لكن نظريته الأساسية مفيدة، وفيها قدر كبير من الصحة. يقول المؤلفان إن هناك طرازين من الحكومات: طراز تشاركي وطراز امتصاصي.

في الطراز التشاركي يشترك عدد كبير من الناس في تسيير البلد. ويتاح لمجموع الناس أن يختاروا مجموعة تدير البلد مدة من الزمن. فإذا لم تعجبهم طريقة إدارتها للبلد اختاروا غيرها. وتحدث أخطاء وربما كوارث، ويكون هناك مجال لتجاوزها.

في الطراز الامتصاصي تتولى أمر البلد عصابة يهمها امتصاص المال، والاحتفاظ بالسلطة. ومن مصلحة هذه العصابة ألا يحدث تطور كبير بعيداً عنها. هي تشجع فتح المصانع وتشجع التجارة والزراعة، لكن في حدود ضيقة. فلو أنها شجعت جموع الشعب على المشاركة فهذا سيجعل الشعب يملك القوة وسيجعله يغير الحكام. قد تكون العصابة مجموعة جنرالات، تقوم برشوة الجيش ببعض الامتيازات، فيكون الجيش قاعدة قوتها. وقد تكون العصابة زعماء العشائر، وقد تكون طائفة مذهبية. ولكنها في جميع أشكالها محتاجة إلى قوة قمع مسلحة، تكون في الغالب جيش البلاد الذي تقول العصابة إنه لحماية الوطن من أعداء الخارج، ويكون المطلوب منه في الغالب أن يحمي العصابة من الشعب.

في النمط الامتصاصي لا يسهل امتصاص الثروات من البلد مع وجود قوى روحية وأدبية وعلمية كثيرة. تفضل العصابة أن يتلهى الناس بتسلية رخيصة وتهريج إعلامي لا يرقِّي العقل. وتحرص على أن يكون العلم محصوراً في العصابة نفسها، وهو خطر أيضاً، إذ يمكن أن يتسرب إلى الجموع، الأفضل قليل جداً من العلم. يكفي أن يكون في البلد بضعة أطباء حقيقيين ماهرين لاستئصال الزائدة، وإجراء العمليات السريعة الضرورية، فأما إذا احتاج أحد أفراد العصابة إلى علاج معقد فهو يحمل علته إلى مستشفى كرومويل في لندن، أو مايو كلينيك في أميركا. العلم الواسع المنتشر بين أفراد الشعب ستنتج عنه بقع مضيئة لا يمكن للعصابة أن تتحكم بها.

ويمكن للنمط التشاركي أن يكون رأسمالياً منفلتاً كأميركا، أو رأسمالياً تكافلياً كألمانيا، أو قريباً من الاشتراكية كالسويد. وهذا النمط لا يحل، ولا يسعى لحل، التفاوت في الدخل بين الناس.

سهل على المرء أن يحدد بناء على هذه النظرية الهلامية طبيعة الحكم في بلده. وبلدان العرب متفاوتة، ولكنها في العموم لم تسر سيرة تشاركية بما يؤهلها لبدء إنتاج المعرفة.

ليس للشعر في هذا المقام الدور الريادي. لكنه يصرخ ـ وأحياناً يهمس ـ بالشكوى. ولأن الشاعر الجيد صادق وحر فهو يحفز. انظر إلى التونسيين: كم شتم الشابي الشعب، وكم عبر عن فكرة عميقة هي أن المهم ليس فقط التخلص من الاستعمار الفرنسي بل أن ننال الجدارة بهذا الاستقلال، وأن نكف عن العيش في الماضي. صرخة عزيزة وبديعة من شاب تخرج من الزيتونة، وكان مؤهلاً لمنصب القضاء الشرعي. (انظر باب الشابي في هذا الكتاب).

ومن الشعراء من يرقص ويغني، ويتغنى بالعروبة، وبجمال المرأة. لم لا. ومنهم من يمدح المناضلين، ومنهم من يمدح الوزير مدحاً جميلاً (إبراهيم ناجي). ومنهم من يرى زهرة في البستان فينظم لها قصيدة، فإذا القصيدة تتغلغل في عمق مشكلة المرأة في بلادنا، ذاك إلياس فرحات (القصيدة رقم ٢٢). وهذا شاعر يقول للعساكر إن ما قمتم بها ليس ثورات بل انقلابات تافهة (أبو سلمى ٢٧). وهذا شاعر يتغنى بالخمر، ويسأل نفسه عن علة الوجود (فهد العسكر، وعرار في كثير من قصائدهما). وهذا شاعر يحب المرأة حباً جماً، ويتألم للجدران التي أقامها في وجهه فقد البصر (البردُّوني)، وآخر يصب لعناته على

رجال الدين الأثرياء الذين لم يتصدقوا في زمن المجاعة (إلياس فرحات مرة أخرى).

لا يجتمع الشعراء الثلاثة عشر في هذا الكتاب على موضوع بعينه، ولا على أسلوب. لكن في مقدوري أن أقول لك: الـ ٨٠٠ قصيدة في هذا الكتاب تؤرخ أجمل تأريخ لمشاعر العرب في القرن العشرين. لكنها اختيرت لسبب آخر كل الآخَريَّة؛ اختيرت لأنها من أجمل الشعر. لم أختر بيتاً واحداً كي يؤرخ لحقبة أو يفسر حالة نفسية، لم أرد من هذه المختارات أن تكون تأريخاً لشيء، لكنها كانت رغم أنفي. واختياراتي هذه واقعة تحت شرط قاسٍ هو أنها من الشعر العمودي فحسب. فأما الشعر التفعيلي فنتركه حتى يحكم عليه الزمن. وفيه من الروائع ما فيه.

لو كنت أختار الشعر كي يروي قصة البلدان العربية لجعلت لكل بلد نصيباً. ولست أنكر أن في كل بلد عربي شعراً جميلاً. لكن الكتاب كتاب شعراء. فإذا كان لشاعر وسط قصيدة بديعة فهي لا ترد لأن صاحبها لم يرد. والشعراء الوسط بضعة آلاف، وما كان يمكنني أن أتعقبهم جميعاً. فاخترت كبارهم، ثم اخترت من شعر كبارهم. ولو كنت أنتمي إلى بلد غير بلدي لاختلف عملي. فأنا أسير بيئتي، أسير متحرراً من قيودي حيناً، وأرسف أحياناً. لماذا لم أختر شاعراً أندلسياً؟ لم أر أحداً من شعراء الأندلس تخلص من تقليد المشارقة.

جعلنا سلسلة «الزبدة» هذه أنطولوجيا للشعر العربي من بداياته إلى أن غيَّر طريقه وفكك البيت الخالد ذا الشطرين. وقد قرأت لإسماعيل أدهم، وللمستشرق الروسي كراتشكوفسكي كلاماً طيباً في عشرينيات القرن العشرين فحواه أنه آن لبيت الشعر العربي أن ينصرف عن هذا القالب الجامد.

وقد تفتح وعيي على رنة شعر التفعيلة، فقرأت نزاراً وفدوى طوقان وسميح القاسم ومحمود درويش ونازك الملائكة والسياب يافعاً. وأنا متحمس لشعر التفعيلة. لكن قلبي لا يطاوعني على الجزم بأن الشعر العمودي مات. أرجح، ترجيحاً فقط، أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. لقد ماتت بعض أوزانه كمخلع البسيط والمنسرح والمديد (هذا الأخير كان ميتاً منذ ألف سنة)، وخرج الوزن من الأذن العربية.

عموماً، هل للشعر مستقبل؟ لا أدري. الرواية هي الأدب الآن. حتى

الأغاني بدأت تتخلص من الشعر وصارت عبارة عن خواطر ملحنة.

فهل تشغلني «قضية الشعر»؟ لا، ولا أحب تسمية هذا الشيء «قضية». إذا غرد البلبل فهذا شأنه، وإذا سكت فلن آتي له ببلبلة تثير أشجانه لكي يغرد. صحيح أنني لن أخرجه من قفصه لكي أطبخه وأتعشى به. لكنني لست منشغلاً بتغريده. فإذا سكت فعندي اليوتيوب وعليه من الأغاني والموسيقى ما يمتعني.

ألا تشغلني «قضية اللغة» إذن؟ بلى، تشغلني جداً. ولكن ليس على طريقة من يشغلهم الشعر ويترنمون بجمال اللغة وأصالتها. تشغلني اللغة لأنه يشغلني العلم الذي أسلفت كلاماً كثيراً عنه. واللغة هي الحنفية التي سنشرب منها العلم.

ولو كنت رأيت أمة كبيرة تنهض علمياً بتبديل جلدها اللغوي، لرأيت في دعوات التخلي عن اللغة العربية في الجامعة وفي المدرسة ما يمكن أن يكون موضع نظر.

وضعت كتب هذه السلسلة منجمة على بضع سنين، فإن رأيتني أكرر بعض الآراء والمواقف فها قد بسطت عذري، ثم إن الذاكرة تتراجع، وكل شيء يتراجع.

عرفان

رافقني في نشر هذا الكتاب، وفي الكتب الأربعة التي سبقته من سلسلة «الزبدة» الصديق الأديب محمد عبد العزيز الهجين، تبرع أن يكون الوسيط بيني وبين الناشر. كأنه أدرك بحدس صائب، عندما قابلني أول مرة، أنني من أولئك القوم الذين يفرشون ملاءة الحديث في المجالس عن أمور يصنعونها، ثم لا يكونون «قادرين على التَّمام». كأنه عرف أنني أكتب الكتب لفقط أتحدث عنها أمام أصحابي، فإذا ما تمت تأليفاً فمكانها ملف أصفر في دهليز من دهاليز الحاسوب. فمد محمد يداً قوية وانتشل الكتاب من بين يدي جزءاً فجزءاً، ودفع به إلى الناشر. فله الشكر.

ورافقني في هذا الكتاب، وفي معظم ما سبقه من السلسلة، الصديق الشاعر عمران القفيني مصححاً أخطائي في الإملاء والنحو، ومعلقاً على اختياراتي، ومناقشاً شرحي. ولعله تنبه إلى أن أخطائي كانت تقل في الباب بعد الباب من أبواب هذا الجزء! هذا بسبب موالاته التدقيق والتقريع، وكثيراً

أيضاً.. التشجيع. على أنه لم يفلت باب من الأبواب من جريدة تصحيحات تأتيني من عمران على جناح الإيميل فأفزع إلى نسختي أنزهها عن الخطأ. فما بقي من أخطاء فهو رائحة الطين البشري التي ليس منها بد. قالوا: قد شاء ربك ألا يكون كاملاً إلا كتابه العزيز. وقالوا: من ألَّف فقد استَهدف، أي نصب نفسه هدفاً. وكنت أرضى أن أنصب نفسي هدفاً للنقد وللقدح، لو وجدت القارئ، لكنني أتيت في ذيل الزمن.

كل الذي يمكن أن آخذه أخذته، وكل ما يمكن أن أُعطيَه أعطيته، لقد وصلت قمة العمر وما كرهته، ولست خلفي ناظراً أرى الذي خلَّفته، من صاد ظبيةً كفته غيرَها ظبيته، غرست رمحي فوق قمتي وما تركته، لا ريح لا شمس بل البرد المخيفَ صمتُه، نزعت رمحي ثم إني كالعصا اتخذته، أريده يندقُّ في صدري لو استطعته، ما يصنع الشيخ إذا الهبوط حان وقته؟ عمَّا قليل سوف يخذل السراجَ زيته، وحينها يستبطئ الشيخَ ابنُه وبنتُه، يضيق ثوبه به يمل منه بيته، لم أر ذاك إنما كأنني رأيته، دعاؤهم «حسن الختام» لي وقد سمعته، يا سعدَ من في قمة العمر أتاه موته.

الدوحة ٢٨ نيسان/ أبريل ٢٠١٧
غرة شعبان ١٤٣٨

بشارة الخوري
(الأخطل الصغير)
(١٨٨٥ ـ ١٩٦٨)

كدت أفتح النار على أديب ميت. كنت مشحوناً عليه، غاضباً، وفتحت صفحة جديدة على الحاسوب، ولم أنقر حرفاً. تيبست أصابعي.

ما أشد فرحي أنني ارعويت.

ذهبت إلى كتاب من كتب ذلك الأديب. فتحته وقرأت فيه قليلاً، وقلت لنفسي جملة ظلت تتردد بين حيطان كتبي هذه التي أسميها «الزبدة»، والتي يختمها الكتاب الذي بين يديك، وهذه الجملة هي: الشاعر بجيده لا برديئه.

لعلك تظن أنني بدأت أفكر في الاعتذار عما سلف مني في حق الأكاديميين؟ لا، وما، وليس، وكلّا. وقد ينالهم مني بعد حين ما كان نالهم في مقدمات سابقة. على أنني أخبئ مديحاً لسيدة أكاديمية في ذيل هذه المقدمة.

تذكرت أنني قرأت لسعيد عقل نثراً حلواً، وشعراً حلواً. تذكرت قصائده العامية اللطيفة، وبعض شعره الفصيح، وكثيراً من نثره الرائق، ورجعت إلى بعض ذلك متصفحاً، فأمسكت عن الوقوع فيه. أمسكت وفي نفسي بعض من ذلك الغضب الأول.

لقد كتب سعيد عقل مقدمة لديوان الأخطل الصغير تصلح أن تُفرض فرضاً على كل متأدب وصحفي وبذيلها عبارة (لا تكتب هكذا). كان يجامل، ويتلوى في عباراته تلوياً تأباه كل لغة، ويأباه كل منطق. ولا نبخس الناس أشياءهم، فللرجل كتابة جميلة، بعضها يحلق عالياً في سماء الفن. ولا نؤاخذه في مواقفه

السياسية ولا في حملاته الساذجة، كحملته على الحرف العربي، فقد أخذنا أنفسنا بألا نقرع الحجة إلا بالحجة. فأما الشتم المحض فنقدمه إلى الدجالين.

في مكتبتي بضعة كتب تتناول الأدب الحديث، فهل هي المصادفة وحدها التي جعلت هذه الكتب جميعاً تتفق على أن تكون فارغة؟ كنت أريد أن أشبهها بأرانب الشوكولاطة التي يشترونها للأطفال في عيد الميلاد، يفرح بها الطفل، ويزيل عنها ورقة السلوفان ويحطمها، فإذا هي فارغة من الداخل، وليس بها من الشوكولاطة إلا هيكلها الخارجي الرقيق. ثم قلت في نفسي: لا والله، تلك الكتب ليس فيها أي نفع لا رقيق ولا سميك.

قدم الخوري ميخائيل إلى بيروت وسكن في ضاحية من ضواحيها، كان طبيباً عربياً. وعلم ابنه عبد الله الطب العربي، ففاق الابن أباه، وأخذ يجتهد ويطالع الكتب العربية والسريانية، وأخذ يطبب الناس، وأخذ الله يشفيهم. فكان الناس يحمدون الله ويشكرون الطبيب. وتملك عبد الله أملاكاً، وصار له من عقبة ستة: ثلاث بنات وثلاثة صبيان. وجاء السابع عام ١٨٨٥ فكان شاعرنا: بشارة ابن الطبيب عبد الله ابن الخوري ميخائيل. وعاش الطبيب العربي حتى الخامسة والتسعين، وتوفي قبل الحرب العالمية الأولى ببضع سنين، فلم يشهد ويلات المجاعة. بل ترك أولاده في حال حسنة في ظل الدولة العثمانية التي كانت لها في بيروت الكلمة العليا، بخلاف جبل لبنان الذي نال بعض استقلال تحت حماية الدول الأوروبية.

دخل بشارة الخوري الكتاب عند المعلم ضومط، وما كان هذا الكتاب سوى دكان على قارعة الطريق. لكنه كان يعلم الصبية العربية، ويحببهم في هذه اللغة العنيدة التي لم ينفع فيها تتريك ولا فرنسة في العهد العثماني ثم الانتدابي، فلما جاء الاستقلال الناجز نفع فيها كل شيء.

تربى بشارة على العربية. أصيب بفيروسها في سن طرية. ثم دخل المدرسة الأرثوذكسية الإكليركية، ثم مدرسة الحكمة، وفيهما درس العربية من كتب قادة النهضة اللغوية العربية في لبنان: ناصيف اليازجي وعبد الله البستاني، وغيرهما. قال إنه التقى في مدرسة الحكمة جبران خليل جبران «بشعره الخنفسي وقمبازه البلدي». ولك أن تتخيل جبران باللباس العربي.. ليس أمراً سهلاً. ودرس بشارة الخوري في مدرسة المزار في غزير، وكان ينال الجوائز في موضوعات اللغة العربية ولم ينل جوائز في موضوعات اللغة الفرنسية.

ثم درس في الفرير، فتعلم الفرنسية وبلغ بها مبلغ من يقرأ ويفهم. وغادر المدارس وهو في سن العشرين، فيمكننا القول إن بشارة الخوري، من بين الشعراء، نال دراسة شبه جامعية.

بعد المدارس بثلاث سنوات فتح جريدة «البرق». كان الدستور العثماني قد أُقِرَّ وتحررت الصحف وزال العهد الحميدي. لكن بيروت ابتليت بوالٍ عثماني صعب، قارعه بشارة فضيق الوالي عليه بعض التضييق ومنع جريدته من دخول المتصرفية. وعزل الوالي، وتنفس بشارة الصعداء. وكان يكتب الافتتاحية لكل عدد، وكان ينشر أشعاره في جريدته. أدخله أخوه الأكبر يوسف في الماسونية، ثم خرج منها سريعاً. ومع بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ حل بلبنان زمن الجوع والخوف. الجوع لأن الدولة العثمانية أخذت المحاصيل لإطعام جيوشها، والخوف لأن السلطات التركية صبت على كثيرين في بلاد العرب سوط عذاب لأنهم تعاطفوا مع حركة التمرد على الدولة العثمانية بقيادة شريف مكة. وفي لبنان كان شنْق أحرار العرب على يد جمال باشا السفاح.

أغلق بشارة «البرق» مع بدايات الحرب، وتوارى في قرية بعيدة خوف الاعتقال، وما قد يكون أسوأ من الاعتقال، وغير اسمه وسمته. ولم يعد إلى بيته إلَّا بعد عامين. وباع في سني الحرب أملاكاً كي يعيل أهله. في هذه الفترة لقب نفسه الأخطل الصغير، وظل يكتب الشعر، بل كتب شعراً كثيراً. وعمل سنة موظفاً في شركة قمح.

وما انتهت الحرب عام ١٩١٨ حتى أعاد إصدار «البرق»، وراح ينشر فيها ما تجمع لديه من شعر. رحب بشارة بالانتداب الفرنسي، ١٩٢٠، وبلبنان الكبير الذي ضم إليه الفرنسيون البقاع. وتزوج في هذه السنة. ونال في السنة التي تلتها وسام المعارف من الفرنسيين. وكتب في السياسة وفي الاجتماع، وترشح للنيابة عام ١٩٢٥ مفرداً فسقط سقوطاً مدوياً لم يمنعه بعد بضع سنين من أن يصبح رئيس بلدية في برج حمود ببيروت. وتصاعدت انتقاداته للانتداب الفرنسي فأُغلقت البرق سنة ١٩٣٢. وجاء الاستقلال عام ١٩٤٣، ولم تساعده الحكومة حتى يعيد فتح جريدته. فاعتزل السياسة واكتفى بتلبية الدعوات لتكريم الأحياء وتأبين الأموات والمشاركة في المهرجانات الألفية. زار سوريا ومصر وفلسطين والعراق والسعودية. وفي عام ١٩٥٤ كرموه مرة في بيروت وأخرى في مصر، ثم كرموه تكريماً أكبر في بيروت عام ١٩٦١، وفي العام نفسه اشترك ابنه

عبد الله مع الشاعر سعيد عقل في تشذيب أشعاره ونشرها في ديوان لقبوه على غلافه أمير الشعراء. لكن اللقب لم يقنع أحداً، فبشارة الخوري لم يقل شعراً مهماً منذ أكثر من ثلاثين سنة. وفي هذه السنين العجاف واجه بشارة الخوري حملة نقدية من مارون عبود وأمين الريحاني وشبلي الملاط وإلياس أبو شبكة وحتى من سعيد عقل الذي عاد وصالحه.

كان من سوء حظه أنه عاش طويلاً بعد أن خمدت جذوة الشعر في قلبه. وكان من حسن حظه أن فيروز ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش غنوا عدة قصائد له. فظل في البال، مشهوراً يعيش على قديمه، ولعل هذا بعض ما أثار حسد من لم ينالوا مثل شهرته.

عاش سنيه الأخيرة معتزلاً في بيته مع أولاده وأحفاده، فإن خرج فإلى مقهى بساحة الشهداء يجالس فيه المتأدبين والكأس. ومات عن ثلاث وثمانين سنة في عام ١٩٦٨.

كثير من هذه المعلومات أخذتُها عن رسالة ماجستير جامعية للسيدة سهام أبو جودة قدمتها للجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٧٠ بعد وفاة الشاعر بسنتين. وقد استندت الباحثة إلى أسرته ومعارفه وأوراقه. وكانت قد زارته مراراً، منذ ما قبل وفاته بثلاث سنين، زيارات تضمنت البحث في سيرته. ومما تذكره أنه قال لها، عندما سألته عن الطبعة الأخيرة «المعتمدة» لديوانه التي نسقها ابنه عبد الله وسعيد عقل: الله يسامحك يا عبد الله، الله يسامحك يا سعيد. غير أن الباحثة أشارت في موضع آخر من رسالتها، التي بلغت أربعمئة صفحة، إلى أن الشاعر لم يكن غيرَ راضٍ عن هذه الطبعة.

وهذه الطبعة هي التي اعتمدناها.

لباحث يريد أن «يصنع» ديوان بشارة الخوري صنعة علمية دون تشذيب فإن رسالة سهام أبو جودة تتضمن رصداً للقصائد ومظانها، هذا إن لم تكن قد صنعت مثل هذا الديوان ولم ندر به.

لا عذر لي في محافل العلم والنشر الأكاديمي الرصين في أنني اقتصرت على طبعة «مشذبة» في اختياراتي من شعر بشارة الخوري. لكنني لا أجد القاعدة البحثية المتينة التي تعينني، ولم أطالب نفسي بأن أرتحل في طلب العلم. وكان من حسن حظي أن وجدت رسالة جامعية محترمة توفر لي معلومات طيبة ومدققة عن حياة الشاعر.

بشارة الخوري شاعر حقيقي، توهج سنوات قلائل، ثم خبا.. وظل عائشاً. فإن قرأت مقالات مارون عبود الكثيرة، الموزعة في أكثر من كتاب من كتبه، التي ينقد فيها بلسانه الساخر المعروف شاعرنا المجبِل فاعلم أنها نقد لشعر شاعر أَجبَل أي أَنزَف أي انقطع ماؤه. ولكننا اليوم نسمع «جفنه علم الغزل» وننتظر الشطر الثاني «ومن العلم ما قتل» ونقول الله!

١ سنو وايت

نَمْ إنَّ قلبيِ فوقَ مَهْدِكَ، كلَّما ذَكَرَ الهوى صَلَّى عليكَ وسَلَّما
لو أنَّ بعضَ هَواكَ كان تَعَبُّداً وحياةِ عينِكَ ما دخلْتُ جَهَنَّما

٢ الموت الشهي

شَعرُها قِطعةٌ مِنَ الليلِ؛ والخَدّ قَبَّلَتْهُ شَمسُ الضُّحَى فَتَوَرَّدْ
وعلى صَدرِها، متى تَتَنَهَّدْ موجَةٌ هَزَّتِ الصَّغيرَيْنِ في المَهْدْ
فاشْرَأَبَّا كَمَنْ تَخَوَّفَ شَيَّا
إنْ مَشَتْ، فالقلوبُ تحتَ خُطاها لا تُبالي نَعيمَها مِنْ شَقاها
إنَّ قلباً تَدوسُهُ قَدمَاها ودِماهُ تَبُلُّ ذيلَ رِداها
ذلكَ القلبُ ماتَ مَوتاً شَهِيَّا

٣ التلعثُم

ورشَفنا كأسَ الحُمَيَّا فباحَتْ بِالذي في الصدورِ مِنَّا الوُجوهُ
رشفنا كأس الحميا، الخمر، فبدا على وجوهنا ما نكتمه في صدورنا من عشق
قلتُ: أَهواكَ يا مَلاكي فَرَدَّتْ مُقلَتاهُ، لكنْ تَلَعْثَمَ فُوهُ

٤ بعض القلوب

إنَّ بعضَ القُلوبِ لا يُنْبِتُ الشُّكْـ ـرانَ، مَهما زَرَعْتَهُ إِحْسانا

٥ المسلول

عيناهُ عالقتانِ في نفقٍ كسِراجِ كوخٍ نصفِ متَّقِدِ

وَيَمُجُّ أحياناً دماً، فَعَلى مِنديلِهِ قِطَعٌ مِنَ الكَبِدِ

٦ اسأل فمك

أَنْحَلْتَني بِالهَجْرِ ما أَظْلَمَكْ! فارحَمْ عسى الرحمنُ أنْ يَرحَمَكْ
ما كان أَحلَى قُبُلاتِ الهوى إنْ كنتَ لا تذكُرُ فاسْأَلْ فَمَكْ
مَولايَ إنْ واصَلْتَني بِالجَفا فمُتُّ في شَرْخِ الصِّبا مُغْرَمَكْ
قلْ لِلدُّجَى مَاتَ شَهيدَ الهوى فانْثُرْ على أكفانِهِ أنْجُمَكْ

يريدها الديوان المطبوع، وفريد الأطرش «شهيدُ» بالضم، لكن الشاعر قالها شهيدَ فيما نحسب

٧ الفقير

وَيْحَ الفقيرِ فما تَراهُ يُلاقي سُدَّتْ عليهِ مَنافِذُ الأَرْزاقِ
عَلَقُ المَجاعَةِ مَصَّ بَعضَ دِمائِهِ وتَعَسُّفُ الحكَّامِ مَصَّ الباقي

العلق: دود يمص الدم

٨ الغواصة

ليتَنا في الكهفِ، حتى يَنْقَضي، لا شفاهُ اللَّهُ، جَهْلُ الدُّوَلِ
سَعَّرُوها، لو أصابَتْ جَبلاً رَاسِخاً، لانْهَدَّ رُكنُ الجَبلِ
يا لِعَيْنَيكَ تَرى غَوَّاصَةً نَزَلَتْ مِنْ لُجَّةٍ في الأَسْفَلِ

اللجة: البحر العميق

ولقد تُلْمَحُ في الماءِ، كما يُلْمَحُ المعنَى خِلالَ الجُمَلِ
عجباً لِلحُوتِ في أحشَائِهِ بَشَرٌ مَا يَأْمُروا يَمْتَثِلِ
حُوتُ يُونَانَ حَواهُ رَجُلاً وبِحُوتِ اليومِ كَمْ مِنْ رَجُلِ

حوت يونان: حوت النبي يونس، فقد احتوى رجلاً واحداً، فأما الغواصة ففيها رجال كثر

وُجِدَتْ كَيْ تَصِلَ السُّبْلَ، وقدْ صارَتِ اليومَ لِقَطْعِ السُّبُلِ

السفينة صنعت لتصل الطرق ما بين البلاد، والغواصة التي تغرق السفن تقطع الطرق. وهذا الكلام قيل وقد شهدت الحرب العالمية الأولى استعمال الغواصات في إغراق السفن

٩ ذات الموجتين

اَلـمَـهَـا أَهْـدَتْ إِلَيْـهـا الـمُـقـلَـتَـيْـنْ والـظِّـبـا أَهْـدَتْ إِلَيْـهـا الـعُـنُـقَـا

المها: بقر الوحش ذو العيون الواسعة، الظبا: الظباء، الغزلان

فَـهُـمـا في الـحسـنِ أَسْنَـى حِلْيَـتَيْـنْ لِـلـعَـذارى، جَـلَّ مَـنْ قـد خَـلَـقـا
ودَرَى الـروضُ بِـتَـيْـنِ الـمِـنْـحَـتَـيْـنْ وقـديـمـاً يَـعشَـقُ الروضُ الـحِـسـانْ

بتين: بهاتين

فَـكسـا بِـالـوَرْدِ مـنـهـا الـوَجْـنَـتَـيْـنْ وكَـسـا مَـبْـسِـمَـهـا بِـالأُقْـحُـوانْ
ورَمـى فـي صَـدْرِهـا رُمَّـانَـتَـيْـنْ مَـنْ رأى الـرُّمَّـانَ فـوق الـخَـيْـزُرانْ

يشبه قدها النحيل بالخيزران

فـهُـمـا فـي صـدرِهـا كـالـمَـوْجَـتَـيْـنْ أيُّ صَـبٍّ مـا تَـمَـنَّـى الـغَـرَقـا؟
أو هُـمـا ـ وَلْـيَسْـلَـمـا ـ كَـالـتَّـوْأَمَيْـنِ كـلَّـمـا هَـمَّـتْ بِـأَمْـرٍ قَـلِـقَـا
ورَآهـا الـلـيـلُ فـاخـتـارَ الـمُـقـامْ ـ ولـقـد طَـاب لَـهُ ـ فـي شَـعْـرِهـا

أي أن شعرها أسود كالليل

وصَـبـا الـفـجـرُ فَـأَضْـحـى حـيـنَ هَـامْ بِـهَـواهـا دُرَّةً فـي ثَـغْـرِهـا

صبا: عشِق

فـإذا مَـيٌّ كـمَـا شَـاءَ الـغَـرامْ مـا نَـجـا ذُو صَـبْـوَةٍ مِـنْ أَسْـرِهـا

١٠ المعتذر

قـد أَتـاكَ يَـعـتَـذِرُ لا تَـسَـلْـهُ مـا الـخَـبَـرُ
كـلَّـمـا أَطَـلْـتَ لـهُ فـي الـحـديـثِ يَـخْـتَـصِـرُ
فـي عُـيـونِـه خَـبَـرٌ لـيـسَ يَـكْـذِبُ الـنَّـظَـرُ
قـد وَهَـبْـتُـهُ عُـمُـري ضـاعَ عـنـدَه الـعُـمُـرُ
حُـبُّـنـا الـذي نَـشَـرُوا مِـنْ شَـذاهُ مـا نَـشَـرُوا
صُـوِّحَـتْ أَزاهِـرُهُ قـبـلَ يَـعْـقِـدُ الـثَّـمَـرُ

صوحت: جفت، يَعقد الثمر: يتحول من براعم إلى ثمار.. ونحن نقول الثمر يَعقِد، لا يُعقد.. لكن فيروز أرادت تفصيحها فجعلتها من باب ما لم يُسمَّ فاعله

عُـدْ، فَـعَـنْـكَ يُـؤْنِـسُـنـيِ فـي سَـمـائِـهِ الـقَـمَـرُ

يؤنسني عنك، بدلاً منك، القمر

قـد وَفَـى بِـمَـوْعِـدِهِ حـيـنَ خـانَـتِ الـبَـشَـرُ

١١ جفنه علم الغزل

جَـفْـنُـهُ عَـلَّـمَ الـغَـزَلْ ومِـنَ الـعِـلْـمِ مـا قَـتَـلْ

فَـحَـرَقْـنـا نُـفـوسَـنـا فـي جـحـيـمٍ مِـنَ الـقُـبَـلْ

ونَـشَـدْنـا، ولـم نَـزَلْ حُـلُـمَ الـحـبِّ والـشَّـبـابْ

حُـلُـمَ الـزَّهْـرِ والـنَّـدَى حُـلُـمَ الـلَّـهْـوِ والـشَّـرابْ

هَـاتِـهـا مِـنْ يَـدِ الـرِّضَـا جُـرْعَـةً تـبـعـثُ الـجُـنـونْ

اسمع عبد الوهاب يغنيها، وفي الإعادة يقول «هاهاهاتها» وهذه خفة روح حلوة كالعسل من عبد الوهاب

كـيـفَ يَـشـكُـو مِـنَ الـظَّـمـا مَـنْ لـه هـذهِ الـعُـيـونْ

يـا حـبـيـبـي، أَكُـلَّـمـا ضَـمَّـنَـا لِـلـهَـوى مَـكـانْ

أَشْـعَـلُـوا الـنـارَ حَـوْلَـنـا فَـغَـدَوْنـا لـهـا دُخَـانْ

قُـلْ لِـمَـنْ لامَ فـي الـهـوى هـكـذا الـحـسـنُ قـد أَمَـرْ

إنْ عَـشِـقْـنـا، فَـعُـذْرُنـا أَنَّ فـي وَجـهِـنـا نَـظَـرْ

١٢ عش أنت

عِـشْ أنـتَ، إنِّـي مُـتُّ بَـعـدَكْ وأَطِـلْ إلـى مـا شِـئـتَ صَـدَّكْ

كـانـتْ بَـقـايـا لِـلـغـرا مِ بِمُـهْـجَـتي فَـخَـتَـمْـتُ بَـعْـدَكْ

مـا كـانَ ضَـرَّكَ لـو عَـدَلْـ ـتَ أَمَـا رأتْ عـيـنـاكَ قَـدَّكْ

كان حرياً بك أن تعدل لأن قدك معتدل رشيق

وجـعـلْـتَ مِـنْ جَـفْـنَـيَّ مُـتَّـ ـكَـأً ومِـنْ عَـيْـنَـيَّ مَـهـدَكْ

وحَـيـاةِ عَـيْـنِـكَ وَهْـيَ عِـنـ ـدِي مِـثْـلَـمـا الـقـرآنُ عِـنْـدَكْ

يغنيها فريد الأطرش «مثلما الإيمان»، وهي هكذا في الطبعة الثانية من الديوان، غير أن الطبعة الأولى كانت في زمن أكثر استرخاء فجاءت بها كما الشاعر قالها

مـــا قَـــلْـــبُ أُمِّـــكَ إنْ تُـــفَـــا   رِقْـــهـــا ولـــم تَـــبْـــلُـــغْ أَشُـــدَّكْ..
فَـــهَـــوَتْ عـــلـــيـــكَ بِـــصَـــدْرِهـــا   يَـــومَ الـــفـــراقِ لِـــتَـــسْـــتَـــرِدَّكْ..
بِـــأَشَـــدَّ مِـــن خَـــفَـــقـــانِ قَـــلْـــ   ـبي يـــومَ قـــيـــلِ خَـــفَـــرْتَ عَـــهْـــدَكْ

١٣ تبعات الهوى

يا حَبيبي لِأَجلِ عَيْنَيكَ مَا أَلْـ   ـقَى ومَا أَوَّلَ الوُشاةُ عَلَيَّا

أوَّل: فسَّر وتجاوز الحقيقة

أأنا العاشقُ الوحيدُ لِتُلقَى   تَبِعَاتُ الهوى على كَتِفَيَّا

١٤ يا نسيم الدجى

يا نَسيمَ الدُّجَى اللَّطِيفَ احْتَمِلْنِي   لِيَ عهدٌ عندَ النَّسيمِ لِزَامُ

احتملني: احملني واذهب بي إلى الحبيب، اللزام: الملازم دوماً

كُلُّنا ناحِلٌ: فأَنْتَ بَراكَ اللَّـ   ـهُ، لَكِنْ أنا بَراني السَّقامُ

براك الله: برأك وخلقك، براني السقام: أهزلني وأنحلني

١٥ احتضار الشعر

حَفِظَ اللَّهُ مُهجَةَ الشِّعرِ في الشَّر   قِ وَوَقَّاهُ عَادِياتِ زَمانِهْ

عاديات: مصائب

كانَ رَيْحانَةَ المَناذِرَةِ الغُرِّ   وراحَ الأَرْواحِ في غَسَّانِهْ

كان الشعر ريحانة يشمها المناذرة الغر، السادة الكرام، في الحيرة؛ وكان راح الأرواح، أي خمر الأرواح، عند الغساسنة في الشام

ما زَها مَفْرِقٌ بِتاجٍ إذا لم   يَزْهُ بِالخالِداتِ مِنْ تيجَانِهْ

لم يكن مفرق رأس ملك ليزهو، ويفتخر، بالتاج ما لم يكن مفتخراً بالأشعار الخالدة التي قيلت في الملك

يَتَمَنَّى الملوكُ لو أَنْعَمَ اللَّـ   ـهُ عليْهِمْ بِسَكْرَةٍ في حَانِهْ
ليتَ شِعري ماذا أَساءَ إلى الأَيَّـ   ـامِ حتَّى أَمْعَنَّ في عُدوانِهْ؟

ماذا أساء الشعر إلى الزمن حتى أسرف الزمن في التعدي عليه؟

فَهَوى مِنْ سَمائِهِ كَاسِفَ اللَّوْ نِ إلى هُوَّةِ الشَّقا وهَوَانِهْ
كُلَّما هَمَّ أنْ يُطَأْطِئَ لِلدَّهْـ ـرِ ثَناهُ العَريقُ مِنْ عُنفُوانِهْ

كلما نوى الشعر أن يخفض رأسه أبى له عنفوانه العريق ذلك

مُؤْثِرٌ أن يموتَ في كُوخِهِ الفَا نِي على الباقِياتِ مِن دِيوَانِهْ
يَحْمِلُ الِابْتِسامَ في شَفَتَيْهِ والمَنايا تَسيلُ مِنْ أَرْدانِهْ

أردانه: أكمامه

كَسِراجٍ في جَوفِ دَيْرٍ قَديم هُرِقَتْ روحُهُ على جُدْرانِهْ

يشبه اضمحلال الشعر بسراج في دير وقد بدأ يخبو نوره فكأنه يهرق روحه ويسكبها على جدران الدير..

يَشْهَقُ الشَّهْقَةَ الخفيفةَ في الفَجْـ ـرِ ويُفْني أَنفاسَهُ بِدُخانِهْ
كَعَليلٍ على فِراشٍ مِنَ السِّلِّ ـ بَعيدِ المَزارِ عن إخْوانِهْ
كُلَّما أَلْحَفَ السُّعالُ عليهِ أَطْعَمَ الموتَ قِطْعَةً مِن جَنانِهْ

١٦ رسائل فموية

فَرْخانِ في وَكْرٍ تَلاقَى جَانِحٌ وجَانِحٌ، ومِنقَرٌ ومِنقَرُ
يَختَلِسُ القُبلةَ مِن مَبْسِمِها هل تَعرِفُ العُصفُورُ كيفَ يَنقُرُ؟
وَهْوَ إذا أَمْعَنَ في ارتِشافِها عَلَّمَنا كيفَ يَذوبُ السُّكَّرُ
رِسالَةٌ مِن فَمِهِ لِفَمِها كذا رِسالاتُ الهوى تُختَصَرُ
ما الحسنُ لولا الشِّعرُ إلّا زَهْرَةٌ يَلهُو بها في لحظَتَيْنِ النَّظَرُ
لكنَّها إن أَدْرَكَتْها رِقَّةٌ مِنْ شاعِرٍ أو دَمعَةٌ تَنحَدِرُ

لكنها: أي لكن الزهرة

سَالَتْ دِماءُ الخُلْدِ مِنْ أَوراقِها ونامَ تحتَ قَدَمَيْها القَدَرُ

١٧ العمر لحظة

فانْهَبِ العَيْشَ لا أَبالَكَ نَهْباً واطَّرِحْ عنكَ وَجهَكَ المُسْتعَارا
لَستَ مَهْما عُمِّرْتَ غيرَ جَناحٍ حَطَّ في الدَّوْحِ لَحظَةً ثم طارا

جناح: طائر، الدوح: الشجرة الوارفة

١٨ يا عاقد الحاجبين

يـا عـاقِـدَ الـحـاجِـبَـيْـنِ عـلـى الـجَـبـيـنِ الـلُّـجَـيْـنِ

اللجين: الفضة. الجبين اللجين: الجبين الذي من فضة، كقولك «الخاتم الذهب» و«السكة الحديد»

إن كُـنـتَ تَـقـصِـدُ قَـتـلـي قَـتَـلـتَـنـي مَـرَّتَـيْـنِ

ولماذا مرتين؟ هي القافية.. أو لعل كل حاجب يقتله مرة

تَـبـدُو كَـأَنْ لا تَـرانـي ومِـلْءُ عَـيـنِـكَ عَـيْـنـي

ومِـثْـلُ فِـعـلِـكَ فِـعْـلـي وَيْـلـي مِـنَ الأَحْـمَـقَـيْـنِ

أنا وأنت أحمقان في هذا التجاهل المتبادل

مَـولايَ لـم تُـبْـقِ مِـنِّـي حَـيَّـاً سِـوى رَمَـقَـيْـنِ

سَـتَـحْـرِمُ الـشِّـعْـرَ مِـنِّـي ولـيـسَ هـذا بِـهَـيْـنِ

أَخـافُ تَـدعُـو الـقَـوافـي عـلـيـكَ فـي الـمَـشْـرِقَـيْـنِ

المشرقين: الشرق والغرب

١٩ رثاء شوقي

شوقي! أَتذْكُرُ إذْ عَالِيهُ مَوْعِدُنا نِمنَا وما نامَ دهرٌ عن مَقَادِرِهِ

عاليه: بلدة في لبنان كان ينزلها شوقي مصطافاً

وأنتَ تحتَ يَدِ الآسي ورأفَتِه وبينَ كلِّ ضعيفِ القلبِ خَائِرِهِ

كنت تحت يد الآسي، أي الطبيب، وبين أصحابك ذوي القلوب الضعيفة الخائفة عليك

ولِابتِسامَتِكَ الصَّفْراءِ رِجْفَتُها كالنجمِ خَلْفَ رقيقٍ مِنْ سَتائِرِهِ

كانت ابتسامتك الصفراء الراجفة ووجهك المخطوف اللون كالنجم خلف ستار من الغيوم

ونحنُ حَوْلَكَ عُكَّافٌ على صَنَمٍ في الجَاهِلِيَّةِ مَاضي البَطْشِ قَاهِرِهِ

سَأَلْتَنيهِ رِثاءً.. خُذْهُ مِنْ كَبِدي لا يُؤْخَذُ الشَّيْءُ إلَّا مِنْ مَصَادِرِهِ

٢٠ شقيقة النجوم

تَعجَّبَ الليلُ منها عندما بَرَزَتْ تُسَلْسِلُ النُّورَ في عَينَيْهِ عينَاها

كانت عيناها ترسل نوراً يضيء ظلام الليل

وتَمْتَمَتْ نَجمَةٌ في أُذْنِ جَارتِها   لَمَّا رأتْها، وجُنَّتْ عند مِرآها
أُنْظُرْنَ، يا إِخْوَتَا، هَذي شَقيقَتُنا   فَمنْ تُراهُ على الغَبْراءِ أَلْقَاها؟
وكان بِالقُربِ منها كَوكَبٌ غَزِلٌ   يُصْغي فلمَّا رآها، سَبَّحَ اللَّهَ
وراحُ يُقْسِمُ أنْ لا باتَ ليلَتَهُ   إلَّا على شَفَتَيْها لاثِماً فَاها

٢١ ثمن الهداية

لو لم يُخَضَّبْ بالدِّماءِ صَليبَهُ   عيسى لَمَا كان المَسيحَ الفادي
ومُحمَّدٌ لولا اضْطِهاد معاشِرٍ   خُشُنٍ لَما كانَ الرسُولَ الهادي
آلَى الهُدى ألَّا يُطِلَّ على الورى   إلَّا على جبلٍ مِنَ الأَجْسادِ

آلى: حلف

٢٢ إِسقنيها

إِسقِنيها، بِأَبي أنتَ وأُمِّي   لا لِتَجْلُو الهَمَّ عَنِّي، أنتَ هَمِّي

٢٣ رثاء حافظ إبراهيم

شاعِرَ النِّيلِ خُذْ بِناصِيَةِ النَّجْـ   ـم، وَدَاعِبْ جَبينَهُ البَرَّاقا
أو فَعُدْ لِلحُقولِ دَغْدِغْ بِها الزَّهْـ   ـر، ونَبِّهْ في صَدْرِها الأَشْواقا
أنتَ والنيلُ ضَفَّتانِ لِمِصْرٍ   تُنبِتانِ الأذواقَ والأَرْزَاقا

٢٤ الصبا والجمال

هنأ بها غيتا كفوري حين فازت بلقب ملكة جمال عام ١٩٣٤، واسمعها من عبد الوهاب

اَلصِّبا والجَمالُ مِلْكُ يَديْكِ   أيُّ تاجٍ أَعَزُّ مِن تَاجَيْكِ
نَصَبَ الحُسنُ عرشَهُ فسألْنا   مَنْ تُراها لهُ؟ فَدَلَّ عليكِ
فاسْكُبي رُوحَكَ الحَنونَ عليهِ   كانْسِكابِ السَّماءِ في عَيْنَيْكِ
سَكِرَ الروضُ سَكْرَةً صَرَعَتْهُ   عندَ مَجْرى العَبيرِ مِنْ نَهْدَيْكِ
قَتَلَ الوردُ نفسَه حَسَداً مِنـ   ـكِ، وألقَى دِمَاهُ في وَجْنَتَيْكِ

التسويد للشاعر عمران القفيني

والـفَـراشـاتُ مَـلَّـتِ الـزَّهْـرَ لَـمَّـا   حَـدَّثَـتْـهـا الأنـسـامُ عـن شَـفـتيـكِ

٢٥ لبنان في سنة ١٩٣٤

لُبنانُ يا جنَّةَ الأرواحِ، ما فعلتْ   بِكَ الليالي؟ فعادَ العُرْسُ مَأسَاتا
قـد كَـبَّـروكَ، لِأَمْـرٍ صَـغَّـرُوكَ بِـهِ،   قد فَخَّمُوا الاسم، لكنْ حَقَّرُوا الذَّاتا
في كُلِّ طَرْفَةِ عينٍ: أَنْظُمٌ جُدُدٌ   مِنْ سوءِ حَظِّكَ قد ظَنُّوكَ مَلهَاتا

أنظم: أنظمة وقوانين، ذلك في عهد الانتداب الفرنسي

كـأنَّـمـا كـنـتَ لَـوْحـاً فـي مَـكـاتِـبِـهِـمْ   تَـمـضـي الأَكُـفُّ بـهِ مَـحْـواً وإِثـبـاتـا

اللوح في المكاتب، أي الكتاتيب، يكون صغيراً بيد التلميذ يكتب فيه الدرس، وعندما يحفظه يمحوه

فِتيانَ لُبنانَ! هُبُّوا مِنْ رُقادِكُمُ   سِيَّانِ مَنْ نامَ عن حَقٍّ ومَن ماتا

٢٦ مولد المتنبي

تَكَشَّفَ الصُّبْحُ عن طِفلٍ ومارِدَةٍ   لـهُ عـلـى صـدرِهـا زَأْرٌ إذا غَـضِـبـا

التي ولدت المتنبي ليست امرأة عادية بل ماردة من المردة، وهو لا يبكي على صدرها بل يزأر

كـأنَّـهُ الـزِّئْـبَـقُ الـرَّجْـراجُ فـي يَـدِهـا   أو خَفْقَةُ البَرقِ إمَّا اهتَزَّ واضْطَربا
نَادى أَبُوه ـ عَظيمُ الجِنِّ ـ عِتْرَتَهُ   فَأَقْبَلُوا ينظُرونَ البِدْعَةَ العَجبا

عترته: قومه

مَاذا نُسَمِّيهِ؟ قالَ البعضُ صاعِقَةً   فقالَ كلَّا، فقالُوا: عاصِفاً، فَأَبى
فقامَ كـالطَّوْدِ مـنهُـمْ مارِدٌ لَسِنٌ   وقال: لم تُنصِفُوهُ اسْماً ولا لَقَبا

الطود: الجبل

سَنبعَثُ الفِتنةَ الكُبرى على يَدِهِ   فَنَشْغَلُ الناسَ والأقلامَ والكُتُبا
ونجعلُ الشِّعرَ رَبّاً يَسجُدونَ لَهُ،   فَإِنْ غَوَوْا فلقدْ نِلنا بِهِ الأَرَبا
واخْتالَ غيرَ قَليلٍ، ثم قالَ لَهُمْ:   سَمَّيْتُهُ المتنبِّي، فانْتَشَوْا طَرَبا
هَـلِ الـنُّـبُـوَّةُ إلَّا ثَـورةٌ عَـصَـفَـتْ   على التقاليدِ حتى تَستَحيلُ هَبا؟

هبا: هباء

ما ضَرَّ مُوقِدَها، والخُلْدُ مَنزِلُهُ،   إذا رَمَى نفسَهُ في نارِها حطبا؟

طَلَبْتَ بالشِّعرِ دونَ الشِّعرِ مَرْتَبَةً فشاءَ رَبُّكَ ألّا تُدرِكَ الطَّلَبا

يخاطب شاعرنا المتنبي: لقد طلبت مرتبة أدنى من الشعر، هي الإمارة، فشاء الله ألا تنال طلبك

لولا طِماحُكَ ما غَنَّيْتَ قافِيَةً بَوَّأْتَها الشَّمْسَ، أو قَلَّدْتَها الحِقَبا

لكن طموحك هو الذي جعلك تغني بالقصائد التي وضعتها في عين الشمس، وجعلتها عقوداً وقلائد في أعناق الدهر

أَضْرَمْتَ ثورتَكَ الهَوْجاءَ فالتَهَمَتْ مِنَ القريضِ الهشيمَ الغَثَّ والخَشَبا

وغَالَ شِعرُكَ شِعرَ الكائِدينَ لَهُ لِنفسِهِمْ حَفَرَتْ أيديهِمُ التُّرُبا

الذين حسدوك ونصبوا لك المكائد قتلهم شعرك، فقد حفروا حفرة لأنفسهم بأيديهم

مَنعتَ عنهُمْ ضِياءَ الشمسِ فانْحَجَبُوا فهل تَلُومُهُمُ إنْ مَزَّقُوا الحُجُبا

لم أَلْقَ كالشعرِ مَظلوماً، فقد حَشَدُوا لِحَرْبِه حَسَدَ الحُسَّادِ والنُّوَبا

عَفواً نَبِيَّ القوافي، أَيُّ نابِغةٍ لم يَزْرَعُوا حولَهُ البُهتَانَ والكَذِبا؟

يُرمَى بِكلِّ قَبيحٍ مِن مَثالِبِهِمْ ويَرفَعُونَ لهُ الأنصابَ إنْ ذَهَبا

يرمى النابغة في حياته بالمثالب، المعايب، فإذا مات رفعوا له الأنصاب، التماثيل، لتخليده

مِثلَ المسيحِ تَغالَوْا في أَذِيَّتِهِ، وأَلَّهُوهُ، ولكنْ بَعدَما صُلِبا

٢٧ الفردوسي

في حفل جامعة الحكمة بلبنان في ذكرى شاعر الفرس الفردوسي، ١٩٣٥

هلْ لِلأزاهِرِ عن أُمّاتِها خَبَرٌ عن شَاعِرٍ سَكَبَ الأَطيابَ في فيها؟

هل جاء الأزهار خبرٌ منقول عن أمهاتها يحدث عن شاعر منح الأزهار عبيرها؟

في جَنْبِ إيوانِ كِسرى مِن مَواهِبِهِ إيوانُ شِعرٍ بهِ كِسرى زَها تِيها

شعر الفردوسي، الذي جاء بعد كسرى بمئات السنين، كان مفخرة للفرس فكأنه إيوان ثان بعد إيوان كسرى، وإيوان كسرى يفتخر بشعر الفردوسي

كأنَّ في كلِّ بيتٍ مِن قصائِدِه روحاً تَغلغَلُ في الموتَى فَتُحيِيها

أَشْرِقْ أبا قَاسِمٍ كالشمسِ مُرتَجِلاً أُنشودَةَ النورِ، إنَّ اللَّهَ مُوحِيها

ما أَلْفُ عامٍ وإن طالَ الزمانُ بها مِن ساعةٍ عِشْتَها إلّا ثَوانِيها

الأعوام الألف الّتي مرت على ميلادك ليست سوى بضع ثوان بالقياس إلى ساعة واحدة مملوءة بالإبداع من عمرك

أَهْدَيْتَ مِيراثَ كِسرى كُلَّ قافيةٍ   إن ماتَ قائِلُها ما ماتَ راوِيها
فَرُحْتَ تبعَثُها مِن عَبْقَرٍ شَرراً   مَوْصُولَةً بِأَوَالِيها تَوالِيها

عبقر: المكان الذي تعيش فيه شياطين الشعر الوهمية في تراث العرب، أواليها: أوائلها، تواليها: لواحقها

يا لِلعُقوقِ، أَيَبْني مَجْدَ أُمَّتِهِ   حتى إذا ساوَرَتْ نفْساً أمانِيها . .

ثمة حكايات عن تعرض الفردوسي للعقوق من السلطان بعد أن كتب ملحمة الشاهنامة

حتى إذا مَدَّ لِلآلاءِ رَاحَتَهُ   نحوَ الأَرِيكَةِ عَضَّتْهُ أَفَاعِيها

الآلاء: النعم، الجوائز، نحو الأريكة: نحو السلطان الجالس على سرير الملك

أإنْ وَفَتْ أُمَّةٌ يوماً لِشاعِرِها   رَماهُ سَافِلُها عن قَوْسِ وَاشِيها
إذا أَساءَتْ إلى الآدابِ مَمْلَكَةٌ   فاصبِرْ عليها، فقد قامَتْ نواعِيها

٢٨ رثاء الكاظمي، ١٩٣٥

هل أَذْنَبَ الشيخُ حَيّاً   حتى إذا ماتَ تابا

كنتم تهملون الشيخ الشاعر عبد المحسن الكاظمي في حياته، فهل كان مذنباً؟ وصرتم تمجدونه بعد موته، فهل تراه تاب ميتاً؟

وحينَ أَمْسَى غَنِيّاً   عنكُمْ غَدَوْتُمْ صِحابا

عندما استغنى عنكم، بالموت، صرتم أصحاباً له

لو رُدَّتِ الروحُ فيهِ   لَازْوَرَّ عنكُمْ عِتابا

لازورَّ: لأشاح بوجهه عنكم

أهمَلْتُمُوهُ حُساماً   وصُنْتُمُوهُ قِرابا

الحسام السيف، والقراب غمده

٢٩ العنف والعنفوان

في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين

سائِلِ العلياءَ عنّا والزَّمانا   هل خَفَرنا ذِمَّةً مُذْ عَرَفَانا

اسأل العلياء، المجد، واسأل الزمان: هل خفرنا ذمة، خُنَّا عهداً، منذ أن عرفنا المجد والزمن؟

المُروءَاتُ التي عاشتْ بِنا   لم تَزَلْ تجري سَعيراً في دِمَانا

يـا جِـهـاداً صَـفَّـقَ الـمـجـدُ لـه لَـبِـسَ الـغـارُ عـلـيـه الأُرْجُـوَانـا

أيها الجهاد الذي انتشى له المجد، لقد اكتسى الغار، إكليل المجد، بسبب هذا الجهاد بالدم الأرجواني، الأحمر

شَـرَفٌ بـاهَـتْ فِـلَـسْـطِـيـنُ بـه وبِـنـاءٌ لِـلْـمَـعـالـي لا يُـدَانـى

شَـرَفٌ لِـلْـمَـوْتِ أنْ نُـطْـعِـمَـهُ أَنْـفُـسـاً جَـبَّـارَةً تـأبَـى الـهـوانـا

وَرْدَةٌ مِـــنْ دَمِـــنـــا فـــي يَـــدِه لـو أَتَـى الـنـارَ بِـهـا حَـالَـتْ جِـنانـا

أنفسنا الجبارة هي وردة من دمنا في يد الموت، ولو أتى بها إلى الجحيم لتحولت إلى جنة

أُنـشُـروا الـهـولَ وصُـبُّـوا نـارَكُـمْ كـيـفـمـا شـئْـتُـمْ فـلـنْ تَـلْـقَـوْا جَـبـانـا

يخاطب المحتلين الإنجليز

غَـذَّتِ الأحـداثُ مِـنَّـا أَنْـفُـسـاً لـم يَـزِدْهـا الـعُـنـفُ إلَّا عُـنـفُـوانـا

٣٠ ضامن الخلود

نَجِيُّ العُلَى حَرْبٌ على الشَّهَواتِ حَـيِـيٌّ كَـمِـنـديـلٍ بِـصَـدْرِ فـتـاةِ

الشاب الشامخ الذي يناجي العلى، ويكلم المجد، معادٍ لشهواته مترفع عنها، وهو يمتلك الحياء فكأنه منديل في صدر فتاة لا يكاد يبرز. هذا المنديل مجاز بعيد وحلو، ويفتح لك باباً للخيال أيها الشهواني، وينسيك الشطر الأول

ولـكـنْ إذا الأوطـانُ نـادَتْ، أجـابَـهـا وَقَـاحٌ كَـنـابِ الـلَّـيْـثِ عَـضَّ بِـشـاةِ

وقاح: صلب

مِن الجهلِ أن تَلْقَى المُهَنَّدَ بِالعصا وأن تَـدفَـعَ الأعـداءَ بِـالـصَّـلَـواتِ

أَبَى لَكَ طَبْعُ الصَّاعِقاتِ إذا هَوَتْ عـلـى قُـضُـبِ الـمَـاذِيِّ مُـنْـجَـذِبـاتِ

أبى لك الاكتفاء بالصلوات طبعُك الذي يشبه طبع الصواعق عندما تنزل في المعركة راكبة قضب الماذي، قضبان الحديد أي السيوف، ومنجذبة إليها

وخِفْتَ فُجَاءاتِ الرَّدى، فَسبَقْتَها بِـوَثْـبَـةِ جـبـارٍ إلـى الـذُّرُواتِ

خفت أن يفاجئك موت على فراشك فسبقته إلى المعركة لتقفز إلى ذرى المجد وتموت في المعركة

إذا ضَمِنَ المرءُ الخلودَ على الصِّبَا، فـمـا عـمـرُهُ البَـاقـي سوى فَـضَـلاتِ

٣١ بغداد

قـولـي لِـشـمـسِـكِ لا تَـغـيـبـي وتَـكَـبَّـدي فَـلَـكَ الـقُـلـوبِ

يا بغداد قولي لشمسك: لا تغيبي وتكبدي، توسَّطي، فلكاً ليس من أفلاك السماء بل هو فلك قلوبنا المحبة لك

بـغـدادُ، يـا وَطَـنَ الـجِـهـا دِ ومُـرْضِـعَ الأدبِ الـخَـصـيـبِ
غَـنَّـاكِ دِجـلَـةُ والـفُـرا تُ قَـصـائـدَ الـزمـنِ الـعـجـيـبِ
حـتـى إذا طَـلَـعَ الـرشـيـ ـدُ ومـاجَ فـي الأُفُـقِ الـرَّحـيـبِ
صَـهَـرَ الـقـرونَ وصـاغَـهـا تـاجـاً لِـمَـفْـرِقِـكِ الـحـبـيـبِ
بَـغـدادُ، مـا حـمـلَ الـسُّـرَى مِـنِّـي، سـوى شَـبَـحٍ مُـريـبِ

السرى: سير الليل.. وقد حملني إليك وأنا النحيل ذو اللباس المريب

جَـفَـلَـتْ لـه الـصـحـراءُ والـ ـتَـفَـتَ الـكـثـيـبُ إلى الـكـثـيـبِ
وتَـنَـصَّـتَـتْ زُمَـرُ الـجَـنـا دِبِ مِـنْ فُـوَيْـهَـاتِ الـثُّـقُـوبِ

فويهات: تصغير فوَّهات

يَـتَـسـاءَلُـونَ، وقـد رَأَوْا قَـيـسَ الـمُـلَـوَّحَ فـي شُـحـوبـي
والـتَّـمْـتَـمَـاتُ عـلـى الـشِّـفَـا هِ مُـضَـرَّجـاتٍ بـالـنَّـسـيـبِ
يَـتـسـاءلـونَ: مَـنِ الـفـتـى الـ ـعَـرَبِـيُّ فـي الـزِّيِّ الـغَـريـبِ؟
آلَـيْـتُ أَقْـتَـحِـمُ الـجَـحـيـ ـمَ عـلـى جَـوادٍ مِـنْ ذُنـوبـي

حلفت أن أخاطر بالتفكير في المحرمات مما سيفضي بي إلى جهنم

فَـأَغُـوصُ فـي الأَبَـدِيَّـةِ الـ ـخَـرسـاءِ والأَزَلِ الـقَـطُـوبِ

الأبدية: منتهى المستقبل، والأزل: منتهى الماضي، القطوب: المتجهم المكشر

آلَـيْـتُ: لَـكِـنِّـي ارْعَـوَيْـ ـتُ وقلتُ: يـا نَفسي اهْدَئي بي

ارعويت: تراجعت

مـهـمـا سَـمـا عَـقْـلُ الـحـكـيـ ـمِ يَـزِلُّ عـن حُـجُـبِ الـغُـيـوبِ

٣٢ سكرة الحزن

سَكْرَةُ الحزنِ سَكْرَةٌ ليس يَصْحُو الـ ـمَرءُ منـهـا مـا دامَ فـوقَ الـتُّـرابِ

تَتغَذّى بِالذِّكرياتِ، وتَنمو بِمَآسي الأوطانِ والأَحْبابِ

٣٣ زمن الغوغاء

يا أُمَّةً غَدَتِ الذِّئابُ تَسُوسُها غَرِقَتْ سَفينَتُها، فأينَ رَئيسُها؟
تَعْساً لها مِنْ أُمَّةٍ، فزَعيمُها جَلَّادُها، وأَمينُها جاسُوسُها
رُشِيَتْ مآذِنُها، فلم تغضَبْ لها غَضَبَ الكِرامِ، وباعَها ناقُوسُها
إلّا شباباً كالربيعِ، تَهُزُّهُمْ نَسماتُها، ويَصُدُّهُمْ كابُوسُها
ليستْ مِنَ الأَشْبال فِتيةُ أُمَّةٍ إنْ سادَ أَحمَقُها وعَزَّ خَسيسُها
أَيُحَكَّمُ الغَوغاءُ في أُدَبائِها ويَذُودُ عن سُفهائِها بُوليسُها
ومتى تُؤَيَّدْ بالرَّعاعِ حُكومَةٌ: كانتْ أَحَطَّ مِنَ الرَّعاعِ نُفُوسُها
هَبَطُوا الجَحيمَ، فَرَدَّهُمْ بَوَّابُها إذْ خافَ مِنْ إبليسِهِمْ إبليسُها

٣٤ أنا الثريا

ورُبَّ أخٍ رأى فَرَجاً بِذَمِّي فقلتُ رَضيتُ ذَمَّكَ لو شَفاكا
أَتَطْمَعُ أنْ تُحَلِّقَ لِلثُّرَيَّا فتُطْفِئَها، عَدِمْتَ إذَنْ حِجاكا

حجاك: عقلك

٣٥ أبو العلاء المعري

يا لَها ثَورةٌ تَأَجَّجُ في صَدْ رِكَ، تُرْدِي الظُّنونُ فيها الظُّنونا
بَسْمَةُ الهُزْءِ، أينَ مِنها أبو بَحْـ ـرٍ وفُولْتيرُ سَيِّدا الهَازِئينا

أبو بحر: لعله يقصد أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ومن كان أبوه بحراً فلا بأس بتكنيته بأبيه

فأَحايِينَ لا أَرى لَكَ دُنيا وأَحايِينَ لا أرى لَكَ دِينا
لستُ أدري أأَنتَ في وَصْفِكَ النَّفْـ ـسَ مُصيبٌ، أم الحَكيمُ ابنُ سِينا
أَيَراها وَرقاءَ مِنْ رَفْرَفِ الخُلْـ ـدِ، وتَبقَى لَديكَ ماءً وطِينا؟

شبه ابن سينا الروح بورقاء، أي بحمامة، جاءت من رفرف جنة الخلد، أي رياضها. قال ابن سينا: هَبطتْ إليكَ مِن المحلِّ الأرفعِ/ ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ. وأبو العلاء ينقل في بعض شعره أن الروح قد تفنى بفناء الجسد: والرُّوحُ أرضِيَّةٌ في رأيِ طَائفةٍ/ وعند قومٍ تَرَقَّى في السماواتِ

سِرُّ ذي النَّفْسِ، لا مَدَارِهُ روما   أدركَتْهُ، ولا شُيوخُ أثينا
مداره: جمع مِدْرَه وهو الحكيم الشريف

رُبَّ شَاكٍ فَقْدَ العيونِ، ولا ينْـ   ـفَكُّ يَهدي العُيونَ لِلمُبْصِرينا
أبو العلاء يشكو فقد البصر، لكنه يهدي إلى المبصرين عيوناً

٣٦ أدب الشراب

وُلِدَ الهوَى والخَمْرُ لَيلةَ مَولِدي   وسَيُحْملانِ مَعي على ألْواحي
أَدَبُ الشَّرابِ إذا المُدامَةُ عَرْبَدَتْ   في كأسِها ألَّا تَكونَ الصَّاحي

٣٧ عيد الجهاد

في ذكرى اعتقال المفوض الفرنسي رئيس الجمهورية وصحبه
في قلعة راشيا عام ١٩٤٣

قُمْ نُقَبِّلْ ثغرَ الجِهادِ وجيدَهْ   أَشرقَ الكونُ يَومَ جَدَّدَ عيدَهْ
والقصيدة قيلت في ذكرى حبس الرئيس وهو الحدث الذي أرهص باستقلال لبنان عن فرنسا

نحنُ والموتُ صاحِبانِ على الدهـ   ـر حَشَدْنا أرواحَنا وبُنُودَهْ
بنوده: راياته

نحنُ لا نَحْسَبُ الحياةَ حَياةً   أَوْ نُفَدِّي أوطانَنا المَعْبُودَةْ
قُلْ لِمَنْ حَدَّدَ القُيودَ: رُويْداً   يَعرِفُ الحَقُّ أنْ يَفُكَّ قُيودَهْ
حدد القيود: جعلها من حديد

لن نَراها، إنْ لم نَمُتْ في هَواها،   أُمَّةً حُرَّةً ودُنيا جَديدَةْ

٣٨ ظلم في التشارين الماضية

في ذكرى الاستقلال في تشرين الثاني ١٩٤٣

نَصَحْتُهُ بعدَ طُولِ الغَيِّ فانتَصَحا   ونَهْنَهَ العَذْلُ مِنْ سُكْرِ الهوى فَصَحا
نهنه: خفَّف

قَلْبٌ تَمَرَّسَ بِاللَّذَّاتِ وَهْوَ فَتىً   كَبُرْعُمٍ لَمَسَتْهُ الريحُ فانْفَتَحا
يَبْكي ويَضحَكُ لا حُزناً ولا فَرحاً   كَعاشِقٍ خَطَّ سَطراً في الهَوى ومَحا

مَا لِلأَقَاحِيَّةِ السَّمْرَاءِ قد صَرَفَتْ عنَّا هَواها، أَرَقُّ الحُسْنِ ما سَمَحا

أقحوانة شاعرنا سمراء.. على عكس الطبيعة، ولتكن من أي لون ما دامت قد صرفت عنه نظرها.. عموماً: أرق الحسن ما سمح، على عكس ما قال الشعراء في طول تاريخ الشعر العربي وعرضه. لا بأس، هي مقدمة غزلية لقصيدة وطنية

تِشْرينُ، قُلْ لِلتَّشارِينِ التي سَلَفَتْ لنا عِتابٌ، ولا نَرضاهُ إنْ جَرَحا..

يا شهر تشرين الثاني، شهر المناسبة الوطنية، قل للتشارين التي مضت في سالف الدهر إن لنا عتاباً ولا نرضى أن يكون جارحاً..

أَسمَى وأَكرَمُ عَفْوٍ أنتَ مَانِحُهُ عَفْوُ الذَّبيحِ عنِ السيفِ الذي ذَبَحا..

يطلب العفو من شهر المناسبة، وخير العفو عفو الذبيح عن سيف ذبحه..

ما ضَرَّنيِ، ولِسانُ الشِّعرِ يهتِفُ بيِ إذا تَبَسَّمَ وجهُ الدَّهرِ أو كَلَحا

ولا يهمني، وقد هتف بي هاتف الشعر ونزل علي وحيه، أكان الدهر ابتسم أم كلح، أي كشر.. لا شيء يهمني وأريد أن أقول الحق..

لكنَّهُ وَطَنٌ فَدَّيْتُ مهجَتَه بِمهجَتِي، نَبَذَ الأحرارَ واطَّرَحا

الوطن قد طرح الأحرار جانباً ونبذهم

سَلِ البِحارَ، وقد ضاقَتْ بِفِتْيَتِهِ مِنْ كُلِّ مَنْ لم يُطِقْ كَدْحاً ومَنْ كَدَحا

اللبنانيون هاجروا وملأوا البحار سواء منهم من كان يطيق العمل الشاق أم من لا يطيقه

شَطْرانِ قَلبيَ، شَطْرٌ لِلمُقيمِ بِهِ على الوَفاءِ، وشَطْرٌ للَّذي نَزَحا

٣٩ مدح الملك عبد العزيز آل سعود

عبدَ العزيزِ! أصابَ العُربُ بُغْيَتَهُمْ لَمَّا طَلَعْتَ عليْهِمْ أنتَ والأَمَلُ
عبدَ العزيزِ! وما أَوْمَتْ أَكُفُّهُمُ إلَّا إليكَ، إذا قالوا: مَنِ الرَّجُلُ؟

٤٠ المصير

لَستَ تَدريِ، ولا أنا مِنكَ أَدْرَى فَعلامَ الخِصامُ؟ فَالسِّلْمُ أَحْرَى

يخاطب صاحباً: كلانا لا يدرى سر هذا الكون، فعلام الاختلاف والخصام

أَجْهَلُ الناسِ مُدَّعٍ يَحْسَبُ العِلْـ ـمَ كِتاباً، ويَحْسَبُ الفَنَّ سَطْرا
وَيْحَ هذي العُقولِ لَمْ تُصِبِ الرَّمْـ ـيَةَ يوماً إلَّا لِتُخْطِئَ عَشْرا

دونَ ما تَبْتَغيهِ، مِنْ كُنْهِ هذا الـ ـكَونِ سِرٌّ فيهِ الجَوابُ اسْتَقَرَّا

الجواب بشأن كنه الكون، حقيقته، موجود داخل سر

سَمِّهِ الضَّفَّةَ التي يَعْبُرُ الأَحْـ ـياءُ منها، أو سَمِّ ذلكَ جِسْرا

ليكن هذا العالم ضفة نعبر منها إلى ضفة الآخرة، أو ليكن جسراً

سَمِّهِ المَصْنَعَ الذي يَفْعَلُ التَّحْـ ـليلُ في جَوْفِهِ عجائِبَ كُبرى
يِتَلَقَّى الأجسامَ وَهْيَ جَمادٌ ثمَّ يُعطيكَها حَياةً وفِكرا
سَمِّهِ الهَازِئَ العَظيمَ إذا را قَكَ، أو سَمِّهِ، إذا شِئْتَ، قَبْرا

أو ليكن اسم الكون الهازئ العظيم الذي يهزأ بالبشر، أو ليكن اسمه قبراً.. فهو بهذا الاسم النهاية التي ليس بعدها بعث

٤١ منتهى الذل

إذا ما ضَربْتَ الكلبَ يَعوي، ورُبَّما تَقَحَّمَ مُؤْذيهِ وعَضَّ بِنابِهِ

تقحم: هاجم

وفي الشَّرقِ ناسٌ لو سَحَقْتَ رؤُوسَهُمْ لَمَا نَبَسُوا فَلْيَخْجَلُوا مِنْ كِلابِهِ

بشارة الخوري (الأخطل الصغير)

فهرس القوافي

رشيد سليم الخوري
(الشاعر القَرَويّ)
(١٨٨٧ ـ ١٩٨٤)

قرأت أشعار رشيد سليم الخوري (الشاعر القَرَويّ) واخترت لك أطايبها. وشرحت بعض الألفاظ والمعاني.

القروي أكثر المهجريين محافظة على سلامة اللغة وروح الشعر العربي العمودي. وفي هذه المقدمة المفككة بعض ما قد تَطلُبُ معرفتَه من معلومات عن هذا الشاعر، وعن طريقة ترتيبي لهذه الباقة من شعره. وباقتي ليست أزهاراً منتقاة كيفما اتفق: هي أجمل ما في الحقل من أزهار. نعم، نخلت الديوان نخلاً، ومخضته مخضاً، ولم أغادر فيه بيتاً رائعاً إلا ضممته إلى هذه الباقة التي أقدمها إليك.

وصف طبعة الديوان التي منها أخذت

جمع الديوان وبوبه وقدَّم له «مكتب التدقيق اللغوي»، منشورات جروس برس/ طرابلس لبنان، ١٩٩٢.

الديوان في هذه الطبعة ينقل عن الطبعة السادسة من ديوان القروي التي صدرت بإشرافه قبل وفاته بعام. ثم زيد في هذه الطبعة الكثير من أوراقه الخاصة.

الطبعة مضبوطة ضبطاً ممتازاً. وفيها مقدمات بقلم الشاعر والمحقق تستغرق خمسين صفحة. وهي مرتبة على أحرف الهجاء خلافاً للطبعة السادسة المرتبة على أبواب ثمانية.

وفهرسها قليل الفائدة لأنه مرتب على الروي أيضاً. ولا ندري لم لا يفطن الناشرون إلى أنَّ فهرسهم هو مجرد تكرار لـمتن الكتاب. نفتح ديوان الشعر فنراه مرتباً على القوافي: الهمزيات ثم البائيات ثم التائيات إلى آخر قصائد الديوان. ثم يأتي الفهرس علة على القلب: يأتي وهو يفهرس لك القصائد بحسب ترتيبها في صفحات الديوان. فما نفع فهرس كهذا؟ هلا فهرستم على المعاني والأغراض؟ هلا صنعتم فهرساً تاريخياً يرتب القصائد بحسب تسلسلها الزمني؟ هلا استغنيتم عن الفهرس ووفرتم بضع صفحات؟

على أن ديوان القروي الذي اعتمدناه يتميز بأن مناسبات القصائد وملابساتها مكتوبة بقلـم القروي، حتى وإن ساقها أحياناً بضمير الغائب. وهذا ثمين. والرجل ناثر ذو قلـم جميل.

توفي الشاعر القروي في ٢٧ آب/أغسطس ١٩٨٤.

معلومات من مقدمة القروي لديوان من دواوينه، وكتبها عام ١٩٥٢

ولد في ٥/٤/١٨٨٧. أمه تقلا بنت أسعد بشارة الرحباني. وأبوه سليم بن طنوس الخوري. نزح جده من الشوير إلى البربارة، واشتغلت العائلة بالحدادة. أبوه درس في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية اليوم) ومارس التعليم، ثم تجارة التبغ والحرير فأصاب ثروة معتدلة. وخَلَفَ جدَّه على مشيخة القرية، وكان له بعض النظم والنثر.

قيصر (الشاعر المدني) أخوه، ويصغره بأربع سنوات ونصف. وهاجر إلى صنبول (وهكذا يسمي القروي ساو باولو في البرازيل) وفتح محلاً. فكتوريا، هاجرت إلى الولايات المتحدة. فيليب: تغرب أيضاً. فؤاد: خطاط، مات إبان الحرب العالمية الأولى. أديب: هاجر إلى البرازيل. ونديم، ودعد.

رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) بِكْر أبويه.

تعلـم في مدارس القرية. كان ذا صوت جهير جميل. أنهى «الاستعدادية» في الكلية السورية الإنجيلية ببيروت. وعلَّم سبع سنوات. وتنقل في التعليم كثيراً سعياً وراء «أفضل الشروط».

طوله ١٧٨. ووزنه ٦٧ كيلو. لـم يدخن قط. وكان قليل احتساء الخمر. شرِهٌ إلى البرتقال، وسائر الفاكهة. أنيق؛ لبس الجوخة الإنجليزية حتى وعد

بلفور، ثم قاطعها. يغني ويعزف على العود، ويلحن. يطالع الأخبار العلمية. وقرأ كثيراً من القِصص الروسية مترجمة إلى العربية.

عرف كلمات إنجليزية قليلة، وكلمات برتغالية أقل (رغم العقود التي عاشها في البرازيل الناطقة بالبرتغالية). ولم يكمل قط مطالعة كتاب غير عربي. ويغترف من العربية اغترافاً.

أحب وبكى كثيراً، وأُحِب وأبكى أكثر، هكذا يزعم. ولم يكن مستهتراً. وكثيراً ما انتقل من مكان إقامته في سبيل خنق حب في مهده، إشفاقاً على صاحبته وعلى نفسه. كذا زعم.

وكان عشقه يتجدد في كل سنة دراسية، ومع كل انتقال. وابتُلي بالمعاصي كسائر الشباب. واستتر ما وسعه الاستتار. ولم يُخِلَّ في غرامياته بالآداب العامة. لم يتزوج قط.

توفي أبوه سنة ١٩١٠. وهاجر هو في سنة ١٩١٣ إلى البرازيل، إلى مدينة مريانا. ولبث عند عمه سنة، ثم حمل الكشة (صندوق من الزنك يملأونه بمختلف السلع، أو بسطات من الأقمشة يشدونها رزماً ويعلقونها بأكتافهم بسيور جلدية ويجولون بها في القرى) وانطلق. ثم ذهب إلى ريو دي جانيرو. وصار يعلم العزف على العود ارتزاقاً. وعلم سنةً في مدرسة جمعية «زهرة الإحسان» في الريو، ثم انتقل إلى صنبول (ساو باولو) عام ١٩١٥، وعلم في مدارس عربية وأجنبية، وفي البيوت. وتجول في الولايات البرازيلية معتمَداً لبعض المحلات التجارية.

أصبح شاعر صنبول. وتولى رئاسة تحرير جريدة «الرابطة» ثلاث سنوات عقيب وفاة الرئيس الأول خليل سعادة سنة ١٩٣٤.

هاجرت أمه وإخوته إلى البرازيل في سنة ١٩٢٤، مما قلب موازينه المالية.

فتح مصنعاً لربطات العنق، ثم باعه بعد ثلاث سنوات.

عرف معلومات أكثر عن الإسلام عام ١٩٢٧ من كتاب نظيرة زين الدين «الحجاب والسفور»، وكان شاكراً لها.

لقب نفسه الشاعر القروي عقب مقال لصحفي في المهجر قال فيه مستخِفّاً: (من هو هذا القروي؟ شاعر جرن الكبَّة؟)

معلومات أخرى عن الشاعر

ولد في الثقافة العربية، وعرف عن قرب الأجانب الذين فتحوا المدارس في بلاد الشرق، فقد كان معلماً بضع سنوات. وكره سعيهم لصبغ ثقافة البلاد بصبغة غربية، وكانت له معهم مناوشات. وظل، إلى النهاية، عروبياً يكره الغرب.

قال القروي ـ فيما نقله جورج طراد في كتابه (الشاعر القروي: آخر الأوراق) ـ: «يكهربني الجمال، وأضحك للنكتة البكر ضحكة ذات جلاجل وأجراس». هذه روح شاعر يحب القفشة البلاغية.

هاجمه ميخائيل نعيمة في كتابه النقدي «الغربال» في العشرينات، واستمرت العداوة بينهما حتى النهاية. وانتهيا معاً، فهما لدتان تقريباً والقروي أسنُّ بسنتين. القروي عاش سبعاً وتسعين، ونعيمة عاش تسعاً وتسعين.

ويصف جورج طراد في كتابه الممتاز عن الشاعر القروي قصصاً عن محاولات جرت لإصلاح ما بين الشيخين نعيمة والقروي، وكيف أخفقت كلها، ومات كل منهما عن عمر يقارب القرن ولما تمُتِ العداوة القديمة. وقد التقيت المؤلف في بيروت واستضفته في برنامج سأحكي لكم عنه بعد فقرات قلائل، وميزة كتابه أن المؤلف التقى بالقروي كثيراً وكان زائراً دائماً في بيته بقريته البربارة أو في بيت ابنة خالته ببيروت، واطلع على كثير من أوراقه ونشر بعضها مصوراً في كتابه.

رجع القروي إلى بلاده في عام ١٩٥٨. وأيد جمال عبد الناصر بقوة، ذلك أيام الوحدة بين مصر وسورية. وظل يقبض مرتباً من الحكومة السورية زمناً. ثم عاش في قريته البربارة بلبنان حتى مات. وككل من هاجروا قبل تقسيم البلاد على يد المستعمر الأوروبي، لـم يستطع القروي أن يفهم أبداً أن لبنان بلد وسورية بلد آخر. ظل يرى البلدين بلداً واحداً مثلما كان الأمر قبل هجرته.

كلام عن شعره

القروي فحل، وشعره جزل. لغته سليمة، وساعَده اشتغاله بالتعليم. هو ذو بصر باللغة، وذو اطلاع على شعر القدماء. يبز القرويُّ في هذا كله رفيقه فرحات. ولكنه يشبه زميل مهجره فرحات في شغفه بالمعاني الغريبة، وفي أنه نشأ على حب الزجل، الشعر العامي اللبناني، القريب من شعر الفصحى في

عهوده المتأخرة من حيث وفرة ما فيه من نكت بلاغية ومعان مصنوعة.

يحب القروي أن يقص قصة في قصيدته، مثل إيليا أبو ماضي.

والقروي متأنق يشذب شعره، ولا كذلك فرحات. والقروي يمعن في اقتناص المعاني، يعرض له المعنى فيُريغه إلى أن يتفق له وضعه في صورة حسنة.

قد فرقت كلامي عن شعر القروي في أثناء شرحي للأبيات. وهو شعر سهل على جزالته، ولا يحتاج إلى كثير شرح. وأخاف إن أنا وضعت مقالاً ضافياً في المقدمة عن صفات شعر القروي أن يقرأ كلامي شاب ناشئ من محبي الأدب فيأخذ منه عبارات يضمنها بحثاً مدرسياً. وهذا سخف. أنصحه أن يقرأ شعر الرجل ويحس به.

لم أشرح كثيراً. ربما لأنني مللت شرح الشعر.

طبعت بعض الأبيات بخط مشدد حتى يجدها القارئ بسهولة، وحتى يتلمظ بها. هذه الأبيات المسوَّدة تسويداً تصلح للمذاكرة. وفيها إيجاز، أو طرافة، أو قوة، أو كل ذلك معاً. إنها فرائد الأبيات. وقد تجد قصيدة عامرة رائعة وليس بها بيت مشدد، ذلك لأن القصيدة جميلة بمجموعها، وفيها تماسك يمنع نزع بيت منها.

أكتبُ لك عن القروي بعد أن أضجرني التدقيق الكثير.

قد رتبت أبياته ترتيباً زمنياً بقدر ما أسعفتني المصادر. ولكنني لا أزعم الدقة في هذا الأمر. وعلى الدارس المحقق، إن أراد ترتيب ديوان القروي، أن يرجع إلى الدواوين في طبعاتها المختلفة، ولا سيما الأصلية، وإلى الجرائد.

وبالله عليكم! لماذا تشغلون أنفسكم في الجامعات بأشعار القدماء، وتلفِّقون رسائل دكتوراة لا ترقى في قيمتها العلمية إلى أخمص ما صنعه المستشرقون، عجزاً منكم وجهلاً وقلة فهم، وكسلاً؛ وتتركون أشعاراً أنتم أقدر على فهمها. أتنتظرون أن تصبح عتيقة، وأن تضيع مصادرها حتى تنهضوا لتحقيقها؟ الآن، اذهبوا واجمعوا شعر القروي من مصادره الأصلية في البرازيل وسورية ولبنان. وحققوه كاملاً وفهرسوه فهرسة علمية منظمة. وادرسوه إن شئتم، وإن كنت لا أثق بأي درس أو تعمق منكم أيها المتنطِّحون إلى حرف الدال. هذا بعيد عنكم. لتفهرسوا الأشياء ولتطبعوا الشعر طباعة سليمة،

ولتدققوا في تشكيله ومعانيه. وهذا شيء غير قليل. ولا أقول إن هذا قصاراكم، بل هذا ما لن تبلغوه إلا أن تُساطوا، إنه قصارى قصاراكم.

مجموعتي هذه من أشعار رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) هي مختارات وحسب. وقد سميْتُ كل قصيدة أو قطعة باسم من عندي. ولم أقعد رقيباً على الرجل. قد أُحِبُّ بعض آرائه وأكره بعضها. لكنني اخترت ما أعجبني بما هو شعر.

كنت أكتشفُ في التدقيق بعد التدقيق على نسختي هذه أغلاطاً وأوهاماً فأصلحها. ولا أزعم أنني نزهت المجموعة عن كل غلط ووهم. لكنني بذلت وسعي. وبذل وسعه معي الشاعر عمران القفيني، فقد أصلح لي أغلاط هذا الفصل، وكل فصل من فصول هذا الكتاب، متفضلاً عليَّ مطوقاً عنقي بجميله.

كلمة أخيرة

مضت على الأسطر السابقة في هذه المقدمة ثماني سنوات. فقد كنت فرغت من اختيار وشرح الشاعر القروي باكراً. وفي هذه السنوات الثماني حدثت في بلاد العرب ثورات وحروب أهلية، ولما كان «القروي» شاعر «القومية العربية» فإنني سأعيد قراءة ما قلته عنه وعن شعره في ذيول الأبيات، وقد يكون لي تعليق من وحي الأحداث، وقد لا يكون. وحدث في هذه السنوات، وقبل أن تنفجر المنطقة العربية بقليل، أن قصدتُ لبنان كي أصنع فلماً وثائقياً عن حال اللغة العربية في ذلك البلد. وصنعته. وسميته «عظام العربية في لبنان»، وهو ككل شيء في هذه الدنيا موجود على اليوتيوب، إلَّا أن ينفجر اليوتيوب فيما بين يومي هذا الذي أكتب فيه هذا الذيل على المقدمة، وهو تاسع أبريل/نيسان ٢٠١٧، وبين خروج الكتاب من بين تروس المطبعة إن كان سيقيض له أن يخرج.

سقت فريق التصوير إلى البربارة قرية الشاعر القروي، وبحثنا سويعة عن بيته. فوجدناه خالياً عليه سيماء الهجر. فجسنا في الحديقة المهجورة بين الأعشاب والأشواك. وهناك بين أشجار السرو وجدنا قبر القروي. فصورناه. ولكن، أين الصليب والهلال اللذين أوصى شاعرنا أن يوضعا على القبر؟ بعد طول البحث وجدنا قائماً من حديد صدئ في رأسه صليب يحتضنه هلال، وجدناه مخفياً وراء جدار، فصورناه.

وكان القروي أوصى أن تتلى على قبره الفاتحة والصلاة الربانية. فصاحبنا قال إنه عاش مسيحياً أرثوذكسياً ويموت مسيحياً أرثوذكسياً، لكن الإسلام كان متغلغلاً في ضميره من باب العروبة. وكنت قرأت أن الخوري رفض يوم الدفن أن يقرأ الصلاة الربانية على جثمان القروي. فتصديت للأمر، وقرأت منها على قبره ما أحفظ: أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، لأن لك الملك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور، آمين. وأردفت بالفاتحة.. مجرد احتياط، فقد يكون الشيخ رفض قراءتها أيضاً.

شاعرنا القروي شاعر غضوب. يحب الغزل ويسيل رقة، ثم يغضب غضبة مضرية في مسائل السياسة.

١ الدستور

كفى! يَكفي! لقدْ طَفَحَ الإناءُ وضجَّ لهذِهِ الفوضى الفضاءُ

أتى في عصرِهِ الدستورُ، لكنْ كما طَلَعَتْ على الأعمى ذُكاءُ

ذُكاء: الشمس (الدستور العثماني صدر عام ١٩٠٨، وقيَّد السلطان عبد الحميد)

فسادٌ في الدَّوائرِ، واختلالٌ وظُلم في المحاكمِ، والْتِواءُ

٢ بلاد فوق الماء

قال الشاعر القروي بمناسبة غرق التَيتانك (وغرقت سنة ١٩١٢):

جالا بمُعتَرَكِ الصِّدَامِ، فلم يُطِقْ جَبَلُ الحديدِ مَعَ الجليدِ جِلادَا

جلاداً: عراكاً

فَهَوىَ إلى الأعماقِ يَلْبَسُ لُجَّهَا كَفَناً، ويَفْتَرِشُ القَرارَ وِسَادَا

ضاقَتْ بلادُ الإنجليزِ بأهلِها فَبَنَوْا لهمْ فوقَ البحارِ بِلادَا

٣ شيْبة

قال الشاعر القروي، وكان يقيم في بلدة «سوق الغرب» سنة ١٩١٣:

تَبدَّتْ، وميعادُ المشيبِ بَعيدُ وجيشُ أَمانيِّ الشبابِ عَدِيدُ

ظهرت الشعرة البيضاء مبكرة، وما زال الشباب في عنفوانه وأماني الشباب جيش كبير

ولا عَجَبٌ أنْ وَلَّدَ الفحمُ ماسةً　　بِرَأسِي، وضغطُ الحادثاتِ شديدُ

تشبيه مبتكر، ومصنوع بحذق

يلوحُ خلالَ الشَّعْرِ نُورُ بَياضِها　　كما لاحَ في ليلِ الخطوبِ رشيدُ

وهذه الشعرة البيضاء تبدو بين أخواتها السود كما يبدو منيراً الشخص الرشيد (العاقل) وسط ليل الخطوب (سواد المصائب)، ورشيد اسم الشاعر

تجلَّتْ على عرشِ الشبابِ كَسَيِّدٍ　　حواليْهِ مِنْ سُودِ الشُّعُورِ عبيدُ

الشعور: الشعرات

يخاطِبُنَا مِنْ قمةِ الرأسِ قائلاً:　　ألا فاعلموا أنَّ الرَّشادَ يَسودُ

الشعرة البيضاء التي هي كالسيد تقول: الشيب وما يرمز إليه من رصانة سوف يسود

هِيَ الشَّعَرَاتُ البيضُ مِنْ دولةِ الهُدَى　　مَنَادِيبُ، تَدْعُو للهُدَى، ووُفُودُ

مناديب: جمع مندوب، فالشعرات البيض موفدة من دولة الهدى (العقل) لتدعو الشاب إلى ترك الحماقات

لَهُنَّ اشتعالٌ في النَّوَاصي كَألْسُنٍ　　مِنَ النارِ، لَكِنْ ما لَهُنَّ خُمودُ

النواصي: جوانب الرأس

سأتْرُكُها تُعْدِي به أخَواتِهَا　　على مَهَلٍ، فالنَّزْعُ ليسَ يُفِيدُ

وفي نَزْعِها أغْدُو كقَاضِبِ كَرْمَةٍ　　يُشَذِّبُ مِنْ أغصانِهَا، فَتَزِيدُ

قاضب الكرمة: الشخص الذي يشذب أغصان شجرة العنب لتنمو وتشتد

٤ دُمَّل الروح

قال الشاعر القروي على ضريح والد صديقه شكري زيدان الدمشقي:

أيها اللابسُ الجديدَ هَنِيئاً　　ما تُلاقي مِنْ راحةٍ وحُبُورِ

قدْ يُمَلُّ الملبوسُ عاماً فَعَاماً　　ولئنْ كانَ مِنْ نَفِيسِ الحريرِ

إنما الجسمُ دُمَّلُ الروحِ، يَسْتَأْ　　صِلُهُ الموتُ عندَ بابِ الحَفِيرِ

٥ غزوة فَرَزْدَقية

لَبِسْتُ إلى العذراءِ جُبَّةَ راهبٍ　　مِنَ الليلِ لم تَعْلَقْ بِها كفُّ ناسِجِ

جعل الليل ستاره، فالليل جبة لم ينسجها ناسج

وبتُّ حِيَالَ القصرِ أرْعَى إشارةً · بأبْيَضَ: يعني جِئْ، وأحمرَ: لا تَجي
حيال: قربَ، أرعى: أراقب

تُطَوِّقُني أغصانُ دَوْحٍ، كأنَّها · مَعاصِمُ مِنْ نُوَّارِها في دَمَالِجِ
دوحٌ: شجرٌ ملتفٌّ، الأغصان كأنها الأيدي، ونوّارها (زهرها) كالدمالج (الأساور)

إذا داعبَتْها الريحُ مادَتْ، فَخِلْتُني · أُطِلُّ على غُمْدَانَ بينَ الهَوَادِجِ
تمايل الغصون فأحسب نفسي أطل على قصر غُمدان (قصر سيف بن ذي يزن) من بين الهوادج المتمايلة فوق الجمال

وما زِلْتُ، حتى احْدَعْشَرَ الليلُ، أتَّقِي · بِأَفيائِها رَيْبَ العيونِ الحَوَادِجِ
احْدعشَرَ الليل: صارت الساعة ١١؛ ظللت حتى الحادية عشرة أستتر بأفياء (ظلال) الغصون من خطر العيون الحوادج (المحدِّقة)

فلما أُزيحَ السِّجْفُ أَوْرَقَ طالِعي · وأزهَرَ في مِنْديلِها المتَماوِجِ
السجف: الستر، أورق طالعي: ابتسم لي الحظ

وراحَ فؤادي واثباً في أَضالِعي · كَوَثبيَ في أعطافِ تلكَ المدَارِجِ
فؤادي يثب بين ضلوعي، مثل وثبي أنا فوق درجات القصر متوجهاً إلى الحبيبة

وقعتُ عليْها، وَهْيَ في رِعْدَةِ الهوى · فلاذَتْ بِصَدْري، تَصْطَلي بِلَواعِجي
وقعت عليها (لقيتها) وهي في رعدة الهوى (ارتجافة اللقاء الغرامي) فلاذت بصدري (التجأت لصدري)، تتدفأ بلواعجي (حُرَقي)

ورُحْتُ بِرَوْضِ النَّهْدِ والخدِّ عابِثاً · أُنَقِّلُ كفِّي بينَ فجٍّ وناضِجِ
وعينُ الهوى، تحتَ الظلامِ، بَصيرةٌ · بِمَا عنهُ تَعْمَى تحتَ نورِ المَسَارِجِ
المسارج: المصابيح

وكمْ فازَ في دُنيا الهوى عُدْمُ شاعرٍ · بِمَا عَجَزَتْ عنهُ كنوزُ المهارِجِ
عدم الشاعر (فقره) كثيراً ما فاز في الحب بأمور تعجز عن تحقيقها كنوز المهارج (جمع مهراجا: وهو الأمير عند الهنود)

فقالتْ، وقد أحرجْتُها بِدُعَابتي: · لكَ اللّهُ، فانهجْ غيرَ هذي المنَاهِجِ
فقلتُ: ذَريني، أنتَهِبْ فرصةَ الهوى · وأقضِ مِنَ العمرِ القصيرِ حَوَائِجي
بِصَدري كنوزٌ للغرامِ خَبيئةٌ · وهذا الذي شاهدتِ بعضُ نَماذَجي

فَتَنْتُ الغواني قبلما طَرَّ شارِبي   فَدائِيَ داءٌ مزمنٌ، لا تُعالِجي

طَرَّ شاربي: طلع

فما أنا مِمَّنْ يعشقُ الحبَّ ساذَجاً   وإنْ كنتُ مُغْرَىً بالعَذَارى السَّواذِجِ

مغرى: مولع، السواذج: الساذجات. هذه القصيدة جواب لمن قال إن الشعر المهجري ليس فيه مجون. واختار القروي الجيم، والجزالة ترافق قافية الجيم كظلها، عندما يصبح لها ظل؛ وبإيجاز وقوة عبارة وتحليق خيال جاء بقصيدة بديعة. ومن كان قرأ رائية الفرزدق الذي تدلَّى فيها ليزني سيعرف أن القروي ضارعه وعارضه أحلى معارضة بقصيدةٍ بُرهانٍ على أن بعض الشعر العربي الذي انبعث في النصف الأول من القرن العشرين وقف جزلاً شامخاً مكاتِفاً الشعرَ القديم (تجد قصيدة الفرزدق في كتابنا «أول الشعر» في فصل الفرزدق، القصيدة رقم ٣٤)

٦ ممالك ظمأى للدماء

قال الشاعر القروي ونظمها سنة ١٩١٣ وكان يعلِّم في مدرسة سوق الغرب الأميركية. وامتنعت بعض الصحف عن نشرها، فنشرها في البرازيل عندما هاجر إليها في السنة نفسها:

تَفِرُّ مِنَ الموتِ النفوسُ جَوَازِعَاً   مَحَيَّرَةً، فالنَّفْسُ بالنَّفْسِ تَعْثُرُ
فَمِنْ مُلْتَقَى الأجسادِ في الأرضِ مَحْشَرٌ   ومِنْ مُلْتَقَى الأرواحِ في الجَوِّ مَحْشَرُ
مَمَالِكُ ظَمْأَى لِلدِّمَاءِ، ودوْلَةٌ   لها مِنْ شَكاوَى العَجْزِ سَيْفٌ ومِغْفَرُ

المغفر: زرد من حديد لحماية رقبة المحارب.. والدولة الضعيفة: الدولة العثمانية

بَكَتْ واشْتَكَتْ، كالطِّفْلِ يؤْلِمُ نفْسَهُ   فكانَ البَلا مِنْهَا، ومِنْهَا التَّذَمُّرُ
ولو ذَكَرَتْ عبدَ الحميدِ لأَدْرَكَتْ   مَثَارَ الشَّقَا، لو يُسْتَطاعُ التَّذَكُّرُ

مثار الشقا: أصل الشقاء. وكان عبد الحميد قد عزل عن السلطنة في عام ١٩٠٩. وكان عهده شديداً ومخابراته مخيفة. ولكن العهد الذي تلاه كان يكره العرب ويكرهونه

يكادَ يَفِرُّ الطِّرْسُ ذُعْراً لِذِكْرِهِ   ويُحْجِمُ في الكَفِّ اليَرَاعُ المُسَطِّرُ

اليراع: القلم، الطرس: الورقة

إذا لاحَ، لاحَ الموتُ فيهِ مُجَسَّمَاً   وإنْ غابَ يَسْتَدنِي أَذَاهُ التَّصَوُّرُ

يستدني: يُدني

فَيَبْلُغُ مِنْ أجسامِنَا، وهْوَ ظَاهِرٌ   ويَبْلُغُ مِنْ أرواحِنَا، وهَوَ مُضْمَرُ
زَمَانٌ مُنَاجَاةُ الضَّمِيرِ شَجَاعَةٌ   بِهِ، ومُنَاجَاةُ السَّمِيرِ تَهَوُّرُ

لَدُنْ كانَ مَوْتُ الناسِ حَتْفَ أُنوفِهِمْ يُعَدُّ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً لَيْسَ تُكْفَرُ

لدن (عندما) كان موت الناس حتف أنوفهم (في أَسِرَّتهم) يُعَدُّ نعمة لا تجحد. قصيدة مبكرة للشاعر قبل أن يغترب، وفيها برهان على فصاحة رشيد سليم الخوري «الشاعر القروي».. شاب في السادسة والعشرين ويملك هذه الجزالة!

٧ سفر نهايته سفر

قال القروي في مدينة مريانا بالبرازيل ١٩١٣:

سَفَرٌ نِهايَتُهُ سَفَرْ مِثْلُ النَّسِيمِ بِلا مَقَرّ
ضَجِرَ السُّرَى والسَّيْرُ مِنِّـ ـي والبَواخِرُ والقُطُرْ

السرى: سير الليل، القطر: القطارات

حَتَّامَ أبقَى دائِراً حولَ البَسِيطةِ كالقَمَرْ
أصطادُ أطيارَ السعا دةِ وَهْيَ مِنْ وجهي تَفِرّ
عَبَثاً تدومُ سعادةٌ إنْ لم يساعدْكَ القَدَرْ
أيُّوبُ سَلِّمْ صَولَجا نَكَ، لستَ أعظَمَ مَنْ صَبَرْ
لو ذُقْتَ يَوماً ما أذو قُ، لَكُنْتَ أوَّلَ مَنْ كَفَرْ

٨ الشاربان

قال في مدينة مريانا بالبرازيل سنة ١٩١٣:

قالُوا حَلَقْتَ الشَّارِبَيْـ ـنِ، وَيَا ضَيَاعَ الشَّارِبَيْنِ
فَأَجَبْتُهُمْ: بَلْ بِئْسَ ذَا نِ، ولا رَأَتْ عَيْنَايَ ذَيْنِ
الشَّاغِلَيْنِ المزْعِجَيْـ ـنِ الطَّالِعَيْنِ النَّازِلَيْنِ
وَيْلِي إذا مَا أَرْهَفَا ذَنَبَيْهِمَا، كَالعَقْرَبَيْنِ
إنْ يَنْزِلا لَجَمَا فَمِي، أَوْ يَصْعَدَا الْتَطَما بِعَيْنِي
وإذا هُمَا بُسِطَ الخِوَا نُ، تَراهُمَا بَسَطَا اليَدَيْنِ

الخوان: المائدة

فَإِذَا أردْتُ الشُّرْبَ يَمْـ ـتَصَّانِ كَالإِسْفَنْجَتَيْنِ
فَكَأَنَّنِي بِهِمَا وَقَدْ وَقَفَا بِبابِ المِنْخَرَيْنِ

عَبْدانِ مِنْ أَشْقَى العبيـ ... ـدِ تَقاضَيَا مَلِكاً بِدَيْنِ

٩ الكاسر والمكسور

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤:

العصفور:

يا باشِقُ ارْحَمْني، ورِقَّ لِحَالَتي ... دَعْني لأفْراخي الصغارِ أَطِيرُ

الباشق: طير كاسر كالصقر

ما في حياتي للسِّوَى ضَرَرٌ، ولا ... ظُلْمٌ، ويَكْفي أنَّني عُصْفورُ

للسوى: للآخرين

فامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ السَّامي، ولا ... تَسْلُبْ حياتي، فالكَبيرُ غَفُورُ

الباشق:

خلِّ البكاءَ، فليسَ دمعُكَ مُرْوِياً ... جَوْفي، ونَارُ الجوعِ فيهِ سَعِيرُ

أَنَا إنْ رَثَيْتُ لأَنَّةٍ، أو زَفْرَةٍ ... أَيَسُدُّ جُوعي أَنَّةٌ وزَفِيرُ؟

لو لم يَكُنْ بعضُ الطيورِ فَرَائِسَاً ... أَنَّى تَعِيشُ بَوَاشِقٌ ونُسورُ

أنتَ الكبيرُ على البَعُوضِ لِضَعْفِهِ ... وأَنا على هَذا الكبيرِ كبيرُ

فاصْبِرْ على حُكْمِ القَضاءِ، فإِنَّما ... كأسُ القَضَاءِ على الجَمِيعِ تَدُورُ

الإنسان:

شاءَ القديرُ وحَتَّمَ المقْدُورُ ... يا بَاشِقُ احْكُمْ، وارْضَ يا عُصْفُورُ

تلكَ الطبيعةُ، مَنْ يُغَيِّرُ حُكْمَهَا؟ ... هيهاتَ! ليسَ لِحُكْمِها تَغْييرُ

الثَّوْرُ يَقْنَعُ بِالحَشِيشِ، وإنْ يَكُنْ ... طولَ النَّهارِ عليْهِ جَارَ النِّيرُ

النير: الخشبة توضع على رقبة ثور الحراثة

والنَّحْلُ مِنْ أَرْيِ الأَزَاهِرِ يَغْتَذي ... ويَقُوتُ أنواعَ الدَّوَابِ شَعِيرُ

الأري: العسل

والوحشُ قد عَافَ النَّباتَ، ولم يَكُنْ ... أبداً على غيرِ اللُّحومِ يُغِيرُ

فَلِكُلِّ مخلوقٍ طعامٌ واحِدٌ ... يُرْضِيهِ، مَعْ أنَّ الطَّعامَ كَثيرُ
أمَّا ابنُ آدَمَ فَهْوَ أَشْرَهُ كائِنٍ ... فوقَ الثَّرَى، وعلى الجميعِ يَجُورُ
فالمرءُ مُلْتَحِفٌ رِداءَ رِيائِهِ ... لا يَخْدَعَنَّكَ شَكْلُهُ المَنْظُورُ
مَهْمَا بَدَا حَمَلاً وَدِيعاً طَاهِراً ... لا شَكَّ يَكْمُنُ ضِمْنَهُ خِنْزِيرُ

١٠ يسيء ويغضب

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤ :

تَعَجَّبْتُ مِنْ غَدَراتِ الصديقِ ... وأعجبُ مِنْ ذاكَ أنْ أَتَعَجَّبْ
وبعضُ القلوبِ كطقسِ البرازيـ ... ـلِ، في كلِّ ثانيةٍ يتقَلَّبْ
يسيءُ إليكَ، ويغضبُ منكَ ... وكمْ مِنْ صديقٍ يسيءُ ويغضَبْ

١١ في رعاية الله

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤ :

أنا في غُرْبةٍ عنِ الأهلِ، لكنْ ... عنكَ، يا رَبُّ، يَسْتَحيِلُ اغترابُ
أنا طِفْلٌ، وأنتَ تحرسُ مهدِي ... فَلْتُكَشِّرْ عنِ النُّيوبِ الذئابُ

١٢ اتعبْ تربحِ التعب

إذا اللصوصُ أضاعوا مِنْ مُروءَتِهِمْ ... ضِعْفَ الغنيمةِ، فالمَسلوبُ مَنْ سَلَبا

المسلوب: خبر مقدم. الشرح: اللص يفقد شرفه، وهو أهم مما يغنمه في السرقة، لذا فالذي يسلب هو في الواقع المسلوب

وقد تَعودُ لكَ الأموالُ إن ذهبتْ ... ولا يعودُ حميدُ الصيتِ إن ذهبا

حميد الصيت: الصيت الحميد، كقولك (جزيل الشكر) بمعنى (الشكر الجزيل)

في المالِ همٌّ، وفي تحصيلِهِ تعبٌ، ... فالمرءُ يتعبُ حتى يربَحَ التَّعبا

١٣ جرأة الحلمتين

جُرْأَةُ الحَلْمتينِ تحتَ الصِّدَارِ ... علمتْنا في الحبِّ خَلْعَ العِذَارِ

الصدار: الصدرية، خلع العذار: التهور

خَبِّئي هذهِ المفاتِنَ عنَّا ... إنَّمَا الصَّدْرُ مَخْبَأُ الأَسْرَارِ

كيف لا تطمعُ الأكُفُّ بِكَنْزٍ دافعٍ نَفْسَهُ إلى النُّظَّارِ؟

١٤ عاد الرشيد

قال حين خرج الحسين بن علي وأبناؤه على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى:

عادَ الرَّشيدُ وعادَ باهِرُ عصرِهِ سبحانَ مَنْ بَعَثَ الحُسَيْنَ لِنَشرِهِ

نشره: بعثه من القبر

الليلُ خيطٌ مِنْ حِدَادِ مَغِيبِهِ والصبحُ سهمٌ مِنْ أشِعَّةِ فَجْرِه
مَلِكٌ على الإسلامِ أبدَى غَيْرَةً قَرَّتْ بها عينُ الرسولِ بِقَبْرِه
نَصَرَ المروءةَ، فالمسيحُ وأحمدٌ يتبادلانِ التَّهنِئاتِ بِنَصْرِه

١٥ طوباك

قال في جولة تجارية له في البرازيل، والقطار يشق السهول الواسعة، وقد رأى الشاعر البقر في الحقول:

طُوباكِ سارِحةً في القَفْرِ، طوباكِ إن كنتُ أحسُدُ مخلوقاً فإيَّاكِ

طوباك: طوبى لك، أدعو لكِ بالسعادة

الزُّهرُ مثلُك، في الآفاقِ تنتشرُ تغشى مروجَ العُلى، والليلُ معتكِرُ

الزُّهر: النجوم، مروج العلى: سهول السماء، يتخيل سهولاً في السماء، معتكر: مظلم .

تَاللَّهِ! كم يتمنَّى عَيْشَكِ البشرُ ماذا تخافينَ في البيداءِ يا بَقَرُ؟
إن كنتِ تخشيْنَ مِنْ أنيابِ فَتَّاكِ طوباكِ، فالجِلْدُ غيرُ العِرضِ، طوباكِ

تمزيق المفترس الفتاك جلدَك أهون من تمزُّق العرض

* * *

طُوباكِ في الصيفِ، والرمضاءُ تتَّقدُ والحَرُّ منهُ يذوبُ الجِلْدُ، والجَلَدُ

الرمضاء: الحر الشديد، الجَلَد: الصبر

هذا اللهيبُ الذي يُشوى به الجسدُ أشدُّ منه على أكبادِنا الحَسَدُ
إن كان منهُ الذي سوَّاكِ نجَّاكِ طوباكِ في لفحةِ الرمضاءِ، طوباكِ

* * *

تشكِينَ فصلَ الشتاءِ البارِدِ القاسي ماذا أقولُ أنا في عِشْرةِ الناسِ
نامي على الثلجِ، نامي ليسَ مِنْ بَاسِ فالثلجُ غيرُ فؤادٍ دونَ إحساسِ
وإن تكنْ هاطلاتُ الغيثِ تغشاكِ طوباكِ فالقَطْرُ غيرُ الدمعِ، طوباكِ

تغشاكِ: تحُلُّ بكِ

١٦ ذل الحفيد

قال إثر صدور وعد بلفور، وكان الناس بالبرازيل وقتئذ يحتفلون في أحد أعيادهم:

ذَرُوا الأفراحَ للشعبِ السعيدِ وخَلُّونَا لِهَمٍّ مُسْتَزِيدِ
وعنْ عيدِ المَسَاخِرِ أَبْعِدُونا فنحنُ مَسَاخِرٌ، مِنْ غيرِ عيدِ

عيد المساخر: عيد جميع القديسين (الهالوين)، ومن لوازمه ارتداء الملابس التنكرية

نرومُ تَنَكُّراً فيهِ، كأنَّا عُرِفْنَا قبلَ ذلكَ في الوُجودِ
وهلْ هذي الوجوهُ إذا انْتَسبْنا تُزَكِّي أصلَنا عندَ الجُدودِ

هل الوجوه التنكرية تزكي (تؤيد) لدى أجدادنا انتسابنا إليهم؟

مضتْ شُمُّ الأنوفِ، فليسَ فِينا سوى بِيضٍ لَهُمْ شِيَمُ العبيدِ

شم الأنوف: الأنوف الشماء المرتفعة، يقصد الأجداد الكرام

ألا رَحِمَ المهيمنُ كلَّ جَدٍّ سعيدِ الجَدِّ، في المثوَى السَّعيدِ

رحم الله كل جد من أجدادنا سعيد الجد (الحظ) في مثواه لأنه مات قبل أن يرى ما حل بنا

كأنْ لم يُغْمِضِ العينينِ إلّا كراهَةَ أنْ يَرَى ذُلَّ الحَفيدِ

١٧ برازيلية

قال في إحدى جولاته التجارية في ولاية بارانا بالبرازيل سنة ١٩١٩:

وفاتنةٍ! كأنَّ اللَّهَ لمَّا حَبَاها الحُسْنَ ما رَاعَى الحِسَابا
برازيليَّةٍ وَطَناً؛ ولكنْ، إلى الأعرابِ تَنْتَسِبُ انتسابا
كأنَّ الوردَ خَضَّبَ وَجْنَتَيْها وغَيْرَ الحُسْنِ لم تعرفْ خِضَابا
لَيالٍ أَرْبَعٌ مَرَّتْ علَيْنا نَهَبْناها مِنَ الدهرِ انتِهَابا

١٨ الحمار والعلف والغربة

قال وكتبها في البحر بين ريو غرندي دو سول وسنطس سنة ١٩٢٠:

دَفـنـتَ ربـيـعَ عـمـرِكَ فـي بـلادٍ ... بِـهـا طـالـتْ لـيـالِـيكَ الـقِـصَـارُ
يُـبـارِكُـهـا الـذي قـد حـازَ مَـالاً ... وقـيـمـةُ مـالِـهِ ذلٌّ وعـارُ
يـقـولُ لِـيَ: الـمَـعَـزَّةُ في حِـمَـاها، ... وبـئـسَ الـعِـزُّ يَـفْـهَـمُـهُ الـتِّـجَـارُ
ولا يَـنـسـى لـهـيـبَ الـسَّـوْطِ إلَّا، ... إذا مـا شـاهَـدَ الـعـلَـفَ، الـحِـمَـارُ
تـرومُ بِـمِـهـنـةِ الـتَّـجـوالِ مَـالاً ... وحـظُّـكَ والـغِـنَـى: مَـاءٌ ونـارُ

يخاطب نفسه الآن: تطلب بمهنة البائع المتجول أن تصبح غنياً؛ ولكنْ، أنت والغنى متنافران كالماء والنار

وفـي أُذُنـيْـكَ صـوتٌ مُـسْـتَـمِـرٌّ: ... رَشِـيـدُ أَفِـقْ لـقـد صَـفَـرَ الـقِـطـارُ
أَرُومُ إلـى رُبَـى لـبـنـانَ عَـوْداً ... ويُـمْـسِـكُـنـي عَـنِ الـعَـوْدِ افـتِـقـارُ
ولـو خُـيِّـرْتُ لـم أَهْـجُـرْ بِـلادي ... ولـكـنْ لـيـسَ في الـعَـيْـشِ اخـتـيـارُ

١٩ بطل ميسلون

إنَّ بِـالـعَـظْـمَـةِ أعـلـى مَـثَـلٍ ... لِـلْـفِـدَى تَـنْـشُـدُه الـنَّـفْـسُ الأَبِـيَّـةْ

يوسف العظمة: وزير الحربية في حكومة فيصل بدمشق. خرج إلى ميسلون ليواجه الفرنسيين المحتلين بقيادة هنري غورو، واستشهد ١٩٢٠

وَدَّعَ الـغُـوطَـةَ يَـبْـغـي جَـنَّـةً ... غَـيْـرَها، تَـحْـتَ ظِـلالِ الـمَـشْـرَفِـيَّـةْ
يـا مُـعِـيـداً مَـجْـدَنـا الـضَّـائِـعَ! نَـمْ ... مُـسْـتَـرِيـحـاً فـي ظِـلالِ الأَبَـدِيَّـةْ

٢٠ نسي الصليبيون ما علمتهم

الـحقُّ مِـنْـكَ، ومِـنْ وُعُـودِكَ أكـبَـرُ ... فاحْـسُـبْ حسابَ الـحقِّ يا مُـتَـجَـبِّـرُ
تَـعِـدُ الـوعـودَ، وتَـقْـتَـضـي إنـجـازَهَـا ... مُـهَـجَ الـعِـبَـادِ، خَـسِـئْـتَ يـا مُـسْـتَـعْـمِـرُ

تقتضي (تطلب) لإنجاز وعودك الاستعمارية أرواح الناس

لو كـنـتَ مِـنْ أهـلِ الـمكـارمِ لم تَـكُـنْ ... مِـنْ جَـيْـبِ غـيـرِكَ مُـحْـسِـنـاً، يَـا بَـلْـفُـرُ
يَـدْعُـوكَ شـعْـبُـكَ يا صلاحَ الدينِ، قُـمْ ... تَـأْبَـى الـمروءةُ أنْ تـنـامَ، ويَـسْـهَـروا
نَـسِـيَ الـصـلـيـبـيـونَ مـا عَـلَّـمْـتَـهُـمْ ... قـبـلَ الـرحـيـلِ، فَـعُـدْ إلَـيْـهِـمْ يَـذْكُـرُوا

أُمْنِيَّةُ الدنْيَا السلامُ، وإنَّما تحقيقُها فَرْضٌ على مَنْ يَقْدِرُ
هيهاتَ! والتَّسْلِيحُ أكْبَرُ هَمِّكُمْ والوحْشُ خَلْفَ جُلُودِكُمْ مُتَنَكِّرُ
ما رَوَّضَ التِّمْسَاحَ صَقْلُ أَدِيمِهِ مَهْمَا تَمَدَّنْتُمِ فأَنْتُمْ بَرْبَرُ

بربر: يقصد «برابرة»، وهم الأمم البدوية التي خربت المدن في أوروبا قبل النهضة

٢١ الموت شرط التكريم

قال في تأبين فرح أنطون، صنبول ١٩٢٢:

يا أيها الأُدَبا! مُوتوا لِنُكْرِمَكُمْ إنْ يَخْبُثِ العيشُ، قد تَحْلُو المَنِيَّاتُ

المنيات: الميتات

مَنْ لا يُكَرِّمُنيِ إلَّا على جَدَثيِ فما تَكارِيمُهُ إلَّا إهاناتُ

جدثي: قبري

لو بعضُ إكرامِنا للنَّابغينَ بَدا مِنَّا لهم قبلَ أنْ ماتوا، لَما ماتوا

التسويد للشاعر عمران القفيني، شكر الله له بيض أياديه، وسود وجوه أعاديه، وأناله من الكرامة ما يرضينا ويرضيه

٢٢ فائدة الأعداء

قال سنة ١٩٢٢:

تَبارَكَ مَنْ رأى شَرّاً فَأَغْضَى ومَنْ في الحُبِّ تُغْضِبُهُ فَيَرْضَى
أَحِبُّوا بَعْضَكُمْ يَا قَوْمُ بَعْضَا فقد مَلأَ الفسادُ الأرضَ بُغْضَا
وكادَ الحُبُّ بينَ الناسِ يَخْفَى

* * *

عَدُوِّيِ! أنتَ عَوْسَجَةُ الحديقَةْ وأنتَ الشَّوْكُ في وَرْدِ الحَقيقَةْ

العوسج: نبات شوكي

وأنتَ مَرارَةُ الخَمْرِ العتيقَةْ وأنتَ سَوادُ سَوْداءِ الشَّقِيقَةْ

السواد الذي في زهرة شقائق النعمان

تَزِيدُ جمالَها لُطْفاً وظَرْفا

* * *

عَدُوِّي! ليتَ عَيْنَكُ في فُؤَادي   لِتُصْلِحَ فيهِ مُسْتَتِرَ الفَسادِ
أَمَا سُخِّرْتَ مِنْ رَبِّ العِبَادِ   رَقِيباً لا يَنامُ عَنِ انْتِقادِ
ولا يُغْضي عَنِ الهَفَواتِ طَرْفَا

٢٣ لا فضل للشعراء

لا فضلَ للشعراءِ في وَثَباتِهِمْ   وَلَوَ انَّهُمْ فوقَ المَجَرَّةِ ساحُوا
فالشعرُ مِنْ نَفَحَاتِ وادي عبقرٍ   مِنَّا الكؤوسُ، ومِنْ هناكَ الرَّاحُ
لا نَستحِقُّ ثناءَكُمْ، إلَّا إذا   شُكِرَتْ على زُحَلِيَّةٍ أقداحُ

زحلية: خمر مصنوعة في زحلة، البلدة اللبنانية المشهورة بالعرق. والعرق شراب قوي، قال فيه الشارح: قالوا الأقاويل في البيرا وما اتفقوا/ وفضلوا الجن والويسكي وما صدقوا// وقال بو أحمد والسكر تعتعه/ للخمر مملكةٌ سلطانُها العرق

دعوَى المُدِلِّ على الأنامِ بِشعرِه   دَعوى الزُّجاجةِ أنَّها المِصباحُ

المدل: المفتخر

٢٤ نجمة من الشرق

طَلَعتْ عبقريةُ العلمِ والفنِّـ   ـتَهادَى بِبَندِها الخفَّاقِ

تهادى: تتهادى، البند: الراية

وتُبَاهي مجدَ الملوكِ بِمَجدٍ   مُترامٍ، على المَمالِكِ باقِ

العبقرية تباهي الملوك بمجدها المترامي (الواسع) الذي يبقى على تبدُّل الممالك وزوالها

وإذا نجمةٌ مِنَ الشرقِ، لاحتْ   تَبْهَرُ العالمينَ بالإشراقِ
فَتَهاوَى الوَرى على قدمَيْها   سُجَّداً بالخُشوعِ والإطراقِ
وتوارتْ عباقرُ العلم والفنِّ   وراءَ السُّطورِ والأوراقِ
قيلَ: مَنْ هذهِ المَليكةُ؟ قالوا: إنَّها عبقريةُ الأخلاقِ

٢٥ آمنت بالأخرى

قال عام ١٩٢٣:

آمنتُ بالأُخرى، فليس وجودُنا   عَبَثاً، وليس مصيرُنا لِفَناءِ

ضَلَّ الذي حَسِبَ الشتاءَ نهايةً إنَّ الربيعَ مُوَكَّلٌ بشتاءِ

موكل: مرهون، أي أن الربيع مشروط بأن يجيء قبله الشتاء

٢٦ رثاء المنفلوطي

قال في تأبين المنفلوطي، وألقاها في النادي الحمصي في صنبول ١٩٢٤:

يا مُصْطَفَى! نَحْكي، ومِثْلُكَ ساكِتٌ؟ صَبْراً على هَذَيانِنا، يا مُصْطَفَى
إنَّ الجَهُولَ لَكَالمَنِيَّةِ، إنْ يَقُلْ يُعْيِ الفَصيحَ، ويُبْكِم المُتَفَلْسِفَا
إنْ لم يَكُنْ خَلْفَ الرِّثاءِ لِشَاعِرٍ عِظَةٌ، فَيَا شُعَراءُ خَلُّوا المَوْقِفَا
والحُرُّ، إنْ قَطَعَ الحِمَامُ خِطابَهُ، فَعَلَى أخيهِ الحُرِّ أنْ يَسْتَأْنِفَا
والشعرُ، إنْ فَسَدَ الزَّمانُ، فَخَيْرُهُ ما عَنَّفَ الأسماعَ، لا ما شَنَّفَا
حَتَّامَ، يا ابْنَ الطِّينِ، تَرْكَبُ لِلْهَوى طِرْفَاً، وتَسْحَبُ لِلْغَوايَةِ مُطْرَفَا

طرفاً: حصاناً، مطرفا: رداء

وغداً سَتَرْكَبُ مَرْكَباً تَبْكي إذا فكَّرْتَ فيهِ، وتَشْتَهي مَشْيَ الحَفَا
أَنْفِقْ، إذا أَوْلَاكَ رَبُّكَ نِعْمَةً، وانْعَمْ، فَمَا أُولِيتَ كَيْ تَتَقَشَّفَا

أوليت: مُنِحتَ نعمة

وإذا مَرَرْتَ على الفقيرِ، فلا تُشِحْ مُتَأَفِّفاً، والحقُّ أنْ يَتَأَفَّفَا
لم تَشْكُ إذْ أسْرَفْتَ في إرْهاقِهِ وشَكَوْتَ حينَ اضْطُرَّ أنْ يَتبَلْشَفَا

يتبلشف: يتبع الحزب البلشفي، الحزب الشيوعي

ماتَ الكِرَامُ، فَلا تَرَى بينَ الوَرَى إلَّا شَحِيحاً، في الخَلاعةِ مُسْرِفَا
أَمَّا الأديبُ، فإنَّهُ كَخَيالِهِ مَعْنىً مِنَ الأَعْضَاءِ يَسْكُنُ أَحْرُفَا

الأديب مهزول الجسم فكأنه ليس جسماً بل معنىً من المعاني، وهذا المعنى لا يسكن جسماً بل يسكن أحرفاً هي كلماته. والتسويد لعمران القفيني

عَبَثاً يُنَزِّلُ كلَّ يومٍ لِلْوَرَى سِفْراً، ويُلْهَمُ كلَّ يَوْمٍ مُصْحَفَا
نَبْتُ الرُّبَى ونَدَى السماءِ كِفَافُهُ وعَفِيفُهُمْ هَضَمَ البلادَ، وما اكْتَفَى
إنْ لم يَكُنْ للناسِ، غيرَ طَعامِهِمْ، غَرَضٌ، فقدْ سَاوَى الخِوَانُ المِعْلَفَا

الخوان: منضدة الأكل، المعلف: المذود تأكل منه البهائم

٢٧ منتهى اليأس

هلْ بينَكُمْ مِنْ رَاجِمٍ قَاتِلٍ   يُزَحْزِحُ الأيَّامَ عَنْ كَاهِلِي
يريد قاتلاً يزيح الأيام (العمر) عن كاهله (ظهره)

يَقْذِفُ بِي في دَرَكِ اللُّجِّ، لا   يَلْفِظُني مَوْجٌ إلى سَاحِلِ
يريد أن يقذفه هذا القاتل في درك (قاع) اللج (البحر)

يا لِاشْتِهَائِي جَنَّةً مِنْ لَظىً   آكُلُ مِنْ يَانِعِهَا الآكِلِ
يريد جنة ولكن من اللظى (الجمر)، لكي يأكل من يانعها (ثمرها الطري) الآكِلِ للبشر

في شَجَرٍ مِنْ لَهَبٍ ثَائِرٍ   على ضِفَافِ اللَّهَبِ السَّائِلِ
مَأْدُبَةً تَنْحَرُ ضِيفَانَهَا   آمِنَةَ الوَارِشِ والوَاغِلِ
يريد مأدبة تذبح ضيفانها (ضيوفها)، وهي تأمن من الوارش (المتطفل على مائدة قوم) والواغل (المتطفل على مجلس الشراب)

وَابَرْدَهَا عِنْدِي إذا اجْحَوْحَمَتْ   كَأُخْتِهَا في قَفَصِي النَّاحِلِ
ما أبردها على قلبي إذا اشتد جحيمها، فهذا جحيم يشبه الجحيم الذي في قفصي الصدري الناحل (الهزيل)

لاقِفَةً فُلْكَ هُمُومي مَعي   ذَاهِبَةً بِالحِمْلِ والحَامِلِ
يريد من هذه الجهنم أن تلقف فُلك (سفينة) همومه، فتذهب بها وبراكبها

يا مَنْ يُذَرِّيني طَحِيناً على   وَجْهِ يَبَابٍ مُحْرِقٍ قَاحِلِ
مَا رَشَحَتْ مِنْ جَوِّهِ قَطْرَةٌ   يَوْماً على نَضْرٍ ولا ذَابِلِ
لاشِ حَيَاتي يا إِلَهِي، ولو   حَقَّقْتَ زَعْمَ المُلْحِدِ الجَاهِلِ
يدعو ربه إلى أن يجعل حياته تتلاشى، حتى وإن كان بذلك يوافق ما يزعمه الملحد من تلاشي الروح

جِسْمِي ورُوحِي وأَغَانِيَّ. لا   تُبْقِ على بَاقٍ، ولا زَائِلِ
إنِّيَ أَبْغِي عَدَماً مُطْلَقاً   يُعْيِي على النَّافِخِ والجَابِلِ
يريد عدما يعيي (يعجز) النافخ في الصور يوم القيامة، ويعجز الجابل الذي جبل النفوس من طين

أقْسَى مِنَ الموتِ على النَّفْسِ أنْ   تَسْعَى إلى الموتِ بِلا طَائِلِ
مُتْ يا أخي العامِلَ، مُتْ جَائِعَاً   ولا تَسَلْ عَنْ لُقْمَةِ العَامِلِ

إنْ فاتَكَ الخُبْزُ، فَلُكْ آيَةً   وانْعَمْ بِمَوْتِ المؤمنِ الآمِلِ

إن عدمت الخبز أيها العامل فعليك أن تلوك الآيات المقدسة، وأن تموت ميتة مؤمن يملؤه الأمل بحياة أخرى

غداً لَكَ الخُلْدُ، فَمَا ضَرَّ أَنْ   لم تَأْكُلِ اليومَ مَعَ الآكِلِ
قَبِّلْ يَدَ الظَّالم قَسْراً، ولا   تَعْتَبْ على خَالِقِهِ العَادِلِ
هلْ كانتِ الآلامُ مُذْ قُدِّرَتْ   إلَّا نَصِيبَ الرَّجُلِ الفاضِلِ
فَلْنَحْمَدِ المولَى على نِعْمَةٍ   خُصَّتْ بِنَا مِنْ فَضْلِهِ الشَّامِلِ
يا سِائلي عَنْ سِرِّ هذا الوَرَى   أَقْصِرْ، وَقَاكَ اللّهُ يا سائِلِي

أقصر: كُفَّ

ما أَبْعَدَ الشَّكْوَى، على هَوْلِها،   عَنْ بَعْضِ ما يَنْهَشُ في دَاخِلِي

٢٨ الجنة الموعودة

قال في صنبول ١٩٢٤:

قد كنتُ مِنْ لُبْنَانَ في جَنَّةٍ   نَاضِرةٍ، لم أُلْفِها نَاضِرَةْ
ولم أزلْ أصبُو إلى غيرِهَا   حتَّى ركبْتُ اللُّجَّةَ الزَّاخِرَةْ

اللجة الزاخرة: البحر المرتفع الموج

فلم أشاهِدْ بَلَداً عامِراً   أطيبَ مِنْ مَزْرَعَةٍ عَامِرَةْ

مهما كان البلد عامراً وكبيراً فحاجتي منه لا تتعدى حاجتي إلى مزرعة، هذا المعنى الذي لمحته

لكنْ هِيَ الآمالُ طَوَّاحَةٌ   بِكُلِّ نَفْسٍ حرةٍ ثائِرَةْ
تَسْتَطْلِعُ الأسرارَ مفتُونَةً   بِكُلِّ ما يَعْدُو مَدَى البَاصِرَةْ

يعدو مدى الباصرة (العين): يتجاوز مدى الرؤية

يا نفسُ! خَفْضَاً مِنْ جَنَاحِ المنَى   لأيِّ رَبْعٍ أنتِ بي طائِرَةْ
دنياكِ هذي لنْ تَرَيْ غيرَها   كوني مَلاكاً تَكُنِ الآخِرَةْ

٢٩ سمو عن الشكوى

قال في صنبول ١٩٢٤:

أنتَ حُرٌّ فَاسْتَوْطِنِ البَلَدَ الحُرَّ   وصَاحِبْ مِنْ أَهْلِهِ إخْوَانا

واسْمُ عَنْ أنْ تَشْكُوُ إلى النَّاسِ فَقْراً وَلَـئِـنْ بِـتَّ جَـائِـعـاً ظَـمْـآنـا
بَـسْـمَـةٌ تُـظْـهِـرُ الـفَـقـيـرَ غَـنِيّاً، دَمْـعَـةٌ تَـمْـسَـخُ الـشُّـجَـاعَ جَـبَـانَـا
كُـنْ إلَـهَ الـنُّـضَـارِ، إنَّـكَ عِـنْـدي لَـسْـتَ شَـيْـئَـاً ما لـم تَـكُـنْ إنـسـانَـا

النضار: الذهب

٣٠ فيض من حنان

تَـحَـيَّـرَ بـي عَـدُوِّي إذْ تَـجَـنَّـى عَـلَـيَّ، فَـمَـا سـألـتُ عَـنِ الـتَّـجَـنِّي
وقـابَـلَ بـيـنَ مـا ألـقـاهُ مِـنْـهُ ومـا يَـلْـقَـى مِـنَ الإحـسـانِ مِـنِّـي
إلـى أنْ ضـاقَ بِـالـبَـغْـضَـاءِ ذَرْعَـاً وحَـسَّـنَ ظَـنَّـهُ بـي حُـسْـنُ ظَـنِّـي
عَـدُوِّي! لـيسَ هـذا الـشَّـهْـدُ شَـهْـدِي وَلا الـمنُّ الـذي اسْـتَـحْـلَـيْـتَ مَـنِّـي

المنّ: طعام حلو، وهو أخو السلوى

فَـلـي أُمٌّ حَـنـونٌ، أَرْضَـعَـتْـنـي لِـبَـانَ الـحُـبِّ مِـنْ صَـدْرٍ أَحَـنِّ

لبان: حليب

عـلـى بَـسَـمَـاتِـهَـا فَـتَّـحْـتُ عَـيْـنـي ومِـنْ لَـثَـمَـاتِـهـا رَوَّيْـتُ سِـنِّـي

لثمات: قبلات

كَـمَـا كـانَـتْ تُـنَـاغِـيـنـي أُنَـاغـي ومَـا كـانَـتْ تُـغَـنِّـيـنـي أُغَـنِّـي
سَـقَـانـي حُـبُّـهَـا فـوقَ احْـتِـيَـاجـي فَـفـاضَ عـلى الـوَرَى ما فَـاضَ عَـنِّـي

٣١ يا أم... يا حنونة

قال ونظمها بين ١٩٢٤ و١٩٢٥. وكانت أمه وصلت حديثاً إلى صنبول:

أَتَـذْكُـرُ كـيـفَ كـانَ إلَـهُ مُـوسَـى إلَـهـاً قـاسِـيـاً يَـلْـتَـذُّ بِـالـدَّمْ
إذنْ فَـإلَـيْـكَ كَـيْـفَ غَـدَا إلَـهـاً رَحِـيـمـاً، إنْ تَـأَلَّـمْـنـا تَـأَلَّـمْ
رَوَى الـراوُونَ أنْ عَـثَـرُوا بِـمِـصْـرٍ عَـلـى دَرْجٍ غَـريـبِ الـخَـطِّ مُـبْـهَـمْ

درْج: رقعة

فَـقَـالـوا إنَّـهُ، مِـنْ قَـبـلِ عـيـسَـى، تُـوُفِّـيَ شـاعِـرٌ فـي الـشَّـرْقِ مُـلْـهَـمْ
أَضَـاعَ الـعُـمْـرَ في طَـلَـبِ الـمعَـاصـي يُـحَـلِّـلُ مَـا كِـتَـابُ الـلَّـهِ حَـرَّمْ

ولـكِـنْ، بِـرُّهُ الأَبَـوَيْـنِ غَـطَّـى   مَـسَـاوِئَـهُ، فَـخُـلِّـصَ مِـنْ جَـهَـنَّـمْ
فَـنَـامَ بِـحِـضْـنِ إبـراهـيـمَ، لـكِـنْ   قُـبَـيْـلَ الـفـجـرِ شـاعِـرُنَـا تَـبَـرَّمْ

في إنجيل لوقا قصة نوم لِعَازَر الفقير بعد موته في حضن إبراهيم النبي

وقـامَ لِـرَبِّـهِ يَـشْـكـو ويَـبْـكـي   بُـكَـاءً صَـيَّـرَ الـفِـرْدَوْسَ مَـأْتَـمْ
فَـهَـدَّأَ رَوْعَـهُ، وحَـنَـا عـلـيْـهِ   وطَـيَّـبَ قَـلْـبَـهُ بِـحَـنَـانِـهِ الـجَـمّ
وَوَسَّـدَهُ يَـدَيْـهِ ورُكْـبَـتَـيْـهِ   ومَـالَ عـلـيـهِ بـالـتَّـقْـبيـلِ والـضَّـمْ
وقـالَ لِـعَـبْـدِهِ دَاوُدَ رَنِّـمْ   لِـهـذَا الـبُـلْـبُـلِ الـبَـاكـي، فَـرَنَّـمْ

ونبي الله داود هو صاحب الصوت الجميل والأغاني المشهورة

فـنَـامَ بِـحِـضْـنِـهِ الأَبَـوِيِّ حِـيـنَـاً   وعـادَ يُـسَـاقِـطُ الـعَـبَـراتِ عَـنْـدَمْ

العندم: نبت أحمر

إلـى أنْ ضَـجَّ أهـلُ الـخُـلْـدِ غَـيْـظاً   وصاحَ اللَّهُ مِنْ غَضَبٍ: إلى كَمْ..
أُطِـيـقُ تَـذَمُّـراً مِـنْ عَـبْـدِ سَـوْءٍ   يُـجَـرَّعُ كَـوْثَـراً، فَـيَـقُـولُ: عَـلْـقَـمْ؟

حتى متى أحتمل التذمر من هذا الذي يشرب ماء نهر الجنة الكوثر ويقول إنه مرٌّ؟

أَرَى الـشُّـعَـراءَ جـازُوا الـحَـدَّ، إِنِّـي   أكـادُ لِـخَـلْـقِـيَ الـشُّـعَـراءَ أنْـدَمْ
عـلامَ بُـكَـاكَ يـا هَـذَا؟ ومـاذَا   دَهَـاكَ، فَـلا تَـنِـي تَـشْـكُـو؟ تَـكَـلَّـمْ

لا تني تشكو: لا تنقطع عن الشكوى

فَـصَـاحَ: الـعَـفْـوُ يا مَـولايَ، مَنْ لي   سِـوَاكَ، ومَـنْ سِوَى الرَّحْمَنِ يَرْحَمْ
أَتَـيْـتُـكَ رَاجـيـاً نَـقْـلـي لِـحِـضْـنٍ   أَحَـبُّ إلـيَّ مِـنْ هـذَا وأَكْـرَمْ
لِـحِـضْـنٍ طَـالـمـا قَـد نِـمْـتُ فِـيـهِ   قَـرِيـرَ الـعَـيْـنِ، بـيـنَ الـضَّـمِّ والـشَّـمّ
أَمَـا أَلْـقَـيْـتَ رأْسَـكَ فـوقَ صَـدْرٍ   حَـنُـونٍ خـافِـقٍ بِـمَـحَـبَّـةِ الأُمّ؟
فَـأَصْـغَـى سَـيِّـدُ الأكـوانِ لُـطْـفَـاً   لِـشَـكْـوَى شَـاعِـرِ الـغَـبْـراءِ واهْـتَـمّ
وقَـالَ لِـنَـفْـسِـهِ: هـذا مُـحَـالٌ   أَيَـعْـلَـمُ شـاعِـرٌ مَـا لَـسْـتُ أَعْـلَـمْ
أَيَـنْـعَـمُ خَـاطِـئٌ في الأرضِ قَـبْـلي   بِـمَـا أَنَـا لَـسْـتُ في الفِـرْدَوْسِ أَنْـعَـمْ
لأَكْـتَـشِـفَـنَّ هـذا الـسِّـرَّ يَـوْمـاً   ولـو كُـلِّـفْـتُ أنْ أَشْـقَـى وأُعْـدَمْ

وكـانـتْ لَـيْـلَـةً؛ وإذا صَـبِـيٌّ　　　صَـغِـيـرٌ نـائِـمٌ فـي حِـضْـنِ مَـرْيَـمْ

هذه ترجمة شعرية للمفهوم المسيحي بألوهية المسيح، وقد لمعت فكرة القصيدة للقروي وهو ينظر في وجه أمه، يقول: «قلت لها بربك يا أمي، لا تحولي نظرك عني، لكأني أرى رؤيا شعرية غريبة لا عهد لي بمثلها قط. قالت: اسم الله حولك يا بني. يا أولاد لا «تعيطوا» ـ أي لا تصخبوا ـ عمكم ينظم. روحوا من هنا. ولبثتُ في ذهولي وموكب الإلهام يدنو مني وئيداً، أو أدنو منه، لا أدري، حتى شرعت أتبين معالمه وأستجلي شخوصه، فصحت وقد ملكتني نشوة الفن، وبدني يقشعر، والعرق يتصبب من جبيني: أماه بشراك، لقد جئتك بما لم يجئ به شاعر لأم».

٣٢ زهرة الحق

قال في تأبين سليمان البستاني في صنبول ١٩٢٥:

لا مِـنْ ثُـغـورِ الـغِـيـدِ فـي لـبـنـانِ　　　أو مِـنْ خُـدودِ الـحُـورِ والـوِلْـدَانِ
بل مِنْ ضُلوعِ المجدِ، مِنْ قلبِ الهُدَى　　　مِنْ مُهْجةِ التَّقوى، مِنَ الإيمانِ
قد صاغَها الرَّحمنُ أكملَ زَهرةٍ　　　رَقَصَتْ لها الأرواحُ في الأبدانِ
فإذا قَضَى بَطَلٌ مَجيدٌ، أو مَضَى　　　حرٌّ، شهيدَ مَحَبَّةِ الأوطانِ
تَكْسُو النَّضارةُ عودَها، فَيَمِيسُ في　　　أَبْهَى العُقودِ، وأَبهَجِ الألوانِ
وإذا خلا وجهُ الثَّرى مِنْ ثائرٍ　　　لِلْحَقِّ مُشْتَعِلٍ به مُتَفانِ
يَعْرُو البُتَيْلاتِ الذُّبُولُ كأنَّها　　　أَهْدَابُ طَرْفِ الغَادةِ الوَسْنانِ

البتيلات: أوراق الزهرة، الوسنان: النعسان

وتظلُّ مُطْبَقَةَ الجُفُونِ عَلِيلَةً　　　حتى يُتَاحَ لها شَهِيدٌ ثَانِ

يحدثنا عن زهرة تذبل، ولا تعود لها النضارة إلا إذا نزل دم شهيد جديد

ولَرُبَّ عَهْدٍ طالَ فيه ذُبولُها　　　واشتدَّ خوفُ الواحِدِ الدَّيَّانِ
دَرَسَتْ ربوعُ الحقِّ مِنْ أهلِ الهُدى　　　وطَمَتْ سيولُ الظُّلمِ والطُّغيانِ
وتَطَلَّعَ الرحمنُ مُلْتَمِساً لها　　　بَطَلاً يَقِيها طَارِقَ الحَدَثانِ

طارق الحدثان: مصائب الزمن

ما زالَ رَبُّ الخَلْقِ في تَجْوَابِه　　　في الأرضِ، يَعْقِدُ قَاصِياً بِالدَّاني
حتَّى أَفَاءَ على الشَّآمِ بِسَاطُهُ　　　فَطَواهُ في إحْدَى قُرَى لُبنانِ

أفاء: أنعم

ورأى هـنـاكَ فَـتـىً تَـوقَّـدَ ذِهْـنُـهُ   فَـسَـرَى تـوقُّـدُهُ إلـى الأذهـانِ
خَـلَـعَ الـزمـانُ عـلـيـهِ طُـولَ أَنـاتِـهِ   فـالـدهـرُ فـي عـيْـنَـيْـهِ بِـضْـعُ ثـوانِ
خـدَمَ الـسِّـيَـاسَـةَ مُـلْـبِـسَـاً أغـراضَـهـا   تـاجَ الـنـزاهـةِ، أشـرفَ الـتِّـيـجـانِ
مـا بـاعَ مِـنْ أجْـلِ الـوِسَـامِ بـلادَهُ   لِـلأجـنَـبِـيِّ بِـأَبـخـسِ الأَثـمـانِ
أهـدَى إلـى الـشُّـعَـراءِ فـي أوطـانِـه   نَـفَـثَـاتِ أَشْـعَـرِ شـاعـرٍ يـونـانـي

وكان المرثي قد ترجم إلياذة هوميروس شعراً إلى العربية

مـا زالَ يَـمـنـحُ مِـنْ أَشِـعَّـةِ فـضـلِـه   لـلـنـاسِ حـتَّـى صـارَ فـي الـعُـمْـيـانِ

ظل يكتب ويقرأ حتى ضعف بصره

وإذا عـروسُ الـخُـلْـدِ فـي بُـرْدِ الـصِّـبَـا   تَـسْـبـي الـنُّـهَـى بِـجَـمـالِـهَـا الـفَـتَّـانِ

هذه الزهرة عادت للانتعاش لوشك سقوط شهيد

فَـتَـهَـلَّـلَ الـرحـمـنُ مِـنْ فَـرَحٍ، وقـد   فـاضَـتْ أشـعـةُ وجـهِـه الـنُّـورانـي
وحَـنَـا عـلـيهَ، وقـالَ: إنَّـكَ خـيرُ مَـنْ   يَـتَـعَـهَّـدُ الأزهـارَ يـا بُـسْـتَـانـي

تعليق عمران القفيني: (طريف شطره الأخير أيتما طرافة.. البستاني هو الذي يهتم بالحدائق وهو.. سليمان البستاني معاً)

فـإلـيـكَ فِـرْدَوْسـي، تَـوَلَّ وُرودَهُ   واعـمَـلْ مَـدَى الأَدْهـارِ فـي بُـسْـتَـانـي

٣٣ ذَنَب الأجنبي

قال وقد أهين صحفي قضى عمره في خدمة الاستعمار من جانب موظف فرنسي في حفلة عامة، وقالها في صنبول (ساو باولو بحسب تعريب القروي) ١٩٢٥:

جـادَ الـعـزيـزُ عـلـى الـذَّلـيـلِ بِـصَـفْـعَـةٍ   تَـرَكَـتْ بِـصَـحْـنِ الـخدِّ طَـابـعَ خَـمْـسِـهِ
ومـضَـى الـعـزيـزُ يَـحُـكُّ راحَـةَ كَـفِّـهِ   ومـضَـى الـذَّلـيـلُ يَـحُـكُّ جِـلْـدَةَ رَأْسِـهِ
فَـظَـنَـنْـتُـهُ احْـتَـمـلَ الـهـوانَ لِـحِـكْـمـة   حـتَّـى يـعـودَ بِـسَـيْـفِـهِ وبِـتُـرْسِـهِ
حـتَّـى عـثـرتُ بِـهِ الـغَـدَاةَ، كـأنَّـهُ   نَـسِـيَ الـذي قـد ذاقَـهُ فـي أَمْـسِـهِ
فـسـألـتُ عـنهُ، فـقـيـلَ: هـذا مَـنْ سَـعَـى   لِـيُـحَـكِّـمَ الـجِـنْـسَ الـغـريـبَ بِـجِـنْـسِـهِ
مَـنْ كـانَ يَـرْضَـى بـالـهـوانِ لِـشَـعْـبِـهِ   لا بِـدْعَ أنْ يـرضَـى الـهـوانَ لِـنَـفْـسِـهِ

لا بِدْعَ: لا عَجَبَ

٣٤ وثباً إلى سنام التنك

قال وقد وصفت الصحف الغربية سنة ١٩٢٥ بإعجاب عظيم زحف سلطان الأطرش برجاله على السويداء لإنقاذ الأسير الذي قبضت عليه السلطات الفرنسية في بيت سلطان منتهكةً حرمة الضيافة العربية، والتقاء سلطان والدبابة (التنك) وهجومه عليها تحت وابل من النيران، وتعطيلها بعد هبر قبطانها ومعاونه بحد السيف هبراً:

خففتَ لِنَجْدةِ العاني سريعا غَضُوباً، لو رآكَ الليثُ رِيعا

العاني: الأسير، ريعَ: أُخيف

وحوْلَكَ مِنْ بني مَعروفَ جَمْعٌ بِهِمْ، وبِدُونِهِمْ، تُفْني الجُمُوعا

بنو معروف: الدروز

كأنَّكَ قائدٌ مِنْهُمْ هِضَاباً تَبِعْنَ إلى الوغى جَبلاً مَنِيعا

كأنك تقودهم وهم الهضاب، وأنت أمامهم كالجبل

تَخِذْتَهُمُ لدى الجُلَّى سُيُوفاً لها لَعَنَ الفَرَنْسِيُّ الدُّرُوعا

اتَّخذتهم في الجلّى (الخطب العظيم) سيوفاً لم تفلح في صدها دروع الفرنسي فلعن دروعه

وأيُّ دَرِيئَةٍ تَعْصِي حُساماً تَعَوَّدَ، في يمينِكَ، أنْ يُطِيعَا

دريئة: الترس

ألم يَلْبَسْ عِدَاكَ التَّنْكَ دِرْعاً فَسَلْهُمْ: هلْ وَقَى لَهُمُ ضُلُوعا

التنك: الدبابة

أَغَرْتَ عليهِ تَلْقَى النَّارَ بَرْداً ويَرْمِيها الذي يَرْمِي هَلُوعَا

شننت عليه الغارة وأنت تلقى (تواجه) نيرانه وكأنها برد وسلام عليك، ولكنه يطلق هذه النيران مَن يطلقها هَلوعاً (خائفاً)

ولما صِرْتَ مِنْ مُهَجِ الأعادي بِحَيثُ تُذيقُهَا السُّمَّ النَّقِيعَا
وَثَبْتَ إلى سَنَامِ التَّنْكِ وَثْبَاً عَجِيباً، عَلَّم النَّسْرَ الوُقُوعَا
وكَهْرَبْتَ البِطَاحَ بِحَدِّ عَضْبٍ بَهَرْتَ بِه العِدَى، فَهَوَوْا رُكُوعا

عضب: سيف

كَأنَّ بِه إلى الإفْرَنْكِ جُوعاً وسيفُكَ، مثلُ ضيفِكَ، لنْ يَجُوعا
فَخَرَّ الجندُ فوقَ التَّنْكِ صَرْعَى وخَرَّ التَّنْكُ تَحْتَهُمُ صَرِيعا

فيا لَكِ غَارةً، لو لم تُذِعْهَا أَعَادِينا لَكَذَّبْنَا المُذِيعا
ويا لَكَ أطرشاً، لما دُعِينا لِثَأْرٍ، كانَ أَسْمَعَنَا جَمِيعا
إذا حاولتَ رَفْعَ الضَّيْم، فاضربْ بسيفِ محمدٍ، واهْجُرْ يَسُوعَا
«أَحِبُّوا بعضَكُمْ بعضاً» وَعَظْنَا بِها ذئباً، فما نَجَّتْ قَطِيعا
أَلا أَنْزَلْتَ إنجيلاً جديداً يُعَلِّمُنَا إباءً، لا خُنُوعَا
شَفَعْتَ بِنَا أمامَ أبٍ رحيمٍ وما نحتاجُ عندَ أبٍ شَفِيعا

شفعت بنا أيها المسيح لدى الأب (الله، في تعبير مسيحي)، والأب لا يحتاج شفيعاً

أَجِرْنَا مِنْ عذابِ النِّيرِ، لا مِنْ عذابِ النارِ، إنْ تَكُ مُسْتَطِيعا

النير: القهر، وأصله الخشبة توضع على رقبة ثور الحراثة

ويا لبنانُ! ماتَ بَنُوكَ مَوْتَاً وكنتُ أَظُنُّهُمْ هَجَعُوا هُجُوعا

الهجوع: النوم

بَدَتْ لكَ فرصةٌ لِتَعيشَ حُرَّاً فَحَاذِرْ أَنْ تَكُونَ لها مُضِيعا
ومَا لَكَ بعدَ هذا اليومِ يومٌ فإنْ لم تَسْتَطِعْ.. لنْ تَستَطِيعا

٣٥ أم الضباع في حوران

قال ونظمها أثناء احتدام الثورة الدرزية وقد راجت إشاعة تدليل فرنسا على سورية وتخليها عنها لإيطاليا:

بَدَتْ وَلْهَى، مُمَزَّقَةَ القِنَاعِ فقلتُ لها: فَدَيْتُكِ! لا تُراعي
فَدُونَ حِمَاكِ أبطالُ العَوَالي مُؤَزَّرَةٌ بأَبطالِ اليَرَاعِ

العوالي: الرماح، مؤزرة: مؤيدة، اليراع: القلم

رِمَاحٌ كالأفاعي مُشْرَعاتٌ وأقلامٌ كأنيابِ الأفاعي
أَطِلِّي واشْهَدِي مِنْهُمْ هُجوماً تَرَيْ وَثْبَ القِلاعِ على القِلاعِ
وهلْ عَرَبِيَّةٌ هذا أَخُوها تُرَاعُ إذا دَعَا للحَرْبِ داعِ
فَرَنْسَةُ! ليسَ في حُورَانَ لَحْمٌ يَسُرُّ بَنِيكِ، يا أُمَّ الضِّبَاعِ
وهلْ لاقَيْتِ في حُورَانَ إلَّا مَآسِدَ، خِلْتِهَا جَهْلاً مَرَاعِي

المآسد: مرابض الأسود (مفردها مأسدة)

فَيَا باريسُ! عُودي عَنْ حِمَانا وجُودِي جُودَ رُومَةَ بِالوَدَاعِ

فقد حكمت روما سورية قبل الفتح الإسلامي

لَقدْ لاقتْ قَدِيماً مَا كَفَاها عَنَاءَ البَحْثِ عَنْ مُلْكٍ مُضَاعِ

٣٦ الحق الثاني

إن ضاعَ حقُّكَ لم يَضِعْ حَقَّانِ لَكَ في نِجَادِ السيفِ حقٌّ ثانِ

نجاد السيف: حمائله التي بها يشد في وسط الرجل وكتفه

ما ماتَ حَقُّ فَتىً لَهُ زَنْدٌ، لَهُ كَفٌّ، لَها سَيْفٌ، لَهُ حَدَّانِ

فابْعَثْ سيوفَ الهندِ مِنْ أغمادِهَا تَبْعَثْ بِهَا الموتَى مِنَ الأكفانِ

بِعَجائِبِ الهنديِّ حازَ التُّرْكُ ما حازُوهُ، لا بِعَجَائِبِ العِبْراني

الهندي: السيف، العبراني: المسيح

والسيفُ، لا عِيسَى ولا أَضْرابُهُ، خَلَقَ «الكَمَالَ» لَهُمْ مِنَ النُّقْصَانِ

الكمال: في الكلمة معناها، وفيها إيماء إلى مصطفى كمال أتاتورك

لَمَّا شَكَوْنا جُوفَنِيلَ إلى الظُّبَى فَشَكَا إلى جَمْعِيَّةِ القُرْصَانِ..

شكونا دي جوفنيل القائد الفرنسي إلى الظبى (شفرات السيوف) ودعوناها أن تؤدبه، فراح يشكونا إلى جمعية القرصان (عصبة الأمم)، وهي التي منحت الدول الأوروبية الوصاية على بلاد العرب

صاحَ: المروءةَ يا فِرَنْجُ! فليسَ لي في صَدِّ غاراتِ الدُّرُوزِ يَدانِ

ليس لي يدان: لا قدرة لي

عَهْدِي بِهِمْ في السِّلم حُمْلاناً، فَوَا رُغْبَاهُ بَعْدَهُمُ مِنَ الحُمْلانِ

كنت أظن الدروز حملاناً، خرافاً، وادعة.. فمن الآن فصاعداً الويل لي من الحملان إن كانوا كهؤلاء الأشاوس

لِلَّهِ مَنْظَرُهُمْ إذا هَزَجُوا، وقد هَزُّوا الرِّمَاحَ لِغَارَةٍ وطِعَانِ

هزجوا: غنوا أهازيج الحرب

ونِسَاؤُهُمْ! لو تَشْهَدونَ نِساءَهُمْ في الحربِ حامِلَةً على الشُّجْعانِ

يَنْفُخْنَ في أشْبَالِهِنَّ حَماسةً تَثِبُ الصدورُ لَها مِنَ الغَلَيَانِ

فَكَأَنَّهُمْ لَبِسوا بِهِنَّ جَوَانِحاً طاروا بِها لِلْحربِ كالعِقْبَانِ

ولئِنْ نسيتُ، فَلَسْتُ أنسَى بَيْنَهُمْ   رَجُلَ الرِّجالِ، وفارسَ الفرسانِ
يُفْني الرجالَ بِأحدبٍ ومُقَوَّمٍ   ضِدَّيْنِ في اللَّبّاتِ يَلْتَقِيانِ

الأحدب: السيف، المقوم: الرمح، اللبات: أعالي الصدور

ويكادُ يَفْتَرِسُ العدوَّ جوادُهُ   فكأنَّهُ أسدٌ على سِرْحانِ

سرحان: ذئب

فَذٌّ كُفِيتُ بِه سؤالَ النَاسِ: مَنْ   تَعْني؟ وهَلْ أعني سِوَى سُلْطانِ
لبنانُ، يا لبنانُ! بَلْ ما ضَرَّني   لو قلتُ: يا بَلَداً بِلا سُكّانِ
إن كانَ لِلدِّينِ الدُّروزُ تَعَصَّبُوا   أَرِنَا التَّعَصُّبَ أنتَ لِلأوطانِ
لم يبقَ غَيْرُكَ في الوَرَى مُسْتَعْبَداً   لم يبقَ غيرُكَ أيُّها اللُّبْنَاني
أوَلَيْسَ في لبنانَ عِرْقٌ نابِضٌ   أوَلَيْسَ في لبنانَ مِنْ مُتَفَانِ
أينَ التُّراثُ، تُراثُ أبطالِ الحِمَى   أينَ البَقِيَّةُ مِنْ بَني غَسَّانِ
لا تُنْكِروها، فَالدَّمُ العَرَبيُّ قد   جَلَّتْ أصالَتُهُ عنِ النُّكْرانِ

٣٧ الدوران والمداراة

لا تَخْدَعنَّكَ مِنْ ضِدٌّ مُسايَرَةٌ   فالماءُ، وهْوَ حَميمٌ، يُطْفِئُ النَّارا

الماء حتى وهو حميم (ساخن) يطفئ النار، فهو لا يغير طبعه، وكذا العدو

وَدُرْ، ودَارِ الوَرى تأمنْ غَوَائِلَهُمْ   ما أَخْطَأَ الحَزْمَ مَنْ دَارى، ومَنْ دَارا

الورى: الناس، غوائلهم: دواهيهم، دارى: فهو يداري ويكاتم الخصوم، ودارَ: فهو يدور مع الأمور كما تدور

٣٨ رأيي من رأيك، ولكن..

يا مَنْ إذا مَدَحَ امرُؤٌ   شِعْري، تَوَلّاهُ الكَمَدْ

الكمد: الغم

عُذْراً، أُخَيَّ، فَلَيْسَ لي   فيما يقولُ الناسُ يَدْ

ليس لي فيما يقولون يد: لا دخل لي فيما يقولون

رأيي كرأيِكَ، إنَّني   في الشِّعرِ أجهلُ مِنْ وَلَدْ
لكِنْ، أقولُ كما تقو   لُ، فلا يُصَدِّقُني أحَدْ

٣٩ عيد السادة

قال في عيد استقلال البرازيل، بينما جُرح النكبة السورية، ١٩٢٥، ما زال دامياً:

دعْني، فقرعُ طُبولِهِمْ ضَرْبٌ على ... أضلاعِ هذا اليائسِ المنكودِ
دعني فهذا يومُهُمْ، لا شأنَ لي ... فيهِ، وعيدِيَ غيرُ هذا العيدِ
أنا لا أشاركُ سادةً في عيدِهِمْ ... ما دمتُ عَبْداً يَنتمي لِعَبيدِ

٤٠ ليسقط المتفرنس

قال، وألقاها في ١٩٢٦ بحضور شاعر برازيلي كان زار سورية أثناء الثورة الدرزية:

ما في أُورُبَّةَ دولةٌ مَأْمونةٌ ... الكلُّ أعداءُ الشَّآمِ، فَكَنِّسُوا
وابْكُوا معي لُبْنَانَ؛ إنَّ بُكَاءَهُ ... فَرْضٌ على أهلِ الوفاءِ مُقَدَّسُ
وطنٌ تَحَيَّرَتِ العَبيدُ لِذُلِّهِ ... وأَذَلُّ منهُ رئيسُهُ والمجْلِسُ
في كلِّ كُرْسيٍّ تَسَنَّدَ نائِبٌ ... مُتَكَتِّفٌ أعمَى أَصَمٌّ أخرَسُ
فكأنَّ ذاكَ البرلَمانَ خُرَيْبَةٌ ... مَنْبُوشَةٌ، وهُمُ الرُّسُومُ الدُّرَّسُ
ولْيَحْيَ كلُّ مُدَافِعٍ عَنْ قومِهِ ... وبلادِهِ، ولْيَسْقُطِ المُتَفَرْنِسُ

٤١ الدمعة المحرِقة المغرِقة

قال، وقد غرست أمه في فناء الدار حبقة سمتها حبقة رشيد. وكانت تتفاءل إن اخضرت، وتتشاءم إن ذبلت. وأبصرها يوماً مخضرة نضرة، فقال:

قد كنتُ مِثْلَكَ أيُّها الحَبَقُ ... لي مَنْظَرٌ حُلْوٌ، ولي عَبَقُ

الحبق: نبات عطري ينبت بكثرة في أغاني فيروز. و«المنجد» يقول: هو الريحان

تَهْفُو إليَّ عيونُ مَنْ نَظَرُوا ... وتَهِيمُ بي أرواحُ مَنْ نَشَقُوا
بَلْ كنتُ كَالحَسُّونِ مَسْرَحُهُ ... بينَ النجومِ، وعُشُّهُ الأُفُقُ

الحسون: عصفور مغرد، دون الكناري سعراً لأن الكناري أشقر أصفر، والحسون بني مموج، وقد تُجلِّل رأسَه حمرةٌ تزيد في سعره

واليومَ زَقْزَقَتي الأنينُ، وأجْـ ... ـنِحَتي الحَنِينُ، ومَهْدِيَ الأَرَقُ
مَلَّ الأَحِبَّةُ رُؤْيَتي، ونَبَتْ ... عَنِّي العُيونُ، ومالَتِ العُنُقُ

نَبَتْ: أشاحت

لـم يـبـقَ عِـنْـدِيَ مَـا يُـشَـفِّـعُـنِـي ... فـي الـحُـبِّ إلّا الـدَّمْـعُ والـحُـرَقُ
واللَّـهُ أعـلـم كـيـفَ تَـنْـطَـلِـقُ ... أطـلَـقْـتُـهَـا فـي إثْـرِ مَـنْ هَـجَـرُوا
وَلَـو انَّـهُـمْ فـي الـجَـنَّـةِ احْـتَـرَقُـوا ... فَلَوَ انَّـهُـمْ خَـلْـفَ الـسُّـهَـى غَـرِقُـوا

السهى: مجموعة نجوم. يقول: حتى لو كان الذين هجروني بعيدين خلف السهى فسيغرقون في سيل دموعي؛ ولو كانوا في الجنة، وهي برد وسلام، لاحترقوا من حرارة دموعي. وهذا من قول صاحب الموشح: لو صادف نوحُ دمع عيني غرقا/أو جرب لوعتي الخليل احترقا//أو حُمِّلتِ الجبال ما أحمله/صارت دكًّا وخرَّ موسى صَعِقا. والقروي عازف عود من شبابه الباكر، أتقن العود ولما يكن هناك عبد وهاب ولا أم كلثوم، وكانت بضاعة العازف في ذلك الزمن الغابر أغاني الناس والموشحات. ومطلع هذا الموشح «يا غصن نقا مكللاً بالذهب» وهو من الدوبيت، وعلى بحر مبتدع. وللشعر العربي المتأخر على هذا البحر أبيات كثيرة جُلُّها في الغزل. ولابن الفارض دوبيت (أي رباعية) يقول فيها: أهوى رَشَأً رُشَيِّقَ القدِّ حُلَيِّ/ قد حكَّمه الغرامُ والوجدُ عَلَيّ//إن قلتُ: خُذِ الروحَ يَقُلْ لي: عَجباً/الروحُ لنا، فهاتِ مِنْ عندِكَ شَيّ. وقد تحير القدماء في «تفعيل» هذا البحر. وأدنى ما أراه إلى الأبيات المغناة «فَعِلُنْ مُتَفاعِلنْ فَعولنْ فَعِلُنْ». وابحث عن زحاف تلصقه بالتفعيلة الثالثة في الشطر الثالث. وقد دوَّن سليم الحلو «يا غصن نقا» على ميزان الأقصاق الخماسي بلا لازمة (شيء يحوِج المغني إلى رئتين كمنفاخ البنشرجي)، وغنته فيروز على السربند، وغناه صباح فخري على السماعي الدارج، وغناه الشيخ إمام وإيقاع «الوحدة السائرة» في ذهنه (ولم يصاحبه رق). وكل هذه الإيقاعات يقيس موازير النغم قياساً طيباً مع مراعاة مواطن النبر في اللحن. ولا أكاد أجد موشحاً تحير الإيقاع فيه هذه الحيرة.

أتكِئُ على هذا الكلام المملوكي عن ثقافتنا العربية كي أخوض قليلاً في ثقافتنا الجديدة. في مواقع الإنترنت المتخصصة في الموسيقى، وفي تلك المتخصصة في الشعر - وقد شاء ربك أن يكون ذائقو الشعر العربي على جهل كثيف بالموسيقى، والعكس بالعكس - كلام كثير عن إيقاع «يا غصن نقا» وعن الدوبيت، ونقاش طيب الطيب كله في التفاصيل. وهو كلام هواة ولا شك. لكنهم ذواقون محبون لهذه المفردات الثقافية حدَّ الهوس. وهم قلة قليلة. هذه الثقافة كلها يرعاها أولئك الهواة ويحفظونها للمستقبل. ولكن الشباب في مجتمعاتنا العربية ذهب بعيداً. قل لي: من يسمع محمد عبد الوهاب اليوم؟ قمنا بعملية استبدال. ألغينا الشعر العمودي، ثم شعر التفعيلة، واكتفينا بأسطر نثرية يسميها أهلها «قصيدة النثر»، وألغينا مقاماتنا وإيقاعاتنا، وطهرنا آذاننا من طريقة الغناء القديمة، حتى عبد الحليم حافظ صار عتيقاً. وصار غناؤنا اليوم أقل تعقيداً من ناحية اللحن في اللحن، ومستنداً إلى توزيع بدائي. ليس لأن البساطة أفضل، ولا لأن الألحان البسيطة تعبر عن النفس الجديدة «للإنسان العربي الجديد» أحسن، ولكن لأن قديمنا المادي المحسوس انهزم - قديمنا في السياسة وفي خَلْق الثروة وفي الحرب - فكان لا بد من أن ينهزم قديمنا المعنوي غير المحسوس.. أي قديمنا في الثقافة. عدنا إلى حال طفولة ثقافية. حتى في كلمات

اللغة، صار معجم المتعلم العربي المتخرج لتوه من كلية الإعلام أو كلية علم الاجتماع محدوداً كمعجم الطفل. فإن شاء أن يتعلم علماً حقيقياً فالطريقة الوحيدة أن يذهب إلى جامعة خارج الوطن العربي، وأن يستبدل بلغته الأم لغة حية.. «أحيى» من العربية. ولست أدعو إلى العودة إلى مفردات الثقافة المملوكية في أدب أو في موسيقى، ولا أدعو إلى أي رجوع أو «إحياء». بل لا أدعو إلى شيء؛ لأنني لا أرى أفق المستقبل، فلو رأيته لبدأت أخمن كيف سيكون شكل ثقافته. على أنني ـ مثل كل الجمّاعين المدَّخرين، المشبهين موظفي الأرشيف في امتلاك غريزة الفهرسة ـ أحب لو احتفظنا بتراثنا. ومثل موظفي الأرشيف أيضاً لا أنظر كثيراً في فائدة المادة التي أفهرسها، أكتفي بأن أحفظها. لعلها تَلزَم

٤٢ ويل للذي لا يستعد

قال للمفوض الفرنسي، وقد أثار طغيانُه كثيرين من اللبنانيين ممن أيدوا الانتداب في البداية:

ألا قـلْ لـلـمـفَـوَّضِ قـد هَـزَلْـنَـا ... وإنَّ الـهَـزْلَ قـد يَـتْـلـوهُ جِـدُّ
إذا مـا الـظـلـم جـاوزَ كـلَّ حـدٍّ ... فَلِـلـصَّـبرِ الـجـمـيـلِ عـلـيـهِ حَـدُّ
فـلا تَـلـم الـمـحِـبَّ عـلـى جَـفَـاءٍ ... لـقـدْ أحْـرَجْـتَـهُ يـا مُـسـتـبِـدُّ

لا تلم من كانوا يحبونك في لبنان، فاستبدادك أحرجهم

سَنُسْمِعُكَ الزَّمازِمَ عَنْ قَرِيبٍ ... فـمـا مِـنْ ثـورةِ الأحـرارِ بُـدُّ

الزمازم: همهمات وصخب الجيش

تُـخَـوِّفُـنَـا الـمَـنُـونَ، وأنـتَ أدْهَـى ... لـقـدْ خَـوَّفْـتَـنـا مِـمَّـا نَـوَدُّ

المنون: الموت. أنت أدهى من أن يغيب عنك أننا نود لقاء الموت.. المعنى الذي لمحته

ومَـنْ أَنْـبَـاكَ أنَّ الـمـجـدَ سَـهْـلٌ ... وأنَّ طـريـقَ الاسـتـقـلالِ وَرْدُ

أنباك: أنبأك، أي أخبرك

أَيَـطْـمَـعُ بـالـسـيـادةِ كـلُّ قُـطْـرٍ ... ولُـبْـنـانٌ، أبـو الأحـرارِ، عـبـدُ؟
شعوبُ الأرضِ لِلنُّوَبِ استَعَدَّتْ ... فَـويْـلٌ لـلـذي لا يـسـتـعِـدُّ

٤٣ أدين بدين الحب

قال في صنبول ١٩٢٧:

لَطَمْتَ جِدارَ الأُفْقِ حتَّى تَصَدَّعَا ... وغَـادَرْتَ بـابَ الـلانِـهَـايَـةِ مُـشْـرَعـا

وأَطْلَقْتَ وَرْقَاءَ ابنِ سِينَا، فَحَلَّقَتْ تَرُودُ مَحلاً في السَّمَاواتِ أَرْفَعَا

ورقاء: حمامة. وكان ابن سينا في قصيدة عينية شبه الروح بالحمامة، ترود: تبحث عن

ولم تَرَ مِنْ خُلْدٍ ولا مِنْ مُخَلَّدٍ ولم تَرَ لا عَرْشَاً، ولا مُتَرَبَّعَا

متربع: مكان

* * *

تَزَعْزَعَ إيماني، وحاقَ بِيَ الأَسى ووَدَّعْتُ عَهْداً للصَّلاةِ تَكَرَّسَا

وصِرْتُ، إذا لِلدِّينِ يُعْقَدُ مَجْلِسٌ، عَقَدْتُ، وأهلَ الكُفْرِ، للكفرِ مَجْلِسَا

وإذْ نالَ مِنِّي العُجْبُ يوماً مَنَالَهُ وفَارَتْ دِمائي في عُرُوقي تَحَمُّسَا

العجب: التكبر

تَذَكَّرْتُ تَهْدِيدَ الوَلِيدِ لِرَبِّهِ وأَلْقَيْتُ في النارِ الكتَابَ المقَدَّسَا

الوليد بن يزيد خليفة أموي قيل إنه مزق المصحف، ونسب إليه أنه خاطب ربه قائلاً: أتوعد كل جبار عنيد// فها أنا ذاك جبار عنيد

* * *

أَلا كلُّ دِينٍ، مَا خَلا الحُبَّ، بِدْعَةٌ أَلا كلُّ عِلم، مَا عَدَاهُ، تَوَهُّمُ

ولا عَجَبٌ أنْ يُنْكِرَ اللَّهَ كافِرٌ فَماذا تَرَى مَنْ يَجْهَلُ الحُبَّ يَعْلَمُ!

* * *

كَشَفْتُ ضميرَ الدِّينِ يومَ كَشَفْتُهُ ولم أعترفْ بِاللَّهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ

كشفتُ ضمير الدين يوم كشفتُ الحب

فما أنَا في الأكوانِ بَعْدُ بِبَاحِثٍ وفي كَبِدِي أَلْفَيْتُه، وأَلِفْتُهُ

غَسَلْتُ مِنَ البَغْضَاءِ والحِقْدِ أَضْلُعِي بِبَعْضِ الذي مِنْ كأْسِهِ قد رَشَفْتُهُ

من كأس الحب

* * *

أَرَى اللَّهَ لَفْظاً بِالمكَارِمِ يَنْطِقُ ودِيناً بِمَحْمُودِ الفَعَالِ يُصَدَّقُ

كَفاكُمْ كَلاماً أَنْ تَلَوْتُمْ كَلامَهُ، وما زَادَ عنه فالذي زَادَ أَحْمَقُ

ولم يُوصِكُمْ رَبِّي بَأَنْ تَتَشَدَّقُوا ولكنَّه أَوْصَى بِأَنْ تَتَصَدَّقُوا

* * *

فَيَا مَنْ تَمَنَّى أَنَّهُ كان رَائِيا كَرُؤْيَايَ؛ نَقِّ القَلْبَ، وامْشِ وَرَائِيَا
فَقدْ شِمْتُ وَجْهَ اللّهِ في قَلْبِ مُخْلِصٍ صَرِيحٍ، ولو في الكُفْرِ، ليسَ مُرَائِيَا

شمت: رأيت بعد تفحص

مَضَى كلُّ ما أَبْقَى الغَنِيُّ لآلِهِ وظَلَّ الذي أَفْنَى على الفَضْلِ بَاقِيَا

ضاع كل ما خلفه الغنيُّ من المال لآله (لأهله)، وظل ما أنفقه على الخير باقياً

٤٤ الجيل الفاسد

خيرُ المَطَالِعِ تسليمٌ على الشُّهَدا أزْكَى الصلاةِ على أرواحِهِمْ أبَدا
ما في حياتِكَ يا لبنانُ مِنْ أمَلٍ حتى يغادِرَكَ الجيلُ الذي فَسَدا
يا مَنْ يَرُومُ كؤوسَ العزِّ صافيةً جَفَّتْ ينابيعُ لبنانٍ، فَرِدْ بَرَدَى

رد بردى: عليك أن تَرِدَ نهر بردى بدمشق

لا سِلم إنْ لم نُعِدْ للأَرْزِ نَضْرَتَه ولا انتصارَ بِغيرِ الشعبِ مُتَّحِدَا

٤٥ قل للمحنِّط

قال عام ١٩٣٠ في حفل تأبين أقيم لجبر دُومَط في صنبول:

يا صَوْلَةَ الجوعِ! كم ذلَّلتِ مِنْ أسدٍ يا دولةَ الجهلِ! كم رأَّسْتِ مِنْ ذَنَبِ

صولة: هجمة

كم فازَ بالمالِ دوني عاجِزٌ وَكِلٌ وكم تعبتُ، فلم أربحْ سوى التعبِ

وكل: متواكل كسول

كم غَيَّبَ القبرُ ذا مالٍ، فما اكترثتْ له المحافلُ في بُعْدٍ ولا قُرُبِ
لا يكسِبُ العلم إلّا كلُّ مجتهدٍ وكم ثراءٍ بغيرِ الجِدِّ مكتَسَبِ
قل لِلمحَنِّطِ: ماذا قد حفظتَ لنا مِنْ ناضرِ العودِ، إلّا يابسَ الحطبِ
ليس الملوكُ الأُلى خَلَّفْتَ غيرَ دُمَىً أبقتْ عليها بناتُ الدهرِ لِلَّعِبِ

الألى: الذين، بنات الدهر: المصائب

دافعتَ دُودَ البِلى عنها، ولو نَطَقَتْ تلك العظامُ لصاحتْ صيحةَ الغضبِ:

دود البلى: الدود الذي يساعد في تحلل الأجسام

ذَرْني لأُمِّيَ تَبْلَى في عناصِرِها عناصري، وتُصَفِّي نارُها ذَهبي

عظام الموتى تريد من خبير التحنيط أن يتركها لأمها الأرض لتتحلل فيها، ولكي يذهب الجسم وتبقى الروح، كما تصفي النار الذهب الخالص من خامه

إنَّ الملوكَ لَمَنْ تَلقَى مَوامِيَهُمْ مخبوءةً في بطونِ الكُتْبِ لا التُرَبِ

يقول: إن الملوك الحقيقيون لَهُمُ الذين يتركون أثراً في التاريخ، فمومياءاتهم هي آثارهم في الكتب، لا من تُحفَظ أجسادهم تحنيطاً. الترب: جمع تربة = مقبرة. التسويد لعمران القفيني

٤٦ نقاء الضمير

قال عندما تعرف إلى الشاعر عقل الجر:

سِرْ على الِأنْصُلِ الحِدَادِ، وحَاذِرْ شَوْكَةً تَنْخَسُ الضَّمِيرَ الحَيَّا
فَلَوِ الأَرْضُ فَحْمَةٌ، لم تُلَوِّثْ لَكَ يَومَ الحِسَابِ طِرْسَاً نَقِيًّا

الطرس: الورقة

٤٧ ترحيب بشاعر

قال ترحيباً بالشاعر عقل الجر في صنبول سنة ١٩٣٠:

لا تَلمنِي يا عَقْلُ إنْ أنَا قَصَّرْ تُ، فَهذا يا عَقْلُ شِعْرٌ بَدِيهي
إِنَّهُ لَمحَةٌ مِنَ الحُبِّ في القَلْـ بِ، وجُزْءٌ مِنْ بَعْضِ مَا لَكَ فِيهِ
إِنَّهُ كَالسَّمَاءِ تُبْدِي لَكَ الزُّهْـ رَ، وتُخْفِي أَضْعَافَ مَا تُبْدِيهِ

الزهر: النجوم، وما نراه من نجوم السماء قليل من كثير

٤٨ رثاء فوزي المعلوف

قال في تأبين فوزي المعلوف بصنبول ١٩٣٠:

يَخْلَعُ الشاعرُ العظيمُ على الدُّنْـ يَا بُرُوداً كانتْ لَها أكفَانا
فَيُرِيكَ الأَشياءَ ما شاءَ: أَشْخَا صاً تُحَاكِيهِ خَاطِراً، ولِسانا

تحاكيه: تشبهه

فَيُنَاغِي الأطيارَ حِيناً، وأَحْيَا ناً يُنَاجِي الرِّيَاضَ والغُدْرَانا
ويَفِيضُ الحنانُ مِنْ قَلْبِهِ حَتَّـ ى يَظُنَّ الوجودَ فاضَ حَنانا
وكأنَّ الحياةَ تَرْثِي لما يَلْـ قَاهُ مِنْها طُولَ الحَياةِ هَوانَا

فَتُرِيهِ في الوَحْشِ إِنْسَاً، وفي الأَشْـ ـباحِ أَهْلاً، وفي السُّهَى أَوْطانَا

السهى: نجم في السماء

أَجْـنَـبِـيٌّ عَـنْ أهـلِـهِ وذَوِيـهِ وغَـرِيـبٌ بـيـنَ الـوَرَى أَيـنَ كـانـا

٤٩ أدباء مغتربون

قال في مأتم جرجس إسكندر المعلوف سنة ١٩٣٠:

كـمْ خَـامِـلٍ، لـولا الـتِّـجـا رةُ كـان أنـبَـهَ مَـنْ كَـتَـبْ

خامل: غير مشهور، أنبه: أشهر

ومُـضَـيَّـعٍ بـيـنَ الـبِـضـا عَـةِ، وَهْـوَ نـابـغـةُ الأدبْ

وَارَحْـمَـتَـا لـلـنَّـازِحِـيـ ـنَ عـنِ الـشَّـآمِ بِـلا سَـبَـبْ

ذَهَـبَ الـزمـانُ بِـهِـمْ، وهُـمْ يَـتَـهـافَـتـونَ عـلـى الـذَّهَـبْ

ولَـوَ انَّـهُـمْ فـي أَرْضِـهِـمْ كَـدَحُـوا، لَـفـازُوا بِـالأَرَبْ

ولأَحْـرَزوا أضـعـافَ هـ ـذا الـوَفْـرِ، مَعْ نِـصْـفِ الـتَّـعَـبْ

٥٠ المريض

قال عام ١٩٣١:

ساهـرٌ، لا تـمـتُّـعـاً، بـل عَـذاباً نـائـمٌ، لا استـراحـةً، بـل عَـيـاءَ

في مكانٍ، هَبْهُ السماءَ جمالاً، أَيـرى الـمُـدْنَـفُ السماءَ سماءَ؟

المدنف: المريض، السماء: الاسم المفضل للجنة عند المسيحيين

يسمعُ الناسَ يَسرحونَ إلى الأعـ ـمالِ صُبحاً، ويَمْرحونَ مَساءَ

وهْوَ عنهمْ في قبضةِ الدَّاءِ، لا يمـ ـلِكُ إلّا الإصْـغـاءَ والإغْـضـاءَ

إنْ يشاهِدْ مِنهُمْ، فوجهَ طبيبٍ عـادَهُ، ثـم عـادَ مـن حـيـثُ جـاءَ

أو نـسـيـبٍ، إنْ زارَهُ، فـكـمـا زا رَ مُـحِـبٌّ قـبـراً، وملَّ الـبـقـاءَ

يَستحي حينَ يَسألُ الشيءَ مضطرَّ ـاً، ويـحـتـاجُ غـيـرَهُ أشـيـاءَ

وإذا حـاولَ الـكـلامَ، فَـهَـمْـسـاً يـتـلاشـى، فـي كـفِّـهِ، إيـمـاءَ

في هذا البيت الأخير تصوير دقيق وموجز إيجازاً حلواً للمريض الذي يطلب حاجته هامساً، لشدة المرض؛ وحتى همسته فهي تتلاشى على هيئة إيماءة من يده

٥١ بلغوه سلامي

عيدُ البَرِيَّةِ عيدُ المولِدِ النَّبَوي ... في المشْرِقَيْنِ لَهُ، والمغْرِبيْنِ دَوِي
بَدا مِنَ القَفْرِ نُوراً لِلوَرَى وهُدىً ... يا لِلتَّمَدُّنِ! عَمَّ الكونَ مِنْ بَدَوِي
يَا صاحِبَ السَّيْفِ لم تُفْلَلْ مَضَارِبُهُ ... اليومَ يَقْطُرُ ذُلّاً سَيْفُكَ الدَّمَوِي

يا صاحب السيف ـ الذي ـ لم تفلل (تتثلم) مضاربه (شفراته)

يا فَاتِحَ الأَرْضِ مَيْدَاناً لِقُوَّتِهِ ... صَارَتْ بِلادُكَ مَيْدَاناً لِكُلِّ قَوِي
يا قَوْمُ! هذا مَسِيحِيٌّ يُذَكِّرُكُمْ: ... لا يُنْهِضُ الشَّرْقَ إلَّا حُبُّنَا الأَخَوِي
فإنْ ذَكَرْتُمْ رسولَ اللَّهِ تَكْرِمَةً ... فَبَلِّغُوهُ سَلامَ الشَّاعِرِ القَرَوِي

٥٢ جبل نحو المجد

أليسَ في العمرِ يومٌ أستريحُ بِه ... مِنْ شرٍّ منتقِم، أو لؤم منتقِدِ
مَنْ كانَ يطمعُ فيما نِلْتُ مِنْ شَرَفٍ ... فَلْيَشْدُ، ولْيَعْتَقِدْ شَدْوِي ومُعْتَقدي
لو كانَ يَدْرِي حَسودِي ما أُكَابِدُهُ ... في الحقِّ، ما أَكَلَتْهُ جمرةُ الحَسدِ
إنِّي صَعِدْتُ إلى مجدي على جَبَلٍ ... مِمَّا تَهَدَّمَ مِنْ روحي ومِنْ جَسدي

٥٣ فرحان بلا سبب

قال في إيتاكيرا ١٩٣٢:

قُمتُ قبلَ الطيورِ أشدُو حُبُوراً ... لا أرى عِلَّةً لِفَرْطِ حُبُوري
مُؤْنِساً وَحْشَةَ الفضاءِ، كأَنِّي ... نَبَأٌ طَيِّبٌ سَرَى في الأثيرِ
وعلى وَجْنَتَيَّ لِلْوَرْدِ ظِلٌّ ... عائِمٌ فوقَ مَوْجَةٍ مِنْ نُورِ
أَتَهادَى بينَ الغُصُونِ كَغُصْنٍ ... وأُنَاغِي العُصْفُورَ كالعُصْفُورِ
قلتُ: رَبِّي! أَزالَ عَهْدُ شَقَائي؟ ... أَمْ أُرَانِي في عالم مَسْحُورِ؟
وإذا زهرةٌ كَوَجْنَةِ طِفْلٍ ... جَنْبَهَا شَوْكَةٌ كَنَابِ هَصُورِ

ناب هصور: ناب أسد

فَتَذَكَّرْتُ ليلةَ الأمسِ حُلماً ... مِنْهُ أَدْرَكْتُ سِرَّ هذا السُّرورِ
أنَّ كَفَّ الرحمنِ، تحتَ سُكُونِ اللَّـ ... ـيلِ، بالعَفْوِ غَلْغَلَتْ في سَرِيري

غلغلت: أي تغلغلت (هكذا يقولها اللبنانيون)

فَرَمَتْ نَفْحَةً مِنَ العِطْرِ في قَلْـ ـبي، وعادَتْ بِشَوكَةٍ مِنْ ضَميري

أي أن كف الرحمن أودعت قلبي نفحة عطر وعادت من قلبي منصرفة آخذة شوكة خلَّصت من أذاها ضميري

٥٤ تضحية البخيل

يا مَنْ يَلومُ بخيلاً، قد حَكَمتُ لَهُ عليكَ: أَنَّكَ تَسْتَجدي، ويَمْتَنِعُ
إنَّ الأشِحَّاءَ أَسْخَى الناسِ تَضْحِيَةً إذْ طالَما نَفَعُوا الدنيا، وما انْتَفَعوا
لم يَمنعُوا الناسَ يَوماً بعضَ ما جَمَعوا إلَّا لِكَيْ يمنَحوهُمْ كلَّ ما جَمَعوا
قالوا: النوائبُ للأضَّدادِ جامِعَةٌ حَلَّتْ بِهِمْ نُوَبُ الدنيا، وما اجتَمَعُوا

يتحدث الآن عن قومه المتفرقين المتنابذين

قومٌ إذا قَعَدوا في مَنْصِبٍ شَمَخُوا ناسِينَ كَمْ قَرَعوا بَاباً، وكَمْ رَكَعُوا
مَنْ لا يُحَرِّكُهُمْ ظُلمٌ يُجَوِّعُهُمْ أنَّى يُحَرِّكُهُمْ ظُلمٌ إذا شَبِعُوا

٥٥ تحية للعصامي

قال، وأُنشدت بالنيابة عنه في تكريم موسى كريم بصنبول لمرور خمسين عاماً على احترافه الصحافة:

أديبٌ عِصَامِيٌّ مَضَى في سَبِيلِهِ إلى النَّصْرِ، لم يُلْقِ السِّلاحَ ويَسْتَلْقِ
طَوَى العُمْرَ يَغْذُو الضَّادَ مِنْ ذَوْبِ قلبِهِ ولا يَبْتَغي غيرَ الحَلالِ مِنَ الرِّزْقِ

٥٦ يا حبذا وطني على حالاته

قال، وكان عدد من اللبنانيين يحتفلون في أيلول من كل سنة باستقلال لبنان مع بقاء الانتداب الفرنسي:

أروي بِدَجلَةِ مَدْمَعي وفُرَاتِهِ وَطَناً، ولمَّا يبقَ غيرُ رُفَاتِهِ
خَلَتِ المحافلُ مِنْ بلابِلِه، فَلا تَقَعُ العيونُ على سِوى حَشَراتِه
حَسْبُ الحزينِ عليكَ أَنَّكَ مائِتٌ قَدْ عَيَّدَتْ أحبابُهُ لِمماتِه

يكفي الذي يحزن عليك أيها الوطن أنك ميت يعيد أحبابه لموته، فهذه مصيبة بحد ذاتها

شَقُّوا لهُ الأعلامَ مِنْ أكفانِه وتَبادَلُوا الأنخابَ مِنْ عَبَراتِه
أعلامُ إِذْلالٍ، كأنَّ خُفُوقَها في جَوِّهِ لَطْمٌ على وَجَناتِه

أَمُدَوِّنَ التاريخِ! مَرْحَمةً، ولا تذكرْ لَهُمْ لبنانَ في صَفَحاتِه
لا تُخبِرِ الأحفادَ أنَّ جُدُودَهُمْ لم يَشْهَرُوا سيفاً بِوَجْهِ عُدَاتِه
قالوا: أَتَعْشَقُه، وهذي حالُه؟ يا حَبَّذا وطني على حالاتِه
العيشُ حُلوٌ في سبيلِ رُقِيِّهِ والموتُ أحلى في سبيلِ حياتِه

٥٧ سلام على كفر يوحد بيننا

قال، سنة ١٩٣٣ في صنبول، في حفل الجمعية الخيرية الإسلامية بعيد الفطر:

صِيَاماً إلى أنْ يُفْطِرَ السَّيْفُ بِالدَّمِ وصَمْتاً إلى أنْ يَصْدَحَ الحقُّ يَا فَمِي
لقد صَامَ هِنْدِيٌّ فَجَوَّعَ دَوْلَةً فهلْ ضَارَ عِلْجَاً صَوْمُ مِلْيونِ مُسْلِمِ

الهندي الذي أضرب عن الطعام فأربك بريطانيا هو غاندي

أُكَرِّمُ هذا العِيدَ تَكْرِيمَ شاعِرٍ يَتِيهُ بِآياتِ النَّبيِّ المعَظَّمِ
ولكنَّني أَصْبو إلى عِيدِ أمَّةٍ مُحَرَّرَةِ الأعناقِ مِنْ رِقٍّ أَعْجَمِي
هَبُونِيَ عِيداً يَجْعَلُ العُرْبَ أُمَّةً وسِيرُوا بِجُثْمَاني على دِينِ بَرْهَمِ

هبوني: امنحوني، برهم: البراهما وهو إله الخلق عند الهندوس

فقد مَزَّقَتْ هذِي المذاهِبُ شملَنَا وقد حَطَّمَتْنَا بينَ نابٍ ومَنْسِمِ

المنسم: ظفر الجمل

سَلامٌ على كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنا وأهلاً وسهلاً بعدَهُ بِجَهَنَّمِ

٥٨ ظهور وصدور

العبقريُّ يَعافُ شُهرتَهُ فتجِيئُهُ عفْواً بِلا تَعَبِ
والمدَّعي يُمْسي ويصبحُ مِنْ دَعْوَاهُ في هَمٍّ وفي نَصَبِ

نصب: تعب

يَغْشَى المحافِلَ للظُّهورِ، ولَوْ قرأَ الصُّدُورَ لَجَدَّ في الهَرَبِ

لا يفُتْكَ أن (الظهور) و(الصدور) فيهما لعبة لفظية: إيهام بالطباق

٥٩ الشهرة والافتضاح

حَلَمْتُمْ أنَّكُمْ أمراءُ شِعرٍ فَمَا ذَنْبي إذا طَلَعَ الصباحُ

خمولُ الذِّكْرِ للجُهَّالِ سِتْرٌ وشُهْرةُ مُدَّعي الأدبِ افتِضَاحُ
وكمْ في الشعرِ مِنْ كُثْبانِ رملٍ تُكَوِّمُها، وتَسفِيها الرِّياحُ

٦٠ فرار مع المحبوبة

قال، ونظمها في إيتاكيرا على بعد ٢٠ كم من صنبول. وعاش هناك سبعة أشهر مع أمه وشقيقته في بيت وسط بستان جميل. وأنشدها في حفل بصنبول أقيم لرفيقه إلياس فرحات سنة ١٩٣٢:

لمياءُ! هذا جَبينُ الفجرِ قد سَفَرا وموسِمُ الحبِّ عنَّا مُزْمِعٌ سَفَرا
وأَضْيَعُ الناسِ مَنْ يَمضي الشبابُ، ولا يقضي مِنَ الحبِّ في أيامِهِ وَطَرا

يقضي وطراً: يلبي رغبته

طِيري نُنَقِّرْ مَعَ الأسرابِ في فُرَصٍ إنْ طِرْنَ لنْ تَجِدي حَبَّاً ولا ثَمَرا
غداً نذوبُ إلى الأعنابِ مِنْ ظَمَإٍ ونَهْبِطُ الكَرْمَ لا نَلقَى لَهَا أَثَرا
عيبٌ علينا نَكُونُ البُلْبُلَيْنِ، ولا نشارِكُ الطيرَ في أعيادِها سَحَرا
أما تَرَيْنَ الدُّجَى لُمَّتْ غدائِرُهُ سُوداً، فَنَشَّرَها رَأْدُ الضُّحَى شُقُرا

غدائره: خصلات شعره، رأد الضحى: عز الضحى واكتمال شمسه

والغابُ أَلَّفَ جَوْقاً مِنْ عَشيرتِه: الريحَ والنهرَ والأطيارَ والشَّجَرا
والبدرُ كالنَّاشِئِ العَصْرِيِّ، عادَ ضُحَىً مِنْ مَرْقَصِ النجمِ يشكوُ الضَّعْفَ والخَوَرَا

الناشئ العصري: الشاب في أيامنا هذه؛ يشبِّهُ البدر مع زوال الليل بالشاب العائد من المرقص بعد سهرة امتدت حتى الصباح، فهو خائر القوى

يَمْشي إلى السَّاحِلِ الغربيِّ مُتَّئِدَاً كالشَّيْخِ في سفحِ تلِّ الأُفْقِ مُنْحَدِرا

يعود فيشبِّه القمر وهو يسير متئداً (متمهلاً) بالشيخ الذي يهبط سفح جبل

والأرضُ حارَتْ: أَتَلْقَى الفجرَ ضاحِكةً لأُمِّها الشمْسِ، أمْ تبكي ابْنَها القَمَرا
والصبحُ أرخَى نِقَاباً مِنْ أشعَّتِه أخفَى بِهِ الزُّهْرَ لما أعْلَنَ الزَّهَرا

الزُّهر: النجوم، الزَّهَر: الورود

سبحانَ مَنْ أبدعَ الأَنْوارَ مُعْجِزةً إنْ شاءَ أبْدَى بِها الأشياءَ، أو سَتَرا
ولِلجَداوِلِ أَنَّاتٌ مُرَجَّعَةٌ كأنَّها فُجِّرَتْ مِنْ أَكْبُدِ الشُّعَرا

ولِـلـسَّـحـابِ ثَـنِـيَّـاتٌ مُـصَـفَّـفَـةٌ بيضٌ، كأنَّ عجوزاً جَعَّدَتْ شَعَرا

ثنيات: يقصد بها خصلات شعر

تُذَهِّبُ الشمسُ أطرافَ اللُّجَيْنِ بِهَا كـمـا تُـوَشِّـي يَـدُ الـزُّوقِـيَّـةِ الـحِـبَرَا

اللجين: الفضة، الزوقية: بنت «الزوق»، القرية اللبنانية المشتهرة بالتطريز، الحِبَر: الأثواب

هيَّا إلى الغابِ، إنِّي قد بَنَيْتُ لنا مِـنَ الـرَّيـاحِـيـنِ عُـشّـاً لَـيِّـنـاً عَـطِـرا
تَحْنُو علينا ظلالُ الأَيْكِ، رَقَّطَها مِـنَ الأشـعَّـةِ كَـفٌّ تَـرْسُـمُ الـنَّـمِـرَا

تحنو علينا ظلال الأيك (الشجر)، وترقط أشعة الشمس الأماكن المظللة ببقع ضوء، تجعلها تشبه جلد النمر

إذا سَـئِـمْـنَـا ذُرَى أَفْـنَـانِـهـا سُـرُراً مَدَّتْ لنا الأرضُ مِنْ أعشابِها حُصُرا

ذرى أفنانها: قمم غصونها، سُرراً: تخوتاً، الحصر: بُسُط القش

فِرِّي إليهِ مَعي عندَ المساءِ، ولا تَـرْوي إلـى بَـشَـرٍ مِـنْ أمـرِنَـا خَـبَـرا
إنـي كـريـمٌ، أُحِـبُّ الـمـالَ مُـشْـتَـرَكاً لكنْ غَيُورٌ: أريدُ الحسنَ مُحْتَكَرا
خَـلِّ الـهُـيـامَ بِـجَـنَّـاتٍ مُـزَخْـرَفَـةٍ لِشَاعرٍ يَعشَقُ الأوهامَ والصُّوَرَا

اترك يا هذا الشغف بالجنات المزدانة للشعراء

نحنُ، الفلاسفةَ الحَمْقَى، لَنا وَلَعٌ بالغابِ، حتَّى غَدَوْنا نَكْرَهُ البَشَرا
لا يُنْبِتُ الدينُ بُغْضاً في مَزَارِعِنا مَهْمَا أخو الجهلِ مِنْ أشواكِهِ بَذَرَا
الـكـلُّ فـيـنـا جُـنـودٌ لـلإخـاءِ، فَـمَـا في دولةِ الشِّعْرِ نُوَّابٌ، ولا وُزَرَا
نَسْتَعْذِبُ الموتَ مِنْ أجلِ الحياةِ، فَمَا يَجْني الورى الشَّهْدَ حتى نَجْنِيَ الإبَرَا

يشدد الشاعر عمران القفيني النكير على القروي قائلاً: «يا قروي هذا من: ولا بد دون الشهد من إبر النحل»، ونقول: هذه سرقة ليست بسرقة، فلشهرة بيت المتنبي نعدها من التضمين

عِفْنَا القشورَ، وهِمْنَا باللُّبابِ، فَلَا يُزْرِي الـجـهـولُ عـلـيـنـا أنَّـنـا فُـقَـرا

يزري علينا: يعيب علينا

لا نَقْدُرُ الناسَ إلَّا بالعُقُولِ، ولا نُـقِـيـمُ لـلـمـالِ وَزنـاً، قَـلَّ أو كَـثُـرَا

نَقْدُر: نُقيِّم (ألا دع عنك الصرفيين المتجمدين الذين يقولون إنها «نقوِّم»، وكأنهم لم يسمعوا بتقويم الاعوجاج وتقويم الأسنان. «نقيِّم» معناها نحدد القيمة، ومنها التقييم، وهذه حيلة صرفية بارعة للعربية المعاصرة لتفريع اللفظ حتى يغطِّيَ معاني جديدة مع أمن اللبس. وأحسن مجمع القاهرة إذ أجازها)

نُورُ المسيحِ تجلَّى مِنْ مَذَاوِدِنا   وسيفُ أحمدَ مِنْ صحرائِنا شُهِرَا

المذاود: المعالف، وقد وُضع عيسى الوليد في مذود

وهلْ سمعتَ بِغَنْدِي؟ إنَّهُ حَمَلٌ   في الهندِ ثارَ على الضِّرْغَامِ وانتصَرَا

غندي: غاندي

إن كانَ عابَ عليهِ العُرْيَ مُسْتَتِرٌ   فإنَّ آدمَ لولا الإِثْمُ ما اسْتَتَرا

ذاع أن البابا اعتذر عن لقاء غاندي لأن ثوبه لا يغطي ساقيه

هَزُّوا الحسامَ فلم يَحْفِلْ، وهزَّ لَهُمْ   غُصْنَ السلامِ، فَهَزَّ البَحْرَ والجُزُرا

الجزر: يعني الجزر البريطانية التي هزها غاندي بدعوته اللاعنفية

وغادَرَ السيفَ يَحْكي غِمْدَهُ فَلَلاً   فاعْجَبْ لِغُصْنٍ يَفُلُّ الصارِمَ الذَّكَرَا

غادر(جعل) غاندي السيف يحكي (يشبه) غمده فللاً (تثلماً)، فما أعجب غصن السلام وهو يثلم الصارم (السيف) الذكر (القاسي)

٦١ ومن نحن عند العد كي نتعددا

قال عام ١٩٣٣ في بيونس آيرس ويذكر الملك فيصل ملك العراق وهو في أوروبا يفاوض، هذا قبيل وفاته في سويسرا. وألقيت في حفل كبير، حضره رئيس الأرجنتين:

يَمُدُّونَ، للتَّسليمِ، في لَنْدَنٍ يَدَاً   ويُخْفُونَ للتَّسليحِ في نِينَوَى يَدا

وقالوا: مليكُ العُرْبِ في الغَرْبِ مُكْرَمٌ   فقلتُ: إذنْ باتَ المليكُ مُهَدَّدا

نَصَحْتُكَ، لا تَمْدُدْ إلى أَبْرَصٍ يَدَاً   ولو مَطَرَتْ كفَّاهُ دُرَّاً مُنَضَّدا

الأبرص: الذي به بياض من بهاق أو نحوه، ويعني البيض الأوروبيين، الدر المنضد: اللؤلؤ المنظوم في عقد

لأمرٍ يُلاقيكَ الفِرَنْجِيُّ باسِماً   فَزِدْ حَذَراً مَا زادَ ذئبٌ تَوَدُّدَا

تراهُ صحيحَ الودِّ، وَهْوَ سقيمُهُ   كما تُكْسِبُ الحمَّى الخدودَ تورُّدَا

وإنَّ الذي أَخْنَى على عادَ قَبْلَكُمْ   لَيُخْني على أُورُبَّةَ اليومَ أو غَدَا

أخنى على عاد: أهلك قوم عاد

وأنْكَى العِدَى كلبٌ طليقٌ مُسَلَّحٌ   يَهَدِّدُ في الأقفاصِ ليثاً مقيَّدَا

ومَزَّقَنا الإرشادُ عشرينَ دَوْلَةً   ومَنْ نحنُ، عندَ العدِّ، كيْ نَتَعَدَّدا

الإرشاد: الوصاية الأوروبية

لئنْ وَعَدونَا بالجلاءِ عَنِ الحِمَى فقد ضَرَبوا يومَ القيامةِ موعِدَا

٦٢ رثاء فيصل بن الحسين

قال، وألقاها في الحفلة التأبينية للملك فيصل بن الحسين، ملك العراق، سنة ١٩٣٣ :

لَنْ يَفِيكَ الرِّثَاءُ يا سَيِّدَ العُرْ بِ، ويَا سِبْطَ سَيِّدِ المُرْسَلِينا

سبط: حفيد

وَلَوَ انَّ السَّحَابَ كانَ دُمُوعاً وَلَوَ انَّ النُّجُومَ كُنَّ عُيونَا

يا حَجِيجاً يَطْوِي إلى الكَعْبَةِ البَطْـ ـحَاءَ طَيّاً، ويَسْتَحِثُّ الظُّعُونَا

البطحاء: مكان في مكة، يستحث الظعون: يحث الإبل على السير

كُنْ جَليداً عَلى الشَّدائِدِ، واسمَعْ نَبَأً رَنَّ في الحِجَازِ رَنِينَا

وَطَأ الرَّمْلَ عندَ مَكَّةَ وَطْئاً كَانْطِبَاقِ الجُفُونِ رِفْقاً ولِينا

ليسَ هذا رَمْلُ الحِجَازِ، ولكنْ هُوَ قلبُ الحِجَازِ أمْسَى طَحِينَا

طحين: مطحون

٦٣ أفاعيل ذات الأساطيل

قال في رثاء الملك فيصل بن الحسين ١٩٣٣ :

يَهْنِئْكَ! لم تَرَ عيْناكَ الذي فَعَلَتْ ذاتُ الأَساطِيلِ مِنْ أهوالِهَا فِينا

ذات الأساطيل: بريطانيا

أَجْرَتْ مَراكِبَها مَشحونَةً قَذَراً وأَفْرَغَتْها يَهُوداً في فِلَسْطِينَا

قد أَنْزَلَتْهُمْ بِوادِينا على سَعَةٍ وشَرَّدَتْنَا حَيَارَى في بَوادينا

وأَكْبَرُ النَّائِباتِ السُّودِ نَائِبَةٌ أَحْبَابُنَا شَارَكُوا فِيها أَعَادِينَا

وقد أفتى البطريرك عريضة في ذلك الوقت بوجوب معاملة اليهود بشريعة المسيح وإيوائهم والانتفاع برساميلهم

لم يَكْفِ لُبْنَانَ مَا كادُوا لهُ فَغَدَا، وَهْوَ اللُّبَيْنَانُ، مَقْسُوماً لَبَانِينَا

يا سَيِّدَ الدِّينِ! هَلْ يُدْعَى مُعَلِّمُكُمْ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ، أَمْ مُوسَى وهَارُونا

لقَدْ رَحِمْتَ ثَعَابِينَ اليَهُودِ، ألا فَارْحَمْ خِرَافَكَ، واحْسَبْهُمْ ثَعابِينَا

شبه المسيح رعاياه بالخراف: «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» يوحنا أصحاح ١٠ ـ ١١

قالَ المسيحُ لَنا: حِبُّوا أَعَادِيَكُمْ   لَكِنَّهُ لم يَقُلْ: حِبُّوا الشَّيَاطِينَا

تسويد عمران القفيني

الدِّينُ قِبْلَتُنَا، لَكِنْ تِجَارَتُكُمْ   بِالدِّينِ تُكْرِهُنَا أَنْ نَكْرَهَ الدِّينَا

متاجرتكم بالدين تجبرنا على أن نكرهه

أَمَّلْتُمُ الرِّزْقَ مِنْ أَزْرَى الأَنامِ يَداً   يا لِلمصِيبَةِ! هل صِرْتُمْ مَجانينَا
هَبْكُمْ أَصَبْتُمْ، فإنَّا لا نُرِيدُ غِنَىً   مِنَ اللُّصُوصِ المرَابينَ المرَائينَا
واللَّهِ لو دَاسَ في بَيْرُوتَ أطهَرُهُمْ   لَسَمَّمَتْ قَدَمَاهُ نَبْعَ صَنِّينَا

٦٤ وطن يحتاج إلى صفعة

قال سنة ١٩٣٤:

لَكَمْ تَحميكَ يا وَطني لُصوصٌ!   وكَمْ، يا قومِ، تَرْعاكُمْ ذِئابُ
سَنَقْتُلُكُمْ، ونُحْييكُمْ، إلى أنْ   يُمَزَّقَ عنْ عُيونِكُمُ الحِجابُ
وكَمْ كَفٌّ يطيرُ بِها صَوابٌ   وأخرى يُسْتَعادُ بِهَا الصَّوابُ

كف: صفعة

٦٥ لِمَن المآدب

قال وقد أدَبَت الجالية العربية في بيونس آيرس سنة ١٩٣٤ مأدبة سخية له ولرفيقه إلياس فرحات:

لِمنِ المآدِبُ حَوْلَهَا الأَضْيافُ   وعَلامَ هذا البَذْلُ والإسْرَافُ
حَسْبُ البلابِلِ حَبَّتانِ وقَطْرَةٌ   وتَعُودُ لِلتَّغْرِيدِ، وَهْيَ خِفَافُ
واللَّهِ مَا ظَفِرَتْ يَدايَ بِلُقْمَةٍ   إلَّا عَرَانِيَ خاطِرٌ رَجَّافُ
وتَمَثَّلَتْ ليَ في المضَارِبِ صِبْيَةٌ   خُمْصُ البُطُونِ، كَأَنَّهُمْ أَطْيافُ

خمص البطون: ضامرو البطون جوعاً

لَهُمُ الصَّحارَى والمجَاعَةُ والصَّدَى   ولَنَا النَّدَى، والخَمْرُ، والأَرْيَافُ

الصدى: العطش

أَشْبَالُ مَنْ نَشَرَ الكَتائِبَ سَيْفُهُ   وسَقَى السَّبَاسِبَ رُمْحُهُ الرَّعَّافُ

السباسب: الصحارى، الرعّاف: الذي يسيل منه الدم

أَنْجَالُ مَنْ كانتْ تَرُوحُ وتَغْتَدي كَالنَّمْلِ، حولَ خِوَانِهِ، الأَضْيافُ
أطفالُ سُلْطانٍ تَجوعُ، وطَالما شَبِعَتْ، بِفَضْلِ فَطُورِهِ، الآلافُ
أَنّى تَطِيبُ لِذِي الشُّعُورِ لُماظَةٌ وتَسُوغُ في حَلْقِ الأَبِيِّ سُلافُ

لماظة: لقمة، سلاف: خمر

والشَّهْدُ، إنْ ذُكِرَ المُقِيمُ عَلَى الطَّوَى، سُمٌّ بِأَحْشَاءِ الكَرِيمِ زُعَافُ

الطوى: الجوع، سم زعاف: سم سريع القتل. تسويد عمران القفيني

٦٦ كلا أحمديها

قال سنة ١٩٣٥ في المهرجان التذكاري الذي أحيته العصبة الأندلسية لمرور ألف سنة على وفاة المتنبي:

نَبِيٌّ ولو ضَجَّتْ شُيوخٌ ورُهْبَانُ وهلْ بعدَ إعْجازِ ابنِ كِنْدَةَ بُرْهانُ

ابن كندة: المتنبي أحمد بن الحسين الكِنْدي

وكلُّ كلامٍ يَرفعُ النفسَ مُنْزَلٌ وكلُّ مَقالٍ يُفْسِدُ العقلَ بُهْتانُ
إذا افتخَرَتْ أمُّ اللُّغاتِ على اللُّغَى وأَدْلَتْ بِفُرْقَانٍ، تَعَرَّضَ دِيوانُ

إذا افتخرت العربية على اللغات بالقرآن، فديوان المتنبي يزيدها فخراً

كِلا أَحْمَدَيْها جاءَ فيها بِمُعْجِزٍ فَلِلشَّرْعِ قرآنٌ، ولِلشِّعرِ قُرآنُ

ظل النقاد يقولون «الأحمدين» يعنون المتنبي وأحمد شوقي، حتى جاء القروي فقرن المتنبي بالرسول، وجعل ديوان المتنبي قرآن الشعر. لافتٌ ما في الشعر من الصنعة: هذه المزاوجة بين برهان ورهبان في البيت الأول، وأختها هنا بين «الشرع» و«الشعر». ومن محاسن شعر القروي أنه استعمل المحسنات البديعية بدون إفراط فجاءت حلوة سائغة، وكان المسلمون يحتملون منه جرأته لاستمساكه بالثقافة العربية الإسلامية، ولو كان بيننا اليوم في عام ٢٠٠٩، لكفروه تكفيراً

فيا لَكَ مِنْ نَسْرٍ لَهُ زَأْرُ ضَيْغَمٍ زَمَازِمُهُ في مِسْمَعِ الدَّهْرِ أَلْحَانُ

الزمازم: الأصوات المختلطة، وصاحب الكلمة المتنبي إذ يقول عن الجيش «وفي أذن الجوزاء منه زمازم»

تَخَطَّى سماءَ العَبقَرِيِّينَ، وانجَلَتْ لهُ خَلْفَ أكوانِ الأُناسِيِّ أَكْوَانُ
ونَزَّلْتَها للناسِ آياتِ حِكْمَةٍ جُواهِرُهَا في مَفْرِقِ الشِّعْرِ تِيجانُ

الآن يخاطب المتنبي. المفرق: الرأس

بِكَ اشتهر العَصْرُ الذي أنْتَ فَخْرُهُ　　وأنتَ لَهُ التارِيخُ والمجدُ والشَّانُ
عِيَالٌ علـى ذِكْرَاكَ ذِكْرى مُلُوكِهِ　　وأسماؤُهُمْ فيهِ على اسمِكَ ضِيفَانُ

الملوك الذين نذكرهم اليوم إنما يذكرون بسببك، فشهرتهم متطفلة على شهرتك أنت، وأسماؤهم بمثابة الضيفان، الضيوف، على اسمك

خَلَدْتَ، فَخَلَّدْتَ الزَّمانَ، وهَكَذا　　تـموتُ وتَـحْيَا بـالـنَّوابِغِ أزْمَـانُ
بِشَاعِرِها فَلْتَفْتَخِرْ كلُّ أُمَّةٍ　　يُهَدِّدُها بِالموتِ والعارِ طُغْيانُ
إذا طُوِيَتْ أعلامُها فَهْوَ بَيْرَقٌ　　وإنْ أُخْمِدتْ أنفاسُها فَهْوَ بُرْكَانُ
أبا الشِّعْرِ! هذا مَحْفِلٌ مِنْ مَحَافِلٍ　　تَهُزُّ بِهَا الدُّنيا، بِذِكْرِكَ، قَحْطَانُ

والمتنبي كندي قحطاني يماني

صَحَا الدَّهْرُ فاسْتَسْقَاكَ كأساً جَدِيدةً　　طَوَى ألفَ عامٍ قَبْلَها وَهْوَ سَكْرَانُ

الآن بعد ألف عام على موت المتنبي يصحو العالم فيستسقي المتنبي (يطلب منه أن يسقيه) كأساً جديدة، وكان العالم قد ظل سكران ألف عام بخمرة المتنبي الشعرية

خَلا العرشُ بعدَ ابنِ الحُسَينِ على المدَى　　وعُطِّلَ مِنْ كِسْرَى البَلاغَةِ إيوَانُ

٦٧ الأم الحنون والإسلام

قال في الذكرى السنوية الأولى لوفاة الدكتور خليل سعادة ١٩٣٥:

لبنانُ! يا وَطَنَ الجمالِ، ومُنْجِبَ الـ　　ـأبْطَالِ، والصُّيَّابَةِ الأعْلامِ

الصيابة: السادة

أُسْلِمتَ لِلأمِّ الحنونِ، فَقُلْ لَنا:　　أَوَجَدْتَها خيراً مِنَ الإسْلامِ؟

الأم الحنون: ساخراً.. يعني فرنسا

٦٨ أمة مستريحة

قال وتليت في صنبول في سنة ١٩٣٥ في حفلة جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية لمرور خمسة أعوام على إعدام الشهداء فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم في فلسطين:

أنجبتنا أمةٌ، ما بَرِحَتْ　　تُنجِبُ الأبطالَ مِنْ عهدِ ثمودِ

رقَّصوا الخيلَ على الطَّعنِ، كما رقَّصوا الطَّيرَ على خَفْقِ البُنودِ

رقَّصوا الخيل تحتهم وهم يطعنون أعداءهم، ورقَّصوا الطيور الجارحة على خفق البنود (الرايات)؛ بينما هذه الجوارح تنتظر سقوط الأعداء لتنهش جثثهم، وهذا معنى قديم، ولكن ترقيص الخيل والطير جديد كل الجدة

لم تَضِرْنا راحةٌ بعدَ العَنا فالكَرَى يُغْمِضُ أجفانَ الأسودِ

٦٩ والأفاعي بنات عم العقارب

قال زمن الاعتداء الإيطالي على الحبشة ١٩٣٥:

ما لِعينيكَ تَرعَيانِ الكواكبْ! أيَّ خَطْبٍ وَرَاءَهُنَّ تُراقِبْ

خطب: مصيبة، تراقب: تحْذر (هذا هو المعنى القديم لكلمة تراقب، وبه نفهم قول الشاعر: من راقب الناس مات هماً/وفاز باللذة الجسور، ومعناه: من كان يحذر منهم أصابه الهم، ويفور باللذة الجسور الجريء. وسترى عند القروي كثيراً من الكلمات السهلة البريئة التي تشي - رغم بساطتها - بثقافته العربية الراسخة)

أنتَ، واللَّهِ، شاعرٌ عربيٌّ ضائعٌ بينَ قومِهِ والأجانبْ

حاملٌ فوقَ همِّهِ هَمَّ شعبٍ ساوَرَتْهُ الخُطوبُ مِنْ كلِّ جانبْ

ساورته: هاجمته، الخطوب: المصائب

بَلْبَلَتْ عقلَهُ المذاهبُ والأحـ ـزابُ، حتَّى سُدَّتْ عليهِ المذَاهبْ

المذاهب: العقائد، المذاهب الثانية: الطرق

كلُّ مَنْ يَدَّعي الكرامةَ مِنَّا فِيكَ يا غربُ كاذبٌ ثُمَّ كاذبْ

ربما كانَ مَنْ تُوَالي مِنَ الإفْـ ـرَنْجِ أدْهى عليكَ مِمَّنْ تُحارِبْ

لنْ يُعَادي مِنْ أجلِكَ العِلْجُ عِلْجاً والأفاعي بناتُ عمِّ العقاربْ

عَبَثاً، والعَتَادُ سيفٌ ورمحٌ، تَتَنادَوْنَ للوَغَى يا أعَاربْ

تتنادون: ينادي بعضكم بعضاً، للوغى: للحرب

ذهبتْ دولةُ الجَحافِلِ والرَّا ياتِ والخيلِ، والقَنَا والقَوَاضِبْ

القنا: الرماح، القواضب: السيوف

وأتَتْ دولةُ القنابلِ، والغا زاتِ والسُّمِّ، والشِّهابِ الثَّاقِبْ

الثاقب: المشتعل

لـم يَـعُـدْ يـنـفـعُ الأُسـودَ وُثُـوبٌ   بعدَ أن طارَ بِـالجناحِ الثَّعالبْ

لا تنفعنا الأسلحة، وكل الوسائل، العتيقة بعد أن اخترع الغرب الماكر الطائرات وصار يحارب بها

وَثَباتُ الأقدامِ في التُّرْبِ، لكنْ   وَثَباتُ العقولِ فوقَ الكواكبْ

وثبة قدم الإنسان تبقيه على التراب، ولكن وثبة العقل ترفع المرء فوق الكواكب. يرى عمران القفيني في البيت جناساً لم نره، فهذا شرحه للبيت: (وثبات الأولى من الثبات والاستقرار والرسوخ، وهو يسخر من شعارات عربية مثل: لنا قدم راسخة ثابتة في هذه الأرض. أما الثانية فهي القفزة العلمية.. يسخر من ثبات قدم العربي وعقول الغرب وصلت الفضاء. واستغل ـ على ما أظن ـ الجناس بين وثبات ووثبات. هذا ما لمحته)

فاضْرِبِ البَازَ بِالعُقابِ، وحَارِبْ   بِسِلاحِ العقولِ، أو لا تُحَارِبْ

الباز والعقاب: من الطيور الجارحة

٧٠ سؤال خبيث

قال، ونُشرت في مجلة «العصبة» سنة ١٩٣٥:

يا رَبِّ عَفوَكَ إنْ جَسَرْتُ فَقُمْتُ مُعْـ   ـتَرِضاً على الحُكْمِ الذي أَبْرَمْتَهُ

أَغْرَيتَ قَايِيناً بِهَابيلٍ: إذا   قايينُ لم يَذْبَحْهُ، أَنْتَ ذَبَحْتَهُ

قايين: قابيل

هَبْ كانَ قَايينٌ بِشَرْعِكَ ظَالماً   أَفَكُنْتَ أرحَمَ منه حينَ لَعَنْتَهُ؟

٧١ عش للعروبة

قال سنة ١٩٣٦ في صنبول:

عِشْ لِلعروبَةِ هَاتِفَاً   بِحَياتِها، ودَوَامِها

وامْدُدْ يَمِينَ الحُبِّ يا   لُبْنانَها لِشَآمِها

أُنْظُرْ إلى آثَارِها   تُنْبِئْكَ عَنْ أَيَّامِها

هذا التُّرَاثُ يَمُتُّ مُعْـ   ـظَمُهُ إلى إسْلامِها

مَا لِي أراكَ بَرِئْتَ مِنْ   دَمِهَا، ومِنْ أوطانِهَا

أَنَسِيتَ أَنَّكَ لَيْثُ نهْـ   ـضَتِهَا، ونَسْرُ بَيَانِهَا

اللبناني كان في طليعة من أنهضوا اللغة العربية بعد عصور مظلمة من الجهل

أتَـقُـولُ: لَـسْـتُ مِـنَ الـشَّـآ مِ، وأنْـتَ فـي أحْـضَـانِـهـا
أتَـهُـدُّ نَـاطِـحَـةَ الـنُّـجُـو مِ، وأنـتَ مِـنْ أرْكَـانِـهـا

٧٢ «الأم الحنون»

قال احتفالاً برفع العلم السوري بجانب العلم البرازيلي فوق بناية جمعية الاتحاد السوري في «برتس» عام ١٩٣٦:

إنْ كُنْتَ لِلْحَقِّ، فَلْتَخضَعْ لَكَ الأُمَمُ أو كُنْتَ لِلظُّلم، لا حُيِّيتَ يَا عَلمُ
حَدِّثْ أخاكَ عَنِ الأمِّ الحَنُونِ، وعَنْ ناسٍ على نَاسِهِمْ، في حُبِّهَا، انْقَسَمُوا

الأم الحنون: لقب فرنسا عند محبيها في لبنان، ويستعمله كارهوها ساخرين

عَـدُّوا وِصَـايَـتَـهـا مِـنْ رَبِّـهِـمْ هِـبَـةً حتى مَحَا الفَجْرُ ما قد زَخْرَفَ الحُلمُ
كَمْ يَنْسُبُونَ إليها الفَضْلَ مِنْ قِدَمٍ والفَضْلُ، لو فَقِهُوا تَارِيخَهُمْ، لَهُمُ
أينَ العُلُوجُ الأُلَى أقْسَامُهُمْ خِدَعٌ مِـنْ مَـاجِـدٍ عَـرَبِـيٍّ وَعْـدُهُ قَـسَـمُ؟

أين الأجانب، الذين أيمانهم حين يحلفون مجرد خداع، من العربي الماجد الذي يعِدُ وعداً فيكون وعده بمنزلة القسم؟

٧٣ حسب الورود تعطر بالماء

أحـبـبـتُ فـيـكِ بـسـاطـةً شـرقـيَّـةً فَـيـهـا الـجـمـالُ الأُنْـثَـوِيُّ مُـجَـسَّـمُ
ليسَ التمدُّنُ، يا لُمَيَّةُ، غيرَ ما حُكَمَاءُ شَعْبِكِ مِنْ قديمٍ عَلموا
وحَـضَـارةُ الـغَـرْبِـيِّ بُـرْجُ حَـمَـاقَـةٍ كَـفٌّ تُـعَـمِّـرُهُ، وكَـفٌّ تَـهْـدِمُ

* * *

فـي بُـرْدَتَـيْـكِ مَـحَـاسِـنٌ خَـلَّابَـةٌ لـم يَـدْرِ قـيـمَـتَـهـا سِـوَى الـشـعَـرَاءِ
قَـرَوِيَّـةٌ وحَـيِـيَّـةٌ ونَـدِيَّـةٌ ونَـقِـيَّـةٌ كَـالـوردةِ الـبـيـضَـاءِ
لا تَعْرِفينَ مِنَ الطُّيُوبِ سِوى النَّدَى حَـسْـبُ الـوُرُودِ تَـعَـطُّـرٌ بِـالـمـاءِ

٧٤ غيرة

بِعينيْكِ آياتُ الكَآبةِ والحُزْنِ أَمِنْ صاحبي هذا الذي بِكِ، أمْ مِنِّي؟
تقولينَ: مَنْ تَعْني؟ ووَاللَّهِ، إنما لِكَيْ تَستَعِيدي ذِكْرَهُ، قلتِ: مَنْ تَعْني
إذا حَـدَّثـوا عـنـهُ تَـوَلَّـتْـكِ سَـكْـرَةٌ كَحَوَّاءَ عادَتْ بِالخَيالِ إلى عَدْنِ

وأَغمضْتِ لِلتَّذْكارِ عينيْكِ لَذَّةً وأصغَيْتِ إصغَاءَ الضَّريرِ إلى لَحْنِ

تعليق عمران القفيني: (ألا لا يفوتنا التسويد.. يا سلام!)

وأيُّ دليلٍ تَقتَضينَ على الهوى وماذا تَبَقَّى لي إذا حَدَّثوا عَنِّي
فَلا تَسألِيني: ما رَأيْتَ؟ فَإنَّ لي مِنَ القلبِ ما يُغْني عَنِ العينِ والأُذْنِ
ولا تَحْلِفي لي بالذي كان بَيْننا عَشِيَّةَ مِنْ سَطْحٍ نَفِرُّ إلى غُصْنِ
لُمَيَّةُ! ما في حُبِّ مِثْلِيَ رَاحَةٌ ويَغدُو كثيرَ الظَّنِّ مَنْ كان في سِنِّي
تَجاوَزْتُ عَنْ جَهلِ الصِّبَا وغُرُورِهِ وفي العقلِ ما يُغْني الرَّشيدَ عَنِ الحُسْنِ
ولِي خَمْرَةٌ غَيْرُ التي تَعْهَدِينَها إلى أَدَبي مَنْسُوبَةٌ، وإلى فَنِّي

٧٥ الحبيبة الغيور

كيفَ السبيلُ إلى رضَا حَسُّونَتِي إلَّا بِكَمٍّ فَمي، وقَصِّ جَناحي

الحسون: طائر مغرد

لم تَهْوَني إلَّا لأنِّيَ بُلْبُلٌ، وتَمُوتُ إنْ سَمِعَ الطيورُ صُدَاحي

* * *

هلا سَمِعْتِ، إذا اسْتَكَنَّ الطيرُ في أَعْشاشِهِنَّ، تَنَهُّدِي ونَحِيبي
أَعَصَرْتُ إلَّا فيكِ مِنْدِيلي، وهلْ حَيَّرْتُ إلَّا في هَواكِ طبيبي

عصره منديله في محبوبته كناية طريفة يفهم البريء منها أن صاحبنا بلل منديله بالدمع ثم عصره. وكان القروي عاشقاً عرف نساء كثيرات، وإن خص لمياء بالذكر. ومات أعزب، ولكنه صرح بأنه عرف العشق في كل صوره

* * *

يا مَنْ يُحَوِّلُني غُرَاباً نَاعِبَاً كَيْ لا تَمُوتَ لُمَيَّتي وأَمُوتَا
هِيَ لا تُطِيقُ الصَّبْرَ إنْ فَتَنَ الوَرَى شَدْوِي، ولا أَنَا أَسْتَطيعُ سُكُوتَا

٧٦ ولكنها تتسلى العيون

أَتَتْ قُرَّةُ العينِ في الزَّمْهَرِيرِ تَصُبُّ الجَحِيمَ على صَبِّهَا

صبها: عاشقها

تَسُبُّ، فَأَسْمَعُ شَكْوَى الغَرامِ   يُذِيبُ الجَلامِيدَ في سَبِّهَا
الجلاميد: الصخور. يقول: في سبابها أسمع رنة شكوى الغرام الذي يذيب الصخور

* * *

: إلى كَمْ تَخُونُ وأَصْفَحُ عَنْكَ   لقد طَفَحَ الكيلُ يا غادِرُ
هذا ما تقوله هي له

خِدَاعُكَ لَيسَ لَهُ آخِرٌ   ولَكِنَّ صَبري لَهُ آخِرُ
لَعَمْرِي لقد صَدَقَ النَّاصِحُونَ   فَأَكْذَبُ أهلِ الهوى شاعرُ

* * *

: لُمَيَّةُ لم يَسْلُكِ القَلْبَ قَطُّ   ولا حَالَتِ الرُّوحُ عَنْ عَهْدِهَا
لم يسلك: لم يعرف السلوان، والنسيان، عنك

ولكِنَّهَا تَتَسَلَّى العُيُونُ   وتَبْقَى القلوبُ على وُدِّهَا

* * *

فَسَكَّنَ إِعصارَها نَفْحَةٌ   مِنْ السِّحْرِ نَمَّتْ بِها شَفَتَايَا
وأَخْمَدَ بُرْكانَها قَطْرَةٌ   مِنَ الشِّعْرِ هَمَّتْ بِهَا مُقْلَتَايَا
ورُحْتُ مِنَ الوَجْدِ أَلْثِمُ فَاهَا   فَكَادَتْ مِنَ الوَجْدِ تَأْكُلُ فَايَا
ألثم: أقبِّل. فايا قبيحة، وأكل الفم قبيح

وأَحْلِفُ لَسْتُ أُحِبُّ سِوَاهَا   فَتَحْلِفُ: لَيْسَتْ تُطِيقُ سِوَايَا
فَلم أرَ في الحُبِّ مِثْلِيَ كَهْلاً   سعِيداً، تَمُوتُ عَلَيْهِ الصَّبَايَا
تعليق عمران القفيني: (جاء بكل القوافي أعلاه كي يقول لنا «الصبايا».. يخرب بيتك يا قروي يا شيطان!)

٧٧ ضجر من الحبيبة

لُمَيَّةُ! هذا الحُبُّ طالَ عَناؤُهُ   ونَاءَ كِلانَا بِالذِي هُوَ حامِلُهْ
ناء: تَعِبَ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! أنتِ بَعْدُ حَبِيبَةٌ   أُغَازِلُها، أم أنتِ خَصْمٌ أُجَادِلُهْ
أَلا أَيْنَ عَهْدُ الأُنْسِ، أَيْنَ رِياضُهُ   وأينَ أَغَانيهِ، وأَينَ بَلابِلُهْ

وأينَ تَنَاغِينَا عَلى المرْجِ، كُلَّما مَشَيْنَا عليهِ اخْضَرَّ، واهْتَزَّ ذَابِلُهْ
وقد نَصَبَ الصَّفْصَافُ خَيْمَةَ شاعِرٍ عَلَيْنَا، وغَطَّتْ مَنْكِبَيْنَا جَدَائِلُهْ
تُشَيِّعُنَا عِنْدَ الوَدَاعِ طيورُهُ وتُبْكِي لِحِرْمانِ الجَنَاحِ جَداوِلُهْ

خرير الجداول بكاؤها، تبكي لأنه ليس لها أجنحة تطير بها مثل الطيور

تَبَخَّرَ حُلمٌ راوَدَ الجَفْنَ لَيْلَةً وطارَ، مَعَ الرِّيحِ، الذي كُنْتُ آمُلُهْ
تَوَهَّمْتُ أنِّي نَاعِمٌ بِرَفِيقَةٍ لِشَيْبِي، وقد غَالَتْ شَبَابِي غَوَائِلُهْ

ناعم برفيقة: مستمتع برفيقة، غالته غوائله: قتلته قواتله

إلى أَنْ تَبَدَّى لِي الذي كُنْتُ جاهِلاً ويا لَيْتَ أنِّي آخِرَ الدَّهْرِ جَاهِلُهْ

آخرَ الدهر: حتى آخر الدهر

وَكُلُّ أَبِيِّ النَّفْسِ يَهْدِيهِ طَبْعُهُ إلى أيِّ حَدٍّ يُسْتَحَبُّ تَساهُلُهْ
وبِئْسَ قِرَانٌ بينَ يَومٍ وليلةٍ لَذَائِذُهُ تَمْضِي، وتَبْقَى سَلاسِلُهْ

قران: زواج

سَأَبْقَى وَحيداً في سَمائِي مُشَرَّداً كَأَنِّيَ بَدْرٌ أَنْكَرَتْهُ مَنَازِلُهْ

منازل القمر: بروجه، وأماكن نزوله في بحر السماء

ولم تَخْسَرِينِي لو تَكُونِي حَكِيمَةً ولَكِنَّنِي طَيْرٌ عَزِيزٌ مُشَاكِلُهْ

عزيز مشاكله: نادر نظيره

وِصَالُكِ حُلْوٌ، بَيْدَ أنِّي أَعَافُهُ وهَجْرُكِ صَعْبٌ، غَيْرَ أنِّي أُحاوِلُهْ

٧٨ فردوسنا نحن

دَعِينِيَ مِنْ فِرْدَوْسِ عِيسى وأحمدٍ وقُومِي إلى فِرْدَوْسِنا نَتَنَعَّمُ
فَجَنَّتُهُمْ رُؤْيا رَأَوْها؛ وجَنَّتِي، بِحُبِّكِ، مِلءُ العَيْنِ والكَفِّ والفَمِ

٧٩ ندم على جرح الحبيب

ألقيتُ في سَمْعِ الحبيبِ كُلَيْمَةً جَرَحَتْ عواطِفَهُ، فَمَا أَقْسَانِي
قَطَعَ الحديثَ، وراحَ يَمْسَحُ جَفْنَهُ فودِدْتُ لو أُجْزَى بِقَطْعِ لِسَانِي
ومَضَى، ولِي قَلْبٌ على آثارِهِ، ويَدانِ بالأذْيالِ عَالِقَتَانِ

فَطَفِقْتُ مِنْ أَلمي أُكَفْكِفُ أَدْمُعي   ورَجَعْتُ مِنْ نَدَمي أَعَضُّ بَناني
وأقولُ: واخَجَلي إذا لاقَيْتُه،   فَبِأَيِّ وجْهٍ عابِسٍ يَلْقاني
حتَّى ظَفِرْتُ بِه، فَمَدَّ يَمِينَه   ورَنا إليَّ بِرِقَّةٍ وحَنانِ
وبَكى وعانَقَني، وقالَ: عَدِمْتُني   إن كانَ لي جَلَدٌ على الهِجْرَانِ

قال لي الحبيب: عدمت نفسي إن كنت أقوى على الهجران

قلْ ما تشاءُ، ولا تَغِبْ عن ناظِري   وفِدَاكِ ذُلِّي في الهَوى وهَواني

٨٠ تجديد العشق

قال في لقاء بعد فراق مع حبيبته لمياء:

أتاني رسولٌ مِنْ لُمَيَّةَ، بَعْدَما   حسِبتُ طَوالَ العُمْرِ لنْ نَتَحاكَى
فَوَلَّيْتُ وجهي شَطْرَ صَرْحٍ مُمَرَّدٍ   يُطاوِلُ بِالبُرْجِ الرفيعِ سِماكَا

صرح ممرد: قصر عالٍ، السِّماك: اسم نجم

تَقُولُ: أما مِنْ سالفِ العهدِ لَمحةٌ   تَرانَا بِها قبلَ الرَّدَى، ونَرَاكا
وقالتْ، وبي مِنْ حبِّهَا كالذي بِها: لِيَهْنِئْكَ ما ذُقْناهُ بعدَ نَوَاكا

هنيئاً لك عذابنا الذي ذقناه بعد فراقك

ورَعْياً لمنْ أَغْرَتْكَ بالهجرِ بعدَنا   فقدْ علَّمتْنا كَمْ يدومُ هَوَاكا

رعاها الله تلك التي أغرتك، فقد عرَّفتْني كيف أن هواك قصير العمر

فأَكْنَنْتُ وجهي فَرْعَها كَمُرَوَّعٍ   مِنَ الطيرِ، لاقَى في الصعيدِ أَرَاكا

أكننت: خبأت، فرعها: شعرها، الصعيد: التراب، الأراك: نوع من الشجر

ورُحْتُ، كطفلٍ يلتقي الأمَّ، بَاكياً   وعندَ لُمَيٍّ أَنَّني أَتَباكَى
فأَجْفَلَها دمعي كَوَرْدٍ بِصَدرِها   تَنَثَّرَ أثناءَ العِناقِ، وَشَاكَا

شاكَ: صار شائكاً

وقالتْ: فِدَى عينيكَ ألفُ لميَّةٍ   لِتَبْكِ عيونُ العالمينَ، عَدَاكا
أمِثْلُكَ يَبكي؟ قلتُ: لو يُسعِدُ البُكا   فقالتْ: حبيبي، مُرْ، جُعِلْتُ فِدَاكا

يسعد: يساعد

عيونيَ تَبْغي أمْ خدوديَ أم فَمي؟ فقلتُ لها: هذي، وتلكَ، وذاكا

على ما في البيت من صوغ طريف في شطره الثاني، فإن شطره الأول ناتئ عن الموقف. الحبيبة قد تقول «أتبغي عيوني»، هذا وارد؛ ولكنها لا تخير حبيبها بين خدودها وفمها إلا لسبب واحد.. أن يصنع الشاعر نكتة في الشطر الثاني.. نكتة سمجة، صبت على الموقف الغرامي ماء بارداً

وكبَّلْتُها بالسَّاعِدَيْنِ، فأسْلمتْ أسيرةَ وَجْدٍ، ما تُطِيقُ حَرَاكا

وبِتُّ أَعُلُّ الخمرَ والشَّهْدَ والنَّدَى أقولُ لها: هاتي، فَتُرْدِفُ: هاكَا

أعل: أشرب

إلى أنْ تَولَّانا الذي يَسْلُبُ الحِجَا ويَنْصِبُ للخُلْقِ المتينِ شِبَاكا

فلما هَصَرْتُ القدَّ، صاحتْ: قَتَلتَنِي لأَشْبَهُ شيءٍ بالعَداءِ هَواكا

هصرت: جذبت

أتلْبَثُ لا نَدْعُوكَ، إلَّا زَرَيْتَنا ولا نَخْتَلي، إلَّا أضَعْتَ هُدَاكا

زريتنا: استهنت بنا، ازدريتنا

إذا غبتَ تَسْلُونا، وتَلْهُو بغيرِنا وإن أُبْتَ تُغْرينا بِطُول بُكَاكا

إليكَ، وإلَّا لَنْ تَرانِيَ بَعْدَها وإن كنتُ لا أهوى الحياةَ بِلاكا

إليك: ابتعِدْ، بِلاكا: بدونك

فنبَّهَنيِ الإنذارُ مِنْ سَكْرَةِ الهوى وعُدْتُ، كما شاءَ المَلاكُ، مَلاكا

٨١ المن والسلوى

ولِي كَبِدٌ تَهْوَى، ونَفْسٌ كبيرةٌ فلا تَعْجَبوا مِنِّي إذا بِتُّ لا أَهْوى

قلبي يحب، ولكن بسبب كبريائي ونفسي الكبيرة فلا تعجبوا إن كنت لا أظهر هذا الحب

أَضَلَّ حبيبي «التِّيهُ» لما لَثِمْتُه وأَشْبَعَني «مَنَّاً»، فَأَشْبَعْتُهُ «سَلْوى»

التيه: التكبر، والتيه أيضاً الصحراء التي ضل فيها بنو إسرائيل، و«المن»: التذكير بالجميل، وهو كذلك الطعام الذي أنزله الله على بني إسرائيل، والسلوى: الهجران، وهو أيضاً طعام أنزله الله على بني إسرائيل. فالمعنى الظاهر: ضاع حبيبي في صحراء بني إسرائيل فأطعمني بعض طعامهم، وأطعمته بعضه. والمعنى المقصود: الكبرياء جَعلَتْ حبيبي يضل، فكان يتيه علي ويذكرني بجمائله، فصرت أهجره. هذه طريقة في الشعر أسرف فيها شعراء العصور النائمة، والقروي يستطرفها في الحين بعد الحين، وهنا صاغ منها عقداً براقاً

٨٢ الشيخ العابس

ألقاها في ١٩٣٧ في «غواشوبه» في حفل خيري نسائي، وكان الإنجليز في فلسطين قد أعدموا الشيخ فرحان السعدي عامئذ:

مـاذا هـنـاك؟ هـنـاكَ شـعـبٌ كـامـلٌ　　لـلـمـوتِ رهـنَ أوامـرِ الـجـلادِ
مـاذا هـنـاك؟ هـنـاكَ شـيـخٌ عـابـسٌ　　كـالـليـلِ مِـنْ مَـهْـدِ الـضِّـيـاءِ يُـنَـادي
تَـبّـاً لـكـلِّ صَـلِـيـبِ عُـودٍ لـم يَـفُـرْ　　دَمُـهُ لإعـدَامـيِ ولاسـتِـشْـهَـادي

صليب عود: رجل قوي عوده صُلب

الـشـيـخُ فـرحـانٌ يـنـاشـدُكُـمْ: أَمَـا　　مِـنْ مُـحْـسِـنٍ؟ إنْ لـم يـكـنْ مِـنْ فـادِ

٨٣ جهاد فلسطين

قال في صنبول (تعريب ساو باولو على طريقة القروي) ١٩٣٨، وثورة فلسطين لمَّا تهدأ:

لـنـا كـلَّ يـوم غَـضْـبَـةٌ مُـضَـرِيَّـةٌ　　تُـبَـرْهِـنُ أنَّ الـحـقَّ كَـالـلـهُ أَكْـبَـرُ

قال بشار: إذا ما غَضبنا غضبة مضرية//هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما؛ فمن هنا جاءت الغضبة المضرية، ومضر هي «الشعب» الذي تنتسب إليه قبائل كثيرة منها قريش، ومنها عُقيل التي كان ولاء بشار فيها

ومَـنْ كـانَ فـي أجـدادِهِ مِـثْـلُ خـالِـدٍ　　فَـمِـنْ آيِـهِ مـا تُـبْـصِـرونَ وأَكْـثَـرُ

آيه: آياته أي علاماته وبراهينه

فَـكُـلُّ فـتـاةٍ فـي فِـلَـسْـطِـيـنَ خَـوْلَـةٌ　　وكـلُّ غُـلامٍ فـي فِـلَـسْـطِـيـنَ عَـنْـتَـرُ

٨٤ وعد بلفور

قال ونظمت عام ١٩٣٩ في أواخر أيام ثورة فلسطين:

وعـــدُ بَـــلْـــفـــورَ حُـــجَّـــةٌ　　لـــلـــمُـــمَـــاري الـــمـــمَـــاذِقِ

المماري: المجادِل، المماذق: المخادع

أَوَتَـــنْـــفـــي وَثـــيـــقَـــةٌ　　عـــشـــراتِ الـــوَثَـــائـــقِ؟
كَـــرِهَ الـــعـــدلُ أنْ يَـــرى　　صَـــاهِـــلاً خَـــلْـــفَ نَـــاهِـــقِ
هَـــا مَـــيَـــامِـــيـــنُ خـــالـــدٍ　　هَـــا مَـــغَـــاويـــرُ طـــارقِ

ها هم ميامين خالد (جنود خالد بن الوليد المباركون)، ومغاوير (الذين يشنون الغارات) طارق بن زياد

هـــا هِـــرَقْـــلٌ مُـــشَـــرَّداً لاحِـــقـــاً بـــالـــبَـــطَـــارِقِ

هرقل قائد الروم الذي انسحب من بلاد الشام أمام جيش خالد، والبطارق قادة الروم

إنــهــا شــمــسُ مــجــدِكُــمْ غَــرَبَــتْ فــي الــمــشَــارِقِ

أيها المحتلون الإنجليز، ها هي شمس عزتكم تغرب.. ولكن في المشرق عندنا

كَــمْ خــنــقْــتُــمْ بَــريــئــةً فــابْــتُــلِــيــتُــمْ بِــخــانِــقِ

دُحْــرِجَــتْ كــبــريــاؤكُــمْ تــحــتَ أقــدامِ ســاحِــقِ

وغــدا الــلــيــثُ هُــزْأَةً لــجــمــيــعِ الــخــلائــقِ

الليث: يعني بريطانيا، فشعارها الأسد

٨٥ جاهر بين الهامسين

وكمْ لي بِمَيْدَانِ الحوادثِ جولةٌ مُقَلِّلَةُ الأصحابِ، مُكْثِرَةُ العِدَى

جَهَرْتُ، غداةَ الهَمْسُ بالحقِّ لعنةٌ يَجُرُّ على مَنْ قالَهُ الفقرَ والرَّدَى

جهرت بالقول يوم كان الهمس بكلمة الحق لعنة على صاحبه

سيُعْرَفُ يوماً مَنْ دَعا مِمَّنِ ادَّعى ومَنْ سَلَخَ الرِّئْبالَ مِمَّنْ تَصَيَّدَا

الرئبال: الأسد. هذا أبين من بيت المتنبي: (إذا اشتبهت دموع في خدود/ تبيَّن من بكى ممن تباكى)، وإن اتكأ عليه. هذه هي السرقة الحلال، فبيت القروي أدل على المعنى وأكثر انسجاماً مع السياق. ونقول لأبي الطيب: إذا اشتبهت دموع الباكي والمتباكي فكيف ستتبين هذا من هذا؟ لم تقل لنا، بل قلت إن الاشتباه وقع، وحتى رواية «اشتبكت» الضعيفة فهي لا تقيم البيت بأحسن مما أقامته «اشتبهت»

٨٦ صاحين نفرك عيوننا

قال في عيد المولد النبوي في صنبول ١٩٤٠:

نــحــنُ الأُلَــى سُــدْنَــا الــشُّــعُــو بَ، ونَــحْــنُ مَــدَّنَّــا الأُمَــمْ

أعــطــاهُــمُ الــلَّــهُ الــلــســا نَ، ونــحــنُ أُعْــطِــيــنــا الــقَــلَــمْ

هذا القلم قلم «ن والقلم وما يسطرون»، فسياق المولد النبوي يطلبها، ولم يكن غاب عن القروي أن الفينيقيين علموا الناس الكتابة، وفي البيت التالي إيماءة إلى أن هذا المعنى كان في باله

خُــضْــنَــا الــبــحــارَ زَمَــانَ لــم يَــكُ ظِــلُّ ســابِــحَــةٍ بِــيَــمّ

حــتَّــى إذا لــم يَــبْــقَ شَــطٌّ ـ لــم تَــطَــأْهُ لــنــا قَــدَمْ

نـامـتْ عـيـونُ الـمـتْـعَـبـيـ ـنَ؛ وأيُّ عـيـنٍ لـم تَـنَـمْ؟
واسـتـيـقـظـتْ مَـشْـحُـورةً تـسـتـقـبـلُ الـعـهـدَ الأَهَـمّ
نـورُ الـنـبـوَّةِ فـاضَ مِـنْ مـهـدِ الـمـروءةِ والـكَـرَمْ
وإذا الـعـروبـةُ فـي أَقَـا صـي الأرضِ خـافـقـةُ الـعَـلَـمْ

٨٧ نقول المسلمون المسلمونا

رأيتُكَ قد وقفتَ على الحِيادِ أأَنْتَ مِنَ الصِّحَابِ أمِ الأعادي؟

يخاطب اللبناني الواقف على الحياد إذ فرنسا المحتلة تضطهد الشعب في سوريا ولبنان

وكنتَ إذا عَدَتْ أَدْنَى العَوَادي على لُبْنانَ أقْلَقْتَ النَّوَادِي
وأَزْعَجْتَ الحَواضِرَ والبَوَادي

* * *

رضِينَا لِلتَّعَصُّبِ أنْ نَهُونا فأَغْمَضْنا على الضَّيْمِ العُيونا
نقولُ: المسْلمونَ المسْلمونا فَنَرْمِيهِمْ، ونحنُ الخائِنونا
نَبِيعُ بِدِرْهَمٍ مجدَ البِلادِ

* * *

بِرَبِّكَ قُلْ: مَتَى لبنانُ ثارا لِيُدْرِكَ مِنْ عُلُوجِ الغَرْبِ ثَارَا
متَى نَفَرَتْ إلى السَّيْفِ النَّصارى لِتَغْسِلَ بالدَّمِ المسفوكِ عارَا
وتُحْرِزَ مَرَّةً شَرَفَ الجِهَادِ

٨٨ الناخلة

هذه القصيدة تسمى الناخلة. في سنة ١٩٣٤ سمع الشاعر أن أنطون سعادة، ابن صديقه الراحل الدكتور خليل سعادة، أنشأ حزباً في لبنان. واضطهده الفرنسيون. وجاء سعادة إلى صنبول راجياً ضم القروي لحزبه القومي السوري الذي ينادي بقومية سورية لا عربية شاملة. وتناقشا ثماني عشرة ساعة، من التاسعة صباحاً حتى الثالثة فجراً. وبقي القروي عروبياً. وأخذ سعادة يعمل ضده في المهجر الأميركي الجنوبي من خلال جريدة «سورية الجديدة» التي أنشأها في صنبول، وجريدة «الزوبعة» في بيونس آيرس. وخاب أمل القروي في شاب ذكي يضيِّع ذكاءه في محاربته كأنه دولة استعمارية. وضاقت أحوال «سورية الجديدة» فأخذت إعلانات تجارية من تجار ميولهم استعمارية. وألقيت هذه القصيدة «الناخلة» في بيونس آيرس عام ١٩٤١:

مِنْ كلِّ قاصٍ في البلادِ ودَانِ ... يَتراسَلُ النَّجوى بَنو عدنانِ
أَيَخونُ عهدَ العُرْبِ لبنانٌ، ومِنْ ... شُعَرائِهِ فَرَحاتُ والرَّيْحَاني
إنّي أُعِيذُكَ أنْ تكونَ مُهَدِّمَاً ... وأبو «المحيطِ»، أبوكَ، أولُ بانِ

يوجه خطاباً خفياً إلى رجل من أسرة البستاني ـ ومنها بطرس البستاني مؤلف قاموس «محيط المحيط» الصادر عام ١٨٧٠، وصاحب الفضل في تنشيط اللغة العربية ـ وكان ذلك الرجل المقصود بالبيت عدواً سياسياً للشاعر ولفكرة العروبة، لكن القصيدة الناخلة هذه جعلته يعتذر للشاعر (كما قال الشاعر في الحاشية)

لبنانُ أكبرُ أن يُعابَ بِزُمْرةٍ ... نَشَأتْ على التَّضليلِ والبُهْتانِ
زَعموا بَلاءَ الشرقِ مِنْ أديانِهِ ... ومُرَادُهُمْ دِينٌ مِنَ الأديانِ

يشير إلى حلفاء فرنسا بلبنان الذين غمز بعضهم في الدين الإسلامي

حتَّى إذا طَلَعَتْ عليهِمْ حُجَّتي ... وانشقَّ للمرْتابِ فجرُ بَياني
فَزِعوا إلى القومِ الذين عَهِدْتُهُمْ ... لِكَرامتي فوجدْتُهُمْ لِهَواني
حِزْبانِ، حينَ قَضَى على زَعْمَيْهِما ... فصلُ الخِطابِ، تحالَفَ الحزبانِ
يَستنصِرَانِ على أديبٍ شاعرٍ ... ما يَعْبُدانِ مِنَ الحُطَامِ الفَاني
وإذا شَهَرتَ على النَّعِيبِ عَداوةً ... أَلَّفْتَ بينَ البُومِ والغِرْبانِ
قلْ لليهودِ، وعابِدي أصنامِهِمْ ... مِنْ كلِّ هَضَّامِ الحقوقِ أَناني
ولمنْ يُتَاجِرُ بالعُلا مَعْقُودةً ... بِسَلاسلٍ كَتَمائِمِ الصِّبيانِ . .

قل لمن يعتبر المعالي مجرد أوسمة معلقة في الصدور بسلاسل كأنها التمائم التي توضع على الأطفال لرد عين الحسود . .

مِنْ طَالِبِ النِّيشانِ، حتَّى صاحبِ النـ ... ـيشانِ، حتى واهِبِ النيشانِ . .
أموالُكُمْ وضِيَاعُكُمْ وقُصورُكُمْ ... عندي، وحبَّةَ خَرْدَلٍ، سِيَّانِ
الزُّهْرُ تعرفُني، وأعرِفُها، فَمَا ... هَمِّي إذا جَهِلَ الضَّفادِعُ شاني

الزهر: النجوم

والشمسُ يُخْفِيها القَتَامُ عَنِ الثَّرَى ... لا عَنْ عيونِ «النَّسْرِ» و«الدَّبَرانِ»

القتام: الغبار، النسر: اسم نجم، والدبران: من منازل القمر

قالوا: سكتَّ، فقلتُ: أيُّ عجيبةٍ ... في فُحْشِ فاجِرَةٍ، وصَمْتِ حَصَانِ

حصان: امرأة طاهرة

أَيُزيحُ قاطرةَ الحديدِ مُدَلَّلٌ   عَذْبُ الهَرِيرِ يعيشُ في الأحضانِ

الهرير: صوت القطة سوى المواء

وتُخِيفُ قُبَّعَةُ الحريرِ سَمَيْذَعاً   صَالتْ يَرَاعَتُهُ على التِّيجانِ

السميذع: السيد الشريف

الحقُّ سلطاني، ولستُ بِحَاذِرٍ   في الحقِّ سلطاناً سوى سلطاني
أنا ما عَنَيْتُ الأبرياءَ، فمَا تُرى   ذنبي إذا صاحَ المريبُ: عَنَاني
أَألامُ في مُتَطفِّلينَ تَعرَّضوا   فأصبْتُهُمْ، عَرَضاً، بِكَعْبِ سِناني
ما طابَ لي واللَّهِ جَرحُ أَعِزَّةٍ   طابَ النزولُ لَهُمْ إلى الميدانِ
والوردُ يُدْمي الكفَّ، لا يَعْنِيهِ إنْ   كانَ الصديقَ، أمِ العدوَّ، الجاني
أنا ذلكَ الإعصارُ، نَسَّافُ الذُّرى   وأنَا النسيمُ، مُدَاعِبُ الأَفْنَانِ
أطْوِي سماواتِ الخيالِ، وأنثَني   عِطْرُ الجِنانِ يَفُوحُ مِنْ أردَاني

أرداني: أكمامي

ولقَدْ تُحَرِّكُني أغاريدُ الهوى   مِنْ بُلبُلٍ، فَأَعِفُّ عَنْ ثُعبانِ
كَمَّتْ فَمي ذِكْرَى الجَمِيلِ، وزَحزَحَتْ   جبلَ الإساءةِ ذَرَّةُ الإحسانِ
فَلَئِنْ نَقَدتُ، فما فقَدْتُ مُروءتي   عندَ الجِدَالِ، ولا جَهِلْتُ مَكاني
أدبٌ يَرُوعُكَ، راضياً أو ساخطاً   ولُغَى الهَزَارِ جَميعُهُنَّ أغَانِ

يروعُ: يكون رائعاً، الهزار: العندليب

لا يُحْزِنَنَّكَ إنْ وَجَدتَ مِنَ العِدَى   مَنْ كنتَ تحسبُهُمْ مِنَ الإخوانِ
أَزِفَ الدِّراسُ، وأيُّ بَيْدَرِ حِنْطَةٍ   لم يُلْفَ مَخْتَلِطاً بَكُلِّ زَوَانِ

الدراس: فصل حبات القمح عن سنابلها، الزوان: حبوب تنبت بين القمح

أَعْيَتْكَ تَنْقِيَةُ الدَّقيقِ، فَسَخَّرَتْ   ألطافُ ربِّكَ مُنْخُلَ الخَوَّانِ

الخوان: الخائن

لم يَعْنِ هذا الشعبَ أنِّيَ شَاعِرٌ   حرٌّ، بحبِّ بلادِهِ مُتَفانِ
بلْ كُلُّ ما يَعْنِيهِ: هلْ أَنا مُسْلمٌ   لِلَّهِ، أمْ أنا لم أَزَلْ نَصْرانِي
مَنْ يُنْبِئُ الملأَ الذين أُحِبُّهُمْ   فَيُكافِئونَ الحُبَّ بالعُدْوانِ:

أنِّي على دينِ العروبةِ، واقِفٌ قَلبي على سُبُحاتِها، ولِساني

سبحاتها: أنوارها

إنجيليَ الحبُّ المقيمُ لأهلِها، والذَّوْدُ عَنْ حُرُماتِها فُرْقَاني
أَرْضَيْتُ أحمدَ والمسيحَ بِثَورتي وحَمَاستي وتَسامُحي وحَناني
يا مسلمونَ، ويا نَصارَى، دينُكُمْ دينُ العروبةِ، واحدٌ، لا اثنانِ
سَتُجَدِّدونَ الملْكَ مِنْ يَمَنٍ إلى مصرٍ إلى شامٍ إلى بَغْدَانِ
لا تَكْفُروا، أَفَما بُعِثْتُمْ مَرَّةً؟ لم لا يكونُ لمؤمنٍ بَعْثانِ

بُعثتم من الخمول بالإسلام، ولا بد من بعث آخر يعيد إليكم العزة

إن كانَ قد سَكَتَ العراقُ، فَمَوْقِفٌ مُتَبَدِّلٌ بتبَدُّلِ الأزمانِ
وَلَسوفَ يعلم كلُّ غِرٍّ جاهلٍ ماذا تخَبِّئُ هدأَةُ البُرْكانِ
العُرْبُ شاخِصَةٌ إلى أهدافِهَا مرصوصةُ العَزَماتِ كالبُنيانِ
لَسْنَا، وإن زَعمَ الأذِلَّةُ، نَخْلَعُ النِّـ ـيرَ القديمَ، لأجلِ نِيرٍ ثانِ

النير: الظلم. خلعنا ظلم العثمانيين ولا نريد ظلم الفرنسيين

ثُرْنَا لِبَغْيِ الإنجليزِ، فَإِنْ بَغَى الـ ـجِرْمَانُ، قُلْ: ثُرْنا على الجِرْمَان
ونَظَلُّ نَخْلُقُ كلَّ يومٍ «طَارِقاً» حتى تَكُفَّ طَوارقُ الحَدَثانِ

طارق: طارق بن زياد، طوارق الحدثان: مصائب الزمن

٨٩ وقفة في الميناء

قال في سَنْطُس إبان الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان:

جمالُكَ يا مِيناءَ سَنْطُسَ أَشْجَاني وحَرَّكَ بِالذِّكْرَى سَوَاكِنَ أَشْجَاني
أَتَيْتُكَ أَبغي فيكَ تَفْريجَ كُرْبَتي فَعُدْتُ، وقد أَرْبَتْ على الرَّمْلِ أحزاني

أربت على الرمل: زادت، فصارت أكثر من حبات الرمل

فَما أَبْصَرَتْ عينايَ فيكَ سَفينةً على سَفَرٍ، إلَّا تَذَكَّرْتُ أوطاني

٩٠ يا برازيل

قال وقالها على شاطئ باراناغوا متشوقاً إلى ساحل لبنان:

يـا نـسـيـمَ الـبـحـرِ الـبَـلـيـلَ سَـلامُ   زَارَكَ الـيـومَ صَـبُّـكَ الـمـسْـتَـهـامُ

البليل: الهواء المبتل بالندى، صبك المستهام: محبك العاشق

إنْ تَكُنْ مَا عَرَفْتَني، فَلَكَ العُذْ   رُ، فَقَدْ غَيَّرَ الـمـحِـبَّ الـسَّـقَـامُ

أَوَلَا تـذكُـرُ الـغَـلامَ رَشـيـداً؟   إنَّـنـي يـا نَـسـيـمُ ذاكَ الـغُـلامُ

طـالـما زُرْتَني إذا انتصفَ الليـ   ـلُ بِـلُـبـنـانَ، والأنـامُ نِـيَـامُ

ورَفَـعْـتُ الـغِـطَـاءَ عنِّي قَليلاً   فـأحَـسَّـتْ بِـمَـزْحِـكَ الأقْـدامُ

وتـنـبَّـهْـتُ فـاتِـحـاً لـكَ صـدراً   شَـبَّ فـيـهِ إلـى لِـقَـاكَ ضِـرَامُ

ضرام: جمر، كناية عن شدة الشوق

فَتَغَلْغَلْتَ في الأضالِعِ أنفا   ساً لِطَافاً تَهفو إليْها العِظَامُ

يا نسيمَ المُحِيطِ! مَا هَكذا في   ساحِلِ البَحْرِ عندنَا الأنسامُ

يقارن بين نسيم البحر في لبنان ونسيم المحيط الأطلسي على شاطئ البرازيل

أنتَ إنْ زُرْتَ في المنامِ صَحيحاً   غَلْغَلَتْ في عِظَامِهِ الأسْقامُ

غلغلت: تغلغلت

ذاكَ أزْكَى شَمّاً، وألْطَفُ ضَمّاً   ذَاكَ تَشْفَى بِلَمسِهِ الأجسامُ

أَسْبِقُ الفَجْرَ في الهُبُوطِ إلى البَحْـ   ـرِ، وكَمْ طَابَ لي بِهِ اسْتِحمامُ

طَاهِرَ القَلْبِ، لَسْتُ أُوجِسُ شَرّاً   جَاهِلاً ما تُخَبِّئُ الأيَّامُ

شَادِياً في النَّهارِ والليلِ، حتى   أَدْهَشَ الناسَ بُلْبُلٌ لا يَنامُ

غُرْفَتي السطحُ، زَيَّنَتْها سَمَاءٌ   تَتَدَلَّى مِنْ سقْفِهَا الأجرامُ

الأجرام: النجوم، وجعلها تتدلى من السماء بعد أن جعل السماء سقفاً وهو نائم على سطح البيت

وكأنَّ النجومَ شِعْرٌ بَديعٌ   لا غُمُوضٌ فيهِ، ولا إبْهَامُ

رَسَمَتْهُ كَفُّ العَلِيِّ عُقُوداً   إنَّما اللَّهُ شاعرٌ رَسَّامُ

يا بَرَازِيلُ! لو أَفَضْتِ عَلَيَّ الـ   ـمالَ فَيْضاً ما طابَ فيكِ المُقامُ

أَجَميعُ الشهورِ فِيكِ شُبَاطٌ   أَوَمَا لِلشِّتَاءِ عنكِ انصِرَامُ؟

شباط: فبراير، انصرام: انصراف

مِثْلما تَنْقَضي الليالي سِرَاعاً هكذا فيكِ تنقضِي الأَعوامُ
وإذا بِالفَتَى مِنَ الهَمِّ شَيْخٌ تَعْتَريهِ الأَوْصَابُ والآلامُ

الأوصاب: الأوجاع

وكأَنَّ الوَرَى وُحُوشٌ بِآجَا مِ، وتِلْكَ الشوارِعَ الآجَامُ

الورى: الناس، آجام: غابات

مَنْكِبٌ حَكَّ مَنْكِباً، وجَبِينٌ شَجَّ رأْساً، علامَ هذا الزِّحَامُ؟
يا لِشَوْقي إلى مَحَاسِنِ قُطْرٍ هَبَطَ الوحيُ فيهِ والإلهامُ
وكُرُومٍ إنْ مَرَّ فيها غَرِيبٌ يَتَوارَى مِنْ وَجْهِهِ الكَرَّامُ

يتذكر بلوعة كروم بلاده التي يمر فيها الرجل الغريب ويأكل منها، فيتوارى صاحب الكرم منه حتى يتيح له حرية القطف والأكل بلا حرج

كلُّ حَيٍّ إلى الشَّآمِ سَيَمضي حينَ يَقْضي، إنَّ السَّمَاءَ الشَّآمْ

يقضي: يموت، السماء: الجنة

٩١ زغاليل تعيش على سبِّي

قال في صنبول (كذا يعرِّب القروي ساو باولو) ١٩٤١:

وكمْ نَشَراتٍ دَأْبُها أنْ تُهِينَني وأنْ أتَغاضَى عنْ إهاناتِها دَأْبي

نشرات: مجلات وجرائد

صبرتُ عليها ربعَ قرنٍ، فَلم أُجِبْ بِسُوءٍ، ولَم أَشْهَرْ على شَاتِمٍ حَرْبي
وهَوَّنَ عنديَ السَّبَّ أنَّ لِبَعْضِهِمْ زغاليلَ أطْفَالاً تعيشُ على سَبِّي

الزغاليل: أفراخ الحمام، ويذكرها الناس مثالاً على المخلوق الضعيف المحتاج للحماية؛ وهم يذكرونها دون غيرها لأنهم يرونها كثيراً.. على موائدهم

٩٢ وداعة

لَطِّفْ حديثَكَ، فالنُّفوسُ مَريضةٌ ومِنَ الكلامِ مُحَنِّنٌ ومُجَنِّنُ
كَمْ هادئٍ بالعُنْفِ ثارَ، وآبِدٍ كَالوَحْشِ رَوَّضَهُ الدُّعاءُ اللَّيِّنُ

الدعاء: المخاطَبَة

وإذا ابْتُلِيتَ بِجَاهِلٍ كُنْ عاقِلاً   حتَّى يقولَ العَقْلُ: وَيْحَكَ تَجْبُنُ؟

٩٣ حتى تكفَّ رياءها الشعراء

واهاً على الأدبِ الرفيعِ وأهلِهِ!   ضاعَ القياسُ، وضاعتِ الأُدباءُ
سكَتَ الطيورُ عن الغناءِ، فقامَ في   ذهنِ الدُّجى أنَّ النقيقَ غناءُ

في غياب الأدب الرفيع ظن الدجى (الليل) أن نقيق الضفادع، التي تبدأ النقيق عادة في الليل، غناء (المعنى: ظن العامة أن النظامين شعراء)

واللّهِ! لستُ أكفُّ عنْ قَرعِ العَصا   حتى تكُفَّ رياءَها الشعراءُ

قرع العصا: تعبير عتيق معناه «تنبيه الغافلين»، وليس معناه الضرب بالعصا. خَرِفَ أحد السادة من قدامى العرب فأوصى بأن يقرعوا له العصا، لتنبيهه، كلما خرج في كلامه عن العقل

شكوى ولا ألمٌ، وتشبيبٌ ولا   حبٌّ، وتأليهٌ ولا عظماءُ
يتبجَّحونَ بكلِّ مجدٍ غابرٍ   والظلم يشهدُ أنهُمْ جبناءُ
للعدلِ قِسْطاسٌ بكفِّيَ قائمٌ؛   العُرْبُ والإفرَنْجُ فيهِ سواءُ

قسطاس: ميزان

٩٤ لستُ شيئاً..

قال في عرس ابنة أخيه في صنبول ١٩٤٣:

علِّلانيِ بالكأسِ إثرَ الكاسِ   واسْقِيانيِ حتَّى تَطِيرَ حَوَاسِي
لسْتُ شيئاً إنْ لم أَدَعْ عُمَرَ الخَيَّـ   ـامَ خَلفيِ، في شُرْبِها، والنُّوَاسِي

٩٥ التعنيف

قال في تأبين ميشال المعلوف في العصبة الأندلسية ١٩٤٣:

قالُوا تَمَادَيْتَ في تَعْنِيفِهِ؛ صَدَقُوا   لمتُ الحبيبَ على مِقْدَارِ حُبِّيهِ

مقدار حبيه: مقدار حبي إياه

سَيُدْرِكُ الطفلُ أنَّ الحُبَّ أَنْفَعُهُ   لا مِنْ مُدَلِّلِهِ بَلْ مِنْ مُرَبِّيهِ
هُمْ يَغْضَبونَ إذا نَبَّهْتُهُمْ؛ وأنا   مَا لي سِلاحٌ يَقِيهِمْ غَيْرُ تَنْبِيهي

٩٦ محاسن الموت

قال في تأبين مؤسس العصبة الأندلسية ميشال معلوف في صنبول ١٩٤٣:

يـا حَبَّذَا مُتَعُ الشَّبـابِ، وحَبَّذَا   يومٌ يُطِلُّ على النُّفُوسِ حِمَامُها
أَهْوَى المنِيَّةَ والحياةَ؛ جَمُالُ ذي   عِـنـدِي لـذائِـذُهَـا، وتِـلْـكَ سَلامُـها
لم يُغْنِ حُبُّ العَيْشِ عَنْ حُبِّ الرَّدَى   والعينُ، ما سَهِرَتْ، يَطِيبُ منامُها
فـاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مِيتَةً مَحْمُودَةً   حُسْنُ القَصِيدةِ بَدْؤُها وخِتَامُها

٩٧ هَبُّوا كالألغام

ألقاها في ١٩٤٤ في حفل وضع حجر الأساس للمصح السوري في هضاب جردون بالبرازيل:

لِلَّـهِ دمعُ سُروري يـومَ هَبَّـتِهِـمْ   مِنْ ضَجْعَةِ الذُّلِّ كالألْغَامِ تَنْفَجِرُ
والحمدُ لِلظُّلم، إن الظُّلم علَّمهُمْ   أنَّ العروبةَ فيها العزُّ والظَّفَرُ
تَجَهَّمِي، واكْفَهِرِّي يا سماءُ لنا؛   لا يُسْتَقَى مِنْ سَحابٍ أبيضٍ مَطَرُ

٩٨ المرضع والوليد

قال سنة ١٩٤٥، وعاتب فئة كانت تهكمت به لقصيدة سابقة:

شمسَ العروبةِ! عِيلَ صبرُ المُجْتَلِي   شُقِّي حجابَكِ قبلَ شَقِّ الرَّمْسِ لِي

نفد صبر المجتلي (المترقب) المنتظر بزوغَ شمس العروبة، فشُقِّي حجاب الغيوم واظهري قبل أن يُشَق لي الرمس (القبر)

وتَدَارَكِي مُسْتَعْجِلاً، لو لم يَخَفْ   سَبْقَ الحِمَامِ إليهِ، لم يَسْتعجِلِ

أدركيني فأنا مستعجل، ولولا خوفي أن يسبق الموت ويأخذني لما استعجلت

أأَرى نَهارَكِ قبلَ إغماضِ الرَّدَى   جَفْنيَّ في ليلِ الحَفِيرِ الأَلْيَلِ

الحفير: القبر، الأليل: الشديد الظلمة، يقولون «هذا ليل أليل»

فَلَقَدْ يَرَى بِالرُّوحِ شَاعِرُ أُمَّةٍ   ما لا يَرَى غيرُ النَّبيِّ المرْسَلِ
مَنْ هامَ في حُبِّ الغَرِيبِ، فَلَسْتُ عَنْ   حُبِّ الأخِ العَرَبيِّ بِالمُتَحَوِّلِ

من هام بحب الغرباء فهو وشأنه، أما أنا فلا أتحول عن حب الأخ العربي

يا مِنْ يَعُدُّونَ الدِّفاعَ تَهَجُّماً   ويُؤَوِّلونَ النَّقْدَ شَرَّ مُؤَوَّلِ

وحـيـاةِ لـبـنـانٍ وأَرْزَتِـهِ، ومـا　　أقـسَـمْـتُ إلَّا بـالـحـبـيـبِ الأولِ
لـولا ادِّرَاعـيِ بِـالـمـحـبَّـةِ لاغْـتَـدَتْ　　كَـبِـدي لِـوَقْـعِ نِـبَـالِـكُـمْ كـالـمـنْـخُـلِ

لولا ادراعي المحبة (لُبْسيَ المحبةَ درعاً) لرميتموني بنبالكم (بسهامكم) حتى يصير كبدي مخرَّقاً مثل المنخل

أَبْكـي وأضحَكُ للعذابِ كَمُرْضِعٍ　　شَدَّ الـولـيـدُ بِشَعْرِها الـمُسْتَرْسِلِ
أمَّا الأُلَى شَمِتُوا بِمَنْكُوبِ الحِمَى　　والـبـائـعـونَ بِـلادَهُـمْ مِـنْ دِيـغُـلِ

الشامتون بالوطن المنكوب، والذين باعوا بلادهم لديغول (زعيم الفرنسيين)..

والطَّـالـبونَ حِـمَـايَـةَ الـبَـاغـيِ، وهَـا　　دَمُـهُـمْ عـلـى قَـدَمَـيْهِ، لـمَّـا يُـغْـسَـلِ
فَـهُـمُ الأُلَـى بـيـن الإبَـاءِ وبـيـنَـهُـمْ　　ما بين أَعْلـى الكائنـاتِ، وأسفَلِ
لـم يـهـتِـفِ الـحـرُّ الـكـريـمُ بِـمَـحْـفِـلٍ　　إلَّا تَـلاهُ طـنـيـنُـهُـمْ فـي الـمَـحْـفِـلِ

٩٩ لم يُطِق صحبة الليوث

قال عن شخص عاشره في صنبول وحاول تقليد القروي في الشعر القومي، ثم يئس. فراح يدعو للمحبة والسلام مع إبداء نقمة هستيرية على صديقه ومعلمه القديم:

حَـلَـمَ الـدُّبُّ بـالـسـيـادةِ يـومـاً　　واشـتـهـى أن يـكـونَ لـيـثـاً أغـلـبْ

أغلب: غليظ العنق

غـيـرَ أنَّ الـزئـيـرَ أعـيـاهُ، فـارتـدَّ-　　مَـغِـيـظـاً، يُـبَـرِّدُ الـغـيـظَ بـالـسَّـبّْ

أعياه: أعجزه، مغيظاً: مغتاظاً

ومـضـى يـسـتـشـيـرُ دُبَّـاً حـكـيـمـاً　　طـالـمـا جـربَ الـذي هُـوَ جـرَّبْ
قال: إنَّ الخمولَ يا صاحِ صَعْبٌ،　　بـيْـدَ أن الـذي أحـاولُ أصـعـبْ

الخمول: عدم الشهرة

فأفِدْني كيفَ السبيلُ إلى الشُّهـ　　ـرةِ قـال: «الـسـبـيـلُ أن تـتـرهَّـبْ
هـكـذا يـدرِكُ الـحـكـيـمُ الأمـانـيَ　　راكـبـاً لـلـخـلـودِ أنْـعَـمَ مـركِـبْ
والـذي لا يـكـونُ لـيـثـاً خـطـيـراً　　فـلـيـكـنْ فـي الأقـلِّ دُبَّـاً مـهـذبْ»
ومـضـى دبُّـنـا الـتـقـيُّ مُـذيـعـاً　　نـبـأً كـاذبـاً بِـبُـوقٍ أكـذبْ
زاعـمـاً أنـه نـبـيٌّ جـديـدٌ　　يـا لَـهُ مُـرسَـلاً بِـنـابٍ ومِـخْـلَـبْ!

لم يُطِقْ صحبةَ الليوثِ، فأمسى ذاهباً في نِفاقِهِ ألفَ مذهبْ
فَهْوَ حِيناً ذِئْبٌ، وحيناً خَرُوفٌ وهْوَ، في أغلبِ الأحايينِ، ثعلبْ

يرى الطلبة في كلياتهم وجامعاتهم واتحادات الطلبة التي ينتمون إليها الكثير من مثل هذه المواقف. كل طالب نشط نقابياً أو سياسياً يريد أن يكون له طابع مميز. يريد أن يكون مناضلاً شرساً يجتمع حوله الآخرون، فإذا عجز عن ذلك سعى إلى أن يكون داعية سلام ووفاق، أو فيلسوفاً. كل طالب نشط يريد أن يكون صاحب دور محدد. والطالب الذي يختار دوراً ينسجم مع وضعه الطبقي، ومع طريقة تفكيره يصيب نجاحاً أكثر. والطالب الذي يركب الموجة ويتبع الحزب المناسب في الوقت المناسب يجد وظيفة بعد التخرج. ولعبة اتحادات الطلبة هي مجسم مصغر للحياة السياسية في البلد. وهي من أهم ما تمنحه الجامعة للطالب.. بالتأكيد أهم من الشهادة. في الجامعة ينفرز الطلبة، ويعرف القيادي نفسه، ويعرفه الآخرون. والطالب المتذبذب بين الفرق والأحزاب نموذج معروف، ووصف القروي أعلاه ينطبق على أكثر من مستوى في المجتمع

١٠٠ الانشطار في عهد الاستقلال

قال في مرور ٢٥ سنة على وفاة المعلم نعمة يافث. قيلت سنة ١٩٤٥:

عُدْ يا معلمُ، أو فابعثْ لنا أحَدا طالَ السُّرَى، وأَضَعْنا بَعدَكَ الرَّشَدا

السرى: سير الليل

ها رُبْعُ قرنٍ تَقَضَّى مُذْ رحلتَ، ومَا زالتْ سفينَتُنا تَجري بغيرِ هُدى
فَبَاتَ في عَهْدِ الاسْتِقلالِ مُنْشَطراً مَنْ كانَ في عهدِ الاستعمَارِ مُتَّحِدا

كان السوريون في المهجر متحدين، ومع الاستقلال أصبحت لبنان وسورية كيانين فانشطر الناس في المهجر فريقين

روحُ المعلمِ تأبَى أنْ تُطِلَّ إذا حَيَّاهُ في عِيدِه لبنانُ مُنْفَرِدَا
وليسَ يُسْعِدُهَا شيءٌ كَحِينَ تَرى يُمْنَى فتى الأرزِ في يُسْرَى فتى بَرَدَى

١٠١ في ذم السياسة

قال في مجلس طرب بين البساتين ١٩٤٥:

لَعَنَ اللَّهُ السِّيَاسَةْ إنها أصلُ التَّعَاسَةْ
خُلِقَ الجاهِلُ مَغْنِيَّـ ـاً بِمَا يُوجِعُ راسَهْ
مَقْعَدٌ بينَ البَسَاتيـ ـنِ، ولا دَسْتُ الرِّيَاسَةْ

دست الرياسة: مجلسها

فَـــدَعُـــوهَـــا لِـــذَوِيـــهـــا   واجْـــلِـــســـوا: كُـــلًّا وكَـــاسَـــهْ
كـــلُّ مـــالِ الأرضِ، لـــولا الـــ   ـكَـيْـفُ، لا يَـسْـوَى نُـحَـاسَـةْ
والـحـيـاةُ الـحُـبُّ والـمـتـ   ـعَـةُ، والـبَـاقـي كُـنَـاسَـةْ

١٠٢ رقصة الموت حول الرحى

مِنْ حَبَّةِ القَمْحِ اتَّخِذْ مَثَلَ النَّدَى   يا مَنْ قَبَضْتَ عَنِ النَّدَى يُمْنَاكَا
هِيَ حَبَّةٌ أَعْطَتْكَ عَشْرَ سَنَابِلٍ   لِتَجُودَ أنتَ بِحَبَّةٍ لِسِواكَا
حَلمتْ بِأَنْ سَتَعِيشُ في خُبْزِ القِرَى   فَتَراقَصَتْ لِلموْتِ حَوْلَ رَحَاكَا

القرى: طعام الضيف، رحاك: حجر طاحونك

وكَأَنَّما الشَّقُّ الذي في وَسْطِهَا   لَكَ قَائِلٌ: نِصْفي يَخُصُّ أَخَاكَا

١٠٣ الباقي بعد الطرح

أيُّـــهـــا الـــجـــازِعُ مِـــمَّـــا   فـــي ظَـلامِ الـرَّمْـسِ يَـلْـقَـى

الرمس: القبر

أنـتَ، لا بِـالـمـوتِ، بـلْ بـالـ   ـعَـيْـشِ، يـا مـغـرورُ، تَـشْـقَـى
اطْـرحِ الـخـوفَ مِـنَ الـمـ   ـوتِ، فـمـاذا مـنـهُ يَـبْـقَـى؟

إذا قمت بعملية طرح، فطرحت الخوف من الموت لم يبقَ منه شيء

١٠٤ غرقوا به ولم نتبلل

قال في ١٩٤٦:

إنِّي لَصَدَّاحُ العروبةِ، طابَ لي   شَدْوِي على سَرَوَاتِهَا، وتَنَقُّلي

سروات: شجرات السرو

سَنُعِيدُ صَرْحَ العِزِّ طَوْداً شَامِخاً   ما أَحْقَرَ الماضي لَدَى المستقبَلِ

صرح: بناء فخم، طود: جبل

ما بَالُ مَنْ زَعَمَ الجلاءَ تَقَلْقَلَ الـ   ـهَرَمُ الكبيرُ بِهِ، ولم يَتَقَلْقَلِ

ما لي أرى هؤلاء يقولون إن اتفاقية الجلاء، وجلا الفرنسيون عن سورية في هذا العام، أمر خطير اهتز له الهرم الكبير؟ لا، لم يهتز، فاتفاقية الجلاء خدعة (كذا فهمتُ المعنى)

لا تُخْدَعُوا بِرَحِيلِهِ عَنْ جِلَّقٍ وأَخُوهُ عَنْ بَغدادَ لـمَّا يَرْحَلِ
لا فرقَ إنْ نَزَفَ العدوُّ دماءَكُمْ مِنْ إشْجَعٍ أو أَخْدَعٍ أو أَكْحَلِ
الإشجع: عرق من عروق الكف، الأخدع: عرق في العنق، الأكحل: عرق في الذراع

يا لِلْبُزَاةِ! عَلَيْهِ تَحْمِلُ حَمْلَةً، يومَ «المَصَانِعِ» مِثْلُها لم يُحْمَلِ
ألا يا أيها البزاة (النسور)! شنوا حملة على المحتل لم يشن مثلها في يوم (معركة) المصانع (التي خاضها عنترة بن شداد)

لو كانَ يُمْكِنُهُ رَمَى أعضاءَهُ عِنْدَ الهزيمةِ، واكتَفَى بالأَرْجُلِ
العدو من شدة بأسكم كان يتمنى لو يستطيع أن يتخلص من كل أعضاء جسمه، ويُبقي على الأرجل لكي يهرب منكم بسرعة. خيال طيب من شاعرنا

طارتْ شواهينُ العقولِ، وحَلَّقَتْ والصَّقْرُ، صقرُ قريشَ، لم يَتَمَلملِ
في الغرب طارت شواهين (جوارح) العقول وحلقت في الجو، وأما صقر قريش (كناية عن العرب) فهو لم يتململ بعد من نومه

كَمْ سَبْسَبٍ مُتَفَجِّرٍ عَنْ ثَرْوَةٍ غَرِقَ العُلوجُ بِهَا، ولم نَتَبَلَّلِ
كم يوجد من سبسب (صحراء) يتفجر بثروة النفط، ويغرق العلوج (الأجانب) في نفطنا، ونحن لا نكاد نتبلل به، لا يصيبنا شيء من خيره

لولا جمودُ الشَّرْقِ ما نَعِمُوا بِهَا والطَّيِّباتُ نصيبُ مَنْ لم يَكْسَلِ

١٠٥ شعراء رمل الشاطئ

قال في حفل تكريم الشاعر شكر الله الجر:

أينَ البلابلُ في إنشادِها سَحَرا مِنْ شاعرٍ عربيٍّ، إنْ شَدَا سَحَرا
كمْ يَدَّعِي الشعرَ مَنْ لا يَشْعُرونَ بِه ولا يُعَادونَ إلّا كُلَّ مَنْ شَعَرا
يَلْهُونَ مِنْهُ بأَوْزَانٍ مُسَجَّعَةٍ والشعْرُ مِنْهُمْ ومِنْ أوزانِهِمْ سَخِرَا
دعْهُمْ على الشاطئِ الرَّمْلِيِّ في لَعِبٍ إذا طَغَى الموجُ لم يَتْرُكْ لهُمْ أثَرا
يا نَافِثاً دُرَراً، يا باعِثاً شَرَراً يا جَالِياً غُرَراً، يا مُلْهَماً سُوَرا
كَمْ خاملٍ يَبْتَغي ذِكْراً، فَيُعْجِزُهُ يَوَدُّ لو أنَّه بِالسُّوءِ قد ذُكِرا

١٠٦ يا قريتي

واهاً على عَهْدِكِ يا قَرْيَتي أيامَ إلّا فيكِ لم أعْرَفِ

فـي ضَـعَـةِ الـمـرءِ وِقَـاءٌ مِـنَ الـ ـهَـمِّ، ومِـنْ يَـسْـتَـعْـلِ يَـسْـتَـهْـدِفِ

يستعلي: يطلب العلو، يستهدِف: ينصب نفسه هدفاً. وقد قال القديم: «من ألَّف، فقد استهدَف»، ونحن ألفنا بضعة كتب، بعضها كهذا الكتاب لا يخرج عن كونه اجتراراً لإبداع ناسٍ آخرين، وبعضها غايته نقل الخبرة إلى الناشئة، ولم نر أحداً استهدفنا. لا بل قد كتبت كتاباً في سنة ٢٠٠٣ في السياسة، ونشرته في بلدٍ نقدت فيه رئيسه نقداً حاداً، فبعت ثماني نسخ، ولم يأبه بي أحد. وبعد ذلك كتبت شيئاً يسيراً مما كنت قلته في ذلك الكتاب في مقال بجريدة مغمورة فقامت علي القيامة. ساء ظني بالكِتاب، كل كتاب، ولكنه ظل الهدف الأسمى. فقد نشأت، ونشأ جيلي على أن غاية الإنجاز أن يكون لك كتب في السوق. وصار هذا خلقاً من أخلاقي، وهاجساً من هواجسي. فمهما انهارت سمعة الكتاب وخبا أثره لا يفقد هالة أظل أراها تطوقه

١٠٧ مدارس دوارس

قال وألقاها في صنبول (ساو باولو كما يعربها القروي) في زيارة فيليب حِتِّي:

أصبحَ الشرقُ مَعرِضاً لِلمدارسْ وصروحُ الـعُـمـرانِ فـيـه دَوَارِسْ

دوارس: مهدَّمة

كـلُّـهـا تُـنـشِـئُ الـرجـالَ، ولـكـنْ لا لِقَرْعِ الخطوبِ، بلْ لِلمجالِسْ

قرع الخطوب: مواجهة المصائب

نَصرِفُ العمرَ بينَ صرفٍ ونَحْوٍ ونُـبـاهِـي بِـعِـلـمِـنـا، ونُـنـافِـسْ

كلُّنا مُقْعَدٌ إذا اسْتَصْرَخَ الحَقُّ ـ ولـكِـنْ فـي حَـلْـبَـةِ الـقـولِ فَـارِسْ

استصرخ الحق: نادى مستنجداً

كَـلـمٌ كَـلَّ قَـلْـبُ لـبـنـانَ مِـنْـهـا وجَـبِـيـنُ الـشَّـآمِ مِـنْـهـا عـابِـسْ

كلم: كلام، كلَّ: تعب

إنَّ عِلـمـاً لا يَـكْـفُـلُ الـرِّزْقَ خَـيْـرٌ منهُ، عندَ الغَرْبِيِّ، صُنْعُ المكَانِسْ

ثمة حالة من الهوس لا بد أن تصيب كل عاقل في بلدان متخلفة كبلداننا العربية. وسأشرحها قليلاً: من يقرأ شعر القروي وصحبه من شعراء النصف الأول من القرن العشرين يفهم أن الشعور بأننا متخلفون وقاعدون عن مسايرة البلدان المتطورة كان عارماً. شوقي مثلاً يردد هذه اللازمة في كثير من أشعاره. ثم جاء عبد الناصر، وشعر العرب أنهم أمة لها وزن. مجرد شعور. وانقضى زمن عبد الناصر ورجعنا إلى شعورنا الأول، ولعله الأقرب إلى الواقع. وعلى هذا فكل ما في حلق المواطن العربي اليوم (وأنا أكتب في أبريل/نيسان عام ٢٠٠٩) من مرارة ليس جديداً. إن ما يجعل هذا الشعور جارفاً لدى العربي، وزائداً عما يعتمل في أذهان شعوب أخرى

متخلفة هو أننا ندرّس أولادنا في المدارس أن تاريخنا كان مجيداً وناصعاً. والواقع أن تاريخنا، كتاريخ شعوب كثيرة، مزيج من النقاط المضيئة والمساحات المظلمة. نحن ناس عاديون، والمجد العربي شبيه بالمجد المكسيكي الذي عرف حضارة بائدة، وبالمجد الهندي، وبالمجد القديم لكل شعب. ولأننا في حالة نواح على الذات نمر بفترات كفر: نكفر بكل شيء لا يوصلنا إلى القنبلة الهيدروجينية، وتصنيع السيارة والطيارة. نكفر بكل معرفة سوى المعرفة التي تجعلنا نصبح شعباً متطوراً مادياً. لعل هذا الكفر خير من الإيمان بماض مجيد، والنوم على هذا الإيمان

١٠٨ الجحود

تَبَيَّنْتُ أسبابَ الضَّلالةِ والهُدى ... فلم أَرَ بينَ العِلم والجهلِ فَارِقَا
ألم يُصْبِحِ المخلوقُ بِالعِلم خَالِقاً ... ومَا زالَ يَنْفي أنَّ لِلْكَوْنِ خَالِقَا
هُمُ الناسُ، إنْ لم يَعْشَقُوا الحَقَّ أَنْكَرُوا ... ولَوْ لَمسُوا بِالرَّاحَتَيْنِ الحَقَائِقَا

الشرح من عمران القفيني: (يتساوى العلم والجهل ولا يصبح بينهما أي فارق، عندما يبدع العالم خلقاً جديداً باختراعاته ومع ذلك يظلّ ينكر أن الكون مخلوق لخالق. والناس بطبيعتهم ـ يقول القروي ـ يجب أن يتوفر لديهم عشق الحقيقة وحبها كي لا يصلوا درجة الإنكار. ولو لم يتوفر ذلك العشق أنكروا، حتى وإن صارت الحقيقة في متناول أيديهم.. لا بدّ من توفر حب الحقيقة أولاً.. كذا فهمتُ المعنى)

١٠٩ قناعة

قال ونظمها في مدينة كلدس سنة ١٩٤٦:

بلغتُ مِنَ الرزقِ الحلالِ كِفايتي ... فيا أرضُ جُودي بالملايينِ، أو ضِنِّي

ضني: ابخلي

وربَّ قليلٍ، في فمِ الشكرِ، مُشْبعٌ ... وربَّ كثيرٍ، في يدِ الكُفْرِ، لا يُغْني

الكفر: جحود النعمة، وعدم الرضا بالرزق

وإنِّي لَيَدْعوني الغِنَى، فأُجيبُهُ ... ويغمِزُني النجمُ البعيدُ، فَأَسْتَغْني

الشاعر متحير بين التجارة وما فيها من مال وبين الشعر وأضواء الشهرة

١١٠ إلى غير رجعة

قال على ضريح والدة صديقه إلياس عاصي ١٩٤٧:

نَضَبَ العُمْرُ دَمْعَةً إِثْرَ دَمْعَةْ ... قُوتِلَ الدهرُ! لا يُغَيِّرُ طَبْعَهْ

نَشتَكي وَجْعَةً مِنَ الموتِ، لَكِنْ نَشْتَكي مِنْ حياتِنا ألفَ وَجْعَةْ
رِحْلَةُ القبرِ لا قَوافِلَ فيها كُلُّنا ذاهبٌ إلى غيرِ رَجْعَةْ

قوافل: إبل قافِلَةٌ (راجعة) من السفر

١١١ رثاء حسني غراب

قال في تأبين الشاعر حسني غراب بصنبول عام ١٩٥٠:

ولِلَّهِ يومٌ بَدَّدَ الشُّؤمُ فَالَهُ ولِلَّهِ قَلْبِي مَا أَشَدَّ احْتِمَالَهُ
نَعَاكَ ليَ النَّاعي، فَحَدَّقْتُ ذَاهلاً إليهِ، كأنِّي ما وَعَيْتُ مَقالَهُ
وأَثْبَتُّ مَا عَلَّلْتُ نفسي بِنَفْيِهِ فلم يُجْدِنِي أَنِّي أَعَدْتُ سؤالَهُ
وأحسستُ أنَّ القبرَ هِيلَ تُرابُهُ عليَّ، وأنَّ الكونَ ألقَى جِبَالَهُ

١١٢ دمنة الأيام

إنْ أنتَ لم تَجْنِ مِنْ روضِ الصِّبَا زَهَراً فَلَيْسَ في دِمْنَةِ الأيَّامِ أزهارُ

دمنة الأيام: مزبلة العمر، يقصد الشيخوخة

وقيمةُ الشيءِ مِقْدَارُ الهُيَام بِه، فإنْ زَهِدْتَ، فَما لِلماسِ مِقْدَارُ
لا تَعْقِدَنَّ على ذِي ثَرْوَةٍ أَمَلاً فما تَصَاحَبَ تُجَّارٌ وشُعَّارُ
والماءُ والنارُ شيءٌ إنْ فَصَلْتَهُمَا، فإنْ وَصَلْتَ فلا ماءٌ ولا نارُ

١١٣ وماذا يغني الحب؟

قال يرثي الشاعر حسني غراب ١٩٥٠:

فِدَاكَ رَفيقٌ يَنْزِفُ الهَمُّ قلبَه ويأْخُذُ منهُ الشِّعْرُ ما تَرَكَ الهَمُّ
ولو كانَ يُغْنِي الحُبُّ، أو يَدْفَعُ الرَّدَى لما نَامَ تَحتَ التُّرْبِ حَيٌّ لهُ أُمُّ

١١٤ التطهير بالنار

قال في صنبول عام ١٩٥٠، في تأبين الأديب جميل صفدي:

اِهتِفْ بِكُلِّ فتىً حُرٍّ: هَلُمَّ أَخِي! وَلْنَمْحُ مَا سَطَّرَ الأنذالُ مِنْ عارِ
عليكَ بِالماءِ فَاغسِلْ ما استَطَعْتَ، فإِنْ لم ينفعِ الغَسْلُ، فالتَّطْهيرُ بالنَّارِ

١١٥ تاج الشعر وتاج الوزارة

قال القروي في حفل تكريم بصنبول لعمر أبو ريشة الوزير المفوض لسورية في البرازيل، وأبو ريشة شاعر مهم، ١٩٥٠:

طُفْ يا رَسولَ الفنِّ في مِعْراجِه   متنقِّلاً كالشمسِ في أبراجِه

يا عمر أبو ريشة، يا رسول الفن، طف طوافاً في معراج الفن (سمائه)

لكَ في سماءِ العبقريةِ منزِلٌ   يتهافتُ الشعراءُ دونَ رِتاجِه

رتاجه: بوابته

الفجْرُ مِنْ أبوابِه، والدهرُ مِنْ   حُجَّابِه، والزُّهْرُ مِنْ حُجَّاجِه

الزهر: النجوم

مَنْ ذا يُهَنِّئُ بالوِزَارةِ شاعِراً   التاجُ أرخَصُ درَّةٍ في تاجِه!

١١٦ إنزاف

قال سنة ١٩٥٣ ترحيباً بصديقه الشاعر سليمان داود الذي قدم من هيوستن بالولايات المتحدة:

ما بالُ شَيْطانيَ الثَّرثارِ أَنْكرَني   كأنَّهُ مُذْ عَلاني الشَّيْبُ لم يَرَني

تَزْوَرُّ عَنِّي بَنَاتُ الوَحْيِ عَابِسَةً   كأَنَّني ما نَظَمْتُ الشِّعْرَ في زَمَني

تزورُّ عني: تنفر مني، بنات الوحي: أبيات الشعر

عَهْدِي بِه كُلما اسْتَوْحَيْتُ نَزَّلَ لِي   آيَ البَيانِ كَصَوْبِ العَارِضِ الهَتِنِ

عهدي بشيطاني الملهم أنني كلما استوحيت (طلبت الوحي الشعري) نزَّل لي الآيات الشعرية كصوب العارض الهتن (كانصباب السحاب الممطر)

قَريحَتي، بعدَ ذاكَ الفَيْضِ، جَامِدَةٌ   جُمُودَ عَقْلِيَّةِ الرَّجْعِيِّ في وَطَني

يا دهرُ! لم تُبْقِ لي شَيئاً أُسَرُّ بِه،   الحمدُ للَّهِ، لا رُوحي ولا بَدَني

ذَرْني مَعَ الشِّعْرِ في صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ   ولا تَذَرْني جَديبَ الفِكْرِ في عَدَنِ

عَدَن: يقصد جنات عدْن

١١٧ صمصام بكف علي

ألقاها في النادي الحمصي بصنبول ١٩٥٦:

إنْ لم يَفِضْ مِنْ يَدَيْكَ القولُ، لا تَقُلِ   لا مِنْبَرَ اليومَ، إلَّا مِنْبَرُ العَمَلِ

بِنْتُ الحِمَى ليسَ يَحْمِيها القَرِيضُ، ولا تَرْضَى عنِ السَّيْفِ، يومَ الثَّأْرِ، مِنْ بَدَلِ

القريض: الشعر

عارٌ إذا لم نَسِرْ، والناسُ قد وَصَلُوا وليسَ عاراً إذا سِرْنَا، ولم نَصِلِ

أما تَرَوْنَ جنودَ الوَحْدَةِ انتظَمُوا في كُلِّ مُضْطَرَبٍ ناءٍ ومُقْتَتَلِ

مضطَّرَب: مكان، مقتَتَل: ميدان

ونَاصِرٌ يَتَجَلَّى بَينَهُمْ قَمَراً لِلْهَدْيِ والحُسْنِ؛ مَهْمَا شِئْتَ فيهِ قُلِ

رَأْيٌ أصيلٌ، وعزمٌ غَيْرُ ذِي فَلَلٍ كأنَّما هُوَ صَمْصَامٌ بِكَفِّ عَلي

صمصام: سيف، علي: ابن أبي طالب

١١٨ رثاء أبو ماضي

قال في حفل تأبين إيليا أبو ماضي بصنبول في آذار/مارس ١٩٥٨ وبعدها بشهرين غادر القروي إلى لبنان. ويقول القروي إن قنصل لبنان بصنبول (ساو باولو) أبرق للسلطات باعتقاله فور وصوله:

أَعِدِ البَشَاشَةَ للذينَ تَركْتَهُمْ رَهْنَ الكآبةِ في ظلامٍ كَالعَمَى

وأَغِثْ جَدَاوِلَكَ التي تَرْوِي الظَّمَا ويَكَادُ يقتُلُها، لِرُؤْيَتِكَ، الظَّمَا

«الجداول»: ديوان من دواوين إيليا أبو ماضي. يكاد يقتل الجداول العطش والشوق لرؤيتك

تَجْرِي زُلالاً في الطُّرُوسِ، وإنْ جَرَتْ لِنَوَاكَ مِنْ مُقَلِ الأَحِبَّةِ عَنْدَمَا

الطروس: الأوراق، نواك: فراقك، مقل: عيون، العندم: نبات أحمر كالدم، أما سموه أيضاً «دم الأخوين»؟

وقَلائِداً يُعْجِزْنَ أَبْرَعَ نَاظِمٍ حَتَّى لَيَحْلِفَ أنَّهُ لن يَنْظِمَا

القلائد: العقود، يعني قصائد إيليا

وخَمائلاً، كُلُّ الخمائِلِ بعدَها عُشْبٌ على أَقْدامِ جَنَّتِها نَمَا

«الخمائل»: من دواوين إيليا

تُنْمَى إلى وَطَنِ الجَمَالِ، وهَلْ لمنْ عَبَدُوا الجَمالَ سِوَاكَ يا وَطني حِمَى

تنمى: تنتسب

أَنْكَرْتُ نَفْسِي بعدَ طولِ فِرَاقِه فَكَأَنَّنِي ديوانُ شِعْرٍ تُرْجِمَا

بارعة جداً هذه الـ«ديوان شعر ترجما»، فديوان الشعر المترجم بعيد كل البعد عن الأصل ويكاد لا يعرف نفسه. وأن يأتي القروي بتشبيه عن ديوان شعر في رثائه لشاعر يعني أنه منغمس في موضوعه انغماساً

يا فيلسوفَ الشِّعرِ، يا ابْنَ الشَّمسِ يا قَمَراً رَمَاهُ الأَرْزُ أَبْعَدَ مَنْ رَمَى

سِرٌّ وَحيدٌ في الحياةِ فَهِمْتُهُ وسِواهُ ليسَ يَهُمُّني أنْ أَفْهَمَا

أنَّ العُروبةَ حَقَّقَتْ أحلامَهَا مَاذا يَشُوقُكَ بَعْدَها أنْ تَحْلُما

أَنَسِيرُ في رَكْبِ الحُسَيْنِ وفَيْصَلٍ ونَخُونُ ناصِرَنَا الأَبَرَّ الأَكْرَمَا

تعريض بملكي الأردن والعراق، وتنويه برئيس مصر. كان فيصل الثاني في العراق وحسين بن طلال في الأردن قد عقدا وحدة بين البلدين قبل إلقاء القصيدة بشهر ناظرَيْنِ إلى الخطوات التمهيدية للوحدة بين مصر وسورية

عَرْشَيْنِ: هذا لا يُساوي دِرْهَماً وعليهِ مَلْكٌ لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا

كان الأردن فقيراً، وكان ملكه قليل الموارد

وقِيادُ ذَا في كَفِّ قَاتِلِ جَدِّهِ وأَبِيه، يَا لِلعاجِزَيْنِ كِلَيْهِمَا

فيصل الثاني ملك العراق كان واقعاً تحت سيطرة خاله عبد الإله الذي يتهمه الشاعر بتدبير قتل جده فيصل الأول (قيل بحقنة مسمومة)، وأبيه غازي في حادث سيارة (قيل بل ضرب على أم رأسه، ولا حادث في الأمر)

١١٩ عائد لأموت في وطني

قال وهو في البحر عائداً لوطنه:

بِنْتَ العُروبةِ هَيِّئي كَفَني أنا عائِدٌ لأَموتَ في وَطَني

أَأَجُودُ مِنْ خَلْفِ البِحَارِ لَهُ بِالرُّوحِ، ثم أَضِنُّ بالبَدَنِ؟

١٢٠ بطل الجزائر

قال وهو يحضر احتفال مكتب تحرير الجزائر بدمشق في سنة ١٩٥٨:

لَبَّيكَ يا بَطَلَ الجَزائِرْ عُقِدَتْ على الثَّأْرِ الخَنَاصِرْ

عُقدتِ الخناصر: عُقِد العزم

نَصْرٌ على الأعداءِ يَتْـ ـلو النصرَ، فالدُّنْيا بَشَائِرْ

وجَـبَـابِـرُ الـطُّـغْـيـانِ كـالـ ... حَـشراتِ تـحـتَ حِـذَاءِ نـاصِـرْ

وكانت مصر في زمن عبد الناصر تساعد ثوار الجزائر

الـشـعْـبُ كـالإعـصـارِ يـسـ ... ـحَـقُ غـادِراً، وَيَـجُـرُّ غَـادِرْ

الـحـربُ قـائِـمـةٌ عـلـى ... سـاقٍ، فَـمَـا شَـأْنُ الـمـنَـابِـرْ

والـنـصـرُ يُـؤْتَـاهُ الـمُـجـا ... هِـدُ بِـالـخَـنَـاجِـرِ، لا الـحَـنَـاجِـرْ

١٢١ سبح لربك وانحر أنت في الشام

ألقاها على مدرج الجامعة السورية في ١٩٥٩ في مهرجان أحيته دمشق تكريما للشاعر. وكان عائداً للوطن العربي بعد اغترابه ٤٥ عاماً. وقد حاول رجال الأمن اللبنانيون اعتقاله فور وصوله، لكنه تخلص منهم وبلغ اللاذقية فدمشق:

حَتَّامَ تَحْسَبُها أضغاثَ أحلامِ ... سَبِّحْ لِرَبِّكَ وانحَرْ، أنتَ في الشامِ

لم يَأْذَنِ اللَّهُ يا بُوقَ العروبةِ أنْ ... تَقْضِي الحياةَ غريباً بين أعْجَامِ

الشام تخاطبه وتقول يا بوق العروبة (يا ناشر فضائلها) لم يشأ الله أن تقضي كل حياتك بين الأعاجم في المهجر

وكنتَ في أبعدِ الأمصارِ أقرَبَ مِنْ ... أهلي إليَّ وأَخْوالي وأعمامي

وتقول له الشام: حتى وأنت بعيد كنت أقرب إلي من كل أهلي

أضناكَ طولُ السُّرَى والسَّيرِ يا وَلَدي ... فاطْرَحْ رِداءَكَ، وامسحْ جُرْحَكَ الدَّامي

السرى: السير ليلاً

هذي عُيُوني وجَنَّاتي وفاكِهَتي ... فَامْلأْ يَدَيْكَ، وبَرِّدْ قلبَكَ الظَّامي

يا يومَ جَدَّدَ فيَّ الخِضْرُ آيَتَهُ ... لما أطلَّتْ على بَيْروتَ أعْلامي

الخضر: النبي المعروف بكثرة الأسفار

والوَحْشُ مُنْفَغِرُ الشِّدْقينِ يَرْصُدُني ... والبَغْيُ، أُسْطولُهُ خَلْفي وقُدَّامي

الوحش الفرنسي كان فاغراً فاه يرصدني، وكان أسطول الظلم يحيط بي عند وصولي إلى بيروت

فأَدْبَرَ البَغْيُ مَدْحُوراً، وعُدْتُ إلى ... سِرْبِي، وقُلْتُ لَها: يا مُقْلَتي نَامي

وبِتُّ لَيْلِي، وعَينُ اللَّهِ تحرُسُني ... حتى وَضَعْتُ بِأَغْلَى التُّرْبِ أَقدامي

أنَا العروبةُ لي في كلِّ مَمْلَكَةٍ ... إنجيلُ حُبٍّ، ولي قُرْآنُ إنْعامِ

وابْنِي فَتَى النِّيلِ حَلَّاني بِجَوْهَرَةٍ ... عَزَّتْ علَى كُلِّ غَوَّاصٍ وعَوَّامِ

مَنْ يَبْكِ عَهْدَ المَوَامِي والدُّمَى فَأَنا، والحمدُ للَّهِ، قد حَطَّمْتُ أصنامِي
الموامي: المومياءات، ويذكرها كثيراً دعاة الفرعونية بمصر

شَغَلْتُ قلبي بِحُبِّ المصْطفى، وغَدَتْ عُروبِتي مَثَلِي الأَعلى وإِسْلامِي
بِنَاصِرِي وبِأَسْوَانِي فَخَرْتُ، إذا بَاهَى الدَّعِيُّ بِفِرْعَونٍ، وأَهْرامِ
عبد الناصر كان قد شرع في بناء السد العالي قرب أسوان، الدعي: الفاسد النسب، والقروي هنا يغض ممن ذهبوا إلى أن مصر تنتسب إلى قدماء المصريين لا إلى العرب

عاشَ الذي أَدَّبَ الطَّاغي وكَبْكَبَهُ عَنِ القناةِ ذليلاً، خَافِضَ الهامِ
ليعش عبد الناصر الذي أدَّب الظالم وكبكبه (شرده) عن قناة السويس ذليلاً خافض الهام (الرأس)

دَعْ ذِكْرَ كلِّ عظيمٍ حينَ تَذْكُرُهُ وقِفْ دقيقةَ إِجْلالٍ وإِعظامِ
فَمَا رَمَى رَمْيَةً إِلَّا مُسَدَّدَةً ولا خَطا خُطْوَةً إِلَّا بِإِلهامِ
كَمْ خُطْبَةٍ كالنَّدَى والجَمْرِ مِنْهُ شَفَتْ أكبادَنا، وشَوَتْ أكبادَ ظُلَّامِ
لا يَسْتَبينُ المصَلِّي في كنائِسِهِمْ إِنْ كانَ يُصْغي لِقَسٍّ أو لِحَاخَامِ
يتهم رجال الدين في الغرب بممالأة اليهود، فكأن موعظة القس خطبة يلقيها الحاخام

حريةٌ لِملوكِ المالِ خاضعةٌ تُسَاق فِيها الرَّعايا سَوْقَ أَنْعَامِ
الحرية التي يتغنى بها الغرب هي حرية ملوك المال، والشعب يقاد كالماشية

فمَا الرئيسُ، وأتْبَاعُ الرئيسِ لَهُمْ إِلَّا الأَرِقَّاءُ، في أَزْياءِ حُكَّامِ
والرؤساء والوزراء في الغرب أرقاء (عبيد) لكبار الأغنياء

قُلْ للأُلَى سَخِرُوا بي، وازْدَرَوْا أَدَبِي مِنْ خائِنٍ وشُعُوبِيٍّ ونَظَّامِ
وكُلِّ هَشَّامِ أَعراضٍ لهُ قَلَمٌ وَغْدٌ، وليس له عِرْضٌ لِهَشَّامِ
قولوا لمن يهشم الأعراض بما يكتب، ولا يهشم شرفه أحد إذ ليس له شرف..

قولوا لَهُ «عَرَباً» تَقْضُوا عليهِ، فَإِنْ يَسْلم فَثَنُّوا بِقُرْآنٍ وإِسْلامِ
قولوا له كلمة «عرب» يمت، وإن بقي حياً فقولوا له «قرآن» أو «إسلام» فهذا يقضي عليه. يسخر من مقت بعضهم للعروبة وللإسلام

ما أقربَ الوَحْدَةَ الكُبرَى مُبَخِّرَةً أحلامَ كُلِّ شُعُوبِيٍّ وقَسَّامِ
قسام: مؤيد تقسيم بلاد العرب إلى دول

سِيَّانِ بَعْدَ التَّلاقي يا بِلادِيَ لَوْ خَلَدْتُ، أو حَكَمَ الطَّاغي بإِعْدَامِي

أما رَجَعْتُ؟ ألم أَنْشَقْ هَوَاكِ؟ ألم أَلْثِمْ ثَرَاكِ؟ ألم أُسْمِعْكِ أَنْغامي
أُحِسُّ بالرَّاحَةِ الكبرى، كَأَنِّيَ قَدْ طَرَحْتُ في البحرِ عنِّي كُلَّ آثامي

١٢٢ المصيبة هي القنوط

إنْ شِئْتَ عِشْ، أو شِئْتَ مُتْ إنَّ الحياةَ لها شُرُوطْ
نُوَبٌ وأحزانٌ يُبَيِّـ ـضُ هَوْلُها سودَ الخُيُوطْ
ومَعَارِكُ الأطماعِ نا شِبَةٌ على كُلِّ الخُطُوطْ
عَمَّتْ بِني الدُّنيا، فَلا جُزُرٌ هناكَ ولا شُطُوطْ
والفَوْزُ بالنَّفْسِ القَوِيَّـ ـةِ، لا بِهَيْكَلِها مَنُوطْ
فَلَطالما سَقَطَ الشجا عُ، وقامَ مِنْ بَعْدِ السُّقُوطْ
لَيْسَتْ مصيبتُكَ المصيـ ـبةَ، بَلْ مُصِيبَتُكَ القُنُوطْ

١٢٣ التبرع بالتبرع

قال وأنشدها في نادي خريجي الجامعة الأميركية ١٩٥٩. وكان أمير كويتي تبرع بمال يدفع للقروي كل سنة، فتبرع القروي بالمال لخدمة العلم. وثارت في الصحف قصة حول صديق للقروي أراد أن يتحكم في إنفاق هذا المال:

وشيخٍ كريمٍ أطرَبَتْهُ قصائِدي وهَزَّتْهُ هزَّ العَضْبِ في كَفِّ فارِسِ

العضب: السيف

فأَسْنَهَنِي، ما دُمْتُ حيّاً، هَدِيَّةً تَلِيقُ بِسُلْطانٍ على العَرْشِ جالِسِ

أسنهني: رتب لي مالاً سنوياً

على عَبْقَرِيَّاتِ البلادِ حَبَسْتُها وأَعْظِمْ بِمَحْبُوسٍ عليهِ وحابِسِ
فلا هِيَ عندي في البُنُوكِ تَجَمَّدَتْ ولا ذابَ مِنْها دِرْهَمٌ في الخَسَائِسِ

١٢٤ اللقاء الحلم

قال وكتبها على نسخة من ديوانه أهداها لعبد الناصر عندما التقاه في عام ١٩٥٩ بدمشق:

مِنْ قَبْلِ أَنْ صِيغَ هذا الشِّعْرُ كُنْتَ بِهِ في كُلِّ قَافيةٍ عَذْرَاءَ مُرْتَسِمَا
لُقْياكَ فَرْحَةُ عُرْسٍ لا انْتِهَاءَ لَهَا أَثِمْتُ إنْ كنتُ أَشْكُو بَعْدَها أَلَما
حُلم تَجَسَّدَ في عَيْنِي، ومَا بَرِحَتْ عَينِي تُخَمِّنُهُ، مِنْ حُسْنِهِ، حُلُما

١٢٥ الوهم المعين

قال عام ١٩٦٠ يرثي قريبه الشاب ألبير ويصف حزن أمه:

لا تَلُمْ عمَّكَ المنكَّدَ يا ألـ ـبيرُ واغفِرْ له شناعَةَ جُرْمِهْ
عمُّكَ الشيخُ حامِلٌ ألفَ هَمٍّ وَهْوَ لا يملِكُ النهوضَ بِهَمِّهْ
بُرْجُ مجدٍ أحبابُه تتباهَى أنها تسبِقُ الأعادي لِهَدْمِهْ
كَمْ صَديقٍ يَحارُ لُبُّكَ فيهِ لَسْتَ تَدْري تِرْيَاقَهُ مِنْ سُمِّهْ

التِرياق: دواء السم

لم أفِدْ مِنْ مَدارسِ الخُبْثِ إلَّا أنَّني أعْجَزُ الوَرى عَنْ فَهْمِهْ
رَغْمَ عِلمي بِالنَّاسِ أُخْدَعُ، والمرْ ءُ مَسُوقٌ بِطَبْعِه، لا بِعِلمِهْ
يا لَثَكْلَى تُخَاصِمُ القَدَرَ العَا تي، وتَشكُو لِرَبِّها مِنْ ظُلمِهْ
غَابَ وجهُ الحبيبِ، فانْتَقَمَتْ مِنْ وجهِها تُلْهِبُ القلوبَ بِلَطْمِهْ
تَتَسلَّى بِوَهْمِ لُقْيَاهُ، مَا لِلْـ ـمَرْءِ عَوْنٌ على الرَّدَى غيرُ وَهْمِهْ

١٢٦ الكهل المتلفِّت

رَعَى اللَّهُ عهداً كنتُ لِلْغيدِ فِتْنَةً إذا سِرْتُ، في الفِتْيَانِ، سِرْنَ وَرَايَا
فَبِتُّ ومَا لي في هَوَاهُنَّ مَطْمَعٌ وإنْ كانَ عِندي لِلشَّبَابِ بَقَايَا
إذا عَطَفَتْ لَيْلَى عليَّ بِبَسمةٍ تَلَفَّتُّ خَوفاً أنَّها لِسِوَايَا

١٢٧ طبيب النساء

سئمتُ الحبَّ، حتى لا أُبالي ولو هبطَ الجمالُ من السماءِ
أرى الجسدَ الشَّهِيَّ بِعَيْنِ آسٍ قديمِ العهدِ في طِبِّ النساءِ

آس: طبيب. ها قد عرفنا أن طبيب النساء لا يشتهي أجساد مريضاته

١٢٨ ميني جوب.. وفتوى

لِحَدِّ الرُّكْبَتينِ تُشَمِّرينَا بِرَبِّكِ أيَّ نَهْرٍ تَعْبُرينَا
مَضَى الخَلْخَالُ حِينَ السَّاقُ أَمْسَتْ تُطَوِّقُهَا عُيُونُ النَّاظِرِينَا

لا حاجة للخلخال فعيون الناس هي التي تطوق ساق الفتاة بدل أن يطوقها الخلخال

تَظُنِّينَ الرِّجَالَ بِلا شُعُورٍ لأَنَّكِ رُبَّمَا لا تَشْعُرِينَا
فَيَا لَيْتَ الحِجَابَ هَوَى فَأَمْسَى يَرُدُّ السَّاقَ عَنَّا لا الجَبِينَا
فَإِنَّ السَّاقَ أَجْدَرُ أَنْ تُغَطَّى وإنَّ الوَجْهَ أَوْلَى أنْ يَبِينَا

١٢٩ بدلة بقصيدة

قال وهي قصيدة وجدت ضمن مخطوطاته وأهداها لصديقه جبرائيل غرزوزي الخياط عام ١٩٦١:

خيَّطَ لي مِنْ فَضْلِهِ بَدْلَةً صَيْفِيَّةً، أجملَ مِنْ شِعْرِي
لم يَرْضَ أجْراً غيرَ عِطْرِ الثَّنَا ولم يُكَلِّفْنِي سِوَى الشُّكْرِ
لو لم يَكُنْ حُرّاً لما هامَ بي ما هامَ بِالحُرِّ سوى الحُرِّ
يا آسرَ القلبِ بِمَعْروفِهِ ظَلَمْتَنِي واللَّهِ في السِّعْرِ

أي أنك منحتني بدلة وأخذت قلبي

١٣٠ طبيب يخيف الموت

قال وكتبها على نسخة من ديوانه الأعاصير أهداها إلى الدكتور فضلو حيدر:

إلى مُنقِذي مِنْ قبضةِ الموتِ، بَعْدَمَا تَنَاهَشَنِي أَنْيَابُهُ ومَخَالِبُهْ

تناهشني: تتناهشني وتمزق لحمي (وتذكير الفعل في هذا الموضع فصيح، أما صيغة المضارع فثقيلة)

ولم يبقَ مِني غيرُ ظِلِّ ابتسامةٍ على الثَّغرِ تُنبي أنَّنِي، بِكَ، غَالِبُهْ

تنبي: تنبئ، تشير

ومَنْ تَكُ، يا أُعجوبةَ الطبِّ، ساهراً بجانبِهِ، لا يَرْهَبِ الداءَ جانِبُهْ
كفى بكَ أنَّ الموتَ لم يَرْعَ صاحِباً، ويجتازُ مَنْ يَدْرِي بِأَنَّكَ صاحِبُهْ

يكفيك أن الموت، الذي لا يحابي صاحباً له بل يعصف بالجميع، يتجاوز عمن يعلم بأنك صديق له

١٣١ رثاء شاعر

قال في رثاء محمد علي الحوماني ١٩٦٤:

الشِّعرُ يشكُو بَعْدَ بَيْنِكَ بَيْنَهُ يا عينَ عِزِّ الشِّعْرِ أنتَ، وزَيْنَهُ

الشعر يشكو بعد بينك (رحيلك) بينه (رحيله) هو أيضاً فلم يبق شعر بعدك

والطيرُ نائحةٌ على الغَردِ الذي ... نُعِيَ البَيانُ الفَذُّ يومَ نَعَيْنَهُ
والضَّادُ وَالِهَةٌ تُشَيِّعُ ساحِراً ... مِنْ جِنِّ عَبْقَرَ، في الضَّريحِ طَوَيْنَهُ
ولَكَمْ أخٍ مُتَعَصِّبٍ، مِنْ كُرْهِهِ ... عَيْنَ العروبةِ كادَ يَفْقَأُ عَيْنَهُ
ومُغَلِّظٍ لَكَ بِالرَّسولِ يَمينَهُ، ... وصَداقَةُ الكُفَّارِ تَفْضَحُ مَيْنَهُ

يحلف لك بالرسول أنه وطني ولكن صداقاته مع الكافرين بالعروبة تفضح مينه، أي كذبه

باعَ الأُخُوَّةَ للغريبِ بِدرهمٍ؛ ... المومِسَاتُ مِنَ الحَيا يَأْبَيْنَهُ
مَنْ كانتِ الأرقامُ خَمْرَةَ وَحْيِهِ ... شَتَّانَ بَينَكَ في الجِهَادِ وبَيْنَهُ

يهجو التجار

يا شَاعراً غَنَّى فَأطرَبَ رَبَّهُ ... ونَبِيَّهُ، وعَلِيَّهُ، وحُسَيْنَهُ

١٣٢ الشهاب الساطع

قال في سبيل تجديد العهد للرئيس شهاب ١٩٦٤ :

أَمُنْقِذَ لُبنانَ! جِئْنا نُبَايِعْ ... ونَنْشُدُكَ اللَّهَ ألَّا تُمانِعْ
أَنَحْيا عَبيداً لِدُستورِنا ... أَسُنَّتْ لقتلِ العبادِ الشرائعْ
مَخَرْتَ بزورَقِنا اليَمَّ، وهْوَ ... جِبالٌ وأوْدِيَةٌ وزَوابِعْ
وطارَ الشراعُ، وعَمَّ الظلامُ ... ولم يبقَ إلَّا شهابُكَ ساطِعْ
تَفُحُّ الثعابينُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ ... علينا، وتَعوي ذئابُ المطامعْ
يناديكَ لبنانُ مستنجِداً ... فإنْ لم تُلَبِّ، فلبنانُ ضائعْ

ولم يلبِّ فؤاد شهاب، ولم يقبل التجديد

١٣٣ يوم السويس

قال، ووجدت بين أوراقه مؤرخة في سنة ١٩٦٥ :

حليفُكَ ربٌّ ناصرٌ أنتَ عبدُهُ ... وجندُكَ، إنْ دارتْ رَحَى الحربِ، جندُهُ
وحَسْبُكَ مِنْ يومِ السُّوَيْسِ شَهَادةً ... بِأَنَّكَ عَضْبٌ يَفْلَقُ الطَّوْدَ حَدُّهُ

عضب: سيف، الطود: الجبل

ولا عارَ في إغمادِ سيفٍ شهرتَهُ على «البَدْرِ» إنْ كانَ «ابنَ غريونَ» غِمْدُه

يشير إلى عودة جيش عبد الناصر عن محاربة الإمام البدر في اليمن، فإغماد ذلك السيف لا بأس به خصوصاً أنه أغمد، ليس في جرابه بل.. في «بن غوريون» رئيس وزراء إسرائيل أيام العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي الإسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦

وهذا الرِّباطُ المالئُ الجوَّ رهبةً لِصُهْيونَ لا لِلمسلمينَ تُعِدُّهُ

الرباط: خيل المعركة، يعني التسلح

وأعظمُ مِنْ سَدٍّ على النيلِ، شِدّتَهُ بأَسوانَ، سدٌّ عِندَ يافا تَهُدُّهُ

١٣٤ يا طويل العمر

وجدت القصيدة بين مخطوطات الشاعر بعنوان «الثورة الليبية»:

يا طويلَ العُمْرِ! نَحنُ اليومَ في عصرِ عِلم يُنكِرُ الجَرْيَ الوَئيدَا

الوئيد: البطيء

نَفَضَ الغربُ جناحَيْ قَشْعَمٍ نَوَوِيٍّ، جاوزَ النجمَ صُعُودَا

قشعم: نسر

ولَبِثْنا بالأماني قُنَّعاً حَسْبُنَا أنْ نَذْكُرَ المجدَ التَّلِيدا

التليد: الموروث

أنتَ أغنَى مَلِكٍ فوقَ الثَّرَى قَدْرَ ما أنتَ غنيٌّ، كُنْ حَمِيدا

يخاطب أحد ملوك الدول النفطية

وخلودُ الذِّكْرِ نوعانِ لِمَنْ شاءَ، فانظُرْ كيفَ تختارُ الخلودَا

إن في الظَّهْرانِ شَمشُونَ الأذَى وعدوَّ الدينِ والدنيا اللدودَا

الظهران: مدينة النفط السعودية، شمشون: بطل جبار هدم البناء على من فيه، وقال القولة المشهورة «عليَّ وعلى أعدائي»، وشمشون الأذى: شركات النفط، فيما يبدو

أَمِنَ الإسلامِ أن تَبْقَى لَهُ ذلكَ الصاحبَ والخِلَّ الوَدُودَا؟

وتَظُنُّ اللَّهَ يرضَى عنكَ إنْ كنتَ خوفَ النقدِ تُعْطِينا النُّقُودا

إنَّ للنصرِ سبيلاً قاصِداً إنْ سَلَكناهُ غَدَا النصرُ أكيدَا

سبيلاً قاصداً: طريقاً مستوياً

أَمِّمِ النفطَ، وأَسْقِطْهُ نَدىً يُصْبِحِ الرملُ سِلاحاً وجُنُودا

أو فَـمَـوِّتْـهُـمْ إلـيـهِ عَـطَـشـاً   آخِذاً عَنْ دِيْغُلَ الدَّرْسَ المفيدا

ديغل: شارل ديغول، رئيس فرنسا، وكان يقاوم الهيمنة الأميركية، وظل مشغول البال باستقلال القرار الفرنسي سياسياً واقتصادياً (سياسته القائمة على تدخل الدولة في الاقتصاد لقيت، ولا تزال، مديحاً)

تُـرْجِـعِ الـقـدسَ إلـى أبـنـائِـهـا   وتُعِدْ شعبَ فِلَسطينَ الشَّريدا
وتَـدُكَّ الـدولـةَ الـمـسـخَ الـتـي   أقسَمَتْ، إنْ لم نُبْدْها، أن تُبِيدا

الدولة المسخ: يقصد إسرائيل

حَرَقوا الأقصى، ولو أمْكَنَهُمْ   جَعلوا الكعبةَ للنارِ وَقُودَا
والـفـدائـيُّـونَ! هَـلْ مِـنْ أمَّـةٍ   أنجبتْ أطيبَ أو أصلبَ عُودا

١٣٥ فلسطين بكل مكان

قال على إثر تضحية طفلين فلسطينيين بنفسيهما وتفجيرهما الديناميت الذي تزنرا به فقضى على عدد من ضباط العدو في ناد لهم عام ١٩٧٠:

أنا لو ثَمَانِينِي رَجَعْنَ ثَمَانِي   لَحَزَمْتُ أمتِعَتي إلى لبنانِ
وأخذتُ عند حدودِه دَرْساً على الْـ   ـأبطالِ أطفالِ الحِمَى إخْواني
وجعلتُ «تَلَّ أبيبَ» قِبْلَةَ نِقْمَتي   ودَكَكْتُ قَلْعَتَها بِرَخْصِ بَنَاني
هذا هُوَ المجدُ الذي إنْ شِئْتَ أنْ   تُكْسَى به فانزِلْ إلى الميدانِ
مَجْدُ الفدائيِّ الذي فَتَكَاتُهُ   خَلَقَتْ فِلَسْطِيناً بِكُلِّ مَكَانِ
فَلْتَحْيَ تُرْبَتُهَا المقَدَّسَةُ التي   وَلَدَتْ لنا هذا المسيحَ الثَّاني
بَطَلاً يَحُضُّ على الجِهَادِ مُمَزِّقَاً   بِيَدِ العدالةِ بَيْرَقَ الطُّغْيَانِ
بَهَرَتْ شجاعَتُهُ الوَرَى بِخَوارِقٍ   لم تُرْوَ عَنْ إنْسٍ ولا عَنْ جَانِ

خوارق: معجزات

وَدَّ الصَّهايِنُ كُلما سَمِعُوا بِهَا   لو أنَّهُمْ خُلِقُوا بِلا آذانِ
هذا هُوَ الحُبُّ المحَرِّرُ، لا الذي   يَسْتَعْبِدُ الإنسانَ للإنسانِ
هذا هُوَ الشرفُ الفِدَائيُّ الذي   وَطَني يَتِيهُ به على الأوطانِ
شرفٌ أنَافَ على النُّجومِ، وجَاوَزَ السَّـ   ـبْعَ الطِّبَاقَ، فَهُنَّ مِنْهُ ثَمَاني

أناف: جاوز

١٣٦ قبيل أكتوبر

قال قبل حرب ٧٣ بأسبوعين، وهي مهداة إلى روح غسان كنفاني:

أيُّها المسلمونَ! اَللَّهُ أكبرْ أَوَمَا حانَ أنْ نثورَ ونثأرْ
جُثَّةُ السِّلم أنْتَنَتْ فاقْبُروها قَبْلما هذهِ الملايينُ تُقبَرْ
نحنُ أضعافُ شعبِ فِتْنَامَ عَدّاً فلماذا لا نَدْفَعُ الشرَّ بالشَّرْ
دَمَّرَ البغيُ أرضَهُمْ، فتَحَدَّا هُ مِنَ العزمِ جوهرٌ لا يُدَمَّرْ
كلَّ يومٍ يُلْقَى عليها جحيمٌ مِنْ لَظىً، وَهْيَ كلَّ يومٍ أَصْبَرْ

كل يوم يلقَى على أرضهم جحيم من القنابل، وتزداد أرضهم صبراً

السِّلاحُ المرْكومُ مِنْ دونِ حَرْبٍ لَيْتَهُ في يَدِ الفِدَائيِّ خِنْجَرْ
لو ضَمِنْتُمْ لهُ الكفاحَ طَلِيقاً حَرَّرَ الأرضَ وحدَهُ وتَحَرَّرْ

١٣٧ المنسي أعظم

قال في رثاء إلياس فرحات، وتوفي عام ١٩٧٦:

على قَدْرِ سِنِّي، لا شُعُورِيَ، خُذْ مِنِّي قَضَى مَعَكَ الشِّعْرُ المعَبِّرُ عَنْ حُزْني
تَضَاعَفَ بعدَ الفُرْقَةِ الحُبُّ بيْنَنا وفي القُرْبِ ما يُنْئِي، وفي البُعْدِ ما يُدْني
حماقاتُ أطفالٍ صِغارٍ نَسِيتُها ولم ينْطَبِعْ غيرُ الصَّداقَةِ في ذِهْني

وكانت بين القروي وفرحات خلافات تظهر وتختفي، غير أنهما كانا متفقين كل الاتفاق على حب العروبة

لنا في ميادينِ الجِهَادِ مَلاحِمٌ سيَنْقُلُها التاريخُ، قَرناً إلى قَرنِ
وأقْوى حِبالِ الوُدِّ حَبْلُ عُروبَةٍ رَبَطْنَا بِهِ بينَ العَقِيدةِ، والفَنِّ

١٣٨ لم يبق منهم شاعر يرثيني

قال، وأهداها إلى روح الشاعر ميشيل مغربي، وفيها رثاء لأخيه قيصر الخوري الملقب بالشاعر المدني، ١٩٧٨:

ذَهَبَ الرِّفاقُ جميعُهُمْ مِنْ دُوني لم يبقَ مِنْهُمْ شاعرٌ يَرْثِيني
وغَدَتْ عناوينُ الفُحولِ قُبُورَهُمْ فَرَسائِلي قِطَعٌ مِنَ التَّأْبينِ
وَقَفُوا على أَوْطانِهِمْ أعمارَهُمْ ورَضُوا مِنَ الدُّنْيا بِدُونِ الدُّونِ
ما هَمَّهُمْ جُوعٌ إذا شَبِعَ الحِمَى فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا بِغَيْرِ بُطُونِ

مِنْ كُلِّ مَنْ شَهِدَتْ أَيِمَّةِ يَعْرُبٍ لِبَيانِه السِّحْرِيِّ، والتَّبْيِينِ
حَفِظَ الوَرَى أشعارَهُ، حتَّى غَدَا ديوانُهُ بِغِنَىً عَنِ التَّدوينِ
والشاعرُ المدَنِيُّ آخرُ دُرَّةٍ في عِقْدِهِمْ، تُشْرَى بِكُلِّ ثَمينِ
قَلْبٌ كَقَلْبِ الطِّفْلِ أوْ أَنْقى، فَإِنْ مُسَّتْ كرامَتُهُ فَلَيْثُ عَرِينِ
هَجَرَ النَّعِيمَ مَعي، وأَقْسَمَ أَنَّهُ لَيْسَتْ تَطِيبُ لَهُ الحياةُ بِدُوني
ورَجَعْتُ، وهْوَ هُناكَ تَصْليهِ النَّوَى ناراً، فَيُطْفِئُهَا بِكَأْسِ مَنُونِ
ماذا أُؤَمِّلُ بعدُ مِنْ عَيْشي، وَهَا قَدَمَايَ غارِقَتانِ في التِّسْعِينِ
لولا البُكاءُ لَخِلْتُ أَنِّيَ مَيِّتٌ؛ حُصِرَتْ حَياتي كُلُّها بِعُيُوني
بِدُمُوعِيَ الحَرَّى أَبُلُّ تُرَابَهُمْ لِيُعَيدَ رَبِّي خَلْقَهُمْ مِنْ طِينِ

١٣٩ يا ابن أمي

قال في البربارة ١٩٨٢، وقد وُجدت القصيدة بين مخطوطاته وأوردها جورج طراد في كتابه عن القروي. والمعني فيها شقيقه أديب:

ربِّ إني ظُلمتُ مِنْ أقربِ النا سِ، فلا تَظْلِمنَّهُمْ يا رَبِّي
قالَ: بِعْني؛ فبِعْتُهُ كلَّ ما أمـ لِكُ، لم أحتفظْ بِحَبَّةِ تُرْبِ
حَلَّ عِندي، والحربُ نارٌ وعارٌ نَاعِماً آمناً معي في سِرْبي

آمن في سربه: مطمئن بين أهله (تعبير قديم له أكثر من معنى، وفسرناه كما عناه الشاعر، ومرجعنا «لسان العرب»)

ثُمَّ أشركتُهُ بدفتَرِ وَفْري ساحِباً منهُ ما يشاءُ، كَسَحْبي
ما دَعاني لِحاجةٍ قَطُّ إلّا، كنتُ في سرعةِ البُرَاقِ أُلَبِّي

البراق: الدابة التي صعد بها النبي إلى السماء، وهي سريعة كالبرق، وأسرع. ولئن كان الوزن اقتضاها، وأبى البرقَ، فهي أحلى

يَتَعَشَّى على هَوَاهُ، ويَمْضي سالِكاً في الظلام أخطرَ دَرْبِ
وأنا أسهرُ الليالي وحِيداً ليسَ إلّا رَبِّي وسَلْوَى بِقُرْبي

سلوى: بنت خالته، وكانت ترعاه في شيخوخته

ثمَّ جاءَ الوكيلُ يَقرَعُ بابي منذراً يطلُبُ الصُّكوكَ بِعُجْبِ

العجب: الزهو والافتخار

يـا ابـنَ أُمِّـي! بِـأَيِّ ذنـبٍ أُجَـازَى منكَ هذا الجزاءَ، قلْ: أيُّ ذَنْبِ
أيـنَ أمـضـي؟ وأيَّ بـيـتٍ أُلاقـي غـيـرَ بَيْتي لمُتْحَفي، ولِكُتْبي
ولِـنَـثْـرٍ كـأنَّـهُ فَـلَـقُ الـصُّـبْـ ـحِ ونـظـمٍ يُـرَقِّـصُ الـمـتـنـبِّـي
يـا إلَـهـي إلـيـكَ وَكَّـلْـتُ أمـري حَسْبُ نفسي رِضاً بِأَنَّكَ حَسْبي

١٤٠ سلوى

قال والقصيدة مؤرخة في ١٩٨٢:

لـم تَـمُـتْ أمِّـي، فَـسَـلْـوى بقيـتْ نـسـخـةً، عـنْ أصـلِـهـا لـم تَـفـرُقِ

سلوى: بنت خالته، وقد رعته هي وأولادها في شيخوخته بالبربارة

ضَـمِـنَـتْ رحـمـتُـهـا عـافِـيَـتـي وشَـفَـتْ روحـيَ بِـالـحـبِّ الـنَّـقـي
كـلـمـا جُـنَّ وَرِيـدي سَـكَـبَـتْ دمعَـهـا الـقَـانـي دمَـاً فـي عُـنُـقـي

يقول عمران القفيني عن هذا البيت: يا إلهي! فهل هذا طلب بتسويده؟

رَبِّ! لـــي أمـــنـــيَّـــةٌ واحـــدةٌ أنَّـــنـــا عـــنـــدَكَ يـــومـــاً نـــلْـــتَـــقـــي

١٤١ الغضب فضَّاح

أَغْضِبْ صديقَكَ تَستطلِعْ سريرتَهُ للسرِّ نافذتانِ: السُّكْرُ والغضبُ

سريرته: حقيقته الدفينة

ما صرَّحَ الحَوْضُ عمَّا في قَرارتِهِ مِنْ راسبِ الطينِ، إلَّا وهْوَ مضطَربُ

صرح: بيَّن

١٤٢ اغفر لي ذنبك

مَـنْ شـاءَ ألَّا يـنـثـنـي صَـحْـبُـهُ عـنْ حُـبِّـهِ، فَـلْـيَـحْـتَـمِـلْ صَـحْـبَـهْ
كَـمْ صـاحـبٍ، حِـرْصَـاً عـلـى وُدِّهِ، طـلـبـتُ أنْ يَـغـفِـرَ لـي ذَنْـبَـهْ

١٤٣ حسن الخلق

إذا فَرَطَتْ مِنْكَ الإساءةُ، فاعترِفْ بِهَا، واعتذِرْ إنْ كنتَ حُرّاً مُهَذَّبا
فإنْ قَبِلَ المُستَاءُ عُذْراً، شَكَرْتَهُ؛ وإنْ هُوَ لـم يَقْبَلْ، بَرِئْتَ وأَذْنَبـا

١٤٤ الواجب

تَذَوَّقْتُ أنواعَ الشرابِ، فلم يَسُغْ بِحَلْقِيَ أشْهَى منْ حَلالِ المكاسبِ
ونمتُ على رِيشِ النَّعَامِ، فلم أَجِدْ فِراشاً وَثيراً مثلَ إتْمَامِ واجِبي

١٤٥ وقوفَ شحيح

إلَـهِـي مـنـكَ أنـتـظـرُ الـجَـوابـا فـلـسـتُ بِـقَـارعٍ لِـسِـواكَ بـابـا
وقـفـتُ بِـذِلَّـةٍ فـيـهِ كَـأَنِّـي أَبِـيـعُ، بِـبـابِ سُـورِيٍّ، كِـتـابـا

١٤٦ التعامي والعمى

طـلَّـقْـتُ دنـيـايَ عـلـى حُـبِّـهـا كـأنَّـنِـي حـيٌّ بِـهـا مَـيْـتُ

على حبها: رغم حبي لها (التعبير من الآية: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» الإنسان ٨)

ما عُدْتُ أستَصعِبُ فيها العَمَى لِـطُـولِ مـا عَـنْـهـا تَـعـامَـيْـتُ

١٤٧ الجناة والزناة

إذا قتلَ الفقرُ اليتيمَ، ولم يَجِدْ مُـغِـيـثـاً، فَـإنَّ الـمـوسِـرِيـنَ جُـنَـاةُ
وإنْ وفَّرَ العِرْضَ الرغيفُ، ولم يُنَلْ رغـيـفٌ، فـإنَّ الـبـاخِـلِـيـنَ زُنَـاةُ

١٤٨ صاحب كالخاتم الجَرِج

كَمْ بينَ صَحْبِكَ مِنْ غالٍ تَضِنُّ به بالرَّغْمِ مِنْ عِوَجٍ فيهِ ومِنْ هَوَجِ
تمشي وتصبحُ مَغْنِيَّاً بِه، حَذِراً مِنْ أنْ تُضَيِّعَهُ، كالخاتِمِ الجَرِجِ

الخاتم الجرج: الواسع على الإصبع

١٤٩ عندما تتدحرج الأسماء

قالتْ: نسيتَ اسْمي؟ فقلتُ لها: اعذِري ذهبَ الشبابُ الغضُّ، وانقطعَ الرَّجا
ذِهني تَيَبَّسَ طينُه، حتى غَدَتْ تَتَدحرَجُ الأسماءُ عنه تَدَحْرُجَا

١٥٠ فكان من شراحي

كَـمْ شـاعـرٍ مـتـفـلـسِـفٍ أرْدَفـتُـه خلفي، فطارَ مُحَلِّقاً بِجَناحِي

ومَضى يُفَصِّلُ بعضَ ما أجْمَلْتُهُ   لذوي العقولِ، فكانَ مِنْ شُرَّاحي

١٥١ لا تربية بالذل

لا ترضَ صَفْعاً، ولَوْ مِنْ كَفِّ والدةٍ   ما قالَ ربُّكَ أنْ يُسْتَعْبَدَ الولدُ
ما أبعدَ العزَّ عنْ بيتٍ، وعَنْ وطنٍ   بالذُلِّ فيه تُرَبِّي الأمُّ مَنْ تَلِدُ

١٥٢ أمنيات الدود

يا عاقدَ الخيرِ في الدنيا على أملٍ   كالخيطِ، آخرُهُ باللَّحْدِ مَعقودُ
الدُّودُ فيكَ يُمَنِّي نفسَهُ بِغَدٍ   كما تَعَلَّلَ بالموجودِ موعودُ

الدود الكامن (كموناً معنوياً) في جسم الإنسان يعلل نفسه (يصبر نفسه) بحالته الحاضرة، ولكنه موعود بوجبة شهية بعد موت الإنسان

١٥٣ ملتمسو الرحمة

ولو كانَ عِنْدَ الناسِ لِلناسِ رحمةٌ   لما التَمَسوها رُكَّعاً في المعَابِدِ

١٥٤ بيت القصيد

قال في عرس جاره إميل يمين:

مساؤُكَ عرسٌ، وفجرُكَ عِيدْ   فأنتَ، بِرَغْمِ الليالي، سَعيدْ
مَسَرَّاتُ هذي الحياةِ قَصيدٌ   ووَصْلُ الحبيبةِ بيتُ القَصيدْ

١٥٥ القصيدة الخالدة

لئنْ لم أكنْ أشْعَرَ الشاعِرِينَ   ولم أجْنِ مِنْ أَدَبي فائِدَةْ
فحسبيَ أنْ صُنْتُ ماءَ الجبينِ   وتلكَ قَصيدَتِيَ الخالِدَةْ

١٥٦ جرأة الإقرار

رُبَّ ذنبٍ مَحَوْتُهُ بِاعتذاري   وحَمَلتُ الوَرَى على إكباري
وإذا قيستِ الفضائلُ، فاقَتْ   كَرَمَ العفوِ جُرأةُ الإقْرارِ

تعليق عمران القفيني: يريد التسويد جداً، قد فعلنا

١٥٧ طالب الشهرة

قُلْ لِلَّذي يُعلِنُ عَنْ نفسِه   جاءَكَ ما تَهْوَى بِمَا تَكْرَهْ
ثلاثةٌ تَهْرُبُ مِنْ لاحِقٍ:   الظِّلُّ، والمرأةُ، والشُّهْرَةْ

١٥٨ حد اللؤم

إذا اسْطَعْتَ كُنْ إمَّا مَسيحاً مُسَامِحَاً   عِدَاكَ، وإمَّا فارِسَ الحرْبِ عَنْتَرَا
فما اللُّؤْمُ إلَّا إنْ حَقَدْتَ، فَلم تَكُنْ   كَريماً فَتَعْفُو، أو شُجَاعاً فَتَثْأَرا

١٥٩ الأعشاب والأزهار

يا مَنْ يَلومُ ابنَ التُّرابِ لِشُغْلِهِ   بِالفَلْسِ عَنْ شِعْرٍ وعَنْ شُعَّارِ

ابن التراب: الإنسان، لشغله: لانشغاله

أَرَأَيْتَ في المرعَى حِمَاراً عاقِلاً   يَلهو عَنِ الأعشابِ بالأزْهَارِ؟

١٦٠ الملبَّسة

حديثُكِ أشْهَى مِنْ حَنِينِ الصَّبَا إذا   أَجَادَتْ يدُ العَوَّادِ في الضَّرْبِ مَلمسَهْ

الصبا: مقام موسيقي حزين، وإذا كان العوَّاد خائباً وزاد في «النوا بيمول» أو نَقَص فإن نكهة الصبا تضيع لاقترابه من مقام أشهر منه هو البياتي، لهذا قال الشاعر إن على العواد أن يجيد «في الضرب ملمسه»، وكان الخوري عازف عود وملحناً هاوياً

وثَغْرُكِ مُبْيَضُّ الثَّنايَا، كأنَّما   لسانُكِ فيهِ لَوْزَةٌ في مُلَبَّسَةْ

انتشى شاعرنا بهذا التشبيه الذي وقع له، وكتب بالبيتين إلى أخيه، منبهاً إلى طرافة التشبيه.
والملبَّسة: حلوى من حبة لوز جافة ألبست جلباباً من السكر

١٦١ قم للمعلم

قال في رثاء العلامة داود قربان:

مَلأْتَ صدورَنا أدَباً وعِلماً   ولم يملأْ لكَ التعليمُ كِيسا
وإنَّ مُعَلمي تاريخَ قَومي   أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِيسى ومُوسى

١٦٢ محنة الأديب

كأنِّيَ سِرْتُ مِنْ أَدَبي بِقَفْرٍ   ومَا لِيَ مَلْجَأٌ مِنْ حَرِّ شَمْسِهْ

خيـالـيَ جَـنَّـةٌ، لَـكِـنْ لِـغَـيـري ومَـنْ ذا يَـسْـتَـظِـلُّ بِـظِـلِّ نَـفْـسِـهْ

١٦٣ رق الصناديق

تَشْكُو خزائِنُكُمْ ضِيقاً بثروتِكُمْ والناسُ يشكُونَ مِنْ فَقْرٍ، ومِنْ ضيقِ
وَدَّتْ ملايينُكُمْ لو كنتُ سيِّدَها، كيما تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الصناديقِ

تود أموالكم لو أنني مالكها كيما تحرر (لكي تتحرر) من رق (عبودية) الصناديق

١٦٤ مصدر الحكمة

اسْتَقِ الحكمةَ، لا يَشْغَلْكَ مِنْ أيِّ يَنْبُوعٍ جَرَتْ، يا مُسْتَقِ
فشعاعُ الشمسِ يمتصُّ النَّدَى مِنْ فمِ الوَرْدِ، ووحلِ الطُّرُقِ

١٦٥ شكوى

علَيَّ حُقُوقٌ لم أَنَمْ عَنْ أدائِها فَمَا بالُ غيري يَسْتَبيحُ حُقُوقي
تَقَدَّمَني مَنْ كان خَلْفي، لأنَّني تَقُومُ على سَاقِ الأمانةِ سُوقي

١٦٦ ثلاثة أسلحة

شَرُّ السِّلاحِ ثَلاثَةٌ يُخْشَى عَلى أَصْحَابِهَا، وعَلى سِوَاهُمْ، فاتَّقِ
مُوسَى بِكَفِّ الطِّفْلِ، أو قَلم بِكَفِّـ ـالنَّذْلِ، أوْ مَالٌ بِكَفِّ الأحْمَقِ

موسى: شفرة

١٦٧ أسوأ مما تتصورون

لا، لستِ يا نِفْسي كما وَصَفُوكِ فلقد عرفْتُكِ قَبلما عَرَفوكِ
اَللَّـهُ أعلمُ بالذي أَخْفَيْتُه تَحْتَ البَرَاقِعِ مِنْ قبيحِ سُلُوكي

١٦٨ حمال وحمال

قُلْ لِلْغَنيِّ الذي بَاهَى بِثَرْوَتِهِ ولم يُبَاهِ بِأَخلاقٍ وأَفْعَالِ
لا تَضْحَكَنَّ على حَمَّالِ أمتِعةٍ فَلَسْتَ أنتَ سِوَى حَمَّالِ أموالِ

١٦٩ فضل الاستعطاء

تَلَقَّطْ شُذُورَ العِلم حيثُ وَجَدْتَهَا ... وَسَلْهَا، ولا يُخْجِلْكَ أَنَّكَ تَسْأَلُ

شذور: فتافيت الذهب

إذا كنتَ، في إعْطائِكَ المالَ، فاضِلاً ... فإنَّكَ، في اسْتِعَطائِكَ العِلم، أَفْضَلُ

١٧٠ المتسقِّط

يا مَنْ يَعُدُّ عَليَّ كلَّ صغيرةٍ ... إنْ لم تَكُنْ مُتَساهِلاً، كُنْ عادِلا

إنْ كنتَ مثليَ ناقِصاً فاعْذِرْ، وإنْ ... تَكُ كامِلاً فاعْذِرْ، لِتَبْقَى كامِلا

عمران القفيني يقول: يا أخي هذا بيت غير عادي!

١٧١ تبديل الأجسام

يا حاسِبَ الأعمارِ لا تَعْجَبْ إذا ... هذا قَضَى شَيْخاً وذاكَ غُلامَا

فَكَمَا تُبَدِّلُ غادةٌ أثوابَهَا ... بَعْضُ النُّفُوسِ يُبَدِّلُ الأَجْسَامَا

في البيتين إشارة إلى مذهب الحلول، فالذي يموت تذهب روحه إلى جسم آخر

١٧٢ لن تنالوا البر حتى

قلْ لمنْ يُؤتي زَكَاةً ... ليسَ يَرضَى اللَّهُ بِالدُّونْ

«لَنْ تَنَالوا البِرَّ، حتَّى ... تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونْ»

١٧٣ نحن أعداء السلام

أمَّا السَّلامُ فإنَّنا أعداؤهُ ... حتَّى يَدِينَ بِحُبِّهِ أَقْوَانا

لم يَعْتَرِفْ حُرٌّ بِإِنْسانِيَّةٍ ... إلَّا إذا اعْتَرَفَتْ بِهِ إنسانَا

١٧٤ ثمن الحسد

يا حاسِدي! واللَّهِ يُحْزِنُني ... أَنِّي جَلَبْتُ لِقَلْبِكَ الحُزْنَا

أَعْطَانِيَ المعْطِي بِلا ثَمَنٍ ... فَأَبَيْتَ إلَّا دَفْعَكَ الثَّمَنا

١٧٥ الأسْد حيث تكون كان عرينها

كلُّ البلادِ لِكلِّ نفسٍ حُرَةٍ وَطَنٌ، ولكنْ للقلوبِ حنينُها
لم تُكْسِبِ الوُجُرُ الثَّعالبَ هَيْبَةً، والأُسْدُ حَيْثُ تَكونُ كانَ عرينُها

الوجر: جمع «الوجار» وهو بيت الثعلب

١٧٦ دينها قانونها

لا تَرْجُوَنَّ مِنَ الطَّبيعةِ رَحْمَةً إنَّ الطبيعةَ دِينُها قانُونُها
سَقَطَ الرَّضيعُ، فَمَا وَقَتْهُ سماؤُها تَلَفاً، ولا ذَرَفَتْ عليهِ عيونُها

١٧٧ للعداوة أصول

عَبَثاً تُحَاوِلُ، يا فلانُ، إثارَتي لِيَقولَ عنكَ الناسُ: خصمُ فُلانِ
لنْ يَسْتَحِقَّ عداوَتي إلّا الذي عادَيْتُهُ أنا، لا الذي عَادَاني

١٧٨ زر الكهرباء

لم أنسَ حينَ غَشَوْتُ خِدْرَ لُمَيَّةٍ والليلُ يَغْمُرُنا بِجِلْبَابَيْنِ

غشوْت: أتيت، الخدر: مكان المرأة من البيت. يقصد أن شخصيهما مختفيان في جلبابين، فكل منهما يلبس جلباباً من الظلمة

عالَجْتُ زِرَّ الكَهْرباءِ بِصَدْرِها فَأَنَرْتُ في العَيْنينِ مِصْبَاحَيْنِ

١٧٩ الباصق في مهب الرياح

أَيا مَنْ تَعَوَّدَ سَبَّ الأَكارِ مِ نَزِّهْ لِسَانَكَ عَنْ طَعْنِهِ

نزه لسانك عن طعنه (الطعن الذي يقوم به هذا اللسان)

وبَصْقُ الفَتَى في مَهَبِّ الرِّياحِ يُعِيدُ البُصَاقَ إلى ذَقْنِهِ

١٨٠ ليس بالخبز وحده يكون البِرّ

تَذَكَّرْ حينَ كنتَ على يَدَيْهَا تُقَطِّرُ فيكَ مُهْجَتَها لِبَانَا
فَأَوْفِ جَزاءَهَا، واعطِفْ عليْها ولَقِّمْهَا مَعَ الخُبْزِ الحَنَانَا

١٨١ الأفكار المتجمدة

وَبَـرْدٍ تَـجْـمُـدُ الأَفْـكـارُ مِـنْـهُ إذا هُـنَّ انْـفَـصَـلْـنَ عَـنِ الـجَـنَـانِ
تَـكـادُ الـعـيـنُ تَـقْـرَؤُهـا حُـرُوفـاً مُـعَـلَّـقَـةً عـلـى طَـرَفِ الـلِّـسَـانِ

١٨٢ صاعداً على أعدائه

ولا تَـحْـفِـلُـوا بَـفَـحِـيـحِ أَفَـاعِـي الـ ـجُـحُـورِ، وأَنْـتُـمْ نُـسـورُ الـسُّـمُـوّ
فَـإِنَّ الـعِـدَى دَرَجَـاتُ الـعُـلَـى صَـعِـدْتُ عَـلَـيْـهـا عَـدُوّاً عَـدُوّ

١٨٣ الصديق سيف في يدي

إنَّ الـصَّـديـقَ لَـيُـشْـبِـهُ الـسَّـ ـيْـفَ الـمـجَـرَّدَ فـي يَـدَيَّـا
أَلْـقَـى بِـه نُـوَبَ الـزَّمـا نِ إذا عَـدَتْ يـومـاً عَـلَـيَّـا
والـخَـيْـرُ أَنْ أَغْـنَـى عَـنِ اسْـ ـتِـعْـمَـالِـهِ، مـا دُمْـتُ حَـيَّـا

١٨٤ اللذة والسعادة

الـلَّـذَّةُ الـكُـبْـرَى مَـشَـا عٌ لِـلـسَّـعـيـدِ ولِـلـشَّـقِـيّ
أَمَّـا الـحُـبُـورُ فـإِنَّـه وَقْـفٌ عـلـى الـقَـلْـبِ الـنَّـقِـيّ

١٨٥ يريد أن يعانق المارة في الشارع

مَـنْ لِـنَـفْـسٍ تَـوَدُّ لـو تَـغْـمُـرُ الـكَـوْ نَ، هُـيَـامـاً بِـحُـسْـنِـهِ الـمـعْـبُـودِ
مَـثِّـلـوا لـيِ هـذا الـوُجـودَ بِـشَـيْءٍ أَنـا لا أَسْـتَـطـيـعُ ضَـمَّ الـوُجـودِ

هذان البيتان فيهما تصوير لمنتهى الفرح. بيتان كهذين لا يقولهما إلا من كان قلبه يغلي شعراً. رحمك الله يا قروي.. ما في شعرك من سياسة صرف الناس عما فيه من درر ثمينة. ولك في شعر السياسة شعر هو من أحلى الشعر. لبدوي الجبل هجاء رائع في عبد الناصر، ولك يا قروي مديح رائع في عبد الناصر. كأني سمعت بعض الحمقى يقولون إن الشعر السياسي يموت بانقضاء المرحلة! المرحلة تنقضي والشعر المضمخ بالعاطفة، حباً أو كرهاً، يبقى

١٨٦ غربة مضاعفة

مَـا الـبَـرازيـلُ مَـهْـجَـرِي لَـيـسَ لُـبْـنَـانُ لـيِ حِـمَـى

إنَّ نَفْسي غَريبةٌ تَشْتَكي البُعدَ فيهِمَا

١٨٧ الاختيار

بناتُ حَوَّاءَ أعشابٌ وأزهارُ فاسْتَلْهِمِ العقلَ، وانظرْ كيف تَخْتَارُ
ولا يَغُرَّنَّكَ الوَجْهُ الجميلُ، فكمْ في الزَّهْرِ سُمٌّ، وكم في العُشْبِ عَقَّارُ

«العقَّار» بمعنى الدواء مشددة، لذا فالجمع «عقاقير» بقافين، و«العَقار» بمعنى المباني، غير مشددة، فجمعها «عقارات» بقاف واحدة

١٨٨ سوى شهوة..

صَرَفتُ عِنَانَ النفسِ عَنْ كلِّ شَهْوةٍ سوى شهوةٍ قد رُكِّبَتْ في الطبائعِ
وكيفَ بِغَضِّ الطَّرْفِ عِنْ خمرةٍ جَرَتْ دَماً في عُروقِي، أو لَظَىً في أَضَالِعي

رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)

فهرس القوافي

إيليا أبو ماضي
(١٨٨٩ ـ ١٩٥٧)

عن دراسة لجورج جحا فإن مولد إيليا أبو ماضي محقق من عدة مصادر على أنه في سنة ١٨٨٩. والأديب الإسكندري عبد العليم القباني وضع كتيباً عن إيليا أبو ماضي في فترته الإسكندرية خص قطعة صالحة منه بتحقيق عام مولده، وهو يقول إن أبو ماضي ولد قبل عام ١٨٨٩ ببضع سنوات، وقرائنه وجيهة. وثمة من قال، وأكد، أنه ولد في عام ١٨٩٥.

وقد شغلتنا حكاية تاريخ مولده، لأنها غدت مع اضطراب المصادر ـ وسبب الاضطراب أساساً شغف الناس بتقديم الفتوى السريعة الجازمة بغير علم. . وأنت تعرف طبعا أن مأواهم الآن جهنم الحمراء ـ أقول غدت الحكاية لغزاً مسلياً. مختار قرية المحيدثة أكد أن المولد كان في عام ١٨٨٩، ولكن السجلات المدنية في بكفيَّا قالت: ١٨٩٢، وأشار الباحث جرجي إبراهيم نصر في مقال عام ١٩٦٦ إلى أن هذه السجلات تقريبية ولا تعويل عليها. فأما الكنيسة في المحيدثة نفسها فلا سجلات لديها تخص تلك الحقبة.

نعود إلى شهادتين لهما من القيمة فوق ما لكل المستندات المكتوبة: ميخائيل نعيمة قال للباحث جحا إنه وإيليا ولدا في السنة نفسها ١٨٨٩. وميخائيل رفيق إيليا في نيويورك، وزميله في الرابطة القلمية، فهو يعرفه عن قرب، ومنذ سن الشباب. وأنا وأنت نقيس أصدقاءنا في سن الشباب بأنفسنا، فالذي يكبرنا بسنة نعرف أنه يكبرنا بسنة، والذي يصغرنا بسنة نعرف أنه يصغرنا بسنة. فهذه السنة تصنع فرقاً في الوعي في السن الباكرة. وثمة شهادة أقوى.

تلك شهادة مراد أبو ماضي أخي إيليا الذي يكبره بسنتين. فقد نُشر في ديوان تبر وتراب، الذي أصدرته دار العلم للملايين بعد وفاة الشاعر، أن ميلاده

كان عام ١٨٩٠، فصحح مراد هذا الخطأ، في رسالة بعثها إلى سيدة من العائلة أرفق بها نسخة من الديوان، وجعله ١٨٨٩. ومن ذا يجهل عمر شقيقه المقارب له في السن؟ ثم إن مراداً صحب إيليا في دروس تلقياها على شاعر القرية، وصحبه في الإسكندرية وفي نيويورك، وكان لمراد من الشعر نصيب، فهو حتى في هذه قريب من أخيه المشهور. ولو كان في نفس مراد أبو ماضي أخي الشاعر قليل من الشك فيما بين ١٨٩٠، و١٨٨٩.. لما بادر إلى التصحيح، فالفارق سنة واحدة، وتصحيحه يدل على أنه يعرف بثقة تاريخ ميلاد أخيه.

وننصح الباحثين الكرام أن يمضوا في استقاء الفتاوى بشأن ميلاد إيليا أبو ماضي كي تستمر هذه التسلية.

إيليا أبو ماضي شاعر المحبة والابتسام. وكنت أريد أن أبدأ الحديث عنه بفقرة عن التسامح، ولكنني الليلة منشغل بشيء آخر. ومن بعض مَغارِم من يقرأني أنه يجد نفسه كالجالس بجانبي، ويرى نفسه مضطراً إلى أن ينشغل بما يشغلني. لكنَّ لقارئي غُنماً أرجو ألا ينساه، وهو فرحته إذ يقع على خطأ مطبعي أو لغوي. بعض معارفي يهاتفونني ليقولوا بصوت ملؤه الحبور إنهم عثروا على الغلطة الفلانية في الصفحة الفلانية في السطر الفلاني. أحدهم يجلس القرفصاء في المكالمة الهاتفية ويأخذ بمناقشتي في كلمة، ويحتر ويتصبب عرقه إذ يسمعني أقول له بين الدفقة والدفقة من كلامه: لا أدري، وربما، ولعلك على صواب، وسنصلحها في الطبعة المقبلة إن كانت ستكون طبعة مقبلة.

ولهؤلاء، أفرحَ اللهُ قلوبهم، وملأ بالبهجة صدورهم، أقول: إنني أبحث بقدر ما لدي من وقت، وأكتب بقدر ما عندي من علم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

نعم، فتحت باب الحديث عن إيليا أبو ماضي وفي نفسي أن أتكلم عن المحبة والابتسام، لكنَّ ما يشغلني إنما هو التربيع.

أنا وأنت نعرف لماذا مساحة المربع مربَّعُ ضلعه. ونعرف أن نرسم داخل المربع مربعات صغاراً تثبت النظرية. ولكنني، أنا، لا أعرف لماذا يُربِّعون السرعة في الطاقة الحركية. ولعلك درست أن الشخص الذي يجري بسرعة أربعة أمتار في الثانية، ووزنه مئة كيلو، يعطي إذا اصطدم فجأة بجدار طاقةً مقدارها نصف وزنه مضروباً في مربع سرعته، فهذه ٥٠ كيلو لنصف وزنه + ١٦ لمربع سرعته = ٨٠٠ جول.

فلماذا يربعون السرعة؟ ولماذا يربعها آينشتاين في معادلته المشهورة؟ ولماذا لا ينصِّف آينشتاين الكتلة في معادلته مثلما هي منصَّفة في قانون الطاقة الحركية؟

يقول لك المعلم: احفظ القانون وطبقه، ولا تسأل لماذا؟

ومن نكد طالعي أنني أسأل بين الحين والحين بلماذا. لكنني عدلت منذ زمن عن الإغراق في التمحيص، لأنني اكتشفت أن عقلي لا يحب التجريد ولا يستطيعه إلا قليلاً. فأنا قانع من العلم بقراءات في كتب «العلم لِلجمهور». وقد رأيت، في بعض من عرفت، قدرة طيبة على التجريد، وعناداً في تحصيل الفهم العميق، وإلحاحاً على السؤال بلماذا. وشهدت إحباطاتهم لِما وجدوه من عدم ترحيب السوق المحلية بمواهبهم. فمنهم من هاجر، ومنهم من ارتضى حفظ القوانين العلمية والاكتفاء بتطبيقها، وتحفيظها لطلابه، ومطالبتهم بالاكتفاء بتطبيقها.

العقول العبقرية تكتشف قوانين الكون: ابن سينا والفارابي وغاليليو ونيوتن وآينشتاين؛ والعقول القوية تفهم القوانين؛ والعقول الراضِية تكتفي بالتطبيق. هناك من يبتدع نظاماً حاسوبياً متكاملاً (نظام تمييز الوجوه مثلاً)، وهناك من يبرمج، وهناك ـ في الدرجة الدنيا ـ محدثكم الذي ينقر على حاسوبه الهمزات والحركات، فإذا أخطأ ملأ قلوب بعض الناس حبوراً وهم قاعدون يتسقطون. أفرح الله قلوبهم.

لم يكن إيليا أبو ماضي عروبياً. فإن كنتَ متحمساً للعروبة فننصحك بالتروي بدل أن تطلق في وجهه فَحَّةً شمسيةً من الكراهية. ولم يكن شديد المجاملة للمسلمين، ككثير من الشعراء المسيحيين، فإن كنت مسلماً تطرب لما يبديه بعض المسيحيين من هذا النوع من المجاملة، فحنانيك، لا تحكم على الناس بخصلة واحدة؛ ولجهامة الصراحة أحب إلى قلب المؤمن من بشاشة المجاملة. ولم يكن إيليا أبو ماضي موقناً بالنشور. ولم يكن واضحاً في معاداته للاستعمار الغربي لبلادنا، ولم يكن متسامحاً مع أعدائه. لا بل كان له أعداء وخاض الخصومات. ولم يكن رومنسياً طول الوقت، كما قد تكون أوحت لك القصائد التي اختارها مؤلفو كتب المدارس.

كان إيليا أبو ماضي يحسن استعمال المفردة القديمة والأسلوب القديم عندما يريد، وكان فصيحاً في معظم الأحيان، غير أنه أسرف في التساهل في

النحو والصرف، كأنما كان يطرقه المعنى الفاتن فيذبح له مفردة؛ أو يستخفه ما يجد من تدفق قلمة على الورق فلا يريد أن يقف وقفة الباحث عن طريقة يؤدي بها المعنى ويرضي سيبويه في الوقت نفسه، فيستعجل، عارفاً أن ربة الشعر لا تمكث طويلاً على سن قلم يقضم الشاعر عقبه بين أسنانه.

لا حجة لمن يكثر التجوز وارتكاب أخطاء في النحو والصرف. هو يقول: أنا أعرف الوجه الصحيح، ولكنني مجترئ على اللغة؛ ونقول له: ونحن نعرف أنك كنت تعرف وجه الصواب، فوجه الصواب يعرفه التلامذة، ونعرف أنك اجترأت على اللغة. اجترِئ اجتراء من يبدع من جوف اللغة قالباً يحتضن معنى جديداً، لا اجتراء عاجز. وكان عند إيليا الاجتراءان.

فإن كنت تظن شاعرنا ذلك المتسامح الكبير في غير النحو والصرف، فإنني أقول لك: بل أنت المطالَب بأن تكون متسامحاً كبيراً وأنت تقرأه، حتى تستمتع بشعره. والذي انتقيته لك من شعره باقة كبيرة فيها شيء من كل شيء. وسترى الشاعر فيها من جوانبه المختلفة. على أنها، بعد، باقة مختارة. فيها تلك القصص المدرسية الحلوة: قصة التينة التي رفضت أن تحمل ثماراً، وقصة الملك والشاعر، وقصة إيليا عندما فكر بهدايا العيد. ولم نكثر من التسويد في هذه القصص لأن قصيدة القصة تكون متماسكة. غير أننا، في الحين بعد الحين، كنا نجد البيت البديع فنسوده حتى نلفت نظرك إليه.

ولد إيليا أبو ماضي في قرية المحيدثة بلبنان في عام ١٨٨٩، فهو قد وعى العهد العثماني. وأمسك بذيل النهضة الكبيرة للغة العربية التي قادها الجيل الذي سبق جيله في لبنان. تعلم الحرف، وكان مقبلاً على التعلم منذ سن الخامسة. ثم التحق بمدرسة تابعة للكنيسة في قرية مجاورة.

لعل ما قد ذكره بعضهم من استراق إيليا أبو ماضي السمع وهو طفل إلى ما يلقى من دروس في مدرسة البستان، التي أسسها شاعر المحيدثة الشيخ إبراهيم ميخائيل المنذر، مجرد تلفيق أكاديمي من تلك التلفيقات الكثيرة. فقد رأى بعضهم أن في المحيدثة مدرسة فجعل شاعرنا يتلصص على دروسها وهو طفل. والواقع أن المدرسة تأسست وإيليا في أميركا، وقد جاوز العشرين.

لكن شاعرنا عرف شعر إبراهيم المنذر، وجلس إليه طفلاً، مع أخيه مراد وأطفال القرية، يستمعون إلى بعض الدروس. هذا مطلع قصيدة للمنذر:

مــن أنـــا والـــلَّـــه أدري، ولا أحـد فـي الـكـون يـدري مـن أنـا

وتسمع فيها أخت الـ«لست أدري» المشهورة في طلاسم إيليا، وتتكرر فيها عبارة «من أنا» لتختم فقرات متتابعة منوعة القوافي، وهي على بحر الرمل أيضاً. وهذا يعيد إلى الذهن اقتباس إيليا فكرة قصيدته: (نسي الطين ساعة أنه طين حقير) من قصيدة شعبية، كما سيرد عليك في شرحنا لهذه القصيدة.

وثمة قصيدة أخرى للشيخ إبراهيم المنذر ظلت مشهورة حتى يومنا هذا لا يكاد يفلت من بين براثنها طفل، وفيها من الأسلوب القصصي وصوغ العبارة ما يشبه شعر إيليا، ولا نظن إيليا أفلت منها. ها هي قصيدة المنذر المشهورة، فلا نريد أن يخلو كتابنا منها:

أَغـرى امـرُؤٌ يـومـاً غـلامـاً جـاهـلاً بِـنـقـودِه حـتـى يـنـالَ بـهِ الـوَطَـرْ
قـال ائْـتِـنـي بـفـؤادِ أُمِّـكَ يـا فـتـى ولَـكَ الـدراهـمُ والـجـواهـرُ والـدُّرَرْ
فمضَى وأَغمَدَ خِنجراً في صدرِها والـقـلـبُ أخـرجَـهُ وعـادَ عـلـى الأَثَـرْ
لـكـنَّـهُ مِـن فَـرْطِ سـرعـتِـه هـوى فـتـدحْـرَجَ الـقـلـبُ الـمُـضَـرَّجُ إذْ عَـثَـرْ
نـاداهُ قـلـبُ الأمِّ وَهْـوَ مُـعَـفَّـرٌ: ولدِي حبيبِي، هل أصابَكَ مِن ضَرَرْ؟

الولد يعرف شاعر قريته الذي يكبره بخمس عشرة سنة، ويسمع شعره. والمحيدثة قرية من أصغر القرى، كانت وما زالت (كان عدد سكانها عند مولد إيليا ١٥٠ نسمة). وكل ولد في كل قرية يعرف شاعر قريته؛ فما بالك بولد يقول أبياتاً من الزجل، وما بالك بشاعر القرية يكون في مستوى المنذر؟

كان أولاد ضاهر إيليا طانيوس أبو ماضي ستة. وكان حائكاً فقيراً، وأخذ يحث أبناءه على السفر لكسب الرزق. وأبناؤه خمسة ذكور وبنت هي جنى، وكانوا يدلعونها «أوجيني» بمضاعفة عدد الحروف. أليس الفرنسيون قد بدأوا يفرضون ثقافتهم على لبنان؟ والإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث اشتهرت في الشرق بحضورها حفل تدشين قناة السويس وبدورها الطاغي في القصر قبل الإذلال الكبير في الحرب مع بروسيا.

ما كاد إيليا يتجاوز العاشرة حتى بعثه أبوه إلى مصر ليقف في دكان السجائر الذي يملكه خاله قبلان إسكندر في الإسكندرية. وأخوه مراد هاجر قبله إلى الإسكندرية. وكان من نعمة الله على إيليا أبو ماضي أنه لم يتعلم في

المدارس بعد سن العاشرة. تعلم على نفسه، وقرأ دواوين القدماء وأشعار المعاصرين، وقرأ عن الدنيا في مجلة كانت أهم من كل جامعات العالم العربي على مدى عقود كثيرة. تلك هي المقتطف.

ولأنني، أنا، تعلمت على مجلة، فسوف أقف هنا وقفة، راجياً من القارئ أن يتذكر أننا وصلنا في قصتنا إلى أن الطفل إيليا أبو ماضي كان في نحو العاشرة وهو يقف في دكان السجائر بالإسكندرية.

مجلتي التي علمتني كانت «العربي» الكويتية. كانت مجلة علم وأدب، فرئيس تحريرها ومؤسسها أحمد زكي عالم كيمياء، وهو أديب ذو قلم بليغ. علمتني «العربي» أن أحب العلم. والآن أتذكر تلك المقالات المتلاحقة التي كان يكتبها رئيس التحرير عن «العقل الإلكتروني».. هكذا سمَّى الكمبيوتر بالعربية قبل أن يرى الناس أي كمبيوتر بسنين كثيرة، وقبل أن يخترعوا له كلمة الحاسوب. كان أحمد زكي في الستينات يكتب لنا عن التطور في تقنية الكمبيوتر خطوة خطوة، وهو، بعد، خريج بريطانيا أمِّ الكمبيوتر. ومن مجلة العربي تعلمت الحرف نفسه. فقد أخفقَت المدرسة في تعليمي حتى الألفباء، وتعلمتها من تلك الأسطر التي تحت الصور في مجلة العربي. وبعض كراهيتي للمدارس والجامعات أنها لم تعلمني بل حبستني عن التعلم قدر استطاعتها.

كانت مجلة المقتطف بستاناً للعلم والأدب، فصاحبها يعقوب صَرُّوف عالم وأديب وصحفي.

أعطيك مثالاً.

كنت في مصر ذات سنة، ووجدتني ذات صباح في ميدان طلعت حرب، وقد أنهيت جولتي على المكتبات، وشربت قهوتي في «جروبي». أوقفت سيارة كي تقلني إلى بيتي، وكان لي في تلك السنة بمصر بيت. ركبت، وانطلقت السيارة بي. قلت في نفسي: أَوَبلغ بك كره السياحة يا رجل ألا تجد في مصر سوى المكتبات؟ ثم وجدتني أقول للسائق: أتعرف الفيوم؟ سؤال غير لائق لسائق في الثمانين من عمره. قال لي: طبعاً، فقلت له: هيَّا.

ولرحلة كهذه أن تستغرق ساعةً ذهاباً، وساعةً إياباً، وساعة أتناول فيها مع صاحبي الشيخ غداء على بحيرة قارون. فلماذا، إذن، عدت إلى بيتي في الساعة الثالثة من فجر اليوم التالي؟

ما كدنا نهم بالخروج من القاهرة حتى بدأت السيارة تصدر أصواتاً. ووقف السائق بجانب بيت، وطلب ماء. وسقى المحرك. وبعد كيلومتر أو أقل وقف ثانيةً. هل سأقول وقف ثالثةً ورابعةً؟ وماذا سأفعل حين أتعدى العشرة؟ هل سأقول وقف حادية عشر وثانية عشر؟ قد، والله وقف عشرات المرات.

على أطراف الفيوم، وفي شارع تكتنفه أشجار المانجا، وقفنا أمام مشغل ميكانيك خرج منه رجل ضخم الجثة. طلب منه سائقي الشيخ أن يلقي نظرة. فقال الرجل: هذا لا ينفع، أبداً أبداً، المحرك سيقفش منك. لكن سائقي هز رأسه واكتفى بطلب دلو ماء، وسقى المحرك. وفي كل مرة كان يسقي فيها المحرك كان يصدر عنه صوت غليان وتتصاعد الأبخرة.

ووصلنا بحيرة قارون في شبه معجزة. أقول شبه معجزة لأن المعجزة الحقيقية ستكون في طريق العودة.

تغدينا على شاطئ البحيرة، وسألت أسئلة كثيرة عن هذه البحيرة العجيبة. ولم أحظ بجواب.

قلت لشيخي: هيا بنا. فعرض عليَّ أن يلتمس لي سيارة تعيدني إلى القاهرة، فلا أعاني مشقة الركوب معه في سيارته العجيبة. لكن هيهات! قد انعقدت بيننا الصحبة، وكان لا بد من أن أعود معه.

اختار الطريق الصحراوي. كانت السيارة قد استراحت سويعة في الفيوم، فمضت بنا. وبعد بضعة كيلومترات بدأنا نسقي المحرك من ماء كثير حملناه من الفيوم في أوعية بلاستيك. في هذه المرحلة كنت قد أصبحت خبيراً في السقي. أصبُّ الماء في فوهة خزان التبريد فأراه يغلي، ويتدفق منه رشاش يكاد يلسع وجهي، ويتصاعد البخار فأميل بوجهي يمنة أو يسرة.. ثم أسقي.

بدأت الشمس تسقط ونحن في وسط الصحراء، وسقط معها محرك السيارة. وقفنا بجانب سيارتنا، تمر بنا الشاحنات، ولا يقف لنا أحد. واعتراني ما يعتري تائه الصحراء من مخاوف. ولكنني تقويت بصاحبي الشيخ الذي كان هادئ الأعصاب، واثقاً بمحرك سيارته ثقة لم أجد لها مسوغاً، فهي سيارة عتيقة من طراز رخيص، ونظام التبريد فيها قافش، والمحرك على وشك القفوش.

ظلت حارنة. وظلت ثقة صاحبي بسيارته غالية. القلق يأكل قلبي، ولا

يصده بعض صد سوى ثقة شيخي بسيارته. ثم تحركت السيارة. تحركت ببركة الله وبثقة صاحبي فيها. كانت الشمس قد غربت، فلاحت لنا من وراء الأفق أضواء القاهرة. وكان ماؤنا قد نفد، وبالدعوات الصالحات وصلنا إلى مكان يبعد مئة متر أو مئتين عن محطة وقود، ثم حرنت السيارة. فنزل شيخي ومعه وعاءان فارغان يستقي من المحطة. وبقيت في السيارة أحرسها، حرسها الله.. وكأنَّ الجنون بلغ بلصوص السيارات أن يسرقوا هذه العروس!

كان في بطارية هاتفي شَرطة واحدة، وأنهاها اتصال جاءني من زميلة تقوم بتصوير فلم وثائقي، قالت إن الأمن اعتقلها لعدم وجود إذن تصوير بحوزتها. فقلت لها إنني.. ولم تكتمل المكالمة. وعاد شيخي بالماء، وسقينا المحرك.

هذا ونحن قد تجاوزنا العشاء بقليل. فلماذا لم أصل إلى بيتي إلا في الثالثة فجراً؟ لن أطيل عليك.

عندما دخلنا مشارف القاهرة، وصار هناك بيوت، زيد في مهامي، بالإضافة إلى المساعدة في سقي المحرك، الزقَّ. قضيت وقتاً لا يعلمه إلا الله وأنا وراء السيارة أدفعها بالكفين دفعاً. ثم قد يراني بعض الشبان فيهرعون إلى المساعدة، ويشتغل المحرك، وأركب، وبعد أمتار أنزل وأزقّ، ونستقي من البيوت، ونسقي المحرك.. لم نتوقف عن السقي، ولا توقفت أنا عن الزق. وعلى مقربة من الأهرام، استقينا من كشك يبيع الشاي، وكلف الرجل نفسه فأعطانا ما عنده من ماء غسل الأكواب، وتكلف أن ذهب بعيداً لتزويدنا بماء أكثر. وجلست مع شيخي إلى مصطبة، وشربنا الشاي.

ومضينا.. يسوق وأزق. وهنا المعجزة: وصلت السيارة بعد بضع ساعات إلى ساحة تبعد عن بيتي أقل من خمسين متراً. وحرنت. ورغم أنني وصلت مأمني، فقد آليت لا أترك صاحبي إلا أن تتحرك سيارته. لكنها حرنت بطريقة جديدة، لقد أبى المحرك أن يعمل، وأبى حتى أن يصدر صوتاً. وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ليلاً. وجاء شباب لديهم في السيارات خبرة. وفحصوا. هذه المرة كان المحرك قد قفش فعلاً. ولا فائدة. على بعد خمسين متراً من بيتي قرر المحرك أن يقفش. ليس في وسط الصحراء، ولا على مشارف القاهرة، بل على باب بيتي.

لم يعمل المحرك لا بماء ولا بغير ماء. فكان لا بد من ونش. وعز الأمر على شيخي، حتى مع استعدادي لدفع أجرة الونش. ثقته بسيارته منعته من قبول

العرض. وقعدنا وشربنا كوب شاي آخر، من كشك قريب. لعلك تعلم أن الناس في القاهرة لا ينامون!

لكنه لم يكن من الونش بد. وأرضيت الشيخ شاكر بما يقوم بكسبه طول نهاره، ودفعت للونش، وذهبت إلى فراشي.

عندما عاد الشيخ بعد يومين ليوصلني إلى المطار كانت معه سيارة ابنه: شيء عمره نحو أربعين سنة، وله على الجوانب أجنحه مدببة. طمأنني الشيخ إلى أن سيارته العتيدة، سيارة الفيوم تلك، بخير، وستقوم من علتها قريباً. وبدعوات الوالدين أوصلتني السيارة ذات الأجنحة المدببة إلى المطار في الموعد.

والشاهد في هذه القصة: بحيرة قارون. فإنني عندما عدت إلى مستقري أخذت أبحث عن أمر هذه البحيرة، فلم أجد في الإنترنت ما يشفي الغليل. ثم إنني وقعت على عدد من مجلة المقتطف صادر عام ١٩٠٦. نعم، قبل أكثر من مئة سنة نشرت المقتطف صفحتين دسمتين عن البحيرة ومصادر مياهها وعن أملاحها، وحتى عما يسكب فيها من مياه الصرف.

عود إلى إيليا أبو ماضي

وهو يعمل في دكان بيع السجائر بالإسكندرية قرأ إيليا أبو ماضي كثيراً، قرأ شعر شوقي وحافظ الذي كان يملأ الجرائد. فمن زعم أن إيليا أبو ماضي كان قليل حظ من الثقافة فهو أكاديمي يقيس الناس بمسطرة جامعته التي أخذ منها شهادته؛ رأى شاعرنا لا يحمل إعدادية ولا ثانوية فحكم عليه. ولكن إيليا أبو ماضي عاش بين العاشرة والعشرين في بلد تنيره مجلة المقتطف، ويعيش فيه شوقي وحافظ.

ونشر إيليا أبو ماضي شعراً في مجلة الزهور بالإسكندرية، وطبع بواكيره في ديوان. وظل يبيع السجائر ويدخن بعضها حتى قطع العشرين بسنتين أو ثلاث، ثم هاجر إلى أميركا. أقام في سنسناتي بأوهايو نحو أربع سنين يكسب الرزق بالتجارة، ثم توجه إلى نيويورك، وفيها التقى بجبران وميخائيل نعيمة. وفيها فتح جريدة سماها السمير، وظل يحررها ربع قرن حتى مات.

عندما كان في نحو الستين من عمره زار الشام ولبنان وكرموه تكريماً، ثم عاد إلى الولايات المتحدة. مات إيليا أبو ماضي عام ١٩٥٧، وقد قارب

السبعين. يقول لك بعض الأفاقين من كتاب المقالات إن شاعرنا كان يتمنى العودة إلى لبنان ليموت فيها، لو كان هذا هكذا ما كان شاعرنا سمى أولاده ريتشارد وإدوارد وروبرت، وزوجته عربية تتحدث العربية. وقد نشأ أولاده لا يتكلمون العربية. لا نقول هذا في معرض انتقاد، بل في معرض وصف، ولكل إنسان أن يختار لأولاده ما يراه مناسباً في مسألة التربية والتعليم قبل بلوغهم، فهذا، لو فاتك، حق من حقوق الإنسان المنصوص عليها في شرعة حقوق الإنسان الأممية. وأنا بعد محب لشخصية إيليا أبو ماضي: كان دمث الخلق، فإن هجا فهو لا يسمي المهجو باسمه، وكان رقيقاً، وحسن المعشر، وكان صريحاً لا يداجي في آرائه الفكرية والسياسية.

لم أطل البحث في تفاصيل حياته في مهجره الأميركي، فلست أملك أدوات البحث، ولكن باحثاً جاداً يقضي بعض الوقت في مراجعة أعداد مجلة السمير، وفيها مقالات كثيرة لإيليا يحكي فيها عن نفسه، ويمعن في التنقيب على طريقة المستشرقين سيخرج ببحث حقيقي، لا كتلك الأوراق التافهة التي تعج بالعبارات المزعجة الخالية من المعنى من قبيل «روحه الإنسانية العميقة» و«قلبه النابض بحب الوطن».

كما أنني لم أكن كثير الاهتمام بحياة شاعرنا بعد أن تجاوز الطفولة.. انكببت فقط على سنوات طفولته، وسعدت أيما سعادة عندما عثرت، بعد يومين مضنيين من البحث، على شاعر المحيدثة إبراهيم المنذر. فالمؤثر الأكبر في حياة الشاعر، وحياة كل إنسان، هو ما مر به في طفولته الباكرة. في الطفولة تمتد يد القدر إلى الإنسان وتدفعه في اتجاه.. ويظل يسير فيه. فإن كنت وزير معارف وأعطوك ميزانية ألف درهم للتعليم فاجعل منها، رعاك الله، سبعمئة للتعليم الابتدائي، واسرق الباقي. فإن كنت لا تسرق فلا أدري كيف صرت وزيراً!

١ ويغيب عنك فتشتهيه

إنَّ الـكَـرِيـمَ لَـكَـالـرَّبِـيــ ـعِ، تُـحِبُّـهُ لِـلْـحُـسْـنِ فِـيـهْ
وتَــهَــشُّ عــنــدَ لِـقَــائِـهِ، ويـغـيـبُ عـنـكَ فَـتَـشْـتَـهِـيـهْ
لا يَــرتَــضــي أبَــداً لِــصَــا حِـبِـهِ الــذي لا يَــرْتَــضِـيـهْ

أي الذي لا يرتضيه.. لنفسه

وإذا الـلـيـالـيِ سَـاغَـفَـتْـ ـهُ لا يَـضِـلُّ، ولا يَـتِـيـهْ

إذا اغتنى لا يصبح ضالاً ولا تياهاً متكبراً

وتَـرَاهُ يَـبْـسِـمُ هَـازِئـاً في غَـمْـرَةِ الـخَـطْـبِ الـكَـرِيـهْ
وإذا تَـحَـرَّقَ حـاسِـدُو هُ بَـكَـى، وَرَقَّ لِـحَـاسِـدِيـهْ
كـالـوَرْدِ يَـنْـفَـحُ بِـالـشَّـذَى حـتـى أُنُـوفَ الـسَّـارِقِـيـهْ

٢ مصر وسيام والدستور

كـأنِّـي قـارئٌ، والـلـيـلُ سِـفْـرٌ لـهُ بَـدْءٌ، ولـيـس لـهُ خـتـامُ

يقول: إن الليل طويل

كـذاكَ الـهَـمُّ: أَعْـسَـرَ مـا تَـرَاهُ إذا سَكَـتَ الـدُّجَى، وغَـفَـا الأنـامُ
ولـولا أنَّ فـي مـصـرٍ مُـقَـامـي لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ! مـا طـالَ الـمـقَـامُ
مَـضَـى عـامٌ عـلـيَّ بِـأَرضِ مِـصْـرٍ، وذا عـامٌ، وسـوفَ يـجـيءُ عـامُ
ومـا مـصـرُ الـتـي مَـلَـكَـتْ فـؤادي ولـكـنْ، أهـلُـهـا قـومٌ كـرامُ
وِدَادُهُـمُ عـلـى الأيـامِ بـاقٍ وجـارُهُـمُ عـزيـزٌ لا يُـضـامُ
إلامَـا تَـمْـنَـعُ الـدسـتـورَ مِـصْـرٌ وقـد كـادتْ تـفـوزُ بِـهِ سِـيَـامُ؟

سيام: تايلاند

بَـنِـي مِـصْـرٍ! عـلى الأحداثِ صَـبراً فَـقَـبْـلَ الـصَّـحْـوِ، يَـجْـتَـمِـعُ الـغَـمَـامُ

الصحو: انقشاع الغيم وانقطاع المطر

ولا يَـلْـحَـقْ بِـكُـمْ ضَـجَـرٌ، فـإنـي رأيـتُ الـظـلـمَ لـيـس لـهُ دَوَامُ
فـإنَّ الـلـيـلَ يُـعْـقِـبُـهُ صـبـاحٌ وإن الـحـربَ آخـرُهـا سـلامُ

٣ محتكر المصائب

فـلا تـحـسَـبَـانـيِ أَذْرِفُ الـدمـعَ عـادَةً ولا تـحـسَـبَـانـيِ أُنْـشِـدُ الـشِّـعْـرَ لاهِـيـا

عادةً: أي من قبيل العادة

ولـكـنَّـهـا نـفـسـيِ إذا جَـاشَ جَـأْشُـهـا وفـاضَ عـلـيـهـا الـهـمُّ فَـاضَـتْ قَـوافِـيـا
رُمِـيـتُ مِـنَ الـدنـيـا بِـمَـا لـو قَـلِـيـلُـهُ رَمَـيْـتَ بـهِ الأيـامَ صـارَتْ لَـيـالِـيَـا

فلا تشتَكُوا يا صَحْبُ بؤساً، فَإِنَّني ضَمِنْتُ الرَّزَايَا، واحتَكَرْتُ العَوادِيا

العوادي: المصائب

تَبَدَّلَتِ الدنيا مِنَ السِّلْمِ بِالوَغَى وصارَ بَنُوها العاقِلُونَ ضَوارِيا

فَمَا تُنْبِتُ الغَبْراءُ غيرَ مَصَائِبٍ ومَا تُمْطِرُ الأَفلاكُ إِلَّا دَوَاهِيَا

الغبراء: الأرض، الأفلاك: يقصد السماء

٤ اتركني بحالي

رأيتُ الليالي ما تزالَ تَرُوعُني بِأَحداثِها، ما لِلَّيَالي ومَا لِيَا؟

إذا لم تَكُنْ لي آسِياً أو مُؤَاسِياً فلا تَكُ لَوَّاماً، وَذَرْني ومَا بِيَا

آسياً: مداوياً

ألا حَبَّذَا مِنْ سالِفِ العيشِ مَا مَضَى ويا حَبَّذَا لو كانَ يَرْجِعُ ثَانِيا

زمانٌ كَقَلْبِ الطفلِ صَافٍ، وكالمنى لَذِيذٌ، ولكنْ كانَ كالحُلْمِ فَانِيا

٥ دعص ترجرج

بيضٌ تَرَائبُها، سُودٌ ذَوَائِبُها زُجٌّ حواجِبُها، كُحلٌ مَآقِيها

الترائب: ما بين الصدر والعنق، الذوائب: خصلات الشعر، حواجب زُجٌّ: دقيقة، كُحْل: مكحولة

نُهودُها مِنْ ثَنَايا الثوبِ بارِزَةٌ كأنَّها تَشْتَكي مِمَّا يُوارِيها

والثوبُ قد ضاقَ عَنْ إِخْفَائِها، فَنَبَا عنْها، فَيَا لَيْتَني بُرْدٌ لِأَحْمِيها

برد: ثوب

وتَحْتَ ذلكَ خَصْرٌ يَسْتَقِلُّ بِهِ دِعْصٌ تَرَجْرَجَ، حتى كادَ يُلْقِيها

دعص: كثيب رمل؛ كذا كانوا يصفون مؤخرة المرأة.. لكن قبل ألف سنة يا إيليا

٦ ليتها دامت

يا أَشْهُراً مَرَّتْ سِرَاعاً كالمُنَى لو أَستطيعُ جعلْتُكُنَّ سِنِينَا

وأَمَرْتُ أنْ يَقِفَ الزمانُ عنِ السُّرى كِيْلا نَمُرَّ بِساعةٍ تُبْكينا

٧ إيليا الحزين على ترك الدين

قالوا: تَرَقَّى سَليلُ الطينِ، قلتُ لَهُمْ: الآنَ تَـمَّ شـقـاءُ الـعـالـمِ الآنَـا

سليل الطين: من سلالة أصلها طين، أي الإنسان

إنَّ الحديدَ إذا ما لانَ صارَ مُدَىً فَكُنْ على حَذَرٍ مِنْهُ إذا لانَا

مدى: سكاكين

والمرءُ وَحْشٌ، ولكنْ حُسْنُ صورَتِهِ أَنْسَى بَلايَاه مَنْ سَمَّاهُ إنسانا

قد حاربَ الدينَ خوفاً مِنْ زَواجِرِهِ كأنَّ بينَ الوَرى والدينِ عُدْوانَا

زواجره: نواهيه

إنـي لَيَأْخُذُني مِنْ أَمْرِهِ عَجَبٌ أَكُلَّما زادَ عِلْماً، زادَ كُفْرَانا؟

إذا ارتدَى المرْءُ ما في الأرضِ مِنْ بُرُدٍ وعافَ لِلدِّينِ بُرْداً عادَ عُرْيَانا

بُرُد: أثواب

٨ لم تخلق لغير المحبة

رثى بها مصطفى كامل المتوفى عام ١٩٠٨:

تُنَادِيكَ مِصْرُ الآنَ يا خيرَ رَاحِلٍ ويا خيرَ مَنْ يُرْجَى لِدَفْعِ المُلِمَّةِ

رفعتَ لِوَاءَ الحقِّ فوقَ رُبُوعِهَا فَضَمَّ إليهِ كلَّ ذي وَطَنِيَّةِ

لَئِنْ تَكُ أَتْرَعْتَ القُلوبَ مَحَبَّةً فَإنكَ لم تُخْلَقْ لِغَيْرِ المحبَّةِ

أترعت: ملأت

فنَمْ آمِناً، وَفَّيْتَ قومَكَ قِسْطَهُمْ فَيَا طَالما نَامُوا، وأنتَ بِيَقْظَةِ

سيُبْقِي لكَ التاريخُ ذِكْراً مُخَلَّداً فقد كنتَ خيرَ الناسِ في خيرِ أُمَّةِ

عليكَ مِنَ الرحمنِ ألفُ تَحِيَّةٍ ومِنْ أرضِ مِصْرٍ ألفُ ألفِ تَحِيَّةِ

٩ أهلاً بالدستور

إلى حيثُ ألقتْ، يا زَمانَ المَظَالمِ ولا عُدْتَ، يا عهدَ الشَّقَا المُتَقادِمِ

إلى حيث ألقت (إلى الجحيم) يا زمن الظلم والشقاء المتقادم (الموجود منذ زمن طويل). وتعبير «لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم» من معلقة زهير، وقد فسره لسان العرب خمسة تفسيرات، وكلها لا ينطبق هنا. على أن جيلاً بعد جيل من العرب استخدم التعبير بمعنى «إلى جهنم الحمراء» وشايعهم إيليا

صَحِبْناكَ، لا خَوْفاً، ثَلاثينَ حِجَّةً، ولكنَّها الدنيا، وضعفُ العَزَائمِ
فلا العلمُ مَرْمُوقٌ، ولا الحقُّ نافذٌ ولا حُرْمَةٌ تُرْعَى لِغَيرِ الدَّراهمِ
ويا أيها الدستورُ! أهلاً ومرحباً على الطَّائرِ المَيْمُونِ، يا خيرَ قادِمِ

أقر الدستور في إستانبول عام ١٩٠٨، فقيد يدي السلطان عبد الحميد. وكان إيليا بمصر، وكانت تابعة بعض التبعية للدولة العثمانية

أَهَبْتَ فَفَرَّ الظُّلْمُ بِالأرضِ هَارِباً ونَكَّسَ خِزْيَاً رأسَهُ كلُّ ظالمِ

أهبت: دَعَوْتَ صارخاً

وفاضَتْ على ثَغْرِ الحزينِ ابتسامةٌ تُخَبِّرُ أنَّ الحزنَ ليس بِدَائمِ

١٠ عبد الحميد نم

ضيفَ سَالُونِيكَ! مَا لكَ في سِجْنِها ضَيْفٌ سِوَى السَّأَمِ

ضيف سالونيك: السلطان المخلوع عبد الحميد الثاني؛ فقد عزل ١٩٠٩ بعد انقلابه على الدستور الذي كان أقره في السنة الماضية، ونفي إلى سالونيكي باليونان، وكانت تحت حكم العثمانيين

ذاكَ ضَيْفٌ غيرُ مُحْتَشِمِ إنْ تُحَاوِلْ طَرْدَهُ يُقِمِ
جُرْتَ يا عبدَ الحميدِ بِنا غيرَ أنَّ الجَوْرَ لم يَدُمِ
كنتَ كالأيامِ، ما قَصَدَتْ بالرَّزَايا غيرَ ذي شَمَمِ

كنت مثل الأيام (الزمن) لا توجه الرزايا (المصائب) إلا لصاحب الشمم (العزة)

كنتَ مَسْلُوبَ الكَرى حَذَراً ولَقَدْ أُعْطِيتَهُ، فَنَمِ

كان عبد الحميد موسوساً دائم الخوف من الاغتيال، ومسلوب الكري، أي النوم، فالآن أعطي ما شاء من نوم

وَدَعِ الدنيا، وبَهْجَتَها ما أَرَى الحسناءَ لِلْهَرِمِ

١١ الراطنون الجهلة

يا أيها الشرقُ التعيسُ! انظرْ إلى الـ ـقومِ الذينَ شَدَدْتَ أَزْرَكَ فيهِمُ
ورَجَوْتَ ما يَرْجُوهُ كلُّ أَبٍ لَدَى أَبنائِهِ، إنَّ العقوقَ مُذَمَّمُ
ولَطَالما شِدْتَ القصورَ مِنَ المنَى خابَ الرَّجاءُ وساءَ ما تَتَوَهَّمُ
أَلْهَتْهُمُ الدنيا فهذا بِالطِّلا صَبٌّ، وهذا بِالحِسَانِ مُتَيَّمُ

الطلا: الخمر، صب: محب

فَتَنَتْهُمُ لغةُ الأعاجمِ، إنما لغةُ الأعاجمِ مِنْهُمُ تَتَبَرَّمُ
أمسى الذي تُهْدَى إليهِ لآلِئٌ وكأنما هو بالحِجَارَةِ يُرْجَمُ
لا تَعْذِلِ الشعراءَ إنْ بَخِلُوا بِهِ إنَّ القريضَ على الغَبِيِّ مُحَرَّمُ
بِتْنَا، وبَاتَ الشرقُ يمشي القَهْقَرَى، مَعْ ذاكَ نَحْسَبُ أنَّنا نَتَقَدَّمُ

١٢ العاشقة

جَنَحَتْ ذُكَاءُ إلى الغُرُوبِ، كأنما تَبْغي رُقَاداً، أو تُرِيدُ مَقِيلا

ذكاء: الشمس، المقيل: نوم القيلولة ظهراً

وتناثرتْ قِطَعُ السحابِ كأنها الْـ ـجَيْشُ اللُّهامُ، إذا انْثَنَى مَفْلُولا

الجيش اللهام: الكبير الذي يلتهم كل شيء، مفلولاً: منهزماً

قد باتَ كلُّ مُسَهَّدٍ طَوْعَ الرُّقا دِ، وَكُلُّ جَفْنٍ بِالكَرَى مَكْحُولا
إلّا مُهَفْهَفَةً بِهَا نَزَلَ الهَوَى ضَيْفاً، ولَكِنْ لا يُرِيدُ رَحيلا

مهفهفة: امرأة رشيقة

ماءُ الحَيَاءِ يَجُولُ في وَجَنَاتِها فَكَأَنَّ في تِلْكَ الكُؤوسِ شَمُولا

شمول: خمر

والخَدُّ أَبْهَجُ ما يَكُونُ مُوَرَّداً والطَّرْفُ أَفْتَنُ مَا يَكُونُ كَحِيلا

الطرف: العين

نَظَرَتْ؛ ورُبَّ مَنِيَّةٍ مِنْ نَظْرَةٍ قد كانَ عنها رَبُّهَا مَشْغُولا

نظرت تلك الفتاة، ورُبَّ منية (ميتة) بالعشق كان رب النظرة (أي صاحبها) مشغولاً عما تحمله من عشق قاتل.

فإذا عشِقْتَ فلا تَلُمْ أحَداً سِوَى عَيْنَيْكَ، إنَّ مِنَ العيونِ قَتُولا
وإذا تَمَلَّكَتِ الصبابةُ في امْرِئٍ لم يُجْدِ عَذْلُ العاذِلِينَ فَتِيلا

١٣ السرور يُختلق

أمْسَتْ ثِيابي، وكلُّها خِرَقُ تُشْبِهُ رَوْضاً أَلْوانُهُ فِرَقُ

ألوانه فرق: ألوانه متفرقة متعددة

مِـنْ أَزْرَقٍ كـالـسـمـاءِ، جَـاوَرَهُ   أَحْـمَـرُ قَـانٍ كـأَنَّـهُ الـشَّـفَـقُ
كـأَنَّ قـوسَ الـسـحـابِ بـاتَ عَـلـى   جِـسْـمِـيَ رداءً، ومَـا أنـا الأُفُـقُ
قوس السحاب: قوس قزح

هـذا هُـوَ الـكـرْنَـفَـالُ، فـاسْـتَـبِـقُـوا   إلـيـهِ، فَـهْـوَ الـسُّـرورُ يُـخْـتَـلَـقُ
اخترت القصيدة لعبارة: «فهو السرور يختلق». خالجني مثل هذا الشعور في كرنفال في ألمانيا. انفجر الناس بالفرح انفجاراً.. راحوا يختلقونه اختلاقاً؛ وكانوا أمسِ جادِّين عابسين، وسيكونون في الغد كذلك. الفرح عندهم له مواسم، وله حساب دقيق

١٤ الناس مع الواقف

تـأمَّـلَ فـي أمـسِـهِ الـدَّابِـرِ   فـكـادَ يُـجَـنُّ مِـنَ الـحَـاضِـرِ
الدابر: المنصرم

أضـاعَ الـغِـنى، وأضـاعَ الـصِّـحابَ   وَرُبَّ مـريـضٍ بِـلا زائـرِ
ويـا طَـالـمـا أَحْـدَقُـوا بـالـفـتـى   كَـمَـا تُـحْـدِقُ الـجُـنْـدُ بِـالـظَّـافـرِ
أحْدقوا: أحاطوا

فَـلَـمَّـا انـقـضَـى مـجـدُهُ، أَعْـرَضُـوا   ومـا الـنـاسُ إلَّا مَـعَ الـقـادِرِ
أشـدُّ مِـنَ الـدهـرِ مَـكْـراً بَـنُـوهُ   فَـوَيْـلٌ لِـمَـنْ لـيـسَ بِـالـمـاكِـرِ
قَـضَـى لـيـلَـهُ سـاهِـيـاً سـاهِـراً   إلـى كـوكـبٍ مـثـلِـهِ سـاهـرِ
بَـكَـى، ثـم صـاحَ: أحـتَّـى الـنُّـجومُ   تَـصُـدُّ عَـنِ الـرَّجُـلِ الـعـاثِـرِ
العاثر: المتعثر الفاشل

وأغْـمَـدَ فـي صـدرِهِ مُـدْيَـةً   أشـدَّ مَـضَـاءً مِـنَ الـبـاتِـرِ
مدية: سكين، الباتر: السيف

١٥ الإرهاب الفكري

قالتْ: سَكَتَّ، ومَا سَكَتَّ سُدَى   أَعْـيَـا الـكـلامُ عـلـيـكَ، أم نَـفِـدَا؟
سألته: أَسَكتَّ عجزاً عن الكلام؟

مـا خَـانَـنـي فِـكـرِي، ولا قَـلَـمـي   لـكـنْ، رأيـتُ الـشِّـعـرَ قـد كَـسَـدَا
يجيبها

كـان الـشـبـابُ، وكـان لـي أَمَـلٌ   كـالـبـحـرِ عُـمـقـاً، كـالـزمـانِ مَـدَى
وصَـحَـابَـةٌ مـثـلُ الـريـاضِ شَـذَىً   وصَـوَاحِـبٌ كَـوُرودِهَـا عَـدَدَا
لـكـنـنـي لـمَّـا مَـدَدْتُ يَـدي   وأَدَرْتُ طَـرْفـي.. لـم أَجِـدْ أَحَـدا
وَقْـعُ الـخُـطُـوبِ عَـلَـيَّ أَخْـرَسَـنـي   وكـذا الـعـواصـفُ، تُـسْـكِـتُ الـغَـرِدَا

الغرد: المغرد

قـوْمـي، وقـد أَطْـرَبْـتُـهُـمْ زَمَـنـاً،   سـاقُـوا إلـيَّ الـحُـزْنَ والـكَـمَـدَا
هُـمْ هَـدَّدونـيَ حـيـنَ صِـحْـتُ بِـهِـمْ   صَـيْـحَـاتـيَ الـشَّـعْـواءَ مُـنْـتَـقِـدَا
وسـمـعـتُ صَـائـحَـهُـمْ يـقـولُ لَـهُـمْ:   هَـيَّـا اقـتُـلُـوهُ حـيـثُـمَـا وُجِـدَا
أَرْتَـاعُ إنْ أبـصـرْتُ واحِـدَهُـمْ   ذُعْـرَ الـشُّـوَيْـهَـةِ أبـصـرتْ أسـدَا
وإذا رقـدتُ، رقـدتُ مُـضـطـرِبَـاً   وإذا صـحـوتُ، صـحـوتُ مُـرتَـعِـدَا
لـكـنـنـي لـمَّـا مَـدَدْتُ يـدي   وأَدَرْتُ طَـرْفـي.. لـم أَجِـدْ أَحَـدَا

١٦ خير علاج

لـمـا سَـكَـتُّ حَـسِـبْـتَ أنَّـكَ نَـاجِ   هَـيْـهَـاتَ! إنـي كـالـمَـنُـونِ أُفَـاجـي

أفاجي: أفاجئ

تَـالـلـهِ تَـطْـمَـعُ بِـالـسَّـلامَـةِ بَـعْـدَمـا   ألـقـاكَ جـهـلُـكَ فـي يـدِ الأمـواجِ
إنِّـي أنـا الأسـدُ الـهَـصُـورُ بَـسَـالَـةً   وَيْـلٌ لِـقَـوْمٍ حـاوَلُـوا إحْـرَاجـي
حاولـتَ أنْ تَـهْـتَـاجَـنـي عـنْ مَـرْبِـضـي   لِـتَـنَـالَ ذِكْـراً، خِـبْـتَ يـا ذا الـرَّاجـي
عـارٌ إذا أَنْـشَـبْـتُ فـيـكَ مَـخَـالـبـي   إذْ لـيـسَ مِـنْ خُـلُـقـي افـتـراسُ نِـعَـاجِ
والـشِّـعْـرُ تـاجٌ لـوْ عَـلِـمْـتَ، ولـم تَـكُـنْ   مِـمَّـنْ يَـلِـيـقُ بِـحَـمْـلِ هـذا الـتَّـاجِ
خُـذْهَـا مُـثَـقَّـفَـةً، إذا وَقَـعَـتْ عَـلـى   جَـبَـلٍ لأُزْعِـجَ أيَّـمَـا إزْعَـاجِ

خذها مثقفة: خذها قصيدة مبريّة مقومة (مثل الرمح المثقف)

أنـا خـيـرُ مَـنْ قـالَ الـقَـوافـيَ مَـادِحَـاً   أنـا خـيـرُ مَـنْ قـالَ الـقـوافـيَ هَـاجـي
قـد كـنـتُ أَزهَـدُ فـي الـهِـجَـا لـوْ لـم يَـكُـنْ   لَـكَ، يـا مَـريـضَ الـعُـجْـبِ، خـيـرَ عِـلَاجِ

العجب: التكبر

١٧ أنا وصاحبي

إنِّـي إذا نَـزلَ الـبَـلاءُ بِـصـاحِـبِـي   دافعتُ عنهُ بِنَاجِذِي وبِمِخْلَبِي

الناجذ: الضرس

وشدَدْتُ ساعِدَهُ الضعيفَ بِساعِدِي   وسَتَرْتُ مَنْكِبَهُ العَرِيَّ بِمَنْكِبِي
وأرى مَـسـاوِئَـهُ كـأنِّـيَ لا أَرَى   وأَرَى مـحـاسِـنَـه، وإن لـم تُـكـتَـبِ

١٨ غصن وحطبة

نظمها بلسان فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن في السن:

لـيَ بَـعْـلٌ ظـنَّـهُ الـنـاسُ أبـي   صَـدِّقـونـي إنَّـهُ.. غَـيْـرُ أَبـي

أبي الأولى: أبي، أَبي الثانية: من الإباء والعزة

وأنـا مـا زلـتُ فـي شَـرْخِ الـصِّـبَـا   فـلـمـاذا فَـرَّطَ الأَهْـلـونَ بـي

شرخ الصبا: أول الشباب

لـيـتَ ما بـيـنـي وبـيـنَ الـنـومِ مِـنْ   فُـرْقَـةٍ بـيـنـي وبـيـنَ الأَشْـيَـبِ
يَـخْـضِـبُ الـشَّـعْـرَ، ولـكـنْ عَـبَـثـاً   لـيـسَ تَـخْـفَـى لُـغَـةُ الـمُـسْـتَـعْـرِبِ
قُـلْ لأهـلِ الأرضِ: لا تَـخْـشَـوُا   الـرَّدَى إنـه مُـشْـتَـغِـلٌ فـي طَـلَـبِـي
إنـمـا الـغُـصْـنُ إذا هَـبَّ الـهـوا   مـالَ لِـلأغْـصـانِ، لا لِـلـحَـطَـبِ

١٩ كذابات.. غدارات

إنـي بَـلَـوْتُ الـغـانـيـاتِ، فـلـم أجِـدْ   فِـيـهِـنَّ، قَـطُّ، مَـلـيـحـةً لا تَـكْـذِبُ

بلوت: اختبرت

وخَـبِـرْتُـهُـنَّ، فـمـا لِـبِـكْـرٍ حُـرْمـةٌ   تُـرْعَـى، وأَغْـدَرُ مَـنْ رأيـتُ الـثَّـيِّـبُ

الثيب: التي سبق لها زواج

لا يَـخْـدَعـنَّـكَ ضـعـفُـهُـنَّ، فـإنـمـا   بـالـضـعـفِ أَهْـلَـكَـتِ الـهِـزَبْـرَ الأرنـبُ

فالأرنب جعلته يغرق في البركة عندما رأى فيها خياله في القصة المشهورة

٢٠ إني راحل

أَزِفَ الـرحـيـلُ، وحـانَ أنْ نَـتَـفَـرَّقـاَ   فـإِلـى الـلِّـقَـا، يـا صَـاحِـبَـيَّ إِلـى الـلِّـقَـا

ولقد ركبتُ البحرَ يَزْأَرُ هَائجاً كالليثِ فارَقَ شِبْلَهُ، بلْ أَحْنَقَا
تتنازعُ الأمواجُ فيهِ بَعْضَهَا بَعْضاً، على جَهْلٍ تَنَازُعَنَا البَقَا

تتنازع الأمواج مثلما يتنازع البشر في صراع البقاء

بَيْنَا يَرَاهَا الطَّرْفُ سُوراً قَائماً فإذا بِهَا حَالَتْ فَصَارَتْ خَنْدَقَا
«نُويُرْكُ»! يا بِنْتَ البُخَارِ، بِنَا اقْصِدي فَلَعَلَّنَا بالغربِ نَنْسَى المَشْرِقَا

نويرك: نيويورك اسم السفينة التي أخذته إلى أميركا، والباخرة هي بنت البخار الذي تسير به، فإن شئت أن تجعلها بنت البحار بالحاء فلا بأس

وَطَنٌ أَرَدْنَاهُ على حُبِّ العُلَى فَأَبَى سِوَى أَنْ يَسْتَكِينَ إلى الشَّقَا
كالعَبْدِ يَخْشَى، بعدَمَا أَفْنَى الصِّبَا يَلْهُو به ساداتُهُ، أنْ يُعْتَقَا
أَوَكُلَّمَا جاءَ الزَّمَانُ بِمُصْلِحٍ في أَهْلِهِ قالوا: طَغَى وتَزَنْدَقَا؟
فكأنما لم يَكْفِهِ ما قد جَنَوْا وكأنَّما لم يَكْفِهِمْ أَنْ أَخْفَقَا
مَشَتِ الجَهَالَةُ فيهِ تَسْحَبُ ذيلَها تِيهاً، ورَاحَ العلمُ يَمْشي مُطْرِقَا

فيه: أي في الوطن، تيهاً: تكبُّراً

شَعْبٌ، كَما شاءَ التَّخَاذُلُ والهَوَى، مُتَفَرِّقٌ، ويَكادُ أنْ يَتَمَزَّقَا
لم يعتقِدْ بِالعِلْمِ، وَهْوَ حَقَائِقٌ لكنَّهُ اعْتَقَدَ التَّمائِمَ والرُّقَى

التمائم: الخرز الذي يوضع في العنق لدرء الحسد، والرقى الحجب التي يكتبونها للغرض نفسه

وحكومةٌ، ما إنْ تُزَحْزِحُ أَحْمَقاً عَنْ رأسِها، حَتَّى تُوَلِّيَ أَحْمَقَا
بغدادُ في خَطَرٍ، ومِصْرُ رَهِينَةٌ وغَداً تَنَالُ يدُ المطَامِعِ جِلَّقَا

جلق: دمشق

قيل، اعشَقُوها، قلتُ: لم يَبْقَ لَنَا مَعَهَا قلوبٌ، كَيْ نُحِبَّ ونَعْشَقَا

نقد طه حسين إيليا ابو ماضي على مثل هذه الـ«لم يبقَ» التي يقتضي الوزن قراءتها «لم يبقى». ولو قال إيليا (قيل اعشقوها، قلت: ما بقيت لنا) لوفر على نفسه نقدة من نقدات طه الكثيرات المؤلمات له؟

إنْ لم تَكُنْ ذاتُ البَنِينِ شَفِيقَةً هَيْهَاتَ تَلْقَى، مِنْ بَنِيها، مُشْفِقَا

شفيق ومشفق: حنون

٢١ سكرانة بشبابها

هُوَ البخلُ طَبعٌ في الرجالِ مُذَمَّمٌ ولكنه في الغِيدِ شيءٌ مُحَبَّبُ
كَلِفْتُ بِها بيضاءَ سَكْرَى من الصِّبَا وما شربتْ خمراً، ولا هِيَ تَشْربُ

كلفت بها: أغرمت بها

ولو أنَّ رُهْبانَ الصَّوامِعِ أبْصَرُوا مَلاحَتَها، واللّهِ لم يَتَرَهَّبُوا

٢٢ إني لأصحبه على علاته

ليَ صاحبٌ دخلَ الغرورُ فؤادَهُ إن الغرورَ، أُخَيَّ، من أعدائي
أهوى اللقاءَ بِهِ، ويَهوى ضِدَّه فكأنَّما الموتُ الزُّؤامُ لِقَائي

الموت الزؤام: الموت السريع

إنـي لأَصْحَبُهُ على عِلَّاتِهِ والبدرُ مِنْ قِدَمٍ أخو الظَّلماءِ
فاخْفِضْ جناحَكَ للأنامِ تَفُزْ بِهِمْ إن التواضعَ شيمةُ الحُكماءِ
لو أُعْجِبَ القمرُ المنيرُ بنفسِهِ لـرَأَيْتَهُ يَهوي إلى الغبراءِ

الغبراء: الأرض. ما أقبح أن يضطر المرء إلى مجاملة عشرات الناس لأنه لا يريد أن يكون له أعداء. لم يكن المتنبي كذلك أبداً، ولا ابن الرومي. وكثير جداً من الشعراء، ومن عامة الناس، يملكون جرأة خلق الأعداء واحتمالهم. كثير من السادة والزعماء جريئون على الأعداء، وكثير من السادة ومن الزعماء مهروا أيضاً في السير بين قطرات المطر وحرصوا على عدم خلق الأعداء، أو الاكتفاء بالحد الأدنى منهم. فلا يفتخرنَّ أحد بقلة، أو بكثرة أعدائه. على أنني وجدت الغرور أمراً كريهاً، ومعبراً عن نقص يجده المرء في نفسه، كما قال القديم. وأكثر ما وجدت الغرور مضحكاً وكريهاً في مذيعي التلفزيون الذين قلت بضاعتهم من العقل والثقافة، فهم مجرد أبواق. ويشعرون بخسة في نفوسهم لقلة ما عندهم من الفهم والعلم والاطلاع فيزدادون تيهاً. وأما المذيع المتمكن فتراه يزداد تواضعاً كلما ازداد شهرة

٢٣ النجدة الروسية للأرمن

أَعِدْ حديثَكَ عِندي أيها الرجلُ وقلْ كما قالتِ الأنباءُ والرُّسُلُ

الرسل: المرسَلون لجمع الأخبار أو لتبليغها

فاجمعْ رواياتِهِمْ، واملأْ بِهَا أُذُني حتى تَراني كَأَنِّي شارِبٌ ثَمِلُ

يا ابنَ الملُوكِ الأُلى قد شادَ واجِدُهُمْ ... ما لم تُشَيِّدْهُ أمْلاكٌ، ولا دُوَلُ

أملاك: ملوك، يخاطب القائد الروسي الدوق الأكبر نقولا الذي هزم الترك عن مدينة أرضروم شرق تركيا في فبراير/شباط ١٩١٦

تَوَهَّمَ التُّرْكُ، لمَّا حانَ حَيْنُهُمُ، ... أنَّ الأُلَى وَتَرُوا آباءَهُمْ غَفَلُوا

توهم الأتراك لما حان حينهم (هلاكهم) أن الذين وتر (ظلم) الأتراك آباءهم قد نسوا الوتر (الثأر)

حتَّى طَلَعْتَ مِنَ القَوْقَازِ في لَجِبٍ ... تَضِيقُ عنهُ فِجَاجُ الأرضِ، والسُّبُلُ

لجب: ذو ضجيج، يقصد الجيش الكبير، فجاج: وديان، السبل: الطرق

بِكُلِّ أَرْوَعَ، ما في قلبِهِ خَوَرٌ ... عندَ الصِّدَامِ، ولا في زَنْدِهِ شَلَلُ

أروع: شجاع، خور: جبن

وكُلِّ مُنْجَرِدٍ، في سَرْجِهِ أسدٌ ... في كَفِّهِ خَذِمٌ، في حَدِّهِ الأَجَلُ

منجرد: حصان، في سرجه أسد: يركبه فارس شجاع، خذم: سيف

وكلِّ راعِفَةٍ، بالموْتِ هادِرَةٍ ... كأنَّها الشاعرُ المَطبوعُ يَرْتَجِلُ

الراعفة: الرمح يقطر دماً، وبما أنه سيجعلها في البيت التالي بندقية فقد صار الرعف بعيداً عنها

سوداءُ تقذِفُ مِنْ فوُهَاتِهَا حُمَماً ... هِيَ الصَّواعِقُ، إلَّا أنها شُعَلُ

فأَسْلَمُوا أَرْضَرُومَاً، لا طَوَاعِيَةً ... لو كانَ في وُسْعِهِمْ إمْسَاكُهَا بَخِلُوا

وفَرَّ قائدُهُمْ، لَمَّا عَرَضْتَ لَهُ ... كما يَفِرُّ، أمَامَ القَشْعَمِ، الحَجَلُ

القشعم: النسر، الحجل: من الطيور

لم يَقْصُرِ الرُّمْحُ عنْ إدراكِ مُهْجَتِهِ ... لكنْ حَمَى صدْرَهُ، وقعَ الظُّبَا، الكَفَلُ

لم يكن الرمح قصيراً عن الوصول إلى قلب قائدهم، ولكنه هرب فحمى كفلُه (مؤخرته) صدَره من وقع الظبا (السيوف)، أي أنه تلقى الضربات بمؤخرته

تعلَّمَ الرَّكضَ، حتى ليسَ تَلْحَقُهُ ... هُوجُ الرِّيَاحِ، ولا خيلٌ، ولا إِبِلُ

هوج الرياح: الرياح الهوجاء الشديدة

وباتَ أنورُ في يَلْدِيزَ مُخْتَبِئاً ... لأُمِّهِ وأَبِيهِ الثُّكْلُ والهَبَلُ

أنور باشا: وزير الحربية العثماني، يلديز: قصر يلدِز في إستانبول، الثكل والهبل: فقد الولد

في وَجْهِهِ صُفْرَةٌ حَارَ الطبيبُ بِهَا ... ما يَصْنَعُ الطبُّ فِيمَنْ داؤُهُ الخَبَلُ؟

لم يبقَ فيهِ دَمٌ كَيْمَا يُجَمِّعَهُ ... في وجهِهِ، عندَ ذِكْرِ الخَيْبَةِ، الخَجَلُ

مصكوك صكاً حلواً هذا البيت، والمعنى جديد

يَـزِيـدُ وَحْـشَـتَـهُ إعـراضُ عُـوَّدِهِ ويَنْكَأُ الجُرْحَ في أحشائِهِ العَذَلُ

عوده: زائروه وهو مريض، ينكأ الجرح: يفتحه، العَذَل: اللوم

إذا تَـمَـثَّـلَ جيـشَ الـتُّـرْكِ مُـنْـدَحِـراً ضاقتْ بِهِ، مِثْلَمَا ضاقتْ بِذَا، الحِيَلُ

عندما يتذكر هزيمة جيش الترك تضيق حيلته، أي لا يدري ما يصنع، مثلما ضاقت حيلة الجيش

يا كاشفَ الضُّرِّ عَمَّنْ طالَ صبْرُهُمُ على النوائبِ، لا مَرَّتْ بِكَ العِلَلُ

أيها الأمير الروسي، أدعو ألا تصيبك الأسقام

أطْلَقْتَهُمْ مِنْ قُيُود الظُّلْمِ فانْطَلقُوا وكـلُّـهُـمْ ألـسُـنٌ تَـدعُـو وتَـبْـتَـهِـلُ
لـو كـان يُـنْـشِـرُ مَـيْـتَـاً غَـيْـرُ بـارئِـهِ أنْشَرْتَ، بعدَ الرَّدَى، أرواحَ مَنْ قُتِلُوا
قد جاءَ مَنْ يَمْنَعُ الضَّعْفَى ويُرْغِمُكُمْ أن تَحْمِلُوا عَنْهُمُ النِّيرَ الذي حَمَلُوا

يمنع: يحمي

أَمَّـنْـتَ أرْمِـيـنِـيـا مِـمَّـا تُـحَـاذِرُهُ فلن تَعِيثَ بِهَا الأوغَادُ والسِّفَلُ

تعيث: تخرِّب، وكان للترك قتل ذريع في الأرمن في سنة ١٩١٥

مزَّقْتَ جمعَهُمُ تمزيقَ مُقْتَدِرٍ على المهَنَّدِ، بعدَ اللّهِ، يَتَّكِلُ

أي أنه يتوكل على السيف، بعد توكله على الله

ألبَسْتَهُمْ ثوبَ عَارٍ لا تُطَهِّرُهُ نارُ الجَحِيمِ، ولو في حَرِّها اغْتَسَلُوا
جَاوِيدُ فوق فِرَاشِ الذُّلِّ مُضْطَجِعٌ وطَلْعتٌ بِرِدَاءِ الخوفِ مُشْتَمِلُ

جاويد باشا: وزير من جماعة الاتحاد والترقي، طلعت باشا: الصدر الأعظم، رئيس وزراء

لا تـعـرفُ الأمْـنَ أرواحٌ تُـرَوِّعُـهَـا ثـلاثـةٌ: أنـتَ والـنـيـرانُ والأَسَـلُ؟

الأسل: الرماح

أَجْرَيْتَ خوفَ المنايَا في عُرُوقِهِمُ فلن يعيشَ لهُمْ نَسْلٌ إذا نَسَلُوا
قد ماتَ كهْلُهُمُ مِنْ قبلِ مِيتَتِهِ وشاخَ ناشِئُهُمْ مِنْ قبلِ يَكْتَهِلُ

قصيدة حلوة الرنين عتيقة الطراز، تطير بجناحي أبي الطيب وأبي تمام، ولكن أصالتها مستمدة من شعور أبو ماضي العميق بالحدث، فهو متالم للأرمن ومقتلتهم، وحاقد على الأتراك، ولا سيما بعد اتباع جماعة الاتحاد والترقي سياسة التتريك، وتشددهم في معاملة العرب أثناء الحرب العالمية الأولى

٢٤ كلنا قابيل

استحر القتل في سنة ١٩١٦ في أتون الحرب العالمية الأولى:

كَمْ، قبلَ هذا الجيلِ، وَلَّى جيلُ   هيهاتَ، ليسَ إلى البَقَاءِ سبيلُ
ضَحِكَ الشبابُ مِنَ الكُهُولِ فأَغْرَقوا،   واستَيْقَظُوا؛ فإذا الشبابُ كُهُولُ
نَأْتي، ونَمْضي، والزمانُ مخلَّدٌ   الصبحُ صبحٌ، والأَصيلُ أَصيلُ
يـا أرضَ أورُبَّـا! ويَـا أبـنـاءَهَـا!   في عُنْقِ مَنْ هذا الدمُ المَطْلُولُ؟

المطلول: المسفوك هدراً

مَـزَّقْـتُـمُ أقْـسَـامَـكُـمْ وعُـهـودَكُـمْ   ولـقـد تـكـونُ كـأنَّـهَـا الـتَّـنْـزِيـلُ
قابيلُ، يا جَدَّ الورَىَ، نَمْ هانِئاً   كـلُّ امْـرِئٍ فـي ثـوبِـهِ قَـابـيـلُ

٢٥ ضد الحكم التركي

رجالَ التُّرْكِ! ما نَبْغي انتقاضَاً   لَعَمْرُكُمُ! ولا نَبْغي انتقامَا
ولـكِـنَّـا نُـطـالِـبُـكُـمْ بـحـقٍّ   ونَكْرَهُ مَنْ يريدُ لنا اهْتِضَامَا

اهتضام: ظلم

حَمَلْنَا نِيرَ ظُلْمِكُمُ قُرُوناً   فَـأَبْـلاهَـا، وأَبْـلاَنَـا، ودَامَـا

ظلمكم أبلى قروناً من الزمن، وأبلانا، واستمرّ

رَعَيْتُمْ أَرْضَنا، فَتَرَكْتُمُوهَا   إذا وَقَعَ الجرادُ رَعَى الرُّغَامَا

الرغام: التراب

خَفِ التُّرْكِيَّ يَحْلِفُ بِالمثاني   وخَـفْـهُ كُـلَّـمَـا صـلَّـى وصَـامَـا
وقـالـوا: نَـحْـنُ لِـلإسْـلاَمِ سـورٌ   وإنَّ بِـنَـا الـخـلافـةَ والإمَـامـا
فَهَلْ في دينِ أحمدَ أنْ يَجُورُوا   وهلْ في دينِ أحمدَ أنْ نُضامَا
سَنُوقِدُهَا تُعِيرُ الشمسَ نَاراً   ويُعْيِي أَمْرُها الجيشَ اللُّهَامَا

الجيش اللهام: الجيش الكبير

وعِـلْـمُ الـمـرءِ أنَّ الـمـوتَ آتٍ   يُـهَـوِّنُ عـنـدَهُ الـمـوتَ الـزُّؤَامَـا

الموت الزؤام: السريع

٢٦ عرب وأتراك

أرضَ آبائِنا! عليكِ سلامٌ ... وسَقى اللَّهُ أَنْفُسَ الآباءِ
ما هَجَرْناكِ إذْ هجرناكِ طَوْعاً ... لا تَظُنّي العُقُوقَ في الأبْناءِ
واغترابُ القَويِّ عِزٌّ وفخرٌ ... واغترابُ الضعيفِ بَدْءُ الفَناءِ
نحنُ، في دولةٍ تَلاشَتْ قُوَاها، ... كالنُّضَارِ المَدفونِ في الغَبْراءِ

النضار: الذهب، الغبراء: الأرض

أوْ كَمِثْلِ الجنينِ، ماتَتْ بِهِ الحا ... ملُ حَيّاً، يَجُولُ في الأحشاءِ
عَجَباً كيف أصبحَ الأصلُ فَرعاً ... والضُّحى كيفَ حلَّ في الظلماءِ

الأصل: يعني العرب، فقد أصبحوا الآن فرعاً وصار الأتراك الحاكمون هم الأصل

ما كَفَتْنَا مَظالم التُّرْكِ حتى ... زحفوا كالجرادِ أو كالوباءِ
سوف يَدْرونَ أَنَّمَا العُرْبُ قَوْمٌ ... لا يُبالونَ غَيْرَ رَبِّ السماءِ
يومَ لا تُنْبِتُ السهولُ سوى النَّا ... سِ، وغيرَ الأَسِنَّةِ السَّمراءِ

أدب وتاريخ: الأدب أولاً: يرى إيليا أن العرب هم الأصل، وأن الدولة العثمانية ظلمتهم بجعلهم العنصر الثاني فيها. يرى العرب ذهباً مدفوناً في بطن الدولة العثمانية، أو ـ وهذا التشبيه الأجمل ـ جنيناً يتحرك في بطن أم ميتة. ويتوعد الأتراك بحرب شعواء عليهم بينما هم منشغلون في الحرب العالمية الأولى وقد أفقروا بلاد الشام وأخذوا خيراتها ورجالها للمجهود الحربي، وحكموها بالحديد والنار. وسيأتي يوم تنبت الأرض فيه ناساً وسلاحاً يحرر بلاد العرب من نير الأتراك. هذا التشبيه جميل أيضاً. الواقع أن العرب ثاروا على الأتراك والأتراك منهزمون في الحرب الأولى، وثاروا بسلاح أوروبي وبقرار أوروبي، فظلوا تابعين للمستعمر.

التاريخ: في أواخر أيام الدولة العثمانية كان العرب مرتاحي البال؛ نعم، مرتاحي البال. رغم مظالم جمال باشا السفاح، ورغم التجنيد الإجباري. كانوا مرتاحي البال لأنهم كانوا يملكون سبباً خارجياً كبيراً لتخلفهم وانحسار مجدهم السياسي والثقافي: ذلك السبب هو أن دولة الأتراك تحكمهم. مثلهم في ذلك مثل موظف قليل المهارات، كسول، له مدير حمار. فكلما ليم على تقصيره قال انظروا إلى مديري. فيرون المدير أحمر من الموظف فيسكتون، ويحس الموظف براحة بال. ولو أطيح بذلك المدير فالموظف سينكشف. نعم، كان العرب والدولة العثمانية كشهاب الدين وأخيه.

كان العرب المسيحيون في بلاد الشام يكرهون الحكم العثماني أكثر مما يكرهه العرب المسلمون، فإستانبول تعطل عليهم الانتفاع بعلاقاتهم بدول أوروبا، هذه العلاقات التي فرضتها قناصل أوروبا فرضاً على الدولة العثمانية الهرمة. كان المسيحيون العرب بوابة لأوروبا لدخول المنطقة دخولاً استعمارياً. في تلك الحقبة

كان المسيحيون عروبيين جداً، فهم عرب قبل كل شيء، وهذا الانتماء العروبي يصب في مسعاهم لإزالة الكابوس العثماني. كان منهم من اندفع وراء الحلم، وأراد أن يبني دولة عربية، وكان منهم من أراد التخلص من الحكم العثماني بأي ثمن، ثم لا يبالي إن تحققت مصالحه عن طريق ارتباط قوي بأوروبا أو عن طريق الاستقلال الحقيقي.
وأنا أضع إيليا أبو ماضي في الخانة الثانية. إن العلاقة بين مسيحيي بلاد الشام وأوروبا علاقة مشحونة بالتعقيد، وهي بحاجة إلى كثير من الدرس والفحص، ولا عذر لباحث يقدم على مثل هذه الدراسة وهو منفوخ بالغرض (بالإيديولوجيا) كالطبل. قد كان للمسلمين مصالح مع إستانبول، وكان لهم مصالح مع أوروبا، المحتل الجديد.
وكل ما يميز المسيحيين أنهم مالوا إلى أوروبا أكثر لأن الدولة العثمانية لم تكن تعطيهم امتيازات، بينما الوحش الأوروبي المقبل كان يعدهم بكثير منها، وكان قد بدأ بمنحهم الامتيازات قبل عقود من الحرب العالمية الأولى، حتى يكونوا بوابته إلى الشرق الأوسط. إيليا أبو ماضي لم يكن مفكراً سياسياً ولا مؤرخاً. وكان في تلك الفترة الفاصلة شاباً في أواسط العشرين، ومن مهجره المصري ثم الأميركي رأى الدنيا بعين العربي الذي أزعجته إستانبول عن وطنه، وراح يرحب بالغازي الأوروبي ترحيباً ساذجاً، لكنه ترحيب نابع من القلب، واقرأ القصيدة المقبلة..

٢٧ منقذ المسيح

أَلَنْبي! لَوْ طَبَعْنا الشمسَ يوماً وقَلَّدْنَاكَها سَيْفَاً صَفِيحَا

يريد أن يذيب الشمس ويطبع (يصك) منها سيفاً للجنرال ألنبي، الجنرال البريطاني الذي احتل القدس من العثمانيين

ورَصَّعناهُ بِالشُّهُبِ الدَّرَارِي لَما زِدْنَاكَ فَخْرَاً، أو مَدِيحَا
غَضِبْتَ على الهِلالِ، فَخَرَّ ذُعْراً وَلُحْتَ لَهُ، فَحَاذَرَ أنْ يَلُوحَا

الهلال: شعار الدولة العثمانية

مَشَتْ بِكَ هِمَّةٌ فَوْقَ الثُّرَيَّا فَزَلْزَلْتَ المَعَاقِلَ والصُّرُوحَا
مِنَ الوادِي، إلى صحراءِ سِينا إلى أنْ زُرْتَ ذَيَّاكَ الضَّرِيحَا

الوادي: مصر، ذياك الضريحا: ذاك الضريح، أي (قبر المسيح) بكنيسة القيامة في القدس

فَكَانَ الجُنْدُ كُلُّهُمُ يَشُوعَاً وكانَتْ كُلُّ سُورِيَّا أرِيحَا

يشوع بن نون: القائد الذي أرسله موسى لحرب الجبارين، وقد هَدَم أسوار أريحا واحتلها

فإنْ يَكُنِ المسيحُ فَدَى البَرَايَا فإنَّكَ أنتَ أنقذتَ المسيحَا

كان إيليا أبو ماضي قد انتقل في السنة الفائتة إلى نيويورك، وفي قصيدته هذه تأثر - بالإضافة إلى ما يكنه من مشاعر كراهية للترك - بما نشرته الصحف الأميركية، مثال ذلك مانشيت صحيفة «النيويورك هيرالد»: (البريطانيون ينقذون القدس بعد ٦٧٣ سنة

من الحكم الإسلامي). بل لقد كانت القدس تحت الحكم الإسلامي منذ عمر بن الخطاب، ولكن الصحيفة اعتبرت احتلال الصليبيين للقدس ـ وذبحهم سبعين ألفاً من المدنيين فيها ـ بدء التاريخ.

٢٨ الشاب المهموم وجارته

ما بالُ هذا الفتىَ في الدارِ مُعتزِلاً كـمـا تَـوَحَّـدَ نُـسَّـاكٌ ورُهْـبـانُ
يـمـرُّ بـالـقـربِ مِنَّا، لا يكلِّمُنا ولِلـحديـثِ مَجَالٌ، وَهْوَ مِلْسَانُ

ملسان: أبو لسان

وإنْ نُكَلِّمْهُ لا يَفْقَهْ مَقَالَتَنا إلَّا كما يَفْقَهُ التَّسْبيحَ سَكْرانُ
كأنما نِيطَتِ الدنيا بِعَاتِقِهِ كأنما كلُّ عُضْوٍ فيهِ بُركانُ

كأنه موكَّل بشؤون الدنيا فهو يحملها على عاتقه (ظهره)

فلا ابتسامُ ذواتِ الغُنْجِ يطرِبُهُ ولا ابْنَةُ الحَانِ تُصْبِيهِ ولا الحَانُ

ابنة الحان: الخمرة، تصبيه: تستميله

أما لَهُ جِيرَةٌ في الأرضِ يَأْلَفُهُمْ؟ يا جَارَتِي، كانَ لي أهلٌ وجيرانُ
فَبَتَّتِ الحربُ ما بَيْني وبَيْنَهُمُ، كـمـا تَـقَـطَّعُ أَمْرَاسٌ وخِـيـطَـانُ

بتَّت: قطعت، تَقَطَّعُ: تتقطع، أمراس: حبال. ما كان أغناه عن هذه الخيطان، أفيُقطِّع المرء الخيطان بعد أن قطَّع الحبال؟

فلا المغانِي التي أَشْتَاقُ رؤْيَتَها تلكَ المغانِي، ولا السكانُ سكانُ
ولـو يَبُثُّ بَنُو لُبْنَانَ لوعَتَهُمْ لاهتزَّتِ الأرضُ لمَّا اهتزَّ لُبنانُ
قالتْ: شَكَوْتَ الذي بِالخلقِ كُلِّهِمُ وما كَذَبْتُكَ إنَّ الحربَ طُوفانُ
وإنَّ قَوْمِي طيورٌ غيرُ كاسِرةٍ سَطَتْ عليْها شَوَاهِينٌ وعِقْبانُ

الشواهين والعقبان: من الطيور الكواسر

لا تضحكوا، وبِأَرضِ الشامِ نائِحَةٌ ولا تناموا، وفي لبنانَ سهرانُ

٢٩ تحية لمصر

أشْقَى البَرِيَّةِ نَفْسَاً، صَاحِبُ الهِمَمِ وأتعسُ الخلقِ حَظَّاً، صاحبُ القَلَمِ
ويلَ اللَّيالي! لقد قَلَّدْنَنِي ذَرِبَاً أدنىَ إلى مُهْجَتِي مِنْ مُهْجَةِ الخَصِمِ

ويل للزمن فقد قلدني (منحني) ذرباً (لساناً حاداً) ضرره أقرب إلى قلبي من قلب الخصم

ما حَدَّثَتْنِيَ نَفسي أنْ أُحَطِّمَهُ　　إلّا خَشِيتُ على نَفسي مِنَ النَّدَمِ
يَأْبى الشَّقَاءُ، الذي يَدْعُونَهُ أَدَباً،　　أنْ يَضْحَكَ الطِّرْسُ إلّا إنْ سَفَكْتُ دَمي

الطرس: الورقة

أصبَحْتُ أنْحَلَ مِنْ طَيْفٍ، وأَحْيَرَ مِنْ　　ضَبٍّ، وأَسْهَرَ مِنْ رَاعٍ على غَنَمِ

قيل الضب (وهو من زواحف الصحراء) يفارق جحره ثم يحار ولا يهتدي إليه

ليس الوقوفُ على الأَطْلالِ مِنْ خُلُقي　　ولا البكاءُ على ما فاتَ مِنْ شِيَمي
لكنَّ مِصْراً، وما نَفْسي بِنَاسِيَةٍ،　　مَلِيكَةُ الشرقِ ذاتُ النِّيلِ والهرمِ
صَرَفْتُ شَطْرَ الصِّبَا فيها، فَما خَشِيَتْ　　نَفسي العِثَارَ، ولا نَفْسي مِنَ الوَصَمِ

الوصم: الإهانة

في فِتْيَةٍ كالنجومِ الزُّهْرِ أَوْجُهُهُمْ؛　　ما فِيهِمُ غيرُ مَطْبُوعٍ على الكَرَمِ
جادَ الكِنانةَ عنِّي وَابِلٌ غَدِقٌ　　وإنْ يَكُ النِّيلُ يُغْنِيها عَنِ الدِّيَمِ

وابل غدق: مطر كثير، الديم: السحب

الشرقُ تاجٌ، ومِصْرٌ منْهُ دُرَّتُهُ　　والشرقُ جيشٌ، ومِصْرٌ حاملُ العَلَمِ
ما زِلْتُ، والدهرُ تنْبُو عِنْ يَدي يَدُهُ،　　حتى نَبَتْ ضِلَّةً عِنْ أَرْضِهَا قَدَمي

ظللتُ والزمن تنبو (تنحرف) يده عن يدي (لا يواتيني السعد) حتى نبت ضلة (انحَرَفَتْ، ويا للضلال) قدمي عن مصر ففارقتها

أَصْبحتُ في مَعْشَرٍ تَقْذَى العيونُ بِهِمْ　　شَرٌّ مِنَ الدَّاءِ في الأحشاءِ والتُّخَمِ
مِنْ كلِّ فَظٍّ يُرِيكَ القِرْدَ، مُحْتَشِماً　　ويَضْحَكُ القِرْدُ مِنْهُ غيرَ مُحْتَشِمِ

يهجو أهل زمنه، فالواحد منهم فظ تراه محتشماً (متزناً) فكأنما يريك في شخصه صورة القرد، وبراه القرد فيضحك منه غير محتشم (دون أن يخجل)

مِنَ الأَعَارِبِ، لَكِنْ حينَ أُنْشِدُهُ　　جواهرَ الشِّعْرِ ألقاهُ مِنَ العَجَمِ
لا عَيْبَ في مَنْطِقي، لكنْ بِهِ صَمَمٌ　　إنَّ الصَّوادِحَ خُرْسٌ عندَ ذي الصَّمَمِ

الصوادح: البلابل

٣٠ الإنسان يغزو الجو

ما أظنُّ النعيمَ فيه الذي في الـ　　ـأرضِ من بهجةٍ، ومن لألاءِ

النعيم: الجنة، اللألاء: الفرح التام

كلُّ ما في الوُجودِ للمرءِ عبدٌ   وَهْوَ عبدُ الشَّهْواتِ والأهْوَاءِ
سادَ في الكونِ مِثْلَما سادَ فيهِ   خالقُ الكونِ مبدعُ الأشياءِ
فَهْوَ في الماءِ سابحٌ، وعلى الغَبْـ   ـراءِ مَاشٍ، وطائرٌ في الفضاءِ
وهْوَ بين النجومِ يَسْتَرِقُ السَّمْـ   ـعَ، ولا يَتَّقي رُجُومَ السماءِ

رجوم السماء: الشهب الهاوية

مَشْهَدٌ رَوَّعَ الدَّراري، فَباتَتْ   حَائِراتٍ في القُبَّةِ الزرقاءِ

الدراري: النجوم، القبة الزرقاء: السماء

نافراتٍ كأنها ظَبَياتٌ   رَأَتِ القَانِصينَ في البيداءِ

٣١ بطل الشام

حَيِّ الشَّآمَ: مُهَنَّداً وكِتَابا   والغُوطَةَ الخضراءَ والمحْرابا

المحراب: لعله يقصد الجامع الأموي

لَيْسَتْ قِبَاباً ما رأيتُ، وإنَّما   عَزْمٌ تَمَرَّدَ، فاسْتَطالَ قِبَابا
بِأَبي وأُمِّي في العَرَاءِ مُوَسَّدٌ   بَعَثَ الحياةَ مَطَامِعَاً ورِغَابَا
لما ثَوَى في مَيْسَلُونَ تَرَنَّحَتْ   هَضَباتُهَا، وتَنَفَّسَتْ أَطْيَابَا

هذا يوسف العظمة شهيد ميسلون الذي وقف أمام الفرنسيين الغزاة

ما كانَ يُوسُفُ واحِداً، بلْ مَوْكِباً   للنُّورِ، غَلْغَلَ في الشموسِ فَغَابَا

غلغل: تغلغل

هذا الذي اشتاقَ الكَرَى تحتَ الثَّرَى   كيْ لا يَرَى في جِلَّقَ الأَغْرابَا

جلق: دمشق

٣٢ أرضٌ زجاجٌ وحذاءٌ زئبق

جاءَ الشتاءُ جِيئَةَ المفَاجِي

المفاجي: المفاجئ

وأَمْسَكَ الناسُ عنِ اللِّجَاجِ

اللجاج: الجدل

وانـقَـبَـضَ الـنـهـرُ عـن الـهِـيـاجِ
إذا أردتُ الـسَّـيْـرَ فـي مِـنْـهَـاجـيِ

منهاجي: طريقي

طـالَ عِـثَـارِي فِـيـهِ، وانْـزِلاجـيِ
كـأَنَّـنـيِ أَمـشـيِ عَـلَـى زُجَـاجِ
مُـحْـتَـذِيَـاً بِـالـزِّئْـبَـقِ الـرَّجْـرَاجِ
كـأنـنـي ألـبـس حـذاءً مـن زئـبـق
إنْ لَـجَّ هـذا الـقُـرُّ فـي إخْـراجـيِ

لج: ألح، القر: البرد

لأَرْفَـعَـنَّ لِـلـسَّـمَـا احـتِـجَـاجـيِ

٣٣ عتب يؤول إلى انتقاد

وَرُبَّـتَ سَـاهـرٍ فـي بَـعْـلَـبَـكٍّ يُـشاطِـرُ جَـفْـنُـهُ الـنَّـجمَ الـسُّـهَـادَا

ربت: ربَّ، يتألم الشاعر لآلام أهله، فمنهم ساهر في بعلبك يشارك النجم السهر

يـزيـدُ الـلـيـلُ كـربـتَـهُ اشـتـداداً وفَـرْطُ الـهَـمِّ لـيـلـتَـهُ سَـوادَا
إذا مَـالَ الـنُّـعـاسُ بِـأَخْـدَعَـيْـهِ ثَـنَـى الـذُّعْـرُ الـكَـرَى عَـنْـهُ، وذَادَا

الأخدعان: عِرقان في جانبي العنق، ذاد: منع

بِـهِ الـداءانِ مِـنْ سَـغَـبٍ وخَـوفٍ فـمـا ذاقَ الـطـعـامَ، ولا الـرُّقَـادَا

سغب: جوع

أَتَـفْـتَـرِشُ الـحَـريـرَ وتَـرْتَـديـهِ ويَـفْـتَـرِشُ الـجَـنَـادِلَ والـقَـتَـادَا

أيها الحاكم باسم المحتل الفرنسي إنك تفترش الحرير وابن البلد يفترش الجنادل (الصخور)، والقتاد (الشوك)

أَتَـدْفَـعُ بِـالـغَـوِيِّ إلـى الـتَّـمَـادي وتَـعْـجَـبُ بَـعـدَ ذلـكَ إنْ تَـمَـادى

الغوي (الظالم) هو المحتل

سَـكَـتَّ فـقـامَ فـي الأذهـانِ شـكٌّ وقـلـتَ، فـأصـبـحَ الـشَّـكُّ اعـتِـقَـادَا

تَجَهَّمْتَ القَرِيضَ فَفَاضَ عَتْبَاً   وإنْ أَحْرَجْتَهُ فاضَ انتِقَادَا

تجهمت القريض: تجاهلت الشعر. يقول: الحكام المحليون الذين أقامهم الفرنسي في سوريا ولبنان سكتوا عن أفاعيله فشك الناس في نواياهم، وعندما تكلموا مبررين هذه الأفاعيل زال الشك وتأكد الناس من أن الحكام أدوات بيد المحتل. وهؤلاء الحكام يتجاهلون تحذيرات الشعراء فينالهم من الشعراء العتب، وبعد العتب يأتي الانتقاد

٣٤ في اللاذقية ضجة

ما بالُ قوميَ نائمينَ عنِ العُلَى   ولقد تَنَبَّهَ للعُلَى الثَّقَلانِ

الثقلان: الإنس والجن، يقصد الجميع

تُبَّاعُ أحمدَ والمسيحِ، هَوَادةً!   ما العهدُ أنْ يَتَنَكَّرَ الأَخَوَانِ

هوادة: تمهلوا

اللَّهُ رَبُّ الشِّرْعَتَيْنِ، وَرَبُّكُمْ   فإلى مَتَى في الدينِ تَخْتَصِمانِ؟

مهما يَكُنْ مِنْ فَارِقٍ؛ فَكِلاكُمَا   يُنْمَى إلى قَحْطَانَ أو غَسَّانِ

ينمى: يُنسَب

فُخُذوا بِأسبابِ الوِفَاقِ، وطَهِّروا   أكبادَكُمْ مِنْ لُوثَةِ الأضْغَانِ

لوثة الأضغان: جنون الأحقاد

فيمَا يُحِيقُ بأرضِكُمْ ونُفوسِكُمْ   شُغْلٌ لِمُشْتَغِلٍ عَنِ الأديانِ

يحيق: يحيط

لا رأيَ يَجْمَعُكُمْ إذا اختلفَ القَنَا   وتلاقتِ الفُرْسانُ بالفُرْسانِ

اختلف القنا: تشابكت الرماح

لا ذنبَ للأقدارِ في إذلالِكُمْ   هذا جزاءُ الغافِلِ المُتَوَاني

٣٥ الحمى وتقويم الأضلاع

مرضْتُ، فأرواحُ الصِّحابِ كَئيبةٌ   بِهَا ما بِنَفْسِي، لَيْتَ نَفْسِي لَها فِدَى

تُزَفُّ حِيالِي، كُلَّما أَغْمَضَ الكَرى   جُفونِي، جَمَاعاتٌ ومَثْنىً ومَوْحَدَا

يتراءى له أن العُوَّاد يزورونه جماعاتٍ وأفراداً

تَـراءَى، فـآنـاً كـالـبُـدُورِ سَـوَافِـراً   وآوِنَـةً مِـثْـلَ الـجُـمَـانِ مُـنَـضَّـدَا

ترراءى: تتراءى، الجمان: اللؤلؤ

أَحِـنُّ إلـيـهـا رَائِـحَـاتٍ وَغُـوَّدَاً   سَـلامٌ عـلـيـهـا رائِـحَـاتٍ وغُـوَّدَا

تَـهَشُّ إليـهـا مُقْبِلَاتٍ جَوَارِحِي   كمَا طَرِبَ السَّارِي رَأَى النورَ فاهتَدَى

وأُلْقِي إليها السَّمْعَ، ما طالَ هَمْسُهَا   كذلكَ يَسْتَرْعِي الأَذَانُ المُوَحِّدَا

ويَغْلِبُ نَفْسِي الحزنُ عند رحيلِها   كما تَحزنُ الأزهارُ زايَلَهَا النَّدَى

مَبِيتِي عـلى مِثْلِ الـوَثِيرِ لِيَانَـةً   وأَحْسَبُنِي فوقَ الأسِنَّةِ والـمُدَى

المدى: السكاكين. و(مثل الوثير) لا معنى لها فالفراش وثير أي موطّأ ممهّد، وهذه من إهمالات الشاعر وتجوزاته

لقد تُوشِكُ الحُمَّى، إذا جَدَّ جِدُّهَا   تُـقَـوِّمُ مِـنْ أَضْـلاعِـيَ الـمُـتَـأَوِّدَا

المتأود: المعوجّ. المعنى قديم والصياغة حلوة موفقة

تُصَوِّرُ لي طَيْفَ الخيالِ حقيقةً   وأحسَبُ شَخصاً واحِداً مُتعدِّدَا

هذه هلوسات الحمى، يحسب أحلامه حقيقة ويرى الشخص شخصين

لقد ضَعْضَعَتْنِي، وَهْيَ سِرٌّ، ولم يَكُنْ   يُضَعْضِعُنِي صَرْفُ الزمانِ إذا عَدَا

إذا ما أنا أَسْنَدْتُ رأسِي إلى يدي   رَمَتْنِيَ مِنْها بالذي يُوهِنُ اليَدَا

يوهن: يُتْعِب

تَغَلْغَلَ في جِسْمِي النحيلِ أُوَارُها   فَلَوْ لم أَقُدَّ الثَّوْبَ عنهُ تَوَقَّدَا

أوارها: حرُّها

رَأَيْتُ الذي لم يُبْصِرِ الناسُ نَائِماً   وطُفْتُ الدُّنَى، شَرْقاً وغرباً، مُوَسَّدَا

رأى في هلوسة الحمى الأعاجيب

فَـمـا سـاءَنـي إلَّا شَـمَـاتَـةُ مَـعْـشَـرٍ   رَجَوْتُ بِهِمْ عندَ الشَّدَائِدِ مُسْعِدَا

وَوَدَّ أُنَـاسٌ لـو يُـعَـاجِـلُـني الرَّدَى   كَـأَنِّـيَ أرجُـو فِـيْـهِـمُ أَنْ أُخَـلَّـدَا

وما ضَمِنُوا أن لا يَمُوتُوا، وإنما   يَوَدُّ زَوالَ الشمسِ مَنْ كَانَ أَرْمَدَا

ولـكنَّنِي أَعـفُـو، ولِلْغَيْظِ سَوْرَةٌ   أُعَـلِّـمُ أَعدائـي الـمرُوءَةَ والـنَّـدَى

سورة: شدَّة

أَلا رُبَّ غِرٍّ خَامَرَ الشَّكُّ نفسَهُ   فلما رَآني أَبْصَرَ البَحرَ مُزْبِدَا

رب غر (أحمق) خامر (داخَلَ) الشك نفسه بأني ضعيف، فلم رآني رأى كيف يكون البحر هائجاً يعلوه الزبد

فأصبحَ يَخْشاني، وقد بِتُّ سَاكِتاً   كما كَان يَخْشاني وقد كُنْتُ مُنْشِدَا
ومَنْ نالَ مِنْهُ السيفُ، وَهْوَ مُجَرَّدٌ،   تَهَيَّبَ أنْ يَرْنُو إلى السَّيْفِ مُغْمَدَا

٣٦ وجعد جبهتي تجعيدا

ليتَ الذي خلقَ العيونَ السُّودَا   خلقَ القلوبَ الخافقاتِ حَدِيدَا
عَوِّدْ فُؤادَكَ مِنْ نِبَالِ لِحَاظِهَا   أوْ مُتْ، كما شاءَ الغرامُ، شهيدَا
إنْ أنتَ أبصرتَ الجمالَ، ولم تَهِمْ   كنتَ امْرَءاً خَشِنَ الطِّبَاعِ، بَلِيدَا
وإذا طلبتَ مَعَ الصَّبَابَةِ لَذَّةً   فلقد طلبتَ الضائعَ الموجودَا
هيَ نظرَةٌ عَرَضَتْ، فصارتْ في الحَشَا   ناراً، وصارَ لها الفؤادُ وَقُودَا
إن كنتَ تدري ما الغرامُ، فَدَاوِني   أو لا، فَخَلِّ العَذْلَ والتَّفْنِيدَا

التفنيد: اللوم والتخطئة

يا هندُ! قد أَفْنَى المِطَالُ تَصَبُّري   وفَنِيتُ، حتى ما أخافُ مَزيدَا
ما هذهِ البِيضُ التي أَبْصَرْتِهَا   في لِمَّتِي إلَّا الليالِي السُّودَا

لِمَّتي: شعري

هذا الذي أَبْلَى الشبابَ، وَرَدَّهُ   خَلَقاً، وجَعَّدَ جَبْهَتِي تَجْعِيدَا

خلقاً: مهترئاً

٣٧ قصيدة الطين

نَسِيَ الطينُ ساعةً أنَّهُ طِيـ   ـنٌ حَقِيرٌ، فصالَ تِيهاً، وعَرْبَدْ

الطين: الإنسان المخلوق من طين، التيه: التكبر

وكَسَا الخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى،   وحَوَى المالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ

الخز: الحرير

يا أخي! لا تَمِلْ بِوَجْهِكَ عني،   ما أنا فَحْمَةٌ، ولا أنتَ فَرْقَدْ

فرقد: اسم نجم في السماء

أنتَ لم تَصْنَعِ الحريرَ الذي تَلْـ بَسُ، واللؤلُؤَ الذي تَتَقَلَّدْ
أيها المزْدَهِي، إذا مَسَّكَ السُّقْـ مُ ألا تشتَكِي، ألا تَتَنَهَّدْ؟
إنَّ طيرَ الأَرَاكِ ليسَ يُبَالِي أنتَ أَصْغَيْتَ، أم أنا، إنْ غَرَّدْ

الأراك: نوع شجر

أَلَكَ الحقلُ؟ هذهِ النحلُ تَجْبِي الشَّـ هْدَ مِنْ زَهْرِهِ، ولا تَتَرَدَّدْ
وأرى لِلنِّمَالِ مُلْكاً كبيراً قد بَنَتْهُ بِالكدْحِ فيهِ، وبِالكَدّ
أنتَ في شَرْعِهَا دخيلٌ على الحقـ لِ، ولصٌّ جَنَى عليْها، فَأَفْسَدْ
لو مَلَكْتَ الحقولَ في الأرضِ طُرّاً لم تكنْ مِنْ فَرَاشَةِ الحقلِ أَسْعَدْ

طراً: جميعاً

أَجَميلٌ؟ ما أنتَ أبْهَى مِنَ الوَرْ دَةِ ذاتِ الشَّذَى، ولا أنتَ أَجْوَدْ

أجود: أكثر جوداً وكرماً

أم عَزِيزٌ؟ ولِلْبَعُوضَةِ مِنْ خَدَّ يْكَ قُوتٌ، وفي يَدَيْكَ المهَنَّدْ

تمتص البعوضة دمك حتى والسيف بيدك

أم قَوِيٌّ؟ إذنْ: مُرِ النَّوْمَ إذْ يَغْـ شَاكَ والليلَ، عنْ جُفُونِكَ يَرْتَدّ

فلتأمر النوم إذ يغشاك والليلَ (يأتيك مع الليل) أن يرتد عن جفونك

وامنعِ الشَّيْبَ أَنْ يُلِمَّ بِفَوْدَيْـ كَ، ومُرْ تَلْبَثِ النَّضَارَةُ في الخَدّ

الفودان: السالفان، ولتأمر النضارة ـ أن ـ تلبثَ في خدك ولا تفارقه

أيها الطينُ! لستَ أنقَى وأسمَى مِنْ تُرابٍ تَدُوسُ، أو تَتَوَسَّدْ
سُدْتَ أو لم تَسُدْ، فما أنتَ إلّا حَيَوَانٌ مُسَيَّرٌ مُسْتَعْبَدْ
إنَّ قَصْراً سَمَكْتَهُ سوفَ يَنْدَكُّـ وثَوْباً حَبَكْتَهُ سوفَ يَنْقَدّ

سمكته: رفعته، ينقد: يتقطع

لا يَكُنْ لِلْخِصَامِ قَلْبُكَ مَأْوَى إنَّ قلبِي لِلْحُبِّ أصبحَ معبَدْ

سوَّد الأديب الأردني روكس بن زائد العُزَيزي فصولاً في اتهام إيليا أبو ماضي بأنه نقل فكرة هذه القصيدة وقسطاً من كلامها من قصيدةٍ بدوية أردنية. وفي المعركة التي قامت حول قصيدة الطين طرافة، ويورد روكس من البراهين ما هو جدير بالاستماع إليه

٣٨ بئس المصير

كانتْ تُمازِحُني وتَضْحَكُ، فانْتهى دَوْرُ المُزَاحِ، فَضِحْكُها تَفكِيرُ
قالتْ، وقد سَلَخَ ابتسامَتَها الأسى: صَدَقَ الذي قالَ، الحياةُ غرورُ
أَكَذا نموتُ، وتَنْقضي أحلامُنا في لَحظةٍ، وإلى الترابِ نَصِيرُ؟
وتَمُوجُ دِيدانُ الثَّرى في أكْبُدٍ كانتْ تَمُوجُ بِها المُنَى، وتَمُورُ

تمور: تموج

خيرٌ، إذَنْ، مِنَّا الأُلى لم يُولَدُوا ومِنَ الأنامِ جَلامِدٌ وصُخورُ

أفضل منا من لم يولد، وأفضل من البشر الجلامد، أي الصخور

فأجبْتُها: لِتَكُنْ لِدِيدَانِ الثَّرى أجسامُنا، إن الجُسومَ قُشُورُ
لا تَجْزَعِي! فالموتُ ليسَ يَضِيرُنا فَلَنا إيَابٌ بعدَهُ، ونُشُورُ
فإذا طَوَتْنا الأرضُ عن أَزْهَارِهَا وخَلا الدُّجى مِنَّا، وفيه بُدُورُ
فسَتَرْجِعِينَ خَمِيلةً مِعْطَارةً أنا في ذَرَاها بُلْبُلٌ مَسحورُ
أو نَسْمَةً، أنا هَمْسُها وحَفِيفُها أبداً تُطَوِّفُ في الرُّبى، وتَدُورُ
تَغْشَى الخَمَائِلَ في الصَّباحِ بَلِيلَةً وتَؤُوبُ، حينَ تؤوبُ، وَهْيَ عَبيرُ
أو نَلْتَقِي عندَ الكثيبِ، على رِضاً وقناعةٍ، صَفْصافَةٌ وغَدِيرُ
تَمْتَدُّ فيهِ، وفي ثَرَاهُ، عروقُها ويسيلُ تحتَ فروعِها، ويَسِيرُ

جذور الصفصافة تمتد في تراب الكثيب، والغدير ينساب تحت أغصانها

يَأْوِي إذا اشتدَّ الهجيرُ إليْهِما اَلنَّاسِكَانِ: الظَّبْيُ والعُصْفورُ

الهجير: الحَرّ

لَهُمَا سَكِينَتُها، ووارفُ ظِلِّها والماءُ، إنْ عَطِشَا، لَدَيْهِ وفيرُ
فَتَبَسَّمَتْ، وبَدا الرِّضَى في وجهِها إذْ راقَها التمثيلُ والتَّصْويرُ
عالجْتُهَا بِالوَهْمِ، فَهْيَ قَريرَةٌ وَلَكَمْ أفادَ الموجَعَ التَّخْديرُ

قريرة: سعيدة

ثم افترقْنا ضاحِكَيْنِ إلى غَدٍ والشُّهْبُ تَهْمِسُ فَوقَنا، وتُشِيرُ

هِيَ كالمسافِرِ، آبَ بعدَ مَشَقَّةٍ وأنا كَأَنِّيَ قائدٌ مَنْصُورُ

صديقته كمسافر رجع بعد تعب، وهو مثل قائد منتصر بعد أن أقنعها بجدوى الحياة

لكِنَّنِي، لما أَوَيْتُ لِمَضْجَعِي خَشُنَ الفِرَاشُ عَلَيَّ، وَهْوَ وَثِيرُ
حَامَتْ على رُوحِي الشُّكوكُ، كأنها وكأَنَّهُنَّ: فَرِيسَةٌ وصُقُورُ

كأن روحي فريسة وكأن الشكوك صقور

أكذَا نموتُ، وتَنْقَضِي أحلامُنَا في لحظةٍ، وإلى التراب نَصِيرُ؟
خَيْرٌ، إذنْ، مِنَّا الأُلى لم يُولَدُوا ومِنَ الأنامِ جَنَادِلٌ وصُخُورُ

٣٩ يا شهر أيار

أيَّارُ يا شاعرَ الشهورِ وبسمةَ الحبِّ في الدُّهورِ
وخالقَ الزَّهْرِ في الرَّوَابي وخالقَ العِطْرِ في الزهورِ
قد كِدْتَ تُحْيِي الموتَى البَوَالِي وتُنْبِتُ العشبَ في الصخورِ

ألا قال: «قد كدت تحيي عظام موتى»، فيسلمَ من زحاف غير مستحب في مخلع البسيط، ويفر من هذه البوالي التي تذكر المرء بالبول

وتجعلُ الشوكَ ذا أَرِيجٍ وتجعلُ الصخرَ ذا شعورِ
تَشكُو إليكَ الشِّتَاءَ نَفسِي وما جَنَاهُ مِنَ الشُّرورِ
كَمْ لَذَعَ الزَّمْهَرِيرُ جِلْدِي ودَبَّ حتى إلى ضَمِيرِي
وكَمْ ليالٍ جَلَسْتُ وَحْدِي مُنْقَبِضَ الصدرِ كالأسيرِ
والشُّهْبُ مُرْتَاعَةٌ كَطَيْرٍ مُخْتَبِئاتٍ مِنَ الصُّقُورِ
وساعةٍ وجهُهَا صَفِيقٌ كأَنَّهُ وجهُ مُسْتَعِيرِ

صفيق: صلب، قليل الحياء، والتشبيه طريف، والمستعير هو من يأتي ليستعير منك حاجة

أبطأَ في السَّيْرِ عَقرباها فأبطأَ الوقتُ في المسيرِ

الوقت يمر بطيئاً بسبب بطء عقارب الساعة، طريف هذا

حتى كأنَّ الزمانَ أعمَى يمشي على الشوكِ في الوُعُورِ
لقد تَوَلَّى الشتاءُ عَنَّا فَصَفِّقِي، يا مُنَيَّ، وَطِيرِي

لو عاش إيليا في العصر العباسي لمدح النقاد كثيراً شعره الباكر فهو شعر معانٍ، مليء بالتشبيهات الطريفة والمعاني المتقنة الصَّوْغ كتشبيهات هذه القصيدة. ولكن شاعرنا صار في شعره المتأخر رومنسياً أكثر، وإنسانياً تفاؤلياً أكثر، أحياناً بشيء من

السذاجة. على أن هذا المنحى ضمن لإيليا أبو ماضي شهرة عريضة لم تفقها في القرن العشرين سوى شهرة شوقي ونزار قباني. وأنبه القارئ العزيز إلى أن الأكاديميين ألهبوا ظهر صاحبنا، بعضهم يريده أن يكتب الشعر الإنساني المحض ليس غير، ويعيب عليه تلك القصائد الباكرة التي كانت تتردد في جنباتها أساليب المتنبي. سلمى الخضراء الجيوسي جلدته بقسوة في دراستها شعره، ولعل كونها كتبت الدراسة بالإنجليزية جعلها تقع أسيرة مفاهيم شعرية بعيدة عن أجواء الشعر العربي. لم ترضني طريقتها ألبتة فقد حاكمت شعر إيليا محاكمة استشراقية. وأما جورج جحا، في أطروحته للجامعة الأميركية ١٩٦٠، فقد كان يقترب في بعض نقداته من صورة المعلم الذي يحمل العصا ويشير بها. لم أرض عن تقريعه لإيليا في أحد قصائده بـ: (عدم وضوح المفهوم الوطني عند أبي ماضي، فهو على الرغم من دعوته إلى الوحدة وإلى مقاومة الأتراك، عرباً لا طوائف، لم يخل من بعض الرواسب القديمة، رواسب الحنين إلى حماة الأقليات الدينية، ورواسب الخلط بين الشعور الوطني والإحساس الديني)، وأرى أن إيليا عبر أقوى وأجمل تعبير عن شعوره، ولا أطلب منه أكثر من ذلك

٤٠ فرعنوه فتفرعن

كان في ماضي الليالي أُمَّةٌ   خَلَعَ العزُّ عليها حِبَرَهْ

حبره: أثوابه

ومَشَى الدهرُ إليها طائعاً   فَمَشَتْ تَائِهَةً مُفْتَخِرَةْ

تائهة: فيها تيه وكبرياء

كان فيها مَلِكٌ ذو فِطنةٍ   حازمٌ، يصفَحُ عِنْدَ المَقْدِرَةْ
ماتَ عنها. فأقامتْ مَلِكاً   طائشَ الرأيِ، كثيرَ الثَّرْثَرَةْ
حولَهُ عُصبةُ سُوءٍ، كلما   جاءَ إدّاً، أقبَلَتْ مُعْتَذِرَةْ

جاء إدّاً: ارتكب عملاً سيئاً

وتمادَى القومُ في غَفْلَتِهِمْ   فتمادَى في الملاهِي المنْكَرَةْ
كان فيها شاعرٌ مُشْتَهِرٌ   ذو قَوَافٍ بَيْنَها مُشْتَهِرَةْ

كان في الأمة شاعر مشهور له قصائد مشهورة بين أبناء هذه الأمة

تَعِسُ الحظِّ، وهلْ أتعسُ مِنْ   شاعرٍ في أُمَّةٍ مُحْتَضَرَةْ
مَرَّ يوماً، فَرَأى أَشْيِخَةً   جلسوا يَبْكُونَ عندَ المَقْبَرَةْ

أشيخة: رجال عجائز

قــال شــيــخٌ مِــنْــهُــمْ مُــحْــدَوْدِبٌ ... ودمــوعُ الــيــأسِ تَــغْــشَــى بَــصَــرَهْ:
هُــوَ مَــلْــكٌ كــانَ فِــيــنــا ومَــضَــى، ... فَــمَــضَــتْ أيــامُــنــا الــمــزدهِــرَةْ
فــانــتَــهــى الــتــاجُ إلــى مُــعْــتَــسِــفٍ ... لــم يَــزَلْ بــالــتَّــاجِ حــتــى نَــثَــرَهْ

معتسف: متجبر، نثره: نثر جواهر التاج وأتلفه

كــلــمــا جــاءَ إلــيــهِ خــائِــنٌ ... واشِــيَــاً قَــرَّبَــهُ، واسْــتَــوْزَرَهْ
فــإذا جــاءَ إلــيــهِ نــاصِــحٌ ... شَــكَّ فــي نِــيَّــتِــهِ، فــانْــتَــهَــرَهْ
هَــزِأَ الــشَّــاعــرُ مِــنْــهُــمْ قــائــلاً: ... بــلــغَ الــسُّــوسُ أصــولَ الــشَّــجَــرَةْ
لــو فــعــلــتُــمْ فِــعْــلَ أجــدادِكُــمُ ... مــا قَــضَــى الــظَّــالــمُ مــنــكُــمْ وَطَــرَهْ
مــا لَــكــمْ تَــشــكُــونَ مِــنْ مُــحْــتَــكِــمٍ ... رُضْــتُــمُ أَلْــسُــنَــكُــمْ أنْ تَــشْــكُــرَهْ

محتكم: حاكم

كــيــف لا يَــبْــغــي ويَــطْــغَــى آمِــرٌ ... يَــتَّــقــي أَشْــجَــعُــكُــمْ أنْ يَــنْــظُــرَهْ؟
مــا اســتــحــالَ الــهِــرُّ لَــيْــثَــاً، إنَّــمــا ... أُسُــدُ الآجــامِ صــارتْ هِــرَرَةْ

الآجام: الأدغال

٤١ تقديس الراحلين

مِنَ المَرْمَرِ المسْنُونِ صَاغُوا مِثَالَهُ ... وطَافُوا بِهِ، في كُلِّ نَاحِيَةٍ، زُمَر

المسنون: الصقيل.. صنعوا له تمثالاً وطافوا حول التمثال جماعاتٍ.. وقوله «في كل ناحية» يوحي بأنه حملوا تمثال المرمر وجالوا به، وهذا لا يكون مع تمثال مرمر

وقالوا: صَنَعْناهُ لتخليدِ رَسْمِهِ، ... فقلتُ: ألا يَفْنَى، كما فَنِيَ الأَثَرْ
وقالوا: غنيٌّ كان يَسْخُو بِمالِهِ، ... فقلتُ لهمْ: هل كان أسخَى مِنَ المطَرْ؟
وقالوا: قويٌّ عاشَ يحمي ذِمَارَنَا، ... فقلتُ لهمْ: هلْ كان أقوَى مِنَ القَدَرْ؟

يحمي ذمارنا: يحمي شرفنا ومالنا

أكــانَ غَــنِــيــاً أم قــويّــاً، فــإنَّــه ... بمالِكُمُ استغْنى، وقوَّتِكُمْ ظَفِرْ
فلَم يَتَعَشَّقْكُمْ، ولا هِمْتُمُ بِهِ ... كما خِلْتُمُ، لكنَّهُ النَّفْعُ والضَّرَرْ
ولم تَرْفَعُوا التِّمْثَالَ للبأسِ والنَّدَى ... ولكنْ لِضَعْفٍ في نُفُوسِكُمُ استَتَرْ
فَلَسْتُمْ تحبُّونَ الغَنِيَّ إذا افْتَقَرْ ... ولستمْ تحبُّونَ القويَّ إذا انْدَحَرْ

رأيتُكُمُ: لا تَعْرُجُونَ بِرَوْضةٍ إذا لم يكنْ في الروضِ فَيْءٌ ولا ثَمَرْ

تعرجون بروضة: أي تُعرِّجون على روضة وتقصدونها

ولا تَعْلِفُونَ الشاةَ إلا لِتُسْمِنُوا، ولا تَقْتَنُونَ الخيلَ إلَّا على سَفَرْ
إذا كانَ حُبُّ الفضلِ للفَضْلِ شَأْنُكُمْ ولم تُخْطِئُوا في الحِسِّ والسَّمْعِ والبَصَرْ..
فما بالُكُمْ لم تُكْرِمُوا الليلَ والضُّحَى ولم تَنْصِبُوا التِّمْثَالَ للشمسِ والقَمَرْ؟

٤٢ مسيحيون ومسلمون

ما كانَ أَحْوَجَ سورِيًّا إلى بَطَلٍ يَرُدُّ بالسيفِ عنها كلَّ مُفْتَرِسِ
ويجعلُ الحُبَّ دِينَ القاطِنِينَ بِهَا دِينٌ يُقَرِّبُ بينَ البيْتِ والقُدُسِ

البيت: الكعبة قبلة المسلمين، والقدس مدينة مقدسة عند المسيحيين، وغير المسيحيين

حتى أَرَى ضاربَ الناقوسِ يُطْرِبُهُ صوتُ الأَذَانِ، وهَذا رَنَّةُ الجَرَسِ

٤٣ مقام التفجع

رثاء المطران رفائيل هواويني:

هذا مَقامٌ، لا التَّفَجُّعُ سُبَّةٌ فيهِ، ولا الصبرُ الجميلُ جميلُ
ما أحمقَ الإنسانَ! يَسْكُنُ لِلْمُنَى والموتُ يَخْطِرُ حولَهُ ويَجُولُ

يسكن للمنى: يطمئن للأماني

يَهوَى الحياةَ، كأنما هو خالدٌ أبداً، ويعلمُ أنه سَيَزُولُ

٤٤ المرأة وقهر الرجال

أيُّها القلبُ الذي في أضلُعي إنما اللذَّةُ جَهْلٌ فاجْهَلِ
تَجْمُلُ الرِّقَّةُ في العَضْبِ، فإنْ كنتَ تَهْواهَا، فَكُنْ كالمُنْصُلِ

العضب والمنصل: السيف

هِيَ في الغِيدِ الغَواني قُوَّةٌ وهْيَ ضَعْفٌ في فؤادِ الرَّجُلِ
تُقْتَلُ الشاةُ، ولا ذَنْبَ لها هِيَ، لولا ضعفُها، لم تُقْتَلِ
كلما فَكَّرْتُ في حاضِرِنا عاقَني اليأسُ عن المُستَقْبَلِ
سَجَّلَ العارَ علَيْنا مَعْشَرٌ سَجَّلُوا المرأةَ بينَ الهَمَلِ

الهمل: الإبل السائبة

وَلَهَا فِي كُلِّ بَابٍ وِقْفَةٌ كَامْرِئِ القَيْسِ حِيَالَ الطَّلَلِ
تَتَّقِي قَوْلَ: اغْرُبِي، خَشْيَتَهَا قَوْلَةَ القائِلِ: يا هذي ادْخُلِي

تتجنب أن يقول لها زوجها انصرفي، وتكره أيضاً أن يقول لها ادخلي البيت، لما تعاني معه من هوان

فَهْيَ كَالعُصْفُورِ وافَى، صَادِياً، فَرَأَى الصَّيَّادَ عِنْدَ المَنْهَلِ

وافى: أقبل، صادياً: عطشان، المنهل: مورد الماء

كامِنَاً، فانصَاعَ، يُدْنِيهِ الظَّمَا ثم يُقْصِيهِ اتِّقَاءُ الأَجَلِ

٤٥ مديح ألَنبي

لِلَّهِ مَا أَحْلَى البَشِيرَ وقولَهُ سقطَ الهلالُ إلى الحضيضِ، ودَالا

الهلال: شعار الدولة العثمانية، دال: انتهى زمنه

بالأمسِ قَطَّعَتِ الجزيرةُ قَيْدَهَا ورَمَتْ بِوَجْهِ الغاشِمِ الأَغْلالا

الجزيرة: الجزيرة العربية التي ثارت بالعثمانيين في الحرب العالمية الأولى

أَبَنَاتِ أُورَشَلِيمَ! ضَمِّخْنَ الثَّرَى بِالطِّيبِ، وامْلأْنَ الدُّروبَ جَمَالا
حتى يَمُرَّ الفاتِحُونَ، فَإِنَّهُمْ كَشُّوا الأَذَى عَنْكُنَّ، والإِذْلالا

كشوا: نفضوا، الفاتحون: يقصد جيوش الحلفاء

يا قائدَ الصِّيدِ الغَطَارِفَةِ الأُلَى تُحْنَى الرؤوسُ، لِذِكرِهِمْ، إِجْلالا

الصيد: الأسياد، الغطارفة: الأسياد، وقائدهم الذي احتل القدس كان الإنجليزي إدموند ألنبي

ظَنَّ المَغولُ جُنُودَهُمْ تَحْمِيهِمُ والقِرْدُ يَحْسَبُهُ أبوهُ غَزَالا

المغول: يقصد الأتراك

كَمْ جَحْفَلٍ بَعَثُوا إليكَ مَعَ الدُّجَى لاقَاهُ جَيْشُكَ، والصباحَ، فَزَالا

والصباح: عند الصباح

طَارَدْتَهُمْ، فوقَ الجبالِ وتَحْتَهَا، كَاللَّيْثِ يَطْرُدُ دُونَهُ الأَوْعَالا
فملأتَ هاتِيكَ الأَباطِحَ والرُّبَى بِجُسُومِهِمْ، ومَلأْتَهُمْ أَهْوَالا
وحَمَيْتَ، إِلَّا السُّهْدَ، عن أجفَانِهِمْ ومَنَعْتَ، إِلَّا عَنْهُمُ، الأَوْجَالا

وصَنَعْتَ مِنْ أَسْيَافِهِمْ ودُرُوعِهِمْ لِرِقابِهِمْ وزُنُودِهِمْ أَغْلالا
لو لم تُسَاقِطْهُمْ إليكَ جِبالُهُمْ عندَ الضُّحى زَلْزَلْتَها زِلْزَالا
هُنِّئْتَ بِالنَّصْرِ المبِينِ، فَإِنَّهُ نَصْرٌ يَعِزُّ على سِوَاكَ مَنَالا
أَرْضَيْتَ مُوسى والمسِيحَ وأَحْمَداً والناسَ أجمعَ، والإلَهَ تعالَى

٤٦ أيهذا الشاكي

أَيُّهَذا الشَّاكي، وما بِكَ داءٌ كيفَ تغدُو إذا غَدَوْتَ عَليلا؟

تشكو وليس بك مرض، فكيف لو مرضت؟

إن شَرَّ الجُنَاةِ في الأرضِ نَفْسٌ تَتَوقَّى، قبلَ الرَّحيلِ، الرَّحيلا
وترَىَ الشوكَ في الورودِ، وتَعْمَى أنْ تَرى فوقَها النَّدىَ إكْليلا
هُوَ عِبْءٌ على الحياةِ ثقيلٌ مَنْ يَظُنُّ الحياةَ عِبْئاً ثَقيلا
والذي نفسُهُ بِغَيْرِ جَمالٍ لا يَرى في الوجودِ شيئاً جَميلا
ليس أشقَى مِمَّنْ يَرى العيشَ مُرّاً ويَظُنُّ اللَّذَّاتِ فيه فُضُولا
أحْكَمُ الناسِ في الحياةِ أُناسٌ عَلَّلُوها، فأَحْسَنوا التَّعليلا
فَتَمَتَّعْ بِالصبحِ ما دمتَ فيهِ لا تَخَفْ أنْ يَزولَ، حتى يَزُولا
وإذا مَا أَظَلَّ رأسَكَ هَمٌّ قَصِّرِ البحثَ فيهِ، كَيْلا يَطولا
أدركتْ كُنْهَهَا طيورُ الرَّوابي فَمِنَ العارِ أن تَظَلَّ جَهُولا
ما تَراها؟ والحقلُ مِلْكُ سِوَاها، تَخِذَتْ فيهِ مَسْرَحاً ومَقِيلا
تَتَغَنَّى، والصَّقْرُ قد مَلَكَ الجَوَّ عليها، والصَّائِدونَ السَّبِيلا
تَتَغَنَّى، وقد رَأَتْ بَعْضَها يُؤْخَذُ حَيّاً، والبَعْضَ يَقْضي قَتِيلا
تَتَغَنَّى، وعُمْرُها بعضُ عامٍ، أَفَتَبْكي، وقد تعيشُ طَويلا؟
فَهْيَ فوقَ الغُصونِ في الفَجْرِ تَتْلُو سُوَرَ الوَجْدِ والهوىَ تَرْتِيلا
وَهْيَ طَوْراً على الثَّرَى واقِعاتٌ تَلْقُطُ الحَبَّ، أو تَجُرُّ الذُّيُولا
كلما أمسكَ الغصونَ سُكونٌ صَفَّقَتْ لِلْغصونِ حتى تَمِيلا
فإذا ذَهَّبَ الأصيلُ الروابيَ وقفتْ فوقَها تُنَاجِي الأَصِيلا
فاطْلُبِ اللهوَ، مِثْلَمَا تَطْلُبُ الأَطْيارُ عندَ الهجيرِ ظِلّاً ظَلِيلا

وتَعَلَّمْ حُبَّ الطَّبيعةِ مِنْها   واتْرُكِ القالَ لِلْوَرى، والقِيلا
فالذي يَتَّقي العواذِلَ يَلْقَى   كلَّ حينٍ في كلِّ شَخْصٍ عَذُولا
أنتَ لِلأَرْضِ أَوَّلاً وأخيراً   كنتَ مَلْكاً، أو كنتَ عَبْداً ذَلِيلا
لا خلودٌ تحتَ السَّماءِ لِحَيٍّ   فَلِمَاذا تُراوِدُ المستحيلا؟
كلُّ نَجْمٍ إلى الأفولِ، ولَكِنْ   آفَةُ النجمِ أنْ يخافَ الأُفُولا
غايةُ الوَرْدِ في الرياضِ ذُبولٌ،   كنْ حَكِيماً، واسْبِقْ إليهِ الذُّبولا
وإذا ما وجدتَ في الأرضِ ظِلّاً   فَتَفَيَّأْ بِهِ، إلى أنْ يَحُولا

يحول: يتحول وينتقل

وتوقَّعْ، إذا السماءُ اكْفَهَرَّتْ   مَطَراً في السهولِ، يُحْيي السُّهولا
قلْ لِقَوْمٍ يَسْتَنْزِفُون المآقي: هلْ شَفَيْتُمْ، مَعَ البُكاءِ، غَلِيلا؟
ما أَتَيْنَا إلى الحياةِ لِنَشْقَى   فَأَرِيحُوا، أهلَ العُقُولِ، العُقُولا
كلُّ مَنْ يجمعُ الهمومَ عَلَيْهِ   أَخَذَتْهُ الهمومُ أَخْذاً وَبِيلا
كُنْ هَزَاراً في عُشِّهِ يَتَغَنَّى   ومَعَ الكَبْلِ، لا يُبَالي الكُبُولا

يتغنى طليقاً في عشه، فإذا كبله الناس أي حبسوه في قفص ظل يتغنى

لا غُراباً يُطارِدُ الدُّودَ في الأر   ضِ، وبُومَاً في الليلِ يَبْكي الطُّلولا
كُنْ غديراً يسيرُ في الأرضِ رَقراً   قاً، فَيَسْقي، مِنْ جانِبَيْهِ الحقولا
تستَحِمُّ النجومُ فيهِ، ويَلْقَى   كلُّ شخْصٍ، وكلُّ شيءٍ مَثِيلا

أي يرى المرء صورته في الغدير الصافي

لا وِعَاءً يُقَيِّدُ الماءَ، حتى   تَسْتَحيلَ المياهُ فيهِ وُحُولا
كُنْ مَعَ الفَجْرِ نَسْمَةً تُوسِعُ الأزْ   هارَ شَمّاً، وتَارَةً تَقْبِيلا
لا سَمُوماً مَعَ السَّوافي اللواتي   تَمْلأُ الأرضَ في الظلامِ عَوِيلا

السموم: ريح حارة، السوافي: الرياح ذات الغبار

ومَعَ الليلِ كَوْكباً يُؤْنِسُ الغا   باتِ والنَّهْرَ والرُّبى والسهولا
لا دُجىً يَكْرَهُ العوالم والنا   سَ، فَيُلقي على الجميعِ سُدُولا

سدولاً: ستوراً

أيُّهذا الشَّاكي! وما بِكَ داءٌ كُنْ جَميلاً، تَرَ الوُجُودَ جميلا

٤٧ اسقني ما حرَّموا

حملَ الشمسَ إلينا قمرٌ في سماءٍ، نحنُ فيها أَنجُمُ

الشمس يقصد بها الكأس، والقمر الفتاة، والسماء مجلس الشراب

شَادِنٌ حَكَّمَهُ الحُسْنُ بِنَا وسِوَى الحُسْنِ بِنَا لا يَحْكُمُ

شادن: غزال

أَسْبَلَ الشَّعْرَ، فَيَا عَيْنِي اسْهَري إنَّهُ ليلٌ طويلٌ مُظْلِمُ
صَنَمٌ في خَدِّهِ النارُ، وفي كَفِّهِ ضَرَّتُها تَضْطَرِمُ

هذا المحبوب صنم (فائق الجمال) في خده احمرار كالنار، وفي كفه الخمر وهي ضرة النار لأنها محمرة كأنها تضطرم (تلتهب)

بِنْتُ كَرْمٍ لم يَهِمْ فيها سِوَى كلِّ صَبٍّ هامَ فيهِ الكَرَمُ
حُبِسَتْ في دَنِّهَا مِنْ قِدَمٍ مَا لها ذَنْبٌ، ولَكِنْ ظَلَمُوا
حَرَّمُوهَا حِينما خَافوا علَيْـ ـها سِوَاهُمْ، فاسْقِنِي مَا حَرَّموا
إنَّها سِرٌّ فَشَا بينَ الوَرى وإذا السرُّ فَشَا، لا يُكْتَمُ

هذه خمرية يحسدك عليها النواسي يا إيليا

٤٨ خاطرتان

يا سيِّدَ المنْشِدينَ طُرًّا وصاحبَ المنطقِ المُبِينِ

يخاطب البلبل

لو كنتَ بُوماً، أو كُنْتَ نَسْرَا ما بِتَّ في أسرِكَ المُهِينِ
خُلِقْتَ لمَّا خُلِقْتَ، حُرًّا فَزَجَّكَ الحُسْنُ في السجونِ

* * *

أعجبُ ما في بَني التُّرَابِ قتالُهُمْ فوقَهُ عليهِ
قد صَيَّروا الأرضَ كالكِتابِ وانْحَشَروا بينَ دَفَّتَيْهِ
واستعجلوا الموتَ بالعَذابِ وكُلُّهُمْ صائِرٌ إليهِ

٤٩ الخامل

سَكَتَّ خَوفاً، وقلتَ الصَّفْحُ مِنْ خُلُقي ونِمْتَ جُبْناً، وقلتَ الحِلْمُ مِنْ شِيَمي
وإنما أنتَ، والأقوامُ قد عَلِمُوا، لولا خُمُولُكَ لم تَسْكُتْ ولم تَنَمِ

٥٠ منع البوم أن يُصاد..

وثَـقِـيـلٍ، كـأنَّـهُ بَـرْدُ كَـانُـو نَ، قَلِيلِ الحَيَاءِ، جَمِّ الكَلامِ

كانون الأول: ديسمبر، كانون الثاني: يناير

لـيس يَـدْري بِـأنَّـهُ لـيسَ يَـدْري إنَّ بـعـضَ الأنـامِ كـالأنـعـامِ
يَتَمَنَّى، يـا بُـعْـدَ مـا يَتَمَنَّى لـو جَـرى ذِكْـرُهُ عـلـى الأقْـلامِ
مَـنَـعَ الـبُـومَ أنْ يُـصَـادَ ويُـرْمَـى كـونُـهُ غـيـرَ صَـالـحٍ لِـلـطَّـعَـامِ

يُرمَى: يُرمَى بالسهام لصيده

٥١ حُجة المغتربين

رسالة من لبنان إلى أبنائه المهاجرين. قالها في حفلة:

لـبـنـانُ! لا تَـعْـذِلْ بَـنِـيـكَ إذا هُـمُ رَكِبوا إلى العَلياءِ كلَّ سَفِينِ
لـم يَـهْـجُـروكَ مَـلالَـةً، لـكـنَّـهُـمْ خُلِقُوا لِصَيدِ اللؤْلؤِ المكْنونِ

فأجابَنِي والدَّمْعُ ملءُ جُفُونِهِ: كَمْ ذا تُسَلِّيني، ولا تُسْلِيني

تُسْليني: تنسيني

الأرْمَنِيُّ على سُفُوحِيَ والربى يَبْنِي الحصونَ لنفسِهِ بِحُصوني
وبنو يَهُوذا يَنْصِبونَ خِيامَهُمْ في ظلِّ أوْدِيَتي وفوقَ حُزُوني

حزوني: هضابي

وبَنِيَّ عَنِّيَ غافِلُونَ كأنني قد صرتُ في الأشياءِ غيرَ ثَمِينِ
أنتمْ دُيونٌ لي على آمِيرِكا ومِنَ المُروءةِ أنْ تُرَدَّ دُيُوني

آميركا: أميركا، ومدها ليستقيم الوزن

أَوَليسَ مِنْ سُخْرِ القضاءِ وهُزْئِهِ أنْ يَأْخُذَ المثْري مِنَ المِسْكينِ

٥٢ الثري العالة

إذا بـنـى رجـلٌ قـصـراً وزَخْـرَفَـهُ سُـقْنَا إليـهِ التَّـهـاني وامْـتَـدَحْـنـاهُ
وما بَنَى قصرَهُ إلّا لِيَحْجُبَ عن أبـصـارِنـا فـي زوايـاهُ خَـطـايـاهُ
ونَـمْدَحُ الـمرءَ مِنْ خزٍّ ملابِسُـهُ وذلـكَ الـخَـزُّ لـم تَـنْسُـجْـهُ كَـفَّـاهُ

الخز: الحرير

٥٣ نعاج نيويورك

أحسنُ الأيامِ في العصرِ انقضَتْ آهِ لـو يـنـشُـرُهـا مَـنْ قـد طَـوَاهـا
صرتُ فـي نْـيـوُيُـرْكَ طَـيْـفـاً شـارِداً مَـعْ طُـيـوفٍ حـائـراتٍ فـي سُـرَاهـا

سراها: سيرها الليلي

طَـرَحَـتْ عـنـهـا رُؤَاهـا، ومَـضَـتْ تَـنْـشُـدُ الـمـجـدَ الـذي فـيـه شَـقَـاهـا
كَـنِـعَـاجٍ عَـمِـيَـتْ أبـصـارُهـا ووَهَـتْ فـي طَـلَـبِ الـعُـشْـبِ قُـوَاهـا

وهت: تعبت

كُـلَّـمَـا جَـدَّتْ لِـكَـيْ تُـدْرِكَـهُ وَجَـدَتْـهُ صـارَ فـي الأرضِ وَرَاهَـا

٥٤ لبنان في حماية الله

اِثـنـانِ أَعْـيَـا الـدهـرَ أنْ يُـبْـلِـيـهِـمَـا: لـبـنـانُ، والأمـلُ الـذي لِـذَويـهِ
نَـشْـتـاقُـهُ والـصـيـفُ فـوقَ هِـضَـابِـه ونُـحِـبُّـهُ والـثـلـجُ فـي وادِيـهِ
وَطَني سَتَبْقَى الأرضُ عنديَ كلُّها، حـتـى أعـودَ إلـيـهِ، أرضَ الـتِّـيـهِ
سأَلوا الجمالَ، فقالَ: هذا هَيْكَلي والـشِّـعْـرَ، قـال: بَـنَـيْـتُ عَـرْشِـيَ فيهِ
غَـيْـرِي يَـراهُ سِـيـاسَـةً وطَـوائـفـاً ويَـظَـلُّ يَـزْعُـمُ أَنَّـهُ رَائِـيـهِ
لا يُـسْـفِـرُ الـحُـسْـنُ الـنَّـزِيـهُ لِـنَـاظِـرٍ مـا دام مـنـهُ الـطَّـرْفُ غـيـرَ نَـزِيـهِ

الطرف: النظر

ولِمَنْ يَقُولونَ: الفِرَنْجُ حُمَاتُهُ، اَلـلَّـهُ قـبـلَ سُـيـوفِـهِـمْ حَـامِـيـهِ

٥٥ طباخو السم في أوروبا

وارَحْـمَـتـاهُ لأُورُبَّـا! فَـمـا فَـتَـكَـتْ أَفْعى بِأَفْعى، كَأَهلِيها بِأَهلِيها

لم يبقَ غيرُ الضَّوَارِي في خَلائِقِها ومِنْ حَضَارَتِها إلّا مَخَازِيها
الضواري: الوحوش، خلائقها: ناسها

كانتْ تُعِدُّ الدَّوَاهِيَ في مَصانِعِها لِغَيْرِها، فأصابَتْها دَواهِيها
وكلُّ طابِخِ سُمٍّ سوفَ يأكُلُهُ وكلُّ حافِرِ بئرٍ واقعٌ فيها
لو دامَ إيمانُها لم تَنْطَلِقْ سَقَرٌ بِدُورِها، والأفاعي في مَغَانِيها
لكنْ أَكَبَّتْ على الآلاتِ تَعْبُدُها وتَسْتَعينُ بِها مِنْ دونِ بَارِيها
باريها: خالقها

٥٦ حنين إلى عصر الرشيد

كَمْ بينَ طَيَّاتِ العصورِ الخاليةْ عِظَةٍ لأبناءِ الدُّهورِ الآتِيَةْ
فإذا مشى فِينا الفَناءُ فَرَاعَنا خَلَقَ الخيالُ لنا الحياةَ الثَّانِيةْ
كَمْ تَعْشَقُ الدنيا وتُنْكِرُ صَدَّها أنسيتَ أنَّ الخُلْفَ طَبْعُ الغَانِيةْ؟
عدم الوفاء بالوعد من طبع الفتاة الجميلة

خلِّ الغرورَ بِما لَدَيْكَ، فإنما دُنْياكَ زَائلةٌ، ونَفْسُكَ فَانِيةْ
إنَّ الأُلَى وَطِئَتْ نِعَالُهُمُ السُّهَى وَطِئَتْ جِبَاهَهُمُ نِعَالُ الماشِيَةْ
السهى: نجم بعيد، يقول: الذين بلغوا المجد ماتوا وداست قبورهم المواشي

لو أنَّ حَيَّاً خالدٌ فوقَ الثَّرَى ما ماتَ هارونٌ، وزالَ مُعَاوِيَةْ
أو كانَ عزٌّ دائماً، مَا أصبحتْ بغدادُ في عَدَدِ الطُّلولِ البَالِيَةْ
أخْنَتْ عليها الحادثاتُ، فَدُورُها خِرَبٌ تَعَاوَرُها الرِّياحُ السَّافِيَةْ
أخنت عليها (أهلكتها) الحادثات (المصائب) فبيوتها خِرَبٌ تعاورها (تتناوبها) الرياح السافية (المحملة بالأتربة)

واجتاحَ مُجْتَاحُ العُروشِ مُلُوكَها فكأنَّهُمْ أعجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةْ
مجتاح العروش: الزمن، أعجاز نخل خاوية: أُصولُ نَخْل خَاوِيةٌ سَاقطَة فارِغة

أينَ القصورُ الشاهقاتُ وأهلُها بادَ الجميعُ فما لهُمْ مِن باقِيةْ
دَرَستْ معالِمُها وغَيَّرَها البِلَى ولقد تُرَى حُلَلَ المَحاسِنِ كَاسِيَةْ
درست (امحت) معالمها وغيرها البلى (التحلل)، وكانت ترى كاسية (مكسوة) بحلل (بثياب) المحاسن

أيامَ كانَ لِكُلِّ حُسْنٍ شَاعِرٌ   كَلِفٌ بِهِ، ولِكُلِّ شِعْرٍ رَاوِيَةْ

الراوية: الذي يحفظ ويروي أشعار غيره

أيامَ دجلَةُ مُطْمئِنٌّ هَادئٌ   جَذْلانُ يَهْزَأُ بالبُحورِ الطَّامِيَةْ

دجلة كان مفتخراً على كل البحور التي تفيض بمائها، والبحر تعني النهر أيضاً

النيلُ خادِمُهُ الأمينُ؛ وعبدُهُ   نهرُ الفراتِ وكلُّ عينٍ جَارِيةْ

في عصر هارون الرشيد كانت مصر تتبع دار الخلافة في بغداد

تهوَى الكواكبُ أنَّها حَصْباؤُهُ   أو أنَّها شَجَرٌ عليْهِ حَانِيَةْ

حانية: منحنية

وتَوَدُّ كلُّ سَحَابةٍ مَرَّتْ بِهِ   لو أنَّه سُحُبٌ عليها هَامِيَةْ

هامية: هاطلة بالمطر

وتَرى الغَزَالَةُ طيفَها عندَ الضُّحَى   في سطحِهِ، فَتَبِيتُ عَطْشَى رَاوِيَةْ

الغزالة: الشمس، وحقها ألا تحلى بأل فغزالة علم على الشمس

أيامَ كانَ الشرقُ مرهوبَ الحِمَى   يكسُو الجلالُ سهولَهُ ورَوَابِيَهْ

أيامَ هارونٌ يُدِيرُ شُؤُونَها،   يا عصرَهارونٍ عليكَ سَلامِيَهْ

فَتَحَضَّرَ البادُونَ في أيَّامِهِ   واسْتَأْنَسَتْ حتى الوُحوشُ الضَّارِيَةْ

إيهٍ أبا المأمونِ! ذِكْرُكَ آبِدٌ   في الأرضِ مثلَ الشامِخَاتِ الرَّاسِيَةْ

أبو المأمون: هارون الرشيد، آبد: خالد للأبد، الشامخات الراسية: الجبال

يا ويحَ هذا الشرقِ بَعْدَكَ! إنَّهُ   لِلضَّعْفِ باتَ على شَفِيرِ الهَاوِيَةْ

ما كانَ يقنعُ بالنجومِ وَسَائِدَاً   واليومَ يقنعُ أهلُهُ بِالعَافِيَةْ

أَبَنِي الغَطَارِفَةِ الجبابِرَةِ الأُلَى   وَطِئُوا اللُّوَارَ، ودَوَّخوا إسْبَانِيَةْ

يا أبناء الغطارفة (السادة) الألى (الذين) وطئوا (داسوا) اللوار (نهر يصب في الأطلسي، وبقربه وقعت معركة بلاط الشهداء على بعد ٣٠٠ كم من باريس) ودوَّخوا إسبانية

لا أَسْتَفِزُّكُمُ لِمِثْلِ فُتُوحِهِمْ   لكنْ إلى حِفْظِ البَقَايا البَاقِيَةْ

يا لِلرِّجَالِ! أما عَلِمْتُمْ أنَّكُمْ،   إنْ لم تَثُورُوا، أمَّةٌ مُتَلاشِيَةْ؟

٥٧ بعد الموت

غَـلِـطَ الـقـائـلُ إنَّـا خـالـدونْ   كُـلُّـنَـا بـعـدَ الـرَّدَى هَـيُّ بْـنُ بَـيّ

هي بن بي: واحد من الناس ليس له أي صفة

* * *

لو عَرَفْنَا ما الذي قبلَ الوُجُودْ   لَعَرَفْنَا ما الذي بعدَ الفَنَاءْ

نَحنُ لو كُنَّا، كمَا قَالُوا، نَعُودْ   لم تَخَفْ أنفسُنا رَيْبَ القَضَاءْ

إنما القولُ بأنَّا لِلْخُلودْ   فِكْرَةٌ أَوْجَدَها حُبُّ البَقَاءْ

* * *

نَعْشَقُ البُقْيَا لأنَّا زَائِلُونْ   والأمَانِي حَيَّةٌ في كُلِّ حَيّ

* * *

زَعَمُوا الأرواحَ تَبْقَى سَرْمَدَا   خَدَعُونا. نَحْنُ والشَّمْعُ سَوَاءْ

سرمداً: للأبد

يَلْبَثُ النورُ بِها مُتَّقِدَا   فإذا ما احترقتْ بَادَ الضِّيَاءْ

أينَ كانَ النورُ؟ أنَّى وُجِدَا؟   كيف وَلَّى عندَما زالَ البِنَاءْ؟

البناء جسم الشمعة، وبزواله زال النور. كذا جسم الإنسان.. يزول فتزول الروح

* * *

شَمْعَتي فيها لِطُلَّابِ اليَقِينْ   آيةٌ تَدْفَعُ عنهُمْ كُلَّ غَيّ

آية: برهان

* * *

ليستِ الروحُ سِوى هذا الجَسَدْ   مَعَهُ جاءتْ ومَعْهُ تَرْجِعُ

لم تَكُنْ موجودةً قبلَ وُجِدْ   ولهذا حِينَ يِمضي تَتْبَعُ

فَمِنَ الزُّورِ المُوَشَّى والفَنَدْ   قولُنا: الأرواحُ لَيستْ تُصْرَعُ

الفند: العجز

* * *

تَلْبَثُ الأَفياءُ ما دامَ الغُصُونْ　　فإذا ما ذَهَبتْ لم يَبْقَ فَيّ

* * *

لو تكونُ الروحُ ما لا يضْمَحِلّ　　ما جَزِعْنَا كُلَّما جِسْمٌ هَمَدْ
لو تَكُونُ الروحُ جِسْماً مُسْتَقِلّ　　لَرآها مَنْ يَرَى هذا الجَسَدْ
كلُّ ما في الأرضِ مِنْ عَيْنٍ وظِلّ　　سوفَ يَنْحَلُّ كَما انْحَلَّ الزَّبَدْ

* * *

ولئنْ صحَّ بأنَّا مُنْشَرونْ　　جازَ أنْ يُعْقِبَ ذاكَ النَّشْرَ طَيّ

* * *

ليتَ مَنْ قالوا بِأَنَّا كالزُّهُورْ　　خَبَّرونَا أينَ تَمْضي الرائحَةْ؟
أتُرى تَبقى كألحانِ الدُّهورْ؟　　أم تَلاشَى مِثْلَ صوتِ النَّائحَةْ؟

تلاشى: تتلاشى

ليتَ شِعْري أيُّ خُلْدٍ لِلْبُذورْ　　بعدَ أن تُلْقَى بِنَارٍ لافِحَةْ؟

* * *

قلْ لِمَنْ يَخْبِطُ في ليلِ الظُّنُونْ　　ليسَ بعدَ الموتِ لِلظامِئِ رِيّ

* * *

مِثْلَمَا يَذْهَبُ لونُ الوَرَقَةْ　　عندما تَيْبَسُ في الأرضِ الأُصُولْ
مِثْلَمَا يُفْقَدُ نُورُ الحَدَقَةْ　　حِينَ أَقْضي، هكذا نَفْسي تَزُولْ
كَتَلاشِي الشَّمْعَةِ المحْتَرِقَةْ　　تَتَلاشَى بينَ ضِحْكٍ وعَوِيلْ

* * *

أنَا بعدَ الموتِ شيئاً لا أكُونْ　　حيثُ إنِّي لم أكُنْ مِنْ قبلُ شَيّ

* * *

إيهِ أَبْنَاءَ الثَّرَى نَسْلَ القُرُودْ　　عِلِّلُوا أنْفُسَكُمْ بالتُّرَّهَاتْ
اِلْبَسُوا في صَحْوِكُمْ ثوبَ الجُمُودْ　　واحْلُمُوا في نومِكُمْ بِالمعْجِزاتْ
فَسَيَأْتي زَمَنٌ غيرُ بَعِيدْ　　تَتَهادى بَيْنَكُمْ فيهِ إيَاةْ

إياة: هالة الشمس. فالكرة الأرضية قد تعود لتلتحم بأمها الشمس!

* * *

ويَـحِـلُّ الـلَّـهُ فـي مَـاءٍ وطِـيــنْ فَيَراهُ الشَّيْخُ، والشَّـابُ الأُحَيّ!

عندئذ، عندما نلتحم بأمنا الشمس سنرى نجوم الظهر ويحل فينا الله، فيراه الشيخ الكبير والشاب الأحي (تصغير الأحوى أي المسمر الضارب إلى حمرة، والتعبير من بيت لابن الفارض في يائيته المشهورة، و«الشاب» هنا مثلها هناك كاسرة البيت فلا بد لك من قراءتها بإسقاط الألف. وأخطأ في فهم «الأحي» صاحب المقدمة الطويلة لمجموع أشعار أبو ماضي زهير ميرزا، فجعلها «الأكثر حياة»، وتابعه في سوء فهمه مَن تابعه من الدارسين)

وإنما فسرنا الأبيات الأخيرة هذا التفسير المباشر لأن روح القصيدة روح دارويني مادي خالص. ولا نراه قال إن الله يحل في الماء والطين ـ وهذا تلوين سمفوني على كلمة جبران (أما أنت إذا أحببت فلا تقل «الله في قلبي» لكن قل «أنا في قلب الله») ـ قلنا لا نراه قالها إلا ساخراً ناقضاً هذه الفكرة

٥٨ كل امرئٍ وجنته

لا تَسَلْنِي عنِ السماءِ، فما عِنـ ـدِيَ إلَّا الـنُّـعـوتُ والأسـمـاءُ

لا تسألني عن السماء (الجنة) فليس عندي سوى الأوصاف والأسماء (معلومات قليلة عنها)

فـسـمـاءُ الـراعـي، كـمـا يَـتَـمَـنَّـا ـهـا، مُـروجٌ فـسـيـحـةٌ خـضـراءُ
وَهْـيَ عـنـدَ الأمِّ الـتـي اخْـتَـرَمَ الـمو تُ بَـنِـيـهـا، وضَـلَّ عـنـهـا الـعـزاءُ..

اخترم: أهلَكَ

مَـوْضِـعٌ لا يَـنَـالُـهُـمْ فـيـهِ ضَـيْـمٌ لا، ولا يُـدْرِكُ الـشـبـابَ الـفَـنَـاءُ
وكَـذا يُـولَـدُ الـرجـاءُ مـن الـيـأْ سِ إذا مَـاتَ فـي الـقـلـوبِ الـرجـاءُ
وهْـيَ عـنـدَ الـفـقـيـرِ أرضٌ وراءَ الـ ـأُفْـقِ، فـيـهـا مـا يـشـتـهـي الـفـقـراءُ
وهْيَ عندَ المظلومِ أرضٌ كَهَذي الـ ـأَرْضِ، لَكِنْ قد شاعَ فيها الإخاءُ
وهْيَ عندَ الخليعِ أرضٌ تَمِيسُ الـ ـحُـورُ فـيـهـا، وتَـدْفُـقُ الـصَّـهْـبَـاءُ

الخليع: المتهتك اللامبالي، تميس الحور: تتمايل الجميلات، تدفق الصهباء: تتدفق الخمر

لـيـس بـيـنَ الـصَّـلاحِ والـشَّـرِّ حَـدٌّ كـالـذي شـاءَ وَضْـعَـهُ الأنـبـيـاءُ
وإذا لـم يـكـنْ عـفـافٌ وفِـسْـقٌ لـم تـكـنْ حِـشْـمَـةٌ، ولا اسْـتِـحـيـاءُ
كُـلُّ قـلـبٍ لـه الـسـمـاءُ الـتـي يَـهْـ ـوى، وإنْ شئتَ كُـلُّ قَـلْـبٍ سـمـاءُ

كل قلب له جنته، لا بل كل قلب لكل إنسان هو جنة

رُبَّ شيءٍ كالجوهرِ الفردِ فَذٍّ   عَدَّدَتْهُ الأغراضُ والأهواءُ

ثمة شيء فذ (متفرد) كالجوهر الفرد (الأصل الواحد) ولكنه يتعدد بتعدد حاجاتنا واهوائنا

كلُّ ما تَقْصُرُ المداركُ عنهُ   كائنٌ مِثْلَما الظنونُ تشاءُ

ما تقصر المدارك (العقول) عن فهمه كائن (صائر) بحسب ما تهوى الظنون. لا أدري إن كنت ستقول إنها من الشعر المدرسي! لكن فيها حكمة عامة. فكلنا يتصور السعادة في زمن سيأتي، ويتصورها بحسب شهوات قلبه. والجنة هي التصوير الأكبر للسعادة الشاملة، ولكن الشاعر يكتشف أن لكل إنسان جنته الخاصة. ويطلق بعض الأحكام التي تستوقف المرء: فلولا وجود الفِسق لما وُجد العفاف. وليس هناك حد قاطع واضح بين الخير والشر

٥٩ حجر متعطش للشهرة

سمِعَ الليلُ ذو النجومِ أنيناً   وهْوَ يَغْشَى المدينةَ البيضاءَ

يغشى المدينة: يأتيها

فانحنى فوقَها كَمُسْتَرِقِ الهَمْـ   ـسِ، يُطِيلُ السُّكوتَ والإصغاءَ

انحنى الليل فوق المدينة مصغياً

فرأى أهلَها نِياماً كأهلِ الـ   ـكهفِ، لا جَلْبَةً ولا ضَوْضَاءَ
ورأى السَّدَّ خلفَها مُحْكَمَ البُنْـ   ـيانِ، والماءَ يُشْبِهُ الصحراءَ
كانَ ذاكَ الأنينُ من حَجَرٍ في السَّـ   ـدِّ يَشكُو المقادِرَ العمياءَ
أيُّ شَأْنٍ، يَقولُ، في الكون شَأْني؟   لستُ شيئاً فيهِ، ولستُ هَبَاءَ
لا رُخامٌ أنا فَأُنْحَتُ تِمثا   لاً، ولا صخرةٌ تكونُ بِنَاءَ
لستُ دُرّاً تُنافِسُ الغادةُ الحسـ   ـناءُ فيهِ المليحةَ الحسناءَ
فَلأُغادِرْ هذا الوجودَ وأَمضي   بسلامٍ، إني كرهتُ البقاءَ
وَهَوى من مَكانِه، وَهْوَ يَشكُو الـ   ـأرضَ والشُّهْبَ والدجى والسماءَ
فَتَحَ الفجرُ جَفنَهُ، فإذا الطُّو   فانُ يَغْشَى المدينةَ البيضاءَ

٦٠ محاولة في الاعتزال

سئِمَتْ نفسيَ الحياةَ معَ النا   سِ، ومَلَّتْ حتى مِنَ الأحبابِ
قالتِ: اخْرُجْ مِنَ المدينةِ للقَفْـ   ـرِ، فَفِيهِ النَّجاةُ مِنْ أَوْصَابي

القفر: الخلاء، أوصابي: آلامي

وَلْأَكُنْ كالغُرَابِ رِزْقيَ في الحقْـ ـلِ، وفي السفْحِ مَجْثَمِي واضْطِرَابي

مجثم: موضع، اضطرابي: حركتي

يـا لِـنـفـسـي! فَـإنَّـهـا فَـتَـنَـتْـنـي بِـالـحـديـثِ الـمـنـمَّـقِ الـخـلابِ

إنـمـا نَـفْسِيَ الـتـي مَـلَّـتِ الـعُـمْـ ـرانَ، مَلَّتْ في الغَابِ صمتَ الغابِ

عَلَّمتْني الحياةُ في القفرِ أَنّي، أينما كنتُ، ساكنٌ في الترابِ

وسأبقى، ما دمتُ في قفصِ الصَّلْـ ـصَالِ، عبدَ المُنى أسيرَ الرِّغَابِ

الصلصال: الطين

خِلْتُ أنّي في القفرِ أصبحتُ وَحْدي فـإذا الـنـاسُ كـلُّـهُـمْ فـي ثِـيَـابـي

٦١ أنا والعُلَّيْقة

ذاتُ شَـوْكٍ كـالـحِـرَابِ أَوْ كـأَظْـفـارِ الـعُـقَـابِ

يصف العليقة، وهي نبتة شوكية لها ثمر كالتوت، ويستعملونها في التسييج، لكنها تعلق بملابس الماشي وتعرقله، ولا يرى شاعرنا فيها نفعاً

رَبَـضَـتْ فـي الـغـابِ كـالـلِّـصِّ لِـفَـتْـكٍ واسْـتِـلابِ

قـلـتُ: يـا سـاكِـنَـةَ الـغـا بِ، ويـا بـنـتَ الـترابِ

لا تَـلِـجِّـي فـي اجـتـذابـي، أو فَـلِـجِّـي فـي اجْـتِـذابـي

لا تَلجِّي: لا تُلِحّي

إنَّ عُـوداً فـيـه مـاءٌ لـيـسَ عـوداً لاحْـتِـطَـابِ

يقصد بالعود ذي الماء نفسه، فهو ما زال معطاء

لـم أَهَـبْ كـلَّ الـذي عِـنْـ ـدِي، ولـم يَـفْـرَغْ وِطَـابـي

وطابي: وعائي

أَنَـا نَـهْـرٌ، لـم أُتَـمِّـمْ بـعـدُ فـي الأرضِ انـسـيـابـي

وبِـنَـفـسـي ألـفُ مَـعْـنـىً لـم يُـضَـمَّـنْ فـي كِـتـابِ

وإذا لـم يـبـقَ فـي غَـيْـ ـمِـيَ مَـاءٌ لانـسِـكَـابِ

وإذا مـا صِـرْتُ كـالـعُـلَّـ ـيْـقِ تِـمْـثَـالَ اكـتـئـابِ

فـاجْـذُبـيـنـي إن يَـكُـنْ مِـنِّـ ـيَ نَـفْـعٌ لـلـتـرابِ

جعل الموت عليقة تريد جذبه للتراب لكنه ما زال يملك قوة الحياة والعطاء

جــئــتُ، لا أعــلــمُ مِــنْ أيْـــ ـــنَ، ولـــكـــنِّـــي أتـــيـــتُ
ولــــقــــدْ أبــــصــــرتُ قُــــدَّا مـــي طــريــقــاً، فــمــشــيــتُ

قرر محمد عبد الوهاب أن يجعلها «أمامي» بدل «قدامي» فكسر الوزن واستراح من كلمةٍ ظنها عامية، وجعلها عبد الحليم (أبصرت للدنيا طريقاً) فاتزن له البيت وظلت «قدامي» خارج معبد الغناء العاطفي

وســأبــقَــى مــاشــيــاً، إنْ شِــئــتُ هــذا أم أَبَــيْــتُ
كــيــف جــئــتُ؟ كــيــفَ أَبــصَــرْ تُ طــريــقــي؟ لــســتُ أدري!

لو نظرت إلى البيت الأول واستكْنَهْتَه لوجدته بسيطاً مثل الماء، لكنه على بساطته يحمل النصف الأول من السؤال الوجودي الثقيل: من أين جئنا؟ والجواب بالطبع: لست أدري. والنصف الآخر من السؤال الوجودي: وأين المقر؟ سيطرحه الشاعر بعد بضعة أبيات. وسيطرحه بقوة. وفي مقدمتنا أشرنا إلى قصيدة لشاعر من قرية أبو ماضي نراها الموحي لشاعرنا بطلاسمه

* * *

قــد ســألــتُ الــبــحــرَ يــومــاً: هَــل أنــا يــا بــحــرُ مِــنْــكَــا؟
هـــل صـــحـــيـــحٌ مـــا رواهُ بــعــضُــهُــمْ عــنــي وعــنــكــا؟
أم تُـــرَى مـــا زعـــمـــوا زُو راً وبُـــهْـــتَـــانـــاً وإفْـــكَـــا؟
ضَــحِــكــتْ أمــواجُــهُ مِــنِّـــ ـــي وقــالــتْ: لـــســـت أدري!

ولماذا البحر؟ لأن إيليا قرأ في مصر المقالات الكثيرة، في المقتطف وغير المقتطف، التي عرضت نظريات نشوء الخلق السائدة في أوروبا آنذاك، وجلها يقول إن أول ما ظهر من خلق ظهر في الماء. وهذه النظريات ما زالت الأشيع عند علماء الأحياء حتى يومنا

* * *

أنـــتَ يـــا بـــحـــرُ أســيــرٌ، آهِ مـــا أعـــظـــمَ أســـرَكْ
أنـــتَ مـــثـــلـــيِ أيـــهـــا الـــجـــبَّـــ ـــارُ، لا تَـــمْـــلِـــكُ أمـــرَكْ
أشــبــهــتْ حــالُــكَ حــالــيِ، وحَـــكَـــى عُـــذْرِيَ عُـــذْرَكْ

حكى: شابَهَ

فـــمـــتـــى أنـــجـــوُ مِـــنَ الأسْـــ ـــرِ وتَـــنْـــجـــوُ؟ لـــســـت أدري!

* * *

قــد ســألــتُ الــسُّــحْــبَ فــي الآ فــاقِ، هــل تــذكُــرُ رمــلَــكْ
وســألــتُ الــشَــجَــرَ الــمُــو رِقَ، هــل يَــعْــرِفُ فــضــلَــكْ
وســألــتُ الــدُّرَّ فــي الأعْــ ـنــاقِ، هــل تَــذْكُــرُ أصــلَــكْ
وكــأنِّــي خِــلْــتُــهــا قــا لــتْ جــمــيــعــاً: لــســت أدري!

* * *

يَــرقُــصُ الــمــوجُ، وفــي قــا عِــكَ حــربٌ لــن تــزولا
أي في قاع البحر
تــخــلُــقُ الأســمــاكَ لــكــنْ، تــخــلُــقُ الــحــوتَ الأَكُــولا
قــد جــمــعــتَ الــمــوتَ فــي صــد رِكَ، والــعــيــشَ الــجــمــيــلا
لــيــت شِــعْــرِي: أنــتَ مَــهْــدٌ أم ضَــرِيــحٌ؟ لــســت أدري!

* * *

فــيــكَ مــثــلــي، أيــهــا الــجــبَّــ ـارُ، أصــــداف ورمــــلُ
إنــمــا أنــتَ بِــلا ظِــ ـلٍّ، ولــي فــي الأرضِ ظِــلُّ
إنــمــا أنــتَ بِــلا عــقْــ ـلٍ ولــي، يــا بــحــرُ، عــقــلُ
فــلــمــاذا، يــا تُــرَى، أمْــ ـضــي وتَــبْــقَــى؟ لــســت أدري!

* * *

إن فــي صــدريَ، يَــا بــحــ ـرُ، لأســرَاراً عِــجَــابــا
نَــزَلَ الــسِّــتْــرُ عــلــيــهــا، وأنــا كــنــتُ الــحِــجَــابَــا
ولــذا أَزْدَادُ بُــعْــداً، كــلــمــا ازدَدْتُ اقــتِــرَابَــا
وأرَانــيِ، كــلــمــا أو شَــكْــتُ أَدري، لــســت أدري!

* * *

قــيــلَ: أدْرَى الــنــاسِ بــالأســ ـرارِ سُــكَّــانُ الــصَّــوامِــعْ
قــلــتُ: إن صَــحَّ الــذي قــا لــوا، فــإن الــسِّــرَّ شــائِــعْ
عَــجَــبَــاً! كــيــفَ تَــرى الــشــمــ ـسَ عــيــونٌ فــي الــبــراقِــعْ؟
كيف يرى الحقيقة ناس مستورون في صوامعهم كأنهم يضعون البراقع على وجوههم؟

والــتــي لــم تَــتَــبَــرْقَــعْ لا تَــرَاهــا؟ لــســت أدري!

* * *

قــد دخــلــتُ الــديــرَ عــنــدَ الــ ـفــجــرِ، كــالــفــجــرِ الــطــروبْ
وتــركــتُ الــديــرَ عــنــدَ الــلَّــ ـيــلِ، كــالــلــيــلِ الــغــضــوبْ
كــانَ فــي نَــفْــسِــيَ كــربٌ، صــارَ فــي نــفــســي كُــرُوبْ
أَمِــنَ الــديــرِ أَمِ الــلَّــيــ ـلِ اكــتــئــابــيِ؟ لــســت أدري!

* * *

أَوَرَاءَ الــقــبــرِ، بــعــدَ الــ ـمــوتِ، بــعــثٌ ونُــشُــورُ
فَــحَــيــاةٌ فَــخُــلــودٌ، أم فــنــاءٌ ودثــورُ
أكــلامُ الــنــاسِ صِــدْقٌ، أم كــلامُ الــنــاسِ زُورُ
أصــحــيــحٌ أنَّ بــعــضَ الــنَّــ ـاسِ يَــدْري؟ لــســت أدري!

* * *

إن أَكُــنْ أُبْــعَــثُ بــعــدَ الــ ـمــوتِ جُــثْــمــانَــاً وعَــقْــلا
أَتُــرَى أُبْــعَــثُ بَــعْــضــاً، أم تُــرَى أُبْــعَــثُ كُــلَّا؟
أَتُــرَى أُبْــعَــثُ طِــفــلاً، أَم تُــرَى أُبْــعَــثُ كَــهْــلا؟
ثــمَّ هــل أعــرِفُ بــعــدَ الــ ـمــوتِ ذاتــيِ؟ لــســت أدري!

* * *

لــم أجــدْ فــي الــقــصــرِ شــيــئــاً لــيــسَ فــي الــكــوخِ الــمَــهِــيــنِ
أنــا، فــي هــذا وهــذا، عــبــدُ شَــكٍّ ويَــقِــيــنِ
وســجــيــنُ الــخَــالِــدَيْــنِ: الــلَّــ ـيــلِ والــصــبــحِ الــمــبِــيــنِ
هــل أنــا فــي الــقــصــرِ أم فــي الــ ـكــوخِ أَرْقَــى؟ لــســت أدري!

* * *

أيــن ضِــحْــكِــي وبُــكَــائــيِ، وأنــا طــفــلٌ صَــغــيــرُ
أيــن جَــهْــلــيِ ومَــرَاحــيِ، وأنــا غَــضٌّ غَــريــرُ
أيــنَ أحــلامــيِ، وكــانــتْ كــيــفَــمَــا سِــرْتُ تَــسِــيــرُ
كُــلُّــهــا ضــاعــتْ، ولــكــنْ كــيــفَ ضــاعــتْ؟ لــســت أدري!

* * *

أأنـــا أفــصــحُ مِــنْ عُــصْـــ ـفــورةِ الـــوادي وأعـــذبْ
ومِـــنَ الـــزهـــرةِ أَشْـــهـــى، وشـــذى الـــزهـــرةِ أطـــيـــبْ

يقصد: أأنا أطيب من شذى الزهرة؟ (وقد قللنا من علامات الاستفهام فيما سيأتي فكل القصيدة أسئلة)

ومِـــنَ الـــحَـــيَّـــةِ أدْهَـــى، ومِـــنَ الـــنَّـــمْـــلَـــةِ أغـــربْ
أم أنـــا أَوْضَـــعُ مِـــنْ هَـــ ـذي وأَدْنـــى؟ لـــســـت أدري!

أوضع: أحقر

* * *

كُـــلُّـــهـــا مِـــثْـــلِـــيَ تَـــحـــيَـــا، كُـــلُّـــهـــا مِـــثْـــلِـــي تَـــمُـــوتُ
ولـــهـــا مِـــثْـــلـــي شَـــرَابٌ، ولـــهـــا مِـــثْـــلِـــيَ قُـــوتُ
وانـــتـــبـــاهٌ ورُقـــادٌ، وحـــديـــثٌ وسُـــكُـــوتُ
فَـــبِـــمَـــا أَمْـــتَـــازُ عـــنـــهـــا لـــيـــتَ شِـــعْـــرِي؟ لـــســـت أدري!

* * *

أنـــا كـــالـــصَّـــهْـــبَـــاءِ، لـــكـــنْ أنـــا صَـــهْـــبَـــائـــي وَدَنِّـــي
أَصْـــلُـــهـــا خَـــافٍ كَـــأَصْـــلـــي، سِـــجْـــنُـــهـــا طِـــيـــنٌ كَـــسِـــجْـــنـــي

الصهباء، أي الخمر، يضعونها في خابية فخارية ويسدونها بطين ويختمون عليه، فهذا سجنها، والإنسان مخلوق من طين وجسده سجن روحه

ويُـــزَاحُ الـــخَـــتْـــمُ عَـــنْـــهـــا مِـــثْـــلَـــمـــا يَـــنْـــشَـــقُّ عَـــنِّـــي
وهـــي لا تَـــفْـــقَـــهُ مَـــعْـــنَـــا هـــا، وإِنِّـــي.. لـــســـت أدري!

* * *

غَـــلِـــطَ الـــقـــائـــلُ: إنَّ الـــ ـخـــمـــرَ بِـــنْـــتُ الـــخَـــابِـــيَـــةْ

الخابية: الجرة الكبيرة

فَـــهْـــيَ، قـــبـــلَ الـــزِّقِّ، كـــانـــتْ فـــي عُـــروقِ الـــدَّالِـــيَـــةْ

الزق: قربة كبيرة من جلد لنقل الخمر

وحَـــوَاهـــا قـــبـــلَ رَحْـــمِ الـــ ـكَـــرْمِ رَحْـــمُ الـــغَـــادِيَـــةْ

الغادية: السحابة

إنــــمــــا مِـــنْ قـــبـــلِ هـــذا، أيـــنَ كـــانـــتْ؟ لـــســـت أدري!

* * *

أنـــا لا أَذْكُـــرُ شَـــيـــئـــاً مِـــنْ حـــيـــاتـــي الـــمـــاضِـــيَـــةْ
أنـــا لا أعـــرفُ شـــيـــئـــاً مِـــنْ حـــيـــاتـــيِ الآتِـــيـــةْ
لـــيَ ذَاتٌ، غـــيـــرَ أنِّـــي لَـــسْـــتُ أدري مَـــا هِـــيَـــهْ
فـــمَـــتَـــى تـــعـــرفُ ذاتـــي كُـــنْـــهَ ذَاتـــيِ؟ لـــســـت أدري!

* * *

إنَّـــنـــي جـــئـــتُ وأمـــضـــي، وأنـــــا لا أَعْـــــلَـــــمُ
أنـــا لُـــغْـــزٌ، وذَهَـــابـــي كَـــمَـــجِـــيـــئـــي طِـــلْـــسَـــمُ
والـــذي أَوْجَـــدَ هـــذا الـــلُّـــغْـــزَ لُـــغْـــزٌ مُـــبْـــهَـــمُ
لا تُـــجَـــادِلْ. ذو الـــحِـــجَـــا مـــن قـــالَ إنِّـــيِ. لـــســـت أدري!

٦٣ عجائز موسرات

عرج صاحب الديوان في إحدى سفراته على فندق فخم، فلم ير إلَّا عجائز، فقال:

لِـــمَـــنْ يَـــضُـــوعُ الـــعَـــبِـــيـــرُ؟ لِـــمَـــنْ تُـــغَـــنِّـــي الـــطـــيـــورُ؟

يضوع: يفوح

ولا جـــمـــالٌ أنـــيـــقٌ ولا شـــبـــابٌ نَـــضـــيـــرُ
بـــل مُـــومِـــيَـــاتٌ، عـــلـــيـــهـــا أَطَـــالِـــسٌ، وحَـــرِيـــرُ

أطالس: ثياب حرير

راحـــتْ تُـــقَـــعْـــقِـــعُ حـــولـــي فَـــكَـــادَ عَـــقْـــلـــي يَـــطِـــيـــرُ
ولاذَ قـــلـــبـــي بِـــصَـــدْري كـــأنَّـــهُ عُـــصـــفـــورُ
لاحـــتْ لـــهُ فـــي الأعَـــالـــي بَـــوَاشِـــقٌ وصـــقـــورُ

بواشق: جوارح

وقـــالَ: ضُـــويِـــقْـــتَ، فـــاهْـــرُبْ قـــلـــتُ: الـــفِـــرَارُ عَـــسِـــيـــرُ
مـــا لـــيِ جَـــنَـــاحٌ، ولا لـــيِ سَـــيَّـــارَةٌ، أو بَـــعِـــيـــرُ
هـــذيِ الـــعـــصـــورُ الـــخَـــوَالـــي تَـــطـــوفُ بـــي، وتَـــدُورُ

العصور الخوالي: الأزمان الماضية.. يقصد أولئك العجائز

مِـنْ كـلِّ شَـمْـطَـاءَ وَلَّـى شَـبَـابُـهـا، والـغُـرُورُ
شمطاء: اختلط بياض شعرها بسواده. أليس تكون المرأة غادرت صباها إذا ذهب غرورها النسوي! لكنني أقول لك شيئاً: التي كانت جميلة في صباها، تصبح عجوزاً ويغادرها الجمال ولا يغادرها الغرور. ما أصعب أن تتعامل مع امرأة كانت جميلة!

يـا طـالـبَ الـشَّـهْـدِ أَقْـصِـرْ لـم يَـبْـقَ إلّا الـقَـفِـيـرُ
أقصر: أكْفُف، القفير: الخلية، يقول: ذهب العسل وبقي هيكل الخلية

كـأنـمـا الـوجـهُ مـنـهـا قـد عَـضَّـهُ الـزَّمْـهَـريـرُ
كـالـبـدرِ حـيـنَ تَـرَاهُ يُـعِـيـنُـكَ الـنَّـاظُـورُ
يشبه وجوه العجوز بالقمر عندما تراه بالمنظار، فترى فيه رقشاً ونقشاً

تـبـدو لِـعَـيْـنَـيْـكَ فـيـهِ بَـرَازِخٌ وبُـحُـورُ
البرزخ: الأرض الفاصلة بين ماءين (شيء في التضاريس)

وأنْـجُـدٌ ووهَـادٌ لـكـنَّـهُ مَـهْـجـورُ
أنجد: هضاب، وهاد: منخفضات

ولِـلْـيَـدَيْـنِ ارتـعـاشٌ، ولِـلْـعـظـامِ صَـرِيـرُ
أمَّـا الـعـيـونُ فَـغَـارَتْ ولا تَـزَالُ تَـغُـورُ
مَـغَـاوِرٌ، بَـلْ صَـحَـارَى، بـل أكْـهُـفٌ، بـل قُـبُـورُ
والـخَـصْـرُ! عَـفْـواً وصَـفْـحَـاً! كـانـتْ لَـهُـنَّ خُـصُـورُ
هُـنَّ الـسَّـعَـالَـى، ولـكـنْ سُـعَـالُـهُـنَّ كـثـيـرُ
السعالى: الغيلان

حـديـثُـهُـنَّ انْـتِـفَـاضٌ وضِـحْـكُـهُـنَّ هَـرِيـرُ
هرير: صوت الكلب أو القط يخرج من جوفه

ومَـشْـيُـهُـنَّ ارتـبـاكٌ وتـارةً تَـقْـدِيـرُ
وصف طيب لمشي العجائز، يقدرن تقديراً موضع القدم لعجز النظر وارتعاش الجسم

فـي فُـنْـدُقٍ أنـا، أم فـي جَـهَـنَّـمٍ مَـحْـشُـورُ؟
لو حشروا شارح هذه الأبيات دهراً مع جوزفين تيوسون الممثلة الإنجليزية التي بلغت السادسة والثمانين، والتي كانت في صباها جاحظة العينين، لعاش هانئاً ناعم البال. هي امرأة مبتسمة. نعم، حتى وهي تقترب من التسعين يتألق في وجهها الابتسام والرضا

٦٤ الأسوأ من العدو

ألقى صاحب الديوان هذه القصيدة في الحفلة التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في مسرح «أكاديمي أوف ميوزك» في بروكلين لتأبين موسى كاظم الحسيني:

كَمْ مَعْشَرٍ خِلْنَاهُمُ أنصارَنا ... فإذا هُمُ لِعُدَاتِنا أنصارُ
رقدَ العِدَى فَتَحَمَّسوا، حتى إذا ... جَدَّ الوَغَى رَكِبُوا العُقَابَ وطَارُوا
شَرٌّ مِنَ الخَصْمِ اللدودِ على الفَتَى ... الصاحِبُ المُتَذَبْذِبُ الخَوَّارُ

الخوار: الجبان، المتذبذب: أنت تعرفه جيداً لكثرة من رأيت منهم. ونحن في زمن رديء مليء بالذين ليست لهم كلمة، الذين يكثرون من الوعود ثم يرجعون عنها، وحقاً قال إيليا فهؤلاء شر من الخصوم الألداء

٦٥ مهنتي كشاعر

قالتْ وَصَفْتَ لنا الرَّحيقَ، وكوبَها ... وصَرِيعَها، ومُدِيرَها، والعَاصِرَا

الرحيق: الخمر، صريعها: شاربها الذي ألقته أرضاً وهو سكران، مديرها: الذي يديرها على الجالسين ويسقي الناس

والحقلَ والفلاحَ فيهِ سائراً ... عندَ المسَا يَرْعَى القَطيعَ السَّائرا
ووقفتَ عندَ البحرِ يَهْدُرُ موجُهُ ... فرجعتَ بالألفاظِ بَحْراً هادِرَا
صَوَّرْتَ في القِرْطَاسِ حتى الخاطِرَا ... فَخَلبْتَنَا، وسَحَرْتَ حتى السَّاحِرَا

القرطاس: الورق، خلبتنا: خدعت حواسنا بسحرك

وأَرَيْتَنَا، في كُلِّ قَفْرٍ، رَوْضَةً ... وأَرَيْتَنَا، في كُلِّ رَوْضٍ، طَائِرا
لكنْ، إذا سَأَلَ امْرُؤٌ عنكَ امْرَأً ... أَبصَرْتَ مُحْتَاراً يُخَاطِبُ حائِرَا
مَنْ أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لها: أَنا ... كالكهرَباءِ، أُرَى خَفِيّاً ظاهِرَا
قالتْ: لَعَمْرُكَ زِدْتَ نَفْسِي ضَلَّةً ... ما كان ضَرَّكَ لو وصفتَ الشاعِرا؟

ضلة: حيرة

* * *

فأجبتُها: هُوَ مَنْ يُسَائِلُ نفسَهُ ... عَنْ نفسِهِ، في صُبْحِهِ ومسائِهِ
ويَرَى أُفُولَ النَّجْمِ، قبلَ أُفُولِهِ ... ويَرى فَنَاءَ الشيءِ، قبلَ فَنَائِهِ
إن نامَ، لم ترقُدْ هواجسُ رُوحِهِ ... وإذا استفاقَ، رأيْتِهِ كالتَّائِهِ

قالتْ: أتعرفُ مَنْ وَصَفْتَ، فقلتُ: مَنْ   قالتْ: وصفتَ الفيلسوفَ الكافِرَا
يا شاعرَ الدُّنيا، وَفِيكَ حَصَافَةٌ،   ما كانَ ضَرَّكَ لو وصفتَ الشاعِرَا؟

* * *

فقلتُ: هُوَ امْرُؤٌ يَهْوَى العُقَارَا   كما يَهوى مُغَازَلَةَ العَذَارَى
ويَحْسَبُ مِهْرَجانَ الناسِ مَأْتَمْ   بِلا خَمْرٍ، وجَنَّتَهُمْ جهنَّمْ
مَلُولٌ، لا يَدُومُ على وَلاءِ   ولكنْ، لا يَدُومُ على عَدَاءِ
ويُوشِكُ أنْ يُقَهْقِهَ في الجِنَازَةْ   ويَرْقُصُ كالعواصفِ في المَفازَةْ

المفازة: الصحراء

يُعَنِّفُهُ الصِّحَابُ، فلا يُنِيبُ   ويَزجُرُهُ المَشيبُ، فلا يَتُوبُ

ينيب: يتراجع

فقالتْ: جئتَ بِالكَلِمِ البديعِ   ولكنْ ما وصفتَ سوى الخَليعِ

* * *

وخِفْتُ إعراضَهَا عَنِّي، فقلتُ: إذَنْ   هُوَ الذي أَبَداً يَبْكِي مِنَ الزَّمَنِ
كأنَّما ليسَ في الدنيا سِوَاهُ فَتىً   مُعَرَّضٌ لِخُطُوبِ الدهرِ والمِحَنِ
يَشْكُو السَّقَامَ، وما في جِسْمِهِ مَرَضٌ   والسُّهْدَ، وَهْوَ قريبُ العَهْدِ بالوَسَنِ
فقاطَعَتْنِي، وقالتْ: قد بَعُدْتَ بِنَا،   ما ذي الصفاتُ صفاتِ الشاعرِ الفَطِنِ

* * *

قلتُ: مَهْلاً، إذا ضَلَلْتُ وعُذْراً   ربما أخْطَأَ الحكيمُ وضَلَّا
هُوَ.. مَنْ تَرْسُمُ الجَمالَ يَداهُ   فَنَراهُ في الطِّرْسِ أَشْهَى وأَحْلَى

الطرس: الورقة

أَفَمَا ذا مَنْ تَبْتَغِينَ، وأَبْغي   وَصْفَهُ؟ قَالتِ المليحةُ: كَلَّا

أفليس هذا هو الذي تطلبين، وأطلب أنا أيضاً وصفه؟

* * *

يا هذِهِ! إنـي عَيِيتُ بِوَصْفِهِ   وعَجِزْتُ عنْ إدراكِ مَكْنونَاتِهِ
لا تستطيعُ الخَمرُ سَرْدَ صِفاتِها   والروضُ وصفَ زهورِهِ ونَبَاتِهِ

هُوَ مَنْ نَرَاهُ سائراً فوقَ الثَّرَى وكأنَّ فوقَ فؤادِهِ خُطُواتِهِ
هُوَ مَنْ يعيشُ لِغَيْرِهِ، ويَظُنُّهُ مَنْ ليسَ يفهمُهُ، يعيشُ لِذَاتِهِ

٦٦ إنما الغبطة فكرة

أقبلَ العيدُ؛ ولكنْ، ليسَ في الناسِ المَسَرَّةْ

دعاء المسيحيين في العيد: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة

لا أرَى إلا وُجُوهاً كَالحاتٍ مُكْفَهِرَّةْ
وشِفَاهاً تَحْذَرُ الضِّحْـ ـكَ كَأنَّ الضِّحْكَ جَمْرَةْ
ليسَ للقومِ حديثٌ غيرُ شَكْوى مُسْتَمِرَّةْ
لا تَسَلْ ماذا عَرَاهُمْ، كُلُّهُمْ يَجْهَلُ أَمْرَهْ
أيها الشَّاكي الليالي! إنما الغِبْطَةُ فِكْرَةْ
ربما اسْتَوْطَنَتِ الكو خَ، وما في الكوخِ كِسْرَةْ
وخَلَتْ منها القصورُ الـ ـعالياتُ المُشْمَخِرَّةْ
تَلْمَسُ الغُصْنَ المُعَرَّى، فإذا في الغصنِ نَضْرَةْ
وإذا رَفَّتْ على القَفْـ ـرِ، اسْتَوى ماءً وخُضْرَةْ
وإذا مَسَّتْ حَصَاةً، صَقَلَتْهَا فَهْيَ دُرَّةْ
أيها العابِسُ! لنْ تُعْـ ـطَى على التَّقْطِيبِ أُجْرَةْ
لا تَكُنْ مُرّاً، ولا تَجْـ ـعَلْ حياةَ الغَيْرِ مُرَّةْ

٦٧ قلِ الروح..

يعارض إيليا ابو ماضي ابن سينا في قصيدة له مشهورة عن الروح:

أنَا لَسْتُ بِالحسناءِ أوَّلَ مُولَعٍ هِيَ مَطْمَعُ الدنيا، كما هِيَ مَطْمَعي
ولَكَمْ دخلتُ إلى القصورِ مُفَتِّشَاً عنها، وعُجْتُ بِدَارِسَاتِ الأَرْبُعِ

عجت بدارسات الأربع: مررت بالبيوت الخربة

إنْ لاحَ طيفٌ قلتُ: يا عينُ أنْظُرِي، أو رَنَّ صوتٌ، قلتُ: يا أُذْنُ اسمَعِي
فإذا الذي في القصرِ مِثْليَ حائرٌ وإذا الذي في القَفْرِ مِثْلِيَ لا يَعي
قالوا: تَوَرَّعْ، إنَّها مَحْجُوبَةٌ إلَّا عَنِ المُتَزَهِّدِ المُتَوَرِّعِ

هذه الحسناء، وهي الروح، محجوبة ولا تظهر إلا للتقي الورع

فَوَأَدْتُ أَفْراحِي، وطَلَّقْتُ المنَى ونَسَخْتُ آيَاتِ الهوى مِنْ أَضْلُعِي

نسخت: ألغيت

وهَجَعْتُ، أَحْسَبُ أنها بِنْتُ الرُّؤَى فَصَحَوْتُ أَسْخَرُ بِالنِّيَامِ الهُجَّعِ

نام يحسب أن الروح تأتي في الأحلام

لما حَلَمْتُ بِها حَلَمْتُ بِزَهْرَةٍ لا تُجْتَنَى، وبِنَجْمَةٍ لم تَطْلُعِ
ثم انتبهتُ، فلم أجدْ في مَخْدَعِي إلَّا ضَلالِيَ، والفِرَاشَ، ومَخْدَعِي
مَنْ كانَ يشربُ مِنْ جَدَاوِلِ وَهْمِهِ قَطَعَ الحياةَ بِغُلَّةٍ لم تُنْقَعِ

بغلة لم تُنقع: بعطش لم يُرْوَ

ذهبَ الربيعُ فلم تَكُنْ في الجَدْوَلِ الشَّـ ـادي، ولا الرَّوْضِ الأَغَنِّ المُمْرِعِ

ذهب الربيع فلم تكن الروح موجودة في الجدول الشادي (المترنم)، ولا في الروض الأغنّ (الكثير الشجر)، الممرع (الخصب)

وأتى الشتاءُ فلم تَكُنْ في غَيْمِهِ الـ ـبَاكِي، ولا في رَعْدِهِ المتَفَجِّعِ
ولَمَحتُ وامِضَةَ البُرُوقِ، فَخِلْتُهَا فِيها، فلم تَكُ في البُرُوقِ اللُّمَّعِ
حتَّى إذا نَشَرَ القنوطُ ضَبابَهُ فوقِي، فَغَيَّبَنِي، وغَيَّبَ مَوْضِعِي
عَصَرَ الأَسَى رُوحِي، فَسَالَتْ أَدْمُعاً فَلَمَحْتُها، ولمستُها في أَدْمُعِي
وعلمتُ، حينَ العلمُ لا يُجْدِي الفَتَى، أنَّ التي ضَيَّعْتُها كانتْ مَعِي

٦٨ عندما تصبح الروح ريحاً

سَأَلْتُ، وقد مَرَّتِ الشَّمْأَلُ تَنُوحُ، وآونَةً تُعْوِلُ

الشمأل: ريح الشمال، تعول: تنوح

إلى أيِّما غايَةٍ تَرْكُضِينَ؟ ألا مُسْتَقَرٌّ، ألا مَوْئِلُ؟

موئل: ملاذ

لقد طَرَحَ الغصنُ أوراقَهُ مِنَ الذُّعْرِ، واضطربَ الجدولُ
وضلَّ الطريقَ إلى عُشِّهِ، فَهَامَ على وجهِهِ، البُلْبُلُ
وكادتْ تَخِرُّ لديْكِ الهضابُ وتركُضُ قُدَّامَكِ الأَجْبُلُ
أَيَعْدُو وراءَكِ جيشٌ كثيفٌ أَمِثْلُكِ يُرْهِبُهُ الجَحْفَلُ؟

فـجـاوَبَـنـي هـاتِـفٌ فـي الـظـلامِ: غَـلِـطْـتَ، فـمَـا هـذهِ الـشَّـمْـأَلُ
ولـكـنَّـهَـا أَنْـفُـسُ الـغَـابِـرِيـنَ تَـجُـوسُ الـديـارَ، ولا تَـنْـزِلُ

الغابرون: الماضون، تجوس: تطوف

مِنَ البَحرِ تَصْعَدُ هذي الغُيوثُ وتَـهْطِلُ في الـبحـرِ، إذ تَـهْطِلُ
هُمُ فـي الـشرابِ الـذي نَـحْتَسي وهُـمْ فـي الـطـعـامِ الـذي نَـأْكـلُ
وهُـمْ فـي الـهـواءِ الـذي حَـوْلـنـا وفـي مـا نَـقـوُلُ، ومـا نـفـعـلُ
فمَنْ حَسِبَ العيشَ دنيا وأُخْرَى فـذا رَجُـلٌ عـقـلُـهُ أحـوَلُ

٦٩ الثقيل والتمثيل

نُبِّئْتُ أنَّـكَ تَـعْـشَـقُ الـتَّـمْـثـيـلا عِشْقَاً يُمَثِّلُ في حَشَاكَ فُصُولا
وتَكَادُ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ والجَوَى أنْ تَهْجُرَ المشْروبَ والمأكُولا
عَلَّلْتَ نَفْسَكَ بالمُحَالِ، فأَصْبَحَتْ في غَمْرَةٍ، وغَدَوْتَ أنتَ عَلِيلا
تَأْبَى الـمـرَاسِـحُ أنْ تُـنِـيلَكَ وُدَّهَا إنَّ الـمـرَاسِـحَ لا تُـحِـبُّ ثَـقِـيـلا

المراسح: المسارح

٧٠ هاجس الفناء

لم أنْسَ حينَ مَشَتْ إليَّ تلومُني لـمَّـا رَأَتْـنـيَ بَـاسِـمَـاً مُـتَـهَـلِّـلا
قـالـتْ ـ أَتَـطْـرَبُ والـمـنـايَـا حُـوَّمٌ في الأرضِ، كيفَ رَمَتْ أصابَتْ مَقْتَلا؟
أنظُرْ، فقد خَلَتِ البيوتُ مِنَ الشبا بِ؛ ولا جَمَالَ لِمَنْزِلٍ مِنْهُمْ خَلا
فسألتُهَا: أَوَلَيْسَ مِنْ أجْلِ العُلَى وهَنَائِنَا خَاضُوا الوَغَى؟ قَالتْ: بَلَى
يـا هَـذِهِ، أَإِذا بَـكَـيْـتُ لِـبُـعْـدِهِـمْ يَتَبَسَّمُونَ؟ أَجَابَتِ الحسناءُ: لا
كُفِّي المَلَامَ إذنْ، فَمَا أَنَا جَاهِلٌ ما تَعْلَمِينَ، وكيف لِي أنْ أَجْهَلا؟
لكنْ، بَعَثْتُ الفِكْرَ في آثارِهِمْ: في البحرِ، في الأَجْوَاءِ، في عُرْضِ الفَلا
فرأيتُ نورَ المجْدِ فوقَ بُنُودِهِمْ ورأَيْتُهُمْ يَمْشُونَ مِنْ نَصْرٍ إِلى . .

بنودهم: راياتهم، من نصر إلى: (من نصر إلى نصر)

سَدُّوا على البَاغِي المَسَالِكَ كُلَّهَا فالموتُ إنْ وَلَّى، وإنْ هُوَ أَقْبَلا

فإذا شَمَمْتِ اليومَ رائحةَ الدِّمَا ء، وطَالَعَتْ عيناكِ آثارَ البِلَى

البلى: تحلل الجسم

فاسْتَبْشِرِي، فَغَداً إذا النَّقْعُ انجلَى ستعودُ دُنيانا أَحَبَّ وأَجْمَلا

النقع: الغبار

٧١ مباهج الحياة

قالها في مهرجان برِدْجفيل:

كَمْ تَشتَكِي، وتقولُ إنَّكَ مُعْدَمُ والأرضُ مِلْكُكَ، والسَّمَا، والأَنْجُمُ
ولَكَ الحقولُ وزهرُها وأريجُها ونسيمُها، والبلبلُ المُتَرَنِّمُ
والماءُ حولَكَ فِضَّةٌ رَقْرَاقَةٌ والشمسُ فوقَكَ عَسْجَدٌ يَتَضَرَّمُ

عسجد: ذهب، يتضرم: يتوقَّد

والنُّورُ يَبْنِي في السُّفُوحِ وفي الذُّرَى دُوراً مُزَخْرَفَةً، وحِيناً يَهْدِمُ
فَكَأَنَّهُ الفنانُ يَعرِضُ، عابِثاً، آياتِهِ قُدَّامَ مَنْ يَتَعَلَّمُ
وكأنهُ، لِصَفائِهِ وسَنَائِهِ، بحرٌ تعومُ بِهِ الطيورُ الحُوَّمُ
هَشَّتْ لَكَ الدنيا، فَمَا لَكَ واجِماً، وتَبَسَّمَتْ، فَعَلامَ لا تَتَبَسَّمُ؟
إنْ كنتَ مُكْتئباً لِعِزٍّ قد مَضَى هَيْهاتَ يُرْجِعُهُ إليكَ تَنَدُّمُ
أو كنتَ تُشْفِقُ مِنْ حُلولِ مُصيبةٍ هيهاتَ يَمْنَعُ أنْ تَحُلَّ تَجَهُّمُ
أو كنتَ جاوَزْتَ الشبابَ، فلا تَقُلْ شاخَ الزمانُ، فإنهُ لا يَهْرَمُ
أنظُرْ! فما زالتْ تُطِلُّ مِنَ الثَّرَى صُوَرٌ، تَكَادُ لِحُسْنِها تَتَكَلَّمُ
ما بينَ أشجَارٍ كأنَّ غُصونَها أيدٍ تُصَفِّقُ تارةً، وتُسَلِّمُ
وعيونِ ماءٍ دافِقَاتٍ في الثَّرَى تَشْفي السَّقِيمَ، كأنما هِيَ زَمْزَمُ
ومَسَارِحٍ فَتَنَ النسيمَ جمالُها فَسَرى يُدَنْدِنُ تارةً، ويُهَمْهِمُ
فكأنهُ صَبٌّ بِبَابِ حَبيبةٍ مُتَوَسِّلٌ، مُسْتَعْطِفٌ، مُسْتَرْحِمُ
والجدولُ الجَذْلانُ يَضحكُ لاهِياً والنَّرْجِسُ الوَلْهانُ مُغْفٍ يَحْلُمُ

الجذلان: الفرحان

وعلى الصَّعِيدِ مُلاءَةٌ مِنْ سُنْدُسٍ وعلى الهِضابِ لِكُلِّ حُسْنٍ مِيسَمُ

الصعيد: التراب، ملاءة من سندس: بساط من حرير، المِيسم: علامة الحسن

فَهُنَا مَكَانٌ بِالأريجِ مُعَطَّرٌ وهُنَاكَ طَوْدٌ بِالشُّعاعِ مُعَمَّمُ

طود: جبل

صُوَرٌ وآياتٌ تَفِيضُ بَشَاشَةً حتى كأنَّ اللَّهَ فِيها يَبْسِمُ
أَتَزُورُ رُوحَكَ جَنَّةٌ فَتَفُوتُها كَيْمَا تَزُورُكَ بِالظُّنُونِ جَهَنَّمُ؟
وتَرى الحقيقةَ هيْكلاً مُتجسِّداً فَتَعافُها، لِوَسَاوِسٍ تُتَوَهَّمُ؟
يَا مَنْ يَحِنُّ إلى غَدٍ في يومِهِ قد بِعْتَ ما تَدْرِي بما لا تَعْلَمُ
أنتَ الغنيُّ إذا ظَفِرْتَ بِصاحِبٍ مِنْهُمْ، وعِنْدَكَ لِلْعَواطِفِ مَنْجَمُ
رَفَعُوا لِدِينِهِمُ لِوَاءً عالِياً ولَهُمْ لِوَاءٌ في العروبةِ مُعْلَمُ

معلم: ذو علامة مميزة

لا فَضْلَ لي إنْ رُحْتُ أُعلِنُ فضلَهُمْ بِقَصائدي، إنَّ الضُّحَى لا يُكْتَمُ
لَكِنَّني أَخْشَى مَقَالَةَ قائلٍ: هذا الذي يُثْني عَلَيْهِمْ مِنْهُمُ
أَحبابَنَا! ما أجْمَلَ الدنيا بِكُمْ لا تَقْبُحُ الدنيا وفِيها أَنْتُمُ

٧٢ نفسي تسألني

سَأَلَتْني، وقد رجعتُ إليها وعلى مَفْرِقي غبارُ السِّنينَا:

نفسه تسأله وقد اجتمع غبار السنين (الشيب) على مفرقه (رأسه)

أيَّ شيءٍ وجدتَ في الأرضِ بَعْدِي؟ قلتُ: إنيِ وجدتُ ماءً وطِينا

الماء والطين: الإنسان

جمعَ الحُسْنَ والدَّمامَةَ والإقْـ ـدَامَ والخوفَ والنُّهَى والجُنونا

النهى: العقل

وشباباً سَكْرانَ مِنْ خمرةِ الوَهْـ ـمِ يَخَالُ المُحَالَ أمراً يَقِينا
فإذا شاخَتِ الرُّؤَى، وتَلاشَتْ وصَحَا، باتَ جَزْمُهُ تَخْمِينا
لا يزالُ الإيمانُ نَوْعاً مِنَ الرَّهْـ ـبَةِ، والحُسْنُ لِلْغُرورِ خَدِينَا

خديناً: خليلاً مرافقاً

لا يزالُ الغَنِيُّ يختالُ في الأر ضِ، وإنْ كانَ جاهِلاً مَأْفُونا

مأفون: أحمق

كلُّ مَنْ قدْ لقِيتُ مِثْلُكِ، يا نفـ ـسِيَ، فيمَا تُبْدينَ أو تُخْفِينا
فانظُرِي مَرَّةً إليكِ مَلِيّاً تُبْصِرِي الأَوَّلِينَ والآخِرِينا

ملياً: طويلاً

٧٣ قصيدة إيليا البلشفية

كُلُوا واشرَبوا أيُّها الأغنياءُ وإن مَلأَ السَّكَكَ الجائعونْ
ولا تلْبَسوا الخَزَّ إلا جَديداً وإنْ لَبِسَ الخِرَقَ البَائسونْ

الخز: الحرير

فلا تُبْصِرونَ ضَحايا الطَّوَى ولا يُبْصِرونَ الذي تَصْنعونْ

الطوى: الجوع

وإنْ ساءَكُم أنَّهُمْ في الوجودِ وأزعجَكُمْ أنَّهُمْ يُعْوِلُونْ
مُرُوا، فَتَصُولَ الجنودُ عَلَيْهِمْ تُعَلِّمُهُمْ كيف فَتْكُ المنُونْ

فلتأمروا الجنود أن يصولوا (يهجموا) عليهم

وتلكَ العِصِيُّ لِتَلْكَ الرؤوسِ وتلكَ الحِرَابُ لِتِلْكَ البُطُونْ
وتلكَ السُّجونُ لِمَنْ شِدْتُموها؟ إذا لم تَزُجُّوهُمُ في السُّجونْ
وقولوا: كذا قد أرادَ الإلَهُ، وإن قَدَّرَ اللَّهُ شيئاً يَكُونْ
ويا فقراءُ! لماذا التَّشَكِّي؟ ألا تَسْتَحُونَ، ألا تَخْجَلونْ؟
دَعُوا الأغنياءَ ولذَّاتِهِمْ فَهُمْ، مِثْلَ لذَّاتِهِمْ، زائِلونْ
سيُمْسُونَ في سَقَرٍ خالِدِينْ وتُمْسُونَ في جَنَّةٍ تَنْعَمُونْ
فلا تَعطَشونَ، ولا تَسْغَبونَ، ولا يَرْتَوونَ، ولا يَشْبَعونْ

تسغبون: تجوعون

لَكُمْ وحْدَكُمْ مَلَكُوتُ السَّماءِ فَما بالُكُمْ لستُمُ تَقْنَعونْ؟
ستَتَّكِئونَ مَعَ الأنبياءِ تُظَلِّلُكُمْ وارفاتُ الغُصُونْ
وتَسْقِيكُمُ الخَمرَ حُورٌ حِسَانٌ كما يشْتَهينَ، كما تَشْتهونْ
كذا وَعَدَ اللَّهُ أهلَ التُّقَى وأنتمْ هُمُ، أيُّها المُتْعَبُونْ
ألا تؤمنونَ بِقَولِ الكِتابِ؟ فويلٌ لكُمْ! إنَّكُمْ كافِرونْ

٧٤ الدنيا والأخرى

زعَمَ المَرءُ أنَّمَا هُوَ رَبٌّ، كَمْ يَلُوكُ الكلامَ هذا الإلَهُ!
في التُّرابِ الذي تَدُوسُ عليهِ ألفُ دُنيا وعالمٍ لا تَرَاهُ
أنتَ جُزْءٌ مِنَ الكيانِ وَفِيهِ كَثَرَاهُ، كَنَبْتِهِ، كَحَصَاهُ
كالوُرودِ التي تُحِبُّ شَذَاها والبَعُوضِ الذي تَخافُ أذَاهُ
مَا لِحَيٍّ بالموتِ عَنْهُ انفصالٌ إنَّ دُنْيَاهُ هَذهِ أُخْرَاهُ

٧٥الله والحب وجهنم

قالَ قومٌ: إنَّ المحبةَ إثمٌ ويْحَ بعضِ النفوسِ ما أَغْبَاها
إن نَفْساً لمْ يُشْرِقِ الحبُّ فيها هِيَ نَفْسٌ لم تَدْرِ ما مَعْنَاها
خَوَّفوني جَهَنَّماً ولَظَاها أيُّ شيءٍ جَهَنَّمٌ ولَظَاها؟
ليسَ عندَ الإلَهِ نارٌ لِذِي حُبٍّ ـ ونَارُ الإنسانِ لا أخْشَاها!
أنا بالحبِّ قد وصلتُ إلى نفـ ـسي، وبالحبِّ قدْ عَرَفْتُ اللَّهَ

٧٦ وارحمتا للبائسين

قدْ عَضَّهُ اليأسُ الشديدُ بِنَابِهِ في نَفْسِهِ، والجوعُ في الأحشاءِ
فأقامَ حِلْسَ الدارِ، وَهْوَ كأنهُ ـ لِخُلُوِّ تِلكَ الدارِ ـ في بَيْداءِ

حلسَ الدار: ملازماً للدار ملازمة الحلس (البَرْدَعة) للدابة

طَرَدَ الكرى، وأقامَ يَشكو لَيْلَهُ: يا ليلُ طُلْتَ، وطالَ فيكَ عَنائي
يا ليلُ! حَسْبِي ما لقيتُ من الشَّقا رُحْماكَ؛ والأيَّامُ من أعدائي
وارحْمَتا للبائسينَ فإنَّهُمْ مَوْتَى، وتَحْسَبُهُمْ من الأحياءِ
إني وَجَدْتُ حُظوظَهُمْ مُسْوَدَّةً فكأنما قُدَّتْ من الظلماءِ

قُدَّتْ: قُطِعتْ

لا تَسألوني المدحَ، أو وَصْفَ الدُّمَى إني نَبَذْتُ سَفاسِفَ الشعراءِ

الدمى: النساء الحسان، سفاسف: تفاهات

لم يَفهموا ما الشعرُ، إلَّا أنَّه قَدْ باتَ واسِطَةً إلى الإثْراءِ

إن يَغْضَبوا مما أقولُ، فَطَالما كَرِهَ الأديبَ جماعةُ الغوغاءِ
أَوَكُلَّما نَصرَ الحقيقةَ فاضلٌ قامتْ عليهِ قيامةُ السفهاءِ
أنا ما وقفتُ اليومَ فيكُمْ مَوْقِفي إلا لأَنْدُبَ حالةَ التُّعَساءِ
قُلْ للغنيِّ المسْتَعِزِّ بِمالِهِ: مَهْلاً لقد أسرفتَ في الخُيَلاءِ

الخيلاء: الغرور

جُبِلَ الفقيرُ أخوكَ من طينٍ ومن ماءٍ، ومن طينٍ جُبِلْتَ وماءِ
أَتَضِنُّ بالدينارِ في إسعافِهِ وتجودُ بالآلافِ في الفحشاءِ؟
أنا لا أُذَكِّرُ مِنْكُمُ أهلَ النَّدى ليس الصحيحُ بِحَاجةٍ لدواءِ
إن كانتِ الفقراءُ لا تَجْزِيكُمُ فاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عن الفقراءِ

٧٧ قصيدة تحْيي الصخر والحطب

ألقيت في حفلة تكريم الشاعر مسعود سماحة:

يا شاعرَ «الديرِ» كمْ هَلْهَلْتَ قافيةً غَنَّى الرواةُ بها، واختالتِ الكتبُ

الدير: دير القمر بلدة سماحة، هلهل القوافي: قال شعراً عذباً

مَرَّتْ على هَضَباتِ الديرِ هائمةً فكادَ يُورِقُ فيها الصخْرُ والحَطَبُ

٧٨ هدايا للناقصين

خرجَ الناسُ يشترونَ هدايا الـ ـعِيدِ لِلأصْدِقَاءِ والأحبابِ
فتمنيتُ لو تُسَاعِفُني الدُّنْـ ـيا فَأَقْضِي في العيدِ بعضَ رِغابي
كنتُ أُهدي، إذنْ، مِنَ الصبرِ أرْطا لاً إلى المُنْشِئينَ والكُتَّابِ
وإلى كلِّ نابغٍ عبقريٍّ: أُمَّةً أَهْلُها ذَوو أَلْبابِ
وإلى كُلِّ شاعرٍ عربيٍّ: سَلَّةً مِنْ فَوَاكِهِ الألقابِ
وإلى مَعْشرِ الكُسالَى: قُصُوراً مِنْ لُجَيْنٍ وعَسْجَدٍ، في السَّحابِ

اللجين: الفضة، العسجد: الذهب

عَلَّني أستريحُ مِنْهُمْ، فَقدْ صا روا كَظِلِّي في جِيئتي وذَهابي
وإلى ذي الغِنى الذي يرهَبُ الفقـ ـرَ: ازديادَ الذي بِهِ مِنْ عَذابِ
كُلَّما عَدَّ مالَهُ مُطْمَئِنَّاً أبصرَ الفقرَ واقفاً بِالبابِ

وإلى المؤمنينَ: شيئاً مِنَ الشَّكِّ ـ وبعضَ الإيمانِ للمُرْتابِ
وإلى مَنْ يَسُبُّني في غِيابي: شَرَفاً كيْ يصونَهُ مِنْ سِبابي
أهدي من يسبني شرفاً كي يحافظ عليه، فلا يعطيني فرصة لأسبَّ هذا الشرف

وإلى حَاسِدِيَّ: عُمْراً طويلاً لِيَدومَ الأسى بِهِمْ مِمَّا بي
وَلَوَ انَّ الزَّمانَ صاحبُ عقلٍ كنتُ أُهْدِي إلى الزَّمانِ عِتابي
لم يكنْ لِي الذي أردتُ، فَحَسْبي أنَّني بِالمُنى ملأتُ وِطَابي
الوطاب: القِربة

٧٩ أجل، شيخ الشباب

قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر مسعود سماحة:

«مسعودُ» أَهْونْ بِالمشِيـ ـبِ، فَمَا امَّحَى إلَّا الخِضَابْ
أي أن سواد الشعر كان خضاباً (صبغة)

إنْ شابَ مِنْكَ المفْرِقا نِ، فَمَا أظنُّ القلبَ شابْ
إنْ قيلَ إنَّكَ صِرْتَ شَيْـ ـخاً، قُلْ: أَجَلْ، شيخَ الشَّبَابْ
لا يُدْرِكُ الهرمُ النُّجو مَ، وأنتَ في الدنيا شِهابْ
وإذا يُعَابُ على المشِيـ ـبِ فَتىً، فَمَنْ ذا لا يُعَابْ؟
أو كانَ يُمْدَحُ بِالسَّوا دِ، فَمَنْ تَرَى مَدَحَ الغُرَابْ؟

٨٠ دِهقان الفصحى

في عبد الله البستاني صاحب معجم «البستان»:

يا مَيِّتاً فيهِ جمالُ الحَيَاةْ ما حَازَ منكَ اللَّحْدُ إلَّا الرُّفَاتْ
أنتَ الفتى البَاقي بِآثارِهِ ما أنتَ بِالمَرءِ إذا ماتَ ماتْ
يا حُجَّةَ الفُصْحَى ودِهْقَانَهَا وبَحْرَهَا الطَّامي، وشيخَ الثِّقَاتْ
دهقانها: الخبير بها، الطامي: الفائض، الثقات: الموثوقون

سَلَخْتَهَا سَبْعِينَ مِنْ أَجْلِهَا في عَالمِ الطِّرْسِ، ودنيا الدَّوَاةْ
سلختها سبعين: قضيت سبعين سنة من أجل الفصحى، الطرس: الورقة

النـاسُ مِـنْ حـولِـكَ فـي قِـيـلِـهِـمْ　　وأنـتَ كـالـعـابِـدِ وقـتَ الـصَّـلَاةْ
غَـنِـيـتَ بِـالـضَّـادِ وأَسـرارِهَـا　　عَـنِ الـغَـوَانـي والـطِّـلَا والـسُّـقَـاةْ

غنيت: صرت مستغنياً، الطلا: الخمر

أنـتَ الـذي رَدَّ إلـيـهـا الـصِّـبَـا　　إنَّ الـهـوى يَـجْـتَـرِحُ الـمُـعْـجِـزَاتْ
فـاخْـتَـلَـجَـتْ أوضـاعُـهَـا بِـالـمنَـى　　وجَـالَ مـاءُ الـحُـسْـنِ فـي الـمُـفْـرَدَاتْ

تصوير غريب لنهضة اللغة العربية فأوضاعها تختلج بأماني التجديد وبالحياة، وماء الحسن يجري في مفرداتها

٨١ في مدح جريدة

يحيِّي مطبوعة مرآة الغرب في سنتها التاسعة عشرة:

ألا إنَّ حُـسْـنـاً لا يُـرافِـقُـهُ الـنُّـهَـى،　　وإنْ دامَ يـومـاً، لا يـدومُ لَـهُ قَـدْرُ

النهى: العقل

هيَ الشمسُ، تبدو كلَّ يومٍ جديدةً　　يَروحُ بـهـا لـيـلٌ، ويـأتـي بِـهَـا فَـجْـرُ

هذه الجريدة مثل الشمس فهي في كل يوم جديدة

لِـكُـلِّ فـتـاةٍ خِـدْرُهـا وسِـوَارُهـا　　ولـكـنَّ هـذيِ، كُـلُّ قـلـبٍ لـهـا خِـدْرُ

خدر: مكان النساء خلف الستر

إذا رَضِيَـتْ، فَـالنُّورُ فـي كَـلِـماتِـهَا　　وإن غضبتْ، فَهْيَ الأسِنَّةُ والجَمْرُ
ولا غَرْوَ أنْ عَزَّتْ، وهانَ خُصُومُها　　فَلِلْحَقِّ، مَهْمَا جَعْجَعَ الباطلُ، النَّصْرُ
فَكَمْ مُرْجِفٍ أَغْرَاهُ فيها سُكُوتُها　　فَلَمَّا أهابتْ، كادَ يَقْتُلُهُ الذُّعْرُ

أهابت: استعدَّت، مرجف: ناشر شائعات

ولا غَرْوَ أنْ أَهْدَى لها الشِّعْرُ وَحْيَهُ　　فَيَا طالما سارتْ، وسارَ بِها الشِّعْرُ
وإنْ يَكُنِ الأحـرارُ مِـنْ نُـصَـرائِـهـا　　فَكَمْ نَصَرَ الأحرارَ صاحبُها الحُرُّ
ففي العُسْرِ، لم يَجْهَرْ بِشَكْوَى لِسَانُهُ　　وفي اليُسْرِ، لم يلعبْ بِأَعْطَافِهِ الكِبْرُ

لم يلعب بأعطافه الكبر: لم يتملَّكه التكبر

٨٢ عندما أصغى البحر

قالها في حفلة تكريم سامي الشوا التي أقامتها له الجالية في مدينة نيويورك عندما زارها:

عِنديِ لكمْ نبأٌ عجيبٌ شيقٌ سأقُصُّهُ، وعليكُمُ تَفْسيرُهُ
إنِي رأيتُ البحرَ أخرسَ ساهِياً كالشيخِ، طالَ بِما مَضَى تفكيرُهُ
فسألتُ نفسيَ، حائِراً مُتَلَجْلِجَاً يا ليتَ شِعري! أينَ ضاعَ هديرُهُ؟

متلجلج: متلعثم

بالأمسِ؛ قالتْ موجةٌ ثرثارةٌ ومَضَتْ، فَأَكْملتِ الحديثَ صخورُهُ:
بالأمسِ، مَرَّ بِنا فتىً مِنْ قومِكُمْ رَقَّتْ شمائِلُهُ، ودقَّ شعورُهُ
يلهُو بأوتارِ الكَمَنْجَةِ، والدُّجى مَرْخِيَّةٌ فوقَ العُبَابِ ستورُهُ
فَشَجَا الخِضَمَّ نشيدُهُ وهُتَافُهُ فَسَهَا، فضاعَ هديرُهُ وزئيرُهُ

الخضم: البحر

يا ضيفَنَا! والأُنْسُ أنتَ رَسولُهُ وبشيرُهُ، والفنُّ أنتَ أميرُهُ
لو شاعَ في الفِرْدَوْسِ أنَّكَ بينَنا لَمَشَتْ إليْنا سافِرَاتٍ حورُهُ
يا شاعرَ الألحانِ! إنِّيَ شاعرٌ أمسى ضئيلاً، عندَ نورِكَ، نورُهُ
أسمى الكلامِ الشعرُ، إلَّا أنَّهُ أسْماهُ ما أَعْيَا الفَتَى تصويرُهُ

أسمى الكلام الشعر، وأسمى نوع من الشعر ما عجز المرء عن تصويره في كلمات: وهذا هو الموسيقى

وأَحَبُّ أزهارِ الحدائقِ وَردُهَا وأَحَبُّ مِنْ وَرْدِ الرياضِ عبيرُهُ

٨٣ الولادة الثانية

رثاء سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) الذي مات في نيويورك، وهو مترجم الإلياذة شعراً إلى العربية:

شاعِرٌ، كانَ يَرْقُصُ الدَّهرُ أَحْيا نًا، ويَبْكي حِيناً على نَغَمَاتِهِ
مُنْشِىءٌ رَقَّ لَفْظُهُ كَسَجَايَا هُ، ورَفَّ الجَمالُ في جَنَبَاتِهْ
تَوَّجَ الضَّادَ بالمَلاحَةِ، حَتَّى خالَهَا القومُ بَعْضَ مُخْتَرعَاتِهْ
فَتَحَ الموتُ، حينَ أغمضَ عينَيْـ ـهِ، عُيونَ الوَرَى على حَسَناتِهْ

فَـهْـوَ مَـاضٍ لَـهُ جَـلالَـةُ آتٍ مِـنْ فُـتُـوحـاتِـهِ، ومِـنْ غَـزَواتِـهْ
والـفَـتَـى الـعَـبْـقَـرِيُّ يُـولَـدُ إِذْ يُـو لَـدُ فـي مَـهْـدِهِ، ويـومَ مَـمَـاتِـهْ

٨٤ الناس هم الآحاد

في اليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف (وأنشئت عام ١٨٧٦):

تشْقَى متى تَشْقَى الشعوبُ بِجَهلِها وتَـعِـزُّ، حـيـنَ تَـعِـزُّ، بـالأَفْـرَادِ
لَـهُـمُ الـزَّمـانُ: قـديـمُـهُ وحـديـثُـهُ ما الناسُ في الدُّنيا سِوىَ الآحَادِ

٨٥ سبب اهتزاز نخيل مصر

أرسل الشاعر مسعود سماحة إلى صاحب الديوان القصيدة التالية مصحوبة ببعض البن:

يَـضُـوعُ عـبـيـرُهـا بِـرِمـالِ نَـجْـدٍ ويَـعْـبَـقُ عِـطْـرُهـا بِـقُـصـورِ مِـصْـرِ

يضوع: يفوح

ويُـزْرِي طـعـمُـهـا، حُـلْـواً ومُـرّاً، بـمـا فـي الأرضِ مِـنْ حُـلْـوٍ ومُـرِّ

يزري: يحقّر

وسَـمْـرَاءٍ، إذا زَارتْ صَـبَـاحـاً أَحَـبَّ إِلَـيَّ مِـنْ بِـيـضٍ وسُـمْـرِ
يَـحُـوكُ لـهَـا الـبـخـارُ رِدَاءَ نَـدٍّ ويَـكْـسُـوهـا الـحَـبـابُ وِشَـاحَ دُرِّ

النَدّ: نوع من البَخور، الحباب: الفقاقيع، الدر: اللؤلؤ

كَـسَـرْتُ الـدَّنَّ مِـنْ عَـهْـدٍ بَـعِـيـدٍ فَأَمْسَتْ، بَعْدَ خَمْرِ الدَّنِّ، خمري
فإنْ حَـلَّـتْ قُـوَاكَ جُـيُـوشُ ضَـعْـفٍ وَهَـالَـكَ عِـبْءُ هَـمٍّ مُـسْـبَـطِـرِّ

مسبطر: ممتد

عَـلـيـكَ بِـقـهـوةٍ رَقَّـتْ وراقـتْ كَشِعرِكَ، لا يُجَارَى، أو كَشِعْرِي

فأجابه إيليا أبو ماضي:

إذا دارتْ عـلـى الـجُـلَّاسِ هَـشُّـوا كـأنَّ كـؤوسَـهـا أخـبـارُ نَـصْـرِ
فـلـو عَـرَفَـتْ مَـزَايَـاهـا الـغَـوانـي لَـعُـلِّـقَ حَـبُّـهـا فـي كُـلِّ نَـحْـرِ

النحر: ما بين الرقبة والصدر

كـأنَّ حـبـوبَـهـا، خُـضْـراً وصُـفْـراً، فُـصـوصُ زُمُـرُّدٍ، وشُـذُورُ تِـبْـرِ

شذور التبر: حبيبات الذهب الخام

ألستَ تَرى إليها كيفَ تَطْغى وكيفَ تثورُ، إنْ مُسَّتْ بِجَمْرِ
كأنَّ نخيلَ مِصْرٍ قد حَسَاها وإلّا.. ما اهتزازُ نخيلِ مِصْرِ؟
وما هِيَ قهوةٌ تُطْهَى وتُحْسَى ولكنْ، نَفحَةٌ مِنْ رُوحِ حُرِّ
حَوَى في شعرِهِ عَبَثَ ابنِ هاني وزادَ عليهِ فلسفةَ المعرِّي

هذه ليست قهوة فحسب، إنها هدية شاعر حر جمع في شعره عبث الحسن بن هانئ (أبي نواس)، وفلسفة المعري

٨٦ هجاء السياسة

لم يبقَ ما يُسْلَيكَ غيرُ الكاسِ فاشربْ، ودعْ للناسِ ما لِلناسِ

يسليك: ينسيك

وانسَ الهمومَ، فليسَ يَسْعَدُ ذاكِرٌ واسقِ النُّجُومَ، فإنَّها جُلَّاسي
واهجُرْ أحاديثَ السياسةِ، والأُلىَ يتعلقونَ بحبلِ كلِّ سياسي
إنِي نبذتُ ثِمَارَهَا مُذْ ذُقْتُها ووجدتُ طعمَ الغدرِ في أضْرَاسي
وغسلتُ منها راحَتِي، فَغَسَلْتُها مِنْ سائرِ الأَوْضَارِ والأَدْنَاسِ

الأوضار: الأوساخ

وتركتُهَا لِاثنَيْنِ: غِرٍّ سَاذَجٍ ومُشَعْوِذٍ مُتَذَبْذِبٍ دَسَّاسِ
نرجُو الخلاصَ بِغَاشِمٍ مِنْ غَاشِمٍ لا يُنْقِذُ النَّخَّاسُ مِنْ نَخَّاسِ

النخاس: تاجر العبيد

ونَقِيسُ ما بينَ الثُّرَيَّا والثَّرَى وأمورُنا تَجْرِي بِغَيْرِ قِيَاسِ
ونكادُ نَفْتَرِشُ الثَّرَى، وبِأَرْضِنا لِلأَجْنَبِيِّ مَوَائِدٌ وكَرَاسي
ونَبيتُ نَفْخَرُ بِالصَّوارِمِ والقَنا ورِقَابُنا ممدودةٌ لِلفَاسِ

٨٧ لماذا يشربونها

يَشْرَبُ بِنْتَ الكَرْمِ بعضُ الناسِ لِكُرْبَةٍ في النفسِ، أو وُسْوَاسِ
وبعضُهمْ، لأنَّهُ قد ظَفِرَا وبعضُهمْ، لأنه قد خَسِرا
وبعضُهمْ، لأنه في فَرَحِ وبعضُهمْ، لأنه في تَرَحِ
وبعضُهمْ، كيْ يَسْتَرِدَّ الأَمْسَا وبعضُهمْ يَجْرَعُهَا كيْ يَنْسَى

وبـعـضُـهـمْ، لِـيَـسْـتَـفِـيـدَ قُـوَّةْ وبـعـضُـهـمْ، لِـسَـوْرَةِ الـفُـتُـوَّةْ

السورة: القوة المندفعة

وبعضُهمْ، كيما يَحُلَّ مُشْكِلَةْ وبـعـضُـهـمْ، لأنـه لا شُـغْـلَ لَـهْ
وبـعـضُـهـمْ، يَـشْـرَبُـهـا أحـيـانَـا وبـعـضُـهـمْ، فـي أيِّ وقـتٍ كـانَـا
وبـعـضُـهـمْ، مَـعْ زُمْـرَةِ الـنُّـدْمـانِ وبـعـضُـهـمْ، فـي وَحْـدَةِ الـرُّهْـبـانِ
وسِـرُّ هـذا أنَّـهـا كـالـدنـيـا تُـؤذي، ولـكـنْ مَـعْ أذاهـا تُـهْـوَى

٨٨ الإبريق المزهوّ

ألا أيها الإبريقُ! ما لَكَ والصَّلَفْ فَمَا أنتَ بِلَّوْرٌ، ولا أنتَ مِنْ صَدَفْ

الصلف: التكبر

ومـا أنـتَ إلا كـالأَبَـاريـقِ كُـلِّـهـا تُرَابٌ مَهِينٌ، قد تَرَقَّى إلى خَزَفْ
أرَى لَـكَ أنْـفَـاً شَـامـخـاً، غـيـرَ أنـهُ تَـلَـفَّـعَ أثـوابَ الـغُـبَـارِ، ومـا أَنِـفْ

تلفع أثواب الغبار: التف بالغبار. كانت الأباريق تصنع من الفخار، وللإبريق ثقب ينزل منه الماء للشارب فهذا أنفه

ومَسَّتْهُ أيْدِي الأَدْنِياءِ، فَمَا شَكَا ومَصَّتْهُ أفواهُ الطَّغَامِ، فَمَا وَجَفْ

الطغام: السفلة، وجف: ارتعش

وفِيكَ اعتزازٌ، ليسَ لِلدِّيكِ مِثْلُهُ ولستَ بِذِي رِيشٍ تَضَاعَفَ كالزَّغَفْ

الزغف: أطراف الغصون الدقيقة

وأَنْـصَـتُّ أَسْـتَـوْحِـيـهِ شَـيـئـاً يـقـولُـهُ كَمَا يَسكتُ الزُّوَّارُ في مَعْرِضِ التُّحَفْ

معرض التحف: المتحف

وبـعـدَ ثَـوانٍ خِـلْـتُ أَنِّـي سَـمِـعْـتُـهُ يُثَرْثِرُ مثلَ الشيخِ أَدْرَكَهُ الخَرَفْ
فقالَ: سقيتُ الناسَ، قلتُ لهُ: أجلْ سقيتَهُمُ ماءَ السحابِ الذي وَكَفْ

وكف: هطل

فقالَ: لِيَذْكُرْ فَضْلِيَ الماءُ ولْيُشِدْ بِمَدْحِي، ألم أَحْمِلْهُ؟ قلتُ: لكَ الشَّرَفْ!
فقالَ: ألم أَحْفَظْهُ؟ قلتُ: ظَلَمْتَهُ فَلَوْلاهُ لم تُنْقَلْ، ولولاكَ ما وَقَفْ

الشاعر يقصد بإبريق الفخار المتكبر الإنسان الذي صنعه الله من طين، وأحلى ما في القصيدة أنه لم يصرح بذلك

٨٩ ضياع صديق

عَجَباً لِمَنْ أَمْسَى، وكلُّ فَخَارِهِ بِنُضَارِهِ المَخْبوُءِ في الصُّنْدُوقِ

نضار: ذهب

ماذَا يقولُ إذا اللصوصُ مَضَوْا بِهِ وأقامَ بعدَ نُضَارِهِ المسْرُوقِ؟

أقام: بقي موجوداً

إنْ يَرْفَعِ المالُ الكريمَ، فإنَّهُ لِلنَّذْلِ مثلُ الحَبْلِ لِلمَشْنُوقِ

لمَّا صَديقيَ صارَ مِنْ أهلِ الغِنَى أيقنتُ أنِّيَ قد أضعتُ صديقي

٩٠ متحير في الهدية

أيَّ شيءٍ في العيدِ أُهْدِي إليكِ يا مَلاكِي؟ وكلُّ شيءٍ لديكِ

أَسِوَاراً؟ أم دُمْلُجاً مِنْ نُضَارٍ؟ لا أُحِبُّ القيودَ في مِعْصَمَيْكِ

دملج: سوار، نضار: ذهب

أم خمُوراً؟ وليس في الأرضِ خمرٌ كالتي تَسْكُبِينَ مِنْ لَحْظَيْكِ

أم وُروداً؟ والوردُ أجمَلُهُ عِنـ ـدي الذي قد نَشَقْتُ مِنْ خَدَّيْكِ

أجمل ورد عندي الورد الذي أشمه من خديك، فخداك كالورد

أم عَقِيقاً كَمُهْجَتِي يَتَلَظَّى؟ والعَقِيقُ الثَّمينُ في شَفَتَيْكِ

والعقيق حجر كريم أحمر

ليس عِندي شَيءٌ أعزُّ مِنَ الرُّو حِ، ورُوحِي مَرْهونَةٌ في يَدَيْكِ

يغنيها ناظم الغزالي. وفي البيت الأخير يجعل عندي مفتوحة الياء فيكسر، ولو كسر الياء لفتح لنفسه باباً أوسع للمد والتطريب

٩١ قصيدة في مدح شراب الحمير

كانَ على خِوَانِ ربِّ المالِ كأسانِ: مِنْ خَمْرٍ، ومِنْ زُلالِ

خوان: مائدة، زلال: ماء

فقالتِ السُّلافَةُ الثَّرْثارةْ: عنديِ حديثٌ، فاسْمَعِي يا جَارَةْ

السلافة: الخمر

أنـا الـتـي تَـخْـضَـعُ لـي الـرُّؤوسُ أنـا الـتـي يَـعْـبُـدُنـي الـمـجُـوسُ
وزَوْجَـةٍ عَـلَّـمْـتُـهـا الـخِـيَـانَـةْ ووالـدٍ أنْـسَـيْـتُـهُ الأمَـانَـةْ
وحَـدَثٍ خَـدَعْـتُـهُ، فـانْـخَـدَعَـا، حتى إذا ما شَبَّ عَضَّ الإصْبَعَا

عضَّ الإصبع: أي نَدِم

فَـسَـمِـعَ الـمـاءُ، فَـهَـاجَ غَـضَـبَـا وقالَ: مَهْلاً، بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى

بلغ السيل الزبى: بلغت الأمور منتهى الخطورة، والزُّبْيَة حفرة يحفرونها فوق تلة حتى يقع فيها الأسد فيصيدونه، فما يبلغها السيل إلا وقد عاث المطر في الأرض فساداً

حـيـثُ أكـونُ جَـارِيَـاً، يَـكُـونُ الـوَرْدُ والأقَـاحُ والـنِّـسْـرِيـنُ
إنَّ الـمُـروجَ الـخُـضْـرَ لا يُـحْـيِـيهَا غـيـرُ وُجـودِي حـوْلَـهـا، وفَـيـهـا
وجَلَسَ العشاقُ حَوْلِي في السَّحَرْ على بِسَاطِ العُشْبِ في ضَوْءِ القَمرْ
كَـم اشْـتَـهَـوْا، إذْ سَـمِـعُـوا خَـرِيـرِي لَـو أنَّـنـي أَسِـيـرُ فـي الـصُّـدُورِ
وأُمُّـكِ، الـكَـرْمَـةُ، يـا صَـهْـبَـاءُ! ما وُجِدَتْ في الأرضِ، لولا الماءُ

٩٢ الطبيعة ديناً

وسـائِـلَـةٍ: أيُّ الـمـذاهِـبِ مَـذْهـبِـي وهلْ كانَ فَرْعاً في الدياناتِ أم أَصْلا؟
وأيُّ نَـبِـيٍّ مُـرْسَـلٍ أَقْـتَـدِي بِـهِ وأيُّ كِتَابٍ مُنْزَلٍ عِنْدِيَ الأغْلى؟
فقلتُ لهَا: لا يَقْتَنِي المرءُ مَذْهَباً، وإنْ جَلَّ، إلَّا كانَ في عُنْقِهِ غُلَّا

غلاً: قيداً

فَمَا مذهبُ الإنسانِ إلا زُجَاجَةٌ تُـقَـيِّـدُهُ خَـمْـراً، وتَـضْـبِـطُـهُ خَـلَّا

المذهب كالزجاجة التي تحتوي الخمر، ولشدة التخمير يتحول الخمر إلى خل فيفسد

فإنْ كانَ قُبْحَاً، لم يُبَدِّلْهُ لونُها جَمَالاً؛ ولا نُبْلاً، إذا لم يَكُنْ نُبْلا
أنـا آدَمِـيٌّ كـانَ يَـحْـسَـبُ أنَّـهُ هُوَ الكائنُ الأسْمَى، وشِرْعَتُهُ الفُضْلَى
وأنَّ لَهُ الدنيا، التي هُوَ بَعْضُها، وأنَّ لهُ الأُخرىَ إذا صامَ أو صَلَّى
أَمُنُّ على الصَّادِي إذا ما سَقَيْتُهُ وأُلْزِمُهُ شُكْرِي، ولستُ أنا الوَبْلا

الصادي: العطشان، الوبل: المطر المنهمر

وأُزْهَى إذا أَطْعَمْتُ جَوْعَانَ لُقْمَةً كأنِّي خَلَقْتُ الحَبَّ في الحقلِ، والحَقْلا

أنا أُزهى: أنا أفتخر

تَتَلْمَذْتُ للإنسانِ في الدهرِ حِقْبَةً فَلَقَّنَنِي غَيّاً، وعَلَّمَنِي جَهْلا
نَهَانِيَ عَنْ قتلِ النُّفوسِ، وعندما رأى غِرَّةً مني، تَعَلَّمَ بيِ القَتْلا
وكادَ يُرِينِي الإِثْمَ في كلِّ ما أَرَى، وكلَّ نِظامٍ، غَيْرَ ما سَنَّ، مُخْتَلَّا
إلى أنْ رأيتُ النجمَ يَطْلُعُ في الدُّجى لِذِي مُقْلَةٍ حَسْرَى، وذِي مُقْلَةٍ جَذْلَى

مقلة حسرى: عين ضعيفة البصر، جذلى: سعيدة

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يَبْذُلُ ماءَهُ فلا يَبْتَغي شُكْراً، ولا يَدَّعي فَضْلا
وكيفَ تُغَذِّي الأرضُ أَلأَمَ نَبْتِهَا وأَقْبَحَهُ شَكْلاً، كَأَحْسَنِهِ شَكْلا
وصارَ نَبِيِّي كُلُّ ما يُطْلِقُ العَقْلا وصَارَ كِتَابي الكونُ، لا صُحُفٌ تُتْلَى
ودِيني الذي اختَارَ الغَدِيرُ لِنَفْسِهِ ويا حُسْنَ ما اختارَ الغديرُ، وما أَحْلَى
تَجِيءُ إليهِ الطيرُ عَطْشَى فَتَرْتَوي وإنْ وَرَدَتْهُ الإبْلُ، لم يَزْجُرِ الإِبْلا
ويَغْتَسِلُ الذِّئْبُ الأثيمُ بمائِهِ فلا إثْمُ ذا يُمْحَى، ولا طُهْرُ ذا يَبْلَى
وإن مَرَّ بي طِفْلٌ رأيتُ بِهِ الوَرَى مِنَ المَثَلِ الأدنَى، إلى المَثَلِ الأعْلَى
فيا لَكِ دنيا حُسْنُهَا بعضُ قبحِها ويا لَكَ كَوْناً قد حَوَى بَعْضُهُ الكُلَّا

٩٣ القلب والعقل

ألقاها في حفلة تكريم الشاعر جورج صيدح عندما زار نيويورك:

سَيَّرْتُ في فجرِ الحياةِ سفينَتي واختَرْتُ قَلْبِي أنْ يَكُونَ إمَامِي

إمامي: مرشدي

فَجَرَتْ على الأمواجِ قَصْراً مِنْ رُؤَىً مِلءَ الفَضَا، مِلءَ المدَى المتَرامِي
أَتَلَقَّفُ اللذَّاتِ غيرَ مُحَاذِرٍ وأَعُبُّ في الزَّلَّاتِ والآثَامِ
حتى إذا هَتَفَ المَشيبُ بِلِمَّتي ودَنَتْ يَدُ الماحِي إلى أَحْلامِي

لمتي: شَعر رأسي

صَرَخَ الحِجَا بيِ سَاخِطاً مُتَهَكِّماً: هذا الغِنَى شَرٌّ مِنَ الإعْدَامِ

الحجا: العقل، الإعدام: الفقر

أَسْلَمْتَنِي لِلْقَلْبِ، وَهْوَ مُضَلِّلٌ فَأَضَرَّنِي، وأَضَرَّكَ استسلامي
وأَرَادَ عَقْلِي أنْ يَقُودَ سَفِينَتِي لِلشَّطِّ في بحرِ الحياةِ الطَّامِي

فَطَوَيْتُ أعلامَ الهَوى، وهَجَرْتُها ... ونَسِيتُ حتَّى أنَّها أعلامي
وحَسِبْتُ آلامي انتهتْ لمَّا انتهَى، ... فإذا النهايةُ أعْظَمُ الآلامِ
أَبْغِي الثراءَ، ولم يَكُنْ مِنْ مَطْلَبِي، ... وأرى الجمالَ بِنَاظِرٍ مُتَعامِ
فإذا أنا، والأرضُ مُلْكِي والسَّمَا، ... قد صِرْتُ عبدَ الناسِ، عبدَ حُطَامي

حطامي: ثروتي

فَتَضَايَقَ القلبُ السَّجينُ، وقالَ لي: ... يا أيُّها الجاني! قَتَلْتَ هُيَامي
أَسْلَمْتَني للعقْلِ، وَهْوَ مُضَلِّلٌ ... فَأَضَرَّني، وأَضَرَّكَ استسلامي
المالُ! مَنْ ذا يَشْتَرِيهِ كُلَّهُ ... مِنِّي، بِلَيْلِ صَبَابةٍ وغَرَامِ
لا تَسْأَلوني اليومَ عَنْ قِيثارَتي ... قيثارتي خَشَبٌ بِلا أَنْغَامِ

٩٤ ابتسم

قالَ: السماءُ كئيبةٌ! وتَجَهَّمَا ... قلتُ: ابتسِمْ، يَكفي التَّجَهُّمُ في السَّما
قالَ: الصِّبا وَلَّى، فقلتُ لهُ: ابْتَسِمْ ... لن يُرْجِعَ الأَسَفُ الصِّبَا المُتَصَرِّمَا!
قالَ: التي كانتْ سمائيَ في الهَوى ... صارتْ لِنَفسيَ في الغرامِ جَهَنَّمَا

سمائي: جنتي

خانتْ عُهُوديَ، بَعْدَمَا مَلَّكْتُهَا ... قلبي، فكيف أُطِيقُ أنْ أَتَبَسَّما؟
قلتُ: ابتسمْ واطربْ، فَلَوْ قارنْتَها ... قَضَّيْتَ عمرَكَ كلَّهُ مُتَألِّما

قارنتها: تزوجتها

قالَ: التجارةُ في صِرَاعٍ هائلٍ ... مثلَ المسافِرِ، كادَ يَقْتُلُه الظَّمَا
أو غَادةٍ مَسْلُولةٍ محتَاجَةٍ ... لِدَمٍ، وتَنْفُثُ، كُلَّما لَهَثَتْ، دَمَا
قلتُ: ابتسمْ، ما أنتَ جالبُ دائِها ... وشفائِها، فإذا ابتسمتَ فَرُبَّمَا
أَيكونُ غيرُكَ مُجْرِماً، وتبيتُ في ... وَجَلٍ، كأنكَ أنتَ صِرْتَ المُجرِما
قالَ: اللَّيالِي جَرَّعَتْنيَ عَلْقَماً ... قلتُ: ابتسمْ، ولَئِنْ جَرَعْتَ العَلقَما
فَلَعلَّ غيرَكَ إنْ رآكَ مُرَنِّماً ... طَرَحَ الكآبةَ جانباً، وترنَّما
فاضحكْ، فإنَّ الشُّهْبَ تضحكُ، والدُّجَى ... مُتَلاطِمٌ، ولِذَا نُحِبُّ الأَنْجُما
قالَ: البشاشةُ ليس تُسْعِدُ كائناً ... يأتي إلى الدنيا ويَذْهَبُ مُرْغَما

قلتُ: ابتسمْ ما دامَ بينَكَ والرَّدَى شِبْرٌ، فإنكَ بَعْدُ لنْ تَتَبَسَّما

٩٥ ابتسم أكثر

ألقاها في المأدبة التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية على شرف المندوب البطريركي المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي في بروكلين ـ نيويورك:

كنْ بَلْسَماً إنْ صارَ دهرُكَ أَرْقَمَا وحَلاوَةً إن صارَ غيرُكَ عَلْقَمَا

بلسم: صمغ يداوي الجراح، الأرقم: الأفعى

إنَّ الحياةَ حَبَتْكَ كُلَّ كنوزِها لا تَبْخَلَنَّ على الحياةِ بِبَعْضِ مَا..

ببعض ما: أي ببعض ما حَبَتْك

مَنْ ذا يُكَافِىءُ زَهْرةً فَوَّاحَةً! أو مَنْ يُثِيبُ البلبلَ المترَنِّما!
أيقِظْ شعورَكَ بالمحبَّةِ إنْ غَفَا لولا الشعورُ، الناسُ كانُوا كالدُّمَى
ما الكأسُ، لولا الخمرُ، غيرَ زُجَاجةٍ والمرءُ، لولا الحُبُّ، إلَّا أَعْظُمَا
كَرِهَ الدُّجَى فاسْوَدَّ، إلَّا شُهْبَهُ بَقِيَتْ، لِتَضْحَكَ منهُ كيفَ تَجَهَّمَا

الكراهية جعلت الليل أسود، لكن نجومه بقيت لامعة لتضحك من عبوسه

لو تعشَقُ البيداءُ أصبحَ رملُها زَهْراً، وصارَ سرابُها الخَدَّاعُ مَا

ما: ماء

لوْ لم يَكُنْ في الأرضِ إلَّا مُبْغِضٌ لَتَبَرَّمَتْ بِوُجودِهِ، وتَبَرَّمَا
لاحَ الجمالُ لِذي نُهَىً فَأَحَبَّهُ ورآهُ ذو جهلٍ فَظَنَّ، ورَجَّمَا

نهى: عقل، رجَّم: تشكك

لا تَطْلُبَنَّ مَحَبَّةً مِنْ جاهلٍ المرءُ ليس يُحِبُّ حتى يَفْهَمَا
وارْفُقْ بِأَبناءِ الغَبَاءِ كَأَنَّهُمْ مَرْضَى، فإنَّ الجهلَ شيءٌ كَالعَمَى
يا مَنْ أَتَانَا بِالسلامِ مُبَشِّراً هَشَّ الحِمَى لمَّا دَخَلْتَ إِلىَ الحِمَى

يمدح المطران أبو رجيلي

وَصَفُوكَ بالتقْوَى، وقالوا: جِهْبِذٌ عَلَّامَةٌ، ولقدْ وَجَدْتُكَ مِثْلَمَا

الجِهبِذ: الحاذق، مثلما: أي مثلما وصفوك

وإذا كتبتَ ففي الطُّرُوسِ حَدَائِقٌ وَشَّى حَوَاشِيَها اليَرَاعُ ونَمْنَمَا

الطروس: الأوراق، اليراع: القلم، نمنمَ: زَخْرَفَ

وإذا وقفتَ على المنابرِ أَوْشَكَتْ أخشابُهَا، لِلزَّهْوِ، أنْ تَتَكَلَّمَا
إنْ كنتَ قد أَخْطَاكَ سِرْبَالُ الغِنَى عاشَ ابنُ مَرْيَمَ ليسَ يَمْلِكُ دِرْهَما

سربال: لباس، ابن مريم: المسيح

نامَ الرعاةُ عنِ الخِرَافِ، ولم تَنَمْ فإليكَ نَشْكُو الهَاجِعِينَ النُّوَّمَا

الرعاة: يقصد كبار رجال الدين

كَمْ رَوَّعُوا بِجَهَنَّمٍ أرواحَنَا فتألَّمتْ مِنْ قبلِ أنْ تَتَألما
زَعَمُوا الإلهَ أعدَّهَا لِعَذابِنَا حَاشا، وربُّكَ رَحْمَةٌ، أَنْ يَظْلِمَا
ما كانَ مَنْ أَمَرَ الوَرَى أنْ يَرْحَمُوا أعداءَهُمْ، إلَّا أرقَّ وأرْحَمَا
ليستْ جَهَنَّمُ غيرَ فكرةِ تاجِرٍ، اللَّهُ لم يَخْلُقْ لنا إلَّا السَّمَا

السما: الجنة

٩٦ فلسطين

بلادُهُمُ عُرْضَةٌ للضَّيَاعِ وأُمَّتُهُمْ عُرْضَةٌ للفَنا
يريدُ اليهودُ بأنْ يَصْلُبُوها وتأبى فِلَسْطِينُ أنْ تُذْعِنا
ألا ليتَ بَلْفُورَ أعطاكُمُ بلاداً لَهُ، لا بِلاداً لَنا
فَلَنْدَنُ أَرْحَبُ من قُدْسِنَا وأنتُمْ أَحَبُّ إلى لَنْدَنا
ويا عَجَباً لَكُمْ! تُوغِرُونَ على العَرَبِ التِّمْزَ والهَدْسَنَا

توغرون: تشحنون حقداً، التمز: نهر لندن، الهدسن: نهر يصب في نيويورك، يقصد الإنجليز والأميركان

وكلُّ خَطِيئَاتِهِمْ أنهُمْ يقولونَ: لا تَسْرِقوا بَيْتَنَا
فَلَيْسَتْ فلسطينُ أرضاً مَشَاعاً فَتُعْطَى لِمنْ شاءَ أنْ يَسْكُنا
وإمَّا أَبَيْتُمْ فأُوصِيكُمُ بأنْ تَحْمِلُوا مَعْكُمُ الأَكْفُنا

إما: إذا

فإنا سَنَجْعَلُ مِنْ أرضِها لنا وَطَناً، ولَكُمْ مَدْفَنَا

٩٧ لكم أكتبُ

يا رفيقي! أنَا لولا أنتَ، مَا وَقَّعْتُ لَحْنا

كـنـتَ فـي سِـرِّيَ لـمَّـا   كـنـتُ وَحْـدِي أَتَـغَـنَّـى
إنَّ بـعـضَ الـقـولِ فَـنٌّ   فـاجـعـلِ الإصـغـاءَ فَـنَّـا
ربـمـا كـنـتُ غَـنِـيَّـاً   غـيـرَ أنـي بِـكَ أَغْـنـى
مـا لِـصَـوتٍ، أُغْـلِـقَـتْ مِـنْ   دونِـهِ الأسـمـاءُ، مَـعـنـى
لـسـتَ مِـنِّـي إنْ حَـسِـبْـتَ الـشِّـ   ـعْـرَ ألـفـاظـاً ووَزْنـا

هذه القصيدة نهديها للشعراء الذين يقولون إنهم يكتبون لأنفسهم فقط

٩٨ الشاعر والملك ومعركة الخلود

أَمَـرَ الـسـلـطـانُ بـالـشـا   عـرِ يـومـاً، فَـأَتـاهُ
فـي كِـسَـاءٍ حَـائِـلِ الـصِّـبْـ   ـغَـةِ واهٍ جـانِـبَـاهُ

الكساء الحائل الصبغة: الثوب قد بهت لونه، واهٍ جانباه: مهترئ من جنبيه

وحِـذَاءٍ أوشَـكَـتْ تُـفْـ   ـلِـتُ مِـنْـهُ قَـدَمـاهُ
قـالَ: صِـفْ جَـاهِـي، فـفـي وَصْـ   ـفِـكَ لـي لِـلـشِّـعْـرِ جـاهُ
إنَّ لـيِ الـقَـصْـرَ الـذي لا   تـبـلُـغُ الـطـيـرُ ذُرَاهُ

ذراه: أعاليه

ولـيَ الـرَّوْضُ الـذي يَـعْـ   ـبَـقُ بـالـمِـسْـكِ ثَـرَاهُ
ولـيَ الـجـيـشُ الـذي تَـرْ   شَـحُ بـالـمـوتِ ظُـبَـاهُ

ظباه: شفرات سيوفه

ولـيَ الـغـابـاتُ والـشُّـمُّـ   الـرَّواسـي والـمـيـاهُ

الشم الرواسي: الجبال

ولـيَ الـنَّـاسُ، وبـؤسُ الـنَّـ   ـاسِ مِـنِّـي والـرَّفَـاهُ
إنَّ هـذا الـكـونَ مِـلْـكِـي،   أنـا فـي الـكـونِ إلَـهُ
ضَـحِـكَ الـشَّـاعـرُ مِـمَّـا   سَـمِـعَـتْـهُ أُذُنَـاهُ
وتَـمَـنَّـى أنْ يُـدَاجِـي،   فَـعَـصَـتْـهُ شَـفَـتَـاهُ

يداجي: ينافق

قـالَ: إنِّـي لا أرَى الأمـ   ـرَ كـمـا أنـتَ تَـرَاهُ

إنَّ مُـلْـكـيِ قـد طَـوَى مُـلْــ ـكَــكَ عَـــنِّـــي ومَـــحَـــاهُ

* * *

والـجـيـشُ مَـعْـقُـودٌ لِـوَاؤُكَ فـوقَـهُ ما دُمْـتَ تَـكْـسـوهُ وتُـطْـعِـمُـهُ
لِـلْـخُـبـزِ طـاعـتُـهُ وحُـسْـنُ وَلائِـهِ هُـوَ لاتُـهُ الـكُـبْـرى وبَـرْهَـمُـهُ

اللات: صنم جاهلي، البرهم: إله هندوسي

فـإذا يَـجـوعُ بِـظِـلِّ عَـرْشِـكَ لَـيْـلَـةً فَـهُـوَ الـذي بِـيَـدَيْـهِ يَـحْـطِـمُـهُ

* * *

والـبـحـرُ، قـد ظَـفِـرَتْ يَـدَاكَ بِـدُرِّهِ وحَصَاهُ، لَكِنْ هَلْ مَلَكْتَ هَدِيرَهُ؟
هُـوَ لـلـرِّيـاحِ، تَـهُـزُّهُ وتُـثـيـرُهُ، والشُّهْبُ تَسْمَعُ في الظلامِ زئيرَهُ
للشاعرِ المفتونِ يَخْلُقُ لاهِياً مِنْ موجِهِ حُوراً ويَعْشَقُ حُورَهُ
يـا مَـنْ يَـصـيـدُ الـدُّرَّ مِـنْ أعـمـاقِـهِ أخذَتْ يَداكَ مِنَ الجليلِ حَقِيرَهُ
لا تَـدَّعـيـهِ، فَـلَـيْـسَ يُـمْـلَـكُ، إنَّـهُ كـالـروضِ جَـهْـدُكَ أنْ تَـشُـمَّ عبيرَهُ

* * *

فـاحْـتَـدَمَ الـسـلـطـانُ أيَّ احـتِـدَامْ ولاحَ حُـبُّ البطشِ في مُـقْـلَـتَـيْـهْ

احتدم: اغتاظ

وصَاح بالجلادِ: هاتِ الحُسامْ! فـأسـرعَ الـجَـلَّادُ يـسـعَـى إلـيْـهْ
فـقـالَ: دَحْـرِجْ رأسَ هـذا الـغـلامْ فـرأسُـهُ عـبءٌ عـلـى كَـتِـفَـيْـهْ
سـمْـعـاً وطوْعـاً، سيِّدي! وانْـتَـضَـى عَـضْـبَـاً يـموجُ الموتُ في شَفْـرَتَـيْـهْ

عضب: سيف

ولـم يـكُـنْ إلا كَـبَـرْقٍ أَضَـا حتى أطارَ الرأسَ عَـنْ مَـنْـكِـبَـيْـهْ

أضا: أضاء

* * *

أجـلْ، هـكـذا هَـلَـكَ الـشـاعـرُ كَـمـا يَـهْـلِـكُ الآثِـمُ الـمـذْنِـبُ
فَـمَـا غُـصَّ فـي رَوْضَـةٍ طـائـرُ ولـم يَـنْـطَـفِـئْ في الـسَّـمَا كـوكـبُ
وكُـوفِـئَ عَـنْ قَـتْـلِـهِ الـقـاتـلُ بـمـالٍ جـزيـلٍ، وخـدٌّ أسـيـلْ

نال جارية خدها أسيل أي طويل

فـقـالَ لَـهُ خُـلْـقُـهُ الـسـافِـلُ: ألا لـيـتَ لـيِ كـلَّ يـومٍ قَـتِـيـلْ!

* * *

فـي لـيـلـةٍ طـامِـسَـةِ الأنـجـمْ تـسـلَّـلَ الـمـوتُ إلـى الـقَـصْـرِ
بـيـنَ حِـرَابِ الـجُـنْـدِ والأَسْـهُـمْ والأَسْـيُـفِ الـهِـنْـدِيَّـةِ الـحُـمْـرِ
إلـى سـريـرِ الـمـلِـكِ الأعـظـمْ إلـى أمـيـرِ الـبَـرِّ والـبَـحْـرِ
فـفـارقَ الـدنـيـا ولَـمَّـا تَـزَلْ فـيـهـا خـمـورٌ وأَغَـارِيـدُ
فـلـمْ يَـمِـدْ حُـزْنـاً عَـلَـيْـهِ الـجَـبَـلْ ولا ذَوَى فـي الـروضِ أُمْـلُـودُ

لم يمد: لم يمل، ذوى: ذبل، أملود: غصن

* * *

في حَوْمَةِ الـموتِ، وظِلِّ الـبِلَى قـدِ الـتَـقَـى الـسُّـلْـطانُ والـشَّـاعِـرُ

حومة الموت: ساحة الموت، البلى: تحلل الجسم

هـذا بِـلا مـجـدٍ، وهـذا بِـلا ذُلٍّ، فـلا بَـاغٍ ولا ثَـائِـرُ

باغ: ظالم، ثائر: طالب ثأر

عـانَـقَـتِ الأسـمـالُ تِـلْـكَ الـحُـلَـى واصْـطَـحَـبَ الـمـقـهُـورُ والـقَـاهِـرُ

الأسمال: الملابس الممزقة، الحلى: الثياب الغالية

* * *

وتَـوَالَـتِ الأجْـيـالُ تَـطَّـرِدُ جِـيـلٌ يَـغِـيـبُ، وآخـرٌ يَـفِـدُ
أَخْنَتْ على القَصْرِ المنِيفِ، فَلا الـ ـجُـدْرانُ قَـائِـمَـةٌ، ولا الـعَـمَـدُ

أخنت: أهلكت، العمد: الأعمدة

ومَشَتْ على الجيشِ الكثيفِ، فَلَا خَـيْـلٌ مُـسَـوَّمَـةٌ، ولا زَرَدُ

مسومة: عليها علامات بالكي أو نحوه، زرد: دروع

ذَهبَتْ بِمَنْ صَلَحُوا ومَنْ فَسَدُوا ومَضَتْ بِمَنْ تَعِسُوا ومَنْ سَعِدُوا
وَطَـوَتْ مُـلُـوكـاً مـا لَـهُـمْ عَـدَدُ فَـكَـأَنَّـهُـمْ في الأرضِ ما وُجِدوا
والـشـاعـرُ الـمـقـتـولُ بـاقِـيَـةٌ أقـوالُـهُ، فـكـأنَّـهـا الأَبَـدُ
الـشـيـخُ يَـلْـمَـسُ في جـوانِـبِـها صُـوَرَ الـهَـوَى، والـحِـكْـمَـةَ الـوَلَـدُ

٩٩ كن وردة طيبها حتى لسارقها

خذْ ما استطعتَ مِنَ الدنيا وأَهْلِيها — لكنْ تَعلَّمْ قليلاً كيف تُعْطيها
كُنْ وردةً طِيبُها حتى لِسَارِقِها — لا دِمْنَةً خُبْثُها حتى لِسَاقِيها

دمنة: مزبلة

أكانَ في الكونِ نورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ — لوِ السماءُ طَوَتْ عنَّا دَرارِيها؟

الدراري: النجوم

أو كانَ في الأرضِ أزهارٌ لها أَرَجٌ — لو كانتِ الأرضُ لا تُبْدي أَقاحِيها؟
يا عابدَ المالِ قُلْ لي: هَلْ وجدتَ بِهِ — رُوحاً تُواسِيكَ، أو رُوحاً تُوَاسِيها
حتامَ، يا صاحِ، تُخْفِيهِ وتَطْمُرُهُ — كأنما هُوَ سَوْءَاتٌ تُوارِيها؟
وتَحْرِمُ النفسَ لَذَّاتٍ لها خُلِقَتْ — ولم تُصَاحِبْكَ، يا هذا، لِتُؤْذِيها
أنظرْ إلى الماءِ إنَّ البَذْلَ شِيمَتُهُ — يأتي الحقولَ فَيَرْوِيها ويُحْيِيها
فَمَا تَعَكَّرَ إلَّا وهْوَ مُنْحَبِسٌ — والنفسُ كالماءِ، تَحْكِيهِ ويَحْكِيها
السَّجْنُ لِلماءِ يُؤْذِيهِ ويُفْسِدُهُ — والسَّجْنُ للنفسِ يُؤْذِيها ويُضْنِيها
وانظرْ إلى النارِ! إنَّ الفَتْكَ عادتُها — لكِنَّ عادتَها الشَّنْعَاءَ تُرْدِيها
تُفْنِي القُرى والمغَانِي وَهْيَ ضَاحِكَةٌ — لِجَهْلِهَا أنَّ ما تُفْنِيهِ يُفْنِيها
لا شيءَ يُدْرَكُ في الدنيا بِلا تَعَبٍ — مَنِ اشْتَهى الخمرَ فَلْيَزْرَعْ دَوالِيها

١٠٠ تعمير وتخريب

يا لهفةَ النفسِ على غابَةٍ — كنتُ وهِنداً نَلتقي فيها
تكادُ مِنْ لُطْفِ مَعانِيها — يَشْرَبُها خاطِرُ رَائيها
للَّهِ في الغابَةِ أيَّامُنا — ما عابَها إلَّا تَلاشِيها
تَسْكُتُ، إذْ نَشْكُو، شحاريرُها — كأنَّما التغريدُ يُؤْذِيها
وفوقَنا الأغصانُ مَعقودَةٌ — ذوائِبٌ طالَ تَدَلِّيها

ذوائب: خصلات شعر

إذا هَزَزْنَاها على غِرَّةٍ — أَلْقَتْ مِنَ الذُّعْرِ لآلِيها
نَسِيرُ مِنْ كَهْفٍ إلى جدولٍ — نكتشفُ الأرضَ ونَطْوِيها

وتَـخْـتَـبِـي هـنـدُ، فَـأشْـتـاقُـهـا   وأخْـتَـبـي عـنـهـا، فـأُغْـرِيـهـا
كَـمْ أوْهَـمَـتْـنـي الـخوفَ مِـنْ طَـارِئ   تُـشْـجي بِـذا نَـفْـسـي، فَـتُـشْـجِـيـهـا

كأنه يريد القول: تريد بذلك أن تشجي نفسي وتحزنها، فتشجيها فعلاً

فَـرُحْـتُ أعـدُو نَـحْـوَهـا مُـشْـفِـقـاً   فـكـانَ مَـا حـاذَرْتُ تَـمْـويـهـا!
الـلـهَ! لـو دامَ زمـانُ الـهَـوى   تَـعْـبَـثُ مِـنِّـي وأُجَـارِيـهـا!
لا غَـابَـتي الـيـومَ كَـعَـهْـدي بِـهـا   ولا الـتـي أحْـبَـبْـتُـهـا فِـيـهـا
ولا تـلالٌ كَـنُـهُـودِ الـدُّمَـى   ولا سـفـوحٌ كَـتَـرَاقِـيـهـا

الدمى: الحسان، التراقي: عظام تحت الكتف

قـد بَـدَّلَ الإنـسـانُ أطْـوارَهـا   واغـتـصـبَ الـطَّـيـرَ مَـآويـهـا

أي اغتصب من الطير مآويها (أعشاشها)

وفَـتَّ بِـالـبـارُودِ جُـلْـمُـودَهـا   واجْـتَـثَّ بـالـفَـأْسِ دَوالِـيـهـا

جلمود: صخر، الدوالي: شجيرات العنب

يـا لَـهْـفَـةَ الـنـفسِ عـلـى غَـابـةٍ   كـنـتُ وهِـنْـداً نَـلْـتَـقي فـيـهـا
نَـبْـكِـي مِـنَ الـيأسِ عـلـى شَـوْكِـهـا   وكَـانَ يُـدْمِـيـنـي ويُـدْمِـيـهـا
كـانـتْ تُـغَـطِّـيـنـا بِـأوْرَاقِـهـا   فـصـارتِ الـدُّورُ تُـغَـطِّـيـهـا!

١٠١ اليتيم

الـيـتـيـمُ الـذي يَـلُـوحُ زَرِيّـاً   لـيـسَ شـيـئـاً لـو تـعـلـمونَ زَرِيّـا
إنَّـهُ غَـرْسَـةٌ سَـتُـطْـلِـعُ يـومـاً   ثـمـراً طَـيِّـبـاً، وزَهْـراً جَـنِـيّـا
ربـمـا كـانَ أوْدَعَ الـلَّـهُ فـيـهِ   فَـيْـلَـسوفـاً، أو شـاعـراً، أو نـبـيّـا
إن يَـكُ الـموتُ قـد مَـضَـى بِـأبـيـهِ   مـا مَـضَـى بِـالـشُّـعورِ فِـيـكَ وفِـيّـا
لا تـقُـولـوا مَـنْ أُمُّـه؟ مَـنْ أَبُـوه؟   فَـأَبُـوه وأُمُّـهُ سُـوريّـا

١٠٢ البشر والقناعة

كـانَ زمـانٌ لـم يَـزَلْ كـائِـنـاً،   وحـالـةٌ، مـا بَـرِحَـتْ بـاقـيَـةْ
مـلَّ بَـنُـو الإنـسـانِ أطْـوارَهُـمْ   وبَـرِمُـوا بِـالـسُّـقْـمِ والـعـافـيَـةْ

فاسْتَصْرَخُوا خالِقَهُمْ واشْتَهَوْا لو أنَّه كَوَّنَهُمْ ثانِيَةْ
وبَلَغَتْ أصواتُهُمْ عرشَهُ في ليلةٍ مُقمرةٍ صافِيةْ
فقالَ، إني فاعلٌ ما اشْتَهَوْا لعلَّ فيهِ حِكْمَةً خافيةْ
وشاهَدُوهُ هابِطاً مِنْ عَلٌ فاحْتَشَدُوا في السَّهْلِ والرَّابيةْ
فقال ربُّ العرشِ: ما خَطْبُكُمْ، ما بالُكُمْ، صَرْخاتُكُمْ عاليةْ؟

الفتى:

قالَ الفتى: يا ربِّ إنَّ الصِّبا مَصْدَرُ أحزانيِ وآلامي
أَلْبَسْتَنِيهِ مُونِقاً، بَعدما أبْلاهُ أخواليِ وأعمامي

مونق: جميل

وصارَ في مَذْهَبِهِمْ عَصْرُهُ فترةَ زَلَّاتٍ وآثامِ

عصر الشباب بحسب الأهل هو عصر الأخطاء والذنوب

فاخْتَلَفَتْ حالي وحالاتُهُمْ كأنني في غيرِ أقْوَامي
عنْدَهُمُ الروضةُ: أشجَارُها والروضُ عنديِ: الزَّهَرُ النَّامي
والطيرُ لَحْمٌ ودمٌ عندهُمْ وليس عنديِ غيرَ أنْغامِ
عبءٌ على نفسِيَ هذا الصِّبا الجائِشُ المسْتَوْفِزُ الطَّامي

المستوفز: الثائر، الطامي: الجياش المتحمس

خذْهُ، وخذْ قلبيِ وأحلامَهُ فإنني أشقَى بِأَحلاميِ
ومُرْ يَمُرَّ الدهرُ في لَحْظَةٍ كالطيفِ أو كالبرقِ قُدَّامي
وازرعْ نجومَ الشيبِ في لِمَّتي فَيَنْجَلي حِنْدِسُ أوهامي

لمتي: شعر رأسي، حندس: ظلمة

فأُبْصِرُ الحكمَةَ في ضَوْئِهِ إني إليها جائعٌ ظَامِي

الشيخ:

وجاءَ شيخٌ حائرٌ واجِفٌ مُشْتَعِلَ اللِّمَّةِ بالي الإهابْ

واجف: مضطرب، اللمة: شعر الرأس، الإهاب: الجِلد

كأنما زَلْزَلَةٌ تَحْتَهُ لِمَا بِهِ مِنْ رَعْشَةٍ واضْطِرابْ

فصاحَ: يا رَبَّاهُ خُذْ حِكْمَتي واردُدْ على عَبْدِكَ عَصْرَ الشبابْ
إنَّ أمانيِ الروحِ أزْهارُهَا وإنَّ روحيِ اليومَ قَفْرٌ يَبابْ

قفر ويباب: خلاء أجرد

تِلْكَ الأمانيُّ، على كِذْبِها، لم تَكُنِ اللذةُ فيها كِذَابْ
زالتْ وما زِلْتُ، وإن الشَّقَا أنْ تُطْمَسَ الآيُ، ويَبْقَى الكتابْ
وتُسْلَبَ السَّرْحَةُ أوراقَها ولم تزلْ أعراقُها في التُّرَابْ

السرحة: الشجرة، أعراقها: جذورها

مُرْ تَقِفِ الأيامُ عَنْ سيرِها فإنَّها تَركُضُ مثلَ السحابْ
وضعْ أمامي، لا ورائي، المُنَى وطوِّلِ الدَّرْبَ، وزِدْ في الصِّعَابْ
ما لَذَّتيِ بِالماءِ أَرْوَى بِهِ بلْ لَذَّتي بِالعَدْوِ خلفَ السَّرابْ

الحسناء:

وقالتِ الحسناءُ: يا خالقيِ وَهَبْتَنيِ الحسنَ فَأشقيْتَنيِ
وَجْهيِ سَنِيٌّ مُشْرِقٌ، إنَّما مَرْعَى عيونِ الخلقِ وجْهيِ السَّنيِ

سني: مضيء

إنْ عَشِقَتْ نفسيِ فويلٌ لها والويلُ ليِ إنْ رجلٌ حَبَّنيِ
لم يبقَ في روحِيَ مِنْ موضعٍ يا ربِّ لم يُخْدَشْ، ولم يُطْعَنِ
إنَّ الغِنَى في الوجهِ ليِ آفةٌ فَلَيْتَ أنِّيِ دُمْيَةٌ لَيْتَنيِ

الجارية:

وسكتَتْ، فصاحتِ الجاريَةْ باكيةً مِنْ بُؤْسِها شاكِيَةْ:
ذَنبيِ إلى هذا الوَرى خِلقَتيِ فهلْ أنا المجرمةُ الجانيةْ؟
لو كنتُ حسناءَ بَلَغْتُ العُلى فَلِلْجَمالِ الرُّتْبةُ العالِيَةْ
فباتَ مَنْ أَسْجُدُ قُدَّامَهُ صَاغِرَةً، يَسْجُدُ قُدَّامِيَهْ

الفقير:

وأقبلَ الصُّعْلُوكُ مُسْتَرحِماً في مقلَتَيْهِ شَبَحُ اليَأْسِ
يصْرُخُ: يا ربَّاهُ حتى مَتَى تُحَكِّمُ الموسِرَ في نَفْسيِ
وتضعُ التاجَ على رأسِهِ وتضعُ الشَّوكَ على رأسيِ؟

يـا ربِّ لا تَـنْـقُـلْـهُ عَـنْ أُنْـسِـهِ	وإنَّـمـا انْـقُـلـنـيِ إلـى الأُنْـسِ
فـإنْ تَـشَـأْ أنْ لا يَـذُوقَ الـهَـنـا	قَـلـبـي، فَـجَـرِّدْنِـي مِـنَ الـحِـسِّ
لـو لـم يَـكُـنْ غـيـريَ فـي غِـبْـطَـةٍ	مـا شَـعَـرَتْ روحِـيَ بِـالـبُـؤْسِ

الغني:

وقـال ذو الـثَّـرْوَةِ: مـا أَشْـتـهـي	لا أَشْـتـهـي أَنِّـيَ ذو ثَـرْوَةِ

مهما اشتهيت فلا أشتهي الغنى

أنـفـقـتُ أيـامـي عـلـى جـمـعِـهـا	وخِـلْـتُـنـي أدركـتُ أمْـنِـيَّـتـي
فـاسـتـعـبـدتْـنـي فـي زمـانِ الـصِّـبـا	وأوقَـرَتْ بِـالـهَـمِّ شَـيـخـوخَـتـي

أوقرت: أثقلت

قـد مَـلَـكَـتْـنـي قَـبْـلَـمـا حُـزْتُـهـا	ومَـلَـكَـتْـنـي وَهْـيَ فـي حَـوْزَتـي
كَـنَـحْـلَـةٍ أَمْـسَـكَـهـا شَـهْـدُهـا	مِـنَ الـجَـنَـاحـيـنِ فَـلَـمْ تُـفْـلِـتِ
حَـسِـبْـتُـهـا تُـكْـسِـبُـنـي قُـوَّةً	فـافْـتَـرَسَـتْ قـوَّتُـهـا قُـوَّتـي
لا تَـنْـظُـرِ الأضـواءَ فـي حُـجْـرَتـي	وانـظرْ إلى الظَّـلـماءِ في مُهْجتي
ولا يَـغُـرَّنَّـكَ قَـصْـرِي فَـمَـا	قَـصْـرِي سوى سِجْـنٍ لِـحُـرِّيَّـتـي
إنِّـيَ فـي الـصـرحِ الـرفـيـعِ الـذُّرَى	كَـطـائـرٍ، فـي قَـفَـصٍ، مَـيِّـتِ
كَـمْ فـي عُـبَـابِ الـبحـرِ مِـنْ سابحٍ	قـد مـاتَ ظَـمـآنـاً إلـى قَـطْـرَةِ
مَـوْتُ الـطَّـوَى شَـرٌّ ولـكِـنَّـمَـا	أفـظَـعُ مـنـهُ الـموتُ بِـالـتُّـخْـمَـةِ

الطوى: الجوع

والـخـوفُ مِـنْ كـارثـةٍ لـم تَـقَـعْ	أَمَـضُّ مِـنْ كَـارِثَـةٍ حَـلَّـتِ

أمضُّ: أوجَعُ

كـم مِـنْ فـقـيـرٍ مَـرَّ بـي ضَـاحِـكـاً	كـأنَّـمـا يَـسْـخَـرُ مِـنْ غُـصَّـتـي
قـد اخْـتَـفَـتْ ذاتـيَ فـي بُـرْدَتـي	فـمـا يـرى الـخـلـقُ سـوى بُـرْدَتـي

بردتي: ثوبي

فَـهُـمْ إذا مـا سَـلَّـمُـوا سَـلَّـمُـوا	عـلـى خُـيُـوطِ الـبُـرْدِ والـحُـلَّـةِ

البرد: الثوب، الحلة: الثوب

ربَّاهُ أَطْلِقْ مِنْ عِقَالِ الغِنَى روحي، فإنِّي مِنْهُ في مِحْنَةِ
وانزعْ مَعَ الدينارِ مِنْ قَبضتي صلابَةَ الدينارِ مِنْ سِحْنَتي

سحنة: وجه

وحَوِّلِ المالَ إلى واحَةٍ وحَوِّلِ القصرَ إلى خَيْمَةِ

في الأصل (وحول المال إلى راحة) وجعلناها واحة، وقلما غيَّرنا لشاعر شيئاً، فإن غيرنا قلنا إننا غيرنا

الأبله:

وصَرَخَ الأَبْلَهُ مُسْتَفْسِراً ما القصدُ مِنْ خَلْقي كَذا والمُرَادْ؟
ألم يَكُنْ يَكْمُلُ هذا الوَرى إلَّا إذا أوجَدْتَني في فَسَادْ؟
في صورةِ الناسِ وحاجَاتِهِمْ: مِنْ مَطْعَمٍ أو مَشْرَبٍ أو رُقَادْ..

أنا مثل الناس في هذه الأمور.. الطعام والشراب والنوم.. لكن..

لكِنَّ لُبِّي غَيْرُ أَلْبَابِهِمْ فإنهُ مُكْتَنَفٌ بالسَّوَادْ
إنْ كنتُ إنساناً فَلِمْ يا تُرى لَسْتُ بإدْراكي كَباقي العِبَادْ؟
أَوْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ، فَمُرْني أَكُنْ جَرَادَةً أو أرْنَباً أو جَوَادْ
فالنِّدُّ لا يَعْدَمُ مَعْ نِدِّهِ ذَريعةً للسِّلْمِ أو لِلجِهَادْ
لا تَسْخَرُ النملةُ من نملةٍ وليس يُزْري بالقَرادِ القَرادْ

القراد: من الحشرات الماصة دم الحيوان، تعلق بين شعر العنز أو وبر الجمل أو صوف الخروف

الأديب:

وجاءَ بعدَ الأبلهِ المُسْتَريبْ الألْمعيُّ العَبْقَرِيُّ اللبيبْ
فقالَ: إنِّي تائِهٌ حائِرٌ أنا غريبٌ في مكانٍ غريبْ
أبَحَثُ عنْ نفسي فَلا أَهْتدي وليس يَهْدِيني إليها أَرِيبْ
لو أنَّني كنتُ بِلا فِطْنَةٍ سِرْتُ ولم تَكْثُرْ أمامي الدُّرُوبْ
ما العقلُ، يا ربِّ، سِوَى مِحْنَةٍ لَولاهُ لم تُكْتَبْ عليَّ الذُّنُوبْ

الخاتمة:

لما وَعَى اللَّهُ شَكَايَا الوَرى قالَ لَهُمْ: كُونوا كَمَا تَشْتَهونْ
فاسَتَبْشَرَ الشَّيْخُ، وسُرَّ الفَتَى والكاعبُ الحسناءُ والحَيْزَبُونْ

الكاعب: الفتاة، الحيزبون: العجوز الهرمة

لكِنَّهُمْ لما اضْمَحَلَّ الدُّجَى لم يَجِدُوا غَيْرَ الذي كَانَا
هَمْ حَدَّدُوا القُبْحَ فكانَ الجَمَالْ وعَرَّفُوا الخيرَ فَكانَ الطَّلاحْ

الطلاح: الشر

وليسَ مِنْ نقصٍ ولا مِنْ كَمَالْ فالشَّوْكُ في التَّحقيقِ مِثْلُ الأَقَاحْ
وذَرَّةُ الرَّمْلِ كَكُلِّ الجِبَالْ وكالذي عَزَّ الذي هَانَا

١٠٣ بلادي

إنِي مررتُ على الرياضِ الحَالِيَةْ وسمعتُ أنغامَ الطيورِ الشَّادِيَةْ
فَطَرِبْتُ، لكنْ لم يُحِبَّ فُؤادِيَهْ كطيورِ أرضِي أو زهورِ بِلادِي

* * *

وشربتُ ماءَ النيلِ شيخِ الأنْهُرِ فكأنَّني قد ذُقْتُ ماءَ الكوثَرِ
نَهْرٌ تَبَارَكَ مِنْ قديمِ الأَعْصُرِ عَذْبٌ، ولكنْ لا كَمَاءِ بِلادِي

* * *

قالوا: أليسَ الحُسْنُ في كلِّ الدُّنَى فَعَلامَ لم تَمْدَحْ سِوَاها مَوْطِنا
فأَجَبْتُهُمْ: إنِّي أُحِبُّ الأَحْسَنَا أَبداً، وأَحْسَنُ ما رأيتُ بِلادِي

* * *

الكَوكَبُ الوَضَّاحُ يَبْقَى كَوْكَبَا وَلَئِنْ تَسَتَّرَ بِالدُّجَى، وتَنَقَّبَا
لَيْسَ الضَّبَابُ بِسَالِبٍ حُسْنَ الرُّبى والبُؤْسُ لا يَمْحُو جَمَالَ بِلادِي

١٠٤ حديث الأغصان

أُصْغِي إلى النَّسَماتِ تَرْوِي للربى ما قالتِ الأشجارُ للغُدْرَانِ
وإلى الأزاهِرِ كلما مَرَّتْ بها عذراءُ ذاتُ مَلاحَةٍ وبَيانِ
مُتَهَامِساتٍ: ما نَظُنُّ فُلانَةً أَحَداً بها أولى مِنَ ابنِ فُلَانِ
يا ليتَ يَنْثُرُنا الغَرامُ عَلَيْهِما مِنْ قَبْلِ يَنْثُرُنا الخَرِيفُ الجَانِي

الأزهار تتهامس وتتمنى أن ينثرها الغرام على العروسين قبل أن ينثرها الخريف ويجني عليها

١٠٥ وتركتهم يتعثرون ورائي

في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة «السمير»:

تلكَ السِّنُونُ الغارِباتُ وَرائي   سِفْرٌ كَتبتُ حروفَه بِدِمائي

جريدة السمير تتحدث عن نفسها

ما عِشْتُها لأَعُدَّها بلْ عشتُها   لِتَبِينَ في سِيمائِها سِيمائي

سيماء: سحنة. تقول الجريدة: لم أعش تلك السنين الطويلة لأعدها وأفخر بطول العمر، لكنني أردت أن أترك بصمتي على تلك السنين

لاحتْ ليَ العلياءُ في آفاقِها   فأَرَدْتُها دَرْباً إلى العلياءِ

اتخذت من السنين طريقاً للمجد

وعِبادةً للحقِّ أينَ وجدتُهُ   والحسنِ في الأحياءِ والأشياءِ

وملأت تلك السنين بعبادة الحق والجمال

تلكَ السِّنُونُ، بِبُؤْسِها ونعيمِها،   مالتْ بِعُودِي، وانطَوَتْ بِرُوَائي

يتحدث عن نفسه الآن: فالسنين التي أخرج خلالها جريدة السمير، قوست عوده (قامته)، وجعلت رُواءه (نضارته) ينطوي (يذوي)

أين الشبابُ أَلُفُّ أحلامي به   ليس الشبابُ الآنَ لي بِرِداءِ

نَفْسِي تُحِسُّ كأنما أثقالُها   قد خُيِّرَتْ فَتَخَيَّرتْ أعضائي

السنين اختارت أن تلقي بأثقالها على جسمه

شُكراً لأعدائِي! فَلَوْلا عَيْثُهُمْ   لم أَدْرِ أَنَّهُمُ من الغَوْغاءِ

العيث: الإفساد

ذَنْبِي إلى الحسَّادِ أنِّيَ فُتُّهُمْ   وتركتُهُمْ يتعثرونَ ورائي

شكراً لكلِ فتىً مزجتُ بِروحِهِ   روحِي، فَطَابَ ولاؤه وولائي

مَنْ كانَ يحلُمُ بالسماءِ فإنني   في قلبِ إنسانٍ وجدتُ سمائي

السماء: الجنة

ليس الجمالُ هُوَ الجمالَ بِذَاتِه   الحسنُ يوجدُ حينَ يوجدُ راءِ

تلكَ السِّنُونُ، عَقِيمُها كَوَلُودِهَا   حُلوٌ لَدَيَّ، كذا يَشاءُ وَفائي

يا من يَقولُ: ظَلَمْتَ نفسَكَ فاتَّئِدْ؛   دعنِي، فلسْتَ بِحَامِلٍ أعبائي

اتئد: تمهل

ما العمرُ؟ إنْ هُوَ كالإناءِ، وإنَّني بِالطِّيبِ الغالي ملأتُ إنائي
إن هو كالإناء: ما هو إلا كالإناء

فإذا بَقِيتُ، فَلِلْجمالِ بَقائي وإذا فَنِيتُ، ففي الجمالِ فَنائي

١٠٦ أَبْلتْ نِعالي ألسن السفهاء

إني حَلَمْتُ كأنما أنا سائرٌ في روضةٍ خَلّابةٍ غَنّاءِ
وإذا بِصوتٍ كالهَريرِ يَطِنُّ في أُذُني، وأنيابٍ تَصِرُّ ورائي
الهرير: صوت الكلب دون النباح، صرير الأنياب: صوتها يحتكُّ بعضها ببعض

فإذا ورائيَ في الحديقةِ نابحٌ ضَاري المَحاجِرِ، ضَامِرُ الأحشاءِ
هذا الكلب في محاجر عينيه قسوة، وهو نحيل

كادتْ تُطِلُّ عروقُهُ من جلدِهِ وتُطِلُّ مَعْهَا شهوةٌ لِدِمائي
أشفقْتُ يَعْلَقُ نابُه بِردائي فرفسْتُهُ غَضَباً، فطارَ حِذائي
ومضى به لِرِفاقِه، فَتَهَلَّلوا وتقاسموهُ، فكان خيْرَ عَشاءِ
لا يَعْجَبَنْ أحدُ رآنيَ حافياً أَبْلَتْ نِعاليَ ألسُنُ السُّفهاءِ

١٠٧ شاهدته بعيونهم

رسالة إلى الشاعر القروي ألقيت في الحفلة الوداعية التي أقيمت في ولاية تكساس وقد تعذر على الشاعر حضورها:

وإِذا تلوحُ ليَ الجبالُ ذَكَرتُهُ فالشاعرُ القَرَوِيُّ طَوْدُ إِباءِ
طود: جبل

من كانَ يحلُمُ بالغديرِ، فإنه يبدُوُ له في كلِّ قطرةِ ماءِ
إن كنتُ لم أَرَهُ فقد شاهدْتُهُ بِعُيُونِ أصحابِي، وذاكَ عَزائي

١٠٨ إلى الشرق انتسابي

ألقيت بمناسبة زيارة وزير خارجية سورية للولايات المتحدة عام ١٩٥٢:

ليس بِي داءٌ، ولكنِّي امْرُؤٌ لَسْتُ في أرضِي، ولا بينَ صِحَابِي
مَرَّتِ الأعوامُ تَتْلُو بعضَها: لِلْوَرَى ضِحْكِي، ولِي وَحْدِي اكْتِئابِي

كـلـمـا اسـتَـوْلَـدْتُ نَـفْـسِـي أَمَـلاً مَـدَّتِ الـدنـيـا لـهُ كـفَّ اغـتِـصـابِ

استولدت نفسي: أخرجت منها

أفـلـتَـتْ مِـنـي حَـلاواتُ الـرُّؤى عـنـدمـا أفـلَـتَ مِـنْ كَـفِّـي شَـبـابـي

أيـهـا الـسـائـلُ عَـنِّـي: مَـنْ أنـا؟ أَنَا كالشمسِ إلى الشرقِ انتِسابي

إنــنــي الــمــحُ فــي أوجُــهِــكُــمْ دَفْقَةَ النُّـورِ عـلـى تِـلْـكَ الـرَّوَابـي

وأرى أطـيــافَ عــصــرٍ بــاهــرٍ طالعٍ كالشمسِ مِنْ خلفِ الحِجَابِ

لــيْــتَــهُ يُــسْــرِعُ كــيْ أُبْــصِـرَهُ قـبـلَ أن أغـدُو تُـرَابـاً فـي تـرابِ

١٠٩ التينة الحمقاء

وتـيـنـةٍ غَـضَّـةِ الأَفْـنـانِ بَـاسِـقَـةٍ قالتْ لأَتْرَابِهَا، والصَّيْفُ يُحْتَضَرُ

تينة: شجرة تين، باسقة: عالية، أترابها: صاحباتها

بِئْسَ القَضَاءُ الذي في الأرضِ أَوْجَدَني عِندِي الجمالُ، وغيرِي عندَهُ النَّظَرُ

لأَحْبِسَنَّ عـلـى نـفـسـيِ عـوارِفَـهـا فـلا يَـبِـيِـنُ لـهـا فـي غـيـرِهَـا أَثَـرُ

عوارفها: معروفها

كَمْ ذا أُكَلِّفُ نفسيَ فوقَ طاقَتِها! وليسَ لِي، بل لِغَيرِي، الفَيْءُ والثَّمَرُ

إنـي مُـفَـصَّـلَـةٌ ظِـلِّـي عـلـى جَـسَـدي فـلا يـكـونُ بـهِ طُـولٌ، ولا قِـصَـرُ

ولـسْـتُ مُـثْـمِـرَةً إلَّا عـلـى ثِـقَـةٍ أن ليسَ يَطْرُقُنِي طيرٌ، ولا بَشَرُ

يطرقني: يزورني

عـادَ الـربـيـعُ إلـى الـدُّنـيـا بِـمَـوْكِـبِـهِ، فازَّيَّنَتْ، واكتستْ بالسُّنْدُسِ الشَّجَرُ

السندس: الحرير الأخضر

وظَـلَّـتِ الـتـيـنـةُ الـحـمـقـاءُ عَـارِيَـةً كـأنَّـهَـا وَتَـدٌ فـي الأرضِ، أو حَـجَـرُ

ولـمْ يُطِقْ صاحبُ البستانِ رؤيَتَها، فَاجْتَثَّها، فَهَوَتْ في النارِ تَسْتَعِرُ

اجتثها: قطعها من أساسها

منْ ليسَ يسخُو بِمَا تَسْخُو الحياةُ بِهِ فـإنـه أحـمـقٌ بِـالـحِـرْصِ يَـنـتـحِـرُ

الحرص: البخل

١١٠ موت الحسن بموت الشاعر

رثى بها رفيقه الشاعر نسيب عريضه:

لم يَبْرَحِ الروضُ فيهِ الماءُ والزَّهَرُ ولم يَزَلْ في السماءِ الشَّمسُ والقمرُ

لم يبرح: ما زال

لـكـنـهـا الآن فـي أذهـانِـنَـا صـورُ شَوْهاءُ، لا القلبُ يهواها ولا النظرُ

لكن الروض والزهر والشمس والقمر الآن مجرد صور شوهاء (مشوهة) في عيوننا

قد انْطوَى حسنُها لمَّا انْطوى الشَّاعِرْ

* * *

لَسَوفَ يَرْجِعُ عِطْراً في الرَّيَاحِينِ أو نَسْمَةً تَتَهَادَى في البساتينِ

أو بَسْمَةً في ثُغُورِ الخُرَّدِ العِينِ فالموتُ ما هَدَّ إلَّا هيكلَ الطينِ

الخرَّد: الحسان، العين: ذوات الأعين الواسعة

لا تَحْزَنُوا، فَنَسِيبٌ غائبٌ حاضِرْ

١١١ أيلول مونتريال

من قصيدة يصف بها المناظر التي مر بها في طريقه إلى مونتريال:

الحسنُ حولَكَ في الوِهَادِ وفي الذُّرَى فانظرْ: ألستَ تَرى الجَمَالَ كما أَرَى؟

الوهاد: الوديان

أيلولُ يمشي في الحقولِ وفي الربى والأرضُ في أيلولَ أحسنُ مَنْظَرا

لا تَحْسَبِ الأنهارَ ماءً راقِصاً هذي أغانيهِ اسْتَحالتْ أَنْهُرَا

أغاني أيلول/ سبتمبر تحولت إلى أنهار

وانظرْ إلى الأشجارِ تخلعُ أَخْضَراً عنْها، وتَلْبَسُ أحمراً أو أصفرا

١١٢ اخضيرار قلب يابس

ألقاها في «الحفلة التكريمية» التي أقيمت على شرفه في لوس انجلوس برعاية الجمعية السورية ـ اللبنانية:

ما لُوسُ أَنْجِلِسٍ سوى أُنْشُودةٍ اَللَّهُ غَنَّاهَا، فَجُنَّ لها الوَرَى

وزَّعْتُ نفسي في النُّفُوسِ مَحَبَّةً لا شَاكِياً ألماً، ولا مُتَضَجِّرا
ومشيتُ في الدنيا بقلبٍ يابسٍ حتى لَقِيتُ أَحِبَّتي، فاخْضَوْضَرا

١١٣ ليت الفراق ويومه لم يخلق

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في مونتريال:

لا تَقْلَقي يومَ النَّوَى، أو فاقْلَقي يا نفسُ! كلُّ تَجَمُّعٍ لِتَفَرُّقِ
اَللهُ قَدَّرَ أنْ تَمَسَّ يدُ الأَسَى أرواحَنا، كَيْمَا تَرِقَّ وتَرْتَقي
أَوْفَى على الشُّهُبِ الدُّجَى، فَتَأَلَّقَتْ لولا اعتكارُ الليلِ لم تتألَّقِ

أوفى الدجى: أقبَلَ الليل، اعتكار: اسوداد

والفحمُ ليسَ يُضِيءُ إنْ لم يَضطَرِمْ والنَّدُّ ليسَ يَضُوعُ إنْ لم يُحْرَقِ

يضطرم: يلتهب، الند: من البخور، يضوع: تفوح رائحته

لا أضرِبُ الأمثالَ مَدْحاً للنَّوَى ليتَ الفراقَ ويومَهُ لم يُخْلَقِ
عَنَّفْتُ قلبي حينَ طالَ خفوقُهُ فأجابَ: بل لُمْني إذا لم أَخْفُقِ
للَّهِ مُونتِريَالُكُمْ ذاتُ الحُلَى ومدينةُ الطَّوْدِ الأَشَمِّ الأَبْلَقِ

الحلى: الزينة، الطود: الجبل، الأشم: المرتفع، الأبلق: الأبيض

كمْ وَقفةٍ ليَ عندَ شاطئِ نهرِها لا أستقي منهُ، وروحيَ تَسْتَقي
مُتَعَلِّماً منهُ التواضعَ والنَّدى والصفحَ عنْ عَبَثِ الجَهُولِ الأَحْمَقِ
أعطَى الحقولَ حياتَها، ومضَى كأنْ لم يُعْطِهَا شَيئاً، ولم يَتَصَدَّقِ
ضَيَّعْتُ عندَ الواعِظِينَ سعادَتي ووجدتُها في وَاعِظٍ لم يَنْطِقِ
للَّهِ مُونْتِرْيَالُكُمْ وجَلالُهَا هِيَ رُومَةُ الصُّغْرَى، وضَرَّةُ جِلَّقِ
رَقَّتْ عَلَيَّ نُجومُها، وتَواضَعَتْ حتَّى لَكِدْتُ أُحِسُّهَا في مَفْرِقي
سأطيرُ عنها في غَدٍ بِحُشَاشَةٍ مَكْلُومَةٍ، وبِنَاظِرٍ مُغْرَوْرِقِ

حشاشة مكلومة: قلب مجروح، ناظر مغرورق: عين دامعة

وتظلُّ صورتُها تلوحُ لِخَاطري بَعضُ الرُّؤَى سَلوَى، وإنْ لم تَصْدُقِ

١١٤ فتية دان الزمان لهم

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامها له صديقه مالك الدوماني في كاليفورنيا:

يا ليْتَما رجعَ الزمانُ الأولُ زمنُ الشبابِ الضاحكُ المتَهَلِّلُ

عهدٌ تَرَحَّلَتِ البَشاشةُ إذ مَضَى　　　وأتَى الأَسى، فأقامَ لا يَتَرَحَّلُ

أقام: مكث

وأنا وصَحْبي لا نُفكِّرُ في غَدٍ　　　فكأنَّ ليسَ غَدٌ ولا مُسْتَقْبَلُ
نتوهَّمُ الدنيا، لِفَرْطِ غرورِنَا،　　　كَمُلَتْ بِنا، وبِغَيْرِنَا لا تَكْمُلُ
ونَظُنُّ أنَّ الروضَ يَنْشُرُ عِطْرَهُ　　　مِنْ أجلِنا، ولَنا يُغَنِّي البُلْبُلُ
لا شيءَ يُزْعِجُ في الحياةِ نفوسَنا　　　لا طارِئٌ، لا عارِضٌ، لا مُشْكِلُ
فكأنَّنَا في عالمٍ غيرِ الذي　　　تتزاحمُ الأَيْدِي بِهِ والأَرْجُلُ
الناسُ في طَلَبِ المعاشِ، وهَمُّنا　　　كأسٌ مُشَعْشَعَةٌ، وطَرْفٌ أكْحَلُ

مشعشعة: ممزوجة

إني تأمَّلْتُ الأنامَ، فراعَني　　　كيفَ الحياةُ بِهِمْ تَجِدُّ وتَهْزِلُ
الذِّكْرُ أثْمَنُ ما اقْتَنَيْتَ وتَقْتَني　　　والحبُّ أنْفَسُ ما بَذَلْتَ وتَبْذُلُ
قيلَ اغتَنَى زيدٌ، فَلَيْتَكَ مِثْلُهُ؛　　　أنا مِثْلُهُ، إنْ لم أقلْ: أنا أفْضَلُ
الشمسُ لي ولَهُ، ولألاءُ الضُّحى　　　والنيِّرَاتُ؛ ومِثْلُنَا المُتَسَوِّلُ
أما النُّضَارُ فإنَّهُ، يا صاحبي　　　عَرَضٌ يَزُولُ، وسِلْعَةٌ تَتَنَقَّلُ

النضار: الذهب، عرض: شيء عارض

١١٥ راحة البال المفقودة

ليتَ الذي خَلَقَ الحياةَ جميلةً　　　لم يُسْدِلِ الأستارَ فوقَ جمالِهَا

ليت خالق الحياة لم يجعلها تنتهي وينسدل الستار على جمالها

بلْ ليتَهُ سَلَبَ العقولَ، فلم يَكُنْ　　　أحدٌ يُعَلِّلُ نفسَهُ بِمَنالِهَا
للَّهِ كَمْ تُغْرِي الفَتَى بِوِصَالِها　　　وتَضِنُّ، حتى في الكَرَى، بِوِصَالِها
تَدْنِيهِ مِنْ أبوابِهَا بِيَمينِها　　　وتَرُدُّهُ عَنْ خِدْرِها بِشِمَالِها
قد كنتُ أَحْسَبُنِي أَمِنْتُ ضَلالَهَا　　　فإذا الذي خَمَّنْتُ كُلُّ ضَلالِها
إنَّ النفوسَ تَغُرُّها آمالُهَا　　　وتَظَلُّ عاكِفَةً على آمالِهَا
ذهبَ الصِّبَا وأنا أعالِجُ سِرَّها　　　مُتَحَيِّراً في كُنْهِهَا، ومَآلِهَا
حتى رأيتُ الشمسَ تُلْقِي نورَها　　　في الأرضِ، فوقَ سهولِها وجِبالِهَا

ورأيتُ أحقرَ ما بَنَاهُ عَنْكَبٌ مُتَلَفِّفاً، ومُطَوَّقاً بِحِبَالِهَا
فَعَلِمْتُ أنَّ النَّفْسَ، تَخْطِرُ في الحُلَى والوَشْيِ، مِثْلُ النَّفْسِ في أَسْمَالِهَا

الحلى: الحُليّ، أسمالها: ملابسها الممزقة

لَيْسَتْ حياتُكَ غيرَ ما صَوَّرْتَهَا، أنتَ الحياةُ: بِصَمْتِها ومَقَالِهَا
ولقد نَظَرْتُ إلى الحمائمِ في الرُّبَى فَعَجِبْتُ مِنْ حالِ الأنامِ وحَالِهَا
تشدُو، وصائدُهَا يَمُدُّ لها الرَّدَى، فاعْجَبْ لِمُحْسِنَةٍ إلى مُغْتَالِهَا
فَغَبَطْتُهَا في أمنِهَا وسَلامِهَا ووددْتُ لوْ أُعْطِيتُ راحةَ بالِهَا
وجعلتُ مَذْهَبَهَا لِنَفْسِيَ مَذْهَباً ونَسَجْتُ أخْلاقي على مِنْوَالِهَا
نِسْيَانُكَ الجَانِي المسِيءَ فَضِيلَةٌ وخمُودُ نارٍ، جَدَّ في إشْعَالِهَا
فارْبَأْ بِنَفْسِكَ، والحياةُ قصيرةٌ، أن تجعلَ الأضغانَ مِنْ أَحْمَالِهَا

اربأ بنفسك: ترفَّعْ، الأضغان: الأحقاد

زمنَ الشبابِ! رحلتَ غيرَ مُذَمَّمٍ وتركتَ لِلْحَسَراتِ قلبيَ الوالِهَا
دَبَّتْ عقارِبُهَا إِلَيْهِ تَنُوشُهُ ورَمَتْ بقايَاهُ إلى أَصْلالِهَا

عقارب الحسرات تنوش (تتخاطف) قلبي، وترمي بقاياه إلى أصلالها (أفاعيها)

يا جَنَّةً عُوجِلْتُ عن أثمارِهَا ولَذاذَةً عُرِّيتُ مِنْ سِرْبَالِهَا

سربالها: لباسها

١١٦ الفناء النووي

إذا سَحَقَتْ أرضَنَا القُنْبُلَةْ كما يَسْحَقُ الحَجَرُ الخَرْدَلَةْ
ودَبَّ الفَنَا في ذَوَاتِ الجَنَاحِ وغَلْغَلَ في النَّبْتِ، فَاسْتَأْصَلَهْ

غلغل: تغلغل

وفي الماشياتِ، وفي الزاحفاتِ عليْها، إلى آخرِ السِّلْسِلَةْ
وضاعَ الزَّمانُ ومِقْيَاسُهُ وأَشْبَهَ آخِرُهُ أَوَّلَهْ
ولم يبقَ حَيٌّ على سَطْحِهَا وأصبحَ عِزْرِيلُ لا شُغْلَ لَهْ
فذلكَ خَطْبٌ يَهُولُ النُّفُوسَ تَصَوُّرُهُ، قبلَ أنْ تَحْمِلَهْ
ولكنَّ أَمْراً يُعَزِّي الجَمِيعَ إذا سَحَقَتْ أرضَنَا القُنْبُلَةْ

فَلَنْ يَدَعَ الموتُ حَيّاً يَلُومُ   سِوَاهُ، على هَذِهِ المقْتَلَةْ

١١٧ المغامرون المبادرون

ألقاها في المأدبة التي أقامها المجلس المِلّي في مونتريال، كندا، لمناسبة مرور ٤٠ سنة على تأسيسه:

الأَربَعونَ لَوَ انَّها تَتَكَلَّمُ   لَرَوَتْ لنَا قصصَ العَظَائِمِ عَنْكُمُ
ولَحَدَّثَتْنا كيفَ عَنْ أَعْشَاشِكُمْ   طِرْتُمْ، بِأَجنحةِ المنَى، إذْ طِرْتُمُ
يومَ الفِراقِ كَظَمْتُمُ آلامَكُمْ   وأَخَفُّ مِنْ ألمِ الفِرَاقِ جَهَنَّمُ
وبَكَى الأَحِبَّةُ حَوْلَكُمْ، وجُفونُكُمْ   تَعْصِي البُكَا؛ حُزْنُ الجَبَابِرِ أَبْكَمُ
وغَزَوْتُمُ الآفاقَ، لا زَادٌ لَكُمْ   إلَّا الصِّبَا المتَوَثِّبُ المتَضَرِّمُ

المتضرم: المتوقد

تَتَخيَّلُونَ البحرَ شُقَّ لِتَعْبُرُوا   وانْدَاحَ بينَ الشَّاطِئَيْنِ لِتَسْلَموا

انداح: انبسط

والدُّرَّ مَخْبُوءاً لَكُمْ في قاعِهِ   كَيْ تُخْرِجُوهُ، وتَغْنَمُوا مَا شِئْتُمُ
والموجَ إذْ يَطْغَى، ويَهْدُرُ حَوْلَكُمْ   جَوْقاً لِطَرْدِ هُمُومِكُمْ يَتَرَنَّمُ
وإذا النجومُ تألقتْ تحتَ الدُّجَى   خِلْتُمْ لأَجْلِكُمُ تُضِيءُ الأنْجُمُ
وحَسِبْتُمُ شُمَّ الجبالِ سَلالِماً   نُصِبَتْ لَكُمْ كَيْ تَصْعَدُوا، فَصَعِدْتُمُ
ولَكَمْ تَلَثَّمَتِ الحَقَائِقُ بالرُّؤَى   كالأرضِ يَغْشَاها السَّرابُ المُوهِمُ

كثيراً ما نغلّف الحقائق الصعبة بأحلامنا فلا نراها صعبة، فهذه الحقائق كأرض مجدبة ولكننا نتخيل فوقها سراباً وهمياً

لِتُطِلَّ مِنْ أرواحِنا أشواقُها   فَنَطُوفَ حَوْلَ خُدُورِهَا ونُحَوِّمُ

خدورها: بيوتها

لم تَقْنَعُوا كالخَامِلِينَ بِأَنَّكُمْ   لَكُمُ شرابٌ، في الحياةِ، ومَطْعَمُ

مطعم: طعام

أو أنْ يَكونَ تُراثُكُمْ كَتُرَاثِهِمْ   قَصْرٌ عَفَا، أو هَيْكَلٌ مُتَرَدِّمُ

عفا: انهدم

وحَدِيثُ أسْلافٍ قدِ الْتَحَفُوا الفَنَا فَهُمُ سَوَاءٌ، في القِياسِ، وجُرْهُمُ
مَنْ يَقْتَرِبْ مِنْ أمسِ يَبْعُدْ عَنْ غَدٍ ويَعِشْ مَعَ الموتَى، ويُصْبِحْ مِنْهُمُ
المجدُ مَطْلَبُكُمْ، وأنتمْ سُهَّدٌ والمجدُ حُلْمُكُمُ، وأنتُمْ نُوَّمُ

سهَّد: ساهرون

لا شيءَ صَعْبٌ عِندكُمْ، حتى الرَّدَى، الصَّعْبُ عندَ نفوسِكُمْ أنْ تُحْجِمُوا
يا بِضْعَةً مِنْ أُمَّةٍ، هِيَ أُمَّةٌ في ذاتِها، ولَهَا طِرَازٌ مُعْلَمُ

طراز مُعْلم: نمط مميز

فِيكُمْ جميعُ صِفَاتِهَا وخِلالِهَا والروضُ يَحْويهِ، عُطُوراً، قُمْقُمُ
حَدَّثْتُ نفسيِ، والقطارُ يَخُبُّ بيِ عَجْلانَ يَخْتَرِقُ الدُّجى ويُدَمْدِمُ

يخب: يركض، يدمدم: يقول دم دم دم

فسألتُها مُستفهِماً، ولربَّما سألَ العليمُ سِواهُ عما يَعْلَمُ
ما أحسنُ الأيَّامِ؟ قالتْ: يومُكُمْ والناسِ؟ فابْتَدَرَتْ وقالتْ: أَنْتُمُ
والدُّوِرِ؟ قالتْ: دُوُرُكُمْ، والمالِ؟ قا لَتْ: إنَّ أحسَنَهُ الذي أَنْفَقْتُمُ
ما كانَ أكملَ يومَكُمْ وأَتَمَّهُ لو لم يكنْ في مَهْدِ عِيسى مَأْتَمُ

مهد عيسى: فلسطين

وكذَا الحياةُ: قديمُها وحديثُها، ذِكْرَى نُسَرُّ بِهَا، وذِكْرَى تُؤْلِمُ

١١٨ جهنم الحقيقية

بالأمسِ بادَرَني صَديـ ـقٌ حائرٌ يَسْتَفْهِمُ
: أَجَهَنَّمٌ نارٌ، كَما زعمَ الهُدَاةُ، وعَلَّمُوا؟
أم زَمْهَريرٌ قارِسٌ قاسٍ، وكَوْنٌ مُظْلِمُ؟
فأَجَبْتُهُ: ما الزَّمْهَريـ ـرُ، ومَا اللَّظَى المُتَضَرِّمُ..

المتضرم: المتوقد

بِجَهَنَّمٍ، لكِنَّما: أنْ لا تُحِبَّ جَهَنَّمُ

١١٩ ثابر على تهديمها

ألقاها في حفل تكريم كمال جنبلاط، الزعيم اللبناني:

تلكَ المنازلُ، كيف حالُ مُقيمِها ... إنَّا قَنِعْنَا بعدَها بِرُسومِها
نَشْتاقُها، في بؤسِنَا ونعيمِنَا ... ونحبُّها، في بؤسِهَا ونعيمِها
يا حامِلاً، في نفسِهِ وحديثِهِ، ... أحلامَ أَرْزَتِها، ولُطْفَ نسيمِها
حدِّثْ بَنِيها: شَيْخَهُمْ وفَتَاهُمُ ... عنْ ليثِ غابَتِها، وظَبْيِ صَرِيمِها

الصريم: الأرض الرملية المنعزلة

حَدِّثْهُمُ عنْ ليلِها ونجومِها ... وعنِ الهَوى في ليلِها ونجومِها
وعنِ الشُّطوطِ الحالماتِ بِعودةٍ ... للغائِبينَ، ورَجْعةٍ لِنعيمِها
وعنِ الروابي الشاخِصَاتِ إلى السَّما ... العالقاتِ رؤوسُها بِغُيومِها
فكأنَّها سُحُبٌ هَوَتْ مِنْ حَالِقٍ ... ورَسَتْ على وجْهِ الثَّرَى بِهُمُومِها

حالق: جبل عالٍ

وعن الأُلى مَلَكُوا، فلم يَتَوَرَّعُوا ... عنْ سَلْبِ أَعْزَلِها، وظُلمِ يَتيمِها
الجاهليةُ، آهِ مِنْ أصنامِها ... بُورِكْتَ، يا مَنْ جَدَّ في تحطيمِها
والطائفيةُ، أنتَ أوَّلُ مِعْوَلٍ ... في سورِها. ثَابِرْ على تَهْديمِها

١٢٠ خمر المعاني

في حفلة ميلاد ديوانه الخمائل:

ما هُوَ الشِّعْرُ، إنَّنِي ما رأيتُ اثْـ ... ـنينِ إلَّا وفيهِ يَخْتَصِمانِ
قالَ قومٌ: وَحْيٌ يُنَزِّلُهُ اللَّـ ... ـهُ، وقومٌ: نَفْثٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
نحنُ، أهلَ الخيالِ، أسعدُ خَلْقِ اللَّـ ... ـهِ حتى في حالةِ الحِرْمَانِ
كَمْ زَهِدْنا بِثَرْوةٍ مِنْ نُضَارٍ ... وقَنِعْنا بِثَروةٍ مِنْ أَماني

نضار: ذهب

إنْ ظَمِئْنا، وعَزَّ أنْ نَرِدَ الما ... ءَ، رَوَانا تَصَوُّرُ الغُدْرانِ
وإذا غابتِ النجومُ اهتدينا ... بالرُّؤَى، بالرجاءِ، بالإيمانِ

لا يَعُدَّ الوَرَى علينا اللَّيالي نحنُ قومٌ نعيشُ في الأزْمَانِ

لا يعدّ: ينهاهم عن أن يعدُّوا

رُدَّ عَنِّي الكؤوسَ، يا أيها السَّا قي، فَرُوحي نَشْوَى بِخَمْرِ المعَاني

أيها الليلُ! أنتَ أبهى مِنَ الفَجْـ ـرِ، وإنْ كنتَ أسودَ الطَيْلَسانِ

الطيلسان: الثوب. قال المعري: رب ليل كأنه الصبح في الحسن وإن كان أسود الطيلسان

١٢١ نظرتَ إلى العُوَّاد تسألهم عني

أبي! خانَني فيكَ الرَّدَى فَتَقَوَّضَتْ مَقَاصِيرُ أحلامي كَبَيْتٍ مِنَ التِّبْنِ

تقوضت: تهدمت، مقاصير: غرف

وما صُوَرُ الأشياءِ بَعْدَكَ غيرَها، ولكنَّما، قد شوَّهَتْهَا يدُ الحُزْنِ

فَوَاهاً لَوَ انِّي كنتُ في القومِ عندما نظرتَ إلى العُوَّادِ، تَسْأَلُهُمْ عني

العواد: زوار المريض

وكنتَ إذا حَدَّثْتَ، حَدَّثَ شاعِرٌ لَبيبٌ، دقيقُ الفَهْمِ والذوقِ والفَنِّ

يعني أنك أنت شاعر ودقيق الفهم الخ.

فما استَشْعَرَ المصْغي إليكَ مَلامَةً، ولا قلتَ، إلَّا قالَ مِنْ طَرَبٍ: زِدْني

نظنُّ لنا الدنيا ومَا في رِحَابِها، وليستْ لنا، إلَّا كما البحرُ للسُّفْنِ

تروحُ وتَغدو حُرَّةً في عُبَابِهِ كما يَتَهادَى ساكِنُ السِّجْنِ في السِّجْنِ

وَزَنْتُ بِسِرِّ الموتِ فلسفةَ الوَرَى فشَالَتْ، وكانتْ جَعْجَعَاتٍ بِلا طِحْنِ

شالت: ارتفعت كفتها، أي أن فلسفة الناس أخف من سر الموت، الجعجعة بلا طحن مثَلٌ، معناه صوت الجرش ولكن بلا طِحن (طحين)

فَأَصْدَقُ أهلِ الأرضِ مَعْرِفةً بِهِ كأكثَرِهِمْ جهلاً، يُرَجِّمُ بالظَنِّ

يرجم: يتشكك

١٢٢ وطن النجوم

وطنَ النجومِ! أنا هنا حَدِّقْ.. أَتَذْكُرُ مَنْ أنا؟

أَلَمحْتَ في الماضي البعيـ ـدِ فَتىً غَرِيراً أَرْعَنا؟

غرير: صغير بلا تجربة

جَـذْلانَ يَـمْـرَحُ فـي حُـقـو ... لِـكَ كـالـنَّـسِـيـمِ مُـدَنْـدِنَـا

جذلان: فرحان

الـمـقْـتَـنَـى الـمـمْـلـوكُ مَـلْـ ... ـعَـبُـهُ، وغَـيْـرُ الـمـقْـتَـنَـى

يعني يلعب في بيتهم وفي بيوت وحدائق الجيران، ولا فرق عنده

يَـتَـسـلَّـقُ الأشـجـارَ، لا ... ضَـجَـراً يُـحِـسُّ، ولا وَنَـى

ونى: تعب

ويـعـودُ بِـالأغـصـانِ يَـبْـ ... ـرِيـهـا سُـيُـوفـاً، أو قَـنَـا

قنا: رماح

ويَـخُـوضُ فـي وَحْـلِ الـشِّـتَـا ... ءِ مُـهَـلِّـلاً مُـتَـيَـمِّـنَـا

متيمِّناً: مستبشراً

لا يَـتَّـقـي شـرَّ الـعـيـو ... نِ، ولا يـخـافُ الألْـسُـنـا

ولَـكَـمْ تَـشَـيْـطَـنَ، كـيْ يَـقُـو ... لَ الـنـاسُ عـنـه: تَـشَـيْـطَـنـا

أنـا ذلـكَ الـولـدُ الـذي ... دنـيـاهُ كـانـتْ هَـهُـنـا

عـاشَ الـجـمـالُ مُـشَـرَّداً ... فـي الأرضِ يَـنْـشُـدُ مَـسْـكَـنـا

ينشد: يبحث عن

حـتـى انـكـشـفـتَ لـهُ، فَـأَلْـ ... ـقَـى رَحْـلَـهُ، وتَـوَطَّـنـا

واسـتـعـرضَ الـفَـنُّ الـجَـمَـا ... لَ، فَـكُـنْـتَ أنـتَ الأَحْـسَـنـا

لِـلَّـهِ سِـرٌّ فـيـكَ، يـا ... لـبـنـانُ، لـم يُـعْـلَـنْ لـنـا

زَعَـمُـوا سَـلَـوْتُـكَ، لَـيْـتَـهُـمْ ... نَـسَـبُـوا إلـيَّ الـمُـمْـكِـنَـا

سلوتك: نسيتك

فـالـمـرءُ قـد يَـنْـسـى الـمُـسِـيـ ... ءَ الـمـفْـتـرِي، والـمُـحْـسِـنَـا

والـخـمـرَ، والـحـسـنـاءَ، والـ ... ـوَتَـرَ الـمـرَنَّـحَ، والـغِـنَـا

المرنح: المهتزّ

ومـرارةَ الـفَـقْـرِ الـمُـذِلِّ ... بَـلَـى، ولَـذَّاتِ الـغِـنَـى

لـكـنَّـهُ مَـهْـمَـا سَـلا ... هـيـهـاتَ يَـسْـلُـو الـمَـوْطِـنـا

١٢٣ كيف خُلقتْ للناس عيون

إلى روح خليل مطران:

عـــنــــدمـــا أبْـــدَعَ هـــذا الـــ ـكـــونَ ربُّ الـــعـــالـــمـــيـــنـــا
ورأى كـــلَّ الـــذي فـــيـــ ـهِ جَـــمـــيـــلاً وثَـــمـــيـــنـــا
خَـــلَـــقَ الـــشـــاعـــرَ كـــيْ يَـــخـــ ـلُـــقَ لـــلـــنـــاسِ عُـــيُـــونـــا
مَـــنْ سِـــواهُ ثـــائـــرٌ، فـــيـــ ـهِ وَقَـــارُ الـــنَّـــاسِـــكِـــيـــنـــا
مَـــنْ سِـــواهُ عـــابـــدٌ، فـــيـــ ـهِ جُـــنـــونُ الـــثـــائـــريـــنـــا
مَـــنْ سِـــواهُ عـــانَـــقَ الـــلَّـــهَ ـ يَـــقِـــيـــنـــاً، لا ظُـــنـــونـــا

١٢٤ منتظراً الموت

مـا لِـلْـقُـبـورِ كـأنَّـمـا لا سـاكِـنٌ فيها، وقد حَوَتِ العصورَ الماضِيَةْ
طَوَتِ الملايينَ الكثيرةَ قبلَنا، ولسوفَ تَطْوِينا وتَبْقَى خَالِيَةْ
أينَ المهَا وعيونُها وفُتُونُها؟ أينَ الجبابِرُ والملوكُ العَاتِيَةْ؟
زالوا مِنَ الدنيا كأنْ لم يُولَدُوا، سَحَقتْهُمُ كفُّ القضاءِ القاسِيَةْ
إن الحياةَ قصيدةٌ: أعمارُنا أبياتُها، والموتُ فيها القافيةْ
متِّعْ لِحَاظَكَ في النجومِ وحسنِها فَلَسَوْفَ تَمضي، والكواكبُ باقِيَةْ

إيليا أبو ماضي
فهرس القوافي

إلياس فرحات

(١٨٩٣ ـ ١٩٧٦)

إلياس فرحات شعلة فصاحة وشموخ وحماسة للعروبة.. وهو شعلة جرأة. وبسبب هذه الجرأة كان أصحاب المقالات يمرون به بهدوء مرورهم بجانب سور المقبرة؛ يذكرون الاسم ثم يُغِذُّون السير للحديث عن مهجري آخر. كان جريئاً مع الدين وعلى الدين، وكان جريئاً في معاداته للمتفرنسين في لبنان. وقد صنع خيراً إذ طبع دواوينه بالبرازيل في سنتي ١٩٣٢، و١٩٥٤. ومن هذه الدواوين الأربعة: الربيع، والصيف، والخريف، ورباعيات فرحات، استقينا مختاراتنا. فلو لم يطبع مختاراته لكاد يتلاشى اسمه فيمن تلاشت أسماؤهم من عشرات الشعراء في المهجر. ونقول «كاد يتلاشى» ولا نجزم لأن لشاعرنا قصيدة لم يستطع أحد أن يتجاهلها. تلك هي «حياة مشقات»، أو «حديث النفس» كما تسمِّي كتب المدارس تلك القطعة منها، التي تبدأ بعبارة «أقول لنفسي».

لا، ليس فرحات من أصحاب الواحدة، أولئك الذين صنعت لهم ذكرَهم قصيدة واحدة. فله واحدات كثيرات. على أن «حياة مشقات» قصيدة مكتوبة بالعرق والجوع. وستراها فيما سيأتيك مما اخترناه. لكنك سترى أيضاً صرخاته الجريئة وغزلياته الرائقة.

نشأ فرحات في تربة الزجل اللبناني كإيليا أبو ماضي، بل أكثر من إيليا بكثير. كان إلياس فرحات زجالاً مكتمل الأداة وهو بعدُ فتى مراهق. وكان يحضر الحفلات، ويقارع الزجالين الكبار. على أن القرية التي نشأ فيها كانت «عاصمة» مهمة من عواصم الفصحى، فمن كفر شيما انطلق اليازجي وأبناؤه، وشبلي الشميل، والأَخَوان تقلا صاحبا جريدة الأهرام، ليصنعوا للفصحى

نهضة. وأنعم الله على شاعرنا أن ألجأه إلى ترك المدرسة وهو في العاشرة من عمره بعد أن تعلم القراءة في مدرسة الدير.. فعرف كيف يبدع.

اشتغل صبيَّ نجارٍ في زحلة القريبة، واشتغل في تقشيش الكراسي، ثم في تنضيد الحروف بمطبعة جريدة الوطن لشبلي ملاط، وجريدة الحقيقة للشيخ أحمد الأزهري في بيروت.. وكانت بيروت آنذاك على بعد بضعة كيلومترات من كفر شيما، وقد التصقت بها الآن. والتقى إلياس بأهل الأدب واللغة وسمعهم. وأتى دمشق للعمل وهو في السادسة عشرة من عمره، ولعله مشى إليها.. فقد تورمت رجلاه ومكث في السرير أشهراً، ثم عاد إلى قريته كفر شيما.

وعزم على الهجرة إلى البرازيل لينضم إلى نحو ستين ألف شامي سبقوه إلى هناك، وكان في السابعة عشرة. وقبل الرحيل أخذ خصلة من شعر محبوبته حتى يكون عهد بالوفاء. ظن أنه يمكث في البرازيل بضع سنين يلمُّ فيها المال من على الأرصفة في كيس ويعود ليتزوج الحبيبة. لكنه سرعان ما لاقى خيبتين: جاءه أن محبوبته تزوجت، ووجد أرصفة البرازيل كأرصفة لبنان. فكان لا بد من الكشة. و«الكشة» مصطلح مهم لمن شاء أن يتعرف على حياة أولئك المهجريين. هي حقيبة أو شبه حقيبة، أو صندوق أو شبه صندوق مع سيور تجعله يمتطي عاتق البائع. ويطوف به البائع في حواري القرى وفيه المناديل الملونة، وربطات العنق، وما إلى ذلك من الطرائف يبيعها فقير إلى فقراء.

قضى فرحات أكثر من عشر سنين يطوف ببضاعته. والتقى في البرازيل الأدباء والشعراء، تنقَّل من مدينة إلى مدينة وتحسنت أحواله، ورافق شقيقين له في العمل بالمحلات التجارية، غير أنه لم يكن رجل تجارة. ظل يكتب الشعر، ولكنَّ بعده عن موطن الزجل أمات الزجل على لسانه، وحلت الفصحى.

ماذا ننتظر من شاب لم يتجاوز السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة الدير؟ فصحى مهشمة طبعاً. فأما الوزن فأطاعه سريعاً، فهو زجال، وأما النحو فظل عصياً عليه بضع سنين. كان رفيق مهجره الشاعر القروي يقول له: أنت تكتب الشعر ولا تقرأه، فكل كلامك لحن في لحن.

وتزوج فتاة لبنانية وأنجبا: ليلى وخالد وعصام وسعاد. وذكرنا أسماء أبناء فرحات لكي تقارنها بأسماء أبناء إيليا أبو ماضي: ريتشارد، وإدوارد، وروبرت. ههنا يكمن فارق مهم بين المهجر في أميركا الشمالية، والمهجر في أميركا

الجنوبية. كان جو المهجريين في أميركا الجنوبية أعرب وأقرب إلى التمسك بقديم اللغة وفصيحها وبالعروبة. وكان لشاعرنا اتصال بالمراسلة بالحركة العربية التي قادها الشريف حسين وأبناؤه من مكة. وكان له في زميله الشاعر القروي سند مهم في تعضيد الفكرة العربية، وكلاهما رفض فكرة القومية السورية، ونأى عن زعيمها أنطون سعادة. ولم يكن القروي وفرحات كالسمن على العسل تماماً في العلاقة الشخصية، ربما لاشتراكهما في شيء آخر: النزق وحدة الطبع.

عاد إلياس فرحات إلى لبنان في زيارة، ولكنه توفي في البرازيل وعمره ثلاث وثمانون.

أيكون شعر فرحات انتفع بأن صاحبه لم يكن ذلق اللسان بالفصحى ذلاقته بالعامية اللبنانية؟ أيكون هذا وفر له بعض الحماية من «المنبرية» التي اتهم بها صديقه القروي صاحب اللفظ السليم واللغة القويمة والصوت الجَهْوري الجميل؟ ربما. على أن في شعر فرحات غضباً كثيراً، وحماسة وطنية. ولأن فرحات لم يقرأ كثيراً ولم يدرس اللغة درساً منظماً فقد بقيت في شعره بساطة جميلة، ثم إن شعره سلم من اللحن، وخصوصاً عندما قرر دفن أول مجموعة شعرية له، بعد أن كاد يدفع بها إلى المطبعة.

كانت فصحاه بسيطة وسلسة، وخالية من التعمل. لقد نبتت في أرض بريئة من ألاعيب البديعيين والنحاة.

١ كيف تعلمتُ الشعر

يقولونَ: عَمَّنْ أخذتَ القَريضَ؟ ... ومِمَّنْ تعلَّمتَ نظمَ الدُّرَرْ؟

القريض: الشعر

وأين درستَ العَروضَ، وكيفَ ... تَلقَّنتَ هذا البيانَ الأغَرّ؟
وما كنتَ يوماً بِطالبِ عِلْمٍ ... فإنَّا عرَفناكَ منذُ الصِّغَرْ
فقلتُ: أخذتُ القريضَ صَبيَّاً ... عنِ الطَّيْرِ، وَهْيَ تُغنِّي السَّحَرْ
وعَنْ ضَحِكاتِ مياهِ الجداوِ ... لِ فوقَ الجلاميدِ تحتَ الشَّجَرْ

الجلاميد: الصخور

وعنْ زَفَراتِ المحبِّ الأديبِ ... يزاحِمُهُ الموسِرُ المحتَقَرْ
وعنْ نَظَراتِ الحِسانِ اللواتي ... يَكَدْنَ يُغَلغِلْنَها في الحَجَرْ

لئِنْ كنتُ لم أدخُلِ المَدرساتِ صغيراً، ولا بعدَها في الكِبَرْ
فذا الكونُ جامعةُ الجامعاتِ وذا الدهرُ أستاذُها المعتَبَرْ

فذا الكون: فهذا الكون

فمَنْ يَحْيَ يَوماً ولا يَسْتَفِيـ ـدُ أعمى البصيرةِ أعمَى البَصَرْ

لعله فاته أن يجعلها: «فمن يحيَ يوماً ولا يستفدْ.. فأعمى البصيرة أعمى البصر». وفي القصيدة نفسها بعض التفسير.. فلم يكن فرحات خريج مدارس، ولم يكن كصاحبه رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) معلماً في المدارس قبل اغترابه

٢ الطفولة

تُرْجِعُني الذِّكرى إلى (الكَسَّارَةْ) إلى مَقَرِّ الحبِّ والطهارَةْ
إلى اجتماعي بِبَناتِ الحارَةْ نَلعَبُ طَوْراً بِالحَصى، وتارَةْ..
يُشْغِلْنَني مَعْهُنَّ بِالصِّنَّارَةْ

* * *

نُقيمُ فيما بيننا الأفراحا فنأكلُ الرُّمَّانَ والتفاحَا
ونملأُ الأكوابَ والأقداحا ماءً طَهوراً سائِغاً قَرَاحَا
نَصْبِغُهُ حتى يُحَاكي الرَّاحَا

يحاكي الراح: يشبه الخمر. وفي قريته كفر شيما المسيحية كان فرحات الصبي ربما رأى الكبار يشربون النبيذ الأحمر

* * *

وطالما جَعَلْنَني عَرِيسا واخْتَرْنَ إحداهُنَّ لي عرُوسَا
ثمَّ يُزَيِّنَّ لها الملبوسَا بالريشِ حتى يُشبِهَ الطَّاووسَا
وتُطرِبَ العيونَ والنفوسَا

* * *

يصنعنَ لي شَوارِباً مِنْ صوفِ يَجْزُزْنَها مِنْ أَلْيَةِ الخَرُوفِ
ويبْتَدِئْنَ بِالغِنَا اللطيفِ والرقصِ والنَّقرِ على الدُّفوفِ
وكلُّها مِنْ تَنَكٍ معروفِ

* * *

أما إذا اجتمعتُ بالصِّبيانِ فشأنُنا إذ ذاكَ شأنٌ ثانِ
نُقلِّدُ الفُرسانَ في الميدانِ لكنْ على خيلٍ مِنَ القُضْبانِ
مُلْجَمَةٍ بالقِشْرِ والخيطانِ

أي لها لجام من ألياف الشجر ومن الخيطان

٣ لولاك ما دار الفلك

حبيبي تعالَ تَجِدْ منزلَكْ مُعَدًّا كما كانَ مِنْ قبلُ لَكْ
تعالَ! فما احتلَّ قلبي سِواكَ وغَيرُكَ في خاطِري ما سَلَكْ
فَلَوْلاكَ لم تَبْدُ هذي النجومُ ولولاكَ ما دارَ هذا الفَلَكْ

٤ استرحام

قِفْ عندَ حَدِّكَ يا زماني ودَعِ الهجومَ، فقدْ كَفاني
جاوزتَ وَيْحَكَ كلَّ حَدٍّ واعتَدَيْتَ على كِيَاني
يا دهرُ ويحكَ، هُدنةً! تبقَى ولو بعضَ الثَّواني

يطلب من الزمن هدنة

كيْ أستعيدَ بِهَا قُوا يَ وأَسْتَعِدَّ لِما أُعاني
أنا أَعْزَلٌ، والفتكُ بي يا دهرُ مِنْ شِيَمِ الجَبَانِ

٥ الشاعر التعس

سعادةَ نفسي! متى نَلْتَقي لَعَلَّكِ، لِلآنَ، لم تُخْلَقي
وتَحْسُدُني أنني شاعرٌ جُموعٌ ترى الخيرَ في المنطِقِ

المنطق: الكلام، ومن ضمنه الشعر

وتزعُمُ أنِّي سعيدٌ بِشِعري ولكنَّ ذا الزعمَ لم يَصْدُقِ

ذا الزعم: هذا الزعم

فهلْ مَنْ يعيشُ بِقَوْلِ «أَجَدْتَ» و«يَا لَكَ مِنْ شاعرٍ مُفْلِقِ»؟

أهناك من يقتات بقول الناس له «أحسنت»؟

وما هَمَّني إنْ يَخُنِّي الزَّمانُ وإنْ يُرْعِدِ الدَّهْرُ، أو يُبْرِقِ

خُلِقْتُ شَقِيّاً، وعِشْتُ شَقِيّاً وأَحسبُ أني أموتُ شَقي

٦ أضعتُ الكلام

لَكَمْ قلتُ إنّي إذا ما التقينَا سأُطْفي، بِبَثِّ هُيَامِي، الأُوَامَا

الأوام: العطش

وأُظْهِرُ ما بي، لِتَعلمَ أني غَدَوْتُ لأَهلِ الغرامِ إمَاما
ولمّا التقينا، وقالتْ: سَلامٌ، أَضَعْتُ النُّهى، وفَقَدْتُ الكَلاما

النهى: العقل

٧ ما للفقير صديق

سأَلَتْ، ولهفتُها تَعوقُ لسانَها، والعهدُ في ذاكَ اللسانِ طَليقُ
قالتْ: أَمَا لَكَ مِنْ شَقِيقٍ في الورى؟ فأَجَبْتُها: أصلُ البَلاءِ شَقِيقُ
قالتْ: أَمَا لَكَ مِنْ صديقٍ مخلصٍ؟ فأجبْتُها: مَا لِلفقيرِ صديقُ

٨ رغم اختلاف اللغة

أَحِنُّ إلى الغابِ، حيثُ الشُّرورُ هنالِكَ نيرانُها خَامِدَةْ
أحنُّ إلى حيثُ لا يجلسُ الغَدْ رُ قُربَ الوفاءِ إلى مائِدَةْ
فهلْ مِنْ فتاةٍ كَعَابٍ، تَكونُ رِيَاحُ مَطامِعِهَا رَاكِدَةْ

الكعاب: الفتاة برز صدرها

تَحِنُّ حنيني، وتُلقي على الكوْ نِ نَظرةَ عاقِلَةٍ راشِدَةْ
فأمنَحُها مُهجَتي، ونَعيشُ بَعيديْنِ عَنْ عُصْبةٍ جاحِدَةْ
ويفرحُ قلبي الحزينُ بِهَا كما يفرحُ الطفلُ بِالوالِدَةْ
ولستُ أُبالي، ولو كَلَّمَتْني بإِحدى لغاتِ الورى البَائِدَةْ
إذا ما لغاتُ الشِّفَاهِ اختلفْنَ فَمَا لِلْقلوبِ سوى واحِدَةْ
خُفُوقٌ يَخِرُّ لديْهِ البيانُ وتَعْنُو المَعانِي لَهُ ساجِدَةْ

تعنو: تخضع

٩ الخوف اللذيذ

لستُ بِناسٍ لذيذَ قُبْلَتِها ... وما غَشَا القلبَ مِنْ حُمَيَّاها

حميَّاها: شدتها

ودَعْوَةً لِلْوصالِ مُغْرِيةً ... تَقْبَلُها تارةً وتَأْبَاها
غرامُها بِالرِّضَاءِ يأمُرُها ... وخوفُها مِنْهُ عنْهُ يَنْهاهَا

خوفها من الغرام ينهاها عن الرضا

ولَذَّةُ الحبِّ لا يُوَلِّدُها ... في النفسِ شيءٌ كَخَوفِ عُقْبَاها

عقباها: نتيجتها

١٠ حسرة

أرى في الحَشَا نارَ الفُتُوَّةِ تَنْطَفي ... فَأَشْعُرُ أَنِّي ضَائعٌ كَدُخَانِهَا

الحشا: جوف الإنسان، يقصد القلب

تَوَلَّى الصِّبَا إلَّا قليلاً، وَلَيْتَني ... تَمَتَّعْتُ مِنْ أثمارِهِ في أوانِهَا

١١ عمامة فيصل

قال إلياس فرحات إثر عودة الأمير فيصل من فرساي بعد أن فاوض بشأن سورية، ١٩١٩:

اَلعرشُ عرشُكَ يا فتَى عدنانِ ... أَبطأْتَ أم أسرعتَ في الإعلانِ
وإذا العروشُ على القلوبِ تأسَّسَتْ ... أَمِنَتْ بِهِنَّ طَوارِقَ الحَدَثانِ

طوارق الحدثان: مصائب الزمن

أَعْجَزْتَ في باريسَ كلَّ محنَّكٍ ... جَمِّ البلاغةِ، ساحِرِ التِّبْيَانِ
وطَلَعْتَ بينَ ملوكِهِمْ بِعِمَامَةٍ ... جمعتْ جميعَ مفاخِرِ الأزمانِ
بَصَرَتْ بِها تيجانُهُمْ فأصابَها ... حسدٌ أذابَ لآلِئَ التيجانِ
أَفَهمْتَهُمْ أنَّ الشَّآمَ لأهلِها ... أهلِ العُلى والمجدِ مِنْ غسَّانِ

كان الغساسنة ملوكاً في الشام قبل الإسلام. تعليق عمران القفيني: (يا فرحات، قد جرتك القافية جراً للغساسنة. كان من فخرت بهم «من غسان» تبعاً للروم يخوضون بأمرهم حروباً بالوكالة مع العرب الآخرين)

لو كان عِنْدَ الضَأْنِ بأسُ ضَرَاغِمٍ ما اسْتَمْرَأَ الإنسانُ لحمَ الضَّانِ

التسويد: عمران القفيني

إنِّي، وإنْ كنتُ القَصِيَّ، فإنَّ لِي عَيْناً تَرى ما لا يَراهُ الدَّاني

مولايَ إنَّ لِشَعبِنا بِسُمُوِّكُمْ أملاً يكادُ يكونُ كالإيمانِ

طَبِّبْ بِحِكْمتِكَ الشَّآمَ، فإنَّها كادتْ تموتُ بِعِلَّةِ الأديانِ

سبب التسويد ما تشهده بلاد الشام من طائفية هي بعض أسباب الحرب الأهلية، ونكتب في ربيع عام ٢٠١٧. ولئن كان الشاعر يخاطب فيصلاً الأول، وكان ملكاً عربياً متسامحاً رأيناه، بعد أن ترك الشام وحكم العراق نحو اثنتي عشرة سنة، يعامل الناس بخلق رفيع، ونقرأ ما كتبه عنه الشاعر الجواهري الذي عمل في مكتبه بضع سنين، فنجد أن فيصلاً كان متواضعاً شريفاً، ونجده يمسح بمرهم الكرم والأصالة على الفرقة الطائفية.. لكن الزمن كان أقوى منه. وستجد في كتابنا هذا وفي الكتاب الذي سبقه ضمن سلسلة «الزبدة» شعراً كثيراً في مدح فيصل، وشعراً أكثر في رثائه. وفي هذا البيت المسود يقول الشاعر لفيصل، الذي مَلَك في الشام قليلاً قبل العراق، «طبب بحكمتك الشآم». ومضت بعد هذا البيت ٩٧ سنة، فهل وقع العرب في الشام والعراق على حكيم يطببهم من مرض الطائفية؟ معنا ثلاث سنوات فنحن نحب «القرون» بالمعنيين

١٢ العُقبى لك

يا ليلُ خُذْ بِيَدِ العُزُو بةِ، واهدِهَا خيرَ السَّبيلْ

لم يبقَ لي فيها وفيـ ـكَ مِنَ الرَّجاءِ سوى القَليلْ

* * *

إنِّي صحبتُكُما زما ناً كنتُمَا فيهِ مَعِي

صحب الليل والعزوبة زمناً

ذِئْبينِ: ينهشُ واحدٌ قلبِي، وآخرُ أَضْلُعِي

* * *

ما هذهِ الطُّرُقُ الحسا نُ بِتُرْبِها ونَباتِها

ماءُ المحبَّةِ والحيا ةِ يَفيضُ مِنْ جَنَباتِها

* * *

ما هذهِ الأنغامُ؟ هلْ هِيَ مِنْ مَلائِكَةِ السَّماءْ

أمْ هـــذهِ نِـــعَـــمُ الــــزَّوا ج تـدفَّـقَـتْ فـي ذا الـمَـسـاءْ؟

* * *

مــا هـــذهِ الــصَّــحـــراءُ، لا مــاءٌ يَــفــيــضُ ولا نَــبــاتْ
مــا هــذهَ الــحــيَّــاتُ يُــفْــ ــسِـدُ سُـمُّـهـا مـاءَ الـحَـيَـاةْ

* * *

مـــا هـــذهِ الأصْـــواتُ؟ هـــل ضـوضـاءُ سُـكـانِ الـلُّـحُـودْ؟
أم هـــذه نِـــقَـــمُ الـــزَّوا جِ، وتِـلْـكَ صَـلـصَـلَـةُ الـقُـيـودْ

* * *

وغــداً يــرافــقُــنــي الــوُشَــا ةُ إلـى الـكَـنِـيـسـةِ بَـاسِـمِـيـنْ
ولِــكُــلِّــهِــمْ وَجْــهُ الـمَـسـيــ ـحِ، وقَـلْـبُ يُـودَاسَ الـلَّـعـيـنْ
يوداس: يهوذا الذي أسلم المسيح للجنود

* * *

وغـــداً نَـــمُـــرُّ بِـــكُـــلِّ آ نِـسَـةٍ تـقـولُ بِـمَـغْـزِلِ:
يــا لَــيْــتــنــي كــنــتُ الــعــرو سَ، وكـانَ هـذا الـعـرسُ لـي

١٣ الحب المغدور

قال إلياس فرحات في محبوبته الأولى:

خُصْلَةُ الشَّعْرِ التي أعطَيْتِنيها عِنْدما البَيْنُ دَعَاني بِالنَّفيرْ
أعطته خصلة من شعرها عربون بقاء الود عندما دعاه البين، أي الفراق، بالنفير، أي بنداء الرحيل

لـم أَزَلْ أتْـلوُ سُطورَ الحُبِّ فيها وسأتْـلوُهـا إلى اليومِ الأَخِيرْ

* * *

هِـيَ أَصْـفَـى مِـنْـكِ حُـبَّـاً وَوِدَادَا هِـيَ أوْفَـى مِـنْـكِ رَعْـيَـاً لِـلـذِّمَـمْ
هِيَ في غَيِّ الصِّبَى لم تَتَمادَى هِـيَ لـم تَـتْـبَـعْ هَـوىً جَـرَّ نَـدَمْ
أنْتِ قَوَّضْتِ مِنَ الحبِّ العِمَادَا أنتِ خُنْتِ العهدَ عَمْدَاً، وَهْيَ لَمْ
يبدو أن محبوبته سرعان ما تزوجت بعد رحيله. أثبتنا القصيدة لأنها من بواكيره، ولأن شباب النت فرحون بها جداً

١٤ مندوب القِرَدة

ساو باولو - البرازيل ١٩١٨:

رَاعَ القرودَ حديثُ الناسِ إذ وَجَدُوا   مِنْهُمْ فَريقاً يُرَاعِي قَوْلَ دَرْوِينِ
فَعَيَّنوُا نائباً عَنْهُمْ يسيرُ إلى   مَوْلَى المَوَالي وسلطانِ السلاطينِ

القردة بعثوا مندوباً إلى الخالق احتجاجاً على نظرية داروين

إلى الذي لم يكلِّفْ نفسَهُ تَعَباً   في خَلْقِهِ الأرضَ إلّا قولَهُ: كُوني
فَسارَ نائِبُهُمْ يحتَجُّ باسْمِهِمُ   على ادِّعاءِ المجاذِيبِ المجانينِ
مَوْلايَ، قالَ، وقدْ داسَتْ قوائِمُهُ   سَجَّادَةَ العرشِ بعدَ العُنْفِ واللِّينِ:
قد قامَ في الغرْبِ مخلوقٌ بِلا ذَنَبِ   مِنْ نسلِ آدمَ أشباهِ الشياطينِ

المخلوق الذي بلا ذنب هو تشارلز داروين

يقولُ: إنَّا وَهُمْ فَرْعانِ، بينَهُمَا   قُرْبى يُؤَيِّدُها قُرْبُ التَّكَاوينِ

التكاوين: الأشكال (ذلك الشبه غير المنكور بين خِلقة القرد وخِلقة الإنسان)

فَبِالأَصالةِ عنْ نَفْسي أُكَذِّبُهُ   وبِالنِّيَابَةِ عنْ كلِّ السَّعَادِينِ

السعادين: القرود، والكلمة بحسب بطرس البستاني ليست من كلام العرب، لكنها من كلام بلاد الشام

قالوا: ارتقَى جدُّهُمْ عَنْ جَدِّنَا، وَهُمُ   أَحَطُّ مَا صَنعتْ كفَّاكَ مِنْ طينِ
يَكْفِي السَّعَادِينَ فَخْراً أَنَّها عَرَفَتْ   مَعنى السعادةِ عَفْواً دونَ تَلْقينِ
وأنَّها تَجْهَلُ الكِذْبَ الذي أَخَذَتْ   منهُ الحكوماتُ أركانَ الدَّواوينِ
لا تَعْرِفُ الدِّينَ في غيرِ الإخاءِ، ولا   تَجني على الخَلْقِ باسمِ اللَّهِ والدِّينِ

تسويد الأبيات الثلاثة للشاعر عمران القفيني

لا لِلبَطَارِكِ تَعْنُو في سياستِها   ولا تجوعُ لإشباعِ المَطارِينِ

تعنو: تخضع، البطرك: رئيس الأساقفة، المطران: رتبة دون البطرك

ولا تُمَزِّقُ أوطاناً مُقدَّسَةً   بُغْضاً لأحمَدَ، أو حُبّاً لِمَارُونِ
ولا تَبيعُ مِنَ الأغرابِ مَوطِنَهَا   كلَّا! ولَوْ غَمَرُوها بالنَّياشِينِ
الغابُ تَجْمَعُها مِنْ كلِّ طَائفةٍ   تَحْيَا الصَّعَاليكُ فيها كالسَّلاطينِ
هُنَا أَسَرَّ بِأُذْنِ القِرْدِ خالِقُهُ:   يَكْفيِ! فَهذي أُمورٌ ليسَ تَعنيني

إنِّي قَطَعْتُ عَلاقَاتي بِأجمَعِها مَعَ الخَلائِقِ طُرًّاً دونَ تَعيينِ
إني قطعت علاقاتي بأجمعها (كاملة) مع المخلوقات طراً (جميعاً)

١٥ خذوا بعثاتكم عنا

عذرتُكَ لو وَجَدْتُ لديْكَ عُذْرا ولكِنِّي أراكَ أتَيْتَ نُكْرا
غَرَسْتَ بِنَا التَّعَصُّبَ مِنْ قديم فَأثْمَرَ لَوْعَةً وأَسَىً وضُرًّا
يخاطب المحتل الأوروبي الذي قديماً (في زمن الحروب الصليبية) بدأ يغرس التعصب

بعثْتَ لنا الوُفُودَ فَمَزَّقَتْنا، كَمَا عَلَّمْتَها، شَطْراً فَشَطْرا
خُذُوا بِعْثَاتِكُمْ عنَّا، فأنتُمْ بِهَا مِنْ كلِّ أهلِ الأرضِ أحْرَى
ولا تَدْعُوا إلى الإيمانِ شَعْباً يَرى الإكراهَ في الإيمانِ كُفْرَا
ولا تَتْلُوا لنا الإنجيلَ، إنَّا كَتَبْنَاهُ لَكُمْ، سَطْراً فَسَطْرا
وإنَّا نَرْفُضُ الإحسانَ مِنْكُمْ فهلْ تُعطونَنا الإحسانَ جَبْرا؟

١٦ وجدان الحبيبة الضائعة

قال إلياس فرحات ١٩٢٠:

سكِرتُ بعينيكِ منذُ الأزلْ وها أنا في سَكرتي لم أَزَلْ
ألا تذكرينَ الزَّمانَ القديمَ ألا تذكرينَ العصورَ الأُوَلْ
ألا تَذْكُرينَ بِأنَّا وُجِدْنَا مُحِبَّيْنِ قبلَ وجودِ الغَزَلْ
فَصَيَّرَنَا اللَّهُ زوْجَ حَمَامٍ نُغَنِّي الضُّحى، ونُغَنِّي الطَّفَلْ
الطفل: الغروب

وفي ليلةٍ مِنْ ليالي الشتاءِ وقد هَطَلَ الثَّلْجُ مَعْ ما هَطَلْ
أَضَعْتُكِ بينَ الغصونِ، ومَنْ أضاعَ الرفيقَ أضاعَ الجَذَلْ
الجذل: الفرح

فَنادَيْتُكِ الليلَ حتَّى انجلَى ونَاديْتُكِ العمرَ حتَّى اضْمَحَلْ
ولمَّا التقيْنَا بِذَاكَ المساءِ وكنتِ كأنَّكِ نجمٌ أطَلْ
سألْتُكِ باللَّحْظِ: هلْ تذكرينَ الزَّ ـمانَ القديمَ فقلتِ: أجلْ

يُسَائِلُنِي الصَّحْبُ عنْ رَسمِهَا   وما رَسْمُها صورةٌ تُبْتَذَلْ
طلب الصحب رؤية رسمها، أي صورتها، ولكن الصورة لا تبتذل وتعرض للأصحاب

وإنَّ المُصَوِّرَ مهما أَجَادَ   تَظَلُّ الإجادَةُ دونَ الأَقَلْ
فَكَمْ صوَّرُوا المُقَلَ السَّاحِراتِ   ومَا صوَّرُوا سِحْرَ تلكَ المُقَلْ
المقل: العيون

وكمْ صَوَّرُوا قُبَلَ العَاشقينَ   فَهَلْ صوَّرُوا طَعْمَ تلكَ القُبَلْ
التسويد للأبيات الثلاثة: عمران القفيني

١٧ التقي

أنا التَّقِيُّ الذي ما الكُفْرُ مِنْ شِيَمِي   أَهْوَى المسيحَ، وأَحسُو دائِمَاً دَمَهُ
فكرة مسيحية أن احتساء نبيذ صُلِّيَ عليه يجعل دم المسيح وبركته يتغلغلان في جسم المؤمن

مَا مِنْ صليبٍ بَدَا فِي نَحْرِ غَانِيَةٍ   إلَّا وأحبَبْتُ أنْ أدنُو فَأَلْثِمَهُ

١٨ رجال الدين

يا رَاعِياً ضَحَّى لأَجْـ   ـلِ قطيعِهِ بِحَيَاتِهِ
اِحْفَظْ قطيعَكَ إِنَّهُ   أَمْسَى قَتيلَ رُعَاتِهِ
يدعو السيد المسيح الذي ضحى بحياته لأجل الناس أن يحفظ هؤلاء الناس الآن، لأن رعاتهم من رجال الدين هم الذين يقتلونهم

الشَّعْبُ في زمنِ المجا   عَةِ آكِلٌ جَزَمَاتِهِ
حلت مجاعة بلبنان في أيام الحرب العالمية الأولى. جزماته: أحذيته

والدَّيْرُ ممتَنِعٌ، ورَبُّ   الدَّيْرِ في غُرُفَاتِهِ
رب الدير: كبير رجال الدين

والناسُ حولَ الديرِ نَا   ظِرَةٌ إلى شُرُفَاتِهِ
يَتَلَمَّسُونَ جِدارَهُ   مُسْتَنْزِلينَ هِبَاتِهِ
يلمسون جدار الدير تبركاً مستنزلين هباته (متوسلين كي تنزل عطاياه)

لو شاءَ أشبعَهُمْ بِمَا   يُلْقِيهِ مِنْ فَضَلاتِهِ
لو شاء الدير لأشبع الناس بما يزيد عن حاجته من قوت. وكانت أملاك الكنائس في لبنان واسعة

أو شـــاءَ أغـــنـــاهُـــمْ بِـــتَـــا ... جِ كـــبـــيـــرِهِ وَعَـــصَـــاتِـــهِ

عصاته: عصاه

لـــكـــنَّـــهُـــمْ مـــاتُـــوا لِـــمَـــوْ ... تِ الـــفَـــضْـــلِ بَـــيْـــنَ ذَوَاتِـــهِ

يقصد ذويه

مـــاتُـــوا، وربُّ الـــدَّيْـــرِ لـــم ... يَـــبْـــذُلْ، وَلا عَـــبَـــراتِـــهِ

لم يعطهم حتى دموعه

١٩ تردد العذراء

ولَـرُبَّ يـومٍ مـا ذَكَـرْتُ جـمـالَـه ... إلَّا بَـكَـيـتُ جـمـالَـهُ بِـسَـخـاءِ
مُتماشِيينِ على الرصيفِ، وسِرُّنا ... بـادٍ عـلـى وَجَـنـاتِـنـا بِـجَـلاءِ
بـيـنَـا نُـحَـاولُ كَـتْـمَـهُ بِـسُـكـوتِـنـا ... وبِـمَـشْـيِـنـا الـهـادي، وبـالإِغْـضـاءِ

بينا: بينما، الإغضاء: الإطراق وتجنب النظر

نَـفَـحَ الـهـواءُ رداءَهـا، وكـأَنَّـهُ ... قَـصَـدَ الـمُـزَاحَ فَـحَـكَّـهُ بِـرِدائـي
فَمَضَيْتُ أجتنِبُ الطريقَ مُحَاذراً ... أهـلَ الـطـريـقِ كـأنـهُـمْ أَعـدائـي
ومَضَتْ تُرافِقُني، وفي خُطُواتِها ... سِـرُّ الـكِـيَـاسَـةِ مُـعْـلَـنٌ لـلـرَّائـي
حتَّى بَلَغْنا في الظَّهيرةِ رَوْضَةً ... يـا حُـسْـنَ تِـلْـكَ الـرَّوْضَـةِ الـغَـنَّـاءِ
وَسُعَتْ وضاقَ مَمَرُّها، فكأنَّها ... جُـعِـلَـتْ بشكلِ هَـيـاكِـلِ الـقُـدَماءِ
وكأنَّما غَرَسَ الهوى شَجَراتِهَا ... لـتَـكُـونَ لـلـعُـشَّـاقِ خـيـرَ خِـبَـاءِ
فدخلتُ تَصحَبُنِي الفتاةُ بِحَالةٍ ... كـادتْ تـكـونُ كـحـالـةِ الإغـمـاءِ
سَكْرَى ولم تَذُقِ الشرابَ، وإنَّما ... بعضُ الحديثِ يدورُ كالصَّهباءِ
غازَلْتُها، وأَثَرْتُ كامِنَ وَجدِها ... فَـبَـكَـتْ بُـكَـاءَ تـولُّـهٍ وحَـيَـاءِ
وتَنَهَّدَتْ فتصاعدتْ زَفَراتُها ... مـمـزوجـةً بِـصَـدى خَـريـرِ الـمـاءِ
تُغْضي وتَرنُو عِفَّةً وصَبَابَةً ... فـيـظـلُّ يَـأسـي عـالـقـاً بِـرَجـائـي
وتروحُ عابِسةً لِغَيْرِ تَمَنُّعٍ ... وتـجـيءُ بَـاسـمـةً لِـغَـيـرِ رِضَـاءِ
تَدنُو إليَّ بِلَوْعةٍ لأَضُمَّها ... وتَصُدُّني عنْ ضَمِّهَا بِجَفاءِ
وأَشَدُّ حالاتِ الغرامِ حلاوةً ... حالٌ تُريكَ تَرَدُّدَ العَذْراءِ

ما زالَ يُقْعِدُها الهوى ويُقِيمُها حتَّى ارتَمَتْ مَنْهوكَةَ الأعضاءِ
فأقَمْتُها ولَثِمْتُها بِحَرارةٍ صَعِدَتْ إلى شَفَتَيَّ مِنْ أحشائي

لثمتها: قبّلتها

والنهرُ أنصَتَ مُصْغِياً، مُتَعَلِّماً سحرَ البيانِ، لِقُبْلَةٍ خَرْساءِ

٢٠ متى ينتهي مسعاكم المتنافر

لقد حالَتِ الأحوالُ في مَلعبِ الصِّبا وراعَتْ حماماتِ الغديرِ الكواسِرُ

حالت (تغيرت) الأحوال في ملعب الصبا (لبنان)، والكواسر (الطيور الجارحة) راعت الأحوال (أخافت) الحمامات

كأَنَّ الأُلى ظَلُّوا به مِنْ رجالِه نِساءٌ شِنَاعٌ جاهلاتٌ عَواقِرُ
إذا أبصَروا الدينارَ خَفَّتْ قلوبُهُمْ إليهِ، ولو أنَّ السبيلَ مَعَايِرُ

معاير: أمور معيبة

وما في الغِنَى عارٌ، ولكنْ مُريدُهُ على أيَّةِ الحالاتِ للعارِ صائِرُ

الذي يريد الدينار على أية الحالات (بغض النظر عن الوسائل) سيقع في العار

دَعُونا مِنَ الألقابِ تُلْهُونَنا بِها فَما تخدعُ الأحرارَ هذي المَسَاخِرُ
فَبِيعوا نياشينَ المذلَّةِ، واشْتَروا بأثْمانِها بَعضَ الحَيا، ثم فاخِرُوا
عليكُمْ سلامُ اللّهِ يا آلَ يَعْرُبٍ مَتَى يَنْتَهِي مَسْعَاكُمُ المُتَنافِرُ
لقدْ وَحَّدَ العلمُ العبيدَ، وأنتُمُ قبائلُ تُفْنِي بعضَها، وعَشائِرُ
أليسَ لكُمْ يا قومُ بعدَ محمَّدٍ نبيٌّ لأصنامِ السياسةِ كاسرُ
أما من فتىً حرٍّ إذا هبَّ للوَغى تَهُبُّ البوادي خلفَه والحواضِرُ
أكُلُّ مُناكُمْ أن تقوموا بِغَزوةٍ تُعَدُّ بِها الأرباحُ، وَهْيَ خَسائِرُ

٢١ شكوى فقير

هَنيئاً لَكُمْ حولَ الخِوَانِ اجتمَاعُكُمْ وصاحِبُكُمْ يَطْوِي الفَيَافِي بِلا زَادِ

الخوان: المائدة، الفيافي: الصحارى

وعِنْدَكُمُ الماءُ النَّمِيرُ مَسِيلُهُ جُزَافاً على وَجْهِ الثَّرَى، وأنا صَادِ

النمير: الكثير، صادٍ: عطشان

وأولادُكُمْ في الجُوخِ تَدْفَا جسومُهُمْ فَمَا هَمُّكُمْ أنْ يَقْتُلَ البردُ أَوْلادي

الجوخ: قماش من صوف كان مشهوراً جداً قبل عصر الجينز

تَمُرُّ على صدري الخُطُوبُ، كأنَّما بَنَتْهُ لها الأقدارُ جِسراً على وَادِ
سَأَبْعُدُ عَنْكُمْ ما حَيِيتُ بِفَاقَتي لِكَيْ لا يَهِيجَ البؤسُ عَيْشَكُمُ الهادِي

سأبتعد عنكم طول حياتي

٢٢ الزهرة الراهبة

أَطَلَّتْ مِنَ الدَّيْرِ عندِ الضُّحَى وفي نَاظِرَيْها بَريقُ الأَسَى
فَتاةٌ كَأَنَّ الإلَهَ بَرَاها لِيَجْعَلَها فِتْنَةً لِلنُّهَى

براها: خلقها، النهى: العقل

تُجَمِّعُ مِنْ حَوْلِهِ ضُمَّةً مِنَ الزَّهْرِ تُهْدَى لِفَادي الوَرَى

تجمع من حول الدير باقة أزهار، وفادي الورى: المسيح

فَبَيْنَا تَسِيرُ على مَهْلِهَا وتَجمعُها مِنْ هُنا وهُنا
رأتْ زهرةً في أعالي الجدارِ تُداعبُها نَسَماتُ الصَّبَا
وقد زادَ في قَدْرِها أنَّها تَعِزُّ على مِنْ يُريدُ الجَنَى

الجنى: القَطْف

فحرَّكَ منظرُها نفسَها وقالتْ بملءِ الحَنانِ لَهَا:
أُخَيَّةُ! يَهنِيكِ هذا السُّمُوُّ وهذا البَهاءُ، وهذا الرِّضَى
ولكنْ، أما كانَ أشهَى لديكِ جِوَارُ الأزاهيرِ، بينَ الرُّبَى
تَحومُ عليكِ بناتُ القَفِيرِ وتَسعى إليكِ صَبَايا القُرَى

بنات القفير: النحل (والقفير خلية النحل)

لأَنتِ تَعيشِينَ في عُزْلَةٍ، فلا في السماءِ، ولا في الثَّرَى
لِمَنْ خلقَ اللَّهُ هذا الجمالَ ومَنْ يتنشَّقُ هذا الشَّذَا؟
وفي الليلِ سارَتْ إلى خِدْرِها وفي قلبِها مِثْلُ نَارِ الغَضَى

الغضى: شجر صلب الحطب، يعطي ناراً حامية

ولمَّا نَضَتْ ثوبَهَا لِتَنامَ تَبَيَّنَ مِنْ حُسنِها ما اختَفى

فَـمـدَّتْ إلـى صـدرِهـا كـفَّـهـا   وقـد فَـتَّـحَ الـوردُ تـحـتَ الـنَّـدَى
وقــالَ لــهــا قــائــلٌ صــامِــتٌ   وكـانَ الـذي قـيلَ رجعَ الصَّـدَى:
وأنــتِ تـعـيـشـيـنَ فـي عُـزْلـةٍ   فـلا في الـسـمـاءِ، ولا في الثَّـرَى
لِـمَـنْ خـلـقَ الـلَّـهُ هـذا الـجـمـالَ   ومَــنْ يـتـنـشَّـقُ هــذا الــشَّـذَا

٢٣ يحسدونني شعري

لـلـنـاسِ فـيـمـا يَـأْلَـفـونَ رِضَـا   وَلَـوَ انَّ فـيـهِ الـجـوعَ والـمَـرَضَـا
ولـقـد أَلِـفْـتُ الـشـعـرَ مـنـذُ أَضَـا   نـجـمُ الـحـيـاةِ، فَـيَـا عـذولُ قَـدِ

أضا: أضاء، قدِ: اكفف، خَلاصْ بقى

* * *

لا تُـصْـغِ لـلـفـئـةِ الـتـي هَـرَفَـتْ   حَـسَـداً بِـمَـا جَـهِـلَـتْ ومـا عَـرَفَـتْ

هرفت: ثرثرت

فـالريحُ فوقَ الـبحرِ كـمْ عـصفتْ   والـبـحـرُ لـم يَـنْـقُـصْ ولـم يَـزِدِ

* * *

يـا حَـاسِـدي شِـعـري! طُـلاوَتُـهُ   سِـحْـرٌ، وقـد تُـحْـيـي تِـلاوَتُـهُ

يا من حسدني شعري! طلاوته (رقته) سحر وتلاوته تحيي النفوس

وأراكَ، مــا اشْــتَــدَّتْ حــلاوتُــهُ   تَـشْـتَـدُّ فـيـكَ مـرارةُ الـحَـسَـدِ

* * *

الــشــعــرُ لــلأرواحِ يــنــتــســبُ   فــي بــعــضِــهــا أمٌّ لــه وأَبُ
لــكــنَّ أرواحَ الأُلــى صَــخَــبُــوا   عَـقُـمَـتْ فـلـمْ تـحـبَـلْ، ولـم تَـلِـدِ

٢٤ درس للإسبان

قال فرحات إثر دخول فرنسا الحرب في المغرب إلى جانب إسبانيا، وكان ذلك على إثر موقعة انتصر فيها مغاربة الريف بقيادة عبد الكريم الخطابي على الإسبان:

لكَ الصارِمُ القَاضِي على كُلِّ صارمِ   لِذَبْحِ العِدَى يُرجَى، وكَبْحِ المَظالِمِ

يخاطب عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف المغربي

فُقْلتَ لأُورُبّا، وسيفُكَ مُصْلَتٌ: رويدَكِ! لَسْنا بعضَ تلكَ السَّوائِمِ
مصلت: مسلول، السوائم: المواشي

أحاولُ أنْ أُثْني عليكَ، فلا أَرَى كلاماً جديراً في بطونِ المعاجمِ
سَرَتْ كَهرباءُ العزمِ مِنْ خَيرِ مُهْجَةٍ إلى خيرِ كفٍّ، صافَحَتْ خيرَ قائِمِ
قائم: مقبض السيف

وصُلْتَ على الإسبانِ صَوْلَةَ مؤمنٍ بِقُوَّةِ حقِّ الشعبِ، لا بالتَّمَائمِ
لقد عَلِمتْ مدريدُ أنَّك غُولُها وأنَّ بلادَ الريفِ غِيلُ الضَّرَاغِمِ
غولها: قاتلها ومغتالها، غِيل الضراغم: غابة الأسود

وما علِمتْ عَفْواً، ولكنْ تعلَّمَتْ بمدرسةٍ أستاذُها غيرُ نائمِ

٢٥ الحمار المذهَّب

قلْ لِمَنْ يَحْسَبُ الثيابَ على المَرْ ءِ تُعَلِّي المَقَامَ، أنْ يتأدَّبْ
فَجَوادٌ مِنْ غيرِ سَرْجٍ لَخَيْرٌ مِنْ حِمارٍ عليهِ سَرْجٌ مُذَهَّبْ

٢٦ أذناب فرنسا

خُلِقْنا والشَّقاءُ بنا مُحيطٌ وعشنا، والرَّجاءُ يعيشُ فِينا
تُعَلِّلُنَا التي انتهكتْ حِمَانا بِمُختَلِفِ الوُعُودِ، وما تَفِينا
هذه فرنسا

أَطابِخَةَ الحَصَى! مَهْلاً فَإِنَّا لَغَيرُ صِغَارِكِ المُتَضَوِّرِينا
إشارة إلى قصة عمر بن الخطاب وقد رأى امرأة تطبخ الحصى لكي تعلل أطفالها المتضورين جوعاً

وأَلْبَسَكِ انتصارُكِ ثوبَ عارٍ سحبتِ ذيولَهُ في مَيْسَلونَا
في ميسلون تصدى العرب للفرنسيين المحتلين عام ١٩٢٠

عرفتُ دمشقَ يومَ عرفتُ نفسي فَتَىً يَسْترخِصُ الأدبَ الثَّمِينا
يسترخص الأدب: يبذل في سبيله كل شيء ولا يراه غالي الثمن

كأنَّ شبابَها أُسْدٌ غِضابٌ ولكنْ، لا نُيُوبَ لِتَسْتَعِينا
كأنَّ الحقَّ أسكَرَهُمْ، فثاروا وسارُوا بِالعِصِيِّ يُقاتِلُونا

رأَوْا في مَيْسلونَ الموتَ مَجداً فماتوا، دونَها، مُسْتَبسِلينا
وخَرَّ الحقُّ لم يعرفْ نَصيراً يلوذُ بهِ مِنَ المُتَمَدِّنينا
ورُبَّتَ أُمَّةٍ بالحقِّ حُبْلَى لِفَرْطِ الضَّعْفِ أسقَطَتِ الجَنينا

ربت: أي ربَّ

سَلُوا عبدَ الكريمِ تَرَوْا عَجيباً غريباً يدهشُ الرجلَ الفَطينا

عبد الكريم الخطابي المناضل في الريف المغربي

يَصولُ على الفيالِقِ في مَلِيلا فَيَضْطَرِبُ الوَرَى في بَرْسَلونَا

يحارب الإسبان في مليلية، فتهتز برشلونة بإسبانيا

ألا مَنْ مُبْلِغٌ لبنانَ عنِّي كَلاماً صادقاً حُرّاً رَصينا
يَعيبُكَ أنَّ بعضَ بَنِيكَ صُمٌّ فهُمْ لا يسمعونَ، ولا يَعُونا
فُصِلْتَ مِنَ الشآمِ، وأنتَ مِنْها ولولاهُمْ لَدُمْتَ لهَا خَدِينَا

خدين: رفيق

وليسَ سوى التعصبِ مِنْ حدودٍ فلا حيَّا الحَيا المتعصِّبينا

التعصب وحده يصنع الحدود بين لبنان وسورية، فلا حيا الحيا (المطر) المتعصبين

ويُخْجِلُني وقوفُكَ يومَ رِيعَتْ أوانِسُها وقوفَ الشَّامِتِينا

ريعت: أُخيفت. فقد قصفت فرنسا دمشق بالمدافع عام ١٩٢٥

ألم يجمعْ غُلاةُ بَنِيكَ مَالاً تُمَدُّ به عِيَالُ المُعْتَدينا

غلاة بنيك: المتطرفون من أبنائك

ألم يَشْرُوا لِغازي الشامِ سَيْفاً فَوَاخَجَلي بِمَنْ لا يَخْجَلونَا
ومَا هُمْ، حَسْبَما يَحْكُونَ، مِنْها ولا عَرَباً، ولا مُسْتَعْرِبِينا

أولئك البعض يقولون إنهم ليسوا من الشام ولا من العرب

فإن كانوا كذلِكَ، لستُ أدري بِمَنْ وبِأيِّ شَيءٍ يَفْخَرونَا
وليسَ لَهُمْ لسانٌ مستقِلٌّ ولا أدَبٌ به يَتَمَيَّزُونا
ولا مِنْهُمْ فتىَ التَّشريعِ مُوسَى ولا عيسى الذي أحيا الدَّفينا
ولا طهَ الكريمُ، ولا عليٌّ ولا عُمَرٌ أميرُ المؤمنينا

ولـم يَـكُ قَطُّ فَخْرُ الـذِّيـنِ مِنْهُـمْ ولا الـمـتـمـردونَ الـسَّـابِـقـونـا
وإن بـنـي شِـهَـابَ كَـآلِ مَـعْـنٍ إلـى الـعَـرَبِ الأمَـاجِـدِ يَـنـتَـمُـونَـا

الأسرة الشهابية والأسرة المعنية اللتان حكمتا في جبل لبنان تنتسبان إلى العرب

وَهَـبْ أبـنـاءَكَ الـغَـاوِيـنَ صَـاغُـوا مِـنَ الأوهـامِ أجـداداً عُـيُـونَـا

عيون: وجهاء، ويشير إلى تمسك بعض بني قومه بالانتساب إلى الفينيقيين

فَـفـي الـدَّعـوى لَـهُـمْ عـارٌ جـديـدٌ يُـضـاعِـفُ عـارَهُـمْ، لـو يـعـقِـلُـونَـا
إذا نَـسَـلَ الأبـيُّ الـحـرُّ عَـبْـداً أَسَـأْنـا فـي حـلـيـلَـتِـه الـظُّـنـونـا

حليلته: زوجته

٢٧ وردة ذات جناحين

سلمى! عجيبٌ كلَّما لُحْتِ لي أسـمـعُ قـلـبـي سـائِـلاً عَـيْـنـي
فَـراشـةٌ ذاتُ شَـذا وردَةٍ أمْ وردةٌ ذاتُ جَـنـاحَـيْـنِ

٢٨ قوة التفاحة

قال إلياس فرحات (لعروسين):

إنَّ تـفـاحـةَ حَـوَّاءَ الـتـي حَـرَّمَ الـلَّـهُ عـلـى الـنـاسِ جَـنـاهـا

جناها: قطفها

أودعَ الـلَّـهُ بِـهـا مِـنْ لُـطْـفِـهِ قـوةً لا يُـدرِكُ الـفـكـرُ مَـداهـا
لـم تـكـنْ أمُّ الـوَرى آثـمـةً عـنـدمـا خَـالَـفَـتِ الـرَّبَّ الإلـهـا
قـد رأَتْ تـفـاحـةً تـدعـو، فـلـم يَكْفِهـا، ممـا اعـتَراهـا، أنْ تَـراهَـا
إنَّـمـا الـظَّـمـآنُ يـزدادُ ظَـمَـاً حـيـنَـمـا تُـبْـصِـرُ عـيـنَـاهُ الـمِـيَـاهـا
جَـنَّـةُ الـحـبِّ أُبـيـحَـتْ لَـكُـمَـا فـاتْـرُكـا الـدُّنـيـا وسِـيـرا فـي رُبَـاهـا
واقْـطِـفـا تـفـاحـةَ الـحـبِّ، فَـلا طـعـمَ لِـلـعـيـشِ إذا لـم تَـقْـطِـفـاهَـا

٢٩ لبنان ينبت فيه الأَرْز والجزر

مـاذا تـحـاولُ مِـنِّـي أيُّـهـا الـنَّـفَـرُ؟ والأرضُ تعلمُ أنِّـي الـشَّـاعرُ الـخَـطِـرُ

الخطر: يقصد الخطير أي المهم

يا نَافِخَ القمرِ الزاهي، لِيُطْفِئَهُ تَفْنَى قُواكَ، ومَا يَدري بِكَ القَمَرُ
قومٌ! لقدْ أنكَروا جهلاً أَرُومَتَهُمْ مُسْتَمْسِكينَ بِقوم ما لهمْ أَثَرُ

أرومة: أصل، بعض بني قومه أنكروا العروبة وتمسكوا بالهوية الفينيقية

لولا التعصبُ كانوا كلُّهُمْ عرباً فَلْتَهنأِ العُرْبُ لم يَعْلَقْ بِها الوَضَرُ

الوضر: الوسَخ

ما كلُّ مَنْ حَمَلَتْ أرضٌ ذَوِي رَحِمٍ لُبْنانُ يَنْبُتُ فيهِ الأَرْزُ والجَزَرُ
لسنا نصدِّقُ دَعوىً ليسَ يُثْبِتُها صِدْقُ الفِعَالِ ولو جاءَتْ بِها السُّوَرُ

٣٠ العقل والنقل

أيها الناسُ! قد مُنِحتُمْ عقولاً ليس تَرضَى بِما سِوى البُرهانِ
حَكِّموها في كلِّ بادٍ وخافٍ فَهْيَ فوقَ الإنجيلِ والقرآنِ
عزِّزوا الحبَّ في البلادِ إذا شئْـ ـتُمْ تَروْها تَعِزُّ بالعُمْرانِ
كافِرٌ يعشقُ المكارِمَ خيرٌ مِنْ لئيمٍ يغوصُ في الإيمانِ

التسويد لعمران القفيني

٣١ السر عند القتيل

قال فرحات يرثي رشيد معلوف وقد قتل في ظروف غامضة بالبرازيل:

يا أخي، يا رشيدُ! ليتَكَ تدري كيفَ دقَّتْ مطارقُ البينِ ظهري
كلُّنا للرَّدَى، وقد سَبَقَ اليوْ مَ إليهِ السَّبَّاقُ في كلِّ أمرِ
ويْحَ عيني! وقد رَأَتْكَ مُسَجَّى كَمْ بَكَتْ مِنْ شمائلٍ فيكَ غُرٍّ

الشمائل الغر: الخصال الناصعة

وكأنّي طُعِنْتُ بينَ ضلوعي طعنةً قوَّضَتْ دعائمَ عمْري
يا قَتيلاً مَضى، وخَلَّفَ سِرّاً خَلْفَ سِرٍّ، عَليهِمَا ألفُ سِتْرِ
حَبَّذا لوْ شَفَيْتَ حَرَّ غَليلي بِجَوابٍ فيهِ صراحةُ حُرٍّ
كيفَ أُرْدِيتَ؟ هَلْ بِعَذْلٍ كَمَا يز عُمُ مُرْدِيكَ باسماً عَنْ مَكْرِ
أم قَضَى اللّهُ أنْ تموتَ بريئاً ويفوزَ الجاني بأكذَبِ عُذْرِ

أَشهيدُ الإقدامِ أنتَ؟ فَقِدْماً قد عرفناكَ بِالمنيَّةِ تُزْري
أم شهيدُ الهوى؟ ولستُ أُبالي أنْ يقولوا هذا الهوى غيرُ عُذْري
أنتَ عندي في الحالتينِ بريءٌ ولْيَقُلْ ما يشاءُ صاحبُ هَذْرِ

٣٢ الضمير الحي

توالتْ هُمومُ الحياةِ عَلَيَّا ولولا ضميري لَعِشْتُ خَلِيَّا

* * *

وسابَقْتُ في الشعرِ فرسانَه فقصَّرْتُ عنْ فارِسٍ مُفْلِحِ
فقلتُ: أُعَرْقِلُ ميدانَه، فقالَ ضميرِي: ألا تَسْتَحِ؟

* * *

فعدَّلْتُ حُبَّ التَّفَوُّقِ فِيَّا ولولا ضميري تَرَكْتُ دَوِيَّا
شَكَوْتُ ضميريَ شكْوَى الجَهُولْ ونُحْتُ على الحَظِّ نَوْحَ الغُرَابِ
فأَسمَعَني اللّهُ صوْتاً يَقُوُلْ: أَتَشْكُو ضميرَكَ يا ابْنَ التُّرَابِ

* * *

ولولا ضميرُكَ ما كنتَ شَيَّا ولو كنتَ مِنْ نَيِّرَاتِ الثُّرَيَّا

٣٣ ظالمون وجبناء

أَلَّفَ الظالمونَ في الشَّامِ للظُّلْـ ـمِ كتاباً مُقَسَّماً أبوابا

الظالمون هم الذين أيدوا فرنسا في احتلالها سورية ولبنان

يَحْسَبونَ الأشجارَ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْـ ـرِ دُرُوزاً، وظِلَّها أَعْرَابا

ثار الدروز على الفرنسيين ثورة مشهورة في عام ١٩٢٥

يسألونَ النَّجاةَ مِنْ سيفِ سلطا نَ، وهيهاتَ سُؤْلُهُمْ أنْ يُجَابا

سلطان الأطرش زعيم الثورة الدرزية

٣٤ لولا الجذر ما رفع الغصن رأسه

قال فرحات يرد على فوزي المعلوف الذي أنشد في النادي الفينيقي في الربو دي جانيرو قصيدة مطلعها: خلِّ البداوةَ رمحَها وحسامَها/ والجاهليةَ نوقَها وخيامَها:

حَيِّ البداوةَ: نوقَها وخِيامَها والجَاهليةَ: رمحَها وحسامَها

حيَّتْكَ أشباحُ القديمِ، وسلَّمَتْ فَمِنَ العدالةِ أنْ تَرُدَّ سلامَها
أأراكَ تَنْسَى جاهليَّةَ تَدْمُرٍ وأَراكَ تنْسى جِلَّقاً: إسلامَها
وأراكَ تَحْقِرُ بَعْلَبَكَّ، وقد نَبَتْ عنها العصورُ، وحاذَرَتْ أصنامَها

نبت (ابتعدت) عنها مصائب الزمن، ولم تستطع أن تزيل تماثيلها

أَتَرُدُّ مصرٌ غولَهَا عنْ نيلِها لو سايَرَتْكَ فهدَّمَتْ أهرامَها
ليس افتتانُكَ بالفتاةِ نَقيصَةً ما دمتَ تعرفُ للعجوزِ مَقَامَها
لولا الجذورُ المطمئِنَّةُ في الثَّرى ما كانتِ الأغصانُ ترفَعُ هامَها

هامها: رؤوسها

هذي بلادُكَ مَسْرَحٌ لِحَوادِثٍ جَهِلَتْ نبوءاتُ الكتابِ ختامَها
إنْ تُلْوَ هامتُها فقد غَسَلَتْ، بما سَفَكَتْهُ مِنْ مُهَجِ العِدَى، أقدامَها
أرضٌ تُوحِّدُها العروبةُ، فَلْيَصِلْ لبنانُها حُورانَها وشآمَها
ما خَطَّطَ الدينُ التُّخُومَ لأُمَّةٍ إلَّا وقد نَخَرَ الفسادُ عظامَها

التخوم: الحدود. يقول: لا يجوز أن تُرسم الحدود على أسس دينية

٣٥ حياة مشقات

أُراقبُ في الظَّلماءِ ما الليلُ يحجُبُ وأقرأُ في الأسحارِ ما اللّهُ يكتبُ
وأَستعرِضُ الأيامَ، يومي الذي مَضَى دليلٌ على يومي الذي أَتَرَقَّبُ
فلا تسألوا عنِّي، وحَظِّي، فإنَّنا لأمثالِ أهلِ الشرقِ والغربِ مَضْرِبُ
طَوَى الدَّهْرُ مِنْ عُمْري ثلاثينَ حِجَّةً طَوَيْتُ بها الأصقاعَ أسعى وأَدْأَبُ
أُغَرِّبُ خلفَ الرِّزْقِ، وَهْوَ مُشَرِّقٌ وأُقْسِمُ لو شَرَّقْتُ، كانَ يُغَرِّبُ
وأَنْفِرُ مِنْ وادٍ لِطَوْدٍ، كأنني، وقد بَوَّقَ الدَّاعونَ للصَّيْدِ، رَبْرَبُ

طود: جبل، بوّق: نفخ بالبوق، الربرب: سرب الغزلان

لئِنْ غرَّدَتْ للشَّاعِرِينَ بَلابِلٌ فإنَّ غرابَ الشُّؤْمِ حولِيَ يَنْعَبُ
وإن كانَ عِلْماً ثابتاً قولُ بعضِهِمْ: لِكُلِّ امرئٍ نَجْمٌ، فَنَجْمِي المُذَنَّبُ

المذنب: مذنَّب هالي، وظهوره مشؤوم

ومَرْكَبةٍ للنَّقْلِ راحتْ يجُرُّها حصانانِ: محمَرٌّ هزيلٌ، وأَشْهَبُ

جلستُ إلى حُوذِيِّها، ووراءنا صناديقُ فيها ما يَسُرُّ ويُعْجِبُ

الحوذي: سائق العربة

حَوَتْ سِلَعاً مِنْ كلِّ نوعٍ، يبيعُها فتىً ما استحلَّ البيعَ لولا التَّغَرُّبُ

البيع عارٌ في أخلاقيات الإقطاع والبداوة، والعرب تفتخر بالنهب والغزو، وتأنف من الحِرَف ومن التجارة. على أن شعراء المهجر كرهوا البيع وهجوه هجاء مُرّاً، لأن رفاقهم التجار أغنياء، وهم قليلو الحيلة في التجارة يحاولونها وقلما يصيبون نجاحاً

وراحتْ كأنَّ البرَّ بحرٌ، نِجَادُهُ وأغوارُهُ أمواجُه، وَهْيَ مَرْكَبُ

كأن نجاد (هضاب) البر وأغواره (منخفضاته) أمواج بحر، وكأنما المركبة البرية، في سيرها هذا، مركب بحري

تَبِينُ وتَخْفَى في الرُّبى وحِيالَها فَيَحْسَبُها الرَّاؤُونَ تَطفُو وتَرْسُبُ

حيالها: بقربها

وتَدْخُلُ قلبَ الغَابِ والصُّبحُ مُسْفِرٌ فَنَحْسَبُ أنَّ الليلَ لِلَّيْلِ مُعْقِبُ

تدخل المركبة قلب الغابة فجراً، فكأن الليل استمر؛ فظلام الغابة معقبٌ (تالٍ) لِلَّيل الحقيقي

تَمُرُّ على صُمِّ الصَّفا عجلاتُها فتَسْمَعُ قلبَ الصخرِ يشكو ويَصْخَبُ

الصفا: الصخر

وتَرْقُصُ فوقَ الناتِئاتِ مِنَ الحَصَى فَنُوشِكُ، مِنْ تلكَ الخلاعةِ، نُقْلَبُ
نَبِيتُ بِأَكواخٍ خَلَتْ مِنْ أُناسِها وقامَ عليها البومُ يبكي ويندُبُ
مُفَكَّكَةٌ جدرانُها وسقوفُها يُطِلُّ علينا النجمُ منها، ويَغْرُبُ
عليها نقوشٌ لم تُخَطَّطْ بِرِيشَةٍ تَظُنُّ صِباغاً لونَها، وَهْوَ طُحْلُبُ
يُغَنِّي لنا فيها الهواءُ كأنَّهُ يُنَوِّمُنا، والبردُ للنَّومِ مُذْهِبُ

فَنُمْسِي، وفي أجفانِنَا الشوقُ للكَرى ونُضحِي، وجمرُ السُّهْدِ فِيهِنَّ يُلْهِبُ

ومَأْكلُنا ممَّا نَصيدُ، وطالما طَوَيْنا، لأنَّ الصَّيْدَ عنَّا مُغَيَّبُ

طوينا: نمنا جياعاً

ونَشْرَبُ ممَّا تَشْرَبُ الخيلُ تارةً وطَوْراً تعافُ الخيلُ ما نحنُ نَشْرَبُ
حَياةُ مَشَقَّاتٍ، ولكنْ لِبُعْدَها عنِ الذلِّ تصفوُ للأَبِيِّ، وتَعْذُبُ
وقد نَلتقي بعضَ الجميلاتِ صدفةً فَيُطْرِبْنَنا، والمبْدِعُ الغِيدَ مُطْرِبُ

وكلُّ مكانٍ فيهِ للحُسْنِ مَرْتَعٌ ... ولِلطَّرْفِ مَلهىً فيه للحبِّ مَلْعَبُ

الطرف: البصر

وما تلتقي عينا فتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وعينا فَتىً، إلا لِكُوبِيد مَأْرَبُ

كوبيد: كيوبيد إله الغرام عند الرومان، وهو ابن فينوس لمن يعنيه النسب

وهل أنا إلَّا شاعِرٌ لانَ قلبُهُ ... فليسَ له مِنْ صَوْلَةِ الحسنِ مَهْرَبُ

صولة: هجمة

نَفَتْني مِنَ المُدْنِ العَواصِمِ عِزَّتي ... فَرُحْتُ بأَطْرَافِ الولاياتِ أَضْرِبُ
أعاشِرُ مَنْ لو عاشرَ القردُ بعضَهُمْ ... لما رَدَّ عَنْ دَرْوينَ قَبْرٌ مُقَبَّبُ

أعاشر قوماً غادرين، لو أن القرد عاشرهم لذهب ينبش قبر داروين، الذي زعم أن أصل الإنسان قرد، غضباً لأمة القرود. ولَمَا كان ثناه عن القبر كونُه مقبياً (محمياً بقبة)

وأُنْصِتُ مضطراً إلى كلِّ أَبْلَهٍ ... كأنِّي بأسرارِ البلاهةِ معجَبُ
وأكرهُ أشياءً رفيقي يحبُّها ... وأرغبَ في أشياءَ عنْهُنَّ يَرغبُ
وأَرْهَبُ قطاعَ الطريقِ، وربما ... تعمَّدتُ إظهارَ السلاحِ لِيَرهبُوا
فَعِزُّ الفَتى الطاوِي الفيافي مُسَدَّسٌ ... كما أنَّ عِزَّ الليثِ نابٌ ومِخْلَبُ
وما صِينَ حقٌّ لا سلاحَ لِرَبِّهِ ... وأضعفُ أنواعِ السلاحِ التَّأَدُّبُ
ولولا نيوبُ الأُسْدِ كانتْ ذليلةً ... تُسَاطُ، وتَعْنُو للشَّكيمِ، وتُرْكَبُ

تساط: تضرب بالسوط، تعنو: تخضع، الشكيم: الحديدة في فم الحصان

وكَمْ ظالمٍ يستعبدُ الناسَ عَنْوَةً ... وحُجَّتُهُ الكبرى الحسامُ المُشطَّبُ

المشطب: المحزز بخطوط طولية، وكانوا يستجيدونه

أقولُ لِنفسي كلَّما عضَّها الأذى ... فآلَمَها: صَبراً! ففي الصبرِ مَكْسَبُ
لئنْ كانَ صعباً حملُكِ الهمَّ والأَذى ... فَحَمْلُكِ مَنَّ الناسِ لا شَكَّ أصعبُ
فلولا إباءٌ مازَجَ الطبعَ لم يكُنْ ... لِمِثلِي مجيءٌ في البَرارِي ومَذْهَبُ
ولولا رَجائي أن تَظَلِّي بعيدةً ... عنِ الظُّلمِ لم يُوطَأْ بِرِجْلَيَّ سَبْسَبُ

سبسب: صحراء

فلا تَعْذُلِي صَحْباً دَرَوْا بي، وما عُنُوا ... بِأَمْرِي، فَهُمْ مِنِّي إلى الفقرِ أقربُ
ولا تَأْمُلِي مِنْ غيرِ صَحْبِي معونَةً ... فَما تُخْصِبُ الكَفَّانِ والقَلْبُ مُجْدِبُ

ولا تَرتَجِي الإخلاصَ مِنْ كلِّ باسِمٍ ... ففي الباسِمِينَ المُبْغِضُ المُتَحَبِّبُ

ولو كانَ كلُّ المُظْهِرينَ لِيَ الوَفاً ... وَفِيِّينَ، لم يُعْجِزْكِ يا نَفْسُ مَطْلَبُ

عَتَبْتُ على ناسٍ أضاعُوا مودَّتي ... وكلُّ كريمٍ خانَهُ الصَّحْبُ يَعْتَبُ

فقد زعموا أنِّي هجوْتُ حَبيبَهُمْ ... وأنِّي سأهجُو غيرَه حينَ أَخْطُبُ

ولستُ بهَجَّاءٍ، ولكِنَّهُ الهَوى ... إذا قاد نفسَ المرءِ، فالنُّورُ غَيْهَبُ

أنا مَنْ يَرَى أنَّ الرِّيَاءَ مَعَرَّةٌ ... وأنَّ خبيثَ القولِ في الصدقِ طَيِّبُ

وما أنَا إلَّا كالزَّمانِ وأَهلِهِ ... أَعافُ وأَسْتَحْلي وأَرضى وأغضبُ

فأيُّ هجاءٍ في مَقالي لِعَقْرَبٍ ... لَهَا وَلَعٌ بالشَّرِّ إنَّكِ عَقْرَبُ

أَذَنْبٌ إذا سَمَّى الفَتى الشيءَ باسْمِهِ ... إذن ربُّكَ المُوحي لِآدَمَ مُذْنِبُ

إشارة إلى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]

فَيَا نفسُ إلَّا أنتِ مَا لَكِ؛ واعلمي ... بِأَنْ كلُّ بَرْقٍ، غَيْرَ بَرْقِكِ، خُلَّبُ

خُلَّب: كاذب، لا يأتي بمطر

تَعِبْتِ إذا استنظَرْتِ خيراً مِنَ الورى ... ومُسْتَقْطِرُ السَّلوَى مِنَ الصَّابِ يَتْعَبُ

السلوى: طعام حلو، الصاب: شجر عصارته مُرَّة

٣٦ مدح المدح

لا تَعْذُلَنَّ على المَدائِحِ إنْ تَكُنْ ... تَجْني ثمارَ الخيرِ مِنْ كَلِمَاتِها

إنَّ المديحَ على الفضائلِ مُكْثِرٌ ... مِنْها، مُقِلٌّ مِنْ عَديدِ عُدَاتِها

مدح الفضائل يكثِّرها، ويقلل من أعدائها العديدين

وإذا الكريمَ مدحتَهُ بِقَصيدةٍ ... قَرأَ اللئيمُ الذَّمَّ في أبياتِهَا

فامْدَحْ كرامَ النَّاسِ مغتبِطاً، وَدَعْ ... زُمَرَ اللئامِ تموتُ في حَسَراتِها

٣٧ ميسلون المنارة

قولُوا لِغورُو، كُلَّمَا لَمَعَتْ ... أَزْرارُهُ فاختَالَ وابْتَسَما:

الأزرار المذهبة لبزته العسكرية تلمع

إن الذينَ ذَبَحْتَهُمْ تَركُوا ... ذِكْراً يُجَدَّدُ كلَّما قَدُمَا

مَـجْـدُ الـشَّـآمِ بِـمَـيْـسَـلـونَ غَـدَا   غَـرْسـاً سَـقَـوْهُ دِمـاءَهُـمْ فَـنَـمـا
ولَـسَـوفَ تُـبْـصِـرُ فـي الـقـريـبِ لـهُ   ظِـلاً يَـعُـمُّ الـعُـرْبَ والـعَـجَـمَـا

كانت لبطل ميسلون يوسف العظمة بصيرة، وكان مقداماً، ومستعداً للتضحية. أصر على أن يخرج للقاء الفرنسيين المدججين بدباباتهم، وهو في عسكر ضعيف. وكانت حجته بيت المتنبي: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى/ حتى يراق على جوانبه الدم، قيل إنه تمثل بهذا البيت عند الملك فيصل المتردد في شأن مواجهة الفرنسيين. وأثخن الفرنسيون في جند العظمة في ميسلون، واستشهد. ولكن فكرة العروبة رسخت في أرض الشام رسوخاً، وغدت العروبة ديناً لأهل الشام، يعبر عنه الشعراء والمسرحيون والسياسيون، ولا يجرؤ أحد على مخالفته. كان لوقفة يوسف العظمة أثر كبير في اعتزاز الناس بعروبتهم وبأصلهم وباستقلال بلدهم، وبرفض المحتل

٣٨ من أخمص البحر حتى مفرِق الجبل

دارَ العُروبةِ، دارَ الحُبِّ والغَزَلِ!   هاجَرْتُ منكِ، وقلبي فيكِ لم يَزَلِ

لا تَـخْـدَعَـنَّـكِ أصـواتٌ يُـكَـبِّـرُهَـا   بُـوقُ الـغـريـبِ لِـغَـدْرٍ بِـالـوَفـاءِ طُـلـي

بوق الغريب: العرب الذين يروجون أفكار المحتل الفرنسي في لبنان وسورية

إنَّ الـعـروبَـةَ فـي لُـبـنـانَ سـائِـدَةٌ   مِنْ أخمَصِ البَحْرِ حتَّى مَفْرِقِ الجَبَلِ

فَلْيَنْظُرِ الناسُ: هَلْ مِنْ أُمَّةٍ فَعَلَتْ   لِلْمَجْدِ فِعْلَ رُعَاةِ الشَّاءِ والإبِلِ
في بضعَةٍ مِنْ عُقودٍ غيرِ بَالِغَةٍ   قَرْناً تَتَوَّجَتِ الغَبراءُ بِالعُقُلِ

الغبراء: الأرض، العقل: جمع عقال وهو هالة الكوفية، ففي أقلَّ من قرن حكم العرب المسلمون بلاداً شاسعة

سَلْ عَنْ معارِفِهِمْ في كلِّ مَسألةٍ   أمَّا عنِ الأدبِ السَّامي، فلا تَسَلِ
هُمْ صاحِبُوهُ، وهُمْ أربابُ دولَتِه   في العصرِ هَذا، وما وَلَّى، وسَوْفَ يَلي
إرثٌ، لَعَمْرُكَ ما كِدْنَا نَعِزُّ بِه   حتَّى أَضَعْنَاهُ بالإهمالِ والكَسَلِ

٣٩ الحاكم والعمامة

إذا مَلِكٌ لم يدْعَمِ العلمُ مُلْكَهُ   فليسَ بِمُغْنٍ عنه أنْ يَتَعَمَّما
تَوَهَّمَ أنَّ الدينَ إرسالُ لِحْيَةٍ   فَأَضْحَكَ ربَّ الدينِ مِمَّا تَوَهَّما
هَنِيئاً لِشَعْبٍ نَاهضٍ أَغْضَبَ اللِّحَى   على أنَّه أرْضَى النَّبيَّ المعظَّمَا
وأَشْفَقَ أنْ يقتادَهُ مُتعصِّبٌ   يُعَوِّجُ مِنْ أخلاقِهِ ما تَقَوَّمَا

إذا الدينُ ماشَى العلمَ كان قِلادَةً … فإنْ عاقَهُ عنْ سيرِهِ كانَ أدْهَما

الأدهم: القيد

إذا الشيخُ والقِسِّيسُ لم يُكْرِمَا الحِجَا … وأحكامَهُ فَلْيبَرأِ الدِّينُ مِنْهُما

الحجا: العقل

إذا أنتَ أَدَّيْتَ الفرائضَ كلَّها … ولم تَحْوِ حُسْنَ الخُلْقِ، لم تَكُ مُسْلِمَا

سلامٌ على الإسلامِ أيامَ مجدِهِ … طويلٌ عريضٌ يَغْمُرُ الأرضَ والسَّمَا

نَغارُ على الإسلامِ حتَّى كأنَّنا … بَنُوه، ونَأْبى أنْ نَراهُ مُهَشَّمَا

وهل هَشَّم الإسلامَ إلَّا شيوخُهُ … وهلْ غيرُهُمْ يَبْغي لهُ الجَهْلَ مَرْهَمَا

وهلْ غَيْرُ خُدَّامِ الدياناتِ زمرةً … تَرَى في خَسَارِ الشَّعْبِ كَسْباً ومَغْنَما

وسَدُّوا طَريقَ الفِكْرِ عنْ كلِّ مؤمنٍ … وألْقَوْا نَسيجَاً فوقَ عينيهِ أَقْتَما

يَخَافُ إذا مَرَّ النعاسُ بجَفنِهِ … بِغَيْرِ رِضاهُمْ أنْ ينامَ فَيَأْثَما

ويَخْشَى إذا لم يُرْضِهِمْ شَكْلُ ثوبِهِ … ولونُ حِذائَيْهِ عَذَابَ جَهنَّما

يبالغ رجال الدين في التدخل في يوميات المؤمن، ويبالغ المؤمن في طلب فتاواهم في كل ما يعرض له من شؤون حياته

ومِنْ نَكَباتِ الدَّهْرِ أنَّ نفوذَهُمْ … يَعُمُّ عديمَ العلْمِ والمُتَعَلِّمَا

وأكْبَرُ مِنْ كُبرى البَلِيَّاتِ حاكِمٌ … إذا هلَّ شهرُ الصَّوْمِ صامَ وصَوَّمَا

فلمْ يُبْقِ في كلِّ المدينةِ حانَةً … ولم يُبْقِ في كلِّ المدينةِ مَطعَمَا

تَغَرَّبْ تجدْ في الغربِ في كُلِّ مَحْفِلٍ … أَوانِسَ يَفْضَحْنَ الجُمَانَ المنظَّمَا

الجمان المنظم: اللؤلؤ المنظوم عقداً

وإنْ يَكُ بَيْنَ السافراتِ فَوَاجِرٌ … فَفيهنَّ مَنْ يَحكينَ بِالطُّهْرِ مَرْيَما

يحكين: يشبهن

وليسَ حجابُ الوجهِ إلَّا سخافةً … تَعلَّمَها الإنسانُ، فيما تَعَلَّما

سَرَتْ سَرَيانَ الداءِ، والداءُ مُعْضِلٌ … إذا لم يُعَاجَلْ بالدَّواءِ تَحَكَّما

فَذَنْبُ (أَمَانِ اللَّهِ) لا في اقتلاعِهَا … ولكنَّه في طيشِه حينَ أقدَمَا

أمان الله ملك الأفغان، سقط عن عرشه (في ١٩٢٩) لسياساته المتحررة في مسائل المرأة والمجتمع والدين

تـعـجَّـلَ أمـراً شـاءَهُ، غـيـرَ آبِـهِ   لِعَاداتِ شَعْبٍ بعضُها خالَطَ الدَّمَا
وَمَنْ سَدَّ مجرىَ النهرِ يوماً، ولم يَكُنْ   أَعَـدَّ لـهُ مـجـرىً جـديـداً، تَـنَـدَّمـا
وكـلُّ بِـنَـاءٍ لـم يُـؤَسِّـسْـهُ رَبُّـهُ   على صَخْرَةِ العلمِ الصحيحِ تَهَدَّمَا

ربه: صاحبه

٤٠ تأبين الحسين بن علي

قال فرحات في حفل أقيم، لتأبين الحسين بن علي شريف مكة، في ساو باولو ١٩٣١:

أُمَّةُ الـعُـرْبِ، أمـةُ الـقـدسِ تَـبْـغـي   نـورَ وجـهِ الـحـسـيـنِ قـبـلَ غـيـابِـهْ
فـالتَقَـتْ عـنـدَ نـعـشِـه، وَهْـيَ كـانـتْ   فـي الـمُـلِـمَّـاتِ تَـلْـتـقـي عـنـدَ بـابِـهْ

الملمات: المصاعب

ذلـكَ الـتـاجُ كـانَ قِـشْـرَةَ مـجـدٍ   لا تُـريـدُ الأحـرارُ غـيـرَ لُـبَـابِـهْ

ذلك التاج كان مجرد رمز، والأحرار يريدون لبابه (جوهره)

إنَّـمـا يَـغـضَـبُ الـوَفِـيُّ لِـغَـدْرٍ   قـد تَـوالَـى عـلـيـهِ مِـنْ أصـحـابِـهْ
عـاهَـدُوهُ، ولـم يَـفُـوا وَهْـوَ مِـمَّـنْ   نَـزَّهَ الـعـهـدَ جَـدُّهُـمْ فـي كـتـابِـهْ

الإنجليز عاهدوا الحسين على تأسيس دولة عربية يملكها، وهو رجل كان جده (الرسول) قد نزه العهد (جعله منزهاً عن النكث) في كتابه (القرآن)

٤١ يا رسول الله

قال فرحات في عيد المولد النبوي:

بـيـنـمـا الـكـونُ ظـلامٌ دامـسٌ   فُـتِـحَـتْ فـي مَـكَّـةٍ لـلـنُّـورِ كُـوَّةْ
إنَّ فـي الإسـلامِ لِـلْـعُـرْبِ عُـلَـىً   إنَّ فـي الإسـلامِ لـلـنَّـاسِ أُخُـوَّةْ
فـادْرُسِ الإسـلامَ يـا جـاهِـلَـهُ   تَـلْـقَ بـطـشَ الـلَّـهِ فـيـهِ وحُـنُـوَّهْ
يـا رسـولَ الـلَّـهِ! إنَّـا أُمَّـةٌ   زَجَّـهـا الـتَّـضـلـيـلُ فـي أعـمَـقِ هُـوَّةْ
ذلـكَ الـجـهـلُ الـذي حـاربْـتَـهُ   لـم يـزلْ يُـظْـهِـرُ لـلـشـرقِ عُـتُـوَّهْ
قُـلْ لأتـبـاعِـكَ: صَـلُّـوا وادرُسُـوا   إنَّـمـا الـدِّيـنُ هـدىً والـعـلـمُ قُـوَّةْ

٤٢ قل هنَّ، والتزم الأدب

قُـلْ: هُـنَّ، والـتـزِمِ الأَدَبْ ... وابْـعُـدْ بِـهِـنَّ عَـنِ الـرِّيَـبْ
وهِـبَـاتُ رَبِّـكَ لا تُـعَـدُّ ... وَهُـنَّ أَحْـسَـنُ مـا وَهَـبْ
لِـلـغـيـدِ مـا احـتَـمَـلَ الـرِّجَـا ... لُ مِـنَ الـمـتـاعـبِ والـكُـرَبْ
وَلَـهُـنَّ مـا كَـسَـبَ ابـنُ آ ... دَمَ بـالـحـلالِ، ومَـا نَـهَـبْ
ولأَجْـلِـهِـنَّ تَـسـيـلُ أنْـ ... ـهـارُ الـدِّمـاءِ عـلـى الـذَّهَـبْ
لـو لـم يَـكُـنَّ عـلـى الـثَّـرى ... لا الـفَـنُّ كـانَ، ولا الأدبْ
يَـغـضَـبـنَ لـلـسَّـبَـبِ الـطَّـفِـيـ ... ـفِ، وكـم غـضِـبْـنَ بِـلا سَـبَـبْ
ولَـهُـنَّ سـلـطـانُ الـجَـمـا ... لِ، عـلـى الـرِّضَـى ومَـعَ الـغَـضَـبْ

٤٣ صور على الجدران

أشقَى النساءِ على الثرى أُمٌّ قَضَتْ ... أيـامَـهـا فـي وَحْـدَةِ الـنُّـسَّـاكِ
أبـنـاؤُهـا مَـلأُوا الـبُـيـوتَ، وبـيـتُـهـا ... خَـالٍ مِـنَ الـحُـدَّاثِ والـضُـحَّـاكِ

الحداث: المتحدثون، والحداث كلمة اخترعها المتنبي (فما يُفهِمُ الحدَّاثَ إلا التراجم)، واقرأ القصيدة المقبلة ففيها رأي فرحات في اختراع المتنبي للألفاظ

سُحِرُوا بِمَزْعومِ الغِنَى، فَتَحَوَّلوا ... صَـوُراً عـلـى الـجُـدْرَانِ دونَ حَـراكِ

تحول أبناؤها إلى مجرد صور معلقة على جدران بيتها، فقد هاجروا جميعاً ولم تبق إلا صورهم. هذا طيب الطيب كله.. بيت بديع

وتُـسَـائِـلُ الأقْـمَـارَ: أيـنَ مَـحَـلُّـهُـمْ؟ ... ومـتَـى يـكـونُ مِـنَ الإِسَـارِ فِـكَـاكـي
رَكِـبُـوا الـخِـضَـمَّ إلى الـنُّـضَـارِ فَـلَـيْـتَـنـي ... أَلْـقَـيْـتُ نـفـسـي فـيـهِ لـلأسـمـاكِ

الخضم: البحر، النضار: الذهب

وقَـضَـتْ مُـلَـوَّعَـةَ الـفـؤادِ، وعَـيْـنُـهـا ... تَـجْـتَـالُ بـيـنَ الـبـابِ والـشُّـبَّـاكِ
أُمَّـاهُ! لـيـسَ عـلـى الـغـريـبِ مَـلامَـةٌ ... بعضُ الذي يَـذْهَـى الـغـريـبَ دَهَـاكِ
شِـبْـنَـا، وغَـيَّـرَتِ الـخـطـوبُ وجـوهَـنَـا ... وتـعَـكَّـرَ الـصَّـافـي، وحَـالَ الـزَّاكـي

حال: تحول، الزاكي: الطيب

لـم يـبـقَ فـيـنَـا مِـنْ طـفـولـتِـنَـا سِـوى ... وَمَـضَـاتِ بـرقٍ مِـنْ شـعـاعِ هُـدَاكِ

رَبَّيْتِنا عَرَباً، وحولَكِ نِسْوَةٌ أُولِعْنَ بالإفرنْجِ والأتراكِ

٤٤ سلطان الشعراء

قال فرحات، في ألفية أبي الطيب المتنبي ١٩٣٥ :

أبو الطَّيِّبِ الكاسي المعاني بِلَفْظِهِ كما كَسَتِ الغيدَ الشُّفُوفُ النَّواعِمُ

الشفوف: الملابس الرقيقة

لهُ السُّلْطَةُ العليا على كلِّ شاعِرٍ فلا يَدَّعِ التَّجديدَ في الشِّعْرِ ناظِمُ
لقدْ بَلَّغَتْهُ السَّبْقَ في حَلْبَةِ النُّهَى جِيَادُ قَوافٍ ما لَهُنَّ شَكَائِمُ

أمكنته من السبق في حلبة النهى (العقل) خيول من القوافي ليس لها شكائم (حدائد فم الفرس)

مَتَى تَلْقَ فيها مَنْطِقاً غَيْرَ جائِزٍ فَجَوِّزْهُ، وَلْتَلْقَ اللهيبَ المعاجِمُ

منطقاً: نُطقاً وكلاماً. إذا لقيت لفظة عند المتنبي لا يجيزها المعجم، فاعتبرها صحيحة وإلى النار بكل المعاجم

هُوَ المَنْجَمُ المُعْيِي اللُّصوصَ نَفَادُهُ وكم نَفِدَتْ مِنْ ألفِ عامٍ مَناجِمُ

المعيي: المعجز، نفاده: انتهاء مادته

يُجَدِّدُ، ما كَرَّ الزمانُ، شبابَهُ وتُنْسَخُ أقوالُ الوَرَى، وهو دائِمُ

تُنسخ: تُلغى

كأَنَّكَ مِنْهُ في مَغَاوِرِ جِنَّةٍ على كلِّ بابٍ لِلمَعاني طَلاسِمُ

الجِنَّة: الجنّ

متَى مَا تَلِجْ بَاباً بَدا لَكَ غيرُهُ وبَانَتْ سَراديبُ، ولاحتْ مَعالِمُ
أَنطْمَعُ أنْ نَرْقَى إليكَ بَلاغةً وجَوُّكَ جَوٌّ تَتَّقيهِ القَشَاعِمُ

القشاعم: النسور

وما وحْدَهُ الجاني علينَا، وإنَّما خَوَافٍ لنا مَنْتوفَةٌ، وقَوادِمُ

الجاني علينا، فلا نلحق، ليس عظمة المتنبي فحسب، بل لأن لنا خوافيَ (الريش المستور داخل الجناح) وقوادم (الريش الظاهر) منتوفة.. أي أن حصيلتنا من اللغة والتألق ضعيفة

وهَلْ يستقيمُ النظْمُ والنثْرُ لامْرِئٍ يَبيعُ ويَشْري، مُرْغَماً، ويُساوِمُ

ممارسة التجارة سبب خمولنا في الشعر

٤٥ رفقاً فديتك في ضمي وتقبيلي

أَفدي بِروحِي التي زارتْ، وما سَأَلتْ   عمَّا سيحدُثُ، مِنْ قالٍ ومِنْ قِيلِ
سَدَّ الهوى أُذُنيْها، وَهْوَ يدفعُها   إليَّ عنْ كلِّ تَحريمٍ وتحليلِ
وَلْهَى تقولُ، وقد طوَّقْتُها بِيَدي: رِفقاً، فَدَيْتُكَ، في ضَمِّي وتَقبيلي
أَزَلْتَ تَجميلَ وَجهي، قُلْتُ: إنَّ لَفي   هذا الجمالِ غنىً عنْ كلِّ تجميلِ
وما اكْتِحالُكِ! والألحاظُ فاتِكَةٌ   تَرنُو فتَرمِي فتُصْمِي دونَ تَكحيلِ؟

ترنو: تنظر، ترمي: تطلق سهامها، تصمي: تصيب

ما كانَ أَنْضَبَ عَيْشي قبلَ أنْ رَتَعَتْ   عيناي مِنْكِ بِريفِ الحُسْنِ والنِّيلِ

وقد جمع المتنبي بين «الريف» و«النيل» في بيته: (من عبيدي إن عشت لي ألف كافو/رٍ، ولي من نداك ريف ونيل)، فصارت الكلمتان بمثابة «تعبير» أدبي يشير إلى منتهى النعمة

إنِّي لأنظِمُ شِعراً فيكِ، تَنْقُلُه   عَنِّي الخلائقُ مِنْ جيلٍ إلى جيلِ
حُبِّيكِ دِيني، وشِعْري فيكِ أَنْزَلَهُ   ربُّ الجمالِ ليُتْلَى كالأناجيلِ

٤٦ غريبات اللسان

بكيتُ فقالَ أصحابي: أَتبكي؟   فقلتُ مضى الشبابُ، فَهَلْ أُغَنِّي؟
بِأَيِّ وسيلةٍ أُرضي الغواني   وشِعْري عِندهُنَّ عَزيفُ جِنٍّ

العزيف: صوت الريح، وصوت ما كانوا يتخيلون أنه الجن. يقول: هنَّ لا يفهمن شعره لأنهن برازيليات

غَريباتُ اللسانِ، يَرَيْنَ شَكْلي   وليسَ يَرَيْنَ مَعْرِفتي وفَنِّي
يُرِقْنَ على أديمِ الأرضِ خَمري   إذا لم يُرْضِهِنَّ جمالُ دَنِّي

تريق الحسان البرازيليات على أديم (وجه) الأرض خمري، عندما يرين دنِّي فلا يرضيهن. يقول: هن لا يعرفن حقيقتي بل يرين شكلي فقط

٤٧ أشهى الثمار

قلتُ والغِيدُ قد مَرَرْنَ: ألا انْظُرْ   إنَّ أشهَى الثِّمارِ هَذي النُّهودُ
لو خَلَتْ جَنَّةُ الإلهِ مِنَ الحُو   رِ لَمَا ماتَ في الجِهادِ شهيدُ

٤٨ تكافؤ الفرص

نريدُ، لِكَيْ نَمْشيِ مَعَ الناسِ، دولةً ... مُوَطَّدَةً، بِالعدلِ تَنمُو وتَحْتَمِي
فَلا مُؤْمنٌ يمشِي على حَقِّ كافرٍ ... ولا مسلمٌ يعلُو على غيرِ مسلمِ
ولا مَنصِبٌ حِلٌّ لأبناءِ مِلَّةٍ ... ومَنْ يَبْغِهِ مِنْ سائرِ الناسِ يَأْثمِ
إذا لم يكنْ لي مِنْ أبي مَا لإخْوَتي ... وقَاسى عذابَ الموتِ لم أتَرَحَّمِ
وما بيَ أَطماعٌ أثارتْ تَأَلُّمي ... ولكنَّ حِرماني مُثيرٌ تَأَلُّمي
يَقيناً لَوَ انَّ اللَّهَ لم يَنْهَ آدماً ... لَمَا هَزَّهُ شوقٌ لِأَكْلِ المُحَرَّمِ

٤٩ الأَسطُرلاب

لَهَفِي على عهدِ الصِّبا، لم يَبقَ لي ... منهُ سوى أُمنِيَّةِ المُتَصابي
وغَدا الحسانُ، إذا جلسْنَ إلى الهوى ... بينَ الخمائلِ، ما حَسَبْنَ حِسَابي
هُنَّ النجومُ، ورصْدُهُنَّ لُبَانَتِي، ... أَنَّى اتَّجَهْنَ أَدرْتُ أَسْطُرْلابي

لبانتي: بغيتي

٥٠ لا شكرَ لمأمور

رأيتُ النَّحْلَ ما ينفكُّ ... بالأزهارِ مُهْتَمَّا
فَمَنْ عَلَّمَهُ التَّوْفيـ ... ـرَ، والبخلَ بِمَا لَمَّا

لَمَّ: جَمَعَ

ومَنْ حَوَّلَ بعضَ الشَّهْـ ... ـدِ في إبرَتِهِ سُمَّا
هُوَ ابنُ الفِطْرَةِ المضطَرُّ ... أنْ يحترمَ الأُمَّا
فلا تَمْدَحْ إذا سَرَّ ... ولا تَشْتُمْ إذا غَمَّا
فَما يَستأهِلُ المأمو ... رُ لا مَدْحاً، ولا ذَمَّا

٥١ الجود بالموجود

وليسَ فَقْريَ طِفْلاً عُمْرُهُ سَنَةٌ ... لكنَّهُ تَوْأَمي، لمَّا نَمَوْتُ نَمَا
وإنَّ ربَّةَ بيتي غيرُ مُذْنِبةٍ ... ما ذنبُها، وأَنَا عوَّدْتُها الكَرَما

لا ذنبَ إلَّا على كَفٍّ بُلِيتُ بِهَا إنْ تَأْخُذِ النَّيلَ تُعْطِ النِّيلَ والهَرَما

أي أن كفه سخية، إن نالت من المال شيئاً أعطت الآخرين أكثر منه

٥٢ التظاهر بالتقى

قال فرحات، يداعب صديقه الخوري جورج قصاص، وكسرت رجله:

أَكَسَرْتَهَا! وَهِيَ الَّتي حَمَلَتْكَ مِنْ عَهْدِ الفِطَامْ
وتَحَمَّلَتْ، قبل احتِلا مِكَ، مِنْكَ شَيْطَنَةَ الغُلامْ
ومَشَتْ، وأنتَ فتىً، بِطَيْشِكَ في سَراديبِ الغَرامْ
ثَقُلَتْ عليها جُبَّةٌ لَو جَلَّلَتْ جَمَلاً لَنَامْ
نُشِرَتْ عليها لِحْيَةٌ شَمطاءُ تَضْحَكُ في الظلامْ

الشمطاء: التي اختلط بياض شعرها بسواده، وعلى هذا فالعجوز الشمطاء ليست الطاعنة في السن بل المرأة التي في سن الأربعين مثلاً، على كل حال الصبغة غيرت كل شيء

وَلَهَانَ حَمْلُ النَّكْبَتَيْنِ لَوَ انَّهُ مِسْكُ الخِتامْ

ولهان (كان يهون) حمل الجبة واللحية لو وقف الأمر عند هذا الحد

إن التَّظاهُرَ بالتُّقَى كافٍ لِتَحْطيمِ العِظَامْ

٥٣ جميلة والكهل

وَمَهما يُحِطْ بي مِنْ سرورٍ وغِبْطَةٍ يَظَلُّ لهيبُ الوجدِ لِلقلبِ كاوِيَا
فلَوْ جِئْتُ أبغِي حاجةً عندَ غادةٍ لَقالتْ ليَ: ارجِعْ حيثُما كنتَ ثَاوِيَا

ثاوياً: مقيماً

أَضَعْتَ لدى غيري شَباباً أَظُنُّهُ، لِمَا فيكَ مِنْ آثارِهِ، كان بَاهِيا
وما جئتَنِي إلَّا بِشَيْبٍ وصَلْعَةٍ لِتَأْخُذَ ما لم تُعْطِ إذْ كنتَ غَانِيَا

غانياً: متحلياً بالجمال

٥٤ كل شيء حلو في أوانه

وإنِي لَيُزْعِجُنِي نَاشِئٌ يُفَكِّرُ كَالهَرِمِ الأَدْرَدِ

الأدرد: الفاقد الأسنان

وأَحْسَبُ أنَّ الحِجَا في الصِّبَا رِدَاءٌ كبيرٌ على المُرْتَدي

الحجا: العقل

ولا بُدَّ لِلمرْءِ مِنْ ضِلَّةٍ مَتَى تَأْتِ في وقْتِها تُحْمَدِ

ضلة: ضلال

٥٥ الشعر الواضح

إنَّ شِعري لَصُورةٌ لِحَياتي لا غموضٌ فيهِ، ولا تَعقيدُ

لا كَشِعْرٍ يُذِيبُ قارِئُهُ المُخَّ لِيَدْري مَنْ قالَهُ مَا يُرِيدُ

إعادة تركيب كلمات البيت: لا كشعر يذيب قارئه المخ ليدري ما الذي يريده الذي قال الشعر

٥٦ لبنان والشام

ما جاءَ لبنانٌ وفي سوريَّةٍ خبزٌ، ولَنْ يَعْرَى وفيها مَلْبَسُ

لبنانُ في دِينِ العروبةِ مَذْهَبٌ أمَّا العروبةُ فَهْيِ دِينٌ أَقْدَسُ

لبنانُ في عِقْدِ العروبةِ دُرَّةٌ فَهْوَ النفيسُ لَدَيَّ، وَهْيَ الأَنْفَسُ

أَعَلى الدِّمَشْقِيينَ في بيروتَ أَنْ يَتَحَمَّلوُا التَّعْبِيرَ، أو يَتَجَنَّسُوا؟

هذا اختراعُ الآكِلينَ إلهَهُمْ قامتْ تُؤَيِّدُهُ عجوزٌ مُومِسُ

هذه العجوز هي فرنسا المحتلة

نَفَخَتْ بِهِمْ روحَ العَداءِ لِيَعْرُبٍ فَتَفَيْنَقُوا في ظلِّها، وتَفَرْنَسُوا

٥٧ نار في الرأس وإعصار

أغارَ الشَّيْبُ والصَّلَعُ عليَّ، فَهَدَّني الجَزَعُ

هُما كالنارِ والإعصا رِ: لا تُبْقي، ولا يَدَعُ

فَتُحْرِقُ كَيفَما اندلَعَتْ، وحيثُ يهبُّ يَقْتَلِعُ

أضاءَ الجِلْدُ مذْ أَخَذَتْ دَيَاجي الشَّعْرِ تَنْقَشِعُ

دياجي: ظلمات.. يعني الشعر الأسود

وما زالتْ تَضِيقُ الوَا حُ، والصَّحْراءُ تَتَّسِعُ

الواح: الواحات، الصحراء: الصلعة التي تجلل رأسه

٥٨ قلوبنا معك

قال فرحات، في وداع صديق:

يــا مَــنْ يُــفــارِقُــنــا، ويَــأْ خُــذُ، فــي حــقــيــبَــتِــه، الــقُــلــوبــا
خُــذْهــا، فــإنْ بَــقِــيَــتْ وأنْــ ـتَ مضيْتَ نَخْشَى أنْ تَـذُوبَـا

٥٩ الثأر نضالاً

قال فرحات، في نكبة فلسطين:

قُـلْ لِـلْـمُـغِـيـرِ عـلـى مَـنـازِلِـنـا كـالـسَّـيْـلِ يَـنْـفُـذُ، مِـنْ هُـنَـا وَهُـنَـا
حَـمَّـلْـتَ نـفـسَـكَ فـوقَ طـاقَـتِـهـا ورَكِـبْـتَ وَيْـحَـكَ مَـرْكَـبـاً خَـشِـنَـا
إنْ لـم يَـكُـنْ زَمَـنٌ يُـوَافِـقُـنَـا لِـلـثَّـأْرِ مِـنْـكَ، سَـنَـخْـلُـقُ الـزَّمَـنـا
دُقُّـوا وغَـنُّـوا فـي مَـآتِـمِـنَـا لَـكُـمُ الـبَـدَاءَةُ، والـخِـتـامُ لَـنَـا

٦٠ السيوف الصدئة

ومـاذا نُـرَجِّـي مِـنْ سُـيـوفٍ كـثـيـرةٍ يَـمـانِـيَّـةٍ، لـكـنْ تَـأَكَّـلَـهَـا الـصَّـدَا
مُـلـوكٌ ظَـنَـنَّـاهُـمْ صُـقـوراً، وعِـنـدمـا غُـزِينا رأَيْنَا صاحِبَ التاجِ هُدْهُدا
لَهَوْا عنْ عِصَاباتِ العِدَى باخْتِلافِهِمْ فكانوا على الأوطانِ شَرّاً مِنَ العِدَى
وراحـوا يَـحُـلُّـونَ الـقَـضـايـا كـأَنَّـهُـمْ يَحُلُّونَ في الظلماءِ خَيْطاً مُعَقَّدا
وأَنَّى يَحُلُّ الحِقْدَ والجهلَ والهوى جِدالٌ عقيمٌ ينتهي مِثْلَما ابْتَدا
مَـطـامِـعُ أفـرادٍ بِـمِـيـراثِ أُمَّـةٍ مـبـعـثـرةٍ، يَـخْـشَـوْنَ أنْ تَـتَـوَحَّـدا

٦١ دهاء المصفقين

أَيَـرُدُّ عَـزْمُـكُـمُ الـحـقـوقَ لأهـلِـهـا فَـتَـرى لَـكُـمْ فـوقَ الـلـواءِ لِـوَاءَ؟
ونَـرى فـلـسـطـيـنَ الأسـيـرةَ حُـرَّةً تـمـشـي، وتـرفَـعُ رأسَـهـا خُـيَـلاءَ
هَـذِي وذاكَ لَـنَـا، ولـم نَـخْـسَـرْهُـمَـا لـو أنَّ فـي بَـعْـضِ الـوجـوهِ حَـيـاءَ

لم نخسر الحقوق ولا اللواء

أرأَيْتُـمُ الـزُّعَـمـاءَ كـيـفَ تـخـاذَلـوا أرأيـتُـمُ الأقـيَـالَ والأُمَـراءَ

الأقيال: الملوك

يـتَـزاءَرُونَ كـأنَّـهُـمْ أُسْـدٌ، فَـإِنْ لمحوُا العِدَى انقَلَبَ الزئيرُ مُوَاءَ
كَثُرَ الـملوكُ، فكلُّ مَنْطِقَةٍ لَها مَـلِـكٌ يُـقِـيـمُ الـجـنـدَ والـوُزَراءَ
والـكـائِـدونَ لَـنَـا يَـرَوْنَ هـلاكَـنـا بِـعِـشـارِهِ، فـيُـصَـفِّـقُـونَ دَهَـاءَ

٦٢ الاستخفاف بالخليع

لبنانُ، يا وطني! فديتُكَ مَوْطِناً مُضْنىً يَصُدُّ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافي
إنِي أرَى، يا «مَصْدَرَ الإشعاعِ»، في دَعْـوَاكَ ألـوانـاً مِـنَ الإسـرافِ

أكثر الداعون إلى استقلالية لبنان من وصفه بأنه مصدر الإشعاع في الشرق

لبنانُ، إنْ تُرْضِ العروبةَ كانَ لي في القولِ فيكَ مِنَ النجومِ قَوَافِ
يا شيخُ! ما لَكَ، والثلوجُ كثيفةٌ حِرْزٌ سوى هـذا الـفِرَاشِ الدَّافـي
القلبُ أنتَ، وما شِغَافُكَ غَيْرَها أَرَأى امْـرُؤٌ قـلْـبـاً بِـغَـيْـرِ شِـغَـافِ

الشغاف: الغشاء المحيط بالقلب، ولبنان هو القلب وشغافه العروبة

والعُرْبُ أهلُكَ، لن يُقابَلَ مُعْرِضٌ عَـنْ أهـلِـهِ إلَّا بِـالاسْـتِـخْـفَـافِ
ما أنـتَ إلَّا هُـمْ، فَـهُـمْ لَـكَ مَـعْـدِنٌ هَـذي الـرِّيَـاضُ أصولُـهُـنَّ فَـيَـافِ

فيافٍ: صحارى

والتَّمْرُ في أَعْلى النَّخِيلِ مُنَاخُهُ وحَـيَـاتُـهُ بـالـجَـذْرِ والألْـيـافِ

مناخه: موضعه

٦٣ ذات المسامير

دعَوْتُها في ضُحَى «مِيدي» لِنَهرُبَ مِنْ أمِّ الضَّجيجِ إلى إحدى ضَواحيِها
ثـم انـتـهـيـنـا إلـى كـوخٍ، مـوائـدُه تشكو الفراغَ، ويشكو الجوعَ آتِيها
طابَ الجلوسُ، وطابتْ ثَمَّ مَأْدُبةٌ ما في الـمآدبِ طُرَّاً ما يُحاكِيها

ثَمَّ: هناك، طراً: جميعاً، يحاكيها: يشبهها

شَطيرتانِ، وكأسانِ ارْتَوَى بِهِمَا قَلبانِ ما عَرَفا في العيشِ تَمْويها
علـى خِوَانٍ غليظِ الوجهِ مُتَّسِخٍ والساقُ مَشْلولةٌ أَعْيَتْ مُدَاويها

خوان: منضدة، ويبدو أن تلك المنضدة كانت ككل المناضد في كل متنزهات الدنيا: فيها رجل مشلولة يتعب المتنزهون في مداواتها بقطع مطوية من الورق المقوى

إذا اتَّكَأتَ عليهِ مالَ، فانقلبتْ عنهُ الزُّجاجةُ، يجري الماءُ مِنْ فِيها
تبدُو مساميرُه السوداءُ بارزةً في وجهِه، فتزيدُ الوجهَ تَشْويها
ونحنُ في نَشْوةٍ، مما يُحيطُ بنا مِنَ الجمالِ، سألْنا الدهرَ يُبْقيها

٦٤ «الويل للمنهزم»

لم يبقَ في الميدانِ، بعـ ـدَ زوالِ دولةِ هتلرِ..
أحدٌ يُخيفُ الأغنيا ءَ سوى العدوِّ الأصفرِ

* * *

وهناكَ بِضْعَةُ أَرْؤُسٍ قد أينعتْ لم تُقْطَفِ
ومِنَ المعابِدِ والبيو تِ بقيةٌ لم تُنْسَفِ

* * *

ويريدُ يَهْوَةُ أنْ يُطَهِّـ ـرَ باللهيبِ وبالدَّمِ
يهوة: يقصد اليهود
أرضاً تكونُ لِشَعْبِه الـ ـمختارِ دارَ تَنَعُّمِ

* * *

ويريدُها لَهُمُ، فَلا بَشَرٌ سواهُمْ يَنْطِقُ..
فيها ولا ثورٌ يخو رُ، ولا حمارٌ يَنْهَقُ

* * *

وطَوى طُرُومَنُ، عندمَا ار تَفَعَ النهارُ، كتابَهُ
ترومان: رئيس الولايات المتحدة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهو مجرم هيروشيما
وأعدَّ، مُرْتاحَ الضميـ ـرِ، إلى الوزيرِ جوابَهُ

* * *

قَذفوا هِروشيما بِرَفْـ ـشٍ مِنْ شُواظِ جَهَنَّمِ
الرفش: مِجْرفة التراب، الطورية، شواظ: لهيب
فَقَضتْ تُكَفِّنُها الجريـ ـمةُ بالرمادِ الأَسْحَمِ
الأسحم: الأسود

* * *

ذابَتْ بِحَرٌ قذيفةِ الـ ـمُتَهَوِّدِ المُتَعَبِّدِ
وتبخرتْ فكأنما هِيَ شحمةٌ في مَوْقِدِ

* * *

وتلقَّتِ اليابانُ، بالصَّـ ـبرِ الجميلِ، جراحَها
واستسلمتْ كحمامةٍ كسرَ العُقابُ جناحَها

* * *

أما الألى صَهَرُوا المديـ ـنةَ باللَّظى المتأجِّجِ

الألى: الذين

فلقدْ مَضَوْا يَترنَّمو نَ بكلِّ صوتٍ مُزْعِجِ

* * *

وتألَّفتْ دارُ القضا ءِ، وكانَ مِنْ مأساتِها
أنَّ الأُلى ارتكبوا الجريـ ـمةَ مِنْ كبارِ قُضاتِها

المنتصرون عقدوا المحاكمات لمجرمي الحرب المنهزمين، أما جرائمهم الذرية وغير الذرية فمضت بلا عقاب

٦٥ التزيُّن بالتجديف

قال فرحات، مخاطباً الشاعر نصر سمعان:

قال نصرٌ، وقد رأى صورةَ الطِّفـ ـلِ بحِضْنِ البَتولِ فوقَ الحمارِ
ورأى يوسُفاً يقودُ إلى مصـ ـرَ الحمارَ الصَّبورَ عبرَ القِفَارِ
هل رَوَى رحلةَ المسيحِ إلى الأهـ ـرامِ طفلاً في الكُتْبِ غيرُ الحَوَارِي؟

الحواري: أحد تلاميذ المسيح

أَحِمَارٌ يجتازُ صحراءَ سَيْنا ءَ وَينجُو مِنْ فاتكاتِ الضَّوارِي؟
ثم أينَ العَلِيقُ للجَحْشِ، أينَ الـ ـماءُ، أيـنَ الغِذاءُ للسُّفَّارِ

العليق: العلف الذي يعلق بمخلاة في رقبة الدابة

إنَّ في دينِنا غرائبَ، لا يـر ضى بها عاقلٌ بِلا استفسارِ
قلتُ: يا نصرُ ليس للعقلِ في الأد يانِ شُغْلٌ، فاتركْ عقيمَ الحِوَارِ

أنتَ تدري بأنَّ ربَّكَ، يا نصـ ـرُ، كريمٌ، وأنَّهُ ذو اقتدارِ
في رِضاه عنِ الحميرِ بَراهيـ ـنٌ فِصَاحٌ عَنْ صِحَّةِ الأخبارِ
إنَّ هذا الحمارَ، يا نصرُ، لو لم يُنْجِ عيسَى مِنْ سَطْوَةِ الأشرارِ
ما رأينَا التوفيقَ يُوشِكُ أنْ يجـ ـعَلَهُ اللَّهُ طَوْعَ كلِّ حمارِ

٦٦ نموت رويداً

قال فرحات، عام ١٩٥٤ في رثاء صبري غراب:

نموتُ رويداً؛ كلَّما ماتَ صاحبٌ لنا ماتَ في أضلاعِنا أملٌ مُغْرِ
فكلُّ وَداعٍ مِنْ حبيبٍ مُفارِقٍ أُحِسُّ له شيئاً يودِّعُ في صدري
لقد سَوَّدَتْ شِعْرِي الليالِي، بِجَعْلِه مَرَاثِيَ للأحبابِ مُذْ بَيَّضَتْ شَعْرِي

٦٧ وإنما.. عَنوة أخذناها

في مَيْسَلُونَ اهتدتْ دِمشقُ وقد ضَلَّتْ فَرنسا وخابَ مَسعَاها
فُزْنا بِحُرِّيةِ الشَّآمِ فلا يفْتَخْ خَؤونٌ بِحُجَّةٍ فَاهَا
لم تُعْطِنَاهَا لِجُودِها هِبَةً وإنَّما عَنْوةً أخذنَاها

٦٨ هل نحن شعبان؟

قال فرحات، وأراد أن ينشدها في استقبال رئيس لبنان كميل شمعون، وحيل بينه وبين ذلك، فأرسلها إليه:

لما رأيتُ غيابي طالَ عَنْ وَطني وطالَ شوقي إلى أهلي وخُلّاني
ولم أكنْ بِغَنِيٍّ، يستطيعُ إذا ما شاءَ، جَعْلَ قَصِيِّ الأرضِ كالدَّاني
خَشِيتُ أنْ أتلَقَّى الموتَ مغتَرِباً فإنَّ موتَ غريبِ الدارِ مَوْتَانِ

التسويد للمغترب عمران القفيني

وخِفْتُ ألَّا أرى الزَّهْرَ، الذي ابتسمَتْ عيونُه لِقِمَاطي، فوقَ أكفاني

الزهر الذي تفتح فكأنه ابتسم لقماطي، والقماط لِفاعٌ يلف به الرضيع.. وهو الكوفلية، أخاف إلا أرى الزهر فوق كفني.. يقول: أخاف أن أموت في الغربة

فَصِحْتُ يا ربِّ جَدِّدْ مِنْ رَجائِيَ ما أَبلَى الزمانُ، ورَمِّمْ صَرْحَ إيماني

رُدَّ الغريبَ إلى الأرضِ التي احتضَنَتْ أحلامَه وَهْيَ أطفالٌ بِتَحْنانِ

عندما كانت أحلامه في طفولتها

شَمْعُونُ! نحنُ هُنَا مِنْ كلِّ ناحيةٍ فانظرْ، وكنْ حَكَماً، هل نحنُ شَعْبَانِ

قبل يومين من تصحيحنا الأول للنص (٢٠/٤/٢٠٠٩) تم رسمياً تعيين ميشال خوري أول سفير لبناني في دمشق، في خطوة رمزية إلى أنه ليس لسورية وضع خاص في لبنان. والآن ونحن نجري التصحيح الأخير ـ نرجو ذلك ـ تستقبل لبنان نصف مليون لاجئ سوري على أراضيها فروا من الحرب الأهلية. المسألة معقدة بين البلدين

هذي دِمَشقُ وذي بَيروتُ، إنهما في طَلْعَةِ الوطنِ المحبوبِ عَيْنانِ

طلعة: وجه

لَسنا نُفَضِّلُ، مَهْمَا نَلْقَ مِنْ عَنَتٍ، عَيناً على أختِها؛ لَسْنا بِعُورانِ

عوران: جمع أعور

٦٩ حينما يصبح الزواج شارعاً ذا اتجاهين

قال فرحات، في تموز ١٩٥٤:

ليستْ عروبتُنا خُرافةَ جِنَّةٍ تَرْوِي العجائزُ في الدُّجى أخبارَها

الجنة: الجنّ

ليستْ عروبتُنا مَطِيَّةَ حالِمٍ بِأَريكةٍ مستسْهِلٍ أخطارَها
ليستْ عروبتُنا طُقوسَ ديانةٍ تُذْكي الجهالةُ بالتعصبِ نارَها
ما همَّها مَنْ لم يُصَلِّ ولم يَصُمْ، ما دامَ يحمي في الحروبِ ذِمَارَها

ذمارها: حماها وشرفها

كلُّ البلادِ لِكلِّ مَنْ وُلِدُوا بِها، لا شيءَ يَحْرِمُ بُقْعَةً زُوَّارَها
كلُّ المناصِبِ للذي هوَ أَهْلُهَا، لا شَرْعَ يمنعُهُ إذا ما اختارَها
كلُّ البناتِ لِكُلِّ طالبِ زوجةٍ، لا دينَ يُبْعِدُ عنْ بثينةَ جارَها

٧٠ الشعر المجود تجويداً

قال فرحات، في يوبيل جريدة إيليا أبو ماضي «السمير»:

الصبحُ يدعُو والمساءُ يُرَدِّدُ: ليتَ «السَّميرَ» على الزمانِ تُخَلَّدُ

تِيهاً أبا ماضي فإنَّكَ سَيِّدٌ   في فَنِّهِ، يَسْعَى إليهِ سَيِّدُ

تيهاً: لك أن تفتخر

يا صاحِبَ الشِّعْرِ الذي جَوَّدْتَهُ   حتَّى لَنَقْرَأُهُ ونحنُ نُجَوِّدُ

٧١ فيم التقاطع

فيمَ التقاطُعُ، والأوطانُ تجمعُنا   قُمْ نَغْسِلِ القلبَ مما فيهِ مِنْ وَضَرِ

وضر: وسخ

ما دُمْتَ محترِماً حَقِّي فأنتَ أخي   آمنتَ باللَّهِ، أم آمنتَ بالحجرِ

٧٢ المتفنن في الكذب

إنَّا سَكَتْنَا عنِ الكذَّابِ فانفتحتْ   قُدَّامَهُ لِفنونِ الكِذْبِ أبوابُ

يُلْقي علينا أحاديثاً ملفَّقةً   ولا نقولُ لهُ اسكُتْ، أنتَ كذَّابُ

٧٣ الأهل والفضل في أزمة

ما حيلَتي بِكبارٍ، في نُفوسِهِمُ   ذُلُّ الصِّغَارِ، وفي أخلاقِهِمْ عِوَجُ

مُذْ بَشَّرَتْ بِهِمُ الدَّايَاتُ، أهلُهُمُ   والفضْلُ في أَزَمَاتٍ ليسَ تَنْفَرِجُ

منذ ميلادهم حين بشرت القوابل بهؤلاء الناس، ظل أهلُهم والمكارم واقعين جميعاً في أزمات

٧٤ ربوبية الموت

آمِنْ بما شئتَ في بطنِ الترابِ ومَا   فوقَ الكواكبِ، واتركْني وإيماني

لم أَدْرِ كالموتِ رَبّاً صادقاً نَفَذَتْ   أحكامُ سلطانِه في كلِّ سُلْطانِ

لا يَرتشي بِنُذورِ النَّاذِرِينَ، ولا   يُبْغَى رِضاهُ بِقُدَّاسٍ وقُرْبانِ

وكلُّ رَبٍّ إلى البرهانِ مُفْتَقِرٌ   والموتُ لم يفتقرْ يوماً لِبُرهانِ

٧٥ الدهر والبشر.. والأذى

تَشكو أذَى الدَّهْرِ شَكْوى لا أَساسَ لها   فالدهرُ لم يَرتكِبْ إثماً، ولم يَجُرِ

لا يُقْفِلُ البشرُ الأبوابَ إنْ رَقَدُوا   خوفاً مِنَ الدَّهرِ، بل خوفاً مِنَ البَشَرِ

٧٦ لا يؤكل الجوز..

كم مِنْ غَنِيٍّ بَخِيلٍ، كلَّما لَمَحَتْ عيناهُ وجهَ فَقيرٍ خَفَّ يَسْتَتِرُ
تَرنُو إلى مالِهِ الوُرَّاثُ قائلةً: لا يُؤكَلُ الجوزُ إلَّا حينَ ينكَسِرُ

٧٧ الشعر والتجارة

يا شاعِرَ العَرَبِ احذَرْ أنْ يُقالَ غداً: كُحْلُ التجارةِ أعمَى شاعِرَ العَرَبِ
إنْ ضاقَ عيشُكَ كُنْ مَسَّاحَ أحذيةٍ لا تاجِراً يَغتني بالغِشِّ والكَذِبِ

تسويد عمران القفيني

٧٨ الناذرة للدير

ما كنتُ آسُو عَليلاً أمُّهُ هُرِعَتْ لِلدَّيْرِ تَنْذُرُ أموالاً لِرُهْبانِ

آسو: أداوي

إنْ عاشَ فالفضلُ للديرِ الذي نَذَرَتْ له، وإنْ ماتَ فالآسي هو الجَاني

٧٩ الدنيا مصالح

لا يَخْدَعَنَّكَ محتاجٌ إليكَ إذا فيما يَسُرُّكَ مِنْ أموالِهِ بَذَلا
إنَّ ابنَ آدَمَ لا يُعطيكَ نَعْجَتَهُ إلَّا لِيأخُذَ مِنْكَ الثَّوْرَ والجَمَلا
لو يعرِفُ الكبْشُ أنَّ القائِمينَ على تسمينِه يُضْمِرونَ الشَّرَّ مَا أكَلا

تسويد عمران القفيني للبيتين

٨٠ أبواب المواخير

لِلغربِ في الشَّرْقِ عاداتٌ مُقَدَّمَةٌ كانتْ، وما بَرِحَتْ، أوْلى بِتَأْخيرِ
لا تَبْتَغُوها، فَكَمْ مِنْ زَهرةٍ حَسُنَتْ في النَّاظِرَيْنِ، وساءَتْ في المناخِيرِ

الناظرين: العينين، المناخير: الأنوف

قولوا لِكُلِّ أبٍ في الشرقِ محتَرَمٍ إنَّ المَرَاقِصَ أبوابُ المَواخِيرِ

الماخور: بيت الجماع

٨١ فائدة الروح

قالوا هُوَ الجَسَدُ الجَمُّ الفَوائِدِ إنْ يُصْبِحْ بِلا الرُّوحِ لم يَنفعْ ولم يُفِدِ
لكنَّهُمْ لم يقولوا: أيُّ فائِدةٍ تُرْجَى مِنَ الروحِ إنْ تُصبحْ بِلا جَسَدِ
هذا يَصيرُ تُراباً رُبَّما صَنَعُوا منهُ وِعَاءً لِشُرْبِ الطَّائرِ الغَرِدِ
وتلكَ كانتْ خيالاً تائِهاً أبداً وسوف تَبقَى كما كانتْ إلى الأَبَدِ

٨٢ الاحتكاك

شَرِّقْ وغَرِّبْ فقد يَغْنَى أخُو سَفَرٍ عنْ كلِّ ما تَجْمَعُ الأسفارُ مِنْ حِكَمِ

الأسفار: الكتب

والمرءُ لا يَرْتَقي مَهْمَا تَلا كُتُبَاً إلَّا إذا احْتَكَّ بالأفرادِ والأُممِ

ويقول الشارح: كثرة الأسفار تزيد العميق عمقاً، والسطحي سطحيةً

٨٣ ضد الرمزية

إنِّي لأَعجَبُ مِنْ آدابِ رابِطةٍ قد أَوْجَدتْ في نظامِ الشِّعرِ تَشويشا

لعله يقصد الرابطة القلمية التي أسسها في نيويورك جبران ونعيمة وأصحابهما؟

شنَّتْ على الأَدَبِ الميمونِ غارَتَها فأمعنتْ فيهِ تشويها وتَخْديشا
طارتْ فخِلْنَا نُسوراً فوقَنا ارتفعتْ ثم استَقَرَّتْ فكانتْ كلُّها رِيشا
أشعَارُها عَلْقَمٌ، مَعْ أنَّها شَرِبَتْ مِنْ ماءِ صَنِّينَ والعاصي وقَادِيشا

٨٤ شرير بالفطرة

المرءُ يولَدُ شِرِّيراً، فإنْ غَفَلَتْ عينُ المهذِّبِ عنهُ هَكَذا لَبِثَا
إنْ لم تَكُنْ قُدوةً للوُلْدِ صالِحَةً أنفقْتَ مالَكَ في إصلاحِهِمْ عَبَثا

٨٥ قلة فهم المناديل

لو يُجمَعُ الدمعُ منذُ اغتيلَ هابيلُ لما استَطالَ على أقرانِهِ النِّيلُ

لن يفتخر النيل عندئذ بأنه نهر عظيم، فنهر الدموع سيكون أعظم منه

والخَدُّ يعلمُ ما في الدمع مِنْ حُرَقٍ وليس تَعْلَمُ ما فيه المَناديلُ

٨٦ الأدنياء والذهب

وليسَ لأدنِياءِ النَّفْسِ مَجْدٌ ولو رَصَفوا المنازلَ باللآلي
ولو صاغوا النُّضَارَ لَهُمْ نِعَالاً تَظَلُّ نفوسُهُمْ تحتَ النِّعالِ

٨٧ الشاعر تاجراً

فلاسفةُ الأعارِبِ مِنْ قرونٍ قدِ احتَقَروا التِّجَارَ، وقد أصابُوا
التِّجار: التُّجار

فما سوقُ التِّجَارةِ غيرُ غابٍ تَنَاهَشُ في جَوانِبِها الذِّئابُ
رُمِيتُ بِها، وما في الكفِّ ظُفْرٌ أذودُ به، ومَا في الفَكِّ نابُ
فلم يَسلمْ مِنَ التَّمْزيقِ جِلدي ولم تَسْلَمْ على جِلدي الثِّيابُ

٨٨ حر لولا ثلاث

خُلِقْتُ مُسَيَّراً، وأموتُ قَسْرا وَلِي امرأةٌ، فَكيفَ أكونُ حُرَّا

٨٩ المهد والنعش

حياةٌ هذهِ الدنيا ومَوتٌ فلا تُنْفِقْ ضِياءَ العينِ سُهْدَا
فأَعْقَلُ مَنْ رأيتُ فتىً حَكيمٌ يُشَيِّدُ مَنزِلاً ويَشُقُّ لَحْدَا
ونَجَّارٌ يَرَى دَفْناً وزَفّاً فَيَصْنَعُ مِنْ بَقَايا النَّعْشِ مَهْدَا

٩٠ استرزاق

كتابُ مسيحِكُمْ سهلٌ صَريحٌ فَما هذي الزَّوَائِدُ والحَواشي
وما هذي الطُّقُوسُ إذنْ إذا لم تَكُنْ حِيَلاً لِتَحصيلِ المَعَاشِ

٩١ لا نريد أن نتذكره

وحَقِّكَ! مَا لِنَعْشِ المَيْتِ مَعْنىً ولا مَعنىً لِتَعْميقِ القبورِ
فليسَ القبرُ أفضلَ مِنْ عَرَاءٍ تَهُبُّ عليهِ ناشِرَةُ العُطورِ
ناشرة العطور: يقصد العطور الزكية

وليسَ الدودُ أشرفَ مِنْ نُسُورٍ تُرَفْرِفُ بينَ أمواجِ الأثيرِ

ولــكـــنَّ الأنـــامَ تـــخـــافُ مَـــرأىً　　يَــلــوحُ لــهــا بِــهِ ســوءُ الــمَـصِــيــرِ

٩٢ قيمة المجد الغابر

أذَلُّ شعوبِ هـذي الأرضِ شعـبٌ　　تـراه بِـذكـرِ سـالِـفِـهِ وَلُـوعَـا
إذا مـاتَ الإبـاءُ بِـصَـدْرِ شعـبٍ　　فـقـد مـاتَـتْ مـآثِـرُهُ جَـمـيـعَـا

٩٣ مديح جهنم

أُحِـبُّ الـنَّـارَ، لا كُـفْـراً ولـكـنْ　　لأنَّ الـنـارَ مَـصـدَرُ كـلِّ نـورِ
وأَعـشـقُـهـا لأنَّ الـدِّيـنَ فِـيـهـا　　يَـزُجُّ الـثَّـائـريـنَ عـلـى الـغُـرورِ

يعشق جهنم لأن الدين يدخل فيها الثائرين ضد الغرور

فـإنْ كـانَ الـشُّـمَـيِّـلُ والـمَـعَـرِّي　　ورَهـطُـهُـمَـا هنالِكَ في الـسَّـعِـيـرِ

شبلي الشميل، وهو ابن قرية شاعرنا كفر شيما، كان داعية نظرية التطور في مطلع القرن العشرين

فقد فَضَّلْتُ سُكْنَى النارِ مَعْهُمْ　　على سُكْنَى السَّماءِ مَعَ الحَمِيرِ

٩٤ معيار الصلاح

تَـعـويـدُ كَـفَّـيْـكَ الـصَّـلاحَ أَبَـرُّ مِـنْ　　تَـعـويـدِ رِجلَيْكَ الوقوفَ بِمَسْجِدِ
أنَـا لا أُصَـدِّقُ أنَّ لِـصَّـاً مـؤمـنـاً　　أَدْنَـى لِـرَبِّـكَ مِـنْ شـريـفٍ مُـلْـحِـدِ

٩٥ الأجنبية عندما تتنقب

تَـتَـبَـرْقَـعُ الـمُـتَـفـرْنِـجَـاتُ سَـوافـراً　　بِـبَـراقِـعٍ مِـنْ نَـسْـجِـهِـنَّ كِـثَـافِ
يَـصْـبِـغْـنَ هـاتِـيـكَ الـخُـدودَ تَـبَـرُّجَـاً　　فَـالـصِّـبْـغُ بَـادٍ والـخُـدُودُ خَـوَافِ

٩٦ فن القناعة

مـا لِـلأنـامِ يُـفَـتِّـشُـونَ عـنِ الـسَّـنـى　　والـشَّـمـسُ تَـغـمُـرُ أَجْـبُـلاً وسُـهُـولا

السنى: الضوء

وتَـعَـلَّـمـوُا كـلَّ الـفـنـونِ، ولـم يَـزَلْ　　فَـنُّ الـقَـنـاعَـةِ عـنـدَهُـمْ مَـجْـهُـولا

٩٧ ثمن الحرية

لا تَطْمَعَنَّ بِوَصْلِها حُرِّيَةً حتَّى يكونَ لَديْكَ سَيفٌ فاصِلُ
لو كانَ مَحْضُ الوُدِّ يكفيها لَمَا فازَ الكَمالُ بِها، وخابَ الكامِلُ

الكمال: مصطفى كمال أتاتورك، والكامل: مصطفى كامل. وقد أسس أتاتورك بقوة السلاح دولة تركية حديثة، ولم ينجح حزب مصطفى كامل «الوطني» في تحقيق إنجاز ملموس في مصر

٩٨ في كل سلة بيضة

ازفُفْ بناتِكَ في المَذاهِبِ كلِّها لِلمؤمنينَ، وعابِدي الأصنامِ
واقرِنْ بِهذا الحَبْلِ بَطْرَكَ تابِعي عيسى، بِشَيْخِ مشايِخِ الإسلامِ
حتى إذا نَفَثَ التَّعَصُّبُ سُمَّهُ مَنَعَتْ أذاهُ وشائِجُ الأَرحامِ

٩٩ المتمسحون ذلاً

إنَّ الأنامَ، وما إخالُكَ جاهلاً، عَبْدٌ يَذِلُّ، وسَيِّدٌ يَتَحكَّمُ
فإذا رأيتَ الظُّلْمَ يُنْشِبُ ظُفْرَهُ فَبِجِلْدِ شَعْبٍ قَلَّما يَتألَّمُ

١٠٠ إباء حتى النهاية

مَنَّ الغَنِيُّ عَلَيَّ، فانتفَضَتْ لَه شَعَراتُ نَاصِيَتي كَريشِ القُنْفُذِ
ورَمَيْتُه بِسهامِ نَقْدٍ إنْ تَقَعْ يوماً على صُمِّ الجَنادِلِ تَنْفُذِ

الجنادل: الصخور

أَنا لا أُطِيقُ المَنَّ مِنْ تِلْكَ التي رَدَّتْ صِبَايَ، فَكَيفَ مِنْ هَذا الذي
لَوْ مَنَّ رَبُّكَ بالحياةِ على الورى لَبَصَقْتُ حَوبائي، وقلتُ له: خُذِ

حوبائي: نفسي

١٠١ الإيمان قيداً

كلُّ امرئٍ يَرجُو، ولكنْ بعضُهُمْ غالَى فَغَلَّ العقلَ بالإيمانِ

غلَّ: قيَّد

إنَّ الرَّجاءَ مِنَ الصَّوابِ، فإنْ يَفُتْ حَدَّ الحَياةِ غَدَا مِنَ الهَذَيانِ

١٠٢ شعراء الغموض

أصحابُنا المتمرِّدونَ خيالُهُمْ   تَقْضي قُرَيْشُ به، وتَحْيَا حِمْيَرُ

تقضي قريش: تموت قريش (فلغة قريش هي لغة القرآن وهي الأفصح، وأما لغة حمير اليمانية فقد أصبحت بعد الإسلام مهملة غير موسومة بالفصاحة)

لُغَةٌ مُشَوَّشَةٌ، ومَعنىً حائرٌ   خَلْفَ المجازِ، ومَنْطِقٌ مُتَعَثِّرُ

وزَعيمُهُمْ في زَعمِهِمْ مُتَفَنِّنٌ   عَجَباً أكانَ الفَنُّ فِيما يُضْمَرُ

لا الأرضُ تفهَمُ ما يُسَطِّرُهُ، ولا   ذاكَ الزَّعيمُ، ولا السَّمَاءُ تُفَسِّرُ

١٠٣ صفحة الوفيات

أسلافُنا كانوا إذا ماتَ امرُؤٌ   يستأجِرونَ لِنَدْبِهِ نِسوانَا

يَنْسُبْنَ للميْتِ العزيزِ فَضيلةً   صِدْقاً، وألفَ فضيلةٍ بُهْتَانا

أمَّا الذين عرفْتُهُمْ في عصرِنا   مِمَّنْ يريدونَ العُلُوَّ مَكانا

يَستأجِرُونَ لِيَمْدَحُوا أمواتَهُمْ   صُحُفاً أحَطَّ مِنَ النَّوادِبِ شَانا

النوادب: النائحات

١٠٤ مناعة ضد المديح

قَالوا مُدِحْتَ، ألا تُجَنُّ مَسَرَّةً   فَضحكْتُ ممَّنْ قالَ بِاستهزاءِ

أنَا ليسَ يَرْفعُني المديحُ إذا هَمَى   والشَّتْمُ ليس يَحُطُّ مِنْ عَليائي

همى: هطل كالمطر

أنَا في الفِعالِ وفي المَقالِ وفي الحِجَا   والروحِ مختَلِفٌ عَنِ الشُّعَراءِ

اِمدَحْ، فَمَدْحُكَ لا يَشُدُّ عِمَامَتي   واشتُمْ، فَشتمُكَ لا يَحُلُّ حِذائي

١٠٥ ما ذنبي إن كان هذا رأيي

ربَّاهُ مَا ذَنبي! وأنتَ مَنحتَني   عَقلاً يُمَيِّزُ لِلكلامِ مَعَانيِ

ويَوَدُّ لو هَتَكَ الستائرَ كُلَّها   لِيَرى الذي في الغيبِ رَأْيَ عِيَانِ

كم فاتِحٍ ذَبَحَ الرجالَ وما عَفَا   لولا دَعارَتُهُ عَنِ النِّسْوانِ

مُتَسَلِّحاً بِكتَابِه، وكتابُهُ   يُعْزَى إليكَ، فَمَنْ تُراهُ الجَاني

١٠٦ القبلة المتوهجة

يَهنِيكِ نَوْمُكِ يا سُعادُ، كأنَّهُ نومُ الرَّضِيعِ على ذراعِ المُرْضِعِ

سعاد ابنة الشاعر. وللمهجري زكي قنصل قصيدة في ابنة له توفيت، واسمها أيضاً سعاد

يَهنِيكِ يا وَلَدِي السُّكُونُ مُحَرِّكاً بَجَلالِ هيبتِهِ سَواكِنَ أدمُعِي

كَمْ قُبْلَةٍ تَهفُو إلى شَفَتَيَّ مِنْ قَلبِي الحزينِ الوَالِهِ المُتَفَجِّعِ

حتَّى إذا وَجَدَتْ سريرَكِ خالياً رَجَعَتْ فصارتْ جمرةً في أَضْلُعِي

١٠٧ هدية تأبى أن تسيل

يا دمعةً نَشِفَتْ، ولاذِعُ حَرِّها يَمْتَدُّ مِنْ قَلْبِي إلى أَجْفَاني

إنِّي لَدَى قبرِ الحبيبةِ واقفٌ في عيدِ مَوْلِدِها، فَما أَشقاني

لم آتِها بهديَّةٍ، إلاكِ يَا رَمْزَ الحنانِ وصورَةَ الوِجْدانِ

الهدية الوحيدة: الدمعة

فِيضي فإنَّكِ كُلُّ مَا في طاقَتِي وأعزُّ ما في مُهْجَتِي وجَنَانِي

١٠٨ الشاعر واللقمة

قَالوا: أتُشرِكُ بالقَريضِ تِجارَةً سَلَكَتْ مِنَ التَّمويهِ كلَّ طَرِيقِ

والشاعرُ المطبوعُ، كيف تقلَّبَتْ دُنياه، مَطبوعٌ على التَّحْلِيقِ

فأجبتُهُمْ: ليستْ مواعِظُكُمْ سِوى هَذَرٍ، وعِفَّتُكُمْ سوى تَلفِيقِ

أَأَعيشُ مِنْ مَرْحَى التي هِيَ نَقْدُكُمْ؟ ويَعيشُ أولادِي على التَّصْفيقِ؟

١٠٩ الإنسان والحذاء

نَعِيبُ على الإسكافِ أنْ لم يجِدْ لَنا حِذاءً جَميلاً غيرَ وَاهٍ، ولا قَاسِ

ونَحْمَدُ رَبّاً يَخْلُقُ المَرْءَ قَاسِياً سَخِيفاً حَوَى العَيبَيْنِ في القَلْبِ والرَّاسِ

حَيَاءً مِنَ الإسْكَافِ يا رَبِّ، ولْيَكُنْ صَنِيعُكَ خِلْواً مِنْ عُيُوبٍ وأَدْنَاسِ

إذا كانَ صُنْعُ الخُفِّ يُوجِبُ دِقَّةً فكيف بِصُنْعِ الناسِ، يا خالقَ النَّاسِ!

١١٠ صغار النفوس

نصحتُكَ لا تَأْمَنْ صغيراً، ولا تَخَفْ كبيراً، فما في الحَجْمِ هَمُّ المُفَكِّرِ

أشَـدُّ الـعِـدَى فَـتْـكـاً بِـأَبْـنـاءِ آدَمٍ   جَراثيمُ يُعيِي فَحْصُها كلَّ مِجْهَرِ

١١١ الاختيار

حَقَرْتُ الغِنَى سَعْياً إلى الشِّعْرِ فانجَلَى   لِعَيْنِيَ جَامُ العُمْرِ بِالحُبِّ مُتْرَعَا

الجام هو الجاط هو الوعاء

ولما حَقَرْتُ الشِّعْرَ سَعْياً إلى الغِنَى   أَضَعْتُ الغِنَى والشِّعْرَ والحبَّ أَجْمَعَا

١١٢ فضل فرنسا

يَـلـومُـونَـنـا جَـهـلاً بِـحُـبِّ فَـرَنْـسَـةٍ   ونحنُ، وحقِّ الحبِّ، بالعُذْرِ أخلَقُ

يسخر.. نحن معذورون في حبنا فرنسا

فـإنَّ لَـهـا فَـضْـلاً عَـلـيْـنـا ومِـنَّـةً   وبـيـضَ أَيَـادٍ لا تـكـادُ تُـصَـدَّقُ

أمِنَّا لُصُوصَ الغربِ والشَّرقِ بَعدَها   فـمـا تـركَـتْ شَـيئاً بِلُبْـنـانَ يُـسـرَقُ

١١٣ الشاعر والقارئ

عجِبْتُ لِمَنْ يَطوِي ليالِيه ساهِراً   يُفتِّشُ عنْ مَعنىً غَريبٍ فَيَلقَاهُ

فَيَنْظِمُهُ شِعْراً، ولا فرقَ عندَه   إذا مَا اهتَدَى قُرَّاؤُه فيهِ أو تَاهُوا

ألا إنَّ خَيْرَ الشِّعْرِ ما سَاغَ لفظُه   وما كانَ مِمَّا يسبِقُ اللفْظَ مَعنَاهُ

إذا جَاءَنِي المعنَى الغَريبُ فَمَرْحَباً   وإنْ لـم يَـجِـئْ لا ردَّ غـربَـتَه الـلَّـهُ

١١٤ في هجاء البشر

هَـذِي الـحـيـاةُ، وأنـتَ تـعـرفُـهـا،   غَـرَّارَةٌ فـي الـسِّـرِّ والـجَـهْـرِ

غرارة: خداعة

والـنـاسُ أَقْـذَارٌ تُـجَـمِّـعُـهـا الـ   ـأَقْـدَارُ تَـحْـتَ أَظـافِـرِ الـدَّهْـرِ

١١٥ دورة الفتك

إنَّ الـخَـلائِـقَ أنـهُـرٌ   تَـجـرِي إلـى الـبـحـرِ الـوسـيـعْ

يَـصِـلُ الـبَـطـيءُ إلـيـه كُـرْ   هـاً مِـثْـلَـمـا يَـصِـلُ الـسَّـرِيـعْ

فَـالـشَّـاةُ تَـفْـتِـكُ بِـالـكَـلا   والـذِّئْـبُ يَـفْـتِـكُ بِـالـقَـطِـيـعْ

الكلا: الكلأ، أي العشب

والـصَّـقْـرُ يَـفْـتِـكُ بـالـقَـطَـا   والـمـوتُ يَـفْـتِـكُ بِـالـجـمـيـعْ

١١٦ أتباع الطقوس

هــذي كــنــائِــسُــكُــمْ تَــكــا   دُ تُـضَـيِّـقُ الـكـونَ الـفَـسـيـحْ
غَــصَّــتْ بِــأَتــبــاعِ الـطُّـقـو   سِ، فـأيـنَ أتـبـاعُ الـمَـسـيـحْ؟

إلياس فرحات
فهرس القوافي

مصطفى وهبي التل
(عرار)
(١٨٩٩ ـ ١٩٤٩)

هذا شاعر لم يسهر لقصيدة. فجاء شعره مفككاً، فإن رأيت له طويلة فهي مرقَّعةُ الدراويش. وجاءت قوافيه قلقة، فإن رأيت له قافية صادحة فهذا توفيق.

ولأنه كان متمرداً جاءت بعض أبياته حارة، ولا يندر أن تجتمع له نتف من هنا ومن هناك قالها في شهر أو شهرين، وألصق بعضها ببعض فيكون من ذلك قصيدة حلوة. ولا يندر أن يقول قصيدة حلوة متماسكة. . لا، بل يندر.

وانظر ما يفعل التنخيل في شعر شاعر مهمِل متصعلك كعرار. أنعم النظر في الصفحات التي تلي وانظر إلى هذا الشاعر كيف تعملق.

أتراني معجباً بما صنعت بعرار ولعرار؟ إي وربي.

يا لفرَحي بما أنفقت من ليالٍ طوالٍ وأنا أعتني بالشعراء وأهذب لهم دواوينهم.

كنت أعلّم طلبة الصحافة، في قسم الإذاعة. ذات يوم قلت لنفسي: أُعطيهم واجباً خفيفاً يناسبهم، فهم طلبة لم يتح لهم أن يعملوا في الميدان. طلبت منهم أن يصنعوا عرضاً للصحف. ليس لأخبارها، فأخبار الصحف عتيقة، وأجدُّ منها أخبار الإذاعة، وأجدُّ منهما أخبار الإنترنت. إذن فليعرضوا المقالات التي نشرتها صحف اليوم. هيَّا.

ما أكبر ما كانت دهشتي وأنا أراهم يقعون، في المقالة بعد المقالة، على العبارات المكرورة التي لا جدة فيها ولا فكرة ولا تحليل و. . لا شيء.

تعلَّمت أنَّ استخلاص زبدة المقالة أمر لا يقوم به إلا من هو ناضج في المهنة والتجربة والحياة.

ولا أزعم أن اختيار الأشعار صعب الصعوبة نفسها، ولا أنه يقتضي الخبرة فحسب. فرب عاميٍّ يطرب لبيت لا يطرب له حتى الشاعر الذي قاله، وللعامي أن يطرب. ورب فقيه يختار أبياتاً يعدها من خير واردات وادي عبقر، ويأتي ناقد فيراها سمجة غثة. ورب شعرور يصادف أبياتاً فيها كلمات من قبيل «البنفسج، والسنونو، وتلألؤات الغسق في نسغ الليمون» فيصيح - صيح عليه - صيحات استحسان.

غير أنه مما ثبت في أذهان أهل التراث الشعري العربي منذ حماسة أبي تمام أن اختيار الشعر يدل على ذوق صاحب الاختيار، وأن الاختيار أمر جليل.

أما أن الاختيار يدل على ذوق صاحبه فلا أشك في ذلك. وأما أنه أمر جليل، فذلك محتاج إلى بعض نظر.

لكل امرئ أن يختار من الشعر ما يعجبه. وأنا واحد من الآلاف الذين يقرأُون الشعر، ويعجبهم منه ما يريدون أن يعجبهم. وما يميزني ليس أكثر من أنني أنفق الوقت في الانتقاء والطباعة وتصحيح أغلاط الطباعة في نسختي وفي الديوان نفسه، ثم التشكيل ثم الشرح ثم الفهرسة. ما يميز مجموعتي هذه ليس أكثر من الجهد المبذول.

وأريد أن أتعرض لكلمة قالها القدماء عن حماسة أبي تمام وكررها المؤلفون مئات المرات في كتبهم: «أبو تمام في الحماسة أشعر منه في شعره». وأبدأ بالقول إنني لست موافقاً على هذا الحكم. فلو أعطيت قصيدة الطغرائي لأي متأدب وطلبت منه أن يختار عيونها، فلست أشك في أنه سيلتقط بسرعة البيت: (أعلل النفس بالآمال، أرقبها/ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل). ولست أشك في أنه سيلتقط بضعة أبيات قبل هذا البيت وبضعة أبيات بعده. وقد أجريت تجربة: نظرت في بعض مواقع الإنترنت ورأيت كيف اختار بعضهم من هذه القصيدة. وقلت في نفسي: ولو اخترت أنا من هذه القصيدة بضعة أبيات، أو لو تأخر زمن أبي تمام وقيض له أن يختار منها، فلعله ولعلني لن نصنع أفضل مما صنع غيرنا.

ما الذي أدهش التبريزي حتى يقول عبارته البليدة: «أبو تمام في اختياره أشعر منه في شعره»؟ ومن هو التبريزي في ميزان النقد. ولماذا نكرر مثل هذه العبارة؟ بلادة!

لا، لم أعد شديد الفرح، أو الافتخار، بما صنعته لعرار وبعرار. قد صنعت ما يمكن أن يصنعه أي أحد. فشعر عرار سهل في لغته وفي معانيه. ولا يقتضي إلا أقل الجهد في الضبط والتشكيل، والشرح.

ومثلما فعلت مع عرار، مصطفى وهبي التل، شاعر الأردن الأشهر، فعلت مع غيره. وبقي عليَّ أن أعض بنان الندم على عشرين أو ثلاثين مرة تحدثت فيها عن اختياراتي حديث المعجب بما صنع.

عرار

ولد «مصطفى وهبي» بن صالح التل لأسرة معروفة في مدينة إربد بشمال الأردن. أبوه متعلم، وفتح مدرسة. واستقى الشاعر علومه في مكتب عنبر بدمشق في أواخر سني الدولة العثمانية، وكانت بعض الدروس بالتركية، وكان متمرداً غريب الطباع، ونُقل إلى مدرسة ببيروت ثم عاد إلى مكتب عنبر، واجتاز فحص الحقوق في الأردن. وعمل في التعليم في إربد بشمال الأردن، والكرك في جنوبه. وعندما كان في الخامسة والعشرين بدأ الحكم العربي في الأردن بمقدم الأمير عبد الله بن الحسين. وتولى الشاعر مهام إدارية عليا في عدة مناطق.

وخير من عرف نفسية عرار وشاعريته أمير البلد. كان عبد الله بن الحسين شاعراً، ومتذوقاً للشعر، وذا روح سمحة. وكان كثير الإنعام على الشاعر «النهَّاب الوهَّاب» بحسب قول الأمير. وسيعيش عرار ربع قرن في ظل الأمير عبد الله، (ثم ثلاث سنين وعبد الله ملك على شرق الأردن بعد الاستقلال الاسمي عام ١٩٤٦). ولا فرق بين عهد الإمارة والمملكة إلا في الاسم، فالإنجليز هم أصحاب الأمر وقائد الجيش منهم.

كان الأمير ينعم على الشاعر بالهبات ويرسل به إلى السجن أو المنفى.. مرة هكذا ومرة هكذا. فالشاعر طويل اللسان، منحرف في سلوكه، متمرد، سكير.

كان عرار يعرف قواعد الفارسية ويحتفظ بمعجم، وبهذا ترجم عدداً من رباعيات الخيام. لكنه كان يعرف التركية معرفة معقولة مكنته من الاستعانة

باللوائح القانونية. وكان يعرف العربية مما قرأ من كتب قليلة وما حفظ من شعر، لكنه قرزم طويلاً وهو يسدد ويقارب في اللغة والعروض، واشتد عوده فيهما متأخراً، لكنه مات ولما يأخذ نفسه بإتقان أداته الإتقان الذي يوجبه عليه اتباع الإرث الشعري الفصيح. لئن خسر من هذا الإهمال أشياء فقد أفاد أخرى. لم يكن واسع الحفظ، فنجا من التقليد، ولم يكن يعير مسائل اللغة كبير اهتمام فقال شعراً على السجية، فما خلص من شعره من العلل فهو من الشعر الأصيل العالي.

قضى حياته بين النُّدمان، وهم بالعشرات: بعضهم من موظفي الدولة، وكان يلتقي بهم في كوخ أعده أحدهم للشراب، فهذا «كوخ الندامى»؛ وبعضهم من أصدقائه الغجر الذين كان يرتاد مضاربهم في وادي الشتا، ووادي السير، وهما قرب عمَّان، ووادي اليابس في الشمال قرب عجلون.

وقع أشعاره باسم عرار، لعل ذلك من البيت المنسوب للمجنون: (تمتع من شميم عرار نجد/ فما بعد العشية من عرار)، أو من بيت عمرو بن شأس: (أرادت عراراً بالهوان، ومن يرد/ لعمري عراراً بالهوان فقد ظلم). وكان شاعرنا يعرف البيتين كما أخبرنا صاحبه ومترجمه يعقوب العودات في كتابه عن الشاعر.

وقد جمع عرار شعره في ديوان نوى أن يسميه «عشيات وادي اليابس»، ونُشر الديوان بعد موته بأربع سنين. لكن أكثر من نسخة صدرت بعد ذلك واحتوت على أبيات كثيرة لم ترد في النسخة الأولى. وأخذنا من نشرة زياد الزعبي. على أننا كنا قرأنا الطبعة الأولى في زمن غابر، ونسخنا منها أبياتاً، وانعقدت بيننا وبين هذه الأبيات صداقة عُمْر. فإذا ما رأيتني شديد الحماسة لبعض الأبيات التي تجدها أنت ضعيفة فاعلم أن المشكلة فيّ، فما أصعب أن يفتَكَّ المرء من سحر أبيات عرفها في مقتبل العمر.

١ شامة الدنيا

بالنفسِ يا شيخُ مِن تَقواكَ أشياءُ ضاقتْ بها مِنْ فَسيحِ الصدرِ أَرجاءُ

يخاطب الشيخ عبود النجار، وقد جاء إلى الأردن من الحجاز مع الملك عبد الله ابن شريف مكة الحسين

يا شيخُ ما العِلْمُ؟ حسبُ المرءِ مَعْرِفَةً أنَّ الشِّفاهَ بِوادي السِّيرِ لَمْياءُ

وادي السِّير، على وزن الريم: مكان كان خويرج عمَّان وصار دويخلها، وكانت تسكنه جماعة من النوَر، الغجر، وشفاه فتياتهم لمياء، أي مسمرة

أَكُلَّ يومينِ تَرمِيني بِموْعِظَةٍ   فَضفاضَةٍ نَسجُها: فِقهٌ وإِفْتَاءُ

موعظتك منسوجة طولاً بالفقه وعرضاً بالفتوى

دمشقُ! يا جنَّةَ الدنيا وشامَتَها   إنْ لم يكنْ فيكِ عن لَمْيَاءَ أنباءُ..

ويا دمشق! يا جنة الدنيا وشامتها، أي خال الحسن الأسود في وجنة الدنيا، إن لم يكن فيك أخبار عن المحبوبة التي اسمها «المياء». . أليس كان أحلى لو قال: يا شام يا جنة الدنيا وشامتها؟ ربما لم تخطر بباله، وربما رأى فيها تقعراً

فالقلبُ أشهى إليهِ منكِ بَلْقَعَةٌ   مِنْ سهلِ إِرْبِدَ لا عُشْبٌ ولا ماءُ

فأفضل منك بلقعة، أرض جرداء، في سهل إربد، بشمال الأردن، خلت من العشب والماء

٢ أهكذا!

قالها، ١٩٣١، وهو في «مادبا» منفيّاً:

أَهكذا! حتى ولا مَرحَبا   للَّهِ أشكُو قلبَكِ القُلَّبا

القُلَّب: المتقلب

أَهكذا! حتى ولا نظرةً   ألمَحُ فيها وَمْضَ شوقٍ خَبا

خبا: خمد

أَهكذا! حتى ولا لَفْتَةً   أَنْسِمُ منها عَرفَكِ الطَّيِّبا

عَرف: رائحة طيبة

نَاشَدْتُكِ اللَّهَ، وأيَّامَنا   ونَشوةَ الحُبِّ بِوادِي الصِّبا

حلَّفتك بالله وبأيامنا الماضيات وبنشوة الحب في زمن الصبا والشباب

وغُصَّةَ الذِّكْرى وآلامَها   وحُرْمَةَ الماضِي وما غَيَّبا

وحلفتك بما تتركه الذكرى من مرارة في الحلق، وبحرمة الماضي وما غاب فيه من أمور كانت بيننا

لا تَسألِيني أيَّ سِرٍّ لقد   أَحالَ عُمْرِي خاطِراً مُرعِبا

عمَّانُ ضاقَتْ بي، وقد جِئْتُكُمْ   أَنتَجِعُ الآمالَ في مَادَبا

ضاقت بي عمان وجئت أنتجع الآمال، أسعى وراء الأمل المنشود، في مادبا، القرية الأردنية

كَمْ رَصَّعَتْ أُفْقِي نُجومُ المُنى   ثم تَهاوَتْ كوكباً كوكبا

ما أحيلى هذه القصيدة! بعض حلاوة شعر عرار أنه قلما قلد الأقدمين

٣ وطأة الأربعين

أَهَوىً؟ ولاتَ اليومَ حينَ تَصابِ   وجَوَىً؟ وقد غَمَزَ المَشيبُ شَبابي

أيزورني الغرام؟ ولات حين تصابٍ، أي فات وقت اللهو. أيعتريني الجوى، ألم الفراق؟ وقد غمز المشيب شبابي، لكزه وقَرصَهُ قرصة تأنيب

والأربَعونَ بِقَضِّها وقَضيضِها   جَثَمتْ مُزَمْجِرَةً قُبالَةَ بابي

سن الأربعين بقضها وقضيضها، بكل ما فيها، أقعَت تزمجر قبالة باب بيتي تهددني بانتهاء زمن اللهو

٤ مساورة الدهر

«أَشَرِبْتَ؟» إي واللَّهِ إنِّـ   ـي قد شَرِبْتُ، وسوف أَشْرَبْ

أشربت؟ سؤال استنكاري كثيراً ما سمعه الشاعر وهو يأتي مجلس القوم متطوحاً سكران

الدهرُ يلعبُ بي وسو   ف بهِ، بِفضلِ الكأسِ، أَلْعَبْ

٥ أخو حانات

إنِّي أخو طَرَبٍ أعيشُ لِأَنْتَشي   عَلَّ الزمانَ يَدوخُ مِنْ نَشَواتي

سَكرانُ؟ قد صَدَقُوا وربِّ محمدٍ   إنِّي أخو طَرَبٍ فَتى حَاناتِ

٦ الوطن؟ البقاء في حياتكم!

هاتِها واشْرَبْ فإنَّ العيدَ فِصْحُ   وقبيحٌ بِالفَتى في العيدِ يَصْحُو

إنَّ هذا العمرَ ليلٌ ما له   يا أخي في غيرِ أُفْقِ الكأسِ صُبْحُ

سَكِرَ الدهرُ فقُلْ لي كيف أصحُو   والنَّدَى يَبْخَلُ والجُودُ يَشِحُّ

الزمن سكران فالندى، أي السخاء، يقل، والجود يصبح نادراً

وأنا يا سيِّدي المُفتي كما   قلتَ عنِّي: حيثُ يَنحُو الحبُّ أَنْحُو

ينحو: يتجه

وأَمانِيَّ شَبابٌ فاتَها   مثْلَما فاتَ بَني الأُرْدُنِّ نُجْحُ

أمنياتي فتيَّة، وقد فاتها النجح ولم تحقق المراد، مثلما فات أهل الأردن تحقيق أمنياتهم

أيها الباكي على أوطانِهِ   لا يَرُدُّ الرُّوحَ لِلمَيِّتِ نَوْحُ

٧ اليهود والغنيمة

نشرت سنة ١٩٣٣:

عـبُّـودُ شـيـخٌ اسـمُـهُ عَـبُّـودُ
وفِـقْـهُـهُ مُـخـتـصـرٌ مُـفـيـدُ
مـوضـوعُـه: فـي الـجـنَّـةِ الـخُـلـودُ
حِـصَّـةُ مَـنْ فـي جـيـبِـهِ نُـقـودُ
فـي مَـوطِـنٍ سـكـانُـه عَـبـيـدُ
هـيـهـاتَ مـنِّـي كـلُّ مـا أريـدُ
إن فـازَ بِـالـغـنـيـمَـةِ الـيـهـودُ
فـحَـوْضُـهُـمْ لا حَـوضُـكَ الـمَـوْرُودُ
فَـلْـيَـهْـنِـكَ الـقـيـامُ والـقُـعُـودُ

فليهنك: هنيئاً لك

ويَـهْـنِـكَ الـركـوعُ والـسـجـودُ

٨ رثاء الهبر

أشيع، سنة ١٩٣٤، أن «الهبر» شيخ النور مات:

مُتْ كما شِئْتَ فالنَّدامَى بِلَهْوٍ ليس مِنْ شأنِهِمْ عليكَ الحِدَادُ
أَيُّهذا الترابُ بُورِكْتَ مِنْ قا ضٍ لِأحكامِهِ اسْتراحَ العِبادُ

٩ بعناه فباعنا

عبودُ قالَ، فما لنا ومقالِهِ: السُّكْرُ في نظرِ الشريعةِ مُنْكَرُ

عبود: هو عبود النجار، الشيخ المفتي

والخمرُ رِجْسٌ، والكؤوسُ بِرأْسِ مَنْ شَرِبوا بِها يومَ الحسابِ تُكَسَّرُ
إنَّ الإلَهَ الحقَّ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ أنْ يقولَ بِقولِ شيخِكَ أَكبرُ
فَهَلُمَّ نَشْرَبُها فَلَوْنُ حَبابِها ذَهَبٌ كَشَعْرِ الشَّرْكَسِيَّةِ أشقَرُ

هيا نشرب الخمر فلون حبابها، فقاقيعها ذهبي كشعر الشركسية، الفتاة من الشركس، وهم بعض أهل الأردن، وفيهم بياض بشرة وشُقرة شعر

أَوَلَمْ تَرَ العُرَفَاءَ كيف تَهَوَّدُوا   أَوَلَمْ تَرَ المُتَعَلِّمِينَ تَنَصَّرُوا

العرفاء: العارفون المثقفون

والبائِعِينَ بِلادَهُمْ بِقُلامَةٍ   قد أَقدَمُوا، والمُخْلِصِينَ تَقَهْقَروا؟

ألا ترى الذين باعوا بلادهم بقلامة ظفر يتصدرون المجالس، والمخلصين لقضايا الوطن يتراجعون؟

فَالحُرُّ فِينا لِلعُلُوجِ مَطِيَّةٌ   والعَفُّ منا لِليهودِ يُسَمْسِرُ

أحرار الوطن يأتمرون بأمر العلوج، الإنجليز الذين كانوا يديرون للملك عبد الله إمارة شرق الأردن جيشاً واقتصاداً، والعف منا، أي العفيف، يسمسر لليهود ويتوسط للتسهيل لهم، ولم تكن لهم آنذاك دولة بفلسطين، وكان للأمير عبد الله لقاءات كثيرة مع زعمائهم

بِعْنا العُروبَةَ بِالوظيفةِ، وانبَرى   لِيَبِيعَ غَورَ أَبي عُبَيْدَةَ أَزْعَرُ

تصدى لمنح امتيازات في غور «أبي عبيدة»، حيث قبر الصحابي أبي عبيدة عامر بن الجراح، قرب مدينة السلط، أزعر.. والأزعر في كلام أهل الأردن هو القصير، ولم يكن في البلاد أقصر من الأمير عبد الله بن الحسين

لا تَعْجَبَنَّ لِفعلِنا، فنفوسُنا   رغمَ الظواهرِ بِالدَّناءَةِ تَزْخَرُ

يا هَبْرُ يا طَبَّالُ، يا مَنْ قَومُهُ   مِنْ كلِّ سَفْسَطَةٍ تَغُلُّ تَحَرَّرُوا..

يا هبر، والهبر زعيم النَّوَر، يا من قومه قد تحرروا من كل حذلقة تغل المرء وتقيده..

إنَّا على ما قَدَّرُوهُ لِشَأْنِنا   مِنْ قيمَةٍ مِنْ شِسْعِ نعلِكَ أَحْقَرُ

اعتبارنا عند الإنجليز أقل قيمة من شسع نعلك، أي من السير الجلدي الذي على وجه النعل

حَاكَ الصَّغارُ لَنا رِداءَ رِئاسَةٍ   يَلْهُو بِقَرْضِ خُيوطِهِ المُسْتَعْمِرُ

الصغار والذل قد نسج لنا ثوباً من الرئاسة، فزعم بعضنا أنهم يتصدرون للزعامة، ولكن المستعمر يتسلى بقرض خيوط هذا الثوب وإفراغ رئاستنا المزعومة من محتواها

يا هَبْرُ! هاتِ لِيَ الرَّبَابَةَ وانطَلِقْ   بي حيثُ قومُكَ أَسْهَلُوا أم أَصْحَرُوا

هيا لنذهب ومعنا الربابة إلى قومك.. أكانوا في السهل أم في الصحراء. وكان النور ينشدون أغنياتهم على أنغام الربابة، واندمجوا بشكل حسن في المجتمع الأردني الذي منحهم المواطنة والاستقرار

أنا مثلُكُمْ أصبحتُ لا أرضٌ، ولا   أهلٌ، ولا دارٌ، ولا لِيَ مَعْشَرُ

١٠ نفسي خضراء

ظَبَيَاتِ وادي السِّيرِ هل نَفَرَتْ   مِنْ سِرْبِكُنَّ الظَّبْيَةُ السَّمْرا؟

يا فتيات وادي السير، وكان هذا الوادي قرب عمَّان ودخل الآن فيها، هل شَرَدَت الفتاة السمراء من السرب؟

فَهِيَ التي خطَّتْ أنامِلُها   في سِفْرِ حُبِّي آيَةً غَرَّا
وتَلَتْ عليَّ مِنَ الهوى سُوَراً   رَتَّلْتُها مُتَرَنِّماً شِعْرَا
ومَضَيْتُ أَسأَلُ كلَّ فاتنةٍ   كَرَماً وجُوداً نَظْرَةً شَزْرى

أتسول من كل فاتنة نظرة، ولو شزرى، أي غاضبة

رَيَّانَةَ الألْحاظِ مِنْ حَوَرٍ   زِيدي رِسالَةَ حبِّنا سَطْرا

يا من تلمع ألحاظها، عيناها، بمائهما وبما فيهما من حور، شدة سواد في شدة بياض واصلي معي درب الغرام

ما زالَ قلبُكِ ما يزالُ بِهِ   رَمَقٌ، ونفْسيَ لم تَزَلْ خَضْرا

ما زال في قلبك رمق، بقية حياة، ونفسي ما زالت خضراء، والنفس الخضراء هي المقبلة على الغرام.. وقالوا أيضاً عن الكهل المتطلع إلى زواج أو غرام إن نفسه «طرية»

سَكْرانَةَ الألْحاظِ مَرْحَمَةً   حِنِّي عليَّ بِنظْرةٍ سَكْرَى
وإذا مَدَدْتُ إلى يديْكِ يَدي   فَتَلَمَّسي لِتَسَوُّلي عُذْرا
فحياةُ أمثالي إذا صَفِرَتْ   مِنْ عَطْفِ مِثلِكِ أصبحتْ صِفْرا

صفرت: خلت

هلا اتَّقَيْتِ اللَّهَ في كَبِدٍ   حَرَّى، وعيشٍ لم يَزَلْ مُرَّا
وَثَّابَةَ النَّهْدَيْنِ حَاجَتُنا   لِزَكاةِ حُسْنِكِ لم تَعُدْ سِرَّا

يطالبها أن تدفع له زكاة عن جمالها.. قبلة مثلاً

شِبْنَا وحُبُّكِ ما يَزالُ فَتىً   غَضَّ الإهابِ يُغازِلُ الدَّهْرا

غض الإهاب: طري الجلد

١١ الحال الماشية

أصبحْتُ أشربُ كُنْياكاً ويَشْرَبُني   ولَسْتُ أَدري لَعَمْري أَيُّنا سَكِرا

الكنياك شراب يجلب الدفء للجسم والصداع للرأس

وَيسألونَكَ عن حالِي أَمَاشِيَةٌ؟ فقل لَهُمْ: إِنَّها تَمْشي بِهِ لِوَرا

١٢ بين الخرابيش

ليتَ الوقوفَ بِوادِي السِّيرِ إِجباري وليتَ جارَكَ يا وَادِيَ الشِّتا جاري

كان قوم من النَّوَر، غجر بلاد الشام، يسكنون وادي السير ووادي الشتا، وكانوا أهل طرب وغناء، وكان الشاعر لاطِياً بمضاربهم لا يكاد يفارقها

ظَنَنْتُني جُزْتُ عن طَرْدِ الهَوى، فإِذا حِسابُهُ لم يَزَلْ في دَفْتَرِي جَارِ

طرد الهوى: صيد الحسان. والحساب الجاري في دفتر البقال حساب مفتوح يشتري صاحبه الأشياء ويدفع لاحقاً

وما تَوَهَّمْتُهُ زُهْداً ورُحْتُ بِه أُعلِّلُ النفسَ غيرُ الواقِعِ الجَاري

زهدي الوهمي الذي خدعت به نفسي مختلف عن حقيقة مشاعري

يا هَبْرُ، هاتِ، فإن اللَّهَ بارِئَنا وخَالِقَ الكَرْمِ، رَبٌّ جِدُّ غَفَّارِ

هات شرابك يا هبر، يا زعيم النور، فالله، الذي خلق كروم العنب التي تؤول إلى خمر، غفور

وصَاحِبٍ مِنْ بَني النَّجَّارِ عِمَّتُهُ كأنَّما هِيَ بَارَاشُوتُ طَيَّارِ

رب صاحب من بني النجار، وهو المفتي عبود النجار، له عمامة كبيرة كأنها مظلة

يَرى مَواعِظَهُ وَقْفاً على أُذُنِي وأنَّ رأسَ التُّقَى زَجْرِي وإِنذَارِي
كَأنَّ عَمَّانَ لم تَعْرِفْ أخا طَرَبٍ غيرِي يَحُجُّ إلى حَاناتِ خَمَّارِ
الناسُ قَالوا، وهَبْهُمْ يا أخِي غَرِقُوا فيما يُخُوضُونَ مِنْ شَتْمٍ وإِهْجَارِ

إهجار: هُجْر القول وفُحشه

فمَا لِأَهْوائِهِمْ شأنٌ يَزيدُ على شَأْنِ الأَثَافِيِّ بينَ القِدْرِ والنَّارِ

أهواء الناس وآراءهم لا قيمة لها سوى قيمة الأثافي، أي حجارة الموقد، وليس لحجارة الموقد من قيمة سوى الإسناد، فالقيمة الحقيقية هي للنار وللقدر

بينَ الخرابيشِ لا عَبْدٌ ولا أَمَةٌ ولا أَرِقَّاءُ في أزياءِ أَحْرارِ

الخرابيش: بيوت النور

ولا جُنَاةٌ ولا أَرْضٌ يُضَرِّجُها دَمٌ زَكِيٌّ، ولا أَخّاذَ بالثَّارِ

العلاقات بين النور سهلة، فلا قتل ولا جنايات لاكتشاف علاقة بين شاب وفتاة

ولا نُضَارٌ ولا دَخْلٌ ضَرِيبَتُهُ تُجْبَى، ولا بَيْدَرٌ يُمْنَى بِعَشَّارِ

وليس عندهم نضار، أي ذهب، ولا ضريبة دخل، وليست لهم زراعة وبيدر حصاد يمنى، أي يبتلى، بعشار يفرض ضريبةً مقدارها عُشْر المحصول

الكُلُّ زُطٌّ، مُسَاوَاةٌ مُحَقَّقَةٌ تَنفي الفَوارِقَ بينَ الجارِ والجارِ

الزط: قوم عاشوا على الهامش الاقتصادي لمجتمعات عربية وغير عربية منذ القدم

بين الخَرابيشِ لا كِذْبٌ ولا مَلَقٌ ولا وُشَاةٌ ولا رُوَّادُ أَخبارِ

ملق: تملق، رواد أخبار: ناس يتسقطون الأخبار ويتسلون أو يتاجرون بها

ولا جَواسِيسَ أَنّى سِرْتُ لاحَقَني أَوْغَادُهُمْ خِلْسَةً يَقْفُونَ آثاري

بينَ الخَرابيشِ لا حِبْرٌ ولا وَرَقٌ ولا يَراعٌ ولا تَدْوينُ أَسفارِ

يراع: قلم

يا بِنْتُ! وادي الشِّتَا هَشَّتْ خَمائِلُهُ لِعَارِضٍ هَلَّ مِنْ وَسْمِيِّ مِبْدَارِ

يا بنت، لقد انحنت خمائل وادي الشتا، نباتاته، لعارض هل، لسحاب ظهر، من وسمي مبدار، من مطر ربيعي باكر

دَعي المدينَةَ لا يَخْدَعْكِ باطِلُها فَزَيْفُها بيِّنٌ مِنْ غيرِ مِنظارِ

خَدَّاكِ يا بنتُ مِنْ دَحْنُونِ دِيرَتِنا سُبحانَهُ بَارِئِ الأُرْدُنِّ مِنْ بَاري

الدحنون: زهر أحمر، وسماه بعضهم الصاقِصلي، وبعضهم الحَنُّون

١٣ صحبة الكاس

للشيخِ عَبُّودَ ـ لا رَثَّتْ عِمَامَتُهُ ـ وَعْظٌ أَضيقُ به ذَرعاً وجُلَّاسي

«لا رثت عمامته» أي لا اهترأت، دعاء طريف لشيخ

يا شيخُ دَعْني مِن التَّقوى وآلتِها إِنِّي استَعَضْتُ عن الأَذْكارِ بِالكاسِ

الأذكار: الابتهالات

١٤ رضعت هواها

أفي كُلِّ يومٍ أنتَ مُضنىً مُرَوَّعُ تَشوقُكَ أَوْطانٌ وتُصْبِيكَ أَرْبُعُ

مضنى: مريض بالحب، مروع: خائف من الفراق، تصبيك أربع: تَشُوقُكَ مواضع وتجعلك تحنُّ إليها

تَعَشَّقْتَها طِفلاً صغيراً كأنَّما رَضِعْتَ هَواها قبلَما كنتَ تَرْضَعُ

١٥ أنا شاعر الأردن

رثاء فؤاد ابن عم الشاعر:

إنَّ المنيَّةَ لا تَطيشُ سهامُها فابْنُ القصورِ يموتَ كابْنِ الشارعِ
قد قَارَعَتْني الحادثاتُ فلم تَنَلْ مِنِّي خَلا إرغامَ أَنفِ مُقارِعي

حاربتني المصائب، ولم تنل مني، لم تضعضعني، اللهم إلا أنها أذلت خصمي عندما رآني صامداً

لكنَّ فَقدَكَ يا فؤادُ، وإن يَكُنْ أَجَلاً دَنا، سيظَلُّ شَرَّ فَواجِعي
حتَّى القبورُ تَجوعُ، تلكَ عَجيبةٌ وَيْحَ القَويِّ مِنَ الضعيفِ الجائِعِ
أفؤادُ جِئْتُكَ للسلامِ فَحَيِّني واجْتَحْ حُدودَ الرَّمْسِ إنْ تَكُ سامِعي

يريده أن يجتاح حدود الرمس، أي القبر

أنا مُصْطَفَى وَهْبِي، أتعرِفُ مَنْ أنا؟ أنا شاعرُ الأردُنِّ غيرَ مُدافَعِ

غير مدافَع: غير منازَع.. لا ينازعه أحد في دعواه

قد جئتُ أستَجْديكَ ردَّ تحيَّتي رُدَّ التحيةَ، عَلَّ ردَّكَ نافِعي

١٦ حب الشركسية

خَليلَيَّ حُبُّ الشَّركَسِيَّةِ شَفَّني ولم يُبْقِ مِنِّي غيرَ حِبٌ على وَرَقْ

غيرها ناشر الديوان وجعلها «غير حبر على ورق» قائلاً إنها «خطأ واضح». ربما كان محقاً. لكن يعقوب العودات في كتابه يجعلها «حب على ورق»، وأحببنا أن نكسر الحاء، فالحِب هو الحبيب، وهي بكسر الحاء أقرب إلى «حبر»، وبذلك تتم النكتة

ولم يُبْقِ مِنِّي غيرَ رَسْمٍ تَرَوْنَهُ وقَلبٍ لِغَيرِ الشَّرْكَسِيَّةِ ما خَفَقْ

رسم: طلل، آثار منازل

١٧ الحياة كؤوس

قَسماً بِوادي السِّيرِ والبلدِ الذي فيه الحسانُ نَصَبْنَ لي أَشْراكا

وادي السير: موضع قرب عمان كانت فيه مضارب للنور، أشراك: مصايد

إن الحياةَ هِيَ الكؤوسُ وربَّما كان الضلالُ بِهِنَّ بعضَ هُداكا

وشَرِبْتُ كُنْياكاً وقلتُ لِصاحِبي: لا عَاشَ مَنْ لا يَشْرَبُ الكُنْيَاكا

الكنياك: من المسكرات الرديئة

١٨ من أنا لولاكِ؟

صَرَعَتْهُ بعدَ تَطاحُنٍ وعِراكِ لُغةُ العيونِ وجَرْعَةُ الكُنياكِ

الكنياك: مسكر رديء

يا ظَبْيَةَ الوادِي، وما الوادِي إذا لم تُؤْنِسِيهِ؟ ومَنْ أنا لَولاكِ؟

١٩ ما تحرك

يا شيخُ اِكْفِ الطِّبَّ شَرَّكْ فالطِّبُّ ليسَ يُقيمُ أَمرَكْ

أصيب الشيخ فؤاد الخطيب بارتخاء! والتمس علاجاً يقيم ما ارتخى منه، وكلمة أمرك في البيت دخلها تصحيف فمن شاء صححه ومن شاء تجاهله. أردنا أن نتأدب ونتجاهل مثل هذا الشعر، ثم رأيناه أُنشد في حضرة أمير البلاد.. فقلنا: لا والله لا نكون أتقى من ابن شريف مكة!

تَاللهِ لو شاءَ المسيـ ـحُ له حَراكاً ما تَحَرَّكْ

ومما نقل أن المسيح أقام المقعدين وشفى المرضى

فَأَرِحْ أطبَّاءَ المديـ ـنةِ، واكفِهِمْ يا شيخُ شَرَّكْ

٢٠ هبَّ الهوا

هبَّ الهَوا وشَجاكَ أن نَسيمَهُ في ضَفَّةِ الأردنِّ ريحَ سَمُومِ

هب الهواء وأحزنك أنه في ضفة نهر الأردن الشرقية كان ريح سموم عاتية رملية

وأنا وأنتَ أَذَلُّ مِنْ وَتَدٍ، ومِنْ عَيْرٍ بِإِسْطَبْلِ الهَوانِ مُقيمِ

يضربون المثل بذلة الوتد الذي يدق على رأسه دقاً في الأرض، والعير الحمار، وهو هنا ماكث في إسطبله مهاناً

والشعبُ أضيعُ عندَهُمْ مِنْ سائلٍ قَذِرٍ يَمُدُّ ذِراعَهُ لِلَئيمِ

سائل: متسول

يا مُدَّعِي عَامِ اللِّواءِ بَلاؤُنا سَيَظَلُّ مهما خَصَّصوهُ عُمُومي

المدعي العام: النائب العام

خَلِّ الجَريمةَ، إنَّ سِرَّ وقوعِها ... لو رُحْتَ تَنْشُدُهُ تَجِدْهُ حُكُومي

تنشده: تطلبه

لا يَستقيمُ الظِّلُّ يا ابْنَ أخي إذا ... ما كان أصلُ العُودِ غيرَ قَويمِ

لا يستقيم الناس ما دام الأصل، أي الحكم، منحرفاً.. فكيف يستقيم الظل والعود غير مستقيم؟

زَيْتونُ بُرمَا رَغْمَ أنفِكَ دَاشِرٌ ... ما زالَ وَهْوَ كذاكَ منذُ قَديمِ

أشجار الزيتون في منطقة بُرما عند عجلون مفرقة في الجبال وداشرة، مشاع لمن يقطفها، وهذا شأنها من قديم. والمثل الأردني يقول: «زيتون برما داشر، وتعيَّشوا يا هَمَل». والمغزى أن الأمور في البلد سائبة كزيتون برما

هَبَّ الهَوا، وأنا وأنتَ يَهُمُّنا ... قبضُ المعاشِ بِيومِهِ المَعلومِ

ما كان في الأردنِّ مِنْ رجلٍ له ... صفةُ الرجولةِ في ثيابِ زَعيمِ

ليس في الأردن زعيم يتصف بالرجولة

وحكومةُ السُّفهاءِ لم نَعرِفْ لها ... وَجهاً بهذا المَوطِنَ المشؤومِ

حكومتنا لها ألف وجه فلا نعرف ماذا تريد

باعوا البلادَ وحَضرتي وجنابَكُمْ ... لكنْ بِلا ثمنٍ، إلى حاييمِ

حاييم اسم عبري، رمز ليهود فلسطين. وكان للحكم في إمارة شرق الأردن علاقات بالمستوطنين اليهود إبان الانتداب البريطاني على البلدين

٢١ زمن صعلوك

لَمَّا وجدتُ مكارمَ الـ ... أخلاقِ في الدنيا كلامْ

ورأيتُ أن المَيْنَ والتَّـ ... دْليسَ أوفى بالمَرامْ

لما رأيت المين، الكذب، والتدليس، إخفاء الحق، أحسن تحقيقاً للغايات

حَرَّرتُ نَفسي مِن قيو ... دِ الفضلِ في عُرْفِ الكِرامْ

وزَجَجْتُها في زُمْرَةِ الـ ... مُتَصَعْلِكينَ مَع الطَّغامْ

أدخلت نفسي في عصبة الصعاليك مع الطغام، الدهماء

وأَهَبْتُ بالساقي أنَ اسْـ ... رِعْ بِالسُّلافَةِ يا غُلامْ

السلافة: الخمر

إنَّ الـقَـداسـةَ لـو تَـقـيِ   يـا شـيـخُ مِـنْ وَقْـعِ الـسِّـهـامْ . .

لو أن القداسة تقي وتحمي من السهام..

مـا اسـتُـهـدِفَ الـبـيـتُ الـحـرا   مُ لِـمَـا تَـرى، وخَـلاكَ ذَامْ

لما استُهدف البيت الحرام بمكة، واستولى عليه الحكم السعودي من شريف مكة الحسين بن علي عام ١٩٢٤، وخلاك ذام.. دعاء.. أي عدَّاك العيب

فَـاقْـصِـرْ حَـديـثَ الـفِـقْـهِ يـا   عَـبُّـودُ لا تَـزِدِ الـمَـلامْ

فيا شيخ عبود، أيها المفتي الذي هجر الحجاز إلى الأردن مع الأمير عبد الله، كف عن التكلم بالفقه ولا تكثر من اللوم

واذهـبْ ودَعْـنـي اسْـتَـضـيِ   ءُ بِـنُـورِ رَاقِـصَـةِ الـظـلامْ
وتَـمـايَـلَـتْ فـأمـالَ عَـقْـ   ـلـي فـي تَـثَـنِّـيـهِ الـقَـوامْ
يـا بـنـتُ يـا مَـنْ أَمْـرُهـا   لَـمَّـا تَـعـاوَجَـتِ اسْـتَـقـامْ

عندما تمايلت الراقصة استقام أمرها وكانت في أحسن حالاتها

لـولا الـرغـيـفُ وفَـقْـرُ أهْـ   ـلِـكِ واحْـتـيـاجُـكِ لـلـطـعـامْ
هـل كـنـتِ تَـرْضَـيْـنَ الـحـيـا   ةَ كَـذا، وفـي هـذا الـمَـقـامْ
يـا لُـقـمـةَ الـخـبـزِ الـتـي   أَشْـقَـتْ بِـحـاجَـتِـهـا الأنـامْ

٢٢ الحور العين

هَبَلَتْكَ أمُّكَ، والحديثُ شجونُ   ظَبَياتُ وادي السِّيرِ حُورٌ عِينُ

ثكلتك أمك.. انظر إلى الغجريات من فتيات «وادي السير» فهن كالحور العين

سَلمَى! بِماحِصَ قد تألَّقَ مَوْهِناً   برقٌ، وبَلَّ ثَرى الفُحَيْصِ هَتُونُ

يا سلمى! يا فتاة ماحص، وهي قرية قرب عمَّان، قد تألَّق ليلاً برق، وبل تراب الفحيص، قرية أخرى، سحاب هتون، ماطر

هل تَذكُرينَ تَدَلُّهي وتَوَلُّهي   بِكِ، والحياةُ كما أُريدُ تَكونُ

أتذكرين هيامي بك أيام كانت الحياة تجري على هواي

وذَوائِبي لم تَشْتَعِلْ شَيْباً، ولم   تَزحَفْ عَلَيَّ، وقد كبِرتُ، غُضُونُ

وخصلات شعري لم تكن قد شابت، ولم تزحف على وجهي التجاعيد

٢٣ التوبة

كتب في منفاه بالعقبة:

أَمَــــوْلانَـــــا، أَمَــــوْلانَـــــا!   هَـجَــرْنَـــا الـدَنَّ والـحَـــانَـــا

يا مولانا الشيخ! قد هجرنا الدن، جرَّة الخمر، والحانة

وبُـدِّلْـنَـــا مِـــنَ الـمَـنْـظُـو   مِ والـمَـنْـثُـورِ قُـرآنَـــا

ولم نعد ننظم شعراً ولا نكتب نثراً، فكل كلامنا صار قرآناً

كَـأَنَّـــا لَـمْ نَـكُـنْ بِـالأَمْـ   ـسِ مِـنْ سُـكَّـانِ عَـمَّـانَـــا

طال مكثنا في المنفى بالعقبة، فكاننا لم نكن نسكن العاصمة عمان

ولَـمْ نَـسْـحَـبْ لِـكُـلِّ هـوىً   بِـوادِي الـسِّـيْـرِ أَرْدَانَـــا

وكأننا لم نسحب أرداننا، أكمامنا، لكل غرام يلوح لنا في «وادي السير» قرب عمان

ولا فِـي جُـرْعَـةِ الـوِسْـكِـيِّ ـ   قَـدْ أَغْـرَقْـتُ أَحْـزَانَـــا

وكأني ما كنت أغرق أحزاني في كأس الوسكي

أَمَــــولانَـــــا، أَمَــــولانَـــــا   بِـأَيْـلَـةَ طَـالَ مَـثْـوانَـــا

طال مثواي، مكوثي، منفياً في أيلة، العقبة

وكَـمْ بِـالـحِـصْـنِ فَـاتِـنَـةٍ   تَـذوبُ أَسَـىً لِـذِكْـرانَـــا

ما أكثر الفاتنات في قرية «الحصن» اللائي يذبن حزناً لذكرى وصالنا

تَـظُـنُّ وقَـدْ أَطَـلَّ الـصَّـيْـ   ـفُ أَنَّ لِـقَـاءَنَـا حَـانَـا

الفاتنة منهن تظن أن اللقاء قد حان مع قدوم الصيف

تُـسَـائِـلُ مَـنْ تُـصَـادِفُـهُ:   رُجُـوعُ عَـرَارَ هَـلْ آنَـا

آنَ: أزف وحلَّ وقته

فَـقُـلْ لِـلـشَّـوْقِ أَهْـلُ الـذَّوْ   قِ مَـا اهْـتَـمُّـوا بِـشَـكْـوَانَـا

وأَبْـلِـغْ شَـيْـخَـنَـا عَـبُّـو   دَ عَـنَّـا بَـعْـضَ مَـا كَـانَـا

لِـنَـسْـتَـفْـتِـيـهِ هَـلْ صَـحَّـتْ   بِـهَـذا الـشَّـكْـلِ تَـقْـوَانَـا؟

فهل صحت تقوانا بهذه التوبة يا شيخ عبود؟

٢٤ توبة عن التوبة

وَهِـمْـتَ فـلـيـسَ مـا سَـمَّـيْـ ـتَـهُ الإيـمـانَ إيـمـانـا

أنت واهم يا عرار فليس إيمانك هذا صحيحاً

وذُو الـشـوقِ الـقَـديـم إذا تَـذَكَّـرَ عـادَ وَلـهَـانـا

فَـدعْ عـنـكَ الـهُـراءَ، وقُـمْ نُـذِعْ لِـلـنـاسِ إعـلانـا

ألا مَـنْ يـشـتـري بِـالـحَـا نِ، والألـحـانِ تَـقـوَانـا

من يبادلنا فيأخذ تقوانا ويمنحنا الحانة والغناء؟

بِـسِـعْـرِ صَـلاةِ أُسـبـوعٍ بِـبـعـضِ الـكـأسِ مَـلآنـا

نصلي أسبوعاً مقابل بعض الكأس

لَـوَ انِّـي أَرْأَسُ الـوُزَرا ءَ أو قَـاضٍ كَـمَـولانـا

لَأَلْـغَـيْـتُ الـعِـقـابَ، ولـم أَدَعْ لِـلـنَّـفْـي إمْـكـانـا

أَمَـا وأنـا مَـنِ اتَّـخَـذُو هُ لِـلإرهَـاقِ مَـيْـدَانـا..

وبما أنني أصبحت مطية لأحكامهم التي ترهقني..

فَـهـاتِ الـكَـأْسَ مُـتْـرَعَـةً مِـنَ الـصَّـهْـبـاءِ أَلْـوَانـا

فهات الكأس مملوءةً من الصهباء، أي الخمر، بأنواعها

وقُـلْ إنْ قـيـلَ لا عَـفْـوٌ لَـعَـلَّ الـعَـفْـوَ لا كَـانـا

ولست بحاجة لعفوهم عني وردي من منفاي

فَـعَـيْـنُ الـعَـزْمِ تَـرمُـقُـنـا وعـيـنُ الـحَـزْمِ تَـرعَـانـا

ولُـطْـفُ الـكـأْسِ إثْـرَ الـكـأْ سِ نَـشْـرَبُـهـا تَـوَلَّانـا

فَـحَـسْـبِـي بِـالـنَّـخِـيـلِ الـبَـا سِـقِ الـفَـيْـنَـانِ جـيـرانـا

وأنا راض بنخيل العقبة الفينان، العالي الظليل

وبِـالـنُّـورِيَّـةِ الـحَـسْـنـا ءِ والـصَّـحـراءِ نُـدْمَـانـا

٢٥ الدارعة

قد أُعْطِيَ الناسُ ما شاءُوا وما رَغِبوا أمَّا الرَّزَايا فكانتْ مِنْ عَطَايانا

الرزايا: المصائب

مَنْ كان يَحْسَبُ أنَّ العُرْبَ يَخدَعُهُمْ   مَنْ كُنتَ تَحْسَبُهُمْ لِلعُرْبِ أَخْدَانا؟

من ذا ظن أن العرب سيخدعهم من كانوا لهم أخداناً، أصدقاء؟ فالإنجليز خدعوا الشريف حسين بعد الحرب العالمية الأولى ولم يمنحوه دولة عربية يحكمها

أَبا طَلالٍ، وأنتَ اليومَ رائِدُنا   نَغدُو إليكَ إذا ما الدهرُ عادانا

يا أبا طلال، الأمير عبد الله أمير شرق الأردن، نأتيك عندما يعادينا الزمن

فَخُذْ بِأيدِيَنا يا ابْنَ النَّبِيِّ وَثِبْ   فإنَّكَ اليومَ بعدَ اللَّهِ مَلجانا

فساعدنا، وأنت من سلالة النبي، واقفز لدفع الظلم

أَطْلالُ يافا وحيْفا أَمسِ بَرْقُهُما   قد رَفَّ وَهْناً فَأشْجانا وأَبكانا

قد رأينا أمس برقاً يلمع من جهة يافا وحيفا بفلسطين فأحزننا

يا ابْنَ النبيِّ أَلم، عَنْ أهلِ أَنْدَلُسٍ،   تَأتيكَ دارِعَةٌ تَروِي حَكايانا؟

ألم تأتك امرأة من الأندلس المغتصبة وهي لا تلبس إلا درعها، ثوبها الداخلي، لتروي ما يحدث؟ وكان يأتي رجال ونساء من الأندلس يروون قصصاً عن فظائع الغزاة أيام سقوط الأندلس. ويقولون عن المرأة التي تخرج من بيتها مكشوفة الفرع، أي الشعر، وبلباس البيت: خرجت فارعة دارعة

٢٦ بالماء والصابون

لا تذْهَبَنَّ إلى مَعَانَ فما بِها   مِنْ واضِحِ النَّشَواتِ غيرُ ظُنونِ

معان: بلدة بجنوب الأردن، النشوة: السُّكر

يا قائِدَ الدَّرَكِ المُلَمَّعِ سيفُه   بِالماءِ والإسفَنْجِ والصَّابونِ

الدرك: شرطة الحدود

حَسْبِي مِنَ الماضِي ومِنْ أحلامِه   ذكرى تَوَامُضُ برقِها يُشْجِيني

توامض: لمعان

واقْصُرْ مَلامَكَ، إنَّني رَجُلٌ لقد   بِالكأسِ بِعْتُ خَوابِياً مِنْ دِيني

الخوابي: جرار الخمر الكبيرة.. وهي الدنان

٢٧ باب العفو

إنَّ الزمانَ، ولا أقولُ زمانِي،   بينَ الطَّوابِعِ والرُّسومِ رَماني

الطوابع: طوابع الواردات التي يلصقونها على المعاملات الرسمية، والرسوم: ضرائب المعاملات. وكان شاعرنا موظفاً

وأَحالَ لَذَّاتي وَساوِسَ حاسِبٍ يَهذي بِضَرْبِ ثَلاثَةٍ بِثَمانِ
فانظُرْ إلى النُّدْمانِ كيف تفرَّقوا بَعدي، وكيف عَلَا الغبارُ دِناني

الدنان: جرار الخمر

وإلى قَريضيَ كيف أَصبحَ تافهاً وإلى بليغِ القولِ كيف عَصاني

قريضي: شعري

يا أختَ سَلمى في غِناكِ عُذُوبَةٌ تُبكي ويُغرِقُ دمعُها أَحْزاني
أَهْلُوكِ قد جَعَلُوا جمالَكِ سِلعَةً تُشرَى، وبَاع بَنُو أبي أَوْطَاني
وذَوُوكِ قد مَنَعُوكِ كلَّ كَرَامةٍ وأنا كذلكَ حَارِسي سَجَّاني
يا بِنْتُ! تحقيقُ العَدالَةِ رُكْنُهُ وَلَعُ القُضاةِ بِراحةِ الوِجْدانِ
وَلَعي بِكأسٍ في ارتِشَافِ رَحيقِهِ سُكْرٌ يُحيلُ النائباتِ أَماني

ولع القضاة براحة الوجدان كوَلَعي بالكأس التي في رشف خمرها سكر يجعل المصائب أمنيات جميلة

ويُريكِ فِقْهَ الشيخِ أقوالاً بها ما أَنْزلَ الرحمنُ مِنْ سلطانِ
فإذا جهنَّمُ جنَّةٌ، وإذا الأَسى نُعْمَى، وإذْ نُوَبُ الزمانِ أَغانِ

النوب: المصائب

وإذا بِعَفْوِ اللَّهُ يَفْتَحُ مُغلقاً عَبُّودُ أَوْصَدَهُ على الغُفْرانِ
يا شيخُ، قولُكَ «مَا أَشَدَّ عِقابَه» غَمْزٌ بِوَصْفِ الرَّاحِمِ الرحمنِ

حديثك أيها الشيخ عن عقاب الله تعريض برحمته

يا ربِّ إنْ بَلْفُورُ أَنْفَذَ وعدَهُ كم مُسْلِمٍ يبقَى وكم نَصْراني
وكِيانُ مَسْجِدِ قَريَتي مَنْ ذَا الذي يُبْقي عليهِ إذا أُزيلَ كِياني
هَاتِ اسقِني قَعْوَارُ، ليسَ يَهُمُّني قولُ الوُشَاةِ: عَرارُ سَكرانانِ

قعوار: صاحب حانة في عمان.

فالكأْسُ لولا اليأسُ ما هَشَّتْ لهُ كَبِدٌ ولا حَدَبَتْ عليهِ يَدانِ

حدبت: انحنت عطفاً

٢٨ القاضي والمرابون

قولوا لِعَبُّودَ عَلَّ القولَ يَشْفِينِي إنَّ المُرابِينَ إخوانُ الشياطينِ

قولوا للمفتي عبود إن المرابين إخوان الشياطين

أأَسْجُنُ الناسَ إرضاءً لِخاطِرِكُمْ وَخَشْيَةَ العَزلِ مِنْ ذَا المَنصِبِ الدُّونِ؟

وأنا بوصفي قاضياً لن أسجن الناس الذين تخلفوا عن سداد ديونهم للمرابين ولست أخشى العزل من هذا المنصب الدون، الدنيء

إنَّ الصَّعاليكَ مِثلِي مُفلِسُونَ وَهُمْ لِمِثلِ هذا الزمانِ الزِّفْتِ خَبُّوني

الصعاليك ادخروني لأساعدهم في هذا الزمن الرديء

والأَمْرُ لو كانَ لي لم تَفْرَحُوا أبداً مِنْ أجلِ دَيْنٍ لَكُمْ يَوماً بِمَسْجُونِ

فَبَلِّطُوا البَحرَ غَيْظاً مِنْ مُعامَلَتِي وبِالجَحِيمِ إنِ اسْطَعْتُمْ فَزُجُّوني

بلطوا البحر: افعلوا ما تشاءُون

٢٩ معلقة عرار

كتبها الشاعر بيتاً بيتاً وبيتين بيتين ولم يرتبها، وجمعها الناس من هنا وثَمّ. ورتبنا أبياتها، وما غيَّرنا كلماتها. كُتبت هذه القصيدة الفاخرة كما كُتبت المعلقات. هي معلقة شاعرنا:

عفَا الصَّفَا وانْتَفَى مِنْ كُوخِ نُدماني وأَوْشَكَ الشَّكُّ أن يُودِي بِإيماني

عفا الصفا: انتهى، عهد الصفاء

لقد تَنَكَّرَ لي أَهْلِي وأنكَرَني صَحْبِي، وأَقْرَبُ مَنْ أَدنَيْتُ أَقصَاني

أينَ النَّدامَى؟ مَضَى كُلٌّ لِطِيَّتِهِ وخَلَّفُونِي بهذا الكوخِ وَحْدَاني

كل لطيته: كل لشأنه. وكان للشاعر وصحبه كوخ يلتقون فيه، فانفض سامرهم

يا رَاهِبَ الدَّيْرِ تُبْنا عن مَحبَّتِهِمْ وقد أَنَبْنَا فَلا كاني ولا ماني

أنبنا: رجعنا، لا كاني ولا ماني: لا تقل كان وحدث، وأقفل الموضوع

شِبْنا ورَانَ على الفَوْدَيْنِ مُتَّزِنٌ مِنَ المَشِيبِ بَكى حظِّي وأَبكاني

ران: جثم وساد على الفودين، السالفين، شيب متزن يدعو للوقار، لكنه أحزنني فكأنه بكى حظي العاثر

يا راهِبَ الديرِ تُبْنا، والحياةُ، كما تَرى، تَلَوَّى لِمِثلي لَيَّ ثُعبانِ

الحياة، كما ترى، تتلوّى لمن هم مساكين مثلي كما يتلوى الثعبان

قُلْ لِلسَّوَادِنِ يَفتَحْنَ الصَّوامِعَ لي   فَالريحُ صِرٌّ وبَرْدُ الغَوْرِ آذاني

قل للراهبات السوادن، خادمات الدير.. جمع سادنة، أن يفتحن لي الصوامع حيث ينام المتعبدون، فالريح صر، باردة، والبرد في غور نهر الأردن آذاني

اِفتَحْ لِيَ البابَ وادْمِجْني بِزُمْرَتِكُمْ   فبردُ جِلْعَادَ يا بُونا تَحدَّاني

جلعاد: جبل قرب السلط، يا بونا: يا أبانا، خطاب العلماني، أي الذي ليس من رجال الدين، للكاهن

يا بِنْتُ! وادي الشِّتَا صَرَّتْ جنادِبُهُ   وشَنَّفَتْ سمْعَهُ نَاياتُ رُعيانِ

يا بنت! «وادي الشتا» صوتت الجنادب فيه، وأطربت الأسماعَ أنغام الناي من الرعيان، فقد جاء الربيع

خَدَّاكِ يا بِنْتُ مِنْ دَحْنُونِ دِيرَتِنا   رُوحِي فِداءُ الخُدَيْدِ الأحمرِ القَاني

خداكِ يا بنت من دحنون قريتنا، والدحنون هو الزهر الأحمر المسمى الصاقصلي أو الحَنُّون

قالوا يُحِبُّ، أَجَلْ، إنِّي أُحِبُّ. مَتى   كان الهوى سُبَّةً يا أهلَ عَمَّانِ؟

يا مَيُّ شِبْنا وما تُبْنا، فهل نَزَلَتْ   بما انتَهَيْنا إِلَيْهِ آيُ قُرآن؟

هل نزل في القرآن ما يحرم العشق بعد الشيب؟

قَالوا تُعَاقِرُها؟ قولوا لهُمْ: عَلناً،   إنِّي أُعاقِرُها في كلِّ دُكَّانِ

دكان: حانة، وسمت العرب الحانة حانوتاً، فمن هنا سماها عرار دكاناً

قالَ الأَطباءُ لا تَشربْ، فقلتُ لهُمْ:   الشُّرْبُ لا الطِّبُّ عَافاني وأَبْرَاني

أبراني: أبرأني وشفاني

ماذا على الناسِ مِنْ سُكْري وعَربَدَتي   ماذا على الناسِ مِنْ كُفري وإيماني؟

ماذا على الناسِ مِنْ قَولي لَهُمْ أَحدٌ   رَبِّي، وقَوْلِي لَهُمْ: رَبِّي له ثَانِ؟

ماذا على الناسِ مِنْ لَهْوي ومِنْ عَبَثي   ماذا على الناسِ مِنْ جَهْلي وعِرْفاني؟

ماذا على الناسِ مِنْ حُبِّي مُكَحَّلَةً   بينَ الخَرابيشِ أهواها وتَهواني؟

الخرابيش: بيوت النَوَر في الأردن

قَالوا: تَدَمْشَقَ قُولوا: ما يَزالُ على   عِلَّاتِهِ إِرْبِدِيَّ اللونِ حُوراني

زعموني تشبهت بأهل دمشق المترفين، لكنني ما زلت ابن مدينة إربد، بشمال الأردن، الواقعة في سهول حوران

فَهَاكَنِي كَيَتَامَى الزُّطِّ لا أَحَدٌ يَرثِي لِحالِي ولا إنسانَ يَرعاني

فهاكني، انظر إليَّ، كاليتامى من أولاد الزط، قوم رحل فقراء

يا أُرْدُنِيَّاتُ إنْ أَوْدَيْتُ مُغترباً فَانْسُجْنَها بِأَبِي أَنْتُنَّ أكفاني

أوديت: متّ

وقُلْنَ لِلصَّحْبِ وَارُوا بَعْضَ أَعْظُمِهِ في تَلِّ إرْبِدَ أو في سفحِ شيحَان

وووري جثمان عرار في تل إربد عندما مات عام ١٩٤٩، لا في سفح جبل شيحان بالجنوب

عسَى وعَلَّ بهِ يوماً مُكَحَّلَةٌ تَمُرُّ تتْلُو عليهِ حِزْبَ قُرآن

الحزب من القرآن: نحو من عشر صفحات، وهو نصف الجزء

ولْيَبْكِ وادي الشِّتا بَعدي جَآذِرُهُ ولْيَبْكِ حَسْبُونَ بَعدي مَاءُ حُسْبانِ

ليبك «وادي الشتا» جميلاته اللائي غادرتهن، وليبك حسبونَ، موضع قديم، ماء بلدة حسبان

قَالوا: لِشِعْرِكَ عُشَّاقٌ بِوُدِّهِمُ أن يجمَعُوا بعضَهُ في شبهِ ديوانِ

فقلتُ شِعريَ أَشْلاءٌ مُبَعثَرَةٌ، كأنَّها عُمُري، في كلِّ مَيدانِ

أمَّا أنا فَبِحَسْبِي مَا أُكَابِدُهُ مِنْ لَوعَةٌ أَجَّجَتْ يا ناسُ نيراني

يا جيرَةَ البانِ هذا البانُ بانُكُمُ يا ليْتَهُ لم يكنْ يا جيرَةَ البانِ

يخاطب الساكنين بجوار شجر البان

تَلُومُني أَنَّني يا ابْني أُعَاقِرُها يا «وَصْفَ» هَبْنِي جَلالَ الدِّينِ دُوَّاني

يخاطب ولده وصفي، الذي سيصبح رئيس وزراء.. وكان الولد يلوم أباه على معاقرته الخمر، وجلال الدين الدوّاني فارسي من قدامى المشايخ، ولعله كان يبيح الشراب!

تُريدُني وَيْكَ شَيْخاً كُلُّهُ وَرَعٌ ذا مَرْكَبٌ خَشِنٌ يَأْباهُ شيْطاني

شيطاني: الشيطان الذي يلهمني الشعر، ذا: هذا

إلَيْكَها مِنْ أبي وَصْفي مُجَلْجِلَةً أَبا طَلالٍ وما قَوْلي بِبُهْتانِ

خذها من أبي وصفي، من الشاعر عرار، رسالة مجلجلة، صاخبة، يا أبا طلال، أيها الأمير عبد الله، وقوْلي ليس افتراء. ومما يعاب على المرء أن يكتني في مخاطبة أمير، لكن شاعرنا غاضب..

رَفعْتَ كلَّ وَضيعٍ لا يُقامُ لهُ إلَّا بِسُوقِ الخَنا وَزْنٌ بِميزانِ

رفعت مقام كلّ وضيع، حقير، لا وزن له إلا في سوق الخنا، والعيب

هَـلَّا رَعَـيْتَ رَعـاكَ الـلَّـهُ حُـرْمَـتَـنـا   هَـلَّا جَـزَيْـتَ تَـفـانـيـنـا بِـإحـسـان

مَولايَ شعبُكَ مَكْلُومُ الحَشا وبه   مِنْ غَضِّ طَرْفِكَ والإهمالِ داءانِ

شعبك مجروح القلب لأنك تغض طرفك، أي تتجاهل مشكلاته، وتهمل شؤونه

مَولايَ إن المَطايا لا تسيرُ إلى   غاياتِها إنْ عَلاها غيرُ فُرسانِ

لا تصل الخيل إلى مقصدها إن ركبها من لا يحسنون الركوب، ومن تعينهم من الرجال غير أكفاء

يافَا عَروسُ فِلَسْطينَ التي غَبَرَتْ   ما في يَدَيَّ خَلا شَجْوي وأشجاني

غبرت: مضت

يا أهلَ يافا لقد طَوَّقْتُمُ عُنُقي   شَتَّى العُقُودِ فَمِنْ بِرٍّ لإحسانِ

٣٠ رثاء صحفي

قال يرثي خليل نصر صاحب جريدة «الأردن»، ومات قبل عرار بستة أشهر:

شيخَ الصِّحَافةِ! زارَ الموتُ صَوْمَعَتي   وسوفَ أَلْحَقُ يا شَيْخي بإخْواني

وسوفَ أُخبِرُهُمْ عنْ سوءِ طالِعِنا   وعن رَزَايا بَني قَومي وجيراني

رزايا: مصائب

٣١ وادي الشتا

هل تذكرينَ، وأنتِ مِن غُزْلانِهِ،   وادِي الشِّتا، والعمرُ في رَيْعانِهِ

هل تذكرين «وادي الشتا» وأنت من فتياته الجميلات، وكان العمر في أوائله؟ في البيت تقديم وتأخير يأباه النحوي ويرضاه من يذوق الشعر

يا مَيُّ! جِلْعَادُ الأَشَمُّ كعهدِه   ما زالَ يَرْبِضُ جاثماً بِمَكانِهِ

جبل جلعاد العالي على حاله رابض جاثم ثاوٍ مقعٍ في مكانه

والغَوْرُ مَا انْفَكَّتْ غَدائِرُ نَبْتِهِ   وزُهُورُهُ تَحنُو على غُدْرانِهِ

وفي الغور، المنطقة المنخفضة التي يجري بها نهر الأردن، ظلت غدائر النبات، خصلات الشجيرات أي أغصانها الطرية، وظلت الزهور تحنو وتميل على الغدران، جداول الماء

وسَمَاءُ إرْبِدَ ما يَزالُ سَحابُها   يَسْقي سُهُولَ الحِصْنِ مِنْ هَتَّانِهِ

«الحصن» اسم موضع، هتانه: وابله

يا مَيُّ! مَا بَرِحَتْ حَمائِمُ سِدْرِنا   تَشْدُو مُصَفِّقَةً على أغصانِهِ

السدر: من الشجر

فتَعَهَّدِي قلبي بِحُبِّكِ، واسمَعي ... ما شِئْتِ مِنْ شَدْوِي ومِنْ ألحانِهِ
يا مَيُّ! قد عادَ الربيعُ وعاوَدَتْ ... نفسي وَساوِسُ قَصفِهِ ودِنانِهِ

عاد الربيع وعاد إلى نفسي التفكير في القصف، اللهو، ودنان الخمر، خوابيها وجرارها

فاذْني شِفَاهَكِ مِنْ فَمِي وتَوَسَّدي ... صَدْرِي يَكُفَّ الدهرُ عنْ عُدوانِهِ
هَاتي شِفَاهَكِ، فالحياةُ جَوادُها ... شَرِسٌ، وليسَ فَتَاكِ مِنْ فُرسَانِهِ

جواد الحياة، أي حصانها، شرس صعب.. وأنا لست من فرسان هذا الحصان.. أنا لا أصلح للحياة الرصينة

وادي الشِّتَا هذا، وتِلْكَ مَلاعِبي ... أَيَّامَ كنتُ وكنتِ مِنْ جيرانِهِ

وادي الشتا: موضع قرب ناعور غرب عمان عاصمة الأردن، ملاعبي: ساحاتي.. والأصل الساحات التي تلعب فيها الريح

فاذْني شِفاهَكِ مِنْ فمي إن لم يكُنْ ... يَا مَيُّ قَلبُكِ قُدَّ مِنْ صَوَّانِهِ

قبليني إن لم يكن قلبك قاسياً كأنه مقدود من الصوان في منطقة وادي الشتا، وكل واد لا بد أن يقابله جبل!

وتَوَسَّدِي صَدري وحَسْبُكِ نِعْمَةً ... هذا الذي تُوحِينَ مِنْ خَفَقانِهِ

يكفيك فخراً أن خفقان قلبي هو بسبب ما توحين إليه من معاني الحب

ورَأَيْتُ أنَّ اللَّهَ أوسعُ رَحْمةً ... مِمَّا يَظُنُّ البعضُ مِنْ عُبْدانِهِ

٣٢ منازل برلين

قال عرار، وكان صديقه محمد أبو غنيمة كتب له رسالة عن الحياة في برلين:

أقولُ لِرَبِّي حينَ أَنْشَأَ جَنَّةً ... وزَيَّنَها بالوُلْدِ والحُورِ والعِينِ

الحور: ذوات الأعين التي اشتد سوادها في اشتداد بياض، والعين: ذوات الأعين الواسعة

أَيَعْلَمُ أنا قد حَظِينا بمثلِها ... وأَحسنِ منها في منازلِ بَرلينِ؟

٣٣ الفارس والمطية

كان أحمد الظاهر المدعي العام قد أساء استقبال الهبر شيخ النور:

يا مُدَّعِي عَامِ اللِّوا ... ءِ وخيرَ مَنْ فَهِمَ القضيَّةْ
والعدْلُ يَقْضِي أن تُعا ... مِلَ زَائِرِيكَ على السَّوِيَّةْ

الـــهَـبْــرُ جـــاءَكَ لـــلـــســـلا م فــكــيــفَ تــمــنَــعُــهُ الــتــحــيــةْ
أَلِأَنَّ كُـــــشْــــوَتَــــهُ مُــمَـــزَّ قَـــةٌ وهــــيــــئــــتَــــه زَرِيَّـــةْ؟

هيئته زرية: شكله مشعث مُهَزْغَل

قــد صَــدَّهُ جُــنْــدِيُّــكَ الــ ـفَـظُّ الـغـلـيـظُ بِـلا رَوِيَّـةْ
وأَبَـــى عـــلـــيـــهِ أن يَـــرا كَ، فــجــاءَ مُـمْـتَـعِـضـاً إِلَـيَّـهْ
يَـــشْـــكُـــو الـــذي لاقـــاهُ مِـــنْ شَــطَــطٍ بِــدارِ الــعَــادِلِــيَّــةْ
ويـــقـــولُ إنَّ زِيـــارَةَ الـــ حُــكَّــامِ، لا كَــانَــتْ، بَــلِــيَّــةْ

الحكام: القضاة، كذا استعملتها العرب قديماً، وكذا استعملها الناس في بعض بلاد الشام حديثاً

فــاسْــرِعْ وكَــفِّــرْ يــا هَــدا كَ الـلَّـهُ عَـنْ تِـلـكَ الـخَـطِـيَّـةْ
فــالــهَــبْــرُ مِــثْــلِــيَ ثُــمَّ مِــثْـــ ـلُـكَ أُرْدُنِــيُّ الــتَّــابِــعِــيَّــةْ

التابعية: الجنسية

وَأَدِرْ كُـــؤُوسَـــكَ يـــا أبَـــا نَـــاصِــيــفَ مُــتْــرَعَــةً رَوِيَّــةْ

يدعو أبا ناصيف، صاحب الحانة، إلى أن يدير كؤوس الشراب مترعة مملوءة مرتوية بما فيها

إنَّ الـــذي تُـــسْـــبَـــى مَـــوا طِــنُــهُ تَــحِــلُّ لَــه الــسَّــبِــيَّــةْ

السبية: السبيئة، الخمر المشتراة

عَــبُّــودُ يَــا نَــاعِــي الــنَّــهــا رِ عـلـى الـمَـآذِنِ فـي الـعَـشِـيَّـةْ

يخاطب الشيخ عبود الذي يؤذن للمغرب فكأنه ينعى النهار

لــيــسَ الــهُــدى وَقْــفــاً عــلــى فِــقْــهِ الــشــيــوخِ الأزهَــرِيَّــةْ
إنَّ الـــحـــيـــاةَ لـــهـــا قـــوا عِــدُ غــيــرُ مَــتْــنِ الــخَــزْرَجِــيَّــةْ
فَــنَــبِــيــذُ قَــعْــوارَ الــلَّــذيـــ ـذُ وأَنَّــةُ الــنــاي الــشَّــجِــيَّــةْ

قعوار صاحب حانة بعمَّان

وهُـــيـــامُـــنـــا بِـــالـــغَـــانِـــيـــا تِ مِــنَ الأمــورِ الــجَــوهَــرِيَّــةْ
أَوَمَــا تَــرانــيَ، والــمَــشــيـــ ـبُ كـمـا تَـراهُ بِـعَـارِضَـيَّـهْ..

ألست تراني وقد وخط الشيب عارضيَّ، أي جانبي رأسي..

مَــا زِلْــتُ خَــفَّــاقَ الــفُــؤا دِ ولـم تَـزَلْ نـفـسـي طَـرِيَّـةْ

.. ألا تراني، وقد شبت، ما زلت عاشقاً، ونفسي طرية، أي مقبلة على الغرام

والــقــلــبُ مــا تَــنــفَــكُّ تَــمــ ـلأُ سَــاحَــهُ خَــطَــرَاتُ مَــيَّــهْ

ساحه: ساحاته، خطرات: خطوات

دَنِــفٌ تُــطَــارِدُهُ الــعَــجُــو زُ ولا تُــهَــادِنُــهُ الــصَّــبِــيَّــهْ

دنف: مريض عشقاً

ولَــســوفَ تَــبــقَــى لِــلــصَّــبــا بَــةِ فــي ثَــرى رَمْــســي بَــقِــيَّــهْ

الصبابة: الهوى، رمسي: قبري

كَــمْ فَــارسٍ هُــوَ فــي الــحــقــيــ ـقــةِ عــنــد راكِــبِــهِ مَــطِــيَّــهْ

الفارس: راكب الفرس، المطية: الفرس

ومُــدَجَّــجٍ قــادَ الــسَّــرِيَّــ ـةَ وَهْــوَ قَــوَّادُ الــسَّــرِيَّــهْ

مدجج: شاكي السلاح

هَــاتِ اسْــقِــنــي؛ مَــا لِــلــحــيــا ةِ بِــغــيــرِ عَــرْبَــدَةٍ مَــزِيَّــهْ

واسْــبَــأْ لَــنــا، إن الــزِّقَــا قَ مَــبــاءَةُ الأُمَــمِ الــسَّــبِــيَّــهْ

اسبأ، اشتر خمراً، فزقاق الخمر، وهي قِرَبُ جِلْد تُتَّخَذُ للخمر، هي المصير السيء للأمم السبية المغتصبة الحقوق

تَــرْكُ الــتُّــقَــى خــيــرٌ بِــعــلْــ ـمِ الــلَّــهِ مِــنْ نُــسُــكِ الــتَّــقِــيَّــهْ

ترك التقوى أحسن من النسك الكاذب الذي يتخذ تقية، واجهة لاتقاء الشر

٣٤ استقلال كرتوني

يــا هَــبْــرٌ اســتِــقــلالُــنــا الــكَــرتُــونــي

أَخْــرَجَــنــي كَــمــا تَــرى عــن ديــنــي

فَــدُرْتُ بــيــنَ الــنــاسِ كــالــمــجــنــونِ

أســأَلُــهُــمْ عــنــه فــمــا دَلُّــونــي

أَسألُ الناسَ عن استقلالنا..

إلَّا عــلــى قَــعْــوارَ والــخَــمَّــارَهْ

قعوار: صاحب حانة، والخمارة هي الحانة

٣٥ الأعين السود

يا أَهْلَ عمَّانَ إنَّ الأعْيُنَ السُّودَا فَتَنَّنا وفَتَنَّ الشيخَ عَبُّودَا

الشيخ عبود النجار هو المفتي الذي جاء مع الأمير عبد الله من الحجاز في أوائل العشرينات من القرن العشرين إلى الأردن

٣٦ المفاليس

اللَّهُ يعلمُ والأيامُ شَاهِدَةٌ أنَّا كِرامٌ ولكِنَّا مَفالِيسُ

مصطفى وهبي التل
فهرس القوافي

إبراهيم طوقان
(١٩٠٥ ـ ١٩٤١)

ها هو ذا شاعر درس في مدرسة المطران الإنجليزية بالقدس صبياً، وفي الجامعة الأميركية ببيروت شاباً، وها هو ذا شعره؛ فانظر فيه لا تر للإنجليزية ولا لثقافتها أثراً. لن ترى إلا فصاحة عربية نقية.

هي سنوات الطفولة، هي المدرسة العربية، وهو البيت الذي كان يتكلم العربية، فإن كانت فيه خادم فهي عربية أيضاً. وكان في بيت إبراهيم طوقان خادمة وربما أكثر، فهو من أسرة ذات حظ وافر من اليسار. نشأ طفلاً مدللاً، وزادته الأمراض التي بدأت تعتاده يافعاً دلالاً. وكان بطبيعته عابثاً لاهياً، وقلَّ في تلك الأسرة جاد رصين، والقائل أعرف الناس بهم فهم خؤولته.

منذ سنوات الدراسة في الجامعة الأميركية بدأ يتجلى ما في شخصية شاعرنا من عبث وخفة.

ونلتمس طريقاً إلى تصنيف أشعار إبراهيم طوقان ـ وهي على كل حال قليلة ولا تحتاج إلى كثير تصنيف ـ بأن نسلكها في سلكين: قصائد الغزل، وقصائد التوبيخ.

فأما الغزل فهو ما عرفت؛ وأما التوبيخ فهو ما صبه الشاعر على رؤوس بني قومه، وخصوصاً كبار زعمائهم، من قوارع الكلم لتقاعسهم، ونومهم عن موجة عاتية ستبتلع وطنهم. فرغم أن طوقان مات قبل نكبة فلسطين بسبع سنين، فقد قال من الشعر ما يشهد له بأنه قرأ الوضع قراءة عميقة، وأحس في أعماقه بما هو مقدم على فلسطين من نكبة سيراها الآخرون فظيعة بعد فوات الأوان.

امتلك بصيرة سياسية. بصَّره بحقيقة وضع البلاد وتهافت زعمائها أنه من

عائلة كانت لها في الماضي زعامة، وجرَّأه على أن يسلق الشعب وزعماءه بقصائد تسيل سخرية وتأنيباً أن عائلته ظلت تحتفظ بأملاك أعفته من الوقوف بالأبواب.

غير أن العائلة ذات الأطيان والعقار لا تبيع أطياناً وعقارات كي تيسر المال لأبنائها اللاهين، فلا بد لهم من عمل يقوتهم، ولا سيما في زمن أخذ الإقطاع فيه ينحسر بسرعة عن بلاد الشام. فعمل طوقان في التدريس أشهراً (كانت كافية ليخرج علينا بقصيدته: وأرى حماراً بعد ذلك كله/ رفع المضاف إليه والمفعولا)، وعمل مديراً للبرامج في الإذاعة الفلسطينية بضع سنين. ولم يوفق كثيراً في أعماله لكسل فيه وعبث، ولأن المرض كان يأخذه من مستشفى إلى مستشفى.. في القدس والقاهرة وبيروت.

نقول إنه كسول مادحين، فالشاعر ممدوح بما يذم به غير الشاعر.

مات إبراهيم طوقان عن ست وثلاثين سنة. وخلف لنا ديواناً، وأختاً شاعرة هي فدوى طوقان.

وعليَّ للشاعرة اعتذاران، لا بد من إزجائهما حتى وإن كانت قد انتقلت إلى دار الحق.

كنت أقرأ أشعاراً كثيرة في الراديو وأنا أعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، وكنت أكثر من الاستشهاد بشعر مظفر النواب. وكانت فدوى تسمعني، وتقول لي إنها تسمعني. ولم أكن أستشهد بشعرها. والسبب الوحيد أن ديوانها لم يكن عندي في لندن، كان ذلك قبل الإنترنت، وكان عندي ديوان مظفر النواب. وفاتني أن أوضح لها ذلك.. توفيت وهي لا تعرف أنني لم أقصد إلى تجاهلها. ما كان أعظم بلادتي.

وعدت إلى بلدي فلسطين، ولم أقل جملة اعتذارية كانت ضرورية: يا ست فدوى ـ وهكذا يناديها أهل نابلس ـ للأسف لم يكن ديوانك بحوزتي في عاصمة الضباب، وإلا فقد كان يسعدني أن أقتطف من أشعارك. لا، لم أقل شيئاً من ذلك. كنت بليد الإحساس. أينفعني أن أعتذر الآن؟

وقصدتها يوماً، وكانت في شيخوختها العالية، وسجلت معها لقاءً طويلاً. وشغلتني الشواغل عن بث اللقاء. وتوفيت فدوى طوقان. فرأيت أن من الدناءة أن أبثه. أأكون سابقت إليها عزرائيل؟ ثم فطن إلى الأشرطة زملاء لي في معهد

الإعلام بجامعة بيرزيت، فكان لا بد من إذاعة الحديث. أينفعني أن أعتذر الآن؟

كانت، وهي في شيخوختها تلك، حيية رقيقة كأنها فتاة في الثامنة عشرة. ولئن كنت لا أعتقد أن الشعر يورث، ولا أصدق ما قالوه من أن زهير بن أبي سلمى ورث ابنيه الشعر، فإن ما لمسته من رهافة ورقة فدوى طوقان يوشك أن يثنيني عن اعتقادي.

واعتذار ثالث: يا ست فدوى، هذا الكتاب بأجزائه الخمسة مخصص للشعر العمودي فقط، وشعرك الجميل الرقيق كان في معظمه من شعر التفعيلة. فلا مكان لشعرك هنا. أيرضيك أن أكتفي بشعر أخيك إبراهيم؟ لعله يرضيك.

إلى ما اخترته من شعر إبراهيم طوقان.

١ تخاذل

عجباً لِقَومي مُقعَدينَ ونُوَّماً — وعَدُوُّهُمْ عن سَحْقِهِمْ لا يَنْثني
عجباً لِقومي كلُّهُمْ بُكْمٌ، ومَنْ — يَنطِقْ يَقُلْ: يا لَيتَنيِ ولعلَّني

٢ الراعي الذئب

وَطَني مُرْهَقٌ وأَهلي نِيامٌ — واسْتحالَ الرَّاعيِ فأصْبحَ ذِيبا
لَهْفَ نفسيِ، وهُمْ سُكارَى غُرورٍ، — كيفَ يُبدي مَخالباً ونُيوبا؟

٣ المتقاعس

أفنيتَ يا مسكينُ عُمـ — ـرَكَ بِالتأوُّهِ والحَزَنْ
وقَعدتَ مَكتوفَ اليديْـ — ـنِ، تقولُ: حارَبَني الزمنْ
ما لم تَقُمْ بِالعِبْءِ أنـ — ـتَ، فَمَنْ يَقومُ بهِ إذنْ؟

* * *

كم قلتَ: «أَمراضُ البلا — دِ»، وأَنتَ مِن أمراضِها
و«الشؤمُ عِلَّتُها»، فهلَ — فَتَّشْتَ عن أَعْراضِها؟
أُقعُدْ، فما أنتَ الذي — يسعَى إلى إنهاضِها

* * *

أَضْحَى التَّشاؤُمُ في حديـ ـثِكِ بِالغريزَةِ والسَّليقَةْ
مِثلَ الغُرابِ، نَعَى الديا رَ، وأَسمَعَ الدنيا نَعيقَهْ
أَمَلٌ يَلوحُ بَريقُهُ فاسْتَهْدِ يا هذا بَريقَهْ
ما ضاقَ عيشُكَ لو سعيـ ـتَ له، ولو لم تَشْكُ ضيقَهْ

* * *

لكنْ تَوَهَّمْتَ السَّقا مَ، فَأَسْقَمَ الوَهْمُ البَدَنْ
وظننتَ أَنَّكَ قد وَهَنْـ ـتَ، فَدَبَّ في العظمِ الوَهَنْ
والمرءُ يُرهِبُهُ الرَّدَى ما دامَ يَنظُرُ لِلكَفَنْ

٤ بائعو الأرض

باعُوا البلادَ إلى أعدائِهِمْ طَمعاً بِالمالِ لكِنَّما أَوطانَهُمْ باعُوا
قد يُعذَرُونَ لو انَّ الجوعَ أَرغَمَهُمْ واللَّهِ ما عَطِشوا يوماً ولا جاعوا
أعداؤُنا، منذُ أن كانوا، صَيارِفَةٌ ونحن، منذُ هَبَطْنا الأرضَ زُرَّاعُ

اليهود كان صيارفة يتعاملون بالمال، والفلسطينيون أهل أرض وفلاحة

يا بائعَ الأرضِ لم تَحفِلْ بِعاقِبَةٍ ولا تعلَّمْتَ أَنَّ الخَصْمَ خَدَّاعُ
فَكِّرْ بِموتِكَ في أرضٍ نشأْتَ بِها واترُكْ لِقبرِكَ أرضاً طُولُها باعُ

الباع: ما بين وُسطاويك فاتحاً ذراعيك على جنبيك

٥ فلسطين المنسية شعرياً

جئتُكُمْ عاتباً بَلابِلَ مِصرٍ؛ بُلبُلُ الروضِ عَتْبُهُ أَلحانُ

يعاتب شعراء مصر

كم بِلادٍ تَهُزُّكُمْ ليس فيها لَكُمُ جيرَةٌ ولا إخوانُ
خَطْبُنا لا يَهُزُّ شوقي ولكنْ جاءَ رُوما فَهَزَّهُ الرُّومانُ

يشير إلى قصيدة شوقي (قف بروما وشاهد الأمر واشهد/ أن للملك مالكاً سبحانه) وفيها يقف معتبراً بزوال إمبراطورية الرومان وبقاء آثارهم التي تدل على عظمة بائدة

خَطْبُنا لا يَهُزُّ حافِظَ إبرا هيمَ لكنْ تَهُزُّهُ اليابانُ

يشير إلى تعاطف حافظ إبراهيم مع اليابان في حربها مع روسيا، وفيها يقول على لسان ممرضة يابانية (أنا يابانية لا أنثني/ عن مرادي أو أذوق العطبا)

مـا لِـمُـطـرانَ يـا فِـلَـسْـطِـيـنَ شـأنٌ   بِـكِ، لـكـنْ لـه بِـنـيـرُونَ شَـانُ

يشير إلى قصيدة مطران عن نيرون حارق روما، ومنها البيت: (أي شيء كان نيرون الذي/ عبدوه، كان فظ الطبع غرا)

سـيـقـولُـون قُـدِّسَـتْ هـذهِ الأر   ضُ، فـمـا إنْ لـنـا بِـهـا شَـيْـطـانُ

الشعراء، منذ الأعشى، يزعمون أن لهم شياطين من الجن توحي لهم بالشعر. وقد يقول شعراء مصر المذكورون إنه ليس في فلسطين شياطين لقداستها، لذا لم يذكروها في شعرهم

بلْ فِلَسْطينُ بِالشَّياطينِ مَلْأَى   ضَجَّتِ الإنْسُ مِنهُمُ والجانُ
إنْ بَلَوْتُمْ منهُمْ فريقاً فإنَّا   قد رمانا باثْنَيْنِ هذا الزمانُ

إن كنتم يا أهل مصر بلوتم، أي اختبرتم، فريقاً واحداً من الشياطين، وهؤلاء هم الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر، فنحن ابتلينا بفريقين: الإنجليز، واليهود

٦ الفدائي

عن فدائي وقف بباب دار الحكومة بالقدس وأصاب برصاصة النائب العام البريطاني الذي أمعن في النكاية بالفلسطينيين، أيام الانتداب البريطاني على فلسطين

لا تَسَلْ عن سَلامَتِهْ   رُوحُهُ فوق رَاحَتِهْ
بَدَّلَتْهُ هُمُومُهُ   كَفَناً مِن وِسادَتِهْ
بينَ جَنْبَيْهِ خافِقٌ   يَتَلَظَّى بِغايَتِهْ

خافق: قلب.. وقلب الفدائي يتلظى ملتهباً لا يشغله سوى غايته وهدفه الوطني

* * *

هُوَ بِالبابِ وَاقِفُ   والرَّدَى مِنْهُ خَائِفُ

وقف الفدائي عند الباب وجرح بالرصاص النائب العام

فاهْدَأي يا عَواصِفُ   خَجَلاً مِن جَراءَتِهْ

* * *

صَامِتٌ لو تَكَلَّما   لَفَظَ النارَ والدَّما
قُلْ لِمَنْ عابَ صَمْتَهُ   خُلِقَ الحَزْمُ أَبْكَما

عابوا على الفدائي أنه لجأ للسلاح ولم يسبق ذلك بتقديم شكوى من ظلم النائب العام

وأَخُو الحَزْمِ لم تَزَلْ   يَدُهُ تَسْبِقُ الفَما

٧ موشح الشهداء

في خضم هبّة البراق ١٩٢٩، حاكم المحتل البريطاني ثلاثة شبان هم: فؤاد حجازي، وعطا الزير ومحمد جمجوم، وشنقهم يوم الثلاثاء ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٣٠

لَمَّا تَعَرَّضَ نَجمُكَ المَنحُوسُ وتَرَنَّحَتْ بِعُرَى الحِبالِ رُؤُوسُ

يخاطب **يوم الثلاثاء**، لقد اعترض نجم النحس لهذا اليوم في السماء، وترنحت رؤوس الشهداء بحبال المشنقة ذات العرى، جمع عروة

نَاحَ الأَذانُ وأَعْوَلَ النَّاقوسُ فاللَّيلُ أَكْدَرُ، والنهارُ عَبوسُ

عندها صار صوت الأذان كأنه النواح وصوت النواقيس، الأجراس،كأنه العويل، وصار الليل مكدراً والنهار عابساً

طَفِقَتْ تَثورُ عَواصِفُ وعَواطِفُ
والموتُ حيناً طَائِفُ أو خاطِفُ
والمِعْوَلُ الأَبَدِيُّ يُمْعِنُ في الثَّرى لِيَرُدَّهُمْ في قلبِها المُتَحَجِّرِ

وأخذ المعول، الفأس الأبدي وهو الموت، يحفر الأرض كي يرد الشهداء إلى قلب الأرض وإلى التراب الذي منه خلق البشر

* * *

يومٌ أَطَلَّ على العُصورِ الخالِيَةْ ودَعا: أَمَرَّ على الوَرى أَمْثَالِيَهْ؟

يوم الثلاثاء المشؤوم هذا يقول للعصور: هل مر على البشر مثلي؟

فأَجابَهُ يومٌ: أَجَلْ، أنا رَاوِيَةْ لِمَحاكِمِ التَّفتيشِ، تلكَ البَاغِيَةْ

فأجابه أحد الأيام المنصرمة: أجل، فأنا أروي ما صنعت محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس

ولقد شَهِدْتُ عجائِبا وغرائِبا
لكنَّ فيكَ مصائِبا ونوائِبا
لم أَلْقَ أشْباهاً لها في جَوْرِها فاسْأَلْ سِوايَ، وكمْ بِها مِنْ مُنكَرِ

ولكن فيك يا يوم الثلاثاء مصائب ليس لها شبيه في الظلم، فاسأل غيري، وما أكثر المنكرات التي ارتكبت فيك

* * *

وإذا بِيَومٍ راسِفٍ بِقُيودِهِ فأجابَ، والتاريخُ بعضُ شُهودِهِ:

وجاء يوم آخر يرسف، أي يمشي متثاقلاً والقيود في ساقيه، ذلك هو اليوم الذي شهد العبودية، فقال.. والتاريخ يشهد على صدقه:

أُنظُرْ إلى بيضِ الرَّقيقِ وسُودِهِ   مَن شاءَ كانُوا مِلْكَهُ بِنُقودِهِ

انظر إلى من بالتاريخ من العبيد، بيضاً وسوداً، يباعون بالمال

بَشَرٌ يُباعُ ويُشتَرى   فتَحَرَّرا
ومشى الزَّمانُ القَهقَرى   فيما أرى

كان للعبودية زمنها ثم تحرر البشر منها. لكن، ها هو الزمن يعود القهقرى إلى سابق عهد العبودية..

فسمعتُ مَن مَنَعَ الرَّقيقَ وبَيعَهُ   نادى على الأحرارِ: يا مَن يَشتري

فالذين منعوا العبودية، الإنجليز (رسمياً بقرار برلماني ١٨٠٧)، أخذوا يبيعون الأحرار لا العبيد باستعمارهم البلاد وأهلها. التسويد للشاعر عمران القفيني

* * *

وإذا بِيوم حالِكِ الجِلبابِ   مُتَرَنِّحٍ مِن نَشْوَةِ الأَوْصَابِ

وجاء يوم آخر يلبس ثوباً أسود، ويترنح من نشوة، أي ذهول، الأوصاب، أي الأوجاع

فأجابَ: كَلَّا، دونَ ما بِكَ ما بي   أنا في رُبَى عالَيْهِ ضَاعَ شَبابي

فقال هذا اليوم: ما بي أقل مما حل بك، لقد ضاع شبابي في ربى مدينة «عاليهْ» اللبنانية التي شنق فيها جمال باشا السفاح الوطنيين في سني الحرب العالمية الأولى

وشَهِدْتُ لِلسَّفاحِ ما   أَبْكَى دما
ويلٌ له ما أَظْلَما   لكِنَّما..
لم أَلْقَ مِثلَكَ طالِعاً في رَوْعَةٍ   فاذهَبْ لَعلَّكَ أنتَ يومُ المَحْشَرِ

لكن، لم أر يوماً مثلك تطلع شمسه في روعة، والروعة هي الروع أي الخوف، فلعلك أنت يوم القيامة يا يوم الثلاثاء

* * *

اليومُ تُنكِرُهُ اللَّيالي الغَابِرَةْ   وتَظلُّ تَرمُقُهُ بِعينٍ حَائِرَةْ

هذا اليوم، الثلاثاء الذي أعدم فيه الرجال الثلاثة، تجده الليالي الغابرة منكراً شديداً

عجباً لِأَحكامِ القضاءِ الجائِرَةْ   فَأَخَفُّها أَمثالُ ظُلْمٍ سَائِرَةْ
وطنٌ يسيرُ إلى الفناءْ   بِلا رَجاءْ
والداءُ ليسَ له دَواءْ   إلَّا الإِباءْ
إنَّ الإِباءَ مَناعَةٌ، إنْ تَشتَمِلْ   نَفسٌ عليهِ تَمُتْ ولَمَّا تُقْهَرِ

* * *

الـكـلُّ يَـرجُـو أنْ يُـبَـكِّـرَ عَـفْـوُهُ نَـدعُـو لَـه أَلّا يُـكَـدِّرَ صَـفْـوُهُ

الآمال تتجه إليه، إلى المندوب السامي البريطاني، ليجيء عفوُه باكراً

إن كـان هـذا عَـطْـفُـهُ وحُـنُـوُّهُ عـاشتْ جَـلالَـتُـهُ وعـاشَ سُـمُـوُّهُ
حَـمـلَ الـبـريـدُ مـفَـصَّـلا مـا أُجْـمِـلا
هـلّا اكـتـفَـيْـتَ تَـوَسُّـلا وتَـسَـوُّلا

البريد حمل لنا التفاصيل، فلا داعي للتوسل وتسول العطف البريطاني، وكانت الهيئات العربية قد أرسلت رسائل الاسترحام الكثيرة

والـموتُ في أخـذِ الـكـلام ورَدِّهِ فَخُذِ الحياةَ عنِ الطريقِ الأقصَرِ

الموت كامن في تلك الرسائل والردود عليها، فخذ أيها المحتل الحياة من الطريق الأقصر، وخلِّصنا!

* * *

ضـاقَ الـبـريـدُ ومـا تَـغَـيَّـرَ حـالُ والـذلُّ فـيـهِ سُـطـورُنـا أَشـكـالُ
خُـسـرانُـنـا الأَرواحُ والأمـوالُ وكَـرامـةٌ ـ يـا حَـسْـرتـا ـ أَسْـمـالُ

البريد ضاق برسائل الاسترحام، وأسطر هذه الرسائل يتجلى فيها ذلنا، وذلنا عبارة عن خسارتنا للأرواح والأموال والكرامة التي غدت شبيهة بالأسمال، أي الثياب الممزقة

أَوَتُـبـصِـرونَ وتـسـألـونْ مـاذا يـكـونْ؟
إنَّ الـخِـداعَ لـه فُـنـونْ مـثـلُ الـجُـنـونْ
هيهاتَ، فالنفسُ الذَّليلةُ لو غَدَتْ مَخلُوقَةً مِن أَعْيُنٍ لم تُبصِرِ

* * *

أَنّـى لِشـاكٍ صـوتُـه أنْ يُـسـمَـعـا؟ أنّـى لِـبـاكٍ دَمْـعُـهُ أنْ يَـنـفَـعـا؟
صـخـرٌ أحـسَّ رجـاءَنـا فـتَـصَـدَّعـا وأتـى الـرجـاءُ قُـلوبَـهُـمْ فتـقَـطَّعـا
لا تَـعـجَـبـوا، فـمِـنَ الـصُّـخـورْ نَـبـعٌ يَـفُـورْ
ولَـهُـمْ قـلـوبٌ كـالـقـبـورْ بِـلا شُـعـورْ
لا تَـلـتَـمِـسْ يـومـاً رجـاءً عـنـد مَـنْ جَـرَّبْـتَـهُ فـوجَـدْتَـهُ لـم يَـشْـعُـرِ

* * *

الساعات الثلاث

قرروا تنفيذ الإعدام في ثلاث ساعات: ساعة لكل شهيد وها هي الساعات تتحدث عن نفسها وعن أصحابها

الساعة الأولى

أنـا سـاعَـةُ الـنـفـسِ الأَبِـيَّـةْ   الـفـضـلُ لـي بِـالأَسْـبَـقِـيَّـةْ
أنـا بِـكْـرُ سـاعـاتِ ثَـلا   ثٍ، كـلُّـهـا رمـزُ الـحَـمِـيَّـةْ
بِـنْـتُ الـقـضـيَّـةِ إنَّ لـي   أثـراً جـلـيـلاً فـي الـقَـضِـيَّـةْ
أَثَـرُ الـسـيـوفِ الـمَـشْـرَفِـيَّـ   ـةِ، والـرِّمـاحِ الـزَّاعِـبِـيَّـةْ
أَوْدَعْـتُ، فـي مُـهَـجِ الـشَّـبـيـ   ـبَـةِ، نَـفْـحَـةَ الـرُّوحِ الـوَفِـيَّـةْ
لا بُـدَّ مِـن يـومٍ لَـهُـمْ   يَـسقـي العِـدَى كـأسَ الـمَـنِـيَّـةْ
قَـسـمـاً بِـروحِ فـؤادَ تَـصْـ   ـعدُ مِـنْ جَـوانِـحِـهِ زَكِـيَّـةْ
تـأتـي الـسَّـمـاءَ حَـفِـيَّـةً   فَـتَـحِـلُّ جَـنَّـتَـهـا الـعَـلِـيَّـةْ

حفية: السماء تحتفي بها

مـا نـالَ مَـرْتَـبَـةَ الـخُـلـو   دِ بِـغـيـرِ تَـضـحـيـةٍ رَضِـيَّـةْ
عـاشـتْ نُـفـوسٌ فـي سـبـيـ   ـلِ بِـلادِهـا ذَهَـبَـتْ ضَـحِـيَّـةْ

الساعة الثانية

أنـا سـاعـةُ الـرجـلِ الـعَـتـيـدِ   أنـا سـاعـةُ الـبـأسِ الـشَّـديـدِ
أنـا سـاعـةُ الـمـوتِ الـمُـشَـرِّ   فِ كـلَّ ذي فِـعـلٍ مَـجـيـدِ
بَـطَـلـي يُـحَـطِّـمُ قَـيـدَهُ   رَمـزاً لِـتَـحـطـيـمِ الـقُـيـودِ

قيل إن محمد جمجوم فك قيده وأسرع كي يسبق عطا الزير إلى الشهادة

زَاحَـمْـتُ مَـن قَـبْـلـي لِأَسْـ   ـبِـقَـهُ إلـى شَـرَفِ الـخُـلُـودِ
وقَـدَحْـتُ، فـي مُـهَـجِ الـشـبـا   بِ، شَـرارَةَ الـعَـزْمِ الـوَطـيـدِ
هَـيـهـاتَ يُـخْـدَعُ بِـالـوُعـو   دِ، وأنْ يُـخَـدَّرَ بِـالـعُـهُـودِ

الشباب لن يخدع بوعود المحتلين

قَـسـمـاً بِـروحِ مـحـمـدٍ   تَـلـقَـى الـرَّدَى حُـلْـوَ الـوُرُودِ

استحلى عمران القفيني موقع الورود هنا، فهي جمع وردة، وهي الورود أي القدوم، وكلا المعنيين يقوم به اللفظ

قـسـمـاً بِـأُمِّـكَ عـنـد مـو   تِـكَ، وَهْـيَ تَـهـتِـفُ بـالـنَّـشـيـدِ
وتَـرى الـعَـزاءَ عـنِ ابـنِـهـا   فـي صِـيـتِـهِ الـحسـنِ الـبَـعـيـدِ
مـا نـالَ مَـنْ خَـدمَ الـبـلا   دَ أجـلَّ مِـنْ أَجْـرِ الـشَّـهـيـدِ

الساعة الثالثة

أنـا سـاعـةُ الـرجـلِ الـصَّـبـورِ   أنـا سـاعـةُ الـقـلـبِ الـكـبـيـرِ
رمـزُ الـثَّـبـاتِ إلـى الـنـهـا   يـةِ، فـي الـخـطـيـرِ مِـنَ الأُمـورِ
بَـطـلـيِ أَشَـدُّ عـلـى لـقـا   ءِ الـمـوتِ مـن صُـمِّ الـصُّـخـورِ
جَـذْلانُ يَـرتَـقِـبُ الـرَّدَى   فـاعْـجَـبْ لِـمَـوْتٍ فـي سُـرورِ
يَـلـقَـى الإلَـهَ مُـخَـضَّـبَ الـ   ـكَـفَّـيْـنِ فـي يـومِ الـنُّـشُـورِ

خضاب الكفين رمز للفرح، فهو جذلان فرح وهو يرتقب الموت

صَـبْـرُ الـشـبـابِ عـلـى الـمُـصـا   بِ، وَدِيـعَـتـي مِـلْءُ الـصُّـدورِ
أَنْـذَرْتُ أعـداءَ الـبـلا   دِ بِـشَـرٍّ يـومٍ مُـسْـتَـطـيـرِ
قَـسـمـاً بِـروحِـكَ يـا عَـطـا   ءُ، وجَـنَّـةِ الـمَـلِـكِ الـقَـديـرِ
وصِـغـارِكَ الأشـبـالِ تـبـ   ـكـي الـلَّـيْـثَ بِـالـدَّمـعِ الـغَـزيـرِ
مـا أنـقَـذَ الـوطـنَ الـمُـفَـدَّ   ى غـيـرُ صَـبَّـارٍ جَـسُـورِ

الخاتمة

أَجـسـادُهُـمْ فـي تُـرْبَـةِ الأوطـانِ   أرواحُـهُـمْ فـي جـنـةِ الـرِّضْـوانِ
وهـنـاكَ لا شَـكـوى مِـن الـطُّـغـيـانِ   وهـنـاكَ فَـيْـضُ الـعـفـوِ والـغُـفـرانِ
لا تَـرْجُ عـفـواً مِـن سِـواهْ   هُـوَ الإلَـهْ
وَهُـوَ الـذي مـلَـكَـتْ يَـداهْ   كُـلَّ جَـاهْ
جَـبَـروتُـهُ فـوق الـذيـن يَـغُـرُّهُـمْ   جَـبَـروتُـهُـمْ فـي بَـرِّهِـمْ والأَبْـحُـرِ

هذا موشح مبني بناء محكماً، ويشي ـ رغم بعض التجوز في النحو ـ بفحولة شاعر في الرابعة والعشرين من عمره. ولما بذل الشاعر من جهد وفكر وهو يبني موشحه، ويحشر فيه الإيماءات التاريخية، فقدَ السهولة. ولعل أهل فلسطين في ذلك الزمن رددوا هذا الموشح معجبين بوقع ألفاظه الفخيمة، ومتأثرين ببعض الأبيات السهلة؛ لكن التغلغل إلى المعاني لا يأتي من القراءة الأولى، ويحتاج إلى معرفة لغوية غير هينة. هذا شاعر ركب الصعب ليعبر عن مشاعر شعب حزين وقلق، وكان أليق به لو قال شعراً سهلاً في مثل هذا المقام. إذا حاكمنا طوقان بدستور البلاغة، فهو لم يبلُغْ

ولم يبلّغ. وإذا نظرنا إليه شاعراً لم يجاوز القرزمة إلا قليلاً فهو فحل متين اللغة. وسيمضي إبراهيم طوقان في الشعر والحياة اثنتي عشرة سنة أخرى، وسيقول شعراً من أرق وأعذب الشعر. الصفحات المقبلة ستخبرك بذلك

٨ لجان

لـجـنـةٌ إِثْـرَ لـجـنـةٍ إِثْـرَ لـجـنـةْ كَلِّفُوا «الـخـاطِرَ الكَريـمَ» بِـهُدْنَةْ

تتوالى لجان تقصي الحقائق، فهلا كلفتم «خاطركم» أي أنفسكم بهدنة تكف فيها اللجان عن القدوم إلينا؟

ولِـجـانٌ تَـلـيِ، وأُخـرى تُـوَلِّـي هـكـذا يُـبْـدِعُ الـسـيـاسـيُّ فَـنَّـهْ

تلي: أي تليها وتتبعها

مَـرحـبـاً بـالـوفـودِ شـكـراً لِـقَـوْمٍ جَـمـعَـتْـهُـمْ خطوبُنا الـمُـرْجَـحِـنَّـةْ

مرحباً بالوفود العربية التي تزور فلسطين وتجمعهم خطوبنا المرجحنة، أي مصائبنا المتمايلة إعياءً (وألقى الشاعر بالأبيات في الترحيب ببعض هذه الوفود عام ١٩٣٠)

نحن لولا الخطوبُ ما جَمَعَتْنا بـعـدَ طـولِ الأعـمـارِ إلّا الـجَـنَّـةْ

عمران القفيني: «ما ألطف هذه السخرية!»

٩ تحية مصر

أُحِبُّ مصرَ، ولكنْ مصرُ راغِبةٌ عنِّي فتُعرِضُ مِنْ حينٍ إلى حينِ
وإن بَكَتْ، لا بَكَتْ هَمّاً، فقد عَلِمَتْ وأَيـقَـنَـتْ أن ذاكَ الـهَـمَّ يُـبْـكِـيـنـي

إذا بكت مصر، وأدعو الله ألا يبكيها من أي هموم، فهي تعلم أن بكاءها وهمومها تبكيني

ما لي ولِلسُّقْمِ أَخشاهُ وأَسأَلُ عن طـبـيـبِهِ وعـمـادُ الـدِّيـنِ يَـشـفـيـنـي

كان الشاعر في مصر عام ١٩٢٢ طلباً للعلاج، وعلاجه الأمثل شارع عماد الدين بما فيه من مسارح وسينمات

هـذا، ومـصـرُ بَـسـاتـيـنٌ مـنـمَّـقـةٌ شـبـابُـهـا بـعـضُ أزهـارِ الـبـسـاتـيـنِ
خاضُوا ميادينَ مِنْ جِدٍّ ومن لَعِبٍ فأحـرَزُوا الـسَّبْقَ في كلِّ الـمـيـاديـنِ

١٠ صوموا تصحوا

حَـبَّـذا لـو يَـصـومُ مِـنَّـا زعـيـمٌ مـثـلَ غَـنْـدي عـسـى يُـفـيـدُ صـيـامُـهْ

لا يَصُمْ عن طعامِه؛ في فِلَسْطيـ ـنَ يموتُ الزعيمُ لولا طَعامُهْ
لِيَصُمْ عن مَبيعِهِ الأرضَ يَحْفَظْ بُقعةً تستريحُ فيها عظامُهْ

وكان بعض أثرياء، وبعض زعماء، فلسطين ممن باع أرضاً لليهود

كلَّ يومٍ حزبٌ وحُلْمٌ فَحَدِّثْ عن ضعيفٍ سلاحُهُ أحلامُهْ
بَطَلٌ إن عَلا المنابرَ، كَرَّا رٌ، سريعٌ عند الفِعالِ انهِزامُهْ

كرار: هاجم.. ومن ذلك «الكرُّ والفرُّ»

١١ الزعماء

وطني مُبْتلىً بِعُصْبَةِ دلَّا لينَ لا يتَّقُونَ فيهِ اللَّهَ

الدلال: المروِّج للبضاعة، يدل عليها المشترين ويغريهم بها

في ثِيابٍ تُريكَ عِزّاً، ولكنْ حَشْوُها الذُلُّ والرِّياءُ سَدَاها

ثيابهم أنيقة تشعرك بأن القوم أعزة، فزعماء فلسطين كانوا أيامئذ أثرياءها التقليديين، لكن ما بداخل الثياب نفوس ذليلة؛ والثياب سداها، أي نسيجها، من الرياء والنفاق

ووجوهٍ صَفيقَةٍ ليس تَنْدَى بِجُلودٍ مَدبُوغَةٍ تَغْشَاها

وجوههم صفيقة، صلبة لا يظهر عليها الخجل، ولا تندى، لا تَعرَق خجلاً، وتغشاها وتغطيها جلود كأنها الجلود المدبوغة الميتة

وصدورٍ كأنهُنَّ قبورٌ مُظلِماتٌ قلوبُهُمْ مَوتاها

صدورهم كالقبور، وقلوبهم هي الموتى الذين في القبور

حُسِبُوا في الرجالِ، هل كانَتِ الأنْـ ـعامُ إلَّا لِمِثْلِهِمْ أشْباها؟
يا رجالَ البلادِ، يا قادةَ الأمَّـ ـةِ، ماذا دهاكُمُ ودهاها؟
عرفَ الناسُ والمنابرُ والأقـ ـلامُ أفضالَكُمْ فهاتُوا سواها

يسخر منهم: قد عرفنا فضائلكم الكلامية فهاتوا غيرها!

اِنفِرُوا أيُّها النِّيامُ فهذا يومَ لا يَنفَعُ العيونَ كَراها

كراها: نومها

نَبِّئُوني عن القَوِيِّ متى كا نَ رحيماً، هيهاتَ! مَنْ عَزَّ تَاها

أعداؤنا أقوياء فلا عجب ألا تكون عندهم رحمة، فمن كان عزيزاً قوياً كان تياهاً متكبراً مبرزاً قوته

لا يَـلـيـنُ الـقـويُّ حـتـى يُـلاقـيِ   مِـثْـلَـهُ عِـزَّةً وبَـطـشـاً وجـاهـا

ولن يلين لنا أعداؤنا الأقوياء حتى نجابههم بعزة وقوة وبطش وجاه، مكانة عالية

١٢ الشهيد

عَـبـسَ الـخَـطْـبُ فـابـتَـسَـمْ   وطَـغَـى الـهـولُ فـاقْـتَـحَـمْ

رابِـطُ الـجَـأْشِ والـنُّـهَـى   ثـابـتُ الـقـلـبِ والـقَـدَمْ

رابط الجأش: صابر متماسك، النهى: العقل

سـارَ فـي مَـنـهـجِ الـعُـلا   يَـطـرُقُ الـخُـلْـدَ مـنـزلا

لا يُـبـالـي، مُـكَـبَّـلاً   نـالَـه أمْ مُـجَـدَّلا

مجدل: مصروع قتيل

فَـهْـوَ رَهْـنٌ بِـمـا عَـزَمْ

* * *

لا تـقُـلْ أيـنَ جِـسـمُـهُ   واسـمُـهُ فـي فَـمِ الـزَّمَـنْ

إنَّـهُ كـوكـبُ الـهُـدى   لاحَ فـي غَـيْـهَـبِ الـمِـحَـنْ

الشهيد كوكب نهتدي به ويظهر في ظلام المصائب

أيُّ وجـهٍ تَـهَـلَّـلا   يَـرِدُ الـمـوتَ مُـقْـبِـلا

يا لوجهه المتهلل المشرق الذي ورد الموت مقبلاً عليه

صَـعَّـدَ الـروحَ مُـرْسِـلا   لَـحـنَـهُ يُـنْـشِـدُ الـمَـلا:

يرسل روحه للأعالي مرسلاً بذلك لحناً ينشده أمام الملأ الأعلى، الملائكة، واللحن هو أنه منذور لله وللوطن

أنـا لـلَّـهِ والـوَطَـنْ

١٣ أشباه الرجال

أحرارَنا! قد كشفْتُمْ عن بطولَتِكُمْ   غِـطـاءَهـا يومَ تـوقـيـعِ الـكَـفـالاتِ

يسخر: يا أحرارنا ظهرت بطولاتكم يوم طلب منكم توقيع صكوك الكفالة للإفراج عنكم بعد اعتقالكم بتهمة تنظيم المضاهرات، فوقعتموها

أنـتـمْ رجـالُ خِـطـابـاتٍ مـنـمَّـقَـةٍ   كما عَلِمْنا، وأبطالُ احتِجاجاتِ

ولو أُصيبَ بِجُرْحٍ بعضُكُمْ خَطَأً فيها، إذن لَرَتَعْتُمْ بِالحَفاواتِ

لو أصيب أحدكم بجراح في مظاهرة احتجاج لرتع في احتفاء الناس به وتمجيدهم بطولته

بل حِكمَةُ اللَّهِ كانتْ في سلامَتِكُمْ لِأَنَّكُمْ غيرُ أَهْلٍ للشَّهاداتِ

أَضحَتْ فِلَسْطينُ مِنْ غيظٍ تَصيحُ بِكُمْ: خَلُّوا الطريقَ، فَلَسْتُمْ مِنْ رِجالاتي

١٤ استعدوا للرحيل

هَزُلَتْ قضيَّتُكُمْ فلا لَحْمٌ هناكَ ولا دَمُ

ضَمَرَتْ إلى بَلَدِيَّةٍ فيها العِدا تتحَكَّمُ

أصبح كل همكم الاختصام على نتائج الانتخابات البلدية، والبلديات يتحكم فيها أصلاً المحتل البريطاني

يا قومُ ليس عدوُّكُمْ مِمَّنْ يلينُ ويَرحمُ

يا قومُ ليس أمامَكُمْ إلَّا الجَلاءُ فَحَزِّمُوا

١٥ سواد

لا تَلُمْني إنْ لم أَجِدْ مِنْ وَميضٍ لِرجاءٍ ما بينَ هذا السَّوادِ

١٦ السماسرة

أمَّا سَماسِرَةُ البلادِ فَعُصبةٌ عَارٌ على أهلِ البلادِ بَقاؤُها

السماسرة: رجال كانوا يسعون بين عربي يملك الأرض ويهودي يريد شراءها

هُمْ أهلُ نَجدَتِها، وإن أَنْكَرْتَهُمْ، وهُمُ، وأَنْفُكَ راغِمٌ، زُعَماؤُها

وحُماتُها، وبِهِمْ يَتِمُّ خَرابُها وعلى يَدَيْهِمْ بَيْعُها وشِراؤُها

١٧ أيها المحتلون

قد شَهِدنا لِعهدِكُمْ بالعدالَةْ وخَتَمْنا لِجُندِكُمْ بالبَسالَةْ

يسخر من البريطانيين المحتلين

وعَرفْنا بِكُمْ صديقاً وفيَّاً كيف ننسى انتِدابَهُ واحتِلالَهْ

وخَجِلْنا مِنْ لُطفِكُمْ يومَ قُلْتُمْ وعدُ بَلْفورَ نافِذٌ لا مَحالَةْ

ونشرح هذا الشعر في مارس ٢٠١٧، وبعد أشهر يحتفل وعد بلفور بعيد مولده المئة، وهو وعد بريطاني لليهود بوطن قومي لهم في فلسطين

كلُّ أَفضالِكُمْ على الرأسِ والعيـ ـنِ، وليستْ في حاجةٍ لِدَلالَةْ
ولئنْ ساءَ حالُنا فكَفانا أنَّكُمْ عندَنا بأحسنِ حَالَةْ
غيرَ أنَّ الطريقَ طالَتْ علينا وعليكُمْ، فما لنا والإطالَةْ؟
أَجَلاءٌ عنِ البلادِ تُريدو نَ فَنَجْلوُ، أم مَحقَنا والإِزَالَةْ؟

١٨ عودة نوح

مَنْ كانَ يُنكرُ نوحاً أو سفينَتَه فإنَّ نُوحاً بِأمرِ اللَّهِ قد عادا
حَلَّ الوَبالُ بِعيبالٍ فَمالَ به يا هَيْبَةَ اللَّهِ إِبْراقاً وإِرْعادا

عيبال: الجبل الشمالي لمدينة نابلس، ويقصد عموم المدينة

منذُ احتَلَلْتُمْ وشُؤْمُ العيشِ يُرهِقُنا فقراً وجَوْراً وإِتعاساً وإِفسادا
بِفضلِكُمْ قد طَغَى طُوفَانُ هِجرَتِهِمْ وكانَ وعداً تَلَقَّيْناهُ إِيعَادا

كالفَيَضان الذي حل بنابلس ثمة طُوفان هو هجرة اليهود التي سهل أمرها المحتلون البريطانيون، كانت وعداً، هو وعد بلفور، وتحولت إلى إيعاد، تهديد لوجودنا

واليومَ، مِن شُؤْمِكُمْ، نُبْلَى بِكارثةٍ هذا هُوَ الطينُ والماءُ الذي زَادا

واليوم لشؤمكم علينا نبتلى بكارثة الفيضان.. وينظر الشاعر إلى ما جاء به الفيضان من طين ووحل، ويخطر بباله المثل «زاد الطين بِلَّة»

١٩ أيها الثقيل!

أنتَ كالِاحتلالِ زَهْواً وكِبْراً أنتَ كالِانتدابِ عُجْباً وتِيها

العجب والتيه: التكبر

أنتَ كالهِجرةِ التي فَرضُوها ليس مِنْ حيلَةٍ لِقَوْمِكَ فيها

أنت أيها الثقيل كهجرة اليهود القادمين إلى فلسطين أفواجاً ولا حيلة لنا فيها، وكذا لا حيلة لنا فيك

أنتَ أَنْكَى مِنْ بائِعِ الأرضِ عندي أنتَ أَعذَارُهُ التي يَدَّعيها
لكَ وَجْهٌ كأَنَّهُ وجهُ سِمسا رٍ على شَرطِ أن يَكُونَ وَجيها

وجهك كوجه السمسار بائع الأرض للعدو، شرط أن يكون سمساراً من الوجهاء الأثرياء فهذا أقبح له

وجَبينٌ مثلُ الجريدَةِ لَمَّا لم تَجِدْ كاتباً عفيفاً نزيها

وحديثٌ فيه ابْتِذالُ «احتِجاجٍ» كُلَّما نَمَّقُوهُ عادَ كَريها

حديثك فيه ابتذال كابتذال عرائض الاحتجاج التي كان الناس «يرفعونها» للسلطات المحتلة بدل أن يقاوموا الاحتلال

جُمِعتْ فيكَ عُصْبةٌ للبَلايا وأرى كلَّ أُمَّةٍ تَشْتَكِيها

هذا أسلوب «الاستطراد» في الشعر، وقد قعَّد له أبو تمام؛ فعندما قال في امرأة (يا نَكبَةً هَشَمَتْ أَنْفَ السُّرورِ بِها/ وميتَةً أَبقَتِ العُزَّابَ عُزَّابا) سأل تلميذه البحتري: ما هذا؟ فقال البحتري: لا أدري. فقال أبو تمام: هذا الاستطراد.. أن تُوهم السامع بمعنى وأنت تقصد غيره. وفي البيت يترحم أبو تمام على المرأة المتوفاة لأن السرور زال بموتها، وعاد العزاب عزاباً بحق، وهو يقصد أنها كانت تلهو ـ على الأقل ـ معهم. فهو يهجوها ويُكَشِّخ زوجها في الحقيقة. وطوقان فرش الاستطراد على قصيدة يوهمنا فيها أنه يهجو ثقيلاً من الثقلاء ولكنه يرمي إلى هجاء السماسرة والصحفيين المنافقين. راجع في «الاستطراد» الشعري أمثلة كثيرة سقناها في كتابنا «تجدد الشعر» وهو الجزء الثاني من خماسية «الزبدة» التي بيديك جزؤها الأخير

٢٠ لنا خصمان

أَمامَكَ أيُّها العربيُّ يومٌ تَشيبُ لِهَوْلِهُ سودُ النَّواصي

وأنتَ، كما عهِدْتُكَ، لا تُبالي بِغيرِ مظاهرِ العَبَثِ الرِّخاصِ

لنا خَصمانِ: ذو حَوْلٍ وطَوْلٍ وآخرُ ذو احتِيالٍ واقْتِناصِ

لنا خصمان، أحدهما له حول وطول: جبروت وقوة، وهو البريطانيون، والآخر محتال يقتنص أرضنا اقتناصاً هو اليهود

تَواصَوْا بينَهُمْ فأَتَى وَبالاً وإذلالاً لنا ذاك التواصي

تواصوا: اتفقوا وأوصى بعضهم بعضاً

مناهجُ للإِبادَةِ واضِحاتٌ وبِالحُسنَى تُنَفَّذُ والرَّصاصِ

٢١ يا زعماءنا

أنتُمُ المُخْلِصُونَ لِلوَطَنِيَّةْ أنتمُ الحامِلونَ عِبْءَ القَضيَّةْ

يسخر من زعماء فلسطين أيام الاحتلال البريطاني

أنتُمُ العامِلونَ مِن غيرِ قولٍ بارَكَ اللَّهُ في الزُّنودِ القَوِيَّةْ

وبَيانٌ منكُمْ يُعادِلُ جيشاً بِمُعَدَّاتِ زَحفِهِ الحربِيَّةْ

واجتِماعٌ منكُمْ يَرُدُّ علينا غابِرَ المجدِ مِنْ فُتوحِ أُمَيَّةْ

وخَلاصُ البلادِ صَارَ على البا ... بِ، وجَاءَتْ أعيادُهُ الوَرْدِيَّةْ
مَا جَحَدْنا أَفْضَالَكُمْ غيرَ أنّا ... لم تَزَلْ في نفوسِنا أُمْنِيَّةْ
في يَدَيْنا بَقيَّةٌ مِنْ بلادٍ ... فاسْتَريحُوا كيْ لا تَطيرَ البَقِيَّةْ

٢٢ الرقم ألف

يُهاجِرُ أَلْفٌ، ثم أَلْفٌ مُهَرَّباً ... ويَدخُلُ أَلْفٌ سَائِحاً، غيرَ آيِبِ

يدخل اليهود فلسطين بالهجرة المسموح بها من قبل المحتل البريطاني، وبالتهرب، ويدخلون سياحة لكن بلا إياب

وأَلْفُ جوازٍ ثم أَلْفُ وسيلةٍ ... لِتسهيلِ ما يَلْقَوْنَهُ مِنْ مَصاعِبِ
وفي البحرِ آلافٌ كأنَّ عُبابَهُ ... وأَمواجَهُ مَشحُونةٌ في المَراكِبِ

وفي البحر مراكب تقل آلاف اليهود، فكأن عباب البحر وأمواجه هي الموجودة داخل السفن لكثرة ما بها من البشر

بَني وَطني، هل يَقْظَةٌ بعدَ رَقْدَةٍ؟ ... وهل مِنْ شُعاعٍ بين تلكَ الغَياهِبِ؟
فَوَاللَّهِ ما أَدري، ولِلْيأْسِ هَبَّةٌ، ... أُنادي أَميناً أم أُهيبُ بِراغِبِ؟

هل أنادي أمين الحسيني أم راغب النشاشيبي الزعيمين اللذين كانا يتنازعان على الزعامة؟

٢٣ لمن الربيع؟

أَرَأَيْتَ مملكةَ الربيـ ... ـعِ، يُعيدُ رَونَقَها الربيعُ؟
ويُتَوَّجُ الراعي بها ... مَلِكاً، رَعِيَّتُهُ القطيعُ
الذئبُ يَرهَبُهُ، ويَلْـ ... ـثِمُ كَفَّهُ الحَمَلُ الوَديعُ

يلثم: يقبّل

فَرَحُ الربيعِ لِمَنْ له ... أرضٌ، وليسَ لِمَنْ يَبيعُ

٢٤ أوهام الظُّلَّام

علامَ احتِراسُكِ؟ لا أَعلَمُ ... وفيمَ احتِشادُكِ؟ لا أَفهَمُ

حشدت حكومة الاحتلال البريطاني في فلسطين قواتها تحسباً من مظاهرات في «موسم النبي موسى»، وهو موسم شعبي شبه ديني يقام سنوياً قرب أريحا ويحضره المنشدون والفرق الصوفية والباعة المتجولون

وهـل فـي فِلَسطـيـنَ مـا تَـرهَـبـيـنَ سـوى أنَّـه اجـتَـمَـعَ «الـمـوسِـمُ»؟
جَـوادٌ بِـراكِـبِـهِ عـاثِـرٌ وأيـنَ لـه الـفـارسُ الـمُـعْـلَـمُ؟

فلسطين مثل حصان يعثر براكبه، ولا فارسَ معلماً له، أي الفارس الذي يضع شارة التميز والبطولة

وسـيـفٌ بِـحـامِـلِـهِ سـاخِـرٌ وأيـن لـه الـكـفُّ والـمِـعْـصَـمُ؟
مَـظـاهِـرُ، لـيـس بِـهـا مـا يُـخـيـفُ ولـكـنَّـمـا خَـافَ مَـنْ يَـظْـلِـمُ

٢٥ عزة الإسلام

يـومٌ بِـداجِـيَـةِ الـزمـانِ ضِـيـاءُ وبَـهـاؤُهُ لِـلـخـافِـقَـيْـنِ بَـهـاءُ

مولد النبي كان يوماً مضيئاً في ظلام الزمن، وكان بهاء هذا اليوم وإشراقه بهاء للخافقين، الشرق والغرب

وإذا مِـنَ الـفَـوضَـى نِـظـامٌ مـعـجِـزٌ وقِـيـادَةٌ وسِـيـادةٌ ودَهـاءُ

الإسلام جاء بالنظام المعجز بعد الفوضى

وإذا الـخِـيـامُ قُـصـورُ أَمْـلَاكِ الـوَرى وإذا الـقِـفـارُ دِمَـشْـقُ والـزَّوْرَاءُ

خيام العرب تحولت بالإسلام إلى قصور لملوك البشر، وقفار العرب وصحراؤهم صارت حواضر الدنيا كدمشق والزوراء، بغداد

وعـلـى رُبُـوعِ الـصـيـنِ كَـبَّـرَ فَـيْـلَـقٌ وبِـأرْضِ قُـسْـطَـنـطـيـنَ رَفَّ لِـواءُ

أرض قسطنطين: بلاد الروم، تركيا الحالية

تـلـكَ الـخَـوارِقُ إنْ طَـلَـبْـتَ أَدِلَّـةً ثَـبَـتَ الـبُـراقُ بِـهِـنَّ والإِسْـراءُ

هذا التمدن السريع وتلك الانتصارات الباهرة المعجزة أدلة تثبت حدوث معجزات أخرى كالبراق الذي أسرى بالنبي ثم عرج به إلى السماء

نزلَ الكِتابُ على النَّبِيِّ محمَّدٍ، ما يَصنعُ الخُطباءُ والشعراءُ!

القرآن جعل الخطباء والشعراء يدركون أن بلاغتهم ضئيلة القيمة بجانبه

نَـادَيْـتُ قَـومـي لا أُخَـصِّـصُ مُـسـلِـمـاً أَبـنـاءُ يَـعْـرُبَ فـي الـخُـطـوبِ سَـواءُ

أبناء يعرب: يعني العرب جميعاً. فإذا قال البحتري «نحن، أبناءَ يعرب، أعرب الناس لساناً» فهو يعني اليمانيين ليس غير

إنَّ الـكـتـابَ شَـريـعَـةُ اسـتِـقـلالِـكُـمْ فَـتَـدَبَّـرُوهُ وأنـتُـمُ الـخُـلَـفـاءُ

القرآن دستوركم إذ تسعون للاستقلال، فتدبروا معانيه فهو في مقام الدستور وأنتم في مقام الخلفاء

٢٦ الزلزال

أَدُمـوعُ الـنِّـسـاءِ والأطـفـالِ تجرحُ القلبَ أم دُموعُ الرجالِ؟
بَـلَـدٌ كـانَ آمِـنـا مـطـمـئـنـاً فـرمـاهُ الـقـضـاءُ بـالـزِّلـزالِ
مَـادَتِ الأرضُ ثـم شَبَّتْ وأَلْقَتْ مـا عـلـى ظـهـرِهـا مِـنَ الأَثْـقـالِ

مادت الأرض ومالت، ثم شبت، ارتفعت، ورمت ما عليها من أبنية

فـإذا الـدُّورُ وَهْـيَ إِمَّـا قـبـورٌ تـحـتَـهـا أهـلُـهـا، وإِمَّـا خَـوالِ

خوال: خالية من الناس. وفي زلزال ١٩٢٧ بفلسطين، خرج أهالي نابلس من بيوتهم وتفرقوا في الجبال

رَبِّ إنَّ الـكُـروبَ تَـتْـرَى عـلـيـنـا حَـسْـبُـنـا كَـرْبُ هِـجْـرَةٍ واحـتِـلالِ

تترى: متوالية، والهجرة المقصودة: هجرة اليهود إلى فلسطين، فشاعرنا مات قبل أن يهجَّر الفلسطينيون من بلدهم

٢٧ الطريق المعبد

لـي بـالـحـيـاةِ تَـعَـلُّـقٌ وتَـشَـدُّدُ والعُـمرُ ما بَعْدَ الـمَدى فَسيَنْفَدُ
نَـفَـسٌ أُرَدِّدُهُ وأعـلَـمُ أنَّـهُ لِـلـموتِ بيـن جـوانِـحي يَـتَـرَدَّدُ

يتردد نَفَسي بين أضلاعي وكأنه خطوات المسير نحو الموت

ويُـلِـمُّ بـي أَلَـمٌ أُخَـاتِـلُـه بِـمـا يَصِفُ الطبيبُ فَيَسْتَكِينُ ويَخْمُدُ

أخاتله: أخادعه

ويَسُرُّني أَنِّي نَجَوْتُ مِن الأَذى، ويْـلـي! كـأَنِّيَ إنْ نَجَوْتُ مُخَلَّدُ
وكـأنَّـنـي ضَـلَّـلْتُ سيْـرَ مَـنِيَّـتـي إنَّ الـطـريـقَ إلـى الـفَـنـاءِ مُـعَـبَّـدُ

كأنني بتناول الدواء قد جعلت موتي يضل الطريق إليَّ.. لكن، هيهات، فطريق الموت معبد

هيهاتَ لستَ بِخادِعٍ عَينَ الرَّدَى عينُ الرَّدَى يَقظَى، وعَيْنُكَ تَرقُدُ

٢٨ رثاء شريف مكة

رحـمـةُ الـلَّـهِ عـلـيـهِ إنـهُ غـالَـهُ الـيـأسُ، وكـانَ الأَمَـلا
ويْـحَ قـومٍ خَـذَلُـوهُ بـعـدمـا أخـذُوا الـمـيـثـاقَ أَلَّا يَـخْـذُلا

ويح الإنجليز الذين غدروا بشريف مكة وخذلوه بعد أن أخذوا تعهداً منه ألا يخذُلهم هو في حربهم ضد الدولة العثمانية

كـادَتِ الـكـأسُ الـتـي فـي قُـبـرُصٍ   تُـشْـبِـهُ الـكـأسَ الـتـي فـي كَـرْبَـلا

كاد موته منفياً في قبرص، ١٩٣١، يشبه مقتل الحسين بن علي في كربلاء

٢٩ رثاء فيصل العراق

شَيِّعي الليلَ وقُومي استَقْبِلي   طَلْعَةَ الشمسِ وراءَ الكَرمِلِ

يا فلسطين ودعي ليلك وقومي استقبلي طلوع الشمس وراء جبل الكرمل بحيفا.. وكان جثمان فيصل ملك العراق قد نقل من سويسرا حيث توفي، ١٩٣٣، إلى ميناء حيفا في طريقه إلى مثواه الأخير في بغداد، وخرج الفلسطينيون يستقبلون الجثمان

واخْشَعي! يُوشِكُ أنْ يَغْشَى الحِمَى   يا فِلَسطينُ سَنىً مِنْ فيصلِ

اخشعي يا فلسطين، اخفضي بصرك، إذ يكاد يغشى البلاد سنى، نور ساطع، من فيصل

ذلكَ الفُلْكُ الذي يَحْمِلُهُ   مِثْلَهُ منذُ جَرى لم يَحْمِلِ

الفلك، أي السفينة، الذي حمل فيصلاً لم يحمل شخصاً مثله منذ أن جرى في الماء، أي منذ أن صنع البشر السفن

لو تَعَدَّى لُجَّةَ البحرِ به   خاضَ في لُجَّةِ دَمْعٍ مُسْبَلِ

لو أن السفينة خرجت من البحر إلى اليابسة فلا بأس.. ستخوض في بحر من الدموع المسبلة الهاطلة حزناً على الفقيد

رَاقِدٌ يَنْعُمُ في ضَجْعَتِه   خَلَّفَ الدُّنيا بهِ في شُغُلِ

مات فيصل وترك الدنيا منشغلة بذكره والحزن عليه

أيقَظَ اللَّوعَةَ فيها والأسى   وغفا بينَهما لم يَحْفِلِ

ما الذي أعددْتِ مِن طِيبِ القِرى   يا فِلَسطينُ لِضيفٍ مُعْجَلِ؟

القرى: طعام الضيف

لا أرى أرضاً نُلاقيهِ بِها   قد أضاعَ الأرضَ بَيْعُ السِّفَلِ

أضاع الأرض السفلة الذين باعوها لليهود

فاسْتُري وَجْهَكِ لا يَلْمَحْ على   صَفحَتَيْهِ الخِزيَ فوقَ الخَجَلِ

مَن هَفا لِلمَثَلِ الأعلى يَجِدْ   في بَني هَاشِمٍ اعْلى مَثَلِ

هفا: اشتاق

أَيُّكُمْ يا آلَ بيتِ المصطفى   ما قضى مُستَشْهِداً منذُ عَلي؟

٣٠ حسرة على وطن يتسرب

وطني أخافُ عليكَ قوماً أَصبحُوا يَتساءلون: مَنِ الزعيمُ الأَلْيَقُ؟
لا تفتَحُوا بابَ الشِّقاقِ فإنَّهُ بابٌ على سُودِ العَواقبِ مُغْلَقُ

باب الشقاق، والاختلاف، مغلق فإن فتحتموه فوراءه عواقب وخيمة

أمَّا الزَّعامَةُ فالحوادِثُ أُمُّها تُعطَى على قَدْرِ الفِداءِ وتُرْزَقُ

الزعامة تنال بوقوف الزعيم في وجه الحوادث التي تحل بالبلد، وبقدر ما يقدم من تضحية

يا ابنَ البلادِ، وأنتَ سَيِّدُ أرضِها وسمائِها، إنِّي عليكَ لَمُشْفِقُ
ماذا يَرُدُّ الظُّلْمَ عنكَ، أَحَسْرَةٌ أم زَفْرةٌ، أم عَبْرةٌ تَترَقْرَقُ؟
لا تَلْجَأَنَّ إذا ظُلِمْتَ لِمَنْطِقٍ فهناكَ أَضْيَعُ ما يَكُونُ المنطِقُ

لا ينفع المنطق، أي الكلام والخطابات والاحتجاجات، في مواجهة الظلم، فلا بد من مقاومة

٣١ رثاء الشيخ سعيد الكرمي

سلفٌ صالحٌ، بقيَّةُ قومٍ باركَ اللَّهُ عَهدَكُمْ في العُهودِ
عَرفُوا الخيرَ، أكرَمُوا فاعِليهِ جَهِلُوا اللُّؤمَ جَهْلَهُمْ لِلجُحودِ
وإذا ما تَجَرَّدُوا لِعَداءٍ وَقَفُوا بِالعَداءِ عندَ حُدودِ

هذا معنى يدركه كرام الناس فقط

مَا أَشَدَّ افتِقارِنا لِسُمُوِّ الْـ ـخُلْقِ في هذهِ الليالي السُّودِ
مَا لَكُمْ! بَعْضُكُمْ يُمَزِّقُ بَعضاً أَفَرَغْتُمْ مِنَ العدوِّ اللَّدودِ؟
إِذْهَبوا في البلادِ طُولاً وعَرضاً وانظُروا ما لِخَصْمِكُمْ مِنْ جُهودِ

انظروا جهود خصمكم اليهودي الذي يبني المستوطنات ويتسلح

والمَسُوا بِاليدَيْنِ صَرحاً مَنيعاً شادَ أَركانَهُ بِعزمٍ وَطيدِ

٣٢ المخدوعون

تَمَكَّنَ الذُّلُّ مِن قومي فلا عَجَبٌ أَلَّا يُبالوا بِتقريعٍ وتأنيبِ
ما أشرفَ العُذْرَ لو أنَّ الوَغَى نَثَرتْ أَشلاءَهُمْ بين مَطْعونٍ ومَضْروبِ

كان يكون لهم عذر لو أن الحرب نثرت أشلاءهم قتلى

لكنْ دهَتْهُمْ أساليبُ العُداةِ وهُمْ   سَاهُونَ لاهُونَ عن تلكَ الأساليبِ
لكنهم وقعوا في شراك أساليب الأعداء

ويَقنَعُونَ بِمَبْذُولٍ يُلَوِّحُهُ   مُستعمِرُوهُمْ بِتَبْعيدٍ وتَقريبِ
ويقنعون بما يمنحه لهم المحتل من فتات، وما يقدمه من وعود، وبتبعيده وتقريبه، و«التبعيد والتقريب» تعني الدهاء السياسي، واللفظ جاء عند البحتري (أَحْكَمْتَ مَا دَبَّرْتَ بِالتَّبْعِيدِ، والتَّـ ـقْرِيبِ، والتَّصْعِيبِ، والتَّسْهِيلِ)

كأنَّهُمْ لم يُشَيِّدْ مَجْدُ أَوَّلِهِمْ   على السيوفِ وأَطرافِ الأَنابيبِ
أطراف الأنابيب: أطراف الرماح

٣٣ رثاء أديب منصور

وقد اغتالته العصابات الصهيونية بقنبلة موقوتة وكان زميلاً للشاعر في الإذاعة الفلسطينية

تُفيضُ أكالِيلَهُ طِيبَها   ودونَ شَمائِلِهِ كلُّ طيبْ
الأكاليل على قبره تبعث عطر أزهارها، ولكن شمائله، خصاله وصفاته، أحسن من كل طيب

وعُدْتُ عنِ القبرِ في العائدينَ   أمامي نَحيبٌ وخَلْفي نَحيبْ

٣٤ يا طير!

قُلتُ للطيرِ حينَ أصبحَ يَشدُو: أيها الطيرُ عِمْ صَباحاً! فَرَدَّا
ثُمَّ غَنَّى أُنشودةً عن حبيبٍ   لم يكنْ ظالماً ولا خانَ عَهْدا
أَضرَمَ الذِّكرياتِ بي ثم وَلَّى،   لا رماكَ الصيَّادُ، أَسرَفْتَ جِدًّا
أشعل هذا الطائر الذكريات بقلبي ثم طار، وأدعو لك أيها الطائر ألا يرميك صياد، لكنك أسرفت في بعث ذكرياتي من مرقدها

٣٥ في المكتبة

وغَريرةٍ في المكتبةْ   بجمالِها مُتَنَقِّبَةْ
كأنها تضع نقاباً على وجهها هو في الواقع جمالها

جلستْ لِتقرأَ أو لِتكـ   ـتُبَ ما المعلمُ رَتَّبَهْ
فدنوْتُ أَسْتَرِقُ الخُطَى   حتى جلستُ بِمَقْرُبَةْ

وحــبــســـتُ، حــتـــى لا أرى،   أنــفـــاسِــيَ الــمُــتَــلَــهِّــبَـةْ
ونَــهَــيْــتُ قــلــبــي عــن خــفــو   قٍ فـــاضــحٍ، فَــتَــجَــنَّــبَــهْ
رَاقَــبْــتُــهـــا، فــشــهِــدْتُ أنَّ ـ   الــلَّــهَ أجْــزَلَ فـــي الــهِــبَــةْ
حَــمَــلَ الــثَّــرى مــنــهــا عــلــى   نُــورِ الــيَــديــنِ وقَــلَّــبَــهْ

عندما خلقها الله حمل ترابها على نور يديه وقلبه تقليباً، وهو يصنع منه طينها

وسَــقـــاهُ فـــي الــفِــرْدَوْسِ مَــخْــ   ــتــومَ الــرَّحــيــقِ ورَكَّــبَــهْ

وسقى ترابها من الرحيق الفردوسي المختوم، من خمر الجنة المختوم عليه في دنانه، وركّب من التراب والخمر طين هذه المخلوقة

فـــإذا بِـــهـــا مَـــلَـــكٌ تَـــنَــزَّ ـ   لَ لِــلْــقــلــوبِ الــمُــتــعَــبــةْ

فكأنها من الملائكة

يـــا لـــيـــتَ حَـــظَّ كِــتــابِــهــا   لِــضُــلــوعِــيَ الــمُــتَــعَــذِّبَــةْ

ليت ضلوعي بيديها بدل كتابها

حَــضَــنَــتْــهُ تــقــرأُ مــا حَــوى   وحَــنَــتْ عــلــيــهِ ومــا انْــتَــبَــهْ

حمار هذا الكتاب الذي لم ينتبه إلى أن أليس تحتضنه (لعل القصيدة قيلت في «أليس تين» الشامية التي كانت تدرس في الجامعة الأميركية آنذاك وفتنت عقول عدة شعراء منهم العراقي والشامي والفلسطيني، وهي الآن في الغالب قد رجعت إلى تراب الله، إلا إن كانت عمرت إلى سن المئة وعشر سنين)

فـــإذا انـــتَـــهـــى وجـــهُ ونـــا   لَ ذَكـــاؤُهـــا مـــا اسْـــتَـــوعَـــبَـــهْ

وجه: أي صفحة

سَــمــحَــتْ لأَنْــمُــلِــهــا الــجــمــيــ   ــلِ بِــريــقِــهــا كــي تَــقْــلِــبَــهْ
وسَــمِــعْــتُ وَهْــيَ تُــغَــمْــغِــمُ الــ   ــكَــلِــمــاتِ نَــجــوى مُــطْــرِبَــةْ

يقول الشارح: كأنها كبعض زميلاتي عفا الله عنهن، ممن كن يدرسن بالتمتمة، لا تعرف عيونهن القراءة بلا لسان

ورأيْـــتُ فـــي الـــفَـــمِ بِـــدعـــةً   خَـــلَّابـــةً مُـــسْـــتَـــعْـــذَبَـــةْ
إِحـــدَى الـــثَّـــنـــايـــا الـــنَّـــيِّـــرا   تِ، بَـــدَتْ، ولـــيـــسَ لـــهـــا شَـــبَـــهْ

الثنايا: الأسنان، النيرات: اللامعات

مَـــثْـــلُـــومَـــةً مِـــن طَـــرْفِـــهـــا   لا تَـــحْـــسَـــبَـــنْـــهـــا مَـــثْـــلَـــبَـــةْ

سنها مكسور من طرفة، لكن هذا ليس مثلبة، ليس عيباً

هِيَ، لو عَلِمتَ، مِنَ المَحا سِنِ عندَ أرفَعِ مَرتَبَةْ
هِيَ مَصدرُ السَّيناتِ تُكْـ ـسِبُها صَدىً، ما أعْذَبَهْ

كان ثاحبنا يتمتع بكلامها، وللناث فيما يعشقون مذاهب

٣٦ القلب القافز

سَلامٌ عليكِ ولو شَفَّني مِنَ الوجْدِ واليأسِ ما شَفَّني

شفني: أهزلني وأنحل جسمي

أداري غَرامَكِ جَهْدَ الحليمِ فما يَستريحُ، وما أنْثَني
وقلبي كما يِشتَهيهِ الهوى لِغيرِ جَمالِكِ لم يُذْعِنِ
خَفُوقٌ، ولو شِئتِ سَكَّنْتِهِ ولو شاءَ غيرُكِ لم يَسْكُنِ
سَقيمٌ، ولو شئتِ أبْرَأْتِهِ بِعَطْفِكِ مِنْ دائِهِ المُزْمِنِ
إذا كنتِ منهُ تِجاهَ اليَمينِ يَخِفُّ إلى جانِبِي الأيْمَنِ

يقفز قلبه إلى الجانب الأيمن إن كانت المحبوبة تجلس إلى يمينه

٣٧ طيفها

ما أشدَّ الهوى، وما أطولَ الليـ ـلَ، وما أبعدَ الكرى عن جفوني
رُبَّ ذكرى، وما هَجَعْتُ، استحالت لخيالٍ سرى فأذْكى شجوني

رب ذكرى استحالت، أي تحولت، قبل أن أنام إلى خيال، طيف، فأذكى، وأشعل، هذا الطيف مشاعري

ضَمَّني، ثم ردَّني وتلاشى في الدياجي كما تلاشى أنيني
راعَني أمرُه فنبَّهتُ مَن حو لِيَ ذُعراً بِصَرخةٍ في السكونِ
سألوني فلم أُجِبْ، بل تناوَمْـ ـتُ، فناموا، ولِلأسى خَلَّفُوني

٣٨ حبيبتي أحلى

ما رَونقُ الفجرِ والظلماءُ عاكفةٌ إذا تَنَفَّسَ نُوراً في حناياها . .

يبدأ تشبيهاً طويلاً: ليس رونق الفجر، أي أوله، عندما يتنفس الفجر ويبدأ بالظهور في حنايا الظلماء ووسطها . .

فهَبَّتِ الطَّيرُ تَدعُو الطَّيرَ مرسِلةً مِن الأغاريدِ أحلاها وأشجاها
وتهب الطيور مستيقظة يدعو بعضها بعضاً بأحلى زقزقة وتغريد..

ولا الورودُ كأمثالِ الخُدودِ، وقد تَفتَّحَتْ في الرياضِ الفيحِ تَغشَاها..
وليست الورود، التي تشبه خدود الحسان، عندما تتفتح هذه الورود وتغشى وتغطي الرياض الفيح، أي الفيحاء العطرة..

كَلَّا ولا قَطَراتُ الطَّلِّ كامِنةً في الأُقْحُوانِ وأُمُّ الشَّهْدِ تَرعاها..
وليس قطرات الطل، أي الندى، المختبئة في الأقحوان، بينما أم الشهد، وهي النحلة، ترعى القطرات وتحنو عليها (أو إن شئت ترعى النحلات الأقحوانات مثلما يرعى الخروف العشب)..

يوماً بأجملَ مِن مَيٍّ إذا ابتسمَتْ تحت النِّقابِ ولاحتْ لي ثناياها
كل هذا ليس أجمل من ابتسامة ميّ تحت نقابها، وقد لمعت ـ برغم النقاب ـ أسنانها البيض

٣٩ وجع أسنان

رسالةٌ واهاً لها واها شَرِقَتْ بالدمعِ لِفَحواها
مِن غادةٍ عَذَّبني نأْيُها ما ضَرَّ لو كنتُ وإيَّاها
أضراسُها تُؤلِمُها ليتَني أَشكُو الذي سبَّبَ شكواها
تلكَ ثَناياها التي نُضِّدَتْ عِقدَيْنِ والمَكسُورُ إحْداها
والسن المكسور أحد هذه الأسنان التي تتشكل في عِقدين، وكلامه بلا شك عن فاتنته وزميلته في الجامعة الأميركية ذات السن المكسور

آثارُها في شَفَتي لم تزلْ يا ضُلَّ مَن يَجهَلُ مَعناها

٤٠ في دير قديس

لم ألقَ بين لَيالِيَّ التي سَلَفتْ كَلَيلةٍ بِتُّها في «دَيْرِ قِدِّيسِ»
دير قديس قرية فلسطينية

ضَمَمْتُ حسناءَ لم يُخلَقْ لها مَثَلٌ بين الحسانِ ولا حُورِ الفَراديسِ
ما عرشُ بِلقِيسَ في إبَّانِ دولتِها ولا سليمانُ مَزفوفاً لِبِلقيسِ
يوماً بأَعظَمَ مِنَّا في السريرِ وقد دامَ العِناقُ إلى قَرعِ النَّواقيسِ

٤١ كُفْر كَنَّا

جُزْتُ بِالحَيِّ في العَشِيِّ فَهَبَّتْ نَفْحةٌ أَنعشتْ فؤادي المُعَنَّى

جزت بالحي، أي مررت به، عِشاءً فهبت نسمة أنعشت قلبي المتعَب

قُلتُ: مِنها؛ ودُرْتُ أنظُرُ حولي نظراتِ الملهوفِ يُسرى ويُمنى

قلت لنفسي: لا بد أنها نسمة من عطر الحبيبة

وإذا طَيِّبٌ جَنِيٌّ مِن الرُّمَّـ ـانِ مثلُ النُّهودِ لَوْ هِيَ تُجنَى

فإذا بها رائحة رمان جني، مقطوف لتوه، كأنه النهود لو جاز عليها أن تقطف

وافَقَتْ نَظرَتي نِداءَ غُلامٍ: (ناصِرِي يا رُمَّانُ.. مِنْ كُفْرِ كَنَّا)

رأيت غلاماً ينادي على الرمان، وينسبه إلى مدينة الناصرة وقرية كفر كنا

قلتُ أَسْرِعْ به فِدىً لكَ مَالي وتَرَنَّمْ بِذكْرِهِ وتَغَنَّ

يا رسولَ الحبيبِ مِن حيثُ لم تَدْ رِ، لقد جِئتَني بِما أَتَمَنَّى

ذكره الرمان بغراميات كانت له في كفر كنا

٤٢ الشيء بالشيء يذكر

أُسائلُ البدرَ حَيرا نَ عنكِ إنْ هُوَ أَسْفَرْ

ذَكَرْتُ وجهَكِ فيه والشيءُ بالشيءِ يُذْكَرْ

كوني بِوُدِّكِ كالبد رِ فَهْوَ يَخفَى ويَظهرْ

ليكن ودك كالبدر يغيب ثم يظهر.. فأما ودك فهو غائب دائماً

٤٣ راكضاً نحو الحبيبة

رُبَّ يومٍ كأنَّما كَرَعَ البَحْـ ـرَ، فَغَطَّى السماءَ بِالمُعْصِراتِ

كأن هذا اليوم كرع، أي شرب، البحر، فتغطت السماء بالمعصرات، أي الغيوم

يَتزاحَمْنَ في الفضاءِ الهُوَيْنى مُسْبِلاتِ الذيولِ مُنهَمِراتِ

تتزاحم الغيوم في السماء لكنها تسير الهوينى، بطيئةً، وتسبل وترخي ذيولها على هيئة أمطار

عَصفَ الشوقُ يومَذاكَ بِأضلا عِي، فَأزْرى بثورةِ العاصفاتِ

الشوق هز صدري فأزرى بثورة العواصف أي صغَّرها بالنسبة إليه

لم يزلْ بيِ حتى تَجشَّمْتُ هولَ السَّـ ـير عَدْواً إلى الحبيبِ المُؤَاتي

ظل الشوق يعصف بي حتى تجشمت هول السير وتحمَّلت صعوبته ركضاً نحو الحبيب المؤاتي، الموافق لي في شعوره

أَتقرَّى بينَ الهضابِ طريقي مُستنيراً مَقادِحَ الزَّفَراتِ

أتقرى طريقي وأتحسسه بين الهضاب لشدة ما بالجو من قتامة، وتهديني في الطريق البروق التي كأنها تنقدح من زفرات قلبي المشوق

أَتْرَعَتْ لي كأسَ المُدامِ وقالتْ: هاكَ، لا تَرْفُضَنَّها بِحياتي!

ملأت لي الحبيبة كأس الخمر وقالت: بحياتي، لا ترفضها!

قلتُ: منها اشْربي قليلاً، فلمَّا مَزَجتْها بريقِها، قلتُ: هَاتي

طلب عمران القفيني تسويد هذا البيت.. أليس الريق هو البصاق يا صاحبي!

٤٤ حبيبة الأمس

كم قائلٍ: لو كنتَ تَلقاها لأَنكَرَتْ عَيناكَ مَرآها

ذابلةً ناحلةً، قد مَحَتْ يدُ الأَسى القاسي مُحَيَّاها

لا تَلْقَها، لا تَرَها، إنَّها مَرَّ بها الموتُ فَأَخطَاها

يقولون لي: لا تذهب للقاء حبيبتك القديمة، فهي نصف ميتة، كأن الموت قصدها لكنه أخطأ الطريق إليها

وسائِلٍ: هل بَقِيَتْ فَضْلةٌ لديكَ مِن حُبِّها وذِكراها؟

قد مَرَّ عامانِ وهَا ثالثٌ وواحدٌ كافٍ لِتَنساها

مر عامان، وها قد مر عام ثالث.. وكان عام واحد ـ لا ثلاثة ـ كافياً لكي تنساها

وأنتَ كالنحلةِ مِن زهرةٍ لِزهرةٍ تُسليكَ إيَّاها

تسليك: تنسيك

أَخطَأْتُما لم تَعرِفا ما الهوى كِلاكُما عَن كُنْهِهِ تاها

كنهه: حقيقته

السُّقْمُ لا يَصرفُ وجهَ امْرِئٍ عن وجهِ مَحبوبٍ وإنْ شَاهَا

شاه: أصبح مشوهاً

مَظلومةٌ سيِقَتْ إلى ظالمٍ نَغَّصَ مَغْداها ومَسْراها

هذه امرأة مظلومة زوجوها برجل ظالمٍ، فنغص مغداها ومسراها، أي ذهابها وإيابها

كـان أَبُـوهـا راعِـيـاً غـاشـمـاً، لـلـذِّئْـبِ لا لِـلـحُـبِّ رَبَّـاهـا

٤٥ أَعذارها

يـا حُـلوةَ الـعـينـيـنِ يـا قـاسِـيَـةْ سَـرعـانَ مـا أَصبحْـتِ لـي نَـاسـيَـةْ
سَـيِّـدتـي، ذنْـبُـكِ، مـهـمـا يَـكُـنْ، تــغـفِـرُهُ أَعـذارُكِ الـوَاهِـيَـةْ

٤٦ الحمائم البيض

بِـيضُ الـحَـمـائِـمِ حَـسْـبُـهُـنَّـهْ أَنِّـي أُرَدِّدُ سَـجْـعَـهُـنَّـهْ

الحمامات البيض يكفيهن فخراً أنني - أنا الشاعر - أردد غناءهن

رَمْـزُ الـسَّـلامَـةِ والـوَدا عَـةِ مـنـذُ بَـدْءِ الـخَـلْـقِ هُـنَّـهْ
فـي كـلِّ رَوضٍ فـوق دا نِـيَـةِ الـقُـطـوفِ لَـهُـنَّ أَنَّـةْ

لهن أنين في كل بستان فوق القطوف الدانية المتدلية القريبة

ويَـمِـلْـنَ والأغـصـانَ مـا خـطَـرَ الـنـسـيـمُ بِـرَوْضِـهِـنَّـهْ

يملن مع الأغصان كلما مر النسيم بالبستان

فـإذا صَـلاهُـنَّ الـهَـجـيـ ـرُ هَـبَـبْـنَ نـحـوَ غَـديـرِهِـنَّـهْ

إذا لسعتهن حرارة الشمس ذهبن إلى الغدير

يَـهـبِـطْـنَ بـعـدَ الـحَـوْمِ مِـثْـ ـلَ الـوَحْـيِ، لا تَـدري بِـهِـنَّـهْ

يحمن حوماً حول الماء ثم يهبطن بهدوء كأنهن الوحي الذي ينزل على الشاعر.. فالشاعر يأتيه الوحي والإلهام فجأة لا يدري كيف أتى.. وقد جاءك يا شاعرنا وحي مملوء الجراب بكل جميل في هذه القصيدة التي امتدحها كثيراً أخوك الأكبر أحمد طوقان وترنم بها مع أصحابه في بيروت

فـإذا وَقَـعْـنَ عـلـى الـغَـديـ ـرِ، تَـرتَّـبَـتْ أَسْـرابُـهُـنَّـهْ
صَـفَّـيْـنِ طُـولَ الـضَّـفَّـتَـيْـ ـنِ، تَـعَـرَّجـا بِـوُقُـوفِـهِـنَّـهْ

تقف الحمامات صفين على الضفتين ورغم أن الأسراب مرتبة فهي تُبرز تعرُّجَ الغدير لأنها تحدد ضفتيه بوضوح

كُـلٌّ تُـقَـبِّـلُ رَسْـمَـهـا فـي الـمـاءِ سـاعـةَ شُـرْبِـهِـنَّـهْ
يُـطـفِـئْـنَ حَـرَّ جُـسُـومِـهِـنَّ بِـغَـمْـسِـهِـنَّ صُـدورَهُـنَّـهْ
يَـقَـعُ الـرَّشـاشُ إذا انْـتَـفَـضْـ ـنَ لآلِـئـاً لِـرؤوسِـهِـنَّـهْ

تنتفض الحمائم فتقع نقاط من الماء فوق رؤوسهن فكأنها اللآلئ

وَيَطِرْنَ بَعدَ الإبْتِرادِ إلى الغُصونِ مُهودِهِنَّهْ
تُنْبيكَ أجنِحةٌ تُصَفِّقُ كيفَ كانَ سُرورُهُنَّهْ

تنبيك: تخبرك

ويُقِرُّ عينَكَ عَبْثُهُنَّ إذا جَثَمْنَ، بِريشِهِنَّهْ

يفرحك منظرهن وهن يعبثن قليلاً بريشهن عندما يجثمن أي يقعدن

وتَخالُهُنَّ بِلا رُؤوسٍ حينَ يُقبِلُ لَيلُهُنَّهْ
أَخْفَيْنَها تَحتَ الجَناحِ، ونِمنَ مِلءَ جُفونِهِنَّهْ
كم هِجْنَني ورَوَيْتُ عنْهُنَّ الهَديلَ، فَدَيْتُهُنَّهْ!

أنقل عنهن صوت الهديل الذي يصدرنه فكأنني راوية يروي ما يقلن

المُحسِناتُ إلى المريضِ، غَدَوْنَ أشباهاً لَهُنَّهْ
الروضُ كالمستشفياتِ، دَوَاؤُها إِيناسُهُنَّهْ

الدواء الحقيقي الموجود في المستشفيات هو الأنس الذي تدخله الممرضات على نفوس المرضى

مَا الكَهرباءُ وطِبُّها بِأَجَلَّ مِن نَظَراتِهِنَّهْ

ليس الطب الحديث أجلَّ، ولا أهمَّ، من نظرات الممرضات الحانية

يَشْفي العليلَ عَناؤُهُنَّ وعَطْفُهُنَّ ولُطْفُهُنَّهْ
مُرُّ الدواءِ بِفيكَ حُلْوٌ مِن عُذوبةِ نُطْقِهِنَّهْ
مَهلاً، فَعِندي فارقٌ بينَ الحمامِ وبينَهُنَّهْ
فَلَرُبَّما انقطعَ الحمائِمُ في الدُّجَى عن شَدْوِهِنَّهْ
أمَّا جميلُ المُحسِناتِ، ففي النهارِ وفي الدُّجُنَّهْ

الدجنة: الليل

٤٧ لم نوفر غادة

رَبِّ أَطعِمْني غُلاماً شاعراً لِدَواعِي الحُسْنِ مِثلي مُذْعِنا

أطعمني، ارزقني، يا رب ولداً شاعراً يذعن ويخضع مثلي للجمال

وَلْيَكُنْ مِثلَ أَبيهِ: إنَّنا لم نُوَفِّرْ غادةً في شِعرِنا

لم نوفر: لم نترك من معاكساتنا

٤٨ حلاوة الروح

بَـرَقَـتْ لـه مَـسـنـونـةٌ تَـتـلَـهَّـبُ　　أَمضَى مِنَ القَدَرِ المُتاحِ وأَغْلَبُ

برقت السكين للديك الرومي، ديك الحبش، مسنونة حادة غلابة كأنها القدر المتاح، القريب

حَزَّتْ فلا حَدُّ الحديدِ مُخضَّبٌ　　بِدَمٍ ولا نَحْرُ الذَّبيحِ مُخَضَّبُ

حزت السكين عنق الديك فلم يتخضب حديد السكين بالدم، ولا تخضب عنق الديك! فمن سرعة سير السكين لم يعلق بها دم

وجَرى يَصيحُ مُصَفِّقاً حيناً، فلا　　بَصَرٌ يَزُوغُ ولا خُطىً تَتَنَكَّبُ

ركض الديك حيناً، بعض الوقت، يصفق بجناحيه في مشية عادية وخطاه غير متنكبة بل ثابتة وبصره سليم لا يزوغ

حتى غَلَتْ بِيَ رِيبةٌ فَسأَلْتُهُمْ:　　خانَ السلاحُ أَمِ المَنِيَّةُ تَكذِبُ؟

تفاقمت في نفسي ريبة: هل أخفق حد السكين؟ أم أن الموت كذب ولم يأت للمسكين؟

قالوا: حَلاوةُ رُوحِهِ رَقَصَتْ بِه　　فَأَجَبْتُهُمْ ما كلُّ رَقْصٍ يُطْرِبُ

حلاوة الروح: الصحوة الأخيرة قبل الموت، وفيها ينشط الإنسان، وغير الإنسان، ويبدو كأنه شفي من مرضه

هَيهاتَ، دُونَكَهُ، قَضَى، فإذا به　　صَعِقٌ يُشَرِّقُ تارةً ويُغَرِّبُ

لكن هيهات.. فدونكه، أي انظر إليه! لقد جاءه الموت، وهو الآن صعق، مصعوق كأنما ضربته صاعقة، وأخذ يضطرب في مشيته

وإذا بهِ يَزْوَرُّ مُختَلِفَ الخُطى　　وزَكِيَّةٌ مَوْتُورَةٌ تَتَصَبَّبُ

أخذ يزورُّ، أي يميل، وخطاه تختلف يضع اليمين مكان اليسار والعكس مشية المخمور، وأخذت الزكية، أي دماؤه الزكية الحارَّة، تتصبب

يَعدُو فَيَجْذِبُهُ العَياءُ فيَرتَمي　　ويكادُ يَظفَرُ بالحياةِ فتَهْرُبُ

مُتَدفِّقٌ بِدمائِهِ مُتقلِّبٌ　　مُتعلِّقٌ بِذَمائِهِ مُتَوَثِّبُ

دمائه أخذت تتدفق، وهو يتقلب، ويتعلق بذمائه، أي ببقية روحه، وجسمه ينتفض وثباً

أَعَذابُهُ يُدعَى حَلاوَةَ رُوحِهِ؟　　كم مَنطِقٍ فيهِ الحَقيقةُ تُقْلَبُ!

إنَّ الحَلاوَةَ في فَمٍ مُتَلَمِّظٍ　　شَرَهاً لِيشرَبَ ما الضَّحِيَّةُ تَسْكُبُ

الطعم الحلو إنما هو في فم متلمظ، متمطق فيه حركة للِّسان على سقف الحلق، وهي ما يفعله الجائع المقبل على طعام شهي

هِيَ فَرحَةُ العيدِ التي قَامتْ على   أَلَمِ الحياةِ. وكُلُّ عيدٍ طَيِّبُ!

فرحة عيد الميلاد تقوم على ألم فقدان الحياة للديكة الرومية. وعلى كل حال: عيدكم مبارك! أراد بعض الناس أن يفسروا القصيدة تفسيراً سياسياً وطنياً، ولا أرى ذلك، كان شاعرنا مباشراً في وطنياته

٤٩ كثرة الشم

وَرْدَةٌ تَبْهرُ العُيونَ، ولكنْ   كثرةُ الشَّمِّ قد أضاعَتْ شَذاها

هكذا يتخيل الرجل المرأة اللعوب ذات العلاقات الكثيرة، وهذا بالطبع من باب حصرم. جاء الثعلب كرماً وقفز إلى العقود فقصر عنه، فقال: هو حصرم

٥٠ الدم الخفيف

وطبيبٍ رأى صحيفةَ وَجهي   شاحِباً لونُها وعُودي نَحيفا

قال لا بُدَّ مِن دَمٍ، لك نُعطيـ   ـهِ نقيّاً مِلْءَ العُروقِ عنيفا

لَكَ ما شئتَ يا طبيبُ، ولكنْ،   أعطِني مِنْ دمٍ يكونُ خفيفا!

التسويد لعمران القفيني

٥١ اقعد للمعلم

شوقي يقولُ، وما دَرى بِمصيبَتي: قُمْ لِلمعلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجيلا

يحيل إلى قصيدة شوقي في المعلم: قم للمعلم وفه التبجيلا/ كاد المعلم أن يكون رسولا

اُقْعُدْ، فديْتُكَ، هل يكونُ مُبَجَّلاً   مَن كانَ لِلنَّشْءِ الصغارِ خليلا؟

يرد على قول شوقي «قم» بقوله «اقعد».. ثم يندم الشاعر لقوله لأمير الشعراء «اقعد» فيردفها بـ «فديتك». والمعلم الذي يعاشر الصبية يصبح عقله صغيراً كعقولهم.. قالها الجاحظ، ونقولها، وقد قضينا في التعليم شطر العمر

ويكادُ يَفْلَقُني الأميرُ بقولِه: كادَ المعلمُ أن يكونَ رسولا

يفلقني: يغيظني حتى ليشقني شقاً

لو جرَّبَ التعليمَ شوقي ساعةً   لَقضَى الحياةَ شَقاوةً وخُمولا

الخمول: قلة الشهرة

حَسْبُ المعلمِ غُمَّةً وكَآبةً   مَرأى الدفاتِرِ بُكرَةً وأَصيلا

مِئةٌ على مِئةٍ إذا هِيَ صُلِّحَتْ   وَجَدَ العَمَى نحوَ العيونِ سبيلا
ولو انَّ في التَّصليحِ نَفْعاً يُرتَجى   وأَبيكَ، لم أَكُ بِالعيونِ بَخيلا
لكنْ، أُصَلِّحُ غَلْطةً نَحْوِيَّةً   مَثلاً، وأَتَّخِذُ الكتابَ دليلا

الكتاب: القرآن

مُسْتشهداً بِالغُرِّ مِن آياتِه،   أو بِالحديثِ مُفَصَّلاً تفصيلا

استشهد بآيات الكتاب الكريم الغراء، وبحديث الرسول

وأغوصُ في الشِّعرِ القديمِ فَأَنْتقي   ما ليس مُلتَبِساً ولا مَبْذُولا

يستشهد بأبيات لا لبس في دلالتها، وليست من الأبيات المبذولة التي كثر دورانها على الألسن

وأكادُ أَبعَثُ سِيبَوَيْهِ مِنَ البِلَى   وذَوِيهِ مِن أهلِ القُرونِ الأُولى

البلى: تحلل الجسم بعد الموت

فَأَرى حِماراً بعدَ ذلكَ كُلِّهِ   رفعَ المُضافَ إِليهِ والمفعولا
لا تَعجَبُوا إنْ صِحْتُ يوماً صَيْحةً   ووقعتُ ما بينَ البُنوكِ قَتيلا

البنوك: مقاعد التلامذة ذوات المناضد الملتصقة بها

يا مَنْ يُريدُ الِانتِحارَ! وَجدْتَهُ   إنَّ المعلِّمَ لا يعيشُ طويلا

لمن يريد انتحاراً! قد وجدتَ الانتحار يا هذا.. كن معلماً. فالمعلم لا يعيش طويلاً

٥٢ نعمة العافية

إِليكَ تَوجَّهْتُ يا خالِقي   بِشُكرٍ على نعمةِ العافِيةْ
إذا هِيَ وَلَّتْ، فَمَنْ قادِرٌ   سِواكَ على رَدِّها ثانيةْ؟
وما لِلطبيبِ يدٌ في الشِّفاءِ   وَلكنَّها يَدُكَ الشَّافِيَةْ
تَبارَكْتَ، أنتَ مُعيدُ الحياةِ   مَتى شِئتَ في الأَعْظُمِ البَالِيَةْ
وأنتَ المُفَرِّجُ كَرْبَ الضَّعيفِ   وأَنتَ المُجيرُ مِن العَادِيَةْ

العادية: المصيبة

إبراهيم طوقان
فهرس القوافي

عبد الكريم الكرْمي
(أبو سلمى)
(١٩٠٩ ـ ١٩٨٠)

كان أبو سلمى قد سمع من بعض الطلبة المغاربة في فلسطين أن أهاليهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم في الأندلس، فعندما أُخرج على وجهه من فلسطين احتفظ بمفتاح مكتبه وبيته. ليس للذكرى فقط، بل كان ككل فلسطيني لاجئ في ذلك الزمن موقناً بعودة سريعة. لم يكن ساذجاً سذاجة خليل السكاكيني الأديب الفلسطيني المشهور، الذي كان من العلم والاطلاع على درجة لا تغفر له سذاجته التي بدت في مذكراته الضافية. والسكاكيني ترك بيتاً جميلاً بناه بحُرِّ ماله في القدس الغربية. غير أن أبو سلمى لم يكن في حصافة زميله، الأكبر منه بأربع سنين، إبراهيم طوقان. فرغم أن طوقان مات قبل النكبة بسنين سبع، فإنه تنبأ بها في شعره، ووصفها كأنه يراها.

كان أبو سلمى يوم ترك مكتب المحاماة الذي يملكه في حيفا يخطو نحو الأربعين. كان رجلاً واعياً، وكان قد بنى لنفسه حياة في بلده، ثم إذا هو يُقتَلَع اقتلاعة سنرى لها في شعره كبير الأثر. أبو سلمى شاعر ما بعد النكبة، وطوقان شاعر ما قبل النكبة.

ولد عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) في طولكرم بفلسطين، وهي مدينة صغيرة. أو هي قرية كبيرة جعلها سعيد الكرمي وأولاده الكثيرون مدينة كبيرة بما أرسلوا من إشعاع ثقافي.

انظر أيها القارئ إلى كلمة «إشعاع ثقافي»، وأمعن النظر. أرأيت كيف صرتُ أكتب مثلهم، مثل الأكاديميين ـ جعلهم الله مُثلة ـ، وكانوا طالما زكموا أنفي وهم يتحدثون عن «لغة الشاعر» و«صوته الشعري» و«تجربته الشعرية».

كيف يمكن لامرئ يستعمل عبارة «تجربته الشعرية» أن يأتيك بشيء يسر قلبك؟

حتى وأنا أحدثك عن النكبة وضياع فلسطين.. كنت أحس أنني دخلت في زمرة اللاطمين المتحسرين. ليس أن العالم طيب، فالعالم ملعون. وليس أنني لم أتأثر شخصياً بالنكبة فالنكسة. ولكنني لا أريد أن أنوب عن شاعرنا الغاضب النائح. سأترك ميدان الغضب والنواح لأبو سلمى.

فقط غضبت على نفسي عندما قلت عبارة «إشعاع ثقافي».

أمامي كومة كتب ومقالات عن أبو سلمى وكلها اجترار قبيح. سمعت الموسيقى الأندلسية النائحة في فاس، وقرأت قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس. هذا فن. ولكنني لا أطيق أن أقرأ فقرة من النواح الأكاديمي على الأندلس أو على فلسطين. الأكاديميون ناس مجردون من الإحساس. يقرأون الشعر ويحُلُّونه، أي ينثرونه، حلّاً قبيحاً. يحملون بنادق خشبية يناضلون بها، وينفخون في بوق نحاسي يقلدون به صوت الكمان. هم كالنائحة ـ نيح عليهم ـ المأجورة التي تنوح لتطعم أطفالها.

كنت أقول إن الشاعر ولد في طولكرم. وهذه المدينة زرتها مرتين، ومرة. زرتها طفلاً صغيراً مع جدي. ومشى بي في سوق عتيق مسقوف. كان منظر الدكاكين وأمامها مصاطب يجلس عليها الناس يشربون شايهم، من المناظر التي انحفرت في ذاكرتي.

ومضت خمسون سنة وصورة ذلك السوق حية في ذهني. ولم أجرؤ على زيارة طولكرم ـ التي تبعد عن مدينتي ثلاثة وعشرين كيلومتراً ـ مرة أخرى. ليس للإبقاء على تلك الصورة المضمخة بطيب الطفولة، وليس خوفاً من رؤية هذا السوق وقد تغير أو باد. لست رومنسياً إلى هذا الحد. لكنه الكسل والجبن. أنا رجل لا أغامر، ولا أسافر، ولا أفعل شيئاً إلا إذا دعا إليه داع. أسافر إلى أقصى الأرض مأموراً بالسفر من جانب مديري، أو ملتمساً الرزق، أو مضطراً لأن أطفالي أمروني أن آخذهم إلى سيرك أو حديقة. السياحة شيء لا أفهمه، بلْهَ أن أرتكبه.

مضت خمسون سنة، ثم أمرني صديقي الإعلامي عبد الرحمن عثمان أن آخذه إلى طولكرم لشراء بذار خيار بلدي لصديقنا المشترك الإعلامي المخضرم حكم عبد الهادي، الذي اشتهى أن يزرع في حديقة بيته الجديد في بون خياراً

بلدياً ذا رائحة تملأ البيت، وليس كالخيار الألماني الذي نجد له في أفواهنا الشرقية طعم الكرتون. فشددت الرحال. رأيت السوق على حاله. تبدد السحر؟ لا، بل صار لهذا السوق في ذهني صورتان.

المرة الثالثة التي زرت فيها طولكرم كانت في أعماق الطفولة كالزيارة الأولى. أخذني عم من أعمامي لزيارة رجل من أصدقاء العائلة في طولكرم. وفي بيته رأيت تمثالاً لحصان ذهبي، وحدقت في التمثال. ليس تحديق طفل بريء. بل تحديق طفل غير بريء. لمست بشعور ربَّاني أن الرجل سيلتقط نظرتي، وقد يعطيني التمثال، وهذا ما حدث بالضبط. ولئن كنت طفلاً خبيثاً، فإنني صرت فيما تلا من الأعوام أبياً مترفعاً عن حاجات الغير، ربتني الأيام. وهذا مخاض طويل. لكن التمثال لبث في بيتنا سنوات كثيرة حتى تقشف ذهبه وبان من تحته الجبس الرخيص. رب اهدني السبيل إلى أن أكون مثل أبو خيري الجلاد، الرجل الطيب الذي أعطاني الحصان، فأسمحَ بما عندي وأُقرَّ عين طفل يتخابث، وطفل لا يتخابث.

لن أحدثك طويلاً عما أكسبتنيه الأيام من صفات حسنة، وأقسم بهذا الحرف العربي الذي أراه يتدفق على الشاشة أمامي أن عيوبي الباقيات كفيلة بإدخال أمة من الناس في جهنم. بعضنا يزهو متكبراً وبعضنا يزهو متواضعاً، وكله زهو.

عرفت من عائلة الكرمي أخا أبو سلمى، المعجمي المشهور حسن الكرمي. التقيته مرة واحدة وهو في التسعين. كانت بقيت له في الحياة عشر سنوات، فهو ممن مات عن مئة. وعرفت ابنتين لحسن الكرمي معرفة طيبة: سهام وغادة. أما شاعرنا الذي عاش حتى سنة ١٩٨٠ فما التقيته قط.

في طفولته الباكرة رأى أبو سلمى عساكر الترك يأخذون أباه مخفوراً من طولكرم إلى الشام. وعانت الأسرة الفاقة بعض الوقت. ولكن الشيخ سعيد الكرمي سرعان ما التحق بركب العروبة في الشام. زال الحكم التركي بانتهاء الحرب العالمية الأولى، والتحقت العائلة بعائلها في الشام. كان الشاعر في نحو العاشرة، ودرس في الشام. أبوه الشيخ سعيد رجل علم وشعر وفقه، وكانت له مكانة في بلده، وكانت له مكانة في الشام أيام الحكم العربي القصير، ولسعيد الكرمي شعر فيه ظرف ويشي بأن الرجل فقيه ذو أدب ولغة.

درس أبو سلمى في مكتب عنبر. ومكتب عنبر مدرسة حملت مشعل اللغة

العربية بعد زوال التتريك عن المدرسة. وفي فترة قصيرة تخرج فيها عدد من كبار الأدباء والشعراء.

في الشام بدأ أبو سلمى يقول الشعر. شجعه أستاذه. وأستاذ اللغة العربية في ذلك الزمن هو كأستاذ اللغة الإنجليزية في بلاد اللغة الإنجليزية في زمننا. أستاذ الإنجليزية عند الإنجليز هو أستاذ الضمير الوطني. هو الشخص المكلف بشحن التلاميذ بثقافتهم الوطنية. هو من يدخل شكسبير وبايرون وشلي في خلاياهم العصبية لتكون هذه الشوامخ الأدبية الطين والصخر في أرض التلميذ، فكل ما اكتسب بعدئذ في يفاعته وشبابه ورجولته من علوم ومعارف فهو مغروس في طين وجدانه الوطني. وأستاذ اللغة العربية في زمننا شخص نال في الشهادة الثانوية درجات قليلة، فحاول جاهداً أن يتخصص في الهندسة أو الطب فأخفق، فإن كان والده ثرياً بعثه إلى دولة فقيرة ليدرس الطب أو الهندسة، وإن كان والده متوسط الحال، فلا مكان له إلا كلية اللغة العربية الرديئة في جامعة عربية رديئة. ثم التدريس في مدارس سينقل إليها رداءته.

صادفت أربعة من أساتذة اللغة العربية الرديئين، وأنفقت ما قد يصل إلى سبع سنوات تحت سلطتهم لم أستفد فيها منهم شيئاً. وصادفت أحمد حماد، وبشير مقبول، ويوسف الأشقر، وكانوا ثلاثتهم ممن يحب العربية ويتقنها، وبمحبته لها يوصلها إلى طلابه. للثلاثة في عنقي دين.

كأنني كنت أتحدث عن أبو سلمى؟

أستاذه شجعه على قول الشعر. وذات يوم سمع منه بيتاً تغزل فيه بسلمى. ولا سلمى. هو اسم. وفي حصة مقبلة قال له: ها، ما جديدك يا أبو سلمى؟ فكان اللقب الذي غلب على اسم عبد الكريم الكرمي.

بعد الشام، كانت الأسرة في الأردن، والحكم فيها هاشمي كالحكم الذي زال عن الشام بدخول الفرنسيين. ثم درس أبو سلمى الحقوق في مدرسة بالقدس. ثم أدى الامتحان تحت السلطة الانتدابية البريطانية. وعمل في القدس وفي حيفا محامياً. وتزوج فتاة من عكا. وعندما اشتدت النكبة رحل أبو سلمى وزوجته وولده سعيد إلى الشام. وسُمح له هناك بممارسة المحاماة.

رأى النكبة بعينيه. رأى وطنه يغتصب. أيرى المرء أمه تغتصب ويظل الشخص نفسه؟ لم يبق لشاعرنا همٌّ في الحياة إلا أن يصرخ غاضباً يستنهض

همم العرب والمسلمين والسوفييت، ويشتم الزعماء المتقاعسين. لكنه لم يكن ملتاثاً. ظل يتسلل إلى القصيدة الغزلية، ويكتب قصائد للأطفال، وأخذ يحضر المؤتمرات. كان ذا مزاج شبه متمرد. تمرد محسوب في الغالب.

قال في فلسطين قبل النكبة قصائد أزعجت المحتل الإنجليزي، وأزعجت زعماء العرب. وقال بعد النكبة قصائد ليس فيها ما يؤدي إلى حبس، لكن فيها فضيلة أنها حارة حرارة الاغتصاب الذي رآه أبو سلمى بعينيه.

ولأن أبو سلمى أصبح شاعر مؤتمرات ومحافل فإن شعره صار شعراً سهلاً مملوءاً بالشعارات. هو نوع من الشعر.

كان لأبو سلمى قضية.. لعله كان رصيناً رزيناً مثل مَن عرفتُ من أبناء عائلته. وأكاد أجزم أنه كان رصيناً. فكيف لرجل رصين أن يجوب قارات العالم حاضراً المؤتمرات ملقياً الأشعار؟ كانت قضيته تغفر له هذا التسويق لشعره. وكانت قلوب العرب ومصالح حكومات المعسكر الشرقي مع القضية. فأسمع شاعرنا صوته، ونال من التصفيق ما أثلج فؤاده.

أرى أصعب شيء على الفنان تسويقه نفسه. الحمد لله أنني لست شاعراً، فلن أطيق أن أقف أمام جمع في أمسية شعرية ألقي عليهم شعري.

وقد كتبت خمسة كتب كبيرة، هذا آخرها وأصغرها، استعرضت فيها حياة وشعر عشرات الشعراء. بعضهم عظيم كالمتنبي وبعضهم رقيق كالعباس بن الأحنف. ولو خيروني أن أكون صورة عن واحد من شعرائي لما اخترت سوى ابن الرومي. والسبب أنه كان يقعد في السوق يقرأ أشعاره لأصحابه، فإذا مدح أميراً فهو يرسل إليه القصيدة مكتوبة، بعد أن يكون ملأها تبرماً من الزمن ومن الفقر.. ومن الأمير وبخله. ولو خيروني أن أكون صورة لأحد الرسامين لما اخترت سوى فان غوخ. فقد رسم مئات اللوحات، ولم يبع لوحة واحدة في حياته. ما أصعب أن يسوق المرء نفسه. وقد كتبت بوستات قليلة على الفيس بوك في الإعلان عن صدور كتب لي. وأقول لك إنني كنت أذوب خجلاً وأنا أصنع ذلك. هذا وأنا لست فناناً، فكيف بالفنان يضع ذوب قلبه في قصيدة أو لوحة ثم يرى نفسه مضطراً إلى تسويق عمله في أمسية شعرية أو معرض؟ ألستَ تحترم أولئك العمال والمهندسين الذين تراهم في مصنع السيارات يحيلون الحديد إلى قطعة من الإعجاز التقني؟ فما قولك في البائع المتأنق في معرض السيارات، وما رأيك في أكاذيبه؟ من حسن حظ أولئك العمال والمهندسين أنهم لا يسوقون السيارات بأنفسهم.

دفن عبد الكريم الكرمي في مخيم اليرموك بظاهر دمشق. أوصى بأن يدفن في أقرب بقعة من فلسطين.

١ جبل النار

جبلَ النارِ يا أعزَّ الجبالِ أنتَ، لا زِلتَ، مَعقِدَ الآمالِ

جبل النار: مدينة نابلس وما حولها

ما ذكرنا حِماكَ إلّا انتَسَبْنا وانْتشَتْ نَخْوَةً رؤوسُ الرجالِ

أي انتسبنا إليك مفتخرين بهذه النسبة

أيها الثائرونَ في جبلِ النا رِ، سلاماً يا زِينةَ الأبطالِ
تَحملون الأرواحَ فوق أكُفٍّ وتَبيعونَها، ولكِنْ غَوالِ
جبلَ النارِ! لم تُخَلِّدْكَ إلّا ثورةٌ في سبيلِ الاستقلالِ
جبلَ النارِ! اِقذِفِ النارَ حتى نُبصرَ النورَ، يا أعزَّ الجبالِ

٢ لهب القصيد

أنشُرْ على لَهَبِ القصيدِ شكوى العبيدِ إلى العبيدِ

إنها لشكوى أرددها، لكنها شكوى عبد إلى عبد: فالفلسطيني، المنشغل بأعقاب ثورة ١٩٣٦ والمنكوب بالإنجليز وبتمدد النفوذ الصهيوني، يشكو حاله إلى الحكام العرب المقيدين بقيود الدول الغربية المسيطرة على مقدراتهم.. والقصيدة قيلت بعد ثورة ٣٦ بقليل

شكوى يُرَدِّدُها الزما نُ غداً إلى الأبدِ الأبيدِ
قالوا: الملوكُ! وإنَّهُمْ لا يملكونَ سوى الهَبيدِ

الهبيد: الحنظل

سُحْقاً لِمَنْ لا يَعرفو نَ سوى التَّعلُّلِ بالوعودِ
إنّي لأُرسلُها مُجَلْ جِلَةً إلى الملِكِ السُّعودي

مجلجلة: عالية الصوت

أَستارُ مكةَ كيفَ تُسْ دِلُها على الخصمِ اللَّدودِ
تَأبَى الصَّحارى أن يُدَنِّ ـسَ رملَها فِلْبي ومُودي

جون فِلبي: موظف بالخارجية البريطانية كان يعمل في السعودية وتسمى بعبد الله، مودي: السكرتير العام في حكومة فلسطين، ثم انتقل إلى السعودية

لـن تَـطْـهُـرَ الـدنـيـا وفـيـ ـهـا الإنـجـليـزُ عـلى صَـعيـدِ

الصعيد: التراب

لـو كـان رَبِّـي إنـجـلـيـ ـزِيَّـاً دَعَـوْتُ إلـى الـجُـحُـودِ

وأبـو طَـلالٍ فـي رُبَـى عَـمَّـانَ يـحـلُـمُ بِـالـحُـدودِ

أبو طلال: عبد الله الأول، أمير شرق الأردن آنذاك

أُقـعُـدْ فَـلـسـتَ أخـا الـعُـلـى والـمـجـدِ، وانـعَـمْ بِـالـقُـعـودِ

واحـكُـمْ عـلـى الـشِّـطْـرَنْـجِ لـيـ ـس عـلـى الـفَـيـالِـقِ والـجـنـودِ

كان عبد الله الأول بن الحسين مغرماً بالشطرنج

يـا دولَـةَ الأَصـنـامِ خـيـ ـرٌ مـنـكِ مَـمـلَـكَـةُ الـقُـرودِ

كانت المملكة الهاشمية في الأردن آنذاك إمارة غير مستقلة، وكانت تتقاضى المال والدعم السياسي والعسكري من الإنجليز المرابطين بضباطهم في شرق الأردن

عَـرِّجْ عـلـى الـيـمـنِ الـسـعـيـ ـدِ ولـيـس بِـالـيـمـنِ الـسـعـيـدِ

واذكُـرْ إمـامـاً لا يـزا لُ يـعـيـشَ فـي دنـيـا ثَـمُـودِ

الإمام يحيى حاكم اليمن آنذاك

وسـيـوفُـهُ أَثَـرِيَّـةٌ يـا تَـعْـسَ هـاتـيـكَ الـغُـمـودِ

لا يملك سلاحاً سوى سيوف عتيقة، فيا لتعس أغمادها

تَـفْـنَـى الـحـيـاةُ وقـومُـهُ مـا بـيـنَ قـاتٍ أو هُـجـودِ

واعـطِـفْ عـلـى بـغـدادَ وانْـ ـدُبْ عـرشَ هـارونَ الـرَّشـيـدِ

خَـلَّاهُ فـيـصـلُ لـلـذِّئـا بِ مُـغـيـرَةً حـولَ الـوَلـيـدِ

مات فيصل الأول ١٩٣٣، قبل القصيدة بأربع سنين، وترك على العرش ابنه غازي، وكان وقت القصيدة في الرابعة والعشرين

واهـبِـطْ إلـى مِـصْـرَ الـهَـلـو كِ وقُـلْ لـهـا يـا مِـصْـرُ مـيـدي

الهلوك: المرأة الساقطة، لعل الشاعر رأى فنون التمثيل والرقص تزدهر في مصر فلم يعجبه ذلك، ميدي: تمايلي وتحركي

يا مِصْرُ ضَيَّعْتِ المُنَى بينَ الفَريدَةِ والفَريدِ

الفريدة: الملكة فريدة، وتزوج بها الملك فاروق عام ١٩٣٨

دَعْ سُبحَةَ التَّضْليلِ واخْـ ـلَعْ عنكَ كاذِبَةَ البُرودِ

البرود: الأثواب

إيهٍ مُلوكَ العُرْبِ! لا كُنتُمْ ملوكاً في الوُجودِ

هل تَشهدونَ مَحاكِمَ التَّـ ـفْتيشِ في العصرِ الجديدِ

هل ترون محاكمات الإنجليز للوطنيين الفلسطينيين، وما أدت إليه من شنق بعضهم، فهي تشبه محاكم التفتيش المتوحشة في إسبانيا بعد زوال الدولة العربية في الأندلس

قومُوا اسْمَعُوا مِن كلِّ نا حِيَةٍ يَصيحُ دَمُ الشهيدِ

قومُوا انظُروا القَسَّامَ يُشْـ ـرِقُ نورُه فوقَ الصُّرودِ

الشيخ عز الدين القسام: استشهد في فلسطين ١٩٣٥، الصرود: القمم

يُوحي إلى الدنيا ومَن فيها بِأسرارِ الخلودِ

قومُوا انظُروا فَرْحانَ فَو قَ جَبينِهِ أَثَرُ السُّجودِ

الشيخ فرحان السعدي: شنقه الإنجليز وعمره سبعون عاماً، في ١٩٣٧

يَمشي إلى حَبْلِ الشَّها دةِ صائماً مَشيَ الأُسودِ

سَبعونَ عاماً في سبيـ ـلِ اللَّهِ والحقِّ التَّليدِ

التليد: القديم الثابت

خَجِلَ الشبابُ مِنَ المَشيـ ـبِ، بل السِّنونَ مِن العُقودِ

قومُوا انظُروا الأَهلينَ بيـ ـنَ الوعدِ ضاعوا والوَعيدِ

ما بينَ مُلْقىً في السُّجو نِ وبينَ مَنفِيٍّ شَريدِ

أو بينَ أرمَلَةٍ تُوَلْـ ـوِلُ أو يَتيمٍ أو فَقيدِ

قومُوا انظُروا الوطنَ الذَّبيـ ـحَ مِنَ الوريدِ إلى الوريدِ

تَتزاحَمُ الأجيالُ دا مِيَةَ الخُطى فوقَ اللُّحودِ

إيهِ شُعوبَ العُرْبِ أنـ ـتُمْ مَبعثُ الأملِ الوَحيدِ

سِيرُوا على التُّرْبِ المُخَضَّـ ـبِ، والثِمُوا أثرَ الجُدودِ

الثموا: قبِّلوا

حُـرِّيَّـةُ الإنـسـانِ بـالـدَّ ـ م تُـشـتَـرى لا بِـالـوُعـودِ
إيـهِ فِـلَـسْـطـيـنُ! اقْـحَـمـي لُـجَـجَ الـلَّـهـيـبِ ولا تَـحـيـدي
لا تَـصْـهَـرُ الأَغـلالَ غـيـ ـرُ جَـهَـنَّـمِ الـهـولِ الـشـديـدِ

٣ اليرموك حية

مـعـركـةُ الـيَـرمـوكِ هـذا نَـقْـعُـهـا يـروحُ فـوقَ هـامِـنـا ويَـغـتَـدي
ها هو نقع، أي غبار، معركة اليرموك يروح ويجيء فوق هامنا، رؤوسنا
يُـطِـلُّ مِـن بـيـنِ الـعـصـورِ عـاطـراً فـيـهِ مِـن الـمـاضـي عـبـيرُ السُّؤدَدِ

٤ أرض الجهاد

دَرَجَ الـمـجـدُ عـلى أرضِ الـجـهـادِ فـالـثِـمِ التُّـرْبَ وقُـلْ: هَـذي بِـلادي
المجد قد درج، أي تعلم المشي، على أرض فلسطين، أرض الجهاد، فالثم، أي قبِّل، التراب وافتخر بأنها بلدك
خَـفَـقَـتْ فـيـهِ قُـلـوبٌ حُـرَّةٌ كـيـف لا أَجـعَـلُـهُ الـدهـرَ وِسـادي
وسادي: مخدتي. . أي أنه يريد أن يوسد ويدفن في تراب فلسطين. ودفن أبو سلمى في دمشق ١٩٨٠
وطـنـيِ! أنـتَ بَـقـايـا أمـلٍ خَـضَّـبَـتْـهُ عَـبَـراتٌ مِـن فُـؤادي
عبرات: دموع
مـا الـذي جَـرَّحَ جَـنـبَـيْـكَ؟ أَجِـبْ كـيـدُ أَبـنـائِـكَ أم كـيـدُ الأَعـادي
لا تَـقُـلْ هـذا تُـرابٌ جـامِـدٌ إنَّـمـا الأحـيـاءُ فـي هـذا الـجَـمـادِ
واحـفَـظِ الأَجـيـالَ فـي ذاكَ الـثَّـرى فـالـدَّمُ الـحُـرُّ مِـن الـتُّـرْبِ يُـنـادي

٥ كله استعمار

يـا حـادِبِـينَ عـلى الضَّـعيفِ رُويْـدَكُـمْ تَـاريـخُـكُـمْ فـي صَـفْـحَـتَـيْـهِ الـعـارُ
أيها الإنجليز الذين تدّعون الحدب، العطف، على الضعفاء! تاريخكم مليء بالعار. وكان الإنجليز يحتجون على قسوة المستعمر الفرنسي في سورية
فـهُـنـا تَـجُـرُّونَ الـقـيـودَ دَوامِـيـاً وهـنـاكَ فـي أَيـدِيـكُـمُ الأَزهـارُ
وهُـنا الشـياطـينُ اسـتَجارَتْ مِـنْـكُـمُ وهُـنـاكَ أَنـتُـمْ قُـبَّـةٌ ومَـزارُ
لا تَـذكُـروا حقَّ الضَّعيفَ؛ فَكُلُّكُمْ مُـسـتَـعْـمِـرونَ، وكُـلُّـهُ اسـتِـعـمـارُ
التسويد من الشاعر عمران القفيني

٦ التقسيم

أَهْـدَوْا بِـلاديَ لَـجـنـةً مَـلَـكِـيَّـةً حتى تَحُلَّ مشاكِلَ المستقبَلِ
دَرَسَتْ، فما وَجَدَتْ سوى تقسيمِها حَلّاً، فكان الحَلُّ أكبرَ مُشْكِلِ

٧ إلى إبراهيم طوقان

أيْ أَبا جَعْفَرٍ أَبا الشِّعْرِ والعِطْـ ـرِ! تَـنَـقَّـلْ عـلـى رَوابـيِ الـخُـلُـودِ
أي: يا. يخاطب إبراهيم طوقان المتوفى ١٩٤١، راثياً

قـد تَـحـرَّرْتَ مِـن قُـيـودِ الـلَّـيـالـيِ كيف تَمضيِ ولم تَحُلَّ قُيودي؟
قد تحررت من قيود الزمن بموتك، وتركتني مقيداً في الحياة

٨ قالوا يساريون

أهــلاً بــعُــمَّــالِ الــبــلا دِ يُـحـاربـونَ مَـنِ اسـتَـبَـدَّا
قـالـوا: يَـسـارِيُّـونَ قُـلْـ ـتُ: أُجِـلُّـهُـمْ عـمـلاً ومَـبْـدَا
سيرفع توفيق زَيَّاد، الشاعر الفلسطيني، النغمة بعد سنين، فيقول: قالوا شيوعيون قلت أجلهم/ حمراً بعزمهم الشعوب تحرر

وطــنٌ عــلــى أَيْــدِيــهِــمُ يَـجْـنـيِ مَـعَ الأيـامِ سَـعْـدَا
بعد سنة من القصيدة، وألقيت عام ١٩٤٧، سقطت فلسطين وقامت دولة إسرائيل

لـم يَـعـرِفُـوا كـيـفَ الـمـبـا دِئُ تُـشـتَـرى عَـدّاً ونَـقْـدا
هـذيِ الـمَـطـارِقُ والـمَـنـا جِـلُ تَـحـصُـدُ الـظُّـلَّامَ حَـصْـدا
المطرقة والمنجل: رمز الشيوعية السوفييتية

وتُـحَـرِّرُ الإنـسـانَ حـتَّـ ـى لا تَـرى فـي الـكـونِ عَـبْـدا

٩ الظلم المنظم

كـلَّ يـومـيـنِ لـجـنـةٌ فـكـتـابٌ لا نـرى فـيـهِ غـيـرَ ظُـلْـم مـنـظَّـمْ
وأشهر هذه الكتب «الكتاب الأبيض» لعام ١٩٣٩ وفيه خطة بريطانية لجعل فلسطين دولةً واحدة مع زيادة الهجرة اليهودية إليها. المعنى لحافظ إبراهيم، وقال سنة ١٩٠٧: لقد كان فينا الظلمُ فوضَى فَهُذِّبَتْ/ حَواشيِهِ حتى باتَ ظلماً منظَّما

يَـهـدُرُ الـعـدلُ حـامـيـاً كـلَّ أرضٍ فـإذا زارَ أرضَـنـا صـارَ أَبْـكَـمْ

لا تقولوا: «الحُقوقُ»، ما دامَ حَقِّي   في فِلَسطينَ خَلْفَ دَمعِيَ يَجْثُمْ
لا تقولوا: هذي الشَّرائِعُ مِنّا،   شِرْعَةُ الغابِ مِنْكُمُ اليومَ أرْحَمْ

لا تقولوا إن شرائع حقوق الإنسان جاءت من عندكم، فشريعة الغاب أرحم منكم

نِعمةُ اللَّهِ أنتَ يا وَطنِي الغا   لِي، وفي ظِلِّكَ المُقَدَّسِ نَنْعُمْ
كلُّ بيتٍ نَراهُ حَبَّةَ عَيْنٍ   كلُّ عَيْنٍ في أرضِنا عَيْنُ زَمْزَمْ
ذَرَّةٌ مِن تُرابِكَ الطُّهْرِ خيرٌ   مِنْ عُروشٍ خلفَ الحُدودِ وأعْظَمْ

١٠ لا أحد

شَخْصٌ يُسَمَّى «لا أَحَدْ»   كانَ يَطُوفُ في البَلَدْ
ويَختَفِي وراءَهُ   كُلُّ فتاةٍ وَوَلَدْ
مَن كَسَرَ الزُّجاجا   وأطفأَ السِّراجا؟
هل أنتَ يا زيادُ   أم أنتِ يا سُعادُ؟
كُلٌّ يقولُ: لا أَحَدْ
وإن أتى يومُ الأحَدْ   فأنتَ ضَيَّعْتَ الرَّشَدْ
إذْ تَختَفي فاكِهَةٌ   ما مثلُها عندَ أحَدْ
مَن أخَذَ المِفتاحا   وأكَلَ التُّفّاحا
مَن خَطَفَ العُنقُودا   وأنكَرَ العُهودا
كُلٌّ يقولُ: لا أَحَدْ
يا مَن يُسمَّى «لا أَحَدْ»   اِرْحَلْ وغِبْ عنِ البَلَدْ
حتى يَرى كُلُّ امْرِئٍ   ما ضاعَ منه وافتَقَدْ
«لا أَحَدٌ» مِسكينُ   وما لهُ مُعينُ
يظلِمُهُ الإنسانُ   وما لهُ لِسانُ

١١ هجاء الزعماء

زعماءٌ دَنَّسُوا تاريخَكُمْ   ومُلوكٌ شَرَّدوكُمْ دونَ ذَنْبِ
وجيوشٌ غَفَرَ اللَّهُ لها   سَلَّمَتْ أوطانَكُمْ مِن غيرِ حربِ
دولٌ تَحسَبُها شَرقِيَّةً   وإذا أمْعَنْتَ فالحاكِمُ غَربي

يـومَ هَـزَّتْ لِـلـوَغـى رايـاتِـهـا   حكَمَتْ فيهِ على تَشريدِ شَعبِ
أيـهـا الـبـاكـيِ وهـل يُـجدي الـبُكـا   بـعـدمـا أصـبـحـتَ فـي كـلِّ مَـهَـبِّ
يـا أخـيِ مـا ضـاعَ مـنَّـا وَطَـنٌ   خَـالِـدٌ نـحـمِـلُـهُ فـي كـلِّ قَـلـبِ

١٢ سنعود

خَلَفْتُ على مَلاعِبِها شَبابي   وأَحلامي على خُضْرِ الرَّوابي

يخاطب دمشق: فقد قضى فيها عهد الشباب، انتقل إليها وهو في نحو العاشرة. والملاعب هي الساحات تلعب فيها الريح

وَلـي فـي كـلِّ مُـنْـعَـطَـفٍ لِـقـاءٌ   مُـوَشَّـىً بِـالـسَّـلامِ وبِـالـعِـتـابِ
ومـا رَوَتِ الـمُـروجُ سـوى غِـنـائـي   ومـا رَوَّى الـكُـرومَ سِـوى شَـرابـي
دَرَجْتُ على ثَراكِ ومِلْءُ نَفسي   عبيرُ الخالِدينَ مِنَ التُّرابِ

درج أول مشيه على تراب دمشق، وامتلأت نفسه بذكريات الخالدين من أبطال العروبة والإسلام

وعدتُ إلى حِماكِ خَيالَ شعبٍ   يَطوفُ على الطُّلولِ وفي الشِّعابِ

وعاد إلى دمشق لاجئاً بعد ضياع فلسطين «شبه شعب»، يسكن الطلول، الخرائب، والشعاب، الطرق الجبلية

أَتُـنـكِـرنـي دِمشقُ، وكـان عَـهْـدي   بـهـا أَلَّا تُـلَـوِّحَ بِـالـسَّـرابِ
فِلَسْطينُ الحَبيبةُ كيف أَغْفُو   وفي عينَيَّ أَطيافُ العذابِ
تَمُرُّ قوافلُ الأَيامِ تَروي   مُؤامَرَةَ الأَعادي والصِّحابِ
فِلَسْطينُ الحبيبةُ كيفَ أَحيا   بعيداً عن سهولِكِ والهِضابِ؟
تُناديني الشَّواطِئُ باكِياتٍ   وفي سَمْعِ الزمانِ صَدَى انتِحابِ
تُناديني الجداولُ شارِداتٍ   تسيرُ غريبةً دونَ اغتِرابِ
ويسأَلُني الرِّفاقُ أَلا لِقاءٌ   وهل مِن عَودَةٍ بعدَ الغِيابِ؟
غداً سنعودُ والأَجيالُ تُصغي   إلى وَقْعِ الخُطى عند الإيابِ
أَجلْ، ستَعودُ آلافُ الضَّحايا   ضحايا الظلمِ تَفتَحُ كلَّ بابِ

١٣ كيف لا أغني؟

يـا جـارتـيِ كـيـفَ لا أُغَـنِّـي؟   وأنـتِ أَحـلَـى مِـنَ الـتَّـمَـنِّـي

ويَحمِلُ الشوقُ كلَّ صُبْحٍ   رسالةَ العاشِقينَ مِنِّي

١٤ العدوان الثلاثي

طَلَعَ الصباحُ على الصَّعيدِ الطاهِرِ   لـمَّا أَطلَّ جَمالُ عبدُ الناصِرِ

الصعيد الطاهر: التراب الطاهر

زحفَتْ قَراصِنَةُ البحارِ مَعَ الدُّجَى   متَحالِفِينَ مَعَ الذَّليلِ الماكِرِ

القراصنة هم الإنجليز والفرنسيون، والذليل الماكر الإسرائيليون، والثلاثة قاموا بالعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦

كانوا، وما بَرِحُوا، حُثَالَةَ عالَمٍ   مستعمِرينَ مِنَ الطِّرازِ الفاجِرِ

هُمْ شَرَّدوا أَهلِي وهُمْ سَلبُوهُمُ   وطناً تَفَرَّدَ بِالجمالِ الساحِرِ

١٥ ليتهم صمتوا

أَجَلْ! هُوَ الشِّعرُ يَعلُو وجهَهُ الخَجَلُ   فكيف لا تخجَلُ الأَحرارُ والمُثُلُ

ما الشِّعرُ إنْ لم يَلُحْ فيهِ سَنا وطنٍ   ولم يُعَطِّرْهُ منهُ السهلُ والجبلُ

أَهلِي على الدهر تُدمِينِي جِراحُهُمُ   في حُبِّهِمْ يَتَساوَى العُذْرُ والعَذَلُ

لا فرق بين من يعذرني ومن يلومني في حبي لأهلي، فحبهم ثابت في قلبي

أَطوفُ أَحمِلُ، أَنَّى سِرْتُ، نَكْبَتَهُمْ   كأنَّنِي طيفُ نارٍ والحِمى طَلَلُ

قالَ الملوكُ: غداً نحمِي ديارَكُمُ   ليتَ الأَذلَّاءَ ما قالوا وما فَعلوا

وعَلَّلُونا بِساحِ المجدِ نَنزِلُها   إذا بِهِمْ ساعةَ الجُلَّى، هُمُ العِلَلُ

صبَّرونا تصبيراً بالقول إننا سوف ننزل ساحات المجد؛ وفي ساعة الجلى، ساعة الجد، تبين أنهم هم العلل، الأسقام

قالوا: الكرامةُ! قلنا: أين صاحبُها؟   قالوا: الرجولةُ! قلنا: أَيُّهُمْ رَجُلُ؟

وكيف تُنقِذُ أَرضَ العُرْبِ جامِعةٌ   يَسودُها مبدأُ التَّفريقِ والجَدَلُ

«الجامعة العربية» من يومها محفل فرقة وجدل

مَن يشتري وطناً أو يبتغي بَدَلاً   وأين في الكونِ أو في الجَنَّةِ البَدَلُ؟

١٦ تاجروا باسمنا

لا تَسَلْني، فلن أُطيقَ جَوابا ... كيف أبكي الديارَ والأحبابا

لا تسألني كيف أستطيع الاستمرار في بكاء الديار والأحباب، فلن أتمكن من الإجابة

كلَّما لاحَ مِن فِلَسطينَ بَرْقٌ ... خَفقَ القلبُ في القصيدِ وذابا

ما بَعُدْنا عن طيبِ أرضِكِ إلَّا ... زادَنا البُعدُ مِن ثَراكِ اقْتِرابا

وزَرَعنا الأَشواقَ في كلِّ أرضٍ ... ليتَها أنبتَتْ قَناً وحِرابا

القنا: الرماح، الحراب: الخناجر

إنَّ قَومي في الضَّفَّتيْنِ اسْتَكانُوا ... ليتَ شِعريٍ متى أَراهُمْ غِضابا

الضفة الشرقية: شرق الأردن، والضفة الغربية: قطعة من فلسطين بقيت بيد العرب بعد نكبة ١٩٤٨ ودخلت تحت حكم الأردن

تاجَرُوا بِاسمِنا وباسْمِ فِلَسْطيـ ... ـنَ، فكانُوا العُداةَ والأَصْحابا

ثم قالوا خانَ البلادَ بَنُوها ... كذَبُوا إنَّنا أَعَزُّ جَنابا

العرب تفاهموا مع الإنجليز ومع اليهود، وبعد النكبة قالوا إن الفلسطينيين خانوا بلدهم، وهم كاذبون فنحن أعز من أن نخون بلدنا

هَتَفوا لِلوَغى، ولَمَّا التَقَيْنا ... حارَبُونا وحالَفوا الإنْتِدابا

هتف العرب هتاف الحرب، والتقينا بهم على أرض فلسطين فحاربونا وحالفوا الانتداب البريطاني

ثم راحوا يُدَلِّلونَ علينا ... يومَ صِرْنا بِفضلِهِمْ أَسْلابا

راحوا يدللون علينا، ينادون علينا نداء الباعة والدلالين، ويجمعون باسم نكبتنا الأموال، عندما صرنا بسببهم أسلاباً، أي غنائم

١٧ في انتظار الفجر

كُلَّما قلتُ: أَطَلَّ الفجرُ غابا ... أَترى تغدُو فِلَسطينُ سَرابا؟

الصورة في الشطر الأول لا تستدعي صورة السراب في الشطر الثاني، وإن استدعى المعنى المعنى. ولكن بعض أبيات الشعر مثل مذيعات التلفزيون: تكون المذيعة قليلة الإلمام بمادتها، ضعيفة في لغتها، ولكن الله يمنحها قبولاً لدى المشاهدين. هذا بيت راعني جماله

بَحَّتِ الأرضُ تُناديِ شعبَها ... ثم لَمَّا تسمَعِ الأرضُ جوابا

بَحَّت: بُحَّ صوتها

جثَمَ الأعداءُ ما حولَ الحِمى وعدا أهلِي على أهلِي ذِئابا

هذا في أوائل الستينات، وسْط انقلابات سورية والعراق، ثم انفصام الوحدة بين مصر وسورية، والاضطراب في الأردن بين تنامي الحركة المعارضة للملك، وقمع السلطات لها، كل هذا كان يسيطر على الدول المحيطة بفلسطين

صرخَتْ مِنَّا الجِراحاتُ عِتاباً كيف لا يَسمَعُ أهلُونا العِتابا
نحن في النَّكْبَةِ أَصْفَى جَوْهراً كُلَّما اشتَدَّ لَهيبُ النَّارِ طابا
يا أَحِبَّايَ! أمَا آنَ لكُمْ أنْ تقولُوها صُراحاً وصَوابا
تاجَرَ الأهلُ بِالآمِكُمُ ثم يَرجُونَ مِن الشعبِ ثَوابا

١٨ أرضنا تنتظر

إلى متى، وأَرْضُنا تَنتَظِرُ طالَ السُّرَى وما أَطَلَّ القَمَرُ

السرى: سير الليل

مَواكِبُ النَّصْرِ التي مَرَّتْ بِنا ليس لها على الدُّروبِ أَثَرُ

مواكب النصر نراها في شوارع العواصم، ولا أثر لها في الدروب المؤدية للجبهات. وكلمة دروب منذ العصر العباسي تعني الطرق المؤدية إلى بلاد الروم، وهي طرق الجهاد، (جاز الدروبَ إلى ما خلف خَرشنة/وزال عنها وذاك الروع لم يزُلِ) المتنبي

أَسأَلُ عن أهلِي، ومن يَسمَعُني؟ أين بَقايا الأَهلِ؟ هل هُمْ بَشَرُ؟

١٩ من المحيط إلى الخليج!

لا تقولوا: موجُ الخليجِ تَلاقى مَعَ موجِ المحيطِ في أفراحِ

يومئ إلى شعار «العرب أمة واحدة من المحيط إلى الخليج»

ودُويْلاتُكُمْ! سَلُوها. فما كا نتْ دُويْلاتُكُمْ سِوى أَشْباحِ
لا تقولوا: بِنا الكَرامةُ تَعْتَزُّ وفوقَ الجِباهِ عَارُ افتِضاحِ
تَتَغَنَّوْنَ بِالبُطولةِ والأَنْـ ـجُمُ تَبكي على الحِمى المُستَباحِ
لا تقولوا: عُروبَةٌ، وفِلَسْطيـ ـنُ تُنادِي: متى يُفَكُّ سَراحي

٢٠ لا جديد

هُمْ جَحَدوا نضالَ الشعبِ حتى كأنَّ الشعبَ خَصمُهُمُ اللَّدودُ

أَرانِــبُ إنْ تَـعَـرَّضَ أَجْـنَـبِـيٌّ وهُـمْ أَبـداً عـلـى أَهْـلـي أُسـودُ
تُـلَـعْـلِـعُ فـي جـوانِـبِ كـلِّ أُفْـقٍ بَـيـانـاتٌ، ولـيـس بِـهـا جَـديـدُ

طرافة البيت تكون أحياناً بوجود مبالغة تصل حد الاستحالة، وطرافة هذا البيت في انعدام المبالغة حدَّ الانكفاء إلى التلطيف.. تلك البيانات «ليس بها جديد» فقط! بل بها عنتريات فارغة وأكاذيب

٢١ إنه أسبوع!

عَزَلوا الشعبَ مثلَما شاءَ الِاستعـ ـمارُ. يا لِلعبيدِ! كيفَ تُطيعُ
ثم قـالـوا: هـذي الـجـيوشُ دُروعٌ ليـتَـهـا لـم تـكـنْ هـنـاكَ دُروعُ
ووراءَ الـجـيـوشِ صـوتٌ يُـدَوِّي لا تُـراعُـوا فـإِنَّـهُ أُسـبُـوعُ

كان زعماء العرب يخففون عن الفلسطينيين بُعيد النكبة بالقول: لا تخافوا! هو أسبوع، ويعود اللاجئون إلى ديارهم

وإذا بِـالـسِّـنـيـنَ تَـمـضـي ثِـقـالاً أَثْـقَـلَـتْـهـا خـيـانـةٌ وخُـضـوعُ
وفِلَسْطينُ، وَهْيَ دنيا الـبُـطولا تِ، تُنادي، وأَيـنَ أَيـنَ الـسَّـمـيعُ
مـا لـنـا الـيـومَ لا نُـعَـدُّ مِـن الـعُـرْ بِ، وغـابَ الـتَّـأْهـيـلُ والـتَّـوْديعُ

لم يكن لفلسطين آنذاك مقعد في الجامعة العربية، ودخلت فلسطين الجامعة عام ١٩٧٦، وبدأ اللاجئون الفلسطينيون في الدول العربية المحيطة بفلسطين يشعرون أنهم ضيوف ثقال، وبدأت الدول تفرض عليهم قيوداً شتى في السكنى والعمل والسفر، ولم تمنحهم الجنسية سوى الأردن

٢٢ ألف هَلا

مـا لـيَ أَرى الأُفْـقَ حَـلَا هـلْ عُـدْتِ؟ يـا أَلْـفَ هَـلَا
مَـرَّ الـنَّـسـيـمُ عـاطِـراً قـالَ: مَـرَرْتِ أَوَّلا
يـا طـيِـبَـهُ لـمَّـا رَوى عـنـكِ الـشَّـذَا وأَقْـبَـلا
والـزهـرُ تـاهَ عـنـدمـا شَـمَّ وذاقَ الـقُـبَـلا

عندما شمته وقبلته فالزهر هو الذي شم الحبيبة لا العكس! طريف

هـيـهـاتَ أن يـذبُـلَ بـعـ ـدَ الـيـومِ، لا لـنْ يَـذْبُـلا
الـشـعـرُ لـم يَـنـقُـلْ سِـوى عـن شَـفَـتَـيْـكِ الـغَـزَلا
لـكـنَّ قـلـبـيِ وحـدَهُ يَـهـوى الـتـي تـقـولُ: لا
عـيـنـاكِ يـا فـاتِـنَـتـي صَـيَّـرَتـانـي مَـثَـلا

٢٣ شرف الحرف

رَايَةُ الشِّعرِ رَفرَفَتْ، نَسْجُها الشو ... قُ، وشَرْحُ الشَّوْقِ القديمِ طويلُ
قد زَها في ظِلالِها الحرفُ والمجـ ... ـدُ يَميلانِ حيث كانتْ تَميلُ
إنَّهُ الشعرُ كالأُناسِيِّ في الكوْ ... نِ: فَحرْفٌ حُرٌّ وحَرْفٌ ذَليلُ

من الشعر ما هو شامخ صادق، ومنه ما يطبل للحاكم.. كالبشر

أيها الحامِلونُ أَلْوِيَةَ الشعـ ... ـرِ تَهاوى السِّتارُ والتَّمْثيلُ
فاهبِطوا لا تُرابِطُوا في البروجِ الـ ... ـبيضِ فالشِّعرُ كلُّه مَسؤُولُ
شَرَفُ الحرفِ أنْ يَذودَ عن الحقِّ ... فإنْ رُمْتُمُ المَقالَ فقُولوا
لا تقولوا: قلبُ العروبةِ خَفَّا ... قٌ وفيهِ الدَّاءُ العُضالُ الوَبيلُ

العضال: المستعصي، الوبيل: الشديد

٢٤ يا صباح الخير

كلُّ يومٍ تقولُ لي: يا صَباحَ الـ ... ـخيرِ أَشهَى مِنَ النَّبيذِ المُعَتَّقْ

٢٥ الكثير القليل

كَثُرَتْ بينَنا الدُّوَيْلاتُ زُوراً ... وقليلٌ واللَّهِ هذا الكَثيرُ

٢٦ بعد النكسة

أيها الحامِلونَ أَلْوِيَةَ العا ... رِ! تَخَلَّوْا عن حَوْمَةِ المَيْدانِ

هذا عام ١٩٦٨، وكانت النكسة في العام الماضي شديدة الوقع

سَلِّمُوا الشعبَ أَمرَهُ واستَريحُوا ... يا حُماةَ الأَصنامِ والأوثانِ
كلُّ جيشٍ يَكونُ حرباً على الشعـ ... ـبِ ذَليلٌ إذا التَقى الجَمْعانِ
عاصِفٌ بينَ أهلِهِ، ونَسيمٌ ... لِلْمُغيرينَ، شَأنَ كلِّ جبانِ
يَأنَفُ التُّرْبُ أنْ تَمُرُّوا عليهِ ... وتُصابُ الرِّمالُ بِالغَثَيانِ
كلَّ يومٍ تُجدِّدونَ الشِّعارا ... تِ فِراراً مِن أَزْمَةِ الوِجْدانِ
بعدَ «حربِ التَّحريرِ» قد أَصبحَ اليو ... مَ شِعاراً «إزالَةُ العُدْوانِ»

اتخذت الأنظمة العربية المهزومة شعار «إزالة آثار العدوان» بعد نكسة ٦٧، ولم تعد تطلق شعار «تحرير فلسطين»

ثم حُرِّيَّةٌ تقولونَ لِلنَّا — سِ، وما فيكُمُ سوى سَجَّانِ
وتقولونَ: نحنُ نَحكُمُ باسْمِ الشَّـ — ـعبِ، أَستَغْفِرُ العظيمَ الشَّانِ
أيها الأَهْلُ في القِطاعِ وفي الضِّفَّـ — ـةِ لو تُنْطِقُ الدموعُ لِساني
نحنُ أَسْرى وأَنْتُمُ أَنْتُمُ الأَحْـ — ـرارُ خلفَ السُّجونِ والقُضبانِ

٢٧ العواصم

أيها الحاكمونَ بِاسْمِ بِلادي — ما الذي تغزِلونَ خلفَ السِّتارِ
كلُّ حُكْمٍ يَطغَى على الشعبِ بِاسْمِ الشَّـ — ـعْبِ حُكْمٌ مَصيرُهُ لِلبَوارِ

البوار: الخراب

أَصبحتْ هذهِ العواصِمُ بعدَ الـ — ـقُدْسِ رُكْناً في مُتْحَفِ الآثارِ
قَرَّرُوا الزَّحْفَ لِلجِهادِ، إذا هُمْ — أَخذُوا يَزحفُونَ خلفَ قَرارِ

بعد أن كانت الأنظمة العربية تتعهد بالزحف على العدو أخذت تستجدي قراراً أممياً، وصدر القرار ٢٤٢ من مجلس الأمن في أواخر عام ٦٧

أيها الحاكِمونَ، ما يَنفَعُ الحُكْـ — ـمُ إذا ما اخْتَفى وراءَ شِعارِ؟
تَتَغَنَّوْنَ بِالشُّهورِ وبِالأَيَّـ — ـامِ، يا حَسْرتا على الأَعْمارِ
فَحُزَيْرانُ قد مَحا أَشْهُرَ الثَّوْ — راتِ: تَمُّوزَها إلى آذارِ

وكثرت تسمية الانقلابات العربية بأسماء الأشهر، وخصوصاً تموز وآذار في العراق وسورية. فأما حزيران فهو شهر النكسة ١٩٦٧. قال بدوي الجبل: (مُحِيَتْ أَشْهُرُ الرَّبيعِ، فَلا أَيَّـ /ارُ مِن دَهرِنا ولا نِيسانُ) قالها قبل شاعرنا بنحو عشرين سنة

٢٨ دول وسلطات

أَنا أَبْكي الأَحياءَ! عاشُوا وهانُوا — وتساوَتْ حَياتُهُمْ والمَماتُ
نَسَماتُ الأُرْدُنِّ أَنفاسُ أَهلي — وَهْيَ في كلِّ مُنْحَنىً عَطِراتُ

وكان الأردن وقت إلقاء القصيدة في مايو/أيار ١٩٧٠ يشهد الحركة الفدائية، وسيشهد هزيمتها في الصراع مع النظام بعد أربعة أشهر وانتقال المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان لكي يهزموا مرة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة

وَوَراءَ الأُفْقِ المُضَمَّخِ بِالنَّقْـ — ـعِ أُناسٌ أَعْمَتْهُمُ الشَّهَواتُ

وراء أفق الأردن المعطر بالنقع، بغبار المعارك في الأعمال الفدائية ضد إسرائيل، هناك أنظمة لا تهمها سوى المصالح الضيقة للزمر الحاكمة

ودِفـاعـاً عـن الـعُـروبَـةِ نَـجْـتـا حُ الـمـنـايـا، ومِـنْـهُـمُ الـدَّعَـواتُ

هؤلاء البعيدون عن النضال يروننا نجتاح الموت ويكتفون بالدعاء لنا

ودموعُ الـخـليـجِ خَـضَّـبَـتِ الـبحـ ـرَ، وفـي مَـكَّـةٍ بَـكـى عَـرَفـاتُ

عرفات: جبل عرفات

ويَـقـولـونَ: مـا لـنـا وفِـلَـسْـطـيـ ـنَ! لَـديْـنـا الـبِـتـرُولُ والـشَّـرِكـاتُ
يَـتَـغَـنَّـوْن بِـالـكُـنـوزِ ضَـلالاً وهُـمُ، لـو سَـأَلْـتَ عـنـهُـمْ، جُـباةُ

هم فقط يجبون المال لكي يقدموه لشركات النفط التي كانت تنال حصة كبيرة من عوائده

وبِـلادِي كـانَـتْ مُـوَحَّـدَةَ الأَرْ جـاءِ، والـوَجْـهُ واحِـدٌ والـسِّـمـاتُ
وإذا بِـالـحِـمـى مَـواطِـنُ شَـتَّـى وإذا بِـالـوُجُـوهِ فـيـهـا فِـئـاتُ

أصبح الناس في المواطن الشتيتة في دنيا العرب فئات، فهذا مواطن، وهذا مقيم، وهذا لاجئ بعد أن كانت الدول العربية كتلة واحدة قبل الاستعمار

دُولٌ أَيْـنَـمـا ذهـبـتَ عَـديـدًا تٌ، وفـي كُـلِّ دَولـةٍ سُـلُـطـاتُ
وحُـدودٌ! لا بـارَكَ الـلَّـهُ فـيـهـا بـيـنَ أَهـلـيِ الـمُـشَـرَّديـنَ مِـئـاتُ
شَـرُّ مـا فـي دنـيـا الـعـروبـةِ أن يُـعْـ ـزَلَ شـعـبٌ، وتَـحْـكُـمَ الـثُّـكُـنـاتُ

٢٩ شعراء المديح

فـي كـلِّ عـامٍ نَـلْـتَـقـي، وعـلـى أفـواهِـنـا حَـلَـقٌ مِـن الـزَّرَدِ

أفواهنا مكممة بالجنازير والسلاسل

كـلُّ الـحـروفِ تـظَـلُّ شـارِدَةً إن لـم تَـقُـلْ مـا دارَ فـي الـخَـلَـدِ
شـعـراءُ قـد حَـمَـلُـوا مَـبـاخِـرَهُـمْ وأَتَـوْا إلـى الـمـيْـدانِ بِـالـعَـدَدِ
جـاءُوا وقـد مَـسَـحَـتْ شِـفـاهُـهُـمُ أَعـتـابَ مُـقـتَـدِرٍ ومُـغْـتَـصِـبِ

الشعراء يمسحون بشفاههم وأشعارهم أعتاب السلاطين، كما كان يفعل شعراء الماضي إذ يمدحون الخلفاء والأمراء

٣٠ عشق فلقاء فاعتناق

قُـولـيِ، بِـمَـنْ أَوْدَعَ فـي عَـيْـنَـيْـكِ سِـرَّ الأَلَـقِ:

قولي، وأحلّفك بالله الذي وضع في عينيك سر البريق:

هل تُجْمُلُ الحياةُ والـ ـعُمْرُ إذا لم نَعْشَقِ
وكيف يَحلُو الشوقُ في الدُّ نيا إذا لم نَلْتَقِ
وما الهَوى إذا تَلا قَيْنا، ولم نَعْتَنِقِ؟

لولا غزلياتك الطيبة يا أبو سلمى لوصمناك بالشاعر السياسي صاحب الشعارات الطنانة، فعلاً أبو سلمى.. وسلمى هي حبيبته لا ابنته، لقبوه بها

٣١ تحت الدرج

هناكَ تحتَ الدَّرَجِ مَا لَكِ لم تُعَرِّجي
يَلُفُّنا ليلُ الهوى معاً ولا مِن حَرَجِ
ويَهتَدي ثَغري إلى ثغرِكِ رَغْمَ الدَّلَجِ

الدلج: يقصد الظلام

على سَنَى أَعْيُنِنا وما بِها مِن وَهَجِ

ثغره يعثر على ثغرها على السنى، النور، المنبعث من عينيهما

٣٢ دمي روى

دَمي رَوَى، فَلْتَصْمُتِ الأَلْسُنُ أَروَعُ شعرِ القلبِ لا يُعْلَنُ
ما شَهرُ تِشرينَ إذا لم يَعُدْ لي بَيْدَرِي والكَرْمُ والمَسْكَنُ

القصيدة ألقيت عام ١٩٧٥، وكانت سورية ومصر قد حاربتا إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر عام ٧٣، وهللتا لانتصار كبير، غير أن هدف الحرب كان تحريك عملية مصالحة راكدة لا استرداد أرض سليبة، وتحقق التحريك بالنسبة لمصر

وأيُّ نَصْرٍ! وأنا لم أزَلْ مُشَرَّداً وليس لي مَوْطِنُ
تَفنَى الزَّعاماتُ وأشْباهُها والخالِدانِ: الشعبُ والمَوْطِنُ

عبد الكريم الكرْمي

(أبو سلمى)

فهرس القوافي

محمد سليمان الأحمد
(بدوي الجبل)
(١٩٠٠ ـ ١٩٨١)

أقدم لك أيها القارئ شاعراً مناضلاً، وفي تقديمي أحدثك عن نضالي أنا.

لست مناضلاً.

حقق معي الإسرائيليون ثلاث مرات. مرة لَمُّوني من الشارع كما يَلُمُّون الناس في ساعة هرج ومرج، ولموا معي عدداً من الطلبة، كان ذلك في رام الله بفلسطين. وقفت في مخفرهم ووجهي إلى الجدار مع من وقف. مر جندي وأنالني من سلاحه ضربة على صفحة الوجه.. كأنني كنت مائل الرأس قليلاً ولم يعجبه أن يرى أحدنا غير ملتزم بإلصاق وجهه بالجدار.. وألصقته. في التحقيق قال لي الضابط: تبدو أكبر سناً من هؤلاء الطلبة؟ قلت له: كنت مدة من الزمن في ألمانيا. سألني متحمساً عن البوندس ليغا. قلت له: لا علاقة لي بكرة القدم. قال لي: اذهب إلى بيتك. فذهبت. وسيق بعض من اعتقلوا معي إلى السجن فالمحاكمة. وحكم على بعضهم بسنة ونصفٍ حبساً. فقط لأنهم كانوا في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

وحقق معي الإسرائيليون، بلا ضربة على صفحة وجهي، مرتين أخريين، وفيهما أيضاً ذهبت إلى البيت.

عندما كنت في ألمانيا أحببت أن أتعرف على النضال الفلسطيني، وكان هذا «النضال» موجوداً في تلك السنين في لبنان. كان هذا قبل غزو إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢. ذهبت إلى لبنان «وناضلت» بضعة أسابيع. وتعرفت على النضال. صنعة شريفة. وفي أوقات محنة الوطن لا بد من نضال. لكن نضالنا

الفلسطيني كان مزوداً بمال عربي كثير، فكان الزعماء يدفعون للفقراء المال على هيئة ما كانوا يسمونه «مخصصات» لكي يقوموا بالنضال. شيء طبيعي. لن تطلب من الجنرال أن يقاتل بيديه، بل أن يقود. هي صنعة شريفة.

وقنعت بعد حين أن أناضل نضالاً من المرتبة الثالثة: مرتبة أضعف الإيمان. لم يستطع اليساريون أن يضموني إلى صفوفهم لأنني لم أكتف بقراءة ما قرأوا من الكتب الحمراء، بل تجاوزتها إلى كتب من كل لون، فاستقامت الأمور في ذهني على غير ما يهوى التحزب. ولم يُقبِل الوطنيون الآخرون على مجرد الطلب إليَّ أن أنضم إلى صفوفهم. كانت بصيرتهم حادة، فرأوا أنني لست، بالخلقة، مناضلاً فتركوني بحالي. حتى أولئك الذين استضافوني في فترة لبنان النضالية لم يعرضوا علي التحزب معهم. نَعَشَ الله قلوبهم.

كان المال العربي الذي تدفق على المقاومة الفلسطينية مالاً سياسياً، ولم أر فيه ما يشين. فبه أبقى أولئك المناضلون شمعة القضية متقدة.

وناضلت بالقلم مرة. فعندما بدأت السلطة الفلسطينية مسيرتها الغريبة بعد معاهدة أوسلو ١٩٩٣، تحول النضال إلى سياسة، وظل المناضلون المستقيلون يتغنون بالنضال.

كنت آنذاك أعمل في إذاعة لندن. وأجاءتني الظروف إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. ذهبت إلى أريحا لزيارة الإذاعة الفلسطينية. سمعت مدير البرامج يصيح بالناس.. نجوى كرم وديانا حداد فقط، لا نريد أي أغان وطنية. مفهوم! كانت السلطة تأمل في تعاون وثيق مع الاحتلال لإنشاء دولة في الضفة وغزة. وكان المحتل أخبث مما تصوروا.

كنت وقتها ناضجاً نضج عنقود عنب يكاد يعصر نفسه بلا عاصر. كنت فاهماً المعادلة أحسن من إسحق رابين وزميله في الصفقة ياسر عرفات.

وبعد قليل عدت إلى بلدي وعملت في الجامعة وفي بعض الإذاعات المحلية التي أخذت تنشأ وتتكاثر بسرعة. ومثلما قرأ إدوارد سعيد اتفاقية أوسلو قرأتها، وقرأت أيضاً ما كتبه عنها. نعم، قرأت ذينك الكتابين الممنوعين اللذين كتبهما عنها.

وفي مارس آذار عام ٢٠٠٣ كتبت أول كتاب أكتبه، ونشرته على حسابي، ولم ترض المطبعة أن تضع اسمها على الكتاب. انتقدت في كتابي السلطة

ورئيسها. وكان من حسن طالعي أن الكتاب لم يجد سوى ثمانية مشترين، فوفرت على نفسي أن أواجه محققي السلطة. ووزعت بقية النسخ في جامعتي، جامعة بيرزيت. وأذكر هنا، على سبيل التحية، أن رئيس الجامعة حنا ناصر ابتاع خمسين نسخة كي يهديها لزوار مكتبه، وهو الذي كان عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، والذي أصبح رئيساً للجنة الانتخابات. كانت منه جرأة، وشموخاً.

نضال فلسطين الرسمي حتى يومنا هذا صنعة شريفة. وثمة من الشباب المناضلين من يحمل روحه على راحته. هناك من يضحي، ولا أنكر على المضحي تضحيته. ولا أرى أن أي شكل من أشكال النضال يشبه أي شكل من أشكال التسليم بالأمر الواقع. وأضعف أشكال النضال نضالي.. النضال على طريقة أضعف الإيمان.

لكن نضال أبناء العائلات الغنية ليس أفضل من نضالي، فلئن كان نضالي مسالماً لا يؤذيني ولا يؤذي المحتل، فهو بريء من المال. لكن نضال العائلات الغنية ماكينة تعمل بالمال، وتتوقف عن الحركة في غيابه.

شاعرنا المناضل

شاعرنا المناضل بدوي الجبل ابن أسرة إقطاعية. كان وزيراً في عهد الاحتلال الفرنسي، وكان منسجماً مع مشروع الفرنسيين القاضي بتقسيم سورية إلى دويلات طائفية. ثم رأى أن المشروع متعثر، ومع ذلك لم يعد إلى الصف الوطني إلا بكثير من التلكؤ. وظل يناضل. وظل يرسل الأشعار الملتهبة، لكنه لم يكن جريئاً مثلما قد توحي بعض أبياته. كان ينتقد أولي الأمر بعد الاستقلال بكثير من الالتواء. لكنه صب جام غضبه على الوحدة بين سورية ومصر، وعلى عبد الناصر، ففي دولة الوحدة لم يجد له دوراً.

على أن شاعرنا قال قصيدة موجعة بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وكان جريئاً، وتعرض للأذى.

بدوي الجبل عنتري غضوب رومنسي مجدف. وهو يحاول أن يجعل لغته قديمة، يتفاصح. وله، على كل عيوبه، شعر حار. ولا نختار من الشعراء إلا صاحب الشعر الحار. فاخترناه، واخترنا من شعره. وأصابنا عنت ونحن نشرح شعره لما فيه من تعمل وتَقِيَّة سياسية والتواء لغوي. هذا عن شعره الجيد الذي اخترناه، وأما ما سترناه فهو مستور في ديوانه.

هذا ابن زعيم إقطاعي. أنيق ويفتخر بأناقته، وصاحب مناصب وزارية، وينفي نفسه إلى لبنان أو إلى إستانبول أو إلى جنيف عندما يكون خارج دائرة السلطة. وعندما أحكم أبناء طائفته، العلوية، قبضتهم على السلطة كان قد أسن، وكانوا من غير الإقطاعيين.. وإن أصبحوا فيما بعد من كبار الأغنياء. لذا ظل بدوي الجبل غاضباً.

لقد ناضل بدوي الجبل ضد الفرنسيين في بدء نزولهم إلى شاطئ سورية، وسجن وأوذي. وسجنوه مرة أخرى في أواخر استعمارهم سورية، وبين المرتين تعاون معهم كثيراً، وانضم إلى الصف الوطني طويلاً.. لكن متأخراً.

ولد بدوي الجبل في مطلع القرن العشرين. وأراح بعض الدارسين أنفسهم من تقليب «دفاتر نفوس» غير موجودة أصلاً فجعلوا مولده عام ١٩٠٠. أبوه رجل أدب وفقه وسيادة. كان من كبار سادة جبل العلويين في شمال غرب سورية. وكان الأب صاحب شعر وأدب وعضواً في مجمع دمشق. وقرأ الطفل على أبيه دواوين كبار الشعراء القدامى ودرس في مدارس اللاذقية، وربما أيضاً في مكتب عنبر بدمشق، تلك المدرسة التي تخرج فيها عدد من كبار أدباء ذلك الزمن.

وقال محمد الشعر باكراً. ومحمد هو اسمه، وسليمان الأحمد هو اسم والده. فشاعرنا هو (محمد سليمان الأحمد). ولقَّبه صاحب مجلة ألف باء الدمشقية «بدوي الجبل» باكراً، وأكل اللقب الاسم.

خاض محمد سليمان الأحمد، بدوي الجبل، في السياسة في حياة والده. كان العلويون في منطقتهم الجبلية يعيشون ضمن اقتصاد إقطاعي لا يختلف كثيراً عما هو موجود في بقية الريف السوري. على أن المدن السورية شهدت تشكيلات برجوازية صاعدة، فنشأت الصناعات المتوسطة بجانب الحرف القديمة، وتقدمت المهن العالية كالطب والمحاماة وأصبح أربابها يصعدون السلم الاجتماعي. وتسارع نمو الطبقات الناشئة في المدن في العهد الفرنسي. ووقفت المدينة السورية في وجه المحتل الفرنسي مطالبة بالاستقلال، وتصدر هذا المطلب زعماء تقليديون، معظمهم من المدن، وانضم إليهم زعماء تقليديون من الريف مثل سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز بالجنوب. وعندما كانت تتشكل الحكومات كان الزعماء الإقطاعيون من الدروز والعلويين ينالون تمثيلاً.

وعندما أراد الفرنسيون تقسيم سورية طائفياً رفض زعيم الدروز سلطان الأطرش، ولم يرفض عدد من زعماء العلويين، ومنهم شاعرنا.

ثم تبين أن الحركة الوطنية قوية. فانضم شاعرنا إلى الحركة، وكان نائباً ووزيراً عدة مرات.

وقبل أن يخرج الفرنسيون من سورية بمدة قصيرة سلطوا الطائرات والمدافع على دمشق، ١٩٤٥. كان فارس الخوري يومذاك في سان فرانسيسكو يوقع على اتفاق إنشاء هيئة الأمم المتحدة. قتل الفرنسيون ٤٠٠ دمشقي في هذا القصف الوقح.. ثم خرجوا من سورية.

حكم المدنيون سورية ثلاث سنين، ثم جاء الانقلاب الأول بالعسكريِّ «حسني الزعيم»، والزعيم جزء من اسمه، وبعد أربعة أشهر وفي العام نفسه، ١٩٤٩، شرب من الكأس نفسها وأُعدم. وجاء مدنيون، ثم جاء العسكري أديب الشيشكلي، ثم أُقصي، ثم اغتيل في منفاه.

كان بدوي الجبل دائم التأنق، لا يغادر ربطة عنقه ولا بذلته منتظراً القعود في دور سياسي. واتحدت سورية ومصر في ظروف معقدة، وفقد بدوي الجبل، ومعه النخبة السياسية السورية، الدور، فقال في عبد الناصر أهاجي مفعمة بالروح الإقليمية الضيقة، لكنها كانت أشعاراً بليغة لأنها انطلقت من قلب عامر بالعاطفة.. عاطفة الكراهية، والغضب لما لحق به من تهميش. قالها من منفاه.

وانقلب الجيش في سورية على الوحدة، وانفصمت عام ١٩٦١. وبالتدريج تبين أن حزب البعث الذي أمسك بالحكم بعد ذلك بقليل يوجهه ضباط علويون، وأن الطبيعة المدنية والعقائدية له مجرد قناع. كان صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد ثلاثتهم من العلويين، وكان سليم حاطوم درزياً. ولتكملة القصة فإن جديد سجن ٢٣ سنة حتى مات، وعمران اغتيل، وحاطوم أعدم بالرصاص، وأما حافظ الأسد، فحكم سورية، ثم حكمها ابنه بشار بالاستناد إلى قاعدة علوية في الأساس.

على أن العلويين الذين حكموا سورية بعد عام ١٩٦٣ لم يكونوا من سادة الإقطاع، ولا من برجوازية المدن. كانوا ممن يريد القضاء على النخبة القديمة.. لقد محقوا سياسياً أثرياء حمص ودمشق، وعصفوا بالزعامات التقليدية للدروز والعلويين. وفقد شاعرنا للأبد دوره السياسي، فلم يستفد من علويته في الزمن العلوي شيئاً. اللهم إلا في أخريات حياته عندما كان حكم حافظ الأسد حنوناً على الشاعر الشيخ.

رأينا بدوي الجبل ينفجر بقصيدة صاخبة عقب هزيمة ١٩٦٧، سخر فيها من الضباط وقرَّعهم تقريعاً. بعد هذه القصيدة اختطفت جماعة من الأشقياء الشاعر وأوسعته ضرباً، وكانت إصابته بالغة، وعاش بعدها حتى عام ١٩٨١، لكن صامتاً عليلاً، ولقي من الحكم العلوي بعض العطف، ولعل صمته كان الثمن.

لم نقل شيئاً عن شعر بدوي الجبل. لكننا في سياق شرحنا أبياته سنعلق على أشياء. ولن ننسى تسويد فرائد أبياته، وله تحليقات جديرة بأن يحفظها المرء ويذاكر بها إخوانه.

التفتُّ إلى شعر بدوي الجبل أول مرة عندما سمعت له بيتاً يفتخر فيه بشعره: (الخالدان ـ ولا أعد الشمس ـ شعري والزمانُ). فقلت في نفسي: قد فاتني أن أقرأ الرجل. وعندما قرأته وجدت له أبياتاً قوية غاية القوة. وبعض ما يطلبه المرء في الشعر العمودي: المذاكرة. يجلس المرء مع أصحابه ويتذاكرون الأحداث والمواقف، ويرصع المرء كلامه بالمثل وبالنادرة وببيت الشعر. فإذا ما جاء ببيت شعر قاعدٍ في محله، معبِّرٍ عن الموقف تعبيراً حلواً، فاح في المجلس عطر ذكي. فأما إذا استل كل جليس هاتفه وأخذ ينقل عنه فإن المجلس يصبح مجالس، ويغيض الأنس.

قبحاً لمجلس يتصدره الشيخ غوغل!

١ بعد المشيب

يُرنِّح شِعري باللِّوى كلَّ بَانَةٍ ويَندَى بِشعري فيهِ كُلُّ كَثيبِ

يحرك شعري في موضع «اللوى» الصحراوي كل شجرة من أشجار البان ويجعلها تترنح، وترطب أشعاري كثبانَ الرمل بالندى

ولولا الجراحُ الدامياتُ بِمهجتي لَأسكَرَ نَجداً والحجازَ نَسِيبي

النسيب: شعر الغزل في مطالع القصائد

وعَرَّتْنِيَ الأَيامُ مِمَّنْ أُحبُّهُمْ كَأيْكٍ، تَحاماهُ الربيعُ، سَليبِ

حرمني الزمن من أحبائي فصرت مثل بستان سليب من البهجة وقد تحاماه، وتجنَّبه، الربيع

ورُبَّ بَعيدٍ عنكَ أَحلَى مِنَ المُنى ورُبَّ قريبِ الدَّارِ غيرُ قريبِ

يحلو البعيد بعينيك فكأنه أحلى من الأمنيات، وقد يكون قريب المكان منك بعيداً عن قلبك

وويْحَ الغَواني: ما أَمِنْتُ خُطوبَها وقد أَمِنَتْ بعدَ المَشيبِ خُطوبي
الويل للحسناوات فأنا لست آمناً من تأثيرهن في نفسي، وأما هنَّ فلا تأثير لي فيهن بعد مشيبي

٢ باب إلى الله

بَـيْـنـي وبـيـنَ الـلَّـهِ، مِـن ثِـقـتـي بِـلُـطـفِ الـلَّـهِ، بـابُ
ثمة باب يوصلني إلى الله هو ثقتي بلطفه

أَبـداً أَلـوذُ بـه وتَـعْـرِفُـنـي الأَرائِـكُ والـرِّحـابُ
ألوذ بالله وألتجئ إليه دوماً، وتعرفني الأرائك، أي مقاعد الجنة، ورحابها

يـا رَبِّ: بَـابُـكَ لا يَـرُدُّ الـلاَّئِـذِيـنَ بِـهِ حِـجـابُ
يا رب: لا يرد أي حجاب أو ستر أولئك الملتجئين إليك

مِـفـتـاحُـهُ بِـيَـدي يَـقـيـنٌ لا يُـلِـمُّ بِـهِ ارْتِـيـابُ
مفتاح الباب الموصل لله بيدي، وهو عبارة عن يقين لا شكَّ يُلم به أو يخالطه

وعِـبـادَةٌ لا الـحَـشْـرُ أَمـلاهـا عَـلَـيَّ ولا الـحِـسـابُ
وهذا المفتاح هو أيضاً العبادة التي لا يمليها علي، ولا يدفعني إليها، خوف من الحشر والحساب

٣ شماتة بالمحتل ١٩٤١

يا سامِرَ الحَيِّ هل تَعنيكَ شَكْوانا رَقَّ الـحَـديـدُ ومـا رَقُّـوا لِـبَـلْـوانـا
أيها القوم في مجلس سمرهم هل تهمكم شكوانا؟ لقد رقَّ الحديد ولان ولم ترق قلوب الناس لبلوانا، أي مصيبتنا

ويلَ الشُّعوبِ التي لم تَسْقِ مِن دَمِها ثاراتِها الحُمْرَ أَحقاداً وأَضْغـانـا
الويل للشعوب التي لا تضحي بدمها لأخذ الثأر من الظالمين، ولا تضمر الحقد والبغض لهم

تَرَنَّحَ السَّوْطُ في يُمْنى مُعَذِّبِها رَيَّانَ مِن دَمِها المَسفُوحِ سَكرانا
السوط يهتز في اليد اليمنى لمن يعذب هذه الشعوب، وهذا السوط يترنح كالسكران وقد ارتوى من دم تلك الشعوب

تُغْضي على الذُّلِّ غُفراناً لِظالِمِها تَـأَنَّـقَ الـذُّلُّ حـتـى صـارَ غُـفـرانـا
والشعوب المظلومة تغضي، وتطأطئ الرأس، ذليلة، وتغفر للظالم. لقد صار الذل أنيقاً وتحول إلى صورة غفران، فيا للمهزلة

أَلَـمَّ، والـلـيـلُ قـد أَرْخَـى ذَوائِـبَـهُ،   طـيـفٌ مِـن الـشَّـامِ حَـيَّـانـا فَـأَحْـيَـانـا

بينما الليل قد أرخى خصلات شعره الأسود.. ألمَّ بنا، أي جاءنا، طيف من الشام وحيانا فأحيانا ونَعَشنا

فَمَنْ رأى بِنتَ مَروانَ انْحَنَتْ تَعَباً   مِـنَ الـسَّـلاسِـلِ يَـرْحَـمْ بِـنـتَ مَـروانـا

فكل من رأى الشام، وهي بنت مروان بن الحكم والأمويين، وقد انحنت تعبى من سلاسل المحتل الفرنسي، يرق لها ويشفق عليها

هل في الشَّآمِ، وهل في القدسِ والِدةٌ   لا تَشتَكي الثُّكلَ إعْوالاً وإِرْنانا؟

فالأمهات في الشام، تحت الاحتلال الفرنسي، وفي القدس، تحت الاحتلال البريطاني والتغلغل الصهيوني، هذا عام ١٩٤١، كلهن يشتكين الثكل ويصدر عنهن العويل والإرنان، النواح

يُعطِي الشَّهيدُ؛ فلا واللّهِ ما شَهِدتْ   عيني كإِحسانِهِ في القومِ إِحسانا

الشهيد معطاء، ولا أحد يعطي عطاءه

وغايةُ الجُودِ أنْ يَسقيِ الثَّرى دَمَهُ   عندَ الكِفاحِ، ويَلقَى اللّهَ ظَمْآنا

قُلْ لِلأُلَى اسْتعْبَدُوا الدنيا لِسَيْفِهِمُ   مَنْ قَسَّمَ الناسَ أحراراً وعُبْدانا؟

الألى: الذين

إِنّـي لأَشْـمَـتُ بِـالـجـبَّـارِ يَـصْـرَعُـهُ   طَـاغٍ ويُـرهِـقُـهُ ظُـلـمـاً وطُـغـيـانـا

يا لشماتتي بالجبار الفرنسي وقد صرعه عدو طاغ وظلمه، وكانت ألمانيا قد احتلت فرنسا في بدايات الحرب العالمية الثانية، وهذا زمن القصيدة

سَمعْتُ باريسَ تَشكوُ زَهْوَ فَاتِحِها   هَـلَّا تَـذَكَّـرْتِ يـا بـاريـسُ شَـكـوانـا

الزهو: التكبر

والخيلُ في المسجدِ المَحزُونِ جَائِلَةٌ   عـلـى الـمُـصَـلِّـيـنَ أَشـيـاخـاً وفِـتـيـانـا

كانت خيل العسكر الفرنسي قد دنست المسجد الأموي بدمشق قبل حين

إذا انـفـجَـرْتِ مِـن الـعُـدوانِ بـاكـيـةً   لَـطـالَـمـا سُـمْـتِـنـا بَـغـيـاً وعُـدوانـا

إذا انفجرت بالبكاء يا فرنسا فطالما سمتنا، وعرَّضتِنا، للظلم والعدوان

عشرينَ عاماً شَرِبْنا الكأسَ مُتْرَعَةً   مِنَ الأذى، فَـتَـمَـلَّـيْ صِـرْفَـهـا الآنـا

مضت عليك عشرون سنة، منذ ١٩٢١، وأنت يا فرنسا تسقيننا الكأس مملوءة أذىً، فتملي، جربي، الشراب نفسه صرفاً خالصاً الآنَ

مَا لِلطَّواغيتِ في باريسَ قد مُسِخُوا   علـى الأرائِكِ خُـدَّامـاً وأعْـوانـا

ما لي أرى الطواغيت، الجبابرة، الفرنسيين قد مسخوا وأخذوا يتصرفون بإزاء الغازي الألماني كالخدم والأعوان وهم جالسون على مقاعدهم لا يحاربون بل لقد شبعوا استسلاماً

تَمَلْمَلَ الفاتِحونَ الصِّيدُ وازْدَلَفُوا   إلـى الـسيـوفِ زَرافـاتٍ ووُحْـدانـا

يصف ثورة العرب أيام الحسين بن علي: لقد تحرك العرب الفاتحون الصيد، الكرام السادة، وازدلفوا إلى السيوف، هبوا نحوها، جماعات وأفراداً

ولِلـجِيـادِ صَـهيـلٌ فـي شَـكـائِمِـهـا   تـكـادُ تَـشْـرَبُـه الـصَّـحْـراءُ أَلْـحـانـا

وخيولهم تصهل والشكائم، تلك الحدائد، في أفواهها، وتكاد الصحراء تشرب هذا الصهيل مستمتعة به كأنه الألحان.. فقد قاد الشريف حسين العرب في هجمات ضد جنود الترك في نهايات الحرب العالمية الأولى

الـسَّـابِـقـاتِ ومـا أَرْخَـوْا أَعِـنَّـتَـهـا   والـحامِلاتُ المنايا الـحُمْرَ فُرسانا

هذه الخيول العربية سابقة ولا تُرْخَى لها المقاود، بل تظل مشدودة كنايةً عن المضي وعدم الاستراحة، وهي تحمل فرساناً هم كالموت الأحمر على عدوهم

شَدَّ الـحُسيْنُ على الطُّغْيانِ مُقْتَحِماً   فـزلـزَلَ الـلّـهُ لِـلـطُّـغـيـانِ بُـنـيـانـا

اقتحم الشريف حسين بجنوده معاقل الظلم التركي فزلزل الله بنيان الظالمين

يا صاحِبَ النَّصْرِ في الهيجاءِ كيف غَدا   نصرُ المعاركِ عندَ السِّلْمِ خِذْلانا؟

أيها الشريف حسين! يا من انتصر في الحرب.. كيف تحول النصر إلى خذلان لك من جانب حلفائك الإنجليز؟

ترى السِّياسَةَ لَوْناً واحداً، ويَرى   لـهـا حَـلـيـفُـكَ أشـكـالاً وألْـوانـا

أنت ترى السياسة لوناً واحداً، هو الصدق المحض، ولكن حليفك الغادر يراها أشكالاً وألواناً

٤ رسالة إلى أبي

يا راكِبَ الـوَجْـناءِ، أَخْمَلَ عَهْدُهـا   إبِـلاً ظِـمـاءً فـي الـفَـلاةِ طِـلاحـا

يخاطب راكب السيارة ويسميها باسم الناقة، والناقة الوجناء هي الغليظة ذات الوجنتين البارزتين، ويتحسر على الإبل فالسيارة أخملت، أي ذهبت بشهرة، الإبل الظامئة الطلاح، أي المتعبة في الفلاة، أي الصحراء. يريد الشاعر أن يستعرض معجمه العتيق!

اِنْـزِلْ عـلـى خـيـرِ الأُبُـوَّةِ رَحـمـةً   تَـسَـعُ الـحـيـاةَ وعِـفَّـةً وصَـلاحـا

انزل يا راكب السيارة على خير أب، على أبي الحنون الذي يتميز بالعفة والصلاح

يَشكُو السَّقامَ فإنْ هَتَفْتَ أَمامَه   بِاسْمِي تَهَلَّلَ وَجهُهُ وارْتاحا

التسويد لعمران القفيني

وأَطِلْ حديثَكَ يَسْتَعِدْهُ تَعَلُّلاً   بالذِّكْرِ لا لِتَزِيدَهُ إِيضاحا

حدثه عني واسترسل في حديثك وسيستعيده تعللاً بذكري وتلذذاً بحديثك عني، وليس لأنه يطلب توضيحاً

وإذا أَلَحَّ فَلِلْحَنانِ عُذُوبَةٌ   في مُقْلَتَيْهِ تُحَبِّبُ الإِلْحاحا

وإذا ألح عليك فستجد في عينيه حنان الأبوة الذي يحبب لك إلحاحه

٥ عيد الجلاء

القصيدة من بنات عام ١٩٤٦، وفي ١٧ نيسان/ أبريل منه انسحب آخر جندي فرنسي من سورية. ويوجد اليوم ـ ونحن نكتب هذا الشرح في مارس ٢٠١٧ ـ جنود من ثلاث دول في سورية، ومقاتلون من بضع عشرة دولة أخرى

اَلزَّغارِيدُ فقد جُنَّ الإِباءْ   مِن صِفاتِ اللَّهِ هذي الكِبْرِياءْ

لتنطلق الزغاريد بمناسبة جلاء المستعمر فقد انتشينا بالفخر وبرفضنا الذلَّ حدَّ الجنون، وكبرياء كهذه هي من صفات الله

بِنتُ مَروانَ اصْطَفاها رَبُّها   لا يَشاءُ اللَّهُ إِلَّا ما تَشاء

لقد اختار الله بنت مروان، أي الشام التي كان يحكمها الأمويون من بني مروان، والله يرضى ما ترضى

هِيَ في غَسَّانَ بَأْسٌ ونَدىً   وَهْيَ في الإِسلامِ فَتْحٌ وبَلاءْ

الشام أيام الغساسنة قوة وسخاء، ومع قدوم الإسلام أصبحت الشام عنوان فتح وبلاء حسن وشجاعة في المعارك

جَمْرَةُ الحقِّ، فَسُبحانَ الذي   صاغَ هذا الجَمْرَ مِن ظِلٍّ وماءْ

اَلوُرودُ الحُمْرُ ذِكرى وهَوىً   وطُيوفٌ مِن جِراحِ الشُّهَداءْ

الورود الحمر لها معانٍ شتى.. منها أنها طيوف، أشباح، تذكرنا بجراح الشهداء

خُيَلاءُ الحَقِّ في عَدْنٍ لَكُمْ   يَغْفِرُ اللَّهُ لِقَومِي الخُيَلاءْ

أيها الشهداء لكم في الجنة أن تختالوا والله يغفر هذه الخيلاء، الزهو والافتخار

واعْذِروا عَدْناً على غَيْرَتِها   إِنَّها والشَّامَ في الحُسْنِ سَواءْ

والتمسوا العذر لجنات عدن لإحساسها بالغيرة، فهي جميلة مثل الشام، والجميلة غَيرَى

كيفَ أنْسَى يا زَعيمي ليلةً عَصَفَتْ نيرانُها بالأبرياءْ

كيف أنسى أيها الزعيم، شكري القوتلي، الليلة التي قصفت فيها فرنسا المدنيين بالمدافع

غُوطَةُ الشَّامِ جَحيمٌ فَائِرٌ والميادينُ طِعانٌ ورِماءْ

الطعان: الضرب بالرماح، والرماء: رمي السهام

ما شَكى الشَّاكونَ فيها ظَمَأً أكْؤُسُ الحِقدِ رَوِيَّاتٌ مِلاءْ

في تلك الجحيم لم يشكُ المناضلون العطش، فقد كانت كؤوس الحقد على المحتل رويَّة وممتلئة

مَلَكَ الطَّاغي الثَّنايا عَنْوةً واستَحَرَّ القتلُ واشْتَدَّ البَلاءْ

الثنايا: الطرق الجبلية، استحر: اشتد وصار حاراً، البلاء: القتال

وتَجارَى الأُمَويُّونَ إلى غَمْرَةِ الموتِ، وفازَ السُّعَداءْ

تجارى الأمويون، تراكض أهل الشام نحو الموت، وفاز بالشهادة السعداء منهم

جُنَّتِ النَّخْوَةُ قَحطانِيَّةً وَهْيَ عَزْلاءُ، وجُنَّ الأَقْوِياءْ

النخوة اشتعلت في النفوس وكانت قحطانية عزلاء غير مسلحة، وجن الفرنسيون من هذه الشجاعة (والأمويون عدنانيون قرشيون، ولكن الغساسنة الذين حكموا الشام في الجاهلية يمنيون قحطانيون)

عُنْفُ باريسَ شَجاني أَمْرُهُ بِدْعَةُ الأَقْدارِ عُنْفُ الجُبَناءْ

أحزنني وأربكني عنف الفرنسيين، وإنها لإحدى غرائب القدر أن يكون الجبان عنيفاً

٦ بدعة الذل ١٩٥٠

في الذكرى الخامسة عشرة لوفاة المناضل إبراهيم هنانو

مُحِيَتْ أَشْهُرُ الرَّبيعِ، فَلا أَيَّـ ـارُ مِن دَهرِنا ولا نِيسانُ

أيار: مايو، نيسان: أبريل

لا شَقيقُ النُّعْمانِ في غُوطَةِ الشَّا مِ، ولا عِطْرُهُ ولا النُّعْمانُ

لم يعد ثم في غوطة الشام شقائق النعمان ولا عطرها ولا النعمان نفسه (وكان من ملوك الغساسنة في الشام النعمان بن المنذر، وكان عند المناذرة في العراق النعمان بن المنذر أيضاً. فتأمل) وبالمناسبة فشقائق النعمان لها رائحة بغيضة وزوالها من المستحبات، لكن الشاعر ظن أن قراءه ومستمعيه لم يشموا الشقائق في حياتهم

يَعرِفُ الفَجرُ أنَّ دَمْعِيَ أَصْفَى مِن نَداهُ، ويَعرِفُ الرَّيْحانُ

تَعْرِفُ الرَّاحُ أنَّ دَمْعِي سُلافٌ وجُفُوني كُؤُوسُها والدِّنانُ

السلاف: أجود الخمر، والدنان: خوابي الخمر الكبيرة

أَنـا أَبْـكـي لِـلَّـيْـلِ أَوْحَـشَـهُ الـبَـدْ رُ، ولِـلـقـلْـبِ هَـدَّهُ الـحِـرمـانُ

أبكي لليل وقد أوحشه غياب البدر، وللقلب وقد أثقله الحرمان

أنـا أَبكـي لِلْهَـمِّ يَـأْوِي إلى القلـ ـبِ، فَيقْسُو على الغَريبِ المَكانُ

أنـا أَرثـي لِـلـمُـتْـرَفـيـنَ فـمـا يُـبْـ ـدِعُ إلَّا الـشَّـقـاءُ والأَحْـزانُ

أرثي لحال الأغنياء السعداء! نعم، لأن الإبداع لا يأتي إلَّا ممن يعانون الشقاء والحزن. ف/ مساكين الأغنياء

وأَنـا الـمُـتْـرَفُ الأَنـيـقُ، ولـكِـنْ تَـرَفـي صـاغَ فَـنَّـهُ الـرَّحـمـنُ

لكنني مترف وغني ـ وكان شاعرنا كذلك فعلاً ـ لكن ترفي مختلف.. إنه من صنع الله

أنـا أَبْـكـي لِـكُـلِّ قَـيْـدٍ، فَـأَبـكـي لِـقَـريـضـي تَـغُـلُّـهُ الأَوْزانُ

أبكي لكل تقييد للحرية، حتى للشعر لأن الوزن يقيده

وهُـمُـومـي مُـعَـطَّـراتٌ، عـلـيـهـا مِـن شَـبـابـي الـطُّـمُـوحُ والـرَّيْـعـانُ

همومي هموم الشاعر المحلق فهي معطرة، وشبابي يضفي عليها طموحاً وريعاناً، والريعان أول الشباب

لـم أَضِقْ بالـهُـمومِ قلباً، وهـل ضَـا قَ بِـشَـتَّـى عُـطـورِهِ الـبُـسْـتـانُ

والـهُـمومُ الـحِـسانُ تفعـلُ في الأَنْـ ـفُسِ ما تفعـلُ الـغَـواني الـحِـسانُ

الهموم تبعث الشعر والفن، وتفعل في النفس ما يفعله جمال الجميلات من توق وشوق وغيظ وحنين، ومن حسد لأزواج أولئك الجميلات

وأنـا الـوالِـدُ الـرَّحـيـمُ، وأَبـنـا ئِـي هُـمـومُ الـحـيـاةِ والأَشْـجـانُ

عَـقَّـنـي الأَقْـرَبـونَ في غَـمْـرَةِ الـخَـطْـ ـبِ، وعَـقَّ الـلِّـدَاتُ والإِخْـوانُ

اللدات: الأقران والأصحاب

سوفَ يُمـلي التَّاريخُ عَنِّيَ ما يُمْـ ـلي، فَـتَـخْزَى بِظُلْـمِـيَ الأَوْطانُ

سيسجل التاريخ قصتي وسيصيب الخزي وطني الذي ظلمني

أَيـنَ حُـرِّيَّـتـي؟ فـلـم يَـبْـقَ حُـرَّاً مِـنْ جَـهـيـرِ الـنِّـداءِ إلَّا الأَذانُ

كانت سورية وقت إلقاء القصيدة، في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٠، قد خرجت من انقلابي حسني الزعيم فسامي الحناوي، وآل الحكم إلى الرئيس هاشم الأتاسي.. ويصف الشاعر تلك الفترة بأنها فترة تقييد للحريات، فلم يكن مسموحاً بأي نداء سوى الأذان

نحنُ تاريخُ هذهِ الأُمَّةِ الفَخْـ ـمُ، ونحنُ المكانُ والسُّكَّانُ
تَخْجَلُ الخيلُ بِالذَّليلِ اذا صا لَتْ، ويَشقَى سَرْجٌ ويَشكُو عِنانُ
يَتَلَوَّى على الحِبالِ فُنوناً أَوَزيرٌ في الدَّسْتَ أم بَهْلَوانُ؟

الذليل يتلوى وهو يمسك بحبل الحصان ويتفنن في التيه، فهل هو وزير في دست الحكم، أي مجلسه، أم بهلوان؟ وكان حسني الزعيم صاحب أول انقلاب، ١٩٤٩، يفاخر بأنه ألغى حكم العائلات الإقطاعية.. وشاعرنا كان من قبل وزيراً، في أكثر من حكومة، عن عائلة إقطاعية في عهد الاحتلال الفرنسي

أَنِسُوا مِنه بِالنُّعُومَةِ واللِّيـ ـنِ، ولا بِدْعَ، إنَّه أُفْعُوانُ

أنس الوزراء بنعومة ولين الرئيس المدني هاشم الأتاسي.. لا عجب فهو أفعوان

ليس خَلْفَ البُرودِ إلَّا هَباءٌ فاحْكُمِ الناسَ أيُّها الطَّيْلَسانُ

خلف برود، ثياب، الرئيس المدني هباء.. فهو مفرغ من القيمة السياسية ـ ذلك أن العسكر سلموه الحكم تسليماً وحكموا من ورائه ـ حسناً.. احكمي الناس أيتها البذلة

لا يُهِينُ الشعوبَ إلَّا رِضاها رَضِيَ الناسُ بالهوانِ فَهَانوا

التسويد للشاعر الصديق عمران القفيني

بِدعةُ الذُّلِّ حين لا يذكُرُ الإنـ ـسانُ في الشامِ أنهُ إنسانُ
أنتَ أَقْوَى مِن المنايا وأقوى مِن أذَى الدهرِ فاسْتَفِقْ يا هَنانُو

يهيب بالمناضل إبراهيم هنانو الذي مات قبل خمس عشرة سنة أن يصحو ليواجه الحكام الحاليين

٧ نم بقلبي

في ذكرى سعد الله الجابري

نَمْ بِقَلْبي، ولو قَدَرْتُ مَنَعْتُ الـ ـقلبَ، حتَّى تَقَرَّ فيهِ، الخُفُوقا

نم في قلبي أيها المناضل، سعد الله الجابري، ولو استطعت لمنعت قلبي من الخفقان حتى تستقر فيه مرتاحاً

نَمْ بِعَيْني، فقد فَرشْتُ لكَ الأَحـ ـلامَ، مُخْضَلَّةَ الوُرودِ، طَريقا

نم في عيني، وقد فرشت فيها لك طريقاً من الأحلام وعلى جانبيه الورود المخضلة، النديّة

إنَّ قَلبي خَمِيلَةٌ تُنْبِتُ الأحـ ـزانَ: وَرْداً ونَرْجِساً وشَقِيقا

خميلة: بستان

أنـا والـهَـمُّ، كُـلَّـمـا أقْـبَـل الـهَـمُّ ـ مَـشُـوقٌ يَـلـقَـى أخـاهُ الـمَـشُـوقـا
سَكِرَ الشِّعْرُ مِن سُلافي، وعَبَّتْ مِـن دِنـانـي فَـجُـنَّـتِ الـمُـوسـيـقـا
لا تَـلُـمْـنـا إذا تَـركْـنـا الـمَـيـاديـ ـنَ سُـمُـوّاً بِـحَـقِّـنـا وَوُثُـوقـا

لا تلمنا، أيها المرحوم سعد الله الجابري، إذ ترانا تركنا ميدان السياسة مترفعين عارفين قدر أنفسنا

فـالأصـيـلُ الـعَـتـيـقُ يَـأْنَـفُ شَـوْطـاً لـم يُـشَـاهِـدْ فـيـهِ أصـيـلاً عَـتـيـقـا

فالحصان العتيق، الأصيل، يأنف الشوط، الحلبة، الذي لم يشاهد فيه حصاناً أصيلاً مثله

ذَلَّ شَـوْطٌ يـكـونُ بـيـن الـبَـراذِيـ ـنِ، فـلا سـابِـقـاً ولا مَـسْـبُـوقـا

وذليل هو ذلك المضمار، وتلك الحلبة، حيث البراذين، البغال، فلا سابق ولا مسبوق في مثل هذا المضمار بل هو مرتع للبغال

لم تُحَمْحِمْ تَخْتالُ بِالحُسْنِ والقُوَّ ةِ، بـل حَـمْـحَـمَـتْ تُـريـدُ الـعَـلـيـقـا

والبغال لا تصدر صوت الحمحمة، الصهيل الخفيف، تيهاً بجمالها وقوتها، بل هي تطلب به العليق، العلف

مـا نَـزلْـنـا عـنِ الـسُّـروجِ عَـيـاءً لـو رَكِـبْـنـا لَـمـا أطـاقُـوا الـلُّـحُـوقـا

لم ننزل عن السروج، ولم نترك العمل السياسي، إرهاقاً.. ولو مارسناه لما لحقَنا أحد في ميادينه

سُـدَّةُ الـحـكـمِ بـعـد آسـادِ خَـفَّـا نَ تَـضُـمُّ الأحـلافَ شَـاءً ونُـوقـا

فعلى سدة الحكم الآن ـ بعد انقضاء زمن أُسود منطقة خَفَّان ـ أحلاف من الشياه والنياق

أَبْطَرَ الحَاقِدِينَ حِلْمُ أَبِي حَسَّـ ـانَ، والحِلْمُ أنْ تُقيلَ الصَّديقا

والرئيس أبو حسان ـ شكري القوّتلي ـ قد دلل الحاقدين حتى بطروا وأنكروا النعمة، وعلينا أن نكون حليمين فنغض عن خطإه

إنَّ عُـنـفَ الـعِـتـابِ يُـؤْذي أَحِـبَّـا يَ، وأَحْـلاهُ مـا يَـكـونُ رَقـيـقـا
جَـمْـرَةُ الـحِـقـدِ فـي الـسَّـرائِـرِ لـولا ذُلُّ أصْـحـابِـهـا لَـشَـبَّـتْ حَـريـقـا

الحقد كالجمرة في سرائر الحاقدين، أي ضمائرهم، ولولا ذلتهم لشب حريق من هذه الجمرة

قـد أَرَقْـنـا دِمـاءَنـا فَـسَـلُـوهُ أَيُّ دَمْـعٍ مِـن مُـقْـلَـتَـيْـهِ أُريـقـا
حَـمَّـلُـوهُ مـا لا يُـطـيـقُ، وكـانَـتْ بِـدْعَـةً تُـخْـجِـلُ الـعُـلَـى أنْ يُـطـيـقـا

لقد حملوا الرئيس المضعوف أكثر من طاقته، ولو كان يُطيق التصدي لكان ذلك بدعة لا ترضى بها المعالي، فهو ليس أهلاً

دَعْكَ مِن زَحْمَةِ العَواصِفِ واتْرُكْ لِلعُقابِ السَّماءَ والتَّحْليقا
خَلَقَ اللَّهُ لِلعَظائِمِ والمَجْـ ـدِ فَريقاً، ولِلصِّغارِ فَريقا

الصغار: الحقارة. أهذا هو العتاب «الرقيق» يا شاعرنا؟

٨ يا وحشة الثأر

في تتويج فيصل الثاني على العراق ١٩٥٣

أَيَطْمَعُ الشعرُ بِالإحسانِ يَغمُرُهُ والشعرُ يَغمُرُ دنيا اللَّهِ إحسانا

لا يطمع الشعر ولا الشاعر بإحسان الناس، فالشعر يغمر الدنيا إحساناً. يريد الشاعر أن يقول إنه يصدح في مناسبة تتويج فيصل الثاني، وقد بلغ الثامنة عشرة، لا لأجل المال بل لتعلقه بإرث الهاشميين

لو شاءَ أَنزَلَ بَدرَ التِّمِّ فاحتَفَلَتْ بهِ النَّدامَى سِراجاً في زَوايانا

لو شاء الشعر لأنزل البدر عند تمامه لكي يكون مجرد سراج في الزاوية يحتفي به السمار. بيت جميل كالذي قبله.. ولكننا نقف وقفة نقلد فيها النقاد القدامى: ما أوقحك أيها الشاعر، تقول شعراً في ملك لم يكد يعتدل التاج على رأسه، وتفجؤه بصورة البدر نازلاً وقاعداً في زاوية؟ سبقت المتنبي في الوقاحة عندما كان أول بيت قاله في مدح كافور: كفى بك داء أن ترى الموت شافيا، وسبقت جريراً في قوله لعبد الملك: أتصحو؟ بل فؤادك غير صاح. وعذر الشاعرين القديمين مبسوط متاح: فكلاهما تكلم عن أحزان قلبه. وأنت ذهبت بك الكبرياء كل مذهب.. ثم رحت تجدف. انتظر التجديف في الأبيات اللاحقة

نُشارِكُ اللَّهَ، جَلَّ اللَّهُ، قُدرَتَهُ ولا نَضيقُ بها خَلقاً وإتْقانا
وأينَ إنسانُهُ المصنُوعُ مِن حَمَأٍ مِمَّنْ خَلقْناهُ أَطْياباً وأَلحانا!

يقارن بين الإنسان الذي خلقه الله من حمأ، طين، وبين الشعر الذي يخلقه الشاعر من الطيب والألحان

يا خالِقَ القلبِ! أَبْدَعْنا صَبابَتَهُ يا خَالِقَ الحُسْنِ! أَبْدَعْناهُ أَلوَانا

يخاطب الله ﷻ: يا من خلق القلب! نحن الشعراء أبدعنا للقلب الصبابة، العشق؛ ويا من خلق الجمال! نحن جعلناه ألواناً شتى بخيالاتنا

نُشارِكُ الناسَ بَلواهُمْ وإِنْ بَعُدُوا ولا نُشارِكُ أَدناهُمْ بِبَلوَانا

يفتخر الشاعر: نحن الشعراء نشارك الناس في أحزانهم ولو بعُدوا، ولا نشاركهم في أحزاننا نحن وإن قرُبوا

ضَمَّتْ مَحَبَّتُنا الأَشتاتَ واتَّسَعَتْ تَحنُو على الكونِ أجناساً وأديانا

ستنطوي الجَنَّةُ النَّشْوى فلا مَلَكاً   ولا نَعيماً ولا حُوراً وَوِلْدانا

لن تبقى الجنة المنتشية بالفرح، فلا ملائكة ولا نعيم ولا حور ولا ولدان

يَفنَى الجميعُ، ويبقَى اللَّهُ مُنْفَرِداً   فلا أنيسَ لِنورِ اللَّهِ لَوْلانا

ويبقى الله.. والذي يعبِّر عن نور الله هم الشعراء

يا صاحِبَ التَّاجِ! دنيا اللَّهِ ما عَرَفَتْ   إلَّا عَمائِمَكُمْ في الشرقِ تيجَانا

هذا مدح خالص: يا فيصل الثاني! التيجان الحقيقية في الشرق هي عمائم آل هاشم

أَصْفَيْتُ آلَ رسولِ اللَّهِ عاطِفَتي   وكنتُ شاعِرَكُمْ نُعْمى وأحزانا

وما رَضيتُ جَزاءً في مودَّتِكُمْ   لا يَعْدِمُ الحرُّ أَقْواتاً وأكْفانا

لم أقبل بمكافأة على حبي لكم، والحر لن يموت من جوع، وإن مات لم يعدم الكفن

وأُكْرِمُ العيدَ عن عَتْبٍ هَمَمْتُ بهِ   لو شئتُ أوسَعْتُهُ جَهراً وتِبيانا

وسأكرم بهذه المناسبة بعدم ذكر عتاب كنت نويت أن أبوح به، ولو شئت لجهرت به.. وكانت الأسرة الهاشمية تحكم الأردن، وضاعت فلسطين ولم تنقذها جيوش العراق والأردن وغيرها من الدول العربية، وكان عبد الله الأول بن الحسين ملك الأردن وقت ضياع فلسطين القائد العام للجيوش العربية، وعبد الله أخو جد فيصل الثاني الممدوح

قد اسْتَرَدَّ السَّبايا كلُّ منهَزِمٍ   لم تَبقَ في رِقِّها إلَّا سبايانا

وما لَمَحْتُ سِياطَ الظلْمِ دَامِيةً   إلَّا عَرَفْتُ عليها لَحْمَ أَسْرانا

ولا نَموتُ على حَدِّ الظُّبا أَنَفاً   حتى لقد خَجِلَتْ مِنَّا منايانا

الظبا: شفرات السيوف

يا وَحْشَةَ الثَّأْرِ لم يَنْهَدْ له أَحَدٌ   فاستَنْجَدَ الثَّأْرُ أَجْداثاً وأَكْفانا

الثأر لنكبة فلسطين يشعر بالوحشة لأنه لم ينهد، ينهض، أحد للأخذ به، فراح الثأر يستنجد التاريخ القديم

٩ الحدود المصطنعة

يا بُناةَ الحدودِ لا تعرفُ الصحـ   ـراءُ في زَحمَةِ الأعاصيرِ حدًّا

وكانت الحدود، والقصيدة بنت عام ١٩٣٩، قد أصبحت راسخة بين الشام والعراق

١٠ ولا أعدُّ الشمس!

كـافُـورُ قـد جُـنَّ الـزَّمـانُ وإلـيـكَ آلَ الـصَّـوْلَـجـانُ

هذه القصيدة في هجاء جمال عبد الناصر، يشبهه الشاعر بكافور الإخشيدي. وكان بدوي الجبل من أشد معارضي الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨

الـهـاشِـمـيُّـونَ انْـطَـوَوْا وأُمَـيَّـةٌ كـانُـوا فَـبَـانُـوا

بانوا: ابتعدوا

كـافُـورُ جَـمِّـعْ حـولَ عَـرْ شِـكَ كـلَّ مَـنْ حَـقَـدُوا وهـانُـوا

هانوا: ذَلُّوا

حَـرِّكْ دُمـاكَ فـإِنْ أَرَدْ تَ قَـسَـوْا، وإِنْ آثَـرْتَ لانُـوا

حرك دماك، جمع دمية، فهم ينفذون أوامرك. وكان عبد الناصر قد جعل عبد الحميد السراج السوري يدَه اليمنى في سورية، وكان قاسياً، وحدث أن طلب إليه عبد الناصر مرة أن يخفف قبضته، ثم بعد ذلك جعل فوقه عبد الحكيم عامر.. فكان في تعيينه الإسراع في خراب الوحدة

الـنَّـاعِـمُـونَ عـلـى الـيَـهُـو دِ، عـلـى رَعِـيَّـتِـكَ الـخِـشَـانُ

أَشْبَـعْـتَ بِـالـخُـطَـبِ الـجيـا عَ، فـكُـلُّ هـادِرَةٍ خِـوانُ

أشبعت بخطبك الجائعين! يهزأ. فكل خطبة هادرة صاخبة بمثابة خِوان، مائدة

إِلـحَـنْ وكَـرِّرْ مـا تَـشـا ءُ فـإِنَّـهـا الـخُـطَـبُ الـحِـسـانُ

وكان عبد الناصر يخطب بالعامية في مصر وبالفصحى في الشام وكان غير بعيد عن الخطأ النحوي

كـافُـورُ قـد عَـنَـتِ الـوجُـو هُ فـكـيـفَ لا يَـعْـنُـو الـبَـيـانُ؟

عنت الوجوه، خضعت، وبالتالي خضع البيان، خضع الشعر والأدب والإعلام

هَـمَـدَتْ حَـمِـيَّـتُـنـا عـلـى الـ ـجُـلَّـى، ومَـاتَ الـعُـنـفُـوانُ

خمدت حماستنا للجلى، لعظائم الأمور، ولم يعد فينا عنفوان

والـذُّلُّ أَطـيـابُ الـعَـبـيـ ـدِ، فَـمـا الـبَـخُـورُ ومـا الـلِّـبانُ؟

العبيد يَستحسن منهم سادتهم أن يكونوا أذلاء، فهذا هو عطرهم، لا البخور ولا اللبان العطري

والـظـلـمُ مِـن طَـبْـعِ الـجـبـا نِ، وكـلُّ طـاغِـيَـةٍ جـبـانُ

أَمُـمَـزِّقَ الأَرْحـامِ! لا يُـبْـ ـنَـى عـلـى الـحِـقْـدِ الـكِـيـانُ

والـــشَّـــتْـــمُ مِـــنْ آلاتِ نَـــصـــ ـرِكَ، لا الـضِّـرابُ ولا الـطِّـعَـانُ

كان الإعلام المصري يستخدم السخرية والألفاظ الرديئة لإسقاط بعض الزعماء العرب في أعين شعوبهم.. مثال: «حسين بن زين» لملك الأردن، و«شخبوط بن لخبوط» لأمير أبو ظبي سلف زايد بن سلطان

مَـــن أنـــتَ؟ عـــاصِـــفَـــةٌ وتـــذ هَـبُ مِـثْـلَـمـا انـقَـشَـعَ الـدُّخَـانُ
مَـن أنـتَ؟ لـولا صَـوْلَـة الـطُّـ ـغـيـانِ؛ أنـتَ إِذنْ فُـلانُ
كـافُـورُ عـرشُـكَ لِـلـفـنـا ءِ، ورُبَّـمـا آنَ الأَوَانُ
اَلـخـالِـدانِ، ولا أُعُـدُّ الـشَّـمـسَ، شِـعـريَ والـزَّمـانُ

فالشمس ليست خالدة.. فقط شعر بدوي الجبل والزمان

١١ فرعون عاد

فِـرعَـوْنُ عـادَ فـكـيـفَ كـيـ ـفَ، وقـد عَـصَـفْـتَ بِـهِ يَـعـودُ؟

فرعون القديم قد عاد لمصر في صورة جمال عبد الناصر، فكيف يا رب يعود بعد أن عصفت به وأغرقته؟ القصيدة تعود لسنة ١٩٦٦

أَرضُ الـكِـنـانَـةِ مـا بـهـا إلَّا الـمُـتَـوَّجُ والـعَـبـيـدُ
يـا قـاتِـلاً بِـأَخٍ أخـا هُ، كـلا قَـتـيـلَـيْـكَ الـشَّـهـيـدُ
كِـدْ لِـلـنَّـبِـيِّ وديـنِـهِ الـلَّـهُ فـوقَـكَ إذْ تَـكـيـدُ
بـادَ الـطُّـغـاةُ جَـمـيـعُـهُـمْ أمَّـا الـشـعـوبُ فـلا تَـبـيـدُ

١٢ عاد الغريب

نظمها وقد عاد من غربة قسرية

تَحنُو على اليأْسِ في قلبِي فتَغْمُرُهُ نُوراً، وتُبدِعُ فيه الصبرَ والجَلَدا

يتغزل بامرأة فهي تحنو على قلبه وتزوده بالجلد، أي الصبر

حُـورِيَّـةٌ طـافَ جِـبـريـلٌ بِـجَـنَّـتِـهِ يـريـدُ نِـدّاً لِـريَّـاهـا فـمـا وَجَـدا

طاف جبريل بالجنة يبحث عن حورية تكون مساوية في رياها، عطرها، لهذه المرأة فما وجد

يَـسـومُـنـا الـصَّـنـمُ الطاغي عِـبـادتَـه لـن تَـعـبُـدَ الـشـامُ إلَّا الـواحدَ الأَحَـدا

يهجو عبد الناصر بعد فض الوحدة بين مصر وسورية

وجهُ الشَّآمِ، الذي رَقَّتْ بَشاشَتُهُ   مِن النعيمِ، لِغيرِ اللَّهِ ما سَجَدا
جَهْدُ العُفاةِ مِنَ العُمَّالِ جِزْيَتُهُ   وكلُّ ما قَطَفَ الفلَّاحُ أو حَصَدا

جهد العفاة، الفقراء، من العمال يذهب كأنه الجزية، وكذا محصول الفلاح

هذا المُدِلُّ على الدُّنيا بِصَوْلَتِهِ   ما صالَ إلَّا على قَومي ولا حَشَدا

هذا المزهو بصولته، قوته، لا يصول ولا يحشد قوته إلا على قومي

١٣ الاختصار

جنيف ١٩٦٣

قد اختُصِرَتْ دنيا بِقلبي وعَالَمٌ   كما اختَصَرَ العِلمَ الشَّتيتَ رَقيمُ

هذه الفاتنة اختصرت الدنيا ووضعتها في قلبي العاشق، مثلما يختصر الرقيم، الكتاب، العلم الشتيت، أي المفرق، بين صفحاته

وتُوجَزُ في قارُورَةِ العِطرِ رَوضَةٌ   وتوجَزُ في كأسِ الرَّحيقِ كُرومُ

هذا مثلما تجتمع خلاصة البستان في قارورة عطر، ومثلما يجتمع في كأس الرحيق، أي الخمر، كروم العنب

وأُعْرِضُ إعراضَ الخَلِيِّ مِن الهوى   وبي مِن هواها مُقْعِدٌ ومُقيمُ

أعرض عنها كأنني خلي، خالي القلب من العشق، ولكن هواها يقيمني ويقعدني قلقاً وانشغالاً

١٤ النكسة ١٩٦٧

أيُّها المُستَعيرُ أَلْفَ عَتادٍ   لِأَعاديكَ كلُّ ما تَستَعيرُ
اَلقِلاعُ المُحَصَّناتُ، إذا الجُبـ   ـنُ حَماها، خَوَرْنَقٌ وسَديرُ

القلاع الحصينة تصبح مجرد قصور، مثل الخورنق والسدير قصري المناذرة في العراق، إذا كانت في حماية الجبان

لم يُعانِ الوَغَى لِواءٌ ولا عا   نى فريقٌ أَهوالَها ومُشيرُ

لم يذق أصحاب الرتب العسكرية الكبيرة أهوال الحرب

رُتَبٌ صَنْعَةُ الدَّواوينِ ما شا   رَكَ فيها قُرُّ الوَغى والهَجيرُ

هذه الرتب لم تصنع في الميدان بل في مكاتب الحكم، ولم يشارك في صنعها القر، البرد، والهجير، الحر، في ميدان القتال

وتَطيرُ النُّسورُ في زَحمَةِ النَّجْـ ـمِ، وفي عُشِّهِ البُغاثُ يَطيرُ

النسور تطير عالياً حتى لتزاحم النجوم، وأما البغاث، الطيور الضعيفة، فتحوم حول أعشاشها

جَبُنَ القادَةُ الكِبارُ وفَرُّوا وبَكَى لِلفِرارِ جَيْشٌ جَسُورُ

هُزِمَ الحاكِمونَ والشَّعْبُ في الأَصْـ ـفادِ، فالحُكْمُ وحدَهُ المَكسُورُ

الأصفاد: القيود

نحن أَسرَى، ولو شَمَسْنا على القَيْـ ـدِ لَما نالَنا العَدُوُّ المُغيِرُ

شمسنا: تمردنا

لا تُشَقُّ الجُيوبُ في مِحْنَةِ القُد سِ، ولكنَّها تُشَقُّ الصُّدورُ

لن يَعيشَ الغازي وفي الأَنْفُسِ الحِقْـ ـدُ عليهِ، وفي النُّفوسِ السَّعيرُ

أَشْتِراكِيَّةٌ! وكَنْزٌ مِنَ الدُّرِّ ـ وَزَهْوٌ ومِنبَرٌ وسَريرُ؟

أتدَّعون الاشتراكية، وعندكم الكنوز، وفيكم التكبر ومنابر الخطب الحماسية وسرير الحكم، أي العرش؟

أَشْتِراكِيَّةٌ! فإنْ مَرَّ طَاغٍ صُفَّ جُندٌ له ودَوَّى نَفيرُ؟

أتدَّعون الاشتراكية، فإن مر حاكم ظالم اصطف له الجنود ودوى له النفير، البوق؟

لِصِغارِ النُّفوسِ كانتْ صَغيرا تُ الأَماني، ولِلخَطيرِ الخَطيرُ

يَنْدُرُ المجدُ، والدُّروبُ إلى المجـ ـدِ صِعابٌ، ويَكْثُرُ التَّزْويرُ

المجد عملة نادرة، وطريقه صعب، وما أكثر من يزور أفعالاً لم يفعلها لنيل مجد وهمي

كيف يَغشَى الوغَى ويَظْفَرُ فيها حاكِمٌ مُتْرَفٌ وشعْبٌ فقيرُ

مِحْنةُ العُرْبِ: أُمَّةٌ لم تُهادِنْ فاتِحيها، وحَاكِمٌ مَأْجُورُ

العرب ثاروا على المحتلين، ولكن الحكام كانوا مأجورين للأجانب

لا يَقودُ الشعوبَ ظُلْمٌ وفقرٌ وسِبابٌ مُكَرَّرٌ مَسعُورُ

الظلم والفقر والردح الإعلامي المسعور لا تقود الشعوب

كل حُكْمٍ له، وإنْ طالَتِ الأيَّـ ـامُ، يَومانِ: أَوَّلٌ وأَخيرُ

ما آنق هذا البيت

كلُّ طاغٍ مهما استبَدَّ ضَعيفٌ كلُّ شعبٍ مهما اسْتَكانَ قديرُ

وَهَبَ اللّهُ بعضَ أسمائِهِ لِلشَّـ ـعبِ، فَهْوَ القَديرُ وَهْوَ الغَفورُ

١٥ قومية الأساطير

في رثاء رياض الصلح ١٩٥٢

مـا لِأَمـجـادِنـا ومـا لِـعَـبـيـدٍ ... اَلأسـاطيـرُ مَـجـدُهُـمْ والـطُّـلـولُ

ما أكبر الفرق بين أمجادنا وبين «أمجاد» الحكام التي هي مجرد أساطير وأطلال خربة، هي عبارة عن الافتخار بالماضي

بِئسَ قَـومِيَّـةٌ يُـؤَرِّخُـها الـظَّنُّـ ... ويَـبـنـي أَحـسـابَـهـا الـتَّـأْويـلُ

ما أسوأ القومية المستندة إلى الظنون، والتأويلات

غُـوطَـةَ الـشـامِ! هـل شَـجـاكِ بَـيـانٌ ... مِـن قَـريـضـي كـأَنَّـهُ الـتَّـنـزيـلُ

هل أحزنك أيتها الشام بياني الشعري الذي يشبه التنزيل، الرسالة الإلهية

وعِـتـابٌ كـالـجَـمْـرِ صُـنْـتُـكِ عـنـهُ ... جَـزَعـاً أن يَـنـالَ مـنـكِ عَـذُولُ

وثمة عتاب حار كالجمر، وقد حميتك منه خشية أن يقدح فيك اللائمون

أَيْسَرُ الجُهْدِ أَنْ تَضِجِّي وتَشْكي ... قـد يَـرُجُّ الـطُّـغـيـانَ قـالٌ وقـيـلُ

أبسط ما يمكنك يا سورية أن تحتجي وترفعي الصوت، فلعل ضجيج الاحتجاج يرج الطغيان

واعذِري الهامِسينَ خَوفاً فما يهَـ ... ـدِرُ عِـنـدَ الـصِّـيـالِ إلَّا الـفُـحـولُ

والتمسي العذر لمن يهمسون همساً.. فهم ليسوا أهلاً للتصدي، ولا يهدر بصوت عال في الصيال، الهجوم، إلا الفحول

١٦ غربة الروح

في رثاء فارس الخوري ١٩٦٢

جَلَّ شِعري، أَقيهِ بِالرُّوحِ مِنْ كُلِّـ ... هَـوانٍ، والـشِّـعْـرُ كَـالـعِـرْضِ يُـوقَـى

لـم يَـضِـقْ بِـالـعَـدُوِّ حِـلـمـي وغُـفْـرا ... نـي، وأَفْـدي بِـمُـقْـلَـتَـيَّ الـصَّـديـقـا

أغفر حتى للعدو، وأما الصديق فأفديه بعينيّ

يـا قُـبـورَ الـلِّـدَاتِ: كـلُّ شَـقـيـقٍ ... حـاضِـنٌ في الـثَّـرى أَخـاهُ الـشَّـقـيـقـا

اللدات: الأقران، الأصحاب

وَسِـعَـتْ هـذهِ الـقُـبـورُ فُـؤادي ... كيفَ تَشكُو، وَهْيَ السَّماوَاتُ، ضِيقا

كيف لا تُنْبِتُ الرَّياحِينَ والشَّو ... قَ، وقلبي على ثَراها أُريقا

إن عَتَبْنا على الكِنانَةِ إدْلا ... لاً فقد يُعْتِبُ الصديقُ الصديقا

لئن عتبنا على الكنانة، أي مصر، إدلالاً، محبة واجتراء، فقد يُعتب الصديق صديقه، أي يُرضيه

وَهَبْتَنا فِرعَوْنَها وَوَهَبْنا ... ها، على العُسْرِ، يُوسُفَ الصِّدِّيقا

وهبتنا مصر فرعونها، ووهبناها رغم فقرنا يوسف الصديق.. والقصيدة قيلت بعد أشهر من انفصام الوحدة بين سورية ومصر، وكان رئيس دولة الوحدة عبد الناصر، الذي يصفه الشاعر بفرعون وكافور

كيف يَشْرِي العَبيدَ كافُورُ بِالما ... لِ، وكافُورُ كان عَبْداً رَقيقا

ما لِقَومي غالَ الحِمامُ فريقاً ... مِنْهُمُ، والعُقوقُ غالَ فَريقا

الموت غال، انتاب، بعض قومي، والعقوق انتاب بعضهم

نحن كُنَّا الزِّلزالَ نَعصِفُ بِالشَّرْ ... قِ، نَرُجُّ الشعوبَ حتى تُفيقا

فابْتَدَعْنا مِنَ الرُّؤى واقِعَ الحَقِّ ... ومِنْ غَمْرَةِ الظلامِ البَريقا

هذا في زمن الفينيقيين، وفي زمن الرسالات السماوية

يا رَئِيسي مِن أربَعينَ زَحَمْنا ... ها إِباءً مُرّاً وبأْساً حَنيقا

يا رئيسي فارس الخوري، وكان الشاعر وزيراً في أكثر من حكومة رئيسها فارس الخوري، لقد ملأنا الدنيا برفضنا الاحتلال وبالغضب والبأس، أي القوة، من أربعين عاماً

يَرِدُ الخَطْبُ منكَ قلباً سَرِيّاً ... وبَياناً عَفّاً ووجْهاً طَليقا

كانت تأتيك المصيبة فتجد قلبك سرياً، شريفاً، ولسانك عفيفاً، ووجهك طليقاً

مَنْ يَعُلُّ النَّدِيَّ بَعدَكَ بِالشَّهْ ... دِ المُصَفَّى ومَنْ يَسُدُّ الفُتوقا؟

من سيسقي النديَّ، أهل المجلس، بعدك بالكلام الحلو الذي كأنه العسل، ومن سيسد الفتوق، يحل المشاكل؟

١٧ المُجاهر

في حفلة ذكرى إبراهيم هنانو ١٩٤٥

وما أَكْبَرَتْ نفسي سوى الحقِّ قُوَّةً ... وإن كان في الدنيا لها النَّهْيُ والأَمْرُ

وكنتُ إذا الطاغي رماني رميتُه ... فلا نُصْرَتي هَمسٌ ولا غَضَبي سِرُّ

وأَحْمِلُ عن إِخوانِيَ العُسْرَ هانِئاً ... ويُبْعِدُني عنهُمْ إذا أَيْسَرُوا اليُسْرُ

تَلَفَّتُّ لا شَملي جَميعٌ، ولا الهوى   قريبٌ، ولا فَرْعُ الصِّبا عَبِقٌ نَضْرُ

شملي جميع: أي ململوم ومجتمع

١٨ بكاء

إلى ابنته جهينة التي ماتت في صباها ١٩٥٨

طاحَ الزمانُ بِإخواني وأَوْرَدَهُمْ   على الحُتوفِ، فلا عَيْنٌ ولا أَثَرُ

طوح الزمن بأصحابي، وجعلهم يردون حوض الموت، فلم يبق لا عين ولا أثر، لا شخص ولا أثر من آثاره

أصبحتُ بعدَهُمُ حيرانَ منفرداً   والريحُ مُعْوِلَةٌ والليلُ مُعتَكِرُ

الريح معولة: تصفر صفيراً كأنه العويل، الليل معتكر: مظلم

أَحنُو على كلِّ قبرٍ مِن قبورِهِمُ   أَبكيهِ، حتى بَكى مِن لَوعَتي الحَجَرُ

١٩ أمنية صعبة

في رثاء كامل مروة صاحب جريدة الحياة

ما لِلمنيَّةِ أدعُوها وتَبتَعِدُ   أَمَرُّ مِن كلِّ حَتْفٍ بعضُ ما أَجِدُ

أطلبُ الموت ويبتعد عني؛ وبعض الذي أجده، أي أعانيه، أمر من كل موت

ظَمآنُ أَشْهَدُ وِرْدَ الموتِ عن كَثَبٍ   والوَارِدونَ أَحِبَّائي ولا أَرِدُ

أرى حوض الموت عن قرب، ويرده أحبائي ولا أرده

دَعَوْتُ خِدْنَيَّ مِن دَمعٍ ومِن جَلَدٍ   فأَسعَفَ الدمعُ، لكنْ خانَني الجَلَدُ

ناديت صاحبيَّ، وهما الدمع والجلد، أي الصبر، فأسعفني الدمع فنزل، وخانني الصبر فلم أصبر

ورُبَّ شاكٍ فَسادَ العصرِ، يَظْلِمُهُ،   لم يَفْسُدِ العصرُ، لكنْ أهلُهُ فَسَدُوا

٢٠ البحث عن اليقين

جِنانُ لُبنانَ حَسْبي منكِ وَارِفَةٌ   فيها النَّدِيَّانِ مِن رَوْحٍ ورَيْحانِ

يا جنات لبنان يكفيني منك الأشجار الوارفة الممتدة الظل التي فيها الروح، النسيم، والريحان، وكلاهما طري نديّ

يُثيرُ بي كلُّ حُسْنٍ فِتنةٌ وهَوىً ... فما أَمُرُّ بِماءٍ غيرَ صَدْيانِ

كل حسن يثير فيَّ الفتنة والغرام، فلا أمر بنبع إلا وأجدُني صديان، عطشان. هو لا يرتوي من الجمال مهما تكاثف

قد صَوَّرَ الوَحْيُ أَلوانَ النَّعيمِ على ... مِثالِ ما فيكِ مِنْ حُسْنٍ وأَلْوانِ

الوحي، الذي جاء بالقرآن، وصف الجنة بمثل ما فيك يا لبنان من أنواع الجمال

وزادَ فيها خُلوداً ما عُنِيتُ بِهِ ... أَشْهَى اللُّباناتِ، في حُكْمِ النُّهَى، الفاني

وزاد القرآن فجعل الجنة خالدة، ولستُ معنيًّا بالخلود لأن أشهى اللبانات، اللذائذ، في حكم العقل هي اللذائذ المؤقتة

لا يَعْذُبُ الوَصْلُ إلَّا أنْ يُخامِرَهُ ... خوفُ المُحِبِّينَ مِن نأْيٍ وهِجْرانِ

لا يكون الوصل عذباً إلا إذا خالطه خوف المحبين من البعد والهجران

ولا هَناءَ بِنُعْمى لا تَخافُ لها ... فَقْداً، ولا تُبْتَلَى منها بِحِرمانِ

لو يَعلمونَ مَناحِيَ النَّفْسِ ما خَلَعُوا ... ثوبَ الخُلودِ على نُعْمَى وأَحْزانِ

لو يعلمون خبايا النفس الإنسانية لما ألبسوا النعيم والجحيم ثوب الخلود

ما لِلخُلودِ وما لِلحُسْنِ يَزعُمُهُ ... هيهاتَ عُرِّيَ مِن حُسنٍ وإِتْقانِ

الجمال الذي يزعم لنفسه الخلود يكون مسلوباً من روعته واكتماله

يُضْفي الجَمالَ على الأَيَّامِ مُقْتَدِرٌ ... مِن (التَّحَوُّلِ) ذو عِزٍّ وسُلطانِ

الذي يكسو الزمن جمالاً هو ذلك المقتدر الذي اسمه (التحول) فهو قوي عزيز

عَنَا لهُ الكونُ مأخُوذاً بِفِتنَتِهِ ... مِن أَنْجُمٍ ومَكاناتٍ وأَزْمانِ

خضع الكون للتحول.. النجوم والأمكنة والأزمنة كل شيء يتحول ويتغير

وعاطِفاتٍ وأَرْواحٍ وأَخْيِلَةٍ ... تَغزُو الوُجودَ وآراءٍ وأَدْيانِ

وكذا يخضع للتحول العواطف والأرواح وثمرات العقول من أخيلة وآراء، وكذا الأديان

وربَّما فَقِهَتْ مِن أَمْرِهِ عَجَباً ... قبلَ الهُداةِ عصا مُوسى بْنِ عِمْرانِ

عصا موسى عرفت التحول قبل الهداة، الأنبياء.. فقد تحولت تلك العصا إلى أفعى

لِيُؤْمِنِ الناسُ ما شاءُوا بِرَبِّهِمُ ... فبِالتَّحَوُّلِ بعدَ اللَّهِ إيماني

تَسمُو إلى أُفْقِهِ القُدْسِيِّ، طاهِرَةً ... طُهْرَ الدموعِ، تَسابِيحي وأَلحاني

ترتفع إلى آفاق التحول المقدسة صلوات شاعرنا وألحانه

كَفَرْتُ بِالرُّوحِ بعدَ الرَّيْبِ آوِنَةً وكانَ زُلْفَى إلى نَجْواهُ كُفْراني

بعد أن كنت شاكاً بعض الوقت أنكرت وجود الروح، وكان كفري بالروح من بعض الزلفى، التقرب، إلى الله في مناجاتي له

وقَرَّبَ الناسُ ما شاءُوا لِمَذْبَحِهِ وما تَقَبَّلَ مِنهُمْ غيرَ قُرباني

قرب الناس، قدموا القرابين، لله ولم يتقبل سوى قرباني أنا

أَعْلَنْتُ، حينَ أَسَرُّوا أَمْرَهُمْ فَرَقاً يا بُعْدَ ما بينَ إِسْرارٍ وإِعْلانِ

فأنا كنت صريحاً بينما أخفى الناس أمرهم فرقاً، خوفاً، والفرق كبير بين من يجهر ومن يُسِرّ

إنَّ الخُلودَ وما تَرْوِي مَزاعِمُهُمْ عنِ السَّعادَةِ في الأُخْرى نَقيضانِ

الخلود والسعادة في الأخرى، أي الآخرة، نقيضان

لا يَخْدَعُ اللَّهُ قوماً يُؤْمِنونَ بِهِ فتِلْكَ خُدْعَةُ إِنسانٍ لإنسانِ

الله لا يخدع من يؤمن به، لكن مسألة الخلود خدعة من إنسان لإنسان

جِنانُ رَبِّكَ في سِرِّ الخُلودِ غَدَتْ وكُلُّ آوٍ إِليها رَازِحٌ وَانِ

من بعض أمر الخلود أن جنة الله تصبح وكل من يأوي إليها رازح، متعب، وانٍ، متثاقل كسلان

مَلَّ المُقيمونَ فيها مِن هَناءَتِهِمْ كَما يَمَلُّ السَّقامَ المُدْنَفُ العاني

المقيم في الجنة يمل من السعادة مثلما يمل المدنف العاني، المريض الفقير

تَمضي العُصورُ عليْهِمْ وَهْيَ واحِدَةٌ اليومُ كالأَمْسِ فيها ضَاحِكٌ هَاني

الزمن واحد لا تغير فيه وكله سعادة وهناء.. يا للملل

ولا يُحِبُّونَ، لكنْ تِلكَ طَائِفَةٌ مِن ماجِناتٍ خَليعاتٍ ومُجّانِ

ليس في الجنة حب.. بل تفريغ شهوات

ولا يُناجُونَ في أَحْلامِهِمْ أَمَلاً مُحَبَّباً بينَ إِنْكارٍ وإِيْقانِ

وأهل الجنة لا يحلمون بآمال يترقبونها بين إنكار لحدوثها وتأكد منه.. فليس في الجنة إلا اليقين المطلق

مِن كُلِّ مَن أَبْلَتِ الأَدْهارُ جِدَّتَهُ فما يُحَرِّكُهُ تَدليلُ رِضْوانِ

وكل من فيها صار عتيقاً مع مرور الدهور، ولم يعد يحركه تدليل رضوان، خازن الجنة، له

يُنادِمُ الحُورَ، لكنْ غيرَ مُغْتَبِطٍ ويَشربُ الرَّاحَ لكنْ غيرَ ظَمآنِ

لَوَدَّ في كلِّ مَا يُجْريهِ مِن عَسَلٍ ومِن خُمورٍ ومِن دُرٍّ وعِقْيانِ

الدر: اللؤلؤ، العقيان: الذهب

هُنَيْهَةً مِن شَقاءٍ يَطمَئِنُّ بِها — إلى مُناجاةِ آلامٍ وأشْجانِ

يود نزيل الجنة لو حصل على لحظة شقاء

إذا تَذكَّرَ دُنياهُ هَفا وَلَعاً — إلى حبيبٍ وصَهْباءٍ ونُدْمانِ

يشتاق إلى الدنيا

وراحَ يبحثُ في المجهولِ عن أملٍ — وعن شَقاءٍ وعن أهلٍ وخُلَّانِ

أمَّا الغَواني فَصَخْرٌ لا يُحَرِّكُها — نَجوَى مُحِبٍّ ولا تَدليلُ وَلْهانِ

نساء الجنة كالصخر الجامد

لا تَعرِفُ الحُبَّ إلَّا مَحْضَ تَلْبِيَةٍ — لِعابِرينَ مِن الأَبْرارِ فِتيَانِ

فهن فقط يلبين طلبات ولبانات فتيان الجنة

ولا تَحِنُّ إلى رُوحٍ وعاطِفةٍ — فالحبُّ في مَلَكُوتِ اللَّهِ جُثْماني

حب هؤلاء الحور حب جسدي

مِن كُلِّ مُرْتَجَّةِ الأَرْدافِ حَالِيَةٍ — بِالحُسْنِ أَخَّاذَةٍ بِالسِّحْرِ مِفتانِ

وكل منهن حالية، متحلية، بالجمال، ولها الأرداف المرتجة

خَبا لَهيبُ المُنَى في رُوحِها فَغَدَتْ — وحُسْنُها في جُلاهُ حُسْنُ أَوْثانِ

في جلاه: في حقيقته الظاهرة

جَنَى الخلودُ عليها فَهْيَ شاكِيَةٌ — إلى الأُنُوثَةِ ذاكَ الخائِنَ الجاني

تشكو حورية الجنة الخلود الذي جنى عليها وسلبها الروح

ولِلخُلودِ على أَهلِ الجَحيمِ يَدٌ — تُجْزَى معَ الدهرِ إحساناً بِإحسانِ

وللخلود يد، أي نعمة ومعروف، على أهل النار..

اَلكافِرونَ لِطولِ العَهْدِ قد أَلِفُوا — بِقاعِها نُضْجَ أَرْواحٍ وأَبْدانِ

فهم لطول ما اعتادوا النار ألفوا في قاع الجحيم احتراق جلودهم وأرواحهم ونضجها

وقد تُزَفُّ بِها والحَفْلُ مُحْتَشِدٌ — سَجِينَةٌ مِن ضَحاياها لِسجَّانِ

قد تتزوج سجينة من سجينات الجحيم أحد السجانين

فأَصْبَحَتْ وَهْيَ مِن ماءٍ ومِن مَدَرٍ — شَيطانَةً تَتَصَبَّى كلَّ شَيْطانِ

فبعد أن كانت إنسانة أصلها ماء ومدر، طين، صارت شيطانة تتصبى، وتغري، الشياطين

وربَّما صَحِبُوا فيها زَبانِيَةً   بعدَ القِلَى إلْفَ إخوانٍ لإخْوَانِ

وقد تنعقد الصحبة بين نزلاء جهنم وبين الزبانية، حراسها، بعد القلى، العداوة

لا يَأْلَمُونَ ولا تَشْكُو جُسومُهُمُ   مِن اللَّظَى، فَهْيِ نِيرانٌ بِنِيرانِ

يذهب الألم بعد طول معاشرة النار لأهل النار.. كلها نيران في نيران

مَليحَةَ الدَّلِّ مِن غسَّانَ! لا بَلِيَتْ   شَمائِلُ الصِّيدِ مِن أقْيالِ غسَّانِ

يا مليحة الدلال، أيتها الشامية من بنات الغساسنة! عاشت ولا بليت صفات الصيد، السادة، من أقيال، أي ملوك، غسان

أتأذنِينَ بِإنْشادٍ، فما جُلِيَتْ   إلَّا لِحُسْنِكِ أشْعارِي وأوْزانِي

طَوَّفْتُ في هذه الدنيا على مَهَلٍ   طَوافَ أشْعَثَ ماضِي العَزْمِ يَقْظانِ

تُظِلُّنِي مِصْرُ أحياناً وآوِنَةً   أُعاقِرُ الخَمْرَ في جَنَّاتِ بَغْدانِ

وقد صَحِبْتُ شعوبَ الأرضِ مِن عَرَبٍ   شُمِّ الأنُوفِ إلى رُومٍ وكِلْدانِ

مُفَتِّشاً عن عَزاءِ النَّفْسِ، لا لَعِبِي   أدَّى إليْهِ ولا حِلْمِي وعِرْفانِي

أطوف في الدنيا مفتشاً عن فرح لقلبي، فلم أحصل عليه لا من اللهو ولا من الحِلم والرصانة ولا من المعرفة

مُسائِلاً عنهُ، حتى قد عَيِيتُ بِهِ،   إرْثَ الفَلاسِفِ مِن هِنْدٍ ويُونانِ

فما رأيْتُ لهُ عيْناً ولا أثَراً   ولا أفادَ طَوافِي غيرَ خِذْلانِي

ثم انْثَنَيْتُ ورَكْبِي جِدُّ مُتَّئِدٍ   مِن الوَنَى ورَفيقِي جِدُّ حَيرانِ

ثم رجعت من بحثي عن الفرح وركبي، موكبي، متئد بطيء من الونى، التعب، ورفيقي حيران

والبِيدُ أوسَعُ مِن صدرِ الحليمِ مَدىً   ولِلسَّرابِ بِها آلافُ غُدْرانِ

الصحراء أوسع من صدر الرجل الحليم، وبها آلاف الغدران، جمع غدير، لكنها كلها من سراب. تشبيه معكوس سقيم: يشبهون صدر الحليم بالصحراء فهذه مبالغة لطيفة، فإن عكستها سمجت

ظَمْأى حَيارى، وخَلْفَ الرَّكْبِ طائِفَةٌ   حُمْرُ اللَّواحِظِ مِن أُسْدٍ وذُؤْبانِ

الغدران السرابية عطشى، وخلف المسافرين أسود وذئاب حمر اللواحظ، أي العيون

فَأيْقَنَ القومُ بِالجُلَّى وقد صَمَتُوا   لِهَيْبَةِ الموتِ وَهْوَ المُقْبِلُ الدَّاني

أيقن القوم أن الأمر عظيم جليل، وصمتوا لهيبة الموت المقترب

حتى إذا اليأسُ لم تَتْرُكْ مَرارَتُهُ   إلَّا بَقِيَّةَ صبرٍ غيرِ خَزْيانِ

لم يترك اليأس سوى قليل من الصبر المتحلي بالأنفة البعيد عن العار

لاحَتْ خِيامُكِ بِالصَّحراءِ مُونَقَةً   أبْهى وأزْيَنَ مِن عَرْشٍ وإيوانِ

عندئذ لاحت خيامك يا بنت غسان مونقة، جميلة، أبهى من العرش وإيوان كسرى

فَكَبَّرَ الرَّكْبُ مُرتاحاً إلى أملٍ   عَذْبِ المُجاجَةِ حالي الوَشْيِ رَيّانِ

كبر المسافرون وركنت نفوسهم إلى هذا الأمل العذب المجاجة، الارتشاف، الذي كأنه حالٍ، متحلٍّ، بحليّ الوشي، وريان، مرتوٍ

فما فَتَحْتُ جُفوني وَهْيَ دامِيَةٌ   مِن الرِّمالِ، أعانَ اللّهُ أجْفاني

حتى لَمَحْتُكِ خَلْفَ السِّتْرِ ضاحِكَةً   إلى جَوارٍ وحُجّابٍ وغِلْمانِ

فَقَرَّتِ النَّفْسُ لا شَكوى ولا تَعَبٌ   ولا لَجاجَةُ إيمانٍ وكُفْرانِ

قرت نفسي ولم تعد تعاني من سقم أو تعب، ولا من المماحكة بين الإيمان والكفر.. فكأن هذه الفتاة الغسانية هي طمأنينة النفس التي يصل إليها المرء فلا يعود يخاف شيئاً في دنياه ولا في أخراه

وأبصَرَتْ بعدَ طُولِ البحثِ غايَتَها   فأذْعَنَتْ لِهواها أيَّ إذْعانِ

وجدت النفس غايتها فخضعت لهواها.. وجدت يقينها المنبعث من أعماقها

رَأَتْ بِعيْنيْكِ يا لَيْلى وقد يَئِسَتْ   عَزاءَها لا بِإنْجيلٍ وفُرقانِ

عزاء النفس هو في ليلى.. في هذا اليقين الذاتي وليس في الكتب السماوية

سِرُّ السَّعادَةِ في الدنيا وإنْ خَفِيَتْ   تَجلُوهُ مِنكِ على الأكوانِ عَيْنانِ

السعادة دنيوية

آمَنْتُ بِالحُبِّ ما شاءَتْ عُذُوبَتُهُ   آمَنْتُ بِالحُبِّ فَهْوَ الهادِمُ البَاني

اليقين هو الحب

٢١ احتضان الوجود

طَهَّرْتُ آثامِي البَريئَةَ في لَظَى   قُبَلٍ كأحلامِ النَّعيمِ عِذابِ

وَسَدْتُكِ اليُمنَى لَعَلِّيَ في غَدٍ   أَرِدُ الحِسابَ وَوَجْنَتاكِ كِتابي

ونَعِمْتُ أَلْمَحُ في جُفونِكِ رَغْبَةً   خَجْلَى صَرِيعَةَ نَشْوةٍ ودُعابِ

لا تَغْفُ تَحْلُمْ بِالنُّجومِ فَيرتَمي   منها، لِرَشْفِ لَماكَ، أَلْفُ شِهابِ

إن بقيت صاحياً فستحلم بالنجوم فيرتمي عليك ألف شهاب لرشف لماك، لتقبيل فمك

لا تَغْفُ وأْثَمْ في هَواكَ ولا تَخَفْ   نُسُكي أَمانُكَ في غَدٍ وثَوابي

لا تغف ولا تخف الإثم في حبك، فنسكي أمان لك أيها المحب وهو ثواب لي..

هيهاتَ وِزْرُكَ لا أَنُوءُ بِحَمْلِهِ   إنْ صَحَّ أَمْرُ قِيامَةٍ وحِسابِ

يتراجع: لكن ذنبك كبير ولا أستطيع حمله إن صح أمر يوم القيامة والحساب

يا رَبِّ عَفْوَكَ قد ثَمِلْتُ فَخَلِّني   لِغَوايَتي وتَهَتُّكي وشَرابي

أَحْلامُ جَبَّارِ السَّمَاواتِ العُلَى   نَزَلَتْ عَلَيَّ وضَمَّها جِلْبابي

هذا من أفكار المتصوفة الذي يرون في جلابيبهم جزءاً من ذات الإله

خُلِقَتْ بِبَيْدائي الظَّميئَةِ جَنَّةٌ   ثَرثَارَةُ الأَلْوانِ والأَطْيابِ

فإذا الحَياةُ على جَلالَةِ قَدْرِها   داري، وهذا الأُفْقُ بعضُ رِحابي

وإذا الكواكبُ مِن لِداتِ طُفولتي   والكونُ والأَجْيالُ مِن أَصْحابي

لدات: أصحاب. عندما يفرح الإنسان يرى الكون يرقص له. فتح الشاعر القروي فتحاً شعرياً عندما قال: (مثِّلوا لي هذا الوجود بشيء/ أنا لا أستطيع ضم الوجود) معنىً طلبتْه الشعراء كثيراً وتركته للمهجري الفصيح. الشاعر القروي من شعراء هذا الكتاب

٢٢ عبادة الجمال

شَجاها مِن عُهودِكَ ما شَجاها   وجَنَّ اللَّيلُ فادَّكَرَتْ أساها

أحزنت النفسَ عهود الشباب الزائل، وجن الليل، غطى الكون، فتذكرت النفس وجعها

هَفَتْ لِشبابِها وصَبَتْ إليهِ   ورَقَّ لها النَّصِيحُ فما لَحاها

اشتاقت النفس للشباب، ورق لها الناصح فما لحاها، ما وبخها

وهَيهاتَ الشَّبابُ! وأينَ منه   مُنىً لِلنَّفْسِ تَعْثُرُ في وَجاها

بعُد الشباب وامتنع رده، وشتان ما بينه وبين الأمنيات الحالية التي تتعثر في وجاها، حفاها.. فكأنها تسير حافية وتتعثر

وما عُذْرُ الشَّبابِ كَبِرتُ فيهِ   وَلي نَفْسٌ فَتِيَّاتٌ مُناها

لا عذر للشباب، ففي أيامه كنت كبيراً لا شاباً، وكانت لي نفس ذات طموحات فتية قوية

سَقاها مِن سُلافَتِهِ كُؤوساً   وحَنَّتْ لِلمزيدِ فما سَقاها

الشباب سقى نفسي من خمره، وحنت نفسي للمزيد لكنه لم يسقها لأنها نفس تتوق للمعالي ولا يمكن للمرء أن يتمتع ويلهو وأن يطلب المعالي في الوقت نفسه

يُراخي بِالعِنانِ لَها رُوَيْداً   فإنْ وَثَبَتْ لِغايَتِها ثَناها

الشباب يرخي للنفس المقوَد قليلاً فإن وثبت تريد المزيد ثناها وشد المقود

وتَدْعُوها الفُتونُ وهُنَّ سِحْرٌ فَتُطْرِقُ لا تُلَبِّي مَن دَعاها

الفتنة تغري النفس، والنفس تطرق مترددة ثم لا تلبي الدعوة

مُعَذَّبَةٌ، إذا لَمَحَتْ جَمالاً هَفَتْ وَجْداً وعاوَدَها ضَناها

النفس معذبة تحس بقلق كلما رأت جمالاً ويعود إليها ما نسيته من عذابها

ويا نَفْسي عَبَدْتُكِ عنْ يَقينٍ وحَسْبي قد عَبَدْتُ بِكِ الإلَها

هذه عبادة الشعراء. يعبدون ما يتخيلون أنه ذات الإله حلت في نفوسهم

بَرِئْتُ إلى الحَقيقَةِ مِن غُواةٍ تَفِرُّ مِن الصَّباحِ إلى دُجاها

أنا بريء من الضالين الذين يتركون نور الحقيقة الصباحي ويبتغون دجاها، أي ليلها

تُريدُ رِضاكَ تَقييداً وأَسْراً وأَينَ رِضاكَ رَبِّي مِن رِضاها

هذه الغواة تريد رضى الله بتقييد النفس، ورضى الله لا يكون كذلك

وأَنْكَرَ قُدْرَةَ الخَلَّاقِ رُوحٌ رأى صُوَرَ الجَمالِ وما اشْتَهاها

لِمَنْ جُلِيَتْ بِزينَتِها عَروساً وفيمَ أَحَبَّها ولِمَنْ بَراها؟

فلمن برزت صور الجمال كالعروس؟ ولمن خلق الله الجمال إن لم نتمتع به بلا قيود؟

عَبَدْتُكَ في الجَمالِ، ولا أُبالي ضَلالُ النَّفْسِ ذلكَ أم هُداها

٢٣ الحقيقة والأمنيات

إنَّ الذي خلقَ الحقيقةَ عَلقَماً خلقَ المُنى لِلوارِدينَ شَمولا

إذا كانت الحقيقة مرة كالعلقم، فالأماني عذبة كالشمول، الخمر

تَتصارَعانِ ولا تَرى إحداهُما ظَفَراً لِتَبْسُطَ حُكمَها وتَطُولا

الحقيقة والأمنيات في صراع لا غلبة فيه لأيهما

تَدعُو المُنى زُمَرَ القُلوبِ وأُختُها تَدعُو بَصائِرَ في الوَغى وعُقولا

الأماني تنادي القلوب، وأختها، أي الحقيقة تخاطب البصائر والعقول

والكونُ بينَ الضَّرَّتَيْنِ مُقَسَّمٌ فاشْهدْ قَبيلاً يَسْتَبيحُ قَبيلا

الكون مقسوم بين ناس حالمين وناس عقلاء

٢٤ لا يمَّحين

أحـبـبْـتُـهـا سـاحِـرةً كـالـرُّؤَى　　مُـبْـهَـمَـةً غـامِـضَـةً كـالـظُّـنـونْ

حبيبته ساحرة غامضة

مَجنونَـةً، والحُسْنُ لـم تَكْـتَمِلْ　　فِـتـنَـتُـهُ إلَّا بِـبـعـضِ الـجُـنـونْ

والجمال لا يكتمل إلا ببعض الجنون والنزق

أرى عـلـى خَـدَّيْـكِ فـيـمـا أرى　　بِـأَلْـفِ لَـوْنٍ قُـبَـلَ الـعـاشِـقـيـنْ

يحس بأن حبيبته مر بها عشاق كثر

مِـنْ قُـبْـلَـةٍ خـائِـنَـةٍ مَـرَّةً　　وقُـبْـلَـةٍ وادِعَـةٍ فـي الـجَـبـيـنْ
وقُـبْـلَـةٍ حَـمـراءَ مـثـلِ الـلَّـظَـى　　وقُـبْـلَـةٍ بَـيـضـاءَ مـثـلِ الـيَـقـيـنْ

هذه أصناف القبلات التي يتخيل محبوبته قد مرت بها

تَـأْبَـيْـنَ إلَّا مَـحْـوَ آيـاتِـهـا　　وهُـنَّ يـا لَـيْـلايَ لا يَـمَّـحِـيـنْ
لا تُـنْـكِـري حُـبَّـكِ لـي، إنَّـنـي　　أَسْـتَـشْـهِـدُ الـرَّيْـحانَ والـيـاسَـمِـيـنْ

أستشهد: أطلب شهادة

٢٥ حديث الشقراء

يـا سـاكِـبَ الـشِّـعـرِ خَـمـراً　　مِـن شِـعْـرِ رَبِّـكَ خَـدِّي

الفتاة تقول للشاعر إن شعره خمر ولكن خدَّها كأنه شعر قاله الله

ومِـن مَـعـانِـيـهِ عِـطْـري　　ومِـن قَـوافِـيـهِ وَرْدي
تَـأَنَّـقَ الـلَّـهُ دَهـراً　　يُـعِـيـدُ فِـيَّ ويُـبْـدي
حـتـى جَـلانِـيَ شِـعْـراً　　يـا حَـسْـرَةَ الـشِّـعْـرِ بَـعْـدي
دُنْـيـايَ أَحْـلـى وأَغْـلـى　　مِـن أَلْـفِ جَـنَّـةِ خُـلْـدِ

البيت الأخير جاء في ذيل القصيدة بعيداً عن إخوته، وهو على لسان الشاعر لا الفتاة

٢٦ حب واشتهاء

أيُّـهـا الـضـاحِـكُ الطَّـروبُ ألا تَـأْ　　سَـى لِـهـذي الـدُّمـوعِ فـي عَـيْـنَـيَّـا
أنـا أَبْـكـي وكَـرَّمَ الـلَّـهُ والـحُـسْـ　　ـنُ عـنِ الـدمـعِ خَـدَّكَ الـوَرْدِيَّـا

يا حبيبي دَعْني أُقَبِّلُ خَدَّيْـ ـكَ، وأَشْتَفُّ ثَغْرَكَ اللُّؤْلُؤِيّا
الهَوَى جَنَّةٌ بِقَلبِيَ والشَّهْـ ـوَةُ نارٌ حَمْراءُ في شَفَتَيّا
مِهْرجانٌ لِمُتْعَةِ الجِسْمِ حَالٍ يَرْحَمُ اللَّهُ حُبَّنا العُذْرِيّا

حالٍ: متزين بالحُلِيّ. بعد حديثه عن نار الشهوة الحمراء يترحم، ولا عجب، على زمن حبه العذري البريء

٢٧ الورد المفتون

تَزَيَّنَ الوَردُ أَلواناً لِيفتِنَنا أَيَحْلِفُ الوَرْدُ أَنَّا مَا فَتَنَّاهُ
يا مَن سَقانا كؤوسَ الهجرِ مُتْرَعَةً بكى بساطُ الهوى لمَّا طويناه

٢٨ لبنان والشام

لُبنانُ والغُوطَةُ الخَضْراءُ ضَمَّهُما ما شئتَ مِن أَدبٍ عالٍ ومِن نَسَبِ

لبنان والشام يتحدان أدباً ونسباً

ما في اتِّحادِهِما تَاللهِ مِن عَجَبٍ هذا الفِراقُ لَعَمري مُنتَهى العَجَبِ

الفراق الذي تم بين الشام ولبنان بإرادة فرنسية إنجليزية في سايكس بيكو هو العجيب

لِلخُلْفِ في الناسِ أَنْواعٌ وأَغْرَبُها خُلْفُ الشَّقيقَيْنِ مِن قَومي بِلا سَبَبِ
لِلضَّادِ تَرجِعُ أَنسابٌ مُفَرَّقَةٌ فالضَّادُ أَفضَلُ أُمٍّ بَرَّةٍ وأَبِ
وكانَ لي مِقْوَلٌ كالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً فحَطَّمَ الظُّلْمُ حَدَّ المِقْوَلِ الذَّرِبِ

مقول: لسان، منصلت: مسلول، الذرب: المنطلق الفصيح

لَأَرْحَلَنَّ فَلِي في الأرضِ مُتَّسَعٌ إنْ ضاقَ بي صَدرُ هذا الموطِنِ الرَّحِبِ

محمد سليمان الأحمد
(بدوي الجبل)
فهرس القوافي

عمر أبو ريشة
(١٩١٠ ـ ١٩٩٠)

كانت نِعَم عيتاني تنتج لي برنامجاً تلفزياً عن الشعر، اسمه «قال الشاعر»، بثثنا منه مئتين واثنتين وخمسين حلقة من قناة الجزيرة. وكانت من بين عشرين أو ثلاثين شخصاً صححوا لي أغلاطي النحوية في رحلة عملي في الإذاعة والتلفزيون. قلت لها مرة، وأردتُ أن أُورد عليها ما يشبه الأحجية: أَتعلمين أن غزة قرية صغيرة؟ فهزت رأسها ببرودها المعهود. فأردفتُ: وليست غزة التي بفلسطين. فقالت: بل غزة التي في البقاع بلبنان. قلت لها: بالضبط. وانكمشتُ. انكمشتُ لأنني كنت أحاجيها في شأن قرية تقع في بلدها، فامتص برود ردها حرارة الأحجية، لا هي عجزت فأورثتني فخراً، ولا هي حزرت بحرارة تبعث في المجلس بعض صخب. وزادتني انكماشاً إذ قالت: ولنا في غزةِ البقاع بيت، وعشنا فيه مدةً في أيام الحرب الأهلية.

ومضت بضع سنين، ودعتني نِعَم إلى حفل عرضت فيه فلمها التسجيلي الطويل (كان يا ما كان.. مرتين!) ويصور مأساة الحرب الأهلية في لبنان ومأساة الحرب الأهلية في سورية، وقد حضرت زميلتي المأساتين، وبينهما أكثر من ربع قرن، طفلةً فراشدة. وحضرتْهما.. في غزة.

بعد العرض هنأت زميلتي لأنها أولاً قفزت من سفينة الوظيفة فلم تعد «زميلة» لي، وانطلقت تنتج وحدها سائرة في طريق الإبداع، وهنأتها ثانياً لأنها قطعت شوطاً بعيداً بين أول أفلامها (سوبَر ـ فُل) وبين هذا الفلم.

وذاب برنامجي التلفزي في بحر الظلمات، وبحر الظلمات هو المحيط الأطلسي كما سماه أجدادنا، وهو اليوم الاسم الثاني لليوتيوب. مضت زميلتي إلى عمل أكثر إبداعاً ودواماً. والخلود نسبي. وسيذهب كل شيء في النهاية.

ولكن، الانغماس في برامج الإذاعة والتلفزة سنوات طويلة لا يليق إلا بالكسلان أو قليل الموهبة. ولعلي أحدهما أو كلاهما. ما زلت أحرث السبخة، وأبذر فيها لآلئ عمري، وأنتظر أن تنبت عقوداً وأساور.

جاءتني اليوم رسالة إلكترونية من أحد تلك المواقع التي تعلق ببريدك كالقَرادة، وتنفحك بالمواعظ. كانت موعظة اليوم مكونة من كلمة واحدة: «تحرَّكْ».

بعد أسابيع قليلة سأنتهي من عصر الشعراء وتجفيفهم، وسأُودع المطبعة هذا الكتاب الخامس والأخير، وأتحرر، وأتحرك، ولا أتحرَّز، ولا أتحرق حسرة على ما فات ولا شوقاً إلى ما سيأتي. مضى زمن الدهشة.

وهيهات التحرر! ما ذقت في عمري كله حلاوة الكسل. ما استطعت قط أن أقضي نهاراً لا أعمل فيه شيئاً.

قد تقبَل بي نِعَم مساعداً يحمل لها مُعَدَّات التصوير ويجري وراءها من موقع إلى موقع! فتكون سياحةٌ ويكون عملٌ في آن معاً.

لا. لا أريد أن أرى العالم، فقد رأيت منه ما يكفي. وقد جاءتني كلمةٌ قالها جان بول سارتر شحمةً على فطيرة، قال: كل ما عرفتُه عن الحياة إنما عرفتُه من الكتب.

حان أن ننصرف إلى شاعرنا الجوال الذي عاش عشرين سنة متنقلاً بين بلد وبلد سفيراً لسورية. وكان من قبل يتنقل بين حلب وقرية غزة في البقاع بلبنان. . تذكُرونها! حيث كان يفر إذا اشتد عليه الطلب في أيام الحكم الفرنسي.

عمر أبو ريشة

عمر أبو ريشة من حلب. وحلب الآن مدينة مدمرة. ولأنها من ملاعب يفاعتي، قلت فيها قبل أسابيع، وأنا الآن أكتب في أبريل ٢٠١٧، أبياتاً:

قد كانَ في الوُسعِ، لكنْ ما حَميناها ... ودمَّروها، ولا حتى بَكيْناها

قد صَدَّتِ الرومَ طولَ الدهرِ صامِدَةً ... ونحن في ظَهرِها غدراً طَعنَّاها

غَطُّوا القتيلةَ حتى لا نَرى حلباً ... ولا تَرانا، كأنَّا ما عَرفناها

غَطُّوا القتيلةَ حتى لا تُذَكِّرَكُمْ ... أنَّ القتيلةَ أعراضٌ دَفنَّاها

غَطُّوا القتيلةَ، ليس الرُّوسُ وحدَهُمُ   بل نحن مِن قبلِهِمْ كنَّا ذبَحناها

ولا أزيد القارئ من هذا، فبعد الحسرة يأتي كلام عن السائل والمسؤول عن نكبة حلب، وليس هذا مما ينفتح له قلب كتاب عن الشعر، ولا مما ينشرح له صدر الأيام المقبلة التي سيُكتب فيها التاريخ في عدة نسخ.

ولد شاعر حلب المشهور في عكَّا بفلسطين عند أخواله في سنة ١٩١٠. وفي عكا درس المرحلة الإبتدائية، ومع دخول الإنجليز فلسطين، وعمر في الثامنة من عمره، أخذتْ مؤدبةٌ خاصة تأتي إلى البيت وتعلمه اللغة الإنجليزية. كان أخواله من عائلة مشهورة بالتصوف، وكان جو البيت في عكا جو أذكار وتسابيح ومجالس درس. وعاد الصبي مع أمه وأخته الكبيرة سارة إلى كنف أبي الأسرة في حلب وقد انتهت الحرب العالمية الأولى، وانتهى بانتهائها الحكم العثماني من بلاد العرب. كان الأب منفياً مغضوباً عليه من جانب إستانبول لمساعدته الأرمن وإيوائهم في المحنة التي تعرضوا لها على أيدي الأتراك في سنوات الحرب.

التحق عمر في حلب بمدرسة، ثم بأخرى، ثم توجه إلى بيروت وعمره أربع عشرة سنة ليدرس في الصفوف الثانوية بالجامعة الأميركية. وتخرج وهو في السابعة عشرة من العمر بعد أن درس العلوم والآداب. وكان ممن علمه العربية هناك أنيس الخوري المقدسي وجبرائيل جبور. وما بلغ الثامنة عشرة حتى توجه إلى إنجلترا ليتعلم صناعة الغزل. تمرن في المصانع ودرس في جامعة مانشستر كيمياء الغزل والنسيج أربع سنين. كان على وشك الزواج بفتاة إنجليزية، لكن الموت عاجلها فحزن، وكتب في ذلك شعراً.

عاد إلى حلب شاباً في الثانية والعشرين. ولم يوفق في فتح مصنع للغزل. ولم تنجح الأسرة الإقطاعية في الانتقال إلى عصر الصناعة.. ولا البلد نجح في مثل هذه النقلة. كانت فرنسا تحتل سورية آنذاك. وكان احتلالها مصحوباً بالقمع والتسلط الشديدين.

آل أبو ريشة عرب تمتد جذورهم القبليَّة بعيداً، ويفخرون بنسبهم، وكان أجداد شاعرنا ولاة وحكام أقاليم في العصر العثماني، وكانت عائلة أمه راسخة في الصوفية. وبعد انفصال البلاد العربية في الشام عن جسم الدولة العثمانية شاطرَ قادة المجتمعات الشريفَ حسين وأولاده حلم بناء دولة عربية مستقلة. وبدأت العائلات الإقطاعية تحلم بالاستمرار في قيادة المجتمع مع التحول إلى

التصنيع. وسرعان ما ذبح المنتصرون في الحرب الأولى الحلم العربي باتفاقية سايكس ـ بيكو، فكان تقسيم بلاد الشام إلى دول، وكان أن جاء المنتصرون ليحكموها باسم الانتداب.

واجتمعت القوى البرجوازية الصاعدة، ذات الجذور الإقطاعية، تقاوم الحكم الفرنسي وتسعى إلى استقلال تقود فيه المجتمع إلى نهوض صناعي وتعليمي. كان رجال الكتلة الوطنية: فارس الخوري، وشكري القوتلي، وهاشم الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري، وجميل مردم بك يمثلون هذا التوجه الذي أصبح القاطرة التي تقود النضال السياسي، وأحياناً العُنفيّ، ضد الاستعمار الفرنسي. وكان في المحمل الآخر عبد الرحمن الشهبندر وسلطان الأطرش اللذان قادا ثورة الجنوب السوري، دمشق وجبل العرب، في أواسط العشرينات.

كان للكتلة الوطنية الأثر الأكبر في هذه الحقبة، وإلى جانب الكتلة نشأ تنظيم شبابي ينتهج خط الكتلة الوطنية ويأتمر بأمر كهولها. وكان عمر أبو ريشة من أقطاب هذا التنظيم الذي عرف باسم «الشباب الوطني». فلما وقع رجالات الكتلة معاهدة مع فرنسا عام ١٩٣٦، عارض «الشباب الوطني»، ومعه شاعرنا المعاهدة، مثلما عارضها خط الشهبندر ـ الأطرش. ولم تصادق فرنسا على المعاهدة، ونالت الكتلة الوطنية لطمة، لكنها ظلت القاطرة التي ستتولى أمر سورية بعد الاستقلال عام ١٩٤٦.

مع انشقاقه عن الكتلة الوطنية، وسخريته شعراً من المعاهدة التي عقدتها، انصرف عمر أبو ريشة إلى تأسيس دار كتب في حلب، وأصبح مديراً لها نحو عشر سنين. وترشح مرتين للنيابة ولم يوفق.

في عام ١٩٤٩، وبعد بضع سنين من الحكم المدني غير المستقر، جاء انقلاب حسني الزعيم، وبعده بأشهر انقلاب سامي الحناوي، وعين عمر أبو ريشة مفوضاً لسورية في البرازيل، ثم رقي إلى سفير، وبقي في أميركا اللاتينية، تصحبه زوجته وابنته رفيف وولده شافع، نحو خمس سنين كان فيها يمثل سورية في البرازيل وتشيلي والأرجنتين.

ثم إلى الهند سفيراً خمس سنين حتى ما بعد قيام الوحدة بين مصر وسورية، ثم إلى النمسا سفيراً للجمهورية العربية المتحدة، دولة الوحدة، ثم سفيراً في واشنطن لسورية ثلاث سنين، ثم عودة إلى الهند سفيراً لسورية ست

سنين. فذلك: عشرون عاماً قضاها الشاعر في السلك الدبلوماسي. وفي عام ١٩٧٠ تقاعد وسكن في بيروت. عاش في تقاعده عشرين سنة.

ينقح المداحون سيرة عمر أبو ريشة حتى لتشبه سيرة عمر بن الخطاب. لذا لا يذكرون له حباً عاصفاً وهو يقترب من السبعين أدى إلى ترك العشيقة المتزوجة زوجَها. لقد تعرف عليها وهي مع زوجها، وكانت ترافقه زوجته.

وحاول أن يقنع زوجته بتقبل الوضع الجديد لكنها رفضت، ورفض أبناؤه، وخاصموه حتى النهاية.

الكاتب جهاد فاضل، الذي ساقه الله ليلون حياة أدبائنا بلون فضائحي جميل، يطلق على السيدة سعاد، صفة الزوجة «الثانية أو الأخيرة» لعمر أبو ريشة.. كأنه يعرض بأنه كان للشاعر زوجات أخريات في تاريخه الطويل وجغرافياه الواسعة.

في العشرين سنة الأخيرة من حياة الشاعر قال القليل، وكانت له علاقة قوية بالمملكة العربية السعودية بدأت بلقاء مع الملك فيصل بن عبد العزيز. وله فيه بيتان جميلان:

يا ابنَ عبدِ العزيزِ! وانتفضَ العزُّ   وأَصْغى وقالَ مَن ناداني
قلتُ: ذاكَ الجريحُ في القدسِ في سَيْـ   ـناءَ في الضَّفَّتينِ في الجَوْلانِ

توفي عمر أبو ريشة عن ثمانين سنة، عام ١٩٩٠، بعد أن مكث على سرير المرض في مستشفى بالرياض سبعة أشهر. ونقل جثمانه إلى حلب.

١ وامعتصماه في آذان صمَّاء

بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨:

أُمَّتي، هل لكِ بينَ الأممِ   مِنبرٌ لِلسيفِ أو لِلقلمِ؟
أَتلقَّاكِ وطَرْفي مُطرِقٌ   خَجَلاً مِن أَمْسِكِ المُنصَرِمِ
ويكادُ الدمعُ يَهْمي عابِثاً   بِبَقايا كِبرياءِ الأَلَمِ

يكاد دمعي يسيل فكأنما يعبث بما تبقى من الكبرياء التي هي كبرياء المتألم لا كبرياء المنتصر السعيد

أينَ دُنياكِ التي أَوْحَتْ إلى   وَتَري كُلَّ يَتيمِ النَّغَمِ؟

يا أمتي أين أيامك الماضية المجيدة التي أوحت إليَّ بالأنغام الفريدة اليتيمة التي لا تشاكلها أنغام؟

كم تَخَطَّيْتُ على أصدائِهِ مَلعَبَ العِزِّ ومَغنى الشَّمَمِ

على أصداء ذلك النغم كنت أسير قاطعاً ملعب العز، والملعب الساحة في لغتنا القديمة، ومغنى الشمم، أي مربع الشموخ

وتهاديتُ كأنّي ساحِبٌ مِئْزَري فوقَ جِباهِ الأَنْجُمِ

كنت أسر متهادياً، متمهلاً مختالاً، وكأنني أسحب ذيل ثوبي فوق جبين النجم

أُمَّتي كم غُصَّةٍ دَامِيَةٍ خَنَقَتْ نَجوى عُلاكِ في فَمي

ما أكثر الغصص الدامية التي خنقت في حلقي مناجاتي لأمجادك، فلم أعد أستطيع التغني بهذه الأمجاد

أَيُّ جُرْحٍ في إبائي رَاعِفِ فاتَه الآسي، فلم يَلْتَئِمِ!

ما هذا الجرح الراعف، النازف، الذي أصاب إبائي وشموخي وفاته الآسي، أي الطبيب، فلم يندمل!

أَلإِسرائيلَ تعلُو رايَةٌ في حِمَى المَهْدِ وظِلِّ الحَرَمِ

رفعت إسرائيل رايتها في أرض مهد عيسى، وفي ظلال الحرم القدسي.. وبعد هذه القصيدة بتسعة عشر عاماً ستحتل إسرائيل بيت لحم والقدس ولن تبقى رايتها على مقربة منهما فقط

كيف أَغضَيْتِ على الذُّلِّ، ولم تَنفُضي عنكِ غُبارَ التُّهَمِ؟

يا أمتي كيف سكتٌّ على الذل، ولم تنفضي عنك تهمة الجبن والاستخذاء؟

أوَمَا كُنتِ إذا البَغْيُ اعتَدى موجةً مِن لَهَبٍ أو مِن دَمِ؟
فيم أَقدمْتِ، وأَحجَمْتِ؟ ولم يَشْتَفِ الثأرُ، ولم تَنتَقِمي
اِسمَعي نَوْحَ الحَزانى واطْرَبي وانظُري دمعَ اليَتامى وابْسِمي
ودَعي القادَةَ في أهوائِها تَتفانى في خَسيسِ المَغْنَمِ

اتركي الزعماء يفنون كل طاقاتهم لنيل المغانم الخسيسة التافهة

رُبَّ «وامُعتَصِماهُ» انطَلَقَتْ مِلْءَ أفواهِ البَناتِ اليُتَّمِ..

ثمة صرخة «وامعتصماه» انطلقت من أفواه البنات اليتامى مستغيثةً..

لامَسَتْ أسماعَهُمْ لكنَّها لم تُلامِسْ نَخوةَ المعتَصِمِ

هذه الصرخة لامست أسماع الزعماء، ولكنها لم تلامس فيهم نخوة كنخوة الخليفة المعتصم الذي لبى نداء تلك المرأة العربية التي صرخت «وامعتصماه» وحارب الروم

أُمَّتي كم صَنَمٍ مَجَّدْتِهِ لم يَكُنْ يَحمِلُ طُهْرَ الصَّنَمِ

لا يُـلامُ الـذِّئْـبُ فـي عُـدوانِـه   إنْ يَـكُ الـراعـيِ عَـدُوَّ الـغَـنَـمِ
فـاحِبِـسي الـشـكـوى، فلولاكِ لَمَـا   كـان فـي الـحـكـمِ عـبـيـدُ الـدِّرْهَـمِ

٢ حيلة الذليل

رَبِّ طَــوَّقْــتَ مَــغــانــيـ   ـنــا جَــمــالاً وجــلالا

مغانينا: ربوعنا، بلادنا

ونَــشــرتَ الــخــيــرَ فــيــهِــنَّ   يَــمــيــنــاً وشِــمــالا
وتَــجــلَّــيْــتَ عــلــيْــهِــنَّ   صــلــيــبــاً وهــلالا
رَبِّ هــذي جَــنَّــةُ الــدنـ   ـيــا، عــبــيــراً وظِــلالا
كــيــفَ نَــمــشــي فــي رُبــاهــا الـ   ـخُــضْــرِ، تــيــهــاً واخــتِــيــالا..
وجِــراحُ الــذلِّ نُــخْــفــيـ   ـهــا عــن الــعِــزِّ احْــتِــيــالا؟
رُدَّهــا قَــفْــراءَ، إنْ شِــئْـ   ـتَ، ومَــوِّجْــهــا رِمــالا

يا رب اجعل أرضنا قفراء، جدباء، ولتموج فيها رمال الصحراء..

نــحــن نَــهــواهــا عــلــى الــجَــدْ   بِ إذا أعــطَــتْ رجــالا

نحب الأرض مجدبة إن كانت تلد رجالاً شامخين

٣ الثريُّ النفطي

بَــدويٌّ، أَوْرَقَ الــصــخــرُ لــه   وجـرى بِـالـسَّـلْـسَـبـيـلِ الـبَـلْـقَـعُ

سمع الشاعر عن ثري نفطي أنفق في ليلة ستين ألف دولار على عشيقة، فهذا الرجل الثري خرج له من الصخر نفط كأنه بستان مورق، وتفجر البلقع، الأرض المجدبة، بنبع سلسبيل.. لكنْ من نفط. القصيدة مؤرخة بعام ١٩٥٤، قبل أن تكون للشاعر علاقة حسنة بمنطقة الخليج

فـإذا الـنَّـخْـوَةُ والـكِـبْـرُ عـلـى   تَـرَفِ الأيـامِ جُـرحٌ مُـوجِـعُ

فتحولت النخوة والكبرياء إلى جرح بوجود هذا الترف

هـانَـتِ الـخـيـلُ عـلـى فُـرسـانِـهـا   وانْـطَـوَتْ تـلـكَ الـسـيـوفُ الـقُـطَّـعُ

وترك العرب خيلهم وانتهى زمن السيوف القاطعة

والـخِـيـامُ الـشُّـمُّ مَـالَـتْ، وهَـوَتْ   وعَـوَتْ فـيـهـا الـريـاحُ الأَربَـعُ

الرياح عند قدمائنا: الصبا والقبول والدبور والنكباء.. وقيل غير ذلك

والـبُـطـولاتُ، عـلـى غُـربَـتِـهـا   فـي مَـغـانـيِـنـا، جِـيـاعٌ خُـشَّـعُ
هـكـذا تُـقـتَـحَـمُ الـقـدسُ عـلـى   غـاصِـبيِـهـا، هـكـذا تُـسـتَـرجَـعُ!

يهزأ: أهكذا نسترجع القدس؟

٤ على أرائكهم

في تأبين الأخطل الصغير، وتوفي عام ١٩٦٨ :

كـتـائِـبٌ بِـالـنـضـالِ الـحـقِّ مُـؤمـنـةٌ   إذا الطَّواغيتُ مِن إيمانِها سَخِروا

الجنود في كتائبهم يؤمنون بالنضال الحقيقي، في حين أن الزعماء المستبدين يسخرون من هذا الإيمان

إن خُوطِبوا كَذَبوا أو طُولِبوا غَضِبوا   أو حُورِبوا هَرَبوا أو صُوحِبوا غَدَروا
خافُوا على العارِ، أنْ يُمْحَى، فكان لَهُمْ   على الرِّباطِ، لِدعمِ العارِ، مُؤْتَمَرُ

هذا عن مؤتمر القمة العربي في الرباط، وجاء بعد النكبة وفشل الزعماء العرب في التوصل إلى أي قرار فيه

على أَرائِكِهِمْ، سبحانَ خالِقِهِمْ   عاشُوا وما شَعَروا، ماتُوا وما قُبِروا
عفْواً، بِشَارَةُ، بعضُ البوحِ ضِقْتُ به   فَسالَ فوق فَمِي، حَرَّانَ، يَسْتَعِرُ

بشارة الخوري الذي قيلت القصيدة في تأبينه

خَنَقْتُ بِالدمعَةِ الخَرساءِ أكثرَهُ،   وأَقْتَلُ الدمعِ ما لا يَلمَحُ البَصرُ

خنقت أكثر بوْحي بدمعة خرساء، دمعة داخلية لم تظهر للعيان، وأكثر الدمع إيذاء ما لا يظهر

٥ تجاهلت السؤال

ركب الشاعر الطائرة في أميركا الجنوبية، وجلست بجانبه حسناء إسبانية جذورها عربية، ١٩٤٩ :

قلتُ: يا حسناءُ، مَن أنتِ؟ ومِن   أَيِّ دَوْحٍ أَفْـرَعَ الـغُـصْـنُ وطَـالا؟

دوح: شجرة وارفة الظل كبيرة

وأَجـابَـتْ: أنـا مِـن أَنْـدَلُـسٍ   جـنـةِ الـدنـيـا سـهـولاً وجـبـالا
وجُـدودي، أَلْـمَـحُ الـدهـرَ عـلـى   ذكـرِهِـمْ يَـطـوي جَـنـاحَـيْـهِ جَـلالا
بُـورِكَـتْ صـحـراؤُهُـمْ كَـمْ زَخَـرَتْ   بِـالْـمُـروءَاتِ ريـاحـاً ورمـالا

هؤلاءِ الصِّيدُ قومي، فانْتَسِبْ إنْ تَجِدْ أكرَمَ مِن قَومي رِجالا

الصيد: الأسياد

أَطْرقَ القلبُ، وغامَتْ أَعْيُنِي بِرُؤَاها، وتَجاهَلْتُ السُّؤالا

٦ معبد وعرايا

زار معبداً فيه تماثيل عارية تمثل الرجال والنساء في أوضاع جد «طبيعية»، ١٩٥٧:

مَن مِنكُما وَهَبَ الأَمانْ لِأَخيهِ، أنتَ أمِ الزمانْ؟

أيها المعبد الهندي المهيب بسكونه وطمأنينته، هل أنت أعطيت الأمان للزمان أم هو أعطاك الأمان؟

كَمْ دُمْيَةٍ ذَلَّ الرُّخا مُ على انتِفاضَتِها وهانْ

كأن التماثيل انتفضت وخرجت من الرخام فأذلته وقهرته

طَلَبَتْ فَأَعطى، واشْرَأَبَّـ ـتْ فانحنَى، وقَسَتْ فَلانْ

طلبت التماثيل من الرخام أن ينصاع لأمرها حتى تتكون وقست عليه فلان لأمرها فتشكلتْ

وتَكادُ تَنقُلُ ظِلَّها وتَسيرُ مُطْلَقَةَ العِنانْ

لشدة شبهها بالشخوص الحية فإن التماثيل تكاد تتحرك

هذانِ نِضْوا صَبْوَةٍ مجنونةٍ، يَتعانَقانْ

هذا تمثال لشخصين أنضاهما العشق المجنون، أي أتعبهما، وهما متعانقان

وتَلوحُ إحداهُنَّ ذا هِلَةً مُرَوَّعَةَ الجَنانْ

وهذه امرأة مرتبكة خائفة

وكأنَّها شَعَرتْ بِنَهْـ ـدَيْها أرادا يَشْرُدانْ
فلَها على طَوقَيْهِما كَفَّانِ لا تَتَزَحْزَحانْ
ومُراهِقٍ مُستَسْلِمٍ لِقِيادِ غانِيَةٍ عَوانْ

وهذا تمثال شاب مع بائعة هوى عوان، نَصَفٍ غيرِ شابة

رُدَّ الربيعُ لها، فَرَقَّـ ـتْ طَلْعَةً وزَهَتْ لِيانْ

قد استردت بعض فتنة شبابها فكانت طلعتها بهية وجسمها لِيْناً فهي مزهوة مفتخرة

أَهْوَتْ عليهِ فاكْتَسَى بالياسَمينِ الخَيْزُرانْ

يبدو أن المراهق خيزراني القوام نحيل، والعاشقة سمينة كشجرة ياسمين وارفة

وتَــمَــهَّــلَــتْ، لا وَهْــجُــهــا فَــانٍ، ولا الــيَــنْــبــوعُ فَــانْ
وحِــيــالَــهــا ثِــنْــتــانِ مِــن أَتــرابِــهــا مَــنْــسِــيَّــتــانْ
زُمَّــتْ شِــفــاهُــهُــمــا عــلــى مــعــســولِ مــا تَــتَــســاقَــيــانْ
وسَــهَــتْ جُــفــونُــهُــمــا عــلــى أَطْــيــافِ مــا تَــتَــشَــهَّــيــانْ

يبدو أن المرأتين متعانقتان عشقاً

ونَــدِيٌّ كُــهَّــانٍ تَــضَــوَّ- عَ فــي مَــجــامِــرِهِ الــدُّخــانْ

وهذا تمثال لمجلس كهان وقد فاح دخان عطري من مجامره

وصُــنُــوجُــهُ وكُــؤُوسُــهُ طــافَــتْ بــهــا زُمَــرُ الــقِــيــانْ

والقيان، أي الجواري، يطفن ساقيات بالكؤوس، مصوتات بالصاجات في أكفهنّ

يَــرقُــصْــنَ فــي إغــرائِــهِــنَّ- وكُــلُّ قَــدٍّ، أُفْــعُــوانْ
وغَــوِيَّــةٍ ظَــمْــأَى تَــفَــنَّــ- ـنَ فــي رِضــاهــا ظــامِــئــانْ

وهذه امرأة غاوية ومعها رجلان ظامئان للعشق، وتماثيل الهند مشهورة بما تصور من أوضاع العشق

هَــامــا بــمــا اقْــتَــسَــمــا فَــكُــلٌّ- عــنــدَ مَــوْرِدِهِ اسْــتَــكــانْ

وكل رجل من هذين قانع بالموضع الذي أخذه من المرأة

هــذا مَــطــاوِيــهــا اسْــتَــطــا بَ، وذا نَــوافِــرَهــا اسْــتَــلانْ

أحدهما أعجبه ما ضمر من جسمها، والآخر منشغل بما كان من جسمها نافراً، أعوذ بالله، لَشعرك يا أبا ريشة أفضح من تلك التماثيل

وصَــبِــيَّــةٍ مَــمْــشــوقَــةٍ هِــيَ والــغَــوايَــةُ تَــوْأَمــانْ
يَــهْــفُــو الــقَــمــيــصُ لِــمَــسِّ خَــصْــ ـرَيْــهــا، وتَــأْبَــى الــحَــلْــمَــتــانْ

يريد قميص الصبية الممشوقة أن يمس خصريها ولكن صدرها البارز يبعده عن بقية جسمها

«كــاجْــراوُ»! هــل مِــنْ حُــرْمَــةٍ لَــكَ عــنــدَ رائِــيــهــا تُــصــانْ

يا معبد كاجراو، لم تترك شيئاً من الحرمات مصوناً مستوراً

كــم زائــرٍ أَدْمَــى فُــؤَا دَكَ مــا أَسَــرَّ ومــا أَبــانْ

كم من زائر أحزنك أيها المعبد بمشاعره التي أبداها وتلك التي أسرها في نفسه

أَخــفَــى الــرِّضَــى وتَــظــاهَــرَتْ بِــالــسُّــخْــطِ، عــيــنــاهُ الــلَّــتــانْ..

في ضمير الزائر رضى وانشراح لهذه التماثيل الإباحية، ولكنه يتظاهر بالاشمئزاز، والسخط بادٍ في عينيه اللتين..

تَــتَــحَــرَّيــانِ وتَــنــهــلا   نِ وتُــكْــسَــرانِ وتَــحْــلُــمــانْ
.. تحدقان وتتمعنان وتحلمان..

مَــزَّقْــتَ أقــنِــعَــةَ الــحــيــا   ةِ، ومــا عــلــيــهــا مِــن دِهــانْ
وجَــلَــوْتَــهــا فــي عُــرْيِــهــا   فــتــرفَّــعَــتْ بــعــد امْــتِــهــانْ
جلوت حقيقة الشهوات البشرية أيها المعبد فأصبحت آيات فن بعد أن كانت ممتهنة مرذولة

لا تَــسْــأَلَــنَّ فــلــن أُجــيــ   ــبَ، وظُــنَّ بــي مــا أنــتَ ظَــانْ
أنــا مــثــلُ غَــيــري لا يُــرى   لــيَ مِــن كُــوى سِــجْــنــي كِــيــانْ
لن أفصح عن مشاعري، فأنا مثل غيري لا تبدو حقيقتي من نوافذ سجني الضيقة.. سجن التقاليد والمحرمات

أنــا مُــطْــمــئِــنٌّ بِــالــقِــنــا   عِ، ورافِــلٌ بِــالــطَّــيْــلَــســانْ
وأنا مطمئن بهذا الوضع، وبما أستر به مشاعري من طيلسان، ثوب، ومن قناع

«كــاجْــراوُ»! لــولا الــعــجــزُ والــ   ــحِــرمــانُ مــا كــانَ الــجَــبــانْ
نحن نجبن عن اقتراف الممنوع، والسبب الحرمان والعجز

٧ كبرياء بلبل

(تعليقاً على قول الجاحظ: «البلبل لا ينسِلُ في قفص») ١٩٤٤:

لَــو يــعــلــمُ الــصــيَّــادُ مــا صَــيْــدُهُ   لــم يَــجــعــلِ الــبُــلــبــلَ فــي صَــيْــدِهِ
أَلْــفَــيْــتُــهُ يــنــثُــرُ أَلــحــانَــهُ   كــأنَّــمــا يــنــثُــرُ مِــن كِــبْــدِهِ
رأيت البلبل في القفص يغرد بحزن، كأنما ينثر كبده نثراً

أَسْــقَــمَــهُ الــعَــيْــشُ عــلــى وَفْــرِهِ   لَــمَّــا رآهُ لــيــس مِــن كَــدِّهِ
أمرضه أن يعيش على طعام يقدم له في القفص ولم يتعب في تحصيله

فــعــافَ دُنــيــاهُ ولــم يَــتَّــخِــذْ   عُــشَّــاً، ولــم يَــحْــمِــلْ ســوى زُهْــدِهِ
كــأنَّــهُ مِــن طُــولِ مــا مَــضَّــهُ   مِــن عَــبَــثِ الــدهــرِ ومِــن كَــيْــدِهِ
مضه: آذاه

أَبَــى عــلــيــهِ الــكِــبْــرُ أنْ يُــورِثَ الــ   ــأفــراخَ ذُلَّ الــقَــيْــدِ مِــن بَــعْــدِهِ
لكبريائه لم ينجب أفراخاً حتى لا يرثوا القيد ويكونوا محبوسين مثله في القفص

٨ نسر

١٩٣٨

أَصبحَ السَّفْحُ مَلعباً لِلنُّسورِ   فاغضَبي يا ذُرَى الجبالِ وثُوري

بعد أن كانت النسور تحلق فوق القمم أصبح ملعبها، ساحتها، السفح، فلتغضب الذرى، القمم، لهذا الوضع

إنَّ لِلجُرْحِ صَيْحَةً فابْعَثِيها   في سَماءِ الدُّنَى فَحيحَ سَعيرِ

إنَّهُ لم يَعُدْ يُكَحِّلُ جَفْنَ النَّـ   ـجْمِ تيهاً بِريشِهِ المَنْثُورِ

هَجرَ الوكرَ ذاهِلاً وعلى عيـ   ـنَيْهِ شيءٌ مِن الوَداعِ الأَخيرِ

هجر وكره في القمة لأنه لم يعد يستطيع الوصول إلى القمة، وكان ذاهلاً وعلى عينيه «شيء» أي دمع بسبب الوداع الأخير للقمة

تارِكاً خلْفَهُ مَواكِبَ سُحْبٍ   تَتهاوى مِن أُفْقِها المَسحُورِ

هبط النسر العجوز تاركاً في الأعالي الغيوم تهوي في أفق السماء.. لكن فوقَه

هبطَ السَّفحَ طاوِياً مِن جَناحَيْـ   ـهِ على كلِّ مَطمَحٍ مَقْبورِ

فَتَبارَتْ عَصائِبُ الطيرِ ما بيـ   ـنَ شَرُودٍ مِنَ الأذى ونَفُورِ

جماعات الطيور هربت من أذى النسر الكاسر، وهي طيور ضعيفة تفر وتنفر اتقاء أذى النسر

لا تَطيري جَوَّابَةَ السَّفْحِ فالنَّسْـ   ـرُ إذا ما خَبِرْتِه لم تَطيري

لا تطيري أيتها الطيور الضعيفة التي تجوب السفح ولا تقوى على القمم، ولا تهربي، فلو عرفت أن النسر فقد قوته لما طرت بعيداً عنه

نَسَلَ الوَهْنُ مِخْلَبَيْهِ، وأَدْمَتْ   مَنكِبَيْهِ عَواصِفُ المَقْدُورِ

النسر الآن ضعيف وقد نسل الضعف مخلبيه نسلاً واستلَّها استلالاً، وسال دم من كتفيه بسبب القدر الغلاب

والوَقارُ الذي يَشيعُ عليهِ   فَضْلَةُ الإرْثِ مِن سَحيقِ الدُّهورِ

وما عليه من وقار هو مجرد إرث من زمن سابق سحيق بعيد

وَقَفَ النَّسْرُ جائِعاً يَتَلَوَّى   فوقَ شِلْوٍ على الرِّمالِ نَثيرِ

وقف النسر جائعاً يتلوى ألماً فوق شلو، عضو من الأعضاء والجمع أشلاء، وقد نُثِر على الرمل

وعِجافُ البُغاثِ تَدْفَعُهُ بِالـ   ـمِخْلَبِ الغَضِّ والجَناحِ القَصيرِ

لكن البغاث، الطيور الضعيفة، العجفاء النحيلة اجترأت على النسر وصارت تدفعه بعيداً بمخالبها الطرية وأجنحتها القصيرة

فَسَرَتْ فيهِ رَعْشَةٌ مِن جُنونِ الـ ـكِبْرِ واهتَزَّ هِزَّةَ المَقْرورِ

سرت في جسم النسر رعشة كبرياء واهتز كما يهتز المقرور، المصاب بالقر أي البرد

ومَضى ساحِباً على الأُفُقِ الأَغْـ ـبَرِ أَنقاضَ هَيْكَلٍ مَنخُورِ

وسحب نفسه على الأفق المغبر وطار.. كأن جسمه هيكلٌ متهاوٍ منخور، غير صلد

وإذا ما أَتى الغَياهِبَ واجْتا زَ مَدى الظَّنِّ مِن ضَميرِ الأَثيرِ..

وعندما وصل إلى الغياهب، المكان المظلم بعيداً، وطار إلى أبعد مما تصل إليه الظنون في جوف الأثير، أي السماء..

جَلجَلَتْ منهُ زَعْقَةٌ نَشَّتِ الآ فاقَ حَرَّى مِن وَهْجِها المُسْتَطيرِ

صرخ بزعيق اهتزت له الآفاق لما به من غضب مستطير

وهَوى جُثَّةً على الذِّرْوَةِ الشَّمَّـ ـاءِ في حِضْنِ وَكْرِهِ المَهْجُورِ

وبطيرانه العالي هذا الذي أجبر نفسه عليه رغم ضعفه، وصل هذه المرة إلى الذروة، القمة، التي كان ضعفه قد حرمه منها.. ثم سقط جثةً على القمة عند وكره القديم الذي هجره طويلاً بسبب ضعفه

لَمْلِمي يا ذُرى الجبالِ بَقايا النَّـ ـسْرِ، وارْمي بِها صُدورَ العُصورِ

أَيُّها النَّسْرُ هل أَعُودُ كما عُدْ تَ، أَمِ السَّفْحُ قد أَماتَ شُعوري؟

الشاعر يشبه نفسه بالنسر الضعيف، فهل يغضب غضبة أخيرة فيعود إلى قمته ولو كلفه ذلك حياته، أم أن تعوده البقاء على السفح، في مرتبة نازلة عن مستواه، قد أمات شعوره؟

٩ تغيَّرتْ

١٩٥٨

وأَتَيْتُ مِرآتي وعِطْرِيَ في يَدي فَبَصُرْتُ ما لا كنتُ فيها أُبْصِرُ

فخَفَضْتُ طَرْفِي، ذاهِلاً مَتَوجِّعاً ونَفَرْتُ منها عاتِباً أَسْتَنْكِرُ

خانَتْ عُهودَ مودَّتي، فتغيَّرَتْ ما كنتُ أَحسَبُ أنَّها تتغيَّرُ

النكتة: أن المرآة هي التي تغيرت، لا أنه فوجئ بأنه هو تغير وشاخ

١٠ القصيدة.. وكسب العيش

١٩٦٢:

هي والدنيا وما بينَهُما غُصَصي الحَرَّى وأَهوائي العَنيدَةْ

هي القصيدة التي أريد أن أبلغ بها ذروة المجد.. والدنيا التي أسعى في مناكبها متقلداً الوظائف والمناصب.. وبينهما أحس بغصص، وآلام، وأحس بضغط من ميولي الأدبية العنيدة

رِحلَـةٌ لـلـشَّـوْقِ، لـم أبْلُـغْ بِـهـا   مـا أرَتْـنـي مِـن فـراديـسَ بَـعـيـدَةْ

لم أستطع بلوغ الفردوس البعيد، المرتبة العليا، في رحلتي هذه

طـالَ دَرْبـي، وانـتَـهـى زادي لَـهُ   ومَضى عُمْري على ظَهْرِ قَصيدَةْ

طال بي درب الشعر والإبداع، ولم أكن تزودت للدرب بما يكفيني.. وعمري انقضى وأنا أركب شيطان الشعر آملاً ان يوصلني إلى الخلود. كل شاعر يتوق إلى أن يكون متنبي العصر!

١١ عُودي

١٩٦٥

قالَتْ مَلِلْتُكَ، اِذْهَبْ لستُ نادِمَةً   على فراقِكَ، إنَّ الحبَّ ليس لَنا

سَقيتُكَ المُرَّ مِن كأسي، شَفَيْتُ بِها   حِقدي عليكَ، وما لي عن شَقاكَ غِنى

الحبيبة سعيدة بأنها عذبته بحبها، وما كان ليهدأ بالها إلا بعد أن ترى الحبيب شقياً معذباً

قالتْ، وقالتْ، ولم أهْمِسْ بِمِسْمَعِها   ما ثارَ مِن غُصَصي الحَرَّى وما سَكَنا

ظلت تفح بفحيح غضبها وهو ساكت لا يعبر عن آلامه الكبيرة، سواء ما ثار منها أم ما كبته في قلبه

تَركْتُ حُجْرَتَها، والدِّفْءَ مُنْسرِحاً   والعطرَ منسكباً، والعمرَ مُرْتَهَنا

ترك غرفتها وترك دفء العشق، وهجر العطر، وتحرر من ارتهان عمره في حبها

وسِرْتُ في وَحشَتي، والليلُ مُلْتَحِفٌ   بالزَّمْهَريرِ، وما في الأُفْقِ وَمْضُ سَنا

وسار في الليل تصاحبه وحشته، وكان الليل ملتفاً بالزمهرير، ولم يكن في الأفق بصيص نور

ولم أكَدْ أجْتَلي دَرْبي على حَدَسٍ   وأسْتَلِينُ عليهِ المَرْكَبَ الخَشِنا..

وما كاد يجتلي ويرى طريقه بالتلمس والتخمين في هذا الظلام، ويحس بأن سيره صار آمناً فكأنه وجد المركب المضطرب قد أصبح سلساً..

حتى سَمِعْتُ وَرائي رَجْعَ زَفْرَتِها   حتى لَمَسْتُ حِيالي قَدَّها اللَّدِنا

حتى سمع وراءه صوت تنفسها.. وحتى لمس بجانبه قدها اللين

نَسيتُ ما بِيَ، هَزَّتْني فُجاءَتُها   وفَجَّرَتْ مِن حَناني كُلَّ ما كَمَنا

نسي ما به من ألم الإهانة والصدّ، وهزته هذه المفاجأة، وأعادت إليه الحنان الكامن في قلبه

وصِحْتُ يا فِتْنَتي، ما تَفعلِينَ هُنا؟   اَلبَرْدُ يُؤْذيكِ، عُودي، لن أعودَ أنا

وقال لها: أيتها المرأة التي فتنتني، ماذا تفعلين؟ البرد يؤذيك فعودي إلى غرفتك. لكن، أنا.. لن أعود

١٢ وصية

١٩٦٥

إنَّـهـا حُجْـرتـي لـقـد صَـدِئَ النِّسْـ ـيانُ فيها، وشاخَ فـيـهـا السُّكوتُ
أُدخُلي بِالشُّموعِ، فَهْيَ مِن الظُّلْـ ـمَـةِ وَكْـرٌ فـي صِـدْرِها مَـنْـحُـوتُ

يطلب للمحبوبة أن تدخل غرفته بشموع تبدد الظلمة. فغرفته كأنها وكر منحوت نحتاً.. ليس من صخر.. بل منحوت من صدر الظلمة

وانْقُلي الخَطْوَ بِاتِّئادٍ فقد يَجْـ ـفَلُ مِنكِ الغُبارُ والعَنْكَبُوتُ

سيري بطيئة لئلاً «يخاف» الغبار فيثور، ويتحرك العنكبوت. و«يجفل الغبار» جديدة وفيها شعر بديع

عند كأسي المكسورِ حُزْمَةُ أَوْرا قٍ، وعُـمْـرٌ فـي دَفَّـتَـيْـهـا شَـتـيـتُ

ستجدين حزمة أوراق فيها قصائدي، وفيها عمري مشتتاً في طواياها

اِحمِليها، ماضي شَبابِكِ فيها والفتونُ، الذي عليهِ شَقِيتُ

هذه القصائد الغزلية فيها عصارة مشاعري إزاءك في أيام شبابك، وفيها الفتنة التي عذبتني

اِقرَأِيها، لا تَحْجُبي الخُلْدَ عَنِّي أنشُرِيها، لا تَترُكيني أَموتُ

اقرأي القصائد، فهذا سيخلدني، وانشريها فهذا يحميني من موت اسمي بعد أن يموت جسمي

١٣ بعد فوات الأوان

١٩٦٢:

غابَ، ولن يَرجِعَ، يا ليتني أَعطَيْتُهُ بعضَ أماني الحياةْ

بعد موته تتمنى المرأة لو أنها كانت أعطته ما يتمنى من الوصل والرضا

يا ليتني أَطبَقْتُ أجفانَهُ قبلَ الرَّدى، بِالقُبْلَةِ المُشْتَهاةْ

تتمنى لو أنها أطبقت أجفانه قبل أن يموت بالقبلة التي طالما حلم بها

أَشْعُرُ بِالوَحْشَةِ مِن بعدِهِ ولم يكنْ لي فيهِ مِن أُمْنِيات

أشعر بوحشة بعد موته، مع أنني في حياته لم أكن أتمنى وصاله

كم مَرَّ بي والشوقُ يُزْري بِهِ ولم يَجِدْ مِنِّي إليهِ التِفَاتْ

كان يمر بي والشوق يعذبه، ولا ألتفتُ إليه

مـا لـيِ إذا مـا زَارَنــي طَـيـفُـهُ   أمْسَـحُ مِن أجْـفـانِيَ الـدَّامِـعـاتْ؟

والآن يزورني طيفه وأتذكره فتدمع عيناي

لـيـس سِـواهُ، بـيـنَ أتْـرابِـهِ   كـان يَـرى أنّـيَ أحْـلَـى فَـتـاةْ

فقط هو، من بين كل أصحابه، كان يراني أجمل فتاة

١٤ لا تنتقي كلماتك

١٩٦٦

حَدِّثـيـنـي عـمَّـا يَـضِـجُّ بِـجَـنْـبَـيْـ   ـكِ، وعـمَّـا يَـثـورُ مِـن رَغَـبـاتِـكْ

حَـدِّثـيـنـي، قُـصِّـي جَـنـاحَ ظُـنـونـي   حَـدِّثـيـنـي، لا تَـنْـتَـقـي كَـلِـمـاتِـكْ

تكلمي ولا تجعلي ظنوني وشكوكي تطير بعيداً بأجنحة. قُصِّي أجنحة ظنوني، وقولي كل شيء كيفما خطر ببالك «ولا تنتقي كلماتك». ما أكثر ما في هذه العبارة الأخيرة من شعر

١٥ عالم من نساء

١٩٦٤

سـارَتْ إلـى الـمَـركَـبِ مَـشْـدُوهَـةً   مـعـقـودةً أجـفـانُـهـا بِـالـسـمـاءْ

مشت نحو السفينة هائمة حيرى، وعيناها في السماء

وغـابَ فـي الـيَـمِّ، وغـابَـتْ بِـهِ   وغـابَ عَـنِّـي عـالَـمٌ مِـنْ نِـسـاءْ

وغاب المركب في البحر، وغابت المحبوبة معه، وبغيابها غاب عني عالم النساء.. فهي كانت عالماً من نساء..

١٦ القيد الضروري

أتراه قال هذه القصيدة عن زوجته؟ هكذا فسرناها. ١٩٦٦

لـم أزَلْ أسـحَـبُ قـيـدي مُـتـعَـبـاً   وجـراحـي لـم تَـزَلْ تَـشْـتُـمُ قَـيْـدي

قيد الزواج يتعبني، وآلامي تلعن هذا القيد الذي قيدت نفسي به

أنـا أقـبـلْـتُ عـلـيـهِ راضـيـاً   بعدما غَيَّبْتُ في عينَيْكِ رُشدي

قد تزوجت راضياً بعد أن فقدت صوابي في عينيك

كـم تَـغـاضَـيْـتُ حـيـاءً، كـلَّـمـا   أوْمَـأتْ لـيِ مِن كُوى الإشْفاقِ أيْدِ

كنت، كرجل متزوج، أخجل عندما تمتد إليَّ يد مشفقة على عذاباتي تريد أن تأخذني إلى حب آخر ووضع آخر

مـا تَـبَـقَّـى غـيـرُ هـذا الـقـيـدِ لـيِ   فـي بـقـايـا الـلـيـلِ مِـن هَـمٍّ وسُـهْـدِ

ما بقي من همومي سوى هذا القيد

إنَّـه عُـمْـري فَـلَـنْ أرمـي بِـهِ   لا أُطيقُ السَّيْرَ في الوَحْشَةِ وَحْدي

قيد الزواج هو عمري، ولن أتخلص منه.. فهو يؤنس وحشتي ولا أطيق السير بدونه

١٧ انتقي لي حكاية

بعد عودته من بابل ونينوى قال هذه القصيدة، ونرى أنه يقصد عودته من لقاء مع المحبوبة، أو هكذا شاء خيالنا، ١٩٥٣ :

عُـدْتُ مِـن عـالَـمٍ، تـألَّـقَ فـي عيْـ   ـنَـيْـنِ فَـيَّـاضَـتَـيْـنِ بِـالأسـرارِ

عاد من لقاء من المحبوبة.. عاد من عالم عينيها المليئتين بالأسرار

فـيـهِـمـا يَـغـرَقُ الـخَـيـالُ، وتَـنْـهـا   رُ الأمـانـيِ، وتَـسْـتَـحِـمُّ الـدَّراري

في عينيها لا يبقى مجال لخيال فهما أبعد من كل خيال، وتنهار كل الأمنيات أمام أمنية الوصل معها، وفي عينيها لو تعلمون.. تستحم النجوم. تعساً للذكور.. يجدون امرأة فاتنة، فائقة الجمال، وقوية، ومنيعة.. ولا يستريح بالهم إلا أن يطفئوا بريق عينيها.. تباً لهم.. ولها!

كَـثُـرَتْ فـيـهِـمـا حِـكـايـاتُ نَـعْـمـا   ئِي، وعَزَّتْ، وحارَ فيها اخْتِياري

في عينيها حكايات كثيرة عن النعمة التي أنا فيها بسبب لقائي بهذه الفاتنة، وعزيزة هذه النعماء وممتنعة.. فأنا معذب بهاتين العينين.. وقد احترت أي حكاية من الحكايات الوهمية هذه أختار

ما تُراني، يا بِدْعَةَ الحُسْنِ، أَرْوِي   لِصِحابي، وكلُّهُمْ في انتِظاري؟

ايتها الفائقة الجمال! ماذا سأقول لأصحابي عن هذه العلاقة المبتورة.. كلهم ينتظرونني لأروي لهم..

اِنـتَـقـي لـيِ حِـكـايَـةً، ربَّـمـا شَـكَّـ   صِـحـابـي فـي الـصِّـدْقِ مِـن أخْـبـاري

قولي لي حكاية عن علاقتنا الصعبة هذه كي أرويها للأصحاب، فقد يشكون في حكاية أبتدعها بنفسي. كل تفسيري للقصيدة تفسير بحسب ما تخيلت.. اقرأها واشعر بها وحدك.. هذه قصيدة لا تفسر

١٨ نلعب معاً

١٩٥٠

أحْبَبْتِني، أَحببْتِ أنْ تَلعَبي   وتَسْحَبي الذَّيْلَ على الكَوكَبِ

أحببتني لهواً، وافتخاراً لكي تفتخري بذلك وكأنك تسيرين في السماء وتسحبين ذيلك على الكواكب

وتَسمَعي نَجْواكِ مُخْضَلَّةً   على شِفاهِ الزَّمَنِ الأشْيَبِ

أحببتني لكي تسمعي همساتنا نديَّة مخضلة على شفتي الزمن العتيق.. تريدين أن يقال دائماً.. كانت حبيبة فلان.. حسناً..

أُمْنِيَّةٌ، أدركتِها فاغْرِفي   ما شِئتِ مِن نَعمائِها واشْربي

لقد أدركت أمنيتك، فاغرفي من هذه النعمة ما شئت.. فأنا أيضاً مستمتع

١٩ أطهر من الخجل

١٩٤٦

ألفيتُها ساهِمَةً   شارِدَةً تَأمُّلا

ناديْتُها، فالتَفَتَتْ   نَهداً، وشَعراً مُرْسَلا

فما انْثَنَتْ حائِرَةً   ولا رَنَتْ تَدلُّلا

فقط التفتت.. ليس بحيرة؛ ولا هي رنت، أي نظرت، بدلال وغنج

ولا دَرَتْ وَجْنَتُها   مِن خَجَلٍ تَبَدُّلا

كأنَّها في طُهْرِها   أَطْهَرُ مِن أنْ تَخْجَلا

هذه صغيرة يا أبا ريشة. وفيروز تقول لك: «حلوة والخصر بيلوي.. ما بتعرف أنها حلوي//لا تفوقها ع حالا.. بلكي شغلت لها بالا»، وبالفصحى: «حلوة وجسمها بدأ يأخذ شكله، ولا تعرف أنها حلوة/لا تجعلها تعي ذلك، فسوف تشغل لها بالها»

٢٠ سر السراب

١٩٤٦

لا تَحسَبِيني سَالِياً، إنْ تَلمَحي   في ناظِرِي، هذا الذُّهولَ المُبْهَما

سالياً: ناسياً، ومهملاً الحب

إنْ تَهتِكي سِرَّ السَّرابِ وَجَدْتِهِ   حُلُمَ الرِّمالِ الهاجِعاتِ على الظَّما

الهاجعات: النائمات. هذا شعر لا يشرح.. بل يقرأ بخشوع

٢١ شرف الوثبة

ألقيت في حفلة، ١٩٤٧، ابتهاجاً بعيد جلاء الفرنسيين:

يا عَروسَ المجدِ، تِيهي واسْحَبي   في مَغانِينا ذُيولَ الشُّهُبِ

يا ربة المجد تبختري واسحبي ذيول شهب السماء في أراضينا

لن تَرَيْ حَفْنَةَ رَملٍ فوقَها   لم تُعَطَّرْ بِدِما حُرٍّ أبي

لن تري فوق مغانينا حفة رمل إلا وقد عطرتها دماء شهيد حر

دَرَجَ البَغْيُ عليها حِقْبَةً   وهَوى دونَ بُلوغِ الأَرَبِ

مشى الظلم فوق أراضينا زمناً، ولم يحقق هدفه

لا يموتُ الحقُّ، مهما لَطَمَتْ   عارِضَيْهِ قَبضَةُ المُغْتَصِبِ

عارضيه: خديه

مِن هُنا شَقَّ الهُدى أكمامَهُ   وتَهادى مَوْكِباً في مَوْكِبِ

من بلادنا شق هدى الإسلام أكمامه، كما يشق الزهر أكمامه، وأخذ الإسلام ينتشر بعد أن وصل الشام.. فمن الشام بدأ فتح الاندلس غرباً وكان الوصول إلى حدود الصين شرقاً

وأَتى الدُّنيا فَرَفَّتْ طَرَباً   وانتَشَتْ مِن عَبْقِهِ المُنْسَكِبِ

وطار الإسلام شرقاً وغرباً وشعرت الدنيا بنشوة من عبيره وتسامحه

وتَغَنَّتْ بِالمُروءَاتِ التي   عَرَفَتْها في فَتاها العَربي

وتغنت الدنيا بشهامة النبي العربي

أَصْيَدٌ، ضاقَتْ به صَحْراؤُهُ   فَأَعَدَّتْهُ لِأُفْقٍ أَرْحَبِ

النبي أصيد، سيد ماجد، أعدته صحراؤه لبلوغ أفق أوسع

هَبَّ لِلفَتْحِ، فَأَدْمى تَحْتَهُ   حافِرُ المُهْرِ جَبينَ الكَوكَبِ

حوافر خيل المسلمين وصلت إلى أبعد مكان، فكأنها داست جبين الكوكب فنزف دماً

سَكِرَتْ أَجيالُنا في زَهْوِها   وغَفَتْ عن كَيدِ دَهرٍ قُلَّبِ

أجيالنا اللاحقة سكرت في زهو، وتكبر، للانتصار.. وأصابها الغرور غافلة عن مكائد الدهر المتقلب

وصَحَوْنا، فإذا أعناقُنا مُثقَلاتٌ بِقُيودِ الأَجْنبي

ثم إذا نحن نرى الأجانب يطوقون أعناقنا بقيود الانتداب والاحتلال

نحن مِن ضَعْفٍ بَنَيْنا قُوَّةً لم تَلِنْ لِلمارِجِ المُلْتَهِبِ

من ضعفنا في القديم صنعنا قوة لا تلين للمارج، اللهب، فهي أقوى من الحديد الذي يلين للنار

كم لنا مِن مَيْسَلونٍ نَفَضَتْ عن جَناحَيْها غُبارَ التَّعَبِ

خضنا معركة ميسلون وأشباهها، فنفضنا بذلك غبار الإنهاك والتراخي

كم نَبَتْ أَسيافُنا في مَلْعَبٍ وكَبَتْ أفراسُنا في مَلْعَبِ

كثيراً ما خابت سيوفنا في ملعب، أي ساحة قتال، وكثيراً ما عثرت خيولنا فلم نحقق الانتصار

مِن نِضالٍ عاثِرٍ مُصْطَخِبٍ لِنضالٍ عاثِرٍ مُصْطَخِبِ

سرنا من نضال فاشل لنضال فاشل

شَرَفُ الوَثْبَةِ أنْ تَرضَى العُلا غَلَبَ الواثِبُ أم لم يَغْلِبِ

الشرف في الوثبة النضالية أن يكون فيها رضاً للمعالي والمجد بغض النظر عن الانتصار

فَالتَفِتْ مِن كُوَّةِ الفِرْدَوْسِ يا فَيْصَلَ العَلْياءِ وانظُرْ واعْجَبِ

فيا فيصل الأول ـ وتوفي عام ١٩٣٣ قبل استقلال سورية بثلاث عشرة سنة، وفي زمنه وقعت ميسلون ـ التفت من نافذة الجنة التي حللتها، وانظر كيف تحقق الاستقلال

أَترى كيفَ اشْتَفَى الثأرُ مِن الـ ـفاتِحِ المُسْتَرِقِ المُسْتَلِبِ

ضَلَّتِ الأُمَّةُ إنْ أَرْخَتْ على جُرحِ ماضِيها كَثيفَ الحُجُبِ

أينَ في القُدسِ ضُلوعٌ غَضَّةٌ لم تُلامِسْها ذُنابَى عَقْرَبِ؟

ليس في القدس ضلوع إلا وقد لسعتها ذنابى، أي حُمَةُ أي إبرة ـ العقرب الصهيوني

وَقفَ التاريخُ في مِحْرابِها وِقْفَةَ المُرْتَجِفِ المُضْطَرِبِ

التاريخ ينتظر حدوث شيء في فلسطين.. والتاريخ قلق. معه حق، فهذا قيل قبل النكبة بقليل..

يا روابي القدسِ، يا مَجْلَى السَّنا يا رُؤَى عيسى على جَفْنِ النَّبي

تلال القدس هي مجلى السنا، مكان تجلي الضوء المتمثل في الرسالات السماوية، وهي رؤى عيسى ورسالته التي تجلت أيضاً في جفن محمد فهي رؤى محمد أيضاً

دونَ عَليائِكِ في الرَّحْبِ المَدى صَهْلَةُ الخَيْلِ وَوَهْجُ القُضُبِ

دون مكانتك العليَّة يا قدس، دونها أي يحميها ويقف دونها، في التاريخ الممتد ثمة خيول تصهل وقضب، أي سيوف، تتوهج. ما كان أرخص الكلام في ذلك الزمن! وما أكثر جعجعات عمر أبو ريشة وشموخياته، وعروبياته

٢٢ اعتذار أنيق للراحل

في تأبين الزعيم من الكتلة الوطنية سعد الله الجابري، ١٩٤٧:

هيكلَ الخُلْدِ، جئتُ أَسْكُبُ نَجوا كَ رُؤَىً فـي مَـحـاجِـرِ الآبـادِ

يا قبر سعد الله الجابري، يا هيكل الخلود، أتيت أسكب مناجاتي إياك، لكي تصبح رؤية ودليلاً في محاجر، عيون، المستقبل حتى الأبد الأبيد

في مَحارِيبِكَ الوَضيئَةِ تَغفُو كِـبـريـاءُ الآبـاءِ والأَجـدادِ

في محرابك، أي وسطك، أيها الضريح كبرياء أسلافنا، فالجابري يمثل مجد الآباء

قـد تَـسـاوَى لَـدَيْـكَ حـالِـبُ شَـاةٍ فـي مَـجـالِ الـفِـدا وسَـيِّـدُ نـادِ

كنت لا تفرق بين راعي شياه وسيد من السادة في مجال الوطنية والنضال

أيُّ قَـبْـرٍ وقـفـتُ أَرْنُـو إلـيـهِ والأَسـى مَـالِـكٌ عـلـيَّ قِـيـادي؟

الأسى، الحزن، يملك زمامي ولا سيطرة لي عليه

ما تبقَّى مِنْ أَمْسِهِ غيرُ طَيْفٍ رائِحٍ في رُؤَى الحياةِ وغَادِ

بقي من تاريخ سعد الله مجرد طيف يروح ويجيء أمام عيون الناس

وغداً تَهْدَأُ الشُّجونُ، ويَخْبُو لاعِجُ الشوقِ في الضُلوعِ الصَّوادي

غداً يخف الحزن، وينطفئ لاعج، لهيب، الشوق في الضلوع الصوادي، العطشى

وتَمُرُّ الأجيالُ سائِلَةً: مَنْ كان سَعْدٌ، وما له مِن أَيادِ؟

وستأتي أجيال تسأل: من كان سعد، وما كانت أياديه، أي فضائله؟

مَن تُراهُ بينَ المُلوكِ، وبين الـ ـفـاتِـحـيـنَ الـغُـزاةِ والـقُـوَّادِ؟

وهل كان ملكاً أم من الفاتحين أم القادة؟ كدت تهجوه يا أبا ريشة

أيُّها السائلونَ، كم زُيِّفَ الدُّرُّ وأَمسى قَلائِدَ الأَجْيادِ

يا من تسألون هذا السؤال! كثيراً ما رأينا اللؤلؤ الزائف وقد أمسي قلائد الأجياد، أي عقوداً في الأعناق

كـم قُـبـورٍ تَـنَـفَّـسَ الـطِّـيـبُ مـنـهـا ما حدا بِاسْمِها على الدهرِ حادِ

ما أكثر القبور التي حوت عظماء النفوس حتى لتصعد منها رائحة الطيب، ولكن لا أحد يذكر أصحابها

رُبَّ ثَـاوٍ وراءَهـا، كـان فـي قـا فِـلَـةِ الـحَـقِّ، خـيـرَ سـاعٍ وفَـادِ

ورب ثاو، راقد، في هذه القبور كان خير فادٍ لزملائه بنفسه ضمن قافلة النضال والحق

حَمَلَ الجُرْحَ صامتاً مُطمَئِنّاً   وأتى رَبَّهُ على ميعادِ

هذا الراقد حمل جرحه بصمت، ومات مطمئناً. وسعد الله الجابري مات ميتة عادية على فراشه ١٩٤٧

ودَمُ المؤمنينَ ما ضاعَ عندَ اللّـ   ـهِ أَجْراً، إنْ ضاعَ عند العِبادِ
قارَعَ البَغْيَ وَهْوَ أعْزَلُ إلّا   مِن سِلاحَيْنِ، نَخْوَةٍ واعْتِدادِ

سلاحه كان الشهامة والاعتداد بالنفس وبالوطن

سَعدُ، يا سَعدُ، إنَّهُ لَنِداءٌ   مِن حنينٍ، فهلْ عَرفْتَ المُنادي
أذهَلَتْني عنكَ انتفاضَةُ روُحي   في سماءِ عُلْوِيَّةِ الأمْدادِ

أذهلتني فابتعدت عنك في سنوات النضال انتفاضة الروح الشبابية في سماء الروح.. وكان الشاعر من مجموعة «الشباب الوطني» التي رفضت المعاهدة التي عقدتها مع المحتل الفرنسي «الكتلة الوطنية»، ١٩٣٦، والجابري من أبرز زعمائها

فَتَرَنَّحْتُ أَحْسَبُ السُّحْبَ تَهوي   تحتَ مَهدي والنَّجْمَ فوقَ وِسادي

كنت شاباً متحمساً أترنح افتخاراً فكأن الغيوم تتهاوى تحت سريري، وكأن النجم فوق وسادتي

أنا يا سَعْدُ، ما طَوَيْتُ على اللُّؤْ   مِ جَناحي، ولا جَرَحْتُ اعتِقادي
شَهِدَ اللَّهُ، ما انْتَقَدْتُكَ إلّا   طَمَعاً أنْ أراكَ فوقَ انتِقادي
وكَفى المرءَ رِفْعَةً أنْ يُعادَى   في ميادينِ مَجْدِهِ، ويُعادي
مِلْءُ سَمْعِ الجِهادِ صَيْحَةُ ثأرٍ   تَنْفُضُ الجَمْرَ مِن خِلالِ الرَّمادِ

في الوطن الآن صيحة ثأر

غَمَزَتْ نَخْوَةَ البِلادِ، فهبَّتْ   تَتَلَظّى حَواضِراً وبَوادِ

هذه الصيحة نخست البلاد في خاصرتها وأثارت نخوتها، فهبت البلاد مشتعلة مدناً وبواديَ

وتَنادَتْ حُماتُها لِروابِي الـ   ـقدسِ مَحمُولَةً على الأحْقادِ

ونادى حماة الديار بعضهم بعضاً للذهاب للقدس يحدوهم الغضب والحقد على الظلم. كان هذا سنة ١٩٤٧، وجاء فلسطين من سورية جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي ولم يصنع شيئاً.. أو على الأقل هذه كانت النتيجة.. حماسة و«حقد» على رأي شاعرنا.. ولا تخطيط ولا تنظيم

أَيْ فِلَسْطينُ! ما العروبةُ لولا   قَبَسٌ مِن سَنا النُّبُوَّةِ هادِ

٢٣ فلتكن إنساناً

في ألفية المعري ١٩٤٤:

عـالَـمُ الـوهـمِ نـحـن صُـغْـنـا رُؤَاهُ   وأَرَدْنـــاهُ أن يـــكـــونَ فَـــكـــانـــا

نحن نصوغ عالماً من الفكر، وهو وهم، أو أننا نخترع الدين ونريده أن يكون حقيقة فيكون؟
المعنى في بطن الشاعر، والشاعر في بطن قبره

لـستَ تَـسـطـيـعُ أن تـكـونَ إلـهـاً   فـإنِ اسْـطَـعْـتَ، فَـلْـتَـكُـنْ إنـسـانـا

لا يستطيع المرء أن يكون إلهاً كما كان يبشر نيتشة وجماعة اليوجينية في أوروبا، وخاصة إنجلترا التي أسس فيها غولتون هذا المذهب على أبواب القرن العشرين، وأبو ريشة قضى بضع سنين في إنجلترا في الربع الثاني من القرن العشرين

ما العزاءُ الـذي نَحَرْتَ لهُ العُمْــ   ـرَ، وقَـــدَّمْـــتَـــهُ لـــهُ قُـــربـــانـــا؟

ما الشيء الذي عزاك وصبَّرك حتى ذبحت عمرك بزهدك وصومك وقدمت هذا العمر قرباناً لهذا الشيء؟

أتَــصَــبَّــاكَ مَـــورِدٌ مِـــن وَراءِ الـــ   ـغـيـبِ تَـغْـشَـى نَـعـيـمَـهُ جَـذْلانـا؟

هل تصباك، وأغراك، مورد، كما نبع الماء، في الغيب.. وكنت موقناً أنك ستأتيه جذلان فرِحاً؟ وأبو ريشة متحير في شأن أبي العلاء الذي أسرف في الشك والتشكيك في الآخرة. ولأن أبا ريشة ذو خلفية صوفية ودينية متينة فهو غير متحمس حماسة شعراء معاصرين كثر لفكر أبي العلاء المتشكك.. هو فقط متحير بإزاء زاهد المعرة

٢٤ القلم والمبراة

قال الشاعر، عام ١٩٤٥، وقد تراجع الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت عن مواثيق بشأن الحقوق والحريات:

أَتَرْقُصُ الطيرُ في أَشْراكِ صائِدِها   ويَحْرُسُ الذئبُ في أَعْطانِها الغَنَما؟

هل ترقص الطيور في شبكة الصياد؟ وهل يحرس الذئب الغنم في مباركها ويحميها؟

ومَـا الـمَـواثـيـقُ إنْ فَـاهَ الـقـويُّ بِـهـا   ونَصَّبَ الخَتْلَ في أَقْداسِها حَكَما؟

ما قيمة المواثق التي يقدمها القوي جاعلاً الغدر حكما يسيطر على هيبتها ويغيرها كيفما شاء؟

مـا كـان أَغْـنـاهُ عـن تَـزويـرِ غَـايَـتِـه   مَن يَحْمِلُ السيفَ لا يَبْرِي به قَلَما

لماذا يُتعِب القوي نفسه في تزويق غاياته؟ غاياته واضحة: حامل السيف لا ينوي أن يبري به القلم

٢٥ سيد الأنبياء

١٩٤١

قـد أَتـى طَـوْدَهُ الـمُـوَشَّـحَ بِـالـنُّـو ... رِ، وأَغْـفَـى فـي ظِـلِّ غـارِ حِـراءِ

طوده: جبله

وإذا هـاتِـفٌ يَـصـيـحُ بِـهِ اقـرَأْ ... فَـيُـدَوِّي الـوُجـودُ بِـالأَصْـداءِ

وإذا الأرضُ والـسـمـاءُ شِـفـاهٌ ... تَـتَـغَـنَّـى بِـسَـيِّـدِ الأَنـبِـيـاءِ

٢٦ شموخ

قال وقد خرج من سجن الفرنسيين، ١٩٤٥:

غَـمَـزَتْـهُ عَـرائِـسُ الـعَـيْـشِ إِغـرا ... ءً، فـلـم تَـسـتَـبِـحْ حِـمَـى عُـنْـفُـوانِـهْ

غمزت، أي لكزت بمرفقها، عرائس العيش، مغريات الحياة، هذا الشاعر ولكنها لم تستطع استباحة شموخه

شـاعـرٌ لـو شَـكـا الـحـيـاةَ لَـكـانَـتْ ... سَـرَواتُ الـمُـلـوكِ مِـن نُـدْمـانِـهْ

لو كان غرض الشاعر أن يشكو من شظف العيش وضيق الرزق لتمكن من بلوغ أمانيه ولأصبح السراة، السادة، من الملوك من أصدقائه

عـادَ لِـلـدَّوْحِ عَـنـدَلِـيـبُـكَ يـا شِـعْـ ... ـرُ، ومـاتَ الـنَّـعـيـبُ فـي غِـرِبـانِـهْ

قد خرجت من السجن، فها قد عاد عندليب الشعر للإنشاد، ومات نعيب غربان الدوح، أي الشجرة الوارفة

أيْ فِلَسْطينُ! يا ابْتِسامَةَ عيسى ... لِـجِـراحِ الأَذى عـلـى جُـثْـمـانِـهْ

قبل خمس سنوات من هذه القصيدة كان أبو ريشة قد ترشح للانتخابات ولكن أحد كبار المشايخ حض الناس على عدم التصويت له لأنه كان قال بيتاً يشبه هذا البيت، وصَلَبَ فيه المسيح، كان قال: (كصرير المسمار في كف عيسى/ليس تنسى صداه أذن الليالي)، واضطر الشاعر لسحب ترشحه. وها هو يجعل للمسيح جثماناً.. الشعراء مهما بلغ بهم التدين إسلامياً تظل تستهويهم صورة المسيح المخلِّص الذي افتدى البشرية بنفسه

يـا تَـثَـنِّـي الـبُـراقِ فـي لـيـلـةِ الإِسْـ ... ـراءِ، والـوَحْـيُ مُـمْـسِـكٌ بِـعِـنـانِـهْ

فلسطين شهدت البراق يتثنى والوحي، جبريل، يمسك بزمامه بينما البراق يصعد من القدس إلى السماء بالرسول

٢٧ خالد

١٩٣٨

لم يَلُحْ قبلُ في كِنانَةِ مَخْزُو ... مَ سِنانٌ كَمِثْلِ هذا السِّنانِ

لم يظهر في جعبة قبيلة مخزوم سنانُ رمحٍ مثل خالد بن الوليد

صَدَقَ العَهْدَ، فالفُتوح تَوالَى ... وصَدى خالِدٍ بِكُلِّ مَكانِ

لم تُزَعْزِعْ مِن عَزْمِهِ إمْرَةُ الفا ... روقِ، بل فَجَّرَتْهُ فَيْضَ تَفانِ

لم يضعف همته أمر عمر بن الخطاب بعزله عن الجيش، بل ازداد تفانياً

وإذا راضَتِ العَقيدةُ قلباً ... فمِنَ الصَّعْبِ أنْ يَكونَ أنَاني

يا مُسَجَّىً في قُبَّةِ الخُلْدِ يا خا ... لِدُ، هل مِنْ تَلَفُّتٍ لِبَياني؟

لا رَعاني الصِّبا إذا عَصَفَ البَغْـ ... ـيُ، وأَلفَى فَمي ضَريحَ لِساني

لا تمتعت بشبابي ذا عربد الظلم فوجد لساني قابعاً في فمي ساكتاً وكأنَّ فمي قبر لهذا اللسان

أنا مِن أُمَّةٍ أَفاقَتْ على العِزِّ ... وأَغْفَتْ مَغْمُوسَةً في الهَوانِ

عرشُها الرَّثُّ مِن حِرابِ المُغيرِيـ ... ـنَ وأَعْلامُها مِنَ الأكْفانِ

عرش أمتي الآن رث مهترئ لأنه مبني على اتفاقيات مع المستعمرين، وراياتنا أكفان ضحاياهم

لا تَقُلْ ذَلَّتِ الرجولةُ يا خا ... لدُ، واسْتَسْلَمَتْ إلى الأحزانِ

قُمْ تَلَفَّتْ تَرَ الجنودُ، كما كا ... نُوا مَنارَ الإباءِ والعُنْفُوانِ

ما تَخَلَّوْا عنِ الجِهادِ، ولكنْ ... قَادَهُمْ، كلُّ خائِنٍ وجَبانِ

٢٨ العبقرية والأعداء

في حفل تكريم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ١٩٣٣:

مُنْتَهى الفَخْرِ أنْ تُعادَى، فلولا الـ ... ـعَبقَرِيَّاتُ لم تَكُ الأعداءُ

أَرسِلِ الشِّعْرَ مِثلَما تَطْلُبُ النَّفْـ ... ـسُ، وحَلِّقْ ما شاءَتِ العَلياءُ

٢٩ شفاعة العشرين

أَفْدِي الحِسانَ وأيُّ صَبٍّ ... لا يكونُ فِداءَهُنَّهْ

صب: عاشق

الـمُـسْـبِـلاتُ شُـعـورَهُـنَّ ـ الـسُّـودَ فـوقَ نُـحـورِهِـنَّـهْ
مـا سِـرْنَ إلَّا والـفـؤا دُ سَـرى وصَـفَّـق إثْـرَهُـنَّـهْ
بـاريـسُ لـن أنْـسـى مَـهـا كِ، ولا الـكَـواعِـبَ مِـن فِـيَـنَّـهْ

مهاك نساؤك المشبهات المها، أي بقر الوحش. فينَّه: فيينَّا

حـيـثُ الـهَـوى فَـرْضٌ عَـلَـيَّ ـ وقُـبْـلَـةُ الـوَجَـنـاتِ سُـنَّـةْ
أَغْـوَيْـنَـنـي بـعـدَ الـمَـتـا بِ عن الـهـوى فَـتَـبِـعْـتُـهُـنَّـهْ
فـي الـصُّـبْـحِ أَبْـرَمْـتُ الـعُـهـو دَ، وفـي الـمـسـاءِ نَـقَـضْـتُـهُـنَّـهْ
هَـذي ذُنـوبـيَ إنَّـمـا الـ ـعِـشـرونَ تَـشْـفَـعُ لـي بِـهِـنَّـهْ

كونه في نحو العشرين من عمره يشفع له هذا اللهو. وكان مر بباريس وفيينا وهو عائد من إنجلترا بعد انتهاء دراسته

عمر أبو ريشة
فهرس القوافي

إبراهيم ناجي
(١٨٩٨ ـ ١٩٥٣)

لـمَّا كانت مادتنا في هذا الكتاب مقصورة على الشعر العمودي فنحن واقعون تحت اتهام جاهز بأننا تقليديون رافضون كل ما جاء بعد الشعر العمودي من أشكال. وفي سياق دفاعنا عن أنفسنا سنتحدث عن «الإرهاق اللغوي»، وهذا مصطلح سككته لتوي، وسنتحدث عن الرومنسية، وعن الرمز، وعن التعبير بجرس اللفظة، والتعبير بمعناها، وعن التعبير بجرسها وبمعناها معاً. وإنما أحشر هذه العناوين هنا كي أذكِّر نفسي بها.

أفهَمُ قول من يقول: «كانت روحي كسطح البحيرة قبل أن يعمل فيه سرب النوارس تنقيراً، كانت كوجه الورقة قبل أن تغزوها غربان الكلمات..» هذا تعبير عن هدوء الروح قبل حلول القلق جاء في تشبيهين متعاقبين. حسناً، كلام مفهوم من مبتدئ، نصفق له قليلاً. لكنني، لا أفهم قول من يقول: «تأجج الملح منبعثاً من بنفسج قلب البحيرة العذبة كي يشجي روحي الحافية إلا من سؤر قلب يحاول أن ينبض». فلا أعرف كيف يتأجج الملح، ولا أستطيع أن أصور لنفسي هذه الروح «الحافية» التي تنتعل «سؤر قلب»، وما هو بالله عليك سؤر القلب؟

(حاشية صغيرة: والله إنك لتحس في أعماقك بأنني أستمتع وأنا أصوغ مثل هذه العبارات التي لا معنى لها. ليتك تمنحني سطرين أو ثلاثة كي أمارس هذه الهواية! هيا؟ لا، كفى).

ثمة فارق بين عبارة ذات معنى، وعبارة فارغة فيها ألفاظ ذات قعقعة. والعبارة ذات المعنى قد تكون أدباً وقد لا تكون، فأما سؤر القلب فهو ليس كلاماً مفيداً أصلاً.

قد تشتبك المجازات في تشكيل يحس المرء بجماله قبل أن يتمكن من النفاذ إلى كل معانيه، وأجمل من هذا أن تتعاقب التشبيهات والمجازات في سلسلة تدخل القلب والعقل معاً دون أن يضطر المرء إلى بذل جهد.

جاء ناس إلى عالم الأدب الوجداني (أقصد بذلك الشعر والخاطرة) يعرضون علينا صناديق مقفلة قائلين: اشتروها قبل أن تفتحوها. فإذا ما فتحناها ورأيناها فارغة قالوا: ألم تكن صناديق جميلة؟ ألم تتمتعوا بأحاسيس الترقب والقلق والفرح وأنتم تعالجون أقفالها؟

ههنا ستراني تقليدياً بحق. لا أريد الفن التجريدي، ولا الأدب الرمزي الذي لا يرمز إلا إلى نفسه.

جاءت بعد شوقي جماعة رومنسية اتخذت من شوقي ومن مطران أبوين غير شرعيين. اجتمع تحت عباءة شوقي، قبيل موته، شعراء اتخذوا لنفسهم اسم «جماعة أبوللو». وكانوا رومنسيين.

ما أشد ما تشبه مسيرة الشعر العربي الفصيح في القرن العشرين النمط المعروف في دنيا الأدب والموسيقى والرسم (كلاسيك ثم رومنس). الكلاسيك: رصانة وعناية بالشكل وانضباط في العواطف وفي الأداة، والأداة تكون لغةً عند الشعراء وقوالب نغمية عند الموسيقيين، وشكلاً ولوناً عند الرسامين. والرومنس: تخفُّفٌ من الرصانة، وتحرر في الشكل، وتعبير حر عن العواطف، وتغيير على الأداة.

ترى هذا النمط «الخالد» وكأنه من طبائع الأشياء: الأب صارم منضبط وابنه متحرر متفلت. ثم يصبح الابن أباً فينضبط ويأتي الحفيد متحرراً ويتكرر النمط. ولا يندر أن ينعكس النمط مع بقائه على نمطيته: فيكون الأب متحرراً متفلتاً، ثم إذا ابنُه يقلد جده في الانضباط.

في القرن العشرين كان القدماء ـ شوقي وحافظ والرصافي والجواهري ـ كلاسيكيين، ثم تبعهم شعراء المهجر وشعراء أبوللو فكانوا رومنسيين. وهذا حين أتناول الظاهرة التي دعوتها «الإرهاق اللغوي».

اسهوهلت اللغة على ألسنة الرومنسيين، ليس فقط لأنهم أرادوها سهلة، بل لأن طبع اللغة التغير. وجاء شاعرنا إبراهيم ناجي في هذا المفترق الذي يلتقي عنده الطريق القادم من الأزهر بالطريق المتجه نحو نزار قباني. فعند ناجي

من اللغة القديمة ألفاظ وتراكيب منثورة في شعره، وهو يصيب ويخطئ في وضع الألفاظ والأساليب القديمة في مواضعها، ولا أشك لحظة في أنه كان يدرك، كلما انحرف انحرافةً، أنه قد انحرف، ولكن المعنى يسوقه. ونال على تلك «الأخطاء» لسعات نقدية جعلته يكتئب بعد صدور أول دواوينه، ويفكر في ترك الشعر.

عند هذا المفترق اللغوي بين العربية الصحيحة الفصيحة القديمة وبين عربية نزار قباني التي هي عربية صحيحة فصيحة جديدة، وقع الشعر في «الإرهاق اللغوي». وقع في هذه الحفرة كثيرون من شعراء المهجر، ولعل أبرز الناجين منهم الشاعر القروي. ربما لأنه اشتغل بالتدريس بضع سنين في مقتبل حياته، ولأنه لم يعرف لغة غير العربية ولم يشغل ذهنه بعلوم وفنون سوى الشعر ولغة العرب.

ورغم أننا سعينا، فيما اخترناه من شعر ناجي، إلى انتقاء العيون فلن تعدم خطأً هنا وانحرافاً هناك في اللغة. وكان في الزمرة الأبوللية من هو أقوم من ناجي لغة، ولم نجعله من شعراء كتابنا، فمقياسنا يجل عن اللغة.

شعر ناجي - برغم ما ذكرنا في الفقرات الثلاث السابقة - شعر بريء من حذلقة الرمزيين. يكون أحياناً حشرجة مخنوق يريد أن يعبر عن معنى فتقصر أداته اللغوية فيخابط بيديه ورجليه، فيقول له السامع: وصلت الفكرة. ويكون أحياناً جدولاً عذباً. وما أكثر ما يكون. فأما الرمزيون فترى الحذلوق من حذالقتهم يريدك أن تؤلف بالنيابة عنه القصيدة. . يعطيك مفردات لكل منها «جَرَس» واصنع يا قارئ من هذه «الأجراس» سيمفونيتك. يقول لك: «طاف طير النشوة مخترقاً قلب ظلمة البنفسج، ففاح ليمون الشفة بحزن مغلف بفرحة الفراق». فتفضل وحِسَّ، إن كنت تُحِسُّ، بما في هذه الكلمات من رنين. فأما نزار قباني فينسج لك بساطاً من التشبيهات والمجازات في كلمات سهلة، ويتعانق اللفظ والمعنى في شعره عناق حبيبين. فإن سألتَ، ملتمساً مني أن أستطرد: فلماذا لا نراك أدخلت نزاراً حظيرتك؟ فالجواب أن نزاراً توهج في شعر التفعيلة، فهو خارج من صفة هذا الكتاب الذي أراد أن يؤبن الشعر العمودي.

إبراهيم ناجي

ولد في حي شبرا بالقاهرة وكان ثاني سبعةٍ من أبناء العائلة. وكان في بيت أهله كتب، وكان أبوه يشجعه على القراءة ويشتري له الدواوين. قرأ المتنبي والشريف الرضي وشوقي وحافظاً، وسمع أباه يروي لأمه قصة «أوليفر تويست» لديكنز. واشترى له أبوه قصة ديكنز الأخرى «ديفيد كوبرفيلد» فحفرت في نفسه عميقاً. وأثارته قسوة معلم رياضيات سوري، في المدرسة التوفيقية الثانوية، ولكنه تبين خلف هذه القسوة اهتماماً به، وحثه هذا الاهتمام على أن يدرس ويتفوق، وأن يتخذ طريق الدراسة العلمية، ولتفوقه أدخل كلية الطب، وتخرج من القصر العيني وهو في نحو الرابعة والعشرين من عمره طبيباً باطنياً. كان يقرأ الإنجليزية، وتعلم الفرنسية.

اكتشف بعد تخرجه أنه مصاب بالسكري فاضطرب لذلك، ثم دهسته سيارة فكسرت ساقه، فعولج في لندن ثلاثة أشهر. تزوج سامية، وهي ابنة مسؤول كبير في القاهرة. وأنجب ثلاث بنات: أميرة وضوحية ومحاسن.

هذا لتعرف أنه كان شخصاً عادياً.

كانت له عيادته الخاصة في حي شبرا، ولكنه ظل يشتغل في الوظائف الحكومية. عاش شبابه في زمن كان فيه شوقي وحافظ ومطران يملأون الدنيا شعراً. ولم يستطع أن، ولا سعى إلى أن، يقلد أحداً منهم. فكان نفسه. وكان رجل أسرة في بيته، لا يصنع شيئاً في يوم الجمعة إلا أن يجلس في كرسيه الهزاز وحوله زوجته وبناته. وكان هائماً بجمال الجميلات في العيادة، وفي كل مكان. فأما «عِفَّت» ملهمته الأولى ففتاة في الحي أحبها حب مراهقين ومضت في سبيلها. وأما الممثلات فقد قال القصائد في زينب صدقي وسامية جمال وزوزو ماضي وزوزو حمدي الحكيم، وأعجب بأمينة رزق. وبعد موته بإحدى عشرة سنة غنت له أم كلثوم الأطلال التي لفقها لها ـ قيل صالح جودت ـ من قصيدتين لناجي، وأُبدلت الكلمات الأولى (يا فؤادي «رحم الله» الهوى) فجُعلت (يا فؤادي «أين أيام» الهوى) وبهذه الكلمات سجلت أم كلثوم الأسطوانة التي سمعتُها في صباي. ثم كأن أحمد رامي استثقل الصيغة الجديدة فجعلها (يا فؤادي «لا تسل» أين الهوى) وهذا ما درج في الحفلات. وكسبت أطلال الحفلات من الصيغة الجديدة هذه «اللا تسل» فهي أحسن للغناء، وكسبت أن السنباطي مد «يديّ» فجعلها «يديًا» في مقطع «أعطني حريتي»، وكان المقطع في التسجيل مقيد القافية على الأصل. وخسرت أطلال الحفلات إطلالة

قصيرة وجميلة لعود السنباطي في بداية المقدمة، فانفرد محمد عبده صالح على قانونه بالصولو.

وبعد أغنية «الأطلال» بشهرتها المدوية زعمت عدة ممثلات أنهن ملهمات الشاعر. وصارت مسألة الملهِمة الحقيقية علكة في حلوق الصحف والتلافيز. ولولا الأطلال لما عرف الكثيرون إبراهيم ناجي.

لم يكن إبراهيم ناجي الوادع الباكي ولا الهائم الشاكي، كان يعشق المرأة، ويستلهم من عطور اللائي يمررن بعيادته من جميلات الشاشة والمسرح الشعر؛ أوليس الجائع الذي يرى ويشم لذيذ الأطعمة أقدر على وصفها ممن ملأ بطنه منها؟ وأقدر على وصفها، أيضاً، ممن لم يرها أصلاً؟

كان ناجي أيضاً أسد مجالس. كان سريع البديهة مجلجل الضحكة، يملك حافظة قوية تعينه في تزيين كلامه بالأشعار. كان يحضر مجالس كبار الأباظيين، وكانت له في العقد الأخير من حياته رابطة للأدباء هو رئيسها، وكان يحاضر في الطب وفي شكسبير. وقد كتب كتباً ومقالات في الأدب والاجتماع. فهذا جانب من شخصيته مختلف عما يبوح به معظم شعره.

أحيل ناجي إلى المعاش من وظيفته الحكومية في أعقاب ثورة الضباط الأحرار، ومات بعد أشهر في عيادته بشبرا بالقاهرة عام ١٩٥٣.

١ نطوف حولك

مـتـى يَـرِقُّ الـسُّـخْـطُ يـا قـاسـي   ويَـلـتـقـي الـمَـنْـسِـيُّ والـنَّـاسـي
وأنـتَ مـثـلُ الـنَّـجْـمِ فـي الـمُـنْـتَـأَى   وفـي الـسَّـنـا الـخـاطـفِ كَـالـمـاسِ

من حيث المنتأى، أي البعد، فأنت كالنجم، ومن حيث السنا، أي البريق، فأنت كالماس

يَـرنُـو لـه الـنـاسُ ويَـبْـغُـونَـهُ   ومـا يُـبـالـي الـنَّـجْـمُ بِـالـنـاسِ
وأنـتَ كـأسُ الـحُـسْـنِ، لـكِـنَّـنـا   مـثـلُ حُـبـابٍ حـامَ بِـالـكـاسِ

حباب: فقاقيع

٢ اسألي القُبلة

تُـساِئلُنـي عيناكِ عن سالِفِ الهوى   بِقـلـبـي، وتَـسْـتَـقـصـي قديـمَ دُيـونِ

عيناكِ تبحثان في عينيَّ عما بقي من الحب القديم بقلبي، وتتفحصان هذه الديون القديمة التي يجب علي تسديدها الآن، فقد كنتُ نلتُ منك الكثير

إذا كنتِ في شَكٍّ سَلي القُبلَةَ التي أَذاعَتْ مِن الأَسرارِ كلَّ دَفينِ
مُناجاةَ أَشواقٍ، وتَجديدَ مَوْثِقٍ وتَبديدَ أَوْهامٍ، وفَضَّ ظُنونِ

القبلة التي تبادلناها الآن ـ قبل التفحص بالعيون ـ تشهد بتجديد الموثق، أي العهد والجمع مواثيق، وتبدد الأوهام وتفض وتنهي الظنون

وشَكوى جَوىً قاسٍ وسُقْمٍ مُبَرِّحٍ وتَسهيدَ أجفانٍ، وصبرَ سِنينِ

والقبلة تحمل من المعاني قسوة البعد عنكِ، وسهر عينيَّ وصبري كل هذه السنين

٣ تأديب المغرورين

وفي سبيلِ الزَّادِ والمَأكَلِ نملأُ صدرَ الأرضِ إعْوَالا

إعوالا: بكاء وعويلاً

كم يَسخَرُ النَّجْمُ بِنا مِنْ عَلٍ وكَمْ يَرانا اللَّهُ أَطْفالا

* * *

يا رَبِّ غُفرانَكَ إنَّا صِغارْ نَدِبُّ في الدنيا دَبيبَ الغُرورْ
نَسحَبُ في الأرضِ ذُيولَ الصَّغارْ والشَّيْبُ تأْديبٌ لَنا والقُبورْ

الصغار: الحقارة

٤ إحساس النهاية

كان على فراش المرض وشعر أنه «ينتهي» فقال:

واضَياعَ الحُزنِ والدَّمْـ ـعِ على العُمْرِ المُضاعِ
وهُتافَ القلبِ بالشَّكـ ـوى على غيرِ انتِفاعِ
طالَ بي سُهدي وإعْيا ئي، وقد حانَ اضْطِجاعي
وإذا الراحةُ حانَتْ بعدَ لأْيٍ ونِزاعِ

بعد لأي: بعد إبطاء، نزاع: احتضار

فَصُدورُ الغيدِ سِيَّا نِ وأَنيابُ السِّباعِ

٥ صدر الظلام

قد صارَ حُبُّ الحياةِ مِنَّا يُقْنِعُ بالجيفَةِ السِّباعْ

التعلق بالحياة يجعل الضواري والأسود تقنع بالميْتة.. حب الحياة يقنع المرء بالنزول عن مرتبته إلى دركة مرذولة

وعَلَّمَ السَّمْحَ أن يَضِنَّا وثَبَّتَ الجُبْنَ في الطِّباعْ

حب الحياة يجعل السخي ضنيناً بخيلاً، ويجعل المرء جباناً

* * *

كأنَّ صدرَ الظَّلامِ ضاقْ مِن كَثْرَةِ البَثِّ كُلَّ حينْ

البث: الشكوى

يا وَيْحَهُ كيفَ قد أَطاقْ شكوى البَرايا على السِّنينْ؟

كيف تحمَّل صدر الليل شكوى البرايا، أي البشر، طول الدهر؟

٦ يوم من العشق الأفلاطوني

هل منكَ يومُ رِضاً ضَنَّ الزمانُ بِهِ أَعيا خيالي وأَضْناني تَوَقُّعُهُ

تعالَ، وادْنُ بِيومٍ لا نُحِسُّ بِهِ أَجسادَنا في صَفاءٍ لا نُضَيِّعُهُ

إِنّي أُحِسُّكَ تَجري في صميمِ دمي أنتَ الحياةُ، وأنتَ الكونُ أَجمَعُهُ

هيهاتَ يَخلُدُ حُسْنٌ لا يُؤَلِّهُهُ شعرٌ مِن النَّسَقِ الأَعلى ويَرْفَعُهُ

«يرفعه» هذه ضعيفة بعد «يؤلهه»

٧ الحمام الباكي

ما بِالرِّياضِ؟ كآبةٌ في أَرضِها وسحابةٌ تَغشَى أديمَ سَماها

أديم سماها: وجه سمائها

جَمَدَتْ حَمائِمُ أَيْكِها وأَنا الذي شاكَيْتُها فاغْرَوْرَقَتْ عَيْناها

جمدت الحمائم في الأيك، أي البستان، وأنا كنت أشاكي الحمائم، أتبادل معها الشكوى، فتلمع الدموع في عيونها

٨ العاشق الحالاتيّ

عَبَرَتْ بي نَشْوَةٌ مِن فَرَحٍ فَرَقَصْنا، أنا والقلبُ، سُكارى
وعَرانا طائِفٌ مِن خَبَلٍ فاندَفَعْنا في الأماني نَتَبارى

عرانا، داخَلنا واعترانا، خبل وجنون أطاف بنا، وأخذنا أنا وقلبي نتبارى في الأمنيات المستحيلة

* * *

رُبَّ قَولٍ كنتُ قد أَعددْتُهُ لكَ إذْ أَلْقاكَ يَأْبى أن يُطيعا
وحبيسٍ مِن عِتابٍ في فَمي قد عَصاني، فتَفَجَّرْتُ دُموعا

٩ أحمد شوقي

أينَ الأمينُ على الإما رةِ، والحريصُ على اللِّواءْ
قَبَسٌ أضاءَ العالَميـ ـنَ كما تُضيءُ لهُمْ ذُكاءْ

ذكاء: الشمس

ثم اختَفى خلفَ الغُيو بِ مخلِّفاً ظُلَمَ المساءْ
فكأنَّما هِبَةُ السَّما ءِ قد اسْتَردَّتْها السماءْ

١٠ لم يسهر سوانا

كم تجرَّعْنا هَوانا ولَقينا في هَوانا

تجرعنا الهوان، أي الذل، ولقينا المر في الهوى

وإذا حَلَّ الهوى هَيْـ ـهاتَ تَدري كيف كانا
يا حبيبي هَدأَ اللّيـ ـلُ ولم يَسهرْ سِوانا
لا الدُّجى ضَمَّدَ جُرحَيْـ ـنا، ولا الصُّبْحُ شَفانا
لا الهوى رَقَّ على الشا كي ولا قاسيهِ لانا

لا عطَف الحب على الشاكي، المريض عشقاً، ولا قسوة الحب لانت

١١ وجدتها

أدركتُ عندَكَ يومِيَ المَوْعودا ولَقيتُ فيكَ مِثالِيَ المنشودا
وافَرحَتي بِكَ! فَرْحَةَ الطِّفلِ الذي يَلهو ويَخلُقُ كلَّ يومٍ عيدا

وافَرحَتي بِكَ! فَرْحَةَ الطَّيرِ الذي   مَلأَ الروابيِ المُصْغِياتِ نشيدا

١٢ في الواقع أيها السادة..

أَبَكَتْ عيونُكُمُ الضَّعيفَ يَصيرُ في   نابِ القَوِيِّ فَريسةَ استِعبادِ؟
فَتَبَيَّنُوا إذنِ الحَقيقةَ واعْلَموا   أن الطبيعةَ هكذا مِنْ عادِ

عاد: أخت ثمود

الجوُّ مِلْكُ النَّسْرِ يَغشاهُ على   ما يَشتَهي، والغابُ لِلآساد

يغشاه: يأتيه

١٣ تأبين شوقي

ألقيت عام ١٩٣٣، في ذكرى عام على وفاته:

عامٌ مضى وكأنَّ أمسِ نَعِيَّهُ   يا ما أقَلَّ العامَ في الأَعمارِ
هيهاتَ أَنْسى قبلَ بَيْنِكَ ساعةً   جَمَعَتْ صِحابَكَ في غُروبِ نَهارِ

بينك: فراقك

والشمسُ في سُقْمِ الغُروبِ، وأنتَ في   لونِ الشُّحُوبِ مُعَصْفَرٌ بِبَهارِ

الشمس كانت محمرة مصفرة في الغروب كالمريض، وأنت شاحب كأن على وجهك العصفر، البهار الأصفر

مَنَحَتْ وقد ذهبتْ شُعاعاً غارباً   كَسَناكَ طَوَّافاً على السُّمَّارِ

سناك: ضوءُكَ

تشكُو لِيَ الضعفَ المُلِمَّ لَعلَّ في   طِبِّي مُقيلاً مِن وَشيكِ عِثارِ

تشكو لي الضعف الذي ألم بك لعل في معرفتي الطبية ما يقيل عثرتك الوشيكة

ووَجَمْتُ! أَلمَحُ في الغُيوبِ نِهايَةً   وأَرى بِعيْنيَ غايَةَ المِضْمارِ

لمحت في الغيب، فيما سيحدث لاحقاً، أن النهاية قريبة، وأن غاية المضمار، نهاية الشوط، وشيكة

وأرى النُّبوغَ، وقد تَهاوى نَجْمُهُ   والعبقريَّةَ وَهْيَ في الإِدْبارِ

الإدبار: التراجع والنكوص

أَوَلَمْ يكنْ لكَ مِن حِمامِكَ عاصِماً   ذاكَ الجَبينُ مُكَلَّلاً بِالغارِ؟

ألم يكن لك من مجدك ومن جبينك المكلل بأوراق الغار ما يعصمك ويحميك من الموت؟

وَلَّيْتَ في إِثْرِ الذينَ رَثيتَهُمْ وأَقَمْتَ فيهِمْ مَأْتَمَ الأَشعارِ
والدهرُ يَقذِفُ بِالمنايا دُفَّقاً فمضَيْتَ في مُتَدَفِّقِ التيَّارِ

١٤ ويل لمن لم يجدها.. ويل لمن وجدها

هِيَ قصةُ الدنيا، وكم مِن آدمٍ مِنَّا له دمعٌ على حَوَّاءِ
كلٌّ به قَيْسٌ؛ إذا جَنَّ الدُّجى نَزَعَ الإباءَ وباحَ بِالبُرَحاءِ

في ضمير كل إنسان يوجد عاشق كقيس، فإذا جن الدجى، أي غطى الليل الدنيا، نزع الإنسان قناعه وترك شموخه وباح ببرحائه وعذابات قلبه

فإذا تَدارَكَهُ النهارُ طَوى المَدا مِعَ في الفؤادِ، وظُنَّ في السُّعَداءِ

فإذا جاء النهار أخفى الإنسان الدموع في قلبه، فظنه الناس من السعداء

كلٌّ له لَيْلى، ومَن لم يَلْقَها فحياتُه عبَثٌ ومَحْضُ هَباءِ

١٥ مخلوقون للحب

كأنَّ قلوبَنا خُلِقَتْ لِأمرٍ فمُذْ أَبْصَرْنَ مَن نَهوى نَسِينا

القلوب نسينَ ما خلقن له لدن رؤية المحبوب

شُغِلْنَ عن الحياةِ ونِمْنَ عنها وبِتْنَ بِمَنْ نُحبُّ مُوَكَّلِينا
فإنْ مُلِئَتْ عُروقٌ مِن دِماءٍ فإِنَّا قد مَلأْناها حَنينا

١٦ الأطلال

هي الأغنية المشهورة، شرحَ الديوان القصيدة بالعبارة: «التقيا وتحابا، ثم انتهت القصة بأن صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح»:

يا فُؤادي رَحِمَ اللَّهُ الهوى كان صَرحاً مِن خيالٍ فَهوى
اِسقِني واشْرَبْ على أطلالِهِ وارْوِ عَنِّي طَالَما الدَّمْعُ رَوى

اسقني يا قلبي واشرب أنت على أطلال ذلك الحب، وارتو من شرابك بالنيابة عني، فأنا كثيراً ما ارتويت من دمعي

كيف ذاكَ الحبُّ أمْسى خبراً وحديثاً مِن أَحاديثِ الجَوى

الجوى: الفراق

* * *

لستُ أنساكَ وقد أغْرَيْتَني ... بِفَمٍ عَذْبِ المُناداةِ رَقيقْ
ويدٍ تَمتَدُّ نَحوي كَيَدٍ ... مِن خلالِ الموجِ مُدَّتْ لِغريقْ
آهِ يا قِبْلَةَ أقدامي إذا ... شَكَتِ الأقدامُ أشواكَ الطريقْ
وبَريقاً يَظْمأُ السَّاري له ... أينَ في عينيْكَ ذَيَّاكَ البَريقْ؟

يا من كنت بريقاً يحتاجه الساري، السائر ليلاً، أين ذاك البريق في عينيك الآن؟

* * *

أين مِن عيْني حَبيبٌ ساحِرٌ ... فيهِ نُبْلٌ وجَلالٌ وحَياءْ؟

لم أعد أرى ذلك الحبيب الساحر.. بعد مرور السنين

واثِقُ الخُطْوَةِ يَمشي مَلِكاً ... ظالِمُ الحُسْنِ شَهِيُّ الكِبْرِياءْ

الحبيب يمشي بثقة كأنه ملِك من الملوك، وهو يظلمني بجماله، وأشتهى كبرياءه. تغنيها أم كلثوم ملَكاً، أي ملاكاً.. ولا نرى للملاك أن يمشي على الأرض. غنتها عام ١٩٦٤، وكان الحكم الجمهوري في مصر يريد للناس أن ينسوا أن في اللغة العربية كلمة مِلك

عَبِقُ السِّحْرِ كأنفاسِ الرُّبَى ... ساهِمُ الطَّرْفِ كأحلامِ المساءْ

* * *

أين مِنِّي مجلسٌ أنتَ بِهِ ... فِتنةٌ تَمَّتْ سَناءً وسَنَا

يتذكر مجلساً ضمه مع الحبيب، وكان الحبيب فتنة تمت سناء، عُلُوّاً، وسنا، ضياءً

وأنا حُبٌّ وقلبٌ ودَمٌ ... وفَراشٌ حائِرٌ منكَ دنا

كان في ذلك المجلس يدنو من حبيبه بحيْرة وحذر كما تدنو الفراشة من النار. ألست تدنو هكذا من فتاة متألقة يضج المجلس بجمالها؟ وأنت أيتها المرأة! أرى عينيك يتراقص فيهما بريق الإعجاب، وتميلين مبتعدة أو مقتربة بحذر عن شاب وسيم واثق يشع فتنة

ومِن الشوقِ رسولٌ بيْنَنا ... ونديمٌ قدَّمَ الكأْسَ لَنا
فَسَقانا فانتَفَضْنا لحظةً ... لِغُبارٍ آدَمِيٍّ مَسَّنا

كأنهما انتفضا، ورفضا أن يشوه تلك الفتنة ذلك الغبار الآدمي من الشهوة والشبق

* * *

يا حبيباً زُرْتُ يوماً أيْكَهُ ... طائرَ الشوقِ أُغَنِّي ألَمي

أيك: بستان

لَـكَ إبْـطـاءُ الـمُـدِلِّ الـمُـنْـعِـمِ وتَـجَـنِّـي الـقـادرِ الـمُـحْـتَـكِـمِ

يبطئ المحبوب في القدوم للقيا محبوبه بدلال المنعم المتفضل، وهو يتجنّى عليه معتزاً بقدرته وتحكمه في العلاقة..

وحَـنـيـنـي لَـكَ يَـكـوي أَضْـلُـعـي والـثَّـوانـي جَـمَـراتٌ فـي دَمـي

وأَنـا مُـرتَـقِـبٌ فـي مَـوضِـعـي مُـرْهِـفَ الـسَّـمْـعِ لِـوقْـعِ الـقَـدَمِ

والعاشق الولهان واقف مرهفاً سمعه لوقع أقدام الحبيب منتظراً قدومه

* * *

أعـطِـنـي حُـرِّيَّـتـي أطـلِـقْ يَـدَيّ إنَّـني أَعـطَيْتُ ما استَبْقَيْتُ شَيّ

آهِ مِـن قَـيـدِكَ أدمَـى مِـعـصَـمَـيّ لِـمَ أُبـقـيـهِ؟ ومـا أَبْـقـى عَـلَـيّ

ما احتِفاظي بِعُهودٍ لم تَصُنْها وإلـى مَ الأَسْـرُ والـدنـيـا لَـدَيّ

ها أنا جَفَّتْ دُموعي فاعْفُ عنها إنَّـهـا قَـبـلَـكَ لـم تُـبْـذَلْ لِـحَـيّ

* * *

هـاكَ مـا قـد صَـبَّـتِ الـرِّيــ ـحُ بِـأُذْنِ الـشَّـاعِـرِ

وَهْـيَ تُـغْـري الـقـلـبَ إغـرا ءَ الـنَّـصـيـحِ الـفـاجِـرِ

الريح تغري الشاعر بالسلوان وهجر الحبيب ذي الدلال

* * *

أيُّـهـا الـشـاعِـرُ تَـغـفُـو تَـذْكُـرُ الـعـهـدَ وتَـصْـحُـو

تقول الريح للشاعر: إنك تنام وتصحو على ذكر الحبيب

وإذا مـا الْـتَـامَ جُـرْحٌ جَـدَّ بِـالـتَّـذْكـارِ جُـرْحُ

وإذا ما التام، أي التأم وشفيَ، جرح جلبت لك الذكرى جرحاً غيره.. ما هذا؟

فـتـعـلَّـمْ كـيـفَ تَـنـسَـى وتـعـلَّـمْ كـيـف تَـمْـحُـو

* * *

هـاكَ فـانـظُـرْ عـددَ الـرَّمْـ ـلِ قُـلـوبـاً ونِـسـاءْ

الريح توسوس للشاعر: ما أكثر النساء! رُح ابحث عن غيرها

فـتَـخَـيَّـرْ مـا تـشـاءْ ذَهَـبَ الـعُـمْـرُ هَـبـاءْ

ضـلَّ فـي الأرضِ الـذي يـنـ ـشُـدُ أَبـنـاءَ الـسَّـمـاءْ

واهم من يبحث في الأرض عن مخلوقة كأنها من حوريات الجنة.. هذا غير موجود

أيُّ رُوحانِيَّةٍ تُعْصَرُ مِن طينٍ وماءْ

فلا روحانية في أي مخلوق خلقه الله من طين وماء

* * *

أيها الرِّيحُ أَجَلْ، لَكِنَّما هِيَ حُبِّي وتَعِلَّاتي ويَأْسي

تعلاتي: ما يصبِّرني في هذه الدنيا

هِيَ في الغَيبِ لِقلبي خُلِقَتْ أَشرقَتْ لِي قبلَ أن تُشرِقَ شَمسي

وعلى موعِدِها أطبَقْتُ عيني وعلى تَذكارِها وَسَّدْتُ رأسي

* * *

يا حبيبي كلُّ شَيءٍ بِقضاءْ ما بِأَيْدِينا خُلِقْنا تُعَساءْ

رُبَّما تَجْمَعُنا أَقْدارُنا ذاتَ يوم بَعدَما عَزَّ اللِّقاءْ

فإذا أَنْكَرَ خِلٌّ خِلَّهُ وتَلاقَيْنا لِقاءَ الغُرباءْ

الخل: الحبيب

ومضَى كلٌّ إلى غايَتِهِ لا تقُلْ شيئاً! وقلْ لِي الحَظُّ شاءْ

في الأغنية (لا تقل شئنا فإن الحظ شاء) وهذا تحسين جيد على الأصل. في الأغنية مقاطع من قصيدة أخرى وضعناها تحت هذه

١٧ سبقنا ظلنا

لِمَ يا هاجِرُ أَصبحْتَ رحيما والحنانُ الجَمُّ والرِّقَّةُ فيما؟

لِمَ تَسقِينِيَ مِن شَهْدٍ رُضاباً وتُلاقِينِي عَطوفاً وكَريما؟

لماذا تسقيني ريقك الشبيه بالعسل

كلُّ شيءٍ صارَ مُرّاً في فمي بعدَما أَصبحْتُ بِالدنيا عَليما

آهِ مَنْ يَأخُذُ عُمري كُلَّهُ ويُعيدُ الطِّفلَ والجَهلَ القَديما

* * *

هل رأى الحُبُّ سُكارى مِثلَنا؟ كم بَنَيْنا مِن خيالٍ حولَنا

ومَشَيْنا في طريقٍ مُقمِرٍ تَثِبُ الفُرحَةُ فيهِ قَبْلَنا

تثب: تقفز

وتَطَلَّعْنا إلى أنْجُمِهِ فَتَهاوَيْنَ وأصبحْنَ لَنا

نظرنا إلى النجوم التي ظهرت لنا في الطريق المقمر فنزلن وأصبحن مِلْكاً لنا

وضَحِكْنا ضِحْكَ طِفْلَيْنِ مَعاً وعَدَوْنا فَسَبَقْنا ظِلَّنا

* * *

وانتَبَهنا بعدَما زالَ الرَّحيقْ وأَفَقْنا، ليتَ أَنَّا لا نُفيقْ

الرحيق: الخمر.. بعدما أفاقا من خمرة الحب قالا: ليتنا لا نفيق

يَقْظَةٌ طاحتْ بِأحلامِ الكَرى وتَولَّى الليلُ، والليلُ صَديقْ

الكرى: النوم، تولَّى: ذهب

وإذا النورُ نَذيرٌ طالِعٌ وإذا الفجرُ مُطِلٌّ كالحَريقْ

النور كان نذيراً، ينذر بشرّ، والفجر المحمر رأيناه كالحريق.. فبعد نشوة الحب يأتي القلق والخوف من مقبل الايام

وإذا الدنيا كما نعرِفُها وإذا الأحبابُ كُلٌّ في طَريقْ

١٨ مفعول عكسي

كانتْ لنا كأسٌ وكانتْ قِصَّةٌ هذا الحُبابُ أَعادَها ورَوَاها

الحباب: الفقاقيع

ما زِلْتَ تَسقِيني لِتُنْسِيَني الهوى حتى نسِيتُ، فما ذكَرْتُ سِواها

١٩ كبرياء

وحبيبٍ كان دُنيا أَمَلِي حُبُّهُ المِحرابُ، والكَعبَةُ بَيْتُهْ

كان الحبيب كل ما عندي من أمل في الدنيا، وكان حبه محراب صلواتي، وكان بيته كعبتي التي أطوف بها

مَن مَشى يوماً على الوَردِ له فَطريقِي كان شوكاً ومَشَيْتُهْ
مَن سَقى يوماً بماءٍ ظامِئاً فأنا مِن قَدَحِ العُمرِ سَقَيْتُهْ
خفَقَ القلبُ له مختَلِجاً خَفْقَةَ المِصباحِ إذْ يَنْضُبُ زَيْتُهْ

مختلجاً: مرتجفاً، ينضب: يجف

قـد سَـلانــيِ فـتَـنَــكَّــرتُ لــهُ وطَـوى صـفـحـةَ حُـبِّـي، فـطَـويْـتُـهْ

سلاني: نسيني. من تقاليد العشق في الشعر العربي أن يظل الرجل يتذلل للمحبوبة حتى النهاية.. لا يجيز ذلك التقليد الراسخ للشاعر أن يدخل كبرياءه في القصيدة.. لكن، هناك استثناءات، قال القديم لفاطمة: (كذلك أجتوي من يجتويني)

٢٠ رسائلها

عــادَتْ إلَــيَّ الــذِّكــريــا تُ بِـحـشْـدِهـا وزِحـامِـهـا
فـي لـيـلـةٍ لَـيْـلاءَ أَرَّ قَـنـي عَـصـيـبُ ظَـلامِـهـا
هَـدَأَتْ رسـائِـلُ حُـبِّـهـا كـالـطـفـلِ فـي أحـلامِـهـا
فـحَـلَـفْـتُ لا رَقَـدَتْ ولا ذاقَـتْ شَـهِـيَّ مَـنـامِـهـا
أَشْـعَـلْـتُ فـيـهـا الـنـارَ تَـرْ عـى فـي عَـزيـزِ حُـطـامِـهـا
تَـغـتـالُ قِـصَّـةَ حُـبِّـنـا مِـن بَـدئِـهـا لِـخِـتـامِـهـا

٢١ أحتاج إليك

مِلْءَ ضُلوعي لَظَىً، وأَعْجَبُهُ أَنّي بِهذا اللهيبِ أَبْتَرِدُ
يا تارِكي حيثُ كانَ مجلِسُنا وحيثُ غَنَّاكَ قلبِيَ الغَرِدُ
أرنُو إلى الناسِ في جُموعِهِمُ أَشْقَتْهُمُ الحادِثاتُ أم سَعِدُوا
تَفَرَّقُوا أم بها قد احتَشَدُوا وغَوَّرُوا هابِطينَ أم صَعِدُوا

غوروا: هبطوا وادياً

إنِّي غريبٌ، تَعالَ يا سَكَني فليسِ لي في زِحامِهِمْ أَحَدُ

٢٢ نمشي معاً

نَـمـشـي وقـد طـالَ الـطـريـقُ بـنـا ونَـوَدُّ لـو نَـمـشـي إلـى الأَبَـدِ
ونَـوَدُّ لـو خَـلَـتِ الـحـيـاةُ لـنـا كَـطَـريـقِـنـا، وغَـدَتْ بِـلا أَحَـدِ

نود لو كانت حياتنا خالية من الناس كطريقنا هذا

٢٣ أين المقرّ؟

اِلتَقَيْنا كما التَقَى بعدَ تَطْوا فٍ على القَفْرِ في السُّرَى أَنْضاءُ

التقينا، نحن البشر، كما التقى بعد طول السير في القفر، الصحراء، أنضاء، متعبون مهزولون من سير الليل

قَطَعُوا شَوْطَهُمْ على الدَّمِ والشَّوْ ... كِ وَراحُوا على اللَّهِيبِ وجاءُوا
ما بَقائيِ؟ وأَجْمَلُ العمرِ وَلَّى ... وانتظارِي حتى يَحينَ الشتاءُ؟

ما الفائدة من حياتي وقد ذهب أجمل العمر، ولماذا أنتظر شتاء العمر وأرذله؟

مَرَّ يَومي كأَمْسِهِ: مَسْرَحاً تُعْـ ... ـرَضُ فيه الحياةُ والأَحياءُ
آدمٌ كَالقَديم، قَلْباً وتَفْكيـ ... ـراً، ولكِنْ تُبَدَّلُ الأَزياءُ

أنا آدمٌ، كآدم القديم أبي البشر، ولم يتغير سوى الأزياء

لم يَحُلْ طَبعُهُ، ولا ذاتَ يوم ... لَبِسَتْ غيرَ نفسِها حَوَّاءُ

لم يحل، لم يتغير طَبع الرجل، ولا طبع المرأة

والنُّضارُ المَعْبودُ قُدْسٌ وقُربا ... نٌ وربٌّ، والشَّهْوَةُ الجَوْفاءُ

النضار: الذهب

والحُطامُ الفاني عليهِ اقْتِتالٌ ... والأَماني بَريقُها إغْراءُ
وسفينٌ تَمُرُّ إِثْرَ سَفينٍ ... والرِّياحُ اللَّذَّاتُ والأَهْواءُ

الناس كسفينة تتلوها سفينة، والرياح التي تحرك السفن، أي الدوافع التي تحرك الناس، هي لذاتهم وأهواءُهم

والغيوبُ المُحَجَّبَاتُ رِحابٌ ... تَعِبَتْ في رُموزِها الحُكَماءُ

والغيوب المحجوبة عنا رحاب، رحبة واسعة، وقد تعب الحكماء في فك رموزها

٢٤ ليلاك

لا القومُ راحُوا بِأَخبارٍ ولا جاءُوا ... ولا لِقلبِكَ عن لَيْلاكَ أَنباءُ
يا ليلُ مَن عَلَّمَ الأَطيارَ قِصَّتَنا ... وكيف تَدرِي الصَّبا أَنَّا أَحِبَّاءُ

علَّم: أخبر، الصبا: ريح الصبا

٢٥ الاعتصار

يا سَجينَ الحياةِ أينَ الفِرارُ ... أَوْصَدَ الليلُ بابَهُ والنَّهارُ
فَلِمَنْ لَفْتَةٌ، وفيمَ ارْتِقابٌ؟ ... ليس بعدَ الذي انتَظرتَ انتِظارُ
والتَّعِلَّاتُ مِن هوىً وشَبابٍ ... قِصَّةٌ مُسْدَلٌ عليها السِّتارُ

التعلات، التصبيرات التي يتلهى بها الإنسان، كالحب والشباب هي مسألة وقتية سرعان ما تزول ويسدل عليها الستار

ما الذي يَبتغي العليلُ المُسَجَّى؟ قد تَولَّى العُوَّادُ والسُّمَّارُ

بعد أن ذهب العواد، زائرو المريض، والسمار، الساهرون للمسامرة، ماذا بقي للمريض الممدد المسجَّى؟

يا ديارَ الحبيبِ هل كان حُلْماً مُلْتَقىً دونَ مَوعِدٍ يا دِيارُ؟

يخاطب دار الحبيب، ويتذكر ذلك اللقاء المفاجئ الذي كان كالحلم. يتذكر عشقاً قديماً

يا عَزيزَ الجَنَى عليكَ سلامٌ كيفَ جادَتْ بِقربِكَ الأَقْدارُ؟

أيها المحبوب الذي كان مثل فاكهة صعبة الجني، كيف حدث وكان القدر سخياً وسمح بلقائنا؟

بُورِكَ الكَرْمُ والقُطوفُ، وأَوْقا تٌ كأَنَّ العِناقَ فيها اعْتِصارُ

بورك كَرْم العنب ذاك، وبوركت قطوفه، وبعيداً عن التشبيهات: بورك العناق بيننا الذي كان حاراً كأن أحدنا يعصر الآخر.. ربما ـ وبعودة للتشبيه ـ مثلما يعتصر الناس قطوف العنب لصنع الخمر

٢٦ ثقب في ظلمة الليل

قد بَلَوْتُ الويلَ ليلاً، لا بَلَوْتَا وأنا أَبْدَأُ يَومي بِالمَساءِ

جربت العذاب في ليل، لا جعلك الله تجربه.. وأنا أبدأ يومي بالمساء لأنني ساهر طول الليل

وعَرَفْتُ الضِّيقَ، ضِيقَ القلبِ، حتى لم أَجِدْ في الكونِ ثُقْباً مِن رَجاءِ

٢٧ كلام لا ينتهي

يا شَطْرَ نَفسيِ وغَرامي الوَحيدْ ما شئتِ يا لَيْلايَ لا ما أُريدْ

يا شطر نفسي، يا نصف نفسي، الأمر أمرك

يا مَن رَأَتْ حُزنيِ العَميقَ البعيدْ داويْتِ لِي جُرحيِ بِجُرْحٍ جَديدْ

* * *

هَيَّا، أَجَلْ هَيَّا. إلى أَيْنا؟ لِحَيْثُ نَحكي حُلْمَ روُحَيْنا

لِحَيْثُ نَروي سِرَّ قَلبَيْنا فإنْ فَرَغْنا مِن حَديثٍ نُعيدْ

٢٨ رثاء الشاعر الهمشري

لا تَجْزَعُوا لِلشاعرِ المُلْهَمِ ما ماتَ، لكِنْ صارَ في الأَنْجُمِ

ما كانَ إلّا زائِراً عابِراً لِأَيِّ سِرٍّ جاءَ، لم نَعْلَمِ

٢٩ سبحانه

في رثاء الدكتور عبد الواحد الوكيل وزير الصحة:

لا صَحْوَ مِن سِنَةِ المَنونِ وإنَّما   سَهِرَ الخُلُودُ عليكَ حيثُ تَنامُ

لن تصحو من سنة، نوم، الموت.. غير أن الخلود ساهر عليك ضامن لك بقاء الذِّكر

أنتَ الطبيبُ، وقد بَلَوْتُ حَياتَهُ   ومجالُها الأَوجاعُ والأَسْقامُ

أنت طبيب، وأنا جربت حياة الطبيب، ومجالها مجال أوجاع وأمراض

أيُّ الأُساةِ هُوَ المُدِلُّ بِنفسِهِ؟   سُبحانَ مَن تُحْنَى لَديْهِ الهَامُ

أي الأساة، أي الأطباء، يعتز بنفسه؟ سبحان الله الذي يحني الجميع رؤوسهم لمشيئته

٣٠ خلود الشعراء

وأُولو الشِّعرِ المَصابيحُ التي   حطَّمَتْهُنَّ رِياحُ الصَّحَراءْ

أهل الشعر مصابيح تتحطم برياح الصحراء، يموت الشعراء.. ولكن..

خُلِّدَتْ أَنْوارُهُمْ رغمَ البِلَى   وبها المُدلِجُ في الليل اسْتَضاءْ

يموتون وتبقي أنوارهم رغم البلى، أي تحلل الأجساد، ويستضيء المدلج، السائر ليلاً، بهذه الأنوار

سوف يَفنَى القولُ إلَّا قولَهُمْ   ويَموتُ الناسُ إلَّا الشُّعَراءْ

٣١ عمر النجم

في تكريم الدكتور علي إبراهيم؟

إليكَ أَزُفُّ في اليومِ الجليلِ   تحيَّاتِ الزَّميلِ إلى الزَّميلِ

نُبايِعُ منكَ فَنّاً عَبْقَرِيّاً   وعقلاً في العقولِ بِلا مَثيلِ

ولو أنَّ الأُلَى أنقَذْتَ جاءُوا   يُؤَدُّونَ القَديمَ مِن الجَميلِ..

الألى: الذين، الجميل: المعروف

ولو أَنَّ الأُلَى عَلَّمْتَ جاءُوا   يُؤَدُّونَ القَليلَ مِن القَليلِ..

ولو مَنحُوكَ عُمْرَهُمُ جميعاً   وما هُوَ بِالكثيرِ ولا الجَزيلِ..

لو منحك كل هؤلاء أعمارهم، وما هذا بالكثير بالقياس إلى معروفك..

٣٢ الرجل الكامل

قال في الوزير عبد الحميد عبد الحق:

أنتَ فوق التَّكريم فوقَ الثَّناءِ جَلَّ ما قد أَسْدَيْتَ عن إِطْراءِ

أسديت: قدَّمْت من معروف، إطراء: مدح

لم نُكَرِّمْكَ لِلوِزارَةِ والمَنْـ ـصِبِ والمجدِ والسَّنا والرُّواءِ

السنا: النور، الرواء: الطلعة البهية

نحنُ قومٌ نَهيمُ بِالرجلِ الكا ملِ يَمضي لِلأمرِ دونَ التِواءِ

ما جَمالُ الرَّبيعِ في الرَّوضِ إنْ لم يَشْدُ طيرٌ في الرَّوضَةِ الغنَّاءِ

ما جَمالُ السَّماءِ والبَدْرِ إنْ لم يَشْدُ سَارٍ في اللَّيلةِ القَمْراءِ

واضَياعَ النُّبوغِ في مِصرَ إنْ لم تتحدَّثْ منابِرُ الخُطباءِ

واضَياعَ النُّبوغِ في مِصرَ إنْ لم يَكُ تَخليدُهُ على الشُّعراءِ

٣٣ الأوجه الصَّفراء

أَجَلْ! إنَّ ذا يومٌ لِمَنْ يَفتَدي مِصْرا فَمِصْرُ هِيَ المِحْرابُ والجُنَّةُ الكُبرى

مصر هي المحراب الذي نقدم إليه صلوات الولاء

نَبُثُّ بِها رُوحَ الحياةِ قَوِيَّةً ونَقْتُلُ فيها الضَّنْكَ والذُّلَّ والفَقْرا

نبث بمصر روح الحياة، ونقتل الضنك، الشقاء

سَلاماً شبابَ النيلِ في كلِّ مَوقِفٍ على الدهرِ يَجني المجدَ أو يَجلِبُ الفَخْرا

تَعالَوْا لِنَمْحُو الجهلَ والعِلَلَ التي أَحاطَتْ بِنا كالسَّيْلِ تَغمُرُنا غَمْرا

تَعالَوْا نُشَيِّدْ مَلجَأً، رُبَّ مَلْجَأٍ يَضُمُّ حُطامَ البُؤْسِ والأَوْجُهَ الصَّفْرا

يدعو لتشييد ملجأ للأيتام الذين اصفرت وجوههم من سوء التغذية

٣٤ عينان

طَوى السِّنينَ وشَقَّ الغيبَ والظُّلَما بَرْقٌ تَألَّقَ في عينيْك وابتَسما

يا ساريَ البرقِ مِن نَجْمَيْنِ يُومِضُ لِي ... ماذا تُخَبِّئُ لي الأَقدارُ خَلفَهُما؟

أيها البرق الذي سرى ليلاً من عيني المحبوب اللتين تشبهان نجمين، ماذا يخبئ لي القدر خلف هاتين العينين؟

أَجِئْتَ بي عَتَباتِ الخُلْدِ؟ أم شَركاً ... نَصَبْتَ لي مِن خِداعِ الوهمِ، أم حُلُما؟

حَمَلْتَني لِسماءٍ قد سَرَيْتُ لها ... بالرُّوحِ والفِكرِ، لم أَنْقُلْ لها قَدَما

شَفَّتْ سَديماً ورَقَّتْ في غَلائِلِها ... فَكِدْتُ أُبْصِرُ فيها اللَّوْحَ والقَلَما

هذه السماء شف سديمها، نجومها المتجمِّعة، ورقَّت غلائلها، شفوفها، حتى إنني أكاد أبصر اللوح المحفوظ والقلم الذي يسجل أعمال العباد. . كان سيسجد الفرزدق لهذا البيت لو سمعه!

يا لِلغَديرَيْنِ في عينيكَ إذ لَمَعا ... بالشوقِ يُومِضُ خَلفَ الماءِ مُضْطَرِما

ولِلنَقيضَيْنِ في كأسَيْنِ قد جُمِعا ... فالرَّاوِيانِ هُما، والظَّامِئانِ هُما

عيناك كأنهما كأسان اجتمع فيهما نقيضان، فهما يرويان المحبوب بالحب، وهما ظامئان يطلبان المزيد

بِأَيِّ قَوْسٍ وسَهْمٍ صائبٍ ويَدٍ ... هَواكَ يا أَيُّها الطَّاغِي الجميلُ رَمَى

٣٥ عز اللقاء

قَدَرٌ أرادَ شَقاءَنا ... لا أنتِ شئتِ ولا أنا

عزَّ التَّلاقِي، والحُظو ... ظُ السُّودُ حالَتْ بينَنا

قد كِدْتُ أكفُرُ بالهوى ... لو لم أكُنْ بِكِ مُؤْمِنا

٣٦ المدينة الظالمة

ضَحِكَتْ لِعَيْنَيَّ المصابيحُ التي ... تعلُو رؤُوسَ الليلِ كالتِّيجانِ

تلك أنوار المدينة تلمع من بعيد للتائه في صحرائه فيخالها تضحك له

ورأيتُ أنوارَ المدينةِ بعدَما ... طالَ المَسيرُ وكَلَّتِ القَدمانِ

فإذا المدينةُ كالضَّبابِ تَبخَّرَتْ ... وتكشَّفَتْ ليَ عن كَذُوبِ أماني

كذوب أماني: أماني كاذبة

٣٧ اعتذار غريب

قال يهجو الشاعر عبد الحميد الديب وقد سخر منه في مجلس:

رجُلاً أرى بِاللَّهِ أم حَشَرَةْ ... سبحانَ مَن بِعبيدِهِ حَشَرَهْ

أرأَيْتَ قِرداً في الحديقةِ قد فَلَّتْهُ أُنثَاهُ على شَجَرَةْ؟
يا عَبْقَرِيَّاً في شَناعَتِهِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ وَهْيَ مُعْتَذِرَةْ

٣٨ أي سر فيك

أنتَ فَجرٌ مِن جَمالٍ وصِباً كلُّ فجرٍ طَالِعٍ ذَكَّرنيهِ

ذكرنيه: ذكرني إياه

كيف جانَبْتُكَ أَبغي سَلْوَةً ثم ناجَيْتُكَ في كلِّ شَبيهِ

تجنبتك حتى أنساك، ثم صرت أناجيك كلما رأيت من يشبهك، لشدة شوقي إليك

أيُّها الساكِنُ عيني ودَمي أينَ في الدنيا مكانٌ لستَ فيهِ؟

* * *

يا ليالي العُمْرِ ما سِرُّ الليالي اَلبَطيئاتِ المُمِلَّاتِ الطِّوالِ؟
مُسْرِعاتٌ مُبْطِئاتٌ وَلَها خِفَّةُ الموتِ وأثقالُ الجِبالِ

الليالي تمر مسرعة، لكنني أشعر أنها بطيئة.. فيها خفة الموت، وثقل الجبال

عَجَباً للعُمْرِ يَمضي مُسرعاً لِلمنايا بِسُلَحْفَاةِ المَلالِ

العمر يمضي بنا مسرعاً نحو الموت.. لكنه لشدة الملل يبدو بطيئاً كالسلحفاة.. لم أستطع شرح سلحفاة الملال، أي الملل، التي تمضي مسرعة

* * *

طالَما مَوَّهْتُ بِالضِّحْكِ فما غَيَّرَ التَّمْوِيهُ رَأياً لَكَ فيَّا

أخفي حقيقة مشاعري بضحكات مصطنعة، ولكنك لا تنخدع بها

كُلَّما تَنظُرُ في عيني تَرى سِرِّيَ الغافي ومَعنايَ الخَفِيَّا
وتَرى في عُمْقِ رُوحي زهرَةً قد سَقاها الحزنُ دمعاً أَبدِيَّا

* * *

أيُّ سِرٍّ فيكَ إنِّي لستُ أدري كلُّ ما فيكَ مِنَ الأَسرارِ يُغري
خَطَرٌ يَنسابُ مِن مُفْتَرِّ ثَغرِ فِتنَةٌ تَعصِفُ مِن لَفْتَةِ نَحْرِ

ثمة خطر ينساب من مفتر ثغر، أي ثغر مفتر منفرج عن ابتسامة، وفتنة تعصف بي من لفتة جيدك

قَدَرٌ يُنْسَجُ مِن خُصْلَةِ شَعْرِ زَورَقٌ يَسبَحُ في مَوْجَةِ عِطْرِ

في عُبابٍ غامِضِ التَّيَّارِ يَجري واصِلاً ما بينَ عَينَيْك وعُمري

العباب: اصطخاب البحر

* * *

ها أنا عُدْتُ إلى حيثُ التَقَيْنا في مكانٍ رَفْرَفَتْ فيهِ السَّعادَةْ
وبِه قد رَفْرَفَ الصَّمتُ علَيْنا إنَّ في صَمْتِ المُحِبِّينَ عِبادَةْ

٣٩ أبقِها

كلَّما خَلَّى حبيبي يَدَهُ لَحظَةً قلتُ: وحُبِّي! أبْقِها
أَبْقِها أومِنْ إذا لامَسْتُها أنَّ حُبِّي ليس حُلْماً وانتَهى

٤٠ شرف الألم

مَنْ يَكُنْ عَضَّ بَناناً نادِماً فأنا قَطَّعْتُ إِبهامَ النَّدَمْ

عض الإصبع: كناية عن الندم

وإذا انْحَطَّ زمانٌ لم تَجِدْ عالِياً ذا رِفْعَةٍ إلَّا الألَمْ

٤١ الكهل والصبية

تَعَجَّبَتْ زازا، وقد حُقَّ لَها أنْ تَعْجَبا
لَمَّا رأتْ فيَّ شُحو بَ الشمسِ مَالَتْ مَغرِبا
وَهْيَ التي زَانَتْ مَشيـ ـبي بِأكاليلِ الصِّبا

زازا، وهي ممثلة كانت تحب الشاعر في كهولته، زينت مشيبه بصباها. لن نعرف زازا على وجه التحقيق فقد عرف شاعرنا (زينب صدقي وزوزو ماضي وزوزو حمدي الحكيم، وأعجب بأمينة رزق).. وكل واحدة منهن عندها زاءٌ ترشحها للقب زازا

لولاكِ ما قلتُ لِشَيْ ءٍ في الوُجودِ مَرحَبا
عَلِمْتِ يَأسي وجُنُو ني وجَهِلْتِ السَّبَبا
يا كوكباً مهما أَكُنْ مِن بُرْجِهِ مُقَرَّبا
فإنَّهُ يَظَلُّ في السَّـ ـمْتِ البَعيدِ كَوكَبا

السمت: في الفلك هي النقطة العليا، ومنها كلمة زينيث الأجنبية، وعكسها نظير السمت، وهي نَدير بالأجنبية

٤٢ لا فائدة

وأعـلَـمُ أنَّ حُـبِّـي لـيـس يُـشْـفَـى ... وبُـعْـدي لـيـس يُـجْـدِيـنـي وقُـرْبـي
ولَـمَّـا لـم أَجِـدْ لِـلـحُـبِّ حـلًّا ... هَتفتُ به: كـمـا يُرضِـيكَ سِرْ بي

٤٣ موقف

قد هَـدَّنـي جَـزَعـي عـلـيكِ وأَدَّعـي ... أَنِّـي غَـداةَ الـبَـيْـنِ غـيـرُ جَـزُوعِ
وأُريـدُ أُشْـبِـعُ نَـاظِـريَّ فَـأَنْـثَـنـي ... كيْ أَسْتَبِينَكِ مِن خـلالِ دُموعي

ناظريَّ: عينيَّ

إبراهيم ناجي
فهرس القوافي

أبو القاسم الشابِّي
(١٩٠٩ ـ ١٩٣٤)

لعلك سمعت للشابي بيتاً واحداً من قصيدة واحدة؟ إن كنت تعرف «إذا الشعب يوماً» ولا تعرف شيئاً آخر من شعر أبي القاسم الشابي، فأنت مدعو إلى مأدبة عامرة، في فردوس بهيج من فراديس الروح والقلق والشعر الوجداني والسياسي.

هل امتعضت؟ المعذرة، فأنت سمعت أيضاً من كتاب المدرسة قصيدة رعوية من قصائد الغاب والبستان. فهل سمعت أبا القاسم الشابي وهو يشتم الشعب في قصيدتين كبيرتين؟ ستسمع بعد قليل.

لا نقول عن حياة الشابي إلا القليل.. بقدر سنوات عمره الخمس والعشرين. كان فيه نزق وغضب وإباء ورومنسية، واجتمع لديه ما اكتسبه من جامع الزيتونة ومن والده من لغة فصيحة، وما اكتسى به من ثوب الرومنسية الذي طبع شعر عصره. فقد كان أبو القاسم يقرأ شعر الأبولليين في مصر، وكان ينشر عندهم ويراسلهم. وبلغ من تقدير رئيسهم، الشاعر المصري أحمد زكي أبي شادي، للشابي أن طلب منه كتابة مقدمة لديوانه الينبوع؛ وفعل أبو القاسم، ومرَّر في مقدمته الضافية، التي جعلها تتكلم عن الشعر عامة، نقداً لأبي شادي بأن شعره قليل الأناقة. فأما في رسائلة الخاصة فكان يصرح بما في شعر أبي شادي من برود، وقلة اكتمال.

شكا الشابي تضخم القلب، وأنهكته العلة في أواخر سنيِه، لكنه قال ما يريد أن يقوله.

وقد أثبتنا تواريخ القصائد افتخاراً بهذا النابغة الذي امتلك كل هذا الشموخ والرقة والفصاحة في يفاعته. كان، في يومياته التي وجدت طريقها إلى

النشر، صبياً كالصبيان وشاباً كالشبان: يتخلف عنه زميله فيحنق، ويذهب وحده للتنزه، ويشكو قصور فهم الناس، وقلة معرفتهم، وتعصبهم لآرائهم. ونجده في رسائله للناقد الحليوي يتمنى لو أنه عرف لغة أجنبية. ونحن - بالطبع - سعداء بأنه لم يعرف سوى العربية، حتى لا يتلوث شعره بتقليد شعر غريب عن وجدانه، وحتى لا يتعالم، وحتى لا يفقد براءته.

لكن الشابي كان مثقفاً. كان يقرأ كثيراً، ويتشهَّى المعرفة. يشارك في الندوات الأدبية، ويشغل نفسه بالمنشورات الأدبية، وبالأفكار الكثيرة في هذا العالم. سعى إلى معرفة فكر الفلاسفة الأوروبيين، وسمع عن آينشتاين وتاق إلى أن يعرف أكثر. لكن ثقافته الأولى كانت اللغة العربية وأدبها.

ولد الشابي والاحتلال الفرنسي جاثم على تونس منذ ثمان وعشرين سنة، وسيموت ثم ستنقضي إحدى وعشرون سنة قبل أن تستقل تونس. رأى الشابي أن المشكلة ليست أساساً في الاحتلال.. بل في الشعب الذي لا يرفض الاحتلال بما يكفي، ولا يبذل جهداً لكي ينال الجدارة بالاستقلال. استنهض شاعرنا شعبه، وقرَّعه، وأشبعه لوماً. ولكن قلبه المتضخم بالمرض وبعلة الرومنسية شاء لشعره أن يكون غناء. وفاز الشابي بالحسنيين.

قيمة الشابي ليست أنه مات عن خمسٍ وعشرين سنة.

هو شاعر كبير.

١ تونس الجميلة

٢ جوان/ يونيو ١٩٢٥

لا أبـالـيِ، وإن أُريـقـت دمـائـيِ، فـدِمـاءُ الـعـشـاقِ دومـاً مُـبـاحَـةْ
إنَّ ذا عـصـرُ ظُـلْـمَـةٍ، غـيـرَ أنـيِ من وراءِ الظلامِ شِمْتُ صَبَاحَهْ

ذا: هذا، شمت: رأيت بعين الحدس

ضيَّع الدهرُ مجدَ شعبيِ، ولكنْ سَتَـرُدُّ الـحـيـاةُ يـومـاً وِشَـاحَـهْ

٢ شعري

١٣ جوان/ يونيو ١٩٢٥

لا أنـظِـمُ الـشـعـرَ أَرجـو بـه رضَـاءَ الأمـيـرِ

بِمِدْحَةٍ أو رِثاءٍ تُهدَى لِرَبِّ السريرِ
حسبي إذا قلتُ شِعراً أنْ يَرتضيهِ ضميري

٣ إلى الطاغية

١٨ فيفري/ فبراير ١٩٢٧

لك الويلُ يا صرحَ المَظالمِ مِن غدٍ إذا نهضَ المُستَضعَفونَ وصَمَّمُوا
ألا إنَّ أحْلامَ البلادِ دَفينةٌ تُجَمْجِمُ في أعماقِها ما تُجَمْجِمُ

تجمجم: تهمهم

٤ الدموع

٢٠ جوان/ يونيو ١٩٢٧

مُلِئَ الدهرُ بالخِداعِ فَكَمْ قد ضَلَّلَ الناسَ مِنْ إمامٍ وقَسٍّ
كلَّما أسألُ الحياةَ عنِ الحَقِّ تَكُفُّ الحياةُ عن كلِّ همسِ
لم أجدْ في الحياةِ لحناً بديعاً يَسْتَبِيني، سوى سَكينةِ نفسي

يستبيني: يسبي خيالي ويسحرني

ناولتْني الحياةُ كأساً دِهَاقاً بالأمانيِ، فما تناولتُ كأسي

كأس دهاق: مملوءة

وسقتْني مِنَ التَّعاسةِ أكوا باً تَجَرَّعْتُها فَيا شَدَّ تَعْسي
إنَّ في روضةِ الحياةِ لأَشْوَا كاً، بِهَا مُزِّقَتْ زَنابِقُ نفسي

٥ أيها الليل

٢٤ جوان/ يونيو ١٩٢٧

أَيُّها الليلُ يا أبا البؤسِ والهو لِ، أَيَا هيكَلَ الحياةِ الرهيبِ
يهجَعُ الكونُ في طُمَأنينةِ العُصـ ـفورِ طِفلاً بِصَدْرِكَ الغِربيبِ

يهجع: يرقد، الغربيب: الأسود

٦ المجد

غُرَّة أوت/ أغسطس ١٩٢٧

يَوَدُّ الفَتى لو خاضَ عاصفةَ الرَّدَى   وصَدَّ الخميسَ المَجْرَ والأسَدَ الوَرْدَا

الخميس المجر: الجيش الكبير، الأسد الورد: ذو اللون الوردي، والورد من أسماء الأسد

لِيُدْرِكَ أمجادَ الحروبِ، ولو دَرى   حقيقتَها ما رامَ مِنْ بينِها مجدا

٧ المساء الحزين

٢٠ جانفي/ يناير ١٩٢٨

تَعودُ ادِّكَاراتُ ذاكَ الهوى   ولكنَّ سِحرَ الهوى لا يعودْ

ادكارات: ذكريات

تجلَّدْ، ولا تَسْتَكِنْ لِلَّيالي   فما فازَ إلَّا الصَّبُورُ الجَليدْ

ولا تَأْسَ مِنْ حَادِثاتِ الدُّهورِ   فَخَلْفَ الدَّيَاجيرِ فجرٌ جديدْ

الدياجير: الظلمات

ولولا غيومُ الشتاءِ الغِضَابُ   لما نَضَّدَ الرَّوْضُ تِلكَ الوُرودْ

نضَّد: نسَّق

ولولا ظلامُ الحياةِ العبوسُ   لما نَسَجَ الصبحُ تِلْكَ البُرُودْ

البرود: الأثواب

٨ بقايا الخريف

٢٧ فيفري/ فبراير ١٩٢٨

وقفتُ وحوْلي غديرٌ مَواتٌ   تمادَتْ به غَفَواتُ الكهوفْ

موات: مقفر، قاحل

قضَتْ في حَفَافَيْهِ تلك الزهورُ   فكفَّنَها بالصقيعِ الخريفْ

في حفافيه: على جانبيه

سوى زهرةٍ شَقِيَتْ بالحياةِ   ومَلْبَثِها بالمَقَامِ المُخِيفْ

ملبثها: مجثمها، جلوسها

وتُـرهِـبُـهـا غـادِيَـاتُ الـغَـمـامِ   وتـؤلِـمُـهـا كـلُّ ريـحٍ عَـصـوفْ
تخيفها الغيوم الغادية، المارَّة مساء، وتؤلمها الريح إذ تعصف

وتَـرنُـو لـمـا حـولَـهـا مِـنْ زهـورٍ   ومـا ثَـمَّ إلَّا الـسَّـحِـيـقُ الـجَـفـيـفْ
تنظرهذه الزهرة للزهور حولها، وليس ثم، أي ليس هناك، إلا ما هو مسحوق وجاف من الزهور

فـتـبـكـي بـكـاءَ الـغـريـبِ الـوحـيـدِ   بِـشَـجْـوٍ كَـظـيـمٍ ونَـوْحٍ ضـعـيـفْ
كظيم: مكتوم

فـمـا ثَـمَّ إلَّا الـصـخـورُ الـقَـوَاسـي   وإلَّا الـصَّـدَى الـمُـسـتَـطَـارُ الـهَـتُـوفْ
القواسي: القاسية، المستطار: العالي الذاهب بعيداً

فـجـادَتْ بِـرُوحٍ شَـقِـيٍّ شَـجِـيٍّ   لـقـد عَـذَّبَـتْـهُ الـلـيـالـي صُـنُـوفْ
أذاقت الليالي روح الزهرة الوحيدة صنوف العذاب فخرج الروح.. وماتت الزهرة

ذكـرتُ بِـمَـضْـجَـعِـهـا الـمـطـمـئـنِّ   ومَـرْقَـدِهـا في الـسَّـفـيـرِ الـجَـفـيـفْ..
السفير: أوراق الشجر الساقطة، الجفيف: الجافّ

مـصـارِعَ آمَـالِـيَ الـغـابِـراتِ   وخَـيْـبَـتَـهـا في الـصـراعِ الـعـنـيـفْ
وقـلـتُ: هـوَ الـكـونُ مَـهْـدُ الـجـمالِ   ولـكـنْ، لِـكـلٍّ جـمـالٍ خـريـفْ
وأطـرقْـتُ أُصْـغـي لـهـمـسِ الأسـى   وقـد غَـشِـيَ الـنـفـسَ هَـمٌّ كـثـيـفْ
وغـاضَـتْ ثُـمَـالَـةُ نـورِ الـنـهـارِ   وأرْخَـى ظـلامُ الـوجـودِ الـسُّـجُـوفْ
غاضت: جفَّت، ثمالة: بقية، السجوف: الستور

٩ يا رفيقي

١٦ جويليه/ يوليو ١٩٢٨

قـد تـفـكَّـرتُ فـي الـوجـودِ فـأَعْـيَـا   نـي وأَدْبَـرْتُ آيِـسَـاً لِـظَـلامـي
أدبرت: رجعت، آيساً: يائساً

أَنْـشُـدُ الـراحـةَ الـبـعـيـدةَ لـكـنْ   خـابَ ظـنِّـي وأَخْـطَـأَتْ أحـلامـي
فَـمَـعِـي فـي جَـوانـحِـي، أَبَـدَ الـدَّهْـ   ـرِ، فـؤادٌ إلـى الـحـقـيـقـةِ ظَـامِ
ظامٍ: ظامئ عطشان

١٠ قلت للشعر

٢٨ أكتوبر ١٩٢٨

أنتَ يا شِعرُ فِلْذَةٌ من فؤادي ... تتغَنَّى، وقطعةٌ من وُجودي

فلذة: قطعة

فيكَ ما في جوانِحي من حنينٍ ... أَبَدِيٍّ إلى صميمِ الوجودِ

أنتَ يا شعرُ قصةٌ عن حياتي ... أنتَ يا شعرُ صورةٌ من وجودي

فيكَ ما في الوجودِ من نغمٍ حُلْـ ... ـوٍ، وما فيه مِن ضجيجٍ شديدِ

فيكَ ما في الوجودِ من حَسَكٍ يُدْ ... مي، وما فيهِ مِن غَضيضِ الوُرودِ

حسك: شوك، غضيض الورود: الورود الغضة الطرية

فيكَ ما في الوجودِ حَبَّ بنُو الأر ... ضِ قصيدي، أم لم يُحِبُّوا قَصيدي

فَسواءٌ على الطيورِ إذا غَنَّـ ... ـتْ هُتَافُ السَّؤُوم والْمُسْتَعيدِ

السؤوم: الملول، المستعيد: من يطلب إعادة اللحن إعجاباً به

وسواءٌ على الورودِ: أفي الغيـ ... ـرَانِ فاحَتْ، أم بينَ نهدٍ وجيدِ

الغيران: الوديان الغائرة المنخفظة

١١ يا ابن أمي

٢٠ فيفري/ فبراير ١٩٢٩

خُلقتَ طليقاً كطيْفِ النسيمِ ... وحُرّاً كنورِ الضحى في سَمَاهْ

تُغرِّدُ كالطيرِ أينَ اندفعتَ ... وتشدُو بما شاءَ وحيُ الإلَهْ

كَذا صاغكَ اللّهُ يا ابْنَ الوُجودِ ... وأَلْقتْكَ في الكون هذي الحياةْ

فما لكَ تَرضَى بِذُلِّ القيودِ ... وتَحْني لِمَن كَبَّلوكَ الجِبَاهْ

وتُطْبِقُ أجفانَكَ النَيِّراتِ ... عنِ الفجرِ، والفجرُ عذبٌ ضِيَاهْ

أَلا انْهَضْ وسِرْ في سبيلِ الحياةِ ... فمَنْ نَامَ لم تنتظِرْهُ الحياةْ

في سبيل الحياة: في طريقها

ولا تخشَ مِمَّا وراءَ التِّلاعِ ... فما ثَمَّ إلَّا الضُّحَى في صِبَاهْ

التلاع: التلال، ثَمَّ: هناك

إلى النورِ! فالنورُ عذبٌ جميلٌ   إلى النورِ! فالنورُ ظِلُّ الإِلَهْ

١٢ إلى الله

٢٩ أكتوبر ١٩٢٩

يا إلهَ الوُجُودِ! هَذي جِراح   في فؤادي تشكوُ إليكَ الدَّوَاهي
هذهِ مهجةُ الشقاءِ تناجيـ   ـكَ، فهلْ أنتَ سامعٌ، يا إلهي
يا رياحَ الوجودِ سِيري بعنفٍ   وتَغَنَّيْ بِصَوْتِكِ الأوَّاهِ
وانفَحيني مِنْ روحِكِ الفَخْمِ ما يُبْـ   ـلِغُ صوتي آذانَ هذا الإلهِ
فَهْوُ يُصغي إلى القويِّ، ولا يُصْـ   ـغي لصوتٍ بينَ العواصِفِ وَاهِ

واه: ضعيف

فالوجودُ الشقيُّ غيرُ جديرٍ   بالأغاني، وبالجمالِ الزَّاهي
خَبِّروني هلْ لِلْوَرى مِنْ إلَهٍ   راحمٍ، مثلَ زعمِهِمْ؟ أَوَّاهِ

أواه: أتوجَّعُ

إنني لم أَجِدْهُ في هَاتِهِ الدنـ   ـيا، فهل خَلْفَ أُفْقِها من إلَهِ
ما الذي قد أتيتُ يا قلبي البا   كي، وماذا قد قُلْتِهِ يا شِفَاهي؟
يا إلهي قد أَنْطَقَ الهَمُّ قلبي   بالذي كانَ. فاغتَفِرْ يا إلهي

١٣ النبي المجهول

٢١ جانفي/يناير ١٩٣٠

أيُّها الشعبُ ليتَني كنتُ حَطَّا   باً فَأَهْوِي على الجُذُوعِ بِفأْسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سَا   لَتْ تَهُدُّ القبورَ رَمْساً بِرَمْسِ

رمس: قبر

ليتَ لي قُوَّةَ العواصِفِ يا شعـ   ـبي فَأُلْقي إليكَ ثَوْرَةَ نفسي
أنت روحٌ غَبِيَّةٌ تكرهُ النُّو   رَ وَتقْضي الدُّهُورَ في لَيْلِ مَلْسِ

ملس: ظلام

في صباحِ الحياةِ ضَمَّخْتُ أَكْوا   بي، وأَتْرَعْتُها بخمرةِ نفسي

أترعتها: ملأتها

ثم نَضَّدْتُ من أزاهيرِ قلبي ... باقةً لم يَمَسَّها أيُّ إنسي
ثمَّ قدَّمْتُها إليكَ فمزَّقـ ... ـتَ وُرودي، ودُسْتَها أيَّ دَوْسِ
ثمَّ ألْبستَني من الحزنِ ثوباً ... وبِشوْكِ الجبالِ تَوَّجْتَ رأسي

ما زال يخاطب الشعب

إنني ذاهبٌ إلى الغابِ يا شعـ ... ـبي لأقضي الحياةَ وَحْدي بِيأْسِ
سوف أَتْلُو على الطيورِ أناشيـ ... ـدي وأُفْضي لها بأشواقِ نفسي
فَهْيَ تَدْري معنى الحَياةِ وتدري ... أنَّ مجدَ النفوسِ يقْظةُ حِسٍّ
ثم تحتَ الصَّنَوْبَرِ الناضِرِ الحُلْـ ... ـوِ تَخُطُّ السيولُ حُفْرَةَ رَمْسي
وتَظلُّ الطيورُ تَلْغُو على قبـ ... ـري، ويَشدُو النسيمُ فوقي بِهَمْسِ
أنتَ في الكونِ قوةٌ كبَّلَتْها ... ظُلُماتُ العصورِ من أمسِ أمسِ
والشقيُّ الشقيُّ من كانَ مِثلي ... في حَساسِيَّتي ورِقَّةِ نفسي

١٤ شجون

٢٨ أكتوبر ١٩٣٠

عجباً لي أودُّ أنْ أفهَمَ الكو ... نَ، ونفسي لم تستَطِعْ فَهْمَ نفسي
لم أُفِدْ من حقائقِ الكونِ إلّا ... أنَّني في الوُجودِ مُرْتَادُ رَمْسِ

رمس: قبر

١٥ أحلام شاعر

٤ أفريل ١٩٣١

ليت لي أنْ أعيشَ في هذه الدنـ ... ـيا سعيداً بوَحدَتي وانفِرادي
أصرِفُ العمرَ في الجِبالِ وفي الغا ... باتِ بينَ الصَّنَوْبَرِ المَيَّادِ

المياد: المتمايل

وأُغنِّي معَ البلابلِ في الغا ... بِ وأُصغي إلى خريرِ الوادي
عيشةٌ للجمالِ والفنِّ أبغيـ ... ـها بعيداً عن أُمَّتي وبِلادي
لا أُغنِّي نفسي بأحزانِ شعبي ... فَهْوَ حَيٌّ يعيشُ عَيْشَ الجَمادِ

١٦ صلوات في هيكل الحب

١٣ أكتوبر ١٩٣١

عَذْبةٌ أنتِ كالطُّفُولةِ كالأحْـ ـلامِ، كاللحنِ كالصباحِ الجَديدِ
كالسَّماءِ الضَّحُوكِ، كاللَّيْلَةِ القَمْـ ـراءِ، كالوردِ كابتسامِ الوَليدِ
كلُّ شَيْءٍ مُوَقَّعٌ فيكِ، حتى لَفتَةُ الجِيدِ واهْتِزازُ النُّهُودِ

موقع: يتحرك على إيقاع موسيقي

١٧ أراكِ

٢٤ أكتوبر ١٩٣١

أراكِ فتحلو لديَّ الحياةُ ويملأُ نفسي صباحُ الأَمَلْ
وتنمو بِصدري وُرودٌ عِذَابٌ وتَحْنُو على قَلبِيَ المُشْتَعِلْ

١٨ حديث المقبرة

الشاعر يلقي نشيده أمام المقبرة في الليل، ٣ أفريل ١٩٣٢:

أتَفْنَى ابتساماتُ تلكَ الجُفُونِ ويَخْبُو توهُّجُ تلك الخُدودْ
ويَنْهَدُّ ذاكَ القَوامُ الرَّشِيقُ ويَنْحَلُّ صَدْرٌ بديعٌ وجِيدْ
أتُطْوَى سَمَاواتُ هذا الوجودِ ويذهبُ هذا الفضاءُ البعيدْ
وتَهْلِكُ تلكَ النجومُ القُدامى ويَهرَمُ هذا الزمانُ العَهِيدْ

العهيد: القديم الذي بعُد عهده

أَيَسْطُو على الكلِّ ليلُ الفَنَاءِ لِيَلْهُوُ بِهَا الموتُ خلفَ الوُجودْ
كَبيرٌ على النفسِ هذا العَفَاءُ وصعبٌ على القلبِ هذا الهُمُودْ

العفاء: التلاشي والزوال، الهمود: الخمود والخراب

تأمَّلْ فإنَّ نظامَ الحياةِ نظامٌ دقيقٌ بَديعٌ فَريدْ
فمَا حَبَّبَ العَيْشَ إلَّا الفَنَاءُ ولا زَانَهُ غيرُ خوفِ اللُّحُودْ

ما أحببنا الحياة إلا لأنها فانية ويزينها في عيوننا خوفنا من اللحود، أي القبور

ولكن إذا ما لَبِسْنَا الخُلودَ ونِلْنَا كَمالَ النُّفُوسِ البَعيدْ

فـهـلْ لا نَـمَـلُّ دَوَامَ الـبَـقَـاءِ   وهـل لا نَـوَدُّ كَـمـالاً جَـدِيـدْ؟

عبر عن هذه الفكرة بدوي الجبل في أبيات كثيرة (قصيدته النونية، رقم ٢٠، في هذا الكتاب)، والفكرة موجودة في أذهاننا جميعاً، ولكن الشابي أبدع في الشطر الثاني من هذا البيت وبسط الفكرة بسلاسة

وإن جَـمـالَ الـكَـمـالِ الـطُّـمُـوحُ   ومـا دامَ فِـكْـراً يُـرى مـن بَـعـيـدْ
فـمَـا سِـحْـرُهُ إن غَـدا واقِـعَـاً   يُـحَـسُّ، وأَصْـبَـحَ شـيـئاً شَـهِـيـدْ؟

عندما يكتمل الكمال بالخلود يفقد سحره ويصبح مشهوداً حاضراً

١٩ في ظل وادي الموت

٥ أفريل ١٩٣٢

نحن نـمشـي وحولَنا هاتِهِ الأكـ   ـوانُ تـمشـي، لـكـنْ لأَيَّـةِ غـايَـةْ؟
نحنُ نشدوُ معَ العَصافيرِ للشمـ   ـسِ وهـذا الـربـيـعُ يـنـفُـخُ نـايَـهْ

* * *

وتَغَشَّى الضَّبابُ نفسي فصاحتْ   فـي مَـلالٍ مُـرٍّ إلـى أيـنَ أمـشـي
قلتُ سيري مع الحياةِ، فقالتْ:   مـا جَنَيْنَا تُرَى من السيرِ أَمْسِ؟

* * *

قـد رَقَـصْـنـا مـع الـحـيـاةِ طـويـلاً   وشَـدَوْنـا مـع الـشـبـابِ سـنـيـنَـا
وعَـدَوْنـا مَـعَ الـلـيـالـي حُـفـاةً   فـي شِعَـابِ الـحـيـاةِ حتى دَمِـيـنـا

شعاب: طرق

وأَكَـلْـنـا الـترابَ حـتـى مَـلِـلْـنـا   وشـربْـنـا الـدمـوعَ حـتـى رَوِيـنـا
ونَـشَـرْنـا الأحـلامَ والـحُـبَّ والآ   لامَ والـيـأسَ والأسى حيثُ شِـيـنـا

شينا: شئنا

* * *

ثـم مـاذا؟ هـذا أنـا صِرْتُ في الدنـ   ـيا بـعـيـداً عـن لـهـوِهـا وغِـنـاهـا

غناها: غنائها

فـي ظـلامِ الـفـنـاءِ أَدْفِـنُ أيّـا   مـي ولا أسـتَـطِـيـعُ حـتى بُـكَـاهـا

* * *

وزُهورُ الحياةِ تَهْوي بِصمتٍ   محزنٍ مُضجِرٍ على قَدَمَيَّا
جَفَّ سِحْرُ الحياةِ يا قلبِيَ البَا   كي فَهَيَّا نُجَرِّبُ الموتَ هَيَّا

هذا البيت يختم القصيدة في قفلة تبعث الرهبة في النفس، فبعد كل ما قالته القصيدة عن الملل وانحسار اللهو، جاء بصيص أمل.. هو الموت. فإذا جف سحر الحياة فلعل في الموت جديداً

٢٠ أيتها الحالمة بين العواصف

١١ فيفري/فبراير ١٩٣٣

أنتِ كالزهرةِ الجميلةِ في الغا   بِ، ولكنْ ما بينَ شوكٍ ودُودِ
أنتِ تحتَ السماءِ رُوحٌ جميلٌ   صاغَهُ اللَّهُ من عبيرِ الوُرودِ
وبنُو الأرضِ كالقُرُودِ وما أضْـ   ـيَعَ عِطْرَ الورودِ بينَ القُرُودِ
أنتِ من ريشةِ الإلهِ فلا تُلْـ   ـقي بِفَنِّ السَّمَا لِجَهْلِ العَبيدِ
أنتِ لم تُخْلَقي لِيَقْرَبَكِ النا   سُ ولكنْ لتُعْبَدي من بَعيدِ

هكذا ينظر الرجل إلى الفاتنة المسكينة التي تنسج حول نفسها، من الأشعة المنبثقة من عيون الرجال، شرنقة تخنق إنسانيتها وتحيلها إلى تمثال

٢١ للتاريخ

١٦ فيفري/فبراير ١٩٣٣

البؤسُ لابْنِ الشعبِ يأكُلُ قلبَهُ   والمجدُ والإثراءُ للأغرابِ
والشعبُ مَعْصُوبُ الجفونِ مَقُسَّمٌ   كالشَّاةِ بين الذئبِ والقَصَّابِ
والحقُّ مقطوعُ اللسانِ مُكَبَّلٌ   والظلمُ يَمْرَحُ مُذْهَبَ الجِلبَابِ

مذهب الجلباب: يلبس جبة مزركشة بخيوط ذهبية

هذا قليلٌ مِنْ حياةٍ مُرَّةٍ   في دولةِ الأَنصابِ والألقابِ

الأنصاب: التماثيل المنصوبة

٢٢ الرواية الغريبة

١٧ مارس ١٩٣٣

ضَحِكْنا على الماضي البعيدِ وفي غَدٍ   ستجعلُنا الأيامُ أُضْحوكَةَ الآتي
وتلكَ هِيَ الدنيا رِوايةُ ساحِرٍ   عظيمٍ غريبِ الفنِّ مبدعِ آياتِ

٢٣ إرادة الحياة

١٦ سبتمبر ١٩٣٣

إذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ
ولا بدَّ للَّيلِ أنْ ينجلي ولا بدَّ للقيدِ أن ينكسِرْ
ومن لم يعانِقْهُ شوقُ الحياةِ تبخَّرَ في جوِّها واندثرْ
فويلٌ لمن لم تَشُقْهُ الحيا ةُ مِنْ صَفْعَةِ العَدَمِ المنتَصِرْ

تشقه: تستثير شوقه وتنقذه من العدم الذي يريد أن ينتصر لنفسه من الحياة التي وُجدت نقيضاً له

كذلك قالتْ لِيَ الكائناتُ وحدَّثني روُحُها المستَتِرْ
ودمدَمَتِ الريحُ بينَ الفِجاجِ وفوقَ الجبالِ وتحتَ الشَجرْ:

لقد دمدمت الريح، وغمغمت وأصدرت صوتاً، بين الفجاج، طرق الجبل، وفوق الجبال وتحت الشجر:

إذا ما طَمِحْتُ إلى غايةٍ رَكِبْتُ المُنَى ونَسِيتُ الحَذَرْ

قالت الريح: عندما أطمح إلى هدف فأنا أسعى لتحقيق أمنياتي وأجازف ولا أتركها تظل مجرد أمنيات

ولم أَتَجَنَّبْ وُعورَ الشِّعَابِ ولا كَبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِرْ

والريح لا تتجنب المسالك الجبلية الوعرة، ولا كَبَّة اللهب (أي الجحيم الذي يُكَبُّ فيه الناس على وجوههم) المشتعل.. الريح لا يهمها ما الذي تهب عليه، فهي تهب هبوباً ولا تحذر شيئاً

ومَن لا يحبَّ صعودَ الجبالِ يَعِشْ أَبَدَ الدهرِ بينَ الحُفَرْ
فعَجَّتْ بقلبي دماءُ الشبابِ وضَجَّتْ بِصدري رِياحٌ أُخَرْ

عندما سمعت كلام الريح ازدحمت دماء الشباب وعزيمته بقلبي، وتحركت في صدري رياح أخر سوى الريح التي في الخارج

وأَطْرَقْتُ أُصْغي لِقَصْفِ الرُعُودِ وعزفِ الرياحِ ووقعِ المطرْ
وقالتْ ليَ الأرضُ لَمَّا سألْتُ: أَيا أمُّ هل تكرهينَ البشرْ؟
أُبارِكُ في الناسِ أهلَ الطُّموحِ ومن يَسْتَلِذُّ ركوبَ الخطرْ

الأرض تُجيب

وأَلْعَنُ من لا يُمَاشي الزمانَ ويقنَعُ بالعيشِ عَيْشِ الحَجَرْ
هُوَ الكونُ حَيٌّ يُحِبُّ الحياةَ ويَحْتَقِرُ الميْتَ مهما كَبُرْ

فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطيورِ ... ولا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَرْ

الطائر الميت لا يحتضنه الأفق بل هو يسقط، والزهرة الميتة لا تلثمها، أي تقبّلها، النحلة

ولولا أُمومةُ قلبي الرؤومِ ... لما ضَمَّتِ المَيْتَ تلكَ الحُفَرْ

وتقول الأرض: لولا شعور الأمومة في قلبي الرؤوم، الحنون، فأنا بالطبع أم البشر ومن ترابي خلقوا.. لولا هذا الشعور لما ضممت الأموات في بطني

وفي ليلةٍ من ليالي الخريـ ... ـفِ مثقلةٍ بالأسى والضجرْ

سَكِرْتُ بها من ضياءِ النجومِ ... وغنَّيْتُ للحزنِ حتى سَكِرْ

سألتُ الدَّجى: هلْ تعيدُ الحياةُ ... لِما أذبلتْهُ ربيعَ العُمُرْ؟

فلم تتكلمْ شفاهُ الظلامِ ... ولم تترنَّمْ عَذارى السَّحَرْ

وقالَ ليَ الغابُ في رِقَّةٍ ... محبَّبَةٍ مثلِ خفْقِ الوترْ

يجيءُ الشتاءُ شتاءُ الضَّبابِ ... شتاءُ الثلوجِ شتاءُ المطرْ

فينطَفِئُ السِّحْرُ سحرُ الغُصونِ ... وسحرُ الزهورِ وسحرُ الثمرْ

وسحرُ السماءِ الشجيُّ الوديعُ ... وسحرُ المروجِ الشَّهِيُّ العَطِرْ

وتَهْوِي الغصونُ وأوراقُها ... وأزهارُ عَهْدٍ حبيبٍ نَضِرْ

وتلهُو بها الريحُ في كل وادٍ ... ويدفنُها السيلُ أَنّى عَبَرْ

ويَفنَى الجَميعُ كَحُلْمٍ بَديعٍ ... تَأَلَّقَ في مهجةٍ وانْدَثَرْ

كل الغصون والأوراق تفنى في الشتاء مثلما يفنى الحلم بعد الصحو..

وتبقى البذورُ التي حُمِّلَتْ ... ذَخيرةَ عمرٍ جَميلٍ غَبَرْ

وذِكرى فُصولٍ ورُؤيا حياةٍ ... وأشباحَ دنيا تَلاشَتْ زُمَرْ

البذور تحمل في جوفها رؤيا الحياة التي تلاشت، كي تعيدها ثانية

مَعانِقَةً، وَهْيَ تحتَ الضَّبابِ ... وتحتَ الثلوجِ وتحتَ الْمَدَرْ

لِطَيْفِ الحياةِ الذي لا يُمَلُّ ... وقلبِ الربيعِ الشَّذِيِّ الخَضِرْ

تعانق البذور وهي تحت المدر، الطين، وفي جو الشتاء القاسي.. تعانق طيف الحياة وقلب الربيع المرتقب

وحَالمةً بأغاني الطيورِ ... وعِطرِ الزهورِ وطعمِ الثَّمَرْ

وتبقى البذور حالمةً بأغاني الطيور التي ستأتي لتقف على أشجار ستنمو من هذه البذور

ويـمـشـيِ الـزمـانُ فـتـنـمُـو صُـروفٌ   وتَــذوِي صُــروفٌ وتَــحـيَــا أُخَــرْ

يمشي الزمان فتنشأ صروف، أحداث، وتذبل أحداث

وتُــصْــبـحُ أحــلامُــهــا يَــقْـظَـةً   مُــوَشَّــحَــةً بـغــمــوضِ الـسَّـحَـرْ

وتتحول أحلام البذور إلى يقظة.. فهي تبدأ بإطلاق أوائل النبت

تُـسَـائِـلُ أيـنَ ضـبـابُ الـصـبـاحِ   وسـحـرُ الـمـسـاءِ وضـوْءُ الـقَـمَـرْ
وأَسْـرابُ ذاكَ الـفَـراشِ الأَنـيـقِ   ونــحــلٌ يُـغَـنِّـي وغَـيْـمٌ يَـمُـرّ
وأيــنَ الأشــعــةُ والـكــائـنـاتُ،   وأيـنَ الـحـيـاةُ الـتـي أَنْـتَـظِـرْ
ظَـمـئـتُ إلى الـنـورِ فـوقَ الـغـصـونِ   ظـمـئـتُ إلى الـظـلِّ تـحـتَ الـشَّـجرْ
ظـمـئـتُ إلـى الـنـبـعِ بـيـن الـمـروجِ   يُـغَـنِّـي ويـرقـصُ فـوقَ الـزَّهَـرْ
ظـمـئـتُ إلى الـكـونِ، أيـنَ الـوُجـودُ   وأَنَّـى أرى الـعـالَـمَ الـمـنـتَـظَـرْ؟
هُـوَ الـكـونُ خـلـفَ سُـبـاتِ الـوجـودِ   وفـي أُفُـقِ الـيَـقَـظـاتِ الـكُـبَـرْ

خلف سبات الوجود ونومه في الشتاء يوجد كون سيزهر ويستيقظ

ومــا هُــوَ إلَّا كَـخَـفْـقِ الـجـنـا   حِ حـتَّـى نَـمَـا شَـوقُـهَـا وانـتَـصَـرْ

وتنمو البذور بقوة شوقها إلى الربيع والحياة، وتنتصر على سباتها الشتوي

فَـصَـدَّعَـتِ الأَرضَ مـن فـوقِـهـا   وأبـصَـرَتِ الـكـونَ عـذبَ الـصـورْ

تصدع، أي تشق، النباتات الأرض منطلقة من بذورها، فتبصر صور الكون الجميلة

وجــاءَ الــربــيــعُ بــأنــغــامِــه   وأحــلامِــه وصِــبَــاهُ الـعَـطِـرْ
وقـبَّـلَـهـا قُـبْـلَـةً فـي الـشِّـفَـاهِ   تُـعـيـدُ الـشَّـبـابَ الـذي قـد غَـبَـرْ

الربيع يقبل النبات قبلة تعيد الشباب الذي غبر ومضى في الشتاء

وقـالَ لـهـا قـد مُـنِـحْـتِ الـحـيـاةَ   وخُـلِّـدْتِ فـي نـسـلِـكِ الْـمُـدَّخَـرْ
وبَـارَكَـكِ الـنـورُ فـاسـتـقـبِـلـي   شـبـابَ الـحـيـاةِ وخِـصْـبَ الـعُـمُـرْ
ومــن تَــعْــبُــدُ الــنـورَ أحــلامُــه   يــبــارْكُــهُ الــنــورُ أَنَّــى ظَــهَــرْ

من يحلم بالنور فسوف يباركه النور ويشرق عليه

إلـيـكِ الـفـضـاءَ إلـيـكِ الـضـيـاءَ   إلـيـكِ الـثَّـرى الـحـالـمَ الـمـزدَهِـرْ

أيتها النباتات التي خرجت من البذور! إليكِ، أي خذي، الفضاء والضياء إلخ..

إليكِ الجمالَ الذي لا يَبيدُ   إليكِ الوجودَ الرحيبَ النَّضِرْ
فمِيدي كَما شئتِ فوق الحقولِ   بِحُلْوِ الثمارِ وغَضِّ الزَّهَرْ

ميدي: تمايلي بما صرت تحملين من أزهار وثمار

وناجِي النسيمَ وناجِي الغيومَ   وناجِي النجومَ وناجِي القمرْ
وناجِي الحياةَ وأشواقَها   وفتنةَ هذا الوجودِ الأغَرّ
وشَفَّ الدُّجَى عن جمالٍ عميقٍ   يُشِبُّ الخَيالَ ويُذْكي الفِكَرْ
ومُدَّ على الكونِ سِحْرٌ غريبٌ   يُصَرِّفُهُ ساحرٌ مقتدِرْ
وضاءَتْ شموعُ النجومِ الوِضاءِ   وضَاعَ البَخُورُ بَخُورُ الزَّهَرْ

ضاع: تضوَّع وفاح

ورَفرَفَ رُوحٌ غَريبُ الجَمالِ   بِأجنحةٍ من ضياءِ القمرْ
ورَنَّ نشيدُ الحياةِ المقدَّ   سُ في هيكلٍ حالمٍ قد سَحَرْ
وأعلنَ في الكونِ أنَّ الطُّموحَ   لَهيبُ الحياةِ ورُوحُ الظَّفَرْ

الطموح هو الحياة المتقدة النشطة وهو العزيمة التي تريد الانتصار

إذا طَمِحَتْ للحياةِ النفوسُ   فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ

هذه القصيدة اشتهرت بأول أبياتها، وظلمها أول أبياتها لقوته وجماله الأخاذ. هي صورة كاملة كبيرة جميلة بدأت بداية بديعة ورسمت لوحة معنوية للعزيمة المكنونة في صورة مادية للبذور التي تختزن الحياة في جوفها. القصيدة متماسكة فيما ترسمه من صور وما تعرضه من أفكار، وكلماتها عذبة الوقع على الأذن حتى لو لم يتابع السامع أفكارها، على أن فهم ما وراء الكلمات من معان دقيقة يعزز النشوة

٢٤ تحت الغصون

٢١ سبتمبر ١٩٣٣

هَهُنا في خَمائِلِ الغَابِ تَحتَ الزَّ-   انِ والسِّنْدِيانِ والزَّيتونِ
أنتِ أَشهَى من الحياةِ وأَبْهَى   من جمالِ الطبيعةِ الميمونِ
قد تغنيتِ منذُ حينٍ بصوتٍ   ناعمٍ حالمٍ شجِيٍّ حَنونِ
فلِمَنْ كنتِ تُنشدينَ؟ فقالتْ:   للضِّيَاءِ البَنَفْسَجيِّ الحزينِ
فتنهدتُ ثم قلتُ: وقلبي،   مَنْ يغنِّيهِ، مَنْ يُبيدُ شُجوني؟

قالتِ: الحبُّ، ثم غنَّتْ لِقلبي قُبَلاً عبقريةَ التَّلحينِ

يرسم صورة مغرقة في الرومنسية لفتاة لقيها تحت شجرة وقبّلها

قُبلاً علَّمَتْ فؤادي الأغاني وأنارَتْ له ظلامَ السنينِ
وأَفَقْنا فقلْتُ كالحالمِ المسـ ـحورِ: قُولي تكلَّمي خَبِّريني
أيُّ دنيا مُسحورةٍ أيُّ رؤيا طالعَتْني في ضَوْءِ هَذي العيونِ
زُمَرٌ من مَلائكِ الْمَلإِ الأعـ ـلى يُغَنُّونَ في حُنُوٍّ حَنونِ
وصَبايا رَواقِصٌ يَتَراشَقْـ ـنَ بِزَهْرِ التفاحِ والياسَمينِ
في فضاءٍ مورَّدٍ حالمٍ سا ءٍ أَطافَتْ به عَذارى الفُنونِ
وجَحيمٍ تَؤُجُّ تحتَ فراديـ ـسَ كَأحلامِ شاعرٍ مجنونِ

عاش لحظات مسحورة مع محبوبته، ثم اعترت فؤاده فكرة: أن ما يصنعونه محرَّم.. وهنا تخيل تحت هذا الفردوس جحيماً تؤجُّ، أي تتأجج وتشتعل، كأنها خيالات شاعر مجنون

أيُّ إثمٍ مقدَّسٍ قد لَبِسْنَا بُرْدَهُ في مسائِنا الميمونِ
فبدا طيفُ نَسْمَةٍ ساحرٌ عذ بٌ على ثغرِها قويُّ الفُتونِ
وأجابتْ، وكلُّها فتنةٌ تُغـ ـوي وتُغْري بالحبِّ بل بالجنونِ:
أبداً أنتَ حالمٌ فاسْأَلِ الليـ ـلَ، فعندَ الظلامِ علمُ اليقينِ

قالت له: لا جُناح عليك! أنت فقط تحلم

وسكتْنا، وغرَّدَ الحبُّ في الغا بِ، فأَصْغَى حتى حَفيفُ الغُصُونِ
وبَنَى الليلُ والربيعُ حواليْـ ـنا من السِّحْرِ والرُّؤَى والسكونِ
مَعبَداً للجمالِ والحبِ شِعْرِيَّـ ـاً مَشيداً على فِجَاجِ السِّنينِ

فجاج: طرق

تحتَهُ يَزْخَرُ الزمانُ ويجري صَامتاً في مَسِيلِه المحزُونِ
وتَمُرُّ الأيامُ والحزنُ والمو تُ بعيداً عن ظلِّه المأمُونِ
ونجومُ السماءِ فيهِ شُموعٌ أوقَدَتْها للحُبِّ رُوحُ القُرونِ
إن نارَ الحياةِ والكَوْثَرَ المنْـ ـشودَ في ثَغْرِكِ الشَّهِيِّ الحَزينِ
فَهْوَ كأسٌ سِحْرِيَّةٌ لِرَحيقِ الـ ـخُلْدِ قد صَاغَها إِلَهُ الفنونِ

نار الحياة كأس لرحيق، أي خمر، الخلود وقد صاغ هذه الكأس إله الفنون

قَبِّلِيني وأَسْكِرِي ثَغرِيَ الصَّا دِي وقلبِي وفتنتي وجنوني
آه ما أعذبَ الغرامَ وأحلى رنَّةَ اللَّثْمِ في خُشُوعِ السُّكونِ

رنة اللثم: صوت القبلات

وتَوارى الوجودُ عنَّا بما فيـ ـهِ وغِبْنا في عالَمٍ مفتونِ
ونَسِينا الحياةَ والموتَ والكو نَ وما فيه من مُنىً ومَنُونِ

٢٥ هجاء الشعب

١٥ أكتوبر ١٩٣٣

أينَ يا شعبُ قلبُك الخافقُ الحسَّـ ـاسُ، أينَ الطموحُ والأحلامُ؟
أين يا شعبُ روحُكَ الشاعرُ الفنَّـ ـانُ أينَ الخيالُ والإلهامُ؟
إن يَمَّ الحياةِ يَدْوي حَوالَيْـ ـكَ، فأينَ المغامرُ المِقْدَامُ؟
أينَ عزمُ الحياةِ؟ لا شيءَ إلَّا الـ ـموتُ والصمتُ والأسى والظلامُ
عُمُرٌ مَيِّتٌ وقلبٌ خَواءٌ ودَمٌ لا تُثيرُهُ الآلامُ

خواء: مفرغ

وحَياةٌ تَنامُ في ظلمةِ الوا دي، وتَنمُو من فوقِها الأوهامُ

* * *

قد مَشَتْ حولَكَ الفُصولُ وغَنَّتْـ ـكَ، فلم تبتهجْ ولم تترنَّمْ

يخاطب الشعب

ودَوَتْ فوقَكَ العواصفُ والأنْـ ـواءُ حتى أوشَكْتَ أن تَتَحَطَّمْ

الأنواء: الأمطار

وأطَافَتْ بكَ الوحوشُ ونَاشَتْـ ـكَ، فلم تضْطَرِبْ ولم تَتَأَلَّمْ

ناشتك: تناولتك بالمخالب

يا إلَهِي أَما تُحِسُّ أَما تَشْـ ـدُو أما تَشْتَكِي أما تتكلَّمْ؟
أنت لا مَيِّتٌ فَيَبْلَى ولا حَيٌّـ فيمشي، بل كائِنٌ ليس يَفْهَمْ
أبداً يَرْمُقُ الفَراغَ بِطَرْفٍ جَامِدٍ، لا يَرَى العَوالِمَ، مُظْلِمْ

* * *

آهِ بل أنتَ في الشعوبِ عجوزٌ فيلسوفٌ مَحَطَّمٌ في إِهَابِهْ

في إهابة: في جِلدِه

ماتَ شوقُ الشبابِ في قلبِه الذَّا وِي وعزمُ الحياةِ في أعصابِهْ

الذاوي: الذابل

فَمَضَى يَنْشُدُ السَّلامَ بَعيداً في قبورُ الزَّمانِ خَلْفَ هِضَابِهْ
وهُناكَ اصْطَفَى البقاءَ مَعَ الأمـ ـواتِ في قبرِ أَمْسِهِ غيرَ آبِهْ

غير آبه: غير مهتمّ

وارتَضَى القبرَ مَسكناً تتلاشى فيهِ أيامُ عُمْرِهِ الْمُتَشَابِهْ
وتَناسى الحياةَ والزمنَ الذَّا وِي، وما كان من قديمِ رِغَابِهْ
فالزَمِ القبرَ فَهْوَ بيتٌ شَبيهٌ بِكَ في صَمْتِ قلبِه وخَرابِهْ
واعبُدِ الأَمْسَ وادَّكِرْ صُوَرَ الما ضِي فدُنيا العجوزِ ذِكرى شبابِهْ

ادَّكر: تذكر

* * *

وإذا مَرَّتِ الحياةُ حوالَيْـ ـكَ جميلاً كالزَّهْرِ غَضَّاً صِبَاها

إذا مرت الحياة بقربك وصباها جميل وغض، طري، كالزهر..

تَتغنَّى الحياةُ بالشَّوْقِ والعَزْ مِ فَيُحْيِي قَلبَ الجَمادِ غِنَاها

غناها: غناؤها

والربيعُ الجميلُ يرقُصُ فوقَ الـ ـوردِ والعشبِ مُنْشِداً تَيَّاها

تياهاً: مختالاً فخوراً

فاحْذَرِ السِّحْرَ أيُّها الناسكُ القِدِّ يسُ إنَّ الحياةَ يُغْوي بَهَاها

يسخر من الشعب، ويسميه الناسك والقديس لأنه يعيش في الماضي

والربيعُ الفنَّانُ شاعرُها المفـ ـتونُ يُغري بِحُبِّها وَهَواها
وتملَّ الجَمالَ في رِمَمِ المَو تَى بعيداً عن سحرِها وصَدَاها

تمل الجمال، تأمله بتمعن، في بقايا الموتى بعيداً عن سحر الحياة وصداها، أي صوتها

وتـغـزَّلْ بِـسِـحْـرِ أيـامِـكَ الأُو ... لـى وخَـلِّ الـحـيـاةَ تَـخْـطُ خُـطَـاهـا

وابقَ بين الأموات أيها الشعب العجوز وتغزل بالماضي واترك الحياة تسير سيرها بدونك.. يسخر من الشعب المستكين المتعلق بالأوهام وبالماضي

* * *

وإذا هَـبَّـتِ الـطـيـورُ مَـعَ الـفـجـ ... ـرِ تُـغـنِّـي بيـنَ الـمروجِ الـجـمـيـلـةْ

وأفـاقَ الـوجـودُ لـلـعـمـلِ الـمـجـ ... ـدي ولِلسَّعيِ والمعانِي الجليلةْ

ومَشى الناسُ في الشِّعَابِ وفي الغا ... بِ، وفوقَ المسالِكِ المجهولةْ

يَـنـشُـدُونَ الـجـمـالَ والـنـورَ والأفـ ... ـراحَ والـمـجـدَ والـحـيـاةَ الـنـبـيـلـةْ

فاغْضُضِ الطَّرْفَ في الظَّلامِ وحَاذِرْ ... فـتـنـةَ الـنـورِ فَـهْـيَ رُؤْيـا مَـهُـولـةْ

وصَـبـاحُ الـحـيـاةِ لا يُـوقِـظُ الـمـو ... تَى ولا يَرْحَمُ الجفونَ الكَلِيلَةْ

* * *

كـلُّ شـيءٍ يُـسـايِـرُ الـزمـنَ الـمـا ... شي بِعَزْمٍ حتَّى التُّرابُ ودُودُهْ

كـلُّ شـيءٍ إلَّاكَ حَـيٌّ عَـطُـوفٌ ... يُـؤْنِـسُ الـكـونَ شـوقُـهُ ونـشـيـدُهْ

فَـلـمـاذا تـعـيـشُ في الـكـونِ يـا صـا ... حِ؟ وما فيكَ مِنْ جَنىً يَستَفِيدُهْ

جنى: ثمار. لماذا تعيش أيها الشعب؟ وليس فيك ثمار يستفيدها الكون

لـسـتَ يـا شَـيْـخُ لِـلْـحَـيـاةِ بِـأَهْـلٍ ... أنـتَ داءٌ يُـبـيـدُهـا وتُـبـيـدُهْ

* * *

أنـتَ دُنـيـا يُـظِـلُّـهَـا أُفُـقُ الـمـا ... ضِي ولَـيـلُ الـكـآبَـةِ الأَبَـدِيُّ

مـاتَ فـيـهـا الـزمـانُ والـكـونُ إلَّا ... أمـسُـهـا الـغـابـرُ الـقـديـمُ الـقَـصِـيُّ

والشقيُّ الشقيُّ في الأرضِ شعبٌ ... يـومُـهُ مَـيِّـتٌ، ومـاضِـيـهِ حَـيُّ

٢٦ الناس

٨ ديسمبر ١٩٣٣

ما قَدَّسَ المَثَلَ الأعلى وجَمَّلَهُ ... في أعيُنِ الناسِ إلَّا أنه حُلُمُ

ولو مَشى فيهِمُ حَيّاً لَحَطَّمَهُ ... قومٌ، وقَالوا بِخُبْثٍ إنَّهُ صَنَمُ

٢٧ متاعب العظمة

١١ ديسمبر ١٩٣٣

إذا صَغُرَتْ نفسُ الفَتى كان شوقُهُ صغيراً فلم يَتعَبْ ولم يَتَجَشَّمِ
ومن كانَ جَبَّارَ المطامعِ لم يَزَلْ يُلاقي من الدنيا ضَراوَةَ قَشْعَمِ

قشعم: نسر

٢٨ نشيد الجبار

أو هكذا غنى بروميثيوس، ١٥ ديسمبر ١٩٣٣

سأعيشُ رغمَ الدَّاءِ والأعداءِ كالنَّسْرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ
أَرْنو إلى الشمسِ المضيئةِ هازِئاً بالسُّحْبِ والأمطارِ والأَنْواءِ
وأَسيرُ في دنيا المشاعرِ حالماً غَرِداً، وتلكَ سعادةُ الشُّعَراءِ
النورُ في قلبي وبينَ جوانِحي فَعلامَ أَخشى السَّيْرَ في الظَّلْماءِ
وأقولُ للجَمْعِ الذينَ تَجَشَّمُوا هَدْمي وَوَدُّوا لَوْ يَخِرُّ بِنائِي

يخرّ: يسقط

وغَدَوْا يَشُبُّونَ اللَّهيبَ بِكُلِّ ما وَجَدوا لِيَشْوُوا فوقَهُ أَشْلائي

يشُبُّون: يشعلون، أشلائي: أطرافي

ومَضَوْا يَمُدُّونَ الخِوانَ لِيَأْكُلوا لَحْمي، ويَرتَشِفُوا عَليهِ دِمائي:

الخوان: المائدة

إنَّ الْمَعَاوِلَ لا تَهُدُّ مناكِبي والنارَ لا تأتي على أعضائي
وإذا تمرَّدَتِ العواصِفُ وانتَشَى بالهَوْلِ قلبُ القُبَّةِ الزرقاءِ

القبة الزرقاء: السماء

ورَأَيْتُموني طائِراً مُتَرَنِّماً فوق الزوابعِ في الفضاءِ النَّائي
فارْمُوا على ظِلِّي الحِجارَةَ واخْتَفُوا خوفَ الرِيَاحِ الهُوجِ والأَنْوَاءِ
وهناكَ في أَمْنِ البيوتِ تَطَارَحُوا غَثَّ الحَديثِ ومَيِّتَ الآراءِ
وترنَّمُوا ما شِئْتُمُ بِشَتَائِمي وتَجاهَرُوا ما شِئْتُمُ بِعَدائي

٢٩ الاعتراف

١٧ فيفري/ فبراير ١٩٣٤

ما كنتُ أحسَبُ بعدَ موتِكَ يا أبي ... ومَشاعِري عَمْياءُ بالأحزانِ
أَنِّي سَأَظْمَأُ لِلْحياةِ وأَحْتَسي ... مِنْ نهرِها المتوهِّجِ النَّشْوانِ
حتى تَحَرَّكَتِ السِّنُونُ وأَقْبَلَتْ ... فِتَنُ الحياةِ بسحرِها الفتَّانِ
فإذا أنا ما زلتُ طفلاً مولَعاً ... بتَعَقُّبِ الأَضواءِ والألوانِ
وإذا التَّشَاؤُمُ بالحياةِ ورفضُها ... ضربٌ من البُهْتَانِ والهَذَيانِ

هذا من أجمل الرثاء.. ما كان يظن عند موت والده الحبيب أنه سيحب الحياة، ولكنه بعد حين نسي.. لأنه متفائل

٣٠ شكوى ضائعة

٥ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

يا ليلُ ما تَصْنَعُ النفسُ التي سكنَتْ ... هذا الوجودَ ومِنْ أَعدائِها القدرُ؟
تَنَهَّدَ الليلُ حتى قلتُ قد نُثِرَتْ ... تلكَ النجومُ، وماتَ الجنُّ والبَشَرُ
وعادَ للصمتِ يُصْغي في كآبتِه ... كالفيلسوفِ إلى الدنيا، ويفْتَكِرُ
وقَهْقَهَ القَدَرُ الجبارُ سُخْرِيَةً ... بِالكائِناتِ. تَضاحَكْ أَيُّها القدرُ
تَمْشي إلى العَدَمِ المحتومِ باكيةً ... طَوائفُ الخلقِ والأشكالُ والصُّوَرُ
وأنتَ فوقَ الأَسى والموتِ مبتسمٌ ... ترنُو إلى الكونِ يُبْنَى ثم يَنْدَثِرُ

٣١ الحسَّاس

١٠ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

الشاعرُ الموهوبُ يُهْرِقُ فنَّهُ ... هَدْراً على الأقدامِ والأعتابِ
والعالِمُ النِّحْريرُ ينفِقُ عُمْرَهُ ... في فَهْمِ ألفاظٍ ودَرْسِ كتابِ

النحرير: العلامة

يَحيَا على رِمَمِ القديمِ الْمُجْتَوَى ... كالدُّودِ في حُمَمِ الرَّمَادِ الخَابي

المجتوى: المهجور المكروه، حمم الرماد الخابي: سواد الرماد المنطفئ

والشعبُ بينهما قطيعٌ ضائعٌ ... دنياهُ دنيا مأكلٍ وشرابِ

الـويْـلُ لـلـحَـسَّـاسِ فـي دُنـيَـاهُـمُ   مـاذا يُـلاقـي مـن أَسـىً وعَـذَابِ

٣٢ فلسفة الثعبان المقدس

٢٠ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

كـان الـربـيـعُ الـحـيُّ روُحـاً حـالـمـاً   غَـضَّ الـشَّـبـابِ مـعـطَّـرَ الـجِـلبـابِ
والـشـاعـرُ الـشَّـحْـرُورُ يـرقُـصُ مُـنْـشِـداً   لـلـشـمـسِ فـوقَ الـوَرْدِ والأعـشـابِ

الشحرور: المغرد

شِـعْـرَ الـسـعـادةِ والـسـلامِ، ونـفـسُـه   سَـكـرى بِـسِـحـرِ الـعـالَـمِ الـخَـلَّابِ
وراَهُ ثـعـبـانُ الـجـبـالِ فَـغَـمَّـهُ   مـا فـيـه مـن مَـرَحٍ وفـيـضِ شـبـابِ
وانـقـضَّ مُـضْـطَـغِـنـاً عـلـيـه كـأنَّـه   سَـوْطُ الـقَـضـاءِ ولَـعْـنَـةُ الأربـابِ

مضطغناً: حاملاً الضِّغْن أي الحقد

بُغِتَ الشَّقِيُّ فَصاحَ من هَوْلِ القَضا   مَـتُـلَـفِّـتـاً لـلـصَّـائِـلِ الْـمُـنْـتَـابِ:

الصائل: الهاجم، الذي يصول، المنتاب: المقتحم

لا شـيءَ إلَّا أنَّـنـي مُـتَـغَـزِّلٌ   بـالـكـائـنـاتِ مُـغَـرِّدٌ فـي غَـابـي
وسَـعـادَةُ الـضُّـعَـفـاءِ جُـرْمٌ مَـا لـه   عـنـد الـقـوِيِّ سـوى أَشَـدِّ عِـقـابِ
لا عَـدْلَ إلَّا إنْ تَـعَـادَلَـتِ الـقُـوَى   وتَـصَـادَمَ الإرهـابُ بـالإرهـابِ
فَـتَـبَـسَّـمَ الـثـعـبـانُ بـسـمـةَ هـازِئٍ   وأجـابَ فـي سَـمْـتٍ وفَـرْطِ كِـذَابِ

في سمت: في وقار

إنِّـي إلَـهٌ طَـالَـمَـا عَـبَـدَ الـوَرى   ظِـلِّـي وخَـافـوا لَـعْـنَـتِـي وعِـقـابـي
وسـعـادةُ الـنـفـسِ الـتـقـيَّـةِ أنَّـهـا   يَـومـاً تَـكـونُ ضَـحِـيَّـةَ الأَرْبـابِ
أَفَـلا يَـسُـرُّكَ أن تـكـونَ ضَـحِـيَّـتـي   فَـتَـحِـلَّ فـي لَـحْـمـي وفـي أَعـصـابـي
وتَـكـونَ عَـزْمـاً فـي دَمـيَ وتـوهُّـجـاً   فـي نـاظِـريَّ، وَحِـدَّةً فـي نـابـي

يريد الثعبان أن يفترس الشاعر ليكسب من لحمه قوة وعزماً. وكذا الزعيم المتسلط الذي يرسل الآلاف إلى الحرب فالموت، فهو يزعم لهم أن دماءهم ستشد عزم الأمة وتقويها

وتـذوبَ فـي روُحـيِ الـتـي لا تـنـتـهـي   وتـصـيـرَ بـعـضَ أُلـوُهَـتـي وشَـبـابـي
إنِّـي أردْتُ لـكَ الـخـلـودَ مُـؤَلَّـهـاً   فـي روُحِـيَ الـبَـاقـي عـلى الأَحْـقـابِ

فأَجابَهُ الشُّحْرُورُ في غُصَصِ الرَّدَى والـموتُ يـخنُقُـهُ إلـيكَ جَـوابـي:
لا رَأْيَ للحقِّ الضعيفِ، ولا صَدَىً والـرأيُ رأيُ الـقـاهِـرِ الـغَـلَّابِ
فافعلَ مشيئَتَكَ التي قد شئتَها وارحمْ جَلالَكَ من سماع خِطابي
وكذاكَ تَتَّخِذُ المظالِمُ مَنْطِقاً عَـذْبـاً لِـتُـخْـفِـيَ سَـوْأَةَ الآرَابِ

سوأة الآراب: عورة الأهداف الشنيعة. وقف تشرشل ـ مثلاً ـ في البرلمان البريطاني، بعد أن ابتلع هتلر نصف أوروبا، وقال في خطبته المشهورة إن بريطانيا ستحارب في كل مكان إلخ إلخ.. و«إمبراطوريتُنا وراء البحار، مسلحةً ومحروسةً بالأسطول البريطاني، ستواصل الكفاح» قالها وكأن «إمبراطوريتهم» يجب أن تعاني ويموت أبناؤها من أجلهم

أبو القاسم الشابِّي
فهرس القوفي

فهد العسكر

(١٩١٥ ـ ١٩٥١)

خلق الله فهد العسكر إنساناً، وجَلاه عبد الله الأنصاري شاعراً، وجَلَوْته لك شاعراً كبيراً.

لولا صديقه هذا، عبد الله الأنصاري، الذي جمع أشعاره في طبعة أولى، ثم ثانية مزيدة، ثم ثالثة مزيدة، ثم رابعة مزيدة، ثم خامسة مزيدة.. ففي كل طبعة قصائد تضاف مما يكتشفه الصديق في أوراقٍ عند أصدقاء الشاعر وفي طوايا الجرائد، لانطوى فهد العسكر.

وجئتُ إلى هذا الشاعر الكويتي فأمطت عن أشعاره ركام الحشو.

اقرأ كتاب الأنصاري، الذي يحتوي على ديوان فهد العسكر، تجدك غائصاً في البحر تملأ كيسك بالمحارات، وينالك الإعياء وأنت تفتحها، ثم لا تخرج لك اللؤلؤة إلا بعد كثير من حبس الأنفاس، وقراع القواقع. واقرأ الصفحات المقبلة تجد اللؤلؤ.

تراني معجباً بعملي، وهو أهون عمل! بل أنا فخورٌ به.

لم أسعد بتنخيلي شاعراً من الشعراء مثلما سعدت وأنا أنخل لك فهد العسكر. كان يطيل، ويحشو، ويسمح للوزن أن يجره إلى حيث لا يجد قافية، فيضع في نهاية البيت لَبِنة تبدو ناتئة في بناء القصيدة.

روحه بارزة في كل شعره، غير أن روح كل شويعر ونويثر قد تبرز فيما يقولان. تبقى الصنعة وتبقى وَثَبات الخيال. فأما الصنعة فقد توفرت القدرة عليها لفهد العسكر، فهو صاحب وزن محكم ولغة طيبة، على ضيقٍ في معجمه، غير أنه لم يمتلك راحة البال ليصفي شعره، ولم يمتلك من العمر ما

يوصله إلى مرحلة التحكيك، ولا هو امتلك الثقافة العريضة. وأما وثبات الخيال فهي ما كنت ألهث وراءه وأنا أنتخب من شعر الرجل. ويضاف إلى محاسن شعر فهد العسكر أنه عبَّر عن حرمان شديد، وعن تمزق بين مجتمع شبه بدائي وبين أفكار واردة تعاني من غربة في هذا المجتمع، وعبَّر عن بوهيمية غير مألوفة في ذلك المكان والزمان. هذا شاعر خمريات في بلد لا تزال الخمر فيه ممنوعة بالقانون حتى يومنا هذا.

شيَّع فهدَ العسكر إلى قبره خمسة غرباء لا نعرف منهم إلا إمام المسجد. فقد كان شاعرنا خلع نفسه من الأسرة قبل أن تخلعه أو بعد أن خلعته، وعاش عزباً فقيراً في غرفة في سوق واقف بالكويت. وفقد بصره في أخريات سنيه. ولم يشهد العسكر كويت النفط إلا قليلاً، إذ مات عام ١٩٥١، بعد خمس سنوات فقط من إقلاع أول ناقلة تحمل نفط الكويت.

عاش فهد على خمر النخل تأتيه من العراق. وعاش على شوق للتماس الجسدي مع «حواء»، فإن لم يتيسر، ولم يتيسر، فلا بأس بغلام، ولم يتيسر. وغلف أحلامه الجنسية بما استطاع التقاطه من ألفاظ حركة أبوللو الرومنسية.

ازدحمت حياته القصيرة، ٣٦ عاماً - بين ١٩١٥ و١٩٥١ -، بضروب الحرمان، غير أنه أتيح له أصدقاء، ممن استنشق رياح الفكر اليساري أو الليبرالي، فحفظوا لنا ما وصلنا من شعره. وكان ينشر بعض أشعاره التي فيها قدر من التحرر والتمرد في جريدة «البحرين» في أوائل الأربعينات.

كان صديقه عبد الله الأنصاري في مصر وقت وفاته، فلم نعرف عن مرضه وموته سوى أن أيّاً من أهله أو صحبه لم يشيعه.

وقد رأيت في شعر فهد العسكر تخميسات. وهي ثلاثة أشطر يبنيها الشاعر فوق بيت لشاعر مشهور. خمَّس فهد أبياتاً من قصيدة للمتنبي، ونقلناها. كما خمَّس أبياتاً من عدة قصائد لشوقي. والتخميس تمرين كان يقوم به الشاعر الناشئ. وكان يحدث أن يقوم به الشاعر الفحل في الزمن غير الفحل. ولم أجرب التخميس قط. فلما عزمت على اقتباس شيء منه لشاعرنا، قلت: فلأجربه بنفسي حتى أحس به. فخمست أبياتاً للمعري:

زَحَمُوا ظهرَها وسَارُوا خَيارَى ... وتَوارى في بَطنِها مَن تَوارى

وقضَى اللّهُ لِلوَرى استِمرارا ... «رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْداً مِرارا»

«ضـاحِـكٍ مِـن تَـزاحُـم الأَضْـدَاد»

يَعتَرِينا في الحينِ بعدَ الحينِ　　نـازِلاً بِـالـكَـعـابِ والـحَـيْـزَبُـونِ

في حَشا الأرضِ كم حَشا مِن خَدينِ　　«ودَفـيـنٍ عـلـى بَـقـايـا دَفـيـنِ»

«فـي طـويـلِ الأزمـانِ والآبـادِ»

تَعِبَ السَّوْطُ مِن ظُهورِ الرِّفاقِ　　ثـم أَوْدى احْـتِـرابُـهُـمْ بِـالـبَـواقـي

مـا شَـبيـهُ الشَّـامِيِّ إلَّا العِـراقـي　　«وشـبـيـهٌ صـوتُ الـنَـعِـيِّ إذا قـي»

«سَ بِـصـوتِ الـبَـشـيـرِ فـي كـلِّ نـادِ»

الآن إلى ما اخترناه من شعر فهد العسكر. فإن شئت أن تسمع قصيدة ـ قصة، تعصف بما كان يصنعه الرصافي من هذا اللون عصفاً، فأسرع في تقليب الصفحات لتصل إلى قصيدة طويلة نقلنا منها طويلاً، فوق الثلاثين بيتاً، فهي من أرق الشعر وأحلاه، وسميناها «عروس البحر».

١ لغة القوة

يا بَنِي العُرْبِ إنَّما الضَّعْفُ عارٌ　　إي وَربِّي، سَلُوا الشعوبَ القَوِيَّةْ

كم ضَعيفٍ بَكى ونادَى فَراحَتْ　　لِبُكاهُ تُقَهْقِهُ المِدْفَعِيَّةْ

لُغَةُ النارِ والحديدِ هِيَ الفُصـ　　ـحَى، وحَظُّ الضَّعيفِ منها المَنِيَّةْ

ها هِيَ الحربُ أَشْعَلُوها فَرُحْما　　كَ إلَـهِـي بِـالأُمَّـةِ الـعَـربِـيَّـةْ

يا بَنِي الفاتِحينَ حتى مَ نَبْقى　　في رُكُودٍ؟ أينَ النُّفوسُ الأَبِيَّةْ

العرب هم أبناء الفاتحين في الزمن القديم

٢ أمنيات

في الترحيب ببعثة تعليمية من فسطين، ١٩٣٦:

بـالـلَّـهِ يـا رُسُـلَ الـثـقـافَـةِ خَـبِّـرو　　نا، كيف حالُ الأُخْتِ يا إخْواني

أَعْنِي فِلَسْطِيناً، وكيفَ أَمِينُها　　وجُـنـودُهُ وبَـقِـيَّـةُ الـسُّـكَّـانِ

أمينها: الحاج أمين الحسيني مفتي القدس والزعيم السياسي

مـا وَعْـدُ بَـلْـفُـورٍ سِـوى أُمْـنِـيَّـةٍ　　ونِـداؤُهُ ضَـرْبٌ مِـنَ الـهَـذَيـانِ

وقولك يا فهد أمنية. أعلّق على بيتك هذا في أبريل ٢٠١٧، وبعد أشهر ستحل الذكرى المئوية لوعد بلفور، ورئيسة وزراء بريطانيا تيريزا ماي تصرح قبل أيام فقط بأن بلدها فخور بهذا الوعد

يا نَشْءُ هلْ مِن نَهْضَةٍ نُحْيِي بِها الـ ـمَجْدَ الأثِيلَ كَنَهْضَةِ الجَابَانِ

الأثيل: القديم الثابت، الجابان: اليابان

يا نَشْءُ وَاأَسَفَا على دِينٍ غَدا أُحْبُولَةً لِلأَصْفَرِ الرَّنَّانِ

أحبولة: شَرَك للصيد، الأصفر الرنان: الذهب

كيف النُّهوضُ بِأُمَّةٍ بَلهاءَ، لا تَنْفَكُّ عَاكِفَةً على الأَوْثانِ
بِالدِّينِ قد نالَ الجُدودُ مُناهُمُ وغَدَوْا، وربِّي، بَهجَةَ الأَزْمانِ
فتَحُوا الفُتوحَ ومَهَّدُوا طُرُقَ العُلا واستَسْلَمَ القَاصِي لَهُمْ والدَّاني

٣ كُفِّي الملام

كُفِّي المَلامَ وعَلِّلِيني فالشَّكُّ أَوْدَى بِاليَقينِ
وتَناهَبَتْ كَبِدِي الشُّجو نُ، فَمَنْ مُجيري مِنْ شُجوني؟
وَطني! وما أَقْسَى الحيا ةَ بِهِ على الحُرِّ الأَمينِ
وَطني! وَأَدْتُ بِكَ الشَّبا بَ وكُلَّ ما مَلَكَتْ يَميني
وَطَني! وما سَاءَتْ بِغَيْـ ـرِ بَنيكَ يا وَطَني ظُنُوني
رَقَصُوا على نَوْحِي وإِعْـ ـوالِي وأَطْرَبَهُمْ أَنِيني

الإعوال: البكاء والعويل

وتَحامَلُوا ظُلْماً وعُدْ واناً عَلَيَّ وأَرْهَقُوني
فَعَرفْتُهُمْ ونَبذْتُهُمْ لكِنَّهُمْ لم يَعرِفُوني
وتَطاوَلَ المُتَعَصِّبو نَ، وما كَفَرْتُ، وكَفَّرُوني
يا قَومُ كُفُّوا؛ دِينُكُمْ لَكُمُ، ولي يا قَومُ ديني
لَيْلَى تَعالَيْ زَوِّدِيني قَبْلَ المَماتِ ووَدِّعِيني
ودَعِي العِتابَ إذا التَقَيْـ ـنا، أَو فَفي رِفْقٍ وَلِينِ
هَيْمانَ كالمَجْنُونِ أَخْـ ـبِطُ في الظَّلامِ فَأَخْرِجِيني
حَفَّتْ بِيَ الأشباحُ صا رِخَةً، بِرَبِّكِ أَنقِذِيني
لَيلَى إذا حُمَّ الرَّحيـ ـلُ وغَصَّ قَيْسُكِ بِالأَنِينِ

حم: اقترب

وَلَـفَـظْـتُ رُوحـيَ فَـاطْـبَـعـي قُـبَـلَ الـوَداعِ عـلـى جَـبـيـنـي
وإذا دُفِـنْـتُ فَـبَـلِّـلـي بِـالـدَّمْـعِ قَـبـرِيَ واذكُـريـنـي

٤ الصاهر المذيب

صَهَرتُ في قَدَحِ الصَّهباءِ أحزاني وصُغْتُ في ذَوْبِها شِعري وألحاني
وبِتُّ في غَلَسِ الظَّلماءِ أُرْسِلُها مِن غَوْرِ رُوحي ومِن أعماقِ وِجداني

الغلس: ظلام آخر الليل، والغسق ظلام أوَّله

يا ساقِيَ الخمرَ لا شَلَّتْ يداكَ أَدِرْ بِنتَ النَّخيلِ فإنَّ الصَّحْوَ أَضْناني

شَلَّت: أصيبت بالشلل، بنت النخيل: خمر التمر

٥ اترك العود

هاتِ يا ساقي، هاتِ بِنتَ النَّخيلِ فعَساها تَشفي عَساها غَليلي

بنت النخيل: خمر التمر، وهو عَرَقٌ كان يُجلب من العراق

هـاتِـهـا عَـلَّـنـي أُذَوِّبُ أَتْـرا حِيَ فـيـهـا، ودَعْ هُـراءَ الـعَـذُولِ
واتْرُكِ العُودَ، واسْقِنيها على نَوْ حِ فُؤادي خِدْنِ الضَّنى وعَويلي

أُترك عزف العود واسقني الخمر على صوت نواح فؤادي خدن الألم، أي رفيقه

جاءَ تَحريمُها، وليس علَيْنا بَـلْ عـلـى كـلِّ سافِلٍ وجَهُولِ
فـبِصَدْرِ الـمَكْروبِ نـارٌ تَـلَظَّى أَوْقَدَتْها الأَشْجانُ عند الرحيلِ
لم تَطِبْ لي دُنيا الشَّقاءِ فَوالَهْـ ـفي وشَوقي لِلعالَمِ المجهولِ
أَيُّـهـذا الـخـلـيـجُ شَرَّدْتَ أَحـلا مي، فَدَعْ لي عَواطِفي ومُيُولي
إنَّ لـي فـيـكَ، والـمحـبَّـةُ قَـيْـدٌ، أَغْـيَـداً ذا خَـلْـقٍ وخُـلْـقٍ نـبـيـلِ
وجـبـيـنٍ زَاهٍ وقَـدٍّ رَشـيـقٍ وعـيـونٍ نَـشْـوَى وخَـدٍّ أَسـيـلِ

عيونه نشوى، سكرانة ذابلة، وخده أسيل، أي طويل

ومُـحَـيًّـا كـالـبـدرِ شَـعَّ سَـنـاهُ أو كَشَمسِ الربيعِ عندَ الأُفُولِ

سناه: ضوءُه

وطِـبـاعٍ أَرَقَّ مِـن بَـسْـمَـةِ الـفجـ ـرِ وروحٍ أنـقـى مِـن الـسَّـلْـسَـبـيـلِ

وانْطَوَتْ شِقَّةُ النَّوى والتَقَيْنا   بعدَ لأْيٍ وبعدَ قالٍ وقيلِ

بعد لأي: بعد إبطاء

فَسَفَحْتُ الدموعَ بين يديْهِ   وَهْوَ في شِبْهِ حَيْرَةٍ مَذهُولِ

سفحت: سفكت

يَنْكُتُ الرَّملَ مُطرِقاً وأنا أَشْـ   ـكُو إليهِ آلامَ دائي الوَبيلِ

ينكت: نقول بالعامية ينكش، والجالس أرضاً على الرمل في موقف حرجٍ من شأنه أن ينكت الرمل بعود أو بإصبع

آهِ ما أَعطَشَ الفؤادَ إلى دَمْـ   ـعَةِ عَطفٍ مِن جَفْنِهِ المَكْحولِ
يَا لِمَرأَى الدُّموعِ وَهْيَ بَناتُ الشِّـ   ـعرِ في مُقْلَةِ الحَيِيِّ الخَجولِ
فخَرجْنا مِن صَمْتِنا واعتَنَقْنا   وأَخذْنا بِالضَّمِّ والتَّقبيلِ
وشَرِبْنا بِنتَ النَّخيلِ وما أَعْـ   ـذَبَها في ظِلِّ الوِصالِ الظَّليلِ
فَسَكِرْنا فَرُحْتُ أُنْشِدُ شِعراً   وَهْوَ يُصْغي لِشِعرِيَ المَعْسُولِ

المعسول: الحلو كأنه مخلوط بالعسل

ليلةٌ ذِكرياتُها مِلْءَ ذِهني   وَهْيَ في ظُلمةِ الأَسى قِنديلي
ليلةٌ لا كَليلَةِ القَدْرِ بل خَيْـ   ـرٌ وخَيْرٌ، واللَّهِ، مِن أَلْفِ جيلِ
رُبَّ صَمْتٍ يا صاحِ أَوْقَعُ بل أَبْـ   ـلَغُ في سِحرِهِ مِن التَّنْزيلِ

التنزيل: القرآن

ودُموعُ العُشَّاقِ فَيْضٌ مِن الخُلْـ   ـدِ وشِعْرٌ يُزْري بِشِعْرِ الفُحولِ
وخُفوقُ القلوبِ ضَرْبٌ مِن التَّسْـ   ـبيحِ عند اللقاءِ والتَّهليلِ

التسبيح: قولة «سبحان الله»، التهليل: قولة «لا إله إلا الله»، والاستغفار.. نستغفر الله من هذا التجديف

٦ أَشعِليني

بِكِ بِالشَّوْقِ بِالضَّنى يا جارَةْ   أَسعِفِيني بِالكَأْسِ والسِّيجارةْ

بك: أي أستَنْجد بك

أَخرِجِيني مِن الظَّلامِ إلى النُّو   رِ، وفَرْضٌ أن يُسعِفَ الجارُ جارَهْ

يا عَروسَ الأحلامِ بِاللَّهِ هاتِي   وخُذي. ولْنَفُضَّ هذي البَكارَةْ
أَشعِلي تِلكَ واتْرِعي هذه مِن   خَمْرَةِ الرَّافِدَيْنِ هَاتِيكَ تَارَةْ

أشعلي السيجارة، واملأي الكأس من خمرة العراق

ودَعيني ما بين سِيجارَتي والـ   ـكأسِ أَبكي الصِّبا وآخُذُ ثَارَهْ
خَفِّفي العَتْبَ، أَوْصِدي البابَ، قُومي   واطْمَئِنِّي، فالشيخُ غادَرَ دَارَهْ
لستُ أخشَى عليكِ مِن أُمِّكِ السُّو   ءِ، فكَمْ رَحَّبَتْ بِهذي الزِّيارَةْ
يا ابْنةَ الشيخِ يا مُنى النَّفسِ يا رَيْـ   ـحانَةَ الحَيِّ! أَوْقَدَ الشوقُ نارَهْ
اِنْقَعي غُلَّتي فبينَ ضُلوعي   خافِقٌ شَفَّهُ الصَّدى لا حِجارَةْ

انقعي غلتي: اروي عطشي، خافق: قلب، الصدى: العطش

ذابَ قلبي أو كادَ يا رَبَّةَ الحُسْـ   ـنِ، خُذيهِ واسْتَطلِعي أَسْرارَهْ

٧ اذكريني

أُذْكُريني كُلَّما الصيفُ أَتَى   يَحمِلُ البُشرَى لِأَربابِ الغَرامْ

قال أحمد رامي، وغنتها أم كلثوم في لحن السنباطي عام ١٩٣٩ : «اذكريني كلما الفجر بدا».
وشطر رامي أخذه الرحبانيان كما هو وغنته فيروز

فالتَقَتْ كلُّ فتاةٍ وفَتى   فإذا الدنيا سلامٌ وابتِسامْ

* * *

أُذكُريني كلَّما جاء الخَريفْ   ناثراً ما نَظَمَتْ كَفُّ الربيعْ

الخريف ينثر أوراق الشجر التي أنبتها الربيع فكأنه نظمها بيده، وثمة تورية لا تخفى بين النثر والنظم

ماحِياً كلَّ أنيقٍ ولَطيفْ   ماسِخاً كلَّ جميلٍ وبَديعْ

* * *

أنا إنْ مُتُّ أفيكُمْ يا شَبابْ   شاعرٌ يَرثي شبابَ العَسْكَرِ؟
بائِسٌ مِثلِيَ عَضَّتْهُ الذِّئابْ   فغَدا مِن هَمِّهِ في سَقَرِ

هل فيكم بائس مثلي عضته ذئاب هذه الحياة فاصبح من الهم في جحيم؟

٨ يعترف بوجوده

قَبِّلْ فديتُكَ مبسَمي دَعْ جيدي   وإلى اللِّقاءِ صباحَ يومِ العيدِ

فتاته تخاطبه

لا تقتربْ مِن دارِنا هُمْ أَقْسَموا   أنْ يَقطَعُوا، إنْ جِئتَ، حَبلَ وَريدي

يا ليتَ شِعريَ هل أثارَ شُكوكَهُمْ   حَولي، قِيامِيَ بِالدُّجى وقُعودي؟

تقول الفتاة: هل ثارت شكوك أهلي حولي لكثرة ما أصحو في الليل قلقة؟

وتأَفُّفي وتَلَهُّفي وتَبَرُّمي   بِهِمُ، وهذا دَيْدَنُ المَفْؤودِ

ديدن المفؤود: عادة المصاب في قلبه

أَكَثيرةَ الشَّكْوى! حَنانَيْكِ، اهْدَأي   وتَرَفَّقي بِالشاعرِ المَنْكُودِ

يرد عليها.. يا كثيرة الشكوى! حنانيك، أي رويدَكِ، واهدأي، وارفقي بالشاعر المعذب

الصُّبْحُ لم يُسْفِرْ، وأَهْلُكِ نُوَّمٌ   قُومي مَعي نَحسُو المُدامَ وعُودي

نحسو: نشرب

فترَدَّدَتْ وتَملمَلَتْ وتَنهَّدتْ   وبكتْ، وطَوَّقَ ساعِداها جيدي

قالتْ هَلُمَّ إلى الشُّوَيْطِئِ، قلتُ: لا   فهُناكَ كلُّ مُفَنِّدٍ وحَسودِ

المفند: اللائم الذي يخطّئ صاحبه

وهُنا الأَمانُ، وهَهُنا ما شئتِ مِن   بِنتِ النَّخيلِ أوِ ابْنَةِ العُنقُودِ

بنت النخيل: عَرَق التمر، ابنة العنقود: خمر العنب

ما إنْ أَقُولُ لها خُذي مَعبُودَتي   إلَّا وقالتْ: هاتِ يا مَعْبُودي

هاتِ اسْقِنِيها لا تُعَكِّرْ صَفْوَها   دَعْها بِلا مَزْجٍ ولا تَبْريدِ

فَلَكَمْ أَثارَتْ غافِيَ الإحساسِ بي   وكَمِ اعتَرَفْتُ أَمامَها بِوُجُودي

٩ إلى الكنيسة

قالتْ وقد مَسحَتْ دُموعِيَ: لا تَنُحْ   ومَعي اغْتَبِقْ يا عَندَليبُ وغَرِّدِ

اغتبق: اشرب الخمر مساءً، والغَبوق شراب المساء وضده الصَّبوح

قد قيلَ لي بِالأمسِ إنَّكَ شاعرٌ   فاشرَبْ على نَخْبي. فلم أَتَرَدَّدِ

مـا كـان أرخَـمَ صَـوتَـهـا وأَرَقَّـهُ ... حين انتَشَتْ، وشَدَتْ، وقالتْ: أَنْشِدِ
انتشت: سكرت

فَـشـرِبْـتُ ثـانِـيـةً وثـالِـثـةً إلـى ... سَبْعٍ. فقالتِ: خُذْ، وزِدْ، وبِيَ اقْتَدِ
فَلِحُسْنِ حَظِّيَ أَنَّنِي لـم أَنْصَرِفْ ... حـتـى ظَـفِـرْتُ بِـقُـبْـلَـةٍ وبَـمـوْعِـدِ
كل هذا الشراب على قبلة!

يا صاحِبِي قد كان ما شاءَ الهوى ... فإلى الكَنِيسَةِ سِرْ بِنا لا المسجِدِ
إن قـيـلَ جُـنَّ فـإنَّ عُـذرِيَ واضِـحٌ ... أو قـيـلَ تـاهَ فـفـي يَـدَيْـهـا مِـقْـوَدي
أو قيلَ ضَلَّ فَلَسْتُ قبلَ زِيارتي ... وتَـدَلُّـهـي بِـالـزَّاهِـدِ الـمُـتَـعَـبِّـدِ
إن قلتم إنني ضللت بالذهاب إلى كنيستها وتدلّهت وتولهت بحبها، فأنا من قبل هذا لم أكن متعبداً

باللَّهِ هل تُطْوَى السَّماءُ إذا هَفا ... وصَـبـا لِـمُـشْـرِكَـةٍ فـؤادُ مُـوَحِّـدِ؟
هفا: مال، صبا: أَحَبَّ.. وهي مشربة بمعنى «صبأ» أي ارتدَّ عن الدين.. ولا نظنه قصد إلى هذا المعنى

فـاليومَ قَـادَتْ مَن تُحِـبُّ لِدِينِها ... وغَـداً يَـعـودُ بـهـا لِـديـنِ مـحـمـدِ

١٠ الظبي المتحكم

ظَـبْـيٌ تَـحَـكَّـمَ بـي ولا ... تَـلُـمِ الـغَـزالَ إذا تَـحَـكَّـمْ
قَـسَـمـاً بِـرِدْفَـيْـهِ، وكَـمْ ... مِـن مُـدْنَـفٍ بِـالـرِّدْفِ أَقْـسَـمْ
مدنف: مريض عشقاً

أَشْـكُـو الـقَـوامَ لِـخَـصْـرِهِ ... مُـتَـظَـلِّـمـاً، والـخَـصْـرُ أَظْـلَـمْ
الـلَّـهَ فِـيَّ، فـإنَّ كـأْ ... سيَ مِـلْـؤُهـا بِـهـواكَ عَـلْـقَـمْ
اللَّهَ: أي اتقي الله

كَـتَّـمْـتُ حُـبَّـكَ مُـرْغَـمـاً ... والـحَـيُّ يُـقْـتَـلُ حـيـنَ يَـكْـتُـمْ
كـيـف الـسـبـيـلُ إلـى الـشَّـكـا ... ةِ، وكـلُّ مَـن فـي الـحَـيِّ لُـوَّمْ

١١ المتيم

قال عام ١٩٣٨:

وتقولُ لي والكأسُ خَضَّبَ كَفَّها ... إنِّـي لَأَهْـوى الـضَـمَّ والـتَّـقْـبِـيلا
الكأس صبغت كفَّها بلون الخمر

فتَخالُنا فوقَ الرِّمالِ، ونحن في سُكْرِ الغَرامِ، بُثَيْنَةً وجَميلا
قَدَّمْتُ قُرباناً لِمَذْبَحِ حبِّها رُوحي، متى كان المُحِبُّ بخيلا
حَوَّاءُ! والَهفي عليكِ، فما سَلا قلبي؛ ولا أَرضَى سِواكِ بَديلا

سلا: نسي حبيبه

١٢ بيع الفتاة

زَجُّوكِ وَاأَسَفَاهُ في سِجنِ التقاليدِ القديمةْ
لا دَرَّ دَرُّكَ مِن أَبٍ فَظٌّ ووالِدَةٍ لئيمةْ
يا قاتَلَ اللَّهُ التَّعَصُّـ ـبَ، كم تَمَخَّضَ عن جريمةْ

* * *

قد أُدخِلَتْ ليلاً عليْـ ـهِ، فكانَ ليلاً سَرْمَدا

زوجوها ممن لا تحب فكان ليلها معه أبدياً

شَلَّتْ يَداهُ فكمْ بِها عاثَتْ، أَلَا شَلَّتْ يَدا

شَلَّت: أصابها الشلل، يدعو عليه؛ فكم قد عاثت هذه اليد فساداً بمشاعر هذه الفتاة

وحَسَا على صَرَخاتِها دَمَها الزَّكِيَّ وعَربَدا

* * *

غَدَتِ العَذارى كالعَقا ئِدِ والمَبادِئِ والضَّمائِرْ
سِلَعاً تُباعُ وتُشْتَرى عَلناً بِأَسْواقِ الحَواضِرْ

الحواضر: المدن

والرَّابِحونَ بِها لَهُمْ مِنَّا التَّهاني والبَشائِرْ

١٣ موشح الخمر والغرام

طرقَتْني فجرَ يومِ المَوْلِدِ وأَبُوها عاكِفٌ في المسجدِ
فالتَقى الثَّغرانِ رَغمَ الحُسَّدِ وكِلانا مُتْعَبُ القلبِ صَدي

الصدي: العطشان

* * *

ثم قالَتْ ورَذاذُ المطَرِ حَبَسَ الطيرَ، ولَمَّا يَطِرِ
هاتِ بِنتَ النَّخلِ يا ابْنَ العَسْكَرِ لا يُطاقُ الصَّحْوُ في ذا البَلَدِ

بنت النخل: خمر التمر

* * *

هاتِها بَيْضاءَ مِن خَمْرِ العِراقِ كم بِها حَلَّقَ بِالنُّدْمانِ ساقِ
ولْنُعَاقِرْها مَعاً قبلَ الفِراقِ ثم قامَتْ، ونَضَتْ ما تَرتَدي

نضت ثوبها: خلعته

* * *

وفَضَضْنا خَتْمَها والسَّعْدُ باسِمْ وسَكَبْناها على هَمْسِ النَّسائِمْ
وأدَرْناها وأَنْفُ الشيخِ راغِمْ وشَرِبْناها، ولم نَقْتَصِدِ

* * *

وتَرَشَّفْنا حُمَيَّا القُبَلِ وتَركْنا النَّوْمَ لِلْغِرِّ الخَلي
وتَحدَّثْنا عن المستقبَلِ وأَزَحْنا السِّتْرَ عن دنيا الغَدِ

١٤ هات العود

اعزِفْ على العُودِ يا مَعبُودِيَ الثاني وغَنِّ «يا حُبُّ أنتَ الهادِمُ البَاني»
يا ساجِيَ اللَّحْظِ والأحلامُ شارِدَةٌ أَسْرِعْ بِربِّك وامْلأْ كَأْسِيَ الثاني

ساجي اللحظ: هادئ النظرات

اعزِفْ على العُودِ ولْنَسْكَرْ، ولا حَرَجٌ ولْنُحْيِ مَيْتَ الأَماني بِابْنَةِ الحانِ
هُنا الهوى وأَغانيهِ العِذابُ؛ هُنا عَرائِسُ الوَحْيِ أَلقاها وتَلقَاني

١٥ خلقت لأشقى

يا حَبيبي تَمَرْكَزَ الشَّجَنُ الصَّا رِخُ بِالقَلْبِ عَنْوَةً واسْتَباحا

استباح الحزن الشديد قلبي بالقوة. «تمركز» كلمة يأباها الشعر.. يا أخي غابت عنك «تحكم» و«تسلط».. لا تنفع «تمركز» فهي في مركز دائرة السماجة، وهي من كلام العاملين في دائرة المساحة

إِنَّني هَهُنا على شَاطِئِ الرَّمْـ ـلِ أُشاكِي النَّوى مَساءَ صَباحا

أشاكي النوى: أتبادل الشكوى مع الفراق

فـأنـا شـاعِـرٌ خُـلِـقْـتُ لِأَشْـقَـى　　لا لِأَلْـقَـى سـعـادَةً وفَـلاحـا

الفلاح: الفوز بالنعيم بطريق التقوى

١٦ رقصة القلب

ارقُـصـي فـالـقـلـبُ مـا بـيـ　　ـنَ الـحَـنـايـا قـد رَقَـصْ

الحنايا: أضلاع الصدر، أليست منحنية!

ودَعـيـنـا نَـنْـتَـهِـزْ، يـا　　رَبَّـةَ الـحُـسْـنِ، الـفُـرَصْ

* * *

أنـا قَـيْـسٌ فـي هـواهـا　　وَهْـيَ فـي حُـبِّـيَ لـيـلـى

عـاشِـقـانِ امْـتَـزَجـا والـ　　ـتَـقَـيـا سِـرّاً لِـكَـيْـلا . .

لكيلا . . أي لكيلا يكشفوا أمرنا ونفتَضح

١٧ بلبل في الشتاء يتذكر الصيف

حَيْرانُ ما انْفَكَّ مَذهُولاً كَمُتَّهَمٍ　　لم يَجْنِ ذَنباً، ولم يَنْجَحْ مُحاميهِ

الصورة أعجبت زكريا الأنصاري كثيراً ورآها جديدة. صورة متهم بريء مذهول لأن محاميه لم ينجح في بيان براءته . .

تُطِلُّ مِن كُوَّةِ الماضي عليهِ، وقدْ　　أَشجاهُ حاضِرُهُ، أَطيافُ ماضيهِ

كوة: نافذة . . فأطياف الماضي تطل على البلبل، وقد أحزنه حاضره. وشعراء الرومنسية من جماعة أبوللو، الذين تأثر بهم الشاعر، يكثرون من كلمة «كوة» و«كوى» . . وهي عندهم دائماً كوة الماضي

يَرنُو إليها كما يَرنُو المريضُ، وما　　أَبَـلَّ بـعـدُ، إلى عَـيْـنَـيْ مُداوِيهِ

ينظر إلى صور الماضي نظر المريض الذي لم يشف بعد إلى عيني طبيبه

وإنْ غَـفـا راحَـتِ الأحـلامُ عـابِـثَـةً　　بِـهِ، فـتُـدْنـيـهِ أحـيـانـاً وتُـقْـصـيـهِ

فيَسْكُبُ اللَّحنَ أَنَّاتٍ يَغَصُّ بِها　　وَيْحَ الشتاءِ فما أقسى لَياليهِ

١٨ شقاء الشاعر

إنْ تَـسَـلْـنـي فـأنـا ابْـنُ الـرَّ ـ　　ـيْـبِ مُـذْ كـنـتُ صَـبِـيَّـا

مالك بن الريب شاعر أموي رثى نفسه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة في قصيدة حزينة، تجدها في كتابنا «أول الشعر»

آهِ مـا أشْـقَـى الـذي يـو هَـبُ حِـسّاً شـاعِـرِيّـا
الـشَّـجَـى والأَرَقُ امْـتَـصّـ ـا الـسَّـنَـا مِـن مُـقْـلَـتَـيَّـا

السنا: الضوء

١٩ على الشاطئ

إنَّ لـي عـنـدَكَ لَـحـنـاً هـاتِـهِ يـا مَـوْجُ هـاتِـهْ
مِـن لُـحُـونٍ هَـتَـفَ الـصيـ ـفُ بِـهـا فـي أُمْـسِـيـاتِـهْ
فَـهْـيَ لِـلـقَـلْـبِ، وكَـمْ رَتَّـ ـلَـهـا فـي صَـلَـواتِـهْ
أنـا فـي مَـعْـبَـدِهِ قـد صُـغْـتُـهـا مِـن عَـبَـراتِـهِ

* * *

كُـن ضَـنِـيـنـا أيُّـهـا الـلـيـ ـلُ بِـسِـرٍّ قـد أذَاعَـهْ
تَـائِـهٌ يَـبـحَـثُ فـي جُـنْـ ـحِـكَ عـن كَـنْـزٍ أضـاعَـهْ
هُـوَ كـالـمـلَّاحِ حـيـن الْـ ـتَـهَـمَ الـيَـمُّ مَـتَـاعَـهْ
وانْـبَـرى لـلـرِّيـحِ والـمـو جِ، فـلـم تُـغْـنِ الـشَّـجَـاعَـةْ

٢٠ بيْعة

يحيي أمير الكويت «عبد الله السالم الصباح» عند توليه الحكم، عام ١٩٥٠:

جـاءَ الـربـيـعُ وأنـتَ راقِـدْ قُـمْ واشْـدُ، يـا رَبَّ الـقَـصـائِـدْ
مـا لِـلـبَـلابِـلِ حـيـن يَـبْـ ـتَـسِـمُ الـصَّـبـاحُ ولِـلـمَـراقِـدْ

البلابل ما لها وللنوم في المراقد عندما يطلع الصباح

قُـمْ حَـيِّـهِ فـيـهـا وصُـغْ بِـبَـهـائِـهِ أَسْـنَـى الـفَـرائِـدْ

أيها الراقد قم، وحيِّ الصباح بالقصائد وصغ من بهاء الصباح عقوداً من أسنى، أغلى، الفرائد، أي اللآلئ

غَـرَّاءَ يُـغْـضـي الـنَّـيِّـرا نِ لِـضَـوْئِـهـا قـبـلَ الـفَـراقِـدْ

هذه القصائد غراء، جميلة، يغضُّ النيران، أي الشمس والقمر، الطرف لتوهجها، وكذا تغض الفراقد بصرها، والفراقد نجوم معينة في السماء

والـشِّـعْـرُ مـا اضْـطَـرَمَ الـشُّـعـو رُ بِـــهِ، وإلَّا فَــهْـــوَ بـــارِدْ

اضطرم: توقَّد

والـشِّـعْـرُ فـي الأَشْـرافِ حَـيٌّ خـالِـدٌ والـمـالُ نـافِـدْ

نافد: منتهٍ

ولَآلِــئُ الــوِجْــدانِ ظُـلْــمٌ أن تُـصـاغَ لِـغَـيْـرِ نَـاقِـدْ

ظلم أن تصوغ العقود الشعرية من لآلئ الوجدان لتهديها لمن ليس بناقد. والناقد هو الصيرفي الذي ينقد الدراهم الزيوف ويعزلها.. والناقد الأدبي في المعنى القديم هو من يعرف قيمة الشعر

سِـرْ أيُّـهـا الـفَـذُّ الـهُـمـامُ فـأنْـتَ فـيـنـا الـيـومَ وَاحِـدْ

الفذ: الفرد الأوحد، الهمام: الشخص ذو الهمة، والهمام كلمة تطلق منذ الجاهلية على الزعيم.. والنعمان كان «همام» النابغة

ولَأنْـتَ أعـرَفُ يـا ابْـنَ سـالِـمَ بِـالـسِّـيـاسَـةِ والأَسـاوِدْ

الأساود: الأفاعي

ولَأنْــتَ أَخْــبَـرُ مِــن سِــواكَ بِـمَـنْ عَـلا بَـعـضَ الـمَـقـاعِـدْ

وكان أهل المقاعد في مجلس النواب الكويتي ـ وما زالوا ـ يعرفون كيف يحافظون على كلمة الناس مقابل رأي الحاكم وسلطته

مـا كـان أَغْـنَـى الـمُـقْـلَـةَ الـحَـوْراءَ عَـنْ تِـلْـكَ الـمَـراوِدْ

العين الحوراء الجميلة في غنى عن المراود، حدائد المكاحل.. والحكم الأميري يستغني عن مجلس النواب.. في رأي الشاعر

كُــلٌّ يَــطِـيــرُ ولِـلـبُـزَاةِ سَـمـاؤُهـا وكَـذا الـهَـداهِـدْ

البزاة، الصقور، لهم سماؤهم، والهداهد، جمع هدهد، له سماؤه المنخفضة.. فليعرف كل قيمته

مَــولايَ لا أَشْــكُــو الــزمـانَ وكـانَ قـبـلَ الـيـومِ حـاقِـدْ
كــلَّا ولــم آسَــفْ عــلــى بَـصَـرِي، ولَـسْـتُ بِـكُـمْ بِـفـاقِـدْ

بوجودكم فكأنني لم أفقد بصري

لــي فـيـكُـمُ عَـيْـنٌ بِـهِ، وبِـكُـمُ أَلُـوذُ مِـن الـحَـواسِـدْ

لي فيكم عين به، أي بدل منه أي بدل من بصري المفقود، وبكم ألجأ من الحاسدين

هَـاكَ الـيَـمـيـنُ عـلـى الـمَـحَـبَّـ ـةِ والـوَلَا، والـلَّـهُ شـاهِـدْ

يبايعه على الولاء. في هذه القصيدة نرى فهد العسكر، وقد نضج، شاعراً سياسياً من الطراز العباسي الرفيع.. فيه ما في شعر ذلك العصر من نفاق ومن صنعة

٢١ الشامخة

لو لم تَكُنْ تَدري النَّخيلُ بِما لَها مِـن رائـعِ الآيـاتِ والأَسْـرارِ..

الآيات: دلائل الكرامة والشرف..

أوْ لـم تَكُنْ تَدري بِطيبِ نِتاجِها لم تَعْلُ شامِخَةً على الأَشْجارِ..

لولا أن شجر النخيل يعرف قيمته وطيب ما ينتجه لما علا وشمخ على الأشجار جميعاً

أوَلَمْ تَرَوْا لِلْكَرْمِ كيف حَنا لَها وجَـثـا مِـن الإجْـلالِ والإكْـبـارِ

ألا ترون كيف انحنت كروم العنب وجثت على الأرض إكباراً للنخيل..

يَسخُو مُعاقِرُها فتلْقَى عندَهُ سِيَّانِ قَدْرُ الفَلْسِ والدِّينارِ

الذي يعاقر خمر التمر يصبح سخياً ويصبح الفلس عنده كالدينار لشدة جوده

٢٢ تنفيذ الحكم

قال فهد العسكر عندما علم بانتحار صديقه عبد الله السعدون:

يا أَخا الرُّوحِ كيف أَصْدَرتِ الأَقْـ ـدارُ حُكْماً عليكَ بالإِعْدامِ

كيفَ نَفَّذْتَهُ بِنفْسِكَ ياهـ ـذا، بِلا رَهْبَةٍ ولا إِحْجامِ؟

يا صَديقي الشَّهيدَ نَمْ ناعِمَ البا لِ ودَعْنا نَعيشُ كالأَنْعامِ

نَمْ، فَيَوْمي الأخيرُ ليس بِناءٍ فمَتى يا تُرى يُصيبُ الرَّامي؟

يومي الأخير ليس نائياً بعيداً، فمتى يصيبني عزرائيل الذي يرمي الناس بسهام الموت؟

٢٣ عروس البحر

هذه قصيدة ـ قصة من نمط قصائد خليل مطران والرصافي القصصية:

غـادَةٌ حَـطَّمَ الـفُؤادَ بُكـاهـا لـيتَ شِعري ما بالُها، ما دَهاها

قد حَباها اللَّهُ الجَمالَ، ولكِنْ لم يَصُنْهُ، يا ليتَهُ ما حَباها

وقَفَتْ عند ذلك الشَّاطِئِ الرَّمْـ ـلِيِّ لَيْلاً تَبُثُّهُ شَكْواها

فَحَثَثْتُ الخُطَى إِلَيْها بِجُنْحِ اللَّـ ـيـلِ والـنـاسُ نُـوَّمٌ لِأَراهـا
فإذا بي أَمامَ عَذْراءَ تَحْكي الـ ـوَرْسَ، مِن فَرْطِ حُزْنِها، وجَنْتَاها

تحكي: تشبه، الورس: نبات أصفر يصبغون به

فشَكَتْ ظُلْمَ أُمِّها وأَبِيها قاتَلَ اللَّهُ أمَّها وأَباها
أَرغَماها على الزَّواجِ بِشَيْخٍ ذي ثَراءٍ؛ مِن أَجْلِ ذا أَرْغَماها

أي لثرائه أرغماها على الزواج منه

أَمِنَ العَدْلِ أنْ تُزَفَّ «ثُرَيَّا» لِعَجُوزٍ، فأَيْنَ أيْنَ فَتاها؟

ثريا: اسمها

هلْ رأَيْتُمْ وَرْقاءَ هامَتْ بِنَسْرٍ وسَمِعْتُمْ بِوَكْرِهِ نَجْواها؟

الورقاء: الحمامة

أَوْ رأَيْتُمْ غَزالَةً عَشِقَتْ، يا قَومُ، ذِئْباً وطَوَّقَتْهُ يَداها؟
هَيَّأَ الشيخُ، يا إلَهِيَ، نَعْشاً مِن حَنايا ضُلُوعِهِ لِصِباها

يحتضنها بين ضلوعه فكأن ضلوعه نعشها

ثم راحَ العجوزُ يَنْسُجُ أَكفا نَ «ثُرَيَّا» مِن لِحْيَةٍ أَرْخاها
ومِنَ احْضانِهِ أَعَدَّ لها قَبْـ ـراً، وهذا ما اخْتارَهُ أَبَواها
رَبِّ رُحْماكَ بِالفَتاةِ ورِفْقاً فَكَفاها ما حَمَّلاها كَفَاها
خَسِرَتْ «خالِداً» رَفِيقَ صِباها وعلى نَبْذِ خالِدٍ أكْرَهاها
عاهَدَتْهُ على الزَّواجِ فلم تَهْـ ـوَ سِواهُ، وما أَحَبَّ سِواها
هِيَ بِالأمسِ دُمْيَةٌ تَبْعَثُ الإِيـ ـمانَ في القلبِ جَلَّ مَن سَوَّاها

دمية: أي جميلة كاللعبة

وَهِيَ اليومَ هَيْكَلٌ مِن عِظامٍ قاتَلَ اللَّهُ أُمَّها وأَباها
طَلَعَ الفجرُ وافترقْنا ولم أَدْ رِ، أَتَسْطيعُ حملَها قدماها
أَرغَمَتْني على التَّخَلُّفِ عنها إِي ورَبِّي، وخَلَّفَتْني وَراها
تَتَخَطَّى الصُّخُورَ حتى إذا ما خارَ عزمُ الفَتاةِ أَلْقَتْ عَصاها

خار عزمها، أصابها الإنهاك، فألقت عصاها، أي كفَّت عن السير

ثم صاحَتْ: لَبَّيْك، والبحرُ ساجٍ ... ليتَ شِعري مَنِ الذي ناداها

ساجٍ: هادئ

رَفَعَتْ وَجْهَها ونادَتْ: إلَهي ... قد دَعَتْكَ العذراءُ فاقبَلْ دُعاها

رَأتِ العيشَ في جِوارِكَ أَمْناً ... فاجعَلِ الخُلْدَ يا إلَهي قِراها

قراها.. القِرى طعام الضيف.. تريد أن يكرمها الله بالجنة

أَرسَلَتْ نَظرَةً إلى البحرِ لم يَعـ ... ـرِفْ سوى البحرِ، ويْحَهُ، مَغْزاها

أَعْقَبَتْها بِصَرْخَةٍ رَدَّدَ الأُفْـ ... ـقُ، وقد خَيَّمَ السُّكونُ، صَداها

نَكَثَتْ شَعرَها فَراحَ نَسيمُ الـ ... ـفَجرِ يَلهُو بِهِ، ويَلْثِمُ فاها

حَمَّلَتْهُ إلى رفيقِ صِباها ... قُبَلاً لو سَمِعْتَ مُوسِيقاها

حمَّلت النسيم بالقبلات ليوصلها على رفيق صباها خالد

حَجَبَتْ وجهَها بِكِلتا يديْها ... لا عنِ الموجِ حينَما وافاها..

بل عن الشَّمسِ، أُختِها، إذ أَطَلَّتْ ... لو رأتْ وَجْهَها هَوَتْ مِن سَماها

حجبت وجهها قبل أن تقفز.. لتتفادى ضوء الشمس.. ولو رأت الشمس وجْهها الجميل لسقطت من سمائها

فتحَ البحرُ، والشُّوَيْطِئُ باكٍ، ... لِثُرَيَّا أَحضانَهُ فاحْتَواها

أُعْفُ يا رَبِّ عن ثُرَيَّا فهذا ... ما جَنَوْهُ لا ما جَنَتْهُ يداها

قَتَلوها: أَبٌ وأُمٌّ وزَوْجٌ ... آهِ لو ماتَ هَؤُلاءِ فِداها

كم فَتاةٍ يا رَبِّ أَسعَدَها الحُسْـ ... ـنُ! وهذي جَمالُها أَشْقاها

٢٤ وحيد

يا فَتاتي حَمَّلْتِني فوقَ ما أَسْـ ... ـطيعُ، رُحماكِ إنَّني لا أُطيقُ

لا حبيبٌ أَشكُو إليهِ فَيَرْثي ... لِشَكاتي، ولا صَديقٌ صَدوقُ

لا، ولا والِدٌ يَرِقُّ ولا أُمٌّ ... فَتَحْنُو، ولا شَقيقٌ شَفُوقُ

٢٥ وصية

يا رفاقَ الصِّبا دَعُوني، فلا يُجْـ ... ـدي فَتيلاً لَوْمي، كَفانِيَ ما بي

لا يجدي فتيلاً: لا ينفع أدنى نفع

اِحفِرُوا لي قبراً على شاطِئِ البَحْـ ـرِ، لَعلَّ الأمواجَ تَبكي شبابي
وادْفِنُونيِ بين الصُّخورِ عسى يَهْـ ـدَأُ رُوعي وثَوْرَتي واضْطِرابي
يا صُخورَ الشَّاطي بِرَبِّكِ إنْ مَرَّ عـلى مَرقَدي هُنا أَحْبابي
خَبِّرِيهِمْ عمَّا لَقيتُ مِنَ الهَمِّ وشَتَّى الآلامِ والأَوْصابِ

الأوصاب: الأوجاع

ساءَهُمْ أنْ أَعيشَ صَبَّاً أُناغِيـ ـهِمْ بِأَشْعاريَ الرِّقاقِ العِذابِ

صباً: عاشقاً

وأنا شاعِرٌ خُلِقْتُ لِأَشْدُو لا لِأَتْلُو القُرآنَ في المِحْرابِ

٢٦ كأننا طفلان

كلُّ امْرِئٍ منكُمْ يُضاحِكُ كَأْسَهُ طَرَباً، وكأسي، وَيْحَهُ، أَبْكاني
وشَرِبْتُمُ وطَرِبْتُمْ ما كانَ أَسْـ ـعَدَكُمْ بِأَكْؤُسِكُمْ وما أَشْقاني
وأنا فَدَيْتُكَ شاعرٌ حَسْبي مِنَ الدُّ نْيا وما فيها فَتىً يَرعاني
أَسقيهِ آوِنَةً، ويَسقيني وإنْ ناغَيْتُهُ بِقصائِدي ناغاني
ويَبُثُّني شَكْواهُ حينَ أَبُثُّهُ شَكوايَ والكَأْسانِ تَسْتَمِعانِ
العيدُ عِيدي يومَ أَقْطِفُ مِنْ خُدو دِكَ يا مُنايَ شقَائِقَ النُّعمانِ
العيدُ يومَ نَنامُ مِلْءَ جُفونِنا مُتَعانِقَيْنِ كأنَّنا طِفْلانِ

٢٧ شوق إلى حواء

حَوَّاءُ أَوَّاهُ مِنْ داءٍ تَأَصَّلَ في قلبي فَعَزَّ الدَّوا، واسْتَفْحَلَ الدَّاءُ
ومِن لَواعِجِ شَوْقٍ قَطَّعَتْ كَبِدي حتى رَثَى لِيَ أَعْدَاءٌ أَلِدَّاءُ

لواعج: هموم

هَذي هِيَ الكأسُ في كَفِّي سأَشْرَبُها فَهْيَ الدَّواءُ وقد كَلَّ الأَطِبَّاءُ

كَلَّ: عجز

فلَسْتُ أَوَّلَ مُشتاقٍ تَجَرَّعَها ومُغْرَمٍ أَوْدَعَتْهُ القَبرَ حَسناءُ

٢٨ تخميس على أبي الطيب

يا لِلتَّعاسَةِ لا الأَوْتارُ تُطْرِبُني بِشَدْوِها، لا، ولا الأَنغامُ تُؤْنِسُني
فيا نَدامَى أَمِنْكُمْ مَنْ يُخَبِّرُني «أَصَخْرَةٌ أنا ما لِيَ لا تُحَرِّكُني»
«هَذي المُدامُ ولا هَذي الأَغارِيدُ»
بِالأَمسِ كانتْ قُطوفُ الوَصْلِ دَانِيَةً واليومَ أَضْحَتْ لِتَعْسِ الحظِّ قاصِيَةً
وضاعَ عُمْري وما حَقَّقْتُ أُمْنِيَةً «إذا أَرَدْتُ كُمَيْتَ الخمرِ صافِيَةً»
«وجَدْتُها وحَبيبُ النَّفْسِ مَفقودُ»

فهد العسكر
فهرس القوافي

عبد الله البَـرَدُّوني
(١٩٢٩ ـ ١٩٩٩)

لا علاقة لي بحبيب الزحلاوي

هاجم حبيب الزحلاوي قصيدة رمزية لبشر فارس، ونشر بياناً في مجلة الرسالة بمصر، وفي مجلة الأديب بالشام قال فيه إنه سيدفع خمسة جنيهات مصرية، أو مئة ليرة سورية، لمن يستطيع تفسير القصيدة. وانبرى الأدباء يكتبون المقالات في تفسير القصيدة: فسرها «صلاح الأسير» و«زكي طليمات» و«عبد الله العلايلي» تفاسير عجيبة في اختلافها.

قرأت القصيدة، ولم أفهم منها شيئاً. هاكَ بضعة أبيات: (لو كنتِ ناصعة الجبين/ هيهات تنفضني الزيارة/ /ما روعةُ اللفظ المبين؟/ السحر من وحي العبارة/ /ظلٌّ على وهج الحنين/ رسمته معجزة الإشارة/ /خطٌّ تساقط كالحزين/ أرخى على العزم انكساره)

كان حبيب الزحلاوي صعلوك أدب. شن حملة هوجاء، في أكثر من كتاب نشره، على كبار الأدباء في زمنه. وأنا أتهيب ذلك. ولا ألسع الرمزية والرمزيين إلا لسعات خفيفة. لا أريد أن أُحشر في زمرة التقليديين.. هذا هو خوفي الحقيقي. فأما أن يشتمني الرمزيون فلست أعبأ بذلك.

لقد هجم الرمزيون على الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، وأخافوا الناس، فكتب الناس شعراً رمزياً. فرض الرمزيون أنفسهم على الساحة الأدبية، وعلى المجلات الأدبية والملاحق الأدبية، فتبعهم الناس. لكن، لعل هناك أسباباً أخرى للاكتساح الرمزي لاحقاً، ربما نكسة عام ٦٧؟

تراني قاعداً مع أحد هؤلاء الرمزيين قِعدة التلميذ المهذب، أسمع وأهمهم، ولا أعترض على شيء. لست صعلوكاً، ولا أنا «تقليدي».

وفي هذا السِّفر الخامس والأخير من «الزبدة» لم يكن بد من الارتطام بالرمزية.

لا علاقة لي بحبيب الزحلاوي الذي كان يهاجم الناس «بالهراوة لا بالقلم»، كما قال أحد ناقديه. لكنني، وقد ارتطمتْ بي الرمزية، لا أملك إلا أن أقول إنها ظاهرة خارجة عما ألف الشعر العربي العمودي المرحوم في حياته الطويلة.

عبد الله البَرَدُّوني

عند خط المنتصف من حياته الشعرية انعطف البردوني انعطافة حادة باتجاه القصيدة الرمزية. فما كان لنا بد من اقتطاف شيء من هذا، لأننا نأخذ الشاعر كله ونحاول تمثيله للقارئ. على أنني لم أقتبس من مجموع أشعار البردوني (١٧٥٠ صفحة) إلا الأبيات التي فهمتها: كنت أدرس قصائده الرمزية درساً فأنتقي من الأبيات ما يمت إلى الشعر «المفهوم».

وقد صنع صنيع الانتقاء هذا شاعر شاب قصدني ـ وأنا بهذا مفتخر ـ في عصبة أدبية. فقد حل بي الصديق الموريتاني أحمد فال بصحبة مواطنه اللغوي الأديب إبراهيم الدويري والشاعر اليمني سلطان الكامل. وأسمعنا الكامل من شعره ما أمتع وأدهش، و«انتقى» من شعر ابن بلده عبد الله البردوني ما جعلني أعود إلى ذاكرتي المهشمة مفتشاً فيها عن أثر البردوني في نفسي.

قد كنت ألممت بالبردُّوني إلمامة سريعة في سنوات خوالٍ كان الشباب فيها يدخلون في «دين» اليسار أفواجاً. وكان البردوني معدوداً في اليساريين، فكان موضوع حديث. لسعتني رمزية الرجل المغلقة، فلم أمعن في قراءته.

وجاءني زائري اليمني وأنا أصب أسمنت السقف على هذا الكتاب. فقلت في نفسي: لا بد من صنعا.

قرأت الطبعة اليمنية لشعر البردوني.. كل صفحاتها التي اقتربت من الألفين. وانتقيت.

لا، لن ترى ألغازاً فيما سيأتي، فقد اجتهدت في تنحية كل ما لم أفهم. رأيتني أعالج شعر البردوني مثلما عالجت قبل أربعين سنة كيلو من العدس البلدي.

كنا طلاباً، وعزمنا على طبخة مجدرة، وهي عدس وأرز. حضر الأرز وغاب العدس. فأتينا دكان أبي أكرم فاشترينا كيلو عدس بلديٍّ، هذا بعد أن شنف أبو أكرم آذاننا بموشح عن مفاتن وفضائل وفوائد العدس البلدي ذي الحبة الصغيرة المكورة. ومضينا به إلى «الكومونة»، وهكذا كنا نسمي دارنا في ذلك الزمن اليساري. لم نكن ندري ونحن نحمل كيس العدس أنه يرافقنا إلى البيت مئات من المخلوقات الغريبة. وقعدنا لتنقية العدس. . وأخذت هذه المخلوقات تخرج من مكامنها في حبات العدس وتتجول. فكان لا بد من فحص كل عدسة على حدة. وطبخنا، وأكلنا. الشباب الجائعون يأكلون الزلط.

وأبيات البردوني مختلفة بعض الاختلاف عن حبات عدسنا. فهي مصابة بأكثر من السوس. فيها تساهل في اللغة وفي الوزن، وفيها حشد من أسماء المدن والأشخاص حاشد، وفيها إيماءات كثيرة إلى التاريخ وإلى الأشعار القديمة، وفيها إيماءات إلى يوميات الحياة المحلية. وفيها تلك الرمزية التي كأن شاعرنا تذرع بها كي يفلت من ضيق النسيج الشعري مثلما يتذرع المجرم بالجنون كي يفلت من الإعدام.

فلماذا نصطحب البردوني؟ الأننا نريد لليمن تمثيلاً في هذه المجموعة. كلَّا. ما كنا لنصنع ذلك ويسلمَ لنا صفاء القلب. قد صَحِبنا البردوني لنسمع أبياته المعجبة الجميلة. وكنا قلنا مراراً «الشاعر بجيده لا برديئه». فماذا لو كان اقتناص جيده يحيل مختاراتنا منه إلى اجتزاآت لا تشي بما اجتُزئت منه. لا بأس. فنحن في كل مختاراتنا الشعرية نؤم مقصدين: القصيدة والبيت. وهذا بحاجة إلى بعض تفسير.

نختار القصيدة لشاعر جعل قصيدته لوحة فنية متكاملة بديعة، فإن نبا منها بيت أو بيتان أسقطنا القليل كي تزداد القصيدة بهاء، فنحن نعرف أن شاعرنا قد عز عليه تشذيب قصيدته، فنحن نشذبها له. لكنها تبقى قصيدة. ونختار أيضاً البيت الفرد أو البيتين؛ نأتي إلى القصيدة فنراها باهتة، أو قُل عادية، ثم نلمح بين ركامها بيتاً يطل برأسه. ننعم النظر، فيزيدنا البيت جمالاً كلما زدناه تحديقاً. فنقول له: تعال. ثم قد يتضرع هذا البيت إلينا فيقول: أخي، أخي! فننظر فنجد له أخاً يصلح أن يكون معه، فنأخذه. لعل البيت إنما أراد أن يزداد تألقاً إذ يجلس بجانب أخ له أقل منه جمالاً. لن نقرأ ضمير بيت الشعر. ولكنَّ هدفنا نحن من إلحاق أخيه به أن نتلذذ بالقافية تطرق السمع مرتين؛ وإنك لتنوء

بكيس تحمله بيدك، فإذا حملت كيساً آخر بيدك الأخرى توازنتَ، ومشيت في الطريق مثل البطة تميل ذات اليمين وذات الشمال.

ننزع من صدر القصيدة ضلعاً ونعرضه وحده، ولا تهمنا نظرية وحدة القصيدة. فما صحَّ في شعر ووردزوورث لا يصح في شعر أحمد شوقي، ولو كره العقاد.

ونحن العرب، نستهلك الشعر بطريقتين: نسمعه مهموساً ونحن في حالة استرخاء، فتتلاعب بعواطفنا قصيدة إلياس فرحات البائية وهو يصف حياته الشاقة في البرازيل وصفاً بديعاً، أو نسمعه ينشد إنشاداً ونحن متهيأون متهيجون، فتثير فينا الحماسةَ قصيدة عمر أبو ريشة الميمية وهو ينعى على العرب الجبن والتهاون. هذه طريقة. والطريقة الثانية التي نستهلك بها الشعر: المحاضرة. نحن نحاضر بالأبيات القليلة. وهذا ما صنعه صاحبي الشاعر سلطان الكامل بشعر ابن بلده البردوني. كان يلقي في تلك الجلسة ما يحضره من أبيات لامعات. يلقي بيتاً من قصيدة وبيتين من قصيدة أخرى. وقد درج العربي على ترقيش كلامه بأبيات ينتقيها. ولئن كنت في كتابتي أكره إيراد الشعر وسط أسطر النثر، لأنني أراه يقطع السياق، فإنني أتمتع كثيراً بالأبيات التي يرصع بها المتكلم كلامه إن كان رزق سلامة الذوق وسعة الحافظة.

فهذا ما اخترته لك من شعر عبد الله البردُّوني. كلفني وقتاً وجهداً، وخلصته من آفات كثيرات، لا بد أنه بقيت منها بقية. هو شاعر تحضر أبياته المجالس فتزينها. وهو شاعر تحتشد في نفسه المشاعر فتخرج صرخات ملوثة بالآفات التي حدثناك عنها. ولا أجد لشعر البردوني شبيهاً أحسن من صوت مؤذنين لي معهما قصة يومية، بل تتكرر خمس مرات في كل يوم.

قرب بيتي، بضاحية السد في الدوحة، مسجدان. مؤذن أحدهما له صوت جميل، يسحرك. وهو يحمل في يده ساعة. ومؤذن المسجد الآخر له صوت كصفارة إنذار تالفة. وهو لا يحمل في يده ساعة. ولأن المؤذن الأول يحمل ساعة فهو الذي يبدأ برفع الأذان. أُسارع فأُسكِتُ الأغنية، وأفتح النافذة، وأصغي. وما إن ينهي التكبيرة الأولى حتى يفطن المؤذن الثاني ـ الذي لا يحمل ساعة ـ إلى أن وقت الصلاة حان، فيرفع عقيرته، ويغطي على صوت المؤذن الأول. وأظل مصغياً، وأقترب من النافذة، أريد أن ألتقط فيما بين الحين والحين صوت المؤذن الأول قبل أن يغتاله الثاني. وفي المحصلة فإنني

لا أسمع من المؤذن ذي الصوت الساحر سوى ثوان معدودة، لكنها تفرحني جداً. لم يصل بي الأمر إلى أن أسجل على شريط أذان المؤذنين، ثم أقطع الثواني القليلة التي ينفرد فيها الصوت الجميل وأصنع منها تسجيلاً قصيراً ينفرد فيه صاحبي وأسمعه وحده.

لكنني فعلت هذا بالبردوني.

البردوني شاعر. وهو مختلف. و«المختلف» متضمنة في «الشاعر»، فليس شاعراً من لا يكون مختلفاً. ولئن قال لنا مخفر الشرطة إن بصمة كل شخص مختلفة عن بصمة الآخر، فإننا في استقراء النفوس نرى البشر متشابهين.. عدا واحداً في الألف يملك الفرادة، وأما الـ ٩٩٩ فهم ينظرون إلى ذلك المتفرد نظرة إعجاب أو تعجب. وقد يكون هذا الواحد من بين الألف مجنوناً أو عالماً أو كاتباً أو شاعراً. والبردوني كان واحداً من الألف، ولم يكن مجنوناً ولا عالماً. قالوا كان كاتباً، ولم أقرأ له من النثر إلا ما جاء في مقدمات قصائده المتأخرة. فأما أنه كان شاعراً، فقد كان. وقد تثقف بالمطالعة، وعرف الشعر العربي القديم وحوادث التاريخ العربي واليمني على وجه الخصوص، وتغلغل في روح القرية اليمنية المختبئة بين الجبال.. نحن لا نراها على الخريطة بسبب الجبال، ولا نراها حاضرة في حياتنا العربية لأن الجبال صدتنا عنها. وصدع البردوني رؤوسنا بتفاصيل حياة القرية اليمنية وبأسماء الناس والأماكن. وعرف البردوني سارتر وغيفارا من مطالعاته، وسمع إذاعة لندن وكان يتابع ما يجري في العالم، فأما ما يجري في بلده فكان منغمساً فيه. وعندما كان في الأربعين من عمره أخذ يرتاد المهرجانات الثقافية في بلاد العرب الأخرى، وأخذ يحتك بالمثقفين، وشاهد الأزياء الثقافية فتزيا بها، فصدع رؤوسنا مرة أخرى برمزيته.

تسمع في شعر البردوني كلمة الجدران تتردد كاللازمة في كل قصيدة، هذه جدران العمى وجدران الجبال اليمنية التي منعت اليمن أن يتصل بالآخر وأن يتصل بعضه ببعضه، وإن لم تمنع الجدري والسل.

حياة البردوني

ولد في البَرَدُّون على ثلاثين كيلومتراً شمال ذَمار باليمن الشمالي. وأصابه الجدري فيما بين الخامسة والسادسة من عمره فكف بصره، وبدأ يتعلم في البردون مع نهاية سنته السابعة. تعلم سنتين، ثم انتقل إلى قرية «المحلة» لترعاه

أخته من أمه، المتزوجة هناك «ظبية»، وتعلم هناك بضعة أشهر. ثم انتقل إلى ذمار حيث تعلم في مدرستين: ابتدائية وعلمية. وكانت مدة إقامته في ذمار عشر سنين.

قال الشعر في نحو الثالثة عشرة، وهجا الناس فأوجعوه. كان متمرداً تمرُّد أولاد القرى، وتمرد الفقراء من أولاد القرى، فكانت فيه صعلكة نجا منها طه حسين مثلاً، رغم أنه لم يكن أقل تمرداً.

وغمس البردوني لسانه في السياسة فأيد «الثورة الدستورية»، ١٩٤٨، التي قتل في أحداثها الإمام يحيى. وسرعان ما سقطت الثورة وأمسك الإمام أحمد بن يحيى بزمام الأمر، فكان أن سجن البردوني تسعة أشهر، انتهى بعدها حراً في صنعاء «بأعجوبة تاريخية»، كما قال، ولعل هذه الأعجوبة إنما كانت ـ كما روى غيره ـ أن قصيدة له وصلت يد الإمام أحمد فقرأها فأمر بنقل الشاعر إلى صنعاء سجيناً ثم طليقاً. وفي صنعاء «تبنت» الشاب ذا العشرين دار العلوم، وكان مبرزاً، ونال شهادة «الغاية». وأصبح أستاذاً في الدار نفسها.

ظل شاعراً. قال في الإمام أحمد أشعاراً فيها بعض تمرده وفيها قدر من التقية السياسية، وكان الإمام أحمد صاحب شعر. ولكن البردوني كان جمهورياً في أعماقه. فتنفس بعد وفاة الإمام أحمد، ١٩٦٢. وظل يتنفس هواء قليلَ الأكسجين بضع سنين بينما كان الإمام البدر بن أحمد يخوض حرباً أهلية يدعمه فيها الإنجليز والسعودية مع الجمهوريين المدعومين مصرياً.

تحسنت أوضاع البردوني المعيشية بعد أن جاوز الثلاثين، فعمل في وظائف الحكومة. ولكنه لم يسكت عن الجمهوريين وما طبع حكوماتهم من فساد. ونال شاعرنا حصانة من شهرته، فقد راح يشارك في المهرجانات العربية، وانتشر شعره وذِكره عربياً بعض انتشار. وظل مثقفو اليمن يرددون أبياته القديمة الرنانة، وما تيسر من أبيات رنانة «مفهومة» تخللت قصائدة في مرحلته السريالية المتأخرة.

الذي وصف شعره المتأخر بالسريالية صديقه الشاعر عبد العزيز المقالح الذي رأى شاعرنا ينتقل من الكلاسيكية إلى الرومنتيكية إلى الكلاسيكية الجديدة إلى السريالية. ولا تحاول أن تعترض على درجات المقالح ولا على مصطلحاته، فهو سيوبخك لأنك «تَقبل استيراد علب الصلصة والفاصوليا وترفض قبول مصطلحات نقدية يستعملها كل الناس في العالم». لا نعترض.

لا، بل نوافق المقالح على مصطلح آخر وسم به البردوني وهو أن شعره يصل إلى «اللامعقول» في رمزيته.

توفي عبد الله البردوني في سنة ١٩٩٩.

ستراني في الصفحات المقبلة قد سوَّدت عشرات الأبيات، كأنني أُهيب بك أن أَصْغِ إلى هذه الروائع. وإنها لروائع. لا تأبه أيها القارئ بكل ما أسمعتك من نقد في الفقرات الماضية.. الشاعر في ديوانه غير الشاعر في ديواني.. بعد أن غربلته لك.

١ يا أمي اليمن

يا أُمِّيَ اليمنَ الخَضْرا وفاتِنتي ... منكِ الفُتونُ، ومِنِّي العِشقُ والسَّهَرُ

ها أنتِ في كل ذرَّاتي ومِلْءَ دمي ... شِعْرٌ تُعَنْقِدُهُ الذِّكْرى وتَعتَصِرُ

تعنقده: تجعله عناقيد

وأنتِ في حِضْنِ هذا الشِّعرِ فاتِنَةٌ ... تُطِلُّ منهُ، وحِيناً فيه تَستَتِرُ

٢ لا حظَّ لي في جهنم

ليتَ شِعريِ ما لِيِ إذا رُمْتُ شيئاً ... حالَ بَيْني وبينَهُ الفقرُ واليُتْمْ

لم أَجِدْ ما أُريدُ حتى الخَطايا، ... أَحَرامٌ عَلَيَّ حتى جَهَنَّمْ

٣ كُلٌّ ومشكلته

العمرُ مُشكِلَةٌ ونحن نَزيدُها ... بِالحَلِّ إشْكالاً إلى إشْكالِ

لا حُرَّ في الدنيا؛ فَذُو السُّلْطانِ في ... دنياهُ عبدُ المجدِ والأَشْغالِ

والكادحُ المحرومُ عبدُ حَنينِهِ ... فيها، وربُّ المالِ عبدُ المالِ

حنينه: ربما يقصد شوقه إلى تحسن الحال

والفارغُ المِكسالُ عبدُ فَراغِهِ ... والسَّفْرُ عبدُ الحِلِّ والتَّرحالِ

السفر: المسافرون

واللصُّ عبدُ الليلِ، والدَّجَّالُ في ... دُنياهُ عبدُ نِفاقِه الدَّجَّالِ

الدجال عبد نفاقه الذي هو دجال مثله

لا حُـرَّ فـي الـدنـيـا ولا حُـرِّيَـةٌ إنَّ الـتَّـحَـرُّرَ خُـدْعَـةُ الأَقْـوالِ
النـاسُ في الدنيا عبيدُ حياتِهِمْ أبـداً عَـبـيـدُ الـمـوتِ والآجـالِ

٤ العقد المِمْراح

كيف أَنسـاهُ هل تَـناسيـهِ يُجْدِي وَهْـوَ والـذكريـاتُ والـشوقُ عِـنـدي

الفتاة تناجي نفسها

وَهْوَ أَدْنى مِنَ الأَمـانـي إلى القلـ ـبِ، وبَـيْـنـي وبـيـنَـهُ أَلْـفُ بُـعْـدِ
واشْتِهاءُ العِناقِ يَحْلُمُ في جيـ ـدي بِأَنْفـاسِـهِ فَـيَمْـرَحُ عِـقْـدي

التوق للعناق يحلم في عنقي بأنفاس الحبيب فيتحرك عقدي بمرح

عـنـدمـا يَـهْـبِـطُ الـظَّـلامُ أَراهُ مـاثِـلاً فـي تـصـوُّراتـي وسُـهْـدي
آهِ إنِّـي إخـالُ زَنْـدَيْـهِ فـي قَـدِّ ي تَـشُـدَّانِـنـي فَـيَـخْـتـالُ قَـدِّي
ثـم أُصْـغي إلى الفِراشِ فلا أَسْـ ـمـعُ إلَّا حـديـثَ نَـهْـدٍ لِـنَـهْـدِ

٥ فرعنوه فتفرعن

لا تَـلُـمْ قـادَتَـنـا إنْ ظَـلَـمُـوا ولُـمِ الشعـبَ الذي أَعطَى الزِّماما
كيف يَرعَى الـغَـنَـمَ الـذِّئْبُ الـذي يَنهَشُ اللَّحْمَ، ويَمْتَصُّ العِظاما
قـد يَـعِـفُّ الـظَّـالِـمُ الـجَـلَّادُ لـو لـم تُـقَـلِّـدْهُ ضَـحـايـاهُ الـحُـسـامـا
نـأكُـلُ الـجُـوعَ ونَـسْـتَـسْـقِـي الـظَّـمـا ونُـنـادِي يَـحْـفَـظُ الـلَّـهُ الإمـامـا

نأكل الجوع؟ إذن فالإغراق في الرمزية قديم عند البردوني، في زمن الإمامة

٦ بهجة الصباح

وتَـراءَى الـصَّـبـاحُ يَـحْـتَـضِـنُ الـسِّحْـ ـرَ كـمـا تَـحْـضُـنُ الـكُـؤُوسُ الـعُـقَـارا

العُقار: الخمر؛ العَقار: المبنى؛ العَقَّار: الدواء

وبَـنـاتُ الـشَّـذَى تُـحَـيِّـي شُـروقـاً شـاعِـرِيَّـاً يُـعَـنْـقِـدُ الأَفْـكـارا

بنات الشذى: بنات العطر أي الأزهار، وهي تحيي الشروق الشعري الذي يعنقد الأفكار وينضجها

والـصَّـبـا تُـرْعِـشُ الـزُّهـورَ فَـتُـومِـي كـالـمَـنـاديـلِ فـي أَكُـفِّ الـعَـذارى

٧ الجريح

لا تَسَلْ عن أنينِه وسُهادِهْ إنَّ في جُرحِهِ جِراحَ بِلادِهْ
إنَّ في جُرْحِهِ جِراحاتِ شَعْبٍ راكدِ الحِسِّ حَيُّهُ كَجَمادِهْ
لا تَلُمْهُ إذا شَكا، إنَّ شَكْوا هُ وأنَّاتُهُ دُخانُ اتِّقادِهْ
كلَّما قالِ آهِ أو صَعَّدَ الأنْـ ـفاسَ شاهَدْتَ قِطْعَةً مِن فُؤادِهْ

٨ احتضار طفل

يرثي ولداً لعبد العزيز المقالح:

كيف انتَهى مِنْ قبلِ أن يَبْتَدي هل تَنْطَفي الروحُ ولَمْ تُوقَدِ
حَبا مِنَ المَهدِ إلى لَحْدِهِ لم يَشْقَ في الدنيا ولم يَسْعَدِ
يا مَن رأى الطِّفلَ يُعاني الرَّدى ويَرفَعُ الكَفَّ كَمَنْ يَجْتَدي

يجتدي: يتوسل

يَهوَى أبوهُ لو يَذُودُ الرَّدى عنهُ، وتَهوى الأُمُّ لو تَفْتَدي
يا مَن شَهِدْتَ الطِّفلَ في موتِهِ ألم تَمُتْ مِنْ رَوْعَةِ المَشْهَدِ؟

٩ المنتحر

لفظَ الرُّوحَ فاطْمَأنَّتْ ضُلوعُهْ وانْطَفا شوقُهُ، ونامَ وُلُوعُهْ
أومَأتْ كَفُّهُ إلى خِنجَرِ المو تِ، وَأَوْمَا إلى الحَياةِ نُزُوعُهْ

مد كفه إلى الخنجر ولكن نزوعه، ميله، أشار إلى الحياة.. هو متردد أينتحر أم يكمل حياته

ليس يَدري أيُّ الأمْرَيْنِ أحلَى سعيُه نَحوَ حتفِه أم رُجُوعُهْ؟
وتَراخَتْ على الفِراشِ يَداهُ ثم أغْفَى وفي يَدَيْهِ نَجيعُهْ

نجيعه: دمه

حين لم يَستَطِعْ بُلوغَ مُناهُ ماتَ، والموتُ كُلُّ ما يَسْتَطيعُهْ
إنَّما القبرُ مَضْجَعٌ يَستَوي العا لَمُ فيهِ رفيعُهُ ووَضيعُهْ
يا لِظُلْمِ الحياةِ ما أعْدَلَ القَبـ ـرَ، تَساوى فيهِ الوُجودُ جَميعُهْ
وانتحارُ المَضيمِ أَخْصَرُ لِلضَّيْـ ـمِ وأجْدى مِن أن يَطولَ خُضُوعُهْ

مَزَّقَ العُمرَ حينَ ضَيَّعَهُ العُمْـ ـرُ، وحُمْقٌ حِفْظُ الفَتى مَنْ يُضيعُهْ

١٠ ذكرى أبي نواس

ينتقد حملة في عهد الإمام ضد باعة الخمر وشاربيها:

نحن نُبْدي عيوبَنا حين نَرمي بِالخَطايا فُلانَةً وفُلانا
نحن لو لم نَكُنْ أُصولَ الخَطايا ما رأَيْنا ظِلالَها في سِوانا
كم سَأَلْنا التَّفتيشَ عن جيفَةِ الإثْـ ـمِ، وسِرنا والإثْمُ يَحْدُو خُطانا

نطلب الكشف عن آثام البشر، وكلنا آثام

وهَتَكْنا مَخابِئَ الإثمِ في الحَيِّ ـ وعُدْنا نُفَتِّشُ الأَكْفانا
لا تَنَمْ يا أَبا نُواسٍ، أَما كُنْـ ـتَ أَثيماً في لَهْوِهِ يَتَفانى؟

يتفانى: يفني نفسه

وهَتَكْنا عنكَ السِّتارَ كأَنْ لم يَخْطِرِ الإثْمُ بينَنا عُريانا
إنْ تَمُتْ هَيْكلاً فقد عِشْتَ أَفْكا راً، وَأَوْرَقْتَ في الشِّفاهِ بَيانا
أينَ مِنكَ الرَّدى؟ وأَقوى مِن الأَحـ ـياءِ مَيْتٌ يُسَهِّدُ الأَذْهانا
لو وَجَدْتَ الرَّحيقَ ما ذُبْتَ شَجْواً وتَحَرَّقْتَ في المُنى أَشْجانا

لو وجدتَ الرحيق، أي الخمر، لما ذبت حزناً وتمنيتها

شاعرُ الحُبِّ حين يَهْجُرُهُ المحـ ـبوبُ يَفْتَنُّ في الحنينِ افتِنانا

ففاقد الخمر يعشقها، مثل فاقد الحبيب الذي يتفنن في وصف غرامه

بِدْعَةُ الذُّلِّ أنْ تَحِنَّ وتَبكي وتُغَنِّي الرَّشيدَ والخَيْزُرَانا

من التفنن في الذل أن تتغنى للخليفة الرشيد.. وللخيزران أمه أيضاً.. ولم يكن أبو نواس ينشد الخيزران شعره.. ولكنها وقعت في طريق القافية.. و«بدعة الذل» عبارة قالها قبل حين (عام ١٩٥٠) بدوي الجبل، وانظر القصيدة رقم ٦ في باب «بدوي الجبل» من هذا الكتاب

مَلِكٌ يَرْضَعُ الدِّنانَ كما يَهْـ ـوى، وأنتَ الذي تُغَنِّي الدِّنانا
والأَمينُ النَّديمِ يَمْنَعُكَ الخمـ ـرَ ويُحْسُو، وتَنْحَني ظَمْآنا

الأمين: ابن هارون الرشيد وخَلَفه. وكان الرشيد والأمين بعده قد منعا أبا نواس شرب الخمر في المجالس. وقال في ذلك القصائد، وذكرنا منها جانباً في باب عقدناه لأبي نواس في كتابنا «تجدد الشعر» من هذه السلسلة

وَهْوُ في القصرِ يَحْتَسي عَرَقَ الشعـ ـبِ، ويَروي القِيانَ والغِلْمانا
يَدَّعي عِصْمَةَ الملائِكَةِ الطُّهْـ ـرِ، ويَأْتي ما يُخجِلُ الشيطانا

الطهر: الطاهرون

١١ زيارة ذات غرض

وقالَتْ: مَنِ الآتي؟ فَأُرْعِدَ قلبُهُ وأَخْجَلَ عينيهِ الغَرامُ المُفاجِئُ

قرع باب الحبيبة، وجاءه صوتها فارتجف لما سيلاقي من غرام مفاجئ.. وما نراه إلا زبون مبغى

ورَفَّتْ له مِن كُلِّ مَرْأَىً صَبابَةٌ وضَجَّ حَنينٌ بينَ جَنْبَيْهِ ظَامِئُ
وقالَ: فَتىً تاهَتْ سفينةُ عمْرِهِ وغابَتْ وراءَ اليأسِ عنهُ المَرافِئُ
ولَفَّهُما ظِلُّ السَّكينَةِ، والهوى يُعانِدُ أَحياناً وحيناً يُمالِئُ

الغرام يعانده حيناً وحيناً يمالئه، أي يوافقه

فَحَدَّقَ يَستَقْصي مَفاتِنَ جِسمِها كما يَتَقَصَّى أَحرُفَ السَّطْرِ قارِئُ
وضَمَّتْهُما في زَحْمَةِ الحبِّ نَشوَةٌ وهَوَّمَ في حِضْنِ الخَطيئَةِ خَاطِئُ
فتاةٌ يَموجُ الحُسْنُ فيها، وتَرتَمي عليها الصَّباباتُ الجِياعُ الظَّوامِئُ
جَمالٌ وإِغْراءٌ ورُوحٌ نَدِيَّةٌ وجِسمٌ بِأَحضانِ الغَوايَةِ دَافِئُ

١٢ إنارة النجوم

في سبيلِ الفجرِ ما لاقَيْتُ، في رِحلَةِ التِّيهِ وما سوف أُلاقي
سوف يَفنَى كلُّ قيدٍ وقُوَى كُلِّ سَفَّاحٍ، وعِطْرُ الجُرحِ باقِ
سوف تَهدي نارُ جُرحي إِخْوَتي وأُعيرُ الأَنْجُمَ الوَسْنَى احْتِراقي

الأنجم الوسنى: الناعسة التي خفَتَ ضوءُها

١٣ عبد الناصر

كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢:

يا لُصوصَ العُروشِ عِيبُوا جَمالا واخْجَلُوا أَنَّكُمْ قَصُرْتُمْ وطالا

جمال، هو عبد الناصر، ولصوص العروش الملوك الذين كانوا يناصبون عبد الناصر العداء في تلك الحقبة. وكان يعاديه الملك فيصل بن عبد العزيز الذي أخذ الملك عنوة

لا تَضيقُوا فإنَّ لِلشَّرَفِ العا ... لي رِجالاً ولِلدَّنايا رِجالا

وقال بدوي الجبل قبل البردوني: خلق الله للعظائم والمجـ د رجالاً وللصّغار رجالا

لا تَضيقُوا إنَّ العُروبَةَ تَدري ... مَنْ جَمالٌ وتَعرِفُ السَّلّالا

السلال: عبد الله السلال رئيس الجمهورية اليمنية بعد الإطاحة بحكم الإمام

١٤ رؤوس وعمائم

كانون الثاني/يناير ١٩٦٣، بعد أربعة أشهر من الثورة اليمنية، وألقاها في الإذاعة:

كيفَ كنّا نَدعُوهُ مَولَيَّ مُطاعاً ... وَهْوَ لِلإنْجليزِ أطْوَعُ خادِمْ

يتحدث عن الإمام أحمد، وخلع عام ١٩٦٢

هَدَّنا الضَّعْفُ فادَّعى قُوَّةَ الجِنِّـ ... وبَأْسَ الرَّدى وفَتْكَ الضَّراغِمْ

ويُوَلّي على الوِزاراتِ والحُكْـ ... ـمِ رجالاً كالعانِساتِ النَّواقِمْ

العانسات الناقمات ذوات النكد

ولُصوصاً، كأنَّهُمْ قومُ يَأْجُو ... جَ، صِغارَ النُّهَى كِبارَ العَمائِمْ

وفي القرآن: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض»، النهى: العقول

يَحكُمونَ الجُمُوعَ والعَدْلُ يَبْكي ... والمآسي تُدمي سُقُوفَ المَحاكِمْ

فانطَلِقْ حيثُ شِئْتَ يا فَجْرُ إنّا ... قد فَرَشْنا لكَ الدُّروبَ جَماجِمْ

١٥ الوحل الآدمي

كنتُ أَمشي فَتَفرِشونَ طريقي ... نَظَراتٍ مُستَجْدِياتٍ كَسيرَةْ

هكذا العشاق للفتاة وهي في نضارتها

تَتَناجَوْنَ بَيْنَكُمْ: أَتُراها ... بنتَ كِسرى أم شَهْرَزادَ الصَّغيرَةْ

لَيْتَني مُشْطُها فَأَشْتَمَّ منها ... شَعرَها، أو أَكونَ فيهِ ضَفيرَةْ

كذا يقول العاشق

هكذا كُنْتُمْ أَمامي وخَلفي ... غَزَلاً مُغْرِياً، وكنتُ غَريرَةْ

غريرة: جاهلة غشيمة

ولِأَنّي أُنْثى وأُمّي عَجُوزٌ ... ماتَ عنها أَبي، سقَطْتُ أَجيرَةْ

لَسْتُ أدري كيف انتَهى؟ مات يوماً ورَمى عِبْئَهُ علَيْنا وَنيرَهْ

نيره: حمله الثقيل، والنير الخشبة توضع على رقبة الثور ليجر سكة المحراث

فَتَبَنَّى الضَّياعُ طِفلاً كَسيحاً وأَنا، والأَسى وأُمّاً فَقيرَةْ
فسَهِرْنا نَشْقَى ونَسْتَرجِعُ الأَمـ ـسَ ونَبكي أَبي، ونَرْويهِ سِيرَةْ
ومَلأْتُمْ يَدي وأَشْعَلْتُمُوني شَمْعَةً في دُجَى الخَطايا الضَّريرَةْ

أعطيتموني المال، وأحرقتموني في ظلام الخطيئة العمياء

ولَهَوْنا حيناً، وأَشْتَى رَبيعي فتَعَرَّيْتُ أَرْتَدي زَمْهَريرَهْ

ثم ذهب شبابي وصار ربيعي شتاء.. فما ارتديت على عربي سوى البرد القارس

وزَعَمْتُمْ بِأَنَّني كنتُ وَحْلاً آدَمِيّاً، أَما شَرِبْتُمْ عَصيرَهْ؟
حَقِّروُني يا دُودُ، لو لم تَكُونُوا حُقَراءَ ما كنتُ يوماً حَقيرَةْ
صَدِّقُوني إنْ قلتُ في دُورِكُمْ مِثْـ ـلي، فَلَسْتُ الأُولى ولَسْتُ الأخيرَةْ

١٦ الوضع صعب

سوفَ أَبْكي ولن يُغَيِّرَ دَمعي أيَّ شَيْءٍ مِن وَضْعِ غَيْري ووَضْعي

١٧ شقيقة زوجته

ضَحِكَتْ له يومَ الخميـ ـسِ وضِحْكَةُ الأُنثَى علامَةْ
وأَحَسَّها لَمَحَتْ هَوا هُ بِعَينِ زَرقاءِ اليَمامَةْ
أَيّامَ وَعْكَةِ أُخْتِها جاءَتْ وطَوَّلَتِ الإِقامَةْ
ودَنَتْ كَأَجْنَى كَرْمَةٍ تَلْهُو بِنَهْدَيْها أَمامَهْ

دنت منه أخت زوجته، كدالية عنب نضجت عناقيدها واقترب جناها وقطافها، وكانت ـ والعياذ بالله ـ تلهو بذينك اللذين ليس له مثلهما

وأَراد، فاسْتَحيا، على شَفَتَيْهِ مَشرُوعُ ابْتِسامَةْ

١٨ شمس صنعاء

تموز/يوليو ١٩٧٠:

صنعاءُ يا أُخْتَ القُبورِ ثُوري، فإِنَّكِ لم تَثُوري

حــاوَلْــتِ أن تَـتَـقَـيَّـئـي   فــي لـيـلَـةٍ عَـفَـنَ الـعُـصـورِ
فـتَـسـاقَـطَـتْ شُـرُفـاتُـكِ الـنَّـ   ـعْـسَـى كـأعْـشـاشِ الـطـيـورِ
تـتـنَـهَّـديـنَ بِـلا أَسـىً   أو تـضـحـكـيـنَ بِـلا سُـرورِ
مـا زال يَـخْـذُلُـكِ الـزمـا   نُ فَـتَـبْـزُغـيـنَ لِـكـيْ تَـغُـوري

ظل الزمان يتأخر عن نجدتك فأنت كشمس تشرق وسرعان ما تغور، أي تغرب وتسقط وراء الأفق

يـا شَـمـسَ صَـنـعـاءَ الـكَـسُـو   لَ أَمَـا بَـدا لَـكِ أنْ تَـدُوري؟

١٩ رتابة

شباط/ فبراير ١٩٧٣ :

مِثْلَما تَعْصِرُ نَهدَيْها السَّحابَةْ   تُمْطِرُ الجُدرانُ صَمْتاً وكَآبَةْ
يَسقُطُ الظِّلُّ على الظِّلِّ كما   تَرتَمي فوق السَّآماتِ الذُّبابَةْ
تَسعُلُ الأَشجارُ تَحسُو ظِلَّها   تَجْمُدُ الساعاتُ مِن بَرْدِ الرَّتابَةْ

٢٠ بعيد ووحيد

: ١٩٧١

لَـمَّـا وجَـدْتُ الـقُـربَ مـنـ   ـكِ أَمَـرَّ مِـن سَـهَـرِ الـفِـراقِ
مِـن غـيـرِ تَـوديـعٍ ذهـبـ   ـتُ كـمـا أَتَـيْـتُ بِـلا اتِّـفـاقِ
كـان الـلِّـقـاءُ بِـلا وُجـو   هٍ والـفِـراقُ بِـلا مَـآقِ
لـكِـنْ لِـمَـاذا تَـسـأَلـيـ   ـنَ بِـمَـنْ أَهـيـمُ ومَـنْ أُلاقـي
فَـلْـتَـسْـتَـريـحـي، إِنَّـنـي   وَحـدي، وأَحْـزانـي رِفـاقـي

٢١ سأنساكِ

لـم أَكُـنْ شَـهـريـارَ لَـكِـنْ تَـمـادَتْ   عِـشْـرَةٌ صَـوَّرَتْـكِ لـي شَـهْـرَزَادا
كـان حُـبِّـي لـكِ اعْـتِـيـاداً وإِلْـفـاً   وسَـأَنْـسـاكِ إِلْـفَـةً واعْـتِـيـادا

٢٢ يا أسمنت!

: ١٩٧٢

هـذي الـعَـمـاراتُ الـعَـوالـي   ضَـيَّـعْـنَ تَـجْـوالـي.. مَـجـالـي

هذه البنايات العالية جعلتني أضل طريقي وأفقد مجال الحركة الذي تعودت عليه

أَدْنُــو ولا يَــعْــرِفْــنَــنِــي، أَبْـكـي ولا يَـسْـأَلْـنَ: مـا لـي؟
كــانَــتْ لِــعَــمِّــيَ هَــهُــنــا دارٌ تُــحــيــطُ بِــهــا الــدَّوالــي

الدوالي: شجيرات العنب

فَــغَــدَتْ عَــمــارَةَ تــاجِــرٍ هِــنــدِيٍ أبــوُهُ بُــرْتُــغــالــي
مِــن أيــن يــا أَسْــمَــنْــتُ أَمــ ــشــي ضــاعَــتِ الــدنــيــا حِــيــالــي
أُمِّــيِ! أَتَــلْــقَــيْــنَ الــغُــزا ةَ بِــوَجْــهِ مِــضــيــافِ مِــثــالــي؟

يدعو اليمن إلى عدم التعاون مع القوى المعادية

لِــمَ لا تُــعــادِيــنَ الــعِــدَى؟ مَــن لا يُــعــادِي لا يُــوالــي

٢٣ بتنا معاً

قصيدة قديمة (١٩٤٧) نشرها بعد موت من قيلت فيه:

أَغْلَقْتَ بابَ البيتِ والدَّرْسِ في وَجهي، سَأَلْقَى الدَّرْسَ والمَوْضِعا

طرده المعلم من المدرسة ومن بيت الطلبة لعلاقة غرامية، ويتحداه الشاعر بأنه سيجد مكاناً ودروساً

يا (لُطْفُ) مَهما لُمْتَني لم أَدَعْ هـذا السلوكَ الشَّائِنَ المُمْتِعا

يصف سلوكه بالشائن.. لكن الممتع.. ولا يريد التخلي عنه

ولْتَمْنَعِ التعليمَ عنِّي كما تَهوى، فخيرٌ مِنكَ لن يَمْنَعا
أَبْصَرْتَني مِن بَيْتِها خارِجاً كالكلبِ، أَمشي واجِفاً مُسْرِعا

واجف: مضطرب

فَلْأَعْتَرِفْ، لا ناوِياً تَوْبَةً: إنِّي ومَنْ سَمَّيْتَ بِتْنا مَعا

أعترف، وأنا لا أنوي التوبة: لقد بت معها

٢٤ تعريف اليمني

تموز/يوليو ١٩٧٠:

مُــــواطِـــــنٌ بِــــلا وَطَــــنْ لِأَنَّـــــهُ مِــــنَ الـــيَـــمَــــنْ
تُـــبــاعُ أَرضُ شــعــبِــهِ وتُــشــتَــرى بِــلا ثَــمَــنْ

٢٥ صنعاء والعاشقان

١٩٧١ :

ماذا أُحَدِّثُ عن صَنعاءَ يا أَبَتي، مَليحَةٌ عاشِقاها السِّلُّ والجَرَبُ
مَاتَتْ بِصُندوقِ «وَضّاحٍ» بِلا سببٍ ولم يَمُتْ في حَشاها العِشقُ والطَّرَبُ

يشير إلى قصة الشاعر «وضاح اليمن» الذي كان يُنشد أمَّ البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك شعره في خيمة لها، وداهم الخليفة الخيمة فاختبأ وضاح في صندوق ثياب، فأمر الخليفة بالصندوق فدفن دون أي يفتح، وكان ذلك آخر العهد بوضاح اليمن

٢٦ بصراحة

هـل تـغـفِـريـنَ لـو انَّـنـي أُبـدِي الـذي قـد كـنـتُ أُخـفـي؟
مـا كـان جَـبّـاراً هَـوا كِ، وإنَّـمـا قَـوَّاهُ ضَـعْـفـي

٢٧ أُسود هنا نِعاج هناك

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣ :

غُـزاةُ الـيـومِ كَـالـطّـاعـو نِ يَـخْـفَـى وَهْـوَ يَـسْـتَـشْـري
فَـظـيـعٌ جَـهـلُ مـا يَـجـري وأَفْـظَـعُ مـنـه أنْ تَـدري

* * *

يَـمـانِـيُّـونَ فـي الـمـنـفَـى ومَـنْـفِـيُّـونَ فـي الـيَـمَـنِ
ومِـن مُـسـتَـعـمِـرٍ غـازٍ إلـى مُـسـتَـعـمِـرٍ وَطَـنـي

* * *

أَمـيـرَ الـنَّـفْـطِ! نـحـن يَـدا كَ، نـحـن أَحَـدُّ أَنْـيـابِـكْ
ومـسـؤُولـونَ فـي صَـنْـعـا وفَـرَّاشُـونَ فـي بَـابِـكْ

٢٨ قلبي دواتي

يـا رفـاقـي إنْ أَحْـزَنَـتْ أُغـنِـيـاتـي فَـالـمـآسـي حـيـاتُـكُـمْ وحـيـاتـي
إنْ هَـمَـتْ أَحْـرُفـي دَمـاً فَـلِأنّـي يَـمَـنِـيُّ الـمِـدادِ، قَـلـبـي دَوَاتـي

همت: نزلت كالدمع، المدار: الحبر، الدواة: المِحبرة

٢٩ المتلفِّت

أيلول/ سبتمبر ١٩٧٤:

عَـرَفْـتُـهُ يَـمَـنِـيّـاً فـي تَـلَـفُّـتِـهِ خوفٌ، وعيْناهُ تاريخٌ مِنَ الرَّمَدِ
مِنْ خُضْرَةِ القاتِ في عينيْهِ أَسئِلَةٌ صُفْرٌ تَبوحُ كَعُودٍ نِصْفِ مُتَّقِدِ

هذه «النصف متقد» مأخوذة من بشارة الخوري في قصيدة المسلول، انظر القطعة ٥ في الباب الأول من هذا الكتاب

رأيتُ فيكَ بِلادي كلَّها اجتمَعتْ كيف التَقَى التِّسْعَةُ المليونُ في جَسَدِ
فَوْجٌ يَموتُ ونَنْساهُ بِأَرْبَعَةٍ فلم يَعُدْ أَحَدٌ يَبْكي على أَحَدِ

بأربعة: بعد أربعة ايام

وفوقَ ذلكَ أَلْقَى أَلْفَ مُرتَزِقٍ في اليومِ يَسأَلُني: ما لَونُ مُعْتَقَدي؟

يقتل الناس أفواجاً ثم يأتي المنتفعون بالحروب الداخلية ويريدون التحقق من الهوية الطائفية لك فرد

٣٠ يأس

كانون الثاني/ يناير ١٩٧٤:

نَتَشَهَّى غداً.. يَزيدُ ابْتِعاداً نُرجِعُ الأَمْسَ! لا يُطِيقُ ارْتِجاعا
نَمْتَطي مَوجةً إلى غيرِ مَرْسىً إنْ وَجَدْنا رِيحاً فَقَدْنا الشِّراعا

٣١ عودة المحتل

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٦:

جاءَنا المُحْتَلُّ في غيرِ اسْمِهِ لَبِسَتْ وَجهَ النَّبِيِّ القَرْصَنَةْ
أيَّ نَفْعٍ يَجْتَني الشعبُ إذا ماتَ فِرْعونُ لِتَبْقَى الفَرْعَنَةْ

٣٢ زمان بلا نوعية

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧:

طَلَبْتُ فَطورَ اثْنينِ، قالوا بِأَنَّني وَحيدٌ، فقلتُ: اثْنينِ، إنَّ مَعي صَنْعا

ما أراه إلا كان جائعاً لم يتعش في ليلته

أَكَلْتُ وإِيَّاها رَغيفاً ونَشْرَةً هُنا أَكَلَتْنا هَذهِ النَّشْرَةُ الأَفْعى
زَمانٌ بِلا نَوْعِيَّةٍ ساقَ وَيْلَهُ مَتاخِيمُ يَقْتاتُونَ أَفئِدَةَ الجَوْعى

متاخيم: مصابون بالتخمة

٣٣ دمار

١٩٧٨:

أَقْبَلَتْ كلُّها الدَّكاكِينُ وَلْهَى كَبَغايا هَرَبْنَ مِن نَسْفِ مَلْهَى

خرج الناس من الدكاكين هاربين مولهين، خائفين، كمومسات هربن بعد نسف الملهى

لم يَعُدْ مَنْ يَجيءُ. جاءَتْ سُقوفٌ فوقَ أُخْرى، واهٍ أَتى فَوقَ أَوْهَى

ثم لم يعد أحد يجيء فالبنايات تهدمت ووقعت السقوف فوق السقوف، فهي واهية ضعيفة وقعت فوق ما هو أوهى منها

كان يَسْتَفْسِرُ الغبارُ الشَّظايا: أَلمَرايا أَوِ الجِراحاتُ أَزْهَى؟
أَقْبَلَتْ كلُّها العَماراتُ عَجْلَى تَمتَطي مَخْبَزاً، وتَجْتَرُّ مَقْهَى

هجونا رمزية البردُّوني في المقدمة! ألا مرحباً برمزية تصور حال الدمار بلغة بهذه الكثافة والجمال

٣٤ بلغ السيل الزبى

١٩٧٧:

حِدِّي سِكِّيناً حِدِّي عُنُقي أَغْلَى مَا أُهْدي
أَرجُوكِ احْتَزِّي، عُمْري أَضْحَى شيئاً لا يُجْدي
يَعْلُو مَشْنوقاً؛ يَهْوِي كَرَمادِ النَّعْشِ الهِنْدي

رماد النعش الهندي: الرماد المتخلف عن حرق الهنود الميت ونعشه

٣٥ نشور وانتقام

أيلول/سبتمبر ١٩٧٨:

لِأَنِّي دَخلْتُ السِّجْنَ شَهراً وليلةً خَرجْتُ ولَكِنْ أَصبحَ السِّجْنُ دَاخِلي
لقد كنتُ مَحمُولاً على نَارِ قَعْرِهِ فكيفَ تَحَمَّلْتُ الذي كان حَامِلي

النار في قعر جهنم أشد استعاراً

أَتَدْرِينَ! أَنْساني التَّمَرُّغُ هَهُنا جَبيني، وأَنْسَتْني المَنافي شَمائِلي
إلى شَهْوَةِ الأَعراسِ أَسْرَجْتُ مَدْفَني ومِنْ قَطْعِ شِرياني بَدأْتُ تَواصُلي

وضعت السرج فوق قبري فجعلته حصاناً أمضي به نحو شهوة العرس والمستقبل الأفضل، ومن الألم المميت بدأت أتواصل مع الحياة

أَما كنتُ مَيْتاً! إنَّما كنتُ أَغْتَلي وأَعْلُو على قَتْلي لِأَجْتَثَّ قاتِلي

تمردت على الموت كي أقتلع قاتلي

٣٦ الأمر الواقع

مَن ذا يُسَمِّي نفسَه سيِّداً؟ هَذي العَصا، لا غيرَها، السَّيِّدَةْ
الناسُ غيرُ الناسِ، قُلْ أَصبَحُوا أَدْهَى مِن الصَّيَّادِ والمِصْيَدَةْ
الناسُ في هَذي الرُّبَى كالرُّبَى تَوارَثُوا الإخْصابَ والجَلْمَدَةْ

٣٧ ليل القمع

اللَّيلُ أَبْرَدُ ما يَكونْ واللَّيلُ أَسْهَدُ ما يَكونْ
وكَأَنَّ كلَّ دقيقةٍ تَبدُو مَلايِينَ القُرونْ
وكَأَنَّ فوق مَناكِبِ اللَّحَظاتِ جُدْرانَ السُّجونْ

المناكب: الأكتاف

وهناكَ تَرتَجِفُ الكُوَى وهنا يَجولُ المُخْبِرونْ

الكوى: النوافذ

واللَّيلُ يَبْتَدِعُ التَّهانَةَ والسُّكوتُ كَمَنْ يَخُونْ
والصَّوتُ يَحْتَرِفُ الخِيانَةَ والسُّكوتُ كَمَنْ يَخُونْ
حتى الجُذورُ مُدانَةٌ بِذُنوبِ إنْجابِ الغُصُونْ
واللَّيلُ مُسْتَلْقٍ كما خُورٍ يُنَقِّرُ عن زَبُونْ
الأَرضُ نَفْسُ الأرضِ لَكِنَّ الجَحيمَ الآخَرونْ
السِّجنُ لِضَيقُ السِّجْنِ لِضَوْ قُ المَكْرُوفونُ المَكْرُوفونْ

للنظام سجونه، وله آلته الإعلامية الكاذبة

لا تَكْتَرِثْ يَقَعُ الذي لا يَدَّعِي المُسْتَطْلِعُونْ

مِـــن أيِّ نَـــبْـــعٍ أنـــتَ؟ مِـــن　　يَـــاءٍ ومِـــنْ مـــيـــمٍ ونُـــونْ

أحرف يمن

لِـلـقَـلْـبِ يـا دَيْـجُـورُ قَـلْـ　　ـبٌ مِـن أَسـاطـيـرِ الـفُـتُـونْ

الديجور: الظلمة

لـن يَـعْـدَمَ الأَرَقُ الـنُّـجُـو　　مَ ولـن يَـنـامَ الـعـاشِـقُـونْ

٣٨ البقاء للأذبح

أَلا اقـتُـلْ كـلَّ مَـنْ تَـلـقَـى　　إذا اسْـتَـبـقَـيْـتَ لـن تَـبـقَـى

لِأَنَّ الـقـتـلَ بـعـدَ الـقـتـ　　ـلِ طِـبُّ الأُمَّـةِ الـحَـمْـقَـى

طب: علاج

٣٩ الصعلوك

عن المتنبي ١٩٨٠:

مِنْ تَـلَظِّي لُمُوعِهِ كـادَ يَعْمَى　　كـادَ مِن شُهْرَةِ اسمِهِ لا يُسَمَّى

من تلظي وتوقُّد لمعانه كاد المتنبي يخفى عن العيون.. كالسيارة التي تشع مصابيحها في وجهك فلا تتبينها.. كيف عرف البردوني هذا وهو ضرير؟ من شهرة المتنبي يستشهد الناس بشعره دون تسمية الشاعر

إنَّـه أَخْـطَـرُ الـصَّـعـالـيـكِ طُـرّاً　　إنَّـهُ يَـعْـشَـقُ الـخُـطُـوراتِ جَـمّـا

تحليل طيب لشخصية المتنبي فهو شامخ أبي في رأي معظم الناس، وهو صعلوك يعشق الخطر عند البردوني

٤٠ قزمية

هَذي الفِجاجُ كَأُنْثَى ما لها رَحِمٌ　　هـذا الـزِّحـامُ رِجـالٌ مـا بِـهِ رَجُـلُ

هذه الطرق الواسعة تشبه أنثى لكنها لا تلد، وهذا الزحام من الرجال ليس فيه رجل حقيقي. البلد عقيم

غاصَتْ وُجوهُ الرَّوابي تحتَ أَرْجُلِها　　في جِلْدِ كلِّ حَصَاةٍ يَنْطَوِي جَبَلُ

ظلم الدولة بعساكرها ومخابراتها يقزّم البشر تقزيماً، ها هي الروابي تفقد وجوهها فكأنها تضع وجوهها تحت أرجلها، وكل حصاة هي عبارة عن جبل تقزم حتى صار حصاة في رابية

وكانَ يَهْمِسُ مِن خَلْفِ الهَديرِ فَمٌ   لا يُورِقُ الناسُ حتى تَذْبُلَ الدُّوَلُ

من وراء هدير الدولة وصخبها ثمة فم يقول: الناس لا يصبحون ناساً ذوي إرادة حرة إلا مع ذبول الدولة. يتمثل البردُّوني الفكر اليساري في بعض تجلياته المتطرفة، وكان مثقفو العرب في هذه الحقبة يقرأون عن برودون ويعجبون بفلسفته «الفوضوية»

٤١ ميت في قبرين

١٩٨٣ :

مُـتُّ يـومـاً يـا صَـديـقـي، وأنـا   كـلَّ يَـوْمٍ والـرَّدَى شُـرْبـي وزَادي
أنـتَ فـي قـبـرٍ وحـيـدٍ هـادِئٍ   أنـا فـي قَبْرَيْـنِ: جِلـدي وبِلادي

٤٢ الحصى أخباراً

١٩٨٥ :

ماذا يُسِرُّ لِسفْحِ الرَّبْوَةِ الحَجَرُ   كَـأَنَّ كُـلَّ حَـصـاةٍ هَـهُـنـا خَـبَـرُ

يسر: يهمس. الناس في هذا المجتمع كالحصى في الربوة، وكل حصاة تهمس همساً كأن عندها خبراً، بل كأنها هي خبر

لِـكُـلِّ واحِـدَةٍ شَـكـلُ وتَـمْـتَـمَـةٌ   لَكِنْ يُوَحِّدُهُنَّ العَجْزُ والضَّجَرُ

كل حصاة لها شكل معين، وتمتمة معينة في همسها. . لكن القاسم المشترك بينها: العجز والضجر. المجتمعات العربية يفسرها أحياناً الشعر بأحسن مما تفسرها الكتب الضخام

٤٣ هذا العدم

صـبـاحٌ ويَـزْحَـفُ بَـدءُ الـمَـسـا   مَـسـاءٌ وتَـعـدُو جِـبـالُ الأَسَـى

تعدو: تركض

فلا الـلـيـلُ يَعرِفُ شوقَ الـنجومِ   ولا الـيـومُ يَـدري مَـتـى أَشْـمَـسـا
تَـنـامُ الـصَّـبـيِـحَـاتُ عـنـدَ الـبُزُوغِ   وتَـنـسَـى الـعَـشِـيَّـاتُ أنْ تَـنْـعَـسـا

وصف غائم لشعوب تنام في النهار، وتفتح عيونها ليلاً

غَـبـارٌ يُـوَلِّـي، غُـبـارٌ يَـلـي   دُخـانٌ جَـرى، ودُخـانٌ رَسَـا
وأرغِـفَـةٌ تَـأْكُـلُ الآكِـلِـيـنَ   وأَشْـرِبَـةٌ تَـحـتَـسـي مَـن حَـسَـا
وجَـثَّـتْ قَـذائِـفُـهُـمْ كـلَّ غَـرْسٍ   مِـنَ الـجَـذْرِ واحـتَـلَّـتِ الـمَـغْـرِسَـا

وتِـلـكَ الـكُـراتُ الـتـي يَـمْـشُـطُـونَ لِـمـاذا يُـسَـمُّـونَـهـا أَرْؤُسـا؟
فَـلِـلـرِّيـحِ أنْ تَـرتَـدِي أَوْجُـهـاً ولِـلـرَّمْـلِ أنْ يُـحْـسِـنَ الـمَـلْـبَـسَا
ويَـجْـتَـرَّ كُـثْـبَـانَـهُ خَـلْـفَـهُ وبِـاسْـمِ الـحَـصَى يَـرْأَسُ الـمَـجْـلِسَا

لو كان البردوني مبصراً لقلنا إنه تأثر في هذا الشعر بلوحات سلفادور دالي

٤٤ الرصيف

١٩٨٣:

يـمـضـي لَـفـيـفٌ ويَـلـيـهِ لَـفـيـفْ وأنـتَ ثَـاوٍ هَـهُـنـا يـا رَصـيـفْ
تَـسـتَـقْـرِئُ الأَقْـدامَ، هـل أنـتَ مِـن قِـراءَةِ الأَوْجـاعِ مُـضْـنـىً أَسِـيفْ
كـيـف تَـرى الأحـزانَ مِـن تَـحـتِـهـا؟ كما يَرى بِالسَّمْعِ قلبُ الكَفيفْ

٤٥ التلميذ ابن أبيه

١٩٨٥:

مَـصـروفُـهُ فـي كُـلِّ يـومٍ وَفـيـرْ أَبُـوُهُ إِمَّـا سَـارِقٌ أَوْ أَمـيـرْ
أو عِـنْـدَهُ أُمٌّ كَـمُـرْجَـانَـةٍ فـي بَـيْـتِـهـا كُـلَّ مَـسـاءٍ وَزيـرْ

مرجانة: الجارية الفصيحة ذات الحيلة التي ساعدت «علي بابا» ضد الحراميَّة وتزوجها

فـي كُـلِّ يـومٍ يَـكْـتَـسـي حُـلَّـةً أُخرَى، فَـيَـبْـدُو دُمْـيَـةً مِـن حَـريـرْ
يـا لـيـتَ شِـعْـرِي مـا اسْـمُـهُ؟ عَـلَّـهُ سَـمِـيـرَةٌ، لَـكِـنْ يُـنـادَى سَـمِـيـرْ
تَـحـدِيـقُـهُ مِـثْـلُ طَـحـيـنِ الـحَـصَـى وخَـطْـوُهُ يَـحْـكـي عَـجِـيـنَ الـشَّـعِـيرْ

نظرات التلميذ بلهاء لا معنى لها كأنها دقيق مصنوع من طحن الحصى، ويخطو بدلال كأنه يسير على عجين.. هذا ما فهمت من البيت

يُـبـالِـغُ الأُسـتـاذُ رَشْـوانُ فـي تَـدْلـيـلِـهِ، يَـرعـاهُ كـابْـنِ الـمُـديـرْ
يَـجـتـازُ صَـفّـاً بـعـدَ صَـفٍّ، ومَـا عَـانَـى طَـريـقـاً أو أَرادَ الـمَـسِـيـرْ
هـذا الـذي مـن صَـفِّـنَـا، كَـمْ تَـرى لَـهُ بِـصَـنْـعَـا أو سِـواهـا نَـظِـيـرْ؟
مَـن قـالَ إِنِّـي أَبْـتَـغـي رِفْـعَـةً كَـهـذِهِ؟ هـذا طُـمُـوحُ الـحَـقـيـرْ

٤٦ أمنية

١٩٨٧ :

مَتَى تَعرِفُ الأَمطارُ أَعْطَشَ بُقْعَةٍ وتَسعَى إِلى مَن يَشْتَهِيها المَوائِدُ
تَجَدَّدْ كَقلْبِ النهرِ يا سَيِّدَ الأَسَى سَتَرتادُ عَهْداً غيرَ ما أَنْتَ عاهِدُ

أيها المواطن الحزين جدد همتك مثلما يجدد النهر ماءه بجريانه.. فسوف يأت عهد أفضل

٤٧ جهاز المخابرات

لا تَخافي مِنهُمْ، ولكِنْ أَفيقي صارَ مِنهُمْ مَن كانَ يُدعَى صَديقي
حَبِّذي بعضَ ما يَرَوْنَ، تَغَابَيْ فالتَّغابي يُرضِي الغَباءَ الحَقيقي
خَنَقُوا خَطَّ هَاتِفي مِن حَشاهُ وتَقَصَّوْا زَفيرَهُ وشَهِيقي
مَنْ أُؤَاخي؟ لو ذُبْتُ لُطفاً لَقالُوا إنَّ سُمِّي مُخَبَّأٌ في رَحيقي
لو تَحَوَّلْتُ فَرخَةً ثَعْلَبُوني لو تَضَفْدَعْتُ خَبَّرُوا عن نَقيقي
لو رَأَوْني أُمْسي حِماراً لَنَادَوْا خُبَراءً يُتَرْجِمُونَ نَهيقي
رَغمَ أَنفِ الذي رَماهُمْ حِيالي ما ثَنَوْني، ولن يَسُدُّوا طَريقي

٤٨ عيون الشعر

١٩٨٨ :

الصَّمْتُ أَخْوَنُ شَيْءٍ في الفترةِ المُدْلَهِمَّةْ
هنالِكَ الشِّعْرُ أَهْدَى إلى صَميمِ المُلِمَّةْ
ما دامَ في القلبِ هَمٌّ فَلِلْقَوافي مُهِمَّةْ

٤٩ الزعماء

١٩٨٧ :

يا ذَوِي التِّيجانِ يا أَهْلَ الرِّئاسَةْ المَلايينُ لَكُمْ تَفْنَى حَماسَةْ
وجُموعُ الشعبِ لاقَتْ فيكُمُ قادةَ النصرِ وأَبطالَ السياسَةْ
كانَ هذا ما رَوَى إِعلامُكُمْ هل تَرى هذا الجَماهِيرَ المُدَاسَةْ؟

هل الجماهير التي تدوسونها، أيها الملوك والرؤساء، تراكم فعلاً قادة النصر مثلما تقول أبواقكم الإعلامية؟

جَرِّبُوا في الشَّعْبِ شَعْبِيَّتَكُمْ واخْرُجُوا يوماً بِلا أَقْوَى حِراسَةْ
أنْ تُصَافُوا مَن يُعادي شَعبَكُمْ مِثلُ راجي الطُّهْرِ مِن عَيْنِ النَّجَاسَةْ
كيف تَحْمِيكُمْ غُزاةٌ أَنتُمُ عندهُمْ أَهْوَنُ مِن كِيسِ الكُنَاسَةْ؟

٥٠ أطفال الحجارة

١٩٨٨:

قُلْتُمْ سَتَسْحقُونَهُمْ كيفَ أَبَوْا أنْ يُسْحَقُوا
قالت إسرائيل إنها ستسحق الانتفاضة الفلسطينية الأولى ١٩٨٧، انتفاضة الحجارة

كلُّ مُخَيَّم على مَوْجِ اللَّهيبِ زَوْرَقُ
العُزَّلُ العَاتُونَ مِن أَعْتَى الغُزاةِ أَحْذَقُ
لقد تَعَمْلَقَ الحَصَى لِأَنَّهُمْ تَعَمْلَقُوا
أَحْجَارُهُمْ غيرُ التي إذا ارْتَمَتْ تُطَقْطِقُ
أحجار أطفال فلسطين ليست كأحجار الدامة تطقطق مجرد طقطقة..

أمَا تَرَوْنَها على أَكُفِّهِمْ تُحَمْلِقُ
تَكُرُّ مِن بَنانِهِمْ كما يَكُرُّ الفَيْلَقُ
يكر: هجم

أَهْدَى مِنَ القَطا إلى أهدافِها وأَسْبَقُ
القطا طائر معروف بالاهتداء إلى مواضع الماء، والاهتداء إلى عشه مهما بعد عنه

الضَّفَّةُ الآنَ غَدَتْ تَلْهُو بِمَنْ تَفَوَّقُوا
لِأَنَّها فاقَتْ بِلا دَعْوَى، وهُمْ تَشَدَّقُوا
يا مَن سَرَقْتُمْ مَوطِناً لقد أَبَى أنْ تَسْرِقُوا

٥١ عزرائيل.. لحظة لطفاً!

١٩٩١:

ساعَةً يا رَدَى أُتِمُّ القصيدَةْ هاكَ قَاتاً وَجَرَّةً وجَريدَةْ
خذ يا موت بعض القات وجرة ماء أو شراب وجريدة، واقعد وتسل بها حتى أتم قصيدتي

كـلُّ غُـصْـنٍ لَـهُ مَـذاقٌ جَـديـدٌ   كَـالـمَـلـيحـاتِ كـلُّ أُخْـرى جَـديـدَةْ
أنـت تُـسْـمَـى مَـنِـيَّـةً أو حِـمـامـاً؟   قـيـلَ أُنْـثـى الـحَـديـدِ تُـدْعَـى حَـديـدَةْ

المنية مؤنث والحِمام مذكر.. وكلتا الكلمتين تعني الموت.. ويسخر الشاعر من تعدد أسماء الموت فأنثى الحديد حديدة، وكلاهما حديد، لا فرق

يا صَديقي في القلبِ تِسْعُونَ قَلْباً   وقَـوافـي الـوَداعِ، تَـدْري! عَـنـيـدَةْ

يحس الشاعر والمبدع والزعيم الملهم أنه لا يمكن أن يموت إلا بعد أن يؤدي رسالته كاملة.. شعور خادع.. شوبرت مات وترك سيمفونيته الثامنة ناقصة، وموتسارت مات. وترك «القداس» ناقصاً، ومالر ترك سيمفونيته العاشرة ناقصة. وهتلر كان يخطط لجعل شواطئ أوكرانيا على البحر الأسود منتجعات يرتادها الألمان، بعد أن يطرد الأوكرانيين إلى مناطق بعيدة ليس فيها خبز كي يموتوا جوعاً.. وانتهت الحرب العالمية بخسران ألمانيا مساحات واسعة من أرضها، ومما خسرته بروسيا الشرقية التي هي من تليد الأرض الألمانية ـ وفيها ولد وعاش كل عمره الفيلسوف عمانوئيل كانط ـ فقد طَرد منها الروس الألمان طرداً، وسموها كالينين غراد، وما زالت روسية

عبد الله البردُّوني

فهرس القوافي

فهرس القوافي العام

القافية، فرقم القطعة، فالباب الذي تنتمي إليه

أبواب الكتاب: ١ بشارة الخوري، ٢ الشاعر القروي، ٣ إيليا أبو ماضي، ٤ إلياس فرحات، ٥ عرار، ٦ إبراهيم طوقان، ٧ أبو سلمى، ٨ بدوي الجبل، ٩ عمر أبو ريشة، ١٠ إبراهيم ناجي، ١١ أبو القاسم الشابي، ١٢ فهد العسكر، ١٣ عبد الله البردُّوني

إني أتنفّس «فوق» الماء، أتنفّس الصعداء، فبعد ثلاث عشرة سنة ها إني أخطّ الصفحة الأخيرة، صفحة الغلاف الخلفي، من آخر أجزاء هذه السلسلة (الزبدة). وسبق آخر الشعر هذا أول الشعر وتجدده وتألقه وإحياؤه. فهل أغتنم الفرصة فأغيّر اسم هذا الكتاب الأخير حتى لا يكون رقعة نعيٍ للشعر العمودي؟ الاسم حلو، وأبقيه لأنه حلو، فأما أن الشعر العمودي قد مات فمسألة سيظل فيها نظر.

ضمت سلسلة (الزبدة) خلاصة الشعر العربي على مدى ألف وخمسمئة سنة. والحلقة الأخيرة من السلسلة، وهي التي بين يديك، تضم آخر العمالقة، بعضهم مشهور شهرة مدوية وبعضهم غير مشهور:

إيليا والقروي وفرحات من المهجر، والأخطل الصغير من بيروت، وعرار من الأردن، وطوقان وأبو سلمى من فلسطين، وعمر أبو ريشة من حلب، وبدوي الجبل من الجبل، وفهد العسكر من الكويت، وناجي من مصر، والشابي من تونس، والبردُّوني من اليمن.

خلاصة شعرهم هنا، وخلاصة حياتهم. ونذكر ما سرقه فلان عن فلان، ونشرح الشعر ونلقي الضوء على المناسبة التي قيل فيها. ولا نبالغ في ذلك، فهذا ليس كتاب تاريخ، لكننا لا ندع الطرفة تفوتنا، ونحتفل بالبيت الجميل وندعو القارئ إلى تذوقه.. إلحاح قد يراه قارئ سمجاً، يقول: اتركني أتذوق بنفسي. وقد يراه قارئ ممتعاً، يقول: نعم، أريد أن يشركني الكاتب في قراءة الشعر وتذوقه.

- الكتاب مرفق بتسجيلات صوتية لمعظم قصائده بصوت المؤلف.

- مهندس الصوت: محمد ماضي، والتسجيل في استوديو معهد الجزيرة للإعلام.





القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com